طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف
الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع العبادات / القسم الأول

كتاب
العلم ـ قواعد العقائد
أسرار الطهارة ومهماتها ـ أسرار الصلاة ومهماتها

المجلد الأول

دار المنهاج

الطَّبعَة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ

خُطبةُ المؤلّف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

رب يسّر وأعن وتمّم بخير يا كريم

قال الشيخ الإمام الأوحد زين الدين شرف الأئمة حجة الإسلام
أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه :

أحمدُ اللهَ تعالىٰ أوّلاً ، حمداً كثيراً متوالياً وإنْ كانَ يتضاءلُ دونَ حقِّ جلالِهِ حمدُ الحامدينَ .

وأصلِّي وأسلِّمُ علىٰ رسولِهِ ثانياً، صلاةً تستغرقُ مع سيِّدِ البشرِ سائرَ المرسلينَ .

وأستخيرُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ ثالثاً ، فيما انبعثَ لهُ عزمي مِنْ تحريرِ كتابٍ في إحياءِ علومِ الدينِ .

وأنتدبُ لقطْعِ تعجُّبكَ رابعاً ، أيُّها العاذلُ الغالي في العذلِ مِنْ بينِ زمرةِ الجاحدينَ[1] ، المسرفُ في التقريعِ والإنكارِ مِنْ طبقاتِ المنكرينَ الغافلينَ .

---

(١) أنتدب : أسارع ، والغالي : المجاوز الحد في كل أمر .

فلقدْ حلَّ عَنْ لساني عقدةَ الصمتِ ، وطوَّقني عهدةَ الكلامِ وقلادةَ النطقِ ما أنتَ مثابرٌ عليهِ من العمىٰ عَنْ جليَّةِ الحقِّ ، مع اللَّجاجِ في نصرةِ الباطلِ وتحسينِ الجهلِ ، والتشغيبِ علىٰ مَنْ آثرَ النزوعَ قليلاً عَنْ مراسمِ الخلقِ ، ومالَ ميلاً يسيراً عن ملازمةِ الرسمِ إلى العملِ بمقتضى العلمِ ؛ طمعاً في نيلِ ما تعبَّدَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ من تزكيةِ النفسِ وإصلاحِ القلبِ ، وتداركاً لبعضِ ما فَرَطَ منْ إضاعةِ العمر يأساً عَنْ تمامِ التلافي والجبْرِ ، وانحيازاً عَنْ غِمارِ مَنْ قالَ فيهم صاحبُ الشرعِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ سبحانَهُ بعلمِهِ »[١] .

ولعمري ؛ لا سببَ لإصرارِكَ على النكيرِ إلا الداءُ الذي عمَّ الجمَّ الغفيرَ ، بلْ شمِلَ الجماهيرَ ؛ من القصورِ عنْ ملاحظةِ ذُروةِ هـٰذا الأمرِ ، والجهلِ بأنَّ الأمرَ إدٌّ والخطبَ جِدٌّ[٢] ، والآخرةَ مقبلةٌ والدنيا مدبرةٌ ، والأجلَ قريبٌ والسفرَ بعيدٌ ، والزادَ طفيفٌ والخطرَ عظيمٌ ، والطريقَ سَدٌّ ، وما سوى الخالصِ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ من العلمِ والعملِ عندَ الناقدِ البصيرِ ردٌّ ، وسلوكَ طريقِ الآخرةِ مع كثرةِ الغوائلِ مِنْ غيرِ دليلٍ ولا رفيقٍ متعبٌ مكدٌّ .

فأدلَّةُ الطريقِ هم العلماءُ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وقد شَغَرَ عنهمُ الزمانُ ، ولمْ يبقَ إلا المترسِّمونَ ، وقد استحوذَ علىٰ أكثرِهِمُ الشيطانُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع .

واستغواهمُ الطغيانُ ؛ فأصبحَ كلُّ واحدٍ بعاجلِ حظِّهِ مشغوفاً ، فصارَ يرى المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً ، حتىٰ ظلَّ علَمُ الدينِ مندرساً ، ومنارُ الهدىٰ في أقطارِ الأرضِ منطمساً .

ولقد خيَّلُوا إلى الخلقِ أنْ لا علمَ إلا فتوىٰ حكومةٍ تستعينُ بها القضاةُ علىٰ فصلِ الخصامِ عندَ تهارشِ الطَّغامِ[1] ، أو جدلٌ يتدرَّعُ بهِ طالبُ المباهاةِ إلى الغلبةِ والإفحامِ ، أو سجعٌ مزخرفٌ يتوسَّلُ بهِ الواعظُ إلى استدراجِ العوامِّ ؛ إذْ لمْ يرَوا ما سوىٰ هـٰذهِ الثلاثةِ مصيدةً للحرامِ وشبكةً للحُطامِ .

فأمَّا علمُ طريقِ الآخرةِ وما درجَ عليهِ السلفُ الصالحُ ؛ ممَّا سمَّاهُ اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ فقهاً وحكمةً وعلماً ، وضياءً ونوراً ، وهدايةً ورشداً . . فقدْ أصبحَ مِنْ بينِ الخلقِ مطويّاً ، وصارَ نسياً منسيّاً .

ولمَّا كانَ هـٰذا ثَلْماً في الدينِ ملِمّاً ، وخطباً مدلهمّاً . . رأيتُ الاشتغالَ بتحريرِ هـٰذا الكتابِ مهمّاً ؛ إحياءً لعلومِ الدينِ ، وكشفاً عَنْ مناهجِ الأئمَّةِ المتقدمينَ ، وإيضاحاً لما هي العلومُ النافعةُ عندَ النبيِّين والسلفِ الصالحينَ ، سلامُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ .

ولقدْ أسَّسْتُهُ علىٰ أربعةِ أرباعٍ : ربعِ العباداتِ ، وربعِ العاداتِ ، وربعِ المهلكاتِ ، وربعِ المنجياتِ .

---

(١) قوله : (**إلا فتوىٰ حكومة**) : هو ما يكتب في أجوبة المسائل في الواقعات والنوازل من الحلال والحرام والإباحة والمنع ، **والطغام** : أراذل الناس وأوغادهم . « إتحاف » (١/٥٨) .

وصدَّرتُ الجملةَ بكتابِ العلمِ ؛ لأنَّه غايةُ المهمِّ ، لِأكشفَ أولاً عَنِ العلمِ الذي تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأعيانَ بطلبهِ علىٰ لسانِ رسولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[1] ، وأميزَ فيهِ العلمَ النافعَ مِنَ الضارِّ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ عِلْمٍ لا ينفعُ »[2] ، وأحقِّقَ ميلَ أهلِ العصرِ عَنْ شاكلةِ الصوابِ ، وانخداعَهُمْ بلامعِ السرابِ ، واقتناعَهُمْ مِنَ العلومِ بالقِشْرِ عَنِ اللبابِ .

* * *

ويشتملُ ربعُ العباداتِ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ العلمِ ، وكتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكتابِ أسرارِ الطهارةِ ، وكتابِ أسرارِ الصلاةِ ، وكتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وكتابِ أسرارِ الصيامِ ، وكتابِ أسرارِ الحجِّ ، وكتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ ، وكتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، وكتابِ ترتيبِ الأورادِ في الأوقاتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ آدابِ الأكلِ ، وكتابِ آدابِ النكاحِ ، وكتابِ أحكامِ الكسْبِ ، وكتابِ الحلالِ والحرامِ ، وكتابِ آدابِ الصحبةِ والمعاشرةِ مع أصنافِ الخلقِ ، وكتابِ العزلةِ ، وكتابِ آدابِ السفرِ ، وكتابِ السماعِ والوجْدِ ، وكتابِ الأمرِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

بالمعروفِ والنهيِ عَنِ المنكرِ ، وكتابِ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوَّةِ .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ رياضةِ النفْسِ ، وكتابِ آفاتِ الشهوتينِ : شهوةِ البطنِ وشهوةِ الفرجِ ، وكتابِ آفاتِ اللسانِ ، وكتابِ آفاتِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ والبخلِ ، وكتابِ ذمِّ الجاهِ والرياءِ ، وكتابِ ذمِّ الكبْرِ والعُجبِ ، وكتابِ ذمِّ الغرورِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ التوبةِ ، وكتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وكتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكتابِ التوحيدِ والتوكلِ ، وكتابِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ والرضا ، وكتابِ النيَّةِ والصدْقِ والإخلاصِ ، وكتابِ المراقبةِ والمحاسبةِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ ذكرِ الموْتِ[1] .

* * *

فأمَّا ربعُ العباداتِ : فأذكرُ فيهِ مِنْ خفايا آدابِها ، ودقائقِ سُنَنِها ، وأسرارِ معانيها ، ما يضطرُّ العالمُ العاملُ إليهِ ، بلْ لا يكونُ مِنْ علماءِ الآخرةِ مَنْ لمْ يطلعْ عليهِ ، وأكثرُ ذلكَ ممَّا أُهملَ في فنِّ الفقهياتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ : فأذكرُ فيهِ أسرارَ المعاملاتِ الجاريةِ بينَ الخلقِ ،

---

(١) وقد التمس الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٦٠) ترابطاً منطقياً لهـٰذه الكتب الأربعين .

وأغوارَها ، ودقائقَ سنَنِها ، وخفايا الورعِ في مجاريها ، وهيَ ممَّا لا يستغني متديِّنٌ عنها .

وأمّا ربعُ المهلكاتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ مذمومٍ وردَ القرآنُ بإماطتِهِ وتزكيةِ النفسِ عنهُ ، وتطهيرِ القلبِ منهُ ، وأذكرُ مِنْ كلِّ واحدٍ مِنْ تلكَ الأخلاقِ حدَّهُ وحقيقتَهُ ، ثمَّ سببَهُ الذي منهُ يتولَّدُ ، ثمَّ الآفاتِ التي عليها تترتَّبُ ، ثمَّ العلاماتِ التي بها تتعرَّفُ ، ثم طرقَ المعالجةِ التي بها منها يُتخلَّصُ .

كلُّ ذلكَ مقروناً بشواهدِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

وأمّا ربعُ المنجياتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ محمودٍ ، وخَصْلةٍ مرغوبٍ فيها مِنْ خصالِ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، التي بها يتقرَّبُ العبدُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، وأذكرُ في كلِّ خَصلةٍ حدَّها وحقيقتَها ، وسببَها الذي بهِ تُجتَلَبُ ، وثمرتَها التي منها تُستفادُ ، وعلامتَها التي بها تتعرَّفُ ، وفضيلتَها التي لأجلِها فيها يُرغبُ ، مع ما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ والعقلِ .

* * *

ولقدْ صُنِّفَ في بعضِ هـٰذهِ المعاني كتبٌ[1] ، ولكنْ يتميَّزُ هـٰذا الكتابُ عنها بخمسةِ أمورٍ :

(١) كـ « قوت القلوب » و« الرعاية » و« منازل السائرين » و« الرسالة » و« التعرُّف » وغيرها . « إتحاف » (١/ ٦٢) .

الأوَّلُ : حلُّ ما عقدُوهُ ، وكشفُ ما أجملُوهُ .

الثاني : ترتيبُ ما بدَّدُوهُ ، ونظمُ ما فرَّقُوهُ .

الثالثُ : إيجازُ ما طوَّلوهُ ، وضبطُ ما قرَّروهُ .

الرابعُ : حذفُ ما كرَّروهُ ، وإثباتُ ما حرَّروهُ .

الخامسُ : تحقيقُ أمورٍ غامضةٍ اعتاصتْ على الأفهامِ لمْ يُتعرَّضْ لها في الكتبِ أصلاً ؛ إذِ الكلُّ وإنْ تواردوا علىٰ منهجٍ واحدٍ فلا مستنْكَرَ أنْ ينفرِدَ كلُّ واحدٍ مِنَ السالكينَ بالتنبُّهِ لأمرٍ يخصُّهُ ويغفُلُ عنهُ رفقاؤُهُ ، أوْ لا يغفُلُ عن التنبُّهِ لهُ ولكنْ يسهو عَنْ إيرادِهِ في الكتبِ ، أوْ لا يسهو ولكنْ يصرفُهُ عَنْ كشفِ الغطاءِ عنهُ صارفٌ .

فهٰذهِ خواصُّ هٰذا الكتابِ ، مع كونِهِ حاوياً لمجامعِ هٰذهِ العلومِ .

* * *

وإنَّما حملَني علىٰ تأسيسِ الكتابِ علىٰ أربعةِ أرباعٍ أمرانِ :

ـ **أحدُهما وهو الباعثُ الأصليُّ** : أنَّ هٰذا الترتيبَ في التحقيقِ والتفهيمِ كالضروريِّ ؛ لأنَّ العلمَ الذي يُتوجَّهُ بهِ إلى الآخرةِ ينقسمُ إلىٰ علمِ المعاملةِ وعلمِ المكاشفةِ .

وأعني بعلمِ المكاشفةِ : ما يُطلبُ منهُ كشفُ المعلومِ فقطْ .

وأعني بعلمِ المعاملةِ : ما يُطلبُ منهُ معَ الكشْفِ العملُ بهِ .

والمقصودُ من هٰذا الكتابِ : علمُ المعاملةِ فقطْ دونَ علمِ المكاشفةِ التي لا رخصةَ في إيداعِها الكتبَ ، وإنْ كانتْ هيَ غايةَ مقصدِ الطالبينَ ، ومطمحَ نظرِ الصدِّيقينَ(١) ، وعلمُ المعاملةِ طريقٌ إليهِ ، ولكنْ لمْ يتكلَّمِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ معَ الخلقِ إلا في علمِ الطريقِ والإرشادِ إليهِ ، وأمَّا علمُ المكاشفةِ . . فلمْ يتكلَّموا فيهِ إلا بالرمزِ والإيماءِ علىٰ سبيلِ التمثيلِ والإجمالِ(٢) ؛ علماً منهمْ بقصورِ أفهامِ الخلْقِ عنِ الاحتمالِ ، والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ ، فما لهُمْ سبيلٌ إلى العدولِ عن نهجِ التأسِّي والاقتداءِ .

ثمَّ إنَّ علمَ المعاملةِ ينقسمُ إلىٰ **علمٍ ظاهرٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ الجوارحِ ، وإلىٰ **علمٍ باطنٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ القلوبِ .

والجاري على الجوارحِ : إمَّا **عبادةٌ** أوْ **عادةٌ** .

والواردُ على القلوبِ التي هيَ بحكمِ الاحتجابِ عنِ الحواسِّ مِنْ عالمِ الملكوتِ : إمَّا **محمودٌ** ، وإمَّا **مذمومٌ** .

فبالواجبِ انقسمَ هٰذا العلمُ إلىٰ شطرينِ : ظاهرٍ وباطنٍ ، والشطرُ الظاهرُ المتعلِّقُ بالجوارحِ انقسمَ إلىٰ عبادةٍ وعادةٍ ، والشطرُ الباطنُ المتعلِّقُ بأحوالِ القلبِ وأخلاقِ النفسِ انقسمَ إلىٰ مذمومٍ ومحمودٍ ؛ فكانَ المجموعُ

---

(١) كما قرر المؤلف رحمه الله تعالىٰ ذلك في « المنقذ من الضلال » ؛ إذ ألَّفه لتحقيق ذلك .

(٢) لأنه من الأمور الوجدانية ، فإن العاقل يكفيه الإشارة ، والغافل لا يفيده صريح العبارة . « إتحاف » (١/ ٦٣) .

أربعةَ أقسامٍ ، ولا يشُذُّ نظرٌ في علمِ المعاملةِ عنْ هـٰذهِ الأقسامِ .

ـ **الباعثُ الثاني** : أنِّي رأيتُ الرغبةَ مِنْ طلبةِ العلمِ صادقةً في الفقهِ الذي صلَحَ عندَ مَنْ لا يخافُ اللهَ تعالىٰ للتدرُّعِ بهِ إلى المباهاةِ والاستظهارِ بجاهِهِ ومنزلتِهِ في المنافساتِ ، وهو مرتَّبٌ علىٰ أربعةِ أرباعٍ ، والمتزيي بزِيِّ المحبوبِ محبوبٌ ، فلمْ أُبعدْ أنْ يكونَ تصويرُ الكتابِ بصورةِ الفقهِ ؛ تلطُّفاً في استدراجِ القلوبِ ، ولهـٰذا تلطَّفَ بعضُ مَنْ رامَ استمالةَ قلوبِ الرؤساءِ إلى الطبِّ ، فوضَعَهُ علىٰ هيئةِ تقويمِ النجومِ ، موضوعاً في الجداولِ والرقومِ ، وسمّاهُ « تقويمَ الصحَّةِ »(١) ؛ ليكونَ أُنسُهُمْ بذلكَ الجنسِ جاذباً لهمْ إلى المطالعةِ ، والتلطُّفُ في اجتذابِ القلوبِ إلى العلمِ الذي يفيدُ حياةَ الأبدِ أهمُّ مِنَ التلطُّفِ في اجتذابِها إلى الطبِّ الذي لا يفيدُ إلا صحَّةَ الجسدِ .

فثمرةُ هـٰذا العلمِ طبُّ القلوبِ والأرواحِ ، للتوصُّلِ بهِ إلىٰ حياةٍ تدومُ أبدَ الآبادِ ، فأينَ منهُ الطبُّ الذي تعالجُ بهِ الأجسادُ وهي معرَّضَةٌ بالضرورةِ للفسادِ في أقربِ الآمادِ ؟!

فنسألُ اللهَ سبحانه التّوفيقَ للرّشادِ والسّدادِ
إنّه هو الكريمُ الجوادُ

---

(١) وكأنه عنىٰ به كتاب المختار بن الحسن بن عبدون المتطبب ؛ فإنه سمَّاه كذلك ، وعلىٰ نهجه بنى ابن جزلة وابن البيطار كتابيهما . « إتحاف » (١/ ٦٤) .

كِتَابُ
العِلْمِ

وهو الكتاب الأوّل من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

البابُ الأوّلُ : في فضْلِ العلْمِ والتعليمِ والتعلُّمِ .

البابُ الثاني : في بيانِ فرْضِ العيْنِ وفرضِ الكفايةِ مِنَ العلومِ ، وبيانِ حدِّ الفقْهِ والكلامِ منْ علْمِ الدينِ ، وبيانِ علْمِ الآخرةِ وعلْمِ الدنيا .

البابُ الثالثُ : فيما تعدُّهُ العامَّةُ منْ علومِ الدينِ وليسَ منها ، وفيهِ بيانُ جنْسِ العلْمِ المذمومِ وقدرِهِ .

البابُ الرابعُ : في آفاتِ المناظرةِ وسببِ اشتغالِ الناسِ بالخلافِ والجدلِ .

البابُ الخامسُ : في آدابِ المعلِّمِ والمتعلِّمِ .

البابُ السادسُ : في آفاتِ العلمِ والعلماءِ ، والعلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا والآخرةِ .

البابُ السابعُ : في العقلِ وفضيلتِهِ وأقسامِهِ وما جاءَ فيهِ مِنَ الأخبارِ .

* * *

البابُ الأوّلُ
في فضل العلم والتّعليم والتّعلّم وشواهده من النّقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدُها من القرآن :

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، فانظرْ كيفَ بدأَ سبحانهُ وتعالىٰ بنفسِهِ ، وثنَّىٰ بملائكتِهِ ، وثلّثَ بأهْلِ العلمِ ، وناهيكَ بهٰذا شرفاً وفضْلاً ، وجلالاً ونبلاً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (للعلماءِ درجاتٌ فوقَ المؤمنينَ بسبعِ مئةِ درجةٍ ، ما بينَ الدرجتينِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ)[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٩) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ ﴾ ؛ تنبيهاً علىٰ أنَّهُ اقتدرَ عليهِ بقوَّةِ العلمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، بيَّنَ أنَّ عِظَمَ قدْرِ الآخرةِ يُعلمُ بالعلمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ، ردَّ حكمَهُ في الوقائعِ إلى استنباطِهِمْ ، وألحقَ رتبتَهُمْ برتبةِ الأنبياءِ في كشْفِ حُكْمِ اللهِ .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ يعني العلمَ ، ﴿ وَرِيشًا ﴾ يعني اليقينَ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ يعني الحياءَ[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وإنَّما ذكرَ ذلكَ في معرضِ الامتنانِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

وأمّا الأخبارُ :

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً . . يُفَقِّهْهُ في الدينِ ، ويُلْهِمْهُ رُشدَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ »(٢) ، ومعلومٌ أنَّهُ لا رتبةَ فوقَ النبوَّةِ ، ولا شرفَ فوقَ شرفِ الوراثةِ لتلكَ الرتبةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «يستغفرُ للعالِمِ ما في السماواتِ والأرضِ»(٣) ، وأيُّ منصبٍ يزيدُ علىٰ منصبِ مَنْ تشتغلُ ملائكةُ السماواتِ والأرضِ بالاستغفارِ لهُ ؟! فهوَ مشغولٌ بنفسِهِ ، وهمْ مشغولونَ بالاستغفارِ لهُ(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحكمةَ تَزِيدُ الشريفَ شرفاً ، وترفعُ المَمْلُوكَ حتَّىٰ يجلسَ مجالسَ الملوكِ »(٥) .

وقدْ نبَّهَ بهـٰذا علىٰ ثمرتِهِ في الدنيا ، ومعلومٌ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ .

---

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) ، وزيادة : « ويلهمه رشده » عند الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٤) إن العالم لما كان سبباً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصوراً علىٰ هـٰذا ، وكانت نجاة العباد علىٰ يديه . . جوزي من جنس عمله ، وجعل من في السماوات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلاك باستغفارهم . « إتحاف » (١/ ٧١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٧٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَصلتانِ لا تكونانِ في منافقٍ : حُسنُ سمْتٍ ، ولا فقهٌ في الدينِ »[1] .

ولا تَشُكَّنَّ في الحديثِ لنفاقِ بعضِ فقهاءِ الزمانِ ؛ فإنَّهُ ما أرادَ بهِ الفقهَ الذي ظننتَهُ ، وسيأتي بيانُ معنى الفقهِ ، وأدنىٰ درجاتِ الفقيهِ أنْ يعلمَ أنَّ الآخرةَ خيرٌ من الدنيا ، وهٰذهِ المعرفةُ إذا صدقَتْ وغلبَتْ . . برَّأَتْهُ مِنَ النفاقِ والرياءِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الناسِ المؤمنُ العالمُ الذي إنِ ٱحتيجَ إليهِ . . نفعَ ، وإنِ استغنيَ عنهُ . . أغنَىٰ نفسَهُ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسُهُ التقوىٰ ، وزينتُهُ الحياءُ ، وثمرتُهُ العلمُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أقربُ الناسِ منْ درجةِ النبوَّةِ أهلُ العلمِ والجهادِ ؛ أمَّا أهلُ العلمِ . . فدلُّوا الناسَ علىٰ ما جاءَتْ بهِ الرسلُ ، وأمَّا أهلُ الجهادِ . . فجاهدُوا بأسيافِهِمْ علىٰ ما جاءتْ بهِ الرسلُ »[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٤) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٩١) عن أبي الدرداء موقوفاً عليه .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٣٨٣) من كلام وهب بن منبه ، وكذا ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/ ٣٨٩) ، وقال أبو طالب في « القوت » (١/ ١٣٨) : (وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوري ، فرفعه إلىٰ عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم) ، وكذا هو عند الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٢٩ ، ١٣٠) مرفوعاً وموقوفاً .
(٤) قال في « القوت » (١/ ١٣٩) : (وقد روينا عن عبد الرحمٰن بن غنم ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. . .) وذكره ، وهو في « الفقيه والمتفقه » (١٣٢) من كلام إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لَموتُ قبيلَةٍ أيسَرُ منْ موتِ عالِمٍ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الناسُ معادنُ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ ، فخِيارُهُمْ في الجاهليَّةِ خِيارُهُمْ في الإسلامِ إذا فَقُهُوا »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : «يُوزنُ يومَ القيامةِ مِدَادُ العلماءِ ودمُ الشهداءِ»[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حَفِظَ علىٰ أُمَّتي أربعينَ حديثاً مِنَ السنَّةِ حتَّىٰ يُؤدِّيَها إليهِمْ . . كنتُ لهُ شفيعاً وشهيداً يومَ القيامةِ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حملَ مِنْ أمتي أربعينَ حديثاً . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ فَقِيهاً عالِماً »[5] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ تَفقَّهَ في دِينِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ . . كفاهُ ٱللهُ تعالىٰ همَّهُ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[6] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٧٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٣١٨) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٣) ، ومسلم (٢٦٣٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٧٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٧٤) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٩٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٥) .

(٥) رواه تمام في « فوائده » (١٠١) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٠٤) .

(٦) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٢٤٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا إبراهيمُ ؛ إنِّي عليمٌ ، أُحِبُّ كُلَّ عليمٍ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العالِمُ أمينُ ٱللهِ سبحانَهُ في الأرضِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « صنفانِ مِنْ أمَّتي إذا صَلَحُوا . . صَلَحَ الناسُ ، وإذا فسدوا . . فسدَ الناسُ : الأمراءُ والفقهاءُ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أتَىٰ عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علماً يُقرِّبُني إلى ٱللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ »(٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في تفضيلِ العلمِ على العبادةِ والشهادةِ : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضْلِي علىٰ أدنىٰ رجلٍ من أصحابي »(٥) ، فانظرْ كيفَ جعلَ العلمَ مقارناً لدرجةِ النبوَّةِ ، وكيفَ حطَّ رتبةَ العملِ المجرَّدِ عن العلمِ وإنْ كانَ العابدُ لا يخلو عن علمٍ بالعبادةِ التي يواظبُ عليها ، ولولاهُ . . لمْ تكنْ عبادةٌ .

---

(١) ذكره ابن عبد البر تعليقاً في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٦) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥١) ، ومن شواهده ما رواه القضاعي في « مسنده » (١١٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ٢٦٧) : « العلماء أمناء الله علىٰ خلقه » .

(٣) رواه تمام في « فوائده » (٩٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٨) واللفظ له .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٨٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٨) .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليْلةَ البدرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يشفعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : الأنبياءُ ، ثمَّ العلماءُ ، ثمَّ الشهداءُ »[2] ، فأعظمْ برتبةٍ هيَ تِلْوُ النبوَّةِ وفوقَ الشهادةِ ، مع ما وردَ في فضلِ الشهادةِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما عُبِدَ اللهُ تعالىٰ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدينِ ، ولَفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ مِنْ ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شيءٍ عمادٌ ، وعمادُ هـٰذا الدينِ الفقهُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خيرُ دينِكُمْ أيسرُهُ ، وخيرُ العبادةِ الفقهُ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فضلُ المؤمنِ العالِمِ على المؤمنِ العابدِ سبعونَ درجةً »[5] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ أصبحتُمْ في زمانٍ كثيرٍ فقهاؤُهُ ،

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .
(٢) رواه ابن ماجه (٤٣١٣) .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٣) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩١) بلفظه ، والشطر الأول منه في « مسند أحمد » (٣/ ٤٧٩) .
(٥) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٥) ، وهو عند أبي يعلىٰ في « مسنده » (٨٥٦) بزيادة .

قليلٌ خطباؤُهُ ، قليلٌ سائلُوهُ ، كثيرٌ معطُوهُ ، العملُ فيهِ خيرٌ مِنَ العلمِ ، وسيأتي على الناسِ زمانٌ قليلٌ فقهاؤُهُ ، كثيرٌ خطباؤُهُ ، قليلٌ معطوهُ ، كثيرٌ سائلوهُ ، العلمُ فيهِ خيرٌ مِنَ العملِ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بينَ العالِمِ والعابدِ مئةُ درجةٍ ، بينَ كلِّ درجتينِ حُضْرُ الجوادِ المضمَّرِ سبعينَ سنةً »(٢) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ » ، فقيلَ : الأعمالَ نريدُ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ باللهِ سبحانَهُ » ، فقيلَ : نسألُ عَنِ العملِ وتجيبُ عَنِ العلمِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ قليلَ العملِ ينفعُ معَ العلمِ ، وإنَّ كثيرَ العملِ لا ينفعُ معَ الجهلِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يبعثُ اللهُ عزَّ وجلَّ العبادَ يومَ القيامةِ ، ثمَّ يبعثُ العلماءَ ، ثمَّ يقولُ : يا معشرَ العلماءِ ؛ إنِّي لمْ أضعْ علمي فيكمْ إلا لعلمي بكُمْ ، ولمْ أضعْ علمي فيكُمْ لأُعذِّبكُمْ ، اذهبُوا فقدْ غفرْتُ لكُمْ »(٤) .

نسألُ اللهَ حُسْنَ الخاتمةِ .

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٢٢٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/٣٠٣) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٩) ، **وحُضْرُ الجواد المضمّر** : مقدار عدْوِ الجواد المهيَّأ للركض ، **والحضْرُ** : ارتفاع الفرس في عدوه .
(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٤) .
(٤) رواه البيهقي في « المدخل » (٥٦٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٢) .

وأمّا الآثارُ :

فقد قالَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ لكُمَيلٍ : (يا كُميلُ ؛ العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ ، العلمُ يحرُسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، والمالُ تَنقُصُهُ النفقةُ والعلمُ يزكو على الإنفاقِ)[1] .

وقالَ أيضاً : (العالمُ أفضلُ مِنَ الصائمِ القائمِ المجاهدِ ، وإذا ماتَ العالمُ . . ثُلِمَ في الإسلامِ ثُلْمَةٌ لا يسدُّها إلا خَلَفٌ منهُ)[2] .

وقالَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ نظماً[3] : [من البسيط]

ما ٱلْفَخْرُ إلاَّ لأَهْلِ ٱلْعِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى ٱلْهُدَىٰ لِمَنِ ٱسْتَهْدَىٰ أَدِلاَّءُ
وَقَدْرُ كُلِّ ٱمْرِىءٍ ما كانَ يُحْسِنُهُ ... وَٱلْجاهِلُونَ لأَهْلِ ٱلْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيّاً بِهِ أَبَداً ... اَلنَّاسُ مَوْتَىٰ وَأَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَحْياءُ

وقالَ أبو الأسودِ : (ليسَ شيءٌ أعزَّ مِنَ العلمِ ؛ الملوكُ حكَّامٌ

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/٣٧٦) ، وبنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧٩) ، وهو في « قوت القلوب » (١/ ١٣٤) . وقوله : (والمال تنقصه النفقة) لا ينافي قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال » ؛ فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت . . ذهب ذلك القدر وخلفه غيره ، وأما العلم . . فكالمقتبس من النار ، لو اقتبس منها العالم . . لم يذهب منها شيء ، بل يزيد . « إتحاف » (١/ ٨٦) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٣) ، ورواه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٣٥٠) .

(٣) ديوان سيدنا علي، الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول صلى الله عليه وسلم » (ص٣٠) .

على الناسِ ، والعلماءُ حكامٌ على الملوكِ)(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (خُيِّرَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ بينَ العلْمِ والمالِ والمُلكِ ، فاختارَ العلْمَ ، فأُعْطِيَ المالَ والملكَ معهُ)(٢) .

وسئِلَ ابنُ المباركِ : مَنِ الناسُ ؟ فقالَ : العلماءُ ، قيلَ : فمَنِ الملوكُ ؟ قالَ : الزهَّادُ ، قيلَ : فمَنِ السَّفِلَةُ ؟ قالَ : الذي يأكلُ بدينِهِ(٣) .

ولمْ يجعلْ غيرَ العالمِ مِنَ الناسِ ؛ لأنَّ الخاصيةَ التي بها يتميَّزُ الناسُ عنْ سائرِ البهائمِ هيَ العلمُ ، والإنسانُ إنسانٌ بما هوَ شريفٌ لأجلِهِ ، وليسَ ذلكَ بقوَّةِ شخصِهِ ؛ فإنَّ الجملَ أقوىٰ منهُ ، ولا بِعظَمِهِ ؛ فإنَّ الفيلَ أعظمُ منهُ ، ولا بشجاعتِهِ ؛ فإنَّ السَّبُعَ أشجعُ منهُ ، ولا ليأكلَ ؛ فإنَّ الثورَ أوسعُ بطناً منهُ ، ولا ليجامعَ ؛ فإنَّ أخسَّ العصافيرِ أقوىٰ على السِّفادِ منهُ ، بلْ لمْ يُخلقْ إلا للعلمِ(٤) .

---

(١) ذكره ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ١٢١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١١) تعليقاً .
(٢) تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٧٥) ، وهو عن عبد الله بن المبارك في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ١٦٧) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٠١) ، وهو عند صاحب « قوت القلوب » (١/ ١٥٣) .
(٤) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ ، فهـٰؤلاء هم الجهال الذين لم تحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان . « إتحاف » (١/ ٨٩) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (ليتَ شعري ؛ أيَّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاتَهُ العلمُ ، وأيَّ شيءٍ فاتَهُ مَنْ أدركَ العلمَ ؟!)(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أُوتيَ القرآنَ فرأىٰ أنَّ أحداً أُوتيَ خيراً منهُ . . فقدْ حقَّرَ ما عظَّمَ اللهُ تعالىٰ »(٢) .

وقالَ فتْحٌ المَوْصِليُّ رحمهُ اللهُ : (أليسَ المريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشرابَ والدواءَ يموتُ ؟ قالوا : بلىٰ ، قالَ : كذلكَ القلبُ إذا مُنِعَ عنهُ الحكمةُ والعلمُ ثلاثةَ أيامٍ . . يموتُ)(٣) .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ غذاءَ القلبِ العلمُ والحكمةُ ، وبهما حياتُهُ ، كما أنَّ غذاءَ الجسدِ الطعامُ ، ومَنْ فقدَ العلمَ . . فقلبُهُ مريضٌ ، وموتُهُ لازمٌ ، ولكنَّهُ لا يشعرُ بهِ ؛ إذْ حبُّ الدنيا وشغلُهُ بها أبطلَ إحساسَهُ ، كما أنَّ غلبةَ الخوفِ قدْ تُبطِلُ إحساسَ ألمِ الجراحِ في الحالِ وإنْ كانَ واقعاً ، فإذا حطَّ الموتُ عنهُ أعباءَ الدنيا . . أحسَّ بهلاكِهِ ، وتحسَّرَ تحسراً عظيماً ثمَّ لا ينفعُهُ ، وذلكَ كإحساسِ الآمنِ مِنْ خوفِهِ والمفيقِ عنْ سكرِهِ بما أصابَهُ منَ الجراحاتِ في حالةِ السكْرِ أوِ الخوفِ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ يومِ كشفِ الغطاءِ ؛ فإنَّ الناسَ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا .

---

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » (١/ ١٧٥) .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٣٥٢) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٩٦) .
(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » (١/ ١٧٥) ، وأورد بعضها الشعراني في « طبقاته » (١/ ٨٠) .

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (يوزنُ مدادُ العلماءِ بدمِ الشهداءِ ، فيرجحُ مدادُ العلماءِ بدمِ الشهداءِ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (عليكُمْ بالعلمِ قبلَ أنْ يُرفعَ ، ورفعُهُ أنْ تهلِكَ رواتُهُ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لَيودَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيلِ اللهِ شهداءَ أنْ يبعَثَهُمُ اللهُ علماءَ لما يرونَ مِنْ كرامتِهِمْ ، وإنَّ أحداً لم يُولدْ عالماً ، وإنما العلمُ بالتعلُّمِ)[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ إحيائِها)[3] ، وكذا رُوِيَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ[4] ، وأحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمهُ اللهُ[5] .

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ : (إنَّ الحسنةَ في الدنيا هي العلمُ والعبادةُ، وفي الآخرةِ هي الجنَّةُ)[6] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٧٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي الدرداء رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأخرجه الشيرازي في « الألقاب » من حديث أنس مرفوعاً ، فلعل الحسن سمعه من أنس . « إتحاف » (١/ ٩٠) .

(٢) روي مفرقاً إلا قوله : (فوالذي نفسي بيده . . . كرامتهم) في « الزهد » (٨٩٩) لأحمد ، « سنن الدارمي » (١٤٤) ، « جامع بيان العلم وفضله » (١٠١٧) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٥٣) .

(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٩٢) .

(٥) انظر « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٨) ، و« مفتاح دار السعادة » (١/ ١٧٤) .

(٦) الترمذي (٣٤٨٨) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : أيُّ الأشياءِ تُقتنَىٰ ؟ قالَ : الأشياءُ التي إذا غرقتْ سفينتُكَ . . سَبَحَتْ معك ؛ يعني العلمَ ، وقيلَ : أرادَ بغرقِ السفينةِ هلاكَ بدنِهِ بالموتِ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنِ اتخذَ الحكمةَ لجاماً . . اتخذَهُ الناسُ إماماً ، ومن عُرِفَ بالحكمةِ . . لاحظتْهُ العيونُ بالوقارِ)[2] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مِنْ شرفِ العلمِ أنَّ كلَّ مَنْ نُسِبَ إليهِ ولوْ في شيءٍ حقيرٍ . . فرحَ ، ومن دُفِعَ عنهُ . . حَزِنَ)[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أيُّها الناسُ ؛ عليكُمْ بالعلمِ ، فإنَّ للهِ سبحانَهُ رداءَ محبَّةٍ ؛ فمَنْ طلبَ باباً مِنَ العلمِ . . ردَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بردائِهِ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ؛ لئلا يسلُبَهُ رداءَهُ ذلكَ وإنْ تطاولَ بهِ ذلكَ الذنبُ حتَّىٰ يموتَ)[4] .

وقالَ الأحنفُ رحمهُ اللهُ : (كادَ العلماءُ أنْ يكونوا أرباباً ، وكلُّ عزٍّ لمْ يؤكَّدْ بعلمٍ فإلىٰ ذلٍّ مصيرُهُ)[5] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٨٠) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢٨١) .
(٣) ذكر الحافظ الزبيدي بأنه روي عنه بإسناد حسن . « إتحاف » (١/ ٩٢) ، وهو في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٩٥) بغير نسبة .
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٣٠٠) ، ومعنى (استعتبه) : طلب رجوعه إليه واستقالته . « إتحاف » (١/ ٩٢) .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٢٤) .

وقالَ سالمُ بنُ أبي الجعدِ : (اشتراني مولايَ بثلاثِ مئةِ درهمٍ وأعتقني ، فقلتُ : بأيِّ حرفةٍ أحترفُ ؟ فاحترفتُ بالعلمِ ، فما تمَّتْ لي سنةٌ حتَّىٰ أتاني أميرُ المدينةِ زائراً ، فلمْ آذنْ لهُ) .

وقالَ الزبيرُ بنُ أبي بكرٍ : (كتبَ إليَّ أبي بالعراقِ : عليكَ بالعلمِ ؛ فإنَّكَ إنِ افتقرتَ . . كانَ لكَ مالاً ، وإنِ استغنيتَ . . كانَ لكَ جمالاً)[1] .

وحُكِيَ ذلكَ في وصايا لقمانَ لابنِهِ ، وقالَ : (يا بُنيَّ ؛ جالسِ العلماءَ وزاحمْهُمْ بركبتيكَ ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يحيي القلوبَ بنورِ الحكمةِ كما يحيي الأرضَ بوابلِ السماءِ)[2] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا ماتَ العالمُ . . بكاهُ الحوتُ في الماءِ ، والطيرُ في الهواءِ ، ويُفقدُ وجهُهُ ولا يُنسىٰ ذكرُهُ)[3] .

وقالَ الزهريُّ رحمهُ اللهُ : (العلمُ ذَكَرٌ ، ولا يحبُّهُ إلا ذُكورُ الرجالِ)[4] .

* * *

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرىٰ (٣٩٩) .
(٢) الموطأ (٢/ ١٠٠٢) بلاغاً ، وعند البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٤٤٥) عن عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما .
(٣) انظر « الإتحاف » (١/ ٩٣) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٦٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٩٦) .

فضيلة التعلّم

أمّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

وأمّا الأخبارُ :

فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سلكَ طَريقاً يطلبُ فيهِ علماً . . سلكَ اللهُ بهِ طريقاً إلى الجنَّةِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجْنحتَها لطالبِ العلمِ رِضاً بما يصنَعُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ تغدوَ فتتعلَّمَ باباً من العلمِ . . خيرٌ مِنْ أنْ تصلِّيَ مئةَ ركعةٍ »[3] .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٣٩) ، وهو بتمامه عند الترمذي (٢٦٨٢) .
(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٤) ، وبنحوه عند ابن ماجه (٢١٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بابٌ مِنَ العلمِ يتعلَّمُهُ الرجلُ .. خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبُوا العلمَ ولوْ بالصِّينِ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العلمُ خزائنُ مفاتِحُها ٱلسُّؤالُ ؛ فاسْألوا ، فإنَّهُ يُؤجَرُ فيهِ أربعةٌ : السائلُ ، والعالمُ ، والمستمِعُ ، والمحبُّ لهم »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي للجاهلِ أنْ يسكتَ علىٰ جهلِهِ ، ولا للعالمِ أنْ يسكتَ عَلىٰ علمِهِ »[5] .

وفي حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « حضورُ مجلسِ عِلْمٍ أفضلُ منْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وعيادةِ ألفِ مريضٍ ، وشهودِ ألفِ جنازةٍ » ، فقيلَ :

---

(١) هو من قول الحسن البصري كما في « روضة العقلاء » (ص ٤٠) ، و« جامع بيان العلم وفضله » (٢٥٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٢٤) ، و« الشعب » (١٥٤٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٢) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٦١) .

يا رسولَ اللهِ ؛ ومِنْ قراءةِ القرآنِ ؟ فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وهلْ ينفعُ القرآنُ إلا بالعلمِ ؟! »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جَاءَهُ الموتُ وهوَ يطلبُ العلمَ ليحييَ بهِ الإسْلامَ . . فبينَهُ وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجةٌ واحدةٌ »[2] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الآثارُ :

فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ذَلَلْتُ طالباً ؛ فعززتُ مطلوباً)[3] .

وكذلكَ قالَ ابنُ أبي مُليكةَ رحمهُ اللهُ : (ما رأيتُ مثلَ ابنِ عباسٍ ؛ إذا رأيتَهُ . . رأيتَ أحسنَ الناسِ وجهاً ، وإذا تكلَّمَ . . فأعربُ الناسِ لساناً ، وإذا أفتىٰ . . فأكثرُ الناسِ علماً)[4] .

وقالَ ابنُ المباركِ رحمهُ اللهُ : (عجبتُ لمنْ لمْ يطلبِ العلمَ كيفَ تدعوهُ نفسُهُ إلىٰ مكرمةٍ !)[5] .

---

(١) تقييد المصنف بروايته عن أبي ذر فيه إشارة إلى الحديث المتقدم : « يا أبا ذر ؛ لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم . . . » ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/ ٦٧) حيث قال : (ورويناه من حديث أبي ذر . . .) وذكره ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٩٩) .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٣٦٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٩) عن الحسن مرسلاً .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨٤) .

(٤) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٤/ ٨) .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (٢٨٦) وسير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٨) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لا أرحمُ رجالاً كرحمتي لأحدِ رجلينِ : رجلٍ يطلبُ العلمَ ولا يفهمُ ، ورجلٍ يفهمُ ولا يطلبُهُ)[١] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأَنْ أتعلَّمَ مسألةً أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ)[٢] .

وقالَ أيضاً : (العالمُ والمتعلِّمُ شريكانِ في الخيرِ ، وسائرُ الناسِ هَمَجٌ لا خيرَ فيهِمْ)[٣] .

وقالَ أيضاً : (كنْ عالماً ، أو متعلِّماً ، أو مستمعاً ، ولا تكنِ الرابعَ فتهلَكَ)[٤] .

وقالَ عطاءٌ : (مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً مِنْ مجالسِ اللهوِ)[٥] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (موتُ ألفِ عابدٍ قائمِ الليلِ صائمِ النهارِ أهونُ مِنْ موتِ عاقلٍ بصيرٍ بحلالِ اللهِ وحرامِهِ)[٦] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (طلبُ العلمِ أفضلُ مِنَ النافلةِ)[٧] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٦٤٢) ونسبه للفرّاء .
(٢) الفقيه والمتفقه (٥٥) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٣٤) ، وروي مرفوعاً كما هو عند ابن ماجه (٢٢٨) .
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٤٢ـ ١٤٤) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٩) .
(٦) زوائد مسند الحارث (٢/ ٨١٣) .
(٧) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١١٩)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١٣٨).

وقالَ ابنُ عبدِ الحكمِ رحمهُ اللهُ : (كنتُ عندَ مالكٍ أقرأُ عليهِ العلمَ ، فدخلَ الظهرُ ، فجمعتُ الكتبَ لأصلِّي ؛ فقالَ : يا هٰذا ؛ ما الذي قمتَ إليهِ بأفضلَ ممَّا كنتَ فيهِ إذا صحَّتِ النيَّةُ)[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ رأىٰ أنَّ الغُدوَّ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ . . فقدْ نقصَ في رأيِهِ وعقلِهِ)[2] .

* * *

(١) شرف أصحاب الحديث (ص١٢٧) بنحوه . وانظر « الإتحاف » (١/ ١٠٣) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٥٩) .

فضيلة التعليم

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ ، والمرادُ هوَ التعليمُ والإرشادُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ، وهو إيجابٌ للتعليمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهوَ تحريمٌ للكتمانِ ؛ كما قالَ تعالىٰ في الشهادةِ : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آتى اللهُ عالماً علماً إلا أخذَ عليهِ مِنَ الميثاقِ ما أخذَ على النَّبيِّينَ أنْ يبيِّنُوهُ للنَّاسِ ولا يكتموهُ »(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٢٨٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/٣٦٦) .

وأمَّا الأخبارُ :

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا بعثَ معاذاً رضيَ اللهُ عنهُ إلى اليمنِ : « لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنَ الدنيا وما فيها »(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تعلَّمَ باباً من العلمِ ليُعَلِّمَ النَّاسَ . . أُعطِيَ ثَوَابَ سبعينَ صِدِّيقاً »(٢) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ علِمَ وعمِلَ وعَلَّمَ . . فذلكَ يُدْعَىٰ عظيماً في ملكُوتِ السماواتِ)(٣) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ للعابدينَ والمجاهدينَ : ادخلُوا الجنَّةَ ، فيقولُ العلماءُ : بفضلِ علمِنا تعَبَّدُوا وجاهدُوا ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنتمْ عندي كبعضِ ملائكتي ، اشفَعُوا . . تُشَفَّعُوا ، فيشفعونَ ، ثمَّ يدخلونَ الجنَّةَ »(٤) ، وهـٰذا إنَّما يكونُ بالعلمِ المتعدِّي بالتعليمِ ، لا العلمِ اللازمِ الذي لا يتعدَّىٰ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) ، قاله لعلي رضي الله عنه .

(٢) نسبه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/١٢٦) للديلمي في « مسند الفردوس » ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١/١٠٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٩٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٩١ ، ١٢١٦) .

(٤) قال العراقي : (رواه المرهبي في « العلم » عن رواية محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس) ، وبحث فيه الزبيدي . انظر « الإتحاف » (١/١٠٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يَنْتَزِعُ العلمَ انتزاعاً مِنَ النَّاسِ بعدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إيَّاهُ ، ولَكنْ يذهبُ بذهابِ العلماءِ ، فكلَّما ذَهَبَ عالمٌ . . ذهبَ بما معهُ من العِلْمِ ، حتَّىٰ إذا لَمْ يَبْقَ عالمٌ . . اتخذَ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً ، إنْ سُئِلُوا . . أفتَوا بغيرِ علمٍ ؛ فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عَلِمَ علماً فكتمَهُ . . أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعْمَ العطيَّةُ ونِعْمَ الهديَّةُ كلمةُ حكمةٍ تسمَعُهَا ، فتَطْوِي عليها ، ثم تحملُها إلىٰ أخٍ لكَ مسلمٍ تُعَلِّمُهُ إيَّاها ، تَعْدِلُ عبادةَ سنةٍ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ذكرَ اللهِ سبحانَهُ وما والاهُ ، أو مُعَلِّماً ، أو مُتَعَلِّماً »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السماواتِ والأرضِ ، حتَّى النَّملةَ في جُحْرِها ، وحتَّى الحوتَ في البحرِ . . لَيُصَلُّونَ علىٰ مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ »[٥] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦١) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٣) .
(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) .
(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أفادَ المسلمُ أخاهُ فائدةً أفضلَ من حديثٍ حسنٍ بَلَغَهُ فَبَلَّغَهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمةٌ مِنَ الخيرِ يسمعُها المؤمنُ فيعملُ بها ، ويعلِّمُها . . خيرٌ لهُ مِنْ عبادةِ سنةٍ »[2] .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ ، فرأىٰ مجلسينِ ؛ أحدُهُما : يدعُون اللهَ عزَّ وجلَّ ويرغبونَ إليهِ ، والثاني : يعلِّمونَ الناسَ ، فقالَ : « أمَّا هؤلاءِ : فيسأَلُونَ اللهَ ؛ فإنْ شاءَ . . أعطاهُمْ ، وإنْ شاءَ . . منعهُمْ ، وأمَّا هؤلاءِ : فيُعَلِّمُونَ الناسَ ، وإنَّما بُعِثْتُ مُعَلِّماً » ، ثمَّ عَدَلَ إليهِمْ وجلسَ معهُمْ[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ ما بَعَثَنِي اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ مِنَ الهدىٰ والعلمِ كمثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً ، فكانتْ منها نَقِيَّةٌ[4] قبلَتِ الماءَ ، فأَنْبَتَتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكانتْ منها أجادبُ أمسكَتِ الماءَ ، فنفعَ اللهُ بهَا النَّاسَ ، فشَرِبُوا وسَقَوا وَزَرَعُوا ، وكَانَتْ منها طائفَةٌ قيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كلأً »[5] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٢) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨٦) ، وتقدم بنحوه عند الطبراني .
(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٩) .
(٤) أي : طيبة طاهرة .
(٥) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

فالأوَّلُ ذكرَهُ مثلاً للمنتفعِ بعلمِهِ ، والثاني ذكرَهُ مثلاً للنافعِ ، والثالثُ للمحرومِ منهما[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ . . انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثَلاَثٍ : عِلْمٍ يُنتَفَعُ بهِ . . . » الحديثَ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدَّالُّ على الخيرِ كفاعلِهِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ حكمةً ، فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها النَّاسَ ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فهوَ ينفقُ منهُ سرّاً وجهراً »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ خلفائي رحمةُ اللهِ » قيلَ : ومَنْ خلفاؤُكَ ؟ قالَ : « الذينَ يُحيُونَ سُنتي ويعلِّمونَها عبادَ اللهِ »[5] .

---

(١) أي : حين قال في تتمة الحديث : « فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلَّم ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به » . « البخاري » (٧٩) .

(٢) رواه مسلم (١٦٣١) .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٧٠) بلفظه ، وأصله عند مسلم (١٨٩٣) .

(٤) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) ، ولفظه : « . . . مالاً ، فسلَّطه علىٰ هلكته في الحقِّ » .

(٥) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/١١١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٢٠) واللفظ له .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ حدَّثَ بحديثٍ ، فعُمِلَ به . . فلهُ مثلُ أجرِ مَنْ عملَ ذلكَ العملِ)(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مُعلِّمُ الناسِ الخيرَ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتَّى الحوتُ في البحرِ)(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (العالمُ يدخلُ فيما بينَ اللهِ وبينَ خلقِهِ ، فلينظرْ كيفَ يدخلُ)(٣) .

ورُوِي أنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمهُ اللهُ قدِمَ عَسْقَلانَ ، فمكثَ ولا يسألُهُ إنسانٌ ، فقالَ : (اكتروا لي لأخرجَ مِنْ هٰذا البلدِ ، هٰذا بلدٌ يموتُ فيهِ العلمُ)(٤) ، وإنما قالَ ذلكَ حرصاً علىٰ فضيلةِ التعليمِ ، واستبقاءِ العلمِ بهِ .

وقالَ عطاءٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (دخلتُ علىٰ سعيدِ بنِ المسيَّبِ وهو يبكي ، فقلتُ : ما يبكيكَ ؟ فقال : ليسَ أحدٌ يسألني عَنْ شيءٍ !)(٥) .

---

(١) رواه الحاكم في « المدخل إلى الصحيح » (ص٨٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥٦) عنه مرفوعاً .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٣٥٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٠) .

(٣) سنن الدارمي (١٣٩) ، وحلية الأولياء (٣/ ١٥٣) عن محمد بن المنكدر .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٠٤٦) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٩٤٣) عن عطاء عن سعيد بن جبير .

وقالَ بعضُهُمْ : (العلماءُ سُرجُ الأزمنةِ ، كلُّ واحدٍ مصباحُ زمانِهِ ، يستضيءُ بهِ أهلُ عصرِهِ)(١) .

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (لولا العلماءُ .. لصارَ الناسُ مثلَ البهائمِ) أيْ : أنَّهمْ بالتعليمِ يُخرجونَ الناسَ مِنْ حدِّ البهيميَّةِ إلىٰ حدِّ الإنسانيَّةِ .

وقالَ عِكْرِمَةُ : (إنَّ لهـٰذا العلمِ ثمناً ، قيلَ : وما هو ؟ قالَ : أنْ تضعَهُ فيمَنْ يُحسنُ حملَهُ ولا يضيِّعُهُ)(٢) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (العلماءُ أرحمُ بأمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لأنَّ آباءَهُمْ وأمهاتِهِمْ يحفظونَهُمْ مِنْ نارِ الدنيا ، وهمْ يحفظونَهُمْ من نارِ الآخرةِ)(٣) .

وقيلَ : (أوَّلُ العلْمِ الصمتُ ، ثمَّ الاستماعُ ، ثمَّ الحفْظُ ، ثمَّ العمَلُ ، ثمَّ نشرُهُ)(٤) .

وقيلَ : (علِّمْ علمَكَ مَنْ يجهلُ ، وتعلَّم ممَّنْ يعلَمُ ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ .. علمتَ ما جهلتَ ، وحفظتَ ما علمتَ)(٥) .

---

(١) رواه ابن بطة في « الإبانة » (٤١) .

(٢) المحدث الفاصل (ص٥٧٥) .

(٣) ذكره السخاوي في « المنهل العذب الروي » (ص ٨٥) ، والشعراني في « طبقاته » (١/ ٨٠) .

(٤) حلية الأولياء (٦/ ٣٦٢) ، وبنحوه من قول محمد الحارثي (٨/ ٢١٨) .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (٦٤٧) ، ورواه عن الأحنف ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٤٤) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ في التعليمِ والتعلُّمِ ورأيتُهُ أيضاً مرفوعاً : (تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ ، وطلبَهُ عبادةٌ ، ومدارستَهُ تسبيحٌ ، والبحثَ عنهُ جهادٌ ، وتعليمَهُ لمنْ لا يعلمُهُ صدقةٌ ، وبذلَهُ لأهلِهِ قربةٌ ، وهوَ الأنيسُ في الوحدةِ ، والصاحبُ في الخلوةِ ، والدليلُ على الدِّين ، والمصبِّرُ على السّراءِ والضرّاءِ ، والوزيرُ عندَ الأخلاّءِ ، والقريبُ عندَ الغرباءِ ، ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ ، يرفعُ اللهُ بِهِ أقواماً ، فيجعلُهُمْ في الخيرِ قادةً سادةً هُداةً يُقتدَىٰ بهِمْ ، أدلةً في الخيرِ ، تُقتَصُّ آثارُهُمْ وتُرمقُ أفعالُهم ، وترْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهِمْ وبأجنحتِها تمسحُهُمْ ، وكلُّ رطْبٍ ويابسٍ يستغفرُ لهُمْ ، حتَّىٰ حيتانُ البحْرِ وهوامُّهُ ، وسباعُ البرِّ وأنعامُهُ ، والسماءُ ونجومُها ؛ لأنَّ العلمَ حياةُ القلوبِ مِنَ العمىٰ ، ونورُ الأبصارِ مِنَ الظُّلَمِ ، وقوةُ الأبدانِ مِنَ الضعفِ ، يبلغُ بِهِ العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجاتِ العُلىٰ ، التفكُّرُ فيهِ يعدلُ بالصيامِ ، ومدارستُهُ بالقيامِ ، بهِ يُطاعُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وبهِ يُعبدُ ، وبهِ يُوحَّدُ ، وبهِ يُمجَّدُ ، وبهِ يُتورَّعُ ، وبهِ تُوصَلُ الأرحامُ ، وبهِ يعرفُ الحلالُ والحرامُ ، وهوَ إمامٌ والعملُ تابعُهُ ، يُلْهَمُهُ السعداءُ ، ويُحْرَمُهُ الأشقياءُ)(١) . نسألُ اللهَ تعالىٰ حسْنَ التوفيقِ .

في الشواهدِ العقليّةِ :

اعلمْ : أنَّ المطلوبَ مِنْ هـٰذا البابِ معرفةُ فضيلةِ العلمِ ونفاستِهِ ، وما لمْ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٨) موقوفاً ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٨) مرفوعاً .

تُفهَمِ الفضيلةُ في نفسِها ولمْ يُتحقَّقِ المرادُ منها . . لمْ يمكنْ أنْ يُعلمَ وجودُها صفةً للعلمِ أوْ لغيرِهِ مِنَ الخصالِ ؛ فلقدْ ضلَّ عَنِ الطريقِ مَنْ طمعَ أنْ يعرفَ أنَّ زيداً حكيمٌ أم لا وهو بعدُ لمْ يفهمْ معنى الحكمةِ وحقيقتَها .

والفضيلةُ مأخوذةٌ مِنَ الفضْلِ ، وهوَ الزيادةُ ، فإذا تشاركَ شيئانِ في أمرٍ واختصَّ أحدُهُما بمزيدٍ . . يقالُ : فَضَلَهُ ، ولهُ الفضْلُ عليه ، مهما كانتْ زيادتُهُ فيما هوَ كمالُ ذلكَ الشيءِ ، كما يقالُ : الفرسُ أفضلُ مِنَ الحمارِ ؛ بمعنىٰ أنَّهُ يشاركُهُ في قوّةِ الحملِ ويزيدُ عليهِ بقوّةِ الكرِّ والفرِّ وشدَّةِ العدْوِ وحسْنِ الصورةِ ، فلوْ فُرِضَ حمارٌ اختُصَّ بسلعةٍ زائدةٍ . . لمْ يُقَلْ : إنَّهُ أفضلُ ؛ لأنَّ تلكَ زيادةٌ في الجسمِ ونقصانٌ في المعنىٰ ، وليستْ مِنَ الكمالِ في شيءٍ ، والحيوانُ مطلوبٌ لمعناهُ وصفاتِهِ لا لجسمِهِ .

فإذا فهمتَ هـٰذا . . لمْ يخْفَ عليكَ أنَّ العلمَ فضيلةٌ إنْ أخذتَهُ بالإضافةِ إلىٰ سائرِ الأوصافِ ؛ كما أنَّ للفرسِ فضيلةً إنْ أخذتَهُ بالإضافةِ إلىٰ سائرِ الحيواناتِ ، بل شدَّةُ العَدْوِ فضيلةٌ في الفرسِ وليسَ فضيلةً على الإطلاقِ ، والعلمُ فضيلةٌ في ذاتِهِ وعلى الإطلاقِ مِنْ غيرِ إضافةٍ ؛ فإنَّهُ وصفُ كمالِ اللهِ سبحانَهُ ، وبهِ شرَّفَ الملائكةَ والأنبياءَ ، بلِ الكيِّسُ مِنَ الخيلِ خيرٌ من البليدِ ، فهيَ فضيلةٌ على الإطلاقِ مِنْ غيرِ إضافةٍ .

واعلمْ : أنَّ الشيءَ النفيسَ المرغوبَ فيهِ ينقسمُ إلىٰ ما يُطلبُ لغيرِهِ ، وإلىٰ ما يُطلبُ لذاتِهِ ، وإلىٰ ما يُطلبُ لغيرِهِ ولذاتِهِ جميعاً ، فما يُطلبُ لذاتِهِ أشرفُ وأفضلُ ممَّا يُطلبُ لغيرِهِ .

والمطلوبُ لغيرِهِ الدراهمُ والدنانيرُ ؛ فإنَّهما حجرانِ لا منفعةَ فيهما ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ يسَّرَ قضاءَ الحاجاتِ بهما.. لكانا والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ .

وأمَّا الذي يُطلبُ لذاتِهِ.. فالسعادةُ في الآخرةِ ، ولذَّةُ النظرِ إلىٰ وجْهِ اللهِ تعالىٰ(١) .

وأمَّا الذي يُطلبُ لذاتِهِ ولغيرِهِ.. فكسلامةِ البدنِ ؛ فإنَّ سلامةَ الرِّجْلِ مثلاً مطلوبةٌ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ للبدنِ عَنِ الألمِ ، ومطلوبةٌ للمشيِ بها والتوصُّلِ إلى المآربِ والحاجاتِ .

وبهـٰذا الاعتبارِ إذا نظرتَ إلى العلمِ.. رأيتَهُ لذيذاً في نفسِهِ ، فيكونُ مطلوباً لذاتِهِ ، ووجدتَهُ وسيلةً إلىٰ دارِ الآخرةِ وسعادتِها ، وذريعةً إلى القربِ من اللهِ تعالىٰ ، ولا يُتوصَّلُ إليهِ إلا بهِ .

وأعظمُ الأشياءِ رتبةً في حقِّ الآدميِّ السعادةُ الأبديَّةُ ، وأفضلُ الأشياءِ ما هوَ وسيلةٌ إليها ، ولنْ يُتوصَّلَ إليها إلا بالعلمِ والعملِ ، ولا يُتوصَّلُ إلى العملِ أيضاً إلا بالعلْمِ بكيفيَّةِ العملِ ، فأصلُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ هوَ العلمُ ، فهوَ إذاً أفضلُ الأعمالِ .

---

(١) وهو أعلىٰ أنواع نعم الله الموهوبة والمكتسبة وأشرفُها ، وإياها قصد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ الآية ، وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف ، وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغناء بلا فقر . « إتحاف » (١/ ١٢٥) .

وكيفَ لا وقدْ تُعرفُ فضيلةُ الشيءِ أيضاً بشرفِ ثمرتِهِ ، وقدْ عرفتَ أنَّ ثمرةَ العلمِ القربُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، والالتحاقُ بأُفُقِ الملائكةِ ، ومقارنةُ الملإِ الأعلىٰ . هٰذا في الآخرةِ .

وأمَّا في الدنيا . . فالعزُّ والوقارُ ، ونفوذُ الحكْمِ على الملوكِ ، ولزومُ الاحترامِ في الطباعِ ، حتَّىٰ إنَّ أغبياءَ التُرْكِ وأجلافَ العربِ يصادفونَ طباعَهَمْ مجبولةً على التوقيرِ لشيوخِهِمْ ؛ لاختصاصِهِمْ بمزيدِ عِلْمٍ مستفادٍ مِنَ التجربَةِ ، بلِ البهيمةُ بطبعِها توقِّرُ الإنسانَ ؛ لشعورِها بتميُّزِ الإنسانِ بكمالٍ مجاوزٍ لدرجتِها .

هٰذهِ فضيلةُ العلمِ مطلقاً ، ثم تختلفُ العلومُ كما سيأتي بيانُهُ وتتفاوتُ ـ لا محالةَ ـ فضائِلُها بتفاوتِها .

وأمَّا فضيلةُ التعليمِ والتعلُّمِ . . فظاهرةٌ ممَّا ذكرناهُ ؛ فإنَّ العلمَ إذا كانَ أفضلَ الأمورِ . . كانَ تعلُّمُهُ طلباً للأفضلِ ، وكانَ تعليمُهُ إفادةً للأفضلِ .

وبيانه : أنَّ مقاصدَ الخلقِ مجموعةٌ في الدينِ والدنيا ، ولا نظامَ للدينِ إلا بنظامِ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وهي الآلةُ الموصلَةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لمنِ اتخذَها آلةً ومنزلاً ، ولم يتخذْها مستقرّاً ووطناً ، وليسَ ينتظمُ أمرُ الدنيا إلا بأعمالِ الآدميِّينَ ، وأعمالُهم وحرفُهُمْ وصناعاتُهُمْ تنحصرُ في ثلاثةِ أقسامٍ :

أحدُها : أصولٌ لا قِوامَ للعالَمِ دونَها ، وهيَ أربعةٌ : **الزراعةُ** وهيَ

لِلمَطْعَمِ ، **والحياكةُ** وهيَ للملبَسِ ، **والبناءُ** وهوَ للمسكَنِ ، **والسياسةُ** وهيَ للتأليفِ والاجتماعِ ، والتعاونِ علىٰ أسبابِ المعيشةِ وضبطِها .

الثاني : ما هيَ مهيِّئةٌ لكلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الصناعاتِ وخادمةٌ لها ؛ كالحدادَةِ ، فإنَّها تخدُم الزراعةَ ، وجملةً مِنَ الصناعاتِ بإعدادِ آلاتِها ، وكالحلاجةِ والغزلِ ، فإنَّها تخدُم الحياكةَ بإعدادِ محلِّها .

الثالثُ : ما هيَ متمِّمَةٌ للأصولِ ومزينةٌ ؛ كالطَّحْنِ والخَبْزِ للزراعةِ ، وكالقصارةِ والخياطةِ للحياكةِ .

وذلكَ بالإضافةِ إلىٰ قِوامِ أمرِ العالَمِ الأرضيِّ مثلُ أجزاءِ الشخصِ بالإضافةِ إلىٰ جملتِهِ ؛ فإنَّها ثلاثةُ أضربٍ أيضاً :

إمَّا أصولٌ ؛ كالقلبِ والكبدِ والدماغِ ، وإمَّا **خادمةٌ لها** ؛ كالمعدةِ والعروقِ والشرايينِ والأعصابِ والأوردَةِ ، وإمَّا **مكمِّلَةٌ لها ومزيِّنَةٌ** ؛ كالأظفارِ والأصابعِ والحاجبينِ .

وأشرفُ هـٰذهِ الصناعاتِ أصولُها ، وأشرفُ أصولِها السياسةُ بالتأليفِ والاستصلاحِ ، ولذلكَ تستدعي هـٰذهِ الصناعةُ مِنَ الكمالِ ممَّنْ تكفَّلَ بها ما لا يستدعيهِ سائرُ الصناعاتِ ، ولذلكَ يستخدمُ ـ لا محالةَ ـ صاحبُ هـٰذهِ الصناعةِ سائرَ الصُّنَّاعِ .

والسياسةُ في استصلاحِ الخلْقِ وإرشادِهِمْ إلى الطريقِ المستقيمِ المنجي في الدنيا والآخرةِ . . علىٰ أربعِ مراتبَ :

الأولىٰ وهي العليا : سياسةُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، وحكمُهُمْ على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً في ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ .

والثانيةُ : الخلفاءُ والملوكُ والسلاطينُ ، وحكمُهُمْ على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً ، ولكنْ علىٰ ظاهرِهِمْ لا علىٰ باطنِهِمْ .

والثالثةُ : العلماءُ باللهِ عزَّ وجلَّ وبدينِهِ ، الذين هُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، وحكمُهُمْ علىٰ باطنِ الخاصَّةِ فقطْ ، ولا يرتفعُ فهْمُ العامَّةِ إلى الاستفادةِ منهُمْ ، ولا تنتهي قوتُهُمْ إلى التصرُّفِ في ظواهرِهِمْ بالإلزامِ والمنعِ .

والرابعةُ : الوعاظُ ، وحكمُهُمْ علىٰ بواطنِ العوامِّ فقطْ .

وأشرفُ هـٰذهِ السياساتِ الأربعِ بعدَ النبوَّةِ إفادةُ العلمِ ، وتهذيبُ نفوسِ الناسِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ المهلكةِ ، وإرشادُهُمْ إلى الأخلاقِ المحمودةِ المسعِدَةِ ، وهو المرادُ بالتعليمِ(١) .

وإنما قلنا : إنَّ هـٰذا أفضلُ من سائرِ الحِرَفِ والصناعاتِ ؛ لأنَّ شرفَ الصناعةِ يعرفُ بثلاثةِ أمورٍ :

إمَّا بالالتفاتِ إلى الغريزةِ التي بها يُتوصَّلُ إلىٰ معرفتِها ؛ كفضْلِ العلومِ

---

(١) وهو مقام شريف ، لا يعلوه إلا النبوة والرسالة والصديقية ، وأصحاب هـٰذا المقام هم الجامعون بين علمي الشريعة والحقيقة ؛ فإن إفادة العلم ترجع إلى العلوم الظاهرة ، وتهذيب النفوس والإرشاد بعلماء الحقيقة المتصرفين في بواطن مريدهم . « إتحاف » (١٢٧/١) .

العقليةِ على اللغويَّةِ ؛ إذْ تُدرَكُ الحكمةُ بالعقلِ ، واللغةُ بالسمعِ ، والعقلُ أشرفُ من السمعِ .

وإمَّا بالنظرِ إلىٰ عمومِ النفْعِ ؛ كفضْلِ الزراعةِ على الصياغةِ .

وإمَّا بملاحظةِ المحلِّ الذي فيهِ التصرُّفُ ؛ كفضْلِ الصياغةِ على الدباغةِ ؛ إذْ محلُّ أحدِهما الذهبُ ، ومحلُّ الآخرِ جلْدُ الميتةِ .

وليسَ يخفىٰ أنَّ العلومَ الدينيةَ ـ وهي فقهُ طريقِ الآخرةِ ـ إنما تدركُ بكمالِ العقلِ وصفاءِ الذكاءِ ، والعقلُ أشرفُ صفاتِ الإنسانِ كما سيأتي بيانُهُ ؛ إذْ بهِ قَبلَ أمانةَ اللهِ تعالىٰ ، وبهِ يصلُ إلىٰ جوارِ اللهِ سبحانَهُ .

وأمَّا عمومُ النفْعِ . . فلا يستريبُ فيهِ أحدٌ ؛ فإنَّ نفعَهُ وثمرتَهُ سعادةُ الآخرةِ .

وأمَّا شرفُ المحلِّ . . فكيفَ يخفىٰ والمعلِّمُ متصرِّفٌ في قلوبِ البشرِ ونفوسِهِمْ ، وأشرفُ موجودٍ على الأرضِ جنسُ الإنسِ ، وأشرفُ جزْءٍ من جواهرِ الإنسانِ قلبُهُ ، والمعلِّمُ مشتغِلٌ بتكميلِهِ وتحليتِهِ[1] وتطهيرِهِ وسياقتِهِ إلى القرْبِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟!

فتعليمُ العلْمِ مِنْ وجهٍ عبادةٌ للهِ تعالىٰ ، ومِنْ وجهٍ خلافةٌ للهِ تعالىٰ ، وهو أجلُّ خلافةٍ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ فتحَ علىٰ قلْبِ العالمِ العلمَ الذي هوَ أخصُّ

---

(١) وفي (أ) : (وتجليته) ، وهي التصفية ، وفي نسخة عند الزبيدي : (وتخليته) ، وهو مناسب للتطهير . « إتحاف » (١/١٢٨) .

صفاتِهِ ، فهوَ كالخازنِ لأنْفَسِ خزائِنِه ، ثمَّ هوَ مأذونٌ لهُ في الإنفاقِ منهُ علىٰ كلِّ محتاجٍ إليهِ .

فأيَّةُ رتبةٍ أجلُّ مِنْ كونِ العبدِ واسطةً بينَ ربِّهِ سبحانَهُ وبينَ خلقِهِ في تقريبِهِمْ إلى اللهِ زلفىٰ ، وسياقتِهِمْ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ ؟!

جعلَنا اللهُ منهُمْ بكرمِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

البَابُ الثَّاني
في العِلم المحمود، والمذموم، وأقسامها وأحكامها
وفيه بيان ما هو فرض عين، وما هو فرض كفاية
وبيان أنّ موقع الكلام والفقه من علم الدّين إلى أيّ حدٍّ هو، وتفضيل علم الآخرة

بيان العلم الّذي هو فرض عين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طَلَبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[١] .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطْلُبُوا العلمَ ولوْ بالصِّينِ »[٢] .

❁ ❁ ❁

واختلفَ الناسُ في العلمِ الذي هو فرْضٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، وتحزَّبوا فيهِ أكثرَ مِنْ عشرينَ فِرقةً ، ولا نطوِّلُ بنقْلِ التفصيلِ ، ولكنْ **حاصلُهُ** : أنَّ كلَّ فريقٍ نزَّلَ الوجوبَ على العلمِ الذي هوَ بصددِهِ :

فقالَ المتكلمونَ : هوَ علمُ الكلامِ ؛ إذْ بهِ يُدركُ التوحيدُ ، وتُعلمُ ذاتُ اللهِ سبحانَهُ وصفاتُهُ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٢) .

وقالَ **الفُقهاءُ** : هوَ علمُ الفقْهِ ؛ إذْ بهِ تُعرفُ العباداتُ ، والحلالُ والحرامُ ، وما يحرُمُ مِنَ المعاملاتِ وما يحلُّ ، وعَنَوا بهِ ما يحتاجُ إليهِ الآحادُ دونَ الوقائعِ النادرةِ .

وقالَ **المفسرونَ والمحدِّثونَ** : هوَ علْمُ الكتابِ والسنَّةِ ؛ إذْ بهما يُتوصَّلُ إلى العلومِ كلِّها[1] .

وقالَ **المتصوفةُ** : المرادُ بهِ هـٰذا العلمُ[2] ؛ فقالَ بعضُهُمْ[3] : (هوَ علمُ العبدِ بحالِهِ ومقامِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ العلمُ بالإخلاصِ وآفاتِ النفوسِ ، وتمييزِ لَمَّةِ المَلكِ من لَمَّةِ الشيطانِ)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ علمُ الباطنِ ، وذلكَ يجبُ علىٰ أقوامٍ مخصوصينَ همْ أهلُ ذلكَ)[5] ، وصرفوا اللفظَ عنْ عمومِهِ .

---

(١) هما قولان ؛ فالمفسرون قالوا : هو علم كتاب الله ، وقال المحدثون : هو علم السنة .

(٢) أي : علم التصوف ، ثم فصَّل أقوالهم .

(٣) نسبه صاحبُ « القوت » (١/ ١٢٩) إلىٰ سهل التستري رحمه الله تعالىٰ ، وذكر كلَّ الأقوال التي أوردها الإمام هنا ، ونسب بعضها لقائل معين .

(٤) وبين خاطر الروح ووسوسة النفس ، وبين علم اليقين وقوادح العقل ؛ ليميز بذلك الأحكام ، وهـٰذا عند هـٰؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد وأتباعهم من النساك ، وقد كان أستاذهم الحسن البصري يتكلم في ذلك ، وعنه حملوا علوم القلوب . « قوت القلوب » (١/ ١٢٩) .

(٥) أي : أهل ذلك العلم ، ولأنه جاء في لفظ الحديث : « تعلموا اليقين » [« حلية الأولياء » (٦/ ٩٥)] ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين . « إتحاف » (١/ ١٣٠).

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (هوَ العلمُ بما يتضمَّنُهُ الحديثُ الذي فيهِ مباني الإسلامِ) ؛ وهوَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ . . . » الحديثَ[1] ؛ لأنَّ الواجبَ هٰذهِ الخمسُ ، فيجبُ العلْمُ بكيفيَّةِ العملِ فيها ، وبكيفيَّةِ الوجوبِ .

والذي ينبغي أنْ يَقطعَ بهِ المحصِّلُ ولا يستريبَ فيهِ ما نذكرُهُ ؛ وهو أنَّ العلمَ ـ كما قدَّمناهُ في خطبةِ الكتابِ ـ ينقسمُ إلىٰ علمِ معاملةٍ وعلمِ مكاشفةٍ ، وليسَ المرادُ بهٰذا العلمِ إلا علمَ المعاملةِ[2] .

والمعاملةُ التي كُلِّفَ العبدُ العاقلُ البالغُ بها ثلاثةُ أقسامٍ : **اعتقادٌ ، وفعلٌ ، وتركٌ** .

فإذا بلغَ الرجلُ العاقلُ بالاحتلامِ أو السنِّ ضحوةَ نهارٍ مثلاً ، فأوَّلُ واجبٍ عليهِ تعلُّمُ كلمتي الشهادةِ وفهْمُ معناهما ، وهو قولُ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ) ، وليس يجبُ عليه أنْ يحصِّلَ كشْفَ ذلكَ لنفسِهِ بالنَّظَرِ والبحثِ وتحريرِ الأدلَّةِ ، بل يكفيهِ أنْ يصدِّقَ بهِ ويعتقدَهُ جزماً من غيرِ اختلاجِ ريبٍ واضطرابِ نفْسٍ ، وذلكَ قدْ يحصُلُ بمجرَّدِ التقليدِ والسماعِ مِنْ غيرِ بحثٍ ولا برهانٍ ؛ إذِ اكتفىٰ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من أجلافِ

---

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٢) أي : علم المعاملة القلبية والقالبية ، فالقلبية : إصلاح الباطن ، والقالبية : العبادات البدنية ونحوها . « إتحاف » (١/ ١٣٥) .

العربِ بالتصديقِ والإقرارِ من غيرِ تعلُّمِ دليلٍ[1] .

فإذا فعلَ ذلكَ . . فقدْ أدَّىٰ واجبَ الوقتِ ، وكانَ العلمُ الذي هوَ فرضٌ عليهِ في الوقتِ تعلُّمَ الكلمتينِ وفهمَهما ، وليسَ يلزمُهُ أمرٌ وراءَ هـٰذا في الوقتِ؛ بدليلِ أنَّه لو ماتَ عَقيبَ ذلكَ . . ماتَ مطيعاً للهِ عزَّ وجلَّ غيرَ عاصٍ .

وإنما يجبُ غيرُ ذلكَ بعوارضَ تعرِضُ ، وليسَ ذلكَ ضرورياً في حقِّ كلِّ شخصٍ ، بلْ يتصوَّرُ الانفكاكُ عنها .

وتلكَ العوارضُ إمَّا أنْ تكونَ في الفعلِ ، وإمَّا في التركِ ، وإمَّا في الاعتقادِ :

أمَّا الفعلُ : فبأنْ يعيشَ مِنْ ضحوةِ النهارِ إلىٰ وقتِ الظهرِ ، فيتجدَّدُ عليهِ بدخولِ وقتِ الظهرِ تعلُّمُ الطهارةِ والصلاةِ ، فإنْ كانَ صحيحاً ، وكان بحيثُ لو صبرَ إلىٰ زوالِ الشمسِ لمْ يتمكَّنْ منْ تمامِ التعلُّمِ والعملِ في الوقتِ ، بلْ يخرجُ الوقتُ لو اشتغلَ بالتعلُّمِ . . فلا يبعُدُ أنْ نقولَ : الظاهرُ بقاؤُهُ ، فيجبُ عليهِ تقديمُ التعلُّمِ على الوقتِ ، ويحتملُ أنْ يقالَ : وجوبُ العلمِ الذي هوَ شرطُ العملِ بعدَ وجوبِ العملِ ، فلا يجبُ قبلَ الزوالِ ، وهـٰكذا في بقيَّةِ الصلواتِ .

فإنْ عاشَ إلىٰ رمضانَ . . تجدَّدَ بسببِهِ وجوبُ تعلُّمِ الصومِ ، وهوَ أنْ يعلمَ

---

(١) كحديث إيمان ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه في « البخاري » (٦٣) ، وغيره كثير ، وانظر « الاقتصاد » (ص٢٨٣) .

أنَّ وقتهُ مِنَ الصبْحِ إلىٰ غروبِ الشمْسِ ، وأنَّ الواجبَ فيهِ النيَّةُ والإمساكُ عَنِ الأكلِ والشربِ والوقاعِ ، وأنَّ ذلكَ يتمادىٰ إلىٰ رؤيةِ الهلالِ .

فإنْ تجدَّدَ لهُ مالٌ أو كانَ لهُ مالٌ عندَ بلوغِهِ . . لزمَهُ تعلُّمُ ما يجبُ عليهِ من الزكاةِ ، ولكنْ لا يلزمُهُ في الحالِ ، إنما يلزمُهُ عندَ تمامِ الحولِ مِنْ وقْتِ الإسلامِ ، فإنْ لمْ يملكْ إلا الإبلَ . . لمْ يلزمْهُ تعلُّمُ زكاةِ الغنمِ ، وكذلكَ في سائرِ الأصنافِ .

فإذا دخلَتْ أشهرُ الحجِّ . . فلا يلزمُهُ المبادرةُ إلىٰ علْمِ الحجِّ مع أنَّ فعلَهُ على التراخي ، فلا يكونُ علمُهُ على الفورِ ، ولكنْ ينبغي لعلماءِ الإسلامِ أنْ ينبِّهوهُ علىٰ أنَّ الحجَّ فرضٌ على التراخي علىٰ كلِّ مَنْ ملكَ الزادَ والراحلةَ إذا كانَ هوَ مالكاً[1] ، حتَّىٰ ربَّما يرى الحزمَ لنفسِهِ في المبادرةِ ، فعندَ ذلكَ إذا عزمَ عليهِ . . لزمَهُ تعلُّمُ كيفيَّةِ الحجِّ ، ولمْ يلزمْهُ إلا تعلُّمُ أركانِهِ وواجباتِهِ دونَ نوافلِهِ ؛ فإنَّ فعلَ ذلكَ نفلٌ ، فعلمُهُ أيضاً نفلٌ ، فلا يكونُ فرضَ عينٍ .

وفي تحريمِ السكوتِ عَنِ التنبيهِ علىٰ وجوبِ أصْلِ الحجِّ في الحالِ نظرٌ يليقُ بالفقهِ .

وهكذا التدريجُ في علمِ سائرِ الأفعالِ التي هيَ فرضُ عينٍ .

وأمَّا التُّروكُ : فيجبُ علْمُ ذلكَ بحسَبِ ما يتجدَّدُ مِنَ الحالِ ، وذلكَ

(١) وذلك مما فَضَلَ عن مسكنه وعما لا بدَّ له منه ، وعلىٰ نفقة مدة ذهابه وإيابه ونفقة عياله . « إتحاف » (١/ ١٤٠) .

يختلفُ بحالِ الشخصِ ؛ إذْ لا يجبُ على الأبكَمِ تعلُّمُ ما يحرمُ من الكلامِ ، ولا على الأعمىٰ تعلُّمُ ما يحرمُ مِنَ النظرِ ، ولا على البدويِّ تعلُّمُ ما يحرمُ[1] الجلوسُ فيهِ مِنَ المساكنِ ، فذلكَ أيضاً واجبٌ بحسَبِ ما يقتضيهِ الحالُ ، فما يعلمُ أنَّهُ ينفكُّ عنهُ لا يجبُ تعلُّمُهُ .

وما هوَ ملابسٌ له يجبُ تنبيهُهُ عليهِ ؛ كما لوْ كانَ عندَ الإسلامِ لابساً للحريرِ ، أو جالساً في الغصْبِ ، أو ناظراً إلىٰ غيرِ مَحْرَمٍ ، فيجبُ تعريفُهُ ذلكَ ، وما ليسَ ملابساً لهُ ولكنَّهُ بصدَدِ التعرُّضِ لهُ على القرْبِ ؛ كالأكْلِ والشربِ . . فيجبُ تعليمُهُ ، حتَّىٰ إذا كانَ في بلدٍ يُتعاطَىٰ فيه شربُ الخمرِ وأكلُ لحمِ الخنزيرِ . . فيجبُ تعليمُهُ ذلكَ وتنبيهُهُ عليهِ ، وما وجبَ تعليمُهُ . . وجبَ عليهِ تعلُّمُهُ .

وأمَّا الاعتقاداتُ وأعمالُ القلوبِ : فيجبُ علمُها بحسَبِ الخواطرِ ؛ فإنْ خطرَ لهُ شكٌّ في المعاني التي تدلُّ عليها كلمتا الشهادةِ . . فيجبُ عليهِ تعلُّمُ ما يتوصَّلُ بهِ إلىٰ إزالةِ الشكِّ ، فإنْ لمْ يخطرْ لهُ ذلكَ وماتَ قبلَ أنْ يعتقدَ أنَّ كلامَ اللهِ سبحانَهُ قديمٌ ، وأنَّهُ مرئيٌّ ، وأنَّهُ تعالىٰ ليسَ محلاًّ للحوادِث ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مما يُذْكَرُ في المعتقداتِ . . فقدْ ماتَ على الإسلامِ إجماعاً .

ولكنْ هٰذهِ الخواطرُ الموجبةُ للاعتقاداتِ بعضُها يخطرُ بالطبعِ ، وبعضُها يخطرُ بالسماعِ مِنْ أهلِ البلدِ .

---

(١) في غير (ج) : (ما يحلُّ) .

فإنْ كانَ في بلدٍ شاعَ فيهِ الكلامُ وتناطقَ الناسُ بالبدعِ . . فينبغي أنْ يصانَ في أوَّلِ بلوغِهِ عنها بتلقينِ الحقِّ ؛ فإنَّهُ لو أُلقيَ إليه الباطلُ . . لوجبَ إزالتُهُ مِنْ قلبِهِ ، وربَّما عَسُرَ ذلكَ ، كما أنَّهُ لوْ كانَ هـٰذا المسلمُ تاجراً وقدْ شاعَ في البلدِ معاملةُ الربا . . وجبَ عليه تعلُّمُ الحذرِ مِنَ الربا .

فهـٰذا هوَ الحقُّ في العلمِ الذي هوَ فرضُ عينٍ ، **ومعناهُ** : العلمُ بكيفيةِ العملِ الواجبِ ، فمن عَلِمَ العملَ الواجبَ ووقتَ وجوبِهِ . . علمَ العلمَ الذي هو فرضُ عينٍ .

وما ذكرَهُ الصوفيَّةُ من فهْمِ خاطرِ العدوِّ ولَمَّةِ الملَكِ حقٌّ أيضاً ، ولكنْ في حقِّ مَنْ يتصدَّىٰ لهُ .

وإذا كانَ الغالبُ أنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ عن دواعي الشرِّ والرياءِ والحسدِ . . فيلزمُهُ أنْ يتعلَّمَ من علْمِ ربعِ المهلكاتِ ما يرىٰ نفسَهُ محتاجاً إليهِ ؛ وكيفَ لا يجبُ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مُهلِكاتٌ : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ » الحديثَ ؟![1] .

ولا ينفكُّ عنها بشَرٌ ، وبقيَّةُ ما سنذكرُهُ مِنْ مذموماتِ أحوالِ القلْبِ كالكبْرِ والعجْبِ وأخواتِهما تتبَعُ هـٰذهِ الثلاثَ المهلكاتِ ، وإزالتُها فرضُ عينٍ ، ولا يمكنُ إلا بمعرفةِ حدودِها ، ومعرفةِ أسبابِها ، ومعرفةِ علاماتِها ،

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

ومعرفةِ علاجها ؛ فإنَّ منْ لا يعرفُ الشرَّ يقعُ فيه ، والعلاجُ هو مقابلةُ السببِ بضدِّهِ ، فكيفَ يمكنُ دونَ معرفةِ السببِ والمسبَّبِ ؟!

وأكثرُ ما ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ من فروضِ الأعيانِ ، وقد تركَهُ الناسُ كافةً ؛ اشتغالاً بما لا يغني .

وممَّا ينبغي أنْ يُبادرَ في إلقائِهِ إليهِ إذا لم يكنْ قدِ انتقلَ عَنْ ملَّةٍ أخرىٰ : الإيمانُ بالجنَّةِ والنارِ ، والحشْرِ والنشْرِ ؛ حتَّىٰ يؤمنَ بهِ ويصدِّقَ ، وهوَ من تتمَّةِ كلمتي الشهادةِ ؛ فإنَّهُ بعدَ التصديقِ بكونِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً ينبغي أنْ يفهمَ الرسالةَ التي هوَ مبلِّغُها ، وهوَ أنَّ منْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ . . فلهُ الجنَّةُ ، ومَنْ عصاهُ . . فلهُ النارُ .

فإذا تنبَّهْتَ لهٰذا التدريجِ . . علمتَ أنَّ المذهبَ الحقَّ هوَ هٰذا ، وتحققتَ أنَّ كلَّ عبدٍ فهوَ في مجاري أحوالِهِ في يومِهِ وليلتِهِ لا يخلو عنْ وقائعَ في عباداتِهِ ومعاملاتِهِ تجدَّدُ عليه لوازمَ ، فيلزمُهُ السؤالُ عنْ كلِّ ما يقعُ لهُ من النوادرِ ، وتلزمُهُ المبادرةُ إلىٰ تعلُّمِ ما يتوقَّعُ وقوعَهُ على القربِ غالباً .

فإذاً ؛ تبيَّنَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إنَّما أرادَ بالعلمِ المعرَّفِ بالألفِ واللامِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ »[1] **علْمَ العملِ الذي هو مشهورُ الوجوبِ على المسلمينَ لا غيرَ** ، وقدِ اتضحَ وجهُ التدريجِ في وقتِ وجوبِهِ ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلمْ : أنَّ الفرضَ لا يتميَّزُ عنْ غيرِهِ إلا بذكْرِ أقسامِ العلومِ ، والعلومُ بالإضافةِ إلى الفرضِ الذي نحنُ بصددِهِ تنقسمُ إلىٰ **شرعيَّةٍ وغيرِ شرعيَّةٍ** .

وأعني بالشرعيَّةِ : ما يستفادُ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يرشدُ **العقلُ** إليهِ مثلُ الحسابِ ، ولا **التجربةُ** مثلُ الطبِّ ، ولا **السماعُ** مثلُ اللغةِ .

فالعلومُ التي ليستْ شرعيةً : تنقسمُ إلىٰ ما هوَ **محمودٌ** ، وإلىٰ ما هوَ **مذمومٌ** ، وإلىٰ ما هوَ **مباحٌ** .

فالمحمودُ : ما ترتبطُ بهِ مصالحُ الدنيا ؛ كالطِّبِّ والحسابِ ، وذلكَ ينقسمُ إلىٰ ما هوَ فرضُ كفايةٍ ، وإلىٰ ما هوَ فضيلةٌ وليسَ بفريضةٍ .

أمَّا فرضُ الكفايةِ : فهوَ كلُّ علْمٍ لا يُستغنىٰ عنهُ في قِوام أمورِ الدنيا ؛ كالطِّبِّ ، إذْ هوَ ضروريٌّ في حاجةِ بقاءِ الأبدانِ ، وكالحسابِ ؛ فإنَّهُ ضروريٌّ في المعاملاتِ وقسمةِ الوصايا والمواريثِ وغيرِها ، وهٰذهِ هيَ العلومُ التي لو خلا البلدُ عمَّنْ يقومُ بها . . حَرِجَ أهلُ البلدِ ، وإذا قامَ بها واحدٌ . . كفىٰ وسقطَ الفرضُ عنِ الآخرينَ .

فلا يُتعجَّبْ مِنْ قولِنا : إنَّ الطبَّ والحسابَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ فإنَّ أصولَ الصناعاتِ أيضاً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ كالفلاحةِ والحياكةِ والسياسةِ

بلِ الحجامةِ ؛ فإنَّهُ لو خلا البلدُ عنِ الحجَّامِ. . تسارعَ الهلاكُ إليهِمْ ، وحَرِجوا بتعريضِهِمْ أنفسَهُمْ للهلاكِ ؛ فإنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ وأرشدَ إلى استعمالِهِ ، وأعدَّ الأسبابَ لتعاطيهِ ، فلا يجوزُ التعرُّضُ للهلاكِ بإهمالِهِ .

وأمَّا ما يعدُّ فضيلةً لا فريضةً : فالتعمُّقُ في دقائقِ الحسابِ وحقائقِ الطبِّ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يُستغنىٰ عنهُ ، ولكنَّهُ يفيدُ زيادةَ قوَّةٍ في القَدْرِ المحتاجِ إليهِ .

وأمَّا المذمومُ منهُ : فعلْمُ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ[1] ، وعلمُ الشعبذةِ والتلبيساتِ .

وأمَّا المباحُ منهُ : فالعلمُ بالأشعارِ التي لا سخْفَ فيها ، وتواريخِ الأخبارِ وما يجري مَجراهُ .

وأمَّا العلومُ الشرعيةُ ـ وهيَ المقصودةُ بالبيانِ ـ : فهيَ محمودةٌ كلُّها ، ولكنْ قدْ يلتبسُ بها ما يُظنُّ أنَّها شرعيَّةٌ وتكونُ مذمومةً ؛ فلتقسمْ إلى المحمودةِ والمذمومةِ :

أمَّا المحمودةُ : فلها أصولٌ ، وفروعٌ ، ومقدماتٌ ، ومتمِّماتٌ ، فهيَ أربعةُ أضْربٍ :

---

(١) **الطلسمات** : مفردها الطِّلَّسْم بتخفيف اللام وتشديدها ، وهو اسم للسرِّ المكتوم ، وعلم تأليف القوى السماوية بقوىٰ بعض الأجرام الأرضية ليتألف من ذلك قوة ، ومنه ما يوافق الشرع ومنه ما يخالفه ، ويطلب ذلك في مواطنه .

الضربُ الأول : الأصولُ : وهيَ أربعةٌ : كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وسنَّةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإجماعُ الأمَّةِ ، وآثارُ الصحابةِ .

والإجماعُ أصلٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ يدلُّ على السنَّةِ ، فهوَ أصلٌ في الدرجةِ الثانيةِ ، وكذلكَ الأثرُ ؛ فإنَّهُ يدلُّ أيضاً على السنَّةِ ؛ **لأنَّ الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهِمْ قدْ شاهدوا الوحيَ والتنزيلَ ، وأدركوا بقرائنِ الأحوالِ ما غابَ عنْ غيرِهِمْ عيانُهُ ، وربَّما لا تحيطُ العباراتُ بما أُدركَ بالقرائنِ** ، فمِنْ هٰذا الوجهِ رأى العلماءُ الاقتداءَ بهِمْ والتمسُّكَ بآثارِهِمْ ، وذلكَ بشرْطٍ مخصوصٍ وعلىٰ وجْهٍ مخصوصٍ عندَ مَنْ رآهُ ، ولا يليقُ بيانهُ بهٰذا الفنِّ .

الضربُ الثاني : الفروعُ : وهوَ ما فُهِمَ مِنْ هٰذهِ الأصولِ لا بموجَبِ ألفاظِها، بلْ بمعانٍ تنبَّهتْ لها العقولُ ، فاتَّسعَ بسببِها الفهمُ ، حتىٰ فُهِمَ مِنَ اللفظِ الملفوظِ بِهِ غيرُهُ ، كما فُهِمَ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يَقضِي القاضي وهوَ غضبانُ »[1] أنَّهُ لا يقضي إذا كانَ حاقناً أو جائعاً أو متألِّماً بمرضٍ .

وهٰذا علىٰ ضربينِ :

أحدُهما : يتعلَّقُ بمصالحِ الدنيا ، ويحويهِ فنُّ الفقهِ ، والمتكفِّلُ بهِ الفقهاءُ ، وهمْ مِنْ علماءِ الدنيا[2] .

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٨) ، ومسلم (١٧١٧) .

(٢) مع بيانه رضي الله عنه كما سيأتي في (ص٧٤) أنه ـ أي : الفقه ـ لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة ألبتة ، فتنبه .

والثاني : ما يتعلَّقُ بمصالحِ الآخرةِ ، وهوَ علْمُ أحوالِ القلبِ وأخلاقِهِ المحمودةِ والمذمومةِ ، وما هوَ مرضيٌّ عندَ اللهِ تعالىٰ وما هوَ مكروهٌ ، وهوَ الذي يحويهِ الشطْرُ الأخيرُ مِنْ هٰذا الكتابِ ؛ أعني : جملةَ كتابِ « إحياء علوم الدين » ، ومنهُ العلمُ بما يترشَّحُ مِنَ القلبِ على الجوارحِ في عباداتِها وعاداتِها ، وهوَ الذي يحويهِ الشطرُ الأوَّلُ مِنْ هٰذا الكتابِ .

والضربُ الثالثُ : **المقدماتُ** : وهوَ الذي يجري منها مَجرى الآلاتِ ؛ كعلمِ اللغةِ والنحوِ ، فإنَّهما آلةٌ لعلمِ كتابِ اللهِ سبحانَهُ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وليسَ اللغةُ والنحوُ مِنَ العلومِ الشرعيَّةِ في أنفسِهِما ، ولكنْ لزومُ الخوضِ فيهما بسببِ الشرعِ ؛ إذْ جاءتْ هٰذهِ الشريعةُ بلغةِ العربِ ، وكلُّ شريعةٍ لا تظهرُ إلا بلغةٍ ، فيصيرُ تعلُّمُ تلكَ اللغةِ آلةً .

ومِنَ الآلاتِ علمُ كتابةِ الخطِّ ، إلا أنَّ ذلكَ ليسَ ضرورياً ؛ إذْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمِّيّاً ، ولو تُصوِّرَ استقلالُ الحفظِ بجميعِ ما يسمعُ . لاستغنىٰ عَنِ الكتابةِ ، ولكنَّهُ صارَ بحكمِ العجْزِ في الغالبِ ضرورياً .

الضربُ الرابعُ : **المتمِّماتُ** : وذلكَ في علمِ القرآنِ ، فإنَّه ينقسمُ إلىٰ ما يتعلَّقُ **باللفظِ** ؛ كعلمِ القراءاتِ ومخارجِ الحروفِ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ **بالمعنىٰ** ؛ كالتفسيرِ ، فإنَّ اعتمادَهُ أيضاً على النقلِ ؛ إذِ اللغةُ بمجرَّدِها لا تستقلُّ بهِ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ **بأحكامِهِ** ؛ كمعرفةِ الناسخِ والمنسوخِ ، والعامِّ

والخاصِّ ، والنصِّ والظاهرِ ، وكيفيةِ استعمالِ البعضِ منهُ معَ البعضِ ، وهو العلمُ الذي يسمَّىٰ : أصولَ الفقهِ ، ويتناولُ السنَّةَ أيضاً .

وأمَّا المتمِّماتُ في الآثارِ والأخبارِ . . فالعلمُ بالرجالِ وأساميهِمْ وبأسامي الصحابةِ وصفاتِهِمْ ، والعلمُ بالعدالةِ في الرواةِ ، والعلمُ بأحوالِهِمْ ليتميَّزَ الضعيفُ عَنِ القويِّ ، والعلمُ بأعمارِهِمْ ليتميَّزَ المرسَلُ عنِ المسنَدِ ، وكذلكَ ما يتعلَّقُ بهِ .

فهٰذهِ هيَ العلومُ الشرعيَّةُ ، وكلُّها محمودةٌ ، بلْ كلُّها مِنْ فروضُ الكفاياتِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فلمَ ألحقتَ الفقهَ بعلمِ الدنيا ، وألحقتَ الفقهاءَ بعلماءِ الدنيا ؟

فاعلمْ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخرجَ آدمَ عليهِ السلامُ مِنَ الترابِ ، وأخرجَ ذريَّتَهُ مِنْ سلالةٍ مِنْ طينٍ ومِنْ ماءٍ دافقٍ ، فأخرجَهُمْ مِنَ الأصلابِ إلى الأرحامِ ، ومنها إلى الدنيا ، ثمَّ إلى القَبْرِ ، ثمَّ إلى العَرْضِ ، ثمَّ إلى الجنَّةِ أو إلى النارِ ، فهٰذا مبدؤُهُمْ ، وهٰذهِ غايتُهُمْ ، وهٰذهِ منازلُهُمْ .

وخلقَ الدنيا زاداً للمعادِ ؛ ليتناولَ منها ما يصلُحُ للتزوُّدِ ، فلوْ تناولوها بالعدلِ . . انقطعَتِ الخصوماتُ وتعطَّلَ الفقهاءُ ، ولكنَّهُمْ تناولوها بالشهواتِ ؛ فتولَّدَتْ منها الخصوماتُ ، فمسَّتِ الحاجةُ إلىٰ سلطانٍ

يسوسُهُمْ ، واحتاجَ السلطانُ إلىٰ قانونٍ يسوسُهُمْ بهِ .

فالفقيهُ : هوَ العالمُ بقانونِ السياسةِ وطريقِ التوسُّطِ بينَ الخلقِ إذا تنازعوا بحكْمِ الشهواتِ ، فكانَ الفقيهُ معلِّمَ السلطانِ ومرشدَهُ إلىٰ طريقِ سياسةِ الخلقِ وضبطِهِمْ ؛ لينتظمَ باستقامتِهِمْ أمورُهُمْ في الدنيا .

ولعمري ؛ إنَّهُ متعلِّقٌ أيضاً بالدينِ ، ولكنْ لا بنفسِهِ ، بلْ بواسطةِ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، ولا يتمُّ الدينُ إلا بالدنيا ، والمُلكُ والدينُ توءمانِ ، والدينُ أصلٌ والسلطانُ حارسٌ ، وما لا أصلَ لهُ . . فمهدومٌ ، وما لا حارسَ لهُ . . فضائعٌ ، ولا يتمُّ المُلكُ والضبطُ إلا بالسلطانِ[1] ، وطريقُ الضبْطِ في فصْلِ الخصوماتِ بالفقهِ .

وكما أنَّ سياسةَ الخلْقِ بالسلطنةِ ليسَ مِنْ علمِ الدينِ في الدرجةِ الأولىٰ ، بلْ هوَ معينٌ علىٰ ما لا يتمُّ الدينُ إلا بهِ . . فكذلكَ معرفةُ طريقِ السياسةِ ؛ فمعلومٌ أنَّ الحجَّ لا يتمُّ إلا ببَذْرَقَةٍ[2] تحرسُ من العربِ في الطريقِ ، ولكنَّ الحجَّ شيءٌ وسلوكَ الطريقِ إلى الحجِّ شيءٌ ثانٍ ، والقيامَ بالحراسةِ التي لا يتمُّ الحجُّ إلا بها شيءٌ ثالثٌ ، ومعرفةَ طُرُقِ الحراسةِ وحيلِها وقوانينِها شيءٌ رابعٌ .

---

(١) ويرحم الله الإمام عبد الله بن المبارك إذ يقول في « ديوانه » (ص ٦٦) :

الله يرفع بالسلطان معضلة		عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سبلٌ		وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

(٢) البذرقة : الخفارة والحرس ، وهي كلمة فارسية معربة .

وحاصلُ فنِّ الفقهِ : معرفةُ طرقِ السياسةِ والحراسةِ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ ما رُويَ مسنداً : « لا يُفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ أو مأمورٌ أو مُتكَلِّفٌ »[1] .

فالأميرُ هوَ الإمامُ وقدْ كانوا همُ المفتينَ ، والمأمورُ نائبُهُ ، والمتكلِّفُ غيرُهُما ، وهوَ الذي يتقلَّدُ تلكَ العهدةَ مِنْ غيرِ حاجةٍ .

وقدْ كانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ يحترزونَ عَنِ الفتوىٰ ، حتَّىٰ كانَ يحيلُ كلُّ واحدٍ منهُمْ علىٰ صاحبِهِ ، وكانوا لا يحترزونَ إذا سُئِلوا عنْ علْمِ القرآنِ وطريقِ الآخرةِ .

وفي بعضِ الرواياتِ بدلَ (المتكلِّفِ) : المرائي[2] ؛ فإنَّ مَنْ تقلَّدَ خطرَ الفتوىٰ وهوَ غيرُ متعيِّنٍ للحاجةِ.. فلا يقصدُ بهِ إلا طلبَ الجاهِ والمالِ .

***

فإنْ قلتَ : هـٰذا إنِ استقامَ لكَ في أحكامِ الحدودِ والجراحاتِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/١٣١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٦/٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/٧٦) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . . » ، وله روايات أخرىٰ .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٥٣) بهـٰذا اللفظ ، ولكن أوله كما تقدَّم عند أحمد والطبراني ، ونحوه عند أبي داوود (٣٦٦٥) .

والغراماتِ وفصلِ الخصوماتِ . . فلا يستقيمُ فيما يشتملُ عليهِ ربعُ العباداتِ من الصيامِ والصلاةِ ، ولا فيما يشتملُ عليهِ ربعُ العاداتِ مِنَ المعاملاتِ مِنْ بيانِ الحلالِ والحرامِ .

فاعلمْ : أنَّ أقربَ ما يتكلَّمُ الفقيهُ فيهِ من الأعمالِ التي هي أعمالُ الآخرةِ ثلاثةٌ : **الإسلامُ ، والصلاةُ ، والحلالُ والحرامُ** .

فإذا تأمَّلْتَ منتهىٰ نظرِ الفقيهِ . . علمتَ أنَّهُ لا يجاوزُ حدودَ الدنيا إلى الآخرةِ ، وإذا عرفتَ هٰذا في هٰذهِ الثلاثةِ . . فهوَ في غيرِها أظهرُ :

أمَّا الإسلامُ : فيتكلَّمُ الفقيهُ فيما يصحُّ منهُ وما يفسدُ ، وفي شروطِهِ ، وليسَ يلتفتُ فيهِ إلا إلى اللسانِ ، وأمَّا القلبُ . . فخارجٌ عَنْ ولايةِ الفقيهِ بعزلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أربابَ السيوفِ والسلطنةِ عنهُ ؛ حيثُ قالَ : « هلاَّ شَقَقْتَ عنْ قلبِهِ »[1] في الذي قَتَلَ مَنْ تكلَّمَ بكلمةِ الإسلامِ معتذراً بأنَّهُ قالَ ذلكَ مِنْ خوفِ السيفِ ، بلْ يحكُمُ الفقيهُ بصحَّةِ الإسلامِ تحتَ ظلالِ السيوفِ ، مع أنَّهُ يعلمُ أنَّ السيفَ لمْ يكشِفْ لهُ عنْ شبهةٍ ، ولم يرفعْ عن قلبِهِ غشاوةَ الجهلِ والحيرةِ ، ولكنَّهُ مشيرٌ علىٰ صاحبِ السيفِ ؛ فإنَّ السيفَ ممتدٌّ إلىٰ رقبتِهِ ، واليدَ ممتدَّةٌ إلىٰ مالِهِ ، وهٰذهِ الكلمةُ باللسانِ تعصمُ رقبتَهُ ومالَهُ ما دامتْ لهُ رقبةٌ ومالٌ ، وذلكَ في الدنيا ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتَّىٰ يقولوا : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، فإذا

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩) ، ومسلم (٩٦) ، قاله لأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

قالوها . . فقد عصمُوا منِّي دماءَهُمْ وأموالَهُمْ »[١] ، جعلَ أثرَ ذلكَ في الدمِ والمالِ .

وأمَّا الآخرةُ . . فلا تنفعُ فيها الأقوالُ ، بلْ أنوارُ القلوبِ وأسرارُها وإخلاصُها ، وليسَ ذلكَ مِنْ فنِّ الفقهِ ، وإنْ خاضَ الفقيهُ فيهِ . . كانَ كما لو خاضَ في الكلامِ أو الطبِّ ، وكانَ خارجاً عَنْ فنِّهِ .

وأمَّا الصلاةُ : فالفقيهُ يفتي بالصحَّةِ إذا أتىٰ بصورةِ الأعمالِ مع ظاهرِ الشروطِ ، وإنْ كانَ غافلاً في جميعِ صلاتِهِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، مشغولاً بالتفكُّرِ في حسابِ معاملاتِهِ في السوقِ إلا عندَ التكبيرِ ، وهـٰذهِ الصلاةُ لا تنفعُ في الآخرةِ ؛ كما أنَّ القولَ باللسانِ في الإسلامِ لا ينفعُ ، ولكنَّ الفقيهَ يفتي بالصحَّةِ ؛ أي : إنَّ ما فعلَهُ حصلَ بهِ امتثالُ صيغةِ الأمرِ ، وانقطعَ بهِ عنهُ القتلُ أوِ التعزيرُ ، فأمَّا الخشوعُ وإحضارُ القلبِ الذي هوَ عملُ الآخرةِ ، وبهِ ينفعُ العملُ الظاهرُ . . لا يتعرَّضُ لهُ الفقيهُ ، ولو تعرَّضَ لهُ . . لكانَ خارجاً عنْ فنِّهِ .

وأمَّا الزكاةُ[٢] : فالفقيهُ ينظرُ إلىٰ ما يقطعُ مطالبةَ السلطانِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا امتنعَ عن أدائِها ، فأخذَها السلطانُ قهراً . . حكَمَ بأنَّهُ برئتْ ذمَّتُهُ[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢١) واللفظ له .
(٢) وهي قرينة الصلاة ، فهي من القسم الثاني الذي أشار إليه المصنف رحمه الله تعالىٰ .
(٣) بأخذه لها منه ، وهـٰذا إذا أخذ السلطان منه مما يجب عليه من الزكاة . « إتحاف » (١/١٥٧) .

وحُكِيَ أنَّ أبا يوسفَ القاضيَ كان يهبُ مالَهُ لزوجتِهِ في آخرِ الحوْلِ ، ويستوهبُ مالَها لإسقاطِ الزكاةِ ، فحُكِيَ ذلكَ لأبي حنيفةَ رحمهُ اللهُ فقالَ : (ذلكَ مِنْ فقهِهِ) ، وصدقَ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ فِقْهِ الدنيا ، ولكنَّ مضرَّتَهُ في الآخرةِ أعظمُ مِنْ كلِّ جنايةٍ ، ومثلُ هـٰذا العلمِ هوَ الضارُّ .

وأمَّا الحلالُ والحرامُ : فالورعُ عنِ الحرامِ مِنَ الدينِ ، ولكنَّ الورعَ لهُ أربعُ مراتبَ :

الأولىٰ : الورعُ الذي يُشترَطُ في عدالةِ الشهادةِ ؛ وهوَ الذي يخرجُ بعدمِهِ الإنسانُ عنْ أهليَّةِ الشهادةِ والقضاءِ والولايةِ ، وهوَ الاحترازُ عن الحرامِ الظاهرِ .

الثانيةُ : ورعُ الصالحينَ ؛ وهوَ التوقِّي مِنَ الشبهاتِ التي تتقابلُ فيها الاحتمالاتُ(١) ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ »(٢) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإثمُ حَوازُّ القلوبِ »(٣) .

---

(١) أي : هل هو حرام أم حلال . « إتحاف » (١/ ١٥٧) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٢٠١) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، و**حوازُّ القلوب** ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي ؛ لفقد الطمأنينة إليها . ورواه شمر : « الإثم حوَّاز القلوب » بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروى : « الإثم حزَّاز القلوب » بزايين ، الأولىٰ مشددة وهي فعّال من الحزّ ، وفي (أ) : (حزَّاز) .

الثالثةُ : ورعُ المتقينَ ؛ وهو تركُ الحلالِ المحضِ الذي يخافُ منهُ أنْ يؤديَ إلى الحرامِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يكونُ الرجلُ مِنَ المتقينَ حتَّىٰ يَدَعَ ما لا بأْسَ بهِ مخافةً ممَّا بِهِ بأْسٌ »[1] ، وذلكَ مثلُ التورُّعِ عَنِ التحدُّثِ بأحوالِ الناسِ ؛ خيفةً مِنَ الانجرارِ إلى الغيبةِ ، والتورُّعِ عنْ أكلِ الشهواتِ ؛ خيفةً من هيجانِ النشاطِ والبطرِ المؤدِّي إلىٰ مقارفةِ المحظوراتِ[2] .

الرابعةُ : ورعُ الصدِّيقينَ ؛ وهوَ الإعراضُ عمَّا سوى اللهِ سبحانَهُ ؛ خوفاً مِنْ صرْفِ ساعةٍ من العمرِ إلىٰ ما لا يفيدُ زيادةَ قربٍ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ وإنْ كانَ يعلمُ ويتحقَّقُ أنَّه لا يفضي إلىٰ حرامٍ .

* * *

فهٰذهِ الدرجاتُ كلُّها خارجةٌ عَنْ نظرِ الفقيهِ ، إلا الدرجةَ الأولىٰ ، وهوَ ورعُ الشهودِ والقضاةِ وما يقدحُ في العدالةِ ، والقيامُ بذلكَ لا ينفي الإثمَ في الآخرةِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوابِصَةَ : « استفْتِ قلبَكَ وإنْ أَفْتَوكَ وَأَفْتَوكَ وَأفتَوكَ »[3] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) .
(٢) والبطر أخف من النشاط ؛ لأنه دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وعدم القيام بحقِّها وصرفها عن وجهها . « إتحاف » (١/١٥٩) .
(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) .

والفقيهُ لا يتكلَّمُ في حزازاتِ القلوبِ وكيفيةِ العملِ بها ، بلْ فيما يقدحُ في العدالةِ فقطْ .

فإذاً ؛ جميعُ نظرِ الفقيهِ مرتبطٌ بالدنيا التي بها صلاحُ طريقِ الآخرةِ ، فإنْ تكلَّمَ في الإثمِ وصفاتِ القلبِ وأحكامِ الآخرةِ . . فذلكَ يدخلُ في كلامِهِ علىٰ سبيلِ التطفُّلِ ، كما قدْ يدخلُ في كلامِهِ شيءٌ من الطبِّ والحسابِ والنجومِ وعلمِ الكلامِ ، وكما تدخلُ الحكمةُ في النحوِ والشعرِ .

وقدْ كانَ سفيانُ الثوريُّ وهوَ إمامٌ في علْمِ الظاهرِ يقولُ : (إنَّ طلبَ هـٰذا ليسَ مِنْ زادِ الآخرةِ)(١) ، كيفَ وقدِ اتفقوا علىٰ أنَّ الشرفَ في العلمِ ليُعملَ بهِ ، فكيفَ يُظنُّ أنَّهُ علْمُ اللعانِ والظهارِ ، والسلَمِ والإجارةِ والصرْفِ ؟!

ومنْ تعلَّمَ هـٰذهِ الأمورَ ليتقرَّبَ بتعاطيها إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مجنونٌ ، وإنما العملُ بالقلبِ والجوارحِ في الطاعاتِ ، والشرفُ هو علْمُ تلكَ الأعمالِ(٢) .

---

(١) ذكره في « قوت القلوب » (١/ ١٣٥) ، وروى ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٩٥٦) عن سفيان الثوري نحوه .

(٢) هـٰذا موطن من المواطن التي أنكر المغاربةُ فيها على المصنف رحمه الله كتابَهُ « الإحياء » حين وصل إليهم ، فقاموا بإحراقه ، وكان ذلك في حياته وبعد مماته ؛ إذ قالوا : كيف يسمي العالمَ بالأحكام الشرعية مجنوناً ؟! « إتحاف » (١/ ١٦١) .
ويجب ألا ننسىٰ أن الذي يقرر ذلك هو واحد من العلماء الفقهاء ، صاحب « البسيط » و« الوسيط » و« الوجيز » و« الخلاصة » وغيرها ، فلا بدَّ من فهم مرادات المؤلف في مثل هـٰذه المواطن ، وذلك لا يخفىٰ عند أدنىٰ تأمّل .

فإنْ قلتَ : لِمَ سوَّيتَ بينَ الفقهِ والطبِّ ؛ إذِ الطبُّ أيضاً يتعلَّقُ بالدنيا وهوَ صحَّةُ الجسدِ ، وذلكَ يتعلَّقُ بهِ أيضاً صلاحُ الدينِ ، وهاذِهِ التسويةُ تخالفُ إجماعَ المسلمينَ ؟

فاعلمْ : أنَّ التسويةَ غيرُ لازمةٍ ، بلْ بينَهما فرقٌ ؛ فإنَّ الفقهَ أشرفُ منهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ علْمٌ شرعيٌّ ؛ إذْ هوَ مستفادٌ مِنَ النبوَّةِ ، بخلافِ الطبِّ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ علمِ الشرعِ .

والثاني : أنَّهُ لا يستغني عنهُ أحدٌ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ ألبتةَ ، لا الصحيحُ ولا المريضُ[1] ؛ وأمَّا الطبُّ . . فلا يحتاجُ إليهِ إلا المرضىٰ وهمُ الأقلُّونَ .

والثالثُ : أنَّ علْمَ الفقهِ مجاورٌ لعلمِ طريقِ الآخرةِ ؛ لأنَّهُ نظرٌ في أعمالِ

= وكذلك يجب عند التأمُّل والتبصُّر في كلام الإمام الغزالي . . استكمال الفكرة أو الموضوع الذي يتكلم فيه ، فالاجتزاء والانتقاء وعدم الاستيعاب . . سبب لعدم الفهم المؤدي للإنكار ؛ كما قال المتنبي في « ديوانه » (٤/ ١٢٠) :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً		وآفته من الفهم السقيم

فالإمام الغزالي ترابطت أفكاره ومعانيه ومفاهيمه في ثنايا هاذا الكتاب ، من أوله إلىٰ آخره ، **والحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره** .

فالاطلاع الكامل للكتاب بميزان العلم والمنطق الصحيح . . **يدرِكُ معهُ الموفَّقُ أنَّ الاسمَ وافقَ المسمىٰ** ، وأنه : **(إحياء علوم الدين)** .

(١) انظر « الاقتصاد » (ص ٧٩) .

الجوارحِ ، ومصدرُ الأعمالِ ومنشؤُها صفاتُ القلوبِ ، فالمحمودُ مِنَ الأعمالِ يصدرُ عَنِ الأخلاقِ المحمودةِ المنجيةِ في الآخرةِ ، والمذمومُ يصدُرُ منَ المذمومِ ، وليسَ يخفى اتصالُ الجوارحِ بالقلبِ[1] .

وأمَّا الصحَّةُ والمرضُ.. فمنشؤُهما صفاتٌ في المزاجِ والأخلاطِ ، وذلكَ مِنْ أوصافِ البدنِ ، لا منْ أوصافِ القلبِ ، فمهما أضيفَ الفقهُ إلى الطبِّ.. ظهرَ شرفُهُ ، وإذا أضيفَ علمُ طريقِ الآخرةِ إلى الفقهِ.. ظهرَ أيضاً شرفُ علمِ طريقِ الآخرةِ .

***

فإنْ قلتَ : فَصِّلْ لي علمَ طريقِ الآخرةِ تفصيلاً يشيرُ إلىٰ تراجمِهِ وإنْ لمْ يمكنِ استقصاءُ تفاصيلِهِ.. **فاعلمْ** أنَّهُ قسمانِ : علمُ مكاشفةٍ وعلمُ معاملةٍ .

فالقسمُ الأوَّلُ : **علمُ المكاشفةِ** وهوَ علمُ الباطنِ ، وذلكَ غايةُ العلومِ[2] ؛ فقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ لم يكنْ لهُ نصيبٌ مِنْ هٰذا العلمِ.. أخافُ عليهِ سوءَ الخاتمةِ ، وأدنىٰ نصيبٍ منهُ التصديقُ بهِ وتسليمُهُ لأهلِهِ)[3] .

---

(١) وعليه المعول في كل صلاح أو فساد ؛ قال صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (٥٢) : « ألا وإن في الجسد مضغةً : إذا صَلَحَتْ.. صَلَحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت.. فَسَدَ الجسد كلُّهُ ، ألا وهي القلب » .

(٢) وإليه تنتهي همم العارفين ، لا يوجد وراءه مرمىً للأنظار . « إتحاف » (١/ ١٦٢) ، وإليه وإلىٰ ترجيحه علىٰ كل الطرق والعلوم انتهى المصنف رحمه الله تعالىٰ في كتابه « المنقذ » .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٧٣) .

وقالَ آخرُ : (منَ كانَ فيهِ خصلتانِ . . لمْ يُفتحْ لهُ بشيءٍ مِنْ هـٰذا العلمِ : بدعةٌ أو كبْرٌ)[1] .

وقيلَ : (مَنْ كانَ محباً للدنيا أو مصرّاً علىٰ هوىً . . لم يتحقَّقْ بهِ ، وقدْ يتحقَّقُ بسائرِ العلومِ ، وأقلُّ عقوبةِ مَنْ ينكرُهُ ألاَّ يُرزَقَ منهُ شيئاً)[2] .

ويُنشدُ علىٰ قولِهِ[3] : [من المنسرح]

وَٱرْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ فَذَاكَ ذَنْبٌ عِقَابُهُ فِيهِ

وهوَ علْمُ الصدِّيقينَ والمقرَّبينَ ؛ أعني : علمَ المكاشفةِ ، فهوَ عبارةٌ عنْ نورٍ يظهرُ في القلبِ عندَ تطهيرِهِ وتزكيتِهِ مِنْ صفاتِهِ المذمومةِ ، وينكشفُ في ذلكَ النورِ أمورٌ كانَ يسمعُ مِنْ قبلُ أسماءَها ، فيتوهَّمُ لها معانيَ مجملةً غيرَ متضحةٍ ؛ فتتضحُ إذْ ذاكَ حتَّىٰ تحصُلَ المعرفةُ الحقيقيةُ بذاتِ اللهِ سبحانَهُ ، وبصفاتِهِ الباقياتِ التامَّاتِ ، وبأفعالِهِ وبحكمتِهِ في خلْقِ الدنيا والآخرةِ ، ووجهِ ترتيبِهِ للآخرةِ على الدنيا ، والمعرفةُ بمعنى النبوَّةِ والنبيِّ ، ومعنى الوحيِ ومعنىٰ لفظِ الملائكةِ والشياطينِ ، وكيفيةُ معاداةِ الشيطانِ للإنسانِ ، وكيفيةُ ظهورِ المَلَكِ للأنبياءِ ، وكيفيةُ وصولِ الوحيِ إليهم ، والمعرفةُ بملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ومعرفةُ القلبِ ، وكيفيةُ تصادمِ جنودِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٣) ، ولذلك قال شيخ الطائفة الإمام الجنيد رحمه الله تعالىٰ : (الإيمان بعلمنا هـٰذا ولاية صغرىٰ) .

(٣) البيت لابن نباتة المصري في «ديوانه» (ص ٥٧٤) .

الملائكةِ والشياطينِ فيهِ ، ومعرفةُ الفرقِ بين لَمَّةِ الملَكِ ولمَّةِ الشيطانِ ، ومعرفةُ الآخرةِ ، والجنَّةِ والنارِ ، وعذابِ القبرِ ، والصراطِ ، والميزانِ ، والحسابِ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ومعنىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ومعنى القربِ منهُ ، والنزولِ في جوارِهِ ، ومعنىٰ حصولِ السعادةِ بمرافقةِ الملأِ الأعلىٰ ، ومقارنةِ الملائكةِ والنبيِّينَ ، ومعنىٰ تفاوتِ درجاتِ أهلِ الجنانِ حتَّىٰ يرىٰ بعضُهُمْ بعضاً كما يُرَى الكوكبُ الدريُّ في جوِّ السماءِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا يطولُ تفصيلُهُ .

إذْ للناسِ في معاني هـٰذهِ الأمورِ بعدَ التصديقِ بأصولِها مقاماتٌ :

فبعضُهُمْ يَرىٰ أنَّ جميعَ ذلكَ أمثلةٌ ، وأنَّ الذي أعدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، وأنَّهُ ليسَ معَ الخلْقِ مِنَ الجنَّةِ إلا الصفاتُ والأسماءُ .

وبعضُهُمْ يرىٰ أنَّ بعضَها أمثلةٌ وبعضَها يوافقُ حقائقَها المفهومةَ مِنْ ألفاظِها .

وكذا يَرىٰ بعضُهُمْ أنَّ منتهىٰ معرفةِ اللهِ تعالى الاعترافُ بالعجزِ عن معرفتِهِ .

وبعضُهُمْ يدَّعي أموراً عظيمةً في المعرفةِ باللهِ عزَّ وجلَّ .

وبعضُهُمْ يقولُ : حدُّ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما انتهىٰ إليهِ اعتقادُ جميعِ العوامِّ ؛ وهوَ أنَّهُ موجودٌ عالمٌ قادرٌ سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ .

فنعني بعلمِ المكاشفةِ : أنْ يرتفعَ الغطاءُ حتَّىٰ يتضحَ لهُ جليَّةُ الحقِّ في هٰذهِ الأمورِ اتضاحاً يجري مَجرى العيانِ الذي لا يُشكُّ فيهِ . وهٰذا ممكنٌ في جوهرِ الإنسانِ لولا أنَّ مرآةَ القلبِ قدْ تراكمَ صدؤُها وخبثُها بقاذوراتِ الدنيا .

وإنَّما نعني بعلمِ طريقِ الآخرةِ العلمَ بكيفيةِ تصقيلِ هٰذهِ المرآةِ عنْ هٰذهِ الخبائثِ التي هيَ الحجابُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ معرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وإنَّما تصفيتُها وتطهيرُها بالكفِّ عنِ الشهواتِ ، والاقتداءِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ، فبقدْرِ ما ينجلي مِنَ القلبِ ويحاذي بهِ شطرَ الحقِّ . . تتلألأُ فيهِ حقائقُهُ ، ولا سبيلَ إليهِ إلا بالرياضةِ التي يأتي تفصيلُها في موضعِهِ ، وبالعلمِ وبالتعلُّمِ[١] .

وهٰذهِ هيَ العلومُ التي لا تُسطَرُ في الكتبِ[٢] ، ولا يتحدَّثُ بها مَنْ أنعمَ اللهُ عليهِ بشيءٍ منها إلا معَ أهلِهِ ، وهوَ المشارِكُ فيهِ ، علىٰ سبيلِ المذاكرةِ وبطريقِ الإسرارِ .

وهٰذا العلمُ الخفيُّ هوَ الذي أرادَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « إنَّ مِنَ العلمِ كَهَيْئَةِ المكنُونِ لا يَعلمُهُ إلاَّ أهلُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، فإذا نطقُوا بهِ . .

---

(١) من مرشدٍ حقٍّ علىٰ حد قوله : ولا بدَّ من شيخ يريك شخوصها . « إتحاف » (١/ ١٦٥) .

(٢) لأنها علوم ذوقية كشفية تدرك عن مشاهدة ، لا عن دليل وبرهان ، ولأن المسطور في كتاب يقع في يد المتأهل وغير المتأهل ، فإن لم يكن أهلاً لمعرفته . . يقع في حيرة عظيمة تترتب عليها مفاسد . « إتحاف » (١/ ١٦٦) .

لم يَجهلْهُ إلاَّ أهلُ الاغترارِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا تَحْقِرُوا عالِماً آتاهُ اللهُ تعالىٰ علماً ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ لَمْ يَحْقِرْهُ إذْ آتاهُ إيَّاهُ »[1] .

وأمَّا القسمُ الثاني : وهوَ علمُ المعاملةِ : فهو علمُ أحوالِ القلبِ :

أمَّا ما يُحمدُ منها . . فكالصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ والرجاءِ ، والرضا ، والزهدِ ، والتقوىٰ ، والقناعةِ ، والسخاوةِ ، ومعرفةِ المنَّةِ للهِ تعالىٰ في جميعِ الأحوالِ ، والإحسانِ ، وحسْنِ الظنِّ ، وحسنِ الخلقِ ، وحسنِ المعاشرةِ ، والصدقِ ، والإخلاصِ .

فمعرفةُ حقائقِ هـٰذهِ الأحوالِ وحدودِها وأسبابِها التي بها تُكتسبُ ، وثمراتِها وعلاماتِها ، ومعالجةِ ما ضعفَ منها حتَّىٰ يقوىٰ ، وما زالَ حتَّىٰ يعودَ . . مِنْ علْمِ الآخرةِ .

وأمَّا ما يُذمُّ منها . . فخوفُ الفقرِ ، وسخطُ المقدورِ ، والغلُّ والحقدُ ، والحسدُ ، والغشُّ ، وطلبُ العلوِّ ، وحبُّ الثناءِ ، وحبُّ طولِ البقاءِ في الدنيا للتمتُّعِ ، والكبرُ ، والرياءُ ، والغضبُ ، والأنفةُ ، والعداوةُ والبغضاءُ ، والطمعُ والبخلُ ، والرغبةُ والبذَخُ[2] ، والأَشَرُ والبطَرُ ،

(١) بلفظه في « قوت القلوب » (١/ ١٧٥) معلقاً ، وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/ ١٣٥) : (رواه أبو منصور الديلمي في « المسند » « ٨٠٢ » ، وأبو عبد الرحمـٰن السلمي في « الأربعين » التي له في التصوف) .

(٢) البَذَخ : تطاول وتكبُّر الرجل بكلامه وافتخاره وتعاليه .

وتعظيمُ الأغنياءِ والاستهانةُ بالفقراءِ ، والفخرُ والخيلاءُ ، والتنافسُ والمباهاةُ ، والاستكبارُ عنِ الحقِّ ، والخوضُ فيما لا يعني ، وحبُّ كثرةِ الكلامِ ، والصَّلَفُ[1] ، والتزيُّنُ للخلْقِ ، والمداهنةُ ، والعجْبُ ، والاشتغالُ عنْ عيوبِ النفْسِ بعيوبِ الناسِ ، وزوالُ الحزنِ مِنَ القلبِ ، وخروجُ الخشيةِ منهُ ، وشدَّةُ الانتصارِ للنفسِ إذا نالَها الذلُّ ، وضعفُ الانتصارِ للحقِّ ، واتخاذُ إخوانِ العلانيةِ علىٰ عداوةِ السرِّ ، والأمنُ مِنْ مكْرِ اللهِ سبحانَهُ في سلْبِ ما أعطىٰ ، والاتكالُ على الطاعةِ ، والمكْرُ والخيانةُ والمخادعةُ ، وطولُ الأملِ ، والقسوةُ والفظاظةُ ، والفرحُ بالدنيا والأسفُ علىٰ فواتِها ، والأنْسُ بالمخلوقينَ والوحشةُ لفراقِهِمْ ، والجفاءُ ، والطيشُ والعجلةُ ، وقلَّةُ الحياءِ ، وقلَّةُ الرحمةِ .

فهٰذهِ وأمثالُها منْ صفاتِ القلبِ مغارسُ الفواحِشِ ، ومنابتُ الأعمالِ المحظورةِ ، وأضدادُها ـ وهيَ الأخلاقُ المحمودةُ ـ منبعُ الطاعاتِ والقرباتِ .

فالعلمُ بحدودِ هٰذهِ الأمورِ وحقائِقِها وأسبابِها وثمراتِها وعلاجِها هوَ علمُ الآخرةِ ، وهوَ فرضُ عينٍ في فتوىٰ علماءِ الآخرةِ ، والمعرِضُ عنها هالكٌ بسطوةِ مَلِكِ الملوكِ في الآخرةِ ؛ كما أنَّ المعرضَ عَنِ الأعمالِ الظاهرةِ هالكٌ بسيفِ سلاطينِ الدنيا بحكْمِ فتوىٰ فقهاءِ الدنيا .

---

(١) **الصَّلَف** : التمدح بما ليس عند الرجل ، وادعاء ما هو دونه تكبراً .

فنظرُ الفقهاءِ في فروضِ العينِ بالإضافةِ إلىٰ صلاحِ الدنيا ؛ وهٰذا بالإضافةِ إلىٰ صلاحِ الآخرةِ .

ولو سئِلَ فقيهٌ عنْ معنىً مِنْ هٰذهِ المعاني حتَّىٰ عنِ الإخلاصِ مثلاً ، أوْ عنِ التوكلِ ، أوْ عنْ وجهِ الاحترازِ عنِ الرياءِ . . لتوقَّفَ فيهِ مع أنَّهُ فرضُ عينِهِ الذي في إهمالِهِ هلاكُهُ في الآخرةِ ، ولوْ سألتَهُ عنِ اللعانِ والظهارِ ، والسبقِ والرميِ . . لسردَ عليكَ مجلداتٍ مِنَ التفريعاتِ الدقيقةِ التي تنقضي الدهورُ ولا يُحتاجُ إلىٰ شيءٍ منها ، وإنِ احتيجَ . . لمْ يخلُ البلدُ عمَّنْ يقومُ بها ، ويكفيهِ مؤنةَ التعبِ فيها ، فلا يزالَ يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً ، في حفظِهِ ودرسِهِ ويغفُلُ عمَّا هوَ مهمٌّ نفسِهِ في الدينِ ، وإذا روجعَ فيهِ . . قالَ : اشتغلتُ بهِ لأنَّهُ علمُ الدينِ وفرضُ الكفايةِ ، ويلبِّسُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ غيرِهِ في تعلُّلِهِ .

والفَطِنُ يعلمُ أنَّهُ لوْ كانَ غرضُهُ أداءَ حقِّ الأمرِ في فرْضِ الكفايةِ . . لقدَّمَ عليهِ فرضَ العينِ ، بلْ قدَّمَ عليهِ كثيراً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ فكمْ مِنْ بلدةٍ ليسَ فيها طبيبٌ إلا مِنْ أهلِ الذمَّةِ ، ولا يجوزُ قبولُ شهادتِهِمْ فيما يتعلَّقُ بالأطباءِ مِنْ أحكامِ الفقهِ ، ثمَّ لا نرىٰ أحداً يشتغلُ بهِ ، ويتهاترونَ علىٰ علمِ الفقهِ لا سيَّما الخلافياتِ والجدلياتِ والبلدُ مشحونٌ مِنَ الفقهاءِ ممَّنْ يشتغلُ بالفتوىٰ والجوابِ عَنِ الوقائعِ !

فليتَ شعري ؛ كيفَ يرخِّصُ فقهاءُ الدينِ في الاشتغالِ بفرضِ كفايةٍ قدْ قامَ بهِ جماعةٌ ، وإهمالِ ما لا قائمَ بهِ ؟!

هل لهـٰذا سببٌ إلا أنَّ الطبَّ ليسَ يتيسَّرُ التوصُّلُ بهِ إلىٰ تولِّي الأوقافِ والوصايا ، وحيازةِ مالِ الأيتامِ ، وتقلُّدِ القضاءِ والحكومةِ ، والتقدُّمِ بهِ على الأقرانِ ، والتسلُّطِ بهِ على الأعداءِ ؟

هيهاتَ هيهاتَ ! قدِ اندرسَ علْمُ الدينِ بتلبيسِ علماءِ السوءِ ، فاللهُ المستعانُ ، وإليهِ اللِّياذُ في أنْ يعيذَنا مِنْ هـٰذا الغرورِ الذي يُسخِطُ الرحمـٰنَ ، ويُضحِكُ الشيطانَ .

وقدْ كانَ أهلُ الورعِ مِنْ علماءِ الظاهرِ مقرِّينَ بفضْلِ علماءِ الباطنِ وأربابِ القلوبِ :

كانَ الإمامُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ يجلسُ بينَ يدي شيبانَ الراعي كما يقعُدُ الصبيُّ في المكتبِ ، ويسألُهُ كيفَ يفعلُ في كذا وكذا ؛ فيقالُ لهُ : مثلُكَ يسألُ هـٰذا البدويَّ ؟! فيقولُ : (إنَّ هـٰذا وُفِّقَ لما علمناهُ)(١) .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ويحيىٰ بنُ معينٍ يختلفانِ إلىٰ معروفٍ الكرخيِّ ولمْ يكنْ في علمِ الظاهرِ بمنزلتِهما ، وكانا يسألانِهِ(٢) .

وكيفَ وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما قيلَ لهُ : كيفَ نفعلُ إذا جاءَنا أمرٌ لمْ نجدْهُ في كتابٍ ولا سنَّةٍ ؟ فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٨) ، وفي (ب) : (أغفلناهُ) بدل : (علمناهُ) .
(٢) قوت القلوب (١/١٥٨) .

« سَلُوا الصَّالحينَ واجعلُوهُ شُورَىٰ بينَهُمْ ؟! »[1] .

ولذلكَ قيلَ : (علماءُ الظاهرِ زينةُ الأرضِ والمُلْكِ ؛ وعلماءُ الباطن زينةُ السماءِ والملكوتِ)[2] .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (قالَ ليَ السريُّ شيخي : إذا قمتَ مِنْ عندي فمَنْ تجالسُ ؟ قلت : المحاسبيَّ ، فقالَ : نعم ، خُذْ من علمِهِ وأدبِهِ ، ودعْ عنكَ تشقيقَهُ للكلامِ وردَّهُ على المتكلمينَ ، ثمَّ لمَّا ولَّيتُ . . سمعتُهُ يقولُ : جعلَكَ اللهُ صاحبَ حديثٍ صوفياً ، ولا جعلَكَ صوفياً صاحبَ حديثٍ)[3] .

أشارَ إلىٰ أنَّ مَنْ حصَّلَ الحديثَ والعلمَ ثم تصوَّفَ . . أفلحَ ، ومَنْ تصوَّفَ قبلَ العلمِ . . خاطرَ بنفسِهِ .

***

فإنْ قلتَ : فلمَ لمْ تُورِدْ في أقسامِ العلومِ الكلامَ والفلسفةَ وتبيِّنْ أنَّهما مذمومانِ أو محمودانِ ؟

فاعلمْ : أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليهِ علمُ الكلامِ مِنَ الأدلَّةِ التي يُنتفعُ بها

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٦١٢) بلفظ : « اجمعوا له العابدين من المؤمنين ، واجعلوه شورىٰ بينكم ، ولا تقضوا فيه برأي واحد » ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١٥٨/١) ، وروى الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١١٥٤) نحوه كذلك .

(٢) قوت القلوب (١٥٧/١) .

(٣) قوت القلوب (١٥٨/١) .

فالقرآنُ والأخبارُ مشتملانِ عليهِ ، وما خرجَ عنهما فهوَ إمَّا مجادلةٌ مذمومةٌ ، وهيَ مِنَ البدعِ كما سيأتي بيانُهُ ، وإمَّا مشاغبةٌ بالتعلُّقِ بمناقضاتِ الفِرَقِ لها ، وتطويلٌ بنقلِ المقالاتِ التي أكثرُها تُرَّهاتٌ وهذياناتٌ تزدريها الطباعُ ، وتمجُّها الأسماعُ .

وبعضُها خوضٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدينِ ولم يكنْ شيءٌ منهُ مألوفاً في العصرِ الأوَّلِ ، وكانَ الخوضُ فيهِ بالكليَّةِ مِنَ البدعِ ، **ولكنْ تغيَّرَ الآنَ حكمُهُ** ؛ إذْ حدثتِ البدعُ الصارفةُ عنْ مقتضى القرآنِ والسنَّةِ ، ونبغتْ جماعةٌ لفَّقوا لها شبهاً ، ورتَّبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصارَ ذلكَ المحذورُ بحكمِ الضرورةِ مأذوناً فيهِ ، بلْ صارَ من فروضِ الكفاياتِ ، وهوَ القدْرُ الذي يقابَلُ بهِ المبتدِعُ إذا قصدَ الدعوةَ إلى البدعةِ ، وذلكَ إلىٰ حدٍّ محدودٍ سنذكرُهُ في البابِ الذي يلي هـٰذا .

وأمَّا الفلسفةُ : فليستْ علماً برأسها ، بلْ هيَ أربعةُ أجزاءٍ :

أحدُها : **الهندسةُ والحسابُ** ، وهما مباحانِ كما سبقَ ، ولا يُمنعُ عنهما إلا مَنْ يُخافُ عليهِ أنْ يتجاوزَهما إلىٰ علومٍ مذمومةٍ ؛ فإنَّ أكثرَ الممارسينَ لهما قدْ خرجوا منهما إلى البدعِ ، فيُصانُ الضعيفُ عنهُ لا لعينِهِ ، كما يصانُ الصبيُّ عن شاطىءِ النهرِ خيفةً مِنَ الوقوعِ في النهرِ ، وكما يصانُ حديثُ العهدِ بالإسلامِ عَنْ مخالطةِ الكفارِ خوفاً عليهِ ، مع أنَّ القويَّ لا يُندبُ إلىٰ مخالطتِهِمْ .

والثاني : **المنطقُ** ، وهوَ بحثٌ عَنْ وجهِ الدليلِ وشروطِهِ ، ووجهِ الحدِّ وشروطِهِ ، وهما داخلانِ في علْمِ الكلامِ .

والثالثُ : **الإلـٰهياتُ** ، وهو بحثٌ عَنْ ذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، وهوَ أيضاً داخلٌ في الكلامِ .

والفلاسفةُ لم ينفردوا فيها بنمطٍ آخرَ مِنَ العلمِ ، بلِ انفردوا بمذاهبَ بعضُها كفرٌ وبعضُها بدعةٌ ، وكما أنَّ الاعتزالَ ليسَ علماً برأسِهِ ، بلْ أصحابُهُ طائفةٌ مِنَ المتكلِّمينَ وأهلِ البحثِ والنظرِ وانفردوا بمذاهبَ باطلةٍ . . فكذلكَ الفلسفةُ .

والرابعُ : **الطبيعياتُ** ، وبعضُها مخالفٌ للشرعِ والدينِ الحقِّ ، فهوَ جهلٌ وليسَ بعلمٍ حتَّىٰ يورَدَ في أقسامِ العلومِ ، وبعضُها بحثٌ عن صفاتِ الأجسامِ وخواصِّها وكيفيةِ استحالتِها وتغيُّرِها ، وهو شبيهٌ بنظرِ الأطبَّاءِ ، إلا أنَّ الطبيبَ ينظرُ في بدنِ الإنسانِ على الخصوصِ مِنْ حيثُ يمرضُ ويصحُّ ، وهمْ ينظرونَ في جميعِ الأجسامِ مِنْ حيثُ تتغيَّرُ وتتحرَّكُ ، ولكنْ للطِّبِّ فضْلٌ عليهِ ؛ وهو أنَّهُ محتاجٌ إليه ، وأمَّا علومُهُمْ في الطبيعياتِ . . فلا حاجةَ إليها .

فإذاً ؛ **الكلامُ** صارَ مِنْ جملةِ الصناعاتِ الواجبةِ على الكفايةِ حراسةً لقلوبِ العوامِّ عنْ تخييلاتِ المبتدِعةِ ، وإنَّما حدثَ ذلكَ بحدوثِ البدعِ ، كما حدثتْ حاجةُ الإنسانِ إلى استئجارِ البذْرَقَةِ[1] في طريقِ الحجِّ بحدوثِ

---

(١) **البذرقة** : الخفراء وهم الحراس .

ظلْمِ العربِ وقطعِهِمُ الطريقَ ، ولو تركَ العربُ عداونَهُمْ . . لم يكنِ استئجارُ الحرَّاسِ من شروطِ طريقِ الحجِّ ؛ فكذلكَ لو تركَ المبتدِعُ هذيانَهُ . . لما افتقرَ إلى الزيادةِ على ما عُهِدَ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

فليعلمِ المتكلِّمُ حدَّهُ مِنَ الدينِ ، وأنَّ موقعَهُ منهُ موقعُ الحارسِ في طريقِ الحجِّ ، فإذا تجرَّدَ الحارسُ للحراسةِ . . لم يكنْ مِنْ جملةِ الحاجِّ ، والمتكلِّمُ إنْ تجرَّدَ للمناظرةِ والمدافعةِ ولمْ يسلكْ طريقَ الآخرةِ ، ولمْ يشتغلْ بتعهُّدِ القلبِ وصلاحِهِ . . لم يكنْ مِنْ جملةِ علماءِ الدينِ أصلاً ؛ إذْ ليسَ عندَ المتكلِّمِ مِنَ الدينِ إلا العقيدةُ التي يشاركُهُ سائرُ العوامِّ فيها ، وهيَ من جملةِ أعمالِ ظاهرِ القلبِ واللسانِ ، وإنَّما تميَّزَ عنِ العامِّيِّ بصنعةِ المجادلةِ والحراسةِ ، فأمَّا معرفةُ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما أشرنا إليهِ في علْمِ المكاشفةِ . . فلا يحصُلُ من علْمِ الكلامِ ، بلْ يكادُ يكونُ الكلامُ حجاباً ومانعاً منهُ ، وإنَّما الوصولُ إليهِ بالمجاهدةِ التي جعلَها اللهُ سبحانَهُ مقدِّمَةً للهدايةِ ؛ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

فإنْ قلتَ : فقدْ رددتَ حدَّ المتكلِّمِ إلىٰ حراسةِ عقيدةِ العوامِّ عَنْ تشويشِ المبتدعةِ ، كما أنَّ حدَّ البذْرَقَةِ حراسةُ أقمشةِ الحجيجِ عنْ نهْبِ العربِ[1] ،

(١) **القماش** هنا : المتاع ونحوه الذي يكون في حيازة الحاجِّ .

ورددتَ حدَّ الفقيهِ إلىٰ حفْظِ القانونِ الذي بهِ يكفُّ السلطانُ شرَّ بعضِ أهلِ العدوانِ عنْ بعضٍ ، وهاتانِ رتبتانِ نازلتانِ بالإضافةِ إلىٰ علْمِ الدينِ ، وعلماءُ الأمَّةِ المشهورونَ بالفضْلِ هُمُ الفقهاءُ والمتكلمونَ ، وهُمْ أفضلُ الخلقِ عندَ اللهِ تعالىٰ، فكيفَ تنزلُ درجاتِهِمْ إلىٰ هـٰذهِ المنزلةِ السافلةِ بالإضافةِ إلىٰ علْمِ الدينِ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ عَرَفَ الحقَّ بالرجالِ . . حارَ في متاهاتِ الضلالِ ، فاعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ إنْ كنتَ سالكاً طريقَ الحقِّ .

وإنْ قَنِعْتَ بالتقليدِ والنظرِ إلىٰ ما اشتهرَ مِنْ درجاتِ الفضْلِ بينَ الناسِ . . فلا تغفُلْ عنِ الصحابةِ وعلوِّ منصبِهِمْ ، فقدْ أجمعَ الذينَ عرَّضتَ بذكرِهِمْ علىٰ تقدُّمِهِمْ ، وأنَّهمْ لا يُدركُ في الدينِ شأوُهمْ ولا يُشقُّ غبارُهمْ ، ولمْ يكنْ تقدُّمُهُمْ بالكلامِ والفقهِ ، بلْ بعلْمِ الآخرةِ وسلوكِ طريقِها .

وما فَضَلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ بكثرةِ صلاةٍ ، ولا بكثرةِ صيامٍ ، ولا بكثرةِ روايةٍ وفتوىٰ وكلامٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في صدرِهِ ، كما شهدَ لهُ سيِّدُ البشرِ صلواتُ اللهِ عليهِ[1] .

فليكنْ حرصُكَ في طلبِ ذلكَ السرِّ ، فهوَ الجوهرُ النفيسُ والدُّرُّ المكنونُ ، ودعْ عنكَ ما تطابقَ أكثرُ الناسِ علىٰ تفخيمِهِ وتعظيمِهِ لأسبابٍ ودواعٍ يطولُ تفصيلُها ؛ فلقدْ قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ آلافٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ كلُّهُمْ علماءُ باللهِ ، أثنىٰ عليهِمْ رسولُ اللهِ

---

(١) انظر « نوادر الأصول » (ص٣١) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولمْ يكنْ فيهِمْ أحدٌ يحسنُ صنعةَ الكلامِ ، ولمْ ينصِّبْ نفسَهُ للفتوىٰ مِنهمْ أحدٌ ، إلا بضعةَ عشرَ رجلاً .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما منهُمْ ، وكانَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . يقولُ للسائلِ : (اذهبْ إلىٰ هـٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ وضعْها في عنقِهِ)[1] ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الفتوىٰ في القضايا والأحكامِ مِنْ توابعِ الولايةِ والسلطنةِ .

ولمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ ابنُ مسعودٍ : (ماتَ تسعةُ أعشارِ العلمِ ، فقيلَ لهُ : أتقولُ ذلكَ وفينا جِلَّةُ الصحابةِ ؟! فقالَ : لستُ أريدُ علمَ الفتوىٰ والأحكامِ ، إنَّما أريدُ العلمَ باللهِ سبحانَهُ)[2] .

* * *

أفترىٰ أنَّهُ أرادَ صنعةَ الكلامِ والجدلِ ؟ فما لكَ لا تحرصُ علىٰ معرفةِ ذلكَ العلمِ الذي ماتَ بموتِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ تسعةُ أعشارِهِ ؟ وهوَ الذي سدَّ بابَ الكلامِ والجدلِ ، وضربَ صَبيغاً بالدِّرَّةِ لمَّا أوردَ عليهِ سؤالاً في تعارضِ آيتينِ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهجرَهُ وأمرَ الناسَ بهجرتِهِ[3] .

وأمَّا قولُكَ : (إنَّ المشهورينَ مِنَ العلماءِ هُمُ الفقهاءُ والمتكلمونَ) . .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٩) ، وبنحوه رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ١٦٣) .
(٣) صبيغ : كان يعنِّتُ الناسَ بالغوامض والسؤالات في متشابه القرآن ، وروىٰ هـٰذا الخبر الدارمي في « سننه » (١٤٦) .

فاعلمْ أنَّ ما يُنالُ بهِ الفضلُ عندَ اللهِ تعالىٰ شيءٌ ، وما يُنالُ بهِ الشهرةُ عندَ الناسِ شيءٌ آخرُ ، فلقدْ كانَ شهرةُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ بالخلافةِ ، وكان فضلُهُ بالسرِّ الذي وقرَ في صدرِهِ ، وكانَ شهرةُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بالسياسةِ ، وكانَ فضلُهُ بالعلْمِ باللهِ الذي ماتَ تسعةُ أعشارِهِ بموتِهِ ، وبقصدِهِ[1] التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ في ولايتِهِ ، وعدلِهِ وشفقتِهِ علىٰ خلقِهِ ، وهو أمرٌ باطنٌ في سرِّهِ .

وأمَّا سائرُ أفعالِهِ الظاهرةِ . . فيُتصوَّرُ صدورُها مِنْ طالبِ الجاهِ والاسمِ والسمعةِ والراغبِ في الشهرةِ ، فتكونُ الشهرةُ فيما هوَ المهلكُ ، والفضلُ فيما هوَ سرٌّ لا يطَّلعُ عليه أحدٌ .

فالفقهاءُ والمتكلمونَ مثلُ الخلفاءِ والقضاةِ والعلماءِ ، وقدِ انقسموا : فمنهُمْ مَنْ أرادَ اللهَ بعلمِهِ وفتواهُ وذبِّهِ عن سنَّتِهِ[2] ، ولمْ يطلبْ فيهِ رياءً ولا سمعةً ؛ فأولئكَ أهلُ رضوانِ اللهِ تعالىٰ ، وفضلُهُمْ عندَ اللهِ لعملِهِمْ بعلمِهِمْ ، ولإرادتِهِمْ وجهَ اللهِ تعالىٰ بفتواهُمْ ونظرِهِمْ ، فإنَّ كلَّ علْمٍ عملٌ ؛ لأنَّهُ فعلٌ مكتسَبٌ ، وليسَ كلُّ عملٍ علماً[3] ، والطبيبُ يقدِرُ على التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ ، فيكونُ مثاباً علىٰ علمِهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ عاملٌ للهِ بهِ ،

---

(١) معطوف علىٰ قوله : (بالعلم) .
(٢) أي : طريقة الله عز وجل . « إتحاف » (١/ ١٩٠) .
(٣) لصدور بعض الأعمال خالية عن الإخلاص والنية ، فلا يسمىٰ علماً حقيقة . « إتحاف » (١/ ١٩٠) .

والسلطانُ يتوسَّطُ بينَ الخلقِ للهِ فيكونُ مرضياً عندَ اللهِ سبحانَهُ ومثاباً ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ متكفِّلٌ بعلْمِ الدينِ ، بلْ مِنْ حيثُ هوَ متقلِّدٌ لعملٍ يقصدُ بهِ التقرُّبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بعلمِهِ .

وأقسامُ ما يُتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ ثلاثةٌ :

عِلْمٌ مجرَّدٌ ، وهوَ علْمُ المكاشفةِ .

وعملٌ مجرَّدٌ ؛ وهوَ كعدْلِ السلطانِ مثلاً وضبطِهِ للناسِ .

ومركَّبٌ من علمٍ وعملٍ ، وهو علمُ طريقِ الآخرةِ ؛ فإنَّ صاحبَهُ مِنَ العلماءِ والعمَّالِ جميعاً .

فانظرْ إلىٰ نفسِك : أتكونُ يومَ القيامةِ في حزْبِ عمَّالِ اللهِ تعالىٰ ، أو علماءِ اللهِ سبحانَهُ ، أو في حزبيهِمَا فتضربُ بسهمِكَ مع كلِّ فريقٍ منهما ؟

فهـٰذا أهمُّ لكَ مِنَ التقليدِ لمجرَّدِ الاشتهارِ : [من البسيط]

خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ[1]

علىٰ أنَّا سننقُلُ مِنْ سيرةِ فقهاءِ السلفِ ما تعلَمُ بهِ أنَّ الذينَ انتحلُوا مذاهبَهُمْ ظلمُوهُمْ ، وأنَّهمْ مِنْ أشدِّ خصمائِهِمْ يومَ القيامةِ ؛ فإنَّهمْ ما قصدوا بالعلمِ إلا وجهَ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ شُوهدَ مِنْ أحوالِهِمْ ما هوَ منْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ كما سيأتي بيانُهُ في بابِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، وأنَّهمْ ما كانوا متجرِّدينَ لعلْمِ الفقهِ ، بل كانوا مشتغلينَ بعلْمِ القلوبِ ومراقبينَ لها ، ولكنْ

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٨١) .

صرفَهُمْ عنِ التدريسِ والتصنيفِ فيهِ ما صرفَ الصحابةَ عنِ التصنيفِ والتدريسِ في الفقهِ معَ أنَّهُمْ كانوا فقهاءَ مستقلينَ بعلمِ الفتاوىٰ ، والصوارفُ والدواعي متيقَّنَةٌ ، ولا حاجةَ إلىٰ ذكرِها .

ونحنُ الآنَ نوردُ من أحوالِ فقهاءِ الإسلامِ ما تعلمُ بهِ أنَّ ما ذكرناهُ ليسَ طعناً فيهِمْ ، بلْ هوَ طعْنٌ فيمنْ أظهرَ الاقتداءَ بهِمْ منتحلاً مذهبَهُمْ وهوَ مخالفٌ لهُمْ في علمِهِمْ وسيرتِهِمْ .

فالفقهاءُ الذينَ هُمْ زعماءُ الفقهِ وقادةُ الخلقِ ـ أعني الذين كَثُرَ أتباعُهُمْ في المذاهبِ ـ خمسةٌ : الشافعيُّ ، ومالكٌ ، وأبو حنيفةَ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، وسفيانُ الثوريُّ رحمَهُمُ اللهُ أجمعينَ[1] ، وكلُّ واحدٍ منهُمْ كانَ عابداً ، وزاهداً ، وعالماً بعلومِ الآخرةِ ، وفقيهاً في مصالحِ الخلْقِ في الدنيا ، ومريداً بفقهِهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

فهٰذهِ خمسُ خصالٍ ، اتبعَهُمْ فقهاءُ العصرِ مِنْ جملتِها علىٰ خصلةٍ واحدةٍ ، وهيَ التشميرُ والمبالغةُ في تفاريعِ الفقهِ ؛ لأنَّ الخصالَ الأربعَ لا تصلحُ إلا للآخرةِ ، وهٰذهِ الخصلةُ الواحدةُ تصلُحُ للدنيا والآخرةِ إنْ أريدَ بها الآخرةُ ، فلصلاحِها للدنيا تشمَّروا لها ، وادَّعَوا بها مشابهةَ أولئكَ

---

(١) وكان مذهب سفيان باقياً إلى القرن الخامس ، وكان من ينتحله موجوداً في زمان المصنف . . . ، وأما الآن . . فلم يبق من تقيَّدَ مذهبه أو يعتزي إليه . « إتحاف » (١٩١/١) .

الأئمةِ ، وهيهاتَ ؛ فلا تقاسُ الملائكةُ بالحدَّادينَ .

فلنورِدِ الآنَ مِنْ أحوالِهِمْ ما يدلُّ علىٰ هٰذهِ الخصالِ الأربعِ ؛ فإنَّ معرفتَهُمْ بالفقهِ ظاهرةٌ :

أمّا الإمامُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ

فيدلُّ علىٰ أنَّه كانَ عابداً : ما رُوِيَ أنَّهُ كانَ يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أجزاءٍ : ثُلُثاً للعلمِ ، وثلثاً للصلاةِ ، وثلثاً للنومِ[١] .

قالَ الربيعُ : (كانَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ يختمُ القرآنَ في رمضانَ ستينَ مرَّةً ، كلُّ ذلكَ في الصلاةِ)[٢] .

وكانَ البويطيُّ أحدُ أصحابِهِ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ مرةً[٣] .

وقالَ الحسينُ الكرابيسيُّ : (بتُّ مع الشافعيِّ رحمهُ اللهُ غيرَ ليلةٍ ، فكانَ يصلِّي نحواً مِنْ ثلثِ الليلِ ، فما رأيتُهُ يزيدُ علىٰ خمسينَ آيةً ، فإذا أكثرَ . . فمئةً ، وكانَ لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلا سألَ اللهَ تعالىٰ لنفسِهِ ولجميعِ المؤمنينَ ، ولا يمرُّ بآيةِ عذابٍ إلا تعوَّذَ منها وسألَ النجاةَ لنفسِهِ وللمؤمنينَ ؛ وكأنَّما جُمِعَ لهُ الرجاءُ والرهبةُ معاً)[٤] .

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٧) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٨) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٣٩٣) .
(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٨) .

فانظرْ كيفَ يدلُّ اقتصارُهُ علىٰ خمسينَ آيةً علىٰ تبحُّرِهِ في أسرارِ القرآنِ وتدبُّرِهِ فيها .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (ما شبعتُ منذُ ستَّ عشرةَ سنةً ؛ لأنَّ الشبعَ يثقلُ البدنَ ، ويقسِّي القلبَ ، ويزيلُ الفطنةَ ، ويجلبُ النومَ ، ويضعفُ صاحبَهُ عنِ العبادةِ)[١] .

فانظرْ إلىٰ حكمتِهِ في ذكرِ آفاتِ الشبعِ ، ثمَّ في جِدِّهِ في العبادةِ ؛ إذْ طرحَ الشبعَ لأجلِهِ ، ورأسُ التعبُّدِ تقليلُ الطعامِ .

وقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (ما حلفتُ باللهِ تعالىٰ لا صادقاً ولا كاذباً)[٢] .

فانظرْ إلىٰ حرمتِهِ وتوقيرِهِ للهِ تعالىٰ ، ودلالةِ ذلكَ علىٰ علمِهِ بجلالِ اللهِ سبحانَهُ .

وسئلَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ عن مسألةٍ ، فسكتَ ، فقيلَ لهُ : ألا تجيبُ رحمَكَ اللهُ ؟! فقالَ : حتَّىٰ أدري : الفضلُ في سكوتي أوْ في الجوابِ[٣] .

فانظرْ في مراقبتِهِ لسانَهُ ، معَ أنَّهُ أشدُّ الأعضاءِ تسلُّطاً على الفقهاءِ ، وأعصاها على الضبطِ والقهرِ ، وبهِ يستبينُ أنَّهُ كانَ لا يتكلَّمُ ولا يسكتُ إلا لنيلِ الفضْلِ وطلبِ الثوابِ .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « آداب الشافعي ومناقبه » (ص١٠٥) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٦٤) .
(٣) ذكره ابن الصلاح في « فتاواه » (١/ ١٣) .

وقالَ أحمدُ بنُ يحيىٰ بنِ الوزيرِ : (خرجَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ يوماً مِنْ سوقِ القناديلِ ، فتبعناهُ ، فإذا رجلٌ يسفِّهُ علىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ العلمِ ، فالتفتَ الشافعيُّ إلينا وقالَ : نزِّهوا أسماعَكُمْ عَنِ استماعِ الخنا كما تنزِّهونَ ألسنتكُمْ عَنِ النطْقِ بهِ ، فإنَّ المستمعَ شريكُ القائلِ ، وإنَّ السفيهَ لينظرُ إلىٰ أخبثِ شيءٍ في وعائِهِ فيحرصُ أنْ يفرغَهُ في أوعيتِكُمْ ، ولوْ رُدَّتْ كلمةُ السفيهِ . . لسعدَ رادُّها كما شقيَ بها قائلُها)[١] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (كتبَ حكيمٌ إلىٰ حكيمٍ : قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تدنِّسْ علمَكَ بظلمةِ الذنوبِ ، فتبقَىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ بنورِ علمِهِمْ)[٢] .

وأمَّا زهدُهُ رضيَ اللهُ عنهُ : فقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنِ ادَّعىٰ أنَّهُ جمعَ بينَ حبِّ الدنيا وحبِّ خالِقِها في قلبِهِ . . فقدْ كذبَ)[٣] .

وقالَ الحميديُّ : (خرجَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ إلى اليمنِ معَ بعضِ الولاةِ ، فانصرفَ إلىٰ مكةَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فضُرِبَ خباؤُهُ في موضعٍ خارجٍ مِنْ مكةَ ، فكانَ الناسُ يأتونَهُ ، فما برحَ مِنْ موضعِهِ ذلكَ حتَّىٰ فرَّقَها كلَّها)[٤] .

وخرجَ مِنَ الحمَّامِ مرةً فأعطى الحماميَّ مالاً كثيراً .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٢٣) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٦) .
(٣) انظر « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ١٦٠) .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٣٠) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٠) ، وفيهما : (خارجاً من مكة) .

وسقطَ سَوطُهُ مرةً منْ يدِهِ ، فرفعَهُ إليهِ إنسانٌ ، فأعطاهُ جزاءً عليهِ خمسينَ ديناراً[1] .

وسخاوةُ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ أشهرُ مِنْ أنْ تحكَىٰ ، ورأسُ الزهدِ السخاءُ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً أمسكَهُ ولمْ يفارقْهُ ، فلا يفارقُ المالَ إلا مَنْ صغرَتِ الدنيا في عينِهِ ، وهوَ معنى الزهدِ .

ويدلُّ علىٰ قوَّةِ زهدِهِ وشدَّةِ خوفِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ واشتغالِ همِّهِ بالآخرةِ ما رُوِيَ أنَّهُ رَوىٰ سفيانُ بنُ عيينةَ حديثاً مِنَ الرقائِقِ ، فغُشِيَ على الشافعيِّ ، فقيلَ لهُ : قدْ ماتَ ، فقالَ : إنْ ماتَ . . فقدْ ماتَ أفضلُ أهلِ زمانِهِ[2] .

وما رَوىٰ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ البَلَوِيُّ قالَ : كنتُ أنا وعمرُ بنُ نباتةَ جلوساً نتذاكرُ العبَّادَ والزهَّادَ ، فقالَ لي عمرُ : ما رأيتُ أورعَ ولا أفصحَ مِنْ محمدِ بنِ إدريسَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ؛ خرجتُ أنا وهوَ والحارثُ بنُ لبيدٍ إلى الصفا ، وكانَ الحارثُ تلميذاً لصالحٍ المرِّيِّ ، فافتتحَ يقرأُ وكانَ حسنَ الصوتِ ، فقرأَ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ، فرأيتُ الشافعيَّ رحمهُ اللهُ وقدْ تغيَّرَ لونُهُ ، واقشعرَّ جلدُهُ ، واضطربَ اضطراباً شديداً ، وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . جعلَ يقولُ : أعوذُ بكَ مِنْ مقامِ الكاذبينَ ، وإعراضِ الغافلينَ ، اللهمَّ ؛ لكَ خضعتْ قلوبُ العارفينَ ،

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢١) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٩٥) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٧٥) .

وذلَّتْ هيبةُ المشتاقينَ ، إلـٰهي ؛ هبْ لي جودَكَ ، وجَلِّلْني بسترِك ، واعفُ عنْ تقصيري بكرمِ وجهِكَ .

قالَ : ثمَّ قمنا فانصرفْنا ، فلمَّا دخلتُ بغدادَ وكانَ هوَ بالعراقِ ، فقعدتُ على الشطِّ أتوضأُ للصلاةِ . . إذْ مرَّ بي رجلٌ فقالَ لي : يا غلامُ ؛ أحسنْ وضوءَكَ أحسنَ اللهُ إليكَ في الدنيا والآخرةِ ، فالتفتُّ فإذا أنا برجلٍ يتبعُهُ جماعةٌ ، فأسرعتُ في وضوئي ، وجعلتُ أقفو أثرَهُ ، فالتفتَ إليَّ فقالَ : هلْ لكَ مِنْ حاجةٍ ؟ فقلتُ : نعمْ ، تعلِّمني ممَّا علَّمَكَ اللهُ شيئاً ، فقالَ لي : اعلمْ أنَّ مَنْ صَدَقَ اللهَ . . نجا ، ومَنْ أشفقَ علىٰ دينِهِ . . سَلِمَ من الردىٰ ، ومن زهدَ في الدنيا . . قرَّتْ عيناهُ بما يرىٰ من ثوابِ اللهِ تعالىٰ غداً ، أفلا أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَ : مَنْ كانَ فيه ثلاثُ خصالٍ . . فقدِ استكملَ الإيمانَ : مَنْ أمرَ بالمعروفِ وَأْتَمَرَ ، ونهىٰ عَنِ المنكرِ وانتهىٰ ، وحافظَ علىٰ حدودِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ قالَ : ألا أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ . قالَ : كنْ في الدنيا زاهداً ، وفي الآخرةِ راغباً ، واصدقِ اللهَ تعالىٰ في جميعِ أمورِكَ . . تنجُ معَ الناجينَ ، ثمَّ مضىٰ ، فسألتُ : مَنْ هـٰذا ؟ فقالوا : هوَ الشافعيُّ[1] .

فانظرْ إلىٰ سقوطِهِ مغشياً عليهِ ، ثمَّ إلىٰ وعظِهِ ، كيفَ يدلُّ ذلكَ علىٰ زهدِهِ وغايةِ خوفِهِ ؛ ولا يحصلُ هـٰذا الخوفُ والزهدُ إلا مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّهُ إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ .

---

(١) مناقب الشافعي (٢/١٧٦ـ١٧٧) . وانظر ما قاله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/١٩٧) .

ولَمْ يستفدِ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ هٰذا الخوفَ والزهدَ مِنْ علمِ كتابِ السَّلَم والإجارةِ وسائرِ كتبِ الفقهِ ، بلْ مِنْ علومِ الآخرةِ المستخرجةِ مِنَ القرآنِ والأخبارِ ؛ إذْ حِكَمُ الأوَّلينَ والآخرينَ مودعةٌ فيهما .

وأمَّا كونُهُ عالماً بأسرارِ القلبِ وعلومِ الآخرةِ : فتعرفُهُ مِنَ الحِكَمِ المأثورةِ عنه :

رُوِيَ أنَّهُ سُئلَ عنِ الرياءِ ، فقالَ على البديهة : (الرياءُ فتنةٌ عقدَها الهوىٰ حِيالَ أبصارِ قلوبِ العلماءِ ، فنظروا إليها بسوءِ اختيارِ النفوسِ ، فأحبطتْ أعمالَهُمْ)[1] .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (إذا أنتَ خفْتَ علىٰ عملِكَ العجبَ . . فاذكرْ رضا مَنْ تطلُبُ ، وفي أيِّ نعيمٍ ترغبُ ، ومِنْ أيِّ عقابٍ ترهبُ ، وأيَّ عافيةٍ تشكرُ ، وأيَّ بلاءٍ تذكرُ ؛ فإنَّكَ إذا فكَّرْتَ في واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الخصالِ . . صَغُرَ في عينِكَ عملُكَ)[2] .

فانظرْ كيفَ ذكرَ حقيقةَ الرياءِ وعلاجَ العجْبِ ، وهما مِنْ كبائرِ آفاتِ القلبِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ لمْ يصنْ نفسَهُ . . لمْ ينفعْهُ علمُهُ)[3] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٣٣٤) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤١٣) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٨٦) .

وقالَ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أطاعَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ . . نفعَهُ سرّه) .

وقالَ : (ما مِنْ أحدٍ إلا لهُ محبٌّ ومبغضٌ ، فإذا كانَ كذلكَ . . فكُنْ معَ أهلِ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ)(١) .

ورُوِيَ أنَّ عبدَ القاهرِ بنَ عبدِ العزيزِ كانَ رجلاً صالحاً ورعاً ، وكانَ يسألُ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ مسائلَ في الورعِ ، والشافعيُّ رحمهُ اللهُ يُقبلُ عليهِ لورعِهِ ؛ فقالَ للشافعيِّ يوماً : أيُّما أفضلُ : الصبرُ ، أوِ المحنةُ ، أوِ التمكينُ ؟ فقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : التمكينُ درجةُ الأنبياءِ ، ولا يكونُ التمكينُ إلا بعدَ المحنةِ ، فإذا امتحنَ . . صبرَ ، وإذا صبرَ . . مُكِّنَ ، ألا ترىٰ أنَّ اللهَ تعالى امتحنَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ موسىٰ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ أيُّوبَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ سليمانَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ وآتاهُ مُلْكاً ؟ والتمكينُ أفضلُ الدرجاتِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وأيوبُ عليهِ السلامُ بعدَ المحنةِ العظيمةِ مُكِّنَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ الآيةَ .

فهٰذا الكلامُ مِنَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يدلُّ علىٰ تبحُّرِهِ في أسرارِ القرآنِ ، واطلاعِهِ علىٰ مقاماتِ السائرينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ ، وكلُّ ذلكَ منْ علومِ الآخرةِ .

وقيلَ للشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : (متىٰ يكونُ الرجلُ عالماً ؟ قال : إذا تحقَّقَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١٧) .

في علمٍ يعلمُهُ ، وتعرَّضَ لسائرِ العلومِ ، فنظرَ فيما فاتَهُ ، فعندَ ذلكَ يكونُ عالماً ؛ فإنَّهُ قيلَ لجالينوسَ : إنَّكَ تأمرُ للدَّاءِ الواحدِ بالأدويةِ الكثيرةِ المجتمعةِ ، قالَ : إنَّما المقصودُ منها واحدٌ ، وإنَّما يُجعلُ معهُ غيرُهُ ليسكِّنَ حدَّتَهُ ؛ لأنَّ الإفرادَ قاتلٌ) .

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا لا يُحصىٰ يدلُّ علىٰ عظمِ رتبتِهِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ وعلومِ الآخرةِ .

وأمَّا إرادتُهُ بالفقهِ خاصةً والمناظرةِ فيهِ وجْهَ اللهِ تعالىٰ : فيدلُّ عليهِ ما رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : (وددتُ أنَّ الناسَ انتفعوا بهٰذا العلمِ وما نُسِبَ إليَّ منهُ شيءٌ)[1] .

فانظرْ كيفَ اطلعَ علىٰ آفةِ العلمِ وطلبِ الاسمِ بهِ ، وكيفَ كانَ منزَّهَ القَلبِ عنِ الالتفاتِ إليهِ ، متجرِّدَ النيَّةِ فيهِ لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما ناظرتُ أحداً قطُّ فأحببتُ أنْ يخطئَ)[2] .

وقالَ : (ما كلَّمْتُ أحداً قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّقَ ويسدَّدَ ويعانَ ويكونَ عليهِ رعايةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وحفْظٌ ، وما كلَّمْتُ أحداً قطُّ وأنا أبالي أنْ يبيِّنَ اللهُ الحقَّ علىٰ لساني أو علىٰ لسانِهِ)[3] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١٨) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢١٢٥) ، والبيهقي في « المدخل » (١٧٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١٨) .

وقالَ : (ما أوردتُ الحقَّ والحجَّةَ علىٰ أحدٍ فقبلَها منِّي إلا هبتُهُ واعتقدتُ مودَّتَهُ ، ولا كابرني على الحقِّ أحدٌ ودافعَ الحجَّةَ إلا سقطَ مِنْ عيني ورفضتُهُ)[١] .

فهٰذهِ العلاماتُ هيَ التي تدلُّ علىٰ إرادةِ اللهِ وحدَهُ بالفقهِ والمناظرةِ .

فانظرْ كيفَ تابعَهُ الناسُ مِنْ جملةِ هٰذهِ الخصالِ الخمسِ علىٰ خصلةٍ واحدةٍ فقط[٢] ، ثمَّ كيفَ خالفوهُ فيها أيضاً .

ولهٰذا قالَ أبو ثورٍ رحمهُ اللهُ : (ما رأيتُ ولا رأى الراؤون مثلَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ)[٣] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما صليتُ صلاةً منذُ أربعينَ سنةً إلا وأنا أدعو للشافعيِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ)[٤] .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ الداعي ، وإلىٰ درجةِ المدعوِّ لهُ ، وقسْ بهِ الأقرانَ والأمثالَ مِنَ العلماءِ في هٰذهِ الأعصارِ وما بينَهُمْ من المشاحنةِ والبغضاءِ ؛ لتعلمَ تقصيرَهُمْ في دعوى الاقتداءِ بهؤلاءِ .

ولكثرةِ دعائِهِ لهُ قالَ لهُ ابنُهُ : أيَّ رجلٍ كانَ الشافعيُّ حتَّىٰ تدعوَ لهُ كلَّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١٧) .
(٢) وهي المبالغة في تفاريع الفقه مع عدم الاهتمام لأمور الآخرة .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٦٤) .
(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٥٤) .

هـٰذا الدعاءِ ؟ فقالَ أحمدُ : يا بُنيَّ ؛ كانَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ كالشمسِ للدنيا ، وكالعافيةِ للناسِ ، فانظرْ هلْ لهـٰذينِ مِنْ خَلَفٍ ؟[1] .

وقالَ أحمدُ : (ما أحدٌ يمسُّ بيدِهِ مَحْبَرَةً إلا وللشافعيِّ رحمهُ اللهُ في عنقِهِ منّةٌ)[2] .

وقالَ يحيىٰ بنُ سعيدٍ القطانُ : (ما صليتُ صلاةً منذُ أربعينَ سنةً إلا وأنا أدعو فيها للشافعيِّ ؛ لما فتحَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ مِنَ العلمِ ، ووفَّقَهُ للسَّدادِ فيهِ)[3] .

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذهِ النبذةِ مِنْ أحوالِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ خارجٌ عَنِ الحصرِ ، وأكثرُ هـٰذهِ المناقبِ نقلناهُ من الكتابِ الذي صنَّفَهُ الشيخُ نصرُ بنُ إبراهيمَ المقدسيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في مناقبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وأمَّا الإمامُ مالكٌ رضيَ اللهُ عنهُ

فإنَّهُ كانَ أيضاً متحلِّياً بهـٰذهِ الخصالِ الخمسِ ؛ فإنَّهُ سئلَ : ما تقولُ يا مالكُ في طلبِ العلمِ ؟ فقالَ : حسنٌ جميلٌ ، ولكنِ انظرِ الذي يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي فالزمْهُ[4] .

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٥٤) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٥٥) .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١/ ٢٣٣ـ ٢٣٤) .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .

وكانَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في تعظيمِ علمِ الدينِ مبالغاً ، حتَّىٰ كانَ إذا أرادَ أن يحدِّثَ . . توضَّأَ ، وجلسَ علىٰ صدرِ فراشِهِ ، وسرَّحَ لحيتَهُ ، واستعملَ الطيبَ ، وتمكَّنَ في الجلوسِ علىٰ وقارٍ وهيبةٍ ، ثُمَّ حدَّثَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أحبُّ أنْ أعظِّمَ حديثَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

وقالَ مالكٌ : (العلمُ نورٌ يجعلُهُ اللهُ حيثُ يشاءُ ، وليسَ بكثرةِ الروايةِ)[2] .

وهٰذا الاحترامُ والتوقيرُ يدلُّ علىٰ قوَّةِ معرفتِهِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ .

وأمَّا إرادتُهُ وجْهَ اللهِ تعالىٰ بالعلمِ : فيدلُّ عليهِ قولُهُ : (الجِدالُ في الدينِ ليسَ بشيءٍ)[3] .

ويدلُّ عليهِ قولُ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : (إنِّي شهدْتُ مالكاً وقدْ سُئِلَ عنْ ثمانٍ وأربعينَ مسألةً ، فقالَ في اثنتينِ وثلاثينَ منها : لا أدري)[4] .

ومَنْ يُرِدْ غيرَ وجهِ اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ . . فلا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يُقِرَّ علىٰ نفسِهِ بأنَّهُ لا يدري ، ولذلكَ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا ذُكِرَ العلماءُ . . فمالكٌ النجمُ الثاقبُ ، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ مِنْ مالكٍ)[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣١٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .
(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٣٨) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/ ٧٣) .
(٥) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/ ٧٤)، وابن فرحون في « الديباج المذهب » (١/ ٦٣) .

ورُوِيَ أنَّ أبا جعفرٍ المنصورَ منعَهُ مِنْ روايةِ الحديثِ في طلاقِ المكرَهِ ، ثمَّ دسَّ عليهِ مَنْ يسألُهُ ، فروىٰ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ : « ليسَ علىٰ مستكرَهٍ طلاقٌ » ، فضربَهُ بالسياطِ ، ولمْ يتركْ روايةَ الحديثِ[1] .

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (ما كانَ رجلٌ صادقاً في حديثِهِ لا يكذبُ . . إلا مُتِّعَ بعقلِهِ ، ولمْ يصبْهُ معَ الهرمِ آفةٌ ولا خَرَفٌ)[2] .

وأمَّا زهدُهُ في الدنيا : فيدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ المهديَّ أميرَ المؤمنينَ سألَهُ وقالَ لهُ : هلْ لكَ دارٌ ؟ فقالَ : لا ، ولكنْ أحدِّثُكَ : سمعتُ ربيعةَ بنَ أبي عبدِ الرحمـٰنِ يقولُ : نسبُ المرءِ دارُهُ[3] .

وسألَهُ الرشيدُ : هلْ لكَ دارٌ ؟ فقالَ : لا ، فأعطاهُ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وقالَ : اشترِ بها داراً ، فأخذَها ولم ينفقْها ، فلمَّا أرادَ الرشيدُ الشخوصَ . . قالَ لمالكٍ رحمهُ اللهُ : ينبغي أنْ تخرُجَ معَنا ؛ فإنِّي عزمْتُ أنْ أحملَ الناسَ على « الموطأ » كما حملَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ على القرآنِ ، فقالَ لهُ : أمَّا حملُ الناسِ على « الموطأ » . . فليسَ إلىٰ ذلكَ سبيلٌ ؛ لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ افترقوا بعدَهُ في الأمصارِ فحدَّثوا ، فعندَ أهلِ كلِّ مصرٍ علْمٌ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٣١٦) ، وضاربه هو والي المدينة جعفرُ بن سليمان ، وكان ذلك بخلافة أبي جعفر المنصور .

(٢) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/٧٠) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٧٩) .

« اختلافُ أُمَّتِي رحمةٌ »[1] ، وأمَّا الخروجُ معكَ.. فلا سبيلَ إليهِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المدينةُ خيرٌ لهُمْ لوْ كانُوا يعلمونَ »[2] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المدينةُ تَنْفِي خَبَثَها كما يَنْفِي الكيرُ خبثَ الحديدِ »[3] ، وهـٰذهِ دنانيرُكُم كما هيَ ، إنْ شئتُم.. فخذُوها ، وإنْ شئتُمْ.. فدعُوها[4] .

يعني : أنَّكَ إنما تكلِّفُني مفارقةَ المدينةِ لما اصطنعتَهُ إليَّ ، فلا أُوثِرُ الدنيا علىٰ مدينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهكذا كانَ زهدُ مالكٍ في الدنيا .

ولمَّا حُمِلَتْ إليه الأموالُ الكثيرةُ مِنْ أطرافِ الدنيا لانتشارِ علمِهِ وأصحابِهِ.. كانَ يفرِّقُها في وجوهِ الخيرِ ، ودلَّ سخاؤُهُ علىٰ زهدِهِ وقلَّةِ حبِّهِ

---

(١) رواه البيهقي في « المدخل » (١٥٢) بلفظ : « واختلاف أصحابي لكم رحمة » ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١١/ ٩١) : (قال الخطابي : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اختلاف أمتي رحمة » ، فاستصوب عمر ما قاله ـ كلام راجع لأصل الحديث المشروح ـ قال : وقد اعترض علىٰ حديث : « اختلاف أمتي رحمة » ، رجلان ؛ أحدهما مغموص عليه في دينه ، وهو عمرو بن بحر الجاحظ ، والآخر معروف بالسخف والخلاعة ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي. . .) .

(٢) رواه البخاري (١٨٧٥) ، ومسلم (١٣٦٣) .

(٣) رواه البخاري (١٨٧١ ، ١٨٨٣) ، ومسلم (١٣٨٢ ، ١٣٨٣) .

(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣٣١) ، ووقع فيها : (المأمون) بدل (الرشيد) ، والمثبت هو الصواب ، والله أعلم .

للدنيا ، وليسَ الزهدُ فقْدَ المالِ ، وإنَّما الزهدُ فراغُ القلبِ عنهُ ؛ فلقدْ كانَ سليمانُ عليهِ السلامُ في مُلكِهِ مِنَ الزهَّادِ .

ويدلُّ على احتقارِهِ للدنيا : ما رُوِيَ عنِ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ أنَّه قالَ : رأيتُ علىٰ بابِ مالكٍ كُراعاً مِنْ أفراسِ خراسانَ وبغالِ مصرَ ما رأيتُ أحسنَ منهُ ، فقلتُ لمالكٍ رحمهُ اللهُ : ما أحسنَهُ ! فقالَ : هوَ هديةٌ منِّي إليكَ يا أبا عبدِ اللهِ ، فقلتُ : دعْ لنفسِكَ منها دابّةً تركبُها ، فقالَ : أنا أستحيي مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ أطأَ تربةً فيها نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحافرِ دابَّةٍ[1] .

فانظرْ إلىٰ سخاوتِهِ إذْ وهبَ جميعَ ذلكَ دفعةً واحدةً ، وإلىٰ توقيرِهِ لتربةِ المدينةِ .

ويدلُّ علىٰ إرادتِهِ بالعلمِ وجْهَ اللهِ تعالىٰ واستحقارِهِ للدنيا : ما رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : دخلتُ علىٰ هارونَ الرشيدِ ، فقالَ لي : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ينبغي أنْ تختلفَ إلينا حتَّىٰ يسمعَ صبيانُنا منكَ « الموطأَ » ، قالَ : قلتُ : أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ هـٰذا العلمَ منكُمْ خرجَ ، فإنْ أنتمْ أعززْتُمُوهُ . . عزَّ ، وإنْ أنتُمْ أذللتمُوهُ . . ذلَّ ، والعلمُ يؤتَىٰ ولا يأتي ، فقالَ : صدقتَ ، اخرجوا إلى المسجدِ حتَّىٰ تسمعوا معَ الناسِ[2] .

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٩٣) . والكراع : اسم لجميع الخيل والسلاح .
(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٦٨٦) .

وأمَّا الإمامُ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ

فلقدْ كانَ أيضاً عابداً ، زاهداً ، عارفاً باللهِ تعالىٰ ، خائفاً منهُ ، مريداً وجْهَ اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ .

فأمَّا كونُهُ عابداً : فيُعرفُ بما رُوِيَ عنِ ابنِ المباركِ أنَّهُ قالَ : (كانَ أبو حنيفةَ رحمهُ اللهُ لهُ مروءةٌ وكثرةُ صلاةٍ)[١] .

وروىٰ حمَّادُ بنُ أبي سليمانَ أنَّهُ كانَ يحيي الليلَ كلَّهُ[٢] .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ يحيي نصفَ الليلِ ، فمرَّ يوماً في طريقٍ ، فأشارَ إليهِ إنسانٌ وهوَ يمشي وقالَ لآخرَ : هـٰذا هوَ الذي يحيي الليلَ كلَّهُ ، فلمْ يزلْ بعدَ ذلكَ يحيي الليلَ كلَّهُ ؛ وقالَ : أنا أستحيي مِنَ اللهِ سبحانَهُ أنْ أوصفَ بما ليسَ فيَّ مِنْ عبادتِهِ[٣] .

وأمَّا زهدُهُ : فقدْ رُوِيَ عَنِ الربيعِ بنِ عاصمٍ قالَ : (أرسلني يزيدُ بنُ عمرَ بنِ هبيرةَ ، فقدمتُ بأبي حنيفةَ عليهِ ، فأرادَهُ علىٰ بيتِ المالِ ، فأبَىٰ ، فضربَهُ عشرينَ سَوطاً)[٤] .

فانظرْ كيفَ هربَ عَنِ الولايةِ واحتملَ العذابَ .

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٢) من قول سفيان بن عيينة ، وروىٰ معه أنه كان يسمى الوَتِد لكثرة صلاته .

(٢) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص١٩٤) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٥٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٢٥٥) .

قالَ الحكمُ بنُ هشامٍ الثقفيُّ : (حدثتُ بالشامِ عنْ أبي حنيفةَ أنَّهُ كانَ مِنْ أعظمِ الناسِ أمانةً ، وأرادَهُ السلطانُ علىٰ أنْ يتولَّىٰ مفاتيحَ خزائِنِهِ أو يضربَ ظهرَهُ ، فاختارَ عذابَهُمْ علىٰ عذابِ اللهِ تعالىٰ)[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ ذُكِرَ أبو حنيفةَ عندَ ابنِ المباركِ فقالَ : (أتذكرونَ رجلاً عُرِضَتْ عليهِ الدنيا بحذافيرِها ففرَّ منها ؟)[2] .

ورُوِيَ عنْ محمدِ بنِ شجاعٍ ، عنْ بعضِ أصحابِهِ[3] : (أنَّهُ قيلَ لأبي حنيفةَ : قدْ أمرَ لكَ أبو جعفرٍ أميرُ المؤمنينَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، قالَ : فما رضيَ أبو حنيفةَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي توقَّعَ أنْ يُؤتىٰ بالمالِ فيهِ صلَّى الصبْحَ ثم تغشَّىٰ بثوبِهِ فلمْ يتكلَّمْ ، فجاءَ رسولُ الحسنِ بنِ قَحْطَبَةَ بالمالِ ، فدخلَ عليهِ فلمْ يكلمْهُ ، فقالَ مَنْ حضرَ : ما يكلِّمُنا إلا بالكلمةِ بعدَ الكلمةِ ـ أي : هـٰذهِ عادتُهُ ـ فقالَ : ضعوا المالَ في هـٰذا الجِرابِ في زاويةِ البيتِ ، ثم أوصىٰ أبو حنيفةَ بعدَ ذلكَ بمتاعِ بيتِهِ ؛ فقالَ لابنِهِ : إذا أنا متُّ ودفنتموني . . فخذْ هـٰذهِ البَدْرَةَ[4] واذهبْ بها إلى الحسنِ بنِ قحطبةَ فقلْ لهُ : هـٰذهِ وديعتُكَ التي أودعتَها أبا حنيفةَ . قالَ ابنُهُ : ففعلتُ ذلكَ ، فقالَ الحسنُ : رحمةُ اللهِ

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٢٥٥) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٣٢١) .
(٣) والمراد ببعض أصحابه هنا هو الحسن بن عمارة أبو محمد الكوفي . « إتحاف » (١/ ٢١١) .
(٤) **البدرة** : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .

علىٰ أبيكَ ، لقدْ كان شحيحاً علىٰ دينِهِ)[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ دُعِيَ إلىٰ ولايةِ القضاءِ فقالَ : أنا لا أصلحُ لهُ ، فقيلَ لهُ : لِمَ ؟ فقالَ : إنْ كنتُ صادقاً . . فلا أصلحُ لهُ ، وإنْ كنتُ كاذباً . . فالكاذبُ لا يصلحُ للقضاءِ[2] .

وأمَّا علمُهُ بأمورِ الآخرةِ وطريقِ الدينِ ومعرفتُهُ باللهِ عزَّ وجلَّ : فيدلُّ عليهِ شدَّةُ خوفِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ وزهدِهِ في الدنيا ، وقدْ قالَ ابنُ جريجٍ : (قدْ بلغَني عَنْ كوفيِّكُمْ هـٰذا النعمانِ بنِ ثابتٍ أنَّهُ شديدُ الخوفِ للهِ تعالىٰ)[3] .

وقالَ شريكٌ النخعيُّ : (كانَ أبو حنيفةَ طويلَ الصمْتِ ، دائمَ الفكرِ ، قليلَ المجادلةِ للناسِ)[4] .

فهـٰذا مِنْ أوضحِ الأماراتِ على العلمِ الباطنِ ، والاشتغالِ بمهمَّاتِ الدينِ ، فمَنْ أوتيَ الصمتَ والزهدَ . . فقدْ أوتيَ العلمَ كلَّهُ .

فهـٰذهِ نبذةٌ مِنْ أحوالِ الأئمةِ الثلاثةِ .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٣٢١) ، **وشحيحاً علىٰ دينه** : متمسكاً به غير مفرط .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٢٩) .
(٣) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٢٠٩) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٢٠١) .

وأمَّا الإمامُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ وسفيانُ رحمهُمَا اللهُ تعالىٰ

فأتباعُهُما أقلُّ مِنْ أتباعِ هؤلاءِ ، وسفيانُ أقلُّ أتباعاً مِنْ أحمدَ ، ولكنِ اشتهارُهُما بالورعِ والزهدِ أظهرُ ، وجميعُ هـٰذا الكتابِ مشحونٌ بحكاياتِ أفعالِهما وأقوالِهما ، فلا حاجةَ إلى التفصيلِ الآنَ .

فانظرْ الآنَ في سيَرِ هؤلاءِ الأئمةِ ، وتأمَّلْ أنَّ هـٰذهِ الأحوالَ والأقوالَ والأعمالَ في الإعراضِ عَنِ الدنيا ، والتجرُّدِ للهِ عزَّ وجلَّ : هلْ يُثمرُها مجرَّدُ العلمِ بفروعِ الفقهِ ؛ مِنْ معرفةِ السَّلَمِ والإجارةِ والظِّهارِ والإيلاءِ واللِّعانِ ، أو يثمرُها علمٌ آخرُ أعلىٰ وأشرفُ منهُ ؟

وانظرْ إلى الذينَ ادَّعَوا الاقتداءَ بهؤلاءِ : أصدقوا في دعواهُمْ أمْ لا ؟ واللهُ أعلمُ .

* * *

البَابُ الثَّالِثُ

فيما يعدّه العامّة من العلوم المحمودة وليس منها
وفيه بيان الوجه الّذي به يكون بعض العلوم مذموماً
وبيان تبديل أسامي العلوم ، وهو الفقه والعلم والتّوحيد والتّذكير والحكمة
وبيان القدر المحمود من العلوم الشّرعيّة والقدر المذموم منها

بيان علّة ذمّ العلم المذموم

لعلَّكَ تقولُ : العلمُ هوَ معرفةُ الشيءِ علىٰ ما هوَ بهِ ، وهوَ مِنْ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ ، فكيفَ يكونُ الشيءُ علماً ويكونُ ـ مع كونِهِ علماً ـ مذموماً ؟

فاعلمْ : أنَّ العلمَ لا يُذمُّ لعينِهِ ، وإنَّما يُذمُّ في حقِّ العبادِ لأحدِ أسبابٍ ثلاثةٍ :

الأولُ : أنْ يكونَ مؤدِّياً إلىٰ ضررٍ ما ؛ إمَّا بصاحبِهِ ، وإمَّا بغيرِهِ ، كما يُذَمُّ علمُ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ ، وهوَ حقٌّ(١) ؛ إذْ شهدَ القرآنُ لهُ ، وأنَّهُ سببٌ يتوصَّلُ بهِ إلى التفرقةِ بينَ الزوجينِ .

وقدْ سُحِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومرضَ بسببِهِ ، حتَّىٰ أخبرَهُ

(١) أي : ثابت وجوده ولا يمكن إنكاره ، وإن اختلفوا في ماهيته ، وليس المراد الحقَّ الذي هو ضد الباطل .

جبريلُ عليهِ السلامُ بذلكَ ، وأُخرجَ السحرُ مِنْ تحتِ حَجَرٍ في قعْرِ بئرٍ[1] .

وهوَ نوعٌ يستفادُ مِنَ العلْمِ بخواصِّ الجواهِرِ ، وبأمورٍ حسابيَّةٍ في مطالِعِ النجومِ ، فَيُتَّخَذُ مِنْ تلكَ الجواهرِ هيْكَلٌ علىٰ صورةِ الشخصِ المسحورِ ، ويُترصَّدُ لهُ في وقْتٍ مخصوصٍ في المطالعِ ، ويُقْرَنُ بهِ كلماتٌ يُتلفَّظُ بها مِنَ الكفرِ والفحْشِ المخالفِ للشرعِ ، ويُتوصَّلُ بسببِها إلى الاستعانةِ بالشياطينِ ، ويحصُلُ مِنْ مجموعِ ذلكَ ـ بحكمِ إجراءِ اللهِ تعالى العادةَ ـ أحوالٌ غريبةٌ في الشخصِ المسحورِ .

ومعرفةُ هٰذهِ الأسبابِ مِنْ حيثُ إنَّها معرفةٌ ليستْ مذمومةً ، ولكنَّها ليستْ تصلُحُ إلا للإضرارِ بالخلْقِ ، والوسيلةُ إلى الشرِّ شرٌّ ؛ فكانَ ذلكَ هوَ السببَ في كونِهِ مذموماً ، بلْ مَنِ اتبعَ ولياً من أولياءِ اللهِ ليقتلَهُ وقدِ اختفىٰ منهُ في موضعٍ حريزٍ[2] إذا سألَ الظالمُ عَنْ محلِّهِ . . لم يجزْ تنبيهُهُ عليهِ ، بلْ وجبَ الكذبُ فيهِ ، وذكرُ موضعِهِ إرشادٌ وإفادةُ علمٍ بالشيءِ علىٰ ما هوَ عليهِ ، ولكنَّهُ مذمومٌ ؛ لأدائِهِ إلى الضررِ .

❊ ❊ ❊

السببُ الثاني : أنْ يكونَ مضرّاً بصاحبِهِ في غالبِ الأمرِ ؛ كعلمِ النجومِ ؛ فإنَّهُ في نفسِهِ غيرُ مذمومٍ لذاتِهِ ، إذْ هوَ قسمانِ :

---

(١) رواه البخاري (٣١٧٥) ، ومسلم (٢١٨٩) .
(٢) حريز : منيع .

قسمٌ حسابيٌّ : وقدْ نطقَ القرآنُ بأنَّ مسيرَ الشمسِ والقمرِ محسوبٌ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ، وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ .

والثاني الأحكامُ : وحاصلُهُ يرجعُ إلى الاستدلالِ على الحوادثِ بالأسبابِ ، وهوَ يضاهي استدلالَ الطبيبِ بالنبْضِ علىٰ ما سيحدثُ مِنَ المرضِ ، وهو معرفةٌ بمجاري سنَّةِ اللهِ تعالىٰ وعادتِهِ في خلقِهِ ، ولكنْ ذمَّهُ الشرعُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ذُكِرَ القَدَرُ . . فأمسكُوا ، وإذا ذُكِرَتِ النجُومُ . . فأمسكُوا ، وإذا ذُكِرَ أصحابي . . فأمسكُوا »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخافُ علىٰ أُمَّتي بعدي ثلاثاً : حَيْفُ الأئِمَّةِ ، وإيمانٌ بالنجُومِ ، وتكذيبٌ بالقَدَرِ »[2] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا مِنَ النجومِ ما تهتدونَ بهِ في البرِّ والبحرِ ثمَّ أمسكُوا)[3] .

وإنَّما زُجِرَ عنهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ مضرٌّ بأكثرِ الخلقِ ؛ فإنَّهُ إذا أُلقيَ إليهِمْ أنَّ هٰذهِ الآثارَ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٨) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٨٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٦٢) .

تحدثُ عقيبَ سيرِ الكواكبِ . . وقعَ في نفوسِهِمْ أنَّ الكواكبَ هيَ المؤثرةُ ، وأنَّها الآلهةُ المدبِّرةُ ؛ لأنَّها جواهرُ شريفةٌ سماويةٌ ، يعظُمُ وقعُها في القلوبِ ، فيبقَى القلبُ ملتفتاً إليها ، ويرى الخيرَ والشرَّ مرجوّاً ومحذوراً مِنْ جهتِها ، وينمحي ذكرُ اللهِ تعالىٰ عَنِ القلبِ ، فإنَّ الضعيفَ يقصُرُ نظرُهُ على الوسائطِ ، والعالِمُ الراسخُ هو الذي يطَّلِعُ علىٰ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٌ بأمرِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

ومثالُ نظرِ الضعيفِ إلىٰ حصولِ ضوءِ الشمسِ عَقيبَ طلوعِ الشمسِ مثالُ النملةِ لو خُلِقَ لها عقْلٌ وكانتْ علىٰ سطْحِ قرطاسٍ وهيَ تنظرُ إلىٰ سوادِ الخطِّ يتجدَّدُ ، فتعتقدُ أنَّهُ فعلُ القلمِ ، ولا يترقَّىٰ نظرُها إلىٰ مشاهدةِ الإصبعِ ، ثمَّ منها إلى اليدِ ، ثمَّ منها إلى الإرادةِ المحرِّكَةِ لليدِ ، ثمَّ منها إلى الكاتبِ القادرِ المريدِ ، ثمَّ منه إلىٰ خالِقِ اليدِ والقدرةِ والإرادةِ ، فأكثرُ نظرِ الخلْقِ مقصورٌ على الأسبابِ القريبةِ السافلةِ ، مقطوعٌ عنِ الترقي إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ . هـٰذا أحدُ أسبابِ النهيِ عنِ النجومِ .

وثانيها : أنَّ أحكامَ النجومِ تخمينٌ محْضٌ ، ليسَ يُدرَكُ في حقِّ آحادِ الأشخاصِ لا يقيناً ولا ظنّاً ، فالحكمُ بهِ حكمٌ بجهلٍ ، فيكونُ ذمُّهُ علىٰ هـٰذا مِنْ حيثُ إنَّهُ جهْلٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ علْمٌ .

ولقدْ كانَ ذلكَ معجزةً لإدريسَ عليهِ السلامُ فيما يُحكىٰ[1] ، وقدِ اندرسَ

---

(١) وحملوا عليه الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » (٥٣٧) : « كان نبي من الأنبياء =

ذلكَ العلمُ وانمحقَ ، وما يتفقُ مِنْ إصابةِ المنجِّمِ علىٰ ندورٍ . . فهوَ اتفاقٌ ؛ لأنَّهُ قدْ يطَّلِعُ علىٰ بعضِ الأسبابِ ولا يحصلُ المسبَّبُ عقيبَها إلا بعدَ شروطٍ كثيرةٍ ليسَ في قدرةِ البشرِ الاطلاعُ علىٰ حقائِقِها ، فإنِ اتفقَ أنْ قدَّرَ اللهُ تعالىٰ بقيَّةَ الأسبابِ . . وقعتِ الإصابةُ ، وإنْ لم يقدِّرْ . . أخطأَ .

ويكونُ ذلكَ كتخمينِ الإنسانِ في أنَّ السماءَ تمطِرُ اليومَ مهما رأى الغيمَ يجتمعُ وينبعثُ مِنَ الجبالِ ، فيتحرَّكُ ظنُّهُ بذلكَ ، وربَّما يَحمى النهارُ بالشمسِ ويتبدَّدُ الغيمُ ، وربَّما يكونُ بخلافِهِ ، ومجرَّدُ الغيمِ ليسَ كافياً في مجيءِ المطرِ ، وبقيَّةُ الأسبابِ لا تُدْرَىٰ ، وكذلكَ تخمينُ الملاّحِ أنَّ السفينةَ تسلَمُ اعتماداً علىٰ ما ألفَهُ مِنَ العادةِ في الرياحِ ، ولتلكَ الرياحِ أسبابٌ خفيَّةٌ هوَ لا يطلعُ عليها ، فتارةً يصيبُ في تخمينِهِ ، وتارةً يخطىءُ ، ولهـٰذِهِ العلَّةِ يُمنعُ القويُّ[1] عنِ النجومِ أيضاً .

وثالثُها : أنَّهُ لا فائدةَ فيهِ ، فأقلُّ أحوالِهِ أنَّهُ خوضٌ في فضولٍ لا يغني ، وتضييعُ العمرِ الذي هوَ أنفسُ بضاعةِ الإنسانِ بغيرِ فائدةٍ غايةُ الخسرانِ ؛ فقدْ مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ والناسُ مجتمعونَ عليهِ ، فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » فقالوا : رجلٌ علاّمةٌ ، فقالَ : « بماذا ؟ » قالوا : بالشعرِ

= يخط ، فمن وافق خطَّه . . فذاك » ، قيل : هو إدريس عليه السلام ، وقيل : المراد بالخط علم النجوم أو علم الرمل . انظر « فيض القدير » (٤/ ٥٤٥) .

(١) أي : في إيمانه واعتقاده .

وأنسابِ العربِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عِلمٌ لا ينفعُ ، وجهلٌ لا يضُرُّ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما العلمُ آيةٌ محكمةٌ ، أو سنَّةٌ قائمةٌ ، أو فريضةٌ عادلةٌ »[2] .

فإذاً ؛ الخوضُ في النجومِ وما يشبهُهُ اقتحامُ خطَرٍ ، وخوضٌ في جهالةٍ مِنْ غيرِ فائدةٍ، فإنَّ ما قُدِّرَ كائنٌ، والاحترازُ منهُ غيرُ ممكِنٍ ، بخلافِ الطبِّ؛ فإنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ إليهِ ، وأكثرُ أدلتِهِ ممَّا يُطَّلَعُ عليهِ ، وبخلافِ التعبيرِ وإنْ كانَ تخميناً ؛ لأنَّهُ جزْءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوةِ ، ولا خطرَ فيهِ[3] .

السببُ الثالثُ : الخوضُ في علمٍ لا يستقلُّ الخائضُ فيهِ بهِ ، فإنَّهُ مذمومٌ في حقِّهِ ؛ كتعلُّمِ دقيقِ العلومِ قبلَ جليلِهَا ، وخفيِّها قبل جليِّها ، وكالبحثِ عنِ الأسرارِ الإلهيَّةِ ؛ إذْ تطلَّعَ الفلاسفةُ والمتكلمونَ إليها ولمْ يستقلُّوا بها ، ولا يستقلُّ بها وبالوقوفِ علىٰ طُرُقِ بعضِها إلا الأنبياءُ والأولياءُ ، فيجبُ كفُّ الناسِ عنِ البحثِ عنها ، وردُّهم إلىٰ ما نطقَ الشرعُ بهِ ، ففي ذلكَ مَقْنَعٌ

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٥) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٤ ، ١٣٨٦) ، وأصله عند أبي داوود (٢٨٨٥) ، وابن ماجه (٥٤) .
(٣) لما رواه البخاري (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

للموفَّقِ ، وكمْ مِنْ شخصٍ خاضَ في العلومِ واستضرَّ بذلكَ ! ولوْ لمْ يخضْ فيها . . لكانَ حالُهُ أحسنَ في الدينِ ممَّا صارَ إليهِ .

ولا يُنكرُ كونُ العلمِ ضارّاً لبعضِ الناسِ ؛ كما يضرُّ لحمُ الطيرِ وأنواعُ الحلاواتِ اللطيفةِ بالصبيِّ الرضيعِ ، بلْ ربَّ شخصٍ ينفعُهُ الجهلُ ببعضِ الأمورِ .

فلقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الناسِ شكا إلىٰ طبيبٍ عُقْمَ امرأتِهِ ، وأنَّها لا تلدُ ، فجسَّ الطبيبُ نبضَها وقالَ لها : لا حاجةَ لكِ إلىٰ دواءِ الولادةِ ؛ فإنَّكِ ستموتينَ إلىٰ أربعينَ يوماً ، وقدْ دلَّ النبضُ عليهِ ، فاستشعرتِ المرأةُ خوفاً عظيماً ، وتنغَّصَ عليها عيشُها ؛ وأخرجتْ أموالَها وفرقتْها ، وأوصَتْ ، وبقيَتْ لا تأكلُ ولا تشربُ حتى انقضتِ المدَّةُ ، فلمْ تمتْ ، فجاءَ زوجُها إلى الطبيبِ وقالَ لهُ : لمْ تمتْ ، فقالَ الطبيبُ : علمتُ ذلكَ ، فجامعْها الآنَ ، فإنَّها تلدُ ، فقالَ : كيفَ ذلكَ ؟ قال : رأيتُها سمينةً وقدِ انعقدَ الشحْمُ علىٰ فَمِ رَحِمِها ، فعلمتُ أنَّها لا تهزلُ إلا بخوفِ الموتِ ، فخوَّفْتُها بذلكَ حتَّىٰ هُزِلَتْ ، وزالَ المانعُ مِنَ الولادةِ .

فهٰذا ينبِّهُكَ على استشعارِ خطرِ بعضِ العلومِ ، ويُفهمُكَ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ علمٍ لا ينفعُ »[1] .

فاعتبرْ بهٰذهِ الحكايةِ ، ولا تكنْ بحّاثاً عن علومٍ ذمَّها الشرعُ وزجرَ

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

عنها ، ولازمِ الاقتداءَ بالصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، واقتصرْ على اتباعِ السنَّةِ ، فالسلامةُ في الاتباعِ ، والخطرُ في البحثِ والاستقلالِ ، ولا تكثرِ التبجُّحَ برأيِكَ ومعقولِكَ ، ودليلِكَ وبرهانِكَ ، وزعمِكَ : أنِّي أبحثُ عَنِ الأشياءِ لأعرفَها علىٰ ما هيَ عليهِ ، فأيُّ ضررٍ عليَّ في التفكُّرِ في العلمِ ؟ فإنَّ ما يعودُ عليكَ مِنْ ضررِهِ أكثرُ ، وكمْ مِنْ شيءٍ تطَّلِعُ عليهِ فيضرُّكَ اطلاعُكَ ضرراً يكادُ يهلكُكَ في الآخرةِ إنْ لمْ يتداركْكَ اللهُ برحمتِهِ .

واعلمْ : أنَّهُ كما يطلعُ الطبيبُ الحاذقُ علىٰ أسرارٍ في المعالجاتِ يستبعدُها مَنْ لا يعرفُها . . فكذلكَ الأنبياءُ أطباءُ القلوبِ والعلماءُ بأسبابِ الحياةِ الأُخرويةِ ، فلا تتحكَّمْ علىٰ سنَّتِهِمْ بمعقولِكَ فتهلِكَ ، فكمْ مِنْ شخصٍ يصيبُهُ عارضٌ في إصبعِهِ فيقتضي عقلُهُ أنْ يطليَهُ ، حتَّىٰ ينبهَهُ الطبيبُ الحاذقُ أنَّ علاجَهُ أنْ يُطلَى الكتفُ مِنَ الجانبِ الآخرِ مِنَ البدنِ ، فيستبعدُ ذلكَ غايةَ الاستبعادِ مِنْ حيثُ لا يعلمُ كيفيةَ انشعابِ الأعصابِ ومنابتَها ووجهَ التفافِها على البدنِ ، فهكذا الأمرُ في طريقِ الآخرةِ .

وفي دقائقِ سننِ الشرعِ وآدابِهِ ، وفي عقائدِهِ التي تعبَّدَ الناسَ بها . . أسرارٌ ولطائفُ ليسَ في سَعةِ العقلِ وقوَّتِهِ الإحاطةُ بها ؛ كما أنَّ في خواصِّ الأحجارِ أموراً عجائبَ غابَ عنْ أهلِ الصنعَةِ علمُها ، حتَّىٰ لمْ يقدرْ أحدٌ علىٰ أنْ يعرفَ السببَ الذي بهِ يجذِبُ المغناطيسُ الحديدَ .

والعجائبُ والغرائبُ في العقائدِ والأعمالِ ، وإفادتِها لصفاءِ القلوبِ

ونقائِها وطهارتِها ، وتزكيتِها وإصلاحِها للترقِّي إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ ، وتعريضِها لنفحاتِ فضلِهِ . . أكثرُ وأعظمُ ممَّا في الأدويةِ والعقاقيرِ ، وكما أنَّ العقولَ تقصُرُ عنْ إدراكِ منافعِ الأدويةِ مع أنَّ التجربةَ سبيلٌ إليها . . فالعقولُ تقصرُ عنْ إدراكِ ما ينفعُ في حياةِ الآخرةِ مع أنَّ التجربةَ غيرُ متطرِّقةٍ إليها ، وإنَّما كانتِ التجرِبَةُ تتطرَّقُ إليها لوْ رجعَ إلينا بعضُ الأمواتِ فأخبرَنا عنِ الأعمالِ المقبولَةِ النافعةِ المقرِّبَةِ إلى اللهِ تعالىٰ زُلْفَىٰ ، وعنِ الأعمالِ المبعِّدَةِ عنهُ ، وكذا عنِ العقائدِ ، وذلكَ لا مطمعَ فيهِ ، فيكفيكَ منْ منفعةِ العقلِ أنْ يهديَكَ إلىٰ صدْقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويفهمَكَ مواردَ إشاراتِهِ .

فاعزِلِ العقلَ بعدَ ذلكَ عنِ التصرُّفِ ، ولازمِ الاتباعَ فلا تسلَمُ إلا بهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ العلمِ جهلاً ، وإنَّ مِنَ القولِ عَيالاً »(١) ، ومعلومٌ أنَّ العلمَ لا يكونُ جهلاً ، ولكنَّهُ يؤثِّرُ تأثيرَ الجهْلِ في الإضرارِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « قليلٌ مِنَ التوفيقِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العلمِ »(٢) .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠١٢) ، **والعيال في الحديث** : عرضك للكلام علىٰ من ليس من شأنه ولا يريده ، وقال الحافظ المناوي في « التيسير » (١/ ٣٤٥) : (أي : ملالاً ، فالسامع إما عالم فيملُّ ، أو جاهل فلا يفهم فيسأم ، وهو من عال العالة يعيل عيلاً وعيالاً بالفتح ، إذا لم يدرِ أيَّ جهة يبغيها) . وجاء في بعض النسخ : (عِيّاً) بدل (عيالاً) ، وهو نصُّ « القوت » (١/ ١٣١) .

(٢) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٣١) بقوله : (وفي الخبر الآخر) وذكره ، =

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (ما أكثرَ الشجرَ وليسَ كلُّها بمثمرٍ ، وما أكثرَ الثمرَ وليسَ كلُّها بطيِّبٍ ، وما أكثرَ العلومَ وليسَ كلُّها بنافعٍ !!)[1] .

* * *

= والمصنف تبعه علىٰ ذلك ، وبنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٠/٣٤٨) بلفظ : « قليل التوفيق خير من كثير العقل . . . » .

(١) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (ص٦٨) بلفظ : (ويلكم يا عبيد الدنيا ؛ ماذا يغني عن الأعمىٰ سعة نور الشمس وهو لا يبصرها ؟ ! كذلك لا يغني عن العالم كثرة علمه إذا لم يعمل به ، ما أكثر أثمار الشجر وليس كلها ينفع ، ولا يؤكل ! ! وما أكثر العلماء وليس كلكم ينتفع بما علم . . .) . وأورده بلفظه الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٤/١٢٣) .

بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم

اعلمْ : أنَّ منشأَ التباسِ العلومِ المذمومةِ بالعلومِ الشرعيَّةِ تحريفُ الأسامي المحمودةِ وتبديلُها ، ونقلُها بالأغراضِ الفاسدةِ إلىٰ معانٍ غيرِ ما أرادَهُ السلفُ الصالحُ والقرْنُ الأوَّلُ ، وهيَ خمسةُ ألفاظٍ : **الفقهُ** ، **والعلمُ** ، **والتوحيدُ** ، **والتذكيرُ** ، **والحكمةُ** .

فهٰذهِ أسامٍ محمودةٌ ، والمتصفونَ بها أربابُ المناصبِ في الدينِ ، ولكنَّها نقلتِ الآنَ إلىٰ معانٍ مذمومةٍ ، فصارتِ القلوبُ تنفرُ عنْ مذمَّةِ مَنْ يتَّصِفُ بمعانيها ؛ لشيوعِ إطلاقِ هٰذهِ الأسامي عليهِمْ .

اللفظُ الأوَّلُ : الفقهُ :

فقدْ تصرَّفوا فيهِ بالتخصيصِ لا بالنقلِ والتحويلِ ؛ إذْ خصَّصُوهُ بمعرفةِ الفروعِ الغريبةِ في الفتاوىٰ ، والوقوفِ علىٰ دقائقِ عللِها ، واستكثارِ الكلامِ فيها ، وحِفْظِ المقالاتِ المتعلِّقةِ بها ، فمَنْ كانَ أشدَّ تعمُّقاً فيها وأكثرَ اشتغالاً بها . . يقالُ : هوَ الأفقهُ .

ولقدْ كانَ اسمُ الفقهِ في العصْرِ الأوَّلِ مطلقاً علىٰ علمِ طريقِ الآخرةِ ، ومعرفةِ دقائقِ آفاتِ النفوسِ ومفسداتِ الأعمالِ ، وقوَّةِ الإحاطةِ بحقارةِ الدنيا ، وشدَّةِ التطلُّعِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ ، واستيلاءِ الخوفِ على القلبِ .

ويدلُّكَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وما بهِ الإنذارُ والتخويفُ هوَ هـٰذا الفقهُ ، دونَ تفريعاتِ الطلاقِ والعتاقِ واللعانِ والسلَمِ والإجارةِ ؛ فذلكَ لا يحصلُ بهِ إنذارٌ ولا تخويفٌ ، بلِ التجرُّدُ لهُ على الدوامِ يقسِّي القلبَ ، وينزعُ الخشيةَ منهُ كما يُشاهدُ الآنَ مِنَ المتجرِّدينَ لهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ، وأرادَ بهِ معانيَ الإيمانِ دونَ الفتاوىٰ .

ولعمري ؛ الفقهُ والفهمُ في اللغةِ اسمانِ بمعنىً واحدٍ ، وإنَّما نتكلَّمُ في عادةِ الاستعمالِ قديماً وحديثاً ، قالَ تعالىٰ : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ ، فأحالَ قلَّةَ خوفِهم مِنَ اللهِ واستعظامَهُمْ سطوةَ الخلقِ علىٰ قلَّةِ الفقهِ .

فانظرْ إنْ كانَ ذلكَ نتيجةَ عدمِ الحفظِ لتفريعاتِ الفتاوىٰ ، أوْ هوَ نتيجةُ عدمِ ما ذكرناهُ مِنَ العلومِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ حكماءُ فقهاءُ »(1) للذينَ وفدوا عليهِ .

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٢٠٠) بلفظ : « علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء » .

وسُئِلَ سعدُ بنُ إبراهيمَ الزهريُّ : أيُّ أهلِ المدينةِ أفقهُ ؟ فقالَ : أتقاهمْ للهِ تعالىٰ[1] . فكأنَّهُ أشارَ إلىٰ ثمرةِ الفقهِ ، والتقوىٰ ثمرةُ العلمِ الباطنِ دونَ الفتاوىٰ والأقضيةِ .

وقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أنبئُكُمْ بالفقيهِ كُلِّ الفقيهِ ؟ » قالوا : بلىٰ ، قالَ : « مَنْ لمْ يُقنِّطِ الناسَ مِنْ رحمةِ اللهِ ، ولمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، ولمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ ، ولمْ يَدَعِ القرآنَ رَغْبَةً عنهُ إلىٰ ما سواهُ »[2] .

ولمَّا رَوَىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ أَقْعُدَ معَ قومٍ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ مِنْ غُدْوَةٍ إلىٰ طلوعِ الشمسِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ أربعَ رقابٍ »[3] . . قالَ : فالتفتَ إلىٰ يزيدَ الرَّقاشيِّ وزيادٍ النميريِّ وقالَ : لمْ تكنْ مجالسُ الذكرِ مثلَ مجالسِكُمْ هٰذهِ ، يَقُصُّ أحدُكُمْ ويخطبُ علىٰ أصحابِهِ ويسردُ الحديثَ سرداً ، إنَّما كنَّا نقعدُ فنذْكُرُ الإيمانَ ، ونتدبَّرُ القرآنَ ، ونتفقَّهُ في الدينِ ، ونعدُّ نعمَ اللهِ علينا[4] .

فسمَّىٰ تدبُّرَ القرآنِ وعَدَّ النعمِ تفقُّهاً .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٠) مرفوعاً ، وهو في « سنن الدارمي » (٣٠٥) ، وغيره موقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو داوود (٣٦٦٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَفْقَهُ العبدُ كُلَّ الفقْهِ حتَّىٰ يَمْقُتَ الناسَ في ذاتِ اللهِ ، وحتَّىٰ يرىٰ للقرآنِ وجُوهاً كثيرةً » ، ورُوِيَ أيضاً موقوفاً علىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ معَ قولِهِ : « ثُمَّ يُقْبِلُ علىٰ نفسهِ فيكونُ لها أشَدَّ مقتاً »[1] .

وسألَ فَرْقَدٌ السَّبَخِيُّ الحسنَ عنْ شيءٍ ، فأجابَهُ ، فقالَ : إنَّ الفقهاءَ يخالفونَكَ ، فقالَ الحسنُ : ثَكِلَتكَ أمُّكَ فُرَيقِدُ ؛ وهلْ رأيتَ فقيهاً بعينِكَ ؟! إنَّما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا ، الراغبُ في الآخرةِ ، البصيرُ بدينِهِ ، المداومُ علىٰ عبادةِ ربِّهِ ، الورِعُ الكافُّ عن أعراضِ المسلمينَ ، العفيفُ عنْ أموالِهِمْ ، الناصحُ لجماعتِهِمْ[2] . ولمْ يقلْ في جميعِ ذلكَ : الحافظُ لفروعِ الفتاوىٰ .

ولستُ أقولُ : إنَّ اسمَ الفقهِ لمْ يكنْ متناولاً للفتاوىٰ في الأحكامِ الظاهرةِ ، ولكنْ كانَ بطريقِ العمومِ والشمولِ ، أوْ بطريقِ الاستتباعِ[3] ، وكانَ إطلاقُهُمْ لهُ علىٰ علمِ الآخرةِ أكثرَ ، فثارَ[4] مِنْ هـٰذا التخصيصِ تلبيسٌ بعثَ الناسَ على التجرُّدِ لهُ ، والإعراضِ عنْ علمِ الآخرةِ وأحكامِ القلبِ ،

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٥ ، ١٥١٦) مرفوعاً وموقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصحَّح الوقف .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٣) .
(٣) أي : يجعل علم الفتاوىٰ تابعاً لبقية علوم الآخرة . « إتحاف » (١/ ٢٣٥) .
(٤) ثار : قام منه وانبعث .

ووجدوا علىٰ ذلكَ معيناً مِنَ الطبعِ ؛ فإنَّ علمَ الباطنِ غامضٌ ، والعملَ بهِ عسيرٌ ، والتوصُّلَ بهِ إلىٰ طلبِ الولايةِ والقضاءِ والجاهِ والمالِ متعذِّرٌ ، فوجدَ الشيطانُ مجالاً لتحسينِ ذلكَ في القلوبِ بواسطةِ تخصيصِ اسمِ الفقهِ الذي هوَ اسمٌ محمودٌ في الشرعِ .

* * *

اللفظُ الثاني : العلمُ :

وقدْ كانَ يُطلقُ ذلكَ على العلمِ باللهِ تعالىٰ وبآياتِهِ وأفعالِهِ في عبادِهِ وخلقِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ماتَ تسعةُ أعشارِ العلمِ) ، فعرَّفَهُ بالألفِ واللامِ ، ثمَّ فسَّرَهُ بالعلمِ باللهِ سبحانَهُ كما سبقَ .

وقدْ تصرَّفوا فيهِ أيضاً بالتخصيصِ ، حتَّىٰ شهرُوهُ في الأكثرِ بمنْ يشتغلُ بالمناظرةِ معَ الخصومِ في المسائلِ الفقهيةِ وغيرِها ، فيقالُ : هوَ العالمُ على الحقيقةِ ، وهوَ الفحلُ في العلمِ ، ومَنْ لا يمارسُ ذلكَ ، ولا يشتغلُ بهِ . . يُعدُّ مِنْ جملةِ الضعفاءِ ، ولا يعدُّونَهُ في زمرةِ أهلِ العلمِ ، وهـٰذا أيضاً تصرُّفٌ بالتخصيصِ ، ولكنْ ما وردَ منْ فضائلِ العلمِ والعلماءِ أكثرُهُ في العلماءِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبأحكامِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ .

وقدْ صارَ الآنَ يُطلقُ علىٰ مَنْ لا يحيطُ من علومِ الشرعِ بشيءٍ سوىٰ رسومٍ جدليَّةٍ في مسائلَ خلافيَّةٍ ، فيُعدُّ بذلكَ من فحولِ العلماءِ ، معَ جهلِهِ بالتفسيرِ

والأخبارِ وعلْمِ المذهبِ وغيرِهِ ، وصارَ ذلكَ سبباً مهلِكاً لخلْقٍ كثيرٍ مِنَ الطلبةِ .

* * *

اللفظُ الثالثُ : التوحيدُ :

وقدْ جُعِلَ الآنَ عبارةً عَنْ صناعةِ الكلامِ ، ومعرفةِ طريقِ المجادلةِ ، والإحاطةِ بطرقِ مناقضاتِ الخصومِ ، والقدرةِ على التشدُّقِ فيها بتكثيرِ الأسئلةِ وإثارةِ الشبهاتِ ، وتأليفِ الإلزاماتِ ، حتَّىٰ لَقَّبَ طوائفُ منهمْ أنفسَهمْ بأهلِ العدْلِ والتوحيدِ[1] ، وسُمِّيَ المتكلمونَ العلماءَ بالتوحيدِ ، معَ أنَّ جميعَ ما هوَ خاصيَّةُ هـٰذهِ الصناعةِ لمْ يكنْ يُعرفُ منها شيءٌ في العصرِ الأوَّلِ ، بلْ كانَ يشتدُّ النكيرُ منهُمْ علىٰ مَنْ يفتحُ باباً مِنَ الجدلِ والمماراةِ ، فأمَّا ما يشتملُ عليهِ القرآنُ مِنَ الأدلَّةِ الظاهرةِ التي تسبقُ الأذهانُ إلىٰ قبولِها في أوَّلِ السماعِ . . فلقدْ كانَ ذلكَ معلوماً للكُلِّ .

وكانَ العلْمُ بالقرآنِ هوَ العلمَ كلَّهُ ، وكانَ التوحيدُ عندَهُمْ عبارةً عنْ أمرٍ آخرَ لا يفهمُهُ أكثرُ المتكلِّمينَ ، وإنْ فهموهُ . . لمْ يتَّصِفُوا بهِ ؛ وهوَ أنْ يرى الأمورَ كلَّها مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ رؤيةً تقطَعُ التفاتَهُ عَنِ الأسبابِ والوسائطِ ، فلا يرى الخيرَ والشرَّ إلا منهُ جلَّ جلالُهُ ، وهـٰذا مقامٌ شريفٌ إحدىٰ ثمراتِهِ التوكُّلُ ، كما سيأتي بيانُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

---

(١) وهم المعتزلة .

ومِنْ ثمراتِهِ : تركُ شكايَةِ الخلْقِ ، وتركُ الغضَبِ عليهِمْ ، والرضا والتسليمُ لحكْمِ اللهِ تعالىٰ .

وكانَ إحدىٰ ثمراتِهِ قولُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا قيلَ لهُ في مرضِهِ : أنطلُبُ لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطبيبُ أمرضني[1] .

وقولُ آخرُ لأبي بكرٍ لما مرضَ فقيلَ لهُ : ماذا قالَ لكَ الطبيبُ في مرضِكَ ؟ فقالَ : قالَ لي : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ[2] .

وسيأتي شواهدُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

وكانَ التوحيدُ جوهراً نفيساً ، **ولهُ قِشْرانِ** ، أحدُهما أبعدُ عنِ **اللُّبِّ** منَ الآخرِ ، فخصَّصَ الناسُ الاسمَ بالقشرِ وبصنْعَةِ الحراسةِ للقشْرِ ، وأهملُوا اللُّبَّ بالكليةِ :

فالقشرُ الأوَّلُ : أنْ تقولَ بلسانِكَ : (لا إلـهَ إلا اللهُ) ، وهـذا يسمَّىٰ توحيداً مناقضاً للتثليثِ الذي يصرِّحُ بهِ النصارىٰ ، ولكنَّهُ قدْ يصدُرُ مِنَ المنافقِ الذي يخالفُ سرُّهُ جهرَه .

والقشرُ الثاني : ألا يكونَ في القلبِ مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهومِ هـذا القولِ ،

---

(١) نُسب هـذا القول لغير واحد من الصحابة ، وأكثر الروايات عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كما رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٢٣٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٤) .

بلْ يشتملُ ظاهرُ القلبِ على اعتقادِ ذلكَ والتصديقِ بهِ ، وهوَ توحيدُ عوامِّ الخلقِ ، والمتكلمونَ ـ كما سبقَ ـ حرّاسُ هـٰذا القشْرِ عنْ تشويشِ المبتدعةِ .

والثالثُ وهوَ اللبابُ : أنْ يرى الأمورَ كلَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ رؤيةً تقطَعُ التفاتَهُ عَنِ الوسائطِ ، وأنْ يعبدَهُ عبادةً يفردُهُ بها فلا يعبدُ غيرَهُ ، ويخرجُ عنْ هـٰذا التوحيدِ أتباعُ الهوىٰ ، فكُلُّ مَنِ اتَّبعَ هواهُ فقدْ اتَّخذَ هواهُ معبودَهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ إلـٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالىٰ هوَ الهوَىٰ »(١) .

وعلى التحقيقِ : مَنْ تأمَّلَ . . عَرَفَ أنَّ عابدَ الصنمِ ليسَ يعبدُ الصنمَ ، إنَّما يعبدُ هواهُ ؛ إذْ نفسُهُ مائلةٌ إلىٰ دينِ آبائِهِ ، فيتَّبعُ ذلكَ الميلَ ، وميلُ النفسِ إلى المألوفاتِ أحدُ المعاني التي يعبَّرُ عنها بالهوىٰ .

ويخرجُ مِنْ هـٰذا التوحيدِ السخْطُ على الخلقِ والالتفاتُ إليهِمْ ؛ فإنَّ مَنْ يرى الكلَّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كيفَ يسخطُ علىٰ غيرِهِ ؟! فلقدْ كانَ التوحيدُ عبارةً عَنْ هـٰذا المقامِ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ الصدِّيقينَ .

فانظرْ إلىٰ ماذا حُوِّل ، وبأيِّ قشْرٍ قُنِّعَ ، وكيفَ اتُّخِذَ هـٰذا معتصماً في التمدُّحِ والتفاخرِ بما اسمُهُ محمودٌ معَ الإفلاسِ عَنِ المعنى الذي يستحقُّ الحمدَ الحقيقيَّ ؟!

وذلكَ كإفلاسِ مَنْ يصبحُ بكرةً ويتوجَّهُ إلى القبلةِ ويقولُ : (وجهتُ

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ١٠٣) بنحوه .

وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ حنيفاً) ، وهوَ أوَّلُ كذبٍ يفاتحُ اللهَ بهِ كلَّ يومٍ إنْ لمْ يكنْ وَجْهُ قلبهِ متوجِّهاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على الخصوصِ ؛ فإنَّهُ إنْ أرادَ بالوجْهِ وجهَ الظاهرِ . . فما وجَّهَهُ إلا إلى الكعبةِ ، وما صرفَهُ إلا عنْ سائرِ الجهاتِ ، والكعبةُ ليستْ جهةً للذي فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حتَّىٰ يكونَ المتوجِّهُ إليها متوجهاً إليهِ ، تعالىٰ عنْ أنْ تحدَّهُ الجهاتُ والأقطارُ .

وإنْ أرادَ بهِ وجْهَ القلْبِ ـ وهوَ المطلوبُ المتعبَّدُ بهِ ـ فكيفَ يصدقُ قولُهُ وقلبُهُ متردِّدٌ في أوطارهِ وحاجاتِهِ الدنيويةِ ، ومتصرِّفٌ في طلبِ الحيلِ في جمْعِ المالِ والجاهِ واستكثارِ الأسبابِ ، ومتوجِّهٌ بالكليةِ إليها ، فمتىٰ وجَّهَ وجهَهُ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ ؟!

وهـٰذهِ الكلمةُ خبرٌ عَنْ حقيقةِ التوحيدِ ، فالموحِّدُ هوَ الذي لا يرىٰ إلا الواحدَ الحقَّ ، ولا يتوجَّهُ وجهُهُ إلا إليهِ ، وهوَ امتثالُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ ، وليسَ المرادُ بهِ القولَ باللسانِ ، إنَّما اللسانُ تَرْجُمانٌ يصدقُ مرَّةً ويكذبُ أخرىٰ ، وإنَّما موقعُ نظرِ اللهِ تعالىٰ هوَ المترجَمُ عنهُ ، وهوَ القلبُ ؛ فهوَ معدِنُ التوحيدِ ومنبعُهُ .

* * *

اللفظُ الرابعُ : الذكرُ والتذكيرُ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقدْ وردَ في الثناءِ علىٰ مجالسِ الذكرِ أخبارٌ كثيرةٌ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ

وسلَّمَ : « إذا مررتُمْ برياضِ الجنةِ . . فارتَعُوا » ، قيلَ : وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قالَ : « مجالسُ الذِّكْرِ »[1] .

وفي الحديثِ : « إنَّ للهِ ملائكةً سيَّاحينَ في الهواءِ سِوَىٰ ملائكةِ الخلقِ ، إذا رَأَوْا مجالِسَ الذِّكْرِ . . يُنادِي بعضُهُمْ بعضاً : ألا هَلُمُّوا إلىٰ بُغْيَتِكُمْ ، فيأْتُونَهُمْ ويحَفُّونَ بهِمْ ويستمعُونَ ، ألا فاذْكُرُوا اللهَ وذَكِّرُوا أنفسَكُمْ »[2] .

فنُقِلَ ذلكَ إلىٰ ما ترىٰ أكثرَ الوعَّاظِ في هٰذا الزمانِ يواظبونَ عليهِ ؛ وهوَ **القصصُ ، والأشعارُ ، والشطْحُ ، والطَّامَّاتُ** .

أمَّا القصصُ : فهيَ بدعةٌ ؛ وقدْ وردَ نهيُ السلفِ عَنِ الجلوسِ إلى القُصَّاصِ ، وقالوا : لمْ يكنْ ذلكَ في زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا في زمانِ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، حتَّىٰ ظهرتِ الفتنةُ وظهرَ القصَّاصُ[3] .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما خرجَ من المسجدِ وقالَ : (ما أخرجَني إلا القاصُّ ، ولولاهُ . . لما خرجتُ)[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) بنحوه .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٥٤) ، وفي « مسند أحمد » (٣/ ٤٤٩) أن أول من قصَّ تميم الداري رضي الله عنه . وقد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أن يقص قائماً فأذن له ، والقص المذموم إنما حدث بعد الفتنة عقب مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥١) .

وقالَ ضمْرَةُ : (قلتُ لسفيانَ الثوريِّ : نستقبلُ القاصَّ بوجوهِنا ؟ فقالَ : وَلُّوا البدعَ ظُهورَكُمْ)[1] .

وقالَ ابنُ عوْنٍ : (دخلتُ على ابنِ سيرينَ فقالَ : ما كانَ اليومَ مِنْ خبرٍ ؟ فقلتُ : نهى الأميرُ القصَّاصَ أنْ يقصُّوا)[2] .

ودخلَ الأعمشُ جامعَ البصرةِ، فرأىٰ قاصّاً يقصُّ وهوَ يقولُ: (حدَّثنا الأعمشُ، فتوسَّطَ الحلْقَةَ وجعلَ ينتفُ شعرَ إبْطِهِ ، فقالَ القاصُّ : يا شيخُ ؛ ألا تستحيي ؟! فقالَ : لِمَ ؟ أنا في سُنَّةٍ وأنتَ في كذبٍ، أنا الأعمشُ وما حدثتُكَ !)[3] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (أكثرُ الناسِ كذباً القُصَّاصُ والسُّؤَّالُ)[4] .

وأخرجَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ القصَّاصَ مِنْ مسجدِ جامعِ البصرةِ ، ولمَّا سمعَ كلامَ الحسنِ البصريِّ . . لمْ يخرجْهُ[5]؛ إذْ كانَ يتكلَّمُ في علْمِ الآخرةِ ، والتذكيرِ بالموتِ ، والتنبيهِ علىٰ عيوبِ النفسِ وآفاتِ الأعمالِ وخواطرِ الشيطانِ ووجهِ الحذرِ منها، ويذكِّرُ بآلاءِ اللهِ ونعمائِهِ، وتقصيرِ العبدِ في شكرِهِ ، ويعرِّفُ حقارةَ الدنيا وعيوبَها وتصرُّمَها وقلَّةَ عهدِها ، وخطرَ الآخرةِ وأهوالَها .

فهٰذا هوَ التذكيرُ المحمودُ شرعاً ، الذي رُوِيَ الحثُّ عليهِ في حديثِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٨) .

أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : « حضورُ مجلِسِ ذِكْرٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وحضورُ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ عيادَةِ ألفِ مريضٍ ، وحضورُ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ شهودِ ألفِ جِنازَةٍ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ومِنْ قراءَةِ القرآنِ ؟ قالَ : « وهلْ تنفعُ قراءَةُ القرآنِ إلا بالعلْمِ ؟ »(١) .

وقالَ عطاءٌ رحمهُ اللهُ : (مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً من مجالسِ اللهوِ)(٢) .

فقدِ اتخذَ المزخرفونَ هـٰذهِ الأحاديثَ حجَّةً علىٰ تزكيةِ أنفسِهِمْ ، ونقلوا اسمَ التذكيرِ إلىٰ خرافاتِهِمْ ، وذَهِلُوا عنْ طريقِ الذكرِ المحمودِ ، واشتغلوا بالقصصِ التي تتطرَّقُ إليها الاختلافاتُ والزيادةُ والنقصُ ، وتخرجُ عَنِ القصصِ الواردةِ في القرآنِ وتزيدُ عليهِ ؛ فإنَّ مِنَ القصصِ ما ينفعُ سماعُهُ ، ومنها ما يضرُّ وإنْ كانَ صدقاً ، ومَنْ فتحَ ذلكَ البابَ علىٰ نفسِهِ . . اختلطَ عليهِ الصدقُ بالكذبِ ، والنافعُ بالضارِّ ؛ فلهـٰذا نُهِيَ عنهُ ، ولذلكَ قالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (ما أحوجَ الناسَ إلىٰ قاصٍّ صادقٍ !)(٣) .

فإنْ كانتِ القصَّةُ مِنْ قصصِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ فيما يتعلَّقُ بأمورِ دينِهِمْ ، وكانَ القاصُّ حاذقاً صحيحَ الروايةِ . . فلستُ أرىٰ بهِ بأساً .

---

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/١٤٩) ، وانظر « لسان الميزان » (١/٤٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (١/٩٩) .

(٢) قوت القلوب (١/١٤٩) .

(٣) قوت القلوب (١/١٥١) .

فليحذرِ الكذبَ وحكايةَ أحوالٍ تُومىءُ إلىٰ هفواتٍ أوْ مساهلاتٍ يقصُرُ فهمُ العوامِّ عَنْ دركِ معانيها ، أوْ عنْ كونِها هفوةً نادرةً مردفةً بتكفيراتٍ ومتداركَةً بحسناتٍ تُغطِّي عليها ؛ فإنَّ العاميَّ يعتصمُ بذلكَ في مساهلاتِهِ وهفواتِهِ ، ويُمهِّدُ لنفسِهِ عذراً فيهِ ، ويحتجُّ بأنَّهُ حُكِيَ كيتَ وكيتَ عنْ بعضِ المشايخِ وبعضِ الأكابرِ ، وكلُّنا بصددِ المعاصي ، فلا غروَ إنْ عصيتُ اللهَ تعالىٰ ؛ فقدْ عصاهُ مَنْ هوَ أكبرُ منِّي ! ويفيدُهُ ذلكَ جرأةً على اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا يدري .

فبعدَ الاحترازِ عنْ هـٰذينِ المحذورينِ فلا بأسَ بهِ ، وعندَ ذلكَ ترجعُ القصصُ المحمودةُ إلىٰ ما يشتملُ عليهِ القرآنُ ، وصحَّ في الكتبِ الصحيحةِ مِنَ الأخبارِ .

ومِنَ الناسِ منْ يستجيزُ وضْعَ الحكاياتِ المرغِّبةِ في الطاعاتِ ، ويزعُمُ أنَّ قصدَهُ فيهِ دعوةُ الخلْقِ إلى الحقِّ ، وهـٰذا منْ نزغاتِ الشيطانِ ؛ فإنَّ في الصدْقِ مندوحةً عنِ الكذبِ ، وفيما ذكرَهُ اللهُ سبحانَهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غنيةً عنِ الاختراعِ في الوعظِ ، كيفَ وقدْ كُرِهَ تكلُّفُ السجْعِ وعُدَّ ذلكَ من التصنُّعِ ؟!

قالَ سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ لابنِهِ عمرَ وقدْ سمعَهُ يسجَعُ : (هـٰذا الذي يُبغِّضُكَ إليَّ ، لا قضيتُ حاجتكَ أبداً حتَّىٰ تتوبَ) ، وقدْ كانَ جاءَهُ في حاجةٍ(١) .

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٨) .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ رواحَةَ في سجْعٍ بينَ ثلاثِ كلماتٍ : « إيَّاكَ والسَّجْعَ يا بْنَ رواحةَ »[1] ، فكانَ السجعُ المحذورُ المتكلَّفُ ما زادَ علىٰ كلمتينِ ، ولذلكَ لمَّا قالَ الرجلُ في ديةِ الجنينِ : كيفَ نَدِي مَنْ لا شرِبَ ولا أكَلَ ، ولا صاحَ ولا استهلَّ ، ومثلُ ذلكَ يُطَلُّ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسَجعٌ كسَجْعِ الأَعرابِ ؟! »[2] .

وأمَّا الأشعارُ : فتكثيرُها في المواعظِ مذمومٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ .

وأكثرُ ما اعتادَهُ الوعَّاظُ مِنَ الأشعارِ ما يتعلَّقُ بالتواصُفِ في العشقِ وجمالِ المعشوقِ ، ورَوْحِ الوصالِ وألمِ الفِراقِ ، والمجلسُ لا يحوي إلا أجلافَ العوامِّ ، وبواطنُهُمْ مشحونَةٌ بالشهواتِ ، وقلوبُهُمْ غيرُ منفكَّةٍ عنِ الالتفاتِ إلى الصورِ المليحةِ ، فلا تحرِّكُ الأشعارُ مِنْ قلوبِهِمْ إلا ما هوَ مستكِنٌّ فيها ، فتشتعلُ فيها نيرانُ الشهوةِ ، فيزعقونَ ويتواجدونَ ، وأكثرُ ذلكَ أوْ كلُّهُ يرجعُ إلىٰ نوعِ فسادٍ ، فلا ينبغي أنْ يستعملَ مِنَ الشعرِ إلا ما فيهِ موعظةٌ وحكمةٌ علىٰ سبيلِ الاستشهادِ والاستئناسِ .

---

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٦٩) ،وهو عند أبي يعلىٰ (٤٤٧٥) من قول عائشة بنحوه .

(٢) رواه مسلم (١٦٨٢) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ منَ الشعرِ لَحِكْمَةً »[١] .

ولوْ حوى المجلسُ الخواصَّ الذينَ وقعَ الاطلاعُ على استغراقِ قلوبِهِمْ بحبِّ اللهِ تعالىٰ ولمْ يكنْ معهُمْ غيرُهُمْ . . فأولئكَ لا يضرُّ معهُمُ الشعرُ الذي يشيرُ ظاهرُهُ إلى الخلْقِ ؛ فإنَّ المستمعَ ينزِّلُ كلَّ ما يسمعُهُ علىٰ ما يستولي علىٰ قلبِهِ كما سيأتي تحقيقُ ذلكَ في كتابِ السماعِ .

ولذلكَ كانَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ يتكلَّمُ علىٰ بضعةَ عشرَ ، فإنْ كثروا . . لمْ يتكلَّمْ ، وما تمَّ أهلُ مجلسِهِ عشرينَ[٢] .

وحضرَ جماعةٌ بابَ دارِ ابنِ سالمٍ ، فقيلَ لهُ : تكلَّمْ ، فقدْ حضرَ أصحابُكَ ، فقالَ : ما هؤلاءِ أصحابي ، إنَّما هُمْ أصحابُ المجلسِ ؛ أي : أصحابي هُمُ الخواصُّ[٣] .

وأما الشطحُ[٤] : فنعني بهِ صنفينِ منَ الكلامِ أحدثَهُ بعضُ المتصوفةِ :

أحدهما : الدعاوى الطويلةُ العريضةُ في العشْقِ معَ اللهِ تعالىٰ ، والوصالِ المغني عنِ الأعمالِ الظاهرةِ ، حتَّىٰ ينتهي قومٌ إلىٰ دعوى الاتحادِ وارتفاعِ الحجابِ ، والمشاهدةِ بالرؤيةِ والمشافهةِ بالخطابِ ، فيقولونَ : قيل لنا :

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وابن سالم هـٰذا هو شيخ أبي طالب المكي .
(٤) وهو عند أهل الحقيقة كلام يعبر عنه اللسان مقرون بالدعوىٰ ، ولا يرتضيه أهل الطريقة من قائله وإن كان محقاً . « إتحاف » (١/ ٢٥٠) .

كذا ، وقلنا : كذا ، ويتشبَّهونَ فيهِ بالحسينِ بنِ منصورٍ الحلاّجِ الذي صُلِبَ لأجلِ إطلاقِهِ كلماتٍ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، ويستشهدونَ بقولِهِ : (أنا الحقُّ) ، وبما يُحْكَىٰ عنْ أبي يزيدَ البسطاميِّ أنَّهُ قالَ : (سبحاني سبحاني) .

وهـٰذا فَنٌّ منَ الكلامِ عظيمٌ ضررُهُ في العوامِّ ؛ حتَّىٰ تركَ جماعةٌ منْ أهلِ الفلاحةِ فلاحتَهم ، وأظهروا مثلَ هـٰذهِ الدعاوىٰ ؛ فإنَّ هـٰذا الكلامَ يستلذُّهُ الطبعُ ؛ إذْ فيهِ البطالةُ مِنَ الأعمالِ معَ تزكيةِ النفسِ بدرْكِ المقاماتِ والأحوالِ ، فلا تعجَزُ الأغبياءُ عنْ دعوىٰ ذلكَ لِأنفسِهِمْ ، ولا عنْ تلقُّفِ كلماتٍ مخبطةٍ مزخرفةٍ ، ومهما أُنكرَ عليهِمْ ذلكَ . . لمْ يعجَزوا عنْ أنْ يقولوا : إنَّ هـٰذا إنكارٌ مصدرُهُ العلْمُ والجدلُ ، والعلْمُ حجابٌ ، والجدلُ عملُ النفسِ ، وهـٰذا الحديثُ لا يلوحُ إلا مِنَ الباطنِ بمكاشفةِ نورِ الحقِّ ![(1)] .

فهـٰذا وفنُّهُ ممَّا قدِ استطارَ في البلادِ شررُهُ ، وعَظُمَ في العوامِّ ضررُهُ ، ومَنْ نطقَ بشيءٍ منهُ . . فقتلُهُ أفضلُ في دينِ اللهِ منْ إحياءِ عشرةٍ .

---

(١) قال القطب القسطلاني في كتابه « اقتداء الفاضل باقتداء العاقل » : (أما قولهم : العلم حجاب الله ، وإن طلبه من أعظم الحجاب . . فهي كلمة حق أريد بها باطل ، وصفة نقص تحلّىٰ بها من هو عن الكمال عاطل ، وإنما ذكر أهل الطريق ذلك في قوم من صفتهم أنهم حصَّلوا ما تميَّزوا به عند أهل هـٰذا الشأن من علمي الشريعة والحقيقة ، ففوتحوا من الغيب بما يشهد لهم بنجاتهم ، فهم بالله مع الله معرضون عن ملاحظة صفاتهم ، فمن كان كذلك . . فإنه مشغول بما هو فيه عن النظر في العلم ، وأما من عريَ عن علم الظاهر والباطن . . فحقُّه أن يعلم ما يحتاج إليه في الطريق التي يسلكها ، فإن أبىٰ واستكبر . . فإنه بعيد عن الوصول إلىٰ منهج السعادة) . « إتحاف » (١/ ٢٥١) .

وأمَّا أبو يزيدَ البسطاميُّ رحمهُ اللهُ . . فلا يصحُّ عنهُ ما حُكِيَ ، وإنْ سُمعَ ذلكَ منهُ . . فلعلَّهُ كانَ يحكيهِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلامٍ يُردِّدُهُ في نفسِهِ ، كما لوْ سُمِعَ وهوَ يقولُ : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ ؛ فإنَّهُ ما كانَ ينبغي أنْ يفهمَ منهُ ذلكَ إلا علىٰ سبيلِ الحكايةِ[1] .

الصنفُ الثاني مِنَ الشطحِ : كلماتٌ غيرُ مفهومةٍ ، لها ظواهرُ رائقةٌ ، وفيها عباراتٌ هائلةٌ ، وليسَ وراءَها طائلٌ .

وذلكَ إمَّا أنْ تكونَ غيرَ مفهومةٍ عندَ قائلِها ، بلْ يصدرُها عنْ خبْطٍ في عقلِهِ ، وتشويشٍ في خيالِهِ ؛ لقلَّةِ إحاطتِهِ بمعنىٰ كلامٍ قَرَعَ سمعَهُ ، وهـٰذا هوَ الأكثرُ .

وإمَّا أنْ تكونَ مفهومةً لهُ ، ولكنَّهُ لا يقدِرُ علىٰ تفهيمِها وإيرادِها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ ضميرِهِ ؛ لقلَّةِ ممارستِهِ العلمَ ، وعدمِ تعلُّمِهِ طريقَ التعبيرِ عنِ المعاني بالألفاظِ الرشيقةِ .

ولا فائدةَ لهـٰذا الجنسِ مِنَ الكلامِ إلا أنَّهُ يشوِّشُ القلوبَ ويدهشُ العقولَ ، ويحيِّرُ الأذهانَ ، أوْ يحملُ علىٰ أنْ يُفْهَمَ منها معانٍ ما أُريدَتْ بها ، ويكونُ فَهْمُ كلِّ واحدٍ علىٰ مقتضىٰ هواهُ وطبعِهِ .

---

(١) انظر « مشكاة الأنوار » (ص٤١) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص١٢٨) ، وقد التمس المؤلف أعذاراً غير ما ذكره هنا .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حَدَّثَ أحدُكُمْ قوماً بحديثٍ لا يفهمونَهُ إلا كانَ فتنةً عليهِمْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَلِّمُوا الناسَ بما يعرفونَ ، ودَعُوا ما ينكرونَ ، أتُرِيدونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ؟ »(٢) .

وهٰذا فيما يفهمُهُ صاحبُهُ ولا يبلغُهُ عقلُ المستمعِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ قائلُهُ ؟! فإنْ كانَ يفهمُهُ القائلُ دونَ المستمِعِ . . فلا يحلُّ ذكرُهُ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تضعوا الحكمةَ عندَ غيرِ أهلِها فتظلمُوها ، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهُمْ ، كونوا كالطبيبِ الرفيقِ ، يضعُ الدواءَ في موضعِ الداءِ)(٣) .

وفي لفظٍ آخرَ : (مَنْ وضعَ الحكمةَ في غيرِ أهلِها . . جَهِلَ ، ومَنْ منعَها أهلَها . . ظَلَمَ ، إنَّ للحكمةِ حقّاً ، وإنَّ لها أهلاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ)(٤) .

وأمَّا الطاماتُ : فيدخلُها ما ذكرناهُ في الشطْحِ ، وأمرٌ آخرُ يخصُّها ، وهوَ

---

(١) رواه مسلم في مقدمة «صحيحه» (١/ ١١) بنحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) مرفوعاً بنحوه أيضاً .

(٢) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الطبراني مرفوعاً في « الأوسط » (٨١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) بنحوه .

(٣) تاريخ دمشق (٦٨/ ٦٣) ضمن حديث طويل .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وبنحوه في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٠٣ ، ٧٠٤) .

صرْفُ ألفاظِ الشرْعِ عنْ ظواهرِها المفهومةِ إلىٰ أمورٍ باطنةٍ لا يسبقُ منها إلى الأفهامِ فائدةٌ ؛ كدأْبِ الباطنيّةِ في التأويلاتِ .

وهـٰذا أيضاً حرامٌ ، وضررُهُ عظيمٌ ؛ فإنَّ الألفاظَ إذا صُرِفَتْ عنْ مقتضىٰ ظواهرِها بغيرِ اعتصامٍ فيهِ يُنْقَلُ عن صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ ، ومِنْ غيرِ ضرورةٍ تدعو إليهِ مِنْ دليلِ العقلِ . . اقتضىٰ ذلكَ بطلانَ الثقةِ بالألفاظِ ، وتسقطُ بهِ منفعةُ كلامِ اللهِ سبحانَهُ وكلامِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ ما يسبقُ منهُ إلى الفهمِ لا يوثقُ بهِ ، والباطنُ لا ضبطَ لهُ ، بلْ تتعارضُ فيهِ الخواطرُ ، ويمكنُ تنزيلُهُ علىٰ وجوهٍ شتىٰ .

وهـٰذا أيضاً منَ البدعِ الشائعةِ العظيمِ ضررُها ، وإنَّما قصدَ أصحابُها الإغرابَ ؛ فإنَّ النفوسَ مائلةٌ إلى الغريبِ ومستلِذَّةٌ لهُ .

وبهـٰذا الطريقِ توصَّلَ الباطنيةُ إلىٰ هدْمِ جميعِ الشريعةِ بتأويلِ ظواهرِها ، وتنزيلِها علىٰ رأيِهم ؛ كما حكيناهُ مِنْ مذهبِهم في كتابِ « المُسْتَظْهِرِيِّ » المصنَّفِ في الردِّ على الباطنيَّةِ(١) .

ومثالُ تأويلِ أهلِ الطامَّاتِ قولُ بعضِهِمْ في تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ : إنَّهُ أشارَ إلىٰ قلبِهِ وقالَ : هوَ المرادُ بفرعونَ ، وهوَ الطاغي علىٰ كلِّ إنسانٍ .

---

(١) وسماه « المستظهري » نسبةً للخليفة الذي أهداه إياه ، وهو المستظهر بالله العباسي .

وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أيْ : كلَّ ما تَتوكَّأُ عليهِ وتعتمدُهُ ممَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فينبغي أنْ تلقيَهُ .

وفي قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَسَحَّرُوا ؛ فإنَّ في السحُورِ بَرَكَةً »(١) أرادَ بهِ الاستغفارَ في الأسحارِ .

وأمثالُ ذلكَ ، حتَّىٰ يحرِّفونَ القرآنَ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ عنْ ظاهرِهِ ، وعنْ تفسيرِهِ المنقولِ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ وسائرِ العلماءِ .

وبعضُ هٰذهِ التأويلاتِ يعلمُ بطلانُها قطعاً ؛ كتنزيلِ فرعونَ على القلبِ ، فإنَّ فرعونَ شخصٌ محسوسٌ تواترَ إلينا وجودُهُ ودعوةُ موسىٰ لهُ ؛ كأبي جهْلٍ وأبي لهبٍ وغيرِهما مِنَ الكفارِ ، وليسَ مِنْ جنسِ الشياطينِ والملائكةِ ممَّا لمْ يدركْ بالحسِّ حتَّىٰ يتطرَّقَ التأويلُ إلىٰ ألفاظِهِ .

وكذا حمْلُ السحورِ على الاستغفارِ ؛ فإنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتناوَلُ الطعامَ ، ويقولُ : « تَسَحَّرُوا(٢) ، وهَلُمُّوا إلى الغِذاءِ المباركِ »(٣) .

فهٰذهِ أمورٌ يُدرَكُ بالتواترِ والحسِّ بطلانُها ، وبعضُها يعلمُ بغالبِ الظنِّ ، وذلكَ في أمورٍ لا يتعلَّقُ بها الإحساسُ ، فكلُّ ذلكَ حرامٌ وضلالةٌ ، وإفسادٌ

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) .
(٢) إذ إنه صلى الله عليه وسلم تسحَّرَ مع زيد بن ثابت رضي الله عنه كما في « البخاري » (٥٧٦) .
(٣) رواه أبو داوود (٢١٦٣) ، والنسائي (٤/ ١٤٥) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٤/ ١٢٦) بلفظ : (الغذاء) بدل (الغداء) عندهما .

للدينِ على الخلْقِ ، ولمْ يُنقلْ شيءٌ مِنْ ذلكَ عنِ الصحابةِ ولا عنِ التابعينَ ، ولا عنِ الحسنِ البصريِّ معَ إكبابِهِ علىٰ دعوةِ الخلْقِ ووعظِهِمْ .

ولا يظهرُ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فَسَّرَ القرآنَ برأيِهِ . . فليتبوَّأْ مَقعدَهُ مِنَ النارِ »[١] معنىً إلا هـٰذا النمطُ ، وهوَ أنْ يكونَ غرضُهُ ورأيُهُ تقريرَ أمرٍ وتحقيقَهُ ، فيستجرُّ شهادةَ القرآنِ إليهِ ، ويحملُهُ عليهِ مِنْ غيرِ أنْ يشهدَ لتنزيلِهِ عليهِ دلالةٌ لفظيةٌ ؛ لغويةٌ أوْ نقليةٌ .

ولا ينبغي أنْ يفهمَ منهُ أنَّهُ يجبُ ألاَّ يفسرَ القرآنُ بالاستنباطِ والفكرِ ؛ فإنَّ مِنَ الآياتِ ما نُقِلَ فيها عنِ الصحابةِ والمفسرينَ خمسةُ معانٍ وستةٌ وسبعةٌ ، ويُعلَمُ أنَّ جميعَها غيرُ مسموعٍ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّها قدْ تكونُ متنافيةً لا تقبلُ الجمعَ ، فيكونُ ذلكَ مستنبَطاً بحسْنِ الفهمِ وطولِ الفكرِ ؛ ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « ٱللَّهُمَّ ؛ فَقِّهْهُ في الدينِ ، وعَلِّمْهُ التأْويلَ »[٢] .

ومَنْ يستجيزُ منْ أهلِ الطامَّاتِ مثلَ هـٰذهِ التأويلاتِ معَ علمِهِ بأنَّها غيرُ مرادةٍ بالألفاظِ[٣] ، ويزعمُ أنَّهُ يقصدُ بِهِ دعوةَ الخلْقِ إلى الحقِّ . . يضاهي مَنْ يستجيزُ الاختراعَ والوضْعَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما هوَ في

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١) .
(٢) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/٢٦٦) .
(٣) وإنما حمله عليه ميله إلىٰ هواه . « إتحاف » (١/٢٥٨) .

نفسِهِ حقٌّ ولكنَّهُ لمْ ينطقْ بهِ الشرعُ ؛ كَمَنْ يضَعُ في كلِّ مسألةٍ يراها حقّاً حديثاً عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وذلكَ ظلمٌ وضلالٌ ، ودخولٌ في الوعيدِ المفهومِ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كذبَ عَلَيَّ مُتعَمّداً . . فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[1] ، بلِ الشرُّ في تأويلِ هٰذهِ الألفاظِ أطمُّ وأعظمُ ؛ لأنَّها مبطِلَةٌ للثّقةِ بالألفاظِ ، وقاطعةٌ طريقَ الاستفادةِ والفهْمِ مِنَ القرآنِ بالكليَّةِ .

فقدْ عرفتَ كيفَ صرفَ الشيطانُ دواعيَ الخلقِ عنِ العلومِ المحمودةِ إلى المذمومةِ ، وكلُّ ذلكَ بتلبيسِ علماءِ السوءِ بتبديلِ الأسامي ، فإنِ اتبعتَ هؤلاءِ اعتماداً على الاسمِ المشهورِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ ما عُرِفَ في العصرِ الأوَّلِ . . كنتَ كمَنْ طلبَ الشرفَ بالحكمةِ باتباعِ مَنْ يسمَّىٰ حكيماً ، فإنَّ اسمَ الحكيمِ صارَ يُطلَقُ على الطبيبِ والشاعرِ والمنجِّمِ في هٰذا العصرِ ، وذلكَ بالغفلةِ عنْ تبديلِ الألفاظِ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الخامسُ : الحكمةُ :

فإنَّ اسمَ الحكيمِ صارَ يطلقُ على الطبيبِ والشاعرِ والمنجِّمِ ، حتَّىٰ على الذي يدحرِجُ القرعةَ علىٰ أكفِّ السواديَّةِ في شوارعِ الطرقِ[2] .

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

(٢) **السوادية** : الأكّارون ـ المزارعون ـ نسبوا إلىٰ سواد الأرض وريفها لملازمتهم له . « إتحاف » (١/ ٢٦٣) .

والحكمةُ هيَ التي أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليها فقالَ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمةٌ مِنَ الحكمةِ يتعلَّمُها الرجلُ خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها »(١) .

فانظرْ ما الذي كانتِ الحكمةُ عبارةً عنهُ ، وإلىٰ ماذا نُقِلَ ! وقِسْ بهِ بقيَّةَ الألفاظِ ، واحترزْ عنِ الاغترارِ بتلبيساتِ علماءِ السوءِ ؛ فإنَّ شرَّهمْ أعظمُ على الدينِ مِنْ شرِّ الشياطينِ ؛ إذِ الشيطانُ بواسطتِهِمْ يتذرَّعُ إلى انتزاعِ الدينِ مِنْ قلوبِ الخلقِ ، ولهـٰذا لمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ شرِّ الخلقِ .. أَبَىٰ وقالَ : « اللَّهُمَّ ؛ غَفْراً » ، حتَّىٰ كُرِّرَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : « همْ عُلماءُ السُّوءِ »(٢) .

فقدْ عرفتَ العلمَ المحمودَ والمذمومَ ومثارَ الالتباسِ ، وإليكَ الخِيرةُ في أنْ تنظرَ لنفسِكَ ، فتقتديَ بالسلفِ ، أوْ تتدلَّىٰ بحبْلِ الغرورِ وتتشبَّهَ بالخلفِ ، فكلُّ ما ارتضاهُ السلفُ مِنَ العلومِ قدِ اندرسَ ، وما أكبَّ الناسُ عليهِ فأكثرُهُ مبتدَعٌ محدَثٌ ، وقدْ صحَّ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بَدَأَ الإسلامُ غرِيباً ، وسيعُودُ غريباً كما بَدَأَ ، فطُوبَىٰ للْغُرَباءِ » فقيلَ : ومَنِ الغرباءُ ؟ قالَ : « الذينَ يُصْلِحُونَ ما أفسدَهُ الناسُ مِنْ سُنَّتِي ، والذينَ يُحيُونَ ما أماتُوهُ مِنْ سُنَّتِي »(٣) .

---

(١) انظر « الإتحاف » (١/ ٢٦٤) .

(٢) روىٰ بنحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

(٣) رواه مسلم (١٤٦) ، وبتمامه الترمذي (٢٦٣٠) .

وفي خبرٍ آخرَ : « همُ المُتَمَسِّكُونَ بما أنتمْ عليهِ اليومَ »[١] .

وفي حديثٍ آخرَ : « الغُرباءُ ناسٌ قليلٌ صالحونَ بينَ ناسٍ كثيرٍ ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ أكثرُ ممَّنْ يحبُّهُمْ »[٢] .

وقدْ صارتْ تلكَ العلومُ غريبةً بحيثُ يُمقَتُ ذاكرُها ، ولذلكَ قالَ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (إذا رأيتَ العالمَ كثيرَ الأصدقاءِ . . فاعلمْ أنَّهُ مخلِّطٌ)[٣] ؛ لأنَّهُ إنْ نطقَ بالحقِّ . . أبغضوهُ .

* * *

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٤٣) ، وقد روىٰ بنحوه ابن وضاح في « البدع » (٧٢) .
(٢) رواه أحمد (٢/ ١٧٧) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٣) .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلمْ : أنَّ العلمَ بهـٰذا الاعتبارِ ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ هوَ مذمومٌ قليلُهُ وكثيرُهُ .

وقسمٌ هوَ محمودٌ قليلُهُ وكثيرُهُ ، وكلَّما كانَ أكثرَ . كانَ أحسنَ وأفضلَ .

وقسمٌ يحمدُ منهُ مقدارُ الكفايةِ ، ولا يحمدُ الفاضلُ عليهِ والاستقصاءُ فيهِ .

وهوَ مثلُ أحوالِ البدنِ ؛ فإنَّ منها ما يحمدُ قليلُهُ وكثيرُهُ ؛ كالصحَّةِ والجمالِ ، ومنها ما يذمُّ قليلُهُ وكثيرُهُ ؛ كالقبْحِ وسوءِ الخُلُقِ ، ومنها ما يحمدُ الاقتصادُ فيهِ ؛ كبذْلِ المالِ ؛ فإنَّ التبذيرَ لا يحمدُ فيهِ وهوَ بذلٌ ، وكالشجاعةِ ؛ فإنَّ التهوُّرَ لا يحمدُ فيها وإنْ كانَ مِنْ جنسِ الشجاعةِ ، فكذلكَ العلمُ .

* * *

فالقسمُ المذمومُ قليلُهُ وكثيرُهُ : ما لا فائدةَ فيهِ في دينٍ ولا دنيا ، أوْ فيهِ ضررٌ يغلبُ نفعَهُ ؛ كعلمِ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ والنجومِ ، فبعضُهُ لا فائدةَ فيهِ أصلاً ، وصرفُ العمرِ الذي هوَ أنفسُ ما يملكُهُ الإنسانُ إليهِ إضاعةٌ ، وإضاعةُ النفائسِ مذمومةٌ .

ومنهُ ما فيهِ ضررٌ يربي على ما يظنُّ أنَّهُ يحصلُ بهِ مِنْ قضاءِ وطرٍ في الدنيا ؛ فإنَّ ذلكَ لا يعتدُّ بهِ بالإضافةِ إلى الضررِ الحاصلِ منهُ .

* * *

وأمَّا القسمُ المحمودُ إلى أقصى غاياتِ الاستقصاءِ : فهوَ العلمُ باللهِ تعالى وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وسنّتِهِ في خلقِهِ ، وحكمتِهِ في ترتيبِ الآخرةِ على الدنيا ؛ فإنَّ هٰذا علْمٌ مطلوبٌ لذاتِهِ ، وللتوصُّلِ بهِ إلى سعادةِ الآخرةِ ، وبذلُ المقدورِ فيهِ إلى أقصى الجهدِ قصورٌ عنْ حدِّ الواجبِ ؛ فإنَّهُ البحرُ الذي لا يدركُ غورُهُ ، وإنَّما يحومُ الحائمونَ على سواحلِهِ وأطرافِهِ بقدْرِ ما يُسِّرَ لهمْ ، وما خاضَ أطرافَهُ إلا الأنبياءُ والأولياءُ والراسخونَ في العلمِ على اختلافِ درجاتِهِمْ ، بحسَبِ اختلافِ قوَّتِهِمْ وتفاوتِ تقديرِ اللهِ تعالى في حقِّهِمْ .

وهٰذا هوَ العلمُ المكنونُ الذي لا يسطَّرُ في الكتبِ ، ويعينُ على التنبُّهِ لهُ التعلُّمُ ومشاهدةُ أحوالِ علماءِ الآخرةِ كما سيأتي علامتُهُمْ ، هٰذا في أوَّلِ الأمرِ .

ويعينُ عليهِ في الآخرِ المجاهدةُ والرياضةُ ، وتصفيةُ القلْبِ وتفريغُهُ عنْ علائقِ الدنيا ، والتشبُّهُ فيها بأنبياءِ اللهِ وأوليائِهِ ؛ ليتضحَ منهُ لكلِّ ساعٍ إلى طلبِهِ بقدْرِ الرزْقِ لا بقدْرِ الجُهْدِ ، ولكنْ لا غِنَىٰ فيهِ عن الاجتهادِ ، فالمجاهدةُ مفتاحُ الهدايةِ ، لا مفتاحَ لها سواها .

وأمَّا العلومُ التي لا يحمدُ منها إلا مقدارٌ مخصوصٌ : فهيَ العلومُ التي أوردْناها في فروضِ الكفاياتِ ؛ فإنَّ في كلِّ علْمٍ منها اقتصاراً هوَ الأقلُّ ، واقتصاداً هوَ الوسطُ ، واستقصاءً وراءَ الاقتصادِ لا مردَّ لهُ إلىٰ آخرِ العمرِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مشغولاً بنفسِكَ ، وإمَّا متفرِّغاً إلىٰ غيرِكَ بعدَ الفراغِ مِنْ نفسِكَ ، وإيّاكَ أنْ تشتغلَ بما يصلِحُ غيرَكَ قبلَ إصلاحِ نفسِكَ ، فإنْ كنتَ المشغولَ بنفسِكَ . . فلا تشتغلْ إلا بالعلمِ الذي هوَ فرضُ عينِكَ بحسَبِ ما يقتضيهِ حالُكَ ، وما يتعلَّقُ منهُ بالأعمالِ الظاهرةِ ؛ مِنْ تعلُّمِ الصلاةِ ، والطهارةِ ، والصومِ .

وإنَّما الأهمُّ الذي أهملَهُ الكلُّ علمُ صفاتِ القلبِ ، وما يحمدُ منها وما يذمُّ ؛ إذْ لا ينفكُّ بَشَرٌ عنِ الصفاتِ المذمومةِ ؛ مِنَ الحرْصِ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والكِبْرِ ، والعُجْبِ ، وأخواتِها ، وجميعُ ذلكَ مهلكاتٌ ، وإهمالُها معَ الاشتغالِ بالأعمالِ الظاهرةِ يضاهي الاشتغالَ بطلاءِ ظاهرِ البدنِ عندَ التأذّي بالجرَبِ والدماميلِ ، والتهاونَ بإخراجِ المادَّةِ بالفصْدِ والإسهالِ .

وحَشْويةُ العلماءِ[١] يشيرونَ بالأعمالِ الظاهرةِ كما يشيرُ الطُّرُقيَّةُ مِنَ الأطباءِ[٢] بطلاءِ ظاهرِ البدنِ ، وعلماءُ الآخرةِ لا يشيرونَ إلا بتطهيرِ الباطنِ

---

(١) وهم الذين يقتنعون بالقشر عن اللباب ، وينظرون إلىٰ ظاهر الأمور دون الاطلاع على الأسرار الباطنة . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .

(٢) وهم الذين يجلسون على الطرق ويداوون الناس علىٰ جهلٍ منهم . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .

وقطْعِ موادِّ الشرِّ ؛ بإفسادِ منابتِها ، وقلْعِ مغارسِها ، وهيَ في القلبِ ، وإنَّما فَزِعَ الأكثرونَ إلى الأعمالِ الظاهرةِ عنْ تطهيرِ القلوبِ لسهولةِ أعمالِ الجوارحِ ، واستصعابِ أعمالِ القلوبِ ؛ كما يفزَعُ إلىٰ طلاءِ الظاهرِ مَنْ يستصعِبُ شُرْبَ الأدويةِ المرَّةِ المَقِرَةِ[1] ، فلا يزالُ يتعبُ في الطلاءِ ويزيدُ في الموادِّ ، وتتضاعفُ بهِ الأمراضُ .

فإنْ كنتَ مريداً للآخرةِ ، وطالباً للنجاةِ ، وهارباً مِنْ هلاكِ الأبدِ . . فاشتغلْ بعلْمِ العلَلِ الباطنةِ وعلاجِها ، علىٰ ما فصَّلْناهُ في ربْعِ المهلكاتِ .

ثمَّ ينجرُّ بكَ ذلكَ إلى المقاماتِ المحمودةِ المذكورةِ في ربعِ المنجياتِ لا محالةَ ؛ فإنَّ القلبَ إذا فُرِّغَ مِنَ المذمومِ . . امتلأ بالمحمودِ ، والأرضَ إذا نُقِّيَتْ منَ الحشيشِ . . نبتَتْ فيها أصنافُ الزروعِ والرياحينِ ، وإنْ لمْ يفرَّغْ مِنْ ذلكَ . . فلا تشتغلْ بفروضِ الكفاياتِ[2] ، لا سيَّما وفي زمرةِ الخلْقِ مَنْ قدْ قامَ بهِ ، فإنَّ مُهلِكَ نفسهِ في طلبِ صلاحِ غيرِهِ سفيهٌ ، فما أشدَّ حماقةَ مَنْ دخلتِ الأفاعي والعقاربُ داخلَ ثيابِهِ وهمَّتْ بقتلِهِ وهوَ يطلبُ مِذبَّةً[3] يدفعُ بها الذبابَ عَنْ غيرِهِ ممَّنْ لا يغنيهِ ، ولا ينجيهِ ممَّا يلاقيهِ مِنْ تلكَ الحيَّاتِ والعقاربِ إذا هممنَ بهِ !

---

(١) المقرة : المرّة ، والمَقِر : هو الصَّبِرُ نفسه ، أو هو السم .
(٢) أي : إن لم يخلُ القلب من ذلك . . فلا تشتغل بفروض الكفايات اشتغالاً كلّياً . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .
(٣) المذبّة : ما يتّخذ من شعر ذنب الفرس أو نحوه لدفع الذباب .

وإنْ تفرَّغْتَ مِنْ نفسِكَ وتطهيرِها ، وقَدَرْتَ علىٰ ترْكِ ظاهرِ الإثْمِ وباطِنِهِ ، وصارَ ذلكَ ديدناً لكَ وعادةً متيسرةً فيكَ ـ وما أبعدَ ذلكَ منكَ ـ فاشتغلْ بفروضِ الكفاياتِ ، وراعِ التدريجَ فيها :

فابتدِئْ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ بعلْمِ التفسيرِ وسائرِ علومِ القرآنِ ؛ مِنْ علْمِ الناسخِ والمنسوخِ ، والمفصولِ والموصولِ ، والمحكَمِ والمتشابِهِ .

وكذلكَ في السنةِ .

ثمَّ اشتغلْ بالفروعِ ، وهوَ علْمُ المذهبِ منْ علْمِ الفقهِ دونَ الخلافِ ، ثمَّ بأصولِ الفقهِ ، وهـٰكذا إلىٰ بقيَّةِ العلومِ علىٰ ما يتسعُ لهُ العمْرُ ، ويساعدُ فيهِ الوقتُ .

ولا تستغرقْ عمرَكَ في فنٍّ واحدٍ منها طالباً للاستقصاءِ ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ والعمرَ قصيرٌ ، وهـٰذهِ العلومُ آلاتٌ ومقدماتٌ ، وليستْ مطلوبةً لعينِها بلْ لغيرِها ، وكلُّ ما يطلبُ لغيرِهِ . . فلا ينبغي أنْ يُنسىٰ فيهِ المطلوبُ ويُستكثرَ منهُ .

فاقتصرْ مِنْ شائعِ **علْمِ اللغةِ** علىٰ ما تفهمُ بهِ كلامَ العربِ وتنطقُ بهِ ، ومنْ غريبِهِ علىٰ غريبِ القرآنِ وغريبِ الحديثِ ، ودعِ التعمُّقَ فيهِ .

واقتصرْ مِنَ **النحوِ** علىٰ ما يتعلَّقُ بالكتابِ والسنَّةِ ، فما مِنْ علْمٍ إلا ولهُ اقتصارٌ واقتصادٌ واستقصاءٌ ، ونحنُ نشيرُ إليها في الحديثِ والتفسيرِ والفقْهِ والكلامِ لتقيسَ بها غيرَها :

فالاقتصارُ في **التفسيرِ** : ما يبلُغُ ضعفَ القرآنِ في المقدارِ ، كما صنَّفَهُ عليٌّ الواحديُّ النيسابوريُّ وهوَ « الوجيزُ » ، والاقتصادُ ما يبلغُ ثلاثةَ أضعافِ القرآنِ كما صنَّفَهُ مِنَ « الوسيطِ » فيهِ ، وما وراءَ ذلكَ استقصاءٌ مستغنىً عنهُ ، ولا مردَّ لهُ إلى انتهاءِ العمرِ .

وأمَّا **الحديثُ** : فالاقتصارُ فيهِ تحصيلُ ما في « الصحيحينِ » بتصحيحِ نسخةٍ علىٰ رجلٍ خبيرٍ بعلْمِ متْنِ الحديثِ .

وأمَّا حفظُ أسامي الرجالِ . . فقدْ كفيتَ فيهِ بما تحمَّلَهُ عنكَ مَنْ قبلَكَ ، ولكَ أنْ تعوِّلَ علىٰ كتبِهِمْ ، وليسَ يلزمُكَ حفظُ متونِ « الصحيحين » ، ولكنْ تحصِّلُهُ تحصيلاً تقدرُ منهُ علىٰ طلبِ ما تحتاجُ إليهِ عندَ الحاجةِ .

وأمَّا الاقتصادُ فيهِ . . فأنْ تضيفَ إليهما ما خرجَ عنهما ممَّا أُوردَ في المسنداتِ الصحيحةِ .

وأمَّا الاستقصاءُ . . فما وراءَ ذلكَ إلى استيعابِ كلِّ ما نُقِلَ منَ الضعيفِ والقويِّ ، والصحيحِ والسقيمِ ، معَ معرفةِ الطرقِ الكثيرةِ في النقلِ ، ومعرفةِ أحوالِ الرجالِ وأساميهِمْ وأوصافِهِمْ .

وأمَّا **الفقهُ** : فالاقتصارُ فيه علىٰ ما يحويهِ مختصرُ المزنيِّ رحمَهُ اللهُ ، وهوَ الذي رتبناهُ في « خلاصةُ المختصرِ »(١) ، والاقتصادُ فيهِ ما يبلغُ ثلاثةَ

---

(١) ويسمَّىٰ « خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر » وقد صدر عن دار المنهاج بحمد الله تعالىٰ .

أمثالِهِ ، وهوَ القدْرُ الذي أوردناهُ في « الوسيطُ مِنَ المذهبِ » ، والاستقصاءُ ما أوردناهُ في « البسيطُ » ، إلىٰ ما وراءَ ذلكَ مِنَ المطولاتِ .

وأما **الكلامُ** : فمقصودُهُ حمايةُ المعتقداتِ التي نقلَها أهلُ السنَّةِ مِنَ السلفِ الصالحِ لا غيرَ ، وما وراءَ ذلكَ طلبٌ لكشْفِ حقائقِ الأمورِ مِنْ غيرِ طريقِهِ .

ومقصودُ حفْظِ السنَّةِ تحصُلُ رتبةُ الاقتصارِ منهُ بمعتقدٍ مختصرٍ ، وهوَ القدْرُ الذي أوردْناهُ في كتابِ قواعد العقائد من جملةِ هٰذهِ الكتبِ[1] ، والاقتصادُ فيهِ ما يبلغُ قدْرَ مئةِ ورقةٍ ، وهوَ الذي أوردناهُ في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، ويُحتاجُ إليهِ لمناظرةِ مبتدِعٍ ومعارضةِ بدعتِهِ بما يفسدُها وينزِعُها عنْ قلْبِ العاميِّ ، وذلكَ لا ينفعُ إلا معَ العوامِّ قبلَ اشتدادِ تعصُّبِهِمْ .

أما المبتدِعُ بعدَ أنْ يعلمَ مِنَ الجدلِ ولوْ شيئاً يسيراً . . فقلَّما ينفعُ معهُ الكلامُ ؛ فإنَّكَ إنْ أفحمتَهُ . . لمْ يتركْ مذهبَهُ ، وأحالَ بالقصورِ علىٰ نفسِهِ ، وقدَّرَ أنَّ فيهِ عندَهُ جواباً هوَ عاجزٌ عنهُ ، وإنَّما أنتَ ملبِّسٌ بقوَّةِ المجادلةِ عليهِ .

وأمَّا العاميُّ إذا صُرِفَ عنِ الحقِّ بنوعِ جدلٍ . . فيمكنُ أنْ يُرَدَّ إليهِ بمثلِهِ قبلَ أنْ يشتدَّ التعصُّبُ للأهواءِ ، فإذا اشتدَّ تعصُّبُهمْ . . وقعَ اليأسُ عنهُمْ ؛ إذِ التعصُّبُ سببٌ يرسِّخُ العقائدَ في النفوسِ ، وهٰذا أيضاً من آفاتِ العلماءِ

---

(١) أي : من الكتب الأربعين من « الإحياء » ، وكتاب (قواعد العقائد) هو الكتاب الثاني منها .

السوءِ ؛ فإنَّهُمْ يبالغونَ في التعصُّبِ للحقِّ ، وينظرونَ إلى المخالفينَ بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ ، فينبعثُ منهُمُ الدواعي بالمكافأةِ والمقابلةِ ، وتتوفَّرُ بواعثُهُمْ علىٰ طلبِ نصرةِ الباطلِ ، ويقوىٰ غرضُهُمْ في التمسُّكِ بما نُسبوا إليهِ ، ولوْ جاؤوا مِنْ جانبِ اللطْفِ والرحمةِ والنصْحِ في الخلوةِ لا في معرضِ التعصُّبِ والتحقيرِ . . لأنجحوا فيهِ .

ولكنْ لمَّا كانَ الجاهُ لا يقومُ إلا بالاستتباعِ ، ولا يستميلُ الأتباعَ مثلُ التعصُّبِ واللعْنِ والشتمِ للخصومِ . . اتخذوا التعصُّبَ عادتَهُمْ وآلتَهُمْ ، وسمَّوهُ ذبّاً عنِ الدينِ ونضالاً عنِ المسلمينَ ، وفيهِ على التحقيقِ هلاكُ الخلْقِ ورسوخُ البدعةِ في النفوسِ .

وأما الخلافياتُ[1] التي أُحدثتْ في هٰذهِ الأعصارِ المتأخرةِ ، وأُبدعَ فيها مِنَ التحريراتِ والتصنيفاتِ والمجادلاتِ ما لمْ يعهدْ مثلُها في السلفِ . . فإيَّاكَ وأنْ تحومَ حولَها ، واجتنبْها اجتنابَ السمِّ القاتلِ ؛ فإنَّها الداءُ العضالُ ، وهوَ الذي ردَّ الفقهاءَ كلَّهُمْ إلىٰ طلبِ المنافسةِ والمباهاةِ ، علىٰ ما سيأتيكَ تفصيلُ غوائِلها وآفاتِها .

وهٰذا الكلامُ ربَّما يسمعُ مِنْ قائِلهِ فيقالُ : (الناسُ أعداءُ ما جهلوا) ، فلا تظنَّنَّ ذلكَ ، فعلى الخبيرِ سقطتَ ، فاقبلْ هٰذهِ النصيحةَ ممَّنْ ضيَّعَ العمرَ فيهِ زماناً ، وزادَ فيهِ على الأوَّلينَ تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً ، ثمَّ

---

(١) وهي المسائل التي فيها خلاف المذاهب . « إتحاف » (١/ ٢٧٥) .

ألهمَهُ اللهُ رشدَهُ وأطلعَهُ علىٰ عيبِهِ ، فهجرَهُ واشتغلَ بنفسِهِ .

ولا يغرنَّكَ قولُ مَنْ يقولُ : (الفتوىٰ عمادُ الشرْعِ ، ولا تُعرفُ عللُهُ إلا بعلمِ الخلافِ) ؛ فإنَّ عللَ المذهبِ مذكورةٌ في المذهبِ ، والزيادةُ عليها مجادلاتٌ لمْ يعرفْها الأوَّلونَ ولا الصحابةُ ، وكانوا أعلمَ بعللِ الفتاوىٰ مِنْ غيرِهِمْ ، بلْ هيَ معَ أنَّها غيرُ مفيدةٍ في علمِ المذهبِ . ضارَّةٌ مفسدةٌ لذوقِ الفقهِ ؛ فإنَّ الذي يشهدُ لهُ حدسُ المفتي إذا صحَّ ذوقُهُ في الفقهِ . . لا يمكنُ تمشيتُهُ علىٰ شروطِ الجدلِ في أكثرِ الأمرِ ، فمَنْ ألفَ طبعُهُ رسومَ الجدلِ . . أذعنَ ذهنُهُ لمقتضياتِ الجدلِ ، وجبنَ عنِ الإذعانِ لذوقِ الفقهِ ، وإنَّما يشتغلُ بهِ مَنْ يشتغلُ لطلبِ الصيتِ والجاهِ ، ويتعلَّلُ بأنَّهُ يطلبُ عللَ المذهبِ ، وقدْ ينقضي عليهِ العمرُ ولا يصرفُ همَّتَهُ إلىٰ علمِ المذهبِ .

فكُنْ مِنْ شياطينِ الجنِّ في أمانٍ ، واحترزْ مِنْ شياطينِ الإنسِ ؛ فإنَّهمْ أراحوا شياطينَ الجنِّ مِنَ التعبِ في الإغواءِ والإضلالِ .

وبالجملةِ : فالمرضِيُّ عندَ العقلاءِ أنْ تقدِّرَ نفسَكَ في العالَمِ وحدَكَ معَ اللهِ ، وبينَ يديكَ الموتُ والعرْضُ والحسابُ والجنَّةُ والنارُ ، وتأمَّلْ فيما يعنيكَ ممَّا بينَ يديكَ ، ودعْ عنكَ ما سواهُ ، والسلامُ .

وقدْ رأىٰ بعضُ الشيوخِ بعضَ العلماءِ في المنامِ ، فقالَ لهُ : ما خبرُ تلكَ العلومِ التي كنتَ تجادلُ فيها وتناظرُ عليها ؟ فبسطَ يدَهُ ونفخَ فيها وقالَ :

طاحتْ كلُّها هباءً منثوراً ، وما انتفعتُ إلا بركعتينِ خلُصتا لي في جوفِ الليلِ !(١) .

وفي الحديثِ : « ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدىً كانُوا عليهِ إلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ »(٢) ، ثمَّ قرأ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ .

وفي الحديثِ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الآية : هُمْ أهلُ الجدلِ الذينَ عناهُمُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ فَاحْذَرْهُمْ ﴾(٣) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ قومٌ يغلقُ عنهُمْ بابُ العملِ ، ويفتحُ عليهِمْ بابُ الجدلِ)(٤) .

وفي بعضِ الأخبارِ : (إنَّكم في زمانٍ أُلهمتُمْ فيهِ العملَ ، وسيأتي قومٌ يُلْهَمُونَ الجدلَ)(٥) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٢) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٢٥٧) .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .

(٣) روى البخاري (٤٥٤٧) ، ومسلم (٢٦٦٥) مرفوعاً : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه . . فأولئك الذين سَمَّى الله ، فاحذروهم » .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٣٨) ، وقول الحافظ العراقي : (لم أجده) في « تخريجه » فعلى احتمال رفعه ، ولكن الأمر ليس كذلك ، وهو قريب من قول الأوزاعي كما في « اقتضاء العلم العمل » (١٢٢) : (إذا أراد الله بقوم شراً . . فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل) .

وفي الخبرِ المشهورِ : « أبغضُ الخلقِ إلى اللهِ تعالى الألَدُّ الْخَصِمُ »[1] .

وفي الخبرِ : « ما أُوتِيَ قومٌ المنطقَ إلاَّ مُنِعُوا العملَ »[2] ، والله أعلمُ .

* * *

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ، ومسلم (٢٦٦٨) .

(٢) قال صاحب « القوت » (١٣٨/١) : (روى الحكم بن عيينة ، عن عبد الرحمان بن أبي ليلىٰ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أوتي . . . ») وشواهده ما سبق .

البَابُ الرَّابِعُ
في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلمْ : أنَّ الخلافةَ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تولاَّها الخلفاءُ الراشدونَ المهديُّونَ ، وكانوا أئمَّةً علماءَ باللهِ تعالىٰ ، وفقهاءَ في أحكامِهِ ، ومستقلينَ بالفتاوىٰ في الأقضيةِ ، فكانوا لا يستعينونَ بالفقهاءِ إلا نادراً ، في وقائعَ لا يُستغنىٰ فيها عنِ المشاورةِ ، فتفرَّغَ العلماءُ لعلْمِ الآخرةِ وتجرَّدوا لها ، وكانوا يتدافعونَ الفتاوىٰ وما يتعلَّقُ بأحكامِ الخلْقِ مِنَ الدنيا ، وأقبلوا على اللهِ تعالىٰ بكُنْهِ اجتهادِهِمْ ، كما نُقِلَ منْ سيرِهِمْ[1] .

فلمَّا أفضتِ الخلافةُ بعدَهُمْ إلىٰ أقوامٍ تولَّوها بغيرِ استحقاقٍ ، ولا استقلالَ لهُمْ بعلمِ الفتاوىٰ والأحكامِ . . اضطُرُّوا إلى الاستعانةِ بالفقهاءِ ، وإلى استصحابِهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ؛ لاستفتائِهِمْ في مجاري أحكامِهِمْ .

(١) كما في « سنن الدارمي » (١٣٧) : قال عبد الرحمان بن أبي ليلىٰ : (لقد أدركت في هاذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار ، وما منهم أحد يحدِّث بحديث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يسأل عن فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

وكانَ قدْ بقيَ مِنْ علماءِ التابعينَ مَنْ هوَ مستمرٌّ على الطرازِ الأوَّلِ ، وملازمٌ صفوَ الدينِ ، ومواظبٌ علىٰ سمتِ علماءِ السلفِ ، فكانوا إذا طُلبوا . . هربوا وأعرضوا ، فاضطرَّ الخلفاءُ إلى الإلحاحِ في طلبِهِمْ لتوليةِ القضاءِ والحكوماتِ .

فرأىٰ أهلُ تلكَ الأعصارِ عِزَّ العلماءِ وإقبالَ الأئمَّةِ والولاةِ عليهِمْ معَ إعراضِهِمْ عنهُمْ ، فاشرأبُّوا لطلبِ العلمِ ، توصُّلاً إلىٰ نيلِ العزِّ ودرْكِ الجاهِ مِنْ قِبَلِ الولاةِ ، فأكبُّوا علىٰ علْمِ الفتاوىٰ ، وعَرَضوا أنفسَهُمْ على الولاةِ ، وتعرَّفوا إليهِمْ ، وطلبوا الولاياتِ والصلاتِ منهُمْ ، فمنهُمْ مَنْ حُرِمَ ومنهُمْ مَنْ أَنْجَحَ ، والمنجِحُ لَمْ يخلُ عَنْ ذلِّ الطلبِ ومهانةِ الابتذالِ ، فأصبحَ الفقهاءُ بعدَ أنْ كانوا مطلوبينَ طالبينَ ، وبعدَ أنْ كانوا أعزَّةً بالإعراضِ عنِ السلاطينِ أذلَّةً بالإقبالِ عليهِمْ ، إلا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ في كلِّ عصْرٍ مِنْ علماءِ دينِهِ .

وقدْ كانَ أكثرُ الإقبالِ في تلكَ الأعصارِ علىٰ علْمِ الفتاوىٰ والأقضيةِ ؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليها في الولاياتِ والحكوماتِ .

ثمَّ ظهرَ بعدَهُمْ منَ الصدورِ والأمراءِ مَنْ سَمِعَ مقالاتِ الناسِ في قواعدِ العقائدِ ، ومالتْ نفسُهُ إلىٰ سماعِ الحُجَجِ فيها ، فغلبَتْ رغبتُهُ إلى المناظرةِ والمجادلةِ في الكلامِ ، فأكبَّ الناسُ علىٰ علمِ الكلامِ ، وأكثروا فيهِ التصانيفَ ، ورتَّبوا فيه طرقَ المجادلاتِ ، واستخرجوا فنونَ المناقضاتِ في

المقالاتِ ، وزعموا : أنَّ غرضَهُمْ الذبُّ عنْ دينِ اللهِ ، والنضالُ عنِ السنَّةِ ، وقمعُ المبتدعةِ ؛ كما زعمَ مَنْ قبلَهُمْ أنَّ غرضَهُمْ بالاشتغالِ بالفتاوى الدينُ ، وتقلُّدُ أحكامِ المسلمينَ ؛ إشفاقاً علىٰ خلْقِ اللهِ ونصيحةً لهُمْ .

ثمَّ ظهرَ بعدَ ذلكَ منَ الصدورِ مَنْ لمْ يستصوبِ الخوضَ في الكلامِ وفتْحَ بابِ المناظرةِ فيهِ ؛ لما كانَ قدْ تولَّدَ مِنْ فتحِ بابِهِ منَ التعصُّباتِ الفاحشةِ والخصوماتِ الفاشيةِ المفضيةِ إلىٰ إهراقِ الدماءِ وتخريبِ البلادِ ، ومالتْ نفسُهُ إلى المناظرةِ في الفقْهِ ، وبيانِ الأَوْلىٰ مِنْ مذهبِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُما على الخصوصِ ، فتركَ الناسُ الكلامَ وفنونَ العلمِ ، وانثالوا على المسائلِ الخلافيةِ بينَ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُما على الخصوصِ ، وتساهلُوا في الخلافِ معَ مالكٍ وسفيانَ الثوريِّ وأحمدَ وغيرِهِمْ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ، وزعموا أنَّ غرضَهُمُ استنباطُ دقائقِ الشرعِ وتقريرُ عللِ المذهبِ ، وتمهيدُ أصولِ الفتاوىٰ ، وأكثروا فيها التصانيفَ والاستنباطاتِ ، ورتَّبوا فيها أنواعَ المجادلاتِ والتصنيفاتِ ، وهُمْ مستمرُّونَ عليهِ إلى الآنَ[١] ، ولسنا ندري ما الذي يحدثُ اللهُ فيما بعدَنا مِنَ الأعصارِ .

فهٰذا هوَ الباعثُ على الإكبابِ على الخلافياتِ والمناظراتِ لا غيرَ، ولوْ مالتْ نفوسُ أربابِ الدنيا إلى الخلافِ معَ إمامٍ آخرَ مِنَ الأئمَّةِ ، أو إلىٰ علْمٍ

(١) أي : إلىٰ زمن تأليف الكتاب ، وهو سنة ثمان وتسعين وأربع مئة . « إتحاف » (١/ ٢٨٢) .

آخرَ مِنَ العلومِ.. لمالوا أيضاً معهُمْ ، ولمْ يسكتُوا عنِ التعلُّلِ بأنَّ ما اشتغلوا بهِ هوَ علمُ الدينِ ، وأنْ لا مطلبَ لهُمْ سوى التقرُّبِ إلىٰ ربِّ العالمينَ .

* * *

بيان التلبيس في تشبيه هٰذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلمْ : أنَّ هؤلاءِ قدْ يستدرجونَ الناسَ إلىٰ ذلكَ بأنَّ غرضَنا مِنَ المناظراتِ المباحثةُ عنِ الحقِّ ليتضحَ ؛ فإنَّ الحقَّ مطلوبٌ ، والتعاونَ على النظرِ في العلمِ وتواردَ الخواطرِ مفيدٌ ومؤثرٌ ، وهٰكذا كانَ عادةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ في مشاوراتِهِمْ ؛ كتشاورِهِمْ في مسألةِ الجدِّ والإخوةِ ، وحدِّ شرْبِ الخمْرِ ، ووجوبِ الغرْمِ على الإمامِ إذا أخطأَ ؛ كما نُقِلَ مِنْ إجهاضِ المرأةِ جنينَها خوفاً مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ، وكما نُقِلَ مِنْ مسائلِ الفرائضِ وغيرِها، وما نُقِلَ عنِ الشافعيِّ وأحمدَ ومحمدِ بنِ الحسنِ ، ومالكٍ وأبي يوسفَ ، وغيرِهم مِنَ العلماءِ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ .

ويطلعُكَ علىٰ هٰذا التلبيسِ ما أذكرُهُ ، وهوَ أنَّ التعاونَ علىٰ طلبِ الحقِّ مِنَ الدينِ ، ولكنْ لهُ **شروطٌ وعلاماتٌ ثمانٍ** :

الأوَّلُ: ألاَّ يشتغلَ بهِ وهوَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ مَنْ لمْ يتفرَّغْ مِنْ فروضِ الأعيانِ:

ومَنْ عليهِ فرضُ عينٍ فاشتغلَ بفرضِ الكفايةِ ، وزعمَ أنَّ مقصودَهُ الحقُّ. . فهوَ كذَّابٌ ، ومثالُهُ مثالُ مَنْ يتركُ الصلاةَ في نفسِهِ ويتَّجِرُ في تحصيلِ الثيابِ ونسْجِها ويقولُ : غَرضي بهِ سترُ عورةِ مَنْ يصلِّي عُرياناً ولا يجدُ ثوباً !

فإنَّ ذلكَ ربَّما يتفقُ ، ووقوعُهُ ممكنٌ ، كما يزعمُ الفقيهُ أنَّ وقوعَ النوادرِ التي عنها البحثُ في الخلافِ ممكنٌ ، والمشتغلونَ بالمناظرةِ مهملونَ لأمورٍ هيَ فرضُ عينٍ بالاتفاقِ .

ومَنْ توجَّهَ عليهِ ردُّ وديعةٍ في الحالِ ، فقامَ وتحرَّمَ بالصلاةِ التي هيَ أقربُ القرباتِ إلى اللهِ تعالىٰ . . عصىٰ ربَّهُ بذلكَ ، فلا يكفي في كونِ الشخصِ مطيعاً كونُ فعلِهِ منْ جنْسِ الطاعاتِ ما لَمْ يراعِ فيهِ الوقتَ والشرطَ والترتيبَ .

* * *

الثاني : ألاَّ يرىٰ فرضَ كفايةٍ أهمَّ مِنَ المناظرةِ :

فإنْ رأىٰ ما هوَ أهمُّ وفعلَ غيرَه . . عصىٰ بفعلِهِ ، وكانَ مثالُهُ مثالَ مَنْ يرىٰ جماعةً مِنَ العطاشِ أشرفوا على الهلاكِ وقدْ أهملَهُمُ الناسُ وهوَ قادرٌ علىٰ إحيائِهم بأنْ يسقيَهم الماءَ ، فاشتغلَ بتعلُّمِ الحجامةِ وزعمَ أنَّهُ منْ فروضِ الكفاياتِ ، ولوْ خلا البلدُ عنها . . لهلكَ الناسُ ، وإذا قيلَ : في البلدِ جماعةٌ مِنَ الحجَّامينَ وفيهِمْ غنيةٌ . . فيقولُ : وهـٰذا لا يُخرِجُ هـٰذا الفعلَ عنْ كونِهِ فرضَ كفايةٍ .

فحالُ مَنْ يفعلُ هـٰذا ويهملُ الاشتغالَ بالواقعةِ الملمَّةِ بجماعةِ العطاشِ مِنَ المسلمينَ . . كحالِ المشتغلِ بالمناظرةِ وفي البلدِ فروضُ كفاياتٍ مهملةٌ لا قائمَ بها .

وأما الفتوىٰ . . فقدْ قامَ بها جماعةٌ ولا يخلو بلدٌ عنْ جملةٍ مِنَ الفروضِ المهملةِ ولا يلتفتُ الفقهاءُ إليها ، وأقربُها الطبُّ ؛ إذْ لا يوجدُ في أكثرِ البلادِ طبيبٌ مسلمٌ يجوزُ اعتمادُ شهادتِهِ فيما يعوَّلُ علىٰ قولِ الطبيبِ فيهِ شرعاً ، ولا يرغبُ أحدٌ منَ الفقهاءِ في الاشتغالِ بهِ .

وكذا الأمرُ بالمعروفِ والنهْيُ عنِ المنكرِ وهوَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، وربَّما يكونُ المناظرُ في مجلسِ مناظرتِهِ مشاهداً للحريرِ ملبوساً ومفروشاً وهوَ ساكتٌ ، ويناظرُ في مسألةٍ لا يتفقُ وقوعُها قطُّ ، وإنْ وقعتْ . . قامَ بها جماعةٌ مِنَ الفقهاءِ ، ثمَّ يزعمُ أنَّهُ يريدُ أنْ يتقرَّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بفرضِ الكفايةِ .

وقدْ روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّه قِيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متىٰ يُتركُ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المنكَرِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا ظهرَ الإدْهانُ في خيارِكُمْ ، والفاحِشَةُ في شِرَارِكُمْ ، وتحَوَّلَ المُلْكُ في صغارِكُمْ ، والفِقهُ في أرذالِكمْ »(١) .

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٥) ، والمراد بالإدهان هنا : الملاينة في الكلام ، من المداهنة التي ترفع المناصحة ، ولفظ الإدهان عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٤٨) .

الثالثُ : أنْ يكونَ المناظرُ مجتهداً بذاتِهِ :

يفتي برأيهِ لا بمذهبِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ وغيرِهما ، حتَّىٰ إذا ظهرَ لهُ الحقُّ في مذهبِ أبي حنيفةَ . . تركَ ما يوافقُ مذهبَ الشافعيِّ وأفتىٰ بما ظهرَ لهُ ، كما كانَ يفعلُهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ والأئمةُ .

فأمَّا مَنْ ليسَ لهُ رتبةُ الاجتهادِ ـ وهوَ **حكْمُ جميعِ أهلِ العصرِ** ـ وإنَّما يفتي فيما يُسألُ عنهُ ناقلاً عَنْ مذهبِ صاحبِهِ ، فلوْ ظهرَ لهُ ضعفُ مذهبِهِ لمْ يجزْ لهُ أنْ يتركَهُ . . فأيُّ فائدةٍ لهُ في المناظرةِ ومذهبُهُ معلومٌ وليسَ لهُ الفتوىٰ بغيرِهِ ؟!

وما يشكلُ عليهِ يلزمُهُ أنْ يقولَ : لعلَّ عندَ صاحبِ مذهبي جواباً عنْ هـٰذا ، فإنِّي لسْتُ مستقلاًّ بالاجتهادِ في أصلِ الشرعِ .

ولوْ كانتْ مباحثتُهُ عنِ المسائلِ التي فيها وجهانِ أوْ قولانِ لصاحبِهِ . . لكانَ أشبهَ ؛ فإنَّهُ ربَّما يفتي بأحدِهِما فيستفيدُ منَ البحثِ ميلاً إلىٰ أحدِ الجانبينِ ولا يرى المناظراتِ جاريةً فيها قطُّ ، بلْ ربَّما تركَ المسألةَ التي فيها وجهانِ أوْ قولانِ وطلبَ مسألةً يكونُ الخلافُ فيها مبتوتاً .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : ألا يناظرَ إلا في مسألةٍ واقعةٍ أوْ قريبةِ الوقوعِ غالباً :

فإنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ما تشاوروا إلا فيما تجدَّدَ مِنَ الوقائعِ ، أوْ ما يغلبُ وقوعُهُ كالفرائضِ ، ولا ترى المناظرينَ يهتمونَ بانتقادِ المسائلِ التي

تعمُّ البلوىٰ بالفتوىٰ فيها ، بلْ يطلبونَ الطبوليّاتِ[1] التي يتّسِعُ مجالُ الجدلِ فيها كيفما كانَ الأمرُ ، وربَّما يتركونَ ما يكثرُ وقوعُهُ ويقولونَ : هٰذهِ مسألةٌ خبريّةٌ[2] ، أوْ هيَ منَ الزوايا وليستْ مِنَ الطبوليّاتِ .

فمِنَ العجائبِ أنْ يكونَ المطلَبُ هوَ الحقَّ ثمَّ يتركونَ المسألةَ لأنَّها خبريّةٌ ومدركُ الحقِّ فيها هوَ الأخبارُ ، أوْ لأنَّها ليستْ مِنَ الطبولِ !

فلا نطوِّلُ فيها الكلامَ ، والمقصودُ في الحقِّ أنْ يقصرَ الكلامُ ويبلغَ الغايةَ على القربِ ، لا أنْ يَطُولَ .

الخامسُ : أنْ تكونَ المناظرةُ في الخلوةِ أحبَّ إليهِ وأهمَّ مِنَ المحافلِ وبينَ أظْهُرِ الأكابرِ والسلاطينِ :

فإنَّ الخلوةَ أجمعُ للهمِّ ، وأحرىٰ بصفاءِ الذهنِ والفكرِ ودرْكِ الحقِّ ، وفي حضورِ الجمْعِ ما يحرِّكُ دواعيَ الرياءِ ويوجبُ الحرْصَ علىٰ نصرَةِ كلِّ واحدٍ مِنَ المتناظرَيْنِ نفسَهُ محقّاً كانَ أوْ مبطلاً ، وأنتَ تعلمُ أنَّ حرصَهُمْ على المحافلِ والمجامعِ ليسَ للهِ ، وأنَّ الواحدَ منهُمْ يخلو بصاحبِهِ مدَّةً طويلةً

---

(١) التي يُدَقُّ لها بالطبل ، وهي كناية عن الاشتهار والاجتماع لها . « إتحاف » (١/ ٢٨٨) .

(٢) قد أخبر بها فلان من الشيوخ ، ونصَّ عليها فلان في الكتاب الفلاني . « إتحاف » (١/ ٢٨٨) .

فلا يكلمُهُ، وربَّما يقترحُ عليهِ فلا يجيبُ، فإذا ظهرَ مقدَمٌ[1] أوِ انتظمَ مجمَعٌ . . لمْ يغادرْ في قوسِ الاحتيالِ منزعاً حتَّىٰ يكونَ هوَ المتخصِّصَ بالكلامِ .

* * *

السادسُ : أنْ يكونَ في طلبِ الحقِّ كناشدِ ضالَّةٍ :

لا يفرِّقُ بينَ أنْ تظهرَ الضالَّةُ علىٰ يدِهِ أوْ علىٰ يدِ مَنْ يعاونُهُ ، ويرىٰ رفيقَهُ معيناً لا خصْماً ، ويشكرُهُ إذا عرَّفَهُ الخطأَ وأظهرَ لهُ الحقَّ ؛ كما لوْ أخذَ طريقاً في طلبِ ضالَّتِهِ ، فنبَّهَهُ صاحبُهُ علىٰ ضالَّتِهِ في طريقٍ آخرَ ، فإنَّهُ كانَ يشكرُهُ ولا يذمُّهُ ، ويفرحُ بهِ ويكرمُهُ .

فهكذا كانتْ مشاوراتُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ ردَّتِ امرأةٌ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ونبَّهتْهُ على الحقِّ وهوَ في خطبتِهِ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فقالَ : (أصابتِ امرأةٌ وأخطأَ رجلٌ)[2] .

وسألَ رجلٌ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ ، فأجابَهُ ، فقالَ : ليسَ كذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، ولكنْ كذا وكذا ، فقالَ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوقَ كلِّ ذي علْمٍ عليمٌ[3] .

واستدركَ ابنُ مسعودٍ علىٰ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُما ، فقالَ

---

(١) مصدر ميمي ؛ أي : قدوم أحد من الرؤساء فاجتمعوا لملاقاة القادم . « إتحاف » (٢٨٩/١) .

(٢) المقاصد الحسنة (ص٣٢٠) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٦٥) .

أبو موسىٰ : لا تسألوني عنْ شيءٍ وهـٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ[١] ؛ وذلكَ لمَّا سُئِلَ أبو موسىٰ عنْ رجلٍ قاتلَ في سبيلِ اللهِ فقُتِلَ ، فقالَ : هوَ في الجنَّةِ ، وكانَ أميرَ الكوفةِ[٢] ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : أعِدْهُ على الأميرِ ، فلعلَّهُ لمْ يفهمْ ، فأعادَ وأعادَ الجوابَ ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : أنا أقولُ : إنْ قُتِلَ فأصابَ الحقَّ . . فهوَ في الجنَّةِ ، فقال أبو موسىٰ : هوَ ما قالَ[٣] .

وهكذا يكونُ إنصافُ طالبِ الحقِّ ، ولوْ ذكرَ الآنَ مثلُ هـٰذا لأقلِّ فقيهٍ . . لأنكرَهُ واستبعدَهُ ، وقالَ : لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يقالَ : أصابَ الحقَّ ؛ فإنَّ ذلك معلومٌ لكلِّ أحدٍ[٤] .

فانظرْ إلىٰ مناظري زمانِكَ الآنَ كيفَ يسوَدُّ وجْهُ أحدِهِمْ إذا اتضحَ الحقُّ علىٰ لسانِ خصمِهِ ، وكيفَ يخجلُ بهِ ، وكيفَ يجتهدُ في مجاحدتِهِ بأقصىٰ قدرتِهِ ، وكيفَ يذمُّ مَنْ أفحمَهُ طولَ عمرِهِ ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ تشبيهِ نفسِهِ بالصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ في تعاونِهِمْ على النظرِ في الحقِّ !

* * *

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٦٠٧) .
(٢) أي : إن أبا موسى الأشعري كان أميراً على الكوفة .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٨) .
(٤) هـٰذا القيد الذي أتىٰ به ابن مسعود رضي الله عنه هو المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم علىٰ ما أخرجه البخاري : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في الجنة » . « إتحاف » (١/ ٢٩٠) .

السابعُ : ألا يمنعَ معينَهُ في النظرِ مِنَ الانتقالِ من دليلٍ إلىٰ دليلٍ ، ومِنْ إشكالٍ إلىٰ إشكالٍ :

فهكذا كانتْ مناظراتُ السلفِ ، ويُخرجُ مِنْ كلامِهِ جميعَ دقائقِ الجدلِ المبتدعةِ ، فما لهُ ولقولِهِ : هـٰذا لا يلزمُني ذكرُهُ ، وهـٰذا يناقضُ كلامَكَ الأوّلَ فلا يقبلُ منكَ ؛ فإنَّ الرجوعَ إلى الحقِّ أبداً يكونُ مناقضاً للباطلِ ، ويجبُ قبولُهُ .

وأنتَ ترىٰ أنَّ جميعَ المجالسِ تنقضي في المدافعاتِ والمجادلاتِ ، حتَّىٰ يقيسُ المستدلُّ علىٰ أصلٍ بعلّةٍ يظنُّها ، فيقالُ لهُ : وما الدليلُ علىٰ أنَّ الحكمَ في الأصلِ معلَّلٌ بهـٰذهِ العلةِ ؟ فيقولُ : هـٰذا ما ظهرَ لي ، فإنْ ظهرَ لكَ ما هوَ أوضحُ وأولىٰ منهُ . . فاذكرْهُ حتَّىٰ أنظرَ فيهِ ، فيُصِرُّ المعترضُ ويقولُ : فيهِ معانٍ سوىٰ ما ذكرتَهُ ، وقدْ عرفتُها ولا أذكرُها ؛ إذْ لا يلزمُني ذكرُها ، ويقولُ المستدلُّ : عليكَ إيرادُ ما تدعيهِ وراءَ هـٰذا ، ويصرُّ المعترضُ علىٰ أنَّهُ لا يلزمُهُ ، ويتوخّىٰ مجالسَ المناظرةِ بهـٰذا الجنسِ مِنَ السؤالِ وأمثالِهِ .

ولا يعرفُ هـٰذا المسكينُ أنَّ قولَهُ : (إنِّي أعرفُ ولا أذكرُهُ إذْ لا يلزمُني) . . كذبٌ على الشرعِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ لا يعرفُ معنىً وإنَّما يدعيهِ ليعجزَ خصمَهُ . . فهوَ فاسقٌ كذَّابٌ عصى اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وتعرَّضَ لسخطِهِ بدعواهُ معرفةً هوَ خالٍ عنها ، وإنْ كانَ صادقاً . . فقدْ فسقَ بإخفائِهِ ما عرفَهُ

مِنْ أمرِ الشرْعِ وقدْ سألَهُ أخوهُ المسلمُ ليفهمَهُ وينظرَ فيهِ ، فإنْ كانَ قوياً . . رجعَ إليهِ ، وإنْ كانَ ضعيفاً . . أظهرَ لهُ ضعفَهُ ، وأخرجَهُ عنْ ظلمَةِ الجهلِ إلىٰ نورِ العلمِ .

ولا خلافَ أنَّ إظهارَ ما عُلِمَ منْ علْمِ الدينِ بعدَ السؤالِ عنهُ واجبٌ لازمٌ ، فمعنىٰ قولِهِ : (لا يلزمني) أي : في شرْعِ الجدلِ الذي أبدعناهُ بحكْمِ التشهِّي والرغبةِ في طريقِ الاحتيالِ والمصارعةِ بالكلامِ لا يلزمني ، وإلا . . فهوَ لازمٌ بالشرعِ ؛ فإنَّهُ بامتناعِهِ عنِ الذكرِ إمَّا كاذبٌ وإمَّا فاسقٌ .

فتفحَّصْ عنْ مشاوراتِ الصحابةِ ومفاوضاتِ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : هلْ سمعتَ فيها ما يضاهي هـٰذا الجنسَ ؟ وهلْ منعَ أحدٌ منَ الانتقالِ منْ دليلٍ إلىٰ دليلٍ ، ومنْ قياسٍ إلىٰ أثرٍ ، ومنْ خبرٍ إلىٰ آيةٍ ؟!

بلْ جميعُ مناظراتِهِمْ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، إذْ كانوا يذكرونَ كلَّ ما يخطرُ لهُمْ كما يخطرُ ، وكانوا ينظرونَ فيهِ .

* * *

الثامنُ : أنْ يناظرَ مَنْ يتوقَّعُ الاستفادةَ منهُ ممَّنْ هوَ مشتغلٌ بالعلمِ :

والغالبُ أنَّهُمْ يحترزونَ مِنْ مناظرةِ الفحولِ والأكابرِ ؛ خوفاً من ظهورِ الحقِّ علىٰ ألسنتِهِمْ ، فيرغبونَ فيمَنْ دونَهُمْ ؛ طمعاً في ترويجِ الباطلِ عليهِمْ .

ووراءَ هـٰذهِ شروطٌ دقيقةٌ كثيرةٌ ، ولكنْ في هـٰذهِ الشروطِ الثمانيةِ ما يهديكَ إلىٰ مَنْ يناظرُ للهِ ومَنْ يناظرُ لعلَّةٍ .

واعلمْ بالجملةِ : أنَّ مَنْ لا يناظرُ الشيطانَ وهوَ مستولٍ علىٰ قلبِهِ ، وهوَ أعدىٰ عدوٍّ لهُ ، ولا يزالُ يدعوهُ إلىٰ هلاكِهِ ، ثمَّ يشتغلُ بمناظرةِ غيرِهِ في مسائلَ المجتهدُ فيها مصيبٌ أو مساهمٌ للمصيبِ في الأجرِ . . فهوَ ضُحْكَةٌ للشيطانِ ، وعبرةٌ للمخلصينَ ، ولذلكَ شَمِتَ الشيطانُ بهِ لِما غمسَهُ فيهِ مِنْ ظلماتِ الآفاتِ التي نعدِّدُها ونذكرُ تفاصيلَها ، فنسألُ اللهَ حسنَ العونِ والتوفيقِ .

* * *

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلمْ وتحقَّقْ : أنَّ المناظرةَ الموضوعةَ لقصدِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإظهارِ الفضلِ والشرفِ عندَ الناسِ ، وقصدِ المباهاةِ والمماراةِ واستمالةِ وجوهِ الناسِ . . هيَ منبعُ جميعِ الأخلاقِ المذمومةِ عندَ اللهِ ، المحمودةِ عندَ عدوِّ اللهِ إبليسَ ، ونسبتُها إلى الفواحشِ الباطنةِ ؛ مِنَ الكبرِ ، والعجْبِ ، والحسدِ ، والمنافسةِ ، وتزكيةِ النفسِ ، وحبِّ الجاهِ ، وغيرِها . . نسبةُ شربِ الخمرِ إلى الفواحشِ الظاهرةِ ؛ مِنَ الزنا ، والقذفِ ، والقتلِ ، والسرقةِ .

وكما أنَّ الذي خُيِّرَ بينَ الشربِ وسائرِ الفواحشِ استصغرَ الشربَ فأقدمَ عليهِ ، فدعاهُ ذلكَ إلى ارتكابِ بقيةِ الفواحشِ في سكرِهِ[1] . . فكذلكَ مَنْ غلبَ عليهِ حبُّ الإفحامِ والغلبةِ في المناظرةِ وطلبُ الجاهِ والمباهاةُ بهِ . . دعاهُ ذلكَ إلىٰ إضمارِ الخبائثِ كلِّها في النفسِ ، وهيَّجَ فيهِ جميعَ الأخلاقِ المذمومةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ ستأتي أدلَّةُ مذمَّتِها مِنَ الأخبارِ والآياتِ في ربعِ المهلكاتِ ، ولكنَّا نشيرُ الآنَ إلىٰ مجامعِ ما تهيِّجُهُ المناظرةُ :

فمنها الحسدُ : وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكُلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[2] .

---

(١) من زناً وقتل وغير ذلك ، حتىٰ سميت أمّ الخبائث كما في « النسائي » (٨/ ٣١٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

ولا ينفكُّ المناظرُ عنِ الحسدِ ؛ فإنَّهُ تارةً يغلِبُ وتارةً يُغْلَبُ ، وتارةً يُحمَدُ كلامُهُ وأخرىٰ يُحمَدُ كلامُ غيرِهِ ؛ فما دامَ يبقىٰ في الدنيا واحدٌ يُذْكَرُ بقوَّةِ العلمِ والنظرِ ، أوْ يُظَنُّ أنَّهُ أحسنُ منهُ كلاماً وأقوىٰ نظراً . . فلا بدَّ أنْ يحسُدَهُ ، ويحبَّ زوالَ النعمِ عنهُ ، وانصرافَ الوجوهِ والقلوبِ عنهُ إليهِ .

والحسدُ نارٌ محرقةٌ ، فمَنْ بُلِيَ بهِ . . فهوَ في العذابِ الأليمِ الدائمِ في الدنيا ، ولَعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأعظمُ ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (خذوا العلمَ حيثُ وجدتموهُ ، ولا تقبلوا قولَ الفقهاءِ بعضِهِمْ في بعضٍ ؛ فإنَّهُمْ يتغايرونَ كما تتغايرُ التيوسُ في الزريبةِ)[1] .

* * *

ومنها التكبُّرُ والترفُّعُ على الناسِ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنْ تواضعَ . . رفعَهُ اللهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حكايةً عنِ اللهِ تعالىٰ : « العظمةُ إزاري والكبرياءُ ردائي ، فَمَنْ نازعني فيهما . . قصمتُهُ »[3] .

ولا ينفكُّ المناظرُ عنِ التكبُّرِ على الأقرانِ والأمثالِ ، والترفُّعِ إلىٰ فوقِ قدرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهم ليتقاتلونَ علىٰ مجلسٍ منَ المجالسِ يتنافسونَ فيهِ في

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٢٥) .
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه .
(٣) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

الارتفاعِ والانخفاضِ ، والقربِ مِنْ وسادةِ الصدْرِ والبعدِ منها ، والتقدُّمِ في الدخولِ عندَ مضايقِ الطرقِ .

وربَّما يتعلَّلُ الغبيُّ والمكَّارُ الخدَّاعُ منهُمْ بأنَّهُ يبغي صيانةَ عزِّ العلمِ ، وأنَّ المؤمنَ منهيٌّ عنْ إذلالِ نفسِهِ ، فيعبِّرُ عنِ التواضعِ الذي أثنى اللهُ سبحانَهُ عليهِ وسائرُ أنبيائِهِ بالذلِّ ، وعنِ التكبُّرِ الممقوتِ عندَ اللهِ بعزِّ الدينِ ؛ تحريفاً للاسمِ ، وإضلالاً للخلقِ بهِ ، كما فُعِلَ في اسمِ الحكمةِ والعلمِ وغيرِهما !!

* * *

ومنها الحقدُ : فلا يكادُ المناظرُ يخلو عنهُ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بحقُودٍ »(١) .

وورَدَ في ذمِّ الحقدِ ما لا يخفىٰ ، ولا ترىٰ مُناظراً يقدرُ علىٰ ألا يضمرَ حقداً علىٰ مَنْ يحرِّكُ رأسَهُ علىٰ كلامِ خصمِهِ ، ويتوقَّفُ في كلامِهِ فلا يقابلُهُ بحسْنِ الإصغاءِ ، بل يضطرُّ إذا شاهدَ ذلكَ إلىٰ إضمارِ الحقْدِ وتزيينِهِ في النفسِ، وغايةُ تماسكِهِ الإخفاءُ بالنفاقِ، ويترشَّحُ منهُ إلى الظاهرِ ـ لا محالةَ ـ في غالبِ الأمرِ .

وكيفَ ينفكُّ عنْ هـٰذا ولا يتصوَّرُ اتفاقُ جميعِ المستمعينَ علىٰ ترجيحِ

---

(١) وقد روى النسائي (٦/١١) : « ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمانُ والحسد » ، وقوله : « يجتمعان » علىٰ لغةٍ أو حذفٍ ، وأما الحديث بلفظ المؤلف « المؤمن ليس بحقود » . . فانظر « كشف الخفاء » (٢/٢٩٣) .

كلامِهِ ، واستحسانِ جميعِ أحوالِهِ في إيرادِهِ وإصدارِهِ ؟!

بلْ لوْ صدرَ مِنْ خصمِهِ أدنىٰ سببٍ فيهِ قِلَّةُ مبالاةٍ بكلامِهِ . . انغرسَ في صدرِهِ حقدٌ لا تقلعُهُ يدُ الدهرِ إلىٰ آخرِ العمرِ .

＊ ＊ ＊

ومنها الغيبةُ : وقدْ شبهَهَا اللهُ تعالىٰ بأكلِ الميتةِ ، ولا يزالُ المناظرُ مثابراً علىٰ أكلِ الميتةِ ؛ فإنَّهُ لا ينفكُّ عنْ حكايةِ كلامِ خصمِهِ ومذمَّتِهِ ، وغايةُ تحفُّظِهِ أنْ يصدُقَ فيما يحكيهِ عليهِ ولا يكذبَ في الحكايةِ ، فيحكي عنهُ ـ لا محالةَ ـ ما يدلُّ علىٰ قصورِ كلامِهِ وعجزِهِ ونقصانِ فضلِهِ ، وهوَ الغيبةُ ، فأمَّا الكذبُ . . فبهتانٌ .

وكذلكَ لا يقدرُ علىٰ أنْ يحفظَ لسانَهُ عنِ التعرُّضِ لعِرْضِ مَنْ يُعْرِضُ عنْ كلامِهِ ويُصغي إلىٰ خصمِهِ ويقبلُ عليهِ ، حتىٰ ينسبُهُ إلى الجهلِ والحماقةِ وقلَّةِ الفهمِ والبلادةِ .

＊ ＊ ＊

ومنها تزكيةُ النفسِ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وقيلَ لحكيمٍ : ما الصدقُ القبيحُ ؟ فقالَ : ثناءُ المرءِ علىٰ نفسِهِ .

ولا يخلو المناظرُ عنِ الثناءِ علىٰ نفسِهِ بالقوَّةِ والغلبةِ ، والتقدُّمِ بالفضلِ على الأقرانِ ، ولا ينفكُّ في أثناءِ المناظرةِ عنْ قولِهِ : لستُ ممَّنْ يخفىٰ عليهِ أمثالُ هـٰذهِ الأمورِ ، وأنا المتفنِّنُ في العلومِ ، والمستقلُّ بالأصولِ وحفظِ

الأحاديثِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يتمدَّحُ بهِ تارةً علىٰ سبيلِ الصلَفِ ، وتارةً للحاجةِ إلىٰ ترويجِ كلامِهِ ، ومعلومٌ أنَّ الصلَفَ والتمدُّحَ مذمومانِ شرعاً وعقلاً .

* * *

ومنها التجسُّسُ وتتبُّعُ عوراتِ الناسِ : وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ .

والمناظرُ لا ينفكُّ عنْ طلبِ عثراتِ أقرانِهِ وتتبُّعِ عوراتِ خصومِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليُخبَرُ بورودِ مناظرٍ إلىٰ بلدِهِ ، فيطلبُ مَنْ يَخْبُرُ بواطنَ أحوالِهِ ، ويستخرجُ بالسؤالِ مقابحَهُ ؛ حتَّىٰ يعدَّها ذخيرةً لنفسِهِ في إفضاحِهِ وتخجيلِهِ إذا مسَّتْ إليهِ حاجتُهُ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليستكشفُ عنْ أحوالِ صباهُ وعنْ عيوبِ بدنِهِ ، فعساهُ يعثرُ علىٰ هفوةٍ أوْ علىٰ عيبٍ بهِ مِنْ قَرَعٍ أوْ غيرِهِ ، ثمَّ إذا أحسَّ بأدنىٰ غلبةٍ مِنْ جهتِهِ . . عرَّضَ بهِ إنْ كانَ متماسكاً ، ويُستحسنُ ذلكَ منهُ ، ويُعدُّ من لطائفِ التشبيبِ ، ولا يمتنعُ عنِ الإفصاحِ بهِ إنْ كانَ متبجِّحاً بالسفاهةِ والاستهزاءِ ؛ كما حُكِيَ عنْ قومٍ منْ أكابرِ المناظرينَ المعدودينَ مِنْ فحولِهِمْ .

* * *

ومنها الفرحُ بمساءةِ الناسِ والغمُّ لمسارِّهِمْ : ومَنْ لا يحبُّ لأخيهِ المسلمِ ما يحبُّ لنفسِهِ . . فهوَ بعيدٌ مِنْ أخلاقِ المؤمنينَ ، وكلُّ مَنْ طلبَ المباهاةَ بإظهارِ الفضلِ . . يسرُّهُ ـ لا محالَةَ ـ ما يسوءُ أقرانَهُ وأشكالَهُ الذينَ يسامونَهُ في الفضلِ ، ويكونُ التباغضُ بينهُمْ كما بينَ الضرائرِ ، فكما أنَّ إحدى

الضرائرِ إذا رأتْ صاحبتَها مِنْ بعيدٍ . . ارتعدتْ فرائصُها واصفرَّ لونُها ؛ فهكذا ترى المناظرَ إذا رأىٰ مُناظراً . . يَرْبَدُّ لونُهُ ويضطربُ عليهِ فكرُهُ ، وكأنَّهُ شاهدَ شيطاناً مارداً أو سَبُعاً ضارياً !

فأينَ الاستئناسُ والاسترواحُ الذي كانَ يجري بينَ علماءِ الدينِ عندَ اللقاءِ ، وما نُقِلَ عنهُمْ مِنَ المؤاخاةِ والتناصرِ والتساهمِ في السرَّاءِ والضرَّاءِ ؟! حتَّىٰ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (العلمُ بينَ أهلِ العقلِ والفضلِ رَحِمٌ متَّصِلٌ) .

فلا أدري كيفَ يدعي الاقتداءَ بمذهبِهِ جماعةٌ صارَ العلمُ بينهُمْ عداوةً قاطعةً ؟! فهلْ يتصوَّرُ أنْ يستتبَّ الأُنْسُ معَ طلبِ الغلبةِ والمباهاةِ ؟

هيهاتَ هيهاتَ ! فناهيكَ بالشيءِ شراً أَنْ يُلزمَكَ أخلاقَ المنافقينَ ، ويبرِئَكَ عنْ أخلاقِ المؤمنينَ والمتقينَ .

* * *

ومنها النفاقُ : فلا يحتاجُ إلىٰ ذكرِ الشواهدِ في ذمِّهِ ، وهُمْ مضطرونَ إليهِ ؛ فإنَّهُمْ يلقونَ الخصومَ ومحبِّيهِمْ وأشياعَهُمْ ولا يجدونَ بُدّاً مِنَ التودُّدِ باللسانِ وإظهارِ الشوقِ والاعتدادِ بمكانِهِمْ وأحوالِهِمْ ، ويعلمُ ذلكَ المخاطَبُ والمخاطِبُ وكلُّ مَنْ يسمعُ ذلكَ منهُمْ أنَّ ذلكَ كذبٌ وزورٌ ونفاقٌ وفجورٌ ، وأنَّهمْ متوادُّونَ بالألسنةِ متباغضونَ بالقلوبِ ، نعوذُ باللهِ العظيمِ منهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تعلَّمَ الناسُ العلمَ وتركوا العملَ ،

وتحابُّوا بالألسُنِ وتباغضوا بالقلوبِ ، وتقاطعُوا في الأرحامِ . . لعنهُمُ اللهُ عندَ ذلكَ ، فأصمَّهُمْ وأعمىٰ أبصارَهُمْ » رواهُ الحسنُ[1] ، وقدْ صحَّ ذلكَ بمشاهدةِ الحالِ .

***

ومنها الاستكبارُ عنِ الحقِّ وكراهتُهُ والحرصُ على المماراةِ فيهِ : حتَّىٰ إنَّ أبغضَ شيءٍ إلى المناظرِ أنْ يظهرَ علىٰ لسانِ خصمِهِ الحقُّ ، ومهما ظهرَ . . تشمَّرَ لجحدِهِ وإنكارِهِ بأقصىٰ جهدِهِ ، وبذَلَ غايةَ إمكانِهِ في المخادعةِ والمكْرِ والحيلةِ لدفعِهِ ، ثمَّ تصيرُ المماراةُ فيهِ عادةً طبيعيةً ، فلا يسمعُ كلاماً إلا وينبعثُ مِنْ طبعِهِ داعيةُ الاعتراضِ عليهِ ، حتَّىٰ يغلبَ ذلكَ علىٰ قلبِهِ في أدلةِ القرآنِ وألفاظِ الشرعِ ، فيضربَ البعضَ منها بالبعضِ .

والمراءُ في مقابلةِ الباطلِ محذورٌ ؛ إذْ ندبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ تركِ المراءِ بالحقِّ على الباطلِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المِراءَ وهوَ مُبْطِلٌ . . بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في رَبَضِ الجنةِ ، ومَنْ تركَ المراءَ وهوَ مُحِقٌّ . . بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في أعلى الجنةِ »[2] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ١٠٠) من حديث سلمان رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه ، والمراد بالحسن ـ والله أعلم ـ هو الحسن بن سفيان الشيباني صاحب « المسند » وغيره .

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) .

وقدْ سوَّى اللهُ تعالىٰ بينَ مَنِ افترَىٰ على اللهِ كذباً وبينَ مَنْ كذَّبَ بالحقِّ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥ ﴾ .

* * *

ومنها الرياءُ وملاحظةُ الخلقِ ، والجهدُ في استمالةِ قلوبِهِمْ وصرْفِ وجوهِهِم : والرياءُ هوَ الداءُ العضالُ الذي يدعو إلىٰ أكبرِ الكبائرِ ، كما سيأتي في كتابِ الرياءِ ، والمناظرُ لا يقصدُ إلا الظهورَ عندَ الخلقِ ، وإطلاقَ ألسنتِهِمْ بالثناءِ عليهِ .

فهٰذهِ عشرُ خلالٍ مِنْ أمَّهاتِ الفواحشِ الباطنةِ ، سوىٰ ما يتفقُ لغيرِ المتماسكينَ منهمْ ؛ مِنَ الخصامِ المؤدِّي إلى الضربِ واللكْمِ ، وتمزيقِ الثيابِ ، والأخذِ باللِّحَىٰ ، وسبِّ الوالدَينِ ، وشتمِ الأستاذِينَ ، والقذْفِ الصريحِ ، فإنَّ أولئكَ ليسوا معدودينَ في زمرةِ الناسِ المعتبرينَ ، وإنَّما الأكابرُ والعقلاءُ منهُمْ همُ الذينَ لا ينفكونَ عنْ هٰذهِ الخصالِ العشرِ .

نعمْ ، قدْ يسلَمُ بعضُهُمْ عنْ بعضِها معَ مَنْ هوَ ظاهرُ الانحطاطِ عنهُ ، أوْ ظاهرُ الارتفاعِ عليهِ ، أوْ هوَ بعيدٌ عنْ بلدِهِ وأسبابِ معيشتِهِ ، ولا ينفكُّ أحدٌ منهُمْ عنهُ معَ أشكالِهِ المقارنينَ لهُ في الدرجةِ .

ثمَّ يتشعَّبُ مِنْ كلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الخصالِ العشرِ عشرٌ أخرىٰ مِنَ الرذائلِ ، لمْ نطوِّلْ بذكرِها وتفصيلِ آحادِها ؛ مثلُ الأنفةِ ، والغضبِ ،

والبغضاءِ ، والطمعِ ، وحبِّ طلبِ المالِ والجاهِ للتمكُّنِ مِنَ الغلبةِ ، والمباهاةِ ، والأَشَرِ ، والبَطَرِ ، وتعظيمِ الأغنياءِ والسلاطينِ ، والتردُّدِ إليهِمْ ، والأخذِ مِنْ حرامِهِمْ ، والتجمُّلِ بالخيولِ والمراكبِ والثيابِ المحظورةِ ، واستحقارِ الناسِ بالفخرِ والخيلاءِ ، والخوضِ فيما لا يعني ، وكثرةِ الكلامِ ، وخروجِ الخشيةِ والحرمةِ مِنَ القلبِ ، واستيلاءِ الغفلةِ عليهِ ، حتَّىٰ لا يدري المصلِّي منهُمْ في صلاتِهِ ما صلَّىٰ وما الذي يقرأُ ومَنْ الذي يناجيهِ ، ولا يحسُّ بالخشوعِ مِنْ قلبِهِ ، واستغراقِ العمرِ في العلومِ التي تعينُ في المناظرةِ معَ أنَّها لا تنفعُ في الآخرةِ ؛ مِنْ تحسينِ العبارةِ ، وتسجيعِ اللفظِ ، وحفظِ النوادرِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أمورٍ لا تحصىٰ .

والمناظرونَ يتفاوتونَ فيها علىٰ حسَبِ درجاتِهِمْ ، ولهُمْ درجاتٌ شتَّىٰ ، ولا ينفكُّ أعظمُهُمْ ديناً وأكثرُهُمْ عقلاً عنْ جُمَلٍ مِنْ موادِّ هٰذهِ الأخلاقِ ، وإنَّما غايتُهُ إخفاؤُها ومجاهدةُ النفسِ بها .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الرذائلَ لازمةٌ للمشتغلِ بالتذكيرِ والوعْظِ أيضاً إذا كانَ قصدُهُ طلبَ القبولِ وإقامةَ الجاهِ ونيلَ الثروةِ والعزَّةِ ، وهيَ لازمةٌ أيضاً للمشتغلِ بعلمِ المذهبِ والفتاوىٰ إذا كانَ قصدُهُ طلبَ القضاءِ وولايةَ الأوقافِ والتقدُّمَ على الأقرانِ .

وبالجملةِ : هيَ لازمةٌ لكلِّ مَنْ يطلبُ بالعلمِ غيرَ ثوابِ الآخرةِ ، فالعلمُ لا يهمِلُ العالِمَ ، بلْ يهلكُهُ هلاكَ الأبدِ ، أوْ يحييهِ حياةَ الأبدِ ، ولذلكَ قالَ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لا ينفعُهُ اللهُ بعلمِهِ »[١] .

فلقدْ ضرَّهُ معَ أنَّهُ لمْ ينفعْهُ ، وليتَهُ نجا منهُ رأساً برأسٍ ؛ وهيهاتَ هيهاتَ ! فخطرُ العلْمِ عظيمٌ ، وطالبُهُ طالبُ آلةِ الملْكِ المؤبَّدِ والنعيمِ السرمَدِ ، فلا ينفكُّ عنِ المُلْكِ أوِ الهُلْكِ ، وهوَ كطالبِ الملْكِ في الدنيا ، فإنْ لمْ تتفقِ لهُ الإصابةُ في الأموالِ . . لمْ يطمعْ في السلامةِ منَ الأرذالِ[٢] ، بلْ لا بدَّ مِنْ لزومِ أفضحِ الأحوالِ .

* * *

فإنْ قلتَ : في الرخصةِ في المناظرةِ فائدةٌ ، وهيَ ترغيبُ الناسِ في طلبِ العلمِ ؛ إذْ لولا حبُّ الرئاسةِ . . لاندرستِ العلومُ .

فقدْ صدقتَ فيما ذكرتَهُ مِنْ وجهٍ ، ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ؛ إذْ لولا الوعدُ بالكرةِ والصولجانِ واللعبِ بالعصافيرِ . . ما رغِبَ الصبيانُ في المكتبِ[٣] ، وذلكَ لا يدلُّ على أنَّ الرغبةَ فيهِ محمودةٌ ، ولولا حبُّ الرئاسةِ . . لاندرسَ العلمُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) **الأرذال** : الذين يعيشون سالمين من الأكدار ، لعدم توجه الأعين إليهم . « إتحاف » (١/ ٣٠٣) .

(٣) **الصولجان** : عصا يعطف طرفها ، يضرب بها الكرة على الدواب ، وهي لفظة فارسية معربة .

ولا يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ طالبَ الرئاسةِ ناجٍ ، بلْ هوَ مِنَ الذينَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِمْ : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاَقَ لهُمْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هـٰذا الدِّينَ بالرجلِ الفاجرِ »(٢) .

فطالبُ الرئاسةِ في نفسِهِ هالكٌ ، وقدْ يصلحُ بسببِهِ غيرُهُ إنْ كانَ يدعو إلىٰ تركِ الدنيا ، وذلكَ فيمَنْ كانَ حالُهُ في ظاهرِ الأمرِ حالَ علماءِ السلفِ ، ولكنَّهُ يضمرُ قصدَ الجاهِ ؛ فمثالُهُ مثالُ الشمْعِ الذي يحترقُ في نفسِهِ ويستضيءُ بهِ غيرُهُ ؛ فصلاحُ غيرِهِ في هلاكِهِ(٣) .

فأمَّا إذا كانَ يدعو إلىٰ طلبِ الدنيا . . فمثالُهُ مثالُ النارِ المحرقةِ التي تأكُلُ نفسَها وغيرَها .

فالعلماءُ ثلاثةٌ :

إمَّا مهلِكٌ نفسَهُ وغيرَهُ ، وهمُ المصرِّحونَ بطلبِ الدنيا والمقبلونَ عليها .

وإمَّا مسعِدٌ نفسَهُ وغيرَهُ ، وهمُ الداعونَ إلى اللهِ تعالى المتخلونَ عنِ الدنيا ظاهراً وباطناً .

وإمَّا مهلِكٌ نفسَهُ مسعِدٌ غيرَهُ ، وهوَ الذي يدعو إلى الآخرةِ وقدْ رفضَ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

(٣) وقد روى الطبراني في « المعجم الكبير » (٢/ ١٦٦) مرفوعاً : « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسىٰ نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » .

الدنيا في ظاهرِهِ ، وقصدُهُ في الباطنِ قبولُ الخلقِ وإقامةُ الجاهِ .

فانظرْ مِنْ أيِّ الأقسامِ أنتَ ، ومَنِ الذي اشتغلتَ بالاعتدادِ لهُ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقبلُ غيرَ الخالصِ لوجهِهِ تعالىٰ مِنَ العلمِ والعملِ ، وسيأتيكَ في كتابِ الرياءِ بلْ في جميعِ ربعِ المهلكاتِ ما ينفي عنكَ الريبةَ فيهِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

البَابُ الخَامِسُ
في آدابِ المتعلّمِ والمعلّمِ

أمَّا المتعلِّمُ : فآدابُهُ ووظائفُهُ الظاهرةُ كثيرةٌ ، ولكنْ تَنْظِمُ تفاريعَها عشرُ جملٍ :

الوظيفةُ الأولىٰ : تقديمُ طهارةِ النفْسِ عنْ رذائلِ الأخلاقِ ومذمومِ الأوصافِ :

إذِ العلمُ عبادةُ القلبِ ، وصلاةُ السرِّ ، وقربةُ الباطنِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هيَ وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بتطهيرِ الظاهرِ عنِ الأحداثِ والأخباثِ . . فكذلكَ لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلمِ إلا بعدَ طهارتِهِ عنْ خبائثِ الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصافِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدِّينُ على النظافةِ »[1] ، وهوَ كذلكَ باطناً وظاهراً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ تنبيهاً للعقولِ علىٰ أنَّ الطهارةَ والنجاسةَ غيرُ مقصورةٍ على الظواهرِ المدركةِ بالحسِّ ، فالمشركُ قدْ يكونُ

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ١٧٦) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » ، وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

نظيفَ الثوبِ مغسولَ البدنِ ، ولكنَّهُ نجسُ الجوهرِ ؛ أي : باطنُهُ ملطَّخٌ بالخبائثِ .

والنجاسةُ عبارةٌ عمَّا يُجتنبُ ويُطلبُ البعدُ منهُ ، وخبائثُ صفاتِ الباطنِ أهمُّ بالاجتنابِ ؛ فإنَّها معَ خبثِها في الحالِ مهلكاتٌ في المآلِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيهِ كلبٌ »[1] ، والقلبُ بيتٌ هوَ منزلُ الملائكةِ ومهبطُ أثرِهِمْ ومحلُّ استقرارِهِمْ ؛ والصفاتُ الرديئةُ مثلُ الغضبِ والشهوةِ ، والحقدِ والحسدِ ، والكبرِ والعجبِ ، وأخواتِها . . كلابٌ نابحةٌ ؛ فأنَّىٰ تدخلُهُ الملائكةُ وهوَ مشحونٌ بالكلابِ ، ونورُ العلمِ لا يقذفُهُ اللهُ في القلبِ إلا بواسطةِ الملائكةِ ؟! ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ، وهـٰكذا ما يرسلُ مِنْ رحمةِ العلومِ إلى القلوبِ إنَّما تتولاها الملائكةُ الموكَّلونَ بها ، وهمُ المقدَّسونَ المطهَّرونَ المبرَّؤونَ عنِ المذموماتِ ، فلا يلاحظونَ إلا طيِّباً ، ولا يَعْمُرُونَ بما عندَهُمْ مِنْ خزائنِ رحمةِ اللهِ إلا طيباً طاهراً[2] .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

(٢) قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ : (**فإن قلت** : كيف آمن من كفر وأطاع من عصىٰ واهتدىٰ من ضل ؛ إذ كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما يبثون فيه من الأخلاق المذمومة ، وأصنافُ الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لا تدخل موضعاً يحل فيه شيء مما ذكر ، وإذا لم تدخل . . لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه ، فعلىٰ هـٰذا يجب أن يبقىٰ كل كافر علىٰ حاله ، ومن لم يخلق مؤمناً معصوماً . . فلا سبيل له إلى الإيمان علىٰ هـٰذا المفهوم . **فالجواب** : إن للشياطينِ =

ولستُ أقولُ : المرادُ بلفظِ البيتِ هوَ القلبُ ، وبالكلبِ هوَ الغضبُ والصفاتُ المذمومةُ ، ولكنِّي أقولُ : هوَ تنبيهٌ عليهِ ، وفرقٌ بينَ تغييرِ الظواهرِ إلى البواطنِ وبينَ التنبُّهِ للبواطنِ مِنْ ذكرِ الظواهرِ معَ تقريرِ الظواهرِ ، ففارقَ الباطنيةَ بهـٰذهِ الدقيقةِ ، فإنَّ هـٰذا طريقُ الاعتبارِ ، وهوَ مسلكُ العلماءِ والأبرارِ ؛ إذْ معنى الاعتبارِ أنْ تعبرَ ممَّا ذكرَ إلىٰ غيرِهِ ، فلا تقتصرُ عليهِ ؛ كما يرى العاقلُ مصيبةً لغيرِهِ فيكونُ لهُ فيها عبرةٌ بأنْ يعبرَ منها إلى التنبُّهِ لكونِهِ أيضاً عرضةً للمصائبِ ، وكونِ الدنيا بصددِ الانقلابِ ؛ فعبورُهُ مِنْ غيرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، ومِنْ نفسِهِ إلىٰ أصلِ الدنيا عبرةٌ محمودةٌ .

فاعبرْ أنتَ أيضاً مِنَ البيتِ الذي هوَ بناءُ الخلقِ إلى القلبِ الذي هوَ بيتٌ مِنْ بناءِ اللهِ تعالىٰ ، ومِنَ الكلبِ الذي ذُمَّ لصفتِهِ لا لصورتِهِ وهوَ ما فيهِ مِنْ سَبُعيَّةٍ ونجاسةٍ إلىٰ روحِ الكلبيةِ وهيَ السبُعيَّةُ .

واعلمْ : أنَّ القلبَ المشحونَ بالغضبِ ، والشَّرَهِ إلى الدنيا ، والتكالبِ عليها ، والحرصِ على التمزيقِ لأعراضِ الناسِ . . كلبٌ في المعنىٰ ، وقلبٌ في الصورةِ ، فنورُ البصيرةِ يلاحظُ المعانيَ دونَ الصورِ ؛ والصورُ في هـٰذا

= غفلات ، وللأخلاق المذمومة عزفات ، كما أن للملائكة غيبات ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك قلباً خالياً ولو زمناً فرداً . . حلَّ فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولاً ، ولما عَرَضَ عليه تشوُّفاً ونزوعاً . . أورد عليه ما يملؤه ويستغرق لبَّه ، وإن صادف منه ضجراً ، وسمع منه لجنود الشياطين استغاثةً ، وبالأخلاق الكلابية استعانةً . . رحل عنه وتركه) . « الإملاء » (ص٢٣) .

العالمِ غالبةٌ على المعاني ، والمعاني باطنةٌ فيها ، وفي الآخرةِ تتبعُ الصورُ المعانيَ ، وتغلبُ المعاني ، فلذلكَ يُحشرُ كلُّ شخصٍ علىٰ صورتِهِ المعنويةِ ، فيُحشرُ الممزِّقُ لأعراضِ الناسِ كلباً ضارياً ، والشرِهُ إلىٰ أموالِهِمْ ذئباً عادياً ، والمتكبِّرُ عليهِمْ في صورةِ نمرٍ ، وطالبُ الرئاسةِ في صورةِ أسدٍ .

وقدْ وردتْ بذلكَ الأخبارُ ، وشهدَ بهِ الاعتبارُ عندَ ذوي البصائرِ والأبصارِ[1] ، وشهدَ به شواهدُ الرؤيا ؛ فإنَّ النائمَ لما بَعُدَ عنْ عالمِ المحسوساتِ . . قربَ منْ ذلك العالمِ ؛ إذِ النومُ أخو الموتِ ، فيرىٰ في النومِ الموصوفينَ بهـٰذِهِ الصفاتِ علىٰ هـٰذِهِ التي ذكرناها[2] .

* * *

فإنْ قلتَ : كمْ مِنْ طالبٍ رديءِ الأخلاقِ حصَّلَ العلومَ !

---

(١) فما جادت به قريحة المؤلف من لطائف إشارات النصوص دليلُ فهم واستبصار ، قال رحمه الله تعالىٰ : (ولا نكْرَ في ذلك إذا دلَّ عليه العلم وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة ، ولم تصادم به شيئاً من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحداً ، ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد ؛ فكثيراً ما ورد شرع مقرون بسبب ، فرأىٰ أهل الاعتبار وجه تعدِّيه عن سببه إلىٰ ما في معناه ومشابهٍ له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك . . لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ربَّ مبلغ أوعىٰ من سامع ، وحامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه ») . « الإملاء » (ص٢٣) .

(٢) من قوله : (وشهد به شواهد) إلىٰ قوله : (التي ذكرناها) زيادة من (أ) ، ويؤكد نسبتها له ما في « كيمياء السعادة » (ص١٢٠) ، والله أعلم .

فهيهاتَ ما أبعدَكَ عَنِ العلْمِ الحقيقيِّ النافعِ في الآخرةِ الجالبِ للسعادةِ ؛ فإنَّ مِنْ أوائلِ ذلكَ العلمِ أنْ يظهرَ لهُ أنَّ المعاصيَ سمومٌ قاتلةٌ مهلكةٌ ، وهلْ رأيتَ مَنْ يتناولُ سمّاً معَ علمِهِ بكونِهِ سمّاً قاتلاً ؟!

إنَّما الذي تسمعُهُ مِنَ المترسِّمينَ حديثٌ تلقَّفُوهُ ، يوردونَهُ بألسنتِهِمْ مرَّةً ، ويرددونَهُ بقلوبِهِمْ أخرىٰ ، وليسَ ذلكَ مِنَ العلمِ في شيءٍ ؛ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنما العلمُ الخشيةُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾)[2] .

وكأنَّهُ إشارةٌ إلىٰ أخصِّ ثمراتِ العلمِ ، ولذلكَ قالَ بعضُ المحققينَ : معنىٰ قولِهِمْ : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ)[3] : أنَّ العلمَ أبىٰ وامتنعَ علينا ، فلمْ تنكشفْ لنا حقيقتُهُ ، وإنَّما حصلَ لنا حديثُهُ وألفاظُهُ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) وفيه : (ولكن العلم الخشية) كما هو في الخبر اللاحق .

(٢) وهو ـ كما سبق ـ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو في « الحلية » (١/ ١٣١) ، وانظر « الدر المنثور » (٧/ ٢٠) .

(٣) هو قول سفيان الثوري كما صرح به الإمام الغزالي في كتاب (العزلة) .

فإنْ قلتَ : إنِّي أرىٰ جماعةً مِنَ الفقهاءِ المحقِّقينَ برَّزوا في الفروعِ والأصولِ ، وعُدُّوا مِنْ جملةِ الفحولِ ، وأخلاقُهُمْ ذميمةٌ لمْ يتطهَّروا منها .

فيقالُ : إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ ، وعرفتَ علمَ الآخرةِ . . استبانَ لكَ أنَّ ما اشتغلوا بهِ قليلُ الغَناءِ مِنْ حيثُ كونُهُ علماً ، وإنَّما غناؤُهُ مِنْ حيثُ كونُهُ عملاً للهِ تعالىٰ ، إذا قُصِدَ بهِ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ .

وقدْ سبقَ إلىٰ هـٰذا إشارةٌ ، وسيأتيكَ فيهِ مزيدُ بيانٍ وإيضاحٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ(١) .

❊ ❊ ❊

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقلِّلَ علائقَهُ مِنْ أشغالِ الدنيا ويبعدَ عَنِ الأهلِ والوطنِ :

فإنَّ العلائقَ شاغلةٌ وصارفةٌ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، ومهما توزعتِ الفكرةُ . . قَصُرَتْ عنْ دركِ الحقائقِ ، ولذلكَ قيلَ : (العلمُ لا يعطيكَ بعضَهُ حتَّىٰ تعطيَهُ كُلَّكَ ، فإذا أعطيتَهُ كُلَّكَ . . فأنتَ مِنْ إعطائِهِ إيَّاكَ بعضَهُ علىٰ خطرٍ)(٢) .

والفكرةُ المتوزِّعَةُ علىٰ أمورٍ متفرِّقةٍ كجدولٍ تفرَّقَ ماؤُهُ ، فنَشَفَتِ الأرضُ بعضَهُ ، واختطفَ الهواءُ بعضَهُ ، فلا يبقىٰ منهُ ما يجتمعُ ويبلغُ المُزْدَرَعَ(٣) .

❊ ❊ ❊

---

(١) في ذكر العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة .
(٢) الفقيه والمتفقه (٨٦٤) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٥٧٠) .
(٣) المزدرع : موضع الزراعة .

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يتكبَّرَ على العلمِ ولا يتأمَّرَ على المعلِّمِ :

بلْ يلقي إليهِ زمامَ أمرِهِ بالكلِّيَّةِ في كلِّ تفصيلٍ ، ويذعنُ لنصحِهِ إذعانَ المريضِ الجاهلِ للطبيبِ المشفقِ الحاذقِ .

وينبغي أنْ يتواضعَ لمعلِّمِهِ ويطلبَ الثوابَ والشرفَ بخدمتِهِ ، قالَ الشعبيُّ : صلَّىٰ زيدُ بنُ ثابتٍ علىٰ جِنازةٍ ، فقُرِّبَتْ إليهِ بغلتُهُ ليركبَها ، فجاءَ ابنُ عباسٍ فأخذَ بركابِهِ ، فقالَ زيدٌ : خلِّ عنهُ يا بنَ عمِّ رسولِ اللهِ ، فقالَ ابنُ عباسٍ : هٰكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بالعلماءِ والكبراءِ[1] ، فقبَّلَ زيدُ بنُ ثابتٍ يدَهُ وقالَ : هٰكذا أمِرْنا أنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ مِنْ أخلاقِ المؤمِنِ التملُّقُ إلا في طلبِ العلمِ »[3] .

فلا ينبغي للطالبِ أنْ يتكبَّرَ على المعلِّمِ ، ومِنْ تكبُّرِهِ على المعلِّمِ أنْ يستنكفَ مِنَ الاستفادةِ إلا مِنَ المرموقينَ المشهورينَ ، وهوَ عينُ الحماقةِ ؛ فإنَّ العلمَ سببُ النجاةِ والسعادةِ ، ومَنْ يطلبُ مهرباً مِنْ سبُعٍ ضارٍ يفترسُهُ . . لمْ يفرِّقْ بينَ أنْ يرشدَهُ إلى الهربِ مشهورٌ أوْ خاملٌ ، وضراوةُ سباعِ

---

(١) الكبراء هنا : ذوو الأسنان والشيوخ .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٣٢) بتمامه ، وأصله عند الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٠٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٢٣) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٥٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٤٧٣) .

النارِ بالجهّالِ باللهِ تعالىٰ أشدُّ مِنْ ضراوةِ كلِّ سبعٍ .

فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ، يغتنمُها حيثُ يظفرُ بها ، ويتقلَّدُ المنَّةَ لمَنْ ساقَها إليهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولذلكَ قيلَ : [من الكامل]

اَلْعِلْـمُ حَـرْبٌ لِلْفَتَـى ٱلْمُتَعَـالِـي ... كَٱلسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ ٱلْعَالِي[1]

فلا يُنالُ العلْمُ إلا بالتواضعِ وإلقاءِ السمعِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ذا قلبٍ : أنْ يكونَ قابلاً للعلمِ فَهِماً ، ثمَّ لا تغنيهِ القدرةُ على الفهْمِ حتَّىٰ يُلْقِيَ السمعَ وهوَ شهيدٌ حاضرُ القلبِ ، يستقبلُ كلَّ ما يُلقىٰ إليهِ بحسْنِ الإصغاءِ والضراعةِ والشكرِ والفرحِ وقبولِ المنَّةِ .

فليكنِ المتعلِّمُ لمعلِّمِهِ كأرضٍ دَمْثَةٍ[2] نالتْ مطراً غزيراً ، فشربتْ بجميعِ أجزائِها ، وأذعنتْ بالكلِّيَّةِ لقبولِهِ ، ومهما أشارَ عليهِ المعلِّمُ بطريقٍ في التعلُّمِ.. فليقلِّدْهُ وليدعْ رأيَهُ ؛ فإنَّ خطأَ مرشدِهِ أنفعُ لهُ مِنْ صوابِهِ في نفسِهِ ؛ إذِ التجربةُ تُطلِعُ علىٰ دقائقَ يُستغربُ سماعُها معَ أنَّهُ يعظُمُ نفعُها ، فكمْ مِنْ مريضٍ محرورٍ يعالجُهُ الطبيبُ في بعضِ أوقاتِهِ بالحرارةِ ؛ ليزيدَ في قوَّتِهِ إلىٰ حدٍّ يحتملُ صدمةَ العلاجِ ، فيتعجَّبُ منهُ مَنْ لا خبرةَ لهُ .

---

(١) انظر « التبيان » (ص٦٣) ، و« المجموع » (١/ ٦٢) ، و« نشر طي التعريف » (ص٢٤٥) .

(٢) الدمثة : الأرض السهلة المنخفضة .

وقدْ نبَّهَ اللهُ تعالىٰ بقصَّةِ الخضرِ وموسىٰ عليهما السلامُ حيثُ قالَ الخضرُ : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ، ثمَّ شرطَ عليهِ السكوتَ والتسليمَ فقالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، ثمَّ لمْ يصبرْ ولمْ يزلْ في مرادَّتِهِ إلىٰ أنْ كانَ ذلكَ سببَ فراقِ ما بينَهما .

وبالجملةِ : كلُّ متعلِّمٍ استبقىٰ لنفسِهِ رأياً واختياراً وراءَ اختيارِ المعلِّمِ . . فاحكمْ عليهِ بالإخفاقِ والخسرانِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فالسؤالُ مأمورٌ بهِ .

فاعلمْ : أنَّهُ كذلكَ ، ولكنْ فيما يأذنُ المعلِّمُ في السؤالِ عنهُ ؛ فإنَّ السؤالَ عمَّا لمْ تبلغْ رتبتُكَ إلىٰ فهمِهِ مذمومٌ ، ولذلكَ منعَ الخضرُ موسىٰ عليهما السلامُ عنِ السؤالِ ؛ أي : دَعِ السؤالَ قبلَ أوانِهِ ، فالمعلِّمُ أعلمُ بما أنتَ أهلٌ لهُ ، وبأوانِ الكشْفِ ، وما لمْ يدخلْ أوانُ الكشفِ في كلِّ درجةٍ مِنْ مراقي الدرجاتِ . . لا يدخلُ أوانُ السؤالِ عنهُ .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ حقِّ العالمِ : ألا تكثرَ عليهِ بالسؤالِ ، ولا تعنتَهُ في الجوابِ ، ولا تلحَّ عليهِ إذا كسلَ ، ولا تأخذَ بثوبِهِ إذا نهضَ ، ولا تفشيَ لهُ سرّاً ، ولا تغتابَنَّ عندَهُ أحداً ، ولا تطلبَنَّ عثْرتَهُ ،

وإنْ زلَّ . . قبلتَ معذرتَهُ ، وعليكَ أنْ توقِّرَهُ وتعظِّمَهُ للهِ تعالىٰ ما دامَ يحفظُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، ولا تجلسْ أمامَهُ ، وإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ . . سبقْتَ القومَ إلىٰ خدمتِهِ)[١] .

❊ ❊ ❊

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يحترزَ الخائضُ في العلمِ في مبدأِ الأمرِ عنِ الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ ، سواءٌ كانَ ما خاضَ فيهِ مِنْ علومِ الدنيا أوْ مِنْ علومِ الآخرةِ :

فإنَّ ذلكَ يدهشُ عقلَهُ ويحيِّرُ ذهنَهُ ، ويفتِّرُ رأيَهُ ويؤيسُهُ عنِ الإدراكِ والاطلاعِ ، بلْ ينبغي أنْ يتقنَ أولاً الطريقةَ الحميدةَ الواحدةَ المرضيةَ عندَ أستاذِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يصغي إلى المذاهبِ والشُّبَهِ .

وإنْ لمْ يكنْ أستاذُهُ مستقلاًّ باختيارِ رأيٍ واحدٍ وإنَّما عادتُهُ نقلُ المذاهبِ وما قيلَ فيها . . فليحذرْ منهُ ؛ فإنَّ إضلالَهُ أكثرُ مِنْ إرشادِهِ ، ولا يصلحُ الأعمىٰ لقودِ العميانِ وإرشادِهِمْ ، ومَنْ هـٰذا حالُهُ فهوَ بعدُ في عمى الحَيْرةِ وتيهِ الجهلِ .

ومنعُ المبتدىءِ عَنِ الشبهِ يضاهي منعَ الحديثِ العهدِ بالإسلامِ عنْ مخالطةِ الكفارِ ، وندبُ القويِّ إلى النظرِ في الاختلافاتِ يضاهي حثَّ القويِّ

---

(١) الفقيه والمتفقه (٨٥٦) بنحوه .

علىٰ مخالطةِ الكفارِ ، ولذلكَ يُمنعُ العاجزُ عنِ التهجُّمِ علىٰ صفِّ الكفارِ ، ويندبُ الشجاعُ لهُ .

ومِنَ الغفلةِ عنْ هـٰذهِ الدقيقةِ ظنَّ بعضُ الضعفاءِ أنَّ الاقتداءَ بالأقوياءِ فيما يُنقلُ عنهُمْ مِنَ المساهلاتِ جائزٌ ، ولمْ يدركْ أنَّ وظائفَ الأقوياءِ تخالفُ وظائفَ الضعفاءِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ رآني في البدايةِ . . صارَ صدِّيقاً ، ومَنْ رآني في النهايةِ . . صارَ زنديقاً)[1] ؛ إذِ النهايةُ تردُّ الأعمالَ إلى الباطنِ ، وتسكِّنُ الجوارحَ إلا عنْ رواتبِ الفرائضِ ، فيتراءىٰ إلى الناظرِ أنَّهُ بطالةٌ وكسلٌ وإهمالٌ ، وهيهاتَ هيهاتَ ! فذلكَ مرابطةٌ للقلبِ في عينِ الشهودِ والحضورِ ، وملازمةٌ للذكرِ الذي هوَ أفضلُ الأعمالِ على الدوامِ .

وتشبُّهُ الضعيفِ بالقويِّ فيما يَرىٰ مِنْ ظاهرِهِ أنَّهُ هفوةٌ يضاهي اعتذارَ مَنْ يُلقي نجاسةً يسيرةً في كوزِ ماءٍ ويتعلَّلُ بأنَّ أضعافَ هـٰذهِ النجاسةِ قدْ يُلقىٰ في البحرِ والبحرُ أعظمُ مِنَ الكوزِ ، فما جازَ للبحرِ . . فهوَ للكوزِ أجوزُ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ البحرَ بقوَّتِهِ يحيلُ النجاسةَ ماءً ، فتنقلبُ عينُ النجاسةِ باستيلائِهِ إلىٰ صفتِهِ ، والقليلُ منَ النجاسةِ يغلبُ الكوزَ ويحيلُهُ إلىٰ صفتِهِ .

وبمثلِ هـٰذا جُوِّزَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لمْ يُجوَّزْ لغيرِهِ ؛ حتَّىٰ أُبيحَ لهُ تِسْعُ نِسوةٍ[2] ؛ إذْ كانَ لهُ منَ القوَّةِ ما يتعدَّىٰ منهُ صفةُ العدلِ إلىٰ نسائِهِ

---

(١) ميزان العمل (ص٣٤٧) .

(٢) كما روى البخاري (٢٦٨) ، ولفظ (تسع نسوة) من رواية سعيد عن قتادة عن أنس عنده ، وفيه كذلك رواية (إحدىٰ عشرة) .

وإنْ كثرْنَ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ على بعضِ العدْلِ ، بلْ يتعدَّىٰ ما بينَهُنَّ مِنَ الضرارِ إليهِ ، حتَّىٰ ينجرَّ إلىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ رضاهنَّ ، فما أفلحَ مَنْ قاسَ الملائكةَ بالحدَّادينَ .

* * *

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يدعَ طالبُ العلومِ فناً مِنَ العلومِ المحمودةِ ولا نوعاً مِنْ أنواعِها إلا وينظرُ فيهِ نظراً يطلعُ بهِ علىٰ مقصدِهِ وغايتِهِ :

ثمَّ إنْ ساعدَهُ العُمُرُ . . طلبَ التبحُّرَ فيهِ ، وإلا . . اشتغلَ بالأهمِّ منهُ واستوفاهُ ، وتطرَّفَ مِنَ البقيةِ[1] ؛ فإنَّ العلومَ متعاونةٌ ، وبعضَها مرتبطٌ بالبعضِ .

ويستفيدُ منهُ في الحالِ الانفكاكَ عنْ عداوةِ ذلكَ العلمِ بسببِ جهلِهِ ؛ فإنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ .

وقالَ الشاعرُ[2] : [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْماءَ ٱلزُّلالا

فالعلومُ علىٰ درجاتِها : إمَّا سالكةٌ بالعبدِ إلى اللهِ تعالىٰ ، أوْ معينةٌ على السلوكِ نوعاً مِنَ الإعانةِ ، ولها منازلُ مرتَّبةٌ في القربِ والبعدِ مِنَ المقصودِ ، والقُوَّامُ بها حفظةٌ كحفّاظِ الرباطاتِ والثغورِ ، ولكلٍّ واحدٍ رتبةٌ ، ولهُ

(١) أي : أخذ منها الطرف والنوادر المحتاج إليها في حال طلبه . « إتحاف » (١ / ٣٢١) .
(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣ / ٢٢٨) .

بحسَبِ درجتِهِ أجرٌ في الآخرةِ إذا قصدَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

* * *

الوظيفةُ السادسةُ : إنَّ العمرَ إذا كانَ لا يتسعُ لجميعِ العلومِ غالباً . . فالحزمُ أنْ يأخذَ مِنْ كلِّ شيءٍ أحسنَهُ :

ويكتفيَ منهُ بشمَّةٍ ، ويصرفَ جِمامَ قوَّتِهِ في الميسورِ مِنْ علمِهِ إلى استكمالِ العلمِ الذي هوَ أشرفُ العلومِ وهوَ علمُ الآخرةِ ؛ أعني : قسمي المعاملةِ والمكاشفةِ ، فغايةُ المعاملةِ المكاشفةُ ، وغايةُ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ولستُ أعني بهِ الاعتقادَ الذي تلقَّنَهُ العاميُّ وراثةً أوْ تلقُّفاً ، ولا طريقَ تحريرِ الكلامِ والمجادلةِ في تحصينِ ذلكَ عنْ مراوغاتِ الخصومِ كما هوَ غايةُ المتكلِّمِ ، بلِ الذي أعنيهِ نوعُ يقينٍ هوَ ثمرةُ نورٍ يقذفُهُ اللهُ تعالىٰ في قلبِ عبدٍ طهَّرَ بالمجاهدةِ باطنَهُ عنِ الخبائثِ حتىٰ ينتهي إلىٰ رتبةِ إيمانِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الذي لوْ وُزِنَ بإيمانِ العالمينَ . . لرجحَ ، كما شهدَ لهُ بهِ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، فما عندي[2] أنَّ ما يعتقدُهُ العاميُّ ويرتِّبُهُ المتكلِّمُ الذي لا يزيدُ على العاميِّ إلا في صنعةِ الكلامِ ولأجلِهِ سمِّيتْ صناعتُهُ كلاماً . . كانَ يعجَزُ عنهُ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتّىٰ كانَ يفضُلُهُمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بالسرِّ الذي وَقَرَ في صدرِهِ .

---

(١) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٢٠١) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .

(٢) (ما) هنا نافية ؛ أي : ليس عندي .

والعجبُ ممَّنْ يسمعُ مثلَ هٰذهِ الأقوالِ مِنْ صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ثمَّ يزدري ما يسمعُهُ علىٰ وَفْقِهِ ، ويزعمُ أنَّهُ مِنْ ترَّهاتِ الصوفيةِ ، وأنَّ ذلكَ غيرُ معقولٍ .

فينبغي أنْ تتئِدَ في هٰذا ، فعندَهُ ضيَّعْتَ رأسَ المالِ ، وكنْ حريصاً علىٰ معرفةِ ذلكَ السرِّ الخارجِ عنْ بضاعةِ الفقهاءِ والمتكلمينَ ، فلا يرشدُكَ إليهِ إلا حرصُكَ في الطلبِ .

وعلى الجملةِ : فأشرفُ العلومِ وغايتُها معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ بحرٌ لا يُدركُ منتهىٰ غورِهِ ، وأقصىٰ درجاتِ البشرِ فيهِ رتبةُ الأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الذين يلونَهُمْ .

وقد رُوِيَ أنَّهُ رُئِيَ صورةُ حَكِيمينِ مِنَ الحكماءِ المتقدمينَ في مسجدٍ وفي يدِ أحدِهما رقعةٌ فيها : (إنْ أحسنْتَ كلَّ شيءٍ . . فلا تظنَّنَّ أنَّكَ أحسنْتَ شيئاً حتَّىٰ تعرفَ اللهَ تعالىٰ وتعلمَ أنَّه مسببُ الأسبابِ وموجدُ الأشياءِ) ، وفي يدِ الآخرِ : (كنتُ قبلَ أنْ أعرفَ اللهَ سبحانَهُ أشربُ وأظمأُ ، حتَّىٰ إذا عرفتُهُ . . رَوِيتُ بلا شرْبٍ) .

❊ ❊ ❊

الوظيفةُ السابعةُ : ألا يخوضَ في فنونِ العلمِ دفعةً ، بلْ يراعي الترتيبَ ، فيبدأُ بالأهمِّ فالأهمِّ ، ولا يخوضُ في فنٍّ حتَّىٰ يستوفيَ الفنَّ الذي قبلَهُ :

فإنَّ العلومَ مرتبةٌ ترتيباً ضرورياً ، وبعضُها طريقٌ إلىٰ بعضٍ ، والموفَّقُ

مراعي ذلكَ الترتيبِ والتدريجِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أيْ : لا يجاوزونَ فنّاً حتَّىٰ يحكموهُ علماً وعملاً .

وليكنْ قصدُهُ مِنْ كلِّ علمٍ يتحرَّاهُ الترقيَ إلىٰ ما فوقَهُ ، وينبغي ألا تحكمَ علىٰ علمٍ بالفسادِ لوقوعِ الاختلافِ بينَ أصحابِهِ فيهِ ، ولا بخطأِ واحدٍ أو آحادٍ فيهِ ، ولا بمخالفتِهِمْ موجَبَ العلمِ بالعملِ ، فترىٰ جماعةً تركوا النظرَ في العقليَّاتِ والفقهيَّاتِ متعلِّلينَ فيها بأنَّها لوْ كانَ لها أصلٌ . . لأدركَها أربابُها ، وقدْ مضىٰ كشفُ هـٰذِهِ الشبهِ في كتابِنا « مِعيارُ العلمِ » ، وترىٰ طائفةً يعتقدونَ بطلانَ الطبِّ لخطأٍ شاهدوه من طبيبٍ .

وطائفةً اعتقدوا صحَّةَ النجومِ لصوابٍ اتفقَ لواحدٍ ، وطائفةً اعتقدوا بطلانَهُ لخطأٍ اتفقَ لواحدٍ ، والكلُّ خطأٌ ، بلْ ينبغي أنْ يعرفَ الشيءَ في نفسِهِ ، فلا كلُّ علمٍ يستقلُّ بهِ كلُّ شخصٍ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (لا تعرفِ الحقَّ بالرجالِ ، اعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ) .

* * *

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يعرفَ السببَ الذي بهِ يُدركُ شرفُ العلومِ ، وأنَّ ذلكَ يُرادُ بهِ شيئانِ :

أحدُهما : شرفُ الثمرةِ .

والثاني : وثاقةُ الدليلِ وقوَّتُهُ .

وذلكَ كعلْمِ الدينِ وعلْمِ الطبِّ ؛ فإنَّ ثمرةَ أحدِهما الحياةُ الأبديةُ ،

وثمرةَ الآخرِ الحياةُ الفانيةُ ، فيكونُ علمُ الدينِ أشرفَ .

ومثلُ علمِ الحسابِ وعلمِ النجومِ ؛ فإنَّ علمَ الحسابِ أشرفُ ؛ لوثاقةِ أدلتِهِ وقوَّتِها .

وإذا نُسبَ الحسابُ إلى الطبِّ . . كانَ الطبُّ أشرفَ باعتبارِ ثمرتِهِ ، والحسابُ أشرفَ باعتبارِ أدلَّتِهِ ، وملاحظةُ الثمرةِ أولىٰ ، ولذلكَ كانَ الطبُّ أشرفَ وإنْ كانَ أكثرُهُ بالتخمينِ .

وبهٰذا يتبينُ أنَّ أشرفَ العلومِ العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، والعلمُ بالطريقِ الموصلِ إلىٰ هٰذهِ العلومِ ، فإيَّاكَ وأنْ ترغبَ إلا فيهِ ، وأنْ تحرصَ إلا عليهِ .

***

الوظيفةُ التاسعةُ : أنْ يكونَ قصدُ المتعلِّمِ في الحالِ تحليةَ باطنِهِ وتجميلَهُ بالفضيلةِ ، وفي المآلِ القربَ مِنَ اللهِ سبحانَهُ والترقِّيَ إلىٰ جوارِ الملإِ الأعلىٰ مِنَ الملائكةِ والمقرَّبينَ :

ولا يقصدُ بهِ الرئاسةَ والمالَ والجاهَ ومماراةَ السفهاءِ ومباهاةَ الأقرانِ ، وإذا كانَ هٰذا[1] مقصدَهُ . . طلبَ ـ لا محالةَ ـ الأقربَ إلىٰ مقصودِهِ ، وهوَ علمُ الآخرةِ ، ومعَ هٰذا فلا ينبغي له أنْ ينظرَ بعينِ الحقارةِ إلىٰ سائرِ العلومِ ؛ أعني : علمَ الفتاوىٰ ، وعلمَ النحوِ واللغةِ المتعلِّقَينِ بالكتابِ والسنةِ ، وغيرَ

(١) يعني : الوصول إلى الله تعالىٰ . « إتحاف » (١/ ٣٢٦) .

ذلكَ ممَّا أوردناهُ في المقدِّماتِ والمتمِّماتِ منْ ضروبِ العلومِ التي هيَ فرضُ كفايةٍ .

ولا تفهمَنَّ مِنْ غلوِّنا في الثناءِ علىٰ علمِ الآخرةِ تهجينَ هـٰذهِ العلومِ ؛ فالمتكفِّلونَ بالعلومِ كالمتكفِّلِينَ بالثغورِ والمرابطينَ بها ، والغزاةِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ؛ فمنهُمُ المقاتلُ ، ومنهُمُ الرِّدْءُ ، ومنهُمُ الذي يسقيهِمُ الماءَ ، ومنهُمُ الذي يحفظُ دوابَّهُمْ ويتعهَّدُها ، ولا ينفكُّ واحدٌ منهُمْ عنْ أجرٍ إذا كانَ قصدُهُ إعلاءَ كلمةِ اللهِ تعالىٰ دونَ حيازةِ الغنائمِ ، فكذلكَ العلماءُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

والفضيلةُ نسبيَّةٌ ، واستحقارُنا للصيارفةِ عندَ قياسِهِمْ بالملوكِ لا يدلُّ علىٰ حقارتِهِمْ إذا قيسوا بالكنَّاسينَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ما نزلَ عنِ الرتبةِ القصوىٰ ساقطُ القدْرِ ، بلِ الرتبةُ العليا للأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ، ثم للصالحينَ علىٰ تفاوتِ درجاتِهِمْ .

وبالجملةِ : مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يَرهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يَرهُ ، ومَنْ قصدَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . نفعَهُ ورفعَهُ لا محالةَ .

الوظيفةُ العاشرةُ : أنْ يعلمَ نسبةَ العلومِ إلى المقصدِ :

كيما يؤْثرَ الرفيعَ القريبَ على البعيدِ ، والمهمَّ علىٰ غيرِهِ ، ومعنى المهمِّ : ما يهمُّكَ ، ولا يهمُّكَ إلا شأنُكَ في الدنيا والآخرةِ ، وإذا لم يمكنِ الجمعُ بينَ ملاذِ الدنيا ونعيمِ الآخرةِ كما نطقَ بهِ القرآنُ وشهدَ لهُ مِنْ نورِ البصائرِ ما يجري مَجرى العيانِ . . فالأهمُّ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ ؛ وعندَ ذلكَ تصيرُ الدنيا منزلاً ، والبدنُ مركباً ، والأعمالُ سعياً إلى المقصدِ ، ولا مقصدَ إلا لقاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففيهِ النعيمُ كلُّهُ ، وإنْ كانَ لا يَعرفُ في هٰذا العالَمِ قدرَهُ إلا الأقلُّونَ .

والعلومُ بالإضافةِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ـ أعني النظرَ الذي طلبَهُ الأنبياءُ وفهموهُ ، دونَ ما يسبقُ إلىٰ فهْمِ العوامِّ والمتكلمينَ ـ علىٰ ثلاثِ مراتبَ ، تفهمُها بالموازنةِ بمثالٍ :

وهوَ أنَّ العبدَ الذي عُلِّقَ عتقُهُ وتمكينُهُ منَ المُلْكِ بالحجِّ ، وقيلَ لهُ : إنْ حججْتَ وأتممتَ . . وصلتَ إلى العتْقِ والمُلْكِ جميعاً ، وإنِ ابتدأتَ بطريقِ الحجِّ والاستعدادِ لهُ وعاقَكَ في الطريقِ مانعٌ ضروريٌّ . . فلكَ العتْقُ والخلاصُ منْ شقاءِ الرقِّ فقطْ دونَ سعادةِ المُلْكِ . . فلهُ ثلاثةُ أصنافٍ مِنَ الشغلِ :

الأوَّلُ : تهيئةُ الأسبابِ بشراءِ الناقةِ وخرْزِ الراويةِ وإعدادِ الزادِ والراحلةِ .

والثاني : السلوكُ ومفارقةُ الوطنِ بالتوجُّهِ إلى الكعبةِ منزلاً بعدَ منزلٍ .

والثالثُ : الاشتغالُ بأعمالِ الحجِّ ركناً بعدَ ركنٍ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ والنزوعِ عنْ هيئةِ الإحرامِ وطوافِ الوداعِ . . استحَقَّ التعرُّضَ للمُلْكِ والسلطنةِ ، ولهُ في كلِّ مقامٍ منازلُ ، مِنْ أوَّلِ إعدادِ الأسبابِ إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ سلوكِ البوادي إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ أركانِ الحجِّ إلىٰ آخرِهِ ، وليسَ قرْبُ مَنِ ابتدأَ بأركانِ الحجِّ مِنَ السعادةِ كقرْبِ مَنْ هوَ بعدُ في إعدادِ الزادِ والراحلةِ ، ولا كقربِ مَنِ ابتدأَ بالسلوكِ ، بلْ هوَ أقربُ منهُ .

فالعلومُ أيضاً ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ يجري مَجرىٰ إعدادِ الزادِ والراحلةِ وشراءِ الناقةِ : وهوَ علْمُ الطبِّ والفقهِ وما يتعلَّقُ بمصالحِ البدنِ في الدنيا .

وقسمٌ يجري مَجرىٰ سلوكِ البوادي وقطعِ العقباتِ : وهوَ تطهيرُ الباطنِ عنْ كدوراتِ الصفاتِ ، وطلوعُ تلكَ العقباتِ الشامخةِ التي عجَزَ عنها الأوَّلونَ والآخرونَ إلا الموفقينَ ، فهٰذا سلوكُ الطريقِ ، وتحصيلُ علمِهِ كتحصيلِ علْمِ جهاتِ الطريقِ ومنازلِهِ ، وكما لا يغني علْمُ المنازلِ وطرقِ البوادي دونَ سلوكِها . . كذلكَ لا يغني علمُ تهذيبِ الأخلاقِ دونَ مباشرةِ التهذيبِ ، ولكنَّ المباشرةَ دونَ العلمِ غيرُ ممكنٍ .

وقسمٌ ثالثٌ يجري مَجرىٰ نفْسِ الحجِّ وأركانِهِ : وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما ذكرناهُ في تراجمِ علمِ المكاشفةِ .

وهٰهنا نجاةٌ وفوزٌ بالسعادةِ ، والنجاةُ حاصلةٌ لكلِّ سالكٍ للطريقِ إذا كانَ غرضُهُ المقصدَ الحقَّ وهوَ السلامةُ .

وأمَّا الفوزُ بالسعادةِ . . فلا ينالُهُ إلا العارفونَ باللهِ تعالىٰ ، فهمُ المقربونَ المنعَّمونَ في جوارِ اللهِ بالرَّوْحِ والريحانِ وجنَّةِ النعيمِ .

وأمَّا الممنوعونَ دونَ ذُروةِ الكمالِ . . فلهُمُ النجاةُ والسلامةُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ .

وكلُّ مَنْ لمْ يتوجَّهْ إلى المقصدِ ، ولمْ ينتهضْ لهُ ، أوِ انتهضَ إلىٰ جهتِهِ لا علىٰ قصدِ الامتثالِ والعبوديةِ ، بلْ لغرضٍ عاجلٍ . . فهوَ منْ أصحابِ الشمالِ ومنَ الضالينَ ، فلهُ نُزُلٌ منْ حَميمٍ وتصليةُ جحيمٍ .

واعلمْ : أنَّ هٰذا هوَ حقُّ اليقينِ عندَ العلماءِ الراسخينَ ؛ أعني أنهمْ أدركوهُ بمشاهدةٍ منَ الباطنِ هيَ أقوىٰ وأجلىٰ منْ مشاهدةِ الأبصارِ ، وترقَّوا فيهِ عنْ حدِّ التقليدِ بمجرَّدِ السماعِ ، وحالُهُمْ حالُ منْ أُخبرَ فصدَّقَ ، ثمَّ شاهدَ فتحقَّقَ ، وحالُ غيرِهِمْ حالُ مَنْ قَبِلَ بحسْنِ التصديقِ والإيمانِ ، ولمْ يحظَ بالمشاهدةِ والعِيانِ .

فالسعادةُ وراءَ علْمِ المكاشفةِ ، وعلْمُ المكاشفةِ وراءَ علمِ المعاملةِ التي هيَ سلوكُ طريقِ الآخرةِ ، وقطعُ عقباتِ الصفاتِ ، وسلوكُ طريقِ محوِ الصفاتِ المذمومةِ وراءَ علْمِ الصفاتِ ، وعلْمِ طريقِ المعالجةِ وكيفيةِ السلوكِ ، وذلكَ

وراءَ علْمِ سلامةِ البدنِ ومساعدةِ أسبابِ الصحةِ ، وسلامةُ البدنِ بالاجتماعِ والتظاهرِ والتعاونِ الذي يُتوصَّلُ بهِ إلى الملبسِ والمطعمِ والمسكنِ ، وهوَ منوطٌ بالسلطانِ وقانونِهِ في ضبْطِ الناسِ علىٰ نهْجِ العدلِ والسياسةِ في ناصيةِ الفقيهِ .

وأمَّا أسبابُ الصحةِ .. ففي ناصيةِ الطبيبِ ، ومَنْ قالَ : (العلمُ علمانِ : علمُ الأبدانِ ، وعلمُ الأديانِ) وأشارَ بهِ إلى الفقهِ .. أرادَ بهِ العلومَ الظاهرةَ الشائعةَ ، لا العلومَ العزيزةَ الباطنةَ(١) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : لِمَ شبهتَ علمَ الفقهِ والطبِّ بإعدادِ الزادِ والراحلةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الساعيَ إلى اللهِ تعالىٰ لينالَ قربَهُ هوَ القلبُ دونَ البدنِ ، ولستُ أعني بالقلبِ اللحْمَ المحسوسَ ، بلْ هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يدركُهُ الحسُّ ، ولطيفةٌ منْ لطائِفِهِ تارةً يُعبَّرُ عنهُ بالروحِ ، وتارةً بالنفسِ المطمئنةِ ، والشرعُ يعبِّرُ عنهُ بالقلبِ ؛ لأنَّهُ المطيةُ الأولىٰ لذلكَ السرِّ ، وبواسطتِهِ صارَ جميعُ البدنِ مطيةً وآلةً لتلكَ اللطيفةِ .

وكشفُ الغطاءِ عَنْ ذلكَ السرِّ مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، وهوَ مضنونٌ بهِ ، بلْ لا رخصةَ في ذكرِهِ ، وغايةُ المأذونِ فيهِ أنْ يقالَ : هوَ جوهرٌ نفيسٌ ودرٌّ عزيزٌ أشرفُ مِنْ هٰذهِ الأجرامِ المرئيةِ ، وإنَّما هوَ أمْرٌ إلٰهيٌّ ؛ كما قالَ تعالىٰ :

---

(١) والقول للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، كما في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٢) .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .

وكلُّ المخلوقاتِ منسوبةٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّ نسبتَهُ أشرفُ مِنْ نسبةِ سائرِ أعضاءِ البدنِ ، فللّٰهِ الخلْقُ والأمْرُ جميعاً ، والأمرُ أعلىٰ مِنَ الخلْقِ ، وهٰذهِ الجوهرةُ النفيسةُ الحاملةُ لأمانةِ اللهِ تعالى المتقدمةُ بهٰذهِ الرتبةِ على السماواتِ والأرضينَ والجبالِ إذْ أبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها . . هيَ مِنْ عالَمِ الأمرِ .

ولا تفهمْ مِنْ هٰذا تعريضاً بِقِدَمِهِ ، فالقائلُ بِقِدَمِ الأرواحِ مغرورٌ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ(١) .

فلنقبضْ عِنانَ البيانِ عنْ هٰذا الفنِّ ، فهوَ وراءَ ما نحنُ بصددِهِ .

* * *

والمقصودُ : أنَّ هٰذهِ اللطيفةَ هيَ الساعيةُ إلىٰ قرْبِ الربِّ ؛ لأنَّها مِنْ أمْرِ الربِّ ، فمنهُ مصدرُها ، وإليهِ مرجعُها ، وأمَّا البدنُ . . فمطيَّتُها التي تركبُها وتسعىٰ بواسطتِها ، فالبدنُ لها في طريقِ اللهِ تعالىٰ كالناقةِ للبدنِ في طريقِ الحجِّ ، وكالراويةِ الحاويةِ للماءِ الذي يفتقرُ إليهِ البدنُ .

فكلُّ علْمٍ مقصدُهُ مصلحةُ البدنِ . . فهوَ مِنْ جملةِ مصالحِ المطيَّةِ ، ولا يخفَىٰ أنَّ الطبَّ كذلكَ ؛ فإنَّه قدْ يُحتاجُ إليهِ في حفْظِ الصحةِ على البدنِ ، ولوْ كانَ الإنسانُ وحدَهُ . . لاحتاجَ إليهِ ، والفقهُ يفارقُهُ في أنَّهُ لوْ كانَ

---

(١) كالفلاسفة ومن علىٰ قدمهم . « إتحاف » (١/ ٣٣٢) .

الإنسانُ وحدَهُ . . ربَّما كانَ يستغني عنهُ ، ولكنَّهُ خُلِقَ علىٰ وجهٍ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ وحدَهُ ، إذْ لا يستقلُّ بالسعيِ في تحصيلِ طعامِهِ بالحراثَةِ والزرْعِ والخبزِ والطبخِ ، وفي تحصيلِ الملبسِ والمسكنِ ، وفي إعدادِ آلاتِ ذلكَ كلِّهِ ، فاضطرَّ إلى المخالطةِ والاستعانةِ .

ومهما اختلطَ الناسُ وثارَتْ شهواتُهُمْ . . تجاذبوا أسبابَ الشهواتِ ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصلَ مِنْ قتالِهِمْ هلاكُهُمْ بسببِ التنافسِ مِنْ خارجٍ ، كما يحصلُ هلاكُهُمْ بسببِ تضادِّ الأخلاطِ مِنْ داخلٍ ، وبالطبِّ يُحفظُ الاعتدالُ في الأخلاطِ المتنازعةِ مِنْ داخلٍ ، وبالسياسةِ والعدْلِ يُحفظُ الاعتدالُ في التنافسِ مِنْ خارجٍ ، وعلمُ طريقِ اعتدالِ الأخلاطِ طبٌّ ، وعلْمُ طريقِ اعتدالِ أحوالِ الناسِ في المعاملاتِ والأفعالِ فقْهٌ ، وكلُّ ذلكَ يحفظُ البدنَ الذي هوَ مطيةٌ .

فالمتجرِّدُ لعلْمِ الفقهِ أوِ الطبِّ إذا لمْ يجاهدْ نفسَهُ ولمْ يصلحْ قلبَهُ . . كالمتجرِّدِ لشراءِ الناقةِ وعلفِها وشراءِ الراويةِ وخرْزِها إذا لمْ يسلكْ باديةَ الحجِّ ، والمستغرقُ عمرَهُ في دقائقِ الكلماتِ التي تُحرَّرُ في مجادلاتِ الفقهِ . . كالمستغرقِ عمرَهُ في دقائقِ الأسبابِ التي بها تستحكمُ الخيوطُ التي تُخرزُ بها راويةُ الحجِّ .

ونسبةُ هؤلاءِ مِنَ السالكِ لطريقِ إصلاحِ القلبِ أوِ الواصلِ إلىٰ علْمِ المكاشفةِ . . كنسبةِ أولئكَ إلىٰ سالكي طريقِ الحجِّ أوْ مُلابسي أركانِهِ .

فتأملْ هـٰذا أولاً ، واقبلِ النصيحةَ مجّاناً ممَّنْ قامَ عليهِ ذلكَ غالباً ولمْ يصلْ إليهِ إلا بعدَ جهْدٍ جهيدٍ ، وجَراءةٍ تامَّةٍ علىٰ مباينةِ الخلْقِ ؛ العامَّةِ والخاصَّةِ في النزوعِ مِنْ تقليدِهِمْ بمجرَّدِ الشهوةِ .

فهـٰذا القدْرُ كافٍ في وظائفِ المتعلِّمِ .

* * *

بيان وظائف المرشد المعلّم

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ في علمِهِ أربعةَ أحوالٍ ، كما لهُ في اقتناءِ الأموالِ ؛ إذْ لصاحبِ المالِ حالُ استفادةٍ فيكونُ مكتسباً ، وحالُ ادخارٍ لما اكتسبَهُ فيكونُ بهِ **غنياً عنِ السؤالِ** ، وحالُ إنفاقٍ علىٰ نفسِهِ فيكونُ بهِ **منتفعاً** ، وحالُ بذْلٍ لغيرِهِ فيكونُ بهِ **سخيّاً متفضِّلاً** ، وهوَ أشرفُ أحوالِهِ .

فكذلكَ العلْمُ يقتنىٰ كالمالِ ، فلهُ حالُ طلبٍ واكتسابٍ ، وحالُ تحصيلٍ يغني عنِ السؤالِ ، وحالُ استبصارٍ وهو التفكُّرُ في المحصَّلِ والتمتُّعُ بهِ ، وحالُ تبصيرٍ وهوَ أشرفُ الأحوالِ .

فمَنْ علِمَ وعملَ وعلَّمَ فهوَ الذي يُدعَىٰ عظيماً في ملكوتِ السماءِ ؛ فإنَّهُ كالشمسِ تضيءُ لغيرِها وهيَ مضيئةٌ في نفسِها ، وكالمسكِ الذي يطيِّبُ غيرَهُ وهوَ طيِّبٌ .

والذي يعلِّمُ ولا يعملُ بهِ كالدفترِ الذي يفيدُ غيرَهُ وهوَ خالٍ عن العلْمِ ، وكالمِسَنِّ الذي يشحَذُ غيرَهُ ولا يقطعُ ، والإبرةِ التي تكسو غيرَها وهيَ عاريةٌ، وذُبالةِ المصباحِ تضيءُ لغيرِها وهيَ تحترقُ ، كما قيلَ[1] : [من المنسرح]

صِرْتُ كَأَنِّي ذُبالَةٌ نُصِبَتْ		تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهْيَ تَحْتَرِقُ

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف (ص٢٢١) .

ومهما اشتغلَ بالتعليمِ . . فقدْ تقلَّدَ أمراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فليحفظْ آدابَهُ ووظائِفَهُ .

الوظيفةُ الأولىٰ : الشفقةُ على المتعلِّمينَ ، وأنْ يُجريَهُمْ مُجرىٰ بَنيهِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[1] ، فإنَّ قصدَهُ إنقاذُهُمْ مِنْ نارِ الآخرةِ ، وهوَ أهمُّ مِنْ إنقاذِ الوالدينِ ولدَهما مِنْ نارِ الدنيا .

ولذلكَ صارَ حقُّ المعلِّمِ أعظمَ مِنْ حقِّ الوالدينِ ؛ فإنَّ الوالدَ سببُ الوجودِ الحاضرِ والحياةِ الفانيةِ ، والمعلِّمَ سببُ الحياةِ الباقيةِ ، ولولا المعلِّمُ . . لساقَ ما حصلَ منْ جهةِ الأبِ إلى الهلاكِ الدائمِ ، وإنَّما المعلِّمُ هوَ المفيدُ للحياةِ الأخرويةِ الدائمةِ ؛ أعني معلِّمَ علومِ الآخرةِ ، أوْ علومِ الدنيا علىٰ قصْدِ الآخرةِ لا علىٰ قصْدِ الدنيا ، فأمَّا التعليمُ علىٰ قصْدِ الدنيا . . فهوَ هلاكٌ وإهلاكٌ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وكما أنَّ حقَّ أبناءِ الرجلِ الواحدِ أنْ يتحابُّوا ويتعاونوا على المقاصدِ كلِّها . . فكذلكَ حقُّ تلامذةِ الرجلِ الواحدِ التحابُّ والتوادُدُ ، ولا يكونُ إلا كذلكَ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الآخرةَ ، ولا يكونُ إلا التحاسدُ والتباغضُ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الدنيا .

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .

فإنَّ العلماءَ وأبناءَ الآخرةِ مسافرونَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وسالكونَ إليهِ الطريقَ مِنَ الدنيا ، وسِنُوها وشهورُها منازلُ الطريقِ ، والترافقُ في الطريقِ بينَ المسافرينَ إلى الأمصارِ سببُ التوادِّ والتحابِّ ، فكيفَ السفرُ إلى الفردوسِ الأعلىٰ والترافقُ في طريقِهِ ؟!

ولا ضيقَ في سعاداتِ الآخرةِ ، فلذلكَ لا يكونُ بينَ أبناءِ الآخرةِ تنازعٌ ، ولا سَعةَ في سعاداتِ الدنيا ، فلذلكَ لا ينفكُّ عنْ ضيقِ التزاحمِ .

والعادلونَ إلىٰ طلبِ الرئاسةِ بالعلومِ خارجونَ عنْ موجَبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وداخلونَ في مقتضىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

* * *

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقتديَ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ :

فلا يطلبُ علىٰ إفاضةِ العلْمِ أجراً ، ولا يقصدُ بهِ جزاءً ولا شكراً ، بلْ يعلِّمُ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ، وطلباً للتقرُّبِ إليهِ ، ولا يرىٰ لنفسِهِ منَّةً عليهِمْ وإنْ كانتِ المنَّةُ لازمةً عليهِمْ ، بلْ يرى الفضلَ لهُمْ ؛ إذ هَدَفوا قلوبَهُمْ لأنْ تتقرَّبَ إلى اللهِ بزراعةِ العلومِ فيها(١) ، كالذي يعيرُكَ الأرضَ لتزرعَ فيها لنفسِكَ زراعةً ، فمنفعتُكَ بها تزيدُ علىٰ منفعةِ صاحبِ الأرضِ ، فكيفَ تقلِّدُهُ منَّةً وثوابُكَ في التعليمِ أكثرُ مِنْ ثوابِ المتعلِّمِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولولا المتعلِّمُ . . ما نلتَ هـٰذا الثوابَ ؟!

---

(١) هدفوا هنا : رموا ، كأنهم ألقوها ابتغاء القرب منه سبحانه ، أو عرَّضوها لذلك .

فلا تطلبِ الأجرَ إلا مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ فإنَّ المالَ وما في الدنيا خادمُ البدنِ ، والبدنُ مركبُ النفسِ ومطيَّتُها ، والمخدومُ هوَ العلْمُ ؛ إذْ بهِ شرفُ النفسِ ، فمَنْ طلبَ بالعلمِ المالَ . . كانَ كمنْ مسحَ أسفلَ مداسِهِ ونعلِهِ بمحاسِنِهِ لينظفَهُ[1] ، فجعلَ المخدومَ خادماً والخادمَ مخدوماً ، وذلكَ هوَ الانتكاسُ علىٰ أمِّ الراسِ ، ومثلُهُ هوَ الذي يقومُ في العرْضِ الأكبرِ معَ المجرمينَ ناكسي رؤوسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ .

وعلى الجملةِ : فالفضلُ والمنَّةُ للمعلِّمِ .

فانظرْ كيفَ انتهىٰ أمرُ الدينِ إلىٰ قومٍ يزعمونَ أنَّ مقصودَهُمُ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بما همْ فيهِ مِنْ علْمِ الفقهِ والكلامِ والتدريسِ فيهما وفي غيرِهما ؛ فإنَّهُمْ يبذلونَ المالَ والجاهَ ، ويتحمَّلونَ أصنافَ الذلِّ في خدمةِ السلاطينِ لاستطلاقِ الجِراياتِ[2] ، ولوْ تركوا ذلكَ . . لتُركوا ولمْ يُختَلَفْ إليهِمْ .

ثمَّ يتوقَّعُ المعلِّمُ مِنَ المتعلِّمِ أنْ يقومَ لهُ في كلِّ نائبةٍ ، وينصرَ وليَّهُ ، ويعاديَ عدوَّهُ ، وينتهضَ حماراً لهُ في حاجاتِهِ ، ومسخَّراً بينَ يديهِ في أوطارِهِ ، فإنْ قصَّرَ في حقِّهِ . . ثارَ عليهِ ، وصارَ مِنْ أعدىٰ أعدائِهِ ، فأخْسِسْ

---

(١) في (ج) : (كان كمن مسح أسفل نعله برجْله من نجاسته لينظفه) ، وفي بعض نسخ الحافظ الزبيدي : (بوجهه) بدل (بمحاسنه) ، قال : (وإليه يعود معنى المحاسن) . « إتحاف » (١/ ٣٣٨) .

(٢) **الجراية** : ما يجري من الرواتب المعلومة على الإنسان من نقد وغلَّة وغير ذلك .

بعالمٍ يرضىٰ لنفسهِ بهـٰذهِ المنزلةِ ثمَّ يفرحُ بها ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ أنْ يقولَ : غرضي مِنَ التدريسِ نشرُ العلمِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ونصرةً لدينِهِ !

فانظرْ إلى الأماراتِ حتَّىٰ ترىٰ صنوفَ الاغتراراتِ .

***

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يدَّخرَ مِنْ نصْحِ المتعلِّمِ شيئاً :

وذلكَ بأنْ يمنعَهُ مِنَ التصدِّي لرتبةٍ قبلَ استحقاقِها ، والتشاغلِ بعلْمٍ خفيٍّ قبلَ الفراغِ مِنَ الجليِّ ، ثمَّ ينبهَهُ علىٰ أنَّ الغرضَ بطلبِ العلومِ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ دونَ الرئاسةِ والمباهاةِ والمنافسةِ ، ويقدِّمَ تقبيحَ ذلكَ في نفسِهِ بأقصىٰ ما يمكنُ ، فليسَ ما يصلحُهُ العالمُ الفاجرُ بأكثرَ ممَّا يفسدُهُ .

فإنْ علِمَ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لا يطلبُ العلْمَ إلا للدنيا . . نظرَ إلى العلْمِ الذي يطلبُهُ ، فإنْ كانَ هوَ علمَ الخلافِ في الفقهِ ، والجدلِ في الكلامِ ، والفتاوىٰ في الخصوماتِ والأحكامِ . . فيمنعُهُ مِنْ ذلكَ ؛ فإنَّ هـٰذهِ العلومَ ليستْ مِنْ علومِ الآخرةِ ولا مِنَ العلومِ التي قيلَ فيها : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ) ، وإنَّما ذلكَ علْمُ التفسيرِ وعلمُ الحديثِ ، وما كانَ الأولونَ يشتغلونَ بهِ مِنْ علْمِ الآخرةِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ وكيفيةِ تهذيبِها ، فإذا تعلَّمَهُ الطالبُ وقصدُهُ الدنيا . . فلا بأسَ أنْ يتركَهُ ؛ فإنَّهُ يتشمَّرُ لهُ طمعاً في الوعْظِ والاستتباعِ ، ولكنْ قد يتنبَّهُ في أثناءِ الأمرِ أوْ آخرِهِ ؛ إذْ فيهِ العلومُ المخوِّفَةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ المحقِّرَةُ للدنيا المعظِّمَةُ للآخرةِ ، وذلكَ يوشِكُ أنْ يردَّ إلى الصوابِ في الآخرةِ حتَّىٰ يتعظَ بما يعظُ بهِ غيرَهُ ، ويجري حُبُّ القبولِ

والجاهِ مَجرى الحَبِّ الذي يُنثرُ حوالَي الفخِّ ليُقتنصَ بهِ الطيرُ ، وقدْ فعلَ اللهُ ذلكَ بعبادِهِ ، إذْ خلقَ الشهوةَ ليصلَ الخلقُ بها إلىٰ بقاءِ النسلِ ، وخلقَ أيضاً حُبَّ الجاهِ ليكونَ سبباً لإحياءِ العلومِ ، وهٰذا متوقَّعٌ في هٰذهِ العلومِ .

فأمَّا الخلافُ المحضُ ومجادلةُ الكلامِ ومعرفةُ التفريعاتِ الغريبةِ . . فلا يزيدُ التجرُّدُ لها معَ الإعراضِ عنْ غيرِها إلا قسوةً في القلبِ ، وغفلةً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وتمادياً في الضلالِ ، وطلباً للجاهِ ، إلا مَنْ تداركَهُ اللهُ تعالىٰ برحمتِهِ ، أوْ مزجَ بهِ غيرَهُ منَ العلومِ الدينيةِ ، ولا برهانَ علىٰ هٰذا كالتجربةِ والمشاهدةِ .

فانظرْ واعتبرْ ، واستبصرْ لتشاهدَ تحقيقَ ذلكَ في العبادِ والبلادِ ، واللهُ المستعانُ .

وقدْ رُئِيَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ حزيناً ، فقيلَ لهُ : ما لكَ ؟ فقالَ : صرْنا مَتْجراً لأبناءِ الدنيا ، يلزَمُنا أحدُهُمْ ، حتَّىٰ إذا تعلَّمَ . . جُعِلَ عاملاً أوْ قاضياً أوْ قَهْرَماناً(١) .

الوظيفةُ الرابعةُ وهيَ مِنْ دقائقِ صناعةِ التعليمِ : أنْ يزجرَ المتعلِّمَ عنْ سوءِ الأخلاقِ بطريقِ التعريضِ ما أمكنَ :

ولا يصرِّحَ ، وبطريقِ الرحمةِ لا بطريقِ التوبيخِ ؛ فإنَّ التصريحَ يهتكُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٣) ، **والقهرمان** : المسيطر الحفيظ علىٰ من تحت يديه ، لفظة فارسية معربة .

حجابَ الهيبةِ ، ويورثُ الجرأةَ على الهجومِ بالخلافِ ، ويهيّجُ الحرصَ على الإصرارِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ مرشدُ كلِّ معلِّمٍ : « لوْ مُنِعَ الناسُ عنْ فَتِّ البَعْرِ . . لَفَتُّوهُ وقالوا : ما نُهِينا عنهُ إلا وفيهِ شيءٌ ! »(١) .

وينبهُكَ علىٰ هٰذا قصةُ آدمَ وحواءَ عليهما السلامُ وما نهيا عنهُ ، فما ذكرتِ القصَّةُ معكَ لتكونَ سمراً ، بلْ لتتنبَّهَ بها علىٰ سبيلِ العبرةِ .

ولأنَّ التعريضَ أيضاً يُميلُ النفوسَ الفاضلةَ والأذهانَ الذكيةَ إلى استنباطِ معانيهِ ، فيفيدُ فرحَ التفطُّنِ لمعناهُ رغبةً في العلمِ بهِ ؛ ليعلمَ أنَّ ذلكَ ممَّا لا يعزبُ عنْ فطنتِهِ .

❊ ❊ ❊

الوظيفةُ الخامسةُ : أنَّ المتكفِّلَ ببعضِ العلومِ لا ينبغي أنْ يقبِّحَ في نفسِ المتعلِّمِ العلومَ التي وراءَهُ :

كمعلِّمِ اللغةِ ؛ إذْ عادتُهُ تقبيحُ الفقهِ ، ومعلِّمُ الفقهِ عادتُهُ تقبيحُ علْمِ الحديثِ والتفسيرِ ، وأنَّ ذلكَ نقلٌ محضٌ وسماعٌ صرْفٌ وهوَ شأنُ العجائزِ ، ولا نظرَ للعقلِ فيهِ ، ومعلِّمُ الكلامِ ينفِّرُ عنِ الفقهِ ويقولُ : ذلكَ فرعٌ ، وهوَ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٤١) : (قال العراقي : « لم أجده إلا من حديث الحسن مرسلاً وهو ضعيف ، رواه ابن شاهين » اهـ ، قلت : ووجدت بخط الداوودي ما نصه : ولفظ ابن شاهين : « لو منع الناس فتَّ الشوك . . لقالوا : فيه النَّدُّ » ، وفي المعنىٰ حديث أبي جحيفة : « لو نهيتم أن تأتوا الحجون . . لأتيتموها ») .

كلامٌ في حيضِ النِّسوانِ ، فأينَ ذلكَ مِنَ الكلامِ في صفةِ الرحمـٰنِ ؟!

فهـٰذهِ أخلاقٌ مذمومةٌ للمعلمينَ ينبغي أنْ تُجتنبَ ، بلِ المتكفِّلُ بعلْمٍ واحدٍ ينبغي أنْ يوسعَ على المتعلِّمِ طريقَ التعلُّمِ في غيرِهِ ، وإنْ كانَ متكفِّلاً بعلومٍ . فينبغي أنْ يراعيَ التدريجَ في ترقيةِ المتعلِّمِ مِنْ رتبةٍ إلىٰ رتبةٍ .

* * *

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يقتصرَ بالمتعلِّمِ علىٰ قدْرِ فهمِهِ :

فلا يُلقي إليهِ ما لا يبلغُهُ عقلُهُ فينفرَهُ أوْ يخبطَ عليهِ عقلَهُ ؛ اقتداءً في ذلكَ بسيِّدِ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « نحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ أُمرنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازلَهُمْ ، ونُكَلِّمَهُمْ علىٰ قَدْرِ عقولِهِمْ »[1] .

فليبثَّ إليهِ الحقيقةَ إذا علمَ أنَّهُ يستقلُّ بفهمِها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحدٌ يُحَدِّثُ قوماً بحديثٍ لا تبلغُهُ عقولُهُمْ إلا كانَ فتنةً علىٰ بعضِهِمْ »[2] .

---

(١) هما حديثان ، فروىٰ أبو داوود (٤٨٤٢) مرفوعاً : « أنزلوا الناس منازلهم » ، وروى العقيلي في « الضعفاء » (٤/ ١٥٣٤) : « إنا معشر الأنبياء كذلك أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم » ، ومعناه سبق في حديث البخاري (١٢٧) الموقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون . . .) .

(٢) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ورواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/ ١١) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ هٰهنا علوماً جمَّةً لوْ وجدتُ لها حَمَلَةً)[1] .

وصدقَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقلوبُ الأبرارِ قبورُ الأسرارِ ، فلا ينبغي أنْ يفشيَ العالمُ كلَّ ما يعلمُهُ إلىٰ كلِّ أحدٍ ، هٰذا إذا كانَ يفهمُهُ المتعلِّمُ ولمْ يكنْ أهلاً للانتفاعِ بهِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تعلِّقوا الجوهرَ في أعناقِ الخنازيرِ ، فإنَّ الحكمةَ خيرٌ منَ الجوهرِ ، ومَنْ كرهَها . . فهوَ شرٌّ منَ الخنازيرِ)[2] .

ولذلكَ قيلَ : (كِلْ لكلِّ عبْدٍ بمعيارِ عقلِهِ ، وزِنْ لهُ بميزانِ فهمِهِ ؛ حتَّىٰ تسلَمَ منهُ وينتفعَ بكَ ، وإلا . . وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيارِ)[3] .

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ شيءٍ فلمْ يجبْ ، فقالَ السائلُ : أما سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كتمَ علماً نافِعاً . . جاءَ يومَ القيامةِ مُلْجماً بلجامٍ مِنْ نارٍ »[4] ؟ فقالَ : اتركِ اللجامَ واذهبْ ؛ فإنْ جاءَ مَنْ نفعَهُ وكتمْتُهُ . . فليلجمْني[5] .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ضمن حديث كُميل المشهور والذي سبق ذكره ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٣٤) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وانظر « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٣) ضمن حديث طويل .

(٣) هو من قول صاحب « القوت » (١/ ١٥٦) ، وأصله من قول يحيى بن معاذ عنده : (اغرف لكل واحد من نهره ، واسقه بكأسه) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .

(٥) الذريعة (ص١٨١) .

وقولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ تنبيهٌ علىٰ أنَّ حفْظَ العلْمِ ممَّنْ يفسدُهُ ويضرُّهُ أولىٰ ، وليسَ الظلْمُ في إعطاءِ غيرِ المستحقِّ بأقلَّ مِنَ الظلمِ في منْعِ المستحقِّ ، كما قيلَ[1] : [من الطويل]

أَأَنْثُرُ دُرِّي بَيْنَ سَارِحَةِ ٱلنَّعَمْ ... وَأُصْبِحُ مَخْزُوناً بِرَاعِيَةِ ٱلْغَنَمْ
لِأَنَّهُمُ أَمْسَوْا بِجَهْلٍ لِقَدْرِهِ ... فَلاَ أَنَا أُضْحِي أَنْ أُطَوِّقَهُ ٱلْبَهَمْ
فَإِنْ لَطَفَ اللهُ ٱللَّطِيفُ بِلُطْفِهِ ... وَصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ
نَشَرْتُ مُفِيداً وَٱسْتَفَدْتُ مَوَدَّةً ... وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ ٱلْجُهَّالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ ٱلْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

❊ ❊ ❊

الوظيفةُ السابعةُ : أنَّ المتعلِّمَ القاصرَ ينبغي أنْ يُلْقَىٰ إليهِ الجليُّ اللائقُ بهِ ، ولا يذكُرُ لهُ أنَّ وراءَ هـٰذا تدقيقاً وهوَ يدَّخِرُهُ عنهُ :

فإنَّ ذلكَ يفتِّرُ رغبتَهُ في الجليِّ ، ويشوِّشُ عليهِ قلبَهُ ، ويوهِمُ إليهِ البخلَ بهِ عنهُ ؛ إذْ يظنُّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أهلٌ لكلِّ علْمٍ دقيقٍ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ سبحانَهُ في كمالِ عقلِهِ ، وأشدُّهُمْ حماقةً وأضعفُهُمْ عقلاً هوَ أفرحُهُمْ بكمالِ عقلِهِ .

وبهـٰذا يُعلَمُ : أنَّ مَنْ تقيَّدَ مِنَ العوامِّ بقيدِ الشرعِ ، ورسختْ في نفسِهِ

---

(١) الأبيات للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص١٢٨ـ ١٢٩) ، والأبيات الأربع الأولىٰ من (ب) و(ق) .

العقائدُ المأثورةُ عنِ السلفِ مِنْ غيرِ تشبيهٍ ومِنْ غيرِ تأويلٍ ، وحَسُنَ معَ ذلكَ سريرتُهُ ، ولمْ يحتملْ عقلُهُ أكثرَ مِنْ ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ يشوِّشَ عليهِ اعتقادَهُ ، بلْ ينبغي أنْ يُخلَّىٰ وحرفتَهُ ؛ فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ تأويلاتُ الظواهرِ . . انحلَّ عنهُ قيدُ العوامِّ ولمْ يتيسَّرْ قيدُهُ بقيدِ الخواصِّ ، فيرتفعُ السدُّ الذي بينَهُ وبينَ المعاصي ، وينقلبُ شيطاناً مريداً يهلكُ نفسَهُ وغيرَهُ .

بلْ لا ينبغي أنْ يُخاضَ بالعوامِّ في حقائقِ العلومِ الدقيقةِ ، بلْ يقتصرُ معهمْ علىٰ تعليمِ العباداتِ ، وتعليمِ الأمانةِ في الصناعةِ التي هوَ بصددِها ، ويملأُ قلوبَهُمْ مِنَ الرغبةِ والرهبةِ بالجنَّةِ والنارِ كما نطقَ بهِ القرآنُ ، ولا يحرِّكُ عليهِمْ شبهةً ؛ فإنَّهُ ربَّما تعلقَتِ الشبهةُ بقلبِهِ ويعسرُ عليهِ حلُّها ، فيشقَىٰ ويهلِكُ .

وبالجملةِ : لا ينبغي أنْ يفتحَ للعوامِّ بابَ البحثِ ؛ فإنَّهُ يعطِّلُ عليهِمْ صناعاتِهِمُ التي بها قوامُ الخلْقِ ، ودوامُ عيشِ الخواصِّ .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يكونَ المعلِّمُ عاملاً بعلمِهِ :

فلا يكذِّبُ قولَهُ فعلُهُ ؛ لأنَّ العلْمَ يُدركُ بالبصائرِ والعملَ يُدركُ بالأبصارِ ، وأربابُ الأبصارِ أكثرُ ، فإذا خالفَ العملُ العلمَ . . منعَ الرشدَ ، وكلُّ مَنْ تناولَ شيئاً وقالَ للناسِ : لا تتناولوهُ ؛ فإنَّهُ سمٌّ مهلكٌ . . سخرَ الناسُ بهِ واتهموهُ ، وزادَ حرصُهُمْ عليهِ ، فيقولونَ : لولا أنَّه أطيبُ الأشياءِ وألذُّها . . لما كانَ يستأثرُ بهِ !

ومَثلُ المعلِّمِ المرشدِ مِنَ المسترشدِ مثلُ النقْشِ مِنَ الطينِ والعودِ مِنَ الظلِّ ، فكيفَ ينتقشُ الطينُ بما لا نقشَ فيهِ ، ومتى استوى الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟! ولذلكَ قيلَ[1] : [من الكامل]

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

ولذلكَ كانَ وِزْرُ العالِمِ في معاصيهِ أكبرَ مِنْ وزْرِ الجاهلِ ؛ إذْ يزِلُّ بزَلَّتِهِ عالَمٌ كثيرٌ ، فيقتدونَ بهِ ، و« مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئَةً . . فعليهِ وِزْرُها ووزْرُ مَنْ عمِلَ بها »[2] .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (قَصَمَ ظهري رجلانِ : عالمٌ متهتِّكٌ ، وجاهلٌ متنسِّكٌ ، فالجاهلُ يغرُّ الناسَ بتنسُّكِهِ ، والعالِمُ ينفِّرُهُمْ بتهتُّكِهِ)[3] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص٤٠٤) ، وانظر « خزانة الأدب » (٨/ ٥٦٤) .

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٠) بنحوه .

البَابُ السَّادِسُ
في آفات العلم
وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قدْ ذكرْنا ما وردَ مِنْ فضائلِ العلْمِ والعلماءِ ، وقدْ وردَ في العلماءِ السوءِ تشديداتٌ عظيمةٌ دلَّتْ علىٰ أنَّهُمْ أشدُّ الخلْقِ عذاباً يومَ القيامةِ ، فمِنَ المهمَّاتِ العظيمةِ معرفةُ العلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ ، ونعني بعلماءِ الدنيا العلماءَ السوءَ الذينَ قصْدُهمْ مِنَ العلمِ التنعُّمُ بالدنيا ، والتوصُّلُ إلى الجاهِ والمنزلةِ عندَ أهلِها .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »(١) .

ويروىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « لا يكونُ المرْءُ عالماً حتَّىٰ يكونَ بعلْمِهِ عاملاً »(٢) .

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٧) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه وبلفظ : (ولا تكون بالعلم عالماً حتىٰ تكون به عاملاً) ، قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي في « التخريج الكبير » : لم أجده مرفوعاً) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٤٨) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ علمانِ : علمٌ على اللسانِ فذلكَ حُجَّةُ اللهِ تعالىٰ على ابنِ آدمَ ، وعلمٌ في القلبِ فذلكَ العلمُ النافعُ »(١) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وعلماءُ فُسَّاقٌ »(٢) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتعلَّمُوا العلمَ لتُباهوا بهِ العلماءَ ، ولتماروا بهِ السفهاءَ ، ولتصرِفوا وجوهَ الناسِ إليكُمْ ، فَمَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ في النارِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كتمَ علماً عندَهُ . . أَلْجمَهُ اللهُ بلجامٍ مِنْ نارٍ »(٤) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنا مِنْ غيرِ الدَّجَّالِ أخوفُ عليكُمْ منَ الدجَّالِ » فقيلَ : وما ذاكَ ؟ فقالَ : « مِنَ الأئمَّةِ المضلِّينَ »(٥) .

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٥/١٠٧ـ ١٠٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥١) .
(٢) رواه الآجري في « أخلاق العلماء » (٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٣١) .
(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٩) .
(٤) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .
(٥) رواه أحمد في « مسنده » (٥/ ١٤٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ٱزدادَ علماً ولمْ يَزْدَدْ هدَىً . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعْداً »[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إلىٰ متىٰ تَصِفُونَ الطريقَ للمُدْلِجينَ وأنتمْ مقيمونَ معَ المتحيِّرينَ ؟!)[2] .

فهٰذا وغيرُهُ مِنَ الأخبارِ يدلُّ علىٰ عظيمِ خطرِ العلمِ ، وأنَّ العالِمَ إمَّا متعرِّضٌ لهلاكِ الأبدِ ، أوْ لسعادةِ الأبدِ ، وأنَّهُ بالخوضِ في العلْمِ قدْ حُرِمَ السلامةَ إنْ لمْ يدركِ السعادةَ .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ هٰذهِ الأُمَّةِ المنافقُ العليمُ ، قالوا : وكيفَ يكونُ منافقاً عليماً ؟ قالَ : عليمَ اللسانِ جاهلَ القلبِ والعملِ[3] .

وقالَ الحسنُ : (لا تكنْ ممَّنْ يجمعُ علْمَ العلماءِ وطرائفَ الحكماءِ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ الزبيدي نقلاً عن الحافظ العراقي : (والمشهور أن هٰذا الحديث من قول الحسن البصري) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٥١) .

(٢) اقتضاء العلم العمل (٦٠) ، **والمدلجون** : السائرون بالليل ، والمراد بهم : الزهاد والسالكون إلى الله تعالىٰ ، **والمتحيرون** : الواقفون .

(٣) أخرجه الضياء في « الأحاديث المختارة » (٢٣٦) ، وأصله عند « أحمد » (١/ ٢٢) .

ويجري في العملِ مَجرى السفهاء)[١] .

وقالَ رجلٌ لأبي هريرةَ : أريدُ أنْ أتعلَّمَ العلْمَ وأخافُ أنْ أضيِّعَهُ ، فقالَ : كفىٰ بتركِكَ العلْمَ إضاعةً لهُ[٢] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ عيينةَ : أيُّ الناسِ أطولُ ندامةً ؟ قالَ : أمَّا في عاجلِ الدنيا . . فصانعُ المعروفِ إلىٰ مَنْ لا يشكرُهُ ، وأمَّا عندَ الموتِ . . فعالِمٌ مفرِّطٌ .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (الرجالُ أربعةٌ : رجلٌ يدري ويدري أنَّهُ يدري ؛ فذلكَ عالمٌ فاتبعوهُ ، ورجلٌ يدري ولا يدري أنَّهُ يدري ؛ فذلكَ نائِمٌ فأيقظوهُ ، ورجلٌ لا يدري ويدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذلكَ مسترشدٌ فعلِّموهُ، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذلكَ جاهلٌ فارفضوهُ)[٣] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (يهتفُ العلمُ بالعملِ ، فإنْ أجابَهُ ، وإلا . . ارتحلَ)[٤] .

وقال ابنُ المباركِ : (لا يزالُ المرءُ عالماً ما طلبَ العلمَ ، فإذا ظنَّ أنَّهُ قدْ علِمَ . . فقدْ جهلَ)[٥] .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٦٢) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٦٨) ، وفي « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٧) : (وقال أبو هريرة النحوي) .
(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣٨) بنحوه .
(٤) اقتضاء العلم العمل (٤١) .
(٥) أورده ابن قتيبة غير منسوب في « عيون الأخبار » (٢/ ١١٨) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (إنِّي لأرحمُ ثلاثةً : عزيزَ قومٍ ذلَّ ، وغنياً افتقرَ ، وعالماً تلعبُ بهِ الدنيا)[1] .

وقالَ الحسنُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)[2] .

وأنشدوا[3] : [من الطويل]

عَجِبْتُ لِمُبْتاعِ ٱلضَّلالَةِ بِٱلْهُدَى 	وَمَنْ يَشْتَرِي دُنْياهُ بِالدِّينِ أَعْجَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ هَـٰذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ 	بِدُنْيَا سِوَاهُ فَهْوَ مِنْ ذَيْنِ أَعْجَبُ

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العالمَ لَيُعَذَّبُ عذاباً يَطِيفُ بِهِ أهلُ النَّارِ ٱسْتِعْظاماً لشدَّةِ عذابِهِ »[4] ، أرادَ بهِ العالمَ الفاجرَ .

وقالَ أسامةُ بنُ زيدٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُؤتَىٰ بالعالِمِ يومَ القيامةِ ، فيُلقَىٰ في النارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحَىٰ ، فيطيفُ بهِ أهلُ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهَىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[5] .

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى (٥٧٦) وله روايات في المرفوع .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٩٦) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٥١٤) .
(٣) البيتان لمالك بن دينار ، انظر « ربيع الأبرار » (٤/ ١٨٥) ، و« وفيات الأعيان » (٦/ ١٧٠) ، و« حياة الحيوان » (١/ ٤٢٢) ، و« زهر الأكم » (١/ ٢٨٨) .
(٤) قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي : لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وهو بمعنىٰ حديث أسامة بن زيد الآتي بعده) .
(٥) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، **والأقتاب** : الأمعاء .

وإنَّما يُضاعفُ عذابُ العالمِ في معصيتِهِ لأنَّهُ عصَىٰ عنْ علمٍ ، ولذلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ لأنَّهمْ جحدُوا بعدَ العلمِ .

وجعلَ اليهودَ شرّاً مِنَ النصارىٰ معَ أنَّهُمْ ما جعلوا للهِ سبحانَهُ ولداً ولا قالوا : إنَّهُ ثالثُ ثلاثةٍ ، ولكنْ أنكروا بعدَ المعرفةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾(١) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ بَلْعَامَ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ حتَّىٰ قالَ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، وكذلكَ العالمُ الفاجرُ ، فإنَّ بَلْعامَ أوتيَ كتابَ اللهِ تعالىٰ ، فأخلدَ إلى الشهواتِ ، فشُبِّهَ بالكلبِ ؛ أي : سواءٌ أُوتيَ الحكمةَ أوْ لمْ يُؤتَ . . فهوَ يلهثُ إلى الشهواتِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ علماءِ السوءِ كمثلِ صخرةٍ وقعتْ علىٰ فمِ النهرِ ، لا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ ، ومثلُ علماءِ السوءِ مثلُ قناةِ الحُشِّ ، ظاهرُها جِصٌّ وباطنُها نتنٌ ، ومثلُ القبورِ ، ظاهرُها عامرٌ وباطنُها عظامُ الموتىٰ)(٢) .

* * *

(١) أي : يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله دون أدنىٰ ريبة .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تبيِّنُ أنَّ العالِمَ الذي هوَ مِنْ أبناءِ الدنيا أخسُّ حالاً وأشدُّ عذاباً مِنَ الجاهلِ، وأنَّ الفائزينَ المقرَّبينَ همْ علماءُ الآخرةِ، ولهمْ علاماتٌ:

فمنها : ألا يطلبَ الدنيا بعلمِهِ : فإنَّ أقلَّ درجاتِ العالِمِ أنْ يدركَ حقارةَ الدنيا وخسَّتَها وكدورتَها وانصرامَها ، وعِظَمَ الآخرةِ ودوامَها وصفاءَ نعيمِها وجلالةَ ملكِها ، ويعلمَ أنَّهما متضادتانِ ، وأنَّهما كالضرَّتينِ ؛ مهما أرضيتَ إحداهما . . أسخطتَ الأخرىٰ ، وأنَّهما ككفَّتي الميزانِ ؛ مهما رجحتْ إحداهما . . خفَّتِ الأخرىٰ ، وأنَّهما كالمشرقِ والمغربِ ؛ مهما قربتَ مِنْ أحدِهما . . بعدتَ عنِ الآخرِ ، وأنَّهما كقدحينِ أحدُهما مملوءٌ ، والآخرُ فارغٌ ؛ فبقدْرِ ما تصبُّ منهُ في الآخرِ حتَّىٰ يمتلىءَ . . يفرُغُ الآخرُ .

فإنَّ مَنْ لا يعلمُ حقارةَ الدنيا وكدورتَها وامتزاجَ لذَّتِها بألمِها ثمَّ انصرامَ ما يصفو منها . . فهوَ فاسدُ العقلِ ؛ فإنَّ المشاهدةَ والتجرِبةَ ترشدُ إلىٰ ذلكَ ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا عقلَ لهُ ؟!

ومَنْ لا يعلمُ عِظَمَ أمرِ الآخرةِ ودوامَها . . فهوَ كافرٌ مسلوبُ الإيمانِ ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا إيمانَ لهُ ؟!

ومَنْ لا يعلمُ مضادَّةَ الدنيا للآخرةِ ، وأنَّ الجمعَ بينَهما طمعٌ في غيرِ مطمعٍ . . فهوَ جاهلٌ بشرائعِ الأنبياءِ كلِّهِمْ ، بلْ هوَ كافرٌ بالقرآنِ كلِّهِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ زمرةِ العلماءِ ؟!

ومَنْ علمَ هٰذا كلَّهُ ، ثمَّ لمْ يؤثِرِ الآخرةَ على الدنيا . . فهوَ أسيرُ

الشيطانِ ، قدْ أهلكتْهُ شهوتُهُ ، وغلبتْ عليهِ شِقوتُهُ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ حزبِ العلماءِ مَنْ هـٰذهِ درجتُهُ ؟!

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ حكايةً عنِ اللهِ تعالىٰ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالِمِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ محبَّتي أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي ، يا داوودُ ؛ لا تسألنْ عنِّي عالماً قدْ أسكرَتْهُ الدنيا فيصدَّكَ عنْ طريقِ محبَّتي ، أولئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي ، يا داوودُ ؛ إذا رأيتَ لي طالباً . . فكنْ لهُ خادماً ، يا داوودُ ؛ مَنْ رَدَّ إليَّ هارباً . . كتبتُهُ جِهْبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ جِهْبذاً . . لمْ أعذبْهُ أبداً)(١) .

ولذلكَ قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلْبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)(٢) .

ولذلكَ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : (إنَّما يذهبُ بهاءُ العلمِ والحكمةِ إذا طُلِبَ بهما الدنيا)(٣) .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمَهُ اللهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشَى الأمراءَ . . فهوَ لصٌّ)(٤) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، والقطعة الأخيرة روىٰ بنحوها أحمد في « الزهد » (٩٧٧) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١٦٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) منسوباً لأحد الحكماء .
(٤) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (٦٩٠) من طريق سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ محبّاً للدنيا . . فاتهموهُ علىٰ دينِكُمْ ؛ فإنَّ كلَّ محبٍّ يخوضُ فيما أحبَّ)(١) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ السالفةِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ أهونَ ما أصنعُ بالعالمِ إذا أحبَّ الدنيا أنْ أخرجَ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلبِهِ)(٢) .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّكَ قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تطفِئَنَّ نورَ علمِكَ بظلمةِ الذنوبِ فتبقىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ في نورِ علمِهِمْ(٣) .

وكانَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ لعلماءِ الدنيا : (يا أصحابَ العلمِ ؛ قصورُكُمْ قَيْصَرِيَّةٌ ، وبيوتُكُمْ كِسْرَوِيَّةٌ ، وأثوابُكُمْ طاهِرِيَّةٌ(٤) ، وأخفافُكُمْ جالُوتِيَّةٌ ، ومراكبُكُمْ قارونيَّةٌ ، وأوانيكُمْ فِرعَونيَّةٌ ، ومآتمُكُمْ جاهليَّةٌ ، ومذاهبُكُمْ شيطانيَّةٌ ، فأينَ الشريعةُ المحمديةُ ؟!)(٥) .

قالَ الشاعرُ(٦) : [من الوافر]

وَراعِي ٱلشَّاةِ يَحْمِي ٱلذِّئْبَ عَنْهَا ... فَكَيْفَ إِذا ٱلرُّعاةُ لَها ذِئابُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١٧٤) من قول جعفر بن محمد بنحوه .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٦٠) بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٦) .
(٤) **طاهرية** : منسوبة إلىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير ، وكان يتغالىٰ في الثياب . « إتحاف » (١/ ٣٥٨) .
(٥) رواه الحافظ السلفي في « معجم السفر » (٨٠٤) .
(٦) سراج الملوك (١/ ٢١١) .

وقالَ آخرُ[1] :		[من الرجز]

يـا مَعْشَـرَ ٱلْقُـرَّاءِ يا مِلْـحَ ٱلْبَلَـدْ		ما يُصْلِحُ ٱلْمِلْحَ إذا ٱلْمِلْحُ فَسَدْ

وقيلَ لبعضِ العارفينَ : أترىٰ أنَّ مَنْ تكونُ المعاصي قرَّةَ عينِهِ لا يعرفُ اللهَ ؟ قالَ : ما أشكُّ أنَّ مَنْ تكونُ الدنيا عندَهُ آثرَ مِنَ الآخرةِ أنَّهُ لا يعرفُ اللهَ تعالىٰ ، وهـٰذا دونَ ذلكَ بكثيرٍ[2] .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تركَ المالِ يكفي في اللحوقِ بعلماءِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الجاهَ أضرُّ مِنَ المالِ ، ولذلكَ قالَ بشرٌ : (« حدَّثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، فإذا سمعتَ الرجلَ يقولُ : « حدَّثَنا » . . فإنَّما يقولُ : أَوْسِعوا لي)[3] .

ودفنَ بشْرُ بنُ الحارثِ بضعةَ عشرَ ما بينَ قمطرٍ وقوصرةٍ مِنَ الكتبِ، وكانَ يقولُ : (أنا أشتهي أنْ أحدِّثَ، ولوْ ذهبتْ عني شهوةُ الحديثِ . . لحدَّثْتُ)[4] .

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (إذا اشتهيتَ أنْ تحدِّثَ . . فلا تحدِّثْ ، وإذا لَمْ تشتهِ . . فحدِّثْ)[5] .

وهـٰذا لأنَّ التلذُّذَ بجاهِ الإفادةِ ومنصبِ الإرشادِ أعظمُ لذَّةً مِنْ كلِّ تنعُّمٍ في الدنيا ، فمنْ أجابَ شهوتَهُ فيهِ . . فهوَ مِنْ أبناءِ الدنيا ، ولذلكَ قالَ

(١) عجائب المقدور (٤٨٥) .
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٧٩) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وشرف أصحاب الحديث (٢٣٠) بنحوه .

الثوريُّ : (فتنةُ الحديثِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وكيفَ لا تُخافُ فتنتُهُ وقدْ قيلَ لسيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ؟!)(١) .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (العلْمُ كلُّهُ دنيا ، والآخرةُ منهُ العملُ بهِ ، والعملُ كلُّهُ هباءٌ إلا الإخلاصَ)(٢) .

وقالَ : (الناسُ كلُّهمْ موتىٰ إلا العلماءَ ، والعلماءُ سُكارىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ مغرورونَ إلا المخلصينَ ، والمخلِصُ علىٰ وجلٍ حتَّىٰ يختمَ لهُ بهِ)(٣) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ أوْ تزوَّجَ أوْ سافرَ في طلبِ المعاشِ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)(٤) .

وإنَّما أرادَ بهِ طلبَ الأسانيدِ العاليةِ ، أو طلبَ الحديثِ الذي لا يحتاجُ إليهِ في طريقِ الآخرةِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (كيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ مصيرُهُ إلىٰ آخرتِهِ وهوَ مقبلٌ علىٰ دنياهُ ؟! وكيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ يطلبُ الكلامَ ليخبرَ بهِ لا ليعملَ بهِ ؟!)(٥) .

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٦) .
(٢) اقتضاء العلم العمل (٢٠) .
(٣) قوت القلوب (١/١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .
(٤) قوت القلوب (١/١٣٥) .
(٥) سنن الدارمي (٣٨٠) ضمن حديث طويل عنه عليه السلام .

وقالَ صالحُ بنُ حسانَ البصريُّ : (أدركتُ الشيوخَ وهمْ يتعوَّذونَ باللهِ مِنَ الفاجرِ العالمِ بالسنةِ)(١) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ عِلماً ممَّا يُبْتَغىٰ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ لِيُصيبَ بهِ عرضاً مِنَ الدنيا . . لمْ يَجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامَةِ »(٢) .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ علماءَ السوءِ بأكْلِ الدنيا بالعلمِ ، ووصفَ علماءَ الآخرةِ بالخشوعِ والزهدِ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ في علماءِ الدنيا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ في علماءِ الآخرةِ : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(٣) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (العلماءُ يُحشرونَ في زمرةِ الأنبياءِ ، والقضاةُ يُحشرونَ في زمرةِ السلاطينِ)(٤) .

وفي معنى القضاةِ : كلُّ فقيهٍ قصْدُهُ طلبُ الدنيا بعلمِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/١٤١) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) .
(٣) وتمام الأولىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ، والثانية : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .
(٤) قوت القلوب (١/١٥٧) .

ورویٰ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلىٰ بعضِ الأنبياءِ : قُلْ للذينَ يتفقَّهونَ لغيرِ الدِّينِ ، ويتعلَّمُونَ لغيرِ العملِ ، ويطلبونَ الدنيا بعملِ الآخرةِ ، يلبَسُونَ للناسِ مُسُوكَ الكِباشِ وقلوبُهُمْ كقلوبِ الذئابِ ، ألسِنتُهُمْ أحْلَىٰ مِنَ العسلِ ، وقلوبُهُمْ أمرُّ مِنَ الصَّبِرِ ، إيَّايَ يخادعونَ ، وبي يستهزئونَ ، لأفتحَنَّ لهُمْ فتنةً تَذَرُ الحليمَ حَيرانَ »(١) .

وروى الضحّاكُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ هٰذهِ الأمَّةِ رجلانِ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فبَذَلَهُ للناسِ ، ولمْ يأخذْ عليهِ طَمَعاً ، ولمْ يشترِ بهِ ثمناً ؛ فذلكَ يُصلِّي عليهِ طيرُ السماءِ وحيتانُ الماءِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ الكاتبُونَ ، يقدَمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ سَيِّداً شريفاً حتَّىٰ يرافِقَ المرسلينَ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً في الدنيا ، فضَنَّ بهِ علىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ عليهِ طَمَعاً ، واشتریٰ بهِ ثمناً ؛ فذلكَ يأتي يومَ القيامةِ مُلْجَماً بلجامٍ مِنْ نارٍ ، ينادي مُنادٍ علىٰ رُؤوسِ الخلائقِ : هٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، آتاهُ اللهُ علماً في

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٣٩) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٦٨) ، وأصله عند الترمذي (٢٤٠٤) ، **والمسوك** : جمع مَسْك ، وهو الجلد ؛ إشارة إلىٰ لبس الصوف .

الدنيا فضَنَّ بهِ عَلىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ بهِ طمعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ، فيُعذَّبُ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ حسابِ الناسِ »[1] .

وأشدُّ مِنْ هـٰذا ما رُوِيَ أنَّ رجلاً كانَ يخدمُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يقولُ : (حدَّثَنِي موسىٰ صفيُّ اللهِ ، حدَّثَنِي موسىٰ نجيُّ اللهِ ، حدَّثَني موسىٰ كليمُ اللهِ) حتىٰ أثْرَىٰ وكثرَ مالُه ، ففقدَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يسألُ عنهُ فلا يحسُّ لهُ خبراً ، حتَّىٰ جاءَهُ رجلٌ ذاتَ يومٍ وفي يدِهِ خنزيرٌ وفي عنقِهِ حبلٌ أسودُ ، فقالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : أتعرفُ فلاناً ؟ قالَ : نعمْ ، هوَ هـٰذا الخنزيرُ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ أسألُكَ أنْ تردَّهُ إلىٰ حالِهِ حتَّىٰ أسألَهُ بِمَ أصابَهُ هـٰذا ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : لوْ دعوتَني بالذي دعاني بهِ آدمُ فمَنْ دونَهُ . . ما أجبتُكَ فيهِ ، ولكنْ أخبرُكَ لمَ صنعتُ هـٰذا بهِ : لأنَّهُ كانَ يطلبُ الدنيا بالدينِ[2] .

وأغلظُ مِنْ هـٰذا ما رويَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً في روايةٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ مِنَ الاستماعِ ، وفي الكلامِ تنميقٌ وزيادةٌ ، ولا يُؤْمَنُ علىٰ صاحبِهِ الخطأُ ، وفي الصمتِ سلامةٌ وعلمٌ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يَخْزُنُ علمَهُ فلا يحبُّ أنْ يوجدَ عندَ غيرِهِ ؛ فذلكَ في الدَّرْكِ الأوَّلِ مِنَ النارِ ، ومنَ العلماءِ مَنْ يكونُ في علمِهِ بمنزلةِ السلطانِ ، فإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ علمِهِ ، أو

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧١٨٣) .
(٢) تاريخ دمشق (٦١/ ١٥٢) ، وقوت القلوب (١/ ١٤٤) .

تُهُونَ بشيءٍ مِنْ حقِّهِ . . غضبَ ؛ فذلكَ في الدركِ الثاني مِن النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يجعلُ عِلْمَهُ وغرائبَ حَدِيثِهِ لأهلِ الشرفِ واليسارِ ولا يرىٰ أهلَ الحاجَةِ لهُ أهلاً ؛ فذلكَ في الدركِ الثالثِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ ينصبُ نفسَهُ للفتيا فيفتي بالخطأ ، واللهُ تعالىٰ يبغضُ المتكلِّفينَ ؛ فذلكَ في الدركِ الرابعِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتكلَّمُ بكلامِ اليهودِ والنصارىٰ ليغْزُرَ بهِ علمُهُ ؛ فذلكَ في الدركِ الخامسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتخذُ علمَهُ مروءةً ونُبْلاً وذكراً في الناسِ ؛ فذلكَ في الدركِ السادسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يستفِزُّهُ الزهْوُ والعُجْبُ ، فإنْ وعظَ . . عَنَّفَ ، وإنْ وُعِظَ . . أَنِفَ ؛ فذلكَ في الدركِ السابعِ مِنَ النارِ .

وعليكَ بالصمتِ ؛ فبهِ تغلبُ الشيطانَ ، وإيَّاكَ أنْ تضحكَ مِنْ غيرِ عَجَبٍ ، أوْ تمشيَ في غيرِ أرَبٍ »(١) .

وفي خبرٍ آخرَ : « إنَّ العبدَ ليُنْشَرُ لهُ مِنَ الثناءِ ما بينَ المشرقِ

---

(١) قال أبو طالب في « القوت » (١/ ١٤٤) : (وقد روينا في مقامات علماء السوء حديثاً شديداً نعوذ بالله من أهله ، ونسأله ألا يبلونا بمقام منه ، فرويناه مرة مسنداً من طريق ، ورويناه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأنا أذكره موقوفاً أحب إلي ، حدثونا عن منذر بن علي ، عن أبي نعيم الشامي ، عن محمد بن زياد ، عن معاذ بن جبل يقول فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووافقته أنا علىٰ معاذ) وذكره بلفظه هنا ، وأصله عند ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وانظر « جامع بيان العلم وفضله » (٩١٠ ، ٩١١) .

والمغربِ ، وما يزنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ »[1] .

ورُوِيَ أنَّ الحسنَ انصرفَ مِنْ مجلسِهِ ، فحملَ إليهِ رجلٌ مِنْ خراسانَ كيساً فيهِ خمسةُ آلافِ درهمٍ وعشرةُ أثوابٍ مِنْ رقيقِ البزِّ وقالَ : يا أبا سعيدٍ ؛ هٰذهِ نفقةٌ وهٰذهِ كِسوةٌ ، فقالَ الحسنُ : عافاكَ اللهُ تعالىٰ ، ضُمَّ إليكَ نفقتَكَ وكُسْوتَكَ ، فلا حاجةَ لنا بذلكَ ؛ إنَّهُ مَنْ جلسَ مثلَ مجلسي هٰذا وقَبِلَ مِنَ الناسِ مثلَ هٰذا . . لقيَ اللهَ تعالىٰ يومَ القيامةِ ولا خلاقَ لهُ[2] .

ورويَ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لا تجلسوا عندَ كلِّ عالمٍ إلا عالمٍ يدعوكُمْ مِنْ خمسٍ إلىٰ خمسٍ : مِنَ الشكِّ إلى اليقينِ ، ومِنَ الرياءِ إلى الإخلاصِ ، ومِنَ الرغبةِ إلى الزهدِ ، ومِنَ الكِبْرِ إلى التواضعِ ، ومِنَ العداوةِ إلى النصيحةِ »[3] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

---

(١) كذا أورده في « القوت » (١/ ١٤٤) ، وفي « البخاري » (٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) مرفوعاً : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، قال : اقرؤوا : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ » .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٤) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٢) ، وارتضىٰ أبو طالب وقفه في « القوت » (١/ ١٤٤) علىٰ جابر رضي الله عنه ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٦٧) بعد أن جمع له طرقاً : (فبهٰذه الطرق يتقوىٰ جانب الرفع) .

وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ الآيةَ ، فَعرَّفَ أهلَ العلمِ بإيثارِ الآخرةِ على الدنيا .

* * *

ومنها : **ألا يخالفَ فعلُهُ قولَهُ** : بلْ لا يأمرُ بالشيءِ ما لمْ يكنْ هوَ أولَ عاملٍ بهِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ شعيبٍ : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْ﴾ .

وقالَ تعالىٰ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : « يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظتَ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي »(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرَضُ شفاهُهُمْ بمقاريضَ مِنْ نارٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتُمْ ؟ فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نأتيهِ ، وننهىٰ عنِ الشرِّ ونأتيهِ »(٢) .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٢٠) بنحوه ، وفي (ج) : (نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهىٰ عن الشر ونفعله) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلاكُ أمَّتِي عالمٌ فاجرٌ وعابدٌ جاهلٌ ، وشرُّ الشِّرارِ شرارُ العلماءِ ، وخيرُ الخِيارِ خيارُ العلماءِ »[1] .

وقالَ الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ : (شكتِ النواويسُ[2] ما تجدُ مِنْ نَتنِ جيفِ الكفارِ ، فأوحى اللهُ إليها : بطونُ علماءِ السوءِ أنتنُ ممَّا أنتُمْ فيهِ)[3] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (بلغني أنَّ الفسقةَ مِنَ العلماءِ يُبدأُ بهِمْ يومَ القيامةِ قبلَ عبدةِ الأوثانِ)[4] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ويلٌ لمنْ لا يعلمُ مرَّةً ، وويلٌ لمنْ يعلَمُ ولا يعملُ سبعَ مرَّاتٍ)[5] .

وقالَ الشعبيُّ : (يطَّلعُ قومٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ علىٰ قومٍ مِنْ أهلِ النارِ فيقولونَ لهُمْ : ما أدخلَكُمُ النارَ وإنَّما أدخلَنا اللهُ الجنَّةَ بفضْلِ تأديبِكُمْ وتعليمِكُمْ ؟

---

(١) علقه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٢) من حديث ابن وهب مرفوعاً ، والشطر الثاني منه عند الدارمي في « سننه » (٣٨٢) ، قال الحافظ الزبيدي : (ومن الشواهد للجملة الأولىٰ ما أورده صاحب « القوت » (١/ ١٤٠) : « وروينا عن عمر وغيره : كم من عالم فاجر وعابد جاهل ، فاتقوا الفاجر من العلماء ، والجاهل من المتعبدين ») ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٦٩) .

(٢) **النواويس** : جمع ناووس ، وهي المقابر .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٤) .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٢١١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢١٢) .

فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نفعلُهُ)[١] .

وقالَ حاتِمٌ الأصمُّ رحمهُ اللهُ : (ليسَ في القيامةِ أشدَّ حسرةً مِنْ رجلٍ علَّمَ الناسَ علماً فعملوا بهِ ولمْ يعملْ هوَ بهِ ، ففازوا بسببهِ وهلكَ هوَ)[٢] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (إنَّ العالمَ إذا لم يعملْ بعلمِهِ . . زلَّتْ موعظتُهُ عنِ القلوبِ كما يزلُّ القَطْرُ عنِ الصفا)[٣] .

وأنشدوا[٤] : [من البسيط]

يَا وَاعِظَ ٱلنَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَماً ... إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُوراً أَنْتَ تَأْتِيهَا

أَصْبَحْتَ تَنْصَحُهُمْ بِٱلْوَعْظِ مُجْتَهِداً ... فَٱلْمُوبِقَاتُ لَعَمْرِي أَنْتَ جانِيها

تَعِيبُ دُنْيا وَناساً راغِبِينَ بِها ... وَأَنْتَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رَغْبَةً فِيها

وقال آخرُ[٥] : [من الكامل]

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (مررتُ بحَجَرٍ مكتوبٍ عليهِ : اقلبني . . تعتبرْ ، فقلبتُهُ ، فإذا عليهِ مكتوبٌ : أنتَ بما تعلَمُ لا تعملُ ، فكيفَ تطلبُ علْمَ ما لمْ تعلَمْ ؟!)[٦] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) .

(٢) أخرج بنحوه ابن عساكر في « تاريخه » (٥١/ ١٣٧ـ١٣٨) .

(٣) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٩٧) .

(٤) البيت الأول لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص٤٢٥) ، ولم نقف على نسبة البيتين الأخيرين.

(٥) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص٤٠٤)، وانظر «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٤).

(٦) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٣٥٨) بنحوه .

وقالَ ابنُ السماكِ رحمهُ اللهُ : (كمْ مِنْ مذكِّرٍ باللهِ ناسٍ للهِ ، وكمْ منْ مخوِّفٍ باللهِ جريءٌ على اللهِ ، وكمْ منْ مقرِّبٍ إلى اللهِ بعيدٌ منَ اللهِ ، وكمْ منْ داعٍ إلى اللهِ فارٌّ منَ اللهِ ، وكمْ منْ تالٍ لكتابِ اللهِ منسلخٌ منْ آياتِ اللهِ !)(١) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (لقدْ أعربْنا في كلامِنا فلمْ نلحَنْ ، ولحنَّا في أعمالِنا فلمْ نعربْ)(٢) .

وقالَ الأوزاعيُّ : (إذا جاءَ الإعرابُ . . ذهبَ الخشوعُ)(٣) .

وروىٰ مكحولٌ عَنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ غَنْمٍ أنَّهُ قالَ : حدَّثني عشرةٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالُوا : كنَّا ندرسُ العلمَ في مسجدِ قُباءَ ، إذْ خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « تَعَلَّمُوا ما شئتُمْ أنْ تعَلَّمُوا ، فلنْ يأْجُرَكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملُوا »(٤) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ الذي يتعلَّمُ العلْمَ ولا يعملُ بهِ كمثلِ امرأةٍ زنتْ في السرِّ فحمَلَتْ ، فظهرَ حملُها فافتضحتْ ، فكذلكَ مَنْ لا يعملُ بعلمِهِ يفضحُهُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ)(٥) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٤٥١) .
(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٥١) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٦٦) بنحوه .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٦) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٨) ، وأوقفه الدارمي في « سننه » (٢٦٦) علىٰ معاذ رضي الله عنه .
(٥) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » نقلاً .

وقال معاذٌ رحمهُ اللهُ : (احذروا زَلَّةَ العالِمِ ؛ لأنَّ قدرَهُ عندَ الخلْقِ عظيمٌ فيتبعونَهُ علىٰ زلَّتِهِ) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا زلَّ العالِمُ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ مِنَ الخلقِ)(١) .

وقالَ : (ثلاثٌ بهنَّ ينهدمُ الزمانُ : إحداهنَّ زلَّةُ العالِمِ)(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (سيأتي على الناسِ زمانٌ تملُحُ فيهِ عذوبةُ القلوبِ ، فلا ينتفعُ يومئذٍ بالعلمِ عالمُهُ ولا متعلِّمُهُ ، فتكونُ قلوبُ علمائِهِمْ مثلَ السباخِ مِنْ ذواتِ الملْحِ ، ينزلُ عليها قطْرُ السماءِ فلا يوجدُ لها عذوبةٌ ، وذلكَ إذا مالتْ قلوبُ العلماءِ إلىٰ حبِّ الدنيا وإيثارِها على الآخرةِ ، فعندَ ذلكَ يسلبُها اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ ، ويطفيءُ مصابيحَ الهدىٰ مِنْ قلوبِهِمْ ، فيخبرُكَ عالمُهُمْ حينَ تلقاهُ أنَّهُ يخشى اللهَ بلسانِهِ والفجورُ بيِّنٌ في عملِهِ ، فما أخصبَ الألسنَ يومئذٍ وما أجدبَ القلوبَ ! فواللهِ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ ؛ ما ذلكَ إلا لأنَّ المعلمينَ علَّموا لغيرِ اللهِ ، والمتعلِّمينَ تعلَّموا لغيرِ اللهِ تعالىٰ)(٣) .

وفي الإنجيلِ مكتوبٌ : (لا تطلبوا علمَ ما لمْ تعلموا حتَّىٰ تعملوا بما علِمتُمْ)(٤) .

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّكمْ في زمانٍ مَنْ تركَ فيهِ عُشرَ ما يعلمُ . . هلكَ ،

---

(١) روىٰ بنحوه علىٰ لسان سيدنا عيسىٰ عليه السلام ابنُ المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٦٧) .
(٣) انظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٤) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

وسيأتي زمانٌ مَنْ عملَ فيهِ بعُشْرِ ما يعلَمُ. . نجا، وذلكَ لكثرةِ البطَّالينَ)[(١)].

واعلمْ : أنَّ مثلَ العالمِ مثلُ القاضي ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ : قاضٍ قَضَىٰ بالحقِّ وهوَ يعلمُ ، فذاكَ في الجنةِ ، وقاضٍ قَضَىٰ بالجورِ وهوَ يعلمُ أوْ لا يعلمُ ، فهوَ في النارِ ، وقاضٍ قضىٰ بغيرِ ما أمرَ اللهُ بهِ ، فهوَ بالنارِ »[(٢)] .

وقالَ كعبٌ رحمهُ اللهُ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ علماءُ يزهِّدونَ الناسَ في الدنيا ولا يزهدونَ ، ويخوِّفونَ الناسَ ولا يخافونَ ، وينهَوْنَ عنْ غشيانِ الولاةِ ويأتونَهُمْ ، ويؤثرونَ الدنيا على الآخرةِ ، يأكلونَ بألسنتِهِمْ ، يقرِّبونَ الأغنياءَ دونَ الفقراءِ ، يتغايرونَ على العلمِ كما تتغايرُ النساءُ على الرجالِ ، يغضبُ أحدُهُمْ علىٰ جليسِهِ إذا جالسَ غيرَهُ)[(٣)] ، أولئكَ الجبَّارونَ أعداءُ الرحمـٰنِ .

وقدْ رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الشيطانَ ربَّما يسبقُكُمْ بالعلمِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : « يقولُ : اطلبِ العلمَ ولا تعملْ حتَّىٰ تعلمَ ، فلا يزالُ للعلمِ قائلاً وللعملِ مسوِّفاً حتَّىٰ يموتَ وما عملَ »[(٤)] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) ، وروي مرفوعاً كذلك كما في « الترمذي » (٢٢٦٧) .
(٢) رواه الترمذي (١٣٢٢) ، وأبو داوود (٣٥٧٣) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٠) .
(٤) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ١٣٢) بنحوه ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٦) .

وقالَ سَرِيٌّ السقَطيُّ : (اعتزلَ للتعبُّدِ رجلٌ كانَ حريصاً علىٰ طلبِ علْمِ الظاهرِ ، فسألتُهُ فقالَ : رأيتُ في النومِ قائلاً يقولُ لي : إلىٰ كمْ تضيِّعُ العلمَ ضيَّعَكَ اللهُ ! فقلتُ : إنِّي لأحفظُهُ ، فقالَ : إنَّ حفظَ العلمِ العملُ بهِ ، فتركتُ الطلبَ وأقبلتُ على العملِ)[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ الخشيةُ)[٢] .

وقالَ الحسنُ : (اعلموا ما شئتُمْ أنْ تعلموا ، فواللهِ ؛ لا يأجرُكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملوا ، فإنَّ السفهاءَ همتُهُمُ الروايةُ ، والعلماءَ همتُهُمُ الرعايةُ)[٣] .

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (إنَّ طلبَ العلمِ لحسنٌ ، وإنَّ نشرَهُ لحسنٌ إذا صحَّتْ فيهِ النيةُ ، ولكنِ انظرْ ما يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي ، فلا تؤثرنَّ عليهِ شيئاً)[٤] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أُنزلَ القرآنُ ليُعملَ بهِ ، فاتخذتُمْ دراستَهُ عملاً ، وسيأتي قومٌ يثقفونَهُ مثلَ القناةِ ، ليسوا بخيارِكُمْ ، والعالِمُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٣) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) .

(٣) روي هـٰذا الخبر مرفوعاً وموقوفاً ومقطوعاً ، وانظر « القوت » (١/ ١٣٣) ، و« الإتحاف » (١/ ٣٧٧) .

(٤) ما رواه الأكابر عن مالك (٣٧) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٣٥) ، و« حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .

الذي لا يعملُ كالمريضِ الذي يصفُ الدواءَ ، والجائعِ الذي يصفُ لذائذَ الأطعمةِ ولا يجدُها ، وفي مثلِهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾)[١] .

وفي الخبرِ : « مِمَّا أخافُ علىٰ أُمتي زَلَّةُ عالمٍ وجدالُ منافقٍ في القرآنِ »[٢] .

﴿ ﴿ ﴿

ومنها : أنْ تكونَ عنايتُهُ بتحصيلِ العلمِ النافعِ في الآخرةِ : المرغِّبِ في الطاعةِ ، مجتنباً للعلومِ التي يقلُّ نفعُها ، ويكثرُ فيها الجدالُ والقيلُ والقالُ .

فمثالُ مَنْ يعرضُ عَنْ علْمِ الأعمالِ ويشتغلُ بالجدالِ مثالُ رجلٍ مريضٍ بهِ عللٌ كثيرةٌ ، وقدْ صادفَ طبيباً حاذقاً في وقتٍ ضيِّقٍ يُخشىٰ فواتُهُ ، فاشتغلَ بالسؤالِ عنْ خاصيَّةِ العقاقيرِ والأدويةِ وغرائبِ الطبِّ ، وتركَ مهمَّهُ الذي هوَ مؤاخذٌ بهِ ، وذلكَ محضُ السفهِ .

وقدْ رُوِيَ : أنَّ رجلاً جاءَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : علِّمني مِنْ غرائبِ العلْمِ ، فقالَ لهُ : « ما صنعتَ في رأسِ العلمِ ؟ » فقالَ : وما رأسُ العلمِ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ عرفتَ الربَّ تعالىٰ؟ » قالَ : نعمْ ، قالَ : « فما صنعتَ في حقِّهِ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هل عرفتَ الموتَ ؟ » قالَ : نعمْ ، قال : « فما أعْدَدْتَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٥) ، ورواه بنحوه الآجريُّ في « أخلاق حملة القرآن » (٣١) عن الفضيل بن عياض .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٣٨) .

لهُ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اذهبْ فأحْكِمْ ما هنالكَ ، ثمَّ تعالَ . . نُعلِّمْكَ مِنْ غرائبِ العلمِ »(١) .

بلْ ينبغي أنْ يكونَ التعلُّمُ مِنْ جنسِ ما رُويَ عن حاتِمٍ الأصمِّ تلميذِ شقيقٍ البلخيِّ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ لهُ شقيقٌ : منذُ كمْ صحبتني ؟ قالَ حاتِمٌ : منذُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً ، قالَ : فما تعلمتَ منِّي في هٰذهِ المدَّةِ ؟ قالَ : ثمانِ مسائلَ ، قالَ شقيقٌ لهُ : إنّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ذهبَ عمري معكَ ولمْ تتعلَّمْ إلا ثمانيَ مسائلَ ! قالَ : يا أستاذُ ؛ لمْ أتعلَّمْ غيرَها ، وإني لا أحبُّ أنْ أكذبَ ، فقالَ : هاتِ هٰذهِ الثمانيَ مسائلَ حتَّىٰ أسمعَها ، قالَ حاتِمٌ :

أمَّا الأولىٰ : نظرتُ إلىٰ هٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ يحبُّ محبوباً فهوَ معَ محبوبِهِ إلى القبرِ ، فإذا وصلَ إلى القبرِ . . فارقَهُ ، فجعلتُ الحسناتِ محبوبي ، فإذا دخلتُ القبرَ . . دخلَ محبوبي معي .

فقالَ : أحسنتَ يا حاتِمُ ، **فما الثانيةُ** ؟ فقالَ : نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فعلمتُ أنَّ قولَهُ سبحانَهُ هوَ الحقُّ ، فأجهدتُ نفسي في دفعِ الهوىٰ حتَّى استقرَّتْ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ .

الثالثةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ مَنْ معَهُ شيءٌ لهُ قيمةٌ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٢٢) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٩) .

ومقدارٌ عندَهُ رفعَهُ وحفِظَهُ ، ثمَّ نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، فكلَّما وقعَ معي شيءٌ لهُ قيمةٌ ومقدارٌ . وجهتُهُ إلى اللهِ ليبقىٰ لي عندَهُ محفوظاً .

الرابعةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يرجعُ إلى المالِ والحسبِ والشرفِ والنسبِ ، فنظرتُ فيها فإذا هيَ لا شيءَ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، فعملتُ في التقوىٰ حتَّىٰ أكونَ عندَ اللهِ كريماً .

الخامسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ وهُمْ يطعنُ بعضُهُمْ في بعضٍ ويلعنُ بعضُهُمْ بعضاً ، وأصلُ هـٰذا كلِّه الحسدُ ، ثم نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، فتركتُ الحسدَ واجتنبتُ الخلقَ ، وعلمتُ أنَّ القسْمَ مِنْ عندِ اللهِ سبحانَهُ ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ عنِّي .

السادسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ يبغي بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، ويقاتلُ بعضُهُمْ بعضاً ، فرجعتُ إلىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ، فعاديتُهُ وحدَهُ ، واجتهدتُ في أخْذِ حذري منهُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ شهدَ عليهِ أنَّهُ عدوٌّ لي ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ غيرَهُ .

السابعةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يطلبُ هـٰذهِ الكسرةَ ، فيذلُّ نفسَهُ فيها ، ويدخلُ فيما لا يحلُّ لهُ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، فعلمتُ أنِّي واحدٌ مِنْ

هـٰذهِ الدوابِّ التي على اللهِ رزقُها ، فاشتغلتُ بما للهِ تعالىٰ عليَّ ، وتركتُ ما لي عندَهُ .

الثامنةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُهُمْ كلَّهُمْ متوكِّلينَ علىٰ مخلوقٍ ؛ هـٰذا علىٰ ضيعَتِهِ ، وهـٰذا علىٰ تجارتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صناعتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صحَّةِ بدنِهِ ، وكلُّ مخلوقٍ متوكِّلٌ علىٰ مخلوقٍ مثلِهِ ، فرجعتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ، فتوكلتُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهوَ حسبي .

قالَ شقيقٌ : يا حاتِمُ ؛ وفَّقَكَ اللهُ تعالىٰ ، فإنِّي نظرتُ في علومِ التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ والقرآنِ العظيمِ ، فوجدْتُ جميعَ أنواعِ الخيرِ والديانةِ ، وهيَ تدورُ علىٰ هـٰذهِ الثمانِ مسائلَ ، فمَنِ استعملَها . . فقدِ استعملَ الكتبَ الأربعةَ[1] .

فهـٰذا الفنُّ مِنَ العلمِ لا يهتمُّ بإدراكِهِ والتفطُّنِ لهُ إلاَّ علماءُ الآخرةِ ، أمَّا علماءُ الدنيا . . فيشتغلونَ بما يتيسَّرُ بِهِ اكتسابُ المالِ والجاهِ ، ويهملونَ أمثالَ هـٰذهِ العلومِ التي بها بعثَ اللهُ الأنبياءَ كلَّهُمْ عليهِمُ السلامُ .

وقالَ الضحَّاكُ بنُ مزاحمٍ : (أدركتُهُمْ وما يتعلَّمُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ إلا الورعَ ، وهمُ اليومَ ما يتعلَّمونَ إلاَّ الكلامَ)[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٧٩) بنحوها .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩٦) .

ومنها : أَنْ يكونَ غيرَ مائلٍ إلى الترفُّهِ في المطعمِ والمشربِ ، والتنعمِ في الملبسِ ، والتجمُّلِ في الأثاثِ والمسكنِ : بلْ يؤثرُ الاقتصادَ في جميعِ ذلكَ ، ويتشبَّهُ فيهِ بالسلفِ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ، ويميلُ إلى الاكتفاءِ بالأقلِّ في جميعِ ذلكَ ، وكلَّما زادَ إلىٰ طرفِ القلَّةِ ميلُهُ . . ازدادَ مِنَ اللهِ قربُهُ ، وارتفعَ في علماءِ الآخرةِ حزبُهُ .

ويشهدُ لذلكَ ما حُكِيَ عنْ أبي عبدِ اللهِ الخوَّاصِ وكانَ مِنْ أصحابِ حاتمٍ الأصمِّ ، قالَ : دخلتُ معَ حاتِمٍ الرَّيِّ ومعنا ثلاثُ مئةٍ وعشرونَ رجلاً نريدُ الحجَّ وعليهِمُ الزُّرْنْبانِقاتُ[1] ، وليسَ معَهُمْ جِرابٌ ولا طعامٌ ، فدخلْنا علىٰ رجلٍ مِنَ التجَّارِ متقشِّفٍ يحبُّ المساكينَ ، فأضافَنا تلكَ الليلةَ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَ لحاتمٍ : ألكَ حاجةٌ ؟ فإنِّي أريدُ أنْ أعودَ فقيهاً لنا هوَ عليلٌ ، قالَ حاتمٌ : عيادةُ المريضِ فيها فضلٌ ، والنظرُ إلى الفقيهِ عبادةٌ ، وأنا أيضاً أجيءُ معكَ ، وكانَ العليلُ محمدَ بنَ مقاتلٍ قاضيَ الرَّيِّ ، فلمَّا جئنا إلى البابِ . . فإذا هوَ يشرقُ حسناً ، فبقيَ حاتمٌ متفكراً يقولُ : بابُ عالمٍ علىٰ هـٰذهِ الحالِ !

ثمَّ أذنَ لهُمْ فدخلوا ، فإذا دارٌ حسناءُ قوراءُ ، واسعةٌ نزِهَةٌ ، وإذا بزَّةٌ وأمتعةٌ وستورٌ ، فبقيَ حاتِمٌ متفكِّراً ، ثمَّ دخلوا إلى المجلسِ الذي هوَ فيهِ ، فإذا بفُرُشٍ وطيئةٍ وهوَ راقدٌ عليها ، وعندَ رأسِهِ غلامٌ وبيدِهِ مِذبَّةٌ ، فقعدَ الزائرُ عندَ رأسِهِ وسألَ عنْ حالِهِ وحاتمٌ قائمٌ ، فأومأَ إليهِ ابنُ مقاتلٍ أنِ

---

(١) الزرنبانقات : جُبَب الصوف .

اجلسْ ، فقالَ: لا أجلسُ ، فقالَ : لعلَّ لكَ حاجةً ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : وما هيَ ؟ قال : مسألةٌ أسألُكَ عنها ، قال: سلني، قالَ : قمْ فاستوِ جالساً حتّىٰ أسألَكَ ، فاستوىٰ جالساً .

قالَ حاتمٌ : علمُكَ هـٰذا مِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنَ الثقاتِ حدَّثوني بهِ ، قالَ : عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : وأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ جبريلَ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

قالَ حاتمٌ : ففيما أدّاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصحابِهِ ، وأصحابُهُ إلى الثقاتِ ، وأدّاهُ الثقاتُ إليكَ : هلْ سمعتَ فيهِ : مَنْ كانَ في دارِهِ أميراً وكانتْ سعتُهُ أكثرَ . . كانَ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ المنزلةُ أكبرَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فكيفَ سمعتَ ؟ قالَ : سمعتُ : أنَّهُ مَنْ زهدَ في الدنيا ورغبَ في الآخرةِ وأحبَّ المساكينَ وقدَّمَ لآخرتِهِ . . كانتْ لهُ عندَ اللهِ المنزلةُ .

قالَ لهُ حاتمٌ : فأنتَ بمنِ اقتديتَ ؟ أبالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ والصالحينَ ، أمْ بفرعونَ ونمروذَ أوّلِ مَنْ بَنَىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟!

يا علماءَ السوءِ ؛ مثلُكُمْ يراهُ الجاهلُ المتكالبُ على الدنيا الراغبُ فيها

فيقولُ : العالمُ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ ، لا أكونُ أنا شرّاً منهُ ! وخرجَ مِنْ عندِهِ .

فازدادَ ابنُ مقاتلٍ مرضاً .

وبلغَ أهلَ الرَّيِّ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ ابنِ مقاتلٍ ، فقالوا لهُ : إنَّ الطَّنافِسيَّ بقزوينَ أكثرُ توسُّعاً منهُ ، فسارَ حاتمٌ إليهِ متعمداً ، فدخلَ عليهِ ، فقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ أنا رجلٌ أعجميٌّ أحبُّ أنْ تعلِّمَني مبتدأَ ديني ومفتاحَ صلاتي كيفَ أتوضأُ للصلاةِ ، قال : نعمْ وكرامةً ، يا غلامُ ؛ هاتِ إناءً فيه ماءٌ ، فأُتيَ بهِ ، فقعدَ الطنافسيُّ فتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً ثمَّ قالَ : هـٰكذا فتوضَّأْ .

فقالَ حاتمٌ : مكانَكَ حتَّىٰ أتوضَّأَ بينَ يديكَ فيكونَ أوكدَ لما أريدُ ، فقامَ الطنافسيُّ وقعدَ حاتمٌ فتوضأَ ، ثمَّ غسلَ ذراعيهِ أربعاً أربعاً ، فقالَ لهُ الطنافسيُّ : يا هـٰذا ؛ أسرفتَ ، قالَ لهُ حاتمٌ : في ماذا ؟ قالَ : غسلتَ ذراعيكَ أربعاً .

فقالَ حاتمٌ : يا سبحانَ اللهِ العظيمِ ! أنا في كفٍّ مِنْ ماءٍ أسرفْتُ ، وأنتَ في جميعِ هـٰذا كلِّهِ لمْ تسرفْ ؟!

فعلمَ الطنافسيُّ أنَّهُ قصدَ ذلكَ دونَ التعلُّمِ ، فدخلَ إلى البيتِ فلمْ يخرجْ إلى الناسِ أربعينَ يوماً .

فلمَّا دخلَ حاتمٌ بغدادَ . . اجتمعَ إليهِ أهلُ بغدادَ ، فقالوا : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ أنتَ رجلٌ ألْكنُ أعجميٌّ وليسَ يكلِّمُكَ أحدٌ إلا قطعتَهُ !

قالَ : معي ثلاثُ خصالٍ بهنَّ أظهرُ علىٰ خصمي : أفرحُ إذا أصابَ

خصمِي ، وأحزنُ إذا أخطأَ ، وأحفظُ نفسي ألاَّ أجهلَ عليهِ .

فبلغَ ذلكَ أحمدَ ابنَ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : سبحانَ اللهِ ، ما أعقلَهُ ! قوموا بنا إليهِ .

فلما دخلوا عليهِ . . قالَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ ما السلامةُ مِنَ الدنيا ؟ قال : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لا تسلَمُ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يكونَ معكَ أربعُ خصالٍ : تغفرُ للقومِ جهلَهُمْ ، وتمنعُ جهلَكَ منهُمْ ، وتبذلُ لهُمْ شيئَكَ ، وتكونُ مِنْ شيئِهِمْ آيساً ، فإذا كنتَ هـٰكذا . . سلمتَ .

ثمَّ سارَ إلى المدينةِ ، فاستقبلَهُ أهلُ المدينةِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ أيَّةُ مدينةٍ هـٰذهِ ؟ قالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فأينَ قصْرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أصلِّيَ فيهِ ؟ قالوا : ما كانَ لهُ قصرٌ ، إنَّما كانَ لهُ بيتٌ لاطِىءٌ بالأرضِ ، قالَ : فأينَ قصورُ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؟ قالوا : ما كانَ لهمْ قصورٌ ، إنَّما كانَ لهُمْ بيوتٌ لاطئةٌ بالأرضِ .

فقالَ حاتمٌ : يا قومُ ؛ فهـٰذهِ مدينةُ فرعونَ !

فأخذوهُ وذهبوا بهِ إلى السلطانِ ، وقالوا : هـٰذا العجميُّ يقولُ : هـٰذهِ مدينةُ فرعونَ ، قالَ الوالي : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ حاتمٌ : لا تعجَلْ عليَّ ، أنا رجلٌ أعجميٌّ غريبٌ ، دخلتُ البلدَ فقلتُ : مدينةُ مَنْ هـٰذهِ ؟ فقالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : فأينَ قصرُهُ . . . وقصَّ القصَّةَ ، ثمَّ قالَ : وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فأنتمْ

بِمَنْ تأسَّيتُمْ ؟ أبرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أمْ بفرعونَ أوَّلِ مَنْ بنىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟! فخلوا عنهُ وتركوه[1] .

فهٰذهِ حكايةُ حاتمٍ الأصمِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ، وسيأتي مِنْ سيرةِ السلفِ في البذاذةِ وتركِ التجمُّلِ ما يشهدُ لذلكَ في مواضعِهِ .

والتحقيقُ فيهِ : أنَّ التزيُّنَ بالمباحِ ليسَ بحرامٍ ، ولكنَّ الخوضَ فيهِ يوجبُ الأنْسَ بهِ حتَّىٰ يشقَّ تركُهُ ، واستدامةُ الزينةِ لا تمكنُ إلا بمباشرةِ أسبابٍ في الغالبِ يلزمُ مِنْ مراعاتِها ارتكابُ المعاصي ؛ مِنَ المداهنةِ ، ومراعاةِ الخلْقِ ومراءاتِهِمْ ، وأمورٍ أخرَ هيَ محظورةٌ ، والحزمُ اجتنابُ ذلكَ ؛ لأنَّ مَنْ خاضَ في الدنيا لا يسلمُ منها ألْبتةَ ، ولوْ كانتِ السلامةُ مبذولةً معَ الخوضِ فيها . لكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يبالغُ في تركِ الدنيا ، حتَّىٰ نزعَ القميصَ المُطرَّزَ بالعَلَمِ[2] ، ونزعَ خاتمَ الذهبِ في أثناءِ الخطبةِ[3] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا سيأتي بيانُهُ .

وقد حُكِيَ أنَّ يحيىٰ بنَ يزيدَ النوفليَّ كتبَ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا :

---

(١) رواها أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٨٠) .

(٢) فقد روى البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦) واللفظ له : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ في خميصة لها أعلام وقال : « شغلتني أعلام هٰذه ، فاذهبوا بها إلىٰ أبي جهم وأتوني بأنبجانية » .

(٣) ففي « البخاري » (٥٨٦٧) ، و« مسلم » (٢٠٩١) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتماً من ذهب ، فنبذه فقال : « لا ألبسه أبداً » فنبذ الناس خواتيمهم .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى ٱللَّهُ علىٰ رَسُولِه مُحَمَّدٍ في الأولينَ والآخِرينَ

مِنْ يحيىٰ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ بلغني أنَّكَ تلبسُ الدِّقاقَ ، وتأكُلُ الرُّقاقَ[1] ، وتجلسُ على الوطاءِ ، وتجعلُ علىٰ بابِكَ حاجباً ، وقدْ جلستَ مجلسَ العلمِ ، وضُرِبَتْ إليكَ المطيُّ ، وارتحلَ إليكَ الناسُ ، واتخذوكَ إماماً ، ورضوا بقولِكَ ، فاتقِ اللهَ تعالىٰ يا مالكُ ، وعليكَ بالتواضعِ .

كتبتُ إليكَ بالنصيحةِ منِّي كتاباً ما اطلعَ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ مالكٌ :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى ٱللَّهُ علىٰ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ

مِنْ مالكِ بنِ أنسٍ إلىٰ يحيىٰ بنِ يزيدَ ، سلامُ اللهِ عليكَ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ وصلَ إليَّ كتابُكَ ، فوقعَ منِّي موقعَ النصيحةِ في الشفقةِ والأدبِ ، أمتعَكَ اللهُ بالتقوىٰ ، وجزاكَ بالنصيحةِ خيراً ، وأسألُ اللهَ تعالى التوفيقَ ،

---

(١) **الدقاق** : الثياب الرفيعة ، وهي دق الثياب من كتان وقطن ، **والرقاق** : بضم الراء ، الخبز المرقق الذي عجن من دقيق منخول . « إتحاف » (١/ ٣٨٥) .

ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ .

فأمَّا ما ذكرتَ لي أنِّي آكلُ الرُّقاقَ وألبسُ الدِّقاقَ وأحتجبُ وأجلسُ على الوطاء . . فنحنُ نفعلُ ذلكَ ونستغفرُ اللهَ تعالىٰ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، وإنِّي لأعلمُ أنَّ تركَ ذلكَ خيرٌ مِنَ الدخولِ فيهِ ، ولا تدعْنا منْ كتابِكَ ، فلسنا ندعُكَ مِنْ كتابِنا ، والسلامُ .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ مالكٍ إذِ اعترفَ أنَّ تركَ ذلكَ خيرٌ منَ الدخولِ فيهِ ، وأفتىٰ بأنَّهُ مباحٌ ، وقدْ صدقَ فيهما جميعاً .

ومثلُ مالكٍ في منصبِهِ إذا سمحتْ نفسُهُ بالإنصافِ والاعترافِ في مثلِ هٰذهِ النصيحةِ . . فتقوىٰ أيضاً نفسُهُ على الوقوفِ علىٰ حدودِ المباحِ ، حتَّىٰ لا يحملُهُ ذلكَ على المراءاةِ والمداهنةِ ، والتجاوزِ إلى المكروهاتِ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ عليهِ .

فالتعريجُ على التنعُّمِ في المباحِ خطرٌ عظيمٌ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ الخوفِ والخشيةِ ، وخاصِّيَّةُ علماءِ اللهِ تعالىٰ الخشيةُ ، وخاصِّيَّةُ الخشيةِ التباعدُ مِنْ مظانِّ الخطرِ .

* * *

ومنها : **أنْ يكونَ منقبضاً عنِ السلاطينِ** : فلا يدخلُ عليهِمْ ألبتةَ ما دامَ يجدُ إلى الفرارِ عنهُمْ سبيلاً ، بلْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ مخالطتِهِمْ وإنْ جاؤُوا إليهِ ؛ فإنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ ، وزمامُها بأيدي السلاطينِ ، والمخالطُ لهُمْ

لا يخلو عَنْ تكلُّفٍ في طلبِ مرضاتِهِمْ واستمالةِ قلوبِهِمْ معَ أنَّهُمْ ظَلَمةٌ ، ويجبُ علىٰ كلِّ متديِّنٍ الإنكارُ عليهِمْ ، وتضييقُ صدورِهِمْ بإظهارِ ظلمِهِمْ وتقبيحِ فعلِهِمْ .

فالداخلُ عليهِمْ إمَّا أنْ يلتفتَ إلىٰ تجمُّلِهِمْ فيزدريَ نعمةَ اللهِ عليهِ ، أوْ يسكتَ عنِ الإنكارِ عليهِمْ فيكونَ مداهناً لهُمْ ، أوْ يتكلَّفَ في كلامِهِ كلاماً لمرضاتِهِمْ وتحسينِ حالِهِمْ وذلكَ هوَ البَهْتُ الصريحُ ، أوْ أنْ يطمعَ في أنْ ينالَ مِنْ دنياهُمْ ، وذلكَ هوَ السُّحْتُ .

وسيأتي في كتابِ الحلالِ والحرامِ ما يجوزُ أنْ يُؤخذَ مِنْ أموالِ السلاطينِ وما لا يجوزُ مِنَ الإدرارِ والجوائزِ وغيرِها .

وعلى الجملةِ : فمخالطتُهُمْ مفتاحٌ للشُّرورِ ، وعلماءُ الآخرةِ طريقُهُمُ الاحتياطُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَدَا . . جَفا ـ يعني : مَنْ سكنَ الباديةَ . . جفا ـ ومَنِ اتبعَ الصيدَ . . غَفَلَ ، ومَنْ أتى السلطانَ . . ٱفتُتِنَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ تعرفونَ منهمْ وتنكرونَ ، فمَنْ أنكرَ . . فقدْ بَرِىءَ ، ومَنْ كرِهَ . . فقدْ سَلِمَ ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابعَ . . أبعدَهُ اللهُ تعالىٰ » ، قيلَ : أفلا نقاتِلُهُمْ؟ قال : « لا ، ما صلَّوا »[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨٥٩) .

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤) .

وقالَ سفيانُ : (في جهنَّمَ وادٍ لا يسكنُهُ إلا القُرَّاءُ الزوَّارونَ للملوكِ)[١] .

وقالَ حذيفةُ : إيَّاكُمْ ومواقفَ الفتنِ ، قيلَ : وما هيَ؟ قالَ : أبوابُ الأمراءِ ، يدخلُ أحدُكُمْ على الأميرِ فيصدِّقُهُ بالكذبِ ، ويقولُ فيهِ ما ليسَ فيهِ[٢] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ أمناءُ الرسلِ علىٰ عبادِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يُخالطوا السلطانَ ، فإذا فعلوا ذلكَ . . فقدْ خانوا الرسلَ ، فاحذروهُمْ وٱعْتزلُوهُمْ » ، رواهُ أنسٌ[٣] .

وقيلَ للأعمشِ : لقدْ أحييتَ العلمَ لكثرةِ مَنْ يأخُذُهُ عنكَ ، فقالَ : لا تعجلوا ؛ ثلثٌ يموتونَ قبلَ الإدراكِ ، وثلثٌ يلزمونَ أبوابَ السلاطينِ فهُمْ شرُّ الخلقِ ، والثلثُ الباقي لا يفلحُ منهُمْ إلا القليلُ[٤] .

ولذلكَ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشى الأمراءَ فاحترزوا منهُ ؛ فإنَّه لصٌّ)[٥] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٩٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٧٧) .

(٣) رواه العقيلي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٣) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٤٢١٠) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٤/٣٨٣) نقلاً عن السيوطي : (قوله ـ أي ابن الجوزي ـ : « موضوع » ممنوع ، وله شواهد فوق الأربعين ، فنحكم له علىٰ مقتضىٰ صناعة الحديث بالحسن) .

(٤) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٥) .

(٥) وهٰذا الذي ذكره المصنف عن سعيد بن المسيب فقد ورد مرفوعاً عن أبي هريرة بلفظ : =

وقالَ الأوزاعيُّ : (ما منْ شيءٍ أبغضَ إلى اللهِ تعالىٰ منْ عالمٍ يزورُ عاملاً)[1] .

وقالَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ العلماءِ الذينَ يأتونَ الأمراءَ ، وخيارُ الأمراءِ الذينَ يأتونَ العلماءَ »[2] .

وقالَ مكحولٌ الدمشقيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وتفقَّهَ في الدينِ ثمَّ صحبَ السلطانَ تملُّقاً إليهِ وطمعاً فيما لديهِ . . خاضَ في نارِ جهنَّمَ بعدَدِ خُطاهُ)[3] .

وقالَ سُحنونٌ : (ما أسمجَ بالعالمِ أنْ يُؤتىٰ إلىٰ مجلسِهِ فلا يوجدُ ، فيُسألُ عنهُ ، فيُقالُ : إنَّهُ عندَ الأميرِ !)[4] .

= « إذا رأيتم العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة . . فاعلم أنه لص » أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » (١٠٧٧) . « إتحاف » (١/ ٣٨٩) .

(١) وشاهده من حديث أبي هريرة رفعه ، أخرجه ابن ماجه : « إن أبغض الخلق إلى الله العالم يزور العمال » . « إتحاف » (١/ ٣٨٩) ، وهـٰذا الذي ذكره قد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٢) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ٤٥٠) .

(٢) عند ابن ماجه (٢٥٦) : « وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء » ، وفي « الحلية » (٣/ ٢٤٣) من كلام سلمة بن دينار : (إن خير الأمراء من أحب العلماء ، وإن شر العلماء من أحب الأمراء) .

(٣) وهـٰذا قد روي مرفوعاً من حديث معاذ ، أخرجه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » له ، وكذا الحاكم في « تاريخه » بلفظ : « إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتىٰ باب السلطان تملقاً إليه ، وطمعاً لما في يديه . . خاض بقدر خطاه في نار جهنم » . « إتحاف » (١/ ٣٩٠) .

(٤) ذكره ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٧) .

قالَ : وكنتُ أسمعُ أنَّهُ يُقالُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يحبُّ الدنيا . . فاتهمُوهُ علىٰ دينِكُمْ) حتَّىٰ جرَّبْتُ ذلكَ ؛ إذْ ما دخلتُ قطُّ علىٰ هـٰذا السلطانِ إلا وحاسبتُ نفسي بعدَ الخروجِ ، فأرىٰ عليها الدَّرَكَ[1] ، وأنتمْ تروْنَ ما ألقاهُ بهِ مِنَ الغلظةِ والفظاظةِ وكثرةِ المخالفةِ لهواهُ ، ولودِدتُ أنْ أنجوَ مِنَ الدخولِ عليهِ كفافاً ، معَ أنِّي لا آخذُ منهُ شيئاً ، ولا أشربُ لهُ شربةَ ماءٍ ، ثمَّ قالَ : وعلماءُ زمانِنا شرٌّ مِنْ علماءِ بني إسرائيلَ ؛ يخبرونَ السلطانَ بالرُّخَصِ وبما يوافقُ هواهُ ، ولوْ أخبروهُ بالذي عليهِ وفيهِ نجاتُهُ . . لاستثقلَهُمْ ، وكَرِهَ دخولَهُمْ عليهِ ، وكانَ ذلكَ نجاةً لهُمْ عندَ ربِّهِمْ[2] .

وقالَ الحسنُ : (كانَ فيمنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ لهُ قِدَمٌ في الإسلامِ وصحبةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : عنىٰ بهِ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ ـ قالَ : وكانَ لا يغشى السلاطينَ ، وينفرُ عنهُمْ ، فقالَ لهُ بنوهُ : يأتي هؤلاءِ مَنْ ليسَ هوَ مثلَكَ في الصحبةِ والقِدَمِ في الإسلامِ ، فلوْ أتيتَهُمْ !

فقالَ : يا بَنِيَّ ؛ آتي جيفةً قدْ أحاطَ بها قومٌ ؟! واللهِ ؛ لئنِ استطعتُ لا شاركتهُمْ فيها .

قالوا : يا أبانا ؛ إذاً نهلَكَ هزالاً .

---

(١) الدرك : التبعة وما يلحق منها .
(٢) ترتيب المدارك (١/ ٣٥٧) .

قالَ : يا بَنِيَّ ؛ لأنْ أموتَ مؤمناً مهزولاً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أموتَ منافقاً سميناً(١) .

قالَ الحسنُ : (خصمَهُمْ واللهِ ؛ إذْ علِمَ أنَّ الترابَ يأكلُ اللحمَ والسِمَنَ ، دونَ الإيمانِ)(٢) .

وفي هٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الداخلَ على السلطانِ لا يسلَمُ مِنَ النفاقِ ألبتةَ ، وهوَ مضادٌّ للإيمانِ .

وقالَ أبو ذرٍّ لسلمةَ : (يا سلمةُ ؛ لا تغشَ أبوابَ السلاطينِ ؛ فإنَّك لا تصيبُ مِنْ دنياهُمْ شيئاً إلا أصابوا مِنْ دينِكَ أفضلَ منهُ)(٣) .

وهٰذهِ فتنةٌ عظيمةٌ للعلماءِ ، وذريعةٌ صعبةٌ للشيطانِ عليهِمْ ، لا سيما مَنْ لهُ لهجةٌ مقبولةٌ وكلامٌ حلْوٌ ، إذْ لا يزالُ الشيطانُ يُلقي إليهِ أنَّ في وعظِكَ لهُمْ ودخولِكَ عليهِمْ ما يزجرُهُمْ عنِ الظلْمِ ويقيمُ شعائرَ الشرعِ ، إلىٰ أنْ يخيِّلَ إليهِ أنَّ الدخولَ عليهِمْ مِنَ الدينِ ، ثمَّ إذا دخلَ . . لمْ يلبثْ أنْ يتلطَّفَ في الكلامِ ويداهنَ ، ويخوضَ في الثناءِ والإطراءِ ، وفيهِ هلاكُ الدينِ .

---

(١) فلم يزل رضي الله عنه في حال التقشف والصبر حتىٰ لحق بربه معتزلاً في قصره بالعقيق في سنة خمس وخمسين على المشهور ، وحمل على الأعناق ودفن بالبقيع ، وهو آخر العشرة موتاً ، فهو قدوةُ من ابتلي في حاله بالتلوين ، وحجةُ من تحصن بالوحدة والعزلة من التفتين . « إتحاف » (١/ ٣٩١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة » (٢٠٢) ، وحكى البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٢/ ٣٨٩) هٰذا عن إياس بن قتادة ، وهو تابعي .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٨٨٧) .

وكانَ يُقالُ : (العلماءُ إذا علموا . . عملوا ، فإذا عملوا . . شُغلوا ، فإذا شُغلوا . . فُقدوا ، فإذا فُقدوا . . طُلبوا ، فإذا طُلبوا . . هَربوا)[1] .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ رحمَهُما اللهُ : أما بعدُ : فأشرْ عليَّ بقومٍ أستعينُ بهِمْ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ .

فكتبَ إليهِ : أمَّا أهلُ الدينِ . . فلنْ يريدوكَ ، وأمَّا أهلُ الدنيا . . فلنْ تريدَهُمْ ، ولكنْ عليكَ بالأشرافِ ؛ فإنَّهُمْ يصونونَ شرفَهُمْ أنْ يدنِّسوهُ بالخيانةِ[2] .

هٰذا في عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ ، وكانَ أزهدَ أهلِ زمانِهِ ، فإذا كانَ شرطُ أهلِ الدينِ الهربَ منهُ . . فكيفَ يستتبُّ طلبُ غيرِهِ ومخالطتُهُ ؟!

ولمْ يزلِ السلفُ العلماءُ مثلُ الحسنِ والثوريِّ وابنِ المباركِ والفضيلِ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ويوسفَ بنِ أسباطٍ يتكلَّمونَ في علماءِ الدنيا مِنْ أهلِ مكَّةَ والشامِ وغيرِهِمْ ؛ إمَّا لميلِهِمْ إلى الدنيا ، وإما لمخالطتِهِمُ السلاطينَ .

***

ومنها : ألا يكونَ مسارعاً إلى الفتوىٰ : بلْ يكونُ متوقِّفاً ومحترزاً ما وجدَ إلى الخلاصِ سبيلاً ، فإنْ سُئِلَ عمَّا يعلمُهُ تحقيقاً بنصِّ كتابِ اللهِ أو بنصِّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٢٣٤) عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالىٰ ، ومعنىٰ (**شغلوا**) أي : بالله تعالىٰ ، وهو نتيجة العمل الصادق ، و(**هربوا**) أي : من الخلق ؛ سلامة لدينهم وجمعاً لخواطر قلوبهم . « إتحاف » (١/ ٣٩١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٤) .

حديثٍ أوْ إجماعٍ أوْ قياسٍ جليٍّ . . أفتىٰ ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يشكُّ فيهِ . . قال : (لا أدري) ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يظنُّهُ باجتهادٍ وتخمينٍ . . احتاطَ ودفعَ عنْ نفسِهِ وأحالَ علىٰ غيرِهِ إنْ كانَ في غيرِهِ غُنيةٌ .

هٰذا هوَ الحزمُ ؛ لأنَّ تقلُّدَ خطرِ الاجتهادِ عظيمٌ .

وفي الخبرِ : (العلمُ ثلاثةٌ : كتابٌ ناطقٌ ، وسنةٌ قائمةٌ ، ولا أدري)(١) .

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري نصفُ العلمِ)(٢) .

ومَنْ سكتَ حيثُ لا يدري للهِ تعالىٰ . . فليسَ بأقلَّ أجراً ممَّنْ نطقَ ؛ لأنَّ الاعترافَ بالجهْلِ أشدُّ على النفسِ ، وهٰكذا كانتْ عادةُ الصحابةِ والسلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

كانَ ابنُ عمرَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . قالَ : اذهبْ إلىٰ هٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ فضَعْها في عنقِهِ(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الذي يفتي الناسَ في كلِّ ما يستفتونَهُ لَمجنونٌ)(٤) .

---

(١) هو من كلام ابن عمر رضي الله عنهما ، رواه عنه الطبراني في « الأوسط » (١٠٠٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٧) .
(٢) رواه الدارمي في « سننه » (١٨٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٤) رواه الدارمي في « سننه » (١٧٦) .

وقالَ : (جُنَّةُ العالِمِ لا أدري ، فإذا أخطأها . . أصيبتْ مقاتِلُهُ)[1] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (ليسَ شيءٌ أشدَّ على الشيطانِ مِنْ عالمٍ يتكلَّمُ بعلْمٍ ويسكتُ بعلْمٍ ، يقولُ : انظروا إلىٰ هـٰذا ، سكوتُهُ أشدُّ عليَّ مِنْ كلامِهِ)[2] .

ووصفَ بعضُهُمُ الأبدالَ فقالَ : (أكْلُهُمْ فاقةٌ ، وكلامُهُمْ ضرورةٌ)[3] أي : ما يتكلمونَ حتَّىٰ يُسألوا ، فإذا سُئِلوا ووجدوا مَنْ يكفيهِمْ . . سكتوا ، فإنِ اضطروا . . أجابوا ، وكانوا يعدُّون الابتداءَ قبلَ السؤالِ مِنَ الشهوةِ الخفيَّةِ للكلامِ .

ومرَّ عليٌّ وعبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ ، فقالا : (هـٰذا يقولُ : اعرفوني)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّما العالمُ الذي إذا سُئِلَ عنِ المسألةِ فكأنَّما يقلَعُ ضرسَهُ)[5] .

---

(١) رواه الصنعاني في « الأمالي في آثار الصحابة » (١٦٢) ، وهو مروي عن غيره من السلف .

(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٦) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٤) ، والواصف هو فزارة الشامي كما جاء في غير هـٰذا الموضع .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٥٩) بنحوه .

وكانَ ابنُ عمرَ يقولُ : (تريدونَ أنْ تجعلونا جسراً تعبرونَ علينا إلىٰ جهنَّمَ ؟!)[1] .

وقالَ أبو حفصٍ النيسابوريُّ : (العالمُ هوَ الذي يخافُ عندَ السؤالِ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : مِنْ أينَ أجبتَ ؟)[2] .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ إذا سُئِلَ عنْ مسألةٍ . . يبكي ويقولُ : لمْ تجدوا غيري حتَّى احتجتُمْ إليَّ ؟[3] .

وكانَ أبو العاليةِ الرياحيُّ وإبراهيمُ والثوريُّ وابنُ أدهمَ يتكلَّمونَ على الاثنينِ والثلاثةِ والنفرِ اليسيرِ ، فإذا كثروا . . انصرفوا[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أدري أعزيرٌ نبيٌّ أمْ لا ، وما أدري أتُبَّعٌ ملعونٌ أمْ لا ، وما أدري ذو القرنين نبيٌّ أمْ لا »[5] .

ولمَّا سُئِلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ خيرِ البقاعِ في الأرضِ وشرِّها ، قالَ : « لا أدري » ، حتَّىٰ نزلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : لا أدري ، إلىٰ أنْ أعْلَمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ خيرَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٥) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وإبراهيم هو النخعي .
(٥) رواه أبو داوود (٤٦٧٤) ، والجملة الأخيرة عند الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٤) .

البقاعِ المساجدُ ، وشرَّهَا الأَسْواقُ[1] .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يُسأَلُ عنْ عشرِ مسائلَ ، فيجيبُ عنْ واحدةٍ ويسكتُ عنْ تسعٍ[2] .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يجيبُ عنْ تسعٍ ويسكتُ عنْ واحدةٍ[3] .

وكانَ في الفقهاءِ مَنْ يقولُ : (لا أدري) أكثرَ مِنْ أنْ يقولَ : (أدري) ؛ منهمْ سفيانُ الثوريُّ ، ومالكُ بنُ أنسٍ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، والفضيلُ بنُ عياضٍ ، وبشرُ بنُ الحارثِ[4] .

وقالَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي ليلىٰ : (أدركتُ في هٰذا المسجدِ مئةً وعشرينَ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما منهُمْ أحدٌ يُسألُ عنْ حديثٍ أوْ فتوىٰ إلا وَدَّ أنَّ أخاهُ كفاهُ ذلكَ)[5] .

وفي لفظٍ آخرَ : (كانتِ المسألةُ تعرضُ علىٰ أحدِهِمْ فيردُّها إلى الآخرِ ، ويردُّها الآخرُ إلى الآخرِ ، حتَّىٰ تعودَ إلى الأولِ) .

ورُوِيَ أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ أُهديَ إلىٰ واحدٍ منهمْ رأسٌ مشويٌّ وهوَ في

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٧١٣٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٥) تاريخ دمشق (٣٦/ ٨٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٣١) .

غايةِ الضرِّ ، فأهداهُ إلىٰ آخرَ ، وأهداهُ الآخرُ إلىٰ آخرَ ، وهـٰكذا دارَ بينهُمْ حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[1] .

فانظرِ الآنَ كيفَ انعكسَ أمرُ العلماءِ ، فصارَ المهروبُ عنهُ مطلوباً ، والمطلوبُ مهروباً عنهُ .

ويشهدُ لحسنِ الاحترازِ مِنْ تقلُّدِ الفتوىٰ ما رُوِيَ مسنداً أنَّهُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ ، أوْ مأمورٌ ، أوْ متكلِّفٌ »[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ الصحابةُ يتدافعونَ أربعةَ أشياءَ : الإمامةَ ، والوصيةَ ، والوديعةَ ، والفتيا)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ أسرعُهُمْ إلى الفتيا أقلَّهُمْ علماً ، وأشدُّهُمْ دفعاً لها أورعَهُمْ)[4] .

وكانَ شغلُ الصحابةِ والتابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ في خمسةِ أشياءَ : قراءةِ القرآنِ ، وعمارةِ المساجدِ ، وذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والأمرِ بالمعروفِ ، والنهيِ عنِ المنكرِ ؛ وذلكَ لما سمعوهُ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ

---

(١) وإنما أورد المصنف هـٰذه القصة هنا ليقاس عليه أمر الفتوىٰ حتىٰ يعيدها إلى الآخر . « إتحاف » (١/ ٣٩٨) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٣١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٧٦) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . . » ، وله روايات أخرىٰ .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٢) .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٥٢٥) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٣٢) .

عليهِ لا لهُ إلا ثلاثةً : أمرٌ بمعروفٍ، أوْ نهيٌ عنْ منكرٍ ، أوْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ»[١] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيةَ .

ورأىٰ بعضُ العلماءِ بعضَ أصحابِ الرأيِ مِنْ أهلِ الكوفةِ في المنامِ ، فقالَ : ما رأيتَ فيما كنتَ عليهِ منَ الفتيا والرأيِ ؟ فكرهَ وجهَهُ وأعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما وجدناهُ شيئاً ، وما حمدْنا عاقبتَهُ[٢] .

وقالَ أبو حَصِينٍ : (إنَّ أحدَهُمْ ليفتي في مسألةٍ لوْ وردتْ علىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ لجمعَ لها أهلَ بدرٍ !)[٣] .

فلمْ يزلِ السكوتُ دأبَ أهلِ العلمِ إلا عندَ الضرورةِ ، وفي الخبرِ : « إذا رأيتمُ الرجلَ قدْ أُوتيَ صمتاً وزهداً . . فاقتربُوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلقَّى الحكمةَ »[٤] .

وقيلَ : العالمُ : إمَّا عالمُ عامَّةٍ ، وهوَ المفتي ، وهُمْ أصحابُ الأساطينِ ، أوْ عالمُ خاصَّةٍ ، وهوَ العالمُ بالتوحيدِ وأعمالِ القلوبِ ، وهُمْ أصحابُ الزوايا المنفردونَ[٥] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٢) ، وابن ماجه (٣٩٧٤) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٢) بنحوه .
(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٨٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٤١٠) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، والأساطين : جمع أسطوانة ، وهي هنا السارية تكون في المسجد .

وكانَ يُقالُ : (مثلُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ مثلُ دِجلةَ ، كلُّ أحدٍ يغترفُ منها ، ومثلُ بشْرِ بنِ الحارثِ مثلُ بئرٍ عذبةٍ مغطَّاةٍ ، لا يقصدُها إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ)[١] .

وكانوا يقولونَ : فلانٌ عالمٌ ، وفلانٌ متكلِّمٌ ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، وفلانٌ أكثرُ علماً[٢] .

وقالَ أبو سليمانَ : (المعرفةُ إلى السكوتِ أقربُ منها إلى الكلامِ)[٣] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا كثرَ العلمُ . . قلَّ الكلامُ)[٤] .

وكتبَ سلمانُ إلىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما وكانَ قدْ آخىٰ بينَهُما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٥] : (يا أخي ؛ بلغني أنَّكَ أُقعدتَ طبيباً تداوي المرضىٰ ، فانظرْ فإنْ كنتَ طبيباً . . فتكلَّمْ ؛ فإنَّ كلامَكَ شفاءٌ ، وإنْ كنتَ مُتَطَبِّباً . . فاللهَ اللهَ ، لا تقتلْ مسلماً) ، فكانَ أبو الدرداءِ يتوقَّفُ بعدَ ذلكَ إذا سُئِلَ[٦] .

وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا سُئِلَ يقولُ : (سَلُوا مولانا الحسنَ)[٧] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، وإنما أراد التفرقة بين العلم والكلام .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٢) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، وفي (هـ) زيادة : (إذا كثر الكلام . . قل العلم) .
(٥) كما جاء ذلك في « البخاري » (١٩٦٨) .
(٦) قوت القلوب (١/ ١٤٧) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٥) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما إذا سئلَ يقولُ : (سَلُوا جابرَ بنَ زيدٍ)[1] .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (سَلُوا سعيدَ بنَ المسيَّبِ)[2] .

وحُكِيَ أنَّهُ روىٰ صحابيٌّ في حضرةِ الحسنِ عشرينَ حديثاً ، فسُئِلَ عنْ تفسيرِها فقالَ : ما عندي إلا ما رويتُ ، فأخذَ الحسنُ في تفسيرِها حديثاً حديثاً ، فتعجَّبوا مِنْ حسنِ حفظِهِ وحسنِ تفسيرِهِ ، فأخذَ الصحابيُّ كفّاً مِنْ حصىً ورماهُمْ بهِ وقالَ : تسألوني عنِ العلمِ وهٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ ؟![3] .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ أكثرُ اهتمامِهِ بعلمِ الباطنِ ومراقبةِ القلبِ ، ومعرفةِ طريقِ الآخرةِ وسلوكِهِ[4] ، **وصدقِ الرجاءِ في انكشافِ ذلكَ** : منَ المجاهدةِ والمراقبةِ ؛ فإنَّ المجاهدةَ تفضي إلى المشاهدةِ في دقائقِ علومِ القلوبِ وتتفجرُ بها ينابيعُ الحكمةِ مِنَ القلبِ ، وأمَّا الكتبُ والتعليمُ . . فلا تفي بذلكَ ، بلِ الحكمةُ الخارجةُ عنِ الحصْرِ والعدِّ إنَّما تنفتحُ بالمجاهدةِ والمراقبةِ ، ومباشرةِ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والجلوسِ معَ اللهِ تعالىٰ في الخلوةِ معَ حضورِ القلبِ بصافي الفكرِ ، والانقطاعِ إلى اللهِ تعالىٰ عمَّا سواهُ ، فذلكَ مفتاحُ الإلهامِ ، ومنبعُ الكشْفِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٧) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ١٤٠) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٧) بنحوه .

(٤) بواسطة مرشد كامل أو عارف حاذق يستفيد ذلك بمجالسته . « إتحاف » (١/ ٤٠٢) .

فكمْ مِنْ متعلِّمٍ طالَ تعلُّمُهُ ولمْ يقدِرْ علىٰ مجاوزةِ مسموعِهِ بكلمةٍ ، وكمْ مِنْ مقتصرٍ على المهمِّ في التعلُّمِ ومتوفِّرٍ على العملِ ومراقبةِ القلْبِ فتَحَ اللهُ لهُ مِنْ لطائفِ الحكمِ ما تحارُ فيهِ عقولُ ذوي الألبابِ !

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علْمَ ما لمْ يعلمْ »(١) .

وفي بعضِ الكتبِ السالفةِ : (يا بني إسرائيلَ ؛ لا تقولوا : العلمُ في السماءِ مَنْ ينزلُ بهِ ، ولا في تُخُومِ الأرضِ مَنْ يصعدُ بهِ ، ولا مِنْ وراءِ البحارِ مَنْ يعبرُ يأتي بهِ ، العلْمُ مجعولٌ في قلوبِكُمْ ، تأدَّبوا بين يديَّ بآدابِ الروحانيينَ ، وتخلَّقُوا لي بأخلاقِ الصدِّيقينَ . أُظهِرِ العلمَ في قلوبِكُمْ حتَّىٰ يغطيَكُمْ ويغمرَكُمْ)(٢) .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمهُ اللهُ : (خرجَ العلماءُ والعبَّادُ والزهَّادُ مِنَ الدنيا وقلوبُهُمْ مقفلةٌ ، ولمْ تُفتحْ إلا قلوبُ الصدِّيقينَ والشهداءِ ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيةَ)(٣) .

ولولا أنَّ إدراكَ قلبِ مَنْ لهُ قلبٌ بالنورِ الباطنِ حاكمٌ علىٰ علْمِ الظاهرِ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَفْتِ قلبَكَ وإنْ أفتَوكَ وأفتَوكَ وأفتَوكَ »(٤) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٢) .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨)، وهـٰذا مخصوص لمن كان له قلب وألقىٰ سمعه ، =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ . . . » الحديثَ[1] .

فكمْ مِنْ معانٍ دقيقةٍ مِنْ أسرارِ القرآنِ تخطرُ علىٰ قلْبِ المتجرِّدِينَ للذكرِ والفكرِ تخلو عنها كتبُ التفاسيرِ ولا يطلعُ عليها أفاضلُ المفسرينَ ! وإذا انكشفَ ذلكَ للمريدِ المراقبِ وعُرِضَ على المفسرينَ[2] . . استحسنوهُ ، وعلموا أنَّ ذلكَ مِنْ تنبيهاتِ القلوبِ الزكيةِ ، وألطافِ اللهِ تعالىٰ بالهممِ العاليةِ المتوجهةِ إليهِ ، وكذلكَ في علومِ المكاشفةِ وأسرارِ علومِ المعاملةِ ودقائقِ خواطرِ القلوبِ ؛ فإنَّ كلَّ علْمٍ مِنْ هـٰذهِ العلومِ بحرٌ لا يُدركُ عمقُهُ ، وإنَّما يخوضُهُ كلُّ طالبٍ بقدْرِ ما رُزِقَ منهُ ، وبحسَبِ ما وُفِّقَ لهُ مِنْ حُسْنِ العملِ .

وفي وصفِ هؤلاءِ العلماءِ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في حديثٍ طويلٍ : (القلوبُ أوعيةٌ ، وخيرُها أوعاها ، والناسُ ثلاثةٌ : عالمٌ ربانيٌّ ، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيلِ النجاةِ ، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ ، يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ ، لمْ يستضيئوا بنورِ العلمِ ، ولمْ يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيقٍ ، العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ يزكو على الإنفاقِ والمالُ تنقصُهُ النفقةُ ، محبَّةُ العالمِ دينٌ يدانُ بهِ ، تُكتسبُ بهِ الطاعةُ في حياتِهِ ، وجميلُ

= وشهد قيام شاهده ، وعري عن شهواته ومعهوده ؛ لأن الفقه ليس من وصف اللسان . « إتحاف » (١/ ٤٠٣) .

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

(٢) المنصفين المحفوظين من علائق الشهوة . « إتحاف » (١/ ٤٠٤) .

الأحدوثةِ بعدَ موتِهِ ، العلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، ومنفعةُ المالِ تزولُ بزوالِهِ ، ماتَ خُزّانُ الأموالِ وهمْ أحياءٌ ، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدهرُ .

ثمَّ تنفَّسَ الصعداءَ وقالَ : **هاهْ ! إنَّ هٰهنا علْماً جمّاً لوْ وجدتُ لهُ حملةً** ، بلْ أجدُ طالباً غيرَ مأمونٍ يستعملُ آلةَ الدينِ في طلبِ الدنيا ، ويستطيلُ بنِعَمِ اللهِ علىٰ أوليائِهِ ، ويستظهرُ بحُجَجِهِ علىٰ خلقِهِ ، أوْ منقاداً لأهلِ الحقِّ، لكنْ ينزرعُ الشكُّ في قلبهِ بأوَّلِ عارضٍ مِنْ شبهةٍ، لا بصيرةَ لهُ، **لا ذا ولا ذاكَ**، أوْ منهوماً باللذّاتِ سلسَ القيادِ في طلبِ الشهواتِ ، أوْ مغرىً بجمْعِ الأموالِ والادخارِ ، منقاداً لهواهُ ، أقربُ شَبَهاً بهما الأنعامُ السائمةُ[1] .

اللهمَّ ؛ هٰكذا يموتُ العلْمُ إذا ماتَ حاملوهُ ، بلْ لا تخلو الأرضُ مِنْ قائمٍ للهِ بحجَّةٍ ، إمّا ظاهرٌ مكشوفٌ ، وإمّا خائفٌ مقهورٌ ؛ لئلا تبطُلَ حججُ اللهِ تعالىٰ وبيِّناتُهُ ، وكمْ وأينَ . . أولئكَ همُ الأقلُّونَ عدداً ، الأعظمونَ قدْراً ؟! أعيانُهُمْ مفقودةٌ ، وأمثالُهُمْ في القلوبِ موجودةٌ ، يحفظُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ حججَهُ حتَّىٰ يُودِعُوها نظراءَهُمْ ، ويزرعُوها في قلوبِ أشباهِهِمْ ، هجَمَ بهِمُ العلْمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا رُوحَ اليقينِ ، فاستلانوا ما استوعرَ منهُ المترفونَ ، وأَنِسُوا بما استوحشَ منهُ الغافلونَ ، صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولئكَ أولياءُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ خلقِهِ ، وأمناؤُهُ وعمالُهُ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ .

---

(١) قوله : (بهما) المنهوم باللذة ، والمغرىٰ بجمع الأموال .

ثمَّ بكىٰ وقالَ : وا شوقاهُ إلىٰ رؤيتِهِمْ)[1] .

فهٰذا الذي ذكرَهُ آخراً هوَ وصْفُ علماءِ الآخرةِ ، وهوَ العلمُ الذي يُستفادُ أكثرُهُ مِنَ العملِ والمواظبةِ على المجاهدةِ .

* * *

ومنها : **أنْ يكونَ شديدَ العنايةِ بتقويةِ اليقينِ** : فإنَّ اليقينَ هوَ رأسُ مالِ الدينِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليقينُ الإيمانُ كلُّهُ »[2] .

ولا بدَّ منْ تعلُّمِ علْمِ اليقينِ ، أعني أوائلَهُ ، ثمَّ ينفتحُ للقلبِ طريقُهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعلَّمُوا اليقينَ »[3] ، ومعناهُ : جالسوا الموقنينَ ، واسمعوا منهُمْ علْمَ اليقينِ ، وواظبوا على الاقتداءِ بهِمْ ؛ ليقوىٰ يقينُكُمْ كما قويَ يقينُهُمْ ، وقليلٌ منَ اليقينِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قيلَ لهُ : رجلٌ حسنُ اليقينِ كثيرُ الذنوبِ ، ورجلٌ مجتهدٌ في العبادةِ قليلُ اليقينِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ آدميٍّ إلاَّ ولهُ ذنوبٌ ، ولكنْ مَنْ كانَ غريزتُهُ العقلَ وسجيتُهُ اليقينَ . . لمْ تضرَّهُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٩ ـ ٨٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٤٢ـ١٤٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/ ٤٠٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٥) ، وابن أبي الدنيا في « اليقين » (٧) .

الذنوبُ ؛ لأنَّه كلَّما أذنبَ . . تابَ واستغفرَ وندمَ ، فتُكفَّرُ ذنوبُهُ ، ويبقىٰ لهُ فضْلٌ يدخلُ بهِ الجنةَ »[١] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعْطيَ حَظَّهُ منهما . . لمْ يُبَالِ ما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ »[٢] .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يُستطاعُ العملُ إلا باليقينِ ، ولا يعمَلُ المرءُ إلا بقدْرِ يقينِهِ ، ولا يقصِّرُ عاملٌ حتَّىٰ ينقصَ يقينُهُ)[٣] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (إنَّ للتوحيدِ نوراً ، وللشرْكِ ناراً ، وإنَّ نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيئاتِ الموحدينَ منْ نارِ الشرْكِ لحسناتِ المشركينَ)[٤] ، وأرادَ بهِ اليقينَ .

---

(١) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١/ ١٣٥) ، وانظر « المطالب العالية » (٧/ ٢٦٦ ، ٢٦٩) ، و« الإتحاف » (١/ ٤٠٩) .

(٢) قال صاحب « القوت » (١/ ١٩٤) : (وأخبر عليه الصلاةُ والسلام أن الصبر كمال العمل والأجر ، فقال في حديث يرويه شهر بن حوشب الأشعري ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، قال ملا علي في « الأسرار المرفوعة » : (قلت : وهو مستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، وأما عزيمة الصبر في العمل . . فكذا قليل كما قال الله تعالىٰ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٦) .

وقدْ أشارَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ إلىٰ ذكرِ الموقنينَ في مواضعَ دلَّ بها علىٰ أنَّ اليقينَ هوَ الرابطةُ للخيراتِ والسعاداتِ .

فإنْ قلتَ : فما معنى اليقينِ ، وما معنىٰ قوتِهِ وضعفِهِ ؟ فلا بدَّ مِنْ فهمِهِ أولاً ، ثمَّ الاشتغالِ بطلبِهِ وتعلُّمِهِ ؛ فإنَّ ما لا تُفهَمُ صورتُهُ لا يمكنُ طلبُهُ .

فاعلمْ : أنَّ اليقينَ لفظٌ مشتركٌ يطلقُهُ فريقانِ لمعنيينِ مختلفينِ :

أمَّا النظَّارُ والمتكلمونَ : فيعبِّرونَ بهِ عن عدمَ الشكِّ[1] ؛ إذْ ميلُ النفسِ إلى التصديقِ بالشيءِ لهُ أربعُ مقاماتٍ :

الأولُ : أنْ يعتدلَ التصديقُ والتكذيبُ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالشكِّ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ شخصٍ معيَّنٍ أنَّ اللهَ تعالىٰ يعاقبُهُ أمْ لا وهوَ مجهولُ الحالِ عندَكَ . . فإنَّ نفسَكَ لا تميلُ إلى الحكْمِ فيهِ بإثباتٍ ولا نفيٍ ، بلْ يستوي عندَكَ إمكانُ الأمرينِ ، فيسمَّىٰ هـٰذا **شكّاً** .

الثاني : أنْ تميلَ نفسُكَ إلىٰ أحدِ الأمرينِ معَ الشعورِ بإمكانِ نقيضِهِ ، ولكنَّهُ إمكانٌ لا يمنعُ ترجيحَ الأوَّلِ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ رجلٍ تعرفُهُ بالصلاحِ والتقوىٰ أنَّهُ بعينِهِ لوْ ماتَ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ هلْ يُعاقبُ ؟ فإنَّ نفسَكَ تميلُ إلىٰ أنَّهُ لا يُعاقبُ أكثرَ مِنْ ميلِها إلى العقابِ ، وذلكَ لظهورِ علاماتِ الصلاحِ ، ومعَ هـٰذا فأنتَ تجوِّزُ اختفاءَ أمرٍ موجبٍ للعقابِ في باطنِهِ وسريرتِهِ ، فهـٰذا

(١) فالشكُّ نقيضه ، وهـٰذا هو مذهب أهل اللغة . « إتحاف » (١/ ٤١٠) .

التجويزُ مساوقٌ لذلكَ الميلِ ، ولكنَّه غيرُ دافعٍ رجحانَهُ ، فهٰذهِ الحالةُ تُسمَّىٰ ظنّاً .

الثالثُ : أنْ تميلَ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ بحيثُ يغلبُ عليها ولا يخطرُ بالبالِ غيرُهُ ، ولوْ خطرَ بالبالِ . . لنَبَتِ النفسُ عنْ قبولِهِ ، ولكنْ ليسَ ذلكَ عنْ معرفةٍ محقَّقةٍ ؛ إذْ لوْ أحسنَ صاحبُ هٰذا المقامِ التأمُّلَ والإصغاءَ إلى التشكيكِ والتجويزِ . . لاتسعتْ نفسُهُ للتجويزِ ، وهٰذا يسمَّى **اعتقاداً مقارباً لليقينِ** ، وهوَ اعتقادُ العوامِّ في الشرعياتِ كلِّها ؛ إذْ رسخَ في نفوسِهِمْ بمجرَّدِ السماعِ ، حتَّىٰ إنَّ كلَّ فرقةٍ تثقُ بصحَّةِ مذهبِها وإصابةِ إمامِها ومتبوعِها ، ولوْ ذُكِرَ لأحدِهِمْ إمكانُ خطأِ إمامِهِ . . نفرَ عنْ قبولِهِ[1] .

الرابعُ : المعرفةُ الحقيقيةُ الحاصلةُ بطريقِ البرهانِ الذي لا يُشكُّ فيهِ ، ولا يُتصوَّرُ الشكُّ فيهِ ، فإذا امتنعَ وجودُ الشكِّ وإمكانُهُ . . يسمَّىٰ **يقيناً** عندَ هؤلاءِ .

ومثالُهُ : أنَّهُ إذا قيلَ للعاقلِ : هلْ في الوجودِ شيءٌ هوَ قديمٌ ؟ فلا يمكنُهُ التصديقُ بهِ بالبديهةِ ؛ لأنَّ القديمَ غيرُ محسوسٍ ، لا كالشمسِ والقمرِ ؛ فإنَّهُ يصدقُ بوجودِهِما بالحسِّ ، وليسَ العلمُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ أزليٍّ ضرورياً مثلَ العلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ منَ الواحدِ ، بلْ مثلَ العلمِ بأنَّ حدوثَ حادثٍ بلا سببٍ محالٌ ، فإنَّ هٰذا أيضاً ضروريٌّ ، فحقُّ غريزةِ العقلِ أنْ تتوقَّفَ عنِ

---

(١) انظر « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص٢٢٨) ، وفصَّل تفصيلاً حسناً .

التصديقِ بوجودِ القديمِ علىٰ طريقِ الارتجالِ والبديهةِ .

ثمَّ مِنَ الناسِ مَنْ يسمعُ ذلكَ ويصدِّقُ بالسماعِ تصديقاً جزماً ويستمرُّ عليهِ ، وذلكَ هوَ الاعتقادُ ، وهوَ حالُ جميعِ العوامِّ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يصدِّقُ بهِ بالبرهانِ وهوَ أنْ يُقالَ لهُ : إنْ لمْ يكنْ في الوجودِ قديمٌ . . فالموجوداتُ كلُّها حادثةٌ ، فإنْ كانتْ كلُّها حادثةً . . فهيَ حادثةٌ بلا سببٍ ، أوْ فيها حادثٌ بلا سببٍ ، وذلكَ محالٌ ؛ فالمؤدِّي إلى المحالِ محالٌ ، فيلزمُ في العقلِ التصديقُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ بالضرورةِ ؛ لأنَّ الأقسامَ ثلاثةٌ : وهيَ أنْ تكونَ الموجوداتُ كلُّها قديمةً ، أوْ كلُّها حادثةً ، أوْ بعضُها قديمةً وبعضُها حادثةً .

فإنْ كانتْ كلُّها قديمةً . . فقدْ حصلَ المطلوبُ ؛ إذْ ثبتَ على الجملةِ قديمٌ ، وإنْ كانَ الكلُّ حادثاً . . فهوَ محالٌ ؛ إذْ يؤدِّي إلىٰ حدوثٍ بغيرِ سببٍ ، فثبتَ القسمُ الثالثُ أوِ الأولُ .

وكلُّ عِلْمٍ حصلَ علىٰ هـٰذا الوجهِ يسمَّىٰ يقيناً عندَ هؤلاءِ ، سواءٌ حصلَ بنظرٍ مثلِ ما ذكرناهُ ، أوْ حصلَ بحسٍّ أوْ بغريزةِ العقلِ ؛ كالعلْمِ باستحالةِ حادثٍ بلا سببٍ ، أوْ بتواترٍ ؛ كالعلْمِ بوجودِ مكَّةَ ، أوْ بتجربةٍ ؛ كالعلْمِ بأنَّ المطبوخَ مسهلٌ[1] ، أوْ بدليلٍ كما ذكرْنا .

* * *

فشرطُ إطلاقِ هـٰذا الاسمِ عندَهُمْ عدمُ الشكِّ ، فكلُّ علْمٍ لا شكَّ فيهِ

(١) والمطبوخ هنا : كل دواء طبخ لقصد الإسهال . « إتحاف » (١/ ٤١٣) .

يُسمَّىٰ يقيناً عندَ هؤلاءِ ، وعلىٰ هٰذا : لا يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ ؛ إذْ لا تفاوتَ في نفيِ الشكِّ .

الاصطلاحُ الثاني اصطلاحُ الفقهاءِ والمتصوِّفَةِ وأكثرِ العلماءِ : وهوَ ألا يلتفتَ فيهِ إلى اعتبارِ التجويزِ والشكِّ ، بلْ إلى استيلائِهِ وغلبتِهِ على القلْبِ ، حتَّىٰ يُقالُ : فلانٌ ضعيفُ اليقينِ بالموتِ معَ أنَّهُ لا يشكُّ فيهِ ، ويُقالُ : فلانٌ قويُّ اليقينِ في إتيانِ الرزْقِ معَ أنَّهُ قدْ يجوزُ أنَّهُ لا يأتيهِ .

فمهما مالتِ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ ، وغلبَ ذلكَ على القلبِ ، واستولىٰ حتَّىٰ صارَ هوَ المتحكِّمَ والمتصرِّفَ في النفسِ بالتجويزِ والمنعِ . . سُمِّيَ ذلكَ **يقيناً** .

ولا شكَّ في أنَّ الناسَ مشتركونَ في القطعِ بالموتِ والانفكاكِ عنِ الشكِّ فيهِ ، ولكنْ فيهِمْ مَنْ لا يلتفتُ إليهِ ، ولا إلى الاستعدادِ لهُ ، وكأنَّهُ غيرُ موقنٍ بهِ ، ومنهُمْ مَنِ استولىٰ ذلكَ علىٰ قلبِهِ حتَّى استغرقَ جميعَ همِّهِ بالاستعدادِ لهُ ولمْ يغادرْ فيهِ متَّسعاً لغيرِهِ ، فيعبَّرُ عنْ مثلِ هٰذهِ الحالةِ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيهِ أشبهَ بشكٍّ لا يقينَ فيهِ مِنَ الموتِ)[1] .

وعلىٰ هٰذا الاصطلاحِ يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ والقوَّةِ .

ونحْنُ إنَّما أردْنا بقولِنا : (إنَّ مِنْ شأنِ علماءِ الآخرةِ صَرْفَ العنايةِ إلىٰ

---

(١) رواه أبو نعيم عن سلمة بن دينار في « الحلية » (٣/ ٢٣٢) .

تقويةِ اليقينِ) المعنيينِ جميعاً ، وهوَ نفيُ الشكِّ ، ثمَّ تسليطُ اليقينِ على النفسِ حتَّىٰ يكونَ هوَ الغالبَ المتحكِّمَ وهوَ المتصرِّفَ .

فإذا فهمتَ هـٰذا . . علمتَ أنَّ المرادَ مِنْ قولِنا : (إنَّ اليقينَ ينقسمُ ثلاثةَ أقسامٍ) بالقوَّةِ والضعفِ ، والقلَّةِ والكثرةِ ، والخفاءِ والجلاءِ .

فأمَّا بالقوَّةِ والضعفِ : فعلى الاصطلاحِ الثاني ؛ وذلكَ في الغلبةِ والاستيلاءِ على القلبِ ، ودرجاتُ اليقينِ في القوَّةِ والضعفِ لا تتناهىٰ ، وتفاوتُ الخلقِ في استعدادِهِمْ للموتِ بحسَبِ تفاوتِ اليقينِ بهـٰذهِ المعاني .

وأمَّا التفاوتُ بالخفاءِ والجلاءِ : فلا يُنكرُ أيضاً ؛ أمَّا فيما يتطرَّقُ إليهِ التجويزُ . . فلا ينكرُ ؛ أعني الاصطلاحَ الثانيَ ، وفيما انتفى الشكُّ عنهُ أيضاً . . لا سبيلَ إلىٰ إنكارِهِ ؛ فإنَّكَ تدركُ تفرقةً بينَ تصديقِكَ بوجودِ مكَّةَ ووجودِ فَدَكَ مثلاً ، وبينَ تصديقِكَ بوجودِ موسىٰ ووجودِ يوشعَ عليهما السلامُ معَ أنَّكَ لا تشُكُّ في الأمرينِ جميعاً ؛ إذْ مستندُهُما التواترُ جميعاً ، ولكنْ ترىٰ أحدَهُما أجلَىٰ وأوضحَ في قلبِكَ مِنَ الثاني ؛ لأنَّ السببَ في أحدِهما أقوىٰ ، وهوَ كثرةُ المخبرينَ ، وكذلكَ يدركُ الناظرُ هـٰذا في النظرياتِ المعلومةِ بالأدلَّةِ ؛ فإنَّهُ ليسَ وضوحُ ما لاحَ لهُ بدليلٍ واحدٍ كوضوحِ ما لاحَ لهُ بأدلةٍ كثيرةٍ معَ تساويهما في نفيِ الشكِّ ، وهـٰذا قدْ ينكرُهُ المتكلِّمُ الذي يأخذُ العلْمَ مِنَ الكُتبِ والسماعِ ولا يراجعُ نفسَهُ فيما يدركُهُ مِنْ تفاوتِ الأحوالِ .

وأمَّا القلَّةُ والكثرةُ : فذلكَ بكثرةِ متعلقاتِ اليقينِ ؛ كما يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ؛ أي : معلوماتُهُ أكثرُ ، ولذلكَ قدْ يكونُ العالِمُ قويَّ اليقينِ في جميعِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ يكونُ قويَّ اليقينِ في بعضِهِ .

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ اليقينَ وقوَّتَهُ وضعفَهُ ، وكثرتَهُ وقلَّتَهُ ، وجلاءَهُ وخفاءَهُ ، بمعنىٰ نفيِ الشكِّ ، أو بمعنى الاستيلاءِ على القلبِ ، فما متعلقاتُ اليقينِ ومجاريهِ ، وفي ماذا يُطلبُ اليقينُ ؟ فإنِّي ما لمْ أعرفْ ما يُطلبُ فيهِ اليقينُ . . لمْ أقدرْ علىٰ طلبِهِ .

فاعلمْ : أنَّ جميعَ ما وردَ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ هوَ مِنْ مجاري اليقينِ ؛ فإنَّ اليقينَ عبارةٌ عنْ معرفةٍ مخصوصةٍ ، ومتعلقةُ المعلوماتُ التي وردتْ بها الشرائعُ ، فلا مطمعَ في إحصائِها ، ولكنِّي أشيرُ إلىٰ بعضِها وهيَ أمهاتُها :

فمنْ ذلكَ التوحيدُ : وهوَ أنْ يرى الأشياءَ كلَّها مِنْ مسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يلتفتَ إلى الوسائطِ ، بلْ يرى الوسائطَ مسخرةً لا حكمَ لها ، فالمصدِّقُ بهـٰذا مؤمنٌ ، فإنِ انتفىٰ عنْ قلبِهِ معَ الإيمانِ إمكانُ الشكِّ . . فهوَ موقنٌ بأحدِ المعنيينِ ، فإنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ معَ الإيمانِ غلبةً أزالَ عنهُ الغضبَ على الوسائطِ ، والرضا عنهُمْ والشكرَ لهمْ ، ونزَّلَ الوسائطَ في قلبِهِ منزلةَ القلمِ واليدِ في حقِّ المنعمِ بالتوقيعِ ، فإنَّهُ لا يشكرُ القلمَ ولا اليدَ ولا يغضبُ عليهما ، بلْ يراهما آلتينِ مسخَّرتينِ وواسطتينِ . . فقدْ صارَ موقناً بالمعنى

الثاني ، وهوَ الأشرفُ ، وهوَ ثمرةُ اليقينِ الأوَّلِ وروحُهُ وفائدتُهُ .

ومهما تحقَّقَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجمادَ والنباتَ والحيوانَ وكلَّ مخلوقٍ فهيَ مسخراتٌ بأمرِهِ حسَبَ تسخُّرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ القدرةَ الأزليَّةَ هيَ المصدرُ للكلِّ . . استولىٰ علىٰ قلبهِ غلبةُ التوكُّلِ والرضا والتسليمُ[١] ، وصارَ موقناً بريئاً مِنَ الغضبِ والحقدِ والحسدِ وسوءِ الخلقِ ، فهٰذا أحدُ أبوابِ اليقينِ .

ومِنْ ذلكَ الثقةُ بضمانِ اللهِ سبحانَهُ بالرزقِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، واليقينُ بأنَّ ذلكَ يأتيهِ ، وأنَّ ما قُدِّرَ لهُ سينساقُ إليهِ ، ومهما غلبَ ذلكَ علىٰ قلبِهِ . . كانَ مجمِلاً في الطلبِ ، ولمْ يشتدَّ حرصُهُ وشرهُهُ وتأسُّفُهُ علىٰ ما يفوتُهُ ، وأثمرَ هٰذا اليقينُ أيضاً جملةً مِنَ الطاعاتِ والأخلاقِ الحميدةِ .

ومِنْ ذلكَ أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّ مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يرَهُ : وهوَ اليقينُ بالثوابِ والعقابِ ، حتَّىٰ يرىٰ نسبةَ الطاعاتِ إلى الثوابِ كنسبةِ الخبزِ إلى الشبعِ ، ونسبةَ المعاصي إلى العقابِ كنسبةِ السمومِ والأفاعي إلى الهلاكِ ، فكما يحرِصُ على التحصيلِ للخبزِ طلباً للشبعِ فيحفظُ قليلَهُ وكثيرَهُ . . فكذلكَ يحرِصُ على الطاعاتِ كلِّها قليلِها وكثيرِها ، وكما يتجنَّبُ قليلَ السمومِ وكثيرَها . . فكذلكَ يجتنبُ

---

(١) وهٰذه الثلاثة من مقامات اليقين التسعة علىٰ ما يأتي بيانها في مواضعها .

المعاصيَ ؛ قليلَها وكثيرَها ، وصغيرَها وكبيرَها .

واليقينُ بالمعنى الأوَّلِ قدْ يوجدُ لعمومِ المؤمنينَ ، أمَّا بالمعنى الثاني . . فيختصُّ بهِ المقربونَ .

وثمرةُ هٰذا اليقينِ : صدْقُ المراقبةِ في الحركاتِ والسكناتِ والخطراتِ ، والمبالغةُ في التقوىٰ ، والاحترازُ عنِ كلِّ السيئاتِ ، وكلَّما كانَ اليقينُ أغلبَ . . كانَ الاحترازُ أشدَّ والتشمُّرُ أبلغَ .

ومِنْ ذلكَ اليقينُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ عليكَ في كلِّ حالٍ ، ومشاهدٌ لهواجسِ ضميرِكَ وخفايا خواطرِكَ وفكرِكَ : وهٰذا متيقَّنٌ عندَ كلِّ مؤمنٍ بالمعنى الأولِ ، وهوَ عدمُ الشكِّ ، وأمَّا بالمعنى الثاني ـ وهوَ المقصودُ ـ فهوَ عزيزٌ يختصُّ بهِ الصدِّيقونَ .

وثمرتُهُ : أنْ يكونَ الإنسانُ في خلوتِهِ متأدباً في جميعِ أحوالِهِ وأعمالِهِ ؛ كالجالسِ بمشهَدِ ملكٍ معظَّمٍ ينظرُ إليهِ ، فإنَّه لا يزالُ مطرقاً متأدِّباً في جميعِ أعمالِهِ ، متماسكاً محترزاً عنْ كلِّ حركةٍ تخالفُ هيئةَ الأدبِ ، ويكونُ في فكرتِهِ الباطنةِ كهوَ في أعمالِهِ الظاهرةِ(١) ؛ إذْ يتحقَّقُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ سريرتِهِ كما يطلعُ الخلقُ علىٰ ظاهرِهِ، فتكونُ مبالغتُهُ في عمارةِ باطنِهِ وتطهيرِهِ وتزيينِهِ لعينِ اللهِ تعالىٰ الكالئَةِ أشدَّ مِنْ مبالغتِهِ في تزيينِ ظاهرِهِ لسائرِ الناسِ .

(١) أي : تكون أعماله الظاهرة مساوية لأعماله الباطنة في صدق الإخلاص والخضوع للمولىٰ بحيث لا يميز أحدهما عن الآخر . « إتحاف » (١/ ٤١٨) .

وهـٰذا المقامُ في اليقينِ يورثُ الحياءَ والخوفَ والانكسارَ ، والذلَّ والاستكانةَ والخضوعَ ، وجملةً منَ الأخلاقِ المحمودةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ تورثُ أنواعاً مِنَ الطاعاتِ رفيعةً .

* * *

فاليقينُ في كلِّ بابٍ مِنْ هـٰذهِ الأبوابِ مثلُ الشجرةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ في القلبِ مثلُ الأغصانِ المتفرِّعةِ منها ، وهـٰذهِ الأعمالُ والطاعاتُ الصادرةُ مِنَ الأخلاقِ كالثمارِ والأنوارِ المتفرِّعةِ مِنَ الأغصانِ ، فاليقينُ هوَ الأصلُ والأساسُ ، ولهُ مجارٍ وأبوابٌ أكثرُ ممَّا عدَّدْناهُ ، وسيأتي ذلكَ في ربعِ المنجياتِ ، وهـٰذا القدرُ كافٍ في تفهيمِ معنى اللفظِ الآنَ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً : يظهرُ أثرُ الخشيةِ علىٰ هيئتِهِ وكسوتِهِ(١) ، وسيرتِهِ ، وحركتِهِ وسكونِهِ ، ونطقِهِ وسكوتِهِ ، لا ينظرُ إليهِ ناظرٌ إلا وكانَ نظرُهُ مذكِّراً للهِ تعالىٰ ، وكانتْ صورتُهُ دليلاً علىٰ عملِهِ ، فالجوادُ عينُهُ فُرارُهُ(٢) ، فعلماءُ الآخرةِ يُعرفونَ بسيماهُمْ في السكينةِ والذلَّةِ والتواضعِ .

---

(١) بألا تكون من ثياب الشهرة ، ولا رفيعة الأثمان ، ولا من دقِّ الثياب ؛ فإن كل ذلك ليست من ثياب علماء الآخرة . « إتحاف » (١/ ٤١٨) .

(٢) مثلٌ يضرب لمن يدل ظاهره علىٰ باطنه ، **والفرار** ـ بتثليث الفاء ـ : النظر في أسنان الدابة أو في أوصافها لتعرف .

وقدْ قيلَ : ما ألبسَ اللهُ تعالىٰ عبداً لِبْسةً أحسنَ مِنْ خُشوعٍ في سكينةٍ ، فهيَ لِبسةُ الأنبياءِ ، وسِيما الصالحينَ والصدِّيقينَ والعلماءِ .

فأمَّا التهافتُ في الكلامِ والتشدُّقُ ، والاستغراقُ في الضحكِ ، والحدَّةُ في الحركةِ والنطقِ[1] . . فكلُّ ذلكَ مِنَ آثارِ البطرِ ، والأمنِ والغفلةِ عَنْ عظيمِ عقابِ اللهِ تعالىٰ وشديدِ سخطِهِ ، وهوَ دأبُ أبناءِ الدنيا الغافلينَ عَنِ اللهِ دونَ العلماءِ بهِ .

وهٰذا لأنَّ العلماءَ ثلاثةٌ كما قالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رحمهُ اللهُ : (عالمٌ بأمرِ اللهِ لا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمُ المُفْتُونَ في الحلالِ والحرامِ ، وهٰذا العلمُ لا يورثُ الخشيةَ ، وعالمٌ باللهِ لا بأمرِ اللهِ ولا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمْ عمومُ المؤمنينَ ، وعالمٌ باللهِ وبأيامِ اللهِ وبأمرِ اللهِ ؛ وهُمُ الصدِّيقونَ)[2] ، والخشيةُ والخشوعُ إنَّما تغلبُ عليهِمْ .

وأرادَ بأيامِ اللهِ أنواعَ عقوباتِهِ الغامضةِ ونعمِهِ الباطنةِ التي أفاضَها على القرونِ السالفةِ واللاحقةِ .

فمَنْ أحاطَ علمُهُ بذلكَ . . عَظُمَ خوفُهُ وظَهرَ خشوعُهُ .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّموا للعلمِ السكينةَ والوقارَ والحلمَ ، وتواضعُوا لمَنْ تتعلَّمونَ منهُ ، وليتواضعْ لكُمْ مَنْ يتعلَّمُ منكُمْ ،

---

(١) الحدَّة : العجلة .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٠) بنحوه .

ولا تكونوا مِنْ جبابرةِ العلماءِ ، فلا يقومُ علمُكُمْ بجهلِكُمْ)[١] .

ويقالُ : ما آتى اللهُ عبداً علماً إلا آتاهُ معَهُ حلماً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ ورفقاً ، فذلكَ هوَ العلمُ النافعُ[٢] .

وفي الأثرِ : (مَنْ آتاهُ اللهُ علماً وزهداً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ . . فهوَ إمامُ المتقينَ)[٣] .

وفي الخبرِ : « إنَّ مِنْ خيارِ أمَّتي قوماً يضحكونَ جهراً مِن سَعَةِ رحمةِ اللهِ ، ويبكون سِرّاً مِنْ خوفِ عذابِهِ ، أبدانُهُمْ في الأرضِ وقلوبُهُمْ في السماءِ ، أرواحُهُمْ في الدنيا وعقولُهُمْ في الآخرةِ ، يتمشَّونَ بالسكينةِ ، ويتقرَّبُونَ بالوسيلةِ »[٤] .

وقالَ الحسنُ : (الحلْمُ وزيرُ العلمِ ، والرفْقُ أبوهُ ، والتواضعُ سِرْبالُهُ)[٥] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ طلبَ الرئاسةَ بالعلمِ . . فتقرَّبْ إلى اللهِ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٤٠) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) وأتبعه بالأثر الآتي ليؤكد معناه .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٤٢٠) : (هكذا أورده صاحب « القوت » ، وتبعه المصنف ، ولم يتعرض له العراقي ، ولا وجدته في غير كتاب « القوت ») .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٩) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

تعالىٰ ببغضِهِ ؛ فإنَّهُ مقيتٌ في السماءِ والأرضِ)[1] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ حكيماً صنَّفَ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مصحفاً في الحكمةِ حتَّىٰ وُصِفَ بالحكيمِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لفلانٍ : ملأتَ الأرضَ نفاقاً ولمْ تردني بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً ، فندمَ الرجلُ وتركَ ذلكَ ، وخالطَ العامَّةَ ، ومشىٰ في الأسواقِ ، وواكلَ بني إسرائيل ، وتواضعَ في نفسِهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لهُ : الآنَ وافقتَ رضائي[2] .

وحكَى الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ عنْ بلالِ بنِ سعدٍ أنَّهُ كانَ يقولُ : (ينظرُ أحدُكُمْ إلى الشرطيِّ فيستعيذُ باللهِ منهُ ، وينظرُ إلىٰ علماءِ الدنيا المتصنِّعينَ للخلقِ المتشوِّفينَ إلى الرئاسةِ فلا يمقتُهُمْ ، وهُمْ أحقُّ بالمقتِ مِنْ ذلكَ الشرطيِّ)[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « اجتنابُ المحارمِ ، ولا يزالُ فُوكَ رَطباً مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ خيرٌ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ ذَكرتَ . . أعانَكَ ، وإنْ نسيتَ . . ذَكَّرَكَ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ شرٌّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ نسيتَ . . لمْ يذكرْكَ ، وإنْ ذكرتَ . . لمْ يُعِنْكَ » ، قيلَ : فأيُّ الناسِ أعلمُ ؟ قالَ : « أشدُّهُم للهِ خشيةً » ، قالوا : فأخبرنا بخيارِنا . .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، وأصله في « الحلية » (٥/ ٢٣٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

نجالسُهُمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الذين إذا رُؤوا . . ذُكِرَ اللهُ تعالىٰ » ، قالوا : فأيُّ الناسِ شرٌّ ؟ قالَ : « اللهُمَّ ؛ غَفْراً » ، قالوا : أخبرْنا يا رسولَ الله ، قالَ : « العلماءُ إذا فسدوا »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ الناسِ أماناً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فِكراً في الدنيا ، وأكثرَ الناسِ ضحكاً في الآخرةِ أكثرُهم بكاءً في الدنيا ، وأشدَّ الناسِ فرحاً في الآخرةِ أطولُهُمْ حزناً في الدنيا »(٢) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (ذمَّتي رهينةٌ وأنا بهِ زعيمٌ ، إنَّهُ لا يهيجُ على التقوىٰ زرعُ قومٍ ، ولا يظمأُ على الهدىٰ سِنْخُ أصلٍ ، وإنَّ أجهلَ الناسِ مَنْ لا يعرفُ قدْرَهُ ، وإنَّ أبغضَ الخلْقِ إلى اللهِ تعالىٰ رجلٌ قَمَشَ علماً أغارَ بهِ في أغباشِ الفتنةِ ، سمَّاه أشباهٌ لهُ مِنَ الناسِ وأرذالُهُمْ عالماً ، ولمْ يُغْنَ في العلْمِ يوماً سالماً ، بكَّرَ فاستكثرَ ، فما قلَّ منهُ خيرٌ ممَّا كثُرَ ، حتَّىٰ إذا ارتوىٰ مِنْ ماءٍ آجنٍ ، وأكثَرَ مِنْ غيرِ طائلٍ . . جلسَ للناسِ مفتياً لتخليصِ ما التبسَ علىٰ غيرِهِ ، فإنْ نزلتْ بهِ إحدى المهمَّاتِ . . هيَّأَ حشْوَ الرأيِ مِنْ رأيِهِ ، فهوَ مِنْ قطْعِ الشبهاتِ في مثلِ غزْلِ العنكبوتِ ، لا يدري أخطأَ أمْ أصابَ ، ركَّابُ جهالاتٍ ، خبَّاطُ عشواتٍ ، لا يعتذرُ ممَّا لا يعلمُ

---

(١) رواه صاحب « القوت » (١/ ١٤٢) قال : (وقد روينا حديثاً حسناً مقطوعاً ، عن سفيان ، عن مالك بن مغول قال . . .) وذكره . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ١٥٢) .

فيسلَمُ ، ولا يعضُّ على العلْمِ بضرسٍ قاطعٍ فيغنمُ ، تبكي منهُ الدماءُ ، وتُستحلُّ بقضائِهِ الفروجُ الحرامُ ، لا مَلِيءٌ واللهِ بإصدارِ ما وردَ عليهِ ، ولا هوَ أهلٌ لما فُوِّضَ إليهِ ، أولئكَ الذينَ حلَّتْ عليهِمُ المَثُلاتُ ، وحقَّتْ عليهِمُ النياحةُ والبكاءُ أيامَ حياةِ الدنيا)(١) .

وقالَ عليٌّ أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا سمعتُمُ العلمَ . . فاكظِمُوا عليهِ ولا تخلِطُوهُ بهزْلٍ فتمجَّهُ القلوبُ)(٢) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (العالمُ إذا ضَحِكَ ضَحْكَةً . . مَجَّ مِنَ العلمِ مَجَّةً)(٣) .

وقيلَ : (إذا جمعَ المعلِّمُ ثلاثاً . . تمَّتِ النعمةُ بهِ على المتعلِّمِ : الصبرَ ، والتواضعَ ، وحسنَ الخلقِ ، وإذا جمعَ المتعلِّمُ ثلاثاً . . تمتِ النعمةُ بهِ على المعلِّمِ : العقلَ ، والأدبَ ، وحسنَ الفهمِ)(٤) .

وعلى الجملةِ : فالأخلاقُ التي وردَ بها القرآنُ لا ينفكُّ عنها علماءُ

---

(١) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (١/ ٣٢) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٠٤) كلهم بنحوه ، وهو في « القوت » (١/ ١٤٢) ، **ويهيج** : ييبس ويصفر ، **والسِّنْخ** : الأصل من كل شيء ، **وقمشَ** : جَمَعَ ، **وأغباش** : جمع غَبْش ، وهي الظلمة آخر الليل .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٨٨) ، **وتمجّه** : تلفظه وتأباه .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٦٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٣٣) عن علي بن حسين رحمه الله ، ونسبه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٤٠) لسيدنا علي من تتمة القول السابق .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٤٥) .

الآخرةِ ؛ لأنَّهمْ يتعلمونَ القرآنَ للعملِ لا للرئاسةِ .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (لقدْ عشْنا برهةً مِنَ الدهرِ وإنَّ أحدَنا يُؤْتى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وتَنزلُ السُّورةُ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منها ، ولقدْ رأيتُ رجالاً يُؤتىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ وما زاجرُهُ ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ ، يَنثرُهُ نثْرَ الدَّقَلِ)[1] .

وفي خبرٍ آخرَ بمثلِ معناهُ : (كنَّا ـ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ أوتينا ٱلإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وسيأتي بعدَكُمْ قومٌ يُؤتَونَ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، يُقيمونَ حروفَهُ ويضيِّعُونَ حدودَهُ ، يقولونَ : قرأْنا فَمَنْ أقرأُ مِنَّا ؟ وعَلِمْنا فَمَنْ أعلمُ منَّا ؟ فذلكَ حظُّهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (أولئكَ شرارُ هٰذهِ الأمَّةِ)[2] .

وقيلَ : خمسٌ مِنَ الأخلاقِ هيَ مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ مفهومةٌ مِنْ خمْسِ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ : الخشيةُ ، والخشوعُ ، والتواضعُ ، وحسنُ الخلقِ ، وإيثارُ الآخرةِ على الدنيا وهوَ الزهدُ :

أمَّا الخشيةُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢٠) ، الدَّقَل : أردأ التمر .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٥) ، وأصله عند ابن ماجه (٦١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢٠) .

وأمَّا الخشوعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

وأمَّا التواضعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأمَّا حسنُ الخلقِ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

وأمَّا الزهدُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1] .

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فقيلَ لهُ : ما هٰذا الشَّرْحُ ؟ فقالَ : « إنَّ النورَ إذا قُذِفَ في القلبِ . . انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : فهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمِ ؛ التجافي عَنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[2] .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ أكثرُ بحثِهِ عَنْ علْمِ الأعمالِ ، وعمَّا يفسدُها ويشوِّشُ القلوبَ ، ويهيِّجُ الوسواسَ ويثيرُ الشرَّ : فإنَّ أصلَ الدينِ التوقِّي مِنَ الشرِّ ،

(١) قوت القلوب (١/١٤٦) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

ولذلكَ قيلَ[1] : [من الهزج]

عَــرَفْــتُ ٱلشَّــرَّ لا لِلشَّــرِّ لَكِـــنْ لِتَــوَقِّيــهِ

وَمَـــنْ لا يَعْـرِفُ ٱلشَّـــرَّ مِـــنَ ٱلنَّـــاسِ يَقَـــعْ فِيـــهِ

ولأنَّ الأعمالَ الفعليةَ قريبةٌ ، وأقصاها بلْ أعلاها المواظبةُ علىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، وإنَّما الشأنُ في معرفةِ ما يفسدُها ويشوِّشُها ، وهٰذا ممَّا تكثرُ شعبُهُ ويطولُ تفريعُهُ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يغلبُ مسيسُ الحاجةِ إليهِ ، وتعمُّ بهِ البلوىٰ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ .

وأمَّا علماءُ الدنيا : فإنَّهمْ يتبعونَ غرائبَ التفريعاتِ في الحكوماتِ والأقضيةِ ، ويَتْعبونَ في وضعِ صورٍ تنقضي الدهورُ ولا تقعُ أبداً ، وإنْ وقعتْ . . فإنَّما تقعُ لغيرِهِمْ لا لهُمْ ، وإذا وقعتْ . . كانَ في القائمينَ بها كثرةٌ ، ويتركونَ ما يلازمُهُمْ ويتكرَّرُ عليهِمْ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، في خواطرِهِمْ ووساوسِهِمْ وأعمالِهِمْ .

وما أبعدَ عنِ السعادةِ مَنْ باعَ مهمَّ نفسِهِ اللازمَ بمهمِّ غيرِهِ النادرِ ؛ إيثاراً للقبولِ والتقرُّبِ مِنَ الخلقِ على القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وشَرَهاً في أنْ يسمِّيَهُ البطَّالونَ مِنْ أبناءِ الدنيا فاضلاً محقِّقاً عالماً بالدقائقِ !

وجزاؤُهُ مِنَ اللهِ ألاّ ينتفعَ في الدنيا بقبولِ الخلْقِ ، بلْ يتكدَّرُ عليهِ صفوُهُ بنوائبِ الزمانِ ، ثمَّ يرِدُ القيامةَ مفْلساً متحسِّراً علىٰ ما يشاهدُهُ مِنْ ربْحِ

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني في « ديوانه » (ص٣٥٢) .

العاملينَ وفوزِ المقرَّبينَ ، وذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

ولقدْ كانَ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ أشبهَ الناسِ كلاماً بكلامِ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ ، وأقربَهُمْ هَدْياً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ(1) ، اتفقتِ الكلمةُ في حقِّهِ علىٰ ذلكَ ، وكانَ أكثرُ كلامِهِ في خواطرِ القلوبِ ، وفسادِ الأعمالِ ، ووساوسِ النفوسِ ، والصفاتِ الخفيَّةِ الغامضةِ مِنْ شهواتِ النفسِ .

وقدْ قيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ ، فمِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنْ حذيفةَ بنِ اليمانِ(2) .

وقيلَ لحذيفةَ : نراكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ مِنَ الصحابةِ ، فمنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : خصَّني بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ الناسُ يسْألونَهُ عنِ الخيرِ وكنتُ أسْأَلُهُ عنِ الشرِّ مخافةَ أنْ أقعَ فيهِ ، وعَلِمتُ أنَّ الخيرَ لا يسبقني(3) .

وقالَ مرَّةً : فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يعرفُ الخيرَ ، وفي لفظٍ آخرَ : كانَ الناسُ يقولونَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لِمَنْ عملَ كذا وكذا ؟ يسألونَهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وكنتُ أقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يفسدُ كذا وكذا ؟ فلما رآني أسألُهُ عنْ آفاتِ الأعمالِ . . خصَّني بهٰذا العلمِ .

---

(1) هدْياً : سيرةً وطريقاً ؛ يقال : هُدِي هدْيَ فلان ؛ أي : سار سيرته .
(2) قوت القلوب (1/ 150) .
(3) رواه البخاري (3606) ، ومسلم (1847) بأصله ، وألفاظه هنا وردت بسياقها في « القوت » (1/ 150) .

وكانَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً قدْ خُصَّ بعلْمِ المنافقينَ ، وأُفرِدَ بمعرفةِ عِلْمِ النفاقِ وأسبابِهِ ودقائقِ الفتنِ ، فكانَ عمرُ وعثمانُ وأكابرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يسألونَهُ عنِ الفتنِ العامَّةِ والخاصَّةِ .

وكانَ يُسألُ عنِ المنافقينَ فيخبرُ بأعدادِ مَنْ بقيَ منهُمْ ، ولا يخبرُ بأساميهِمْ[1] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يسألُهُ عنْ نفسِهِ : هلْ يعلمُ بهِ شيئاً مِنَ النفاقِ ؟ فبرَّأَهُ مِنْ ذلكَ[2] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا دُعيَ إلىٰ جنازةٍ ليصلِّيَ عليها . . نظرَ : فإنْ حضرَ حذيفةُ . . صلَّىٰ عليها ، وإلا . . تركَ .

وكانَ يُسمَّىٰ : صاحبَ السِّرِّ[3] .

فالعنايةُ بمقاماتِ القلبِ وأحوالِهِ هوَ دأبُ علماءِ الآخرةِ ؛ لأنَّ القلبَ هوَ الساعي إلىٰ قرْبِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ صارَ هٰذا الفنُّ غريباً مندرساً ، وإذا تعرَّضَ العالمُ لشيءٍ منهُ . . استُغربَ واستُبعدَ ، وقيلَ : هٰذا تزويقُ المذكِّرينَ ، فأينَ التحقيقُ ؟ ويرونَ التحقيقَ في دقائقِ المجادلاتِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

(٢) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٧٦) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٣٧٤٣) .

ولقدْ صدقَ مَنْ قالَ[1] : [من البسيط]

اَلطُّرْقُ شَتَّىٰ وَطُرْقُ ٱلْحَقِّ مُفْرَدَةٌ وَٱلسَّالِكُونَ طَرِيقَ ٱلْحَقِّ أَفْرَادُ
لاَ يُعْرَفُونَ وَلاَ تُدْرَىٰ مَقَاصِدُهُمْ فَهُمْ عَلَىٰ مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ
وَٱلنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ رُقَّادُ

وعلى الجملةِ : فلا يميلُ أكثرُ الخلْقِ إلا إلى الأسهلِ والأوفَقِ لطباعِهِمْ ؛ فإنَّ الحقَّ مرٌّ ، والوقوفَ عليهِ صعبٌ ، وإدراكَهُ شديدٌ ، وطريقَهُ مستوعرٌ ، ولا سيما معرفةُ صفاتِ القلبِ وتطهيرِهِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ ؛ فإنَّ ذلكَ نزْعٌ للروحِ على الدوامِ ، وصاحبُهُ يُنزَّلُ منزلةَ شاربِ الدواءِ يصبرُ علىٰ مرارتِهِ رجاءَ الشفاءِ ، ويُنزَّلُ منزلةَ مَنْ جعلَ مدَّةَ العمرِ صومَهُ ، فهوَ يقاسي الشدائدَ ليكونَ فطرُهُ عندَ الموتِ ، ومتىٰ تكثرُ الرغبةُ في مثلِ هـٰذا الطريقِ ؟!

ولذلكَ قيلَ : إنَّهُ كانَ في البصرةِ مئةٌ وعشرونَ متكلِّماً في الوعظِ والتذكيرِ ، ولمْ يكنْ مَنْ يتكلَّمُ في علمِ اليقينِ وأحوالِ القلوبِ وصفاتِ الباطنِ إلا ثلاثةٌ : سهلٌ التُّسْتَريُّ ، والصُّبيحيُّ ، وعبدُ الرحيمِ[2] ، وكانَ يجلسُ إلىٰ أولئكَ الخلقُ الكثيرُ الذي لا يُحصىٰ ، وإلىٰ هؤلاءِ عددٌ يسيرٌ قلَّما يجاوزُ العشرةَ ؛ لأنَّ النفيسَ العزيزَ لا يصلحُ إلا لأهلِ الخصوصِ ، وما يُبذلُ للعمومِ فأمرُهُ قريبٌ .

---

(١) هو عبد الواحد بن زيد ، كما في « القوت » (١/ ١٥٣) ، و« تاريخ بغداد » (٥/ ٢٣١) .
(٢) ابن يحيى الأسود ، والنص في « قوت القلوب » (١/ ١٥٦) .

ومنها : أنْ يكونَ اعتمادُهُ في علومِهِ علىٰ بصيرتِهِ وإدراكِهِ بصفاءِ قلبِهِ ، لا على الصحُفِ والكتبِ ، ولا علىٰ تقليدِ ما يسمعُهُ مِنْ غيرِهِ : وإنَّما المقلَّدُ صاحبُ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ فيما أمرَ بهِ وقالَهُ ، وإنَّما يُقلَّدُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ حيثُ إنَّ فعلَهُمْ يدلُّ علىٰ سماعِهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ثمَّ إذا قلَّدَ صاحبَ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في تلقي أقوالِهِ وأفعالِهِ بالقبولِ . . فينبغي أنْ يكونَ حريصاً علىٰ فهْمِ أسرارِهِ ؛ فإنَّ المقلِّدَ إنَّما يفعلُ الفعلَ لأنَّ صاحبَ الشرعِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فعلَهُ ، وفعلُهُ لا بدَّ وأنْ يكونَ لسرٍّ فيهِ ، فينبغي أنْ يكونَ شديدَ البحثِ عنْ أسرارِ الأعمالِ والأقوالِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتفىٰ بحفظِ ما يُقالُ . . كانَ وعاءً للعلمِ ولمْ يكنْ عالماً ، ولذلكَ كانَ يُقالُ : فلانٌ مِنْ أوعيةِ العلمِ ، وكانَ لا يُسمَّىٰ عالماً إذا كانَ شأنَهُ الحفظُ مِنْ غيرِ اطلاعٍ على الحِكَمِ والأسرارِ .

ومَنْ كُشِفَ عنْ قلبِهِ الغطاءُ واستنارَ بنورِ الهدايةِ . . صارَ في نفسِهِ متبوعاً مقلَّداً ، فلا ينبغي أنْ يقلِّدَ غيرَهُ[1] ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (ما مِنْ أحدٍ إلا يُؤخذُ مِنْ علمِهِ ويُتْرَكُ إلا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) لأن الفقيه في العلماء هو الفقيه بفقه علمه وقلبه ، لا بحديث سواه ، ومثل العالم بعلم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين العارف بمقامات الصديقين ولا حال له ولا مقام . . . ، فمثله كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . « إتحاف » (١/ ٤٣٢) .

وسلَّمَ)[1] وقدْ كانَ تعلَّمَ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ الفقهَ ، وقرأَ علىٰ أبَيِّ بنِ كعبٍ ، ثمَّ خالفَهُما في الفقهِ والقراءةِ جميعاً .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما جاءنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قبلناهُ على الرأسِ والعينِ ، وما جاءَنا عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . فنأخذُ منهُ ونتركُ ، وما جاءَنا عنِ التابعينَ . . فهُمْ رجالٌ ونحنُ رجالٌ)[2] .

وإنَّما فضلَ الصحابةُ لمشاهدتِهِمْ قرائنَ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واعتلاقِ قلوبِهِمْ أموراً أُدركتْ بالقرائنِ ، فسدَّدَهُمْ ذلكَ إلى الصوابِ مِنْ حيثُ لا يدخلُ في الروايةِ والعبارةِ ؛ إذْ فاضَ عليهِمْ مِنْ نورِ النبوَّةِ ما يحرسُهُمْ في الأكثرِ عنِ الخطأِ .

وإذا كانَ الاعتمادُ على المسموعِ مِنَ الغيرِ تقليداً غيرَ مرضيٍّ . . فالاعتمادُ على الكُتبِ والتصانيفِ أبعدُ ، بلِ الكتبُ والتصانيفُ محدَثةٌ لمْ يكنْ شيءٌ منها في زمنِ الصحابةِ وصدْرِ التابعينَ ، وإنَّما حدثتْ بعدَ سنةِ مئةٍ وعشرينَ مِنَ الهجرةِ وبعدَ وفاةِ جميعِ الصحابةِ وجِلَّةِ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وبعدَ وفاةِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ والحسنِ وخيارِ التابعينَ ، بلْ كانَ الأوَّلونَ يكرهونَ كَتْبَ الأحاديثِ وتصنيفَ الكتبِ ؛ لئلا يشتغلَ الناسُ بها عنِ الحفظِ وعنِ القرآنِ وعنِ التدبُّرِ والتفكُّرِ ، وقالوا : احفظوا كما كنَّا نحفظُ[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٦٩) من حديثه مرفوعاً.
(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٢) عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ بنحوه .
(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/٣٦٣) عن الزهري قوله : (كنا نكره الكتب =

ولذلكَ كَرِهَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ وجماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ تصحيفَ القرآنِ في مصحفٍ ، وقالوا : كيفَ نفعلُ شيئاً لمْ يفعلْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! وخافوا اتكالَ الناسِ على المصاحفِ ، وقالوا : نتركُ القرآنَ يتلقَّاهُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ بالتلقينِ والإقراءِ ؛ ليكونَ هوَ شغلَهُمْ وهَمَّهُمْ ، حتَّىٰ أشارَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وبقيةُ الصحابةِ بكَتْبِ القرآنِ ؛ خوفاً مِنْ تخاذلِ الناسِ وتكاسلِهِمْ ، وحذراً مِنْ أنْ يقعَ نزاعٌ فلا يوجدَ أصلٌ يُرجعُ إليهِ في كلمةٍ أوْ قراءةٍ مِنَ المتشابهاتِ ، فانشرحَ صدرُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لذلكَ ، فجمعَ القرآنَ في مصحفٍ واحدٍ(١) .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ينكرُ علىٰ مالكٍ تصنيفَهُ « الموطَّأُ » ، ويقولُ : ابتدعَ ما لمْ تفعلْهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ(٢) .

وقيلَ : أوَّلُ كتابٍ صُنِّفَ في الإسلامِ كتابُ ابنِ جريجٍ في الآثارِ ، وحروفُ التفاسيرِ عنْ مجاهدٍ وعطاءٍ وأصحابِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ بمكَّةَ ، ثمَّ كتابُ مَعْمَرِ بنِ راشدٍ الصنعانيِّ باليمنِ ، جمعَ فيهِ سُنناً منثورةً مبوَّبةً ، ثمَّ كتابُ « الموطأُ » بالمدينةِ لمالكِ بنِ أنسٍ ، ثمَّ جامعُ سفيانَ الثوريِّ(٣) .

= حتىٰ أكرهنا عليه السلطان، فكرهنا أن نمنعه الناس)، وروي أنه كان أول من دوّن العلم.

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٩) .

(٢) ولعل هـٰذا الإنكار كان في مبادىء أمره ، وإلا . . فقد جمع حديثه بنفسه على المسانيد ، وذلك لما رأى احتياج الناس لذلك . « إتحاف » (١/ ٤٣٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٩) ، وانظر « فتح الباري » (المقدمة/ ٦) .

ثمَّ في القرْنِ الرابعِ حدثتْ مصنَّفاتُ الكلامِ ، وكَثُرَ الخوضُ في الجدالِ ، والغوصُ في إبطالِ المقالاتِ ، ثمَّ مالَ الناسُ إليهِ وإلى القصصِ والوعظِ بها ، فأخذَ علمُ اليقينِ في الاندراسِ مِنْ ذلكَ الزمانِ ، فصارَ بعدَ ذلكَ يُستغربُ علمُ القلوبِ ، والتفتيشُ عَنْ صفاتِ النفْسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وأعرضَ عَنْ ذلكَ إلا الأقلُّونَ ، فصارَ يُسمَّى المجادلُ المتكلِّمُ عالماً ، والقاصُّ المزخرفُ كلامَهُ بالعباراتِ المسجَّعةِ عالماً ، وهٰذا لأنَّ العوامَّ هُمُ المستمعونَ إليهِمْ ، فكانَ لا يتميَّزُ لهُمْ حقيقةُ العلْمِ عنْ غيرِهِ ، ولمْ تكنْ سيرةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ وعلومُهُمْ ظاهرةً عندَهُمْ ، حتَّىٰ كانوا يعرفونَ بها مباينةَ هؤلاءِ لهُمْ ، فاستمرَّ عليهِمُ اسمُ العلماءِ ، وتوارثَ اللقبَ خلفٌ عنْ سلفٍ ، وأصبحَ علمُ الآخرةِ مطويّاً ، وغابَ عنهُمُ الفرقُ بينَ العلمِ والكلامِ إلا عنِ الخواصِّ منهُمْ ؛ كانَ إذا قيلَ لهُمْ : فلانٌ أعلمُ أمْ فلانٌ ؟ . . يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، فكانَ الخواصُّ يدركونَ الفرْقَ بينَ العلمِ وبينَ القدرةِ على الكلامِ .

هكذا ضَعُفَ الدينُ في قرونٍ سالفةٍ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِكَ هٰذا وقدِ انتهى الأمرُ إلىٰ أنَّ مُظهِرَ الإنكارِ يَسْتَهْدِفُ للنسبةِ إلى الجنونِ ؟!

فالأولىٰ أنْ يشتغلَ الإنسانُ بنفسِهِ ويسكتَ .

ومنها : أنْ يكونَ شديدَ التوقي مِنْ محدثاتِ الأمورِ وإنِ اتفقَ عليها

الجمهورُ : فلا يغرَّنَّهُ إطباقُ الخلْقِ علىٰ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وليكنْ حريصاً على التفتيشِ عنْ أحوالِ الصحابةِ وسيرتِهِمْ وأعمالِهِمْ ، وما كانَ فيهِ أكثرُ همِّهِمْ : أكانَ في التدريسِ والتصنيفِ والمناظرةِ والقضاءِ والولايةِ وتولِّي الأوقافِ والوصايا ومالِ الأيتامِ ومخالطةِ السلاطينِ ومجاملتِهِمْ في العِشْرةِ ، أمْ كانَ في الخوفِ والحزنِ والتفكُّرِ والمجاهدةِ ومراقبةِ الباطنِ والظاهرِ واجتنابِ دقيقِ الإثمِ وجليلِهِ والحرصِ علىٰ إدراكِ خفايا شهواتِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ علومِ الباطنِ ؟

واعلمْ تحقيقاً : أنَّ أعلمَ أهلِ الزمانِ وأقربَهُمْ إلى الحقِّ أشبهُهُمْ بالصحابةِ وأعرفُهُمْ بطريقِ السلفِ ، فمنهُمْ أُخِذَ الدينُ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (خيرُنا أتبعُنا لهٰذا الدينِ) لمَّا أنْ قيلَ لهُ : خالفتَ فلاناً[1] .

فلا ينبغي أنْ يكترثَ بمخالفةِ أهلِ العصرِ في موافقةِ أهلِ عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ الناسَ رأوا رأياً فيما هُمْ فيهِ لميلِ طباعِهِمْ إليهِ ، ولمْ تسمحْ نفوسُهُمْ بالاعترافِ بأنَّ ذلكَ سببُ الحرمانِ مِنَ الجنةِ ، فادَّعَوا أنَّه لا سبيلَ إلى الجنَّةِ سواهُ .

ولذلكَ قالَ الحسنُ : (محدثانِ أُحدثا في الإسلامِ : رجلٌ ذو رأيِ سوءٍ زعمَ أنَّ الجنَّةَ لمنْ رأىٰ مثلَ رأيِهِ ، ومُتْرَفٌ يعبدُ الدنيا ، لها يغضبُ ولها

---

(١) رواه البزار كما في « البحر الزخار » (٨٧٧) .

يرضىٰ وإيَّاها يطلبُ ، فارفضوهُما إلى النارِ ، إنَّ رجلاً أصبحَ في هـٰذهِ الدنيا بينَ مترفٍ يدعوهُ إلىٰ دنياهُ ، وصاحبِ هوىً يدعوهُ إلىٰ هواهُ ، قدْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ منهما ، يحنُّ إلى السلفِ الصالحِ ، يسألُ عنْ أفعالِهِمْ ويقتصُّ آثارَهمْ . . متعرِّضٌ لأجرٍ عظيمٍ ، فكذلكَ كونوا)(١) .

وقدْ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً ومسنداً أنَّهُ قالَ : « إنَّما هما اثنانِ : الكلامُ والهَدْيُ ، فأحسنُ الكلامِ كلامُ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ الهدْيِ هديُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ألا وإيَّاكمْ ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ شرَّ الأمورِ محدثاتُها ، إنَّ كلَّ محدثَةٍ بدعةٌ ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ ، ألا لا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قُلوبُكُمْ ، ألا كلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، ألا إنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ »(٢) .

وفي خطبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ الناسِ ، وأنفقَ مِنْ مالٍ اكتسَبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ ، وجانبَ أهلَ الزللِ والمعصيةِ ، طُوبَىٰ لمَنْ ذَلَّ في نفسِهِ وحسنتْ خليقتُهُ ، وصلحتْ سريرتُهُ ، وعَزَلَ عنِ الناسِ شرَّهُ ، طُوبىٰ لمَنْ عملَ بعلمِهِ وأنفقَ الفضْلَ مِنْ مالِهِ وأمْسَكَ الفضلَ مِنْ قولِهِ ، ووسعتْهُ السنَّةُ ولمْ يعدُها إلىٰ بدعةٍ »(٣) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦١) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (حُسنُ الهدْيِ في آخرِ الزمانِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ)(١) .

وقالَ : (أنتمْ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ في الأمورِ ، وسيأتي بعدَكُمْ زمانٌ يكونُ خيرُهُمُ المتثبِّتَ المتوقِّفَ لكثرةِ الشبهاتِ)(٢) .

وقدْ صدقَ ؛ فمَنْ لمْ يتثبَّتْ في هـٰذا الزمانِ ووافقَ الجماهيرَ فيما هُمْ عليهِ ، وخاضَ فيما خاضوا . . هلكَ كما هلكوا .

وقالَ حذيفةُ : (أعجبُ مِنْ هـٰذا أنَّ معروفَكُمُ اليومَ منكرُ زمانٍ قدْ مضىٰ ، وأنَّ منكرَكُمْ اليومَ معروفُ زمانٍ قدْ أتىٰ ، وإنَّكُمْ لا تزالون بخيرٍ ما عرفتمُ الحقَّ ، وكانَ العالمُ فيكُمْ غيرَ مُستخَفٍّ بهِ)(٣) .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ أكثرَ معروفاتِ هـٰذهِ الأعصارِ منكراتٌ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ إذْ مِنْ غررِ المعروفاتِ في زمانِنا تزيينُ المساجدِ وتنجيدُها ، وإنفاقُ الأموالِ العظيمةِ في دقائقِ عماراتِها ، وفرشُ البُسُطِ الرفيعةِ فيها .

ولقدْ كانَ يُعدُّ فرشُ البواري(٤) في المسجدِ بدعةً ، وقيلَ : إنَّهُ مِنْ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٨٩) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٦١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٦١) ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٩١) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .
(٤) **البواري** : جمع البُوريِّ أو البارياء أو الباريَّة ؛ وهي الحصير المنسوج من قصب ، فارسية معرّبة .

محدثاتِ الحَجَّاجِ[1] ، فقدْ كانَ الأوَّلونَ قلَّما يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ الترابِ حاجزاً[2] .

وكذلكَ الاشتغالُ بدقائقِ الجدَلِ والمناظرةِ مِنْ أجلِّ علومِ أهلِ الزمانِ ، ويزعمونَ أنَّهُ مِنْ أعظمِ القرباتِ ، وقدْ كانَ ذلكَ مِنَ المنكراتِ .

ومِنْ ذلكَ التلحينُ في القرآنِ والأذانِ[3] .

ومِنْ ذلكَ التعسُّفُ في النظافةِ والوسوسةُ في الطهارةِ ، وتقديرُ الأسبابِ البعيدةِ في نجاسةِ الثيابِ ، معَ التساهلِ في حلِّ الأطعمةِ وتحريمِها ، إلىٰ نظائرِ ذلكَ[4] .

ولقدْ صدقَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ الهوىٰ فيهِ تابعٌ للعلمِ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ يكونُ العلمُ فيهِ تابعاً للهوىٰ)[5] .

وكانَ أحمدُ يقولُ : (تركوا العلمَ وأقبلوا على الغرائبِ ، ما أقلَّ الفقهَ فيهِمْ ، واللهُ المستعانُ)[6] .

---

(١) كما روي أن قتادة سجد ، فدخل في عينه قصبة وكان ضريراً ، فقال : لعن الله الحجاج ، ابتدع هـٰذه البواري يؤذي بها المصلين . قوت القلوب (١/ ١٧١) .
(٢) ويستحبون السجود عليه تواضعاً لله تعالىٰ وتخشُّعاً وذلاً . « إتحاف » (١/ ٤٣٩) .
(٣) حتىٰ لا يفهم التلاوة ، وحتىٰ تجاوز إعراب القرآن والكلمة ، بمدِّ المقصور وقصر الممدود ، وإدغام المظهر وإظهار المدغم . « إتحاف » (١/ ٤٤٠) .
(٤) انظر « قوت القلوب » (١/ ١٦٣) ، و« الإتحاف » (١/ ٤٤٠) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .
(٦) رواه الخطيب في « الكفاية » (٣٨٨) .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ : (لمْ يكنِ الناسُ فيما مضىٰ يسألونَ عنْ هٰذهِ الأمورِ كما يسألُ الناسُ اليومَ ، ولمْ يكنِ العلماءُ يقولونَ : حرامٌ ولا حلالٌ ، أدركتُهُمْ يقولونَ : مكروهٌ ومستحبٌ)(١) .

ومعناه : أنَّهمْ كانوا ينظرونَ في دقائقِ الكراهيةِ والاستحبابِ ، فأمَّا الحرامُ . . فكانَ فحشُهُ ظاهراً .

وكانَ هشامُ بنُ عروةَ يقولُ : (لا تسألوهُمُ اليومَ عمَّا أحدثوا ؛ فإنَّهمْ قدْ أعدُّوا لهُ جواباً ، ولكنْ سلوهُمْ عنِ السنَّةِ ؛ فإنَّهمْ لا يعرفونَها)(٢) .

وكانَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ : (لا ينبغي لمَنْ أُلهمَ شيئاً مِنَ الخيرِ أنْ يعملَهُ حتَّىٰ يسمعَ بهِ في الأثرِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ ما في نفسِهِ)(٣) .

وإنَّما قالَ هٰذا لأنَّ ما أُبدِعَ مِنَ الآراءِ قدْ قَرَعَ الأسماعَ وعلِقَ بالقلوبِ ، فربَّما يشوِّشُ صفاءَ القلبِ ، فيُتخيَّلُ بسببِهِ الباطلُ حقّاً ، فيُحتاطُ فيهِ بالاستظهارِ بشهادةِ الآثارِ .

ولهٰذا لما أحدثَ مروانُ المنبرَ في صلاةِ العيدِ عندَ المصلَّىٰ . . قامَ إليهِ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا مروانُ ؛ ما هٰذهِ البدعةُ ؟ فقالَ : إنَّها ليستْ بدعةً ، إنَّها خيرٌ ممَّا تعلمُ ، إنَّ الناسَ قدْ كثروا ، فأردتُ أنْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .
(٣) رواه عنه ابنُ أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٤٥١) ، وهو في « القوت » (١/ ١٦٧) .

يبلغَهُمُ الصوتُ ، فقالَ أبو سعيدٍ : واللهِ ؛ لا تأتونَ بخيرٍ ممَّا أعلمُ أبداً ، وواللهِ لا صليتُ وراءَكَ اليومَ[1] .

وإنَّما أنكرَ ذلكَ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يتوكَّأُ في خطبةِ العيدِ والاستسقاءِ على قوسٍ أوْ عصاً ، لا على المنبرِ[2] .

وفي الحديثِ المشهورِ : « مَنْ أحدثَ في دينِنا ما ليسَ منهُ . . فهوَ ردٌّ »[3] .

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ غَشَّ أمَّتِي . . فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما غشُّ أمَّتِكَ ؟ قالَ : « أنْ يَبتدعَ بدعةً يحمِلُ الناسَ عليها »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ينادي كلَّ يومٍ : مَنْ خالفَ سنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لمْ تنلْهُ شفاعتُهُ »[5] .

ومثالُ الجاني على الدينِ بإبداعِ ما يخالفُ السنَّةَ بالنسبةِ إلى مَنْ يُذْنِبُ ذنباً . . مثالُ مَنْ عصى الملِكَ في قلْبِ دولتِهِ[6] بالنسبةِ إلى مَنْ خالفَ أمرَهُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٤) ، وأصل الاتكاء في الخطب عند أبي داوود (١٠٩٦) ، وابن ماجه (١١٠٧) .

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٧٤) ، وأصله عند ابن بطة في « الإبانة » (٥١٩) .

(٥) ذكره صاحب « القوت » (١/ ١٧٤) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٤٤) .

(٦) أي : في إزاحة مُلكه وهدم مملكته .

في خدمةٍ معيَّنةٍ ، وذلكَ قدْ يُغفَرُ ؛ فأمَّا قلْبُ الدولةِ . . فلا .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ما تكلَّمَ فيهِ السلفُ . . فالسكوتُ عنهُ جفاءٌ ، وما سكتَ عنهُ السلفُ . . فالكلامُ فيهِ تكلُّفٌ)[١] .

وقالَ آخرُ : (الحقُّ ثقيلٌ ، مَنْ جاوزَهُ . . ظَلَمَ ، ومَنْ قصرَ عنهُ . . عجَزَ ، ومَنْ وقفَ معهُ . . اكتفىٰ)[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالنَّمَطِ الأوسطِ الذي يرجعُ إليهِ العالي ، ويرتفعُ إليهِ التالي »[٣] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ الضلالةَ لها حلاوةٌ في قلوبِ أهلِها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾)[٤] .

فكلُّ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ممَّا جاوزَ قدْرَ الضرورةِ والحاجةِ . . فهوَ مِنَ اللعبِ واللهوِ .

وحُكِيَ عنْ إبليسَ لعنَهُ اللهُ أنَّهُ بثَّ جنودَهُ في وقتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه في « المصنف » (٣٥٦٣٩) ، وبلفظ : (خير الناس هـٰذا النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم العالي) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .

عنهُمْ ، فرجعوا إليهِ محسورينَ ، فقالَ : ما شأنُكُمْ ؟ فقالوا : ما رأينا مثلَ هؤلاءِ ؛ ما نصيبُ منهُمْ شيئاً وقدْ أتعبونا ، فقالَ : إنَّكُمْ لا تقدرونَ عليهِمْ ؛ قدْ صحبوا نبيَّهُمْ ، وشهدوا تنزيلَ ربِّهِمْ ، ولكنْ سيأتي بعدَهُمْ قومٌ تنالونَ منهُمْ حاجتكُمْ .

فلما جاءَ التابعونَ . . بثَّ جنودَهُ ، فرجعوا إليهِ منكوسينَ منكسرينَ ، فقالوا : ما رأينا أعجبَ مِنْ هؤلاءِ ؛ نصيبُ منهُمُ الشيءَ بعدَ الشيءِ مِنَ الذنوبِ ، فإذا كانَ آخرُ النهارِ . . أخذوا في الاستغفارِ ، فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ ، فقالَ : إنَّكُمْ لنْ تنالوا مِنْ هؤلاءِ شيئاً لصحَّةِ توحيدِهِمْ ، واتباعِهِمْ لسنَّةِ نَبيِّهِمْ ، ولكنْ سيأتي بعدَ هؤلاءِ قومٌ تَقَرُّ أعينُكُمْ بهِمْ ، تلعبونَ بهِمْ لَعِباً ، وتقودونَهُمْ بأزمَّةِ أهوائِهِمْ كيفَ شئتُمْ ، إنِ استغفروا . . لمْ يغفرْ لهُمْ ، ولا يتوبونَ فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ .

قالَ : فجاءَ قومٌ بعدَ القرنِ الأوَّلِ ، فبثَّ فيهِمُ الأهواءَ ، وزيَّنَ لهُمُ البدَعَ ، فاستحلُّوها[1] ، واتخذوها ديناً ، لا يستغفرونَ اللهَ منها ، ولا يتوبونَ عنها ، فسلَّطَ عليهِمُ الأعداءَ ، وقادُوهُمْ أينَ شاؤوا[2] .

* * *

فإنْ قلتَ : مِنْ أينَ عَرَفَ قائلُ هـٰذا ما قالَهُ إبليسُ ولمْ يشاهدْ إبليسَ ولا حدَّثَهُ بذلكَ ؟

---

(١) بتشديد اللام من الحلال ، أو تخفيفها من الحلاوة ، وعندها تفتح اللام .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .

فاعلمْ : أنَّ أربابَ القلوبِ يُكاشَفونَ بأسرارِ الملكوتِ ؛ تارةً علىٰ سبيلِ الإلهامِ بأنْ يخطرَ لهُمْ علىٰ سبيلِ الورودِ عليهِمْ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وتارةً علىٰ سبيلِ الرؤيا الصادقةِ ، وتارةً في اليقظةِ علىٰ سبيلِ كشْفِ المعاني بمشاهدةِ الأمثلةِ كما يكونُ في المنامِ ، وهـٰذا أعلى الدرجاتِ ، وهيَ مِنْ درجاتِ النبوَّةِ العاليةِ ؛ كما أنَّ الرؤيا الصادقةَ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ .

فإيَّاكَ أنْ يكونَ حظُّكَ مِنَ العلمِ إنكارَ كلِّ ما جاوزَ حدَّ قصورِكَ ؛ ففيهِ هلكَ المتحذلقونَ مِنَ العلماءِ[1] ، الزاعمونَ أنَّهُمْ أحاطوا بعلومِ المعقولِ .

والجهلُ خيرٌ مِنْ عقلٍ يدعو إلىٰ إنكارِ مثلِ هـٰذهِ الأمورِ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ[2] ، ومَنْ أنكرَ ذلكَ للأولياءِ . . لزمَهُ إنكارُهُ للأنبياءِ ، وكانَ خارجاً عَنِ الدينِ بالكليَّةِ[3] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّما انقطعَ الأبدالُ في أطرافِ الأرضِ واستتروا عنْ أعينِ الجمهورِ . . لأنَّهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلىٰ علماءِ الوقتِ ؛ لأنَّهُمْ

---

(١) المتحذلقون : المتكيِّسون الذين يتظرَّفون في الكلام طلباً لزيادة القدْر عند الناس .
(٢) لأن أشرف أقوال الجاهلين التسليم والتفويض لما لا يعلمون ، وهو أقل أحوال العالمين ، فبالنظر إلىٰ ذلك كان بعضُ الجهل خيراً من العلم . « إتحاف » (١/ ٤٤٦) .
(٣) لأن طريق الفيض واحد ، وإنما يختلف تلقيه بحسب الاستعدادات ، فما كان للأنبياء . . فهو للأولياء مع مباينة الاستعداد ، ما عدا مرتبة النبوة التي لا يلحقها لاحق ، ولا يشق غبارها سابق ، فإنكار ما للأولياء يورثه الإنكار لما للأنبياء . « إتحاف » (١/ ٤٤٦) .

عندَهمْ جهَّالٌ باللهِ تعالىٰ ، وهُمْ عندَ أنفسِهِمْ وعندَ الجاهلينَ علماءُ)[1] .

وقالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ المعاصي الجهلَ بالجهلِ ، والنظرَ إلى العامَّةِ ، واستماعَ كلامِ أهلِ الغفلةِ)[1] .

وكلُّ عالمٍ خاضَ في الدنيا فلا ينبغي أنْ يُصغَىٰ إلىٰ قولِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يُتَّهمَ في كلِّ ما يقولُ ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يخوضُ فيما أحبَّ ، ويدفعُ ما لا يوافقُ محبوبَهُ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ .

والعوامُّ العصاةُ أسعدُ حالاً مِنَ الجهَّالِ بطريقِ الدينِ ، المعتقدينَ أنَّهمْ مِنَ العلماءِ ؛ لأنَّ العاميَّ العاصيَ معترفٌ بتقصيرِهِ ، فيستغفرُ ويتوبُ ، وهٰذا الجاهلُ الظانُّ أنَّهُ عالمٌ ، وأنَّ ما هوَ مشتغلٌ بهِ منَ العلومِ التي هيَ وسائلُهُ إلى الدنيا مِنْ سلوكِ طريقِ الدينِ . فلا يتوبُ ولا يستغفرُ ، بلْ لا يزالُ مستمرّاً عليهِ إلى الموتِ .

وإذْ غلبَ هٰذا علىٰ أكثرِ الناسِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وانقطعَ الطمعُ مِنْ إصلاحِهِمْ . فالأسلمُ لدينِ المحتاطِ العزلةُ والانفرادُ عنهُمْ ، كما سيأتي في كتابِ العزلةِ بيانُهُ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولذلكَ كتبَ يوسفُ بنُ أسباطٍ إلىٰ حذيفةَ المَرْعشيِّ : (ما ظنُّكَ بمنْ بقيَ لا يجدُ أحداً يذكرُ اللهَ تعالىٰ معهُ إلا كانَ آثماً ، وكانتْ مذاكرتُهُ معصيةً ؟)[1] ، وذلكَ أنَّهُ لا يجدُ أهلَهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٦) .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ مخالِطَ الناسِ لا ينفكُّ عنْ غِيبةٍ أوْ عنْ سماعِ غيبةٍ ، أوْ عنْ سكوتٍ علىٰ منكرٍ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يفيدَ علماً أو يستفيدَهُ .

ولوْ تأمَّلَ هـٰذا المسكينُ وعلمَ أنَّ إفادتَهُ لا تخلُو عنْ شوائبِ الرياءِ وطلبِ الجمعِ والرئاسةِ . . علمَ أنَّ المستفيدَ إنَّما يريدُ أنْ يجعلَ ذلكَ آلةً إلىٰ طلبِ الدنيا ، ووسيلةً إلى الشرِّ ، فيكونَ هوَ مُعيناً لهُ علىٰ ذلكَ ؛ ورِدْءاً وظهيراً ومهيئاً لأسبابِهِ ؛ كالذي يبيعُ السيفَ مِنْ قطَّاعِ الطريقِ ، فالعلمُ كالسيفِ ، وصلاحُهُ للخيرِ كصلاحِ السيفِ للغزوِ ، وذلكَ لا يرخِّصُ في البيعِ ممَّنْ يعلمُ بقرائنِ أحوالِهِ أنَّهُ يريدُ بهِ الاستعانةَ علىٰ قطْعِ الطريقِ .

فهـٰذهِ اثنتا عشرةَ علامةً مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، تجمعُ كلُّ واحدةٍ منها جُمَلاً مِنْ أخلاقِ علماءِ السلفِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مُتَّصفاً بهـٰذهِ الصفاتِ ، أوْ معترفاً بالتقصيرِ معَ الإقرارِ بهِ ، وإيَّاكَ أنْ تكونَ الثالثَ فتلبِّسَ علىٰ نفسِكَ بأنْ تلقِّبَ آلةَ الدنيا بالدينِ ، وتشبِّهَ سيرةَ البطَّالينَ بسيرةِ العلماءِ الراسخينَ ، وتلتحقَ بجهلِكَ وإنكارِكَ بزمرةِ الهالكينَ الآيسينَ .

نعوذُ باللهِ مِنْ خدعِ الشيطانِ ، فبها هلكَ الجمهورُ ، ونسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا ممَّنْ لا تغرُّهُ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرُّهُ باللهِ الغَرورُ .

* * *

الباب السابع
في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا لا يُحتاجُ إلىٰ تكلُّفٍ في إظهارِهِ ، لا سيما وقدْ ظهرَ شرفُ العلمِ مِنْ قبلِ العقلِ ، والعقلُ منبعُ العلْمِ ومَطْلِعُهُ وأساسُهُ ، والعلْمُ يجري منهُ مَجرى الثمرةِ مِنَ الشجرةِ ، والنورِ مِنَ الشمسِ ، والرؤيةِ مِنَ العينِ ، وكيفَ لا يَشْرُفُ ما هوَ وسيلةُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ ؟![1] .

أوْ كيفَ يُسترابُ فيهِ والبهيمةُ معَ قصورِ تمييزِها تحتشمُ العقْلَ ، حتَّىٰ إنَّ أعظمَ البهائمِ بَدناً وأشدَّها ضراوةً وأقواها سطوةً إذا رأىٰ صورةَ الإنسانِ . . احتشمَهُ وهابَهُ ؛ لشعورِهِ باستيلائِهِ عليهِ ، بما خُصَّ بهِ مِنْ إدراكِ الحيلِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «الشيخُ في قومِهِ كالنبيِّ في أُمتِهِ»[2] .

---

(١) أما السعادة الدنيوية : فمن أعظمها أن الإنسان به يصير خليفة الله في أرضه ، وأما الأخروية : فإنه به يحصل حرث الآخرة المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ ، وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنىً بلا فقر ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعزٌّ بلا ذلّ . « إتحاف » (١/ ٤٤٩) .

(٢) رواه الرافعي من طريق الخليل الحافظ في « مشيخته » بسنده مرفوعاً كما في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٤٩) .

وليسَ ذلكَ لكثرَةِ مالِهِ ، ولا لكبرِ شخصِهِ ، ولا لزيادةِ قوّتِهِ ، بلْ لزيادةِ تجربتِهِ التي هيَ ثمرةُ عقلِهِ .

ولذلكَ ترى الأتراكَ والأكرادَ وأجلافَ العربِ وسائرَ الخلْقِ معَ قربِ رتبتِهِمْ مِنَ البهائمِ يوقِّرونَ المشايخَ بالطبْعِ .

ولذلكَ حينَ قَصَدَ كثيرٌ مِنَ المعاندينَ قَتْلَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمَّا وقعتْ أعينُهُمْ عليهِ واكتحلُوا بغرَّتِهِ الكريمةِ . . هابوهُ ، وتراءىٰ لهُمْ ما كانَ يتلألأُ علىٰ ديباجةِ وجهِهِ مِنْ نورِ النبوَّةِ، وإنْ كانَ ذلكَ باطناً في نفسِهِ بطونَ العقلِ .

وشرفُ العقلِ مدرَكٌ بالضرورةِ ، وإنما القصْدُ أنْ نوردَ ما وردتْ بهِ الأخبارُ والآياتُ في ذكرِ شرفِهِ .

وقدْ سماهُ اللهُ تعالىٰ نوراً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآيةَ .

وسمَّى العلمَ المستفادَ منهُ روحاً وحياةً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ .

وحيثُ ذَكَرَ النورَ والظلمةَ أرادَ بهِ العلمَ والجهلَ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ اعقلوا عنْ ربِّكُمْ وتواصوا بالعقلِ . . تعرفوا بهِ ما أُمرتُمْ بهِ وما نُهيتُمْ عنهُ ، واعلموا أنَّهُ مجدُكُمْ

عندَ ربِّكُمْ ، واعلموا أنَّ العاقِلَ مَنْ أطاعَ اللهَ وإنْ كانَ دميمَ المنظرِ حقيرَ الخطرِ دنيءَ المنزلةِ رثَّ الهيئةِ ، وإنَّ الجاهِلَ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ وإنْ كانَ جميلَ المنظرِ عظيمَ الخطرِ شريفَ المنزلةِ حسنَ الهيئةِ فصيحاً نطوقاً ، فالقردةُ والخنازيرُ أعقلُ عندَ اللهِ تعالىٰ ممَّنْ عصاهُ ، ولا تغتروا بتعظيمِ أهلِ الدنيا إيَّاكمْ ، فإنَّهُمْ مِنَ الخاسرينَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلُ ، فقالَ لهُ : أقبلْ ، فأقبلَ ، ثمَّ قالَ لهُ : أدبرْ ، فأدبرَ ، ثمَّ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : وعزَّتي وجلالي ؛ ما خلقتُ خَلقاً أكرمَ عَلَيَّ منكَ ، بكَ آخذُ ، وبكَ أعطي ، وبكَ أثيبُ ، وبكَ أعاقبُ »(٢) .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذا العقلُ إنْ كانَ عَرَضاً . . فكيفَ خُلِقَ قبلَ الأجسامِ ؟ وإنْ كانَ جوهراً . . فكيفَ يكونُ جوهرٌ قائمٌ بنفسِهِ لا يتحيَّزُ ؟(٣) .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ ذكرُهُ بعلْمِ المعاملةِ ، وغرضُنا الآنَ ذكرُ علومِ المعاملةِ .

* * *

---

(١) هو من أحاديث داوود بن المحبر في كتابه « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) ، وانظر المراد بلفظ (العقل) في ما نقله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٤٥٣) .

(٣) قوله : (جوهر قائم) اسم (يكون) ، وخبرها جملة : (لا يتحيز) .

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : أثنىٰ قومٌ علىٰ رجلٍ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ بالغوا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيف عَقْلُ الرجلِ ؟ » فقالوا : نخبرُكَ عنِ اجتهادِهِ في العبادةِ وأصنافِ الخيرِ وتسألُنا عنْ عقلِهِ ؟! فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحمقِهِ أعظمَ مِنْ فجورِ الفاجرِ ، وإنَّما يرتفعُ العبادُ غداً في الدرجاتِ الزُّلفىٰ مِنْ ربِّهِمْ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »(١) .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما اكتسبَ رجلٌ مثلَ فضلِ عقْلٍ يهدي صاحبَهُ إلىٰ هُدىً ويردُّهُ عنْ ردىً ، وما تَمَّ إيمانُ عبْدٍ ولا استقامَ دينُهُ حتَّىٰ يكملَ عقلُهُ »(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليدرِكُ بحسْنِ خلقِهِ درجةَ الصائمِ القائمِ ، ولا يتمُّ لرجلٍ حسنُ خلقِهِ حتَّىٰ يتمَّ عقلُهُ ، فعندَ ذلكَ تمَّ إيمانُهُ وأطاعَ ربَّهُ وعَصَىٰ عدوَّهُ إبليسَ »(٣) .

ورُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لكلِّ شيءٍ دعامةٌ ، ودعامةُ المؤمنِ عقلُهُ ، فبقدْرِ عقلِهِ تكونُ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

(٢) روىٰ بنحوه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٣٨) .

(٣) الجملة الأولىٰ منه رواها أبو داوود (٤٧٩٨) ، وتمامه من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٦) .

عبادتُهُ ، أما سمعتُمْ قولَ الفُجَّارِ : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ »(١) .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ لتميمٍ الداريِّ : ما السُّؤْدَدُ فيكمْ ؟ قالَ : العقلُ ، قالَ : صدقتَ ؛ سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما سألتُكَ فقالَ كما قلْتَ ، ثمَّ قالَ : « سألتُ جبريلَ عليهِ السلامُ : ما السُّؤْدُدُ ؟ قالَ : العقلُ »(١) .

وعنِ البراءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كثرتِ المسائلُ يوماً على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ لكلِّ شيءٍ مطيةً ، ومطيَّةُ المرءِ العقلُ ، وأحسنُكُمْ دلالةً ومعرفةً بالمحجَّةِ أفضلُكُمْ عقلاً »(١) .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : لمَّا رجعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ غزوةِ أُحُدٍ . . سَمِعَ الناسَ يقولونَ : كانَ فلانٌ أشجعَ مِنْ فلانٍ ، وفلانٌ أبلىٰ ما لمْ يُبْلِ غيرُهُ ، ونحوَ هـٰذا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّا هـٰذا . . فلا علْمَ لكمْ بهِ » ، قالوا : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهمْ قاتلوا علىٰ قدْرِ ما قسمَ اللهُ لهُمْ مِنَ العقلِ ، وكانَ نُصرتُهُمْ ونيَّتُهُمْ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، فأُصيبَ مِنهُ مَنْ أُصيبَ علىٰ منازلَ شتَّىٰ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . اقتسموا المنازلَ علىٰ قدْرِ نيَّاتِهِمْ وقدْرِ عقولِهِمْ »(٢) .

---

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٦) .
(٢) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٧) .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « جَدَّ الملائكةُ واجتهدوا في طاعةِ اللهِ سبحانَهُ بالعَقْلِ ، وجَدَّ المؤمنونَ مِنْ بني آدمَ على قدْرِ عقولِهِمْ ، فأعملُهُمْ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أوفرُهُمْ عقلاً »[1] .

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بِمَ يتفاضلُ الناسُ في الدنيا ؟ قال : « بالعقلِ » ، قلتُ : وفي الآخرةِ ؟ قال : « بالعقلِ » ، قلتُ : أليسَ إنَّما يُجزونَ بِأعمالِهِمْ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشَةُ ؛ وهلْ عَملُوا إلا بقدْرِ ما أعطاهُمُ اللهُ مِنَ العقلِ ؟! فبقدْرِ ما أُعْطُوا مِنَ العقْلِ كانتْ أعمالُهُمْ ، وبقدْرِ ما عملُوا يُجزونَ »[1] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكُلِّ شيءٍ آلةٌ وعُدَّةٌ ، وإنَّ آلةَ المؤمنِ العقلُ ، ولكلِّ شيءٍ مطيَّةٌ ، ومطيَّةُ المرءِ العقلُ ، ولكلِّ شيءٍ دِعامةٌ ، ودِعامَةُ الدينِ العقلُ ، ولكُلِّ قومٍ غايةٌ ، وغايةُ العبادِ العقلُ ، ولكُلِّ قومٍ داعٍ ، وداعي العابدينَ العقلُ ، ولكلِّ تاجرٍ بضاعةٌ ، وبضاعةُ المجتهدينَ العقلُ ، ولكلِّ أهلِ بيتٍ قَيِّمٌ ، وقيِّمُ بيوتِ الصدِّيقينَ العقلُ ، ولكلِّ خرابٍ عمارةٌ ، وعمارةُ الآخرةِ العقلُ ، ولكُلِّ امرئٍ عَقِبٌ يُنسبُ إليهِ ويُذكرُ بهِ ، وعَقِبُ الصدِّيقينَ الذي يُنسبونَ إليهِ ويُذكرونَ بهِ العقلُ، ولكلِّ سَفْرٍ فُسْطَاطٌ[2]، وفُسطَاطُ المؤمنينَ العقلُ»[1] .

---

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٧) .

(٢) **السَّفْر** : القوم المسافرون ، **والفسطاط** : الخيمة .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّ المؤمنينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مَنْ نصبَ في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونَصَحَ لِعبادِهِ ، وكمُلَ عقلُهُ ، ونصحَ نفسَهُ فأبصرَ ، وعملَ بهِ أيامَ حياتِهِ فأفلحَ وأَنْجحَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدُّكُمْ للهِ خوفاً ، وأحسنُكُمْ فيما أمَرَ بهِ ونَهَىٰ عنهُ نظراً ، وإنْ كانَ أقلَّكُمْ تطوُّعاً »[2] .

* * *

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) .

(٢) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » ، انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) . وقد روىٰ هـٰذه الأحاديث عنه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » ، وأوردها ابن حجر في « المطالب العالية » ، وأورد بعضها ابن الجوزي في « الموضوعات » ، والسيوطي في « اللآلىء المصنوعة » .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلمْ : أنَّ الناسَ اختلفوا في حدِّ العقلِ وحقيقتِهِ ، وذَهَلَ الأكثرونَ عنْ كونِ هـٰذا الاسمِ مطلقاً علىٰ معانٍ مختلفةٍ ، فصارَ ذلكَ سببَ اختلافِهِمْ .

والحقُّ الكاشفُ للغطاءِ فيهِ : أنَّ العقلَ اسمٌ يُطلقُ بالاشتراكِ علىٰ أربعةِ معانٍ ، كما يُطلقُ اسمُ العينِ مثلاً علىٰ معانٍ عدَّةٍ ، وما يجري هـٰذا المَجرىٰ ، فلا ينبغي أنْ يُطلبَ لجميعِ أقسامِهِ حدٌّ واحدٌ ، بلْ يُفردُ كلُّ قسمٍ بالكشْفِ عنهُ .

❊ ❊ ❊

فالأوَّلُ : **الوصفُ الذي يفارقُ الإنسانُ بِهِ سائرَ البهائمِ** : وهوَ الذي بهِ استعدَّ لقبولِ العلومِ النظريةِ ، وتدبيرِ الصناعاتِ الخفيَّةِ الفكريةِ ، وهوَ الذي أرادَهُ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبيُّ حيثُ قالَ في حدِّ العقلِ : (إنَّهُ غريزةٌ يتهيَّأُ بها إدراكُ العلومِ النظريةِ ، وكأنَّهُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ بهِ يستعدُّ لإدراكِ الأشياءِ) .

ولمْ ينصفْ مَنْ أنكرَ هـٰذا ، وردَّ العقلَ إلىٰ مجرَّدِ العلومِ الضروريةِ ؛ فإنَّ الغافلَ عنِ العلومِ والنائمَ يُسمَّيانِ عاقلينِ باعتبارِ وجودِ هـٰذهِ الغريزةِ فيهِما معَ فقْدِ العلومِ ، وكما أنَّ الحياةَ غريزةٌ بها يتهيَّأُ الجسمُ للحركاتِ الاختياريةِ

والادراكاتِ الحسيَّةِ . . فكذلكَ العقلُ غريزةٌ بها تتهيَّأُ بعضُ الحيواناتِ للعلومِ النظريةِ .

ولوْ جازَ أنْ يُسوَّىٰ بينَ الإنسانِ والحمارِ في الغريزةِ والإدراكاتِ الحسيَّةِ فيُقالَ : لا فرقَ بينهُمَا إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ بحكْمِ إجراءِ العادةِ يخلُقُ في الإنسانِ علوماً وليسَ يخلقُها في الحمارِ والبهائمِ . . لجازَ أنْ يُسوَّىٰ بينَ الجمادِ والحمارِ في الحياةِ ويُقالَ : لا فرقَ إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ يخلقُ في الحمارِ حركاتٍ مخصوصةً بحكمِ إجراءِ العادةِ ؛ فإنَّهُ لوْ قُدِّرَ الحمارُ جماداً ميِّتاً . . لوجبَ القولُ بأنَّ كلَّ حركةٍ تُشاهَدُ منهُ فاللهُ سبحانَهُ قادرٌ علىٰ خلقِها فيهِ على الترتيبِ المشاهدِ ، وكما وجبَ أنْ يُقالَ : لمْ يكنْ مفارقتُهُ للجمادِ في الحركةِ إلا بغريزةٍ اختصَّتْ بهِ عُبِّرَ عنها بالحياةِ . . فكذا مفارقةُ الإنسانِ للبهيمةِ في إدراكِ العلومِ النظريةِ بغريزةٍ يُعبَّرُ عنها بالعقلِ(١) .

وهوَ كالمرآةِ التي تفارقُ غيرَها مِنَ الأجسامِ في حكايةِ الصورِ والألوانِ بصفةٍ اختصَّتْ بها وهيَ الصقالةُ ، وكذلكَ العينُ تفارقُ الجبهةَ في هيئاتٍ وصفاتٍ بها استعدَّتْ للرؤيةِ ، فنسبةُ هـٰذهِ الغريزةِ إلى العلومِ كنسبةِ العينِ إلى الرؤيةِ ، ونسبةُ القرآنِ والشرعِ إلىٰ هـٰذه الغريزةِ في سياقِها إلى انكشافِ العلومِ لها كنسبةِ نورِ الشمسِ إلى البصرِ ، فهكذا ينبغي أنْ تُفهمَ هـٰذهِ الغريزةُ .

* * *

---

(١) فثبت بما ذكر تصحيح قول المحاسبي . « إتحاف » (١/ ٤٦٠) .

الثاني : هيَ العلومُ التي تخرجُ إلى الوجودِ في ذاتِ الطفلِ المميِّزِ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ : كالعلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، وأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ في وقتٍ واحدٍ ، وهوَ الذي عناهُ بعضُ المتكلمينَ حيثُ قالَ في حدِّ العقلِ : (إنَّهُ بعضُ العلومِ الضروريةِ ؛ كالعلمِ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ) .

وهوَ أيضاً صحيحٌ في نفسِهِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ العلومَ موجودةٌ ، وتسميتُها عقلاً ظاهرٌ ، وإنَّما الفاسدُ أنْ تُنكرَ تلكَ الغريزةُ ويقالَ : لا موجودَ إلا هـٰذهِ العلومُ .

* * *

الثالثُ : علومٌ تُستفادُ مِنَ التجاربِ بمجاري الأحوالِ : فإنَّ مَنْ حنَّكتْهُ التجاربُ وهذَّبتْهُ المذاهبُ يُقالُ : إنَّهُ عاقلٌ في العادةِ ، ومَنْ لا يتصفُ بهـٰذهِ الصفةِ . فيُقالُ : إنَّهُ غبيٌّ غُمْرٌ جاهلٌ ، فهـٰذا نوعٌ آخرُ مِنَ العلومِ سُمِّيَ عقلاً .

* * *

والرابعُ : أنْ تنتهيَ قوَّةُ تلكَ الغريزةِ إلىٰ أنْ يعرفَ عواقبَ الأمورِ ، ويقمعَ الشهوةَ الداعيةَ إلى اللذَّةِ العاجلةِ ويقهرَها : فإذا حصلتْ هـٰذهِ القوَّةُ سُمِّيَ صاحبُها عاقلاً ، مِنْ حيثُ إنَّ إقدامَهُ وإحجامَهُ بحسَبِ ما يقتضيهِ النظرُ في العواقبِ ، لا بحكمِ الشهوةِ العاجلةِ ، وهـٰذهِ أيضاً مِنْ خواصِّ الإنسانِ التي بها يتميَّزُ عنْ سائرِ الحيوانِ .

فالأولُ : هوَ الأسُّ والسِنْخُ والمنبعُ .

والثاني : هوَ الفرْعُ الأقربُ إليهِ .

والثالثُ : فرعُ الأوّلِ والثاني ؛ إذْ بقوّةِ الغريزةِ والعلومِ الضروريةِ تستفادُ علومُ التجاربِ .

والرابعُ : هوَ الثمرةُ الأخيرةُ ، وهيَ الغايةُ القصوىٰ .

فالأوّلانِ بالطبْعِ ، والأخيرانِ بالاكتسابِ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ[1] : [من الهزج]

رَأَيْــتُ ٱلْعَقْــلَ عَقْلَيْــنِ ... فَمَطْبُــوعٌ وَمَسْمُــوعُ
وَلاَ يَنْفَــعُ مَسْمُــوعٌ ... إِذَا لَــمْ يَــكُ مَطْبُــوعُ
كَمَــا لاَ تَنْفَــعُ ٱلشَّمْــسُ ... وَضَــوْءُ ٱلْعَيْــنِ مَمْنُــوعُ

والأوّلُ هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما خلقَ اللهُ خلقاً أكرمَ عليهِ مِنَ العقلِ »[2] ، والأخيرُ هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تقرَّبَ الناسُ بأبوابِ البِرِّ والأعمالِ الصالحةِ . . فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ »[3] ، وهوَ المرادُ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : « ازددْ عقلاً . . تزددْ مِنْ ربِّكَ قُرْباً » ، فقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي ؛ وكيفَ لي بذلكَ ؟

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ : « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص١٦١) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٨) .

فقالَ : « اجتنبْ محارمَ اللهِ تعالىٰ ، وأدِّ فرائضَ اللهِ سبحانَهُ . . تكنْ عاقِلاً ، واعملْ بالصالحاتِ مِنَ الأعمالِ . . تزددْ في عاجلِ الدنيا رفعةً وكرامةً ، وتنلْ في آجِلِ العُقْبَىٰ بها مِنْ ربِّكَ عزَّ وجلَّ القربَ والعِزَّ »(١) .

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ : أنَّ عمرَ وأُبَيَّ بنَ كعبٍ وأبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ دخلوا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا : يا رسُولَ اللهِ ؛ مَنْ أعلمُ الناسِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العاقلُ » ، قَالُوا : فَمَنْ أعبدُ الناسِ ؟ قالَ : « العاقلُ » ، قالوا : فَمَنْ أفضلُ الناسِ ؟ قالَ : « العاقلُ » ، قالوا : أليسَ العاقلُ مَنْ تَمَّتْ مروءَتُهُ ، وظهرتْ فصاحتُهُ ، وجادتْ كفُّهُ ، وعظُمتْ منزلتُهُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ، إنَّ العاقلَ هوَ المتقي وإنْ كانَ في الدنيا خسيساً ذليلاً »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ آخرَ : « إنَّما العاقلُ مَنْ آمنَ باللهِ وصدَّقَ رسلَهُ وعملَ بطاعتِهِ »(٣) .

ويشبهُ أنْ يكونَ الاسمُ في أصلِ اللغةِ لتلكَ الغريزةِ ، وكذا في الاستعمالِ ، وإنَّما أُطلقَ على العلومِ مِنْ حيثُ إنَّها ثمرتُها كما يُعرفُ الشيءُ بثمرتِهِ ، فيُقالُ : (العلمُ هوَ الخشيةُ ، والعالمُ مَنْ يخشى اللهَ تعالىٰ) ؛ فإنَّ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .
(٢) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٦٢) .
(٣) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٦٢) .

الخشيةَ ثمرةُ العلمِ ، فيكونُ كالمجازِ لغيرِ تلكَ الغريزةِ ، ولكنْ ليسَ الغرضُ البحثَ عنِ اللغةِ[1] .

والمقصودُ أنَّ هـٰذهِ الأقسامَ الأربعةَ موجودةٌ ، والاسمُ يُطلقُ علىٰ جميعِها ، ولا خلافَ في وجودِ جميعِها إلا في القسمِ الأولِ ، والصحيحُ وجودُها ، بلْ هيَ الأصلُ ، وهـٰذهِ العلومُ كأنَّها مضمَّنَةٌ في تلكَ الغريزةِ بالفطرةِ ، ولكنْ تظهرُ إلى الوجودِ إذا جَرىٰ سببٌ يُخرجُها إلى الوجودِ ، حتَّىٰ كأنَّ هـٰذهِ العلومَ ليستْ بشيءٍ واردٍ عليها مِنْ خارجٍ ، وكأنَّها كانتْ مستكنَّةً فيها فظهرتْ .

ومثالُهُ : الماءُ في الأرضِ ؛ فإنَّهُ يظهرُ بحَفْرِ القُنِيِّ[2] ، ويجتمعُ ويتميَّزُ بالحسِّ ، لا بأنْ يُساقَ إليها شيءٌ جديدٌ ، وكذلكَ الدُّهْنُ في اللوزِ ، وماءُ الوِرْدِ في الورْدِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ ، فالمرادُ بهِ : إقرارُ نفوسِهِمْ لا إقرارُ الألسنةِ ؛ فإنَّهُمُ انقسموا في إقرارِ الألسنةِ حيثُ وجدتِ الألسنةُ والأشخاصُ إلىٰ مقرٍّ وجاحدٍ[3] .

---

(١) أشار بذلك إلىٰ أنه خالفهم ـ أهل اللغة ـ فيما أطبقوا عليه . « إتحاف » (١/ ٤٦٣) .
(٢) **القُنِيُّ** : جمع قناة ؛ وهي الجدول الصغير .
(٣) فمنهم من بقي علىٰ إقراره الأصلي من أول وهلة ، ومنهم من راجع إقراره فيما بعد بتوفيق من الله تعالىٰ ، ومنهم من لم يقرَّ مطلقاً ، فالإقرار ثابت بنص الآية ولكن =

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، معناهُ : إنِ اعتبرتَ أحوالَهُمْ . . شهدتْ بذلكَ نفوسُهُمْ وبواطنُهُمْ ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أيْ : كلُّ آدميٍّ فُطِرَ على الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، بلْ علىٰ معرفةِ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ[1] ؛ أعني : أنَّها كالمضمَّنةِ فيها لقربِ استعدادِها للإدراكِ .

ثمَّ لمَّا كانَ الإيمانُ مركوزاً في النفوسِ بالفطرةِ . . انقسمَ الناسُ إلىٰ قسمينِ : إلىٰ مَنْ أعرضَ فنسيَ وهُمُ الكفَّارُ ، وإلىٰ مَنْ أجالَ خاطرَهُ فتذكَّرَ ، فكانَ كمَنْ حملَ شهادةً فنسيَها بغفلةٍ ثمَّ تذكَّرَها ؛ ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وتسميةُ هٰذا النمطِ تذكُّراً ليسَ ببعيدٍ ، وكأنَّ التذكُّرَ ضربانِ :

أحدُهما : أنْ يذكُرَ صورةً كانتْ حاضرةَ الوجودِ في قلبهِ لكنْ غابتْ بعدَ الوجودِ .

= لا بالألسنة، وهٰذا الذي أورده المصنف أشار به إلىٰ ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية وغاية ما يبلغ إليه الإنسان من ذلك ؛ فأشرف ثمرة العقل معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وحسن طاعته والكف عن معصيته . « إتحاف » (١/ ٤٦٣) .

(١) ولم يقل : (بل علىٰ معرفة الله تعالىٰ) ، فإنه إنما عنىٰ بالإيمان معرفة الله الضرورية ؛ وهي معرفة كل أحد أنه مفعول ، وأن له فاعلاً فعله ونقله من الأحوال المختلفة ، لا المعرفة المكتسبة . « إتحاف » (١/ ٤٦٣) .

والآخرُ : أنْ يكونَ عنْ صورةٍ كانتْ مضمَّنَةً فيهِ بالفطرةِ .

وهـٰذهِ حقائقُ ظاهرةٌ للناظرِ بنورِ البصيرةِ ، ثقيلةٌ علىٰ مَنْ مستروَحُهُ السماعُ والتقليدُ دونَ الكشْفِ والعيَانِ ، ولذلكَ تراهُ يتخبَّطُ في مثلِ هـٰذهِ الآياتِ ، ويتعسَّفُ في تأويلِ التذكُّرِ وإقرارِ النفوسِ أنواعاً مِنَ التعسفاتِ ، ويتخايلُ إليهِ في الأخبارِ والآياتِ ضروبٌ مِنَ المناقضاتِ ، وربَّما يغلبُ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ ينظرَ إليها بعينِ الاستحقارِ ، ويعتقدَ فيها التهافتَ .

ومثالُهُ : مثالُ الأعمى الذي يدخلُ داراً فيعثُرُ فيها بالأواني المصفوفةِ في الدارِ فيقولُ : ما لهـٰذهِ الأواني لا تُرفعُ مِنَ الطريقِ وتُردُّ إلىٰ مواضعِها ؟ فيُقالُ لهُ : إنَّها في مواضعِها ، وإنَّما الخلَلُ في بصرِكَ .

فكذلكَ خلَلُ البصيرةِ يجري مَجراهُ وأطمُّ منهُ وأعظمُ ؛ إذِ النفسُ كالفارسِ ، والبدنُ كالفرسِ ، وعَمَى الفارسِ أضرُّ مِنْ عَمَى الفرسِ .

ولمشابهةِ بصيرةِ الباطنِ لبصرِ الظاهرِ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآيةَ .

وسمَّىٰ ضدَّهُ عمىً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وهـٰذِهِ الأمورُ التي كُشفتْ للأنبياءِ بعضُها كانَ بالبصرِ ، وبعضُها كانَ بالبصيرةِ ، وسمَّى الكلَّ رؤيةً .

وبالجملةِ : مَنْ لمْ تكنْ بصيرتُهُ الباطنةُ ثاقبةً . . لمْ يعلقْ بهِ مِنَ الدينِ إلا قُشُورُهُ وأمثلتُهُ دونَ لبابِهِ وحقائقِهِ .

فهـٰذِهِ أقسامُ ما ينطلقُ اسمُ العقلِ عليها .

* * *

بيان تفاوت الناس في العقل

قدِ اختلفَ الناسُ في تفاوتِ العقلِ ، ولا معنىٰ للاشتغالِ بنقلِ كلامِ مَنْ قلَّ تحصيلُهُ ، بلِ الأولى والأهمُّ المبادرةُ إلى التصريحِ بالحقِّ .

والحقُّ الصريحُ فيهِ أنْ يقالَ : إنَّ التفاوتَ يتطرَّقُ إلى الأقسامِ الأربعةِ سوى القسمِ الثاني ؛ وهوَ العلمُ الضروريُّ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ ؛ فإنَّ مَنْ عرفَ أنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ . . عرفَ أيضاً استحالةَ كونِ الجسْمِ في مكانينِ ، وكونِ الشيءِ الواحدِ قديماً حادثاً ، وكذا سائرُ النظائرِ ، وكلُّ مَنْ يدركُهُ يدركُهُ إدراكاً محقَّقاً مِنْ غيرِ شكٍّ(١) ، فأمَّا الأقسامُ الثلاثةُ . . فالتفاوتُ يتطرقُ إليها .

أمَّا القسمُ الرابعُ ـ وهوَ استيلاءُ القوَّةِ علىٰ قمْعِ الشهواتِ ـ فلا يخفىٰ تفاوتُ الناسِ فيهِ ، بلْ لا يخفىٰ تفاوتُ أحوالِ الشخصِ الواحدِ فيهِ .

وهـٰذا التفاوتُ يكونُ تارةً لتفاوتِ الشهوةِ ؛ إذْ قدْ يقدرُ العاقلُ علىٰ تركِ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضٍ ، ولكنْ غيرُ مقصورٍ عليهِ ؛ فإنَّ الشابَّ قدْ يعجَزُ عنْ تركِ الزنا ، وإذا كَبِرَ وتمَّ عقلُهُ . . قدرَ عليهِ ، وشهوةُ الرياءِ والرياسةِ تزدادُ قوَّةً بالكِبَرِ لا ضعفاً .

وقدْ يكونُ سببُهُ التفاوتَ في العلْمِ المعرِّفِ لغائلةِ تلكَ الشهوةِ ، ولهـٰذا

---

(١) في (ج) : (وكل ما يدركه العاقل إدراكاً . . .) ، وكذا في « الإتحاف » (١/ ٤٦٥) .

يقدرُ الطبيبُ على الاحتماءِ عنْ بعضِ الأطعمةِ المضرَّةِ ، وقدْ لا يقدرُ مَنْ يساويهِ في العقلِ علىٰ ذلكَ إذا لمْ يكنْ طبيباً وإنْ كانَ يعتقدُ على الجملةِ فيهِ مضرَّةً ، ولكنْ إذا كانَ علْمُ الطبيبِ أتمَّ . . كانَ خوفُهُ أشدَّ ، فيكونُ الخوفُ جنداً للعقلِ ، وعُدَّةً في قمعِ الشهواتِ وكسرِها ، وكذلكَ يكونُ العالمُ أقدرَ علىٰ تركِ المعاصي مِنَ الجاهلِ ؛ لقوَّةِ علمِهِ بضررِ المعاصي ، وأعني بهِ : العالمَ الحقيقيَّ دونَ أربابِ الطيالسةِ وأصحابِ الهذيانِ .

فإنْ كانَ التفاوتُ مِنْ جهةِ الشهوةِ . . لمْ يرجعْ إلىٰ تفاوتِ العقلِ ، وإنْ كانَ مِنْ جهةِ العلمِ . . فقدْ سمَّينا هـٰذا الضربَ مِنَ العلمِ عقلاً ، فإنَّهُ يقوِّي غريزةَ العقلِ ، فيكونُ التفاوتُ فيما رجعتِ التسميةُ إليهِ .

وقدْ يكونُ بمجرَّدِ التفاوتِ في غريزةِ العقلِ ؛ فإنَّها إذا قويتْ . . كانَ قمعُها للشهوةِ ـ لا محالةَ ـ أشدَّ .

وأمَّا القسمُ الثالثُ ـ وهوَ علومُ التجاربِ ـ فتفاوتُ الناسِ فيها لا يُنكرُ ؛ فإنَّهمْ يتفاوتونَ بكثرةِ الإصابةِ وسرعةِ الإدراكِ ، ويكونُ سببُهُ إمَّا تفاوتاً في الغريزةِ ، وإمَّا تفاوتاً في الممارسةِ .

فأما الأوَّلُ ـ وهوَ الأصلُ ، أعني : الغريزةَ ـ فالتفاوتُ فيهِ لا سبيلَ إلىٰ جحدِهِ ؛ فإنَّهُ مثلُ نورٍ يشرقُ على النفسِ ويطلعُ صبحُهُ ، ومبادئُ إشراقِهِ عندَ سنِّ التمييزِ ، ثمَّ لا يزالُ ينمو ويزدادُ نموّاً خفيّاً على التدريجِ إلىٰ أنْ يتكاملَ بقرْبِ الأربعينَ سنةً .

ومثالُهُ : نورُ الصبْحِ ؛ فإنَّ أوائلَهُ تخفىٰ خفاءً يشقُّ إدراكُهُ ، ثمَّ يتدرَّجُ إلى الزيادةِ ، إلىٰ أنْ يكملَ بطلوعِ قرْصِ الشمسِ .

وتفاوتُ نورِ البصيرةِ كتفاوتِ نورِ البصرِ ، فالفرقُ مدركٌ بينَ الأعمشِ وبينَ حادِّ البصرِ ، بلْ سنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ جاريةٌ في جميعِ خلقِهِ بالتدريجِ في الإيجادِ ، حتَّىٰ إنَّ غريزةَ الشهوةِ لا تظهرُ في الصبيِّ عندَ البلوغِ دفعةً وبغتةً ، بلْ تظهرُ شيئاً شيئاً على التدريجِ ، وكذا جميعُ القوىٰ والصفاتِ .

ومَنْ أنكرَ تفاوتَ الناسِ في هـٰذه الغريزةِ . . فكأنَّهُ منخلعٌ عنْ ربقةِ العقلِ .

ومَنْ ظنَّ أنَّ عقلَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلُ عقلِ آحادِ السَّوَادِيةِ وأجلافِ البوادي . . فهوَ أخسُّ في نفسِهِ مِنْ آحادِ السوادِيةِ[1] ، وكيفَ يُنكرُ تفاوتُ الغريزةِ ولولاهُ . . لما اختلفَ تفاوتُ الناسِ في فهْمِ العلومِ ، ولما انقسموا إلىٰ بليدٍ لا يفهَمُ بالتفهيمِ إلا بعدَ تعبٍ طويلٍ مِنَ المعلِّمِ ، وإلىٰ ذكيٍّ يفهَمُ بأدنىٰ رمْزٍ وإشارةٍ ، وإلىٰ كاملٍ تنبعثُ مِنْ نفسِهِ حقائقُ الأمورِ بدونِ التعليمِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ؟!

---

(١) وأخرج أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٦) عن وهب بن منبه قال : (قرأت إحدىٰ وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً) . « إتحاف » (١/ ٤٦٧) . والسوادية : أهل الأرياف .

وذلكَ مثلُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إذْ يتَّضحُ لهُمْ في بواطنِهِمْ أمورٌ غامضةٌ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ وسماعٍ ، ويُعبَّرُ عنْ ذلكَ بالإلهامِ ، وعنْ مثلِهِ عبَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « إنَّ روحَ القُدُسِ نفثَ في رُوْعِي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مُفارقُهُ ، وعِشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مَجْزِيٌّ بهِ »(١) .

وهـٰذا النمطُ مِنْ تعريفِ الملائكةِ للأنبياءِ يخالفُ الوحيَ الصريحَ الذي هوَ سماعُ الصوتِ بحاسَّةِ الأُذُنِ ، ومشاهدةُ المَلَكِ بحاسةِ البصرِ ، ولذلكَ أخبرَ عنْ هـٰذا بالنفثِ في الرُّوعِ .

ودرجاتُ الوحيِ كثيرةٌ ، والخوضُ فيها لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، بلْ هوَ منْ علمِ المكاشفةِ .

ولا تظُنَّنَّ أنَّ معرفةَ درجاتِ الوحيِ تستدعي منصبَ الوحيِ ؛ إذْ لا يبعدُ أنْ يعرِّفَ الطبيبُ المريضَ درجاتِ الصحَّةِ ، ويَعلَمَ الفاسقُ درجاتِ العدالةِ وإنْ كانَ خالياً عنها ، فالعلمُ شيءٌ ووجودُ المعلومِ شيءٌ آخرُ ، فلا كلُّ مَنْ عرفَ النبوَّةَ والولايةَ كانَ نبياً وولياً ، ولا كلُّ مَنْ عرفَ التقوىٰ والورعَ ودقائقَهُ كانَ تقيّاً .

---

(١) أما لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » والذي هو محل الشاهد.. فرواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦) ، وتتمة الحديث هو عند أبي نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

وانقسامُ الناسِ إلىٰ مَنْ يتنبَّهُ مِنْ نفسِهِ ويفهمُ ، وإلىٰ مَنْ لا يفهَمُ إلا بتنبيهٍ وتعليمٍ ، وإلىٰ مَنْ لا ينفعُهُ التعليمُ أيضاً ولا التنبيهُ . . كانقسامِ الأرضِ إلىٰ ما يجتمعُ فيهِ الماءُ ويقوىٰ فيتفجَّرُ بنفسِهِ عيوناً ، وإلىٰ ما يحتاجُ إلى الحَفْرِ ليخرجَ في القنواتِ ، وإلىٰ ما لا ينفعُ فيهِ الحفْرُ وهوَ اليابسُ ، وذلكَ لاختلافِ جواهرِ الأرضِ في صفاتِها ؛ فكذلكَ هـٰذا الاختلافُ في النفوسِ وغريزةِ العقلِ .

ويدلُّ علىٰ **تفاوتِ العقْلِ مِنْ جهةِ النقْلِ** : ما رُوِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سلامٍ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ طويلٍ في آخرِهِ وَصْفُ عِظَمِ العرْشِ ، وأنَّ الملائكةَ قالَتْ : يا ربَّنا ؛ هلْ خلقتَ شيئاً أعظمَ مِنَ العرشِ ؟ قالَ : نعمْ ، العقلُ ، قالوا : وما بلغَ مِنْ قدْرِهِ ؟ قالَ : هيهاتَ ؛ لا يحاطُ بعلمِهِ ، هلْ لكمْ علمٌ بعدَدِ الرملِ ؟ قالوا : لا ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : فإنِّي خلقتُ العقلَ أصنافاً شتَّىٰ كعَدَدِ الرَّملِ ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعطِيَ حبَّةً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ حبَّتينِ ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ الثلاثَ والأربعَ ، ومنهمْ مَنْ أُعطِيَ فَرَقاً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ وَسْقاً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ أكثرَ مِنْ ذلكَ(١) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما بالُ أقوامٍ مِنَ المتصوِّفَةِ يذمُّونَ العقلَ والمعقولَ ؟

---

(١) مختصراً عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وبتمامه من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٦٩) .

فاعلمْ : أنَّ السببَ فيهِ أنَّ الناسَ نقلوا اسمَ العقْلِ والمعقولِ إلى المجادلةِ والمناظرةِ بالمناقضاتِ والإلزاماتِ ، وهوَ صنعةُ الكلامِ ، فلمْ يقدروا علىٰ أنْ يقرِّرُوا عندَهُمْ : أنَّكُمْ أخطأتُمْ في التسميةِ ؛ إذْ كانَ ذلكَ لا ينمحي عَنْ قلوبِهِمْ بعدَ تداولِ الألسنةِ بهِ ، ورسوخِهِ في القلوبِ فذمُّوا العقلَ والمعقولَ ، وهوَ المسمَّىٰ بهِ عندَهُمْ .

فأمَّا نورُ البصيرةِ الباطنةِ التي بها يُعرفُ اللهُ تعالىٰ ويُعرفُ صدْقُ رسلِهِ . . فكيفَ يُتصوَّرُ ذمُّهُ وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ ؟!

وإنْ ذُمَّ . . فما الذي بعدَهُ يُحمدُ ؟!

فإنْ كانَ المحمودُ هوَ الشرعَ . . فبِمَ عُلِمَ صِحَّةُ الشرعِ ؟!

فإنْ عُلِمَ بالعقلِ المذمومِ الذي لا يُوثَقُ بهِ فيكونُ الشرعُ أيضاً مذموماً ![1] .

ولا يُلتفتُ إلىٰ مَنْ يقولُ : إنَّهُ يُدرَكُ بعينِ اليقينِ ونورِ الإيمانِ لا بالعقلِ ، فإنَّا نريدُ بالعقلِ ما يريدُهُ بعينِ اليقينِ ونورِ الإيمانِ ، وهيَ الصفةُ الباطنةُ التي تميَّزَ بها الآدميُّ عنِ البهائمِ حتَّىٰ أدركَ بها حقائقَ الأمورِ[2] .

---

(١) فإن ما يتوقف عليه صحة شيء إذا كان واهياً . . فالمتوقف عليه نفسه واهٍ . « إتحاف » (١/ ٤٦٩) .

(٢) فقولهم : (إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان) صحيح ، وقوله : (لا بالعقل) غير صحيح ، وهـٰذا الذي أنكر عليهم الشيخ . « إتحاف » (١/ ٤٧٠) .

وأكثرُ هـٰذهِ التخبيطاتِ إنَّما ثارتْ مِنْ جهْلِ أقوامٍ طلبوا الحقائقَ مِنَ الألفاظِ ، فتخبَّطوا لتخبُّطِ اصطلاحاتِ الناسِ في الألفاظِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ العقلِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

تمّ كتاب العلم

وهو الكتاب الأوّل من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله أجمعين والسّلام

يتلوه كتاب قواعد العقائد

كتاب
قواعد العقائد

وهو الكتاب الثّاني من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول

الفَصلُ الأوّلُ

في ترجمة عقيدة أهل السُّنّة في كلمتي الشّهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقولُ وباللهِ التوفيقُ :

الحمدُ للهِ المبدئِ المعيدِ، الفعَّالِ لما يريدُ ، ذي العرشِ المجيدِ ، والبطشِ الشديدِ ، الهادي صفوةَ العبيدِ ، إلى المنهجِ الرشيدِ ، والمسلكِ السديدِ ، المنعمِ عليهِمْ بعدَ شهادةِ التوحيدِ بحراسةِ عقائدِهِمْ عنْ ظلماتِ التشكيكِ والترديدِ ، السائقِ لهُمْ إلى اتِّباعِ رسولِهِ المصطفىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واقتفاءِ آثار صحبِهِ الأكرمينَ المكرَّمينَ بالتأييدِ والتسديدِ ، المتجلِّي لهُمْ في ذاتِهِ وأفعالِهِ بمحاسنِ أوصافِهِ التي لا يدركُها إلا مَنْ ألقى السمعَ وهوَ شهيدٌ .

التوحيدُ :

المعرِّفِ إيَّاهُمْ أنَّهُ في ذاتِهِ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، فردٌ لا مثْلَ لهُ ، صمدٌ لا ضدَّ لهُ ، منفردٌ لا ندَّ لهُ ، وأنَّهُ قديمٌ لا أوَّلَ لهُ ، أزليٌّ لا بدايةَ لهُ ، مستمرٌّ

الوجودِ لا آخرَ لهُ ، أبديٌّ لا نهايةَ لهُ ، قيُّومٌ لا انقطاعَ لهُ ، دائمٌ لا انصرامَ لهُ ، لمْ يزلْ ولا يزالُ موصوفاً بنعوتِ الجلالِ ، لا يَقضي عليهِ بالانقضاءِ تصرُّمُ الآمادِ وانقراضُ الآجالِ ، بلْ هوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ .

* * *

التنزيهُ :

وأنَّه ليسَ بجسمٍ مصوَّرٍ ، ولا جوهرٍ محدودٍ مقدَّرٍ ، وأنَّهُ لا يماثلُ الأجسامَ ، لا في التقديرِ ولا في قَبولِ الانقسامِ ، وأنَّهُ ليسَ بجوهرٍ ولا تحُلُّهُ الجواهرُ ، ولا بعَرَضٍ ولا تحُلُّهُ الأعراضُ ، بلْ لا يماثلُ موجوداً ، ولا يماثلُهُ موجودٌ ، وليسَ كمثلِهِ شيءٌ ، ولا هوَ مثْلُ شيءٍ ، وأنَّهُ لا يحدُّهُ المقدارُ ، ولا تحويهِ الأقطارُ[1] ، ولا تحيطُ بهِ الجهاتُ ، ولا تكتنفُهُ الأرضونَ ولا السماواتُ .

وأنَّهُ مستوٍ على العرشِ على الوجْهِ الذي قالَهُ ، وبالمعنى الذي أرادَهُ ، استواءً منزَّهاً عنِ المماسَّةِ والاستقرارِ ، والتمكُّنِ والحلولِ والانتقالِ ، لا يحملُهُ العرْشُ ، بلِ العرْشُ وحملتُهُ محمولونَ بلطْفِ قدرتِهِ ، ومقهورونَ في قبضتِهِ ، وهوَ فوْقَ العرْشِ والسماءِ ، وفوْقَ كلِّ شيءٍ إلىٰ تخومِ الثرىٰ ، فوقيةً لا تزيدُهُ قرباً إلى العرشِ والسماءِ ، كما لا تزيدُهُ بعداً عن الأرضِ

(١) **الأقطار** : النواحي والجوانب .

والثرىٰ ، بلْ هوَ رفيعُ الدرجاتِ عنِ العرشِ والسماءِ ، كما أنَّهُ رفيعُ الدرجاتِ عنِ الأرضِ والثرىٰ ، وهوَ معَ ذلكَ قريبٌ مِنْ كلِّ موجودٍ ، وهوَ أقربُ إلى العبيدِ مِنْ حبْلِ الوريدِ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ .

إذْ لا يماثلُ قربُهُ قرْبَ الأجسامِ ، كما لا تماثلُ ذاتُهُ ذاتَ الأجسامِ .

وأنَّهُ لا يحلُّ في شيءٍ ، ولا يحلُّ فيهِ شيءٌ ، تعالىٰ عنْ أنْ يحويَهُ مكانٌ ، كما تقدَّسَ عنْ أنْ يحدَّهُ زمانٌ ، بلْ كانَ قبْلَ أنْ خلَقَ الزمانَ والمكانَ ، وهوَ الآنَ علىٰ ما عليهِ كانَ .

وأنَّهُ بائنٌ منْ خلقِهِ بصفاتِهِ ، ليسَ في ذاتِهِ سواهُ ، ولا في سواهُ ذاتُهُ .

وأنَّهُ مقدَّسٌ عنِ التغيُّرِ والانتقالِ ، لا تحُلُّهُ الحوادثُ ، ولا تعتريهِ العوارضُ ، بلْ لا يزالُ في نعوتِ جلالِهِ منزَّهاً عن الزوالِ ، وفي صفاتِ كمالِهِ مستغنياً عنْ زيادةِ الاستكمالِ .

وأنَّهُ في ذاتِهِ معلومُ الوجودِ بالعقولِ، مرئيُّ الذاتِ بالأبصارِ، نعمةً منهُ ولطفاً بالأبرارِ في دارِ القرارِ ، وإتماماً منهُ للنعيمِ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ .

* * *

الحياةُ والقدرةُ :

وأنَّهُ تعالىٰ حيٌّ قادرٌ ، جبَّارٌ قاهرٌ ، لا يعتريهِ قصورٌ ولا عجْزٌ ، ولا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ ، ولا يعارضُهُ فناءٌ ولا موتٌ .

وأنَّهُ ذو الملْكِ والملكوتِ ، والعزَّةِ والجبروتِ ، لهُ السلطانُ والقهرُ ،

والخلْقُ والأمرُ ، والسماواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ ، والخلائقُ مقهورونَ في قبضتِهِ[1] .

وأنَّهُ المتفرِّدُ بالخلْقِ والاختراعِ ، المتوحِّدُ بالإيجادِ والإبداعِ ، خلَقَ الخلْقَ وأعمالَهُمْ ، وقدَّرَ أرزاقَهُمْ وآجالَهُمْ ، لا يشِذُّ عنْ قبضتِهِ مقدورٌ ، ولا يعزُبُ عنْ قدرتِهِ تصاريفُ الأمورِ ، لا تُحصَىٰ مقدوراتُهُ ، ولا تتناهَىٰ معلوماتُهُ .

* * *

العلْمُ :

وأنَّهُ عالمٌ بجميعِ المعلوماتِ ، محيطٌ بما يجري مِنْ تخومِ الأرضينَ إلىٰ أعلى السماواتِ ، وأنَّهُ عالمٌ لا يعزُبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ، بلْ يعلمُ دبيبَ النملةِ السوداءِ ، على الصخرةِ الصمَّاءِ ، في الليلةِ الظلماءِ ، ويُدركُ حركةَ الذرِّ في جوِّ الهوا ، ويعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، ويطَّلعُ علىٰ هواجِسِ الضمائرِ ، وحركاتِ الخواطرِ ، وخفيَّاتِ السرائرِ ؛ بعلْمٍ قديمٍ أزليٍّ لمْ يزلْ موصوفاً بهِ في أزلِ الآزالِ ، لا بعلْمٍ متجدِّدٍ حاصِلٍ في ذاتِهِ بالحلولِ والانتقالِ .

---

(١) **الملك** : هو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية ، **والملكوت** : هو عالم الغيب المختصُّ بأرواح النفوس ، وقيل : هما مصدران ، والمعنىٰ أنه تعالىٰ هو المالك حقيقة ، وكلُّ مالك سواه إنما يصير مالكاً لمملوكه بتمليك الله عز وجل إياه من وجه مأذون فيه ، وقيل : معناهما العالم السفلي والعلوي . « إتحاف » (٢/٢٦ـ٢٨) .

الإرادةُ :

وأنَّهُ سبحانَهُ مريدٌ للكائناتِ ، مدبِّرٌ للحادثاتِ ، فلا يجري في الملْكِ والملكوتِ قليلٌ أوْ كثيرٌ ، صغيرٌ أوْ كبيرٌ ، خيرٌ أوْ شرٌّ ، نفْعٌ أوْ ضرٌّ ، إيمانٌ أوْ كفْرٌ ، عرفانٌ أوْ نكْرٌ ، فوْزٌ أوْ خسْرانٌ ، زيادةٌ أوْ نقصانٌ ، طاعةٌ أوْ عصيانٌ . . إلا بقضائِهِ وقدَرِهِ ، وحكمتِهِ ومشيئتِهِ ، فما شاءَ . . كانَ ، وما لمْ يشأْ . . لمْ يكنْ ، لا يخرجُ عنْ مشيئتِهِ لفتةُ ناظرٍ ، ولا فلتَةُ خاطرٍ ، بلْ هوَ المبدِئُ المعيدُ ، الفعَّالُ لما يريدُ ، لا رادَّ لأمرِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، ولا مهربَ لعبدٍ عنْ معصيتِهِ إلا بتوفيقِهِ ورحمتِهِ ، ولا قوَّةَ لهُ علىٰ طاعتِهِ إلا بمشيئتِهِ وإرادتِهِ ، فلوِ اجتمعَ الإنْسُ والجنُّ والملائكةُ والشياطينُ علىٰ أنْ يحرِّكوا في العالمِ ذرَّةً أوْ يسكِّنوها دونَ إرادتِهِ ومشيئتِهِ . . لعجزوا .

وأنَّ إرادتَهُ قائمةٌ بذاتِهِ في جملةِ صفاتِهِ ، لمْ يزلْ كذلكَ موصوفاً بها ، مريداً في أزلِهِ لوجودِ الأشياءِ في أوقاتِها التي قدَّرَها ، فوُجدتْ في أوقاتِها كما أرادَهُ في أزلِهِ مِنْ غيرِ تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ ، بلْ وقعتْ علىٰ وَفْقِ علمِهِ وإرادتِهِ مِنْ غيرِ تبدُّلٍ ولا تغيُّرٍ ، دبَّرَ الأمورَ لا بترتيبِ أفكارٍ وتربُّصِ زمانٍ ، فلذلكَ لمْ يشغلْهُ شأنٌ عنْ شأنٍ .

* * *

السمعُ والبصرُ :

وأنَّهُ تعالىٰ سميعٌ بصيرٌ ، يسمعُ ويرىٰ ، لا يعزُبُ عنْ سمعِهِ مسموعٌ وإنْ

خَفِيَ ، ولا يغيبُ عنْ رؤيتِهِ مرئيٌّ وإنْ دقَّ ، ولا يحجبُ سمعَهُ بُعْدٌ ، ولا يدفعُ رؤيتَهُ ظلامٌ ، يرىٰ مِنْ غيرِ حدقةٍ وأجفانٍ ، ويسمعُ مِنْ غيرِ أصمخةٍ وآذانٍ ، كما يعلمُ بغيرِ قلبٍ ، ويبطشُ بغيرِ جارحةٍ ، ويخلُقُ بغيرِ آلةٍ ؛ إذْ لا تشبهُ صفاتُهُ صفاتِ الخلْقِ ، كما لا تشبهُ ذاتُهُ ذواتِ الخلْقِ .

* * *

الكلامُ :

وأنَّهُ متكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ ، واعدٌ متوعِّدٌ ، بكلامٍ أزليٍّ قديمٍ قائمٍ بذاتِهِ ، لا يشبهُ كلامَ الخلْقِ ؛ فليسَ بصوتٍ يحدثُ مِنِ انسلالِ هواءٍ واصطكاكِ أجرامٍ ، ولا بحرفٍ ينقطعُ بإطباقِ شَفَةٍ أوْ تحريكِ لسانٍ .

وأنَّ القرآنَ والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ كتبُهُ المنزَّلَةُ علىٰ رسلِهِ عليهِمُ السلامُ ، وأنَّ القرآنَ مقروءٌ بالألسنةِ ، مكتوبٌ في المصاحفِ ، محفوظٌ في القلوبِ ، وأنَّهُ معَ ذلكَ قديمٌ قائمٌ بذاتِ اللهِ تعالىٰ ، لا يقبلُ الانفصالَ والافتراقَ ، بالانتقالِ إلى القلوبِ والأوراقِ ، وأنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ سمعَ كلامَ اللهِ تعالىٰ بغيرِ صوتٍ ولا حرفٍ ، كما يرى الأبرارُ ذاتَ اللهِ تعالىٰ منْ غيرِ جوهرٍ ولا عرضٍ .

وإذْ كانتْ لهُ هٰذهِ الصفاتُ . . كانَ حيّاً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلِّماً ؛ بالحياةِ ، والقدرةِ ، والعلمِ ، والإرادةِ ، والسمعِ ، والبصرِ ، والكلامِ ، لا بمجرَّدِ الذاتِ .

* * *

الأفعالُ :

وأنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ لا موجودَ سواهُ إلا وهوَ حادثٌ بفعلِهِ ، وفائضٌ مِنْ عدلِهِ ، علىٰ أحسنِ الوجوهِ وأكملِها ، وأتمِّها وأعدلِها ، وأنَّهُ حكيمٌ في أفعالِهِ ، عادلٌ في أقضيتِهِ ، ولا يُقاسُ عدلُهُ بعدْلِ العبادِ ؛ إذِ العبدُ يُتصوَّرُ منهُ الظلْمُ بتصرُّفِهِ في ملْكِ غيرِهِ ، ولا يُتصوَّرُ الظلْمُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّهُ لا يصادفُ لغيرِهِ ملكاً حتَّىٰ يكونَ تصرُّفُهُ فيهِ ظلْماً ، فكلُّ ما سواهُ مِنْ جنٍّ وإنسٍ ، وشيطانٍ ومَلَكٍ ، وسماءٍ وأرضٍ ، وحيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ ، وجوهرٍ وعرضٍ ، ومدرَكٍ ومحسوسٍ . . حادثٌ اخترعَهُ بقدرتِهِ بعدَ العدمِ اختراعاً ، وأنشأَهُ إنشاءً بعدَ أنْ لمْ يكنْ شيئاً ؛ إذْ كانَ في الأزلِ موجوداً وحدَهُ ولمْ يكنْ معَهُ غيرُهُ ، فأحدثَ الخلْقَ بعدَ ذلكَ إظهاراً لقدرتِهِ ، وتحقيقاً لما سبقَ مِنْ إرادتِهِ ، ولما حَقَّ في الأزلِ مِنْ كلمتِهِ ، لا لافتقارِهِ إليهِ وحاجتِهِ .

وأنَّهُ متفضِّلٌ بالخلْقِ والاختراعِ والتكليفِ لا عنْ وجوبٍ ، ومتطوِّلٌ بالإنعامِ والإصلاحِ لا عنْ لزومٍ ، فلهُ الفضْلُ والإحسانُ ، والنعمةُ والامتنانُ ؛ إذْ كانَ قادراً علىٰ أنْ يصبَّ علىٰ عبادِهِ أنواعَ العذابِ ، ويبتليَهُمْ بضروبِ الآلامِ والأوصابِ ، ولوْ فعلَ ذلكَ . . لكانَ منهُ عدلاً ، ولمْ يكنْ قبيحاً ولا ظلماً .

وأنَّهُ عزَّ وجلَّ يثيبُ عبادَهُ المؤمنينَ على الطاعاتِ بحكْمِ الكرمِ والوعْدِ ، لا بحكمِ الاستحقاقِ واللزومِ ؛ إذْ لا يجبُ عليهِ لأحدٍ فعْلٌ ، ولا يُتصوَّرُ منهُ ظلْمٌ ، ولا يجبُ لأحدٍ عليهِ حقٌّ .

وأنَّ حقَّهُ في الطاعاتِ وجبَ على الخلْقِ بإيجابِهِ على ألسنَةِ أنبيائِهِ عليهِمُ السلامُ ، لا بمجرَّدِ العقْلِ ، ولكنَّهُ بعثَ الرسلَ وأظهرَ صدقَهُمْ بالمعجزاتِ الظاهرةِ ، فبلَّغوا أمرَهُ ونهيَهُ ، ووعدَهُ ووعيدَهُ ، فوجبَ على الخلْقِ تصديقُهُمْ فيما جاؤوا بهِ .

* * *

معنى الكلمةِ الثانيةِ ، وهيَ شهادةُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

وأنَّهُ بعثَ النبيَّ الأميَّ القرشيَّ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برسالتِهِ إلى كافَّةِ العربِ والعجمِ ، والجنِّ والإنْسِ ، فنسخَ بشرعِهِ الشرائعَ إلا ما قرَّرَهُ منها ، وفضَّلَهُ على سائرِ الأنبياءِ ، وجعلَهُ سيِّدَ البشرِ ، ومنعَ كمالَ الإيمانِ بشهادةِ التوحيدِ ؛ وهوَ قوْلُ : (لا إلـهَ إلا اللهُ) ما لمْ تقترنْ بها شهادةُ الرسولِ ؛ وهوَ قولُكَ : (محمَّدٌ رسولُ اللهِ) .

وألزمَ الخلْقَ تصديقَهُ في جميعِ ما أخبرَ عنهُ منَ أمورِ الدنيا والآخرةِ ، وأنَّهُ لا يُتقبَّلُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يؤمنَ بما أخبرَ عنهُ بعدَ الموتِ ، وأوَّلُهُ سؤالُ مُنْكَرٍ ونَكيرٍ ، وهما شخصانِ مهيبانِ هائلانِ ، يقعدانِ العبدَ في قبرِهِ سَوِيّاً ، ذا رُوحٍ وجسدٍ ، فيسألانِهِ عنِ التوحيدِ والرسالةِ ، ويقولانِ لهُ : مَنْ ربُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟[1] وهما فتَّانا القبرِ ، وسؤالُهُما أوَّلُ فتنةٍ بعدَ الموتِ .

---

(١) كما جاء ذلك عند الترمذي (٣١٢٠) .

وأنْ يؤمنَ بعذابِ القبرِ ، وأنَّهُ حَقٌّ وحكمةٌ وعَدْلٌ[1] ، على الجسمِ والروحِ ، علىٰ ما يشاءُ .

وأنْ يُؤمنَ بالميزانِ ذي الكفَّتَينِ واللِّسانِ ، وصفَتُهُ في العظمِ أنَّهُ مثلُ طباقِ السماواتِ والأرضِ ، تُوزنُ فيهِ الأعمالُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ ، والصَّنْجُ يومئذٍ مثاقيلُ الذرِّ والخردَلِ[2] ؛ تحقيقاً لتمامِ العدلِ ، فتُطرحُ صحائفُ الحسناتِ في صورةٍ حسنةٍ في كفَّةِ النورِ ، فيثقلُ بها الميزانُ علىٰ قدْرِ درجاتِها عندَ اللهِ بفضْلِ اللهِ ، وتُطرحُ صحائفُ السيئاتِ في صورةٍ قبيحةٍ في كفَّةِ الظلمةِ ، فيخفُّ بها الميزانُ بعدْلِ اللهِ .

وأنْ يُؤمنَ بأنَّ الصراطَ حقٌّ ، وهوَ جسْرٌ ممدودٌ علىٰ متنِ جهنَّمَ ، أَحَدُّ منَ السيفِ ، وأدقُّ مِنَ الشعْرةِ، تَزِلُّ عليهِ أقدامُ الكافرينَ بحكمِ اللهِ سبحانَهُ ، فتهوي بِهِمْ إلى النارِ، وتثبتُ عليهِ أقدامُ المؤمنينَ بفضلِ اللهِ ، فيُساقونَ إلىٰ دارِ القرارِ .

وأنْ يُؤمنَ بالحوضِ المورُودِ ؛ حوضِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، يشربُ منهُ المؤمنونَ قبلَ دخولِ الجنَّةِ وبعدَ جوازِ الصراطِ[3] ، مَنْ شربَ منهُ

---

(١) وفي حقيته روىٰ مسلم في « صحيحه » (٢٨٦٧) مرفوعاً : « إن هـٰذه الأمة تبتلىٰ في قبورها، فلولا ألا تدافنوا . لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه » .

(٢) **الصَّنْجُ** ـ ويقال : السَّنْجُ ـ : المثقال الذي يوزن به (وحدة الوزن) .

(٣) على الصحيح ، ولكن جهل تقدمه على الصراط أو تأخره عنه . . لا يضرُّ بالاعتقاد ، وإنما الواجب اعتقاد ثبوته . « إتحاف » (٢/ ٣٩) .

شَربةً . . لمْ يظمأْ بعدَها أبداً ، عرضُهُ مسيرةُ شَهْرٍ ، ماؤهُ أشدُّ بَياضاً مِنَ اللبنِ ، وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، حولَهُ أباريقُ عددَ نجومِ السماءِ ، فيهِ ميزابانِ يصُبَّانِ مِنَ الكوثرِ .

وأنْ يؤمنَ بالحسابِ ، وتفاوتِ النَّاسِ فيهِ إلىٰ مناقَشٍ في الحسابِ وإلىٰ مسامحٍ فيهِ ، وإلىٰ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ وهُمُ المقرَّبونَ ، فيسألُ اللهُ تعالىٰ مَنْ شاءَ مِنَ الأنبياءِ عنْ تبليغِ الرسالَةِ ، ومَنْ شاءَ منَ الكفَّارِ عنْ تكذيبِ المرسلينَ ، ويسألُ المبتدعةَ عَنِ السنَّةِ ، ويسْألُ المسلمينَ عنِ الأعمالِ .

وأنْ يؤمِنَ بإخراجِ الموحِّدينَ مِنَ النارِ بعدَ الانتقامِ ، حتَّىٰ لا يَبقىٰ في جهنَّمَ موحِّدٌ بفضْلِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يخلدُ في النار موحِّدٌ .

وأنْ يؤمِنَ بشفاعةِ الأنبياءِ[١] ، ثمَّ العلماءِ ، ثمَّ الشهداءِ ، ثمَّ سائرِ المؤمنينَ ، كلٌّ علىٰ حَسَبِ جَاهِهِ ومنزلتِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ بقيَ مِنَ المؤمنينَ ولمْ يكنْ لهُ شفيعٌ . أُخرجَ بفضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا يخلدُ في النارِ مؤمنٌ ، بلْ يخرُجُ منها مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ .

وأنْ يعتقِدَ فضْلَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وترتيبَهُمْ ، وأنَّ أفضلَ الناسِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبو بكرٍ ، ثمَّ عمرُ ، ثمَّ عثمانُ ، ثمَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وأنْ يُحسنَ الظنَّ بجميعِ الصحابةِ ، ويُثنيَ عليهِمْ كما أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ أجمعينَ .

---

(١) في (أ) : (الأنبياء ، ثم الأولياء . . .) .

فكلُّ ذلكَ ممَّا وردتْ بهِ الأخبارُ ، وشهدتْ بهِ الآثارُ ، فمنِ اعتقدَ جميعَ ذلكَ موقناً بهِ . . كانَ مِنْ أهلِ الحقِّ وعصابةِ السنَّةِ ، وفارقَ رَهْطَ الضلالِ وحزْبَ البدعةِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ كمالَ اليقينِ ، وحسنَ الثباتِ في الدينِ ، لنا ولكافَّةِ المسلمينَ برحمتِهِ ، إنَّهُ أرحمُ الراحمينَ ، وصلَّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

الفَصلُ الثَّاني
في وجه التّدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ في ترجمةِ العقيدةِ ينبغي أنْ يُقدَّمَ إلى الصبيِّ في أوَّلِ نشوئِهِ ليحفظَهُ حفظاً[(١)] ، ثمَّ لا يزالُ ينكشفُ لهُ معناهُ في كبرِهِ شيئاً فشيئاً ، فابتداؤُهُ الحفظُ ، ثمَّ الفهمُ ، ثمَّ الاعتقادُ والإيقانُ والتصديقُ بهِ ، وذلكَ ممَّا يحصلُ في الصبيِّ بغيرِ برهانٍ .

فمِنْ فضْلِ اللهِ سبحانَهُ علىٰ قلبِ الإنسانِ أنْ شرحَهُ في أوَّلِ نشوئِهِ للإيمانِ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ حجَّةٍ وبرهانٍ ، وكيفَ يُنكرُ ذلكَ وجميعُ عقائدِ العوامِّ مبادئُها التلقينُ المجرَّدُ والتقليدُ المحضُ ؟![(٢)] .

نعمْ ، يكونُ الاعتقادُ الحاصلُ بمجرَّدِ التقليدِ غيرَ خالٍ عنْ نوعٍ مِنَ الضعفِ في الابتداءِ ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ يقبلُ الإزالةَ بنقيضِهِ لوْ أُلقيَ إليهِ ، ولا بدَّ مِنْ تقويتِهِ وإثباتِهِ في نفسِ الصبيِّ والعاميِّ حتَّىٰ يترسَّخَ ولا يتزلزلَ .

وليسَ الطريقُ في تقويتِهِ وإثباتِهِ أنْ يُعلَّمَ صنعةَ الجدلِ والكلامِ ، بلْ

---

(١) يحفظه في صدره حفظاً يأمن به عن الإغفال عنه ، ويتمكن ذلك المحفوظ في باطنه حتىٰ يكون نقشاً على الحجر ولا يطرأ عليه ما يخالفه . « إتحاف » (٢/ ٤٢) .

(٢) في غير (ب) : (والتعليم المحض) .

يشتغلُ بتلاوةِ القرآنِ وتفسيرِهِ ، وقراءةِ الحديثِ ومعانيهِ ، ويشتغلُ بوظائفِ العباداتِ ، فلا يزالُ اعتقادُهُ يزدادُ رسوخاً بما يقرعُ سمعَهُ من أدلَّةِ القرآنِ وحججِهِ ، وبما يردُ عليهِ مِنْ شواهدِ الأحاديثِ وفوائدِها ، وبما يسطعُ عليهِ مِنْ أنوارِ العباداتِ ووظائِفِها ، وبما يسري إليهِ مِنْ مشاهدةِ الصالحينَ ومجالستِهِمْ ، وسيماهُمْ وسماعِهِمْ وهيئاتِهِمْ ؛ في الخضوعِ للهِ عزَّ وجلَّ ، والخوفِ منهُ ، والاستكانةِ لهُ ، فيكونُ أوَّلُ التلقينِ كإلقاءِ بذْرٍ في الصدْرِ ، وتكونُ هـٰذه الأسبابُ كالسقْيِ والتربيةِ لهُ حتَّىٰ ينموَ ذلكَ البذرُ ويقوىٰ ، ويرتفعَ شجرةً طيِّبةً راسخةً ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ .

وينبغي أنْ يُحرَسَ سمعُهُ مِنَ الجدلِ والكلامِ غايةَ الحراسةِ ؛ فإنَّ ما يشوِّشُهُ الجدلُ أكثرُ ممَّا يمهِّدُهُ ، وما يفسدُهُ أكثرُ ممَّا يصلحُهُ ، بلْ تقويتُهُ بالجدَلِ تضاهي ضرْبَ الشجرةِ بالمِدقَّةِ مِنَ الحديدِ رجاءَ تقويتِها بأنْ تكتنزَ أجزاؤُها[1] ، وربَّما يفتِّتُها ذلكَ ويفسدُها ، وهوَ الأغلبُ ، والمشاهدةُ تكفيكَ في هـٰذا بياناً ، وناهيكَ بالعِيانِ برهاناً .

فقسْ عقيدةَ أهلِ الصلاحِ والتقىٰ مِنْ عوامِّ الناسِ بعقيدةِ المتكلِّمينَ والمجادلينَ ؛ فترى اعتقادَ العاميِّ في الثباتِ كالطودِ الشامخِ ، لا تحركُهُ الدواهي والصواعقُ ، وعقيدةَ المتكلِّمِ الحارسِ اعتقادَهُ بتقسيماتِ الجدلِ كخيطٍ مرسلٍ في الهواءِ تسفيهِ الريحُ مرَّةً هـٰكذا ومرَّةً هـٰكذا ، إلاَّ مَنْ سمعَ

---

(١) في (ب) : (تكثرَ أجزاؤها) .

منهُمْ دليلَ الاعتقادِ فتلقَّفَهُ تقليداً كما تلقَّفَ نفسَ الاعتقادِ تقليداً ؛ إذْ لا فرقَ في التقليدِ بينَ تعلُّمِ الدليلِ أوْ تعلُّمِ المدلولِ ، فتلقينُ الدليلِ شيءٌ والاستدلالُ بالنظرِ شيءٌ آخرُ بعيدٌ عنهُ .

ثمَّ الصبيُّ إذا وقعَ نشوءُهُ علىٰ هـٰذهِ العقيدةِ :

إنِ اشتغلَ بكسبِ الدنيا . . لمْ ينفتحْ لهُ غيرُها ، ولكنَّهُ يسلمُ في الآخرةِ باعتقادِ أهلِ الحقِّ ؛ إذْ لمْ يكلِّفِ الشرعُ أجلافَ العربِ أكثرَ مِنَ التصديقِ الجازمِ بظاهرِ هـٰذهِ العقائدِ ، فأمَّا البحثُ والتفتيشُ وتكلُّفُ نظْمِ الأدلَّةِ . . فلمْ يُكلَّفوهُ أصلاً .

وإنْ أرادَ أنْ يكونَ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ ، وساعدَهُ التوفيقُ حتَّى اشتغلَ بالعملِ ، ولازمَ التقوىٰ ، ونهى النفسَ عنِ الهوىٰ ، واشتغلَ بالرياضةِ والمجاهدةِ . . انفتحَتْ لهُ أبوابٌ مِنَ الهدايةِ تكشفُ عنْ حقائقِ هـٰذهِ العقيدةِ بنورٍ إلـٰهيٍّ يُقذفُ في قلبِهِ بسببِ المجاهدةِ ؛ تحقيقاً لوعدِهِ عزَّ وجلَّ إذْ قالَ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

وهوَ الجوهرُ النفيسُ الذي هوَ غايةُ إيمانِ الصدِّيقينَ والمقرَّبينَ ، وإليهِ الإشارةُ بالسرِّ الذي وقرَ في صدرِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ فضَلَ بهِ الخلقَ .

وانكشافُ ذلكَ السرِّ بلْ تلكَ الأسرارِ لهُ درجاتٌ بحسَبِ درجاتِ المجاهدةِ ودرجاتِ الباطنِ ؛ في النظافةِ والطهارةِ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ ،

وفي الاستضاءةِ بنورِ اليقينِ ، وذلكَ كتفاوتِ الخلْقِ في أسرارِ الطبِّ والفقْهِ وسائرِ العلومِ ؛ إذْ يختلفُ ذلكَ باختلافِ الاجتهادِ واختلافِ الفطرةِ في الذكاءِ والفطنةِ ، وكما لا تنحصرُ تلكَ الدرجاتُ . فكذلكَ هـٰذهِ(١) .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ تعلمِ الجدلِ والكلامِ]

فإنْ قلتَ : تعلُّمُ الجدلِ والكلامِ مذمومٌ كتعلُّمِ النجومِ ، أوْ هوَ مباحٌ ، أوْ هوَ مندوبٌ إليهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ للناسِ في هـٰذا غلواً وإسرافاً في أطرافٍ :

فمِنْ قائلٍ : إنَّهُ بدعةٌ وحرامٌ ، وإنَّ العبدَ إنْ لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ ذنبٍ سوى الشركِ . . خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يلقاهُ بالكلامِ .

ومِنْ قائلٍ : إنَّهُ واجبٌ وفرضٌ ؛ إمَّا على الكفايةِ ، أوْ على الأعيانِ ، وإنَّهُ أفضلُ الأعمالِ وأعلى القرباتِ ؛ فإنَّهُ تحقيقٌ لعلْمِ التوحيدِ ، ونضالٌ عنْ دينِ اللهِ تعالىٰ .

وإلى التحريمِ ذهبَ الشافعيُّ ومالكٌ وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، وسفيانُ ، وجميعُ أهلِ الحديثِ منَ السلفِ .

---

(١) والحاصل مما سبق من كلام المصنف : أن الصبيان والعوام لا ينبغي أن يلقنوا بأكثر مما ذكر في العقيدة المختصرة ؛ فإن فيها مقنعاً لهم ، وزجراً عن الوقوع فيما يضرُّهم . « إتحاف » (٢/ ٤٦) .

قالَ ابنُ عبدِ الأعلىٰ رحمهُ اللهُ : سمعتُ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ يومَ ناظرَ حَفْصاً الفرْدَ ـ وكانَ مِنْ متكلِّمي المعتزلةِ ـ يقولُ : (لأنْ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ العبدُ بكلِّ ذنبٍ ما خلا الشرْكَ باللهِ . . خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يلقاهُ بشيءٍ مِنْ علمِ الكلامِ ، ولقدْ سمعتُ مِنْ حفصٍ كلاماً لا أقدرُ أنْ أحكيَهُ)[1] .

وقالَ أيضاً : (قدِ اطلعتُ منْ أهلِ الكلامِ علىٰ شيءٍ ما ظننتُهُ قطُّ ، ولأنْ يُبتلى العبدُ بكلِّ ما نهى اللهُ عنهُ ما عدا الشركَ . . خيرٌ لهُ منْ أنْ ينظرَ في الكلامِ)[2] .

وحَكَى الكرابيسيُّ أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ سُئِلَ عنْ شيءٍ منَ الكلامِ ، فغضبَ وقالَ : (سلْ عنْ هـٰذا حَفْصاً الفردَ وأصحابَهُ أخزاهُمُ اللهُ)[3] .

ولمَّا مرضَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ . . دخلَ عليهِ حَفْصٌ الفردُ وقالَ : مَنْ أنا ؟ فقالَ : حفصٌ الفردُ ، لا حفظَكَ اللهُ ولا رعاكَ حتَّىٰ تتوبَ ممَّا أنتَ فيهِ[4] .

وقالَ أيضاً : (لوْ علمَ الناسُ ما في الكلامِ منَ الأهواءِ . . لفرُّوا منهُ فرارَهُمْ منَ الأسدِ)[5] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٧٨٨) ، وما امتنع عن حكايته عنه هو قوله بخلْق القرآن .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٧٨٩) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٠) .
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩١) .
(٥) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٢) .

وقالَ أيضاً : (إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ : الاسمُ هوَ المسمَّىٰ ، أوْ غيرُ المسمَّىٰ . . فاشهدْ بأنَّهُ مِنْ أهلِ الكلامِ ولا دينَ لهُ)(١) .

وقالَ الزعفرانيُّ : قالَ الشافعيُّ : (حكمي في أصحابِ الكلامِ أنْ يُضربوا بالجريدِ ، ويُطافَ بهِمْ في العشائرِ والقبائلِ ، ويقالَ : هـٰذا جزاءُ مَنْ تركَ الكتابَ والسنَّةَ وأخذَ في الكلامِ)(٢) .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (لا يفلحُ صاحبُ الكلامِ أبداً ، ولا تكادُ ترىٰ أحداً نظرَ في الكلامِ إلاَّ وفي قلبِهِ دَغَلٌ)(٣) .

وبالغَ في ذمِّهِ حتَّىٰ هجرَ الحارثَ المحاسبيَّ معَ زهدِهِ وورعِهِ بسببِ تصنيفِهِ كتاباً في الردِّ على المبتدعةِ ، وقالَ لهُ : (ويحَكَ ! ألستَ تحكي بدعتَهُمْ أوَّلاً ثمَّ تردُّ عليهِمْ ؟! ألستَ تحملُ الناسَ بتصنيفِكَ علىٰ مطالعةِ البدعةِ والتفكُّرِ في تلكَ الشبهاتِ فيدعوهُمْ ذلكَ إلى الرأيِ والبحثِ ؟!)(٤) .

وقال أحمدُ رحمهُ اللهُ : (علماءُ الكلامِ زنادقةٌ)(٥) .

وقال مالكٌ رحمهُ اللهُ : (أرأيتَ إنْ جاءَهُ مَنْ هوَ أجدلُ منهُ . . أيدعُ دينَهُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٢) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٣) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٧٩٦) ، والدغل : الفساد .
(٤) وكلٌّ منهما من رؤساء الأئمة ، وهداة هـٰذه الأمة ، والظنُّ بالحارث أنه إنما تكلَّم حيث دعت الحاجة ، ولكل مقصد ، والله يرحمهما . « إتحاف » (٢/ ٤٩) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

كلَّ يومٍ لدينٍ جديدٍ ؟!) يعني : أنَّ أقوالَ المتجادلينَ تتقاومُ[1] .

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ أيضاً : (لا تجوزُ شهادةُ أهلِ البدعِ والأهواءِ) ، فقالَ بعضُ أصحابِهِ في تأويلِهِ : إنَّهُ أرادَ بأهلِ الأهواءِ أهلَ الكلامِ علىٰ أيِّ مذهبٍ كانوا[2] .

وقالَ أبو يوسفَ : (مَنْ طلبَ العلمَ بالكلامِ . . تزندقَ)[3] .

وقالَ الحسنُ : (لا تجالسوا أهلَ الأهواءِ ، ولا تجادلوهُمْ ، ولا تسمعوا منهُمْ)[4] .

وقدِ اتفقَ أهلُ الحديثِ مِنَ السلفِ علىٰ هٰذا ، ولا ينحصرُ ما نُقلَ عنهُمْ مِنَ التشديداتِ فيهِ ، وقالوا : ما سكتَ عنهُ الصحابةُ معَ أنَّهُمْ أعرفُ بالحقائقِ وأفصحُ بترتيبِ الألفاظِ مِنْ غيرِهِمْ . . إلاَّ لعلمِهِمْ بما يتولَّدُ منهُ مِنَ الشرِّ ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلكَ المُتَنَطِّعُونَ ، هلكَ المتنطِّعونَ ، هلكَ المتنطِّعونَ »[5] ؛ أي : المتعمِّقونَ في البحثِ والاستقصاءِ .

---

(١) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢٩٤) ، والمعنىٰ : لا يعتمد علىٰ تلك الأقوال ؛ لكونها في معرض الإزالة بما هو أقوىٰ . « إتحاف » (٢/ ٤٩) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٨٠٠) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٩) .

(٤) رواه الدارمي في « سننه » (٤١٥) ، وكذا ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٠٣) .

(٥) رواه مسلم (٢٦٧٠) .

واحتجُّوا أيضاً بأنَّ ذلكَ لوْ كانَ منَ الدينِ . . لكانَ ذلكَ أهمَّ ما يأمُرُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويعلِّمُ طريقَهُ ، ويثني عليهِ وعلىٰ أربابِهِ ؛ فقدْ علَّمَهُمُ الاستنجاءَ[1] ، وندبَهُمْ إلىٰ حِفْظِ الفرائضِ وأثنىٰ عليهِمْ[2] ، ونهاهُمْ عنِ الكلامِ في القدَرِ وقالَ : « أمسكُوا »[3] .

وعلىٰ هـٰذا استمرَّ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهمْ ، فالزيادةُ على الأستاذِ طغيانٌ وظلمٌ ، وهمُ الأستاذونَ والقدوةُ ، ونحنُ الأتباعُ والتلامذةُ .

وأمَّا الفرقةُ الأخرىٰ : فاحتجُّوا بأنَّ المحذورَ مِنَ الكلامِ إنْ كانَ هوَ لفظَ الجوهرِ والعَرَضِ ، وهـٰذهِ الاصطلاحاتِ الغريبةَ التي لمْ تعهدْها الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . فالأمرُ فيهِ قريبٌ ؛ إذْ ما مِنْ علمٍ إلاَّ وقدْ أُحدثَ فيهِ اصطلاحاتٌ لأجلِ التفهيمِ ؛ كالحديثِ والتفسيرِ والفقهِ ، ولوْ عُرِضَ عليهِمْ عبارةُ النقضِ والكسرِ والتركيبِ والتعديةِ وفسادِ الوضعِ إلىٰ جميعِ الأسئلةِ التي تُورَدُ على القياسِ . . لما كانوا يفهمونَهُ ، فإحداثُ عبارةٍ للدلالةِ بها علىٰ مقصودٍ صحيحٍ كإحداثِ آنيةٍ علىٰ هيئةٍ جديدةٍ لاستعمالِها في مباحٍ .

وإنْ كانَ المحذورُ هوَ المعنىٰ . . فنحنُ لا نعني بهِ إلاَّ معرفةَ الدليلِ علىٰ حدثِ العالمِ ووحدانيةِ الخالقِ وصفاتِهِ كما جاءَ بهِ الشرعُ ، فمنْ أينَ تحرمُ معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالدليلِ ؟

---

(١) كما في « مسلم » (٢٦٢) .

(٢) كما في « الترمذي » (٢٠٩١) ، وابن ماجه (٢٧١٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٨) .

وإنْ كانَ المحذورُ هوَ التشغُّبَ والتعصُّبَ والعداوةَ والبغضاءَ وما يفضي إليهِ الكلامُ . . فذلكَ محرَّمٌ ، ويجبُ الاحترازُ عنهُ ؛ كما أنَّ الكبْرَ والعجبَ والرياءَ وطلبَ الرئاسةِ ممَّا يفضي إليه علمُ الحديثِ والتفسيرِ والفقهِ ، وهوَ محرَّمٌ يجبُ الاحترازُ عنهُ ، ولكنْ لا يمنعُ منَ العلمِ لأجلِ أدائهِ إليهِ ، وكيفَ يكونُ ذكرُ الحجَّةِ والمطالبةُ بها والبحثُ عنها محظوراً وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ ، أيْ : حجةٍ وبرهانٍ ، وقالَ : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ ؛ إذْ ذكرَ سبحانَهُ احتجاجَ إبراهيمَ ومجادلتَهُ وإفحامَهُ خصمَهُ في معرضِ الثناءِ عليهِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ فرعونَ : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟!

وعلى الجملةِ : فالقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ محاجَّةٌ معَ الكفارِ ، فعمدةُ أدلَّةِ المتكلمينَ في التوحيدِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، وفي النبوةِ : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ ، وفي البعثِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ والأدلَّةِ .

ولمْ تزلِ الرسلُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ يحاجُّونَ المنكرينَ ويجادلونَهُمْ ، قالَ

تعالىٰ : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ ، والصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ أيضاً كانوا يحاجُّونَ المنكرينَ ويجادلونَ ولكنْ عندَ الحاجةِ ، وكانتِ الحاجةُ إليهِ قليلةً في زمانِهِمْ .

وأوَّلُ مَنْ سنَّ دعوةَ المبتدعةِ بالمجادلةِ إلى الحقِّ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ بعثَ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما إلى الخوارجِ يكلِّمُهُمْ ، فقالَ : ما تنقمونَ علىٰ إمامِكمْ ؟ قالوا : قاتلَ ولمْ يسبِ ولمْ يغنمْ ، قالَ : ذلكَ في قتالِ الكفَّارِ ، أرأيتُمْ لوْ سُبيَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها في يوم الجملِ ، فوقعتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها في سهْمِ أحدِكُمْ ، أكنتمْ تستحلُّونَ منْها ما تستحلُّونَ مِنْ ملكِكُمْ وهيَ أمُّكُمْ في نصِّ الكتابِ ؟ فقالوا : لا ، ورجعَ منهُمْ إلى الطاعةِ بمجادلتِهِ ألفانِ[1] .

ورُوِيَ أنَّ الحسنَ ناظرَ قدرياً فرجعَ عنِ القدَرِ .

وناظرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ رجلاً مِنَ القدريَّةِ .

وناظرَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ يزيدَ بنَ عَميرةَ في الإيمان ، قال عبدُ اللهِ : لوْ قلتُ : إنِّي مؤمنٌ . . لقلتُ : إنِّي في الجنَّةِ ، فقالَ لهُ يزيدُ بنُ عَمِيرةَ : يا صاحبَ رسولِ اللهِ ؛ هـٰذهِ زلَّةٌ منكَ ، وهلِ الإيمانُ إلاَّ أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ والبعثِ والميزانِ ، وتقيمَ الصلاةَ والصومَ والزكاةَ ،

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٨٣٤) مختصراً ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (٣١٨/١) .

ولنا ذنوبٌ لوْ نعلمُ أنَّها تُغفرُ لنا . . لعلِمْنا أنَّا مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فمنْ أجلِ ذلكَ نقولُ : إنَّا مؤمنونَ ، ولا نقولُ : إنَّا مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : صدقتَ واللهِ ؛ إنَّها منِّي زلَّةٌ(١) .

يبقىٰ أنْ يقالَ : كانَ خوضُهُمْ فيهِ قليلاً لا كثيراً ، وقصيراً لا طويلاً ، وعندَ الحاجةِ لا بطريقِ التصنيفِ والتدريسِ واتخاذِهِ صناعةً ، فيقالُ :

أمَّا قلَّةُ خوضِهِمْ فيهِ . . فإنَّه كانَ لقلَّةِ الحاجةِ ؛ إذْ لمْ تكنِ البدعةُ تظهرُ في ذلكَ الزمانِ .

وأمَّا القصرُ . . فقدْ كانَ الغايةُ إفحامَ الخصمِ واعترافَهُ وانكشافَ الحقِّ وإزالةِ الشبهةِ ، فلوْ طالَ إشكالُ الخصمِ أوْ لجاجُهُ . . لطالَ ـ لا محالةَ ـ إلزامُهُمْ ، وما كانوا يقدرونَ قدْرَ الحاجةِ بميزانٍ ولا مكيالٍ بعدَ الشروعِ فيها .

وأمَّا عدمُ تصدِّيهِمْ للتدريسِ والتصنيفِ فيهِ . . فهكذا كانَ في الفقهِ والتفسيرِ والحديثِ أيضاً ، فإنْ جازَ تصنيفُ الفقهِ ووضعُ الصورِ النادرةِ التي لا تتَّفقُ إلا على الندورِ ؛ إمَّا ادِّخاراً ليومِ وقوعِها وإنْ كانَ نادراً ، أوْ تشحيذاً للخواطرِ . . فنحنُ أيضاً نرتِّبُ طرقَ المحاجَّةِ لتوقُّعِ وقوعِ الحاجةِ بثورانِ شبهةٍ ، أوْ هيجانِ مبتدعٍ ، أوْ لتشحيذِ الخاطرِ ، أوْ لادِّخارِ الحجَّةِ حتَّىٰ لا يعجزَ عنها عندَ الحاجةِ على البديهةِ والارتجالِ ؛ كمَنْ يعدُّ السلاحَ قبلَ القتالِ ليومِ القتالِ .

---

(١) انظر « تاريخ دمشق » (١١/ ٤٦١) .

فهٰذا ما يمكنُ أنْ يُذكرَ للفريقينِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما المختارُ فيهِ عندَكَ ؟

فاعلم : أنَّ الحقَّ فيهِ أنَّ إطلاقَ القولِ بذمِّهِ في كلِّ حالٍ أوْ بحمدِهِ في كلِّ حالٍ . . خطأٌ ، بلْ لا بدَّ فيهِ منْ تفصيلٍ .

فاعلمْ أوَّلاً : أنَّ الشيءَ قدْ يحرمُ لذاتِهِ ؛ كالخمرِ والميتةِ ، وأعني بقولي : (لذاتِهِ) أنَّ علَّةَ تحريمِهِ وصْفٌ في ذاتِهِ ، وهوَ الإسكارُ والموتُ ، وهٰذا إذا سُئِلْنا عنهُ . . أطلقْنا القولَ بأنَّهُ حرامٌ ، ولا يلتفتُ إلىٰ إباحةِ الميتةِ عندَ الاضطرارِ ، وإباحةِ تجرُّعِ الخمْرِ إذا غصَّ الإنسانُ بلقمةٍ ولمْ يجدْ ما يسيغُها سوى الخمرِ(١) .

وإلىٰ ما يحرمُ لغيرِهِ ؛ كالبيعِ علىٰ بيعِ أخيكَ المسلمِ في وقتِ الخيارِ ، والبيعِ وقتَ النداءِ ، وكأكْلِ الطينِ ؛ فإنَّهُ يحرمُ لما فيهِ منَ الإضرارِ .

وهٰذا ينقسمُ إلىٰ ما يضرُّ قليلُهُ وكثيرُهُ ، فيُطلقُ القولُ عليهِ بأنَّهُ حرامٌ ؛ كالسمِّ الذي يقتلُ قليلُهُ وكثيرُهُ ، وإلىٰ ما يضرُّ عندَ الكثرةِ ، فيُطلقُ القولُ عليهِ بالإباحةِ ؛ كالعسلِ ، فإنَّ كثيرَهُ يضرُّ بالمحرورِ ، وكأكْلِ الطينِ ، وكأنَّ

---

(١) وكأن هٰذا جواب عن سؤال مقدر بقول القائل : كيف يجوز إطلاق القول فيهما بالحرمة مع أنهما يباحان في وقت ؟ فأجاب بأن ذلك نادر ، ولا حكم للنادر . « إتحاف » (٥٧/٢) .

إطلاقَ التحريمِ على الطينِ والخمرِ ، والتحليلِ على العسلِ . . التفاتٌ إلىٰ أغلبِ الأحوالِ .

فإنْ تصدَّىٰ شيءٌ تقابلَتْ فيهِ الأحوالُ . . فالأولىٰ والأبعدُ عنِ الالتباسِ أنْ يُفصَّلَ .

فنعودُ إلىٰ علْمِ الكلامِ ونقولُ : إنَّ فيهِ منفعةً وفيهِ مضرَّةً ، فهوَ باعتبارِ منفعتِهِ في وقتِ الانتفاعِ حلالٌ أوْ مندوبٌ إليهِ أوْ واجبٌ كما يقتضيهِ الحالُ ، وهوَ باعتبارِ مضرَّتِهِ في وقتِ الاستضرارِ ومحلِّهِ حرامٌ .

أمَّا مضرَّتُهُ : فإثارةُ الشبهاتِ ، وتحريكُ العقائدِ ، وإزالتُها عنِ الجزمِ والتصميمِ ، فذلكَ ممَّا يحصلُ في الابتداءِ ، ورجوعُها بالدليلِ مشكوكٌ فيهِ ، ويختلفُ فيهِ الأشخاصُ ، فهٰذا ضررُهُ في الاعتقادِ الحقِّ .

ولهُ ضررٌ آخرُ في تأكيدِ اعتقادِ المبتدعةِ للبدعةِ وتثبيتِهِ في صدورِهِمْ ، بحيثُ تنبعثُ دواعيهِمْ ويشتدُّ حرصُهُمْ على الإصرارِ عليهِ ، ولكنَّ هٰذا الضررَ بواسطةِ التعصُّبِ الذي يثورُ منَ الجدلِ ، ولذلكَ ترى المبتدعَ العاميَّ يمكنُ أنْ يزولَ اعتقادُهُ باللطفِ في أسرعِ زمانٍ ، إلاَّ إذا كانَ نشوءُهُ في بلدٍ يظهرُ فيهِ الجدلُ والتعصُّبُ ؛ فإنَّهُ لوِ اجتمعَ عليهِ الأوَّلونَ والآخِرونَ . . لمْ يقدروا علىٰ نزعِ البدعةِ مِنْ صدرِهِ ، بلِ الهوىٰ والتعصُّبُ وبغضُ خصومِهِ المجادلينَ وفرقةِ المخالفينَ يستولي علىٰ قلبِهِ ويمنعُهُ منْ إدراكِ الحقِّ ، حتَّىٰ

لوْ قيلَ لهُ : هلْ تريدُ أنْ يكشفَ اللهُ تعالىٰ لكَ الغطاءَ فيعرِّفَكَ بالعِيانِ أنَّ الحقَّ معَ خصمِكَ . . لكرِهَ ذلكَ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يفرحَ بهِ خصمُهُ ، وهـٰذا هوَ الداءُ العضالُ الذي استطارَ في البلادِ والعبادِ ، وهوَ نوعُ فسادٍ أثارَهُ المجادلونَ بالتعصُّبِ(١) .

فهـٰذا ضررُهُ .

وأمَّا منفعتُهُ : فقدْ يُظنُّ أنَّ فائدتَهُ كشفُ الحقائقِ ومعرفتُها علىٰ ما هيَ عليهِ ، وهيهاتَ ! فليسَ في الكلامِ وفاءٌ بهـٰذا المطلبِ الشريفِ ، ولعلَّ التخبيطَ والتضليلَ فيهِ أكثرُ مِنَ الكشْفِ والتعريفِ ، وهـٰذا إذا سمعتَهُ مِنْ محدِّثٍ أوْ حشْويٍّ . . ربَّما خطرَ ببالِكَ أنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا ؛ فاسمعْ هـٰذا ممَّنْ خبَرَ الكلامَ ثمَّ قلاهُ بعدَ حقيقةِ الخبرةِ ، وبعدَ التغلغلِ فيهِ إلىٰ منتهىٰ درجةِ المتكلِّمينَ ، وجاوزَ ذلكَ إلى التعمُّقِ في علومٍ أُخَرَ تناسبُ نوعَ الكلامِ ، وتحقَّقَ أنَّ الطريقَ إلىٰ حقائقِ المعرفةِ منْ هـٰذا الوجهِ مسدودٌ .

ولعمري ؛ لا ينفكُّ الكلامُ عنْ كشْفٍ وتعريفٍ وإيضاحٍ لبعضِ الأمورِ ـ ولكنْ على الندورِ ـ في أمورٍ جليَّةٍ تكادُ تُفهمُ قبلَ التعمُّقِ في صنعةِ الكلامِ ، **بلْ منفعتُهُ شيءٌ واحدٌ** ؛ **وهوَ حراسةُ العقيدةِ التي ترجمناها على العوامِّ ، وحفظُها عنْ تشويشاتِ المبتدعةِ بأنواعِ الجدلِ** ؛ فإنَّ العاميَّ ضعيفٌ يستفزُّهُ جدلُ المبتدعِ وإنْ كانَ فاسداً ، ومعارضةُ الفاسدِ بالفاسدِ تدفعُهُ ، والناسُ

(١) انظر « الاقتصاد في الاعتقاد » للمصنف (ص ٧٧) .

متعبَّدونَ بهـٰذهِ العقيدةِ التي قدَّمْناها ؛ إذْ وردَ الشرعُ بها لما فيها مِنْ صلاحِ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، وأجمعَ السلفُ الصالحُ عليها ، والعلماءُ متعبَّدونَ بحفظِها على العوامِّ مِنْ تلبيساتِ المبتدعةِ ، كما تُعبِّدَ السلاطينُ بحفظِ أموالِهِمْ عَنْ تهجُّماتِ الظلمةِ والغصَّابِ .

وإذا وقعتِ الإحاطةُ بضررِهِ ومنفعتِهِ . . فينبغي أنْ يكونَ كالطبيبِ الحاذقِ في استعمالِ الدواءِ الخطرِ ؛ إذْ لا يضعُهُ إلاَّ في موضعِهِ ، وذلكَ في وقتِ الحاجةِ ، وعلىٰ قدْرِ الحاجةِ .

وتفصيلُهُ : أنَّ العوامَّ المشغولينَ بالحِرَفِ والصناعاتِ يجبُ أنْ يُتركوا علىٰ سلامةِ عقائِدِهِمُ التي اعتقدوها مهما تلقَّنوا الاعتقادَ الحقَّ الذي ذكرناهُ ؛ فإنَّ تعليمَهُمُ الكلامَ ضررٌ محضٌ في حقِّهِمْ ؛ إذْ ربَّما يثيرُ لهُمْ شكّاً ، ويزلزلُ عليهِمُ الاعتقادَ ، ولا يمكنُ القيامُ بعدَ ذلكَ بالإصلاحِ .

وأمَّا العاميُّ المعتقدُ للبدعةِ . . فينبغي أنْ يُدعىٰ إلى الحقِّ بالتلطُّفِ لا بالتعصُّبِ ، وبالكلامِ اللطيفِ المقنعِ للنفسِ المؤثِّرِ في القلبِ ، القريبِ مِنْ سياقِ أدلَّةِ القرآنِ والحديثِ ، الممزوجِ بفنِّ الوعْظِ والتحذيرِ ؛ فإنَّ ذلكَ أنفعُ مِنَ الجدلِ الموضوعِ علىٰ شرطِ المتكلِّمينَ ؛ إذِ العاميُّ إذا سمعَ ذلكَ . . اعتقدَ أنَّهُ نوعُ صنعةٍ منَ الجدلِ تعلَّمَها المتكلِّمُ ليستدرجَ الناسَ إلى اعتقادِهِ ، فإنْ عجزَ عنِ الجوابِ . . قدَّرَ أنَّ المجادلينَ مِنْ أهلِ مذهبِهِ أيضاً يقدرونَ علىٰ دفعِهِ .

فالجدلُ معَ هـٰذا ومعَ الأوَّلِ حرامٌ ، وكذا معَ مَنْ وقعَ لهُ شكٌّ ، إذْ يجبُ إزالتُهُ باللطفِ والوعظِ ، والأدلَّةِ القريبةِ المقبولةِ ، البعيدةِ عنْ تعمُّقِ الكلامِ .

واستقصاءُ الجدلِ إنَّما ينفعُ في موضعٍ واحدٍ ؛ وهوَ أنْ يُفرضَ عاميٌّ اعتقدَ البدعةَ بنوعِ جدلٍ سمعَهُ ، فيُقابلُ ذلكَ الجدلُ بمثلِهِ ، فيعودُ إلى اعتقادِ الحقِّ ، وذلكَ فيمنْ ظهرَ لهُ مِنَ الأنسِ بالمجادلةِ ما يمنعُهُ عنِ القناعةِ بالمواعظِ والتحذيراتِ العامِّيَّةِ ، فقدِ انتهىٰ هـٰذا إلىٰ حالةٍ لا يشفيهِ إلا دواءُ الجدلِ ، فجازَ أنْ يُلقىٰ إليهِ .

وهـٰذا في بلادٍ تقلُّ فيها البدعةُ ، ولا تختلفُ فيها المذاهبُ ، فيُقتصرُ فيها علىٰ ترجمةِ الاعتقادِ الذي ذكرناهُ ، ولا يُتعرَّضُ للأدلَّةِ ، ويُتربَّصُ وقوعُ شبهةٍ ، فإنْ وقعتْ . . ذُكرَ بقدْرِ الحاجةِ .

فإنْ كانتِ البدعةُ شائعةً ، وكانَ يخافُ على الصبيانِ أنْ يُخدعوا . . فلا بأسَ أنْ يُعلَّموا القدْرَ الذي أودعناه كتابَ « الرسالةُ القدسيةُ » ؛ ليكونَ ذلكَ سبباً لدفعِ تأثيرِ مجادلاتِ البدعةِ إنْ وقعتْ إليهِمْ ، وهـٰذا مقدارٌ مختصرٌ ، وقدْ أودعناهُ هـٰذا الكتابَ لاختصارِهِ[1] .

فإنْ كانَ فيهِ ذكاءٌ وتنبَّهَ بذكائِهِ لموضعِ سؤالٍ ، أوْ ثارَ في نفسِهِ شبهةٌ . .

(١) و« الرسالة القدسية » هي الفصل الثالث من هـٰذا الكتاب الذي نحن فيه ، وهي شرح للعقيدة المجملة المتقدمة في الفصل الأول .

فقدْ بدتِ العلَّةُ المحذورةُ ، وظهرَ الداءُ ، فلا بأسَ أنْ يرقىٰ منهُ إلى القدْرِ الذي ذكرناهُ في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، وهوَ قدْرُ خمسينَ ورقةً ، وليسَ فيهِ خروجٌ عنِ النظرِ في قواعدِ العقائدِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مباحثِ المتكلِّمينَ[١] .

فإنْ أقنعَهُ ذلكَ . . كفَّ عنهُ ، وإنْ لمْ يشفِهِ ذلكَ . . فقدْ صارتِ العلَّةُ مزمنةً ، والداءُ غالباً ، والمرضُ سارياً ، فليتلطفْ بهِ الطبيبُ بقدْرِ إمكانِهِ ، وينتظرْ قضاءَ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ الحقُّ بتنبيهٍ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، أوْ يستمرَّ على الشكِّ والشبهةِ إلىٰ ما قُدِّرَ لهُ .

فالقدْرُ الذي يحويهِ ذلكَ الكتابُ وجنسُهُ مِنَ المصنَّفاتِ هوَ الذي يُرجىٰ نفعُهُ .

فأمَّا الخارجُ عنهُ . . فقسمانِ :

أحدُهُما : بحثٌ عنْ غيرِ قواعدِ العقائدِ ؛ كالبحثِ عنِ الاعتماداتِ والأكوانِ[٢] ، وعنِ الإدراكاتِ ، والخوضِ في أنَّ الرؤيةَ : هلْ لها ضدٌّ

---

(١) و« الاقتصاد » يمكن عدُّه شرحاً لـ « الرسالة القدسية » وإن تقدم في التصنيف ، قال الحافظ الزبيدي فيه : (وهو كتاب جليل ، وشرحه غير واحد من الأئمة) . « إتحاف » (٢/ ٦١) .

(٢) والاعتمادات كقول أبي هاشم : إن الموجب لهويِّ الثقيل هو الاعتماد دون الحركة ، ذكره في مسألة التولد ، والأكوان ـ جمع كون ـ وهو استحالة جوهر ما إلىٰ ما هو أشرف منه ، ويقابله الفساد ، وهو استحالة جوهر ما إلىٰ ما هو دونه ، ولهم في الكون إطلاقات أخر . « إتحاف » (٢/ ٦١) .

يُسمَّى المنعَ أوِ العمىٰ ، وإنْ كانَ . . فذلكَ واحدٌ هوَ منعٌ عنْ جميعِ ما لا يرىٰ ، أوْ يثبتُ لكلِّ مرئيٍّ يمكنُ رؤيتُهُ منعٌ بحسَبِ عددِهِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الترَّهاتِ المضلِّلةِ .

والقسمُ الثاني : زيادةُ تقريرٍ لتلكَ الأدلَّةِ في غيرِ تلكَ القواعدِ ، وزيادةُ أسئلةٍ وأجوبةٍ ، وذلكَ أيضاً استقصاءٌ لا يزيدُ إلا ضلالاً وجهلاً في حقِّ مَنْ لمْ يقنعْهُ ذلكَ القدْرُ ، فربَّ كلامٍ يزيدُهُ الإطنابُ والتقريرُ غموضاً .

ولوْ قالَ قائلٌ : البحثُ عنْ حكْمِ الإدراكاتِ والاعتماداتِ فيهِ فائدةُ تشحيذِ الخواطرِ ، والخاطرُ آلةُ الدينِ ؛ كالسيفِ آلةُ الجهادِ ، فلا بأسَ بتشحيذِهِ . . كانَ كقولِهِ : لعبُ الشطرنجِ يشحذُ الخاطرَ ؛ فهوَ مِنَ الدينِ ، وذلكَ هوسٌ ؛ فإنَّ الخاطرَ ينشحذُ بسائرِ علومِ الشرعِ ، ولا يُخافُ منها مضرةٌ .

فقدْ عرفتَ بهٰذا القدْرَ المذمومَ والقدرَ المحمودَ منَ الكلامِ ، والحالَ التي يُذمُّ فيها ، والحالَ التي يُحمدُ فيها ، والشخصَ الذي ينتفعُ بهِ ، والذي لا ينتفعُ بهِ .

***

فإنْ قلتَ : مهما اعترفتَ بالحاجةِ إليهِ في دفْعِ المبتدعِ ، والآنَ قدْ ثارتِ البدعُ ، وعمَّتِ البلوىٰ ، وأرهقتِ الحاجةُ[1] . . فلا بدَّ وأنْ يصيرَ

(١) أي : دنت وقرب وقوعها .

القيامُ بهـٰذا العلمِ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ كالقيامِ بحراسةِ الأموالِ وسائرِ الحقوقِ بالقضاءِ والولايةِ وغيرِهما ، وما لمْ يشتغلِ العلماءُ بنشرِ ذلكَ والتدريسِ فيهِ والبحثِ عنهُ . . لا يدومُ ، ولوْ تُرِكَ بالكلِّيَّةِ . . لاندرسَ ، وليسَ في مجرَّدِ الطباعِ كفايةٌ لحلِّ شبَهِ المبتدعةِ ما لمْ يتعلَّمْ ، فينبغي أنْ يكونَ التدريسُ فيهِ أيضاً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، بخلافِ زمانِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ فإنَّ الحاجةَ ما كانتْ مَاسَّةً إليهِ .

فاعلمْ : أنَّ الحقَّ أنَّهُ لا بدَّ في كلِّ بلدٍ مِنْ قائمٍ بهـٰذا العلمِ ، مستقلٍّ بدفعِ شبهِ المبتدعةِ التي ثارتْ في تلكَ البلدةِ ، وذلكَ يدومُ بالتعليمِ ، ولكنْ ليسَ مِنَ الصوابِ تدريسُهُ على العمومِ كتدريسِ الفقهِ والتفسيرِ ؛ فإنَّ هـٰذا مثلُ الدواءِ ، والفقهَ مثلُ الغذاءِ ، وضررُ الغذاءِ لا يحذرُ ، وضررُ الدواء محذورٌ لما ذكرنا فيهِ مِنْ أنواعِ الضررِ .

* * *

فالعالمُ بهِ ينبغي أنْ يخصِّصَ بتعليمِ هـٰذا العلمِ مَنْ فيهِ ثلاثُ خصالٍ :

إحداها : التجرُّدُ للعلمِ والحرصُ عليهِ ؛ فإنَّ المحترفَ يمنعُهُ الشغلُ عنِ الاستتمامِ وإزالةِ الشكوكِ إذا عرضتْ .

والثانيةُ : الذكاءُ والفطنةُ والفصاحةُ ؛ فإنَّ البليدَ لا ينتفعُ بفهمِهِ ، والفَدِمَ لا ينتفعُ بحجاجِهِ(١) ، فيُخافُ عليهِ مِنْ ضررِ الكلامِ ، ولا يُرجىٰ فيهِ نفعُهُ .

---

(١) الفدم : العييُّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم .

والثالثةُ : أنْ يكونَ في طبعِهِ الصلاحُ والديانةُ والتقوىٰ ، ولا تكونَ الشهواتُ غالبةً عليهِ[1] ؛ فإنَّ الفاسقَ بأدنىٰ شبهةٍ ينخلعُ عنِ الدينِ ؛ فإنَّ ذلكَ يحُلُّ عنهُ الحجْرَ ويرفعُ السدَّ بينَهُ وبينَ الملاذِّ ، فلا يحرصُ علىٰ إزالةِ الشبهةِ ، بلْ يغتنمُها ليتخلَّصَ منْ أعباءِ التكليفِ ، فيكونُ ما يفسدُهُ مثلُ هـٰذا المتعلِّمِ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وإذا عرفتَ هـٰذهِ الانقساماتِ . . اتَّضحَ لكَ أنَّ الحجَّةَ المحمودةَ في الكلامِ إنَّما هيَ مِنْ جنسِ حججِ القرآنِ منَ الكلماتِ اللطيفةِ المؤثِّرةِ في القلوبِ ، المقنعةِ للنفوسِ ، دونَ التغلغلِ في التقسيماتِ والتدقيقاتِ التي لا يفهمُها أكثرُ الناسِ ، وإذا فهموها . . اعتقدوا أنَّها شعوذةٌ وصنعةٌ تعلَّمَها صاحبُها للتلبيسِ ، فإذا قابلَهُ مثلُهُ في الصنعةِ . . قاومَهُ .

وعرفتَ أنَّ الشافعيَّ وكافةَ السلفِ إنَّما منعوا عنِ الخوضِ فيهِ والتجرُّدِ لهُ لما فيهِ مِنَ الضررِ الذي نبهْنا عليهِ ، وأنَّ ما نُقلَ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما مِنْ مناظرةِ الخوارجِ ، وما نُقلَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ مِنَ المناظرةِ في القدَرِ وغيرِهِ . . كانَ مِنَ الكلامِ الجليِّ الظاهرِ وفي محلِّ الحاجةِ ، وذلكَ محمودٌ في كلِّ حالٍ .

نعمْ ؛ قدْ تختلفُ الأعصارُ في كثرةِ الحاجةِ وقلَّتِها ، فلا يبعدُ أنْ يختلفَ الحكمُ لذلكَ .

---

(١) وفي معنى (الشهوات) : التعصبات للمذاهب والمباهاة بالمعارف . «إتحاف» (٢/ ٦٣) .

فهٰذا حكمُ هٰذهِ العقيدةِ التي تُعبِّدَ الخلقُ بها ، وحكمُ طريقِ النضالِ عنْها وحفظِها ، فأمَّا إزالةُ الشبهةِ ، وكشفُ الحقائقِ ، ومعرفةُ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، ودرْكُ الأسرارِ التي يترجمُها ظاهرُ ألفاظِ هٰذهِ العقيدةِ . . فلا مفتاحَ لهُ إلاَّ المجاهدةُ ، وقمعُ الشهواتِ ، والإقبالُ بالكلِّيَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، وملازمةُ الفكْرِ الصافي عنْ شوائبِ المجادلاتِ ، وهيَ رحمةٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ تفيضُ علىٰ مَنْ يتعرَّضُ لنفحاتِها بقدْرِ الرزقِ وبحسَبِ التعرُّضِ ، وبقدْرِ قَبولِ المحلِّ وطهارةِ القلبِ ، وذلكَ البحرُ الذي لا يُدركُ غورُهُ ولا يُبلغُ ساحلُهُ .

مَسْأَلَةٌ

[هلْ هناكَ عقيدةٌ ظاهرةٌ وعقيدةٌ باطنةٌ ؟]

فإنْ قلتَ : هٰذا الكلامُ يشيرُ إلىٰ أنَّ هٰذهِ العلومَ لها ظواهرُ وأسرارٌ ، وبعضُها جليٌّ يبدو أوَّلاً ، وبعضُها خفيٌّ يتَّضحُ بالمجاهدةِ والرياضةِ والطلبِ الحثيثِ والفكْرِ الصافي والسرِّ الخالي عنْ كلِّ شيءٍ مِنْ أشغالِ الدنيا سوى المطلوبِ ، وهٰذا يكادُ يكونُ مخالفاً للشرعِ ؛ إذْ ليسَ للشرعِ ظاهرٌ وباطنٌ ، وسرٌّ وعلنٌ ، بلِ الظاهرُ والباطنُ والسرُّ والعلنُ واحدٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ انقسامَ هٰذهِ العلومِ إلىٰ خفيَّةٍ وجليَّةٍ لا ينكرُها ذو بصيرةٍ ، وإنَّما ينكرُها القاصرونَ الذينَ تلقَّنوا في أوَّلِ الصبا شيئاً وجَمَدوا عليهِ ، فلمْ يكنْ لهمْ ترقٍّ إلىٰ شأْوِ العلا ، ومقاماتِ العلماءِ والأولياءِ ، وذلكَ ظاهرٌ مِنْ أدلَّةِ الشرعِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقرآنِ ظاهراً وباطناً ، وحَدّاً ومَطلعاً »[1] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ هٰهنا علوماً جمَّةً لوْ وجدتُ لها حملةً)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أُمِرْنا أنْ نُكلِّمَ الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »[3] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٥) بلفظ : « أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن » ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٥٨) بلفظ : (والذي نفسي بيده ؛ ما منه آية إلا ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلا وله حد ، ولكل حد مطلع) من قول الحسن ، ولفظ المصنف هنا عند صاحب « القوت » (١/ ٥١) . وقال : (فنقول : فظهره لأهل العربية ، وباطنه لأهل اليقين ، وحده لأهل الظاهر ، ومطلعه لأهل الإشراف ، وهم العارفون المحبون ، والخائفون اطلعوا علىٰ لطف المطلع بعد أن خافوا هول المطلع ، فأودعوا السر عند مقام أمين ، وأوقفوا على الخبر في حال مكين ، فكانوا لديه مقربين ، إذ كانوا به شاهدين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يرى الشاهد ما لا يرى الغائب » ، فمن حضر . . شهد ، ومن شهد . . وجد ، ومن وجد . . وحَّد ، ومن وحَّد . . عزز ، ومن غاب . . عمي ، ومن عمي . . فقد ، ومن فقد . . نسي ، ومن نسي . . فقد نسي ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي : تركتها فلم تعبأ بها ، ولم تنظر إليها ، وهٰكذا اليوم تترك ، فلا ينظر إليك برحمة ، ولا تُكلم بلطف ، ولا تزلف بقرب) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٩ـ ٨٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦)، وانظر«القوت» (١/ ١٤٢ـ١٤٣)، و«إتحاف السادة المتقين» (١/ ٤٠٦).

(٣) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٤/ ١٥٣٤) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء كذلك أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم » ، ومعناه سبق في حديث البخاري (١٢٧) الموقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون . . .) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حدَّثَ أحدٌ قوماً بحديثٍ لمْ تبلغْهُ عقولُهُمْ إلاَّ كانَ فتنةً عليهِمْ »[(١)] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ العلمِ كهيئةِ المكنونِ ، لا يعلمُهُ إلاَّ العالمونَ باللهِ تعالىٰ » الحديثَ إلىٰ آخرِهِ[(٢)] ، كما أوردناهُ في (كتاب العلمِ) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً »[(٣)] .

فليتَ شعري ؛ إنْ لمْ يكنْ ذلكَ سرّاً منعَ مِنْ إفشائِهِ لقصورِ الأفهامِ عنْ إدراكِهِ ، أوْ لمعنىً آخرَ . . فلمَ لمْ يذكرْهُ لهمْ ولا شكَّ أنَّهُمْ كانوا يصدِّقونَهُ لوْ ذكرَهُ لهمْ ؟!

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ

---

(١) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/ ١١) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه صاحب « القوت » (١/ ١٧٥) معلقاً ، وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/ ١٣٥) : (رواه أبو منصور الديلمي في « المسند » [٨٠٢] ، وأبو عبد الرحمـٰن السلمي في « الأربعين » التي له في التصوف) .

(٣) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .

سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ : (لـو ذكـرتُ تفسيـرَهُ .. لرجمتموني) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لقلتمْ : إنَّهُ كافرٌ)[1] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (حفظتُ من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعاءَيْنِ ، أمَّا أحدُهما .. فبثثتُهُ ، وأمَّا الآخرُ لو بثثتُهُ .. لقُطِعَ هـٰذا الحلقومُ)[2] .

وقـالَ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ : « مـا فضلَكُـمْ أبـو بكـرٍ بكثـرةِ صيـامٍ ولا صلاةٍ ، ولكنْ بسرٍّ وقرَ في صدرِهِ »[3] ، ولا شكَّ في أنَّ ذلكَ السرَّ كانَ متعلِّقاً بقواعدِ الدينِ غيرَ خارجٍ منها ، وما كانَ منْ قواعدِ الدينِ لمْ يكنْ خافياً بظواهرِهِ علىٰ غيرِهِ[4] .

وقالَ سهلٌ التستريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (للعالمِ ثلاثةُ علومٍ : علمٌ ظاهرٌ يبذلُهُ لأهلِ الظاهرِ ، وعلمٌ باطنٌ لا يسعُهُ إظهارُهُ إلاَّ لأهلِهِ ، وعلمٌ هوَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ لا يظهرُهُ لأحدٍ)[5] .

---

(١) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (٣) ، وابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٤/ ١٨٨) بنحوه ، وبلفظه في « قوت القلوب » (١/ ٢٥٣) .
(٢) صحيح البخاري (١٢٠) .
(٣) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١) ، و« ختم الأولياء » (ص ٤٤٢) موقوفاً علىٰ بكر بن عبد الله المزني .
(٤) أي : من الصحابة رضوان الله عليهم . « إتحاف » (٢/ ٦٧) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٩٠) .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إفشاءُ سرِّ الربوبيةِ كفرٌ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (للربوبيَّةِ سرٌّ لوْ أُظهرَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ، وللنبوَّةِ سرٌّ لوْ كُشفَ . . لبطلَ العلمُ ، وللعلماءِ باللهِ سرٌّ لوْ أظهروهُ . . لبطلتِ الأحكامُ)[2] .

وهٰذا القائلُ إنْ لمْ يردْ بذلكَ بطلانَ النبوَّةِ في حقِّ الضعفاءِ لقصورِ فهمِهِمْ . . فما ذكرَهُ ليسَ بحقٍّ ، بلِ الصحيحُ أنَّهُ لا تناقضَ فيهِ ، وأنَّ الكاملَ مَنْ لا يطفىءُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ ، ومدْرَكُ الورعِ النبوَّةُ .

مَسْأَلَةٌ

[في وجهِ الاختلافِ بينَ الظاهرِ والباطنِ]

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الآياتُ والأخبارُ يتطرَّقُ إليها تأويلاتٌ ، فبيِّنْ لنا كيفيةَ اختلافِ الظاهرِ والباطنِ ؛ فإنَّ الباطنَ إنْ كانَ مناقضاً للظاهرِ . . ففيهِ إبطالُ الشرْعِ ، وهوَ قولُ مَنْ قالَ : إنَّ الحقيقةَ خلافُ الشريعةِ ، وهوَ كفرٌ ؛ لأنَّ الشريعةَ عبارةٌ عنِ الظاهرِ ، والحقيقةَ عبارةٌ عنِ الباطنِ ، وإنْ كانَ لا يناقضُهُ ولا يخالفُهُ . . فهوَ هوَ ، فيزولُ بهِ الانقسامُ ، ولا يكونُ للشرعِ سرٌّ لا يُفشىٰ ، بلْ يكونُ الخفيُّ والجليُّ واحداً .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٩٠) ، وبيّن الإمام الغزالي معناه في « الإملاء » (ص٣١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٩٠) ، ونسبه المؤلف في « الإملاء » (ص٣٩) لسهل التستري ، وأجلىٰ معناه فيه .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا السؤالَ يحرِّكُ خطباً عظيماً ، وينجرُّ إلىٰ علومِ المكاشفةِ ، ويخرجُ عنْ مقصودِ علمِ المعاملةِ ، وهوَ غرضُ هـٰذهِ الكتبِ ؛ فإنَّ العقائدَ التي ذكرْناها مِنْ أعمالِ القلوبِ ، وقدْ تُعُبِّدْنا بتلقِّيها بالقبولِ والتصديقِ بعقْدِ القلبِ عليها ، لا بأنْ يُتوصَّلَ إلىٰ أنْ ينكشفَ لنا حقائقُها ؛ فإنَّ ذلكَ لمْ يُكلَّفْ بهِ كافَّةُ الخلقِ ، ولولا أنَّهُ مِنَ الأعمالِ . . لما أوردْناهُ في هـٰذا الكتابِ ، ولولا أنَّهُ عملُ ظاهرِ القلبِ لا عملُ باطنِهِ . . لما أوردْناه في الشطْرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ ، وإنَّما الكشفُ الحقيقيُّ هوَ صفةُ سرِّ القلبِ وباطنِهِ ، ولكنْ إذا انجرَّ الكلامُ إلىٰ تحريكِ خيالٍ في مناقضةِ الظاهرِ للباطنِ . . فلا بدَّ منْ كلامٍ وجيزٍ في حلِّهِ :

فمنْ قالَ : إنَّ الحقيقةَ تخالفُ الشريعةَ ، أوِ الباطنَ يناقضُ الظاهرَ . . فهوَ إلى الكفْرِ أقربُ منهُ إلى الإيمانِ[1] ، **بلِ الأسرارُ التي يختصُّ المقربونَ بدرْكِها ، ولا يشاركُهُمُ الأكثرونَ في علمِها ، ويمتنعونَ عنْ إفشائِها إليهِمْ . . ترجعُ إلىٰ خمسةِ أقسامٍ** :

الأوّلُ : أنْ يكونَ الشيءُ في نفسِهِ دقيقاً تكلُّ أكثرُ الأفهامِ عنْ درْكِهِ ، فيختصُّ بدرْكِهِ الخواصُّ ، وعليهِمْ ألاَّ يفشوهُ إلىٰ غيرِ أهلِهِ ؛ إذْ يصيرُ ذلكَ فتنةً عليهِمْ ، حيثُ تقصرُ أفهامُهُمْ عنِ الدرْكِ ، وإخفاءُ سرِّ الروحِ ، وكفُّ

(١) انظر « مشكاة الأنوار » للمصنف (ص ٦١) .

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ بيانِهِ منْ هٰذا القسمِ[1] ؛ فإنَّ حقيقتَهُ ممَّا تكلُّ الأفهامُ عنْ درْكِهِ ، وتقصرُ الأوهامُ عنْ تصوُّرِ كنْهِهِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذلكَ لمْ يكنْ مكشوفاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ مَنْ لمْ يعرفِ الروحَ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ نفسَهُ ، فكيفَ يعرفُ ربَّهُ سبحانَهُ ؟

ولا يبعدُ أنْ يكونَ ذلكَ مكشوفاً لبعضِ الأولياءِ والعلماءِ وإنْ لمْ يكونوا أنبياءَ ، ولكنَّهُمْ يتأدَّبونَ بأدبِ الشرعِ ، فيسكتونَ عمَّا سكتَ عنهُ[2] ، بلْ في صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الخفايا ما تقصرُ أفهامُ الجماهيرِ عنْ درْكِهِ ، ولمْ يذكرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منها إلاَّ الظواهرَ للأفهامِ ؛ مِنَ العلمِ ، والقدرةِ ، وغيرِهما ، حتَّىٰ فهمَها الخلقُ بنوعِ مناسبةٍ توهَّموها إلىٰ علمِهِمْ وقدرتِهِمْ ؛ إذْ كانَ لهُمْ مِنَ الأوصافِ ما يُسمَّىٰ علماً وقدرةً ، فيتوهَّمونَ ذلكَ بنوعِ مقايسةٍ ، ولوْ ذكرَ مِنْ صفاتِهِ ما ليسَ للخلْقِ ممَّا يناسبُهُ بعضَ المناسبةِ شيءٌ . . لمْ يفهموهُ ، بلْ لذَّةُ الجماعِ إذا ذُكرتْ للصبيِّ أوِ العنينِ لمْ يفهَمْها إلاَّ بمناسبةٍ إلىٰ لذَّةِ المطعومِ الذي يدركُهُ ، ولا يكونُ ذلكَ فهْماً على التحقيقِ ، والمخالفةُ بينَ علمِ اللهِ سبحانَهُ وقدرتِهِ وعلمِ الخلقِ وقدرتِهِمْ أكثرُ مِنَ المخالفةِ بينَ لذَّةِ الجماعِ والأكلِ .

---

(١) كما في « البخاري » (١٢٥) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

(٢) ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ، ولو لزمت النفوس حدَّها معترفة بعجزها . . كان ذلك أجدر بها وأولىٰ . « إتحاف » (٧٠/٢) .

وبالجملةِ : فلا يدركُ الإنسانُ إلاَّ نفسَهُ وصفاتِ نفسِهِ ممَّا هوَ حاضرٌ لهُ في الحالِ ، أوْ ممَّا كانَ لهُ مِنْ قبلُ ، ثمَّ بالمقايسةِ إليهِ يفهمُ ذلكَ لغيرِهِ ، ثمَّ قدْ يصدقُ بأنَّ بينَهُما تفاوتاً في الشرفِ والكمالِ ، فليسَ في قوَّةِ البشرِ إلاَّ أنْ يثبتَ للهِ تعالىٰ ما هوَ ثابتٌ لنفسِهِ ؛ مِنَ الفعلِ ، والعلمِ ، والقدرةِ ، وغيرِها مِنَ الصفاتِ ، معَ التصديقِ بأنَّ ذلكَ أكملُ وأشرفُ ، فيكونُ معظمُ تحويمِهِ علىٰ صفاتِ نفسِهِ ، لا علىٰ ما اختُصَّ الربُّ تعالىٰ بهِ مِنَ الجلالِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[1] ، وليسَ المعنيُّ بهِ أنِّي أعجزُ عنِ التعبيرِ عمَّا أدركْتُهُ ، بلْ هوَ اعترافٌ بالقصورِ عنْ إدراكِ كنهِ جلالِهِ .

ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ما عرفَ اللهَ بالحقيقةِ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وقالَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الحمدُ للهِ الذي لمْ يجعلْ للخلْقِ سبيلاً إلىٰ معرفتِهِ إلا بالعجزِ عنْ معرفتِهِ)[2] .

ولنقبضْ عِنانَ الكلامِ عنْ هٰذا النمطِ ، ولنرجعْ إلى الغرضِ ، وهوَ أنَّ أحدَ الأقسامِ ما تكلُّ الأفهامُ عنْ إدراكِهِ ، ومِنْ جملتِهِ الروحُ ، ومِنْ جملتِهِ بعضُ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولعلَّ الإشارةَ إلىٰ مثلِهِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٤٩٥) .

وسلَّمَ : « إنَّ للهِ سبحانَهُ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، لوْ كشفَها . . لأحرقَتْ سبحاتُ وجهِهِ كلَّ مَنْ أدركَهُ بصرُهُ »(١) .

* * *

القسمُ الثاني : مِنَ الخفيّاتِ التي تمتنعُ الأنبياءُ والصدِّيقونَ عنْ ذكرِها : ما هوَ مفهومٌ في نفسِهِ لا يكلُّ الفهمُ عنهُ ، ولكنْ ذكرُهُ يضرُّ بأكثرِ المستمعينَ ، ولا يضرُّ بالأنبياءِ والصدِّيقينَ ، وسرُّ القدَرِ الذي منعَ أهلُ العلمِ بهِ عنْ إفشائِهِ مِنْ هـٰذا القسمِ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ ذكرُ بعضِ الحقائقِ مضرّاً ببعضِ الخلْقِ ، كما يضرُّ نورُ الشمسِ بأبصارِ الخفافيشِ ، وكما تضرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ .

وكيفَ يبعدُ هـٰذا وقولُنا : (إنَّ الكفرَ والزنا والمعاصيَ والشرورَ كلَّهُ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ وإرادتِهِ ومشيئتِهِ) حقٌّ في نفسِهِ ، وقدْ أضرَّ سماعُهُ بقومٍ ؛ إذْ أوهمَ ذلكَ عندَهُمْ دلالةً على السفَهِ، ونقيضِ الحكمةِ، والرضا بالقبيحِ والظلمِ؟!

وقدْ ألحدَ ابنُ الراونديِّ وطائفةٌ مِنَ المخذولينَ بمثلِ ذلكَ(٢) .

فكذلكَ سرُّ القدَرِ لوْ أُفشيَ . . لأوهمَ عندَ أكثرِ الخلْقِ عجزاً ؛ إذْ تقصُرُ أفهامُهُمْ عنْ إدراكِ ما يزيلُ ذلكَ الوهمَ عنهمْ .

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) بلفظ : « حجابه النور » ، ولفظ : « سبعين حجاباً » عند الطبراني في « الأوسط » (٦٤٠٣) .

(٢) وابن الراوندي زنديق مشهور صاحب كتب محشوة بكفرياته وهذيانه ، والطائفة هنا عامة من أنكر خلق أفعال العباد لله عز وجل .

ولوْ قالَ قائلٌ : إنَّ القيامةَ لوْ ذُكرَ ميقاتُها وأنَّها بعدَ ألفِ سنةٍ أوْ أكثرَ أوْ أقلَّ . . لكانَ مفهوماً ، ولكنْ لمْ يُذكرْ لمصلحةِ العبادِ وخوفاً مِنَ الضررِ ، فلعلَّ المدَّةَ إليها بعيدةٌ فيطولُ الأمدُ ، وإذا استبطأتِ النفوسُ وقتَ العقابِ . . قلَّ اكتراثُها ، ولعلَّها كانتْ قريبةً في علمِ اللهِ سبحانَهُ ، ولوْ ذُكرتْ . . لعظمَ الخوفُ وأعرضَ الناسُ عَنِ الأعمالِ ، وخربتِ الدنيا .

فهـٰذا المعنىٰ لوِ اتجهَ وصحَّ . . فيكونُ مثالاً لهـٰذا القسمِ .

* * *

القسمُ الثالثُ : أنْ يكونَ الشيءُ بحيثُ لوْ ذُكرَ صريحاً . . لفُهِمَ ولمْ يكنْ فيهِ ضررٌ ، ولكنْ يُكنىٰ عنهُ علىٰ سبيلِ الاستعارةِ والرمْزِ ؛ ليكونَ وقعُهُ في قلبِ المستمعِ أغلبَ ، ولهُ مصلحةٌ في أنْ يعظمَ وقْعُ ذلكَ الأمرِ في قلبِهِ ؛ كما لوْ قالَ قائلٌ : (رأيتُ فلاناً يقلِّدُ الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ) ، فكنَّىٰ بهِ عنْ إفشاءِ العلمِ وبثِّ الحكمةِ إلىٰ غيرِ أهلِها ، فالمستمعُ قدْ يسبقُ إلىٰ فهمِهِ ظاهرُ اللفظِ ، والمحقِّقُ إذا نظرَ وعلمَ أنَّ ذلكَ الإنسانَ لمْ يكنْ معَهُ درٌّ ولا كانَ في موضعِهِ خنزيرٌ . . تفطَّنَ لدرْكِ السرِّ والباطنِ ، فيتفاوتُ الناسُ بذلكَ ، ومِنْ هـٰذا قولُ الشاعرِ : [من الكامل]

رَجُـلانِ خَيّـاطٌ وَآخَـرُ حـائِـكٌ ... مُتَقابِلانِ عَلَى ٱلسِّماكِ ٱلأَعزَلِ[1]

---

(١) في غير (ب) : (السماء الأول) ، والسِّماك : نجم نير ، وينزله القمر ، وهما سماكان (أعزل ورامح) . وانظر « الإتحاف » (٢/ ٧٥) .

لا زالَ يَنْسِجُ ذاكَ خِرْقَةَ مُدْبِرٍ وَيَخِيطُ صاحِبُهُ ثِيابَ ٱلْمُقْبِلِ

فإنَّهُ عبَّرَ عنْ سببٍ سماويٍّ في الإقبالِ والإدبارِ برجلينِ صانعينِ .

وهـٰذا النوعُ يرجعُ إلى التعبيرِ عنِ المعنىٰ بالصورةِ التي تتضمَّنُ عينَ المعنىٰ أوْ مثلَهُ ، ومنهُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسجدَ لينزوي مِنَ النخامةِ كما تنزوي الجلدةُ في النَّارِ »[1] ، وأنتَ ترىٰ أنَّ ساحةَ المسجدِ لا تنقبضُ بالنخامةِ ، ومعناهُ أنَّ روحَ المسجدِ كونُهُ معظَّماً ، ورميُ النخامةِ فيهِ تحقيرٌ لهُ ، فيضادُّ معنى المسجديَّةِ مضادَّةَ النارِ لاتصالِ أجزاءِ الجلدةِ .

وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما يخشى الذي يرفعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ أنْ يحوِّلَ اللهُ رأسَهُ رأسَ حمارٍ ؟! »[2] ، وذلكَ منْ حيثُ الصورةُ لمْ يكنْ قطُّ ولا يكونُ ، ولكنْ مِنْ حيثُ المعنىٰ هوَ كائنٌ ؛ إذْ رأسُ الحمارِ لمْ يكنْ بحقيقتِهِ للونِهِ وشكلِهِ ، بلْ لخاصِّيتِهِ ، وهيَ البلادةُ والحمقُ ، ومَنْ رفعَ رأسَهُ قبلَ الإمامِ . . فقدْ صارَ رأسُهُ رأسَ حمارٍ في معنى البلادةِ والحمقِ ، وهوَ المقصودُ ، دونَ الشكلِ الذي هوَ قالبُ المعنىٰ ؛ إذْ مِنْ غايةِ الحمقِ أنْ يجمعَ بينَ الاقتداءِ وبينَ التقدُّمِ ؛ فإنَّهما متناقضانِ .

وإنَّما يُعرفُ أنَّ هـٰذا السرَّ علىٰ خلافِ الظاهرِ ؛ إمَّا بدليلٍ عقليٍّ ، أوْ شرعيٍّ :

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١/٤٣٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٠) من قول أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

أمّا العقليُّ : بأنْ يكونَ حملُهُ على الظاهرِ غيرَ ممكنٍ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[1] ؛ إذْ لوْ فتشْنا عنْ قلوبِ المؤمنينَ . . فلمْ نجدْ فيها أصابعَ ، فعُلِمَ أنَّها كنايةٌ عنِ القدرةِ التي هيَ سرُّ الأصابعِ وروحُها الخفيُّ ، وكنَّىٰ بالأصابعِ عنِ القدرةِ ؛ لأنَّ ذلكَ أعظمُ وقعاً في تفهيمِ تمامِ الاقتدارِ .

ومِنْ هـٰذا القبيلِ كنايتُهُ عنِ الاقتدارِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، فإنَّ ظاهرَهُ ممتنعٌ ؛ إذْ قولُهُ : (كنْ) إنْ كانَ خطاباً للشيءِ قبلَ وجودِهِ . . فهوَ محالٌ ؛ إذِ المعدومُ لا يفهمُ الخطابَ حتَّىٰ يمتثلَ ، وإنْ كانَ بعدَ الوجودِ . . فهوَ مستغنٍ عنِ التكوينِ ، ولكنْ لمَّا كانتْ هـٰذهِ الكنايةُ أوقعَ في النفوسِ في تفهيمِ غايةِ الاقتدارِ . . عدلَ إليها .

وأمَّا المدركُ بالشرعِ : فهوَ أنْ يكونَ إجراؤُهُ على الظاهرِ ممكناً ، ولكنْ يُروىٰ أنَّهُ أُريدَ بهِ غيرُ الظاهرِ ؛ كما وردَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ الآيةَ ، وأنَّ معنى الماءِ هـٰهنا هوَ القرآنُ ، ومعنى الأوديةِ القلوبُ ، وأنَّ بعضَها احتملتْ شيئاً كثيراً ، وبعضَها قليلاً ، وبعضَها لمْ يحتملْ ، والزبدُ مثلُ الكفرِ والنفاقِ ؛ فإنَّهُ وإنْ ظهرَ وطفا علىٰ رأسِ الماءِ . . فإنَّهُ لا يثبتُ ، والهدايةُ التي تنفعُ الناسَ تمكثُ .

وفي هـٰذا القسمِ تعمَّقَ جماعةٌ ، فأوَّلوا ما وردَ في الآخرةِ مِنَ الميزانِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) بنحوه .

والصراطِ وغيرِهما ، وهوَ بدعةٌ ؛ إذْ لمْ يُنقلْ ذلكَ بطريقِ الروايةِ ، وإجراؤُهُ على الظاهرِ غيرُ محالٍ ، فيجبُ إجراؤُهُ على الظاهرِ .

* * *

القسمُ الرابعُ : أنْ يدركَ الإنسانُ الشيءَ جملةً ، ثمَّ يدركَهُ تفصيلاً بالتحقيقِ والذوقِ ؛ بأنْ يصيرَ حالاً ملابساً لهُ ، فيتفاوتُ العلمانِ ، ويكونُ الأوَّلُ كالقشرِ ، والثاني كاللُّبِّ ، والأوَّلُ كالظاهرِ ، والثاني كالباطنِ ، وذلكَ كما يتمثَّلُ للإنسانِ في عينِهِ شخصٌ في الظلمةِ أوْ على البعْدِ ، فيحصلُ لهُ نوعُ علمٍ ، فإذا رآهُ بالقربِ أوْ بعدَ زوالِ الظلامِ . أدركَ تفرقةً بينَهُما ، ولا يكونُ الآخرُ ضدَّ الأوَّلِ ، بلْ هوَ استكمالٌ لهُ .

فكذلكَ في العلمِ والإيمانِ والتصديقِ ؛ إذْ قدْ يصدِّقُ الإنسانُ بوجودِ العشْقِ والمرضِ والموتِ قبلَ وقوعِهِ ، ولكنَّ تحقُّقَهُ بِهِ عندَ الوقوعِ أكملُ مِنْ تحقُّقِهِ قبلَ الوقوعِ ، بلْ للإنسانِ في الشهوةِ والعشْقِ وسائرِ الأحوالِ ثلاثةُ أحوالٍ متفاوتةٍ وإدراكاتٍ متباينةٍ :

الأوَّلُ : تصديقُهُ بوجودِهِ قبلَ وقوعِهِ .

والثاني : عندَ وقوعِهِ .

والثالثُ : بعدَ تصرُّمِهِ ؛ فإنَّ تحقُّقَكَ بالجوعِ بعدَ زوالِهِ يخالفُ التحقُّقَ بِهِ قبلَ الزوالِ .

فكذلكَ مِنْ علومِ الدينِ ما يصيرُ ذوقاً فيكملُ ، فيكونُ ذلكَ كالباطنِ

بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَ ذلكَ ، ففرْقٌ بينَ علمِ المريضِ بالصحَّةِ وبينَ علمِ الصحيحِ بها .

ففي هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ تتفاوتُ الخلقُ ، وليسَ في شيءٍ منها باطنٌ يناقضُ الظاهرَ ، بلْ يتمِّمُهُ ويكمِّلُهُ كما يتمِّمُ اللبُّ القشرَ ، والسلامُ .

***

القسمُ الخامسُ : أنْ يُعبَّرَ بلسانِ المقالِ عنْ لسانِ الحالِ ، فالقاصرُ الفهمِ يقفُ على الظاهرِ ويعتقدُهُ نطقاً ، والبصيرُ بالحقائقِ يدركُ السرَّ فيهِ .

وهـٰذا كقولِ القائلِ : قالَ الجدارُ للوَتِدِ : لِمَ تشقُّني ؟ قالَ : سَلْ مَنْ يدقُّني ، فلمْ يتركْني ، وراءِ الحجرَ الذي ورائي[1] ، فهـٰذا تعبيرٌ عنْ لسانِ الحالِ بلسانِ المقالِ .

ومِنْ هـٰذا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، فالبليدُ يفتقرُ في فهمِهِ إلىٰ أنْ يقدِّرَ لهما حياةً وعقلاً وفهماً للخطابِ ، وخطاباً هوَ صوتٌ وحرفٌ تسمعُهُ السماءُ والأرضُ ، فتجيبانِ بحرفٍ وصوتٍ وتقولانِ : أتينا طائعينَ ، والبصيرُ يعلمُ أنَّ ذلكَ لسانُ الحالِ ، وأنَّهُ نبأٌ عنْ كونِهما مسخَّرتينِ بالضرورةِ ومضطرَّتينِ إلى التسخيرِ .

ومِنْ هـٰذا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ؛ فإنَّ البليدَ يفتقرُ فيهِ إلىٰ أنْ يقدِّرَ للجمادِ حياةً وعقلاً ونطقاً بصوتٍ وحرفٍ حتَّىٰ يقولَ :

---

(١) راءِ : فعل أمر من راءىٰ يرائي ؛ أي : انظر . « إتحاف » (٢/ ٧٨) .

سبحانَ اللهِ ؛ ليتحقَّقَ تسبيحَهُ ، والبصيرُ يعلمُ أنَّهُ ما أُريدَ بهِ نطقُ اللسانِ ، بلْ كونُهُ مسبِّحاً بوجودِهِ ، ومقدِّساً بذاتِهِ ، وشاهداً بوحدانيةِ اللهِ سبحانَهُ ، كما قيلَ[1] : [من المتقارب]

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَلَـىٰ أَنَّـهُ وَاحِـدُ

وكما يُقالُ : هـٰذهِ الصنعةُ المحكمةُ تشهدُ لصانِعِها بحسْنِ التدبيرِ وكمالِ العلمِ ، لا بمعنىٰ أنَّها تقولُ : أشهدُ بالقولِ ، ولكنْ بالذاتِ والحالِ ؛ فكذلكَ : ما مِنْ شيءٍ إلاَّ وهوَ محتاجٌ في نفسِهِ إلىٰ موجدٍ يوجدُهُ ، ويبقيهِ ويديمُ أوصافَهُ ويردِّدُهُ في أطوارِهِ ، فهوَ بحاجتِهِ يشهدُ لخالقِهِ بالتقديسِ ، يدركُ شهادتَهُ ذوو البصائرِ دونَ الجامدينَ على الظواهرِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

وأمَّا القاصرونَ . . فلا يفقهونَ أصلاً ، وأمَّا المقرَّبونَ والعلماءُ الراسخونَ . . فلا يفقهونَ كنهَهُ وكمالَهُ ؛ إذْ لكلِّ شيءٍ شهاداتٌ شتَّىٰ علىٰ تقديسِ اللهِ سبحانَهُ وتسبيحِهِ ، ويدركُ كلُّ واحدٍ بقدْرِ عقلِهِ وبصيرتِهِ ، وتعدادُ تلكَ الشهاداتِ لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ .

فهـٰذا الفنُّ أيضاً ممَّا يتفاوتُ أربابُ الظواهرِ وأربابُ البصائرِ في علمِهِ ، وتظهرُ بهِ مفارقةُ الباطنِ للظاهرِ .

---

(١) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص١٠٤) .

وفي هٰذا المقامِ لأربابِ المقاماتِ إسرافٌ واقتصاد :

فمِنْ مسرفٍ في رفعِ الظواهرِ انتهىٰ إلىٰ تغييرِ جميعِ الظواهرِ والبراهينِ أوْ أكثرِها ، حتَّىٰ حملوا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ، وكذلكَ المخاطباتُ التي تجري مِنْ منكَرٍ ونكيرٍ ، وفي الميزانِ وفي الحسابِ ، ومناظراتِ أهلِ النارِ وأهلِ الجنَّةِ في قولِهِمْ : ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ زعموا أنَّ كلَّ ذلكَ لسانُ الحالِ(١) .

وغلا آخرونَ في حسْمِ البابِ ، منهمْ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، حتَّىٰ منعَ تأويلَ قولِهِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ، وزعموا أنَّ ذلكَ خطابٌ بحرفٍ وصوتٍ يوجدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ لحظةٍ بعددِ كَوْنِ كلِّ مكوَّنٍ ، حتَّىٰ سمعتُ بعضَ أصحابِهِ يقولُ : إنَّهُ حسَمَ بابَ التأويلِ إلا لثلاثةِ ألفاظٍ : قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ في الأرضِ »(٢) ، وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ منْ أصابعِ الرحمـٰنِ »(٣) ، وقولِهِ

---

(١) وهم عامة من يحكِّم العقل ويقدمه على النص ، وعلىٰ رأس هٰؤلاء الفلاسفة الذي غالوا حتىٰ نفوا حشر الأجساد ، ومنهم ـ علىٰ تباين ـ المعتزلة كما سيبين هٰذا المصنف بعد سطور .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه موقوفاً علىٰ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق في « المصنف » (٥/ ٣٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأجدُ نفَسَ الرحمـٰنِ مِنْ جانبِ اليمنِ »[1] ، ومالَ إلىٰ حسْمِ البابِ أربابُ الظواهرِ .

والظنُّ بأحمدَ ابنِ حنبلٍ أنَّهُ علمَ أنَّ الاستواءَ ليسَ هوَ الاستقرارَ ، والنزولَ ليسَ هوَ الانتقالَ ، ولكنَّهُ منعَ مِنَ التأويلِ حسْماً للبابِ ، ورعايةً لصلاحِ الخلْقِ ؛ فإنَّهُ إذا فُتحَ البابُ . . اتَّسعَ الخرْقُ ، وخرجَ الأمرُ عنِ الضبطِ ، وجاوزَ الاقتصادَ ؛ إذْ حدُّ الاقتصادِ لا ينضبطُ[2] ، ولا بأسَ بهـٰذا الزجْرِ .

ويشهدُ لهُ سيرةُ السلفِ ؛ فإنَّهُمْ كانوا يقولونَ : أَمِرُّوها كما جاءتْ[3] ، حتَّىٰ قالَ مالكٌ رحمَهُ اللهُ لمَّا سُئِلَ عنِ الاستواءِ : (الاستواءُ معلومٌ ، والكيفيةُ مجهولةٌ ، والإيمانُ بهِ واجبٌ ، والسؤالُ عنهُ بدعةٌ)[4] .

وذهبتْ طائفةٌ إلى الاقتصادِ ، ففتحوا بابَ التأويلِ في كلِّ ما يتعلَّقُ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٥٢) ، وعند أحمد في « المسند » (٢/ ٥٤٠) : « نفَس ربكم » بدل « نفَس الرحمـٰن » .

(٢) ولهـٰذا نجد المصنف رحمه الله تعالىٰ ألَّف كتابه النفيس علىٰ لطف حجمه « قانون التأويل » .

(٣) روى الحسن بن إسماعيل الضراب في « مناقب مالك » من طريق الوليد بن مسلم قال : سألت مالكاً والأوزاعي وسفيان وليثاً عن هـٰذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية والصورة والنزول فقالوا : أوردوها كما جاءت . « إتحاف » (٢/ ٨٠) .

(٤) رواه اللالكائي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها في « اعتقاد أهل السنة » (٦٦٣) ، ثم ذكر قالة مالك رضي الله عنه (٦٦٤) ، وانظر مجمل رواياته في « الدر المنثور » (٣/ ٤٧٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٨٠) .

بصفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وتركوا ما يتعلَّقُ بالآخرةِ علىٰ ظواهرِهِ ، ومنعوا التأويلَ فيهِ ، وهُمُ الأشعريَّةُ .

وزادَ المعتزلةُ عليهمْ حتَّىٰ أوَّلوا مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ تعلُّقَ الرؤيةِ بهِ ، وأوَّلوا كونَهُ سميعاً بصيراً ، وأوَّلوا المعراجَ ، وزعموا أنَّهُ لمْ يكنْ بالجسدِ ، وأوَّلوا عذابَ القبرِ ، والميزانَ ، والصراطَ ، وجملةً منْ أحكامِ الآخرةِ ، ولكنْ أقرُّوا بحشرِ الأجسادِ ، وبالجنَّةِ واشتمالِها على المأكولاتِ والمشموماتِ والمنكوحاتِ والملاذِّ المحسوسةِ ، وبالنارِ واشتمالِها علىٰ جسمٍ محسوسٍ محرقٍ يفرِّقُ الجلودَ ويذيبُ الشحومَ .

ومِنْ ترقِّيهِمْ إلىٰ هـٰذا الحدِّ زادَ الفلاسفةُ فأوَّلوا كلَّ ما وردَ في الآخرةِ ، وردُّوهُ إلىٰ آلامٍ عقليَّةٍ وروحانيَّةٍ ، ولذَّاتٍ عقليَّةٍ ، وأنكروا حشرَ الأجسادِ ، وقالوا ببقاءِ النفوسِ ، وأنَّها تكونُ إمَّا معذَّبةً وإمَّا منعَّمةً بعذابٍ ونعيمٍ لا يُدركُ بالحسِّ ، وهؤلاءِ هُمُ المسرفونَ .

وحدُّ الاقتصادِ بينَ هـٰذا الانحلالِ كلِّهِ وبينَ جمودِ الحنابلةِ دقيقٌ غامضٌ ، لا يطَّلعُ عليهِ إلا الموفَّقونَ الذينَ يدركونَ الأمورَ بنورٍ إلـٰهيٍّ لا بالسماعِ .

ثمَّ إذا انكشفَتْ لهمْ أسرارُ الأمورِ علىٰ ما هيَ عليهِ . . نظروا إلى السمْعِ والألفاظِ الواردةِ ؛ فما وافقَ ما شاهدوهُ بنورِ اليقينِ . . قرروهُ ، وما خالفَ . . أوَّلوهُ ، فأمَّا مَنْ يأخذُ معرفةَ هـٰذهِ الأمورِ منَ السمعِ المجرَّدِ . . فلا يستقرُّ لهُ فيها قدمٌ ، ولا يتعيَّنُ لهُ موقفٌ ، والأليقُ بالمقتصرِ

على السمعِ المجرَّدِ مقامُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ .

والآنَ فكَشْفُ الغطاءِ عنْ حدِّ الاقتصادِ في هٰذهِ الأمورِ داخلٌ في علمِ المكاشفةِ ، والقولُ فيهِ يطولُ ، فلا نخوضُ فيهِ ، والغرضُ بيانُ موافقةِ الباطنِ للظاهرِ ومخالفتِهِ لهُ ، وقدِ انكشفَ بهٰذهِ الأقسامِ الخمسةِ .

* * *

وإذْ رأينا أنْ نقتصرَ بكافةِ العوامِّ علىٰ ترجمةِ العقيدةِ التي حرَّرْناها ، وأنَّهمْ لا يُكلَّفونَ غيرَ ذلكَ في الدرجةِ الأولىٰ ، إلاَّ إذا كانَ خوفُ تشويشٍ لشيوعِ البدعةِ ، فيرقىٰ في الدرجةِ الثانيةِ إلىٰ عقيدةٍ فيها لوامعُ منَ الأدلَّةِ مختصرةٌ منْ غيرِ تعمُّقٍ . فلنوردْ في هٰذا الكتابِ تلكَ اللوامعَ ، ولنقتصرْ فيها علىٰ ما حرَّرْناهُ لأهلِ القدْسِ[1] ، وسميناهُ : « الرسالةُ القدسيةُ » في قواعدِ العقائدِ ، وهيَ مودعةٌ في هٰذا الفصلِ الثالثِ منْ هٰذا الكتابِ .

* * *

---

(١) أيامَ سياحةِ المصنف رحمه الله تعالى المشهورة ، وله رحمه الله عدة رسائل مختصرة أرسلها إلىٰ بلدان شتىٰ ، متضمنة علىٰ صريح الاعتقاد والمواعظ والنصائح ، فمنها رسالة أرسلها إلى الموصل مسماة بالقدسية أيضاً يخاطب فيها بعض المشايخ . انظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٨٥) .
وقد شرح المصنف رسالته هٰذه بكتابه الموسوم بـ « الاقتصاد في الاعتقاد » مع تقدمه في التصنيف ، وسايرها كذلك الإمام الكمال بن الهمام علىٰ طريقة الماتريدية ، وشرح « مسايرته » الكمالُ ابن أبي الشريف في « المسامرة » ، وشرحها الحافظ الزبيدي كذلك جامعاً بين الطريقتين .

الفَصلُ الثَّالِثُ من كِتَابِ قَوَاعِدِ العَقَائِدِ
في لوامع الأدلّة للعقيدة الّتي ترجمناها بـ «الرّسالة القدسيّة»

فنقولُ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي ميَّزَ عصابةَ السنَّةِ بأنوارِ اليقينِ ، وآثرَ رهْطَ الحقِّ بالهدايةِ إلىٰ دعائمِ الدينِ ، وجنَّبَهُمْ زيغَ الزائغينَ وضلالَ الملحدينَ ، ووفَّقَهُمْ للاقتداءِ بسيِّدِ المرسلينَ ، وسدَّدَهُمْ للتأسِّي بصحبهِ الأكرمينَ ، ويسَّرَ لهمُ اقتفاءَ آثارِ السلفِ الصالحينَ ، حتَّى اعتصموا مِنْ مقتضياتِ العقولِ بالحبْلِ المتينِ ، ومِنْ سيرِ الأوَّلينَ وعقائدِهِمْ بالمنهجِ المبينِ ، فجمعوا في القبولِ بينَ نتائجِ العقولِ وقضايا الشرعِ المنقولِ ، وتحقَّقوا أنَّ النطقَ بما تُعبِّدُوا بهِ مِنْ قولِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ) ليسَ لهُ طائلٌ ولا محصولٌ إنْ لمْ تتحقَّقِ الإحاطةُ بما تدورُ عليهِ هـٰذهِ الشهادةُ مِنَ الأقطابِ والأصولِ ، وعرفوا أنَّ كلمتي الشهادةِ علىٰ إيجازِها تتضمَّنُ إثباتَ ذاتِ الإلهِ ، وإثباتَ صفاتِهِ ، وإثباتَ أفعالِهِ ، وإثباتَ صدْقِ الرسولِ ، فعلموا أنَّ بناءَ الإيمانِ علىٰ هـٰذهِ الأركانِ يدورُ ، وهيَ أربعةٌ ، ويدورُ كلُّ ركنٍ منها علىٰ عشرةِ أصولٍ :

الركنُ الأوَّلُ : في معرفةِ ذاتِ اللهِ تعالىٰ : ومدارُهُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛

وهيَ : العلمُ بوجودِ اللهِ سبحانَهُ ، وقدمِهِ ، وبقائِهِ ، وأنَّهُ ليسَ بجوهرٍ ، ولا جسمٍ ، ولا عَرَضٍ ، وأنَّهُ سبحانَهُ ليسَ مختصّاً بجهةٍ ، ولا مستقرّاً على مكانٍ ، وأنّه سبحانَهُ مرئيٌّ ، وأنَّهُ واحدٌ .

الركنُ الثاني : في صفاتِهِ سبحانَهُ : ويشتملُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : العلمُ بكونِهِ حيّاً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلِّماً ، منزَّهاً عنْ حلولِ الحوادثِ ، وأنَّهُ قديمُ الكلامِ ، والعلمِ ، والإرادةِ[1] .

الركنُ الثالثُ : في أفعالِهِ تعالىٰ : ومدارُهُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالىٰ ، وأنَّها مكتسبةٌ للعبادِ ، وأنَّها مرادةٌ للهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ متفضِّلٌ بالخلْقِ والاختراعِ ، وأنَّ لهُ تعالىٰ تكليفَ ما لا يُطاقُ ، وأنَّ لهُ إيلامَ البريءِ ، ولا يجبُ عليهِ رعايةُ الأصلحِ ، وأنَّهُ لا واجبَ إلا بالشرعِ ، وأنَّ بعثةَ الأنبياءَ جائزٌ ، وأنَّ نبوَّةَ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثابتةٌ مؤيَّدةٌ بالمعجزاتِ .

الركنُ الرابعُ : في السمعياتِ : ومدارُهُ علىٰ عشرةِ أصولٍ ؛ وهيَ : إثباتُ الحشرِ والنشرِ ، وعذابِ القبرِ ، وسؤالِ منكَرٍ ونكيرٍ ، والميزانِ ، والصراطِ ، وخلْقِ الجنَّةِ والنارِ ، وأحكامِ الإمامِ ، وأنَّ فضلَ الصحابةِ علىٰ حسبِ تقديمهِمْ وترتيبِهِمْ ، وشروطِ الإمامةِ ، وأنَّهُ لو تعذَّرَ وجودُ الورعِ والعلمِ . . حكِمَ بانعقادِها .

* * *

(١) قوله : (منزّهاً عن حلول الحوادث) قيد مستفاد من الركن الأول ، وهو غير معدود في هـٰذه الأصول ؛ إذ هو من صفات السُّلُوب .

الركن الأول من أركان الإيمان : في معرفة ذات الله سبحانه وتعالىٰ وأن الله تعالىٰ واحد
ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوّلُ : معرفةُ وجودِهِ تعالىٰ :

وأولىٰ ما يُستضاءُ بهِ مِنَ الأنوارِ ، ويُسلكُ مِنْ طريقِ الاعتبارِ .. ما أرشدَ إليهِ القرآنُ ، فليسَ بعدَ بيانِ اللهِ سبحانَهُ بيانٌ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ .

فليسَ يخفىٰ علىٰ مَنْ معَهُ أدنىٰ مُسْكةٍ منْ عقلٍ إذا تأمَّلَ بأدنىٰ فكرةٍ مضمونَ هٰذهِ الآياتِ ، وأدارَ نظرَهُ علىٰ عجائبِ خلْقِ اللهِ في الأرضِ والسماواتِ ، وبدائعِ فطرةِ الحيوانِ والنباتِ . . أنَّ هٰذا الأمرَ العجيبَ والترتيبَ المحكمَ لا يستغني عنْ صانعٍ يدبِّرُهُ ، وفاعلٍ يُحْكِمُهُ ويقدِّرُهُ ، بلْ تكادُ فطرةُ النفوسِ تشهدُ بكونِها مقهورةً تحتَ تسخيرِهِ ، ومصرَّفةً بمقتضىٰ تدبيرِهِ ؛ ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

ولهٰذا بُعِثَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ لدعوةِ الخلْقِ إلى التوحيدِ ليقولوا : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) ، وما أمروا أنْ يقولوا : (لنا إلٰهٌ وللعالمِ إلٰهٌ) ؛ فإنَّ ذلكَ كانَ مجبولاً في فطرةِ عقولِهِمْ مِنْ مبدأِ نشوئِهِمْ وفي عنفوانِ شبابِهِمْ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ .

فإذاً ؛ في فطرةِ الإنسانِ وشواهدِ القرآنِ ما يغني عنْ إقامةِ البرهانِ ، ولكنَّا علىٰ سبيلِ الاستظهارِ والاقتداءِ بالعلماءِ النظَّارِ نقولُ :

مِنْ بدائِهِ العقولِ أنَّ الحادثَ لا يستغني في حدوثِهِ عنْ سببٍ يحدثُهُ ، والعالمُ حادثٌ ، فإذاً لا يستغني في حدوثِهِ عنْ سببٍ .

أمَّا قولُنا : (الحادثُ لا يستغني في حدوثِهِ عنْ سببٍ) . . فجليٌّ ؛ فإنَّ كلَّ حادثٍ فهوَ مختصٌ بوقتٍ يجوزُ في العقلِ تقديرُ تقدُّمِهِ وتأخُّرِهِ ، فاختصاصُهُ بوقتِهِ دونَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ يفتقرُ بالضرورةِ إلى المخصِّصِ .

وأمَّا قولُنا : (العالمُ حادثٌ) . . **فبرهانُهُ** : أنَّ أجسامَ العالمِ لا تخلو عنِ الحركةِ والسكونِ ، وهما حادثانِ ، وما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ ، ففي هـٰذا البرهانِ ثلاثُ دعاوىٰ :

الأولىٰ : (أنَّ الأجسامَ لا تخلو عنِ الحركةِ والسكونِ) ، وهـٰذهِ مدركةٌ بالبديهةِ والاضطرارِ ، فلا يُحتاجُ فيها إلىٰ تأمُّلٍ وافتكارٍ ؛ فإنَّ مَنْ عقلَ جسماً لا ساكناً ولا متحرِّكاً . . كانَ لمتنِ الجهلِ راكباً ، وعنْ نهْجِ العقلِ ناكباً .

الثانيةُ : قولُنا : (إنَّهُما حادثانِ) ، ويدلُّ علىٰ ذلكَ تعاقبُهُما ووجودُ البعضِ منهما بعدَ البعضِ ، وذلكَ مشاهدٌ في جميعِ الأجسامِ ما شُوهدَ منها وما لمْ يُشاهدْ ، فما مِنْ ساكنٍ إلا والعقلُ قاضٍ بجوازِ حركتِهِ ، وما مِنْ متحرِّكٍ إلا والعقلُ قاضٍ بجوازِ سكونِهِ ، فالطارىءُ منهُما حادثٌ لطريانِهِ ، والسابقُ حادثٌ لعدمِهِ ؛ لأنَّهُ لوْ ثبتَ قدمُهُ . . لاستحالَ عدمُهُ ، علىٰ ما سيأتي بيانُهُ وبرهانُهُ في إثباتِ بقاءِ الصانعِ تعالىٰ وتقدَّسَ .

الثالثةُ : قولُنا : (ما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ) **وبرهانُهُ** : أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ كذلكَ . . لكانَ قبلَ كلِّ حادثٍ حوادثُ لا أوَّلَ لها ، وما لمْ تنقضِ تلكَ الحوادثُ بجملتِها لا تنتهي النوبةُ إلىٰ وجودِ الحادثِ الحاضرِ في

الحالِ ، وانقضاءُ ما لا نهايةَ لهُ محالٌ .

ولأنَّهُ لوْ كانَ للفلكِ دوراتٌ لا نهايةَ لها . . لكانَ لا يخلو عددُها مِنْ أنْ تكونَ : شفعاً ، أوْ وتراً ، أوْ شفعاً ووتراً جميعاً ، أوْ لا شفعاً ولا وتراً .

ومحالٌ أنْ تكونَ شفعاً ووتراً جميعاً ، أوْ لا شفعاً ولا وتراً ؛ فإنَّ ذلكَ جمعٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ؛ إذْ في إثباتِ أحدِهِما نفيُ الآخرِ ، وفي نفيِ أحدِهِما إثباتُ الآخرِ .

ومحالٌ أنْ يكونَ شفعاً ؛ لأنَّ الشفْعَ يصيرُ وتراً بزيادةِ واحدٍ ، فكيفَ يعوزُ ما لا نهايةَ لهُ واحدٌ ؟!

ومحالٌ أنْ يكونَ وتراً ؛ إذْ الوترُ يصيرُ شفعاً بزيادةِ واحدٍ ، فكيفَ يعوزُها واحدٌ معَ أنَّهُ لا نهايةَ لأعدادِها ؟!

فحصلَ مِنْ هـٰذا أنَّ العالمَ لا يخلو عنِ الحوادثِ ؛ وما لا يخلُو عنِ الحوادثِ . . فهوَ إذاً حادثٌ ، وإذا ثبتَ حدوثُهُ . . كانَ افتقارُهُ إلى المحدِثِ منَ المدركاتِ بالضرورةِ(١) .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثاني : العلمُ بأنَّ الباريَ تعالىٰ قديمٌ لمْ يزلْ ، أزليٌّ ليسَ لوجودِهِ أوَّلٌ ، بلْ هوَ أوَّلُ كلِّ شيءٍ ، وقبلَ كلِّ ميْتٍ وحيٍّ :

---

(١) الاقتصاد (ص٩٩) ، تهافت الفلاسفة (ص٩٩) ، وفيه الرد علىٰ من ادَّعىٰ أن اللامتناهي لا يوصف بشفع ووتر .

وبرهانُهُ : أنَّهُ لوْ كانَ حادثاً ولمْ يكنْ قديماً . . لافتقرَ هوَ أيضاً إلىٰ محدِثٍ ، وافتقرَ محدثُهُ إلىٰ محدِثٍ ، وتسلسلَ ذلكَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وما تسلسلَ . . لمْ يتحصَّلْ ، أوْ ينتهي إلىٰ محدِثٍ قديمٍ هوَ الأوَّلُ ، وذلكَ هوَ المطلوبُ الذي سميناهُ صانعَ العالمِ وبارِئَهُ ومحدِثَهُ ومبدِئَهُ(١) .

* * *

الأصلُ الثالثُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ـ معَ كونِهِ أزليّاً ـ أبديٌّ ليسَ لوجودِهِ آخِرٌ :

فهوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ ؛ لأنَّ ما ثبتَ قدمُهُ . . استحالَ عدمُهُ .

وبرهانُهُ : أنَّهُ لوِ انعدمَ . . لكانَ لا يخلو : إمَّا أنْ ينعدمَ بنفسِهِ ، أوْ بمعدِمٍ يضادُّهُ .

ولوْ جازَ أنْ ينعدِمَ شيءٌ يُتصوَّرُ دوامُهُ بنفسِهِ . . لجازَ أنْ يوجدَ شيءٌ يُتصوَّرُ عدمُهُ بنفسِهِ ، فكما يحتاجُ طريانُ الوجودِ إلىٰ سببٍ . . فكذا يحتاجُ طريانُ العدمِ إلىٰ سببٍ .

وباطلٌ أنْ ينعدِمَ بمعدِمٍ يضادُّهُ ؛ لأنَّ ذلكَ المعدِمَ لوْ كانَ قديماً . . لما

---

(١) قال المؤلف في « الاقتصاد » (ص١٠٢) : (ولا نعني بقولنا : « قديم » إلا أن وجوده غير مسبوق بعدم ، فليس تحت لفظ « القديم » إلا إثبات موجود ، ونفي عدم سابق ، فلا تظننَّ أن القدم معنىً زائد علىٰ ذات القديم ، فيلزمك أن تقول : ذلك المعنىٰ أيضاً قديم بقدم زائد عليه ، ويتسلسل إلىٰ غير نهاية) .

تُصُوِّرَ الوجودُ معَهُ[١] ، وقدْ ظهرَ بالأصلينِ السابقينِ وجودُهُ وقدمُهُ ، فكيفَ كانَ وجودُهُ في القدمِ ومعَهُ ضدُّهُ ؟!

وإنْ كانَ الضدُّ المعدِمُ حادثاً . . كانَ محالاً ؛ إذْ ليسَ الحادثُ في مضادَّتِهِ للقديمِ حتَّىٰ يقطعَ وجودَهُ بأولىٰ مِنَ القديمِ في مضادَّتِهِ للحادثِ حتَّىٰ يدفعَ وجودَهُ ، بلِ الدفعُ أهونُ مِنَ القطعِ ، والقديمُ أولىٰ مِنَ الحادثِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الرابعُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ليسَ بجوهرٍ يتحيَّزُ ، بلْ يتعالىٰ ويتقدَّسُ عنْ مناسبةِ الحيِّزِ :

وبرهانُهُ : أنَّ كلَّ جوهرٍ متحيِّزٍ فهوَ مختصٌّ بحيِّزِهِ ، ولا يخلو مِنْ أنْ يكونَ ساكناً فيهِ ، أوْ متحرِّكاً عنهُ ، فلا يخلو عنِ الحركةِ أوِ السكونِ ، وهما حادثانِ ، وما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ ، ولوْ تُصُوِّرَ جوهرٌ متحيِّزٌ قديمٌ . . لكانَ يعقلُ قدمُ جواهرِ العالمِ[٢] ؛ فإنْ سمَّاهُ مُسَمٍّ جوهراً ولمْ يردْ بهِ المتحيِّزَ . . كانَ مخطئاً مِنْ حيثُ اللفظُ ، لا منْ حيثُ المعنىٰ[٣] .

❁ ❁ ❁

---

(١) أي : لزم انتفاء وجود الباري تعالىٰ مع ذلك الضد من الابتداء أصلاً ؛ لأن التضاد يمنع الاجتماع بين الشيئين اللذين اتصفا به . « إتحاف » (٢/ ٩٨) .

(٢) وهٰذا باطل لا يتصوّر ؛ فالجوهر جائز الوجود ، والجائز لا يكون قديماً ؛ لافتقاره إلىٰ موجد يخصصه .

(٣) انظر « الاقتصاد » (ص١٠٧) .

الأصلُ الخامسُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ليسَ بجسمٍ مؤلَّفٍ مِنْ جواهرَ :

إذِ الجسمُ عبارةٌ عنِ المؤتلفِ مِنَ الجواهرِ ، وإذا بطلَ كونُهُ جوهراً مخصوصاً بحيِّزٍ . . بطلَ كونُهُ جسماً ؛ لأنَّ كلَّ جسمٍ فمختصٌّ بحيِّزٍ ومركَّبٌ مِنْ جوهرٍ وجوهرٍ ، ويستحيلُ خلوُّهُ عنِ الافتراقِ والاجتماعِ ، والحركةِ والسكونِ ، والهيئةِ والمقدارِ ، وهـٰذهِ سِماتُ الحدوثِ ، ولوْ جازَ أنْ يُعتقَدَ أنَّ صانعَ العالم جِسمٌ . . لجازَ أنْ تُعتقَدَ الإلهيَّةُ للشمسِ والقمرِ ، أوْ لشيءٍ آخرَ مِنْ أقسامِ الأجسامِ .

فإنْ تجاسرَ متجاسرٌ علىٰ تسميتِهِ تعالىٰ جسماً مِنْ غيرِ إرادةِ التأليفِ مِنَ الجواهرِ . . كانَ ذلكَ غلطاً في الاسمِ ، معَ الإصابةِ في نفيِ معنى الجسمِ .

الأصلُ السادسُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ ليسَ بعرضٍ قائمٍ بجسمٍ أوْ حالٍّ في محلٍّ :

لأنَّ العرضَ ما يحلُّ في الجسمِ ، وكلُّ جسمٍ فهوَ حادثٌ لا محالةَ ، ويكونُ محدِثُهُ موجوداً قبلَهُ ، فكيفَ يكونُ حالاً في الجسمِ وقدْ كانَ موجوداً في الأزلِ وحدَهُ وما معَهُ غيرُهُ ، ثمَّ أحدثَ الأجسامَ والأعراضَ بعدَهُ ؟!

ولأنَّهُ عالمٌ قادرٌ مريدٌ خالقٌ كما سيأتي بيانُهُ ، وهـٰذهِ الأوصافُ تستحيلُ على الأعراضِ ، بلْ لا تُعقلُ إلا لموجودٍ قائمٍ بنفسِهِ ، مستقلٍّ بذاتِهِ .

وقدْ تحصَّلَ مِنْ هـٰذهِ الأصولِ أنَّهُ موجودٌ قائمٌ بنفسِهِ ، ليسَ بجوهرٍ

ولا جسمٍ ولا عرضٍ ، وأنَّ العالمَ كلَّهُ جواهرُ وأعراضٌ وأجسامٌ ، فإذاً ؛ لا يشبهُ شيئاً ولا يشبهُهُ شيءٌ ، بلْ هوَ القيُّومُ الحيُّ ، الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ[1] .

وأنَّىٰ يشبهُ المخلوقُ خالقَهُ ، والمقدَّرُ المصوَّرُ مقدِّرَهُ ومصوِّرَهُ ، والأجسامُ والأعراضُ كلُّها مِنْ خلقِهِ وصنعِهِ ؟!

فاستحالَ القضاءُ عليها بمماثلتِهِ ومشابهتِهِ .

* * *

الأصلُ السابعُ : العلمُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهُ الذاتِ عنِ الاختصاصِ بالجهاتِ :

فإنَّ الجهةَ : إمَّا فوقٌ وإمَّا أسفلُ ، وإمَّا يمينٌ وإمَّا شمالٌ ، أوْ قدَّامٌ أوْ خلفٌ ، وهـٰذهِ الجهاتُ هوَ الذي خلقَها وأحدثَها بواسطةِ خلْقِ الإنسانِ ؛ إذْ خلَقَ لهُ طرفينِ : أحدُهُما يعتمدُ على الأرضِ ويسمَّىٰ رِجْلاً ، والآخرُ يقابلُهُ ويسمَّىٰ رأساً ، فحدثَ اسمُ الفوقِ لما يلي جهةَ الرأسِ ، واسمُ السفْلِ لما يلي جهةَ الرِّجلِ ، حتَّىٰ إنَّ النملةَ التي تدبُّ منتكسَةً تحتَ السقفِ تنقلبُ جهةُ الفوقِ في حقِّها تحتاً وإنْ كانَ في حقِّنا فوقاً .

وخلَقَ للإنسانِ اليدينِ وإحداهُما أقوىٰ مِنَ الأخرىٰ في الغالبِ ، فحدثَ

---

(1) قد علم من هـٰذه الأصول ـ وهي الرابع والخامس والسادس ـ مخالفته تعالىٰ للحوادث ، وقيامه بنفسه . « إتحاف » (٢/ ١٠١) .

اسمُ اليمينِ للأقوىٰ ، والشمالِ لما يقابلُهُ ، وتُسمَّى الجهةُ التي تلي اليمينَ يميناً ، والأخرىٰ شمالاً ، وخلقَ لهُ جانبينِ يبصرُ مِنْ أحدِهما ويتحرَّكُ إليهِ ، فحدثَ اسمُ القدَّامِ للجهةِ التي يتقدَّمُ إليها بالحركةِ ، واسمُ الخلفِ لما يقابلُهُ .

فالجهاتُ حادثةٌ بحدوثِ الإنسانِ ، ولوْ لمْ يُخلَقِ الإنسانُ بهـٰذهِ الخلقةِ ، بلْ خُلِقَ مستديراً كالكرَةِ . . لمْ يكنْ لهـٰذهِ الجهاتِ وجودٌ ألبتةَ ، فكيفَ كانَ في الأزلِ مختصّاً بجهةٍ والجهةُ حادثةٌ ؟! أوْ كيفَ صارَ مختصّاً بجهةٍ بعدَ أنْ لمْ يكنْ ؟

أَبأَنْ خلقَ العالمَ فوقَهُ ويتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ فوقٌ ؛ إذْ تعالىٰ أنْ يكونَ له رأسٌ ، والفوقُ عبارةٌ عمّا يكونُ جهةَ الرأسِ ، أوْ خَلَقَ العالمَ تحتَهُ وتعالىٰ عَنْ أنْ يكونَ لهُ تحتٌ ؛ إذْ تعالىٰ عَنْ أنْ يكونَ لهُ رِجْلٌ ، والتحتُ عبارةٌ عمَّا يلي جهةَ الرِّجْلِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يستحيلُ في العقْلِ .

ولأنَّ المعقولَ مِنْ كونِهِ مختصّاً بجهةٍ أنَّهُ مختصٌّ بالحيِّزِ اختصاصَ الجواهرِ ، أوْ مختصٌّ بالجوهرِ اختصاصَ العرضِ ، وقدْ ظهرَ استحالةُ كونِهِ جوهراً أوْ عرضاً ؛ فاستحالَ كونُهُ مختصّاً بالجهةِ .

وإنْ أُريدَ بالجهةِ غيرُ هـٰذينِ المعنيينِ . . كانَ غلطاً في الاسمِ معَ المساعدةِ على المعنىٰ[1] .

---

(١) ولكن ينظر فيه : أيرجع ذلك المعنىٰ إلىٰ تنزيهه سبحانه عما لا يليق بجلاله ، فيُخَطَّأُ من أراده في مجرد التعبير عنه بالجهة ؛ لإيهامه ما لا يليق ، ولعدم وروده في اللغة ، أو يرجع إلىٰ غيره فيُرَدُّ قوله صوناً عن الضلالة . « إتحاف » (٢/ ١٠٤) .

ولأنَّهُ لوْ كانَ فوقَ العالمِ . . لكانَ محاذياً لهُ ، وكلُّ محاذٍ لجسمٍ فإمَّا أنْ يكونَ مثلَهُ أوْ أصغرَ منهُ أوْ أكبرَ ، وكلُّ ذلكَ تقديرٌ يُحوِجُ إلىٰ مقدِّرٍ ، ويتعالىٰ عنهُ الخالقُ الواحدُ المدبِّرُ .

فأمَّا رفعُ الأيدي عندَ السؤالِ إلىٰ جهةِ السماءِ . . فهوَ لأنَّها قبلةُ الدعاءِ ، وفيهِ أيضاً إشارةٌ إلىٰ ما هوَ وصْفٌ للمدعوِّ مِنَ الجلالِ والكبرياءِ ، تنبيهاً بقصْدِ جهةِ العلوِّ علىٰ صفةِ المجْدِ والعلاءِ ؛ فإنَّهُ تعالىٰ فوقَ كلِّ موجودٍ بالقهْرِ والاستيلاءِ(١) .

* * *

الأصلُ الثامنُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ مستوٍ علىٰ عرشِهِ بالمعنى الذي أرادَهُ تعالىٰ بالاستواءِ :

وهوَ الذي لا ينافي وصْفَ الكبرياءِ ، ولا يتطرَّقُ إليهِ سِماتُ الحدوثِ والفناءِ ، وهوَ الذي أُريدَ بالاستواءِ إلى السماءِ حيثُ قالَ في القرآنِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ ، وليسَ ذلكَ إلا بطريقِ القهرِ والاستيلاءِ(٢) ، كما

(١) وانظر للمؤلف رحمه الله لطيفة في سرِّ التوجه بالدعاء إلى السماء في « الاقتصاد » (ص١١٤) ، وسبب اختيار المصنف لصفة القهر والاستيلاء بالذات كون هـٰذه الصفة محكية في كتاب الله بحقِّه سبحانه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ .

(٢) كما قال المؤلف في « الاقتصاد » (ص ١٢٦) : (ولذلك قال بعض السلف ـ وهو سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ـ : أفهم من قوله : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ما فُهِمَ من قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾) .

قالَ الشاعرُ[1] : [من الرجز]

قَدِ ٱسْتَوَىٰ بِشْـرٌ عَلَـى ٱلْعِـراقِ مِـنْ غَيْـرِ سَيْـفٍ وَدَمٍ مِهْـراقِ

واضطرَّ أهلَ الحقِّ إلىٰ هـٰذا التأويلِ ما اضطرَّ أهلَ الباطلِ إلىٰ تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ، إذْ حُمِلَ ذلكَ بالاتفاقِ على الإحاطةِ والعلمِ ، وحُمِلَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[2] على القدرةِ والقهرِ ، وحُمِلَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ في أرضِهِ »[3] على التشريفِ والإكرامِ ؛ لأنَّهُ لوْ تُرِكَ علىٰ ظاهرِهِ . . للزمَ منهُ المحالُ ؛ فكذا الاستواءُ لوْ تُرِكَ على الاستقرارِ والتمكُّنِ . . لزمَ منهُ كونُ المتمكِّنِ جسماً مماسّاً للعرشِ ، إمَّا مثلَهُ أوْ أكبرَ منهُ أوْ أصغرَ ، وذلكَ محالٌ ، وما يؤدي إلى المحالِ فهوَ محالٌ .

* * *

الأصلُ التاسعُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ معَ كونِهِ منزَّهاً عنِ الصورةِ والمقدارِ مقدَّساً عنِ الجهاتِ والأقطارِ . . مرئيٌّ بالأعينِ والأبصارِ في الدارِ الآخرةِ دارِ القرارِ :

لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[4] ، ولا يُرىٰ في الدنيا

---

(١) البيت للبعيث المجاشعي ، انظر « الأزمنة والأمكنة » (١/ ٤٩) ، و« يتيمة الدهر » (٥/ ٢٧٦) ، و« مرآة الجنان » (١/ ١٤٨) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤) .
(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٤) أي : مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفُلُ عمّا سواه . « إتحاف » (٢/ ١١٣) .

تصديقاً لقولِه تعالىٰ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ ، ولقولِه تعالىٰ في خطابِ موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ .

وليتَ شعري ؛ كيفَ عرفَ المعتزليُّ مِنْ صفاتِ ربِّ الأربابِ ما جهلَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ؟![1] أوْ كيفَ سألَ موسىٰ عليهِ السلامُ الرؤيةَ معَ كونِها محالاً ؟! ولعلَّ الجهلَ بذوي البدعِ والأهواءِ مِنَ الجهلةِ الأغبياءِ أولىٰ مِنَ الجهْلِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ .

وأمَّا وجْهُ إجراءِ آيةِ الرؤيةِ على الظاهرِ . . فهوَ أنَّهُ غيرُ مؤدٍّ إلى المحالِ ؛ فإنَّ الرؤيةَ نوعُ كشْفٍ وعلْمٍ ، إلا أنَّهُ أتمُّ وأوضحُ مِنَ العلْمِ[2] ، فإذا جازَ تعلُّقُ العلْمِ بهِ وليسَ في جهةٍ . . جازَ تعلُّقُ الرؤيةِ بهِ وليسَ بجهةٍ ، وكما جازَ أنْ يرى اللهُ تعالى الخلْقَ وليسَ في مقابلتِهِمْ . . جازَ أنْ يراهُ الخلْقُ مِنْ غيرِ مقابلةٍ ، وكما جازَ أنْ يُعلمَ مِنْ غيرِ كيفيَّةٍ وصورةٍ . . جازَ أنْ يُرىٰ كذلكَ مِنْ غيرِ كيفيَّةٍ وصورةٍ .

* * *

---

(١) إذْ سؤاله عليه السلام لها دليل علىٰ جوازها في حقِّه سبحانه ، ويستحيل أن يجهل النبي ما يجوز في حقِّه تعالىٰ وما يستحيل ويعلم ذلك عامة المعتزلة . انظر « الاقتصاد » (ص١٣٨) وما بعدها .

(٢) يقول ابن أبي الشريف في « المسامرة » (ص١٠٣) : (إذا نظرنا إلى الشمس مثلاً ، فرأيناها ثم أغمضنا العين . . فإنَّا نعلم الشمس عند التغميض علماً جلياً ، لكن في الحالة الأولىٰ أمرٌ زائد ، وكذا إذا علمنا شيئاً علماً تامّاً جلياً ثم رأيناه . . فإنا ندرك بالبديهة تفرقة بين الحالتين ، وهـٰذا الإدراك المشتمل على الزيادة نسميه الرؤية) .

الأصلُ العاشرُ : العلمُ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، فردٌ لا ندَّ لهُ :

انفردَ بالخلْقِ والإبداعِ ، واستبدَّ بالإيجادِ والاختراعِ ، لا مثْلَ لهُ يساهمُهُ ويساويهِ ، ولا ضدَّ لهُ فينازعُهُ ويناويهِ .

وبرهانُهُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ .

وبيانُهُ : أنَّهُ لوْ كانا اثنينِ وأرادَ أحدُهُما أمراً ؛ فالثاني إنْ كانَ مضطراً إلىٰ مساعدتِهِ . كانَ هـٰذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولمْ يكنْ إلـٰهاً قادراً ، وإنْ كانَ قادراً علىٰ مخالفتِهِ ومدافعتِهِ . كانَ الثاني قويّاً قاهراً ، والأوّلُ ضعيفاً قاصراً ، فلمْ يكنْ إلـٰهاً قادراً .

* * *

الركن الثاني : العلم بصفات الله تعالى
ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوَّلُ : العلمُ بأنَّ صانعَ العالَمِ قادرٌ :

وأنَّهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ صادقٌ ؛ لأنَّ العالمَ محكمٌ في صنعتِهِ ، مرتَّبٌ في خِلْقَتِهِ ، ومَنْ رأىٰ ثوباً مِنْ ديباجٍ حسنَ النسْجِ والتأليفِ ، متناسبَ التطريزِ والتطريفِ ، ثمَّ توهَّمَ صدورَ نسجِهِ مِنْ ميْتٍ لا استطاعةَ لهُ ، أوْ إنسانٍ لا قدرةَ لهُ . . كانَ منخلعاً عنْ غريزةِ العقْلِ ، ومنخرطاً في سلْكِ أهلِ الغباوةِ والجهلِ .

* * *

الأصلُ الثاني : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ عالمٌ بجميعِ الموجوداتِ ، ومحيطٌ بكلِّ المخلوقاتِ :

لا يعزبُ عَنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماواتِ ، صادقٌ في قولِهِ : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ومرشدٌ إلىٰ صدقِهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1] ، أرشدَكَ إلى الاستدلالِ بالخلْقِ على العلمِ ؛

---

(١) ومناسبةُ اسم (اللطيف) للعلم كما قال المصنف رحمه الله في « المقصد الأسنىٰ » (ص٨٢) : (إنما يستحق هـٰذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دقَّ =

لأنَّكَ لا تستريبُ في دلالةِ الخلْقِ اللطيفِ ، والصنعِ المزيَّنِ بالترتيبِ ولوْ في الشيءِ الحقيرِ الضعيفِ . . علىٰ علمِ الصانعِ بكيفيةِ الترتيبِ والترصيفِ ، فما ذكرَهُ اللهُ سبحانَهُ هوَ المنتهىٰ في الهدايةِ والتعريفِ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثالثُ : العلمُ بكونِهِ عزَّ وجلَّ حيّاً :

فإنَّ مَنْ ثبتَ علمُهُ وقدرتُهُ . . ثبتَ بالضرورةِ حياتُهُ ، ولوْ تُصُوِّرَ قادرٌ عالمٌ فاعلٌ مدبِّرٌ دونَ أنْ يكونَ حيّاً . . لجازَ أنْ يشكَّ في حياةِ الحيواناتِ عندَ تردُّدِها في الحركاتِ والسكناتِ ، بلْ في حياةِ أربابِ الحرفِ والصناعاتِ ، وذلكَ انغماسٌ في غمرةِ الجهالاتِ والضلالاتِ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الرابعُ : العلمُ بكونِهِ تعالىٰ مريداً لأفعالِهِ :

فلا موجودَ إلا وهوَ مستندٌ إلىٰ مشيئتِهِ ، وصادرٌ عَنْ إرادتِهِ ، فهوَ المبدئُ المعيدُ ، والفعَّالُ لما يريدُ ، وكيفَ لا يكونُ مريداً وكلُّ فعلٍ صدرَ منهُ أمكنَ أنْ يصدرَ منهُ ضدُّهُ ، وما لا ضدَّ لهُ أمكنَ أنْ يصدرَ منهُ ذلكَ بعينِهِ قبلَهُ أوْ بعدَهُ : والقدرةُ تناسبُ الضدَّينِ والوقتينِ مناسبةً واحدةً ؟!

= منها وما لطف ، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيلَ الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك . . تم معنى اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالىٰ ، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا . . فلا يمكن تفصيل ذلك ، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق . . .) .

فلا بدَّ مِنْ إرادةٍ صارفةٍ للقدرةِ إلىٰ أحدِ المقدورينِ ، ولوْ أغنى العلْمُ عنِ الإرادةِ في تخصيصِ المعلومِ حتَّىٰ يقالُ : إنَّما وجدَ في الوقتِ الذي سبقَ العلمُ بوجودِهِ . . لجازَ أنْ يغنيَ عنِ القدرةِ حتَّىٰ يُقالُ : وجدَ بغيرِ قدرةٍ ؛ لأنَّهُ سبقَ العلمُ بوجودِهِ فيهِ(١) .

* * *

الأصلُ الخامسُ : العلمُ بأنَّهُ تعالىٰ سميعٌ بصيرٌ :

لا يعزبُ عَنْ رؤيتِهِ هواجسُ الضميرِ وخفايا الوهمِ والتفكيرِ ، ولا يشذُّ عنْ سمعِهِ صوتُ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ .

وكيفَ لا يكونُ سميعاً بصيراً والسمعُ والبصرُ كمالٌ ـ لا محالةَ ـ وليسا بنقصٍ ؟! فكيفَ يكونُ المخلوقُ أكملَ مِنَ الخالقِ ، والمصنوعُ أشرفَ وأتمَّ منَ الصانعِ ؟!

وكيفَ تعتدلُ القسمةُ مهما وقعَ النقصُ في جَنَبَتِهِ والكمالُ في خلقِهِ وصنعتِهِ ؟!(٢) .

أَوْ كيفَ تستقيمُ حجَّةُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ علىٰ أبيهِ إذْ كانَ يعبدُ الأصنامَ

---

(١) وضَّحَ المؤلف رحمه الله الرد علىٰ هـٰذه الشبهة في « الاقتصاد » (ص١٦٩) ، وكذا إمام الحرمين في « الإرشاد » (ص٦٤) .
(٢) **الجنبة** : الجانب ، والمراد : في حقِّه تعالىٰ .

جهلاً وغيّاً ، فقالَ لهُ : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ ، ولو انقلبَ ذلكَ عليهِ في معبودِهِ . . لأضحتْ حجتُهُ داحضةً ودلالتُهُ ساقطةً ، ولمْ يصدُقْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؟!

وكما عُقلَ كونُهُ فاعلاً بلا جارحةٍ ، وعالماً بلا قلبٍ ودماغٍ . . فليُعقلْ كونُهُ بصيراً بلا حدقةٍ ، وسميعاً بلا أُذُنٍ ؛ إذْ لا فرقَ بينَهُما .

* * *

الأصلُ السادسُ : أنَّهُ تعالىٰ متكلِّمٌ بكلامٍ :

وهوَ وصفٌ قائمٌ بذاتِهِ ليسَ بصوتٍ ولا حرفٍ ، بلْ لا يشبهُ كلامُهُ كلامَ غيرِهِ ، كما لا يشبهُ وجودُهُ وجودَ غيرِهِ .

والكلامُ بالحقيقةِ كلامُ النفْسِ ، وإنَّما الأصواتُ قُطِّعَتْ حروفاً للدلالاتِ عليهِ ؛ كما يُدَلُّ عليهِ تارةً بالحركاتِ والإشاراتِ ، وكيفَ التبسَ هـٰذا علىٰ طائفةٍ مِنَ الأغبياءِ ولمْ يلتبسْ علىٰ جهلةِ الشعراءِ ، حتّىٰ قالَ قائلُهُم[1] : [من الكامل]

إِنَّ ٱلْكَـلامَ لَفِـي ٱلْفُـؤادِ وَإِنَّمـا جُعِلَ ٱللِّسانُ عَلَى ٱلْفُؤادِ دَلِيلا

ومَنْ لمْ يعقلْهُ عقلُهُ ولا نهاهُ نُهاهُ[2] عنْ أنْ يقولَ : لساني حادثٌ ولكنْ

(١) نسب البيت إلى الأخطل وليس في « ديوانه » ، ونسب إلى ابن صمصام الرقاش ، انظر « ذيل مرآة الزمان » (٣/ ١٨٩) ، وانظر « اتحاف السادة المتقين » (٢/ ١٤٦) .

(٢) **نهاه** : عقله ، ويستعمل هـٰذا اللفظ جمعاً ومفرداً .

ما يحدثُ فيهِ بقدرتي الحادثةِ قديمٌ . . فاقطعْ عنْ عقلِهِ طمعَكَ ، وكُفَّ عنْ خطابِهِ لسانَكَ ، ومَنْ لمْ يفهمْ أنَّ القديمَ عبارةٌ عمَّا ليسَ قبلَهُ شيءٌ ، وأنَّ الباءَ قبلَ السينِ في قولِكَ : باسمِ اللهِ ، فلا يكونُ السينُ المتأخِّرُ عنِ الباءِ قديماً . . فنزِّهْ عنِ الالتفاتِ إليهِ قلبَكَ ، فللهِ سبحانَهُ سرٌّ في إبعادِ بعضِ العبادِ ، ومنْ يضللِ اللهُ فما لهُ منْ هادٍ .

ومنِ استبعدَ أنْ يسمعَ موسىٰ عليهِ السلامُ في الدنيا كلاماً ليسَ بصوتٍ ولا حرفٍ . . فليستنكرْ أنْ يرىٰ في الآخرةِ موجوداً ليسَ بجسمٍ ولا لونٍ .

وإنْ عقلَ أنْ يرىٰ ما ليسَ بلونٍ ولا جسمٍ ولا قدْرٍ ولا كمِّيَّةٍ وهوَ إلى الآنَ لمْ يرَ غيرَهُ . . فليعقلْ في حاسَّةِ السمعِ ما عقلَهُ في حاسَّةِ البصرِ .

وإنْ عقلَ أنْ يكونَ لهُ علمٌ واحدٌ هوَ علمٌ بجميعِ الموجوداتِ . . فليعقلْ صفةً واحدةً للذاتِ هوَ كلامٌ بجميعِ ما دلَّ عليهِ بالعباراتِ(١) .

وإنْ عقلَ كونَ السماواتِ السبعِ وكونَ الجنَّةِ والنارِ مكتوبةً في ورقةٍ صغيرةٍ ومحفوظةً في مقدارِ ذرَّةٍ مِنَ القلْبِ ، وأنَّ كلَّ ذلكَ مرئيٌّ في مقدارِ عدسةٍ مِنَ الحدقةِ مِنْ غيرِ أنْ تحلَّ ذاتُ السماواتِ والأرضِ والجنَّةِ والنارِ في الحدقةِ والقلبِ والورقةِ . . فليعقلْ كونَ الكلامِ مقروءاً بالألسنةِ ، محفوظاً في القلوبِ ، مكتوباً في المصاحفِ ، مِنْ غيرِ حلولِ ذاتِ الكلامِ فيها ؛ إذْ

---

(١) أي : من أمر ونهي وإخبار ونحو ذلك .

لوْ حلَّتْ بكتابٍ ذاتُ الكلامِ . لحلَّ ذاتُ اللهِ تعالىٰ بكتابةِ اسمِهِ في الورقِ ، وحلَّتْ ذاتُ النارِ بكتابةِ اسمِها في الورقِ ، ولاحترقَ .

* * *

الأصلُ السابعُ : أنَّ كلامَهُ القائمَ بنفسِهِ قديمٌ ، وكذا جميعُ صفاتِهِ :

إذْ يستحيلُ أنْ يكونَ محلاً للحوادثِ داخلاً تحتَ التغيُّرِ ، بلْ يجبُ للصفاتِ مِنْ نعوتِ القدمِ ما يجبُ للذاتِ ، فلا تعتريهِ التغيُّراتُ ، ولا تحلُّهُ الحادثاتُ ، بلْ لمْ يزلْ في قدمِهِ موصوفاً بمحامدِ الصفاتِ ، ولا يزالُ في أبدِهِ كذلكَ منزَّهاً عنْ تغيُّرِ الحالاتِ ؛ لأنَّ ما كانَ محلَّ الحوادثِ لا يخلو عنها ، وما لا يخلو عنِ الحوادثِ فهوَ حادثٌ ، وإنَّما ثبتَ نعتُ الحدوثِ للأجسامِ مِنْ حيثُ تعرُّضُها للتغيُّرِ وتقلُّبِ الأوصافِ ، فكيفَ يكونُ خالقُها مشاركاً لها في قبولِ التغيُّرِ ؟!

وينبني علىٰ هٰذا : أنَّ كلامَهُ قديمٌ قائمٌ بذاتِهِ ، وإنَّما الحادثُ هيَ الأصواتُ الدالَّةُ عليهِ .

وكما عقلَ قيامُ طلبِ التعلُّمِ وإرادتُهُ بذاتِ الوالدِ للولدِ قبلَ أنْ يُخلقَ ولدُهُ ، حتَّىٰ إذا خُلِقَ ولدُهُ وعَقَلَ ، وخلقَ اللهُ لهُ علماً متعلِّقاً بما في قلبِ أبيهِ مِنَ الطلبِ . صارَ مأموراً بذلكَ الطلبِ الذي قامَ بذاتِ أبيهِ ودامَ وجودُهُ إلىٰ وقتِ معرفةِ ولدِهِ . فليُعقلْ قيامُ الطلبِ الذي دلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ بذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومصيرُ موسىٰ عليهِ السلامُ مخاطباً بهِ بعدَ

وجودِهِ؛ إذْ خُلقتْ لهُ معرفةٌ بذلكَ الطلبِ ، وسمعَ لذلكَ الكلامِ القديمِ[1] .

الأصلُ الثامنُ : أنَّ علمَهُ قديمٌ :

قلمْ يزلْ عالماً بذاتِهِ وصفاتِهِ ، وما يحدثُهُ مِنْ مخلوقاتِهِ ، ومهما حدثتِ المخلوقاتُ . . لمْ يحدثْ لهُ علْمٌ بها ، بلْ حصلتْ مكشوفةً لهُ بالعلْمِ الأزليِّ ؛ إذْ لوْ خُلقَ لنا علمٌ بقدومِ زيدٍ عندَ طلوعِ الشمسِ ، ودامَ ذلكَ العلمُ تقديراً حتَّىٰ طلعتِ الشمسُ . . لكانَ قدومُ زيدٍ عندَ الطلوعِ معلوماً لنا بذلكَ العلمِ مِنْ غيرِ تجدُّدِ علمٍ آخرَ ؛ فهكذا ينبغي أنْ يُفهمَ قدمُ علمِ اللهِ تعالىٰ .

الأصلُ التاسعُ : أنَّ إرادتَهُ قديمةٌ :

وهيَ في القدمِ تعلَّقتْ بإحداثِ الحوادثِ في أوقاتِها اللائقةِ بها علىٰ وَفْقِ سبقِ العلمِ الأزليِّ ؛ إذْ لوْ كانتْ حادثةً . . لصارَ محلاًّ للحوادثِ ، ولوْ حدثتْ في غيرِ ذاتِهِ . . لمْ يكنْ هوَ مريداً بها ؛ كما لا تكونُ أنتَ متحرِّكاً بحركةٍ ليستْ في ذاتِكَ ، وكيفَما قدَّرتَ . . فيفتقرُ حدوثُها إلىٰ إرادةٍ أُخرىٰ ، وكذلكَ الإرادةُ الأخرىٰ تفتقرُ إلىٰ أخرىٰ ، ويتسلسلُ الأمرُ إلىٰ غيرِ نهايةٍ .

---

(١) و(سمع) يتعدىٰ باللام تارة ـ كما هو هنا ـ ومثله : سمع الله لمن حمده . « إتحاف » (٢/١٥٢) ، أو السياق : (وسمعٌ لذلك . . .) معطوفاً علىٰ (معرفة) ، ومن جعل سمعه للقرآن سمعاً للكلام القديم النفسي . . فقد نفى المزيَّة التي هي خصيصة لسيدنا موسىٰ عليه السلام .

ولوْ جازَ أنْ تَحْدُثَ إرادةٌ بغيرِ إرادةٍ . . لجازَ أنْ يَحْدُثَ العالمُ بغيرِ إرادةٍ .

* * *

الأصلُ العاشرُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ عالمٌ بعلْمٍ ، حيٌّ بحياةٍ ، قادرٌ بقدرةٍ ، ومريدٌ بإرادةٍ ، ومتكلِّمٌ بكلامٍ ، وسميعٌ بسمْعٍ ، وبصيرٌ ببصرٍ(١) :

ولهُ هٰذهِ الأوصافُ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ القديمةِ ، وقولُ القائلِ : (عالمٌ بلا علمٍ) كقولِهِ : (غنيٌّ بلا مالٍ ، وعلمٌ بلا عالمٍ ، وعالمٌ بلا معلومٍ) ، فإنَّ العلمَ والمعلومَ والعالمَ متلازمةٌ ؛ كالقتلِ والمقتولِ والقاتلِ ، وكما لا يُتصوَّرُ قاتلٌ بلا قتلٍ ولا قتيلٍ ، ولا يُتصوَّرُ قتيلٌ بلا قاتلٍ ولا قتلٍ . . كذلكَ لا يُتصوَّرُ عالمٌ بلا علمٍ ، ولا علمٌ بلا معلومٍ ، ولا معلومٌ بلا عالمٍ ، بلْ هٰذهِ الثلاثةُ متلازمةٌ في العقلِ ، لا ينفكُّ بعضٌ منها عنِ البعضِ ، فمَن جوَّزَ انفكاكَ العالِمِ عنِ العلمِ . . فليجوِّزِ انفكاكَهُ عنِ المعلومِ ، وانفكاكَ العلمِ عنِ العالمِ ؛ إذْ لا فرقَ بينَ هٰذهِ الأوصافِ(٢) .

* * *

(١) اعلم أن المتكلمين علىٰ قسمين ؛ منهم من يثبت الأحوال ، ومنهم من ينفيها ، فمن يثبت الأحوال كالقاضي والإمام والمصنف . . فعبارته أن يقول : (عالم بعلم ، حي بحياة) ، ومن ينفي الأحوال . . فعبارته أن يقول : (عالم وله علم ، قادر وله قدرة) . « إتحاف » (٢/ ١٥٣) .

(٢) وإنما أثبتنا الصفات زائدة علىٰ مفهوم الذات لأنه تعالىٰ أطلق علىٰ نفسه هٰذه الأسماء في كتابه علىٰ لسان نبيه ، خطاباً لمن هو من أهل اللغة ، والمفهوم في اللغة من « عليم » : ذات لها علم ، ومن « قدير » : ذات لها قدرة ، . . .) . « إتحاف » (٢/ ١٥٤) .

الرّكن الثّالث : العلم بأفعال الله تعالىٰ
ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوّلُ : العلمُ بأنَّ كلَّ حادثٍ في العالمِ . . فهوَ فعلُهُ وخلقُهُ واختراعُهُ[١] :

لا خالقَ لهُ سواهُ ، ولا محدِثَ لهُ إلا إيَّاهُ ، خلقَ الخلْقَ وصنعَتَهُمْ ، وأوجدَ قدرتَهُمْ وحركتَهُمْ ، فجميعُ أفعالِ عبادِهِ مخلوقةٌ لهُ ، ومتعلِّقةٌ بقدرتِهِ ، تصديقاً لهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

أمرَ العبادَ بالتحرُّزِ في أقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ وإسرَارِهِمْ وإضمارِهِمْ[٢] ؛ لعلمِهِ بمواردِ أفعالِهِمْ .

---

(١) اعلم أن الصفات ضربان : صفات الذات ، وصفات الفعل ، والفرق بينهما : أن كل ما وصف الله به تعالىٰ ولا يجوز أن يوصف به وبضده . . فهو من صفات الذات ؛ كالقدرة والعلم والعزة والعظمة ، وكل ما يجوز أن يوصف به وبضده . . فهو من صفات الفعل ؛ كالرأفة والرحمة والسخط والغضب . « إتحاف » (٢/ ١٥٧) .

(٢) أو المراد : (أسرارهم وأضمارهم) جمع ضمير ؛ كشريف وأشراف ؛ لموافقة السجعة ، كذا اختار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢/ ١٦٤) .

واستدلَّ على العلمِ بالخلْقِ ، وكيفَ لا يكونُ خالقاً لفعلِ العبدِ وقدرتُهُ تامَّةٌ لا قصورَ فيها وهيَ متعلِّقةٌ بحركاتِ أبدانِ العبادِ ، والحركاتُ متماثلةٌ ، وتعلُّقُ القدرةِ بها لذاتِها ؟!

فما الذي يقصرُ تعلُّقُها عنْ بعضِ الحركاتِ دونَ بعضٍ معَ تماثلِها ؟

أوْ كيفَ يكونُ الحيوانُ مستبدّاً بالاختراعِ ويصدرُ مِنَ العنكبوتِ والنحْلِ وسائرِ الحيواناتِ مِنْ لطائفِ الصناعاتِ ما يتحيَّرُ فيهِ عقولُ ذوي الألبابِ ؟! فكيفَ انفردتْ هيَ باختراعِها دونَ ربِّ الأربابِ وهيَ غيرُ عالمةٍ بتفصيلِ ما يصدرُ منها مِنَ الاكتسابِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ ! ذلَّتِ المخلوقاتُ ، وتفرَّدَ بالملكِ والملكوتِ جبَّارُ الأرضِ والسماواتِ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثاني : أنَّ انفرادَ اللهِ سبحانَهُ باختراعِ حركاتِ العبادِ لا يخرجُها عنْ كونِها مقدورةً للعبادِ علىٰ سبيلِ الاكتسابِ :

بلِ اللهُ تعالىٰ خلقَ القدرةَ والمقدورَ جميعاً ، وخلقَ الاختيارَ والمختارَ .

فأمَّا القدرةُ : فوصفٌ للعبدِ ، وخلْقٌ للربِّ سبحانَهُ ، وليسَتْ بكسبٍ لهُ .

وأمَّا الحركةُ : فخلْقٌ للربِّ تعالىٰ ، ووصفٌ للعبدِ وكسبٌ لهُ ؛ فإنَّها خُلقتْ مقدورةً بقدرةٍ هيَ وصفُهُ ، فكانتْ للحركةِ نسبةٌ إلىٰ صفةٍ أخرىٰ تُسمَّىٰ قدرةً ، فسُمِّيَ باعتبارِ تلكَ النسبةِ كسباً .

وكيفَ يكونُ جبراً محضاً وهوَ بالضرورةِ يدركُ التفرقةَ بينَ الحركةِ المقدورةِ والرعدةِ الضروريَّةِ ؟! أوْ كيفَ يكونُ خلقاً للعبدِ وهوَ لا يحيطُ علماً بتفاصيلِ أجزاءِ الحركةِ المكتسبةِ وأعدادِها ؟![1] .

وإذا بطلَ الطرفانِ . . لمْ يبقَ إلا الاقتصادُ في الاعتقادِ ، وهوَ أنَّها مقدورةٌ بقدرةِ اللهِ تعالى اختراعاً ، وبقدرةِ العبدِ علىٰ وجهٍ آخرَ مِنَ التعلُّقِ يُعبَّرُ عنهُ بالاكتسابِ[2] ، وليسَ مِنْ ضرورةِ تعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ أنْ يكونَ بالاختراعِ فقطْ ؛ إذْ قدرةُ اللهِ تعالىٰ في الأزلِ كانتْ متعلِّقةً بالعالمِ ولمْ يكنِ الاختراعُ حاصلاً بها ، وهيَ عندَ الاختراعِ متعلِّقةٌ بهِ نوعاً آخرَ مِنَ التعلُّقِ ، فبهِ يظهرُ أنَّ تعلُّقَ القدرةِ ليسَ مخصوصاً بحصولِ المقدورِ بها .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثالثُ : أنَّ فعلَ العبدِ وإنْ كانَ كسباً للعبدِ فلا يخرجُ عنْ كونِهِ مراداً للهِ تعالىٰ :

فلا يجري في الملكِ والملكوتِ طرفةُ عينٍ ، ولا فلتةُ خاطرٍ ولا لفتةُ ناظرٍ إلا بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ ، وبإرادتِهِ ومشيئتِهِ ، فمنهُ الخيرُ والشرُّ ، والنفعُ والضرُّ ، والإسلامُ والكفرُ ، والعرفانُ والنكرُ ، والفوزُ والخسْرُ ، والغوايةُ

---

(١) وفي هاذين الاستفهامين الإنكاريين ردٌّ على الجبرية والمعتزلة ؛ تمهيداً لتفصيل قول أهل السنة .

(٢) عملاً بظاهر قوله سبحانه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، والماتريدية يسمونه بالاختيار لما فيه من إشعار قدرة العبد .

والـرشْـدُ ، والطـاعـةُ والعصيـانُ ، والشـرْكُ والإيمـانُ ، لا رادَّ لقضـائِـهِ ، ولا معقِّبَ لحكْمِهِ ، يضلُّ مَنْ يشاءُ ويهدي مَنْ يشاءُ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسألونَ(١) .

ويدلُّ عليهِ مِنَ النقلِ قولُ الأمَّةِ قاطبةً : (ما شاءَ اللهُ . . كانَ ، وما لمْ يشأْ . . لمْ يكنْ)(٢) ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ .

ويدلُّ عليهِ مِنْ جهةِ العقلِ أنَّ المعاصيَ والجرائمَ إنْ كانَ اللهُ يكرهُها ولا يريدُها، وإنَّما هيَ جاريةٌ علىٰ وَفْقِ إرادةِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ معَ أنَّهُ عدوٌّ للهِ سبحانَهُ . . فالجاري علىٰ وَفْقِ إرادةِ العدوِّ أكثرُ مِنَ الجاري علىٰ وَفْقِ إرادتِهِ تعالىٰ .

فليتَ شعري ؛ كيفَ يستجيزُ المسلمُ أنْ يُرَدَّ ملْكُ الجبارِ ذي الجلالِ والإكرامِ إلىٰ رتبةٍ لوْ رُدَّتْ إليها رئاسةُ زعيمِ ضيعةٍ . . لاستنكفَ منها ؟! إذْ لوْ كانَ ما يستمرُّ لعدوِّ الزعيمِ في القريةِ أكثرَ ممَّا يستمرُّ لهُ . . لاستنكفَ مِنْ زعامتِهِ وتبرَّأَ عنْ ولايتِهِ ، والمعصيةُ هيَ الغالبةُ على الخلْقِ ، وكلُّ ذلكَ جارٍ عندَ المبتدعةِ علىٰ خلافِ إرادةِ الحقِّ تعالىٰ ، وهـٰذا غايةُ الضعْفِ والعجزِ ،

---

(١) وتسمية بعض الكائنات شراً بالنسبة إلىٰ تعلقه وضرره لنا ، لا بالنسبة إلىٰ صدوره عنه ، فخلْقُ الشر ليس قبيحاً ؛ إذ لا قبيح منه تعالىٰ . « إتحاف » (٢/ ١٧٢) .

(٢) وهـٰذا القول جزء من حديث رواه أبو داوود (٥٠٧٥) ضمن كلمات علمهنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعض بناته ، ووجه الاحتجاج به على المعتزلة كونهم ادَّعَوا خلْقاً ـ كالكفر والمعصية ـ هو له كاره غير مريد .

تعالىٰ ربُّ الأربابِ عنْ قولِ الظالمينَ علوّاً كبيراً .

ثمَّ مهما ظهرَ أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ تعالىٰ . . صحَّ أنَّها مرادةٌ لهُ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فكيفَ ينهىٰ عمَّا يريدُ ويأمرُ بما لا يريدُ ؟

قلنا : الأمرُ غيرُ الإرادةِ ، ولذلكَ إذا ضربَ السيِّدُ عبدَهُ ، فعاتبَهُ السلطانُ عليهِ ، فاعتذرَ بتمرُّدِ عبدِهِ عليهِ ، فكذَّبَهُ السلطانُ ، فأرادَ إظهارَ حجَّتِهِ عليهِ بأنْ يأمرَ عبدَهُ بفعلٍ ويخالفَهُ بينَ يديهِ ؛ فقالَ لهُ : أسرجْ هـٰذهِ الدابَّةَ بمشهدٍ مِنَ السلطانِ ، فهوَ يأمرُهُ بما لا يريدُ امتثالَهُ ، ولوْ لمْ يكنْ آمراً . . لما كانَ عذرُهُ عندَ السلطانِ متمهِّداً ، ولوْ كانَ مريداً لامتثالِهِ . . لكانَ مريداً لهلاكِ نفسِهِ ، وهوَ محالٌ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الرابعُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ متفضِّلٌ بالخلْقِ والاختراعِ ، ومتطوِّلٌ بتكليفِ العبادِ ، ولمْ يكنِ الخلْقُ والتكليفُ واجباً عليهِ :

وقالتِ المعتزلةُ : وجبَ عليهِ ذلكَ لما فيهِ مِنْ مصلحةِ العبادِ ، وهوَ محالٌ(١) ؛ إذْ هوَ الموجِبُ والآمرُ والناهي ، وكيفَ يتهدَّفُ لإيجابٍ(٢) ، أوْ يتعرَّضُ للزومٍ وخطابٍ ؟!

---

(١) ونسبه المصنف رحمه الله تعالىٰ في « الاقتصاد » (ص٢٣٣) لطائفة من المعتزلة ؛ إذ بصريو المعتزلة لا يرون ذلك الوجوب .

(٢) **يتهدف** : ينصب نفسه هدفاً مقصوداً .

والمرادُ بالواجبِ أحدُ أمرينِ :

إمَّا الفعلُ الذي في تركِهِ ضررٌ : إمَّا آجلٌ ؛ كما يُقالُ : يجبُ على العبدِ أنْ يطيعَ اللهَ حتى لا يعذِّبَهُ اللهُ في الآخرةِ بالنارِ ، أوْ ضررٌ عاجلٌ ؛ كما يُقالُ : يجبُ على العطشانِ أنْ يشربَ الماءَ حتَّىٰ لا يموتَ .

وإمَّا أنْ يُرادَ بهِ الذي يؤدِّي عدمُهُ إلىٰ محالٍ ؛ كما يُقالُ : وجودُ المعلومِ واجبٌ ؛ إذْ عدمُهُ يؤدي إلىٰ محالٍ ، وهوَ أنْ يصيرَ العلْمُ جهلاً .

فإنْ أرادَ الخصمُ بأنَّ الخلْقَ واجبٌ على اللهِ على المعنى الأوَّلِ . . فقدْ عرَّضَهُ للضِّرارِ ، وإنْ أرادَ بهِ المعنى الثانيَ . . فهوَ مسلَّمٌ ؛ إذْ بعدَ سبْقِ العلْمِ لا بدَّ مِنْ وجودِ المعلومِ ، وإنْ أرادَ بهِ معنىً ثالثاً . . فهوَ غيرُ مفهومٍ .

وقولُهُ : (يجبُ لمصلحةِ عبادِهِ) كلامٌ فاسدٌ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتضرَّرْ بتركِ مصلحةِ العبادِ . . لمْ يكنْ للوجوبِ في حقِّهِ معنىً ، ثمَّ مصلحةُ العبادِ في أنْ يخلقَهُمْ في الجنَّةِ ، فأمَّا أنْ يخلقَهُمْ في دارِ البلايا ، ويعرِّضَهُمْ للخطايا ، ثمَّ يهدفَهُمْ لخطرِ العقابِ ، وهولِ العرضِ والحسابِ . . فما في ذلكَ غبطةٌ عندَ ذوي الألبابِ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الخامسُ : أنَّهُ يجوزُ على اللهِ سبحانَهُ أنْ يكلِّفَ عبادَهُ ما لا يطيقونَهُ :

خلافاً للمعتزلةِ ، ولوْ لمْ يجزْ ذلكَ . . لاستحالَ سؤالُ دفْعِهِ ، وقدْ سألوا ذلكَ فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ، ولأنَّ اللهَ تعالىٰ أخبرَ نبيَّهُ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنَّ أبا جهْلٍ لا يصدِّقُهُ ، ثمَّ أمرَهُ بأنْ يأمرَهُ بأنْ يصدِّقَهُ في جميعِ أقوالِهِ ، وكانَ مِنْ جملةِ أقوالِهِ أنَّهُ لا يصدِّقُهُ ، فكيفَ يصدِّقُهُ في أنَّهُ لا يصدِّقُهُ ؟! وهلْ هٰذا إلاَّ محالٌ وجودُهُ ؟!

***

الأصلُ السادسُ : أنَّ للهِ عزَّ وجلَّ إيلامَ الخلْقِ وتعذيبَهُمْ مِنْ غيرِ جرْمٍ سابقٍ ، ومِنْ غيرِ ثوابٍ لاحقٍ :

خلافاً للمعتزلةِ ؛ لأنَّهُ متصرِّفٌ في مِلكِهِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يعدُوَ تصرُّفُهُ مِلكَهُ ، والظلمُ هوَ عبارةٌ عنِ التصرُّفِ في ملكِ الغيرِ بغيرِ إذنِهِ ، وهوَ محالٌ على اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لا يصادفُ لغيرِهِ مِلكاً حتَّىٰ يكونَ تصرُّفُهُ فيهِ ظلْماً .

ويدلُّ علىٰ جوازِ ذلكَ وجودُهُ ؛ فإنَّ ذبْحَ البهائمِ إيلامٌ لها ، وما صُبَّ عليها مِنْ أنواعِ العذابِ مِنْ جهةِ الآدميِّينَ لمْ يتقدَّمْها جريمةٌ .

***

فإنْ قيلَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يحشرُها ويجازيها علىٰ قدْرِ ما قاستْهُ مِنَ الآلامِ ، ويجبُ ذلكَ على اللهِ سبحانَهُ .

فنقولُ : مَنْ زعمَ أنَّهُ يجبُ على اللهِ إحياءُ كلِّ نملةٍ وُطِئَتْ ، وكلِّ بقَّةٍ عُركَتْ حتَّىٰ يثيبَها علىٰ آلامِها . . فقدْ خرجَ عنِ الشرعِ والعقلِ ؛ إذْ يُقالُ : وصفُ الثوابِ والحشرِ بكونِهِ واجباً عليهِ إنْ كانَ المرادُ بهِ أنَّهُ يتضرَّرُ بتركِهِ . . فهوَ محالٌ ، وإنْ أُريدَ بهِ غيرُهُ . . فقدْ سبقَ أنَّهُ غيرُ

مفهومٍ إذا خرجَ عنِ المعاني المذكورةِ للواجبِ[١] .

الأصلُ السابعُ : أنَّهُ تعالىٰ يفعلُ بعبادِهِ ما يشاءُ :

فلا يجبُ عليهِ رعايةُ الأصلحِ لعبادِهِ لما ذكرناهُ مِنْ أنَّهُ لا يجبُ عليهِ شيءٌ ، بلْ لا يُعقلُ في حقِّهِ الوجوبُ ؛ فإنَّهُ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسألونَ .

وليتَ شعري ؛ بِمَ يجيبُ المعتزليُّ في قولِهِ : (إنَّ الأصلحَ واجبٌ عليهِ) عنْ مسألةٍ نعرضُها عليهِ ؟ وهوَ أنْ يُفرَضَ مناظرةٌ في الآخرةِ بينَ صبيٍّ وبينَ بالغٍ ماتَا مسلمَيْنِ ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يزيدُ في درجاتِ البالغِ ويفضِّلُهُ على الصبيِّ ؛ لأنَّهُ تعبَ بالإيمانِ والطاعاتِ بعدَ البلوغِ ، ويجبُ عليهِ ذلكَ عندَ المعتزليِّ ، فلوْ قالَ الصبيُّ : يا ربِّ ؛ لِمَ رفعتَ منزلتَهُ عليَّ ؟ فيقولُ : لأنَّهُ

---

(١) وتفصيل ذلك في « الاقتصاد » (ص٢٢٢ ، ٢٤١ـ٢٤٢) ، قال الحافظ الزبيدي رحمه الله تعالىٰ : (وأما ما رواه أحمد بإسناد صحيح : « يقتصُّ للخلق بعضهم من بعض حتىٰ للجماء من القرناء ، وحتىٰ للذرة من الذرة » ، وهو في « صحيح مسلم » « ٢٥٨٢ » بلفظ : « لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة ، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » . . فالمراد بالاقتصاص المذكور أن يدخل الله تعالىٰ عليها من الآلام في الموقف بقدر ما يعلمه قصاصاً ، أو يقتص منها حقيقة ، وذلك لا يمنعه العقل عندنا ، لكن لا نوجبه ؛ أي : لا نقول بوجوب وقوعه منه تعالىٰ كما يقول المعتزلة ، وهاذا أولىٰ من القول بأنه خبر آحاد غير مفيد للقطع ، والقطع هو المعتبر في العقائد) . « إتحاف » (٢/ ١٨٥) .

بَلغَ واجتهدَ في الطاعاتِ ، فيقولُ الصبيُّ : أنتَ أمتَّني في الصبا ، فكانَ يجبُ عليكَ أنْ تديمَ حياتي حتَّىٰ أبلُغَ فأجتهدَ ، فقدْ عدلتَ عَنِ العدلِ في التفضُّلِ عليهِ بتطويلِ العُمُرِ لهُ دوني ، فلِمَ فضَّلْتَهُ ؟ فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لأنِّي علمتُ أنَّكَ لوْ بلغتَ . . لأشركتَ أوْ عصيتَ ، فكانَ الأصلحَ لكَ الموتُ في الصبا ـ هـٰذا عذرُ المعتزليِّ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ـ وعندَ هـٰذا ينادي الكفارُ مِن دركاتِ لَظَىٰ ويقولونَ : يا ربِّ ؛ أما علمتَ أنَّنا إذا بلغْنا . . أشركنا ؟! فهلاَّ أمتَّنا في الصبا ؛ فإنَّا رضينا بما دونَ منزلةِ الصبيِّ المسلمِ . . فبماذا يُجابُ عنْ ذلكَ ؟!! وهلْ يجبُ عندَ هـٰذا إلا[1] القطعُ بأنَّ الأمورَ الإلهيةَ تتعالىٰ بحكْمِ الجلالِ عَنْ أنْ توزنَ بميزانِ أهلِ الاعتزالِ ؟ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : مهما قدرَ علىٰ رعايةِ الأصلحِ للعبادِ ثمَّ سلَّطَ عليهمْ أسبابَ العذابِ . . كانَ ذلكَ قبيحاً لا يليقُ بالحكمةِ .

قلنا : معنى القبيحِ : ما لا يوافقُ الغرضَ ، حتَّىٰ إنَّهُ قدْ يكونُ الشيءُ قبيحاً عندَ شخصٍ ، حسناً عندَ غيرِهِ إذا وافقَ غرضَ أحدِهما دونَ الآخرِ ، حتَّىٰ يَستقبحُ قتلَ الشخصِ أولياؤُهُ ، ويستحسنُهُ أعداؤُهُ .

فإنْ أُريدَ بالقبيحِ ما لا يوافقُ غرضَ الباري سبحانَهُ . . فهوَ محالٌ ؛ إذْ

(١) (إلا) : زيادة من (ج) ونسخة الحافظ الزبيدي .

لا غرضَ لهُ ، فلا يُتصوَّرُ منهُ قبيحٌ ؛ كما لا يُتصوَّرُ منهُ ظلمٌ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ منهُ التصرُّفُ في مِلْكِ الغيرِ .

وإنْ أُريدَ بالقبيحِ ما لا يوافقُ غرضَ الغيرِ . . فلمَ قلتُمْ : إنَّ ذلكَ عليهِ محالٌ ؟ وهلْ هٰذا إلا مجرَّدُ تَشَهٍّ يشهدُ بخلافِهِ ما قدْ فرضناهُ مِنْ مخاصمةِ أهلِ النارِ ؟

ثمَّ إنَّ الحكيمَ معناهُ : العالمُ بحقائقِ الأشياءِ والقادرُ علىٰ إحكامِ فعلِها علىٰ وَفْقِ إرادتِهِ ، وهٰذا مِنْ أينَ يُوجِبُ رعايةَ الأصلحِ ؟ وإنَّما الحكيمُ منَّا يراعي الأصلحَ نظراً لنفسِهِ ؛ ليستفيدَ بهِ في الدنيا ثناءً وفي الآخرةِ ثواباً ، أوْ يدفعَ بهِ عنْ نفسِهِ آفةً ، وكلُّ ذلكَ على اللهِ سبحانَهُ محالٌ .

※ ※ ※

الأصلُ الثامنُ : أنَّ معرفةَ اللهِ سبحانَهُ وطاعتَهُ واجبةٌ بإيجابِ اللهِ تعالىٰ وشرعِهِ ، لا بالعقلِ :

خلافاً للمعتزلةِ ؛ لأنَّ العقلَ وإنْ أوجبَ الطاعةَ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يوجبَها لغيرِ فائدةٍ وهوَ محالٌ ؛ فإنَّ العقلَ لا يوجبُ العبثَ ، وإمَّا أنْ يوجبَها لفائدةٍ وغرضٍ ، وذلكَ لا يخلو :

إمَّا أنْ يرجعَ إلى المعبودِ وذلكَ محالٌ في حقِّهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ يتقدَّسُ عنِ الأغراضِ والفوائدِ ، بلِ الكفرُ والإيمانُ والطاعةُ والعصيانُ في حقِّهِ تعالىٰ سِيَّانِ .

وإمَّا أنْ يرجعَ إلىٰ غرضِ العبدِ وهوَ أيضاً محالٌ ؛ لأنَّهُ لا غرضَ لهُ في

الحالِ ، بلْ يتعبُ بهِ ، وينصرفُ عَنِ الشهواتِ بسببِهِ ، وليسَ في المآلِ إلا الثوابُ والعقابُ .

ومِن أينَ يعلمُ أنَّ اللهَ تعالىٰ يثيبُ على المعرفةِ والطاعةِ ولا يعاقبُ علىٰ ذلكَ معَ أنَّ الطاعةَ والمعصيةَ في حقِّهِ يتساويانِ ؛ إذْ ليسَ لهُ إلىٰ أحدِهما ميلٌ ولا لأحدِهما بهِ اختصاصٌ ، وإنَّما عُرِفَ تمييزُ ذلكَ بالشرعِ ؟

ولقدْ زلَّ مَنْ أخذَ هٰذا مِنَ المقايسةِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ ، حيثُ يفرِّقُ المخلوقُ بينَ الشكرِ والكفرانِ لما لهُ مِنَ الارتياحِ والاهتزازِ والتلذُّذِ بأحدِهما دونَ الآخرِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فإذا لمْ يجبِ النظرُ والمعرفةُ إلا بالشرعِ ، والشرعُ لا يستقرُّ ما لمْ ينظُرِ المكلَّفُ فيهِ ، فإذا قالَ المكلَّفُ للنبيِّ : إنَّ العقلَ ليسَ يُوجِبُ عليَّ النظرَ ، والشرعُ لا يثبتُ عندي إلاَّ بالنظرِ ، ولستُ أقدمُ على النظرِ . . أدَّىٰ ذلكَ إلىٰ إفحامِ الرسولِ .

قلنا : هٰذا يضاهي قولَ القائلِ للواقفِ في موضعٍ مِنَ المواضعِ : إنَّ وراءَكَ سَبعاً ضارياً ، فإنْ لمْ تنزعجْ عنِ المكانِ . . قتلَكَ ، وإنِ التفتَّ وراءَكَ ونظرتَ . . عرفتَ صدقي ، فيقولُ الواقفُ : لا يثبتُ صدقُكَ ما لمْ ألتفتْ ورائي ، ولا ألتفتُ ورائي ولا أنظرُ ما لمْ يثبتْ صدقُكَ ، فيدلُّ هٰذا علىٰ حماقةِ هٰذا القائلِ وتهدُّفِهِ للهلاكِ ، ولا ضررَ فيهِ على الهادي المرشدِ .

فكذلكَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : إنَّ وراءَكُمُ الموتَ ، ودونَهُ السباعُ الضاريةُ والنيرانُ المحرقةُ إنْ لمْ تأخذوا منها حذرَكُمْ ، وتعرفوا لي صدقي بالالتفاتِ إلىٰ معجزتي ، فمَنِ التفتَ . . عرفَ واحترزَ ونجا ، ومَنْ لمْ يلتفتْ وأصرَّ . . هلكَ وتردَّىٰ ، ولا ضررَ عليَّ إنْ هلكَ الناسُ كلُّهُمْ أجمعونَ ، وإنَّما عليَّ البلاغُ المبينُ .

فالشرعُ يعرفُ وجودَ السباعِ الضاريةِ بعدَ الموتِ ، والعقلُ يفيدُ فهمَ كلامِهِ والإحاطةَ بإمكانِ ما يقولُهُ في المستقبلِ ، والطبعُ يستحثُّ على الحذرِ مِنَ الضَّررِ ، ومعنىٰ كونِ الشيءِ واجباً : أنَّ في تركِهِ ضرراً ، ومعنىٰ كونِ الشرعِ مُوجِباً : أنَّهُ معرِّفٌ للضررِ المتوقَّعِ ؛ فإنَّ العقلَ لا يهدي إلى التهدُّفِ للضررِ بعدَ الموتِ عندَ اتباعِ الشهواتِ .

فهٰذا معنى الشرعِ والعقلِ وتأثيرِهِما في تقريرِ الواجبِ ، ولولا خوفُ العقابِ علىٰ تركِ ما أُمِرَ بهِ . . لمْ يكنِ الوجوبُ ثابتاً ؛ إذْ لا معنىٰ للواجبِ إلا ما يرتبطُ بتركِهِ ضررٌ في الآخرةِ .

الأصلُ التاسعُ : أنَّهُ ليسَ يستحيلُ بعثةُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ :

خلافاً للبراهِمَةِ ، حيث قالوا : لا فائدةَ في بعثتِهِمْ ؛ إذْ في العقلِ مندوحةٌ عنهُمْ ؛ لأنَّ العقلَ لا يهدي إلى الأفعالِ المنجيةِ في الآخرةِ كما

لا يهدي إلى الأدويةِ المفيدةِ للصحَّةِ ، فحاجةُ الخلْقِ إلى الأنبياءِ كحاجتِهِمْ إلى الأطبَّاءِ[١] ، ولكنْ يُعرفُ صدْقُ الطبيبِ بالتجربةِ ، ويُعرفُ صدقُ النبيِّ بالمعجزةِ .

※ ※ ※

الأصلُ العاشرُ : أنَّ اللهَ سبحانَهُ قدْ أرسلَ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خاتماً للنبيِّينَ ، وناسخاً لما قبلَهُ مِنْ شرائعِ اليهودِ والنصارىٰ والصابئينَ :

وأيَّدَهُ بالمعجزاتِ الظاهرةِ والآياتِ الباهرةِ ؛ كانشقاقِ القمرِ[٢] ، وتسبيحِ الحصىٰ[٣] ، وإنطاقِ العجماءِ[٤] ، وما تفجَّرَ مِنْ بينِ أصابعِهِ مِنَ الماءِ[٥] .

ومِنْ آياتِهِ الظاهرةِ التي تحدَّىٰ بها معَ كافَّةِ العربِ القرآنُ العظيمُ[٦] ، فإنَّهُمْ معَ تميُّزِهِمْ بالفصاحةِ والبلاغةِ تهدَّفوا لسبيهِ ونهبِهِ وقتلِهِ وإخراجِهِ كما

---

(١) إذ الرسالة سفارة بين الحق تعالىٰ وبين عباده ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم . « إتحاف » (٢/١٩٨) .

(٢) كما في « البخاري » (٣٦٣٧) ، ومسلم (٢٨٠٢) .

(٣) كما روىٰ ذلك الطبراني في « الأوسط » (٤١٠٩) .

(٤) كما في حديث الحُمَّرة الذي رواه أبو داوود (٢٦٧٥) .

(٥) كما في « البخاري » (٣٥٧٢) ، ومسلم (٢٢٧٩) .

(٦) **تحدّىٰ بها** : أي جارىٰ بها وعارض ، وأصل التحدي طلب المباراة في الحداء بالإبل ، ثم توسع فيه فأطلق علىٰ طلب المعارضة بالمثل في أي أمر كان . « إتحاف » (٢/٢٠٩) .

أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُمْ ، ولمْ يقدروا علىٰ معارضتِهِ بمثلِهِ ؛ إذْ لمْ يكنْ في قدرةِ البشرِ الجمعُ بينَ جزالةِ القرآنِ ونظمِهِ ، هـٰذا معَ ما فيهِ مِنْ أخبارِ الأوَّلينَ معَ كونِهِ أمِّيّاً غيرَ ممارسٍ للكتُبِ ، والإنباءِ عَنِ الغيبِ في أمورٍ تحقَّقَ صدقُهُ فيها في الاستقبالِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ .

ووجهُ دلالةِ المعجزةِ علىٰ صدْقِ الرسُلِ أنَّ كلَّ ما عجزَ عنهُ البشرُ لمْ يكنْ إلاَّ فعلاً للهِ تعالىٰ ، فمهما كانَ مقروناً بتحدِّي النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . نُزِّلَ منزلةَ قولِهِ : صدقْتَ ، وذلكَ مثلُ القائمِ بينَ يدي الملكِ المدَّعِي علىٰ رعيتِهِ أنَّهُ رسولُ الملكِ إليهِمْ ، فإنَّهُ مهما قالَ للملكِ : إنْ كنتُ صادقاً . . فقمْ علىٰ سريرِكَ ثلاثاً واقعدْ علىٰ خلافِ عادتِكَ ، ففعلَ الملكُ ذلكَ ؛ حصلَ للحاضرينَ علمٌ ضروريٌّ بأنَّ ذلكَ نازلٌ منزلةَ قولِهِ : صدقتَ .

* * *

الرّكن الرّابع : السّمعيّات ، وتصديقه صلّى الله عليه وسلّم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول

الأصلُ الأوّلُ : الحشرُ والنشرُ :

وقدْ وردَ بهما الشرعُ ، وهوَ حقٌّ ، والتصديقُ بهما واجبٌ ؛ لأنَّهُ في العقلِ ممكنٌ .

ومعناهُ : الإعادةُ بعدَ الإفناءِ ، وذلكَ مقدورٌ للهِ تعالىٰ ؛ كابتداءِ الإنشاءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ، فاستدلَّ بالابتداءِ على الإعادةِ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ، والإعادةُ ابتداءٌ ثانٍ ، فهوَ ممكنٌ كالابتداءِ الأوَّلِ .

***

الأصلُ الثاني : سؤالُ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ :

وقدْ وردَتْ بهِ الأخبارُ ، فيجبُ التصديقُ بهِ ؛ لأنَّهُ ممكنٌ ، إذْ ليسَ يستدعي إلا إعادةَ الحياةِ إلىٰ جزءٍ مِنَ الأجزاءِ الذي بهِ فَهْمُ الخطابِ ، وذلكَ ممكنٌ في نفسِهِ ، ولا يدفعُ ذلكَ ما يُشاهدُ مِنْ سكونِ أجزاءِ الميْتِ وعدم سماعِنا للسؤالِ لهُ ؛ فإنَّ النائمَ ساكنٌ بظاهرِهِ ومدركٌ بباطنِهِ مِنَ الآلامِ

واللذَّاتِ ما يحسُّ بأثرِه عندَ التنبُّهِ ، وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسمعُ كلامَ جبريلَ عليهِ السلامُ ويشاهدُهُ ومَنْ حولَهُ لا يسمعونَهُ ولا يرونَهُ[١] ، فلا يحيطونَ بشيْءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، فإذا لمْ يخلُقْ لهمُ السمعَ والرؤيةَ . . لمْ يدركوهُ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثالثُ : عذابُ القبرِ[٢] :

وقدْ وردَ الشرعُ بهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[٣] ، واشتهرَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والسلفِ الصالحينَ الاستعاذةُ مِنْ عذابِ القبرِ[٤] ، وهوَ ممكنٌ ، فيجبُ التصديقُ بهِ ، ولا يمنعُ مِنَ التصديقِ بهِ تفرُّقُ أجزاءِ الميْتِ في بطونِ السباعِ وحواصلِ الطيرِ ؛ فإنَّ المدركَ لألمِ العذابِ مِنَ الحيوانِ أجزاءٌ مخصوصةٌ يقدرُ اللهُ تعالىٰ علىٰ إعادةِ الإدراكِ إليها .

❊ ❊ ❊

---

(١) كما في « البخاري » (٣٢١٧) ، ومسلم (٢٤٤٧) .

(٢) وهو عذاب البرزخ ، وأضيف إلى القبر لأنه الغالب ، وإلا . . فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراده قُبِرَ أو لم يقبر ، ومحله الروح والبدن جميعاً باتفاق . « إتحاف » (٢/ ٣٧).

(٣) وقال تعالىٰ في قوم نوح عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ ، والفاء للتعقيب من غير مهلة . « إتحاف » (٢/ ٢١٨) .

(٤) روىٰ مسلم (٢٨٦٧) مرفوعاً : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر .

الأصلُ الرابعُ : الميزانُ :

وهوَ حقٌّ[١] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الآيةَ .

ووجهُهُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ يحدثُ في صحائفِ الأعمالِ وزناً بحسَبِ درجاتِ الأعمالِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فتصيرُ مقاديرُ أعمالِ العبادِ معلومةً للعبادِ ، حتَّىٰ يظهرَ لهُمُ العدلُ في العقابِ ، أوِ الفضلُ في العفْوِ وتضعيفِ الثوابِ .

الأصلُ الخامسُ : الصراطُ :

وهوَ جسرٌ ممدودٌ علىٰ متْنِ جهنَّمَ ، أدقُّ مِنَ الشَّعْرِ ، وأحدُّ مِنَ السيفِ[٢] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ .

وهـٰذا ممكنٌ ، فيجبُ التصديقُ بهِ ؛ فإنَّ القادرَ علىٰ أنْ يطيِّرَ الطيرَ في الهواءِ قادرٌ علىٰ أنْ يسيِّرَ الإنسانَ على الصراطِ[٣] .

(١) فلا يجوز العدول إلىٰ تأويله كما فعلت المعتزلة ، إذ قالت : هو كناية عن العدل .
(٢) كما في « مسلم » (١٨٣) من قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٣) وقد ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ في عقيدته الصغرى المتقدمة الحوضَ، ولم يذكره هنا .

الأصلُ السادسُ : أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ دليلٌ علىٰ أنَّها مخلوقةٌ ، فيجبُ إجراؤُهُ على الظاهرِ ؛ إذْ لا استحالةَ فيهِ .

ولا يُقالُ : لا فائدةَ في خلقِهِما قبلَ يومِ الجزاءِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسْألونَ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ السابعُ : أنَّ الإمامَ الحقَّ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبو بكرٍ ، ثمَّ عمرُ ، ثمَّ عثمانُ ، ثمَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُمْ :

ولمْ يكنْ نصَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ إمامٍ أصلاً[1] ؛ إذْ لوْ كانَ . . لكانَ أولىٰ بالظهورِ مِنْ نصبهِ آحادَ الولاةِ والأمراءِ على الجنودِ في البلادِ ، ولمْ يخْفَ ذلكَ ، فكيفَ خَفِيَ هٰذا ؟ وإنْ ظهرَ . . فكيفَ اندرسَ حتَّىٰ لمْ يُنقلْ إلينا ؟!

فلمْ يكنْ أبو بكرٍ إماماً إلا بالاختيارِ والبيعةِ ، وأمَّا تقديرُ النصِّ علىٰ غيرِهِ . . فهوَ نسبةُ الصحابةِ كلِّهِمْ إلىٰ مخالفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) أي : نصّاً جلياً قطعي الدلالة .

وسلَّمَ، وخرْقٌ للإجماعِ، وذلكَ ممَّا لا يستجرِىءُ على اختراعِهِ إلا الروافضُ[1] .

واعتقادُ أهلِ السنَّةِ تزكيةُ جميعِ الصحابةِ والثناءُ عليهمْ ؛ كما أثنى اللهُ سبحانَهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ ، وما جرىٰ بينَ معاويةَ وعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ مبنياً على الاجتهادِ ، لا منازعةً مِنْ معاويةَ في الإمامةِ ؛ إذْ ظنَّ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ تسليمَ قتلةِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ معَ كثرةِ عشائرِهِمْ واختلاطِهِمْ بالعسكرِ يؤدِّي إلى اضطرابِ أمرِ الإمامةِ في بدايتِها ، فرأى التأخيرَ أصوبَ ، وظنَّ معاويةُ أنَّ تأخيرَ أمرِهِمْ معَ عِظَمِ جنايتِهِمْ يوجبُ الإغراءَ بالأئمَّةِ ، ويعرِّضُ الدماءَ للسفكِ .

وقدْ قالَ أفاضلُ العلماءِ : (كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ) ، وقالَ قائلونَ : (المصيبُ واحدٌ) ، ولمْ يذهبْ إلىٰ تخطئةِ عليٍّ ذو تحصيلٍ أصلاً[2] .

* * *

---

(١) وسموا رافضة لأنهم تركوا زيد بن علي حين نهاهم عن سبِّ الصحابة ، فلما عرفوا مقالته ، وأنه لا يتبرأ من الشيخين . . رفضوه . « إتحاف » (٢/ ٢٢٣) .

(٢) بل كان رضي الله عنه هو المصيب في اجتهاده رضي الله عنه ، وقد نقل الحافظ الزبيدي عن الشهاب السهروردي من رسالته المسماة : « أعلام الهدىٰ وعقيدة أرباب التقىٰ » ما بعضه : (أيها المبرأ من الهوىٰ والعصبية ؛ اعلم أن الصحابة مع نزاهة بواطنهم وطهارة قلوبهم كانوا بشراً ، وكانت لهم نفوس ، وللنفوس صفات تظهر ، فقد كانت نفوسهم تظهر بصفةٍ وقلوبهم منكرة لذلك ، فيرجعون إلىٰ حكم قلوبهم ، وينكرون ما كان من نفوسهم ، فانتقل اليسير من آثار نفوسهم إلىٰ أرباب نفوسٍ عدموا القلوب ، فما أدركوا قضايا قلوبهم ، وصارت صفات نفوسهم مدركة عندهم للجنسية النفسية ، فبنوا تصرف النفوس على الظاهر المفهوم عندهم ، ووقعوا في بدع وشبه أوردتهم كل =

الأصلُ الثامنُ : أنَّ فضْلَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ علىٰ حَسبِ ترتيبِهِمْ في الخلافةِ :

إذْ حقيقةُ الفضْلِ ما هوَ فضلٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ لا يطَّلعُ عليهِ إلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ وردَ في الثناءِ علىٰ جميعِهِمْ آياتٌ وأخبارٌ كثيرةٌ[(١)] ، وإنَّما يُدرِكُ الفضلَ والترتيبَ في ذلكَ المشاهدونَ للوحيِ والتنزيلِ بقرائنِ الأحوالِ ودقائقِ التفصيلِ ، فلولا فهمُهُمْ ذلكَ . . لما رتَّبوا الأمرَ كذلكَ ؛ إذْ كانُوا لا تأخذُهُمْ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، ولا يصرفُهُمْ عنِ الحقِّ صارفٌ .

***

الأصلُ التاسعُ : أنَّ شرائطَ الإمامةِ بعدَ الإسلامِ والتكليفِ خمسةٌ : الذكورةُ ، والورعُ[(٢)] ، والعلْمُ ، والكفايةُ ، ونسبُ قريشٍ :

= مورد رديء ، وجرعتهم كل شرب وبيء . . . ، فإن قبلت النصح . . فأمسك عن التصرف في أمرهم ، واجعل محبتك للكل على السواء ، وأمسك عن التفصيل) . « إتحاف » (٢/ ٢٢٩) .

(١) كما روى البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤٠) مرفوعاً : « لا تسبوا أصحابي ، لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً . . ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه » ، وفي « الترمذي » (٣٨٦٢) مرفوعاً : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم . . فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم . . فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم . . فقد آذاني ، ومن آذاني . . فقد آذى الله ، ومن آذى الله . . يوشك أن يأخذه » .

(٢) أراد به العدالة ، وبها عبر الأكثر . « إتحاف » (٢/ ٢٣٠) .

لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأئمَّةُ مِنْ قريشٍ »[1] ، وإذا اجتمعَ عددٌ مِنَ الموصوفينَ بهٰذهِ الصفاتِ . . فالإمامُ مَنِ انعقدَتْ لهُ البيعةُ مِنْ أكثرِ الخلقِ ، والمخالفُ للأكثرِ باغٍ يجبُ ردُّهُ إلى الانقيادِ إلى الحقِّ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ العاشرُ : أنَّهُ لوْ تعذَّرَ وجودُ الورعِ والعلمِ فيمَنْ يتصدَّىٰ للإمامةِ ، وكانَ في صرفِهِ إثارةُ فتنةٍ لا تُطاقُ . . حكمْنا بانعقادِ إمامتِهِ :

لأنَّا بينَ أنْ نحرِّكَ فتنةً بالاستبدالِ ، فما يلقى المسلمونَ فيهِ مِنَ الضَّررِ يزيدُ علىٰ ما يفوتُهُمْ مِنْ نقصانِ هٰذهِ الشروطِ التي أُثبتتْ لمزيَّةِ المصلحةِ ، فلا يُهدمُ أصلُ المصلحةِ شغفاً بمزاياها ؛ كالذي يبني قصراً ويهدم مِصراً ، وبينَ أنْ نحكمَ بخلوِّ البلادِ عَنِ الإمامِ ، وبفسادِ الأقضيةِ ، وذلكَ محالٌ ، ونحنُ نقضي بنفوذِ قضاءِ أهلِ البغيِ في بلادِهِمْ لمسيسِ حاجتِهِمْ ، فكيفَ لا نقضي بصحَّةِ الإمامةِ عندَ الحاجةِ والضرورةِ ؟!

❊ ❊ ❊

فهٰذهِ الأركانُ الأربعةُ الحاويةُ للأصولِ الأربعينَ هيَ **قواعدُ العقائدِ** ، فمَنِ اعتقدَها . . كانَ موافقاً لأهلِ السنَّةِ ومبايناً لرهْطِ البدعةِ ، واللهُ تعالىٰ يسدِّدُنا بتوفيقِهِ ، ويهدينا إلى الحقِّ وتحقيقِهِ ، بمنِّهِ وسَعَةِ جودِهِ وفضلِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وكلِّ عبدٍ مصطفىً .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٩٠٩) .

الفَصلُ الرَّابِعُ من قَواعِدِ العقَائِدِ
في الإيمان والإسلام
وما بينهما من الاتّصال والانفصال
وما يتطرّق إليه من الزّيادة والنّقصان ووجه استثناء السّلف فيه
وفيه ثلاث مسائل

مَسْأَلَةٌ
[هلِ الإسلامُ هوَ الإيمانُ بعينِهِ أوْ غيرُهُ ؟]

اختلفوا في أنَّ الإسلامَ : هلْ هوَ الإيمانُ أوْ غيرُهُ ؟

وإنْ كانَ غيرَهُ : فهلْ هوَ منفصلٌ عنهُ يوجدُ دونَهُ، أوْ هوَ مرتبطٌ بهِ يلازمُهُ؟

فقيل : إنَّهُما شيءٌ واحدٌ .

وقيلَ : إنَّهُما شيئانِ لا يتواصلانِ .

وقيلَ : إنَّهُما شيئانِ ولكنْ يرتبطُ أحدُهُما بالآخرِ .

وقدْ أوردَ أبو طالبٍ المكيُّ في هٰذا كلاماً شديدَ الاضطرابِ كثيرَ التطويلِ(١) ، فلنهجمِ الآنَ على التصريحِ بالحقِّ مِنْ غيرِ تعريجٍ علىٰ نقلِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٩) .

ما لا تحصيلَ لهُ ، فنقولُ : في هـٰذا ثلاثةُ مباحثَ : بحثٌ عنْ موجَبِ اللفظينِ في اللغةِ ، وبحثٌ عَنِ المرادِ بهِما في إطلاقِ الشرعِ ، وبحثٌ عَنْ حكمِهِما في الدنيا والآخرةِ .

والبحثُ الأوَّلُ لغويٌّ ، والثاني تفسيريٌّ ، والثالثُ فقهيٌّ شرعيٌّ .

البحث الأوّل : في موجب اللغة

والحقُّ فيهِ أنَّ الإيمانَ عبارةٌ عَنِ التصديقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أيْ : بمصدِّقٍ .

والإسلامُ عبارةٌ عنِ التسليمِ والاستسلامِ بالإذعانِ والانقيادِ ، وتركِ التمرُّدِ والإباءِ والعنادِ .

وللتصديقِ محلٌّ خاصٌّ وهوَ القلبُ ، واللسانُ ترجمانُهُ ، وأمَّا التسليمُ . فإنَّهُ عامٌّ في القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، فإنَّ كلَّ تصديقٍ بالقلبِ فهوَ تسليمٌ وتركُ الإباءِ والجحودِ ، وكذلكَ الاعترافُ باللسانِ ، وكذلكَ الطاعةُ والانقيادُ بالجوارحِ .

فموجَبُ اللغةِ أنَّ الإسلامَ أعمُّ والإيمانَ أخصُّ ، وكأنَّ الإيمانَ عبارةٌ عنْ أشرفِ أجزاءِ الإسلامِ .

فإذاً ؛ كلُّ تصديقٍ تسليمٌ ، وليسَ كلُّ تسليمٍ تصديقاً .

البحث الثاني : عن إطلاق الشرع

والحقُّ فيهِ أنَّ الشرعَ قدْ وردَ باستعمالِهما علىٰ سبيلِ الترادفِ والتواردِ ، ووردَ علىٰ سبيلِ الاختلافِ ، ووردَ علىٰ سبيلِ التداخلِ :

أمَّا الترادفُ : ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، ولمْ يكنْ بالاتفاقِ إلا بيتٌ واحدٌ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ »[1] ، وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً عَنِ الإيمانِ فأجابَ بهٰذهِ الخمسِ[2] .

وأمَّا الاختلافُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ ، ومعناهُ : استسلمْنا في الظاهرِ ، فأرادَ بالإيمانِ هٰهنا تصديقَ القلبِ فقطْ ، وبالإسلامِ الاستسلامَ ظاهراً باللسانِ والجوارحِ .

وفي حديثِ جبريلَ عليهِ السلامُ لمَّا سألَهُ عَنِ الإيمانِ فقالَ : « أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ وبالبعثِ بعدَ الموتِ وبالحسابِ وبالقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ » ، فقَالَ : فما الإسلامُ ؟ فذكرَ الخصالَ الخمسَ[3] ،

---

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .
(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ١٩٩) ، وهو بغير ذكر الحج عند البخاري (٥٣) ، ومسلم (١٧) من حديث وفد عبد قيس عندهم .
(٣) رواه مسلم (٨) .

فعبَّرَ بالإسلامِ عَنْ تسليمِ الظاهرِ بالقولِ والعملِ .

وفي حديثِ سعدٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أعطىٰ رجلاً عطاءً ولمْ يُعْطِ الآخرَ ، فقالَ لهُ سعدٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ تركتَ فلاناً لمْ تعطِهِ وهوَ مؤمنٌ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوْ مسلمٌ » ، فأعادَ عليهِ ، فأعادَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

وأمَّا التداخلُ : فما رُوِيَ أيضاً أنَّهُ سُئِلَ فقيلَ لَهُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإسلامُ » ، فقالَ : أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإيمانُ »[2] .

وهٰذا دليلٌ على الاختلافِ ، والتداخلِ ، وهوَ أوفقُ الاستعمالاتِ في اللغةِ[3] ؛ لأنَّ الإيمانَ عملٌ مِنَ الأعمالِ ، وهوَ أفضلُها ، والإسلامُ هوَ تسليمٌ ؛ إمَّا بالقلبِ ، وإمَّا باللسانِ ، وإما بالجوارحِ ، وأفضلُها الذي بالقلبِ ، وهوَ التصديقُ الذي يسمَّىٰ إيماناً .

والاستعمالُ لهُما علىٰ سبيلِ الاختلافِ ، وعلىٰ سبيلِ التداخلِ ، وعلىٰ سبيلِ الترادفِ . كلُّهُ غيرُ خارجٍ عنْ طريقِ التجوُّزِ في اللغةِ .

أمَّا الاختلافُ : فهوَ أنْ يُجعَلَ الإيمانُ عبارةً عنِ التصديقِ بالقلبِ فقطْ ،

---

(١) رواه البخاري (٢٧) ، ومسلم (١٥٠) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ١١٤) .

(٣) أي : وروده علىٰ سبيل التداخل هو أوفق الاستعمالات في اللغة . « إتحاف » (٢/ ٢٣٩) .

وهوَ موافقٌ للغةِ ، والإسلامُ عبارةً عَنِ التسليمِ ظاهراً ، وهوَ أيضاً موافقٌ للغةِ ؛ فإنَّ التسليمَ ببعضِ محالِّ التسليمِ ينطلقُ عليهِ اسمُ التسليمِ ، فليسَ مِنْ شرطِ حصولِ الاسمِ عمومُ المعنىٰ لكلِّ محلٍّ يمكنُ أنْ يوجدَ المعنىٰ فيهِ ؛ فإنَّ مَنْ لمسَ غيرَهُ ببعضِ بدنِهِ يُسمَّىٰ لامساً وإنْ لمْ يستغرقْ جميعَ بدنِهِ ، فإطلاقُ اسمِ الإسلامِ على التسليمِ الظاهرِ عندَ عدمِ تسليمِ الباطنِ مطابقٌ للسانِ ، وعلىٰ هٰذا الوجهِ جرىٰ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ ، وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : في حديث سعد : « أوْ مسلمٌ » ؛ لأنَّهُ فضَّلَ أحدَهُما على الآخرِ ، ويريدُ بالاختلافِ تفاضلَ المسمَّيينِ .

وأمَّا التداخلُ : فموافقٌ أيضاً للغةِ في خصوصِ الإيمانِ ، وهوَ أنْ يُجعلَ الإسلامُ عبارةً عنِ التسليمِ بالقلبِ والقولِ والعملِ جميعاً ، والإيمانُ عبارةٌ عنْ بعضِ ما دخلَ في الإسلامِ ، وهوَ التصديقُ بالقلبِ ، وهوَ الذي عنيناهُ بالتداخلِ ، وهوَ موافقٌ للغةِ في خصوصِ الإيمانِ وعمومِ الإسلامِ للكلِّ ، وعلىٰ هٰذا خُرِّجَ قولُهُ : « الإيمانُ » ، في جوابِ قولِ السائلِ : أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟ لأنَّهُ جعلَ الإيمانَ خصوصاً مِنَ الإسلامِ ، فأدخلَهُ فيهِ .

وأمَّا استعمالُهُ علىٰ سبيلِ الترادفِ : بأنْ يُجعلَ الإسلامُ عبارةً على التسليمِ بالقلبِ والظاهرِ جميعاً ، فإنَّ كلَّ ذلكَ تسليمٌ ، وكذا الإيمانُ ، ويكونُ التصرُّفُ في الإيمانِ على الخصوصِ بتعميمِهِ وإدخالِ الظاهرِ في معناهُ ، وهوَ جائزٌ ؛ لأنَّ تسليمَ الظاهرِ بالقولِ والعملِ ثمرةُ تصديقِ الباطنِ ونتيجتُهُ .

وقدْ يُطلقُ اسمُ الشجرِ ويُرادُ بهِ الشجرُ معَ ثمرِهِ علىٰ سبيلِ التسامحِ ، فيصيرُ بهٰذا القدْرِ مِنَ التعميمِ مرادفاً لاسمِ الإسلامِ ومطابقاً لهُ ، فلا يزيدُ عليهِ ولا ينقصُ ، وعليهِ خُرِّجَ قولُهُ : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

البحث الثّالث : عن الحكم الشّرعيّ

وللإسلامِ والإيمانِ حكمانِ ؛ أخرويٌّ ودنيويٌّ :

أمَّا الأخرويُّ : فهوَ الإخراجُ مِنَ النارِ ، ومنعُ التخليدِ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ »[1] .

وقدِ اختلفوا في أنَّ هٰذا الحكمَ علىٰ ماذا يترتَّبُ ، وعبَّروا عنهُ بأنَّ الإيمانَ ماذا ؟

فمنْ قَائلٍ يقولُ : إنَّهُ مجرَّدُ العقْدِ[2] ، ومِنْ قائلٍ يقولُ : إنَّهُ عقْدٌ بالقلبِ وشهادةٌ باللسانِ[3] ، ومِنْ قائلٍ يزيدُ ثالثاً ، وهوَ العملُ بالأركانِ[4] .

---

(١) رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٣) ، والترمذي (٢٥٩٨) واللفظ له .

(٢) كما هو مختار الأشاعرة ، وبه قال الماتريدية . « إتحاف » (٢/ ٢٤١) .

(٣) وهو منقول عن الإمام أبي حنيفة ، ومشهور أصحابه ، وعن بعض المحققين من الأشاعرة . « إتحاف » (٢/ ٢٤١) .

(٤) وهٰذا هو قول الخوارج ، وهٰذا جرَّهم لتكفير صاحب الذنب مطلقاً ؛ لعدم تصور واسطة بين الكفر والإيمان . « إتحاف » (٢/ ٢٤٢) بتصرف .

ونحنُ نكشفُ الغطاءَ عنهُ ونقولُ : مَنْ جمعَ بينَ هـٰذهِ الثلاثِ . . فلا خلافَ في أنَّ مستقرَّهُ الجنَّةُ ، وهـٰذهِ درجةٌ .

❁ ❁ ❁

والدرجةُ الثانيةُ : أنْ يوجدَ اثنانِ وبعضُ الثالثِ ، وهوَ القولُ والعقْدُ وبعضُ الأعمالِ ، ولكنِ ارتكبَ صاحبُهُ كبيرةً أوْ بعضَ الكبائرِ ؛ فعندَ هـٰذا قالتِ المعتزلةُ : خرجَ بهـٰذا عنِ الإيمانِ ولمْ يدخلْ في الكفْرِ ، بلِ اسمُهُ فاسقٌ ، وهوَ علىٰ منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، وهوَ مخلَّدٌ في النارِ ، وهـٰذا باطلٌ كما سنذكرُهُ .

❁ ❁ ❁

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يوجدَ التصديقُ بالقلبِ والشهادةُ باللسانِ دونَ الأعمالِ بالجوارحِ ، وقدِ اختلفوا في حكمِهِ .

فقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : العملُ بالجوارحِ مِنَ الإيمانِ ولا يتمُّ دونَهُ ، وادَّعَى الإجماعَ فيهِ ، واستدلَّ بأدلَّةٍ تشعرُ بنقيضِ غرضِهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ؛ إذْ هـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ العملَ وراءَ الإيمانِ لا مِنْ نفْسِ الإيمانِ ، وإلاَّ . . فيكونُ العملُ في حكمِ المعادِ .

والعجبُ أنَّهُ ادَّعَى الإجماعَ في هـٰذا ، وهوَ معَ ذلكِ ينقلُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يكفُرُ أحدٌ إلاَّ بجحودِهِ لما أقرَّ بهِ »[1] ، وينكرُ على

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٣٠) .

المعتزلةِ قولَهُمْ بالتخليدِ في النارِ بسببِ الكبائرِ ![1] .

والقائلُ بهـٰذا قائلٌ بعينِ مذهبِ المعتزلةِ ، إذْ يُقالُ لهُ : مَنْ صدَّقَ بقلبِهِ وشهدَ بلسانِهِ وماتَ في الحالِ . . فهلْ هوَ في الجنَّةِ ؟ فلا بدَّ أنْ يقولَ : نعمْ ، وفيهِ حكمٌ بوجودِ الإيمانِ دونَ العملِ ، فنزيدُ ونقولُ : لوْ بقيَ حيّاً حتَّىٰ دخلَ عليهِ وقتُ صلاةٍ واحدةٍ فتركَها ثمَّ ماتَ ، أوْ زنىٰ ثمَّ ماتَ . . فهلْ يخلدُ في النارِ ؟ فإنْ قالَ : نعمْ . . فهوَ مرادُ المعتزلةِ ، وإنْ قالَ : لا . . فهوَ تصريحٌ بأنَّ العملَ ليسَ ركناً مِنْ نفسِ الإيمانِ ، ولا شرطاً في وجودِهِ ، ولا في استحقاقِ الجنَّةِ بهِ .

وإنْ قالَ : أردتُ بهِ أنْ يعيشَ مدَّةً طويلةً ولا يصلِّي ولا يقدِمُ علىٰ شيءٍ مِنَ الأعمالِ الشرعيةِ . . قلنا : فما ضبطُ تلكَ المدَّةِ ؟ وما عددُ تلكَ الطاعاتِ التي بتركِها يبطلُ الإيمانُ ؟ وما عددُ الكبائرِ التي بارتكابِها يبطلُ الإيمانُ ؟

وهـٰذا لا يمكنُ التحكُّمُ بتقديرِهِ ، ولمْ يصرْ إليهِ صائرٌ أصلاً .

* * *

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يوجدَ التصديقُ بالقلبِ ، فقبلَ أنْ ينطقَ باللسانِ أوْ يشتغلَ بالأعمالِ ماتَ ، فهلْ نقولُ : ماتَ مؤمناً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ؟[2] .

وهـٰذا ممَّا اختُلفَ فيهِ ، ومَنْ شَرطَ القولَ لتمامِ الإيمانِ . . يقولُ : هـٰذا

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣٠ـ١٣١) .
(٢) بناءً علىٰ أن التصديق القلبي كافٍ في مفهوم الإيمان . « إتحاف » (٢/ ٢٤٥) .

ماتَ قبلَ الإيمانِ ، وهوَ فاسدٌ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ »[1] ، وهٰذا قلبُهُ طافحٌ بالإيمانِ ، فكيفَ يخلدُ في النارِ ولمْ يُشترَطْ في حديثِ جبريلَ عليهِ السلامُ للإيمانِ إلاَّ التصديقُ باللهِ تعالىٰ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخِرِ كما سبقَ ؟!

* * *

الدرجةُ الخامسةُ : أنْ يصدِّقَ بالقلبِ ، ويساعدَهُ مِنَ العمرِ مهلةُ النطْقِ بكلمتي الشهادةِ ، وعَلِمَ وجوبَها ، ولكنَّهُ لمْ يَنطِقْ بها ؛ فيُحتمَلُ أنْ يُجعلَ امتناعُهُ عَنِ النطقِ كامتناعِهِ عَنِ الصلاةِ ، ونقولُ : هوَ مؤمنٌ غيرُ مخلَّدٍ في النارِ ، والإيمانُ هوَ التصديقُ المحضُ ، واللسانُ ترجمانُ الإيمانِ ، فلا بدَّ أنْ يكونَ الإيمانُ موجوداً بتمامِهِ قبلَ اللسانِ حتَّىٰ يترجمَهُ اللسانُ ، وهٰذا هوَ الأظهرُ ؛ إذْ لا مستندَ إلا اتباعُ موجَبِ الألفاظِ ووضْعُ اللسانِ أنَّ الإيمانَ هوَ عبارةٌ عَنِ التصديقِ بالقلبِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَخرجُ مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ » ، ولا ينعدمُ الإيمانُ مِنَ القلبِ بالسكوتِ عنِ النطقِ الواجبِ ، كما لا ينعدمُ بالسكونِ عنِ الفعلِ الواجبِ .

وقالَ قائلونَ : القولُ ركنٌ ؛ إذْ ليسَ كلمتا الشهادةِ إخباراً عَنِ القلبِ ، بلْ هوَ إنشاءُ عقْدٍ آخرَ وابتداءُ شهادةٍ والتزامٍ ، والأوَّلُ أظهرُ .

وقدْ غلا في هٰذا طائفةُ المرجئةِ فقالوا : هٰذا لا يدخلُ النارَ أصلاً ،

---

(١) رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٤) ، والترمذي (٢٥٩٨) واللفظ له .

وقالوا : إنَّ المؤمنَ وإنْ عصىٰ فلا يدخلُ النارَ[١] ، وسنبطلُ ذلكَ عليهِمْ .

* * *

الدرجةُ السادسةُ : أنْ يقولَ بلسانِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ) ، ولكنْ لمْ يصدِّقْ بقلبِهِ ، فلا نشكُّ في أنَّ هـٰذا في حكمِ الآخرةِ مِنَ الكفَّارِ ، وأنَّهُ مخلَّدٌ في النارِ ، ولا نشكُّ في أنَّهُ في حكمِ الدنيا الذي يتعلَّقُ بالأئمَّةِ والولاةِ . . مِنَ المسلمينَ ؛ لأنَّ قلبَهُ لا يُطَّلَعُ عليهِ ، وعلينا أنْ نظنَّ بهِ أنَّهُ ما قالَهُ بلسانِهِ إلا وهوَ منطوٍ عليهِ في قلبِهِ ، وإنَّما نشكُّ في أمرٍ ثالثٍ ، وهوَ الحكمُ الدنيويُّ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ بأنْ يموتَ لهُ في هـٰذهِ الحالِ قريبٌ مسلِمٌ ثمَّ يصدِّقُ بعدَ ذلكَ بقلبِهِ ، ثمَّ يَستفتي ويقولُ : كنتُ غيرَ مصدِّقٍ بالقلبِ حالةَ الموتِ ، والميراثُ الآنَ في يدي ، فهلْ يحلُّ لي بيني وبينَ اللهِ تعالىٰ ؟ أوْ نكحَ مسلمةً ثمَّ صدَّقَ بقلبِهِ هلْ يلزمُهُ إعادةُ النكاحِ ؟

هـٰذا في محلِّ النظرِ ؛ فيحتملُ أنْ يُقالَ : أحكامُ الدنيا منوطةٌ بالقولِ الظاهرِ ظاهراً وباطناً ، ويحتملُ أنْ يُقالَ : تناطُ بالظاهرِ في حقِّ غيرِهِ ؛ لأنَّ باطنَهُ غيرُ ظاهرٍ لغيرِهِ ، وباطنُهُ ظاهرٌ لهُ في نفسِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

والأظهرُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ أنَّهُ لا يحلُّ لهُ ذلكَ الميراثُ ، ويلزمُهُ إعادةُ النكاحِ ، ولذلكَ كانَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ لا يحضرُ جنازةَ مَنْ يموتُ مِنَ المنافقينَ ، وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يراعي ذلكَ منهُ ، فلا يحضرُ إذا لمْ

---

(١) واشتهر قول هـٰؤلاء : لا يضرُّ مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

يحضرْ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ[١] ، والصلاةُ فعلٌ ظاهرٌ في الدنيا وإنْ كانَ في العباداتِ ، والتوقي عَنِ الحرامِ أيضاً مِنْ جملةِ ما يجبُ للهِ ؛ كالصلاةِ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضةِ »[٢] .

وليسَ هـٰذا مناقضاً لقولنا : إنَّ الإرثَ حكمُ الإسلامِ ، وهوَ الاستسلامُ ، بلِ الاستسلامُ التامُّ هوَ ما يشملُ الظاهرَ والباطنَ .

وهـٰذهِ مباحثُ فقهيةٌ ظنيَّةٌ ، تُبنىٰ علىٰ ظواهرِ الألفاظِ والعموماتِ والأقيسةِ ، فلا ينبغي أنْ يظنَّ القاصرُ في العلومِ أنَّ المطلبَ فيهِ القطعُ مِنْ حيثُ جرتِ العادةُ بإيرادِهِ في فنِّ الكلامِ الذي يُطلبُ فيهِ القطعُ ، فما أفلحَ مَنْ نظرَ إلى العاداتِ والمراسمِ في العلومِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما شبهةُ المعتزلةِ والمرجئةِ ؟ وما حجَّةُ بطلانِ قولِهِمْ ؟

فأقولُ : شبهتُهُمْ عموماتُ القرآنِ :

أما المرجئةُ . . فقالوا : لا يدخلُ المؤمنُ النارَ وإنْ أتىٰ بكلِّ المعاصي ؛ لقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ .

ولقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ الآيةَ .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا

---

(١) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٧٦) بنحوه .
(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/ ٧٤) .

﴿نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ، فقولُهُ : ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ﴾ عامٌّ ، فينبغي أنْ يكونَ كلُّ مَنْ أُلقيَ فيها مكذِّباً .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ، وهـٰذا حصرٌ ، وإثباتٌ ونفيٌ .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ ، والإيمانُ رأسُ الحسناتِ .

ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ .

ولا حجَّةَ لهمْ في ذلكَ ؛ فإنَّهُ حيثُ ذُكرَ الإيمانُ في هـٰذهِ الآياتِ أُريدَ بهِ الإيمانُ معَ العملِ ؛ إذْ بيَّنَّا أنَّ الإيمانَ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ الإسلامُ ، وهوَ الموافقةُ بالقلبِ والقولِ والعملِ .

ودليلُ هـٰذا التأويلِ أخبارٌ كثيرةٌ في معاقبةِ العاصينَ ومقاديرِ العقابِ ، وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ » ، فكيفَ يخرجُ إذا لمْ يدخلْ ؟

ومِنَ القرآنِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ، والاستثناءُ بالمشيئةِ يدلُّ على الانقسامِ(١) .

---

(١) أي : إلىٰ صغيرة وكبيرة ، ففيه تجويز العقاب على الصغيرة ، سواء اجتنب مرتكبها الكبيرة أم لا ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ ، والإحصاء إنما يكون للسؤال والجزاء . « إتحاف » (٢/ ٢٥١) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ ، وتخصيصُهُ بالكفرِ تحكُّمٌ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾ .

فهٰذهِ العموماتُ في معارضةِ عموماتِهِمْ ، ولا بدَّ مِنْ تسليطِ التخصيصِ والتأويلِ على الجانبينِ ؛ لأنَّ الأخبارَ مصرحةٌ بأنَّ العصاةَ يُعذَّبونَ[1] ، بلْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ كالصريحِ في أنَّ ذلكَ لا بدَّ منهُ للكلِّ ؛ إذْ لا يخلو مؤمنٌ عَنْ ذنبٍ يرتكبُهُ[2] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ أرادَ بهِ مِنْ جماعةٍ مخصوصينَ ، أو أرادَ بالأشقىٰ شخصاً معيَّناً أيضاً .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي : فوجٌ مِنَ الكفَّارِ .

وتخصيصُ العموماتِ قريبٌ ، ومنْ هٰذهِ الآيةِ وقعَ للأشعريِّ وطائفةٍ مِنَ

---

(١) كما روى البخاري (٧٤٥٠) مرفوعاً : « ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبةً ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته ، يقال لهم : الجهنميون » .

(٢) وورود الصراط هو ورود النار لكل أحد ، وبهٰذا فسَّرَ الآيةَ ابنُ مسعود والحسن وقتادة ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، وبعضهم فسر الورود بالدخول ، كما في حديث جابر رفعه وزاد : « لا يبقىٰ بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت علىٰ إبراهيم ، حتىٰ إن للنار لضجيجاً من بردهم ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ الآية » ، رواه أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلىٰ والنسائي في « الكنىٰ » والبيهقي وغيرهم ، وهو حسن . « إتحاف » (٢ / ٢٥١) .

المتكلمينَ إنكارُ صيغِ العمومِ ، وأنَّ هٰذهِ الألفاظَ يتوقَّفُ فيها إلىٰ أنْ تردَ قرينةٌ تدلُّ علىٰ معناها .

* * *

وأما المعتزلةُ : فشبهتُهُمْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ، ثمَّ قال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ .

وكلُّ آيةٍ ذُكرَ العملُ الصالحُ مقروناً فيها بالإيمانِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ .

وهٰذهِ العموماتُ أيضاً مخصوصةٌ ؛ بدليلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ، فينبغي أنْ تبقىٰ لهُ مشيئةٌ في مغفرةِ ما سوى الشركِ .

وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ فِي قلبهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ »(١) .

---

(١) رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٤) ، والترمذي (٢٥٩٨) واللفظ له .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فكيفَ يضيعُ أجرُ أصلِ الإيمانِ وجميعِ الطاعاتِ بمعصيةٍ واحدةٍ ؟!

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ أيْ : لإيمانِهِ ، وقدْ وردَ علىٰ مثلِ هٰذا السببِ[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ مالَ الاختيارُ إلىٰ أنَّ الإيمانَ حاصلٌ دونَ العملِ ، وقدِ اشتهرَ عنِ السلفِ قولُهُمْ : (الإيمانُ عقْدٌ وقولٌ وعملٌ) ، فما معناهُ ؟

قلنا : لا يبعدُ أنْ يُعَدَّ العملُ مِنَ الإيمانِ ؛ لأنَّهُ مكمِّلٌ لهُ ومتمِّمٌ ، كما يُقالُ : الرأسُ واليدانِ مِنَ الإنسانِ ، ومعلومٌ أنَّهُ يخرجُ عنْ كونِهِ إنساناً بعدمِ الرأسِ ، ولا يخرجُ عنهُ بكونِهِ مقطوعَ اليدِ ، وكذلكَ يُقالُ : التسبيحاتُ والتكبيراتُ مِنَ الصلاةِ وإنْ كانتْ لا تبطلُ بفقدِها .

فالتصديقُ بالقلبِ مِنَ الإيمانِ كالرَّأسِ مِنْ وجودِ الإنسانِ ؛ إذْ ينعدمُ بعدمِهِ ، وبقيةُ الطاعاتِ كالأطرافِ ، وبعضُها أعلىٰ مِنْ بعضٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[2] ، والصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ ما اعتقدوا مذهبَ المعتزلةِ في الخروجِ عَنِ الإيمانِ

---

(١) وقد نزلت في رجل ارتدَّ بعد قبوله دية أخيه ، ثم قتل قاتله وفرَّ إلىٰ مكة ، فكانت ردَّته سبب خلوده في جهنم أبداً . انظر « الدر المنثور » (٢/ ٦٢٢) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

بالزنا ، ولكنْ معناهُ : غيرُ مؤمنٍ حقّاً إيماناً تامّاً كاملاً ؛ كما يُقالُ للعاجزِ المقطوعِ الأطرافِ : هـٰذا ليسَ بإنسانٍ ؛ أيْ : ليسَ لهُ الكمالُ الذي هوَ وراءَ حقيقةِ الإنسانيةِ[1] .

مَسْأَلَةٌ

[في زيادةِ الإيمانِ ونقصانِهِ]

فإنْ قلتَ : فقدِ اتفقَ السلفُ علىٰ أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ ؛ يزيدُ بالطاعةِ ، وينقصُ بالمعصيةِ ، فإذا كان التصديقُ هوَ الإيمانَ . . فلا يُتصوَّرُ فيهِ زيادةٌ ولا نقصانٌ .

فأقولُ : السلفُ همُ الشهودُ العدولُ ، وما لأحدٍ عَنْ قولِهِمْ عُدولٌ ، فما ذكروهُ حقٌّ ، وإنَّما الشأنُ في فهمِهِ ، وفيهِ دليلٌ علىٰ أنَّ العملَ ليسَ مِنْ أجزاءِ الإيمانِ وأركانِ وجودِهِ ، بلْ هوَ مزيدٌ عليهِ يزيدُ بهِ ، والزائدُ موجودٌ ، والناقصُ موجودٌ ، والشيءُ لا يزيدُ بذاتِهِ ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ : الإنسانُ يزيدُ برأسِهِ ، بلْ يقالُ : يزيدُ بلحيتِهِ وسِمَنِهِ ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ : الصلاةُ تزيدُ بالركوعِ والسجودِ ، بلْ تزيدُ بالآدابِ والسننِ .

---

(١) قال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/ ١٣٢) معلقاً على الحديث المذكور : (وفيه معنىً لطيف ، كأنه يرتفع عنه إيمان الحياء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء من الإيمان » ، والمستحي لا يكشف عورته علىٰ حرام ، ويبقىٰ إيمان الإسلام والتوحيد وإيجاب الأحكام) .

فهٰذا تصريحٌ بأنَّ الإيمانَ لهُ وجودٌ ، ثمَّ بعدَ الوجودِ يختلفُ حالُهُ بالزيادةِ والنقصانِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فالإشكالُ قائمٌ في أنَّ التصديقَ كيفَ يزيدُ وينقصُ وهوَ خصلةٌ واحدةٌ ؟

فأقولُ : إذا تركنا المداهنةَ ولمْ نكترثْ بتشغيبِ مَنْ تشغَّبَ وكشفْنا الغطاءَ . . ارتفعَ الإشكالُ ؛ فنقولُ : الإيمانُ اسمٌ مشتركٌ يُطلقُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : أنَّهُ يُطلقُ للتصديقِ بالقلبِ علىٰ سبيلِ الاعتقادِ والتقليدِ مِنْ غيرِ كشْفٍ وانشراحِ صدْرٍ ، وهوَ إيمانُ العوامِّ ، بلْ إيمانُ الخلْقِ كلِّهِمْ إلا الخواصَّ .

وهٰذا الاعتقادُ عقدةٌ على القلبِ ، تارةً تشتدُّ وتقوىٰ ، وتارةً تضعفُ وتسترخي ؛ كالعقدةِ على الخيطِ مثلاً .

ولا تستبعدْ هٰذا ، واعتبرْهُ باليهوديِّ في صلابتِهِ في عقيدتِهِ التي لا يمكنُ نزوعُها منهُ بتخويفٍ وتحذيرٍ ، ولا تخييلٍ ووعظٍ ، ولا تحقيقٍ وبرهانٍ ، وكذلكَ النصرانيُّ والمبتدعةُ ، وفيهِمْ مَنْ يمكنُ تشكيكُهُ بأدنىٰ كلامٍ ، ويمكنُ استنزالُهُ عنِ اعتقادِهِ بأدنى استمالةٍ أوْ تخويفٍ ، معَ أنَّهُ غيرُ شاكٍّ في عقدِهِ كالأوَّلِ ، ولكنَّهُما متفاوتانِ في شدَّةِ التصميمِ ، وهٰذا موجودٌ في الاعتقادِ الحقِّ أيضاً .

والعملُ يؤثِّرُ في نماءِ هـٰذا التصميمِ وزيادتِهِ كما يؤثِّرُ سَقْيُ الماءِ في نماءِ الأشجارِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ : « الإيمانُ يزيدُ وينقصُ »[1] ، وذلكَ بتأثيرِ الطاعاتِ في القلبِ ، وهـٰذا لا يدركُهُ إلا مَنْ راقبَ أحوالَ نفسِهِ في أوقاتِ المواظبةِ على العبادةِ والتجرُّدِ لها بحضورِ القلبِ معَ أوقاتِ الفتورِ وإدراكِ التفاوتِ في السكونِ إلىٰ عقائدِ الإيمانِ في هـٰذهِ الأحوالِ حتَّىٰ يزيدَ عقدُهُ استعصاءً علىٰ مَنْ يريدُ حلَّهُ بالتشكيكِ ، بلْ مَنْ يعتقدُ في اليتيمِ معنى الرحمةِ إذا عملَ بموجَبِ اعتقادِهِ ، فمسحَ رأسَهُ وتلطَّفَ بهِ . . أدركَ مِنْ باطنِهِ تأكُّدَ الرحمةِ وتضاعفَها بسببِ العملِ ، وكذلكَ معتقدُ التواضعِ إذا عملَ بموجَبِهِ مقبِّلاً أوْ ساجداً لغيرِهِ . . أحسَّ مِنْ قلبِهِ بالتواضعِ عندَ إقدامِهِ على الخدمةِ .

وهكذا جميعُ صفاتِ القلبِ تصدرُ منها أعمالُ الجوارحِ ، ثمَّ يعودُ أثرُ الأعمالِ عليها فيؤكِّدُها ويزيدُها ، وسيأتي هـٰذا في ربْعِ المنجياتِ والمهلكاتِ عندَ بيانِ وجهِ تعلُّقِ الباطنِ بالظاهرِ ، والأعمالِ بالعقائدِ والقلوبِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ جنسِ تعلُّقِ المُلْكِ بالملكوتِ ، وأعني بالمُلْكِ عالَمَ الشهادةِ المدركَ بالحواسِّ ، وأعني بالملكوتِ عالَمَ الغيبِ المدركَ بنورِ

(١) رواه ابن ماجه (٧٥) من قول ابن عباس وأبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهم .

البصيرةِ ، والقلبُ من عالمِ الملكوتِ ، والأعضاءُ وأعمالُها مِنْ عالمِ المُلكِ ، ولطْفُ الارتباطِ ودقتُهُ بينَ العالمينِ انتهىٰ إلىٰ حدٍّ ظنَّ بعضُ الناسِ اتحادَ أحدِهِما بالآخرِ ، وظنَّ آخرونَ أنَّهُ لا عالمَ إلا عالمُ الشهادةِ ، وهوَ هٰذهِ الأجسامُ المحسوسةُ ، ومَنْ أدركَ الأمرينِ وأدركَ تعدُّدَهُما ثمَّ ارتباطَهُما . . عبَّرَ عنهُ وقالَ[1] : [من الكامل]

رَقَّ الزُّجاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ فَتَشابَها فَتَشاكَلَ ٱلأَمْرُ

فَكَأَنَّما خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ وَكَأَنَّما قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

ولنرجعْ إلى المقصودِ ، فإنَّ هٰذا اعترضَ خارجاً عنْ علمِ المعاملةِ ، ولكنْ بينَ العلمينِ أيضاً اتصالٌ وارتباطٌ ، فلذلكَ ترىٰ علومَ المكاشفةِ تتسلَّقُ كلَّ ساعةٍ علىٰ علومِ المعاملةِ إلىٰ أنْ تكفَّ عنها بالتكلُّفِ .

فهٰذا وجهُ زيادةِ الإيمانِ بالطاعةِ بموجَبِ هٰذا الإطلاقِ ، ولهٰذا قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إنَّ الإيمانَ ليبدو لمعةً بيضاءَ ، فإذا عملَ العبدُ الصالحاتِ . . نمتْ فزادتْ حتَّىٰ يبيضَّ القلبُ كلُّهُ ، وإنَّ النفاقَ ليبدو نكتةً سوداءَ ، فإذا انتهكَ الحرماتِ . . نمتْ وزادتْ حتَّىٰ يسودَّ القلبُ كلُّهُ ، فيُطبعَ علىٰ قلبِهِ ، فذلكَ الختمُ) ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ الآيةَ[2] .

---

(١) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٣٥) ، وبنحوه رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٧) .

الإطلاقُ الثاني : أنْ يُرادَ بهِ التصديقُ والعملُ جميعاً ؛ كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإيمَانُ بضْعٌ وسبعونَ بَاباً »[(١)] ، وكما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[(٢)] .

وإذا دخلَ العملُ في مقتضىٰ لفظِ الإيمانِ . . لمْ تخفَ زيادتُهُ ونقصانُهُ ، وهلْ يؤثِّرُ ذلكَ في زيادةِ الإيمانِ الذي هوَ مجرَّدُ التصديقِ ؟ هـٰذا فيهِ نظرٌ ، وقدْ أشرنا إلىٰ أنَّهُ يؤثِّرُ فيهِ .

الإطلاقُ الثالثُ : أنْ يُرادَ بهِ التصديقُ اليقينيُّ علىٰ سبيلِ الكشْفِ وانشراحِ الصدْرِ والمشاهدةِ بنورِ البصيرةِ ، وهـٰذا أبعدُ الأقسامِ عنْ قبولِ الزيادةِ .

ولكنِّي أقولُ : الأمرُ اليقينيُّ الذي لا شكَّ فيهِ تختلفُ طمأنينةُ النفسِ إليهِ ، فليسَ طمأنينةُ النفسِ إلىٰ أنَّ الاثنينِ أكثرُ منَ الواحدِ كطمأنينتِها إلىٰ أنَّ العالمَ مصنوعٌ حادثٌ ، وإنْ كانَ لا شكَّ في واحدٍ منهما ؛ فإنَّ اليقينياتِ تختلفُ في درجاتِ الإيضاحِ ، ودرجاتِ طمأنينةِ النفسِ إليها .

وقدْ تعرضْنا لهـٰذا في فصلِ اليقينِ مِنْ كتابِ العلمِ ، في بابِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ .

وقدْ ظهرَ في جميعِ الإطلاقاتِ أنَّ ما قالوهُ مِنْ زيادةِ الإيمانِ ونقصانِهِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٤) بلفظه ، وبلفظ : « شعبة » بدل « باباً » عند البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

حقٌّ ، وكيفَ لا وفي الأخبارِ أنَّهُ « يخرجُ منَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الإيمانِ » ، وفي بعضِ المواضعِ في خبرٍ آخرَ : « مثقالُ دينارٍ »[1] ، فأيُّ معنىً لاختلافِ مقاديرِهِ إنْ كانَ ما في القلبِ لا يتفاوتُ ؟!

مَسْأَلَةٌ

[قوله : أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ]

فإنْ قلتَ : ما وجهُ قولِ السلفِ : (أنا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ) ، والاستثناءُ شكٌّ ، والشكُّ في الإيمانِ كفرٌ ، وقدْ كانوا كلُّهمْ يمتنعونَ عنْ جزمِ الجوابِ بالإيمانِ ويحترزونَ عنهُ ، فقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ قالَ : أنا مؤمنٌ عندَ اللهِ . . فهوَ مِنَ الكذَّابينَ ، ومَنْ قالَ : أنا مؤمنٌ حقّاً . . فهوَ بدعةٌ)[2] ، فكيفَ يكونُ كاذباً وهوَ يعلمُ أنَّهُ مؤمنٌ في نفسِهِ ، ومَنْ كانَ مؤمناً في نفسِهِ . . كانَ مؤمناً عندَ اللهِ ، كما أنَّ مَنْ كانَ طويلاً أوْ سخياً في نفسِهِ وعلمَ ذلكَ . . كانَ كذلكَ عندَ اللهِ ، وكذا مَنْ كانَ مسروراً أوْ حزيناً أوْ سميعاً أوْ بصيراً .

ولوْ قيلَ للإنسانِ : هلْ أنتَ حيوانٌ . . لمْ يحسنْ أنْ يقولَ : أنا حيوانٌ إنْ شاءَ اللهُ .

---

(١) كما في « البخاري » (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٣٧) .

ولمَّا قالَ سفيانُ ذلكَ . . قيلَ لهُ : فماذا نقولُ ؟ قالَ : (قولوا : آمنَّا باللهِ وما أنزلَ إلينا) ، وأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يقولَ : (آمنَّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا) وبينَ أنْ يقولَ : (أنا مؤمنٌ) ؟

وقيلَ للحسنِ : أمؤمنٌ أنتَ ؟ فقال : إنْ شاءَ اللهُ ، فقيلَ لهُ : تستثني يا أبا سعيد في الإيمانِ ؟! فقالَ : أخافُ أنْ أقولَ : نعمْ . . فيقولَ اللهُ : كذبتَ يا حسنُ ، فتحقَّ عليَّ الكلمةُ ، وكانَ يقولُ : (ما يؤمنني أنْ يكونَ اللهُ سبحانَهُ قدِ اطلعَ عليَّ في بعضِ ما يكرَهُ فمقتَني وقالَ : اذهبْ لا قبلتُ لكَ عملاً ، فأنا أعملُ في غيرِ معملٍ)[١] .

وقالَ إبراهيمُ[٢] : (إذا قيلَ لكَ : أمؤمنٌ أنتَ ؟ فقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ)[٣] ، وقالَ مرَّةً : (قلْ : أنا لا أشكُّ في الإيمانِ وسؤالُكَ إيايَ بدعةٌ)[٤] .

وقيلَ لعلقمةَ : أمؤمنٌ أنتَ ؟ قالَ : أرجو إنْ شاءَ اللهُ[٥] .

وقالَ الثوريُّ : (نحنُ مؤمنونَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وما ندري

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .
(٢) ابن يزيد النخعي فقيه الكوفة ، وليس هو بابن أدهم . « إتحاف » (٢/ ٢٦٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

ما نحنُ عندَ اللهِ تعالىٰ)[1] ، فما معنىٰ هـٰذهِ الاستثناءاتِ ؟[2] .

فالجوابُ : أنَّ هـٰذا الاستثناءَ صحيحٌ ، ولهُ أربعةُ أوجهٍ : وجهانِ مستندانِ إلىٰ شكٍّ لا في أصلِ الإيمانِ ولكنْ في خاتمتِهِ أوْ كمالِهِ ، ووجهانِ لا يستندانِ إلى الشكِّ .

الوجهُ الأوّلُ الذي لا يستندُ إلىٰ معارضةِ الشكِّ : الاحترازُ منَ الجزْمِ خيفةَ ما فيهِ منْ تزكيةِ النفسِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، وقالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

(٢) وكما ثبت عند فريق هـٰذه الاستثناءات عن السلف الصالح . . ثبت ردُّها عنهم كذلك عند فريق آخر ، وهم عامة الحنفية ، فمن ذلك ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أخرج شاة لتذبح ، فمر به رجل ، فقال له ابن عمر : أمؤمن أنت ؟ قال : نعم إن شاء الله ، قال : لا يذبح نسيكتي من يشك في إيمانه ، ونقل عن عطاء أنه كان ينكر علىٰ من يستثني في إيمانه ، ونقل عن ابن مسعود رضي الله عنه استغفاره من الاستثناء لما ناظر صاحباً لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، وغيرها الكثير .
وقد يكون ما دعا المصنف رحمه الله تعالىٰ لتفصيل القول في هـٰذه المسألة أحسن تفصيل مبتغياً نهج السبيل . . هو تعصب بعض الحنفية لدعواهم ، ورميهم مخالفيهم بالتكفير والتضليل ، والمسألة ـ كما قال تقي الدين السبكي ـ فرعية لا ينبنىٰ عليها هـٰذا الخلاف الشديد .
قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢/ ٢٦٥) : (ولعلمائنا الحنفية في هـٰذا المبحث كلام طويل ، تركته لما في أكثره من نسبة التكفير والتضليل والتحريم إلىٰ قائله ، فلم أستحسن إيراده) . وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٢٨١) .

وقيلَ لحكيمٍ : ما الصدقُ القبيحُ ؟ فقالَ : ثناءُ المرءِ علىٰ نفسِهِ .

والإيمانُ مِنْ أعلىٰ صفاتِ المجدِ ، والجزمُ بهِ تزكيةٌ مطلقةٌ ، وصيغةُ الاستثناءِ كأنَّها نقلٌ مِنْ عُرْفِ التزكيةِ[١] ؛ كما يُقالُ للإنسانِ : أنتَ طبيبٌ ، أوْ فقيهٌ ، أوْ مفسِّرٌ ؟ فيقولُ : نعمْ إنْ شاءَ اللهُ ، لا في معرضِ التشكيكِ ، ولكنْ لإخراجِ نفسِهِ عنْ تزكيةِ نفسِهِ .

فالصيغةُ صيغةُ الترديدِ والتضعيفِ لنفسِ الخبرِ[٢] ، ومعناهُ التضعيفُ للازمٍ مِنْ لوازمِ الخبرِ ، وهوَ التزكيةُ ، وبهٰذا التأويلِ لوْ سُئلَ عنْ وصفِ ذمٍّ . . لمْ يحسنِ الاستثناءُ .

الوجهُ الثاني : التأدُّبُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ ، وإحالةُ الأمورِ كلِّها إلىٰ مشيئةِ اللهِ سبحانَهُ ، فقدْ أدَّبَ اللهُ سبحانَهُ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، ثمَّ لمْ يقتصرْ علىٰ ذلكَ فيما لا يشكُّ فيهِ ، بلْ قالَ : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ ، وكانَ اللهُ سبحانَهُ عالماً بأنَّهُمْ يدخلونَ لا محالةَ ، وأنَّهُ شاءَهُ ، ولكنِ المقصودُ تعليمُهُ ذلكَ ، فتأدَّبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ ما كانَ يخبرُ عنهُ ، معلوماً كانَ أوْ مشكوكاً ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا دخلَ المقابرَ : « السلامُ عليكُمْ دارَ

---

(١) في (ب) و(و) : (كأنها تفلٌّ من غَرْبِ التزكية) .

(٢) إذ موضوع (إن) في اللغة دخولها على المحتمل الذي هو الشك في قول ، وهو يلزم منه التضعيف لنفس الخبر .

قومٍ مؤمنينَ ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكُمْ لاحقونَ »[1] ، واللحوقُ بهِمْ غيرُ مشكوكٍ فيهِ ، ولكنْ مقتضى الأدبِ ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وربطُ الأمورِ بهِ ، وهٰذهِ الصيغةُ دالَّةٌ عليهِ[2] ، حتَّىٰ صارَ بعرفِ الاستعمالِ عبارةً عنْ إظهارِ الرغبةِ والتمني ، فإذا قيلَ لكَ : إنَّ فلاناً يموتُ سريعاً ، فتقولُ : إنْ شاءَ اللهُ . . فيفهمُ منهُ رغبتُكَ ، لا تشكُّكُكَ .

وإذا قيلَ لكَ : فلانٌ سيزولُ مرضُهُ ويصحُّ ، فتقولُ : إنْ شاءَ اللهُ ؛ بمعنى الرغبةِ . . فقدْ صارتِ الكلمةُ معدولةً عنْ معنى التشكيكِ إلىٰ معنى الرغبةِ ؛ فكذلكَ العدولُ إلىٰ معنى التأدُّبِ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ كيفَ كانَ الأمرُ .

الوجهُ الثالثُ : ومستندُهُ الشكُّ ، ومعناهُ : أنا مؤمنٌ حقّاً إنْ شاءَ اللهُ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ لقومٍ مخصوصينَ بأعيانِهِمْ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ، فانقسموا إلىٰ قسمينِ ، ويرجعُ هٰذا إلى الشكِّ في كمالِ الإيمانِ لا في أصلِهِ ، وكلُّ إنسانٍ شاكٌّ في كمالِ إيمانِهِ ، وذلكَ ليسَ بكفرٍ ، والشكُّ في كمالِ الإيمانِ حقٌّ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : مِنْ حيثُ إنَّ النفاقَ يُزيلُ كمالَ الإيمانِ ، وهوَ خفيٌّ لا تتحقَّقُ البراءةُ منهُ .

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩) .

(٢) أي : على التبرك والتأدب ، لكنه كله مستقبل ، وربط المستقبل بالشرط لا يستنكر . « إتحاف » (٢/ ٢٦٦) .

والثاني : أنَّهُ يكملُ بأعمالِ الطاعاتِ ، ولا يُدرىٰ وجودُها على الكمالِ .

أمَّا العملُ . . فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ، فيكونُ الشكُّ في هٰذا الصدقِ .

وكذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ، فشرطَ عشرينَ وصفاً ؛ كالوفاءِ بالعهدِ ، والصبرِ على الشدائدِ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسُهُ التقوىٰ » الحديثَ[1] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٣٨٣) من كلام وهب بن منبه ، وكذا ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨٩/٦٣) ، وقال أبو طالب في « القوت » (١٣٨/١) : (وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوري ، فرفعه إلىٰ عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم) ، وكذا هو عند الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٢٩ ـ ١٣٠) مرفوعاً وموقوفاً ، وقال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٣٥/٢) أيضاً : (وقد روينا في خبر « الإيمان عريان ، ولباسه التقوىٰ ، وحليته الورع ، وثمرته العلم » ، ففيه =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ باباً ، أدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ . . . » الحديثَ[١] .

فهٰذا ما يدلُّ على ارتباطِ كمالِ الإيمانِ بالأعمالِ .

وأمَّا ارتباطُهُ بالبراءةِ عنِ النفاقِ والشركِ الخفيِّ . . فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . فهوَ منافقٌ خالصٌ وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مؤمنٌ : مَنْ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا ائتُمِنَ . . خانَ ، وإذا خاصمَ . . فجرَ » ، وفي بعضِ الرواياتِ : « وإذا عاهدَ . . غدرَ »[٢] .

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجردُ وفيهِ سراجٌ يزهرُ ؛ فذلكَ قلبُ المؤمنِ[٣] ، وقلبٌ مُصَفَّحٌ فيهِ إيمانٌ ونفَاقٌ ؛ فمثلُ الإيمانِ فيهِ كمثلِ البقلةِ يمُدُّها الماءُ العذبُ ، ومثلُ النفاقِ فيهِ كمثلِ القرحةِ

= دليل أنَّ من لا تقوىٰ له فلا لبس لإيمانه ، ومن لا ورع له فلا زينة لإيمانه ، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه ، فإن اتفق فاسق ظالم جاهل كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين ، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب ويقينه إلى الشك أميل ، ولم يخرجه من اسم الإيمان إلا أن إيمانه عريان لا لبسة له ، معطل لا كسب له ، كما قال : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ ، والنفاق مقامات ، قيل : سبعون باباً ، والشرك مثل ذلك فيها طبقات) .

(١) رواه الترمذي (٢٦١٤) بلفظه ، وبلفظ : « شعبة » بدل « باباً » عند البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

(٢) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

(٣) **القلب الأجرد** : هو المجرد عن الظلمات ، ويزهر : يضيء ، وهو في « قوت القلوب » (٢/ ١٣٥) .

يمُدُّهَا القيحُ والصَّديدُ ، فأيُّ المادَّتينِ غلبَ عليهِ . . حُكِمَ لهُ بها » ، وفي لفظٍ آخرَ : « غلبتْ عليهِ . . ذَهَبَتْ بِهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ منافقي هٰذهِ الأمَّةِ قُرَّاؤُها »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « الشركُ أخفىٰ في أمتي مِنْ دبيبِ النملِ على الصفا »[3] .

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ الرجلُ يتكلمُ بالكلمةِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصيرُ بها منافقاً إلىٰ أنْ يموتَ ، وإنِّي لأسمعُها مِنْ أحدِكم في اليومِ عشرَ مرَّاتٍ)[4] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (أقربُ الناسِ مِنَ النفاقِ مَنْ يرىٰ أنَّهُ بريءٌ منهُ)[5] .

وقالَ حذيفةُ : (المنافقونَ اليومَ أكثرُ منهُمْ علىٰ عهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكانوا إذْ ذاكَ يُخْفُونَهُ وهمُ اليومَ يُظْهِرونَهُ)[6] .

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٧) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٢/ ١٧٥) ، **والمراد بالقرّاء** : الفقهاء ؛ أي : يضعون العلم في غير مواضعه ، يتعلمون العلم نفية للتهمة وهم معتقدون خلافه ، وكان المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم بهٰذه الصفة . « إتحاف » (٢/ ٢٧٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٢) ، والضياء في « المختارة » (٦٢) .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٥/ ٣٩٠) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٣٦) .
(٦) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٥٣١) ، وبنحوه عند البخاري (٧١١٣) .

وهـٰذا النفاقُ يضادُّ صدقَ الإيمانِ وكمالَهُ ، وهوَ خفيٌّ ، وأبعدُ الناسِ منهُ مَنْ يتخوَّفُهُ ، وأقربُهُمْ منهُ مَنْ يرىٰ أنَّهُ بريءٌ منهُ ؛ فقدْ قيلَ للحسنِ البصريِّ : يقولونَ : أنْ لا نفاقَ اليومَ ، فقالَ : يا أخي ؛ لوْ هلكَ المنافقونَ.. لاستوحشْتُمْ في الطرقِ(١) .

وقالَ هوَ أوْ غيرُهُ : (لوْ نبتَ للمنافقينَ أذنابٌ.. ما قدرْنا أنْ نطأَ على الأرضِ)(٢) .

وسمعَ ابنُ عمرَ رجلاً يتعرَّض للحَجَّاجِ فقالَ : أرأيتَ لوْ كانَ حاضراً يسمعُ : أكنتَ تتكلَّمُ فيهِ ؟ فقالَ : لا ، قالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ ذا لسانينِ في الدنيا.. جعلَهُ اللهُ ذا لسانينِ في الآخرةِ »(٤) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الناسِ ذو الوجهينِ الذي

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) ، وبنحوه رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣١٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .
(٣) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٣/ ٢٤) ، وأصله في « البخاري » (٧١٧٨) .
(٤) ذكر الحافظ الزبيدي أنه من تتمة كلام سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما . « إتحاف » (٢/ ٢٧١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٦٠) مرفوعاً : « من كان ذا لسانين في الدنيا.. جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار » .

يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ »(١) .

وقيلَ للحسنِ : إنَّ قوماً يقولونَ : إنَّا لا نخافُ النفاقَ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأَنْ أكونَ أعلمُ أنِّي بريءٌ مِنَ النفاقِ أحبُّ إليَّ مِنْ تلاعِ الأرضِ ذهباً(٢) .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ اللسانِ والقلبِ ، والسرِّ والعلانيةِ ، والمدخلِ والمخرجِ)(٣) .

وقالَ رجلٌ لحذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ : إنِّي أخافُ أنْ أكونَ منافقاً ، فقالَ : لوْ كنتَ منافقاً . . ما خفتَ النفاقَ ؛ إنَّ المنافقَ قدْ أمنَ مِنَ النفاقِ(٤) .

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : (أدركتُ ثلاثينَ ومئةً ـ وفي روايةٍ : خمسَ مئةٍ ـ مِنْ أصحابِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كلُّهُمْ يخافونَ النفاقَ)(٥) .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ جالساً في جماعةٍ مِنْ أصحابِهِ ، فذكرُوا رجلاً وأكثروا الثناءَ عليهِ ، فبينا هُمْ كذلكَ إذْ طلعَ عليهِم

---

(١) رواه البخاري (٧١٧٩) ، ومسلم (٤٧١٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) ، **والتلاع** : جمع تلعة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، وما انهبط منها أيضاً .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) ، وفي (ب) : (خمسين ومئة) بدل (خمس مئة) ، والذي في « صحيح البخاري » (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) : (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل) .

الرجُلُ ووجهُهُ يقطرُ ماءً مِنْ أثرِ الوضوءِ ، وقدْ علَّقَ نعلَهُ بيدِهِ ، وبينَ عينيهِ أثرُ السجودِ ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ هوَ هـٰذا الرجلُ الذي وصفناهُ ، فقَالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَرَىٰ علىٰ وجهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشيطانِ » ، فجاءَ الرجلُ حتَّىٰ سلَّمَ وجلسَ معَ القومِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نَشَدْتُكَ اللهَ ، هلْ حدَّثْتَ نفسَكَ حينَ أشرفتَ على القومِ أنَّهُ ليسَ فيهِمْ خيرٌ منكَ ؟» فقالَ : اللهمَّ نعمْ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ لِمَا علمتُ ولِمَا لمْ أعلمْ » ، فقيلَ لهُ : أتخافُ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « وما يؤمنني والقلوبُ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ يقلِّبُها كيفَ يشاءُ »[2] .

وقدْ قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : عملوا أعمالاً ظنُّوا أنَّها حسناتٌ ، فكانتْ في كفَّةِ السيئاتِ[3] .

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٢) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ٥٤) ، والسفعة : علامة سوداء ، يقال : به سفعة من الشيطان ؛ أي : مسٌّ ، كأنه أخذ بناصيته .

(٢) روىٰ آخره أحمد في « المسند » (٦/ ٢٥٠) ، وأوله عند مسلم (٤٨٩١) بلفظ : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » ، وهو بلفظ المصنف عند صاحب « القوت » (٢/ ١٣٨) .

(٣) كذا روي تفسيرها عن مجاهد كما في « أحكام القرآن » (١٥/ ٢٦٥) ، حتىٰ قال الإمام القشيري في هـٰذه الآية : (في سماع هـٰذه الآية حسراتٌ لأصحاب الانتباه) . « لطائف الإشارات » (٣/ ٢٨٥) .

وقالَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ : (لوْ أنَّ إنساناً دخلَ إلىٰ بستانٍ فيهِ مِنْ جميعِ الأشجارِ ، عليها مِنْ جميعِ الأطيارِ ، فخاطبَهُ كلُّ طيرٍ منها بلغةٍ فقالَ : السلامُ عليكَ يا وليَّ اللهِ ، فسكنتْ نفسُهُ إلىٰ ذلكَ . . كانَ أسيراً في يديها)[1] .

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تعرفُكَ خطرَ الأمرِ بسببِ دقائقِ النفاقِ والشرْكِ الخفيِّ ، وأنَّهُ لا يُؤمَنُ منهُ ، حتَّىٰ كانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يسألُ حذيفةَ عنْ نفسِهِ ، وأنَّهُ هلْ ذُكِرَ في المنافقينَ ؟[2] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (سمعتُ مِن بعضِ الأُمراءِ شيئاً ، فأردتُ أنْ أنكرَهُ ، فخفتُ أنْ يُؤمرَ بقتلي ولمْ أخفْ مِنَ الموتِ ، ولكنْ خشيتُ أنْ يعرضَ لقلبي التزيُّنُ للخلقِ عندَ خروجِ روحي ، فكففتُ)[3] .

وهٰذا مِنَ النفاقِ الذي يضادُّ حقيقةَ الإيمانِ وصدقَهُ وكمالَهُ وصفاءَهُ ، لا أصلَهُ[4] .

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ١١٨) .

(٢) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٧٦) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

(٤) فعلم مما سبق أن المرادَ الحديثُ عن النفاق العملي الذي يطفىء نور الإيمان وكماله ، وهو وإن كان دون النفاق الاعتقادي ، غير أنه ذو خطر عظيم ؛ إذ هو قنطرة له أعاذنا الله تعالىٰ منهما ؛ وذلك لأن الوقوف عند النعمة حجاب . . قال بشر بن الحارث : (سكون القلب إلىٰ قبول المدح أضر عليه من المعاصي) .

فالنفاقُ نفاقانِ :

أحدُهُما : يُخرجُ مِنَ الدينِ ، ويُلحقُ بالكافرينَ ، ويُسلكُ في زمرةِ المخلَّدينَ في النارِ .

والثاني : يفضي بصاحبِهِ إلى النارِ مدَّةً ، أوْ ينقصُ مِنْ درجاتِ علِّيِّينَ ، ويحطُّ عنْ رتبةِ الصدِّيقينَ ، وذلكَ مشكوكٌ فيهِ ، فلذلكَ حَسُنَ فيهِ الاستثناءُ .

وأصلُ هـٰذا النفاقِ تفاوتُ السرِّ والعلانيةِ ، والأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، والعجبُ ، وأمورٌ أُخرُ لا يخلو عنها إلا الصدِّيقونَ .

الوجهُ الرابعُ : وهوَ أيضاً مستندٌ إلى الشكِّ ، وذلكَ مِنْ خوفِ الخاتمةِ ؛ فإنَّهُ لا يدري أيسْلَمُ لهُ الإيمانُ عندَ الموتِ أمْ لا ؟ فإنْ ختمَ لهُ بالكفرِ . . حبطَ الإيمانُ السابقُ ؛ لأنَّهُ موقوفٌ علىٰ سلامةِ الآخِرِ ، ولوْ سُئلَ الصائمُ ضحوةَ النهارِ عنْ صحَّةِ صومِهِ فقالَ : أنا صائمٌ قطعاً ، فلوْ أفطرَ في أثناءِ نهارِهِ بعدَ ذلك . . لتبيَّنَ كذبُهُ؛ إذْ كانتِ الصحَّةُ موقوفةً على التمامِ إلىٰ غروبِ الشمسِ مِنْ آخرِ النهارِ، وكما أنَّ النهارَ ميقاتُ تمامِ الصومِ . . فالعمرُ ميقاتُ تمامِ صحَّةِ الإيمانِ ، ووصفُهُ بالصحَّةِ قبلَ آخرِهِ بناءً على الاستصحابِ ، وهوَ مشكوكٌ فيهِ ، والعاقبةُ مَخُوفَةٌ ، ولأجلِها كانَ أكثرُ بكاءِ الخائفينَ ؛ لأجلِ أنَّها ثمرةُ القضيةِ السابقةِ والمشيئةِ الأزليَّةِ التي لا تظهرُ إلا بظهورِ المقْضيِّ بهِ ، ولا يطَّلعُ عليهِ بشرٌ ، فخوفُ الخاتمةِ كخوفِ السابقةِ ، وربَّما يظهرُ في

الحالِ ما سبقتِ الكلمةُ بنقيضِهِ ، فمَنِ الذي يدري أنَّهُ مِنَ الذينَ سبقتْ لهمْ مِنَ اللهِ الحسنى ؟!

وقيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أيْ : بالسابقةِ ، يعني أظهرَتْها .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إنما يُوزنُ مِنَ الأعمالِ خواتيمُها)[(١)] .

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يحلفُ باللهِ : (ما أحدٌ أمنَ أنْ يُسلبَ إيمانُهُ إلا سُلِبَهُ)[(٢)] .

ويُقالُ : مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ عقوبتُها سوءُ الخاتمةِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، وقيلَ : هيَ عقوبةُ دعوى الولايةِ والكرامةِ بالافتراءِ[(٣)] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (لوْ عرضتْ عليَّ الشهادةُ عندَ بابِ الدارِ والموتُ على التوحيدِ عندَ بابِ الحجرةِ .. لاخترتُ الموتَ على التوحيدِ عندَ بابِ الحجرةِ ؛ لأنِّي لا أدري ما يَعْرِضُ لقلبي مِنَ التغيُّرِ عَنِ التوحيدِ إلىٰ بابِ الدارِ)[(٤)] .

وقالَ بعضُهُمْ : (لوْ عرفتُ واحداً بالتوحيدِ خمسينَ سنةً ثمَّ حالَ بيني

---

(١) كذا روي معناها عن وهب بن منبه رحمه الله تعالىٰ . انظر « الدر المنثور » (٣/ ٤١٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٣٦) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٦) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

وبينَهُ ساريةٌ وماتَ . . لمْ أحكمْ لهُ أنَّهُ ماتَ على التوحيدِ)[1] .

وفي الحديثِ : « مَنْ قالَ : أنا مؤمنٌ . . فهوَ كافرٌ ، ومَنْ قالَ : أنا عالمٌ . . فهوَ جاهلٌ »[2] .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ صدقاً لمَنْ ماتَ على الإيمانِ ، وعدلاً لمَنْ ماتَ على الشركِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[3] .

فمهما كانَ الشكُّ بهٰذهِ المثابةِ . . كانَ الاستثناءُ واجباً ؛ لأنَّ الإيمانَ عبارةٌ عمَّا يفيدُ الجنَّةَ ، كما أنَّ الصومَ عبارةٌ عمَّا يبرىءُ الذمةَ ، وما فسدَ قبلَ الغروبِ لا يبرىءُ الذمَّةَ ، فيخرجُ عنْ كونِهِ صوماً ؛ فكذلكَ الإيمانُ ، بلْ لا يبعدُ أنْ يُسألَ عنِ الصومِ الماضي الذي لا يشكُّ فيهِ بعدَ الفراغِ منهُ ، فيقالُ : أصُمتَ بالأمسِ ؟ فيقولُ : نعمْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذِ الصومُ الحقيقيُّ هوَ المقبولُ ، والقبولُ غائبٌ عنهُ لا يطَّلعُ عليهِ .

فمِنْ هٰذا حَسُنَ الاستثناءُ في جميعِ أعمالِ البرِّ ، ويكونُ ذلكَ شكّاً في القبولِ ؛ إذْ يَمنعُ مِنَ القبولِ بعدَ جريانِ ظاهرِ شروطِ الصحَّةِ أسبابٌ خفيَّةٌ

---

(١) أي : جزماً ويقيناً ؛ لسرعة تقلُّب القلوب ، انظر « قوت القلوب » (٢/ ١٣٧) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٣٨) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٨٤٢) الشطر الثاني منه ، وفي « الصغير » (١/ ٦٥) : (ومن قال : إني في الجنة . . فهو في النار) من كلام يحيى بن أبي كثير .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٨) .

لا يطَّلعُ عليها إلا ربُّ الأربابِ جلَّ جلالُهُ ، فيحسنُ الشكُّ فيهِ .

فهٰذهِ وجوهُ حسنِ الاستثناءِ في الجوابِ عنِ الإيمانِ ، وهيَ آخرُ ما نختمُ بهِ كتابَ (قواعدِ العقائدِ) ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تمّ كتاب قواعد العقائد

وهو الكتاب الثّاني من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، وصلوات الله على سيّدنا محمّدٍ وآله الطّاهرين

يتلوه كتاب أسرار الطّهارة ومهمّاتها

كتاب
أسرار الطهارة
ومهماتها

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب أسرار الطّهارة ومهمّاتها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تلطَّفَ بعبادِهِ فتعبَّدَهُمْ بالنظافةِ ، وأفاضَ علىٰ قلوبِهِمْ تزكيةً لسرائرِهِمْ أنوارَهُ وألطافَهُ ، وأعدَّ لظواهرِهِمْ تطهيراً لها الماءَ المخصوصَ بالرقَّةِ واللطافةِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ المستغرقِ بنورِ الهدىٰ أطرافَ العالمِ وأكنافَهُ ، وعلىٰ آلِهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ صلاةً تحمينا بركاتُها يومَ المخافةِ ، وتنتصبُ جُنَّةً بينَنا وبينَ كلِّ آفةٍ .

أما بعـد :

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدينُ على النظافةِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مفتاحُ الصلاةِ الطُّهُورُ »(٢) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ١٧٦) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » ، وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

(٢) رواه أبو داوود (٦١) ، والترمذي (٣) ، وابن ماجه (٢٧٥) .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطُّهورُ نصفُ الإيمانِ »[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

فتفطنَ ذوو البصائرِ بهٰذهِ الظواهرِ أنَّ أهمَّ الأمورِ تطهيرُ السرائرِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطُّهورُ نصفُ الإيمانِ » عمارةَ الظاهرِ بالتنظيفِ بإفاضةِ الماءِ وإلقائِهِ ، وتخريبَ الباطنِ وإبقاءَهُ مشحوناً بالأخباثِ والأقذارِ ، هيهاتَ هيهاتَ !

والطهارةُ لها أربعُ مراتبَ :

الأولىٰ : تطهيرُ الظاهرِ عنِ الأحداثِ وعنِ الأخباثِ والفَضَلاتِ .

والثانيةُ : تطهيرُ الجوارحِ عنِ الجرائمِ والآثامِ .

والثالثةُ : تطهيرُ القلبِ عَنِ الأخلاقِ المذمومةِ والرذائلِ الممقوتةِ .

والرابعةُ : تطهيرُ السرِّ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ ، وهيَ طهارةُ الأنبياءِ والصدِّيقينَ .

والطهارةُ في كلِّ رتبةٍ نصفُ العملِ الذي فيها ؛ فإنَّ الغايةَ القصوىٰ في عملِ السرِّ أنْ ينكشفَ لهُ جلالُ اللهِ تعالىٰ وعظمتُهُ ، ولن تحلَّ معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالحقيقةِ في السرِّ ما لمْ يرتحلْ ما سوى اللهِ تعالىٰ عنهُ ، ولذلكَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٩) .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ ؛ لأنَّهُما لا يجتمعانِ في قلبٍ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ .

وأمَّا عملُ القلبِ . . فالغايةُ القصوىٰ عمارتُهُ بالأخلاقِ المحمودةِ والعقائدِ المشروعةِ ، ولنْ يتصفَ بها ما لمْ ينظُفْ عنْ نقائضِها ؛ من العقائدِ الفاسدةِ والرذائلِ المذمومةِ ، فتطهيرُهُ أحدُ الشطرينِ ، وهوَ الشطرُ الأوَّلُ الذي هوَ شرطٌ في الثاني[1] ، فكانَ الطُّهُورُ شطرَ الإيمانِ بهـٰذا المعنىٰ ، وكذلكَ تطهيرُ الجوارحِ عنِ المناهي أحدُ الشطرينِ ، وعمارتُها بالطاعاتِ الشطرُ الثاني .

وهـٰذهِ مقاماتُ الإيمانِ ، ولكلِّ مقامٍ طبقةٌ ، ولنْ ينالَ العبدُ الطبقةَ العاليةَ إلا أنْ يجاوزَ الطبقةَ السافلةَ ، فلا يصلُ إلىٰ طهارةِ السرِّ عَنِ الصفاتِ المذمومةِ وعمارتِهِ بالمحمودةِ مَنْ لمْ يَفْرَغْ عنْ طهارةِ القلبِ عَنِ الخلقِ المذمومِ وعمارتِهِ بالمحمودِ ، ولنْ يصلَ إلىٰ ذلكَ مَنْ لمْ يفرغْ عنْ طهارةِ الجوارحِ عنِ المناهي وعمارتِها بالطاعاتِ ، **وكلَّما عزَّ المطلبُ وشَرُفَ . . صَعُبَ مسلكُهُ وطالَ طريقُهُ وكثرتْ عقباتُهُ ، فلا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذا الأمرَ يدركُ بالمنىٰ وينالُ بالهُوَيْنا .**

نعم ، مَنْ عميتْ بصيرتُهُ عنْ تفاوتِ هـٰذهِ الطبقاتِ . . لمْ يفهمْ مِنْ مراتبِ الطهارةِ إلا الدرجةَ الأخيرةَ التي هيَ كالقشرِ الأخيرِ بالإضافةِ إلى اللبِّ

---

(١) الشطر جزء الماهية ، منه قوامها ، والشرط خارج عنها ، يلزم من عدمه العدم ، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته .

المطلوبِ ، فصارَ يمعنُ فيها ، ويستقصي في مجاريها ، ويستوعبُ جميعَ أوقاتِهِ في الاستنجاءِ ، وغسلِ الثيابِ ، وتنظيفِ الظاهرِ ، وطلبِ المياهِ الجاريةِ الكثيرةِ ؛ ظنّاً منهُ بحكمِ الوسوسةِ وخبلِ العقلِ أنَّ الطهارةَ المطلوبةَ المشرَّفةَ هيَ هـٰذهِ فقطْ ، وجهلاً بسيرةِ الأوَّلينَ واستغراقِهِم جميعَ الهمِّ والوَكَدِ[1] في تطهيرِ القلوبِ ، وتساهلِهِمْ في أمرِ الظاهرِ ؛ حتَّىٰ إنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ معَ علوِّ منصبِهِ توضَّأَ بماءٍ في جرَّةٍ نصرانيَّةٍ[2] ، وحتَّىٰ إنَّهم ما كانوا يغسلون اليدَ مِنَ الدسوماتِ والأطعمةِ ، بل كانوا يمسحونَ أصابعَهُمْ بأخمصِ أقدامِهِمْ ، وعدُّوا الأُشنانَ مِنَ البدعِ المحدثةِ[3] .

ولقدْ كانوا يصلُّونَ على الأرضِ في المساجدِ ، ويمشونَ حفاةً في الطرقاتِ ، ومَنْ كانَ لا يجعلُ بينَهُ وبينَ الترابِ حاجزاً في مضجعِهِ . . كانَ مِنْ أكابرِهِمْ ، وكانوا يقتصرونَ على الحجارةِ في الاستنجاءِ .

وقالَ أبو هريرةَ وغيرُهُ مِنْ أهلِ الصفَّةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (كنَّا نأكلُ الشِّواءَ ، فتقامُ الصلاةُ ، فنُدْخِلُ أصابِعَنا في الحصباءِ ، ثمَّ نفرُكُها بالترابِ ونكبِّرُ)[4] .

---

(١) **الوَكَد** : التأكيد .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢) ، وعلّقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضلِ وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) . والحميم : الماء الساخن .

(٣) **الأشنان** : عشب الغاسول ، وهو الذي يغسل به الأيدي ، فارسي معرب .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٣١١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما كنَّا نعرفُ الأُشنانَ في عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنما كانتْ مناديلُنا بطونَ أرجلِنا ، كنَّا إذا أكلْنا الغَمَرَ . . مسحْنا بها)[١] .

ويقالُ : (أوَّلُ ما ظهرَ مِنَ البدعِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أربعةٌ : المناخلُ ، والأُشنانُ ، والموائدُ ، والشبعُ)[٢] .

فكانتْ عنايتُهُمْ كلُّها بنظافةِ الباطنِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : الصلاةُ في النعلينِ أفضلُ[٣] ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا نزعَ نعليهِ في صلاتِهِ إذْ أخبرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ أنَّ بهما نجاسةً وخلعَ الناسُ نعالَهُمْ . . فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِمَ خلعتُمْ نعالَكُمْ ؟! »[٤] .

وقالَ النخعيُّ في الذينَ يخلعونَ نعالَهُمْ : (وددتُ لو أنَّ محتاجاً جاءَ إليها فأخذَها ؛ منكراً لخلْعِ النعالِ)[٥] .

فهكذا كانَ تساهلُهُمْ في هٰذهِ الأمورِ ، بلْ كانوا يمشونَ في طينِ الشوارعِ حفاةً ، ويجلسونَ عليها ، ويصلُّونَ في المساجدِ على الأرضِ ، ويأكلونَ مِنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٢) ، **والغَمَر** : هو الدسم ، أو زنخ اللحم ، كنّىٰ به عنه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٤٢) ، **والمراد بالموائد** : الأكل على الخُِوان ، واستكثار استعماله ، وهٰذه البدع دليل دخول الكلفة والغفلة والبطالة .
(٣) لأنها أقرب إلى التواضع والمسكنة ، وأبعد من الترفه . « إتحاف » (٢/ ٣٠٩) .
(٤) رواه أبو داوود (٦٥٠) ، وبلفظه عند أحمد في « المسند » (٣/ ٢٠) .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٦٤) .

دقيقِ البرِّ والشعيرِ وهوَ يداسُ بالدوابِّ وتبولُ عليهِ ، ولا يحترزونَ مِنْ عرقِ الإبلِ والخيلِ معَ كثرةِ تمرُّغِها في النجاساتِ ، ولمْ يُنقلْ قطُّ عنْ واحدٍ منهُمْ سؤالٌ في دقائقِ النجاساتِ ، فهكذا كانَ تساهلُهُمْ فيها .

وقد انتهتِ النوبةُ الآنَ[1] إلىٰ طائفةٍ يسمُّونَ الرعونةَ نظافةً[2] ، ويقولونَ : هيَ مبنى الدينِ ، فأكثرُ أوقاتِهِمْ في تزيينِهِمُ الظواهرَ ؛ كفعلِ الماشطةِ بعروسِها ، والباطنُ خرابٌ مشحونٌ بخبائثِ الكبْرِ والعجبِ والجهلِ والرياءِ والنفاقِ ، ولا يستنكرونَ ذلكَ ولا يتعجَّبونَ منهُ ، ولوِ اقتصرَ مقتصرٌ على الاستنجاءِ بالحجرِ ، أوْ مشىٰ على الأرضِ حافياً ، أوْ صلَّىٰ على الأرضِ أوْ علىٰ بواري المسجدِ مِنْ غيرِ سَجَّادةٍ مفروشةٍ[3] ، أوْ مشىٰ على الفرشِ مِنْ غيرِ غلافٍ للقدمِ مِنْ أُدُمٍ ، أوْ توضَّأَ مِنْ آنيةِ عجوزٍ أوْ رجلٍ غيرِ متقشِّفٍ . أقاموا عليهِ القيامةَ ، وشدَّدوا عليهِ النكيرَ ، ولقَّبوهُ بالقَذِرِ ، وأخرجوهُ مِنْ زمرتِهِمْ ، واستنكفوا مِنْ مؤاكلتِهِ ومخالطتِهِ ، فسمَّوا البذاذةَ التي هيَ مِنَ الإيمانِ قذارةً[4] ، والرعونةَ نظافةً ، فانظرْ كيفَ صارَ المنكرُ معروفاً والمعروفُ منكراً ، وكيفَ اندرسَ مِنَ الدينِ رسمُهُ كما اندرسَ تحقيقُهُ وعلمُهُ !!

---

(١) أي : في حدود الأربع مئة والتسعين (٤٩٠هـ) . « إتحاف » (٢/ ٣١٠) .
(٢) **الرعونة** : الإفراط في الشيء مع جهالة ووسوسة لا أصل لها .
(٣) **البواري** : جمع بوريا ، وهي الحصيرة . فارسية معربة .
(٤) فقد روىٰ أبو داوود (٤١٦١) : « ألا تسمعون ، ألا تسمعون ؟ إن البذاذة من الإيمان » ، **والبذاذة** : رثاثة الهيئة .

فإنْ قلتَ : أفتقولُ : إنَّ هـٰذه العاداتِ التي أحدثَها الصوفيَّةُ في هيئاتِهِمْ ونظافتِهِمْ مِنَ المحظوراتِ أوِ المنكراتِ ؟

فأقولُ : حاشَ للهِ أنْ أطلقَ القولَ فيهِ مِنْ غيرِ تفصيلٍ ، ولكنِّي أقولُ : هـٰذا التكلُّفُ والتنظُّفُ ، وإعدادُ الأواني والآلاتِ ، واستعمالُ غلافِ القدمِ والإزارِ المتقنَّعِ بهِ لدفعِ الغبارِ ، وغيرُ ذلكَ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ ؛ إنْ وقعَ النظرُ إلىٰ ذاتِها علىٰ سبيلِ التجرُّدِ . . فهيَ مِنَ المباحاتِ ، وقدْ يقترنُ بها أحوالٌ ونيَّاتٌ تُلْحِقُها تارةً بالمعروفاتِ ، وتارةً بالمنكراتِ .

فأمَّا كونُهُ مباحاً في نفسِهِ : فلا يخفىٰ ؛ إذْ صاحبُهُ متصرفٌ بهِ في مالِهِ وبدنِهِ وثيابِهِ ، فليفعلْ بهِ ما يريدُ إذا لمْ يكنْ فيهِ إضاعةٌ وإسرافٌ .

وأما مصيرُهُ منكراً : فبأنْ يجعلَ ذلكَ من أصلِ الدينِ ، ومِنْ تفسيرِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدينُ على النظافةِ »(١) ، حتَّىٰ ينكرَ بهِ علىٰ مَنْ يتساهلُ فيهِ تساهلَ الأوَّلينَ ، وأنْ يكونَ القصدُ بهِ تزيينَ الظاهرِ للخلقِ ، وتحسينَ موقعِ نظرِهِمْ ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ الرياءُ المحذورُ ، فيصيرُ مُنْكَراً بهـٰذينِ الاعتبارين .

وأمَّا كونُهُ معروفاً : فبأنْ يكونَ القصدُ منهُ الخيرَ دونَ التزيُّنِ ، وألاَّ ينكرَ

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ١٧٦) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

علىٰ مَنْ تركَ ذلكَ ، ولا يؤخِّرَ بسببِهِ الصلاةَ عنْ أوائلِ الأوقاتِ ، ولا يشتغلَ بهِ عَنْ عملٍ هوَ أفضلُ منهُ ، أوْ عنْ تربيةِ علمٍ[1] ، أوْ غيرِهِ ، فإذا لمْ يقترنْ بهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فهوَ مباحٌ يمكنُ أنْ يجعلَ قربةً بالنيَّةِ ، ولكنْ لا يتيسَّرُ ذلك إلا للبطَّالينَ الذينَ لوْ لمْ يشتغلوا بصرْفِ الأوقاتِ إليهِ . . لاشتغلوا بنومٍ أوْ حديثٍ فيما لا يعني ، فيصيرُ شغلُهُمْ بهِ أولىٰ ؛ لأنَّ التشاغلَ بالطهاراتِ يجدِّدُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ وذكرَ العباداتِ ، فلا بأسَ بهِ إذا لمْ يُخْرِجْ إلىٰ منكرٍ أوْ إسرافٍ .

وأمَّا أهلُ العلمِ والعملِ . . فلا ينبغي أنْ يتصرفَ مِنْ أوقاتِهِمْ إليهِ إلا قدْرُ الحاجةِ ، والزيادةُ عليهِ منكرٌ في حقِّهِمْ ، وتضييعُ العُمُرِ الذي هوَ أنفسُ الجواهرِ وأعزُّها في حقِّ مَنْ قَدَرَ على الانتفاعِ بهِ ، ولا يتعجَّبُ مِنْ ذلكَ ؛ فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ .

ولا ينبغي للبطَّالِ أنْ يتركَ النظافةَ وينكرَ على المتصوِّفةِ ويزعمَ أنَّهُ يتشبَّهُ بالصحابةِ ؛ إذِ التشبُّهُ بهِمْ في ألاَّ يتفرَّغَ إلا لما هوَ أهمُّ منه ؛ كما قيلَ لداوودَ الطائيِّ : لِمَ لا تسرِّحُ لحيتَكَ ؟ قالَ : إنِّي إذاً لَفارغٌ[2] .

فلهـٰذا لا أرىٰ للعالمِ ولا للمتعلمِ ولا للعاملِ أنْ يضيِّعَ وقتَهُ في غسْلِ الثيابِ احترازاً مِنْ أنْ يلبسَ الثيابَ المقصورةَ ، وتوهُّماً بالقَصَّارِ تقصيرَهُ في

(١) أي : بالتعلم والتعليم ، والمطالعة والمذاكرة ، والتصدي لتأليف ما هو نافع . « إتحاف » (٢/ ٣١١) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ٣٣٩) .

الغسلِ ، فقدْ كانوا في العصرِ الأوَّلِ يصلُّونَ في الفراءِ المدبوغةِ ، ولمْ يُعلمْ منهُمْ مَنْ فرَّقَ بينَ المدبوغةِ والمقصَّرةِ في الطهارةِ والنجاسةِ ، بلْ كانوا يجتنبونَ النجاسةَ إذا شاهدُوها ، ولا يدقِّقونَ نظرَهُمْ في استنباطِ الاحتمالاتِ الدقيقةِ ، بلْ كانوا يتأمَّلونَ في دقائقِ الرياءِ والظلْمِ ، حتَّىٰ قالَ سفيانُ الثوريُّ لرفيقٍ لهُ كانَ يمشي معَهُ فنظرَ إلىٰ بابِ دارٍ مرفوعٍ معمورٍ : لا تفعلْ ذلكَ ؛ فإنَّ الناسَ لوْ لمْ ينظروا إليهِ . . لكانَ صاحبُهُ لا يتعاطىٰ هـٰذا الإسرافَ ، فالناظرُ إليهِ مُعينٌ لهُ على الإسرافِ[1] .

وكانوا يُعِدُّونَ جِمامَ الذهنِ لاستنباطِ مثلِ هـٰذهِ الدقائقِ[2] ، لا في احتمالِ النجاساتِ .

ولوْ وجدَ العالمُ عامِّيّاً يتعاطىٰ لهُ غسْلَ الثيابِ محتاطاً . . فهوَ أفضلُ ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إلى التساهلِ خيرٌ ، وذلكَ العاميُّ ينتفعُ بتعاطيهِ ؛ إذْ يشغلُ نفسَهُ الأمَّارةَ بالسوءِ بعملٍ مباحٍ في نفسِهِ ، فيمتنعُ عليهِ المعاصي في تلكَ الحالِ ، والنفسُ إنْ لمْ تُشغلْ . . شغلَتْ صاحبَها ، وإذا قصدَ بهِ التقرُّبَ إلى العالمِ . . صارَ ذلكَ عندَهُ مِنْ أفضلِ القرباتِ ، فوقتُ العالمِ أشرفُ مِنْ أنْ يصرفَ إلىٰ مثلِهِ ، فيبقىٰ محفوظاً عليهِ ، وأشرفُ وقتِ العاميِّ أنْ يشتغلَ بمثلِهِ ، فيتوفَّرُ الخيرُ عليهِ مِنْ كلِّ الجوانبِ .

وليتفطنْ بهـٰذا المثالِ لنظائرِهِ مِنَ الأعمالِ ، وترتيبِ فضائلِها ، ووجهِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٠) .
(٢) أي : في حفظ الباطن والظاهر . « إتحاف » (٢/ ٣١٢) .

تقديمِ البعضِ منها على البعضِ ، فتدقيقُ الحسابِ في حفْظِ لحظاتِ العمرِ بصرفِها إلى الأفضلِ أهمُّ مِنَ التدقيقِ في أموالِ الدنيا بحذافيرِها .

وإذا عرفتَ هـٰذهِ المقدمةَ ، واستبنتَ أنَّ الطهارةَ لها أربعُ مراتبَ . . فاعلمْ أنَّا في هـٰذا الكتابِ لسنا نتكلَّمُ إلا في المرتبةِ الرابعةِ ، وهيَ نظافةُ الظاهرِ ؛ لأنَّا في الشطرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ لا نتعرَّضُ قصداً إلا للظواهرِ .

فنقولُ : طهارةُ الظاهرِ ثلاثةُ أقسامٍ : طهارةٌ عَنِ الخبثِ ، وطهارةٌ عنِ الحدثِ ، وطهارةٌ عن فضلاتِ البدنِ ؛ وهيَ التي تحصلُ بالقلْمِ ، والاستحدادِ ، واستعمالِ النُّورةِ ، والختانِ ، وغيرِه .

* * *

القِسمُ الأوّلُ
في طهارة الخبث
والنّظر فيه يتعلّق بالمُزال، والمُزال به، والإزالة

الطرفُ الأوَّلُ : في المزالِ :

وهيَ النجاساتُ ، والأعيانُ ثلاثةٌ : جماداتٌ ، وحيواناتٌ ، وأجزاءُ حيواناتٍ .

أمَّا الجماداتُ : فطاهرةٌ كلُّها إلا الخمرَ ، وكلَّ مشتدٍّ مسكرٍ .

والحيواناتُ : طاهرةٌ كلُّها إلا الكلبَ والخنزيرَ وما تولَّدَ منهما أوْ مِنْ أحدِهِما ، فإذا ماتَتْ . . فكلُّها نجسةٌ إلا خمسةً : الآدميَّ ، والسمكَ ، والجرادَ ، ودودَ التفاحِ ، وفي معناهُ[1] كلُّ ما تستحيلُ إليهِ الأطعمةُ ، وكلَّ ما ليسَ له نَفْسٌ سائلةٌ ؛ كالذبابِ ، والخُنفساءِ ، وغيرِهِما ، فلا ينجسُ الماءُ بوقوعِ شيءٍ منها فيهِ .

وأمَّا أجزاءُ الحيواناتِ : فقسمانِ :

أحدُهما : ما يقطعُ منهُ ، وحكمهُ حكْمُ الميتِ ، والشعرُ لا ينجسُ بالجزِّ والموتِ ، والعظْمُ ينجسُ .

---

(١) أي : في معنىٰ دود التفاح . « إتحاف » (٢/ ٣١٥) .

الثاني : الرطوباتُ الخارجةُ مِنْ باطنِهِ ، فكلُّ ما ليسَ مستحيلاً ولا لهُ مقرٌّ[1] . . فهوَ طاهرٌ ؛ كالدمعِ ، والعرقِ ، واللُّعابِ ، والمخاطِ[2] ، وما لهُ مقرٌّ وهوَ مستحيلٌ . . فنجسٌ ، إلاَّ ما هوَ مادَّةُ الحيوانِ ؛ كالمنيِّ ، والبيضِ .

والقيحُ ، والدمُ ، والروثُ والبولُ نجسٌ مِنَ الحيواناتِ كلِّها .

ولا يعفىٰ عنْ شيءٍ مِنْ هٰذهِ النجاساتِ قليلِها وكثيرِها إلاَّ عَنْ خمسةٍ :

الأوَّلُ : أثرُ النجْوِ بعدَ الاستجمارِ بالأحجارِ يعفىٰ عنهُ ما لمْ يعْدُ المخرجَ .

الثاني : طينُ الشوارعِ وغبارُ الروْثِ في الطرقِ ، يعفىٰ عنهُ معَ تيقُّنِ النجاسةِ بقدْرِ ما يتعذَّرُ الاحترازُ عنهُ ، وهوَ الذي لا يُنسَبُ المتلطِّخُ بهِ إلىٰ تفريطٍ أوْ سقطةٍ .

الثالثُ : ما علىٰ أسفلِ الخفِّ مِنْ نجاسةٍ لا تخلو الطرقُ عنها ، فيعفىٰ عنهُ بعدَ الدلْكِ للحاجةِ .

الرابعُ : دمُ البراغيثِ ، ما قلَّ منهُ أوْ كثرَ ، إلاَّ إذا جاوزَ حدَّ العادةِ ،

---

(١) أي : ليس له اجتماع واستحالة في الباطن ، وإنما يرشح رشحاً . انظر « العزيز » (١/ ٣٥) .

(٢) بل حكمه حكم الحيوان المترشح منه ؛ إن كان نجساً . . فهو نجس ، وإن كان طاهراً . . فهو طاهر . انظر « العزيز » (١/ ٣٥) .

سواءٌ كانَ في ثوبِكَ أوْ في ثوبِ غيرِكَ فلبستَهُ .

الخامسُ : دمُ البثَراتِ وما ينفصلُ منها مِنْ قيحٍ وصديدٍ ، ودلكَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بثرةً علىٰ وجهِهِ ، فخرجَ منها الدمُ وصلَّىٰ ولمْ يغسلْ[1] .

وفي معناهُ ما يترشَّحُ مِنْ لطخاتِ الدماميلِ التي تدومُ غالباً ، وكذلكَ أثرُ الفصْدِ ، إلاَّ ما يقعُ نادراً مِنْ خُرَاجٍ أوْ غيرِهِ ، فيلحقُ بدمِ الاستحاضةِ ، ولا يكونُ في معنى البثراتِ التي لا يخلو الإنسانُ عنها في أحوالِهِ[2] .

ومسامحةُ الشرعِ في هـٰذهِ النجاساتِ الخمسِ تعرفُكَ أنَّ أمرَ الطهاراتِ على التساهلِ ، وما ابتُدِعَ فيها وسوسةٌ لا أصلَ لها .

الطرفُ الثاني : في المزالِ بهِ :

وهوَ إمَّا جامدٌ ، وإمَّا مائعٌ :

أمَّا الجامدُ : فحجرُ الاستنجاءِ ، وهوَ مطهِّرٌ تطهيرَ تخفيفٍ ، بشرطِ أنْ يكونَ صَلْباً طاهراً منشِّفاً غيرَ محترمٍ .

وأما المائعاتُ : فلا تُزالُ النجاسةُ بشيءٍ منها إلا بالماءِ ، ولا كلُّ ماءٍ ،

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ١٤١) .

(٢) وحكم دم الاستحاضة العفو ، ولا يمنع الصلاة ، ويجب الوضوء لكل صلاة . انظر « العزيز » (١/ ٢٩٨) ، قال المصنف في « الوسيط » (٢/ ١٦٣) : (وأما لطخات الدماميل والقروح والفصد : فما يدوم منها غالباً . . يلحق بدم الاستحاضة ، وما لا يدوم . . يلحق بدم الأجنبي ؛ لأن وقوعها نادر) .

بلِ الطاهرُ الذي لمْ يتفاحشْ تغيُّرُهُ بمخالطةِ ما يستغنىٰ عنهُ .

ويخرجُ الماءُ عَنِ الطهارةِ بأنْ يتغيَّرَ بملاقاةِ النجاسةِ ؛ طعمُهُ ، أوْ لونُهُ ، أوْ ريحُهُ ، فإنْ لمْ يتغيَّرْ وكانَ قريباً مِنْ مئتينِ وخمسينَ مَنّاً وهوَ خمسُ مئةِ رطلٍ برطلِ العراقِ .. لمْ ينجسْ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا بلغَ الماءُ قُلَّتَيْنِ .. لمْ يحملْ خبثاً »[1] ، وإنْ كانَ دونَهُ .. صارَ نجساً عندَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ، هٰذا في الماءِ الراكدِ .

وأمَّا الماءُ الجاري : إذا تَغيَّرَ بالنجاسةِ فالجريةُ المتغيرةُ نجسةٌ دونَ ما فوقَها وما تحتَها ؛ لأنَّ جرياتِ الماءِ متفاصلةٌ .

وكذا النجاسةُ الجاريةُ إذا جرتْ بمَجرى الماءِ .. فالنجسُ موقعُها مِنَ الماءِ ، وما عَنْ يمينِها وشمالِها إذا تقاصرَ عنْ قلَّتينِ ، وإنْ كانَ جَرْيُ الماءِ أقوىٰ منْ جريِ النجاسةِ .. فما فوقَ النجاسةِ طاهرٌ ، وما يسفلُ عنها فنجسٌ وإنْ تباعدَ وكثرَ ، إلاَّ إذا اجتمعَ في حوضٍ قدْرَ قلَّتينِ .

وإذا اجتمعَ قلَّتانِ مِنْ ماءٍ نجسٍ .. طهرَ ، ولا يعودُ نجساً بالتفريقِ ، هٰذا مذهبُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ[2] .

وكنت أودُّ أنْ يكونَ مذهبُهُ كمذهبِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ في أنَّ الماءَ

---

(١) رواه أبو داوود (٦٣) ، والترمذي (٦٧) ، والنسائي (٤٦/١) ، وابن ماجه (٥١٧) .

(٢) وهٰذا مشروط بعدم التغيُّرِ عند الاجتماعِ . انظر « الخلاصة » (ص٦٠) ، و« العزيز » (٤٩/١) .

وإنْ قلَّ فلا ينجسُ إلا بالتغيُّرِ ؛ إذِ الحاجةُ ماسَّةٌ إليهِ ، ومثارُ الوساوسِ اشتراطُ القلَّتينِ ، ولأجلِهِ شقَّ على الناسِ ذلكَ ، وهوَ ـ لعمري ـ سببُ المشقَّةِ ، ويعرفُهُ مَنْ يجرِّبُهُ ويتأمَّلُهُ .

وممَّا لا أشكُّ فيهِ أنَّ ذلكَ لوْ كانَ مشروطاً . . لكانَ أولى المواضعِ بتعسُّرِ الطهارةِ مكةَ والمدينةَ ؛ إذْ لا يكثرُ فيهما المياهُ الجاريةُ ولا الراكدةُ الكثيرةُ .

ومِنْ أوَّلِ عصْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ آخرِ عصرِ الصحابةِ لمْ تنقلْ واقعةٌ في الطهارةِ ، ولا سؤالٌ عَنْ كيفيةِ حفظِ الماءِ عنِ النجاساتِ ، وكانتْ أواني مياهِهِمْ يتعاطاها الصبيانُ والإماءُ الذينَ لا يحترزونَ عَنِ النجاساتِ .

وقدْ توضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بماءٍ في جرَّةِ نصرانيَّةٍ[1] ، وهـٰذا كالصريحِ في أنَّهُ لمْ يعوِّلْ إلا علىٰ عدمِ تغيُّرِ الماءِ ، وإلاَّ . . فنجاسةُ النصرانيَّةِ وإنائِها غالبةٌ تُعلمُ بظنٍّ قريبٍ ، فإذاً عسرُ القيامِ بهـٰذا المذهبِ وعدمُ وقوعِ السؤالِ في تلكَ الأعصارِ دليلٌ أوّلُ ، وفعلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ دليلٌ ثانٍ .

والدليلُ الثالثُ : إصغاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الإناءَ للهرَّةِ[2] ،

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضل وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (١/ ٧٠) ، وهو عند أصحاب السنن الأربعة من فعل أبي قتادة ، وروىٰ في آخره حديث : « إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم والطوافات » .

وعدمُ تغطيتِهِمْ الأوانيَ منها بعدَ أنْ تُرىٰ أنَّها تأكلُ الفأرةَ ، ولمْ يكنْ في بلادِهِمْ حياضٌ تلغُ السنانيرُ فيها ، وكانتْ لا تنزلُ الآبارَ .

والرابعُ : أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ نصَّ علىٰ أنَّ غسالةَ النجاسةِ طاهرةٌ إذا لمْ تتغيَّرْ ، ونجسةٌ إذا تغيَّرَتْ ، وأيُّ فرْقٍ بينَ أنْ يلاقيَ الماءُ النجاسةَ بالورودِ عليها أوْ بورودِها عليهِ ؟! وأيُّ معنىً لقولِ القائلِ : إنَّ قوَّةَ الورودِ تدفعُ النجاسةَ معَ أنَّ الورودَ لمْ يمنعْ مخالطةَ النجاسةِ ؟!

وإنْ أحيلَ ذلكَ على الحاجةِ . . فالحاجةُ أيضاً ماسَّةٌ إلىٰ هٰذا ، فلا فرقَ بينَ طرحِ الماءِ في إجَّانةٍ[1] فيها ثوبٌ نجسٌ ، أوْ طرحِ الثوبِ النجسِ في الإجَّانةِ وفيها ماءٌ ، وكلُّ ذلكَ معتادٌ في غسْلِ الثيابِ والأواني .

والخامسُ : أنَّهم كانوا يستنجونَ علىٰ أطرافِ المياهِ الجاريةِ القليلةِ ، ولا خلافَ في مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ إذا وقعَ بولٌ في ماءٍ جارٍ ولمْ يتغيَّرْ أنَّهُ يجوزُ التوضُّؤُ بهِ وإنْ كانَ قليلاً ، وأيُّ فرْقٍ بينَ الجاري والراكدِ ؟!

وليتَ شعري ؛ هلِ الحوالةُ علىٰ عدمِ التغيُّرِ أولىٰ أوْ علىٰ قوَّةِ الماءِ بسببِ الجريانِ ؟ ثمَّ ما حدُّ تلكَ القوةِ : أتجري في المياهِ الجاريةِ في أنابيبِ الحماماتِ أمْ لا ؟ فإنْ لمْ تجرِ . . فما الفرقُ ؟ وإنْ جرتْ فما الفرقُ بينَ ما يقعُ فيها وبينَ ما يقعُ في مَجرى الماءِ مِنَ الأواني على الأبدانِ وهيَ أيضاً جاريةٌ ؟ ثمَّ البولُ أشدُّ اختلاطاً بالماءِ الجاري مِنْ نجاسةٍ جامدةٍ ثابتةٍ إذ قضي

---

(١) **الإجَّانة** : إناء تغسل فيه الثياب ، فارسي معرب .

بأنَّ ما يجري عليها وإنْ لمْ يتغيَّرْ نجسٌ إلىٰ أنْ يجتمعَ في مستنقعٍ قلَّتانِ ، فأيُّ فرقٍ بينَ الجامدِ والمائعِ والماءُ واحدٌ والاختلاطُ أشدُّ من الجوارِ ؟!(١) .

والسادسُ : أنَّهُ إذا وقعَ رطْلٌ مِنَ البولِ في قلتينِ ، ثمَّ فُرِّقتا . . فكلُّ كوزٍ يغترفُ منهُ طاهرٌ ، ومعلومٌ أنَّ البولَ منتشرٌ فيهِ وهوَ قليلٌ ، فليتَ شعري ؛ هلْ تعليلُ طهارتِهِ بعدمِ التغيُّرِ أولىٰ أو بقوَّةِ كثرةِ الماءِ بعدَ انقطاعِ الكثرةِ وزوالِها معَ تحقُّقِ بقاءِ أجزاءِ النجاسةِ فيها ؟!

والسابعُ : أنَّ الحماماتِ لمْ تزلْ في الأعصارِ الخاليةِ يتوضَّأُ فيها المتقشِّفونَ(٢) ، ويغمسونَ الأيديَ والأوانيَ في تلكَ الحياضِ معَ قلَّةِ الماءِ ، ومعَ العلمِ بأنَّ الأيديَ النجسةَ والطاهرةَ كانتْ تتواردُ عليها .

فهٰذهِ الأمورُ معَ الحاجةِ الشديدةِ تقوِّي في النفسِ أنَّهُمْ كانوا ينظرونَ إلىٰ عدمِ التغيُّرِ ، معوِّلينَ علىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُلِقَ الماءُ طهوراً لا يُنجِّسُهُ شيءٌ إلاَّ ما غيَّرَ طعمَهُ أوْ ريحَهُ أوْ لونَهُ »(٣) .

وهٰذا فيهِ تحقيقٌ ، وهوَ أنَّ طبعَ كلِّ مائعٍ أنْ يقلبَ إلىٰ صفةِ نفسِهِ كلَّ

---

(١) ذكر الأصفهاني في « كشف تعليل المحرر » أن للشافعي قولاً قديماً أن الماء الجاري قليلاً أو كثيراً ، سريعاً أو بطيئاً لا ينجس بملاقاة النجاسة إلا بتغير أحد أوصافه . « إتحاف » (٢/ ٣٣١) .

(٢) **المتقشفون** : خشنو العيش من أرباب الصلاح .

(٣) رواه ابن ماجه (٥٢١) .

ما يقعُ فيهِ وكانَ مغلوباً مِنْ جهتِهِ ، فكما ترى الكلبَ يقعُ في المملحةِ[1] ، فيستحيلُ ملحاً ، ويحكم بطهارته ؛ لصيرورتِهِ ملحاً وزوالِ صفةِ الكلبيَّةِ عنهُ . . فكذلكَ الخلُّ يقعُ في الماءِ ، واللبنُ يقعُ فيهِ وهوَ قليلٌ فتبطلُ صفتُهُ ، ويتصوَّرُ بصفةِ الماءِ وينطبعُ بطبعِهِ ، إلاَّ إذا كثرَ وغلبَ ، وتُعرفُ غلبتُهُ بغلبةِ طعمِهِ أوْ لونِهِ أوْ ريحِهِ .

فهٰذا المعيارُ[2] ، وقدْ أشارَ الشرعُ إليهِ في الماءِ القويِّ علىٰ إزالةِ النجاسةِ ، وهو جديرٌ بأنْ يعوَّلَ عليهِ ، فيندفعُ بهِ الحرجُ ، ويظهرُ بهِ معنىٰ كونِهِ طَهوراً ؛ إذْ يَغلبُ علىٰ غيرِهِ فيطهِّرُهُ ، كما صارَ كذلكَ فيما بعدَ القلتينِ ، وفي الغسالةِ ، وفي الماءِ الجاري ، وفي إصغاءِ الإناءِ للهرَّةِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذلكَ عفْوٌ ؛ إذْ لوْ كانَ كذلكَ . . لكانَ كأثرِ الاستنجاءِ ودمِ البراغيثِ ، حتَّىٰ يصيرُ الماءُ الملاقي لهُ نجساً ، ولا ينجسُ بالغسالةِ ، ولا بولوغِ السنَّورِ في الماءِ القليلِ .

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَحْمِلُ خبثاً »[3] . . فهوَ في نفسِهِ مبهمٌ[4] ؛ فإنَّهُ يحملُ إذا تغيَّرَ .

---

(1) **المملحة** : معدن الملح ؛ أي : منبته الذي يستخرج الملح منه ، ما يسمى اليوم بالمنجم .

(2) في (أ) : (المعتاد) بدل (المعيار) .

(3) رواه أبو داوود (٦٣) ، والترمذي (٦٧) ، والنسائي (١/ ٤٦) ، وابن ماجه (٥١٧) .

(4) أي : يصعب على الفهم إدراكه . « إتحاف » (٣/ ٣٣٣) .

فإنْ قيلَ : أرادَ بهِ إذا لم يتغيَّرْ . . **فيمكنُ أنْ يقالَ** : أرادَ بهِ أنَّهُ في الغالبِ لا يتغيَّرُ بالنجاساتِ المعتادةِ .

* * *

ثمَّ هوَ تمسُّكٌ بالمفهومِ فيما إذا لمْ يبلغْ قلَّتينِ[1] ، وتركُ المفهومِ بأقلَّ مِنَ الأدلَّةِ التي ذكرناها ممكنٌ .

وقولُهُ : « لا يحملُ خبثاً » : ظاهرُهُ نفيُ الحمْلِ ؛ أي : يقلبُهُ إلىٰ صفةِ نفسِهِ ؛ كما يقالُ : المملحة لا تحملُ كلباً ولا غيرَهُ ؛ أي : ينقلبُ ؛ وذلك لأنَّ الناسَ قد يستنجونَ في المياهِ القليلةِ في الغدرانِ ويغمسونَ الأوانيَ النجسةَ فيها ، ثمَّ يتردَّدونَ في أنَّها تغيَّرَتْ تغيُّراً مؤثِّراً أم لا ، فبيَّنَ أنَّهُ إذا كانَ قلَّتينِ . . لا يتغيَّرُ بهـٰذهِ النجاساتِ المعتادةِ .

* * *

فإن قلت : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ يحملْ خَبَثاً » ، ومهما كثرتْ . . حملَها ، فهـٰذا ينقلبُ عليكَ ؛ فإنَّها مهما كثرَت . . حملَها أيضاً حكماً كما حملَها حسّاً ، فلا بدَّ مِنَ التخصيصِ بالنجاساتِ المعتادةِ على المذهبينِ جميعاً[2] .

* * *

(١) فإنه يحمل خبثاً ، دلَّ الحديث بمفهومه علىٰ ذلك . « إتحاف » (٢/ ٣٣٣) .
(٢) مذهب الإمامين مالك والشافعي رضي الله عنهما . « إتحاف » (٢/ ٣٣٤) .

وعلى الجملةِ : فميلي في أمورِ النجاساتِ إلى المساهلةِ فهماً مِنْ سيرةِ الأوَّلينَ ، وحسماً لمادةِ الوسواسِ ، وبذلكَ أفتيتُ بالطهارةِ فيما وقعَ الخلافُ فيهِ مِنْ هـٰذهِ المسائلِ(١) .

* * *

الطرفُ الثالثُ في كيفيةِ الإزالةِ :

والنجاسةُ إنْ كانتْ حكميَّةً وهيَ التي ليسَ لها جِرْمٌ محسوسٌ . . فيكفي إجراءُ الماءِ علىٰ جميعِ مواردِها .

وإنْ كانتْ عينيَّةً . . فلا بدَّ مِنْ إزالةِ العينِ ، وبقاءُ الطعمِ يدلُّ علىٰ بقاءِ

---

(١) يرى القارىء الكريم رجوع المصنف في مسائل الطهارة لما كان قد اعتمده وقرره في كتبه الفقهية ، وذلك بحسب ما ظهر له وأداه اجتهاده كما ذكر ذلك الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢/ ٣٣١) ، واستدل بذلك علىٰ آخرية تأليف « الإحياء » .

وهـٰذا لا يعني بحال تخلي الإمام الغزالي عن مذهب إمامه الشافعي ، ولكنه دليل جزم علىٰ إمامته واجتهاده ضمن المذهب ، وأنه لم يكن مجرَّد مدافع عما يقوله الإمام ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢/ ٣٣٤) : (والمصنف رحمه الله كان ممن سُلِّم له دعوى الاجتهاد ؛ أي : في المذهب ، كما ينبئه كلام كثير من أئمة مذهبه ، ولعل **من نظر إلىٰ ظاهر سياقه هـٰذا في هـٰذا الكتاب . . جزم بأنه رجع في آخر عمره مالكياً** ، وليس كذلك ، وذكر الشيخ زروق في « شرحه علىٰ قواعد العقائد » للمصنف ما نصه : « سمعت أبا عبد الله القوري يقول : قال ابن العربي في كتاب « الاقتراب شرح الجلاب » : لما تغلغل شيخنا أبو حامد في العلوم . . ترك العناد ورجع إلى المقصود من مذهب مالك » ، وقال به سيدي أحمد زروق : « ولا يخفىٰ ما في هـٰذا الكلام من الحروشة والضعف والله أعلم » ، قلت : ابن العربي كان ممن شاهد المصنف وأخذ عنه ، وكأنه أشار بكلامه المذكور إلىٰ هـٰذا الذي أورده المصنف هنا ، ولا يلزم من مخالفته لإمامه في مسألة من المسائل أن يكون خرج عن مذهبه بالكلية ، هـٰذا لا يقول به أحد) .

العينِ ، وكذا بقاءُ اللونِ ، إلاَّ فيما يلتصقُ بهِ ، فهوَ معفوٌّ عنهُ بعدَ الحتِّ والقرْصِ .

وأمَّا الرائحةُ . . فبقاؤُها يدلُّ علىٰ بقاءِ العينِ ، ولا يعفىٰ عنها إلاَّ إذا كانَ الشيءُ لهُ رائحةٌ فائحةٌ تعسرُ إزالتُها ، فالدلكُ والعصرُ مرَّاتٍ متوالياتٍ يقومُ مقامَ الحتِّ والقرْصِ في اللونِ .

والمزيلُ للوسواسِ أنْ يعلمَ أنَّ الأشياءَ خلقتْ طاهرةً بيقينٍ ، فما لا يشاهدُ عليهِ نجاسةٌ ولا يعلمُها يقيناً . . يصلِّىٰ معهُ ، ولا ينبغي أنْ يتوصَّلَ بالاستنباطِ إلىٰ تقديرِ النجاساتِ .

* * *

القِسمُ الثّاني
طهارة الأحداث

وفيها : الوضوءُ ، والغسلُ ، والتيمُّمُ ، ويتقدَّمُها الاستنجاءُ .

فنوردُ كيفيتَها على الترتيبِ معَ آدابِها وسننِها ، مبتدئينَ بسببِ الوضوءِ ، وهوَ قضاءُ الحاجةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

بابُ آدابِ قضاءِ الحاجة

ينبغي أنْ يبعدَ عَنْ أعينِ الناظرينَ في الصحراءِ ، وأنْ يستترَ بشيءٍ إنْ وجدَهُ ، وألاَّ يكشفَ عورتَهُ قبلَ الانتهاءِ إلىٰ موضعِ الجلوسِ ، وألاَّ يستقبلَ الشمسَ والقمرَ ، وألاَّ يستقبلَ القبلةَ ولا يستدبرَها إلا إذا كانَ في بناءٍ ، والعدولُ عنها أيضاً في البناءِ أحبُّ ، وإنِ استترَ في الصحراءِ براحلتِهِ . . جازَ ، وكذلكَ بذيلِهِ[1] ، وأنْ يتقيَ الجلوسَ في متحدَّثِ الناسِ ، وألاَّ يبولَ في الماءِ الراكدِ ، ولا تحتَ الشجرةِ المثمرةِ ، ولا في الجُحْرِ ، وأنْ يتقيَ الموضعَ الصلْبَ ومهابَّ الرياحِ في البولِ استنزاهاً مِنْ رشاشِهِ ، وأنْ يتكىءَ

(١) بأن يترك طرف ثوبه مرخىً على الأرض .

في جلوسِهِ على الرجْلِ اليسرىٰ ، وإنْ كانَ في بنيانٍ . . يقدِّمُ الرجْلَ اليسرىٰ في الدخولِ واليمنىٰ في الخروجِ .

ولا يبولُ قائماً ؛ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (مَنْ حدَّثَكُمْ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يبولُ قائماً . . فلا تصدِّقوهُ)(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : رآني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا أبولُ قائماً ، فقالَ : « يا عمرُ ؛ لا تبلْ قائماً » قالَ عمرُ : فما بلتُ قائماً بعدُ(٢) .

وفيهِ رخصةٌ ؛ إذْ روىٰ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالَ قائماً ، قالَ : فأتيتُهُ بوضوءٍ ، فتوضَّأَ ومسحَ علىٰ خفيهِ(٣) .

ولا يبولُ في المغتَسَلِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عامَّةُ الوسواسِ منهُ »(٤) ، وقالَ ابنُ المباركِ : (إنْ كانَ الماءُ جارياً . . فلا بأسَ)(٥) .

ولا يستصحبُ شيئاً عليهِ اسمُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أوْ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا يدخلُ بيتَ الماءِ حاسرَ الرأسِ ، وأنْ يقولَ عندَ الدخولِ : (باسمِ اللهِ ، أعوذُ باللهِ مِنَ الرجسِ النجسِ الخَبيثِ المُخْبِثِ ، الشيطانِ الرجيمِ)(٦) ، وعندَ

---

(١) رواه الترمذي (١٢) ، والنسائي (١/ ٢٦) ، وابن ماجه (٣٠٧) .
(٢) رواه الترمذي (١٢) ، وابن ماجه (٣٠٨) .
(٣) رواه البخاري (٢٢٤) ، ومسلم (٢٧٣) .
(٤) رواه أبو داوود (٢٧) ، والترمذي (٢١) ، والنسائي (١/ ١٩) ، وابن ماجه (٣٠٤) .
(٥) رواه الترمذي (٢١) .
(٦) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤) .

الخروجِ : (الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنِّي ما يؤذيني وأبقىٰ عليَّ ما ينفعُني)[1] ، ويكونُ ذلكَ خارجاً عنْ بيتِ الماءِ ، وأنْ يُعِدَّ النَّبلَ قبلَ الجلوسِ[2] ، وألا يستنجيَ بالماءِ في موضعِ الحاجةِ ، وأنْ يستبرئَ مِنَ البولِ بالتنحنحِ والنترِ ثلاثاً وإمرارِ اليدِ علىٰ أسفلِ القضيبِ ، ولا يكثرَ التفكُّرَ في الاستبراءِ فيتوسوسَ ويشقَّ عليهِ الأمرُ ، وما يحسُّ بهِ مِنْ بللٍ فليقدِّرْ أنَّهُ بقيةُ الماءِ ، فإنْ كانَ ذلكَ يؤذيهِ . . فليرشَّ عليهِ الماءَ حتَّىٰ يقوىٰ في نفسِهِ ذلكَ ، ولا يتسلطَ عليهِ الشيطانُ بالوسواسِ ، وفي الخبرِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فَعَلَهُ ؛ أعني رَشَّ الماءِ[3] ، وقدْ كانَ أخفُّهُمُ استبراءً أفقهَهُمْ ، فتدلُّ الوسوسةُ فيهِ علىٰ قلَّةِ الفقهِ .

وفي حديثِ سلمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (علَّمَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءَةَ ، فأمرَنا ألاَّ نستنجيَ بعظمٍ ولا روثٍ ، ونهانا أنْ نستقبلَ القبلةَ بغائطٍ أوْ بولٍ)[4] .

وقالَ رجلٌ لبعضِ الصحابةِ مِنَ الأعرابِ وقدْ خاصمَهُ : لا أحسِبُكَ تحسِنُ الخِراءةَ ، قالَ : بلىٰ وأبيكَ ؛ إنِّي لأحسنُها ، وإنِّي بها لحاذقٌ ؛ أُبعِدُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢) .
(٢) النَّبَل : هي الحجارة الصغار المعدَّة للاستنجاء .
(٣) وهو النضح ، رواه أبو داوود (١٦٦) ، والنسائي (١/ ٨٦) ، وابن ماجه (٤٦١) .
(٤) رواه مسلم (٢٦٢) .

الأثرَ وأُعِدُّ المدَرَ ، وأستقبلُ الشِيحَ ، وأستدبرُ الريحَ ، وأُقعي إقعاءَ الظبيِ ، وأَجفِلُ إجفالَ النعامِ .

الشيحُ : نبتٌ طيِّبُ الرائحةِ بالباديةِ ، والإقعاءُ هٰهنا : أنْ يستوفزَ علىٰ صدورِ قدميهِ ، والإجفالُ : أنْ يرفعَ عجزَهُ .

ومِنَ الرخصةِ : أنْ يبولَ الإنسانُ قريباً مِنْ صاحبِهِ مستتراً عنهُ ، فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ شدَّةِ حيائِهِ ؛ ليبيِّنَ للناسِ ذلكَ[1] .

كيفية الاستنجاء

ثمَّ يستنجي لمقعدتِهِ بثلاثةِ أحجارٍ ، فإنْ أنقىٰ بها . . كفىٰ ، وإلاَّ . . استعملَ رابعاً ، فإنْ أنقىٰ . . استعملَ خامساً ؛ لأنَّ الإنقاءَ واجبٌ والإيتارَ مستحبٌّ ؛ قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : « مَنِ استجمرَ . فليوترْ »[2] .

ويأخذُ الحجرَ بيسارِهِ ويضعُهُ علىٰ مقدَّمِ المقعدةِ قَبْلَ موضعِ النجاسةِ وَيُمِرُّهُ بالمسحِ ، والإدارةِ إلى المؤخرِ ، ويأخذُ الثانيَ ويضعُهُ على المؤخرةِ كذلكَ ، ويُمِرُّهُ إلى المقدمةِ ، ويأخذُ الثالثَ فيديرُهُ حولَ المَسْرَبةِ إدارةً[3] ،

---

(١) كما جاء ذلك من وصف الصحابة له عند بوله قائماً كما سبق ، وفيه : (فتنحيت ، فدعاني وكنت عند عقبيه حتىٰ فرغ ، ثم توضأ ومسح علىٰ خفيه) .

(٢) رواه البخاري (١٦١) ، ومسلم (٢٣٧) .

(٣) **المسربة** : هي بوزان مقعدة ، مجرى الغائط ومخرجه ، سميت بذلك لانسراب الخارج منها . « إتحاف » (٢/ ٣٤٣) .

وإنْ عسرتِ الإدارةُ ومسحَ مِنَ المقدمةِ أوِ المؤخرةِ .. أجزأَهُ ، ثمَّ يأخذُ حجراً كبيراً بيمينِهِ والقضيبَ بيسارِهِ ويمسحُ الحجرَ بقضيبِهِ ويحرِّكُ اليسارَ ، فيمسحُ ثلاثاً في ثلاثةِ مواضعَ ، أوْ في ثلاثةِ أحجارٍ ، أوْ في ثلاثةِ مواضعَ مِنْ جدارٍ ، إلىٰ ألاَّ يرى الرطوبةَ في محلِّ المسحِ ، فإنْ حصلَ ذلكَ بمرتينِ .. أتىٰ بالثالثةِ ، ووجبَ ذلكَ إنْ أرادَ الاقتصارَ على الحجرِ ، وإنْ حصلَ بالرابعةِ .. استحبَّتِ الخامسةُ للإيتارِ . ثمَّ ينتقلُ مِنْ ذلكَ الموضعِ إلىٰ موضعٍ آخرَ ، ويستنجي بالماءِ ؛ بأنْ يفيضَهُ باليمنىٰ علىٰ محلِّ النجْوِ ، ويدلكَ باليسرىٰ حتَّىٰ لا يبقىٰ أثرٌ لذلكَ يدركُهُ الكفُّ بحسِّ اللمْسِ ، ويتركُ الاستقصاءَ فيهِ بالتعرُّضِ للباطنِ ؛ فإنَّ ذلكَ منبعُ الوسواسِ .

وليعلمْ أنَّ كلَّ ما لا يصلُ إليهِ الماءُ .. فهوَ باطنٌ ، ولا يثبتُ حكمُ النجاسةِ للفضلاتِ الباطنةِ ما لمْ تبرزْ ، وكلُّ ما هوَ ظاهرٌ وثبتَ لهُ حكمُ النجاسةِ فحدُّ ظهورِهِ أنْ يصلَ الماءُ إليهِ فيزيلَهُ ، فلا معنىٰ للوسواسِ .

ويقولُ عندَ الفراغِ مِنَ الاستنجاءِ : اللَّهُمَّ ؛ طهِّرْ قلبي مِنَ النفاقِ ، وحصِّنْ فرجي مِنَ الفواحشِ[1] .

ويدلكُ يدَهُ بحائطٍ أوْ بالأرضِ إزالةً للرائحةِ إنْ بقيتْ ، والجمعُ بينَ الماءِ والحجرِ مستحبٌّ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .. قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

(١) قوت القلوب (٢/ ٩٢) ، وكذا هو في « بداية الهداية » (ص٧٨) .

لأهلِ قُبَاءَ : « ما هـٰذهِ الطهارَةُ التي أثنى اللهُ بها عليكُمْ ؟ » قالوا : إنَّا نجمعُ بينَ الماءِ والحَجَرِ[1] .

كيفيةُ الوضوءِ

إذا فرغَ مِنَ الاستنجاءِ . . اشتغلَ بالوضوءِ ، فلمْ يُر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قطُّ خارجاً مِنَ الغائطِ إلاَّ توضَّأَ[2] .

ويبتدِئُ بالسواكِ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أفواهَكُمْ طُرُقُ القرآنِ ، فطيِّبُوها بالسواكِ »[3] ، فينبغي أنْ ينويَ عندَ السواكِ تطهيرَ فمِهِ لقراءةِ الفاتحةِ وذكرِ اللهِ تعالىٰ في الصلاةِ[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةٌ علىٰ أثَرِ سواكٍ أفضلُ مِنْ خمسٍ وسبعينَ صلاةً بغيرِ سواكٍ »[5] .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » كما في « مجمع الزوائد » (١/ ٢١٧) .
(٢) رواه ابن ماجه (٣٥٤) .
(٣) رواه ابن ماجه (٢٩١) موقوفاً علىٰ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو عند البزار في « مسنده » (٦٠٣) مرفوعاً بنحوه .
(٤) ولو قال : (لقراءة القرآن) . . لكان شاملاً للمذهبين ؛ أي : إنه باستعماله السواك لا يقتصر علىٰ نية إزالة الوسخ عن فمه ، بل ينوي بذلك ما ذكر حتىٰ يثاب عليه . « إتحاف » (٢/ ٣٤٨) .
(٥) رواه أحمد في « مسنده » (٦/ ٢٧٢) بلفظ : « فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً » ، وكذا وقع بنصب (سبعين) ، وانظر فيه « فيض القدير » (٤/ ٤٣١) ، وهو بلفظ المصنف عند ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٣١٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنْ أشُقَّ علىٰ أمَّتي . . لأمرتُهُمْ بالسواكِ عندَ كلِّ صلاةٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي أراكُمْ تدخلونَ عليَّ قُلْحاً ؟ استاكوا »(٢) أي : صفْرَ الأسنانِ .

وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يستاكُ في الليلةِ مراراً(٣) .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّهُ قالَ : (لمْ يزلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُنا بالسواكِ حتَّىٰ ظننَّا أنَّهُ سينزلُ عليهِ فيهِ شيءٌ)(٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكُمْ بالسواكِ ؛ فإنَّهُ مطْهَرَةٌ للفمِ ، مَرْضَاةٌ للرَّبِّ »(٥) .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (السِّوَاكُ يزيدُ في الحفظِ ، ويُذْهِبُ البلغمَ)(٦) .

---

(١) رواه البخاري (٨٨٧) ، ومسلم (٢٥٢) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (١/ ٢١٤) .
(٣) رواه مسلم (٧٦٣) .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (١/ ٣٣٩) .
(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٠٧٠) ، وهو بنحوه عند البخاري تعليقاً (كتاب الصوم ، باب سواك الرطب واليابس للصائم) .
(٦) وفي كتاب « النوادر » للترمذي الحكيم : السواك يزيد للحافظ حفظاً ، وفي كلام ابن عباس : في السواك عشر خصال ، فذكر منها أنه ينقي البلغم ، والبلغم أحد الأخلاط الأربعة . « إتحاف » (٢/ ٣٤٩) .

وكانَ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يروحونَ والسواكُ علىٰ آذانِهِمْ[1] .

وكيفيتُهُ : أنْ يستاكَ بخشبِ الأراكِ أوْ غيرِهِ مِنْ قضبانِ الأشجارِ ممَّا يخشنُ ويزيلُ القَلَحَ ، ويستاكُ عرضاً وطولاً ، وإنِ اقتصرَ . . فعرضاً .

ويستحبُّ السواكُ عندَ كلِّ صلاةٍ ، وعندَ كلِّ وضوءٍ وإنْ لمْ يصلِّ عَقيبَهُ ، وعندَ تغيُّرِ النَّكْهَةِ بالنومِ ، أوْ طولِ الأَزْمِ[2] ، أوْ أكلِ ما تُكْرَهُ رائحتُهُ .

ثمَّ عندَ الفراغِ مِنَ السواكِ يجلسُ للوضوءِ مستقبلَ القبلةِ ، ويقولُ : (بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ) ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا وضوءَ لِمَنْ لمْ يسمِّ اللهَ تعالىٰ »[3] أي : لا وضوءَ كاملاً .

ويقولُ عندَ ذلكَ : (أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يحضرونِ)[4] .

ثمَّ يغسلُ يديهِ ثلاثاً قبلَ أنْ يدخلَهما الإناءَ ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ اليُمْنَ والبركةَ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الشؤمِ والهلكةِ) .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨٠٥) .
(٢) الأزْم : الإمساك عن الطعام والكلام .
(٣) رواه أبو داوود (١٠١) ، والترمذي (٢٥) ، وابن ماجه (٣٩٩) بلفظ : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » .
(٤) وقد أجاد البحث في دعاء الأعضاء العلامة المحدث ابن علان المكي في « شرح الأذكار » (٢/ ٢٧ ـ ٣٠) فليراجع .

ثمَّ ينوي رفعَ الحدثِ أوِ استباحةَ الصلاةِ ، ويستديمُ النيَّةَ إلىٰ غسْلِ الوجهِ ، فإنْ نسيَها عندَ الوجهِ . . لمْ يُجزِه ، ثمَّ يأخذُ غُرفةً لفيهِ فيتمضمضُ بها ثلاثاً ويُغَرْغِرُ ؛ بأنْ يَرُدَّ الماءَ إلى الغَلْصَمَةِ[1] ، إلاَّ أنْ يكونَ صائماً فيرفقُ ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ أعِنِّي علىٰ تلاوةِ كتابِكَ وكثرةِ الذكرِ لكَ) .

ثمَّ يأخذُ غُرفةً لأنفِهِ ويستنشقُ ثلاثاً، ويُصعدُ الماءَ بالنَّفَسِ إلىٰ خياشيمِهِ ، ويستنثرُ ما فيها ، ويقولُ في الاستنشاقِ : (اللَّهُمَّ ؛ أوجدني رائحةَ الجنَّةِ وأنتَ عنِّي راضٍ) ، وفي الاستنثارِ : (اللَّهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِن روائحِ النارِ ، ومِنْ سوءِ الدارِ) ؛ لأنَّ الاستنشاقَ إيصالٌ ، والاستنثارَ إزالةٌ .

ثمَّ يغرفُ غُرفةً لوجهِهِ ، فيغسلُهُ مِنْ مبتدأِ تسطيحِ الجبهةِ إلىٰ منتهىٰ ما يقبلُ مِنَ الذَّقَنِ في الطولِ ، ومِنَ الأُذُنِ إلى الأُذُنِ في العرْضِ ، ولا يدخلُ في حدِّ الوجهِ النَّزَعَتانِ اللتانِ علىٰ طرفي الجبينينِ ؛ فهما مِنَ الرأسِ[2] ، ويوصلُ الماءَ إلىٰ موضعِ التحذيفِ ، وهوَ ما يعتادُ النساءُ تنحيةَ الشعرِ عنهُ ، وهوَ القدْرُ الذي يقعُ في جانبِ الوجهِ مهما وُضِعَ طرفُ الخيطِ علىٰ رأسِ الأُذُنِ ، والطرفُ الثاني علىٰ زاويةِ الجبينِ ، ويوصلُ الماءَ إلىٰ منابتِ الشعورِ الأربعةِ : الحاجبانِ ، والشاربانِ ، والأهدابُ ، والعِذارانِ ؛ لأنَّها خفيفةٌ في الغالبِ ، والعذارانِ : هما ما يوازي الأذنينِ مِنْ مبتدأِ اللحيةِ .

---

(١) **الغلصمة** : رأس الحلق .

(٢) **النَّزَعَتان** : مثنىٰ نَزَعَة ، وهما البياضان المكتنفان للناصية .

ويجبُ إيصالُ الماءِ إلىٰ منابتِ اللحيةِ الخفيفةِ ؛ أعني : ما يقبلُ مِنَ الوجهِ ، وأمَّا الكثيفةُ . . فلا ، وحكمُ الْعَنْفَقَةِ[١] حكمُ اللحيةِ في الكثافةِ والخفَّةِ ، ثمَّ يفعلُ ذلكَ ثلاثاً ، ويفيضُ الماءَ علىٰ ظاهرِ ما استرسلَ مِنَ اللحيةِ ، ويدخلُ الإصبعَ في محاجرِ العينينِ وموضعِ الرَّمَصِ ومجتمعِ الكُحْلِ وينقِّيهما ؛ فقدْ رُويَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فعلَ ذلكَ[٢] ، ويأملُ عندَ ذلكَ خروجَ الخطايا مِنْ عينيهِ ، وكذلكَ عندَ كلِّ عضوٍ ، ويقولُ عندَهُ : (اللَّهمَّ ؛ بيضْ وجهي بنورِكَ يومَ تبيضُّ وجوهُ أوليائِكَ ، ولا تسوِّدْ وجهي بظلماتِكَ يومَ تسودُّ وجوهُ أعدائِكَ) ، ويخللُ اللحيةَ الكثيفةَ عندَ غسْلِ الوجهِ ؛ فإنَّهُ مستحبٌّ .

ثمَّ يغسلُ يديهِ إلىٰ مرفقيهِ ثلاثاً ، ويحرِّكُ الخاتَمَ[٣] ، ويطيلُ الغُرَّةَ ويرفعُ الماءَ إلىٰ أعالي العضدِ ؛ فإنَّهُمْ يحشرونَ يومَ القيامةِ غُرّاً مُحَجَّلينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ ، كذلكَ وردَ الخبرُ ؛ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنِ استطاعَ منكمْ أنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ . . فليفعلْ »[٤] ، ورُويَ أنَّ الحليةَ تبلُغُ مواضعَ الوضوءِ[٥] .

---

(١) **العنفقة** : الشعر النابت تحت الشفة السفلىٰ ، وقيل : هو ما بين الشفة السفلىٰ والذَّقَن سواء كان عليها شعر أم لا .

(٢) روىٰ أحمد في « مسنده » (٥/٢٥٨) عن أبي أمامة رضي الله عنه : (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح المأقين) .

(٣) وجوباً إن لم يصل الماء إلا بالتحريك ، وندباً إن وصل .

(٤) رواه البخاري (١٣٦) ، ومسلم (٢٤٦) .

(٥) رواه مسلم (٢٥٠) .

ويبدأُ باليمنىٰ ويقولُ : (اللَّهُمَّ ؛ أعطني كتابي بيميني ، وحاسبني حساباً يسيراً) ، ويقولُ عندَ غسْلِ الشمالِ : (اللَّهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بِكَ أنْ تُعطيني كتابي بشِمالي أوْ مِنْ وراءِ ظهري) .

ثمَّ يستوعبُ رأسَهُ بالمسْحِ ، بأنْ يبلَّ يديهِ ويلصقَ رؤوسَ أصابعِ اليمنىٰ باليسرىٰ ويضعَهُما علىٰ مقدَّمةِ الرأسِ ، ويمرَّهما إلى القفا ، ثمَّ يردَّهُما إلى المقدَّمةِ ، وهٰذهِ مسحةٌ واحدةٌ ، يفعلُ ذلكَ ثلاثاً ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ غشِّني برحمتِكَ ، وأنزلْ عَلَيَّ مِنْ بركاتِكَ ، وأظلَّني تحتَ ظلِّ عرشِكَ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّكَ) .

ثمَّ يمسحُ أذنيهِ ظاهرَهُما وباطنَهُما بماءٍ جديدٍ ؛ بأنْ يدخلَ مسبِّحتيهِ في صماخي أذنيهِ ، ويديرَ إبهاميهِ علىٰ ظاهرِ أذنيهِ ، ثمَّ يضعُ الكفَّينِ على الأذنينِ استظهاراً ويكرِّرُهُ ثلاثاً ، ويقولُ : (اللَّهُمَّ ؛ اجعلني مِنَ الذينَ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنَهُ ، اللَّهُمَّ ؛ أسمعني مناديَ الجنَّةِ معَ الأبرارِ) .

ثمَّ يمسحُ رقبتَهُ بماءٍ جديدٍ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مسحُ الرقبةِ أمانٌ مِنَ الغلِّ يومَ القيامةِ »(١) ، ويقول : (اللَّهمَّ ؛ فكَّ رقبتي مِنَ النارِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ السلاسلِ والأغلالِ) .

---

(١) ذهب المصنف رحمه الله في « البسيط » و« الوسيط » (١/ ٢٨٨) و« الوجيز » كما في « العزيز » (١/ ١٢٩) و« الخلاصة » (ص٦٦) و« بداية الهداية » (ص٨٣) إلىٰ سنيَّة مسح الرقبة ، ووافقه الإمام الرافعي في « العزيز » (١/ ١٣٠) . وانظر تخريج الحديث وطرقه في « تحفة الطلبة في تحقيق مسح الرقبة » للعلامة عبد الحي اللكنوي .

ثمَّ يغسلُ رجْلَهُ اليمنىٰ ثلاثاً ، ويخلِّلُ باليدِ اليسرىٰ مِنْ أسفلِ أصابعِ الرجْلِ اليمنىٰ ، ويبدأُ بالخِنْصَرِ مِنَ الرجْلِ اليمنىٰ ويختمُ بالخِنْصَرِ مِنَ الرجْلِ اليسرىٰ ، ويقولُ : (اللَّهمَّ ؛ ثبتْ قدمي على الصراطِ يومَ تزلُّ الأقدامُ في النارِ) ، ويقولُ عندَ غسْلِ اليسرىٰ : (وأعوذُ بكَ أنْ تزلَّ قدمي عَنِ الصراطِ يومَ تزلُّ أقدامُ المنافقينَ) ، ويرفعُ الماءَ إلىٰ أنصافِ الساقينِ .

فإذا فرغَ . . رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقالَ : (أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، سبحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدِكَ ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، فاغفرْ لي وتبْ عليَّ ، إنَّكَ أنتَ التوّابُ الرحيمُ ، اللَّهمَّ ؛ اجعلني مِنَ التَّوابينَ ، واجعلني مِنَ المتطهِّرينَ ، واجعلني مِنْ عبادِكَ الصالحينَ ، واجعلني عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلني أذكرُكَ ذكراً كثيراً ، وأسبحُكَ بكرةً وأصيلاً) .

يُقالُ : إنَّ مَنْ قالَ هـٰذا بعدَ الوضوءِ . . خُتِمَ علىٰ وضوئِهِ بخاتَمٍ ، ورُفِعَ لهُ تحتَ العرشِ ، فلمْ يزلْ يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ ويقدِّسُهُ ، ويُكتبُ لهُ ثوابُ ذلكَ إلىٰ يومِ القيامةِ[1] .

ويُكرَهُ في الوضوءِ أمورٌ : منها أنْ يزيدَ على الثلاثِ ، فمَنْ زادَ . . فقدْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٩٣) ، وأصله حديث رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٧٨) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٠) .

ظلمَ ، وأنْ يسرفَ في الماءِ ؛ توضَّأَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً ثلاثاً وقالَ : « مَنْ زادَ . . فقدْ ظلمَ وأساءَ »[١] ، وقالَ : « سيكونُ قومٌ مِنْ هٰذهِ الأمَّةِ يعتدونَ في الدعاءِ والطُّهُورِ »[٢] .

ويُقالُ : (مِنْ وَهَنِ علمِ الرجُلِ ولوعُهُ بالماءِ في الطُّهُورِ)[٣] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (يقالُ : إنَّ أوَّلَ ما يبدأُ الوسواس مِنْ قِبَلِ الطُّهورِ)[٤] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ شيطاناً يضحكُ بالناسِ في الوضوءِ يقالُ لهُ : الولْهان)[٥] .

ويكرَهُ أنْ ينفضَ اليدَ فيرشَّ الماءَ ، وأنْ يتكلَّمَ في أثناءِ الوضوءِ ، وأنْ يلطمَ وجهَهُ بالماءِ لطماً .

وكَرِهَ قومٌ التنشيفَ، وقالوا : (الوضوءُ يوزنُ) ، قالَهُ سعيدُ بنُ المسيَّبِ والزهريُّ[٦] ، لكنْ روىٰ معاذٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مسحَ

---

(١) رواه أبو داوود (١٣٥) ، والنسائي (١/ ٨٨) .
(٢) رواه أبو داوود (٩٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٤) .
(٣) وظن العراقي أنه حديث ، فقال : (لم أجد له أصلاً) ، وليس كذلك ، بل هو من كلام بعض السلف . « إتحاف » (٢/ ٣٧٠) ، وهو من كلام محارب بن دثار يحكيه كما رواه عنه القاسم بن سلام في كتاب « الطهور » (١٢٣) .
(٤) رواه القاسم بن سلام في « الطهور » (١٢٤) عن إبراهيم التيمي رحمه الله تعالىٰ .
(٥) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ١٩٧) عنه ، وأصله في المرفوع كما رواه الترمذي (٥٧) ، وابن ماجه (٤٢١) .
(٦) كذا رواه عنهما الترمذي (٥٤) .

وجهَهُ بطرَفِ ثوبِهِ[١] ، وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانتْ لهُ مِنْشفةٌ[٢] ، ولكنْ قدْ طعنَ في الروايةِ عَن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها[٣] .

ويكرَهُ أنْ يتوضَّأَ مِنْ إناءِ صُفْرٍ[٤] ، وأنْ يتوضَّأَ بالماءِ المشمَّسِ ، وذلكَ مِنْ جهةِ الطِّبِّ ، وقدْ رُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ وأبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُما كراهةُ الإناءِ الصفْرِ ، قالَ بعضُهُمْ : أخرجتُ لشعبةَ ماءً في إناءِ صفْرٍ ، فأبىٰ أنْ يتوضَّأَ منهُ ، ونقلَ كراهيةَ ذلكَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما[٥] .

ومهما فرغَ مِنْ وضوئِهِ وأقبلَ على الصلاةِ . . فينبغي أنْ يخطرَ ببالِهِ أنَّهُ طهَّرَ ظاهرَهُ وهوَ موضعُ نظرِ الخلْقِ ، فينبغي أنْ يستحييَ مِنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تطهيرِ قلبِهِ وهوَ موضعُ نظرِ الربِّ سبحانَهُ .

وليتحققْ أنَّ طهارةَ القلبِ بالتوبةِ ، والخلوَّ عَنِ الأخلاقِ المذمومةِ ، والتخلُّقَ بالأخلاقِ الحميدةِ . . أولىٰ ، وأنَّ مَنِ اقتصرَ علىٰ طهارةِ الظاهرِ كمَنْ

---

(١) رواه الترمذي (٥٤) ، وعند أبي داوود (٢٤٥) من كلام إبراهيم بن خالد : (كانوا لا يرون بالمنديل بأساً ولكن كانوا يكرهون العادة) .

(٢) رواه الترمذي (٥٣) .

(٣) أي : في هـٰذا الحديث خاصة ، والضعف جاء من أبي معاذ ، سمَّاه الترمذي سليمان بن الأرقم ، وقال عقب روايته : (حديث عائشة ليس بالقائم) ، والذي اختاره الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (٣/ ٢٣٢) : (والثالث : أنه مباح ، يستوي فعله وتركه ، وهـٰذا هو الأظهر المختار ؛ فقد جاء هـٰذا الحديث الصحيح في الإباحة ، ولم يثبت في النهي شيء أصلاً) .

(٤) **الصُّفْر** : النحاس ، وقيل : أجوده .

(٥) قوت القلوب (٢/ ٩٣) .

أرادَ أنْ يدعوَ ملكاً إلىٰ بيتِهِ ، فتركَهُ مشحوناً بالقاذوراتِ واشتغلَ بتجصيصِ ظاهرِ البابِ البرَّانيِّ مِنَ الدارِ ، وما أجدرَ مثلَ هـٰذا الرجلِ بالتعرُّضِ للمقتِ والبوارِ ! واللهُ سبحانَهُ أعلمُ .

فضيلة الوضوء

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، وصلَّىٰ ركعتينِ لمْ يُحدِّثْ نفسَهُ فيهما بشيءٍ مِنَ الدنيا . . خرجَ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أمُّهُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ولمْ يَسْهُ فيهما . . غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « ألا أنبِّئُكُمْ بما يكفِّرُ اللهُ بِهِ الخطايا ، ويرفعُ بِهِ الدرجاتِ؟ إسباغُ الوُضُوءِ على المكارهِ، ونقْلُ الأقدامِ إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ ، فذلكُمُ الرباطُ » ثلاثَ مراتٍ(٢) .

وتوضَّأَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً مرةً وقالَ : « هـٰذا وضوءٌ لا يقبلُ اللهُ الصلاةَ إلا بهِ » ، وتوضَّأَ مرَّتينِ مرَّتينِ وقالَ : « مَنْ توضَّأَ مرَّتينِ مرَّتينِ . . آتاهُ اللهُ أجرَهُ مرَّتينِ » ، وتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً وقالَ : « هـٰذا وضوئي ووضوءُ الأنبياءِ مِنْ قبلي ووضوءُ خليلِ اللهِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ »(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٩١) ، وبنحوه عند البخاري (١٦٠) ، ومسلم (٢٢٦) ، وأبي داوود (٩٠٥) .
(٢) رواه مسلم (٢٥١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٢٤٨٣) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٨٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ذكرَ اللهَ عندَ وضوئِهِ . . طهَّرَ اللهُ جسدَهُ كُلَّهُ ، ومَنْ لمْ يذكرِ اللهَ . . لمْ يطهِّرْ منهُ إلا ما أصابَ الماءُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ توضَّأَ علىٰ طُهْرٍ . . كتبَ اللهُ لهُ بهِ عشرَ حسناتٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الوضوءُ على الوضوءِ نورٌ علىٰ نورٍ »(٣) ، وهٰذا كلُّهُ حثٌّ علىٰ تجديدِ الوضوءِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا توضَّأَ العبدُ المسلمُ فتمضمضَ . . خرجتِ الخطايا مِنْ فيهِ ، فإذا استنثرَ . . خرجتِ الخطايا مِنْ أنفِهِ ، فإذا غسَلَ وجهَهُ . . خرجتِ الخطايا مِنْ وجهِهِ حتَّىٰ تخرُجَ مِنْ تحتِ أشفارِ عينيهِ ، فإذا غسلَ يديهِ . . خَرجتِ الخطايا مِن يديهِ حتَّىٰ تخرجَ مِنْ تحتِ أظفارِ يديهِ ، فإذا مسحَ برأسِهِ . . خرجتِ الخطايا مِنْ رأسِهِ حتَّىٰ تخرجَ مِنْ أذنيهِ ، فإذا غسلَ رجليهِ . . خرجتِ الخطايا مِن رِجليهِ حتَّىٰ تَخرجَ مِن تحتِ أظفارِ رجلَيْهِ ، ثمَّ كانَ مشيُهُ إلى المسجدِ وصلاتُهُ نافلةً لهُ »(٤) .

---

(١) رواه الدارقطني في « سننه » (١/ ٧٤) .
(٢) رواه أبو داوود (٦٢) ، والترمذي (٥٩) ، وابن ماجه (٥١٢) .
(٣) قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٢٦٤) : (ذكره الغزالي في « الإحياء » فقال مخرجه ـ الحافظ العراقي ـ : لم أقف عليه ، وسبقه لذلك المنذري ، وأما شيخنا ـ ابن حجر ـ فقال : إنه حديث ضعيف رواه رزين في « مسنده » ، قلت : قد تقدم في معناه حديث : « من توضأ علىٰ طهر . . ») الحديث السابق .
(٤) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٣١)، وهو كذلك عند النسائي (١/ ٧٤)، وابن ماجه (٢٨٢).

ويُروىٰ أنَّ الطاهرَ كالصائمِ[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، ثمَّ رفعَ طرْفَهُ إلى السماءِ فقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ .. فتحتْ لهُ أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ ، يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »[2] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الوضوءَ الصالحَ يطردُ عنكَ الشيطانَ) .

وقالَ مجاهدٌ : (مَنِ استطاعَ ألاَّ يبيتَ إلاَّ طاهراً ذاكراً مستغفراً .. فليفعلْ ؛ فإنَّ الأرواحَ تبعثُ علىٰ ما قُبضتْ عليهِ)[3] .

كيفية الغسل

وهوَ أنْ يضعَ الإناءَ عنْ يمينِهِ ، ثمَّ يسمِّيَ اللهَ تعالىٰ ، ويغسلَ يديهِ ثلاثاً ، ثمَّ يستنجيَ كما وصفناهُ ، ويزيلَ ما علىٰ بدنِهِ مِنْ نجاسةٍ إنْ كانتْ ، ثمَّ يتوضَّأَ وضوءَهُ للصلاةِ كما سبقَ إلا غسْلَ قدميهِ ، فإنَّهُ يؤخِّرُهُما ؛ فإنَّ غسلَهُما ثمَّ وضعَهُما على الأرضِ كالإضاعةِ للماءِ .

ثمَّ يصبَّ الماءَ علىٰ شقِّهِ الأيمنِ ثلاثاً ، ثمَّ علىٰ شقِّهِ الأيسرِ ثلاثاً ، ثمَّ

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٩٨١) وبلفظ : « الطاهر النائم كالصائم القائم » .

(٢) رواه أبو داوود (١٦٩) ، وهو عند مسلم (٢٣٤) بنحوه .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٢٧٢) ، وهو في « الحلية » (٣/ ٢٩٥) من قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

علىٰ رأسِهِ ثلاثاً ، ثمَّ يدلكُ ما أقبلَ مِنْ بدنِهِ وما أدبرَ ، ويخلِّلُ شعرَ الرأسِ واللحيةِ ، ويوصلُ الماءَ إلىٰ منابتِها ما كثفَ منهُ أوْ خفَّ .

وليسَ على المرأةِ نقضُ الضفائرِ ، إلاَّ إذا علمتْ أنَّ الماءَ لا يصلُ إلىٰ خللِ الشعرِ .

ويتعهَّدُ معاطفَ البدنِ ، وليتقِ أنْ يمسَّ ذكرَهُ في أثناءِ ذلكَ ؛ فإنْ فعلَ ذلكَ . . فليعدِ الوضوءَ ، وإنْ توضَّأَ قبْلَ الغسلِ . . فلا يعيدُهُ بعدَ الغسلِ .

فهٰذهِ سننُ الوضوءِ والغسلِ ، ذكرْنا منها ما لا بدَّ منهُ لسالكِ طريقِ الآخرةِ مِنْ علمِهِ وعملِهِ ، وما عداهُ مِنَ المسائلِ يحتاجُ إليها في عوارضِ الأحوالِ ، فيُرْجَعُ فيها إلىٰ كتبِ الفقهِ .

والواجبُ مِنْ جملةِ ما ذكرناهُ في الغسْلِ أمرانِ : النيَّةُ ، واستيعابُ البدنِ بالغَسْلِ .

وفرضُ الوضوءِ : النيَّةُ ، وغسلُ الوجهِ ، وغسلُ اليدينِ إلى المرفقينِ ، ومسحُ ما ينطلقُ عليه الاسمُ مِنَ الرأسِ ، وغسْلُ الرجلينِ إلى الكعبينِ ، والترتيبُ .

وأمَّا الموالاةُ . . فليستْ واجبةً .

والغسلُ الواجبُ أربعةٌ : الغسلُ لخروجِ المنيِّ ، ولالتقاءِ الختانينِ ، والحيضِ ، والنفاسِ .

وما عداهُ مِنَ الأغسالِ سنَّةٌ ؛ كالغسْلِ للجمعةِ والعيدينِ والإحرامِ ،

ولوقوفِ عرفةَ ومزدلفةَ ، ولدخولِ مكّةَ ، وثلاثةِ أغسالٍ أيامَ التشريقِ ، ولطوافِ الوداعِ علىٰ قولٍ ، والكافرِ إذا أسلمَ غيرَ جنبٍ ، والمجنونِ إذا أفاقَ ، ولمنْ غسَّلَ ميّتاً ، فكلُّ ذلكَ مستحبٌّ .

كيفيّة التيمّم

مَنْ تعذَّرَ عليهِ استعمالُ الماءِ بفقدِهِ بعدَ الطلبِ ، أوْ بمانعٍ لهُ عَنِ الوصولِ إليهِ مِنْ سَبُعٍ أوْ حابسٍ ، أوْ كانَ الماءُ الحاضرُ يحتاجُ إليهِ لعطشهِ أوْ عطشِ رفيقِهِ ، أوْ كانَ مُلْكاً لغيرِهِ ولمْ يبعْهُ إلاَّ بأكثرَ مِنْ ثمنِ المثلِ ، أوْ كانَ بهِ جراحةٌ أوْ مرضٌ وخافَ مِنِ استعمالِهِ فسادَ العضْوِ أوْ شدَّةَ الضنىٰ . . فينبغي أنْ يصبرَ حتَّىٰ يدخلَ عليهِ وقتُ الفريضةِ ، ثمَّ يقصدَ صعيداً طيّباً عليهِ ترابٌ طاهرٌ خالصٌ ليِّنٌ بحيثُ يثورُ منهُ غبارٌ ، ويضربَ عليهِ كفَّيهِ ضامّاً بينَ أصابعِهِ ، ويمسحَ بهما جميعَ وجهِهِ مرَّةً واحدةً ، وينويَ عندَهُ استباحةَ الصلاةِ .

ولا يتكلَّفُ إيصالَ الغبارِ إلىٰ ما تحتَ الشعورِ ، خفَّتْ أوْ كثُفَتْ ، ويجتهدُ أنْ يستوعبَ بشرةَ وجهِهِ بالغبارِ ، ويحصلُ ذلكَ بالضربةِ الواحدةِ ؛ فإنَّ عرْضَ الوجهِ لا يزيدُ علىٰ عرْضِ الكفينِ ، ويكفي في الاستيعابِ غالبُ الظنِّ ، ثمَّ ينزعُ خاتمَهُ ويضربُ ضربةً ثانيةً يفرِّجُ فيها بينَ أصابعِهِ ، ثمَّ يلصقُ ظهورَ أصابعِ يدِهِ اليمنىٰ ببطونِ أصابعِ يدِهِ اليسرىٰ بحيثُ لا يجاوزُ أطرافَ

الأناملِ مِنْ إحدى الجهتينِ عرْضَ المسبِّحَةِ مِنَ الأخرىٰ ، ثمَّ يُمِرُّ يدَهُ اليسرىٰ مِنْ حيثُ وضعَها علىٰ ظاهرِ ساعدِهِ اليمنىٰ إلى المِرفَقِ ، ثمَّ يقلبُ بطْنَ كفِّهِ اليسرىٰ علىٰ باطنِ ساعِدِهِ اليمنىٰ ويُمِرُّها إلى الكوعِ ، ويُمِرُّ بطنَ إبهامِهِ اليسرىٰ علىٰ ظاهرِ إبهامِهِ اليمنىٰ ، ثمَّ يفعلُ باليدِ اليسرىٰ كذلكَ ، ثمَّ يمسحُ كفَّيهِ ويخلِّلُ بينَ أصابعِهِ .

وغرضُ هٰذا التكليفِ تحصيلُ الاستيعابِ إلى المرفقينِ بضربةٍ واحدةٍ ، فإنْ عَسُرَ عليهِ ذلكَ . . فلا بأسَ بأنْ يستوعبَ بضربتينِ وزيادةٍ .

فإذا صلَّىٰ بهِ الفرْضَ . . فلهُ أنْ يتنفَّلَ كيفَ شاءَ ، فإنْ جمعَ بينَ فرضينِ . . فينبغي أنْ يعيدَ التيمُّمَ للثانيةِ ، وهٰكذا يفردُ كلَّ فريضةٍ بتيمُّمٍ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

القِسمُ الثَّالِثُ مِنَ النَّظافَة
التّنظيف عن الفضلات الظّاهرة
وهي نوعان : أوساخ ، وأجزاء(١)

النّوع الأوّل : الأوساخ والرّطوبات المترشّحة
وهي ثمانية

الأوَّلُ : ما يجتمعُ في شعرِ الرأسِ مِنَ الدَّرَنِ والقمْلِ ، فالتنظيفُ عنْهُ مستحبٌّ بالغسْلِ والترجيلِ والتدهينِ ؛ إزالةً للشعَثِ عنهُ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدهنُ الشعرَ ويُرَجِّلُهُ غِبّاً ، ويأمرُ بهِ ويقولُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ادَّهنوا غِبّاً »(٢) .

---

(١) فالأوساخ : ما تطرأ من خارج ، والأجزاء : تكون من البدن نفسه . انظر « الإتحاف » (٢/ ٣٩٥) .

(٢) **الغِبُّ** : أصله : ورود الإبل الماء يوماً وتركه يوماً ، ثم استعمل فيما ذكر ، وإنما جاء النهي عن الترجل إلا غبّاً لأن إدمانه يشعر بمزيد الإمعان في الزينة والترفه ، وذلك إنما يليق بالنساء ؛ لأنه ينافي شهامة الرجال . انظر « الإتحاف » (٢/ ٣٩٥) ، والحديث رواه العسكري في « تصحيفات المحدثين » (ص٣٦٠) ، وروى الترمذي في « الشمائل » (٣٣) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ، وتسريح لحيته ، ويكثر القناع ، حتىٰ كأن ثوبه ثوب زيّات) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كانَ لهُ شعرةٌ . . فليكرمهَا »[1] أي : ليصنْها عَنِ الأوساخِ .

ودخلَ عليهِ رجلٌ ثائرُ الرأسِ أشعثُ اللّحيةِ ، فقالَ : « أما كانَ لهـٰذا دُهْنٌ يُسَكِّنُ بهِ شعرَهُ ؟ » ، ثمَّ قالَ : « يدخلُ عليَّ أحدُكُمْ كأنَّهُ شيْطانٌ ؟! »[2] .

❊ ❊ ❊

الثاني : ما يجتمعُ مِنَ الوسخِ في معاطفِ الأُذُنِ ، والمسحُ يزيلُ ما يظهرُ منهُ ، وما يجتمعُ في قعْرِ الصماخِ ، فينبغي أنْ ينظِّفَ برفْقٍ عندَ الخروجِ مِنَ الحمَّامِ ، فإنَّ كثرةَ ذلكَ ربَّما تضرُّ بالسمعِ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : ما يجتمعُ في داخلِ الأنفِ مِنَ الرطوباتِ المنعقدةِ الملتصقةِ بجوانبهِ ، ويزيلها الاستنشاقُ والاستنثارُ .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : ما يجتمعُ على الأسنانِ وأطرافِ اللسانِ مِنَ القَلَحِ ، ويزيلُهُ السواكُ والمضمضةُ ، وقدْ ذكرناهُما .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داوود (٤١٦٣) ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢/ ١٤٤) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٩) ، وأبو داوود (٤٠٦٢) .

الخامسُ : ما يجتمعُ في اللحيةِ مِنَ الوسخِ والقمْلِ إذا لمْ يتعهَّدْ ، ويستحبُّ إزالةُ ذلكَ بالغسْلِ والتسريحِ بالمُشْطِ ، وفي الخبرِ المشهورِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ لا يفارقُهُ المُشْطُ والمِدْرَىٰ والمرآةُ في سفرٍ ولا حضرٍ(١) ، وهيَ سنَّةُ العربِ .

وفي خبرٍ غريبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يسرِّحُ لحيتَهُ في اليوم مرَّتينِ(٢) ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثَّ اللحيةِ(٣) ، وكذلكَ كانَ أبو بكرٍ ، وكانَ عثمانُ طويلَ اللحيةِ رقيقَها ، وكانَ عليٌّ عريضَ اللحيةِ قدْ ملأَتْ ما بينَ منكِبيهِ .

وفي حديثٍ أغربَ منهُ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : اجتمعَ قومٌ ببابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فخرجَ إليهِم ، فرأيتُهُ يطلعُ في الحُبِّ يسوِّي مِنْ رأسِهِ ولحيتِهِ ، فقلتُ : أوَتفعلُ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟! فقالَ : « نعم ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ منْ عبدِهِ أنْ يتجمَّلَ لإخوانِهِ إذا خرجَ إليهِمْ »(٤) .

والجاهلُ ربَّما يظنُّ أنَّ ذلك مِنْ حبِّ التزيُّنِ للناسِ ، قياساً علىٰ أخلاقِ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢٣٨) ، وابن طاهر في « صفوة التصوف » (ص ٣٩٢) ، **والمِدْرَىٰ** : القرن الذي يحك به الرأس .

(٢) تقدم عند الترمذي في « الشمائل » (٣٩) أنه كان يكثر تسريح لحيته .

(٣) رواه النسائي (٨/ ١٨٣) .

(٤) قال العراقي : (أخرجه ابن عدي في « الكامل ») ، **والحُب** : وعاء كالخابية فيها ماء . ومعنىٰ (**أن يتجمَّل لإخوانه**) : أن يريهم أثر جمال الله تعالىٰ . انظر « الإتحاف » (٢/ ٣٩٦) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (٢/ ١٤٤) .

غيرِهِ ، وتشبيهاً للملائكةِ بالحَدّادينَ ، وهيهاتَ ! فقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مأموراً بالدعوةِ ، وكانَ مِنْ وظائفِهِ أنْ يسعىٰ في تعظيمِ أمرِ نفسِهِ في قلوبِهِمْ ؛ كيلا تزدريَهُ نفوسُهُمْ ، وتحسينِ صورتِهِ في أعينِهِمْ ؛ كيلا تستصغرَهُ أعينُهُمْ فينفِّرَهُمْ ذلكَ ، ويتعلَّقَ المنافقونَ بذلكَ في تنفيرِهِمْ ، وهٰذا القصْدُ واجبٌ علىٰ كلِّ عالمٍ تصدَّىٰ لدعوةِ الخلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أنْ يراعيَ مِنْ ظاهرِهِ ما لا يوجبُ نفرةَ الناسِ عنهُ ، والاعتمادُ في مثلِ هٰذهِ الأمورِ على النيّةِ ؛ فإنَّها أعمالٌ في أنفسِها تكتسبُ الأوصافَ مِنَ القُصُودِ ؛ فالتزيُّنُ علىٰ هٰذا القصْدِ محبوبٌ ، وترْكُ الشعَثِ في اللحيةِ إظهاراً للزهدِ وقلَّةِ المبالاةِ بالنفسِ محذورٌ ، وتركُهُ شغلاً بما هوَ أهمُّ منهُ محبوبٌ[1] .

وهٰذهِ أحوالٌ باطنةٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والناقدُ بصيرٌ ، والتلبيسُ غيرُ رائجٍ عليهِ بحالٍ .

وكمْ مِنْ جاهلٍ يتعاطىٰ هٰذهِ الأمورَ التفاتاً إلى الخلقِ ، وهوَ يلبِّسُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ غيرِهِ ، ويزعمُ أنَّ قصدَهُ الخيرُ ؛ فترىٰ أنَّ جماعةً مِنَ العلماءِ يلبَسونَ الثيابَ الفاخرةَ ويزعمونَ أنَّ قصدَهُمْ إرغامُ المبتدعةِ والمخالفينَ ، والتقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بهِ !

وهٰذا أمرٌ ينكشفُ يومَ تُبْلَى السرائرُ ويومَ يُبعثرُ ما في القبورِ ، ويُحَصَّلُ

---

(١) انظر « الإتحاف » (٢/ ٣٩٧) .

ما في الصدورِ ، فعندَ ذلكَ تتميَّزُ السبيكةُ الخالصةُ مِنَ البهرجِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الخزيِ يومَ العرْضِ الأكبرِ .

* * *

السادسُ : وسخُ البراجمِ ، وهيَ معاطفُ ظهورِ الأناملِ ، كانتِ العربُ لا تكثرُ غسْلَ ذلكَ ؛ لتركِها غسْلَ اليدِ عقيبَ الطعامِ ، فيجتمعُ في تلكَ الغضونِ وسخٌ ، فأمرَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بغسْلِ البراجمِ[1] .

* * *

السابعُ : تنظيفُ الرواجبِ ، أمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العربَ بتنظيفِها[2] ، وهيَ رؤوسُ الأناملِ ، وما تحتَ الأظفارِ مِنَ الوسخِ ؛ لأنَّها كانتْ لا يحضرُها المِقْراضُ في كلِّ وقتٍ ، فتجتمعُ فيها أوساخٌ ، فوقَّتَ لهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَلْمَ الأظفارِ ، ونتْفَ الإبطِ ، وحَلْقَ العانةِ أربعينَ يوماً[3] .

لكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَ بتنظيفِ ما تحتَ الأظفارِ[4] ، وجاءَ في

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٤٥) ويفيد معناه ما سيأتي من حديث جبريل .

(٢) سيأتي من حديث جبريل الآتي .

(٣) رواه مسلم (٢٥٨) ، قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح صحيح مسلم » (٣/ ١٤٩) : (معناه ـ أي : التوقيت ـ : لا يترك تركاً يتجاوز به أربعين ، لا أنهم وُقِّتَ لهم الترك أربعين ، والله أعلم) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٤٧) .

الأثرِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استبطأَ الوحيَ ، فلمَّا هبطَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ . قالَ لهُ : كيفَ ننزلُ عليكمْ وأنتمْ لا تغسلونَ براجمَكُمْ ، ولا تنظِّفونَ رواجبَكُمْ ، وقُلْحاً لا تستاكونَ ؟ مرْ أمَّتَكَ بذلكَ[1] .

والأُفُّ : وسخُ الظفرِ ، والتُّفُّ : وسخُ الأذنِ[2] ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي : لا تعبْهُما بما تحتَ الظفرِ مِنَ الوسخِ ، وقيلَ : لا تتأذَّ بهما كما تتأذَّىٰ بما تحتَ الظفرِ[3] .

* * *

الثامنُ : الدرَنُ الذي يجتمعُ علىٰ جميعِ البدنِ برشْحِ العرَقِ وغبارِ الطريقِ ، وذلكَ يزيلُهُ الحمَّامُ ، ولا بأسَ بدخولِ الحمَّامِ[4] ؛ دخلَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حمَّاماتِ الشامِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (نعمَ البيتُ بيتُ الحمَّامِ ؛ يطهِّرُ البدنَ ويذكِّرُ النارَ) ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨١٦) .

(٢) وقيل بالعكس ، وهو ما ذكره الحافظ الزبيدي في « تاج العروس » .

(٣) في « مفردات الراغب » (ص٧٩) : (أصل الأف : كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر وما يجري مجراها ، ويقال ذلك لكل مُستَخفٍّ به استقذاراً له ؛ نحو : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾) ، وانظر « الجامع لأحكام القرآن » (١٠/ ٢٤٢) .

(٤) أي : الذي في الأسواق ، وسيأتي تفصيل القول فيه ، وقد أفاد المؤلف كثيراً من « قوت القلوب » (٢/ ٢٦٠) ؛ إذ عقد الإمام أبو طالب المكي فيه فصلاً سمّاه : (كتاب ذكر دخول الحمام) .

رُوي ذلكَ عَنْ أبي الدرداءِ وأبي أيوبَ الأنصاريِّ رضيَ اللهُ عنهما[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (بئسَ البيتُ بيتُ الحمَّامِ ؛ يبدي العورةَ ، ويُذهِبُ الحياءَ)[2] .

فهٰذا تعرَّضَ لآفتِهِ ، وذلكَ تعرَّضَ لفائدتِهِ ، ولا بأسَ بطلبِ فائدتِهِ عندَ الاحترازِ منْ آفتِهِ .

❊ ❊ ❊

ولكنْ علىٰ داخلِ الحمَّامِ وظائفُ من السننِ والواجباتِ ، فعليهِ واجبانِ في عورتِهِ ، وواجبانِ في عورةِ غيرِهِ .

❊ ❊ ❊

أمَّا الواجبانِ في عورته : فهوَ أنْ يصونَها عَنْ نظرِ الغيرِ ، ويصونَها عَنْ مسِّ الغيرِ ، فلا يتعاطىٰ أمرَها وإزالةَ وسخِها إلا بيدِهِ ، ويمنعُ الدلاَّكَ مِنْ مسِّ الفخذِ وما بينَ السرَّةِ إلى العانةِ ، وفي إباحةِ مسِّ ما ليسَ بسوءةٍ لإزالةِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٣ ، ١١٧٦ ، ١١٧٩) عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٣٠٩) عن أبي الدرداء وابن عمر رضي الله عنهم .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٢) عن سيدنا علي مجتزأً ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٣٠٩) عن أبي الدرداء أيضاً ، والأمر كما قال الإمام أبو طالب رحمه الله تعالىٰ في « القوت » (٢/ ٢٦٠) : (وقد اختلف مواجيد الصحابة في دخوله ، وكلٌّ فيه قدوة وهدىً) .

الوسخِ احتمالٌ ، لكنَّ الأقيسَ التحريمُ ؛ إذْ أُلحِقَ مسُّ السوءتينِ في التحريمِ بالنظرِ ؛ فكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ بقيَّةُ العورةِ ؛ أعني الفخذَيْنِ .

والواجبانِ في عورةِ الغيرِ : أنْ يغضَّ بصرَ نفسِهِ عنْها ، وأنْ ينهىٰ عنْ كشفِها ؛ لأنَّ النهيَ عَنِ المنكرِ واجبٌ ، وعليهِ ذكرُ ذلكَ ، وليسَ عليهِ القبولُ ، ولا يسقطُ عنهُ وجوبُ الذكرِ إلا لخوفِ ضربٍ أو شتمٍ أو ما يجري عليه ممَّا هو حرامٌ في نفسِهِ ، فليسَ عليهِ أنْ ينكرَ حراماً يُرهقُ[1] المنكرَ عليهِ إلىٰ مباشرةِ حرامٍ آخرَ ، فأمَّا قولُهُ : (أعلمُ أنَّ ذلكَ لا يفيدُ ولا يعملُ بهِ) ، فهٰذا لا يكونُ عذراً ، بلْ لا بدَّ مِنَ الذكرِ ؛ فلا يخلو قلبٌ عنِ التأثُّرِ بسماعِ الإنكارِ ، واستشعارِ الاحترازِ عندَ التعييرِ بالمعاصي ، وذلكَ يؤثِّرُ في تقبيحِ الأمرِ في عينِهِ وتنفيرِ نفسِهِ عنهُ ، فلا يجوزُ تركُهُ .

ولمثلِ هٰذا صارَ الحزمُ تركَ دخولِ الحمَّامِ في هٰذهِ الأوقاتِ ؛ إذْ لا تخلو عن عوراتٍ مكشوفةٍ ، لا سيما ما تحتَ السرَّةِ إلىٰ ما فوقَ العانةِ ، إذِ الناسُ لا يعدُّونَها عورةً ، وقدْ ألحقَها الشرعُ بالعورةِ وجعلَها كالحريمِ لها ، ولهٰذا يستحبُّ تخليةُ الحمَّامِ .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (ما أعنِّفُ رجلاً لا يملكُ إلا درهماً دفعَهُ ليخلَّىٰ لهُ الحمَّامُ)[2] .

---

(١) يرهق : يَحْمِلُ ويُلجىءُ .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٠) بنحوه .

ورُئِي ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما في الحمَّامِ ووجهُهُ إلى الحائطِ ، وقدْ عصبَ عينيهِ بعصابةٍ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (لا بأسَ بدخولِ الحمَّامِ ولكنْ بإزارينِ : إزارٍ للعورةِ ، وإزارٍ للرأسِ يتقنَّعُ بهِ ويحفظُ عينيهِ)[2] .

* * *

وأمَّا السننُ . . فعشرةٌ :

ـ فالأولُ : النيّةُ ، وهوَ ألاَّ يدخلَ الحمامَ لعاجلِ دنيا ، ولا عابثاً لأجلِ هوىً ، بلْ يقصدُ بهِ التنظُّفَ المحبوبَ تزيُّناً للصلاةِ .

ـ ثمَّ يعطي الحماميَّ الأجرةَ قبلَ الدخولِ ؛ فإنَّ ما يستوفيهِ مجهولٌ ، وكذا ما ينتظرُهُ الحماميُّ ، فتسليمُ الأجرةِ قبلَ الدخولِ دفعٌ للجهالةِ مِنْ أحدِ العوضينِ ، وتطييبٌ لنفسِهِ .

ـ ثمَّ يقدمُ رجلَهُ اليسرىٰ عندَ الدخولِ .

ـ ويقولُ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، أعوذُ باللهِ مِنَ الرجسِ النجسِ ، الخبيثِ المُخْبِثِ ، الشيطانِ الرجيمِ .

ـ ثمَّ يدخلُ وقتَ الخلوةِ ، أوْ يتكلَّفُ تخليةَ الحمّامِ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يكنْ في الحمامِ إلا أهلُ الدينِ والمحتاطونَ للعوراتِ . . فالنظرُ إلى الأبدانِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦١) بنحوه .

مكشوفةً فيهِ شائبةٌ مِنْ قلَّةِ الحياءِ ، وهوَ مذكِّرٌ للتأمُّلِ في العوراتِ ، ثمَّ لا يخلو الناسُ في الحركاتِ عَنِ انكشافِ العوراتِ بانعطافٍ في أطرافِ الأُزُرِ ، فيقعُ البصرُ على العورةِ مِنْ حيثُ لا يدري ، ولأجلِهِ عصبَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما عينيهِ .

ـ ويغسلُ جناحيهِ عندَ الدخولِ .

ـ ولا يعجِّلُ بدخولِ البيتِ الحارِّ حتَّىٰ يعرقَ في الأوَّلِ .

ـ وألاَّ يكثرَ صبَّ الماءِ ، بلْ يقتصرُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ ؛ فإنَّهُ المأذونُ فيهِ بقرينةِ الحالِ ، والزيادةُ عليهِ لوْ علمَهُ الحماميُّ . . لكرهَهُ ، لا سيَّما الماءُ الحارُّ ؛ فلهُ مؤنةٌ وفيهِ تعبٌ .

ـ وأنْ يتذكَّرَ حرَّ النارِ بحرارةِ الحمَّامِ ، ويقدِّرَ نفسَهُ محبوساً في البيتِ الحارِّ ساعةً ، ويقيسَهُ إلىٰ جهنَّمَ ؛ فإنَّهُ أشبهُ بيتٍ بجهنَّمَ ، النارُ مِنْ تحتُ والظلامُ مِنْ فوقُ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، بلِ العاقلُ لا يغفُلُ عنْ ذكْرِ الآخرةِ في لحظةٍ ؛ فإنَّها مصيرُهُ ومستقرُّهُ ، فيكونُ لهُ في كلِّ ما يراهُ مِنْ ماءٍ أوْ نارٍ أوْ غيرِهِما عبرةٌ وموعظةٌ ، فإنَّ المرءَ ينظرُ بحسَبِ همَّتِهِ .

فإذا دخلَ بزازٌ ونجارٌ وبنَّاءٌ وحائكٌ داراً معمورةً مفروشةً ؛ فإذا تفقَّدتَهُمْ . . رأيتَ البزازَ ينظرُ إلى الفرشِ ويتأمَّلُ قيمتَها ، والحائكَ ينظرُ إلى الثيابِ يتأمَّلُ نسجَها ، والنجارَ ينظرُ إلى السقفِ يتأمَّلُ كيفيةَ تركيبِها ، والبنَّاءَ ينظرُ إلى الحيطانِ يتأمَّلُ كيفيةَ إحكامِها واستقامتِها ؛ فكذلكَ سالكُ طريقِ

الآخرةِ ، لا يرىٰ مِنَ الأشياءِ شيئاً إلاَّ ويكونُ لهُ موعظةٌ وذكرىٰ للآخرةِ ، بلْ لا ينظرُ إلىٰ شيءٍ إلاَّ ويفتحُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ طريقَ عبرةٍ ، فإنْ نظرَ إلىٰ سوادٍ . . تذكَّرَ ظلمةَ اللحدِ ، وإنْ نظرَ إلىٰ حيَّةٍ . . تذكَّرَ أفاعيَ جهنَّمَ ، وإنْ نظرَ إلىٰ صورةٍ قبيحةٍ شنيعةٍ . . تذكَّرَ مُنْكراً ونَكِيراً والزبانيةَ ، وإنْ سمعَ صوتاً هائلاً . . تذكَّرَ نفخةَ الصورِ ، وإنْ رأىٰ شيئاً حسناً . . تذكَّرَ نعيمَ الجنَّةِ ، وإنْ سمعَ كلمةَ ردٍّ أوْ قَبولٍ في سوقٍ أوْ دارٍ . . تذكَّرَ ما ينكشفُ مِنْ آخرِ أمرِهِ بعدَ الحسابِ مِنَ الردِّ أوِ القبولِ .

وما أجدرَ أنْ يكونَ هـٰذا هوَ الغالبَ علىٰ قلبِ العاقلِ ؛ إذْ لا يصرفُهُ عنهُ إلا مهمَّاتُ الدنيا ، فإذا نَسَبَ مدةَ المُقامِ في الدنيا إلىٰ مدَّةِ المُقامِ في الآخرةِ . . استحقرَها إنْ لمْ يكنْ ممَّن أُغفلَ قلبُهُ وأُعميتْ بصيرتُهُ .

ـ ومنَ السننِ : ألاَّ يسلِّمَ عندَ الدخولِ ، وإنْ سُلِّمَ عليهِ . . لمْ يجبْ بلفظِ السلامِ ، بلْ يسكتُ إنْ أجابَ غيرُهُ ، وإنْ أحبَّ . . قالَ : عافاكَ اللهُ(١) .

ولا بأسَ بأنْ يصافحَ الداخلَ ويقولَ : عافاكَ اللهُ لابتداءِ الكلامِ ، ثمَّ لا يكثرُ الكلامَ في الحمَّامِ ، ولا يقرأُ القرآنَ إلا سرّاً ، ولا بأسَ بإظهارِ الاستعاذةِ مِنَ الشيطانِ .

---

(١) أي : محا عنك الذنوب والأسقام ، وقد صارت هـٰذه الكلمة معروفة في خطاب من يخرج من الخلاء ، أو يقول : عوفيت وشفيت ، أو نعيماً لكم ، أو ما أشبه ذلك . « إتحاف » (٢/ ٤٠٤) .

ويكرَهُ دخولُ الحمَّامِ بينَ العشاءينِ وقريباً مِنَ الغروبِ ؛ فإنَّ ذلكَ وقتُ انتشارِ الشياطينِ .

ولا بأسَ بأنْ يدلكَهُ غيرُهُ ؛ فقدْ نُقِلَ عَنْ يوسفَ بنِ أسباطٍ أنَّه أوصىٰ بأنْ يغسِّلَهُ إنسانٌ لمْ يكنْ مِنْ أصحابِهِ ، وقالَ : إنَّهُ دلَّكَنِي في الحمَّامِ مرَّةً ، فأردتُ أنْ أكافئَهُ بما يفرحُ بِهِ ، وإنَّهُ ليفرحُ بذلكَ[1] .

ويدلُّ علىٰ جوازِهِ ما رَوَىٰ بعضُ الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نزلَ منزلاً في بعضِ أسفارِهِ ، فنامَ علىٰ بطنِهِ وعبدٌ أسودُ يغمزُ ظهرَهُ ، فقلتُ : ما هٰذا يا رسُولَ اللهِ ؟ فقالَ : « إنَّ الناقةَ تقَحَّمَتْ بي »[2] .

ثمَّ مهما فرغَ مِنَ الحمَّامِ . . شكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ هٰذهِ النعمةِ ؛ فقدْ قيلَ : (الماءُ الحارُّ في الشتاءِ مِنَ النعيمِ الذي يُسألُ عنهُ)[3] ، وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (الحمَّامُ مِنَ النعيمِ الذي أحدثوهُ)[4] .

هٰذا من جهةِ الشرعِ .

أمَّا مِنْ جهةِ الطبِّ . . فقدْ قيلَ : الحمَّامُ بعدَ النُّورةِ أمانٌ مِنَ الجذامِ[5] .

وقيلَ : (النُّورةُ في كلِّ شهرٍ مرةً تطفىءُ الحرارةَ وتنقِّي اللونَ ، وتزيدُ في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦١) .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٨٣) ، **تقحّمت** : رمتْ بي من علىٰ ظهرها .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٦١) ، ولطائف الإشارات (٣/ ٧٦٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٦١) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٦١) وفيه : (الحنَّاء) بدل (الحمَّام)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٩٣)

الجماعِ) ، وقيلَ : (بولةٌ في الحمامِ قائماً في الشتاءِ أنفعُ مِنْ شربةِ دواءٍ) ، وقيلَ : (نومةٌ في الصيفِ بعدَ الحمامِ تعدلُ شربةَ دواءٍ ، وغسلُ القدمينِ بماءٍ باردٍ بعدَ الخروجِ مِنَ الحمَّامِ أمانٌ مِنَ النقرسِ)[1] .

ويكرَهُ صبُّ الماءِ الباردِ على الرأسِ عندَ الخروجِ ، وكذا شربُهُ . **هـٰذا حكمُ الرجالِ** .

وأمَّا النساءُ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ للرجلِ أنْ يُدخِلَ حليلتَهُ الحمَّامَ وفي البيتِ مُستحَمٌّ »[2] .

والمشهورُ أنَّهُ حرامٌ على الرجالِ دخولُ الحمامِ إلا بمئزرٍ ، وحرامٌ على المرأةِ دخولُ الحمامِ إلاَّ نفساءَ أوْ مريضةً[3] .

ودخلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها حمَّاماً مِنْ سقمٍ بها[4] ، فإنْ دخلتْ لضرورةٍ . . فلا تدخلُ إلا بمئزرٍ سابغٍ .

ويكرَهُ للرجلِ أنْ يعطيَها أجرةَ الحمَّامِ، فيكونَ معيناً لها على المكروهِ[5].

* * *

(١) ذكر ذلك كله الإمام أبو طالب في « قوت القلوب » (٢ / ٢٦١) .
(٢) رواه الترمذي (٢٨٠١) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٠١١) بلفظ : « إنها ستفتح لكم أرض العجم ، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات ، فلا يدخلنها الرجال إلا بالأُزُر ، وامنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء » .
(٤) كذا في « قوت القلوب » (٢ / ٢٦١) ، وللبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٣٨٢) عن عائشة رضي الله عنها : (ما يسرُّ عائشة أن لها مثل أحد ذهباً وأنها دخلت الحمام) .
(٥) قوت القلوب (٢ / ٢٦١) .

النّوع الثّاني : ممّا يُحذف من البدن : الأجزاء وهي ثمانية

الأوّلُ : شعرُ الرأسِ : ولا بأسَ بحلقِهِ لمَنْ أرادَ التنظيفَ ، ولا بأسَ بتركِهِ لمَنْ يدَّهِنُ ويُرجِّلُ ، إلاَّ إذا تركَهُ قزَعاً ؛ أي : قطعاً ، فهوَ دأبُ أهلِ الشطارةِ ، أوْ أرسلَ الذوائبَ علىٰ هيئةِ أهلِ الشرفِ حيثُ صارَ ذلكَ شعاراً لهُمْ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يكنْ شريفاً . . كانَ ذلكَ تلبيساً .

* * *

الثاني : شعرُ الشاربِ : وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قُصُّوا الشواربَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « جُزُّوا الشوارِبَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « حُفُّوا الشوارِبَ واعْفُوا اللِّحَىٰ »[1] أي : اجعلوها حفافَ الشفَةِ ؛ أي : حولَها ، وحفافُ الشيءِ : حولَهُ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ ، وفي لفظٍ آخرَ : « احْفُوا » ، وهـٰذا يشعرُ بالاستئصالِ ، وقولُهُ : « حُفُّوا » يدلُّ علىٰ ما دونَ ذلكَ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ أي : يستقصي عليكُمْ .

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩٢) ، ومسلم (٢٥٩ ، ٢٦٠) .

وأمَّا الحلقُ . . فلم يَرِدْ[1] ، والإحفاءُ القريبُ مِنَ الحلْقِ نُقِلَ عنِ الصحابةِ ؛ نظرَ بعضُ التابعينَ إلىٰ رجلٍ قدْ أحفىٰ شاربَهُ فقالَ : ذكرتني أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وقالَ المغيرةُ بنُ شعبةَ : نظرَ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ طالَ شاربي فقالَ : « تعالَ ؛ فقَصَّهُ لي علىٰ سِواكٍ »[2] .

ولا بأسَ بتركِ سباليهِ ، وهما طرفا الشاربِ ، فعلَ ذلكَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وغيرُهُ ؛ لأنَّ ذلكَ لا يسترُ الفمَ ، ولا يبقىٰ فيه غمَرُ الطعامِ ، إذْ لا يصلُ إليهِ .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعْفُوا اللِّحَىٰ » أي : كثِّرُوها .

وفي الخبرِ : «إنَّ اليهودَ يعْفُونَ شواربَهُمْ ويقصُّونَ لحاهُمْ، فخالِفوهُمْ»[3] .

وكرِهَ بعضُ العلماءِ الحلْقَ ورآهُ بدعةً[4] .

* * *

الثالثُ : شعرُ الإبْطِ : ويستحبُّ نتفُهُ في كلِّ أربعينَ يوماً مرَّةً ، وذلكَ

---

(١) ولعل ما ورد في « السنن الكبرىٰ » للنسائي (٩) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « خمس من الفطرة » وذكر : « وحلق الشارب » يحمل على الإحفاء القريب من الحلق ؛ لئلا تتضادَّ الروايات . « إتحاف » (٢/ ٤٠٨) بتصرف .

(٢) رواه أبو داوود (١٨٨) .

(٣) روىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ٢٦٤) في أثناء حديث لأبي أمامة رضي الله عنه : فقلنا : يا رسول الله ؛ إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ، ويوفرون سبالهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم ، وخالفوا أهل الكتاب » .

(٤) وهو الإمام مالك ، فقد عدَّ حلقه بدعة ومثلة . انظر « مواهب الجليل » (١/ ٣١٣) .

سهلٌ علىٰ مَنْ تعوَّدَ في الابتداءِ نتفَهُ ، فأمَّا مَنْ تعوَّدَ الحلْقَ.. فيكفيهِ الحلْقُ ؛ إذْ في النتْفِ تعذيبٌ وإيلامٌ ، والمقصودُ النظافةُ ، وألاَّ يجتمعَ الوسخُ في خللِها ، ويحصلُ ذلكَ بالحلْقِ .

❋ ❋ ❋

الرابعُ : **شعرُ العانةِ** : ويستحبُّ إزالةُ ذلكَ إمَّا بالحلْقِ أوْ بالنورةِ ، ولا ينبغي أنْ يتأخرَ عنْ أربعينَ يوماً .

❋ ❋ ❋

الخامسُ : **الأظفارُ** : وتقليمُها مستحبٌّ لشناعةِ صورتِها إذا طالتْ ، ولِما يجتمعُ فيها مِنَ الوسخِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ قَلِّمْ أظفارَكَ ؛ فإنَّ الشيطانَ يقعُدُ علىٰ ما طالَ منها »[1] .

ولوْ كانَ تحتَ الظُّفرِ وسخٌ.. فلا يمنعُ ذلكَ صحَّةَ الوضوءِ ؛ **لأنَّهُ** لا يمنعُ وصولَ الماءِ ، ولأنَّهُ يُتساهلُ فيهِ للحاجةِ ، لا سيما في أظفارِ الرجْلِ ، وفي الأوساخِ التي تجتمعُ على البراجمِ وظهورِ الأرجُلِ والأيدي مِنَ العربِ وأهلِ السوادِ[2] ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُهُمْ

---

(١) كذا هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥٧٩) عن علي رضي الله عنه ، وروى الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/٥٨٩) : « خللوا لحاكم ، وقصوا أظافيركم ؛ فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر » .

(٢) أراد بالعرب سكانَ البادية ، وبالسواد سكانَ القرىٰ والريف ، وغالباً ما يستعملها المصنف بهٰذا المعنىٰ .

بالقلْمِ ، وينكرُ ما يرىٰ تحتَ أظفارِهِمْ مِنَ الأوساخِ ، ولمْ يأمرْهُمْ بإعادةِ الصلواتِ ، ولوْ أمرَ بهِ . . لكانَ فيهِ فائدةٌ أخرىٰ ، وهيَ التغليظُ والزجرُ عَنْ ذلكَ .

ولمْ أرَ في الكتبِ خبراً مروياً في ترتيبِ قلْمِ الأظفارِ ، ولكنْ سمعتُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بدأَ بمسبِّحتِهِ اليمنىٰ ، وختمَ بإبهامِ اليمنىٰ ، وابتدأَ في اليسرىٰ بالخنصَرِ إلى الإبهامِ .

ولمَّا تأملتُ في هـٰذا . . خطرَ لي منَ المعنىٰ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الروايةَ فيهِ صحيحةٌ ؛ إذْ مثلُ هـٰذا المعنىٰ لا ينكشفُ ابتداءً إلا بنورِ النبوَّةِ ، وأمَّا العالِمُ ذو البصيرةِ . . فغايتُهُ أنْ يستنبطَهُ مِنَ العقلِ بعدَ نقلِ الفعلِ إليهِ .

والذي لاحَ لي فيهِ والعلمُ عندَ اللهِ سبحانَهُ : أنَّهُ لا بدَّ مِنْ قلْمِ أظفارِ اليدِ والرجلِ ، واليدُ أشرفُ مِنَ الرجْلِ ، فيبدأُ بها ، ثمَّ اليمنىٰ أشرفُ مِنَ اليسرىٰ فيبدأُ بها ، ثمَّ على اليمنىٰ خمسةُ أصابعَ ، والمسبِّحَةُ أشرفُها ؛ إذْ هيَ المشيرةُ في كلمتيِ الشهادةِ مِنْ جملةِ الأصابعِ ، ثمَّ بعدَها ينبغي أنْ يبتدئَ بما علىٰ يمينِها ؛ إذِ الشرعُ يستحبُّ إدارةَ الطهورِ وغيرِهِ على اليمينِ ، وإنْ وضعتَ ظهرَ الكفِّ على الأرضِ . . فالإبهامُ هوَ اليمينُ ، وإنْ وضعتَ بطنَ الكفِّ[1] . . فالوسطىٰ هيَ اليمنىٰ[2] ، واليدُ إذا تركتْ بطبعِها . . كانَ الكفُّ

(١) أي : علىٰ بطنها .
(٢) أي : باعتبار المسبِّحة .

مائلاً إلىٰ جهةِ الأرضِ ، إذْ جهةُ حركةِ اليمنىٰ إلى اليسارِ ، واستتمامُ الحركةِ إلى اليسارِ يجعلُ ظهرَ الكفِّ عالياً ، فما يقتضيهِ الطبعُ أولىٰ .

ثمَّ إذا وُضعتِ الكفُّ على الكفِّ .. صارتِ الأصابعُ في حكْمِ حلقةٍ دائرةٍ ، فيقتضي ترتيبُ الدورِ الذهابَ عنْ يمينِ المسبِّحَةِ إلىٰ أنْ يعودَ إلى المسبِّحَةِ ، فتقعُ البدايةُ بخنصرِ اليسرىٰ ، والختمُ بإبهامِها ، ويبقىٰ إبهامُ اليمنىٰ فيختمُ بهِ التقليمَ .

وإنَّما قدرتُ الكفَّ موضوعاً على الكفِّ حتَّىٰ تصيرَ الأصابعُ كأشخاصٍ في حلقةٍ ليظهرَ ترتيبُها ، وتقديرُ ذلكَ أولىٰ من تقديرِ وضعِ الكفِّ علىٰ ظهرِ الكفِّ ، أوْ وضعِ ظهرِ الكفِّ علىٰ ظهرِ الكفِّ ، فإنَّ ذلك لا يقتضيهِ الطبعُ(١) .

وأمَّا أصابعُ الرجْلِ .. فالأولىٰ عندي إذْ لم يثبتْ فيها نقلٌ : أنْ يبدأَ بخنصرِ اليمنىٰ ، ويختمَ بخنصرِ اليسرىٰ كما في التخليلِ ؛ فإنَّ المعانيَ التي ذكرناها في اليدِ لا تتجهُ هاهنا ؛ إذْ لا مسبِّحةَ في الرجلِ ، وهاذهِ الأصابعُ في حكمِ صفٍّ واحدٍ ثابتٍ على الأرضِ ، فيبدأُ مِنْ جانبِ اليمينِ ، فإنَّ تقديرَها حلقةً بوضعِ الأخمصِ على الأخمصِ يأباهُ الطبعُ بخلافِ اليدينِ .

وهاذهِ الدقائقُ في الترتيبِ تنكشفُ بنورِ النبوَّةِ في لحظةٍ ، وإنما يطولُ

---

(١) فالصورة التي انتهىٰ إليها المصنف رحمه الله تعالىٰ : الابتداء بالقصِّ بمسبحة اليمنىٰ ثم وُسْطاها ثم بنصرها ثم خنصرها ، ثم خنصر اليسرىٰ ثم بنصرها ثم وسطاها ثم سبابتها ثم إبهامها ، ثم يختم بإبهام اليمنىٰ .

التعبُ علينا ، ثمَّ لوْ سئلْنا ابتداءً عنِ الترتيبِ في ذلكَ . . ربَّما لمْ يخطرْ لنا ، وإذا ذكَرْنا فعلَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وترتيبَهُ . . ربَّما تيسَّرَ لنا بما عاينَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بشهادةِ الحكْمِ وتنبيهِهِ على المعنى استنباطُ المعنىٰ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ أفعالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جميعِ حركاتِهِ كانتْ خارجةً عن وزنٍ وقانونٍ وترتيبٍ ، بلْ جميعُ الأمورِ الاختياريةِ التي يتردَّدُ فيها الفاعلُ بينَ قسمينِ أوْ أقسامٍ . . كانَ لا يقدمُ علىٰ واحدٍ معيَّنٍ بالاتفاقِ ، بلْ بمعنىً يقتضي الإقدامَ والتقديمَ ؛ فإنَّ الاسترسالَ مهملاً كيفما اتفقَ سجيةُ البهائمِ ، وضبطُ الحركاتِ بموازينِ المعاني سجيةُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ .

وكلَّما كانتْ حركاتُ الإنسانِ وخطراتُهُ إلى الضبطِ أقربَ ، وعنِ الإهمالِ وتركِهِ سدىً أبعدَ . . كانتْ مرتبتُهُ إلىٰ رتبةِ الأولياءِ والأنبياءِ أكثرَ ، وكانَ قربُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أظهرَ ؛ إذِ القريبُ مِنَ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وهوَ القريبُ من اللهِ . . لا بدَّ أن يكونَ قريباً ؛ فالقريبُ مِنَ القريبِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ .

فنعوذُ باللهِ أنْ يكونَ زِمامُ حركاتِنا وسكناتِنا في يدِ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ .

واعتبرْ في ضبطِ الحركاتِ باكتحالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ كانَ يكتحلُ في عينِهِ اليمنىٰ ثلاثاً ، وفي اليسرى اثنينِ[1] ، فبدايتُهُ باليمنىٰ

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤١٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٩٥٣) .

لشرفِها ، وتفاوتُهُ بينَ العينينِ لتكونَ الجملةُ وتراً ؛ فإنَّ للوترِ فضلاً على الزوجِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ وِترٌ يحبُّ الوِترَ[1] ، فلا ينبغي أنْ يخلوَ فعلُ العبدِ مِنْ مناسبةٍ لوصفٍ مِنْ أوصافِ الربِّ تعالىٰ ، ولذلكَ استُحبَّ الإيتارُ في الاستجمارِ .

وإنَّما لمْ يقتصرْ على الثلاثِ وهوَ وترٌ لأنَّ اليسرىٰ لا يخصُّها إلا واحدةٌ ، والغالبُ أنَّ الواحدةَ لا تستوعبُ أصولَ الأجفانِ بالكُحْلِ ، وإنَّما خصَّصَ اليمينَ بالثلاثِ لأنَّ التفضيلَ لا بدَّ منهُ للإيتارِ ، واليمينُ أفضلُ ، فهيَ بالزيادةِ أحقُّ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : لمَ اقتصرَ على اثنينِ لليسرىٰ وهيَ زوجٌ ؟

فالجوابُ : أنَّ ذلكَ ضرورةٌ ؛ إذْ لو جعلَ لكلِّ واحدةٍ وتراً . . كانَ المجموعُ زوجاً ؛ إذِ الوترُ معَ الوترِ زوجٌ ، ورعايتُهُ الإيتارَ في مجموعِ الفعلِ وهوَ في حكْمِ الخصلةِ الواحدةِ أحبُّ مِنْ رعايتِهِ في الآحادِ[2] ، ولذلكَ أيضاً وجهٌ ، وهوَ أنْ يكتحلَ في كلِّ واحدةٍ ثلاثاً علىٰ قياسِ الوضوءِ ، وقدْ نقلَ ذلكَ في الصحيحِ ، وهوَ الأولىٰ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٠) ، ومسلم (٢٦٧٧) .
(٢) وهـٰذا علىٰ تقدير أن العينين في حكم عضو واحد ، فينظر فيه إلىٰ مجموع الفعل . « إتحاف » (٢/٤١٦) .
(٣) الاكتحال ثلاثاً في كل عين عند الترمذي (١٧٥٧) ، وابن ماجه (٣٤٩٩) .

ولوْ ذهبتُ أستقصي دقائقَ ما راعاهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حركاتِهِ . . لطالَ الأمرُ ، فقسْ بما سمعتَهُ ما لمْ تسمعْهُ .

* * *

واعلمْ : أنَّ العالِمَ لا يكونُ وارثاً للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا إذا اطلعَ علىٰ جميعِ معاني الشريعةِ ، حتّىٰ لا يكونَ بينَهُ وبينَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا درجةٌ واحدةٌ ، وهيَ درجةُ النبوَّةِ ، وهيَ الدرجةُ الفارقةُ بينَ الوارثِ والموروثِ ، إذِ الموروثُ : هوَ الذي حصَّلَ المالَ لهُ واشتغلَ بتحصيلهِ واقتدرَ عليهِ ، والوارثُ : هوَ الذي لمْ يحصِّلْ ولمْ يقدرْ عليهِ ، ولكنِ انتقلَ إليهِ وتلقَّاهُ منهُ بعدَ حصولِهِ لهُ .

فأمثالُ هٰذهِ المعاني معَ سهولةِ أمرِها بالإضافةِ إلى الأغوارِ والأسرارِ لا يستقلُّ بدرْكِها ابتداءً إلا الأنبياءُ ، ولا يستقلُّ باستنباطِها تلقِّياً بعدَ تنبيهِ الأنبياءِ عليها إلا العلماءُ الذين همْ ورثةُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ .

* * *

السادسُ والسابعُ : زيادةُ السرَّةِ وقُلْفَةُ الحشفةِ : أمَّا السرَّةُ . . فتقطعُ في أوّلِ الولادةِ ، وأمَّا التطهيرُ بالختانِ . . فعادةُ اليهودِ في اليومِ السابعِ مِنَ الولادةِ ، ومخالفتُهُمْ بالتأخيرِ إلىٰ أنْ يثغرَ الولدُ أحبُّ وأبعدُ عنِ الخطرِ[1] ،

(١) **يثغر الولد** : تسقط أسنانه الرواضع ، أو يقوىٰ كما فسره الحافظ الزبيدي .

قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الختانُ سنَّةٌ للرجالِ مكرمَةٌ للنساءِ »[1] .

وينبغي ألاَّ يبالغَ في خفْضِ المرأةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأمِّ عطيةَ وكانتْ تخفضُ : « يا أمَّ عطيةَ ؛ أشمِّي ولا تنْهَكِي ؛ فإنَّهُ أسرَىٰ للوجْهِ وأحظَىٰ عندَ الزوجِ »[2] أي : أكثرُ لماءِ الوجهِ ودمِهِ ، وأحسنُ في جماعِها .

فانظرْ إلىٰ جزالةِ لفظِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكنايةِ ، وإلىٰ إشراقِ نورِ النبوَّةِ من مصالحِ الآخرةِ التي هي أهمُّ مقاصدِ النبوَّةِ إلىٰ مصالحِ الدنيا ، حتى انكشفَ لهُ وهو أميٌّ مِنْ هـٰذا الأمرِ النازلِ قدرُهُ ما لو وقعتِ الغفلةُ عنهُ . . خيفَ ضررُهُ .

فسبحانَ مَنْ أرسلَهُ رحمةً للعالمين ؛ ليجمعَ لهُمْ بيُمْنِ بعثتِهِ مصالحَ الدنيا والدينِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

* * *

الثامنُ : ما طالَ مِنَ اللحيةِ : وإنَّما أخرْناها لنلحقَ بها ما في اللحيةِ مِنَ السننِ والبدعِ ، إذْ هـٰذا أقربُ موضعٍ يليقُ بهِ ذكرُها .

وقدِ اختلفوا فيما طالَ منها : فقيلَ : إنْ قبضَ الرجلُ علىٰ لحيتِهِ وأخذَ ما تحتَ القبضةِ . . فلا بأسَ ، فقدْ فعلَهُ ابنُ عمرَ وجماعةٌ مِنَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٧٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٣٢٤) .

(٢) بنحوه عند أبي داوود (٥٢٧١) ، وبلفظه عند الطبراني في « الأوسط » (٢٢٧٤) .

التابعينَ ، واستحسنَهُ الشعبيُّ وابنُ سيرينَ .

وكرهَهُ الحسنُ وقتادةُ ، وقالا : تركُها عافيةً أحبُّ إلينا[١] ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعفوا اللِّحَىٰ »[٢] .

والأمرُ في هٰذا قريبٌ إذا لمْ ينتهِ إلىٰ تقصيصِ اللحيةِ وتدويرِها مِنَ الجوانبِ ؛ فإنَّ الطولَ المفرطَ قدْ يشوِّهُ الخلقةَ ويطلقُ ألسنةَ المغتابينَ بالنبزِ إليهِ ، فلا بأسَ بالاحترازِ عنهُ علىٰ هٰذهِ النيَّةِ .

وقالَ النخعيُّ : (عجبتُ لرجلٍ عاقلٍ طويلِ اللحيةِ كيفَ لا يأخذُ مِنْ لحيتِهِ فيجعلَها بينَ لِحيتينِ ، فإنَّ التوسطَ في كلِّ شيءٍ حسنٌ)[٣] .

ولذلكَ قيلَ : (كلَّما طالتِ اللحيةُ . . تشمَّرَ العقلُ)[٤] .

فَصْلٌ

[فيما يُكرهُ في اللحيةِ منْ خصالٍ]

وفي اللحيةِ عشرُ خصالٍ مكروهةٍ ، وبعضُها أشدُّ كراهةً مِنْ بعضٍ ، وهيَ : خضابُها بالسوادِ ، وتبييضُها بالكبريتِ ، ونتفُها ، ونتفُ الشيبِ منها ، والنقصانُ منها ، والزيادةُ فيها ، وتسريحُها تصنُّعاً لأجلِ الرياءِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٤) ، وسياق المصنف هنا بتفصيل أوسع عنده .
(٢) رواه البخاري (٥٨٩٢) ، ومسلم (٢٥٩ ، ٢٦٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .

وتركُها شعثةً إظهاراً للزهدِ ، والنظرُ إلىٰ سوادِها عجباً بالشبابِ ، وإلىٰ بياضِها تكبُّراً بعلوِّ السنِّ ، وخضابُها بالحمرةِ والصفرةِ من غيرِ نيَّةٍ تشبُّهاً بالصالحينَ .

* * *

أمَّا الأوَّلُ : وهوَ الخضابُ بالسوادِ : فهوَ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ شبابِكُمْ مَنْ تشبَّهَ بشيوخِكُمْ ، وشرُّ شيوخِكُمْ من تشبَّهَ بشبابِكُمْ »[1] .

والمرادُ بالتشبُّهِ بالشيوخِ في الوقارِ ، لا في تبييضِ الشعرِ ، ونهىٰ عنِ الخضابِ بالسوادِ[2] ، وقالَ : « هوَ خضابُ أهلِ النارِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الخضابُ بالسوادِ خضابُ الكفارِ »[3] .

وتزوَّجَ رجلٌ علىٰ عهدِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وكانَ خضبَ بالسوادِ ، فنصَلَ خضابُهُ وظهرتْ شيبتُهُ ، فرفعَهُ أهلُ المرأةِ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فردَّ نكاحَهُ وأوجعَهُ ضرباً وقالَ : غررتَ القومَ بالشبابِ ولبَّسْتَ عليهم شيبتَكَ[4] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٠٠) .

(٢) روىٰ مسلم (٢١٠٢) عن جابر رضي الله عنه قال : أُتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غيروا هـٰذا بشيء واجتنبوا السواد » .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٢٦) بلفظ : « والسواد خضاب الكافر » ، والروايات والسياق عند صاحب « القوت » (٢/ ١٤٤) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٤٤) ، ونصَلَ : زال عنه .

ويقالُ : أوَّلُ مَنْ خضبَ بالسوادِ فرعونُ لعنَهُ اللهُ[1] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ قومٌ يخضبونَ بالسوادِ كحواصلِ الحمامِ ، لا يَريحونَ رائحةَ الجنَّةِ »[2] .

الثاني : **الخِضابُ بالصفرةِ والحمرةِ** : وهوَ جائزٌ تلبيساً للشيبِ على الكفارِ في الغزوِ والجهادِ ، فإنْ لمْ يكنْ علىٰ هـٰذهِ النيَّةِ بلْ للتشبُّهِ بأهلِ الدينِ . . فهوَ مذمومٌ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصُّفرةُ خِضابُ المسلمينَ ، والحمرةُ خِضابُ المؤمنينَ »[3] .

وكانوا يخضبونَ بالحناءِ للحمرةِ ، وبالخلوقِ والكتَمِ للصفرةِ[4] ، وخضبَ بعضُ العلماءِ بالسوادِ لأجلِ الغزوِ ، وذلكَ لا بأسَ بهِ إذا صحَّتِ النيةُ ولمْ يكنْ فيهِ هوىً وشهوةٌ .

الثالثُ : تبييضُها بالكبريتِ استعجالاً لإظهارِ علوِّ السنِّ ؛ توصُّلاً إلى التوقيرِ ، وقبولِ الشهادةِ ، والتصديقِ بالروايةِ عنِ الشيوخِ ، وترفُّعاً عنِ

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٤) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٢١٢) ، والنسائي (٨/ ١٣٨) .
(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٢٦) ، وقد تقدم بعضه .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٤٤) .

الشبابِ ، وإظهاراً لكثرةِ العلمِ ؛ ظنّاً بأنَّ كثرةَ الأيامِ تعطيهِ فضلاً ، وهيهاتَ ! فلا يزيدُ كبرُ السنِّ للجاهلِ إلا جهلاً ، فالعلمُ ثمرةُ العقلِ ، وهيَ غريزةٌ لا يؤثِّرُ الشيبُ فيها ، ومَنْ كانتْ غريزتُهُ الحمْقَ . . فطولُ المدَّةِ يؤكِّدُ حماقتَهُ .

وقدْ كانَ الشيوخُ يقدِّمونَ الشبابَ بالعلمِ ؛ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقدِّمُ ابنَ عباسٍ وهوَ حديثُ السنِّ على أكابرِ الصحابةِ ويسألُهُ دونَهُمْ(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ما آتى اللهُ عزَّ وجلَّ عبداً علماً إلا شابّاً ، والخيرُ كلُّهُ في الشبابِ) ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ ، وقولَهُ تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ ، وقولَهُ تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾(٢) .

وكانَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : قُبضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وليسَ في رأسِهِ ولحيتِهِ عشرونَ شعرةً بيضاءَ . فقيلَ لهُ : يا أبا حمزةَ ؛ فقدْ أسنَّ ؟ فقالَ : لم يَشِنْهُ اللهُ تعالى بالشيبِ ، فقيلَ : أَوَشينٌ هوَ ؟ فقالَ : كلُّكُمْ يكرهُهُ(٣) .

---

(١) أصله في « البخاري » (٤٢٩٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .
(٣) وأما خبر : « الشيب وقار ونور » . . فيجاب عنه بأنه وإن كان كذلك لكنه يشين عند النساء غالباً ، وبأن الشيب المنفي الشين عند من كرهه لا مطلقاً ؛ لتجتمع الروايات . « إتحاف » (٢/ ٤٢٣) . وأصل الخبر عند البخاري (٣٥٤٧) ، ومسلم (٢٣٤٧) ، وكلام أنس عند أحمد (٣/ ١٠٨) .

ويقالُ : إنَّ يَحيىٰ بنَ أكثمَ وليَ القضاءَ وهوَ ابنُ إحدىٰ وعشرينَ سنةً ، فقالَ لهُ رجلٌ في مجلسِهِ يريدُ أنْ يخجلَهُ بصغرِ سنِّهِ : كمْ سنُّ القاضي أيَّدَهُ اللهُ ؟ فقالَ : مثلُ سنِّ عتَّابِ بنِ أسيدٍ حينَ ولاَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إمارةَ مكَّةَ وقضاءَهَا ، فأفحمَهُ[١] .

ورُوِيَ عنْ مالكٍ أنَّهُ قالَ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : لا تغرنَّكُمُ اللحَىٰ ؛ فإنَّ التيسَ لهُ لحيةٌ)[٢] .

وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ : (إذا رأيتَ الرجلَ طويلَ القامةِ صغيرَ الهامةِ عريضَ اللحيةِ . . فاقضِ عليهِ بالحمقِ . ولوْ كانَ أميَّةَ بنَ عبدِ شمسٍ)[٣] .

وقالَ أيوبُ السختيانيُّ : (أدركتُ الشيخَ ابنَ ثمانينَ سنةً يتبعُ الغلامَ يتعلَّمُ منهُ)[٤] .

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ : (مَنْ سبقَ إليهِ العلمُ قبلَكَ . . فهوَ إمامُكَ فيهِ وإنْ كانَ أصغرَ سنّاً منكَ)[٥] .

وقيلَ لأبي عمرِو بنِ العلاءِ : أيَحْسُنُ منَ الشيخِ أنْ يتعلَّمَ مِنَ الصغيرِ ؟

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .
(٢) في « القوت » (٢/ ١٤٥) : (وروينا عن مالك بن مغول) ، فإطلاق المصنف يوهم أنه الإمام مالك بن أنس كما نبَّه عليه الحافظ الزبيدي .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .

فقالَ : إنْ كانَ الجهلُ يقبحُ بهِ . . فالتعلُّمُ يحسنُ بهِ(١) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معينٍ لأحمدَ ابنِ حنبلٍ وقدْ رآهُ يمشي خلفَ بغلةِ الشافعيِّ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ تركتَ حديثَ سفيانَ بعلوِّهِ وتمشي خلْفَ بغلةِ هـٰذا الفتىٰ وتسمعُ منهُ ؟ فقالَ أحمدُ : لوْ عرفتَ . . لكنتَ تمشي منَ الجانبِ الآخرِ ؛ إنَّ علمَ سفيانَ إنْ فاتني بعلُوٍ . . أدركتُهُ بنزولٍ ، وإنَّ عقلَ هـٰذا الشابِّ إنْ فاتنِي . . لمْ أدركْهُ بعلوٍّ ولا بنزولٍ(٢) .

* * *

الرابعُ : نَتف بياضِها استنكافاً مِنَ الشيبةِ . وقدْ نهىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عنْ نتفِ الشيبِ ، وقالَ : « هوَ نورُ المؤمنِ »(٣) ، وهوَ في معنى الخضابِ بالسوادِ ، وعلَّةُ الكراهيةِ ما سبقَ ، والشيبُ نورُ اللهِ تعالىٰ ، والرغبةُ عنهُ رغبةٌ عنِ النورِ .

* * *

الخامسُ : نتفُها أوْ نتفُ بعضِها بحكْمِ العبثِ والهوسِ ، وذلكَ مكروهٌ ومشوِّهٌ للخلقةِ ، ونتفُ الفَنِيكَيْنِ بدعةٌ ، وهما جنبتا العنفقةِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٥) .
(٢) كذا هو في « القوت » (٢/ ١٤٥) ، وأصله مروي في « تاريخ بغداد » (٢/ ٦٤) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٢٠٢) ، والترمذي (٢٨٢١) ، وابن ماجه (٣٧٢١) ، والنتف في الحديث أعم من أن يكون في اللحية أو من الرأس ؛ لأنه نور ووقار . « إتحاف » (٢/ ٤٢٥) .

شهدَ عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رجلٌ كانَ ينتفُ فَنيكَيْهِ ؛ فردَّ شهادتَهُ[1] .

وردَّ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ وابنُ أبي ليلىٰ قاضي المدينةِ شهادةَ مَنْ كانَ ينتفُ لحيتَهُ[2] .

وأمَّا نتفُها في أوَّلِ النباتِ تشبُّهاً بالمرْدِ . . فمنَ المنكراتِ الكبارِ ، فإنَّ اللحيةَ زينةُ الرجالِ ، فللهِ سبحانَهُ ملائكةٌ يُقسمونَ : والذي زيَّنَ بني آدمَ باللِّحَىٰ[3] ، وهيَ مِنْ تمامِ الخلقِ ، وبها يتميَّزُ الرجالُ عنِ النساءِ .

وقيلَ في غريبِ التأويلِ : اللحيةُ هيَ المرادُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[4] .

قالَ أصحابُ الأحنفِ بنِ قيسٍ : (ودِدْنا أنْ نشتريَ للأَحنفِ لحيةً ولوْ بعشرينَ ألفاً)[5] .

وقالَ شريحٌ القاضي : (ودِدتُ أنَّ لي لحيةً بعشرةِ آلافٍ)[6] .

---

(١) رواه أبو بكر الجصاص في « أحكام القرآن » (٢/ ٢٣٦) بنحوه ، وهو بهـٰذا السياق في « القوت » (٢/ ١٤٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٤٤) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٣٤٣) ، وروي عن السيدة عائشة أنها كانت تقوله كما ذكر ذلك ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٤/ ٥٥) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (١/ ٢٤٧) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٤٢) ، وقال : (وفيه وجوه كثيرة) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٤٢) .
(٦) قوت القلوب (٢/ ١٤٢) .

وكيفَ تُكرَهُ اللحيةُ وفيها تعظيمُ الرجلِ ، والنظرُ إليهِ بعينِ العلمِ والوقارِ ، والرفعُ في المجالسِ ، وإقبالُ الوجوهِ إليهِ ، والتقديمُ على الجماعةِ ، ووقايةُ العرضِ ، فإنَّ مَنْ يَشْتِمُ يعرِّضُ باللحيةِ إذا كانَ للمشتومِ لحيةٌ ؟!

وقدْ قيلَ : إنَّ أهلَ الجنَّةِ مرْدٌ إلا هارونَ أخا موسىٰ عليهِما السلامُ ، فإنَّ لهُ لحيةً إلىٰ سرَّتِهِ تخصيصاً لهُ وتفضيلاً[1] .

※ ※ ※

السادسُ : تقصيصُها كالتعبيةِ طاقةً علىٰ طاقةٍ للتزيُّنِ للنساءِ والتصنُّعِ[2] .

قالَ كعبٌ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ أقوامٌ يقصُّونَ لحاهُمْ كذنبِ الحمامةِ ، ويعرقفونَ نعالَهُمْ كالمناجلِ ، أولئكَ لا خلاقَ لهُمْ)[3] .

※ ※ ※

السابعُ : الزيادةُ فيها : وهوَ أنْ يزيدَ في شعرِ العارضينِ مِنَ الصدغينِ ، وهوَ مِنْ شعرِ الرأسِ حتَّىٰ يجاوزَ عظمَ اللحيِ أوْ ينتهيَ إلىٰ نصفِ الخدِّ ، وذلكَ يباينُ هيئةَ أهلِ الصلاحِ .

※ ※ ※

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٢) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص١١٦) .
(٢) أي : يصففها تصفيفاً بالقص من أطرافها ، والنص في « القوت » (٢/ ١٤٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٤٤) .

الثامنُ : تسريحُها لأجلِ الناسِ : قالَ بشرٌ : (في اللحيةِ شِرْكانِ : تسريحُها لأجلِ الناسِ ، وتركُها متفتلةً لإظهارِ الزهدِ)[١] .

***

التاسعُ والعاشرُ : النظرُ إلىٰ سوادِها أوْ بياضِها بعينِ العجْبِ : وذلكَ مذمومٌ في جميعِ أجزاءِ البدنِ ، بلْ في جميعِ الأخلاقِ والأفعالِ علىٰ ما سيأتي بيانُهُ .

***

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنْ أنواعِ التزيُّنِ والنظافةِ ، وقدْ حصلَ مِنْ ثلاثةِ أحاديثَ مِنْ سننِ الجسدِ اثنتا عشرةَ خصلةً : خمسٌ منها في الرأسِ ، وهيَ : فَرْقُ شعرِ الرأسِ[٢] ، والمضمضةُ ، والاستنشاقُ[٣] ، وقصُّ الشاربِ ، والسواكُ ، وثلاثةٌ في اليدِ والرجْلِ ، وهي : القلْمُ ، وغسلُ البراجمِ ، وتنظيفُ الرواجبِ . وأربعةٌ في الجسدِ ، وهي : نتفُ الإبْطِ ، والاستحدادُ ، والختانُ ، والاستنجاءُ بالماءِ ؛ فقدْ وردتِ الأخبارُ بمجموعِ ذلكَ .

---

(١) حكاه الإمام أبو طالب المكي عن السري السقطي في « قوت القلوب » (٢/ ١٤٤) .

(٢) روى البخاري (٣٥٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان صلى الله عليه وسلم يسدل شعره وكان المشركون يفرقون رؤوسهم ، فكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه) .

(٣) كما هي عند مسلم (٢٦١) .

وإذا كان غرضُ هٰذا الكتابِ التعرُّضَ للطهارةِ الظاهرةِ دونَ الباطنةِ . . فلنقتصرْ علىٰ هٰذا .

وليتحققْ أنَّ فضلاتِ الباطنِ وأوساخَهُ التي يجبُ التنظيفُ منها أكثرُ مِنْ أنْ تحصىٰ ، وسيأتي تفصيلُها في ربْعِ المهلكاتِ معَ تعريفِ الطرقِ في إزالتِها وتطهيرِ القلبِ منها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

تمّ كتاب أسرار الطّهارة ومهمّاتها

وهو الكتاب الثّالث من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلاته على سيّدنا محمّدٍ نبيّه وآله

ويتلوه كتاب أسرار الصّلاة ومهمّاتها

كتاب
أسرار الصلاة
ومهمّاتها

وهو الكتاب الرابع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب أسرار الصّلاة ومهمّاتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي غمرَ العبادَ بلطائفِهِ ، وعمرَ قلوبَهُمْ بأنوارِ الدينِ ووظائفِهِ ، الذي النزولُ عنْ عرشِ الجلالِ إلى السماءِ الدنيا مِنْ درجاتِ الرحمةِ إحدىٰ عواطفِهِ ، فارقَ الملوكَ معَ التفرُّدِ بالجلالِ والكبرياءِ بترغيبِ الخلْقِ في السؤالِ والدعاءِ ، فقالَ : « هلْ مِنْ داعٍ فأستجيبَ لهُ ؟ وهلْ مِنْ مستغفرٍ فأغفرَ لهُ »[1] ، وباينَ السلاطينَ بفتحِ البابِ ورفعِ الحجابِ ، فرخَّصَ للعبادِ في المناجاةِ بالصلواتِ كيفما تقلَّبَتْ بهمُ الحالاتُ في الجماعاتِ والخلواتِ ، ولمْ يقتصرْ على الرخصةِ ، بلْ تلطَّفَ بالترغيبِ والدعوةِ ، وغيرُهُ مِنْ ضعفاءِ الملوكِ لا يسمحُ بالخلوةِ إلاَّ بعدَ تقديمِ الهديةِ والرِّشْوةِ ، فسبحانَهُ ما أعظمَ شأنَهُ وأقوىٰ سلطانَهُ ، وأتمَّ لطفَهُ وأعمَّ إحسانَهُ !

والصلاةُ علىٰ محمدٍ نبيِّهِ المصطفىٰ ، ووليِّهِ المجتبىٰ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ مفاتيحِ الهدىٰ ، ومصابيحِ الدُّجا ، وسلَّمَ تسليماً .

---

(١) روى البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) مرفوعاً : « ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيَهُ ؟ من يستغفرني فأغفرَ له ؟ » .

أما بعد :

فإنَّ الصلاةَ عمادُ الدينِ ، وعصامُ اليقينِ ، ورأسُ القرباتِ ، وغُرَّةُ الطاعاتِ ، وقدِ استقصينا في فنِّ الفقهِ في « بسيطِ المذهبِ » و« وسيطه » و« وجيزه » أصولَها وفروعَها ، صارفينَ جِمامَ العنايةِ إلىٰ تفاريعِها النادرةِ ووقائِعها الشاذَّةِ ؛ لتكونَ خِزانةً للمفتي منها يستمدُّ ، ومعوَّلاً لهُ إليها يفزعُ ويرجعُ .

ونحنُ الآنَ في هٰذا الكتابِ مقتصرونَ علىٰ ما لا بدَّ للمريدِ منهُ مِنْ أعمالِها الظاهرةِ وأسرارِها الباطنةِ ، وكاشفونَ مِنْ دقائقِ معانيها الخفيَّةِ في معاني الخشوعِ والإخلاصِ والنيَّةِ ما لمْ تجرِ العادةُ بذكرِهِ في كتبِ الفقهِ ، ومرتبونَ الكتابَ علىٰ سبعةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضائلِ الصلواتِ .

البابُ الثاني : في تفصيلِ الأعمالِ الظاهرةِ مِنَ الصلاةِ .

البابُ الثالثُ : في تفصيلِ الأعمالِ الباطنةِ منها .

البابُ الرابعُ : في الإمامةِ والقدوةِ .

البابُ الخامسُ : في صلاةِ الجمعةِ وآدابِها .

البابُ السادسُ : في مسائلَ متفرِّقةٍ تعمُّ بها البلوىٰ يحتاجُ المريدُ إلى معرفتِها .

البابُ السابعُ : في التطوُّعاتِ وغيرِها .

البَابُ الأَوَّلُ
في فضائل الصّلوات والسّجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يومَ القيامةِ علىٰ كثيبٍ مِنْ مسكٍ أسودَ لا يهمُّهُمْ حسابٌ ولا ينالهُمْ فزعٌ حتَّىٰ يفرغَ ممَّا بينَ الناسِ : رجلٌ قرأَ القرآنَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ وأَمَّ بهِ قوماً وهمْ بهِ راضونَ ، ورجلٌ أذَّنَ في مسجدٍ ودعا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ابتغاءَ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ورجلٌ ابتلي بالرِّقِّ في الدنيا فلمْ يشغلْهُ ذلكَ عنْ عملِ الآخرةِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يسمعُ صوتَ المؤذِّنِ جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهدَ لهُ يومَ القيامةِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدُ الرحمـٰنِ علىٰ رأسِ المؤذِّنِ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ أذانِهِ »[3] .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٦) بنحوه ، وهو بلفظه عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٢٤) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٩) .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠٠٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٤٩) .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ : نزلتْ في المؤذنينَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سمعتُمُ النداءَ .. فقولوا مثلَ ما يقولُ المؤذِّنُ »[2] .

وذلكَ مستحبٌّ إلا في الحيعلتينِ ، فإنَّهُ يقولُ فيهما : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[3] .

وفي قولِهِ : (قدْ قامتِ الصلاةُ) : أقامَها اللهُ وأدامَها ما دامتِ السماواتُ والأرضُ[4] .

وفي التثويب : صدقتَ وبَرَرْتَ ونصحْتَ .

وعندَ فراغِ المؤذنِ يقولُ : اللَّهمَّ ؛ ربَّ هـٰذهِ الدعوةِ التامَّةِ ، والصلاةِ القائمةِ ، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ الرفيعةَ ، وابعثْهُ المقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ ، إنكَ لا تخلفُ الميعادَ[5] .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (مَنْ صلَّىٰ بأرضٍ فلاةٍ .. صلَّىٰ عنْ يمينِهِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٦١) من قول عائشة رضي الله عنها ، وانظر « الدر المنثور » (٧/ ٣٢٥) .
(٢) رواه البخاري (٦١١) ، ومسلم (٣٨٣) .
(٣) كما في « مسلم » (٣٨٥) .
(٤) كما في « أبي داوود » (٥٢٨) .
(٥) كما في « البخاري » (٦١٤) ، و« النسائي » (٢/ ٢٧) .

ملَكٌ وعنْ شمالِهِ ملَكٌ ، فإِنْ أذَّنَ وأقامَ . . صلَّىٰ وراءَهُ أمثالُ الجبالِ مِنَ الملائكةِ)[1] .

* * *

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٧٤) .

فضيلة المكتوبة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خمسُ صلواتٍ كتبَهُنَّ اللهُ على العبادِ ، فمَنْ جاءَ بهِنَّ ولَمْ يُضَيِّعْ منهُنَّ شيئاً استخفافاً بحقِّهِنَّ . . كانَ لهُ عندَ اللهِ عهدٌ أنْ يدخلَهُ الجنةَ ، ومَنْ لَمْ يأتِ بهنَّ . . فليسَ لَهُ عندَ اللهِ عهدٌ ، إنْ شاءَ . . عذَّبَهُ ، وإنْ شاءَ . . أدخلَهُ الجنةَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الصلواتِ الخمسِ كمثلِ نهرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ ببابِ أحدِكُمْ يَقتحِمُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسَ مَرَّاتٍ ، فما ترونَ ذلكَ يُبْقي مِنْ دَرَنِهِ ؟ » قالُوا : لاَ شَيْءَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَإِنَّ الصلواتِ الخمسَ تُذهبُ الذُّنُوبَ كما يذهبُ الماءُ الدَّرَنَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الصلواتِ الخمسَ كفاراتٌ لما بينَهنَّ ما اجتنِبتِ الكبائرُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بيننا وبينَ المنافقينَ شهودُ العتمةِ والصبحِ لا يستطيعونَهُما »(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٢٠) ، والنسائي (١/ ٢٣٠) ، وابن ماجه (١٤٠١) .
(٢) رواه مسلم (٦٦٨) .
(٣) رواه مسلم (٢٣١) .
(٤) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ١٣٠) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لقيَ اللهَ وهوَ مُضَيِّعٌ للصلاةِ .. لَمْ يعبأِ اللهُ بشيءٍ مِنْ حسناتِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ عمادُ الدِّينِ ، فمَنْ تركَها .. فقدْ هدمَ الدِّينَ »(٢) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الأَعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « الصلاةُ لمواقيتِها »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حافظَ على الخمسِ بإكمالِ طُهُورِها ومواقيتِها .. كانتْ لهُ نوراً وبرهاناً يومَ القيامةِ ، ومنْ ضيَّعَها .. حُشِرَ مع فرعونَ وهامانَ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مفتاحُ الجنةِ الصلاةُ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما افترضَ اللهُ علىٰ خلقهِ بعدَ التوحيدِ أحبَّ إليهِ مِنَ الصلاةِ ، ولوْ كانَ شيءٌ أحبَّ إليهِ مِنها .. لتعبَّدَ بهِ

---

(١) روى الطبراني في « الأوسط » (١٨٨٠) مرفوعاً : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت .. صلح له سائر عمله ، وإن فسدت .. فسد سائر عمله » .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) بغير زيادة : « فمن تركها ... » .
(٣) رواه البخاري (٥٢٧) ، ومسلم (٧٥) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٩) ، وأصله عند أبي داوود (٤٣٠) ، وابن ماجه (١٤٠٣) .
(٥) رواه الترمذي (٤) .

ملائكتَهُ ؛ فمنهُمْ راكعٌ ومنهُمْ ساجدٌ ، ومنهُمْ قائمٌ وقاعدٌ »[١] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ الصلاةَ متعمِّداً . . فقدْ كفرَ »[٢] أي : قاربَ أنْ ينخلعَ عنِ الإيمانِ بانحلالِ عروتِهِ وسقوطِ عمادِهِ ، كما يقالُ لمنْ قاربَ البلدةَ : إنَّهُ بلغَها ودخلَها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ صلاةً متعمِّداً . . فقدْ برِئَ مِنْ ذمَّةِ محمدٍ » صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٣] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ :

مَنْ توضَّأَ فأحسنَ وضوءَهُ ، ثمَّ خرجَ عامداً إلى الصلاةِ . . فإنَّهُ في صلاةٍ ما كانَ يعمدُ إلى الصلاةِ ، وإنَّهُ يُكتبُ لهُ بإحدىٰ خطوتيهِ حسنةٌ وتُمحَىٰ عنهُ بالأخرىٰ سيئةٌ ، فإذا سمعَ أحدُكُمُ الإقامةَ . . فلا يَسْعَ ؛ فإنَّ أعظمَكُمْ أجراً أبعدُكُمْ داراً ، قالوا : لِمَ يا أبا هريرةَ ؟ قالَ : مِنْ أجلِ كثرةِ الخُطا[٤] .

ويُروىٰ أنَّ أوَّلَ ما يُنظرُ فيهِ يومَ القيامةِ مِنْ عملِ العبدِ الصلاةُ ؛ فإنْ

(١) كذا بلفظه في « القوت » (٢/ ١٠٠) ، قال العراقي : (لم أجده هٰكذا ، وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر ، وعند الحاكم من حديث ابن عمر) . « إتحاف » (٣/ ١٠) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٧٢) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٢١) .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٣٣) .

وُجِدَتْ تامَّةً . . قُبِلَتْ منهُ وسائرُ عملِهِ ، وإنْ وُجِدَتْ ناقصةً . . رُدَّتْ عليهِ وسائرُ عملِهِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ مُرْ أهلكَ بالصَّلاةِ ، فإنَّ اللهَ يأتيكَ بالرزقِ مِن حيثُ لا تحتسبُ »[٢] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مثلُ المصلِّي مثلُ التاجرِ الذي لا يخلصُ لهُ الربحُ حتَّىٰ يخلصَ لهُ رأسُ المالِ ، وكذلكَ المصلِّي لا تقبلُ لهُ نافلةٌ حتَّىٰ يؤديَ الفريضةَ)[٣] .

وكانَ أبو بكرٍ رضي اللهُ عنهُ يقولُ إذا حضرتِ الصلاةُ : (قُوموا إلىٰ نارِكُمُ التي أوقدتموها فأطفئوها)[٤] .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ١٧٣) بلاغاً عن يحيى بن سعيد بنحوه ، وفي الصحاح ما يشهد له .

(٢) قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ، قال الحافظ الزبيدي بعدما نقل كلام الحافظ العراقي بأنه لم يقف علىٰ أصلٍ للحديث : (وهو من نسخة جمع فيها أحاديث يقول في أول كل منها : يا أبا هريرة ، وهـٰذه النسخة موضوعة باتفاق المحدثين ، إلا أن بعض ما فيها هو صحيح باللفظ أو بالمعنىٰ ، كالذي نحن فيه ، فإن معناه صحيح لما أخرج عبد الرزاق في « المصنف » وعبد بن حميد عن رجل من قريش قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل علىٰ أهله بعضُ الضيق في الرزق . . أمر أهله بالصلاة ، ثم قرأ الآية : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴾) .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٧) مرفوعاً .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٤٨) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٢) عن ابن سيرين مرسلاً ، ولفظه : « إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة : يا بني آدم ؛ قوموا إلىٰ نيرانكم . . . » .

فضيلة إتمام الأركان

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الصلاةِ المكتوبةِ كمثلِ الميزانِ ، مَنْ أوْفىٰ . . استوفىٰ »(١) .

وقالَ يزيدُ الرَّقاشيُّ : (كانتْ صلاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مستويةً كأنَّها موزونةٌ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلينِ مِنْ أمتي ليقومانِ إلى الصلاةِ ورُكوعُهُما وسجودُهُما واحدٌ ، وإنَّ ما بينَ صلاتيْهِما ما بينَ السماءِ والأرضِ »(٣) ، وأشارَ إلى الخشوعِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القِيامةِ إلى العبدِ لا يُقيمُ صُلبَهُ بينَ ركوعِهِ وسجودِهِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما يخافُ الذي يحوِّلُ وجهَهُ في الصلاةِ أنْ يحوِّلَ اللهُ وجهَهُ وجهَ حمارٍ ؟! »(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٨٢) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٣) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧) من زيادات نعيم بن حماد في نسخته للزهد ، عن شُفَيٍّ .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٢٥) .
(٥) في « البخاري » (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) بلفظ : (يرفع رأسه) بدل (يحول =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى الصلاةَ لوقتِها ، فأسبغَ وضوءَها ، وأتمَّ ركوعَها وسجودَها وخشوعَها . . عرجَتْ وهيَ بيضاءُ مسفرَةٌ تقولُ : حفظَكَ اللهُ كما حفظتَنِي ، ومَنْ صلَّىٰ لغيرِ وقتِها ، ولمْ يسبغْ وضوءَها ، ولمْ يتمَّ ركوعَها ولا سجودَها ولا خشوعَها . . عرجَتْ وهيَ سوداءُ مظلمةٌ تقولُ : ضيَّعكَ اللهُ كما ضيَّعْتني ، حتَّىٰ إذا كانتْ حيثُ شاءَ اللهُ . . لُفَّتْ كما يلفُّ الثوبُ الخَلَقُ ، فيضربُ بها وجهُهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسوأُ الناسِ سرقةً الَّذِي يسرقُ مِنْ صلاتِهِ »(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ وسلمانُ رضيَ اللهُ عنهُما : (الصلاةُ مكيالٌ ، فمَنْ أوفىٰ . . استوفىٰ ، ومَنْ طفَّفَ . . فقدْ علمتُمْ ما قالَ اللهُ في المطفِّفينَ)(٣) .

* * *

= وجهه) ، وقال الحافظ العراقي : (وعند ابن عدي في « عوالي مشايخ مصر » من حديث جابر : « ما يؤمنه إذا التفت في صلاته أن يحوّل الله وجهه وجه كلب أو وجه خنزير » ، قال : منكر بهـٰذا الإسناد) ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ١٢) .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣١١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٧١) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٥٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٠١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٢) عن سلمان رضي الله عنه .

فضيلة الجماعة

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الجماعةِ تفضلُ صلاةَ الفَذِّ بسبعٍ وعشرينَ درجةً »[1] .

وروىٰ أبو هريرةَ أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقدَ ناساً في بعضِ الصلواتِ فقالَ: « لقدْ هممتُ أنْ آمرَ رجلاً يصلِّي بالناسِ ، ثمَّ أخالفَ إلىٰ رجالٍ يتخلَّفونَ عنها فأحرِّقَ عليهِمْ بيوتَهُمْ » ، وفي روايةٍ أخرىٰ : « ثمَّ أخالفَ إلىٰ رجالٍ يتخلَّفونَ عنها فآمُرَ بهمْ فتُحَرَّقَ عليهِمْ بحُزَمِ الحطبِ بيوتُهُمْ ، ولوْ علمَ أحدُهُم أَنَّهُ يجِدُ عَظْماً سميناً أَوْ مرماتَينِ . . لشهِدَهَا » ؛ يعني : صلاةَ العشاءِ[2] .

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ ويُروىٰ مرفوعاً : « مَنْ شهِدَ العِشاءَ . . فكَأَنَّما قامَ نِصفَ ليلةٍ ، ومَنْ شهدَ الصبحَ . . فكأَنَّما قامَ ليلةً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ صلاةً في جماعةٍ . . فقدْ ملأَ نحرَهُ عبادةً »[4] .

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥) ، ومسلم (٦٤٩) ، والفذُّ : الفرد .

(٢) رواه البخاري (٦٤٤) ، ومسلم (٦٥١) .

(٣) رواه مسلم (٦٥٦) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً ، وذكر الترمذي (٢٢١) أنه روي موقوفاً ومرفوعاً .

(٤) قال العراقي : (لم أره مرفوعاً ، وإنما هو من قول سعيد بن المسيب ، رواه محمد بن نصر في كتاب « الصلاة » [ص ١٩٦]) . « إتحاف » (٣/ ١٥) .

وقالَ سعيدُ بن المسيَّبِ : (ما أَذَّنَ مؤذِّنٌ منذُ عشرينَ سنةً إلا وأنا في المسجدِ)[1] . وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : (ما أشتهي مِنَ الدنيا إلا ثلاثةً : أخاً إنْ تعوَّجْتُ . . قوَّمَنِي ، وقُوتاً مِنَ الرزقِ عفواً بغيرِ تبعةٍ ، وصلاةً في جماعةٍ يُرفعُ عنِّي سهوُها ويكتبُ لي فضلُها)[2] .

ورُوِيَ أَنَّ أبا عبيدةَ بنَ الجرَّاحِ أَمَّ قوماً مرَّةً ، فلمَّا انصرفَ . . قالَ : (ما زالَ الشيطانُ بي آنفاً حتَّىٰ رأيتُ أنَّ لي فضلاً علىٰ غيري ، لا أَؤُمُّ أبداً)[3] .

وقالَ الحسنُ : (لا تصلُّوا خلفَ رجلٍ لا يختلفُ إلى العلماءِ) .

وقالَ النخعيُّ : (مثلُ الذي يؤمُّ الناسَ بغيرِ علمٍ مثلُ الذي يكيلُ الماءَ في البحرِ ، لا يدري زيادتَهُ مِنْ نقصانِهِ) .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (فاتتني الصلاةُ في الجماعةِ ، فعزَّاني أبو إسحاقَ البخاريُّ وحدَهُ ، ولوْ ماتَ لي ولدٌ . . لعزَّاني أكثرُ مِنْ عشرةِ آلافٍ ؛ لأنَّ مصيبةَ الدينِ أهونُ عندَ الناسِ مِنْ مصيبةِ الدنيا) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مَنْ سمعَ المناديَ ثمَّ لمْ يجبْ . . لمْ يردْ خيراً ولمْ يُرَدْ بهِ)[4] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٦٢) ، وقالا : (ثلاثين) بدل (عشرين) ، وفي « الطيوريات » (٤٥٠) : (أربعين) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ١٦١) .

(٣) روه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٤١) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٨٥) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأَنْ تُملأَ أذنُ ابنِ آدمَ رصاصاً مذاباً خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يسمعَ النداءَ ثمَّ لا يجيبُهُ)[1] .

ويُروىٰ أنّ ميمونَ بنَ مهرانَ أتى المسجدَ ، فقيلَ لهُ : إنَّ الناسَ قدِ انصرفوا ! فقالَ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، لَفضلُ هٰذهِ الصلاةِ أحبُّ إليَّ مِنْ ولايةِ العراقِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ أربعينَ يوماً الصلواتِ في جماعةٍ لا تفوتُهُ فيها تَكْبيرَةُ الإحرامِ . . كُتبَ لهُ براءتانِ ؛ براءَةٌ مِنَ النفاقِ ، وبراءةٌ مِنَ النارِ »[2] .

ويقالُ : إنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ يحشرُ قومٌ وجوهُهُمْ كالكوكبِ الدرِّيِّ ، فتقولُ لهمُ الملائكةُ : ما كانتْ أعمالُكُمْ ؟ فيقولونَ : كنَّا إذا سمعْنا الأذانَ . . قمنا إلى الطهارةِ ولا يشغلُنا غيرُها ، ثمَّ تحشرُ طائفةٌ وجوهُهُمْ كالأقمارِ ، فيقولونَ بعدَ السؤالِ : كنَّا نتوضَّأُ قبلَ الوقتِ ، ثمَّ تحشرُ طائفةٌ وجوهُهُمْ كالشمسِ ، فيقولونَ : كنَّا نسمعُ الأذانَ في المسجدِ[3] .

ورُوِيَ أَنَّ السلفَ كانوا يعزُّونَ أنفسَهُمْ ثلاثةَ أيامٍ إذا فاتتهُمُ التكبيرةُ الأولىٰ ، ويعزونَ سبعاً إذا فاتتهُمُ الجماعةُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٨٤) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤١) .
(٣) أورد نحوه صاحب « القوت » (٢ / ١٠١) .

فضيلة السجود

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تقرَّبَ العبدُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بشيءٍ أفضلَ مِنْ سجودٍ خفيٍّ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ مسلمٍ يسجدُ للهِ سجدةً إلا رفعَهُ اللهُ بها درجةً ، وحطَّ عنهُ بها سيئةً »[2] .

ورُوِيَ أَنَّ رجُلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ادعُ اللهَ أنْ يجعلني مِنْ أهلِ شفاعتِكَ ، وَأَنْ يرزقني مرافقتَكَ في الجنَّةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعِنِّي بكثرةِ السجودِ »[3] .

وقيلَ : « إن أقرَبَ ما يكونُ العبدُ منَ اللهِ تعالىٰ أنْ يكونَ ساجداً »[4] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾[5] .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ، فقيلَ : هوَ ما يلتصقُ بوجوهِهِمْ مِنَ الأرضِ عندَ السجودِ ، وقيلَ : هو نورُ الخشوعِ ، فإِنَّهُ يشرقُ مِنَ الباطنِ على الظاهرِ ، وهوَ الأصحُّ ، وقيلَ : هيَ الغُررُ التي

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٤) عن ضمرة بن حبيب بن صهيب مرسلاً .
(٢) رواه ابن ماجه (١٤٢٤) ، وأصله في « مسلم » (٤٨٨) .
(٣) رواه مسلم (٤٨٩) ، وهو ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه .
(٤) رواه مسلم (٤٨٢) .
(٥) انظر « الدر المنثور » (٨/ ٥٦٦) .

تكونُ في وجوهِهِمْ يومَ القيامةِ مِنْ أثرِ الوضوءِ(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجدَ . . اعتزلَ الشيطانُ يبكي ويقولُ : يا ويلاهُ ؛ أُمِرَ هـٰذا بالسجودِ فسجدَ فلهُ الجنةُ ، وأُمِرتُ بالسجودِ فعصيتُ فليَ النارُ »(٢) .

ويُروىٰ عن عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ أَنَّهُ كانَ يسجدُ في كلِّ يومٍ ألفَ سجدةٍ ، وكانوا يسمُّونَهُ السَّجَّادَ(٣) .

ويُروىٰ أَنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ لا يسجدُ إلا على الترابِ(٤) .

وكانَ يوسفُ بنُ أسباطٍ يقولُ : (يا معشرَ الشبابِ ؛ بادروا بالصحَّةِ قبلَ المرضِ فما بقيَ أحدٌ أحسدُهُ إلا رجلٌ يتمُّ ركوعَهُ وسجودَهُ ، وقدْ حيلَ بيني وبينَ ذلكَ)(٥) .

---

(١) انظر « الدر المنثور » (٧/ ٥٤١) ، و« الإتحاف » (٣/ ١٨) .
(٢) رواه مسلم (٨١) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٧) ، وكان أجمل قرشي علىٰ وجه الأرض وأوسمه وأكثره صلاة ، وكان يقال له : السجاد ؛ لعبادته وفضله ، وانظر « طبقات ابن سعد » (٧/ ٣٠٨) .
(٤) حكاه القشيري في « الرسالة » (ص٢٦٦) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/ ٤٨٨) : (ولعله كان يفعله علىٰ جهة المبالغة في التواضع والخشوع ، فلا يكون فيه مخالفة للجماعة) ، والمقصود بالسجود على التراب تعمد فعل ذلك ؛ إذ كان يأتي بتراب فيضعه على الخُمرة ويسجد عليه .
(٥) المجالسة وجواهر العلم (٣٣١) .

وقالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ : (ما آسىٰ علىٰ شيءٍ مِنَ الدنيا إلا على السجودِ)[1] .

وقالَ عقبةُ بنُ مسلمٍ : (ما مِنْ خَصلةٍ في العبدِ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ رجلٍ يحبُّ لقاءَ اللهِ ، وما مِنْ ساعةٍ العبدُ فيها أقربُ إلى اللهِ منهُ حيثُ يخرُّ ساجداً)[2] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (أقربُ ما يكونُ العبدُ إلى اللهِ إذا سجدَ ، فأكثروا الدعاءَ عندَ ذلكَ)[3] .

* * *

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٤) عن سعيدٍ يحكيه عن مسروق .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٩) .
(٣) رواه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة مرفوعاً .

فضيلة الخشوع

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، قيل : سكارىٰ مِنْ كثرةِ الهمِّ ، وقيلَ : مِنْ حبِّ الدنيا(١) .

وقالَ وهبٌ : (المرادُ بهِ ظاهرُهُ)(٢) ، ففيهِ تنبيهٌ علىٰ سكْرِ الدنيا ؛ إذْ بيَّنَ فيهِ العلَّةَ فقالَ : ﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ ، وكمْ مِنْ مصلٍّ لم يشربِ الخمرَ وهوَ لا يعلمُ ما يقولُ في صلاتِهِ ! !

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ركعتينِ لمْ يحدِّثْ نفسَهُ فيهِما بشيءٍ مِن الدنيا . . غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ »(٣) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصلاةُ تمسكنٌ وتواضعٌ ، وتضرعٌ وتباؤسٌ وتنادمٌ ، وتُقْنِعُ يديكَ فتقولُ : اللَّهمَّ اللَّهُمَّ ، فمَنْ لمْ يفعلْ . . فهيَ خِداجٌ »(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٩٧) .

(٢) وهو قول عامة المفسرين ، وشاهد المؤلف يتأتىٰ من تتمة الآية كما سيبين .

(٣) رواه البخاري (١٦٤) ، ومسلم (٢٢٦) ، وبها رواه ابن أبي شيبة (٧٧١٣) مرسلاً .

(٤) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣/ ١٢٤) ، وهو عند الترمذي (٣٨٥) بنحوه ، تمسكن : خضوع وذل ، تقنع : ترفع ، خِداج : ناقصة .

ورُوِيَ عنِ اللهِ تعالىٰ في الكتبِ السالفةِ أَنَّهُ قالَ : (ليسَ كلُّ مصلٍّ أتقبَّلُ صلاتَهُ ، إنَّما أقبلُ صلاةَ مَنْ تواضعَ لعظمتي ولمْ يتكبرْ عليَّ ، وأطعمَ الفقيرَ الجائعَ لوجهي)[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما فُرضتِ الصلاةُ وأُمرَ بالحجِّ والطوافِ وأشعرتِ المناسكُ لإقامةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ »[2] ، فإذا لمْ يكنْ في قلبِكَ للمذكورِ الذي هوَ المقصودُ والمبتغىٰ عظمةٌ ولا هيبةٌ . . فما قيمةُ ذكرِكَ ؟![3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي أوصاهُ : « وإذا صَلَّيْتَ . . فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ »[4] ؛ أي : مودعٍ لنفسِهِ ، مودعٍ لهواهُ ، مودعٍ لعمْرِهِ ، سائرٍ إلىٰ مولاهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ

---

(١) بنحوه رواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٨) ، وهو في « القوت » (٢/ ٩٧) .

(٢) رواه أبو داوود (١٨٨٨) ، والترمذي (٩٠٢) دون ذكر الصلاة بنحوه .

(٣) هو من كلام صاحب « القوت » (٢/ ٩٨) بعدما ساق الحديث السابق .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٥) هو من كلام أبي طالب المكي بسياقه في « القوت » (٢/ ٩٨) .

والمنكرِ . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً »(١) ، والصلاةُ مناجاةٌ ، فكيفَ تكونُ معَ الغفلةِ ؟!

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ : (يا بنَ آدمَ ؛ إذا شئتَ أنْ تدخلَ علىٰ مولاكَ بغيرِ إذْنٍ . . دخلتَ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : تسبغُ وضوءَكَ وتدخلُ محرابَكَ ، فإذا أنتَ قدْ دخلتَ علىٰ مولاكَ بغيرِ إذْنٍ فتكلِّمُهُ بغيرِ ترجمانٍ)(٢) .

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحدِّثُنا ونحدِّثُهُ ، فإذا حضرتِ الصلاةُ . . فكأنَّهُ لمْ يعرِفْنا ولمْ نعرفْهُ)(٣) اشتغالاً بعظمةِ اللهِ تعالىٰ سبحانَهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ صلاةٍ لا يحضرُ الرجلُ فيها قلبَهُ معَ بدنِهِ »(٤) .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٥٤) مرفوعاً .

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٢٩) بنحوه .

(٣) قال الحافظ ابن رجب في « فتح الباري » (٤/ ١١٤) : (خرجه الحافظ أبو الحسين بن المظفر في « غرائب شعبة » ـ وساق سنده ـ عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندي . . كان في مهنة أهله ، فإذا نودي بالصلاة . . كأنه لم يعرفنا ») ، وأيَّد هـٰذه الزيادة برواية أخرىٰ عند أبي زرعة في « تاريخه » ، وأصل الحديث عند البخاري (٦٧٦) .

(٤) روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٩٢) نحوه بلفظ : « ما بال أقوام يتلىٰ عليهم كتاب الله فلا يدرون ما يتلىٰ منه مما ترك ؟! هـٰكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل ، فشهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، ولا يقبل الله من عبد عملاً حتىٰ يشهد بقلبه مع بدنه » .

وكانَ إبراهيمُ الخليلُ عليهِ السلامُ إذا قامَ إلى الصلاةِ . . سُمعَ وَجِيبُ قلبِهِ علىٰ مِيلينِ[1] .

وكانَ سعيدٌ التنوخيُّ إذا صلَّىٰ لمْ تنقطعِ الدموعُ مِنْ خديهِ علىٰ لحيتِهِ[2] .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً يَعْبَثُ بلحيتِهِ في الصلاةِ فقالَ : « لوْ خشعَ قلبُ هـٰذا . . لَخَشَعَتْ جوارحُهُ »[3] .

ويُروىٰ أَنَّ الحسنَ نظرَ إلىٰ رجلٍ يعبثُ بالحصىٰ ويقولُ : اللهمَّ ؛ زوجني الحورَ العينَ ، فقالَ : بئسَ الخاطبُ أنتَ ، تخطبُ الحورَ العينَ وأنتَ تعبثُ ؟!![4] .

وقيلَ لخلفِ بنِ أيوبَ : ألا يؤذيكَ الذبابُ في الصلاةِ فتطردَها ؟ قالَ :

---

(١) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢١٨) عن وهب بن منبه قال : (قرأت في بعض الكتب التي أنزلت من السماء : أن الله قال لإبراهيم عليه السلام : أتدري لم اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذلِّ مقامك بين يدي في الصلاة) ، وعنه قال : (لما اتخذ الله تعالىٰ إبراهيم خليلاً . . كان يسمع خفقان قلبه من بُعدٍ خوفاً من الله عز وجل) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ٢٠٢_٢٠٣) .

(٣) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣١٧) مرفوعاً ، ورواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٨٩) موقوفاً علىٰ حذيفة ، ومن قول سعيد بن المسيب .

(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٢٨٧) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله بنحوه .

لا أُعَوِّدُ نفسي شيئاً يفسدُ عليَّ صلاتي ، قيلَ لهُ : وكيفَ تصبرُ علىٰ ذلكَ ؟ قالَ : بلغني أَنَّ الفساقَ يصبرونَ تحتَ أسواطِ السلطانِ ليقالَ : فلانٌ صبورٌ ويفتخرونَ بذلكَ ، فأنا قائمٌ بينَ يدي رَبِّي ، أفأتحرَّكُ لذبابةٍ ؟!

ويُروىٰ عنْ مسلمِ بنِ يسارٍ أَنَّهُ كانَ إذا أرادَ الصلاةَ . . قالَ لأهلِهِ : (تحدَّثوا أنتمْ ، فإنِّي لستُ أسمعُكُمْ)[١] .

ويُروىٰ عنهُ أَنَّهُ كانَ يصلِّي يوماً في جامعِ البصرةِ ، فسقطتْ ناحيةٌ مِنَ المسجدِ ، فاجتمعَ الناسُ لذلِكَ ، فلمْ يشعرْ بهِ حتَّى انصرفَ مِنَ الصلاةِ[٢] .

وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ وكرَّمَ وجهَهُ إذا حضرَ وقتُ الصلاةِ يتزلزلُ ويتلوَّنُ وجهُهُ ، فقيلَ لهُ : ما لكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فيقولُ : جاءَ وقتُ أمانةٍ عرَضَها اللهُ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها وحملتُها .

ويُروىٰ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ أَنَّهُ كانَ إذا توضَّأَ . . اصفرَّ لونُهُ ، فيقولُ لهُ أهلُهُ : ما هـٰذا الذي يعتريكَ عندَ الوضوءِ ؟ فيقولُ : أتدرونَ بينَ يدي مَنْ أريدُ أنْ أقومَ ؟[٣] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٩٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٩٠) .
(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٤٨) .

ويُروىٰ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أَنَّهُ قالَ : قالَ داوودُ عليه السلامُ في مناجاتِهِ : إلٰهي ؛ مَنْ يسكنُ بيتَكَ ومِمَّنْ تتقبَّلُ الصلاةَ ؟ فأوحى اللهُ إليهِ : يا داوودُ ؛ إنَّما يسكنُ بيتي وأقبلُ الصلاةَ منهُ مَنْ تواضعَ لعظمتي ، وقطعَ نهارَهُ بذكري ، وكفَّ نفسَهُ عنِ الشهواتِ مِنْ أجلي ، يطعمُ الجائعَ ، ويُؤوي الغريبَ ، ويرحمُ المصابَ ، فذلكَ الذي يضيءُ نورُهُ في السماءِ كالشمسِ ، إنْ دعاني لبَّيتُهُ ، وإنْ سألني .. أعطيتُهُ ، أجعلُ لهُ في الجهلِ حِلماً ، وفي الغفلةِ ذكراً ، وفي الظلمةِ نوراً ، وإنَّما مثلُهُ في الناسِ كالفردوسِ في أعلى الجنانِ ، لا تيبسُ أنهارُها ، ولا تتغيَّرُ ثمارُها[1] .

ويُروىٰ عَنْ حاتمٍ الأصمِّ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّهُ سئلَ عنْ صلاتِهِ فقالَ : (إذا حانتِ الصلاةُ .. أسبغتُ الوضوءَ ، وأتيتُ الموضعَ الذي أريدُ الصلاةَ فيهِ ، فأقعدُ فيهِ حتَّىٰ تجتمعَ جوارحي ؛ ثمَّ أقومُ إلىٰ صلاتي ، فأجعلُ الكعبةَ بينَ حاجبيَّ ، والصراطَ تحتَ قدميَّ ، والجنةَ عنْ يميني ، والنارَ عنْ يساري ، وملكَ الموتِ ورائي ، وأظنُّها آخرَ صلاتي ، ثمَّ أقومُ بينَ الرجاءِ والخوفِ ، وأكبِّرُ تكبيراً بتحنُّنٍ ، وأقرأُ قراءةً بترتيلٍ ، وأركعُ ركوعاً بتواضعٍ ، وأسجدُ سجوداً بتخشُّعٍ ، وأقعدُ على الوَرْكِ اليسرىٰ ، وأفرشُ ظهرَ قدمِها ، وأنصبُ القدمَ اليمنىٰ على الإبهامِ ، وأتبعُها

---

(١) بنحوه مرفوعاً في « الحلية » (٤/١٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٦) والخطاب فيه لسيدنا موسىٰ عليه السلام .

الإخلاصَ ، ثمَّ لا أدري : أقبلتْ منِّي أمْ لا)[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكُّرٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ)[2] .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٧٥) بنحوه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٨٨) .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَنَىٰ للهِ مسجداً ولوْ كَمَفْحَصِ قطاةٍ . . بنى اللهُ لَهُ قصراً في الجنَّةِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألفَ المسجدَ . . أَلِفَهُ اللهُ تعالىٰ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دخلَ أحدُكُمُ المسجدَ . . فليركعْ ركعتينِ قبلَ أنْ يجلسَ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « لا صلاةَ لجارِ المسجدِ إلا في المسجدِ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الملائكةُ تُصلِّي علىٰ أحدِكُمْ ما دامَ في مصلاَّهُ الذي يصلِّي فيهِ ، تقولُ : اللهمَّ ؛ صلِّ عليه ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ، اللهمَّ ؛ ارحمْهُ ، ما لمْ يحدِثْ أوْ يَخرجْ مِنَ المسجدِ »[٥] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٣٨) وأصله في « الصحيحين » ، **ومفحص القطاة** : مكان رقودها علىٰ بيضها ، وهي لا تتخذ ذلك من الشجر بل على التراب ، ولهٰذا خص ذكر هٰذا الطائر .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٣٧٩) .

(٣) رواه البخاري (٤٤٤) ، ومسلم (٧١٤) .

(٤) رواه الدارقطني في « سننه » (١/٤١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٢٤٦) ، وجار المسجد هو الذي يسمع النداء كما جاء مصرحاً في بعض الروايات .

(٥) رواه البخاري (٤٤٥) ، ومسلم (٦٤٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يأتي في آخرِ الزمانِ ناسٌ مِنْ أُمتي يأتونَ المساجدَ فيقعدونَ فيها حلقاً حلقاً ، ذكرهُمُ الدنيا وحُبُّ الدنيا ، لا تجالسوهُمْ ؛ فليسَ للهِ بهِمْ حاجةٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في بعضِ الكتبِ : إنَّ بيوتي في أرضِي المساجدُ ، وإنَّ زُوَّاري فيها عُمَّارُها ، فطُوبىٰ لعبدٍ تطهَّرَ في بيتِهِ ثمَّ زارني في بيتي ، فحقٌّ على المزُورِ أنْ يُكرمَ زائرَهُ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا رأيْتمُ الرجلَ يعتادُ المساجد.. فاشهدُوا لهُ بالإيمانِ »(٣) .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (مَنْ جلسَ في المسجدِ . فإنَّما يجالسُ ربَّهُ ، فما أحقَّهُ ألاَّ يقولَ إلا خيراً)(٤) .

ويروىٰ في الأثرِ أوْ في الخبرِ : (الحديثُ في المسجدِ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ البهيمةُ الحشيشَ)(٥) .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٩) .

(٢) روىٰ صدره أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢١٣) بنحوه ، وآخره الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٥٣) بلفظ : « من توضأ في بيته ، فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد.. فهو زائر الله ، وحق على المزور أن يكرم الزائر » .

(٣) رواه الترمذي (٢٦١٧) ، وابن ماجه (٨٠٢) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١٦) .

(٥) لم يصرح المصنف بكونه حديثاً ، وانظر « كشف الخفاء » (١/ ٤٢٣) ، ويفيد معناه =

وقالَ النخعيُّ : (كانوا يرونَ أَنَّ المشيَ في الليلةِ المظلمةِ إلى المسجدِ موجبٌ للجنَّةِ)(١) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (مَنْ أسرجَ في مسجدٍ سراجاً . . لمْ تزلِ الملائكةُ وحملةُ العرْشِ يستغفرونَ لهُ ما دامَ في ذلكَ المسجدِ ضوءُهُ)(٢) .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إذا ماتَ العبدُ . . بكىٰ عليهِ مصلاَّهُ مِنَ الأرضِ ومصعدُ عملِهِ مِنَ السماءِ) ، ثمَّ قرأَ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾(٣) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (تبكي عليهِ الأرضُ أربعينَ صباحاً)(٤) .

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : (ما مِنْ عبدٍ يسجدُ للهِ سجدةً في بقعةٍ مِنْ بقاعِ الأرضِ إلا شهدتْ لهُ بها يومَ القيامةِ ، وبكتْ عليهِ يومَ يموتُ)(٥) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (ما مِنْ بقعةٍ يذكرُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها بصلاةٍ أوْ ذكرٍ إلا افتخرتْ علىٰ ما حولَها مِنَ البقاعِ ، واستبشرتْ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ

= حديث : « فيقعدون حلقاً ، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، فلا تجالسوهم » السابق .
(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٢٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٥٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٢٥) .
(٢) رواه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً الحارثُ بن أسامة في « مسنده » (١٢٧) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٦) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٨) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٤٠) .

إلىٰ منتهاها مِنْ سبعِ أرضينَ ، وما مِنْ عبدٍ يقومُ يصلِّي إلا تزخرفتْ لهُ الأرضُ)[1] .

ويقالُ : (ما مِنْ منزلٍ ينزلُهُ قومٌ إلا أصبحَ ذلكَ المنزلُ يصلِّي عليهِمْ أوْ يلعنُهُمْ)[2] .

* * *

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٩) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٣٤) .

البَابُ الثَّاني
في كيفيّة الأعمال الظاهرة من الصّلاة والبداية بالتكبير وما قبله

ينبغي للمصلِّي إذا فرغَ مِنَ الوضوءِ ، والطهارةِ مِنَ الخبثِ في البدنِ والثيابِ والمكانِ ، ومِنْ سترِ العورةِ مِنَ السرَّةِ إلى الركبةِ :

أنْ ينتصبَ قائماً متوجهاً إلى القبلةِ ، ويراوحَ بينَ قدميهِ ولا يضمَّهُما[1] ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا كانَ يستدلُّ بهِ علىٰ فقْهِ الرجلِ ، وقدْ نَهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الصفْنِ والصفْدِ في الصلاةِ[2] ؛ **والصفْدُ** : هوَ اقترانُ القدمينِ معاً ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ ، **والصفْنُ** : هوَ رفعُ إحدى الرجلينِ ،

(١) أي : بين كعبيه في القيام ، ولكن يجعل بين قدميه مقدار أربع أصابع ، هـٰكذا قرره الأردبيلي في « الأنوار » (١/ ٨٨) ، وأصل المراوحة في العملين : أن يعمل هـٰذا مرة وهـٰذا مرة ، وتقول : راوح بين رجليه ؛ أي : قام علىٰ إحداهما مرة وعلى الأخرىٰ مرة . « إتحاف » (٣/ ٣٢) .

(٢) ذكره ابن الأثير في « النهاية » (٣/ ٣٥ ، ٣٩) ، وروى النسائي (٢/ ١٢٨) عن عبد الله بن مسعود : أنه رأىٰ رجلاً يصلي قد صف بين قدميه فقال : (أخطأ السنة ، ولو راوح بينهما كان أعجب إليَّ) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ٨٩) : (وأصل هـٰذا في كتاب « القوت » [٣/ ٩٦] ، وهو الذي فسر معنى الألفاظ ، وتبعه من جاء بعده) .

ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ ، هٰذا ما يراعيهِ في رجليهِ عندَ القيامِ .

ويراعي في ركبتيهِ ومعقدِ نطاقِهِ الانتصابَ ، وأمّا رأسُهُ فإنْ شاءَ . . تركَهُ على استواءِ القيامِ ، وإنْ شاءَ . . أطرقَ ، والإطراقُ أقربُ للخشوعِ وأغضُّ للبصرِ .

وليكنْ بصرُهُ محصوراً علىٰ مصلاهُ الذي يصلّي عليهِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ مصلّىً . . فليقربْ مِنْ جدارٍ أوْ ليخطَّ خطّاً ، فإنَّ ذلكَ يقصِّرُ مسافةَ البصرِ ويمنعُ تفرُّقَ الفكرِ ، وليحجرْ علىٰ بصرِهِ أنْ يجاوزَ أطرافَ المصلَّىٰ وحدودَ الخطِّ ، وليدمْ هٰذا القيامَ كذلكَ إلى الركوعِ مِنْ غيرِ التفاتٍ . هٰذا أدبُ القيامِ .

فإذا استوىٰ قيامُهُ واستقبالُهُ وإطراقُهُ كذلكَ . . فليقرأْ : (قل أعوذ برب الناس) تحصُّناً بهِ مِنَ الشيطانِ ، ثمَّ ليأتِ بالإقامةِ ، وإنْ كانَ يرجو حضورَ مَنْ يقتدي بهِ . . فليؤذِّنْ أوّلاً ، ثمَّ ليحضرِ النيةَ ، وهوَ أنْ ينويَ في الظهرِ مثلاً ويقولَ بقلبِهِ : أؤدِّي فريضةَ الظهرِ للهِ ، ليميِّزَها بقولِهِ : (أؤدِّي) عنِ القضاءِ ، وبـ(الفريضةِ) عنِ النفلِ ، وبـ(الظهرِ) عنِ العصرِ وغيرِهِ ، ولتكنْ معاني هٰذهِ الألفاظِ حاضرةً في قلبِهِ ؛ فإنَّهُ هُوَ النيةُ ، والألفاظُ مذكِّراتٌ وأسبابٌ لحضورِها ، ويجتهدُ أنْ يستديمَ ذلكَ إلىٰ آخرِ التكبيرِ حتّىٰ لا يعزبَ .

فإذا حضرَ في قلبِهِ ذلكَ . . فليرفعْ يديهِ إلىٰ حذْوِ مَنْكبيهِ بعدَ إرسالِهما بحيثُ يحاذي بكفيهِ مَنْكبيهِ ، وبإبهاميهِ شحمتي أذنيهِ ، وبرؤوسِ أصابعِهِ رؤوسَ أُذنيهِ ؛ ليكونَ جامعاً بينَ الأخبارِ الواردةِ فيهِ ، ويكونُ مقبلاً بكفيهِ وإبهامَيْهِ إلى القبلةِ ، ويبسطُ الأصابعَ ولا يقبضُها ، ولا يتكلَّفُ فيها تفريجاً ولا ضمّاً ، بلْ يتركُها علىٰ مقتضىٰ طبعِها ؛ إذْ نقلَ في الأثرِ النشرُ والضمُّ ، وهـٰذا بينَهُما ، فهوَ أولىٰ .

فإذا استقرتِ اليدانِ في مقرِّهما . . ابتدأَ التكبيرَ معَ إرسالِهما وإحضارِ النيّةِ ، ثمَّ يضعُ اليدينِ علىٰ ما فوقَ السرَّةِ وتحتَ الصدْرِ ، ويضعُ اليمنىٰ على اليسرىٰ إكراماً لليمنىٰ ؛ بأنْ تكونَ محمولةً ، وينشرُ المسبِّحةَ والوسطىٰ مِنَ اليمنىٰ علىٰ طولِ الساعدِ ، ويقبضُ بالإبهامِ والخنصرِ والبنصرِ علىٰ كوعِ اليسرىٰ .

وقدْ رُويَ التكبيرُ معَ رفعِ اليدينِ ، ومعَ استقرارِهما ، ومعَ الإرسالِ ، وكلُّ ذلكَ لا حرجَ فيهِ ، وأراهُ بالإرسالِ أليقَ ؛ فإنَّهُ كلمةُ العقدِ[1] ، ووضعُ إحدى اليدينِ على الأخرىٰ في صورةِ العقدِ ، ومبدؤُهُ الإرسالُ ، وآخرُهُ الوضعُ ، ومبدأُ التكبيرِ الألفُ ، وآخرُهُ الراءُ ، فيليقُ مراعاةُ التطابقِ بينَ الفعلِ والعقدِ . وأمَّا رفعُ اليدِ . . فكالمقدمةِ لهـٰذهِ البدايةِ .

ثمَّ لا ينبغي أنْ يدفعَ يديهِ إلىٰ قدَّامٍ دفعاً عندَ التكبيرِ ، ولا يردَّهما إلىٰ

---

(١) أي : يعقد قلبه علىٰ معناها من إثبات الكبرياء والجلال والعظمة لله تعالىٰ . « إتحاف » (٣/ ٣٩) .

خلفِ مَنْكبيهِ ، ولا ينفضَهُما عنْ يمينٍ وشمالٍ نفضاً إذا فرغَ مِنَ التكبيرِ ، ويرسلُهُما إرسالاً خفيفاً رفيقاً ، ويستأنفُ وضْعَ اليمينِ على الشمالِ بعدَ الإرسالِ .

وفي بعضِ الرواياتِ : أنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا كبَّرَ . . أرسلَ يديْهِ ، فإذا أرادَ أنْ يقرأَ . . وضعَ اليمنىٰ على اليسرىٰ ، فإنْ صحَّ هـٰذا . . فهوَ أولىٰ ممَّا ذكرناهُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا التكبيرُ : فينبغي أنْ يضمَّ الهاءَ مِنْ قولِهِ : (اللهُ) ، ضمةً خفيفةً مِنْ غيرِ مبالغةٍ ، ولا يدخلُ بينَ الهاءِ والألفِ[1] شبهَ الواوِ ، وذلكَ ينساقُ إليهِ بالمبالغةِ ، ولا يدخلُ بينَ باءِ : (أكبرْ) وراءِهِ ألفاً كأنَّهُ يقولُ : (أكبارْ) ، ويجزمُ راءَ التكبيرِ ولا يضمُّها .

فهـٰذهِ هيئةُ التكبيرِ وما معَهُ .

القـراءة

ثمَّ يبتدىءُ بدعاءِ الاستفتاحِ ، وحسنَ أنْ يقولَ عَقيبَ قولِهِ : (اللهُ أَكْبَرُ) : (كبيراً ، وَالحمدُ للهِ كثيراً ، وسُبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً[2] ، وجهتُ

(١) من لفظ : (أكبر) .
(٢) رواه مسلم (٦٠١) .

وجهيَ) . . . إلىٰ قولِهِ : (وأنا مِنَ المسلمينَ)[١] ، ثمَّ يقولُ : (سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، وتباركَ اسمُكَ ، وتعالىٰ جدُّكَ ، وجلَّ ثناؤكَ ، ولا إلـٰهَ غيرُكَ)[٢] ؛ ليكونَ جامعاً بينَ متفرقاتِ ما وردَ في الأخبارِ[٣] ، وإنْ كانَ خلفَ الإمامِ . اختصرَ إنْ لمْ يكنْ للإمامِ سكتةٌ طويلةٌ يقرأُ فيها الفاتحةَ .

ثمَّ يقولُ : أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ثمَّ يقرأُ الفاتحةَ[٤] ، بتمامِ تشديداتِها وحروفِها ، ويجتهدُ في الفرقِ بينَ الضادِ والظاءِ ، ويقولُ : (آمينَ) في آخرِ الفاتحةِ ، ويمدُّها مدّاً ، ولا يصلُ (آمينَ) بقولِهِ : (ولا الضالينَ) وصلاً[٥] .

ويجهرُ بالقراءةِ في الصبحِ والمغربِ والعشاءِ[٦] إلا أنْ يكونَ مأموماً ، ويجهرُ بالتأمينِ .

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) ، وهو : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين) .
(٢) رواه أبو داوود (٧٧٥) ، والترمذي (٢٤٢) ، والنسائي (٢/ ١٣٢) ، وهو عند مسلم (٣٩٩) موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٩٤) ، و« الأذكار » (ص٩٩) .
(٤) في هامش (ز) : (يبتدىء فيها ببسم الله الرحمـٰن الرحيم) .
(٥) بل بعد سكتة لطيفة جداً ؛ ليعلم أن (آمين) ليست من (الفاتحة) . « الأذكار » (ص١٠٨) .
(٦) في الأوليين من المغرب والعشاء وجميع الصبح ، إماماً كان أو منفرداً . « الخلاصة » (ص١٠٠) .

ثمَّ يقرأُ السورةَ أوْ قدْرَ ثلاثِ آياتٍ مِنَ القرآنِ فما فوقَها ، ولا يصلُ آخرَ السورةِ بتكبيرِ الهويِّ ، بل يفصلُ بينَهما بقدْرِ قولِهِ : (سبحانَ اللهِ) .

ويقرأُ في الصبحِ مِنَ السورِ الطوالِ مِنَ المفصَّلِ ، وفي المغربِ مِنْ قصارِهِ ، وفي الظهرِ والعصرِ والعشاءِ نحو : (والسماءِ ذاتِ البروجِ) وما قاربَها ، وفي الصبحِ في السفرِ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، وكذلكَ في ركعتي الفجرِ والطوافِ والتحيةِ ، وهوَ في جميعِ ذلكَ مستديمٌ للقيامِ ووضعِ اليدينِ كما وصفْنا في أوَّلِ الصلاةِ .

الرّكوع ولواحقه

ثمَّ يركعُ ويراعي فيهِ أموراً : أنْ يكبِّرَ للركوعِ ، وأنْ يرفعَ يديهِ معَ تكبيرةِ الركوعِ ، وأنْ يمدَّ التكبيرَ مدّاً إلى الانتهاءِ إلى الركوعِ ، وأنْ يضعَ راحتيهِ علىٰ ركبتيهِ في الركوعِ وأصابعُهُ منشورةٌ موجهةٌ نحوَ القبلةِ علىٰ طولِ الساقِ ، وأنْ ينصبَ ركبتيهِ ولا يَثنِيَهُما ، وأنْ يمدَّ ظهرَهُ مستوياً ، وأنْ يكونَ عنقُهُ ورأسُهُ مستويينِ مع ظهرِهِ كالصفيحةِ الواحدةِ ، لا يكونُ رأسُهُ أخفضَ ولا أرفعَ ، وأنْ يجافيَ مرفقيهِ عنْ جنبيهِ ، وتضمُّ المرأةُ مرفقيها إلىٰ جنبيها .

وأنْ يقولَ : (سبحانَ ربيَ العظيمِ) ثلاثاً ، والزيادةُ إلى السبعةِ وإلى العشرةِ حسنٌ إنْ لمْ يكنْ إماماً .

ثمَّ يرفعُ مِنَ الركوعِ إلى القيامِ ، ويرفعُ يديهِ ويقولُ : (سمعَ اللهُ لمنْ حمدَه) ، ويطمئنُّ في الاعتدالِ ويقولُ : (ربَّنا لكَ الحمدُ[١] ، ملْءُ السماواتِ وملْءُ الأرضِ وملْءُ ما شئتَ مِنْ شيءٍ بعدُ)[٢] ، ولا يطوِّلُ هٰذا القيامَ إلا في صلاةِ التسبيحِ والكسوفِ والصبحِ .

ويقنتُ في الصبحِ في الركعةِ الثانيةِ بالكلماتِ المأثورةِ قبلَ السجودِ[٣] .

السّجود

ثمَّ يهوي إلى السجودِ مكبِّراً ، فيضعُ ركبتيهِ على الأرضِ ، ويضعُ جبهتَهُ وأنفَهُ وكفَّيهِ مكشوفةً ، ويكبِّرُ عندَ الهويِّ ، ولا يرفعُ يديهِ في غيرِ الركوعِ .

وينبغي أنْ يكونَ أولَ ما يقعُ منهُ على الأرضِ ركبتاهُ ، وأنْ يضعَ بعدَهُما

---

(١) كذا بإسقاط الواو في النسخ إلا (ب) : (ولك) قال الرافعي في « العزيز » (١/ ٥١٢) : (والروايتان معاً صحيحتان) ، قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٢/ ٦٩٤) : (فأما الرواية بإثبات الواو . . فمتفق عليها ، وأما بإسقاطها . . ففي « صحيح أبي عوانة ») .

(٢) كما في « مسلم » (٤٧١) .

(٣) وهي التي رواها البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٠٩) ، وهي عند أصحاب السنن مخصوصةً بالوتر : (اللهم ؛ اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبي وآله وسلم) . انظر « العزيز شرح الوجيز » (١/ ٥١٦) .

يديهِ ، ثمَّ يضعَ بعدَهُما وجهَهُ ، وأنْ يضعَ جبهتَهُ وأنفَهُ على الأرضِ ، وأن يجافيَ مرفقيهِ عنْ جنبيهِ ، ولا تفعلُ المرأةُ ذلكَ ، وأنْ يفرِّجَ بينَ رجليهِ ، ولا تفعلُ المرأةُ ذلكَ ، وأنْ يكونَ في سجودِهِ مخوياً على الأرضِ ، ولا تكونُ المرأةُ مخويةً ، **والتخويةُ** : رفعُ البطنِ عنِ الفخذينِ والتفريجُ بينَ الفخذينِ[١] ، وأنْ يضعَ يديهِ على الأرضِ حذاءَ مَنْكِبيهِ ، وألا يفرِّجَ أصابعَهُما ، بلْ يضمُّهُما ويضمُّ الإبهامَ إليها ، وإنْ لمْ يضمَّ الإبهامَ . . فلا بأسَ ، ولا يفترشُ ذراعيهِ على الأرضِ كما يفترشُ الكلبُ ؛ فإنَّهُ منهيٌّ عنهُ ، وأنْ يقولَ : (سبحانَ ربيَ الأعلىٰ) ثلاثاً ، فإنْ زادَ . . فحسنٌ ، إلا أنْ يكونَ إماماً .

ثمَّ يرفعُ مِنَ السجودِ ، فيطمئنُّ جالساً معتدلاً ، فيرفعُ رأسَهُ مكبراً ، ويجلسُ علىٰ رجلِهِ اليسرىٰ ، وينصبُ قدمَهُ اليمنىٰ ، ويضعُ يديهِ علىٰ فخذيهِ والأصابعُ منشورةٌ ، ولا يتكلَّفُ ضمَّها ولا تفريجَها ، ويقولُ : (ربِّ اغفرْ لي ، وارحمني ، وارزقني ، واهدني ، واجبرني ، وعافني ، واعفُ عنِّي)[٢] ، ولا يطوِّلُ هـٰذهِ الجلسةَ إلا في سجودِ التسبيحِ ، ويأتي بالسجدةِ الثانيةِ كذلكَ ، ويستوي منها جالساً جلسةً خفيفةً للاستراحةِ في كلِّ ركعةٍ لا تشهُّدَ عقيبَها ، ثمَّ يقومُ فيضعُ يديهِ على الأرضِ ، ولا يقدِّمُ إحدىٰ رجليهِ في حالةِ الارتفاعِ ، ويمدُّ التكبيرَ حتَّىٰ يستغرقَ ما بينَ وسطِ ارتفاعِهِ منَ

---

(١) في (هـ) : (والتفريج بين الفخذين والركبتين) ، وفي (و) : (الركبتين) .
(٢) رواه أبو داوود (٨٥٠) ، والترمذي (٢٨٤) ، وابن ماجه (٨٩٨) .

القعودِ ، إلىٰ وسطِ ارتفاعِهِ إلى القيامِ ؛ بحيثُ تكونُ الهاءُ مِنْ قولِهِ : (اللهُ) عندَ استوائِهِ جالساً ، وكافُ (أكبرْ) عندَ اعتمادِهِ علىٰ يديهِ للقيامِ ، وراءُ (أكبرْ) في وسطِ ارتفاعِهِ إلى القيامِ ، ويبتدئُ في وسطِ ارتفاعِهِ إلى القعودِ حتَّىٰ يقعَ التكبيرُ في وسطِ انتقالِهِ ، ولا يخلو عنهُ إلا طرفاهُ ، وهوَ أقربُ إلى التعميمِ ، ويصلِّي الركعةَ الثانيةَ كالأولىٰ ، ويعيدُ التعوُّذَ كالابتداءِ .

التشهد

ثمَّ يتشهَّدُ في الركعةِ الثانيةِ التشهُّدَ الأوَّلَ ، ثمَّ يصلِّي علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ آلِهِ ، ويضعُ يدَهُ اليمنىٰ علىٰ فخذِهِ اليمنىٰ ، ويقبضُ أصابعَهُ اليمنىٰ إلا المسبِّحَةَ ، ولا بأسَ بإرسالِ الإبهامِ أيضاً ، ويشيرُ بمسبِّحَةِ يمناهُ وحدَهَا عندَ قولِهِ : (إلا اللهُ) ، لا عندَ قولِهِ : (لا إلٰهَ) .

ويجلسُ في هٰذا التشهدِ علىٰ رجلِهِ اليسرىٰ كما بينَ السجدتينِ .

وفي التشهدِ الأخيرِ يستكملُ الدعاءَ المأثورَ بعدَ الصلاةِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) ، وسننُهُ كسننِ التشهُّدِ الأوَّلِ ، لكنْ يجلسُ في الأخيرِ علىٰ وركِهِ الأيسرِ ؛ لأنَّهُ ليسَ مستوفِزاً للقيامِ ، بلْ هوَ مستقرٌّ ،

---

(١) والمأثور كثير ، منه ما رواه مسلم (٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تشهد أحدكم . . فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهمّ ؛ إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » .

ويضجعُ رجلَهُ اليسرىٰ خارجةً مِنْ تحتِهِ ، وينصبُ اليمنىٰ ، ويضعُ رأسَ الإبهامِ إلىٰ جهةِ القبلةِ إنْ لمْ يشقَّ عليهِ ، ثمَّ يقولُ : (السلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ) ويلتفتُ يميناً بحيثُ يَرىٰ خدَّهُ الأيمنَ مَنْ وراءَهُ مِنَ الجانبِ اليمينِ ، ويلتفتُ شمالاً كذلكَ ، ويسلِّمُ تسليمةً ثانيةً ، وينوي الخروجَ بالسلامِ مِنَ الصلاةِ ، وينوي بالسلامِ علىٰ مَنْ علىٰ يمينهِ مِنَ الملائكةِ والمسلمينَ في الأولىٰ ، وينوي مثلَ ذلكَ في الثانيةِ ، ويجزمُ التسليمَ ولا يمدُّهُ مداً ؛ فهوَ السنَّةُ .

وهـٰذهِ هيئةُ صلاةِ المنفردِ .

ويرفعُ صوتَهُ بالتكبيراتِ ، ولا يرفعُ صوتَهُ إلاَّ بقدرِ ما يُسمعُ نفسَهُ .

وينوي الإمامُ الإمامةَ لينالَ الفضلَ ، فإنْ لمْ ينوِ . صحَّتْ صلاةُ القومِ إذا نوَوُا الاقتداءَ ، ونالُوا فضلَ الجماعةِ .

ويُسرُّ بدعاءِ الاستفتاحِ والتعوذِ كالمنفردِ ، ويجهرُ بالفاتحةِ والسورةِ في جميعِ الصبحِ وأوليَي العشاءِ والمغربِ ، وكذلكَ المنفردُ .

ويجهرُ بقولِهِ : (آمينَ) في الصلاةِ الجهريَّةِ ، وكذلكَ المأمومُ ، ويقرنُ المأمومُ تأمينَهُ بتأمينِ الإمامِ معاً لا تعقيباً ، ويسكُتُ الإمامُ سكتةً عقيبَ الفاتحةِ ؛ ليثوبَ إليهِ نَفَسُهُ ، ويقرأَ المأمومُ الفاتحةَ في الجهريةِ في هـٰذهِ السكتةِ ؛ ليتمكَّنَ مِنَ الاستماعِ عندَ قراءةِ الإمامِ ، ولا يقرأُ المأمومُ السورةَ في الجهريَّةِ إلاَّ إذا لمْ يسمعْ صوتَ الإمامِ .

ويقولُ الإمامُ : (سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهُ) عندَ رفعِ رأسِهِ مِنَ الركوعِ ، وكذا المأمومُ ، ولا يزيدُ الإمامُ على الثلاثِ في تسبيحاتِ الركوعِ والسجودِ ، ولا يزيدُ في التشهُّدِ الأولِ بعدَ قولِهِ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ) ويقتصرُ في الركعتينِ الأخيرتينِ على الفاتحةِ ، ولا يطوِّلُ على القومِ ، ولا يزيدُ علىٰ دعائِهِ في التشهُّدِ الأخيرِ علىٰ قدرِ التشهُّدِ والصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وينوي عندَ السلامِ السلامَ على القومِ والملائكةِ ، وينوي القومُ بتسليمِهِمْ جوابَهُ .

ويثبتُ الإمامُ ساعةً حتَّىٰ يفرغَ الناسُ مِنَ السلامِ ، ويُقبلُ على الناسِ بوجهِهِ ، والأَولىٰ أنْ يثبتَ إنْ كانَ خلفَ الرجالِ نساءٌ ؛ لينصرفْنَ قبلَهُ ، ولا يقومُ واحدٌ مِنَ القومِ حتَّىٰ يقومَ ، وينصرفُ الإمامُ حينَ يشاءُ مِنْ يمينِهِ وشمالِهِ ، واليمينُ أحبُّ إليَّ .

ولا يخصُّ الإمامُ نفسَهُ بالدعاءِ في قنوتِ الصبحِ ، بلْ يقولُ : (اللهمَّ اهدِنا . . .) ويجهرُ بِهِ ، ويؤمِّنُ القومُ ، ويرفعونَ أيديَهُمْ حذاءَ الصدورِ ، ويمسحُ الوجهَ عندَ ختْمِ الدعاءِ ؛ لحديثٍ نُقِلَ فيهِ[1] ، وإلاَّ . . فالقياسُ ألاَّ يرفعَ اليدَ كما في آخرِ التشهُّدِ .

---

(١) وهو ما رواه الترمذي (٣٣٨٦) : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء . . لم يحطَّهما حتىٰ يمسح بهما وجهه) . وانظر « المجموع » (٣/ ٤٦٢ـ ٤٦٣) .

المنهيّات

نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصلاةِ عَنِ الصفْنِ والصفْدِ ، وقد ذكرْناهما[١] ، وعنِ الإقعاءِ[٢] ، وعنِ السَّدْلِ[٣] ، والكفِّ[٤] ، وعنِ الاختصارِ[٥] ، وعنِ الصَّلْبِ[٦] ، وعنِ المواصلةِ ، وعنْ صلاةِ الحاقنِ والحاقبِ والحازقِ[٧] ، وعن صلاةِ الجائعِ والغضبانِ والمتلثِّمِ ؛ وهوَ سترُ الوجهِ .

أمَّا الإقعاءُ : فهوَ عندَ أهلِ اللغةِ : أنْ يجلسَ علىٰ وركيهِ وينصبَ ركبتيه ، ويجعلَ يديهِ على الأرضِ كالكلبِ .

وعندَ أهلِ الحديثِ : أنْ يجلسَ علىٰ ساقيهِ جاثياً وليسَ على الأرضِ منهُ إلا رؤوسُ أصابعِ الرجلينِ والركبتانِ .

---

(١) وسيأتي تفسير من المصنف لهذه المنهيات فيما يلي .

(٢) كما روى الترمذي (٢٨٢) ، وابن ماجه (٨٩٤) مرفوعاً : « لا تُقعِ بين السجدتين » .

(٣) كما روىٰ أبو داوود (٦٤٣) ، والترمذي (٣٧٨) .

(٤) في (ب) : (الكفت) وكلاهما صحيح ، **والكفت والكف** : ضم الشيء بعضه إلىٰ بعض ، وسيأتي الخبر الوارد فيه .

(٥) كما هو عند البخاري (١٢٢٠) ، ومسلم (٥٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي الرجل مختصراً) .

(٦) كما هو عند أبي داوود (٩٠٣) ، والنسائي (٢/ ١٢٧) عن زياد بن صبيح الحنفي قال : (صليت إلىٰ جنب ابن عمر ، فوضعت يدي علىٰ خاصرتي ، فلما صلّىٰ . . قال : هـٰذا هو الصلب في الصلاة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهىٰ عنه) .

(٧) كما هو عند مسلم (٥٦٠) مرفوعاً : « لا صلاة بحضرة الطعام ، ولا هو يُدافعُهُ الأخبثان » ، والحازق ـ كما سيبين المصنف ـ في معنىٰ هـٰذا من ذهاب الخشوع .

وأمَّا السدلُ : فمذهبُ أهلِ الحديثِ فيهِ : أنْ يلتحفَ بثوبِهِ ويدخلَ يديهِ مِنْ داخلٍ ، فيركعُ ويسجدُ كذلكَ ، وكانَ هـٰذا فعلَ اليهودِ في صلاتِهِمْ ، فنهوا عنِ التشبُّهِ بهِمْ ، والقميصُ في معناهُ ، فلا ينبغي أنْ يركعَ ويسجدَ ويداهُ في بدنِ القميصِ ، وقيلَ : معناهُ : أنْ يضعَ وسَطَ الإزارِ علىٰ رأسِهِ ويرسلَ طرفيهِ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ منْ غيرِ أنْ يجعلَهُما علىٰ كتفيهِ ، والأوَّلُ أقربُ[١] .

وأمَّا الكفُّ : فهوَ أنْ يرفعَ ثيابَهُ مِنْ بينِ يديهِ أوْ مِنْ خلفِهِ إذا أرادَ السجودَ ، وقدْ يكونُ الكفُّ في شعرِ الرأسِ ، فلا يصلينْ وهوَ عاقصٌ شعرَهُ ، والنهيُ للرجالِ ، وفي الحديثِ : « أُمرتُ أنْ أسجدَ علىٰ سبعةِ أعضاءٍ ، ولا أكفَّ شعراً ولا ثوباً »[٢] .

وكرهَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ أنْ يأتزرَ فوقَ القميصِ في الصلاةِ ورآهُ مِنَ الكفِّ[٣] .

وأمَّا الاختصارُ : فأنْ يضعَ يديهِ علىٰ خاصرتِهِ .

وأمَّا الصَّلْبُ : فأنْ يضعَ يديهِ علىٰ خاصرتيهِ ويجافيَ بينَ عضديهِ في القيامِ .

---

(١) وقيل : هو الإسبال للثوب حتىٰ يلامس الأرض ، وعن المعنى الثاني قال إمام أهل اللغة الزبيدي : (وليس بشيء عندي) . « إتحاف » (٣/ ٩١) .

(٢) رواه البخاري (٨٠٩) ، ومسلم (٤٩٠) .

(٣) قال ابن قدامة في « المغني » (٢/ ٣٠٠) : (فأما شد الوسط في الصلاة ؛ فإن كان بمنطقة أو مئزر أو ثوب أو شد قباء . . فلا يكره ، روايةً واحدة . . . ، وإن كان بخيط أو حبل مع سرَّته وفوقها فهل يكره ؟ علىٰ روايتين ؛ إحداهما : يكره ؛ لما فيه من التشبه بأهل الكتاب) .

وأمّا المواصلةُ : فهيَ خمسةٌ ؛ اثنانِ على الإمامِ : ألا يصلَ قراءتَهُ بتكبيرةِ الإحرامِ ، ولا ركوعَهُ بقراءتِهِ ؛ واثنانِ على المأمومِ : ألا يصلَ تكبيرةَ الإحرامِ بتكبيرةِ الإمامِ ، ولا تسليمَهُ بتسليمِهِ ؛ وواحدةٌ بينهما : ألا يصلَ تسليمةَ الفرضِ بالتسليمةِ الثانيةِ ، وليفصلْ بينَهُما .

وأمّا الحاقنُ : فمِنَ البولِ ، **والحاقبُ** : مِنَ الغائطِ ، **والحازقُ** : صاحبُ الخفِّ الضيِّقِ ، فإنَّ كلَّ ذلكَ يمنعُ الخشوعَ ، وفي معناهُ : الجائعُ والمهتمُّ ، وفُهِمَ نهيُ الجائعِ مِن قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حضرَ العَشاءُ وأقيمتِ الصلاةُ . . فابدؤوا بالعَشاءِ »[١] ، إلا أنْ يضيقَ الوقتُ أوْ يكونَ ساكنَ القلبِ .

وفي الخبرِ : « لا يدخلنَّ أحدُكُمُ الصلاةَ وهوَ مقطِّبٌ ، ولا يصلِّينَّ أحدُكُمْ وهوَ غضبانُ »[٢] .

وقالَ الحسنُ : (كلُّ صلاةٍ لا يحضرُ فيها القلبُ فهيَ إلى العقوبةِ أسرعُ)[٣] .

وفي الخبرِ : « سبعةُ أشياءَ في الصَّلاةِ مِنَ الشيطانِ : الرُّعافُ ، والنعاسُ ، والوسوسةُ ، والتَّثاؤُبُ ، والحكاكُ ، والالتفاتُ ، والعبثُ

---

(١) رواه البخاري (٥٤٦٥) ، ومسلم (٥٥٧) .
(٢) هٰكذا أورده صاحب « القوت » (٢/ ٩٧) وقال العراقي : (لم أجده) . « إتحاف » (٣/ ٩٤) .
(٣) رواه الطوسي في « أربعينه » (١١) ، وهو في « القوت » (٢/ ٩٧) .

بالشيءِ » ، وزادَ بعضُهُمْ : « والسهوُ ، والشكُّ »[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (أربعةٌ في الصلاةِ مِنَ الجفاءِ : الالتفاتُ ، ومسحُ الوجهِ ، وتسويةُ الحصىٰ ، وأنْ تصلِّيَ بطريقِ مَنْ يمرُّ بينَ يديكَ)[2] .

ونهىٰ أيضاً عنْ أنْ يشبِّكَ أصابعَهُ[3] ، أوْ يفرقعَ أصابعَهُ[4] ، أوْ يسترَ وجهَهُ[5] ، أوْ يضعَ إحدىٰ كفيهِ على الأخرىٰ ويدخلَهُما بينَ فخذيهِ في الركوعِ ؛ قالَ بعضُ الصحابة رضيَ اللهُ عنهُم : (كنَّا نفعلُ ذلكَ فنهينا عنهُ)[6] .

---

(١) في « الترمذي » (٢٧٤٨) : « العطاس ، والنعاس ، والتثاؤب في الصلاة ، والحيض ، والقيء ، والرعاف من الشيطان » ، وعند البخاري (٧٥١) أنه صلى الله عليه وسلم سُئل عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » ، وعند مسلم (٢٢٠٣) شكاية عثمان بن أبي العاص الوسوسة في الصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك شيطان يقال له : خَنْزَبٌ ، فإذا أحسسته . . فتعوذ بالله منه . . . » ، وفي « تعظيم قدر الصلاة » (ص٨٩) : (قال سعيد بن جبير : خمس ينقص من الصلاة : الالتفات ، والاحتكاك ، وتفقيعك أصابعك في الصلاة ، والوسوسة ، وتقليب الحصىٰ) ، وما ذكره المصنف هو في « القوت » (٢/ ٩٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٩٧) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٤١) .

(٤) رواه ابن ماجه (٩٦٥) .

(٥) عند أبي داوود (٦٤٣) ، وابن ماجه (٩٦٦) : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغطي الرجل فاه في الصلاة) .

(٦) رواه البخاري (٧٩٠) ، ومسلم (٥٣٥) ، والمراد ببعض الصحابة هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

ويكرهُ أيضاً أنْ ينفخَ في الأرضِ عندَ السجودِ للتنظيفِ[1] ، وأنْ يسويَ الحصىٰ بيدِهِ[2] ؛ فإنَّها أفعالٌ مستغنىً عنها ، ولا يرفعُ إحدىٰ قدميهِ فيضعُها علىٰ فخذِهِ ، ولا يستندُ في قيامِهِ إلىٰ حائطٍ ، فإنِ استندَ بحيثُ لوْ سلَّ ذلكَ الحائطُ . . لسقطَ ؛ فالأظهرُ بطلانُ صلاتِهِ .

تمييز الفرائض والسنن

جملةُ ما ذكرناهُ يشتملُ علىٰ فرائضَ وسننٍ وآدابٍ وهيئاتٍ ممَّا ينبغي لمريدِ طريقِ الآخرةِ أنْ يراعيَ جميعَها .

فالفرضُ مِنْ جملتِها اثنتا عشرةَ خصلةً : النيةُ ، وتكبيرةُ الإحرامِ ، والقيامُ ، والفاتحةُ ، والانحناءُ في الركوعِ إلىٰ أنْ تنالَ راحتاهُ ركبتيهِ معَ الطمأنينةِ ، والاعتدالُ عنهُ قائماً ، والسجودُ معَ الطمأنينةِ ، ولا يجبُ وضعُ اليدينِ ، والاعتدالُ عنهُ قاعداً ، والجلوسُ للتشهدِ الأخيرِ ، والتشهدُ الأخيرُ ، والصلاةُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والسلامُ الأوَّلُ ، فأمَّا نيةُ الخروجِ . . فلا تجبُ .

وما عدا هـٰذا فليسَ بواجبٍ ، بلْ هيَ سننٌ وهيئاتٌ فيها[3] وفي الفرائضِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٣٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٩٤٥) ، والترمذي (٣٧٩) ، والنسائي (٣/ ٦) .

(٣) أي : في السنن ؛ كما سيبين المصنف ذلك .

أمَّا السننُ : فمنَ الأفعالِ أربعةٌ : رفعُ اليدينِ في تكبيرةِ الإحرامِ ، وعندَ الهويِّ إلى الركوعِ ، وعندَ الارتفاعِ إلى القيامِ ، والجلسةُ للتشهدِ الأوَّلِ .

وأمَّا ما ذكرناهُ مِنْ كيفيةِ نشرِ الأصابعِ وحدِّ رفعِها . . فهيَ هيئاتٌ تابعةٌ لهـٰذهِ السنَّةِ ، والتورُّكُ والافتراشُ هيئاتٌ تابعةٌ للجلسةِ ، والإطراقُ وتركُ الالتفاتِ هيئاتٌ للقيامِ وتحسينِ صورتِهِ ، وجلسةُ الاستراحةِ لمْ نعدَّها مِنْ أصولِ السننِ في الأفعالِ ؛ لأنَّها كالتحسينِ لهيئةِ الارتفاعِ مِنَ السجودِ إلى القيامِ ، لأنَّها ليستْ مقصودةً في نفسِها ، ولذلكَ لمْ تفردْ بذكرٍ .

وأمَّا السننُ مِنَ الأذكارِ : فدعاءُ الاستفتاحِ ، ثمَّ التعوُّذُ ، ثمَّ قولُهُ : (آمينَ) فإنَّهُ سنةٌ مؤكدةٌ ، ثمَّ قراءةُ السورةِ ، ثمَّ تكبيراتُ الانتقالاتِ ، ثمَّ الذكرُ في الركوعِ والسجودِ ، والاعتدالِ عنهُما ، ثمَّ التشهدُ الأوَّلُ ، والصلاةُ فيهِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ الدعاءُ في آخرِ التشهدِ الأخيرِ ، ثمَّ التسليمةُ الثانيةُ .

وهـٰذهِ وإنْ جمعناها في اسمِ السنةِ فلها درجاتٌ متفاوتةٌ ؛ إذْ يجبرُ مِنْ جملتِها بسجودِ السهوِ أربعةٌ :

وأمَّا مِنَ الأفعالِ : فواحدةٌ ؛ وهيَ الجلسةُ الأولىٰ للتشهُّدِ الأوَّل ؛ فإنَّها مؤثرةٌ في ترتيبِ نظمِ الصلاةِ في أعينِ الناظرينَ ، حتَّىٰ يعرفُ بها أَنَّها رباعيةٌ أمْ لا ، بخلافِ رفعِ اليدينِ ؛ فإنَّهُ لا يؤثرُ في تغييرِ النظمِ ، فعُبِّرَ عنْ ذلكَ بالبعضِ ، وقيلَ : الأبعاضُ تجبرُ بالسجودِ .

وأمَّا الأذكارُ : فكلُّها لا تقتضي سجودَ السهوِ إلا ثلاثةٌ : القنوتُ ، والتشهدُ الأوَّلُ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ ، بخلافِ تكبيراتِ الانتقالاتِ ، وأذكارِ الركوعِ والسجودِ ، والاعتدالِ عنهُما ؛ لأنَّ الركوعَ والسجودَ في صورتِهما مخالفانِ للعادةِ ، ويحصلُ بهما معنى العبادةِ معَ السكوتِ عَنِ الأذكارِ وعنْ تكبيراتِ الانتقالاتِ ، فعدمُ تلكَ الأذكارِ لا تغيِّرُ صورةَ العبادةِ .

وأمَّا الجلسةُ للتشهدِ الأوَّلِ . . ففعلٌ معتادٌ ، وما زيدتْ إلا للتشهدِ ، فتركُها ظاهرُ التأثيرِ[1] ، وأمَّا دعاءُ الاستفتاحِ والسورةُ . . فتركُهُما لا يؤثرُ ، معَ أنَّ القيامَ صارَ معموراً بالفاتحةِ ومميزاً عنِ العادةِ بها[2] ، وكذلكَ الدعاءُ في التشهدِ الأخيرِ .

والقنوتُ أبعدُ ما يجبرُ بالسجودِ ، ولكنْ شُرِعَ مدُّ الاعتدالِ في الصبحِ لأجلِهِ ، فكانَ كمدِّ جلسةِ الاستراحةِ ؛ إذْ صارتْ بالمدِّ معَ التشهدِ جلسةً للتشهدِ الأوَّلِ ، فبقيَ هٰذا قياماً ممدوداً معتاداً ليسَ فيهِ ذكرٌ واجبٌ ، وفي الممدودِ احترازٌ عنْ غيرِ الصبحِ ، وفي خلوِّهِ عنْ ذكرٍ واجبٍ احترازٌ عنْ أصلِ القيامِ في الصلاةِ .

* * *

---

(١) في تغيير صورة العبادة . « إتحاف » (٣/ ١٠٧) .

(٢) ولولا قراءتها فيه . . لم يتميز عن قيام العادة . « إتحاف » (٣/ ١٠٧) .

فإنْ قلتَ : تمييزُ السننِ عنِ الفرائضِ معقولٌ ؛ إذْ تفوتُ الصحةُ بفوتِ الفرضِ دونَ السنةِ ، ويتوجَّهُ العقابُ بهِ دونَها ، فأمَّا تمييزُ سنةٍ عنْ سنةٍ . . فالكلُّ مأمورٌ بهِ علىٰ سبيلِ الاستحبابِ ، ولا عقابَ في تركِ الكلِّ ، والثوابُ مرجوٌّ على الكلِّ ؛ فما معناهُ ؟

فاعلمْ : أَنَّ اشتراكَهما في الثوابِ والعقابِ والاستحبابِ لا يرفعُ تفاوتَهُما ، وينكشفُ لكَ ذلكَ بمثالٍ ؛ وهوَ : أَنَّ الإنسانَ لا يكونُ إنساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنىً باطنٍ وأعضاءٍ ظاهرةٍ ؛ فالمعنى الباطنُ : هوَ الحياةُ والروحُ ، والظاهرُ : أجسامُ أعضائِهِ .

ثمَّ بعضُ تلكَ الأعضاءِ ينعدمُ الإنسانُ بعدمِها ؛ كالقلبِ والكبدِ والدماغِ وكلِّ عضوٍ تفوتُ الحياةُ بفواتِهِ ، وبعضُها لا تفوتُ بفواتِهِ الحياةُ ، ولكنْ يفوتُ بفواتِهِ مقاصدُ الحياةِ ؛ كالعينِ واليدِ والرجْلِ واللسانِ ، وبعضُها لا يفوتُ بفواتِها الحياةُ ولا مقاصدُها ، ولكنْ يفوتُ بها الحسنُ ؛ كالحاجبينِ واللحيةِ والأهدابِ وحسنِ اللونِ ، وبعضُها لا يفوتُ بها أصلُ الجمالِ ولكنْ كمالُهُ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ وسوادِ شعرِ اللحيةِ والأهدابِ وتناسبِ خلقةِ الأعضاءِ وامتزاجِ الحمرةِ بالبياضِ في اللونِ ، فهٰذهِ درجاتٌ متفاوتةٌ .

فكذلكَ العبادةُ صورةٌ صوَّرَها الشرعُ وتعبَّدَنا باكتسابِها ؛ فروحُها وحياتُها الباطنةُ : الخشوعُ والنيَّةُ وحضورُ القلبِ والإخلاصُ كما سيأتي ، ونحنُ الآنَ

في أجزائِها الظاهرةِ ، فالركوعُ والسجودُ والقيامُ وسائرُ الأركانِ تجري منها مَجرى القلبِ والرأسِ والكبدِ ؛ إذْ يفوتُ وجودُ الصلاةِ بفواتِها ، والسننُ التي ذكرناها مِنْ رفعِ اليدينِ ودعاءِ الاستفتاحِ والتشهدِ الأوَّلِ تجري منها مَجرى اليدينِ والعينينِ والرجلينِ ولا تفوتُ الصحةُ بفواتِها كما لا تفوتُ الحياةُ بفواتِ هـٰذهِ الأعضاءِ ، ولكنْ يصيرُ الشخصُ بسببِ فواتِها مشوَّهَ الخلقةِ مذموماً غيرَ مرغوبٍ فيهِ ، فكذلكَ مَنِ اقتصرَ علىٰ أقلِّ ما يُجزِىءُ مِنَ الصلاةِ كانَ كمنْ أهدىٰ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملوكِ عبداً حيّاً مقطوعَ الأطرافِ[1] .

وأمَّا الهيئاتُ وهيَ ما وراءَ السننِ . . فتجري مَجرىٰ أسبابِ الحسنِ ؛ مِنَ الحاجبينِ واللحيةِ والأهدابِ وحسنِ اللونِ .

وأمَّا لطائفُ الآدابِ في تلكَ السننِ . . فهي مكمِّلاتٌ للحسنِ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ واستدارةِ اللحيةِ وغيرِها ، فالصلاةُ عندَكَ قربةٌ وتحفةٌ تتقرَّبُ بها إلىٰ حضرةِ ملكِ الملوكِ كوصيفةٍ يهديها طالبُ القربةِ مِنَ السلاطينِ إليهِمْ ، وهـٰذهِ التحفةُ تعرضُ على اللهِ تعالىٰ ثمَّ تردُّ عليكَ يومَ العرضِ الأكبرِ ، فإليكَ الخيرةُ في تحسينِ صورتِها أوْ تقبيحِها ، فإنْ أحسنتَ . . فلنفسِكَ ، وإنْ أسأتَ . . فعليها .

ولا ينبغي أنْ يكونَ حظُّكَ مِنْ ممارسةِ الفقهِ أنْ يتميَّزَ لكَ السنةُ مِنَ

---

(١) روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (الصلاة قربان ، إنما مثل الصلاة كمثل رجل أراد من إمام حاجة ، فأهدىٰ له هدية . . .) .

الفرضِ ، فلا يعلقُ بفهمِكَ مِنْ أوصافِ السنَّةِ إلا أَنَّهُ يجوزُ تركُها فتتركُها ؛ فإنَّ ذلكَ يضاهي قولَ الطبيبِ : إنَّ فقءَ العينِ لا يبطلُ وجودَ الإنسانِ ولكنْ يخرجُهُ عَنْ أنْ يَصْدُقَ رجاءُ المتقرِّبِ في قبولِ السلطانِ إذا أخرجَهُ في معرضِ الهديةِ !

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ مراتبَ السننِ والهيئاتِ والآدابِ ، فكلُّ صلاةٍ لمْ يتمَّ الإنسانُ ركوعَها وسجودَها فهيَ الخصمُ الأوَّلُ علىٰ صاحبِها ، تقولُ : (ضيَّعَكَ اللهُ كما ضيعتني) ، فطالعِ الأخبارَ التي أوردْناها في إكمالِ أركانِ الصلاةِ ليظهرَ لكَ وقعُها .

* * *

البَابُ الثَّالِثُ
في الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكرْ في هٰذا البابِ ارتباطَ الصلاةِ بالخشوعِ وحضورِ القلبِ ، ثمَّ لنذكرِ المعانيَ الباطنةَ وحدودَها وأسبابَها وعلاجَها ، ثمَّ لنذكرْ تفصيلَ ما ينبغي أنْ يحضرَ في كلِّ ركنٍ مِنْ أركانِ الصلاةِ ؛ لتكونَ صالحةً لزادِ الآخرةِ .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلمْ : أَنَّ أدلةَ ذلكَ كثيرةٌ ، فمنْ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ ، وظاهرُ الأمرِ الوجوبُ ، والغفلةُ تضادُّ الذكرَ[1] ، فمَنْ غفلَ في جميعِ صلاتِهِ كيفَ يكونُ مقيماً للصلاةِ لذكرِهِ ؟!

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ نهيٌ ، وظاهرُهُ التحريمُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ تعليلٌ لنهيِ السكرانِ ، وهوَ مطردٌ

---

(١) **والغفلة** : هي فقد الشعور عما حقه أن يشعر به ، أو هي الذهول عن الشيء ، أو هي سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ ، أو هي متابعة النفس علىٰ ما تشتهيه ، وبكل معانيها تضاد الذكر سواء كان قلبياً أو لسانياً . « إتحاف » (٣/ ١١٠) .

في الغافلِ المستغرقِ الهمِّ بالوسواسِ وأفكارِ الدنيا .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصلاةُ تمسكنٌ وتواضعٌ »[١] حصرٌ بالألفِ واللامِ ، وكلمةُ (إنَّما) للتحقيقِ والتوكيدِ[٢] ، وقدْ فهمَ الفقهاءُ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما الشفعةُ فيما لمْ يُقسمْ »[٣] الحصرَ والإثباتَ والنفيَ .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ تنهَهُ صلاتُهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعداً »[٤] ، وصلاةُ الغافلِ لا تمنعُ مِنَ الفحشاءِ والمنكرِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ قائمٍ حظُّهُ مِنْ قيامِهِ التعبُ والنصبُ »[٥] ، وما أرادَ بهِ إلا الغافلَ .

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣/ ١٢٤) ، وهو عند الترمذي (٣٨٥) بنحوه .

(٢) وقد ذهب إمام الحرمين والقاضي أبو الطيب إلىٰ إفادة (إنما) الحصر مع احتمالها لتأكيد الإثبات ، قال ابن دقيق العيد : وهـٰذا هو مختار الغزالي . « إتحاف » (٣/ ١١١) ، وفي غير (ب ، ج) : (التمحيق) بدل : (التوكيد) .

(٣) رواه البخاري (٢٢١٣) ، ومسلم (١٦٠٨) عن جابر رضي الله عنه قال : (جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشفعة في كل مال لم يقسم) ، والحديث يثبت الشفعة لما لم يقسم حصراً ، وينفيها عن المقسوم ، فالحصر واقع بينهما .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٥٤) مرفوعاً .

(٥) عند ابن ماجه (١٦٩٠) : « ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ، وهو عند أحمد في « مسنده » (٢/ ٣٧٣) : « ورب قائم حظُّه من قيامه السهر » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ للعبدِ مِنْ صلاتهِ إلا ما عقلَ منها »(١) .

والتحقيقُ فيهِ : أَنَّ المصليَ مُناجٍ ربَّهُ عزَّ وجلَّ كما وردَ الخبرُ بهِ(٢) ، والكلامُ معَ الغفلةِ ليسَ بمناجاةٍ ألبتةَ .

وبيانُهُ : أَنَّ الزكاةَ إنْ غفلَ الإنسانُ عنها مثلاً . . فهيَ في نفسِها مخالفةٌ للشهوةِ شديدةٌ على النفسِ ، وكذا الصومُ قاهرٌ للقُوىٰ كاسرٌ لسطوةِ الهوى التي هيَ آلةٌ للشيطانِ عدوِّ اللهِ ، فلا يبعدُ أنْ يحصلَ منها مقصودٌ معَ الغفلةِ ، وكذلكَ الحجُّ أفعالٌ شاقةٌ شديدةٌ ، وفيهِ مِنَ المجاهدةِ ما يحصلُ بهِ الإيلامُ ، كانَ القلبُ حاضراً معَ أفعالِهِ أوْ لمْ يكنْ .

أمّا الصلاةُ : فليسَ فيها إلا ذكرٌ وقراءةٌ ، وركوعٌ وسجودٌ ، وقيامٌ وقعودٌ :

فأمّا الذكرُ : فإنَّهُ محاورةٌ ومناجاةٌ معَ اللهِ تعالىٰ ؛ فإمَّا أنْ يكونَ المقصودُ منهُ كونَهُ خطاباً ومحاورةً ، أوِ المقصودُ منهُ الحروفَ والأصواتَ امتحاناً للسانِ بالعملِ ؛ كما تمتحنُ المعدةُ والفرجُ بالإمساكِ في الصومِ ، وكما

---

(١) في « الحلية » (٧/ ٦١) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) ، وعند أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً وسيأتي : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشْرُ صلاته، تُسعها، ثمنها، سبعها، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها ».
(٢) رواه البخاري (٤٠٥) ، ومسلم (٥٥١) بلفظ : « إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه » .

يمتحنُ البدنُ بمشاقِّ الحجِّ ، ويمتحنُ القلبُ بمشقَّةِ إخراجِ الزكاةِ واقتطاعِ المالِ المعشوقِ .

ولا شكَّ أَنَّ هٰذا القسمَ باطلٌ ؛ فإنَّ تحريكَ اللسانِ بالهذيانِ ما أخفَّهُ على الغافلِ ، فليسَ فيهِ امتحانٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ عملٌ ، بلِ المقصودُ الحروفُ مِنْ حيثُ إنَّهُ نطقٌ ، ولا يكونُ نطقاً إلا إذا أعربَ عمَّا في الضميرِ ، ولا يكونُ معرباً إلا بحضورِ القلبِ ؛ فأيُّ سؤالٍ في قولِهِ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذا كانَ القلبُ غافلاً ؟ وإذا لمْ يقصدْ كونَهُ تضرُّعاً ودعاءً . . فأيُّ مشقَّةٍ في تحريكِ اللسانِ بهِ معَ الغفلةِ لاسيما بعدَ الاعتيادِ ؟!

هٰذا حكمُ الأذكارِ .

بلْ أقولُ : لوْ حلفَ الإنسانُ وقالَ : (لأشكرنَّ فلاناً وأثني عليهِ وأسألُهُ حاجةً) ، ثمَّ جرتِ الألفاظُ الدالَّةُ علىٰ هٰذهِ المعاني علىٰ لسانِهِ في النومِ . . لمْ يبرَّ في يمينِهِ ، ولوْ جرتْ علىٰ لسانِهِ في ظلمةٍ وذلكَ الإنسانُ حاضرٌ وهوَ لا يعرفُ حضورَهُ ولا يراهُ . . لا يصيرُ بارّاً في يمينِهِ ؛ إذْ لا يكونُ كلامُهُ خطاباً ونطقاً معهُ ما لمْ يكنْ هوَ حاضراً في قلبِهِ ، فلوْ كانتْ تجري هٰذهِ الكلماتُ علىٰ لسانِهِ وهوَ حاضرٌ إلا أَنَّهُ في بياضِ النهارِ غافلٌ ؛ لكونِهِ مستغرقَ الهمِّ بفكرٍ مِنَ الأفكارِ ولمْ يكنْ لهُ قصدُ توجيهِ الخطابِ إليه عندَ نطقهِ . . لمْ يصرْ بارّاً في يمينِهِ (١) .

---

(١) فتحصل عدم الأداء عند وجود : الغفلة ، أو عدم حضور القلب ، أو انتفاء القصد في الخطاب .

ولا شكَّ في أَنَّ المقصودَ مِنَ القراءةِ والأذكارِ الحمدُ والثناءُ والتضرُّعُ والدعاءُ ، والمخاطبُ هوَ اللهُ ، وقلبُهُ بحجابِ الغفلةِ محجوبٌ عنهُ ، فلا يراهُ ولا يشاهدُهُ[1] ، بلْ هوَ غافلٌ عنِ المخاطبِ ولسانُهُ يتحرَّكُ بحكمِ العادةِ ، فما أبعدَ هٰذا عنِ المقصودِ بالصلاةِ التي شرعتْ لتصقيلِ القلبِ وتجديدِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ورسوخِ عَقْدِ الإيمانِ بهِ .

هٰذا حكمُ القراءةِ والذكرِ .

وبالجملةِ : فهٰذهِ الخاصيَّةُ لا سبيلَ إلىٰ إنكارِها في النطقِ ، وتمييزِهِ بها عنِ الفعلِ .

وأمَّا الركوعُ والسجودُ : فالمقصودُ بهما التعظيمُ قطعاً ، ولوْ جازَ أنْ يكونَ معظِّماً للهِ بفعلِهِ وهوَ غافلٌ عنهُ . لجازَ أنْ يكونَ معظِّماً لصنمٍ موضوعٍ بينَ يديهِ وهوَ غافلٌ عنهُ ، أوْ يكونَ معظِّماً للحائطِ الذي بينَ يديهِ وهوَ غافلٌ عنهُ !

وإذا خرجَ عنْ كونِهِ تعظيماً . لمْ يبقَ إلا مجرَّدُ حركةِ الظهرِ والرأسِ ، وليسَ فيهِ مِنَ المشقَّةِ ما يقصدُ الامتحانُ بِهِ ، ثمَّ يُجعلُ عمادَ الدينِ ،

---

(١) والمراد بالرؤية والمشاهدة هنا : هو معرفته بأسمائه وصفاته ، وفيها تتفاوت المراتب ؛ فليس من يعلم أنه عالم قادر على الجملة كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماء والأرض ، واستغرق في دقائق الحكمة ، واستوفىٰ لطائف التدبير ، وإما علىٰ سبيل الحقيقة ؛ فلا يهتز أحد لنيله إلا ردته سُبحات الجلال إلى الحيرة ، ولا يشرئب أحد لملاحظته إلا غطَّى الدهش طرفه . « إتحاف » (٣/ ١١٣) .

والفاصلَ بينَ الكفرِ والإسلامِ ، ويقدَّمُ على الحجِّ وسائرِ العباداتِ ، ويجبُ القتلُ بسببِ تركِهِ على الخصوصِ !

وما أرىٰ أَنَّ هـٰذهِ العظمةَ كلَّها للصلاةِ مِنْ حيثُ أعمالُها الظاهرةُ إلا أنْ يضافَ إليها مقصودُ المناجاةِ ، فإذْ ذاكَ تتقدمُ على الصومِ والزكاةِ والحجِّ وغيرِهِ ، بلِ الضحايا والقرابينُ التي هيَ مجاهدةٌ للنفسِ بتنقيصِ الملكِ[١] قالَ اللهُ تعالىٰ فيها : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ أي : الصفةُ التي استولتْ على القلبِ حتَّىٰ حملتْ على امتثالِ الأوامرِ هيَ المطلوبةُ ، فكيفَ الأمرُ في الصلاةِ ولا أربَ في أفعالِها ؟[٢] .

فهـٰذا ما يدلُّ مِنْ حيثُ المعنىٰ على اشتراطِ حضورِ القلبِ .

* * *

فإنْ قلتَ : إنْ حكمتَ ببطلانِ الصلاةِ وجعلتَ حضورَ القلبِ شرطاً في صحَّتِها . . خالفتَ إجماعَ الفقهاءِ ؛ فإنَّهم لم يشترطوا إلا حضورَ القلبِ عندَ التكبيرِ .

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ تقدَّمَ في كتابِ العلمِ أنَّ الفقهاءَ لا يتصرَّفونَ في الباطنِ ، ولا يشقُّونَ عنِ القلوبِ ولا في طريقِ الآخرةِ ، بلْ يبنونَ ظاهرَ أحكامِ الدينِ

---

(١) أي : لأجل المناجاة التي ينطوي بها حقيقة العبودة لله تعالىٰ تكون الصلاة سيدة العبادات ، ومقدمة علىٰ باقي أركان الدين ، بل وعلى الضحايا والقرابين .

(٢) **الأرب** : الحاجة .

علىٰ ظاهرِ أعمالِ الجوارحِ ، وظاهرُ الأعمالِ كافٍ لسقوطِ القتلِ أوْ تعزيرِ السلطانِ ، فأمَّا أنَّهُ ينفعُ في الآخرةِ . . فليسَ هٰذا مِنْ حدودِ الفقهِ ، علىٰ أنَّه لا يمكنُ أنْ يدَّعى الإجماعُ ؛ فقدْ نُقِلَ عن بشرِ بنِ الحارثِ فيما رواهُ عنهُ أبو طالبٍ المكيُّ ، عنْ سفيانَ الثوريِّ أنَّهُ قالَ : (مَنْ لمْ يخشعْ . . فسدتْ صلاتُهُ)(١) .

ورَوىٰ عنِ الحسنِ أنَّهُ قالَ : (كلُّ صلاةٍ لا يحضرُ فيها القلبُ فهيَ إلى العقوبةِ أسرعُ)(٢) .

وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ : (مَنْ عرفَ مَنْ علىٰ يمينِهِ وشمالِهِ متعمِّداً وهوَ في الصلاةِ . . فلا صلاةَ لهُ)(٣) ، ورُوِيَ أيضاً مسنداً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليصلِّي الصلاةَ لا يكتبُ لهُ سدسُها ولا عشرُها ، وإنَّما يكتبُ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ ما عقَلَ منها »(٤) .

وهٰذا لوْ نقلَ عنْ غيرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لجعلَ مذهباً ، فكيفَ لا يتمسَّكُ بهِ ؟!

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٩٧) .
(٢) رواه الطوسي في « أربعينه » (١١) ، والخبر في « القوت » (٢/ ٩٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٩٧) ، وقال : (وقد أسنده إسماعيل بن أبي زياد عن بشر بن الحارث وغيره) .
(٤) في سنن أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » ، وفي « الحلية » (٧/ ٦١) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (أجمعتِ العلماءُ أَنَّهُ ليسَ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ إلا ما عقلَ منها)[1] ، فجعلَهُ إجماعاً .

وما نقلَ مِنْ هـٰذا الجنسِ عنِ الفقهاءِ المتورِّعينَ وعنْ علماءِ الآخرةِ أكثرُ مِنْ أنْ يحصىٰ[2] ، والحقُّ الرجوعُ إلىٰ أدلَّةِ الشرعِ ، والأخبارُ والآثارُ ظاهرةٌ في هـٰذا الشرطِ ، إلا أَنَّ مقامَ الفتوىٰ في التكليفِ الظاهرِ يتقدَّرُ بقدْرِ قصورِ الخلْقِ ، فلا يمكنُ أنْ يُشترطَ على الناسِ إحضارُ القلبِ في جميعِ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذلكَ يعجزُ عنهُ كلُّ البشرِ إلا الأقلِّينَ ، وإذا لمْ يمكنِ اشتراطُ الاستيعابِ للضرورةِ . . فلا مردَّ لهُ ، إلا أنْ يُشترطَ منهُ ما ينطلقُ عليهِ الاسمُ ولوْ في اللحظةِ الواحدةِ ، وأولى اللحظاتِ بهِ لحظةُ التكبيرِ ، فاقتصرنا على التكليفِ بذلكَ .

ونحنُ مع ذلكَ نرجو ألا يكونَ حالُ الغافلِ في جميعِ صلاتِهِ مثلَ حالِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٢) .

(٢) وقد حملها أهل العلم ـ والمصنف معهم كما سترىٰ بعد قليل ـ على الكمال ، وجعلوا تفسيرها علىٰ ظاهرها من الغرائب ، قال الإمام النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » (١/ ٤٠٦) : (ومن غرائب القاضي حسين ما حكيته عنه في آخر باب ما يفسد الصلاة في « شرح المهذب » أنه قال : لو صلىٰ وهو يدافع الأخبثين بحيث يذهب خشوعه . . لم تصح صلاته ، وقاله قبله الشيخ أبو زيد المروزي ، والصحيح المشهور : لا تبطل ، بل تكره) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ١١٥) : (سلمنا أن الفقهاء صححوها بما أدىٰ إليه علمهم بمقتضيات أقوال أئمتهم ؛ فهلا يأخذ المصلي بالاحتياط ليذوق لذة المناجاة ، فالتقوىٰ غير الفتوىٰ) .

التاركِ بالكلِّيّةِ ؛ فإنَّهُ على الجملةِ أقدمَ على الفعلِ ظاهراً وأحضرَ القلبَ لحظةً ، وكيفَ لا والذي صلَّىٰ معَ الحدثِ ناسياً صلاتُهُ باطلةٌ عندَ اللهِ ولكنْ لهُ أجرٌ ما بحسبِ فعلِهِ وعلىٰ قدْرِ قصورِهِ وعذرِهِ ؟! ومع هـٰذا الرجاءِ فيخشىٰ أنْ يكونَ حالُهُ أشدَّ مِنْ حالِ التاركِ ، وكيفَ لا والذي يحضرُ الخدمةَ ويتهاونُ بالحضرةِ ويتكلَّمُ بكلامِ الغافلِ المستحقرِ أشدُّ حالاً مِنَ الذي يعرضُ عنِ الخدمةِ ؟!

وإذا تعارضتْ أسبابُ الخوفِ والرجاءِ وصارَ الأمرُ مخطراً في نفسِهِ . . فإليكَ الخيرةُ بعدَهُ في الاحتياطِ والتساهلِ[١] ، ومعَ هـٰذا فلا مطمعَ في مخالفةِ الفقهاءِ فيما أفتوا بهِ مِنَ الصحَّةِ مع الغفلةِ[٢] ؛ فإنَّ ذلكَ ضرورةُ الفتوىٰ كما سبقَ التنبيهُ عليهِ .

ومَنْ عرفَ سرَّ الصلاةِ . . علمَ أنَّ الغفلةَ تضادُّها ، ولكنْ قدْ ذكرنا في

---

(١) إما أن تأخذ بالاحتياط فهو الأقوىٰ ، وإما أن تأخذ بما صححه الفقهاء فعليه الفتوىٰ ، وهـٰذا محط الجواب وفصل الخطاب . « إتحاف » (٣/ ١١٧) .

(٢) نقل الحافظ الزبيدي في بداية هـٰذا الباب أن المصنف جعل الخشوع شرطاً في الصلاة ، بينما أصحاب المذهب يرون أنه سنة ، قال في « الإتحاف » (٣/ ١١٠) : (أكثر العلماء جعلوه ـ أي : الخشوع ـ من سنن الصلاة ، وعليه مشى الرافعي والنووي وغالب الأصحاب ، وجعله أبو طالب المكي وغيره من العارفين شرطاً في الصلاة ، ووافقهم المصنف) ، وكلام المصنف هنا بل في ثنايا هـٰذا الباب يشير إلى التأكيد والحرص على الخشوع ، وما حشده من أدلة بيَّن هنا أنها سيقت لبيان الكمال ، أو أنه أراد الوجوب غير الاصطلاحي ، وشتان بين صلاة شوهاء لا حظ للعبد منها ، وبين صلاة حصد فيها العبد الأجر والوصل .

بابِ الفرقِ بينَ العلمِ الباطنِ والظاهرِ في كتاب قواعدِ العقائدِ أنَّ قصورَ الخلقِ أحدُ الأسبابِ المانعةِ عنِ التصريحِ بكلِّ ما ينكشفُ مِنْ أسرارِ الشرعِ .

فلنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ مِنَ البحثِ ؛ فإنَّ فيهِ مقنعاً للمريدِ الطالبِ لطريقِ الآخرةِ ، وأمّا المجادلُ المشغبُ . . فلسنا نقصدُ مخاطبتَهُ الآنَ .

وحاصلُ الكلامِ : أنَّ حضورَ القلبِ هوَ روحُ الصلاةِ ، وأنَّ أقلَّ ما يبقىٰ بهِ رمقُ الروحِ الحضورُ عندَ التكبيرِ ، فالنقصانُ منهُ هلاكٌ ، وبقدْرِ الزيادةِ عليهِ تنبسطُ الروحُ في أجزاءِ الصلاةِ ، وكمْ مِنْ حيٍّ لا حراكَ بهِ قريبٌ مِنْ ميتٍ ، فصلاةُ الغافلِ في جميعِها إلا عندَ التكبيرِ كحيٍّ لا حراكَ بهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ العونِ .

❋ ❋ ❋

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

اعلمْ : أَنَّ هـٰذهِ المعانيَ تكثرُ العباراتُ عنها ، ولكنْ يجمعُهَا ستُّ جملٍ ، وهيَ : حضورُ القلبِ ، والتفهُّمُ ، والتعظيمُ ، والهيبةُ ، والرجاءُ ، والحياءُ .

فلنذكرْ تفاصيلَها ، ثمَّ أسبابَها ، ثمَّ العلاجَ في اكتسابِها .

***

أمَّا التفاصيلُ :

فالأوَّلُ : حضورُ القلبِ : ونعني بهِ : أنْ يفرغَ القلبَ عَنْ غيرِ ما هوَ ملابسٌ لهُ ومتكلِّمٌ بهِ ، فيكونُ العلمُ بالفعلِ والقولِ مقروناً بهما ، ولا يكونُ الفكرُ جائلاً في غيرِهما ، ومهما انصرفَ الفكرُ عنْ غيرِ ما هوَ فيهِ ، وكانَ في قلبهِ ذكرٌ لما هوَ فيهِ ، ولمْ يكُنْ فيهِ غفلةٌ عنْ كلِّ شيءٍ . . فقدْ حصلَ حضورُ القلبِ .

ولكنَّ **التفهُّمَ** لمعنى الكلامِ أمرٌ وراءَ حضورِ القلبِ ، فربَّما يكونُ القلبُ حاضراً معَ اللفظِ ولا يكونُ حاضراً معَ معنى اللفظِ ، فاشتمالُ القلبِ على العلمِ بمعنى اللفظِ هوَ الذي أردناهُ بالتفهُّمِ .

وهـٰذا مقامٌ يتفاوتُ الناسُ فيهِ ؛ إذْ ليسَ يشتركُ الناسُ في تفهُّمِ المعاني للقرآنِ والتسبيحاتِ ، وكمْ مِنْ معانٍ لطيفةٍ يفهمُها المصلِّي في أثناءِ صلاتِهِ

ولمْ يكنْ قدْ خطرَ بقلبِهِ ذلكَ قبلَهُ ، ومِنْ هـٰذا الوجهِ كانتِ الصلاةُ ناهيةً عنِ الفحشاءِ والمنكرِ ؛ فإنَّها تفهِمُ أموراً تلكَ الأمورُ تمنعُ مِنَ الفحشاءِ لا محالةَ .

وأمَّا التعظيمُ : فهوَ أمرٌ وراءَ حضورِ القلبِ والفهمِ ، إذِ الرجلُ يخاطبُ عبدَهُ بكلامٍ هوَ حاضرُ القلبِ فيهِ ومتفهِّمٌ لمعناهُ ولا يكونُ معظِّماً لهُ ، فالتعظيمُ زائدٌ عليهما[1] .

وأمَّا الهيبةُ : فأمرٌ زائدٌ على التعظيمِ ، بلْ هيَ عبارةٌ عنْ خوفٍ منشؤُهُ التعظيمُ ؛ لأنَّ مَنْ لا يخافُ لا يسمَّىٰ هائِباً ، والمخافةُ مِنَ العقربِ وسوءِ خُلُقِ العبدِ وما يجري مَجراهُ مِنَ الأسبابِ الخسيسةِ لا تسمَّىٰ مهابةً ، بلِ الخوفُ مِنَ السلطانِ المعظَّمِ يسمَّىٰ مهابةً ، والهيبةُ : خوفٌ مصدرُهُ الإجلالُ .

وأمَّا الرجاءُ : فلا شكَّ في أنَّهُ زائدٌ ، فكمْ مِنْ معظِّمٍ مَلكاً مِنَ الملوكِ يهابُهُ أوْ يخافُ سطوتَهُ ولكنْ لا يرجو مبرَّتَهُ ، والعبدُ ينبغي أنْ يكونَ راجياً بصلاتِهِ ثوابَ اللهِ تعالىٰ ؛ كما أنَّهُ خائفٌ بتقصيرِهِ عقابَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وأمَّا الحياءُ : فهوَ زائدٌ على الجملةِ ؛ لأنَّ مستندَهُ استشعارُ تقصيرٍ

---

(١) ولا بد منه في مناجاة الحق سبحانه ، إذ لا ثمرة في الحضور والتفهم بدونه ، والمراد منه : ملاحظة عظمته وجلاله ، وأنه معظم في نفسه عظم نفسه بنفسه ، ويلاحظ تعاليه وتقدسه عن مشابهة المخلوقين . « إتحاف » (٣/ ١٢٠) .

وتوهُّمُ ذنبٍ ، ويتصوَّرُ التعظيمُ والخوفُ والرجاءُ مِنْ غيرِ حياءٍ ، حيثُ لا يكونُ توهُّمُ تقصيرٍ وارتكابِ ذنبٍ[1] .

* * *

وأمَّا أسبابُ هـٰذهِ المعاني الستَّةِ :

فاعلمْ : أَنَّ **حضورَ القلبِ** سببُهُ الهمَّةُ ، فإنَّ قلبَكَ تابعٌ لهمِّكَ ، فلا يحضرُ إلا فيما يهمُّكَ ، ومهما أهمَّكَ أمرٌ . . حضرَ القلبُ فيهِ شاءَ أَمْ أبىٰ ، فهوَ مجبولٌ عليهِ ومسخَّرٌ لهُ ، والقلبُ إذا لمْ يحضرْ في الصلاةِ . . لمْ يكنْ متعطِّلاً ، بلْ جائلاً فيما الهمَّةُ مصروفةٌ إليهِ مِنْ أمورِ الدنيا ، فلا حيلةَ ولا علاجَ لإحضارِ القلبِ إلا بصرفِ الهمَّةِ إلى الصلاةِ ، والهمَّةُ لا تنصرفُ إليها ما لمْ يتبينْ أَنَّ الغرضَ المطلوبَ منوطٌ بها ، وذلكَ هوَ الإيمانُ والتصديقُ بأَنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ، وأَنَّ الصلاةَ وسيلةٌ إليها ، فإذا أضيفَ هـٰذا إلىٰ حقيقةِ العلْمِ بحقارةِ الدنيا ومهماتِها . . حصلَ مِنْ مجموعِها حضورُ القلبِ في الصلاةِ .

وبمثلِ هـٰذهِ العلَّةِ يحضرُ قلبُكَ إذا حضرتَ بينَ يدي بعضِ الأكابرِ ممَّنْ لا يقدرُ علىٰ مضرَّتِكَ ومنفعتِكَ ، فإذا كانَ لا يحضرُ عندَ المناجاةِ معَ ملكِ

---

(١) مَنْ يُستحىٰ منه ثلاثةٌ : من البشر وهم أكثر من يستحىٰ منه ، ومن نفسه ، ثم من الله عز وجل ، ومن استحىٰ من الناس ولم يستحِ من نفسه . . فنفسه عنده أخسُّ من غيره ، ومن استحىٰ منهما ولم يستح من الله . . دلَّ علىٰ قلَّة معرفته به ، ومن لم يعرف الله . . فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه . « إتحاف » (٣/ ١٢١) .

الملوكِ الذي بيدِهِ الملكُ والملكوتُ والنفعُ والضرُّ . فلا تظنَّنَّ أنَّ لهُ سبباً سوىٰ ضعفِ الإيمانِ .

فاجتهدِ الآنَ في تقويةِ الإيمانِ ، وطريقُهُ يُستقصىٰ في غيرِ هـٰذا الموضعِ .

وأمّا التفهُّمُ : فسببُه بعدَ حضورِ القلبِ : إدمانُ الفكرِ وصرفُ الذهنِ إلىٰ إدراكِ المعنىٰ ، وعلاجُهُ : ما هو علاجُ إحضارِ القلبِ مع الإقبالِ على الفكرِ والتشمُّرِ لدفعِ الخواطرِ الشاغلةِ ، وعلاجُ دفعِ الخواطرِ الشاغلةِ : قطعُ موادِّها ؛ أعني : النزوعَ عنْ تلكَ الأسبابِ التي تنجذبُ الخواطرُ إليها ، وما لمْ تنقطعْ تلكَ الموادُّ . . لا تنصرفُ عنها الخواطرُ ، فمَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ ذكرَهُ ، فذكرُ المحبوبِ يهجمُ على القلبِ بالضرورةِ ، فلذلكَ ترىٰ أنَّ مَنْ أحبَّ غيرَ اللهِ . . لا تصفو لهُ صلاةٌ عنِ الخواطرِ .

وأمّا التعظيمُ : فهوَ حالةٌ للقلبِ تتولَّدُ مِنْ معرفتينِ :

إحداهُما : معرفةُ جلالِ اللهِ تعالىٰ وعظمتِهِ ، وهوَ مِنْ أصولِ الإيمانِ ؛ فإنَّ مَنْ لا يُعتقدُ عظمتُهُ لا تذعنُ النفسُ لتعظيمِهِ .

الثانيةُ : معرفةُ حقارةِ النفسِ وخسَّتِها ، وكونِها عبداً مسخَّراً مربوباً .

حتَّىٰ يتولَّدَ مِنَ المعرفتينِ الاستكانةُ والانكسارُ والخشوعُ للهِ سبحانَهُ ، فيعبَّرُ عنهُ بالتعظيمِ ، وما لمْ تمتزجْ معرفةُ حقارةِ النفسِ بمعرفةِ جلالِ اللهِ . . لا تنتظمُ حالةُ التعظيمِ والخشوعِ ؛ فإنَّ المستغنيَ عنْ غيرِهِ الآمنَ علىٰ نفسِهِ

يجوزُ أنْ يعرفَ مِنْ غيرِهِ صفاتِ العظمةِ ولا يكونُ الخشوعُ والتعظيمُ حالَهُ ؛ لأنَّ القرينةَ الأخرىٰ ـ وهيَ معرفةُ حقارةِ النفسِ وحاجتِها ـ لمْ تقترنْ إليهِ .

وأمَّا الهيبةُ والخوفُ : فحالةٌ للنفسِ تتولَّدُ مِنَ المعرفةِ بقدرةِ اللهِ وسطوتِهِ ، ونفوذِ مشيئتِهِ فيهِ معَ قلَّةِ المبالاةِ بهِ ، وأنَّهُ لوْ أهلكَ الأوَّلينَ والآخرينَ . . لمْ ينقصْ مِنْ ملكِهِ ذرَّةٌ ، هـٰذا معَ مطالعةِ ما يجري على الأنبياءِ والأولياءِ مِن المصائبِ وأنواعِ البلاءِ معَ القدرةِ على الدفعِ ، علىٰ خلافِ ما يشاهدُ مِنْ ملوكِ الأرضِ(١) .

وبالجملةِ : كلما زادَ العلمُ باللهِ . . زادتِ الخشيةُ والهيبةُ ، وسيأتي أسبابُ ذلكَ في كتابِ الخوفِ مِنْ ربعِ المنجياتِ .

وأمَّا الرجاءُ : فسببُهُ : معرفةُ لطفِ اللهِ تعالىٰ وكرمِهِ وعميمِ إنعامِهِ ولطائفِ صنعِهِ ، ومعرفةُ صدقِهِ في وعدِهِ الجنَّةَ بالصلاةِ ، فإذا حصلَ اليقينُ بوعدِهِ والمعرفةُ بلطفِهِ . . انبعثَ مِنْ مجموعِهِما الرجاءُ لا محالةَ(٢) .

وأمَّا الحياءُ : فباستشعارِهِ التقصيرَ في العبادةِ ، وعلمِهِ بالعجزِ عنِ القيامِ بعظيمِ حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويقوىٰ ذلكَ بالمعرفةِ بعيوبِ النفسِ وآفاتِها ، وقلَّةِ

---

(١) من نفاد خزائنهم بالأعطية ، وعدم القدرة علىٰ دفع ما نزل بهم . « إتحاف » (٣/ ١٢٣) .

(٢) وقد فهم من سياقه أن معرفة كل من صدق الوعد واللطف قرينتان ، وأن الرجاء يتولد منهما جميعاً من حيث التركيب . « إتحاف » (٣/ ١٣٤) .

إخلاصِها وخبثِ دُخْلتِها[1] ، وميلِها إلى الحظِّ العاجلِ في جميعِ أفعالِها ، معَ العلمِ بعظيمِ ما يقتضيهِ جلالُ اللهِ تعالىٰ ، والعلمِ بأَنَّهُ مطلعٌ على السرائرِ وخطراتِ القلبِ وإنْ دقتْ وخفيتْ ، وهٰذهِ المعارفُ إذا حصلتْ يقيناً . . انبعثَ منها بالضرورةِ حالةٌ تسمَّى الحياءَ .

فهٰذهِ أسبابُ هٰذهِ الصفاتِ ، وكلُّ ما طُلِبَ تحصيلُهُ فعلاجُهُ إحضارُ سببِهِ ، ففي معرفةِ السببِ معرفةُ العلاجِ ، **ورابطةُ جميعِ هٰذهِ الأسبابِ الإيمانُ واليقينُ** ؛ أعني بهِ : هٰذهِ المعارفَ التي ذكرناها ، ومعنىٰ كونِها يقيناً انتفاءُ الشكِّ ، واستيلاؤُها على القلبِ كما سبقَ في بيانِ اليقينِ مِنْ كتابِ العلمِ ، وبقدْرِ اليقينِ يخشعُ القلبُ ، ولذلكَ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُحدِّثُنا ونُحدِّثُهُ ، فإذا حضرتِ الصلاةُ . . فكأَنَّهُ لمْ يعرِفْنا ولَمْ نعرِفْهُ)[2] .

وقد رُوِيَ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (يا موسىٰ ؛ إذا ذكرتني . . فاذكرني وأنتَ تنتفضُ أعضاؤُكَ ؛ وكنْ عندَ ذكري خاشعاً

---

(١) **الدخلة** : هي ـ بضم الدال وكسرها ـ : بطانة الأمر ، تقول : إنه لعفيف الدخلة ، أو لخبيثها ، وبالفتح : طريقة المرء أو مذهبه .

(٢) قال الحافظ ابن رجب في « فتح الباري » (٤/ ١١٤) : (خرجه الحافظ أبو الحسين بن المظفر في « غرائب شعبة » ـ وساق سنده ـ عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندي . . كان في مهنة أهله ، فإذا نودي بالصلاة . . كأنه لم يعرفنا ») ، وأيد هٰذه الزيادة برواية أخرىٰ عند أبي زرعة في « تاريخه » ، وأصل الحديث عند البخاري (٦٧٦) .

مطمئناً ، وإذا ذكرتني . . فاجعلْ لسانَكَ مِنْ وراءِ قلبِكَ ، وإذا قمتَ بينَ يديَّ . . فقُمْ قيامَ العبدِ الذليلِ ، وناجني بقلبٍ وَجِلٍ ولسانٍ صادقٍ)[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ أُوحِيَ إليهِ : (قلْ لعُصاةِ أُمتِكَ : لا يذكروني ؛ فإنِّي آليتُ علىٰ نفسي أنَّ مَنْ ذكرني . . ذكرتُهُ ، فإذا ذكروني . . ذكرتُهُمْ باللعنةِ)[2] ، هـٰذا في عاصٍ غيرِ غافلٍ في ذكرِهِ ، فكيفَ إذا اجتمعتِ الغفلةُ والعصيانُ ؟!

وباختلافِ المعاني التي ذكرناها في القلوبِ انقسمَ الناسُ إلىٰ غافلٍ يتمِّمُ صلاتَهُ ولمْ يحضرْ قلبُهُ في لحظةٍ منها ، وإلىٰ مَن يتمِّمُ ولمْ يغبْ قلبُهُ في لحظةٍ ، بلْ ربَّما كانَ مستوعبَ الهمِّ بها بحيثُ لا يحسُّ بما يجري بينَ يديهِ ، ولذلكَ لمْ يحسَّ مسلمُ بنُ يسارٍ بسقوطِ أسطوانةٍ في المسجدِ اجتمعَ الناسُ عليها[3] ، وبعضُهُمْ كانَ يحضرُ الجماعةَ مدةً ولمْ يعرفْ قطُّ مَنْ علىٰ يمينِهِ ويسارِهِ[4] ، ووجيبُ قلبِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ كانَ يسمعُ علىٰ ميلينِ[5] ، وجماعةٌ كانتْ تصفرُّ وجوهُهُمْ وترتعدُ فرائصُهُمْ ، وكلُّ ذلكَ غيرُ مستبعدٍ ؛ فإنَّ أضعافَهُ مشاهدٌ في همِّ أهلِ الدنيا وخوفِ ملوكِ الدنيا معَ ضعفِهِمْ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٧٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٥٥) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٥٧) بلفظ : (وروينا في الإسرائيليات : أوحى الله عز وجل لنبيه موسىٰ وداوود عليهما السلام . . .) بنحوه .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ١٣٥) ، وهو في « القوت » (٢/ ١٠٢) .

(٤) وهو سعيد بن جبير ، ومدة حضوره أربعون سنة ، انظر « قوت القلوب » (٢/ ٩٧) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢١٨) بنحوه .

وعجزِهِمْ وخساسةِ الحظوظِ الحاصلةِ منهُمْ ، حتَّىٰ يدخلُ الواحدُ علىٰ ملكٍ أوْ وزيرٍ ويحدِّثُهُ بمهمِّهِ ثمَّ يخرجُ ، ولو سئلَ عمَّنْ حواليْهِ أوْ عنْ ثوبِ الملكِ . . لكانَ لا يقدرُ على الإخبارِ عنه ؛ لاشتغالِ همِّهِ بهِ عنْ ثوبِهِ وعنِ الحاضرينَ حولَهُ .

ولكلٍّ درجاتٌ ممَّا عملوا ، فحظُّ كلِّ واحدٍ مِنْ صلاتِهِ بقدْرِ خوفِهِ وخشوعِهِ وتعظيمِهِ ، فإنَّ موضعَ نظرِ اللهِ تعالى القلوبُ دونَ ظاهرِ الحركاتِ(١) ، ولذلكَ قالَ بعضُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ مثالِ هيئتِهِمْ في الصلاةِ مِنَ الطمأنينةِ والهدوءِ ، ومِنْ وجودِ النعيمِ بها واللذَّةِ)(٢) .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّهُ يحشرُ كلٌّ علىٰ ما ماتَ عليهِ(٣) ، ويموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويُراعىٰ في ذلكَ حالُ قلبِهِ ، لا حالُ شخصِهِ ، فمِنْ صفاتِ القلوبِ تصاغُ الصورُ في الدارِ الآخرةِ ، ولا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، نسألُ اللهَ حسْنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) كما في « مسلم » (٢٥٦٤) مرفوعاً : « إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم ، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم » ، وأشار بأصابعه إلىٰ صدره .

(٢) قوت القلوب (٢/٩٨) ، وعنده (١/٤٦) قال : (ويقال : إن العبد يحشر عند الموت من قبره علىٰ هيئته في صلاته ، من السكون والطمأنينة ، وتكون راحته في الموقف علىٰ قدر راحته وتنعمه بالصلاة ، وروينا معنىٰ هـٰذا عن أبي هريرة) .

(٣) كما في « مسلم » (٢٨٧٨) مرفوعاً : « يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه » .

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلمْ : أَنَّ المؤمنَ لا بدَّ أنْ يكونَ معظِّماً للهِ عزَّ وجلَّ ، وخائفاً منهُ ، وراجياً لهُ ، ومستحيياً مِنْ تقصيرِهِ ، فلا ينفكُّ عنْ هـٰذهِ الأحوالِ بعدَ إيمانِهِ وإنْ كانتْ قوَّتُها بقدْرِ قوَّةِ يقينِهِ ، فانفكاكُهُ عنها في الصلاةِ لا سببَ لهُ إلا تفرُّقُ الفكْرِ وتقسُّمُ الخاطرِ ، وغيبةُ القلبِ عنِ المناجاةِ ، والغفلةُ عنِ الصلاةِ ، ولا يلهي عنِ الصلاةِ إلا الخواطرُ الواردةُ الشاغلةُ ، فالدواءُ في إحضارِ القلبِ هوَ دفعُ تلكَ الخواطرِ ، ولا يُدفعُ الشيءُ إلا بدفعِ سببِهِ ، فلتعلمْ سببَه .

وسببُ مواردِ الخواطرِ : إمَّا أنْ يكونَ أمراً خارجاً ، أو أمراً في ذاتِهِ باطناً :

أمَّا الخارجُ : فما يقرعُ السمعَ أوْ يظهرُ للبصرِ ، فإنَّ ذلكَ قدْ يختطفُ الهمَّ حتَّىٰ يتبعَهُ ويتصرَّفَ فيهِ ، ثمَّ ينجرُّ منهُ الفكرُ إلىٰ غيرِهِ ويتسلسلُ ، ويكونُ الإبصارُ سبباً للافتكارِ ، ثمَّ تصيرُ بعضُ تلكَ الأفكارِ سبباً للبعضِ(١) ، ومَنْ قويتْ نيَّتُهُ ، وعلتْ همتُهُ .. لمْ يلهِهِ ما يجري علىٰ

(١) فإن لم يستعجل بإخراج سببها عاجلاً بهمة مرشد كامل ، وإلا .. صار صاحبها مقيتاً ممقتاً لا ينجع فيه الدواء ، ولا يرفع رأسه للهدىٰ ولا يرضىٰ بالاقتداء ، فيعود في ضلاله كما بدأ . « إتحاف » (٣/ ١٢٦) . فوجب صون السمع والبصر اللتين هما أخطر قناتين للقلب ، لا في الصلاة كما سيذكر المصنف فحسب ، بل قبلها متهيئاً لها .

حواسِّهِ ، ولكنَّ الضعيفَ لا بدَّ وأنْ يتفرَّقَ بهِ فكرُهُ .

فعلاجُهُ : قطعُ هٰذهِ الأسبابِ بأنْ يغضَّ بصرَهُ[1] ، أوْ يصلِّيَ في بيتٍ مظلمٍ ، أوْ لا يتركَ بينَ يديهِ ما يشغلُ حسَّهُ ، ويقربَ مِنْ حائطٍ عندَ صلاتِهِ حتَّىٰ لا تتسعَ مسافةُ بصرِهِ ، ويحترزَ مِنَ الصلاةِ على الشوارعِ ، وفي المواضعِ المنقوشةِ المصنوعةِ ، وعلى الفرشِ المصبوغةِ[2] ، ولذلكَ كانَ المتعبِّدونَ يتعبَّدونَ في بيتٍ صغيرٍ مظلمٍ ، سعتُهُ بقدْرِ السجودِ ؛ ليكونَ ذلكَ أجمعَ للهمِّ[3] ، والأقوياءُ منهُمْ كانوا يحضرونَ المساجدَ ويغضُّونَ البصرَ ولا يجاوزونَ بهِ موضعَ السجودِ ، ويرونَ كمالَ الصلاةِ في ألا يعرفوا مَنْ علىٰ يمينِهِمْ وشمالِهِمْ .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لا يدعُ في موضعِ الصلاةِ مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعَهُ ، ولا كتاباً إلا محاهُ .

وأمَّا الأسبابُ الباطنةُ : فهيَ أشدُّ ؛ فإنَّ مَنْ تشعَّبَتْ بهِ الهمومُ في أوديةِ

---

(١) فلا يجيله متتبعاً ما حوله ، ويلزم نفسه بنظر السنة ؛ كالنظر إلىٰ موضع السجود قائماً ، كذا يفهم من كلامه كما سيبينه في اللحاق ، وليس المراد إغماض العينين .

(٢) وقد ابتلي الناس بزخرفة المساجد ونقشها بالصباغ المختلفة ، وعدوا ذلك إكراماً لبيت الرب ، وذهلوا أنها من جملة الشواغل للمصلين ، وهو من أعظم البدع والحوادث . « إتحاف » (٣/ ١٢٧) .

(٣) ففي « البخاري » (٣٨٢) ، و« مسلم » (٥١٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد . . غمزني ، فقبضت رجلي ، فإذا قام . . بسطتهما ، قالت : والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح) .

الدنيا. . لمْ ينحصرْ فكرُهُ في فنٍّ واحدٍ ، بلْ لا يزالُ يطيرُ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ، وغضُّ البصرِ لا يغنيهِ في ذلكَ ؛ فإنَّ ما وقعَ في القلبِ مِنْ قبلُ كافٍ للشغلِ .

فهٰذا طريقُهُ : أنْ يردَّ النفسَ قهراً إلىٰ فهْمِ ما يقرؤُهُ في الصلاةِ ويشغلَها بهِ عنْ غيرِهِ ، **ويعينُهُ علىٰ ذلكَ** : أنْ يستعدَّ لهُ قبلَ التحريمِ ؛ بأنْ يجدِّدَ علىٰ نفسِهِ ذكرَ الآخرةِ وموقفِ المناجاةِ وخطرِ المقامِ بينَ يدي اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وهولِ المطلعِ ، ويفرِّغَ قلبَهُ قبلَ التحريمِ بالصلاةِ عمَّا يهمُّهُ ، فلا يتركُ لنفسِهِ شغلاً يلتفتُ إليهِ خاطرُهُ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعثمانَ بنِ شيبةَ : « إنِّي نسيتُ أنْ أقولَ لكَ أنْ تُخمِّرَ القدْرَ الذي في البيتِ ؛ فإنَّهُ لا ينبغي أنْ يكونَ في البيتِ شيءٌ يَشغلُ الناسَ عنْ صلاتِهِمْ »(١) .

فهٰذا طريقُ تسكينِ الأفكارِ ، فإنْ كانَ لا يسكنُ هائجُ أفكارِهِ بهٰذا الدواءِ المسكِّنِ . . فلا ينجيهِ إلا المُسْهلُ الذي يقمعُ مادةَ الداءِ مِنْ أعماقِ العروقِ ، وهوَ أنْ ينظرَ في الأمورِ الشاغلةِ الصارفةِ لهُ عنْ إحضارِ القلبِ ، ولا شكَّ أنَّها تعودُ إلىٰ مهمَّاتِهِ ، وأنَّها إنَّما صارتْ مهمَّاتٍ لشهواتِهِ ، فيعاقبَ نفسَهُ بالنزوعِ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٠٣٠) بلفظ : « إني نسيت أنْ آمرك أن تخمِّرَ القرنينِ ؛ فإنه ليس ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » . والمقصود بالقرنين : قرنا الكبش الذي فُدي به الذبيح كما في « مسند أحمد » (٤/ ٦٨) .
وأشار الحافظ العراقي أن الصواب في اسم المخاطب هو عثمان بن طلحة ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ١٢٨) : (ورأيت بخط الحافظ ابن حجر قال : صوابه : عثمان بن شيبة ، قلت : إن كان عثمان يكنىٰ أبا شيبة . . فهو كما ذكر ، وارتفع الخلاف) .

عنْ تلكَ الشهواتِ وقطعِ تلكَ العلائقِ ، فكلُّ ما يشغلُهُ عنْ صلاتِهِ فهوَ ضدُّ دينِهِ ، وجندُ إبليسَ عدوِّهِ ، فإمساكُهُ أضرُّ عليهِ مِنْ إخراجِهِ ، فيتخلَّصُ منهُ بإخراجِهِ ؛ كما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا لبسَ الخميصةَ التي أتىٰ بها أبو جَهْمٍ وعليها عَلَمٌ وصلَّىٰ بها . . نزعَها بعدَ صلاتِهِ وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اذهبوا بها إلىٰ أبي جهمٍ ؛ فإنَّها ألهتني آنفاً عَنْ صلاتي ، وأتوني بأنْبجانِيَّةِ أبي جهمٍ »[1] .

وأمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بتجديدِ شراكِ نعلِهِ ، ثمَّ نظرَ إليهِ في الصلاةِ إذْ كانَ جديداً ، فأمرَ أنْ ينزعَ منها ويردَّ الشراكُ الخَلَقُ[2] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدِ احتذىٰ نعلاً ، فأعجبَهُ حسنُها ، فسجدَ وقالَ : « تواضعتُ لربِّي عزَّ وجلَّ كي لا يمقتني » ، ثمَّ خرجَ بها فدفعَها إلىٰ أوَّلِ سائلٍ لقيَه ، ثمَّ أمرَ علياً رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يشتريَ لهُ نعلينِ سبتيَّتينِ جرداوينِ فلَبِسَهُما[3] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في يدِهِ خاتمٌ مِنْ ذهبٍ قبلَ التحريمِ ، وكانَ على المنبرِ ، فرماهُ وقالَ : « شغلَني هٰذا ، نظرةً إليهِ ونظرةً إليكُمْ »[4] .

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/ ٦٢) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٠٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ١٣٠) : (قال العراقي : رواه أبو عبد الله بن خفيف في « شرف الفقراء » من حديث عائشة بإسناد ضعيف) .
(٤) رواه النسائي (٨/ ١٩٤) .

ويروىٰ أَنَّ أبا طلحةَ صلَّىٰ في حائطٍ لهُ فيه شجرٌ ، فأعجبَهُ دُبْسِيٌّ طارَ في الشجرِ يلتمسُ مخرجاً ، فأتبعَهُ بصرَهُ ساعةً ، ثمَّ لمْ يدرِ كمْ صلَّىٰ ، فذكرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما أصابَهُ مِنَ الفتنةِ ، ثمَّ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هوَ صدقةٌ فضَعْهُ حيثُ شئتَ(١) .

وعنْ رجلٍ آخرَ أنَّهُ صلَّىٰ في حائطٍ لهُ والنخلُ مطوَّقةٌ بثمرِها ، فنظرَ إليهِ فأعجبَهُ ، فلمْ يدرِ كمْ صلَّىٰ ، فذكرَ ذلكَ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : هوَ صدقةٌ ، فاجعلْهُ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فباعَهُ عثمانُ بخمسينَ ألفاً(٢) .

فكانوا يفعلونَ ذلكَ قطعاً لمادةِ الفكرِ ، وكفارةً لما جرىٰ مِنْ نقصانِ الصلاةِ ، وهٰذا هوَ الدواءُ القامعُ لمادةِ العلَّةِ ، ولا يغني غيرُهُ .

فأمَّا ما ذكرناهُ مِنَ التلطُّفِ بالتسكينِ ، والردِّ إلىٰ فهْمِ الذكرِ . . فذلكَ ينفعُ في الشهواتِ الضعيفةِ ، والهممِ التي لا تَشغلُ إلا حواشيَ القلبِ ، فأمَّا الشهوةُ القويَّةُ المرهِقَةُ . . فلا ينفعُ فيها التسكينُ ، بلْ لا تزالُ تجاذبُها وتجاذبُكَ ثمَّ تغلبُكَ ، وتنقضي جميعُ صلاتِكَ في شغلِ المجاذبةِ .

ومثالُهُ : رجلٌ تحتَ شجرةٍ أرادَ أنْ يصفوَ لهُ فكرُهُ وكانتْ أصواتُ العصافيرِ تشوِّشُ عليهِ ، فلمْ يزلْ يطيِّرُها بخشبةٍ في يدهِ ويعودُ إلىٰ فكرِهِ ، فتعودُ العصافيرُ ، فيعودُ إلى التنفيرِ بالخشبةِ ، فقيلَ لهُ : إنَّ هٰذا سيرُ

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/٩٨) ، والدبسي : نوع من الحمام .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (١/٩٩) .

السواني[1] ، ولا ينقطعُ ، فإنْ أردتَ الخلاصَ . . فاقلعِ الشجرةَ ؛ فكذلكَ شجرةُ الشهوةِ ، إذا استعلتْ وتفرَّعتْ أغصانُها . . انجذبتْ إليها الأفكارُ انجذابَ العصافيرِ إلى الأشجارِ ، وانجذابَ الذبابِ إلى الأقذارِ ، والشغلُ يطولُ في دفعِها ، فإنَّ الذبابَ كلَّما ذُبَّ . . آبَ ؛ ولأجلِهِ سمِّيَ ذُباباً ، فكذلكَ الخواطرُ .

وهٰذهِ الشهواتُ كثيرةٌ ، وقلَّما يخلو العبدُ عنها ، ويجمعُها أصلٌ واحدٌ ، وهوَ حبُّ الدنيا[2] ، وذلكَ رأسُ كلِّ خطيئةٍ[3] ، وأساسُ كلِّ نقصانٍ ومنبعُ كلِّ فسادٍ ، ومَنِ انطوىٰ باطنُهُ علىٰ حبِّ الدنيا حتَّىٰ مالَ إلىٰ شيءٍ منها ، لا ليتزوَّدَ منها ويستعينَ بها على الآخرةِ . . فلا يطمعنَّ في أنْ تصفوَ لهُ لذةُ المناجاةِ في الصلاةِ ؛ فإنَّ مَنْ فرحَ بالدنيا لا يفرحُ باللهِ سبحانَهُ وبمناجاتِهِ .

---

(١) السواني : جمع سانية ، وهي الناقة يستقىٰ عليها ، فالمكان الذي تخرج منه تعود إليه وهٰكذا دون جديد .

(٢) والمراد بالحب هنا الاختياري ؛ بأن يختار لنفسه حب شيء من أمورها تعمداً وقصداً ، لا اضطراراً ؛ فإن الإنسان مجبول علىٰ حب ولده وزوجته وما ملكته يداه من الأنعام والحرث ، ثم إن كل ما أعان العبد على الآخرة من أمور الدنيا . . فليس داخلاً في حد الدنيا ؛ فإنها إنما جعلت قنطرة للآخرة يتبلغ بها العبد قدر حاجته في سفره إلىٰ مولاه . « إتحاف » (٣/ ١٣١) .

(٣) كما في « الحلية » (٦/ ٣٨٨) عن سفيان الثوري قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : حب الدنيا رأس كل خطيئة) ، وعند البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠١٩) مرسلاً عن الحسن البصري ، وسيأتي عند المصنف مصرحاً به .

وهمَّةُ الرجلِ معَ قرَّةِ عينِهِ ؛ فإنْ كانتْ قرَّةُ عينِهِ في الدنيا . انصرفَ ـ لا محالةَ ـ إليها همُّهُ ، ولكنْ معَ هٰذا فلا ينبغي أنْ يتركَ المجاهدةَ ، وردَّ القلبِ إلى الصلاةِ ، وتقليلَ الأسبابِ الشاغلةِ .

فهٰذا هوَ الدواءُ المرُّ ، ولمرارتِهِ استبشعتْهُ الطباعُ ، وبقيتِ العلةُ مزمنةً ، وصارَ الداءُ عضالاً ، حتَّىٰ إنَّ الأكابرَ اجتهدوا أنْ يصلُّوا ركعتينِ لا يحدثونَ أنفسَهُمْ فيها بأمورِ الدنيا . فعجزوا عنْ ذلكَ ! فإذاً ؛ لا مطمعَ فيهِ لأمثالنا ، وليتَهُ سلمَ لنا مِنَ الصلاةِ شطرُها أوْ ثلثُها عنِ الوسواسِ ؛ لنكونَ ممَّنْ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً .

وعلى الجملةِ : فهمَّةُ الدنيا وهمَّةُ الآخرةِ في القلبِ مثلُ الماءِ الذي يصبُّ في قدحٍ مملوءٍ بالخلِّ ، فبقدْرِ ما يدخلُ فيهِ مِنَ الماءِ يخرجُ مِنَ الخلِّ لا محالةَ ، ولا يجتمعانِ .

* * *

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصّلاة

فنقولُ : حقُّكَ إنْ كنتَ مِنَ المريدينَ للآخرةِ ألا تغفُلَ أوّلاً عنِ التنبيهاتِ التي في شروطِ الصلاةِ وأركانِها .

أمّا الشروطُ السوابقُ . . فهيَ : الأذانُ[1] ، والطهارةُ ، وسترُ العورةِ ، واستقبالُ القبلةِ ، والانتصابُ قائماً ، والنيّةُ .

* * *

أمّا الأذانُ : فإذا سمعتَ نداءَ المؤذِّنِ . . فأحضرْ في قلبِكَ هوْلَ النداءِ يومَ القيامةِ ، وتشمَّرْ بظاهرِكَ وباطنِكَ للإجابةِ والمسارعةِ[2] ، فإنَّ المسارعينَ إلىٰ هـٰذا النداءِ همُ الذين ينادونَ باللطْفِ يومَ العرضِ الأكبرِ .

فاعرضْ قلبَكَ علىٰ هـٰذا النداءِ ، فإنْ وجدتَهُ مملوءاً بالفرحِ والاستبشارِ ، مشحوناً بالرغبةِ إلى الابتدارِ . . فاعلمْ أنَّهُ يأتيكَ النداءُ بالبشرىٰ والفوزِ يومَ القضاءِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرِحْنَا بها يا بِلاَلُ »[3] أي : أرحْنا بها

---

(١) والمراد به على الحقيقة دخولُ الوقت ، إذ الأذان المعروف ليس شرطاً لصحة الصلاة .
(٢) والإجابة تكون بمثل ما يقول المؤذن ، والمسارعة في خفة السير إلى الصلاة .
(٣) رواه أبو داوود (٤٩٨٥) .

وبالنداءِ إليها ، إذْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرَّةُ عينِه فيها[١] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الطهارةُ : فإذا أتيتَ بها في مكانِكَ وهوَ ظرفُكَ الأبعدُ ، ثمَّ في ثيابِكَ وهوَ غلافُكَ الأقربُ ، ثمَّ في بشرتِكَ وهوَ قشرُكَ الأدنىٰ . . فلا تغفُلْ عنْ لبِّكَ الذي هوَ ذاتُكَ وهوَ قلبُكَ ، فاجتهدْ لهُ تطهيراً بالتوبةِ والندمِ علىٰ ما فرَطَ[٢] ، وتصميمِ العزمِ على التركِ في المستقبلِ ، فطهِّرْ بها باطنَكَ ؛ فإنَّهُ موقعُ نظرِ معبودِكَ[٣] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا سترُ العورةِ : فاعلمْ أنَّ معناهُ تغطيةُ مقابحِ بدنِكَ عنْ أبصارِ الخلقِ ، فإنَّ ظاهرَ بدنِكَ موقعُ نظرِ الخلقِ ، فما رأيُكَ في عوراتِ باطنِكَ وفضائحِ سرِّكَ التي لا يطلعُ عليها إلا ربُّكَ عزَّ وجلَّ ؟!

فأحضرْ تلكَ الفضائحِ ببالِكَ ، وطالبْ نفسَكَ بسترِها ، وتحقَّقْ أنَّهُ لا يسترُها عنْ عينِ اللهِ سبحانَهُ ساترٌ، وإنَّما يكفِّرُها الندمُ والحياءُ والخوفُ ،

---

(١) كما روى النسائي (٧/ ٦١) : « حبب إلي من الدنيا النساء والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة » .

(٢) فرط : سبق .

(٣) ثم إن تطهير القلب بما ذكر لا بد له من مرشد صادق ماهر بالعلاج ، يريه طرق الإصلاح وكيفية التطهير ، فليس له حد يضبط ، ولا مرمىٰ ينتهىٰ إليه ، فإذا حصل التطهير . . فلا بد من التنوير ، وتصقيله عن صدأِ التكدير ، بالملازمة علىٰ ذكره المناسب لحاله من الإيراد والتصدير . « إتحاف » (٣/ ١٣٨) .

فتستفيدُ بإحضارِها في قلبِكَ انبعاثَ جنودِ الخوفِ والحياءِ مِنْ مكامنِها ، فتذلُّ بها نفسُكَ ، ويستكينُ تحتَ الخجلةِ قلبُكَ ، وتقومُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ قيامَ العبدِ المجرمِ المسيءِ الآبقِ الذي ندمَ فرجعَ إلىٰ مولاهُ ناكساً رأسَهُ مِنَ الحياءِ والخوفِ .

* * *

وأما الاستقبالُ : فهوَ صرفٌ لظاهرِ وجهِكَ عنْ سائرِ الجهاتِ إلىٰ جهةِ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، أفترىٰ أَنَّ صرفَ القلبِ عنْ سائرِ الأمورِ إلىٰ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ليسَ مطلوباً منكَ ؟

هيهاتَ ! فلا مطلوبَ سواهُ ، وإنَّما هـٰذهِ الظواهرُ تحريكاتٌ للبواطنِ ، وضبطٌ للجوارحِ ، وتسكينٌ لها بالإثباتِ في جهةٍ واحدةٍ حتَّىٰ لا تبغيَ على القلبِ ؛ فإنَّها إذا بغتْ وظلمتْ في حركاتِها والتفاتِها إلىٰ جهاتِها . . استتبعتِ القلبَ ، وانقلبتْ بِهِ عنْ وجهِ اللهِ تعالىٰ .

فليكنْ وجهُ قلبِكَ معَ وجهِ بدنِكَ ، واعلمْ أنَّهُ كما لا يتوجَّهُ الوجهُ إلىٰ جهةِ البيتِ إلا بالانصرافِ عنْ غيرِها . . فلا ينصرفُ القلبُ إلى اللهِ سبحانَهُ إلا بالتفريغِ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قامَ العبدُ إلىٰ صلاتِهِ ، فكانَ هواهُ ووجهُهُ وقلبُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . انصرفَ كيومَ ولدتْهُ أمُّهُ »(١) .

---

(١) نحوه عند مسلم (٢٣٤ ، ٨٣٢) .

وأمَّا الاعتدالُ قائماً : فإنَّما هوَ مثولٌ بالشخصِ والقلبِ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ ، فليكنْ رأسُكَ الذي هوَ أرفعُ أعضائِكَ مُطرِقاً مطأطئاً مستكيناً ، وليكنْ وضعُ الرأسِ عنِ ارتفاعِهِ تنبيهاً علىٰ إلزامِ القلبِ التواضعَ والتذلُّلَ والتبريَ عنِ الترؤُّسِ والتكبُّرِ ، وليكنْ علىٰ ذُكْرِكَ هٰهنا خطرُ القيامِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ في هولِ المطَّلَعِ عندَ العرضِ للسؤالِ(١) .

واعلمْ في الحالِ : أَنَّكَ قائمٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مطَّلِعٌ عليكَ ، فقمْ بينَ يديهِ قيامَكَ بينَ يدي بعضِ ملوكِ الزمانِ إنْ كنتَ تَعجَزُ عنْ معرفةِ كنْهِ جلالِهِ ، بل قدِّرْ في دوامِ قيامِكَ في صلاتِكَ أَنَّكَ ملحوظٌ ومرقوبٌ بعينٍ كالئةٍ مِنْ رجلٍ صالحٍ مِنْ أهلِكَ أوْ ممَّنْ ترغبُ في أنْ يعرفَكَ بالصلاحِ ، فإنَّهُ تهدأُ عندَ ذلكَ أطرافُكَ ، وتخشعُ جوارحُكَ ، وتسكُنُ جميعُ أجزائِكَ ؛ خيفةَ أنْ ينسبَكَ ذلكَ العاجزُ المسكينُ إلىٰ قلَّةِ الخشوعِ(٢) .

وإذا أحسستَ مِنْ نفسِكَ بالتماسكِ عندَ ملاحظةِ عبدٍ مسكينٍ . . فعاتبْ نفسَكَ وقلْ لها : إنَّكِ تدَّعينَ معرفةَ اللهِ وحبَّهُ ، أفلا تستحيينَ مِنِ استجرائِكِ

---

(١) والصلاة هي أول ما يسأل عنه العبد .

(٢) قال الراغب في « الذريعة » (ص ٤٠) : (حق الإنسان إذا همَّ بقبيح أن يتصور أجلَّ مَنْ في نفسه ، حتىٰ كأنَّه يراه ، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه ، ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال ولا من الذين لا يميزون ، ويستحي من العالِم أكثر مما يستحي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد) .

عليهِ معَ توقيرِكِ عبداً مِنْ عبادِهِ ؟! أوَتخشينَ الناسَ ولا تخشينَ اللهَ وهوَ أحقُّ أنْ يُخشى ؟!

ولذلكَ لمَّا قالَ أبو هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ : كيفَ الحياءُ مِنَ اللهِ ؟ فقَالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تستحيي منهُ كما تستحيي منَ الرجلِ الصالحِ مِنْ قومكَ » ، ورُوِيَ : « من أهلِكَ »[1] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا النيّةُ : فاعزمْ علىٰ إجابةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في امتثالِ أمرِهِ بالصلاةِ وإتمامِها ، والكفِّ عنْ نواقضِها ومفسداتِها ، وإخلاصِ جميعِ ذلكَ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ؛ رجاءً لثوابِهِ ، وخوفاً مِنْ عقابِهِ ، وطلباً للقربةِ منهُ ، متقلِّداً للمنَّةِ منهُ بإذنِهِ إيَّاكَ في المناجاةِ معَ سوءِ أدبِكَ وكثرةِ عصيانِكَ .

وعظِّمْ في نفسِكَ قدْرَ مناجاتِهِ ، وانظرْ مَنْ تناجي ، وكيفَ تناجي ، وبماذا تناجي ؟ وعندَ هـٰذا ينبغي أنْ يعرقَ جبينُكَ مِنَ الخجلِ ، وترتعدَ فرائصُكَ مِنَ الهيبةِ[2] ، ويصفرَّ وجهُكَ منَ الخوفِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا التكبيرُ : فإذا نطقَ بِهِ لسانُكَ . . فينبغي ألا يكذِّبَهُ قلبُكَ ، فإنْ كانَ في قلبِكَ شيءٌ هوَ أكبرُ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . فاللهُ يشهدُ إنَّكَ لكاذبٌ وإنْ كانَ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٦٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣٤٣) .

(٢) **الفرائص** : جمع فريصة ، وهي لحمة تحت الكتف في وسط الجنب عند منبض القلب ، وهي تُرعد عند الفزع .

الكلامُ صدقاً ؛ كما شهدَ على المنافقينَ في قولِهِمْ : إنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولُ اللهِ .

فإنْ كانَ هواكَ أغلبَ عليكَ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ . . فأنتَ أطوعُ لهُ منكَ للهِ تعالىٰ ؛ فقدِ اتخذتَهُ إلـٰهَكَ وكبَّرْتَهُ ، فيوشكُ أنْ يكونَ قولُكَ : (اللهُ أكبرْ) كلاماً باللسانِ المجرَّدِ وقدْ تخلَّفَ القلبُ عنْ مساعدتِهِ ، وما أعظمَ الخطرَ في ذلكَ لولا التوبةُ والاستغفارُ وحسنُ الظنِّ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وعفوِهِ[1] .

* * *

وأمَّا دعاءُ الاستفتاحِ : فأوَّلُ كلماتِهِ قولُكَ : (وجَّهْتُ وجهي للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) ، وليسَ المرادُ بالوجهِ الوجهَ الظاهرَ ، فإنَّكَ إنَّما وجهتَهُ إلىٰ جهةِ القبلةِ ، واللهُ سبحانَهُ يتقدَّسُ عنْ أنْ تحدَّهُ الجهاتُ حتَّىٰ تقبلَ بوجهِ بدنِكَ عليهِ ، وإنَّما وجهُ القلبِ هوَ الذي تتوجَّهُ بهِ إلىٰ فاطرِ السماواتِ والأرضِ ، فانظرْ إليهِ : أمتوجِّهٌ هوَ إلىٰ أمانيهِ وهمِّهِ في البيتِ والسوقِ متبعٌ للشهواتِ ، أوْ مقبلٌ علىٰ فاطرِ السماواتِ ؟

وإيَّاكَ أنْ تكونَ أوَّلَ مفاتحتِكَ للمناجاةِ بالكذبِ والاختلاقِ ، ولنْ ينصرفَ الوجهُ إلى اللهِ تعالىٰ إلا بانصرافِهِ عمَّا سواهُ ، فاجتهدْ في الحالِ في صرفِهِ إليهِ وإنْ عجَزتَ عنهُ على الدوامِ ؛ ليكونَ قولُكَ في الحالِ صادقاً .

---

(١) وإلىٰ هـٰذا الإشارة في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ ، فالعهد : ما أعطيت بلسانك ، والرعاية : الوفاء بالقلب ، فمن طابق قلبه لسانه . . دخل تحت هـٰذا الثناء والمدح . « إتحاف » (٣/ ١٤٢) .

وإذا قلتَ : (حنيفاً مسلماً) . . **فينبغي** أنْ يخطرَ ببالِكَ أنَّ المسلمَ هوَ الذي سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ[1] ، فإنْ لمْ تكنْ كذلكَ . . كنتَ كاذباً ، فاجتهدْ في أنْ تعزمَ عليهِ في الاستقبالِ ، وتندمَ علىٰ ما سبقَ من الأحوالِ .

❊ ❊ ❊

وإذا قلتَ : (وما أنا مِنَ المشركينَ) . . **فأخطرْ** ببالِكَ الشرْكَ الخفيَّ ، فإنَّ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ نزلَ فيمَنْ يقصدُ بعبادتِهِ وجهَ اللهِ وحمدَ الناسِ[2] ، وكنْ حذراً مشفقاً مِنْ هـٰذا الشركِ ، واستشعرِ الخجلةَ في قلبِكَ إنْ وصفْتَ نفسَكَ بأنَّكَ لستَ مِنَ المشركينَ مِنْ غيرِ براءةٍ عنْ هـٰذا الشركِ ؛ فإنَّ اسمَ الشركِ يقعُ على القليلِ والكثيرِ منهُ .

❊ ❊ ❊

وإذا قلتَ : (محيايَ ومماتي للهِ) . . **فاعلمْ** : أنَّ هـٰذا حالُ عبدٍ مفقودٍ لنفسِهِ موجودٍ لسيِّدِهِ ، وأنَّهُ إنْ صدرَ ممَّنْ رضاهُ وغضبُهُ وقيامُهُ وقعودُهُ ورغبتُهُ

---

(١) كما في « البخاري » (١٠) ، و« مسلم » (٤٠) .

(٢) روىٰ ذلك ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٩/ ٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعند الطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٩٠) مرفوعاً : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي قال : أنا خير شريك ، كل عمل كان عُمل في الدنيا كان لي فيه شريك فأنا أدعه اليوم ، ولا أقبل اليوم إلا خالصاً ، ثم قرأ : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ » .

في الحياة ورهبتُهُ مِنَ الموتِ لأمورِ الدنيا . . لمْ يكنْ ملائماً للحالِ[١] .

* * *

وإذا قلتَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) . . **فاعلمْ** : أنَّهُ عدوُّكَ ومترصِّدٌ لصرْفِ قلبكَ عنِ اللهِ تعالىٰ حسداً لكَ علىٰ مناجاتِكَ معَ اللهِ سبحانَهُ وسجودِكَ لهُ ، مع أنَّهُ لُعِنَ بسببِ سجدةٍ واحدةٍ تركَها ولمْ يوفَّقْ لها ، وأنَّ استعاذتَكَ باللهِ تعالىٰ منهُ بتركِ ما يحبُّهُ ، وتبديلِهِ بما يحبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ ، لا بمجرَّدِ قولِكَ ؛ فإنَّ مَنْ قصدَهُ سبعٌ أوْ عدوٌّ ليفترسَهُ أوْ ليقتلَهُ فقالَ : (أعوذُ منكَ بذلكَ الحصنِ الحصينِ) وهوَ ثابتٌ علىٰ مكانِهِ . . فإنَّ ذلكَ لا ينفعُهُ ، بلْ لا يعيذُهُ إلا تبديلُ المكانِ ، فكذلكَ منْ يتبعُ الشهواتِ التي هيَ محابُّ الشيطانِ ومكارهُ الرحمـٰنِ فلا يغنيهِ مجرَّدُ القولِ .

فليقترنْ قولُهُ بالعزمِ على التعوُّذِ بحصْنِ اللهِ عزَّ وجلَّ عنْ شرِّ الشيطانِ ، وحصنُهُ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ)، إذْ قالَ عزَّ وجلَّ فيما أخبرَ عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «لا إلـٰهَ إلا اللهُ حصني، ومنْ دخلَ حصنِي . . أمِنَ منْ عذابي »[٢] ،

---

(١) ثم إذا قلت : (لا شريك له) وأنت تشرك معه في عبادته . . فهو كذب آخر ، والمعنىٰ : لا إلـٰه مقصود بهـٰذه العبادة إلا الله الذي خلقني من أجلها .
فإذا قلتَ : (وأنا من المسلمين) . . فالمسلمون عند شروطهم ، فهل أنت تفي بتلك الشروط وتعرف حقوقهم التي أوجبها الله عليك ، ولا بد أنك تقصر عن ذلك ، فهـٰذا كذب آخر ، فإذا كان دعاء الاستفتاح مشتملاً علىٰ عدة أكاذيب ومخالفات . . فكيف حالك في سائر الصلاة ؟! وما توفيقي إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . « إتحاف » (٣/ ١٤٥).
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٢) ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ١٤٧) .

والمتحصِّنُ بهِ مَن لا معبودَ لهُ سوى اللهِ سبحانَهُ ، فأمَّا مَنِ اتخذَ إلـٰهَهُ هواهُ . . فهوَ في ميدانِ الشيطانِ ، لا في حصنِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

واعلمْ : أَنَّ مِنْ مكايدِهِ أنْ يشغلَكَ في الصلاةِ بذكرِ الآخرةِ وتدبيرِ فعلِ الخيراتِ ؛ ليمنعَكَ عنْ فهمِ ما تقرأُ ، فاعلمْ : أَنَّ كلَّ ما يشغلُكَ عنْ فهْمِ معاني قراءتِكَ فهوَ وسواسٌ ، فإنَّ حركةَ اللسانِ غيرُ مقصودةٍ ، بلِ المقصودُ معانيها .

❊ ❊ ❊

فأمَّا القراءةُ : فالناسُ فيها ثلاثةٌ : رجلٌ يتحرَّكُ لسانُهُ وقلبُهُ غافلٌ ، ورجلٌ يتحرَّكُ لسانُهُ وقلبُهُ يتبعُ اللسانَ فيسمعُ ويفهمُ منهُ كأنَّهُ يسمعُهُ منْ غيرِهِ ، وهـٰذهِ درجاتُ أصحابِ اليمينِ ، ورجلٌ يسبقُ قلبُهُ إلى المعاني أوَّلاً ثمَّ يخدمُ اللسانُ القلبَ فيترجمُهُ ، ففرقٌ بينَ أنْ يكونَ اللسانُ ترجمانَ القلبِ أوْ يكونَ معلِّمَ القلبِ ، والمقرَّبونَ لسانُهُمْ ترجمانٌ يتبعُ القلبَ ولا يتبعُهُ القلبُ .

وتفصيلُ ترجمةِ المعاني : **أنَّكَ إذا قلتَ** : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . . فانوِ بهِ[1] التبرُّكَ لابتداءِ القراءةِ لكلامِ اللهِ سبحانَهُ ، وافهمْ أَنَّ معناهُ : أَنَّ الأمورَ كلَّها باللهِ تعالىٰ ، وأَنَّ المرادَ بالاسمِ هـٰهنا هوَ المسمَّىٰ[2] .

---

(١) أي : بقولك هـٰذا .

(٢) فالتبرك في الحقيقة به تعالىٰ ، وإن ذكر الاسم حجاب حجب به قلوب عباده ، ولذا قال : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ . « إتحاف » (٣/ ١٤٩) .

وإذا كانتِ الأمورُ باللهِ سبحانَهُ . . فلا جرمَ كانَ الحمدُ للهِ ، ومعناهُ : أَنَّ الشكرَ للهِ ؛ إذِ النعمُ مِنَ اللهِ ، ومَنْ يرىٰ مِنْ غيرِ اللهِ نعمةً أوْ يقصدُ غيرَ اللهِ سبحانَهُ بشكرٍ لا مِنْ حيثُ إنَّهُ مسخَّرٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ وتباركَ اسمُهُ . . ففي تسميتِهِ وتحميدِهِ نقصانٌ بقدْرِ التفاتهِ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ .

فإذا قلتَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . . **فأحضرْ في قلبِكَ** جميعَ أنواعِ لطفِهِ ؛ لتتضحَ لكَ رحمتُهُ ، فينبعثَ بذلكَ رجاؤُكَ .

ثمَّ استثرْ مِنْ قلبِكَ التعظيمَ والخوفَ بقولِكَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، أمَّا العظمةُ : فلأنَّهُ لا مُلكَ إلا لهُ ، وأمَّا الخوفُ : فلهولِ يومِ الجزاءِ والحسابِ الذي هوَ مالكُهُ .

ثمَّ جدِّدِ الإخلاصَ بقولِكَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وجدِّدِ العجزَ والاحتياجَ والتبرِّيَ عنِ الحولِ والقوَّةِ بقولِكَ : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وتحقَّقْ أنَّهُ ما تيسرتْ طاعتُكَ إلا بإعانتِهِ ، وأنَّ لهُ المنَّةَ إذْ وفقَكَ لطاعتِهِ ، واستخدمَكَ لعبادتِهِ ، وجعلَكَ أهلاً لمناجاتِهِ ، ولوْ حرمَكَ التوفيقَ . . لكنتَ مِنَ المطرودينَ معَ الشيطانِ اللعينِ .

ثمَّ إذا فرغتَ مِنَ التعوُّذِ ، ومِنْ قولِكَ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، ومِنَ التحميدِ ، ومِنْ إظهارِ الحاجةِ إلى الإعانةِ مطلقاً . . فعيِّنْ سؤالَكَ ، ولا تطلبْ إلا أهمَّ حاجاتِكَ ، وقلْ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي يسوقُنا إلىٰ جوارِكَ ، ويفضي بنا إلىٰ مرضاتِكَ ، وزدْهُ شرحاً وتفصيلاً

وتأكيداً واستشهاداً بالذينَ أفاضَ عليهِمْ نعمةَ الهدايةِ مِنَ النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، دونَ الذينَ غضبَ عليهِمْ مِنَ الكفَّارِ والزائغينَ مِنَ اليهودِ والنصارىٰ والصابئينَ ، ثمَّ التمسِ الإجابةَ وقلْ : (آمينَ) .

فإذا تلوتَ الفاتحةَ كذلكَ . . فيشبهُ أنْ تكونَ منَ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ فيما أخبرَ عنهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفينِ : نصْفُها لي ونصفُها لعبدي ولعبدي ما سألَ ؛ يقولُ العبدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : حمدني عبدِي وأثنىٰ عليَّ . . . » ، وهوَ معنىٰ قولِهِ : (سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهْ) الحديث إلىٰ آخرِهِ[1] .

فلوْ لمْ يكنْ لكَ مِنْ صلاتِكَ حظٌّ سوىٰ ذكرِ اللهِ لكَ في جلالِهِ وعظمتِهِ . . فناهيكَ بذلكَ غنيمةً ، فكيفَ بما ترجوهُ مِنْ ثوابِهِ وفضلِهِ ؟!

وكذلكَ ينبغي أنْ تفهمَ ما تقرؤُهُ مِنَ السورِ كما سيأتي في كتابِ تلاوةِ

---

(١) روىٰ مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالىٰ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . . قال الله تعالىٰ : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ . . قال الله تعالىٰ : أثنىٰ علي عبدي ، وإذا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . . قال : مجدني عبدي ، وقال مرة : فوّض إليَّ عبدي ، فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . . قال : هٰذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . . قال : هٰذا لعبدي ولعبدي ما سأل » .

القرآنِ ، فلا تغفُلْ عنْ أمرِهِ ونهيهِ ، ووعدِهِ ووعيدِهِ ، ومواعظِهِ وأخبارِ أنبيائِهِ ، وذكرِ مننِهِ وإحسانِهِ ، فلكلٍّ واحدٍ حقٌّ ، فالرجاءُ حقُّ الوعدِ ، والخوفُ حقُّ الوعيدِ ، والعزمُ حقُّ الأمرِ والنهيِ ، والاتعاظُ حقُّ الموعظةِ ، والشكرُ حقُّ ذكرِ المنَّةِ ، والاعتبارُ حقُّ أخبارِ الأنبياءِ .

وَرُوِيَ أَنَّ زرارةَ بنَ أوفىٰ لما انتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ خرَّ ميتاً(١) .

وكانَ إبراهيمُ النخعيُّ إذا سمعَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ . . اضطربَ حتَّىٰ تضطربَ أوصالُهُ(٢) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ واقدٍ : رأيتُ ابنَ عمرَ يصلِّي مغلوباً ، وحقَّ لهُ أن يحترقَ قلبُهُ بوعدِ سيِّدِهِ ووعيدِهِ ؛ فإنَّهُ عبدٌ ذليلٌ مذنبٌ بينَ يدي جبَّارٍ قاهرٍ .

وتكونُ هـٰذهِ المعاني بحسَبِ درجاتِ الفهمِ ، ويكونُ الفهمُ بحسَبِ وفورِ العلمِ وصفاءِ القلبِ ، ودرجاتُ ذلكَ لا تنحصرُ ، والصلاةُ مفتاحُ القلوبِ ، فيها تنكشفُ أسرارُ الكلماتِ .

فهـٰذا حقُّ القراءةِ ، وهوَ حقُّ الأذكارِ والتسبيحاتِ أيضاً .

ثم يراعي الهيئةَ في القراءةِ ؛ فيرتِّلُ ولا يسردُ ؛ فإنَّ ذلكَ أيسرُ للتأمُّلِ ،

---

(١) رواه الترمذي في « سننه » في ذيل حديث (٤٤٥) عن بهز بن حكيم قال : (كان زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة ، وكان يؤم في بني قشير ، فقرأ يوماً في صلاة الصبح : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ خرَّ ميتاً ، فكنت فيمن احتمله إلىٰ داره) .

(٢) في (هـ) : (إبراهيم بن أدهم) .

ويفرِّقُ بينَ نغماتِهِ في آيةِ الرحمةِ والعذابِ ، والوعدِ والوعيدِ ، والتحميدِ والتعظيمِ والتمجيدِ .

كانَ النخعيُّ إذا مرَّ بمثلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ . . يغضُّ صوتَهُ كالمستحيي عَنْ أنْ يذكرَهُ بذلكَ الشيءِ .

ورُوِيَ أنَّهُ يقالُ لقارئِ القرآنِ : اقرَأْ وارْقَ ، ورَتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا[1] .

* * *

وأمّا دوامُ القيامِ : فإنَّهُ تنبيهٌ علىٰ إقامةِ القلبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ نعتٍ واحدٍ مِنَ الحضورِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مقبلٌ على المُصلِّي ما لمْ يلتفتْ »[2] .

وكما تجبُ حراسةُ الرأسِ والعينِ عنِ الالتفاتِ إلى الجهاتِ . . فكذلكَ تجبُ حراسةُ السرِّ عنِ الالتفاتِ إلىٰ غيرِ الصلاةِ ، فإذا التفتَ إلىٰ غيرِهِ . . فذكِّرْهُ باطلاعِ اللهِ عليكَ ، وبقبحِ التهاونِ بالمناجىٰ عندَ غفلةِ المناجي ؛ ليعودَ إليهِ .

وألزمِ الخشوعَ للقلبِ ، فإنَّ الخلاصَ عنِ الالتفاتِ باطناً وظاهراً ثمرةُ

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٦٤) ، والترمذي (٢٩١٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٠٠٢) .
(٢) رواه أبو داوود (٩٠٩) ، والترمذي (٢٨٦٣) ، والنسائي (٣/٨) .

الخشوعِ ، ومهما خشعَ الباطنُ . . خشعَ الظاهرُ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ رأىٰ رجلاً مصلِّياً يعبثُ بلحيتِهِ : « أما هـٰذا لوْ خشعَ قلبُهُ . . لخشعتْ جوارحُهُ »[1] ، فإنَّ الرعيةَ بحكمِ الراعي ؛ ولهـٰذا وردَ في الدعاءِ : (اللهمَّ ؛ أصلحِ الراعيَ والرعيةَ)[2] ، وهوَ القلبُ والجوارحُ .

وكانَ الصِّديقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صلاتِهِ كأَنَّهُ وَتِدٌ ، وابنُ الزبيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كأَنَّهُ عودٌ[3] ، وبعضُهُمْ كانَ يسكنُ في ركوعِهِ بحيثُ تقعُ العصافيرُ عليهِ كأَنَّهُ جمادٌ[4] .

وكلُّ ذلكَ يقتضيهِ الطبعُ بينَ يدي مَنْ يعظُمُ مِنْ أبناءِ الدنيا ، فكيفَ لا يتقاضاهُ بينَ يدي ملكِ الملوكِ عندَ مَنْ يعرفُ ملكَ الملوكِ ؟!

وكلُّ مَنْ يطمئنُّ بينَ يدي غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ خاشعاً ، وتضطربُ أطرافُهُ بينَ يدي اللهِ . . فذلكَ لقصورِ معرفتِهِ عنْ جلالِ اللهِ تعالىٰ ، وعنِ اطلاعِهِ علىٰ سرِّهِ وضميرِهِ .

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣١٧) مرفوعاً ، ورواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٩) موقوفاً علىٰ حذيفة ، ومن قول سعيد بن المسيب .

(٢) هو قطعة من دعاء كان يدعو به الجنيد البغدادي رحمه الله تعالىٰ كما في « الحلية » (١٠/ ٢٨٦) ، وفي المرفوع : « ألا وإن في الجسد مضغة ؛ إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

(٣) كما رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٣٢٢) ، والمروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٨٧) .

(٤) وهو العنبس بن عقبة ، كما روىٰ ذلك أحمد في « الزهد » (٢٠٨٦) ، ومثله الربيع بن خثيم كما في « الحلية » (٢/ ١١٤) .

وقالَ عكرمةُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ ، قالَ : (قيامُهُ وركوعُهُ وسجودُهُ وجلوسُهُ)[1] .

＊＊＊

وأمّا الركوعُ والسجودُ : فينبغي أنْ تجدِّدَ عندَهُما ذكرَ كبرياءِ اللهِ تعالىٰ ، وترفعَ يديكَ مستجيراً بعفوِ اللهِ مِنْ عقابِهِ ، ومتبعاً سنَّةَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ تستأنفُ لهُ ذلاً وتواضعاً بركوعِكَ ، وتجتهدُ في ترقيقِ قلبِكَ وتجديدِ خشوعِكَ ، وتستشعرُ ذُلَّكَ وعزَّ مولاكَ ، واتضاعَكَ وعلوَّ ربِّكَ ، وتستعينُ علىٰ تقريرِ ذلكَ في قلبِكَ بلسانِكَ ، فتسبِّحُ ربَّكَ وتشهدُ لهُ بالعظمةِ ، وأنَّهُ أعظمُ مِنْ كلِّ عظيمٍ ، وتكرِّرُ ذلكَ علىٰ قلبِكَ ؛ لتؤكِّدَهُ بالتكرارِ ، ثمَّ ترتفعُ عنْ ركوعِكَ راجياً أنَّهُ راحمٌ ذُلَّكَ[2] ، ومؤكداً للرجاءِ في نفسِكَ بقولِكَ : (سمعَ اللهُ لمنْ حمدَهُ) أي : أجابَ لمَنْ شكرَهُ .

ثمَّ تردفُ ذلكَ بالشكرِ المتقاضي للمزيدِ فتقولُ : (ربَّنا لكَ الحمدُ) ، وتكثِّرُ الحمدَ بقولِكَ : (ملْءَ السماواتِ وملءَ الأرضِ) .

ثمَّ تهوي إلى السجودِ ، وهوَ أعلىٰ درجاتِ الاستكانةِ ، فتمكِّنُ أعزَّ أعضائِكَ وهوَ الوجهُ مِنْ أذلِّ الأشياءِ وهوَ الترابُ ، وإنْ أمكنَكَ ألا تجعلَ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٦٠٣٢) .

(٢) أشار بذلك : أن الركوع حالة الخضوع والذل ، والرفع منه حالة العز ، فلما أمر بالرفع علىٰ لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « ثم ارفع حتىٰ تستوي قائماً » : أراد أن يرحم ذله . « إتحاف » (٣/ ١٥٥) .

بينَهُما حائلاً فتسجدَ على الأرضِ . . فافعلْ ؛ فإنَّهُ أجلبُ للخضوعِ ، وأدلُّ على الذلِّ .

وإذا وضعتَ نفسَكَ موضعَ الذلِّ . . فاعلمْ : أنَّكَ وضعتَها موضعَها ، ورددتَ الفرعَ إلىٰ أصلِهِ ؛ فإنَّكَ مِنَ الترابِ خلقْتَ ، وإليهِ تعودُ ، فعندَ هٰذا جدِّدْ علىٰ قلبِكَ عظمةَ اللهِ وقلْ : (سبحانَ ربِّيَ الأعلىٰ) ، وأكِّدْهُ بالتكرارِ ، فإنَّ الكرَّةَ الواحدةَ ضعيفةُ الآثارِ ، فإذا رقَّ قلبُكَ وظهرَ ذلكَ . . فلتُصَدِّقْ رجاءَكَ في رحمةِ ربِّكَ ، فإنَّ رحمتَهُ تتسارعُ إلى الضعفِ والذلِّ ، لا إلى التكبُّرِ والبطرِ .

فارفعْ رأسَكَ مكبِّراً وسائلاً حاجتَكَ وقائلاً : (ربِّ اغفرْ وارحمْ وتجاوزْ عمَّا تعلمُ)[١] ، أوْ ما أردتَ مِنَ الدعاءِ[٢] ، ثمَّ أكدِ التواضعَ بالتكرارِ ، فعُدْ إلى السجودِ ثانياً كذلكَ .

* * *

وأمَّا التشهدُ : فإذا جلستَ لهُ . . فاجلسْ متأدِّباً ، وصرِّحْ بأَنَّ جميعَ ما تدلي بهِ مِنَ الصلواتِ والطيباتِ ـ أيِ : الأخلاقِ الطاهرةِ ـ للهِ ، وكذلكَ الملكُ للهِ ، وهوَ معنى (التحياتُ)[٣] ، وأحضرْ في قلبِكَ النبيَّ صلَّى اللهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٩٥) .

(٢) كقوله : (رب ؛ اغفر لي وارحمني واهدني واجبرني وعافني واعف عني) .

(٣) أما التحيات . . فجمع تحية ، وهي السلام ، أو البقاء ، أو الملك ، أو العظمة ؛ أي : أنواع ذلك كله له ، والمصنف اقتصر علىٰ معنىً واحد . « إتحاف » (٣/ ١٥٨) .

عليهِ وسلَّمَ وشخصَهُ الكريمَ ، وقلْ : (السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ) ، وليصدقْ أملُكَ في أنَّهُ يبلُغُهُ ويردُّ عليكَ ما هوَ أوفىٰ منهُ .

ثم سلِّمْ علىٰ نفسِكَ وعلىٰ جميعِ عبادِ اللهِ الصالحينَ ، وتأمَّلْ أنْ يردَّ اللهُ سبحانَهُ عليكَ سلاماً وافياً بعددِ عبادِهِ الصالحينَ .

ثمَّ تشهَّدْ للهِ بالوحدانيةِ ، ولمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرسالةِ ، مجدداً عهدَ اللهِ سبحانَهُ بإعادةِ كلمتي الشهادةِ ، ومستأنفاً للتحصُّنِ بها .

ثمَّ ادعُ في آخِرِ صلاتِكَ بالدعاءِ المأثورِ معَ التواضعِ والخشوعِ ، والضراعةِ والابتهالِ ، وصدقِ الرجاءِ بالإجابةِ ، وأشركْ في دعائِكَ أبويكَ وسائرَ المؤمنينَ .

واقصدْ عندَ التسليمِ السلامَ على الملائكةِ والحاضرينَ ، وانوِ ختمَ الصلاةِ بهِ ، واستشعرْ شكرَ اللهِ سبحانَهُ علىٰ توفيقِهِ إيَّاكَ لإتمامِ هـٰذهِ الطاعةِ ، وتوهَّمْ أنَّكَ مودِّعٌ لصلاتِكَ هـٰذهِ ، وأنَّكَ ربَّما لا تعيشُ لمثلِها ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي أوصاهُ : « صلِّ صلاةَ مُودِّعٍ »(١) .

ثمَّ أشعرْ قلبَكَ الوجلَ والحياءَ مِنَ التقصيرِ في الصلاةِ ، وخفْ ألا تقبلَ صلاتُكَ ، وأنْ تكونَ ممقوتاً بذنبٍ ظاهرٍ أوْ باطنٍ ، فتردَّ صلاتُكَ في وجهِكَ ، وترجو مع ذلكَ أنْ يقبلَها بفضلِهِ وكرمِهِ .

كانَ يحيىٰ بنُ وثَّابٍ إذا صلَّىٰ . . مكثَ ما شاءَ اللهُ تُعرفُ عليهِ كآبَةُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

الصلاةِ[1] ، وكانَ إبراهيمُ يمكثُ بعدَ الصلاةِ ساعةً كأنَّهُ مريضٌ[2] .

فهٰذا تفصيلُ صلاةِ الخاشعينَ الذينَ هُمْ علىٰ صلاتِهِمْ يحافظونَ ، والذينَ هُمْ علىٰ صلاتِهِمْ دائمونَ ، والذينَ هُم يناجونَ اللهَ علىٰ قَدْرِ استطاعتِهِمْ في العبوديةِ .

فليعرضِ الإنسانُ نفسَهُ علىٰ هٰذهِ الصلاةِ ، فبالقدْرِ الذي يتيسَّرُ لهُ منهُ ينبغي أنْ يفرحَ ، وعلىٰ ما يفوتُهُ ينبغي أنْ يتحسَّرَ ، وفي مداواةِ ذلكَ ينبغي أنْ يجتهدَ .

وأمَّا صلاةُ الغافلينَ : فإنَّها مخطَرَةٌ ، إلا أنْ يتغمَّدَ اللهُ برحمتِهِ ، والرحمةُ واسعةٌ ، والكرمُ فائضٌ .

فنسألُ اللهَ أن يغمرَنا برحمتِهِ ، ويتغمَّدَنا بمغفرتِهِ ؛ إذْ لا وسيلةَ لنا إلا الاعترافُ بالعجزِ عنِ القيامِ بطاعتِهِ .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ تخليصَ الصلاةِ عنِ الآفاتِ ، وإخلاصَها لوجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأداءَها بالشروطِ الباطنةِ التي ذكرْناها ؛ منَ الخشوعِ والتعظيمِ والحياءِ . . سببٌ لحصولِ أنوارٍ في القلبِ تكونُ تلكَ الأنوارُ مفاتيحَ علومِ المكاشفةِ ، فأولياءُ اللهِ المكاشَفونَ بملكوتِ السماواتِ والأرضِ وأسرارِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥١٩) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٨/٣٩٦) ، وإبراهيم هو النخعي .

الربوبيةِ إنما يكاشفونَ بها في الصلاةِ ، لا سيما في السجودِ ، إذْ يتقربُ العبدُ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ بالسجودِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ .

وإنَّما تكونُ مكاشفةُ كلِّ مصلٍّ علىٰ قدْرِ صفائِهِ عنْ كدوراتِ الدنيا ، ويختلفُ ذلكَ بالقوَّةِ والضعفِ ، والقلَّةِ والكثرةِ ، وبالجلاءِ والخفاءِ ، حتَّىٰ ينكشفُ لبعضِهِمُ الشيءُ بعينِهِ ، وينكشفُ لبعضِهِمُ الشيءُ بمثالٍ ، كما كُشِفَ لبعضِهِمُ الدنيا في صورةِ جيفةٍ ، والشيطانُ في صورةِ كلْبٍ جاثمٍ عليها يدعو إليها .

ويختلفُ أيضاً بما فيهِ المكاشفةُ ، فبعضُهُمْ ينكشفُ لهُ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ وجلالِهِ ، ولبعضِهِمْ مِنْ أفعالِهِ ، ولبعضِهِمْ مِنْ دقائقِ علومِ المعاملةِ ، ويكونُ لتعيُّنِ تلكَ المعاني في كلِّ وقتٍ أسبابٌ خفيَّةٌ لا تحصىٰ ، وأشدُّها مناسبةً الهمَّةُ ؛ فإنَّها إذا كانتْ مصروفةً إلىٰ شيءٍ معيَّنٍ . . كانَ ذلكَ أولىٰ بالانكشافِ .

ولمَّا كانتْ هٰذهِ الأمورُ لا تتراءىٰ إلا في المرائي الصقيلةِ(١) ، وكانتْ المرائي كلُّها صدئةً ، فاحتجبتْ عنها الهدايةُ ، لا لبخلٍ مِنْ جهةِ المنعمِ بالهدايةِ ، بلْ لخبثٍ متراكمٍ علىٰ مصبِّ الهدايةِ . . تسارعتِ الألسنةُ إلىٰ إنكارِ مثلِ ذلكَ ؛ إذِ الطبعُ مجبولٌ علىٰ إنكارِ غيرِ الحاضرِ ، ولوْ كانَ للجنينِ عقلٌ . . لأنكرَ إمكانَ وجودِ إنسانٍ في متسعِ الهواءِ .

---

(١) **المرآة الصقيلة** : المجلوة الصافية .

ولوْ كانَ للطفلِ تمييزٌ ما . . ربَّما أنكرَ ما يزعمُ العقلاءُ إدراكَهُ مِنْ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ .

وهكذا الإنسانُ في كلِّ طورٍ يكادُ ينكرُ ما بعدَهُ ، ومَنْ أنكرَ طورَ الولايةِ . . لزمَهُ أنْ ينكرَ طورَ النبوَّةِ ، وقدْ خلِقَ الخلقُ أطواراً ، فلا ينبغي أنْ ينكرَ كلُّ واحدٍ ما وراءَ درجتِهِ .

نعمْ ، لمَّا طلبوا هـٰذا مِنَ المجادلةِ والمباحثةِ المشوِّشَةِ ، ولمْ يطلبوها مِنْ تصفيةِ القلبِ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ . . فَقَدوهُ فأنكروهُ .

ومنْ لمْ يكنْ مِنْ أهلِ المكاشفةِ . . فلا أقلَّ مِنْ أنْ يؤمنَ بالغيبِ ويصدقَ بهِ إلىٰ أنْ يشاهدَ بالتجربةِ ؛ ففي الخبرِ : (إنَّ العبدَ إذا قامَ في الصلاةِ . . رفعَ اللهُ الحجابَ بينَهُ وبيْنَ عبدِهِ ، وواجهَهُ بوجهِهِ ، وقامتِ الملائكةُ مِنْ لَدُنْ مَنْكبيهِ إلى الهواءِ يصلُّونَ بصلاتِهِ ، ويؤمِّنونَ علىٰ دعائِهِ ، وإنَّ المصلِّيَ لينثرُ عليهِ البرُّ مِنْ عنانِ السماءِ[1] إلىٰ مفرقِ رأسِهِ ، ويناديهِ منادٍ : لوْ علمَ المناجي مَنْ يناجي . . ما التفتَ ، وإنَّ أبوابَ السماءِ تفتحُ لِلمصلِّينَ ، وإنَّ الله تعالىٰ يباهي ملائكتَهُ بصدْقِ المصلِّي)[2] ، ففتحُ أبوابِ السماءِ ، ومواجهةُ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ بوجهِهِ كنايةٌ عنِ الكشْفِ الذي ذكرناهُ .

وفي التوراةِ مكتوبٌ : (يا بنَ آدمَ ؛ لا تعجَزْ أنْ تقومَ بينَ يديَّ مصلِّياً

---

(١) عنان السماء : ما ظهر منها للناظر ، وفي غالب النسخ : (أعنان السماء) أي : نواحيها.
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٠) ، وفيه : (بصفوف) بدل (بصدق) .

باكياً ، فأنا اللهُ الذي اقتربتُ مِنْ قلبِكَ ، وبالغيبِ رأيتَ نوري)[1] ، قالَ : فكنَّا نرىٰ أَنَّ تلكَ الرقةَ والبكاءَ والفتوحَ الذي يجدُهُ المصلِّي في قلبِهِ مِنْ دنوِّ الربِّ تعالىٰ مِنَ القلبِ[2] ، وإذا لمْ يكنْ هـٰذا الدنوُّ هوَ القرْبَ بالمكانِ[3] . . فلا معنىٰ لهُ إلا الدنوُّ بالهدايةِ والرحمةِ وكشفِ الحجابِ .

ويقالُ : إنَّ العبدَ إذا صلَّىٰ ركعتينِ عجبَ منهُ عشرةُ صفوفٍ مِنَ الملائكةِ ، كلُّ صفٍّ منهُمْ عشرةُ آلافٍ ، وباهى اللهُ بهِ مئةَ ألفِ مَلَكٍ ؛ وذلكَ أَنَّ العبدَ قدْ جمعَ في الصَّلاةِ بينَ القيامِ والقعودِ والركوعِ والسجودِ ، وقدْ فُرِّقَ ذلكَ علىٰ أربعينَ ألفَ مَلَكٍ ، فالقائمونَ لا يركعونَ إلىٰ يومِ القيامةِ ، والساجدونَ لا يرفعونَ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وهـٰكذا الراكعونَ والقاعدونَ ، فإنَّ ما رزقَ اللهُ تعالى الملائكةَ مِنَ القرْبِ والرتبةِ لازمٌ لهمْ مستمرٌّ علىٰ حالٍ واحدةٍ لا يزيدُ ولا ينقصُ ، ولذلكَ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهم إذْ قالوا : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ ، وفارقَ الإنسانُ الملائكةَ في الرقيِّ مِنْ درجةٍ إلىٰ درجةٍ ، فإنَّهُ لا يزالُ يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ فيستفيدُ مزيدَ قربِهِ ، وبابُ المزيدِ مسدودٌ على الملائكةِ عليهِمُ السلامُ ، وليسَ لكلِّ واحدٍ منهُمْ إلا رتبتُهُ التي هيَ وقْفٌ عليهِ ، وعبادتُهُ التي هوَ مشغولٌ بها ، لا ينتقلُ إلىٰ غيرِها ، ولا يفترُ عنها ، ﴿ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٠) .
(٣) لاستحالته عليه سبحانه ؛ لأنه منزه عن كل ما يخص الأجسام . « إتحاف » (٣/ ١٦٥) .

ومفتاحُ مزيدِ الدرجاتِ هيَ الصلواتُ ، قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ ، فمدحَهُمْ بعدَ الإيمانِ بصلاةٍ مخصوصةٍ ، وهيَ المقرونةُ بالخشوعِ ، ثمَّ ختمَ أوصافَ المفلحينَ بالصَّلاةِ أيضاً فقالَ تعالىٰ في آخرِها : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[1] ، ثمَّ قالَ تعالىٰ في ثمرةِ تلكَ الصفاتِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ، فوصفَهُمْ بالفلاحِ أوَّلاً ، وبوراثةِ الفردوسِ آخراً .

وما عندي أنَّ هذرمةَ اللسانِ معَ غفلةِ القلبِ تنتهي درجتُهُ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ في أضدادِهِمْ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ ، فالمصلُّونَ همْ ورثةُ الفردوسِ ، وهمُ المشاهدونَ لنورِ اللهِ تعالىٰ والمتنعمونَ بقربِهِ ودنوِّهِ مِنْ قلوبِهِمْ .

نسألُ اللهَ أنْ يجعلَنا منهم ، وأنْ يعيذَنا مِنْ عقوبةِ مَنْ تزيَّنَتْ أقوالُهُ وقبحتْ أفعالُهُ ؛ إنَّهُ الكريمُ المنَّانُ القديمُ الإحسانِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

---

(١) وهي قراءة حمزة وخلف والكسائي ؛ (صلاتهم) بدل (صلواتهم) .

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين

اعلمْ : أَنَّ الخشوعَ ثمرةُ الإيمانِ ، ونتيجةُ اليقينِ الحاصلِ بجلالِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ومَنْ رزقَ ذلكَ . . فإنَّهُ يكونُ خاشعاً في الصَّلاةِ وفي غيرِ الصَّلاةِ ، بلْ في خلوتِهِ ، وفي بيتِ الماءِ عندَ قضاءِ الحاجةِ[1] ؛ فإنَّ موجبَ الخشوعِ معرفةُ اطلاعِ اللهِ تعالىٰ على العبدِ ، ومعرفةُ جلالِهِ ، ومعرفةُ تقصيرِ العبدِ ، فمِنْ هٰذهِ المعارفِ يتولَّدُ الخشوعُ ، وليستْ مختصَّةً بالصلاةِ .

ولذلكَ رُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أَنَّهُ لمْ يرفعْ رأسَهُ إلى السَّماءِ أربعينَ سنةً ؛ حياءً مِنَ اللهِ سبحانَهُ وخشوعاً لَهُ[2] .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثَيْمٍ مِنْ شدَّةِ غضِّهِ لبصرِهِ وإطراقِهِ يظنُّ بعضُ الناسِ أَنَّهُ أعمىٰ ، وكانَ يختلفُ إلىٰ منزلِ ابنِ مسعودٍ عشرينَ سنةً ، فإذا رأَتْهُ جاريتُهُ قالتْ لابنِ مسعودٍ : صديقُكَ ذلكَ الأعمىٰ قدْ جاءَ ، فكانَ يضحكُ ابنُ مسعودٍ مِنْ قولِها ، وكانَ إذا دقَّ البابَ تخرجُ الجاريةُ إليهِ فتراهُ مطرقاً غاضاً بصرَهُ . وكانَ ابنُ مسعودٍ إذا نظرَ إليهِ يقولُ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ ، أَمَا واللهِ ؛ لو رآكَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لفرحَ بكَ) ، وفي

---

(١) وفي كل حال ثَمَّ أدبٌ هو مظهر هٰذا الخشوع .

(٢) روي ذلك عن جمع كثير ، منهم سيدنا سليمان عليه السلام كما في « الزهد » (١٧٦) لابن المبارك من زيادات نعيم بن حماد ، ومنهم من بقي كذلك سبعين سنة ؛ كأبي عبيدة الخواص كما في « صفة الصفوة » (٤/ ١٩٥) .

لفظٍ : (لأحبَّكَ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لضحكَ)[١] .

ومشىٰ ذاتَ يومٍ معَ ابنِ مسعودٍ في الحدَّادينَ[٢] ، فلما نظرَ إلى الأكوارِ تنفخُ وإلى النيرانِ تلتهبُ . . صعقَ وسقطَ مغشياً عليهِ ، وقعدَ ابنُ مسعودٍ عندَ رأسِهِ إلىٰ وقتِ الصلاةِ فلمْ يفقْ ، فحملَهُ علىٰ ظهرِهِ إلىٰ منزلِهِ ، فلمْ يزلْ مغشياً عليهِ إلىٰ مثلِ الساعةِ التي صعقَ فيها ، ففاتَتْهُ خمسُ صلواتٍ وابنُ مسعودٍ عندَ رأسِهِ يقولُ : هٰذا واللهِ هوَ الخوفُ[٣] .

وكانَ الربيعُ يقولُ : (ما دخلتُ في صلاةٍ قطُّ فأهمَّني فيها إلا ما أقولُ وما يقالُ لي)[٤] .

وكانَ عامرُ بنُ عبدِ اللهِ مِنْ خاشعي المصلِّينَ ، وكانَ إذا صلَّىٰ . . ربَّما ضربتِ ابنتُهُ بالدُّفِّ وتحدَّثَ النساءُ بما يردْنَ في البيتِ ، ولمْ يكنْ يسمعُ ذلكَ ولا يعقلُهُ .

وقيلَ لهُ ذاتَ يومٍ : هلْ تحدِّثُكَ نفسُكَ في الصلاةِ بشيءٍ ؟ قالَ : نعمْ ،

---

(١) روى الخبر أحمد في « الزهد » (١٩٨٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٠٦) ، وهو في « القوت » (٢/ ١٠٢) .
(٢) أي : في سوق الحدَّادين في الكوفة .
(٣) وكان قد سمع من ابن مسعود رضي الله عنه قوله تعالىٰ : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ ، رواه أحمد في « الزهد » (١٩٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٠) ، يقول الأعمش كما في « الزهد » (١٩٨٢) : (فمررت بالحدادين لأتشبه به ، فلم يكن عندي خير) ، والخبر في « القوت » (٢/ ١٠٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٠٢) ، وما يقوله : هو التلاوة والذكر ، وما يقال له : المخاطبة والمناجاة والإجابة . انظر « الإتحاف » (٣/ ١٦٧) .

بوقوفي بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومنصرفي إلىٰ إحدى الدارينِ ، قيلَ : فهلْ تجدُ شيئاً ممَّا نجدُ مِنْ أمورِ الدنيا ؟ فقالَ : لأنْ تختلفَ الأسنَّةُ فيَّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أجدَ في الصلاةِ ما تجدونَ[1] .

وكانَ يقولُ : (لوْ كشفَ الغطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً)[1] .

وقدْ كانَ مسلمُ بنُ يسارٍ منهُمْ ، وقدْ نقلْنا أنَّهُ لمْ يشعرْ بسقوطِ أسطوانةٍ في المسجدِ وهوَ في الصلاةِ[2] .

وتأكَّلَ طرفٌ مِنْ أطرافِ بعضِهِمْ ، واحتيجَ فيهِ إلى القطعِ ، فلمْ يمكنْ منهُ ، فقيلَ : إنَّهُ في الصلاةِ لا يحسُّ بما يجري عليهِ ، فقُطِعَ منهُ ذلكَ الطرفُ وهوَ في الصلاةِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الصلاةُ مِنَ الآخرةِ ، فإذا دخلتَ في الصلاةِ . . خرجتَ مِنَ الدنيا)[4] .

وقيلَ لآخرَ : هلْ تحدِّثُ نفسَكَ في الصلاةِ بشيءٍ منَ الدنيا ؟ فقالَ : لا ؛ لا في الصلاةِ ولا في غيرِها[5] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٢) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ١٣٥) ، وهو في « القوت » (٢/ ١٠٢) .
(٣) وهو عروة بن الزبير ، عمُّ عامرٍ الذي تقدم خبره ، والخبر رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٢٦١) دون تصريح أن القطع كان في الصلاة .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٠٢) .
(٥) عوارف المعارف (٢/ ٥٤٧) ، وقد نسبه الحافظ الزبيدي إلى « القوت » .

وسئلَ بعضُهُمْ : هلْ تذكرُ في الصلاةِ شيئاً ؟ فقالَ : وهلْ شيءٌ أحبُّ إليَّ مِنَ الصلاةِ فأذكرَهُ فيها ؟!(١) .

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (مِنْ فقْهِ الرجلِ أنْ يبدأَ بحاجتِهِ قبلَ دخولِهِ في الصلاةِ ؛ ليدخلَ في الصلاةِ وقلبُهُ فارغٌ)(٢) .

وكانَ بعضُهُمْ يخفِّفُ الصلاةَ خيفةَ الوسواسِ ؛ ورُوِيَ أنَّ عمارَ بنَ ياسرٍ صلَّىٰ صلاةً فأخفَّها ، فقيلَ لهُ : خفَّفْتَ يا أبا اليقظانِ ؛ فقالَ : هلْ رأيتموني نقصْتُ مِنْ حدودِها شيئاً ؟ قالوا : لا ، قالَ : إنِّي بادرتُ سهوَ الشيطانِ ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ العبدَ ليُصلِّي الصَّلاةَ لا يُكتبُ لهُ منها نصفُها ، ولا ثلثُها ، ولا ربعُها ، ولا خمسُها ، ولا سدسُها ، ولا عُشرُها » ، وكانَ يقولُ : إنَّما يكتبُ للعبدِ مِنْ صلاتِهِ ما عقلَ منها(٣) .

ويقالُ : إنَّ طلحةَ والزبيرَ وطائفةً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ كانوا أخفَّ الناسِ صلاةً ، وقالوا : (نبادرُ بها وسوسةَ الشيطانِ)(٤) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ على المنبرِ : إنَّ الرجلَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٤٢) ، وهو من معلقات البخاري .

(٣) رواه أبو داوود (٧٩٦) ، وكذا في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٩٠) ، والخبر في « القوت » (٢/ ١٠٢) .

(٤) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٢/ ٣٦٧) عن أبي رجاء قال : (صلىٰ بنا الزبير صلاة فخفف ، فقيل له ، فقال : إني أبادر الوسواس) .

ليشيبُ عارضاهُ في الإسلامِ وما أكملَ للهِ تعالىٰ صلاةً . قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لا يتمُّ خشوعَها وتواضعَها وإقبالَهُ على اللهِ عزَّ وجلَّ فيها(١) .

وسئلَ أبو العاليةِ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ . . قالَ : هوَ الذي يسهو في صلاتِهِ ، فلا يدري علىٰ كمْ ينصرفُ : أعلىٰ شفْعٍ أمْ علىٰ وترٍ ؟

وقالَ الحسنُ : هوَ الذي يسهو عنْ وقتِ الصلاةِ حتَّىٰ يخرجَ .

وقالَ بعضُهُمْ : هوَ الذي إنْ صلاَّها في أوَّلِ الوقتِ . . لمْ يفرحْ ، وإنْ أخَّرَها عنِ الوقتِ . . لمْ يحزنْ ، فلا يرىٰ تعجيلَها برّاً ، ولا تأخيرَها إثماً(٢) .

واعلمْ : أنَّ الصلاةَ قدْ يحسبُ بعضُها ويكتبُ بعضُها دونَ بعضٍ كما دلَّتِ الأخبارُ عليهِ ، وإنْ كانَ الفقيهُ يقولُ : (إنَّ الصلاةَ في الصحَّةِ لا تتجزَّأُ) ، ولكنَّ ذلكَ لهُ معنىً آخرُ ذكرناهُ ، وهـٰذا المعنىٰ دلَّتْ عليهِ الأحاديثُ ؛ إذْ وردَ جَبْرُ نقصانِ الفرائضِ بالنوافلِ في الخبرِ(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٨٣) ، والخبر في « القوت » (٢/ ١٠٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٣) .

(٣) كما روىٰ أبو داوود (٨٦٤) ، والترمذي (٤١٣) مرفوعاً : « إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال : يقول ربنا جلَّ وعزَّ لملائكته وهو أعلم : انظروا في صلاة عبدي : أتمَّها أم نَقَصَها ؟ فإن كانت تامة . . كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً . . قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فإن كان له تطوع . . قال : أتموا لعبدي فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال علىٰ ذاكم » .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : بالفرائضِ نجا منِّي عبدي ، وبالنَّوافلِ تقرَّبَ إليَّ عبدي)[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لا ينجو منِّي عبدِي إلا بأداءِ ما افترضتُ عليهِ »[2] .

ورُوِيَ أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ صلاةً ، فتركَ مِنْ قراءتِهِ آيةً ، فلمَّا انفتلَ . . قالَ : « ماذا قرأتُ ؟ » فسكتَ القومُ ، فسألَ أُبَيَّ بنَ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : قرأتَ سورةَ كذا وتركتَ آيةَ كذا ، فما أدري : أنُسختْ أمْ رُفعتْ ؟ فقالَ : « أنتَ لها يا أبيُّ » ، ثمَّ أقبلَ على الآخرينَ فقالَ : « ما بالُ أقوامٍ يحضرونَ صلاتَهُمْ ، ويتِمُّون صفوفَهُمْ ، ونَبيُّهُمْ بينَ أيديهِمْ ، لا يدرونَ ما يتلو عليهِمْ مِنْ كتابِ ربِّهمْ ! ألا إنَّ بني إسرائيلَ كذا فعلوا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهمْ أنْ قُلْ لقومِك : تحضروني أبدانَكُمْ وتعطوني ألسنتَكُمْ ، وتغيبونَ عنِّي بقلوبِكُمْ ؟! باطلٌ ما تذهبونَ »[3] .

---

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (٢/ ١٠٣) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٣٢) عن حسان بن عطية قال : (قال الله : لا ينجو مني . . .) ، وهو كذلك في « الزهد » لأبي داوود (٥) عن طاووس اليماني .
وفي « البخاري » (٦٥٠٢): « وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته . . كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . » .
(٣) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص ٩٢) عن عثمان بن أبي دهرش بلاغاً بنحوه ، وهو بلفظه في « القوت » (٢/ ١٠٤) .

وهٰذا يدلُّ علىٰ أَنَّ استماعَ ما يقرأُ الإمامُ وفهمَهُ بدلٌ عن قراءتِهِ السورةَ بنفسِهِ .

وقالَ بَعضُهُمْ : إنَّ العبدَ ليسجدُ السجدةَ عندَهُ أنَّهُ تقرَّبَ بها إلى اللهِ تعالىٰ ، ولوْ قسمتْ ذنوبُهُ في سجدتِهِ علىٰ أهلِ مدينتِهِ . . لهلكوا ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : يكونُ ساجداً عندَ اللهِ وقلبُهُ مصغٍ إلىٰ هوىً ، ومشاهدٌ لباطلٍ ، قدِ استولىٰ عليهِ(١) .

فهٰذهِ صفةُ الخاشعينَ .

فدلَّتْ هٰذهِ الأخبارُ والحكاياتُ معَ ما سبقَ علىٰ أَنَّ الأصلَ في الصلاةِ الخشوعُ وحضورُ القلبِ ، وأَنَّ مجرَّدَ الحركاتِ معَ الغفلةِ قليلُ الجدوىٰ في المعادِ ، واللهُ أعلمُ ، نسألُ اللهَ حسْنَ التوفيقِ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٤) ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ١٧٠) .

البَابُ الرّابعُ
في الإمامة والقدوة

وعلى الإمامِ وظائفُ ؛ قبلَ الصلاةِ ، وفي القراءةِ ، وفي أركانِ الصلاةِ ، وبعدَ السلامِ .

* * *

أمّا الوظائفُ التي قبلَ الصلاةِ . . فستةٌ :

أوّلُها : ألا يتقدَّمَ للإمامةِ علىٰ قومٍ يكرهونَهُ ، فإنِ اختلفوا . . كانَ النظرُ إلى الأكثرينَ ، فإنْ كانَ الأقلُّونَ همْ أهلَ الخيرِ والدينِ . . فالنظرُ إليهِمْ أولىٰ .

وفي الحديثِ : « ثلاثةٌ لا تجاوزُ صلاتُهُمْ رؤوسَهُمْ : العبدُ الآبقُ ، وامرأةٌ زوجُها ساخطٌ عليها ، وإمامُ قومٍ وهمْ لهُ كارهونَ »[(١)] .

وكما يُنهىٰ عنْ تقدمِهِ معَ كراهتِهِمْ . . فكذلكَ يُنهىٰ عنِ التقدمةِ إنْ كانَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠) ، والكراهة لمعنىً يذم به شرعاً ، وإلا . . فلا ، واللوم علىٰ كارهه ، ثم إن الذي يذم شرعاً كفسق ، وبدعة ، وتساهل في تحرز عن خبث ، وإخلال بهيئة من هيئات الصلاة ، وتعامل حرفة مذمومة ، وعشرة فسقة ، ونحو ذلك . « إتحاف » (٣/ ١٧١) .

وراءَهُ مَنْ هوَ أفقَهُ منهُ وأقرأُ ، إلاَّ إذا امتنعَ منْ هوَ أولىٰ منهُ ، فلهُ التقدُّمُ ، فإنْ لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فليتقدَّمْ مهما قُدِّمَ وعرفَ مِنْ نفسِهِ القيامَ بشروطِ الإمامةِ .

ويكرَهُ عندَ ذلكَ المدافعةُ ، فقدْ قيلَ : إنَّ قوماً تدافعوا الإمامةَ بعدَ إقامةِ الصلاةِ . . فخُسِفَ بهم(١) .

وما رُوِيَ مِنْ مدافعةِ الإمامةِ بينَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ فسببُهُ إيثارُهُمْ مَنْ رأوهُ أولىٰ بذلكَ ، أوْ خوفُهُمْ علىٰ أنفسِهِمُ السهوَ وخطرَ ضمانِ صلاتِهِمْ ؛ فإنَّ الأئمَّةَ ضمناءُ ، وكأنَّ مَنْ لمْ يتعوَّدْ ذلكَ ربَّما يشتغلُ قلبُهُ ويتشوَّشُ عليهِ الإخلاصُ في الصلاةِ ؛ حياءً مِنَ المقتدينَ ، لا سيما في جهرِهِ بالقراءةِ ، فكانَ لاحترازِ مَنِ احترزَ أسبابٌ مِنْ هـٰذا الجنسِ(٢) .

* * *

الثانيةُ : إذا خيِّرَ المرءُ بينَ الأذانِ والإمامةِ . . فينبغي أنْ يختارَ الإمامةَ ؛

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٩٠) ، و« مجابو الدعوة » (٧٩) .

(٢) الأولىٰ بحال الصحابة الوجهُ الأول ، وهو الإيثار وخطر الضمان ، وقد كان ذلك من وصفهم ، وفي « القوت » (٢/ ٢١٢) : (ومن هـٰذا كره سهل بن سعد الساعدي الإمامةَ ، قال أبو حازم : قلت لسهل بن سعد وكان يقدم فتيان قومه يصلون به ، فقلت : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولك من السابقة والفضل ، لو تقدمت فصليت بقومك ، فقال : يا بن أخي ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الإمام ضامن » فأكره أن أكون ضامناً) . انظر « الإتحاف » (٣/ ١٧٢) ، وسيعقب المصنف علىٰ ذلك .

فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما فضلاً ، ولكنَّ الجمعَ مكروهٌ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ الإمامُ غيرَ المؤذِّنِ .

وإذا تعذَّرَ الجمعُ . . فالإمامةُ أولىٰ ، وقالَ قائلونَ : الأذانُ أولىٰ ؛ لما نقلناهُ في فضيلةِ الأذانِ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإمامُ ضامنٌ ، والمؤذِّنُ مؤتمنٌ »[1] ، فقالوا : في الإمامةِ خطرُ الضمانِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإمامُ أمينٌ ، فإذا ركعَ . . فاركعوا ، وإذا سجدَ . . فاسجدوا »[2] .

وفي الحديثِ « فإنْ أتمَّ . . فلهُ ولهُمْ ، وإنْ نقصَ . . فعليهِ لا عليهِمْ »[3] .

ولأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ أرشدِ الأئمَّةَ واغفرْ للمؤذِّنينَ »[4] ، والمغفرةُ أولىٰ بالطلبِ ؛ فإنَّ الرشدَ يرادُ للمغفرةِ .

وفي الخبرِ : « مَنْ أذَّنَ في مسجدٍ سبعَ سنينَ . . وجبتْ لهُ الجنَّةُ ، ومَنْ أذَّنَ أربعينَ عاماً . . دخلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ »[5] ؛ ولذلكَ نُقلَ

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٧) ، والترمذي (٢٠٧) ، وابن ماجه (٩٨١) .
(٢) رواه البخاري (٣٧٨) ، ومسلم (٤١١) ، دون : « الإمام أمين » ، أو « أمير » كما في بعض النسخ ، وهي عند ابن خزيمة في « صحيحه » (١٦١٣) .
(٣) رواه أبو داوود (٥٨٠) ، وابن ماجه (٩٨٣) بنحوه .
(٤) هو تتمة حديث : « الإمام ضامن » الذي سبق قريباً .
(٥) روى الشطر الأول منه الترمذي (٢٠٦) ، وابن ماجه (٧٢٧) بلفظ : « من أذَّن سبع سنين محتسباً . . كتبت له براءة من النار » وزيادة المصنف في « القوت » (٢/ ٢١٢) ، وفي (ج) : (أمَّ) بدل : (أذَّن) .

عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أنَّهُمْ كانوا يتدافعونَ الإمامةَ .

والصحيحُ : أنَّ الإمامةَ أفضلُ ؛ إذْ واظبَ عليها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما ، والأئمَّةُ بعدَهُم .

نعمْ ، فيها خطرُ الضمانِ ، والفضيلةُ معَ الخطرِ ، كما أنَّ رتبةَ الإمارةِ والخلافةِ أفضلُ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيومٌ مِنْ سلطانٍ عادلٍ أفضلُ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً »[1] .

ولكنْ فيها خطرٌ ، ولذلكَ وجبَ تقديمُ الأفضلِ والأفقهِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أئمتُكُمْ شفعاؤُكُمْ إلى اللهِ » ، أوْ قالَ : « وفدُكُمْ إلى اللهِ ، فإنْ أردتُمْ أنْ تُزكُّوا صلاتَكُمْ . . فقدِّموا خيارَكُمْ »[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ليسَ بعدَ الأنبياءِ أفضلُ مِنَ العلماءِ ، ولا بعدَ العلماءِ أفضلُ مِنَ الأئمَّةِ المصلِّينَ ؛ لأنَّ هؤلاءِ قاموا بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ وبينَ خلقِهِ ؛ هـٰذا بالنبوَّةِ ، وهـٰذا بالعلمِ ، وهـٰذا بعمادِ الدينِ وهوَ الصلاةُ)[3] .

وبهـٰذهِ الحجَّةِ احتجَّ الصحابةُ في تقديمِ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ وعنهُمْ للخلافةِ ؛ إذْ قالوا : (نظرْنا ؛ فإذا الصلاةُ عمادُ الدينِ ، فاخترْنا

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٣٧) ، وفيه : (ستين) بدل (سبعين) .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (١/ ٣٤٦) ، والجملة الأولىٰ منه (٢/ ٨٧) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٨) .

لدنيانا مَنْ رضيهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لدِيننا)[١] ، وما قدَّموا بلالاً احتجاجاً بأنَّهُ رضيَهُ للأذانِ[٢] .

وما رُوِيَ أَنَّهُ قالَ لهُ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ دُلَّني علىٰ عملٍ أدخلُ بهِ الجنَّةَ ، قالَ : « كُنْ مؤذِّناً » ، قالَ : لا أَستطيعُ ، قالَ : « كُنْ إماماً » ، قالَ : لا أستطيعُ ، قالَ : « صَلِّ بإزاءِ الإمامِ »[٣] . . فلعلَّهُ ظنَّ أنَّهُ لا يُرضَىٰ بإمامتِهِ ؛ إذِ الأذانُ إليهِ والإمامةُ إلى الجماعةِ وتقديمِهِمْ لهُ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ توهَّمَ أنَّهُ ربَّما يقدرُ عليها .

* * *

الثالثةُ : أنْ يراعيَ الإمامُ أوقاتَ الصلواتِ ، فيصلِّيَ في أوائلِها ؛ ليدركَ رضوانَ اللهِ سبحانَهُ ، ففضْلُ أوَّلِ الوقتِ علىٰ آخرِهِ كفضْلِ الآخرةِ على الدنيا ؛ هٰكذا رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٤] .

---

(١) كما روىٰ ذلك ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٦٧) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٢/ ١٢٩) عن علي رضي الله عنه ، وفيه يقول : (نظرتُ في أمري ؛ فإذا الصلاةُ عظْمُ الإسلام ، وقوام الدين ، فرضينا لدنيانا. . .) ، والأثر المرفوع هو ما رواه البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٤١٨) : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

(٢) روي أمر النبي صلى الله عليه وسلم لبلال بالأذان عند « أبي داوود » (٤٩٩ ، ٥٠٦) ، وابن ماجه (١٢٣٤) .

(٣) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (١/ ٣٦) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٦٨٣) .

(٤) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٤٤٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣/ ١٣١) .

وفي الحديثِ : « إنَّ العبدَ ليصلِّي الصلاةَ في آخرِ وقتِها ولمْ تفتْهُ ، ولَمَا فاتَهُ مِنْ أوَّلِ وقتِها خيرٌ لَهُ مِنَ الدنيا وما فيها »[١] .

ولا ينبغي أنْ يؤخِّرَ الصَّلاةَ لانتظارِ كثرةِ الجمعِ ، بلْ عليهِمُ المبادرةُ لحيازةِ فضيلةِ أوَّلِ الوقتِ ، فهيَ أفضلُ مِنْ كثرةِ الجماعةِ ، ومِنْ تطويلِ السورةِ ، وقدْ قيلَ : كانوا إذا حضرَ اثنانِ في الجماعةِ . . لمْ ينتظروا الثالثَ ، وإذا حضرَ أربعةٌ في الجِنازةِ . . لمْ ينتظروا الخامسَ[٢] .

وقدْ تأخَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ صلاةِ الفجرِ وكانوا في سفرٍ ، وإنَّما تأخَّرَ للطهارةِ . . فلمْ يُنتظَرْ ، وقُدِّمَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ، فصلَّىٰ بهِمْ ، حتَّىٰ فاتتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ركعةٌ فقامَ يقضِيها ، قالَ : فأشفقْنا مِنْ ذلكَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدْ أحسنتُمْ ، هـٰكذا فافعلوا »[٣] .

وقدْ تأخَّرَ في صلاةِ الظهرِ ، فقدَّموا أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّىٰ جاءَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهمْ في الصلاةِ ، فقامَ إلىٰ جانبِهِ[٤] .

---

(١) رواه الدارقطني في « سننه » (١/ ٢٤٨) بنحوه .

(٢) أما عدم انتظار زيادة على اثنين في الصلاة . . فلحيازة فضيلة أول الوقت كما علم ، وأما عدم انتظار الخامس في الجنازة . . فلما ورد من الإسراع والتعجيل في شأنها . . . ، وإنما أورد المصنف الجنازة هنا اتباعاً لما في « القوت » (٢/ ٢١١) واستطراداً . « إتحاف » (٣/ ١٧٧) .

(٣) رواه مسلم (٢٧٤) ، وكان ذلك في غزوة تبوك ، وهو معنى السفر .

(٤) رواه البخاري (٦٨٤) ، ومسلم (٤٢١) .

وليسَ على الإمامِ انتظارُ المؤذِّنِ ، وإنَّما على المؤذِّنِ انتظارُ الإمامِ للإقامةِ ، فإذا حضرَ . . فلا ينتظرُ غيرَهُ .

❊ ❊ ❊

الرابعةُ : أنْ يؤمَّ مخلصاً لوجْهِ اللهِ ، ومؤدِّياً أمانةَ اللهِ تعالىٰ في طهارتِهِ وجميعِ شروطِ صلاتِهِ .

أمَّا الإخلاصُ : فبألاَّ يأخذَ عليها أجرةً ، فقدْ أمرَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عثمانَ بنَ أبي العاصِ الثقفيَّ فقالَ : « واتَّخذْ مؤذِّناً لا يأخذُ على الأذانِ أجْراً »(١) .

والأذانُ طريقٌ إلى الصَّلاةِ ، فهيَ أولىٰ بألاَّ يُؤْخذَ عليها أجرٌ ؛ فإنْ أخذَ رزقاً مِنَ مسجدٍ قدْ وُقِفَ علىٰ مَنْ يقومُ بإمامتِهِ ، أو مِنَ السلطانِ ، أوْ مِنْ آحادِ الناسِ . . فلا يحكمُ بتحريمِهِ ، ولكنَّهُ مكروهٌ ، والكراهيةُ في الفرائضِ أشدُّ منها في التراويحِ ، وتكونُ أجرةً لهُ علىٰ مداومتِهِ علىٰ حضورِ الموضعِ ، ومراقبةِ مصالحِ المسجدِ في إقامةِ الجماعةِ ، لا علىٰ نفْسِ الصَّلاةِ(٢) .

وأمَّا الأمانةُ : فهي الطهارةُ باطناً عنِ الفسْقِ والكبائرِ والإصرارِ على

(١) رواه أبو داوود (٥٣١) ، والترمذي (٢٠٩) ، والنسائي (٢/ ٢٣) ، وابن ماجه (٧١٤) .

(٢) **وعلامة ذلك** : أنه إذا لم يعطَ الأجرة لا يتشوش قلبه في إقامة الجماعة علىٰ عادته الأولىٰ ، وهـٰذه مصيبة قد عمت ، فقد صار الأمر الآن أن المؤذن أو الإمام أو الخطيب إذا قُصِّرَ في أداء أجرته . . ترك عمله ، نسأل الله العفو . « إتحاف » (٣/ ١٧٨) .

الصغائرِ ، فالمترشِّحُ للإمامةِ ينبغي أنْ يحترزَ عنْ ذلكَ جهدَهُ ؛ فإنَّهُ كالوفدِ والشفيعِ للقومِ ، فينبغي أنْ يكونَ خيرَ القومِ .

وكذا الطهارةُ ظاهراً عَنِ الحدثِ والخبثِ ؛ فإنَّهُ لا يطَّلعُ عليهِ سواهُ ، فإنْ تذكَّرَ في أثناءِ صلاتِهِ حدثاً ، أوْ خرجَ منهُ ريحٌ . . فلا ينبغي أنْ يستحيَ ، بلْ يأخذُ بيدِ مَنْ يقربُ منهُ ويستخلفُهُ ، فقدْ تذكَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الجنابةَ في أثناءِ الصَّلاةِ، فاستخلفَ، واغتسلَ ، ثمَّ رجعَ ودخلَ في الصَّلاةِ(١) .

وقالَ سفيانُ : (صلِّ خلفَ كلِّ برٍّ وفاجرٍ إلا مُدْمِنِ خمرٍ ، أوْ معلنٍ بالفسقِ ، أوْ عاقٍّ لوالديهِ ، أوْ صاحبِ بدعةٍ ، أوْ عبدٍ آبقٍ)(٢) .

* * *

الخامسةُ : ألا يكبِّرَ حتَّىٰ تستويَ الصفوفُ ، فليلتفتْ يميناً وشمالاً ، فإنْ رأىٰ خللاً . . أمرَ بالتسويةِ ، قيلَ : كانوا يتحاذونَ بالمناكبِ ويتضامُّونَ بالكعابِ .

ولا يكبِّرُ حتَّىٰ يفرُغَ المؤذِّنُ مِنَ الإقامةِ ، والمؤذِّنُ يؤخِّرُ الإقامةَ عنِ الأذانِ بقدْرِ استعدادِ الناسِ للصلاةِ؛ ففي الخبرِ: « ليتمهَّلِ المؤذِّنُ بينَ الأذانِ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٣٣) وليس فيه ذكر الاستخلاف ، وعبارة « القوت » (٢/ ٢٠٨) : (فإن كانت الحادثة في الصلاة . . فعل ذلك ، وإن كان ذكر أنه دخل في الصلاة علىٰ غير طهارة . . خرج ولم يستخلف) .

(٢) الجملة الأولىٰ منه رواها اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١/ ١٧٣) .

وَالإقامةِ بِقَدْرِ ما يفرغُ الآكلُ مِنْ طعامِهِ والمعتصِرُ مِنِ اعتصارِهِ »[1] ، وذلك لأَنَّهُ نُهيَ عَنْ مدافعةِ الأخبثينِ[2] ، وأُمِرَ بتقديمِ العَشَاءِ على العِشَاءِ[3] ؛ طلباً لفراغِ القلبِ .

* * *

السادسةُ : أنْ يرفعَ صوتَهُ بتكبيرةِ الإحرامِ وسائرِ التكبيراتِ ، ولا يرفعُ المأمومُ صوتَهُ إلا بقدْرِ ما يسمعُ نفسَهُ ، وينوي الإمامةَ لينالَ الفضلَ ، فإنْ لمْ ينوِ . . صحتْ صلاتُهُ وصلاةُ القومِ إذا نوَوُا الاقتداءَ ، ونالوا فضلَ القدوةِ ، وهوَ لا ينالُ فضْلَ الإمامةِ .

وليؤخِّرِ المقتدي تكبيرَهُ عنْ تكبيرِ الإمامِ ، فيبتدئُ بعدَ فراغِهِ .

* * *

وأَمَّا وظائفُ القراءةِ . . فثلاثةٌ :

أَوَّلُها : أَنْ يُسِرَّ بدعاءِ الاستفتاحِ والتعوُّذِ كالمنفردِ ، ويجهرَ بالفاتحةِ والسورةِ بعدَها في جميعِ الصبْحِ وأوليي العشاءِ والمغربِ ، وكذا المنفردُ .

ويجهرَ بقولِهِ : (آمينَ) في الصلاةِ الجهريةِ ، وكذا المأمومُ ، ويقرنَ

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥) ، **والمعتصر** : هو الذي غلب عليه البول أو الغائط . « إتحاف » (٣/ ١٨١) .

(٢) كما في « مسلم » (٥٦٠) بلفظ : « لا صلاة بحضرة الطعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » .

(٣) رواه البخاري (٥٤٦٥) ، ومسلم (٥٥٧) .

المأمومُ تأمينَهُ بتأمينِ الإمامِ معاً لا تعقيباً ، ويجهرَ بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، والأخبارُ فيهِ متعارضةٌ[1] ، واختيارُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ الجهرُ[2] .

❊ ❊ ❊

الثانيةُ : أنْ يكونَ للإمامِ فِي القيامِ ثلاثُ سكَتاتٍ ، هـٰكذا رواهُ سَمرَةُ بنُ جندُبٍ وعِمْرانُ بنُ حصينٍ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3] :

أولاهُنَّ : إذا كبَّرَ ، وهي الطُّولَىٰ منهنَّ ، مقدارُ ما يقرأُ مَنْ خلفَهُ فاتحةَ الكتابِ ، وذلكَ وقتَ قراءتِهِ لدعاءِ الاستفتاحِ ، فإنَّهُ إنْ لمْ يسكتْ . . يفوتُهُمُ الاستماعُ ، فيكونُ عليهِ ما نقصَ مِنْ صلاتِهِمْ ، فإنْ لمْ يقرؤوا الفاتحةَ في سكوتِهِ واشتغلوا بغيرِها . . فذلكَ عليهِمْ لا عليهِ .

والسكتةُ الثانيةُ : إذا فرغَ منَ الفاتحةِ ليتمَّ مَنْ يقرأُ الفاتحةَ في السكتةِ

---

(١) وقد جمعها بإنصافٍ مقدِّماً أحاديثَ الجهر مراعاةً لمذهب الإمام الغزالي الإمامُ الحافظُ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ١٨٣) وتحدث عنها فيه بإسهاب .

(٢) فقد نصَّ على الجهر بـ (آمين) و﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في « الأم » (٢/ ٢٤٩) ، (٨/ ٣٣٠) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٨٥٤) عن الحسن مرسلاً قال : (كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث سكتات ؛ سكتة إذا افتتح التكبير حتىٰ يقرأ الحمد ، وإذا فرغ من الحمد حتىٰ يقرأ السورة ، وإذا فرغ من السورة حتىٰ يركع) . والذي عليه المعول ـ وهو من رواية سمرة وعمران رضي الله عنهما ـ أنهما سكتتان ، وقد أنكر عمران إحداهما ، فكتبا إلىٰ أبي بن كعب : فكتب : أن سمرة قد حفظ ، روىٰ ذلك أبو داوود (٧٨٠) ، والترمذي (٢٥١) ، وابن ماجه (٨٤٤) .

الأولىٰ فاتحتَهُ ، وهيَ كنصفِ السكتةِ الأولىٰ .

والسكتةُ الثالثةُ : إذا فرغَ مِنَ السورةِ قبلَ أنْ يركعَ ، وهيَ أخفُّها ، وذلكَ بقدْرِ ما تنفصلُ القراءةُ عنِ التكبيرِ ، فقدْ نُهِيَ عنِ الوصلِ فيهِ .

ولا يقرأُ المأمومُ وراءَ الإمامِ إلا الفاتحةَ ، فإنْ لمْ يسكتِ الإمامُ . . قرأَ الفاتحةَ معهُ ، والمقصِّرُ هوَ الإمامُ ، وإنْ لمْ يسمعِ المأمومُ في الجهريةِ لبعدِهِ ، أوْ كانَ في السريَّةِ . . فلا بأسَ بقراءتِهِ للسورةِ .

* * *

الثالثةُ : أنْ يقرأَ في الصبحِ سورتينِ مِنَ المثاني ما دونَ المئةِ ، فإنَّ الإطالةَ في قراءةِ الفجرِ والتغليسَ بها سنَّةٌ ، ولا يضرُّهُ الخروجُ منها معَ الإسفارِ ، ولا بأسَ أنْ يقرأَ في الثانيةِ بأواخرِ السورِ ؛ نحوُ الثلاثينَ أوِ العشرينَ إلىٰ أنْ يختمَها ؛ لأنَّ ذلكَ لا يتكرَّرُ على الأسماعِ كثيراً ، فيكونُ أبلغَ في الوعظِ ، وأدعىٰ إلى التفكُّرِ ، وإنَّما كرِهَ بعضُ العلماءِ قراءةَ بعضِ أوَّلِ السورةِ وقطعَها ، وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ بعضَ سورةِ يونسَ ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ ذكرِ موسىٰ وفرعونَ . . قطعَ فركعَ(١) .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ في الفجرِ آيةً مِنَ البقرةِ وهيَ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٠٩) ، وفي « مسلم » (٤٥٥) عن عبد الله بن السائب قال : (صلىٰ لنا النبي صلى الله عليه وسلم الصبح بمكة ، فاستفتح سورة المؤمنين ، حتىٰ جاء ذكر موسىٰ وهارون ، أو ذكر عيسىٰ . . أخذت النبيَّ صلى الله عليه وسلم سعلة فركع) .

قولُهُ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، وفي الثانيةِ : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ ﴾[١] .

وسمعَ بلالاً يقرأُ مِن هٰهنا وهٰهنا ، فسألَهُ عنْ ذلكَ فقالَ : أخلطُ الطيِّبَ بالطيِّبِ ، فقالَ : « أحسنتَ »[٢] .

ويقرأُ في الظهرِ بطوالِ المفصَّلِ إلىٰ ثلاثينَ آيةً ، وفي العصرِ بنصْفِ ذلكَ ، وفي المغربِ بأواخرِ المفصَّلِ .

وآخرُ صلاةٍ صلاَّها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المغربُ ، قرأَ فيها بسورةِ (والمرسلات) ما صلَّىٰ بعدَها حتَّىٰ قُبِضَ[٣] .

وبالجملةِ : التخفيفُ أولىٰ ، لا سيما إذا كثرَ الجمعُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذهِ الرخصةِ : « إذا صلَّىٰ أحدُكُمْ بالناسِ . . فليخففْ ؛ فإنَّ فيهمُ الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجةِ ، وإذا صلَّىٰ لنفسِهِ . . فليطولْ ما شاءَ »[٤] .

وقدْ كانَ معاذُ بنُ جبلٍ يصلِّي بقومٍ العشاءَ ، فقرأَ البقرةَ ، فخرجَ رجلٌ مِنَ الصلاةِ وأتمَّ لنفسِهِ ، فقالوا : نافقَ الرجلُ ، فتشاكيا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فزجرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معاذاً وقالَ :

---

(١) رواه مسلم (٧٢٧) .
(٢) رواه أبو داوود (١٣٣٠) بنحوه .
(٣) رواه البخاري (٧٦٣) ، ومسلم (٤٦٢) .
(٤) رواه البخاري (٩٠ ، ٧٠٣) ، ومسلم (٤٦٧) .

« أفتَّانٌ أنتَ يا معاذُ ؟! اقرأ سورةَ (سبِّحْ) ، (والسماءِ والطارقِ) ، (والشمسِ وضحاها) »[1] .

* * *

وأمَّا وظائفُ الأركانِ . . فثلاثةٌ :

أوَّلُها : أنْ يخفِّفَ الركوعَ والسجودَ ، فلا يزيدُ في التسبيحاتِ علىٰ ثلاثٍ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أنسٍ أنَّهُ قالَ : (ما رأيتُ أخفَّ صلاةً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في تمامٍ)[2] .

نعمْ ، رُوِيَ أيضاً أنَّ أنسَ بنَ مالكٍ لمَّا صلَّىٰ خلفَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وكانَ أميراً بالمدينةِ . . قالَ : (ما صليتُ وراءَ أحدٍ أشبهَ صلاةً بصلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ هـٰذا الشابِّ ، قالَ : وكنَّا نسبِّحُ وراءَهُ عشراً عشراً)[3] ، ورُوِيَ مجملاً أنَّهُمْ قالوا : (كنَّا نسبِّحُ وراءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الركوعِ والسجودِ عشراً عشراً)[4] ، وذلكَ حسنٌ ، ولكنَّ الثلاثَ إذا كثرَ الجمعُ أحسنُ ، فأمَّا إذا لم يحضرْ إلا المتجرِّدونَ للدينِ . . فلا بأسَ بالعشرِ .

---

(١) رواه البخاري (٧٠٥) ، ومسلم (٤٦٥) ، وليس فيهما ذكر (والسماء والطارق) ، وهي عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١١٢) .
(٢) رواه البخاري (٧٠٨) ، ومسلم (٤٦٩) .
(٣) رواه أبو داوود (٨٨٨) ، والنسائي (٢/ ٢٢٤) .
(٤) كذا قال أبو طالب في « القوت » (٢/ ٢١٠) ، وهو مستفاد أيضاً من الحديث الذي سبق .

هٰذا وجهُ الجمْعِ بينَ الرواياتِ .

وينبغي أنْ يقولَ الإمامُ عندَ رفْعِ رأسِهِ مِنَ الركوعِ : (سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهُ) .

* * *

الثانيةُ : ينبغي للمأمومِ ألا يسابقَ الإمامَ في الركوعِ والسجودِ ، بلْ يتأخَّرُ فلا يهوي للسجودِ إلا إذا وصلتْ جبهةُ الإمامِ إلى المسجدِ ، هٰكذا كانَ اقتداءُ الصحابةِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، ولا يهوي للركوعِ حتَّىٰ يستويَ الإمامُ راكعاً .

وقدْ قيلَ : إنَّ الناسَ يخرجونَ مِنَ الصلاةِ علىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : طائفةٌ بخمسٍ وعشرينَ صلاةً ؛ وهُم الذينَ يكبِّرونَ ويركعونَ بعدَ ركوعِ الإمامِ ، وطائفةٌ بصلاةٍ واحدةٍ ؛ وهُم الذينَ يساوقونَهُ[2] ، وطائفةٌ بلا صلاةٍ ؛ وهمُ الذينَ يسابقونَ الإمامَ[3] .

وقدِ اختلفَ في أنَّ الإمامَ في الركوعِ : هلْ ينتظرُ لحوقَ مَنْ دخلَ لينالَ بهِ فضلَ جماعتِهِمْ وإدراكَهُ لتلكَ الركعةِ ؟

---

(١) رواه البخاري (٨١١) ، ومسلم (٤٧٤) ، ولفظه : (فإذا رفع من الركوع . . لم أرَ أحداً يحني ظهره حتىٰ يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم جبهته على الأرض ، ثم يخرُّ من وراءه سُجَّداً) .

(٢) أي : يكبرون ويركعون ويسجدون معه ، كما هو في « القوت » (٢/ ٢٠٩) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٩) .

ولعلَّ الأولىٰ أَنَّ ذلكَ مع الإخلاصِ لا بأسَ بهِ[1] ، إذا لمْ يظهرْ تفاوتٌ ظاهرٌ للحاضرينَ ، فإِنَّ حقَّهُمْ مَرعيٌّ في ترْكِ التطويلِ عليهِمْ .

* * *

الثالثةُ : لا يزيدُ في دعاءِ التشهُّدِ علىٰ مقدارِ التشهُّدِ ؛ حذراً مِنَ التطويلِ ، ولا يخصُّ في الدعاءِ نفسَهُ ، بلْ يأتي بصيغةِ الجمعِ فيقولُ : (اللهمَّ ؛ اغفرْ لنا) ، ولا يقولُ : (اغفِر لي) ، فقدْ كُرِهَ للإمامِ أنْ يخصَّ نفسَهُ[2] .

ولا بأسَ أنْ يستعيذَ في تشهدِهِ بالكلماتِ الخمسِ المأثورةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولَ : « نعوذُ بكَ مِنْ عذابِ جهنَّمَ ، وعذابِ القبرِ ، ونعوذُ بكَ مِن فِتنةِ المحيا والمماتِ ، ومنْ فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً . . فاقبضْنا إليكَ غيرَ مفتونينَ »[3] ، وقيل : سُمِّيَ مسيحاً لأنَّهُ يمسحُ الأرضَ بطولِها ، وقيلَ : لأنَّهُ ممسوحُ العينِ ؛ أي : مطموسُها .

* * *

(١) والمراد بالإخلاص : ألا يفعل ذلك تقرباً لوجيهٍ مثلاً ، بل يخلص النية في فعله لينال المقتدي به أجر الجماعة وأجر الركعة المدركة .
(٢) قال الإمام الشافعي في « الأم » (٢/ ٣٠٥) : (وروي من وجه عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يصلي الإمام بقوم فيخصَّ نفسه بدعوة دونهم ») .
(٣) رواه مسلم (٥٨٨) ، وزيادة : « وإذا أردت . . . » هي عند الترمذي (٣٢٣٣) .

وأمّا وظائفُ التحلُّلِ . . فثلاثةٌ :

أُولاها : أنْ ينويَ بالتسليمتينِ السلامَ على القومِ والملائكةِ .

الثانيةُ : أن يَثِبَ عَقِيبَ السلامِ ، كذلكَ فعلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما[١] ، فيصلِّي النافلةَ في موضعٍ آخرَ[٢] ، فإنْ كانَ خلفَهُ نسوةٌ . . لمْ يقمْ حتَّىٰ ينصرفْنَ[٣] .

وفي الخبرِ المشهورِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يكنْ يقعدُ إلا قدْرَ قولِهِ : « اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ، ومنكَ السلامُ ، تباركْتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ »[٤] .

الثالثةُ : إذا وثبَ . . فينبغي أنْ يقبلَ بوجهِهِ على الناسِ .

ويكرَهُ للمأمومِ القيامُ قبلَ انفتالِ الإمامِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ طلحةَ والزبيرِ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُما صلَّيا خلفَ إمامٍ ، فلمَّا سلَّما . . قالا للإمامِ : ما أحسنَ

---

(١) ففي « البخاري » (٨٤٩) عن أم سلمة قالت : (كان إذا سلم يمكث في مكانه يسيراً) ، وحديث مكث الشيخين يسيراً عند أبي داوود (١٠٠٧) ، وقد اعتمد الحافظ العراقي في « تخريجه » علىٰ رواية (يثبت) ، وشاهدها عند المصنف قول الراوي : (يسيراً) وسيفسر هـٰذا اليسير فيما سيأتي .

(٢) كما في « البخاري » (٨٤٨) .

(٣) كما في « البخاري » (٨٥٠) .

(٤) رواه مسلم (٥٩١) ، وقوله : (المشهور) المراد به المعنى اللغوي ، لا مصطلح أهل الحديث . « إتحاف » (٣/ ٢٠٩) .

صلاتَكَ وأتمَّها إلا شيئاً واحداً ؛ أنَّكَ لمَّا سلَّمتَ . . لمْ تنفتلْ بوجهِك ، ثمَّ قالا للناسِ : ما أحسنَ صلاتَكُمْ إلا أنَّكُمُ انصرفتُمْ قبلَ أنْ ينفتلَ إمامُكُمْ[1] .

ثمَّ ينصرفُ الإمامُ حيثُ شاءَ مِنْ يمينِهِ أوْ شمالِهِ ، واليمينُ أحبُّ . هـٰذهِ وظيفةُ الصلواتِ .

وأمَّا الصبحُ : فيزيدُ فيها القنوتَ ، فيقولُ الإمامُ : (اللهمَّ ؛ اهدنا) ، ولا يقولُ : (اللهمَّ ؛ اهدني) ، ويؤمِّنُ المأمومُ ، فإذا انتهىٰ إلىٰ قولِهِ : (إنَّكَ تقضي ولا يُقضىٰ عليكَ) . . فلا يليقُ بهِ التأمينُ ؛ لأنَّهُ ثناءٌ ، فيقرأُ معهُ فيقولُ مثلَ قولِهِ ، أوْ يقولُ : (بلىٰ وأنا علىٰ ذلكَ مِنَ الشاهدينَ) ، أوْ (صدقتَ وبرَرتَ) وما أشبهَ ذلكَ .

وقدْ رُوِيَ حديثٌ في رفعِ اليدينِ في القنوتِ ، فإذا صحَّ الحديثُ . . استحبَّ ذلكَ[2] ، وإنْ كانَ علىٰ خلافِ الدعواتِ في آخرِ التشهُّدِ ، إذْ لا يرفعُ بسببِها اليدَ ، بلْ التعويلُ على التوقيفِ ، وبينَهُما أيضاً فرْقٌ ؛ وذلكَ أَنَّ للأيدي وظيفةً في التشهدِ ، وهوَ الوضْعُ على الفخذينِ علىٰ هيئةٍ مخصوصةٍ ، ولا وظيفةَ لهما هـٰهنا ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ رفعُ اليدينِ هوَ الوظيفةَ في القنوتِ ؛ فإنَّهُ لائقٌ بالدعاءِ ، واللهُ أعلمُ .

فهـٰذهِ جملُ آدابِ القدوةِ والإمامةِ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٣) .
(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢١١) .

البَابُ الخَامِسُ
في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

اعلمْ : أنَّ هٰذا يومٌ عظيمٌ ، عظَّمَ اللهُ بهِ الإسلامَ ، وخصَّصَ بهِ المسلمينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ ﴾ ، فحرَّمَ الاشتغالَ بأمورِ الدنيا ، وبكلِّ صارفٍ عن السعيِ إلى الجمعةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ فرضَ عليكُمُ الجمعةَ في يومي هٰذا ، في مقامي هٰذا »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ الجمعةَ ثلاثاً مِنْ غيرِ عذرٍ . . طبعَ اللهُ علىٰ قلبِهِ »(٢) ، وفي لفظٍ آخرَ : « . . فقدْ نبذَ الإسلامَ وراءَ ظهرِهِ »(٣) .

---

(١) رواه ابن ماجه (١٠٨١) .
(٢) رواه أبو داوود (١٠٥٢) ، والترمذي (٥٠٠) ، والنسائي (٣/ ٨٨) ، وابن ماجه (١١٢٥) .
(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ١٦٦) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧١٢) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

واختلفَ رجلٌ إلى ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يسألُهُ عنْ رجلٍ ماتَ لمْ يكنْ يشهدُ جمعةً ولا جماعةً ، فقالَ : (في النارِ) ، فلمْ يزلْ يترددُ إليهِ شهراً يسألُهُ عنْ ذلكَ وهوَ يقولُ : (في النارِ)(١) .

وفي الخبرِ : « إن أهلَ الكتابينِ أُعطوا يومَ الجمعةِ ، فاختلفوا فيهِ ، فصُرِفوا عنهُ وهدانا اللهُ تعالىٰ لهُ ، وأخَّرَهُ لهـٰذهِ الأمةِ ، وجعلَهُ عيداً لهُمْ ، فهُمْ أوَّلُ الناسِ بهِ سبقاً وأهلُ الكتابينِ لهُمْ تبعٌ »(٢) .

وفي حديثِ أنسٍ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أتاني جبريلُ عليهِ السلامُ في كفِّهِ مرآةٌ بيضاءُ ، وقالَ : هـٰذهِ الجمعةُ يعرِضُها عليكَ ربُّكَ ؛ لتكونَ لكَ عِيداً ولأمَّتِكَ مِنْ بعدِكَ ، قلتُ : فما لنا فيها ؟ قالَ : لكمْ فيها خيرُ ساعةٍ ، مَنْ دعا فيها بخيرٍ هوَ لهُ قِسْمٌ . . أعطاهُ اللهُ سبحانَهُ إيَّاهُ ، أوْ ليسَ لهُ قِسْمٌ . . ذُخِرَ لهُ ما هوَ أعظمُ منهُ ، أوْ تعوَّذَ مِنْ شرٍ هوَ مكتوبٌ عليهِ . . إلا أعاذَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ أعظمَ منهُ ، وهوَ سيِّدُ الأيامِ عندَنا ، ونحنُ ندعوهُ في الآخرةِ يومَ المزيدِ ، قلتُ : ولِمَ ؟ قالَ : إنَّ ربَّكَ عزَّ وجلَّ اتَّخذَ في الجنةِ وادياً أفيحَ مِنْ مسكٍ أبيضَ ، فإذا كانَ يومُ الجمعةِ . . نزلَ تعالىٰ مِنْ علِّيِّينَ علىٰ كرسيِّهِ ، فيتجلَّىٰ لهُمْ حتَّىٰ ينظروا إلىٰ وجهِهِ الكريمِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ يومٍ طلعتْ عليهِ الشمسُ يومُ

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٧٥) .
(٢) رواه البخاري (٨٧٦) ، ومسلم (٨٥٥) .
(٣) رواه الشافعي في « مسنده » (١/ ٥٣٦) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١٠٥) .

الجمعةِ ؛ فيهِ خُلِقَ آدمُ عليهِ السلامُ ، وفيهِ أُدخلَ الجنَّةَ ، وفيهِ أُهبطَ إلى الأرضِ ، وفيهِ تِيبَ عليهِ ، وفيهِ ماتَ ، وفيهِ تقومُ الساعةُ ، وهوَ عندَ اللهِ يومُ المزيدِ ، كذلكَ تسمِّيهِ الملائكةُ في السماءِ ، وهوَ يومُ النظرِ إلى اللهِ تعالىٰ في الجنَّةِ »(١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ جمعةٍ ستَّ مئةِ ألفِ عتيقٍ مِنَ النارِ »(٢) .

وفي حديثِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا سلمَتِ الجمعةُ . . سلمتِ الأيامُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الجحيمَ تسعرُ في كلِّ يومٍ قبلَ الزوالِ عندَ استواءِ الشمسِ في كبدِ السماءِ ، فلا تصلُّوا في هٰذهِ الساعةِ إلا يومَ الجمعةِ ؛ فإنَّهُ صلاةٌ كلُّهُ ، وإنَّ جهنَّمَ لا تسعرُ فيهِ »(٤) .

وقالَ كعبٌ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ فضَّلَ مِنَ البلدانِ مكَّةَ ، ومِنَ الشهورِ رمضانَ ، ومِنَ الأيامِ الجمعةَ ، ومِنَ الليالي ليلةَ القدرِ)(٥) .

---

(١) رواه مسلم (٨٥٤) ، والنسائي (٣/ ١١٤) .
(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٣٤) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٤٣٤) .
(٤) رواه أبو داوود (١٠٨٣) بلفظ : « تسجر » ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٨) بلفظ المصنف .
(٥) قوت القلوب (١/ ٦٤) .

ويقالُ : (إنَّ الطيرَ والهوامَّ يلقىٰ بعضُها بعضاً يومَ الجمعةِ ، فتقولُ : سلامٌ سلامٌ ، يومٌ صالحٌ)[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ يومَ الجمعةِ ، أوْ ليلةَ الجمعةِ . . كتبَ اللهُ لهُ أجرَ شهيدٍ ، ووُقِيَ فتنةَ القبرِ »[2] .

* * *

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٣٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٥) من كلام مطرف بن عبد الله الشخير ، ضمن خبر لطيف .

(٢) رواه الترمذي (١٠٧٤) بغير قوله : « أجر شهيد » ، وهو بهٰذه الزيادة في « الحلية » (٣/ ١٥٥) .

بيان شروط الجمعة

اعلمْ : أَنَّها تشاركُ جميعَ الصلواتِ في الشروطِ ، وتتميَّزُ عنها بستةِ شروطٍ :

الأوَّلُ : الوقتُ ، فلوْ وقعتْ تسليمةُ الإمامِ في وقتِ العصرِ.. فاتتِ الجمعةُ ، وعليهِ أنْ يتمَّها ظهراً ، والمسبوقُ إذا وقعتْ ركعتُهُ الأخيرةُ خارجاً مِنَ الوقتِ.. ففيهِ خلافٌ[1] .

الثاني : المكانُ ، فلا تصحُّ في الصحارىٰ والبوادي وبينَ الخيامِ ، بلْ لا بدَّ مِنْ بقعةٍ جامعةٍ لأبنيةٍ لا تنقلُ ، تجمعُ أربعينَ ممَّنْ تلزمُهُمُ الجمعةُ ، والقريةُ فيهِ كالبلدِ ، ولا يُشترطُ حضورُ السلطانِ ولا إذنُهُ ، ولكنَّ الأحبَّ استئذانُهُ .

الثالثُ : العددُ ، فلا تنعقدُ بأَقلَّ مِنْ أربعينَ ذكوراً ، مكلَّفينَ ، أحراراً ، مقيمينَ لا يظعنونَ شتاءً ولا صيفاً ، فإنِ انفضُّوا حتَّىٰ نقصَ العددُ إمَّا في الخطبةِ أو في الصلاةِ.. لمْ تصحَّ الجمعةُ ، بلْ لا بدَّ منهُمْ مِنَ الأوَّلِ إلى الآخرِ .

---

(١) قال المصنف في « الوسيط » (٢/ ٢٦٣) : (فيه وجهان : **أحدهما** : أنها تصح ؛ لأنه تابع للقوم وقد صحت صلاتهم ، ولذلك حُطَّ شرط القدوة في الركعة الثانية عنه ، **والثاني** : أن الجمعة فائتة ؛ لأن الاعتناء بالوقت أعظم) . وسياق المصنف هنا يكاد يطابق ما في « الخلاصة » (ص١٣٧ـ١٤٢) .

الرابعُ : الجماعةُ ، فلوْ صلَّىٰ أربعونَ في قريةٍ أوْ بلدٍ متفرقينَ . . لمْ تصحَّ جُمعتُهُمْ ، ولكنَّ المسبوقَ إذا أدركَ الركعةَ الثانيةَ . . جازَ لهُ الانفرادُ بالركعةِ الثانيةِ ، وإنْ لمْ يدركْ ركوعَ الركعةِ الثانيةِ . . اقتدىٰ ونوى الظهرَ ، وإذا سلَّمَ الإمامُ . . تمَّمَها ظهراً .

الخامسُ : ألا تكونَ الجمعةُ مسبوقةً بأخرىٰ في ذلكَ البلدِ ، فإنْ تعذَّرَ اجتماعُهُمْ في جامعٍ واحدٍ . . جازَ في جامعينِ وثلاثةٍ وأربعةٍ بقدْرِ الحاجةِ ، وإنْ لمْ تكنْ حاجةٌ . . فالصحيحُ : الجمعةُ التي يقعُ بها التحريمُ أوَّلاً ، وإذا تحققتِ الحاجةُ . . فالأفضلُ الصلاةُ خلفَ الأفضلِ مِنَ الإمامينِ ، فإنْ تساويا . . ففي المسجدِ الأقدمِ ، فإنْ تساويا . . ففي الأقربِ(١) ، ولكثرةِ الناسِ أيضاً فضلٌ يراعىٰ .

السادسُ : الخطبتانِ ، فهما فريضتانِ ، والقيامُ فيهما فريضةٌ ، والجلسةُ بينَهُما فريضةٌ .

وفي الأولىٰ أربعُ فرائضَ : التحميدُ ؛ وأقلُّهُ : (الحمدُ للهِ) ، والثانيةُ : الصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) ، والثالثةُ : الوصيةُ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، والرابعةُ : قراءةُ آيةٍ مِنَ القرآنِ ، وكذا فرائضُ الثانيةِ أربعةٌ ، إلا

---

(١) أي : من دار المصلي ، والسياق عند صاحب « القوت » (١/ ٦٣) بنحوه . « إتحاف » (٣/ ٢٢٥) .

(٢) وأقلُّهُ : (اللهم ؛ صل علىٰ محمد وآله) ، وأقلُّ الوصية بالتقوىٰ : (أوصيكم بتقوى الله) . « الخلاصة » (ص١٤٠) .

أَنَّهُ يجبُ فيها الدعاءُ بدلَ القراءةِ ، واستماعُ الخطبةِ واجبٌ مِنَ الأربعينَ .

* * *

وأمَّا السننُ :

فإذا زالتِ الشمسُ وأَذَّنَ المؤذِّنُ وجلسَ الإمامُ على المنبرِ . . انقطعتِ الصلاةُ سوى التحيَّةِ[1] ، والكلامُ لا ينقطعُ إلا بافتتاحِ الخطبةِ .

ويسلِّمُ الخطيبُ على الناسِ إذا أقبلَ عليهِمْ بوجهِهِ ويردُّونَ عليهِ السلامَ ، فإذا فرغَ المؤذِّنُ . . قامَ مقبلاً على الناسِ بوجهِهِ لا يلتفتُ يميناً ولا شمالاً ، ويشغلُ يديهِ بقائمِ السيفِ أو العَنَزةِ والمنبرِ[2] ، كي لا يعبثَ بهِما ، أوْ يضعُ إحداهُما على الأخرىٰ ، ويخطبُ خطبتينِ بينَهُما جلسةٌ خفيفةٌ ، ولا يستعملُ غريبَ اللغةِ ، ولا يمطِّطُ ، ولا يتغنَّىٰ ، وتكونُ الخطبةُ قصيرةً بليغةً جامعةً ، ويستحبُّ أنْ يقرأَ آيةً في الثانيةِ أيضاً .

ولا يسلِّمُ مَنْ دخلَ والخطيبُ يخطبُ ، فإنْ سلَّمَ . . لمْ يستحقَّ جواباً ، والإشارةُ بالجوابِ حسنٌ ، ولا يشمِّتُ العاطسَ أيضاً .

هٰذهِ شروطُ الصحَّةِ .

* * *

---

(١) وهي صلاة تحية المسجد ، تستحب للداخل مع التخفيف . انظر « الإتحاف » (٣/٢٢٩) .

(٢) أي : اليمنىٰ بالمنبر ، واليسرىٰ بقائمة السيف . « إتحاف » (٣/٢٢٩) ، والعَنَزَة : عصاً أقصر من الرمح .

فأمَّا شروطُ الوجوبِ :

فلا تجبُ الجمعةُ إلاَّ علىٰ كلِّ ذكرٍ ، بالغٍ ، عاقلٍ ، مسلمٍ ، حرٍّ ، مقيمٍ في قريةٍ أوْ بلدةٍ تشتملُ علىٰ أربعينَ جامعينَ لهـٰذهِ الصفاتِ ، أوْ في قريةٍ مِنْ سوادِ البلدِ يبلغُها نداءُ البلدِ مِنْ طرفٍ يليها والأصواتُ ساكنةٌ والمؤذِّنُ رفيعُ الصوتِ ، لقولهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ .

ويرخَّصُ لهؤلاءِ في تركِ الجمعةِ لعذرِ المطرِ والوحلِ ، والفزعِ ، والمرضِ ، والتمريضِ إذا لمْ يكنْ للمريضِ قيِّمٌ غيرُهُ .

ثمَّ يستحبُّ لهُمْ ـ أعني : أصحابَ الأعذارِ ـ تأخيرُ الظهرِ إلىٰ أنْ يفرغَ الناسُ مِنَ الجمعةِ ، وإنْ حضرَ الجمعةَ مريضٌ أوْ مسافرٌ أوْ عبدٌ أوِ امرأةٌ . . صحَّتْ جُمعتُهُمْ وأجزأتْ عَنِ الظهرِ ، واللهُ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة
وهي عشر جمل

الأُولىٰ : أنْ يستعدَّ لها يومَ الخميسِ عزماً عليها واستقبالاً لفضْلِها ؛ فيشتغلُ بالدعاءِ والاستغفارِ والتسبيحِ بعدَ العصرِ يومَ الخميسِ ؛ لأنَّها ساعةٌ قوبلتْ بالساعةِ المبهمةِ في يومِ الجمعةِ .

قالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ فضلاً سوىٰ أرزاقِ العبادِ ، لا يُعطي مِنْ ذلكَ الفضلِ إلا منْ سألَهُ عشيَّةَ الخميسِ ويومَ الجمعةِ)[1] .

ويغسلُ في هـٰذا اليومِ ثيابَهُ ويبيِّضُها ، ويُعِدُّ الطيبَ إنْ لمْ يكنْ عندَهُ ، ويفرغُ قلبَهُ مِنَ الأشغالِ التي تمنعُهُ مِنَ البكورِ إلى الجمعةِ .

وينوي في هـٰذهِ الليلةِ صومَ يومِ الجمعةِ ؛ فإنَّ لهُ فضلاً ، ولكنْ مضموماً إلىٰ يومِ الخميسِ أوِ السبتِ لا مفرداً ؛ فإنَّهُ مكروهٌ .

ويشتغلُ بإحياءِ هـٰذهِ الليلةِ بالصلاةِ وختمِ القرآنِ ، فلها فضْلٌ كثيرٌ ، وينسحبُ عليها فضْلُ يومِ الجمعةِ .

ويجامعُ أهلَهُ في هـٰذهِ الليلةِ أوْ في يومِ الجمعةِ ؛ فقدِ استحبَّ ذلكَ قومٌ ، وحملوا عليهِ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ مَنْ بَكَّرَ وابتكرَ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦٦) .

وغَسَّلَ واغتسلَ »[1] ، وهوَ حملُ الأهلِ على الغُسلِ ، وقيلَ : معناهُ : غسلُ ثيابِهِ ، فرُوِيَ بالتخفيفِ ، و(اغتسلَ) لجسدِهِ[2] .

وبهٰذا تتمُّ آدابُ الاستقبالِ ، ويخرجُ مِنْ زمرةِ الغافلينَ الذينَ إذا أصبحوا . . قالوا : ما هٰذا اليومُ ؟ قالَ بعضُ السلفِ : (أوفى الناسِ نصيباً مِنَ الجمعةِ مَنِ انتظرَهَا وراعاها مِنَ الأمسِ ، وأخسُّهُمْ نصيباً مَنْ إذا أصبحَ . . يقولُ : أيشٍ اليومُ ؟)[3] .

وكانَ بعضُهُمْ يبيتُ ليلةَ الجمعةِ في الجامعِ لأجلِها[4] .

* * *

الثانية : إذا أصبحَ . . ابتدأَ بالغسلِ بعدَ طلوعِ الفجرِ ، وإنْ كانَ لا يبكِّرُ . . فأقربُهُ إلى الرواحِ أحبُّ[5] ، ليكونَ أقربَ عهداً بالنظافةِ ، فالغُسلُ مستحبٌّ استحباباً مؤكَّداً ، وذهبَ بعضُ العلماءِ إلىٰ وجوبِهِ ، قالَ

---

(١) رواه أبو داوود (٣٤٥) ، والترمذي (٤٩٦) ، والنسائي (٣/ ٩٥) ، وابن ماجه (١٠٨٧) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ٦٥) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٧٠) ، **وأيشٍ** : أصله : (أي شيء) ، ثم اختصر واستعمل هٰكذا في الاستفهام ، وهو شائع في اللسان العربي ، لكنه بالتنوين ، والعامة يستعملونه بلا تنوين . « إتحاف » (٣/ ٢٤٢) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٧٠) ، وزاد : (ومنهم من كان يبيت ليلة السبت في الجامع لمزيد الجمعة) .

(٥) **الرواح** : اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل ، قال الزبيدي : (خروجاً من خلاف مالك) . « إتحاف » (٣/ ٢٤٢) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غسلُ الجمعةِ واجبٌ علىٰ كلِّ محتلمٍ »(١) .

والمشهورُ مِنْ حديثِ نافعٍ ، عن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « مَنْ أتى الجمعةَ . . فليغتسلْ »(٢) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شهدَ الجمعةَ مِنَ الرجالِ والنساءِ . . فليغتسلْ »(٣) .

وكانَ أهلُ المدينةِ إذا تسابَّ المتسابانِ . . يقولُ أحدُهُما للآخرِ : (لأنتَ أشرُّ ممَّنْ لا يغتسلُ يومَ الجمعةِ)(٤) .

وقالَ عمرُ لعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُما لمَّا دخلَ وهوَ يخطبُ : أهٰذهِ الساعةَ ؟! ـ منكراً عليهِ تركَ البكورِ ـ فقالَ : ما زدتُ بعدَ أنْ سمعتُ الأذانَ علىٰ أنْ توضَّأتُ وخرجتُ ، فقالَ : والوضوءَ أيضاً وقدْ علمتَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يأمرُ بالغُسلِ ؟!(٥) .

وقدْ عُرِفَ جوازُ تركِ الغسلِ بوضوءِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وبما رُوِيَ أنَّهُ

---

(١) رواه البخاري (٨٥٨) ، ومسلم (٨٤٦) .

(٢) رواه البخاري (٨٧٧) ، ومسلم (٨٤٤) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٢٢٦) .

(٤) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/٢٩٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٠٣٩) عن أبي البَخْتَري رحمه الله ، وقد أورد المصنف هٰذا الكلام في خلال الأحاديث مؤكداً لأمره في الإيجاب ، ولولا أنه بهٰذه المثلبة . . ما كانوا يتعايرون علىٰ تركه . « إتحاف » (٣/ ٢٤٤) .

(٥) رواه البخاري (٨٧٨) ، ومسلم (٨٤٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ توضَّأَ يومَ الجمعةِ . . فبِهَا ونعمَتْ ، ومَنِ اغتسلَ . . فالغسلُ أفضلُ »[١] .

ومَنِ اغتسلَ للجنابةِ . . فليفضِ الماءَ علىٰ بدنِهِ مرَّةً أُخرىٰ علىٰ نيَّةِ غُسلِ الجمعةِ ، فإنِ اكتفىٰ بغسلٍ واحدٍ . . أجزأَهُ ، وحصلَ لهُ الفضلُ إذا نوىٰ كليهِما ، ودخلَ غُسلُ الجمعةِ في غُسلِ الجنابةِ .

وقدْ دخلَ بعضُ الصحابةِ علىٰ ولدِهِ وقدِ اغتسلَ ، فقالَ لهُ : أللجمعةِ ؟ فقالَ : بل مِنْ جنابةٍ ، فقالَ : أعدْ غُسلاً ثانياً ، وروى الحديثَ في غُسلِ الجمعةِ علىٰ كلِّ محتلمٍ ، وإنَّما أمرهُ بهِ لأنَّهُ لمْ يكنْ نواهُ[٢] .

وكانَ لا يبعدُ أنْ يقالَ : المقصودُ النظافةُ ، وقدْ حصلتْ دونَ النيَّةِ ، ولكنْ هٰذا ينقدحُ في الوضوءِ أيضاً ، وقدْ جُعِلَ في الشرعِ قربةً ، فلا بدَّ مِنْ طلبِ فضْلِها .

ومَنِ اغتسلَ ثمَّ أحدثَ . . توضَّأَ ولمْ يبطلْ غُسلُهُ ، والأحبُّ أنْ يحترزَ عنْ ذلكَ .

* * *

الثالثةُ : الزينةُ ، وهيَ مستحبَّةٌ في هٰذا اليومِ ، وهيَ في ثلاثةٍ : الكِسوةِ ، والنظافةِ ، وتطييبِ الرائحةِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٥٤)، والترمذي (٤٩٧)، والنسائي (٣/ ٩٤)، وابن ماجه (١٠٩١).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٠٩٧) ، والصحابي هو أبو قتادة رضي الله عنه .

أمَّا النظافةُ . . فبالسواكِ ، وحلْقِ الشعرِ ، وقلْمِ الظفرِ ، وقصِّ الشاربِ ، وسائرِ ما سبقَ في كتابِ الطهارةِ .

قالَ ابنُ مسعودٍ : (مَنْ قلَّمَ أظفارَهُ يومَ الجمعةِ . . أخرجَ اللهُ عزَّ وجلَّ منهُ داءً وأدخلَ فيهِ شفاءً)(١) .

فإنْ كانَ قدْ دخلَ الحمَّامَ في الخميسِ أوِ الأربعاءِ . . فقدْ حصلَ المقصودُ .

وليتطيَّبْ في هٰذا اليومِ بأطيبِ طيبٍ عندَهُ ، ليغلِبَ بهِ الروائحَ الكريهةَ ، ويُوصلَ بذلكَ الرَّوْحَ والراحةَ إلىٰ مشامِّ الحاضرينَ في جوارِهِ .

وأحبُّ طيبِ الرجالِ : ما ظهرَ ريحُهُ وخَفِيَ لونُهُ ، وطيبِ النساءِ : ما ظهرَ لونُهُ وخفِيَ ريحُهُ ، رُوِيَ ذلكَ في الأثرِ(٢) .

وقالَ الشافعيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (منْ نظَّفَ ثوبَهُ . . قلَّ همُّهُ ، ومَنْ طابَ ريحُهُ . . زادَ عقلُهُ)(٣) .

وأمَّا الكُسوةُ . . فأحبُّها البياضُ مِنَ الثيابِ ؛ إذْ أحبُّ الثيابِ إلى اللهِ

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٦١٦) ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ١٩٩) مرفوعاً .
(٢) كذا رواه مرفوعاً أبو داوود (٢١٧٤) ، والترمذي (٢٧٨٧) ، والنسائي (٨/ ١٥١) .
(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٥٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٤) عن مكحول .

تعالى البيضُ[١] ، ولا يلبَسُ ما فيهِ شهرةٌ ، ولبسُ السوادِ ليسَ مِنَ السنَّةِ ، ولا فيهِ فضْلٌ ، بلْ كرِهَ جماعةٌ النظرَ إليهِ ؛ لأنَّهُ بدعةٌ محدثةٌ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والعِمامةُ مستحبَّةٌ في هٰذا اليومِ ، روىٰ واثلةُ بنُ الأسقعِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصلُّونَ علىٰ أصحابِ العمائمِ يومَ الجمعةِ »[٢] ، فإنْ أكربَهُ الحرُّ . فلا بأسَ بنزعِها قبلَ الصلاةِ وبعدَها ، ولكنْ لا ينزعُها في وقتِ السعيِ مِنَ المنزلِ إلى الجمعةِ ، ولا في وقتِ الصلاةِ ، ولا عندَ صعودِ الإمامِ المنبرَ ، ولا في حالِ الخطبةِ .

* * *

الرابعةُ : البكورُ إلى الجامعِ ، ويستحبُّ أنْ يقصدَ الجامعَ مِنْ فرسخينِ أوْ ثلاثةٍ ، وليبكِّرْ .

ويدخلُ وقتُ البكورِ بطلوعِ الفجرِ ، وفضلُ البكورِ عظيمٌ .

وينبغي أنْ يكونَ في سعيهِ إلى الجمعةِ خاشعاً ، متواضعاً ، ناوياً للاعتكافِ في المسجدِ إلى الصلاةِ ، قاصداً للمبادرةِ إلىٰ جوابِ نداءِ اللهِ تعالىٰ إياهُ إلى الجمعةِ ، والمسارعةِ إلىٰ مغفرتِهِ ورضوانِهِ .

---

(١) كما روى النسائي (٨/ ٢٠٥) مرفوعاً : « عليكم بالبياض من الثياب ، فليلبسها أحياؤكم ، وكفنوا فيها موتاكم ؛ فإنها من خير ثيابكم » .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٤/ ٣٣٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٩٠) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رَاحَ إلى الجمعةِ في الساعةِ الأولىٰ . . فكأنَّما قرَّبَ بدنةً ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الثانيةِ . . فكأنَّما قرَّبَ بقرةً ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الثالثةِ . . فكأنَّما قرَّب كبشاً أقرنَ ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الرابعةِ . . فكأنَّما أهدىٰ دجاجةً ، ومَنْ راحَ في الساعةِ الخامسةِ . . فكأنَّما أهدىٰ بيضةً ، فإذا خرجَ الإمامُ . . طويتِ الصحفُ ، ورفعتِ الأقلامُ ، واجتمعتِ الملائكةُ عندَ المنبرِ يستمعونَ الذكرَ ، فمَنْ جاءَ بعدَ ذلكَ . . فإنَّما جاءَ لحقِّ الصلاةِ ، ليسَ لهُ مِن الفضْلِ شيءٌ »(١) .

والساعةُ الأولىٰ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، والثانيةُ إلى ارتفاعِها ، والثالثةُ إلى انبساطِها حينَ ترمضُ الأقدامُ ، والرابعةُ والخامسةُ بعدَ الضحى الأعلىٰ إلى الزوالِ ، وفضلُهُما قليلٌ ، ووقتُ الزوالِ حقُّ الصلاةِ ، ولا فضلَ فيهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لوْ يعلمُ الناسُ ما فيهنَّ . . لرَكضوا الإبلَ في طلبهِنَّ : الأذانُ ، والصَّفُّ الأوَّلُ ، والغدوُّ إلى الجمعةِ »(٢) ، وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أفضلُهُنَّ الغدوُّ إلى الجمعةِ) .

---

(١) رواه البخاري (٨٨١) ، ومسلم (٨٥٠) ، وزيادة : « طويت الصحف ورفعت الأقلام » عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٢٢٦) ، ولفظ المصنف من « القوت » (١/ ٦٤) ، والمراد بالإهداء في الموضعين ـ وكذا هو في « القوت » ـ التصدقُ ، كما دلَّ عليه لفظ : « قرَّب » . « إتحاف » (٣/ ٢٥٦) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (أخرجه أبو الشيخ في « ثواب الأعمال » من حديث أبي هريرة) بنحوه ، وهو بلفظه عند صاحب « القوت » (١/ ٦٤) ، قال : (وروينا في خبر مقطوع ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره مع قول أحمد الآتي .

وفي الخبرِ : « إذا كانَ يومُ الجمعةِ . . قعدتِ الملائكةُ علىٰ أبوابِ المساجدِ بأيديهِمْ صحفٌ مِنْ فضةٍ وأقلامٌ مِنْ ذهبٍ يكتبونَ الأولَ فالأولَ علىٰ مراتبِهِمْ »[(١)] .

وجاءَ في الخبرِ : « إنَّ الملائكةَ يتفقَّدونَ العبدَ إذا تأخَّرَ عنْ وَقتِهِ يومَ الجمعةِ ، فيسألُ بعضُهُمْ بعضاً عنهُ : ما فعلَ فلانٌ ، وما الذي أخَّرَهُ عنْ وقتهِ ؟ فيقولونَ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ أخَّرَهُ فقرٌ . . فأغنِهِ ، وإنْ كانَ أخَّرَهُ مرضٌ . . فاشْفِهِ ، وإنْ كانَ أخَّرَهُ شغلٌ . . ففرِّغْهُ لعبادَتِكَ ، وَإنْ كانَ أخَّرَهُ لَهْوٌ . . فأقبلْ بقلبِهِ إلىٰ طاعتِكَ »[(٢)] .

وكانَ يُرَىٰ في القرنِ الأوَّلِ سحراً وبعدَ الفجرِ الطرقاتُ مملوءةً مِنَ الناسِ يمشونَ في السُّرُجِ ، ويزدحمونَ فيها إلى الجامعِ كأيامِ العيدِ ، حتَّى اندرسَ ذلكَ ، فقيلَ : أوَّلُ بدعةٍ أُحدثتْ في الإسلامِ تركُ البكورِ إلى الجامعِ[(٣)] .

وكيفَ لا يستحي المؤمنونَ مِنَ اليهودِ والنصارىٰ وهمْ يبكِّرونَ إلى البِيَعِ والكنائسِ يومَ السبتِ والأحدِ ؟! وطلابُ الدنيا كيفَ يبكِّرونَ إلىٰ رحابِ

---

(١) في « البخاري » (٩٢٩) ، و« مسلم » (٨٥٠) مرفوعاً : « إذا كان يوم الجمعة . . وقفت الملائكة علىٰ باب المسجد يكتبون الأول فالأول . . . » ، ورواية : « صحف من فضة وأقلام . . . » عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٢/٤٣) بنحوه .

(٢) رواه ابن خزيمة في « صحيحه » (١٧٧١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٢٦/٣) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٧٠) .

الأسواقِ للبيعِ والشراءِ والربحِ ؟! فلمَ لا يسابقُهُمْ طلاَّبُ الآخرةِ ؟!

ويقالُ : (إنَّ الناسَ يكونونَ في قربِهِمْ عندَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ قدْرِ بكورِهِمْ إلى الجمعةِ) ، ودخلَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ الجامعَ بكرةً ، فرأىٰ ثلاثةَ نفرٍ قدْ سبقوهُ بالبكورِ ، فاغتمَّ لذلكَ ، وجعلَ يقولُ لنفسِهِ معاتباً لها : (رابعُ أربعةٍ ، وما رابعُ أربعةٍ ببعيدٍ)[1] .

***

الخامسةُ : في هيئةِ الدخولِ ، فينبغي ألا يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ، ولا يمرَّ بينَ أيديهِمْ ، والبكورُ يسهِّلُ عليهِ ذلكَ ، فقدْ وردَ وعيدٌ شديدٌ في تخطِّي الرقابِ ، وهوَ أنَّهُ يُجعَلُ جسراً يومَ القيامةِ يتخطَّاهُ النَّاسُ[2] .

وروى ابنُ جريجٍ مرسلاً : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَما هوَ يخطبُ يومَ الجمعةِ إذْ رأىٰ رجلاً يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ حتَّىٰ تقدَّمَ فجلسَ ، فلمَّا قضى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلاتَهُ . . عارضَ الرَّجُلَ حَتَّىٰ لقيَهُ ، فقالَ : « يا فلانُ ؛ ما منعَكَ أنْ تُجمِّعَ اليومَ معَنا ؟ » قال : يا نبيَّ اللهِ ؛ قدْ جمَّعتُ

---

(١) روى ابن ماجه (١٠٩٤) عن علقمة قال : (خرجت مع عبد الله إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة وقد سبقوه ، فقال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس يجلسون من الله يوم القيامة علىٰ قَدْرِ رواحهم إلى الجمعات ، الأول والثاني والثالث » ، ثم قال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد) .

(٢) رواه الترمذي (٥١٣) ، وابن ماجه (١١١٦) .

معَكُمْ ! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَلَمْ أَرَكَ تتخطَّىٰ رقابَ النَّاسِ ؟! »(١) ، أشارَ بذلكَ إلىٰ أنَّهُ أحبطَ عملَهُ .

وفي حديثٍ مسندٍ أنَّهُ قالَ : « ما منعَكَ أنْ تُصليَ معنا ؟ » ، فقالَ : أوَلَمْ ترني يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُكَ تأَنَّيْتَ وآذَيْتَ »(٢) ؛ أي : تأخَّرتَ عنِ البكورِ ، وآذيتَ الحضورَ .

ومهما كانَ الصفُّ الأوَّلُ متروكاً خالياً . . فلهُ أنْ يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ؛ لأنَّهم ضيَّعوا حقَّهُمْ وتركوا موضعَ الفضيلةِ ، قالَ الحسنُ : (تخطُّوا رقابَ الناسِ الذينَ يقعدونَ علىٰ أبوابِ الجامعِ يومَ الجمعةِ ؛ فإنَّهُ لا حرمةَ لهُمْ)(٣) .

وإذا لمْ يكنْ في المسجدِ إلا مَنْ يصلِّي . . فينبغي ألاَّ يسلِّمَ ؛ فإنَّهُ تكليفُ جوابٍ في غيرِ محلِّهِ .

***

السادسةُ : ألاَّ يمرَّ بينَ يدَيِ الناسِ ، ويجلسُ هوَ إلىٰ قريبٍ مِنْ أُسطوانةٍ أوْ حائطٍ ؛ حتَّىٰ لا يمرُّوا بينَ يديهِ ؛ أعني : بينَ يديِ المصلِّي ، فإنَّ ذلكَ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (أخرجه ابن المبارك في « الرقائق ») . « إتحاف » (٣/ ٢٦١) ، وهو بلفظه في « القوت » (١/ ٦٥) ، وهو الحديث الآتي كما يظهر من السياق .

(٢) رواه أبو داوود (١١١٨) ، والنسائي (٣/ ١٠٣) ، وابن ماجه (١١١٥) بنحوه مختصراً ، وهو عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٥١٥) بزيادة تفصيل .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٢٩٨) .

لا يقطعُ الصلاةَ ، ولكنَّهُ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يقفَ أربعينَ سنةً خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمُرَّ بينَ يديِ المصلِّي »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يكونَ الرجلُ رماداً رِمْدِداً تذروهُ الرياحُ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمرَّ بينَ يديِ المصلِّي »(٢) .

وسوَّىٰ في حديثٍ آخرَ بينَ المارِّ والمصلِّي حيثُ صلَّىٰ على الطريقِ ، أوْ قصَّرَ في الدفعِ ، فقالَ : « لوْ يعلمُ المارُّ بينَ يدَيِ المصلِّي والمصلِّي ما عليهِما في ذلكَ .. لكانَ أنْ يقفَ أربعينَ خيراً لهُ مِنْ أنْ يمُرَّ بينَ يديهِ »(٣) .

والأُسطوانةُ والحائطُ والمصلَّى المفروشُ حدُّ المصلِّي ، فمنِ اجتازَ بهِ .. فينبغي أنْ يدفعَهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليدفعْهُ ، فإنْ أبىٰ .. فليدفعْهُ ، فإنْ أبىٰ .. فليقاتلْهُ ؛ فإنَّهُ شيطانٌ »(٤) .

وكانَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ يدفعُ مَنْ يمرُّ بينَ يديهِ حتَّىٰ

---

(١) رواه البخاري (٥١٠) ، ومسلم (٥٠٧) وليس فيه : « سنة » ، بل قال أبو النضر أحد الرواة : (لا أدري : أقال أربعين يوماً أو شهراً أو سنةً) .

(٢) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٤١٧) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢١/ ١٤٩) وفيه : « رماداً يذرىٰ » ، والرِّمْدِد : الرماد ، أو صغار الفحم ، وهو تأكيد للفظ الأول ، وفي معناه : الرِّمْدِيد .

(٣) رواه أبو العباس السراج في « مسنده » (٣٩١) .

(٤) رواه البخاري (٥٠٩ ، ٣٢٧٥) ، ومسلم (٥٠٥) .

يصرعَهُ ، فربَّما تعلَّقَ بهِ الرجلُ ، فاستعدىٰ عليْهِ عندَ مروانَ ، فيخبرُهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَهُ بذلكَ(١) .

فإنْ لمْ يجدْ أُسطوانةً . . فلينصبْ بينَ يديهِ شيئاً طولُهُ قدْرُ الذراعِ ؛ ليكونَ ذلكَ علامةً لحدِّهِ .

***

السابعةُ : أنْ يطلبَ الصفَّ الأوَّلَ ، فإنَّ فضلَهُ كثيرٌ كما رويناهُ في الخبرِ : « مَنْ غسَّلَ واغتسلَ ، وبكَّرَ وابتكرَ ، ودنا مِنَ الإمامِ واستمعَ . . كانَ لهُ ذلكَ كفارةً لما بينَ الجمعتينِ وزيادةَ ثلاثةِ أيامٍ »(٢) ، وفي لفظٍ آخرَ : « غفرَ اللهُ لهُ إلى الجمعةِ الأخرىٰ »(٣) ، وقدِ اشترطَ في بعضِها : « ولمْ يتخطَّ رقابَ الناسِ »(٤) .

***

ولا يغفُلُ في طلبِ الصفِّ الأوَّلِ عنْ ثلاثةِ أمورٍ :

أوَّلُها : أنَّهُ إنْ كانَ يرىٰ بقرْبِ الخطيبِ منكراً يعجِزُ عنْ تغييرِهِ ؛ مِنْ لبْسِ حريرٍ مِنَ الإمامِ أوْ غيرِهِ ، أوْ صلَّىٰ في سلاحٍ كثيرٍ ثقيلٍ شاغلٍ ، أوْ سلاحٍ

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩) ، ومسلم (٥٠٥) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٨١) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ١٩٨) .

(٤) رواه أبو داوود (٣٤٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٨٣) بنحوه ، والروايات وسياقها في « القوت » (١/ ٦٥) .

مُذهَّبٍ ، أوْ غيرِ ذلكَ ممَّا يجبُ عليهِ الإنكارُ . . فالتأخُّرُ لهُ أسلمُ وأجمعُ للهمِّ ، فعلَ ذلكَ جماعةٌ مِنَ العلماءِ طلباً للسلامةِ .

قيلَ لبشرِ بنِ الحارثِ : نراكَ تبكِّرُ وتصلِّي في آخرِ الصفوفِ ! فقالَ : (إنَّما يُرادُ قربُ القلوبِ لا قربُ الأجسادِ)[1] ، وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ ذلكَ أسلمُ لقلبهِ .

ونظرَ سفيانُ الثوريُّ إلىٰ شعيبِ بنِ حربٍ عندَ المنبرِ يستمعُ إلى الخطبةِ مِنْ أبي جعفرٍ المنصورِ ، فلمَّا فرغَ مِنَ الصَّلاةِ . . قالَ : شغلَ قلبي قربُكَ مِنْ هٰذا ، هلْ أمنتَ أنْ تسمعَ كلاماً يجبُ عليكَ إنكارُهُ فلا تقومُ بهِ ؟! ثم ذكرَ ما أحدثوا مِنْ لبسِ السوادِ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أليسَ في الخبرِ : « أُدْنُ فاستمِعْ » ؟![2] فقالَ : ويحكَ ! ذاكَ للخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ ، فأمَّا هؤلاءِ . . فكلما بعدتَ عنْهُمْ ولمْ تنظرْ إليهمْ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[3] .

وقالَ سعيدُ بنُ عامرٍ : صلَّيتُ إلىٰ جنْبِ أبي الدرداءِ ، فجعلَ يتأخَّرُ في الصفوفِ حتَّىٰ كنَّا في آخرِ صفٍّ ، فلمَّا صلَّينا . . قلتُ لهُ : أليسَ يقالُ :

---

(١) بنحوه رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠/ ٢٠٢) ، وهو كذا في « القوت » (١/ ٦٩) ، ولا التفات لما اعترض علىٰ هٰذا الخبر كابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ ؛ إذ غفل عن شرط المصنف هنا وقيده الذي ذكره .

(٢) رواه أبو داوود (١١٠٨) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٦٩) .

« خيرُ الصفوفِ أوَّلُها » ؟![1] قالَ : نعمْ ، إلاَّ أنَّ هـٰذهِ أمةٌ مرحومةٌ منظورٌ إليها مِنْ بينِ الأممِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ إذا نظرَ إلىٰ عبدٍ في الصلاةِ غفرَ لهُ ولمَنْ وراءَهُ مِنَ الناسِ ، فإنَّما تأخَّرْتُ رجاءَ أنْ يغفرَ لي بواحدٍ منهم ينظرُ اللهُ إليهِ[2] .

وروىٰ بعضُ الرواةِ أنَّهُ قالَ : سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ ذلكَ[3] .

فمَنْ تأخَّرَ علىٰ هـٰذهِ النيَّةِ إيثاراً وإظهاراً لحسْنِ الخُلُقِ . . فلا بأسَ ، وعندَ هـٰذا يقالُ : « الأعمالُ بالنيَّاتِ »[4] .

وثانيها : أنَّهُ إنْ لمْ تكنْ مقصورةٌ عندَ الخطيبِ مقتطعَةٌ عَنِ المسجدِ للسلاطينِ . . فالصفُّ الأوَّلُ محبوبٌ ، وإلا . . فقدْ كرهَ بعضُ العلماءِ دخولَ المقصورةِ .

كانَ الحسنُ وبكرٌ المزنيُّ لا يصلِّيانِ في المقصورةِ ، ورَأيا أنَّها قصرتْ على السلطانِ .

وهيَ بدعةٌ أحدثَتْ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المساجدِ ،

---

(١) رواه مسلم (٤٤٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٩) .
(٣) أي : أبو الدرداء رضي الله عنه ، والخبر في « قوت القلوب » (١/ ٦٩) .
(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٨٨) .

والمسجدُ مطلقٌ لجميعِ الناسِ ، وقدِ اقتُطِعَ ذلكَ علىٰ خلافِهِ[1] .

وصلَّىٰ أنسُ بنُ مالكٍ وعمرانُ بنُ حصينٍ في المقصورةِ ، ولمْ يكرها ذلكَ ؛ لطلبِ القربِ[2] .

ولعلَّ الكراهةَ تختصُّ بحالةِ التخصيصِ والمنعِ ، فأمَّا مجرَّدُ المقصورةِ إذا لمْ يكنْ منعٌ . . فلا يوجبُ كراهةً .

وثالثُها : أنَّ المنبرَ يقطعُ بعضَ الصفوفِ ، وإنَّما الصفُّ الأوَّلُ الواحدُ المتصلُ الذي في فناءِ المنبرِ ، وما علىٰ طرفيهِ مقطوعٌ ، وكانَ الثوريُّ يقولُ : (الصفُّ الأوَّلُ هوَ الخارجُ بينَ يدي المنبرِ)[3] ، وهوَ متَّجهٌ ؛ لأنَّهُ متصلٌ ، ولأنَّ الجالسَ فيهِ يقابلُ الخطيبَ ويسمعُ ، ولا يبعدُ أنْ يقالَ : الأقربُ إلى القبلةِ هوَ الصفُّ الأوَّلُ ، ولا يراعىٰ هـٰذا المعنىٰ .

وتكرهُ الصَّلاةُ في الأسواقِ والرحابِ الخارجةِ عنِ المسجدِ ، وكانَ بعضُ الصحابةِ يضربُ الناسَ ويقيمُهُمْ مِنَ الرحابِ[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦٨) ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٦٥٢ ، ٤٦٥٣) عن ابن محيريز وابن عمر أنهما كانا لا يصليان في المقصورة ، قال الحافظ الزبيدي : (ولم أر فيه ذكراً للحسن ولا لبكر المزني ، بل ذكر الحسن فيمن كان يصلي في المقصورة) . « إتحاف » (٣/ ٢٦٦) .

(٢) صلاة أنس فيها رواها ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٦٤٢) ، والسياق في « القوت » (١/ ٦٨) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٦٩) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٦٩) .

الثامنةُ : أنْ يقطعَ الصَّلاةَ عندَ خروجِ الإمامِ ، ويقطعَ الكلامَ أيضاً ، بلْ يشتغلُ بجوابِ المؤذِّنِ ، ثمَّ باستماعِ الخطبةِ .

وقدْ جرتْ عادةُ بعضِ العوامِّ بالسجودِ عندَ قيامِ المؤذِّنينَ ، ولمْ يثبتْ لهُ أصلٌ في أثرٍ ولا خبرٍ ، لكنَّهُ إنْ وافقَ سجودَ تلاوةٍ . . فلا بأسَ أنْ يمدَّ الدعاءَ ؛ لأنَّهُ وقتٌ فاضلٌ ، ولا يحكمُ بتحريمِ هـٰذا السجودِ ؛ فإنَّهُ لا سببَ لتحريمِهِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عليٍّ وعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُمَا : (منِ استمعَ وأنصتَ . . فلهُ أجرانِ ، ومَنْ لمْ يستمعْ وأنصتَ . . فلهُ أجرٌ ، ومَنْ سمعَ ولغا . . فعليهِ وزرانِ ، ومَنْ لمْ يستمعْ ولغا . . فعليهِ وزرٌ واحدٌ)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ لصاحبِهِ والإمامُ يخطبُ : أنصِتْ أوْ مَهْ . . فقدْ لغا ، ومَنْ لغا والإمامُ يخطبُ . . فلا جمعةَ لهُ »(٢) .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإسكاتَ ينبغي أنْ يكونَ بإشارةٍ أوْ رَمْيِ حصاةٍ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦٨) ، وروىٰ أحمد في « مسنده » (١/ ٩٣) عن علي رضي الله عنه قال : (فمن دنا من الإمام ، فأنصت واستمع ولم يلغُ . . كان له كِفلان من الأجر ، ومن نأىٰ عنه ، فاستمع وأنصت ولم يلغُ . . كان له كفل من الأجر ، ومن دنا من الإمام ، فلغا ولم ينصت ولم يستمع . . كان عليه كِفلان من الوزر ، ومن نأىٰ عنه ، فلغا ولم ينصت ولم يستمع . . كان عليه كفل من الوزر) ، وبنحوه رواه أبو داوود (١٠٥١) .

(٢) رواه الترمذي (٥١٢) ، والنسائي (٣/ ١٠٣) دون زيادة : « ومن لغا . . فلا جمعة له » ، وهو عند أبي داوود من كلام علي رضي الله عنه في الحديث السابق مع هـٰذه الزيادة .

لا بالنطقِ ، وفي حديثِ أبي ذرٍّ لمَّا سألَ أُبيّاً والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخطبُ ، فقالَ : متىٰ أُنزلتْ هـٰذهِ السورةُ ؟ فأومأَ إليهِ أنِ اسكتْ ، فلمَّا نزلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ لهُ أُبيٌّ : اذهبْ ، فلا جمعةَ لكَ ، فشكاهُ أبو ذرٍّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « صدقَ أُبيٌّ »[١] .

وإنْ كانَ بعيداً مِنَ الإمامِ . . فلا ينبغي أنْ يتكلَّمَ في العلمِ وغيرِهِ ، بلْ يسكتُ ؛ لأنَّ ذلكَ يتسلسلُ ويفضي إلىٰ هينمةٍ[٢] ، حتَّىٰ ينتهيَ إلى المستمعينَ ، ولا يجلسُ في حلقةِ مَنْ يتكلَّمُ ، فمنْ عجزَ عنِ الاستماعِ للبعدِ . . فلينصتْ ، فهوَ المستحبُّ .

وإذا كانتْ تكرهُ الصَّلاةُ في وقتِ خطبةِ الإمامِ . . فالكلامُ أولىٰ بالكراهةِ ، قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (تكرهُ الصَّلاةُ في أربعِ ساعاتٍ : بعدَ الفجرِ ، وبعدَ العصرِ ، ونصفَ النهارِ ، والصَّلاةُ والإمامُ يخطبُ)[٣] .

* * *

التاسعةُ : أنْ يراعيَ في قدوةِ الجمعةِ ما ذكرناهُ في غيرِها ، فإذا سمعَ قراءةَ الإمامِ . . لمْ يقرأْ سوى الفاتحةِ ، فإذا فرغَ مِنَ الجمعةِ . . قرأَ :

---

(١) رواه ابن ماجه (١١١١) ، والسائل أبو الدرداء أو أبو ذر ، وجزم ابن خزيمة في « صحيحه » (١٨٠٧) أنه أبو ذر رضي الله عنه .

(٢) **الهينمة** : كلام تسمع نغمته ولا تفهم معانيه لخفائه ، وهـٰذه الهينمة تشوش وتمنع من السماع .

(٣) قوت القلوب (١/ ٦٨) .

(الحمدُ) سبعَ مراتٍ قبلَ أنْ يتكلَّمَ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعاً ، والمعوذتينِ سبعاً سبعاً ، ورُوِيَ عنْ بعضِ السلفِ أنَّ مَنْ فعلَهُ . . عُصِمَ مِنَ الجمعةِ إلى الجمعةِ ، وكانَ حرزاً لهُ مِنَ الشيطانِ[1] .

ويستحبُّ أنْ يقولَ بعدَ صلاةِ الجمعةِ : (اللَّهُمَّ ؛ يا غنيُّ يا حميدُ ، يا مبدئُ يا معيدُ ، يا رحيمُ يا ودودُ ، أغنني بحلالِكَ عنْ حرامِكَ ، وبفضلِكَ عمَّنْ سواكَ) ، يقالُ : مَنْ داومَ علىٰ هـٰذا الدعاءِ . . أغناهُ اللهُ سبحانَهُ عنْ خلقِهِ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ[2] .

ثمَّ يصلِّي بعدَ الجمعةِ ستَّ ركعاتٍ ؛ فقدْ روى ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي بعدَ الجمعةِ ركعتينِ)[3] ، وروىٰ أبو هريرة : (أربعاً)[4] ، وروىٰ عليٌّ وعبدُ اللهِ (ستّاً)[5] ، والكلُّ صحيحٌ في أحوالٍ مختلفةٍ ، والأكملُ أفضلُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٦٢١ ، ٣٠٢١٨) عن أسماء بنت الصِّديق رضي الله عنهما .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٩) .
(٣) رواه البخاري (١١٦٩) ، ومسلم (٨٨٢) .
(٤) رواه مسلم (٨٨١) .
(٥) حديث علي رضي الله عنه رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٢٤٧) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٣١٠) ، وحديث عبد الله وهو ابن عمر رضي الله عنهما رواه أبو داوود (١١٣٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٤١٢) .

العاشرةُ : أنْ يلازمَ المسجدَ حتَّىٰ يصلِّيَ العصرَ ، فإنْ أقامَ إلى المغربِ . . فهوَ الأفضلُ .

يقالُ : (مَنْ صلَّى العصرَ في الجامعِ . . كانَ لهُ ثوابُ حجَّةٍ ، ومَنْ صلَّى المغربَ . . فلهُ ثوابُ عمرةٍ)[1] ، فإنْ لمْ يأمنِ التصنُّعَ ودخولَ الآفةِ عليهِ مِنْ نظرِ الخلقِ إلى اعتكافِهِ ، أوْ خافَ الخوضَ فيما لا يعني . . فالأفضلُ أنْ يرجعَ إلىٰ بيتِهِ ذاكراً للهِ عزَّ وجلَّ ، مفكِّراً في آلائِهِ ، شاكراً لهُ علىٰ توفيقِهِ ، خائفاً مِنْ تقصيرِهِ ، مراقباً لقلبِهِ ولسانِهِ إلىٰ غروبِ الشمسِ ؛ حتَّىٰ لا تفوتَهُ الساعةُ الشريفةُ .

ولا ينبغي أنْ يتكلَّمَ في الجامعِ وغيرِهِ مِنَ المساجدِ بحديثِ الدنيا ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يأتي على الناسِ زمانٌ يكونُ حديثُهُمْ في مساجدِهِمْ أمرَ دنياهُمْ ، ليسَ للهِ تعالىٰ فيهمْ حاجةٌ ، فلا تجالسوهُمْ »[2] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٧٠) . وفي (ب) و(ج) : (فله ثواب عمرة مع الحج) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٧٠١) عن الحسن مرسلاً .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور

الأوَّلُ : أنْ يحضرَ مجالسَ العلمِ : بكرةً أوْ بعدَ الصلاةِ ، أوْ بعدَ العصرِ ، ولا يحضرُ مجالسَ القُصَّاصِ ، فلا خيرَ في كلامِهِمْ .

ولا ينبغي أنْ يخلوَ المريدُ في جميعِ يومِ الجمعةِ عنِ الخيراتِ والدعواتِ حتَّىٰ توافيَهُ الساعةُ الشريفةُ وهوَ في خيرٍ .

ولا ينبغي أنْ يحضرَ الحِلَقَ قبلَ الصَّلاةِ ، روىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنِ التحلُّقِ يومَ الجمعةِ قبلَ الصلاةِ)[1] ، إلا أنْ يكونَ عالماً باللهِ ، يذكِّرُ بأيامِ اللهِ ، ويفقِّهُ في دينِ اللهِ ، يتكلَّمُ في الجامعِ بالغداةِ ، فيجلسُ إليهِ ، فيكونُ جامعاً بينَ البكورِ وبينَ الاستماعِ ، واستماعُ العلمِ النافعِ في الآخرةِ أفضلُ منِ اشتغالِهِ بالنوافلِ ؛ فقدْ روىٰ أبو ذرٍّ : (أنَّ حضورَ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ)[2] .

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ : (أما إنَّهُ ليسَ بطلبِ دنيا ، ولكنْ عيادةُ مريضٍ

---

(١) رواه أبو داوود (١٠٧٩) ، والترمذي (٣٢٢) ، والنسائي (٢/ ٤٧) ، وابن ماجه (١١٣٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٩٩) .

وشهودُ جنازةٍ ، وتعلُّمُ علمٍ ، وزيارةُ أخٍ في اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] .

وقدْ سمَّى اللهُ تعالى العلمَ فضلاً في مواضعَ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ يعني : العلمَ[2] ، فتعليمُ العلمِ في هٰذا اليومِ وتعلُّمُهُ مِنْ أفضلِ القرباتِ .

والصَّلاةُ أفضلُ مِنْ مجالسِ القُصَّاصِ ؛ إذْ كانوا يرونَهُ بدعةً ، ويُخرجونَ القصَّاصَ مِنَ الجامعِ .

حضرَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما إلىٰ مجلسِهِ في المسجدِ الجامعِ ؛ فإذا قاصٌّ يقصُّ في موضعِهِ ، فقالَ لهُ : قمْ عنْ مجلسي ، فقالَ : لا أقومُ وقدْ جلستُ وسبقتُكَ إليهِ ، فأرسلَ ابنُ عمرَ إلىٰ صاحبِ الشُّرْطَةِ فأقامَهُ .

فلوْ كانَ ذلكَ مِنَ السنَّةِ . . لما استحلَّ إقامتَهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقيمنَّ أحدُكُمْ أخاهُ مِنْ مجلسِهِ ثمَّ يجلسُ فيهِ ، ولكنْ تفسَّحوا وتوسَّعوا »[3] .

وكانَ ابنُ عمرَ إذا قامَ لهُ الرجلُ مِنْ مجلسِهِ . . لمْ يجلسْ فيهِ حتَّىٰ يعودَ إليهِ[4] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/ ٢٨/ ١٢٦) عن أنس مرفوعاً .

(٢) بدليل قوله في الآية الأخرىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ الآية . «إتحاف» (٣/ ٢٧٨).

(٣) رواه البخاري (٩١١) ، ومسلم (٢١٧٧) .

(٤) رواه مسلم (٢١٧٧) تتمة الحديث السابق .

ورُوِيَ أَنَّ قاصّاً كانَ يجلسُ بفناءِ حجرةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، فأرسلتْ إلى ابنِ عمرَ أنَّ هـٰذا قدْ آذاني بقصصِهِ وشغلني عنْ سُبْحَتي ، فضربَهُ ابنُ عمرَ حتَّىٰ كسرَ عصاً علىٰ ظهرِهِ ، ثمَّ طردَهُ[1] .

❊ ❊ ❊

الثاني : أنْ يكونَ حسنَ المراقبةِ للساعةِ الشريفةِ : ففي الخبرِ المشهورِ : « إنَّ في الجمعةِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالىٰ فيها شيئاً إلا أعطاهُ »[2] .

وفي خبرٍ آخرَ : « لا يصادفُها عبدٌ يصلِّي »[3] .

واختلفَ فيها ؛ فقيلَ : إنَّها عندَ طلوعِ الشمسِ ، وقيلَ : عندَ الزوالِ .

وقيلَ : معَ الأذانِ .

وقيلَ : إذا صعدَ الخطيبُ المنبرَ وأخذَ في الخطبةِ . وقيلَ : إذا قامَ الناسُ إلى الصلاةِ .

وقيلَ : آخرَ وقتِ العصرِ ؛ أعني : وقتَ الاختيارِ .

وقيلَ : قبلَ غروبِ الشمسِ ، وكانتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنهَا تراعي ذلكَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦٨) ، والسُّبْحَةُ : التطوع من الذكر والصلاة .
(٢) رواه النسائي (٣/ ١١٥) ، وهو عند البخاري (٩٣٥) ، ومسلم (٨٥٢) بزيادة : « وهو قائم يصلي » ، وهو في الرواية الآتية .
(٣) رواه أبو داوود (١٠٤٦) ، والنسائي (٣/ ١١٤) .

الوقتَ وتأمرُ خادمَها أنْ ينظرَ إلى الشمسِ فيؤذنَها بسقوطِها ، فتأخذُ في الدعاءِ والاستغفارِ إلىٰ أنْ تغربَ ، وتخبرُ بأنْ تلكَ الساعةَ هيَ المنتظرةُ ، وتأثرُهُ عنْ أبيها صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : هيَ مبهمةٌ في جميعِ اليومِ مثلَ ليلةِ القدْرِ ؛ حتَّىٰ تتوفَّرَ الدواعي علىٰ مراقبتِها .

وقدْ قيلَ : إنَّها تنتقلُ في ساعاتِ يومِ الجمعةِ كتنقُّلِ ليلةِ القدرِ ، وهـٰذا هوَ الأشبهُ ، ولهُ سرٌّ لا يليقُ بعلمِ المعاملةِ ذكرُهُ ، ولكنْ ينبغي أنْ يصدِّقَ بما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »[2] ، ويومُ الجمعةِ مِنْ جملةِ تلكَ الأيامِ ، فينبغي أنْ يكونَ العبدُ في جميعِ نهارِهِ متعرِّضاً لها ؛ بإحضارِ القلبِ ، وملازمةِ الذكرِ ، والنزوعِ عنْ وساوسِ الدنيا ، فعساهُ يحظىٰ بشيءٍ مِنْ تلكَ النفحاتِ .

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٢١٠٩) ، قال : (فكانت فاطمة تقول لغلام يقال له أربد : اصعد على الظراب ، فإذا رأيت الشمس قد تدلت للغروب . . فأخبرني ، فيخبرها ، فكانت تقوم إلىٰ مسجدها ، فلا تزال تدعو حتىٰ تغرب الشمس ، ثم تصلي) . وهو بنحوه عند البيهقي في « الشعب » (٢٧١٦) .
وجميع الأقوال التي أوردها قد رويت عن السلف الصالح رضي الله عنهم ، وسياق المصنف منتزع من « القوت » (١/ ٦٦) ، وقال : (فهـٰذا جمل ما قيل في هـٰذه الساعة بروايات جاءت في ذلك متفرقة ، حذفنا ذكرها للاختصار ، فليتوخَ هـٰذه الأوقات ، وليتعهد الدعاء فيها ، والصلاة فيما صلح منها) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٣٣٩) بنحوه .

وقدْ قالَ كعبُ الأحبارِ : إنَّها في آخرِ ساعةٍ مِنْ يومِ الجمعةِ ، وذلكَ عندَ الغروبِ ، فقالَ أبو هريرةَ : كيفَ تكونُ آخرَ ساعةٍ وقدْ سمعتُ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا يوافقُها عبدٌ يصلِّي » ولاتَ حينَ صلاةٍ ؟ فقالَ كعبٌ : ألمْ يقلْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قعدَ ينتظرُ الصلاةَ .. فهوَ في صلاةٍ » ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : فذاكَ صلاةٌ ، فسكتَ أبو هريرةَ[1] .

وكانَ كعبٌ مائلاً إلىٰ أنَّها رحمةٌ مِنَ اللهِ سبحانَهُ للقائمينَ بحقِّ هـٰذا اليومِ ، وأوانُ إرسالِها عندَ الفراغِ مِنْ تمامِ العملِ .

وبالجملةِ : هـٰذا وقتٌ شريفٌ معَ وقتِ صعودِ الإمامِ المنبرَ ، فليكثرِ الدعاءَ فيهِما .

***

(١) رواه أبو داوود (١٠٤٦) ، والنسائي (٣/ ١١٤) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وكعب حكىٰ قوله هـٰذا ووافقه عليه ، وتراجع عن قولٍ له قديم أنها في السنة مرة ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ٢٨٢) : (وجدت بخط شمس الدين الداوودي ما نصه : « صحح أبو زرعة الدمشقي أن أبا هريرة إنما روى الحديث كله عن كعب » ، فعلىٰ هـٰذا : لذكر كعب في القصة أصل) . وفي معنىٰ : « قائم يصلي » نقل الإمام النووي في « شرح مسلم » (٦/ ١٤٠) : أنه ملازم للدعاء فيها ، وعليه فلا حاجة لإيراد حديث : « من قعد ينتظر الصلاة . . . » ، وروايته عند مسلم (٤٩١) : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة .. فهو في صلاة » ، وسياق المصنف في « القوت » (١/ ٦٦) .

الثالث : يستحبُّ أنْ يكثرَ الصلاةَ علىٰ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذا اليومِ : فقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ في يومِ الجمعةِ ثمانينَ مرَّةً . . غفرَ اللهُ لهُ ذُنوبَ ثمانينَ سنةً » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ الصلاةُ عليكَ ؟ قالَ : « تقولُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ وتعقدُ واحدةً »(١) .

وإنْ قلتَ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ صلاةً تكونُ لكَ رضاً ، ولحقِّهِ أداءً ، وأعطِهِ الوسيلةَ والمقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ ، واجزِهِ عنَّا ما هوَ أهلُهُ ، واجزِهِ أفضلَ ما جزيتَ نبيّاً عنْ أمَّتِهِ ، وصلِّ علىٰ جميعِ إخوانِهِ ، مِنَ النبيِّينَ والصالحينَ يا أرحمَ الراحمينَ) ، تقولُ هٰذا سبعَ مراتٍ ؛ فقدْ قيلَ : مَنْ قالَها في سبعِ جُمعٍ في كلِّ جمعةٍ سبعَ مراتٍ . . وجبتْ لهُ شفاعتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وإنْ أرادَ أنْ يزيدَ . . أتىٰ بالصلواتِ المأثورةِ فقالَ : (اللهمَّ ؛ اجعلْ فضائلَ صلواتِكَ ، ونواميَ بركاتِكَ ، وشرائفَ زكواتِكَ ورأفتِكَ ورحمتِكَ وتحيَّتِكَ ، علىٰ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وإمامِ المتقينَ ، وخاتمِ النبيينَ ، ورسولِ ربِّ العالمينَ ، قائِدِ الخيرِ ، وفاتحِ البرِّ ، ونبيِّ الرحمةِ ، وسيِّدِ الأمةِ ، اللهمَّ ؛ ابعثْهُ مقاماً محموداً تُزْلِفُ بهِ قربَهُ ، وتقرُّ بهِ عينَهُ ، يغبطُهُ بهِ

---

(١) رواه ابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (٢٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٤٦٣) ، قال الحافظ العراقي : (وقال ابن النعمان : حديث حسن) . « إتحاف » (٣/ ٢٨٦) .

الأوَّلونَ والآخرونَ ، اللهمَّ ؛ أعْطِهِ الفضلَ والفضيلةَ ، والشرفَ والوسيلةَ ، والدرجةَ الرفيعةَ ، والمنزلةَ الشامخةَ المنيفةَ ، اللهمَّ ؛ أعطِ محمداً سؤلَهُ ، وبلِّغْهُ مأمولَهُ ، واجعلْهُ أوَّلَ شافعٍ وأوَّلَ مشفَّعٍ ، اللهمَّ ؛ عظمْ برهانَهُ ، وثقِّلْ ميزانَهُ ، وأفلجْ حجَّتَهُ ، وارفعْ في أعلى المقربينَ درجتَهُ ، اللهمَّ ؛ احشرْنا في زمرتِهِ ، واجعلْنا مِنْ أهلِ شفاعتِهِ ، وأحينا علىٰ سنَّتِهِ ، وتوفَّنا علىٰ ملَّتِهِ ، وأوردْنا حوضَهُ ، واسقنا بكأسِهِ غيرَ خزايا ولا نادمينَ ، ولا شاكِّينَ ولا مبدِّلينَ ، ولا فاتنينَ ولا مفتونينَ ، آمينَ يا ربَّ العالمينَ »[(١)] .

وعلى الجملةِ : فكلُّ ما أتىٰ بهِ مِنْ ألفاظِ الصلاةِ ولوِ المشهورَ في التشهدِ . . كانَ مصلِّياً .

وينبغي أنْ يضيفَ إليهِ الاستغفارَ ؛ فإنَّ ذلكَ أيضاً مستحبٌّ في هٰذا اليومِ[(٢)] .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : قراءةُ القرآنِ : فليكثرْ منهُ ، وليقرأْ سورةَ الكهفِ خاصةً ؛ فقدْ روى ابنُ عباسٍ وأبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ قرأَ سورةَ الكهفِ ليلةَ الجمعةِ أوْ يومَ الجمعةِ . . أُعطيَ نوراً

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي » (٢١) مرفوعاً ، و(٢٣) موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ، بنحوه ، وهو في « القوت » (١/ ٦٦) ، **وأفلج** : أظهر .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٧) .

مِنْ حيثُ يقرؤُها إلىٰ مكةَ ، وغُفِرَ لهُ إلىٰ يومِ الجمعةِ الأخرىٰ وفضْلَ ثلاثةِ أيامٍ ، وصلَّىٰ عليهِ سبعونَ ألفَ ملكٍ حتَّىٰ يصبحَ ، وعوفيَ مِنَ الداءِ والدُّبيلَةِ وذاتِ الجنْبِ والبَرصِ والجذامِ ، وفتنةِ الدجَّالِ »[1] .

ويستحبُّ أنْ يختمَ القرآنَ في يومِ الجمعةِ وليلتِها إنْ قدرَ ، وليكنْ ختمُهُ للقرآنِ في ركعتي الفجرِ إنْ قرأَ بالليلِ ، أوْ في ركعتي المغربِ ، أوْ بينَ الأذانِ والإقامةِ للجمعةِ ، فلهُ فضلٌ عظيمٌ[2] .

وكانَ العابدونَ يستحبُّونَ أنْ يقرؤوا يومَ الجمعةِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ألفَ مرَّةٍ[3] ، ويقالَ : إنَّ مَنْ قرأَها في عشْرِ ركعاتٍ أوْ عشرينَ ركعةً . . فهوَ أفضلُ مِنْ ختمةٍ .

---

(1) قال صاحب « القوت » (١/ ٦٧) : (وروى ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس وأبي هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .) ، وذكره الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٦/ ١٩٨) وقال : (رواه الديلمي عن أبي هريرة يرفعه) ، وأصل الحديث مروي عند عبد الرزاق في « المصنف » (١/ ١٨٦) ، والدارمي في « سننه » (٣٤٥٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . **والدُّبيلة** : بوزان جهينة ، كل ورم في داخله موضع تنصب إليه المادة ، **وذات الجنب** : ورم حار في العضلات الباطنة والحجاب المستبطن ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٢٩٣) .

(2) قوت القلوب (١/ ٦٧) .

(3) روى الرافعي في « تاريخ قزوين » (٢/ ٢٠٦) مرفوعاً : « من قرأ : (قل هو الله أحد) ألف مرة . . فقد اشترىٰ نفسه من الله عز وجل » .

وكانوا يصلُّونَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألفَ مرةٍ[١] ، ويقولونَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ألفَ مرَّةٍ ، وإنْ قرأَ المسبِّحاتِ الستَّ في يومِ الجمعةِ أوْ ليلتِها . . فحسنٌ[٢] .

وليسَ يُروىٰ أنّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقرأُ سوراً بأعيانِها إلا في يومِ الجمعةِ وليلتِها ، كانَ يقرأُ في صلاةِ المغربِ ليلةَ الجمعةِ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، وكانَ يقرأُ في صلاةِ العشاءِ الآخرةِ ليلةَ الجمعةِ : سورةَ الجمعةِ ، والمنافقينَ[٣] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقرؤُهُما في ركعتي الجمعةِ ، وكانَ يقرأُ في صلاةِ الصبحِ يومَ الجمعةِ بسورةِ سجدةِ لقمانَ[٤] ، وسورةِ (هلْ أتىٰ على الإنسانِ)[٥] .

* * *

الخامسُ : الصلواتُ : يستحبُّ إذا دخلَ الجامعَ ألاَّ يجلسَ حتَّىٰ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ ، يقرأُ فيهنَّ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) مئتي مرةٍ ، في كلِّ ركعةٍ

---

(١) انظر « جلاء الأفهام » (ص٥٧) .
(٢) هي السور التي في أولها نحو : ﴿سَبَّحَ﴾ ، ﴿يُسَبِّحُ﴾ ، وهي : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ، والأعلىٰ .
(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٨٤١) .
(٤) وهي سورة السجدة ، سميت بالإضافة إلىٰ مجاورَتِها تمييزاً بها عن غيرها .
(٥) رواه مسلم (٨٧٩) .

خمسينَ مرَّةً ، فقدْ نُقلَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ مَنْ فعلَهُ . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ من الجنَّةِ ، أوْ يُرَىٰ لهُ[١] .

ولا يدعُ ركعتيِ التحيةِ وإنْ كانَ الإمامُ يخطبُ ، ولكنْ يخفِّفُ ، أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[٢] ، وفي حديثٍ غريبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سكتَ للدَّاخلِ حتَّىٰ فرغَ[٣] ، فقالَ الكوفيونَ : إنْ سكتَ لهُ الإمامُ . . صلاَّهُما[٤] .

ويستحبُّ في هـٰذا اليومِ أوْ في ليلتِهِ أنْ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ بأربعِ سورٍ ؛ سورةِ الأنعامِ ، والكهفِ ، وطه ، ويسٓ ، فإنْ لمْ يُحسنْ . . قرأَ يسٓ ، وسجدةَ لقمانَ ، وسورةَ الدخانَ ، وسورةَ الملكِ ، ولا يدعُ قراءةَ هـٰذهِ الأربعِ سورٍ في ليلةِ الجمعةِ ، ففيها فضلٌ كثيرٌ .

ومَنْ لا يحسنُ القرآنَ . . قرأَ ما يحسنُ ، فهوَ لهُ بمنزلةِ ختمةٍ[٥] ، ويكثرُ مِنْ قراءةِ سورةِ الإخلاصِ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (أخرجه الخطيب في « الرواة عن مالك » من حديث ابن عمر ، وقال : غريب جداً) ، وأخرجه الدارقطني في « غرائب مالك » وقال : لا يصح . « إتحاف » (٣/٢٩٦) .

(٢) رواه مسلم (٨٧٥) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٢٠٦) ، والدارقطني في « سننه » (٢/١٦) .

(٤) قوت القلوب (١/٦٧) ، وقال : (ولعل سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوص له ؛ لوجوب قوله) .

(٥) قوت القلوب (١/٦٧) ، وقال : (فذلك له ختمةٌ ، فقيل : ختمة من حيث علمه)

ويستحبُّ أنْ يصلِّيَ صلاةَ التسبيحِ كما سيأتي في بابِ التطوُّعاتِ كيفيتُها ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعمِّهِ العباسِ : « صلِّها في كلِّ جمعةٍ »(١) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما لا يدعُ هٰذهِ الصلاةَ يومَ الجمعةِ بعدَ الزوالِ ، وكانَ يخبرُ عنْ جلالةِ فضلِها(٢) .

والأحسنُ : أنْ يجعلَ وقتَهُ إلى الزوالِ للصلاةِ ، وبعدَ الجمعةِ إلى العصرِ لاستماعِ العلمِ ، وبعدَ العصرِ إلى المغربِ للتسبيحِ والاستغفارِ(٣) .

❁ ❁ ❁

السادسُ : الصدقةُ مستحبةٌ في هٰذا اليومِ خاصةً : فإنَّها تُضاعفُ إلا علىٰ مَنْ سألَ والإمامُ يخطبُ وكانَ يتكلَّمُ في كلامِ الإمامِ ، فهٰذا مكروهٌ .

قالَ صالحُ بنُ أحمدَ : (سألَ مسكينٌ يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطبُ وكانَ إلىٰ جنبِ أبي ، فأعطىٰ رجلٌ أبي قطعةً ـ ولمْ يعرفْهُ ـ ليناولَهُ إيَّاها ، فلمْ يأخذْها منهُ أبي)(٤) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا سألَ الرجلُ في المسجدِ . . فقدِ استحقَّ ألاَّ

---

(١) رواه أبو داوود (١٢٩٧) ، وابن ماجه (١٣٨٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٦٥) ، وقال : (فكذلك كان المتقدمون يقسمون يوم الجمعة هٰذه الأقسام الثلاثة) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٦٩) ، ولو كانت مستحبة . . لفعلها أحمد رحمه الله تعالىٰ .

يعطىٰ ، وإذا سألَ على القرآنِ . . فلا تعطوهُ)[1] .

ومنَ العلماءِ مَنْ كرهَ الصدقةَ على السُّؤَّالِ في الجامعِ الذين يتخطونَ رقابَ الناسِ ، إلا أنْ يسألَ قائماً أوْ قاعداً في مكانٍ مِنْ غيرِ أنْ يتخطَّىٰ .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (مَنْ شهدَ الجمعةَ ، ثمَّ انصرفَ ، فتصدَّقَ بشيئينِ مختلفينِ مِنَ الصدقةِ ، ثمَّ رجعَ فركعَ ركعتينِ يتمُّ ركوعَهُما وسجودَهُما وخشوعَهُما ، ثم يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ باسمِكَ بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، وباسمِكَ الذي لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، هوَ الحيُّ القيُّومُ ، لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ . . لمْ يسألِ اللهَ تعالىٰ شيئاً إلا أعطاهُ)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مَنْ أطعمَ مسكيناً يومَ الجمعةِ ، ثمَّ غدا وابتكرَ ، ولمْ يؤذِ أحداً ، ثمَّ قالَ حينَ يسلِّمُ الإمامُ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ الحيِّ القيُّومِ ، أسألُكَ أنْ تغفرَ لي وترحمَني وأنْ تعافيَني مِنَ النارِ ، ثمَّ دعا بما بدا لهُ . . استجيبَ لَهُ)[3] .

* * *

السابعُ : أنْ يجعلَ يومَ الجمعةِ للآخرةِ : فيكفُّ فيهِ عنْ جميعِ أشغالِ الدنيا ، ويكثرُ فيهِ الأورادَ ، ولا يبتدىءُ فيهِ السفرَ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ مَنْ سافرَ

(١) قوت القلوب (١/ ٦٩) ، واللحاق الآتي منه كذلك .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٩) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٦٩) .

في ليلةِ الجمعةِ . . دعا عليهِ ملكاهُ[1] ، وهوَ بعدَ طلوعِ الفجرِ حرامٌ إلا إذا كانتِ الرفقةُ تفوتُ .

وكرهَ بعضُ السلفِ شراءَ الماءِ في المسجدِ مِنَ السقَّاءِ ليشربَهُ أوْ يسبِّلَهُ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ مبتاعاً في المسجدِ ، فإنَّ البيعَ والشراءَ في المسجدِ مكروهٌ ، وقالوا : لا بأسَ لوْ أعطى القطعةَ خارجَ المسجدِ ثمَّ شربَ أوْ سبَّلَ في المسجدِ[2] .

وبالجملةِ : ينبغي أنْ يزيدَ في الجمعةِ في أورادِهِ وأنواعِ خيراتِهِ ، فإنَّ اللهَ سبحانَهُ إذا أحبَّ عبداً . . استعملَهُ في الأوقاتِ الفاضلةِ بفواضلِ الأعمالِ ، وإذا مقتَهُ . . استعملَهُ في الأوقاتِ الفاضلةِ بسيِّءِ الأعمالِ ، ليكونَ ذلكَ أوجعَ في عقابِهِ ، وأشدَّ لمقتِهِ ؛ لحرمانِهِ بركةَ الوقتِ ، وانتهاكِهِ حرمةَ الوقتِ .

ويستحبُّ في الجمعةِ دعواتٌ ، وسيأتي ذكرُها في كتابِ الدعواتِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

---

(١) رواه الخطيب في « الرواة عن مالك » ، والدارقطني في « الأفراد » ، كذا ذكر الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ٣٠٢) ، وهو بنحوه عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥١٥٨) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٦/ ٧٥) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٦٩) .

البَابُ السَّادِسُ
في مسائل متفرقة تعمّ بها البلوى، ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأمَّا المسائلُ التي تقعُ نادرةً . . فقدِ استقصيناها في كتبِ الفقهِ .

مَسْأَلَةٌ
[تتعلقُ بأفعالِ المصلي وحركاتِه في الصلاةِ صحةً وفساداً]

الفعلُ القليلُ وإنْ كانَ لا يبطلُ الصلاةَ فهوَ مكروهٌ إلا لحاجةٍ ، وذلكَ في دفعِ المارِّ أوْ قتلِ عقربٍ يخافُها ويمكنُ قتلُها بضربةٍ أوْ بضربتينِ ، فإذا صارتْ ثلاثاً . . كثرتْ وبطلتِ الصَّلاةُ ، وكذلكَ القملةُ والبرغوثُ ، مهما تأذَّىٰ بهما . . كانَ لهُ دفعُهُما ، وكذا حاجتُهُ إلى الحكِّ الذي يشوِّشُ عليهِ الخشوعَ .

كانَ معاذٌ يأخذُ القملةَ والبرغوثَ في الصَّلاةِ[1] ، وابنُ عمرَ كانَ يقتلُ القملةَ في الصَّلاةِ حتَّىٰ يظهرَ الدمُ علىٰ يدِهِ[2] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٥ ، ٧٥٦٠) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٦) عن عمر رضي الله عنه .

وقالَ النخعيُّ : (يأخذُها ويوهنُها ، ولا شيءَ عليه إنْ قتلَها)[١] .

وقالَ ابنُ المسيَّبِ : (يأخذُها فيخدِّرُها ثمَّ يطرحُها)[٢] .

وقالَ مُجاهدٌ : (الأحبُّ إليَّ أنْ يدعَها ، إلا أنْ تؤذيَهُ فتشغلَهُ عنْ صلاتِهِ ، فيوهنُها قدْرَ ما لا تؤذي ثمَّ يلقيها)[٣] .

وهٰذهِ رخصةٌ ، وإلاَّ . . فالكمالُ الاحترازُ عنِ الفعلِ وإنْ قلَّ ، ولذلكَ كانَ بعضُهمْ لا يطردُ الذبابَ ، وقالَ : (لا أعوِّدُ نفسي ذلكَ فيفسدَ عليَّ صلاتي ، وقدْ سمعتُ أنَّ الفساقَ يصبرونَ بينَ يدي الملوكِ علىٰ أذىً كثيرٍ ولا يتحرَّكونَ) .

ومهما تثاءبَ . . فلا بأسَ أنْ يضعَ يدَهُ علىٰ فيهِ ، وهوَ الأولىٰ ، وإنْ عطسَ . . حمدَ اللهَ عزَّ وجلَّ في نفسِهِ ولمْ يحرِّكْ لسانَهُ ، وإنْ تجشَّأَ . . فينبغي ألا يرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ، وإنْ سقطَ رداؤُهُ . . فلا ينبغي أنْ يسويَهُ ، وكذلكَ أطرافُ عِمامتِهِ ، فكلُّ ذلكَ مكروهٌ إلا لضرورةٍ .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ خلعِ النعالِ في الصلاةِ هلْ يفسدُ أمْ لا ، وهلِ الصلاةُ في النعلينِ جائزةٌ أمْ لا]

الصلاةُ في النعلينِ جائزةٌ وإنْ كانَ نزْعُ النعلينِ سهلاً ، وليستِ الرخصةُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٩) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٥٧) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٥٦٣) بمعناه .

في الخفِّ لعسرِ النزْعِ ، بلْ هـٰذهِ النجاسةُ معفوٌّ عنها ، وفي معناها المَداسُ ، صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في نعليهِ ثمَّ نزعَ ، فنزعَ النَّاسُ نعالَهُمْ ، فقالَ : « لمَ خلعتُمْ نعالَكُمْ ؟ » قالوا : رأيناكَ خلعتَ فخلعْنا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ أتاني فأخبرني أنَّ بِهما خبثاً ، فإذا أرادَ أحدُكُمُ المسجدَ . . فليقلبْ نعليْهِ ولينظرْ فيهِما ، فإنْ رأىٰ خبثاً . . فليمسحْهُ بالأرضِ وليصلِّ فيهِما »[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : الصلاةُ في النعلينِ أفضلُ ؛ لأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لِمَ خَلعْتُمْ نعالَكُمْ ؟ » وهـٰذهِ مبالغةٌ ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَهُمْ ليبيِّنَ لهمْ سببَ خلعِهِ ، إذْ علمَ أنَّهُمْ خلعوا علىٰ موافقتِهِ .

وقدْ روىٰ عبدُ اللهِ بنُ السائبِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلعَ نعليهِ[2] ، فإذاً قدْ فعلَ كليهما ؛ فمَنْ خلعَ . . فينبغي ألاَّ يضعَهُما عنْ يمينِهِ ويسارِهِ فيضيِّقَ الموضعَ ويقطعَ الصفَّ ، بلْ يضعُهُما بينَ يديهِ ، ولا يتركُهُما وراءَهُ فيكونَ قلبُهُ ملتفتاً إليهِما .

ولعلَّ مَنْ رأى الصلاةَ فيهما أفضلَ . . راعىٰ هـٰذا المعنىٰ ، وهوَ التفاتُ القلبِ إليهِما ، روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا صلَّىٰ أحدُكُمْ . . فليجعلْ نعلَيْهِ بينَ رجليهِ »[3] .

---

(١) رواه أبو داوود (٦٥٠) .
(٢) رواه النسائي (٢/١٧٦) .
(٣) رواه أبو داوود (٦٥٥) .

وقالَ أبو هريرةَ لغيرِهِ : (اجعلْهُما بينَ رجليكَ ولا تؤذِ بهِما مسلماً)[1] .

ووضعَهُما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ يسارِهِ وكانَ إماماً[2] ، فللإمامِ أنْ يفعلَ ذلكَ ؛ إذْ لا يقفُ أحدٌ علىٰ يسارِهِ ، والأولىٰ ألا يضعَهما بينَ قدميهِ فيشغلاهُ ، ولكنْ قدَّامَ قدميهِ ، ولعلَّهُ المرادُ بالحديثِ ، وقدْ قالَ جبيرُ بنُ مطعمٍ : (وضْعُ الرجلِ نعليهِ بينَ قدميهِ بدعةٌ)[3] .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ البزاقِ في الصلاةِ إذا غلبَهُ كيفَ يفعلُ]

إذا بزقَ في صلاتِهِ . . لمْ تبطلْ صلاتُهُ ؛ لأنَّهُ فعلٌ قليلٌ ، وما يحصلُ بهِ مِنْ صوتٍ لا يُعدُّ كلاماً وليسَ علىٰ شكلِ حروفِ الكلامِ ، إلا أنَّهُ مكروهٌ ، فينبغي أنْ يحترزَ عنهُ ، إلا كما أذنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ : إذْ روىٰ بعضُ الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأىٰ في القبلةِ نُخامةً ، فغضبَ غضباً شديداً ، ثمَّ حكَّها بعرجونٍ كانَ في يدِهِ ، وقالَ : « ائتوني بعبيرٍ » ، فلطَّخَ أثرَها بزعفرانٍ ، ثمَّ التفتَ إلينا وقال : « أيُّكم يُحِبُّ أنْ يُبزقَ في وجهِهِ ؟ » فقلنا : لا أيُّنا ، قالَ : « فإنَّ أحدَكُمْ إذا

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٨٠) .

(٢) رواه أبو داوود (٦٤٨) ، والنسائي (٢/ ٧٤) ، وابن ماجه (١٤٣١) .

(٣) والخبرُ عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٨١) عن نافع بن جبير بن مطعم .

دخلَ في صلاتِهِ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بينَهُ وبينَ القِبلَةِ »، وفي لفظٍ آخرَ: «.. واجَهَهُ اللهُ تعالىٰ ، فلا يبزقَنَّ أحدُكُمْ تلقاءَ وجْهِهِ ، ولا عنْ يمينِهِ ، ولكنْ عنْ شِمالِهِ أوْ تحتَ قدمِهِ اليسرىٰ ، فإنْ بدرَتْهُ بادرَةٌ.. فليبصقْ في ثوبِهِ وليقلْ بهِ هٰكذا » ودلكَ بعضَهُ ببعضٍ[1] .

مَسْأَلَةٌ

[في كيفيةِ وقوفِ المقتدي وراءَ الإمامِ]

لوقوفِ المقتدي سنةٌ وفرضٌ :

أمَّا السنةُ : فأنْ يقفَ الواحدُ عنْ يمينِ الإمامِ متأخِّراً عنهُ قليلاً ، والمرأةُ الواحدةُ تقفُ خلفَ الإمامِ ، فإنْ وقفتْ بجنبِ الإمامِ.. لمْ يضرَّ ، ولكنْ خالفتِ السنةَ ، فإنْ كانَ معها رجلٌ.. وقفَ الرجلُ عنْ يمينِ الإمامِ وهي خلفَ الرجلِ .

ولا يقفُ أحدٌ خلفَ الصفِّ منفرداً ، بلْ يدخلُ في الصفِّ ، أوْ يجرُّ إلىٰ نفسِهِ واحداً مِنَ الصفِّ ، فإنْ وقفَ منفرداً.. صحَّتْ صلاتُهُ معَ الكراهةِ .

وأمَّا الفرضُ : فاتصالُ الصفِّ ، وهوَ أنْ يكونَ بينَ المقتدي والإمامِ رابطةٌ جامعةٌ ، فإنَّهُما في جماعةٍ ، فإنْ كانا في مسجدٍ.. كفىٰ ذلكَ جامعاً ؛ لأنه بُنِيَ لهُ ، فلا يحتاجُ إلى اتصالِ صفٍّ ، بلْ إلىٰ أنْ يعرفَ أفعالَ الإمامِ ؛

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٨) ضمن حديث جابر الطويل، وسياق المصنف من «القوت» (١/ ٩٩).

صلَّىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ ظهْرِ المسجدِ بصلاةِ الإمامِ[(١)] .

وإذا كانَ المأمومُ علىٰ فناءِ المسجدِ في طريقٍ أوْ صحراءَ مشتركةٍ وليسَ بينَهُما اختلافُ بناءٍ مفرِّقٍ . . فيكفي القربُ بقدْرِ غَلْوةِ سهْمٍ[(٢)] ، وهيَ رابطةٌ ؛ إذْ يصلُ فعلُ أحدِهِما إلى الآخرِ ، وإنما يشترطُ[(٣)] إذا وقفَ في صحنِ دارٍ علىٰ يمينِ المسجدِ أوْ يسارِهِ وبابُها لافظٌ في المسجدِ[(٤)] ، فالشرطُ أنْ يمتدَّ صفُّ المسجدِ في دهليزِها مِنْ غيرِ انقطاعٍ إلى الصحنِ ، ثمَّ تصحُّ صلاة مَنْ في ذلكَ الصفِّ ومَنْ خلفَهُ دونَ مَنْ تقدَّمَ عليهِ ، وهكذا حكمُ الأبنيةِ المختلفةِ ، فأمَّا البناءُ الواحدُ والعَرْصَةُ الواحدةُ . . فكالصحراءِ[(٥)] .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ المسبوقِ]

المسبوقُ إذا أدركَ آخرَ صلاةِ الإمامِ . . فهوَ أوَّلُ صلاتِهِ ؛ فليوافقِ الإمامَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٦٢١٥) ، وهو من معلقات البخاري (باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب) .

(٢) أي : مقدار رمية سهم ، وهي ثلاث مئة ذراع إلىٰ أربع مئة ذراع ، والتقدير عرفي . انظر « الإتحاف » (٣/٣١٣) .

(٣) أي : يشترط الاتصال بالإمام إن كان المأموم في غير فضاء ، كما إذا . . .

(٤) **لافظ** : لاصق بالأرض نافذ من غير فاصل بينهما من طريق أو غيره. انظر «مشكل الوسيط » (٢/٢٣١) .

(٥) **العرصة** : الساحة ، والبقعة الواسعة لا بناء فيها ، والضمير في قوله : (من تقدَّم عليه) عائد على الصفِّ .

وليبنِ عليهِ ، وليقنتْ في الصبحِ في آخرِ صلاةِ نفسِهِ وإنْ قنتَ معَ الإمامِ ، وإنْ أدركَ معَ الإمامِ بعضَ القيامِ . . فلا يشتغلْ بالدعاءِ ، وليبدأْ بالفاتحةِ وليخففْها ، فإنْ ركعَ الإمامُ قبلَ تمامِها وقدرَ علىٰ لحوقِهِ في اعتدالِهِ عنِ الركوعِ . . فليتمَّ ، فإنْ عجزَ . . وافقَ الإمامَ وركعَ وكانَ لبعضِ الفاتحةِ حكمُ جميعِها ، فتسقطُ عنهُ بالسبقِ ، وإنْ ركعَ الإمامُ وهوَ في السورةِ . . فليقطعْها .

وإنْ أدركَ الإمامَ في السجودِ أوِ التشهدِ . . كبَّرَ للإحرامِ وجلسَ ولمْ يكبِّرْ ، بخلافِ ما إذا أدركَهُ في الركوعِ ؛ فإنَّهُ يكبِّرُ ثانياً في الهُوِيِّ ؛ لأنَّ ذلكَ انتقالٌ محسوبٌ لهُ ، والتكبيراتُ للانتقالاتِ الأصليةِ في الصلاةِ ، لا للعوارضِ بسببِ القدوةِ .

ولا يكونُ مدركاً للركعةِ ما لمْ يطمئنَّ في الركوعِ والإمامُ بعدُ في حدِّ الراكعينَ ، فإنْ لمْ يتمَّ طمأنينتَهُ إلا بعدَ مجاوزةِ الإمامِ حدَّ الراكعينَ . . فاتتْهُ تلكَ الركعةُ .

مَسْأَلَةٌ

[في متفرقاتِ مسائلِ الفائتةِ والجماعةِ]

مَنْ فاتَتْهُ صلاةُ الظهرِ إلىٰ وقتِ العصرِ . . فليصلِّ الظهرَ أوَّلاً ثمَّ العصرَ ، فإنِ ابتدأَ بالعصرِ . . أجزأَهُ، ولكنْ تركَ الأولىٰ ، واقتحمَ شبهةَ الخلافِ[1] .

(١) إذ الترتيبُ بين الفائتة والوقتية وبين الفوائت مستحقٌ لازم عند الحنفية . انظر « مراقي الفلاح » (ص٣٧٧) .

فإنْ وجدَ إماماً . . فليصلِّ العصرَ ثمَّ ليصلِّ الظهرَ بعدَهُ ، فإنَّ الجماعةَ بالأداءِ أولىٰ .

وإنْ صلَّىٰ منفرداً في أوَّلِ الوقتِ ، ثمَّ أدركَ جماعةً . . صلَّىٰ في الجماعةِ ونوىٰ صلاةَ الوقتِ ، واللهُ يحتسبُ أكملَهُما ، فإنْ نوىٰ فائتةً أوْ تطوُّعاً . . جازَ .

وإنْ كانَ قدْ صلَّىٰ في جماعةٍ ، فأدركَ جماعةً أخرىٰ . . فلينوِ الفائتةَ أوِ النافلةَ ، فإعادةُ المؤدَّاةِ بالجماعةِ مرَّةً أخرىٰ لا وجهَ لهُ ، وإنَّما احتملَ ذلكَ لدرْكِ فضيلةِ الجماعةِ .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ منْ رأىٰ علىٰ ثوبِهِ نجاسةً : هلْ يتمُّ صلاتَهُ أو يستأنفُ]

مَنْ صلَّىٰ ثمَّ رأىٰ علىٰ ثوبِهِ نجاسةً . . فالأحبُّ قضاءُ الصلاةِ ولا يلزمُهُ ، ولوْ رأى النجاسةَ في أثناءِ الصلاةِ . . رمىٰ بالثوبِ وأتمَّ ، والأحبُّ الاستئنافُ .

وأصلُ هٰذا : قصةُ خلْعِ النعلينِ ، حيثُ أخبرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ بأنَّ عليهِما نجاسةً ، فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يستأنفِ الصلاةَ .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ سجودِ السهوِ]

مَنْ تركَ التشهدَ الأوَّلَ ، أوِ القنوتَ ، أوْ تركَ الصلاةَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التشهدِ الأوَّلِ ، أوْ فعلَ فعلاً سهواً وكانت الصلاةُ تبطلُ بعمدِهِ ، أوْ شكَّ فلمْ يدْرِ : أصلَّىٰ ثلاثاً أمْ أربعاً . . أخذَ باليقينِ وسجدَ سجدتيِ السهوِ قبلَ السلامِ ، فإنْ نسيَ . . فبعدَ السلامِ مهما تذكَّرَ على القربِ ، فإنْ سجدَ بعدَ السلامِ ، وأحدثَ . . بطلتْ صلاتُهُ ؛ فإنَّهُ لمَّا دخلَ في السجودِ كأنَّهُ جعلَ سلامَهُ نسياناً في غيرِ محلِّهِ ، فلمْ يحصلِ التحلُّلُ بهِ ، وعادَ إلى الصلاةِ ، فلذلكَ يستأنفُ السلامَ بعدَ السجودِ .

فإنْ تذكَّرَ سجودَ السهوِ بعدَ خروجِهِ مِنَ المسجدِ ، أوْ بعدَ طولِ الفصْلِ . . فقدْ فاتَ .

مَسْأَلَةٌ

[في بيانِ الدواءِ النافعِ للوسوسةِ في نيةِ الصلاةِ]

الوسوسةُ في نيّةِ الصلاةِ سببُها خَبَلٌ في العقلِ ، أوْ جهلٌ بالشرعِ ؛ لأنَّ امتثالَ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ مثلُ امتثالِ أمرِ غيرِهِ ، وتعظيمَهُ كتعظيمِ غيرِهِ في حقِّ القصْدِ(١) ، ومَنْ دخلَ عليهِ عالمٌ فقامَ لهُ ، فلوْ قالَ : نويتُ أنْ أنتصبَ قائماً

(١) وهـٰذا ضربه مثلاً للبيان أو التفهيم ، وإن كان بين الامتثالين والتعظيمين بونٌ لا يخفىٰ . « إتحاف » (٣/ ٣٢١) .

تعظيماً لدخولِ زيدٍ الفاضلِ لأجلِ فضلِهِ متصلاً بدخولِهِ مقبلاً عليهِ بوجهي . . سُفَّهَ في عقلِهِ ، بلْ كما يراهُ ويعلمُ فضلَهُ تنبعثُ داعيةُ التعظيمِ فتقيمُهُ ويكونُ معظِّماً ، إلا إذا قامَ لشغلٍ آخرَ أوْ في غفلةٍ .

واشتراطُ كونِ الصلاةِ ظهراً أداءً فرضاً في كونِهِ امتثالاً . . كاشتراطِ كونِ القيامِ مقروناً بالدخولِ معَ الإقبالِ بالوجهِ على الداخلِ وانتفاءِ باعثٍ آخرَ سواهُ ، وقصْدِ التعظيمِ بهِ ليكونَ تعظيماً ؛ فإنَّهُ لوْ قامَ مدبراً عنهُ ، أوْ صبرَ فقامَ بعدَ ذلكَ بمدةٍ . . لمْ يكنْ معظِّماً .

ثمَّ هـٰذهِ الصفاتُ لا بدَّ وأنْ تكونَ معلومةً ، وأنْ تكونَ مقصودةً ، ثمَّ لا يطولُ حضورُها في النفسِ في لحظةٍ واحدةٍ ، وإنَّما يطولُ نظْمُ الألفاظِ الدالَّةِ عليها ؛ إمَّا تلفظاً باللسانِ ، وإمَّا تفكُّراً بالقلبِ ، فمَنْ لمْ يفهمْ نيَّةَ الصلاةِ علىٰ هـٰذا الوجهِ . . فكأنَّهُ لمْ يفهمِ النيَّةَ ، فليسَ في ذلكَ إلا أنَّكَ دعيتَ إلىٰ أنْ تصلِّيَ في وقتٍ ، فأجبتَ وقمتَ ، فالوسوسةُ محضُ الجهلِ ، فإنَّ هـٰذهِ القُصُودَ وهـٰذهِ العلومَ تجتمعُ في النفسِ في حالةٍ واحدةٍ ، ولا تكونُ مفصَّلةَ الآحادِ في الذهنِ بحيثُ تطالعُها النفسُ وتتأمَّلُها .

وفرقٌ بينَ حضورِ الشيءِ في النفسِ وبينَ تفصيلِهِ بالفكرِ ، والحضورُ مضادٌّ للعزوبِ[1] والغفلةِ وإنْ لمْ يكنْ مفصّلاً ؛ فإنَّ مَنْ علمَ الحادثَ مثلاً فيعلمُهُ بعلمٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ ، وهـٰذا العلمُ يتضمَّنُ علوماً هيَ حاضرةٌ

---

(١) العزوب : الغيبة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ أي : لا يغيب .

وإنْ لمْ تكنْ مفصَّلةً ، فإنَّ مَنْ علمَ الحادثَ فقدْ علمَ الموجودَ والمعدومَ ، والتقدُّمَ والتأخُّرَ ، والزمانَ ، وأنَّ التقدُّمَ للعدمِ ، وأنَّ التأخرَ للوجودِ .

فهٰذهِ العلومُ منطويةٌ تحتَ العلْمِ بالحادثِ ؛ بدليلِ أنَّ العالِمَ بالحادثِ إذا لمْ يعلمْ غيرَهُ لوْ قيلَ لهُ : (هلْ علمتَ التقدُّمَ قطُّ أوِ التأخُّرَ أوِ العدمَ أوْ تقدُّمَ العدمِ أوْ تأخُّرَ الوجودِ أوِ الزمانَ المنقسمَ إلى المتقدِّمِ والمتأخِّرِ؟) فقالَ : ما عرفتُهُ قطُّ .. كانَ كاذباً ، وكانَ قولُهُ مناقضاً لقولِهِ : (إنِّي أعلمُ الحادثَ) .

ومِنَ الجهلِ بهٰذهِ الدقيقةِ يثورُ الوسواسُ ، فإنَّ الموسوِسَ يكلِّفُ نفسَهُ أنْ يحضرَ في قلبِهِ الظُّهريةَ والأدائيةَ والفرضيةَ في حالةٍ واحدةٍ مفصَّلةً بألفاظِها وهوَ يطالعُها ، وذلكَ محالٌ ، ولوْ كلَّفَ نفسَهُ ذلكَ في القيامِ لأجلِ العالمِ لتعذَّرَ عليهِ .

فبهٰذهِ المعرفةِ يندفعُ الوسواسُ ؛ وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ امتثالَ أمرِ اللهِ سبحانَهُ في النيةِ كامتثالِ أمرِ غيرِهِ .

ثمَّ أزيدُ عليهِ علىٰ سبيلِ التسهيلِ والرخصةِ وأقولُ : لوْ لمْ يفهمِ الموسوِسُ النيّةَ إلا بإحضارِ هٰذهِ الأمورِ مفصَّلةً ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ الامتثالَ دفعةً واحدةً ، وأحضرَ جملةَ ذلكَ في أثناءِ التكبيرِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، بحيثُ لمْ يفرغْ مِنَ التكبيرِ إلا وقدْ حصلتِ النيّةُ .. كفاهُ ذلكَ ، ولا نكلِّفُهُ أنْ يقرنَ الجميعَ بأوَّلِ التكبيرِ أوْ آخرِهِ ، فإنَّ ذلكَ تكليفٌ شططٌ ،

ولوْ كانَ مأموراً بهِ.. لوقعَ للأوَّلينَ سؤالٌ عنهُ ، ولوسوسَ واحدٌ مِنَ الصحابةِ في النيةِ ، فعدمُ وقوعِ ذلكَ دليلٌ علىٰ أَنَّ الأمرَ على التساهلِ ، فكيفما تيسَّرتِ النيةُ للموسوسِ ينبغي أنْ يقنعَ بها ، حتَّىٰ يتعوَّدَ ذلكَ وتفارقَهُ الوسوسةُ ، ولا يطالبُ نفسَهُ بتحقيقِ ذلكَ ؛ فإنَّ التحقيقَ يزيدُ في الوسوسةِ .

وقدْ ذكرنا في « الفتاوىٰ »[1] وجوهاً مِنَ التحقيقِ في تفصيلِ العلومِ والقُصُودِ المتعلقةِ بالنيةِ ، تفتقرُ العلماءُ إلىٰ معرفتِها ، أمَّا العاميُّ فربَّما يضرُّهُ سماعُها ، وتهيِّجُ عليهِ الوسواسَ ، فلذلكَ تركناها .

مَسْأَلَةٌ

[في ذكرِ شرطِ صحةِ الاقتداءِ]

لا ينبغي أنْ يتقدَّمَ المأمومُ على الإمامِ في الركوعِ والسجودِ والرفعِ منهُما ، وفي سائرِ الأعمالِ ، ولا ينبغي أنْ يساوقَهُ ، بلْ يتبعُهُ ويقفو أثرَهُ ، فهٰذا معنى الاقتداءِ ، فإن ساوقَهُ عمداً[2].. لمْ تبطلْ صلاتُهُ ، كما لوْ وقفَ بجنبِهِ غيرَ متأخِّرٍ عنهُ ، وإنْ تقدَّمَ عليهِ.. ففي بطلانِ صلاتِهِ خلافٌ ،

(١) وهي أسئلة وردت عليه من أصحابه وأقرانه ، وأجاب عنها ، ثم جمع ذلك في كتاب ، وهو مشهور ينقل عنه الأئمة ويعتمدونه ، واختصره محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر الفارقي في كتاب لطيف . « إتحاف » (٣/ ٣٢٣) .
(٢) في غير التكبير . « إتحاف » (٣/ ٣٢٤) .

ولا يبعدُ أنْ يُقضىٰ بالبطلانِ تشبيهاً بما لوْ تقدَّمَ في الموقفِ على الإمامِ ، بلْ هـٰذا أولىٰ ؛ لأنَّ الجماعةَ اقتداءٌ في الفعلِ لا في الموقفِ ، فالتبعيةُ في الفعلِ أهمُّ ، وإنَّما شُرِطَ تركُ التقدُّمِ في الموقفِ تسهيلاً للمتابعةِ في الفعلِ ، وتحصيلاً لصورةِ التبعيةِ ؛ إذِ اللائقُ بالمقتدىٰ بهِ أنْ يتقدَّمَ ، فالتقدُّمُ عليهِ في الفعلِ لا وجهَ لهُ إلا أنْ يكونَ سهواً ، ولذلكَ شدَّدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ النكيرَ وقالَ : « أما يخشى الذي يرفعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ أنْ يحوِّلَ اللهُ رأسَهُ رأسَ حمارٍ »(١) .

وأمَّا التأخُّرُ عنهُ بركنٍ واحدٍ . . فلا يبطلُ الصلاةَ ، وذلكَ بأنْ يعتدلَ الإمامُ عنْ ركوعِهِ وهوَ بعدُ لمْ يركعْ ، ولكنَّ التأخُّرَ إلىٰ هـٰذا الحدِّ مكروهٌ ، فإنْ وضعَ الإمامُ جبهتَهُ على الأرضِ وهوَ بعدُ لمْ ينتهِ إلىٰ حدِّ الراكعينَ . . بطلتْ صلاتُهُ ، وكذا إنْ وضعَ الإمامُ جبهتَهُ للسجودِ الثاني وهوَ بعدُ لمْ يسجدِ السجودَ الأوَّلَ .

مَسْأَلَةٌ

[في الأمرِ بالمعروفِ ، ومنها تسويةُ الصفوفِ وفضلِ الجماعةِ والصفِّ الأيمنِ]

حقٌّ علىٰ مَنْ حضرَ الصلاةَ إذا رأىٰ مِنْ غيرِهِ إساءةً في صلاتِهِ أنْ يغيِّرَهُ وينكرَ عليهِ ، وإنْ صدرَ عنْ جهلٍ . . رفَقَ بالجاهلِ وعلَّمَهُ ، فمنْ ذلكَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

الأمرُ بتسويةِ الصفوفِ ، ومنعُ المنفردِ بالوقوفِ خارجَ الصفِّ ، والإنكارُ علىٰ مَنْ يرفعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الأمورِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ للعالمِ مِنَ الجاهلِ حيثُ لا يعلِّمُهُ »[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ رأىٰ مَنْ يسيءُ صلاتَهُ فلمْ ينهَهُ . . فهوَ شريكُهُ في وزْرِها) .

وعنْ بلالِ بنِ سعدٍ أنَّهُ قالَ : (الخطيئةُ إذا أُخفيتْ . . لمْ تضرَّ إلا صاحبَها ، فإذا أُظهرتْ فلمْ تُغيَّرْ . . أضرَّتْ بالعامَّةِ)[2] .

وجاءَ في الحديثِ : أنَّ بلالاً كانَ يسوِّي الصفوفَ ويضربُ عراقيبَهُمْ بالدِّرَّةِ[3] .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (تفقَّدُوا إخوانَكُمْ في الصلاةِ ، فإذا فقدتموهُمْ ؛ فإنْ كانوا مرضىٰ . . فعودُوهُمْ ، وإنْ كانوا أصحَّاءَ . . فعاتبوهُمْ) ، والعتابُ إنكارٌ علىٰ تركِ الجماعةِ ، ولا ينبغي أنْ يتساهلَ فيهِ .

وقدْ كانَ الأوَّلونَ يبالغونَ فيهِ ، حتَّىٰ كانَ بعضُهمْ يحملُ الجنازةَ إلىٰ بابِ

---

(١) قال العراقي : (أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس بسند ضعيف) ، وفي حديث المسيء صلاته المشهور شاهد لهذه المسألة . « إتحاف » (٣/ ٣٢٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٢٢) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢/ ٤٧) ، ولفظه : (كان بلال يضرب أقدامنا في الصلاة ويسوي مناكبنا) .

مَنْ تخلَّفَ عنِ الجماعةِ إشارةً إلىٰ أَنَّ الميتَ هوَ الذي يتأخَّرُ عنِ الجماعةِ دونَ الحيِّ .

ومَنْ دخلَ المسجدَ ينبغي أنْ يقصدَ يمينَ الصفِّ ، ولذلكَ تزاحمَ الناسُ عليهِ في زمنِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ قيلَ لهُ : تعطلتِ الميسرةُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عمَّرَ ميسرةَ المسجدِ . . كانَ لهُ كِفلانِ مِنَ الأجرِ »[1] .

ومهما وجدَ غلاماً في الصفِّ ولمْ يجدْ لنفسِهِ مكاناً . . فلهُ أنْ يخرجَهُ إلىٰ خلفٍ ويدخلَ فيهِ ؛ أعني : إذا لمْ يكنْ بالغاً .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنَ المسائلِ التي تعمُّ بها البلوىٰ ، وسيأتي أحكامُ الصلواتِ المتفرقةِ في كتابِ الأورادِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

(١) رواه ابن ماجه (١٠٠٧) .

البَابُ السَّابِعُ
في النّوافل من الصّلوات

اعلمْ : أنَّ ما عدا الفرائضَ مِنَ الصلواتِ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : **سننٌ ، ومستحبّاتٌ ، وتطوعاتٌ** .

ونعني بالسننِ : ما نُقلَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المواظبةُ عليهِ ؛ كالرواتبِ عَقيبَ الصلواتِ ، وصلاةِ الضحىٰ ، والوترِ ، والتهجُّدِ ، وغيرِهِ ؛ لأنَّ السنَّةَ عبارةٌ عنِ الطريقةِ المسلوكةِ .

ونعني بالمستحبّاتِ : ما وردَ الخبرُ بفضلِهِ ولمْ ينقلِ المواظبةُ عليهِ ؛ كما سننقلُهُ في صلواتِ الأيامِ والليالي في الأسبوعِ ، وكالصلاةِ عندَ الخروجِ مِنَ المنزلِ والدخولِ فيهِ ، وأمثالِ ذلكَ[1] .

ونعني بالتطوعاتِ : ما وراءَ ذلكَ ؛ ممَّا لمْ يردْ في عينِهِ أثرٌ ، ولكنَّهُ تطوَّعَ بهِ العبدُ مِنْ حيثُ رغبَ في مناجاةِ اللهِ تعالىٰ بالصَّلاةِ التي وردَ الشرعُ بفضلِها مطلقاً ، فكأنَّهُ متبرِّعٌ بهِ ؛ إذْ لمْ يندبْ إلىٰ تلكَ الصَّلاةِ بعينِها وإنْ

(١) وكذا لو أمر به ولم يفعله ، كما صرَّح به الخوارزمي في « الكافي » ، ومثاله : الركعتان قبل المغرب . « إتحاف » (٣/ ٣٢٩) .

ندبَ إلى الصَّلاةِ مطلقاً[1] ، والتطوُّعُ عبارةٌ عنِ التبرُّعِ .

وسمِّيتِ الأقسامُ الثلاثةُ نوافلَ مِنْ حيثُ إنَّ النفلَ هوَ الزيادةُ ، وجملتُها زائدةٌ على الفرائضِ ، فلفظُ النافلةِ والسنةِ والمستحبِّ والتطوعِ أردنا الاصطلاحَ عليهِ لتعريفِ هـٰذهِ المقاصدِ ، ولا حرجَ علىٰ مَنْ يغيِّرُ هـٰذا الاصطلاحَ ، فلا مشاحَّةَ في الألفاظِ بعدَ فهمِ المقاصدِ .

وكلُّ قسمٍ مِنْ هـٰذهِ الأقسامِ تتفاوتُ درجاتُهُ في الفضْلِ بحسَبِ ما وردَ فيهِ مِنَ الأخبارِ والآثارِ المعرِّفةِ لفضلِهِ ، وبحسَبِ طولِ مواظبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِ ، وبحسَبِ صحَّةِ الأخبارِ الواردةِ فيهِ واشتهارِها ، ولذلكَ نقولُ :

سننُ الجماعاتِ أفضلُ مِنْ سننِ الانفرادِ .

وأفضلُ سننِ الجماعاتِ : صلاةُ العيدِ ، ثمَّ الكسوفِ ، ثمَّ الاستسقاءِ .

وأفضلُ سننِ الانفرادِ : الوترُ ، ثمَّ ركعتا الفجرِ ، ثمَّ ما بعدَهُما مِنَ الرواتبِ علىٰ تفاوتِها .

واعلمْ : أنَّ النوافلَ باعتبارِ الإضافةِ إلىٰ متعلقاتِها تنقسمُ إلىٰ :

ـ ما يتعلَّقُ بأسبابٍ ؛ كالكسوفِ والاستسقاءِ .

---

(1) فقد روى الطبراني في « الأوسط » (٢٤٥) مرفوعاً : « الصلاة خير موضوع ، فمن استطاع أن يستكثر . . فليستكثر » .

وإلىٰ ما يتعلَّقُ بأوقاتٍ ، والمتعلِّقُ بالأوقاتِ ينقسم إلىٰ :

ـ ما يتكرَّرُ بتكرُّرِ اليومِ والليلةِ .

ـ أوْ بتكرُّرِ الأسبوعِ .

ـ أوْ بتكرُّرِ السنةِ .

فالجملةُ أربعةُ أقسامٍ .

* * *

القسم الأول : ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية

خمسةٌ هيَ رواتبُ الصلواتِ الخمسِ ، وثلاثةٌ وراءَها وهيَ : صلاةُ الضحىٰ ، وإحياءُ ما بينَ العشاءينِ ، والتهجُّدُ مِنَ الليلِ .

الأولىٰ : **راتبةُ الصبْحِ** : وهيَ ركعتانِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ركعتا الفجرِ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها »[1] .

ويدخلُ وقتُها بطلوعِ الفجرِ الصادقِ ، وهوَ المستطيرُ دونَ المستطيلِ[2] ، وإدراكُ ذلكَ بالمشاهدةِ عسيرٌ في أوَّلِهِ ، إلاَّ بتعلُّمِ منازلِ القمرِ ؛ إذْ يُعلمُ اقترانُ طلوعِهِ بالكواكبِ الظاهرةِ للبصرِ ، فيُستدلُّ بالكواكبِ عليهِ ، ويعرفُ بالقمرِ في ليلتينِ مِنَ الشهرِ ، فإنَّ القمرَ يطلعُ معَ الفجرِ ليلةَ ستٍّ وعشرينَ ، ويطلعُ الصبحُ معَ غروبِ القمرِ ليلةَ اثني عشرَ مِنَ الشهرِ ، هٰذا هوَ الغالبُ[3] ، ويتطرَّقُ إليهِ تفاوتٌ في بعضِ البروجِ ، وشرحُ ذلكَ يطولُ .

---

(١) رواه مسلم (٧٢٥) .

(٢) فالمستطير : هو الذي يطلع عرضاً منتشراً ، سمي صادقاً لأنه صدق عن الصبح وبينه ، والمستطيل : هو الفجر الكاذب الذي يظهر طولاً كذنب السرحان ثم يغيب . « إتحاف » (٣/ ٣٣١) .

(٣) وثمة تفصيل ذكره صاحب « القوت » (١/ ٢٢) .

وتعلُّمُ منازلِ القمرِ مِنَ المهمَّاتِ للمريدِ ؛ حتَّىٰ يطلعَ بهِ علىٰ مقاديرِ الأوقاتِ بالليلِ وعلى الصبحِ .

ويفوتُ وقتُ ركعتيِ الفجرِ بفواتِ وقتِ فريضةِ الصبحِ ، وهوَ طلوعُ الشمسِ ، ولكنَّ السنَّةَ أداؤُهما قبلَ الفرضِ ، فإنْ دخلَ المسجدَ وقدْ قامتِ الصلاةُ . . فليشتغلْ بالمكتوبةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أقيمتِ الصلاةُ . . فلا صلاةَ إلا المكتوبةُ »[١] .

ثمَّ إذا فرغَ مِنَ المكتوبةِ . . قامَ إليهما وصلاَّهُما .

والصحيحُ : أنَّهما تكونانِ أداءً ما وقعتا قبلَ طلوعِ الشمسِ ؛ لأنَّهما تابعتانِ للفرضِ في وقتِهِ ، وإنَّما الترتيبُ بينَهُما سنَّةٌ في التقديمِ والتأخيرِ إذا لمْ يصادفْ جماعةً ، فإذا صادفَها . . انقلبَ الترتيبُ وبقيتا أداءً .

والمستحبُّ أنْ يصليَهُما في المنزلِ ويخففَهُما ، ثمَّ يدخلُ المسجدَ ويصلِّي ركعتيِ التحيةِ ، ثمَّ يجلسُ ولا يصلِّي إلىٰ أنْ يصلِّيَ المكتوبةَ ، فما بينَ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ الأحبُّ فيهِ الذكرُ والفكْرُ ، والاقتصارُ علىٰ ركعتيِ الفجرِ والفريضةِ[٢] .

❁ ❁ ❁

الثانيةُ : راتبةُ الظهرِ : وهيَ ستُّ ركعاتٍ : ركعتانِ بعدَها وهي سنَّةٌ

---

(١) رواه مسلم (٧١٠) .

(٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ فيهما بـ (قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد) كما في « مسلم » (٧٢٦) وغيره .

مؤكَّدةٌ ، وأربعٌ قبلَها وهيَ أيضاً سنَّةٌ وإنْ كانتْ دونَ الركعتينِ الأخيرتينِ .

روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ أربعَ ركعاتٍ بعدَ زوالِ الشمسِ ، يحسنُ قراءتَهُنَّ وركوعَهُنَّ وسجودَهُنَّ . . صلَّىٰ معهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ يستغفرونَ لهُ حتَّى الليلِ »[١] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يدعُ أربعاً بعدَ الزوالِ ، يطيلُهُنَّ ويقولُ : « إنَّ أبوابَ السماءِ تفتحُ في هٰذهِ الساعةِ ، فأحبُّ أنْ يُرفعَ لي فيها عملٌ » رواهُ أبو أيوبَ الأنصاريُّ وتفرَّدَ بهِ[٢] .

ودلَّ عليهِ أيضاً ما روتْ أمُّ حبيبةَ زوجُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ في يومٍ اثنتي عشرَةَ ركعةً غيرَ المكتوبةِ . . بنى اللهُ لهُ بيتاً في الجنَّةِ : ركعتينِ قبلَ الفجرِ ، وأربعاً قبلَ الظهرِ ، وركعتينِ بعدَها ، وركعتينِ قبلَ العصرِ ، وركعتينِ بعدَ المغربِ »[٣] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (حفظتُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ يومٍ عشرَ ركعاتٍ) ، فذكرَ ما ذكرتْهُ أمُّ حبيبةَ رضيَ اللهُ عنها

---

(١) في « القوت » (١/ ٢٧) : (عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغاً من حديث ابن مسعود ، ولم أره من حديث أبي هريرة) . « إتحاف » (٣/ ٣٣٦) وقد ذكره المصنف في « بداية الهداية » (ص١١٩) .

(٢) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/ ٤١٦) .

(٣) رواه النسائي (٣/ ٢٦٢) بتأخير ركعتي الفجر ، وأصله عند مسلم (٧٢٨) .

إلا ركعتي الفجرِ ، فإنَّهُ قالَ : (تلكَ ساعةٌ لمْ يكنْ يُدخلُ فيها علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولكنْ حدثتني أختي حفصةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي ركعتينِ في بيتِها ثمَّ يخرجُ) ، وقالَ في حديثِهِ : (ركعتينِ قبلَ الظهرِ ، وركعتينِ بعدَ العشاءِ)[1] ، فصارَ الركعتانِ قبلَ الظهرِ آكدَ مِنْ جملةِ الأربعةِ .

ويدخلُ وقتُ ذلكَ بالزوالِ ، والزوالُ يعرفُ بزيادةِ ظلِّ الأشخاصِ المنتصبةِ مائلاً إلىٰ جهةِ المشرقِ ، إذْ يقعُ للشخصِ ظلٌّ عندَ الطلوعِ في جانبِ المغربِ يستطيلُ ، فلا تزالُ الشمسُ ترتفعُ والظلُّ ينقصُ وينحرفُ عنْ جهةِ المغربِ إلىٰ أنْ تبلغَ الشمسُ منتهى ارتفاعِها ، وهوَ قوسُ نصفِ النهارِ ، فيكونُ ذلكَ منتهىٰ نقصانِ الظلِّ ، فإذا زالتِ الشمسُ عنْ منتهى الارتفاعِ . . أخذَ الظلُّ في الزيادةِ ، فمِنْ حيثُ صارتِ الزيادةُ مدركةً بالحسِّ . . دخلَ وقتُ الظهرِ ، ويعلمُ قطعاً أَنَّ الزوالَ في علمِ اللهِ تعالىٰ وقعَ قبلَهُ ، ولكنَّ التكاليفَ لا ترتبطُ إلا بما يدخلُ تحتَ الحسِّ .

والقدْرُ الباقي مِنَ الظلِّ الذي منهُ يأخذُ في الزيادةِ يطولُ في الشتاءِ ويقصرُ في الصيفِ ، ومنتهىٰ طولِهِ بلوغُ الشمسِ أوَّلَ الجدْيِ[2] ، ومنتهىٰ قصرِهِ بلوغُها أوَّلَ السرطانِ[3] .

---

(١) حديث ابن عمر رضي الله عنهما بجملِهِ رواه البخاري (١١٨٠ ، ١١٨١) .
(٢) وهو ثامن البروج ، يبدأ في (١٦) كانون الأول الرومي . انظر « الإتحاف » (٣/ ٣٤١) .
(٣) وهو رابع البروج ، يبدأ من بعد انتصاف (١٧) حزيران الرومي . «إتحاف» (٣/ ٣٤١) .

ويعرفُ ذلكَ بالأقدامِ والموازينِ[1] .

ومِنَ الطرقِ القريبةِ مِنَ التحقيقِ لمنْ أحسنَ مراعاتَهُ : أنْ يلاحظَ القطبَ الشماليَّ بالليلِ ، ويضعَ على الأرضِ لوحاً مربَّعاً وضعاً مستوياً ، بحيثُ يكونُ أحدُ أضلاعِهِ مِنْ جانبِ القطبِ ، بحيثُ لوْ توهمتَ سقوطَ حجرٍ مِنَ القطبِ إلى الأرضِ ثمَّ توهمْتَ خطّاً مِنْ مسقَطِ الحجرِ إلى الضلعِ الذي يليهِ مِنَ اللوحِ . . لقامَ الخطُّ على الضلعِ علىٰ زاويتينِ قائمتينِ ؛ أيْ : لا يكونُ الخطُّ مائلاً إلىٰ أحدِ الضلعينِ ، ثمَّ تنصبُ عموداً على اللوحِ نصباً مستوياً في موضعِ علامةِ (ﮦ) وهوَ بإزاءِ القطبِ ، فيقعُ ظلُّهُ على اللوحِ في أوَّلِ النهارِ مائلاً إلىٰ جهةِ المغربِ في صوبِ خطِّ (آ) ، ثمَّ لا يزالُ يميلُ إلىٰ أنْ ينطبقَ علىٰ خطِ (بَ) بحيثُ لوْ مدَّ رأسُهُ . . لانتهىٰ على الاستقامةِ إلىٰ مسقطِ الحجرِ ، ويكونُ موازياً للضلعِ الشرقيِّ والغربيِّ غيرَ مائلٍ إلىٰ أحدِهما ، فإذا بطلَ ميلُهُ إلى الجانبِ الغربيِّ . . فالشمسُ في منتهى الارتفاعِ ، فإذا انحرفَ الظلُّ عنِ الخطِّ الذي على اللوحِ إلىٰ جانبِ الشرقِ . . فقدْ زالتِ الشمسُ .

وهـٰذا يدركُ بالحسِّ تحقيقاً في وقتٍ هوَ قريبٌ مِنْ أوَّلِ الزوالِ في علمِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يُعْلِمُ علىٰ رأسِ الظلِّ عندَ انحرافِهِ علامةً ، فإذا صارَ الظلُّ مِن تلكَ العلامةِ مثلَ العمودِ القائمِ . . دخلَ وقتُ العصرِ .

فهـٰذا القدْرُ لا بأسَ بمعرفتِهِ في علمِ الزوالِ .

---

(١) أفاض في شرح ذلك الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ٣٤١ـ٣٤٤) .

وهـٰذهِ صورتُهُ[1] :

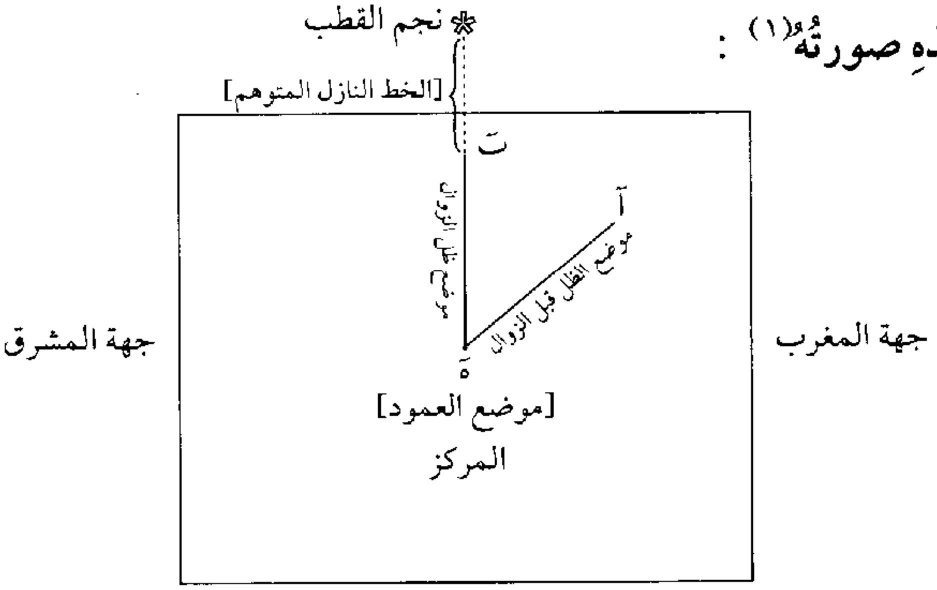

الثالثةُ : راتبةُ العصرِ : وهيَ أربعُ ركعاتٍ قبلَ العصرِ ، روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « رحمَ اللهُ عبداً صلَّىٰ أربعاً قبلَ العصرِ »[2] .

ففعلُ ذلكَ علىٰ رجاءِ الدخولِ في دعوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . مستحبٌّ استحباباً مؤكَّداً ؛ فإنَّ دعوتَهُ مستجابةٌ لا محالةَ .

ولمْ تكنْ مواظبتُهُ على السنَّةِ قبلَ العصرِ كمواظبتِهِ علىٰ ركعتينِ قبلَ الظهرِ .

---

(١) هـٰذه الصورة أثبتت من (أ) وهي أوضح الصور وأقربها لشرح المصنف .
(٢) رواه أبو داوود (١٢٧١) ، والترمذي (٤٣٠) عن ابن عمر لا عن أبي هريرة رضي الله عنهم .

الرابعةُ : راتبةُ المغربِ : وهما ركعتانِ بعدَ الفريضةِ ، لمْ تختلفِ الروايةُ فيهما .

وأمَّا ركعتانِ قبلَها بينَ أذانِ المؤذِّنِ وإقامتِهِ علىٰ سبيلِ المبادرةِ . . فقدْ نُقِلَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ ؛ كأبيِّ بنِ كعبٍ ، وعبادةَ بنِ الصامتِ ، وأبي ذرٍّ ، وزيدِ بنِ ثابتٍ وغيرِهِمْ[1] ، قالَ عبادةُ أوْ أنسٌ : (كانَ المؤذِّنُ إذا أذَّنَ لصلاةِ المغربِ . . ابتدرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ السواريَ يصلُّونَ ركعتينِ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كنَّا نصلِّي الركعتينِ قبلَ المغربِ حتَّىٰ يدخلُ الداخلُ فيحسَبُ أنَّا صلَّينا ، فيسألُ : أصليتُمُ المغربَ ؟)[3] .

وذلكَ يدخلُ في عمومِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَ كلِّ أذانينِ صلاةٌ لِمَنْ شاءَ »[4] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يصلِّيهِما ، فعابَهُ الناسُ فتركَهما ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (لمْ أرَ الناسَ يصلونَهُما فتركتُهُما) ، وقالَ : إنْ صلاهُما

---

(١) فعند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٤٥٦) عن زرٍّ قال : (رأيت عبد الرحمـٰن بن عوف وأبيَّ بن كعب إذا أذن المؤذن المغربَ . . قاما فصليا ركعتين) ، وورد فعلها عنده (٧٤٥٧ ، ٧٤٦٤) عن أنس وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما .

(٢) هو عن أنس كما في « البخاري » (٦٢٥) ، و« مسلم » (٨٣٧) .

(٣) هو تتمة حديث مسلم (٨٣٧) السابق .

(٤) رواه البخاري (٦٢٤) ، ومسلم (٨٣٨) .

الرجلُ في بيتِهِ أوْ حيثُ لا يراهُ الناسُ . . فحسنٌ)[1] .

ويدخلُ وقتُ المغربِ بغيبوبةِ الشمسِ عنِ الأبصارِ في الأراضي المستويةِ التي ليستْ محفوفةً بالجبالِ ، فإنْ كانتْ محفوفةً بها في جهةِ المغربِ . . فيتوقَّفُ إلىٰ أنْ يرىٰ إقبالَ السوادِ مِنْ جانبِ المشرقِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أقبلَ الليلُ مِنْ هـٰهنا ، وأدبرَ النهارُ مِنْ هـٰهنا . . فقدْ أفطرَ الصائمُ »[2] .

والأحبُّ المبادرةُ في صلاةِ المغربِ خاصَّةً ، وإنْ أُخِّرتْ وصُلِّيتْ قبلَ غيبوبةِ الشفقِ الأحمرِ . . وقعتْ أداءً ، ولكنَّهُ مكروهٌ .

وأخَّرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ صلاةَ المغربِ ليلةً حتَّىٰ طلعَ نجمٌ ، فأعتقَ رقبةً ، وأخَّرَ ابنُ عمرَ حتَّىٰ طلعَ كوكبانِ ، فأعتقَ رقبتينِ[3] .

❊ ❊ ❊

الخامسةُ : راتبةُ العشاءِ الآخرةِ : وهيَ أربعُ ركعاتٍ بعدَ الفريضةِ ، قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّي بعدَ العشاءِ الآخرةِ أربعَ ركعاتٍ ثمَّ ينامُ)[4] .

واختارَ بعضُ العلماءِ مِنْ مجموعِ الأخبارِ أنْ يكونَ عددُ الرواتبِ سبعَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٤٧) .

(٢) رواه البخاري (١٩٥٤) ، ومسلم (١١٠١) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦) .

(٤) رواه أبو داوود (١٣٠٣) بنحوه .

عشرةَ ركعةً كعددِ المكتوبةِ : ركعتانِ قبلَ الصبحِ ، وأربعٌ قبلَ الظهرِ ، وركعتانِ بعدَها ، وأربعٌ قبلَ العصرِ ، وركعتانِ بعدَ المغربِ ، وثلاثٌ بعدَ العشاءِ الآخرةِ هيَ الوترُ .

ومهما عرفتَ الأحاديثَ الواردةَ فيهِ .. فلا معنىٰ للتقديرِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ خيرُ موضوعٍ ، فمنْ شاءَ .. أكثرَ ، ومَنْ شاءَ .. أقلَّ »[1] .

فإذاً ؛ اختيارُ كلِّ مريدٍ مِنْ هٰذهِ الصلواتِ بقدْرِ رغبتِهِ في الخيرِ ، وقدْ ظهرَ فيما ذكرناهُ أنَّ بعضَها آكدُ مِنْ بعضٍ ، وتركُ الآكدِ أبعدُ ، لا سيما والفرائضُ تكملُ بالنوافلِ ، فمنْ لمْ يستكثرْ منها .. يوشكُ ألا تسلمَ لهُ فرائضُهُ مِنْ غيرِ جابرٍ .

* * *

السادسةُ : الوترُ : قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوترُ بعدَ العشاءِ بثلاثِ ركعاتٍ ، يقرأُ في الأولىٰ : (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ) ، وفي الثانيةِ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثالثةِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ)[2] .

وجاءَ في خبرٍ آخرَ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي بعدَ الوترِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٧٨) .

(٢) رواه عن أنس ابنُ عدي في « الكامل » (٦/ ١٣٣) ، وهو عن غيره عند أبي داوود (١٤٢٣) ، والترمذي (٤٦٠) ، والنسائي (٣/ ٢٣٥) ، وابن ماجه (١١٧١) .

جالساً ركعتينِ)[1] ، وفي بعضِها : (متربعاً)[2] .

وفي بعضِ الأخبارِ : (إذا أرادَ أنْ يدخلَ فراشَهُ . . زحفَ إليهِ وصلَّىٰ فوقَهُ ركعتينِ قبلَ أنْ يرقدَ ، يقرأُ فيهِما : (إذا زلزلتِ الأرضُ) وسورةَ : (ألهاكُمُ التكاثرُ) ، وفي روايةٍ أخرىٰ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ)[3] .

ويجوزُ الوترُ مفصولاً وموصولاً بتسليمةٍ واحدةٍ وتسليمتينِ[4] .

وقدْ أوترَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بركعةٍ ، وثلاثٍ ، وخمسٍ ، وهٰكذا بالأوتارِ إلىٰ إحدىٰ عشرةَ ، والروايةُ مترددةٌ في ثلاثَ عشرةَ ، وفي حديثٍ شاذٍّ : سبعَ عشرةَ ركعةً[5] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٣٤٠) ، والترمذي (٤٧١) ، وابن ماجه (١١٩٥) .
(٢) صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم متربعاً رواها النسائي (٣/ ٢٢٤) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٧) ، وورد قراءة السور الثلاث المذكورة معاً في الوتر عند أحمد في « المسند » (١/ ٨٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٣) ، ولم يذكرا الزحف إلى الفراش .
(٤) بتسليمة موصولاً ، وبتسليمتين مفصولاً .
(٥) فالإيتار بركعة عند البخاري (٩٩٥) ، ومسلم (٧٤٩) ، وبثلاث قد سبق ، وبخمس عند مسلم (٧٣٧) ، وبسبع عند مسلم (٧٤٦) ، وبتسع عند مسلم (٧٣٨) ، والنسائي (٣/ ٢٤٠) ، وبإحدىٰ عشرة عند النسائي (٣/ ٢٤٣) ، وبثلاث عشرة عند مسلم (٧٦٥) ، والنسائي (٣/ ٢٣٧) ، وبسبع عشرة عند ابن المبارك في « الزهد » (١٢٧٣) . والحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ٣٥٨) قد قام بتفنيد الروايات ، فلما وصل إلىٰ رواية التردد . . قال : (تبع المصنف فيه ـ أي : التردد ـ شيخه إمام الحرمين ؛ حيث حكىٰ تردداً في ثبوت النقل في الإيتار بثلاث عشرة) ، ثم ذكر وجه التردد الوارد في الروايات والكلام فيه .

وكانتْ هٰذهِ الركعاتُ ـ أعني : ما سمينا جملتَها وتراً ـ صلاتَهُ بالليلِ ، وهوَ التهجُّدُ .

والتهجُّدُ بالليلِ سنةٌ مؤكدةٌ ، وسيأتي فضلُها في كتابِ الأورادِ .

وفي الأفضلِ خلافٌ : فقيلَ : إنَّ الإيتارَ بركعةٍ فردةٍ أفضلُ ؛ إذْ صحَّ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يواظبُ على الإيتارِ بركعةٍ فردةٍ .

وقيلَ : الموصولُ أفضلُ ؛ للخروجِ مِنْ شبهةِ الخلافِ ، لا سيما للإمامِ ؛ إذْ قدْ يقتدي بهِ مَنْ لا يرى الركعةَ الفردةَ صلاةً[١] .

فإنْ صلَّىٰ موصولاً . . نوىٰ بالجميعِ الوترَ ، وإنِ اقتصرَ علىٰ ركعةٍ واحدةٍ بعدَ ركعتي العشاءِ ، أوْ بعدَ فرضِ العشاءِ . . نوى الوترَ وصحَّ ؛ لأنَّ شرطَ الوترِ أنْ يكونَ في نفسِهِ وتراً ، وأنْ يكونَ مُوتِراً لغيرِه ممَّا سبقَ قبلَهُ ، وقدْ أوترَ الفرضَ .

ولوْ أوترَ قبلَ العشاءِ . . لم يصحَّ ؛ أي : لا ينالُ فضيلةَ الوترِ الذي هوَ خيرٌ لهُ مِن حُمْرِ النَّعَمِ كما وردَ بهِ الخبرُ[٢] ، وإلاَّ . . فركعةٌ فردةٌ صحيحةٌ في أيِّ وقتٍ كانَ[٣] ، وإنَّما لمْ يصحَّ قبلَ العشاءِ لأنَّهُ خرقُ إجماعِ الخلقِ في الفعلِ ، ولأنَّهُ لمْ يتقدَّمْ لهُ ما يصيرُ بهِ وتراً .

---

(١) أي : لا يرىٰ سنيتها . « إتحاف » (٣/ ٣٦٠) .

(٢) رواه أبو داوود (١٤١٨) ، والترمذي (٤٥٢) ، وابن ماجه (١١٦٨) .

(٣) فالتطوع بركعة واحدة جائز عند الشافعية ، فانقلبت هٰذه الركعة إلىٰ تطوع محض .

فأمَّا إذا أرادَ أنْ يوترَ بثلاثٍ مفصولةٍ . . ففي نيَّتِهِ في الركعتين نظرٌ ، فإنَّهُ إنْ نوىٰ بهِ التهجُّدَ أوْ سنةَ العشاءِ . . لمْ يكنْ هوَ مِنَ الوترِ ، وإنْ نوى الوترَ . . لمْ يكنْ هوَ في نفسِهِ وتراً ، وإنَّما الوترُ ما بعدَهُ ، ولكنِ الأظهرُ أنَّهُ ينوي الوترَ كما ينوي في الثلاثِ الموصولةِ الوترَ ، ولكنْ للوترِ معنيانِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ في نفسهِ وتراً .

والآخرُ : أنْ ينشأَ ليجعلَ وتراً بما بعدَهُ ، فيكونُ مجموعُ الثلاثةِ وتراً والركعتانِ مِنْ جملةِ الثلاثِ ، إلا أنَّ وتريتَهُ موقوفةٌ على الركعةِ الثالثةِ ، وإذا كانَ هوَ علىٰ عزْمٍ أنْ يوترَهُما بثالثةٍ . . كانَ لهُ أنْ ينويَ بهما الوترَ .

فالركعةُ الثالثةُ وترٌ في نفسِها ومُوتِرَةٌ لغيرِها ، والركعتانِ لا يُوترانِ غيرَهما ، وليستا وتراً بأنفسِهما ، ولكنَّهُما مُوتَرَتانِ بغيرِهِما .

والوترُ ينبغي أنْ يكونَ آخرَ صلاةِ الليلِ ، فيقعُ بعدَ التهجُّدِ ، وسيأتي فضائلُ الوترِ والتهجُّدِ وكيفيةُ الترتيبِ بينَهُما في كتابِ ترتيبِ الأورادِ .

❁ ❁ ❁

السابعةُ : **صلاةُ الضحىٰ** : فالمواظبةُ عليها منْ عزائمِ الأفعالِ وفواضلِها ، أمَّا عددُ ركعاتِها . . فأكثرُ ما نُقلَ فيهِ ثماني ركعاتٍ .

روتْ أمُّ هانىءٍ أختُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّى الضحىٰ ثمانيَ ركعاتٍ أطالهنَّ وحسَّنَهُنَّ) ،

ولم ينقلْ هـٰذا العددَ غيرُها[1] .

فأمَّا عائشةُ رضيَ اللهُ عنها . . فإنَّها ذكرتْ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي الضحىٰ أربعاً ويزيدُ ما شاءَ اللهُ)[2] ، فلمْ تحدَّ الزيادةَ ، إلا أنَّهُ كانَ يواظبُ على الأربعِ ولا ينقصُ منها ، وقدْ يزيدُ زياداتٍ .

وقدْ رُوِيَ في حديثٍ مفردٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي الضحىٰ ستَّ ركعاتٍ[3] .

وأمَّا وقتُها : فقدْ روىٰ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي الضحىٰ ستاً في وقتينِ : إذا أشرقتِ الشمسُ وارتفعتْ . . قامَ وصلَّىٰ ركعتينِ ـ وهوَ أوَّلُ الوردِ الثاني من أورادِ النهارِ كما سيأتي ـ ، وإذا انبسطتِ الشمسُ وكانتْ في ربعِ السماءِ مِنْ جانبِ الشرقِ . . صلَّىٰ أربعاً)[4] .

فالأوَّلُ : إنَّما يكونُ إذا ارتفعتِ الشمسُ قيدَ نصفِ رمْحٍ .

والثاني : إذا مضىٰ مِنَ النهارِ ربعُهُ بإزاءِ صلاةِ العصرِ ، فإنَّ وقتَهُ أنْ يبقىٰ مِنَ النهارِ ربعُهُ[5] ، والظهرُ علىٰ منتصفِ النهارِ ، ويكونُ الضحىٰ علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١١٠٣) ، ومسلم (٣٣٦) بغير زيادة : (أطالهن وحسنهن) ، بل المذكور أنهن خفاف إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يتم الركوع والسجود ، وذكر الطول عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٩٠٠) .

(٢) رواه مسلم (٧١٩) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٨٩) .

(٤) رواه الترمذي (٥٩٨) ، والنسائي (٢/ ١٢٠) ، وابن ماجه (١١٦١) .

(٥) أي : وقت صلاة العصر أن يبقىٰ من النهار ربعه ، وبهـٰذا لا يخلو ربع عن صلاة .

منتصفِ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، كما أَنَّ العصرَ علىٰ منتصفِ ما بينَ الزوالِ إلى الغروبِ[1] .

هـٰذا أفضلُ الأوقاتِ ، ومِنْ وقتِ ارتفاعِ الشمسِ إلىٰ ما قبلَ الزوالِ وقتٌ للضحىٰ على الجملةِ .

❁ ❁ ❁

الثامنةُ : إحياءُ ما بينَ العشاءينِ : وهيَ سنةٌ مؤكدةٌ ، وممَّا نقلَ عددُهُ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ العشاءينِ ستُّ ركعاتٍ[2] .

ولهـٰذهِ الصلاةِ فضلٌ عظيمٌ ، وقيلَ : إنَّها المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[3] .

وقدْ رُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . فإنَّها مِنْ صلاةِ الأوابينَ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عكفَ نفسَهُ ما بينَ المغربِ والعشاءِ في مسجدِ جماعةٍ لمْ يتكلَّمْ إلا بصلاةٍ أوْ قرآنٍ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يبنيَ لهُ

---

(١) انظر « بداية الهداية » (ص١٠٧) ، وسيأتي مزيد تفصيل للمصنف .
(٢) روى الترمذي (٤٣٥) ، وابن ماجه (١١٦٧) مرفوعاً : « من صلىٰ بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء . . عدلنَ له بعبادة ثنتي عشرة سنةً » .
(٣) رواه أبو داوود (١٣٢١) ، والترمذي (٣١٩٦) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥٩) عن ابن المنكدر مرسلاً .

قصرينِ في الجنةِ ، مسيرةُ كلِّ قصرٍ منهما مئةُ عامٍ ، ويغرسَ لهُ بينَهُما غراساً ، لوْ طافهُ أهلُ الدنيا . . لوسعَهُمْ »[1] .

وسيأتي بقيّةُ فضائلِها في كتابِ الأورادِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

(١) رواه ابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (٧٥) .

القسم الثّاني : ما يتكرّر بتكرّر الأسابيع
وهي صلوات أيّام الأسبوع ولياليه لكلّ يومٍ ولكلّ ليلة

أمّا الأيامُ . . فنبدأُ فيها بيومِ الأحدِ[1] :

يومُ الأحدِ

روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الأحدِ أربعَ ركعاتٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ ، و﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ مرةً . . كتبَ اللهُ لهُ بعددِ كلِّ نصرانيٍّ ونصرانيّةٍ حسناتٍ ، وأعطاهُ اللهُ ثوابَ نبيٍّ ، وكتبَ لهُ حجةً وعمرةً ، وكتبَ لهُ بكلِّ ركعةٍ ألفَ صلاةٍ ، وأعطاهُ اللهُ في الجنةِ بكلِّ حرفٍ مدينةً مِنْ مسكٍ أذْفَرَ »[2] .

---

(١) وهو أول الأسبوع ، منقول من أحد ، وأصله : (وحد) ، أبدلت الواو همزة . « إتحاف » (٣/ ٣٧٢) . أما بشأن الآثار المروية في هـٰذا القسم . . فالمصنف فيها تابع لصاحب « القوت » ومعول عليه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني في كتاب « وظائف الليالي والأيام » من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) ، ثم أورد الحافظ الزبيدي طريق ابن الجوزي والسيوطي للحديث ، وقال : (الحكم علىٰ هـٰذا الحديث بالوضع ليس بسديد ، وغاية ما يقال : إنه ضعيف) ، وقال : (فالقول ما قاله الحافظ العراقي : إن سنده ضعيف ، لا قول ابن الجوزي : إنه موضوع ، وشتان بين الموضوع والضعيف ، فافهم) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٣) .

ورُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « وحِّدُوا اللهَ بكثرةِ الصلاةِ يومَ الأحدِ ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أحدٌ لا شريكَ لهُ ، فمنْ صلَّىٰ يومَ الأحدِ بعدَ صلاةِ الظهرِ أربعَ ركعاتٍ بعدَ الفريضةِ والسنةِ ، يقرأُ في الركعةِ الأولىٰ فاتحةَ الكتابِ ، وتنزيلَ السجدةَ ، وفي الثانيةِ فاتحةَ الكتابِ وتباركَ الملكَ ، ثمَّ تشهَّدَ وسلَّمَ ، ثمَّ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ أُخريينِ ، يقرأُ فيهما فاتحةَ الكتابِ وسورةَ الجمعةِ ، وسألَ اللهَ تعالىٰ حاجتَهُ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يقضيَ حاجتَهُ »(١) .

يومُ الاثنين

روىٰ جابرٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الاثنينِ ، عندَ ارتفاعِ النهارِ ركعتينِ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ مرةً ، وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، والمعوِّذتينِ مرةً مرةً ، فإذا سلَّمَ استغفرَ اللهَ عشرَ مراتٍ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ مراتٍ . . غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ذنوبَهُ كلَّها »(٢) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٣) ، وهو والذي قبله عند صاحب « القوت » (١/ ٢٧) ، وزاد في الثاني : « ويبرِّئه مما كانت النصارىٰ عليه » .

(٢) قال صاحب « القوت » (١/ ٢٧): (روينا عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) فذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً، وهو حديث منكر)، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٣٧٤) إذْ رأىٰ ضعفه .

وروىٰ أنسُ بنُ مالكٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الاثنينِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، فإذا فرغَ قرأ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) اثنتي عشرةَ مرةً ، واستغفرَ اللهَ اثنتي عشرةَ مرةً . . يُنادىٰ بهِ يومَ القيامةِ : أينَ فلانُ بنُ فلانٍ ؟ ليقمْ فليأخذْ ثوابَهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فأوَّلُ ما يُعطىٰ مِنَ الثوابِ ألفُ حُلَّةٍ ، ويتوَّجُ ويقالُ لهُ : ادخلِ الجنةَ ، فيستقبلُهُ مئةُ ألفِ ملكٍ ، معَ كلِّ ملكٍ هديةٌ يشيعونَهُ حتَّىٰ يدورَ علىٰ ألفِ قصرٍ مِنْ نورٍ يتلألأُ »(١) .

يومُ الثّلاثاءِ

رَوىٰ يزيدُ الرَّقاشيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ صلَّىٰ يومَ الثلاثاءِ عشرَ ركعاتٍ عندَ انتصافِ النهارِ ـ وفي حديثٍ آخرَ : عندَ ارتفاعِ النهارِ ـ يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثَ مراتٍ . . لمْ تُكتبْ عليهِ خطيئةٌ إلىٰ سبعينَ يوماً ، فإنْ ماتَ إلىٰ سبعينَ يوماً . . ماتَ شهيداً ، وغُفِرَ لهُ ذنوبُ سبعينَ سنةً »(٢) .

---

(١) كذا ذكره صاحب « القوت » (١/ ٢٧) عن ثابت البناني عن أنس مرفوعاً ، وقال الحافظ العراقي : (ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد ، وهو منكر) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٥) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٧) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بسند ضعيف ، ولم يقل : عند انتصاف النهار ، ولا عند ارتفاعه) .

يومُ الأربعاءِ

رویٰ أبو إدريسَ الخولانيُّ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الأربعاءِ اثنتي عشرةَ ركعةً عندَ ارتفاعِ النهارِ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وآيةَ الكرسيِّ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثَ مراتٍ ، والمعوذتينِ ثلاثَ مراتٍ . . ناداهُ بهِ ملكٌ عندَ العرشِ : يا عبدَ اللهِ ؛ استأنفِ العملَ ، فقدْ غُفرَ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ ، ودفعَ اللهُ عنهُ عذابَ القبرِ وضيقَهُ وظلمتَهُ ، ودفعَ عنهُ شدائدَ القيامةِ ، ورفعَ لهُ مِنْ يومِهِ عملَ نبيٍّ »(١) .

يومُ الخميسِ

عنْ عكرمةَ ، عنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ الخميسِ بينَ الظهرِ والعصرِ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ فاتحةَ الكتابِ مرةً ، وآيةَ الكرسيِّ مئةَ مرةٍ ، وفي الثانيةِ فاتحةَ الكتابِ مرةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) مئةَ مرةٍ ، ويصلِّي علىٰ محمدٍ مئةَ مرةٍ . . أعطاهُ اللهُ ثوابَ مَنْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٧) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني وقال : رواته ثقات ، والحديث مركب ، قلت : بل فيه ابن حميد غير مسمىٰ ، وهو محمد بن الرازي أحد الكذابين) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٦) .

صامَ رجبَ وشعبانَ ورمضانَ ، وكانَ لهُ مِنَ الثوابِ مثلُ حاجِّ البيتِ ، وكُتِبَ لهُ بعددِ كلِّ مَنْ آمنَ باللهِ سبحانَهُ وتوكَّلَ عليهِ حسنةً »[1] .

يومُ الجمعةِ

رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يومُ الجمعةِ صلاةٌ كلُّهُ ، مَا مِنْ عبدٍ مؤمنٍ قامَ إذا استقلَّتِ الشمسُ وارتفعتْ قيدَ رمحٍ أوْ أكثرَ مِنْ ذلكَ ، فتوضَّأَ ثمَّ أسبغَ الوضوءَ ، فصلَّىٰ تسبيحةَ الضحىٰ ركعتينِ إيماناً واحتساباً . . كتبَ اللهُ لهُ مئتي حسنةٍ ، ومحا عنهُ مئتي سيئةٍ ، ومَنْ صلَّىٰ أربعَ ركعاتٍ . . رفعَ اللهُ سبحانَهُ لهُ في الجنةِ أربعَ مئةِ درجةٍ ، ومَنْ صلَّىٰ ثمانَ ركعاتٍ . . رفعَ اللهُ تعالىٰ لهُ في الجنةِ ثمانَ مئةِ درجةٍ ، وغفرَ لهُ ذنوبَهُ كلَّها ، ومَنْ صلَّى اثنتي عشرةَ ركعةً . . كتبَ اللهُ لهُ ألفاً ومئتي حسنةٍ ، ومحا عنهُ ألفاً ومئتي سيئةٍ ، ورفعَ لهُ في الجنةِ ألفاً ومئتي درجةٍ »[2] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٨) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بسند ضعيف) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٦) .

(٢) هو في « القوت » (١/ ٢٨) حيث قال : (روينا عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن أبيه ، عن جده قال : سمعت . . .) وذكره ، وقال الحافظ الزبيدي : (ووجدت في طرة الكتاب ما نصه : هو في « قربان المتقين » لأبي نعيم بمعناه ، وإسناده متروك) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٦) . أما القطعة الأولىٰ منه ، وهي : « يوم الجمعة صلاة كله » . . فقد رواها عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٢٠٤) عن طاووس ، وكذا ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٤٧١) .

وعنْ نافعٍ ، عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ دخلَ الجامعَ يومَ الجمعةِ ، فصلَّىٰ أربعَ ركعاتٍ قبلَ صلاةِ الجمعةِ ، قرأَ في كلِّ ركعةٍ (الحمدُ) مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسينَ مرةً . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنةِ أوْ يُرىٰ لهُ »(١) .

يومُ السبتِ

روىٰ أبو هريرةَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ يومَ السبتِ أربعَ ركعاتٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ مرةً ، و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ثلاثَ مراتٍ ، فإذا فرغَ قرأَ آيةَ الكرسيِّ . . كتبَ اللهُ لهُ بكلِّ حرفٍ حجةً وعمرةً ، ورفعَ لهُ بكلِّ حرفٍ أجرَ سنةٍ صيامَ نهارِها وقيامَ ليلِها ، وأعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بكلِّ حرفٍ ثوابَ شهيدٍ ، وكانَ تحتَ ظلِّ عرشِ اللهِ معَ النبيينَ والشهداءِ »(٢) .

---

(١) كذا هو عند صاحب « القوت » (١/ ٢٨) ، قال الحافظ العراقي : (رواه الدارقطني في « غرائب مالك » وقال : لا يصح ، وعبد الله بن وصيف مجهول ، ورواه الخطيب في « الرواة عن مالك » وقال : غريب جداً ، لا أعلم له وجهاً غير ذلك) ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٣٧٧) .

(٢) كذا هو عند صاحب « القوت » (١/ ٢٨) ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٣٧٧ ، ٣٨٢) .

وأمّا الليالي :

ليلةُ الأحدِ

رویٰ أنسُ بنُ مالكٍ في ليلةِ الأحدِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الأحدِ عشرينَ ركعةً ، قرأَ في كلِّ ركعةٍ (الحمدُ للهِ) مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسينَ مرةً ، والمعوِّذتينِ مرةً مرةً ، واستغفرَ اللهَ عزَّ وجلَّ مئةَ مرةٍ ، واستغفرَ لنفسِهِ ولوالديهِ مئةَ مرةٍ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مئةَ مرةٍ ، وتبرَّأَ مِنْ حولِهِ وقوتِهِ ، والتجأَ إلى اللهِ ثمَّ قالَ : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، وأشهدُ أنَّ آدمَ صفوةُ اللهِ وفطرتُهُ ، وإبراهيمَ خليلُ اللهِ ، وموسىٰ كليمُ اللهِ ، وعيسىٰ روحُ اللهِ ، ومحمداً حبيبُ اللهِ . . كانَ لهُ مِنَ الثوابِ بعددِ مَنْ دعا للهِ ولداً ومَنْ لمْ يدعُ للهِ ولداً ، وبعثَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ معَ الآمنينَ ، وكانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يدخلَهُ الجنةَ معَ النبيينَ »(١) .

ليلةُ الاثنينِ

رَوى الأعمشُ عنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الاثنينِ أربعَ ركعاتٍ ، قرأَ في الركعةِ الأولى (الحمدُ للهِ)

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٨) حيث قال : (عن مختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك قال : سمعت. . .) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بغير إسناد ، وهو منكر ، وروىٰ أيضاً من حديث أنس في فضل الصلاة فيها : « ست ركعات » و« أربع ركعات » ، وكلاهما ضعيف جداً) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٨) .

و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وفي الركعةِ الثانيةِ (الحمدُ للهِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرينَ مرةً ، وفي الثالثةِ (الحمدُ للهِ) مرةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثينَ مرةً ، وفي الرابعةِ (الحمدُ للهِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) أربعينَ مرةً ، ثمَّ سلَّمَ وقرأَ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمساً وسبعينَ مرةً ، واستغفرَ اللهَ لنفسِهِ ولوالديهِ خمساً وسبعينَ مرةً ، وصلَّىٰ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خمساً وسبعينَ مرةً ، ثمَّ سألَ اللهَ حاجتَهُ . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يعطيَهُ سُؤْلَهُ ما سألَ » ، وهيَ تسمَّىٰ صلاةَ الحاجةِ(١) .

ليلةُ الثّلاثاءِ

يصلِّي ركعتينِ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) والمعوِّذتينِ خمسَ عشرةَ مرةً ، ويقرأُ بعدَ التسليمِ خمسَ عشرةَ مرةً آيةَ الكرسيِّ ، ويستغفرُ اللهَ تعالىٰ خمسَ عشرةَ مرةً . كانَ لهُ ثوابٌ عظيمٌ ، وأجرٌ جسيمٌ(٢) .

رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الثلاثاءِ ركعتينِ يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ مرَّةً و(إنَّا أنزلناهُ)

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٨) ، وقال الحافظ العراقي : (هكذا رواه أبو موسى المديني عن الأعمش بغير إسناد ، وأسند من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثاً في صلاة ست ركعات فيها ، وهو منكر) . « إتحاف » (٣/ ٣٧٩) .

(٢) ذكره في « القوت » (١/ ٢٩) بنحوه ، قال الحافظ العراقي : (ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين ، وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثاً في صلاة أربع ركعات فيها ، وكلها منكرة) . « إتحاف » (٣/ ٣٨٠) .

و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعَ مرَّاتٍ . . أعتقَ اللهُ رقبتَهُ مِنَ النارِ ، ويكونُ يومَ القيامةِ قائِدَهُ ودليلَهُ إلى الجنةِ » .

ليلة الأربعاء

روَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنهَا عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الأربعاءِ ركعتينِ ، يقرأُ في أولِ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ مرةً ، و(قلْ أعوذُ بربِّ الفلقِ) عشرَ مراتٍ، وفي الركعةِ الثانيةِ فاتحةَ الكتابِ مرةً، و(قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) عشرَ مراتٍ ، ثمَّ إذا سلَّمَ . . استغفرَ اللهَ عشرَ مراتٍ ، ثمَّ يصلِّي علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ مراتٍ . . نزلَ مِنْ كلِّ سماءٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يكتبونَ ثوابَهُ إلىٰ يوْمِ القيامةِ »(١) .

وفي حديثٍ آخرَ : « ستَّ عشرةَ ركعةً ، يقرأُ بعدَ الفاتحةِ ما شاءَ اللهُ ، ويقرأُ في آخرِ الركعتينِ آيةَ الكرسيِّ ثلاثينَ مرَّةً ، وفي الأوليينِ ثلاثينَ مرَّةً « قلْ هوَ اللهُ أحدٌ » . . يشفعْ في عشرةٍ مِنْ أهلِ بيتِهِ ، كلُّهُمْ وجبَتْ عليهِمُ النارُ»(٢) .

وروتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الأربعاءِ ستَّ ركعاتٍ بثلاثِ تسليماتٍ ، يقرأُ في كلِّ

---

(١) كذا هو في « القوت » (١/ ٢٩) ، ولم يذكر لهٰذه الليلة حديثاً غيره ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٣٨٠) .

(٢) انظر « الإتحاف » (٣/ ٣٨٠) .

ركعةٍ بعدَ الفاتحةِ مرةً ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ إلىٰ آخرِ الآيةِ ، فإذا فرغَ من صلاتِهِ يقولُ سبعينَ مرةً : جزى اللهُ محمداً عنَّا ما هوَ أهلُهُ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنوبَ سبعينَ سنةً ، وكتبَ لهُ براءةً من النارِ »(١) .

ليلةُ الخميسِ

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الخميسِ ما بينَ المغربِ والعشاءِ ركعتينِ ، يقرأُ في كلِّ ركْعةٍ فاتحةَ الكتابِ ، وآيةَ الكرسيِّ خمسَ مراتٍ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ مراتٍ ، والمعوِّذتينِ خمسَ مراتٍ ، فإذا فرغَ مِنْ صلاتهِ استغفرَ اللهَ تعالىٰ خمسَ عشرةَ مرةً ، وجعلَ ثوابَهُ لوالديهِ . . فقدْ أدَّىٰ حقَّ والديهِ عليهِ وإنْ كانَ عاقّاً لهُما ، وأعطاهُ اللهُ تعالىٰ ما يُعطي الصِّديقينَ والشهداءَ »(٢) .

ليلةُ الجمعةِ

قالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الجمعةِ بينَ المغربِ والعشاءِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً) . «إتحاف» (٣/ ٣٨٠) .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٩) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو موسى المديني ، وأبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بسند ضعيف جداً ، وهو منكر) . « إتحاف » (٣/ ٣٨١) .

الكتابِ مرةً ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) إحدىٰ عشرةَ مرةً . . فكأنَّما عبَدَ اللهَ تعالىٰ اثنتي عشرةَ سنةً صيامَ نهارِها وقيامَ ليلِها »[1] .

وقالَ أنسٌ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ الجمعةِ صلاةَ العشاءِ الآخرةِ في جماعةٍ ، وصلَّىٰ ركعتي السنةِ ، ثمَّ صلَّىٰ بعدَها عشرَ ركعاتٍ ، قرأَ في كلِّ ركعةٍ (الحمدُ للهِ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) والمعوِّذتينِ مرةً مرةً ، ثمَّ أوترَ بثلاثِ ركعاتٍ ، ونامَ علىٰ جنبِهِ الأيمنِ ووجهُهُ إلى القبلةِ . . فكأنَّما أحْيا ليْلةَ القدرِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنَ الصلاةِ عليَّ في الليلةِ الغراءِ واليومِ الأزهرِ » ، ليلةَ الجمعةِ ويومَ الجمعةِ[3] .

---

(١) هو عند صاحب « القوت » (١/ ٢٩) ، وقال : (أبو جعفر محمد بن علي ، عن جابر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . . .) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (باطل لا أصل له) . « إتحاف » (٣/ ٣٨١) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٩) ، حيث قال : (وروينا عن كثير بن سليم ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٣٨١) .

(٣) هو عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٣٠٩) بلفظ : (يا رسول الله ؛ أمرنا أن نكثر الصلاة عليك في الليلة الغراء واليوم الأزهر . . .) ، وقوله : (ليلة الجمعة ويوم الجمعة) بيان للغراء والأزهر ، وعند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٢٤٩) : « أكثروا الصلاة علي في يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فمن صلىٰ علي صلاة . . صلى الله عليه عشراً » .

ليلةُ السبتِ

قالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ليلةَ السبتِ بينَ المغربِ والعشاءِ اثنتي عشرةَ ركعةً . . بُنِيَ لهُ قصرٌ في الجنةِ ، وكأنَّما تصدَّقَ علىٰ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ ، وتبرَّأَ مِنَ اليهودِ ، وكانَ حقّاً على اللهِ أنْ يغفرَ لهُ »(١) .

* * *

(١) كذا هو في « القوت » (١/ ٢٩) قال : (عن كثير بن شنظير ، عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم. . .) وذكره ، وقال العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، وانظر « الإتحاف » (٣/ ٣٨٢) .

القسم الثالث : ما يتكرر بتكرر السنين وهي أربعة

صلاةُ العيدينِ ، والتراويحِ ، وصلاةُ رجبٍ ، وصلاةُ النصفِ مِنْ شعبانَ

الأولىٰ : صلاةُ العيدينِ : وهيَ سنةٌ مؤكدةٌ ، وشعارٌ مِن شعائرِ الدينِ ، وينبغي أنْ يُراعيَ فيها سبعةَ أمورٍ :

الأوَّلُ : التكبيرُ ثلاثاً نسقاً ، فيقولُ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسُبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرهَ الكافرونَ .

ويفتتحُ التكبيرَ ليلةَ الفطرِ إلى الشروعِ في صلاةِ العيدِ ، وفي العيدِ الثاني يفتتحُ التكبيرَ عَقِيبَ الصبحِ يومَ عرفةَ إلىٰ آخرِ النهارِ يومَ الثالثَ عشرَ ، وهـٰذا أكملُ الأقاويلِ ، ويكبِّرُ عَقِيبَ الصلواتِ المفروضةِ وعقيبَ النوافلِ ، وهوَ عَقِيبَ الفرائضِ آكدُ .

الثاني : إذا أصبحَ يومَ العيدِ . يغتسلُ ويتزيَّنُ ويتطيَّبُ كما ذكرناهُ في الجمعةِ ، والرداءُ والعِمامةُ هوَ الأفضلُ للرجالِ ، وليتجنَّبِ الصبيانُ الحريرَ ، والعجائزُ التزينَ عندَ الخروجِ .

الثالثُ : أنْ يخرجَ منْ طريقٍ ويرجعَ مِنْ طريقٍ آخرَ ، هـٰكذا فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ بإخراجِ العواتقِ وذواتِ الخدورِ[(٢)] .

الرابعُ : المستحبُّ الخروجُ إلى الصحراءِ إلا بمكةَ وبيتِ المقدسِ ، وإنْ كانَ يومُ مطرٍ . . فلا بأسَ بالصلاةِ في المسجدِ ، ويجوزُ في يومِ الصحوِ أنْ يأمرَ الإمامُ رجلاً يصلِّي بالضعفةِ في المسجدِ ، ويخرجَ بالأقوياءِ مكبِّرينَ .

الخامسُ : أنْ يُراعى الوقتُ ، فوقتُ صلاةِ العيدِ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، ووقتُ الذبحِ للضحايا ما بينَ ارتفاعِ الشمسِ بقدْرِ ركعتينِ وخطبتينِ إلىٰ آخرِ اليومِ الثالثَ عشرَ .

ويستحبُّ تعجيلُ صلاةِ الأضحىٰ لأجلِ الذبحِ ، وتأخيرُ صلاةِ الفطرِ لأجلِ تفريقِ صدقةِ الفطرِ قبلَها ، هـٰذهِ سنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(٣)] .

السادسُ : في كيفيةِ الصَّلاةِ ؛ فليخرجِ الناسُ مكبِّرينَ في الطريقِ ، وإذا بلغَ الإمامُ المصلَّىٰ . . لمْ يجلسْ ولمْ يتنفَّلْ ، وللناسِ التنفُّلُ ، ثمَّ ينادي

---

(١) رواه البخاري (٩٨٦) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٤) ، ومسلم (٨٩٠) .

(٣) روى الشافعي بسنده في « الأم » (٢/ ٤٨٩) : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلىٰ عمرو بن حزم وهو بنجران : أن عجِّل الغدو إلى الأضحىٰ ، وأخِّر الفطر ، وذكر الناس) ، ورواه البيهقي من طريقه في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٢٨٢) .

منادٍ : (الصَّلاةُ جامعةٌ) ، ويصلي الإمامُ بِهِمْ ركعتينِ ؛ يكبِّرُ في الأولىٰ سوىٰ تكبيرةِ الإحرامِ والركوعِ سبعَ تكبيراتٍ ، يقولُ بينَ كلِّ تكبيرتينِ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ، ويقولُ : (وجهتُ وجهي للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) عَقيبَ تكبيرةِ الافتتاحِ ، ويؤخِّرُ الاستعاذةَ إلىٰ ما وراءَ الثامنةِ ، ويقرأُ سورةَ (قٓ) في الأولىٰ بعدَ الفاتحةِ ، و(اقتربتْ) في الثانيةِ ، والتكبيراتُ الزائدةُ في الثانيةِ خمسٌ سوىٰ تكبيرتي القيامِ والركوعِ ، وبينَ كلِّ تكبيرتينِ ما ذكرناهُ .

ثمَّ يخطبُ خطبتينِ بينَهُما جلسةٌ ، ومَنْ فاتتْهُ صلاةُ العيدِ . . قضاها .

السابعُ : أنْ يضحيَ بكبشٍ ، ضحَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكبشٍ ، وذبحَ بيدِهِ وقالَ : « باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، هـٰذا عنِّي وعمَّنْ لمْ يضحِّ مِنْ أمَّتي »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رأىٰ هلالَ ذي الْحجةِ وأرادَ أنْ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨١٠) ، والترمذي (١٥٢١) ، وأصله عند مسلم (١٩٦٧) . بلفظ : (عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بكبش أقرن ، يطأ في سواد ، ويبرك في سواد ، وينظر في سواد ـ كناية عن سواد قوائمه وبطنه وعينيه ـ فأُتِيَ به ليضحِّي به ، فقال لها : « يا عائشة ؛ هلمي المدية » ، ثم قال : « اشحذيها بحجر » ففعلت ، ثم أخذها ، وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه ، ثم قال : « باسم الله ، اللهم ؛ تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد » ثم ضحَّىٰ به) . وفي (ج) : (كبشين) بدل (كبش) دون زيادة : (أملحين) ، وعليه مشى الحافظ العراقي في تخريجه .

يضحِّيَ . . فلا يأخذَنَّ مِنْ شَعْرِهِ ولاَ مِنْ أظفارِهِ شيئاً »[١] .

قالَ أبو أيوبَ الأنصاريُّ : (كانَ الرجلُ يضحِّي علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشاةِ عنْ أهلِ بيتِهِ ، فيأكلونَ ويطعمونَ »[٢] .

ولهُ أنْ يأكلَ مِنَ الضحيةِ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ فما فوقُ ، ووردتْ فيهِ الرخصةُ بعدَ النهيِ عنهُ[٣] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (يستحبُّ أنْ يصلِّيَ بعدَ عيدِ الفطرِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، وبعدَ عيدِ الأضحىٰ ستَّ ركعاتٍ) ، وقالَ : (هوَ مِنَ السنةِ)[٤] .

الثانيةُ : **التراويحُ** : وهيَ عشرونَ ركعةً ، وكيفيتُها مشهورةٌ ، وهيَ سنةٌ

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٧/٤٢) .

(٢) رواه الترمذي (١٥٠٥) ، وابن ماجه (٣١٤٧) ، وحمل بعض أهل العلم هـٰذا والذي قبله على الاشتراك في الثواب ، وتأدية الشعار والسنة لجميع أهل البيت الواحد ، وإلا . . فلا تجزىء الشاة ونحوها إلا عن فرد . انظر « الإتحاف » (٣/٤٠٦) .

(٣) ففي « مسلم » (٩٧٧) مرفوعاً : « ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فأمسكوا ما بدا لكم » .

(٤) أخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٧٩٩) : (كان سعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وعلقمة يصلون بعد العيد أربعاً) ، وعنده (٥٨٠٦) عن عاصم قال : (رأيت الحسن وابن سيرين يصليان بعد العيد ويطيلان القيام) . قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٢/٤٧٦) : (والحاصل : أن صلاة العيد لم يثبت لها سنة قبلها ولا بعدها ، خلافاً لمن قاسها على الجمعة ، وأما مطلق النفل . . فلم يثبت فيه منع بدليل خاص إلا إن كان ذلك في وقت الكراهة الذي في جميع الأيام ، والله أعلم) .

مؤكدةٌ وإنْ كانتْ دونَ العيدينِ ، واختلفوا في أنَّ الجماعةَ فيها أفضلُ أمِ الانفرادُ .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيها ليلتينِ أوْ ثلاثاً للجماعةِ ، ثمَّ لمْ يخرجْ ، وقالَ : « أخافُ أنْ توجبَ عليكُمْ »(١) .

وجمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ عليها في الجماعةِ حيثُ أمنَ مِنَ الوجوبِ بانقطاعِ الوحيِ ؛ فقيلَ : إنَّ الجماعةَ أفضلُ ؛ لفعلِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، ولأنَّ الاجتماعَ بركةٌ ولهُ فضيلةٌ ؛ بدليلِ الفرائضِ ، ولأنَّهُ ربَّما يكسلُ في الانفرادِ ، وينشطُ عندَ مشاهدةِ الجمعِ(٢) .

وقيلَ : الانفرادُ أفضلُ ؛ لأنَّ هـٰذهِ سنةٌ ليستْ مِنَ الشعائرِ كالعيدينِ ، فإلحاقُها بصلاةِ الضحىٰ وتحيةِ المسجدِ أولىٰ ، ولمْ تشرعْ فيها جماعةٌ(٣) ، وقدْ جرتِ العادةُ بأنْ يدخلَ المسجدَ جمعٌ معاً ، ثمَّ لمْ يصلوا التحيةَ

---

(١) رواه البخاري (٩٢٤) ، ومسلم (٧٦١) بلفظ : « لكني خشيت أن تفرض عليكم » .

(٢) ففي « البخاري » (٢٠١٠) عن عبد الرحمـٰن بن عبدٍ القاريِّ قال : (خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلةً في رمضان إلى المسجد ، فإذا الناس أوزاعٌ متفرقون ، يصلي الرجل لنفسه ، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط ، فقال عمر : إني أرىٰ لو جمعت هـٰؤلاء علىٰ قارىء واحد . . لكان أمثل ، ثم عزم ، فجمعهم علىٰ أبيِّ بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرىٰ والناس يصلون بصلاة قارئهم ، قال عمر : نعمَ البدعة هـٰذه ، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون ، يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله) .

(٣) أي : في صلاة الضحىٰ وتحية المسجد . « إتحاف » (٣/٤١٨) .

بالجماعةِ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ صلاةِ التطوُّعِ في بيتِهِ علىٰ صلاتِهِ في المسجدِ . كفضلِ صلاةِ المكتوبةِ في المسجدِ علىٰ صلاتِهِ في البيتِ »[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « صلاةٌ في مسجدي هـٰذا أفضلُ مِنْ مئةِ صلاةٍ في غيرِهِ مِنَ المساجدِ ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ مِنْ ألفِ صلاةٍ في مسجدي ، وأفضلُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ رجلٌ يصلِّي في زاويةِ بيتِهِ ركعتينِ لا يعلمُهُما إلا اللهُ عزَّ وجلَّ »[2] .

وهـٰذا لأنَّ الرياءَ والتصنُّعَ ربَّما يتطرَّقُ إليهِ في الجمعِ ، ويأمنُ منهُ في الوحدةِ ، فهـٰذا ما قيلَ فيهِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٤٦) وبلفظ : « فضل صلاة الرجل في بيته علىٰ صلاته حيث يراه الناس . كفضل المكتوبة على النافلة » . وفي « البخاري » (٧٣١) ، و« مسلم » (٧٨١) بعد أن ترك صلى الله عليه وسلم الخروج إلى التراويح وهم ينتظرونه قال لهم : « قد عرفت الذي رأيت من صنيعكم ، فصلوا أيها الناس في بيوتكم ؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » .

(٢) ذكره الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/ ٤٨٤) بنحوه وقال : (رواه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب « الثواب ») . وأما صدره . . فمتفق عليه ، وفي معنى القطعة الأخيرة منه روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٧١٦) عن أبي عثمان قال : اشترىٰ رجل حائطاً من المدينة ، فربح فيه مئة نخلة كاملة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من هـٰذا ؟ رجل توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم صلىٰ ركعتين في غارٍ أو سفح جبل أفضل ربحاً من هـٰذا » . انظر « الإتحاف » (٣/ ٤١٩) .

والمختارُ : أَنَّ الجماعةَ أفضلُ[١] ، كما رآهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّ بعضَ النوافلِ قدْ شُرِعَتْ فيها الجماعةُ ، وهـٰذا جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ الشعائرِ التي تظهرُ .

وأمَّا الالتفاتُ إلى الرياءِ في الجمعِ ، والكسلِ في الانفرادِ . . فعدولٌ عنْ مقصودِ النظرِ في فضيلةِ الجمعِ مِنْ حيثُ إنَّهُ جماعةٌ ، وكأنَّ قائلَهُ يقولُ : (الصلاةُ خيرٌ منْ تركِها بالكسلِ ، والإخلاصُ خيرٌ مِنَ الرياءِ) ، فلنفرضِ المسألةَ فيمنْ يثقُ بنفسِه أنَّهُ لا يكسلُ لوِ انفردَ ، ولا يرائي لوْ حضرَ الجمعَ . . فأيُّهُما أفضلُ لهُ ؟

فيدورُ النظرُ بينَ بركةِ الجمعِ وبينَ مزيدِ قوَّةِ الإخلاصِ وحضورِ القلبِ في الوحدةِ ، فيجوزُ أنْ يكونَ في تفضيلِ أحدِهما على الآخرِ تردُّدٌ .

وممَّا يستحبُّ : القنوتُ في الوترِ في النصفِ الأخيرِ مِنْ رمضانَ .

* * *

أمَّا صلاةُ رجبٍ[٢] :

فقدْ رُوِيَ بإسنادٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ما مِنْ

---

(١) قال الإمام النووي في « المجموع » (٤/ ٤٠) : (الصحيح عندنا : أن فعل التراويح في جماعة أفضل من الانفراد ، وبه قال جماهير العلماء ، حتىٰ إن علي بن موسى القمي ادعىٰ فيه الإجماع ، وقال ربيعة ومالك وأبو يوسف وآخرون : الانفراد بها أفضل ، دليلنا : إجماع الصحابة علىٰ فعلها جماعة كما سبق) .

(٢) وهي المسماة بصلاة الرغائب . « إتحاف » (٣/ ٤٢٢) .

أحدٍ يصومُ أوّلَ خميسٍ مِنْ رجبٍ ، ثمَّ يصلّي فيما بينَ العِشاءِ والعتمةِ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يفصلُ بينَ كلِّ ركعتينِ بتسليمةٍ .

يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بفاتحةِ الكتابِ مرةً ، و(إنَّا أنزلناهُ في ليلةِ القدرِ) ثلاثَ مراتٍ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) اثنتي عشرةَ مرةً .

فإذا فرغَ مِنْ صلاتهِ . . صلَّىٰ عليَّ سبعينَ مرةً ، ويقولُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِهِ .

ثمَّ يسجدُ ويقولُ في سجودِهِ سبعينَ مرةً : سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ .

ثمَّ يرفعُ رأسَهُ ويقولُ سبعينَ مرةً : ربِّ ؛ اغفرْ وارحمْ وتجاوزْ عمَّا تعلمُ إنكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ .

ثمَّ يسجدُ سجدةً أخرىٰ ويقولُ فيها مثلَ ما قالَ في السجدةِ الأولىٰ .

ثمَّ يسألُ حاجتَهُ في سجودِهِ . . فإنَّها تُقضىٰ » .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصلِّي أحدٌ هـٰذهِ الصلاةَ . . إلا غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ جميعَ ذنوبِهِ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ وعددِ الرملِ ووزنِ الجبالِ وورقِ الأشجارِ ، ويشفَّعُ يومَ القيامةِ في سبعِ مئةٍ مِنْ أهلِ بيتِهِ ممَّنْ قدِ استوجبَ النارَ » .

فهـٰذهِ صلاةٌ مستحبةٌ ، وإنَّما أوردناها في هـٰذا القسمِ لأنَّها تتكرَّرُ بتكرُّرِ السنينَ ، وإنْ كانت لا تبلغُ رتبتُها رتبةَ التراويحِ وصلاةِ العيدينِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ الصلاةَ نقلَها الآحادُ ، ولكنِّي رأيتُ أهلَ القدسِ بأجمعِهِمْ يواظبونَ عليها

ولا يسمحونَ بتركِها ، فأحببتُ إيرادَها[1] .

---

(١) روىٰ حديث صلاة الرغائب هٰذه الحافظُ الزبيدي من طريق ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٤٧) .
ونقل ابن عراق في « تنزيه الشريعة » (٢/ ٩٢) عن الحافظ العراقي أنه قال في «أماليه»: (قد تساهل الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر السلامي في إيراده هٰذا الحديث في المجلس الرابع عشر من « أمالي ابن حصين » وقوله : إنه حسن غريب) .
والإمام الغزالي نزل بهٰذا الأثر ، وعرف أنه لا يرقىٰ للاحتجاج أصلاً حين ذكر علة إيراده لصلاة الرغائب بأنها من استحباب الصالحين كما رآه في القدس .
وقول العز بن عبد السلام إنها مبتدعة في سنة (٤٤٨هـ) لا يستقيم ؛ إذ ذكر أنها وصلاة النصف من شعبان مما ابتدع هٰذه السنة ، وقد ذكر الأخيرة صاحب « القوت » المتوفىٰ (٣٨٦هـ) .
وقد قال الحافظ الزبيدي : (وليس في سند أبي طالب المكي علي بن عبد الله بن جهضم ـ وهو المتهم بوضع هٰذا الحديث ـ بل هو إن لم يكن متأخراً عنه في الزمن . . فهو معاصر له ، وهو مع ذلك ليس من الوضاعين ، قال الذهبي في « الديوان » : « ليس بثقة » .
فغاية ما يقال في حديثه : إنه ضعيف لا موضوع ، فكم من رجل غير ثقة وحديثه لا يدخل في حيز المنكر) . « إتحاف » (٣/ ٤٢٥) .
وكان قد أورد نقول أهل العلم بوضع حديث الرغائب والكلام في الطعن فيه من وجوه : كعدم جواز النفل جماعة ، وعدم جواز تخصيص بعض السور بالتلاوة في الصلاة ، أو تخصيص ليلة بعينها .
ثم قال : (وهو كلام حسن ، وإن كان في بعض ما أورده من الوجوه محل نظر وتأمل ؛ ففي أداء النفل جماعة اختلاف في المذهب، وقد سبق النسفي البزازي بالجواز، وتخصيص بعض السور في بعض صلوات معينة قد ورد به الشرع ، ومن طالع كتب الحديث عرف ذلك ، وكذا تخصيص بعض الليالي بالقيام وبعض الأيام بالصيام ورد به الشرع .
وإن قلنا بالكراهة . . فهي تنزيهية كما صرح به العلماء ، وكون أن العامة يعتقدونها فرضاً لازماً . . لا يتجه به الكراهة ؛ فإنهم إذا فهموا من ذلك خلاف ما يفهمه الخاصة . . كان =

وأمَّا صلاةُ شعبانَ :

فليلةَ الخامسَ عشرَ منهُ يصلِّي مئةَ ركعةٍ ، كلَّ ركعتينِ بتسليمةٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ الفاتحةِ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وإنْ شاءَ صلَّىٰ عشرَ ركعاتٍ يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ الفاتحةِ مئةَ مرةٍ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) .

فهـٰذهِ الصلاةُ أيضاً مرويةٌ في جملةِ الصلواتِ ، كانَ السلفُ يصلُّونَ هـٰذهِ الصَّلاةَ ويسمُّونَها : صلاةَ الخيرِ ، ويجتمعونَ فيها ، وربَّما صلَّوها جماعةً ، رُوِيَ عنِ الحسنِ أنَّهُ قالَ : (حدَّثني ثلاثونَ مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ

= ذلك لتقصيرهم وسوء فهمهم ، فطريقهم أن يسألوا ويتفهموا ، ما علينا من العامة إذا غلطوا في فهمهم ، ولو جئنا ننظر إلىٰ هـٰذا . . لغيَّرنا أوضاعاً شرعية كثيراً .
وكون أن فعلها يغري واضع الحديث علىٰ وضعها . . فهـٰذا قد قفل بابه من بعد الثلاث مئة ، فلا تكون هـٰذه الملاحظة وجهاً لكراهتها .
وكون أن الاشتغال بعدِّ السور مما يخلُّ بالخشوع . . ففيه خلاف ، والأشهر جوازه في النوافل .
وما ذكر أن تعجيل الإفطار فيها مما يخالف السنة . . هو غريب ! بل السنة قاضية على استحباب التعجيل في الإفطار وكراهية تأخيره إلى اشتباك النجوم .
وأما كراهة السجدة المنفردة . . فمسلَّمٌ ، إلا أن المدعي يقول : لم لا يجوز أن تكون هـٰذه السجدة شكراً لنعمة الله تعالىٰ علىٰ رأي من يجوز ذلك ؟
وقوله : إن الصحابة والتابعين ومن بعدهم لم ينقل عنهم أنهم صلوها . . فاعلم : لا يلزم من عدم فعلهم لها على الطريقة المعهودة كراهتها أو عدم ورودها ، ثم هي من التطوعات ، من شاء . . صلاها ، ومن شاء . . تركها) . « إتحاف » (٣/ ٤٢٤) .

وسلَّمَ أنَّ مَنْ صلَّىٰ هـٰذهِ الصلاةَ في هـٰذهِ الليلةِ . . نظرَ اللهُ إليهِ سبعينَ نظرةً ، وقضىٰ لهُ بكلِّ نظرةٍ سبعينَ حاجةً ، أدناها المغفرةُ)[1] .

* * *

(١) قوت القلوب (١/ ٦٢) ، وقال : (وقد قيل : إن هـٰذه الليلة هي التي قال الله عز وجل فيها : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، وأنه ينسخ فيها أمر السنة وتدبير الأحكام إلىٰ مثلها من قابل والله أعلم ، والصحيح من ذلك عندي أنه في ليلة القدر ، وبذلك سميت ؛ لأن التنزيل يشهد له ؛ إذ في أول الآية : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ ، ثم وصفها فقال : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، فالقرآن إنما أنزل في ليلة القدر) .
وحديث صلاة النصف من شعبان أسنده ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٥٠) بنحوه ، أما فضيلة هـٰذه الليلة . . فقد ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٦٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٠٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٩١) : « يطلع الله إلىٰ خلقه في ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن » .
وكان الإمام الشافعي يقول : (بلغنا أنه كان يقال : إن الدعاء يستجاب في خمس ليال : في ليلة الجمعة ، وليلة الأضحىٰ ، وليلة الفطر ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان) . « الأم » (٢/ ٤٨٥) ، ورواه عنه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣١٩) .
قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٣/ ٤٢٧) نقلاً عن النجم الغيطي : (ولم يثبت في قيامها جماعة شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ، واختلف علماء الشام علىٰ قولين : **أحدهما** : استحباب إحيائها بجماعة في المسجد ، وممن قال بذلك من أعيان التابعين خالد بن معدان وعثمان بن عامر ، ووافقهم إسحاق بن راهويه .
والثاني : كراهة الاجتماع لها في المساجد للصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعي فقيه الشام ومفتيهم) .

القسم الرّابع من النّوافل : ما يتعلّق بأسبابٍ عارضة ولا يتعلّق بالمواقيت وهي تسعة

كصلاةِ الخسوفِ والكسوفِ ، والاستسقاءِ ، وتحيةِ المسجدِ ، وركعتيِ الوضوءِ ، وركعتينِ بينَ الأذانِ والإقامةِ ، وركعتينِ عندَ الخروجِ مِنَ المنزلِ والدخولِ فيهِ ، ونظائرِ ذلكَ ، فنذكرُ منها ما يحضرُنا الآنَ :

الأولىٰ : صلاةُ الخسوفِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ ، لا يخسفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِهِ ، فإذا رأيتمْ ذلكَ . . فافزعوا إلىٰ ذكرِ اللهِ وإلى الصلاةِ » ، قالَ ذلكَ لمَّا ماتَ ولدُهُ إبراهيمُ وكَسَفَتِ الشمسُ ، فقالَ الناسُ : إنَّما كسفتْ لموتِهِ[١] .

والنظرُ في كيفيتِها ووقتِها :

أمَّا الكيفيةُ : فإذا كسفتِ الشمسُ في وقتٍ مكروهٍ أوْ غيرِ مكروهٍ . . نوديَ : (الصلاةُ جامعةٌ) ، وصلَّى الإمامُ بالناسِ في المسجدِ ركعتينِ ، وركعَ في كلِّ ركعةٍ ركوعينِ ، أوائلُهما أطولُ مِنْ أواخرِهما ، ولا يجهرُ ، فيقرأُ في الأولىٰ مِنْ قيامَيِ الركعةِ الأولى الفاتحةَ والبقرةَ ، وفي الثانيةِ الفاتحةَ وآلَ عمرانَ ، وفي الثالثةِ الفاتحةَ وسورةَ النساءِ ، وفي الرابعةِ

(١) رواه البخاري (١٠٤٣) ، ومسلم (٩٠٤) .

الفاتحةَ والمائدةَ ، أوْ مقدارَ ذلكَ مِنَ القرآنِ مِنْ حيثُ أرادَ .

ولوِ اقتصرَ على الفاتحةِ في كلِّ قيامٍ . . أجزأَهُ ، ولوِ اقتصرَ علىٰ سورٍ قصارٍ . . فلا بأسَ ، ومقصودُ التطويلِ دوامُ الصلاةِ إلى الانجلاءِ .

ويسبِّحُ في الركوعِ الأوَّلِ قدْرَ مئةِ آيةٍ ، وفي الثاني قدْرَ ثمانينَ آيةً ، وفي الثالثِ قدْرَ سبعينَ ، وفي الرابعِ قدْرَ خمسينَ ، وليكنِ السجودُ علىٰ قدْرِ الركوعِ في كلِّ ركعةٍ .

ثمَّ يخطبُ خطبتينِ بعدَ الصَّلاةِ بينَهُما جلسةٌ ، ويأمرُ الناسَ بالصدقةِ والعتقِ والتوبةِ .

وكذلكَ يفعلُ بخسوفِ القمرِ ، إلا أنَّهُ يجهرُ فيها ؛ لأنَّها ليليةٌ .

أمَّا وقتُها : فعندَ ابتداءِ الخسوفِ إلىٰ تمامِ الانجلاءِ ، ويخرجُ وقتُها بأنْ تغربَ الشمسُ كاسفةً ، ويفوتُ خسوفُ القمرِ بأنْ يطلعَ قرصُ الشمسِ ، إذْ بطلَ سلطانُ الليلِ ، ولا يفوتُ بغروبِ القمرِ خاسفاً ؛ لأنَّ الليلَ كلَّهُ سلطانُ القمرِ . وإنِ انجلىٰ في أثناءِ الصَّلاةِ . . أتمَّها مخففةً ، ومَنْ أدركَ الركوعَ الثانيَ معَ الإمامِ . . فقدْ فاتتْهُ تلكَ الركعةُ ؛ لأنَّ الأصلَ هوَ الركوعُ الأوَّلُ .

***

الثانيةُ : **صلاةُ الاستسقاءِ** : فإذا غارتِ الأنهارُ ، وانقطعتِ الأمطارُ ، أوِ انهارتْ قناةٌ . . فيستحبُّ للإمامِ أنْ يأمرَ الناسَ أوَّلاً بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ ، وما أطاقوا مِنَ الصدقةِ ، والخروجِ مِنَ المظالمِ ، والتوبةِ مِنَ المعاصي ، ثمَّ

يخرجُ بهمْ يومَ الرابعِ ، وبالعجائزِ والصبيانِ متنظِّفينَ في ثيابِ بِذْلَةٍ واستكانةٍ متواضعينَ[1] ، بخلافِ العيدِ .

وقيلَ : يستحبُّ إخراجُ الدوابِّ لمشاركتِها في الحاجةِ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا صبيانٌ رضَّعٌ ، ومشايخُ ركَّعٌ ، وبهائمُ رتَّعٌ . . لَصُبَّ عليكمُ العذابُ صبّاً »[2] .

ولوْ خرجَ أهلُ الذمَّةِ أيضاً متميِّزينَ . . لمْ يمنعوا .

فإذا اجتمعوا في المصلَّى الواسعِ مِنَ الصحراءِ . . نودِيَ : (الصلاةُ جامعةٌ) ، وصلَّىٰ بهمُ الإمامُ ركعتينِ مثلَ صلاةِ العيدِ بغيرِ فرقٍ[3] ، ثمَّ يخطُبُ خطبتينِ بينَهما جلسةٌ خفيفةٌ ، وليكنِ الاستغفارُ معظمَ الخطبتينِ[4] ، وينبغي في وسطِ الخطبةِ الثانيةِ أنْ يستدبرَ الناسَ ، ويستقبلَ القبلةَ ، ويحوِّلَ رداءَهُ في هٰذهِ الساعةِ ؛ تفاؤلاً بتحويلِ الحالِ ، هٰكذا فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[5] ، فيجعلُ أعلاهُ أسفلَهُ ، وما على اليمينِ على

---

(١) **الثياب البِذْلة** : التي تلبس حال الخدمة والشغل بالأعمال ، ولكون هٰذا يوهم عدم النظافة . . قيدها بقوله : (متنظفين) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٠٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٤٥) بنحوه .

(٣) أي : في التكبيرات وفي القراءة وفي الوقوف بين كل تكبيرتين مسبحاً حامداً مهللاً . « إتحاف » (٣/ ٤٤٠) .

(٤) أي : يبدل التكبيرات المشروعة في أولهما بالاستغفار ، ويكثر منه في الخطبة . « إتحاف » (٣/ ٤٤٢) .

(٥) رواه البخاري (١٠٢٣) ، ومسلم (٨٩٤) .

الشمالِ ، وما على الشمالِ على اليمينِ ، وكذلكَ يفعلُ الناسُ ، ويدعونَ في هـٰذهِ الساعةِ سرّاً .

ثمَّ يستقبلُهُمْ فيختمُ الخطبةَ ، ويَدَعونَ أرديتَهُمْ محوَّلةً كما هيَ حتَّىٰ ينزعوها متىٰ نزعوا الثيابَ .

ويقولُ في الدعاءِ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ أمرتنا بدعائِكَ ، ووعدتَنا إجابتَكَ ، فقدْ دعوناكَ كما أمرتَنا ، فأجبْنا كما وعدتَنا ، اللهمَّ ؛ فامنُنْ علينا بمغفرةِ ما قارفْنا وإجابتِكَ في سقيانا وسعةِ أرزاقِنا)[1] .

ولا بأسَ بالدعاءِ أدبارَ الصلواتِ في الأيامِ الثلاثةِ قبلَ الخروجِ ، ولهـٰذا الدعاءِ آدابٌ وشروطٌ باطنةٌ مِنَ التوبةِ وردِّ المظالمِ وغيرِها ، وسيأتي ذلكَ في كتابِ الدعواتِ .

* * *

الثالثةُ : صلاةُ الجِنازةِ : وكيفيتُها مشهورةٌ[2] ، وأجمعُ دعاءٍ مأثورٍ

---

(١) نص علىٰ هـٰذا الدعاء الإمام الشافعي كما في « الأم » (٢/٥٤٦) ، وهـٰذا الدعاء يكون ضمن الدعاء الوارد في الخطبة .

(٢) قال المصنف في « الخلاصة » (ص١٦٦) : (وأركانها تسعة : **النية** ، ولا يضر إن لم يعرف الميت ذكراً أو أنثىٰ ، **والتكبيرات الأربع** أركان ، فإن زاد خامسة . . بطلت الصلاة ، **وفاتحة الكتاب** ركن بعد التكبيرة الأولىٰ ، **والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم** ركن بعد الثانية ، **ودعاء الميت** ركن بعد الثالثة ، ويقول : « اللهم ؛ لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده ، واغفر لنا وله » والدعاء المعروف ، وليس بعد الرابعة ذكر مفروض ، ولكن **يسلم** إن شاء تسليمة واحدة وهي الركن الأخير ، وإن شاء تسليمتين) .

ما رُوِيَ في الصحيحِ عنْ عوفِ بنِ مالكٍ قالَ : (صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ جنازةٍ ، فحفظتُ منْ دعائِهِ وهوَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ، وارحمْهُ ، وعافِهِ واعفُ عنهُ ، وأكرمْ نزلَهُ ، ووسِّعْ مُدخلَهُ ، واغسلْهُ بالماءِ والثلجِ والبرَدِ ، ونقِّهِ مِنَ الخطايا كما يُنقَّى الثوبُ الأبيضُ مِنَ الدنسِ ، وأبدلْهُ داراً خيراً مِنْ دارِهِ ، وأهلاً خيراً مِنْ أهلِهِ ، وزوجاً خيراً مِنْ زوجِهِ ، وأدخلْهُ الجنةَ ، وأعذْهُ مِنْ عذابِ القبرِ ومِنْ عذابِ النارِ » ، قالَ عوفٌ : حتَّىٰ تمنَّيت أنْ أكونَ ذلكَ الميتَ)[1] .

ومَنْ أدركَ التكبيرةَ الثانيةَ مِنْ صلاةِ الجنازةِ . . فينبغي أنْ يراعيَ ترتيبَ صلاةِ نفسِهِ ، ويكبِّرَ معَ تكبيراتِ الإمامِ ، فإذا سلَّمَ الإمامُ . . قضىٰ تكبيرَهُ الذي فاتَ كفعلِ المسبوقِ ، فإنَّهُ لوْ بادرَ التكبيراتِ . . لمْ يبقَ للقدوةِ في هٰذهِ الصلاةِ معنىً ، فالتكبيراتُ هيَ الأركانُ الظاهرةُ ، وجديرٌ بأنْ تقامَ مقامَ الركعاتِ في سائرِ الصلواتِ ، هٰذا هوَ الأوجهُ عندي وإنْ كانَ غيرُهُ محتملاً .

والأخبارُ الواردةُ في فضْلِ صلاةِ الجنازةِ وتشييعِها مشهورةٌ ، فلا نطوِّلُ بإيرادِها[2] ، وكيفَ لا يعظمُ فضلُها وهيَ مِنْ فرائضِ الكفاياتِ ، وإنَّما تصيرُ

---

(١) رواه مسلم (٩٦٣) .

(٢) ومن أشهرها : ما رواه البخاري (١٣٢٥) ، ومسلم (٩٤٥) مرفوعاً : « من شهد الجنازة حتىٰ يصلي عليها . . فله قيراط ، ومن شهدها حتىٰ تدفن . . فله قيراطان ، قال : مثل الجبلين العظيمين » .

نفلاً في حقِّ مَنْ لمْ تتعيَّنْ عليهِ بحضورِ غيرِهِ ، ثمَّ ينالُ بها فضلُ فرضِ الكفايةِ وإنْ لمْ يتعينْ ؛ لأنَّهُمْ بجملتِهِمْ قاموا بما هوَ فرضٌ ، وأسقطوا الحرجَ عَنْ غيرِهِمْ ، فلا يكونُ ذلكَ كنفلٍ لا يسقطُ بهِ فرضٌ عنْ أحدٍ .

ويستحبُّ طلبُ كثرةِ الجمعِ تبرُّكاً بكثرةِ الهممِ والأدعيةِ واشتمالِهِ علىٰ ذي دعوةٍ مستجابةٍ ؛ لما روىٰ كريبٌ عنِ ابنِ عباسٍ : أَنَّهُ ماتَ لهُ ابنٌ فقالَ : يا كريبُ ؛ انظرْ ما اجتمعَ لهُ مِنَ الناسِ ، قالَ : فخرجتُ فإذا ناسٌ قدِ اجتمعوا لهُ ، فأخبرتُهُ ، فقالَ : تقولُ : همْ أربعونَ ؟ قالَ : قلتُ : نعمْ ، قالَ : أخرجوهُ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنْ رجلٍ مسلمٍ يموتُ فيقومُ علىٰ جنازتِهِ أربعونَ رجلاً لا يشركونَ باللهِ تعالىٰ شيئاً إلا شفَّعَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ »[(١)] .

فإذا شيَّعَ الجنازةَ ، فوصلَ المقابرَ أوْ دخلَها ابتداءً.. قالَ : (السلامُ علىٰ أهلِ الديارِ مِنَ المؤمنينَ والمسلمينَ ، ويرحمُ اللهُ المستقدمينَ منَّا والمستأخرينَ ، وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكمْ لاحقونَ)[(٢)] .

والأولىٰ ألا ينصرفَ حتَّىٰ يُدفنَ الميِّتُ ، فإذا سوِّيَ على الميتِ قبرُهُ.. قامَ عليهِ وقالَ : (اللهمَّ ؛ عبدُكَ رُدَّ إليكَ ، فارؤُفْ بهِ وارحمْهُ ، اللهمَّ ؛ جافِ الأرضَ عنْ جنبيهِ ، وافتحْ أبوابَ السماءِ لروحِهِ ، وتقبلْهُ بقبولٍ

---

(١) رواه مسلم (٩٤٨) .
(٢) رواه مسلم (٩٧٤) .

حسَنٍ ، اللهمَّ ؛ إنْ كانَ محسناً . . فضاعفْ لهُ في إحسانِهِ ، وإنْ كانَ مسيئاً . . فتجاوزْ عنهُ)(١) .

* * *

الرابعةُ : تحيةُ المسجدِ : ركعتانِ فصاعداً ، سنةٌ مؤكدةٌ ، حتىٰ إنَّها لا تسقطُ وإنْ كانَ الخطيبُ في الخطبةِ يومَ الجمعةِ معَ تأكُّدِ وجوبِ الإصغاءِ إلى الخطيبِ .

ولوِ اشتغلَ بفرضٍ أوْ قضاءٍ . . تأدَّىٰ بهِ التحيةُ وحصلَ الفضلُ ؛ إذِ المقصودُ ألا يخلوَ ابتداءُ دخولِهِ عنِ العبادةِ الخاصَّةِ بالمسجدِ قياماً بحقِّ المسجدِ ، ولهـٰذا يكرَهُ أنْ يدخلَ المسجدَ علىٰ غيرِ وضوءٍ ، فإنْ دخلَ لعبورٍ أوْ جلوسٍ . . فليقلْ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) يقولُها أربعَ مراتٍ ، فيقالُ : إنَّها عدْلُ ركعتينِ في الفضلِ(٢) .

ومذهبُ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : أنَّهُ لا تكرَهُ التحيةُ في أوقاتِ الكراهيةِ ؛ وهيَ بعدَ العصرِ ، وبعدَ الصبحِ ، ووقتَ الزوالِ ، ووقتَ الطلوعِ والغروبِ ؛ لما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ ركعتينِ بعدَ العصرِ ، فقيلَ لهُ : أما نهيتَنا عنْ هـٰذا ؟ فقالَ : « هما ركعتانِ كنتُ أصلِّيهما بعدَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٨٢٧) ، ويقال : ارؤفْ وارأفْ ، كلاهما صحيح .

(٢) كذا ذكر أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ٢٣) .

الظهرِ ، فشغلني عنهما الوفْدُ »(١) ، فأفادَ هـٰذا الحديثُ فائدتينِ :

إحداهما : أَنَّ الكراهةَ مقصورةٌ علىٰ صلاةٍ لا سببَ لها ، ومِنْ أضعفِ الأسبابِ قضاءُ النوافلِ ؛ إذِ اختلفَ العلماءُ في أنَّ النوافلَ : هلْ تقضى ؟ وإذا فعلَ مثلَ ما فاتَهُ . . هلْ يكونُ قضاءً ؟ فإذا انتفتِ الكراهيةُ بأضعفِ الأسبابِ . . فبالحريِّ أنْ تنتفيَ بدخولِ المسجدِ وهوَ سببٌ قويٌّ ، ولذلكَ لا تكرَهُ صلاةُ الجنازةِ إذا حضرتْ ، ولا صلاةُ الخسوفِ والاستسقاءِ في هـٰذهِ الأوقاتِ ؛ لأنَّ لها أسباباً .

الفائدةُ الثانيةُ : قضاءُ النوافلِ ؛ إذْ قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذلكَ ، ولنا فيهِ أسوةٌ حسنةٌ ، وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غلبَهُ نومٌ أوْ مرضٌ فلمْ يقمْ تلكَ الليلةَ . . صلَّىٰ مِنَ النهارِ اثنتي عشرةَ ركعةً)(٢) .

وقدْ قالَ العلماءُ : (مَنْ كانَ في صلاةٍ ، ففاتَهُ جوابُ المؤذِّنِ ؛ فإذا سلَّمَ . . قضىٰ وأجابَ وإنْ كانَ المؤذِّنُ قدْ سكتَ) ، ولا معنى الآنَ لقولِ مَنْ يقولُ : إنَّ ذلكَ مثلُ الأوَّلِ وليسَ بقضاءٍ ؛ إذْ لو كانَ كذلكَ . . لما صلاَّها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وقتِ الكراهةِ .

أجلْ ؛ مَنْ كانَ لهُ وردٌ ، فعاقَهُ عنْ ذلكَ عذرٌ . . فينبغي ألا يرخِّصَ لنفسهِ

---

(١) رواه البخاري (١٢٣٣) ، ومسلم (٨٣٤) .

(٢) رواه مسلم (٧٤٦) .

في تركِهِ ، بلْ يتداركُهُ في وقتٍ آخرَ ؛ حتَّىٰ لا تميلَ نفسُهُ إلى الدعةِ والرفاهيةِ ، وتداركُهُ حسنٌ علىٰ سبيلِ مجاهدةِ النفسِ ، ولأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالىٰ أدومُها وإنْ قلَّ »[1] ، فيقصدُ بهِ ألا يفترَ في دوامِ عملِهِ .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ عبدَ اللهَ عزَّ وجلَّ بعبادةٍ ثمَّ تركَها ملالةً . . مقتَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ »[2] .

فليحذرْ أنْ يدخلَ تحتَ هـٰذا الوعيدِ ، وتحقيقُ هـٰذا الخبرِ : أنَّهُ مقتَهُ اللهُ تعالىٰ بتركِها ملالةً ، ولولا المقتُ والإبعادُ . . لما سلطتْ عليهِ الملالةُ .

الخامسةُ : ركعتانِ بعدَ الوضوءِ : مستحبتانِ ؛ لأنَ الوضوءَ قربةٌ ، ومقصودَها الصلاةُ والأحداثُ عارضةٌ ، فربَّما يطرأُ الحدثُ قبلَ الصلاةِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) ، والمعنىٰ : أن العمل المداوم عليه وإن قلَّ فإنه من أحب الأعمال إلى الله تعالىٰ ؛ لأن النفس تألفه ، فيدوم بسببه الإقبال على الحق ، ولأن تارك العمل بعد الشروع كالمعرض بعد الوصل ، ولأن المواظب ملازم للخدمة ، وليس من لازم الباب كمن جدَّ ثم انقطع عن الأعتاب ، ولهـٰذا قال بعضهم : لا تقطع الخدمة ولو ظهر لك عدم القبول ، وكفىٰ لك شرفاً أن يقيمك في خدمته . « إتحاف » (٣/ ٤٦٢) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن السني في « رياضة المتعلمين » موقوفاً علىٰ عائشة) ، ووجدت في حاشية كتاب « المغني » ما نصه : مصلح في نسخة « من عوَّد الله تعالىٰ » بالواو بدل (عبد) . « إتحاف » (٣/ ٤٦٢) . وفي « القوت » (١/ ٢٢ ، ٨٤) باللفظين : (عبد) ثم (عوَّده) .

فينتقضُ الوضوءُ ويضيعُ السعيُ ، فالمبادرةُ إلىٰ ركعتينِ استيفاءً لمقصودِ الوضوءِ قبلَ الفواتِ ، وعرفَ ذلكَ بحديثِ بلالٍ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دخلتُ الجنةَ ، فرأيتُ بلالاً فيها ، فقلتُ لبلالٍ : بمَ سبقتني إلى الجنةِ ؟ » فقالَ بلالٌ : لا أعرفُ شيئاً إلا أني لا أحدثُ وضوءاً إلا أصلِّي عَقيبَهُ ركعتينِ ، أوْ كما قالَ(١) .

السادسةُ : **ركعتانِ عندَ دخولِ المنزلِ وعندَ الخروجِ منهُ** : روىٰ أبو سلمةَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا خرجتَ مِنْ منزلِكَ . . فصلِّ ركعتينِ يمنعانِكَ مخرجَ السوءِ ، وإذا دخلتَ إلىٰ منزلِكَ . . فصلِّ ركعتينِ يمنعانِكَ مدخلَ السوءِ »(٢) .

وفي معنىٰ هـٰذا : كلُّ أمرٍ يبتدأُ بهِ ممَّا لهُ وقعٌ(٣) ، ولذلكَ وردَ : ركعتانِ عندَ الإحرامِ(٤) ، وركعتانِ عندَ ابتداءِ السفرِ(٥) ، وركعتانِ عندَ الرجوعِ مِنَ

(١) رواه الترمذي (٣٦٨٩) ، وأصله في « البخاري » (١١٤٩) ، و« مسلم » (٢٤٥٨) ، وقوله : (**أو كما قال**) : هي زيادة حسنة يؤتىٰ بها للتأدب مع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إتحاف » (٣/ ٤٦٤) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨١٤) بزيادةٍ : « إذا خرجت من منزلك إلى الصلاة » .
(٣) وشأنٌ في النفوس ؛ أي : (ذو بال) كما سيأتي .
(٤) كما في « البخاري » (١٥٥٤) .
(٥) فقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٩١٤) مرفوعاً : « ما خلفَ عبد علىٰ أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر » .

السفرِ في المسجدِ قبلَ دخولِ البيتِ[1] ، فكلُّ ذلكَ مأثورٌ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وكانَ بعضُ الصالحينَ إذا أكلَ أكلةً . . صلَّىٰ ركعتينِ ، وإذا شربَ شربةً . . صلَّىٰ ركعتينِ ، وكذلكَ في كلِّ أمرٍ يحدثُهُ[2] .

وبدايةُ الأمورِ ينبغي أنْ يتبرَّكَ فيها بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

ـ بعضُها يتكرَّرُ مراراً ؛ كالأكلِ والشربِ ، فيبدأُ فيه باسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأُ فيهِ ببسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ . . فهوَ أبترُ »[3] .

ـ الثانيةُ : ما لا يكثرُ تكرُّرُهُ ولهُ وقْعٌ ؛ كعقدِ النكاحِ ، وابتداءِ النصيحةِ والمشورةِ ، فالمستحبُّ في ذلكَ أنْ يصدَّرَ بحمدِ اللهِ سبحانَهُ ، فيقولُ المزوِّجُ : (الحمدُ للهِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ،

---

(١) كما في « البخاري » (٤٤١٨) ، و« مسلم » (٧١٦) : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحىٰ ، فإذا قدم . . بدأ بالمسجد فصلىٰ فيه ركعتين ثم جلس فيه .

(٢) يصلي عنده ركعتين ، وهـٰذا مشهد المستغرق بنعمة الله تعالىٰ ، وتلك الصلاة عند كل ما يحدثه هي صلاة شكر علىٰ نعمه التي تتجدد عليه في كل أمر وحال يحدثه . « إتحاف » (٣/٤٦٦) .

(٣) هو برواية : (بالحمد الله) بدل (باسم الله) رواه أبو داوود (٤٨٤٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٥٨) ، وابن ماجه (١٨٩٤) ، والخبر : (أجذم ، أقطع) و(أبتر) لفظ النسائي ، أما رواية : (ببسم الله الرحمـٰن الرحيم) فانظر للتفصيل كتاب « الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة » (ص٨٢) وما بعدها .

زوجتُكَ ابنتي) ، ويقولُ القابلُ : (الحمدُ للهِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قبلتُ النكاحَ) .

وكانتْ عادةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم في ابتداءِ أداءِ الرسالةِ والنصيحةِ والمشورةِ تقديمَ التحميدِ .

ـ الثالثةُ : ما لا يتكرَّرُ كثيراً ، وإذا وقعَ . . دامَ وكانَ لهُ وقعٌ ؛ كالسفرِ ، وشراءِ دارٍ جديدةٍ ، والإحرامِ ، وما يجري مَجراهُ ، فيستحبُّ تقديمُ ركعتينِ عليهِ ، وأدناهُ الخروجُ مِنَ المنزلِ والدخولُ فيهِ ؛ فإنَّهُ نوعُ سفرٍ خفيفٍ .

***

السابعةُ : صلاةُ الاستخارةِ : فمَنْ همَّ بأمرٍ وكانَ لا يدري عاقبتَهُ ولا يعرفُ أنَّ الخيرةَ في تركِهِ أوْ في الإقدامِ عليهِ . . فقدْ أمرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ يصلِّيَ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ فاتحةَ الكتابِ و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثانيةِ الفاتحةَ و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، فإذا فرغَ . . دعا وقالَ : « اللهمَّ[1] ؛ إني أستخيرُكَ بعلمِكَ ، وأستقدرُكَ بقدرتِكَ ، وأسألُكَ مِنْ فضلِكَ العظيمِ ، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ ، وتعلمُ ولا أعلمُ ، وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هـٰذا الأمرَ خيرٌ

---

(١) ذكر الحافظ الزبيدي لكلمة (اللهم) هنا معنىً لطيفاً ، ويمكن تعميمه دون تكلف كذلك ، فقال : (اللهم ؛ أي : يا الله اقصد ، فأدخل الإرادة ؛ لأن القصد الإرادة ، فحذف الهمزة واكتفىٰ بالهاء من الله لقرب المخرج والمجاورة ـ أي : الأصل يا اللهُ هُمَّ ـ وليدل بذلك علىٰ عظيم الوصلة) . « إتحاف » (٣/ ٤٦٨) .

لي في ديني ودنيايَ وعاقبةِ أمري وعاجلِهِ وآجلِهِ[1] . . فقدِّرْهُ لي ، ويسِّرْهُ لي ، ثمَّ باركْ لي فيهِ ، وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هـٰذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنيايَ وعاقبةِ أمري وعاجلِهِ وآجلِهِ . . فاصرفْني عنهُ ، واصرفْهُ عنِّي ، وقدِّرْ ليَ الخيرَ أينَما كانَ ، إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ » . رواه جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ، قالَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها كما يعلِّمُنا السورةَ مِنَ القرآنِ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا همَّ أحدُكُمْ بأمرٍ . . فليصلِّ ركعتينِ ، ثمَّ يسمي الأمرَ »[3] ويدعو بما ذكرْنا .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنْ أُعطيَ أربعاً . . لمْ يمنعْ أربعاً : مَنْ أُعطيَ الشكرَ . . لمْ يُمنعِ المزيدَ ، ومَنْ أُعطيَ التوبةَ . . لمْ يمنعِ القبولَ ، ومَنْ أُعطيَ الاستخارةَ . . لمْ يمنعِ الخيرةَ ، ومَنْ أُعطيَ المشورةَ . . لمْ يمنعِ الصوابَ)[4] .

---

(١) المشهور في هـٰذا الدعاء : أو قال : « عاجل أمري » بدل قوله : « وعاقبة أمري » لكن جمع احتياطاً للروايات . « إتحاف » (٣/ ٤٦٨) .

(٢) رواه البخاري (١١٦٢) ، وفيه : (فاقدره) بدل (فقدِّره) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠١٦) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٩٥) عن أبي بكر بن عياش عن بعض الحكماء . ونقل الحافظ الزبيدي عن بعض العارفين أنه قال : (يفعل ذلك في كل حاجة مهمة يريد فعلها أو قضاءها ، ثم يشرع في حاجته ، وإن كان له فيها خيرة . . سهل الله أسبابها إلىٰ أن تحصل ، فتكون عاقبتها محمودة ، وإن تعذرت الأسباب ولم يتفق تحصيلها . . فيعلم أن الله اختار تركها ، فلا يتألم لذلك ، وسيحمد عاقبتها تركاً كان أو فعلاً) . « إتحاف » (٣/ ٤٦٩) .

الثامنةُ : **صلاةُ الحاجةِ** : فمَنْ ضاقَ عليهِ الأمرُ ومستْ حاجتُهُ في صلاحِ دينِهِ أَوْ دنياهُ إلىٰ أمرٍ تعذَّرَ عليهِ .. فليصلِّ هٰذهِ الصلاةَ ؛ فقدْ رُوِيَ عنْ وهيبِ بنِ الوردِ أنَّهُ قالَ : إنَّ مِنَ الدعاءِ الذي لا يُردُّ أنْ يصلِّيَ العبدُ اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بأمِّ القرآنِ وآيةِ الكرسيِّ و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، فإذا فرغَ .. خرَّ ساجداً ثمَّ قالَ : سبحانَ الذي لبسَ العزَّ وقالَ بهِ ، سبحانَ الذي تعطَّفَ بالمجدِ وتكرَّمَ بهِ ، سبحانَ الذي أحصىٰ كلَّ شيءٍ بعلمِهِ ، سبحانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلا لهُ ، سبحانَ ذي المنِّ والفضلِ ، سبحانَ ذي العزِّ والتكرُّمِ ، سبحانَ ذي الطَّوْلِ ، أسألُكَ بمعاقِدِ عزِّكَ مِنْ عرشِكَ ، ومنتهى الرحمةِ مِنْ كتابِكَ ، وباسمِكَ الأعظمِ ، وجدِّكَ الأعلىٰ ، وكلماتِكَ التامَّاتِ التي لا يجاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ .. أنْ تصلِّيَ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، ثمَّ يسألُ حاجتَهُ التي لا معصيةَ فيها ؛ فيجابُ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ . قالَ وهيبٌ : بلَغنا أنَّهُ كانَ يقالُ : لا تعلِّموها سفهاءَكُمْ فيتعاونونَ بها علىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ(١) .

وهٰذهِ الصلاةُ رواها ابنُ مسعودٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٥٨) .

(٢) عزاه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/٥٣٧) للحاكم ، وقال : (قال أحمد بن حرب : قد جربته فوجدته حقاً ، وقال إبراهيم بن علي الديبلي : قد جربته فوجدته حقاً ، وقال الحاكم : قال لنا أبو زكريا : قد جربته فوجدته حقاً ، قال الحاكم : قد جربته فوجدته حقاً . تفرد به عامر بن خداش ، وهو ثقة مأمون) . ولصلاة الحاجة صورة أخرىٰ مشهورة جداً ، رواها جمع من أئمة المحدثين ، منهم =

التاسعةُ : صلاةُ التسبيحِ : وهٰذهِ الصلاةُ مأثورةٌ علىٰ وجهها ، ولا تختصُّ بوقتٍ ولا بسببٍ ، ويستحبُّ ألا يخلوَ الأسبوعُ عنها مرةً واحدةً ، أوِ الشهرُ مرةً ؛ فقدْ روىٰ عكرمةُ عنِ ابنِ عباسٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للعباسِ بنِ عبدِ المطلبِ : « ألا أعطيكَ ، ألا أمنحُكَ ، ألا أحبوكَ بشيءٍ إذا أنتَ فعلتَهُ . . غفرَ اللهُ لكَ ذنبكَ ؛ أوَّلَهُ وآخرَهُ ، قديمَهُ وحديثَهُ ، خطأَهُ وعمدَهُ ، سرَّهُ وعلانيتَهُ ؟ تصلِّي أربعَ ركعاتٍ ، تقرأُ في كلِّ ركعةٍ فاتحةَ الكتابِ وسورةً ، فإذا فرغتَ مِنَ القراءةِ في أوَّلِ ركعةٍ وأنتَ قائمٌ . . قلتَ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ خمسَ عشرةَ مرةً ، ثمَّ تركعُ فتقولُها وأنتَ راكعٌ عشراً ، ثمَّ ترفعُ رأسَكَ منَ الركوعِ فتقولُها عشراً ، ثمَّ تسجدُ فتقولُها عشراً ، ثمَّ ترفعُ رأسَكَ مِنَ السجودِ فتقولُها عشراً ، ثمَّ تسجدُ فتقولُها عشراً ، ثمَّ ترفعُ رأسَكَ فتقولُها عشراً ، فذلكَ خمسٌ وسبعونَ في كلِّ ركعةٍ ، تفعلُ ذلكَ في أربعِ ركعاتٍ ، إنِ استطعتَ أن تصلِّيَها في كلِّ يومٍ مرةً . . فافعلْ ، فإنْ لمْ تفعلْ . . ففي كلِّ

= الترمذي (٣٥٧٨) ، وابن ماجه (١٣٨٥) واللفظ له ، عن عثمان بن حنيف : أن رجلاً ضريرَ البصرِ أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادعُ الله لي أن يعافيني ، فقال : « إن شئت . . أخَّرْتُ لك وهو خير ، وإن شئت . . دعوتُ » ، فقال : ادعُهْ ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلي ركعتين ، ويدعو بهٰذا الدعاء : « اللهمَّ ؛ إني أسألك ، وأتوجَّه إليك بمحمدٍ نبي الرحمة ، يا محمدُ ؛ إني قد توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هٰذه لتُقضىٰ ، اللهمَّ ؛ فشفِّعْه فيَّ » ، زاد النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٤٢١) : (فرجع وقد كُشف له عن بصره) .

جمعةٍ مرةً ، فإنْ لمْ تفعلْ . . ففي كلِّ شهرٍ مرةً ، فإنْ لمْ تفعلْ . . ففي السنةِ مرةً »[١] .

وفي روايةٍ أخرىٰ أنَّهُ يقولُ في أوَّلِ الصلاةِ : « سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، وتباركَ اسمُكَ ، وتعالىٰ جدُّكَ ، ولا إلـٰهَ غيرُكَ ، ثمَّ يسبِّحُ خمسَ عشرةَ تسبيحةً قبلَ القراءةِ ، وعشراً بعدَ القراءةِ ، والباقي كما سبقَ عشراً عشراً ، ولا يسبِّحُ بعدَ السجدةِ الأخرىٰ قاعداً » ، وهـٰذا هوَ الأحسنُ ، وهوَ اختيارُ ابنِ المباركِ[٢] ، والمجموعُ في الروايتينِ ثلاثُ مئةِ تسبيحةٍ ، فإنْ صلاَّها نهاراً . . فبتسليمةٍ واحدةٍ ، وإنْ صلاَّها ليلاً . . فبتسليمتينِ أحسنُ ؛ إذْ وردَ أنَّ صلاةَ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ[٣] ، وإنْ زادَ بعدَ التسبيحِ قولَهُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ . . فهوَ حسنٌ ، فقدْ وردَ ذلكَ في بعضِ الرواياتِ[٤] .

فهـٰذهِ هيَ الصلواتُ المأثورةُ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٢٩٧) ، وابن ماجه (١٣٨٧) .
(٢) رواها عنه حاكياً قوله الترمذيُّ (٤٨١) .
(٣) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) ، وهـٰذا اختيار ابن المبارك كما في حديث الترمذي المشار إليه قبلُ .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٤) ، وقد عقد الحافظ الزبيدي فصلاً في « الإتحاف » (٣/ ٤٧٧) لدراسة أسانيد الرواية لصلاة التسبيح ، ونقل كلام الجلّة من أهل العلم في الأخذ بها والحرص عليها ، ثم قال : (ولأبي موسى المديني الحافظ كتاب حافل سماه : « دستور الذاكرين ومنشور المتعبدين » جمع فيه فأوعىٰ ، جمع فيه جميع ما ذكر مسنداً ، غير أن منه الضعيف ، فينبغي عمله وإن لم يصح ؛ لأنه لا ينافي ما صح ، لا سيما وهو في فضائل الأعمال ، والله أعلم) .

ولا يُستحبُّ شيءٌ مِنْ هـٰذهِ النوافلِ في الأوقاتِ المكروهةِ إلا تحيةُ المسجدِ وما أوردناهُ قبلهَا[1] ، وما أوردناهُ بعدَ التحيةِ مِنْ ركعتيِ الوضوءِ وصلاةِ السفرِ والخروجِ مِنَ المنزلِ والاستخارةِ . . فلا ؛ لأنَّ النهيَ مؤكَّدٌ ، وهـٰذهِ الأسبابُ ضعيفةٌ ، فلا تبلغُ درجةَ الخسوفِ والاستسقاءِ والتحيةِ .

وقدْ رأيتُ بعضَ المتصوِّفةِ يصلي في الأوقاتِ المكروهةِ ركعتيِ الوضوءِ ، وذلكَ في غايةِ البعدِ ؛ لأنَّ الوضوءَ لا يكونُ سبباً للصلاةِ ، بلِ الصلاةُ سببُ الوضوءِ ، فينبغي أنْ يتوضَّأَ ليصلِّيَ لا أنَّهُ يصلِّي لأنَّهُ توضَّأَ ، وكلُّ محدثٍ يريدُ أنْ يصلِّيَ في وقتِ الكراهيةِ فلا سبيلَ لهُ إلا أنْ يتوضَّأَ ويصلِّيَ ، فلا يبقىٰ للكراهيةِ معنىً ، ولا ينبغي أنْ ينويَ ركعتيِ الوضوءِ كما ينوي ركعتيِ التحيةِ ، بلْ إذا توضَّأَ . . صلَّىٰ ركعتينِ تطوُّعاً كيلا يتعطَّلَ وضوءُهُ كما كانَ يفعلُهُ بلالٌ ، فهوَ تطوُّعٌ محضٌ يقعُ عَقيبَ الوضوءِ .

وحديثُ بلالٍ لمْ يدلَّ علىٰ أنَّ الوضوءَ سببٌ كالخسوفِ والتحيةِ حتَّىٰ ينويَ ركعتيِ الوضوءِ ، فيستحيلُ أنْ ينويَ بالصلاةِ الوضوءَ ، بلْ ينبغي أنْ ينويَ بالوضوءِ الصلاةَ ، وكيفَ ينتظمُ أنْ يقولَ في وضوئِهِ : أتوضَّأُ لصلاتي ، وفي صلاتِهِ يقولُ : أصلِّي لوضوئي ؟! بلْ مَنْ أرادَ أنْ يحرسَ وضوءَهُ عنِ التعطيلِ في وقتِ الكراهيةِ . . فلينوِ قضاءً إنْ كانَ يجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) وهي صلاة الكسوف والاستسقاء والجنازة ، فإن كلاً من ذلك مستثناة مثل تحية المسجد . « إتحاف » (٣/ ٤٨٣) .

في ذمتِهِ قضاءُ صلاةٍ تطرَّقَ الخللُ إليها بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، فإنَّ قضاءَ الصلواتِ في أوقاتِ الكراهيةِ غيرُ مكروهٍ ، فأمَّا نيَّةُ التطوُّعِ . . فلا وجهَ لهُ[1] .

ففي النهي في أوقاتِ الكراهيةِ مهماتٌ ثلاثةٌ :

أحدُها : التوقي مِنْ مضاهاةِ عبدةِ الشمسِ .

والثاني : الاحترازُ مِنَ انتشارِ الشياطينِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ لتطلعُ ومعها قرنُ الشيطانِ ، فإذا طلعتْ . . قارنَها ، فإذا ارتفعتْ . . فارقَها ، فإذا استوتْ . . قارنَها ، فإذا زالتْ . . فارقَها ، فإذا تضيَّفتْ للغروبِ . . قارنَها ، فإذا غربتْ . . فارقَها »[2] ، فنهىٰ عنِ الصلاةِ في هـٰذهِ الأوقاتِ ونبَّهَ بهِ على العلَّةِ .

والثالثُ : أنَّ سالكي طريقِ الآخرةِ لا يزالونَ يواظبونَ على الصلاةِ في جميعِ الأوقاتِ ، والمواظبةُ علىٰ نمطٍ واحدٍ مِنَ العباداتِ يورثُ المَلالَ ، ومهما مُنِعَ منها ساعةً . . زادَ النشاطُ وانبعثتِ الدواعي ، والإنسانُ حريصٌ علىٰ ما مُنعَ منهُ ، ففي تعطيلِ هـٰذهِ الأوقاتِ زيادةُ تحريضٍ وبعثٍ على انتظارِ انقضاءِ الوقتِ ، فخصِّصَتْ هـٰذهِ الأوقاتُ بالتسبيحِ والاستغفارِ ؛ حذراً مِنَ المَلالِ بالمداومةِ ، وتفرُّجاً بالانتقالِ مِنْ نوعِ عبادةٍ إلىٰ نوعٍ آخرَ ، ففي

---

(١) وهـٰذا اختيار المصنف ، والمشهور في المذهب أن ركعتي الوضوء تؤديان في وقت الكراهة .

(٢) رواه النسائي (١/ ٢٧٥) ، وابن ماجه (١٢٥٣) ، **وتضيفت** : مالت .

الاستطرافِ والاستجدادِ لذةٌ ونشاطٌ ، وفي الاستمرارِ علىٰ شيءٍ واحدٍ استثقالٌ ومَلالٌ ؛ ولذلكَ لمْ تكنِ الصلاةُ سجوداً مجرَّداً ، ولا ركوعاً مجرَّداً ، ولا قياماً مجرَّداً ، بلْ رتبتِ العباداتُ مِنْ أعمالٍ مختلفةٍ وأذكارٍ متباينةٍ ؛ فإنَّ القلبَ يدركُ مِنْ كلِّ عملٍ منها لذةً جديدةً عندَ الانتقالِ إليها ، ولوْ واظبَ على الشيءِ الواحدِ . . لتسارعَ إليهِ المَلالُ .

فإذاً ؛ كانتْ هـٰذهِ أموراً مهمةً في النهيِ عنِ الأوقاتِ المكروهةِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أسرارٍ أخرَ ليسَ في قوةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، واللهُ ورسولُهُ أعلمُ بها ، فهـٰذهِ المهماتُ لا تتركُ إلا بأسبابٍ مهمَّةٍ في الشرعِ ؛ مثلَ قضاءِ الصلواتِ ، وصلاةِ الاستسقاءِ ، والخسوفِ ، وتحيةِ المسجدِ ، فأمَّا ما ضعفَ عنْ هـٰذهِ . . فلا ينبغي أنْ يصادمَ بها مقصودُ النهيِ ، هـٰذا هوَ الأوجهُ عندَنا . **واللهُ أعلمُ بالصوابِ**(١) .

* * *

تمّ كتاب أسرار الصلاة ومهمّاتها
وهو الكتاب الرّابع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين
بحمد الله وحسن توفيقه ، وصلاته على سيّد المرسلين محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين
يتلوه كتاب أسرار الزّكاة

---

(١) في (ز) : (قوبل بأصله وصحح) .

مُحتوى الكتاب

رُبعُ العِبادات / القِسم الأوّل

خطبة المؤلف ٧

ـ سبب الإقدام على تصنيف «إحياء علوم الدين» ٨

ـ وصف أحوال الناس زمن التأليف، الغفلة عن وظيفة المخلوق ٨

ـ غياب العلماء وبقاء رسومهم ٨

ـ علوم الآخرة طويت ونسيت ٩

ـ «إحياء علوم الدين» هو البلسم الشافي ٩

ـ الفهرست المجمل لـ«إحياء علوم الدين» ٩

ـ سبب تقديم كتاب العلم في التأليف ١٠

ـ التعريف بالأرباع التي تقسم الكتاب ١١

ـ الأشياء التي تميِّز «الإحياء» عن غيره من الكتب التي تقدمته ١٢

ـ لماذا قسم «الإحياء» أرباعاً؟ ١٣

ـ الضِّنَّةُ في علوم المكاشفة ١٤

ـ تقسيم علم المعاملة نظراً إلى أربعة أقسام ١٤

ـ مكانة علم الفقه زمنَ المصنِّف ١٥

ـ ثمرة علوم «الإحياء» ١٥

كتاب العلم ١٧

الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل ٢٠

فضيلة العلم ٢٠

ـ الحكمة في استغفار الخلق للعالم ٢٢

ـ لا عبادة بغير علم ٢٥

- الناس هم العلماء ٢٩
- حياة القلوب بالعلم والحكمة ٣٠
فضيلة التعلم ٣٤
فضيلة التعليم ٣٩
الشواهد العقلية لفضيلة العلم ٤٦
- الكلام في الشيء فرع تصور ماهيته ٤٦
- بيان معنى الفضيلة ٤٧
- أنواع المطلوبات ٤٧
- السعادة الأبدية هي غاية المطلوب، وأسُّها العلم ثم العمل ٤٨
- ثمرة العلم في الآخرة ٤٩
- ثمرة العلم في الدنيا ٤٩
- أنواع الأعمال والحرف والصناعات ٤٩
- شرف السياسة بالتأليف والاستصلاح ومراتبها ٥٠
- كيف يعرف شرف الصناعة ٥١
الباب الثاني: في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة ٥٤
بيان العلم الذي هو فرض عين ٥٤
- بيان العلم الذي هو فرض عين وذكر الخلاف في تعيينه ٥٤
- المعنى الذي ذهب إليه المصنف في هذا ٥٦
- المعاملة: اعتقاد، وفعل، وترك ٥٦
- العوارض التي توجب تعلُّماً جديداً ٥٧
- علم فعل النفل نفلٌ، وعلم فعل الفرض فرضٌ ٥٨
- يتجدد فرض علم المعتقدات بحسب الخواطر الواردة ٥٩

ـ تلقينُ الصحيح من العقيدة في بلد يسوده أهل البدع واجبٌ ٦٠
بيان العلم الذي هو فرض كفاية ٦٢
العلوم غير الشرعية محمودها ومذمومها ومباحها ٦٢
ـ فرض الكفاية من العلوم غير الشرعية ٦٢
ـ ما هو فضيلة من العلوم غير الشرعية ٦٣
العلوم الشرعية وما تنقسم إليه ٦٣
ـ الإجماع والأثر أصلان من الدرجة الثانية ٦٤
ـ **تحريجة**: لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟ ٦٦
ـ حدُّ الفقيه ٦٧
ـ تحرُّز السادة الصحابة من الفتوى ٦٨
ـ **تحريجة**: لا نسلم كون العبادات والمعاملات من علوم الدنيا ٦٨
ـ حكم الفقيه متعلق بالظاهر لا بالباطن ٦٩
ـ صلاة الغافلين صحيحة عند الفقيه، ومعاقب عليها في الآخرة ٧٠
ـ مراتب الورع ٧١
ـ ليس للفقيه حكم في ورع القلوب، بل في ورع الظاهر ٧٢
ـ **تحريجة**: فإن كان الفقه من علوم الدنيا.. فقد استوى الفقه والطبّ ٧٤
ـ **تحريجة**: فصِّلْ لنا علم الآخرة لنتعرَّفه ٧٥
ـ علم المكاشفة هو غاية العلوم ٧٥
ـ طرفٌ من معلوم علم المكاشفة ٧٦
ـ التعرُّف على علم طريق الآخرة ٧٨
ـ العلمُ الذي كهيئة المكنون هو علم المكاشفة ٧٨
ـ العلمُ بالأخلاق الحميدة للعمل بها، والذميمة لتجنبها.. هو علم الآخرة . . ٨٠
ـ جهل بعض الفقهاء بفروض العين العلمية ٨١
ـ كيف يرخِّص الفقهاء بفرض الكفاية مع إهمال فرض العين؟! ٨١

ـ علماء الظاهر يقرُّون بالفضل لأرباب القلوب ٨٢
ـ **تحريجة**: لِمَ لم تذكر علم الكلام والفلسفة وتبيِّن أهي محمودة أم مذمومة؟ . ٨٣
ـ موقف المصنف من علم الكلام ٨٤
ـ موقف المصنف من الفلسفة وعلومها ٨٤
ـ عوْدٌ للحديث عن علم الكلام ٨٥
ـ لا بدَّ للمتكلِّم من طلب طريق المعرفة ٨٦
ـ **تحريجة**: إذا كان المتكلم حارساً للعقيدة والفقيه حافظاً للقانون وعلماء الأمة متكلم وفقيه.. فكيف تنزل بهم إلى هذه الرتبة السافلة؟ ٨٦
ـ الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال ٨٧
ـ مقياسُ الفضْل ٨٧
ـ الفتوى من توابع الولاية والسلطنة ٨٨
ـ فرْقٌ كبير بين الفضل والشهرة ٨٨
أقسام ما يُتقرب به إلى الله تعالى ٩٠
ـ كيف كانت أحوال فقهاء الإسلام الصادقين ٩١
ـ أتباع الفقهاء أخذوا عنهم خصلة وتركوا أربعاً ٩١
الإمام الشافعي رضي الله عنه ٩٢
ـ ختمه للقرآن وصلاته بالليل ٩٢
ـ تركه للشبع لأجل العبادة ٩٣
ـ مراقبته للسانه وأذنه ٩٣
ـ اعتراف الأئمة بفضل الشافعي ١٠٠
الإمام مالك رضي الله عنه ١٠١
الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ١٠٦
الإمامان أحمد وسفيان ١٠٩

الباب الثالث: فيما يعده العامة من العلوم المحمود وليس منها وفيه بيان الوجه الذي به يكون بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها ١١٠
بيان علة ذم العلم المذموم ١١٠
ـ **تحريجة**: كيف يكون الشيء علماً ثم يكون مذموماً؟ ١١٠
ـ أسباب ذمِّ العلم ١١٠
ـ بيان معنى السحر ١١٠
ـ كثير من الخلق يحجبون بالأسباب عن المسبِّب ١١٢
ـ أحكام النجوم ظنيّة تخمينيّة، لا قطعية ١١٣
ـ يجب صرف العمر إلى ما هو أنفس ١١٤
ـ علم التعبير وعلم النجوم كلاهما تخمين، وبينهما فرق ١١٥
ـ حكاية تدل على أن الجهل نافع أحياناً ١١٦
ـ لا يمكن للعقل أن يحيط بأسرار الشرع ولطائفه ١١٧
ـ التجربة لا تتطرق إلى ما ينفع في الآخرة، بل لا بد من الخبر الصادق ١١٨
بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ١٢٠
ـ سبب التباس العلوم المحمودة بالمذمومة ١٢٠
ـ الفقه عند السلف هو علم طريق الآخرة ١٢٠
ـ الفقه والفهم بمعنىً ١٢١
ـ الفقيه عند الحسن هو الزاهد ١٢٣
ـ ما ذكرناه في معنى الفقه لا يمنع من إرادة المتصدي للأحكام الظاهرة ١٢٣
ـ العلم عند السلف كان يطلق على العلم بالله تعالى ١٢٤
ـ وهو اليوم يطلق على أهل النزاع والجدل ١٢٤
ـ التوحيد أن ترى الأمور كلها من الله عز وجل ١٢٥

ـ للتوحيد قشرانِ ولبٌّ ١٢٦
ـ عابد الصنم إنما يعبد هواه على التحقيق ١٢٧
ـ القلب هو معدن التوحيد ومنبعه ١٢٨
ـ ترك حقيقة الذكر إلى القصص والأشعار والشطح والطامات ١٢٩
ـ الآثار الواردة في القُصَّاص ١٢٩
ـ التذكير المحمود في الشرع ١٣٠
ـ أخطار القصص على عوامِّ الناس ١٣١
ـ القصص المحمودة ١٣٢
ـ وضع الحكايات واقتراؤها من نزغات الشيطان ١٣٢
ـ كراهية السجع والتحذير منه ١٣٢
ـ أشعار النسيب لا تحرك في نفوس العوام إلا الشهوات ١٣٣
ـ والخواصُّ ينزلونها على أحوالهم ١٣٤
ـ استلذاذ العامة للشطح وانكبابها عليه ١٣٥
ـ الآثار المحذِّرة من إطلاق كلام لا يفهمه المخاطب ١٣٧
ـ ما يميِّز الطامات عن الشطح ١٣٧
ـ هناك أمور نقطع بعدم صرفها عن ظاهرها ١٣٩
ـ تفسير القرآن بالاستنباط والفكر ليس من هذا الباب ١٤٠
ـ من يضع الحديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل ظلماً
وضلالاً من طامات الباطنية ١٤٠
ـ ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ١٤٢
بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة ١٤٤
ـ لا غنى عن المجاهدة للوصول إلى العلم بالله تعالى ١٤٥
ـ إما أن تكون مشغولاً بنفسك، وإما متفرِّغاً لغيرك ١٤٦
ـ التخلية قبل التحلية ١٤٧

ـ مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه ١٤٧
ـ منهج التعلُّم بعد إصلاح النفس عند المصنف ١٤٨
ـ لا تعجل في التخصُّص، فالعمر قصير والعلم كثير ١٤٨
ـ من ابتلي بالبدعة مع الجدل قلَّ أن ينفعه علم الكلام ١٥٠
ـ التعصُّب سبب يرسِّخ العقائد في النفوس ١٥٠
ـ التعصُّب سبب لترسيخ البدعة في النفوس ١٥١
ـ نصيحة من المصنف في علم الخلافيات ١٥١
ـ الخلافيات مفسدة لذوق الفقه ١٥٢
ـ الأخبار الواردة في ذم الجدل ١٥٢

الباب الرابع: في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها ١٥٥

ـ سبب استعانة الولاة بالفقهاء ١٥٥
ـ ظهور سوء النية في طلب العلم ١٥٦
ـ الإقبال على علم الكلام ١٥٦
ـ الميل إلى علم الخلافيات ١٥٧

بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف ١٥٩

ـ شروط وعلامات طلب الحقِّ ١٥٩
ـ كذب من اشتغل بفرض الكفاية عن فرض العين إن ادَّعى طلب الحق ١٥٩
ـ هل تكون الصلاة عصياناً؟ ١٦٠
ـ فمن لم تكن عنده رتبة الاجتهاد وهذه هي الحال؟ ١٦٢
ـ أخطار المناظرة أمام الجموع ١٦٣
ـ أحوال السلف في المناظرات والمشاورات ١٦٤
ـ مشْهدٌ من مساوىء المناظرات ١٦٦
ـ هل ثمَّ من يفكِّر في مناظرة الشيطان؟ ١٦٨

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق ١٦٩
الحسد ١٦٩
ـ الحسد نار محرقة ١٧٠
التكبر والترفع على الناس ١٧٠
الحقد ١٧١
الغيبة ١٧٢
تزكية النفس ١٧٢
التجسس وتتبع عورات الناس ١٧٣
الفرح بمساءة الناس والغم لمسارهم ١٧٣
النفاق ١٧٤
الاستكبار عن الحق ١٧٥
الرياء وملاحظة الخلق ١٧٦
ـ ما يتفرَّعُ عن هذه الخصال العشر الذميمة ١٧٦
ـ الوعَّاظ ونحوهم قد يبتلَوا بمثل هذه الآفات الشنيعة ١٧٧
ـ **تحريجة**: في المناظرات حث على طلب العلم ١٧٨
العلماء ثلاثة ١٧٩
الباب الخامس: في آداب المتعلم والمعلم ١٨١
بيان وظائف المتعلم ١٨١
ـ النجاسة حسِّيَّةٌ ومعنوية ١٨١
ـ نور العلم يقذفه الله تعالى بواسطة الملائكة ١٨٢
ـ كيف آمن الكفَّار إن كانت الملائكة لا تدخل قلوبهم؟ ١٨٢
ـ فرق ما بين الاعتبار وتقرير البواطن ١٨٣
ـ نور البصيرة يراعي المعاني دون الصور ١٨٣
ـ **تحريجة**: فما لنا نرى رديء الأخلاق يحصِّلُ العلوم؟ ١٨٤

ـ **تحريجة**: كيف يكون العلم الخشية ونرى جماعة من الفقهاء بأخلاق ذميمة ١٨٦
ـ من أبى أن يتعلَّم إلا من المرموقين المشهورين فهو من المتكبِّرين ١٨٧
ـ خطأ المعلِّم أنفع للمتعلم من صواب نفسه ١٨٨
ـ **تحريجة**: أفلا يجب علينا أن نسأل؟ ١٨٩
ـ دع السؤال قبل أوانه ١٨٩
ـ قطعة من وصية سيدنا علي رضي الله عنه للمتعلِّم ١٨٩
ـ التحذير من المعلِّمين الذين ينقلون المذاهب ولا يلتزمون مذهباً ١٩٠
ـ يجوز للكامل ما لا يجوز للناقص ١٩١
ـ العلوم إما سالكة بالعبد أو معينة على السلوك ١٩٢
ـ الميزان الذي نتعرَّف به شرف العلوم ١٩٥
ـ لا يفهم بشدة العناية بعلم الآخرة تسفيهُ باقي العلوم ١٩٧
ـ تقسيم العلوم بمثال لطيف ١٩٨
ـ تفاوت درجات الواصلين ٢٠٠
ـ **تحريجة**: لِمَ شبهت الفقه والطبَّ بأدنى الدرجات التي فصَّلتها؟ ٢٠١
ـ شرف خصوصية النسبة للقلب والروح ٢٠٢
ـ وجه التمايز بين الطب والفقه ٢٠٢
بيان وظائف المرشد المعلم ٢٠٥
ـ حقُّ معلِّم علوم الآخرة آكد من حقِّ الوالدين ٢٠٦
ـ الفضل والمنَّة للمتعلِّم ٢٠٧
ـ طلب الأجر على التعليم من الله عز وجل ٢٠٨
ـ الاعتداد بالطلبة والمتعلمين خسَّةٌ وضَعة ٢٠٨
ـ الغاية من التعلُّم هو القرب من الله تعالى ٢٠٩
ـ وضع الأشياء في محالِّها ٢١٣
ـ قصْرُ العوامّ على المهمات في الدين ٢١٥

الباب السادس: في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء . ٢١٧
ـ الأخبار الواردة في ذلك ٢١٧
ـ علامات علماء الآخرة ٢٢٣
ـ الجاه أضرُّ من المال ٢٢٦
ـ علماء هذه الأمة رجلان ٢٢٩
ـ معرفة الأَوْلى فالأولى ٢٤٠
ـ قصة حاتم الأصم مع شقيق البلخي ٢٤١
ـ قصة حاتم الأصم وزهده ووعظه الولاة والعلماء ٢٤٤
ـ التحقيق في مسألة التوسع في المباحات ٢٤٨
ـ مكاتبتا يحيى النوفلي ومالك بن أنس ٢٤٨
ـ أخبار في التحذير من مجاورة الولاة ٢٥١
ـ عمر بن عبد العزيز والحسن البصري ٢٥٦
ـ ترك الحياء من قول: لا أدري ٢٥٧
ـ سبق العامل للعالم ٢٦٥
ـ قطعة من حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لكميل بن زياد ٢٦٦
ـ **تحريجة**: فما هو اليقين حتى نشتغل به؟ ٢٧٠
ـ اليقين عند المتكلمين ٢٧٠
ـ اليقين عند الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء ٢٧٣
ـ على هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ٢٧٣
ـ **تحريجة**: فما متعلقات اليقين وماذا يطلب فيه؟ ٢٧٥
ـ الأدب في الخلوات ثمرة يقين المراقبة ٢٧٧
ـ الآثار والأخبار الواردة في ذلك ٢٧٩
ـ من سمات علماء الدنيا الاشتغال بالنوادر عن المهمَّات ٢٨٦
ـ علماء الدنيا يخسرون الدنيا والآخرة ٢٨٦

ـ غربة علم الآخرة ٢٨٨
ـ لا يصلح لأهل الخصوص إلا الخصوص ٢٨٩
ـ البحث عن أسرار الأعمال ٢٩٠
ـ التدوين سبب للكسل وترك التلقي ٢٩١
ـ أول من صنَّف في الإسلام ٢٩٢
ـ كيف بدأت غربة علم اليقين ٢٩٣
ـ من هو أعلم أهل الزمان ٢٩٤
ـ العبرة بموافقة السنة ٢٩٤
ـ مثال على بعض المبتدعات التي تعد من المعروف ٢٩٦
ـ قصة إبليس في إفساد السلف ٣٠٠
ـ **تحريجة**: فكيف وصلت إلينا هذه القصة عن إبليس؟ ٣٠١
ـ سبب احتجاب الأولياء ٣٠٢
الباب السابع: في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه ٣٠٥
بيان شرف العقل ٣٠٥
ـ هيبة العقل الكامل ٣٠٦
ـ الأخبار الواردة في شرف العقل ٣٠٦
ـ العاقل من أطاع الله تعالى ٣٠٦
ـ **تحريجة**: كيف وُجد العرض قبل الجوهر؟ ٣٠٧
ـ الأخبار الواردة في العقل ٣٠٨
بيان حقيقة العقل وأقسامه ٣١٢
ـ إثبات العقل كغريزة راسخة ٣١٢
ـ توصيف تعاريف العقل ٣١٥
ـ مثال يوضح وجود القسم الأول من تعاريف العقل ٣١٧
ـ فهم دقيق لمعنى التذكُّر في كتاب الله تعالى ٣١٨

ـ مثال خلل البصيرة ٣١٩
بيان تفاوت الناس في العقل ٣٢١
ـ مثال التفاوت في العقل الغريزي ٣٢٣
ـ لا ربْط بين معرفة درجات الوحي وبين استدعائه ٣٢٤
ـ انقسام الناس في درجات الفهم ٣٢٥
ـ **تحريجة**: إن كان هذا شأن العقل.. فما بال الصوفية يذمُّونه؟ ٣٢٥
ـ نور اليقين وعين الإيمان وما شابه هذا هو العقل عينه ٣٢٦
كتاب قواعد العقائد ٣٢٩
الفصل الأول: في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام ٣٣١
التوحيد ٣٣١
ـ ذاتُهُ سبحانه وتعالى ٣٣١
ـ مجمل القول في التوحيد ٣٣١
التنزيه ٣٣٢
ـ مجمل القول في التنزيه ٣٣٢
ـ صفاتُهُ سبحانه وتعالى ٣٣٣
الحياة والقدرة ٣٣٣
ـ مجمل القول في الحياة والقدرة ٣٣٣
العلم ٣٣٤
ـ مجمل القول في العلم ٣٣٤
الإرادة ٣٣٥
ـ مجمل القول في الإرادة ٣٣٥
السمع والبصر ٣٣٥
ـ مجمل القول في السمع والبصر ٣٣٥

الكلام ٣٣٦
ـ مجمل القول في الكلام ٣٣٦
الأفعال ٣٣٧
ـ أفعالُهُ سبحانه وتعالى ٣٣٧
معنى الكلمة الثانية من كلمتي الشهادة ٣٣٨
ـ الكلام في نبوته صلى الله عليه وسلم ٣٣٨
ـ الكلام في الغيبيات ٣٣٨
الفصل الثاني: في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد ٣٤٢
ـ التقليد في العقائد ٣٤٢
ـ ترسيخ العقيدة لا يكون بتعلم الجدل، بل بتلاوة القرآن ودراسة علومه، والاشتغال بوظائف العبادات ٣٤٢
ـ عقيدة العاميِّ وعقيدة المتكلِّم ٣٤٣
مسألة: في حكم تعلم الجدل والكلام ٣٤٥
ـ من مال إلى القول بتحريم تعلم الجدل والكلام وأقوالهم في ذلك ٣٤٥
ـ حججهم في ذلك ٣٤٨
ـ حجج وأدلة القائلين بإباحة تعلم الجدل والكلام ٣٤٩
ـ ما ورد عن السلف من الجدل والكلام ٣٥١
ـ رأي المصنف في هذه المسألة هو التفصيل ٣٥٣
ـ مضرة علم الكلام ٣٥٤
ـ منفعة علم الكلام ٣٥٥
ـ تفصيل القول فيه ٣٥٦
ـ **تحريجة**: ألا ترى أن تعلُّم الكلام صار من جملة فروض الكفايات؟ ٣٥٩
ـ لا بد من وجود من يدفع الشبه، ولكن لا يبثُّ علمه على العموم ٣٦٠
ـ من يجب تعليمه هذا العلم ٣٦٠

- الحجج المحمودة في الكلام هي التي من جنس حجج القرآن ٣٦١
- سبب منع السلف من تعلم الكلام ٣٦١
- معرفة الأشياء على ما هي عليه يتوقف على المجاهدة والإقبال على الله بالكلية ٣٦٢

مسألة: هل هناك عقيدة ظاهرة وعقيدة باطنة ؟ ٣٦٢

مسألة: في وجه الاختلاف بين الظاهر والباطن ٣٦٦

- أسرار علوم المكاشفة ليس مما كلِّف العبد الاطلاع عليه ٣٦٧
- مرجع حجب الأسرار ودقائق المعارف خمسة أمور ٣٦٧
- كلال أكثر الأفهام عن دركه ٣٦٧
- أن يكون ذكره ضارّاً بأكثر المخاطبين ٣٧٠
- ترميزه ليكون ذلك أوقع في قلب السامع ٣٧١
- قرينة تقرير خلاف الظاهر إما العقل أو الشرع ٣٧٢
- إدراك الشيء جملة ثم إدراكه تفصيلاً ٣٧٤
- التعبير بلسان المقال عن لسان الحال ٣٧٥
- تنوع الفهوم في اشتفاف النص ٣٧٧
- المغالون في رفع الظواهر ٣٧٧
- المغالون في إثبات الظواهر ٣٧٧
- أهل اليقين يأخذون بالمذهبين معاً ٣٧٩

الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد : في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بـ «الرسالة القدسية» ٣٨١

الأركان التي تتضمنها كلمتا الشهادة ٣٨١

الركن الأول من أركان الإيمان: في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ٣٨٣

الأصل الأول: معرفة وجوده تعالى ٣٨٣

ـ دليل الاعتبار والتدبر ٣٨٤
ـ الدليل العقلي المجرَّد ٣٨٤
الأصل الثاني : العلم بأن الباري تعالى قديم لم يزل ٣٨٦
الأصل الثالث : العلم بأنه تعالى أبديٌّ ٣٨٧
ـ لا يتصور إعدام القديم ٣٨٧
الأصل الرابع : العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز ٣٨٨
الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر ٣٨٩
الأصل السادس : العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم ٣٨٩
الأصل السابع : العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات ٣٩٠
ـ كيف تُتصوَّر الجهة ٣٩٠
ـ دليل نفي الجهة ٣٩١
ـ دليل آخر على نفيها ٣٩٢
ـ علة التوجه في الدعاء إلى السماء ٣٩٢
الأصل الثامن : العلم بأنه تعالى مستوٍ على عرشه بالمعنى الذي أراده تعالى بالاستواء ٣٩٢
ـ تأويل المنازع لبعض النصوص دون بعض تحكُّمٌ ٣٩٣
الأصل التاسع : العلم بأنه تعالى مرئيٌّ بالأعين والأبصار في الدار الآخرة ٣٩٣
ـ وجه إثبات الرؤية للقديم ٣٩٤
الأصل العاشر : العلم بأن الله واحد لا شريك له فرد لا ندَّ له. ٣٩٥
الركن الثاني : العلم بصفات الله تعالى ٣٩٦
الأصل الأول : العلم بأن صانع العلم قادر ٣٩٦
الأصل الثاني : العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ٣٩٦
الأصل الثالث : العلم بكونه عز وجل حيّاً ٣٩٧
الأصل الرابع : العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله ٣٩٧

الأصل الخامس: العلم بأنه تعالى سميع بصير ٣٩٨
الأصل السادس: أنه تعالى متكلم بكلام ٣٩٩
الأصل السابع: أن كلامه القائم بنفسه قديم ٤٠١
الأصل الثامن: أن علمه قديم ٤٠٢
الأصل التاسع: أن إرادته قديمة ٤٠٢
الأصل العاشر: أن الله تعالى عالم بعلم وحيٌّ بحياة وقادر بقدرة ومريد بإرادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر ٤٠٣
الركن الثالث: العلم بأفعال الله تعالى ٤٠٤
الأصل الأول: العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه .. ٤٠٤
الأصل الثاني: أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ٤٠٥
الأصل الثالث: أن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله تعالى ٤٠٦
- **تحريجة**: فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد؟ ٤٠٨
الأصل الرابع: أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ٤٠٨
- تعيين معنى الواجب ٤٠٩
- بطلان القول بوجوب الأصلح على الله تعالى ٤٠٩
الأصل الخامس: أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف عباده ما لا يطيقونه .. ٤٠٩
الأصل السادس: أن الله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق .. ٤١٠
- **تحريجة**: يحشر الله تعالى البهائم ويجازيها على قدر ما قاسته وجوباً ٤١٠
الأصل السابع: أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء ٤١١
- مسألةٌ تبيِّن بطلان وجوب الأصلح عليه سبحانه ٤١١
- **تحريجة**: ألا ترى أنه يقبح بحقه سبحانه ألا يراعي الأصلح مع قدرته عليه . ٤١٢
الأصل الثامن: أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه، لا بالعقل ٤١٣

ـ تحريجة: إذا لم يجب النظر إلا بالشرع، والشرع لا يستقر إلا بالنظر.. أفحم الرسول ٤١٤
الأصل التاسع: أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام ٤١٥
الأصل العاشر: أن الله سبحانه قد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين ٤١٦
ـ وجه دلالة المعجزة على صدق من وقعت على يده ٤١٧
الركن الرابع: السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ٤١٨
الأصل الأول: الحشر والنشر ٤١٨
الأصل الثاني: سؤال منكر ونكير ٤١٨
الأصل الثالث: عذاب القبر ٤١٩
الأصل الرابع: الميزان ٤٢٠
الأصل الخامس: الصراط ٤٢٠
الأصل السادس: أن الجنة والنار مخلوقتان ٤٢١
الأصل السابع: أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ٤٢١
ـ تزكية جميع الصحابة وحسن الظن بهم ٤٢٢
الأصل الثامن: أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة ٤٢٣
الأصل التاسع: أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة ٤٢٣
الأصل العاشرة: أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان صرفه إثارة فتنة لا تطاق.. حكمنا بانعقاد إمامته. ٤٢٤
الفصل الرابع من قواعد العقائد: في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل ٤٢٥

مسألة: في الاختلاف هل الإسلام هو الإيمان بعينه أو غيره؟ ٤٢٥
البحث الأول: في موجب اللغة ٤٢٦
البحث الثاني: عن إطلاق الشرع ٤٢٧
البحث الثالث: عن الحكم الشرعي ٤٣٠
للإسلام والإيمان حكمان: أخروي ودنيوي ٤٣٠
ـ **تحريجة**: فما هي شبهة المعتزلة والمرجئة في مسألة العمل؟ ٤٣٥
ـ **تحريجة**: فما معنى قول السلف: (الإيمان عقد وقول وعمل)؟ ٤٣٩
مسألة: في زيادة الإيمان ونقصانه ٤٤٠
ـ **تحريجة**: زد لنا توضيح ذلك ٤٤١
ـ الإيمان اسم مشترك يطلق على ثلاثة أوجه ٤٤١
ـ أثر الطاعة في القلب يؤكد هذا المعنى ٤٤٢
مسألة: قوله: أنا مؤمن إن شاء الله ٤٤٥
ـ نوعا النفاق وأثر كل منهما في الإيمان ٤٥٧

كتاب أسرار الطهارة ومهماتها ٤٦١
ـ أنواع الطهارات ٤٦٤
ـ لكل رتبة طهارةٌ هي نصف العمل فيها ٤٦٤
ـ أعمى البصيرة هو من يقصر الطهارة على الظاهر ولا يلتفت إلى الباطن ٤٦٥
ـ أحوال السلف في طهارة الظاهر وتساهلهم فيها ٤٦٦
ـ أول ما ظهر من البدع ٤٦٧
ـ أحوال أهل عصر المؤلف في طهارة الظاهر وعنايتهم بها على حساب طهارة الباطن ٤٦٨
ـ **تحريجة**: فهل ما أحدثه الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات؟ ٤٦٩

ـ العالِم إن وجدَ من يُعنى بثوبه ونظافته يدفعه إليه ٤٧١
ـ الحديث في هذا الكتاب مقتصر على نظافة الظاهر ٤٧٢
القسم الأول: في طهارة الخبث، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة ٤٧٣
الطرف الأول: في المزال ٤٧٣
خمس نجاسات يعفى عنها ٤٧٤
الطرف الثاني: في المزال به ٤٧٥
ـ كيف يصير الماء الطاهر نجساً ٤٧٦
ـ ميل المصنف إلى مذهب مالك رحمه الله تعالى في مسألة تنجس الماء وأدلة ذلك ٤٧٦
ـ سبب ميل المصنف إلى المساهلة في أمور النجاسات ٤٨٢
الطرف الثالث: في كيفية الإزالة ٤٨٢
القسم الثاني: طهارة الأحداث ٤٨٤
باب آداب قضاء الحاجة ٤٨٤
كيفية الاستنجاء ٤٨٧
كيفية الوضوء ٤٨٩
ـ ما ورد في فضل السواك والندب إليه ٤٨٩
ـ مكروهات الوضوء ٤٩٥
ـ مراعاة طهارة القلب عند الإقبال على الصلاة ٤٩٧
فضيلة الوضوء ٤٩٨
كيفية الغسل ٥٠٠
ـ بيان الواجبات في الوضوء والغسل ٥٠١
ـ الأغسال الواجبة والمسنونة ٥٠١
كيفية التيمم ٥٠٢
القسم الثالث من النظافة: التنظيف عن الفضلات الظاهرة، وهي نوعان . . . ٥٠٤

النوع الأول: الأوساخ والرطوبات المترشحة ٥٠٤
- حكم التزيُّن وتفصيل القول فيه ٥٠٦
- وظائف دخول الحمام العام ٥١٠
- واجباته ٥١٠
- متى يسقط النهي عن المنكر ٥١١
- سننه ٥١٢
- أحكام متفرقة في دخول الحمام العام ٥١٤
- أحكام النساء في دخول الحمام العام ٥١٦
النوع الثاني مما يحذف من البدن: الأجزاء ٥١٧
- كيفية قص الأظفار واجتهاد المصنف في ذلك ٥٢٠
- لا تخلو أعمال الأنبياء عن حِكَم ظاهرة أو خفية ٥٢٢
- اعتبار هذا المعنى في مسألة اكتحاله صلى الله عليه وسلم وإيثاره فيها ٥٢٢
- **تحريجة**: فلم اقتصر على ثنتين لليسرى وهي زوج؟ ٥٢٣
- متى يكون العالم وارثاً للحضرة النبوية ٥٢٤
- تفصيل القول في اللحية ٥٢٥
فصل فيما يكره في اللحية من خصال ٥٢٦

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها ٥٣٧
الباب الأول: في فضائل الصلوات والسجود والجماعة والأذان وغيرها ٥٤١
فضيلة الأذان ٥٤١
- كيفية إجابة المؤذن ٥٤٢
فضيلة المكتوبة ٥٤٤
فضيلة إتمام الأركان ٥٤٨
فضيلة الجماعة ٥٥٠
فضيلة السجود ٥٥٣

فضيلة الخشوع ٥٥٦

فضيلة المسجد وموضع الصلاة ٥٦٣

الباب الثاني: في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداية بالتكبير وما قبله . ٥٦٧

ـ كيفية التهيؤ للصلاة ٥٦٧

ـ أدب القيام في الصلاة ٥٦٧

ـ الإطراق في الرأس أقرب إلى الخشوع ٥٦٨

ـ القول في النية ٥٦٨

ـ هيئة التكبير ٥٦٩

ـ أحكام التكبير ٥٧٠

القراءة ٥٧٠

ـ أحكام القراءة ٥٧٠

ـ دعاء الاستفتاح ٥٧٠

الركوع ولواحقه ٥٧٢

ـ أحكام الركوع ٥٧٢

السجود ٥٧٣

ـ أحكام السجود ٥٧٣

التشهد ٥٧٥

ـ أحكام التشهد ٥٧٥

المنهيات ٥٧٨

تمييز الفرائض والسنن ٥٨٢

ـ فرائض الصلاة ٥٨٢

ـ السنن الواردة في أفعال الصلاة ٥٨٣

ـ السنن الواردة في أذكار الصلاة ٥٨٣

ـ ما يجبر بسجود السهو وهي الأبعاض ٥٨٣

ـ **تحريجة**: كيف مايزتم بين السنن، فجبرتم بعضها بسجود السهو دون بعض؟ ٥٨٥
ـ كثيرون لا يعرفون من السنة إلا أنه يجوز تركها ٥٨٦
الباب الثالث: في الشروط الباطنة من أعمال القلب ٥٨٨
بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب ٥٨٨
ـ الأدلة النقلية على اشتراط الخشوع ٥٨٨
ـ الدليل العقلي على اشتراط الخشوع ٥٩٠
ـ ما أبعد الغافل عن مقصود الصلاة ٥٩٢
ـ **تحريجة**: اشتراط الخشوع لصحة الصلاة مخالفة لإجماع الفقهاء ٥٩٣
ـ مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقيَّد بقدْر قصور الخلق ٥٩٥
ـ حاصل الكلام في الخشوع وحضور القلب ٥٩٧
بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة ٥٩٨
ـ التفهم مقام يتفاوت فيه الناس ٥٩٨
ـ الأسباب التي تعين على توليد هذه المعاني الشريفة ٦٠٠
ـ ولكل درجات مما عملوا ٦٠٥
بيان الدواء النافع في حضور القلب ٦٠٦
ـ الخواطر الشاغلة هي السبب الرئيس في النأي عن حضور القلب ٦٠٦
أسباب موارد الخواطر الخارجة والباطنة وعلاجها ٦٠٦
ـ سبب اختيار المتعبدين بيتاً صغيراً مظلماً لتعبُّدهم ٦٠٧
ـ التخلُّص مما يشغل القلب استجلاباً للحضور والخشوع ٦٠٨
ـ الشهوة القوية لا ينفع معها التسكين، بل لا بد من حسمها ٦١٠
ـ حب الدنيا أصل الشهوات ٦١١
بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة ٦١٣
ـ المطالبة بالظواهر تحريك للبواطن ٦١٥

ـ الاستعانة بتوهم مراقبة أهل المهابة استحضاراً للخضوع والخشوع ٦١٦
ـ الناس في القراءة على ثلاثة أحوال ٦٢١
ـ أعظم غنيمة في الصلاة أنه جل جلاله يذكر عبده ٦٢٣
ـ موجَبات التلاوة ٦٢٣
ـ تنويع النغمات تفريقاً للمعاني ٦٢٤
ـ السلام وختم الصلاة ٦٢٩
ـ حال العبد الخاشع بعد الصلاة ٦٢٩
ـ صلاة الخاشعين سبب لحصول أنوار هي مفاتيح علوم المكاشفة ٦٣٠
ـ اختلاف أهل المكاشفة في المكاشفة ٦٣١
ـ الكرم الإلهي لا حدود له والمشكلة في الصدإ المتراكم على مرآة القلب .. ٦٣١
ـ التسليم لأهل المكاشفة ٦٣٢
ـ من لم يكن من أهل المكاشفة.. فعليه أن يؤمن بالغيب ٦٣٢
ـ سبب الرقة والبكاء القربُ من الله تعالى ٦٣٢
ـ مفارقة الإنسان الملائكة في الرقي من درجة إلى درجات ٦٣٣
ـ الصلاة هي مفتاح المزيد ٦٣٤
حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين ٦٣٥
ـ معرفة الله تعالى سبب الخشوع في كل حال ٦٣٥
ـ أحوال الربيع بن خثيم في خشوعه وخضوعه ٦٣٥
ـ أحوال عامر بن عبد الله بن الزبير في ذلك ٦٣٦
ـ أحوال مسلم بن يسار في ذلك ٦٣٧
ـ تخفيف الصلاة خوف السهو ٦٣٨
ـ جبْرُ الصلوات ٦٣٩
ـ تدبُّر القراءة والإنصات والتفهم لها ٦٤٠
الباب الرابع: في الإمامة والقدوة ٦٤٢

وظائف الإمام قبل الصلاة ٦٤٢
ـ كراهة التدافع للإمامة ٦٤٣
ـ الإمامة أفضل من الأذان ٦٤٥
ـ الصلاة أول الوقت أفضل من كثرة الجماعة ٦٤٧
وظائف القراءة ٦٥٠
ـ آخر صلاة صلاها النبي صلى الله عليه وسلم هي صلاة المغرب، قرأ فيها (سورة المرسلات) ٦٥٣
وظائف الأركان ٦٥٤
ـ هل ينتظر الإمام لحوق من دخل لينال فضل الجماعة؟ ٦٥٥
وظائف التحلل من الصلاة ٦٥٧
ـ دعاء القنوت وهيئته ٦٥٨
الباب الخامس: في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها ٦٥٩
فضيلة الجمعة ٦٥٩
بيان شروط الجمعة ٦٦٣
فرائض الخطبة ٦٦٤
سنن الخطبة ٦٦٥
بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة، وهي عشر جمل ٦٦٧
ـ أحب الطيب للرجال والنساء ٦٧١
ـ حديث الساعات ليوم الجمعة وضبطها ٦٧٣
ـ المعاني التي لأجلها يترك الصف الأول ويستحب التأخير ٦٧٨
ـ اقتطاع المقاصير في المسجد بدعة منكرة ٦٨٠
ـ هل يقطع المنبر الصف الأول والخلاف في ذلك ٦٨١
ـ عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين وحكمها ٦٨٢
ـ المسبَّعات يوم الجمعة ٦٨٣

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار . . . ٦٨٦
ـ استماع العلم النافع في الآخرة أفضل من النوافل ٦٨٦
ـ الأقوال في تحديد الساعة التي يجاب فيها الدعاء يوم الجمعة ٦٨٨
ـ الأحسن في تقسيم أوقات الجمعة ٦٩٦
الباب السادس: في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها . ٦٩٩
مسألة: تتعلق بأفعال المصلي وحركاته في الصلاة صحة وفساداً ٦٩٩
مسألة: في حكم خلع النعال في الصلاة هل يفسد أم لا وهل الصلاة في النعلين جائزة أم لا ؟ ٧٠٠
مسألة: في حكم البزاق في الصلاة إذا غلبه كيف يفعل ؟ ٧٠٢
مسألة: في كيفية وقوف المقتدي وراء الإمام ٧٠٣
مسألة: في حكم المسبوق ٧٠٤
مسألة: في متفرقات مسائل الفائتة والجماعة ٧٠٥
مسألة: في حكم من رأى على ثوبه نجاسة: هل يتم صلاته أو يستأنف ؟ . . ٧٠٦
مسألة: في حكم سجود السهو ٧٠٧
مسألة: في بيان الدواء النافع للوسوسة في نية الصلاة ٧٠٧
مسألة: في ذكر شرط صحة الاقتداء ٧١٠
مسألة: في الأمر بالمعروف، ومنها تسوية الصفوف وفضل الجماعة والصف الأيمن ٧١١
الباب السابع: في النوافل من الصلوات ٧١٤
ـ سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد ٧١٥
ـ أفضل سنن الجماعات وسنن الانفراد ٧١٥
القسم الأول: ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي ٧١٧
ـ ضرورة تعلم منازل القمر ومقادير الأوقات ٧١٨

القسم الثاني: ما يتكرر بتكرر الأسابيع وهي صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة ٧٣٢
القسم الثالث: ما يتكرر بتكرر السنين ٧٤٤
الأولى: صلاة العيدين ٧٤٤
الثانية: التراويح ٧٤٧
الثالثة: صلاة رجب ٧٥٠
الرابعة: صلاة شعبان ٧٥٣
القسم الرابع من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت ... ٧٥٥
الأولى: صلاة الكسوف ٧٥٥
الثانية: صلاة الاستسقاء ٧٥٦
الثالثة: صلاة الجنازة ٧٥٨
الرابعة: تحية المسجد ٧٦١
الخامسة: ركعتان بعد الوضوء ٧٦٣
السادسة: ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه ٧٦٤
مراتب الأمور التي ينبغي أن يتبرك في بدايتها بذكر الله تعالى ٧٦٥
السابعة: صلاة الاستخارة ٧٦٦
الثامنة: صلاة الحاجة ٧٦٨
التاسعة: صلاة التسبيح ٧٦٩
مهماتٌ في النهي عن الصلاة في أوقات الكراهية ٧٧٢
محتوى الكتاب ٧٧٥

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدِّد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١ م)

ربع العبادات / القسم الثاني

كتاب

أسرار الزكاة ـ أسرار الصوم ومهماته ـ أسرار الحج ومهماته

آداب تلاوة القرآن ـ الأذكار والدعوات

ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل

المجلد الثاني

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كِتَابُ

أَسْرَارِ الزَّكَاةِ

وهو الكتاب الخامس من ربع العبادات

من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب أسرار الزّكاة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أسعدَ وأشقىٰ ، وأماتَ وأحيا ، وأضحكَ وأبكىٰ ، وأوجدَ وأفنىٰ ، وأفقرَ وأغنىٰ ، وأضرَّ وأقنىٰ[1] ، الذي خلقَ الحيوانَ مِنْ نطفةٍ تُمنىٰ ، ثمَّ تفرَّدَ عنِ الخلقِ بوصْفِ الغنىٰ ، ثمَّ خصَّصَ بعضَ عبادِهِ بالحسنىٰ ، فأفاضَ عليهِ مِنْ نعمِهِ ما أيسرَ بِهِ منْ شاءَ واستغنىٰ ، وأحوجَ إليهِ مَنْ أخفقَ في رزقِهِ وأكدىٰ[2] ؛ إظهاراً للامتحانِ والابتلا ، ثمَّ جعلَ الزكاةَ للدينِ أساساً ومبنى ، وبيَّنَ أنْ بفضلِهِ تزكَّىٰ مِنْ عبادِهِ مَنْ تزكَّىٰ ، ومِنْ غناهُ زكَّىٰ مالَهُ مَنْ زكَّىٰ[3] .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ المصطفىٰ سيِّدِ الورىٰ وشمسِ الهدىٰ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ المخصوصينَ بالعلمِ والتقىٰ ، وسلَّمَ كثيراً .

---

(١) أقنىٰ : أعطىٰ وأرضىٰ ، فيكون المعطوف عليه (أضرَّ) بمعنىٰ حَرَم ومنع .

(٢) الضمير في (إليه) عائد إلىٰ بعض العباد المفاض عليه ، وأكدىٰ : تعب . « إتحاف » (٦/٤) .

(٣) والضمير في (غناه) عائد إليه سبحانه ، وذلك لأن ذلك القدر المعين من مال المزكِّي المسمىٰ زكاة ليس من ماله ، بل هو أمانة عنده لتوجه الأمر عليه بالإخراج ، فمن يزكِّي إنما يزكي بغناه جلَّ وعزَّ . « إتحاف » (٦/٤) .

أما بعد :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الزكاةَ إحدىٰ مباني الإسلامِ ، وأردفَ بذكرِها الصلاةَ التي هيَ أعلى الأعلامِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ .

وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ : شهادةِ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ . . . »[١] .

وشدَّدَ الوعيدَ على المقصِّرينَ فيها فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢] .

ومعنى الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ : إخراجُ حقِّ الزكاةِ ، قالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : كنتُ في نفرٍ مِنْ قريشٍ ، فمرَّ أبو ذرٍّ فقالَ : (بشِّرِ الكانزينَ بكيٍّ في ظهورِهِمْ يخرجُ مِنْ جنوبِهِمْ ، وبكيٍّ مِنْ قِبَلِ أقفائِهِمْ يخرجُ مِنْ جباهِهِمْ)[٣] ، وفي روايةٍ أخرىٰ : أنَّهُ يُوضَعُ علىٰ حَلَمَةِ ثدي أحدِهِمْ فيخرجُ

---

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٢) الكنز في الشرع : كل مال لم يخرج منه الواجب وإن لم يكن مدفوناً . « إتحاف » (٧/٤) .

(٣) رواه مسلم (٩٩٢) ، وزاد : (ثم تنحَّىٰ فقعد ، قال : قلتُ : من هـٰذا ؟ قالوا : هـٰذا أبو ذر ، قال : فقمتُ إليه ، فقلت : ما شيء سمعتك تقولُ قُبيلُ ؟! قال : ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيِّهم صلى الله عليه وسلم ، قال : قلت : ما تقول في هـٰذا العطاء ؟ قال : خذه ؛ فإن فيه اليوم معونةً ، فإذا كان ثمناً لدينك . . فدعْهُ) .

مِنْ نُغْضِ كتفِهِ ، ويُوضع علىٰ نُغْضِ كتفِهِ حتَّىٰ يخرجَ مِنْ حَلَمَةِ ثديهِ يتزلزلُ[1] .

وقالَ أبو ذرٍّ : انتهيتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ جالسٌ في ظلِّ الكعبةِ ، فلمَّا رآني . . قالَ : « همُ الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ » ، فقلتُ : ومَنْ هُم ؟ قالَ : « الأكثرونَ أموالاً إلا مَنْ قالَ : هٰكذا وهٰكذا وهٰكذا ـ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ وعنْ يمينِهِ وعنْ شمالِهِ ـ وقليلٌ ما هُمْ ، ما مِنْ صاحبِ إبلٍ ولا بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدِّي زكاتَها إلا جاءتْ يومَ القيامةِ أعظمَ ما كانتْ وأسمنَهُ ، تنطحُهُ بقرونِها وتطؤُهُ بأظلافِها ، كلَّما نفدتْ أُخراها . . عادتْ عليْهِ أُولاها ، حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »[2] .

وإذا كانَ هٰذا التشديدُ مخرَّجاً في « الصحيحينِ » . . فقدْ صارَ مِنْ مهمَّاتِ الدينِ الكشفُ عنْ أسرارِ الزكاةِ ، وشروطِها الجليَّةِ والخفيَّةِ ، ومعانيها الظاهرةِ والباطنةِ ، معَ الاقتصارِ علىٰ ما لا يستغني عنْ معرفتِهِ مؤدِّي الزكاةِ وقابضُها .

وينكشفُ ذلكَ في أربعةِ فصولٍ :

الأوَّلُ : في أنواعِ الزكاةِ وأسبابِ وجوبِها .

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٧) ، والنُّغْض : العظم الرقيق علىٰ طرف الكتف ، وقيل : أعلى الكتف .

(٢) رواه البخاري (١٤٦٠ ، ٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) ، والجملة المعترضة بيان لجهة الإشارة إلى الجوانب التي هي كناية عن صرف المال في وجوه الخير .

الثاني : في أدائِها وشروطِها الظاهرةِ والباطنةِ .

الثالثُ : في القابضِ وشروطِ استحقاقِهِ وآدابِ قبضِهِ .

الرابعُ : في صدقةِ التطوُّعِ وفضلِها .

* * *

الفَصلُ الأَوّلُ
في أنواع الزّكوات وأسباب وجوبها

والزكاةُ باعتبارِ متعلَّقاتِها ستَّةُ أنواعٍ : زكاةُ النَّعَمِ ، والنقدينِ ، والتجارةِ ، وزكاةُ الرِّكازِ والمعادِنِ ، وزكاةُ المُعَشَّراتِ ، وزكاةُ الفطرِ .

النّوع الأوّل : زكاة النَّعَم

ولا تجبُ هذهِ الزكاةُ وغيرُها إلا علىٰ حرٍّ مسلمٍ ، ولا يشترطُ البلوغُ والعقلُ ، بلْ تجبُ في مالِ الصبيِّ والمجنونِ ، هذا شرطُ مَنْ تجبُ عليهِ الزكاةُ .

* * *

فأما المالُ . . فشروطُهُ خمسةٌ : أنْ يكونَ نَعَماً ، سائمةً ، باقياً حولاً ، نصاباً كاملاً ، مملوكاً على الكمالِ :

الشرطُ الأوَّلُ : كونُهُ نَعَماً :

فلا زكاةَ إلا في الإبلِ والبقرِ والغنمِ ، أمَّا الخيلُ والبغالُ والحميرُ والمتولِّدُ مِنْ بينِ الظباءِ والغَنَمِ . . فلا زكاةَ فيها .

* * *

الثاني : السومُ :

فلا زكاةَ في معلوفةٍ ، وإذا أسيمتْ في وقتٍ وعَلَفَتْ في وقتٍ ، فظهرتْ بذلكَ مؤنتُها . . فلا زكاةَ فيها .

***

الثالثُ : الحولُ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا زكاةَ في مالٍ حتَّىٰ يَحولَ عليهِ الحولُ »[1] ، ويستثنىٰ مِنْ هـٰذا نتاجُ المالِ ؛ فإنَّهُ ينسحبُ عليهِ حكمُ المالِ ، وتجبُ الزكاةُ فيهِ بحولِ الأصولِ ، ومهما باعَ المالَ في أثناءِ الحولِ ، أوِ استُحِقَّ ، أوْ وهبَ . . انقطعَ الحولُ .

***

الرابعُ : كمالُ المِلْكِ والتصرُّفِ :

فتجبُ الزكاةُ في الماشيةِ المرهونةِ ؛ لأنَّهُ هوَ الذي حَجَرَ علىٰ نفسِهِ فيها ، ولا تجبُ في الضالِّ والمغصُوبِ إلا إذا عادَ بجميعِ نَمائِهِ ، فتجبُ فيهِ زكاةُ ما مضىٰ عندَ عَوْدِهِ ، ولوْ كانَ عليهِ دينٌ مستغرقٌ لمالِهِ . . فلا زكاةَ عليهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ غنيّاً بِهِ ، إذِ الغنىٰ ما يفضُلُ عنِ الحاجةِ[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٧٢) ، وابن ماجه (١٧٩٢) .

(٢) وقال المصنف في « الخلاصة » (ص١٨٤) : (إذا ملك نصاباً وعليه مثل ما له دينٌ . . فأظهر القولين أنه يلزمه الزكاة ، خلافاً لأبي حنيفة) ، وقوله هنا هو قول الشافعي القديم ، وبه قال أبو حنيفة . « إتحاف » (٤/ ١٩) .

الخامسُ : كمالُ النصابِ :

أمّا الإبلُ : فلا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ خمساً ، فإذا بلغتْ خمساً . . ففيها جذعةٌ منَ الضأْنِ ، والجَذَعَةُ : هيَ التي تكونُ في السنةِ الثانيةِ ، أو ثنيَّةٌ مِنَ المعزِ ؛ وهيَ التي تكونُ في السنةِ الثالثةِ ، وفي عشْرٍ . . شاتانِ ، وفي خمسَ عشرةَ . . ثلاثُ شياهٍ ، وفي عشرينَ . . أربعُ شياهٍ .

وفي خمسٍ وعشرينَ . . بنتُ مخاضٍ[1] ؛ وهيَ التي في السنةِ الثانيةِ ، فإنْ لمْ يكنْ في مالِهِ بنتُ مخاضٍ . . فابنُ لبونٍ ذكرٌ ؛ وهوَ الذي في السنةِ الثالثةِ ، يؤخذُ وإنْ كانَ قادراً علىٰ شرائِها[2] ، وفي ستٍ وثلاثينَ . . بنتُ لبونٍ ، ثمَّ إذا بلغتْ ستّاً وأربعينَ . . ففيها حِقَّةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الرابعةِ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وستينَ . . ففيها جَذَعةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الخامسةِ ، فإذا صارتْ ستّاً وسبعينَ . . ففيها بنتا لبونٍ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وتسعينَ . . ففيها حِقَّتانِ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وعشرينَ ومئةً . . ففيها ثلاثُ بناتِ لبونٍ ، فإذا صارتْ مئةً وثلاثينَ . . فقدِ استقرَّ الحسابُ ؛ ففي كلِّ خمسينَ . . حِقَّةٌ ، وفي كلِّ أربعينَ . . بنتُ لبونٍ .

---

(١) **المخاض** : اسم للنوق الحوامل ، واحدتها : خَلِفَة ، لا واحد لها من لفظها ، وبنت مخاض وابن مخاض : ما دخل في السنة الثانية ؛ لأن أمه لحقت بالمخاض ، وهي الحوامل وإن لم تكن حاملاً . « إتحاف » (٤/ ٢٣) .

(٢) أي : لا يكلف شراء بنت مخاض ، بل يجزىء ابن لبون عنها وإن كان أقلَّ قيمة منها . انظر « العزيز » (٢/ ٤٧٨) ، و« مغني المحتاج » (١/ ٥٥٠) .

وأمَّا البقرُ : فلا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ ثلاثينَ ، فإذا بلغتْ ثلاثينَ . . ففيها تَبيعٌ ؛ وهوَ الذي في السنةِ الثانيةِ ، ثمَّ في أربعينَ . . مُسنَّةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الثالثةِ ، ثمَّ في الستينَ . . تبيعانِ ، واستقرَّ الحسابُ بعدَ ذلكَ ؛ ففي كلِّ أربعينَ . . مُسنَّةٌ ، وفي كلِّ ثلاثينَ . . تبيعٌ[1] .

وأمَّا الغنمُ : فلا زكاةَ فيها حتَّىٰ تبلغَ أربعينَ ، فإذا بلغتْ أربعينَ . . ففيها شاةٌ جَذَعَةٌ مِنَ الضأْنِ أوْ ثنيَّةٌ مِنَ المعزِ، ثمَّ لا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ مئةً وعشرينَ وواحدةً . . ففيها شاتانِ ، إلىٰ مئتَي شاةٍ وواحدةٍ . . ففيها ثلاثُ شياهٍ ، إلىٰ أربعِ مئةٍ . . ففيها أربعُ شياهٍ ، ثمَّ استقرَّ الحسابُ ، ففي كلِّ مئةٍ . . شاةٌ .

وصدقةُ الخَليطَينِ كصدقةِ المالكِ الواحدِ في النُّصبِ ، فإذا كانَ بينَ رجلينِ أربعونَ مِنَ الغنمِ . . ففيها شاةٌ ، وإنْ كانَ بينَ ثلاثةِ نفرٍ مئةُ شاةٍ وعشرونَ . . ففيها شاةٌ واحدةٌ علىٰ جميعِهِمْ .

وخُلطةُ الجوارِ كخُلطةِ الشيوعِ[2] ، ولكنْ يُشترطُ : أنْ يريحا معاً ،

---

(١) ويتغيَّر الفرض بعشرٍ عشرٍ ؛ ففي سبعينَ . . تبيع ومسنَّة ، وفي ثمانين . . مسنتان ، وفي تسعينَ . . ثلاثة أتبعة ، وفي مئة . . مسنة وتبيعان ، وهكذا أبداً . « إتحاف » (٤/ ٢٧) .

(٢) **الخلطة علىٰ نوعين** : خلطة اشتراك ، وخلطة جوار ، وقد يعبَّر عن الأول بخلطة الأعيان وبخلطة الشيوع ، وعن الثاني بخلطة الأوصاف ، **والمراد بالأول** : ألا يتميز نصيب أحد الرجلين أو الرجال عن نصيب غيره ؛ كماشية ورثها قوم أو ابتاعوها معاً ، فهي شائعة بينهم ، **وبالثاني** : أن يكون مال كل واحد معيناً متميِّزاً عن مال غيره ، ولكن يجاوره مجاورة المال ـ وسيذكر شروط هذه المجاورة ـ ولكل واحدة من الخلطتين أثر في =

ويسقيا معاً ، ويحلبا معاً ، ويسرحا معاً ، ويكونَ المرعىٰ معاً ، ويكونَ إنزاءُ الفحلِ معاً ، وأنْ يكونا جميعاً مِنْ أهلِ الزكاةِ ؛ فلا حكمَ للخُلطةِ معَ الذمِّي والمكاتبِ .

ومهما نزلَ في واجبِ الإبلِ عنْ سنٍّ إلىٰ سنٍّ . . فهوَ جائزٌ ما لمْ يجاوزْ بنتَ المخاضِ في النزولِ ، ولكنْ يضمُّ إليهِ جبرانَ السنِّ ؛ لسنةٍ واحدةٍ شاتينِ أو عشرينَ درهماً ، ولسنتينِ أربعَ شياهٍ أو أربعينَ درهماً ، ولهُ أنْ يصعدَ في السنِّ ما لمْ يجاوزِ الجَذَعَةَ في الصعودِ ، ويأخذُ الجبرانَ مِنَ الساعي مِنْ بيتِ المالِ[1] .

ولا تؤخذُ في الزكاةِ مريضةٌ إذا كانَ بعضُ المالِ صحيحاً ولو واحدةً ، ويُؤخذُ مِنَ الكرائمِ كريمةٌ ومِنَ اللئامِ لئيمةٌ[2] ، ولا يُؤخذُ مِنَ المالِ الأكولةُ ولا الماخضُ ولا الرُّبَّىٰ ، ولا الفحْلُ ، ولا حَزَراتُ المالِ[3] .

* * *

= الزكاة ، فتجعلان مال الشخصين أو الأشخاص بمنزلة الواحد ، ثم قد توجب الزكاة أو تكثرها . « إتحاف » (٤/ ٢٩) .

(١) فمن وجب عليه بنت مخاض وليست عنده . . جاز أن يخرج بنت لبون ويأخذ من الساعي الجبران . « إتحاف » (٤/ ٣١) .

(٢) فيتخيَّرُ الوسط من أمواله ، فلو وجب عليه بنت لبون . . فلا يؤخذ خيار بنات لبون ، بل أوسطها . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٢) .

(٣) **الرُّبَّىٰ** : الشاة التي وضعت حديثاً ، **وحزرات المال** : خياره التي تحزرها العين لحسنها . انظر « المهذب » (١/ ٢٠٤) ، وفي بعض النسخ : (غرّاء) بدل (حزرات) وهما بمعنىً ، والمثبت لفظ المصنف في « الخلاصة » (ص١٧٩) .

النوع الثاني : زكاة المعشَّرات

فيجبُ العشْرُ في كلِّ مستنْبَتٍ مقتاتٍ بلغَ ثمانَ مئةِ مَنٍّ ، ولا شيءَ فيما دونَها ، ولا في الفواكهِ والقطْنِ ، ولكنْ في الحبوبِ التي تُقتاتُ ، وفي التمرِ والزبيبِ ، ويعتبرُ أنْ تكونَ ثمانَ مئةِ مَنٍّ تمراً أوْ زبيباً ، لا رطباً وعنباً ، ويُخرجُ ذلكَ بعدَ التجفيفِ ، ويكمَّلُ مالُ أحدِ الخليطينِ بمالِ الآخرِ في خُلطةِ الشيوعِ ؛ كالبستانِ المشتركِ بينَ ورثةٍ لجميعِهِمْ ثمانُ مئةِ مَنٍّ مِنْ زبيبٍ ، فيجبُ على جميعِهِمْ ثمانونَ مناً مِنْ زبيبٍ بقدْرِ حصصِهِمْ ، ولا يعتبرُ خُلطةُ الجوارِ فيهِ ، ولا يكمَّلُ نصابُ الحنطةِ بالشعيرِ ، ويكمَّلُ نصابُ الشعيرِ بالسُّلْتِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ منهُ[١] .

هـٰذا قدْرُ الواجبِ إنْ كانَ يُسقىٰ بسَيْحٍ أوْ قناةٍ[٢] .

فإنْ كانَ يُسقىٰ بنضْحٍ أوْ داليةٍ[٣] . . فيجبُ نصفُ العشْرِ ؛ فإنِ اجتمعا . . فالأغلبُ يُعتبرُ .

وأمَّا صفةُ الواجبِ : فالتمرُ والزبيبُ اليابسُ ، والحبُّ اليابسُ بعدَ التنقيةِ ، ولا يُؤخذُ عنبٌ ولا رطبٌ إلا إذا حلَّتْ بالأشجارِ آفةٌ وكانتِ

---

(١) **السُّلت** : هو الشعير الحامض ، أو الذي لا قشر له ، أو نوع من أنواعه كما ذكر .

(٢) **السيح** : الماء الجاري علىٰ وجه الأرض .

(٣) **الدالية** : شيء يتخذ من خوص وخشب يُسقىٰ به بحبال تشدُّ في رأس جذع طويل ، وتطلق الدالية على الأرض التي تسقىٰ بالدلو كذلك .

المصلحةُ في قطعِها قبلَ تمامِ الإدراكِ ، فيؤخذُ الرطبُ فيكالُ ؛ تسعةٌ للمالكِ وواحدٌ للفقيرِ ، ولا يمنعُ مِنْ هـٰذهِ القسمةِ قولُنا : (إنَّ القسمةَ بيعٌ) ، بلْ يرخَّصُ في مثلِ هـٰذا للحاجةِ[1] .

ووقتُ الوجوبِ : أنْ يبدوَ الصلاحُ في الثمارِ ، وأنْ يشتدَّ الحبُّ .

ووقتُ الأداءِ : بعدَ الجفافِ .

* * *

(١) فلا يراعىٰ فيها تعبدات الربا . « إتحاف » (٤/ ٣٧) .

النّوع الثّالث : زكاة النّقدين

فإذا تمَّ الحولُ علىٰ وزنِ مئتي درهمٍ بوزْنِ مكَّةَ نُقْرةً خالصةً[١] . . ففيها خمسةُ دراهمَ ، وهوَ ربعُ العُشرِ ، وما زادَ . . فبحسابِهِ ولوْ درهماً .

ونصابُ الذهبِ : عشرونَ مثقالاً خالصاً بوزنِ مكَّةَ ، ففيها ربعُ العشرِ ، وما زادَ . . فبحسابِهِ .

وإنْ نقصَ مِنَ النصابِ حبةٌ . . فلا زكاةَ .

وتجبُ علىٰ مَنْ معَهُ دراهمُ مغشوشةٌ إذا كانَ فيها هـٰذا المقدارُ مِنَ النُّقرةِ الخالصةِ .

وتجبُ الزكاةُ في التبرِ وفي الحُلِيِّ المحظورِ[٢] ؛ كأواني الذهبِ والفضةِ ، ومراكبِ الذهبِ للرجالِ ، ولا تجبُ في الحُلِيِّ المباحِ .

وتجبُ في الدينِ الذي هوَ علىٰ مليءٍ ، ولكنَّها تجبُ عندَ الاستيفاءِ ، وإنْ كانَ الدينُ مؤجَّلاً . . فلا تجبُ إلا بعدَ حلولِ الأجلِ .

---

(١) النقرة : القطعة المذابة من الفضة ، وتطلق على المسبوكة منها .

(٢) التبر : ما كان من الذهب والفضة غير مضروب .

النوع الرّابع : زكاة التّجارة

وهيَ كزكاةِ النقدينِ ، وإنَّما ينعقدُ الحولُ مِنْ وقتِ مِلكِ النقْدِ الذي بهِ اشترى البضاعةَ إنْ كانَ النقدُ نصاباً ، وإنْ كانَ ناقصاً ، أوِ اشترىٰ بعَرَضٍ علىٰ نيَّةِ التجارةِ . . فالحولُ مِنْ وقتِ الشراءِ .

ويؤدِّي الزكاةَ مِنْ نقدِ البلدِ ، وبهِ يقوَّمُ ، فإنْ كانَ ما بهِ الشراءُ نقداً وكانَ نصاباً كاملاً . . كانَ التقويمُ بهِ أولىٰ مِنْ نقدِ البلدِ[1] .

ومَنْ نوى التجارةَ في مالِ قُنيةٍ . . فلا ينعقدُ الحولُ بمجرَّدِ نيتِهِ حتَّىٰ يشتريَ بهِ شيئاً ، ومهما قطعَ نيَّةَ التجارةِ قبلَ تمامِ الحولِ . . سقطتِ الزكاةُ ، والأولىٰ أنْ يؤدِّيَ زكاةَ تلكَ السنةِ .

وما كانَ مِنْ ربحٍ في السلعةِ في آخرِ الحولِ . . وجبتِ الزكاةُ فيهِ لحولِ رأْسِ المالِ ، ولمْ يُستأنفْ لهُ حولٌ كما في النتاجِ .

وأموالُ الصيارفةِ لا ينقطعُ حولُها بالمبادلةِ الجاريةِ بينَهُمْ كسائرِ التجاراتِ ، وزكاةُ ربحِ مالِ القراضِ على العاملِ ـ أعني : حصتَهُ ـ وإنْ كانَ قبلَ القسمةِ ، هـٰذا هوَ الأقيسُ .

* * *

---

(١) بأن اشترىٰ عرضاً بمئتي درهم أو عشرين ديناراً ، فيقوم آخر الحول به . « إتحاف » (٤/ ٤٤) .

النّوع الخامس : زكاة الرِّكاز والمعدن

والرِّكازُ : مالٌ دُفِنَ في الجاهليةِ ووجدَ في أرضٍ لمْ يجرِ عليها في الإسلامِ ملكٌ .

فعلىٰ واجدِهِ في الذهبِ والفضةِ منهُ الخمسُ ، والحولُ غيرُ معتبرٍ ، والأولىٰ ألا يُعتبرَ النصابُ أيضاً ؛ لأنَّ إيجابَ الخمسِ يؤكِّدُ شبهَهُ بالغنيمةِ ، واعتبارُهُ أيضاً ليسَ بعيداً ؛ لأنَّ مصرفَهُ مصرفُ الزكاةِ ، ولذلكَ يخصَّصُ على الصحيحِ بالنقدينِ .

وأمَّا المعادنُ : فلا زكاةَ فيما استخرجَ منها سوى الذهبِ والفضَّةِ ، ففيهما بعدَ الطحنِ والتخليصِ ربعُ العشرِ علىٰ أصحِّ القولينِ ، وعلىٰ هـٰذا : يعتبرُ النصابُ ، وفي الحولِ قولانِ .

وفي قولٍ يجبُ الخمسُ، فعلىٰ هـٰذا: لا يعتبرُ الحولُ، وفي النصابِ قولانِ .

والأشبهُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أنْ يلحقَ في قَدْرِ الواجبِ بزكاةِ التجارةِ ؛ فإنَّهُ نوعُ اكتسابٍ ، وفي الحولِ بالمُعَشَّراتِ ، فلا يعتبرُ الحولُ ؛ لأنَّهُ عينُ الرفقِ ، ويعتبرُ النصابُ كالمعشَّراتِ .

والاحتياطُ : أنْ يُخرجَ الخمسَ مِنَ القليلِ والكثيرِ ، ومِنْ غيرِ النقدينِ أيضاً ؛ خروجاً عنْ شبهةِ هـٰذهِ الاختلافاتِ ، فإنَّها ظنونٌ قريبةٌ مِنَ التعارضِ ، وجزْمُ الفتوىٰ فيها مخطرٌ لتعارضِ الاشتباهِ .

* * *

النوع السادس : صدقة الفطر

وهيَ واجبةٌ علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) ، علىٰ كلِّ مسلمٍ فضَلَ عنْ قوتِهِ وقوتِ مَنْ يقوتُهُ يومَ الفطرِ وليْلَتَهُ صاعٌ ممَّا يقتاتُ بصاعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ منوانِ وثلثا مَنٍّ ، يخرجُهُ مِنْ جنسِ قوتِهِ أو مِنْ أفضلَ منهُ ، فإنِ اقتاتَ الحنطةَ . . لمْ يجزِ الشعيرُ ، وإنِ اقتاتَ حبوباً مختلفةً . . اختارَ خيرَها ، ومِنْ أيِّها أخرجَ أجزأَهُ .

وقسمتُها كقسمةِ زكاةِ الأموالِ ، فيجبُ فيها استيعابُ الأصنافِ ، ولا يجوزُ إخراجُ الدقيقِ والمسوِّسِ .

ويجبُ على الرجلِ المسلمِ فطرةُ زوجتِهِ المسلمةِ ، ومماليكِهِ وأولادِهِ ، وكلِّ قريبٍ هوَ في نفقتِهِ ؛ أعني : مَنْ تجبُ عليهِ نفقتُهُ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والأولادِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَدُّوا صدقةَ الفطرِ عَمَّنْ تَمُونُونَ »(٢) .

---

(١) كما في « البخاري » (١٥٠٣) ، و« مسلم » (٩٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ، على العبد والحر ، والذكر والأنثىٰ ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدىٰ قبل خروج الناس إلى الصلاة) .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (٢/١٤١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/١٦١) .

وتجبُ صدقةُ العبدِ المشتركِ على الشريكينِ ، ولا تجبُ صدقةُ العبدِ الكافرِ .

وإنْ تبرعتِ الزوجةُ بالإخراجِ عنْ نفسِها . . أجزأتْهُ ، وللزوجِ الإخراجُ عنها دونَ إذنِها ، وإنْ فضلَ عنهُ ما يؤدِّي عَنْ بعضِهِمْ . . أدَّىٰ عنْ بعضِهِمْ ، وأولاهم بالتقديمِ مَنْ كانتْ نفقتُهُ آكدَ ، وقدْ قدَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نفقةَ الولدِ علىٰ نفقةِ الزوجةِ ، ونفقتَها علىٰ نفقةِ الخادمِ(١) .

فهٰذهِ أحكامٌ فقهيةٌ لا بدَّ للغنيِّ مِنْ معرفتِها ، وقدْ تعرضُ لهُ وقائعُ نادرةٌ خارجةٌ عنْ هٰذا ، فلهُ أنْ يتَّكِلَ فيها على الاستفتاءِ عندَ نزولِ الواقعةِ بعدَ إحاطتِهِ بهٰذا المقدارِ .

* * *

---

(١) فقد روىٰ أبو داوود (١٦٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقة فقال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار ، فقال : « تصدق به علىٰ نفسك » ، قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ ولدك » قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ زوجتك ـ أو قال : زوجك ـ » ، قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ خادمك » قال : عندي آخر ، قال : « أنت أبصر » ، وفي « النسائي » (٥/ ٦٢) : تقديم الزوجة على الولد ، وأطبق الشافعية على ذلك . انظر «الإتحاف» (٤/ ٧٢ـ٧٣) .

الفَصلُ الثَّاني
في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

بيان الشروط الظاهرة

اعلمْ : أنَّهُ يجبُ علىٰ مؤدِّي الزكاةِ مراعاةُ خمسةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : **النيةُ** : وهوَ أنْ ينويَ بقلبهِ زكاةَ الفرضِ ، وليسَ عليهِ تعيينُ الأموالِ ، فإنْ كانَ لهُ مالٌ غائبٌ فقالَ : (هـٰذا عَنْ مالي الغائبِ إنْ كانَ سالماً ، وإلا . . فهوَ نافلةٌ) . . جازَ ؛ لأنَّهُ لوْ لمْ يصرِّحْ بهِ . . فكذلكَ يكونُ عندَ إطلاقِهِ .

ونيَّةُ الوليِّ تقومُ مقامَ نيَّةِ المجنونِ والصبيِّ ، ونيَّةُ السلطانِ تقومُ مقامَ نيَّةِ المالكِ الممتنعِ عنِ الزكاةِ ولكنْ في ظاهرِ حكمِ الدنيا ؛ أعني : في قطعِ المطالبةِ عنهُ ، أمَّا في الآخرةِ . . فلا ، بلْ تبقىٰ ذمَّتُهُ مشغولةً إلىٰ أنْ يستأنفَ الزكاةَ .

وإذا وكَّلَ بأداءِ الزكاةِ ونوىٰ عندَ التوكيلِ أوْ وكَّلَ الوكيلَ بالنيَّةِ . . كفاهُ ؛ لأنَّ توكيلَهُ بالنيَّةِ نيةٌ .

الثاني : **البدارُ عَقيبَ الحولِ** : وفي زكاةِ الفطرِ لا يؤخِّرُها عنْ يومِ

الفطرِ ، ويدخلُ وقتُ وجوبِها بغروبِ الشمسِ مِنْ آخرِ يومٍ مِنْ شهرِ رمضانَ ، ووقتُ تعجيلِها شهرُ رمضانَ كلُّهُ .

ومَنْ أخَّرَ زكاةَ مالِهِ معَ التمكُّنِ . . عصىٰ ، ولمْ يسقطْ عنهُ بتلفِ مالِهِ ، وتمكُّنُهُ بمصادفةِ المستحقِّ ، وإنْ أخَّرَها لعدمِ المستحقِّ ، فتلفَ مالُهُ . . سقطتِ الزكاةُ عنهُ .

وتعجيلُ الزكاةِ جائزٌ بشرطِ أنْ يقعَ بعدَ كمالِ النصابِ وانعقادِ الحولِ ، ويجوزُ تعجيلُ زكاةِ حولينِ ، ومهما عجَّلَ فماتَ المسكينُ قبلَ الحولِ ، أوِ ارتدَّ ، أو صارَ غنياً بغيرِ ما عجَّلَ إليهِ ، أوْ تلفَ مالُ المالكِ ، أوْ ماتَ . . فالمدفوعُ ليسَ بزكاةٍ ، واسترجاعُهُ غيرُ ممكنٍ إلا إذا قيَّدَ الدفعَ بالاسترجاعِ ، فليكنِ المعجِّلُ مُراقباً آخرَ الأمرِ وسلامةَ العاقبةِ .

* * *

الثالثُ : ألا يخرجَ بدلاً باعتبارِ القيمةِ : بلْ يُخرجُ المنصوصَ عليهِ ، فلا يجزىءُ وَرِقٌ عن ذهبٍ ، ولا ذهبٌ عن وَرِقٍ وإنْ زادَ عليهِ في القيمةِ .

ولعلَّ بعضَ مَنْ لا يدركُ غرضَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يتساهلُ في ذلكَ ، ويلاحظُ المقصودَ مِنْ سدِّ الخَلَّةِ ، وما أبعدَهُ عنِ التحصيلِ ! فإنَّ سَدَّ الخَلَّةِ مقصودٌ ، وليسَ هوَ كلَّ المقصودِ ، بلْ **واجباتُ الشرعِ ثلاثةُ أقسامٍ** :

- **قسمٌ هوَ تعبُّدٌ محضٌ لا مدخلَ للحظوظِ والأغراضِ فيهِ** : وذلكَ كرمي الجمراتِ مثلاً ؛ إذْ لا حظَّ للجمرةِ في وصولِ الحصىٰ إليها ، فمقصودُ

الشرعِ فيهِ الابتلاءُ بالعملِ ؛ ليُظهرَ العبدُ رقَّهُ وعبوديتَهُ بفعلِ ما لا يعقلُ لهُ معنىً[1] ؛ لأنَّ ما يعقلُ معناهُ فقدْ يساعدُهُ الطبعُ عليهِ ويدعوهُ إليهِ ، فلا يظهرُ بهِ خلوصُ الرقِّ والعبوديةِ ؛ إذِ العبوديةُ تظهرُ بأنْ تكونَ الحركةُ لحقِّ أمرِ المعبودِ فقطْ ، لا لمعنىً آخرَ ، وأكثرُ أعمالِ الحجِّ كذلكَ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في إحرامِهِ : « لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورقّاً »[2] تنبيهاً علىٰ أنَّ ذلكَ إظهارٌ للعبوديةِ بالانقيادِ لمجرَّدِ الأمرِ وامتثالِهِ كما أمرَ مِنْ غيرِ استئناسِ العقلِ منهُ بما يميلُ إليهِ ويحثُّ عليهِ .

ـ **القسمُ الثاني مِنْ واجباتِ الشرعِ : ما المقصودُ منهُ حظٌّ معقولٌ وليسَ يقصدُ منهُ التعبُّدُ** : كقضاءِ دينِ الآدميينَ ، وردِّ المغصوبِ ، فلا جرمَ لا يعتبرُ فيهِ فعلُهُ ونيَّتُهُ ، ومهما وصلَ الحقُّ إلىٰ مستحقِّهِ بأخذِ المستحَقِّ أوْ ببدلٍ عنهُ عندَ رضاهُ . . تأدَّى الوجوبُ وسقطَ خطابُ الشرعِ ، فهـٰذانِ قسمانِ لا تركيبَ فيهما ، يشتركُ في دركِهما جميعُ الناسِ .

ـ **والقسمُ الثالثُ : هوَ المركَّبُ الذي يقصدُ منهُ الأمرانِ جميعاً** : وهوَ حظُّ العبادِ وامتحانُ المكلَّفِ بالاستعبادِ ، فيجتمعُ فيهِ تعبُّدُ رميِ الجمارِ وحظُّ

---

(١) هـٰذا بالنسبة إلىٰ قاصر النظر علىٰ ظواهر الأحكام ، ولكن مَنْ تعدىٰ هـٰذا الطور ، وأعطي منحاً إلـٰهية . . فإنه يعقل لرمي الجمار معنىً غريباً غير ما يعرفه القاصرون ، وكذا سائر المتعبدات الشرعية . « إتحاف » (٤/ ٩٥) .

(٢) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٦٢٤) وهو آخر كتابه ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢١٨) .

ردِّ الحقوقِ ، فهٰذا قسمٌ في نفسِهِ معقولٌ ، فإنْ وردَ الشرعُ بهِ . . وجبَ الجمعُ بينَ المعنيينِ ، ولا ينبغي أنْ ينسىٰ أدقَّ المعنيينِ ؛ وهوَ التعبُّدُ والاسترقاقُ بسببِ أجلاهما[1] ، ولعلَّ الأدقَّ هوَ الأهمُّ .

والزكاةُ مِنْ هٰذا القبيلِ ، ولمْ يتنبَّهْ لهُ غيرُ الشافعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؛ فحظُّ الفقيرِ مقصودٌ في سدِّ الخَلَّةِ وهو جليٌّ سابقٌ إلى الأفهامِ ، وحقُّ التعبُّدِ في اتباعِ التفاصيلِ مقصودٌ للشرعِ ، وباعتبارِهِ صارتِ الزكاةُ قرينةَ الصلاةِ والحجِّ في كونِها مِنْ مباني الإسلامِ ، ولا شكَّ في أنَّ على المكلَّفِ تعباً في تمييزِ أجناسِ مالِهِ وإخراجِ حِصَّةِ كلِّ مالٍ مِنْ نوعِهِ وجنسِهِ وصفتِهِ ، ثمَّ توزيعِهِ على الأصنافِ الثمانيةِ كما سيأتي .

والتساهلُ فيهِ غيرُ قادحٍ في حظِّ الفقيرِ ، ولكنَّهُ قادحٌ في التعبُّدِ ، ويدلُّ علىٰ أنَّ التعبُّدَ مقصودٌ بتعيينِ الأنواعِ أمورٌ ذكرناها في كتبِ الخلافِ مِنَ الفقهياتِ ، ومِنْ أوضحِها أنَّ الشرعَ أوجبَ في خمسٍ مِنَ الإبلِ شاةً ، فعدلَ عنِ الإبلِ إلى الشاةِ ، ولمْ يعدِلْ إلى النقدينِ والتقويمِ ، وإنْ قُدِّرَ أنَّ ذلكَ لقلَّةِ النقودِ في أيدي العربِ . . بطلَ بذكرِهِ عشرينَ درهماً في الجبرانِ معَ الشاتينِ ، فلِمَ لمْ يُذكرْ في الجبرانِ قدْرُ النقصانِ مِنَ القيمةِ ؟ ولِمَ قُدِّرَ بعشرينَ درهماً وشاتينِ إنْ كانتِ الثيابُ والأمتعةُ كلُّها في معناها ؟

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ التخصيصاتِ يدلُّ علىٰ أنَّ الزكاةَ لمْ تتركْ خاليةً عنِ

---

(١) أي : أجلى المعنيين . « إتحاف » (٤/ ٩٦) .

التعبداتِ ؛ كما في الحجِّ ، ولكنْ جمعَ بينَ المعنيينِ ، والأذهانُ الضعيفةُ تقصرُ عنْ دركِ المركَّباتِ ، فهـٰذا مثارُ الغلطِ فيهِ .

الرابعُ : **ألا ينقلَ الصدقةَ إلىٰ بلدٍ آخرَ** : فإنَّ أعينَ المساكينِ في كلِّ بلدةٍ تمتدُّ إلىٰ أموالِها ، وفي النقلِ تخييبٌ للظنونِ ، فإنْ فعلَ ذلكَ . . أجزأَهُ في قولٍ ، ولكنِ الخروجُ عنْ شبهةِ الخلافِ أولىٰ ، فليخرجْ زكاةَ كلِّ مالٍ في تلكَ البلدةِ ، ثمَّ لا بأسَ أنْ يصرفَ إلى الغرباءِ في تلكَ البلدةِ .

الخامسُ : **أنْ يقسمَ مالهُ بعددِ الأصنافِ الموجودينَ في بلدِهِ** : فإنَّ استيعابَ الأصنافِ واجبٌ ، وعليهِ يدلُّ ظاهرُ قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ الآيةَ ، فإنَّهُ شبيهٌ بقولِ المريضِ : (إنما ثلثُ مالي للفقراءِ والمساكينِ) ، وذلكَ يقتضي التشريكَ في التمليكِ ، والعباداتُ ينبغي أنْ يُتوقَّىٰ عنِ الهجومِ فيها على الظواهرِ .

وقدْ عُدِمَ مِنَ الثمانيةِ صنفانِ في أكثرِ البلادِ ، وهُمُ المُؤلَّفةُ قلوبُهُمْ ، والعاملونَ على الزكاةِ ، ويوجدُ في جميعِ البلادِ أربعةُ أصنافٍ : الفقراءُ ، والمساكينُ ، والغارمونَ ، والمسافرونَ ؛ أعني : أبناءَ السبيلِ ، وصنفانِ يوجدانِ في بعضِ البلادِ دونَ بعضٍ ، وهمُ الغزاةُ ، والمكاتبونَ ، فإنْ وجدَ خمسةَ أصنافٍ مثلاً . . قسمَ بينهم زكاةَ مالِهِ بخمسةِ أقسامٍ متساويةٍ ، وعيَّنَ

لكلِّ صنفٍ قسماً ، ثمَّ قسمَ كلَّ قسمٍ ثلاثةَ أسهمٍ فما فوقَها ، إمَّا متساويةً أو متفاوتةً ، وليسَ عليهِ التسويةُ بينَ آحادِ الصنفِ ، فإنَّ لهُ أنْ يقسمَهُ علىٰ عشرةٍ وعشرينَ ، فينقصَ نصيبَ كلِّ واحدٍ ، وأمَّا الأصنافُ . . فلا تقبلُ الزيادةَ والنقصانَ ، ولا ينبغي أنْ ينقصَ في كلِّ صنفٍ عَنْ ثلاثةٍ إنْ وجدَ .

ثمَّ لوْ لمْ يجبْ إلا صاعٌ للفطرةِ ووجدَ خمسةَ أصنافٍ . . فعليهِ أنْ يوصلَهُ إلىٰ خمسةَ عشرَ نفراً ، ولو نقصَ منهمْ واحدٌ معَ الإمكانِ . . غرمَ نصيبَ ذلكَ الواحدِ ، وإنْ عسرَ عليهِ ذلكَ لقلَّةِ الواجبِ . . فليشاركْ جماعةً ممَّنْ عليهمُ الزكاةُ ، وليخلطْ مالَ نفسِهِ بمالِهِمْ ، وليجمعِ المستحقينَ ، وليسلِّمْ إليهم حتَّىٰ يتساهموا فيهِ ؛ فإنَّ ذلكَ لا بدَّ منهُ .

❊ ❊ ❊

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلمْ : أنَّ علىٰ مريدِ طريقِ الآخرةِ بزكاتِهِ وظائفَ :

الوظيفةُ الأولىٰ : **فهمُ وجوبِ الزكاةِ ومعناها ووجهِ الامتحانِ فيها ، وأنَّها لِمَ جُعلتْ مِنْ مباني الإسلامِ معَ أنَّها تصرُّفٌ ماليٌّ وليسَتْ مِنْ عباداتِ الأبدانِ : وفيها ثلاثةُ معانٍ :**

ـ**الأوَّلُ** : أنَّ التلفظَ بكلمتيِ الشهادةِ التزامٌ للتوحيدِ ، وشهادةٌ بإفرادِ المعبودِ ، وشرطُ تمامِ الوفاءِ بهِ ألا يبقىٰ للموحِّدِ محبوبٌ سوى الواحدِ الفردِ ؛ فإنَّ المحبَّةَ لا تقبلُ الشِّرْكةَ[1] ، والتوحيدُ باللسانِ قليلُ الجدوىٰ ، وإنَّما تُمتحنُ درجةُ الحبِّ بمفارقةِ المحبوباتِ ، والأموالُ محبوبةٌ عندَ الخلقِ ؛ لأنَّها آلةُ تمتعِهِمْ بالدنيا ، وبسببِها يأنسونَ بهٰذا العالمِ ، وينفِرونَ عنِ الموتِ معَ أنَّ فيهِ لقاءَ المحبوبِ ، فامتحنوا بتصديقِ دعواهُمْ في المحبوبِ ، واستُنْزِلوا عنِ المالِ الذي هوَ مرموقُهُمْ ومعشوقُهُمْ[2] ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ ،

---

(١) أي : الاشتراك ، والمراد بها الاختيارية ، وأما الاضطرارية . . فالإنسان مجبول فيها إلىٰ ما يستلذه طبعاً ، ولا تكون المحبة كاملة حتىٰ تكون مع المحبوب اضطراراً واختياراً ، فحينئذ لا يخطر بباله شيء سواه ، وإن خطر ما عداه . . فيعده من جملة مظاهره وتعيناته . « إتحاف » (٤/١٠١) .

(٢) **مرموقهم** : منظورهم الذي لا يفتؤون النظر فيه .

وذلكَ بالجهادِ ، وهوَ مسامحةٌ بالمهجةِ شوقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والمسامحةُ بالمالِ أهونُ ، **ولما فهمَ هـٰذا المعنىٰ في بذلِ الأموالِ . . انقسمَ الناسُ ثلاثةَ أقسامٍ** :

ـ **قسمٌ** صدقوا التوحيدَ ووفَّوا بعهدِهِ ، ونزلوا عنْ جميعِ أموالِهِمْ ، فلمْ يدَّخِرُوا ديناراً ولا درهماً ، وأبَوا أنْ يتعرَّضوا لوجوبِ الزكاةِ عليهِمْ ، حتَّىٰ قيلَ لبعضِهِمْ : كمْ يجبُ مِنَ الزكاةِ في مئتي درهمٍ ، فقالَ : أمَّا على العوامِّ بحكمِ الشرعِ . . فخمسةُ دراهمَ ، وأمَّا نحنُ . . فيجبُ علينا بذلُ الجميعِ(١) .

ولهـٰذا تصدَّقَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بجميعِ مالِهِ ، وعُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشطرِ مالِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أبقيتَ لأهلِكَ ؟ » فقالَ : مثلَهُ ، وقالَ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « ما أبقيتَ لأهلِكَ ؟ » قالَ : اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينكُمَا ما بينَ كلمتيكُما »(٢) ، فالصِّديقُ وفَّىٰ بتمامِ الصدْقِ ، فلمْ يمسكْ سوى المحبوبِ عندَهُ ، وهوَ اللهُ ورسولُهُ .

ـ **القسمُ الثاني** : درجتُهُمْ دونَ درجةِ هؤلاءِ ، وهمُ الممسكونَ أموالَهُمْ ، المراقبونَ لمواقيتِ الحاجاتِ ومواسمِ الخيراتِ ، فيكونُ قصدُهُمْ في

---

(١) حُكي ذلك عن الشبلي رحمه الله تعالىٰ . انظر « كشف المحجوب » (ص٣٤٧) .

(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) ، وقوله : « بينكما ما بين كلمتيكما » عند أبي نعيم في « الحلية » (١/ ٣٢) بنحوه مرسلاً عن الحسن .

الادخارِ الإنفاقَ علىٰ قدْرِ الحاجةِ دونَ التنعُّمِ ، وصرفَ الفاضلِ عنِ الحاجةِ إلىٰ وجوهِ البرِّ مهما ظهرتْ وجوهُهُ ، وهؤلاءِ لا يقتصرونَ علىٰ مقدارِ الزكاةِ .

وقدْ ذهبَ جماعةٌ مِنَ التابعينَ إلىٰ أنَّ في المالِ حقوقاً سوى الزكاةِ ؛ كالنخعيِّ والشعبيِّ وعطاءٍ ومجاهدٍ ، قالَ الشعبيُّ بعدَ أنْ قيلَ لهُ : هلْ في المالِ حقٌّ سوى الزكاةِ ؟ قالَ : نعمْ ، أما سمعْتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ الآية ؟[1] .

واستدلوا بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم ﴾ ، وزعموا أنَّ ذلكَ غيرُ منسوخٍ بآيةِ الزكاةِ ، بلْ هوَ داخلٌ في حقِّ المسلمِ على المسلمِ ، ومعناه : أنَّهُ يجبُ على الموسرِ مهما وجدَ محتاجاً أنْ يزيلَ حاجتَهُ فضلاً عنْ مالِ الزكاةِ[2] .

والذي يصحُّ في الفقهِ مِنْ هـٰذا البابِ أنَّهُ مهما أرهقتِ الحاجةُ . . كانتْ إزالتُها فرضاً على الكفايةِ ؛ إذْ لا يجوزُ تضييعُ مسلمٍ ، ولكنْ يحتملُ أنْ يقالَ : ليسَ على الموسرِ إلا تسليمُ ما يزيلُ الحاجةَ قرضاً ، ولا يلزمُهُ بذلُهُ بعدَ أنْ أسقطَ الزكاةَ عنْ نفسِهِ ، ويحتملُ أنْ يقالَ : يلزمُهُ بذلُهُ في الحالِ ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٦٢٧) ، وهو عن النخعي (١٠٦٢٥) ، وعن عطاء (١٠٦٢٩) ، وعن مجاهد (١٠٦٢٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٦) .

ولا يجوزُ لهُ الإقراضُ ؛ أي : لا يجوزُ لهُ تكليفُ الفقيرِ قبولَ القرضِ ، وهـٰذا مختلفٌ فيهِ .

والإقراضُ نزولٌ إلى الدرجةِ الأخيرةِ مِنْ درجاتِ العوامِّ ، وهيَ درجةُ **القسمِ الثالثِ** الذينَ يقتصرونَ علىٰ أداءِ الواجبِ ، فلا يزيدونَ عليهِ ولا ينقصونَ منهُ ، وهيَ أقلُّ الرتبِ ، وقدِ اقتصرَ جميعُ العوامِّ علىٰ ذلكَ ؛ لبخلِهِمْ بالمالِ ، وميلِهِمْ إليهِ ، وضعفِ حبِّهِمْ للآخرةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ يحفِكُمْ : أي يستقصي عليكُمْ ، فكمْ بينَ عبدٍ اشترىٰ منهُ مالَهُ ونفسَهُ بأنَّ لهُ الجنةَ وبينَ عبدٍ لا يستقصي عليهِ لبخلِهِ .

فهـٰذا أحدُ معاني أمرِ اللهِ سبحانَهُ عبادَهُ ببذلِ الأموالِ .

ـ **المعنى الثاني** : **التطهيرُ مِنْ صفةِ البخلِ** : فإنَّهُ مِنَ المهلكاتِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وسيأتي في ربعِ المهلكاتِ وجهُ كونِهِ مهلكاً ، وكيفيةُ التفصي منهُ .

وإنَّما تزولُ صفةُ البخلِ بأنْ يتعوَّدَ بذلَ المالِ ، فحبُّ الشيءِ لا ينقطعُ إلا بقهرِ النفسِ علىٰ مفارقتِهِ حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ اعتياداً ، فالزكاةُ بهـٰذا المعنىٰ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

طهْرةٌ ؛ أي : تطهِّرُ صاحبَها عن خبْثِ البخلِ المهلِكِ ، وإنَّما طهارتُهُ بقدْرِ بذلِهِ وبقدْرِ فرحِهِ بإخراجِهِ واستبشارِهِ بصرفِهِ إلى اللهِ تعالىٰ .

ـ **المعنى الثالثُ : شكرُ النعمةِ** : فإنَّ للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ عبدِهِ نعمةً في نفسِهِ وفي مالِهِ ، فالعباداتُ البدنيةُ شكرٌ لنعمةِ البدنِ ، والماليةُ شكرٌ لنعمةِ المالِ ، وما أخسَّ مَنْ ينظرُ إلى الفقيرِ وقدْ ضُيِّقَ عليهِ الرزقُ وأُحوجَ إليهِ ثمَّ لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يؤدِّيَ شكرَ اللهِ تعالىٰ علىٰ إغنائِهِ عنِ السؤالِ وإحواجِ غيرِهِ إليهِ بربعِ العشْرِ أوِ العشرِ مِنْ مالِهِ !

* * *

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأداءِ :

ومِنْ آدابِ ذوي الدينِ التعجيلُ عنْ وقتِ الوجوبِ ؛ إظهاراً للرغبةِ في الامتثالِ بإيصالِ السرورِ إلىٰ قلوبِ الفقراءِ ، ومبادرةً لعوائقِ الزمانِ أنْ تعوِّقَ عنِ الخيراتِ ، وعلماً بأنَّ في التأخيرِ آفاتٍ معَ ما يتعرَّضُ العبدُ لهُ مِنَ العصيانِ لوْ أخَّرَ عنْ وقتِ الوجوبِ ، ومهما ظهرتْ داعيةُ الخيرِ مِنَ الباطنِ .. فينبغي أنْ يغتنمَ ؛ فإنَّ ذلكَ لَمَّةُ الملكِ ، وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، فما أسرعَ تقلُّبَهُ !

والشيطانُ يعدُ الفقرَ ويأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ ، وله لَمَّةٌ عقيبَ كلِّ لَمَّةٍ للملكِ ، فليغتنمِ الفرصةَ في ذلكَ .

وليعيِّنْ لزكاتِهِ إنْ كانَ يؤدِّيها جميعاً شهراً معلوماً ، وليجتهدْ أنْ يكونَ مِنَ

أفضلِ الأوقاتِ ؛ ليكونَ ذلكَ سبباً لنماءِ قربتِهِ وتضاعفِ زكاتِهِ ، وذلكَ كشهرِ المحرَّمِ ؛ فإنَّهُ أوَّلُ السنةِ ، وهوَ مِنَ الأشهرِ الحرمِ ، أوْ رمضانَ ؛ فقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجودَ الخلقِ ، وكانَ في رمضانَ كالريحِ المرسلةِ ، لا يمسكُ فيهِ شيئاً[١] ، ولرمضانَ فضيلةُ ليلةِ القدرِ ، وأنَّهُ أُنزلَ فيهِ القرآنُ ، وكانَ مجاهدٌ يقولُ : (لا تقولوا : رمضانَ ؛ فإنَّهُ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ قولوا : شهرَ رمضانَ)[٢] .

وذو الحِجَّةِ أيضاً مِنَ الشهورِ الكثيرةِ الفضلِ ؛ فإنَّهُ شهرٌ حرامٌ ، وفيهِ الحجُّ الأكبرُ ، وفيهِ الأيامُ المعلوماتُ ؛ وهيَ العشرُ الأُوَلُ ، والأيامُ المعدوداتُ ؛ وهيَ أيامُ التشريقِ ، وأفضلُ أيامِ شهرِ رمضانَ العشرُ الأواخرُ ، وأفضلُ أيامِ ذي الحجةِ العشرُ الأُوَلُ .

* * *

الوظيفةُ الثالثةُ : الإسرارُ :

فإنَّ ذلكَ أبعدُ عنِ الرياءِ والسمعةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصدقةِ جهْدُ المقلِّ إلىٰ فقيرٍ في سرٍّ »[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٦) ، ومسلم (٢٣٠٨) .
(٢) رواه عن مجاهد ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٢٣٩) ، وقد جاء مرفوعاً عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٠١)، وسياق المصنف هنا في «القوت» (٢/ ١٠٧).
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٧٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) من حديث طويل عنده بنحوه ، ولفظ المصنف من « القوت » (٢/ ١٠٧) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ثلاثٌ مِنْ كنوزِ البرِّ ، منها : إخفاءُ الصدقةِ) ، وقدْ رُوِيَ أيضاً مسنداً[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ عملاً في السرِّ فيكتبُهُ اللهُ لهُ سرّاً ، فإنْ أظهرَهُ . . نقلَ مِنَ السرِّ وكتبَ في العلانيةِ ، فإنْ تحدَّثَ بهِ . . نقلَ مِنَ السِّرِّ والعلانيةِ وكتبَ رياءً »[2] .

وفي الحديثِ المشهورِ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » ، أحدُهُمْ : « رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فلمْ تعلمْ شمالُهُ بما أعطتْ يمينُهُ »[3] .

وفي الخبرِ : « صدقةُ السرِّ تطفىءُ غضبَ الربِّ »[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وفائدةُ الإخفاءِ : الخلاصُ مِنْ آفاتِ الرياءِ والسمعةِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ مِنْ مُسَمِّعٍ ولا مراءٍ ولا منَّانٍ »[5] ، والمتحدِّثُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٧) مرفوعاً ، وانظر « قوت القلوب » (٢/ ١٠٧) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٦١) ، وقال أبو طالب في « القوت » (٢/ ١٠٧) عقبه : (فلو لم يكن في إظهار الصدقة مع الإخلاص إلا فوت ثواب السر . . لكان فيه نقص عظيم) .

(٣) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٦٨) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣) من زيادات نعيم بن حماد ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٦٠٦) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ : =

بصدقتِهِ يطلبُ السمعةَ ، والمعطي في ملأٍ مِنَ الناسِ يبغي الرياءَ ، والإخفاءُ والسكوتُ هوَ المخلَصُ منْ ذلكَ .

وقدْ بالغَ في قصْدِ الإخفاءِ جماعةٌ ، حتَّى اجتهدوا ألا يعرفَ القابضُ المعطيَ ، فكانَ بعضُهُمْ يلقيهِ في يدِ أعمىٰ ، وبعضُهُمْ يلقيهِ في طريقِ الفقيرِ وفي موضعِ جلوسِهِ حيثُ يراهُ ولا يرى المعطيَ ، وبعضُهُمْ كانَ يصُرُّهُ في ثوبِ الفقيرِ وهوَ نائمٌ ، وبعضُهُمْ كانَ يُوصلُ إلىٰ يدِ الفقيرِ علىٰ يدِ غيرِهِ بحيثُ لا يعرفُ المعطيَ ، وكانَ يستكتمُ المتوسِّطَ شأنَهُ ، ويوصيهِ بألا يفشيَهُ ، كلُّ ذلكَ توصُّلاً إلىٰ إطفاءِ غضبِ الربِّ عزَّ وجلَّ ، واحترازاً مِنَ الرياءِ والسمعةِ[1] .

ومهما لمْ يتمكَّنْ مِنَ الإعطاءِ إلا بأنْ يعرفَهُ شخصٌ واحدٌ . . فتسليمُهُ إلىٰ وكيلٍ ليسلِّمَ إلى المسكينِ والمسكينُ لا يعرفُ أولىٰ ؛ إذْ في معرفةِ المسكينِ الرياءُ والمنَّةُ جميعاً ، وليسَ في معرفةِ المتوسِّطِ إلا الرياءُ ، ومهما كانتِ الشهرةُ مقصودةً لهُ . . حبطَ عملُهُ ؛ لأنَّ الزكاةَ إزالةٌ للبخلِ ، وتضعيفٌ لحبِّ المالِ ، وحبُّ الجاهِ أشدُّ استيلاءً على النفسِ مِنْ حبِّ المالِ ، وكلُّ واحدٍ منهما مهلِكٌ في الآخرةِ ، ولكنَّ صفةَ البخلِ تنقلبُ في القبرِ في حكمِ المثالِ عقرباً لدَّاغةً ، وصفةُ الرياءِ تنقلبُ في القبرِ أفعىً مِنَ الأفاعي ، وهوَ مأمورٌ

= (لا يسمع الله من مُسَمِّع ، ولا من مراء ، ولا لاعب ، إلا داعٍ دعا يثبت من قلبه) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (٢/ ١٠٧) .

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٨) .

بتضعيفِهِما أوْ قتلِهِما ؛ لدفعِ أذاهُما أوْ تخفيفِ أذاهُما ، فمهما قصدَ الرياءَ والسمعةَ . . فكأنَّهُ جعلَ بعضَ أطرافِ العقربِ قوتاً للحيَّةِ ، فبقدْرِ ما ضعفَ مِنَ العقربِ زادَ في قوَّةِ الحيَّةِ ، ولوْ تركَ الأمرَ كما كانَ . . لكانَ الأمرُ أهونَ عليهِ .

وقوَّةُ هٰذهِ الصفاتِ التي بها قوَّتُها العملُ بمقتضاها ، وضعفُ هٰذهِ الصفاتِ بمجاهدتِها ومخالفتِها ، والعملِ بخلافِ مقتضاها ، فأيُّ فائدةٍ في أنْ يخالفَ دواعيَ البخلِ ويجيبَ دواعيَ الرياءِ ، فيضعفَ الأدنىٰ ويقوِّيَ الأقوى ؟!

وستأتي أسرارُ هٰذهِ المعاني في ربعِ المهلكاتِ .

* * *

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يظهرَ حيثُ يعلمُ أنَّ في إظهارِهِ ترغيباً للناسِ في الاقتداءِ :

ويحرسَ سرَّهُ عنْ داعيةِ الرياءِ بالطريقِ الذي سنذكرُهُ في معالجةِ الرياءِ في كتابِ الرياءِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ ، وذلكَ حيثُ يقتضي الحالُ الإبداءَ ؛ إمَّا للاقتداءِ ، وإمَّا لأنَّ السائلَ إنَّما سألَ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ التصدُّقَ خيفةً مِنَ الرياءِ في الإظهارِ ، بلْ ينبغي أنْ يتصدَّقَ ويحفظَ سرَّهُ عنِ الرياءِ بقدْرِ الإمكانِ .

وهٰذا لأنَّ في الإظهارِ محذوراً ثالثاً سوى المنِّ والرياءِ ، وهوَ هتْكُ سترِ

الفقيرِ ، فإنَّهُ ربَّما يتأذَّىٰ بأنْ يُرىٰ في صورةِ المحتاجِ ، فمَنْ أظهرَ السؤالَ . . فهوَ الذي هتكَ سترَ نفسِهِ ، فلا يحذرُ هٰذا المعنىٰ في إظهارِهِ ، وهوَ كإظهارِ الفسقِ علىٰ مَنْ يتستَّرُ بهِ ؛ فإنَّهُ محظورٌ ، والتجسسُ فيهِ والاغتيابُ بذكرِهِ منهيٌّ عنهُ ، فأمَّا مَنْ أظهرَهُ . . فإقامةُ الحدِّ عليهِ إشاعةٌ ، ولكنْ هوَ السببُ فيها ، وبمثلِ هٰذا المعنىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألقىٰ جلبابَ الحياءِ . . فلا غيبةَ لهُ »(١) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ندبَ إلى العلانيةِ أيضاً لما فيها مِنْ فائدةِ الترغيبِ ، فليكنِ العبدُ دقيقَ التأمُّلِ في وزْنِ هٰذهِ الفائدةِ بالمحذورِ الذي فيها ؛ فإنَّ ذلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فقدْ يكونُ الإعلانُ في بعضِ الأحوالِ لبعضِ الأشخاصِ أفضلَ ، ومَنْ عرفَ الفوائدَ والغوائلَ ولمْ ينظرْ بعينِ الشهوةِ . . اتضحَ لهُ الأولىٰ والأليقُ بكلِّ حالٍ .

* * *

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يفسدَ صدقتَهُ بالمنِّ والأذىٰ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، واختلفوا في حقيقةِ المنِّ والأذىٰ :

فقيلَ : المنُّ : أنْ يذكرَها ، والأذىٰ : أنْ يظهرَها .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/٣٨٦)، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٢١٠).

فليتحققْ أنَّهُ مسلِّمٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّهُ ، والفقيرُ آخذٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ رزقَهُ بعدَ صيرورتِهِ مسلَّماً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولو كانَ عليهِ دينٌ لإنسانٍ ، فأحالَ صاحبُ الدينِ بهِ عبدَهُ أو خادمَهُ الذي هوَ متكفِّلٌ برزقِهِ . . لكانَ اعتقادُ مؤدِّي الدينِ كونَ القابضِ تحتَ منَّتِهِ سفهاً وجهلاً ؛ فإنَّ المنَّةَ للمحسنِ إليهِ المتكفِّلِ برزقِهِ ، أمَّا هوَ . . فإنَّما يقضي الذي لزمَهُ بشراءِ ما أحبَّهُ ، فهوَ ساعٍ في حقِّ نفسِهِ ، فلمْ يمنَّ بهِ علىٰ غيرِهِ .

ومهما عرفَ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في فهمِ وجوبِ الزكاةِ أوْ أحدَها . . لمْ يرَ نفسَهُ محسناً إلا إلىٰ نفسِهِ ؛ إمَّا ببذلِ مالِهِ إظهاراً لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، أوْ تطهيراً لنفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً علىٰ نعمةِ المالِ طلباً للمزيدِ ، وكيفَما كانَ . . فلا معاملةَ بينَهُ وبينَ الفقيرِ حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ ، ومهما جهلَ هـٰذا الجهلَ بأنْ رأىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ . . تفرَّعَ منهُ علىٰ ظاهرِهِ ما ذُكِرَ في معنى المنِّ ؛ وهوَ التحدُّثُ بهِ ، وإظهارُهُ ، وطلبُ المكافأةِ منهُ ؛ بالشكرِ والدعاءِ ، والخدمةِ والتوقيرِ ، والتعظيمِ والقيامِ بالحقوقِ ، والتقديمِ في المجالسِ ، والمتابعةِ في الأمورِ ، فهـٰذهِ كلُّها ثمراتُ المنَّةِ ، ومعنى المنَّةِ في الباطنِ ما ذكرناهُ .

وأما الأذىٰ : فظاهرُهُ : التوبيخُ والتعييرُ ، وتخشينُ الكلامِ وتقطيبُ الوجهِ ، وهتْكُ السترِ بالإظهارِ وفنونِ الاستخفافِ ، وباطنُهُ ـ وهوَ منبعُهُ ـ : أمرانِ :

فليتحققْ أنَّهُ مسلِّمٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّهُ ، والفقيرُ آخذٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ رزقَهُ بعدَ صيرورتِهِ مسلَّماً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولو كانَ عليهِ دينٌ لإنسانٍ ، فأحالَ صاحبُ الدينِ بهِ عبدَهُ أو خادمَهُ الذي هوَ متكفِّلٌ برزقِهِ . . لكانَ اعتقادُ مؤدِّي الدينِ كونَ القابضِ تحتَ منَّتِهِ سفهاً وجهلاً ؛ فإنَّ المنَّةَ للمحسنِ إليهِ المتكفِّلِ برزقِهِ ، أمَّا هوَ . . فإنَّما يقضي الذي لزمَهُ بشراءِ ما أحبَّهُ ، فهوَ ساعٍ في حقِّ نفسِهِ ، فلمْ يمنَّ بهِ علىٰ غيرِهِ .

ومهما عرفَ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في فهمِ وجوبِ الزكاةِ أوْ أحدَها . . لمْ يرَ نفسَهُ محسِناً إلا إلىٰ نفسِهِ ؛ إمَّا ببذلِ مالِهِ إظهاراً لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، أوْ تطهيراً لنفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً علىٰ نعمةِ المالِ طلباً للمزيدِ ، وكيفَما كانَ . . فلا معاملةَ بينَهُ وبينَ الفقيرِ حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ ، ومهما جهلَ هـٰذا الجهلَ بأنْ رأىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ . . تفرَّعَ منهُ علىٰ ظاهرِهِ ما ذُكِرَ في معنى المنِّ ؛ وهوَ التحدُّثُ بهِ ، وإظهارُهُ ، وطلبُ المكافأةِ منهُ ؛ بالشكرِ والدعاءِ ، والخدمةِ والتوقيرِ ، والتعظيمِ والقيامِ بالحقوقِ ، والتقديمِ في المجالسِ ، والمتابعةِ في الأمورِ ، فهـٰذهِ كلُّها ثمراتُ المنَّةِ ، ومعنى المنَّةِ في الباطنِ ما ذكرناهُ .

وأما الأذىٰ : فظاهرُهُ : التوبيخُ والتعييرُ ، وتخشينُ الكلامِ وتقطيبُ الوجهِ ، وهتكُ السترِ بالإظهارِ وفنونِ الاستخفافِ ، وباطنُهُ ـ وهوَ منبعُهُ ـ : أمرانِ :

أحدُهُما : كراهيتُهُ لرفعِ اليدِ عنِ المالِ وشدَّةُ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يضيِّقُ الخُلُقَ لا محالةَ .

والثاني : رؤيتُهُ أنَّهُ خيرٌ مِنَ الفقيرِ ، وأنَّ الفقيرَ بسببِ حاجتِهِ أخسُّ رتبةً منهُ .

وكلاهُما منشؤُهُ الجهلُ :

أمَّا كراهةُ تسليمِ المالِ : فهوَ حمْقٌ ؛ لأنَّ مَنْ كرِهَ بذْلَ دِرْهَمٍ في مقابلةِ ما يساوي ألفاً . . فهوَ شديدُ الحماقةِ ، ومعلومٌ أنَّهُ يبذلُ المالَ لطلبِ رضا اللهِ عزَّ وجلَّ ، والثوابِ في الدارِ الآخرةِ ، وذلكَ أشرفُ ممَّا بذلَهُ أوْ يبذلُهُ لتطهيرِ نفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً لطلبِ المزيدِ ، وكيفَما فرضَ . . فالكراهةُ لا وجهَ لها .

وأما الثاني : فهوَ أيضاً جهلٌ ؛ لأنَّهُ لوْ عرفَ فضْلَ الفقرِ على الغنىٰ ، وعرفَ خطرَ الأغنياءِ . . لما استحقرَ الفقيرَ ، بلْ تبرَّكَ بهِ وتمنَّىٰ درجتَهُ ، فصلحاءُ الأغنياءِ يدخلونَ الجنَّةَ بعدَ الفقراءِ بخمسِ مئةِ عامٍ(١) ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « همُ الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ » ، فقالَ أبو ذرٍّ : مَنْ همْ ؟ قالَ : « همُ الأكثرونَ أمْوالاً . . . » الحديثَ(٢) .

ثمَّ كيفَ يستحقرُ الفقيرَ وقدْ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ سُخرةً لهُ ؟! إذْ يكتسبُ

---

(١) كما رواه ذلك الترمذي (٢٣٥٤) ، وابن ماجه (٤١٢٢) .

(٢) رواه البخاري (١٤٦٠ ، ٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

المالَ بجُهدِهِ ، ويستكثرُ منهُ ، ويجتهدُ في حفظِهِ لمقدارِ الحاجةِ ، وقدْ أُلزِمَ أنْ يسلِّمَ إلى الفقيرِ قدْرَ حاجتِهِ ، ويكفَّ عنهُ الفاضلَ الذي يضرُّهُ لوْ سُلِّمَ إليهِ ، فالغنيُّ مستخدَمٌ للسعيِ في رزْقِ الفقيرِ ، ويتميَّزُ عليهِ بتقلُّدِ المظالمِ ، والتزامِ المشاقِّ ، وحراسةِ الفضلاتِ إلىٰ أنْ يموتَ ، فيأكلُهُ أعداؤُهُ .

فإذاً ؛ مهما انتفتِ الكراهةُ ، وتبدَّلتْ بالسرورِ والفرحِ بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ لهُ في أداءِ الواجبِ وتقبيضِهِ للفقيرِ حتَّىٰ يخلِّصَهُ عنْ عهدتِهِ بقبولِهِ منهُ . . انتفى الأذىٰ والتوبيخُ وتقطيبُ الوجهِ ، وتبدَّلَ بالاستبشارِ والثناءِ وقبولِ المنَّةِ ، فهـٰذا منشأُ المنِّ والأذىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فرؤيتُهُ نفسَهُ في درجةِ المحسنِ أمرٌ غامضٌ ، فهلْ مِنْ علامةٍ يمتحنُ بها قلبَهُ ، فيعرفَ بها أنَّهُ لمْ يرَ نفسَهُ محسناً ؟

فاعلمْ : أنَّ لهُ علامةً دقيقةً واضحةً ؛ وهيَ أنْ يقدِّرَ أنَّ الفقيرَ لوْ جنىٰ عليهِ جنايةً أوْ مالأَ عدواً لهُ عليهِ مثلاً . . هلْ كانَ يزيدُ استنكارُهُ واستبعادُهُ لهُ على استنكارِهِ قبلَ التصدُّقِ ؟ فإنْ زادَ . . لمْ تخلُ صدقتُهُ عنْ شائبةِ المنَّةِ ؛ لأنَّهُ توقَّعَ بسببِ صدقتِهِ ما لمْ يكنْ يتوقَّعُهُ قبلَ ذلكَ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذا أمرٌ غامضٌ ، ولا ينفكُّ قلبُ أحدٍ عنهُ ، فما دواؤُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ لهُ دواءً باطناً ودواءً ظاهراً :

أمَّا الباطنُ : فالمعرفةُ بالحقائقِ التي ذكرناها في فهمِ الوجوبِ ، وأنَّ الفقيرَ هوَ المحسنُ إلى الغنيِّ في تطهيرِهِ بالقبولِ .

وأمَّا الظاهرُ : فالأعمالُ التي يتعاطاها متقلِّدُ المنَّةِ ؛ فإنَّ الأفعالَ التي تصدرُ عنِ الأخلاقِ تصبغُ القلوبَ بالأخلاقِ كما سيأتي أسرارُهُ في الشطرِ الأخيرِ منَ الكتابِ .

ولذلكَ ؛ كانَ بعضُهُمْ يضعُ الصدقةَ بينَ يدي الفقيرِ ويمثلُ قائماً بينَ يديهِ يسألُهُ قبولَها ، حتَّىٰ يكونَ هوَ في صورةِ السائلينَ ، وهوَ يستشعرُ معَ ذلكَ كراهيةَ الردِّ لوْ ردَّ عليهِ(١) .

وكانَ بعضُهُمْ يبسطُ كفَّهُ ليأخذَ الفقيرُ منْ كفِّهِ ؛ لتكونَ يدُ الفقيرِ هيَ العليا(٢) .

وكانتْ عائشةُ وأمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهما إذا أرسلَتا معروفاً إلىٰ فقيرٍ . . قالَتا للرسولِ : احفظْ ما يدعو بهِ ، ثمَّ كانتا تردَّانِ عليهِ مثلَ قولِهِ ، وتقولانِ : هـٰذا بذاكَ ، حتَّىٰ تخلصَ لنا صدقتُنا(٣) .

فكانوا لا يتوقَّعونَ الدعاءَ ؛ لأنَّهُ شبهُ المكافأةِ ، وكانوا يقابلونَ الدعاءَ بمثلِهِ ، وهـٰكذا فعلَ عمرُ بنُ الخطابِ وابنُهُ عبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما(٤) ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .

فهكذا كانَ أربابُ القلوبِ يداوونَ قلوبَهُمْ ، ولا دواءَ مِنْ حيثُ الظاهرُ إلا هٰذهِ الأعمالُ الدالَّةُ على التذلُّلِ والتواضعِ وقبولِ المنَّةِ ، ومِنْ حيثُ الباطنُ المعارفُ التي ذكرناها ، هٰذا مِنْ حيثُ العملُ ، وذلكَ مِنْ حيثُ العلمُ ، ولا يعالجُ القلبُ إلا بمعجونِ العلمِ والعملِ .

وهٰذهِ الشريطةُ في الزكواتِ تجري مَجرى الخشوعِ مِنَ الصلاةِ ، وثبتَ ذلكَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ للمرءِ مِنْ صلاتِهِ إلا ما عقلَ منها »(١) ، وثبتَ هٰذا بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يتقبَّلُ اللهُ صدقةَ منَّانٍ »(٢) ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ .

وأمَّا فتوى الفقيهِ بوقوعِها موقعَها ، وبراءةِ ذمتِهِ منها دونَ هٰذا الشرطِ . . فحديثٌ آخرُ ، وقدْ أشرنا إلىٰ معناهُ في كتابِ الصلاةِ .

---

(١) في « الحلية » (٧/ ٦١) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) ، وعند أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » ، فكما أن الخشوع فرض في الصلاة لا بد منه ، فكذلك الإخلاص في الزكاة .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا) . « إتحاف » (٤/ ١١٩) ، ولكن روىٰ مسلم (١٠٦) مرفوعاً : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منَّهُ ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره » ، ولعل المصنف يشير إلى الحديث المتقدم : « لا يقبل الله من مُسَمِّع . . . » .

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يستصغرَ العطيةَ :

فإنَّهُ إنِ استعظمَها . . أعجبَ بها ، والعجْبُ مِنَ المهلكاتِ ، وهوَ محبطٌ للأعمالِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾(١) .

ويقالُ : (إنَّ الطاعةَ كلَّما استُصْغِرَتْ . . كبُرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والمعصيةَ كلَّما استعظمَتْ . . صغرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ)(٢) .

وقيلَ : (لا يتمُّ المعروفُ إلا بثلاثٍ : تصغيرُهُ ، وتعجيلُهُ وسترُهُ)(٣) .

وليسَ الاستعظامُ هوَ المنَّ والأذىٰ ؛ فإنَّهُ لوْ صرفَ مالَهُ إلىٰ عمارةِ مسجدٍ أوْ رباطٍ . . أمكنَ فيهِ الاستعظامُ ، ولا يمكنُ فيهِ المنُّ والأذىٰ ، بلِ العجبُ والاستعظامُ يجري في جميعِ العباداتِ ، **ودواؤُهُ علْمٌ وعملٌ :**

أمَّا العلمُ : فهوَ أنْ يعلمَ أنَّ العُشْرَ أوْ ربعَ العشرِ قليلٌ مِنْ كثيرٍ ، وأنَّهُ قدْ قنعَ لنفسِهِ بأخسِّ درجاتِ البذلِ كما ذكرنا في فهمِ الوجوبِ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يستحييَ منهُ ، فكيفَ يستعظمُهُ ؟!

وإنِ ارتقىٰ إلى الدرجةِ العليا ، فبذلَ كلَّ مالِهِ أوْ أكثرَه . . فليتأملْ أنَّهُ مِنْ أينَ لهُ المالُ ؟ وإلىٰ ماذا يصرفُهُ ؟ فالمالُ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولهُ المنَّةُ عليهِ إذْ

---

(١) إذ قال المسلمون يومها : لن نغلب اليوم من قلّة ، فانكشفوا ، ثم أمدهم الله بنصره . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٢٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١١) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١١١) .

أعطاهُ ، ثمَّ وفَّقَهُ لبذلِهِ ، فلِمَ يستعظمُ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ما هوَ عينُ حقِّ اللهِ سبحانَهُ ؟!

وإنْ كانَ مقامُهُ يقتضي أنْ ينظرَ إلى الآخرةِ وأنَّهُ يبذلُهُ للثوابِ . . فلِمَ يستعظمُ بذلَ ما ينتظرُ عليهِ أضعافَهُ ؟!

وأمَّا العملُ : فهوَ أنْ يعطيَهُ عطاءَ الخَجِلِ مِنْ بخلِهِ بإمساكِهِ بقيَّةَ مالِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، فتكونُ هيئتُهُ الانكسارَ والحياءَ ؛ كهيئةِ مَنْ يطالَبُ بردِّ وديعةٍ فيمسكُ بعضَها ويردُّ البعضَ ؛ لأنَّ المالَ كلَّهُ للهِ تعالىٰ ، وبذلُ جميعِهِ هوَ الأحبُّ عندَ اللهِ سبحانَهُ ، وإنَّما لمْ يأمرْ بهِ عبدَهُ لأنَّهُ يشقُّ عليهِ بسببِ بخلِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ .

* * *

الوظيفةُ السابعةُ : أنْ ينتقيَ مِنْ مالِهِ أجودَهُ وأحبَّهُ إليهِ وأحلَّهُ وأطيبَهُ :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً[1] ، وإذا كانَ المُخرَجُ مِنْ شبهةٍ . . فربما لا يكونُ ملكاً لهُ طِلقاً ، فلا يقعُ الموقعَ ، وفي حديثِ أبانَ عنْ أنسِ ابنِ مالكٍ : « طوبىٰ لعبدٍ أنفقَ مِنْ مالٍ اكتسبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ »[2] .

---

(١) كما في « مسلم » (١٠١٥) ، ومعنىٰ « طيب » : منزه عن النقائص مقدس عن الآفات والعيوب . « إتحاف » (٤/ ١٢٦) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٥/ ٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ١٨٢) من حديث طويل ، ومن طريق أبان عن أنس رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٤٠) واللفظ له .

وإذا لمْ يكنِ المُخرَجُ مِنْ جيِّدِ المالِ . . فهوَ مِنْ سوءِ الأدبِ ، إذْ قدْ يمسكُ الجيِّدَ لنفسِهِ أوْ لعبدِهِ أوْ أهلِهِ ، فيكونُ قدْ آثرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ غيرَهُ ، ولوْ فعلَ هـٰذا بضيفِهِ وقدَّمَ إليهِ أردأَ طعامٍ في بيتِهِ . . لأوغرَ بذلكَ صدرَهُ ، هـٰذا إنْ كانَ نظرُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ .

وإنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ نفسِهِ وثوابِهِ في الآخرةِ . . فليسَ بعاقلٍ مَنْ يؤثرُ غيرَهُ علىٰ نفسِهِ ، وليسَ لهُ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ بهِ فأمضىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ[(١)] ، والذي يأكلُهُ قضاءُ وطرٍ في الحالِ ، فليسَ منَ العقلِ قصرُ النظرِ على العاجلةِ وتركُ الادخارِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ أيْ : لا تأخذونَهُ إلا معَ كراهيةٍ وحياءٍ ، وهوَ معنى الإغماضِ ، فلا تؤثروا بهِ ربَّكُم[(٢)] .

وفي الخبرِ : « سبقَ درهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ »[(٣)] ، وذلكَ بأنْ يخرجَهُ

---

(١) كما في « مسلم » (٢٩٥٨) وفيه : « وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، **وأمضىٰ** : أبقىٰ .

(٢) وعند الترمذي (٢٩٨٧) ، وابن ماجه (١٨٢٢) واللفظ له عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، في الأصحاب الذين كانوا لا ينتخبون الجيد من الصدقة وقد نزلت فيهم هـٰذه الآية ، قال : (يقول : لو أهدي لكم . . ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه غيظاً أنه بعث إليكم ما لم يكن لكم فيه حاجة ، واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم) .

(٣) رواه النسائي (٥/٥٩) وتمامه : قالوا : وكيف ؟ قال : « كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما ، وانطلق رجل إلىٰ عُرْض ماله فأخذ منه مئة ألف درهم فتصدق بها » ، وفي =

الإنسانُ وهوَ مِنْ أحلِّ مالِهِ وأجودِهِ ، فيصدرُ ذلكَ عنِ الرضا والفرحِ بالبذلِ ، وقدْ يخرجُ مئةَ ألفِ درهمٍ مما يكرَهُ مِنْ مالِهِ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّهُ ليسَ يؤثرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بشيءٍ ممَّا يحبُّهُ ، ولذلكَ ذمَّ اللهُ تعالىٰ قوماً جعلوا للهِ ما يكرهونَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا ﴾ وقفَ بعضُ القرّاءِ على النفيِ تكذيباً لهُمْ ، ثمَّ ابتدأَ وقالَ : ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي : كَسَبَ لهُمْ جعلُهُمْ للهِ ما يكرهونَ النارَ(١) .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يطلبَ لصدقتِهِ مَنْ تزكو بهِ الصدقةُ :

ولا يكتفي بأنْ يكونَ مِنْ عمومِ الأصنافِ الثمانيةِ ؛ فإنَّ في عمومِهِمْ خصوصَ صفاتٍ ، فليراعِ خصوصَ تلكَ الصفاتِ ، وهيَ ستٌّ :

الصفةُ الأولىٰ : أنْ يطلبَ الأتقياءَ المعرضينَ عنِ الدنيا ، المتجرِّدينَ

= « الدر المنثور » (٢/ ٦٢) : (وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي هريرة قال : (لدرهم طيب أحب إلي من مئة ألف ، اقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ... ﴾ الآيةَ) .

(١) فلم تعد (جرم) اسماً ، بل هي هنا فعل بمعنىٰ : (كسب) أو (وجب) ، وجَعْلُ (لا) رداً لما قبلها هو قول قُطرب ، فعنده علىٰ هـٰذا الوقفُ علىٰ (لا) . انظر « مغني اللبيب » (١/ ٣١٤) ، و« تاج العروس » (ج ر م) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (٢/ ١٠٨) ، حيث قال : (وفي الآية وقف غريب لا يعلمه إلا الحذاق من أهل العربية ، تقف علىٰ « لا » فيكون نفياً لوصفهم أن لهم الحسنىٰ ، ثم تستأنف بـ ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي : كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار ؛ أي : بجرمهم واكتسابهم) .

لتجارةِ الآخرةِ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تأكلْ إلا طعامَ تقيٍّ ، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ التقيَّ يستعينُ بهِ على التقوىٰ ، فتكونُ شريكاً لهُ في طاعتِهِ بإعانتِكَ إيَّاهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أطعموا طعامَكُمْ الأتقياءَ ، وأَوْلُوا معروفَكُمُ المؤمنينَ »[2] ، وفي خبرٍ آخرَ : « أضِفْ بطعامِكَ مَنْ تحبُّهُ في اللهِ تعالىٰ »[3] .

وكانَ بعضُ العلماءِ يؤثِرُ بالعطاءِ فقراءَ الصوفيةِ دونَ غيرِهِمْ ، فقيلَ لهُ : لوْ عمَّمْتَ بمعروفِكَ جميعَ الفقراءِ . . لكانَ أفضلَ ؟ فقالَ : لا ، هؤلاءِ قومٌ همُّهُمْ اللهُ سبحانَهُ ، فإذا طرقتْهُمْ فاقةٌ تشتتَ هَمُّ أحدِهِمْ ، فلأَنْ أردَّ همَّةَ واحدٍ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعطيَ ألفاً ممَّنْ همَّتُهُ الدنيا ، فذُكِرَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٣٢) ، والترمذي (٢٣٩٥) بلفظ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » ، وإنما نهىٰ عن مؤاكلة غير تقي لأن المطاعمة توجب الألفة ، وتؤدي إلى المخالطة ، بل هي أوثق عرى المداخلة ، ومخالطة غير التقي تخلُّ بالدين ، وتوقع في الشبهة والمحظورات ، فكأنه نهىٰ عن مخالطة الفجار ؛ إذ لا تخلو عن فساد : إما بمتابعة فعل ، أو مسامحة في إغضاء عن منكر ، فإن سلم من ذلك . . فلا يخطئه فتنته الغيرية . « إتحاف » (٤/ ١٢٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٥٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١١٠٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦١٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٦٦) عن الضحاك مرسلاً ، وابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٩٧) ، وفي بعض النسخ : (وفي لفظ) بدل (وفي خبر) ، وهو موافق للفظ « القوت » (٢/ ١١٢) .

هـٰذا الكلامُ للجنيدِ ، فاستحسنَهُ وقالَ : هـٰذا وليٌّ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ : ما سمعتُ منذُ زمانٍ كلاماً أحسنَ مِنْ هـٰذا .

ثمَّ حُكِيَ أنَّ هـٰذا الرجلَ اختلَّ حالُهُ وهمَّ بتركِ الحانوتِ ، فبعثَ إليهِ الجنيدُ مالاً وقالَ : اجعلْهُ بضاعتَكَ ولا تتركِ الحانوتَ ، فإنَّ التجارةَ لا تضرُّ مثلَكَ ، وكانَ هـٰذا الرجلُ بقّالاً لا يأخذُ مِنَ الفقراءِ ثمنَ ما يبتاعونَ منهُ(١) .

الصفةُ الثانيةُ : أَنْ يكونَ مِنْ أهلِ العلمِ خاصةً : فإنَّ ذلكَ إعانةٌ لهُ على العلمِ ، والعلمُ أشرفُ العباداتِ مهما صحَّتْ فيهِ النيَّةُ .

وكانَ ابنُ المباركِ يخصِّصُ بمعروفِهِ أهلَ العلمِ ، فقيلَ لهُ : لوْ عمَّمْتَ ؟ فقالَ : إنِّي لا أعرفُ بعدَ مقامِ النبوَّةِ أفضلَ مِنْ مقامِ العلماءِ ، فإذا اشتغلَ قلبُ أحدِهِمْ بحاجتِهِ . . لمْ يتفرَّغْ للعلمِ ، ولمْ يقبلْ على التعليمِ ، فتفريغُهُمْ للعلمِ أفضلُ(٢) .

الصفةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ صادقاً في تقواهُ وعلمِهِ بالتوحيدِ : وتوحيدُهُ أنَّهُ إذا أخذَ العطاءَ . . حمدَ اللهَ عزَّ وجلَّ وشكرَهُ ، ورأىٰ أنَّ النعمةَ منهُ ، ولمْ ينظرْ إلىٰ واسطةٍ ، فهـٰذا هوَ أشكرُ العبادِ للهِ سبحانَهُ ، وهوَ أنْ يرىٰ أنَّ النعمةَ كلَّها منهُ .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ منعماً ، واعددْ نعمةَ غيرِهِ عليكَ مغرماً)(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٣) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٢٢٣٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » =

ومَنْ شكرَ غيرَ اللهِ سبحانَهُ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفِ المنعمَ ، ولمْ يتيقَّنْ أنَّ الواسطةَ مقهورٌ مسخَّرٌ بتسخيرِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ دواعيَ الفعلِ ، ويسَّرَ لهُ الأسبابَ ، فأعطىٰ وهوَ مقهورٌ ، ولوْ أرادَ تركَهُ . . لمْ يقدرْ عليهِ بعدَ أنْ ألقى اللهُ تعالىٰ في قلبِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ ودنياهُ في فعلِهِ ، فمهما قَوِيَ الباعثُ . . أوجبَ ذلكَ جزمَ الإرادةِ وانتهاضَ القدرةِ ، ولمْ يستطعِ العبدُ مخالفةَ الباعثِ القويِّ الذي لا تردُّدَ فيهِ ، واللهُ هوَ سبحانَهُ خالقُ البواعثِ ومهيِّجُها ، ومزيلُ الضعفِ والتردُّدِ عنها ، ومسخِّرُ القدرةِ للانتهاضِ بمقتضى البواعثِ ، فمَنْ تيقَّنَ هـٰذا . . لمْ يكنْ لهُ نظرٌ إلا إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، وتيقُّنُ مثلِ هـٰذا العبدِ أنفعُ للمعطي مِنْ ثناءِ غيرِهِ وشكرِهِ ، فذلكَ حركةُ لسانٍ يقلُّ في الأكثرِ جدواهُ ، وإعانةُ مثلِ هـٰذا العبدِ الموحِّدِ لا تضيعُ .

فأمَّا الذي يمدحُ بالعطاءِ ويدعو بالخيرِ . . فسيذمُّ بالمنعِ ويدعو بالشرِّ عندَ اليأسِ مِنَ العطاءِ وأحوالُهُ متفاوتةٌ .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ معروفاً إلىٰ بعضِ الفقراءِ وقالَ للرسولِ : « احفظْ ما يقولُ » ، فلمَّا وصلَ إليهِ وأعطاهُ . . قالَ : الحمدُ للهِ الذي لا ينسىٰ مَنْ ذكرَهُ ، ولا يضيعُ مَنْ شكرَهُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ لمْ تنسَ فلاناً ـ يعني نفسَهُ ـ فاجعلْ فلاناً لا ينساكَ ، فأخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

= (١٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٤) من كلام إبراهيم بن أدهم ، وهو في « القوت » (٢/ ١١٠) من وصية علي كرم الله وجهه ، قال الحافظ الزبيدي : (ويحتمل أن يكون هـٰذا قول لقمان من رواية علي رضي الله عنه) . « إتحاف » (٤/ ١٣٠) .

عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ؛ فسُرَّ وقالَ : « علمتُ أنَّهُ يقولُ ذلكَ » ، فانظرْ كيفَ قصرَ التفاتَهُ على اللهِ وحدَهُ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « تُبْ » ، فقالَ : أتوبُ إلى اللهِ ولا أتوبُ إلىٰ محمدٍ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « عرفَ الحقَّ لأهلِهِ »[2] .

ولمَّا نزلتْ براءةُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في قصَّةِ الإفكِ . . قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قُومي فقبِّلي رأسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقالتْ : واللهِ ؛ لا أفعلُ ، ولا أَحْمدُ إلا اللهَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْها يا أبا بكرٍ » ؛ وفي لفظٍ آخرَ : أنَّها رضيَ اللهُ عنها قالتْ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (بحمدِ اللهِ ، لا بحمدِكَ ولا بحمدِ صاحبِكَ) ، فلمْ ينكرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليها ذلكَ ، معَ أنَّ الوحيَ وصلَ إليها علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3] .

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٠) وقال : (وقد روي هـٰذا عن عمر وعن أبي الدرداء مع حُدَيْر) ، وخبر حدير رواه مرفوعاً عن ابن عمر بقصة طويلة أبو بكر الخلال في « الحث علىٰ التجارة والصناعة والعمل » (١٠٥) ، واسم هـٰذا الرجل : حُدَير ، ورواه عن أبي الدرداء موقوفاً عليه علىٰ أنه هو المرسل لحُدَير البيهقيُّ في « الشعب » (٤١١٢) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٢/ ٨١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٤٢) ، وكنية حُدَير أبو فوزة .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٨٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أُتي بأسير ، فقاله .

(٣) خبر السيدة عائشة رضي الله عنها رواه أبو داوود (٥٢١٩)، والقصة بطولها عند البخاري =

ورؤيةُ الأشياءِ مِنْ غيرِ اللهِ سبحانَهُ وصفُ الكافرينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، ومَنْ لَمْ يصفُ باطنُهُ عنْ رؤيةِ الوسائطِ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُمْ وسائطُ . . فكأنَّهُ لمْ ينفكَّ عنِ الشركِ الخفيِّ سرُّهُ ، فليتقِ اللهَ سبحانَهُ في تصفيةِ توحيدِهِ عنْ كدوراتِ الشركِ وشوائبِهِ .

الصفةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ مستتراً مخفياً حاجتَهُ ، لا يكثرُ البثَّ والشكوىٰ : أوْ يكونَ مِنْ أهلِ المروءةِ ممَّنْ ذهبتْ نعمتُهُ وبقيتْ عادتُهُ ، فهوَ يتعيَّشُ في جلبابِ التجمُّلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أيْ : لا يلحُّونَ في السؤالِ ؛ لأنَّهُمْ أغنياءُ بيقينِهِمْ ، أعزَّةٌ بصبرِهِمْ ، وهـٰذا ينبغي أنْ يُطلبَ بالتفحُّصِ عنْ أهلِ الدينِ في كلِّ محلَّةٍ ، ويستكشفَ عنْ بواطنِ أحوالِ أهلِ الخيرِ والتجمُّلِ ، فثوابُ صرْفِ المعروفِ إليهِمْ أضعافُ ما يصرفُ إلى المجاهرينَ بالسؤالِ .

الصفةُ الخامسةُ : أنْ يكونَ مُعْيلاً أوْ محبوساً بمرضٍ أوْ بسببٍ مِنَ الأسبابِ : فيوجدَ فيهِ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] أيْ : حُبسوا في طريقِ الآخرةِ لعَيْلَةٍ أوْ ضيقِ معيشةٍ ، أوْ

= (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)، والرواية الثانية عند الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ١٢٣).

(١) قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ متعلق بمحذوف ؛ أي : اجعلوا صدقاتكم لهـٰؤلاء . « إتحاف » (٤/ ١٣٢).

إصلاحِ قلبٍ ، ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأنَّهُمْ مقصوصو الجناحِ ، مقيدو الأطرافِ ، بهٰذهِ الأسبابِ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يعطي أهلَ البيتِ القطيعَ مِنَ الغنمِ العشرةَ فما فوقَها[١] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعطي العطاءَ علىٰ قَدْرِ العَيْلَةِ[٢] ، وسئلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ جهْدِ البلاءِ فقالَ : (كثرةُ العيالِ وقلَّةُ المالِ)[٣] .

الصفةُ السادسةُ : أنْ يكونَ مِنَ الأقاربِ وذوي الأرحامِ : فتكونُ صدقةً وصلةَ رحمٍ ، وفي صلةِ الرحمِ مِنَ الثوابِ ما لا يخفىٰ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أصلَ أخاً مِنْ إخواني بدرهمٍ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بعشرينَ درهماً ، ولأنْ أصلَهُ بعشرينَ درهماً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بمئةِ درهمٍ ، ولأنْ أصلَهُ بمئةِ درهمٍ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ رقبةً)[٤] .

والأصدقاءُ وإخوانُ الخيرِ أيضاً يتقدمونَ على المعارفِ كما يتقدَّمُ الأقاربُ على الأجانبِ ، فليراعِ هٰذهِ الدقائقَ .

فهٰذهِ هيَ الصفاتُ المطلوبةُ ، وفي كلِّ صفةٍ درجاتٌ ، فينبغي أنْ يطلبَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٢) .

(٢) كما هو عند أبي داوود (٢٩٥٣) عن عوف بن مالك قال : (كان إذا أتاه صلى الله عليه وسلم الفيء . . قسمه في يومه ، فأعطى الآهل حظين ، وأعطى العَزَب حظاً) ، والآهل : الذي له زوجة وعيال ، والعَزَب : مَنْ لا زوجة له .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٤٤٣) عن ابن عمر ، وهو كذلك في « القوت » (٢/ ١١٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .

أعلاها ، فإنْ وجدَ مَنْ جمعَ جملةً مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ . . فهيَ الذخيرةُ الكبرىٰ والغنيمةُ العظمىٰ ، ومهما اجتهدَ في ذلكَ وأصابَ . . فلهُ أجرانِ ، وإنْ أخطأَ . . فلهُ أجرٌ واحدٌ .

فإنَّ أحدَ أجريهِ في الحالِ : تطهيرُهُ نفسَهُ عنْ صفةِ البخلِ ، وتأكيدُ حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ في قلبِهِ ، واجتهادُهُ في طاعتِهِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ هيَ التي تقوىٰ في قلبِهِ ، فتشوقُهُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخرِ .

والأجرُ الثاني : ما يعودُ إليهِ مِنْ فائدةِ دعوةِ الآخذِ وهمَّتِهِ ؛ فإنَّ قلوبَ الأبرارِ لها آثارٌ في الحالِ والمآلِ ، فإنْ أصابَ . . حصلَ الأجرانِ ، وإنْ أخطأَ . . حصلَ الأوَّلُ دونَ الثاني .

فهـٰذا معنىٰ تضاعفِ أجرِ المصيبِ في الاجتهادِ هـٰهنا وفي سائرِ المواضعِ ، واللهُ أعلمُ .

الفَصلُ الثَّالِثُ
في القابض، وأسباب استحقاقه، ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلَمْ : أنَّهُ لا يستحقُّ الزكاةَ إلا حرٌّ ، مسلمٌ ، ليسَ بهاشميٍّ ولا مطَّلبيٍّ ، اتصفَ بصفةٍ مِنْ صفاتِ الأَصنافِ الثمانيةِ المذكورينَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١) ، فلا تصرفُ زكاةٌ إلىٰ كافرٍ ، ولا إلىٰ عبدٍ ، ولا إلىٰ هاشميٍّ ولا مطلبيٍّ ، أمَّا الصبيُّ والمجنونُ . . فيجوزُ الصرفُ إليهما إذا قبضَ عنهما وليُّهما .

فلنذكرْ صفاتِ الأصنافِ الثمانيةِ :

الصنفُ الأوَّلُ : الفقراءُ :

والفقيرُ : هوَ الذي ليسَ لهُ مالٌ ولا قدرةٌ على الكسبِ ، فإنْ كانَ معهُ قوتُ يومِهِ وكِسوةُ حالِهِ . . فليسَ بفقيرٍ ، ولكنَّهُ مسكينٌ ، وإنْ كانَ معهُ نصفُ قوتِ يومِهِ . . فهوَ فقيرٌ ، وإنْ كانَ معهُ قميصٌ وليسَ معهُ منديلٌ ولا خفٌّ

---

(١) في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ولا سراويلُ ولَمْ تكنْ قيمةُ القميصِ بحيثُ تفي بجميعِ ذلكَ كما يليقُ بالفقراءِ . . فهوَ فقيرٌ ؛ لأنَّهُ في الحالِ قدْ عدمَ ما هوَ محتاجٌ إليهِ ، وما هوَ عاجزٌ عنهُ ، فلا ينبغي أنْ يُشترطَ في الفقيرِ ألا يكونَ لهُ كسوةٌ سوىٰ ساترِ العورةِ ، فإنَّ هـٰذا غلوٌّ ، والغالبُ أنَّهُ لا يوجدُ مثلُهُ .

ولا يخرجُهُ عنِ الفقرِ كونُهُ معتاداً للسؤالِ ، فلا يجعلُ السؤالُ كسباً ، بخلافِ ما لوْ قدرَ علىٰ كسبٍ ؛ فإنَّ ذلكَ يخرجُهُ عنِ الفقرِ ، فإنْ قدرَ على الكسبِ بآلةٍ وليسَ لهُ آلةٌ . . فهوَ فقيرٌ ، ويجوزُ أنْ يُشترىٰ لهُ آلةٌ .

وإنْ قدرَ علىٰ كسبٍ لا يليقُ بمروءتِهِ وبحالِ مثلِهِ . . فهوَ فقيرٌ ، وإنْ كانَ متفقِّهاً ويمنعُهُ الاشتغالُ بالكسبِ عنِ التفقهِ . . فهوَ فقيرٌ، ولا تعتبرُ قدرتُهُ[1] .

وإنْ كانَ متعبِّداً يمنعُهُ الكسبُ مِنْ وظائفِ العباداتِ وأورادِ الأوقاتِ . . فليكتسبْ ؛ لأنَّ الكسبَ أولىٰ منْ ذلكَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضةِ »[2] ، وأرادَ بهِ السعيَ في الاكتسابِ .

وقالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عنْهُ : (كسبٌ في شبهةٍ خيرٌ مِنْ مسألةٍ)[3] .

---

(١) ومفهومه : أنه لو كان مشتغلاً بغير العلوم الشرعية ؛ كالمنطق والكلام والفلسفة والرياضة . . لا يدخل في هـٰذا . « إتحاف » (٤/ ١٣٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٧٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٢٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/ ٣٢٩) بلفظ : (مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس) .

وإنْ كانَ مكفيّاً بنفقةِ أبيهِ أوْ مَنْ تجبُ عليهِ نفقتُهُ . . فهٰذا أهونُ مِنَ الكسبِ ، فليسَ بفقيرٍ .

* * *

الصنفُ الثاني : المساكينُ :

والمسكينُ : هوَ الذي لا يفي دخلُهُ بخَرْجِهِ ، فقدْ يملكُ ألفَ درهمٍ وهوَ مسكينٌ ، وقدْ لا يملكُ إلا فأساً وحبلاً وهوَ غنيٌّ ، والدويرةُ التي يسكنُها والثوبُ الذي يسترُهُ علىٰ قدْرِ حالِهِ لا يسلبُهُ اسمَ المسكينِ ، وكذا أثاثُ البيتِ ؛ أعني : ما يحتاجُ إليهِ ، وذلكَ ممَّا يليقُ بهِ ، وكذا كتبُ الفقهِ لا تخرجُهُ عنِ المسكنةِ ، وإذا لمْ يملكْ سوى الكتبِ . . فلا تلزمُهُ صدقةُ الفطرِ ، وحكْمُ الكتابِ حكمُ الثوبِ وأثاثِ البيتِ ؛ فإنَّهُ محتاجٌ إليهِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يحتاطَ في فهمِ الحاجةِ بالكتابِ ، فالكتابُ محتاجٌ إليهِ لثلاثةِ أغراضٍ : التعليمُ ، والاستفادةُ ، والتفرُّجُ بالمطالعةِ .

أمَّا حاجةُ التفرُّجِ . . فلا تعتبرُ ؛ كاقتناءِ كتبِ الأشعارِ وتواريخِ الأخبارِ وأمثالِ ذلكَ ، ممَّا لا ينفعُ في الآخرةِ ولا يجدي في الدنيا إلا مجرَّدَ التفرُّجِ والاستئناسِ ، فهٰذا يباعُ في الكفارةِ وزكاةِ الفطرِ ، ويمنعُ اسمَ المسكنةِ .

وأمَّا حاجةُ التعليمِ إنْ كانَ لأجلِ الكسبِ ؛ كالمؤدِّبِ والمعلِّمِ والمدرِّسِ بأجرةٍ . . فهٰذهِ آلتُهُ ، فلا تباعُ في الفطرةِ ؛ كأدواتِ الخيَّاطِ وسائرِ المحترفينَ ، وإنْ كانَ يدرِّسُ للقيامِ بفرضِ الكفايةِ . . فلا تباعُ أيضاً ،

ولا يسلبُهُ ذلكَ اسمَ المسكينِ ؛ لأنَّها حاجةٌ مهمةٌ .

وأمَّا حاجةُ الاستفادةِ والتعلُّمِ مِنَ الكتابِ ؛ كادخارِهِ كتابَ طبٍّ ليعالجَ بهِ نفسَهُ ، أَوْ كتابَ وعْظٍ ليطالعَ فيهِ ويتعظَ بهِ . . فإنْ كانَ في البلدِ طبيبٌ وواعظٌ . . فهـٰذا مستغنىً عنهُ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فهو محتاجٌ إليهِ ، ثمَّ ربَّما لا يحتاجُ إلىٰ مطالعةِ الكتابِ إلا بعدَ مدَّةٍ ، فينبغي أنْ يضبطَ مدَّةَ الحاجةِ ، والأقربُ أنْ يقالَ : ما لا يحتاجُ إليهِ في السنةِ فهوَ مستغنىً عنهُ ، فإنَّ مَنْ فضلَ عنْ قوتِ يومِهِ شيءٌ . . لزمتْهُ الفطرةُ ، فإذا قدَّرْنا حاجةَ القوتِ باليومِ . . فحاجةُ أثاثِ البيتِ وثيابِ البدنِ ينبغي أنْ تقدَّرَ بالسنةِ ، فلا تباعُ ثيابُ الصيفِ في الشتاءِ ولا ثيابُ الشتاءِ في الصيفِ ، والكتبُ بالثيابِ والأثاثِ أشبهُ .

وقدْ يكونُ لهُ مِنْ كتابٍ نسختانِ ، فلا حاجةَ إلا إلىٰ إحداهُما ، فإنْ قالَ : إحداهُما أصحُّ ، والأخرىٰ أحسنُ ، فأنا محتاجٌ إليهما . . قلنا : اكتفِ بالأصحِّ وبعِ الأحسنَ ، ودعِ التفرُّجَ والترفُّهَ .

وإنْ كانَ نسختانِ مِنْ علمٍ واحدٍ ، إحداهُما بسيطةٌ والأخرىٰ وجيزةٌ ؛ فإنْ كانَ مقصودُهُ الاستفادةَ . . فليكتفِ بالبسيطِ ، وإنْ كانَ قصدُهُ التدريسَ . . فيحتاجُ إليهما ؛ إذْ في كلِّ واحدةٍ فائدةٌ ليستْ في الأخرىٰ .

وأمثالُ هـٰذهِ الصورِ لا تنحصرُ ، ولمْ يُتعرَّضْ لهُ في فنِّ الفقهِ ، وإنَّما أوردناهُ لعمومِ البلوىٰ ، والتنبيهِ بجنسِ هـٰذا النظرِ علىٰ غيرِه ، فإنَّ استقصاءَ

هـٰذهِ الصورِ غيرُ ممكنٍ ؛ إذْ يتعدَّىٰ مثلُ هـٰذا النظرِ في أثاثِ البيتِ في مقدارِهِ وعددِهِ ونوعِهِ ، وفي ثيابِ البدنِ ، وفي الدارِ وسعتِها وضيقِها ، وليسَ لهـٰذهِ الأمورِ حدودٌ محدودةٌ ، ولكنَّ الفقيهَ يجتهدُ فيها برأيِهِ ، ويقربُ في التحديداتِ بما يراهُ ، ويقتحمُ فيهِ خطرَ الشبهاتِ ، والمتورِّعُ يأخذُ فيهِ بالأحوطِ ويدعُ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، والدرجاتُ المتوسطةُ المشكلةُ بينَ الأطرافِ المتقابلةِ الجليَّةِ كثيرةٌ ، ولا ينجي منها إلا الاحتياطُ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

الصنفُ الثالثُ : العاملونَ :

وهمُ السعاةُ الذينَ يجمعونَ الزكواتِ سوى الخليفةِ والقاضي ، ويدخلُ فيهِ العريفُ والكاتبُ والمستوفي والحافظُ والنقَّالُ ، ولا يزادُ واحدٌ منهُمْ علىٰ أجرِ المثلِ ، فإنْ فضلَ شيءٌ مِنَ الثمنِ عنْ أجرِ مثلِهِمْ . . ردَّ علىٰ بقيةِ الأصنافِ ، وإنْ نقصَ . . كُمِّلَ مِنْ مالِ المصالحِ .

* * *

الصنفُ الرابعُ : المؤلفةُ قلوبُهُمْ :

وهمُ الأشرافُ الذينَ قدْ أسلموا وهمْ مطاعونَ في قومِهِمْ ، وفي إعطائِهِمْ تقريرُهُمْ على الإسلامِ ، وترغيبُ نظرائِهِمْ وأتباعِهِمْ .

* * *

الصنفُ الخامسُ : المكاتبونَ :

ويدفعُ إلى السيِّدِ سهمُ المكاتبِ ، وإنْ دفعَ إلى المكاتبِ . . جازَ ، ولا يدفعُ السيِّدُ زكاتَهُ إلىٰ مكاتبِ نفسِهِ ؛ لأنَّهُ بعدُ عبدٌ لهُ .

* * *

الصنفُ السادسُ : الغارمونَ :

والغارمُ : هوَ الذي استقرضَ في طاعةٍ أوْ مباحٍ وهوَ فقيرٌ ، فإنِ استقرضَ في معصيةٍ . . فلا يعطىٰ إلا إذا تابَ ، وإنْ كانَ غنياً . . لمْ يقضَ دينُهُ إلا إذا كانَ قدِ استقرضَ لمصلحةٍ أوْ إطفاءِ فتنةٍ .

* * *

الصنفُ السابعُ : الغزاةُ الذينَ ليسَ لهُمْ مرسومٌ في ديوانِ المرتزقةِ :

فيصرفُ إليهم سهمٌ وإنْ كانوا أغنياءَ ؛ إعانةً لهمْ على الغزوِ .

* * *

الصنفُ الثامنُ : ابنُ السبيلِ :

وهوَ الذي شَخَصَ مِنْ بلدِهِ ليسافرَ في غيرِ معصيةٍ أوِ اجتازَ بها ، فيعطىٰ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ كانَ لهُ مالٌ ببلدٍ آخرَ . . أعطيَ بقدْرِ بُلغتِهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فبمَ تُعرفُ هـٰذهِ الصفاتُ ؟

قلنا : أمَّا الفقرُ والمسكنةُ . . فبقولِ الآخذِ ، ولا يطالَبُ ببينةٍ

ولا يحلَّفُ ، بلْ يجوزُ اعتمادُ قولِهِ إذا لمْ يُعلمْ كذبُهُ .

وأمَّا الغزوُ والسفرُ . . فهوَ أمرٌ مستقبلٌ ، فيعطىٰ بقولِهِ : (إنِّي عازمٌ)[1] ، فإنْ لمْ يفِ بهِ . . استردَّ .

وأمَّا بقيةُ الأصنافِ . . فلا بدَّ فيها مِنَ البينةِ ، فهٰذهِ شروطُ الاستحقاقِ ، وأمَّا مقدارُ ما يصرفُ إلىٰ كلِّ واحدٍ . . فسيأتي .

* * *

(١) أي : على الغزو ، أو السفر لمحلتي ، وفي بعض النسخ : (إني غاز) ، وعليه مشى الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٤/ ١٥٣) .

بيان وظائف القابض
وهي خمسة

الأولىٰ : أن يعلمَ أنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ أوجبَ صرفَ الزكاةِ إليهِ ليُكفىٰ مُهمَّهُ ، ويجعلَ همومَهُ همّاً واحداً :

فقدْ تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلقَ بأنْ يكونَ همُّهُمْ واحداً ، وهوَ اللهُ سبحانَهُ واليومُ الآخرُ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(١) .

ولكنْ لمَّا اقتضتِ الحكمةُ أنْ تسلَّطَ على العبدِ الشهواتُ والحاجاتُ وهيَ تفرِّقُ همَّهُ .. اقتضى الكرمُ إفاضةَ نعمةٍ تكفي الحاجاتِ ، فأكثرَ الأموالَ وصبَّها في أيدي عبادِهِ لتكونَ آلةً لهُم في دفْعِ حاجاتِهِمْ ، ووسيلةً لتفرُّغِهُمْ لطاعاتِهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ أكثرَ مالَهُ ، فجعلَهُ عليهِ فتنةً وبليةً ، فأقحمَهُ في الخطرِ ، ومنهُمْ مَنْ أحبَّهُ ، فحماهُ الدنيا كما يحمي المشفقُ مريضَهُ ، فزوىٰ عنهُ فُضُولَها ، وساقَ إليه قدْرَ حاجتِهِ علىٰ أيدي الأغنياءِ ليكونَ شغلُ الكسبِ والتعبِ في الجمعِ والحفظِ عليهِمْ ، وفائدتُهُ تنصبُّ إلى الفقراءِ ، فيتجرَّدونَ

---

(١) أي : يقصدوني بعبادتهم وتذللهم ، فأكفيهم مؤنتهم وهمومهم ، وروى ابن ماجه (٢٥٧) مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً ؛ همَّ آخرته .. كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا .. لم يبالِ الله في أيِّ أوديتها هلك » . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٥٤) .

لعبادةِ اللهِ والاستعدادِ لما بعدَ الموتِ ، فلا تصرفُهُمْ عنْ ذلكَ فضولُ الدنيا ، ولا تشغلُهُمْ عنِ التأهُّبِ الفاقةُ ، وهـٰذا منتهى النعمةِ ، فحقُّ الفقيرِ أنْ يعرفَ قدْرَ نعمةِ الفقرِ ، ويتحقَّقَ أنَّ فضْلَ اللهِ عليهِ فيما زواهُ عنهُ أكثرُ مِنْ فضلِهِ فيما أعطاهُ ؛ كما سيأتي في كتابِ الفقرِ تحقيقُهُ وبيانُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

فليأخذْ ما يأخذُهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ رزقاً وعوناً لهُ على الطاعةِ ، ولتكنْ نيَّتُهُ فيهِ أنْ يتقوَّىٰ بهِ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لمْ يقدرْ عليهِ . . فليصرفْهُ إلىٰ ما أباحَهُ اللهُ تعالىٰ ، فإنِ استعانَ بهِ علىٰ معصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كانَ كافراً لأنعمِ اللهِ ، مستحقّاً للبعدِ والمقتِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

* * *

الثانيةُ : أنْ يشكرَ المعطيَ ويدعوَ لهُ ويثنيَ عليهِ :

ويكونُ شكرُهُ ودعاؤُهُ بحيثُ لا يخرجُهُ عنْ كونِهِ واسطةً ، ولكنَّهُ طريقُ وصولِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وللطريقِ حقٌّ مِنْ حيثُ جعلَهُ اللهُ طريقاً وواسطةً ، وذلكَ لا ينافي رؤيةَ النعمةِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ يشكرِ الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ »(١) ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ في مواضعَ علىٰ أعمالِهِمْ وهوَ خالقُها وخالقُ القدرةِ عليها ؛ نحوَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ .

وليقلِ القابضُ في دعائِهِ : (طهَّرَ اللهُ قلبَكَ في قلوبِ الأبرارِ ، وزكّىٰ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

عملَكَ في عملِ الأخيارِ ، وصلَّىٰ علىٰ روحِكَ في أرواحِ الشهداءِ)[١] ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أسدىٰ إليكُمْ معروفاً . . فكافئوهُ ، فإنْ لمْ تستطيعوا . . فادعوا لهُ حتَّىٰ تعلموا أنَّكُمْ قدْ كافأتموهُ »[٢] .

ومِنْ تمامِ الشكرِ أنْ يسترَ عيوبَ العطاءِ إنْ كانَ فيهِ عيبٌ ، ولا يحقرَهُ ولا يذمَّهُ ولا يُعيِّرَهُ بالمنعِ إذا منعَ ، ويفخِّمَ عندَ نفسهِ وعندَ الناسِ صنيعَهُ ، فوظيفةُ المعطي الاستصغارُ ، ووظيفةُ القابضِ تقلُّدُ المنَّةِ والاستعظامُ ، وعلىٰ كلِّ عبدٍ القيامُ بحقِّهِ ، وذلكَ لا تناقضَ فيهِ ؛ إذْ موجباتُ التصغيرِ والتعظيمِ لا تتعارضُ ، والنافعُ للمعطي ملاحظةُ أسبابِ التصغيرِ ، ويضرُّهُ خلافُهُ ، والآخذُ بالعكسِ منهُ[٣] ، وكلُّ ذلكَ لا يناقضُ رؤيةَ النعمةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ مَنْ لا يرى الواسطةَ واسطةً . . فقدْ جهلَ ، وإنَّما المنكَرُ أنْ يرى الواسطةَ أصلاً .

* * *

الثالثةُ : أنْ ينظرَ فيما يأخذُهُ :

فإنْ لمْ يكنْ مِنْ حلِّهِ . . تورَّعَ عنهُ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، ولنْ يعدمَ المتورِّعُ عنِ الحرامِ فتوحاً منَ الحلالِ ، فلا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .

(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٢) ، والنسائي (٥/ ٨٢) .

(٣) فإنه ينفعه ملاحظة أسباب التعظيم ، ويضرُّهُ التحقير . « إتحاف » (٤/ ١٥٧) .

يأخذَنْ مِنْ أموالِ الأتراكِ والجنودِ وعمّالِ السلاطينِ[1] ومَنْ أكثرُ كسبهِ مِنَ الحرامِ. . إلا إذا ضاقَ عليهِ الأمرُ وكانَ ما يسلَّمُ إليهِ لا يعرفُ لهُ مالكاً معيَّناً ، فلهُ أنْ يأخذَ بقدْرِ الحاجةِ ، فإنَّ فتوى الشرعِ في مثلِ هـٰذا أنْ يتصدَّقَ بهِ علىٰ ما سيأتي بيانُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، وذلكَ إذا عجزَ عنِ الحلالِ ، فإذا أخذَ. . لمْ يكنْ أخذُهُ أخذَ زكاةٍ ؛ إذْ لا يقعُ زكاةً عنْ مؤدِّيهِ وهوَ حرامٌ .

* * *

الرابعةُ : أنْ يتوقَّىٰ مواقعَ الريبةِ والاشتباهِ في مقدارِ ما يأخذُهُ :

فلا يأخذُ إلا القدْرَ المباحَ ، ولا يأخذُ إلا إذا تحقَّقَ أنَّهُ موصوفٌ بصفةِ الاستحقاقِ .

فإنْ كانَ يأخذُ بالكتابةِ أوِ الغرامةِ. . فلا يزيدُ علىٰ مقدارِ الدينِ ، وإنْ كانَ يأخذُ بالعملِ. . فلا يزيدُ علىٰ أجرةِ المثْلِ ، وإنْ أعطيَ زيادةً. . أبىٰ وامتنعَ ؛ إذْ ليسَ المالُ للمعطي حتَّىٰ يتبرَّعَ بهِ ، وإنْ كانَ مسافراً. . لمْ يزدْ على الزادِ وكراءِ الدابَّةِ إلىٰ مقصدِهِ ، وإنْ كانَ غازياً. . لمْ يأخذْ إلا ما يحتاجُ إليه للغزوِ خاصَّةً ؛ مِنْ خيلٍ وسلاحٍ ونفقةٍ ، وتقديرُ ذلكَ بالاجتهادِ ، وليسَ لهُ حدٌّ ، وكذا زادُ السفرِ ، والورعُ تركُ ما يَريبُهُ إلىٰ ما لا يَريبُهُ .

وإنْ أخذَ بالمسكنةِ. . فلينظرْ أوَّلاً إلىٰ أثاثِ بيتِهِ وثيابِهِ وكتبهِ : هلْ فيها

---

(١) ممن عهد عنه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإلا . . فلا منع .

ما يُستغنىٰ عنهُ بعينِه أو يُستغنىٰ عنْ نفاستِهِ فيمكنُ أنْ يبدَّلَ بما يكفي ويفضلَ بعضُ قيمتِهِ ؟ وكلُّ ذلكَ إلى اجتهادِهِ ، وفيهِ طرفٌ ظاهرٌ يتحقَّقُ معَهُ أنَّهُ مستحقٌّ ، وطرفٌ آخرُ مقابلٌ يتحقَّقُ معَهُ أنَّهُ غيرُ مستحقٍّ ، وبينَهُما أوساطٌ مشتبهةٌ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، والاعتمادُ في هـٰذا علىٰ قولِ الآخذِ ظاهراً .

وللمحتاجِ في تقديرِ الحاجاتِ مقاماتٌ في التضييقِ والتوسيعِ ، ولا تنحصرُ مراتبُهُ ، وميلُ الورِعِ إلى التضييقِ ، وميلُ المتساهلِ إلى التوسيعِ ، حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محتاجاً إلىٰ فنونٍ مِنَ التوسيعِ هيَ ممقوتةٌ في الشرعِ .

ثُمَّ إذا تحقَّقَتْ حاجتُهُ . . فلا يأخذْ مالاً كثيراً ، بلْ ما يتمِّمُ كفايتَهُ مِنْ وقتِ أخذِهِ إلىٰ سنةٍ ، فهـٰذا أقصىٰ ما يرخَّصُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّ السنةَ إذا تكرَّرَتْ . . تكرَّرَتْ أسبابُ الدَّخْلِ ، ومِنْ حيثُ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ادَّخَرَ لعيالِهِ قوتَ سنةٍ[١] ، فهـٰذا أقربُ ما يحدُّ بهِ حدُّ الفقيرِ والمسكينِ ، ولوِ اقتصرَ علىٰ حاجةِ شهرِهِ أوْ حاجةِ يومِهِ . . فهوَ أقربُ للتقوىٰ .

---

(١) كما في « البخاري » (٢٩٠٤)، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

ومذاهبُ العلماءِ في قدْرِ المأخوذِ بحكْمِ الزكاةِ والصدقةِ مختلفةٌ ؛ فمِنْ مبالغٍ في التقليلِ إلىٰ حدٍّ أوجبَ الاقتصارَ علىٰ قدرِ قوتِ يومِهِ وليلتِهِ ، وتمسكَ بما روىٰ سهلُ بنُ الحنظليةِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنِ السؤالِ معَ الغنىٰ ، فسئلَ عن غناهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غداؤُهُ وعشاؤُهُ »[(١)] .

وقالَ آخرونَ : يأخذُ إلىٰ حدِّ الغنىٰ ، وحدُّ الغنىٰ نصابُ الزكاةِ ؛ إذْ لمْ يوجبِ اللهُ تعالى الزكاةَ إلا على الأغنياءِ ، فقالوا : لهُ أنْ يأخذَ لنفسِهِ ولكلِّ واحدٍ مِنْ عيالِهِ نصابَ زكاةٍ .

وقالَ قائلونَ : حدُّ الغنيِّ خمسونَ درهماً أوْ قيمتُها مِنَ الذهبِ ؛ لما روى ابنُ مسعودٍ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ سألَ ولهُ مالٌ يغنيهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ وفي وجهِهِ خُمُوشٌ » ، قيلَ : وما غناهُ ؟ قالَ : « خمسونَ درهماً أوْ قيمتُها مِنَ الذهبِ » ، وقيلَ : راويهِ ليسَ بقويٍّ[(٢)] .

وقالَ قومٌ : أربعونَ ؛ لما رواهُ عطاءُ بنُ يسارٍ منقطعاً أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٢٩) بلفظ : « من سأل وعنده ما يغنيه . . فإنما يستكثر من النار » فقالوا : وما يغنيه ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعشيه » .

(٢) رواه أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/ ٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) ، وقوله : (قيل : راويه ليس بقوي) : عنىٰ به حكيم بن جبير ، فقد ضعفوه ، متهم بالرفض ، ولذا ضعَّف الحديث النسائي والخطابي ، ولذا طلبوا من سفيان الرواية عن غيره ، فحدَّثهم عن زبيد ، فصار الحديث بهـٰذا الطريق قوياً ، والله أعلم . « إتحاف » (٤/ ١٦٠) .

وسلَّمَ قالَ : « مَنْ سألَ ولهُ أوقيةٌ . . فقدْ ألحفَ في السؤالِ »(١) .

وبالغَ آخرونَ في التوسيعِ فقالوا : لهُ أنْ يأخذَ مقدارَ ما يشتري بهِ ضيعةً ، فيستغنيَ بها طولَ عمرِهِ ، أوْ يهيِّىءَ بضاعةً ليتجرَ فيها ويستغنيَ بها طولَ عمرِهِ ؛ لأنَّ هـٰذا هوَ الغنىٰ ، وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا أعطيتُمْ . . فأغنوا)(٢) ، حتَّىٰ ذهبَ قومٌ إلىٰ أنَّ مَنِ افتقرَ . . فلهُ أنْ يأخذَ بقدْرِ ما يعودُ بهِ إلىٰ مثلِ حالِهِ ولوْ عشرةَ آلافِ درهمٍ ، إلا إذا خرجَ عنْ حدِّ الاعتدالِ .

ولما شغلَ أبا طلحةَ بستانُهُ عنِ الصلاةِ . . قالَ : جعلتُهُ صدقةً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اجعلْهُ في قرابتِكَ ، فهوَ خيرٌ لكَ »(٣) ، فأعطاهُ حسَّانَ وأبا قتادةَ ، فحائطٌ مِنْ نخلٍ لرجلينِ كثيرٌ مغنٍ . وأعطىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أعرابياً ناقةً معَها ظئراها(٤) ، فهـٰذا ما يُحكىٰ فيهِ .

فأمَّا التقليلُ إلىٰ قوتِ اليومِ أوِ الأوقيةِ . . فذلكَ وردَ في كراهيةِ السؤالِ والتردُّدِ على الأبوابِ ، وذلكَ مستنكرٌ ، ولهُ حكمٌ آخرُ ، بلِ التجويزُ إلىٰ أنْ يشتريَ ضيعةً فيستغنيَ بها أقربُ إلى الاحتمالِ ، وهوَ أيضاً مائلٌ إلى الإسرافِ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٥/ ٩٨) ، زاد هشام في حديثه عند أبي داوود : (وكانت الأوقية علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين درهماً) ، وبالأربعين صرَّح النسائي في حديث آخر (٥/ ٩٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٥٢٦) .

(٣) روى الجزء الأول منه مالك في « الموطأ » (١/ ٩٨) ، والباقي عند البخاري (١٤٦١) ، ومسلم (٩٩٨) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣١٦) ، **وظئراها هنا** : أبوها وأمُّها .

والأقربُ إلى الاعتدالِ : كفايةُ سنةٍ ، فما وراءَهُ فيهِ خطرٌ ، وفيما دونَهُ تضييقٌ ، وهاذهِ الأمورُ إذا لمْ يكنْ فيها تقديرٌ . . جُزِمَ بالتوقيفِ ، فليسَ للمجتهدِ إلا الحكمُ بما يقعُ لهُ ، ثمَّ يقالُ للورعِ : « استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ » كما قالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ؛ إذِ الإثمُ حَوَازُّ القلوبِ ، فإذا وجدَ القابضُ في نفسِهِ شيئاً ممَّا يأخذُهُ . . فليتقِ اللهَ فيهِ ، ولا يترخصْ تعلُّلاً بالفتوىٰ منْ علماءِ الظاهرِ ؛ فإنَّ لفتاويهِمْ قيوداً ومطلقاتٍ مِنَ الضروراتِ ، وفيها تخميناتٌ واقتحامُ شبهاتٍ ، والتوقي مِنَ الشبهاتِ مِنْ شيَمِ ذوي الدينِ وعاداتِ السالكينَ لطريقِ الآخرةِ .

❊ ❊ ❊

الخامسةُ : أنْ يسألَ صاحبَ المالِ عنْ قدْرِ الواجبِ عليهِ :

فإنْ كانَ ما يعطيهِ فوقَ الثُّمُنِ . . فلا يأخذْ منهُ ؛ لأنَّهُ لا يستحقُّ معَ شريكَيهِ إلا الثُّمُنَ ، فلينقصْ مِنَ الثُّمُنِ مقدارَ ما يصرفُ إلى اثنينِ مِنْ صنفِهِ ، وهاذا السؤالُ واجبٌ علىٰ أكثرِ الخلقِ ، فإنَّهُمْ لا يراعونَ هاذهِ القسمةَ ؛ إمَّا لجهلٍ ، وإمَّا لتساهلٍ ، وإنَّما يجوزُ تركُ السؤالِ عنْ مثلِ هاذهِ الأمورِ إذا لمْ يغلبْ على الظنِّ احتمالُ التحريمِ ، وسيأتي ذكْرُ مظانِّ السؤالِ ودرجةِ الاحتمالِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ
في صدقة التطوّع ، وفضلها ، وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصّدقة

الأخبارُ :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تصدَّقوا ولوْ بتمرةٍ ، فإنَّها تسدُّ مِنَ الجائعِ ، وتطفىءُ الخطيئةَ كما يطفىءُ الماءُ النارَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ تجدوا . . فبكلمةٍ طيبةٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا منْ عبدٍ مسلمٍ يتصدَّقُ بصدقةٍ مِنْ كسبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبلُ اللهُ إلا طيّباً ـ إلا كانَ اللهُ يأخذُها بيمينِهِ ، فيربِّيها لهُ كما يربِّي أحدُكُمْ فَصِيلَهُ أوْ فَلُوَّهُ حتَّىٰ تبلغَ التمرةُ مثلَ أُحُدٍ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي الدرداءِ : « إذا طبختَ مرقةً . . فأكثرْ ماءَها ، ثمَّ انظرْ أهلَ بيتٍ مِنْ جيرانِكَ ، فأصبْهُمْ منهُ بمعروفٍ »(٤) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٥١) .
(٢) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .
(٣) رواه مسلم (١٠١٤) .
(٤) رواه مسلم (٢٦٢٥) والخطاب فيه لأبي ذر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحسنَ عبدٌ الصدقةَ إلا أحسنَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلافةَ علىٰ تركتِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقتِهِ يومَ القيامةِ حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصدقةُ تسدُّ سبعينَ باباً مِنَ الشرِّ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقةُ السرِّ تطفىءُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الذي أعطىٰ مِنْ سَعةٍ بأفضلَ أجراً مِنَ الذي يقبلُ مِنْ حاجةٍ »(٥) ، ولعلَّ المرادَ بهِ : الذي يقصدُ مِنْ دفْعِ حاجتِهِ التفرُّغَ للدينِ ، فيكونُ مساوياً للمعطي الذي يقصدُ بإعطائِهِ عمارةَ دينِهِ .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الصدقةِ أفضلُ ؟ قالَ : « أنْ تَصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ ، تأملُ الغنىٰ وتخشى الفاقةَ ، ولا تمهلُ حتَّىٰ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤٦) عن ابن شهاب مرسلاً .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٨١) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٧٤) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٦٨) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٥) .

إذا بلغتِ الحلقومَ . . قلتَ : لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا ، ألا وقدْ كانَ لفلانٍ »[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً لأصحابهِ : « تصدَّقوا » ، فقالَ رجلٌ : إنَّ عندي ديناراً ، فقالَ : « أنفقْهُ علىٰ نفسِكَ » ، فقالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ علىٰ زوجتِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ علىٰ ولدِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ علىٰ خادمِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ أبصرُ بهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحلُّ الصدقةُ لآلِ محمدٍ ، إنَّما هيَ أوساخُ الناسِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ردُّوا مذمَّةَ السائلِ ولوْ بمثلِ رأسِ الطائرِ منَ الطعامِ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « لوْ صدقَ السائلُ . . ما أفلحَ مَنْ ردَّهُ »[5] .

---

(١) رواه البخاري (١٤١٩) ، ومسلم (١٠٣٢) .

(٢) رواه أبو داوود في « سننه » (١٦٩١) ، والنسائي (٥/ ٦٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٣٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤١٥) .

(٣) رواه مسلم (١٠٧٢) .

(٤) رواه العقيلي في « الضعفاء » (١/ ١٢١) وفيه : (رأس الذباب) بدل (رأس الطائر) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٩١٥) عن حميد بن عبد الرحمٰن قال : (كان يقال : ردوا السائل ولو بمثل رأس القطاة) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٤٦) بلفظ : « لولا أن المساكين يكذبون . . ما أفلح من ردَّهم » ، وكذلك هو عند البيهقي في « الشعب » (٣١٢٦) ، وهو بلفظ المصنف رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٢٩٧) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ١٧١) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ ردَّ سائلاً خائباً مِنْ بيتِهِ . . لمْ تغشَ الملائكةُ ذلكَ البيتَ سبعةَ أيامٍ) .

وكانَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يكلُ خَصلتينِ إلىٰ غيرِهِ ؛ كانَ يضعُ طَهورَهُ بالليلِ ويخمِّرُهُ ، وكانَ يناولُ المسكينَ بيدِهِ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ المسكينُ الذي تردُّهُ التمرةُ والتمرتانِ واللقمةُ واللقمتانِ ، إنَّما المسكينُ المتعفِّفُ ، اقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ مسلمٍ يكسو مسلماً . . إلا كانَ في حفظِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما دامتْ عليهِ منهُ رقعةٌ »[3] .

* * *

الآثارُ :

قالَ عروةُ بنُ الزبيرِ : (لقدْ تصدَّقَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا بخمسينَ ألفاً ، وإنَّ درعَها لمرقَّعٌ)[4] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٢) عن ابن عباس قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكل طهوره إلىٰ أحد ، ولا صدقته التي يتصدق بها ، يكون هو الذي يتولاها بنفسه) .

(٢) رواه البخاري (٤٥٣٩) ، ومسلم (١٠٣٩) .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٤) بنحوه ، وهو بمعناه عند أبي داوود (١٦٨٢) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٥٤) .

وقالَ مجاهدٌ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ فقالَ : (وهمْ يشتهونَهُ)(١) .

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلِ الفضلَ عندَ خيارِنا ، لعلَّهُمْ يعودونَ بهِ علىٰ أولي الحاجةِ منَّا) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بن عميرٍ : (الصلاةُ تبلِّغُكَ نصفَ الطريقِ ، والصومُ يبلِّغُكَ بابَ المَلِكِ ، والصدقةُ تدخلُكَ عليهِ)(٢) .

وقالَ ابنُ أبي الجعدِ : (إنَّ الصدقةَ لتدفعُ سبعينَ باباً مِنَ السوءِ ، وفضلُ سرِّها علىٰ علانيتِها بسبعينَ ضعفاً ، وإنَّها لتفكُّ لَحْيَي سبعينَ شيطاناً)(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إنَّ رجلاً عبدَ اللهَ سبعينَ سنةً ، ثم أصابَ فاحشةً فأحبطَ عملَهُ ، ثمَّ مرَّ بمسكينٍ ، فتصدَّقَ عليهِ برغيفٍ ، فغفرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ ، وردَّ عليهِ عملَ السبعينَ سنةً)(٤) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/ ٢٩/ ٢٥٤) .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٤٠) عن ابن أبي الحواري ، عن عبد العزيز بن محمد ، وعبد العزيز بن عمير روىٰ عنه أحمد بن أبي الحواري كما في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٣٣٣) .
(٣) روىٰ أوله الطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٧٤) ، وآخره رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤٩) .
(٤) رواه الحسين بن حرب في « البر والصلة » (٢٧٩) بلفظ المصنف ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٥٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٦٣) عن أبي بردة قال : (لما حضر أبا موسى الوفاةُ ـ وأبو بردة ابنه ـ قال : يا بَنِيَّ ؛ اذكروا صاحبَ الرغيفِ ، =

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (إذا اخطأتَ خطيئةً .. فأعطِ صدقةً)(١) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (ما أعرفُ حبَّةً تزنُ جبالَ الدنيا إلا الحبةَ مِنَ الصدقةِ)(٢) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (كانَ يقالُ : ثلاثةٌ مِنْ كنوزِ الجنةِ أوْ مِنْ كنوزِ البرِّ : كتمانُ المرضِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ المصائبِ) ، ورُوِيَ مسنداً(٣) .

= قال : كان رجل يتعبد في صومعة ـ أُراه قال : سبعينَ سنة ـ لا ينزل إلا في يوم أحد ، قال : فنزل في يوم أحد ، قال : فشُبِّهَ أو شبَّ الشيطان في عينه امرأة ، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال ، قال : ثم كُشف عن الرجل غطاؤه ، فخرج تائباً ، فكان كلما خطا خطوة .. صلىٰ وسجد ، قال : فآواه الليل إلىٰ دكان عليه اثنا عشر مسكيناً ، فأدركه الإعياء ، فرمىٰ بنفسه بين رجلين منهم .

وكان ثمَّ راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة ، فيعطي كل إنسانٍ رغيفاً ، فجاء صاحب الرغيف فأعطىٰ كل إنسان رغيفاً ، فقال المتروك لصاحب الرغيف : ما لك لم تعطني رغيفي ؟ ما كان إليَّ عنه غنىً ، قال : تُراني أُمسكه عنك ؟! والله لا أعطيك شيئاً الليلة ، قال : فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه ، فدفعه إلى الرجل الذي ترك ، فأصبح التائب ميتاً ، قال : فوزنت السبعون سنة بالسبع الليالي .. فلم تزن ! قال : فوزن الرغيف بالسبع الليالي ، قال : فرجح الرغيف ، فقال أبو موسىٰ : يا بني ؛ اذكروا صاحب الرغيف) .

(١) رواه الحسين بن حرب في « البر والصلة » (٢٨١) .

(٢) حكاه الثعلبي في « تفسيره » (٢/ ٢٨٤) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٧) مرفوعاً ، وانظر « قوت القلوب » (٢/ ١٠٧) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الأعمالَ تباهتْ ؛ فقالتِ الصدقةُ : أنا أفضلُكُنَّ) .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ يتصدَّقُ بالسُّكَّرِ ويقولُ : (سمعتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، واللهُ يعلمُ أنِّي أحبُّ السُّكَّرَ)[١] .

وقالَ النخعيُّ : (إذا كانَ الشيءُ للهِ عزَّ وجلَّ . . لا يسرُّني أنْ يكونَ فيهِ عيبٌ) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : (يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ أجوعَ ما كانوا قطُّ ، وأعطشَ ما كانوا قطُّ ، وأعرىٰ ما كانوا قطُّ ، فمنْ أطعمَ للهِ عزَّ وجلَّ . . أشبعَهُ اللهُ ، ومَنْ سقىٰ للهِ عزَّ وجلَّ . . سقاهُ اللهُ ، ومنْ كسا للهِ عزَّ وجلَّ . . كساهُ اللهُ)[٢] .

وقالَ الحسنُ : (لو شاءَ اللهُ لجعلَكُمْ أغنياءَ لا فقيرَ فيكُمْ ، ولكنَّهُ ابتلىٰ بعضَكُمْ ببعضٍ)[٣] .

وقالَ الشعبيُّ : (مَنْ لمْ يرَ نفسَهُ إلىٰ ثوابِ الصدقةِ أحوجَ مِنَ الفقيرِ إلىٰ صدقتِهِ . . فقدْ أبطلَ صدقتَهُ ، وضربَ بها وجهَهُ) .

---

(١) عزا السيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٢٦٢) روايته لابن المنذر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، والسُّكَّر : نوع من الرطب شديد الحلاوة .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٠٩٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٧١) ، وفيه قبل الاستدراك : (ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم) عن الحسن مرسلاً .

وقالَ مالكٌ : (لا نرىٰ بشربِ الموسرِ مِنَ الماءِ الذي يُتصدَّقُ بهِ ويُسقىٰ في المسجدِ بأساً ؛ لأنَّهُ إنَّما جُعِلَ للعطشانِ مَنْ كانَ ، ولمْ يُردْ بهِ أهلُ الحاجةِ والمسكنةِ على الخصوصِ) .

ويقالُ : إنَّ الحسنَ مرَّ بهِ نخَّاسٌ ومعهُ جاريةٌ ، فقالَ للنخَّاسِ : أترضىٰ ثمنَها الدرهمَ والدرهمينِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فاذهبْ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رضيَ في الحورِ العينِ بالفَلْسِ واللقمةِ[1] .

* * *

(١) نثر الدر (٥/١٨٣ ، ١٨٤) .

بيان إخفاء أخذ الصّدقة وإظهارها

قدِ اختلفَ الناسُ في طُرقِ طلاَّبِ الإخلاصِ في ذلكَ ؛ فمالَ قومٌ إلىٰ أنَّ الإخفاءَ أفضلُ ، ومالَ قومٌ إلى الإظهارِ ، ونحنُ نشيرُ إلىٰ ما في كلِّ واحدٍ مِنَ المعاني والآفاتِ ، ثمَّ نكشفُ الغطاءَ عنِ الحقِّ فيهِ :

أمَّا الإخفاءُ . . ففيهِ خمسةُ معانٍ :

الأوَّلُ : أنَّهُ أبقىٰ للسَّترِ على الآخذِ ؛ فإنَّ أخْذَهُ ظاهراً هتكٌ لسترِ المروءةِ ، وكشفٌ عنِ الحاجةِ ، وخروجٌ عنْ هيئةِ التعفُّفِ والتصوُّنِ المحبوبِ الذي يحسبهُمُ الجاهلُ بهِ أغنياءَ مِنَ التعفُّفِ .

* * *

الثاني : أنَّهُ أسلمُ لقلوبِ الناسِ ولألسنتِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ ربما يحسدونَ أوْ ينكرونَ عليهِ أخْذَهُ ، ويظنُّونَ أنَّهُ آخذٌ معَ الاستغناءِ ، أوْ ينسبونَهُ إلىٰ أخْذِ زيادةٍ ، والحسدُ وسوءُ الظنِّ والغيبةُ مِنَ الذنوبِ الكبائرِ ، وصيانتُهُمْ عنْ هٰذهِ الجرائمِ أولىٰ .

وقالَ أبو أيوبَ السَّخْتيانيُّ : (إنِّي لأتركُ لُبْسَ الثوبِ الجديدِ خشيةَ أنْ يحدِثَ في جيراني حسداً)[1] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠١) .

وقالَ بعضُ الزهّادِ : (ربما تركتُ استعمالَ الشيءِ لأجلِ إخواني ، يقولونَ : مِنْ أينَ لهُ هـٰذا ؟!)[1] .

وعنْ إبراهيمَ التيميِّ : أنَّهُ رُئِيَ عليهِ قميصٌ جديدٌ ، فقالَ بعضُ إخوانِهِ : مِنْ أينَ لكَ هـٰذا ؟ فقالَ : كسانيهِ أخي خيثمةُ ، ولوْ علمتُ أنَّ أهلَهُ علموا بهِ . . ما قبلتُهُ[2] .

* * *

الثالثُ : إعانةُ المعطي علىٰ إسرارِ العملِ ؛ فإنَّ فضلَ السرِّ على الجهرِ في الإعطاءِ أكثرُ ، والإعانةُ علىٰ إتمامِ المعروفِ معروفٌ ، والكتمانُ لا يتمُّ إلا باثنينِ ؛ فمهما أظهرَ هـٰذا . . انكشفَ أمرُ المعطي .

ودفعَ رجلٌ إلىٰ بعضِ العلماءِ شيئاً ظاهراً فردَّهُ إليهِ ، ودفعَ إليه آخرُ شيئاً في السرِّ فقبلَهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ؟ فقالَ : إنَّ هـٰذا عملَ بالأدبِ في إخفاءِ معروفِهِ فقبلتُهُ ، وذاكَ أساءَ أدبَهُ في عملِهِ فرددتُ عليهِ عملَهُ[3] .

وأعطىٰ رجلٌ بعضَ الصوفيةِ شيئاً في الملأِ فردَّهُ ، فقالَ لهُ : لِمَ تردُّ

---

(1) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (٣/ ٣٥) ، وفيه معنى الخبر الذي قبله ، عن محارب بن دثار القاضي .

(2) رواه هناد في « الزهد » (٦٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١١٣) ، والخبر عن إبراهيم النخعي لا التيمي كما في « تهذيب الكمال » (٨/ ٣٧٢) ، والمصنف تبع صاحب « القوت » (٢/ ٢٠٢) .

(3) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .

على اللهِ عزَّ وجلَّ ما أعطاكَ ؟ فقالَ : إنَّكَ أشركتَ غيرَ اللهِ سبحانَهُ فيما للهِ تعالىٰ ولمْ تقنعْ بعينِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فرددتُ عليكَ شرْكَكَ(١) .

وقبلَ بعضُ العارفينَ في السرِّ شيئاً كانَ ردَّهُ في العلانيةِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ؟ فقالَ : عصيتَ اللهَ بالجهرِ ، فلمْ أكُ عوناً لكَ على المعصيةِ ، وأطعتَهُ بالإخفاءِ ، فأعنتُكَ علىٰ برِّكَ(٢) .

وقالَ الثوريُّ : (لو علمتُ أنَّ أحدَهُمْ لا يذكرُ صلتَهُ ولا يتحدَّثُ بها . . لقبلتُ صلتَهُ)(٣) .

* * *

الرابعُ : أنَّ في إظهارِ الأخذِ ذلاً وامتهاناً ، وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ(٤) .

كانَ بعضُ العلماءِ يأخذُ في السرِّ ولا يأخذُ في العلانيةِ ، ويقولُ : إنَّ في إظهارِهِ إذلالاً للعلمِ وامتهاناً لأهلِهِ ، فما كنتُ بالذي أرفعُ شيئاً مِنَ الدنيا بوضعِ العلمِ وإذلالِ أهلِهِ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٤) حديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » رواه الترمذي (٢٢٥٤) ، وابن ماجه (٤٠١٦) ، والخبر في « القوت » (٢/ ٢٠٢) .

الخامسُ : الاحترازُ عنْ شبهةِ الشِّرْكَةِ ، قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُهدِيَ لهُ هديةٌ وعندَهُ قومٌ . . فهُمْ شركاؤُهُ فيها »(١) ، وبأنْ يكونَ وَرِقاً أوْ ذهباً لا يخرجُ عَنْ كونِهِ هديةً ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ ما أهدى الرجلُ إلىٰ أخيهِ وَرِقاً ، أوْ يطعمُهُ خبزاً »(٢) ، فجعلَ الوَرِقَ هديةً ، فانفرادُهُ بما يُعطىٰ في الملأِ مكروهٌ إلا برضا جميعِهِمْ ، ولا يخلو عنْ شبهةٍ ، فإذا انفردَ . . سلمَ منْ هـٰذهِ الشبهةِ .

* * *

وأمَّا الإظهارُ والتحدُّثُ بهِ . . ففيهِ معانٍ أربعةٌ :

الأوَّلُ : الإخلاصُ والصدقُ والسلامةُ عن تلبيسِ الحالِ والمراءاةِ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٥١) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ١٧٨) .

(٢) لفظ المصنف لهـٰذا الحديث تبع فيه صاحب « القوت » (٢/ ٢٠٢) ، وحق كلمة (ورقاً) الرفع على الخبرية ، كذا وجد مصوَّباً في نسخة « المغني » للحافظ العراقي بخطه كما رآها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٤/ ١٧٨) ، وروى ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٤٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٢٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « أن تدخل علىٰ أخيك المسلم سروراً ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطعمه خبزاً » ، وروى الترمذي (١٩٥٧) مرفوعاً : « من منح منيحة لبن أو وَرِقٍ ، أو هدىٰ زقاقاً . . كان له مثل عتق رقبة » ، والحديثان يوفيان شاهد المصنف ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ١٧٨) .

والثاني : إسقاطُ الجاهِ والمنزلةِ ، وإظهارُ العبوديةِ والمسكنةِ ، والتبرِّي عنِ الكبرياءِ ودعوى الاستغناءِ ، وإسقاطُ النفسِ مِنْ أعينِ الخلقِ .

قالَ بعضُ العارفينَ لتلميذِهِ : أظهرِ الأخذَ علىٰ كلِّ حالٍ إنْ كنتَ آخذاً ؛ فإنَّكَ لا تخلو مِنْ أحدِ رجلينِ : رجلٌ تسقطُ مِنْ قلبِهِ إذا فعلتَ ذلكَ ، فذلكَ هوَ المرادُ ؛ لأنَّهُ أسلمُ لدينِكَ ، وأقلُّ لآفاتِ نفسِكَ ، أوْ رجلٌ تزدادُ في قلبِهِ بإظهارِكَ الصدْقَ ، فذلكَ الذي يريدُهُ أخوكَ ؛ لأنَّهُ يزدادُ ثواباً بزيادةِ حبِّهِ لكَ وتعظيمِهِ إيَّاكَ ، فتؤجرُ أنتَ إذْ كنتَ سببَ مزيدِ ثوابِهِ(١) .

* * *

الثالثُ : هوَ أنَّ العارفَ لا نظرَ لهُ إلا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، والسرُّ والعلانيةُ في حقِّهِ واحدٌ ، فاختلافُ الحالِ شرْكٌ في التوحيدِ ، قالَ بعضُهُمْ : (كنَّا لا نعبأُ بدعاءِ مَنْ يأخذُ في السرِّ ويردُّ في العلانيةِ)(٢) .

والالتفاتُ إلى الخلقِ حضروا أمْ غابوا نقصانٌ في الحالِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ النظرُ مقصوراً على الواحدِ الفرْدِ ، حُكِيَ أنَّ بعضَ الشيوخِ كانَ كثيرَ الميلِ إلىٰ واحدٍ مِنْ جملةِ المريدينَ ، فشقَّ على الآخرينَ ذلكَ ، فأرادَ أنْ يظهرَ لهم فضيلةَ ذلكَ المريدِ ، فأعطىٰ كلَّ واحدٍ منهُمْ طائراً وقالَ لَهُ : اذبحْ هـٰذا حيثُ لا يراكَ أحدٌ ، فذهبوا ثمَّ جاؤوا وقدْ ذبحَ كلُّ واحدٍ طائرَهُ إلا ذلكَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) عن بعض العارفين .

المريدَ ، فإنَّهُ ردَّ طائرَهُ ، فسألَهُمْ ، فقالوا : فعلنا ما أمرَنا بهِ الشيخُ ، فقالَ الشيخُ للمريدِ : ما لكَ لمْ تذبحْ كما ذبحَ أصحابُكَ ؟ فقالَ ذلكَ المريدُ : لمْ أقدرْ علىٰ مكانٍ لا يراني فيهِ أحدٌ ؛ فإنَّ اللهَ يراني في كلِّ موضعٍ ، فقالَ الشيخُ : لهٰذا أميلُ إليهِ ؛ لأنَّهُ لا يلتفتُ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ[1] .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنَّ الإظهارَ إقامةٌ لسنةِ الشكرِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، والكتمانُ كفرانُ النعمةِ ، وقدْ ذمَّ اللهُ تعالىٰ مَنْ كتمَ ما آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وقرنَهُ بالبخلِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ نعمةً أحبَّ أنْ تُرىٰ عليهِ »[2] .

وأعطىٰ رجلٌ بعضَ العارفينَ شيئاً في السرِّ ، فرفعَ بهِ يدَهُ وقالَ : (هٰذا مِنَ الدنيا ، والعلانيةُ فيها أفضلُ ، والسرُّ في أمورِ الآخرةِ أفضلُ)[3] ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (إذا أُعطيتَ في الملأِ . فخذْ ثمَّ اردُدْ في السرِّ)[4] .

والشكرُ محثوثٌ عليهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يشكرِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٣٤) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٣/٤٧٣) ، وهو عند الترمذي (٢٠٠٦) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/٢٠٢) بنحوه .

الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ عزَّ وجلَّ »[١] ، والشكرُ قائمٌ مقامَ المكافأةِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أسدىٰ إليكُمْ معروفاً . . فكافئُوهُ ، فإنْ لمْ تستطيعوا . . فأثنوا عليهِ بهِ خيراً ، وادعوا لهُ حتَّىٰ تعلموا أنَّكُمْ قدْ كافأتموهُ »[٢] .

ولمَّا قالتِ المهاجرونَ في الشكرِ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما رأينا خيراً مِنْ قومٍ نزلْنا عندَهُمْ ، قاسمونا الأموالَ حتَّىٰ خفْنا أنْ يذهبوا بالأجرِ كلِّهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلاَّ ؛ ما شكرْتُمْ لهمْ وأثنيْتُمْ بهِ عليهِمْ » أي : هوَ مكافأةٌ[٣] .

* * *

فالآنَ : إذا عرفتَ هٰذهِ المعانيَ . . فاعلمْ أنَّ ما نقلَ مِنِ اختلافِ الناسِ فيهِ ليسَ اختلافاً في المسألةِ ، بلْ هوَ اختلافُ حالٍ .

فكشفُ الغطاءِ في هٰذا : أنَّا لا نحكمُ حكماً بتّاً بأنَّ الإخفاءَ أفضلُ في كلِّ حالٍ أوِ الإظهارُ أفضلُ ، بلْ يختلفُ ذلكَ باختلافِ النيَّاتِ ، وتختلفُ النيَّاتُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فينبغي أنْ يكونَ المخلصُ مراقباً لنفسِهِ ؛ حتَّىٰ لا يتدلَّىٰ بحبلِ الغرورِ ، ولا ينخدعَ بتلبيسِ الطبْعِ ومكرِ

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .
(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٢) ، والنسائي (٥/ ٨٢) .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٧) ولفظ النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « لا ، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم » .

الشيطانِ ، والمكرُ والخداعُ أغلبُ في معاني الإخفاءِ منهُ في الإظهارِ ، مع أنَّ له دخلاً في كلِّ واحدٍ منهما :

فأمَّا مدخلُ الخداعِ في الإسرارِ : فمنْ ميلِ الطبعِ إليهِ ؛ لمَا فيهِ مِنْ خفضِ الجاهِ والمنزلةِ ، وسقوطِ القدْرِ مِنْ أعينِ الناسِ ، ونظرِ الخلقِ إليهِ بعينِ الازدراءِ ، وإلى المعطي بعينِ المنعمِ المحسنِ إليهِ ، فهـٰذا هوَ الداءُ الدفينُ ، ويستكنُّ في النفسِ ، والشيطانُ بواسطتِهِ يظهرُ معانيَ الخيرِ حتَّىٰ يتعلَّلَ بالمعاني الخمسةِ التي ذكرناها .

ومعيارُ كلِّ ذلكَ ومحكُّهُ أمرٌ واحدٌ : وهوَ أنْ يكونَ تألُّمُهُ بانكشافِ أخذِهِ للصدقةِ كتألُّمِهِ بانكشافِ صدقةٍ أخذَها بعضُ نظرائِهِ وأمثالِهِ ، فإنَّهُ إنْ كانَ يبغي صيانةَ الناسِ عنِ الغيبةِ والحسدِ وسوءِ الظنِّ ، أوْ يتقي انهتاكَ السترِ ، أوْ إعانةَ المعطي على الإسرارِ ، أوْ صيانةَ العلمِ عنِ الابتذالِ . . فكلُّ ذلكَ ممَّا يحصلُ بانكشافِ صدقةِ أخيهِ ، فإنْ كانَ انكشافُ أمرِهِ أثقلَ عليهِ مِنِ انكشافِ أمرِ غيرِهِ . . فتقديرُهُ الحذرَ منْ هـٰذهِ المعاني أغاليطُ وأباطيلُ مِنْ مكرِ الشيطانِ وخِدَعِهِ ؛ فإنَّ إذلالَ العلمِ محذورٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ علمٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ علمُ زيدٍ أوْ علمُ عمرٍو ، والغيبةُ محذورةٌ مِنْ حيثُ إنَّها تعرضُ لعِرْضٍ مصونٍ ، لا مِنْ حيثُ إنَّها تعرضُ لعِرْضِ زيدٍ على الخصوصِ ، ومَنْ أحسنَ ملاحظةَ مثلِ هـٰذا . . ربما يعجزُ الشيطانُ عنهُ ، وإلا . . فلا يزالُ كثيرَ العملِ قليلَ الحظِّ .

وأمَّا جانبُ الإظهارِ : فميلُ الطبعِ إليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ تطييبٌ لقلبِ

المعطي ، واستحثاثٌ لهُ على مثلِهِ ، وإظهارُهُ عندَ غيرِهِ أنَّهُ مِنَ المبالغينَ في الشكرِ حتَّىٰ يرغبوا في إكرامِهِ وتفقُّدِهِ ، وهٰذا داءٌ دفينٌ في الباطنِ ، والشيطانُ لا يقدِرُ على المتديِّنِ إلا بأنْ يروِّجَ عليهِ هٰذا الخبْثَ في معرضِ السنَّةِ ، ويقولَ لهُ : الشكرُ مِنَ السنةِ ، والإخفاءُ مِنَ الرياءِ ، ويوردَ عليهِ المعانيَ التي ذكرناها ؛ ليحملَهُ على الإظهارِ ، وقصدُهُ الباطنُ ما ذكرناهُ !

ومعيارُ ذلكَ ومحكُّهُ : أنْ ينظرَ إلىٰ ميلِ نفسِهِ إلى الشكرِ حيثُ لا ينتهي الخبرُ إلى المعطي ولا إلىٰ مَنْ يرغبُ في عطائِهِ ، وبينَ يدي جماعةٍ يكرهونَ إظهارَ العطيَّةِ ويرغبونَ في إخفائِها ، وعادتُهُمْ أنَّهُمْ لا يعطونَ إلا مَنْ يُخفي ولا يشكرُ ؛ فإنِ استوتْ هٰذهِ الأحوالُ عندَهُ . . فليعلمْ أنَّ باعثَهُ هوَ إقامةُ السنَّةِ في الشكرِ والتحدُّثُ بالنعمةِ ، وإلا . . فهوَ مغرورٌ .

ثمَّ إذا علمَ أنَّ باعثَهُ السنَّةُ في الشكرِ . . فلا ينبغي أنْ يغفُلَ عنْ قضاءِ حقِّ المعطي ، فلينظرْ :

فإنْ كانَ هوَ ممَّنْ يحبُّ الشكرَ والنشرَ . . فينبغي أنْ يخفيَ ولا يشكرَ ؛ لأنَّ قضاءَ حقِّهِ ألا ينصرَهُ على الظلمِ ، وطلبُهُ الشكرَ ظلمٌ .

وإذا علمَ مِنْ حالِهِ أنَّهُ لا يحبُّ الشكرَ ولا يقصدُهُ . . فعندَ ذلكَ يشكرُهُ ويظهرُ صدقتَهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرجلِ الذي مُدِحَ بينَ يديهِ : « ضربتُمْ عنقَهُ ، لوْ سمعَها . . ما أفلحَ »[1] ، معَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(1) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) دون زيادة : « لو سمعها . . ما أفلح » ، =

وسلَّمَ كانَ يثني علىٰ قومٍ في وجوهِهِمْ ؛ لثقتِهِ بيقينِهِمْ ، وعلمِهِ بأنَّ ذلكَ لا يضرُّهُمْ ، بلْ يزيدُ في رغبتِهِمْ في الخيرِ ، فقالَ لواحدٍ : « إنَّهُ سيِّدُ أهلِ الوبرِ »(١) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرَ : « إذا جاءَكُمْ كريمُ قومٍ . . فأكرموهُ »(٢) ، وسمعَ كلامَ رجلٍ ، فأعجبَهُ ، فقالَ : « إنَّ مِنَ البيانِ لسحراً »(٣) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا علمَ أحدُكُمْ مِنْ أخيهِ خيراً . . فليخبرْهُ ؛ فإنَّهُ يزدادُ رغبةً في الخيرِ »(٤) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مدحَ المؤمنُ . . ربا الإيمانُ في قلبِهِ »(٥) .

وقالَ الثوريُّ : (مَنْ عرفَ نفسَهُ . . لمْ يضرَّهُ مدحُ الناسِ)(٦) .

= وتمامه : « إذا كان أحدكم مادحاً لا محالة . . فليقل : أحسبُ فلاناً والله حسيبُهُ ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه » ، والزيادة رواها أحمد في « المسند » (٥/ ٥١) ، وذكر الحافظ في « فتح الباري » (٥/ ٢٧٦) احتمال أن يكون المثني هو محجن بن الأدرع الأسلمي ، والمثنىٰ عليه هو عبد الله ذو البجادين رضي الله عنهم أجمعين .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦١١) ، قاله صلى الله عليه وسلم في حقِّ الحليم الكريم قيس بن عاصم المنقري .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧١٢) ، قاله صلى الله عليه وسلم في حقِّ جرير بن عبد الله رضي الله عنهما ، كما في « المستدرك » (٤/ ٢٩١) .

(٣) رواه البخاري (٥١٤٦) في رجلين خطبا أمامه صلى الله عليه وسلم ، حُكي أنهما الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، كما في « فتح الباري » (١٠/ ٢٣٧) .

(٤) رواه الدارقطني في « العلل » (٧/ ٣٠٤) بنحوه .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٧٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٩٧) .

(٦) قوت القلوب (٢/ ٢٠٣) .

وقالَ أيضاً ليوسفَ بنِ أسباطٍ : (إذا أوليتُكَ معروفاً ، فكنتُ أنا أَسَرَّ بهِ منكَ ، ورأيتُ ذلكَ نعمةً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليَّ . . فاشكرْ ، وإلا . . فلا تشكرْ)[1] .

فدقائقُ هـٰذهِ المعاني ينبغي أنْ يلحظَها مَنْ يراعي قلبَهُ ، فإنَّ أعمالَ الجوارحِ معَ إهمالِ هـٰذهِ الدقائقِ ضُحْكَةٌ للشيطانِ وشماتةٌ لهُ[2] ؛ لكثرةِ التعبِ وقلَّةِ النفعِ .

ومثلُ هـٰذا العلمِ هوَ الذي يقالُ فيهِ : إنَّ تعلُّمَ مسألةٍ واحدةٍ منهُ أفضلُ مِنْ عبادةِ سنةٍ ؛ إذْ بهـٰذا العلمِ تحيا عبادةُ العمرِ ، وبالجهلِ بهِ تموتُ عبادةُ العمرِ كلِّهِ وتتعطَّلُ .

وعلى الجملةِ : فالأخذُ في الملأِ والردُّ في السرِّ أحسنُ المسالكِ وأسلمُها ، فلا ينبغي أنْ يُدفعَ بالتزويقاتِ إلا أنْ تكملَ المعرفةُ بحيثُ يستوي السرُّ والعلانيةُ ، وذلكَ هوَ الكبريتُ الأحمرُ الذي يُتحدَّثُ بهِ ولا يُرىٰ ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ العونِ والتوفيقِ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٥٤) .

(٢) **الضُّحْكة** ـ بضم فسكون ـ : الشيء الذي يضحك منه ، رجلاً كان أو غيره .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كانَ إبراهيمُ الخوّاصُ والجنيدُ وجماعةٌ يرونَ أنَّ الأخذَ مِنَ الصدقةِ أفضلُ ؛ فإنَّ في أخذِ الزكاةِ مزاحمةً للمساكينِ وتضييقاً عليهمْ ، ولأنَّهُ ربما لا تكملُ في أخذِهِ صفةُ الاستحقاقِ كما وُصِفَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الصدقةُ . . فالأمرُ فيها أوسعُ .

وقالَ قائلونَ(١) : يأخذُ الزكاةَ دونَ الصدقةِ ؛ لأنَّهُ إعانةٌ علىٰ واجبٍ ، ولوْ تركَ المساكينُ كلُّهُمْ أخذَ الزكاةِ . . لأثموا ، ولأنَّ الزكاةَ لا منَّةَ فيها ، وإنَّما هوَ حقٌّ واجبٌ للهِ تعالىٰ رزقاً لعبادِهِ المحتاجينَ ، ولأنَّهُ أخذٌ بالحاجةِ ، والإنسانُ يعلمُ حاجةَ نفسِهِ قطعاً ، وأخذُ الصدقةِ أخذٌ بالدِّينِ ؛ فإنَّ الغالبَ أنَّ المتصدِّقَ يعطي مَنْ يعتقدُ فيهِ خيراً ، ولأنَّ موافقةَ المساكينِ أدخلُ في الذلِّ والمسكنةِ ، وأبعدُ عنِ التكبُّرِ ؛ إذْ قدْ يأخذُ الإنسانُ الصدقةَ في معرضِ الهديةِ فلا تتميَّزُ عنها ، وهـٰذا تنصيصٌ علىٰ ذلِّ الآخذِ وحاجتِهِ .

والقولُ الحقُّ في هـٰذا : أنَّ هـٰذا يختلفُ بأحوالِ الشخصِ وما يغلبُ عليهِ وما يحضرُهُ مِنَ النيَّةِ ؛ فإنْ كانَ في شبهةٍ مِنِ اتصافِهِ بصفةِ الاستحقاقِ . . فلا ينبغي أنْ يأخذَ الزكاةَ ، فإذا علمَ أنَّهُ مستحقٌّ قطعاً ؛ كما إذا حصلَ عليهِ دينٌ صرفَهُ إلىٰ خيرٍ وليسَ لهُ وجهٌ في قضائِهِ . . فهوَ مستحقٌّ قطعاً .

---

(١) وهم القرّاء من العابدين ، كما في « القوت » (٢/ ٢٠٤) .

فإذا خيِّرَ هـٰذا بينَ الزكاةِ وبينَ الصدقةِ ؛ فإنْ كانَ صاحبُ الصدقةِ لا يتصدَّقُ بذلكَ المالِ لوْ لمْ يأخذْهُ هوَ . . فليأخذِ الصدقةَ ؛ فإنَّ الزكاةَ الواجبةَ يصرفُها صاحبُها إلىٰ مستحقِّها ، ففي ذلكَ تكثيرٌ للخيرِ وتوسيعٌ على المساكينِ ، وإنْ كانَ المالُ معرَّضاً للصدقةِ ولمْ يكنْ في أخذِ الزكاةِ تضييقٌ على المساكينِ . . فهوَ مخيَّرٌ ، والأمرُ فيهما متفاوتٌ ، وأخذُ الزكاةِ أشدُّ في كسرِ النفسِ وإذلالِها في أغلبِ الأحوالِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تم كتاب أسرار الزكاة

وهو الكتاب الخامس من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله حقّ حمده ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله وسلّم

يتلوه كتاب أسرار الصّوم ومهمّاته

كتاب
أسرار الصوم
ومهماته

وهو الكتاب السادس من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب أسرار الصوم ومهماته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أعظمَ علىٰ عبادِه المِنَّةَ ، لمَّا دفعَ عنهُمْ كيدَ الشيطانِ وفنَّهُ ، وردَّ أملَهُ وخيَّبَ ظنَّهُ ، إذْ جعلَ الصومَ حصناً لأوليائِهِ وجُنَّةً ، وفتحَ لهمْ بهِ أبوابَ الجَنَّةِ ، وعرَّفَهُمْ أنَّ وسيلةَ الشيطانِ إلىٰ قلوبِهِمُ الشهواتُ المستكنَّةُ ، وأنَّ بقمعِها تصبحُ النفسُ المطمئنَّةُ ، ظاهرةَ الشوكةِ في قصْمِ خصمِها قويَّةَ المُنَّةِ(١) .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ قائدِ الخلقِ وممهِّدِ السنَّةِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ذوي الآراءِ الثاقبةِ والعقولِ المُرْجَحِنَّةِ(٢) ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الصومَ ربعُ الإيمانِ بمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »(٣) ، وبمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »(٤) .

---

(١) المُنَّة ـ بالضم ـ : القوة ، أو قوة القلب خاصة ، وهو ضدٌّ يطلق على الضعف كذلك ، والمتأمل يرىٰ تضمين هـٰذه المقدمة جملة من أحاديث الكتاب وغيره .

(٢) المرجحنة : وافرة فياضة ، دائمة السحِّ ، يقال : ارجحنَّ المطرُ ؛ أي : دام .

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٢٧) ، =

ثمَّ هوَ متميِّزٌ بخاصيَّةِ النسبةِ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ بينِ سائرِ الأركانِ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيما حكاهُ عنهُ نبيُّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالِها إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ إلا الصيامَ ؛ فإنَّهُ لي وأنا أجزي بهِ »[1] .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، والصومُ نصفُ الصبرِ ، فقدْ جاوزَ ثوابُهُ قانونَ التقديرِ والحسابِ .

وناهيكَ في معرفةِ فضلِهِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لَخُلُوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِنْ ريحِ المسكِ ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما يذرُ شهوتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِنْ أجلي ، فالصومُ لي وأنا أجزي بهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للجنَّةِ بابٌ يقالُ لهُ : الريانُ ، لا يدخلُهُ إلا الصائمونَ »[3] .

وهوَ موعودٌ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ في جزاءِ صومِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للصائمِ فرحتانِ : فرحةٌ عندَ إفطارِهِ ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ »[4] .

= وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٢) هو بعض الحديث المتقدم آنفاً ، و**الخُلُوفُ** : تغير رائحة الفم .

(٣) رواه البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) .

(٤) رواه البخاري (٧٤٩٢) ، ومسلم (١١٥١) ، وقد تقدم بعضه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكلِّ شيءٍ بابٌ ، وبابُ العبادةِ الصومُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نومُ الصائمِ عبادةٌ »(٢) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا دخلَ شهرُ رمضانَ . . فُتِّحتْ أبوابُ الجنَّةِ ، وغُلِّقتْ أبوابُ النارِ ، وصفِّدتِ الشياطينُ ، ونادىٰ منادٍ : يا باغيَ الخيرِ ؛ هلمَّ ، ويا باغيَ الشرِّ ؛ اقصُرْ »(٣) .

وقالَ وكيعٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ : (هيَ أيامُ الصيامِ ؛ إذْ تركوا فيها الأكلَ والشربَ)(٤) .

وقدْ جمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رتبةِ المباهاةِ بينَ الزهدِ في الدنيا وبينَ الصومِ فقالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي ملائكتَهُ بالشابِّ العابدِ فيقولُ : أيُّها الشابُّ التاركُ شهوتَهُ لأجلي ، المُبَذِّلُ شبابَهُ لي ؛ أنتَ عندي كبعضِ ملائكتي »(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٣٢) من طريقه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٥٢) .

(٣) رواه بتمامه الترمذي (٦٨٢) ، وأصله عند البخاري (١٨٩٩) ، ومسلم (١٠٧٩) .

(٤) رواه عنه بنحوه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٩) .

(٥) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٣٩) ، وهو عند ابن المبارك في « الزهد » (٣٤٦) وغيره من كلام يزيد بن ميسرة ، وجاء في =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصائمِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : يا ملائكتي ؛ انظروا إلىٰ عبدي ! تركَ شهوتَهُ ولذَّتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِنْ أجلي »(١) .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قيلَ : كانَ عملُهُمُ الصيامَ ؛ لأنَّهُ قالَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فيُفرَغُ للصائمِ أجرُهُ إفراغاً ، ويجازَفُ جزافاً ، فلا يدخلُ تحتَ وهمٍ وتقديرٍ(٢) .

وجديرٌ بأنْ يكونَ كذلكَ ؛ لأنَّ الصومَ إنَّما كانَ لهُ ومشرَّفاً بالنسبةِ إليهِ وإنْ كانتِ العباداتُ كلُّها لهُ ؛ كما شَرُفَ البيتُ بالنسبةِ إلىٰ نفسِهِ والأرضُ كلُّها لهُ . . لمعنيينِ :

= (ب) : (المتبذِّل) وفي هامشها : (الباذل) بدل (المبذل) ، والمبذل كمُحْسِن ومحدِّث . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٩٣) .

(١) قوله : « ترك شهوته . . . » تقدم أنه في « الصحيحين » ، وهو بذكر المباهاة معه رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٣٩) موقوفاً على الحسن قال : (تقول الحوراء لولي الله وهو متكىءٌ معها علىٰ نهر العسل تعاطيه الكأس : يا نعم عيشة ! أتدري يا حبيبَ الله متىٰ زوجنيك مولاي ؟ فيقول : لا أدري ، فتقول : نظر إليك في يوم صائف بعيدِ الطرفين وأنت في ظمأٍ هاجرة من جهد العطش ، فباهىٰ بك الملائكة وقال : انظروا إلىٰ عبدي ! ترك زوجته ، وشهوته ولذته ، وطعامه وشرابه من أجلي ، رغبةً فيما عندي ، أشهدكم أني قد غفرت له ، فغفرَ لك يومئذٍ وزوجنيك) . وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٧٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٧٣) .

أحدُهما : أنَّ الصومَ كفٌّ وتركٌ ، وهوَ في نفسِهِ سرٌّ ، ليسَ فيهِ عملٌ يشاهدُ ، فجميعُ أعمالِ الطاعاتِ بمشهدٍ مِنَ الخلقِ ومرأىً ، والصومُ لا يراهُ إلا اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ عملٌ في الباطنِ بالصبرِ المجرَّدِ .

والثاني : أنَّهُ قهرٌ لعدوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّ وسيلةَ الشيطانِ لعنَهُ اللهُ الشهواتُ ، وإنما تقوى الشهواتُ بالأكلِ والشربِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ »(١) ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « داومي قرْعَ بابِ الجنَّةِ » ، قالت : بماذا ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بالجوعِ »(٢) .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) دون زيادة : « فضيقوا مجاريه بالجوع » ، قال الحافظ الزبيدي : (وأنا أظن أن هـٰذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) . « إتحاف » (٤/ ١٩٤) ، ومعنى الزيادة صحيح كما لا يخفىٰ ؛ إذ الشبع مسلك ومدخل من مداخل الشيطان ، روىٰ أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٩) عن ثابت البناني قال : (بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأىٰ عليه معاليق من كل شيء ، فقال له : ما هـٰذه المعاليق التي أراها عليك ؟ قال : هـٰذه الشهوات التي أُصيب بها بني آدم ، فقال له يحيىٰ عليه السلام : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا ، قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر ، قال : هل غير ذا ؟ قال : لا ، قال : لا جرم ! والله لا أشبع أبداً) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم لقمة .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧١) بقوله : (وقد روينا عن عائشة رضي الله عنها. . .) وذكره وزاد : (بالجوع والظمأ) ، ونقل الحافظ الزبيدي عن الحافظ العراقي أنه لم يجد له أصلاً . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٩٤) .

وستأتي فضائلُ الجوعِ في بابِ شرهِ الطعامِ وعلاجِهِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ .

فلمَّا كانَ الصومُ على الخصوصِ قمعاً للشيطانِ وسدّاً لمسالكِهِ وتضييقاً لمجاريهِ . . استحقَّ التخصيصَ بالنسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففي قمْعِ عدوِّ اللهِ نصرةُ اللهِ سبحانَهُ ، ونصرةُ اللهِ تعالىٰ موقوفةٌ على النصرةِ لهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ، فالبدايةُ بالجهدِ مِنَ العبدِ ، والجزاءُ بالهدايةِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، وإنَّما التغييرُ بكسرِ الشهواتِ ، فهيَ مرتعُ الشياطينِ ومرعاهُمْ ، فما دامتْ مخصِبةً . . لمْ ينقطعْ تردُّدُهُمْ وما داموا يتردَّدونَ . . لمْ ينكشفْ للعبدِ جلالُ اللهِ سبحانَهُ ، وكانَ محجوباً عنْ لقائِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماواتِ »(١) ، فمِنْ هـٰذا الوجهِ صارَ الصومُ بابَ العبادةِ ، وصارَ جُنَّةً .

وإذا عظمتْ فضيلتُهُ إلىٰ هـٰذا الحدِّ . . فلا بدَّ مِنْ بيانِ شروطِهِ الظاهرةِ والباطنةِ، بذكرِ أركانِهِ، وسننِهِ ، وشروطِهِ الباطنةِ ، **ونبيِّنُ ذلكَ بثلاثةِ فصولٍ** .

❊ ❊ ❊

(١) هو عند أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً ، ومنه : « فلما نزلت إلى السماء الدنيا . . نظرت أسفلَ مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هـٰذا يا جبريل ؟ قال : هـٰذه الشياطين يحومون علىٰ أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك . . لرأَوُا العجائب » .

الفَصلُ الأوّلُ
في الواجبات والسّنن الظّاهرة واللّوازم بإفساده

أمّا الواجباتُ الظاهرةُ . . فستةٌ :

الأوّلُ : مراقبةُ أوّلِ شهرِ رمضانَ :

وذلكَ برؤيةِ الهلالِ ، فإنْ غُمَّ . . فباستكمالِ ثلاثينَ يوماً مِنْ شعبانَ ، ونعني بالرؤيةِ : العلمَ ، ويحصلُ ذلكَ بقولِ عدْلٍ واحدٍ ، ولا يثبتُ هلالُ شوالٍ إلا بقولِ عدلينِ ؛ احتياطاً للعبادةِ ، ومَنْ سمعَ عدلاً ووثقَ بقولِهِ ، وغلبَ على ظنِّهِ صدقُهُ . . لزمَهُ الصومُ وإنْ لمْ يقضِ القاضي بهِ ، فليتبعْ كلُّ عبدٍ في عبادتِهِ موجَبَ ظنِّهِ .

وإذا رُئِيَ الهلالُ ببلدةٍ ولمْ يُرَ بأخرىٰ وكانَ بينَهُما أقلُّ مِنْ مرحلتينِ . . وجبَ الصومُ على الكلِّ ، وإنْ كانَ أكثرَ . . كانَ لكلِّ بلدةٍ حكمُها ، ولا يتعدَّى الوجوبُ .

* * *

الثاني : النيّةُ :

ولا بدَّ لكلِّ ليلةٍ مِنْ نيّةٍ مبيَّتَةٍ معيَّنَةٍ جازمةٍ ، فلو نوىٰ أنْ يصومَ شهرَ رمضانَ دفعةً واحدةً . . لم يكفِهِ ، وهوَ الذي عنينا بقولِنا : (كلِّ ليلةٍ) .

ولوْ نوىٰ بالنهارِ . . لم يجزِهِ صومُ رمضانَ ولا صومُ الفرضِ إلا التطوعُ ، وهوَ الذي عنينا بقولِنا : (مبيتَةٍ) .

ولوْ نوى الصومَ مطلقاً ، أوِ الفرضَ مطلقاً . . لمْ يجزِهِ حتَّىٰ ينويَ فريضةَ اللهِ عزَّ وجلَّ صومَ رمضانَ .

ولوْ نوىٰ ليلةَ الشكِّ أنْ يصومَ غداً إنْ كانَ مِنْ رمضانَ . . لمْ يجزِهِ ؛ فإنَّها ليستْ جازمةً ، إلا أنْ تستندَ نيتُهُ إلىٰ قولِ شاهدٍ عدلٍ ، واحتمالُ غلطِ العدلِ أوْ كذبِهِ لا يبطلُ الجزمَ ، أوْ يستندَ إلى استصحابٍ ؛ كالشكِّ في الليلةِ الأخيرةِ مِنْ رمضانَ ، فذلكَ لا يمنعُ جزْمَ النيةِ ، أوْ يستندَ إلى اجتهادٍ ؛ كالمحبوسِ في المطمورةِ إذا غلبَ علىٰ ظنِّهِ دخولُ رمضانَ باجتهادِهِ ، فشكُّهُ لا يمنعُهُ مِنَ النيةِ[1] .

ومهما كانَ شاكّاً ليلةَ الشكِّ . . لمْ ينفعْهُ جزمُهُ النيةَ باللسانِ ؛ فإنَّ النيةَ محلُّها القلبُ ، ولا يُتصوَّرُ فيها جزْمُ القصدِ معَ الشكِّ ؛ كما لوْ قالَ في وسْطِ رمضانَ : (أصومُ غداً إنْ كانَ مِنْ رمضانَ) ، فإنَّ ذلكَ لا يضرُّهُ ؛ لأنَّهُ ترديدُ لفظٍ ، ومحلُّ النيَّةِ لا يتصوَّرُ فيهِ تردُّدٌ ، بلْ هوَ قاطعٌ بأنَّهُ مِنْ رمضانَ .

ومَنْ نوىٰ ليلاً ثمَّ أكلَ . . لم تفسدْ نيَّتُهُ ، ولو نوتِ امرأةٌ في الحيضِ ثمَّ طهرتْ قبلَ الفجرِ . . صحَّ صومُها .

* * *

(١) المطمورة : حفرة تحفر تحت الأرض ، أو مكان تحت الأرض ، لا يُرىٰ فيها الشمس .

الثالثُ : الإمساكُ عنْ إيصالِ شيءٍ إلى الجوفِ عمداً معَ ذكرِ الصومِ :

فيفسُدُ صومُهُ بالأكلِ ، والشربِ ، والسُّعُوطِ[1] ، والحقنةِ ، ولا يفسدُ بالفصدِ ، والحجامةِ ، والاكتحالِ ، وإدخالِ الميلِ في الأذنِ والإحليلِ ، إلا أنْ يقطرَ فيهِ ما يبلغُ المثانةَ .

وما يصلُ بغيرِ قصْدٍ مِنْ غبارِ الطريقِ أو ذبابةٍ تسبقُ إلىٰ جوفِهِ ، أوْ ما يسبقُ إلىٰ جوفِهِ في المضمضةِ . . فلا يفطرُ ، إلا إذا بالغَ في المضمضةِ فيفطرُ ؛ لأنَّهُ مقصِّرٌ ، وهوَ الذي أردنا بقولِنا : (عمداً) .

فأمَّا (ذكرُ الصومِ) . . فأردْنا بهِ الاحترازَ عنِ الناسي ؛ فإنَّهُ لا يفطرُ ، أمَّا مَنْ أكلَ عامداً في طرفي النهارِ ثمَّ ظهرَ لهُ أنَّهُ أكلَ نهاراً بالتحقيقِ . . فعليهِ القضاءُ ، وإنْ بقيَ علىٰ حكمِ ظنِّهِ واجتهادِهِ . . فلا قضاءَ عليهِ ، ولا ينبغي أنْ يأكلَ في طرفيِ النهارِ إلا بنظرٍ واجتهادٍ .

* * *

الرابعُ : الإمساكُ عنِ الجماعِ :

وحدُّهُ : تغييبُ الحشفةِ ، فإنْ جامعَ ناسياً . . لمْ يفطرْ ، وإنْ جامعَ ليلاً أوِ احتلمَ ، فأصبحَ جنباً . . لمْ يفطرْ ، وإنْ طلعَ الفجرُ وهوَ مخالطٌ أهلَهُ ، فنزعَ في الحالِ . . صحَّ صومُهُ ، فإنْ صبرَ . . فسدَ ولزمتْهُ الكفارةُ .

---

(١) **السعوط** : هو بضم السين مصدر من سعط ، إذا أوصل شيئاً إلىٰ دماغه من أنفه ، وبفتحها اسم لما يصب فيه .

الخامسُ : الإِمساكُ عنِ الاستمناءِ :

وهوَ إخراجُ المنيِّ قصداً ، بجماعٍ أو بغيرِ جماعٍ ؛ فإنَّ ذلكَ يفطرُهُ ، ولا يفطُرُ بقبلةِ زوجتِهِ ولا بمضاجعتِها ما لمْ ينزلْ ، لكنْ يكرَهُ ذلكَ إلا أنْ يكونَ شيخاً أوْ مالكاً لإرْبِهِ ، فلا بأسَ بالتقبيلِ ، وتركهُ أولىٰ ، وإذا كانَ يخافُ مِنَ التقبيلِ أنْ ينزلَ ، فقبَّلَ وسبقَ المنيُّ . . أفطرَ لتقصيرِهِ .

❊ ❊ ❊

السادسُ : الإمساكُ عنْ إخراجِ القيءِ :

فالاستقاءةُ تفسدُ الصومَ ، وإنْ ذرعَهُ القيءُ . . لمْ يفسدْ صومُهُ ، وإنِ اقتلعَ نُخامةً مِنْ حلقِهِ أوْ صدرِهِ . . لمْ يفسدْ صومُهُ ؛ رخصةً لعمومِ البلوىٰ بهِ ، إلا أنْ يبتلعَهُ بعدَ وصولِهِ إلىٰ فيهِ ، فإنَّهُ يفطرُ عندَ ذلكَ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا لوازمُ الإفطارِ . . فأربعةٌ :

القضاءُ ، والكفارةُ ، والفديةُ ، وإمساكُ بقيَّةِ النهارِ تشبيهاً بالصائمينَ .

❊ ❊ ❊

أمَّا القضاءُ :

فوجوبُهُ عامٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ مكلَّفٍ تركَ الصومَ بعذرٍ أوْ بغيرِ عذرٍ ، فالحائضُ تقضي الصومَ ، وكذا المرتدُّ ، أمَّا الكافرُ ، والصبيُّ ، والمجنونُ . . فلا قضاءَ عليهِمْ .

ولا يشترطُ التتابعُ في قضاءِ رمضانَ ، ولكنْ يقضي كيفَ شاءَ مفرَّقاً ومجموعاً .

* * *

وأمَّا الكفارةُ :

فلا تجبُ إلا بالجماعِ ، أمَّا الاستمناءُ والأكلُ والشربُ وما عدا الجماعَ . . فلا تجبُ بهِ كفارةٌ .

والكفارةُ : عتقُ رقبةٍ ، فإنْ أعسرَ . . فصومُ شهرينِ متتابعينِ ، فإنْ عجزَ . . فإطعامُ ستينَ مسكيناً مُداً مُداً .

* * *

وأمَّا الإمساكُ بقيةَ النهارِ :

فيجبُ علىٰ مَنْ عصىٰ بالفطرِ أوْ قصَّرَ فيهِ ، ولا يجبُ على الحائضِ إذا طهرتْ إمساكُ بقيَّةِ النهارِ ، ولا على المسافرِ إذا قدمَ مفطراً مِنْ سفرٍ بلغَ مرحلتينِ .

ويجبُ الإمساكُ إذا شهدَ بالهلالِ عدْلٌ واحدٌ يومَ الشكِّ .

والصومُ في السفرِ أفضلُ مِنَ الفطرِ إلا إذا لمْ يطقْ ، ولا يفطرُ يومَ يخرجُ وكانَ مقيماً في أوَّلِهِ ، ولا يومَ يقدَمُ إذا قَدِمَ صائماً .

* * *

وأمَّا الفديةُ :

فتجبُ على الحاملِ والمرضعِ إذا أفطرَتا خوفاً علىٰ ولديهما ، لكلِّ يومٍ مدُّ حنطةٍ لمسكينٍ واحدٍ معَ القضاءِ ، والشيخُ الهرمُ إذا لمْ يصمْ . . تصدَّقَ عنْ كلِّ يومٍ بمدٍّ .

* * *

وأمَّا السننُ . . فستٌّ :

تأخيرُ السحورِ ، وتعجيلُ الفطرِ بالتمرِ أوِ الماءِ قبلَ الصلاةِ ، وتركُ السواكِ بعدَ الزوالِ ، والجودُ في شهرِ رمضانَ لما سبقَ مِنْ فضائلِهِ في الزكاةِ ، ومدارسةُ القرآنِ ، والاعتكافُ في المسجدِ لا سيما في العشْرِ الأخيرِ ، فهوَ عادةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ إذا دخلَ العشرُ الأواخرُ . . طوى الفراشَ ، وشدَّ المئزرَ ودأبَ ودأبَ معهُ أهلُهُ[1] ؛ أي : أداموا النصبَ في العبادةِ ؛ إذْ فيها ليلةُ القدْرِ ، والأغلبُ أنَّها في أوتارِها ، وأشبهُ الأوتارِ ليلةُ إحدىٰ وثلاثٍ وخمسٍ وسبعٍ ، والتتابعُ في هـٰذا الاعتكافِ أولىٰ ، فإنْ نذرَ اعتكافاً متتابعاً أوْ نواهُ . . انقطعَ تتابعُهُ بالخروجِ مِنْ غيرِ ضرورةٍ ؛ كما لوْ خرجَ لعيادةِ مريضٍ ، أوْ شهادةٍ أوْ جنازةٍ أوْ زيارةٍ أوْ تجديدِ طهارةٍ ، وإنْ خرجَ لقضاءِ الحاجةِ . . لمْ ينقطعِ اعتكافُهُ ، ولهُ أنْ يتوضَّأَ في البيتِ ، ولا ينبغي أنْ يعرِّجَ علىٰ شغلٍ آخرَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) كما في « البخاري » (٢٠٢٤) ، و« مسلم » (١١٧٤) .

وسلَّمَ لا يخرجُ إلا لحاجةِ الإنسانِ[1] ، ولا يسألُ عنِ المريضِ إلا مارّاً[2] .

وينقطعُ التتابعُ بالجماعِ ، ولا ينقطعُ بالتقبيلِ ، ولا بأسَ في المسجدِ بالتطيُّبِ وعقدِ النكاحِ ، وبالأكلِ والنومِ وغسلِ اليدينِ في الطَّسْتِ ، وكلُّ ذلكَ قدْ يحتاجُ إليهِ في التتابعِ ، ولا ينقطعُ التتابعُ بخروجِ بعضِ بدنِهِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدني رأسَهُ فترجلُهُ عائشةُ أمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ في الحجرةِ[3] .

ومهما خرجَ المعتكفُ لقضاءِ حاجتِهِ ؛ فإذا عادَ . . ينبغي أنْ يستأنفَ النيَّةَ إلا إذا كانَ قدْ نوىٰ أوَّلاً عشرةَ أيامٍ مثلاً ، والأفضلُ معَ ذلكَ التجديدُ .

* * *

---

(١) كما في « البخاري » (٢٠٢٩) ، و« مسلم » (٢٩٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٧) من فعل السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعند أبي داوود (٢٤٧٢) عنها قالت : (وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بالمريض وهو معتكف ، فيمرُّ كما هو ولا يعرج يسألُ عنه) .

(٣) كما في « البخاري » (٢٩٦) ، و« مسلم » (٢٩٧) .

الفَصْلُ الثَّاني
في أسرار الصّوم وشروطه الباطنة

اعلمْ : أنَّ للصومِ ثلاثَ درجاتٍ : صومُ العمومِ ، وصومُ الخصوصِ ، وصومُ خصوصِ الخصوصِ .

ـ **أمَّا صومُ العمومِ** : فهوَ كفُّ البطنِ والفرجِ عنْ قضاءِ الشهوةِ كما سبقَ تفصيلُهُ .

ـ **وأمَّا صومُ الخصوصِ** : فهوَ كفُّ السمعِ والبصرِ واللسانِ واليدِ والرجْلِ وسائرِ الجوارحِ عنِ الآثامِ .

ـ **وأمَّا صومُ خصوصِ الخصوصِ** : فصومُ القلبِ عنِ الهممِ الدنيَّةِ والأفكارِ الدنيويةِ ، وكفُّهُ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ بالكليَّةِ ، ويحصلُ الفطرُ في هاذا الصومِ بالفكرِ فيما سوى اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخرِ ، وبالفكرِ في الدنيا إلا دنيا ترادُ للدينِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ زادِ الآخرةِ وليسَ مِنَ الدنيا ، حتَّىٰ قالَ أربابُ القلوبِ : (مَنْ تحرَّكتْ همَّتُهُ بالتصرُّفِ في نهارِهِ لتدبيرِ ما يفطرُ عليهِ . . كتبتْ عليهِ خطيئةٌ)[1] ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ قلَّةِ الوثوقِ بفضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقلَّةِ اليقينِ برزقِهِ الموعودِ .

وهاذهِ رتبةُ الأنبياءِ والصديقينَ والمقربينَ ، ولا نطوِّلُ النظرَ في تفصيلِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٤) بنحوه .

ذلكَ قولاً ، ولكنْ في تحقيقِهِ عملاً ، فإنَّهُ إقبالٌ بكنْهِ الهمَّةِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، وانصرافٌ عنْ غيرِ اللهِ سبحانَهُ ، وتلبسٌ بمعنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا صومُ الخصوصِ ـ وهوَ صومُ الصالحينَ ـ فهوَ كفُّ الجوارحِ عنِ الآثامِ ، وتمامُهُ بستةِ أمورٍ :

الأولُ : غضُّ البصرِ وكفُّهُ عنِ الاتساعِ في النظرِ إلىٰ كلِّ ما يذمُّ ويكرهُ ، وإلىٰ كلِّ ما يشغلُ القلبَ ويلهي عنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ ، فمنْ تركَها خوفاً مِنَ اللهِ . . آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إيماناً يجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ »(١) .

وروىٰ جابرٌ عنْ أنسٍ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « خمسٌ يفطرْنَ الصائمَ : الكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، واليمينُ الكاذبةُ ، والنظرُ بشهوةٍ »(٢) .

❊ ❊ ❊

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٠١) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه الأزدي في « الضعفاء » من رواية جابان عن أنس ، وقوله : « جابر » تصحيف ، قال أبو حاتم : هذا كذب) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٢/ ١٩٧) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ٢٤٥) حيث قال : (أما طريق داوود بن رشيد عن بقية . . فإسناده متقارب ، وليس فيه من رمي بالكذب ، إلا أنه ضعيف لضعف محمد بن حجاج ، والله أعلم) ، وهو كما أورده المصنف عند صاحب =

الثاني : حفظُ اللسانِ عنِ الهذيانِ والكذبِ والغيبةِ والنميمةِ والفحشِ والجفاءِ والخصومةِ والمراءِ ، وإلزامُهُ السكوتَ ، وشغلُهُ بذكرِ اللهِ سبحانَهُ وتلاوةِ القرآنِ ، فهٰذا صومُ اللسانِ .

وقدْ قالَ سفيانُ : (الغيبةُ تفسدُ الصومَ) رواهُ بشرُ بنُ الحارثِ عنهُ[1] .

وروىٰ ليثٌ عنْ مجاهدٍ : (خصلتانِ تفسدانِ الصيامَ : الغيبةُ والكذبُ)[2] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصومُ جُنَّةٌ ، فإذا كانَ أحدُكُمْ صائماً . . فلا يرفُثْ ولا يجهلْ ، وإنِ امرؤٌ قاتلَهُ أوْ شاتمَهُ . . فليقلْ : إنِّي صائمٌ إنِّي صائمٌ »[3] .

وجاءَ في الخبرِ : أنَّ امرأتينِ صامتا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأجهدَهُما الجوعُ والعطشُ مِنْ آخرِ النهارِ حتَّىٰ كادتا أنْ تتلفا ، فبعثتا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تستأذنانِهِ في الإفطارِ ، فأرسلَ إليهما قدحاً وقالَ للرسولِ : « قلْ لهما قِيئَا فيهِ ما أكلْتُما »، فقاءَتْ إحداهُما

= « القوت » (٢/ ١١٤) . وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٩٧٥) عن عمر رضي الله عنه : (ليس الصيام من الطعام والشراب وحده ، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف) .

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١١٤) ، وقال سفيان والأوزاعي بالفساد حقيقة . انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٤٥) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٩٨٠) ، وهو في « القوت » (٢/ ١١٤) .

(٣) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥٠) .

نصفَهُ دماً عَبيطاً ولحماً غريضاً ، وقاءَتِ الأخرىٰ مثلَ ذلكَ حتَّىٰ ملأتاهُ ، فعجبَ الناسُ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هاتانِ صامتا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما ، وأفطرتا علىٰ ما حرَّمَ اللهُ تعالىٰ عليهما ؛ قعدَتْ إحداهُما إلى الأخرىٰ ، فجعلتا تغتابانِ الناسَ ، فهـٰذا ما أكلتا مِنْ لحومِهِمْ »[1] .

* * *

الثالثُ : كفُّ السمعِ عنِ الإصغاءِ إلىٰ كلِّ مكروهٍ ؛ لأنَّ كلَّ ما حَرَّمَ اللهُ قولَهُ .. حرَّمَ الإصغاءَ إليهِ ، ولذلكَ سوَّى اللهُ تعالىٰ بينَ المستمعِ وآكلِ السحْتِ فقالَ : ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ فالسكوتُ على الغيبةِ حرامٌ .

وقالَ أيضاً : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المغتابُ والمستمعُ شريكانِ في الإثمِ »[2] .

* * *

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٣١) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٧٥) ، **والعبيط** : هو من الدم الخالصُ الطري ، **والغريض** : الطري كذلك .

(٢) في معناه روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٢١) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغناء والاستماع إلى الغناء ، ونهىٰ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة) .

الرابعُ : كفُّ بقيةِ الجوارحِ عنِ الآثامِ مِنَ اليدِ والرجلِ وعنِ المكارهِ ، وكفُّ البطْنِ عنِ الشبهاتِ وقتَ الإفطارِ ، فلا معنىً للصومِ وهوَ الكفُّ عنِ الطعامِ الحلالِ ثمَّ الإفطارُ على الحرامِ ؛ فمثالُ هـٰذا الصائمِ مثالُ منْ يبني قصراً ويهدمُ مِصراً ؛ فإنَّ الطعامَ الحلالَ إنَّما يضرُّ بكثرتِهِ لا بنوعِهِ ، فالصومُ لتقليلِهِ ، وتاركُ الاستكثارِ مِنَ الدواءِ خوفاً مِنْ ضررِهِ إذا عدلَ إلىٰ تناولِ السُّمِّ . . كانَ سفيهاً ، والحرامُ سمٌّ يهلكُ الدينَ ، والحلالُ دواءٌ ينفعُ قليلُهُ ويضرُّ كثيرُهُ ، وقصدُ الصومِ تقليلُهُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ صائمٍ ليسَ لهُ مِنْ صومِهِ إلا الجوعُ والعطشُ »(١) ، فقيلَ : هوَ الذي يفطرُ على الحرامِ ، وقيلَ : هوَ الذي يمسكُ عنِ الطعامِ الحلالِ ويفطرُ علىٰ لحومِ الناسِ بالغيبةِ وهيَ حرامٌ ، وقيلَ : هوَ الذي لا يحفظُ جوارحَهُ عنِ الآثامِ(٢) .

الخامسُ : ألا يستكثرَ مِنَ الطعامِ الحلالِ وقتَ الإفطارِ بحيثُ يمتلىءُ جوفُهُ ، فما مِنْ وعاءٍ أبغضُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ بطنٍ مليءٍ مِنْ حلالٍ(٣) .

وكيفَ يُستفادُ مِنَ الصومِ قهرُ عدوِّ اللهِ وكسرُ الشهوةِ إذا تداركَ الصائمُ عندَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٧٣) ، وبنحوه عند ابن ماجه (١٦٩٠) .
(٢) حكى الأقوال الثلاثة صاحب « القوت » (٢/ ١١٤) .
(٣) كما في « الترمذي » (٢٣٨٠) ، و« ابن ماجه » (٣٣٤٩) .

فطرِهِ ما فاتَهُ ضحوةَ نهارِهِ ؟! وربما يزيدُ عليهِ في ألوانِ الطعامِ ، حتَّىٰ استمرتِ العاداتُ بأنْ تدَّخَرَ جميعُ الأطعمةِ لرمضانَ ، فيؤكلُ مِنَ الأطعمةِ فيهِ ما لا يؤكلُ في عدَّةِ أشهرٍ ، ومعلومٌ أنَّ مقصودَ الصومِ الخَواءُ وكسرُ الهوىٰ ؛ لتقوى النفسُ على التقوىٰ ، وإذا دفعتِ المعدةُ ضحوةَ النهارِ إلى العشاءِ حتَّىٰ هاجتْ شهوتُها وقويتْ رغبتُها ، ثمَّ أطعمتْ مِنَ اللذاتِ وأشبعتْ . . زادتْ لذتُها وتضاعفتْ قوَّتُها ، وانبعثَ مِنَ الشهواتِ ما عساهُ كانَ راكداً لوْ تركَتْ علىٰ عادتِها !

فروحُ الصومِ وسرُّهُ تضعيفُ القُوى التي هيَ وسائلُ الشيطانِ في القَوْدِ إلى الشرورِ ، ولنْ يحصلَ ذلكَ إلا بالتقليلِ ؛ وهوَ أنْ يأكلَ أكلتَهُ التي كانَ يأكلُها كلَّ ليلةٍ لوْ لمْ يصمْ ، فأمَّا إذا جمعَ ما كانَ يأكلُ ضحوةً إلىٰ ما كانَ يأكلُ ليلاً . . فلنْ ينتفعَ بصومِهِ .

بلْ مِنَ الآدابِ ألا يكثرَ النومَ بالنهارِ حتَّىٰ يحسَّ بالجوعِ والعطشِ ، ويستشعرَ ضعْفَ القُوىٰ ، فيصفوَ عندَ ذلكَ قلبُهُ ، ويستديمَ في ليلِهِ قدْراً مِنَ الضعفِ حتَّىٰ يخفَّ عليهِ تهجُّدُه وأورادُهُ ، فعسى الشيطانُ ألا يحومَ علىٰ قلبِهِ ؛ فينظرَ إلىٰ ملكوتِ السماءِ .

وليلةُ القدْرِ عبارةٌ عنِ الليلةِ التي ينكشفُ فيها شيءٌ مِنَ الملكوتِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ ، ومَنْ جعلَ بينَ قلبِهِ وبينَ صدرِهِ مِخلاةً مِنَ الطعامِ . . فهوَ عنهُ محجوبٌ ، ومَنْ أخلىٰ معدتَهُ . . فلا يكفيهِ ذلكَ لرفعِ الحجابِ ما لمْ يخلِ همَّتَهُ عنْ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذلكَ هوَ

الأمرُ كلُّهُ ، ومبدأُ جميعِ ذلكَ تقليلُ الطعامِ ، وسيأتي لهُ مزيدُ بيانٍ في كتابِ الأطعمةِ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

❊ ❊ ❊

السادسُ : أنْ يكونَ قلبُهُ بعدَ الإفطارِ معلَّقاً مضطرباً بينَ الخوفِ والرجاءِ ؛ إذْ ليسَ يدري : أتُقُبِّلَ صومُهُ فهوَ مِنَ المقرَّبينَ ، أوْ رُدَّ عليهِ فهوَ مِنَ الممقوتينَ ؟

وليكنْ كذلكَ في آخرِ كلِّ عبادةٍ يفرُغُ منها ، فقدْ رُوِيَ عنِ الحسنِ بنِ أبي الحسنِ البصريِّ أنَّهُ مرَّ بقومٍ يومَ العيدِ وهمْ يضحكونَ ، فقالَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ شهرَ رمضانَ مضماراً لخلقِهِ يستبقونَ فيهِ لطاعتِهِ ، فسبقَ أقوامٌ ففازوا ، وتخلَّفَ أقوامٌ فخابوا ، فالعجَبُ كلُّ العجبِ للضاحكِ اللاعبِ في اليومِ الذي فازَ فيهِ السابقونَ المسارعونَ ، وخابَ فيهِ المبطلونَ ! أمَا واللهِ ؛ لوْ كُشِفَ الغطاءُ . . لاشتغلَ المحسنُ بإحسانِهِ والمسيءُ بإساءتِهِ) أيْ : كانَ سرورُ المقبولِ يشغلُهُ عنِ اللعبِ ، وحسرةُ المردودِ تسدُّ عليهِ بابَ الضحكِ .

وعنِ الأحنفِ بنِ قيسٍ أنَّهُ قيلَ لهُ : إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ، وإنَّ الصيامَ يضعفُكَ ، فقالَ : إنِّي أعدُّهُ لشرٍّ طويلٍ ، والصبرُ على طاعةِ اللهِ سبحانَهُ أهونُ مِنَ الصبرِ على عذابِهِ(١) .

فهٰذِهِ هيَ المعاني الباطنةُ في الصومِ .

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٩/ ٩٥) إلىٰ قوله : (لشرٍّ طويل) .

فإنْ قلتَ : فمنِ اقتصرَ علىٰ كفِّ شهوةِ البطنِ والفرجِ وتركِ هـٰذهِ المعاني فقدْ قالَ الفقهاءُ : صومُهُ صحيحٌ ، فما معناهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ فقهاءَ الظاهرِ يثبتونَ شروطَ الظاهرِ بأدلَّةٍ هي أضعفُ مِنْ هـٰذهِ الأدلَّةِ التي أوردناها في هـٰذهِ الشروطِ الباطنةِ ، لا سيما الغيبةُ وأمثالُها ، ولكنْ ليسَ إلىٰ فقهاءِ الظاهرِ مِنَ التكليفاتِ إلا ما يتيسَّرُ علىٰ عمومِ الغافلينَ المقبلينَ على الدنيا الدخولُ تحتَهُ .

فأمَّا علماءُ الآخرةِ . . فيعنونَ بالصحَّةِ القَبولَ ، وبالقبولِ الوصولَ إلى المقصودِ ، ويفهمونَ أنَّ المقصودَ مِنَ الصومِ التخلُّقُ بخلقٍ مِنْ أخلاقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الصمديَّةُ(١) ، والاقتداءُ بالملائكةِ في الكفِّ عنِ الشهواتِ بحسَبِ الإمكانِ ؛ فإنَّهُمْ منزَّهونَ عنِ الشهواتِ ، والإنسانُ رتبتُهُ فوقَ رتبةِ البهائمِ ؛ لقدرتِهِ بنورِ العقلِ علىٰ كسْرِ شهوتِهِ ، ودونَ رتبةِ الملائكةِ ؛ لاستيلاءِ الشهواتِ عليهِ وكونِهِ مبتلىً بمجاهدتِها ، فكلَّما انهمكَ في الشهواتِ . . انحطَّ إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، والتحقَ بغمارِ البهائمِ ، وكلَّما قمعَ الشهواتِ . . ارتفعَ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، والتحقَ بأفقِ الملائكةِ ، والملائكةُ مقرَّبونَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والذي يقتدي بهمْ ويتشبَّهُ بأخلاقِهِمْ . . يقربُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كقربِهِمْ ؛ فإنَّ الشبيهَ مِنَ القريبِ قريبٌ ، وليسَ القربُ ثَمَّ بالمكانِ ، بلْ بالصفاتِ .

---

(١) إذ إن من معاني الصمد : الذي لا جوف له ، والذي لا يطعم .

وإذا كانَ هـٰذا سرَّ الصومِ عندَ أربابِ الألبابِ وأصحابِ القلوبِ . . فأيُّ جدوىٰ لتأخيرِ أكلةٍ وجمعِ أكلتينِ عندَ العشاءِ معَ الانهماكِ في الشهواتِ الأُخَرِ طولَ النهارِ ؟!

ولوْ كانَ لمثلِهِ جدوىٰ . . فأيُّ معنىً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ صائمٍ ليسَ لهُ مِنْ صومِهِ إلا الجوعُ والعطشُ » ؟![1] .

ولهـٰذا قالَ أبو الدرداءِ : (يا حبذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُمْ ، كيفَ يغبنونَ صومَ الحمقىٰ وسهرَهم ؟! ولذرةٌ مِنْ ذوي يقينٍ وتقوىٰ أفضلُ وأرجحُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عبادةً مِنَ المغترِّينَ)[2] .

ولذلكَ قالَ بعضُ العلماءِ : (كمْ مِنْ صائمٍ مفطرٌ ، وكمْ مِنْ مفطرٍ صائمٌ) ، والمفطرُ الصائمُ : هوَ الذي يحفظُ جوارحَهُ عنِ الآثامِ ويأكلُ ويشربُ ، والصائمُ المفطرُ : هوَ الذي يجوعُ ويعطشُ ويطلقُ جوارحَهُ .

ومَنْ فهمَ معنى الصومِ وسِرَّهُ . . علمَ أنَّ مثَلَ مَنْ كفَّ عنِ الأكلِ والجماعِ وأفطرَ بمخالطةِ الآثامِ . . كمَنْ مسحَ علىٰ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ في الوضوءِ ثلاثَ مراتٍ، فقدْ وافقَ في الظاهرِ العددَ ، إلا أنَّهُ تركَ المهمَّ وهوَ الغسلُ ، فصلاتُهُ مردودةٌ عليهِ لجهلِهِ ، ومثلُ مَن أفطرَ بالأكلِ وصامَ بجوارحِهِ عنِ المكارهِ . . كمَنْ غسلَ أعضاءَهُ مرَّةً مرَّةً ، فصلاتُهُ متقبَّلةٌ إنْ شاءَ اللهُ ؛ لإحكامِهِ الأصلَ

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٧٣) ، وبنحوه عند ابن ماجه (١٦٩٠) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٧٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١) ، وهو في « القوت » (١/ ٧٥) .

وإنْ تركَ الفضْلَ ، ومثلُ مَنْ جمعَ بينَهُما . . كمَنْ غسلَ كلَّ عضوٍ ثلاثَ مرّاتٍ ، فجمعَ بينَ الأصلِ والفضْلِ ، وهوَ الكمالُ[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصومُ أمانةٌ ، فليحفظْ أحدُكُمْ أمانتَهُ »[2] .

ولمَّا تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ . . وضعَ يدَهُ علىٰ سمعِهِ وبصرِهِ فقال : « السمعُ أمانةٌ ، والبصرُ أمانةٌ »[3] ، ولولا أنَّهُ مِنْ أماناتِ الصومِ . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فليقلْ : إنِّي صائمٌ »[4] أي : إنِّي أُودعتُ لساني لأحفظَهُ ، فكيفَ أطلقُهُ بجوابِكَ ؟!

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ لكلِّ عبادةٍ ظاهراً وباطناً ، وقشراً ولبّاً ، ولقشورِها درجاتٍ ، ولكلِّ درجةٍ طبقاتٍ . . فإليكَ الخيرةُ الآنَ في أنْ تقنعَ بالقشرِ عنِ اللبابِ ، أوْ تتحيَّزَ إلىٰ غمارِ أربابِ الألبابِ .

* * *

---

(١) هـٰذه المُثُل ذكرها الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ٧٥) .

(٢) روى الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠١) مرفوعاً : « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال : كلَّ شيء ـ إلا الأمانة ، والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الحديث ، فأشد ذلك الودائع » .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧٥) عن عبد الله بن عمرو نحوه .

(٤) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥٠) .

الفَصلُ الثَّالِثُ
في التطوّع بالصّيام وترتيب الأوراد فيه

اعلمْ : أنَّ استحبابَ الصومِ يتأكَّدُ في الأيامِ الفاضلةِ ، وفواضلُ الأيامِ بعضُها يوجدُ في كلِّ سنةٍ ، وبعضُها في كلِّ شهرٍ ، وبعضُها في كلِّ أسبوعٍ .

* * *

أمَّا في السَّنَةِ بعدَ أيامِ رمضانَ :

فيومُ عرفةَ ، ويومُ عاشوراءَ ، والعشرُ الأُوَلُ مِنْ ذي الحجةِ ، والعشرُ الأُوَلُ مِنَ المحرَّمِ ، وجميعُ الأشهرِ الحرُمِ مظانُّ الصومِ ، وهيَ أوقاتٌ فاضلةٌ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ صومَ شعبانَ حتَّىٰ كانَ يُظنُّ أنَّهُ في رمضانَ(١) ، وفي الخبر : « أفضلُ الصيامِ بعدَ شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ المحرَّمُ »(٢) ، ولأنَّهُ ابتداءُ السنةِ فبناؤُهُ على الخيرِ أحبُّ وأرجىٰ لدوامِ بركتِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صومُ يومٍ مِنْ شهرٍ حرامٍ أفضلُ مِنْ ثلاثينَ مِنْ غيرِهِ ، وصومُ يومٍ مِنْ رمضانَ أفضلُ مِنْ ثلاثينَ مِنْ شهرٍ حرامٍ »(٣) .

---

(١) فقد روى البخاري (١٩٧٠) ، ومسلم (١١٥٦) عن عائشة رضي الله عنها : (كان يصوم شعبان كله) .

(٢) رواه مسلم (١١٦٣) .

(٣) روى الطبراني في « الصغير » (٢/ ٧١) مرفوعاً : « من صام يوم عرفة .. كان له كفارة =

وفي الحديث : « مَنْ صامَ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ شهرٍ حرامٍ ؛ الخميسُ والجمعةُ والسبتُ . . كتبَ اللهُ لهُ عبادةَ تسعِ مئةِ عامٍ »[١] .

وفي الخبرِ : « إذا كانَ النصفُ مِنْ شعبانَ . . فلا صومَ حتَّىٰ رمضانَ »[٢] ، ولهـٰذا يستحبُّ أن يفطرَ قبلَ رمضانَ أياماً ، فإنْ وصلَ شعبانَ برمضانَ . . فجائزٌ ، فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً[٣] ، وفصَلَ مراراً كثيرةً[٤] .

ولا يجوزُ أنْ يقصدَ استقبالَ رمضانَ بيومينِ أَوْ ثلاثةٍ ، إلا أنْ يوافقَ وِرداً لهُ ، وكرهَ بعضُ الصحابةِ أنْ يُصامَ رجبٌ كلُّهُ ؛ حتَّىٰ لا يضاهيْ بشهرِ رمضانَ[٥] .

= سنتين ، ومن صام يوماً من المحرَّم . . فله بكل يوم ثلاثون يوماً » .

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٣٣٧) ، وفي (هـ ، ز ، و) : (سبع) بدل (تسع) ، وهي عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ١١٦) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (١٨١٠) بلفظ : (سنتين) .

(٢) رواه أبو داوود (٢٣٣٧) ، والترمذي (٧٣٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٢٩٢٣) ، وابن ماجه (١٦٥١) .

(٣) سبق تخريج حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان كله ، ووصل شعبان برمضان رواه أبو داوود (٢٣٣٦) ، والترمذي (٧٣٦) ، والنسائي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (١٦٤٨) .

(٤) ففي « أبي داوود » (٢٣٢٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره ، ثم يصوم لرؤية رمضان ، فإن غمَّ عليه . . عدَّ ثلاثين يوماً ثم صام) .

(٥) روى ابن ماجه (١٧٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن صيام رجب) .

فالأشهرُ الفاضلةُ : ذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ ورجبٌ وشعبانُ ، والأشهرُ الحُرُمُ : ذو القعدةِ وذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ ورجبٌ ، واحدٌ فردٌ وثلاثةٌ سردٌ ، وأفضلُها ذو الحجَّةِ ؛ لأنَّ فيهِ الحجَّ والأيامَ المعلوماتِ والمعدوداتِ ، وذو القعدةِ مِنَ الأشهرِ الحُرُمِ وهوَ مِنْ أشهرِ الحجِّ ، وشوَّالٌ مِنْ أشهرِ الحجِّ وليسَ مِنَ الحُرُمِ ، والمحرَّمُ ورجبٌ ليسا مِنْ أشهرِ الحجِّ .

وفي الخبرِ : « ما مِنْ أيامِ العملُ فيهنَّ أفضلُ وأحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ أيامِ عشْرِ ذي الحِجَّةِ ، إنَّ صومَ يومٍ منهُ يعدِلُ صيامَ سنةٍ ، وقيامَ ليلةٍ منهُ تعدلُ قيامَ ليلةِ القدْرِ » ، قيلَ : ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، إلا مَنْ عُقِرَ جوادُهُ وأُهْرِيقَ دمُهُ »(١) .

* * *

وأمّا ما يتكرَّرُ في الشهرِ :

فأوَّلُ الشهرِ ، وأوسطُهُ ، وآخرُهُ ، ووسَطُهُ الأيامُ البيضُ ؛ وهيَ الثالثَ عشرَ ، والرابعَ عشرَ ، والخامسَ عشرَ .

* * *

(١) رواه الترمذي (٧٥٨) ، وابن ماجه (١٧٢٨) دون زيادة : « ولا الجهاد في سبيل الله . . . » ، وهي عند البخاري (٩٦٩) بغير ذكر الصوم في الحديث ، وروى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٨٥) : أن رجلاً سأل أبا هريرة فقال : إن علي رمضان وأنا أريد أن أتطوع في العشر ؟ قال : لا ، بل ابدأ بحق الله فاقضه ، ثم تطوع بعد ما شئت .

وأمَّا في الأسبوعِ :

فالاثنينُ والخميسُ والجمعةُ[1] ، فهـٰذهِ هيَ الأيامُ الفاضلةُ ، فيستحبُّ فيها الصيامُ ، وتكثيرُ الخيراتِ ؛ لتضاعفِ أجورِها ببركةِ هـٰذهِ الأوقاتِ .

* * *

وأمَّا صومُ الدهرِ :

فإنَّهُ شاملٌ للكلِّ وزيادةٌ ، وللسالكينَ فيهِ طرقٌ : فمنهُمْ مَنْ كرهَ ذلكَ ؛ إذْ وردتْ أخبارٌ تدلُّ علىٰ كراهتِهِ[2] ، **والصحيحُ** : أنَّهُ إنَّما يكرهُ لشيئينِ :

أحدُهما : ألا يفطرَ في العيدينِ وأيامِ التشريقِ ، فهوَ الدهرُ كلُّهُ .

والآخرُ : أنْ يرغبَ عنِ السنَّةِ في الإفطارِ ويجعلَ الصومَ حجْراً علىٰ نفسِهِ ، معَ أنَّ اللهَ يحبُّ أنْ تُؤتىٰ رخصُهُ كما يُحبُّ أنْ تؤتَىٰ عزائمُهُ[3] .

فإذا لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، ورأىٰ صلاحَ نفسِهِ في صومِ الدهرِ . . فليفعلْ ذلكَ ؛ فقدْ فعلَهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ أبو موسى الأشعريُّ : «مَنْ صامَ الدهرَ

---

(١) إن صام يوماً قبله أو بعده ، أو وافق يوماً يصومه ؛ إذ إفراده بالصوم مكروه .

(٢) كما روى البخاري (١٩٧٧) ، ومسلم (١١٥٩) مرفوعاً « لا صام من صام الأبد » .

(٣) كما روىٰ ذلك أحمد في « المسند » (٢/ ١٠٨) .

(٤) كعبد الله بن الزبير ، وعروة وسعيد بن المسيب ووكيع وغيرهم ، وذكر الحافظ الزبيدي عن شيخه العالم الورع الزاهد محمد بن شاهين الدمياطي أنه كان كذلك ، يصوم الدهر ولا يفطر ، انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٦١) .

كلَّهُ . . ضُيِّقَتْ عليهِ جهنَّمُ » وعقدَ تسعينَ[١] ، معناه : لمْ يكنْ لهُ فيها موضعٌ .

ودونَهُ درجةٌ أخرىٰ ، وهيَ صومُ نصْفِ الدهرِ ؛ بأنْ يصومَ يوماً ويفطرَ يوماً ، وذلكَ أشدُّ على النفسِ وأقوىٰ في قهرِها ، وقدْ وردَ في فضلِهِ أخبارٌ كثيرةٌ ؛ لأنَّ العبدَ فيهِ بينَ صبْرِ يومٍ وشكْرِ يومٍ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرضتْ عليَّ مفاتيحُ خزائنِ الدنيا وكنوزُ الأرضِ ، فرددتُها وقلتُ : أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، أحمدُكَ إذا شبعتُ ، وأتضرَّعُ إليكَ إذا جعتُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصيامِ صومُ أخي داوودَ ، كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً »[٣] .

ومِنْ ذلكَ : منازلتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما في الصومِ وهوَ يقولُ : إنِّي أطيقُ أفضلَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صُمْ يوماً وأفطرْ يوماً » ، فقالَ : إنِّي أطيقُ أفضلَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أفضلَ مِنْ ذلكَ »[٤] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٥٨٤) ، ثم نقل عن أبي حاتم : (القصد في هٰذا الخبر صوم الدهر الذي فيه أيام التشريق والعيدين) ، وقال ابن الملقن في « البدر المنير » (٥/٧٦٥) : (أي : ضيقت عنه فلم يدخلها ، أو ضيقت عليه ؛ أي : لا يكون له فيها موضع) ، وهٰذا ما سيفسره به المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٧٧٠) بلفظه ، وهو عند الشيخين من حديث عبد الله بن عمرو الآتي .

(٤) رواه البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما صامَ شهراً كاملاً قطُّ إلا رمضانَ[1] ، بلْ كانَ يفطرُ مِنْ غيرِهِ .

ومَنْ لا يقدرُ علىٰ صومِ نصفِ الدهرِ . . فلا بأسَ بثلثِهِ ، وهوَ أنْ يصومَ يوماً ويفطرَ يومينِ[2] ، وإذا صامَ ثلاثةً مِنَ أوَّلِ الشهرِ وثلاثةً مِنَ الوسطِ وثلاثةً مِنَ الآخرِ . . فهوَ ثلثٌ وواقعٌ في الأوقاتِ الفاضلةِ ، وإنْ صامَ الاثنينَ والخميسَ والجمعةَ . . فهوَ قريبٌ مِنَ الثلثِ .

* * *

وإذا ظهرتْ أوقاتُ الفضيلةِ . . فالكمالُ في أنْ يفهمَ الإنسانُ معنى الصومِ ، وأنَّ مقصودَهُ تصفيةُ القلبِ وتفريغُ الهمِّ للهِ عزَّ وجلَّ .

والفقيهُ بدقائقِ الباطنِ ينظرُ إلىٰ أحوالِهِ ، فقدْ يقتضي حالُهُ دوامَ الصومِ ، وقدْ يقتضي دوامَ الفطرِ ، وقدْ يقتضي مزجَ الإفطارِ بالصومِ ، فإذا فهمَ المعنىٰ وتحقَّقَ حدَّهُ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ بمراقبةِ القلبِ . . لمْ يخفَ عليهِ صلاحُ قلبِهِ ، وذلكَ لا يوجبُ ترتيباً مستمرّاً ، ولذلكَ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصومُ حتَّىٰ يقالَ : لا يفطرُ ، ويفطرُ حتَّىٰ يقالَ : لا يصومُ ، وينامُ حتَّىٰ يقالَ : لا يقومُ ، ويقومُ حتَّىٰ يقالَ : لا ينامُ[3] ، وكانَ ذلكَ بحسَبِ

(١) كما في « البخاري » (١٩٧١) ، و« مسلم » (١١٥٦) .
(٢) كما في « مسلم » (١١٦٢) حيث قال صلى الله عليه وسلم فيه : « وددت أني طوقت ذلك » .
(٣) كما في « البخاري » (١١٤١) ، و« مسلم » (١١٥٨) ، واللفظ للبخاري عن أنس =

ما ينكشفُ لهُ بنورِ النبوَّةِ مِنَ القيامِ بحقوقِ الأوقاتِ .

وقدْ كرهَ بعضُ العلماءِ أنْ يواليَ بينَ الإفطارِ أكثرَ مِنْ أربعةِ أيامٍ ، تقديراً بيومِ العيدِ وأيامِ التشريقِ ، وذكروا أنَّ ذلكَ يقسِّي القلبَ ، ويولِّدُ رديءَ العاداتِ ، ويفتحُ أبوابَ الشهواتِ .

ولعمري ؛ هوَ كذلكَ في حقِّ أكثرِ الخلقِ ، لا سيما مَنْ يأكلُ في اليومِ والليلةِ مرتينِ .

فهـٰذا ما أردنا ذكرَهُ مِنْ ترتيبِ الصومِ المتطوَّعِ بهِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

تمّ كتاب أسرار الصّوم ومهمّاته

وهو الكتاب السّادس من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والله تعالى محمودٌ مشكور

وصلّى الله على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

= رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتىٰ نظن أن لا يصومُ ، ويصوم حتىٰ نظن أن لا يفطرُ منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته) .

كِتَابُ
أَسْرَارِ الحَجِّ
وَمُهِمَّاتِهِ

وهو الكتاب السّابع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ كلمةَ التوحيدِ لعبادِهِ حرزاً وحصناً ، وجعلَ البيتَ العتيقَ مثابةً للناسِ وأمناً ، وأكرمَهُ بالنسبةِ إلىٰ نفسِهِ تشريفاً وتخصيصاً ومنّاً ، وجعلَ زيارتَهُ والطوافَ بهِ حجاباً بينَ العبدِ وبينَ العذابِ ومِجَنّاً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ نبيِّ الرحمةِ وسيِّدِ الأمَّةِ ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ قادةِ الحقِّ وسادةِ الخلْقِ ، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الحجَّ مِنْ بينِ أركانِ الإسلامِ ومبانيهِ عبادةُ العمرِ ، وختامُ الأمرِ ، وتمامُ الإسلامِ ، وكمالُ الدينِ ، فيهِ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قولَهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ ﴾ .

وفيهِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ . . فليمتْ إنْ شاءَ يهودياً وإنْ شاءَ نصرانياً »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٣٣٤) ، وقال : (وهـٰذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وذكره .

فأعظمْ بعبادةٍ يعدمُ الدين بفقدِها الكمالَ ، ويساوي تاركُها اليهودَ والنصارىٰ في الضلالِ ، وأجدرْ بها أنْ تُصرفَ العنايةُ إلىٰ شرحِها وتفصيلِ أركانِها وسننِها وآدابِها وفضائِلها وأسرارِها .

وجملةُ ذلكَ ينكشفُ بتوفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضائِلها وفضائلِ مكَّةَ والبيتِ العتيقِ ، وجملِ أركانِها وشرائطِ وجوبِها .

البابُ الثاني : في أعمالِها الظاهرةِ على الترتيبِ مِنْ مبدأِ السفرِ إلى الرجوعِ .

البابُ الثالثُ : في آدابِها الدقيقةِ وأسرارِها الخفيَّةِ وأعمالِها الباطنةِ .

* * *

فلنبدأْ بالبابِ الأوَّلِ :

الباب الأوّل
في فضائلها وفضائل مكّة والبيت العتيق
وجمل أركانها وشرائط وجوبها
وفيه فصلان (١)

الفصل الأوّل
في فضائل الحجّ وفضيلة البيت ومكّة والمدينة حرسهما الله
وشدّ الرّحال إلى المشاهد العظام

فضيلة الحجّ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

قالَ قتادةُ : (لمَّا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ أنْ يؤذِّنَ في الناسِ بالحجِّ . . نادىٰ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ للهِ بيتاً فحجُّوهُ)(٢) .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه قتادة عن عكرمة بن خالد كما في « مناسك ابن أبي عروبة » (٢٢) ، و« تاريخ دمشق » (٦/ ٢٠٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ ، قيلَ : (التجارةُ في الموسمِ ، والأجرُ في الآخرةِ)[1] .

ولمَّا سمعَ بعضُ السلفِ هٰذَا . . قالَ : (غفرَ لهُمْ وربِّ الكعبةِ)[2] .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : إنَّهُ طريقُ مكَّةَ ، يقعدُ الشيطانُ عليها ليمنعَ الناسَ منها[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حجَّ البيتَ فلمْ يرفثْ ولمْ يفسقْ . . خرجَ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أُمُّهُ »[4] .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رُئِيَ الشيطانُ في يومٍ هُوَ أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منهُ يومَ عرفةَ ، وما ذلكَ إلا لما يرىٰ مِنْ تنزُّلِ الرحمةِ ، وتجاوزِ اللهِ عنِ الذنوبِ العظامِ »[5] ، إذْ يقالُ : « إنَّ مِنَ الذنوبِ ذنوباً لا يكفِّرُها إلا الوقوفُ بعرفةَ » ، وقدْ أسندَهُ جعفرُ بنُ محمدٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[6] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ١٨٦) عن مجاهد .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٥٣) عن عون بن عبد الله ، وروي موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من رواية الفاكهي في « أخبار مكة » (٤/ ١٣٢) .
(٤) رواه البخاري (١٥٢١) ، ومسلم (١٣٥٠) .
(٥) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٤٢٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ، **والدحر** : الدفع بعنف علىٰ سبيل المهانة والإذلال .
(٦) كذا قال صاحب « القوت » (٢/ ١٢٠) ولفظه : (وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده) .

وذكرَ بعضُ المكاشفينَ مِنَ المقرَّبينَ : أنَّ إبليسَ ظهرَ لهُ في صورةِ شخصٍ بعرفةَ ، فإذا هوَ ناحلُ الجسمِ ، مصفرُّ اللونِ باكي العينِ ، مقصوفُ الظهرِ ، فقالَ لهُ : ما الذي أبكىٰ عينَكَ ؟ قالَ : خروجُ الحاجِّ إليهِ بلا تجارةٍ ، أقولُ : قدْ قصدوهُ ، أخافُ ألا يخيبَهُمْ ، فيحْزُنُني ذلكَ ، قالَ : فما الذي أنحلَ جسمَكَ ؟ قالَ : صهيلُ الخيلِ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولوْ كانتْ في سبيلي كانَ أحبَّ إليَّ ، قالَ : فما الذي غيَّرَ لونَكَ ؟ قالَ : تعاونُ الجماعةِ على الطاعةِ ، ولوْ تعاونوا على المعصيةِ كانَ أحبَّ إليَّ ، قالَ : فما الذي قصفَ ظهرَكَ ؟ قالَ : قولُ العبدِ : أسألُكَ حسنَ الخاتمةِ ، أقولُ : يا ويلتي ! متىٰ يعجبُ هـٰذا بعملِهِ ، أخافُ أنْ يكونَ قدْ فطنَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ حاجّاً أَوْ معتمراً ، فماتَ . . أُجريَ لهُ أجرُ الحاجِّ المعتمرِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، ومَنْ ماتَ في أحدِ الحرمينِ . . لمْ يُعْرَضْ ولمْ يحاسبْ ، وقيلَ لهُ : ادخلِ الجنَّةَ »[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) ، وروى ابن ماجه (٣٠١٣) حديث دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في عرفة ، وفيه : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أو قال : تبسم ـ فقال له أبو بكر وعمر : بأبي أنت وأمي ؛ إن هـٰذه لساعة ما كنت تضحك فيها ، فما الذي أضحكك أضحك الله سنَّك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائي وغفر لأمتي . . أخذ التراب ، فجعل يحثوه علىٰ رأسه ويدعو بالويل والثبور ، فأضحكني ما رأيت من جزعه » .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٠٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حجَّةٌ مبرورةٌ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، وحجةٌ مبرورةٌ ليسَ لها جزاءٌ إلا الجنةُ »[(١)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجَّاجُ والعمَّارُ وفدُ اللهِ عزَّ وجلَّ وزوَّارُهُ ، إنْ سألوهُ . . أعطاهُمْ ، وإنِ استغفروهُ . . غفرَ لهُمْ ، وإنْ دعَوا . . استجيبَ لهُمْ ، وإنْ تشفَّعُوا . . شُفِّعُوا »[(٢)] .

وفي حديثٍ مسندٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ عليهمُ السلامُ : « أعظمُ الناسِ ذنباً مَنْ وقفَ بعرفةَ فظنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يغفرْ لهُ »[(٣)] .

وروى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ينزلُ علىٰ هـٰذا البيتِ في كلِّ يومٍ مئةٌ وعشرونَ رحمةً ، ستونَ للطائفينَ ، وأربعونَ للمصلِّينَ ، وعشرونَ للناظرينَ »[(٤)] .

---

(١) روى البخاري (١٧٧٣) ، ومسلم (١٣٤٩) مرفوعاً : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، ومعنى الشطر الأول مستفاد من حديثين ؛ ما رواه البخاري (٢٧٩٢) ، ومسلم (١٨٨٠) مرفوعاً : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » ، وما رواه البخاري (١٥٢٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ؛ نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ، لكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور » .

(٢) الحديث أورده المصنف بلفظ صاحب «القوت» (٢/ ١٢٠)، وأوله عند ابن ماجه (٢٨٩٢) بلفظ : « الحجاج والعمار وفد الله ، إن دعوه . . أجابهم ، وإن استغفروه . . غفر لهم » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٢٠) ، حيث قال : (وقد روينا حديثاً مسنداً من طريق أهل البيت . . .) وذكره ، وقد رواه الخطيب في « المتفق والمفترق » (٢١٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٩٥) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » =

وفي الخبرِ : (استكثروا منَ الطوافِ بالبيتِ ؛ فإنَّهُ مِنْ أقلِّ شيءٍ تجدونَهُ في صحفِكُمْ يومَ القيامةِ ، وأغبطِ عملٍ تجدونَهُ)[1] ، ولهاذا يستحبُّ الطوافُ ابتداءً مِنْ غيرِ حجٍّ ولا عمرةٍ .

وفي الخبرِ : « مَنْ طافَ أسبوعاً حافياً حاسراً . . كانَ لهُ كعتقِ رقبةٍ ، ومَنْ طافَ أسبوعاً في المطرِ . . غُفِرَ له ما سلفَ مِنْ ذنوبِهِ »[2] .

ويقالُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا غفرَ لعبدٍ ذنباً في الموقفِ . . غفرَهُ لكلِّ مَنْ أصابَهُ في ذلكَ الموقفِ)[3] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا وافقَ يومُ عرفةَ يومَ جمعةٍ . . غُفِرَ لكلِّ أهلِ عرفةَ)[4] ، وهوَ أفضلُ يومٍ في الدنيا ، وفيهِ حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حجَّةَ الوداعِ ، وكانَ واقفاً إذْ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

= (١/ ١٥١) ، ورواه مسلسلاً بالمكيين الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٤/ ٢٧٢) ، ورواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ٨) من كلام حسان بن عطية .

(١) لفظ المصنف لهاذا الحديث عند صاحب « القوت » (٢/ ١١٩) ، وهو موقوف علىٰ سيدنا علي رضي الله عنه كما رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢١٨) بلفظ : (استكثروا من الطواف بهاذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه ، فكأني أنظر إليه حبشياً أصيلع أصيمع قائماً عليها يهدمها بمسحاته) ، فالرواية للقطعة الأولىٰ منه .

(٢) كذا هو لفظ الحديث عند صاحب « القوت » (٢/ ١١٩) ، وقال : (روي ذلك عن الحسن بن علي ، قاله لأصحابه ، ورفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وأوله عند الترمذي (٩٥٩) ، وحديث الطواف في المطر عند ابن ماجه (٣١١٨) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ، قالَ أهلُ الكتابِ : لوْ أنزلتْ هٰذهِ الآيةُ علينا . . لجعلناها يومَ عيدٍ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أشهدُ لقدْ أنزلتْ هذهِ الآيةُ في يومِ عيدينِ اثنينِ ؛ يومَ عرفةَ ويومَ جمعةٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ واقفٌ بعرفةَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ للحاجِّ ولمَنِ استغفرَ لهُ الحاجُّ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بنَ الموفقِ حجَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حججاً ، قالَ : فرأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ لي : يا بنَ الموفقِ ؛ حججتَ عنِّي ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : ولبَّيتَ عنِّي ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإنِّي أكافئُكَ بها يومَ القيامةِ ؛ آخذُ بيدِكَ في الموقفِ ، فأدخلُكَ الجنَّةَ والخلائقُ في كرْبِ الحسابِ[3] .

وقالَ مجاهدٌ وغيرُهُ مِنَ العلماءِ : (إنَّ الحاجَّ إذا قدموا مكَّةَ . . تلقتْهُمُ الملائكةُ ، فسلَّموا علىٰ ركبانِ الإبلِ ، وصافحوا ركبانَ الحُمُرِ ، واعتنقوا المشاةَ اعتناقاً)[4] .

---

(١) كما في « البخاري » (٤٥) ، ومسلم (٣٠١٧) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٥٨٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤١) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢١) .
(٤) روىٰ نحوه البيهقي مرفوعاً في « الشعب » (٣٨٠٥) ، ورواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٢/ ٢٧٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وعن مجاهد ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/ ١٢٠) ، وأما استعمال لفظ (الحاجّ) مع إرادة الجمع . . =

وقالَ الحسنُ : (مَنْ ماتَ عَقيبَ رمضانَ أَوْ عَقيبَ غزوٍ أَوْ عقيبَ حجٍّ . . ماتَ شهيداً)[1] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الحاجُّ مغفورٌ لهُ ولِمَنِ استغفرَ لهُ في شهرِ ذي الحجَّةِ والمحرَّمِ وصفرٍ وعشرٍ مِنْ ربيعِ الأوَّلِ)[2] .

وقدْ كانَ مِنْ سنَّةِ السلفِ أنْ يشيِّعُوا الغزاةَ ، وأنْ يستقبلوا الحاجَّ ، ويقبِّلُوا بينَ أعينِهِمْ ، ويسألوهُمُ الدعاءَ لهُمْ ، ويبادرونَ ذلكَ قبلَ أنْ يتدنَّسوا بالآثامِ[3] .

ويُروَىٰ عنْ عليِّ بنِ الموفقِ قالَ : (حججتُ سنةً ، فلمَّا كانَ ليلةُ عرفةَ . . نمتُ بمنىً في مسجدِ الخَيْفِ ، فرأيتُ في المنامِ كأنَّ ملكينِ قدْ نزلا مِنَ السماءِ عليهما ثيابٌ خضْرٌ ، فنادىٰ أحدُهُما صاحبَهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ فقالَ الآخرُ : لبيكَ يا عبدَ اللهِ ؛ قالَ : تدري كمْ حجَّ بيتَ ربِّنا عزَّ وجلَّ في هـٰذهِ

= فإما أن يكون كالجامل والباقر ، وهو يطلق علىٰ جماعة الجمال والبقر مع رعاتها ، فهو اسم جمع ، وإما أن يراد به الجنس ، وعليه يجري قولهم : أقبل الحاجُّ والداجُّ ؛ فالحاجُّ : الذين يحجون ، والداجُّ : أعوانهم .

(1) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

(2) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/ ٢٧٥) : (ويوجد في بعض نسخ الكتاب : « وعشرين من ربيع الأول » واغترَّ به المناوي فنقله في « شرح الجامع » [١/ ٤٣٧] هـٰكذا نقلاً عن الكتاب ، وهو وهم ، والصواب ما تقدم) .

(3) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

السنةِ ؟ قالَ : لا أدري ، قالَ : حجَّ بيتَ ربِّنا ستُّ مئةِ ألفٍ ، فتدري كمْ قُبِلَ منهم ؟ قالَ : لا ، قالَ : قُبِلَ منهُمْ ستَّةُ أنفسٍ .

قال : ثمَّ ارتفعا في الهواءِ ، فغابا عنِّي ، فانتبهتُ فزعاً ، واغتممْتُ غمّاً شديداً ، وأهمَّني أمري ، فقلتُ : إذا قُبِلَ حجُّ ستَّةِ أنفسٍ . . فأينَ أكونُ أنا في ستَّةِ أنفسٍ ؟

فلما أفضتُ مِنْ عرفةَ . . قمتُ عندَ المشعرِ الحرامِ ، فجعلتُ أفكِّرُ في كثرةِ الخلْقِ وفي قلَّةِ مَنْ قُبِلَ منهُمْ ، فحملني النومُ ، فإذا الشخصانِ قدْ نزلا علىٰ هيئتِهما ، فنادىٰ أحدُهما صاحبَهُ ، وأعادَ ذلكَ الكلامَ بعينِهِ ثمَّ قالَ : أتدري ماذا حَكَمَ ربُّنا عزَّ وجلَّ في هٰذهِ الليلةِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّهُ وَهَبَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الستةِ مئةَ ألفٍ . قالَ : فانتبهتُ وبي مِنَ السرورِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ)[1] .

وعنهُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً أنَّهُ قالَ : (حججتُ سنةً ، فلمَّا قضيتُ مناسكي . . تفكرْتُ فيمَنْ لا يُتقبَّلُ حجُّهُ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ وهبتُ حجتي وجعلتُ ثوابَها لمنْ لا يُتقبَّلُ حجُّهُ ، قالَ : فرأيتُ ربَّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ في النومِ ، فقالَ لي : يا عليُّ ؛ تتسخَّىٰ عليَّ وأنا خلقتُ السخاءَ والأسخياءَ ، وأنا أجودُ الأجودينَ ، وأكرمُ الأكرمينَ ، وأحقُّ بالجودِ والكرمِ مِنَ العالمينَ ؟! قدْ وهبتُ كلَّ مَن لمْ أقبلْ حجَّهُ لمَنْ قبلتُهُ)[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢١) .

فضيلة البيت ومكة حرسها الله

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ وعدَ هـٰذا البيتَ أنْ يحجَّهُ في كلِّ سنةٍ ستُّ مئةِ ألفٍ ، فإنْ نقصوا .. أكملَهُمُ اللهُ تعالىٰ بالملائكةِ ، وإنَّ الكعبةَ تحشرُ كالعروسِ المزفوفةِ ، وكلُّ مَنْ حجَّها يتعلَّقُ بأستارِها يسعونَ حولَها حتىٰ تدخلَ الجنَّةَ ، فيدخلونَ معَها »(١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ الحجرَ الأسودَ ياقوتةٌ مِنْ يواقيتِ الجنَّةِ ، وإنَّهُ يبعثُ يومَ القيامةِ لهُ عينانِ ولسانٌ ينطقُ بهِ ، يشهدُ لمَنِ استلمَهُ بحقٍّ وصدْقٍ »(٢) .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبِّلُهُ كثيراً(٣) ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٢١) ، وقد رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/ ٤٣٦) عن أبي بكر ـ شك في رفعه ـ بلفظ : « تحشر الكعبة إلىٰ بيت المقدس متعلقاً بأستارها كل من حج واعتمر » ، وفي رواية : (إن الكعبة تحشر يوم القيامة إلىٰ بيت المقدس تزف زف العروس ، متعلق بها من حج إليها ، فتقول الصخرة : مرحباً بالزائر والمزور) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ٣٢٩) : (وأخرج الواسطي عن كعب قال : لا تقوم الساعة حتىٰ يزف البيت الحرام إلىٰ بيت المقدس ، فينقادان إلى الجنة وفيهما أهلهما ، والعرض والحساب ببيت المقدس) .

(٢) رواه الترمذي (٩٦١) بلفظ : « والله ؛ ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به ، يشهد علىٰ من استلمه بحق » ، وله (٨٧٨) أيضاً : « إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما .. لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب » .

(٣) تقبيله صلى الله عليه وسلم للحجر عند البخاري (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) .

عليهِ وسلَّمَ سجدَ عليهِ[١] ، وكانَ يطوفُ على الراحلةِ ، فيضعُ المحجَنَ عليهِ ثمَّ يقبِّلُ طرفَ المحجَنِ[٢] .

وقبَّلَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ثمَّ قالَ : (إنِّي لأعلَمْ أنَّكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُكَ.. ما قبلتُكَ)[٣] ، ثمَّ بكىٰ حتَّىٰ علا نشيجُهُ ، فالتفتَ إلىٰ ورائهِ فرأىٰ علياً رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا أبا الحسنِ ؛ هٰهنا تسكبُ العبراتُ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ بلْ هوَ يضرُّ وينفعُ ، قالَ : وكيفَ ؟ قالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا أخذَ الميثاقَ على الذريَّةِ .. كتبَ عليهِمْ كتاباً ثمَّ ألقمَهُ هٰذا الحجرَ ، فهوَ يشهدُ للمؤمنِ بالوفاءِ ، ويشهدُ على الكافرِ بالجحودِ[٤] .

قيلَ : فذلكَ هوَ معنىٰ قولِ الناسِ عندَ الاستلامِ : اللهمَّ ؛

---

(١) كما روىٰ ذلك الدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٨٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٧٣) .

(٢) كما روىٰ ذلك مسلم (١٢٧٥) .

(٣) رواه البخاري (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) وسبق .

(٤) روىٰ هٰذه الزيادة الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) وزادا : (فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا با الحسن) بحذف الهمزة من الأب تخفيفاً وهو مستعمل ، وقوله : (تسكب العبرات) جاء رواية لابن ماجه (٢٩٤٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر ، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب ، فقال : « يا عمر ؛ هٰهنا تسكب العبرات » ، ولفظ المصنف وسياقه من « القوت » (٢/ ١٢١) .

إيماناً بكَ ، وتصديقاً بكتابِكَ ، ووفاءً بعهدِكَ[1] .

ورُوِيَ عنِ الحسنِ البصريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ صومَ يومٍ فيها بمئةِ ألفِ يومٍ ، وصدقةَ درهمٍ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، وكذلكَ كلُّ حسنةٍ بمئةِ ألفٍ[2] .

ويقالُ : طوافُ سبعةِ أسابيعَ يعدلُ عمرةً ، وثلاثُ عُمَرٍ تعدلُ حجَّةً[3] .

وفي الخبرِ الصحيحِ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عمرةٌ في رمضانَ كحجَّةٍ معي »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأرضُ ، ثمَّ آتي أهلَ البقيعِ ، فيحشرونَ معي ، ثمَّ آتي أهلَ مكَّةَ فأُحْشَرُ بينَ الحرمينِ »[5] .

وفي الخبرِ : (إنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لمَّا قضىٰ مناسكَهُ . لقيتْهُ الملائكةُ ، فقالوا : بُرَّ حجُّكَ يا آدمُ ؛ لقدْ حججْنا هٰذا البيتَ قبلَكَ بألفي عامٍ)[6] .

وجاءَ في الأثرِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ في كلِّ ليلةٍ إلىٰ أهلِ الأرضِ ، فأوَّلُ مَنْ ينظرُ إليهِ أهلُ الحرمِ ، وأوَّلُ مَنْ ينظرُ إليهِ مِنْ أهلِ الحرمِ أهلُ المسجدِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢١) ، والدعاء مروي عن جمع من السلف . انظر « خلاصة البدر المنير » (٢/ ٨) .

(٢) ذكره في « قوت القلوب » (٢/ ١٢١) عن ابن عباس وأنس والحسن متفرقاً .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

(٤) رواه البخاري (١٧٨٢) ، ومسلم (١٢٥٦) .

(٥) رواه الترمذي (٣٦٩٢) وفيه : « ثم أنتظر أهل مكة حتىٰ أُحشرَ بين الحرمين » .

(٦) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ١٦) عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق بلاغاً ، والبيهقي في « الشعب » (٣٧٠٣) عن وهب بن منبه بنحوه .

الحرامِ ، فمنْ رآهُ طائفاً . . غفرَ لهُ ، ومَنْ رآهُ مصلِّياً . . غفرَ لهُ ، ومَنْ رآهُ نائماً مستقبلَ القبلةَ . . غفرَ لهُ[1] .

وكُوشفَ بعضُ الأولياءِ رضيَ اللهُ عنهمْ ، قالَ : (إنِّي رأيتُ الثغورَ كلَّها تسجدُ لعَبَّادانِ ، ورأيتُ عبَّادانَ ساجدةً لجُدَّةَ)[2] .

ويقالُ : (لا تغربُ الشمسُ مِنْ يومٍ إلا ويطوفُ بهٰذا البيتِ رجلٌ مِنَ الأبدالِ ، ولا يطلعُ الفجرُ مِنْ ليلةٍ إلا طافَ بهِ واحدٌ مِنَ الأوتادِ ، وإذا انقطعَ ذلكَ . . كانَ سببَ رفعِهِ مِنَ الأرضِ ، فيصبحُ الناسُ وقدْ رفعتِ الكعبةُ لا يُرىٰ لها أثرٌ وهٰذا إذا أتىٰ عليها سبعُ سنينَ . . لمْ يحجَّها أحدٌ ، ثمَّ يرفعُ القرآنُ مِنَ المصاحفِ ، فيصبحُ الناسُ فإذا الورقُ أبيضُ يلوحُ ليسَ فيهِ حرفٌ ، ثم ينسخُ القرآنُ مِنَ القلوبِ ، فلا يذكرُ منهُ كلمةٌ ، ثمَّ يرجعُ الناسُ إلى الأشعارِ والأغاني وأخبارِ الجاهليةِ ، ثمَّ يخرجُ الدجالُ ، وينزلُ عيسىٰ عليهِ السلامُ فيقتلُهُ ، والساعةُ عندَ ذلكَ بمنزلةِ الحاملِ المقربِ يتوقعُ ولادُها)[3] .

وفي الخبرِ : « استكثروا مِنَ الطوافِ بهٰذا البيتِ قبلَ أنْ يرفعَ ، فقدْ هدمَ مرتينِ ويرفعُ في الثالثةِ »[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢١) ، وعبَّادان ـ بالتشديد والتثنية ـ : اسم بلد هو اليوم في جنوب العراق في شط العرب ، وقال أبو طالب معللاً ذلك عقب الخبر : (لأنها ـ أي : جُدة ـ خزانة الحرم ، وفرضة أهل المسجد الحرام) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) .
(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٧٥٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤١) ، =

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : إذا أردتُ أنْ أخربَ الدنيا . . بدأتُ ببيتي فخرَّبتُهُ ، ثمَّ أخربُ الدنيا علىٰ أثرِه »[1] .

* * *

= والبزار في « مسنده » (٦١٥٧) .

(١) قال صاحب « القوت » (٢/ ١٢٢) : (وروينا في حديث أبي رافع عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وخراب البيت آخرَ الزمان علىٰ يد ذي السويقتين من الحبشة ثابت كما في « البخاري » (١٥٩١) ، و« مسلم » (٢٩٠٩) ، وهو نذير خراب الدنيا أجمع .

فضيلة المقام بمكة المكرمة حرسها الله تعالى وكراهته

كرهَ الخائفونَ المحتاطونَ مِنَ العلماءِ المُقامَ بمكةَ لمعانٍ ثلاثةٍ :

أحدُها : خوفُ التبرُّمِ والأُنْسِ بالبيتِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يؤثِّرُ في تسكينِ حرقةِ القلبِ في الاحترامِ ، ولهـٰذا كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يضربُ الحجَّاجَ إذا حجُّوا ويقولُ : (يا أهلَ اليمنِ يمنكُمْ ، ويا أهلَ الشامِ شامَكُمْ ، ويا أهلَ العراقِ عراقَكُمْ)[1] ، ولذلكَ همَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بمنعِ الناسِ مِنْ كثرةِ الطوافِ وقالَ : (خشيتُ أنْ يأنسَ الناسُ بهـٰذا البيتِ) .

الثاني : تهييجُ الشوقِ بالمفارقةِ لتنبعثَ داعيةُ العوْدِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ البيتَ مثابةً للناسِ وأمناً ؛ أي : يثوبونَ ويعودونَ إليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ولا يقضونَ منهُ وطراً .

وقالَ بعضُهُمْ : (لأَنْ تكونَ في بلدٍ وقلبُكَ مشتاقٌ إلىٰ مكَّةَ متعلِّقٌ بهـٰذا البيتِ . . خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكونَ فيهِ وأنتَ متبرِّمٌ بالمُقامِ وقلبُكَ في بلدٍ آخرَ)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كمْ مِنْ رجلٍ بخراسانَ وهوَ أقربُ إلىٰ هـٰذا البيتِ ممَّنْ يطوفُ بهِ)[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٣٤٧٠) عنه قال : (لا تقيموا بعد النفْر إلا ثلاثاً) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) .

ويُقالُ : إنَّ للهِ تعالىٰ عباداً تطوفُ بهمُ الكعبةُ تقرُّباً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[١] .

الثالثُ : الخوفُ مِنْ ركوبِ الخطايا والذنوبِ بها ؛ فإنَّ ذلكَ مخطرٌ ، وبالحريِّ أنْ يورثَ مقتَ اللهِ عزَّ وجلَّ لشرفِ الموضعِ[٢] .

ورُوِيَ عنْ وهيبِ بنِ الوردِ المكِّيِّ قالَ : كنتُ ذاتَ ليلةٍ في الحِجْرِ أُصلِّي ، فسمعتُ كلاماً بينَ الكعبةِ والأستارِ يقولُ : إلى اللهِ أشكو ثمَّ إليكَ يا جبريلُ ما ألقىٰ مِنَ الطائفينَ حولي ؛ مِنْ تفكُّهِهِمْ في الحديثِ ولغوِهِمْ ولهوِهِمْ ، لئنْ لمْ ينتهوا عنْ ذلكَ . . لأنتفضنَّ انتفاضةً يرجعُ كلُّ حجرٍ منِّي إلى الجبلِ الذي قطعَ منهُ[٣] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ما مِنْ بلدٍ يؤاخذُ العبدُ فيه بالهمَّةِ قبلَ العملِ إلا مكةَ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي : إنَّهُ علىٰ مجرَّدِ الإرادةِ[٤] .

ويقالُ : (إنَّ السيئاتِ تضاعفُ بها كما تضاعفُ الحسناتُ)[٥] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، وانظر « تفسير الآلوسي » (٢٣/ ١٤ـ ١٥) .

(٢) وقد روى الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لقريش : (يا معشر قريش ؛ الحقوا بالأرياف ، فهو أعظم لأخطاركم ، وأقل لأوزاركم) .

(٣) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٣) .

(٤) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٧) .

(٥) وفي ذلك أخبار ، منها ما رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٨) عن ابن جريج قال : (بلغني أن الخطيئة بمكة بمئة خطيئة ، والحسنة علىٰ نحو ذلك) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (الاحتكارُ بمكَّةَ مِنَ الإلحادِ في الحرمِ)[١] .

وقيلَ : (الكذبُ أيضاً)[٢] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (لأنْ أذنبَ سبعينَ ذنباً برُكْبَةَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أذنبَ ذنباً واحداً بمكَّةَ)[٣] ، ورُكْبَةُ : منزلٌ بينَ مكَّةَ والطائفِ[٤] .

ولخوفِ ذلكَ انتهىٰ بعضُ المقيمينَ إلىٰ أنْ لمْ يقضِ حاجتَهُ في الحرمِ ، بلْ كانَ يخرجُ إلى الحلِّ عندَ قضاءِ الحاجةِ[٥] ، وبعضُهُمْ أقامَ شهراً وما وضعَ جنبَهُ على الأرضِ[٦] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١١٩) ، وروىٰ نحوه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٦) عن عمر وابنه رضي الله عنهما .

(٢) أي : من الإلحاد في مكة الكذب كذلك ، والقول في « القوت » (٢/ ١١٩) ، والسياق له .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥/ ٢٨) ، والأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٥ ، ١٢٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكذا هو عن عمر في «القوت» (٢/ ١١٩).

(٤) معجم البلدان (٣/ ٦٣) ، بضم الراء وسكون الكاف .

(٥) روي ذلك عن جمعٍ ، منهم كما ذكر صاحب « القوت » (٢/ ١١٩) : عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص كما في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٣) للأزرقي ، ونقل البيهقي في « الشعب » (٣٧٢٩) عن محمد بن إبراهيم الزجاجي أنه بقي أربعين عاماً في الحرم لا يبول ولا يتغوط ، بل يخرج إلى الحل .

(٦) ومرجع هـٰذا كله لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه ابن ماجه (٣١١٠) : « لا تزال هـٰذه الأمة بخير ما عظموا هـٰذه الحرمة ـ أي : الكعبة ـ حق تعظيمها ، فإذا ضيعوا ذلك . . هلكوا » .

وللمنعِ مِنَ الإقامةِ كرهَ بعضُ العلماءِ أجورَ دورِ مكَّةَ(١) .

ولا تظنَّنَّ أَنَّ كراهةَ المُقامِ يناقضُ فضْلَ البقعةِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ كراهةٌ علَّتُها ضعْفُ الخلْقِ وقصورُهُمْ عنِ القيامِ بحقِّ الموضعِ ، فمعنىٰ قولِنا : (إنَّ تركَ المُقامِ بها أفضلُ) أي : بالإضافةِ إلىٰ مُقامٍ معَ التقصيرِ والتبرُّمِ ، أمَّا أنْ يكونَ أفضلَ مِنَ المُقامِ معَ الوفاءِ بحقِّهِ . . فهيهاتَ ، وكيفَ لا ولمّا عادَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ مكَّةَ . . استقبلَ الكعبةَ وقالَ : « إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأحبُّ بلادِ اللهِ تعالىٰ إليَّ ، ولولا أنِّي أُخرجتُ منْكِ . . ما خرجتُ » ؟!(٢) ، وكيفَ لا والنظرُ إلى البيتِ عبادةٌ ، والحسناتُ فيها مضاعفةٌ كما ذكرناهُ ؟!

(١) وقد روى الفاكهي في « أخبار مكة » (٣/ ٢٤٧) عن مجاهد حديثاً مرسلاً : « إن مكة حرام ، حرمها الله تعالىٰ ، لا يحل بيع رباعها ـ جمع رَبْع ؛ مكان القوم ـ ولا أجور بيوتها » .

(٢) رواه الترمذي (٣٩٢٥) ، وابن ماجه (٣١٠٨) .

فضيلة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم على سائر البلاد

ما بعدَ مكَّةَ بقعةٌ أفضلَ مِنْ مدينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فالأعمالُ فيها أيضاً مضاعفةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةٌ في مسجدي هٰذا خيرٌ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ إلا المسجدَ الحرامَ »[1] .

وكذلكَ كلُّ عملٍ بالمدينةِ بألفٍ ، وبعدَ المدينةِ الأرضُ المقدسةُ ؛ فإنَّ الصلاةَ فيها بخمسِ مئةِ صلاةٍ فيما سواها ، وكذلكَ سائرُ الأعمالِ ، وروى ابنُ عباسٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « صلاةٌ في مسجدِ المدينةِ بعشرةِ آلافِ صلاةٍ ، وصلاةٌ في المسجدِ الأقصىٰ بألفِ صلاةٍ ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ بمئةِ ألفِ صلاةٍ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصبرُ علىٰ شدَّتِها ولأوائِها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استطاعَ أنْ يموتَ بالمدينةِ . .

---

(١) رواه البخاري (١١٩٠) ، ومسلم (١٣٩٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٢٣) وقال : (روينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره بلفظه هنا ، وكون الصلاة بألف في بيت المقدس هو عند ابن ماجه (١٤٠٧) ، ولفظه مرفوعاً وقد سئل عن بيت المقدس : « أرض المحشر والمنشر ، ائتوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره » .

(٣) رواه مسلم (١٣٦٣) .

فليمتْ ؛ فإنَّهُ لنْ يموتَ بها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »[١] .

وما بعدَ هٰذهِ البقاعِ الثلاثةِ فالمواضعُ فيها متساويةٌ إلا الثغورَ ؛ فإنَّ المُقامَ بها للمرابطةِ فيها فيهِ فضلٌ عظيمٌ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشدُّ الرحالُ إلا إلىٰ ثلاثةِ مساجدَ ؛ المسجدِ الحرامِ ، ومسجدي هٰذا ، والمسجدِ الأقصىٰ »[٢] .

وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى الاستدلالِ بهٰذا الحديثِ في المنعِ مِنَ الرحلةِ لزيارةِ المشاهدِ وقبورِ العلماءِ والصلحاءِ ، وما تبيَّنَ لي أنَّ الأمرَ كذلكَ ، بلِ الزيارةُ مأمورٌ بها ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كنتُ نهيتُكُمْ عنْ زيارةِ القبورِ ، فزورُوها ولا تقولوا هُجْراً »[٣] .

والحديثُ إنَّما وردَ في المساجدِ ، وليسَ في معناها المشاهدُ ؛ لأنَّ المساجدَ بعدَ المساجدِ الثلاثةِ متماثلةٌ ، ولا بلدَ إلا وفيهِ مسجدٌ ، فلا معنىٰ للرحلةِ إلىٰ مسجدٍ آخرَ ، وأمَّا المشاهدُ . . فلا تتساوىٰ ، بلْ بركةُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٩١٧) ، وابن ماجه (٣١١٢) .

(٢) رواه البخاري (١١٨٩) ، ومسلم (١٣٩٧) ، والاستثناء مفرغ ـ ولمسلم من طريق الزهري : « تشدُّ الرحال إلىٰ ثلاثة مساجد » دون نفي واستثناء ـ **والمراد** : لا يسافر لمسجد للصلاة فيه إلا لهٰذه الثلاثة ، لا أنه لا يسافر أصلاً إلا لها ، والنهي للتنزيه عند الجمهور . « إتحاف » (٤/ ٢٨٥) .

(٣) رواه مسلم (٩٧٧) ، وأورده المصنف هنا بزيادة : « ولا تقولوا هُجْراً » ، ورواها النسائي (٤/ ٨٩) ، **والهُجْر** : القول الفاحش الذي ينافي مقام التذكُّر والعبرة عند الزيارة .

زيارتِها علىٰ قدْرِ درجاتِهِمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

نعم ؛ لوْ كانَ في موضعٍ لا مسجدَ فيهِ . . فلهُ أنْ يشدَّ الرحالَ إلىٰ موضعٍ فيهِ مسجدٌ ، وينتقلُ إليهِ بالكليَّةِ إنْ شاءَ .

ثمَّ ليتَ شعري ؛ هلْ يمنعُ هٰذا القائلُ مِنْ شدِّ الرحالِ إلىٰ قبورِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ مثلِ إبراهيمَ وموسىٰ ويحيىٰ وغيرِهِمْ عليهِمُ السلامُ ؟!

فالمنعُ مِنْ ذلكَ في غايةِ الإحالةِ ، وإذا جوَّزَ هٰذا . . فقبورُ الأولياءِ والعلماءِ والصلحاءِ في معناها ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ أغراضِ الرحلةِ ، كما أنَّ زيارةَ العلماءِ في الحياةِ مِنَ المقاصدِ . **هٰذا في الرحلةِ** .

* * *

أمَّا المُقامُ : فالأولىٰ بالمريدِ أنْ يلازمَ مكانَهُ إذا لمْ يكنْ قصدُهُ مِنَ السفرِ استفادةَ العلمِ مهما سَلِمَ لهُ حالُهُ في وطنِهِ ، فإنْ لمْ يسلمْ . . فليطلبْ مِنَ المواضعِ ما هوَ أقربُ إلى الخمولِ ، وأسلمُ للدينِ ، وأفرغُ للقلبِ ، وأيسرُ للعبادةِ ، فهوَ أفضلُ المواضعِ لهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البلادُ بلادُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والخلقُ عبادُهُ ، فأيُّ موضعٍ رأيتَ فيهِ رِفْقاً . . فأقمْ واحمدِ اللهَ تعالىٰ »[1] .

وفي الخبرِ : « مَنْ رزقَ مِنْ شيءٍ . . فليلزمْهُ ، ومَنْ جعلتْ معيشتُهُ في

(١) رواه أحمد في « مسنده » (١/١٦٦) بنحوه .

شيءٍ . . فلا ينتقلْ عنهُ حتَّىٰ يتغيَّرَ عليهِ »(١) .

وقالَ أبو نعيمٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ وقدْ جعلَ جرابَهُ علىٰ كتفِهِ وأخذَ قُلَّتَهُ بيدِهِ ، فقلتُ : إلىٰ أينَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ قالَ : إلىٰ بلدٍ أملأُ فيهِ جرابي بدرْهمٍ .

وفي حكايةٍ أخرىٰ : بلغني أنَّ قريةً فيها رخصٌ أقيمُ بها ، قالَ : فقلتُ : وتفعلُ هـٰذا يا أبا عبدِ اللهِ ؟! فقالَ : نعمْ ، إذا سمعتَ في بلدٍ برخصٍ . . فاقصدْهُ ؛ فإنَّهُ أسلمُ لدينِكَ وأقلُّ لهمِّكَ(٢) .

وكانَ يقولُ : (هـٰذا زمانُ سوءٍ ، لا يؤمنُ فيهِ على الخاملينَ ، فكيفَ بالمشهورينَ ؟! هـٰذا زمانُ تنقُّلٍ يتنقلُ الرجلُ مِنْ قريةٍ إلىٰ قريةٍ يفرُّ بدينِهِ مِنَ الفتنِ)(٣) .

---

(١) أوله عند ابن ماجه (٢١٤٧) بلفظ : « من أصاب من شيء . . فليلزمه » ، وتمامه عنده كذلك (٢١٤٨) عن نافع بن عطاء قال : كنت أجهز إلى الشام وإلىٰ مصر ، فجهزت إلى العراق ، فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : يا أم المؤمنين ؛ كنت أجهز إلى الشام ، فجهزت إلى العراق ، فقالت : لا تفعل ، ما لك ولمتجرك ؟! فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سبَّبَ الله لأحدكم رزقاً من وجه . . فلا يدعه حتىٰ يتغيَّرَ له أو يتنكَّرَ له » .

(٢) أبو نعيم هو الفضل بن دكين ، والخبر في « القوت » (٢/ ١٢٣) ، **والمراد ببلد يُملأ فيها الجراب بدرهم** : انتشار الرخص فيها حتىٰ لا يحتاج إلىٰ إشغال قلبه بكثرة التسبب وطلب القوت ، ولم يترجم المصنف لسفيان رحمه الله تعالىٰ عندما ترجم للمجتهدين الأربعة ، وكان قد وعد بذكر شيء من أخباره هناك ، وهنا سيذكر طرفاً من ذلك .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٣) .

ويُحكىٰ عنهُ أنَّهُ قالَ : واللهِ ؛ ما أدري أيَّ البلادِ أسكنُ ؟! فقيلَ لهُ : خُراسانَ ، فقالَ : مذاهبُ مختلفةٌ وآراءٌ فاسدةٌ ، قيلَ : فالشامَ ، قالَ : يشارُ إليكَ بالأصابعِ ـ أرادَ الشهرةَ ـ قيلَ : فالعراقَ ، قالَ : بلدُ الجبابرةِ ، قيلَ : مكةَ ، قالَ : مكةُ تذيبُ الكِيسَ والبدنَ(١) .

وقالَ لهُ رجلٌ غريبٌ : عزمتُ على المجاورةِ بمكَّةَ فأوصني ، قالَ : أوصيكَ بثلاثٍ : لا تصلينْ في الصفِّ الأوَّلِ ، ولا تصحبنْ قرشيّاً ، ولا تُظْهِرَنْ صدقةً(٢) .

وإنما كرهَ الصفَّ الأوَّلَ لأنَّهُ يُشتهرُ ، فيفتقدُ إذا غابَ ، فيختلطُ بعملِهِ التزيُّنُ والتصنُّعُ .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، ومعنىٰ (**تذيب الكيس والبدن**) : لما فيها من الغلاء في أكثر الأوقات ؛ لأنها بواد غير ذي زرع ، وذوبان البدن يكون بالمجاهدة في الطاعة والقيام بواجبها . انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٨٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، ونسب الحافظ الزبيدي هاذه الروايات لصاحب « الحلية » كذلك . انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٨٧ـ ٢٨٨) .

الفَصْلُ الثَّاني
في شروط وجوب الحجّ وصحّته وأركانه وواجباته ومحظوراته

في شروط الحجّ

أمَّا الشرائطُ : فشرطُ صحَّةِ الحجِّ اثنانِ : **الوقتُ** ، **والإسلامُ** .

فيصحُّ حجُّ الصبيِّ ، ويُحرِمُ بنفسِهِ إنْ كانَ مميِّزاً ويُحرِمُ عنهُ وليُّهُ إنْ كانَ صغيراً ، ويفعلُ بهِ ما يفعلُ في الحجِّ ؛ مِنَ الطوافِ والسعيِ وغيرِهِ .

وأمَّا الوقتُ : فهوَ شوالٌ وذو القعدةِ وتسعٌ مِنْ ذي الحجَّةِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ مِنْ يومِ النحرِ ، فمَنْ أحرمَ بالحجِّ في غيرِ هـٰذهِ المدَّةِ . . فهيَ عمرةٌ .

وجميعُ السنةِ وقتُ العمرةِ ، ولكنْ مَنْ كانَ معكوفاً على النسكِ أيامَ منىً . . فلا ينبغي أنْ يحرمَ بالعمرةِ ، لأنَّهُ لا يتمكَّنُ مِنَ الاشتغالِ عَقيبَه لاشتغالِهِ بأعمالِ منىً .

وأمَّا شروطُ وقوعِهِ عنْ حجةِ الإسلامِ . . فخمسةٌ :

الإسلامُ ، والحريةُ ، والبلوغُ ، والعقلُ ، والوقتُ .

فإنْ أحرمَ الصبيُّ أوِ العبدُ ولكنْ عَتَقَ العبدُ وبلغَ الصبيُّ بعرفةَ أَوْ بمزدلفةَ وعادَ إلىٰ عرفةَ قبلَ طلوعِ الفجرِ . . أجزأَهُما عنْ حجَّةِ الإسلامِ ؛ لأنَّ الحجَّ عرفةُ ، وليسَ عليهما دمُ الإساءةِ .

وتُشترَطُ هـٰذهِ الشرائطُ في وقوعِ العمرةِ عنْ فرضِ الإسلامِ إلا الوقتَ .

وأمَّا شرطُ وقوعِ الحجِّ نفلاً عنِ الحرِّ البالغِ :

فهوَ براءةُ ذمتهِ عنْ حجَّةِ الإسلامِ ، فحجُّ الإسلامِ متقدمٌ ، ثمَّ القضاءُ لمَنْ أفسدَهُ في حالةِ الرقِّ ، ثمَّ النذرُ ، ثمَّ النيابةُ ، ثمَّ النفلُ ، وهـٰذا الترتيبُ مستحقٌّ ، وكذلكَ يقعُ وإنْ نوىٰ خلافَهُ .

وأمَّا شرائطُ لزومِ الحجِّ . . فخمسةٌ :

الإسلامُ ، والبلوغُ ، والعقلُ ، والحريةُ ، والاستطاعةُ .

ومَنْ لزمَهُ فرضُ الحجِّ . . لزمَهُ فرضُ العمرةِ ، ومَنْ أرادَ دخولَ مكَّةَ لزيارةٍ أَوْ تجارةٍ ولمْ يكنْ حطَّاباً . . لزمَهُ الإحرامُ علىٰ قولٍ ، ثمَّ يتحلَّلُ بعملِ عمرةٍ أَوْ حجٍّ .

وأمَّا الاستطاعةُ . . فنوعانِ :

أحدُهُما : المباشرةُ : وذلكَ لهُ أسبابٌ :

أمَّا في نفسِهِ . . فبالصحةِ .

وأمَّا في الطريقِ . . فبأنْ تكونَ خصبةً آمنةً ، بلا بحرٍ مخطرٍ ، ولا عدوٍّ قاهرٍ .

وأمَّا في المالِ . . فبأنْ يجدَ نفقةَ ذهابِهِ وإيابِهِ إلىٰ وطنِهِ ، كانَ لهُ أهلٌ أَوْ لمْ يكنْ ؛ لأنَّ مفارقةَ الوطنِ شديدةٌ ، وأنْ يملكَ نفقةَ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ في هـٰذهِ المدَّةِ ، وأنْ يملكَ ما يقضي بهِ ديونَهُ ، وأنْ يقدرَ علىٰ راحلةٍ ،

أَوْ كرائِها بمَحْمِلٍ ، أَوْ زاملةٍ إنِ استمسكَ على الزاملةِ(١) .

وأمَّا النوعُ الثاني : فاستطاعةُ المعضوبِ بمالِهِ(٢) ، وهوَ أنْ يستأجرَ مَنْ يحجُّ عنهُ بعدَ فراغِ الأجيرِ عنْ حجَّةِ الإسلامِ لنفسِهِ ، ويكفي نفقةُ الذهابِ بزاملةٍ في هـٰذا النوعِ .

والابنُ إذا عرضَ طاعتَهُ على الأبِ الزَّمِنِ . . صارَ بهِ مستطيعاً ، ولوْ عرضَ مالَهُ . . لمْ يصرْ بهِ مستطيعاً ؛ لأنَّ الخدمةَ بالبدنِ فيها شرفٌ للولدِ ، وبذلُ المالِ فيهِ منَّةٌ على الوالدِ .

ومَنِ استطاعَ . . لزمَهُ الحجُّ ، ولهُ التأخيرُ ، ولكنَّهُ فيهِ علىٰ خطرٍ ، فإنْ تيسَّرَ لهُ ولوْ في آخرِ عمرِهِ . . سقطَ عنهُ ، وإنْ ماتَ قبلَ الحجِّ . . لقيَ اللهَ عاصياً بتركِ الحجِّ ، وكانَ الحجُّ في تركتِهِ يُحجُّ عنهُ وإنْ لمْ يوصِ كسائرِ ديونِهِ ، وإنِ استطاعَ في سنةٍ فلمْ يخرجْ معَ الناسِ وهلكَ مالُهُ في تلكَ السنةِ قبلَ حجِّ الناسِ ، ثمَّ ماتَ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ ولا حجَّ عليهِ .

ومَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ معَ اليسارِ . . فأمرُهُ شديدٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لقدْ هممتُ أنْ أكتُبَ في الأمصارِ بضربِ الجزيةِ علىٰ

---

(١) أي : إن لم يقدر علىٰ شراء الراحلة . . فقدرته علىٰ أجرتها كافية للوجوب ، **والزاملة** : البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع ولا مَحْمِل له ، **والمحمل** ـ كمنبر ومجلس ـ : الهودج المركّب على البعير .

(٢) **المعضوب** : الضعيف ، **والمراد** : العاجز عن أداء الحج لعلّة وزمانة فيه .

مَنْ لمْ يحجَّ ممَّنْ يستطيعُ إليه سبيلاً)[١] .

وعنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ وإبراهيمَ النخعيِّ ومجاهدٍ وطاووسٍ : (لوْ علمتُ رجلاً غنياً وجبَ عليهِ الحجُّ ثمَّ ماتَ قبلَ أنْ يحجَّ . . ما صليتُ عليهِ)[٢] .

وبعضُهُمْ كانَ لهُ جارٌ موسرٌ ، فماتَ ولمْ يحجَّ ؛ فلمْ يصلِّ عليهِ[٣] .

وكانَ ابنُ عباسٍ يقولُ : (مَنْ ماتَ ولمْ يزكِّ ولمْ يحجَّ . . سألَ الرجعةَ إلى الدنيا) وقرأَ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قالَ : أحجُّ[٤] .

* * *

وأمَّا الأركانُ التي لا يصحُّ الحجُّ دونَها . . فخمسةٌ :

الإحرامُ ، والطوافُ ، والسعيُ بعدَهُ ، والوقوفُ بعرفةَ ، والحلْقُ بعدَهُ علىٰ قولٍ ، وأركانُ العمرةِ كذلكَ إلا الوقوفَ .

* * *

والواجباتُ المجبورةُ بالدمِ ستةٌ : الإحرامُ مِنَ الميقاتِ ، فمَنْ تركَهُ وجاوزَ الميقاتَ محلاً . . فعليهِ شاةٌ ، وأمَّا الرميُ . . ففيهِ الدمُ قولاً واحداً ،

---

(١) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢/ ٩٢٤) .

(٢) رواها ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٤٦٦٦ ، ١٤٦٦٨) ، وحكاها في « القوت » (٢/ ١١٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١١٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٣١٦) .

وأمَّا الصبْرُ بعرفةَ إلىٰ غروبِ الشمسِ ، والمبيتُ بمزدلفةَ ، والمبيتُ بمنىً ، وطوافُ الوداعِ . . فهـٰذهِ الأربعةُ يجبرُ تركُها بالدمِ علىٰ أحدِ القولينِ ، وفي القولِ الثاني : فيها دمٌ علىٰ وجهِ الاستحبابِ .

وأمَّا وجوهُ أداءِ الحجِّ والعمرةِ . . فثلاثةٌ :

الأوَّلُ : **الإفرادُ** : وهوَ الأفضلُ ، وذلكَ أنْ يقدِّمَ الحجَّ وحدَهُ ، فإذا فرغَ . . خرجَ إلى الحلِّ ، فأحرمَ واعتمرَ ، وأفضلُ الحلِّ لإحرامِ العمرةِ الجِعْرَانَةُ ، ثمَّ التنعيمُ ، ثمَّ الحُدَيْبِيَةُ ، وليسَ على المفردِ دمٌ إلا أنْ يتطوَّعَ .

الثاني : **القِرانُ** : وهوَ أنْ يجمعَ فيقولَ : (لبيكَ بحجَّةٍ وعمرةٍ معاً) ، فيصيرُ مُحْرِماً بهما ، ويكفيهِ أعمالُ الحجِّ ، وتندرجُ العمرةُ تحتَ الحجِّ كما يندرجُ الوضوءُ تحتَ الغسلِ ، إلا أنَّهُ إذا طافَ وسعىٰ قبلَ الوقوفِ . . فسعيُهُ محسوبٌ مِنَ النسكينِ ، وأمَّا طوافُهُ . . فغيرُ محسوبٍ ؛ لأنَّ شرطَ طوافِ الفرضِ في الحجِّ أنْ يقعَ بعدَ الوقوفِ ، وعلى القارنِ دمُ شاةٍ ، إلا أنْ يكونَ مكيّاً فلا شيءَ عليهِ ؛ لأنَّهُ لمْ يتركْ ميقاتَهُ ؛ إذْ ميقاتُهُ مكَّةُ .

الثالثُ : **التمتُّعُ** : وهوَ أنْ يجاوزَ الميقاتَ محرماً بعمرةٍ ويتحلَّلَ بمكَّةَ ، ويتمتَّعَ بالمحظوراتِ إلىٰ وقتِ الحجِّ ، ثمَّ يحرمَ بالحجِّ ، ولا يكونُ متمتِّعاً إلا بخمسِ شرائطَ :

أحدُها : ألا يكونَ مِنْ حاضري المسجدِ الحرامِ ، **وحاضِرُهُ** : مَنْ كانَ منهُ علىٰ مسافةٍ لا تُقصَرُ فيها الصلاةُ .

الثاني : أنْ يقدِّمَ العمرةَ على الحجِّ .

الثالثُ : أنْ تكونَ عمرتُهُ في أشهرِ الحجِّ .

الرابعُ : ألا يرجعَ إلىٰ ميقاتِ الحجِّ ، ولا إلىٰ مثلِ مسافتِهِ لإحرامِ الحجِّ .

الخامسُ : أنْ يكونَ حجُّهُ وعمرتُهُ عنْ شخصٍ واحدٍ .

فإذا وجدتْ هـٰذهِ الأوصافُ . . كانَ متمتِّعاً ، ولزمَهُ دمُ شاةٍ ، فإنْ لمْ يجدْ . . فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ قبلَ يومِ النحرِ متفرِّقَةٍ أَوْ متتابعةٍ ، وسبعةٍ إذا رجعَ إلى الوطنِ ، وإنْ لمْ يصمِ الثلاثةَ حتَّىٰ رجعَ إلى الوطنِ . . صامَ العشرةَ متتابعةً أَوْ متفرقةً ، وبدلُ دمِ القِرانِ والتمتُّعِ سواءٌ .

والأفضلُ : الإفرادُ ، ثمَّ التمتُّعُ ، ثم القِرانُ .

* * *

وأمَّا محظوراتُ الحجِّ والعمرةِ . . فستةٌ :

الأوَّلُ : **اللبسُ للقميصِ والسراويلِ والخفِّ والعِمامةِ** : بلْ ينبغي أنْ يلبَسَ إزاراً ورداءً ونعلينِ ، فإنْ لمْ يجدْ نعلينِ . . فمِكْعبينِ(١) ، فإنْ لمْ يجدْ

(١) المكعب : هو بوزان مِقْوَد أو مُعَظَّم ، غير عربي ، مداسٌ يستر ظاهر القدمين ولا يبلغ الكعبين .

إزاراً . . فسراويلَ ، ولا بأسَ بالمِنْطَقةِ[1] ، والاستظلالِ بالمَحْمِلِ ، ولكنْ لا ينبغي أنْ يغطيَ رأسَهُ ؛ فإنَّ إحرامَهُ في الرأسِ .

وللمرأةِ أنْ تلبسَ كلَّ مخيطٍ بعدَ ألا تسترَ وجهَها بما يماسُّهُ ؛ فإنَّ إحرامَها في وجهِها .

الثاني : **الطِّيْبُ** : فليجتنبْ كلَّ ما يعدُّهُ العقلاءُ طِيباً ، فإنْ تطيَّبَ أَوْ لبسَ . . فعليهِ دمُ شاةٍ .

الثالثُ : **الحلْقُ والقلْمُ** : وفيهما الفديةُ ؛ أعني : دمَ شاةٍ ، ولا بأسَ بالكحْلِ ، ودخولِ الحمَّامِ ، والفصدِ ، والحجامةِ ، وترجيلِ الشعرِ .

الرابعُ : **الجماعُ** : وهوَ مفسدٌ قبلَ التحلُّلِ الأوَّلِ ، وفيهِ بدنةٌ أَوْ بقرةٌ أَوْ سَبْعُ شياهٍ ، وإنْ كانَ بعدَ التحلُّلِ الأولِ . . لزمَهُ البدنةُ ولمْ يفسدْ حجُّهُ .

الخامسُ : **مقدماتُ الجماعِ** : كالقبلةِ والملامسةِ التي تنقضُ الطهْرَ معَ النساءِ ، فهوَ محرَّمٌ ، وفيهِ شاةٌ ، وكذا في الاستمناءِ ، ويحرمُ النكاحُ والإنكاحُ ولا دمَ فيهِ ؛ لأنَّهُ لا ينعقدُ .

السادسُ : **قتلُ صيدِ البرِّ** : أعني : ما يؤكلُ أَوْ ما هوَ متولِّدٌ مِنَ الحلالِ والحرامِ ، فإنْ قتلَ صيداً . . فعليهِ مثلُهُ مِنَ النَّعَمِ ، يُراعىٰ فيهِ التقاربُ في الخِلْقَةِ ، وصيدُ البحرِ حلالٌ ولا جزاءَ فيهِ .

---

(١) المِنْطَقة : ما يشدُّه في وسطه ؛ كالحزام ونحوه .

البَابُ الثَّاني
في ترتيب الأعمال الظاهرة من أوّل السفر إلى الرجوع
وهي عشر جمل

الجملة الأولى : في السّنن من أوّل الخروج إلى الإحرام
وهي ثمانٍ

الأولىٰ : **في المالِ** : فينبغي أن يبدأ بالتوبةِ ، وردِّ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، وإعدادِ النفقةِ لكلِّ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ إلىٰ وقتِ الرجوعِ ، ويردُّ ما عندَهُ مِنَ الودائعِ ، ويستصحبُ مِنَ المالِ الطيِّبِ الحلالِ ما يكفيهِ لذهابِهِ وإيابِهِ مِنْ غيرِ تقتيرٍ ، بلْ علىٰ وجهٍ يمكنُهُ معهُ التوسُّعُ في الزادِ ، والرفقُ بالضعفاءِ والفقراءِ ، ويتصدَّقُ بشيءٍ قبلَ خروجِهِ ، ويشتري لنفسِهِ دابةً قويَّةً على الحملِ ، لا تضعفُ ، أوْ يكتريها ؛ فإنِ اكترىٰ . . فليظهرْ للمكاري كلَّ ما يريدُ أنْ يحملَهُ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، ويحصِّلُ رضاهُ فيهِ[1] .

(١) ولو بإعطاء شيء زائد على الأجرة تطييباً لخاطره ورفعاً للشبهة . « إتحاف » (٤/ ٣٢٤) .

الثانيةُ : في الرفيقِ : ينبغي أنْ يلتمسَ رفيقاً صالحاً ، محبّاً للخيرِ معيناً عليه ، إنْ نسيَ . . ذكَّرَهُ ، وإنْ ذكرَ . . أعانَهُ ، وإنْ جبنَ . . شجَّعَهُ ، وإنْ عجزَ . . قوَّاهُ ، وإنْ ضاقَ صدرُهُ . . صبَّرَهُ .

وأمَّا رفقاؤُهُ المقيمونَ وإخوانُهُ وجيرانُهُ . . فيودِّعُهُمْ ويلتمسُ أدعيتَهُمْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ جاعلٌ في أدعيتِهِمُ البركةَ ، والسنَّةُ في الوداعِ أنْ يقولَ : (أستودعُ اللهَ دينَكَ ، وأمانتَكَ ، وخواتيمَ عملِكَ)[(١)] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لمَنْ أرادَ السفرَ : « في حفْظِ اللهِ وفي كنفِهِ ، زوَّدَكَ اللهُ التقوىٰ ، وغفرَ ذنبَكَ ، ووجَّهَكَ للخيرِ أينَما توجَّهْتَ »[(٢)] .

* * *

الثالثةُ : في الخروجِ مِنَ الدارِ : ينبغي إذا همَّ بالخروجِ أنْ يصلِّيَ أوَّلاً ركعتينِ ؛ يقرأُ في الأولىٰ بعدَ الفاتحةِ : (قل يا أيها الكافرون) ، وفي الثانيةِ (الإخلاصَ) ، فإذا فرغَ . . رفعَ يديهِ ودعا اللهَ سبحانَهُ عنْ إخلاصٍ

---

(١) كما رواه ذلك أبو داوود (٢٦٠٠) ، والترمذي (٣٤٤٣) ، وابن ماجه (٢٨٢٦) ، ومعناه : أسأل الله تعالىٰ أن يحفظ عليك دينك ، وأهلك ومالك ، وعملك الصالح الذي جعلته آخر أيام إقامتك ؛ إذ يسنُّ للمسافر أن يختم إقامته بالأدعية المأثورة التي سيذكرها المصنف ، وبقراءة آية الكرسي ، وصلاة ركعتين ، وهـٰذا الدعاء يدعو به كل من المتوادعين ، لا المودِّعُ فقط ، ويزيد المقيم ما سيأتي . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٢٥) .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٢٧١٣) ، وهو عند الترمذي (٣٤٤٤) بغير : « في حفظ الله وفي كنفه » .

صافٍ ونيَّةٍ صادقةٍ وقالَ : (اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ ، وأنتَ الخليفةُ في الأهلِ والمالِ والولدِ والأصحابِ ، احفظنا وإيَّاهُمْ مِنْ كلِّ آفةٍ وعاهةٍ ، اللهمَّ ، إنَّا نسألُكَ في مسيرِنا هـٰذا البرَّ والتقوىٰ ، ومِنَ العملِ ما ترضىٰ ، اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ أنْ تطويَ لنا الأرضَ ، وتهوِّنَ علينا السفرَ ، وأنْ ترزقَنا في سفرِنا هـٰذا سلامةَ البدنِ والدينِ والمالِ ، وتبلغَنا حجَّ بيتِكَ وزيارةَ قبرِ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، اللهمَّ ؛ إنَّا نعوذُ بكَ مِنْ وعثاءِ السفرِ ، وكآبةِ المنقلبِ ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمالِ والولدِ والأصحابِ ، اللهمَّ ؛ اجعلْنا وإيَّاهُمْ في جوارِكَ ، ولا تسلبْنا وإيَّاهُمْ نعمتَكَ ، ولا تغيِّرْ ما بنا وبهِمْ مِنْ عافيتِكَ)[1] .

* * *

الرابعةُ : إذا حصلَ علىٰ بابِ الدارِ .. قالَ : (باسمِ اللهِ ، توكَّلْتُ على اللهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أضلَّ أوْ أُضَلَّ ، أوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ ، أوْ أذِلَّ أوْ أُذَلَّ ، أوْ أَظلمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أَجهلَ أوْ يُجْهَلَ عليَّ ، اللهمَّ ؛ إنِّي لمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، بلْ خرجتُ اتقاءَ سخطِكَ ، وابتغاءَ مرضاتِكَ ، وقضاءَ فرضِكَ ، واتباعَ سنَّةِ نبيِّكَ ، وشوقاً إلىٰ لقائِكَ) .

---

(١) كان بعض هـٰذا من دعاء للنبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً واستوىٰ علىٰ مركوبه ، كما في « مسلم » (١٣٤٢) .

فإذا مشىٰ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ بكَ انتشرتُ وعليكَ توكَّلْتُ ، وبكَ اعتصمتُ ، وإليكَ توجَّهْتُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ ثقتي ، وأنتَ رجائي ، فاكفني ما أهمَّنِي ، وما لا أهتمُّ بهِ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، عزَّ جارُكَ ، وجلَّ ثناؤُكَ ، ولا إلـٰهَ غيرُكَ ، اللهمَّ زودني التقوىٰ ، واغفرْ لي ذنبي ، ووجهني للخيرِ أينما توجهتُ)[1] .

ويدعو بهـٰذا الدعاءِ في كلِّ منزلٍ يرحلُ عنهُ .

* * *

الخامسةُ : في الركوبِ : فإذا ركبَ الراحلةَ . . يقولُ : (باسمِ اللهِ وباللهِ واللهُ أكبرُ ، توكلتُ على اللهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هـٰذا وما كنَّا لهُ مقرنينَ ، وإنَّا إلىٰ ربِّنا لمنقلبونَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي وجَّهْتُ وجهي إليكَ ، وفوضتُ أمري كلَّهُ إليكَ ، وتوكَّلْتُ في جميعِ أموري عليكَ ، أنتَ حسبي ونعمَ الوكيلُ) .

فإذا استوىٰ على الراحلةِ واستوتْ تحتَهُ . . قالَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) سبعَ مراتٍ ، وقالَ : (الحمدُ للهِ الذي هدانا لهـٰذا وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ الحاملُ على الظهْرِ ، وأنتَ المستعانُ على الأمورِ) .

* * *

(١) هـٰذا الدعاء والذي قبله من المأثور المتوازع في دواوين السنة ، **والأَشَرُ والبَطَرُ** : كفر النعمة .

السادسةُ : في النزولِ : والسنةُ ألا ينزلَ حتَّىٰ يحمى النهارُ ، ويكونُ أكثرُ سيرِه بالليلِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالدُّلْجَةِ ؛ فإنَّ الأَرضَ تُطوىٰ بالليلِ ما لا تُطوىٰ بالنهارِ »[1] .

وليقللْ نومَهُ بالليلِ حتَّىٰ يكونَ عوناً على السيرِ ، ومهما أشرفَ علىٰ منزلٍ . . فليقلْ : (اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ السبعِ وما أظللنَ ، وربَّ الأرضينَ السبعِ وما أقللنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أضللنَ ، وربَّ الرياحِ وما ذَرينَ ، وربَّ البحارِ وما جرينَ ؛ أسأَلُكَ خيرَ هٰذا المنزلِ وخيرَ أهلِهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ هٰذا المنزلِ وشرِّ أهلِهِ وشرِّ ما فيهِ ، اصرفْ عنِّي شرَّ شرارِهِمْ) .

فإذا نزلَ المنزلَ . . صلَّىٰ فيهِ ركعتينِ ثمَّ قالَ : (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يجوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما خلقَ) .

فإذا جَنَّ عليهِ الليلُ . . يقولُ : (يا أرضُ ؛ ربِّي وربُّكِ اللهُ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ ، وشرِّ ما دبَّ عليكِ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ كلِّ أسدٍ وأسودَ ، وحيَّةٍ وعقربٍ ، ومِنْ شرِّ ساكنِ البلدِ ، ووالدٍ وما ولدَ ، ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾) .

---

(١) رواه أبو داوود (٢٥٧١) دون : « ما لا تطوىٰ بالنهار » ، وهي عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٧٩) مرسلة .

السابعةُ : في الحراسةِ : فينبغي أنْ يحتاطَ بالنهارِ ، فلا يمشي منفرداً خارجَ القافلةِ ؛ لأنَّهُ ربما يُغتالُ أوْ ينقطعُ ، ويكونُ بالليلِ متحفِّظاً عندَ النومِ ، فإنْ نامَ في ابتداءِ الليلِ .. افترشَ ذراعَهُ ، وإنْ نامَ في آخرِ الليلِ .. نصبَ ذراعَهُ نصباً وجعلَ رأسَهُ في كفِّهِ ، هكذا كانَ ينامُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أسفارِهِ(١) ؛ لأنَّهُ ربَّما استثقلَ النومُ ، فتطلعُ الشمسُ وهوَ لا يدري ، فيكونُ ما يفوتُهُ مِنَ الصلاةِ أفضلَ ممَّا ينالُهُ مِنَ الحجِّ .

والأحبُّ في الليلِ أنْ يتناوبَ الرفيقانِ في الحراسةِ ، فإذا نامَ أحدُهُما .. حرسَ الآخرُ ، فهوَ السنَّةُ ، فإنْ قصدَهُ عدوٌّ أَوْ سبُعٌ في ليلٍ أَوْ نهارٍ .. فليقرأْ آيةَ الكرسيِّ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و(الإخلاصَ) و(المعوذتينِ) ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ ما شاءَ اللهُ ، لا قوةَ إلا باللهِ ، حسبيَ اللهُ ، توكَّلتُ على اللهِ ، ما شاءَ اللهُ لا يأتي بالخيرِ إلا اللهُ ، ما شاءَ اللهُ لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ ، حسبيَ اللهُ وكفىٰ ، سمعَ اللهُ لمنْ دعا ، ليسَ وراءَ اللهِ منتهىً ، ولا دونَ اللهِ ملجا ، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، تحصنتُ باللهِ العظيمِ ، واستغثتُ بالحيِّ الذي لا يموتُ ، اللهمَّ ؛ احرسنا بعينِكَ التي لا تنامُ ، واكنفْنا بركْنِكَ الذي لا يُرامُ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بقدرتِكَ علينا ، فلا نهلِكُ وأنت ثقتُنا ورجاؤُنا ،

---

(١) كما في « مسلم » (٦٨٣) عن أبي قتادة قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر ، فعرَّس بليل .. اضطجع علىٰ يمينه ، وإذا عرَّس قبيل الصبح .. نصب ذراعه ، ووضع رأسه علىٰ كفه) .

اللهمَّ ؛ أعطفْ علينا قلوبَ عبادِكَ وإمائِكَ برأفةٍ ورحمةٍ إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ) .

* * *

الثامنةُ : مهما علا نَشَزاً مِنَ الأرضِ في الطريقِ . . فيستحبُّ أنْ يكبِّرَ ثلاثاً ، ثمَّ يقولُ : اللهمَّ ؛ لكَ الشرفُ علىٰ كلِّ شرفٍ ، ولكَ الحمدُ علىٰ كلِّ حالٍ .

ومهما هبطَ . . سبَّحَ ، ومهما خافَ الوحشةَ في سفرهِ . . قالَ : سبحانَ الملكِ القدوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جلَّلتَ السماواتِ بالعزَّةِ والجبروتِ(١) .

* * *

(١) حديث ذهاب الوحشة بهٰذا الدعاء رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٤) .

الجملة الثانية : في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

الأوَّلُ : أنْ يغتسلَ وينويَ بهِ غسْلَ الإحرامِ ؛ أعني : إذا انتهىٰ إلى الميقاتِ المشهورِ الذي يُحْرِمُ الناسُ منهُ ، ويتمِّمُ غسلَهُ بالتنظيفِ ، فيسرِّحُ رأسَهُ ولحيتَهُ(١) ، ويقلِّمُ أظفارَهُ ، ويقصُّ شاربَهُ ، ويستكملُ النظافةَ التي ذكرناها في الطهارةِ .

* * *

الثاني : أنْ يفارقَ الثيابَ المخيطةَ ، ويلبسَ ثوبَ الإحرامِ ، فيرتدي ويتَّزرُ بثوبينِ أبيضينِ والأبيضُ هوَ أحبُّ الثيابِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويتطيَّبُ في بدنِهِ وثيابِهِ ، ولا بأسَ بطيبٍ يبقىٰ جرمُهُ بعدَ الإحرامِ ، فقد رُئِيَ وبيصُ المسْكِ علىٰ مَفْرِقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ الإحرامِ ممَّا كانَ استعملَهُ قبلَ الإحرامِ(٢) .

* * *

الثالثُ : أنْ يصبرَ بعدَ لبسِ الثيابِ حتَّىٰ تنبعثَ بهِ راحلتُهُ إنْ كانَ راكباً ، أَوْ يبتدىءَ بالسيرِ إنْ كانَ راجلاً ، فعندَ ذلكَ ينوي الإحرامَ بالحجِّ أوْ بالعمرةِ

---

(١) في (أ ، و ، ز ، هـ) : (يحسِّر) بدل (يسرح) أي : يكشف عن رأسه ولا يغطيه .
(٢) رواه البخاري (٢٧١) ، ومسلم (١١٩٠) ، **والوبيص** : البريق .

قِراناً أوْ إفراداً كما أرادَ[1] ، ويكفي مجرَّدُ النيَّةِ لانعقادِ الإحرامِ ، ولكنَّ السنَّةَ أنْ يقرِنَ بالنيَّةِ لفظَ التلبيةِ فيقولَ : (لبيكَ اللهمَّ لبيكَ ، لبيكَ لا شريكَ لكَ لبيكَ ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلْكُ لا شريكَ لكَ)[2] ، وإنْ زادَ . . قالَ : (لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ كلُّهُ بيديكَ ، والرغباءُ إليكَ ، لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورقّاً ، اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ)[3] .

* * *

الرابعُ : إذا انعقدَ إحرامُهُ بالتلبيةِ المذكورةِ . . فيستحبُّ أنْ يقولَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أريدُ الحجَّ ، فيسِّرْهُ لي وأعنِّي علىٰ أداءِ فرضِهِ وتقبَّلْهُ منِّي ، اللهمَّ ؛ إنِّي نويتُ أداءَ فريضتِكَ في الحجِّ ، فاجعلني مِنَ الذينَ استجابوا لكَ وآمنوا بوعدِكَ واتبعوا أمرَكَ ، واجعلني مِنْ وفدِكَ الذينَ رضيتَ عنهُمْ

---

(١) وقد زاد المصنف في « الوجيز » سنة صلاة ركعتي الإحرام ، وعبارته فيه كما في « العزيز » (٣/ ٣٨٠) : (الرابعة : أن يصلي ركعتي الإحرام ، ثم يلبي حيث تنبعث دابته ، وفي القديم : بحيث يتحلل عن الصلاة) .

(٢) كذا كانت تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (١٥٤٩) ، ومسلم (١١٨٤) .

(٣) بنحوها عند مسلم (١١٨٤) ، وأما إتباع التلبية الصلاةَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد رواه الدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٣٨) عن القاسم بن محمد عند الفراغ منها ، كما يتبعها سؤال المغفرة والرضوان منه سبحانه ، وعبارة المصنف في «الخلاصة» (ص٢٣١) : (ويكرر هاذه التلبية لا يزيد عليها ، إلا أن يصلي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأله الجنة ويستعيذ من النار) ، وقد استحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التلبية الإمام الشافعي كما في « الأم » (٣/ ٣٩٥) .

وارتضيتَ وقبلْتَ منهُمْ ، اللهمَّ ، فيسِّرْ لي أداءَ ما نويتُ مِنَ الحجِّ ، اللهمَّ ؛ قدْ أحرمَ لكَ شعري ولحمي ، ودمي وعصبي ، ومخِّي وعظامي ، وحرَّمْتُ علىٰ نفسي النساءَ والطيبَ ولبسَ المخيطِ ابتغاءَ وجهِكَ والدارِ الآخرةِ) .

ومِنْ وقتِ الإحرامِ حَرُمَ عليهِ المحظوراتُ الستَّةُ التي ذكرناها مِن قبلُ فليجتنبْها .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : يستحبُّ تجديدُ التلبيةِ في دوامِ الإحرامِ ، خصوصاً عندَ ازدحامِ الركابِ ، وتلقي الرفاقِ ، وعندَ اجتماعِ الناسِ ، وعندَ كلِّ صعودٍ وهبوطٍ ، وعندَ كلِّ ركوبٍ ونزولٍ ، رافعاً بها صوتَهُ بحيثُ لا يبحُّ حلقَهُ ولا ينبهرُ[١] ، فإنَّهُ لا ينادي أصمَّ ولا غائباً كما وردَ في الحديثِ[٢] .

ولا بأسَ برفْعِ الصوتِ بالتلبيةِ في المساجدِ الثلاثةِ ؛ فإنَّها مَظِنَّةُ المناسكِ ؛ أعني : المسجدَ الحرامَ ، ومسجدَ الخَيْفِ ، ومسجدَ الميقاتِ[٣] ، وأمَّا سائرُ المساجدِ . . فلا بأسَ فيها بالتلبيةِ مِنْ غيرِ رفْعِ صوتٍ ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أعجبَهُ شيءٌ . . قالَ : « لبيكَ إنَّ العيشَ عيشُ الآخرةِ »[٤] .

❊ ❊ ❊

---

(١) وإنما يستحب رفع الصوت في حق الرجال ، والنساء يقتصرن علىٰ أنفسهن ولا يجهرن كما في الصلاة . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٣٨) ، والانبهار : الانقطاع .

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) .

(٣) وفي (ب) : (ومسجد عرفات) .

(٤) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣/ ٣٩١) عن مجاهد مرسلاً .

الجملة الثالثة : في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

الأوَّلُ : أنْ يغتسلَ بذي طُوىً لدخولِ مكَّةَ(١) .

والأغسالُ المستحبَّةُ المسنونةُ في الحجِّ تسعةٌ : الأوَّلُ للإحرامِ مِنَ الميقاتِ ، ثمَّ لدخولِ مكَّةَ(٢) ، ثمَّ للوقوفِ بعرفةَ ، ثمَّ للوقوفِ بمزدلفةَ ، ثمَّ ثلاثةُ أغسالٍ لرمي الجمراتِ الثلاثِ ، ولا غسلَ لرمي جمرةِ العقبةِ ، ثمَّ لطوافِ الإفاضةِ ، ثمَّ لطوافِ الوداعِ ، ولمْ يرَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في الجديدِ الغسْلَ لطوافِ الزيارةِ ولطوافِ الوداعِ ، **فتعودُ إلىٰ سبعةٍ** .

الثاني : أنْ يقولَ عندَ الدخولِ في أوَّلِ الحرمِ وهوَ خارجَ مكَّةَ : (اللهمَّ ؛ هٰذا حرمُكَ وأمنُكَ ، فحرِّمْ لحمي ودمي وشعري وبشري على

(١) ذو طوىٰ : قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ١٣٩) : (بكسر الطاء : اسم بئر ـ مطوية ـ أو موضع بقرب مكة ، ولأبي ذر ـ أحد رواة الصحيح ـ طُوىٰ بضمها ، ويجوز فتحها ـ وصوبه القاضي في « مشارق الأنوار » [١/ ٢٧٦] ـ والتنوينُ وعدمه ؛ كما في « القاموس » ، فمن صرفه . . جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه . . جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة) ، وقد روى البخاري (١٥٧٣) ، ومسلم (١٢٥٩) حكاية فعله صلى الله عليه وسلم لذلك .

(٢) وهو الغسل الذي ذكره حين قال : (يغتسل بذي طوىً لدخول مكة) .

النارِ ، وآمنِّي مِنْ عذابِكَ يومَ تبعثُ عبادَكَ ، واجعلني مِنْ أوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ) .

* * *

الثالثُ : أنْ يدخلَ مكَّةَ مِنْ جانبِ الأبطحِ ، وهوَ مِنْ ثَنِيَّةِ كَداءٍ بفتحِ الكافِ والمدِّ ، عَدَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ جادَّةِ الطريقِ إليها(١) ، فالتأسِّي بهِ أولىٰ .

وإذا خرجَ . . خرجَ مِنْ ثنيَّةِ كُدىً بضمِّ الكافِ ؛ وهيَ الثنيَّةُ السفلىٰ ، والأُولىٰ هيَ العليا(٢) .

* * *

الرابعُ : إذا دخلَ مكَّةَ وانتهىٰ إلىٰ رأسِ الردْمِ ، فعندَهُ يقعُ بصرُهُ على البيتِ . . فليقلْ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ، أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، ودارُكَ دارُ السلامِ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ ، اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا بيتُكَ ، عظَّمْتَهُ وكرَّمْتَهُ وشرَّفْتَهُ ، اللهمَّ ؛ فزدْهُ تعظيماً وزدْهُ تشريفاً

---

(١) رواه البخاري (١٥٧٨) ، ومسلم (١٢٥٨) ، وكَداء : موضع جبل بمكة ، ويناسب الدخول منه لعلو مقدار البيت . وروى الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٢٨٧) عن ابن عباس : أن إبراهيم عليه السلام كان علىٰ ثنية كَداء حين دعا ، ولذلك قال : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ . وانظر « الإتحاف » (٤/ ٢٤٣) .

(٢) يجوز في كَداء وكُدى الصرف وعدمه ، نص علىٰ ذلك القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ١٤٢) ، والضم والقصر في الثاني لازم ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/ ٣٤٢) : (ويكتب بالياء ويجوز بالألف) ، ويقال للأول : كُدَي .

وتكريماً ، وزِدْه مهابةً ، وزِدْ مَنْ حجَّهُ بِرّاً وكرامةً ، اللهمَّ ؛ افتحْ لي أبوابَ رحمتِكَ ، وأدخلني جنَّتَكَ ، وأعذني مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) .

* * *

الخامسُ : إذا دخلَ المسجدَ الحرامَ . . فليدخلْ مِنْ بابِ بني شيبةَ ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ ، وباللهِ ، ومِنَ اللهِ ، وإلى اللهِ ، وفي سبيلِ اللهِ ، وعلىٰ ملَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) .

فإذا قَرُبَ منَ البيتِ . . قالَ : (الحمدُ للهِ وسلامٌ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصطفىٰ ، اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ ، وعلىٰ إبراهيمَ خليلِكَ ، وعلىٰ جميعِ أنبيائِكَ ورسلِكَ) ، وليرفعْ يديهِ وليقلْ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسأَلُكَ في مَقامي هـٰذا في أوَّلِ مناسكي أنْ تتقبَّلَ توبتي ، وأنْ تتجاوزَ عَنْ خطيئتي ، وتضعَ عنِّي وزري ، الحمدُ للهِ الذي بلَّغني بيتَهُ الحرامَ الذي جعلَهُ مثابةً للناسِ وأمناً ، وجعلَهُ مباركاً وهدىً للعالمينَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي عبدُكَ ، والبلدُ بلدُكَ ، والحَرَمُ حرمُكَ ، والبيتُ بيتُكَ ، جئتُكَ أطلبُ رحمتَكَ ، وأسأَلُكَ مسألةَ المضطرِّ الخائفِ مِنْ عقوبتِكَ ، والراجي رحمتَكَ ، الطالبِ مرضاتَكَ) .

* * *

السادسُ : أنْ يقصدَ الحجرَ الأسودَ بعدَ ذلكَ ويمسَّهُ بيدِهِ اليمنىٰ ، ويقبِّلَهُ ويقولَ : (اللهمَّ ؛ أمانتي أديتُها ، وميثاقي وفيتُهُ ، اشهدْ لي

بالموافاةِ)[1] ، فإنْ لمْ يستطعِ التقبيلَ . . وقفَ في مقابلتِهِ ويقولُ ذلكَ .

ثم لا يعرِّجُ علىٰ شيءٍ دونَ الطوافِ ، وهوَ طوافُ القدومِ ، إلا أنْ يجدَ الناسَ في المكتوبةِ ، فيصلِّيَ معهُمْ ثمَّ يطوفَ .

* * *

(١) في هـٰذا الدعاء إشارة للحديث الذي رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٥٩) عن مجاهد قال : (يأتي يوم القيامة الركن والمقام كل واحد منهما مثل أبي قبيس ـ اسم جبل ـ يشهدان لمن وافاهما بالموافاة) .

الجملة الرابعة : في الطواف

فإذا أرادَ افتتاحَ الطوافِ ، إمَّا للقدومِ أوْ لغيرِهِ . . فينبغي أنْ يراعيَ أموراً ستةً :

الأوَّلُ : أنْ يراعيَ شروطَ الصلاةِ ؛ مِنْ طهارةِ الحدثِ والخبثِ ، في الثوبِ والبدنِ والمطافِ ، وسترِ العورةِ ؛ فالطوافُ بالبيتِ صلاةٌ ، ولكنَّ اللهَ سبحانَهُ أباحَ فيهِ الكلامَ .

وليضطبعْ قبلَ ابتداءِ الطوافِ؛ وهوَ أنْ يجعلَ وسَطَ ردائِهِ تحتَ إبْطِهِ الأيمنِ ، ويجمعَ طرفيهِ علىٰ مَنْكِبِهِ الأيسرِ ، فيرخيَ طرفاً وراءَ ظهرِهِ وطرفاً علىٰ صدرِهِ .

ويقطعُ التلبيةَ عندَ ابتداءِ الطوافِ ، ويشتغلُ بالأدعيةِ التي سنذكرُها .

الثاني : إذا فرغَ مِنَ الاضطباعِ . . فليجعلِ البيتَ علىٰ يسارِهِ ، وليقفْ عندَ الحجرِ الأسودِ ، وليتنحَّ عنهُ قليلاً ليكونَ الحجرُ قدَّامَهُ ، فيمرَّ بجميعِ الحجرِ بجميعِ بدنِهِ في ابتداءِ طوافِهِ ، وليجعلْ بينَهُ وبينَ البيتِ قدْرَ ثلاثِ خطواتٍ ؛ ليكونَ قريباً منَ البيتِ ، فإنَّهُ أفضلُ ، ولكيلا يكونَ طائفاً على الشاذَرْوانِ ؛ فإنَّهُ مِنَ البيتِ ، وعندَ الحجرِ الأسودِ قدْ يتصلُ الشاذَرْوانُ بالأرضِ ويلتبس بها ، والطائفُ عليهِ لا يصحُّ طوافُهُ ؛ لأنَّهُ طائفٌ في

البيتِ ، والشاذَرْوانُ : هوَ الذي فضَلَ مِنْ عرْضِ جدارِ البيتِ بعدَ أنْ ضيِّقَ أعلى الجدارِ ، ثمَّ مِنْ هٰذا الموقفِ يبتدئُ الطوافَ .

* * *

الثالثُ : أنْ يقولَ قبلَ مجاوزةِ الحجرِ ، بلْ في ابتداءِ الطوافِ : (باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ؛ إيماناً بكَ وتصديقاً بكتابِكَ ووفاءً بعهدِكَ ، واتباعاً لسنَّةِ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) .

ويطوفُ ، فأوَّلَ ما يجاوزُ الحجرَ ينتهي إلىٰ بابِ البيتِ فيقولُ : (اللهمَّ ، هٰذا البيتُ بيتُكَ ، وهٰذا الحرَمُ حرمُكَ ، وهٰذا الأمنُ أمنُكَ ، وهٰذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ النارِ) .

وعندَ ذكْرِ المقامِ يشيرُ بعينِهِ إلىٰ مَقامِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ إنَّ بيتَكَ عظيمٌ ، ووجهَكَ كريمٌ ، وأنتَ أرحمُ الراحمينَ ؛ فأعذني مِنَ النارِ ومِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، وحرِّمْ لحمي ودمي على النارِ ، وأمِّنِّي مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ ، واكفني مؤنةَ الدنيا والآخرةِ) .

ثمَّ يسبِّحُ اللهَ ويحمدُهُ حتَّىٰ يبلغَ الركنَ العراقيَّ ، فعندَهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الشركِ والشكِّ ، والكفرِ والنفاقِ ، والشقاقِ وسوءِ الأخلاقِ ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمالِ والولدِ) .

فإذا بلغَ الميزابَ . قالَ : (اللهمَّ ؛ أظلَّني تحتَ ظلِّ عرشِكَ يومَ لا ظلَّ

إلا ظلُّ عرشِكَ ، اللهمَّ ؛ اسقني بكأسِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربةً لا أظمأُ بعدَها أبداً) .

فإذا بلغَ الركنَ الشاميَّ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ اجعلْهُ حجّاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً ، وتجارةً لنْ تبورَ ، يا عزيزُ يا غفورُ ، ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ ، إنَّكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ) .

فإذا بلغَ الركنَ اليمانيَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الكفرِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ ، ومِنْ عذابِ القبرِ ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الخزيِ في الدنيا والآخرةِ) .

ويقولُ بينَ الركنِ اليماني والحجرِ الأسودِ : (اللهمَّ ؛ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا برحمتِكَ عذابَ القبرِ وعذابَ النارِ) .

فإذا بلغَ الحجرَ الأسودَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ اغفرْ لي برحمتِكَ ، أعوذُ بربِّ هـٰذا الحجرِ مِنَ الدَّيْنِ والفقرِ ، وضيقِ الصدْرِ ، وعذابِ القبرِ) .

وعندَ ذلكَ قدْ تمَّ لهُ شوطٌ واحدٌ ، فيطوفُ كذلكَ سبعةَ أشواطٍ ويدعو بهـٰذهِ الأدعيةِ في كلِّ شوطٍ .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : أنْ يرمُلَ في ثلاثةِ أشواطٍ ، ويمشيَ في الأربعةِ الأُخَرِ على الهيئةِ المعتادةِ ، ومعنى الرَّمَلِ : الإسراعُ في المشيِ معَ تقاربِ الخُطا وهوَ دونَ العدْوِ وفوقَ المشيِ المعتادِ ، والمقصودُ منهُ ومِنَ الاضطباعِ : إظهارُ

الشطارةِ والجلادةِ والقوّةِ ، هكذا كانَ القصدُ أوّلاً ؛ قطعاً لطمعِ الكفّارِ ، وبقيتْ تلكَ السنّةُ[1] .

والأفضلُ الرَّمَلُ معَ الدنوِّ مِنَ البيتِ ، فإنْ لمْ يمكنْهُ للزحمةِ . . فالرَّمَلُ معَ البعدِ أفضلُ ، فليخرجْ إلىٰ حاشيةِ المطافِ ، وليرملْ ثلاثاً ، ثمَّ ليقرُبْ إلى البيتِ في المزدحمِ وليمشِ أربعاً .

وإنْ أمكنَهُ استلامُ الحجرِ في كلِّ شوطٍ . . فهوَ الأحبُّ ، وإنْ منعتْهُ الزحمةُ . . أشارَ باليدِ وقبَّلَ يدَهُ ، وكذلكَ استلامُ الركنِ اليماني مستحبٌّ مِنْ سائرِ الأركانِ ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يستلمُ الركنَ اليمانيَ ويقبِّلُهُ ، ويضعُ خدَّهُ عليهِ[2] .

---

(١) كون الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار عند أبي داوود (١٨٨٧) ، وابن ماجه (٢٩٥٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (فيمَ الرملانُ اليوم والكشفُ عن المناكب وقد أطّأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ؟ مع ذلك لا ندع شيئاً كنّا نفعله علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وأما الرمل وحدَه . . فقد روىٰ حديثه البخاري (١٦٠٢) ، ومسلم (١٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمّىٰ يثرب ؛ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرمُلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) .

(٢) أما استلام الركن اليماني . . ففي « البخاري » (١٦٦) ، و« مسلم » (١٢٦٧) ، وأما تقبيله . . فهو عند البخاري في « التاريخ الكبير » (١/ ٢٨١) ، وأما تقبيله مع وضع الخد عليه . . فهو عند ابن خزيمة في « صحيحه » (٢٧٢٧) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٩٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٦) .

ومَنْ أرادَ تخصيصَ الحجرِ بالتقبيلِ ، واقتصرَ في الركنِ اليماني على الاستلامِ ؛ أعني : المسَّ باليدِ . . فهو الأولىٰ ؛ إذْ هو أشهرُ في الروايةِ[1] .

* * *

الخامسُ : إذا تمَّ الطوافُ سبعاً . . فليأتِ الملتزمَ ـ وهوَ بينَ الحجرِ والبابِ ، وهوَ موضعُ استجابةِ الدعوةِ[2] ـ وليلتزقْ بالبيتِ ، وليتعلَّقْ بالأستارِ ، وليلصقْ بطنَهُ بالبيتِ ، وليضعْ عليهِ خدَّهُ الأيمنَ ، وليبسطْ عليهِ ذراعيهِ وكفَّيْهِ ، وليقلْ : (اللهمَّ ، يا ربَّ البيتِ العتيقِ ؛ أعتقْ رقبتي مِنَ النارِ ، وأعذني منَ الشيطانِ الرجيمِ ، وأعذني مِنْ كلِّ سوءٍ ، وقنِّعني بما رزقتني ، وباركْ لي فيما آتيتني ، اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا البيتَ بيتُكَ والعبدَ عبدُكَ ، وهـٰذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ النارِ ، اللهمَّ ؛ اجعلني مِنْ أكرمِ وفدِكَ عليكَ)[3] .

ثمَّ ليحمدِ اللهَ كثيراً في هـٰذا الموضعِ ، وليصلِّ علىٰ رسولِهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ جميعِ الرسلِ كثيراً ، وليدعُ بحوائجِهِ الخاصَّةِ ،

---

(١) الأم (٣/ ٤٣٠) .

(٢) كما روىٰ ذلك الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٧٧) .

(٣) الهيئة التي ذكرها المصنف في هـٰذا الدعاء ؛ من الإلزاق والتعلق بالأستار ووضع الخد . . . إلخ رواها أبو داوود (١٨٩٩) ، والنسائي (٥/ ٢٢٠) ، وابن ماجه (٢٩٦٢) .

وليستغفرِ اللهَ مِنْ ذنوبِهِ ، كانَ بعضُ السلفِ في هـٰذا الموضعِ يقولُ لمواليهِ : (تنحَّوْا عنِّي حتَّىٰ أُقِرَّ لربِّي بذنوبي) .

* * *

السادسُ : إذا فرغَ مِنْ ذلكَ . . ينبغي أنْ يصلِّيَ خلْفَ المقامِ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثانيةِ (الإخلاصَ) ، وهما ركعتا الطوافِ ، قالَ الزهريُّ : (مضتِ السنَّةُ أنْ يُصلَّىٰ لكلِّ أسبوعٍ ركعتانِ)(١) .

وإنْ قرنَ بين أسابيعَ وصلَّىٰ ركعتينِ . . جازَ ، فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

وكلُّ أسبوعٍ طوافٌ ، وليدعُ بعدَ ركعتيِ الطوافِ وليقلْ : (اللهمَّ ؛ يسِّرْ ليَ اليسرىٰ ، وجنبنيَ العسرىٰ ، واغفرْ لي في الآخرةِ والأُولىٰ ، اللهمَّ ؛

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٥٠٢٨) ، **الأسبوع** : سبع طوفات ، ويقال : سُبُوع .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » ، وابن شاهين في « أماليه » من حديث أبي هريرة وزاد : « ثم صلىٰ لكل أسبوع ركعتين ، وفي إسنادهما عبد السلام بن أبي الجنوب ، منكر الحديث » . « إتحاف » (٤/٣٥٧) .
وعقد ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ٥٥٠) باباً في القران بين الأسباع ومن رخص في ذلك ، ولم يرو فيه حديثاً مرفوعاً ، بل نقل فعل ذلك عن عائشة ومجاهد والمسور بن مخرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعلي بن الحسين .

اعصمْني بألطافِكَ حتَّىٰ لا أعصيَكَ ، وأعنِّي علىٰ طاعتِكَ بتوفيقِكَ ، وجنبني معاصيَكَ ، واجعلني ممَّنْ يحبُّكَ ويحبُّ ملائكتَكَ ورسلَكَ ، ويحبُّ عبادَكَ الصالحينَ ، اللهمَّ ؛ حبِّبْني إلىٰ ملائكتِكَ ورسلِكَ ، وإلىٰ عبادِكَ الصالحينَ ، اللهمَّ ؛ فكما هديتني للإسلامِ فثبتني عليهِ بألطافِكَ وولايتِكَ ، واستعملني لطاعتِكَ وطاعةِ رسولِكَ ، وأجِرْني مِنْ مضلاَّتِ الفتنِ) .

ثمَّ ليعدْ إلى الحجَرِ وليستلمْهُ ، وليختمْ بهِ الطوافَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَن طافَ بالبيتِ أسبوعاً ، وصلىٰ ركعتينِ . . فلهُ مِنَ الأجرِ كعتقِ رقبةٍ »[1] . هـٰذهِ كيفيةُ الطوافِ .

والواجبُ مِنْ جملتِهِ بعد وجوبِ شروطِ الصلاةِ : أنْ يستكملَ عددَ الطوافِ سبعاً بجميعِ البيتِ ، وأنْ يبتدئَ بالحجَرِ الأسودِ ويجعلَ البيتَ علىٰ يسارِهِ ، وأنْ يطوفَ داخلَ المسجدِ وخارجَ البيتِ ، لا على الشاذَرْوانِ ، ولا في الحجْرِ ، وأنْ يواليَ بينَ الأشواطِ ولا يفرِّقَها تفريقاً خارجاً عنِ المعتادِ ، وما عدا هـٰذا فهوَ سننٌ وهيئاتٌ .

❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي (٩٥٩) ، والنسائي (٥/ ٢٢١) ، وابن ماجه (٢٩٥٦) .

الجملة الخامسة : في السعي

فإذا فرغَ مِنَ الطوافِ[1] . . فليخرجْ مِنْ بابِ الصفا ، وهوَ في محاذاةِ الضلعِ الذي بينَ الركنِ اليماني والحجرِ ، فإذا خرجَ مِنْ ذلكَ البابِ ، وانتهىٰ إلى الصفا وهوَ جبلٌ . . فيرقىٰ فيهِ دَرَجاً في حضيضِ الجبلِ بقدْرِ قامةِ الرجلِ ، رَقِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ حتَّىٰ بدتْ لهُ الكعبةُ[2] ، وابتداءُ السعيِ مِنْ أصلِ الجبلِ كافٍ ، وهٰذهِ الزيادةُ مستحبةٌ ، ولكنْ بعضُ تلكَ الدَّرَجِ مستحدثةٌ ، فينبغي ألا يخلِّفَها وراءَ ظهرِهِ ، فلا يكونُ متمِّماً للسعيِ ، وإذا ابتدأَ مِنْ هٰهنا . . سعىٰ بينَهُ وبينَ المروةِ سبعَ مرَّاتٍ .

وعندَ رقيِّهِ في الصفا ينبغي أنْ يُقبِلَ على البيتِ ويقولَ : (اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، الحمدُ للهِ علىٰ ما هدانا ، الحمدُ للهِ بمحامِدِهِ كلِّها علىٰ جميعِ نعمِهِ كلِّها ، لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وأعزَّ جندَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ مُخلصينَ لهُ الدِّينَ ولوْ كرِهَ الكافرونَ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ مخلصينَ لهُ الدينَ ،

---

(١) أي : بعد صلاته ركعتين ، واستلامه الحجر والركن ، وشربه ماء زمزم . « إتحاف » (٤/ ٣٦٠) .

(٢) كما في « مسلم » (١٢١٨) ضمن حديث طويل .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً دائماً ، ويقيناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً ، وأسألُكَ العفوَ والعافيةَ ، والمعافاةَ الدائمةَ في الدنيا والآخرةِ) ، ويصلِّي علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدعو اللهَ بما شاءَ مِنْ حاجتِهِ عقيبَ هـٰذا الدعاءِ .

ثمَّ ينزلُ ويبتدئُ السعيَ وهوَ يقولُ : (ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ ، إنَّكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ ، ربَّنا ؛ آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا عذابَ النارِ) .

ويمشي علىٰ هِينةٍ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الميلِ الأخضرِ ، وهوَ أوَّلُ ما يلقاهُ إذا نزلَ مِنَ الصفا وهوَ علىٰ زاويةِ المسجدِ الحرامِ، فإذا بقيَ بينَهُ وبينَ محاذاةِ الميلِ ستةُ أذرعٍ . . أخذَ في السيرِ السريعِ ـ وهوَ الرَّمَلُ ـ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الميلينِ الأخضرينِ، ثمَّ يعودُ إلى الهِينةِ.

فإذا انتهىٰ إلى المروةِ . . صعدَها كما صعدَ الصفا، وأقبلَ بوجهِهِ على الصفا، ودعا بمثلِ ذلكَ الدعاءِ ، وقدْ حصلَ السعيُ مرَّةً واحدةً ، فإذا عادَ إلى الصفا . . حصلتْ مرَّتانِ، يفعلُ ذلكَ سبعاً، ويرمُلُ في موضعِ الرَّمَلِ في كلِّ مرَّةٍ، ويسكُنُ في موضعِ السكونِ كما سبقَ ، وفي كلِّ نوبةٍ يصعدُ الصفا والمروةَ .

فإذا فعلَ ذلكَ . . فقدْ فرغَ مِنْ طوافِ القدومِ والسعيِ ، وهما سنّتانِ ، والطهارةُ مستحبّةٌ للسعيِ وليستْ بواجبةٍ ، بخلافِ الطوافِ .

وإذا سعىٰ . . فينبغي ألا يعيدَ السعيَ بعدَ الوقوفِ ، ويكتفي بهٰذا ركناً ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ شرطِ السعيِ أنْ يتأخرَ عنِ الوقوفِ ، وإنّما ذلكَ شرطٌ في طوافِ الركنِ .

نعمْ ؛ شرطُ كلِّ سعيٍ أنْ يقعَ بعدَ طوافٍ أيَّ طوافٍ كانَ .

الجملة السادسة : في الوقوف وما قبله

الحاجُّ إذا انتهىٰ يومَ عرفةَ إلىٰ عرفاتٍ . . فلا يتفرَّغُ لطوافِ القدومِ ودخولِ مكَّةَ قبلَ الوقوفِ ، وإذا وصلَ قبلَ ذلكَ بأيامٍ . . طافَ طوافَ القدومِ ، فيمكثُ محرماً إلى اليومِ السابعِ مِنْ ذي الحجَّةِ[1] ، فيخطبُ الإمامُ بمكَّةَ خطبةً بعدَ الظهرِ عندَ الكعبةِ ، ويأمرُ الناسَ بالاستعدادِ للخروجِ إلىٰ منىً يومَ الترويةِ ، والمبيتِ بها ، وبالغدوِّ منها إلىٰ عرفةَ لإقامةِ فرْضِ الوقوفِ بعدَ زوالِ الشمسِ ؛ إذْ وقتُ الوقوفِ مِنَ الزوالِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ الصادقِ مِنْ يومِ النحرِ ، فينبغي أنْ يخرجَ إلىٰ منىً ملبِّياً ، ويُستحبُّ لهُ المشيُ مِنْ مكَّةَ في المناسكِ إلى انقضاءِ حجِّهِ إنْ قدرَ عليهِ ، والمشيُ مِنْ مسجدِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ إلى الموقفِ أفضلُ وآكدُ .

فإذا انتهىٰ إلىٰ منىً . . قالَ : (اللهمَّ ؛ هـٰذهِ منىً ، فامننْ عليَّ بما مننْتَ بِهِ علىٰ أوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ) ، وليمكثْ هـٰذهِ الليلةَ بمنىً ، وهوَ مبيتُ منزلٍ لا يتعلَّقُ بهِ نسكٌ .

فإذا أصبحَ يومَ عرفةَ . . صلَّى الصبحَ ، فإذا طلعتِ الشمسُ علىٰ ثَبيرٍ[2] . . سارَ إلىٰ عرفاتٍ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْها خيرَ غَدوةٍ غدوتُها

---

(١) أي : إن لم يكن متمتعاً .

(٢) ثَبير : اسم جبل بين مكة ومنىً ، ويرىٰ من منىً ، وهو علىٰ يمين الداخل منها إلىٰ مكة . « إتحاف » (٤/٣٦٦) .

قطُّ ، وأقربَها مِنْ رضوانِكَ ، وأبعدَها مِن سخطِكَ ، اللهمَّ ؛ إليكَ غدوتُ ، وإيَّاكَ رجوتُ ، وعليكَ اعتمدتُ ، ووجهَكَ أردتُ ؛ فاجعلني ممَّنْ تُباهي بهِ اليومَ مَنْ هوَ خيرٌ منِّي وأفضلُ[1] .

فإذا أتىٰ عرفاتٍ . . فليضربْ خباءَهُ بنَمِرَةَ قريباً مِنَ المسجدِ ، فثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قُبَّتَهُ[2] ، ونَمِرَةُ : هي بطنُ عُرَنَةَ[3] ، دونَ الموقفِ ودونَ عرفةَ .

وليغتسلْ للوقوفِ ، فإذا زالتِ الشمسُ . . خطبَ الإمامُ خطبةً وجيزةً وقعدَ[4] ، وأخذَ المؤذِّنُ في الأذانِ والإمامُ في الخطبةِ الثانيةِ[5] ، ووصلَ الإقامةَ بالأذانِ ، وفرغَ الإمامُ معَ تمامِ إقامةِ المؤذِّنِ ، ثمَّ جمعَ بينَ الظهرِ والعصرِ بأذانٍ وإقامتينِ ، وقصرَ الصلاةَ ، وراحَ إلى الموقفِ ، فليقفْ بعرفَةَ ، ولا يقفنْ في وادي عُرَنَةَ .

وأمَّا مسجدُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ . . فصدرُهُ في الوادي وأخرياتُهُ مِنْ

---

(١) أراد الملائكة ؛ ففي « مسلم » (١٣٤٨) مرفوعاً : « ما من يوم أكثرَ من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفةَ ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هـٰؤلاء » .

(٢) كما في حديث مسلم (١٢١٨) الذي مرَّ بعضه .

(٣) عُرَنَة : واد بحذاء عرفات ، فهي ليست من الموقف .

(٤) وهي الخطبة الأولىٰ .

(٥) هـٰذه الثانية تكون مع الأذان ، وتنتهي بانتهاء إقامة المؤذن للصلاة . انظر « الخلاصة » (ص٢٣٤) .

عرفةَ ، فمَنْ وقفَ في صدْرِ المسجدِ . . لمْ يحصلْ لهُ الوقوفُ بعرفةَ ، ويتميَّزُ مكانُ عرفةَ مِنَ المسجدِ بصخَراتٍ كبارٍ فرشتْ ثمَّ ، والأفضلُ أنْ يقفَ عندَ الصخَراتِ بقربِ الإمامِ مستقبلاً للقبلةِ راكباً .

وليكثرْ مِنْ أنواعِ التحميدِ والتسبيحِ والتهليلِ والثناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، والدعاءِ والتوبةِ(١) ، ولا يصومُ في هـٰذا اليومِ ؛ ليقوىٰ على المواظبةِ على الدعاءِ ، ولا يقطعُ التلبيةَ يومَ عرفةَ ، بلِ الأحبُّ أنْ يلبِّيَ تارةً ، ويكبَّ على الدعاءِ أخرىٰ .

وينبغي ألا ينفصلَ مِنْ طرفِ عرفةَ إلا بعدَ الغروبِ ؛ ليجمعَ في عرفةَ بينَ الليلِ والنهارِ ، وإنْ أمكنَهُ الوقوفُ يومَ الثامنِ ساعةً عندَ إمكانِ الغلطِ في الهلالِ . . فهوَ الحزمُ ، وبهِ الأمنُ مِنَ الفواتِ . ومَنْ فاتَهُ الوقوفُ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ يومَ النحرِ . . فقدْ فاتَهُ الحجُّ ، فعليهِ أنْ يتحلَّلَ عنْ إحرامِهِ بأعمالِ العمرةِ ، ثمَّ يريقَ دماً لأجلِ الفواتِ ، ثمَّ يقضيَ العامَ الآتيَ .

وليكنْ أهمَّ أشغالِهِ في هـٰذا اليومِ الدعاءُ ؛ ففي مثلِ تلكَ البقعةِ ومثلِ ذلكَ الجمعِ تُرجىٰ إجابةُ الدعواتِ(٢) .

---

(١) والتضرع والابتهال والبكاء ، وهنالك تسكب العبرات ، وتستقال العثرات ، وتنجح الطلبات ، فقد ثبت ـ كما روى الطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٩١٣) ـ عن ابن عباس قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بعرفة بالموقف ويداه إلىٰ صدره كاستطعام المسكين) . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٧١) .

(٢) حيث يجتمع في هـٰذا المكان المبارك خيارُ عباد الله ، ومن لا يشقىٰ بهم جليسهم من أولياء الله ، وببركاتهم وأسرارهم ترجىٰ إجابة الدعوات . انظر «الإتحاف» (٤/ ٣٧٣).

والدعاءُ المأثورُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعنِ السلفِ في يومِ عرفةَ أولىٰ ما يدعو بهِ ، فليقلْ :

لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يُحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ(١) .

اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي لسانِي نوراً ، اللهمَّ ؛ اشرحْ لي صدري ، ويسِّرْ لي أمرِي(٢) .

وليقلْ : اللهمَّ ، ربَّ الحمدِ ؛ لكَ الحمدُ كما نقولُ ، وخيراً ممَّا نقولُ ، لكَ صلاتي ونسكي ، ومحيايَ ومماتي ، وإليكَ مآبي ، وإليكَ ثوابي ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ وساوسِ الصدرِ ، وشتاتِ الأمرِ ، وعذابِ القبرِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما يلجُ في الليلِ ، ومِنْ شرِّ ما يلجُ في النهارِ ، ومِنْ شرِّ ما تهبُّ بهِ الرياحُ ، ومِنْ شرِّ بوائقِ الدهرِ(٣) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) مرفوعاً بلفظ : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير » ، وإلىٰ قوله : « لا شريك له » عند مالك في « الموطأ » (١/ ٤٢٢) مرسلاً ، وهو بتمامه من رواية ابن بكار البصري كما في « جمهرة الأجزاء الحديثية » (ص ١٦٨) من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١١٧) موصولاً ببعض الدعاء السابق ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٠) بنحوه ، وبعضه بعض حديث البيهقي المتقدم ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، وقوله : (**ثوابي**) من الثَّوْب ؛ أي : رجوعي ، أو هو علىٰ ظاهره .

اللهمَّ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ تحوُّلِ عافيتِكَ، وفجأةِ نقمتِكَ، وجميعِ سخطِكَ[1] .

اللهمَّ ؛ اهدني بالهدىٰ ، واغفرْ لي في الآخرةِ والأولىٰ[2] ، يا خيرَ مقصودٍ ، وأيسرَ منزولٍ عليهِ ، وأكرمَ مسؤولٍ ما لديهِ ؛ أعطني العشيَّةَ أفضلَ ما تعطي أحداً مِنْ خلقِكَ وحجَّاجِ بيتِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ ، اللهمَّ ؛ يا رفيعَ الدرجاتِ ، ومنزِّلَ البركاتِ ، ويا فاطرَ الأرضينَ والسماواتِ ؛ ضجَّتْ إليكَ الأصواتُ بصنوفِ اللغاتِ يسألونَكَ الحاجاتِ ، وحاجتي إليكَ ألا تنساني في دارِ البِلىٰ إذا نسيني أهلُ الدنيا[3] .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ تسمعُ كلامي ، وترىٰ مكاني ، وتعلمُ سرِّي وعلانيتي ، ولا يخفىٰ عليكَ شيءٌ مِنْ أمري ، أنا البائسُ الفقيرُ ، المستغيثُ المستجيرُ ، الوجِلُ المشفقُ المعترفُ بذنبِهِ ، أسألُكَ مسألةَ المسكينِ ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المذنبِ الذليلِ ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضريرِ ، دعاءَ مَنْ خضعتْ لكَ رقبتُهُ ، وفاضتْ لكَ عبرتُهُ ، وذلَّ لكَ جسدُهُ ، ورغمَ لكَ أنفُهُ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلني بدعائِكَ ربِّ شقياً ، وكنْ بي رؤوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسؤولينَ ، وأكرمَ المعطينَ[4] .

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣٩) من دعائه صلى الله عليه وسلم عموماً .

(٢) رواه بنحوه الطبراني في « الدعاء » (٨٧٨) ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٥) عن سفيان بن عيينة ، عن أعرابي سمعه يدعو به وهو متعلق بأستار الكعبة .

(٤) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٤٧) من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، =

إلـٰهي ؛ مَنْ مدحَ إليكَ نفسَهُ . . فإنِّي لائمٌ لنفسي .

إلـٰهي ؛ أخرستِ المعاصي لساني ، فما لي وسيلةٌ مِنْ عملٍ ، ولا شفيعٌ سوى الأملِ .

إلـٰهي ؛ إنِّي أعلمُ أنَّ ذنوبي لمْ تُبْقِ لي عندَكَ جاهاً ، ولا للاعتذارِ وجهاً ، ولكنَّكَ أكرمُ الأكرمينَ .

إلـٰهي ؛ إنْ لم أكُ أهلاً أنْ أبلغَ رحمتَكَ . . فإنَّ رحمتَكَ أهلٌ أنْ تبلغَني ، رحمتُكَ وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، وأنا شيءٌ(١) .

إلـٰهي ؛ إنَّ ذنوبي وإنْ كانتْ عظاماً ، ولكنَّها صغارٌ في جنْبِ عفوِكَ ؛ فاغفرْها لي يا كريمُ(٢) .

إلـٰهي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أنا العوَّادُ إلى الذنوبِ ، وأنتَ العوَّادُ إلى المغفرةِ(٣) .

= وسيأتي المصنف فيما يلي بمناجاة قال فيها الحافظ العراقي : (وباقي الدعاء من قول بعض السلف ، وفي بعضه ما هو مرفوع ، ولكن ليس مقيداً بموقف عرفة) .

(١) روىٰ هـٰذا الدعاء أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٨) عن عمر بن عبد العزيز ، وزاد : (اللهم ؛ إنك خلقت قوماً فأطاعوك فيما أمرتهم ، وعملوا في الذي خلقتهم له ، فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ١٥٦) من دعاء عبد الملك بن مروان ، وقال فيه الشعبي : (ما حسدت أحداً علىٰ كلام تكلم به ما حسدت عبد الملك بن مروان ، فإني سمعته يقول . . .) وذكره .

(٣) روىٰ تمام في « فوائده » (١٦٩٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ١٤٩) =

إلـٰهي ؛ إنْ كنتَ لا ترحمُ إلا أهلَ طاعتكَ . . فإلىٰ مَنْ يفزعُ المذنبونَ ؟!(١) .

إلـٰهي ؛ تجنبْتُ عنْ طاعتِكَ عمْداً ، وتوجهتُ إلىٰ معصيتِكَ قصداً ، فسبحانَكَ ما أعظمَ حُجَّتَكَ عليَّ ، وأكرمَ عفوَكَ عنِّي ، فبوجوبِ حجَّتِكَ عليَّ ، وانقطاعِ حجَّتي عنكَ ، وفقري إليكَ ، وغناكَ عنِّي . . إلا غفرتَ لي(٢) .

يا خيرَ مَنْ دعاهُ داعٍ ، وأفضلَ مَنْ رجاهُ راجٍ ؛ بحرمةِ الإسلامِ ، وبذمَّةِ محمدٍ عليهِ السلامُ أتوسَّلُ إليكَ ، فاغفرْ لي جميعَ ذنوبي ، واصرفني مِنْ موقفي هـٰذا مقضيَّ الحوائجِ ، وهبْ لي ما سألتُ ، وحقِّقْ رجائي فيما تمنيتُ .

إلـٰهي ؛ دعوتُكَ بالدعاءِ الذي علَّمتَنيهِ(٣) ، فلا تحرمني الرجاءَ الذي عرَّفتَنيهِ .

= مرفوعاً : « مر رجل ممن كان قبلكم بجمجمة ، فوقف عليها وجعل يفكر ، فقال : يا رب ؛ أنت أنت ، وأنا أنا ، أنت العواد بالمغفرة ، وأنا العواد بالذنوب ، فقيل له : ارفع رأسك ، فأنت العواد بالذنوب ، وأنا العواد بالمغفرة ، قال : فغفر له » .

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٨) ضمن مناجاة ليحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٤) عن سفيان بن عيينة أنه سمع أعرابياً يدعوه في المقام .

(٣) أي : ألهمتني إياه . « إتحاف » (٤/ ٣٧٧) .

إلـهي ؛ ما أنتَ صانعٌ العشيةَ بعبدٍ مقرٍّ لكَ بذنبِهِ ، خاشعٍ لكَ بذلِّهِ ، مستكينٍ بجرْمِهِ ، متضرِّعٍ إليكَ مِنْ عملِهِ ، تائبٍ إليكَ مِنِ اقترافِهِ ، مستغفرٍ لكَ مِنْ ظلمِهِ ، مبتهلٍ إليكَ في العفوِ عنْهُ ، طالبٍ إليكَ في نجاحِ حوائجِهِ ، راجٍ إليكَ في موقفِهِ معَ كثرةِ ذنوبِهِ ؟!

فيا ملجأَ كلِّ حيٍّ ، ووليَّ كلِّ مؤمنٍ ؛ مَنْ أحسنَ . . فبرحمتِكَ يفوزُ ، ومَنْ أساءَ . . فبخطيئتِهِ يهلِكُ .

اللهمَّ ؛ إليكَ خرجْنا ، وبفنائِكَ أنخْنا ، وإيَّاكَ أمَّلْنا ، وما عندَكَ طلبْنا ، ولإحسانِكَ تعرَّضْنا ، ورحمتَكَ رجونا ، ومِنْ عذابِكَ أشفقْنا ، وإليكَ بأثقالِ الذنوبِ هربْنا ، ولبيتِكَ الحرامِ حججْنا ، يا مَنْ يملكُ حوائجَ السائلينَ ، ويعلمُ ضمائرَ الصامتينَ ، يا مَنْ ليسَ معَهُ ربٌّ يُدعىٰ ، ويا مَنْ ليسَ فوقَهُ خالقٌ يُخشىٰ ، ويا مَنْ ليسَ لهُ وزيرٌ يُؤتىٰ ، ولا حاجبٌ يُرشىٰ ، يا مَنْ لا يزدادُ على كثرةِ السؤالِ إلا كرماً وجوداً ، وعلىٰ كثرةِ الحوائجِ إلا تفضُّلاً وإحساناً(١) .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ جعلتَ لكلِّ ضيفٍ قرىً ، ونحنُ أضيافُكَ ؛ فاجعلْ قِرانا منكَ الجنَّةَ(٢) .

اللهمَّ ؛ إنَّ لكلِّ وفدٍ جائزةً ، ولكلِّ زائرٍ كرامةً ، ولكلِّ سائلٍ عطيةً ، ولكلِّ راجٍ ثواباً ، ولكلِّ ملتمسٍ لما عندَكَ جزاءً ، ولكلِّ مسترحمٍ عندَكَ

---

(١) أورد نحوه ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢/ ٢٧١) عن الأصمعي ، عن أعرابية تدعو .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٢) عن الأصمعي كذلك ، عن أعرابي يدعو في الملتزم .

رحمةً ، ولكلِّ راغبٍ إليكَ زلفىٰ ، ولكلِّ متوسِّلٍ إليكَ عفواً ، وقدْ وفدنا إلىٰ بيتِكَ الحرامِ ، ووقفْنا بهٰذهِ المشاعرِ العظامِ وشهدْنا هٰذهِ المشاهدَ الكرامَ ؛ رجاءً لما عندَكَ ، فلا تخيِّبْ رجاءَنا .

إلـٰهَنا ؛ تابعتَ النعمَ حتَّى اطمأنتِ الأنفسُ بتتابعِ نعمِكَ ، وأظهرتَ العِبَرَ حتَّىٰ نطقَتِ الصوامتُ بحجَّتِكَ ، وظاهرتَ المننَ حتَّى اعترفَ أولياؤُكَ بالتقصيرِ عنْ حقِّكَ ، وأظهرتَ الآياتِ حتَّىٰ أفصحتِ السماواتُ والأرضونَ بأدلَّتِكَ ، وقهرتَ بقدرتِكَ حتَّىٰ خضعَ كلُّ شيءٍ لعزَّتِكَ ، وعنتِ الوجوهُ لعظمتِكَ ، إذا أساءَ عبادُكَ . . حلُمْتَ وأمهلْتَ ، وإذا أحسنوا . . تفضلْتَ وقبلْتَ ، وإذا عصوا . . سترْتَ ، وإذا أذنبوا . . عفوْتَ وغفرْتَ ، وإذا دعونا . . أجبتَ ، وإذا نادينا . . سمعتَ ، وإذا أقبلْنا إليكَ . . قرُبْتَ ، وإذا ولَّيْنا عنكَ . . دعوتَ !

إلـٰهَنا ؛ إنَّكَ قلتَ في كتابِكَ المبينِ ، لمحمدٍ خاتَمِ النبيينَ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فأرضاكَ عنهُمُ الإقرارُ بكلمةِ التوحيدِ بعدَ الجحودِ ، وإنَّا نشهدُ لكَ بالتوحيدِ مُخْبتينَ ، ولمحمدٍ بالرسالةِ مخلصينَ ؛ فاغفرْ لنا بهٰذهِ الشهادةِ سوالفَ الإجرامِ ، ولا تجعلْ حظَّنا فيهِ أنقصَ مِنْ حظِّ مَنْ دخلَ في الإسلامِ .

إلـٰهَنا ؛ إنَّكَ أحببتَ التقرُّبَ إليكَ بعتْقِ ما ملكَتْ أيمانُنا ، ونحنُ عبيدُكَ ، وأنتَ أولىٰ بالتفضُّلِ ؛ فأعتقْنا ، وإنَّكَ أمرتَنا أنْ نتصدَّقَ علىٰ

فقرائِنا ، ونحنُ فقراؤُكَ ، وأنتَ أحقُّ بالتطوُّلِ ؛ فتصدَّقْ علينا ، ووصَّيتَنا بالعفوِ عمَّنْ ظلمَنا ، وقدْ ظلمْنا أنفسَنا ، وأنتَ أحقُّ بالكرمِ ؛ فاعفُ عنَّا .

ربَّنا ؛ اغفرْ لنا وارحمنا أنتَ مولانا .

ربَّنا ، آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا برحمتِكَ عذابَ النارِ(١) .

وليكثرْ مِنْ دعاءِ الخَضِرِ عليهِ السلامُ ، وهوَ أنْ يقولَ : (يا مَنْ لا يشغلُهُ شأنٌ عنْ شأنٍ ، يا مَنْ لا يشغلُهُ سمعٌ عنْ سمعٍ ، ولا تشتبهُ عليهِ الأصواتُ ، يا منْ لا تغلطُهُ المسائلُ ، ولا تختلفُ عليهِ اللغاتُ ، يا مَنْ لا يبرمُهُ إلحاحُ الملحِّينَ ، ولا تضجرُهُ مسألةُ السائلينَ ؛ أذقْنا بردَ عفوِكَ وحلاوةَ رحمتِكَ)(٢) .

وليدعُ بما بدا لهُ ، وليستغفرْ لنفسِهِ ولوالديهِ ولجميعِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وليلحَّ في الدعاءِ ، وليعظمِ المسألةَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ .

قالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ وهوَ بعرفةَ : (اللهمَّ ؛ لا تردَّ الجميعَ منْ أجلي)(٣) .

---

(١) ختم بها المناجاة تبركاً ، ولكونه جامعاً شاملاً لسائر خيور الدنيا والآخرة . « إتحاف » (٤/ ٣٧٨) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ٣٤٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/ ٤٢٥) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ١١٩) .

وقالَ بكرٌ المزنيُّ : (قالَ رجلٌ : لمَّا نظرتُ إلىٰ أهلِ عرفاتٍ . . ظننتُ أنَّهُمْ قدْ غُفِرَ لهمْ لولا أنِّي كنتُ فيهِمْ)[١] .

* * *

(١) وهو بكر بن عبد الله المزني ، رواه عنه البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٢ ، ٧٩٠٣) .

الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاضَ مِنْ عرفةَ بعدَ غروبِ الشمسِ . . فينبغي أنْ يكونَ على السكينةِ والوقارِ ، وليجتنبْ وجيفَ الخيلِ وإيضاعَ الرِّكابِ كما يعتادُهُ بعضُ الناسِ[١] ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ وجيفِ الخيلِ وإيضاعِ الإبلِ[٢] ، وقالَ : « اتقوا اللهَ ، وسيروا سيراً جميلاً ، لا تطؤوا ضعيفاً ، ولا تُوجلُوا مسلماً »[٣] .

فإذا بلغَ المزدلفةَ . . اغتسلَ لها ؛ لأنَّ المزدلفةَ مِنَ الحرمِ ، فليدخلْهُ بغسْلٍ ، وإنْ قدَرَ علىٰ دخولهِ ماشياً . . فهوَ أفضلُ وأقربُ إلىٰ توقيرِ الحرمِ ، ويكونُ في الطريقِ رافعاً صوتَهُ بالتلبيةِ .

فإذا بلغَ المزدلفةَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذهِ مزدلفةُ ، جمعتَ فيها ألسنةً مختلفةً ، تسألُكَ حوائجَ مؤتنفةً[٤] ، فاجعلني ممَّنْ دعاكَ فاستجبتَ لهُ ، وتوكَّلَ عليكَ فكفيتَهُ) .

---

(١) **الوجيف** : الإسراع في السير ، **والإيضاع** : سير مثل الخبب ، فيه سرعة كذلك ، وقيل : حمل الركاب على السير .
(٢) كما في « البخاري » (١٦٧١)، و« أبي داوود » (١٩٢٠) ، و« النسائي » (٥/٢٥٧).
(٣) هو في معناه ضمن الحديث السابق ، وهو بلفظه مع النهي من رواية ابن البختري كما في « مجموع فيه مصنفاته » (٢٠٨) ، ومعنىٰ(**توجلوا**) : تؤذوا .
(٤) **مؤتنفة** : متجددة مستأنفة .

ثمَّ يجمعُ بينَ المغربِ والعشاءِ بمزدلفةَ في وقتِ العشاءِ قاصراً لها بأذانٍ وإقامتينِ ، ليسَ بينَهُما نافلةٌ ، ولكنْ يجمعُ نافلةَ المغربِ والعشاءِ والوترِ بعدَ الفريضتينِ ، ويبدأُ بنافلةِ المغربِ ، ثمَّ بنافلةِ العشاءِ كما في الفريضتينِ ، وهٰكذا يفعلُ الجامعُ في السفرِ ، فإنَّ تركَ النوافلِ في السفرِ خسرانٌ ظاهرٌ ، وتكليفُ إيقاعِها في الأوقاتِ إضرارٌ وقطعٌ للتبعيةِ بينَها وبينَ الفرائضِ ، فإذا جازَ أنْ يؤديَ النوافلَ معَ الفرائضِ بتيممٍ واحدٍ بحكمِ التبعيةِ . . فبأنْ يجوزَ أداؤُهما علىٰ حكْمِ الجمعِ بالتبعيةِ أولىٰ ، ولا يمنعُ مِنْ هٰذا مفارقةُ النفلِ للفرضِ في جوازِ أدائِهِ على الراحلةِ ؛ لما أومأنا إليهِ مِنَ التبعيةِ والحاجةِ .

ثمَّ يمكثُ تلكَ الليلةَ بمزدلفةَ ، وهوَ مبيتُ نُسُكٍ ، ومَنْ خرجَ منها في النصفِ الأوَّلِ مِنَ الليلِ ولمْ يبتْ . . فعليهِ دمٌ ، وإحياءُ هٰذهِ الليلةِ الشريفةِ مِنْ محاسنِ القُرُباتِ لمَنْ يقدِرُ عليهِ .

ثمَّ مهما انتصفَ الليلُ . . يأخذُ في التأهُّبِ للرحيلِ ، ويتزوَّدُ الحصىٰ منها ، ففيها أحجارٌ رِخوةٌ ، فليأخذْ سبعينَ حصاةً ؛ فإنَّها قدْرُ الحاجةِ ، ولا بأسَ بأنْ يستظهرَ بزيادةٍ ، فربما يسقطُ منهُ بعضُهُ ، ولتكنِ الحصىٰ خِفافاً ؛ بحيثُ يحتوي عليهِ أطرافُ البراجمِ .

ثمَّ ليغلسْ بصلاةِ الصبحِ ، وليأخذْ في المسيرِ ، حتَّىٰ إذا انتهىٰ إلى المشعرِ الحرامِ وهوَ آخرُ المزدلفةِ . . فيقفُ[1] ، ويدعو إلى الإسفارِ

---

(١) أي : علىٰ جبل قُزَح ، وعبارة المصنف في « الخلاصة » (ص٢٣٥) : (غلس =

ويقولُ : (اللهمَّ ؛ بحقِّ المشعرِ الحرامِ ، والبيتِ الحرامِ ، والشهرِ الحرامِ ، والركنِ والمقامِ . . بلِّغْ روحَ محمدٍ منَّا التحيَّةَ والسلامَ ، وأدخلْنا دارَ السلامِ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ)(١) .

ثمَّ يدفعُ منها قبلَ طلوعِ الشمسِ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ موضعٍ يقالُ لهُ : وادي مُحَسِّرٍ ، فيستحبُّ لهُ أنْ يحرِّكَ دابتَهُ حتَّىٰ يقطعَ عرْضَ الوادي ، وإنْ كانَ راجلاً . . أسرعَ في المشيِ .

ثمَّ إذا أصبحَ يومَ النحرِ . . خلطَ التلبيةَ بالتكبيرِ ، فيلبِّي تارةً ويكبِّرُ أخرىٰ ، فينتهي إلىٰ منىً ومواضعِ الجمراتِ ، وهيَ ثلاثةٌ ، فيجاوزُ الأولىٰ والثانيةَ . . فلا شغلَ لهُ معَهُما يومَ النحرِ ، حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ جمرةِ العقبةِ ، وهيَ علىٰ يمينِ مستقبلِ القبلةِ في الجادَّةِ ، والمرمىٰ مرتفعٌ قليلاً في سفحِ الجبلِ ، وهوَ ظاهرٌ بمواقعِ الجمراتِ ، ويرمي جمرةَ العقبةِ بعدَ طلوعِ الشمسِ بقِيْدِ رمْحٍ ، وكيفيتُهُ : أنْ يقفَ مستقبلاً للقبلةِ ـ وإنِ استقبلَ الجمرةَ . . فلا بأسَ ـ ويرميَ سبعَ حصياتٍ رافعاً يدَهُ ، ويبدِّلُ التلبيةَ بالتكبيرِ ، ويقولُ معَ كلِّ حصاةٍ : (اللهُ أكبرُ ، علىٰ طاعةِ الرحمـٰنِ ورغمِ الشيطانِ ، اللهمَّ ؛ تصديقاً بكتابِكَ واتباعاً لسنَّةِ نبيِّكَ)(٢) .

= بالصبح ، ووقف علىٰ قزح للدعاء إلىٰ مقاربة شروق الشمس) .

(١) رواه أبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (٤٤١) بنحوه غير مخصوص بمزدلفة .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦٠٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٧٩) عن علي رضي الله تعالىٰ عنه .

فإذا رمىٰ . . قطعَ التلبيةَ والتكبيرَ ، إلا التكبيرَ عَقيبَ فرائضِ الصلواتِ مِنْ ظهرِ يومِ النحرِ إلىٰ عَقيبِ الصبحِ آخرَ أيامِ التشريقِ ، ولا يقفُ في هـٰذا اليومِ للدعاءِ ، بلْ يدعو في منزلِهِ .

وصفةُ التكبيرِ : أنْ يقولَ : (اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرهَ الكافرونَ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ) .

ثمَّ ليذبحِ الهدْيَ إنْ كانَ معهُ ، والأولىٰ أنْ يذبحَ بنفسِهِ ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ، منكَ وبكَ ولكَ تقبَّلْ منِّي كما تقبَّلْتَ مِنْ خليلِكَ إبراهيمَ)[1] .

والتضحيةُ بالبُدْنِ أفضلُ ، ثمَّ بالبقرِ ، ثمَّ بالشاةِ ، والشاةُ أفضلُ مِنْ مشاركةِ ستةٍ في البَدَنَةِ أوِ البقرةِ ، والضأْنُ أفضلُ مِنَ المعزِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأُضْحِيَّةِ الكبشُ الأقرنُ »[2] ، والبيضاءُ أفضلُ

---

(١) فقد ذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم كبشين أقرنين أملحين مُوجَأين كما في « أبي داوود » (٢٧٩٥) . فلما وجههما قال : « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض علىٰ ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم ؛ منك ولك وعن محمد وأمته ، باسم الله والله أكبر » ثم ذبح .

(٢) رواه أبو داوود (٣١٥٦) ، والترمذي (١٥١٧) ، وابن ماجه (٣١٣٠) .

مِنَ الغبراءِ والسوداءِ ، وقالَ أبو هريرةَ : (البيضاءُ أفضلُ في الأضحىٰ مِنْ دمِ سوداوينِ)(١) .

وليأكلْ منهُ إنْ كانَ مِنْ هدْيِ التطوعِ ، ولا يضحينْ بالعرجاءِ والجدعاءِ والعضباءِ والجرباءِ والشرقاءِ والخرقاءِ والمقابلةِ والمدابرةِ والعجفاءِ ؛ والجَدْعُ في الأنفِ والأُذنِ : القطعُ منهما ، والعَضْبُ : في القرْنِ وفي نقصانِ القوائمِ ، والشرقاءُ : المشقوقةُ الأذنِ مِنْ فوقٍ ، والخرقاءُ : مِنْ أسفلَ ، والمقابلةُ : المخروقةُ الأذنِ مِنْ قدَّامٍ ، والمدابرةُ : مِنْ خلفٍ ، والعجفاءُ : المهزولةُ التي لا تُنْقِي ؛ أي : لا مخَّ لها مِنَ الهزالِ(٢) .

ثمَّ ليحلقْ بعدَ ذلكَ ، والسنَّةُ أنْ يستقبلَ القبلةَ ، ويبتدىءَ بمقدَّمِ رأسِهِ ، فيحلقُ الشقَّ الأيمنَ إلى العظمينِ المشرفينِ على القفا ، ثمَّ يحلقُ الباقيَ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ أثبتْ لي بكلِّ شعرةٍ حسنةً ، وامحُ عنِّي بها سيئةً ، وارفعْ لي بها عندَكَ درجةً)(٣) .

والمرأةُ تقصِّرُ مِنْ شعرِها ، والأصلعُ يستحبُّ لهُ إمرارُ الموسىٰ علىٰ رأسِهِ ، ومهما حلقَ بعدَ رميِ الجمرةِ . . فقدْ حصلَ لهُ التحلُّلُ الأوَّلُ ، وحلَّ

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣٨٧) ، ورفعه أحمد في « المسند » (٢/ ٤١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٢٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٨) .

(٣) فيه أثر رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/ ١٩٠) ، ويكبر بعد الفراغ ، ويدفن شعره ، ويصلي بعده ركعتين ، وإن قصَّر . . فليقصر الجميع . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٩٩) .

لهُ كلُّ المحظوراتِ في الإحرامِ إلا النساءَ والصيدَ .

ثمَّ يفيضُ إلىٰ مكَّةَ ويطوفُ كما وصفناهُ ، وهـٰذا الطوافُ طوافُ ركنٍ في الحجِّ ، ويسمَّىٰ : طوافَ الزيارةِ ، وأوَّلُ وقتِهِ : بعدَ نصْفِ الليلِ مِنْ ليلةِ النحرِ ، وأفضلُ وقتِهِ : يومُ النحرِ ، ولا آخرَ لوقتِهِ ، بلْ لهُ أنْ يؤخِّرَ إلىٰ أيِّ وقتٍ شاءَ ، ولكنْ يبقىٰ متقيِّداً بعلقةِ الإحرامِ ، فلا تحلُّ لهُ النساءُ إلىٰ أنْ يطوفَ ، فإذا طافَ . . تمَّ التحلُّلُ ، وحلَّ الجماعُ ، وارتفعَ الإحرامُ بالكليَّةِ ، ولمْ يبقَ إلا رميُ أيامِ التشريقِ والمبيتُ بمنىً ، وهيَ واجباتٌ بعدَ زوالِ الإحرامِ علىٰ سبيلِ الإتباعِ للحجِّ .

وكيفيةُ هـٰذا الطوافِ معَ الركعتينِ كما سبقَ في طوافِ القدومِ ، فإذا فرغَ مِنَ الركعتينِ . . فليسعَ كما وصفنا إنْ لمْ يكنْ سعىٰ بعدَ طوافِ القدومِ ، وإنْ كانَ قدْ سعىٰ . . فقدْ وقعَ ذلكَ ركناً ، فلا ينبغي أنْ يعيدَ السعيَ .

وأسبابُ التحلُّلِ ثلاثةٌ : الرميُ ، والحلْقُ ، والطوافُ الذي هوَ ركنٌ ، ومهما أتىٰ باثنينِ مِنْ هـٰذهِ الثلاثةِ . . فقدْ تحلَّلَ أحدَ التحلُّلينِ ، ولا حرجَ عليهِ في التقديمِ والتأخيرِ في هـٰذهِ الثلاثِ معَ الذبحِ ، ولكنِ الأحسنُ أنْ يرميَ ، ثمَّ يذبحَ ، ثمَّ يحلقَ ، ثمَّ يطوفَ .

والسنةُ للإمامِ في هـٰذا اليومِ : أنْ يخطبَ بعدَ الزوالِ ، وهيَ خطبةُ وداعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) ، **ففي الحجِّ أربعُ خطبٍ** : خطبةُ يومِ

---

(١) كما في « البخاري » (٩٦٨) ، ومسلم (١٦٧٩) ، وهي خطبة يوم النحر .

السابعِ ، وخطبةُ يومِ عرفةَ ، وخطبةُ يومِ النحرِ ، وخطبةُ يومِ النفْرِ الأوَّلِ ، وكلُّها عَقيبَ الزوالِ ، وكلُّها أفرادٌ إلا خطبةَ يومِ عرفةَ وخطبةَ يومِ العيدِ ؛ فإنَّهُما خطبتانِ بينَهُما جلسةٌ .

ثمَّ إذا فرغَ مِنَ الطوافِ . . عادَ إلىٰ منىً للمبيتِ والرميِ ، فيبيتُ تلكَ الليلةَ بمنىً ، وتسمَّىٰ ليلةَ القَرِّ ؛ لأنَّ الناسَ في غدِها يقَرُّون بمنىً ولا ينفرونَ .

فإذا أصبحَ اليومُ الثاني مِنَ العيدِ وزالتِ الشمسُ . . اغتسلَ للرميِ ، وقصدَ الجمرةَ الأولى التي تلي عرفةَ ، وهيَ علىٰ يمينِ الجادَّةِ ، ويرمي إليها بسبعِ حصياتٍ ، فإذا تعدَّاها . . انحرفَ قليلاً عنْ يمينِ الجادَّةِ ، ووقفَ مستقبلَ القبلةِ وحَمِد اللهَ تعالىٰ ، وهلَّلَ وكبَّرَ ، ودعا معَ حضورِ القلبِ وخشوعِ الجوارحِ ، ووقفَ مستقبلَ القبلةِ قدْرَ قراءةِ (سورةِ البقرةِ) مقبلاً على الدعاءِ .

ثمَّ يتقدَّمُ إلى الجمرةِ الوسطىٰ ، ويرمي كما رمى الأُولىٰ ، ويقفُ كما وقفَ للأُولىٰ .

ثمَّ يتقدَّمُ إلىٰ جمرةِ العقبةِ ويرمي سبعاً ، ولا يعرِّجُ علىٰ شغلٍ ، ولا يقفُ لدعاءٍ ، بلْ يرجعُ إلىٰ منزلِهِ ، ويبيتُ تلكَ الليلةَ بمنىً ، وتسمَّىٰ هـٰذهِ الليلةُ ليلةَ النَّفرِ الأوَّلِ .

ويصبحُ ، فإذا صلَّى الظهرَ في اليومِ الثاني مِنْ أيامِ التشريقِ . . رمىٰ في

هـٰذا اليومِ إحدىٰ وعشرينَ حصاةً كاليومِ الذي قبلَهُ ، ثمَّ هوَ مخيَّرٌ بينَ المُقامِ بمنىً وبينَ العودِ إلىٰ مكَّةَ ، فإنْ خرجَ مِنْ منىً قبلَ غروبِ الشمسِ . . فلا شيءَ عليهِ ، وإنْ صبرَ إلى الليلِ . . فلا يجوزُ لهُ الخروجُ ، بلْ يلزمُهُ المبيتُ حتَّىٰ يرميَ في يومِ النَّفرِ الثاني إحدىٰ وعشرينَ حصاةً كما سبقَ .

وفي تركِ المبيتِ والرمي إراقةُ دمٍ ، وليتصدَّقْ باللحمِ(١) ، ولهُ أنْ يزورَ البيتَ في ليالي منىً ، بشرطِ ألا يبيتَ إلا بمنىً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُ ذلكَ(٢) ، ولا يتركنْ حضورَ الفرائضِ معَ الإمامِ في مسجدِ الخَيْفِ ؛ فإنَّ فضلَهُ عظيمٌ ، فإذا أفاضَ مِنْ منىً . . فالأَوْلىٰ أنْ يقيمَ بالمُحَصَّبِ مِنْ منىً ، ويصليَ العصرَ والمغربَ والعشاءَ ، ويرقدَ رقدةً ، فهوَ السنَّةُ ، رواهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ(٣) فإنْ لمْ يفعلْ ذلكَ . . فلا شيءَ عليهِ .

* * *

---

(١) فلا يجور له الأكل منه ؛ لأنه دم واجب .

(٢) روىٰ ذلك ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٤٤٩٢) ، وأبو داوود في « المراسيل » (١٥١) .

(٣) رواه البخاري (١٧٦٩) وزاد صلاة الظهر ، وهو كذلك عند أبي داوود (٢٠١٣) ، وقول المصنف : (رُوِيَ ذلك عن جماعة من الصحابة) فالمراد بهم : أبو بكر وعمر وابن عمر كما في « صحيح مسلم » (١٣١١) ، وعثمان كما عند الترمذي (٩٢١) ، وابن ماجه (٣٠٦٩) ، وقد رُوي إنكاره عن عائشة وابن عباس وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير ، والله أعلم . « إتحاف » (٤/٤٠٦) .

الجملة الثامنة : في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

مَنْ أرادَ أنْ يعتمرَ بعدَ حجِّهِ أوْ قبلَهُ كيفما أرادَ .. فليغتسلْ ، وليلبسْ ثيابَ الإحرامِ كما سبقَ في الحجِّ ، ويحرمْ بالعمرةِ مِنْ ميقاتِها .

وأفضلُ مواقيتِها : الجِعْرَانةُ ، ثمَّ التنعيمُ ، ثمَّ الحديبيَةُ .

وينوي العمرةَ ويلبِّي ، ويقصدُ مسجدَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، ويصلِّي ركعتينِ ويدعو بما شاءَ ، ثمَّ يعودُ إلىٰ مكَّةَ وهوَ يلبِّي حتَّىٰ يدخلَ المسجدَ الحرامَ ، فإذا دخلَ المسجدَ .. تركَ التلبيةَ ، وطافَ سبعاً ، وسعىٰ سبعاً كما وصفناهُ ، فإذا فرغَ .. حلقَ رأسَهُ وقدْ تمَّتْ عمرتُهُ .

والمقيمُ بمكَّةَ ينبغي أنْ يكثرَ الاعتمارَ والطوافَ ، وليكثرِ النظرَ إلى البيتِ ، فإذا دخلَهُ .. فليصلِّ ركعتينِ بينَ العمودينِ ، فهوَ الأفضلُ ، وليدخلْهُ حافياً موقِّراً ، قيلَ لبعضِهِمْ : هلْ دخلتَ بيتَ ربِّكَ اليومَ ؟ فقالَ : واللهِ ؛ ما أرىٰ هاتينِ القدمينِ أهلاً للطوافِ حولَ بيتِ ربِّي ، فكيفَ أراهما أهلاً لأنْ أطأَ بهما بيتَ ربِّي وقدْ علمتُ حيثُ مشتا ، وإلىٰ أينَ مشتا ؟ ![1] .

وليكثرْ شربَ ماءِ زمزمَ ، وليستقِ بيدِهِ مِنْ غيرِ استنابةٍ إنْ أمكنَهُ ، وليرتوِ منهُ حتَّىٰ يتضلَّعَ ، وليقلْ : (اللهمَّ ؛ اجعلْهُ شفاءً مِنْ كلِّ داءٍ وسقمٍ ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥٠) عن وهيب بن الورد ، عن امرأة قالت ذلك .

وارزقني الإخلاصَ واليقينَ والمعافاةَ في الدنيا والآخرةِ)[1] .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ماءُ زمزمَ لما شربَ لهُ » أي : يشفي ما قصدَ بهِ[2] .

❋ ❋ ❋

(١) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١١٣) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٨٨) عن عكرمة قال : (كان ابن عباس إذا شرب من زمزم . . قال : اللهم ؛ إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء) .
وروى ابن ماجه (٣٠٦١) عن عبد الرحمـٰن بن أبي بكر قال : (كنت عند ابن عباس جالساً ، فجاءه رجل ، فقال : من أين جئت ؟ قال : من زمزم ، قال : فشربت منها كما ينبغي ؟ قال : وكيف ؟ قال : إذا شربت منها . . فاستقبل القبلة ، واذكر اسم الله ، وتنفس ثلاثاً ، وتضلع منها ـ والتضلع : الامتلاء حتىٰ تمتد الأضلاع ـ فإذا فرغت . . فاحمد الله عز وجل ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم ») .
وفي « البخاري » (٥٦١٧) ، و« مسلم » (٢٠٢٧) : (أنه صلى الله عليه وسلم شرب من زمزم قائماً) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٠٦٢) ، وقول المصنف : (يشفي ما قصد به) ليس تخصيصاً ، فقد روى الدارقطني في « سننه » (٢/ ٣٨٩) مرفوعاً : « ماء زمزم لما شرب له ؛ إن شربته تستشفي به . . شفاك الله ، وإن شربته لشبعك . . أشبعك الله به ، وإن شربته ليقطع ظمأك . . قطعه الله ، وهي هزمة جبريل ، وسقيا الله إسماعيل » ، وروى الدينوري في « المجالسة » (ص٨٦) عن الحميدي قال : (كنا عند سفيان بن عيينة ، فحدثنا بحديث زمزم أنه لما شرب له ، فقام رجل من المجلس ثم عاد ، فقال له : يا أبا محمد ؛ أليس الحديث صحيحاً الذي حدثتنا به في زمزم أنه لما شرب له ؟ فقال سفيان : نعم ، فقال الرجل : فإني قد شربت الآن دلواً من زمزم علىٰ أنك تحدثني بمئة حديث ـ وعند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٣٠٨) : بمئتي حديث ـ فقال سفيان : اقعد ، فحدثه بمئة حديث) .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عنَّ لهُ الرجوعُ إلى الوطنِ بعدَ الفراغِ مِنْ إتمامِ الحجِّ والعمرةِ . . فلينجزْ أوّلاً أشغالَهُ ، وليشدَّ رحالَهُ ، وليجعلْ آخرَ أشغالِهِ وداعَ البيتِ ، ووداعُهُ بأنْ يطوفَ بهِ سبعاً كما سبقَ ، ولكنْ مِنْ غيرِ رَمَلٍ واضطباعٍ .

فإذا فرغَ منهُ . . صلَّىٰ ركعتينِ خلفَ المقامِ ، وشربَ مِنْ ماءِ زمزمَ ، ثمَّ يأتي الملتزمَ ، ويدعو ويتضرَّعُ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ البيتُ بيتُكَ ، والعبدُ عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ ، حملتَني علىٰ ما سخرتَ لي مِنْ خلقِكَ حتَّىٰ سيرتَني في بلادِكَ ، وبلغتَني بنعمتِكَ حتَّىٰ أعنتَني علىٰ قضاءِ مناسكِكَ ، فإنْ كنتَ رضيتَ عنِّي . . فازددْ عنِّي رضاً ، وإلا . . فمُنَّ الآنَ قبلَ تباعدي عنْ بيتِكَ(١) ، هـٰذا أوانُ انصرافي إنْ أذنتَ لي غيرَ مستبدلٍ بكَ ولا ببيتِكَ ، ولا راغبٍ عنْكَ ولا عنْ بيتِكَ ، اللهمَّ ؛ أصحبني العافيةَ في بدني ، والعصمةَ في ديني ، وأحسنْ منقلبي ، وارزقني طاعتَكَ ما أبقيتَني ، واجمعْ لي خيرَ الدنيا والآخرةِ ؛ إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلْ هـٰذا آخرَ عهدي ببيتِكَ الحرامِ ، وإنْ جعلتَهُ آخرَ

---

(١) ذكر الإمام النووي رحمه الله في قوله : (فمن الآن) ثلاثة أوجه : فمُنَّ الآنَ ، فمَنَ الآنَ ، فمِنَ الآنَ ، ورجح الأول . انظر « المجموع » (٨/ ١٨٩) .

عهدي . . فعوضني عنهُ الجنَّةَ)[١] .

والأحبُّ : ألا يصرفَ بصرَهُ عنِ البيتِ حتَّىٰ يغيبَ عنهُ .

* * *

(١) رویٰ هـٰذا الدعاء البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٦٤) عن الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وفيه : (أحب له إذا ودع البيت . . .) .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارني بعدَ وفاتي . . فكأنَّما زارني في حياتي »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وجدَ سعةً ولمْ يفدْ إليَّ . . فقدْ جفاني »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جاءَني زائراً لا يهمُّهُ إلا زيارتي . . كانَ حقّاً على اللهِ سبحانَهُ أنْ أكونَ لهُ شفيعاً »(٣) .

فمنْ قصدَ زيارةَ المدينةِ . . فليصلِّ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في طريقِهِ كثيراً .

فإذا وقعَ بصرُهُ علىٰ حيطانِ المدينةِ وأشجارِها . . قالَ : (اللهمَّ ؛ هٰذا

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٨٩ ، ٣٤٠٠) ، والدارقطني في « سننه » (٢/٢٧٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/٢٤٦) ، وانظر « شفاء السقام » (ص٣٢) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/١٤) ، والدارقطني في « غرائب مالك » ، وانظر « شفاء السقام » (ص٢٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/٢٩١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/١٩٠) ، وصححه سعيد بن السكن كما في « شفاء السقام » (ص١٦ ، ٢٠) ، والإمام تقي الدين السبكي جمع في « شفائه » من الأحاديث والأخبار في تأييد هٰذا المعنىٰ ما هو المغنَىٰ .

حرمُ رسولِكَ ، فاجعلْهُ لي وقايةً مِنَ النارِ ، وأماناً مِنَ العذابِ وسوءِ الحسابِ) .

وليغتسلْ قبلَ الدخولِ مِنْ بئرِ الحَرَّةِ ، وليتطيَّبْ ، وليلبسْ أفضلَ ثيابِهِ وأنظفَها ، فإذا دخلَها . . فليدخلْها متواضعاً معظِّماً ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ وعلىٰ ملَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ربِّ ؛ أدخلني مُدْخَلَ صدْقٍ ، وأخرجني مُخْرَجَ صدقٍ ، واجعلْ لي مِنْ لدنْكَ سُلطاناً نصيراً) .

ثمَّ يقصدُ المسجدَ ويدخلُهُ[1] ، ويصلِّي بجنْبِ المنبرِ ركعتينِ ، ويجعلُ عمودَ المنبرِ حذاءَ مَنكبِهِ الأيمنِ ، ويستقبلُ الساريةَ التي إلىٰ جانبِها الصندوقُ ، وتكونُ الدائرةُ التي في قبلةِ المسجدِ بينَ عينيهِ ؛ فذلكَ موقفُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يغيَّرَ المسجدُ ، وليجتهدْ أنْ يصليَ في مسجدِهِ الأوَّلِ قبلَ أنْ يزادَ فيهِ .

ثمَّ يأتي قبرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقفُ عندَ وجهِهِ ، وذلكَ بأنْ يستدبرَ القبلةَ ويستقبلَ جدارَ القبرِ علىٰ نحوٍ مِنْ أربعةِ أذرعٍ مِنَ الساريةِ التي في زاويةِ جدارِ القبرِ ، ويجعلُ القنديلَ علىٰ رأسِهِ[2] ، وليسَ مِنَ السنَّةِ أنْ يمسَّ

---

(١) من باب جبريل عليه السلام ، مقدماً يمناه في الدخول ، قائلاً : باسم الله ، اللهم ، رب محمد ؛ صلِّ علىٰ محمد ، ربِّ ؛ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . « إتحاف » (٤/٤١٧) .

(٢) كذا رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٧١) عن ابن أبي مليكة ، واليوم ثَمَّ الشباك الذي هو في المواجهة الشريفة .

الجدارَ ، ولا أنْ يقبِّلَهُ[1] ، بلِ الوقوفُ مِنْ بعدٍ أقربُ إلى الاحترامِ ، فيقفُ ويقولُ : (السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا نبيَّ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أمينَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا حبيبَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا صفوةَ اللهِ ،

---

(١) فقد روى ابن عاصم الأصبهاني في « جزئه » (٢٧) عن نافع : (أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يكره مس قبر النبي صلى الله عليه وسلم) .
قال الحافظ الذهبي في « معجم الشيوخ » (١/ ٧٣) معلقاً علىٰ هـٰذه الرواية بعدما رواها من طريق أحمد بن عبد المنعم القزويني : (قلت : كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب ، وقد سئل أحمد ابن حنبل عن مس القبر النبوي وتقبيله . . فلم يرَ بذلك بأساً ، رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد ، فإن قيل : فهلا فعل ذلك الصحابة ؟ قيل : لأنهم عاينوه حياً وتملَّوا به ، وقبَّلوا يده ، وكادوا يقتتلون علىٰ وضوئه ، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر ، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه ، ونحن فلمَّا لم يصح لنا مثل هـٰذا النصيب الأوفر . . ترامينا علىٰ قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل ، ألا ترىٰ فعل ثابت البناني ؛ كان يقبّل يد أنس بن مالك ويضعها علىٰ وجهه ويقول : يد مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذه الأمور لا يحركها من المسلم إلا فرط حبه للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين ، ومن أمواله ومن الجنة وحورها ، بل خلْقٌ من المؤمنين يحبون أبا بكر وعمر أكثر من حب أنفسهم ، حكىٰ لنا جندار أنه كان بجبل البقاع ، فسمع رجلاً سب أبا بكر ، فسلَّ سيفه وضرب عنقه ، ولو كان سمعه يسبه أو يسب أباه . . لما استباح دمه ، ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا : ألا نسجد لك ؟ فقال : « لا » ، فلو أذن لهم . . لسجدوا له سجود إجلال وتوقير ، لا سجود عبادة ؛ كما قد سجد إخوة يوسف عليه السلام ليوسف ، وكذلك القول في سجود المسلم لقبر النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ سبيل التعظيم والتبجيل لا يكفَّر به أصلاً بل يكون عاصياً ، فليعرف أن هـٰذا منهي عنه ، وكذلك الصلاة إلى القبر) ، وله كذلك نحو هـٰذا في « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٤٢) و(١١/ ٢١٢) .

السلامُ عليكَ يا خيرةَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أحمدُ ، السلامُ عليكَ يا محمدُ ، السلامُ عليكَ يا أبا القاسمِ ، السلامُ عليكَ يا ماحي ، السلامُ عليكَ يا عاقبُ ، السلامُ عليكَ يا حاشرُ ، السلامُ عليكَ يا بشيرُ ، السلامُ عليكَ يا نذيرُ ، السلامُ عليكَ يا طُهْرُ ، السلامُ عليكَ يا طاهرُ ، السلامُ عليكَ يا أكرمَ ولدِ آدمَ ، السلامُ عليكَ يا سيِّدَ المرسلينَ ، السلامُ عليكَ يا خاتمَ النبيينَ ، السلامُ عليكَ يا رسولَ ربِّ العالمينَ ، السلامُ عليكَ يا قائدَ الخيرِ ، السلامُ عليكَ يا فاتحَ البِرِّ[1] ، السلامُ عليكَ يا نبيَّ الرحمةِ ، السلامُ عليكَ يا هاديَ الأمَّةِ ، السلامُ عليكَ يا قائدَ الغرِّ المحجلينَ .

السلامُ عليكَ وعلىٰ أهلِ بيتِكَ الذينَ أذهبَ اللهُ عنهمُ الرجسَ وطَهَّرَهُم تطهيراً .

السلامُ عليكَ وعلىٰ أصحابِكَ الطيبينَ وعلىٰ أزواجِكَ الطاهراتِ أمهاتِ المؤمنينَ .

جزاكَ اللهُ عنَّا أفضلَ ما جزىٰ نبيّاً عنْ قومِهِ ، ورسولاً عنْ أمَّتِهِ ، وصلَّىٰ عليكَ كلَّما ذكرَكَ الذاكرونَ ، وكلَّما غفلَ عنكَ الغافلونَ وصلَّىٰ عليكَ في الأوَّلينَ والآخرينَ أفضلَ وأكملَ وأعلىٰ وأجلَّ وأطيبَ وأطهرَ ما صلَّىٰ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ ، كما استنقذَنا بكَ مِنَ الضلالةِ ، وبصَّرَنا بكَ مِنَ العَمايةِ[2] ، وهدانا بكَ مِنَ الجهالةِ .

---

(١) بالكسر ، وهو الخير والفضل؛ أي : فاتح أبوابه ومقرب أسبابه . «إتحاف» (٤/٤١٨) .
(٢) **استنقذنا** : خلصنا ، **والعماية** : الغواية ، والحيرة ، والظلمة .

أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّكَ عبدُهُ ورسولُهُ ، وأمينُهُ وصفيُّهُ ، وخيرتُهُ مِنْ خلقِهِ ، وأشهدُ أنَّكَ قدْ بلغتَ الرسالةَ ، وأديتَ الأمانةَ ، ونصحتَ الأمَّةَ ، وجاهدْتَ عدوَّكَ ، وهديتَ أمَّتَكَ ، وعبدتَ ربَّكَ حتَّىٰ أتاكَ اليقينُ ، فصلَّى اللهُ عليكَ وعلىٰ أهلِ بيتِكَ الطيبينَ ، وسلَّمَ وكرَّمَ وشرَّفَ وعظَّمَ) .

وإنْ كانَ قدْ أوصيَ بتبليغِ سلامٍ[1] .. فيقولُ : (السلامُ عليكَ مِنْ فلانٍ ، السلامُ عليكَ مِنْ فلانٍ) .

ثمَّ يتأخَّرُ قدْرَ ذراعٍ ، ويسلِّمُ علىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ لأنَّ رأسَهُ عندَ مَنْكِبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ورأسُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ منكبِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[2] . ثمَّ يتأخرُ قدْرَ ذراعٍ ، ويسلِّمُ على الفاروقِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، ويقولُ : (السلامُ عليكما يا وزيري رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والمعاونينِ لهُ على القيامِ بالدِّينِ ما دامَ حيّاً ، والقائمينِ في أمَّتِهِ بعدَهُ بأمورِ الدينِ ، تتبعانِ في ذلكَ آثارَهُ ، وتعملانِ بسنَّتِهِ ، فجزاكُما اللهُ خيرَ ما جزىٰ وزراءَ نبيٍّ عنْ دينِهِ) .

ثمَّ يرجعُ ، فيقفُ عندَ رأسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ القبرِ

---

(١) وهـٰذه الوصاية بإبلاغه صلى الله عليه وسلم السلام من فعل السلف ، وقد روى البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٩) عن حاتم بن وردان قال : (كان عمر بن عبد العزيز يوجه بالبريد قاصداً إلى المدينة ليقرىء عنه النبي صلى الله عليه وسلم السلام) .

(٢) نقل ذلك أبو زرعة كما في « الشعب » (٣٨٧٥) .

والأُسطوانَةَ اليومَ ، ويستقبلُ القبلةَ ، وليحمدِ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وليمجدْهُ ، وليكثرْ مِنَ الصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يقولُ : (اللهمَّ ، إنَّكَ قدْ قلتَ وقولُكَ الحقُّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ سمعْنا قولَكَ ، وأطعْنا أمرَكَ ، وقصدنا نبيَّكَ ، مستشفعينَ بهِ إليكَ في ذنوبِنا وما أثقلَ ظهورَنا مِنْ أوزارِنا ، تائبينَ مِنْ زللِنا ، معترفينَ بخطايانا وتقصيرِنا ، فتبِ اللهمَّ علينا ، وشفِّعْ نبيَّكَ هٰذا فينا(١) ، وارفعْنا بمنزلتِهِ عندَكَ وحقِّهِ عليكَ .

اللهمَّ ؛ اغفرْ للمهاجرينَ والأنصارِ ، واغفرْ لنا ولإخوانِنا الذينَ سبقونا بالإيمانِ .

اللهمَّ ؛ لا تجعلْهُ آخرَ العهدِ مِنْ قبرِ نبيِّكَ ومِنْ حرمِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ)(٢) .

ثمَّ يأتي الروضةَ ، فيصلِّي فيها ركعتينِ ، ويكثرُ مِنَ الدعاءِ ما استطاعَ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما بينَ قبري ومنبري روضةٌ

---

(١) ويشير بذلك إلىٰ حضرته صلى الله عليه وسلم بالتفات وجهه إليه . « إتحاف » (٤/ ٤٢٢) .

(٢) وإن لم يستحضر هٰذا الدعاء.. فليدع بما أحب وألهمه الله علىٰ لسانه وقلبه . « إتحاف » (٤/ ٤٢٢) .

مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومنبري علىٰ حوضي »[1] .

ويدعو عندَ المنبرِ ، ويستحبُّ أنْ يضعَ يدَهُ على الرمَّانَةِ السفلى التي كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضعُ يدهُ عليها عندَ الخطبةِ[2] .

ويستحبُّ لهُ أنْ يأتيَ أُحُداً يومَ الخميسِ[3] ، ويزورَ قبورَ الشهداءِ ، فيصلِّي الغداةَ في مسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ يخرجُ ويعودُ إلى المسجدِ لصلاةِ الظهرِ ، فلا تفوتُهُ فريضةٌ في الجماعةِ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ويستحبُّ أنْ يخرجَ كلَّ يومٍ إلى البقيعِ بعدَ السلامِ علىٰ رسولِ اللهِ

---

(١) رواه البخاري (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) ، وفيهما : (بيتي) بدل (قبري) ، وبيته صلى الله عليه وسلم هو قبره ، وجاء التصريح بلفظ : (قبري) عند أحمد في « المسند » (٣/ ٦٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٦١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٤٦) .

(٢) تأسياً بفعل السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم ، روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٢١٨) عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال : (رأيت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد . . أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون) ، وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ١٩٢) عن محمد بن إبراهيم التيمي قال : (رأيت سعد بن أبي وقاص وابن عمر يأخذان برمانة المنبر ثم ينصرفان) .

(٣) لكون الوقعة كانت في يوم الخميس ، أو لكونه يوم فراغ أهل المدينة من أشغالهم ، أو للنظر إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم ـ كما روىٰ ذلك الطبراني في « الأوسط » (٤٨٢٦) ـ : « بورك لأمتي في غدوة الخميس » ، أو لغير ذلك ، وهـٰذا إن اتفق للحاج والزائر ، فإن لم يمكنه . . ففي أي يوم يتفق . « إتحاف » (٤/ ٤٢٣) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)] ، ويزورَ قبرَ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وقبرَ الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، وفيهِ أيضاً قبرُ عليِّ بنِ الحسينِ ، ومحمدِ بنِ عليٍّ ، وجعفرِ بنِ محمدٍ رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ ، ويصليَ في مسجدِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، ويزورَ قبرَ إبراهيمَ بنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقبرَ صفيَّةَ عمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذلكَ كلُّهُ بالبقيعِ .

ويستحبُّ لهُ أنْ يأتيَ مسجدَ قُباءٍ في كلِّ سبتٍ ويصلِّيَ فيهِ ؛ لما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ حتَّىٰ يأتيَ مسجدَ قباءَ ويصلِّي فيهِ . . كانَ لهُ عَدْلُ عمرةٍ »[(٢)] .

ويأتي بئرَ أَرِيسَ ، ويقالُ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفلَ فيها مِنْ ريقِهِ[(٣)] ، وهيَ عندَ المسجدِ ، فيتوضَّأُ منها ، ويشربُ مِنْ مائِها ، ويأتي مسجدَ الفتحِ ، وهوَ على الخندقِ ، وكذا يأتي سائرَ المساجدِ والمشاهدِ .

---

(١) وقد جاء الأمر من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم بزيارة أهل البقيع والاستغفار لهم ، كما في « مسلم » (٩٧٤) .

(٢) رواه النسائي (٢/ ٣٧) ، وابن ماجه (١٤١٢) .

(٣) كما روىٰ ذلك البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ١٣٦) عن يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك وقد سأل عن بئر بقباء فدُلَّ عليها فقال : (لقد كانت هـٰذه وإن الرجل لينضح علىٰ حماره ، فينزح ، فنستخرجها له ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بذنوب ـ دلوٍ ـ فسقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ، ثم أمر به فأعيد في البئر ، قال : فما نزحت بعدُ) ، وقد بين الحافظ الشامي أنها هي بئر أريس في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٧/ ٣٤٦) ، وأَرِيس : نسبة إلىٰ رجل من يهود ، وهو الفلاح بلغة أهل الشام ، ومنه حديث : « فإن عليك إثم الأريسيين » ، وهي من أعذب آبار المدينة المنورة .

ويقالُ : إنَّ جميعَ المشاهدِ والمساجدِ بالمدينةِ ثلاثونَ موضعاً ، يعرفُها أهلُ البلدِ ، فيقصدُ ما قَدَرَ عليهِ ، وكذلكَ يقصدُ الآبارَ التي كانَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتوضَّأُ منها ، ويغتسلُ ويشربُ منها ، وهي سبعُ آبارٍ(١) ؛ طلباً للشفاءِ ، وتبرُّكاً بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وإنْ أمكنَهُ الإقامةُ بالمدينةِ معَ مراعاةِ الحرمةِ . . فلها فضلٌ عظيمٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصبر علىٰ لأْوائِها وشدَّتِها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »(٢) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استطاعَ أنْ يموتَ

---

(١) قال الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٣٤٦ـ٣٦٠) : (جملة الآبار التي ورد شربه صلى الله عليه وسلم منها وبصقه فيها ودعاؤه بالبركة لها هي إحدىٰ وعشرون بئراً ، الذي اشتهر معرفته منها سبع) ، قال الحافظ العراقي في « المغني » : (وهي بئر أريس ، وبَيرَحاء وقد تفصل لتصير : بير حاء ، وبئر رُومَة ، وبئر غَرْس ، وبئر بُضاعة ، وبئر البُصَة بتخفيف الصاد وتشديدها ، وبئر السُّقيا أو العهن أو بئر جمل ، تردد في السابعة بين هـٰذه الثلاثة) .

فجاء ذكر بئر أريس في « البخاري » (٣٦٧٤) ، و« مسلم » (٢٤٠٣) ، وبيرحاء في « البخاري » (٤٥٥٥) ، و« مسلم » (٩٩٨) وهي بئر أبي طلحة رضي الله عنه ، وبئر رومة في « الترمذي » (٣٦٩٩) ، وبئر غَرْس في « ابن ماجه » (١٤٦٨) إذ أوصىٰ صلى الله عليه وسلم أن يغسل إن مات بسبع قِرَب منها ، وبئر بضاعة في « أبي داوود » (٦٦) ، و« الترمذي » (٦٦) ، و« النسائي » (١/ ١٧٤) ، وبئر البصة فانظر « خلاصة الوفا » (٢/ ١٢٦) إذ نسبه لابن عدي ، وبئر السقيا في « أبي داوود » (٣٧٣٥) ، وبئر جمل في « البخاري » (٣٣٧) ، و« مسلم » (٣٦٩) ، وبئر العهن فقد ذهب السيد السمهودي إلىٰ أنها هي بئر اليسيرة كما في « خلاصة الوفا » (٢/ ١٣٨ ، ١٤٢) .

(٢) رواه مسلم (١٣٦٣) .

بالمدينةِ . . فليمتْ بها ؛ فإنَّهُ لنْ يموتَ بها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً أوْ شهيداً يومَ القيامةِ »(١) .

ثمَّ إذا فرغَ مِنْ أشغالِهِ ، وعزمَ على الخروجِ مِنَ المدينةِ . . فالمستحبُّ أنْ يأتيَ القبرَ الشريفَ ، ويعيدَ دعاءَ الزيارةِ كما سبقَ ، ويودِّعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يرزقَهُ العَوْدَ إليهِ ، ويسألَ السلامةَ في سفرِهِ ، ثمَّ يصلِّيَ ركعتينِ في الروضةِ الصغيرةِ ، وهيَ موضعُ مقامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ زيدتِ المقصورةُ في المسجدِ .

فإذا خرجَ . . فليُخْرِجْ رجلَهُ اليسرىٰ أوَّلاً ، ثمَّ اليمنىٰ ، وليقلْ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، ولا تجعلْهُ آخرَ العهدِ بنبيِّكَ ، وحطَّ أوزاري بزيارتِهِ ، وأصحبْني في سفري السلامةَ ، ويسِّرْ رجوعي إلىٰ أهلي ووطني سالماً ، يا أرحمَ الراحمينَ) .

وليتصدَّقْ علىٰ جيرانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قَدَرَ عليهِ ، وليتتبَّعِ المساجدَ التي بينَ المدينةِ ومكَّةَ فيصلِّيَ فيها ، وهيَ عشرونَ موضعاً(٢) .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٩١٧) ، وابن ماجه (٣١١٢) .
(٢) روىٰ ذلك البخاري في « صحيحه » (٤٨٣ ، ٤٨٤) .

فصل
في سنن الرجوع من السفر

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قفلَ مِنْ غزوٍ أوْ حجٍّ أوْ غيرِهِ.. يكبِّرُ علىٰ كلِّ شَرَفٍ مِنَ الأرضِ ثلاثَ تكبيراتٍ ، ويقولُ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، آيبونَ تائبونَ عابدونَ ساجدونَ لربِّنا حامدونَ ، صدقَ اللهُ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ »(١) ، وفي بعضِ الرواياتِ : « وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، لهُ الحكْمُ وإليهِ ترجعونَ »(٢) ، فينبغي أنْ يستعملَ هـٰذهِ السنَّةَ في رجوعِهِ .

وإذا أشرفَ علىٰ مدينتِهِ.. يحرِّكُ الدابَّةَ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْ لنا بها قراراً ورزقاً حسناً)(٣) ، ثمَّ ليرسلْ إلىٰ أهلِهِ مَنْ يخبرُهُمْ بقدومِهِ كي لا يقدمَ عليهم بغتةً(٤) ، فذلكَ هوَ السنَّةُ ، ولا ينبغي أنْ يطرقَ أهلَهُ

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .

(٢) رواه المحاملي في « الدعاء » (٧٧) .

(٣) روى المحاملي في « الدعاء » (٩٥) : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من أسفاره ، فأشرف على المدينة.. يسرع السير ويقول : « اللهم ؛ اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً » .

(٤) كما في « البخاري » (٥٠٧٩) ، و« مسلم » (١٩٢٨/ ١٨١) إذ قال صلى الله عليه وسلم للركب : « أمهلوا حتىٰ ندخل ليلاً ؛ أي : عشاء ، كي تمتشط الشعثة وتستحد =

ليلاً[1] ، فإذا دخلَ البلدَ . . فليقصدِ المسجدَ أوّلاً ، وليصلِّ ركعتينِ ، فهوَ السنَّةُ ، كذلكَ كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

فإذا دخلَ بيتَهُ . . قالَ : (توباً توباً ، لربنا أوباً ، لا يغادِرُ علينا حُوْباً)[3] .

فإذا استقرَّ في منزلِهِ . . فلا ينبغي أنْ ينسىٰ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ مِنْ زيارةِ بيتِهِ وحرمِهِ وقبرِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيكفرَ تلكَ النعمةَ بأنْ يعودَ إلى الغفلةِ واللهوِ والخوضِ في المعاصي ، فما ذلكَ علامةَ الحجِّ المبرورِ ، بلْ علامتُهُ أنْ يعودَ زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرةِ ، متأهِّباً للقاءِ ربِّ البيتِ بعدَ لقاءِ البيتِ .

❊ ❊ ❊

= المغيبة » ، فإعلام الأهل مفهوم من سياق الحديث .

(١) أي : بعد العشاء ، فلا يدخل حتىٰ يحصل الإخبار لأهله بقدومه ، والليل مانع منه .

(٢) كما في « البخاري » (٤٤١٨) ، و« مسلم » (٧١٦) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٥٥) ، ومعنىٰ (**لا يغادر**) : لا يترك ، **والحوب** : الإثم .

البَابُ الثَّالِثُ
في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب
وهي عشرة

الأوَّلُ : أنْ تكونَ النفقةُ حلالاً ، وتكونَ اليدُ خاليةً مِنْ تجارةٍ تشغَلُ القلبَ وتفرِّقُ الهمَّ ، حتَّىٰ يكونَ الهمُّ مجرَّداً للهِ تعالىٰ ، والقلبُ مطمئناً منصرفاً إلىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ وتعظيمِ شعائرِه .

وقدْ رُوِيَ في خبرٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « إذا كانَ آخرُ الزمانِ .. خرجَ الناسُ إلى الحجِّ أربعةَ أصنافٍ : سلاطينُهُمْ للنزهةِ ، وأغنياؤُهُم للتجارةِ ، وفقراؤُهُمْ للمسألةِ ، وقراؤُهُمْ للسمعَةِ »(١) .

وفي الخبرِ إشارةٌ إلىٰ جملةِ أغراضِ الدنيا التي يتصوَّرُ أنْ تتصلَ بالحجِّ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يمنعُ فضيلةَ الحجِّ ، ويخرجُهُ عنْ حيِّزِ حجِّ الخصوصِ ، لا سيما إذا كانَ متَّجِراً بنفسِ الحجِّ ؛ بأنْ يحجَّ لغيرِه بأجرةٍ ، فيطلبُ الدنيا

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٢٩٥) بنحوه ، وأبو عثمان الصابوني في « المئتين » ، وساق سنده الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/ ٤٣٢) ، ولفظ المصنفِ من « القوت » (٢/ ١١٧) ، وكذا سياق المصنف هنا .

بعملِ الآخرةِ ، وقدْ كرهَ الورعونَ وأربابُ القلوبِ ذلكَ إلا أنْ يكونَ قصدُهُ المُقامَ بمكَّةَ ولمْ يكنْ لهُ ما يبلِّغُهُ ، فلا بأسَ أنْ يأخذَ ذلكَ على هٰذا القصدِ ، لا ليتوصلَ بالدِّينِ إلى الدنيا ، بلْ بالدنيا إلى الدينِ ، وعندَ ذلكَ ينبغي أنْ يكونَ قصدُهُ زيارةَ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومعاونةَ أخيهِ المسلمِ بإسقاطِ الفرضِ عنهُ ، وفي مثلِه ينزَّلُ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُدْخِلُ اللهُ سبحانَهُ بالحجَّةِ الواحدةِ ثلاثةً الجنةَ : الموصِي بها ، والمنفِذُ لها ، ومَنْ حجَّ بها عنْ أخيهِ »(١) .

ولستُ أقولُ : لا تحلُّ الأجرةُ ، أوْ يحرمُ ذلكَ بعدَ أنْ أسقطَ فرضَ الإسلامِ عنْ نفسِهِ ، ولكنِ الأَوْلىٰ ألا يفعلَ ، ولا يتخذَ ذلكَ مكسبَهُ ومتجرَهُ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يعطي الدنيا بالدينِ ، ولا يعطي الدينَ بالدنيا ، وفي الخبرِ : « مثلُ الذي يغزو في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ويأخذُ أجراً مثلُ أمِّ موسىٰ عليهِ السلامُ ، ترضعُ ولدَها وتأخذُ أجرَها »(٢) .

فمَنْ كانَ مثالُهُ في أخذِ الأُجرةِ على الحجِّ مثالَ أمِّ موسىٰ . . فلا بأسَ بأخذِهِ ؛ فإنَّهُ يأخذُ ليتمكَّنَ مِنَ الحجِّ والزيارةِ فيهِ ، وليسَ يحجُّ ليأخذَ الأجرةَ ، بلْ يأخذُ الأجرةَ ليحجَّ ؛ كما كانتْ أمُّ موسىٰ تأخذُ ليتيسَّرَ لها الإرضاعُ بتلبيسِ حالِها عليهِمْ .

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٨٠) ، وفي « الشعب » (٣٨٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٨٨١)، وأبو داوود في « المراسيل » (٣١٨) .

الثاني : ألا يعاونَ أعداءَ اللهِ سبحانَهُ بتسليمِ المكْسِ[1] ، وهمُ الصادُّونَ عنِ المسجدِ الحرامِ مِنْ أمراءِ مكَّةَ والأعرابِ المترصِّدينَ في الطريقِ ؛ فإنَّ تسليمَ المالِ إليهِمْ إعانةٌ على الظلْمِ وتيسيرٌ لأسبابِهِ عليهِمْ ، فهوَ كالإعانةِ بالنفسِ .

فليتلطفْ في حيلةِ الخلاصِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فقدْ قالَ بعضُ العلماءِ ـ ولا بأسَ بما قالَهُ ـ : (إنَّ تركَ التنفُّلِ بالحجِّ والرجوعَ عنِ الطريقِ أفضلُ مِنْ إعانةِ الظلمةِ)[2] ، فإنَّ هـٰذهِ بدعةٌ أحدثَتْ ، وفي الانقيادِ لها ما يجعلُها سنَّةً مطردةً ، وفيهِ ذلٌّ وصَغارٌ على المسلمينَ ببذْلِ جزيةٍ .

ولا معنىٰ لقولِ القائلِ : (إنَّ ذلكَ يؤخذُ منِّي وأنا مضطرٌّ) فإنَّهُ لوْ قعدَ في البيتِ ، أوْ رجعَ مِنَ الطريقِ . . لمْ يؤخذْ منهُ شيءٌ ، بلْ ربما يُظهِرُ أسبابَ الترفُّهِ ، فتكثرُ مطالبتُهُ ، ولوْ كانَ في زيِّ الفقراءِ . . لمْ يطالبْ ، فهوَ الذي ساقَ نفسَهُ إلىٰ حالةِ الاضطرارِ .

* * *

الثالثُ : التوسُّعُ في الزادِ ، وطيبُ النفسِ بالبذلِ ، والإنفاقُ مِنْ غيرِ تقتيرٍ ولا إسرافٍ ، بلْ على الاقتصادِ ، وأعني **بالإسرافِ** : التنعُّمَ بأطايبِ الأطعمةِ ، والترفُّهَ بأشرفِ أنواعِها علىٰ عادةِ المترفينَ ، فأمَّا كثرةُ البذْلِ . .

---

(١) **المكْس** : الجباية والظلم ، وغلب استعماله فيما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع والشراء ، ونحو ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داوود (٢٩٣٧) : « لا يدخل الجنة صاحب مكس » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٧) .

فلا سرفَ فيهِ ؛ إذْ لا خيرَ في السرفِ ولا سرفَ في الخيرِ كما قيلَ[1] ، وبذلُ الزادِ في طريقِ الحجِّ نفقةٌ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والدرهمُ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (مِنْ كرمِ الرجلِ طيبُ زادِهِ في سفرِهِ)[2] ، وكانَ يقولُ : (أفضلُ الحجاجِ أخلصُهُمْ نيَّةً ، وأزكاهُمْ نفقةً ، وأحسنُهُمْ يقيناً)[3] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلا الجنةَ » ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما برُّ الحجِّ ؟ فقالَ : « طيبُ الكلامِ ، وإطعامُ الطعامِ »[4] .

* * *

الرابعُ : تركُ الرفثِ والفسوقِ والجدالِ كما نطقَ بهِ القرآنُ .

والرفث : اسمٌ جامعٌ لكلِّ لغوٍ وخناً وفحشٍ مِنَ الكلامِ ، ويدخلُ فيهِ مغازلةُ النساءِ ومداعبتُهُنَّ ، والتحدثُ بشأنِ الجماعِ ومقدماتِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يهيجُ داعيةَ الجماعِ المحظورِ ، والداعي إلى المحظورِ محظورٌ .

والفسوقُ : اسمٌ جامعٌ لكلِّ خروجٍ عنْ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) نسبه ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢/ ٦١٤) للحسن بن سهل .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .
(٤) أوله في « الصحيحين » وقد تقدم ، وهو بهذا اللفظ رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٥) بنحوه .

والجدالُ : هوَ المبالغةُ في الخصومةِ ، والمماراةُ بما يورثُ الضغائنَ ، ويفرِّقُ في الحالِ الهمَّةَ ، ويناقضُ حسنَ الخلقِ .

وقدْ قالَ سفيانُ : (مَنْ رفثَ . . فسدَ حجُّهُ)[1] ، وقدْ جعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طيبَ الكلامِ معَ إطعامِ الطعامِ مِنْ برِّ الحجِّ[2] ، والمماراةُ تناقضُ طيبَ الكلامِ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ كثيرَ الاعتراضِ علىٰ رفيقِهِ وجمَّالِهِ ، وعلىٰ غيرِهما مِنْ أصحابِهِ ، بلْ يلينُ جانبَهُ ، ويخفضُ جناحَهُ للسائرينَ إلىٰ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ويلزمُ حسنَ الخلقِ ، وليسَ حسنُ الخلقِ كفَّ الأذىٰ ، بلِ احتمالُ الأذىٰ ، وقيلَ : سمِّيَ السفرُ سفراً لأنَّهُ يُسْفِرُ عنْ أخلاقِ الرجالِ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لمَنْ زعمَ أنَّهُ يعرفُ رجلاً : هلْ صحبتَهُ في السفرِ الذي يستدلُّ بهِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ ؟ قالَ : لا ، فقالَ : ما أراكَ تعرفُهُ[3] .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : أنْ يحجَّ ماشياً إن قدَرَ عليهِ ، فذلكَ الأفضلُ ، أوصىٰ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما بنيهِ عندَ موتهِ فقالَ : يا بنيَّ ؛ حجوا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .

(٢) تقدم في الحديث السابق .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٧) ، وبلفظ المصنف هو في « القوت » (٢/ ١١٥) .

مشاةً ؛ فإنَّ للحاجِّ الماشي بكلِّ خطوةٍ يخطوها سبعَ مئةِ حسنةٍ مِنْ حسناتِ الحرمِ ، قيلَ : وما حسناتُ الحرمِ ؟ قال : الحسنةُ بمئةِ ألفٍ(١) .

والاستحبابُ في المشيِ في المناسكِ ، والتردُّدِ مِنْ مكَّةَ إلى الموقفِ وإلىٰ منىً آكدُ منهُ في الطريقِ .

وإنْ أضافَ إلى المشيِ الإحرامَ مِنْ دويرةِ أهلِهِ ؛ فقدْ قيلَ : إنَّ ذلكَ مِنْ إتمامِ الحجِّ ، قالَهُ عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُم في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : الركوبُ أفضلُ ؛ لما فيهِ مِنَ الإنفاقِ والمؤنةِ ولأنَّهُ أبعدُ عنْ ضجرِ النفسِ وأقلُّ لأذاهُ ، وأقربُ إلىٰ سلامتِهِ وتمامِ حجِّهِ(٣) .

وهٰذا عندَ التحقيقِ ليسَ مخالفاً للأوَّلِ ، بلْ ينبغي أنْ يفصَّلَ ويقالَ : مَنْ سهلَ عليهِ المشيُ . . فهو أفضلُ ، فإنْ كانَ يضعفُ ويؤدِّي بهِ ذلكَ إلىٰ سوءِ الخلقِ وقصورٍ عنْ عملٍ . . فالركوبُ لهُ أفضلُ ، كما أنَّ الصومَ أفضلُ للمسافرِ والمريضِ ما لمْ يفضِ إلىٰ ضعْفٍ وسوءِ خلقٍ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٦٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٦٠) ، وبلفظ المصنف رواه أبو ذر الهروي في « منسكه » كما في « الإتحاف » (٤/ ٤٣٥) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٧٦) عن علي رضي الله عنه ، وانظر « التلخيص الحبير » (٤/١٥٢٧) ، وهو ما ذهب إليه أبو طالب في « القوت » (٢/ ١١٧) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .

وسئلَ بعضُ العلماءِ عن العمرةِ : المشيُ فيها أفضلُ أَوْ يكتري حماراً بدرهمٍ ؟ فقالَ : إنْ كانَ وزنُ الدرهمِ أشدَّ عليهِ . . فالكراءُ أفضلُ مِنَ المشيِ ، وإنْ كانَ المشيُ أشدَّ عليهِ ؛ كالأغنياءِ . . فالمشيُ لهُ أفضلُ[١] .

وكأنَّهُ ذهبَ فيهِ إلىٰ طريقِ مجاهدةِ النفسِ ، ولهُ وجهٌ ، ولكنِ الأفضلُ لهُ أنْ يمشيَ ويصرفَ ذلكَ الدرهمَ إلىٰ خيرٍ ، فهوَ أولىٰ مِنْ صرفهِ إلى المكاري ، عوضاً عنْ إيذاءِ الدابةِ ، فإذا كانَ لا تتسعُ نفسُهُ للجمعِ بينِ مشقةِ النفسِ ونقصانِ المالِ . . فما ذكرهُ غيرُ بعيدٍ فيهِ .

* * *

السادسُ : ألا يركبَ إلا زاملةً ، أمَّا المحملُ . . فليجتنبْهُ ، إلا إذا كانَ يخافُ على الزاملةِ ، أوْ لا يستمسكُ عليها لعذرٍ ، **وفيهِ معنيانِ** :

أحدُهُما : التخفيفُ عنِ البعيرِ ؛ فإنَّ المحملَ يؤذيهِ .

والثاني : اجتنابُ زيِّ المترفينَ والمتكبرينَ .

حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ راحلةٍ وكانَ تحتهُ رحْلٌ رثٌّ وقطيفةٌ خلقةٌ قيمتُها أربعةُ دراهمَ[٢] ، وطافَ على الراحلةِ لينظرَ الناسُ إلىٰ هديهِ وشمائلِهِ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خذوا عنِّي مناسككُمْ »[٣] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٧) .
(٢) كما روىٰ ذلك الترمذي في « الشمائل » (٣٣٤) ، وهو عند ابن ماجه (٢٨٩٠) كذلك ، ومع ذلك كان يقول : « اللهم ؛ اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة » .
(٣) رواه مسلم (١٢٩٧) .

وقيلَ : إنَّ هـٰذهِ المحاملَ أحدثَها الحَجَّاجُ ، وكانَ العلماءُ في وقتِه ينكرونَها[١] .

ورَوىٰ سفيانُ الثوريُّ عنْ أبيهِ أنَّهُ قالَ : (برزتُ مِنَ الكوفةِ إلى القادسيةِ للحجِّ ، ووافيت الرفاقَ مِنَ البلدانِ ، فرأيتُ الحاجَّ كلَّهم علىٰ زواملَ وجُوالِقاتٍ ورواحلَ ، وما رأيتُ في جميعِهِمْ إلا محملينِ)[٢] .

وكانَ ابنُ عمرَ إذا نظرَ إلىٰ ما أحدثَ الحُجَّاجُ مِنَ الزيِّ والمحاملِ . . يقولُ : الحاجُّ قليلٌ والركبُ كثيرٌ ، ثمَّ نظرَ إلىٰ رجلٍ مسكينٍ رثِّ الهيئةِ تحتَهُ جِوالِقُ فقالَ : هـٰذا نعم مِنَ الحُجَّاجِ[٣] .

* * *

السابعُ : أنْ يكونَ رثَّ الهيئةِ ، أشعثَ ، أغبرَ ، غيرَ مستكثرٍ مِنَ الزينةِ ، ولا مائلٍ إلىٰ أسبابِ التفاخرِ والتكاثرِ ، فيكتبُ في ديوانِ المتكبرينَ والمترفهينَ ، ويخرجُ عنْ حزبِ الضعفاءِ والمساكينِ وخصوصِ الصالحينَ ،

---

(١) حكىٰ ذلك الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢/٣٠٣) ، وقال : وقال بعض رجاز الأكرياء :

أولُ عبـدٍ عمـلَ المحـامـلا		أخـزاه ربـي عـاجـلاً وآجـلا

وسياق المصنف في « القوت » (٢/١١٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/١١٦) ، **والجوالقات** : الأوعية الكبيرة ، مفرده : جِوالِق ، وهو معرَّب ، ويقال في الجمع : جَواليق وجَوالِق أيضاً .

(٣) قوت القلوب (٢/١١٦) .

فقدْ أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشَّعَثِ والاحتفاء(١) ، ونهىٰ عنِ التنعُّمِ والرفاهيةِ في حديثِ فضالةَ بنِ عبيدٍ(٢) .

وفي الحديثِ : « إنَّما الحاجُّ الشَّعِثُ التَّفِلُ »(٣) ، « يقولُ اللهُ تعالىٰ : انظروا إلىٰ زوَّارِ بيتي ، قدْ جاؤوني شُعْثاً غُبْراً مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ »(٤) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ ، **والتفثُ** : الشعَثُ والاغبرارُ ، وقضاؤُهُ بالحلْقِ وقصِّ الشاربِ والأظفارِ(٥) .

وكتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ أمراءِ الأجنادِ : (اخلولقوا ،

---

(١) **الشعث** : انتشار الشعر وترك تعاهده ، **والاحتفاء** : المشي حافياً ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٨٤٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٠٥٨) مرفوعاً : « تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة » .

(٢) رواه أبو داوود (٤١٦٠) وهو قوله : (كان صلى الله عليه وسلم ينهانا عن كثير من الإرفاه) ، وقال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نحتفي أحياناً) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ٢٤٣) من وصيته صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن : « إياك والتنعمَ ـ ولفظه : إياي ؛ لأن راويه هو معاذ نفسه ـ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٩٨) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٢٥) بلفظ المصنف ضمن حديث طويل ، وكذا أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٠٥) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٦٥) بغير زيادة : « من كل فج عميق » ، وهو كذلك عند أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٤) ، وهـٰذا الخبر والذي قبله ساقهما صاحب « القوت » (٢/ ١١٦) خبراً واحداً ، والمصنف تبع له .

(٥) كذا في « القوت » (٢/ ١١٦) ، وقد روىٰ ذلك الطبري عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ١٩٠) .

واخشوشنوا)[1] أي : البسوا الخُلْقانَ ، واستعملوا الخشونةَ في الأشياءِ .

وقدْ قيلَ : « زينُ الحجيجِ أهلُ اليمنِ »[2] ؛ لأنَّهُمْ علىٰ هيئةِ التواضعِ والضعفِ وسيرةِ السلفِ .

وينبغي أنْ يجتنبَ الحمرةَ في زيِّهِ على الخصوصِ ، والشهرةَ كيفما كانتْ على العمومِ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في سفرٍ ، فنزلَ أصحابُهُ منزلاً ، فسرحتِ الإبلُ ، فنظرَ إلىٰ أكسيةٍ حمْرٍ على الأقتابِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرىٰ هـٰذهِ الحُمْرةَ قدْ غلبتْ عليكُمْ ! » قالوا : فقمنا إليها ونزعناها عنْ ظهورِها حتَّىٰ شَرَدَ بعضُ الإبلِ[3] .

* * *

الثامنُ : أنْ يرفُقَ بالدابَّةِ ، فلا يحمِّلُها ما لا تطيقُ ، والمَحْمِلُ خارجٌ عنْ حدِّ طاقتِها ، والنومُ عليها يؤذِيها ويثقلُ عليها ، كانَ أهلُ الورعِ لا ينامونَ على الدوابِّ إلا غفوةً عنْ قعودٍ ، وكانوا لا يقفونَ عليها الوقوفَ الطويلَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتخذوا ظهورَ دوابِّكُمْ كراسيَّ »[4] .

ويستحبُّ أنْ ينزلَ عنْ دابتِهِ غدوةً وعشيةً يروِّحُها بذلكَ ، فهوَ سنةٌ[5] ،

(١) رواه الحربي في « غريب الحديث » (خ ش ب) وزاد فيه : (واخشوشبوا) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٨٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٣) رواه أبو داوود (٤٠٧٠) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤٤) .
(٥) روى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان =

وفيهِ آثارٌ عنِ السلفِ[١] ، وكانَ بعضُ السلفِ يكتري بشرطِ ألا ينزلَ ، ويوفي الأجرةَ ، ثمَّ كانَ ينزلُ ؛ ليكونَ بذلكَ محسناً إلى الدابةِ ، فيكونَ في حسناتِهِ ، ويوضعَ في ميزانِهِ لا في ميزانِ المكاري[٢] .

وكلُّ مَنْ آذىٰ بهيمةً ، وحمَّلَها ما لا تطيقُ . . طولبَ بهِ يومَ القيامةِ ، قالَ أبو الدرداءِ لبعيرٍ لهُ عندَ الموتِ : (يا أيُّها البعيرُ ؛ لا تخاصمني إلىٰ ربِّكَ ، فإنِّي لمْ أكنْ أحمِّلُكَ فوقَ طاقتِكَ)[٣] .

وعلى الجملةِ : في كلِّ كبدٍ حرَّىٰ أجرٌ[٤] ، فليراعِ حقَّ الدابَّةِ وحقَّ المكاري جميعاً ، وفي نزولِهِ ساعةً ترويحُ الدابةِ وسرورُ قلبِ المكاري ، قالَ رجلٌ لابنِ المباركِ : احملْ لي هـٰذا الكتابَ معكَ لتوصلَهُ ، فقالَ : حتَّىٰ أستأمرَ الجمَّالَ ، فإنِّي قدِ اكتريتُ[٥] .

فانظرْ كيفَ تورَّعَ مِنِ استصحابِ كتابٍ لا وزنَ لهُ ، وهوَ طريقُ الحزْمِ في الورعِ ، فإنَّهُ إذا فُتِحَ بابُ القليلِ . . انجرَّ إلى الكثيرِ يسيراً يسيراً .

= رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في السفر . . مشىٰ ـ زاد فيه غيره : قليلاً ـ وناقته تقاد) .

(١) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٤٠٦) : (أن نافع بن جبير كان يحج ماشياً وناقته أو راحلته تقاد معه) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٣) ، وكان اسم هـٰذا البعير : دمون .

(٤) كما في « البخاري » (٢٣٦٣) ، و« مسلم » (٢٢٤٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .

التاسعُ : أنْ يتقرَّبَ بإراقة دمٍ وإنْ لمْ يكنْ واجباً عليهِ ، ويجتهدُ أنْ يكونَ مِنْ سمينِ النَّعَمِ ونفيسِهِ ، وليأكلْ منهُ إنْ كانَ تطوُّعاً ، ولا يأكلُ إنْ كانَ واجباً .

قيلَ في تفسيرِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ : إنَّهُ تحسينُهُ وتسمينُهُ[1] .

وسوقُ الهدي مِنَ الميقاتِ أفضلُ إنْ كانَ لا يجهدُهُ ولا يكدُّهُ ، وليتركِ المكاسَ في شرائِهِ ، فقدْ كانوا يغالونَ في ثلاثٍ ويكرهونَ المكاسَ فيهنَّ : الهديُ والأضحيةُ والرقبةُ ، فإنَّ أفضلَ ذلكَ أغلاهُ ثمناً وأنفسُهُ عندَ أهلِهِ .

وروى ابنُ عمرَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أهدىٰ نجيبةً ، فطُلِبتْ منهُ بثلاثِ مئةِ دينارٍ ، فسألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يبيعَها ويشتريَ بثمنِها بُدْناً ؛ فنهاهُ عنْ ذلكَ وقالَ : « بلْ أهدِها »[2] ، وذلكَ لأنَّ القليلَ الجيِّدَ خيرٌ مِنَ الكثيرِ الدُّونِ ، وفي ثلاثِ مئةِ دينارٍ قيمةُ ثلاثينَ بدنةً ، وفيها تكثيرُ اللحمِ ، ولكنْ ليسَ المقصودُ اللحمَ ، إنما المقصودُ تزكيةُ النفسِ وتطهيرُها عنْ صفةِ البخْلِ ، وتزيينُها بجمالِ التعظيمِ للهِ عزَّ وجلَّ ، فلنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ، ولكنْ ينالُهُ التقوىٰ منكُمْ ، وذلكَ يحصلُ بمراعاةِ النفاسةِ في القيمةِ ، كثُرَ العددُ أمْ قلَّ .

---

(١) روى الطبري ذلك في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ١٩٨) عن ابن عباس ومجاهد .
(٢) رواه أبو داوود (١٧٥٦) ، وفيه : (انحرها) بدل (أهدها) .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ما برُّ الحجِّ ؟ فقالَ : « العجُّ والثجُّ »[١] ، **والعجُّ** : هوَ رفعُ الصوتِ بالتلبيةِ ، **والثجُّ** : هوَ نحرُ البدْنِ .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما عملَ آدميٌّ يومَ النحرِ أحبَّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ إهراقِهِ دماً ، وإنَّها لتأتي يومَ القيامةِ بقرونِها وأظلافِها ، وإنَّ الدمَ يقعُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمكانٍ قبلَ أنْ يقعَ بالأرضِ ، فطيبوا بها نفساً »[٢] .

وفي الخبرِ : « لكمْ بكلِّ صوفةٍ مِنْ جلدِها حسنةٌ ، وكلِّ قطرةٍ مِنْ دمِها حسنةٌ ، وإنَّها لتوضعُ في الميزانِ ، فأبشروا »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استنجدُوا هداياكُمْ ؛ فإنَّها مطاياكُمْ يومَ القيامةِ »[٤] .

❋ ❋ ❋

العاشرُ : أنْ يكونَ طيِّبَ النفسِ بما أنفقَهُ مِن نفقةٍ وهدْيٍ ، وبما أصابَهُ مِنْ خسرانٍ ومصيبةٍ في مالٍ أوْ بدنٍ إنْ أصابَهُ ذلكَ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ دلائلِ

---

(١) رواه الترمذي (٨٢٧) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) .

(٢) رواه الترمذي (١٤٩٣) ، وابن ماجه (٣١٢٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١١٨) ، وهو بنحوه عند ابن ماجه (٣١٢٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٢٨٣) .

(٤) رواه الديلمي في « الفردوس » (٢٦٨) بلفظ : « استفرهوا ضحاياكم ؛ فإنها مطاياكم على الصراط » .

قَبولِ حجِّهِ ، فإنَّ المصيبةَ في طريقِ الحجِّ تعدلُ النفقةَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، الدرهمُ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، وهوَ بمثابةِ الشدائدِ في طريقِ الجهادِ ، فلهُ بكلِّ أذىً احتملَهُ وخسرانٍ أصابَهُ ثوابٌ ، ولا يضيعُ منهُ شيءٌ عندَ اللهِ تعالىٰ .

ويقالُ : إنَّ مِنْ علامةِ قَبولِ الحجِّ أيضاً تركَ ما كانَ عليهِ مِنَ المعاصي ، وأنْ يستبدلَ بإخوانِهِ البطَّالينَ إخواناً صالحينَ ، وبمجالسِ اللهوِ والغفلةِ مجالسَ الذكرِ واليقظةِ(١) .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٩) .

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النّيّة وطريق الاعتبار بالمشاهد الشّريفة وكيفيّة الافتكار فيها والتّذكّر لأسرارها ومعانيها من أوّل الحجّ إلى آخره

اعلمْ : أنَّ أوَّلَ الحجِّ الفهْمُ ؛ أعني : فهمَ موقعِ الحجِّ في الدينِ ، ثمَّ الشوقُ إليهِ ، ثمَّ العزمُ عليهِ ، ثمَّ قطْعُ العلائقِ المانعةِ منهُ ، ثمَّ شراءُ ثوبيِ الإحرامِ ، ثمَّ شراءُ الزادِ ، ثمَّ اكتراءُ الراحلةِ ، ثمَّ الخروجُ ، ثمَّ السيرُ في الباديةِ ، ثمَّ الإحرامُ مِنَ الميقاتِ بالتلبيةِ ، ثمَّ دخولُ مكَّةَ ، ثمَّ استتمامُ الأفعالِ كما سبقَ .

وفي كلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأمورِ تذكرةٌ للمتذكِّرِ ، وعبرةٌ للمعتبرِ ، وتنبيهٌ للمريدِ الصادقِ ، وتعريفٌ وإشارةٌ للفَطِنِ ، فلنرمزْ إلىٰ مفاتحِها ، حتَّىٰ إذا انفتحَ بابُها ، وعرفتْ أسبابُها . انكشفَ لكلِّ حاجٍّ مِنْ أسرارِها ما يقتضيهِ صفاءُ قلبِهِ وطهارةُ باطنِهِ وغزارةُ علمِهِ .

* * *

أمَّا الفهمُ : **فاعلمْ** : أنَّهُ لا وصولَ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلا بالتنزُّهِ عنِ الشهواتِ ، والكفِّ عنِ اللذاتِ ، والاقتصارِ على الضروراتِ فيها ، والتجرُّدِ للهِ سبحانَهُ في جميعِ الحركاتِ والسكناتِ ، ولأجلِ هـٰذا انفردَ

الرهابينُ في المللِ السالفةِ عنِ الخلْقِ[1] ، وانحازوا إلىٰ قُلَلِ الجبالِ ، وآثروا التوحُّشَ عنِ الخلْقِ ؛ لطلبِ الأُنْسِ باللهِ تعالىٰ ، فتركوا للهِ عزَّ وجلَّ اللذاتِ الحاضرةَ ، وألزموا أنفسَهُمُ المجاهداتِ الشاقَّةَ ؛ طمعاً في الآخرةِ ، وأثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِمْ في كتابِهِ فقالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

فلمَّا اندرسَ ذلكَ ، وأقبلَ الخلقُ على اتباعِ الشهواتِ ، وهجروا التجرُّدَ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وفتروا عنهُ . . بعثَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ نبيَّهُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لإحياءِ طريقِ الآخرةِ ، وتجديدِ سنةِ المرسلينَ في سلوكِها ، فسألَهُ أهلُ المللِ عنِ الرهبانيةِ والسياحةِ في دينِهِ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبدلَنا اللهُ بها الجهادَ والتكْبيرَ علىٰ كلِّ شَرَفٍ »[2] ؛ يعني : الحجَّ .

وسئلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ السائحينَ فقالَ : «همُ الصائمونَ»[3] .

---

(١) **الرهابين** : جمع راهب ، والمشهور رهباني ، وقيل : الرهابين جمع الجمع ، وهم عبّاد النصارىٰ ، والاسم : الرهبانية ، من الرهبة ، وهو الخوف ، وقد ترهب الراهب : انقطع للعبادة . « إتحاف » (٤/ ٤٤٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الجهاد » (١٧) عن عمارة بن غزية مرسلاً ، وروىٰ أبو داوود (٢٤٨٦) عن أبي أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ ائذن لي في السياحة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالىٰ » ، وحديث التكبير علىٰ كل شرف رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٣٥)، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٣٠٥).

فأنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ هـٰذهِ الأمةِ بأنْ جعلَ الحجَّ رهبانيةً لهُمْ ، فشرَّفَ البيتَ العتيقَ بالإضافةِ إلىٰ نفسهِ ونصبَهُ مقصداً لعبادِهِ ، وجعلَ ما حواليهِ حرماً لبيتهِ تفخيماً لأمرهِ ، وجعلَ عرفاتٍ كالميدانِ علىٰ فِناءِ حرمِهِ ، وأكَّدَ حرمةَ الموضعِ بتحريمِ صيدِهِ وشجرِهِ ، ووضعَهُ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ، يقصدُهُ الزوّارُ مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ ، ومِنْ كلِّ أوْبٍ سحيقٍ ، شعثاً غبراً ، متواضعينَ لربِّ البيتِ ومستكينينَ لهُ ؛ خضوعاً لجلالِهِ واستكانةً لعزَّتِهِ ، معَ الاعترافِ بتنزُّهِهِ عنْ أنْ يحويَهُ بيتٌ أوْ يكتنفَهُ بلدٌ ، ليكونَ ذلكَ أبلغَ في رقِّهِمْ وعبوديَّتِهِمْ ، وأتمَّ في إذعانِهِمْ وانقيادِهِمْ ، ولذلكَ وظَّفَ عليهِمْ فيها أعمالاً لا تأنسُ بها النفوسُ ، ولا تهتدي إلىٰ معانيها العقولُ ؛ كرمي الجمارِ بالأحجارِ ، والتردُّدِ بينَ الصفا والمروةِ علىٰ سبيلِ التكرارِ .

وبمثلِ هـٰذهِ الأعمالِ يظهرُ كمالُ الرقِّ والعبوديَّةِ ؛ فإنَّ الزكاةَ إرفاقٌ[1] ، ووجهُهُ مفهومٌ ، وللعقلِ إليهِ ميلٌ ، والصومُ كسرٌ للشهوةِ التي هيَ آلةُ عدوِّ اللهِ ، وتفرُّغٌ للعبادةِ بالكفِّ عنِ الشواغلِ ، والركوعُ والسجودُ في الصلاةِ تواضعٌ للهِ عزَّ وجلَّ بأفعالٍ هيَ هيئةُ التواضعِ ، وللنفوسِ أنسٌ بتعظيمِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فأمَّا تردُّداتُ السعيِ ورميِ الجمارِ وأمثالِ هـٰذهِ الأعمالِ . . فلا حظَّ

---

(١) أي : إنفاق فيه رفق وإشفاق .

للنفوسِ فيها ، ولا أنسَ للطبعِ فيها ، ولا اهتداءَ للعقلِ إلىٰ معانيها ، فلا يكونُ في الإقدامِ عليها باعثٌ إلا الأمرُ المجرَّدُ ، وقصدُ الامتثالِ للأمرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ أمرٌ واجبٌ . . الاتباعُ فقط ، وفيهِ عزْلُ العقلِ عنْ تصرُّفِهِ ، وصرفُ النفسِ والطبعِ عنْ محلِّ أنسِهِ ، فإنَّ كلَّ ما أدركَ العقلُ معناهُ . . مالَ الطبعُ إليهِ ميلاً ما ، فيكونُ ذلكَ الميلُ معيناً للأمرِ وباعثاً معهُ على الفعلِ ، فلا يكادُ يظهرُ بهِ كمالُ الرِّقِّ والانقيادِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحجِّ على الخصوصِ : « لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورِقّاً »(١) ، ولمْ يقلْ ذلكَ في صلاةٍ ولا غيرِها .

وإذا اقتضتْ حكمةُ اللهِ تعالىٰ ربطَ نجاةِ الخلْقِ بأنْ تكونَ أعمالُهُمْ علىٰ خلافِ هوىٰ طباعِهِمْ ، وأنْ يكونَ زمامُها بيدِ الشرعِ ، فيتردَّدونَ في أعمالِهِمْ علىٰ سننِ الانقيادِ ، وعلىٰ مقتضى الاستعبادِ . . كانَ ما لا يُهتدىٰ إلىٰ معانيهِ أبلغَ أنواعِ التعبداتِ في تزكيةِ النفوسِ ، وصرفِها عنْ مقتضى الطباعِ والأخلاقِ إلىٰ مقتضى الاسترقاقِ ، وإذا تفطنتَ لهـٰذا . . فهمتَ أنَّ تعجُّبَ النفوسِ مِنْ هـٰذهِ الأفعالِ العجيبةِ مصدرُهُ الذهولُ عنْ أسرارِ التعبُّداتِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفهُّمِ أصلِ الحجِّ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٦٢٤) وهو آخر كتابه ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢١٨) .

وأمَّا الشوقُ : فإنَّما ينبعثُ بعدَ الفهْمِ والتحقُّقِ بأنَّ البيتَ بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ وُضِعَ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ، فقاصدُهُ قاصدٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وزائرٌ لهُ ، وإنَّ مَنْ قصدَ البيتَ في الدنيا جديرٌ بألا تضيعَ زيارتُهُ ، فيرزقُ مقصودَ الزيارةِ في ميعادِهِ المضروبِ لهُ ، وهوَ النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ في دارِ القرارِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ العينَ القاصرةَ الفانيةَ في دارِ الدنيا لا تتهيَّأُ لقَبولِ نورِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا تطيقُ احتمالَهُ ، ولا تستعدُّ للاكتحالِ بهِ لقصورِها ، وإنَّها إنْ أُمدَّتْ في الدارِ الآخرةِ بالبقاءِ ، ونُزِّهَتْ عنْ أسبابِ التغيرِ والفناءِ . . استعدَّتْ للنظرِ والإبصارِ ، ولكنَّها بقصدِ البيتِ والنظرِ إليهِ تستحقُّ لقاءَ ربِّ البيتِ بحكْمِ الوعدِ الكريمِ (١) .

فالشوقُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ يشوِّقُهُ إلىٰ أسبابِ اللقاءِ لا محالةَ ، هـٰذا معَ أنَّ المحبَّ مشتاقٌ إلىٰ كلِّ ما لَهُ إلىٰ محبوبِهِ إضافةٌ ، والبيتُ مضافٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، فبالحريِّ أنْ يشتاقَ إليهِ لمجرَّدِ هـٰذهِ الإضافةِ ، فضلاً عنِ الطلبِ لنيلِ ما وعدَ عليهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ .

* * *

(١) فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وفيها تقع المشاهدة ؛ إذ هي دار المشاهدة واللقاء ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٥/٤) : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ، فرأىٰ ركباً ، فقال : مَن الركْبُ ؟ فقال : قالوا : حاجِّين ، قال : ما أنهزكم غيره ثلاث مرات ؟ قالوا : لا ، قال : لو يعلم الركب بمن أناخوا . . لقرت أعينهم بالفضل بعد المغفرة . « إتحاف » (٤/ ٤٤٥) .

وأمَّا العزمُ : فليعلمْ أنَّهُ بعزمِهِ قاصدٌ إلىٰ مفارقةِ الأهلِ والوطنِ ، ومهاجرةِ الشهواتِ واللذاتِ ، متوجهاً إلىٰ زيارةِ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فليعظِّمْ في نفسهِ قدْرَ البيتِ ، وقدْرَ ربِّ البيتِ ، وليعلمْ أنَّهُ عزمَ علىٰ أمرٍ رفيعٍ شأنُهُ خطيرٍ أمرُهُ ، وأنَّ مَنْ طلبَ عظيماً . . خاطرَ بعظيمٍ ، وليجعلْ عزمَهُ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بعيداً عنْ شوائبِ الرياءِ والسمعةِ .

وليتحقَّقْ أنَّهُ لا يقبلُ مِنْ قصدِهِ وعملِهِ إلا الخالصُ ، وأنَّ مِنْ أفحشِ الفواحشِ أنْ يقصدَ بيتَ الملكِ وحرمَهُ والمقصودُ غيرُهُ ، فليصحِّحْ معَ نفسِهِ العزمَ ، وتصحيحُهُ بإخلاصِهِ ، وإخلاصُهُ باجتنابِ كلِّ ما فيهِ رياءٌ وسمعةٌ ، وليحذرْ أنْ يستبدلَ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ .

* * *

وأمَّا قطعُ العلائقِ : فمعناهُ : ردُّ المظالمِ ، والتوبةُ الخالصةُ للهِ تعالىٰ عن جملةِ المعاصي ، فكلُّ مظلمةٍ علاقةٌ ، وكلُّ علاقةٍ مثلُ غريمٍ حاضرٍ متعلِّقٍ بتلابيبِهِ ينادي عليهِ ويقولُ لهُ : إلىٰ أينَ تتوجَّهُ ؟ أتقصدُ بيتَ ملكِ الملوكِ وأنتَ مضيِّعٌ أمرَهُ في منزلِكَ هٰذا ، ومستهينٌ بهِ ، ومهملٌ لهُ ؟ أوَلا تستحي مِنْ أنْ تقدمَ عليهِ قدومَ العبدِ العاصي فيردَّكَ ولا يقبلَكَ ؟!

فإنْ كنتَ راغباً في قبولِ زيارتِكَ . . فنفِّذْ أوامرَهُ ، وردَّ المظالمَ ، وتبْ إليهِ أوَّلاً مِنْ جميعِ المعاصي ، واقطعْ علاقةَ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما وراءَكَ ؛ لتكونَ متوجِّهاً إليهِ بوجهِ قلبِكَ كما أنَّكَ متوجِّهٌ إلىٰ بيتِهِ بوجهِ

ظاهرِكَ ، فإنْ لمْ تفعلْ ذلكَ . لمْ يكنْ لكَ مِنْ سفرِكَ أوّلاً إلا النصبُ والشقاءُ ، وآخراً إلا الطرْدُ والردُّ .

وليقطعِ العلائقَ عنْ وطنِهِ قطعَ مَنِ انقلعَ عنهُ وقدَّرَ ألا يعودَ إليهِ ، وليكتبْ وصيَّتَهُ لأهلِهِ وأولادِهِ ؛ فإنَّ المسافرَ ومالَهُ لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى اللهُ تعالىٰ(١) .

وليتذكَّرْ عندَ قطعِهِ العلائقَ لسفرِ الحجِّ قطعَ العلائقِ لسفرِ الآخرةِ ؛ فإنَّ ذلكَ بينَ يديهِ على القربِ ، وما يقدِّمُهُ مِنْ هـٰذا السفرِ طمعٌ في تيسيرِ ذلكَ السفرِ ، فهوَ المستقرُّ وإليهِ المصيرُ ؛ فلا ينبغي أنْ يغفُلَ عنْ ذلكَ السفرِ عندَ الاستعدادِ لهـٰذا السفرِ .

* * *

وأمّا الزادُ : فليطلبْهُ مِنْ موضعٍ حلالٍ ، وإذا أحسَّ مِنْ نفسِهِ بالحرْصِ على استكثارِهِ ، وطلبِ ما يبقىٰ منهُ علىٰ طولِ السفرِ ولا يتغيَّرُ ولا يفسُدُ قبلَ بلوغِ المقصِدِ . فليتذكرْ أنَّ سفرَ الآخرةِ أطولُ مِنْ هـٰذا السفرِ ، وأنَّ زادَهُ التقوىٰ ، وأنَّ ما عداهُ ممَّا يظنُّ أنَّهُ زادُهُ يتخلَّفُ عنهُ عندَ الموتِ ويخونُهُ ، فلا يبقىٰ معهُ ؛ كالطعامِ الرطْبِ الذي يفسُدُ في أوَّلِ منازلِ السفرِ ، فيبقىٰ وقتَ الحاجةِ متحيِّراً محتاجاً لا حيلةَ لهُ .

---

(١) القلت : الهلاك ، قال الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢/ ١٠٥) : (وقال أعرابي : إن المسافر ومتاعه لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى الله) ، فعبارة المصنف محكية كما ترىٰ .

فليحذرْ أنْ تكونَ أعمالُهُ التي هيَ زادُهُ إلى الآخرةِ لا تصحبُهُ بعدَ الموتِ ، بلْ يفسدُها شوائبُ الرياءِ وكدوراتُ التقصيرِ .

* * *

وأمَّا الراحلةُ : إذا أحضرَها . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ بقلبِهِ علىٰ تسخيرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ لهُ الدوابَّ لتحمِلَ عنهُ الأذىٰ ، وتخفِّفَ عنهُ المشقَّةَ ، وليتذكرْ عندَهُ المركبَ الذي يركبُهُ إلى الدارِ الآخرةِ ، وهي الجَنازةُ التي يحمَلُ عليها ؛ فإنَّ أمرَ الحجِّ مِنْ وجهٍ يوازي أمرَ السفرِ إلى الآخرةِ .

ولينظرْ : أيصلحُ سفرُهُ علىٰ هٰذا المركبِ لأنْ يكونَ زاداً لذلكَ السفرِ علىٰ ذلكَ المركبِ ؟ فما أقربَ ذلكَ منهُ ، وما يدريهِ لعلَّ الموتَ قريبٌ ، ويكونُ ركوبُهُ للجنازةِ قبلَ ركوبِهِ للجَمَّازةِ[1] ، فركوبُ الجنازةِ مقطوعٌ بهِ ، وتيسُّرُ أسبابِ السفرِ مشكوكٌ فيهِ ، فكيفَ يحتاطُ في أسبابِ السفرِ المشكوكِ فيهِ ويستظهرُ في زادِهِ وراحلتِهِ ويهملُ أمرَ السفرِ المستيقنِ ؟!

* * *

وأمَّا شراءُ ثوبيِ الإحرامِ : فليتذكرْ عندَهُ الكفنَ ولفَّهُ فيهِ ؛ فإنَّهُ سيرتدي ويتَّزرُ بثوبيِ الإحرامِ عندَ القربِ مِنْ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، وربما لا يتمُّ سفرُهُ إليهِ ، وأنَّهُ سيلقى اللهَ تعالىٰ ملفوفاً في ثيابِ الكفنِ لا محالةَ[2] .

---

(١) يقال : ناقة جَمَّازةٌ ؛ أي : تعدو **الجمزىٰ** ، وهو إسراعٌ في المشي ، **والجمز** : السير بالجنائز كذلك .

(٢) لما ورد : يحشر الميت في ثيابه ، ولذلك أمر بتحسين الأكفان . « إتحاف » (٤/ ٤٤٦) .

فكما لا يلقىٰ بيتَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا مخالفاً عادتَهُ في الزيِّ والهيئةِ . . فلا يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ بعدَ الموتِ إلا في زيٍّ مخالفٍ لزيِّ الدنيا ، وهـٰذا الثوبُ قريبٌ مِنْ ذلكَ الثوبِ ؛ إذْ ليسَ فيهِ مخيطٌ ولا محيطٌ كما في الكفنِ .

* * *

وأمَّا الخروجُ مِنَ البلدِ : فليعلمْ عندَهُ أنَّهُ فارقَ الأهلَ والوطنَ متوجِّهاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في سفرٍ لا يضاهي أسفارَ الدنيا ، فليحضرْ في قلبهِ أنَّهُ ماذا يريدُ ؟ وأينَ يتوجهُ ؟ وزيارةَ مَنْ يقصدُ ؟ وأنَّهُ متوجِّهٌ إلىٰ ملكِ الملوكِ في زمرةِ الزائرينَ لهُ ، الذينَ نُودوا فأجابوا ، وشُوِّقوا فاشتاقوا ، واستنهضوا فنهضوا ، وقطعوا العلائقَ ، وفارقوا الخلائقَ ، وأقبلوا علىٰ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي فخَّمَ أمرَهُ وعظَّمَ شأنَهُ ورفعَ قدْرَهُ ؛ تسلِّياً بلقاءِ البيتِ عنْ لقاءِ ربِّ البيتِ ، إلىٰ أنْ يرزقوا منتهىٰ مُناهم ، ويسعَدُوا بالنظرِ إلىٰ مولاهُمْ .

وليحضرْ في قلبهِ رجاءَ الوصولِ والقَبولِ ، لا إدلالاً بأعمالِهِ في الارتحالِ ومفارقةِ الأهلِ والمالِ ، ولكنْ ثقةً بفضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ورجاءً لتحقيقهِ وعدَهُ لمَنْ زارَ بيتَهُ ، وليرجُ أنَّهُ إنْ لمْ يصلْ وأدركتْهُ المنيَّةُ في الطريقِ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وافداً إليهِ ؛ إذْ قالَ جلَّ جلالُهُ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(١) .

* * *

(١) انظر ما رواه البخاري (١٢٦٥) ، ومسلم (١٢٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأمَّا دخولُ الباديةِ إلى الميقاتِ ، ومشاهدةُ تلكَ العقباتِ : فليتذكرْ فيها ما بينَ الخروجِ مِنَ الدنيا بالموتِ إلىٰ ميقاتِ يومِ القيامةِ ، وما بينَهُما مِنَ الأهوالِ والمطالباتِ .

وليتذكرْ مِنْ هولِ قطَّاعِ الطريقِ هولَ سؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ ، ومِنْ سباعِ البوادي عقاربَ القبرِ وديدانَهُ وما فيهِ مِنَ الأفاعي والحيَّاتِ ، ومِنِ انفرادِهِ عنْ أهلِهِ وأقاربِهِ وحشةَ القبرِ وكربتَهُ ووحدتَهُ .

وليكنْ في هٰذهِ المخاوفِ في أعمالِهِ وأقوالِهِ متزوِّداً لمخاوفِ القبرِ .

* * *

وأمَّا الإحرامُ والتلبيةُ مِنَ الميقاتِ : فليعلمْ أنَّ معناهُ إجابةُ نداءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فليرجُ أنْ يكونَ مقبولاً ، وليخشَ أنْ يقالَ لهُ : لا لبيكَ ولا سعديكَ ، وليكنْ بينَ الرجاءِ والخوفِ متردِّداً ، وعنْ حولِهِ وقوَّتِهِ متبرِّئاً ، وعلىٰ فضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكرمِهِ متَّكلاً ؛ فإنَّ وقتَ التلبيةِ هوَ بدايةُ الأمرِ ، وهوَ محلُّ الخطرِ .

قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : حجَّ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا أحرمَ واستوتْ بهِ راحلتُهُ . . اصفرَّ لونُهُ ، وانتفضَ ، ووقعتْ عليهِ الرِّعْدَةُ ، ولمْ يستطعْ أنْ يلبِّيَ ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تلبِّي ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يقالَ لي : لا لبيكَ ولا سعديكَ ، فلمَّا لبَّىٰ . . غشيَ عليهِ ووقعَ عنْ راحلتِهِ ،

فلمْ يزلْ يعتريهِ ذلكَ حتَّىٰ قضَىٰ حجَّهُ[(١)] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : كنتُ معَ أبي سليمانَ الدارانيِّ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ أرادَ الإحرامَ ، فلمْ يلبِّ حتَّىٰ سرْنا ميلاً ، فأخذتْهُ كالغشيةِ ، ثمَّ أفاقَ وقالَ : يا أحمدُ ؛ إنَّ اللهَ سبحانَهُ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : مُرْ ظَلَمَةَ بني إسرائيلَ أنْ يُقِلُّوا مِنْ ذِكْري ؛ فإنِّي أذكرُ مَنْ ذكرني منهُمْ باللعنةِ ، ويحكَ يا أحمدُ ؛ بلغني أنَّ مَنْ حجَّ مِنْ غيرِ حِلِّهِ ثمَّ لبَّىٰ . . قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : لا لبيكَ ولا سعديكَ حتَّىٰ تردَّ ما في يديكَ ، فما نأمنُ أنْ يقالَ لنا ذلكَ[(٢)] .

وليتذكرِ الملبِّي عندَ رفعِ الأصواتِ بالتلبيةِ في الميقاتِ ؛ إجابةً لنداءِ اللهِ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ﴾ نداءَ الخلْقِ بنفْخِ الصُّورِ ، وحشرَهُمْ مِنَ القبورِ ، وازدحامَهُمْ في عرصاتِ القيامةِ مجيبينَ لنداءِ اللهِ تعالىٰ ، ومنقسمينَ إلىٰ مقرَّبينَ وممقوتينَ ، ومقبولينَ ومردودينَ ، ومتردِّدينَ في أوَّلِ الأمرِ بينَ الخوفِ والرجاءِ تردُّدَ الحاجِّ في الميقاتِ ، حيثُ لا يدرونَ أيتيسَّرُ لهمْ إتمامُ الحجِّ وقبولُهُ أمْ لا ؟

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٢٧٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٣) ، والحديث الذي بلغه ما رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢٢٤) : « وإذا خرج بالنفقة الخبيثة ، فوضع رجله في الغرز ، فنادىٰ : لبيك . . ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام ، ونفقتك حرام ، وحجك غير مبرور » .

وأمَّا دخولُ مكَّةَ : فليتذكرْ عندَ ذلكَ أنَّهُ قدِ انتهىٰ إلىٰ حرمٍ آمنٍ ، وليرجُ عندَهُ أنْ يأمَنَ بدخولِهِ مِنْ عقابِ اللهِ تعالىٰ ، وليخشَ ألا يكونَ أهلاً للقربِ ، فيكونَ بدخولِهِ الحرَمَ خائباً مستحقّاً للمقْتِ ، وليكنْ رجاؤُهُ في جميعِ الأوقاتِ غالباً ، فالكرمُ عميمٌ ، والربُّ رحيمٌ ، وشرفُ البيتِ عظيمٌ ، وحقُّ الزائرِ مرعيٌّ ، وذمامُ المستجيرِ اللائذِ غيرُ مضيَّعٍ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا وقوعُ البصرِ على البيتِ : فينبغي أنْ تُحضرَ عندَهُ عظمةَ البيتِ في القلبِ ، وتقدِّرَ أنَّكَ مشاهدٌ لربِّ البيتِ لشدَّةِ تعظيمِكَ ، وارجُ أنْ يرزقَكَ اللهُ تعالى النظرَ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ كما رزقَكَ اللهُ النظرَ إلىٰ بيتِهِ العظيمِ ، واشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ تبليغِهِ إيَّاكَ هـٰذهِ الرتبةَ ، وإلحاقِهِ إيَّاكَ بزمرةِ الوافدينَ إليهِ .

واذكرْ عندَ ذلكَ انصبابَ الناسِ في القيامةِ إلىٰ جهةِ الجنَّةِ آملينَ لدخولِها كافةً ، ثمَّ انقسامَهُمْ إلىٰ مأذونينَ في الدخولِ ومصروفينَ ؛ انقسامَ الحاجِّ إلىٰ مقبولينَ ومردودينَ ، ولا تغفُلْ عنْ تذكُّرِ أمورِ الآخرةِ في شيءٍ ممَّا تراهُ ؛ فإنَّ كلَّ أحوالِ الحاجِّ دليلٌ علىٰ أحوالِ الآخرةِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الطوافُ بالبيتِ : فاعلمْ أنَّهُ صلاةٌ ، وأحضرْ قلبَكَ فيهِ مِنَ التعظيمِ والخوفِ والرجاءِ والمحبةِ ما فصَّلْناهُ في كتابِ الصلاةِ ، واعلمْ أنَّكَ بالطوافِ

متشبِّهٌ بالملائكةِ المقرَّبينَ ، الحافِّينَ حولَ العرشِ الطائفينَ حولَهُ .

ولا تظننَّ أَنَّ المقصودَ طوافُ جسمِكَ بالبيتِ ، بلِ المقصودُ طوافُ قلبكَ بذكْرِ ربِّ البيتِ ، حتَّىٰ لا تبتدِئَ الذكرَ إلا منهُ ، ولا تختمَ إلا بهِ ؛ كما تبتدِئُ الطوافَ مِنَ البيتِ وتختمُ بالبيتِ .

واعلمْ : أَنَّ الطوافَ الشريفَ هوَ طوافُ القلبِ بحضرةِ الربوبيةِ ، وأَنَّ البيتَ مثالٌ ظاهرٌ في عالمِ الملكِ لتلكَ الحضرةِ التي لا تشاهدُ بالبصرِ وهي في عالمِ الملكوتِ ، كما أَنَّ البدَنَ مثالٌ ظاهرٌ في عالمِ الشهادةِ للقلبِ الذي لا يشاهدُ بالبصرِ وهوَ في عالمِ الغيبِ ، وأَنَّ عالمَ الملكِ والشهادةِ مَدْرَجَةٌ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ لمَنْ فتحَ اللهُ لهُ البابَ ، وإلىٰ هـٰذهِ الموازنةِ وقعتِ الإشارةُ بأَنَّ البيتَ المعمورَ في السماواتِ بإزاءِ الكعبةِ ، وأَنَّ طوافَ الملائكةِ بهِ كطوافِ الإنسِ بهـٰذا البيتِ ، ولمَّا قصرتْ رتبةُ أكثرِ الخلْقِ عنْ مثلِ ذلكَ الطوافِ . . أُمروا بالتشبُّهِ بهم بحسَبِ الإمكانِ ، ووُعِدُوا بأَنَّ مَنْ تشبَّهَ بقومٍ . . فهوَ منهُمْ[1] ، والذي يقدرُ علىٰ مثلِ ذلكَ الطوافِ هوَ الذي يقالُ : إنَّ الكعبةَ تزورُهُ وتطوفُ بهِ ، علىٰ ما رآهُ بعضُ المكاشفينَ لبعضِ أولياءِ اللهِ سبحانه وتعالىٰ .

***

وأمَّا الاستلامُ : فاعتقدْ عندَهُ أنَّكَ مبايعٌ للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ طاعتِهِ ، فصمِّمْ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٠٣١) .

عزيمتكَ على الوفاءِ ببيعتِكَ ، فمَنْ غدرَ في المبايعةِ . . استحقَّ المقْتَ ، وقدْ روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأرضِ، يصافحُ بها خلقَهُ كما يصافحُ الرجلُ أخاهُ »(١) .

❊ ❊ ❊

وأمَّا التعلُّقُ بأستارِ الكعبةِ والالتصاقُ بالملتزمِ : فلتكنْ نيَّتُكَ في الالتزامِ طلبَ القرْبِ حبّاً وشوقاً للبيتِ ولربِّ البيتِ ، وتبرُّكاً بالمماسَّةِ ، ورجاءً للتحصُّنِ عنِ النارِ في كلِّ جزْءٍ مِنْ بدنِكَ لاقى البيتَ .

ولتكنْ نيَّتُكَ في **التعلُّقِ** بالسترِ الإلحاحَ في طلبِ المغفرةِ وسؤالَ الأمانِ ؛ كالمذنبِ المتعلِّقِ بثيابِ مَنْ أذنبَ إليهِ ، المتضرِّعِ إليهِ في عفوِهِ عنهُ ، المظهرِ لهُ أنَّهُ لا ملجأَ لهُ منهُ إلا إليهِ ، ولا مفزعَ لهُ إلا عفوُهُ وكرمُهُ ، وأنَّهُ لا يفارقُ ذيلَهُ إلا بالعفوِ وبذلِ الأمنِ في المستقبلِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا السعيُ بينَ الصفا والمروةِ في فِناءِ البيتِ : فإنَّهُ يضاهي تردُّدَ العبدِ بفِناءِ دارِ الملكِ جائياً وذاهباً مرَّةً بعدَ أخرىٰ ؛ إظهاراً للخلوصِ في الخدمةِ

---

(١) هو بسياقه هنا رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/٢٥٧) موقوفاً على ابن عباس وبلفظ : (الركن يمين الله في الأرض ، يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه) هو شطر من حديث رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٤٥٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، والركن هنا : هو الحجر المذكور في الحديث .

ورجاءً للملاحظةِ بعينِ الرحمةِ ؛ كالذي دخلَ على الملكِ وخرجَ وهوَ لا يدري ما الذي يقضي بهِ الملكُ في حقِّهِ مِنْ قَبولٍ أوْ ردٍّ ، فلا يزالُ يتردَّدُ على فِناءِ الدارِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ يرجو أنْ يرحمَ في الثانيةِ إنْ لمْ يرحمْ في الأولىٰ .

وليتذكَّرْ عندَ تردُّدِهِ بينَ الصفا والمروةِ تردُّدَهُ بينَ كفَّتي الميزانِ في عرصاتِ القيامةِ ، وليمثِّلِ الصفا بكفَّةِ الحسناتِ ، والمروةَ بكفَّةِ السيئاتِ ، وليتذكَّرْ تردُّدَهُ بينَ الكفَّتينِ ناظراً إلى الرجحانِ والنقصانِ، متردِّداً بينَ العذابِ والغفرانِ .

* * *

وأمَّا الوقوفُ بعرفةَ : فاذكرْ بما ترىٰ مِنِ ازدحامِ الخلْقِ ، وارتفاعِ الأصواتِ ، واختلافِ اللغاتِ واتباعِ الفرقِ أئمَّتَهُمْ في التردُّداتِ على المشاعرِ ؛ اقتفاءً لهُمْ وسيراً بسيرِهم . . عرصاتِ القيامةِ ، واجتماعَ الأممِ معَ الأنبياءِ والأئمَّةِ ، واقتفاءَ كلِّ أمةٍ نبيَّها ، وطمعَهُمْ في شفاعتِهِمْ ، وتحيرَهُمْ في ذلكَ الصعيدِ الواحدِ بينَ الردِّ والقَبولِ .

وإذا تذكَّرْتَ ذلكَ . . فألزمْ قلبَكَ الضراعةَ والابتهالَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فتحشرَ في زمرةِ الفائزينَ المرحومينَ ، وحقِّقْ رجاءَكَ بالإجابةِ ؛ فالموقفُ شريفٌ ، والرحمةُ إنَّما تصلُ مِنْ حضرةِ الجلالِ إلىٰ كافَّةِ الخلقِ بواسطةِ القلوبِ العزيزةِ مِنْ أوتادِ الأرضِ ، ولا ينفكُّ الموقفُ عنْ طبقةٍ مِنَ الأبدالِ والأوتادِ ، وطبقاتٍ منَ الصالحينَ وأربابِ القلوبِ ، فإذا اجتمعتْ هممُهُمْ وتجرَّدَتْ للضراعةِ والابتهالِ قلوبُهُمْ ، وارتفعتْ إلى اللهِ تعالىٰ أيديهِمْ ،

وامتدَّتْ إليهِ أعناقُهُمْ ، وشخصتْ نحوَ السماءِ أبصارُهُمْ ، مجتمعينَ بهمَّةٍ واحدةٍ علىٰ طلبِ الرحمةِ . . فلا تظنَّنَّ أنَّهُ يخيِّبُ أملَهُمْ ، ويضيِّعُ سعيَهُمْ ، ويدخرُ عنهُمْ رحمةً تغمرُهُمْ ، ولذلكَ قيلَ : (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ أنْ يحضرَ عرفاتٍ ويظنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يغفرْ لهُ) .

وكأنَّ اجتماعَ الهممِ والاستظهارَ بمجاورةِ الأبدالِ والأوتادِ المجتمعينَ مِنْ أقطارِ البلادِ . . هوَ سرُّ الحجِّ وغايةُ مقصودِهِ ، فلا طريقَ إلى استدرارِ رحمةِ اللهِ سبحانَهُ مثلُ اجتماعِ الهممِ ، وتعاونِ القلوبِ في وقتٍ واحدٍ علىٰ صعيدٍ واحدٍ[1] .

* * *

وأمَّا رميُ الجمارِ : فاقصدْ بهِ الانقيادَ للأمرِ ؛ إظهاراً للرقِّ والعبوديةِ ، وانتهاضاً لمجرَّدِ الامتثالِ ، مِنْ غيرِ حظٍّ للعقلِ والنفسِ .

ثمَّ اقصدْ بهِ التشبُّهَ بإبراهيمَ عليهِ السلامُ ؛ حيثُ عرضَ لهُ إبليسُ لعنهُ اللهُ تعالىٰ في ذلكَ الموضعِ ليُدْخِلَ علىٰ حجِّهِ شبهةً أَوْ يفتنَهُ بمعصيةٍ ، فأمرَهُ اللهُ تعالىٰ أنْ يرميَهُ بالحجارةِ ؛ طرداً لهُ ، وقطعاً لأملِهِ[2] .

---

(١) ومن هنا قال العارفون : إذا قرئت سورة (يس) في جوف الليل الذي هو الثلث الأخير لأي حاجة . . قضيت مع الإخلاص ؛ لأنه اجتمعت فيه ثلاثة قلوب : قلب الداعي ، وقلب القرآن ، وقلب الليل ، فإذا كان هـٰذا في ثلاثة قلوب . . فما بال آلافٍ من القلوب مع شرف الموقف ؟ ! وهو سر جليل . « إتحاف » (٤/ ٤٥٣) .

(٢) روىٰ هـٰذا الخبر الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٤٣) .

فإنْ خطرَ لكَ أنَّ الشيطانَ عرضَ لهُ وشاهدَهُ ، فلذلكَ رماهُ ، وأمَّا أنا فليسَ يعرضُ ليَ الشيطانُ . . فاعلمْ أنَّ هـٰذا الخاطرَ مِنَ الشيطانِ ، وأنَّهُ الذي ألقاهُ في قلبِكَ ؛ ليفترَّ عزمَكَ في الرمي ، ويخيِّلَ إليكَ أنَّهُ فعلٌ لا فائدةَ فيهِ ، وأنَّهُ يضاهي اللعبَ ، فلِمَ تشتغلُ بهِ ؟!

فاطردْهُ عنْ نفسِكَ بالجدِّ والتشميرِ في الرمي فيهِ . . ترغمْ أنفَ الشيطانِ ، واعلمْ أنَّكَ في الظاهرِ ترمي الحصىٰ إلى العقبةِ ، وفي الحقيقةِ ترمي بهِ وجهَ الشيطانِ وتقصمُ بهِ ظهرَهُ ؛ إذْ لا يحصلُ إرغامُ أنفِهِ إلا بامتثالِكَ أمرَ اللهِ سبحانه ؛ تعظيماً لمجرَّدِ الأمرِ مِنْ غيرِ حظٍّ للنفسِ والعقلِ فيهِ .

* * *

وأمَّا ذبحُ الهدي : فاعلمْ أنَّهُ تقرُّبٌ إلى اللهِ تعالىٰ بحكْمِ الامتثالِ ، فأكملِ الهديَ وأجزاءَهُ ، وارجُ أنْ يعتقَ اللهُ بكلِّ جزءٍ منهُ جزءاً منكَ مِنَ النارِ ، فهكذا وردَ الوعدُ ، فكلَّما كانَ الهديُ أكبرَ وأجزاؤُهُ أوفرَ . . كانَ فداؤُكَ بهِ مِنَ النارِ أعمَّ .

* * *

وأمَّا زيارةُ المدينةِ : فإذا وقعَ بصرُكَ علىٰ حيطانِها . . فتذكَّرْ أنَّها البلدةُ التي اختارَها اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجعلَ إليها هجرتَهُ ، وأنَّها دارُهُ التي شرعَ فيها فرائضَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وسننَهُ ، وجاهدَ عدوَّهُ وأظهرَ بها دينَهُ إلىٰ أنْ توفَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ .

ثمَّ جعلَ تربتَهُ فيها ، وتربةَ وزيريهِ القائمَينِ بالحقِّ مِنْ بعدِهِ .

ثمَّ مثِّلْ في نفسِكَ مواقعَ أقدامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ ترداده فيها ، وأنَّهُ ما مِنْ موضعِ قدمٍ تطؤُهُ إلا وهوَ موقعُ قدمِهِ العزيزةِ ، فلا تضعُ قدمَكَ عليهِ إلا علىٰ سكينةٍ ووَجَلٍ .

وتذكَّرْ مشيَهُ وتخطيَهُ في سككِها ، وتصوَّرْ خشوعَهُ وسكينتَهُ في المشيِ ، وما استودعَ اللهُ سبحانَهُ قلبَهُ مِنْ عظيمِ معرفتِهِ ، ورفعةِ ذكرِهِ معَ ذكرِهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ قرنَهُ بذكرِ نفسِهِ ، وإحباطَهُ عملَ مَنْ هتكَ حرمتَهُ ولوْ برفعِ صوتِهِ فوقَ صوتِهِ .

ثمَّ تذكَّرْ ما منَّ اللهُ بهِ على الذينَ أدركوا صحبتَهُ وسعدوا بمشاهدتِهِ واستماعِ كلامِهِ ، وأعظمْ تأسُّفَكَ علىٰ ما فاتَكَ مِنْ صحبتِهِ وصحبةِ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُم .

ثمَّ اذكرْ أنَّكَ قدْ فاتَتْكَ رؤيتُهُ في الدنيا ، وأنَّكَ مِنْ رؤيتِهِ في الآخرةِ علىٰ خطرٍ ، وأنَّكَ ربما لا تراهُ إلا بحسرةٍ وقدْ حيلَ بينَكَ وبينَ قبولِهِ إيَّاكَ لسوءِ عملِكَ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُرفَعُ إليَّ أقوامٌ ، فيقولونَ : يا محمدُ ، يا محمدُ ؛ فأقولُ : يا ربِّ ؛ أصحابي ، فيقولُ : إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بعدَكَ ، فأقولُ : بُعداً وسُحقاً »(١) ، فإنْ تركتَ حرمةَ شريعتِهِ ولوْ في دقيقةٍ مِنَ الدقائقِ . . فلا تأمنْ أنْ يحالَ بينَكَ وبينَهُ بعُدولِكَ عنْ محجَّتِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٨٥) ، ومسلم (٢٤٩) دون لفظ النداء .

وليعْظُمْ معَ ذلكَ رجاؤُكَ ألا يحولَ اللهُ بينَكَ وبينَهُ بعدَ أنْ رزقَكَ الإيمانَ ، وأشخصَكَ مِنْ وطنِكَ لأجلِ زيارتِهِ مِنْ غيرِ تجارةٍ ولا حظٍّ في دنيا ، بل لمحضِ حبِّكَ لهُ وتشوُّقِكَ إلىٰ أنْ تنظرَ إلىٰ آثارِهِ ، وإلىٰ حائطِ قبرِهِ ، إذْ سمحَتْ نفسُكَ بالسفرِ لمجرَّدِ ذلكَ لمَّا فاتتْكَ رؤيتُهُ ، فما أجدرَكَ بأنْ ينظرَ اللهُ إليكَ بعينِ الرحمةِ .

فإذا بلغتَ المسجدَ . . فاذكرْ أنَّها العرصةُ التي اختارَها اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولأوَّلِ المسلمينَ وأفضلِهِمْ عصابةً ، وأنَّ فرائضَ اللهِ سبحانَهُ أوَّلُ ما أقيمتْ في تلكَ العرصةِ ، وأنَّها جمعَتْ أفضلَ خلْقِ اللهِ حيّاً وميّتاً .

فليعظمْ أملُكَ في اللهِ سبحانَهُ أنْ يرحمَكَ بدخولِكَ إيَّاهُ ، فادخلْهُ خاشعاً معظِّماً ، وما أجدرَ هـٰذا المكانَ بأنْ يستدعيَ الخشوعَ مِنْ قلبِ كلِّ مؤمنٍ ؛ كما حُكِيَ عنْ أبي سليمانَ أنَّهُ قالَ : حجَّ أويسٌ القرنيُّ رحمَهُ اللهُ ، ودخلَ المدينةَ ، فلمَّا وقفَ علىٰ بابِ المسجدِ . . قيلَ لهُ : هـٰذا قبرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فغشيَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : أخرجوني ، فليسَ يلذُّ لي بلدٌ فيهِ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مدفونٌ[1] .

---

(١) روى الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٥٠) ، وفي غالب النسخ : (بلدي) بدل (يلذ لي) ، والمثبت من (ج) ، والمعنىٰ متقارب .

وأمَّا زيارةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فينبغي أنْ تقفَ بينَ يديهِ كما وصفناهُ ، وتزورُهُ ميّتاً كما تزورُهُ حيّاً .

ولا تقربُ مِنْ قبرِهِ إلا كما كنتَ تقرُبُ مِنْ شخصِهِ الكريمِ لوْ كانَ حيّاً ، وكما كنتَ ترى الحرمةَ في ألا تمسَّ شخصَهُ ولا تقبلَهُ .

بلْ تقفُ مِنْ بعدٍ ماثلاً بينَ يديهِ ، فكذلكَ فافعلْ ؛ فإنَّ المسَّ والتقبيلَ للمَشاهِدِ عادةُ النصارىٰ واليهودِ .

واعلمْ : أنَّهُ عالِمٌ بحضورِكَ وقيامِكَ وزيارتِكَ ، وأنَّهُ يبلغُهُ سلامُكَ وصلاتُكَ .

فمثِّلْ صورتَهُ الكريمةَ في خيالِكَ موضوعاً في اللحدِ بإزائِكَ ، وأحضرْ عظيمَ رتبتِهِ في قلبِكَ .

فقدْ رُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ وكَّلَ بقبرِهِ ملكاً يبلِّغُهُ سلامَ مَنْ سلَّمَ عليهِ مِنْ أُمَّتِهِ(١) ، هٰذا في حقِّ مَنْ لمْ يحضرْ قبرَهُ ، فكيفَ بمَنْ فارقَ الوطنَ ، وقطعَ البواديَ شوقاً إلىٰ لقائِهِ ، واكتفاءً بمشاهدةِ مشهدِهِ الكريمِ إذْ فاتَهُ مشاهدةُ غرَّتِهِ الكريمةِ ؟!

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٧٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٣٠١) وفيه : « ثم يوكل الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما تدخل الهدايا ، يخبرني من صلىٰ علي باسمه ونسبه إلىٰ عشيرته ، فأثبته عندي في صحيفة بيضاء » ، وله ألفاظ أخرىٰ حكاها الحافظ السخاوي في « القول البديع » (ص٣١٣) وما بعدها ، وللنسائي (٣/ ٤٣) : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام » .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ مرَّةً واحدةً . . صلَّى اللهُ عليهِ عشراً »(١) .

فهٰذا جزاؤُهُ في الصلاةِ عليهِ بلسانِهِ ، فكيفَ بالحضورِ لزيارتِهِ ببدنِهِ ؟!

ثمَّ ائتِ منبرَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وتوهَّمْ صعودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المنبرَ .

ومثِّلْ في قلبِكَ طلعتَهُ البهيَّةَ قائماً على المنبرِ وقدْ أحدقَ بهِ المهاجرونَ والأنصارُ رضيَ اللهُ عنهُم ، وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحثُّهُمْ علىٰ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بخطبتِهِ .

واسألِ اللهَ عزَّ وجلَّ ألاَّ يفرِّقَ في القيامةِ بينَكَ وبينَهُ .

فهٰذهِ وظيفةُ القلبِ في أعمالِ الحجِّ .

* * *

فإذا فرغَ منها كلِّها : فينبغي أنْ يُلزِمَ قلبَهُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ ؛ فإنَّهُ ليسَ يدري : أَقُبِلَ منهُ حجُّهُ وأُثبتَ في زمرةِ المحبوبينَ ، أمْ ردَّ حجُّهُ وأُلحقَ بالمطرودينَ ؟

وليتعرَّفْ ذلكَ مِنْ قلبِهِ وأعمالِهِ .

فإنْ صادفَ قلبَهُ قدِ ازدادَ تجافياً عنْ دارِ الغرورِ ، وانصرافاً إلىٰ دارِ الأنسِ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ووجدَ أعمالَهُ قدِ اتزنتْ بميزانِ الشرعِ . . فليثقْ

---

(١) رواه مسلم (٤٠٨) .

بالقَبولِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقبلُ إلا مَنْ أحبَّهُ .

ومَنْ أحبَّهُ . . تولاَّهُ وأظهرَ عليهِ آثارَ محبَّتِهِ ، وكفَّ عنهُ سطوةَ عدوِّهِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ .

فإذا ظهرَ ذلكَ عليهِ . . دلَّ على القبولِ ، وإنْ كانَ الأمرُ بخلافِهِ . . فيوشكُ أنْ يكونَ حظُّهُ مِنْ سفرِهِ العناءَ والتعبَ ، نعوذُ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ مِنْ ذلكَ .

* * *

تمّ كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

وهو الكتاب السّابع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين حمداً كثيراً طيّباً مباركاً كما هو أهله ومستحقّه

وهو حسبنا ونعم الوكيل

وصلواته وسلامه على خير خلقه سيّدنا محمّد النّبيّ الأمّيّ وعلى آله الطّاهرين

كلّما ذكره الذّاكرون وغفل عنه الغافلون

يتلوه كتاب آداب تلاوة القرآن

كتاب
آداب تلاوة القرآن

وهو الكتاب الثامن من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آداب تلاوة القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي امتنَّ علىٰ عبادِهِ بنبيِّهِ المرسلِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكتابِهِ المنزلِ عليهِ ، الذي لا يأتيهِ الباطلُ منْ بينِ يديهِ ولا منْ خلفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ ، حتَّى اتسعتْ علىٰ أهلِ الافتكارِ طرقُ الاعتبارِ بما فيهِ مِنَ القصصِ والأخبارِ ، واتضحَ بهِ سلوكُ المنهجِ القويمِ والصراطِ المستقيمِ بما فصَّلَ فيهِ مِنَ الأحكامِ ، وفرَّقَ بينَ الحلالِ والحرامِ ، فهوَ الضياءُ والنورُ ، وبهِ النجاةُ مِنَ الغرورِ ، وفيهِ شفاءٌ لما في الصدورِ .

مَنْ خالفَهُ مِنَ الجبابرةِ . . قصمَهُ اللهُ ، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ . . أضلَّهُ اللهُ ، هوَ حبلُ اللهِ المتينُ ، ونورُهُ المبينُ ، والعروةُ الوثقىٰ ، والمعتصمُ الأوقىٰ ، وهوَ المحيطُ بالقليلِ والكثيرِ ، والصغيرِ والكبيرِ ، لا تنقضي عجائبُهُ ، ولا تتناهىٰ غرائبُهُ ، لا يحيطُ بفوائدِهِ عندَ أهلِ الفهمِ تحديدٌ ، ولا يخلقُهُ عندَ أهلِ التلاوة كثرةُ الترديدِ ، هوَ الذي أرشدَ الأوَّلينَ والآخرينَ ، ولمَّا سمعَهُ الجنُّ . . لمْ يلبثوا أنْ ولَّوا إلىٰ قومِهِمْ منذرينَ ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

فكلُّ مَنْ آمنَ بهِ . . فقدْ وفِّقَ ، ومنْ قالَ بهِ . . فقدْ صدقَ ، ومَنْ تمسَّكَ

بهِ . . فقد هُدِيَ ، ومَنْ عملَ بهِ . . فقدْ فازَ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، ومِنْ أسبابِ حفظِهِ في القلوبِ والمصاحفِ استدامةُ تلاوتِهِ ، والمواظبةُ علىٰ دراستِهِ معَ القيامِ بآدابِهِ وشروطِهِ ، والمحافظةُ علىٰ ما فيهِ مِنَ الأعمالِ الباطنةِ والآدابِ الظاهرةِ ، وذلكَ لا بدَّ مِنْ بيانِهِ وتفصيلِهِ .

وتنكشفُ مقاصدُهُ في أربعةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضلِ القرآنِ وأهلِهِ .

البابُ الثاني : في آدابِ التلاوةِ في الظاهرِ .

البابُ الثالثُ : في الأعمالِ الباطنةِ عندَ التلاوةِ .

البابُ الرابعُ : في فهْمِ القرآنِ وتفسيرِهِ بالرأيِ وغيرِهِ .

البابُ الأوّلُ
في فضل القرآن وأهله، وذمّ المقصّرين في تلاوته

فضيلة القرآن

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قرأَ القرآنَ ثمَّ رأىٰ أنَّ أحداً أُوتيَ أفضلَ ممَّا أُوتيَ . . فقدِ استصغرَ ما عظَّمَهُ اللهُ تعالىٰ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ شفيعٍ أفضلَ منزلةً عِندَ اللهِ تعالىٰ مِنَ القرآنِ ، لا نبيٌّ ولا ملكٌ ولا غيرُهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ القرآنُ في إهابٍ . . ما مسَّتْهُ النارُ »(٣) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٤٠٣) ، وأوقفه البيهقي في « الشعب » (٢٣٥٢) علىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً ، وللطبراني ـ في « الكبير » [٩/ ١٣٢] ـ من حديث ابن مسعود : « والقرآن شافع مشفع » ، ولمسلم ـ في « صحيحه » [٨٠٤] ـ من حديث أبي أمامة : « اقرؤوا القرآن ؛ فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه ») « إتحاف » (٤/ ٤٦٣) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٧٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ عبادةِ أمَّتي قراءةُ القرآنِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قرأَ (طه) و(يس) قبلَ أنْ يخلقَ الخلْقَ بألفِ عامٍ ، فلمَّا سمعتِ الملائكةُ القرآنَ . . قالتْ : طوبىٰ لأمَّةٍ ينزلُ عليهِمْ هٰذا ، وطوبىٰ لأجوافٍ تحملُ هٰذا ، وطوبىٰ لألسنةٍ تنطقُ بهٰذا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُكُم مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : مَنْ شغلَهُ قراءةُ القرآنِ عنْ دعائي ومسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ثوابِ الشاكرينَ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يومَ القيامةِ علىٰ كثيبٍ مِنْ مسكٍ أسودَ لا يهولُهُمْ فزعٌ ولا ينالُهُمْ حسابٌ حتَّىٰ يفرغَ ممَّا بينَ الناسِ : رجلٌ قرأَ القرآنَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأمَّ بهِ قوماً وهُمْ بهِ راضونَ . . . »(٥) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٨٦٥) .
(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٣٤٥٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٨٧٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٢٢٥) بنحوه .
(٣) رواه البخاري (٥٠٢٧) .
(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦) بنحوه ، ورواه الدارمي في « سننه » (٣٣٩٩) ، وابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٥٣) .
(٥) رواه الترمذي (١٩٨٦) بنحوه ، وهو بلفظه عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٢٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هٰذهِ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما جلاؤُها ؟ فقالَ : « تلاوةُ القرآنِ ، وذكرُ الموتِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أشدُّ أَذَناً إلىٰ قارىءِ القرآنِ مِنْ صاحبِ القَينةِ إلىٰ قَينتِهِ »[3] .

* * *

الآثارُ :

قالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : (اقرؤوا القرآنَ ولا تغرنَّكُمْ هٰذهِ المصاحفُ المعلَّقَةُ ؛ فإنَّ اللهَ لا يعذِّبُ قلباً وعى القرآنَ)[4] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا أردتُمُ العلمَ . . فأثيروا القرآنَ ؛ فإنَّ فيهِ علمَ الأولينَ والآخرينَ)[5] .

وقالَ أيضاً : (اقرؤوا القرآنَ ، فإنَّكُمْ تؤجرونَ عليهِ بكلِّ حرفٍ منهُ عشرَ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩٧٧) ، وابن ماجه (٢١٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٧) بغير ذكر الموت ، والبيهقي في « الشعب » (١٨٥٩) .

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٤٠) ، وأصله في مسلم (٧٩٢) ، والأَذَن : الاستماع .

(٤) رواه الدارمي في « سننه » (٣٣٦٢) بتمامه ، وهو متوازع في المرفوع . انظر « الإتحاف » (٤/ ٤٦٥) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٤) .

حسناتٍ ، أمَا إنِّي لا أقولُ : الحرفُ « ألم » ، ولكنِ الألفُ حرفٌ ، واللامُ حرفٌ ، والميمُ حرفٌ)(١) .

وقالَ أيضاً : (لا يسألُ أحدُكُمْ عنْ نفسِهِ إلا القرآنَ ، فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ ويعجبُهُ . . فهوَ يحبُّ اللهَ سبحانَهُ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنْ كانَ يبغضُ القرآنَ . . فهوَ يبغضُ اللهَ سبحانَهُ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(٢) .

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ : (كلُّ آيةٍ في القرآنِ درجةٌ في الجنَّة ، ومصباحٌ في بيوتِكُمْ)(٣) .

وقالَ أيضاً : (مَنْ قرأَ القرآنَ . . فقدْ أدرجتِ النبوَّةُ بينَ جنبيهِ إلا أنَّهُ لا يوحَىٰ إليهِ)(٤) .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ البيتَ الذي يُتلىٰ فيهِ كتابُ اللهِ اتسعَ بأهلِهِ ، وكَثُرَ خيرُهُ ، وحضرتْهُ الملائكةُ ، وخرجتْ منهُ الشياطينُ ، وإنَّ البيتَ الذي لا يُتلىٰ فيهِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ضاقَ بأهلِهِ ، وقلَّ خيرُهُ ، وخرجتْ منهُ الملائكةُ ، وحضرتْهُ الشياطينُ)(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وأشار إلىٰ روايته موقوفاً عليه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٢) بنحوه ، وهو في « القوت » (١/ ٥٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨٩) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٩) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٠) .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (رأيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما أفضلُ ما تقرَّبَ بهِ المتقرِّبونَ إليكَ ؟ قالَ : بكلامي يا أحمدُ ، قالَ : قلتُ : يا ربِّ ؛ بفهمٍ أوْ بغيرِ فهمٍ ؟ قالَ : بفهمٍ وبغيرِ فهمٍ)(١) .

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ : (إذا سمعَ الناسُ القرآنَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ . . فكأنَّهُمْ لمْ يسمعوهُ قطُّ)(٢) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (ينبغي لحاملِ القرآنِ ألا يكونَ لهُ إلىٰ أحدٍ حاجةٌ ، ولا إلى الخلفاءِ فَمَنْ دونَهُمْ ، وينبغي أنْ تكونَ حوائجُ الخلقِ إليهِ)(٣) .

وقالَ أيضاً : (حاملُ القرآنِ حاملُ رايةِ الإسلامِ ، فلا ينبغي أنْ يلهوَ معَ مَنْ يلهو ، ولا يسهوَ مع مَنْ يسهو ، ولا يلغوَ معَ مَنْ يلغو ؛ تعظيماً لحقِّ القرآنِ)(٤) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (إذا قرأَ الرجلُ القرآنَ . . قبَّلَ الملكُ بينَ عينيهِ)(٥) .

وقالَ عمرُ بنُ ميمونٍ : (مَنْ نشرَ مصحفاً حينَ يصلِّي الصبحَ ، فقرأَ

---

(١) رواه ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » (ص٥٢٧) .
(٢) رواه مرفوعاً الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٩٨١) .
(٣) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (ص٥٠) .
(٤) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (ص٥١) ضمن الخبر السابق .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٦٩) ، وفيه : (ختم) بدل (قرأ) .

مئةَ آيةٍ . . رفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ مثلَ عملِ جميعِ أهلِ الدنيا)[١] .

ويروىٰ أنَّ خالدَ بنَ عقبةَ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : اقرأْ عليَّ القرآنَ ، فقرأَ عليهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآيةَ ، فقالَ لهُ : أعدْ ؛ فأعادَ ، فقالَ : واللهِ ؛ إنَّ لهُ لحلاوةً ، وإنَّ عليهِ لطلاوةً ، وإنَّ أسفلَهُ لمغدقٌ ، وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ ، وما يقولُ هٰذا بشرٌ[٢] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما دونَ القرآنِ مِنْ غنىً ، ولا بعدَهُ مِنْ فاقةٍ) .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ قرأَ خاتمةَ « سورةِ الحشرِ » حينَ يصبحُ ثمَّ ماتَ مِنْ يومِهِ . . خُتِمَ لهُ بطابعِ الشهداءِ ، ومَنْ قرأَها حينَ يمسي ثمَّ ماتَ مِنْ ليلتِهِ . . خُتِمَ لهُ بطابعِ الشهداءِ)[٣] .

وقالَ القاسمُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ : قلتُ لبعضِ النسَّاكِ : ما هٰهُنا أحدٌ تستأنسُ بهِ ؟ فمدَّ يدَهُ إلى المصحفِ ووضعَهُ علىٰ حجرِهِ وقالَ : هٰذا[٤] .

---

(١) ذكره الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٢/ ٣٥٤) ، وفيه : (عمرو) بدل (عمر) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

(٢) كذا حكىٰ هٰذا القول عن خالد بن عقبة ابنُ عبد البر في « الاستيعاب » (ص٢٠٠) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٣٣) والقائل عنده ـ وهو المشهور في كتب السير ـ هو الوليد بن المغيرة .

(٣) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص١٧٢) عن الفضيل عن هشام عن الحسن ، وهو عن الحسن بغير طريق الفضيل رواه الدارمي في « سننه » (٣٤٦٦) .

(٤) الخبر في « الرسالة القشيرية » (ص٢٠٠) ، ثم قال : وفي معناه أنشدوا :

وكتْبُكَ حولي لا تفارقُ مضجعي		وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتمُ

وقالَ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ يزدْنَ في الحفْظِ ، ويذهبنَ البلغمَ : السواكُ ، والصيامُ ، وقراءةُ القرآنِ)[1] .

* * *

(١) انظر « الإتحاف » (٢/ ٣٤٩) .

في ذمّ تلاوة الغافلين

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (رُبَّ تالٍ للقرآنِ والقرآنُ يلعنُهُ)[1] .

وقالَ ميسرةُ : (الغريبُ هوَ القرآنُ في جوفِ الفاجرِ)[2] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الزبانيةُ أسرعُ إلىٰ حملةِ القرآنِ الذين يعصونَ اللهَ عزَّ وجلَّ منهُمْ إلىٰ عبدةِ الأوثانِ حينَ عصَوُا اللهَ سبحانَهُ بعدَ القرآنِ)[3] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا قرأَ ابنُ آدمَ القرآنَ ثمَّ خلطَ ثمَّ عادَ يقرأُ . . قيلَ لهُ : ما لكَ ولكلامي ؟!)[4] .

وقالَ ابنُ الرمَّاحِ : (ندمتُ على استظهاري القرآنَ ؛ لأنَّهُ بلغني أنَّ

---

(١) كون القرآن علىٰ حالين من قارئه ثابت في صحاح الحديث ، ففي « مسلم » (٢٢٣) مرفوعاً : « والقرآن حجة لك أو عليك » ، وروى ابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص١٠٤) مرفوعاً : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً ، فيؤتىٰ بالرجل قد حمله فخالف أمره ، فيتمثل له خصماً فيقول : يا رب ؛ حملته إياي فبئس حامل ؛ تعدىٰ حدودي ، وضيع فرائضي ، وركب معصيتي ، وترك طاعتي ، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتىٰ يقال : فشأنك ، فيأخذ بيده فما يرسله حتىٰ يكبه علىٰ منخره في النار » ، وسيورد المصنف أخباراً في هـٰذا المعنىٰ صريحة .

(٢) بمعناه مرفوعاً عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٣٠١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) ، ورواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٦) .

(٤) هـٰذا العالم هو يحيى بن الجلاء ، روىٰ هـٰذا الخبر البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢).

أصحابَ القرآنِ يُسألونَ عمَّا يُسألُ عنهُ الأنبياءُ يومَ القيامةِ)[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (ينبغي لحاملِ القرآنِ أنْ يُعرفَ بليلِهِ إذا الناسُ ينامونَ ، وبنهارِهِ إذا الناسُ يفطرونَ ، وبحزنِهِ إذا الناسُ يفرحونَ ، وببكائِهِ إذا الناسُ يضحكونَ ، وبصمتِهِ إذا الناسُ يخوضونَ ، وبخشوعِهِ إذا الناسُ يختالونَ ، وينبغي لحاملِ القرآنِ أنْ يكونَ سكِّيتاً ليِّناً ، ولا ينبغي لهُ أنْ يكونَ جافياً ولا ممارياً ، ولا صيَّاحاً ولا صخَّاباً ولا حديداً)[٢] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ منافقي هٰذهِ الأمَّةِ قرَّاؤُها »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرأِ القرآنَ ما نهاكَ ، فإنْ لمْ ينهكَ . . فلستَ تقرؤُهُ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آمنَ بالقرآنِ مَنِ استحلَّ محارمَهُ »[٥] .

وقالَ بعضُ السلفِ : إنَّ العبدَ ليفتتحُ سورةً فتصلِّي عليهِ الملائكةُ حتَّىٰ

---

(١) رواه مرفوعاً من غير طريق ابن الرماح ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ١٧٤) ، وهو في « الحلية » (٧/ ٢٨١) من كلام سفيان بنحوه .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٩٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٣٤) ، **والحديد** : صاحب حدَّة الخلق سريع الغضب .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « المسند » (٢/ ١٧٥) .

(٤) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٣٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٧٧) .

(٥) رواه الترمذي (٢٩١٨) .

يفرغَ منها ، وإنَّ العبدَ ليفتتحُ سورةً فتلعنُهُ حتَّىٰ يفرغَ منها ، فقيلَ لهُ : وكيفَ ذلكَ ؟! فقالَ : إذا أحلَّ حلالَها وحرَّمَ حرامَها . . صلَّتْ عليهِ ، وإلا . . لعنَتْهُ[1] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّ العبدَ ليتلو القرآنَ فيلعنُ نفسَهُ وهوَ لا يعلمُ ؛ يقرأُ : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وهوَ ظالمٌ نفسَهُ ، ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وهوَ منهُمْ !)[2] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّكُمُ اتخذتمْ قراءةَ القرآنِ مراحلَ ، وجعلتُمُ الليلَ جَمَلاً ، فأنتُمْ تركبونَهُ فتقطعونَ بهِ مراحلَهُ ، وإنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ رأوهُ رسائلَ مِنْ ربِّهِمْ ، فكانوا يتدبرونَها بالليلِ وينفذونَها بالنهارِ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (أُنزلَ القرآنُ عليهمْ ليعملوا بهِ ، فاتخذوا دراستَهُ عملاً ، إنَّ أحدَهُمْ ليقرأُ القرآنَ مِنْ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ ما يسقطُ منهُ حرفاً وقدْ أسقطَ العملَ بهِ !)[1] .

وفي حديثِ ابنِ عمرَ وحديثِ جُنْدُبٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لقدْ عشْنَا دهراً طويلاً وأحدُنا يُؤْتَى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، فتنزلُ السورةُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٥٨) ، وفيه وفي كل النسخ : (الكاذبين) بدل (الظالمين) في الموضع الثاني ، وهو خطأ ، والله أعلم .

عندَهُ منها ، ثمَّ لقدْ رأيتُ رجالاً يُؤتَىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ فاتحةِ الكتابِ إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ ولا زاجرُهُ ، ولا ما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منهُ ، ينثرُهُ نثرَ الدَّقَلِ)[1] .

وقدْ وردَ في التوراةِ : (يا عبدي ؛ أما تستحي منِّي ؟! يأتيكَ كتابٌ مِنْ بعضِ إخوانِكَ وأنتَ في الطريقِ تمشي فتعدلُ عنِ الطريقِ وتقعدُ لأجلِهِ وتقرؤُهُ وتتدبَّرُهُ حرفاً حرفاً حتَّىٰ لا يفوتَكَ شيءٌ منهُ ، وهـٰذا كتابي أنزلتُهُ إليكَ ، انظرْ كمْ وصَّلْتُ لكَ فيهِ مِنَ القولِ[2] ، وكمْ كرَّرْتُ عليكَ فيهِ لتتأمَّلَ طولَهُ وعرضَهُ ، ثمَّ أنتَ معرضٌ عنهُ ، أفكنتُ أهونَ عليكَ مِنْ بعضِ إخوانِكَ ؟! يا عبدي ؛ يقعدُ إليكَ بعضُ إخوانِكَ فتقبلُ عليهِ بكلِّ وجهِكَ ، وتصغي إلىٰ حديثِهِ بكلِّ قلبِكَ ، فإنْ تكلَّمَ متكلِّمٌ أَوْ شغلَكَ شاغلٌ عنْ حديثِهِ . أومأْتَ إليهِ أنْ كفَّ ، وهـٰأنا ذا مقبلٌ عليكَ ومحدِّثٌ لكَ وأنتَ معرضٌ بقلبِكَ عنِّي ، أفجعلتَني أهونَ عندَكَ مِنْ بعضِ إخوانِكَ ؟!)[3] .

⁂ ⁂ ⁂

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٥) .
(٢) قوله : (وصَّلت) بتشديد الصاد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، والمراد بالتوصيل : متابعة الوعظ واتصال المعاني ، أو التنوع فيها وفي الأخبار .
(٣) قوت القلوب (١/ ٥٩) .

البَابُ الثَّاني
في ظاهر آداب التلاوة
وهي عشرة

الأوَّلُ : في حالِ القارىءِ :

وهوَ أنْ يكونَ على الوضوءِ ، واقفاً علىٰ هيئةِ الأدبِ والسكونِ ؛ إمَّا قائماً ، وإمَّا جالساً ، مستقبلَ القبلةِ ، مطرقاً رأسَهُ ، غيرَ متربِّعٍ ولا متكىءٍ ولا جالسٍ علىٰ هيئةِ التكبُّرِ[1] ، ويكونُ جلوسُهُ وحدَهُ كجلوسِهِ بينَ يدي أستاذِهِ .

وأفضلُ الأحوالِ أنْ يقرأَهُ في الصلاةِ قائماً ، وأنْ يكونَ في المسجدِ ؛ فذلكَ مِنْ أفضلِ الأعمالِ .

فإنْ قرأَ علىٰ غيرِ وضوءٍ وكانَ مضطجعاً في الفراشِ . . فلهُ أيضاً فضلٌ ، ولكنَّهُ دونَ ذلكَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

---

(١) بأن يجعل إحدىٰ رجليه على الأخرىٰ أو غير ذلك ، ويحسن به أن يتطيَّبَ ويتبخَّر بأطيب ما يجد عنده إن أمكنه ذلك ، وأن يستاك ، فقد روى ابن ماجه عن سيدنا علي أنه قال : (أفواهكم طرق القرآن ، فطيبوها بالسواك) ، فإن كان متطيلساً . . فهو الأحسن ؛ إذ هو الخلوة الصغرىٰ . انظر « الإتحاف » (٤/ ٤٧٠) .

جُنُوبِهِمْ﴾ ، فأثنىٰ على الكلِّ ، ولكنْ قدَّمَ القيامَ في الذكرِ ، ثمَّ القعودَ ، ثمَّ الذكرَ مضطجعاً .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ قرأَ القرآنَ وهوَ قائمٌ في الصلاةِ . . كانَ لهُ بكلِّ حرفٍ مئةُ حسنةٍ ، ومَنْ قرأَهُ وهوَ جالسٌ في الصلاةِ فلهُ بكلِّ حرفٍ خمسونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَهُ في غيرِ صلاةٍ وهوَ علىٰ وضوءٍ . . فخمسٌ وعشرونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَهُ علىٰ غيرِ وضوءٍ . . فعشرُ حسناتٍ)(١) .

وما كانَ مِنَ القيامِ بالليلِ فهوَ أفضلُ ؛ لأنَّهُ أفرغُ للقلبِ ، قالَ أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ كثرةَ السجودِ بالنهارِ ، وإنَّ طولَ القيامِ بالليلِ)(٢) .

* * *

الثاني : في مقدارِ القراءةِ :

وللقرَّاءِ عاداتٌ مختلفةٌ في الاستكثارِ والاقتصارِ ؛ فمنهُمْ مَنْ يختمُ في اليومِ والليلةِ مرَّةً ، وبعضُهُمْ مرَّتينِ ، وانتهىٰ بعضُهُمْ إلىٰ ثلاثٍ(٣) ، ومنهُمْ مَنْ يختمُ في الشهرِ مرَّةً .

وأَوْلىٰ ما يرجعُ إليهِ في التقديراتِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) بنحوه رواه تمام في « فوائده » (١٣٠٤) مرفوعاً من رواية البراء بن عازب .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

(٣) قال الإمام النووي في « الأذكار » (ص١٨٩) : (وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات ؛ أربعاً في الليل ، وأربعاً في النهار ، وممن ختم أربعاً في الليل وأربعاً في النهار السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي رضي الله عنه ، وهـٰذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة) .

« مَنْ قرأَ القرآنَ في أقلَّ مِنْ ثلاثٍ .. لمْ يفقهْهُ »[1] ، وذلكَ لأنَّ الزيادةَ عليهِ تمنعُهُ الترتيلَ[2] ، وقدْ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لمَّا سمعتْ رجلاً يهُذُّ القرآنَ هذّاً : (إنَّ هـٰذا ما قرأَ القرآنَ ولا سكتَ)[3] .

وأمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما أنْ يختمَ القرآنَ في سبعٍ[4] ، وكذلكَ كانَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يختمونَ القرآنَ في كلِّ جمعةٍ ؛ كعثمانَ ، وزيدِ بنِ ثابتٍ ، وابنِ مسعودٍ ، وأبيِّ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ[5] .

ففي الختمِ أربعُ درجاتٍ :

الختمُ في يومٍ وليلةٍ وقدْ كرهَهُ جماعةٌ .

---

(1) رواه بهـٰذا اللفظ أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٤) ، وهو بنحوه عند أبي داوود (١٣٩٠) ، والترمذي (٢٩٤٩) ، وابن ماجه (١٣٤٧) .

(2) قال الإمام الترمذي (٢٩٤٦) : (وقال بعض أهل العلم : لا يقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث ؛ للحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ورخص فيه بعض أهل العلم ، وروي عن عثمان بن عفان أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها ، وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة ، والترتيل في القراءة أحب إلىٰ أهل العلم) ، فالمسألة بالاعتبار بالشخص وحاله كما ذكر ذلك الإمام النووي في « الأذكار » (ص١٩٠) ، و« التبيان » (ص٨٠) ، وكما سيأتي كذلك تفصيل المصنف فيه .

(3) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٧) ، ويهذُّ : يسرع ويتابع في قراءته .

(4) رواه البخاري (٥٠٥٤) ، ومسلم (١١٥٩) حيث قال له صلى الله عليه وسلم : « فاقرأْهُ في سبع ولا تزد علىٰ ذلك » .

(5) رواه أبو طالب في « القوت » (١/ ٤٥) .

والختمُ في كلِّ شهرٍ كلَّ يومٍ جزءٌ مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، وكأنَّهُ مبالغةٌ في الاقتصارِ كما أنَّ الأولَ مبالغةٌ في الاستكثارِ ، وبينَهُما درجتانِ معتدلتانِ :

إحداهما : في الأسبوعِ مرَّةً .

والثانيةُ : في الأسبوعِ مرتينِ تقريباً مِنَ الثلاثِ .

والأحبُّ : أنْ يختمَ ختمةً بالليلِ وختمةً بالنهارِ ، ويجعلَ ختمةَ النهارِ يومَ الاثنينِ في ركعتيِ الفجرِ أوْ بعدَهُما ، ويجعلَ ختمةَ الليلِ ليلةَ الجمعةِ في ركعتيِ المغربِ ، أوْ بعدَهُما ؛ ليستقبلَ بختمتيهِ أوّلَ النهارِ وأوّلَ الليلِ ؛ فإنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ تصلِّي عليهِ إنْ كانَ ختمُهُ ليلاً حتَّىٰ يصبحَ ، وإنْ كانَ نهاراً حتَّىٰ يمسيَ ، فتشملُ بركتُهُما جميعَ الليلِ والنهارِ[1] .

والتفصيلُ في مقدارِ القراءةِ : أنَّهُ إنْ كانَ مِنَ العابدينَ السالكينَ بطريقِ العملِ . . فلا ينبغي أنْ ينقصَ عنْ ختمتينِ في الأسبوعِ ، وإنْ كانَ مِنَ السالكينَ بأعمالِ القلبِ وضروبِ الفكرِ ، أوْ مِنَ المشتغلينَ بنشرِ العلمِ . . فلا بأسَ أنْ يقتصرَ في الأسبوعِ علىٰ مرَّةٍ ، وإنْ كانَ نافذَ الفكرِ في معاني القرآنِ . . فقدْ يكتفي في الشهرِ بمرَّةٍ ؛ لكثرةِ حاجتِهِ إلىٰ كثرةِ الترديدِ والتأمُّلِ .

---

(١) فقد روى الدارمي في « سننه » (٣٥١٨) عن عبدة بن أبي لبابة : (إذا ختم الرجل القرآن بنهار . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يمسي ، وإن فرغ منه ليلاً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يصبح) .

الثالثُ : في وجهِ القسمةِ :

أمَّا مَنْ ختمَ في الأسبوعِ مرَّةً . . فيقسمُ القرآنَ سبعةَ أحزابٍ ، فقدْ حزَّبَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمُ القرآنَ أحزاباً(١) ، فرُوِيَ أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يفتتحُ ليلةَ الجمعةِ بـ(البقرةِ) إلى (المائدةِ) ، وليلةَ السبتِ بـ(الأنعامِ) إلىٰ (هودٍ) ، وليلةَ الأحدِ بـ(يوسفَ) إلىٰ (مريمَ) ، وليلةَ الاثنينِ بـ(طٰه) إلىٰ (طسم موسىٰ وفرعونَ) ، وليلةَ الثلاثاءِ بـ(العنكبوتِ) إلىٰ (ص) ، وليلةَ الأربعاءِ بـ(تنزيلُ) إلى (الرحمٰنِ) ، ويختمُ ليلةَ الخميسِ(٢) .

وابنُ مسعودٍ كانَ يقسمُهُ سبعةَ أقسامٍ لا علىٰ هٰذا الترتيبِ(٣) .

وقيلَ : أحزابُ القرآنِ سبعةٌ : فالحزبُ الأوَّلُ : ثلاثُ سورٍ ، والحزبُ الثاني : خمسُ سورٍ ، والحزبُ الثالثُ : سبعُ سورٍ ، والرابعُ : تسعُ سورٍ ، والخامسُ : إحدىٰ عشرةَ سورةً ، والسادسُ : ثلاثَ عشرةَ سورةً ، والسابعُ : المفصَّلُ مِنْ (سورةِ ق) إلىٰ آخرِهِ . فهكذا حزَّبَهُ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهِم ، وكانوا يقرؤونَهُ كذلكَ ، وفيهِ خبرٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٤) ،

---

(١) روىٰ ذلك أبو طالب في « القوت » (١/ ٤٥) .

(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١/ ٥١٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٤٥) .

(٤) وهو ما رواه أبو داوود (١٣٩٣) ، وابن ماجه (١٣٤٥) عن أوس بن حذيفة قال : (سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يُحزِّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، =

وهٰذا قبلَ أنْ تعملَ الأخماسُ والعواشرُ والأجزاءُ[1] ، فما سوىٰ هٰذا محدَثٌ .

* * *

الرابعُ : في الكِتبةِ[2] :

يستحبُّ تحسينُ كتابةِ القرآنِ وتبيينُهُ ، ولا بأسَ بالنقْطِ والعلاماتِ بالحمرةِ وغيرِها ؛ فإنَّ ذلكَ تزيينٌ وتبيينٌ وصدٌّ عنِ اللحنِ والخطأِ لمَنْ يقرؤُهُ .

وقدْ كانَ الحسنُ وابنُ سيرينَ ينكرانِ الأخماسَ والعواشرَ والأجزاءَ[3] ، ورُوِيَ عنِ الشعبيِّ وإبراهيمَ كراهيةُ النقطِ بالحمرةِ وأخذِ الأجرةِ علىٰ ذلكَ ، وكانوا يقولونَ : (جرِّدوا القرآنَ)[4] ، والظنُّ بهؤلاءِ أنَّهُمْ كرهوا فتحَ هٰذا البابِ خوفاً مِنْ أنْ يؤديَ إلىٰ إحداثِ زياداتٍ ، وحسماً للبابِ ، وشوقاً إلىٰ

= وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدىٰ عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده) .

(١) **الأخماس** : جمع خُمُس ، وهو جزء من خمسة أجزاء ، **والعواشر** : جمع عَشِير ، لغة في العُشْر ، جزء من عشرة أجزاء ، وسيأتي أنها تطلق كذلك على العلامات الدالة علىٰ معانيها في القرآن .

(٢) **الكِتبة** ـ بكسر الكاف ـ : هيئة الكتابة وحالتها .

(٣) أي : العلامات الدالة علىٰ تخميس وتعشير وتجزيء القرآن الكريم ، والخبر عند صاحب « القوت » (١/ ٤٥) .

(٤) روي هٰذا بطرق عديدة ، وعن الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما الكثير ، رواها ابن أبي داوود في « المصاحف » (٢/ ٥١١ـ ٥٢٨) .

حراسةِ القرآنِ عمَّا يُطَرِّقُ إليهِ تغييراً[١] ، وإذا لمْ يؤدِّ إلىٰ محذورٍ واستقرَّ أمرُ الأمَّةِ فيهِ علىٰ ما يحصلُ بهِ مزيدُ معرفةٍ . . فلا بأسَ بهِ ، ولا يمنعُ مِنْ ذلكَ كونُهُ محدثاً ، فكمْ مِنْ محدثٍ حسنٌ ؛ كما قيلَ في إقامةِ الجماعاتِ في التراويحِ : إنَّها مِن محدثاتِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وإنَّها بدعةٌ حسنةٌ ، وإنَّما البدعةُ المذمومةُ ما يصادمُ السنةَ القديمةَ أَوْ يكادُ يفضي إلىٰ تغييرِها[٢] .

وبعضُهُمْ كانَ يقولُ : أقرأُ في المصحفِ المنقوطِ ولا أنقُطُهُ بنفسي[٣] .

وقالَ الأوزاعيُّ عنْ يحيىٰ بنِ أبي كثيرٍ : (كانَ القرآنُ مجرَّداً في المصاحفِ ، فأوَّلُ ما أحدثوا فيهِ النقطُ على الباءِ والتاءِ ، وقالوا : لا بأسَ بهِ ؛ فإنَّهُ نورٌ لهُ ، ثمَّ أحدثوا بعدَهُ نُقَطاً كِباراً عندَ منتهى الآيِ ، فقالوا : لا بأسَ بهِ ؛ يعرفُ بهِ رأسُ الآيةِ ، ثمَّ أحدثوا بعدَ ذلكَ الخواتيمَ والفواتحَ)[٤] .

قالَ أبو بكرٍ الهذليُّ : سألتُ الحسنَ عنْ تنقيطِ المصاحفِ بالأحمرِ فقالَ :

---

(١) يُطَرِّق : يدخل عليه ؛ أي : يكون سبباً وطريقاً للتغيير .
(٢) وقد قالوا : إن البدعة المباحة هو ما شهد بحسنه أصل الشرع أو اقتضته مصلحة تندفع بها مفسدة ، وفيما نحن فيه حصول مزيد المعرفة ، والتبيين مصلحة شرعية ، فلا يكون النقط والعلامات من البدع المذمومة . « إتحاف » (٤/ ٤٧٧) .
(٣) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٧١٧٨) عن الشعبي أنه قال لرجل سأله عن مصحف منقوط : (اقرأ عليه ولا تنقطه بيدك) .
(٤) الخبر في « القوت » (١/ ٤٥) ، وروى ابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٤٥) عن هارون بن موسىٰ قال : (أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر) .

وما تنقيطُها ؟ قلتُ : يعربونَ الكلمةَ بالعربيةِ ، قالَ : أمَّا إعرابُ القرآنِ . . فلا بأسَ بهِ[1] .

وقالَ خالدُ الحذَّاءُ : (دخلتُ على ابنِ سيرينَ ، فرأيتُهُ يقرأُ في مصحفٍ منقوطٍ وقدْ كانَ يكرهُ النقْطَ)[2] .

وقيلَ : إنَّ الحجَّاجَ هوَ الذي أحدثَ ذلكَ ، وأحضرَ القرَّاءَ حتَّىٰ عدُّوا كلماتِ القرآنِ وحروفَهُ وسوَّوْا أجزاءَهُ وقسَّمُوهُ إلىٰ ثلاثينَ جزءاً وإلىٰ أقسامٍ أُخَرَ[3] .

* * *

الخامسُ : الترتيلُ :

هوَ المستحبُّ في هيئةِ القرآنِ ؛ لأنَّا سنبيِّنُ أنَّ المقصودَ مِنَ القراءةِ التفكُّرُ ، والترتيلُ معينٌ عليهِ ، ولذلكَ نعتتْ أمُّ سلمةَ قراءةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا هيَ تنعتُ قراءةً مفسَّرةً حرفاً حرفاً[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ »

---

(١) رواه عن الهذلي مختزلاً ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٩٤٣) ، والخبر في « القوت » (١/ ١٧١) .
(٢) رواه ابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٦٥) ، وكراهته لنقطه (٤٥١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٧١) .
(٤) رواه أبو داوود (١٤٦٦) ، والترمذي (٢٩٢٧) ، والنسائي (٢/ ١٨١) .

أرتِّلُهما وأتدبَّرُهما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقرأَ القرآنَ كلَّهُ هذرمةً)[١] .

وقالَ أيضاً : (لأنْ أقرأَ : « إذا زلزلت » و« القارعةَ » أتدبَّرُهما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ » تهذيراً)[٢] .

وسئلَ مجاهدٌ عنْ رجلينِ دخلا في الصلاةِ ، فكانَ قيامُهُما واحداً إلا أنَّ أحدَهُما قرأَ (البقرةَ) فقطْ وقرأَ الآخرُ القرآنَ كلَّهُ . . فقالَ : هما في الأجرِ سواءٌ[٣] .

واعلمْ : أنَّ الترتيلَ مستحبٌّ لا لمجرَّدِ التدبُّرِ ؛ فإنَّ العجميَّ الذي لا يفهمُ معنى القرآنِ يستحبُّ لهُ أيضاً في القراءةِ الترتيلُ والتؤدةُ ؛ لأنَّ ذلكَ أقربُ إلى التوقيرِ والاحترامِ ، وأشدُّ تأثيراً في القلبِ مِنَ الهذرمةِ والاستعجالِ .

السادسُ : البكاءُ :

البكاءُ مستحبٌّ معَ القراءةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٤) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٨٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢١٤) عن محمد بن كعب القرظي ، ونسبته إلى ابن عباس رضي الله عنهما في « القوت » (١/ ٤٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

« اتلُوا القرآنَ وابكُوا ، فإنْ لمْ تبكُوا . . فتباكَوا »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[2] .

وقال صالحٌ المريُّ : (قرأتُ القرآنَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ لي : يا صالحُ ؛ هـٰذهِ القراءةُ ، فأينَ البكاءُ ؟!)[3] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إذا قرأتُمْ سجدةَ « سبحانَ » . . فلا تعجلوا بالسجودِ حتَّىٰ تبكُوا ، فإنْ لمْ تبكِ عينُ أحدِكُمْ . . فليبكِ قلبُهُ)[4] .

وإنَّما طريقُ تكلُّفِ البكاءِ : أنْ يحضرَ قلبَهُ الحزْنَ ، فمِنَ الحزْنِ ينشأُ البكاءُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ القرآنَ نزلَ بحزْنٍ ، فإذا قرأتمُوهُ فتحازَنُوا »[5] .

ووجهُ إحضارِ الحزنِ : أنْ يتأمَّلَ ما فيهِ مِنَ التهديدِ والوعيدِ ، والمواثيقِ والعهودِ ، ثمَّ يتأمَّلَ تقصيرَهُ في أوامرِهِ وزواجرِهِ ، فيحزنَ لذلكَ ـ لا محالةَ ـ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٥/ ٨٣) عن يزيد الرقاشي ، والخبر في « القوت » (١/ ٤٧) عن ثابت البناني .

(٤) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

(٥) قوله : « إن القرآن نزل بحزن » هو قطعة من حديث ابن ماجه المتقدم وهو بمعناه عموماً ، وبلفظ الحزن روى الآجري في « فضائل القرآن » (ص٨٠) مرفوعاً : « اقرؤوا القرآن بحزْنٍ ؛ فإنه نزل بحزن » .

ويبكيَ ، فإنْ لمْ يحضرْهُ حزْنٌ وبكاءٌ كما يحضرُ أربابَ القلوبِ الصافيةِ . . فليبكِ علىٰ فقْدِ الحزْنِ والبكاءِ ؛ فإنَّ ذلكَ أعظمُ المصائبِ .

* * *

السابعُ : أنْ يراعيَ حقَّ الآياتِ :

فإذا مرَّ بآيةِ سجدةٍ . . سجدَ ، وكذلكَ إذا سمعَ مِنْ غيرِهِ سجدةً . . سجدَ إذا سجدَ التالي ، ولا يسجدُ إلا إذا كانَ علىٰ طهارةٍ ، وفي القرآنِ أربعَ عشرةَ سجدةً ، وفي (الحجِّ) سجدتانِ ، وليسَ في (ص) سجدةٌ[1] ، وأقلُّهُ : أنْ يسجدَ بوضْعِ جبهتِهِ على الأرضِ ، وأكملُهُ : أنْ يكبِّرَ فيسجدَ ويدعوَ في سجودِهِ بما يليقُ بالآيةِ التي قرأَها ، مثلَ أنْ يقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، فيقولَ : (اللهُمَّ ؛ اجعلني مِنَ الساجدينَ لوجهِكَ ، المسبِّحينَ بحمدِكَ ، وأعوذُ بكَ أنْ أكونَ مِنَ المستكبرينَ عنْ أمرِكَ أوْ علىٰ أوليائِكَ) ، وإذا قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ . . فليقلْ : (اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الباكينَ إليكَ ، الخاشعينَ لكَ) ، وكذلكَ في كلِّ سجدةٍ .

ويشترطُ في هـٰذهِ السجدةِ شروطُ الصلاةِ ؛ مِنْ سترِ العورةِ ، واستقبالِ القبلةِ ، وطهارةِ الثوبِ والبدنِ مِنَ الحدثِ والخبثِ ، ومَنْ لمْ يكنْ علىٰ طهارةٍ عندَ السماعِ للسجدةِ ؛ فإذا تطهَّرَ . . سجدَ ، وقدْ قيلَ في كمالِها : إنَّهُ

---

(١) أي : ليست سجدة (ص) من عزائم السجود ؛ أي : متأكداته ، وإنما هي مستحبة . « إتحاف » (٤/ ٤٨٠) .

يكبِّرُ رافعاً يديه للتحريمِ ، ثمَّ يكبِّرُ للسجودِ ، ثمَّ يكبِّرُ للارتفاعِ ، ثمَّ يسلِّمُ ، وزادَ زائدونَ التشهُّدَ ، ولا أصلَ لهـٰذا إلا القياسُ علىٰ سجودِ الصلاةِ ، وهوَ بعيدٌ ؛ فإنَّهُ وردَ الأمرُ بالسجودِ ، فليتبعْ فيهِ الأمرَ[١] ، وتكبيرةُ الهويِّ أقربُ للبدايةِ ، وما عدا ذلكَ ففيهِ بُعْدٌ .

ثمَّ المأمومُ ينبغي أنْ يسجدَ عندَ سجودِ الإمامِ ، ولا يسجدُ لتلاوةِ نفسِهِ إذا كانَ مأموماً .

* * *

الثامنُ : أنْ يقولَ في مبتدأِ قراءتِهِ :

(أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ربِّ ؛ أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرُونِ) ، وليقرأْ : (قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) وسورةَ (الحمدُ للهِ)[٢] .

وليقلْ عندَ فراغِهِ مِنْ كلِّ سورةٍ : (صدقَ اللهُ تعالىٰ ، وبلَّغَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، اللهمَّ ؛ انفعْنا بهِ ، وباركْ لنا فيهِ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأستغفرُ اللهَ الحيَّ القيومَ)[٣] .

وفي أثناءِ القراءةِ إذا مرَّ بآيةِ تسبيحٍ . . سبَّحَ وكبَّرَ ، وإنْ مرَّ بآيةِ

---

(١) في غير (ب) : (الاسم) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٦٠) .

دعاءٍ واستغفارٍ . . دعا واستغفرَ ، وإنْ مرَّ بمرجوٍّ . . سألَ ، وإنْ مرَّ بمَخُوفٍ . . استعاذَ ، يفعلُ ذلكَ بلسانهِ أوْ بقلبهِ ؛ فيقولُ : سبحانَ اللهِ ، نعوذُ باللهِ ، اللهمَّ ارزقنا ، اللهمَّ ارحمنا ، قالَ حذيفةُ : (صلَّيْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فابتدأَ « سورةَ البقرةِ » ، فكانَ لا يمرُّ بآيةِ عذابٍ إلا استعاذَ ، ولا بآيةِ رحمةٍ إلا سألَ ، ولا بآيةِ تنزيهٍ إلا سبَّحَ)(١) .

وإذا فرغَ . . قالَ ما كانَ يقولُهُ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ عندَ ختْمِ القرآنِ : « اللهمَّ ؛ ارحمني بالقرآنِ العظيمِ ، واجعلهُ لي إماماً ونوراً ، وهدىً ورحمةً ، اللهمَّ ؛ ذكِّرْني منهُ ما نسيتُ ، وعلِّمني منهُ ما جهلتُ ، وارزقني تلاوتَهُ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، واجعلْهُ حجةً لي يا ربَّ العالمينَ »(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٦٨٤) بنحوه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في « فضائل القرآن » ، وأبو بكر بن الضحاك في « الشمائل » كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داوود بن قيس معضلاً) . « إتحاف » (٤/ ٤٩٢) . قال في هـٰذا الحديث الحافظ الإمام ابن الجزري في « النشر في القراءات العشر » (٢/ ٤٦٤) : (وهـٰذا الحديث لا أعلم ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ختم القرآن غيره) أي : تخصيص هـٰذا الدعاء ، وإلا . . فقد أورد هو نفسه مرفوعات في دعائه صلى الله عليه وسلم عند الختم عقب هـٰذا القول .

التاسعُ : في الجهرِ بالقراءةِ :

ولا شكَّ في أنَّهُ لا بدَّ أنْ يجهرَ بها إلىٰ حدٍّ يُسْمِعُ نفسَهُ ؛ إذِ القراءةُ عبارةٌ عنْ تقطيعِ الصوتِ بالحروفِ ، ولا بدَّ مِنْ صوتٍ ، وأقلُّهُ ما يُسْمِعُ نفسَهُ ، فإنْ لمْ يسمعْ نفسَهُ . . لمْ تصحَّ صلاتُهُ ، فأمَّا الجهرُ بحيثُ يسمعُ غيرَهُ . . فهوَ محبوبٌ علىٰ وجهٍ ، ومكروهٌ علىٰ وجهٍ آخرَ .

ويدلُّ على استحبابِ الإسرارِ ما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « فضلُ قراءةِ السرِّ علىٰ قراءةِ العلانيةِ كفضْلِ صدقةِ السرِّ علىٰ صدقةِ العلانيةِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الجاهرُ بالقرآنِ كالجاهرِ بالصدقةِ ، والمسرُّ بهِ كالمسرِّ بالصدقةِ »(١) .

وفي الخبرِ العامِّ : « يفضلُ عملُ السرِّ علىٰ عملِ العلانيةِ سبعينَ ضعفاً »(٢) ، وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الرزْقِ ما يكفي ، وخيرُ الذكْرِ الخفيُّ »(٣) .

وفي الخبرِ : « لا يجهرْ بعضُكُمْ علىٰ بعضٍ في القراءةِ بينَ المغربِ والعشاءِ »(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٣٣٣) ، والترمذي (٢٩١٩) ، والنسائي (٣/ ٢٢٥) ، واللفظ الأول للحديث في « القوت » (١/ ٥٩) ، وهو بنحوه كذلك موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٦٧) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٩٦) .

وسمعَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ ذاتَ ليلةٍ في مسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ يجهرُ بالقراءةِ في صلاتِهِ وكانَ حسنَ الصوتِ ، فقالَ لغلامِهِ : اذهبْ إلىٰ هـٰذا المصلِّي فمرْهُ أنْ يخفضَ مِنْ صوتِهِ ، فقالَ الغلامُ : إنَّ المسجدَ ليسَ لنا وللرجلِ فيه نصيبٌ ، فرفعَ سعيدٌ صوتَهُ وقالَ : يا أيُّها المصلِّي ؛ إنْ كنتَ تريدُ اللهَ عزَّ وجلَّ بصلاتِكَ . . فاخفضْ صوتَكَ ، وإنْ كنتَ تريدُ الناسَ . . فإنَّهم لنْ يُغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، فسكتَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وخفَّفَ ركعتَهُ ، فلمَّا سلَّمَ . . أخذَ نعليهِ وانصرفَ ، وهوَ يومئذٍ أميرُ المدينةِ(١) .

ويدلُّ على استحبابِ الجهرِ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمعَ جماعةً مِنْ أصحابِهِ يجهرونَ في صلاةِ الليلِ ، فصوَّبَ ذلكَ(٢) ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قامَ أحدُكُمْ مِنَ الليلِ يصلِّي . . فليجهرْ بقراءتِهِ ؛ فإنَّ الملائكةَ وعمَّارَ الدارِ يستمعونَ إلىٰ قراءتِهِ ويصلُّونَ بصلاتِهِ »(٣) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٩) ، وقد روى القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص١٦٩) : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة يقرأ في المسجد يجهر بقراءته في صلاة النهار فقال : « يا بن حذافة ؛ سمِّع الله ولا تسمِّعنا » .

(٢) حيث روى البخاري (٥٠٤٢) ، ومسلم (٧٨٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمع النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً يقرأ من الليل في المسجد ، فقال : « يرحمه الله ؛ لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا » .
وروى البخاري (٤٢٣٢) ، ومسلم (٢٤٩٩) مرفوعاً : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل . . . » الحديث .

(٣) رواه البزار كما في « مختصر زوائد مسند البزار » (٥٠١ ، ١٥٦٢) ، وقد رواه ابن =

ومرَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلاثةٍ مِنْ أصحابهِ رضيَ اللهُ عنهُم مختلفي الأحوالِ ، فمرَّ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يخافتُ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ؛ فقالَ : (إنَّ الذي أناجيهِ هوَ يسمعني) ، ومرَّ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يجهرُ ، فسألهُ عنْ ذلكَ ؛ فقالَ : (أوقظُ الوَسْنانَ وأزجُرُ الشيطانَ) ، ومرَّ علىٰ بلالٍ وهوَ يقرأُ آياً مِنْ هـٰذهِ السورةِ وآياً مِنْ هـٰذهِ السورةِ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ؛ فقالَ : (أخلطُ الطيِّبَ بالطيِّبِ) ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّكُمْ قدْ أحسنَ وأصابَ »[1] .

فالوجهُ في الجمعِ بينَ هـٰذهِ الأحاديثِ : أَنَّ الإسرارَ أبعدُ عنِ الرياءِ والتصنُّعِ ، فهوَ أفضلُ في حقِّ مَنْ يخافُ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ، فإنْ لمْ يخفْ ، ولمْ يكنْ في الجهرِ ما يشوِّشُ الوقتَ علىٰ مصلٍّ آخرَ . فالجهرُ أفضلُ ؛ لأنَّ العملَ فيهِ أكثرُ ، ولأنَّ فائدتَهُ أيضاً تتعلَّقُ بغيرِهِ ، فالخيرُ المتعدِّي أفضلُ مِنَ اللازمِ ، ولأنَّهُ يوقِظُ قلبَ القارئِ ، ويجمعُ همَّهُ إلى الفكرِ فيهِ ، ويصرفُ إليهِ سمعَهُ ، ولأنَّهُ يطردُ النومَ برفعِ الصوتِ ، ولأنَّهُ يزيدُ في نشاطِهِ للقراءةِ ، ويقلِّلُ مِنْ كسلِهِ ، ولأنَّهُ يرجو بجهرِهِ تيقُّظَ نائمٍ ، فيكونُ هوَ سببَ إحيائِهِ ، ولأنَّهُ قدْ يراهُ بطَّالٌ غافلٌ فينشَطُ بسببِ نشاطِهِ ، ويشتاقُ إلى الخدمةِ .

= أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣١) ، وابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص١١٦) موقوفاً علىٰ عبادة بن الصامت ، ضمن حديث طويل عند الجميع .

(١) رواه أبو داوود (١٣٣٠) ، وهو في « القوت » (١/ ٥٩) .

فمهما حضرَهُ شيءٌ مِنْ هـٰذهِ النيَّاتِ . . فالجهرُ أفضلُ ، وإنِ اجتمعتْ هـٰذهِ النيَّاتُ . . تضاعفَ الأجرُ ، وبكثرةِ النيَّاتِ تزكو أعمالُ الأبرارِ وتتضاعفُ أجورُهُمْ ، فإنْ كانَ في العملِ الواحدِ عشرُ نيَّاتٍ . . كانَ فيهِ عشرةُ أجورٍ .

ولهـٰذا نقولُ : قراءةُ القرآنِ في المصحفِ أفضلُ ؛ إذْ يزيدُ في العملِ النظرَ وتأمُّلَ المصحفِ وحَمْلَهُ ، فيزيدُ الأجرُ بسببهِ ، وقدْ قيلَ : الختمةُ في المصحفِ بسبعٍ ؛ لأنَّ النظرَ في المصحفِ أيضاً عبادةٌ(١) .

وخرقَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ مصحفينِ لكثرةِ قراءتِهِ منهما ، وكانَ كثيرٌ مِنَ الصحابةِ يقرؤونَ مِنَ المصحفِ ويكرهونَ أن يخرجَ يومٌ ولمْ ينظروا في المصحفِ(٢) .

ودخلَ بعضُ فقهاءِ مصرَ على الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في السحَرِ وبينَ يديهِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦١) ، وقد قال كذلك الإمام النووي في « الأذكار » (ص١٩٨) : (قراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، هـٰكذا قاله أصحابنا ، وهو مشهور عن السلف رضي الله عنهم ، وهـٰذا ليس علىٰ إطلاقه ، بل إن كان القارىء من حفظه يحصل له من التدبر والفكر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل له من المصحف . . فالقراءة من الحفظ أفضل ، وإن استويا . . فمن المصحف أفضل ، هـٰذا مراد السلف) .
وقد روى القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص١٠٤) : « فضل قراءة القرآن نظراً علىٰ من يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة » .

(٢) قوت القلوب (١/ ٦١) .

المصحفُ ، فقالَ له الشافعيُّ : (شغلَكُمُ الفقهُ عنِ القرآنِ ، إنِّي لأصلِّي العتمةَ وأضعُ المصحفَ بينَ يديَّ فما أطبقُهُ حتَّىٰ أصبحَ)[١] .

العاشرُ : تحسينُ القراءةِ وتزيينُها بترديدِ الصوتِ مِنْ غيرِ تمطيطٍ مفرطٍ يغيِّرُ النظْمَ :

فذلكَ سنَّةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكُمْ »[٢] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أذنَ اللهُ لشيءٍ أَذَنَهُ لحسنِ الصوتِ بالقرآنِ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[٤] ، فقيلَ : أرادَ بهِ الاستغناءَ ، وقيلَ : أرادَ بهِ الترنُّمَ وترديدَ الألحانِ بهِ ، وهوَ أقربُ عندَ أهلِ اللغةِ[٥] .

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٦٠) .
(٢) رواه أبو داوود (١٤٦٨) ، والنسائي (٢/ ١٧٩) ، وابن ماجه (١٣٤٢) .
(٣) رواه البخاري (٥٠٢٣) ، ومسلم (٧٩٢) ولفظه : « ما أذن الله لشيء كأَذَنِهِ لنبي يتغنىٰ بالقرآن يجهر به » .
(٤) رواه البخاري (٧٥٢٧) .
(٥) أما معنى الاستغناء . . فقد رواه البيهقي في « السنن الصغرىٰ » (١/ ٣٥٢) عن سفيان بن عيينة ، وأعقبه بقول الإمام الشافعي : (نحن أعلم بهـٰذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء به . . لقال : ليس منا من لم يستغنِ بالقرآن ، فلما قال : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » . . علمنا أنه التغني به) ، ومع ذلك فقد نقل الأزهري في « تهذيبه » (غنىٰ) عن أبي عبيد في تأييد هـٰذا حيث قال : (قال أبو عبيد : وهـٰذا =

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ ليلةً ينتظرُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، فأبطأتْ عليهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حَبَسَكِ ؟ » قالتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ كنتُ أستمعُ قراءةَ رجلٍ ما سمعتُ أحسنَ صوتاً منهُ ، فقامَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى استمعَ إليهِ طويلاً ، ثمَّ رجعَ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هـٰذا سالمٌ مولَىٰ أبي حذيفةَ ، الحمدُ للهِ الذي جعلَ في أمَّتِي مثلَهُ »(١) .

واستمعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً ذاتَ ليلةٍ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ومعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما ، فوقفوا طويلاً ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ أنْ يقرأَ القرآنَ غضّاً كما أنزلَ .. فليقرأْهُ علىٰ قراءةِ ابنِ أُمِّ عبدٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ مسعودٍ : « اقرأْ عليَّ » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ ؟! فقالَ : « إنِّي أُحبُّ أنْ أسمعَهُ مِنْ غيري » ، فكانَ يقرأُ وعينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفيضانِ(٣) .

= كلام جائز فاشٍ في كلام العرب ، يقولون : تغنيت تغنياً وتغانيت تغانياً بمعنى استغنيت) ، وقد روى البيهقي في « السنن الصغرىٰ » (١/ ٣٥٢) كذلك عن الشافعي قال : (معناه : يقرؤه حدراً وتحزيناً) .

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٨) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٢٠٠) ، وهو عند أحمد في « المسند » (١/ ٢٥) ، والمرفوع دون القصة عند ابن ماجه (١٣٨) .

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .

واستمعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ قراءةِ أبي موسىٰ فقالَ : « لقدْ أوتيَ هـٰذا مزماراً مِنْ مزاميرِ آلِ داوودَ » ، فبلغَ ذلكَ أبا موسىٰ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ لوْ علمتُ أنَّكَ تستمعُ . . لحبَّرْتُهُ لكَ تحبيراً[1] .

ورأىٰ هيثمُ القارئُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في منامِهِ ، قالَ : فقالَ لي : أنتَ الهيثمُ الذي تزيِّنُ القرآنَ بصوتِكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً[2] .

وفي الخبرِ : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا اجتمعوا . . أمروا أحدَهُمْ أنْ يقرأَ سورةً مِنَ القرآنِ[3] .

وقدْ كانَ عمرُ يقولُ لأبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُما : ذكِّرْنا ربَّنا ، فيقرأُ عندَهُ حتَّىٰ يكادُ وقتُ الصلاةِ أنْ يتوسَّطَ ، فيقالُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ الصلاةَ الصلاةَ ، فيقولُ : أوَلَسْنا في صلاةٍ ؟! إشارةً إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استمعَ إلىٰ آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) ، وقول أبي موسىٰ من زيادة البرقاني كما في « الجمع بين الصحيحين » (١/ ٣١٥) ، **والتحبير** : التحسين .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢١٦) ، وهو الهيثم بن اليمان الرازي .

(٣) قوت القلوب (١/ ٦٠) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٦٠) .

وجلَّ . . كانتْ لهُ نوراً يومَ القيامةِ »[1] ، وفي الخبرِ : « كتبَ لهُ عشْرُ حسناتٍ »[2] .

ومهما عظُمَ أجرُ الاستماعِ وكانَ التالي هوَ السببَ فيهِ . . كانَ شريكاً في الأجرِ ، إلا أنْ يكونَ قصدُهُ الرياءَ والتصنعَ .

* * *

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٤١) ، والدارمي في « سننه » (٣٤١٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٠) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ٥٠٠) .

البَابُ الثَّالِثُ
في أعمال الباطن في التلاوة
وهي عشرة

فهمُ أصْلِ الكلامِ ، ثمَّ التعظيمُ ، ثمَّ حضورُ القلبِ ، ثمَّ التدبُّرُ ، ثمَّ التفهُّمُ ، ثمَّ التخلِّي عنْ موانعِ الفهْمِ ، ثمَّ التخصيصُ ، ثمَّ التأثُّرُ ، ثمَّ الترقي ، ثمَّ التبرِّي .

الأوَّلُ : فهْمُ عظمةِ الكلامِ وعلوِّهِ ، وفضلِ اللهِ سبحانَهُ ولطفِهِ بخلقِهِ في نزولِهِ عنْ عرشِ جلالِهِ إلىٰ درجةِ أفهامِ خلقِهِ :

فلينظرْ كيفَ لطفَ بخلقِهِ في إيصالِ معاني كلامِهِ الذي هوَ صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ إلىٰ أفهامِ خلقِهِ ، وكيفَ تجلَّتْ لهمْ تلكَ الصفةُ في طيِّ حروفٍ وأصواتٍ هي صفاتُ البشرِ ، إذْ يعجزُ البشرُ عنِ الوصولِ إلىٰ فهْمِ صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلا بوسيلةِ صفاتِ نفسِهِ ، ولولا استتارُ كُنْهِ جلالةِ كلامِهِ بكُسوةِ الحروفِ . . لما ثبتَ لسماعِ الكلامِ عرشٌ ولا ثرىً ، ولتلاشىٰ ما بينَهما مِنْ عظمةِ سلطانِهِ وسُبُحاتِ نورِهِ ، ولولا تثبيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ لموسىٰ عليهِ السلامُ . . لما أطاقَ سماعَ كلامِهِ ؛ كما لمْ يطقِ الجبلُ مبادئَ تجلِّيهِ ، حيثُ صارَ دكّاً .

ولا يمكنُ تفهيمُ عظمةِ الكلامِ إلا بأمثلةٍ علىٰ حدِّ فهْمِ الخلْقِ ، ولهٰذا عبَّرَ بعضُ العارفينَ عنهُ فقالَ : (إنَّ كلَّ حرفٍ مِنْ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ في اللوحِ أعظمُ مِنْ جبلِ قافٍ[1] ، وإنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ لوِ اجتمعتْ على الحرفِ الواحدِ أنْ يُقلُّوهُ . . ما أطاقوهُ حتَّىٰ يأتيَ إسرافيلُ عليهِ السلامُ وهوَ ملكُ اللوحِ فيرفعَهُ فيقلَّهُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورحمتِهِ ، لا بقوتِهِ وطاقتِهِ ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ طوَّقَهُ ذلكَ واستعملَهُ بهِ)[2] .

ولقدْ تأنَّقَ بعضُ الحكماءِ في التعبيرِ عنْ وجهِ اللطْفِ في إيصالِ معاني الكلامِ معَ علوِّ درجتِهِ إلىٰ فهْمِ الإنسانِ معَ قصورِ رتبتِهِ ، وضربَ لهُ مثلاً لمْ يقصِّرْ فيهِ ، وذلكَ أنَّهُ دعا بعضَ الملوكِ إلىٰ شريعةِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فسألَهُ الملكُ عنْ أمورٍ ، فأجابَ بما يحتملُهُ فهمُهُ .

فقالَ الملكُ : أرأيتَ ما يأتي بهِ الأنبياءُ إذا ادعيتَ أنَّهُ ليسَ بكلامِ الناسِ ، وأنَّهُ كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكيفَ يُطِيقُ الناسُ حملَهُ ؟

فقالَ الحكيمُ : إنَّا رأينا الناسَ لمَّا أرادوا أنْ يُفهِموا بعضَ الدوابِّ والطيرِ ما يريدونَ مِنْ تقديمِها وتأخيرِها وإقبالِها وإدبارِها ، ورأَوُا الدوابَّ يقصرُ تمييزُها عنْ فهمِ كلامِهِمُ الصادرِ عنْ أنوارِ عقولِهِمْ معَ حسنِهِ وترتيبِهِ وبديعِ

---

(١) يراد بجبل قاف : العظمة والسعة ، وهو جبل محيط بالأرضين السبع عندهم ، روىٰ في ذكره وبيانه آثاراً عن السلف أبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٤٨٤ـ١٤٩١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

نظمِهِ . . فنزلوا إلىٰ درجةِ تمييزِ البهائمِ ، وأوصلوا مقاصدَهُمْ إلىٰ بواطنِ البهائمِ بأصواتٍ يضعونَها لائقةً بها ؛ منَ النقْرِ والصفيرِ والأصواتِ القريبةِ مِنْ أصواتِها التي تُطيقُ حملَها .

وكذلكَ الناسُ يعجِزونَ عنْ حملِ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ بكُنْهِهِ وكمالِ صفاتِهِ ، فصاروا بما تواضعوا بينَهُمْ مِنَ الأصواتِ التي سمعوا بها الحكمةَ كصوتِ النقرِ والصفيرِ الذي سمعَتْ بهِ الدوابُّ مِنَ الناسِ ، ولمْ يمنعْ ذلكَ معانيَ الحكمةِ المخبوءَةِ في تلكَ الصفاتِ مِنْ أنْ شَرُفَ الكلامُ ـ أي : الأصواتُ ـ لشرفِها ، وعظمَ لتعظيمِها .

فكانَ الصوتُ للحكمةِ جسداً ومسكناً ، والحكمةُ للصوتِ نفساً وروحاً .

فكما أنَّ أجسادَ البشرِ تكرمُ وتعزُّ لمكانِ الروحِ فكذلكَ أصواتُ الكلامِ تشرفُ للحكمةِ التي فيها ، والكلامُ عالي المنزلةِ ، رفيعُ الدرجةِ ، قاهرُ السلطانِ ، نافذُ الحكمِ في الحقِّ والباطلِ ، وهوَ القاضي العدلُ ، والشاهدُ المرتضىٰ ، يأمرُ وينهىٰ ، ولا طاقةَ للباطلِ أنْ يقومَ قدَّامَ كلامِ الحكمةِ ؛ كما لا يستطيعُ الظلُّ أنْ يقومَ قدَّامَ شعاعِ الشمسِ ، ولا طاقةَ للبشرِ أنْ ينفذوا غورَ الحكمةِ ؛ كما لا طاقةَ لهمْ أنْ ينفذوا بأبصارِهِمْ ضوءَ عينِ الشمسِ ، ولكنَّهُمْ ينالونَ مِنْ ضوءِ عينِ الشمسِ ما تحيا بهِ أبصارُهُمْ ، ويستدلُّونَ بهِ علىٰ حوائجِهِمْ فقطْ ، فالكلامُ كالملكِ المحجوبِ الغائبِ وجهُهُ الشاهدِ أمرُهُ ، وكالشمسِ العزيزةِ الظاهرةِ وعنصرُها مكنونٌ ، وكالنجومِ الزاهرةِ التي قدْ يهتدي بها مَنْ

لا يقفُ علىٰ سيرِها ، فهوَ مفتاحُ الخزائنِ النفيسةِ ، وشرابُ الحياةِ الذي مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يمتْ ، ودواءُ الأسقامِ الذي مَنْ سُقِيَ منهُ . . لمْ يسقمْ[1] .

فهٰذا الذي ذكرَهُ الحكيمُ نبذةٌ مِنْ تفهيمِ معنى الكلامِ ، والزيادةُ عليهِ لا تليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، فينبغي أنْ يقتصرَ عليهِ .

الثاني : التعظيمُ للمتكلِّمِ :

فالقارىءُ عندَ البدايةِ بتلاوةِ القرآنِ ينبغي أنْ يحضرَ في قلبِهِ عظمةَ المتكلِّمِ ، ويعلمَ أنَّ ما يقرؤُهُ ليسَ مِنْ كلامِ البشرِ ، وأنَّ في تلاوةِ كلامِ اللهِ تعالىٰ غايةَ الخطرِ ، فإنَّهُ تعالىٰ قالَ : ﴿ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[2] ، وكما أنَّ ظاهرَ جلْدِ المصحفِ وورقَهُ محروسٌ عنْ ظاهرِ بشرةِ اللامسِ إلا إذا كانَ متطهِّراً . . فباطنُ معناهُ أيضاً بحكْمِ عزِّهِ وجلالِهِ محجوبٌ عنْ باطنِ القلبِ إلا إذا كانَ متطهِّراً عنْ كلِّ رجْسٍ ، ومستنيراً بنورِ التعظيمِ والتوقيرِ ، وكما لا يصلحُ لمسِّ جلدِ المصحفِ كلُّ يدٍ . . فلا يصلحُ لتلاوةِ حروفِهِ كلُّ لسانٍ ، ولا لنيلِ معانيهِ كلُّ قلبٍ ، ولمثلِ هٰذا التعظيمِ كانَ عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ إذا

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٧) ، وقال بعد هٰذه الحكاية : (نقلت هٰذا نقلاً من كلام الصديق الحكيم الذي خاطب به الملك فاستجاب له بإذن الله عز وجل) ، ثم أشار إلىٰ فضل الله تعالىٰ وإلهامه لهٰذا الحكيم بما فتح عليه من حسن التشبيه .

(٢) وهو إخبار في معنى الإنشاء ، والتطهير أعم من تطهير الظاهر والباطن . « إتحاف » (٤/ ٥٠٣) .

نشرَ المصحفَ . . غُشيَ عليهِ ويقولُ : (هوَ كلامُ ربِّي ، هوَ كلامُ ربِّي)[1] .

فتعظيمُ الكلامِ بتعظيمِ المتكلِّمِ ، ولنْ تحضرَهُ عظمةُ المتكلِّمِ ما لمْ يتفكَّرْ في صفاتِهِ وجلالِهِ وأفعالِهِ ، فإذا خطرَ ببالِهِ العرشُ والكرسيُّ والسماواتُ والأرضونَ وما بينَهُما مِنَ الجنِّ والإنسِ والدوابِّ والأشجارِ ، وعلمَ أنَّ الخالقَ لجميعِها والقادرَ عليها والرازقَ لها واحدٌ ، وأنَّ الكلَّ في قبضةِ قدرتِهِ مردَّدونَ بينَ فضلِهِ ورحمتِهِ ، وبينَ نقمتِهِ وسطوتِهِ ، إنْ أنعمَ . . فبفضلِهِ ، وإنْ عاقبَ . . فبعدلِهِ ، وأنَّهُ الذي يقولُ : « هؤلاءِ في الجنةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النارِ ولا أبالي »[2] ، وهـٰذا غايةُ العظمةِ والتعالي . . فبالتفكرِ في أمثالِ هـٰذا يحضرُ تعظيمُ المتكلِّمِ ثمَّ تعظيمُ الكلامِ .

* * *

الثالثُ : حضورُ القلبِ وتركُ حديثِ النفْسِ :

قيلَ في تفسيرِ : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي : بجدٍّ واجتهادٍ ، وأخذُهُ بالجدِّ أنْ يكونَ متجرِّداً لهُ عندَ قراءتِهِ ، منصرفَ الهمَّةِ إليهِ عنْ غيرِهِ .

وقيلَ لبعضِهِمْ : إذا قرأتَ القرآنَ تحدِّثُ نفسَكَ بشيءٍ ؟ فقالَ : أَوَشيءٌ أحبُّ إليَّ مِنَ القرآنِ أحدِّثُ بهِ نفسي ؟![3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧/ ٣٧١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٤٣) .

(٢) حديث القبضتين رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٢٢) عن أنس مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

وكانَ بعضُ السلفِ إذا قرأ سورةً لمْ يكنْ قلبُهُ فيها . . أعادَها ثانيةً .

وهٰذهِ الصفةُ تتولَّدُ عمَّا قبلَها منَ التعظيمِ ، فإنَّ المعظِّمَ للكلامِ الذي يتلوهُ يستبشرُ بهِ ويستأنسُ ولا يغفُلُ عنهُ ، ففي القرآنِ ما يستأنسُ بهِ القلبُ إنْ كانَ التالي أهلاً لهُ ، فكيفَ يطلبُ الأنسَ بالفكرِ في غيرِهِ وهوَ في متنزَّهٍ ومتفرَّجٍ[١] ، والذي يتفرَّجُ في المتنزَّهاتِ لا يتفكَّرُ في غيرِها ؛ فقدْ قيلَ : إنَّ في القرآنِ ميادينَ وبساتينَ ومقاصيرَ وعرائسَ ودبابيجَ ورياضاً وخاناتٍ[٢] ، فالميماتُ ميادينُ القرآنِ ، والراءاتُ بساتينُ القرآنِ ، والحاءاتُ مقاصيرُهُ ، والمسبِّحاتُ عرائسُ القرآنِ ، والحاميماتُ دبابيجُ القرآنِ ، والمفصَّلُ رياضُهُ ، والخاناتُ ما سوىٰ ذلكَ ، فإذا دخلَ القارىءُ في الميادينِ ، وقطفَ منَ البساتينِ ، ودخلَ المقاصيرَ ، وشهدَ العرائسَ ، ولبسَ الديباجَ ، وتنزَّهَ في الرياضِ ، وسكنَ غرفَ الخاناتِ . . استغرقَهُ ذلكَ وشغلَهُ عمَّا سواهُ ، فلمْ يعزُبْ قلبُهُ ، ولمْ يتفرَّقْ فكرُهُ .

الرابعُ : التدبُّرُ :

وهوَ وراءَ حضورِ القلبِ ، فإنَّهُ قدْ لا يتفكَّرُ في غيرِ القرآنِ ، ولكنَّهُ يقتصرُ علىٰ سماعِ القرآنِ مِنْ نفسِهِ وهوَ لا يتدبَّرُهُ ، والمقصودُ مِنَ القراءةِ

(١) المتنزه ـ علىٰ صيغة اسم المفعول ـ : البساتين والمواضع البعيدة عن المساكن ، والمتفرج علىٰ وزنه : أعم من ذلك . « إتحاف » (٤/ ٥٠٤) .

(٢) الدبابيج : جمع ديباج ، ثوب فاخر من الإبريسم .

التدبُّرُ ، ولذلكَ سُنَّ فيهِ الترتيلُ ، لأنَّ الترتيلَ في الظاهرِ ليتمكَّنَ مِنَ التدبُّرِ بالباطنِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا خيرَ في عبادةٍ لا فقهَ فيها ، ولا في قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها)[١] .

وإذا لمْ يتمكَّنْ مِنَ التدبُّرِ إلا بترديدٍ . . فليردِّدْ إلا أنْ يكونَ خلفَ إمامٍ ، فإنَّهُ لوْ بقيَ في تدبُّرِ آيةٍ وقدِ اشتغلَ الإمامُ بآيةٍ أخرىٰ . . كانَ مسيئاً ؛ مثلَ مَنْ يشتغلُ بالتعجُّبِ مِنْ كلمةٍ واحدةٍ ممَّنْ يناجيهِ عنْ فهْمِ بقيةِ كلامِهِ ، وكذلكَ إذا كانَ في تسبيحِ الركوعِ وهوَ متفكِّرٌ في آيةٍ قرأَها إمامُهُ ، فهٰذا وسواسٌ ، فقدْ رُوِيَ عنْ عامرِ بنِ عبدِ قيسٍ أنَّهُ قالَ : الوسواسُ يعتريني في الصلاةِ ، فقيلَ : في أمرِ الدنيا ؟ فقالَ : لأَنْ تختلفَ فيَّ الأسنَّةُ أحبُّ إليَّ مِنْ ذلكَ ، ولكنْ يشتغلُ قلبي بموقفي بينَ يدي ربِّي عزَّ وجلَّ وأنِّي كيفَ أنصرفُ[٢] .

فعدَّ ذلكَ وسواساً ، وهوَ كذلكَ ؛ فإنَّهُ يشغلُهُ عنْ فهْمِ ما هوَ فيهِ ، والشيطانُ لا يقدرُ علىٰ مثلِهِ إلا بأنْ يشغلَهُ بمهمٍّ دينيٍّ ولكنْ يمنعُهُ بهِ عنِ الأفضلِ ، ولمَّا ذُكِرَ ذلكَ للحسنِ . . قالَ : إنْ كنتُم صادقينَ عنهُ . . فما اصطنعَ اللهُ ذلكَ عندَنا .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ (بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ) فردَّدَها عشرينَ مرَّةً[٣] ، وإنَّما ردَّدَها لتدبرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في معانيها .

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٣٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦١) بنحوه .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٥١) .

وعنْ أبي ذرٍّ قالَ : قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنا ليلةً ، فقامَ بآيةٍ يردِّدُها ، وهيَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١) .

وقامَ تميمٌ الداريُّ ليلةً بهٰذهِ الآيةِ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ﴾ الآيةَ(٢) .

وقامَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ليلةً يردِّدُ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأفتتحُ السورةَ فيوقفني بعضُ ما أشهدُ فيها عنِ الفراغِ منها حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ)(٤) .

وكانَ بعضُهُمْ يقولُ : (كلُّ آيةٍ لا أتفهَّمُها ولا يكونُ قلبي فيها . . لا أعدُّ لها ثواباً)(٥) .

وحُكِيَ عنْ أبي سليمانَ الدارانيِّ أنَّهُ قالَ : (إنِّي لأتلو الآيةَ فأقيمُ فيها أربعَ

---

(١) رواه النسائي (٢/ ١٧٧) ، وابن ماجه (١٣٥٠) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٥٠) .
(٣) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص١٤٨) ، وفيه قراءة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وفي رواية : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ بدل ما ذكر المصنف ، وحكىٰ تكرير الآي عن ابن مسعود ، وعمر بن الخطاب ، وعامر بن عبد قيس ، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

ليالٍ أوْ خمسَ ليالٍ ، ولولا أنّي أقطعُ الفكْرَ فيها . . ما جاوزتُها إلىٰ غيرِها)[1] .

وعنْ بعضِ السلفِ أنَّهُ بقيَ في سورةِ هودٍ ستَّةَ أشهرٍ يكرِّرُها ولا يفرغُ مِنَ التدبُّرِ فيها[2] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (لي في كلِّ جمعةٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ شهرٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ سنةٍ ختمةٌ ، ولي ختمةٌ منذُ ثلاثينَ سنةً ما فرغتُ منها بعدُ)[3] ، وذلكَ بحسَبِ درجاتِ تدبُّرِهِ وتفتيشِهِ ، وكانَ هاذا أيضاً يقولُ : (أقمتُ نفسي مقامَ الأُجَراءِ ، فأنا أعملُ مياومَةً ومسابعةً ومشاهرَةً ومسانهَةً)[4] .

* * *

الخامسُ : التفهُّمُ :

وهوَ أنْ يستوضحَ مِنْ كلِّ آيةٍ ما يليقُ بها ، إذِ القرآنُ يشتملُ علىٰ ذكرِ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذكرِ أفعالِهِ ، وذكرِ أحوالِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، وذكرِ أحوالِ المكذِّبينَ لهمْ ، وأنَّهُمْ كيفَ أُهلكوا ، وذكرِ أوامرِهِ وزواجرِهِ ، وذكرِ الجنةِ والنارِ .

ـ **أمَّا صفاتُ اللهِ عزَّ وجلَّ** : فكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٥٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٥٠) ، والخبر المذيّل له الآتي . . فيه كذلك .
(٤) **والمياومة** : معاملة يوم بيوم ، **والمسابعة** : معاملة الأسبوع إلى الأسبوع ، **والمشاهرة** : معاملة الشهر إلى الشهر ، **والمسانهة** : معاملة السنة إلى السنة .

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ، فليتأملْ معانيَ هٰذهِ الأسماءِ والصفاتِ لينكشفَ لهُ أسرارُها ، فتحتَها معانٍ مدفونةٌ لا تنكشفُ إلا للموفقينَ ، وإليهِ أشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بقولِهِ : (ما أسرَّ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شيئاً كتمَهُ عنِ الناسِ إلا أنْ يؤتيَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبداً فهماً في كتابِهِ)[1] ، فليكنْ حريصاً علىٰ طلبِ ذلكَ الفهمِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أرادَ علمَ الأوَّلينَ والآخرينَ . . فليُثوِّرِ القرآنَ)[2] ، وأعظمُ علومِ القرآنِ تحتَ أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ؛ إذْ لمْ يدركْ أكثرُ الخلقِ منها إلا أموراً لائقةً بأفهامِهِمْ ، ولمْ يعثروا علىٰ أغوارِها[3] .

ـ **وأمَّا أفعالُهُ تعالىٰ** : فكذكرِهِ خلْقَ السماواتِ والأرضِ وغيرِها ، فليفهمِ التالي منها صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجلالَهُ ؛ إذِ الفعلُ يدلُّ على الفاعلِ ، فتدلُّ عظمتُهُ علىٰ عظمتِهِ ، فينبغي أنْ يشهدَ في الفعْلِ الفاعلَ دونَ الفعْلِ ، فمَنْ عرفَ الحقَّ . . رآهُ في كلِّ شيءٍ ؛ إذْ كلُّ شيءٍ فهوَ منهُ وإليهِ ، وبهِ ولهُ ، فهوَ الكلُّ على التحقيقِ[4] ، ومَنْ لا يراهُ في كلِّ ما يراهُ . . فكأنَّهُ ما عرفَهُ ، ومَنْ عرفَهُ . . عرفَ أنَّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ،

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٣) بنحوه .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٤) .
(٣) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٣) .
(٤) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٤٢) .

لا أنَّهُ سيبطلُ في ثاني الحالِ ، بلْ هوَ الآنَ باطلٌ إنِ اعتبرَ ذاتُهُ مِنْ حيثُ هوَ ، إلا أنْ يُعتبرَ وجودُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ موجودٌ باللهِ عزَّ وجلَّ وبقدرتِهِ ، فيكونُ لهُ بطريقِ التبعيَّةِ ثباتٌ ، وبطريقِ الاستقلالِ بطلانٌ محْضٌ ، وهـٰذا مبدأٌ مِنْ مبادئِ علمِ المكاشفةِ[١] .

ولهـٰذا ينبغي إذا قرأَ التالي قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ . . ألاَّ يقصرَ نظرَهُ على الماءِ والنارِ والحرثِ والمنيِّ ، بلْ يتأمَّلُ في المنيِّ وهوَ نطفةٌ متشابهةُ الأجزاءِ ، ثمَّ ينظرُ في كيفيةِ انقسامِها إلى اللحمِ والعظمِ والعروقِ والعصبِ ، وكيفيةِ تشكُّلِ أعضائِها بالأشكالِ المختلفةِ منَ الرأسِ واليدِ والرجْلِ والكبدِ والقلبِ وغيرِها ، ثمَّ إلىٰ ما ظهرَ فيها مِنَ الصفاتِ الشريفةِ مِنَ السمعِ والبصرِ والعقلِ وغيرِها ، ثمَّ إلىٰ ما ظهرَ فيها مِنَ الصفاتِ المذمومةِ مِنَ الغضبِ والشهوةِ والكبرِ والجهلِ والتكذيبِ والمجادلةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، فيتأمَّلُ هـٰذهِ العجائبَ ليرقىٰ منها إلىٰ أعجبِ العجائبِ ، وهوَ الصنعةُ[٢] التي منها صدرَتْ هـٰذهِ الأعاجيبُ ، فلا يزالُ ينظرُ إلى الصنعةِ ويرى الصانعَ[٣] .

---

(١) ألمع بشيء من البسط المصنفُ رحمه الله تعالىٰ في الحديث عن هـٰذا المبدأ في « مشكاة الأنوار » (ص٤٥) .

(٢) في جميع النسخ : (الصفة) ، والمثبت من « الإتحاف » (٤/ ٥١٠) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٣) وعبارة المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص٤٥) : (ثم ترتقي جملتها إلىٰ نور الأنوار =

ـ وأمّا أحوالُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ : فإذا سمعَ منها أنَّهُمْ كيفَ كُذِّبوا وضُربوا وقُتِلَ بعضُهُمْ . . فليفهمْ منهُ صفةَ الاستغناءِ للهِ عزَّ وجلَّ عنِ الرسلِ والمرسَلِ إليهِمْ ، وأنَّهُ لوْ أهلكَ جميعَهُمْ . . لمْ يؤثِّرْ في ملكِهِ شيئاً ، وإذا سمعَ نصرتَهُمْ في آخرِ الأمرِ . . فليفْهَمْ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ وإرادتَهُ لنصرةِ الحقِّ .

ـ وأمّا أحوالُ المكذِّبينَ : كعادٍ وثمودَ وما جرىٰ عليهِمْ ، فليكنْ فهمُهُ منهُ استشعارَ الخوفِ مِنْ سطوتِهِ ونقمتِهِ ، وليكنْ حظُّهُ منهُ الاعتبارَ في نفسِهِ ، وأنَّهُ إنْ غفلَ وأساءَ الأدبَ واغترَّ بما أمهلَ . . فربما تدركُهُ النقمةُ وتنفذُ فيهِ القضيةُ .

وكذلكَ إذا سمعَ وصفَ الجنَّةِ والنارِ وسائرَ ما في القرآنِ ، فلا يمكنُ استقصاءُ ما يفهمُ منها ؛ لأنَّ ذلكَ لا نهايةَ لهُ ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهُ بقدْرِ رزقِهِ ، فلا رطْبَ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ شئتُ . . لأوقرْتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ فاتحةِ الكتابِ)[1] .

فالغرضُ ممَّا ذكرناهُ التنبيهُ علىٰ طريقِ التفهُّمِ لينفتحَ بابُهُ ، فأمَّا الاستقصاءُ . . فلا مطمعَ فيهِ ، ومَنْ لمْ يكنْ لهُ فهْمٌ ما في القرآنِ ولوْ في أدنى

= ومعدنها الأول ، وأن ذلك هو الله عز وجل وحده لا شريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة ، وإنما الحقيقي نوره فقط) .

(١) قوت القلوب (١/ ٥٠) .

الدرجاتِ . . دخلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، والطابعُ : هيَ الموانعُ التي سنذكرُها في موانعِ الفهْمِ ، وقدْ قيلَ : (لا يكونُ المريدُ مريداً حتَّىٰ يجدَ في القرآنِ كلَّ ما يريدُ ، ويعرفَ منهُ النقصانَ مِنَ المزيدِ ، ويستغنيَ بالمولىٰ عَنِ العبيدِ)[1] .

* * *

السادسُ : التخلِّي عنْ موانعِ الفهْمِ :

فإنَّ أكثرَ الناسِ مُنعوا عنْ فهمِ معاني القرآنِ لأسبابٍ وحُجُبٍ أسدلَها الشيطانُ علىٰ قلوبِهِمْ ، فعميَتْ عليهِمْ عجائبُ أسرارِ القرآنِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . لنظروا إلى الملكوتِ »[2] ، ومعاني القرآنِ مِنْ جملةِ الملكوتِ ، وكلُّ ما غابَ عنِ الحواسِّ ولمْ يُدركْ إلا بنورِ البصيرةِ . . فهوَ مِنَ الملكوتِ .

وحُجُبُ الفهْمِ أربعةٌ :

ـ **أوَّلُها** : أنْ يكونَ الهمُّ منصرفاً إلىٰ تحقيقِ الحروفِ بإخراجِها مِنْ مخارجِها ، وهـٰذا يتولَّىٰ حفظَهُ شيطانٌ وُكِّلَ بالقرَّاءِ ليصرفَهُمْ عنْ فهمِ معاني كلامِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يزالُ يحملُهُمْ علىٰ ترديدِ الحرْفِ يخيِّلُ إليهِمْ أنَّهُ لمْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٧) عن بعض العارفين .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً .

يخرجُ مِنْ مخرجِهِ[1] ، فهـٰذا يكونُ تأمُّلُهُ مقصوراً علىٰ مخارجِ الحروفِ ، فأنَّىٰ تنكشفُ لهُ المعاني ؟! وأعظَمُ ضُحْكَةٍ للشيطانِ مَنْ كانَ مطيعاً لمثلِ هـٰذا التلبيسِ .

ـ **ثانيها** : أنْ يكونَ مقلِّداً لمذهبٍ سمعَهُ بالتقليدِ وجمدَ عليهِ ، وثبتَ في نفسِهِ التعصُّبُ لهُ بمجرَّدِ الاتباعِ للمسموعِ ، مِنْ غيرِ وصولٍ إليهِ ببصيرةٍ ومشاهدةٍ ، فهـٰذا شخصٌ قيَّدَهُ معتقَدُهُ عنْ أنْ يجاوزَهُ ، فلا يمكِّنُهُ أنْ يخطرَ ببالِهِ غيرَ معتقدِهِ ، فصارَ نظرُهُ موقوفاً علىٰ مسموعِهِ ، فإنْ لمعَ برقٌ علىٰ بعْدٍ ، وبدا لهُ معنىً مِنَ المعاني التي تباينُ مسموعَهُ . . حملَ عليهِ شيطانُ التقليدِ حملةً وقالَ : كيفَ يخطرُ هـٰذا ببالِكَ وهوَ خلافُ معتقدِ آبائِكَ ؟! فيرىٰ أنَّ ذلكَ غرورٌ مِنَ الشيطانِ ، فيتباعدُ منهُ ، ويحترزُ عنْ مثلِهِ .

ولمثْلِ هـٰذا قالتِ الصوفيَّةُ : (إنَّ العلمَ حجابٌ)[2] ، وأرادوا بالعلمِ : العقائدَ التي استمرَّ عليها أكثرُ الناسِ بمجرَّدِ التقليدِ ، أوْ بمجرَّدِ كلماتٍ جدليَّةٍ حرَّرَها المتعصِّبونَ للمذاهبِ وألقَوْها إليهِمْ ، فأمَّا العلمُ الحقيقيُّ

(١) ويوهم عليهم أنهم كما تُعُبِّدوا بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده . . متعبَّدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه المتلقاة من أئمة القراءة ، ويزيد عليهم شيئاً آخر أجلىٰ مما سبق ؛ بأن يخطر علىٰ بالهم بأن القراءة بغير تجويد لحنٌ ، ولولا أنكم تجوِّدون الألفاظ . . لا تصلون إلىٰ فهم المعاني منها ، ولعمري ؛ هـٰذا الذي يخيل إليهم به حق وصدق ، لكنه يريد بإلقاء مثل ذلك إليهم تثبيطهم عن المهم . « إتحاف » (٤/ ٥١٢) .

(٢) أي : بين العبد والوصول إلى الله ، وربما زادوا فقالوا : (حجاب الله الأكبر) . انظر « الإتحاف » (٤/ ٥١٣) .

الذي هوَ الكشْفُ والمشاهدةُ بنورِ البصيرةِ . . فكيفَ يكونُ حجاباً وهوَ منتهى المطلبِ ، وهـٰذا التقليدُ قدْ يكونُ باطلاً ، فيكونُ مانعاً ؛ كمَنْ يعتقدُ مِنَ الاستواءِ على العرشِ التمكُّنَ والاستقرارَ ، فإنْ خطرَ لهُ مثلاً في القدوسِ أنَّهُ المقدَّسُ عَنْ كلِّ ما يجوزُ علىٰ خلقِهِ . . لمْ يمكِّنْهُ تقليدُهُ منْ أنْ يستقرَّ ذلكَ في نفسِهِ ، ولوِ استقرَّ في نفسِهِ . . لانجرَّ إلىٰ كشفٍ ثانٍ وثالثٍ ، ولتواصلَ ، ولكنْ يتسارعُ إلىٰ دفعِ ذلكَ عنْ خاطرِهِ ؛ لمناقضتِهِ تقليدَهُ الباطلَ .

وقدْ يكونُ حقّاً ويكونُ أيضاً مانعاً مِنَ الفهْمِ والكشفِ ؛ لأنَّ الحقَّ الذي كُلِّفَ الخلقُ اعتقادَهُ لهُ مراتبُ ودرجاتٌ ، ولهُ مبدأٌ ظاهرٌ وغورٌ باطنٌ ، وجمودُ الطبعِ على الظاهرِ يمنعُ مِنَ الوصولِ إلى الغورِ الباطنِ كما ذكرناهُ في الفرْقِ بينَ العلمِ الظاهرِ والباطنِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ .

ـ **ثالثُها** : أنْ يكونَ مصرّاً علىٰ ذنبٍ أوْ متصفاً بكبْرٍ أوْ مبتلىً في الجملةِ بهوىً في الدنيا مطاعٍ ؛ فإنَّ ذلكَ سببُ ظلمةِ القلبِ وصدئِهِ ، وهوَ كالخبثِ على المرآةِ ، فيمنعُ جليَّةَ الحقِّ مِنْ أنْ تتجلَّىٰ فيهِ ، وهوَ أعظَمُ حجابٍ للقلْبِ ، وبهِ حُجِبَ الأكثرونَ ، وكلَّما كانتِ الشهواتُ أشدَّ تراكماً . . كانتْ معاني الكلامِ أشدَّ احتجاباً ، وكلَّما خفَّ عَنِ القلبِ أثقالُ الدنيا . . قَرُبَ تجلِّي المعنىٰ فيهِ .

فالقلبُ مثلُ المرآةِ، والشهواتُ مثلُ الصدأِ، ومعاني القرآنِ مثلُ الصورِ التي تتراءىٰ في المرآةِ، والرياضةُ للقلبِ بإماطةِ الشهواتِ مثلُ تصقيلِ الجلاَّءِ للمرآةِ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إذا عظَّمَتْ أُمَّتي الدينارَ والدرهمَ . . نُزِعَ

منها هيبةُ الإسلامِ ، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ . . حُرموا بركةَ الوحيِ »[١] ، قالَ الفضيلُ : (يعني : حُرموا فهْمَ القرآنِ)[٢] .

وقدْ شرطَ اللهُ تعالى الإنابةَ في الفهمِ والتذكُّرِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ ، وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، فالذي آثرَ غرورَ الدنيا علىٰ نعيمِ الآخرةِ . . فليسَ مِنْ ذوي الألبابِ ، ولذلكَ لا تنكشفُ لهُ أسرارُ الكتابِ .

- **رابعُها** : أنْ يكونَ قدْ قرأَ تفسيراً ظاهراً واعتقدَ أنَّهُ لا معنىٰ لكلماتِ القرآنِ إلا ما تناولَهُ النقلُ عنِ ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما ، وأنَّ ما وراءَ ذلكَ تفسيرٌ بالرأيِ ، و« أنَّ مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ . . فقدْ تبوَّأَ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[٣] ، فهٰذا أيضاً مِنَ الحُجُبِ العظيمةِ ، وسنبيِّنُ معنى التفسيرِ بالرأيِ في البابِ الرابعِ ، وأنَّ ذلكَ يناقضُ[٤] قولَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ عبداً فهماً في القرآنِ) ، وأنَّهُ لوْ كانَ المعنىٰ هوَ الظاهرَ المنقولَ . . لما اختلفَ الناسُ فيهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٣٧) عن الفضيل معضلاً ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢١٦) ، وقد أورد سند الحكيم الحافظُ الزيلعي في « تخريج الأحاديث والآثار » (١/ ٤٧٢) عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) قوت القلوب (١/ ٥٨) .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

(٤) في النسخ : (لا يناقض) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم . وانظر « الإتحاف » (٤/ ٥١٦) .

السابعُ : التخصيصُ :

وهوَ أنْ يقدِّرَ أنَّهُ المقصودُ بكلِّ خطابٍ في القرآنِ ، فإنْ سمعَ أمراً أوْ نهياً . . قدَّرَ أنَّهُ المنهيُّ والمأمورُ ، وإنْ سمعَ وعْداً أوْ وعيداً . . فكمثلِ ذلكَ ، وإنْ سمعَ قصصَ الأولينَ والأنبياءِ . . علمَ أنَّ السمرَ غيرُ مقصودٍ ، وإنَّما المقصودُ ليعتبرَ بهِ ، وليأخذَ مِنْ تضاعيفِهِ ما يحتاجُ إليهِ ، فما مِنْ قصَّةٍ في القرآنِ إلا وسياقُها لفائدةٍ في حقِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأمَّتِهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ، فليقدِّرِ العبدُ أنَّ اللهَ يثبِّتُ فؤادَهُ بما يقصُّهُ عليهِ مِنْ أحوالِ الأنبياءِ ، وصبرِهِمْ على الإيذاءِ ، وثباتِهِمْ في الدينِ لانتظارِ نصرِ اللهِ تعالىٰ .

وكيفَ لا يقدِّرُ هـٰذا والقرآنُ ما أنزلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرسولِ اللهِ خاصةً ، بلْ شفاءً وهدىً ورحمةً ونوراً للعالمينَ ، ولذلكَ أمرَ اللهُ تعالى الكافَّةَ بشكرِ نعمةِ الكتابِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ ، ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وإذا قصدَ بالخطابِ جميعَ الناسِ . . فقدْ قصدَ الآحادَ ، فهـٰذا الواحدُ

القارئ مقصودٌ ، فما لهُ ولسائرِ الناسِ ؟! فليقدِّرْ أنَّهُ المقصودُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ، قالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ : (مَنْ بلغهُ القرآنُ . . فكأنَّما كلَّمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ)(١) .

وإذا قدَّرَ ذلكَ . . لمْ يتخذْ دراسةَ القرآنِ عملَهُ ، بلْ يقرؤُهُ كما يقرأُ العبدُ كتابَ مولاهُ الذي كتبَهُ إليهِ ليتأمَّلَهُ ويعملَ بمقتضاهُ ، ولذلكَ قالَ بعضُ العلماءِ : (هٰذا القرآنُ رسائلُ أتتنا مِنْ قبلِ ربِّنا عزَّ وجلَّ بعهودِهِ ، نتدبَّرُها في الصلواتِ ، ونقفُ عليها في الخلواتِ ، وننفذُها في الطاعاتِ بالسننِ المتبعاتِ)(٢) .

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ : (ما زرعَ القرآنُ في قلوبِكُمْ يا أهلَ القرآنِ ؟ إنَّ القرآنَ ربيعُ المؤمنِ ؛ كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ)(٣) .

وقالَ قتادةُ : (لمْ يجالسْ أحدٌ هٰذا القرآنَ إلا قامَ بزيادةٍ أوْ نقصانٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾)(٤) .

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/٧/٢٠٦) ، وفيه : (فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم) .
(٢) أورده في « قوت القلوب » (١/٥٨) عن الحسن بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٥٨) ، وتمامه : (فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض ، فيصيب الحشَّ ، فتكون فيه الحبة ، فلا يمنعها نتنُ موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن ، فيا حملة القرآن ؛ ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ أين أصحاب سورة ؟ أين أصحاب سورتين ؟ ماذا عملتم فيهما ؟) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨٨) ، والفريابي في « فضائل القرآن » (٧٨) من طريقه .

الثامنُ : التأثُّرُ :

وهوَ أنْ يتأثَّرَ قلبُهُ بآثارٍ مختلفةٍ بحسَبِ اختلافِ الآياتِ ، فيكونَ لهُ بحسَبِ كلِّ فهْمٍ حالٌ ووجْدٌ يتصفُ بهِ قلبُهُ ؛ مِنَ الحزْنِ والخوفِ والرجاءِ وغيرِهِ ، ومهما تمَّتْ معرفتُهُ . . كانتِ الخشيةُ أغلبَ الأحوالِ على قلبِهِ ، فإنَّ التضييقَ غالبٌ على آياتِ القرآنِ ؛ فلا يُرى ذكرُ المغفرةِ والرحمةِ إلا مقروناً بشروطٍ يقصُرُ العارفُ عنْ نيلِها ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ ، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بأربعةِ شروطٍ : ﴿ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، وقولِهِ تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ذكرَ أربعةَ شروطٍ ، وحيثُ اقتصرَ . . ذكرَ شرطاً جامعاً فقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فالإحسانُ يجمعُ الكلَّ ، وهكذا مَنْ يتصفَّحُ القرآنَ مِنْ أوَّلِهِ إلى آخرِهِ .

ومَنْ فهمَ ذلكَ . . فجديرٌ بأنْ يكونَ حالُهُ الخشيةَ والحزنَ ، ولذلكَ قالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أصبحَ اليومَ عبدٌ يتلو هذا القرآنَ يؤمنُ بهِ . . إلا كثُرَ حزنُهُ وقلَّ فرحُهُ ، وكثُرَ بكاؤُهُ وقلَّ ضحكُهُ ، وكثُرَ نصبُهُ وشغلُهُ وقلَّتْ راحتُهُ وبطالتُهُ)(١) .

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (نظرنا في هذهِ الأحاديثِ والمواعظِ ، فلمْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

نجدْ شيئاً أرقَّ للقلوبِ ولا أشدَّ استجلاباً للحزْنِ مِنْ قراءةِ القرآنِ وتفهُّمِهِ وتدبُّرِهِ)[1] .

فتأثُّرُ العبدِ بالتلاوةِ : أنْ يصيرَ بصفةِ الآيةِ المتلوةِ ؛ فعندَ الوعيدِ وتقييدِ المغفرةِ بالشروطِ يتضاءلُ مِنْ خيفتِهِ كأنَّهُ يكادُ يموتُ ، وعندَ التوسُّعِ ووعدِ المغفرةِ يستبشرُ كأنَّهُ يطيرُ مِنَ الفرحِ ، وعندَ ذكْرِ اللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ يتطأطأُ خضوعاً لجلالِهِ واستشعاراً لعظمتِهِ ، وعندَ ذكرِ الكفارِ ما يستحيلُ على اللهِ تعالىٰ كذكرِهِمْ للهِ سبحانه ولداً وصاحبةً . . يغضُّ صوتَهُ وينكسرُ في باطنِهِ حياءً مِنْ قبحِ مقالتِهِمْ ، وعندَ وصْفِ الجنَّةِ ينبعثُ بباطنِهِ شوقاً إليها ، وعندَ وصْفِ النارِ ترتعدُ فرائصُهُ خوفاً منها .

ولمَّا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ مسعودٍ : « اقرأْ عليَّ » . . قالَ : فافتتحتُ (سورةَ النساءِ) ، فلمَّا بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ . . رأيتُ عينيهِ تذرفانِ بالدمعِ ، فقالَ لي : « حسْبُكَ الآنَ »[2] ، وهـٰذا لأنَّ مشاهدةَ تلكَ الحالةِ استغرقتْ قلبَهُ بالكليَّةِ .

ولقدْ كانَ في الخائفينَ مَنْ خرَّ مغشياً عليهِ عندَ آياتِ الوعيدِ ، ومنهم مَنْ ماتَ في سماعِ الآياتِ[3] ، فمثلُ هـٰذهِ الأحوالِ يخرجُهُ عنْ أنْ يكونَ حاكياً

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٤٢) .
(٢) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .
(٣) وقد ألَّف الثعلبي في ذلك كتاباً سماه : « قتلى القرآن » ، وروى الترمذي (٤٤٥) عن =

في كلامِهِ ، فإذا قالَ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإذا لمْ يكنْ خائفاً . . كانَ حاكياً .

وإذا قالَ : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ولمْ يكنْ حالُهُ التوكُّلَ والإنابةَ . . كانَ حاكياً .

وإذا قالَ : ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾ . . فليكنْ حالُهُ الصبرَ أوِ العزيمةَ عليهِ ؛ حتَّىٰ يجدَ حلاوةَ التلاوةِ .

فإنْ لمْ يكنْ بهـٰذهِ الصفاتِ ولمْ يتردَّدْ قلبُهُ بينَ هـٰذهِ الحالاتِ . . كانَ حظُّهُ مِنَ التلاوةِ حركةَ اللسانِ معَ صريحِ اللعنِ علىٰ نفسِهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ .

وكانَ داخلاً في معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ يعني : إلا التلاوةَ المجرَّدَةَ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ ، لأنَّ القرآنَ هوَ المبيِّنُ لتلكَ الآياتِ في السماواتِ والأرضِ ، ومهما تجاوزَها ولمْ يتأثَّرْ

= بهز بن حكيم قال : (كان زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة ، وكان يؤم في بني قشير ، فقرأ يوماً في صلاة الصبح : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ... فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴾ خرَّ ميتاً ، فكنت فيمن احتمله إلىٰ داره) ، وقد تقدم ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ٥١٩) .

بها.. كانَ معرضاً عنها ، ولذلكَ قيلَ : (إنَّ مَنْ لمْ يكنْ متصفاً بأخلاقِ القرآنِ ؛ فإذا قرأَ القرآنَ.. ناداهُ اللهُ تعالىٰ : ما لكَ ولكلامي وأنتَ معرضٌ عنِّي ؟! دعْ عنكَ كلامي إنْ لمْ تُبْ إليَّ)(١) .

ومثالُ العاصي إذا قرأَ القرآنَ وكرَّرَهُ مثالُ مَنْ يكرِّرُ كتابَ الملكِ في كلِّ يومٍ مرَّاتٍ وقدْ كتبَ إليهِ في عمارةِ مملكتِهِ وهوَ مشغولٌ بتخريبِها ومقتصرٌ علىٰ دراسةِ كتابِهِ ، فلعلَّهُ لوْ تركَ الدراسةَ عندَ المخالفةِ.. لكانَ أبعدَ عنِ الاستهزاءِ واستحقاقِ المقْتِ ، ولذلكَ قالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (إنِّي لأهمُّ بقراءةِ القرآنِ ، فإذا ذكرتُ ما فيهِ.. خشيتُ المقْتَ ، فأعدلُ إلى التسبيحِ والاستغفارِ)(٢) .

والمعرضُ عنِ العملِ بهِ أريدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرؤوا القرآنَ ما ائتلفتْ عليهِ قلوبُكُمْ ، ولانتْ لهُ جلودُكُمْ ، فإذا اختلفتُمْ.. فلستُمْ تقرؤونَهُ » ، وفي بعضِها : « فإذا اختلفتُمْ.. فقوموا عنهُ »(٣) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٣) بنحوه ، وهو بلفظه في « القوت » (١/ ٥٨) .
(٣) رواه البخاري (٥٠٦٠) ، ومسلم (٢٦٦٧) ، دون قوله : « ولانت له جلودكم » ، واللفظ لصاحب « القوت » (١/ ٥٨) ، ولين الجلود كناية عن الخشية ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحسنَ الناسِ صوتاً بالقرآنِ الذي إذا سمعتَهُ يقرأُ . . رأيتَ أنَّهُ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يُسمعُ القرآنُ مِنْ أحدٍ أشهىٰ منهُ ممَّنْ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ »(٢) .

فالقرآنُ يرادُ لاستجلابِ هـٰذهِ الأحوالِ إلى القلبِ والعملِ بهِ ، وإلا . . فالمؤنةُ في تحريكِ اللسانِ بحروفهِ خفيفةٌ ، ولذلكَ قالَ بعضُ القرَّاءِ : قرأتُ القرآنَ علىٰ شيخٍ لي ثمَّ رجعتُ لأقرأَ ثانياً ، فانتهرني وقالَ : جعلتَ القراءةَ عليَّ عملاً ؟! اذهبْ فاقرأْ على اللهِ عزَّ وجلَّ فانظرْ بماذا يأمرُكَ وماذا يفهمُكَ(٣) .

وبهـٰذا كانَ شغلُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم في الأحوالِ والأعمالِ ، حتَّىٰ ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ عشرينَ ألفاً مِنَ الصحابةِ(٤) ، لمْ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٣) مرسلاً عن طاووس .

(٣) قوت القلوب (١/ ٥٨) ، ولفظه : (فانظر ماذا يُسمعك منه ، ويُفهمك عنه) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لعله أراد بالمدينة ، وإلا . . فقد روينا عن أبي زرعة الرازي أنه قال : قبض عن مئة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روىٰ عنه وسمع منه) . « إتحاف » (٤/ ٥٢٢) .

يحفظِ القرآنَ منهم إلا ستةٌ ، اختلفَ منهُمْ في اثنينِ[1] ، وكانَ أكثرُهُمْ يحفظُ السورةَ والسورتينِ[2] ، وكانَ الذي يحفظُ (البقرةَ) و(الأنعامَ) مِنْ علمائِهِمْ[3] ، ولمَّا جاءَ واحدٌ ليتعلمَ القرآنَ ، فانتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . . فقالَ : يكفيني هٰذا ، وانصرفَ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصرفَ الرجلُ وهوَ فقيهٌ »[4] .

---

(١) روى البخاري (٣٧٥٨) ، ومسلم (٢٤٦٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ـ فبدأ به ـ وسالم مولىٰ أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل » .
وروى البخاري (٣٨١٠) ، ومسلم (٢٤٦٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (جمع القرآن علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة ، كلهم من الأنصار : أبيّ ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت ، قال قتادة : من أبو زيد ؟ قال أنس : أحد عمومتي) ، وبالروايتين يظهر الخلاف في الاثنين المختلف فيهما .

(٢) روى ابن الأنباري في « المصاحف » ـ ذكر سنده القرطبي في « تفسيره » (١/ ٤٠) ـ عن ابن عمر قال : (كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هٰذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هٰذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمىٰ ولا يرزقون العمل به) .

(٣) روى الترمذي (٢٨٧٦) عن أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن ، فأتىٰ علىٰ رجل منهم من أحدثهم سناً ، فقال : « ما معك يا فلان ؟ » قال : معي كذا وكذا و(سورة البقرة) ، قال : « أمعك (سورة البقرة ؟) » فقال : نعم ، قال : « فاذهب فأنت أميرهم » الحديث .

(٤) رواه أبو داوود (١٣٩٩) ، ولفظه عن عبد الله بن عمرو قال : أتىٰ رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقرئني يا رسول الله ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات =

وإنَّما العزيزُ مثلُ تلكَ الحالةِ التي يمنُّ اللهُ تعالىٰ بها علىٰ قلبِ العبدِ عَقيبَ فهْمِ الآيةِ ، فأمَّا مجرَّدُ حركةِ اللسانِ . . فقليلُ الجدوىٰ ، بلِ التالي باللسانِ المعرضُ عنِ العملِ جديرٌ بأنْ يكونَ هوَ المرادَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ ؛ أيْ : تركتَها ولمْ تنظرْ إليها ولمْ تعبأْ بها ، فإنَّ المقصِّرَ في الأمرِ يقالُ : إنَّهُ نسيَ الأمرَ .

وتلاوةُ القرآنِ حقَّ تلاوتِهِ : أنْ يشتركَ فيهِ اللسانُ والعقلُ والقلبُ ، فحظُّ اللسانِ تصحيحُ الحروفِ بالترتيلِ ، وحظُّ العقلِ تفسيرُ المعاني ، وحظُّ القلبِ الاتعاظُ والتأثُّرُ بالانزجارِ والائتمارِ ، فاللسانُ يرتِّلُ ، والعقلُ يترجمُ ، والقلبُ يتعظُ .

* * *

التاسعُ : الترقِّي :

وأعني بهِ : أنْ يترقَّىٰ إلىٰ أنْ يسمعَ الكلامَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لا مِنْ نفسِهِ ، فدرجاتُ القراءةِ ثلاثٌ :

= (الر) » ، فقال : كبرت سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات (حم) » فقال مثل قالته ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » ، فقال مثل قالته ، فقال الرجل : يا رسول الله ؛ أقرئني سورة جامعة ، فأقرأه النبي صلى الله عليه وسلم (إذا زلزلت الأرض) حتىٰ فرغ منها ، فقال الرجل : والذي بعثك بالحق ؛ لا أزيد عليها أبداً ، ثم أدبر الرجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفلح الرويجلُ » مرتين .

أدناها : أنْ يقدِّرَ العبدُ كأَنَّهُ يقرؤُهُ على اللهِ تعالىٰ واقفاً بينَ يديهِ وهوَ ناظرٌ إليهِ ومستمعٌ منهُ ، فيكونُ حالُهُ عندَ هـٰذا التقديرِ السؤالَ والتملُّقَ والتضرُّعَ والابتهالَ .

الثانيةُ : أنْ يشهدَ بقلبِهِ كأَنَّ ربَّهُ عزَّ وجلَّ يراهُ ويخاطبُهُ بألطافِهِ ، ويناجيهِ بإنعامِهِ وإحسانِهِ ، فمقامُهُ الحياءُ والتعظيمُ والإصغاءُ والفهْمُ .

الثالثةُ : أنْ يرىٰ في الكلامِ المتكلِّمَ ، وفي الكلماتِ الصفاتِ ، فلا ينظرُ إلىٰ نفسِهِ ولا إلىٰ قراءتِهِ ولا إلىٰ تعلُّقِ الإنعامِ بهِ منْ حيثُ إنَّهُ منعَمٌ عليهِ ، بلْ يكونُ مقصورَ الهمِّ على المتكلِّمِ ، موقوفَ الفكرِ عليهِ ؛ كأَنَّهُ مستغرقٌ بمشاهدةِ المتكلِّمِ عنْ غيرِهِ ، وهـٰذهِ درجةُ المقرَّبينَ ، وما قبلَها درجةُ أصحابِ اليمينِ ، وما خرجَ عنْ هـٰذا فهوَ درجاتُ الغافلينَ .

وعنِ الدرجةِ العليا أخبرَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (واللهِ ؛ لقدْ تجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لخلقِهِ في كلامِهِ ، ولكنَّهُمْ لا يبصرونَ)[1] ، وقالَ أيضاً وقدْ سألوهُ عنْ حالةٍ لحقتْهُ في الصلاةِ حتَّىٰ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ . قيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (ما زلتُ أردِّدُ الآيةَ علىٰ قلبي حتَّىٰ سمعتُها منَ المتكلِّمِ بها ، فلمْ يثبتْ جسمي لمعاينةِ قدرتِهِ)[2] .

وفي مثلِ هـٰذهِ الدرجةِ تعظُمُ الحلاوةُ ولذَّةُ المناجاةِ ، ولذلكَ قالَ بعضُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

الحكماءِ : (كنتُ أقرأُ القرآنَ فلا أجدُ لهُ حلاوةً حتَّىٰ تلوتُهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتلوهُ علىٰ أصحابِهِ ، ثمَّ رُفعتُ إلىٰ مقامٍ فوقَهُ ، فكنتُ أتلوهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ جبريلَ عليهِ السلامُ يلقيهِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ جاءَ اللهُ بمنزلةٍ أخرىٰ ، فأنا الآنَ أسمعُهُ منَ المتكلِّمِ بهِ ، فعندَها وجدْتُ لهُ لذَّةً ونعيماً لا أصبرُ عنهُ)[1] .

وقالَ عثمانُ وحذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُما : (لوْ طهرتِ القلوبُ . . لمْ تشبعْ مِنْ قراءةِ القرآنِ)[2] ، وإنَّما قالا ذلكَ لأنَّها بالطهارةِ تترقَّىٰ إلىٰ مشاهدةِ المتكلِّمِ في الكلامِ ، ولذلكَ قالَ ثابتٌ البنانيُّ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، وتنعمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[3] .

وبمشاهدةِ المتكلِّمِ دونَ ما سواهُ يكونُ العبدُ ممتثلاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ، فمَنْ لمْ يرَهُ في كلِّ شيءٍ . . فقدْ رأىٰ غيرَهُ ، وكلُّ ما التفتَ إليهِ العبدُ سوى اللهِ تعالىٰ تضمَّنَ التفاتُهُ شيئاً مِنَ الشرْكِ الخفيِّ ، بلِ التوحيدُ الخالصُ ألا يرىٰ في كلِّ شيءٍ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ .

***

(١) قوت القلوب (١/ ٤٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٠) ، وهو في « القوت » (١/ ٥٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٠) ولفظه : (الصلاة) بدل (القرآن) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٥٠) .

العاشرُ : التبرِّي :

وأعني بهِ : أنْ يتبرَّأَ مِنْ حولِهِ وقوتِهِ والالتفاتِ إلىٰ نفسِهِ بعينِ الرضا والتزكيةِ ، فإذا تلا آياتِ الوعدِ والمدْحِ للصالحينَ . . فلا يشهدُ نفسَهُ عندَ ذلكَ ، بلْ يشهدُ الموقنينَ والصديقينَ فيها ، ويتشوَّفُ إلىٰ أنْ يلحقَهُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ .

وإذا تلا آياتِ المقْتِ وذمِّ العصاةِ والمقصرينَ . . شهدَ نفسَهُ هناكَ ، وقدَّرَ أنَّهُ المخاطبُ خوفاً وإشفاقاً ، ولذلكَ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ لظلمي وكفْري ، فقيلَ لهُ : هـٰذا الظلْمُ فما بالُ الكفرِ ؟ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1] .

وقيلَ ليوسفَ بنِ أسباطٍ : إذا قرأتَ القرآنَ بماذا تدعو ؟ فقالَ : بماذا أدعو ! أستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ مِنْ تقصيري سبعينَ مرَّةً[2] .

فإذا رأىٰ نفسَهُ بصورةِ التقصيرِ في القراءةِ كانَ رؤيتُهُ سببَ قربِهِ ، فإنَّ مَنْ أُشهدَ البعدَ في القربِ . . لُطِفَ بهِ في الخوفِ حتَّىٰ يسوقَهُ الخوفُ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ في القربِ وراءَها ، ومَنْ أُشهدَ القربَ في البعدِ . . مُكِرَ بهِ بالأمنِ الذي يفضيهِ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ في البعدِ أسفلَ ممَّا هوَ فيهِ ، ومهما كانَ مشاهداً

---

(١) ذكر السيوطي في « الدر المنثور » (٥/ ٤٥) أنه من رواية ابن أبي حاتم ، وهو في « القوت » (١/ ٤٩) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٥٨) .

نفسَهُ بعينِ الرضا . . صارَ محجوباً بنفسِهِ ، فإذا جاوزَ حدَّ الالتفاتِ إلىٰ نفسهِ ولمْ يشاهدْ إلا اللهَ تعالىٰ في قراءتِهِ . . انكشفَ لهُ الملكوتُ .

قالَ سليمانُ بنُ أبي سليمانَ الدارانيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : وعدَ ابنُ ثوبانَ أخاً لهُ أنْ يفطرَ عندَهُ ، فأبطأَ عليهِ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، فلقيَه أخوهُ مِنَ الغدِ ، فقالَ لهُ : وعدتَني أنْ تفطرَ عندي فأخلفتَ ! فقالَ : لولا ميعادُكَ ما أخبرتُكَ بالذي حبسني عنكَ ؛ إنِّي لمَّا صليتُ العتمةَ . . قلتُ : أوترُ قبلَ أنْ أجيئَكَ ؛ لأنِّي لا آمنُ ما يحدثُ مِنَ الموتِ ، فلمَّا كنتُ في الدعاءِ مِنَ الوترِ . . رفعتْ لي روضةٌ خضراءُ فيها أنواعُ الزهرِ مِنَ الجنةِ ، فما زلتُ أنظرُ إليها حتَّىٰ أصبحتُ[١] .

وهٰذهِ المكاشفاتُ لا تكونُ إلا بعدَ التبرِّي عنِ النفسِ ، وعدمِ الالتفاتِ إليها وإلىٰ هواها ، ثمَّ تخصَّصُ هٰذهِ المكاشفاتُ بحسَبِ أحوالِ المكاشفِ ، فحيثُ يتلو آياتِ الرجاءِ ويغلبُ علىٰ حالهِ الاستبشارُ . . تنكشفُ لهُ صورةُ الجنَّةِ فيشاهدُها كأنَّهُ يراها عِياناً ، وإنْ غلبَ عليهِ الخوفُ . . كوشفَ بالنارِ حتَّىٰ يرىٰ أنواعَ عذابِها ، وذلكَ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ يشتملُ على السهْلِ اللطيفِ ، والشديدِ العسوفِ ، والمرجوِّ والمَخُوفِ ، وذلكَ بحسَبِ أوصافِهِ ؛ إذْ منها الرحمةُ واللطفُ والانتقامُ والبطشُ ، فبحسَبِ مشاهدةِ الكلماتِ والصفاتِ يتقلَّبُ القلبُ في اختلافِ الحالاتِ ، وبحسَبِ كلِّ حالةٍ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

منها يستعدُّ للمكاشفةِ بأمرٍ يناسبُ تلكَ الحالةَ ويقاربُها ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يكونَ حالُ المستمعِ واحداً والمسموعُ مختلفاً ، إذْ فيهِ كلامُ راضٍ وكلامُ غضبانَ ، وكلامُ منعِمٍ وكلامُ منتقمٍ ، وكلامُ جبَّارٍ متكبِّرٍ لا يبالي ، وكلامُ حنَّانٍ متعطِّفٍ لا يهملُ .

البَابُ الرَّابعُ
في فهم القرآن وتفسيره بالرّأي من غير نقل

لعلكَ تقولُ : عظَّمْتَ الأمرَ فيما سبقَ في فهْمِ أسرارِ القرآنِ وما ينكشفُ لأربابِ القلوبِ الزكيَّةِ مِنْ معانيهِ ، فكيفَ يستحبُّ ذلكَ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيهِ . . فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ » ؟ ![1] وعنْ هـٰذا شنَّعَ أهلُ العلمِ بظاهرِ التفسيرِ علىٰ أهلِ التصرُّفِ[2] منَ المفسرينَ المنسوبينَ إلى التصوُّفِ في تأويلِ كلماتِ القرآنِ علىٰ خلافِ ما نُقِلَ عنِ ابنِ عباسٍ وسائرِ المفسرينَ ، وذهبوا إلىٰ أنَّهُ كفرٌ ، فإنْ صحَّ ما قالَهُ أهلُ التفسيرِ . . فما معنىٰ فهمِ القرآنِ سوىٰ حفْظِ تفسيرِهِ ؟ وإنْ لمْ يصحَّ ذلكَ . . فما معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيهِ . . فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ » ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ زعمَ أنْ لا معنىٰ للقرآنِ إلا ما يترجمُهُ ظاهرُ التفسيرِ . . فهوَ مخبرٌ عنْ حدِّ نفسِهِ ، وهوَ مصيبٌ في الإخبارِ عنْ نفسِهِ ، ولكنَّهُ مخطىءٌ في الحكمِ بردِّ الخلقِ كافَّةً إلىٰ درجتِهِ التي هيَ حدُّهُ ومحطُّهُ[3] ، بلِ الأخبارُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

(٢) أي : في معاني الألفاظ . « إتحاف » (٤/ ٥٢٦) .

(٣) وقد ذكر المصنف فيما سبق : أن هـٰذا الاعتقاد مانع من موانع الفهم كذلك .

والآثارُ تدلُّ علىٰ أنَّ في معاني القرآنِ متسعاً لأربابِ الفهمِ .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ عبداً فهماً في القرآنِ)[1] ، فإنْ لمْ يكنْ سوى الترجمةِ المنقولةِ . . فما ذلكَ الفهمُ ؟!

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقرآنِ ظهراً وبطناً ، وحدّاً ومطلعاً »[2] ، ويُروىٰ أيضاً عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً عليهِ وهوَ مِنْ علماءِ التفسيرِ[3] ، فما معنى الظهْرِ والبطنِ والحدِّ والمطلعِ ؟!

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (لوْ شئتُ . . لأوقرتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ فاتحةِ الكتابِ)[4] ، فما معناهُ وتفسيرُ ظاهرِها في غايةِ الاختصارِ ؟!

وقالَ أبو الدرداءِ : (لا يفقهُ الرجلُ حتَّىٰ يجعلَ للقرآنِ وجوهاً)[5] .

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (لكلِّ آيةٍ ستونَ ألفَ فهْمٍ وما بقيَ مِنْ فهمِها أكثرُ)[6] .

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٣) بنحوه .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٥) بلفظ : « أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن » ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٥٨) بلفظ : (والذي نفسي بيده ؛ ما منه آية إلا ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلا وله حد ، ولكل حد مطلع) من قول الحسن ، ولفظ المصنف هنا عند صاحب « القوت » (١/ ٥١) .

(٣) انظر « قوت القلوب » (١/ ٥١) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٥٠) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١).

(٦) رواه أبو طالب في « القوت » (١/ ٥٠) .

وقالَ بعضُهُمْ : (القرآنُ يحوي سبعةً وسبعينَ ألفَ علمٍ ومئتي علمٍ ؛ إذْ لكلِّ كلمةٍ علمٌ ، ثمَّ يتضاعفُ ذلكَ أربعةَ أضعافٍ ؛ إذْ لكلِّ كلمةٍ ظاهرٌ وباطنٌ وحدٌّ ومطلعٌ)(١) .

وترديدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ) عشرينَ مرَّةً لا يكونُ إلا لتدبُّرِهِ باطنَ معانيها ، وإلا . . فترجمتُها وتفسيرُها ظاهرٌ لا يحتاجُ مثلُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ تكريرٍ(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أرادَ علمَ الأولينَ والآخرينَ . . فليثوِّرِ القرآنَ)(٣) ، وذلكَ لا يحصلُ بمجردِ تفسيرِهِ الظاهرِ .

وبالجملةِ : فالعلومُ كلُّها داخلةٌ في أفعالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وفي القرآنِ شرحُ ذاتِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ ، وهـٰذهُ العلومُ لا نهايةَ لها ، وفي القرآنِ إشارةٌ إلىٰ مجامعِها .

* * *

والمقاماتُ في التعمُّقِ في تفصيلِهِ راجعةٌ إلىٰ فهْمِ القرآنِ ، ومجرَّدُ ظاهرِ التفسيرِ لا يشيرُ إلىٰ ذلكَ ، بلْ كلُّ ما أشكلَ على النظَّارِ واختلفَ فيهِ الخلائقُ في النظرياتِ والمعقولاتِ ففي القرآنِ رموزٌ إليهِ ودلالاتٌ عليهِ يختصُّ أهلُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٧) .
(٢) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٥١) .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٨٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٥) .

الفهمِ بدرْكِها ، فكيفَ يفي بذلكَ ترجمةُ ظاهرِهِ وتفسيرُهُ ؟![1] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرؤوا القرآنَ والتمسوا غرائبَهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ لتفترقنَّ أمتي عنْ أصلِ دينِها وجماعتِها على اثنتينِ وسبعينَ فرقةً ، كلُّها ضالَّةٌ مضلَّةٌ يُدعونَ إلى النارِ ، فإذا كانَ ذلكَ . . فعليكُمْ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ فيهِ نبأَ ما كانَ قبلَكُمْ ، ونبأَ ما يأتي بعدَكُمْ ، وحكمَ ما بينكُمْ ، مَنْ خالفَهُ مِنَ الجبابرةِ . . قصمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ . . أضلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهوَ حبْلُ اللهِ المتينُ ، ونورُهُ المبينُ ، وشفاؤُهُ النافعُ ، عصمةٌ لمَنْ تمسَّكَ بهِ ، ونجاةٌ لمَنِ اتبعَهُ ، لا يعوجُّ فيقوَّمَ ، ولا يزيغُ فيستقيمَ ، ولا تنقضي عجائبُهُ ، ولا يخلِقُهُ كثرةُ الردِّ » الحديثَ[3] .

وفي حديثِ حذيفةَ لمَّا أخبرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالاختلافِ والفرقةِ بعدَهُ . . قالَ : فقلتُ يا رسولَ اللهِ ؛ فما تأمرني إنْ أدركتُ ذلكَ ؟ فقالَ : « تعلَّمْ كتابَ اللهِ واعملْ بما فيهِ ، فهوَ المخرجُ مِنْ ذلكَ » قالَ :

---

(١) حتىٰ قال الإمام الشافعي في « الرسالة » (ص٢٠) : (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل علىٰ سبيل الهدىٰ فيها) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٥٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٦٠) ، وفيهما : (أعربوا) بدل (اقرؤوا) .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٠٦) دون ذكر الافتراق ، بل قال : « ألا إنها ستكون فتنة » ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/٤٨) .

فأعدتُ عليهِ ذلكَ ثلاثاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً : « تعلَّمْ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ واعملْ بما فيهِ ، ففيهِ النجاةُ »[1] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ فهمَ القرآنَ . . فسَّر جملَ العلمِ)[2] ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ القرآنَ يشيرُ إلىٰ مجامعِ العلومِ كلِّها .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ يعني : الفهمَ في القرآنِ[3] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ سمَّىٰ ما آتاهما علماً وحُكْماً ، وخصَّصَ ما انفردَ بهِ سليمانُ بالتفطُّنِ لهُ باسمِ الفهْمِ ، وجعلَهُ مقدَّماً على العلمِ والحكمِ[4] .

فهٰذهِ الأمورُ تدلُّ علىٰ أنَّ في فهْمِ معاني القرآنِ مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً ، وأنَّ المنقولَ مِنْ ظاهرِ التفسيرِ ليسَ منتهى الإدراكِ فيهِ .

فأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ » ، ونهيُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أيُّ أرضٍ تقلُّني ، وأيُّ سماءٍ تظلُّني إذا قلتُ في القرآنِ برأيي)[5] إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في

---

(١) رواه أبو داوود (٤٢٤٤) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩٧٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٩) .
(٣) رواه عنه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ١١٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٩) .
(٥) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص٣٧٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٦١) .

الأخبارِ والأوتارِ في النهيِ عنْ تفسيرِ القرآنِ بالرأيِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ المرادُ بهِ الاقتصارَ على النقلِ والمسموعِ وتركَ الاستنباطِ والاستقلالِ بالفهمِ ، أوِ المرادُ بهِ أمراً آخرَ .

❊ ❊ ❊

وباطلٌ قطعاً أنْ يكونَ المرادُ بهِ ألا يتكلَّمَ أحدٌ في القرآنِ إلا بما سمعَهُ لوجوهٍ :

أحدُها : أنَّهُ يشترطُ أنْ يكونَ ذلكَ مسموعاً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومسنداً إليهِ ، وذلكَ ممَّا لا يُصادَفُ إلا في بعضِ القرآنِ ، فأمَّا ما يقولُهُ ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ مِنْ أنفسِهِمْ . فينبغي ألا يقبلَ ، ويقالَ : هوَ تفسيرٌ بالرأيِ ؛ لأنَّهُمْ لمْ يسمعوهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكذا غيرُهُمْ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

والثاني : أنَّ الصحابةَ والمفسرينَ اختلفوا في تفسيرِ بعضِ الآياتِ ، فقالوا فيها أقاويلَ مختلفةً لا يمكنُ الجمعُ بينها ، وسماعُ جميعِها مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محالٌ ، ولوْ كانَ الواحدُ مسموعاً . . لتُرِكَ الباقي ، فتبيَّنَ على القطعِ أنَّ كلَّ مفسِّرٍ قالَ في المعنىٰ بما ظهرَ لهُ باستنباطِهِ ، حتَّىٰ قالوا في الحروفِ التي هيَ أوائلَ السورِ سبعةَ أقاويلَ مختلفةٍ لا يمكنُ الجمعُ بينَها ، فقيلَ : إنَّ ﴿الٓر﴾ هيَ حروفٌ مِنَ الرحمـٰنِ ، وقيلَ : إنَّ الألفَ اللهُ ، واللامَ لطيفٌ ، والراءَ رحيمٌ ،

وقيلَ غيرُ ذلكَ ، والجمعُ بينَ الكلِّ غيرُ ممكنٍ ، فكيفَ يكونُ الكلُّ مسموعاً ؟!

والثالثُ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دعا لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : « اللهمَّ ، فقهْهُ في الدينِ وعلِّمْهُ التأويلَ »(١) ، فإنْ كانَ التأويلُ مسموعاً كالتنزيلِ ومحفوظاً مثلَهُ . . فما معنىٰ تخصيصهِ بذلكَ ؟!

والرابعُ : أنَّهُ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، فأثبتَ لأهلِ العلمِ استنباطاً ، ومعلومٌ أنَّهُ وراءَ السماعِ ، وجملةُ ما نقلناهُ مِنَ الآثارِ في فهمِ القرآنِ يناقضُ هٰذا الخيالَ ، فبطلَ أنْ يُشترطَ السماعُ في التأويلِ ، وجازَ لكلِّ واحدٍ أنْ يستنبطَ مِنَ القرآنِ بقدْرِ فهمِهِ وحدِّ عقلِهِ(٢) .

وأمَّا النهيُ . . فإنَّهُ ينزَّلُ علىٰ أحدِ وجهينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ لهُ في الشيءِ رأيٌ ، وإليهِ ميْلٌ مِنْ طبعِهِ وهواهُ ، فيتأوَّلُ القرآنَ علىٰ وَفْقِ رأيِهِ وهواهُ ؛ ليحتجَّ علىٰ تصحيحِ غرضِهِ ، ولوْ لمْ يكنْ لهُ ذلكَ الرأيُ والهوىٰ . . لكانَ لا يلوحُ لهُ مِنَ القرآنِ ذلكَ المعنىٰ .

وهٰذا تارةً يكونُ معَ العلمِ ؛ كالذي يحتجُّ ببعضِ آياتِ القرآنِ علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١٤٣) ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/ ٢٦٦) .

(٢) لا مطلقاً ، بل مع مراعاة الشروط التي ذكرها العلماء لمريد التفسير والاستنباط ، والتي أشار إلىٰ شيء منها المصنف فيما يأتي .

تصحيحِ بدعتِهِ وهوَ يعلمُ أنَّهُ ليسَ المرادُ بالآيةِ ذلكَ ، ولكنْ يلبِّسُ بهِ علىٰ خصمِهِ .

وتارةً يكونُ معَ الجهلِ ، ولكنْ إذا كانتِ الآيةُ محتمِلةً . . فيميلُ فهمُهُ إلى الوجهِ الذي يوافقُ غرضَهُ ، ويرجِّحُ ذلكَ الجانبَ برأيِهِ وهواهُ ، فيكونُ قدْ فسَّرَ برأيِهِ ؛ أيْ : رأيُهُ هوَ الذي حملَهُ علىٰ ذلكَ التفسيرِ ، ولولا رأيُهُ . . لما كانَ يترجَّحُ عندَهُ ذلكَ الوجهُ .

وتارةً قدْ يكونُ لهُ غرضٌ صحيحٌ ، فيطلبُ لهُ دليلاً مِنَ القرآنِ ، ويستدلُّ عليهِ بما يعلمُ أنَّهُ ما أريدَ بهِ ؛ كمَنْ يدعو إلى الاستغفارِ بالأسحارِ ، فيستدلُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تسحَّروا فإنَّ في السحورِ بركةً »[1] ، ويزعمُ أنَّ المرادَ بهِ التسحُّرُ بالذكرِ وهوَ يعلمُ أنَّ المرادَ بهِ الأكلُ ، وكالذي يدعو إلىٰ مجاهدةِ القلْبِ القاسي ، فيقولُ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ ويشيرُ إلىٰ قلبِهِ ويومئُ إلىٰ أنَّهُ المرادُ بفرعونَ .

وهٰذا الجنسُ قدْ يستعملُهُ بعضُ الوعَّاظِ في المقاصدِ الصحيحةِ تحسيناً للكلامِ وترغيباً للمستمعِ ، وهوَ ممنوعٌ ، وقدْ تستعملُهُ الباطنيةُ في المقاصدِ الفاسدةِ لتغريرِ الناسِ ودعوتِهِمْ إلىٰ مذهبِهِمُ الباطلِ ، فينزِّلونَ القرآنَ علىٰ وَفقِ رأيِهِمْ ومذهبِهِمْ علىٰ أمورٍ يعلمونَ قطعاً أنَّها غيرُ مرادةٍ بهِ .

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) .

فهٰذهِ الفنونُ أحدُ وجهي المنعِ مِنَ التفسيرِ بالرأيِ ، ويكونُ المرادُ بالرأيِ الرأيَ الفاسدَ الموافقَ للهوىٰ دونَ الاجتهادِ الصحيحِ ، والرأيُ يتناولُ الصحيحَ والفاسدَ ، والموافقُ للهوىٰ قدْ يخصَّصُ باسمِ الرأيِ .

والوجهُ الثاني : أَنْ يتسارعَ إلىٰ تفسيرِ القرآنِ بظاهرِ العربيةِ مِنْ غيرِ استظهارٍ بالسماعِ والنقلِ فيما يتعلَّقُ بغرائبِ القرآنِ وما فيهِ مِنَ الألفاظِ المبهمةِ والمبدَّلَةِ ، وما فيهِ مِنَ الاختصارِ والحذْفِ والإضمارِ والتقديمِ والتأخيرِ ، فمَنْ لمْ يحكِمْ ظاهرَ التفسيرِ وبادرَ إلى استنباطِ المعاني بمجرَّدِ فهْمِ العربيةِ . . كثرَ غلطُهُ ، ودخلَ في زمرةِ مَنْ يفسِّرُ بالرأيِ ؛ فالنقلُ والسماعُ لا بدَّ منهُ في ظاهرِ التفسيرِ أوَّلاً ، ليتقيَ بهِ مواضعَ الغلطِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يتسعُ التفهُّمُ والاستنباطُ .

والغرائبُ التي لا تفهمُ إلا بالسماعِ كثيرةٌ ، ونحنُ نرمزُ إلىٰ جملٍ منها ليُستدلَّ بها علىٰ أمثالِها ، ويُعلمَ أنَّهُ لا يجوزُ التهاونُ بحفْظِ التفسيرِ الظاهرِ أوَّلاً ، ولا مطمعَ في الوصولِ إلى الباطنِ قبلَ إحكامِ الظاهرِ ، ومَنِ ادعىٰ فهمَ أسرارِ القرآنِ ولمْ يحكمِ التفسيرَ الظاهرَ . . فهوَ كمَنْ يدَّعي البلوغَ إلىٰ صدْرِ البيتِ قبلَ مجاوزةِ البابِ ، أوْ يدَّعي فهْمَ مقاصدِ الأتراكِ مِنْ كلامِهِمْ وهوَ لا يفهمُ لغةَ الترْكِ ، فإنَّ ظاهرَ التفسيرِ يجري مَجرىٰ تعليمِ اللغةِ التي لا بدَّ منها للفهمِ .

وما لا بدَّ فيهِ مِنَ السماعِ فنونٌ كثيرةٌ[1] :

منها الإيجازُ بالحذفِ والإضمارِ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ معناهُ : آيةً مبصرةً فظلموا أنفسَهُمْ بقتلِها ، فالناظرُ إلىٰ ظاهرِ العربيةِ يظنُّ أنَّ المرادَ بهِ أنَّ الناقةَ كانتْ مبصرةً ولمْ تكنْ عمياءَ ، ولا يدري أنَّهُمْ بماذا ظلموا ، وأنَّهُمْ ظلموا غيرَهُمْ أوْ أنفسَهُمْ[2] .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أيْ : حبَّ العجلِ ، فحذفَ الحبَّ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أيْ : ضعفَ عذابِ الأحياءِ وضعفَ عذابِ الموتىٰ ، فحذفَ العذابَ ، وأبدلَ الأحياءَ والموتىٰ بذكرِ الحياةِ والموتِ ، وكلُّ ذلكَ جائزٌ في فصيحِ اللغةِ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أيْ : أهلَ القريةِ وأهلَ العيرِ ، فالأهلُ فيها محذوفٌ مضمرٌ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معناهُ : خفيتْ علىٰ أهلِ

---

(١) عقد لهٰذا البحث الإمام أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٥١) فصلاً سماه : (ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام ، وفيه مدح العالمين وذم الغافلين ، وتفسير الغريب والمشكل) .

(٢) ويجوز نعتها بالمبصرة باعتبارها سبب الإبصار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، وانظر « تفسير الطبري » (٩/ ١٥/ ١٣٥) ، و« الدر المصون » (٧/ ٣٧٦) .

السماواتِ والأرضِ ، والشيءُ إذا خفيَ . . ثقلَ ، فأُبدِلَ اللفظُ بهِ وأُقيمَ (في) مقامَ (علىٰ) ، وأُضمرَ الأهلُ وحُذفُ[1] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ؛ أيْ : شكرَ رزقِكُمْ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ ؛ أيْ : علىٰ ألسنةِ رسلِكَ ، فحذفَ الألسنةَ[2] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أرادَ القرآنَ وما سبقَ لهُ ذكرٌ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ أرادَ الشمسَ وما سبقَ لها ذكرٌ[3] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ؛ أيْ : يقولونَ : ما نعبدُهُمْ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ معناهُ : لا يفقهونَ حديثاً يقولونَ : ما أصابَكَ مِنْ حسنةٍ . . فمنَ اللهِ ، فإنْ لمْ يردْ هـٰذا . . كانَ مناقضاً لقولِهِ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وسبقَ إلى الفهمِ منهُ مذهبُ القدريةِ[4] .

---

(١) أي : أهل السماوات وأهل الأرض . « إتحاف » (٤/ ٥٤٥) .

(٢) وهـٰذه الآيات التي أوردها المصنف من الأول إلىٰ هنا كلها أمثلة لإيجاز الحذف بأقسامه علىٰ طريق الإجمال . « إتحاف » (٤/ ٥٤٥) .

(٣) وهـٰذا من أمثلة المكنى المضمر .

(٤) وهـٰذان المثالان من أمثلة المضمر المختصر ، وعلى التحديد حذف القول ، والإلماع إلى القدرية ـ وهم المعتزلة هنا ـ عند صاحب « القوت » (١/ ٥٣) .

ومنها المنقولُ المنقلبُ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ؛ أيْ : طورِ سيناءَ[١] ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ ؛ أيْ : علىٰ إلياسَ ، وقيلَ : إدريسَ ؛ لأنَّ في حرفِ ابنِ مسعودٍ : (سلامٌ علىٰ إدراسينَ)[٢] .

* * *

ومنها المكرَّرُ القاطعُ لوصْلِ الكلامِ في الظاهرِ : كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ معناهُ : وما يتبعُ الذينَ يدعونَ مِنْ دونِ اللهِ شركاءَ إلا الظنَّ[٣] ، وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ ﴾ معناهُ : الذينَ استكبروا لمنْ آمنَ مِنَ الذينِ استضعفوا[٤] .

ومنها المقدَّمُ والمؤخَّرُ : وهوَ مَظِنَّةُ الغلطِ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معناهُ : **لولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى** . . لكانَ لزاماً ، ولولاهُ . . لكانَ نَصباً كاللزامِ .

---

(١) وهو مما قلب اسمه لازدواج الكلم كما في « قوت القلوب » (١/ ٥٢) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٥٢) ، وهي قراءة ابن مسعود ويحيىٰ والأعمش والمنهال بن عمرو والحكم بن عتيبة ، وقبلها : (وإن إدريس) ، وهو ما يعبر عنه بتخليط العرب بالاسم الأعجمي ، كذا في « المحتسب » (٢/ ٢٢٤) .

(٣) قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ مردود ـ مكرر ـ ردَّه للتوكيد والإفهام ، كأنه لما طال الكلام . . أعيد ليقرب من الفهم . « قوت القلوب » (١/ ٥٣) .

(٤) فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم . . كرَّرَ المراد بإعادة ذكر ﴿ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ ﴾ للبيان . « قوت القلوب » (١/ ٥٣) .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أيْ : يسألونَكَ عنها كأنَّكَ حفيٌّ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهـٰذا الكلامُ غيرُ متصلٍ ، وإنَّما هوَ عائدٌ إلىٰ قولِهِ السابقِ : ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أيْ : فصارتْ أنفالُ الغنائمِ لكَ إذْ أنتَ راضٍ بخروجِكَ وهمْ كارهونَ ، فاعترضَ بينَ الكلامِ الأمرُ بالتقوىٰ وغيرُهُ .

ومِنْ هـٰذا النوعِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآيةَ(1) .

* * *

ومنها المبهمُ : وهوَ اللفظُ المشتركُ بينَ معانٍ مِنْ كلمةٍ أوْ حرفٍ :

ـ أمَّا الكلمةُ : فكالشيءِ ، والقرينِ ، والأمَّةِ ، والروحِ ، ونظائرِها ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أرادَ بهِ النفقةَ ممَّا رُزِقَ .

---

(1) قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ إنما هو موصول بقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ ؛ لأنها نزلت في قولهم : فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ فقالوا : فهلا نستغفر لآبائنا المشركين ؟ فنزلت هـٰذه الآية ليستثني القدوة في إبراهيم في هـٰذا ، ثم نزلت الآية الأخرىٰ معذرة له . « قوت القلوب » (١/ ٥٦) .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي : الأمرِ بالعدلِ والاستقامةِ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ أرادَ بهِ مِنْ صفاتِ الربوبيةِ ، وهيَ العلومُ التي لا يحلُّ السؤالُ عنها حتَّىٰ يبتدىءَ بها العارفُ في أوانِ الاستحقاقِ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي : منْ غيرِ خالقٍ ، فربما يتوهَّمُ بهِ أنَّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يُخلَقُ شيءٌ إلا مِنْ شيءٍ(١) .

وأمَّا القرينُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أرادَ بهِ الملكَ الموكَّلَ بهِ .

وقولُهُ : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أرادَ بهِ الشيطانَ .

وأمَّا الأمَّةُ : فتطلقُ علىٰ ثمانيةِ أوجهٍ :

الأمةُ : الجماعةُ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ .

وأتباعُ الأنبياءِ ؛ كقولِكَ : نحنُ مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والأمةُ : الرجلُ الجامعُ للخيرِ يُقتدىٰ بهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ .

---

(١) قال صاحب « القوت » (١/ ٥٤) : (روينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن علي رضي الله عنهما قالا : أي : من غير رب ، كيف يكون خلق من غير خالق ؟!) .

والأمةُ : الدِّينُ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ .

والأمةُ : الحينُ والزمانُ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ ، وقولِهِ : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ .

والأمةُ : القامةُ ؛ يقالُ : فلانٌ حسنُ الأمَّةِ ؛ أي : القامةِ .

وأمَّةٌ : رجلٌ منفردٌ بدينٍ لا يشركُهُ فيهِ أحدٌ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُبعَثُ زيدُ بنُ عمرِو بنِ نفيلٍ أمَّةً وحدَهُ »[1] .

والأمةُ : الأمُّ ؛ يقالُ : هـٰذهِ أُمَّةُ زيدٍ ؛ أيْ : أمُّ زيدٍ .

والروحُ أيضاً وردَ في القرآنِ بمعانٍ كثيرةٍ ، فلا نطوِّلُ بإيرادِها[2] .

ـ وكذلكَ قدْ يقعُ الإبهامُ في الحروفِ : مثلَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ فالهاءُ الأولىٰ : كنايةٌ عنِ الحوافرِ ، وهيَ المورياتُ أثرنَ بالحوافرِ نقعاً ، والثانيةُ : كنايةٌ عنِ الإغارةِ ، وهيَ المغيراتُ صبحاً ، فوسطنَ بهِ جمعاً : جمعَ المشركينَ ، فأغاروا بجمعِهِمْ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ يعني : بالسحابِ ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يعني : بالماءِ ، وأمثالُ هـٰذا في القرآنِ لا ينحصرُ .

* * *

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٣١) .

(٢) انظر تفصيلاً فيها في « الإتحاف » (٤/ ٥٥٠) .

ومنها التدريجُ في البيانِ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ، إذْ لمْ يظهرْ بهِ أنَّهُ ليلٌ أوْ نهارٌ ، وبانَ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ ، ولمْ يظهرْ أنَّهُ في أيِّ ليلةٍ ، فظهرَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ، وربما يظنُّ في الظاهرِ الاختلافُ بينَ هـٰذهِ الآياتِ ، فهـٰذا وأمثالُهُ لا يغني فيهِ إلا النقلُ والسماعُ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ غيرُ خالٍ عنْ هـٰذا الجنسِ ؛ لأنَّهُ أُنزلَ بلغةِ العربِ ، فكانَ مشتملاً علىٰ أصنافِ كلامِهِمْ ؛ مِنْ إيجازٍ ، وتطويلٍ ، وإضمارٍ ، وحذفٍ ، وإبدالٍ ، وتقديمٍ ، وتأخيرٍ ؛ ليكونَ ذلكَ مفحماً لهُمْ ومعجزاً في حقِّهِمْ .

فكلُّ مَنِ اكتفىٰ بفهْمِ ظاهرِ العربيةِ ، وبادرَ إلىٰ تفسيرِ القرآنِ ولمْ يستظهرْ بالسماعِ والنقلِ في هـٰذهِ الأمورِ . . فهوَ داخلٌ فيمَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ ؛ مثلَ أنْ يفهمَ مِنْ لفظِ الأمَّةِ المعنى الأشهرَ منهُ ، فيميلَ طبعُهُ ورأيُهُ إليهِ ، فإذا سمعَهُ في موضعٍ آخرَ . . مالَ رأيُهُ إلىٰ ما سمعَهُ مِنْ مشهورِ معناهُ وتركَ تتبُّعَ النقلِ في كثرةِ معانيهِ ، فهـٰذا ما يمكنُ أنْ يكونَ منهياً عنهُ دونَ التفهُّمِ لأسرارِ المعاني كما سبقَ ، فإذا حصلَ السماعُ بأمثالِ هـٰذهِ الأمورِ . . علمَ ظاهرَ التفسيرِ ، وهوَ ترجمةُ الألفاظِ ، ولا يكفي ذلكَ في فهْمِ حقائقِ المعاني .

ويُدرَكُ الفرقُ بينَ حقائقِ المعاني وظاهرِ التفسيرِ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فظاهرُ تفسيرِهِ واضحٌ ،

وحقيقةُ معناهُ غامضٌ ؛ فإنَّهُ إثباتٌ للرمي ونفيٌ لهُ ، وهما متضادانِ في الظاهرِ ما لَمْ يفهمْ أنَّهُ رمىٰ مِنْ وجهٍ ولَمْ يرمِ مِنْ وجهٍ ، ومِنَ الوجهِ الذي لَمْ يرمِ . . رماهُ اللهُ تعالىٰ .

وكذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ فإذا كانوا هُمُ المقاتلينَ . . كيفَ يكونُ اللهُ هوَ المعذِّبَ ؟ وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ هوَ المعذِّبَ بتحريكِ أيديهِمْ . . فما معنىٰ أمرِهِمْ بالقتالِ ؟

فحقيقةُ هـٰذا يستمدُّ مِنْ بحرٍ عظيمٍ مِنْ علومِ المكاشفاتِ ، لا يغني عنهُ ظاهرُ التفسيرِ ، وهوَ أنْ يعلمَ وجهَ ارتباطِ الأفعالِ بالقدرةِ الحادثةِ ، ويفهمَ وجهَ ارتباطِ القدرةِ بقدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ ينكشفَ بعدَ إيضاحِ أمورٍ كثيرةٍ غامضةٍ صدقُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ، ولعلَّ العمرَ لوْ أنفقَ في استكشافِ أسرارِ هـٰذا المعنىٰ وما يرتبطُ بمقدماتِهِ ولواحقِهِ[1] . . لانقضى العمرُ قبلَ استيفاءِ جميعِ لواحقِهِ ، وما مِنْ كلمةٍ مِنَ القرآنِ إلا وتحقيقُها محوجٌ إلىٰ مثلِ ذلكَ ، وإنَّما ينكشفُ للراسخينَ في العلمِ مِنْ أسرارِهِ بقدْرِ غزارةِ علومِهِمْ وصفاءِ قلوبِهِمْ ، وتوفُّرِ دواعيهِمْ على التدبُّرِ ، وتجرُّدِهِمْ للطلبِ ، ويكونُ لكلِّ واحدٍ حدٌّ في الترقي إلىٰ أعلىٰ درجةٍ منهُ .

---

(١) التي منها معرفة درجات الكمال ، ثم معرفة الرغبة في طلبه كيف يكون ، ومعرفة تماثل الضدين ، ومعرفة أن واجب الوجود هل يرجع معناه إلىٰ سلب السبب عنه ، أو إلىٰ إضافة الأفعال إليه ، وما نهاية معرفة العارفين ، وكيف تفاوت درجاتهم ، وهل معرفته بالصفات معرفة تامة حقيقية أم لا ؟ وغير ذلك من العلوم التي تتعلق به . « إتحاف » (٤/٥٥٣) .

فأمَّا الاستيفاءُ.. فلا مطمعَ فيهِ ، ولوْ كانَ البحرُ مداداً والأشجارُ أقلاماً.. فأسرارُ كلماتِ اللهِ لا نهايةَ لها ، فتنفدُ الأبحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فمِنْ هٰذا الوجهِ يتفاوتُ الخلْقُ في الفهْمِ بعدَ الاشتراكِ في معرفةِ ظاهرِ التفسيرِ ، وظاهرُ التفسيرِ لا يغني عنهُ .

ومثالُهُ : فهمُ بعضِ أربابِ القلوبِ مِنْ قولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سجودِهِ : « أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وأعوذُ بمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[1] أنَّهُ قيلَ لهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، فوجدَ القربَ في السجودِ ، فنظرَ إلى الصفاتِ ، فاستعاذَ ببعضِها مِنْ بعضٍ ، فإنَّ الرضا والسخْطَ وصفانِ ، ثمَّ زادَ قربُهُ فاندرجَ القربُ الأوَّلُ فيهِ ، فرقيَ إلى الذاتِ وقالَ : « أعوذُ بكَ منْكَ »[2] ، ثمَّ زادَ قربُهُ بما استحيا بهِ مِنَ الاستعاذةِ علىٰ بساطِ القرْبِ ، فالتجأَ إلى الثناءِ ، فأثنىٰ بقولِهِ : « لا أحصي ثناءً عليكَ » ، ثمَّ علمَ أنَّ ذلكَ قصورٌ فقالَ : « أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[3] .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) وهٰذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، بل رأىٰ نفسه فارّاً منه إليه ، ففني عن مشاهدة نفسه . « إتحاف » (٤/ ٥٥٤) .

(٣) فأخبر أنه المثني والمثنىٰ عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وكل شيء هالك إلا وجهه . « إتحاف » (٤/ ٥٥٤) .

فهـٰذهِ خواطرُ تنفتحُ لأربابِ القلوبِ ، ثمَّ لها أغوارٌ وراءَ هـٰذا ، وهوَ فهْمُ معنى القربِ واختصاصِهِ بالسجودِ ، ومعنى الاستعاذةِ مِنْ صفةٍ بصفةٍ ومنهُ بهِ ، وأسرارُ ذلكَ كثيرةٌ ، ولا يدلُّ تفسيرُ ظاهرِ اللفظِ عليها ، وليسَ هوَ مناقضاً لظاهرِ التفسيرِ ، بلْ هوَ استكمالٌ لهُ ، ووصولٌ إلىٰ لُبابِهِ عنْ ظاهرِهِ .

فهـٰذا ما نريدُهُ بفهْمِ المعاني الباطنةِ ، لا ما يناقضُ الظاهرَ ، واللهُ أعلمُ (١) .

* * *

تمّ كتاب آداب تلاوة القرآن

وهو الكتاب الثّامن من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله حقّ حمده ، وصلاته على خير خلقه سيّدنا محمّد النّبيّ وعلى آله الطّاهرين وصحبه الأكرمين

يتلوه كتاب الأذكار والدّعوات

---

(١) جاء في خاتمة (ز) : (قوبل بأصله وصحح) .

كتاب
الأذكار والدعوات

وهو الكتاب التاسع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الأذكار والدّعوات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الشاملةِ رأفتُهُ ، العامَّةِ رحمتُهُ ، الذي جازىٰ عبادَهُ عنْ ذكرِهِمْ بذكرِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، ورغَّبَهُمْ في السؤالِ والدعاءِ بأمرِهِ ، فقالَ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، وأطمعَ المطيعَ والعاصيَ والدانيَ والقاصيَ في الانبساطِ إلىٰ حضرةِ جلالِهِ برفْعِ الحاجاتِ والأماني بقولِهِ : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ خِيرةِ أصفيائِهِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فليسَ بعدَ تلاوةِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ عبادةٌ تؤدَّىٰ باللسانِ أفضلَ مِنْ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ ، ورفْعِ الحاجاتِ بالأدعيةِ الخالصةِ إلى اللهِ سبحانَهُ ، فلا بدَّ مِنْ شرْحِ فضيلةِ الذكْرِ على الجملةِ ، ثمَّ على التفصيلِ في أعيانِ الأذكارِ ، وشرحِ فضيلةِ الدعاءِ ، وشروطِهِ ، وآدابِهِ ، ونقْلِ المأثورِ مِنَ الدعواتِ الجامعةِ لمقاصدِ الدينِ والدنيا ، والدعواتِ الخاصَّةِ لسؤالِ المغفرةِ أوِ الاستعاذةِ أوْ غيرِها ، ويتحرَّرُ المقصودُ مِنْ ذلكَ بذكْرِ أبوابٍ خمسةٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الذكرِ وفائدتِه جملةً وتفصيلاً .

البابُ الثاني : في فضيلةِ الدعاءِ وآدابِهِ وفضيلةِ الاستغفارِ والصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

البابُ الثالثُ : في أدعيةٍ مأثورةٍ ومعزيةٍ إلىٰ أصحابِها وأسبابِها .

البابُ الرابعُ : في أدعيةٍ منتخبةٍ محذوفةِ الإسنادِ مِنَ الأدعيةِ المأثورةِ .

البابُ الخامسُ : في الأدعيةِ المأثورةِ عندَ حدوثِ الحوادثِ .

* * *

البابُ الأوّلُ
في فضيلة الذكر على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدلُّ علىٰ فضيلةِ الذكرِ على الجملةِ :

مِنَ الآياتِ :

قولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، قالَ ثابتٌ البنانيُّ رحمهُ اللهُ : إنِّي أعلمُ متىٰ يذكرُني ربِّي عزَّ وجلَّ ، ففزعوا منهُ وقالوا : كيفَ تعلمُ ذلكَ ؟! فقالَ : إذا ذكرتُهُ . . ذكرَني (١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٤) .

جُنُوبِكُمْ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أيْ : بالليلِ والنهارِ ، في البرِّ والبحرِ ، والسفرِ والحضرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والمرضِ والصحَّةِ ، والسرِّ والعلانيةِ)(١) .

وقالَ تعالىٰ في ذمِّ المنافقينَ : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لهُ وجهانِ : أحدُهما : أنَّ ذكرَ اللهِ تعالىٰ لكُمْ أكبرُ مِنْ ذكرِكُمْ إيَّاهُ ، والآخرُ : أنَّ ذكْرَ اللهِ أكبرُ مِنْ كُلِّ عبادةٍ سواهُ)(٢) .

إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ .

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكِرُ اللهِ في الغافلينَ كالشجرةِ الخضراءِ في وَسَطِ الهشيمِ »(٣) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/٤/ ٣٣٥) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١١/ ٢٠/ ١٩٣) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٦١) وفيهما : (مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالمقاتلِ بينَ الفارّينَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالحيِّ بينَ الأمواتِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا معَ عبدي ما ذكرَني وتحرَّكَتْ بي شفتاهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما عملَ ابنُ آدمَ مِنْ عملٍ أنجىٰ لهُ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ ؟ قالَ : « ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ إلا أنْ تضربَ بسيفِكَ حتَّىٰ ينقطعَ ، ثمَّ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينقطعَ ، ثمَّ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينقطعَ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ أنْ يرتعَ في رياضِ الجنَّةِ . . فليكثِرْ ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ »(٥) .

---

(١) هو القطعة الأولىٰ من الحديث الذي سبق آنفاً .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) .
(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٩٢) ، وهو من معلقات البخاري (كتاب التوحيد باب قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٣١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٥) .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٥٧) .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « أنْ تموتَ ولسانُكَ رطبٌ منْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصبحْ وأمسِ ولسانُكَ رطبٌ بذكرِ اللهِ تصبحْ وتمسي وليسَ عليكَ خطيئةٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغداةِ والعشيِّ أفضلُ مِنْ حطمِ السيوفِ في سبيلِ اللهِ ، ومِنْ إعطاءِ المالِ سحّاً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا ذكرني عبدي في نفسِهِ . . ذكرتُهُ في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأٍ . . ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ مِنْ ملئِهِ ، وإذا تقرَّبَ منِّي شبراً . . تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً ، وإذا تقرَّبَ منِّي ذراعاً . . تقرَّبْتُ منهُ باعاً ، وإذا مشىٰ إليَّ . . هرولتُ إليهِ »(٤) ، يعني بالهرولةِ : سرعةَ الإجابةِ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٤١) عن الحسن مرسلاً ، ورواه مرفوعاً ابن حبان في « صحيحه » (٨١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥١٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو القاسم الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » من حديث أنس : « من أصبح وأمسىٰ ولسانه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة » ، وفيه من لا يعرف) . « إتحاف » (٦/٥) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٩) موقوفاً علىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه مرفوعاً بتمامه ابن شاهين في « الترغيب في الذكر » كما في « الإتحاف » (٦/٥) .

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » منْ جملتِهِمْ : « رجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ مِنْ خشيةِ اللهِ »[(١)]

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أنبئُكُمْ بخيرِ أعمالِكُمْ ، وأزكاها عندَ مليكِكُمْ ، وأرفعِها في درجاتِكُمْ ، وخيرٌ لكُمْ مِنْ إعطاءِ الوَرِقِ والذهبِ ، وخيرٌ لكُمْ مِنْ أنْ تلقَوا عدوَّكُمْ فتضربوا أعناقَهُمْ ويضربوا أعناقَكُمْ ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ »[(٢)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ شغلَهُ ذكري عنْ مسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ما أعطي السائلينَ »[(٣)] .

* * *

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ الفضيلُ : (بلغَنا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ اذكرني بعدَ الصبحِ ساعةً ، وبعدَ العصرِ ساعةً . . أكفِكَ ما بينَهُما)[(٤)] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : أيُّما عبدٍ اطلعتُ علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) .
(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) ، ووقع في بعض النسخ زيادة كلمة (دائماً) آخره .
(٣) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢/ ١٠٠) ، والبزار في « مسنده » (١٣٧) .
(٤) رواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٣) .

قلبِهِ ، فرأيتُ الغالبَ عليهِ التمسُّكَ بذكري . . توليتُ سياستَهُ ، وكنتُ جليسَهُ ومحادثَهُ وأنيسَهُ .

وقالَ الحسنُ : (الذكرُ ذكرانِ : ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ بينَ نفسِكَ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ما أحسنَهُ وأعظمَ أجرَهُ ! وأفضلُ مِنْ ذلكَ ذكرُ اللهِ سبحانَهُ عندَ ما حرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ)[1] .

ويروىٰ أنَّ كلَّ نفسٍ تخرجُ مِنَ الدنيا عطشىٰ إلا ذاكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ يتحسَّرُ أهلُ الجنَّةِ علىٰ شيءٍ إلا علىٰ ساعةٍ مرَّتْ بهِمْ لمْ يذكروا اللهَ تعالىٰ فيها)[2] ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٨٧) عن ميمون بن مهران ، ورواه كذلك في « الحلية » (٥/ ٢٢٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٤) عن بلال بن سعد .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً .

فضيلة مجالس الذكر

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جلسَ قومٌ مجلساً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا حفَّتْ بهمُ الملائكةُ ، وغشيتْهُمُ الرحمةُ ، وذكرَهُمُ اللهُ تعالىٰ فيمَنْ عندَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ قومٍ اجتمعوا يذكرونَ اللهَ تعالىٰ لا يريدونَ بذلكَ إلا وجهَهُ . . إلا ناداهُمْ منادٍ مِنَ السماءِ : قوموا مغفوراً لكُمْ ، قدْ بُدِّلَتْ لكُمْ سيئاتُكُمْ حسناتٍ »(٢) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما قعدَ قومٌ مقعداً لَمْ يذكروا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ فيهِ ، ولَمْ يصلُّوا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . إلا كانَ عليهِمْ حسرةً يومَ القيامةِ »(٣) .

وقالَ داوودُ عليهِ السلامُ : (إلـٰهي ؛ إذا رأيتني أجاوِزُ مجالسَ الذاكرينَ إلىٰ مجالسِ الغافلينَ . . فاكسرْ رجْلي دونَهُمْ ؛ فإنَّها نعمةٌ تنعِمُ بها عليَّ)(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠) ، وهو بلفظ المصنف عند أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩) كذلك .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٤٢) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٨) .

(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٠) ، وفيه : (تِرَةً) بدل (حسرة) وهما بمعنىً .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٤٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « العلم » (١٣٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المجلسُ الصالحُ يكفِّرُ عنِ المؤمنِ ألفي ألفِ مجلسٍ مِنْ مجالسِ السوءِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أهلَ السماءِ ليتراءونَ بيوتَ أهلِ الأرضِ التي يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ تعالىٰ كما تُتَراءى النجومُ)(٢) .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ رحمَهُ اللهُ : (إذا اجتمعَ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ . . اعتزلَ الشيطانُ والدنيا ، فيقولُ الشيطانُ للدنيا : ألا ترينَ ما يصنعونَ ؟ فتقولُ الدنيا : دعْهُمْ فإنَّهُمْ إذا تفرَّقوا . . أخذتُ بأعناقِهِمْ إليكَ) .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ دخلَ السوقَ وقالَ : أراكُمْ هٰهنا وميراثُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقسمُ في المسجدِ ! فذهبَ الناسُ إلى المسجدِ وتركوا السوقَ ، فلم يرَوا ميراثاً ، فقالوا : يا أبا هريرةَ ؛ ما رأينا ميراثاً يقسمُ في المسجدِ ، فقالَ : فماذا رأيتُمْ ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ويقرؤونَ القرآنَ ، قالَ : فذلكَ ميراثُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣) .

وروى الأعمشُ عنْ أبي صالحٍ ، عنْ أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخدريِّ ، عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملائكةً سياحينَ في

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكره صاحب « الفردوس » [٥٨٣] من حديث أسد بن وداعة ، وهو مرسل ، ولم يخرجه ولده ، وكذلك لم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٥/ ٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٦٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٤٥١) .

الأرضِ فضلاً عَنْ كتَّابِ الناسِ ، فإذا وجدوا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . تنادَوا : هلمُّوا إلىٰ بغيتِكُمْ ، فيجيئونَ ، فيَحُفُّونَ بهِمْ إلى السماءِ الدنيا ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : أيَّ شيءٍ تركتُمْ عبادي يصنعونَ ؟ فيقولونَ : تركناهُمْ يحمدونَكَ ويمجِّدُونَكَ ويسبِّحونَكَ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوني ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ جلَّ جلالُهُ : كيفَ لوْ رأوني ؟ فيقولونَ : لوْ رأوكَ . . لكانوا أشدَّ تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً ، فيقولُ لهُمْ : مِنْ أيِّ شيءٍ يتعوَّذونَ ؟ فيقولونَ : مِنَ النارِ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : فكيفَ لوْ رأوها ؟ فيقولونَ : لوْ رأوها . . لكانوا أشدَّ هرباً منها وأشدَّ نفوراً ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : وأيَّ شيءٍ يطلبونَ ؟ فيقولونَ : الجنَّةَ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ تعالىٰ : فكيفَ لوْ رأوها ؟ فيقولونَ : لوْ رأوها . . لكانوا أشدَّ عليها حرصاً ، فيقولُ جلَّ جلالُهُ : فإنِّي أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ ، فيقولونَ : كانَ فيهِمْ فلانٌ لمْ يردْهُمْ ، إنَّما جاءَ لحاجةٍ ! فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : هُمُ القومُ لا يشقىٰ بهِمْ جليسُهُمْ »(١) .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٠) عنهما ، وهو عن أبي هريرة في « البخاري » (٦٤٠٨) ، و« مسلم » (٢٦٨٩) بنحوه .

فضيلة التهليل

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ ما قلتُهُ أنا والنبيونَ مِنْ قبلي : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ في يومٍ مئةَ مرَّةٍ . . كانتْ لهُ عدْلَ عشرِ رقابٍ ، وكتبت لهُ مئةُ حسنةٍ ، ومحيتْ عنهُ مئةُ سيئةٍ ، وكانتْ لهُ حرزاً مِنَ الشيطانِ يومَهُ ذلكَ حتىٰ يمسيَ ، ولمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاءَ بهِ إلا أحدٌ عملَ أكثرَ مِنْ ذلكَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منْ عبدٍ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، ثمَّ رفعَ طرفَهُ إلى السماءِ فقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ . . إلاَّ فتحتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ علىٰ أهلِ لا إلـهَ إلا اللهُ وحشةٌ في قبورِهِمْ ولا في نشورِهِمْ ، كأنِّي أنظرُ إليهِمْ عندَ الصيحةِ ينفضونَ رؤوسَهُمْ مِنَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) .
(٢) رواه البخاري (٣٢٩٣) ، ومسلم (٢٦٩١) .
(٣) رواه أبو داوود (١٦٩) ، وهو عند مسلم (٢٣٤) بنحوه .

الترابِ ويقولونَ : الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنَّا الحزنَ إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً لأبي هريرةَ : « يا أبا هريرةَ ؛ إنَّ كلَّ حسنةٍ تعملُها توزنُ يومَ القيامةِ إلا شهادةَ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ، فإنَّها لا توضعُ في ميزانٍ ؛ لأنَّها لوْ وضعتْ في ميزانِ مَنْ قالَها صادقاً ووضعتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهنَّ . . كانَ لا إلـهَ إلا اللهُ أرجحَ مِنْ ذلكَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ جاءَ قائلُ : لا إلـهَ إلا اللهُ صادقاً بقُرابِ الأرضِ ذنوباً . . لغفرَ اللهُ لهُ ذلكَ »(٣) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩) .

(٢) تقدم الكلام تعليقاً علىٰ وصية أبي هريرة ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٥٤) مرفوعاً : « والذي نفسي بيده ؛ لو جيء بالسماوات والأرضين ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعت في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إلـه إلا الله في الكفة الأخرىٰ . . لرجحت بهن » ، ونحوه عند النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٠٢) ، وهو حديث سيدنا موسىٰ عليه السلام المشهور .

(٣) الذي رواه مسلم (٢٦٨٧) مرفوعاً حديثاً قدسياً : « ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركُ بي شيئاً . . لقيته بمثلها مغفرة » ، ومعنى التهليل في قوله : « لا يشرك بي شيئاً » ، وعند الترمذي (٣٥٤٠) : « يا بن آدم ؛ إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . . لأتيتك بقرابها مغفرة » .
وروى ابن عدي في « الكامل » (٥/ ٦٤) : أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما لي إن شهدت أن لا إلـه إلا الله وكبرته وحمدته وسبحته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيم سأل ربه عز وجل فقال : يا رب ؛ ما جزاء من هلل =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ لقِّنِ الموتىٰ شهادةَ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ؛ فإنَّها تهدِمُ الذنوبَ هدْماً » ، قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا للموتىٰ فكيفَ للأحياءِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هيَ أهدمُ وأهدمُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنَّةَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتدخلُنَّ الجنَّةَ كلُّكُمْ إلا مَنْ أبىٰ وشردَ على اللهِ عزَّ وجلَّ شرادَ البعيرِ علىٰ أهلهِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنِ الذي يأبى ؟ قالَ : « مَنْ لمْ يقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ »(٣) ، فأكثروا مِنْ قولِ : لا إلـٰهَ

= مخلصاً من قلبه ؟ فقال : يا إبراهيم ؛ جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب . . . » الحديث .

(١) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ٢١٨٩) مرفوعاً ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٨٧) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥٤) ، وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل » .

(٣) إلىٰ هنا في « البخاري » (٧٢٨٠) مرفوعاً : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ » ، قالوا : يا رسول الله ؛ ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعني . . دخل الجنة ، ومن عصاني . . فقد أبىٰ » ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٨١٢) مرفوعاً : « والذي نفسي بيده ؛ لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبىٰ وشرد على الله شراد البعير » الحديث .

إلا اللهُ قبلَ أنْ يحالَ بينكُمْ وبينَها[1] ، فإنَّها كلمةُ التوحيدِ[2] ، وهيَ كلمةُ الإخلاصِ ، وهيَ كلمةُ التقوىٰ[3] ، وهيَ الكلمةُ الطيبةُ[4] ، وهيَ دعوةُ الحقِّ[5] ، وهيَ العروةُ الوثقىٰ[6] ، وهيَ ثمنُ الجنَّةِ »[7] .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، فقيلَ : الإحسانُ في الدنيا : قولُ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وفي الآخرةِ : الجنَّةُ[8] ، وكذا قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[9] .

وروى البراءُ بنُ عازبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ

---

(١) هـٰذه القطعة رواها أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٤٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٤/ ١٠٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٢٤٨) .

(٢) روىٰ أبو الشيخ في « الثواب » من حديث الحكم بن عمير مرسلاً : « إذا قلت : لا إلـٰه إلا الله . . فهي كلمة التوحيد » الحديث . « إتحاف » (٥/ ١١) .

(٣) كونها كلمة الإخلاص وكلمة التقوىٰ عند أحمد في « المسند » (١/ ٦٣) ، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة الإخلاص كذلك عند الطبراني في « الدعاء » (٤٧٧) .

(٤) روىٰ ذلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) روىٰ ذلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) روىٰ ذلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٣٤٨) .

(٨) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٥٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٩) رواه الطبري في « تفسيره » (٧/ ١١/ ١٣٧) .

عشرَ مراتٍ . . كانتْ لهُ عدْلَ رقبةٍ أوْ نسمةٍ »(١) .

وروىٰ عمرُو بنُ شعيبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ في يومٍ مئتي مرَّةٍ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . لمْ يسبقْهُ أحدٌ كانَ قبلَهُ ، ولا يدركُهُ أحدٌ كانَ بعدَهُ إلا مَنْ عملَ بأفضلَ مِنْ عملِهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ في سوقٍ مِنَ الأسواقِ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . كتبَتْ لهُ ألفُ ألفِ حسنةٍ ومُحيتْ عنهُ ألفُ ألفِ سيئةٍ ، وبُنيَ لهُ بيتٌ في الجنَّةِ »(٣) .

ويُروىٰ : « أن العبدَ إذا قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . أتتْ علىٰ صحيفتِهِ فلا تمرُّ علىٰ خطيئةٍ إلا محتْها ، حتَّىٰ تجدَ حسنةً مثلَها فتجلسَ إلىٰ جنبِها »(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٧٤٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٨٥ ، ٢١٤) .

(٣) رواه الترمذي (٣٤٢٨) ، وابن ماجه (٢٢٣٥) عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً ، وأشار الدارقطني في « علله » (٢/ ٤٩) إلىٰ رواية وقفه عليه ، وهو بزيادة المصنف : « وبني له . . . » عند ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٨٢) .

(٤) روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٦١١) مرفوعاً : « ما قال عبد : لا إلـه إلا الله في ساعة من ليل أو نهار . . إلا طمستْ ما في صحيفته من السيئات حتىٰ يسكن إلىٰ مثلها من الحسنات » .

وفي الصحيحِ عنْ أبي أيوبَ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ عشرَ مراتٍ . . كانَ كمَنْ أعتقَ أربعةَ أنفسٍ مِنْ ولدِ إسماعيلَ عليهِ السلامُ »(١) .

وفي الصحيحِ أيضاً عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ تعارَّ مِنَ الليلِ ، فقالَ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، الحمدُ للهِ ، وسبحانَ اللهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي أَوْ دعا . . استجيبَ لهُ ، فإنْ توضَّأَ وصلَّىٰ . . قبلَتْ صلاتُهُ »(٢) .

* * *

(١) رواه البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) .
(٢) رواه البخاري (١١٥٤) ، **والتعارُّ** : السهر والتقلب على الفراش ليلاً .

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سبَّحَ اللهَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ ، وحمدَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ، وكبَّرَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ، وختمَ المئةَ بلا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . غفرَتْ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في يومٍ مئةَ مرَّةٍ . . حُطتْ خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : تولَّتْ عنِّيَ الدنيا ، وقلَّتْ ذاتُ يدي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فأينَ أنتَ منْ صلاةِ الملائكةِ وتسبيحِ الخلائقِ وبها يرزقونَ ؟ » قالَ : فقلتُ : وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « قلْ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ ، أستغفرُ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلىٰ أنْ تصلِّيَ الصبحَ . . تأتيكَ الدنيا راغمةً صاغرةً ، ويخلقُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ كلِّ كلمةٍ ملكاً يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ إلىٰ يومِ القيامةِ لكَ ثوابُهُ »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه المستغفري في « الدعوات » من حديث ابن عمر وقال : غريب من حديث مالك ، ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك ، ولأحمد من حديث =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قالَ العبدُ : الحمدُ للهِ . . ملأتْ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، فإذا قالَ : الحمدُ للهِ الثانيةَ . . ملأتْ ما بينَ السماءِ السابعةِ إلى الأرضِ السفلىٰ ، فإذا قالَ : الحمدُ للهِ الثالثةَ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : سلْ تعطَ »[١] .

وقالَ رِفاعةُ الزُّرَقيُّ : كنَّا يوماً نصلِّي وراءَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا رفعَ رأسَهُ مِنَ الركوعِ وقالَ : « سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهْ » . . قالَ رجلٌ وراءَهُ : ربَّنا ولكَ الحمدُ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيهِ ، فلمَّا انصرفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ صلاتِهِ . . قالَ : «مَنِ المتكلِّمُ آنفاً؟» قال : أنا يا رسولَ اللهِ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ رأيتُ بضعةً وثلاثينَ ملكاً يبتدرونَها أيُّهُمْ يكتبُها أوَّلاً »[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الباقياتُ الصالحاتُ هُنَّ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وسبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ »[٣] .

= عبد الله بن عمر [٢/ ١٧٠] : أن نوحاً قال لابنه : آمرك بلا إلـٰه إلا الله ، الحديث ، ثم قال : سبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وإسناده صحيح) . « إتحاف » (٥/ ١٣) .

(١) قال الحافظ العراقي : (غريب بهـٰذا اللفظ لم أجده) . « إتحاف » (٥/ ١٤) ، إذ المشهور هو حديث مسلم (٢٢٣) وفيه : « والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض » .

(٢) رواه البخاري (٧٩٩) ، وفيه : فلما انصرف . . قال : « من المتكلم ؟ » قال : أنا ، قال : « رأيت بضعة . . . » .

(٣) رواه بلفظ المصنف الضياء في « الأحاديث المختارة » (٣٢٣) موقوفاً علىٰ عثمان =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما على الأرضِ رجلٌ يقولُ : لا إلـهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ ، وسبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ . . إلا غفرَتْ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ » ، رواهُ ابنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما[(١)] .

وروى النعمانُ بنُ بشيرٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الذي تذكرونَ مِنْ جلالِ اللهِ وتسبيحِهِ وتهليلِهِ وتحميدِهِ ينعطفْنَ حولَ العرشِ لهُنَّ دويٌّ كدويِّ النحْلِ يُذَكِّرُ بصاحبِهِ ، أوَلا يحبُّ أحدُكُمْ ألا يزالَ عندَ اللهِ تعالىٰ مَنْ يُذَكِّرُ بهِ ؟ »[(٢)] .

وروىٰ أبـو هـريـرةَ أنَّـهُ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ قـالَ : « لأَنْ أقـولَ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ . . أحبُّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ »[(٣)] ، وفي روايةٍ أخرىٰ زادَ : « ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ » وقالَ : « هي خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها »[(٤)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أربعٌ :

= رضي الله عنه ، وهو بنحوه عند النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٥٤) مرفوعاً ، بغير زيادة : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٠) ، وجاء في النسخ : (عمر) بدل (عمرو) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٥) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواها المستغفري في « الدعوات » من رواية مالك بن دينار : أن أبا أمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر . . خير من الدنيا وما فيها ، قال : « أنت أغنم القوم » ، وهو مرسل جيد الإسناد) . « إتحاف » (٥/ ١٤) .

سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، لا يضرُّكَ بأيِّهنَّ بدأتَ » . رواهُ سَمُرَةُ بنُ جُندُبٍ(١) .

وروىٰ أبو مالكٍ الأشعريُّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقولُ : « الطُّهورُ شطْرُ الإيمانِ ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ ، وسبحانَ اللهِ واللهُ أكبرُ تملأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، والصلاةُ نورٌ ، والصدقةُ برهانٌ ، والصبرُ ضياءٌ ، والقرآنُ حجَّةٌ لكَ أوْ عليكَ ، كلُّ الناسِ يغدو ؛ فبائعٌ نفسَهُ فمعتقُها أوْ موبقُها »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ، ثقيلتانِ في الميزانِ ، حبيبتانِ إلى الرحمـٰنِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »(٣) .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الكلامِ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اصطفى اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِهِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) بنحوه ، وهو بلفظ المصنف هنا : « وسبحان الله والله أكبر . . . » رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٤٢) .

(٣) رواه البخاري (٦٦٨٢) ، ومسلم (٢٦٩٤) .

(٤) رواه مسلم (٢٧٣١) بنحوه ودون زيادة : « سبحان الله العظيم » ، وعند الترمذي (٣٥٩٣) بلفظ المصنف ، ولفظ المرفوع فيه : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده » ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١٥) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالى اصطفىٰ مِنَ الكلامِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، فإذا قالَ العبدُ : سبحانَ اللهِ . . كُتِبَ لهُ عشرونَ حسنةً ، وحُطَّ عنهُ عشرونَ سيئةً ، وإذا قالَ : اللهُ أكبرُ . . فمثلُ ذلك » ، وذكرَ إلىٰ آخرِ الكلماتِ[1] .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ . . غرستْ لهُ نخلةٌ في الجنَّةِ »[2] .

وعنْ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قالَ الفقراءُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ذهبَ أهلُ الدثورِ بالأجورِ ؛ يصلُّونَ كما نصلِّي ، ويصومونَ كما نصومُ ، ويتصدَّقونَ بفضولِ أموالِهِمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَوَليسَ قدْ جعلَ اللهُ لكُمْ ما تصدَّقونَ بهِ ؟! إنَّ لكمْ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً ، وتحميدةٍ صدقةً ، وتهليلةٍ صدقةً ، وتكبيرةٍ صدقةً ، وأمرٌ بمعروفٍ صدقةٌ ، ونهيٌ عنْ منكرٍ صدقةٌ ، ويضعُ أحدُكُمْ اللقمةَ في في أهلِهِ فهيَ لهُ صدقةٌ ، وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صدقةٌ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ يأتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ لهُ فيها أجرٌ ؟! قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرأيتُمْ لوْ وضعَها في حرامٍ . . أكانَ عليهِ فيها وزرٌ ؟ قالُوا : نعمْ ، قالَ : كذلكَ إنْ وضعَها في الحلالِ . . كانَ لهُ فيها أجرٌ »[3] .

---

(١) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٤٦) ، وفي ثواب : « الحمد لله » قال : « كتب له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة » .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٤) .

(٣) رواه مسلم (١٠٠٦) .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : سبقَ أهلُ الأموالِ بالأجرِ ؛ يقولونَ ما نقولُ ، وينفقونَ ولا ننفقُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفلا أدلُّكَ علىٰ عملٍ إذا أنتَ فعلتَهُ . . أدركتَ مَنْ قبلَكَ ، وفُتَّ مَنْ بعدَكَ إلا منْ قالَ مثلَ قولِكَ ؟ تسبِّحُ اللهَ بعدَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ ، وتحمدُ ثلاثاً وثلاثينَ ، وتكبِّرُ أربعاً وثلاثينَ »(١) .

وروتْ يُسَيْرَةُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عليكنَّ بالتسبيحِ والتهليلِ والتقديسِ ، فلا تغفلْنَ ، واعقدْنَ بالأناملِ ؛ فإنَّها مستنطَقاتٌ »(٢) ، يعني : بالشهادةِ في القيامةِ .

وقالَ ابنُ عمرٍو : (رأيتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعقدُ التسبيحَ)(٣) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما شهدَ عليهِ أبو هريرةَ وأبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا قالَ العبدُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ . . قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : صدقَ عبدي ، لا إلـٰهَ إلا أنا ، وأنا أكبرُ ، وإذا قالَ العبدُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ . . قال اللهُ تعالىٰ : صدقَ عبدي ، لا إلـٰهَ إلا أنا وحدِي لا شريكَ لي ، وإذا قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٩٢٧) ، والمرفوع بصيغة الجمع ، وفيه قول ابن عيينة : (لا أدري أيتهن أربع) ، وهو بلفظ المصنف عند النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١٤٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داوود (١٥٠١) ، والترمذي (٣٥٨٣) .

(٣) رواه أبو داوود (١٥٠٢) ، والترمذي (٣٤١١) ، والنسائي (٣/ ٧٩) ، ووقع في النسخ : (عمر) بدل (عمرو) .

ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ : صدقَ عبدي ، لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بي ، ومَنْ قالَهُنَّ عندَ الموتِ . . لمْ تمسَّهُ النارُ »(١) .

ورَوىٰ مصعبُ بنُ سعدٍ عنْ أبيهِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكسبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ ؟ فقيلَ : كيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ مئةَ تسبيحةٍ ، فيُكتبُ لهُ ألفُ حسنةٍ ، ويُحطُّ عنهُ ألفُ سيئةٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ ، أَوْ يا أبا موسىٰ ؛ ألا أدلُّكَ علىٰ كنزٍ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ ؟ » قالَ : بلىٰ ، قالَ : « قل : لا حولَ ولا قوّةَ إلاّ باللهِ »(٣) .

وفي روايةٍ أخرىٰ : « ألا أعلِّمكَ كلمةً مِنْ تحتِ العرشِ : لا حولَ ولا قوة إلا باللهِ »(٤) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أدلُّكَ علىٰ عملٍ مِنْ كنزِ الجنَّةِ مِنْ تحتِ العرشِ ، قولُ : لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ ، يقولُ اللهُ تعالىٰ : أسلَمَ عبدي واستسلمَ »(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٣٠) ، وابن ماجه (٣٧٩٤) بنحوه .

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٨) والعطف فيه بـ « أو » ، وبرواية المصنف عند الترمذي (٣٤٦٣).

(٣) رواه البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) ، وعبد الله بن قيس هو سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٤) رواه النسائي في « السنن الكبرى » (٩٧٥٧) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يصبحُ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبالقرآنِ إماماً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً ورسولاً . . كانَ حقّاً على اللهِ سبحانَهُ أنْ يرضيَهُ يومَ القيامةِ » ، وفي روايةٍ : « مَنْ قالَ ذلك . . رضيَ اللهُ عنهُ »(١) .

وقالَ مجاهدٌ : (إذا خرجَ الرجلُ مِنْ بيتِهِ فقالَ : باسمِ اللهِ . . قالَ الملكُ : هديتَ ، فإذا قالَ : توكلتُ على اللهِ . . قالَ الملكُ : كفيتَ ، وإذا قالَ : لا حولَ ولا قوّةَ إلاَّ باللهِ . . قالَ الملكُ : وقيتَ ، فتتفرَّقُ عنهُ الشياطينُ ، فيقولونَ : ما تريدونَ مِنْ رجلٍ قدْ هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ ؟ لا سبيلَ لكمْ إليهِ)(٢) .

* * *

فإنْ قلتَ : فما بالُ ذكرِ اللهِ سبحانَهُ معَ خفَّتِهِ على اللسانِ وقلَّةِ التعبِ فيهِ . . صارَ أفضلَ وأنفعَ مِنْ جملةِ العباداتِ معَ كثرةِ المشقَّاتِ فيها ؟

فاعلمْ : أنَّ تحقيقَ هٰذا لا يليقُ إلا بعلمِ المكاشفةِ ، والقدْرُ الذي يُسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ أنَّ المؤثِّرَ النافعَ هوَ الذكرُ على الدوامِ معَ حضورِ القلبِ ، فأمَّا الذكرُ باللسانِ والقلبُ لاهٍ . . فهوَ قليلُ الجدوىٰ ، وفي الأخبارِ

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٩٥) عن مجاهد ، وهو عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٨١٤) عنه ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب الأحبار ، ونحوه عند ابن ماجه (٣٨٨٦) مرفوعاً من غير طريق مجاهد .

ما يدلُّ علىٰ ذلكَ أيضاً[1] ، وحضورُ القلبِ في لحظةٍ بالذكرِ والذهولُ عنِ اللهِ تعالىٰ معَ الاشتغالِ بالدنيا أيضاً قليلُ الجدوىٰ ، بلْ حضورُ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ أوْ في أكثرِ الأوقاتِ هوَ المقدَّمُ على العباداتِ ، بلْ بهِ تَشْرُفُ سائرُ العباداتِ ، وذلكَ هوَ غايةُ ثمرةِ العباداتِ العمليَّةِ .

* * *

وللذكرِ أوَّلٌ وآخرٌ ، فأوَّلُهُ يوجبُ الأُنسَ والحبَّ ، وآخرُهُ يوجبُهُ الأُنسُ والحبُّ ويصدرُ عنهُ ، والمطلوبُ هوَ ذلكَ الأنسُ والحبُّ ، فإنَّ المريدَ في بدايةِ الأمرِ قدْ يكونُ متكلِّفاً بصرْفِ قلبهِ ولسانِهِ عنِ الوسواسِ إلىٰ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنْ وُفِّقَ للمداومةِ . . أنسَ بهِ ، وانغرسَ في قلبِهِ حبُّ المذكورِ .

ولا ينبغي أنْ يُتعجَّبَ مِنْ هـٰذا ، فإنَّ مِنَ المشاهَدِ في العاداتِ أنْ يُذكرَ غائبٌ غيرُ مشاهدٍ بينَ يدي شخصٍ ويكرَّرَ ذكرُ خصالِهِ عندَهُ فيحبَّهُ ، وقدْ يعشقُ بالوصْفِ وكثرةِ الذكرِ ، ثمَّ إذا عشقَ بكثرةِ الذكرِ المتكلَّفِ أوَّلاً . . صارَ مضطراً إلىٰ كثرةِ الذكرِ آخراً ، بحيثُ لا يصبرُ عنهُ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ ، ومَن أكثرَ ذكرَ شيءٍ وإنْ كانَ تكلُّفاً . . أحبَّهُ ؛ فكذلكَ أوَّلُ الذكرِ متكلَّفٌ إلىٰ أنْ يثمرَ الأُنسَ بالمذكورِ والحبَّ لهُ ، ثمَّ يمتنعُ الصبرُ عنهُ آخراً ، فيصيرُ الموجَبُ موجِباً والثمرةُ مثمراً .

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ، وروى الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة مرفوعاً : « ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ » .

وهـٰذا معنىٰ قولِ بعضِهِمْ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تنعمتُ بهِ عشرينَ سنةً)(١) ، ولا يصدرُ التنعُّمُ إلا مِنَ الأُنسِ والحبِّ ، ولا يصدرُ الأنسُ إلا مِنَ المداومةِ على المكابدةِ والتكلُّفِ مدَّةً طويلةً ، حتَّىٰ يصيرَ المتكلَّفُ طبعاً .

وكيفَ يُستبعدُ هـٰذا وقدْ يتكلَّفُ الإنسانُ تناولَ طعامٍ يستبشعُهُ أوَّلاً ، ويكابدُ أكلَهُ ، ويواظبُ عليهِ ، فيصيرُ موافقاً لطبعِهِ ، حتَّىٰ لا يصبرُ عنهُ ! فالنفسُ معتادةٌ متحمِّلةٌ لما تتكلَّفُ ، وقدْ قيلَ(٢) : [من الطويل]

هـيَ النَّفْـسُ مـا عـوَّدْتَهـا تَتَعـوَّدُ ....

أيْ : ما كلفْتَها أوَّلاً يصيرُ لها طبعاً آخراً .

ثمَّ إذا حصلَ الأنسُ بذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ .. انقطعَ عنْ غيرِ ذكْرِ اللهِ سبحانَهُ ، وما سوى اللهِ سبحانَهُ هوَ الذي يفارقُهُ عندَ الموتِ ، فلا يبقىٰ معَهُ في القبرِ أهلٌ ولا مالٌ ولا ولدٌ ولا ولايةٌ ، ولا يبقىٰ إلا ذكرُ اللهِ سبحانَهُ(٣) ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٠) ، ولفظه : (الصلاة) بدل (القرآن) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٥٠) .

(٢) أصل هـٰذا الشعر لعلي بن الجهم في «ديوانه» (ص١٧٢)، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٢١).

(٣) أي : يبقىٰ ذكر الله تعالىٰ عملاً للذاكر بعد الموت ولا ينقطع ، لا أن أجره فقط هو الذي يبقىٰ ؛ إذ كل الأعمال الصالحات أجرها باقٍ بعد الموت ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥/ ٢٢) : (وما ورد في الخبر : « إذا مات ابن آدم .. انقطع عمله إلا من ثلاث » الحديث .. فإن المراد عمله الدنيوي ، وهو في عالم الملك ، وأما ذكر الله .. فهو في عالم الملكوت ، فهو كالمستثنىٰ في الأعمال) . وسيفصل المصنف ذلك .

فإنْ كانَ قدْ أنسَ بهِ . . تمتَّعَ بهِ ، وتلذَّذَ بانقطاعِ العوائقِ الصارفةِ عنهُ ؛ إذْ ضروراتُ الحاجاتِ في الحياةِ الدنيا تصدُّ عنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يبقىٰ بعدَ الموتِ عائقٌ ، فكأنَّهُ خُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، فعظمَتْ غبطتُهُ ، وتخلَّصَ مِنَ السجنِ الذي كانَ ممنوعاً فيهِ عمَّا بهِ أنسُهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ » ، أرادَ بهِ كلَّ ما يتعلَّقُ بالدنيا ، فإنَّ ذلكَ يفنىٰ في حقِّهِ بالموتِ ، فكلُّ مَنْ عليها فانٍ ، ويبقىٰ وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ .

وإنَّما تفنى الدنيا بالموتِ في حقِّهِ إلىٰ أنْ تفنىٰ في نفسِهَا عندَ بلوغِ الكتابِ أجلَهُ ، وهـٰذا الأنسُ يتلذَّذُ بهِ العبدُ بعدَ موتِهِ إلىٰ أنْ ينزلَ في جوارِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويترقَّىٰ مِنَ الذكرِ إلى اللقاءِ ، وذلكَ بعدَ أنْ يُبعثَرَ ما في القبورِ ، ويحصَّلَ ما في الصدورِ .

ولا ينكرنَّ بقاءَ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ معهُ بعدَ الموتِ فيقولَ : إنَّهُ أعدمَ ، فكيفَ يبقىٰ معهُ ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

فإنَّهُ لمْ يُعدمْ عدماً يمنعُ الذكرَ ، بل عدماً مِنَ الدنيا وعالمِ الملكِ والشهادةِ ، لا مِنْ عالمِ الملكوتِ ، وإلىٰ ما ذكرناهُ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القبرُ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النارِ ، أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ »(١) ، وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرواحُ الشهداءِ في حواصلِ طيرٍ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٠) .

خضرٍ »[1]، وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لقتلىٰ بدرٍ مِنَ المشركينَ : « يا فلانُ يا فلانُ ـ وقدْ سمَّاهُمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ : هلْ وجدتُمْ ما وعدَكُمْ ربُّكُمْ حقّاً ؟ فإنِّي قدْ وجدتُ ما وعدَني ربِّي حقّاً » ، فسمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ يسمعونَ ، وأنَّىٰ يجيبونَ وقدْ جَيَّفوا ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما أنتمْ بأسمعَ لكلامي منهُمْ ، ولكنَّهُمْ لا يقدرونَ أنْ يجيبوا » ، والحديثُ في « الصحيحِ »[2]، هـٰذا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في المشركينَ .

وأمَّا المؤمنونَ والشهداءُ . . فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرواحُهُمْ في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ معلَّقةٍ تحتَ العرشِ »[3] ، وهـٰذهِ الحالةُ وما أشيرَ بهـٰذهِ الألفاظِ إليهِ لا ينافي ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآيةَ ، ولأجلِ شرفِ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ عظمَتْ رتبةُ الشهادةِ ؛ لأنَّ المطلوبَ الخاتمةُ ، ونعني بالخاتمةِ : وداعَ الدنيا والقدومَ على اللهِ عزَّ وجلَّ والقلبُ مستغرقٌ باللهِ تباركَ وتعالىٰ منقطعُ العلائقِ عنْ غيرِهِ ، فإنْ قدرَ عبدٌ

(١) رواه مسلم (١٨٨٧) ، وعند أبي داوود (٢٥٢٠) بنحوه مصرحاً برفعه في شهداء أحد .
(٢) أي : في « صحيح مسلم » (٢٨٧٥) ، وجَيَّفوا : أنتنوا .
(٣) رواه ابن ماجه (١٤٤٩) في أرواح المؤمنين خاصة ، والذي سبق في أرواح الشهداء .

علىٰ أنْ يجعلَ همَّهُ مستغرقاً باللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يقدرُ علىٰ أنْ يموتَ علىٰ تلكَ الحالةِ إلاَّ في صفِّ القتالِ ؛ فإنَّهُ قطعَ الطمعَ عنْ مهجتِهِ وأهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ ، بلْ مِنَ الدنيا كلِّها ، فإنَّهُ يريدُ ذلكَ لحياتِهِ ، وقدْ هوَّنَ علىٰ قلبِهِ حياتَهُ في حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ وطلبِ مرضاتِهِ ، فلا تجرُّدَ للهِ تعالىٰ أعظمُ مِنْ ذلكَ ، ولذلكَ عظُمَ أمرُ الشهادةِ ، ووردَ فيهِ مِنَ الفضائلِ ما لا يحصىٰ ، فمِنْ ذلكَ : أنَّهُ لمَّا استشهدَ عبدُ اللهِ بن عمرٍو الأنصاريُّ يومَ أحدٍ . . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجابرٍ ابنِهِ : « ألا أبشِّرُكَ يا جابرُ ؟ » قالَ : بلىٰ بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ ، قالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أحيا أباكَ ، فأقعدَهُ بينَ يديهِ وليسَ بينَهُ وبينَهُ سترٌ ، فقالَ تعالىٰ : تمنَّ عليَّ يا عبدي ما شئتَ أعطيكَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أن تردَّني إلى الدنيا حتَّىٰ أقتلَ فيكَ وفي نبيِّكَ مرَّةً أخرىٰ ، فقالَ تعالىٰ : سبقَ القضاءُ منِّي بأنَّهُمْ إليها لا يرجعونَ »(١) .

ثمَّ القتلُ سببُ الخاتمةِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ ، فإنَّهُ لوْ لمْ يقتلْ وبقيَ مدَّةً . . ربما عادَتْ شهواتُ الدنيا وغلبَتْ ما استولىٰ علىٰ قلبهِ مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولهـٰذا عظُمَ خوفُ أهلِ المعرفةِ مِنَ الخاتمةِ ، فإنَّ القلْبَ وإنْ ألزمَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ متقلِّبٌ ، لا يخلو عنِ الالتفاتِ إلىٰ شهواتِ الدنيا ، ولا ينفكُّ عنْ فترةٍ تعتريهِ ، فإذا تمثَّلَ في آخرِ الحالِ في قلبهِ أمرٌ مِنَ الدنيا واستولىٰ عليهِ وارتحلَ عنِ الدنيا والحالةُ هـٰذهِ . . فيوشكُ أنْ يبقى استيلاؤُهُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) ، وقوله : « وفي نبيك » عند ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٣) .

عليهِ ، فيحيا بعدَ الموتِ علىٰ ذلكَ ، ويتمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا ، وذلكَ لقلَّةِ حظِّهِ في الآخرةِ ؛ إذْ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما ماتَ عليهِ .

وأسلمُ الأحوالِ عنْ هـٰذا الخطرِ خاتمةُ الشهادةِ إذا لمْ يكنْ قصدُ الشهيدِ نيلَ مالٍ ، أوْ أنْ يقالَ : شجاعٌ ، أوْ غيرَ ذلكَ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ(١) ، بلْ حبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ وإعلاءَ كلمتِهِ ، فهـٰذهِ الحالةُ هيَ التي عبَّرَ عنها بأنَّ اللهَ اشترىٰ مِنَ المؤمنينَ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجنَّةَ ، ومثلُ هـٰذا الشخصِ هوَ البائعُ للدنيا بالآخرةِ .

وحالةُ الشهيدِ توافقُ معنىٰ قولِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ فإنَّهُ لا مقصودَ لهُ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ولا معبودَ لهُ سواهُ ، وكلُّ مقصودٍ معبودٌ ، وكلُّ معبودٍ إلـٰهٌ ، فهـٰذا الشهيدُ قائلٌ بلسانِ حالِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ إذْ لا مقصودَ لهُ سواه ، ومَنْ يقولُ ذلكَ بلسانِهِ ولمْ يساعدْهُ حالُهُ . . فأمرُهُ في مشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يُؤمنُ في حقِّهِ الخطرُ .

---

(١) ففي « البخاري » (٢٨١٠) ، و« مسلم » (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجلُ يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرىٰ مكانُهُ ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله » .
وفي « مسلم » (١٩٠٥) : « إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار » الحديث .

ولذلكَ فضَّلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) علىٰ سائرِ الأذكارِ(١) ، وذكرَ ذلكَ مطلقاً في مواضعِ الترغيبِ ، ثمَّ ذكرَ في بعضِ المواضعِ الصدقَ والإخلاصَ ، فقالَ مرَّةً : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً »(٢) ومعنى الإخلاصِ : مساعدةُ الحالِ للمقالِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا في الخاتمةِ مِنْ أهلِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) حالاً ومقالاً ، وظاهراً وباطناً ، حتَّىٰ نودِّعَ الدنيا غيرَ ملتفتينَ إليها ، بلْ متبرِّمينَ بها ، ومحبِّينَ للقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ تعالىٰ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ لقاءَهُ(٣) .

فهـٰذهِ مرامزُ إلىٰ معاني الذكرِ ، لا يمكنُ الزيادةُ عليها في علْمِ المعاملةِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) كما روى ذلك الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .

(٢) فقيّدها هـٰهنا بالإخلاص ، وهو مروي عند الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥٤) .

(٣) كما روىٰ ذلك البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) ، وسيأتي للمصنف في آخر الكتاب .

الباب الثاني
في آداب الدعاء، وفضله، وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفضيلة الاستغفار

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وروى النعمانُ بنُ بشيرٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الدعاءَ هوَ العبادةُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ مخُّ العبادةِ »(٢) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٧٩) ، والترمذي (٢٩٦٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٠٠) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧١) ، وإنما كان مخاً لها لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أمله =

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ليسَ شيءٌ أكرمَ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الدعاءِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ لا يخطئُهُ مِنَ الدعاءِ إحدىٰ ثلاثٍ : إمَّا ذنبٌ يُغفرُ لهُ ، وإمَّا خيرٌ يُعجَّلُ لهُ ، وإمَّا خيرٌ يُدَّخرُ لهُ »[2] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (يكفي مِنَ الدعاءِ معَ البرِّ ما يكفي معَ الطعامِ مِنَ الملحِ)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سلوا اللهَ تعالىٰ مِنْ فضلِهِ ، فإنَّهُ تعالىٰ يُحِبُّ أنْ يُسألَ ، وأفضلُ العبادةِ انتظارُ الفرجِ »[4] .

= مما سواه ، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ، ولا عبادة فوقهما ، أو لما فيه من إظهار الافتقار والتبري من الحول والقوة ، وهو سمة العبودية واستشعار البشرية . « إتحاف » (٥/ ٢٩) .

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٠) ، وابن ماجه (٣٨٢٩) .

(٢) هو بلفظ المصنف عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٤٩) ، وبنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٤) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٣/ ١٨) بلفظ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم .. إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاثٍ : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » ، قالوا : إذاً نكثر ، قال : « الله أكثر » .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٧١) .

آداب الدعاء وهي عشرة

الأوّلُ : أنْ يترصَّدَ لدعائِهِ الأوقاتَ الشريفةَ :

كيومِ عرفةَ مِنَ السنةِ ، ورمضانَ مِنَ الشهورِ ، ويومِ الجمعةِ مِنَ الأسبوعِ ، ووقتِ السحرِ مِنْ ساعاتِ الليلِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينزلُ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا حينَ يبقىٰ ثلثُ الليلِ الأخيرُ ، فيقولُ عزَّ وجلَّ : مَنْ يدعوني فأستجيبَ لهُ ؟ مَنْ يسألني فأعطيَهُ ؟ مَنْ يستغفرُني فأغفرَ لهُ ؟ »(١) .

وقيلَ : إنَّ يعقوبَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ إنَّما قالَ لبنيهِ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ ليدعوَ في وقتِ السحرِ ، فقيلَ : إنَّهُ قامَ وقتَ السحرِ يدعو وأولادُهُ يؤمِّنونَ خلفَهُ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ وجعلتُهُمْ أنبياءَ(٢) .

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(٢) تأخيره الدعاء عليه السلام إلىٰ وقت السحر عند الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٨٣) ، وتأخيره الدعاء إلىٰ ليلة الجمعة جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٧٠) ، وانظر « الدر المنثور » (٤/ ٥٨٥) .

الثاني : أنْ يغتنمَ الأحوالَ الشريفةَ :

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أبوابَ السماءِ تُفتَّحُ عندَ زحْفِ الصفوفِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، وعندَ نزولِ الغيثِ ، وعندَ إقامةِ الصلواتِ المكتوبةِ ؛ فاغتنموا الدعاءَ فيها)(١) .

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ الصلاةَ جُعلَتْ في خيرِ الساعاتِ ، فعليكُمْ بالدعاءِ خلفَ الصلواتِ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ بينَ الأذانِ والإقامةِ لا يردُّ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « الصائمُ لا تردُّ دعوتُهُ »(٤) .

وبالحقيقةِ : يرجعُ شرفُ الأوقاتِ إلىٰ شرفِ الحالاتِ أيضاً ؛ إذْ وقتُ السحرِ وقتُ صفاءِ القلبِ وإخلاصِهِ ، وفراغِهِ مِنَ المشوشاتِ ، ويومُ عرفةَ ويومُ الجمعةِ وقتُ اجتماعِ الهمَمِ وتعاونِ القلوبِ على استدرارِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهـٰذا أحدُ أسبابِ شرفِ الأوقاتِ سوىٰ ما فيها مِنْ أسرارٍ لا يطلعُ البشرُ عليها .

---

(١) بنحوه عند الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٧١) مرفوعاً من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) روى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨١٧) عن أنس رضي الله عنه : (إذا أقيمت الصلاة . . فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء) .

(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨١٢) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٧٧) .

وحالةُ السجودِ أيضاً جديرةٌ بالإجابةِ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وهوَ ساجدٌ ، فأكثروا مِنَ الدعاءِ »(١) .

وروى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنِّي نهيتُ أنْ أقرأَ القرآنَ راكعاً أَوْ ساجداً ، فأمَّا الركوعُ . . فعظِّموا فيهِ الربَّ تباركَ وتعالىٰ ، وأمَّا السجودُ . . فاجتهدُوا فيهِ بالدعاءِ ؛ فإنَّهُ قمنٌ أنْ يستجابَ لكُمْ »(٢) .

* * *

الثالثُ : أنْ يدعوَ مستقبلَ القبلةِ ، ويرفعَ يديهِ بحيثُ يُرىٰ بياضُ إبْطيهِ :

روىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتى الموقفَ بعرفةَ واستقبلَ القبلةَ ، ولمْ يزلْ يدعو حتَّىٰ غربتِ الشمسُ)(٣) .

وقالَ سلمانُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ ربَّكُمْ حييٌّ كريمٌ يستحيي مِنْ عبدِهِ إذا رفعَ يديهِ إليهِ أنْ يردَّهُما صفراً »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) .
(٢) رواه مسلم (٤٧٩) .
(٣) قطعة من حديث طويل رواه مسلم (١٢١٨) ، وفيه : (فلم يزل واقفاً حتىٰ غربت الشمس) ، وعند النسائي من حديث أسامة رضي الله عنه (٥/ ٢٥٤) : (فرفع يديه يدعو) .
(٤) رواه أبو داوود (١٤٨٨) ، والترمذي (٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) .

وروىٰ أنسٌ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يرفعُ يديهِ حتَّىٰ يُرىٰ بياضُ إبْطيهِ في الدعاءِ ، ولا يشيرُ بإصبعيهِ)[١] .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ إنسانٍ يدعو ويشير بإصبعيه السبابتينِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحِّدْ أحِّدْ »[٢] ؛ أيِ : اقتصرْ على الواحدةِ .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ارفعوا هـٰذهِ الأيديَ قبلَ أنْ تُغلَّ بالأغلالِ)[٣] .

ثمَّ ينبغي أنْ يمسحَ بهما وجهَهُ في آخرِ الدعاءِ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا مدَّ يديهِ في الدعاءِ . . لمْ يردَّهُما حتَّىٰ يمسحَ بهما وجهَهُ)[٤] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا دعا . . ضمَّ كفيهِ وجعلَ بطونَهُما ممَّا يلي وجهَهُ)[٥] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٣١) في الاستسقاء ، ومسلم (٨٩٥) عاماً .
(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٧) ، والنسائي (٣/ ٣٨) .
(٣) رواه الفريابي في « الذكر » . « إتحاف » (٥/ ٣٤) .
(٤) رواه الترمذي (٣٣٨٦) .
(٥) بنحوه عند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٦) عن ابن عباس مرفوعاً : « إذا سألتم الله . . فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورهما ، وامسحوا بها وجوهكم » ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٣) من حديث أنس قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو رافعاً يديه باطنهما مما يلي وجهه) .

فهٰذهِ هيئاتُ اليدِ .

ولا يرفعُ بصرَهُ إلى السماءِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لينتهينَّ أقوامٌ عنْ رفعِ أبصارِهِمْ إلى السماءِ عندَ الدعاءِ أَوْ لتخطفَنَّ أبصارُهُمْ »(١) .

* * *

الرابعُ : خفضُ الصوتِ بينَ المخافتةِ والجهرِ :

لما رُوِيَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ قالَ : قدمْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا دنونا مِنَ المدينةِ . كبَّرَ وكبَّرَ الناسُ ورفعوا أصواتَهُمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ الذي تدعونَ ليسَ بأصمَّ ولا غائبٍ ، إنَّ الذي تدعونَ بينَكُمْ وبينَ أعناقِ ركابِكُمْ »(٢) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أيْ : بدعائِكَ(٣) .

وقدْ أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ نبيِّهِ زكريا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ .

* * *

(١) رواه مسلم (٤٢٩) وقال : « عند الدعاء في الصلاة » . انظر « الإتحاف » (٥/ ٣٤) .
(٢) رواه أبو داوود (١٥٢٦) ، والترمذي (٣٣٧٤) ، وأصله في « الصحيحين » .
(٣) رواه البخاري (٦٣٢٧) ، ومسلم (٤٤٧) .

الخامسُ : ألاَّ يتكلَّفَ السجعَ في الدعاءِ :

فإنَّ حالَ الداعي ينبغي أنْ يكونَ حالَ متضرعٍ ، والتكلُّفُ لا يناسبُهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدعاءِ »[١] .

وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ قيلَ : معناهُ : التكلُّفُ للأسجاعِ[٢] ، والأَولىٰ : ألاَّ يجاوزَ الدعواتِ المأثورةَ ؛ فإنَّهُ إذا جاوزَها . . ربما اعتدىٰ في دعائِهِ ، فيسألُ ما لا تقتضيهِ مصلحتُهُ ، فما كلُّ أحدٍ يحسنُ الدعاءَ ؛ ولذلكَ وردَ في الخبرِ والأثرِ : أنَّ العلماءَ يُحتاجُ إليهِمْ في الجنَّةِ ؛ إذ يقالُ لأهلِ الجنَّةِ : تمنَّوْا ، فلا يدرونَ كيفَ يتمنَّونَ حتَّىٰ يتعلَّموا مِنَ العلماءِ[٣] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكمْ والسجعَ في الدعاءِ ، بحسْبِ أحدِكُمْ أنْ يقولَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ،

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٨٠) .

(٢) **السَّجع** : ائتلاف أواخر الكلم علىٰ نسق كائتلاف القوافي ، والجمع : أسجاع ، وتقدم الحديث الذي رواه البخاري (٦٣٣٧) عن ابن عباس حيث قال : (فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ؛ فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك) يعني : إلا ذلك الاجتناب .

(٣) كذا رُوي مرفوعاً من حديث جابر رضي الله عنه ، رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٥٠) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٠) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٣٧) .

وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ »[1] .

وفي الخبرِ : « سيأتي قومٌ يعتدونَ في الدعاءِ والطهورِ »[2] .

ومرَّ بعضُ السلفِ بقاصٍّ يدعو بسجعٍ ، فقالَ لهُ : أعلى اللهِ تبالغُ ؟! أشهدُ لقدْ رأيتُ حبيباً العجميَّ يدعو وما يزيدُ علىٰ قوله : اللهمَّ ؛ اجعلنا جيِّدينَ ، اللهمَّ ؛ لا تفضحْنا يومَ القيامةِ ، اللهمَّ ؛ وفقنا للخيرِ ، والناسُ يدعون مِنْ كلِّ ناحيةٍ وراءَهُ ، وكانَ يُتعرَّفُ بركةُ دعائِهِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ادعُ بلسانِ الذلَّةِ والافتقارِ ، لا بلسانِ الفصاحةِ والانطلاقِ)[4] .

ويقالُ : إنَّ العلماءَ والأبدالَ لا يزيدُ أحدُهُمْ في الدعاءِ علىٰ سبعِ كلماتٍ فما دونَها ، ويشهدُ لهُ آخرُ (سورةِ البقرةِ) ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يخبرْ في موضعٍ مِنْ أدعيةِ عبادِهِ أكثرَ مِنْ ذلكَ[5] .

واعلمْ : أنَّ المرادَ بالسجعِ هوَ المتكلَّفُ مِنَ الكلامِ ، فإنَّ ذلكَ لا يلائمُ

---

(1) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٦٥) ، وتقدم بمعناه تعليقاً قبيل ؛ أعني حديث ابن عباس السالف الذكر ، وقد روىٰ بشأن الدعاء المذكور أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (ص٢١٩) ، وابن ماجه (٣٨٤٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٢١) واللفظ له مرفوعاً .

(2) رواه أبو داوود (٩٦) .

(3) قوت القلوب (١/ ١٦٥) .

(4) قوت القلوب (١/ ١٦٥) .

(5) قوت القلوب (١/ ١٦٥) ، وهو المستنبط للدليل .

الضراعةَ والذلّةَ ؛ وإلا . . ففي الأدعيةِ المأثورةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلماتٌ متوازنةٌ ، لكنَّها غيرُ متكلَّفةٍ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ ، معَ المقرَّبينَ الشهودِ ، والركَّعِ السجودِ ، المُوفينَ بالعهودِ ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ ، وأنتَ تفعلُ ما تريدُ »(١) ، وأمثالِ ذلكَ .

فليقتصرْ على المأثورِ مِنَ الدعواتِ ، أوْ ليلتمسْ بلسانِ التضرُّعِ والخشوعِ مِنْ غيرِ سجْعٍ وتكلُّفٍ ، فالتضرُّعُ هوَ المحبوبُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

السادسُ : التضرُّعُ والخشوعُ والرغبةُ والرهبةُ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ حتَّىٰ يسمعَ تضرُّعَهُ »(٢) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤١٩) ضمن حديث طويل من دعائه صلى الله عليه وسلم .
(٢) رواه هناد في « الزهد » (٤٠٥) ، والشاشي في « مسنده » (٦١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٣١) ، وفي « البخاري » (٥٦٤٥) مرفوعاً : « من يرد الله به خيراً . . يصب منه » .

السابعُ : أنْ يجزمَ الدعاءَ ، ويوقنَ بالإجابةِ ، ويصدقَ رجاؤُهُ فيهِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقلْ أحدُكُمْ إذا دعا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي إنْ شئتَ ، اللهمَّ ؛ ارحمني إنْ شئتَ ، ليعزمِ المسألةَ ؛ فإنَّهُ لا مُكرهَ لهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دعا أحدُكُمْ .. فليعظمِ الرغبةَ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ادعوا اللهَ وأنتمْ موقنونَ بالإجابةِ ، واعلموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يستجيبُ دعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ »[٣] .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (لا يمنعنَّ أحدَكُمْ مِنَ الدعاءِ ما يعلمُ مِنْ نفسِهِ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أجابَ دعاءَ شرِّ الخلقِ إبليسَ إذْ قالَ : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾)[٤] .

* * *

الثامنُ : أنْ يلحَّ في الدعاءِ ، ويكرِّرَهُ ثلاثاً :

قالَ ابنُ مسعودٍ : (كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إذا دعا .. دعا ثلاثاً ، وإذا سألَ .. سألَ ثلاثاً)[٥] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩) ، ومسلم (٢٦٧٩) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٧٩) .
(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٠٧) .
(٥) رواه مسلم (١٧٩٤) .

وينبغي ألاَّ يستبطئَ الإجابةَ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يستجابُ لأحدِكُمْ ما لَمْ يعجلْ فيقولَ : دعوتُ فلَمْ يستجبْ لي »(١) .

فإذا دعوتَ . . فاسْألِ اللهَ كثيراً ؛ فإنَّكَ تدعو كريماً .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ منذُ عشرينَ سنةً حاجةً وما أجابني ، وأنا أرجو الإجابةَ ، سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يوفقَني لتركِ ما لا يعنيني)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سألَ أحدُكُمْ ربَّهُ مسألةً ، فتعرَّفَ الإجابةَ . . فليقلْ : الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، ومَنْ أبطأَ عنهُ مِنْ ذلكَ شيءٌ . . فليقلْ : الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ »(٣) .

التاسعُ : أنْ يفتتحَ الدعاءَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

فلا يبدأُ بالسؤالِ ، قالَ سلمةُ بنُ الأكوعِ : ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) .

(٢) هو مؤرق العجلي رحمه الله تعالىٰ ، روىٰ هـٰذا الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٣٥) .

(٣) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص١٧١) ، وكان هـٰذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ابن ماجه (٣٨٠٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأىٰ ما يحبُّ . . قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ، وإذا رأىٰ ما يكره . . قال : « الحمد لله علىٰ كل حال » .

عليهِ وسلَّمَ يستفتحُ الدعاءَ إلا استفتحَهُ فقالَ : « سبحانَ ربِّيَ العليِّ الأعلى الوهَّابِ »[١] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أرادَ أنْ يسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجةً . . فليبدأْ بالصلاةِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يسألُهُ حاجتَهُ ، ثمَّ يختمُ بالصلاةِ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقبلُ الصلاتينِ ، وهوَ أكرمُ مِنْ أنْ يدعَ ما بينَهما)[٢] .

ورُوِيَ في الخبرِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا سألتمُ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجةً . . فابدؤوا بالصلاةِ عليَّ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يُسألَ حاجتينِ فيقضيَ إحداهُما ويردَّ الأخرىٰ » ، رواهُ أبو طالبٍ المكِّيُّ رحمهُ اللهُ[٣] .

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٨) .

(٢) انظر « مطالع المسرات » (ص٣٦) ، وزاد تمام كلامه حيث قال : (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها مقبولة غير مردودة) .

(٣) أورده في « القوت » (١/ ٦) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما هو موقوف علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه) ، وروىٰ أبو داوود (١٤٨١) ، والترمذي (٣٤٧٧) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه يقول : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو في صلاته ، فلم يصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عَجِلَ هـٰذا » ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلىٰ أحدكم . . فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ليدع بما شاء » . انظر « الإتحاف » (٥/ ٤١) .
وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٢/ ٢١٥) مرفوعاً : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، =

العاشرُ ـ وهوَ الأدبُ الباطنُ ، وهوَ الأصلُ في الإجابةِ ـ : التوبةُ وردُّ المظالمِ والإقبالُ على اللهِ عزَّ وجلَّ بكنهِ الهمَّةِ :

فذلكَ هوَ السببُ القريبُ في الإجابةِ . يروىٰ عنْ كعبِ الأحبارِ رحمهُ اللهُ أنَّهُ قالَ : أصابَ الناسَ قحطٌ شديدٌ علىٰ عهدِ موسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ ، فخرجَ موسىٰ ببني إسرائيلَ ليستسقيَ بهِمْ فلمْ يسقوا ، حتَّىٰ خرجَ ثلاثَ مرَّاتٍ ولمْ يسقَوا ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : أنِّي لا أستجيبُ لكَ ولا لمَنْ معكَ وفيكُمْ نمَّام ، فقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ومَنْ هوَ حتَّىٰ نخرجَهُ مِنْ بينِنا ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : يا موسىٰ ؛ أنهاكُمْ عنِ النميمةِ وأكونُ نماماً ؟! فقالَ موسىٰ لبني إسرائيلَ : توبوا إلىٰ ربِّكُمْ بأجمعِكُمْ منَ النميمةِ ، فتابوا ، فأرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهِمُ الغيثَ .

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : قحطَ الناسُ في زمنِ ملكٍ مِنْ ملوكِ بني إسرائيلَ ، فاستسقَوا ، فقالَ الملكُ لبني إسرائيلَ : ليرسلنَّ اللهُ تعالىٰ علينا السماءَ أوْ لنؤذينَّهُ ، فقيلَ لهُ : وكيفَ تقدرُ أنْ تؤذيَهُ وهوَ في السماءِ ؟ فقالَ : أقتلُ أولياءَهُ وأهلَ طاعتِهِ ، فيكونُ ذلكَ أذىً لهُ ، فأرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهِمُ السماءَ[1] .

= فإن الراكب إذا أراد أن ينطلق.. علق معالقه ، وملأ قدحاً ماءً ، فإن كانت له حاجة في أن يتوضأ.. توضأ ، وأن يشرب.. شرب ، وإلا.. أهراق ، فاجعلوني في وسط الدعاء ، وفي أوله ، وفي آخره » .

(١) دلّ ذلك علىٰ أن الإقبال على الله بكنه الهمة مما يوجب الإجابة، فإن هؤلاء الخاصة لما =

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : بلغني أنَّ بني إسرائيلَ قُحطوا سبعَ سنينَ حتَّىٰ أكلوا الميتةَ مِنَ المزابلِ ، وأكلوا الأطفالَ ، وكانوا كذلكَ يخرجونَ إلى الجبالِ يبكونَ ويتضرَّعونَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ أنبيائِهِمْ عليهمُ السلامُ : لوْ مشيتُمْ إليَّ بأقدامِكُمْ حتَّىٰ تحفىٰ ركبُكُمْ وتبلغَ أيديكُمْ عنانَ السماءِ ، وتكلَّ ألسنتُكُمْ عنِ الدعاءِ . . فإنِّي لا أجيبُ لكمْ داعياً ، ولا أرحمُ منكمْ باكياً ؛ حتَّىٰ تردُّوا المظالمَ إلىٰ أهلِها ، ففعلوا ، فمطروا منْ يومِهِمْ .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أصابَ الناسَ في بني إسرائيلَ قحطٌ ، فخرجوا مراراً ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نبيِّهِمْ : أنْ أخبرْهُمْ أنَّكُمْ تخرجونَ إليَّ بأبدانٍ نجسةٍ ، وترفعونَ إليَّ أكفاً قدْ سفكتُمْ بها الدماءَ ، وملأتُمْ بطونَكُمْ مِنَ الحرامِ ، الآنَ قدِ اشتدَّ غضبي عليكُمْ ، ولنْ تزدادوا منِّي إلا بعداً(١) .

وقالَ أبو الصدِّيق الناجي : خرجَ سليمانُ عليهِ السلامُ يستسقي ، فمرَّ بنملةٍ ملقاةٍ علىٰ ظهرِها رافعةٍ قوائمَها إلى السماءِ وهيَ تقولُ : اللهمَّ ؛ إنَّا خلقٌ مِنْ خلقِكَ ، ولا غنىٰ بنا عنْ رزقِكَ ، فلا تهلكْنا بذنوبِ غيرِنا ، فقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ارجعوا ، فقدْ سقيتُمْ بدعوةِ غيرِكُمْ(٢) .

وقالَ الأوزاعيُّ : خرجَ الناسُ يستسقونَ ، فقامَ فيهِمْ بلالُ بنُ سعدٍ ،

= سمعوا ذلك . . أقبلوا على الله بكليتهم ، فاستجيب لهم ، والخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٨٢) .

(١) رواه أبو داوود في « الزهد » (١٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠١).

فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا معشرَ مَنْ حضرَ ؛ ألستُمْ مقرِّينَ بالإساءةِ ، فقالوا : اللهمَّ نعمْ ، فقالَ : اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ سمعناكَ تقولُ : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ ، وقدْ أقررْنا بالإساءةِ ، فهلْ تكونُ مغفرتُكَ إلا لمثلِنا ، اللهمَّ ؛ فاغفرْ لنا ، وارحمْنا ، واسقِنا ، فرفعَ يديهِ ورفعوا أيديَهُمْ ، فسقوا[١] .

وقيلَ لمالكِ بنِ دينارٍ : ادعُ لنا ربَّكَ ، فقالَ : إنَّكُمْ تستبطئُونَ المطرَ وأنا أستبطئُ الحجارةَ[٢] .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ خرجَ يستسقي ، فلمَّا أصحروا . . قالَ لهُمْ عيسى عليهِ السلامُ : مَنْ أصابَ منكُمْ ذنباً . . فليرجعْ ، فرجعوا كلُّهُمْ ولمْ يبقَ معهُ في المفازةِ إلا رجلٌ واحدٌ ، فقالَ لهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ : أما لكَ مِنْ ذنبٍ ؟ فقالَ : واللهِ ما أعلمُ مِنْ شيءٍ غيرَ أنِّي كنتُ ذاتَ يومٍ أصلِّي ، فمرَّتْ بيَ امرأةٌ ، فنظرتُ إليها بعيني هـٰذهِ ، فلمَّا جاوزتْ . . أدخلتُ إصبعي في عيني فانتزعتُها ، وأتبعتُ المرأةَ بها ، فقالَ لهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ : فادعُ حتَّىٰ أؤمِّنَ علىٰ دعائِكَ ، قالَ : فدعا ، فتجلَّلَتِ السماءُ سحاباً ، ثمَّ صبَّتْ فسُقُوا[٣] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠٧٠١) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٩٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٢٥) .
(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٩٤) ، والطبراني في « الدعاء » (٩٦٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤١١) .

وقالَ يحيى الغسَّانيُّ : أصابَ الناسَ قحطٌ علىٰ عهْدِ داوودَ عليهِ السلامُ ، فاختاروا ثلاثةً مِنْ علمائِهِمْ ، فخرجوا يستسقونَ بهِمْ ، فقالَ أحدُهُمْ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ أنْ نعفوَ عمَّنْ ظلمَنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ ظلمْنا أنفسَنا فاعفُ عنَّا ، وقالَ الثاني : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ أنْ نعتقَ أرقَّاءَنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا أرقاؤُكَ فأعتقْنا ، وقالَ الثالثُ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ ألاَّ نردَّ المساكينَ إذا وقفوا بأبوابِنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا مساكينُكَ وقفْنا ببابِكَ فلا تردَّ دعاءَنا ، فسقوا[1] .

وقالَ عطاءٌ السَّليميُّ : مُنعنا الغيثَ ، فخرجْنا نستسقي ، فإذا نحنُ بسَعدونٍ المجنونِ في المقابرِ ، فنظرَ إليَّ وقالَ : يا عطاءُ ؛ أهـٰذا يومُ النشورِ ؟ أوَبعثرَ ما في القبورِ ؟! فقلتُ : لا ، ولكنَّا مُنعْنا الغيثَ ، فخرجْنا نستسقي ، فقالَ : يا عطاءُ ؛ بقلوبٍ أرضيَّةٍ أوْ بقلوبٍ سماويَّةٍ ؟ فقلتُ : بلْ بقلوبٍ سماويَّةٍ ، فقالَ : هيهاتَ يا عطاءُ ! قلْ للمتبهرجينَ : لا تتبهرجوا ؛ فإنَّ الناقدَ بصيرٌ ، ثمَّ رمقَ السماءَ بطرفِهِ وقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ومولايَ ؛ لا تهلكْ بلادَكَ بذنوبِ عبادِكَ ، ولكنْ بالسرِّ المكنونِ مِنْ أسمائِكَ وما وارتِ الحجبُ مِنْ آلائِكَ إلا ما سقيتَنا ماءً غدقاً فراتاً تحيي بهِ العبادَ ، وتُرْوي بهِ البلادَ ، يا مَنْ هوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، قالَ عطاءٌ : فما استتمَّ الكلامَ حتَّىٰ أرعدتِ السماءُ وأبرقَتْ ، وجاءَتْ بمطرٍ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (ص ١٣٩) عن سعيد بن سنان الحمصي .

كأفواهِ القِرَبِ ، فولَّىٰ وهوَ يقولُ[١] : [من الخفيف]

نَعِـمَ ٱلـزَّاهِـدُونَ وَٱلْعـابِـدُونـا إِذْ لِمَـوْلاهُـمُ أَجاعُـوا ٱلْبُطُـونـا

أَسْهَـرُوا ٱلأَعْيُـنَ ٱلْعَلِيلَـةَ حبّـاً فَٱنْقَضَىٰ لَيْلُهُمْ وَهُمْ ساهِرُونا

شَغَلَتْهُـمْ عِبـادَةُ ٱللهِ حَتَّـىٰ حسِبَ النَّاسُ أَنَّ فِيهِمْ جُنُونا

وقالَ ابنُ المباركِ : قدمتُ المدينةَ في عامٍ شديدِ القحْطِ ، فخرجَ الناسُ يستسقونَ وخرجتُ معَهُمْ ، إذْ أقبلَ غلامٌ أسودُ عليهِ قطعتا خَيْشٍ ، قدِ اتزرَ بإحداهُما وألقى الأخرىٰ علىٰ عاتقِهِ ، فجلسَ إلىٰ جنبي ، فسمعتُهُ يقولُ : إلٰهي ؛ أخلقتِ الوجوهَ عندَكَ كثرةُ الذنوبِ ومساويءُ الأعمالِ ، وقدْ حبستَ عنَّا غيثَ السماءِ لتؤدِّبَ عبادَكَ بذلكَ ، فأسألُكَ يا حليماً ذا أناةٍ ، يا مَنْ لا يعرفُ عبادُهُ منهُ إلا الجميلَ ؛ أنْ تسقيَهُمُ الساعةَ الساعةَ ، فلمْ يزلْ يقولُ : الساعةَ الساعةَ حتَّى اكتستِ السماءُ بالغمامِ ، وأقبلَ المطرُ مِنْ كلِّ مكانٍ ، قالَ ابنُ المباركِ : فجئتُ إلى الفضيلِ ، فقالَ : ما لي أراكَ كئيباً !

---

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص١١٤) ، والأبيات عنده :

أيـا مَـنْ كُلَّمـا نـودي أجـابـا ومَـنْ بجـلالِـهِ ينشي السحـابـا

ويـا مَـنْ كلَّـمَ الصديـقَ مـوسـى كـلامـاً ثـم ألهمَـهُ جـوابـا

ويـا مَـنْ ردَّ يـوسـفَ بعـد ضـرٍّ علىٰ مَنْ كـانَ ينتحبُ انتحابا

ويـا مَـنْ خـصَّ أحمـدَ بـاصطفـاءٍ وأعطـاهُ الـرسـالـةَ والكتـابـا

ثم قال : اسقنا .

والأبيات أعلاه رواها لواحد من عقلاء مجانينه وهو عليَّان (ص١٧٠) بنحوها أيضاً .

فقلتُ : سبقنا إليهِ غيرُنا ، فتولاهُ دونَنا ، وقصصتُ عليهِ القصَّةَ ، فصاحَ الفضيلُ وخرَّ مغشيّاً عليهِ[1] .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ استسقىٰ بالعبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ عمِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا فرغَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ دعائِهِ . . قالَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : اللهمَّ ؛ إنَّهُ لمْ ينزلْ بلاءٌ مِنَ السماءِ إلا بذنبٍ ، ولمْ يكشفْ إلا بتوبةٍ ، وقد توجَّهَ بيَ القومُ إليكَ لمكاني مِنْ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهـٰذهِ أيدينا إليكَ بالذنوبِ ونواصينا بالتوبةِ وأنتَ الراعي لا تهملُ الضالَّةَ ، ولا تدعُ الكسيرَ بدارِ مَضيعةٍ ، فقدْ ضرعَ الصغيرُ ، ورقَّ الكبيرُ ، وارتفعتِ الأصواتُ بالشكوىٰ ، وأنتَ تعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، اللهمَّ ؛ فأغثْهُمْ بغياثِكَ قبلَ أنْ يقنطوا فيهلِكوا ، فإنَّهُ لا ييئسُ مِنْ روحِ اللهِ إلا القومُ الكافرونَ ، قالَ : فما تمَّ كلامُهُ حتىٰ أرختِ السماءُ مثلَ الجبالِ[2] .

* * *

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٩٢) ، وابن الجوزي في « المنتظم » (٥/ ٢٧٠) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه بلفظه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٢٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/٣٥٨) ، وكان ذلك في عام الرمادة ، وأصل القصة عند البخاري (١٠١٠) عن أنس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا . . استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفضله صلّى الله عليه وسلّم

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَ ذاتَ يومٍ والبشرىٰ ترُىٰ في وجهِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ جاءَني جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ : أما ترضىٰ يا محمدُ ألاَّ يصليَ عليكَ أحدٌ مِنْ أمتِكَ صلاةً واحدةً إلا صليتُ عليهِ عشراً ، ولا يسلِّمَ عليكَ أحدٌ مِنْ أمتِكَ إلا سلمتُ عليهِ عشراً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ . . صلَّتْ عليهِ الملائكةُ ما صلَّىٰ عليَّ ، فليقلَّ عبدٌ مِنْ ذلكَ أوْ ليكثرْ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أولى الناسِ بي أكثرُهُمْ عليَّ صلاةً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسْبِ المؤمنِ مِنَ البخلِ أنْ أُذكرَ عندَهُ فلا يصلِّي عليَّ »(٤) .

---

(١) رواه النسائي (٣/ ٤٤) بنحوه.
(٢) رواه ابن ماجه (٩٠٧) .
(٣) رواه الترمذي (٤٨٤) ، ولفظه : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة » .
(٤) رواه الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٣٦) ، وهو عند =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنَ الصلاةِ عليَّ يومَ الجمعةِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ مِنْ أمَّتي . كُتبَتْ لهُ عشرُ حسناتٍ ، ومُحيَتْ عنهُ عشرُ سيئاتٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يسمعُ الأذانَ والإقامةَ : اللهمَّ ، ربَّ هـٰذهِ الدعوةِ التامَّةِ والصلاةِ القائمةِ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدكَ ورسولِكَ ، وأعطِهِ الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ الرفيعةَ والشفاعةَ يومَ القيامةِ . . حلَّتْ لهُ شفاعتي »(٣) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ في كتابٍ . . لمْ تزلِ الملائكةُ تستغفرُ لهُ ما دامَ اسمي في ذلكَ الكتابِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الأرضِ ملائكةً سياحينَ يبلِّغوني عنْ أمَّتي السلامَ »(٥) .

= الترمذي (٣٥٤٦) بلفظ : « البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ » .

(١) رواه أبو داوود (١٠٤٧) ، والنسائي (٣/ ٩١) ، وابن ماجه (١٦٣٧) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨٠٩) وفيه زيادة .

(٣) رواه البخاري (٦١٤) دون ذكر الإقامة ، وللطبراني في « الأوسط » (١٩٦) : « من قال حين ينادي المنادي بالصلاة : اللهم رب هـٰذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ؛ صلِّ علىٰ محمد وارضَ عني رضاء لا سخط بعده . . استجاب الله عز وجل له » .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٦) ، والخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (ص٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٨٠) .

(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٩١٤) ، والنسائي (٣/ ٤٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ أحدٌ يسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتَّىٰ أردَّ عليهِ السلامَ »(١) .

وقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ نصلِّي عليكَ ؟ فقالَ : « قولوا : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ كما صلَّيتَ علىٰ إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ ، وباركْ علىٰ محمدٍ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ سُمِعَ بعدَ موتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي ويقولُ :

(بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ كانَ جِذْعٌ تخطبُ الناسَ عليهِ ، فلمَّا كثرَ الناسُ . اتخذتَ منبراً لتسمعَهُمْ ، فحنَّ الجذعُ لفراقِكَ حتَّىٰ جعلتَ يدكَ عليهِ فسكنَ ، فأمَّتُكَ كانتْ أولىٰ بالحنينِ إليكَ لمَّا فارقتَهُمْ(٣) .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنْ جعلَ طاعتَكَ طاعتَهُ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنْ أخبرَكَ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٠٤١) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) ، ولفظه : « اللهمَّ ؛ صل علىٰ محمد وأزواجه وذريته كما صليت علىٰ آل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد وأزواجه وذريته كما باركت علىٰ آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

(٣) حديث حنين الجذع عند البخاري (٩١٨ ، ٣٥٨٣) .

بالعفوِ عنكَ قبلَ أنْ يخبرَكَ بالذنبِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِك عندَهُ أنْ بعثَكَ آخرَ الأنبياءِ وذكرَكَ في أوَّلِهِمْ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ . . . ﴾ الآيةَ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنَّ أهلَ النارِ يودُّونَ أنَّهُمْ قدْ أطاعوكَ وهمْ بينَ أطباقِها يعذَّبونَ ، ﴿ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ موسىٰ بنُ عمرانَ أعطاهُ اللهُ حجراً تتفجَّرُ منهُ الأنهارُ . . فما ذلكَ بأعجبَ مِنْ أصابعِكَ حينَ نبعَ منها الماءُ صلَّى اللهُ عليكَ(١) .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ سليمانُ بنُ داودَ أعطاهُ اللهُ الريحَ غدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ . . فما ذلكَ بأعجبَ مِنَ البراقِ حينَ سريتَ عليهِ إلى السماءِ السابعةِ ، ثمَّ صليتَ الصبحَ مِنْ ليلتِكَ بالأبطحِ صلَّى اللهُ عليكَ(٢) .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ عيسى ابنُ مريمَ أعطاهُ اللهُ إحياءَ

---

(١) حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم عند البخاري (١٦٩) ، ومسلم (٢٢٧٩) .

(٢) حديث الإسراء والمعراج عند البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) دون ذكر الصلاة بالأبطح .

الموتىٰ . . فما ذلكَ بأعجبَ مِنَ الشاةِ المسمومةِ حينَ كلَّمَتْكَ وهيَ مشويَّةٌ فقالتْ لكَ الذراعُ : لا تأكلني ؛ فإنِّي مسمومةٌ[1] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ دعا نوحٌ علىٰ قومِهِ فقالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، ولوْ دعوتَ علينا مثلَها . . لهلكْنا كلُّنا ، فلقدْ وُطِىءَ ظهرُكَ وأُدميَ وجهُكَ وكُسِرَتْ رَباعيتُكَ[2] ، فأبيتَ أنْ تقولَ إلا خيراً ، فقلتَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لقومي فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »[3] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدِ اتبعَكَ في قلَّةِ سنِّكَ وقصرِ عمرِكَ ما لمْ يتبعْ نوحاً في كثرةِ سنِّهِ وطولِ عمرِهِ ، ولقدْ آمنَ بكَ الكثيرُ وما آمنَ معهُ إلا قليلٌ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ؛ لوْ لمْ تجالسْ إلا كفؤاً لكَ . . ما جالستَنا، ولوْ لمْ تنكحْ إلا كفؤاً لكَ . . ما نكحتَ إلينا، ولوْ لمْ تؤاكلْ إلا كفؤاً لكَ . . ما واكلتنا، فلقدْ ـ واللهِ ـ جالستَنا، ونكحتَ إلينا، وواكلتنا، ولبستَ الصوفَ[4]،

---

(١) حديث الشاة المسمومة عند البخاري (٢٦١٧) ، ومسلم (٢١٩٠) .

(٢) وكان ذلك في غزوة أحد كما في « البخاري » (٢٩٠٣) ، ومسلم (١٧٩٠) .

(٣) كنىٰ عن نفسه صلى الله عليه وسلم بذلك كما في «البخاري» (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٤) لبسه صلى الله عليه وسلم الصوف عند البخاري (٥٧٩٩) ، ومسلم (٢٧٤) ، وروى الترمذي (٢٤٧٩) عن أبي موسى الأشعري قال : (يا بنيَّ ؛ لو رأيتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصابتنا السماء . . لحسبت أن ريحنا ريح الضأن) ، قال الترمذي : ومعنىٰ هـٰذا الحديث : أنه كان ثيابهم الصوف ، فإذا أصابهم المطر . . يجيء من ثيابهم ريح لضأن .

وركبتَ الحمارَ ، وأردفتَ خلفَكَ[١] ، ووضعتَ طعامَكَ على الأرضِ[٢] ، ولعقتَ أصابعَكَ تواضعاً منكَ[٣] ، صلَّى اللهُ عليكَ)[٤] .

وقالَ بعضُهُمْ : كنتُ أكتبُ الحديثَ وأصلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ ولا أسلِّمُ ، فرأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : أمَا تتمُّ الصلاةَ عليَّ في كتابِكَ ؟ فما كتبتُ بعدَ ذلكَ إلا صلَّيتُ وسلَّمْتُ عليهِ[٥] .

ورُوِيَ عنْ أبي الحسنِ الشافعيِّ قالَ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بمَ جُزِيَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ عنكَ حيثُ يقولُ في كتابِهِ « الرسالةِ » : (وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ كلَّما ذكرَهُ الذاكرونَ وغفلَ عنْ ذكرِهِ الغافلونَ) ؟[٦] فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جُزِيَ عنِّي أنَّهُ لا يوقفُ للحسابِ[٧] .

* * *

---

(١) كما في « البخاري » (٢٩٨٧) ، و« مسلم » (١٧٩٨) .

(٢) فقد روى البخاري (٥٣٨٦) أنه صلى الله عليه وسلم ما أكل علىٰ خوان قط .

(٣) كما في « مسلم » (٢٠٣٤) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (هو غريب بطوله من حديث عمر ، وهو معروف من أوجه) ، وحكىٰ تخريج قطعه . « إتحاف » (٥/ ٥٣) .

(٥) رواه الحافظ السلفي في « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » (٢٨) .

(٦) الرسالة (ص١٦) .

(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤٣٦) .

فضيلة الاستغفار

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

وقالَ علقمةُ والأسودُ : قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ آيتانِ ما أذنبَ عبدٌ ذنباً فقرأهما ، واستغفرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا غفرَ اللهُ لهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآيةَ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾)[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ أنْ يقولَ : « سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أكثرَ الاستغفارَ . . جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ مِنْ كلِّ همٍّ فرجاً ، ومِنْ كلِّ ضيقٍ مخرجاً ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[3] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠١٣٧) من طريق علقمة والأسود النخعيين .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤١٠) ، وهو في « الصحيحين » في أذكار الركوع والسجود دون قوله : « إنك أنت التواب الرحيم » .

(٣) رواه أبو داوود (١٥١٨)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (١٠٢١٧)، وابن ماجه (٣٨١٩).

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ سبحانَهُ وأتوبُ إليهِ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »(١) ، هـٰذا معَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليغانُ علىٰ قلبي ، حتَّىٰ إنِّي لأستغفرُ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يأوي إلىٰ فراشِهِ : أستغفرُ اللهَ العظيمَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليهِ ثلاثَ مرَّاتٍ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنوبَهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ أوْ عددَ رملِ عالجٍ أوْ عددَ ورقِ الشجرِ أوْ عددَ أيامِ الدنيا »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ آخرَ : « مَنْ قالَ ذلكَ . . غُفِرَتْ ذنوبُهُ وإنْ كانَ فارّاً مِنَ الزحفِ »(٥) .

وقالَ حذيفةُ : كنتُ ذربَ اللسانِ علىٰ أهلي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ خشيتُ أنْ يُدخلَني لساني النارَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧) بزيادة : (أكثر) ، وبلفظ المصنف هو عند الترمذي (٣٢٥٩) ، وابن ماجه (٣٨١٦) .

(٢) فهو من باب الترقي ، أو الاعتراف بما عسىٰ حصل له من التقصير في رؤية الأعمال والالتفات . « إتحاف » (٥/ ٥٧) .

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، **والغين** : التغطية .

(٤) رواه الترمذي (٣٣٩٧) .

(٥) رواه أبو داوود (١٥١٧) ، والترمذي (٣٥٧٧) .

« فأينَ أنتَ مِنَ الاستغفارِ ، فإنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ »(١) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ . . فاستغفري اللهَ وتوبي إليهِ ؛ فإنَّ التوبةَ مِنَ الذنبِ الندمُ والاستغفارُ »(٢) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في الاستغفارِ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لي خطيئتي وجهْلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي جدِّي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكلُّ ذلكَ عندي ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، أنتَ المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ »(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ رجلاً إذا سمعتُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حديثاً . . نفعَني اللهُ عزَّ وجلَّ بما شاءَ أنْ ينفعَني منهُ ، وإذا حدَّثني أحدٌ مِنْ أصحابِهِ . . استحلفتُهُ ، فإذا حلفَ . . صدقتُهُ ، قالَ : وحدَّثني أبو بكرٍ وصدقَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنْ عبدٍ يذنبُ ذنباً ، فيحسنُ الطهورَ ، ثمَّ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٠) .

(٢) هو قطعة من حديث براءتها رضي الله تعالىٰ عنها ، وهو عند البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ، والحديث بتمامه وبلفظ المصنف رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٦٤) .

(٣) رواه البخاري (٦٣٩٨) ، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له .

يقومُ فيصلِّي ركعتينِ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا غفرَ اللهُ لهُ » ثمَّ تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

ورَوىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنباً . . كانتْ نكتةٌ سوداءُ في قلبِهِ ، فإنْ تابَ ونزعَ واستغفرَ . . صُقِلَ قلبُهُ منها ، فإنْ زادَ . . زادَتْ حتَّىٰ تعلوَ قلبَهُ ، فذلكَ الرانُ الذي ذكرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ : ﴿ كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ »[2] .

ورَوىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ اللهَ سبحانَهُ ليرفعُ الدرجةَ للعبدِ في الجنَّةِ ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ أنَّىٰ لي هٰذهِ ؟ فيقولُ عزَّ وجلَّ : باستغفارِ ولدِكَ لكَ »[3] .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الذين إذا أحسنوا . . استبشروا ، وإذا أساؤوا . . استغفروا »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أذنبَ العبدُ ذنباً فقالَ : اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي . . فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أذنبَ عبدي ذنباً ، فعلمَ أَنَّ لهُ ربّاً يأخذُ بالذنبِ ويغفرُ الذنبَ ، عبدي ؛ اعملْ ما شئتَ ، فقدْ غفرتُ لكَ »[5] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٢١) ، والترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠١٧٥) ، وابن ماجه (١٣٩٥) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٦٦٠) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٥٠٩) .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٨٢٠) .

(٥) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) ويكون ذلك بعد ثلاث مرار .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصرَّ مَنِ استغفرَ وإنْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً لمْ يعملْ خيراً قطُّ نظرَ إلى السماءِ فقالَ : إنَّ لي ربّاً ، يا ربِّ ؛ اغفرْ لي ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : قدْ غفرتُ لكَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أذنبَ ذنباً ، فعلمَ أنَّ اللهَ قدِ اطلعَ عليهِ . . غفرَ لهُ وإنْ لمْ يستغفرْ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا عبادي ؛ كلُّكُمْ مذنبٌ إلا مَنْ عافيتُهُ ، فاستغفروني أغفرْ لكمْ ، ومَنْ علمَ أنِّي ذو قدرةٍ علىٰ أنْ أغفرَ لهُ . . غفرتُ لهُ ولا أبالي »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَكَ ، ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً فاغفرْ لي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ . . غُفِرَتْ لهُ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ كمدبِّ النملِ »(٥) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥١٤) ، والترمذي (٣٥٥٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٠٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٦٩) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٩٥) ، وابن ماجه (٤٢٥٧) ، وأصله عند مسلم (٢٥٧٧) .

(٥) رواه البيهقي في « الدعوات الكبير » (١٩٠) ، ولفظه : عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوماً فقال : « ألا أعلمك كلمات تقولهن : لو كانت عليك كعدد النمل أو كعدد الذر ذنوباً . . غفرها الله لك علىٰ أنه غفور لك؟ لا إلـه =

ويروىٰ أنَّ أفضلَ الاستغفارِ : اللَّهمَّ ؛ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ خلقتَني ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ ، وأبوءُ علىٰ نفسي بذنبي ، فقدْ ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي ، فاغفرْ لي ذنوبي ما قدَّمتُ منها وما أخَّرْتُ ؛ فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ جميعاً إلا أنتَ(١) .

الآثار :

قالَ خالدُ بنُ معدانَ : (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّ أحبَّ عبادي إليَّ المتحابُّونَ بحبِّي ، والمتعلقةُ قلوبُهُمْ بالمساجدِ ، والمستغفرونَ بالأسحارِ ، أولئكَ الذين إذا أردْتُ أهلَ الأرضِ بعقوبةٍ . . ذكرتُهُمْ ، فتركتُهُمْ وصرفتُ العقوبةَ عنهُمْ)(٢) .

وقالَ قتادةُ رحمهُ اللهُ : (القرآنُ يدلُّكُمْ علىٰ دائِكُمْ ودوائِكُمْ ، أمَّا داؤُكُمْ . . فالذنوبُ ، وأمَّا دواؤُكُمْ . . فالاستغفارُ)(٣) .

= إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

(١) رواه بنحوه البخاري (٦٣٠٦) وهو حديث سيد الاستغفار .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٢) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٢٦٨٥) مرفوعاً : « يقول الله عز وجل : إني لأهم بأهل الأرض عذاباً ، فإذا نظرت إلىٰ عمار بيوتي المتحابين فيَّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار . . صرفت عنهم » .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٤٥) .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (العجبُ ممَّنْ يهلِكُ ومعهُ النجاةُ ! قيلَ : وما هيَ ؟ قالَ : الاستغفارُ) .

وكانَ يُقالُ : (ما ألهمَ اللهُ سبحانهُ عبداً الاستغفارَ وهوَ يريدُ أنْ يعذِّبَهُ) .

وقالَ الفضيلُ : (قولُ العبدِ : أستغفرُ اللهَ . . تفسيرُها : أقلني)[١] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (العبدُ بينَ ذنبٍ ونعمةٍ ، لا يصلحُهُما إلا الحمدُ والاستغفارُ)[٢] .

وقالَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ رحمهُ اللهُ : (لا يقولنَّ أحدُكُمْ : أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ ، فيكونَ ذنباً وكذباً إنْ لمْ يفعلْ ، ولكنْ ليقلْ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي وتبْ عليَّ)[٣] .

وقالَ الفضيلُ رحمهُ اللهُ : (الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكذابينَ)[٤] .

وقالتْ رابعةُ العدويَّةُ رحمَها اللهُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ كثيرٍ)[٥] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنْ قدَّمَ الاستغفارَ على الندمِ . . كانَ مستهزئاً باللهِ عزَّ وجلَّ وهوَ لا يعلمُ)[٦] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٩٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٥٠) .
(٣) أورده الرافعي في « تاريخ قزوين » (١/ ١٠٠) ، وانظر « الأذكار » (ص٦٥٠) ، و« الإتحاف » (٥/ ٦١) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٧٧) عن ذي النون المصري .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٨٩) .
(٦) روى الخبر البيهقي في « الشعب » (٦٧٧٨) .

وسُمعَ أعرابيٌّ وهوَ متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنَّ استغفاري معَ إصراري للؤمٌ ، وإنَّ تركيَ استغفارَكَ معَ علمي بسعةِ عفوِكَ لعجْزٌ ، فكمْ تتحبَّبُ إليَّ بالنعمِ معَ غناكَ عنِّي ، وكمْ أتبغَّضُ إليكَ بالمعاصي معَ فقري إليكَ ؟! يا مَنْ إذا وعدَ . . وفىٰ ، وإذا أوعدَ . . عفا ، أدخلْ عظيمَ جُرمي في عظيمِ عفوِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ)(١) .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الورَّاقُ : لوْ كانَ عليكَ مثلُ عددِ القطرِ وزبدِ البحرِ ذنوباً . . لمُحيَتْ عنكَ إذا دعوتَ ربَّكَ بهـٰذا الدعاءِ مخلصاً إنْ شاءَ اللهُ العزيزُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ مِنْ كلِّ ذنبٍ تبتُ إليكَ منهُ ثمَّ عدتُ فيهِ ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ ما وعدتُكَ بهِ مِنْ نفسي ثمَّ لمْ أوفِ لكَ بهِ ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ عملٍ أردتُ بهِ وجهَكَ فخالطَهُ غيرُكَ ، وأستغفرُكَ منْ كلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها عليَّ فاستعنتُ بها علىٰ معصيتِكَ ، وأستغفرُكَ يا عالمَ الغيبِ والشهادةِ مِنْ كلِّ ذنبٍ أتيتُهُ في ضياءِ النهارِ وسوادِ الليلِ ، في ملأٍ أو خلاءٍ ، وسرٍّ وعلانيةٍ ، يا حليمُ) ويقالُ : إنَّهُ استغفارُ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، وقيلَ : الخضرِ عليهِ الصلاةُ السلامُ(٢) .

* * *

(١) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٣/ ١١٥٢) بنحوه ، ونقل نحوه الجاحظ في « البيان والتبيين » (٣/ ١٧١) عن شيخ من أعراب طيء .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩) بنحوه ، قال الحافظ الزبيدي : (وقد وقع إلينا مسنداً) . « إتحاف » (٥/ ٦٢) .

البابُ الثَّالِثُ
في أدعيةٍ مأثورةٍ ومَعْزيّةٍ إلى أسبابها وأربابها ممّا يُستحبّ أن يدعو بها المريد صباحًا ومساءً وبعقب كلّ صلاة

فمنها : دعاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ ركعتيِ الفجرِ :

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : بعثني العباسُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأتيتُهُ ممسياً وهوَ في بيتِ خالتي ميمونةَ ، فقامَ يصلِّي مِنَ الليلِ ، فلمَّا صلَّى الركعتينِ قبلَ صلاةِ الفجرِ . قالَ : « اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي ، وتجمعُ بها شملي ، وتلمُّ بها شَعَثي ، وتردُّ بها أُلفتي ، وتصلحُ بها ديني ، وتحفظُ بها غائبي ، وترفعُ بها شاهدي ، وتزكِّي بها عملي ، وتبيِّضُ بها وجهي ، وتلهمُني بها رشدي ، وتعصمُني بها مِنْ كلِّ سوءٍ .

اللهمَّ ؛ أعطني إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليسَ بعدَهُ كفرٌ ، ورحمةً أنالُ بها شرفَ كرامتِكَ في الدنيا والآخرةِ .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الفوزَ عندَ القضاءِ ، ومنازلَ الشهداءِ ، وعيشَ السعداءِ ، والنصرَ على الأعداءِ ، ومرافقةَ الأنبياءِ .

اللهمَّ ؛ إنِّي أُنزلُ بكَ حاجتي وإنْ ضَعُفَ رأيي ، وقَصُرَ عملي ،

وافتقرتُ إلىٰ رحمتِكَ ، فأسألُكَ يا قاضيَ الأمورِ ، ويا شافيَ الصدورِ ، كما تجيرُ بينَ البحورِ : أنْ تجيرني مِنْ عذابِ السعيرِ ، ومنْ دعوةِ الثبورِ ، ومِنْ فتنةِ القبورِ .

اللهمَّ ؛ ما قصُرَ عنهُ رأيي ، وضَعُفَ عنهُ عملي ، ولمْ تبلغْهُ نيَّتي وأمنيتي مِنْ خيرٍ وعدْتَهُ أحداً مِنْ عبادِكَ ، أوْ خيرٍ أنتَ معطيهِ أحداً مِنْ خلقِكَ ؛ فإنِّي أرغبُ إليكَ فيهِ ، وأسألُكَهُ يا ربَّ العالمينَ .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا هادينَ مهتدينَ ، غيرَ ضالِّينَ ولا مضلِّينَ ، حرباً لأعدائِكَ وسلْماً لأوليائِكَ ، نحبُّ بحبِّكَ مَنْ أطاعَكَ مِنْ خلقِكَ ، ونعادي بعداوتِكَ مَنْ خالفَكَ مِنْ خلقِكَ .

اللهمَّ ؛ هٰذا الدعاءُ وعليكَ الإجابةُ ، وهٰذا الجُهْدُ وعليكَ التكلانُ ، وإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ .

ذا الحبلِ الشديدِ والأمرِ الرشيدِ ؛ أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ ، معَ المقرَّبينَ الشهودِ ، والركَّعِ السجودِ ، المُوفينَ بالعهودِ ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ ، وأنتَ تفعلُ ما تريدُ .

سبحانَ الذي تعطَّفَ بالعزِّ وقالَ بهِ ، سبحانَ الذي لبسَ المجدَ وتكرَّمَ بهِ ، سبحانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلا لهُ ، سبحانَ ذي الفضلِ والنعمِ ، سبحانَ ذي القدرةِ والكرمِ ، سبحانَ الذي أحصىٰ كلَّ شيءٍ بعلمِهِ .

اللَّهمَّ ؛ اجعلْ لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً في سمعي ،

ونوراً في بصري ، ونوراً في شَعَري ، ونوراً في بشري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي ، ونوراً مِنْ بينِ يديَّ ، ونوراً مِنْ خلفي ، ونوراً عَنْ يميني ، ونوراً عَنْ شمالي ، ونوراً مِنْ فوقي ، ونوراً مِنْ تحتي .

اللَّهمَّ ؛ زدني نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعلْ لي نوراً »[1] .

دعاءُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا[2] :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « عليكِ بالجوامعِ الكواملِ ؛ قُولي : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ مِنَ الخيرِ كلِّهِ ، عاجلِهِ وآجلِهِ ، ما علمتُ منهُ وما لمْ أعلمْ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الشرِّ كلِّهِ ، عاجلِهِ وآجلِهِ ، ما علمتُ منهُ وما لمْ أعلمْ ، وأسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأسألُكَ مِنَ الخيرِ ما سألَكَ عبدُكَ ورسولُكَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأستعيذُكَ ممَّا استعاذَكَ منهُ عبدُكَ ورسولُكَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأسألُكَ ما قضيتَ لي مِنْ أمرٍ أنْ تجعلَ عاقبتَهُ رشداً ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ »[3] .

---

(١) الحديث بلفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/٥) ، ورواه كذلك الطبراني في « الكبير » (١٠/٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٩) ، وهو عند الترمذي (٣٤١٩) من غير ذكر بعث ابن عباس إلىٰ بيت خالته ميمونة رضي الله عنهم .

(٢) وإنما نسب إليها لكون النبي صلى الله عليه وسلم علَّمها إياه . « إتحاف » (٥/٦٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، وهو في « القوت » (١/٨) .

دعاءُ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا فاطمةُ ؛ ما يمنعُكِ أنْ تسمعي ما أوصيكِ بهِ ؟ أنْ تقولي : يا حيُّ ، يا قيُّومُ ؛ برحمتِكَ أستغيثُ ، لا تكلني إلىٰ نفسي طرفةَ عينٍ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ »(١) .

دعاءُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ :

علَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يقولَ : « اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ بمحمَّدٍ نبيِّكَ ، وإبراهيمَ خليلِكَ ، وموسىٰ نجيِّكَ ، وعيسىٰ كلمتِكَ وروحِكَ ، وبتوراةِ موسىٰ ، وإنجيلِ عيسىٰ ، وزبورِ داوودَ ، وفرقانِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِمْ أجمعينَ ، وبكلِّ وحيٍ أوحيتَهُ ، أوْ قضاءٍ قضيتَهُ ، أوْ سائلٍ أعطيتَهُ ، أوْ غنيٍّ أقنيتَهُ ، أوْ فقيرٍ أغنيتَهُ ، أوْ ضالٍّ هديتَهُ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي أنزلتَهُ علىٰ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي بثثتَ بهِ أرزاقَ العبادِ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على الأرضِ فاستقرَّتْ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على السماواتِ فاستقلَّتْ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على الجبالِ فرسَتْ ، وأسألُكَ باسمِكَ الذي استقلَّ بهِ عرشُكَ ، وأسألُكَ باسمكَ الطهرِ الطاهرِ الأحدِ الصمدِ الوترِ المنزَّلِ في كتابِكَ مِنْ لدنْكَ مِنَ النورِ المبينِ ، وأسألُكَ

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٣٣٠) ، وهو في « القوت » (١/ ٨) .

باسمِكَ الذي وضعتَهُ على النهارِ فاستنارَ ، وعلى الليْلِ فأظلمَ ، وبعظمتِكَ وكبريائِكَ ، وبنورِ وجهِكَ الكريمِ : أنْ ترزقني القرآنَ والعلمَ بهِ وتخلطَهُ بلحمي ودمي ، وسمعي وبصري ، وتستعملَ بهِ جسدي بحولِكَ وقوَّتِكَ ، فإنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ »[1] .

* * *

دعاءُ بريدةَ الأسلميِّ رضيَ اللهُ عنهُ :

رُوِيَ أنَّهُ قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا بريدةُ ؛ ألا أعلِّمُكَ كلماتٍ مَنْ أرادَ اللهُ بهِ خيراً علَّمَهُنَّ إيَّاهُ ثمَّ لمْ يُنسِهنَّ إياهُ أبداً ؟ » قالَ : قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليكَ ؛ قالَ : « قلْ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي ضعيفٌ فقوِّ في رضاكَ ضعفي ، وخذْ إلى الخيرِ بناصيتي ، واجعلِ الإسلامَ منتهىٰ رضايَ ، اللَّهمَّ ، إنِّي ضعيفٌ فقوِّني ، وإنِّي ذليلٌ فأعزَّني ، وإنِّي فقيرٌ فأغنني ، يا أرحمَ الراحمينَ »[2] .

* * *

(١) كذا في « القوت » (١/ ٨) ، والحديث بهٰذه القصة عزاه الحافظ العراقي لأبي الشيخ في « الثواب » ، ومن رواية ابن عباس رواه الطبراني في « الدعاء » (١٣٣٤) ، ومن رواية ابن مسعود رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٣٩٢).
وروىٰ أبو داوود (٥٠٦٧) ، والترمذي (٣٣٩٢) من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر دعاء ، قال : « قل : اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه » .

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٩٦٥) ، والرامهرمزي (ص٣٤٣) ، والحاكم (١/ ٥٢٧) .

دعاءُ قبيصةَ بنِ المخارقِ :

إذْ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : علِّمني كلماتٍ ينفعُني اللهُ عزَّ وجلَّ بها ؛ فقدْ كبرَ سنِّي ، وعجَزتُ عنْ أشياءَ كثيرةٍ كنتُ أعملُها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّا لدنياكَ : فإذا صلَّيتَ الغداةَ . . فقلْ ثلاثَ مرَّاتٍ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فإنَّكَ إذا قلتَهُنَّ . . أمنتَ مِنَ عمىً وجذامٍ وبرصٍ وفالجٍ ، وأمَّا لآخرتِكَ : فقلْ : اللهمَّ ؛ اهدني مِنْ عندِكَ ، وأفضْ عليَّ مِنْ فضلِكَ ، وانشرْ عليَّ مِنْ رحمتِكَ ، وأنزلْ عليَّ مِنْ بركاتِكَ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ إذا وافى بهنَّ عبدٌ يومَ القيامةِ لمْ يدعْهُنَّ . . فُتِحَ لهُ أربعةُ أبوابٍ مِنَ الجنَّةِ ، يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »(١) .

* * *

دعاءُ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ :

قيلَ لأبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ ذاتَ يومٍ : قدِ احترقَتْ دارُكَ ، وكانتِ النارُ قدْ وقعَتْ في محلَّتِهِ ، فقالَ : ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذلكَ ، فقيلَ لهُ ذلكَ ثلاثاً وهوَ يقولُ : ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذلكَ ، ثمَّ أتاهُ آتٍ فقالَ : يا أبا الدرداءِ ؛ إنَّ النارَ حيثُ دنَتْ مِنْ دارِكَ . . طفئَتْ ، قالَ : قدْ علمتُ ذلكَ ، فقيلَ لهُ :

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/٣٦٨) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٣٣ ، ١٣٤) بنحوه ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/٦) .

ما ندري أيُّ قوليك أعجبُ ، قالَ : إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَن قالَ هؤلاءِ الكلماتِ في ليلٍ أَوْ نهارٍ . . لَمْ يضرَّهُ شيءٌ » وقدْ قلتُهُنَّ ، وهيَ : « اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـٰهَ إلاَّ أنتَ ، عليكَ توكَّلْتُ وأنتَ ربُّ العرشِ العظيمِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، أعلمُ أنَّ اللهَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وأنَّ اللهَ قدْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً وأحصىٰ كلَّ شيءٍ عدداً ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّي علىٰ صراطٍ مستقيمٍ »(١) .

* * *

دعاءُ الخليلِ إبراهيمَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

كانَ يقولُ إذا أصبحَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا خلقٌ جديدٌ ، فافتحْهُ عليَّ بطاعتِكَ ، واختمْهُ لي بمغفرتِكَ ورضوانِكَ ، وارزقني فيهِ حسنةً تقبلُها منِّي ، وزكِّها وضعِّفْها لي ، وما عملتُ فيهِ مِنْ سيئةٍ فاغفرْها لي ، إنَّكَ غفورٌ رحيمٌ ، ودودٌ كريمٌ) ، قالَ : ومَنْ دعا بهـٰذا الدعاءِ إذا أصبحَ . . فقدْ أدَّىٰ شكرَ يومِهِ(٢) .

* * *

(١) كذا في « القوت » (١/ ٩) ، ورواه الطبراني في « الدعاء » (٣٤٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٩) .

دعاءُ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

كانَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ لا أستطيعُ دفعَ ما أكرهُ ، ولا أملكُ نفعَ ما أرجو ، وأصبحَ الأمرُ بيدِ غيري ، وأصبحتُ مرتهناً بعملي ، فلا فقيرَ أفقرُ منِّي ، اللهمَّ ؛ لا تُشْمِتْ بي عدُوِّي ، ولا تَسُؤْ بي صديقي ، ولا تجعلْ مصيبتي في ديني ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ همِّي ، ولا تسلِّطْ عليَّ مَنْ لا يرحمني يا حيُّ يا قيومُ)[1] .

دعاءُ الخضرِ عليهِ السلامُ :

يقالُ : إنَّ الخضرَ وإلياسَ عليهما السلامُ إذا التقيا في كلِّ موسمٍ . . لمْ يفترقا إلا عنْ هـٰذهِ الكلماتِ : (باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوَّةَ إلا باللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، كلُّ نعمةٍ مِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، الخيرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ) ، فمَنْ قالَها ثلاثَ مراتٍ إذا أصبحَ . . أمنَ مِنَ الحرْقِ والغرَقِ والسرَقِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ[2] .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٩) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٣٢٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/٤٢٧) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (٥/٦٩) .

دعاءُ معروفٍ الكرخيِّ رحمهُ اللهُ :

قالَ محمدُ بنُ حسانَ : قالَ لي معروفٌ الكرخيُّ رحمهُ اللهُ : ألا أعلِّمُكَ عشرَ كلماتٍ ؛ خمسٌ للدنيا وخمسٌ للآخرةِ ، مَنْ دعا اللهَ عزَّ وجلَّ بهنَّ . . وجدَ اللهَ تعالىٰ عندهُنَّ ؟ قلتُ : اكتبْها لي ، قالَ : لا ، ولكنْ أردِّدُها عليكَ كما ردَّدَها عليَّ بكرُ بنُ خُنَيسٍ رحمهُ اللهُ : حسبيَ اللهُ لديني ، حسبيَ اللهُ لدنيايَ ، حسبيَ اللهُ الكريمُ لما أهمَّني ، حسبيَ اللهُ الحليمُ القويُّ لمَنْ بغىٰ عليَّ ، حسبيَ اللهُ الشديدُ لمَنْ كادني بسوءٍ ، حسبيَ اللهُ الرحيمُ عندَ الموتِ ، حسبيَ اللهُ الرؤوفُ عندَ المساءَلَةِ في القبرِ ، حسبيَ اللهُ الكريمُ عندَ الحسابِ ، حسبيَ اللهُ اللطيفُ عندَ الميزانِ ، حسبيَ اللهُ القديرُ عندَ الصراطِ ، حسبيَ اللهُ لا إلـهَ إلا هوَ ، عليهِ توكَّلْتُ وهوَ ربُّ العرشِ العظيمِ)[1] .

وقدْ رُوِيَ عنْ أبي الدرداءِ أنَّهُ قالَ : (مَنْ قالَ في كلِّ يومٍ سبعَ مرَّاتٍ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ . . كفاهُ الله عزَّ وجلَّ ما أهمَّهُ مِنْ أمرِ آخرتِهِ ، صادقاً كانَ بها أوْ كاذباً)[2] .

(١) قوت القلوب (١/ ٩) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢١٧) عن بريدة مرفوعاً بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٠) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٨) .

دعاءُ عتبةَ الغلامِ رحمهُ اللهُ :

وقدْ رُئِيَ في المنامِ بعدَ موتِهِ ، فقالَ : دخلتُ الجنَّةَ بهـٰذهِ الكلماتِ : (اللهمَّ ، يا هاديَ المضلِّينَ ، وراحمَ المذنبينَ ، ومقيلَ عثراتِ العاثرينَ ؛ ارحمْ عبدَكَ ذا الخطرِ العظيمِ ، والمسلمينَ كلَّهُمْ أجمعينَ ، واجعلْنا معَ الأخيارِ المرزوقينَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ مِنَ النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، آمينَ يا ربَّ العالمينَ)[1] .

دعاءُ آدمَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا : لمَّا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يتوبَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ . . طافَ سبعاً بالبيتِ وهوَ يومئذٍ ليسَ بمبنيٍّ ربوةٌ حمراءُ ، ثمَّ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ قالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ سرِّي وعلانيتي فاقبلْ معذرتي ، وتعلمُ حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلمُ ما في نفسي فاغفرْ لي ذنوبي ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً يباشرُ قلبي ، ويقيناً صادقاً حتَّىٰ أعلمَ أنَّهُ لنْ يصيبَني إلا ما كتبتَهُ عليَّ فأرضني بما قسمتَهُ لي يا ذا الجلالِ والإكرامِ) ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ أنِّي قدْ غفرتُ لكَ ، ولنْ يأتيَني أحدٌ مِنْ ذريَّتِكَ فيدعوَني بمثلِ الذي دعوتني بهِ . . إلا غفرتُ لهُ ، وكشفتُ غمومَهُ وهمومَهُ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٠) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٨) .

ونزعتُ الفقرَ مِنْ بينِ عينيهِ ، واتجرتُ لهُ مِنْ وراءِ كلِّ تاجرٍ ، وجاءَتْهُ الدنيا وهيَ راغمةٌ وإنْ كانَ لا يريدُها[1] .

دعاءُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ :

رواهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يمجِّدُ نفسَهُ كلَّ يومٍ ويقولُ : إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالمينَ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الحيُّ القيومُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العليُّ العظيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا لمْ ألدْ ولمْ أولدْ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العفوُّ الغفورُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا مبدئُ كلِّ شيءٍ وإليَّ يعودُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العزيزُ الحكيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الرحمـٰنُ الرحيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا مالكُ يومِ الدينِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا خالقُ الخيرِ والشرِّ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا خالقُ الجنَّةِ والنارِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰه إلا أنا الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لمْ يتخذْ صاحبةً ولا ولداً ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الفردُ الوترُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الملكُ القدوسُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا السلامُ المؤمنُ المهيمنُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العزيزُ الجبارُ المتكبِّرُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الخالقُ البارئُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الأحدُ المصوِّرُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا

---

(١) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٢٠) عن عبد الله بن أبي سليمان، وهو من رواية السيدة عائشة مرفوعاً رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١)، وهو في « القوت » (١/ ١٠).

الكبيرُ المتعالِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا المقتدرُ القهارُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا الحليمُ الكريمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا أهلُ الثناءِ والمجدِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا أعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا القادرُ الرزَّاقُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا فوقَ الخلقِ والخليقةِ » .

وذكرَ قبلَ كلِّ كلمةٍ : إنِّي أنا اللهُ لا إلـهَ إلا أنا ، كما أوردناهُ في الأوَّلِ[(١)] ، فمَنْ دعا بهـٰذهِ الأسماءِ . . فليقلْ : (إنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلـهَ إلا أنتَ كذا وكذا) ، فمَنْ دعا بهنَّ . . كُتبَ مِنَ الساجدينَ المخبتينَ الذينَ يجاورونَ محمداً وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ والنبيِّينَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ في دارِ الجلالِ ، ولهُ ثوابُ العابدينَ في السماواتِ والأرضينَ[(٢)] .

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

دعاءُ أبي المعتمرِ ـ وهوَ سليمانُ التيميُّ ـ وتسبيحاتُهُ رضيَ اللهُ عنهُ :

رُوِيَ أنَّ يونسَ بنَ عبيدٍ رحمهُ اللهُ رأىٰ رجلاً في المنامِ ممَّن قُتلَ شهيداً ببلادِ الرومِ ، فقالَ لهُ : ما أفضلُ ما رأيتَ ثَمَّ مِنَ الأعمالِ ؟ قالَ : رأيتُ

---

(١) أي : كما تمَّ إثباته من النسخة (أ) ، وهو موافق للأصل المنقول عنه وهو « القوت » (١/ ١٣) بتقديم وتأخير للبعض يسير ، وموافق لنسخة الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٧١) كذلك .

(٢) روىٰ هـٰذا الحديث عن علي رضي الله عنه مرفوعاً الديلميُّ كما في « مسند الفردوس » (٨١١٢) ، وهو في « القوت » (١/ ١٣) كذلك .

تسبيحاتِ أبي المعتمرِ رحمهُ اللهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بمكانٍ[1] .

وهيَ هـٰذهِ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ عددَ ما خلقَ ، وعددَ ما هوَ خالقٌ ، وزنةَ ما خلقَ ، وزنةَ ما هو خالقٌ ، وملءَ ما خلقَ ، وملءَ ما هو خالقٌ ، وملءَ سماواتِهِ ، وملءَ أرضيهِ ، ومثلَ ذلكَ وأضعافَ ذلكَ ، وعددَ خلقِهِ ، وزنةَ عرشِهِ ، ومنتهىٰ رحمتِهِ ، ومدادَ كلماتِهِ ، ومبلغَ رضاهُ ، وحتَّىٰ يرضىٰ ، وإذا رضيَ ، وعددَ ما ذكرَهُ بهِ خلقُهُ في جميعِ ما مضىٰ ، وعددَ ما همْ ذاكروهُ فيما بقيَ ، في كلِّ سنةٍ وشهرٍ وجمعةٍ ويومٍ وليلةٍ وساعةٍ مِنَ الساعاتِ ، ونسمةٍ ونفسٍ مِنَ الأنفاسِ ، وأبدٍ منَ الآبادِ منَ أبدٍ إلى أبدٍ ، أبدَ الدنيا وأبدَ الآخرةِ ، وأكثرَ مِنْ ذلكَ ، لا ينقطعُ أولُهُ ، ولا ينفدُ آخرُهُ)[2] .

* * *

دعاءُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ :

روىٰ إبراهيمُ بنُ بشارٍ خادمُهُ أنَّهُ كانَ يقولُ هـٰذا الدعاءَ في يومِ الجمعةِ إذا أصبحَ وإذا أمسىٰ : (مرحباً بيومِ المزيدِ ، والصبحِ الجديدِ ، والكاتبِ والشهيدِ ، يومُنا هـٰذا يومُ عيدٍ ، اكتبْ لنا ما نقولُ : باسمِ اللهِ الحميدِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٨٢) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٦٥٣) من طريقه .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٠) ، وقد روىٰ صيغته عنه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٦٥٢) .

المجيدِ ، الرفيعِ الودودِ ، الفعَّالِ في خلقهِ ما يريدُ ، أصبحتُ باللهِ مؤمناً ، وبلقائهِ مصدِّقاً ، وبحجتِهِ معترفاً ، ومِنْ ذنبي مستغفراً ، ولربوبيَّةِ اللهِ خاضعاً ، ولسوى اللهِ في الإلهيةِ جاحداً ، وإلى اللهِ فقيراً ، وعلى اللهِ متوكِّلاً ، وإلى اللهِ منيباً ، أُشهدُ اللهَ وأُشهدُ ملائكتَهُ وأنبياءَهُ ورسلَهُ وحملةَ عرشِهِ ومَنْ خلقَهُ ومَنْ هوَ خالقُهُ . . بأنَّهُ هوَ اللهُ ، الذي لا إلـهَ إلا هوَ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسليماً ، وأنَّ الجنةَ حقٌّ ، وأنَّ النارَ حقٌّ ، والحوضَ حقٌّ والشفاعةَ حقٌّ ، ومنكراً ونكيراً حقٌّ ، ووعدَكَ حقٌّ ووعيدَكَ حقٌّ ولقاءَكَ حقٌّ ، والساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القبورِ ، علىٰ ذلكَ أحيا ، وعليهِ أموتُ ، وعليهِ أبعثُ إنْ شاءَ اللهُ .

اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـهَ إلا أنتَ ، خلقتني وأنا عبدُكَ ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ ، أعوذُ بكَ إلـهي مِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ .

اللهمَّ ؛ إنِّي ظلمتُ نفسي ، فاغفرْ لي ذنوبي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ ، واهدني لأحسنِ الأخلاقِ فإنَّهُ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها فإنَّهُ لا يصرفُ سيِّئَها إلا أنتَ .

لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ كلُّهُ بيديكَ ، أنا لكَ وإليكَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، آمنتُ اللهمَّ بما أرسلتَ مِنْ رسولٍ ، وآمنتُ اللهمَّ بما أنزلتَ مِنْ كتابٍ ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِهِ وسلَّم تسليماً كثيراً ،

خاتمِ كلامي ومفتاحِهِ ، وعلىٰ أنبيائِهِ ورسلِهِ أجمعينَ ، آمينَ ربَّ العالمينَ .

اللهمَّ ؛ أورِدْنا حوضَهُ ، واسقنا بكأسِهِ مشرباً رويّاً ، سائغاً هنيّاً ، لا نظمأُ بعدَهُ أبداً ، واحشرْنا في زمرتِهِ غيرَ خزايا ولا ناكثينَ للعهدِ ، ولا مرتابينَ ولا مفتونينَ ، ولا مغضوباً علينا ولا ضالِّينَ .

اللهمَّ ؛ اعصمْني مِنْ فتنِ الدنيا ، ووفقْني لما تحبُّ وترضىٰ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ ، وثبتني بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ، ولا تضلَّني وإنْ كنتُ ظالماً .

سبحانَكَ سبحانَكَ يا عليُّ يا عظيمُ ، يا بارُّ يا رحيمُ ، يا عزيزُ يا جبَّارُ ، سبحانَ مَنْ سبَّحتْ لهُ السماواتُ بأكنافِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الجبالُ بأصدائِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ البحارُ بأمواجِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الحيتانُ بلغاتِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ النجومُ في السماءِ بإبراقِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الشجرُ بأصولِها ونضارتِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ ، ومَنْ فيهنَّ ومَنْ عليهنَّ ، سبحانَ مَنْ سبَّحَ لهُ كلُّ شيءٍ مِنْ مخلوقاتِهِ ، تباركتَ وتعاليتَ ، سبحانَكَ سبحانَكَ يا حيُّ يا قيومُ يا عليمُ يا حليمُ ، سبحانَكَ لا إلـٰهَ إلا أنتَ وحدكَ لا شريكَ لكَ ، تحيي وتميتُ وأنتَ حيٌّ لا تموتُ ، بيدِكَ الخيرُ وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ)[1] .

❊ ❊ ❊

(١) كذا رواه أبو طالب في « القوت » (١/٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٨) ، وقد جاء بعضه مرفوعاً .

الباب الرّابع

في أدعيةٍ مأثورةٍ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكّيّ وابن خزيمة وابن المنذر رحمهم الله[1]

يستحبُّ للمريدِ إذا أصبحَ أنْ يكونَ أحدَ أورادِهِ الدعاءُ كما سيأتي ذكرُهُ في كتابِ الأورادِ ، فإنْ كنتَ مِنَ المريدينَ لحرثِ الآخرةِ ، المقتدينَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما دعا بهِ . . **فقلْ في مفتتحِ دعواتِكَ أعقابَ صلواتِكَ** : سبحانَ ربِّي العليِّ الأعلى الوهابِ[2] ، لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ[3] .

وقلْ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً ، ثلاثَ مرَّاتٍ[4] .

وقلِ : اللهمَّ ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، ربَّ

---

(١) حيث قال أبو طالب رحمه الله تعالىٰ في « القوت » (١/ ١٤) : (وحذفنا ذكر فضائل ذلك وما جاء من الروايات إيجازاً) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٨) .

(٣) رواه البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٢٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ؛ أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ، وشرِّ الشيطانِ وشركِهِ[١] .

وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ ، وأهلي ومالي ، اللهمَّ ؛ استرْ عوراتي ، وآمنْ روعاتي ، وأقلْ عثراتي ، واحفظني مِنْ بينِ يديَّ ومِنْ خلفي ، وعنْ يميني وعنْ شمالي ، ومِنْ فوقي ، وأعوذُ بكَ أنْ أُغتالَ مِنْ تحتي[٢] .

اللهمَّ ؛ لا تؤمنِّي مكرَكَ ، ولا تولِّني غيرَكَ ، ولا ترفعْ عنِّي سترَكَ ، ولا تُنسني ذكرَكَ ، ولا تجعلْني مِنَ الغافلينَ[٣] .

وقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، خلقْتَني وأنا عبدُكَ ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي ، فاغفرْ لي فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[٤] ثلاثَ مراتٍ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٦٧) ، والترمذي (٣٥٢٩) ، وهو من دعاء سيدنا أبي بكر المتقدم تعليقاً .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٧٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٢٥) ، وابن ماجه (٣٨٧١) ، وليس في الحديث : « أقل عثراتي » ، بل هو من سياق « القوت » (٨/١) .

(٣) رواه الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٢٠١٧) ، وابن النجار في « ذيله علىٰ تاريخ بغداد » (٢٢٨/١٦) ، وليس فيه : « ولا تولني غيرك » ، وهي في « القوت » (٣٢/١) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٠٦) وهو حديث سيد الاستغفار .

وقلِ : اللهمَّ ، عافني في بدني ، وعافني في سمعي ، وعافني في بصري ، لا إلـهَ إلا أنتَ ، ثلاثَ مرَّاتٍ(١) .

وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الرضا بعدَ القضاءِ ، وبردَ العيشِ بعد الموتِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ وشوقاً إلىٰ لقائِكَ ، مِنْ غيرِ ضرَّاءَ مضرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّةٍ ، وأعوذُ بكَ أنْ أظلِمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أعتديَ أوْ يُعتدَىٰ عليَّ ، أوْ أكسبَ خطيئةً أوْ ذنباً لا تغفرُهُ(٢) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الثباتَ في الأمرِ ، والعزيمةَ على الرشدِ ، وأسألُكَ شكرَ نعمتِكَ ، وحسنَ عبادتِكَ ، وأسألُكَ قلباً خاشعاً سليماً ، وخُلقاً مستقيماً ، ولساناً صادقاً ، وعملاً متقبَّلاً ، وأسألُكَ مِنْ خيرِ ما تعلمُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما تعلمُ ، وأستغفرُكَ لما تعلمُ ، فإنَّكَ تعلمُ ولا أعلمُ ، وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ(٣) .

اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ما قدمْتُ وما أخرتُ ، وما أسررْتُ وما أعلنْتُ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، فإنَّكَ أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وعلىٰ كلِّ غيبٍ شهيدٌ(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٩٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٣٢) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٩١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٦) .
(٣) رواه الترمذي (٣٤٠٧) ، والنسائي (٣/ ٥٤) .
(٤) رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٢٧١٩) ، دون : « وعلىٰ كل غيب شهيد » ، وهي في سياق « القوت » (١/ ١١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا ينفدُ ، وقرَّةَ عينِ الأبدِ[(١)] ، ومرافقةَ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أعلىٰ جنَّةِ الخلدِ[(٢)] .

اللهمَّ ؛ إني أسألُكَ الطيباتِ ، وفعلَ الخيراتِ ، وتركَ المنكراتِ ، وحبَّ المساكينِ ، أسألُكَ حبَّكَ وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ كلِّ عملٍ يقرِّبُ إلىٰ حبِّكَ ، وأنْ تتوبَ عليَّ وتغفرَ لي وترحمَني ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً . . فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتونٍ[(٣)] .

اللهمَّ ؛ بعلمِكَ الغيبَ ، وقدرتِكَ على الخلقِ ؛ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي ، وتوفَّني ما كانتِ الوفاةُ خيراً لي ، أسألُكَ خشيتَكَ في الغيبِ والشهادةِ ، وكلمةَ العدلِ في الرضا والغضبِ ، والقصدَ في الغنىٰ والفقرِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ ، والشوقَ إلىٰ لقائِكَ ، وأعوذُ بكَ مِنْ ضرَّاءَ مضرَّةٍ وفتنةٍ مضلَّةٍ ، اللهمَّ ؛ زيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ ، واجعلْنا هداةً مهتدينَ[(٤)] .

اللهمَّ ؛ اقسمْ لنا مِنْ خشيتِكَ ما تحولُ بهِ بينَنا وبينَ معاصيكَ ، ومِنْ

---

(١) بدوام ذكره وكمال محبته والأنس به ، قال بعضهم : من قرت عينه بالله تعالىٰ . . قرت به كل عين . « إتحاف » (٥/ ٧٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٤٥) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٢٣) ، من دعاء سيدنا ابن مسعود عندما قال له المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم : « سلْ تعطه » .

(٣) رواه الترمذي (٣٢٣٥) .

(٤) رواه النسائي (٣/ ٥٤) .

طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بهِ جنَّتَكَ ، ومِنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ علينا مصائبَ الدنيا[1] .

اللهمَّ ؛ ألبسْ وجوهَنا منكَ حياءً ، وقلوبَنا بكَ فرحاً ، وأسكنْ في نفوسِنا مِنْ عظمتِكَ ، وذلِّلْ جوارحَنا لخدمتِكَ ، واجعلْكَ اللهمَّ أحبَّ إلينا ممَّا سواكَ ، واجعلْنا أخشىٰ لكَ ممَّا سواكَ[2] .

اللهمَّ؛ اجعلْ أوَّلَ يومِنا هـٰذا صلاحاً ، وأوسطَهُ فلاحاً ، وآخِرَهُ نجاحاً، اللهمَّ ؛ اجعلْ أوَّلَهُ رحمةً ، وأوسطَهُ نعمةً ، وآخرَهُ تكرمةً ومغفرةً[3] .

الحمدُ للهِ الذي تواضعَ كلُّ شيءٍ لعظمتِهِ ، وذلَّ كلُّ شيءٍ لعزَّتِهِ ، وخضعَ كلُّ شيءٍ لملكِهِ ، واستسلمَ كلُّ شيءٍ لقدرتِهِ ، والحمدُ للهِ الذي سكنَ كلُّ شيءٍ لهيبتِهِ ، وأظهرَ كلَّ شيءٍ بحكمتِهِ ، وتصاغرَ كلُّ شيءٍ لكبريائِهِ[4] .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ ، وباركْ علىٰ محمدٍ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، وتمامه : « ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا ، وانصرنا علىٰ من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » .

(٢) قوت القلوب (١/ ١١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٨٥) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٨) إلىٰ قوله : « وآخره نجاحاً » ، وتمامه عند صاحب « القوت » (١/ ١١) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٢٤) إلىٰ قوله : « الحمد لله الذي سكن. . . » ، وهو بتمامه في « القوت » (١/ ١٢) .

وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ ؛ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آلِ إبراهيمَ في العالمينَ ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ[١] .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ رسولِ الأميِّينَ ، وأعطِهِ المقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ يومَ الدينِ[٢] .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا مِنْ أوليائِكَ المتقينَ ، وحزبِكَ المفلحينَ ، وعبادِكَ الصالحينَ ، واستعملْنا لمرضاتِكَ عنَّا ، ووفقْنا لمحابِّكَ منَّا ، وصرِّفْنا بحسنِ اختيارِكَ لنا ، نسألُكَ جوامعَ الخيرِ وفواتحَهُ وخواتمَهُ ، ونعوذُ بكَ مِنْ جوامعِ الشرِّ وفواتحِهِ وخواتمِهِ[٣] .

اللهمَّ ؛ بقدرتِكَ عليَّ تبْ عليَّ ، إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ ، وبحلمِكَ عنِّي اعفُ عنِّي إنَّكَ أنتَ الغفَّارُ الحليمُ ، وبعلمِكَ بي ارفقْ بي ، إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ ، وبملكِكَ لي ملِّكْني نفسي ولا تسلطْها عليَّ ، إنَّكَ أنتَ الملكُ الجبَّارُ ، سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، لا إلٰهَ إلا أنتَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفرْ لي ذنبي ، إنَّكَ أنتَ ربِّي ، إنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[٤] .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٢) دون : (رسول الأميين) ، وسؤال المقام المحمود له صلى الله عليه وسلم في « البخاري » (٦١٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وقوله : (نسألك جوامع الخير . . .) بنحوه عند الطبراني في « الكبير » (٣١٦/٢٣) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وقوله : (سبحانك وبحمدك . . .) رواه مرفوعاً النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٤٣٠) .

اللهمَّ ؛ ألهمني رشدي ، وقني شرَّ نفسي(١) .

اللهمَّ ؛ ارزقني حلالاً لا تعاقبُني عليهِ ، وقنعني بما رزقتني ، واستعملني بهِ صالحاً تقبلُهُ منِّي(٢) .

أسألُكَ العفوَ والعافيةَ وحسنَ اليقينِ ، والمعافاةَ في الدنيا والآخرةِ(٣) .

يا مَنْ لا تضرُّهُ الذنوبُ ، ولا تنقصُهُ المغفرةُ ؛ هبْ لي ما لا يضرُّكَ ، وأعطني ما لا ينقصُكَ(٤) .

﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۝ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وبنحوه عند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٠) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وبنحوه عند أبي داوود (٥٠٧٤) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤١٢) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (١٩١٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١/ ١٢) .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ وارحمْهما كما ربياني صغيراً ، واغفرْ للمؤمنينَ والمؤمناتِ والمسلمينَ والمسلماتِ الأحياءِ منهُمْ والأمواتِ .

ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ وأنتَ الأعزُّ الأكرمُ ، وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، وأنتَ خيرُ الغافرينَ(١) .

---

(١) رویٰ بعضه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٥٨٠٩) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر ، وهو =

وإِنَّا للهِ وإِنَّا إليهِ راجعونَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ خاتمِ النبيينَ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

* * *

= قوله : (رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم) ، والسياق في « القوت » (١/ ١٣) ، ثم قال : (فهـٰذا جامع ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن أئمة الهدىٰ) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ البخلِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجبنِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ أنْ أردَّ إلىٰ أرذلِ العمرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدنيا ، وأعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبرِ(١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ طمَعٍ يهدي إلىٰ طَبَعٍ ، ومِنْ طمعٍ في غيرِ مطمعٍ ، ومِنْ طمعٍ حيثُ لا مطمعَ(٢) .

اللهمَّ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا ينفعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، ودعاءٍ لا يُسْمَعُ، ونفسٍ لا تشبعُ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجوعِ ؛ فإنَّهُ بئسَ الضجيعُ ، ومِنَ الخيانةِ؛ فإنَّها بئستِ البطانةُ ، ومِنَ الكسلِ والبخلِ والجبنِ ومِنَ الهرمِ ، ومِنْ أنْ أردَّ إلىٰ أرذلِ العمرِ، ومِنْ فتنةِ الدجالِ وعذابِ القبرِ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ قلوباً أوَّاهةً مخبتةً منيبةً في سبيلِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ عزائمَ مغفرتِكَ ، وموجباتِ رحمتِكَ ، والسلامةَ مِنْ كلِّ إثمٍ ، والغنيمةَ مِنْ كل برٍّ ، والفوزَ بالجنَّةِ والنجاةَ مِنَ النارِ(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٥) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٤٧) ، والطَبَع : الدنس .

(٣) الدعاء إلىٰ هنا رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٣) ، والتعوذ من الأربع الأول عند مسلم (٢٧٢٢) ، والاستعاذة من الكسل والجبن والبخل والهرم وفتنة المحيا والممات عند البخاري (٦٣٦٧) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ التردِّي ، وأعوذُ بكَ مِنَ الغمِّ والغَرَقِ والهَدْمِ ، وأعوذُ بِكَ أنْ أموتَ في سبيلِكَ مدبراً ، وأعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أموتَ في طلبِ دنيا[١] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما علمتُ ، ومِن شرِّ ما لمْ أعلمْ[٢] .

اللهمَّ ؛ جنبني منكراتِ الأخلاقِ والأعمالِ ، والأدواءِ والأهواءِ[٣] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ جهدِ البلاءِ ، ودَرْكِ الشقاءِ ، وسوءِ القضاءِ ، وشماتةِ الأعداءِ[٤] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الكفرِ والدَّيْنِ والفقرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ عذابِ جهنَّمَ ، وأعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدجالِ[٥] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٥٢) ، والنسائي (٨/ ٢٨٢) ، وفيهما : « وأعوذ بك أن أموت لديغاً » بدل « أن أموت في طلب دنيا » .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، ولفظه : « وأعوذ بك من الشر كله ، عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم » ، وهو عند مسلم (٢٧١٦) بلفظ : « من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٩١) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٤٧) ، ومسلم (٢٧٠٧) .

(٥) التعوذ من الكفر والدين عند النسائي (٨/ ٢٦٤) ، ومن الفقر مع الكفر عنده كذلك (٣/ ٧٣) ، والتعوذ من عذاب جهنم وفتنة الدجال في « البخاري » (١٣٧٧) ، ومسلم (٥٨٨) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري ، وشرِّ لساني وقلبي ، وشرِّ منيِّي(١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ جارِ السوءِ في دارِ المُقامةِ ، فإنَّ جارَ البادِيةِ يتحوَّلُ(٢) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ القسوةِ والغفلةِ ، والعيلَةِ والذلَّةِ والمسكنةِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الفقرِ والكفرِ ، والفسوقِ والشقاقِ والنفاقِ وسوءِ الأخلاقِ وضيقِ الأرزاقِ ، والسمعةِ والرياءِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الصممِ والبكمِ والعمىٰ والجنونِ والجذامِ والبرصِ وسيِّءِ الأسقامِ(٣) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ زوالِ نعمتِكَ ، ومن تحوُّلِ عافيتِكَ ، ومن فجأةِ نقمتِكَ ، ومنْ جميعِ سخطِكَ(٤) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ النارِ وفتنةِ النارِ ، وعذابِ القبرِ وفتنةِ

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) ، والنسائي (٨/ ٢٥٥) من دعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم شَكَل بن حميد رضي الله عنه ، وقوله : « من شر منيي » أي : من شر شدة الغلمة وسطوة الشهوة إلى الجماع الذي إذا أفرط . . ربما أوقع في الزنا أو مقدماته لا محالة ، فهو حقيق بالاستعاذة من شره . « إتحاف » (٥/ ٨٥) .

(٢) رواه النسائي (٨/ ٢٧٤) ، و« الكبرىٰ » (٧٨٨٦) .

(٣) رواه الطبراني في « الصغير (١/ ١١٤) ، والاستعاذة من الأربع الأخيرة عند أبي داوود (١٥٥٤) .

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٩) .

القبرِ ، وشرِّ فتنةِ الغنىٰ ، وشرِّ فتنةِ الفقرِ ، وشرِّ فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ المغرمِ والمأثمِ[(1)] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ نفسٍ لا تشبعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، وصلاةٍ لا تنفعُ ، ودعوةٍ لا تستجابُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ العمرِ وفتنةِ الصدرِ[(2)] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ غلبةِ الدَّينِ ، وغلبةِ العدوِّ ، وشماتةِ الأعداءِ[(3)] .

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً مِنْ كلِّ العالمينَ ، آمينَ .

---

(1) رواه البخاري (٦٣٧٥) ، ومسلم (٢٧٣٩) بنحوه .

(2) الثلاث الأول عند مسلم (٢٧٢٢) ، وما بعدها عند أبي داوود (١٥٢٩) ، والنسائي (٨/ ٢٥٥) ، **وفتنة الصدر** : عدم انفساحه لقبول الإيمان .

(3) رواه النسائي (٨/ ٢٦٥) .

الباب الخامس
في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

إذا أصبحتَ وسمعتَ الأذانَ . . فيستحبُّ لكَ جوابُ المؤذِّنِ ، وقدْ ذكرناهُ ، وذكرنا أدعيةَ دخولِ الخلاءِ والخروجِ منهُ ، وأدعيةَ الوضوءِ في كتابِ الطهارةِ .

* * *

فإذا خرجتَ إلى المسجدِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، واجعلْ في سمعي نوراً ، واجعلْ في بصري نوراً ، واجعلْ خلفي نوراً ، وأمامي نوراً ، واجعلْ مِنْ فوقي نوراً ، اللهمَّ ؛ أعطني نوراً[(١)] .

وقلْ أيضاً : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ بحقِّ السائلينَ عليكَ ، وبحقِّ ممشايَ هـٰذا إليكَ ، فإنِّي لمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، خرجتُ اتقاءَ سخطِكَ وابتغاءَ مرضاتِكَ ؛ فأسألُكَ أنْ تنقذَني مِنَ النارِ ، وأنْ تغفرَ لي ذنوبي ، إنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[(٢)] .

* * *

(١) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .

(٢) رواه ابن ماجه (٧٧٨) .

وإنْ خرجتَ مِنَ المنزلِ لحاجةٍ . . فقلْ : باسمِ اللهِ ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أظلمَ أوْ أُظلمَ ، أوْ أجهلَ أوْ يُجهلَ عليَّ[١] ، بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، باسمِ اللهِ ، التكلانُ على اللهِ[٢] .

* * *

فإذا انتهيتَ إلى المسجدِ تريدُ دخولَهُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ وسلِّمْ ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي جميعَ ذنوبي ، وافتحْ لي أبوابَ رحمتِكَ[٣] ، وقدِّمْ رِجْلَكَ اليمنىٰ في الدخولِ .

* * *

فإذا رأيتَ في المسجدِ مَنْ يبيعُ أوْ يبتاعُ . . فقلْ : لا أربحَ اللهُ تجارتَكَ[٤] .

* * *

وإذا رأيتَ مَنْ ينشدُ ضالةً في المسجدِ . . فقلْ : لا ردَّها اللهُ عليكَ[٥] ، أمرَ بذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٩٤) ، والترمذي (٣٤٢٧) ، والنسائي (٨/ ٢٦٨) ، وابن ماجه (٣٨٨٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٨٥) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٣١٤) ، وابن ماجه (٧٧١) ، والجملة الأخيرة عند مسلم (٧١٣) .

(٤) رواه الترمذي (١٣٢١) .

(٥) رواه مسلم (٥٦٨) .

فإذا صلَّيتَ ركعتيِ الصبحِ.. فقلْ : باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي... الدعاءَ إلىٰ آخرِهِ كما أوردناهُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١] .

* * *

فإذا ركعتَ.. فقلْ في ركوعِكَ : اللهمَّ ؛ لكَ ركعتُ ، ولكَ خشعتُ ، وبكَ آمنتُ ، ولكَ أسلمتُ ، وعليكَ توكلتُ ، أنتَ ربِّي ، خشعَ سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلَّتْ بهِ قدمي للهِ ربِّ العالمينَ[٢] .

وإن أحببتَ.. فقلْ : (سبحانَ ربيَ العظيمِ) ثلاثَ مرَّاتٍ[٣] ، أوْ (سبُّوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ)[٤] .

* * *

فإذا رفعتَ رأسَكَ مِنَ الركوعِ.. فقلْ : سمعَ اللهُ لِمَنْ حمدَهُ ، ربَّنا لكَ الحمدُ ، ملءَ السماواتِ وملءَ الأرضِ ، وملءَ ما شئتَ مِنْ شيءٍ بعدُ ، أهلَ

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٤١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٨٣) .
(٢) رواه مسلم (٧٧١) ، وأحمد في « المسند » (١/ ١١٩) .
(٣) رواه أبو داوود (٨٨٦) وبزيادة : (وبحمده) عنده (٨٦٩) ، والترمذي (٢٦١) ، وابن ماجه (٨٨٨) .
(٤) رواه مسلم (٤٨٧) .

الثناءِ والمجدِ أحقُّ ما قالَ العبدُ ، وكلُّنا لكَ عبدٌ ، لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منكَ الجَدُّ[1] .

* * *

فإذا سجدتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لكَ سجدتُ ، وبكَ آمنتُ ، ولكَ أسلمتُ ، سجدَ وجهي للذي خلقَهُ وصوَّرَهُ ، وشقَّ سمعَهُ وبصرَهُ ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ[2] ، اللهمَّ ؛ سجدَ لكَ سوادي وخيالي ، وبكَ آمنَ فؤادي ، أبوءُ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي وهـٰذا ما جنيتُ علىٰ نفسي ، فاغفرْ لي ؛ فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[3] .

أوْ تقولُ : (سبحانَ ربيَ الأعلىٰ) ثلاثَ مرَّاتٍ[4] .

* * *

فإذا فرغتَ مِنَ الصلاةِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ[5] ، وتدعو بسائرِ الأدعيةِ التي ذكرناها .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٤٧١ ، ٤٧٧) ، دون : (سمع الله لمن حمده) ، وهي عند أبي داوود (٨٤٧) ، والنسائي (٢/ ١٩٨) .

(٢) إلىٰ هنا عند مسلم (٧٧١) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٣) ضمن دعاء قد تقدم .

(٤) رواه أبو داوود (٨٨٦) ، وبزيادة (وبحمده) عنده (٨٦٩) ، والترمذي (٢٦١) ، وابن ماجه (٨٨٨) .

(٥) رواه مسلم (٥٩١) ، وفيه الاستغفار ثلاثاً قبله ، و(٥٩٢) دون ذكر الاستغفار .

فإذا قمتَ مِنَ المجلسِ وأردتَ دعاءً يكفِّرُ لغوَ المجلسِ.. فقلْ : سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي ، فاغفرْ لي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[1] .

* * *

فإذا دخلتَ السوقَ.. فقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ[2] ، باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذهِ السوقِ وخيرَ ما فيها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّها وشرِّ ما فيها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أصيبَ فيها يميناً فاجرةً أوْ صفقةً خاسرةً[3] .

* * *

فإنْ كانَ عليكَ دينٌ.. فقلِ : اللهمَّ ؛ اكفني بحلالِكَ عنْ حرامِكَ ، وأغنني بفضلِكَ عمَّنْ سواكَ[4] .

* * *

فإذا لبستَ ثوباً جديداً.. فقلِ : اللهمَّ ؛ كسوتَني هـٰذا الثوبَ فلكَ

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٨٨) بتمامه .
(٢) رواه الترمذي (٣٤٢٨) ، وابن ماجه (٢٢٣٥) .
(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٩) .
(٤) رواه الترمذي (٣٥٦٣) .

الحمدُ ، أسألُكَ مِنْ خيرِهِ وخيرِ ما صُنِعَ لهُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما صُنِعَ لهُ[١] .

* * *

وإذا رأيتَ شيئاً مِنَ الطيرةِ تكرهُهُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لا يأتي بالحسناتِ إلا أنتَ ، ولا يذهبُ بالسيئاتِ إلا أنتَ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[٢] .

* * *

وإذا رأيتَ الهلالَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أهلَّهُ علينا بالأمنِ والإيمانِ ، والبرِّ والسلامةِ والإسلامِ ، والتوفيقِ لما تحبُّ وترضىٰ ، والحفظِ عمَّنْ تسخطُ ، ربِّي وربُّكَ اللهُ[٣] ، وتقولُ : هلالُ رشدٍ وخيرٍ ، آمنتُ بخالقِكَ[٤] ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذا الشهرِ وخيرَ القدرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ يومِ الحشرِ[٥] ، وتكبِّرُ قبلَهُ أولاً ثلاثاً[٦] .

* * *

---

(١) رواه أبو داوود (٤٠٢٠) ، والترمذي (١٧٦٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٩١٩) عن عروة بن عامر ، وأما ما اشتهر على الألسنة عند نعيق الغراب : خير خير . . فلا أصل له في السنة . « إتحاف » (٥/١٠١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٤٥١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٨٢٧) وفيه : (. . . والحفظ مما تسخط) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٩٢) عن قتادة مرسلاً ، مكرّراً : (هلال خير ورشد) ثلاثاً .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٥/٣٢٩) .

(٦) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/١٦٩) عن قتادة مرسلاً .

وإذا هبَّتِ الريحُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذهِ الريحِ وخيرَ ما فيها ، وخيرَ ما أُرسلتْ بهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّها وشرِّ ما فيها ، وشرِّ ما أُرسلتْ بهِ(١) .

* * *

وإذا بلغَكَ وفاةُ أحدٍ . . فقلْ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ اكتبْهُ في المحسنينَ ، واجعلْ كتابَهُ في عليينَ ، واخلفْهُ علىٰ عقبِهِ في الغابرينَ ، اللهمَّ ؛ لا تحرمْنا أجرَهُ ، ولا تفتنَّا بعدَهُ ، واغفرْ لنا ولهُ(٢) .

* * *

وتقولُ عندَ التصدُّقِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

* * *

وتقولُ عندَ الخسرانِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ .

* * *

وتقولُ عندَ ابتداءِ الأمورِ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۞ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٥٢) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٥٩) .

وتقولُ عندَ النظرِ إلى السماءِ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ .

* * *

وإذا سمعتَ صوتَ الرعدِ . . فقلْ : سبحانَ مَنْ يسبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ مِنْ خيفتِهِ[١] .

* * *

وإذا رأيتَ الصواعقَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لا تقتلْنا بغضبِكَ ، ولا تهلكْنا بعذابِكَ ، وعافنا قبلَ ذلكَ[٢] .

* * *

فإذا أمطرتِ السماءُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ سيباً هنيئاً ، وصيباً نافعاً[٣] ، اللهمَّ ؛ اجعلْهُ سيبَ رحمةٍ ، ولا تجعلْهُ سيبَ عذابٍ[٤] .

* * *

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٩٢) عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، وأوقفه ابن أبي شيبة على عبد الله بن الزبير في « المصنف » (٢٩٨٢٤) ، ورفعه ابن جرير في « تفسيره » (٨/١٣/١٥٩) .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٥٠) .

(٣) رواه البخاري (١٠٣٢) ، وابن ماجه (٣٨٨٩) مجموعاً .

(٤) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٩٢٢) عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

وإذا غضبتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، وأذهبْ غيظَ قلبي ، وأجِرْني مِنَ الشيطانِ الرجيمِ(١) .

* * *

وإذا خفتَ قوماً . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنَّا نجعلُكَ في نحورِهِمْ ، ونعوذُ بكَ مِنْ شرورِهِمْ(٢) .

* * *

وإذا غزوتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ عضدي ونصيري ، وبكَ أقاتلُ(٣) .

* * *

وإذا طنَّتْ أذنُكَ . . فصلِّ على محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقلْ : ذكرَ اللهُ بخيرٍ مَنْ ذكرَني(٤) .

* * *

---

(١) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٢٢) من حديث علَّمه عائشة رضي الله عنها .
(٢) رواه أبو داوود (١٥٣٧) .
(٣) رواه أبو داوود (٢٦٣٢) ، والترمذي (٣٥٨٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٥٧٦) .
(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١/٣٢١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٦) .

فإذا رأيتَ استجابةَ دعائِكَ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي بعزَّتِهِ وجلالِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، وإنْ أبطأتْ . . فقلِ : الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ[1] .

* * *

وإذا سمعتَ أذانَ المغربِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ هٰذا استقبالُ ليلِكَ وإدبارُ نهارِكَ ، وأصواتُ دعاتِكَ وحضورُ صلواتِكَ ، أسألُكَ أنْ تغفرَ لي[2] .

* * *

وإذا أصابَكَ همٌّ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ ، ناصيتي بيدِكَ ، ماضٍ فيَّ حكمُكَ ، عدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ ، أسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ سمَّيْتَ بهِ نفسَكَ ، أوْ أنزلتَهُ في كتابِكَ ، أوْ علَّمتَهُ أحداً منْ خلقِكَ ، أوِ استأثرتَ بهِ في علمِ الغيبِ عندَكَ : أنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ، ونورَ صدري ، وجِلاءَ غمِّي ، وذهابَ حزني وهمِّي .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصابَ أحداً حزنٌ فقالَ هٰذا . . إلا أذهبَ اللهُ همَّهُ وأبدلهُ مكانَهُ فرحاً » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أفلا نتعلَّمُها ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلىٰ ، ينبغي لمَنْ سمعَها أنْ يتعلَّمَها »[3] .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٧١) .
(٢) رواه أبو داوود (٥٣٠) دون : (وحضور صلواتك) ، والترمذي (٣٥٨٩) بتمامه .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٩١) .

وإذا وجدتَ وجعاً في جسدِكَ أوْ جسدِ غيرِكَ . . فارقِهِ برقيةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ كانَ إذا اشتكى الإنسانُ قَرحةً أوْ جرْحاً . . وضعَ سبَّابتَهُ على الأرضِ ثمَّ رفعَها وقالَ : « باسمِ اللهِ ، تربةُ أرضِنا بريقةِ بعضِنا ، يُشفىٰ سقيمُنا بإذنِ ربِّنا »[١] .

* * *

وإذا وجدتَ وجعاً في جسدِكَ . . فضَعْ يدَكَ على الذي تألَمَ مِنْ جسدِكَ وقلْ : (باسمِ اللهِ) ثلاثاً ، وقلْ سبعَ مرَّاتٍ : أعوذُ بعزَّةِ اللهِ وقدرتِهِ مِنْ شرِّ ما أجدُ وأُحاذرُ[٢] .

* * *

وإذا أصابَكَ كربٌ . . فقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ العليُّ الحليمُ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ[٣] .

* * *

وإذا أردتَ النومَ . . فتوضَّأ أوَّلاً ، ثمَّ توسَّدْ علىٰ يمينِكَ مستقبلَ القبلةِ ، ثمَّ كبِّرِ اللهَ تعالىٰ أربعاً وثلاثينَ ، وسبِّحْهُ ثلاثاً وثلاثينَ ، واحمدْهُ ثلاثاً

(١) رواه البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٢٠٢) .
(٣) رواه البخاري (٦٣٤٦) ، ومسلم (٢٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٣٥) وعنده لفظة : « العلي الحليم » ، وفي « الصحيحين » : « العظيم الحليم » .

وثلاثينَ(١) ، ثمَّ قلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بكَ مِنْكَ ، اللهمَّ ؛ لا أستطيعُ أنْ أبلغَ ثناءً عليكَ ولوْ حرصتُ ، ولكنْ أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ(٢) ، اللهمَّ ؛ باسمِكَ أحيا وأموتُ(٣) .

اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ، فالقَ الحبِّ والنوىٰ ، ومنزلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ ؛ أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ ، اقضِ عنِّي الدَّيْنَ وأغنني مِنَ الفقرِ(٤) .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقْتَ نفسي وأنتَ تتوفَّاها ، لكَ مماتُها ومحياها ، اللهمَّ ؛ إنْ أمتَّها . . فاغفرْ لها ، وإنْ أحييتَها . . فاحفظْها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ(٥) .

---

(١) كما في « البخاري » (٣١١٣) ، ومسلم (٢٧٢٧) .
(٢) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٩٧) ، وأصل الدعاء في « الصحيح » وقد سبق .
(٣) رواه البخاري (٧٣٩٤) واللفظ له ، ومسلم (٢٧١١) .
(٤) رواه مسلم (٢٧١٣) ، وأبو داوود (٥٠٥١) ، والترمذي (٣٤٨١) ، وقوله : (ومليكه) من دعاء سيدنا الصدِّيق المتقدم .
(٥) رواه مسلم (٢٧١٢) دون قوله : (في الدنيا والآخرة) .

باسمِكَ ربِّي وضعتُ جنبي ، فاغفرْ لي ذنبي[1] ، اللهمَّ ؛ قني عذابَكَ يومَ تجمعُ عبادَكَ[2] .

اللهمَّ ؛ أسلمتُ نفسي إليكَ ، ووجَّهتُ وجهي إليكَ ، وفوضتُ أمري إليكَ ، وألجأتُ ظهري إليكَ ، رغبةً ورهبةً إليكَ ، لا ملجأَ ولا منجا منكَ إلا إليكَ ، آمنتُ بكتابِكَ الذي أنزلْتَ ، وبنبيِّكَ الذي أرسلتَ[3] . ويكونُ هٰذا آخرَ دعائِكَ ، فقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[4] .

وليقلْ قبلَ ذلكَ : اللهمَّ ؛ أيقظْني في أحبِّ الساعاتِ إليكَ ، واستعملْني بأحبِّ الأعمالِ إليكَ ، تقرِّبُني إليكَ زُلْفىٰ ، وتبعدُني مِنْ سخطِكَ بُعداً ، أسألُكَ فتعطيني ، وأستغفرُكَ فتغفرُ لي ، وأدعوكَ فتسْتجيبُ لي[5] .

***

فإذا استيقظتَ مِنْ نومِكَ عندَ الصباحِ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي أحيانا

---

(١) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٧٧٥) ، وعند أبي داوود (٥٠٥٤) : « باسم الله وضعت جنبي ، اللهم اغفر لي ذنبي ، وأخسىء شيطاني ، وفك رهاني ، واجعلني في النديِّ الأعلىٰ » ، وأصل الحديث في « الصحيحين » .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٩٨) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) .

(٤) رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) .

(٥) رواه الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٢٠١٧) ، وعند ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٦/ ٢٢٨) مرفوعاً بنحوه كذلك ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١١٠) .

بعدما أماتنا وإليه النشورُ[(١)] ، أصبحنا وأصبحَ الملكُ للهِ ، والعظمةُ والسلطانُ للهِ ، والعزَّةُ والقدرةُ للهِ[(٢)] ، أصبحنا على فطرةِ الإسلامِ ، وكلمةِ الإخلاصِ ، وعلى دينِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وملَّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركينَ[(٣)] .

اللهمَّ ؛ بكَ أصبحْنا ، وبكَ أمسينا ، وبك نحيا ، وبكَ نموتُ ، وإليكَ المصيرُ[(٤)] .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ أنْ تبعثَنا في هٰذا اليومِ إلىٰ كلِّ خيرٍ ، ونعوذُ بكَ أنْ نجترحَ فيهِ سوءاً أوْ نجرَّهُ إلىٰ مسلمٍ ، فإنَّكَ قلتَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[(٥)] .

اللهمَّ ، فالقَ الإصباحِ ، وجاعلَ الليلِ سكناً والشمسِ والقمرِ حسباناً ؛ أسألُكَ خيرَ هٰذا اليومِ وخيرَ ما فيهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما فيهِ[(٦)] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .

(٢) رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٩٣٨) ، وقوله : (أصبحنا وأصبح الملك لله) عند مسلم (٢٧٢٣) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٠٧) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (١) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٦٨) ، والترمذي (٣٣٩١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٥٢) ، وابن ماجه (٣٨٦٨) .

(٥) كذا في « القوت » (١/ ٣٢) ، وبنحوه عند أبي داوود (٥٠٨٣) ، والترمذي (٣٥٢٩) .

(٦) كذا في « القوت » (١/ ٣٢) ، وإلىٰ قوله : (والقمر حسباناً) عند مالك في « الموطأ » (١/ ٢١٢) بلاغاً مرسلاً ، وتمامه عند أبي داوود (٥٠٨٤) بلفظ : « إنِّي أسألك خير =

باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوّةَ إلاَّ باللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، كلُّ نعمةٍ مِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، الخيرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ(١) .

رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً(٢) ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وإذا أمسيت.. قلتَ ذلك ، إلا أنَّكَ تقولُ : (أمسينا) ، وتقولُ معَ ذلكَ : أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ وأسمائِهِ كلِّها مِنْ شرِّ ما ذرأَ وبرأَ ، ومِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابّةٍ ربِّي آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّي علىٰ صراطٍ مستقيمٍ(٣) .

= هـٰذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » ، وبنحوه عند الطبراني في « الدعاء » (٢٩٥) .

(١) كذا في « القوت » (٩/١) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٣٢٨/٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢٧/١٦) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (٦٩/٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من حديث عبد الرحمـٰن بن عوف : « من قال حين يصبح : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ.. اعتصم من شر الثقلين » ، وفيه : « وإن قالهن حين يمسي.. كن له كذلك حتىٰ يصبح » . وعند مسلم (٢٧٠٩) مرفوعاً : « أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.. لم تضرك » ، قاله لأبي هريرة رضي الله عنه في عقرب لدغته ، وعند الطبراني في « الدعاء » (٣٤٣) : « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة . . . » .

وإذا نظرتَ في المرآةِ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي سوَّىٰ خَلقي فعدَلَهُ ، وكرَّمَ صورةَ وجهي وحسَّنَها ، وجعلَني مِنَ المسلمينَ[1] .

* * *

وإذا اشتريتَ خادماً أوْ غلاماً أوْ دابةً . . فخذْ بناصيتِهِ وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَهُ وخيرَ ما جُبِلَ عليهِ ، وأعوذُ بِكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما جُبِلَ عليهِ[2] .

* * *

وإذا هنَّأتَ بالنكاحِ . . فقلْ : باركَ اللهُ فيكَ ، وباركَ عليكَ ، وجمعَ بينَكُما في خيرٍ[3] .

* * *

وإذا قضيتَ الدَّين . . فقلْ للمقضيِّ لهُ : باركَ اللهُ لكَ في أهلِكَ ومالِكَ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما جزاءُ السلفِ الحمدُ والأداءُ »[4] .

* * *

فهٰذه أدعيةٌ لا يستغني المريدُ عنْ حفظِها ، وما سوىٰ ذلكَ منْ أدعيةِ السفرِ والصلاةِ والوضوءِ ذكرْناها في كتابِ الحجِّ والصلاةِ والطهارةِ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٩١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٢١٦٠) ، وابن ماجه (١٩١٨) .

(٣) رواه أبو داوود (٢١٣٠) ، والترمذي (١٠٩١) ، وابن ماجه (١٩٠٥) .

(٤) رواه النسائي (٧/ ٣١٤) .

فإنْ قلتَ : فما فائدةُ الدعاءِ والقضاءُ لا مردَّ لهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ مِنَ القضاءِ ردَّ البلاءِ بالدعاءِ(١) ، فالدعاءُ سببٌ لردِّ البلاءِ ، واستجلابِ الرحمةِ ؛ كما أنَّ التُّرْسَ سببٌ لردِّ السهمِ ، والماءَ سببٌ لخروجِ النباتِ مِنَ الأرضِ .

فكما أنَّ التُّرْسَ يدفعُ السهمَ فيتدافعانِ . . فكذلكَ الدعاءُ والبلاءُ يتعالجانِ(٢) .

وليسَ مِنْ شرطِ الاعترافِ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ألاَّ يحملَ السلاحَ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ، وألاَّ يسقيَ الأرضَ بعدَ بثِّ البذرِ ، فيقالُ : إنْ سبقَ القضاءُ بالنباتِ . . نبتَ البذرُ ، وإنْ لمْ يسبقْ . . لم ينبتْ !

بلْ ربطُ الأسبابِ بالمسبَّباتِ هوَ القضاءُ الأوَّلُ الذي هوَ كلمحِ البصرِ أوْ هوَ أقربُ .

وترتُّبُ تفصيلِ المسبَّباتِ علىٰ تفاصيلِ الأسبابِ على التدريجِ والتقديرِ هوَ

---

(١) بمعنىٰ : أن الله تعالىٰ قدَّر علىٰ من يوقع البلاء به عدمَ الدعاء ، وقدر علىٰ من لم يوقع عليه البلاء وجودَ الدعاء ، ويشهد لذلك ما أخرجه الترمذي (٢٠٦٥) : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أرأيت رُقًى نسترقيها ، ودواءً نتداوىٰ به ، وتقاةً نتقيها : هل تردُّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قدر الله » . « إتحاف » (٥/ ١١٥) .

(٢) روى الطبراني في « الأوسط » (٢٥١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٢) مرفوعاً : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء ، يعتلجان إلىٰ يوم القيامة » .

القدرُ ، والذي قدَّرَ الخيرَ قدَّرَهُ بسببٍ ، والذي قدَّرَ الشرَّ قدَّرَ لدفعِهِ سبباً ، فلا تناقضَ بينَ هـٰذهِ الأمورِ عندَ مَنِ انفتحتْ بصيرتُهُ .

ثمَّ في الدعاءِ مِنَ الفائدةِ ما ذكرناهُ في الذكرِ ؛ فإنَّهُ يستدعي حضورَ القلبِ معَ اللهِ ، وهوَ منتهى العباداتِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ مُخُّ العبادةِ »(١) .

والغالبُ على الخلقِ أنَّهُ لا تنصرفُ قلوبُهُم إلىٰ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا عندَ إلمامِ حاجةٍ وإرهاقِ ملمَّةٍ ، فإنَّ الإنسانَ إذا مسَّهُ الشرُّ . . فذو دعاءٍ عريضٍ ، فالحاجةُ تحوجُ إلى الدعاءِ ، والدعاءُ يردُّ القلبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالتضرُّعِ والاستكانةِ ، فيحصلُ بهِ الذكرُ الذي هوَ أشرفُ العباداتِ ، ولذلكَ صارَ البلاءُ موكلاً بالأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ ؛ لأنَّهُ يردُّ القلبَ بالافتقارِ والتضرعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويمنعُ مِنْ نسيانِهِ ، وأمَّا الغنىٰ . . فسببٌ للبطرِ في غالبِ الأمرِ ، فإنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ(٢) .

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) .

(٢) ومن فوائد الدعاء : أنه اشتغال بذكر الحق ، وذلك يوجب مقام الهيبة في القلوب ، والإنابة في الطاعة ، والانقلاع عن المعاصي ، ولزوم الباب يستدعي الإذن في الدخول ، ولهـٰذا قيل : من أدمن قرع الباب ولجَّ . . ولج ، وكان يقال : الإذن في الدعاء خير من العطاء ، ومنها : أن ملازمة الدعاء دافعة للبلاء والشقاء ؛ كما قال تعالىٰ حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ ، وعن زكريا عليه السلام : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . « إتحاف » (٥/١١٧) .

فهٰذا ما أردْنا أنْ نوردَهُ مِنْ جملةِ الأذكارِ والدعواتِ واللهُ الموفِّقُ للخيرِ ، وأمَّا بقيةُ الدعواتِ في الأكلِ والسفرِ وعيادةِ المرضىٰ وغيرِها . . فستأتي في مواضعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وعلى اللهِ التكلانُ[١] .

* * *

تمّ كتاب الأذكار والدّعوات

وهو الكتاب التّاسع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين
بحمد الله وحسن توفيقه ، والصّلاة على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه
ويتلوه كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات ، وتفصيل إحياء الليل

---

(١) في هامش (د) : (قوبل بأصله وصحح) .

كتاب

ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من ربع العبادات

من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نحمدُ اللهَ علىٰ آلائِهِ حمداً كثيراً ، ونذكرُهُ ذكراً لا يغادرُ في القلبِ استكباراً ولا نفوراً(١) ، ونشكرُهُ إذْ جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لمَنْ أرادَ أنْ يذكَّرَ أوْ أرادَ شُكوراً .

ونصلِّي علىٰ نبيِّهِ الذي بعثَهُ بالحقِّ بشيراً ونذيراً ، وعلىٰ آلِهِ الطاهرينَ وصحبِهِ الأكرمينَ الذينَ اجتهدوا في عبادةِ اللهِ تعالىٰ غدوةً وعشياً وأصيلاً وبكوراً ، حتَّىٰ أصبحَ كلُّ واحدٍ منهُم نجماً في الدينِ هادياً وسراجاً منيراً .

أما بعد :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الأرضَ ذلولاً لعبادِهِ لا ليستقرُّوا في مناكبِها ، بلْ ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهُمْ في سفرِهِمْ إلى أوطانِهِمْ ، ويكتنزونَ منها تحفاً لنفوسِهِمْ عملاً وفضلاً ، محترزينَ مِنْ مصايدِها ومعاطبِها ، ويتحقَّقونَ أنَّ العمرَ يسيرُ بهِمْ سيرَ السفينةِ براكبِها .

فالناسُ في هٰذا العالمِ سَفْرٌ ، وأوَّلُ منازلِهِمُ المهدُ ، وآخرُها اللحدُ ، والوطنُ هوَ الجنَّةُ أوِ النارُ ، والعمرُ مسافةُ السفرِ ، فسِنوهُ مراحلُهُ ، وشهورُهُ

(١) لا يغادر : لا يترك .

فراسخُهُ ، وأيامُهُ أميالُهُ ، وأنفاسُهُ خطواتُهُ ، وطاعتُهُ بضاعتُهُ ، وأوقاتُهُ رؤوسُ أموالِهِ ، وشهواتُهُ وأغراضُهُ قطَّاعُ طريقِهِ ، وربحُهُ الفوزُ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ في دارِ السلامِ معَ المُلْكِ الكبيرِ والنعيمِ المقيمِ ، وخسرانُهُ البعدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ الأنكالِ والأغلالِ والعذابِ الأليمِ في دركاتِ الجحيمِ .

فالغافلُ عنْ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ حتَّىٰ ينقضيَ في غيرِ طاعةٍ تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ زُلفىٰ . . متعرضٌ في يومِ التغابنِ لغَبينَةٍ وحسرةٍ ما لها منتهىً(١) .

ولهٰذا الخطرِ العظيمِ والخطبِ الهائلِ شمَّرَ الموفَّقونَ عنْ ساقِ الجدِّ ، وودَّعوا بالكلِّيَّةِ ملاذَّ النفسِ ، واغتنموا بقايا العمرِ ، ورتَّبوا بحسبِ تكرُّرِ الأوقاتِ وظائفَ الأورادِ ؛ حرصاً علىٰ إحياءِ الليلِ والنهارِ ، في طلبِ القربِ مِنَ الملكِ الجبَّارِ ، والسعيِ إلىٰ دارِ القرارِ .

فصارَ مِنْ مهمَّاتِ علمِ طريقِ الآخرةِ تفصيلُ القولِ في كيفيَّةِ قسمةِ الأورادِ وتوزيعِ العباداتِ التي سبقَ شرحُها علىٰ مقاديرِ الأوقاتِ ، ويتضحُ هٰذا المهمُّ بذكْرِ بابينِ :

البابُ الأوّلُ : في فضيلةِ الأورادِ ، وترتيبِها في الليلِ والنهارِ .

البابُ الثاني : في كيفيةِ إحياءِ الليلِ ، وفضيلتِهِ وما يتعلَّقُ بهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) **الغبينة** : هي من الغبن كالشتيمة من الشتم ، وأهل الجنة يغبنون أهل النار فيرثون منازلهم في الجنة ، ويورِّثونهم منازلهم من النار . والمثلُ الذي ساقه المصنف بعد فصل الخطاب في تشبيه الإنسان والدنيا بالمسافر والسفر حكاه في كتابه « فضائح الباطنية » (ص ٢٢٥) .

البَابُ الأَوّلُ
في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد ، وبيان أنّ المواظبة عليها هي الطّريق إلى الله عزّ وجلّ

اعلمْ : أنَّ الناظرينَ بنورِ البصيرةِ علموا أنَّهُ لا نجاةَ إلا في لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ لا سبيلَ إلى اللقاءِ إلا بأنْ يموتَ العبدُ محباً للهِ تعالىٰ ، وعارفاً باللهِ سبحانَه ، وأنَّ المحبَّةَ والأُنسَ لا تحصلُ إلا مِنْ دوامِ ذكْرِ المحبوبِ والمواظبةِ عليهِ ، وأنَّ المعرفةَ لا تحصلُ إلا بدوامِ الفكْرِ فيهِ وفي صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وليسَ في الوجودِ سوى اللهِ تعالىٰ وأفعالِهِ ، ولنْ يتيسَّرَ دوامُ الذكْرِ والفكْرِ إلا بوداعِ الدنيا وشهواتِها ، والاجتزاءِ منها بقدْرِ البلغةِ والضرورةِ ، وكلُّ ذلكَ لا يتمُّ إلا باستغراقِ أوقاتِ الليلِ والنهارِ في وظائفِ الأذكارِ والإفكارِ .

والنفسُ لمَا جُبلتْ عليهِ مِنَ السآمةِ والمَلالِ لا تصبرُ علىٰ فنٍّ واحدٍ مِنَ الأسبابِ المعينةِ على الذكرِ والفكرِ ، بلْ إذا رُدَّتْ إلىٰ نمطٍ واحدٍ . أظهرتِ المَلالَ والاستثقالَ ، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا ، فمِنْ ضرورةِ اللطفِ بها أنْ تروَّحَ بالتنقُّلِ مِنْ فنٍّ إلىٰ فنٍّ ، ومِنْ نوعٍ إلىٰ نوعٍ ، بحسَبِ كلِّ وقتٍ ؛ لتغزُرَ بالانتقالِ لذَّتُها ، وتعظمَ باللذَّةِ رغبتُها ، وتدومَ بدوامِ الرغبةِ مواظبتُها ؛ فلذلكَ تُقسَّمُ الأورادُ قسمةً مختلفةً .

والذكرُ والفكرُ ينبغي أنْ يستغرقا جميعَ الأوقاتِ أوْ أكثرَها ، فإنَّ النفسَ بطبعِها مائلةٌ إلىٰ ملاذِّ الدنيا ، فإنْ صرفَ العبدُ شطرَ أوقاتِهِ إلىٰ تدبيراتِ الدنيا وشهواتِها المباحةِ مثلاً ، والشطرَ الآخرَ إلى العباداتِ . . رجحَ جانبُ الميلِ إلى الدنيا ؛ لموافقتِها الطبعَ ، إذْ يكونُ الوقتُ متساوياً ، فأنَّىٰ يتقاومانِ والطبعُ لأحدِهما مرجِّحٌ ؟ إذِ الظاهرُ والباطنُ يتساعدانِ علىٰ أمورِ الدنيا ، ويصفو في طلبِها القلبُ ويتجرَّدُ ، وأمَّا الردُّ إلى العباداتِ . . فمتكلَّفٌ ، ولا يسلمُ إخلاصُ القلبِ فيهِ وحضورُهُ إلا في بعضِ الأوقاتِ .

فمَنْ أرادَ أنْ يدخلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ . . فليستغرقْ أوقاتَهُ في الطاعةِ ، ومَنْ أرادَ أنْ تترجَّحَ كفَّةُ حسناتِهِ وتثقُلَ موازينُ خيراتِهِ . . فليستوعبْ في الطاعةِ أكثرَ أوقاتِهِ ، فإنْ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً . . فأمرُهُ مخطرٌ ، ولكنِ الرجاءُ غيرُ منقطعٍ ، والعفوُ مِنْ كرمِ اللهِ عزَّ وجلَّ منتظرٌ ، فعسى اللهُ أنْ يغفرَ لهُ بجودِهِ وكرمِهِ .

فهـٰذا ما انكشفَ للناظرينَ بنورِ البصيرةِ ، فإنْ لمْ تكنْ مِنْ أهلِهِ . . فانظرْ إلىٰ خطابِ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِهِ واقتبسْهُ بنورِ الإيمانِ ، فقدْ قالَ تعالىٰ لأقربِ عبادِهِ إليهِ وأرفعِهِمْ درجةً لديهِ : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۞ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

ثمَّ انظرْ كيفَ وصفَ الفائزينَ مِنْ عبادِهِ ، وبماذا وصفَهُمْ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ .

وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أيْ : فسبِّحوا اللهَ حينَ تمسونَ وحينَ تصبحون .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ .

فهٰذا كلُّهُ يبيِّنُ لكَ أنَّ الطريقَ إلى اللهِ تعالىٰ مراقبةُ الأوقاتِ ، وعمارتُها بالأورادِ علىٰ سبيلِ الدوامِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الذينَ يراعونَ الشمسَ والقمرَ والأظلَّةَ لذكرِ اللهِ تعالىٰ »(١) ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۞ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ .

فلا تظنَّنَّ أنَّ المقصودَ مِنْ سيرِ الشمسِ والقمرِ بحسبانٍ منظومٍ مرتَّبٍ ، ومِنْ خلقِ الظلِّ والنورِ والنجومِ . . أنْ يستعانَ بها علىٰ أمورِ الدنيا ، بلْ لتعرفَ بها مقاديرَ الأوقاتِ ، فتشتغلَ فيها بالطاعاتِ والتجارةِ للدارِ الآخرةِ ،

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٠٤) ، والطبراني في « الدعاء » (١٨٧٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٢٧) .

يدلُّكَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أيْ : يخلفُ أحدُهما الآخرَ ليتداركَ في أحدِهما ما فاتَ في الآخرِ ، وبيَّنَ أنَّ ذلكَ للذكرِ والشكرِ لا لغيرِه .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ، وإنَّما الفضلُ المبتغىٰ هوَ الثوابُ والمغفرةُ ، ونسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضيهِ .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلمْ : أنَّ أورادَ النهارِ سبعةٌ : فما بينَ طلوعِ الصبحِ إلىٰ طلوعِ قرْصِ الشمسِ وِردٌ ، وما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ وِردانِ ، وما بينَ الزوالِ إلىٰ وقتِ العصرِ وِردانِ ، وما بينَ العصرِ إلى المغربِ وِردانِ .

والليلُ يقسمُ بأورادٍ أربعةٍ : وِردانِ مِنَ المغربِ إلىٰ وقتِ نومِ الناسِ ، ووِردانِ مِنَ النصفِ الأخيرِ مِنَ الليلِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ ، ثمَّ وِردٌ خامسٌ وهو وِردُ النومِ ، مختصٌّ بالأذكارِ والأدعيةِ .

* * *

فلنذكرْ وظيفةَ كلِّ وردٍ وفضيلتَهُ وما يتعلَّقُ بهِ :

بيان أوراد النهار (١)

فالوردُ الأوّلُ ما بينَ طلوعِ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ :

وهوَ وقتٌ شريفٌ ، ويدلُّ علىٰ شرفِهِ وفضلِهِ إقسامُ اللهِ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، وتمدُّحُهُ بهِ إذْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، وإظهارُهُ القدرةَ بقبضِ الظلِّ فيهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، وهوَ وقتُ قبضِ ظلِّ الليلِ ببسطِ نورِ الشمسِ ، وإرشادُهُ عزَّ وجلَّ الناسَ إلى التسبيحِ فيهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ١
ٱلنَّهَارِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢) .

* * *

وأمّا ترتيبُهُ : فليأخذْ مِنْ وقتِ انتباهِهِ مِنَ النومِ ، فإذا انتبهَ . . فينبغي أنْ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٤٧) عن علقمة بن قيس قال : (بلغنا أن الأرض تعج إلى الله من نومة العالم بعد صلاة الصبح) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٤٤٠٥) عن السيدة فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها قالت : مرَّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة متصبحة ، فحركني برجله ثم قال : « يا بنيّة ؛ قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين ، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس » .

يبتدىءَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيقولُ : (الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتَنا وإليهِ النشورُ)[1] ، إلىٰ آخرِ الأدعيةِ والآياتِ التي ذكرناها في دعاءِ الاستيقاظِ مِنْ كتابِ الدعواتِ .

وليلبسْ ثوبَهُ وهوَ في الدعاءِ ، وينوي بهِ سترَ عورتِهِ امتثالاً لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ واستعانةً علىٰ عبادتِهِ ، مِنْ غيرِ قصدِ رياءٍ ولا رعونةٍ .

ثمَّ يتوجَّهُ إلىٰ بيتِ الماءِ إنْ كانَ بهِ حاجةٌ ، ويُدخِلُ أولاً رِجْلَهُ اليسرىٰ ، ويدعو بالأدعيةِ التي ذكرناها في كتابِ الطهارةِ عندَ الدخولِ والخروجِ .

ثمَّ يستاكُ على السنةِ كما سبقَ ، ويتوضَّأُ مراعياً لجميعِ السننِ والأدعيةِ التي ذكرناها في الطهارةِ ، فإنَّا إنَّما قدمْنا آحادَ العباداتِ لكي نذكرَ في هٰذا الكتابِ وجهَ التركيبِ والترتيبِ فقطْ .

فإذا فرغَ مِنَ الوضوءِ . . صلَّىٰ ركعتي الصبحِ ؛ أعني : السنَّةَ في منزلِهِ ، كذلكَ كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] ، ويقرأُ بعدَ الركعتينِ ـ سواءً أدَّاهُما في البيتِ أوْ في المسجدِ ـ الدعاءَ الذي رواهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ويقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي) إلىٰ آخرِ الدعاءِ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .

(٢) رواه البخاري (١١٧٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٩) ، والترمذي (٣٤١٩) .

ثمَّ يخرجُ مِنَ البيتِ متوجِّهاً إلى المسجدِ ، ولا ينسىٰ دعاءَ الخروجِ إلى المسجدِ[(١)] ، ولا يسعىٰ إلى الصلاةِ ، بلْ يمشي وعليهِ السكينةُ والوقارُ كما وردَ بهِ الخبرُ[(٢)] ، ولا يشبِّكُ بينَ أصابعِهِ ويدخلُ المسجدَ ويقدِّمُ رجلَهُ اليمنىٰ ويدعو بالدعاءِ المأثورِ لدخولِ المسجدِ[(٣)] ، ثمَّ يطلبُ مِنَ المسجدِ الصفَّ الأوَّلَ إنْ وجدَ متَّسعاً ، ولا يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ولا يزاحمُ ؛ كما سبقَ ذكرُهُ في كتابِ الجمعةِ .

ثمَّ يصلِّي ركعتي الفجرِ إنْ لمْ يكنْ صلاَّهما في المنزلِ ، ويشتغلُ بالدعاءِ المذكورِ بعدَهما ، وإنْ كانَ قدْ صلَّىٰ ركعتي الفجرِ . صلَّىٰ ركعتي التحيَّةِ وجلسَ منتظراً للجماعةِ .

والأحبُّ التغليسُ بالجماعةِ ؛ فقدْ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يغلِّسُ بالصبحِ[(٤)] ، ولا ينبغي أنْ يدعَ الجماعةَ في الصلاةِ عامةً وفي الصبحِ والعشاءِ خاصةً ؛ فلهُما زيادةُ فضلٍ ، فقدْ روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ في صلاةِ الصبحِ : « مَنْ توضَّأَ ثمَّ توجَّهَ إلىٰ مسجدٍ يصلِّي فيهِ الصلاةَ . . كانَ لهُ بكلِّ خطوةٍ حسنةٌ ، ومُحِيَ عنهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .

(٢) فيما رواه البخاري (٦٣٦) ، ومسلم (٦٠٢) مرفوعاً : « إذا ثوِّب للصلاة . . فلا يسعَ إليها أحدكم ، ولكن ليمشِ وعليه السكينة والوقار ، صلِّ ما أدركت ، واقضِ ما سبقك » .

(٣) رواه الترمذي (٣١٤) ، وابن ماجه (٧٧١) .

(٤) كما في « البخاري » (٥٦٠) ، و« مسلم » (٦٤٦) .

سيئةٌ ، والحسنةُ بعشْرِ أمثالِها ، فإذا صلَّىٰ ثمَّ انصرفَ عندَ طلوعِ الشمسِ . . كُتِبَ لهُ بكلِّ شعرةٍ في جسدِهِ حسنةٌ ، وانقلبَ بحجَّةٍ مبرورةٍ ، فإنْ جلسَ حتَّىٰ يركعَ . . كُتِبَ لهُ بكلِّ ركعةٍ ألفا ألفِ حسنةٍ ، ومَنْ صلَّى العتمةَ . . فلهُ مثلُ ذلكَ ، وانقلبَ بعمرةٍ مبرورةٍ »(١) .

وكانَ مِنْ عادةِ السلفِ دخولُ المسجدِ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، قالَ رجلٌ مِنَ التابعينَ : دخلتُ المسجدَ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، فلقيتُ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قدْ سبقَني ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ لأيِّ شيءٍ خرجتَ مِنْ منزلِكَ في هـٰذهِ الساعةِ ؟ فقلتُ : لصلاةِ الغداةِ ، فقالَ : أبشرْ ؛ فإنَّا كنَّا نعدُّ خروجَنا وقعودَنا في المسجدِ في هـٰذهِ الساعةِ بمنزلةِ غزوةٍ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ قالَ : معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

وعنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طرقَهُ وفاطمةَ رضيَ اللهُ عنهُما وهما نائمانِ ، فقالَ : « ألا تصلُّونَ ؟ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّما أنفسُنا بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذا شاءَ أنْ يبعثَنا . . بعثَنا ، فانصرفَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسمعتُهُ وهوَ مدبرٌ يضربُ فخذَهُ ويقولُ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ »(٣) .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٢١) بنحوه ، وانظر « قوت القلوب » (٢٧/١) .

(٢) قوت القلوب (٤٣/١) .

(٣) رواه البخاري (١١٢٧ ، ٧٣٤٧) ، ومسلم (٧٧٥) .

ثمَّ ينبغي أنْ يشتغلَ بعدَ ركعتي الفجرِ ودعائِهِ بالاستغفارِ والتسبيحِ إلىٰ أنْ تقامَ الصلاةُ ، فيقولَ : (أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأتوبُ إليهِ) سبعينَ مرَّةً ، و(سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) مئةَ مرَّةٍ .

ثمَّ يصلي الفريضةَ مراعياً جميعَ ما ذكرناهُ مِنَ الآدابِ الباطنةِ والظاهرةِ في الصلاةِ والقدوةِ ، فإذا فرغَ منها . . قعدَ في المسجدِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ مشتغلاً في ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ كما سنرتبُهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ أقعدَ في مجلسٍ أذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ مِنْ صلاةِ الغداةِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعْتقَ أرْبعَ رقابٍ »[١] .

ورُوي أنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا صلَّى الغداةَ . . قعدَ في مصلاَّهُ حتَّىٰ تطلعَ الشمسُ[٢] ، وفي بعضِها : ويصلِّي ركعتينِ[٣] ؛ أي : بعدَ الطلوعِ ، وقدْ وردَ في فضلِ ذلكَ ما لا يحصىٰ .

وروى الحسنُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ فيما يذكرُ مِنْ رحمةِ ربِّهِ يقولُ : « إنَّهُ تعالىٰ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ اذكرني بعدَ صلاةِ الفجرِ

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٧) .

(٢) رواه مسلم (٦٧٠) .

(٣) روى الترمذي (٥٨٦) مرفوعاً : « من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتىٰ تطلع الشمس ، ثم صلىٰ ركعتين . . كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » .

ساعةً وبعدَ صلاةِ العصرِ ساعةً . . أكفِكَ ما بينَهُما »[١] .

وإذا ظهرَ فضلُ ذلكَ . . فليقعدْ ولا يتكلَّمْ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، بلْ ينبغي أنْ تكونَ وظيفتُهُ إلى الطلوعِ أربعةَ أنواعٍ : أدعيةٌ ، وأذكارٌ يكرِّرُها في سبْحَةٍ ، وقراءةُ قرآنٍ ، وتفكرٌ .

* * *

أمَّا الأدعيةُ : فكما يفرغُ مِنْ صلاتِهِ فليبدأْ وليقلْ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، وإليكَ يعودُ السلامُ ، حيِّنا ربَّنا بالسلامِ ، وأدخلْنا دارَ السلامِ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ .

ثمَّ يفتتحُ الدعاءَ بما كانَ يفتتحُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ قولُهُ : سبحانَ ربِّي العليِّ الأعلى الوهَّابِ[٢] ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ أهلُ النعمةِ والفضلِ ، والثناءِ الحسنِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ولا نعبدُ إلا إيَّاهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرهَ الكافرونَ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٣) عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً ، وذكر الحافظ العراقي أن ابن المبارك رواه في « الزهد » عن الحسن مرسلاً . انظر « الإتحاف » (٥/ ١٢٨) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٨) .

ثمَّ يبتدئُ بالأدعيةِ التي أوردْناها في البابِ الثالثِ والرابعِ مِنْ كتابِ الأدعيةِ ، فيدعو بجميعِها إنْ قدرَ عليهِ ، أوْ يحفظُ مِنْ جملتِها ما يراهُ أوفقَ لحالِهِ ، وأرقَّ لقلبِهِ ، وأخفَّ علىٰ لسانِهِ .

* * *

وأمَّا الأذكارُ المكررةُ : فهيَ كلماتٌ وردَ في تكرارِها فضائلُ لمْ نطولْ بإيرادِها ، وأقلُّ ما ينبغي أنْ يكرِّرَ كلَّ واحدٍ منها ثلاثاً أوْ سبعاً ، وأكثرُهُ مئةٌ أوْ سبعونَ ، وأوسطُهُ عشرٌ ، فليكرِّرْ ذلكَ بقدْرِ فراغِهِ وسَعةِ وقتِهِ ، وفضلُ الأكثرِ أكثرُ ، والأوسطُ الأقصدُ أنْ يكرِّرَها عشرَ مراتٍ ، فهوَ أجدرُ بأنْ يدومَ عليهِ ، وخيرُ الأمورِ أدومُها وإنْ قلَّ ، وكلُّ وظيفةٍ لا يمكنُ المواظبةُ علىٰ كثيرِها فقليلُها معَ المداومةِ أفضلُ وأشدُّ تأثيراً في القلبِ مِنْ كثيرِها مِنْ غيرِ مداومةٍ .

ومثالُ القليلِ الدائمِ مثالُ قطراتِ ماءٍ تتقاطرُ على الأرضِ على التوالي ، فتحدثُ فيها حُفيرةً ولوْ وقعَتْ على الحجرِ ، ومثالُ الكثيرِ المتفرِّقِ مثالُ ما يصبُّ دفعةً أوْ دفعاتٍ متفرقةً متباعدةَ الأوقاتِ ، فلا يبينُ لها أثرٌ ظاهرٌ .

* * *

وهاذهِ الكلماتُ عشرٌ :

الأولىٰ : قولُهُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ

الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ(١) .

الثانيةُ : قولُهُ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ(٢) .

الثالثةُ : قولُهُ : سبُّوحٌ قدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ(٣) .

الرابعةُ : قولُهُ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ(٤) .

الخامسةُ : قولُهُ : أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأسألُهُ التوبةَ(٥) .

السادسةُ : قولُهُ : اللهمَّ ، لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ(٦) .

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) ، والحديث عن فضل التكرار هنا وفيما سيأتي مطلق .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٧٥) بمطلق الاستكثار ، ولفظة : (العلي العظيم) عند ابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٥) .

(٣) رواه مسلم (٤٨٧) ، وورد تكرارها عند ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٣٩) ولفظه مرفوعاً : « أكثر من أن تقول : سبحان الملك القدوس ، ربِّ الملائكة والروح » الحديث ، وهو في ذهاب الوحشة .

(٤) رواه البخاري (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه المستغفري في « الدعوات » من حديث معاذ ، أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات . . كفرت ذنوبه وإن كانت أكثر من زبد البحر ، ولفظه : « وأتوب إليه ») ، ونحوه عند الترمذي (٣٣٩٧) كذلك .

(٦) رواها البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٤٧١ ، ٥٩٣) عقب الصلاة وبعد الركوع مطلقاً .

السادسةُ : قولُهُ : اللهمَّ ، لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ(١) .

السابعةُ : قولُهُ : لا إلـهَ إلا اللهُ الملكُ الحقُّ المبينُ(٢) .

الثامنةُ : قولُهُ : باسمِ اللهِ الذي لا يضرُّ معَ اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهوَ السميعُ العليمُ(٣) .

التاسعةُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِ محمدٍ(٤) .

العاشرةُ : قولُهُ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرونِ(٥) .

---

(١) رواها البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٤٧١ ، ٥٩٣) عقب الصلاة وبعد الركوع مطلقاً .

(٢) هو عند الدارقطني في « العلل » (٣/١٠٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٠) ، والخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » (ص٢٠٤) .

(٣) رواه أبو داوود (٥٠٨٨) ، والترمذي (٣٣٨٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٥٩) ، وابن ماجه (٣٨٦٩) .

(٤) صيغة مركبة من حديثين ، ففي « البخاري » (٤٧٩٨) : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد عبدك ورسولك . . . » الحديث ، وعند أبي داوود (٩٧٩) : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد النبي الأمي وعلىٰ آل محمد » ، والإكثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم مستفيض في دواوين السنة .

(٥) رواه الترمذي (٢٩٢٢) مرفوعاً : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آياتٍ من آخر سورة الحشر . . وكَّلَ اللهُ به سبعين =

فهـٰذهِ العشرُ كلماتٍ إذا كرَّرَ كلَّ واحدةٍ عشرَ مرَّاتٍ . . حصلَ لهُ مئةُ مرَّةٍ ، فهوَ أفضلُ مِنْ أنْ يكرِّرَ ذكراً واحداً مئةَ مرَّةٍ ؛ لأنَّ لكلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الكلماتِ فضلاً علىٰ حيالِها ، وللقلبِ بكلِّ واحدةٍ نوعُ تنبيهٍ وتلذُّذٍ ، وللنفسِ في الانتقالِ مِنْ كلمةٍ إلىٰ كلمةٍ نوعُ استراحةٍ وأمنٍ مِنَ المَلالِ[١] .

* * *

فأمَّا القراءةُ : فيستحبُّ لهُ قراءةُ جملةٍ مِنَ الآياتِ وردتِ الأخبارُ بفضلِها ، وهوَ أنْ يقرأَ : (سورةَ الحمد)[٢] ، وآيةَ الكرسيِّ[٣] ، وخاتمةَ (البقرةِ)[٤] ؛ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ ، و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآيتينِ[٥] ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

= ألف ملك يصلون عليه حتىٰ يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم . . مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي . . كان بتلك المنزلة » .

(١) قوت القلوب (١/٦) .

(٢) فهي أعظم سورة في القرآن كما في « البخاري » (٤٤٧٤) .

(٣) وهي أعظم آية في القرآن كما في « مسلم » (٨١٠) .

(٤) أتىٰ فضلها في « البخاري » (٤٠٠٨) ، ومسلم (٨٠٧) .

(٥) روىٰ في فضلها ابن السني في « عمل اليوم والليلة » مرفوعاً : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، والآيتين من (آل عمران) ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ ﴾ ، معلقات ما بينهن وبين الله عز وجل حجاب ، لما أراد الله أن ينزلهن . . تعلقن بالعرش ، قلن : ربنا تهبطنا إلىٰ أرضك وإلىٰ من =

أَنفُسِكُمْ﴾ إلىٰ آخرِها(١) ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ آخرِها(٢) ، وقولَهُ سبحانَهُ : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآيةَ(٣) ، وخمسَ آياتٍ مِنْ أوّلِ (الحديدِ)(٤) ، وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ (سورةِ الحشرِ)(٥) .

= يعصيك ؟ فقال الله عز وجل : بي حلفت ؛ لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه علىٰ ما كان منه ، وإلا أسكنته حظيرة القدس . . . » الحديث .

(١) روىٰ في فضل الآية الخاتمة منها الطبراني في « الدعاء » (١٠٥٩) ، ونقل الحافظ عن أبي القاسم الغافقي في « فضائل القرآن » لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لزم قراءة : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ . . لم يمت هدماً ولا غرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بحديدة » . انظر « الإتحاف » (٥/ ١٣٣) .

(٢) روى البخاري (٤١٧٧) في فضل السورة عموماً قولَه صلى الله عليه وسلم : « لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ » ، وروى الثعلبي في « تفسيره » (٩/ ٤٠) عن يزيد بن هارون يقول : سمعت المسعودي يذكر قال : بلغني أن من قرأ في أول ليلة من رمضان ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ في التطوع . . حفظ ذلك العام .

(٣) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٩) مرفوعاً : « آية العز : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ » الآيةَ كلَّها .

(٤) ذكر أبو القاسم الغافقي في « فضائل القرآن » من حديث علي رضي الله عنه : (إذا أردت أن تسأل الله حاجة . . فاقرأ خمس آيات من أول « سورة الحديد » إلىٰ قوله : ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ، ومن آخر « سورة الحشر » من قوله : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلىٰ آخر السورة ، ثم تقول : يا من هو كذا ؛ افعل بي كذا ، ثم تدعو بما تريد) . « إتحاف » (٥/ ١٣٤) ، وانظر « الدر المنثور » (٨/ ١٢٢) .

(٥) تقدم الحديث في ذكر فضلها تعليقاً ، وروى البيهقي في « الشعب » (٢٢٧١) مرفوعاً : =

وإنْ قرأَ المسبَّعاتِ العشرَ التي أهداها الخضرُ عليهِ السلامُ إلىٰ إبراهيمَ التيميِّ رحمَهُ اللهُ ووصَّاهُ أنْ يقولَها غدوةً وعشيةً . . فقدِ استكملَ الفضلَ ، وجمعَ لهُ ذلكَ فضيلةَ جملةِ الأدعيةِ المذكورةِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ كرزِ بنِ وبرةَ وكانَ مِنَ الأبدالِ رحمهُ اللهُ قالَ : أتاني أخٌ لي مِن أهلِ الشامِ ، فأهدىٰ لي هديةً وقالَ : يا كرزُ ؛ اقبلْ منِّي هٰذهِ الهديةَ ؛ فإنَّها نعمتِ الهديةُ ، فقلتُ : يا أخي ؛ ومَنْ أهدىٰ لكَ هٰذهِ الهديةَ ؟ قالَ : أعطانيها إبراهيمُ التيميُّ ، قلتُ : أفلمْ تسألْ إبراهيمَ التيميَّ مَنْ أعطاهُ إيَّاها ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : كنتُ جالساً في فِناءِ الكعبةِ وأنا في التهليلِ والتسبيحِ والتحميدِ والتمجيدِ ، فجاءني رجلٌ ، فسلَّمَ عليَّ وجلسَ عنْ يميني ، فلمْ أرَ في زماني أحسنَ منهُ وجهاً ، ولا أحسنَ منهُ ثياباً ، ولا أشدَّ بياضاً ، ولا أطيبَ ريحاً منهُ ، فقلتُ : يا عبدَ اللهِ ؛ مَنْ أنتَ ، ومِنْ أينَ جئتَ ، فقالَ : أنَا الخضرُ ، فقلتُ : في أيِّ شيءٍ جئتني ؟ فقالَ : جئتُكَ للسلامِ عليكَ وحبّاً لكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعندي هديةٌ أريدُ أنْ أهديَها إليكَ ، فقلتُ : ما هيَ ؟ قالَ : أنْ تقرأَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وانبساطِها على الأرضِ وقبلَ الغروبِ (سورةَ الحمدِ) ، و(قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) و(قلْ أعوذُ بربِّ الفلقِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وآيةَ الكرسيِّ ، كلَّ واحدةٍ سبعَ مرَّاتٍ ، وتقولَ :

= « من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته . . فقد أوجب الجنة » .

(سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) سبعاً ، وتصلِّيَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبعاً ، وتستغفرَ لنفسِكَ ولوالديكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ سبعاً ، وتقولَ : اللهمَّ ؛ افعلْ بي وبهِمْ عاجلاً وآجلاً في الدينِ والدنيا والآخرةِ ما أنتَ لهُ أهلٌ ، ولا تفعلْ بنا يا مولانا ما نحنُ لهُ أهلٌ ، إنَّكَ غفورٌ حليمٌ[1] جوادٌ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ سبعَ مرَّاتٍ ، وانظرْ ألاَّ تدعَ ذلكَ غدوةً وعشيةً .

فقلتُ : أحبُّ أنْ تخبرَني مَنْ أعطاكَ هـٰذهِ العطيةَ العظيمةَ ؟ فقالَ : أعطانيها محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : أخبرْني بثوابِ ذلكَ ، فقالَ : إذا لقيتَ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسَلْهُ عنْ ثوابِهِ ، فإنَّهُ يخبرُكَ بذلكَ .

فذكرَ إبراهيمُ التيميُّ أنَّهُ رأىٰ ذاتَ ليلةٍ في منامِهِ كأنَّ الملائكةَ جاءتْهُ فاحتملتْهُ حتَّىٰ أدخلوهُ الجنةَ ، فرأىٰ ما فيها ، ووصفَ أموراً عظيمةً ممَّا رآهُ في الجنةِ ، قالَ : فسألتُ الملائكةَ فقلتُ : لمَنْ هـٰذا كلُّهُ ؟ فقالوا : للذي يعملُ مثلَ عملِكَ ، وذكرَ أنَّهُ أكلَ مِنْ ثمرِها وسقوهُ مِنْ شرابِها ، قالَ : فأتاني النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعهُ سبعونَ نبيّاً وسبعونَ صفّاً مِنَ الملائكةِ ، كلُّ صفٍّ مثلُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، فسلَّمَ عليَّ ، وأخذَ

---

(١) الذي في النسخ : (رحيم) بدل (حليم) ، والمثبت من « القوت » (١/ ٧) ، ونسخة الحافظ الزبيدي ، والله أعلم .

بيدي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الخضرَ أخبرَني أنَّهُ سمعَ منكَ هـٰذا الحديثَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : صدقَ الخضرُ ، صدقَ الخضرُ ، وكلُّ ما يحكيهِ فهوَ حقٌّ ، وهوَ عالمُ أهلِ الأرضِ ، وهوَ رئيسُ الأبدالِ ، وهوَ مِنْ جنودِ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأرضِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ فمَنْ فعلَ هـٰذا أو عملَهُ ولمْ يرَ مثلَ الذي رأيتُ في منامي . . هلْ يُعطىٰ شيئاً ممَّا أُعطيتُهُ ؟ فقالَ : والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ إنَّهُ ليعطى العاملُ بهـٰذا وإنْ لمْ يرني ولمْ يرَ الجنَّةَ ، إنَّهُ ليغفرُ لهُ جميعُ الكبائرِ التي عملَها ويرفعُ اللهُ سبحانَهُ عنهُ غضبَهُ ومقتَهُ ، ويأمرُ صاحبَ الشمالِ ألا يكتبَ عليهِ خطيئةً مِنَ السيئاتِ إلىٰ سنةٍ ، والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ ما يعملُ بهـٰذا إلا مَنْ خلقَهُ اللهُ سعيداً ، ولا يتركُهُ إلا مَنْ خلقَهُ اللهُ شقياً(١) .

---

(١) القصة رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/ ٤٢٩) إلىٰ قوله : (وهو من جنود الله عز وجل في الأرض) ، وتمامها عند صاحب « القوت » (١/ ٧) ، قال الحافظ الزبيدي بعد أن حدَّث عن ضعف سندها : (ولكن مثل هـٰذا يغتفر في فضائل الأعمال ، لا سيما وقد تلقته الأمة بالقبول ، والله أعلم) .
وقد حكى الحافظ العراقي عبارة علمية دقيقة في شأن حياة الخضر عليه السلام واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : (ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ، ولا حياته ولا موته) . « إتحاف » (٥/ ١٣٥) ، فنفى الحافظ الصحة عن الخبر ، وهـٰذا لا يمنع ما دونه ، ثم سوَّىٰ في الأخبار الواردة فلا ترجيح ، فكما أنه لم يصح شيء في حياته فكذلك القول في موته ، وكما أنه لم يصح شيء في اجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم فكذلك لم يصح شيء في عدم اجتماعه به ، فعاد الأمر إلىٰ أذواق خاصة في الاستدلال .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يمكثُ أربعةَ أشهرٍ لمْ يطعمْ ولمْ يشربْ ، فلعلَّهُ كانَ بعدَ هـٰذهِ الرؤيا(١) .

فهـٰذهِ وظيفةُ القراءةِ ، فإنْ أضافَ إليها شيئاً ممَّا انتهىٰ إليهِ وِردُهُ مِنَ القرآنِ أوِ اقتصرَ عليهِ . . فهو حسنٌ ؛ فإنَّ القرآنَ جامعٌ لفضلِ الذكرِ والفكرِ والدعاءِ مهما كانَ بتدبُّرٍ كما ذكرنا فضلَهُ وآدابَهُ في كتابِ التلاوةِ .

* * *

= وممن قال بحياته عليه السلام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح في « فتاويه » (١/ ١٨٥) حيث قال : (وأما الخضر عليه السلام . . فهو من الأحياء عند جماهير الخاصة من العلماء والصالحين ، والعامة معهم في ذلك ، وإنما شذَّ بإنكار ذلك بعض أهل الحديث) ، وقال الإمام النووي في « المجموع » (٥/ ٢٦٩) وهو يحكي عن الخضر عليه السلام : (وإنما ذكره أصحابنا ، وفيه دليل منهم لاختيارهم ما هو المختار ، وترجيح ما هو الصواب ، وهو أن الخضر عليه السلام حي باق ، وهـٰذا قول أكثر العلماء) ، وقد قال الإمام المفسر القرطبي في « تفسيره » (١١/ ٤١) وهو يحكي الخلاف : (والصحيح القول الثاني ، وهو أنه حي) .

وهـٰذا لا يمنع وجود أقوال معارضة لذلك ، ووجود من فوَّض الأمر فيه عليه السلام إلى الله تعالىٰ ؛ كما فعل ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمته الطويلة في « الإصابة » (١/ ٤٢٨) وقد ذكره في القسم الأول وقال : (فهو داخل في تعريف الصحابي علىٰ أحد الأقوال ، ولم أر من ذكره فيهم من القدماء مع ذهاب الأكثر إلى الأخذ بما ورد من أخباره في تعميره وبقائه) ، ثم أفرده في كتاب « الزهر النضر في نبأ الخضر » .

(١) قوت القلوب (١/ ٧) .

وأمّا الإفكارُ : فليكنْ ذلكَ أحدَ وظائفِهِ ، وسيأتي تفصيلُ ما يتفكرُ فيهِ وكيفيتُهُ في كتابِ التفكُّرِ مِنْ ربعِ المنجياتِ إنْ شاءَ اللهُ ، ولكنْ مجامعُهُ ترجعُ إلىٰ فنَّيْنِ :

أحدُهما : أنْ يتفكَّرَ فيما ينفعُهُ في المعاملةِ ؛ بأنْ يحاسبَ نفسَهُ فيما سبقَ مِنْ تقصيرِهِ[1] ، ويرتِّبَ وظائفَهُ في يومِهِ الذي بينَ يديهِ ، ويدبِّرَ في دفعِ الصوارفِ والعوائقِ الشاغلةِ لهُ عنِ الخيرِ ، ويتذكَّرَ تقصيرَهُ وما يتطرَّقُ إليهِ الخللُ مِنْ أعمالِهِ ليصلحَهُ ، ويحضرَ في قلبِهِ النيَّاتِ الصالحةَ في أعمالِهِ في نفسِهِ وفي معاملتِهِ للمسلمينَ[2] .

الفنُّ الثاني : فيما ينفعُهُ في علمِ المكاشفةِ ، وذلكَ بأنْ يتفكَّرَ مرَّةً في نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتواترِ آلائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، لتزيدَ معرفتُهُ بها ، ويكثرَ

---

(١) عن الشكر في ظواهر النعم وبواطنها ، وعجزه عن القيام بما أمر به من حسن الطاعة ودوام الشكر على النعمة . « إتحاف » (٥/ ١٣٥) .

(٢) أي : يعقد طريقه علىٰ حسن المعاملة بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخلق ، ويدخل في ذلك التفكر فيما عليه من الأوامر والنوادب ، وفي كثيف ستر الله تعالىٰ ولطيف صنعه به ، ويستغفر الله تعالىٰ ويجدد التوبة لما مضىٰ من عمره ، ولما يأتنف من مستقبله ، ويخلص الدعاء بتمسكن وتضرع ووجل وإخبات أن يعصمه من جميع النهي ، وأن يوفقه لصالح الأعمال ، ويتفضل عليه برغائب الأفضال ، وهو في ذلك فارغ القلب مجرَّد الهم ، موقن بالإجابة راض بالقسم ، ويتكلم بمعروف وخير ، ويدعو به إلى الله عز وجل ، وينفع به أخاه المسلم ، ويعلم من دونه في العلم . « إتحاف » (٥/ ١٣٦) .

شكرُهُ عليها، أوْ في عقوباتِهِ ونقماتِهِ؛ لتزيدَ معرفتُهُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ واستغنائِهِ، ويزيدَ خوفُهُ منها ، ولكلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأمورِ شعبٌ كثيرةٌ يتسعُ التفكُّرُ فيها علىٰ بعضِ الخلقِ دونَ البعضِ ، وإنَّما نستقصي ذلكَ في كتابِ التفكُّرِ .

* * *

ومهما تيسَّرَ الفكرُ . . فهوَ أشرفُ العباداتِ ؛ إذْ فيهِ معنى الذكرِ للهِ سبحانَهُ وزيادةُ أمرينِ :

أحدُهما : زيادةُ المعرفةِ ؛ إذِ الفكرُ مفتاحُ المعرفةِ والكشفِ[1] .

والثاني : زيادةُ المحبَّةِ ؛ إذْ لا يحبُّ القلبُ إلا مَنِ اعتقدَ تعظيمَهُ ، ولا تنكشفُ عظمةُ اللهِ سبحانَهُ وجلالُهُ إلا بمعرفةِ صفاتِهِ ، ومعرفةِ قدرتِهِ ، وعجائبِ أفعالِهِ ، فيحصلُ مِنَ الفكرِ المعرفةُ ، ومِنَ المعرفةِ التعظيمُ ، ومِنَ التعظيمِ المحبَّةُ .

والذكرُ أيضاً يورثُ الأنسَ ، وهوَ نوعٌ مِنَ المحبَّةِ ، ولكنِ المحبَّةُ التي سببُها المعرفةُ أقوىٰ وأثبتُ وأعظمُ ، ونسبةُ محبةِ العارفِ إلىٰ أنسِ الذاكرِ مِنْ غيرِ تمامِ الاستبصارِ كنسبةِ عشقِ مَنْ شاهدَ جمالَ شخصٍ بالعينِ واطلعَ علىٰ

---

(١) لأنه إدارة فكر وتصرف قلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب ، فالفكر يد النفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات ، وبهـٰذا التصرف القلبي يتدرج إلىٰ فتوح باب المعرفة والكشف الإلهي . « إتحاف » (٥/ ١٣٦) .

حسنِ أخلاقِهِ وأفعالِهِ وفضائِلِهِ وخصالِهِ الحميدةِ بالتجربةِ إلىٰ أنسِ مَنْ كُرِّرَ علىٰ سمعِهِ وصْفُ شخصٍ غائبٍ عنْ عينِهِ بالحسنِ في الخَلْقِ والخُلقِ مطلقاً مِنْ غيرِ تفصيلِ وجوهِ الحسنِ فيهما ، فليسَ محبَّتُهُ لهُ كمحبةِ المشاهدِ ، وليسَ الخبرُ كالمعاينةِ .

والعبادُ المواظبونَ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، الذينَ صدَّقوا بما جاءتْ بهِ الرسلُ بالإيمانِ التقليديِّ . . ليسَ معهُمْ مِنْ محاسنِ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ إلا أمورٌ جُمْليَّةٌ اعتقدوها بتصديقِ مَنْ وصفَها لهُمْ ، والعارفونَ هُمُ الذينَ شاهدوا ذلكَ الجلالَ والجمالَ بعينِ البصيرةِ الباطنةِ التي هيَ أقوىٰ مِنَ البصرِ الظاهرِ لا أنَّ أحداً أحاطَ بكنْهِ جلالِهِ وجمالِهِ ، فإنَّ ذلكَ غيرُ مقدورٍ لأحدٍ مِنَ الخلقِ(١) ، ولكنْ كلُّ واحدٍ شاهدَ بقدْرِ ما رفعَ لهُ مِنَ الحجابِ .

ولا نهايةَ لجمالِ حضرةِ الربوبيةِ ولا لحُجُبِها ، وإنَّما عددُ حُجُبِها التي استحقتْ أنْ تسمَّىٰ نوراً ـ وكادَ أنْ يظنَّ الواصلُ إليها أنَّهُ قدْ تمَّ وصولُهُ إلى الأصلِ ـ سبعونَ حجاباً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ

(١) إذ نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه ، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالىٰ . . . ، وأما اتساع المعرفة إنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته . « إتحاف » (٥/ ١٣٧) .

سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، لوْ كشفَها . . لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ كلَّ ما أدركَ بصرُهُ »[1] .

وتلكَ الحجبُ أيضاً مترتبةٌ ، وتلكَ الأنوارُ متفاوتةٌ في الرتبِ تفاوتَ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ ، ويبدو في الأوَّلِ أصغرُها ، ثمَّ ما يليهِ ، وعلىٰ ذلكَ أوَّلَ بعضُ الصوفيةِ درجاتِ ما كانَ يظهرُ لإبراهيمَ الخليلِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في ترقِّيهِ وقالَ : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ أيْ : أظلمَ عليهِ الأمرُ . ﴿ رَءَا كَوۡكَبٗا ﴾ أي : وصلَ إلىٰ حجابٍ مِنْ حُجُبِ النورِ ، فعبَّرَ عنهُ بالكوكبِ[2] ، وما أريدَ بهِ هٰذهِ الأجسامُ المضيئةُ ؛ فإنَّ آحادَ العوامِّ لا يخفىٰ عليهمْ أنَّ الربوبيَّةَ لا تليقُ بالأجسامِ ، بلْ يدركونَ ذلكَ بأوائلِ نظرِهِمْ ، فما لا يضلِّلُ العوامَّ لا يضلِّلُ الخليلَ عليهِ السلامُ .

والحُجُبُ المسمَّاةُ أنواراً ما أُريدَ بها الضوءُ المحسوسُ بالبصرِ ، بلْ أُريدَ بها ما أُريدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) بلفظ : « حجابه النور » ، ولفظ : « سبعين حجاباً » عند الطبراني في « الأوسط » (٦٤٠٣) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٥٥) مرفوعاً : « يا جبريل ؛ هل ترىٰ ربك ؟ قال : إن بيني وبينه لسبعين حجاباً من نار أو من نور ، لو دنوت من أدناها . . لاحترقت » . وانظر إلىٰ ما قاله المصنف رحمه الله تعالىٰ في « مشكاة الأنوار » (ص٧٥) .

(٢) انظر إلىٰ ما قاله المصنف رحمه الله تعالىٰ في « مشكاة الأنوار » (ص٥٥) .

ولنتجاوزْ هٰذهِ المعانيَ ؛ فإنَّها خارجةٌ عَنْ علمِ المعاملةِ ، ولا يُوصلُ إلىٰ حقائقِها إلا بالكشْفِ التابعِ للفكرِ الصافي ، وقلَّ مَنْ يفتحُ لهُ بابُهُ ، والمتيسِّرُ علىٰ جماهيرِ الخلائقِ الفكرُ فيما يفيدُ في علومِ المعاملةِ ، وذلكَ أيضاً ممَّا تغزرُ فائدتُهُ ويعظُمُ نفعُهُ .

فهٰذهِ الوظائفُ الأربعةُ ـ أعني : الدعاءَ ، والذكرَ ، والقراءةَ ، والفكرَ ـ ينبغي أنْ تكونَ وظيفةَ المريدِ بعدَ صلاةِ الصبحِ ، بلْ في كلِّ وِردٍ بعدَ الفراغِ مِنْ وظيفةِ الصلاةِ ، فليسَ بعدَ الصلاةِ وظيفةٌ سوىٰ هٰذهِ الأربعِ .

ويقوِّي علىٰ ذلكَ بأنْ يأخذَ سلاحَهُ ومجنَّهُ ، والصومُ هوَ الجُنَّةُ التي تضيِّقُ مجاريَ الشيطانِ المعادي الصارفِ لهُ عنْ سبيلِ الرشادِ .

وليسَ بعدَ طلوعِ الصبحِ صلاةٌ سوىٰ ركعتيِ الفجرِ وفرضِ الصبحِ إلى الطلوعِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ رضيَ اللهُ عنهُم يشتغلونَ في هٰذا الوقتِ بالأذكارِ[1] ، وهوَ الأولىٰ ، إلا أنْ يغلبَهُ النومُ قبلَ الفرضِ ولمْ يندفعْ إلا بالصلاةِ ، فلو صلَّىٰ لذلكَ . . فلا بأسَ بهِ .

(١) رویٰ ذلك الخبر أبو داوود (٣٦٦٧) .

الوردُ الثاني : ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلىٰ ضحوةِ النهارِ :

وأعني بالضحوةِ منتصفَ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، وذلكَ بمضيِّ ثلاثِ ساعاتٍ مِنَ النهارِ إذا فرضَ النهارُ اثنتي عشرةَ ساعةً ، وهوَ الربعُ ، وفي هٰذا الربعِ مِنَ النهارِ وظيفتانِ زائدتانِ :

ـ **إحداهُما** : صلاةُ الضحىٰ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الصلاةِ أنَّ الأولىٰ أنْ يصلِّيَ ركعتينِ عندَ الإشراقِ ، وذلكَ إذا انبسطتِ الشمسُ وارتفعتْ قدرَ نصفِ رمحٍ ، ويصلِّيَ أربعاً أوْ ستاً أوْ ثمانياً إذا رَمِضَتِ الفصالُ[1] ، وضحيتِ الأقدامُ بحرِّ الشمسِ .

فوقتُ الركعتينِ هوَ الذي أرادَ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ ، فإنَّهُ وقتُ إشراقِ الشمسِ ، وهوَ ظهورُ تمامِ نورِها بارتفاعِها عنْ مُوازاةِ البخاراتِ والغباراتِ التي علىٰ وجهِ الأرضِ ، فإنَّها تمنعُ إشراقَها التامَّ .

ووقتُ الركعاتِ الأربعِ هوَ الضحى الأعلى الذي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ فقالَ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ أصحابِهِ وهمْ يصلُّونَ عندَ الإشراقِ ، فنادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : « ألا إنَّ صلاةَ الأوَّابينَ إذا رمضتِ الفصالُ »[2] .

---

(١) **الفصال** : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة ؛ **والمعنىٰ** : أي نامت في ظل أمَّاتها عند حر الشمس ، أو بمعنى احتراق أخفافها من شدة حرِّ الرمل .

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٤)، وهو عند مسلم (٧٤٨) دون ذكر وقت الإشراق .

فلذلكَ نقولُ : إذا كانَ يقتصرُ علىٰ مرَّةٍ واحدةٍ في الصلاةِ . . فهٰذا الوقتُ أفضلُ لصلاةِ الضحىٰ ، وإنْ كانَ أصلُ الفضلِ يحصلُ بالصلاةِ بينَ طرفي وقتي الكراهةِ ، وهوَ ما بينَ ارتفاعِ الشمسِ بطلوعِ نصفِ رمحٍ بالتقريبِ إلىٰ ما قبلَ الزوالِ في ساعةِ الاستواءِ ، فاسمُ الضحىٰ ينطلقُ على الكلِّ ، وكأنَّ ركعتيِ الإشراقِ تقعُ في مبدأِ وقتِ الإذنِ في الصلاةِ وانقضاءِ الكراهةِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ تطلعُ ومعَها قرنُ الشَّيطانِ ، فإذا ارتفعَتْ . . فارقَها »[1] ، فأقلُّ ارتفاعِها أنْ ترتفعَ عنْ بخاراتِ الأرضِ وغبارِها ، وهٰذا يراعىٰ بالتقريبِ .

ـ **الوظيفةُ الثانيةُ في هٰذا الوقتِ** : الخيراتُ المتعلِّقةُ بالناسِ التي جرتْ بها العاداتُ بكرةً ؛ مِنْ عيادةِ مريضٍ ، وتشييعِ جَنازةٍ ، ومعاونةٍ علىٰ برٍّ وتقوىٰ ، وحضورِ مجلسِ علمٍ ، وما يجري مجراهُ ؛ مِنْ قضاءِ حاجةٍ لمسلمٍ وغيرِها .

فإنْ لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . عادَ إلى الوظائفِ الأربعِ التي قدَّمْناها ؛ مِنَ الأدعيةِ ، والذكرِ ، والقراءةِ ، والفكرِ ، أوِ الصلواتِ المتطوَّعِ بها إنْ شاءَ ، فإنَّها مكروهةٌ بعدَ صلاةِ الصبحِ وليستْ مكروهةً الآنَ ، فتصيرُ الصلاةُ قسماً خامساً مِنْ جملةِ وظائفِ هٰذا الوقتِ لمَنْ أرادَهُ .

---

(١) رواه النسائي (١/ ٢٧٥) ، وابن ماجه (١٢٥٣) .

وأمَّا بعدَ فريضةِ الصبحِ . . فتكرَهُ كلُّ صلاةٍ لا سببَ لها ، وبعدَ الصبحِ الأحبُّ أن يقتصرَ علىٰ ركعتي الفجرِ وتحيَّةِ المسجدِ ، ولا يشتغلَ بالصلاةِ ، بلْ بالأذكارِ والقراءةِ والدعاءِ والفكرِ .

* * *

الوردُ الثالثُ : مِنْ ضحوةِ النهارِ إلى الزوالِ :

ونعني بالضحوةِ المنتصفَ وما قبلَهُ بقليلٍ وكأنَّ بعدَ كلِّ ثلاثِ ساعاتٍ أمرٌ بصلاةٍ ؛ فإذا انقضىٰ ثلاثُ ساعاتٍ بعدَ الطلوعِ . . فعندَها وقبيلَ مضيِّها صلاةُ الضحىٰ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالظهرُ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالعصرُ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالمغربُ[1] .

ومنزلةُ الضحىٰ بينَ الزوالِ والطلوعِ كمنزلةِ العصرِ بينَ الزوالِ والغروبِ ، إلا أنَّ الضحىٰ لمْ تُفترضْ ؛ لأنَّهُ وقتُ إكبابِ الناسِ علىٰ أشغالِهِمْ ، فخُففَ عنهُمْ .

والوظيفةُ في هـٰذا الوقتِ الأقسامُ الأربعةُ ، ويزيدُ أمرانِ :

ـ **أحدُهما** : الاشتغالُ بالكسبِ ، وتدبيرِ المعاشِ ، وحضورِ السوقِ : فإنْ كانَ تاجراً . . فينبغي أنْ يتَّجرَ بصدْقٍ وأمانةٍ ، وإنْ كانَ صاحبَ صناعةٍ . .

---

(١) حينئذٍ ، وبه كملت اثنتا عشرة ساعة من النهار العرفي . « إتحاف » (٥/ ١٤٢) .

فبنصْحٍ وشفقةٍ ، ولا ينسىٰ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ أشغالِهِ ، ويقتصرُ مِنَ الكسبِ علىٰ قدْرِ حاجتِهِ ليومِهِ مهما قدرَ علىٰ أنْ يكتسبَ في كلِّ يومٍ لقوتِهِ[1] .

فإذا حصلتْ كفايةُ يومِهِ . . فليرجعْ إلىٰ بيتِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ، وليتزودْ لآخرتِهِ ؛ فإنَّ الحاجةَ إلىٰ زادِ الآخرةِ أشدُّ ، والتمتُّعَ بهِ أدومُ ، فالاشتغالُ بكسبِهِ أهمُّ مِنْ طلبِ الزيادةِ علىٰ حاجةِ الوقتِ ؛ فقدْ قيلَ : (لا يوجدُ المؤمنُ إلا في ثلاثِ مواطنَ : مسجدٌ يعمُرُهُ ، أوْ بيتٌ يسترُهُ ، أوْ حاجةٌ لا بدَّ لهُ منها)[2] ، وقلَّ مَنْ يعرفُ القدرَ فيما لا بدَّ منهُ ، بلْ أكثرُ الناسِ يقدِّرونَ فيما عنهُ بدٌّ أنَّهُ لا بدَّ لهُمْ منهُ ، وذلكَ لأنَّ الشيطانَ يعدُهُمُ الفقرَ ويأمُرُهُمْ بالفحشاءِ ، فيصغونَ إليهِ ، ويجمعونَ ما لا يأكلونَ ؛ خيفةَ الفقرِ ، واللهُ يعدُهُمْ مغفرةً منهُ وفضلاً ، فيعرضونَ عنهُ ، ولا يرغبونَ فيهِ .

ـ **الأمرُ الثاني** : القيلولةُ : وهيَ سنَّةٌ ليستعينَ بها علىٰ قيامِ الليلِ ، كما أنَّ التسحُّرَ سنَّةٌ ليستعينَ بهِ علىٰ صيامِ النهارِ[3] ، فإنْ كانَ لا يقومُ بالليلِ ولكنْ

---

(١) وقوت عياله ، وإن أمكن أن يكتسب قوت يومين أو ثلاثة أو أكثر ، فيجعل بقية أيامه للذكر والعبادة . . فلا بأس . « إتحاف » (٥/ ١٤٢) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤١) عن قتادة ، وروى الترمذي (٢٣٤١) مرفوعاً : « ليس لابن آدم حق في سوىٰ هاذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء » .

(٣) روى ابن ماجه (١٦٩٣) مرفوعاً : « استعينوا بطعام السحر علىٰ صيام النهار ، =

لو لَمْ ينمْ لَمْ يشتغلْ بخيرٍ وربما خالطَ أهلَ الغفلةِ وتحدَّثَ معهُمْ . . فالنومُ أحبُّ لهُ إذا كانَ لا ينبعثُ نشاطُهُ للرجوعِ إلى الأذكارِ والوظائفِ المذكورةِ ؛ إذْ في النومِ الصمتُ والسلامةُ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (يأتي على الناسِ زمانٌ الصمتُ والنومُ فيهِ أفضلُ أعمالِهِمْ)(١) .

وكَمْ مِنْ عابدٍ أحسنُ أحوالِهِ النومُ ، وذلكَ إذا كانَ يرائي بعبادتِهِ ولا يخلصُ فيها ، فكيفَ بالغافلِ الفاسقِ ؟!

قالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (كانَ يعجبُهُمْ إذا تفرَّغوا أنْ يناموا طلباً للسلامةِ)(٢) .

فإذاً ؛ نومُهُ علىٰ قصْدِ طلبِ السلامةِ ونيَّةِ قيامِ الليلِ قربةٌ ، ولكنْ ينبغي أنْ يتنبَّهَ قبلَ الزوالِ بقدْرِ الاستعدادِ للصلاةِ بالوضوءِ وحضورِ المسجدِ قبلَ دخولِ وقتِ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ فضائلِ الأعمالِ ، وإنْ لَمْ ينمْ ولَمْ يشتغلْ بالكسبِ واشتغلَ بالصلاةِ والذكرِ . . فهوَ أفضلُ أعمالِ النهارِ ؛ لأنَّهُ وقتُ غفلةِ الناسِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ واشتغالِهِمْ بهمومِ الدنيا ، فالقلبُ المتفرِّغُ لخدمةِ ربِّهِ عندَ إعراضِ العبيدِ عنْ بابِهِ جديرٌ بأنْ

= وبالقيلولة علىٰ قيام الليل » ، **والقيلولة** : النوم أو الاستراحة وقت الظهيرة .

(١) قوت القلوب (١/ ٩٦) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦) .

يزكِّيَهُ اللهُ تعالىٰ ويصطفيَهُ لقربِهِ ومعرفتِهِ .

وفضلُ ذلكَ كفضلِ إحياءِ الليلِ ، فإنَّ الليلَ وقتُ الغفلةِ بالنومِ ، وهٰذا وقتُ الغفلةِ باتباعِ الهوىٰ والاشتغالِ بهمومِ الدنيا ، وأحدُ معنيي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أيْ : يخلفُ أحدُهُما الآخرَ في الفضلِ ، والثاني : أنَّهُ يخلفُهُ فيتداركُ فيهِ ما فاتَ في أحدِهِما[1] .

الوردُ الرابعُ : ما بينَ الزوالِ إلى الفراغِ مِنْ صلاةِ الظهرِ وراتبتِهِ :

وهوَ أقصرُ أورادِ النهارِ وأفضلُها ، فإذا كانَ قدْ توضَّأَ قبلَ الزوالِ ، وحضرَ المسجدَ فمهما زالتِ الشمسُ ، وابتدأَ المؤذِّنُ الأذانَ . . فليصبرْ إلى الفراغِ مِنْ جوابِ أذانِهِ ، ثمَّ ليقمْ إلىٰ إحياءِ ما بينَ الأذانِ والإقامةِ ، فهوَ وقتُ الإظهارِ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[2] ، وليصلِّ في هٰذا الوقتِ أربعَ ركعاتٍ لا يفصلُ بينهُنَّ بتسليمٍ ، وهٰذهِ الصلاةُ وحدَها مِنْ بينِ سائرِ صلواتِ النهارِ نُقِلَ أنَّهُ يصلِّيها بتسليمةٍ واحدةٍ[3] ، ولكنْ طُعِنَ في

(١) رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١١/١٩/٣٩) عن عمر وابن عباس والحسن رضي الله عنهم .
(٢) قوت القلوب (١/١٦ ، ١٧) .
(٣) روىٰ ذلك أبو داوود (١٢٧٠) ، والترمذي (٤٧٨) تعليقاً ، وابن ماجه (١١٥٧) .

تلكَ الروايةِ ، هٰكذا قالَهُ بعضُ العلماءِ[1] ، ومذهبُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ يصلِّي مثنىٰ مثنىٰ كسائرِ النوافلِ ، ويفصلُ بتسليمةٍ ، وهوَ الذي صحَّتْ بهِ الأخبارُ[2] .

وليطوِّلْ هٰذهِ الركعاتِ ، إذْ فيها تفتحُ أبوابُ السماءِ كما أوردنا الخبرَ فيهِ في بابِ صلاةِ التطوعِ[3] ، وليقرأْ فيها (سورةَ البقرةِ) أوْ سورتينِ مِنَ المئينَ ، أوْ أربعاً مِنَ المثاني[4] ، فهٰذهِ ساعةٌ يُستجابُ فيها الدعاءُ ، وأحبَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُرفعَ لهُ فيها عملٌ[5] .

ثمَّ يصلِّي الظهرَ بجماعةٍ بعدَ أربعِ ركعاتٍ طويلةٍ كما سبقَ أوْ قصيرةٍ ، ولا ينبغي أنْ يدعَها .

---

(١) الضمير في قوله : (قاله) عائد إلىٰ أنه يصليها متصلة بتسليمة واحدة ، « قوت القلوب » (١/ ١٦) .
(٢) إشارة إلىٰ حديث أبي داوود (١٢٩٥) ، والترمذي (٥٩٧) ، والنسائي (٣/ ٢٢٧) ، وابن ماجه (١٣٢٢) مرفوعاً : « صلاة الليل والنهار مثنىٰ مثنىٰ » ، أو مطلق الخبر الذي رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) مرفوعاً : « صلاة الليل مثنىٰ مثنىٰ » .
(٣) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/ ٤١٦) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٦) .
(٥) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/ ٤١٦) .

ثمَّ ليصلِّ بعدَ الظهرِ ركعتينِ ثمَّ أربعاً ، إذْ كرهَ ابنُ مسعودٍ أنْ تتبعَ الفريضةُ بمثلِها مِنْ غيرِ فاصلٍ[1] .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ في هـٰذهِ النافلةِ آيةَ الكرسيِّ ، وآخرَ (سورةِ البقرةِ) ، والآياتِ التي أوردناها في الوردِ الأوَّلِ ؛ ليكونَ ذلكَ جامعاً لهُ بينَ الدعاءِ والذكرِ والقراءةِ والصلاةِ والتحميدِ والتسبيحِ معَ شرفِ الوقتِ .

الوِردُ الخامسُ : ما بعدَ ذلكَ إلى العصرِ :

ويستحبُّ فيهِ العكوفُ في المسجدِ مشتغلاً بالذكرِ والصلاةِ وفنونِ الخيرِ ، ويكونُ في انتظارِ الصلاةِ معتكفاً ، فمِنْ فضائلِ الأعمالِ انتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ ، وكانَ ذلكَ سنَّةَ السلفِ ، كانَ الداخلُ يدخلُ المسجدَ بينَ الظهرِ والعصرِ ، فيسمعُ للمصلِّينَ دويّاً كدويِّ النحلِ مِنَ التلاوةِ ، فإنْ كانَ بيتُهُ أسلمَ لدينِهِ وأجمعَ لهمِّهِ . . فالبيتُ أفضلُ في حقِّهِ .

وإحياءُ هـٰذا الوِردِ ـ وهوَ أيضاً وقتُ غفلةِ الناسِ ـ كإحياءِ الوِردِ الثالثِ في الفضلِ ، وفي هـٰذا الوقتِ يُكرهُ النومُ لِمَنْ نامَ قبلَ الزوالِ ، إذْ يُكرهُ نومتانِ بالنهارِ ، قالَ بعضُ العلماءِ : (ثلاثٌ يمقتُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها : الضحكُ بغيرِ عجبٍ ، والأكلُ مِنْ غيرِ جوعٍ ، ونومٌ بالنهارِ مِنْ غيرِ سهرٍ بالليلِ)[2] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧) وبمعناه روى الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٨) .

والحدُّ في النومِ : أنَّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، فالاعتدالُ في نومِهِ ثماني ساعاتٍ في الليلِ والنهارِ جميعاً ، فإنْ نامَ هـٰذا القدْرَ بالليلِ . . فلا معنىٰ للنومِ بالنهارِ ، وإنْ نقصَ منهُ مقداراً . . استوفاهُ بالنهارِ ، فحسْبُ ابنِ آدمَ إنْ عاشَ ستينَ سنةً أنْ ينقصَ مِنْ عمرِهِ عشرونَ سنةً ، ومهما نامَ ثمانيَ ساعاتٍ وهوَ الثلثُ . . فقدْ نقصَ مِنْ عمرِهِ الثلثُ ، ولكنْ لمَّا كانَ النومُ غذاءً للروحِ كما أنَّ الطعامَ غذاءٌ للبدنِ ، وكما أنَّ العلمَ والذكرَ غذاءٌ للقلبِ . . لمْ يمكنْ قطعُهُ عنهُ[1] ، وقدرُ الاعتدالِ هـٰذا ، والنقصانُ منهُ ربَّما يفضي إلى اضطرابِ البدنِ ، إلاَّ مَنْ يتعوَّدُ السهرَ تدريجاً ، فقدْ يمرِّنُ نفسَهُ عليهِ مِنْ غيرِ اضطرابٍ[2] .

وهـٰذا الوِردُ هوَ مِنْ أطولِ الأورادِ ، وأمتعِها للعُبَّادِ ، وهوَ أحدُ الآصالِ التي ذكرَها اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ ، وإذا سجدَ للهِ عزَّ وجلَّ الجماداتُ . . فكيفَ يجوزُ أنْ يغفُلَ العبدُ العاقلُ عنْ أنواعِ العباداتِ ؟!

* * *

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٠٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٧) من قول معاذ رضي الله عنه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧) .

الوِردُ السادسُ : إذا دخلَ وقتُ العصرِ . . دخلَ وقتُ الوِردِ السادسِ :

وهوَ الذي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ هـٰذا أحدُ معنيي الآيةِ ، وهوَ المرادُ بالآصالِ في أحدِ التفسيرينِ ، وهوَ العشيُّ المذكورُ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿وَعَشِيًّا﴾ ، وفي قولِهِ : ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ .

وليسَ في هـٰذا الوردِ صلاةٌ إلا أربعُ ركعاتٍ بينَ الأذانينِ(١) كما سبقَ في الظهرِ ، ثمَّ يصلِّي الفرضَ ويشتغلُ بالأقسامِ الأربعةِ المذكورةِ في الوِردِ الأوَّلِ إلىٰ أنْ ترتفعَ الشمسُ إلىٰ رؤوسِ الحيطانِ وتصفرَّ .

والأفضلُ فيهِ إذْ منعَ عنِ الصلاةِ تلاوةُ القرآنِ بتدبُّرٍ وتفهُّمٍ ؛ إذْ يجمعُ ذلكَ معنى الذكرِ والدعاءِ والفكرِ ، فيندرجُ في هـٰذا القسمِ أكثرُ مقاصدِ الأقسامِ الثلاثةِ .

الوِردُ السابعُ : إذا اصفرَّتِ الشمسُ :

بأنْ تقربَ مِنَ الأرضِ بحيثُ يغطِّي نورَها الغباراتُ والبخاراتُ التي علىٰ وجهِ الأرضِ ، ويُرىٰ صفرةٌ في ضوئِها . . دخلَ هـٰذا الوِردُ ، وهوَ مثلُ الوِردِ الأوَّلِ مِنْ طلوعِ الفجرِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ؛ لأنَّهُ قبلَ الغروبِ ، كما أنَّ

---

(١) أي : بين الأذان والإقامة لصلاة العصر كما في نسخة الحافظ الزبيدي .

ذلكَ قبلَ الطلوعِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، وهوَ الطرفُ الثاني المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ .

قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (كانوا أشدَّ تعظيماً للعشيِّ منهُم لأوَّلِ النهارِ)[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كانوا يجعلونَ أوَّلَ النهارِ للدنيا وآخرَهُ للآخرةِ)[2] .

فيُستحبُّ في هٰذا الوقتِ التسبيحُ والاستغفارُ خاصَّةً وسائرُ ما ذكرناهُ في الوردِ الأوَّلِ ، مثلَ أنْ يقولَ : (أستغفرُ اللهَ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأسألُهُ التوبةَ ، وسبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ) مأخوذٌ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ، والاستغفارُ على الأسماءِ التي في القرآنِ أحبُّ ؛ كقولِهِ : أستغفرُ اللهَ إنَّهُ كانَ غفَّاراً ، أستغفرُ اللهَ إنَّهُ كانَ توَّاباً ، ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الغافرينَ[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨) .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ قبلَ غروبِ الشمسِ (والشمسِ وضحاها) ، (والليلِ إذا يغشىٰ) ، والمعوِّذتينِ ، ولتغربِ الشمسُ عليهِ وهوَ في الاستغفارِ .

فإذا سمعَ الأذانَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هـٰذا إقبالُ ليلكَ ، وإدبارُ نهاركَ ، وأصواتُ دعاتِكَ . . . الدعاءَ كما سبقَ ، ثمَّ يجيبُ المؤذِّنَ ، ويشتغلُ بصلاةِ المغربِ .

* * *

وبالغروبِ قدِ انتهتْ أورادُ النهارِ ، فينبغي أنْ يلاحظَ العبدُ أحوالَهُ ويحاسبَ نفسَهُ ، فقدِ انقضىٰ منْ طريقِهِ مرحلةٌ ، فهلْ ساوىٰ يومُهُ أمسَهُ فيكونَ مغبوناً ، أوْ كانَ شرّاً منهُ فيكونَ ملعوناً ؟ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا بوركَ لي في يومٍ لا أزدادُ فيهِ خيراً »(١) .

فإنْ رأىٰ نفسَهُ متوفِّراً على الخيرِ جميعَ نهارِهِ ، مرفهاً عنِ التجشُّمِ . . كانتْ بشارةً ، فليشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ توفيقِهِ وتسديدِهِ إيَّاهُ لطريقِهِ ، وإنْ تكنِ الأخرىٰ . . فالليلُ خلفةٌ للنهارِ ، فليعزمْ علىٰ تلافي ما سبقَ منْ تفريطِهِ ؛ فإنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ ، فليشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ صحَّةِ جسمِهِ وبقاءِ بقيَّةِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٨٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٨) واللفظ له ، ولفظه هناك : (علماً) بدل (خيراً) ، ولفظه هنا رواه الأزدي في « أوهام الحاكم » (ص٥١) .

عمرِهِ إلىٰ أوَّلِ ليلِهِ ليشتغلَ بتداركِ تقصيرِهِ .

وليحضرْ في قلبِهِ أنَّ نهارَ العمرِ لهُ آخرٌ تغربُ فيهِ شمسُ الحياةِ ، فلا يكونُ لها بعدَهُ طلوعٌ ، وعندَ ذلكَ يُغلقُ بابُ التداركِ والاعتذارِ ، فليسَ العمرُ إلا أياماً معدودةً تنقضي ـ لا محالةَ ـ جملتُها بانقضاءِ آحادِها .

* * *

بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأوَّلُ : إذا غربتِ الشمسُ .. صلَّى المغربَ ، واشتغلَ بإحياءِ ما بينَ العشاءينِ :

فآخرُ هٰذا الوِردِ عندَ غيبوبةِ الشفقِ ؛ أعني : الحمرةَ التي بغيبوبتِها يدخلُ وقتُ العشاءِ الآخرةِ ، وقدْ أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ فقالَ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ ، والصلاةُ فيهِ هيَ ناشئةُ الليلِ ، لأنَّهُ أوَّلُ نشوءِ ساعاتِهِ ، وهوَ إنْيٌ مِنَ الآناءِ المذكورةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ ﴾ ، وهيَ صلاةُ الأوَّابينَ ، وهيَ المرادُ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ ، رُوِيَ ذلكَ عنِ الحسنِ رحمهُ اللهُ ، وأسندَهُ ابنُ أبي زيادٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ سئلَ عنْ هٰذهِ الآيةِ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ بينَ العشاءينِ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالصلاةِ بينَ العشاءَينِ ؛ فإنَّها تذهبُ بملاغاتِ النهارِ وتهذِّبُ آخرَهُ »(١) ، والملاغاتُ : جمعُ ملغاةٍ ، مِنَ اللغوِ .

---

(١) رواية الحسن وابن أبي زياد نصَّ عليهما أبو طالب في « القوت » (١/ ١٩) ، والحديث رواه الديلمي كما في « الفردوس » (٤٠٢٩) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١٥١) ، و« فيض القدير » (٤/ ٣٤٤) ، وروى الترمذي (٣١٩٦) : عن أنس رضي الله عنه قال : (نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة) .

وسئلَ أنسٌ رحمهُ اللهُ عمَّنْ ينامُ بينَ العشاءينِ فقالَ : لا تفعلْ ؛ فإنَّها الساعةُ المعنيَّةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾(١) .

وسيأتي فضْلُ إحياءِ ما بينَ العشاءينِ في البابِ الثاني .

وترتيبُ هٰذا الوِردِ :

أنْ يصلِّيَ بعدَ المغربِ ركعتينِ أوَّلاً ، يقرأُ فيهما : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، ويصلِّيهما عَقيبَ المغربِ ، مِنْ غيرِ تخلُّلِ كلامٍ ولا شغلٍ ، ثمَّ يصلِّي أربعاً يطيلُها ، ثمَّ يصلِّي إلىٰ غيبوبةِ الشفقِ ما تيسَّرَ لهُ .

وإنْ كانَ المسجدُ قريباً مِنَ المنزلِ . . فلا بأسَ أنْ يصلِّيَها في بيتِهِ إنْ لمْ يكنْ عزمُهُ العكوفَ في المسجدِ ، وإنْ عزمَ على العكوفِ في انتظارِ العتمةِ . . فهوَ الأفضلُ إذا كانَ آمناً مِنَ التصنُّعِ والرياءِ .

***

الوِردُ الثاني : يدخلُ بدخولِ وقتِ العشاءِ الآخرةِ إلىٰ حدِّ نومةِ الناسِ :

وهوَ أوَّلُ استحكامِ الظلامِ ، وقدْ أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أيْ : وما جمعَ مِنْ ظلمتِهِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ ، فهناكَ يغسقُ الليلُ وتُستوسقُ ظلمتُهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩) بنحوه ، وقريب منه ما روي عنه في التعليق السابق .

وترتيبُ هـٰذا الوردِ بمراعاةِ ثلاثةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يصلِّيَ سوىٰ فرضِ العشاءِ عشرَ ركعاتٍ : أربعاً قبلَ الفرضِ ؛ إحياءً لما بينَ الأذانينِ[1] ، وستّاً بعْدَ الفرضِ ؛ ركعتينِ ، ثمَّ أربعاً ، ويقرأُ فيها مِنَ القرآنِ الآياتِ المخصوصةَ ؛ كآخرِ (البقرةِ) وآيةِ الكرسيِّ وأوَّلِ (الحديدِ) وآخرِ (الحشرِ) وغيرِها .

والثاني : أنْ يصلِّيَ ثلاثَ عشرةَ ركعةً آخرُهُنَّ الوترُ ، فإنَّهُ أكثرُ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ بها منَ الليلِ[2] .

والأكياسُ يأخذونَ أوقاتَهُمْ مِنْ أوَّلِ الليلِ ، والأقوياءُ مِنْ آخرِهِ ، والحزمُ التقديمُ ، فإنَّهُ ربما لا يستيقظُ أوْ يثقلُ عليهِ القيامُ ، إلا إذا صارَ ذلكَ عادةً لهُ ، فآخرُ الليلِ أفضلُ[3] .

ثمَّ ليقرأْ في هـٰذهِ الصلاةِ قدْرَ ثلاثِ مئةِ آيةٍ مِنَ السورِ المخصوصةِ التي كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ قراءتَها ؛ مثلَ (يس) ، و(سجدةِ لقمانَ)[4] ، و(سورةِ الدخانِ) ، و(تبارَكَ الملكَ) ، و(الزمرِ) ، و(الواقعةِ) .

---

(١) أي : الأذان والإقامة لصلاة العشاء .

(٢) روىٰ أبو داوود (١٣٦٢) عن عائشة رضي الله عنها : (ولم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة) .

(٣) روىٰ أبو داوود (١٤٣٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : « متىٰ توتر ؟ » قال : أوتر من أول الليل ، وقال لعمر : « متىٰ توتر ؟ » قال : آخر الليل ، فقال لأبي بكر : « أخذ هـٰذا بالحزم » ، وقال لعمر : « أخذ هـٰذا بالقوة » .

(٤) أي : سورة السجدة . انظر « بصائر ذوي التمييز » (١/ ٣٧٣) .

فإنْ لمْ يصلِّ . . فلا يدعْ قراءةَ هـٰذهِ السورِ أوْ بعضِها قبلَ النومِ ، فقد رُوي في ثلاثةِ أحاديثَ ما كانَ يقرؤُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ ليلةٍ، أشهرُها: (السجدةُ)، و(تباركَ الملكَ)[١]، و(الزمرُ) و(الواقعةُ)، وفي روايةٍ : (الزمرُ) و(بني إسرائيلَ)[٢] ، وفي أُخرىٰ : أنَّهُ كانَ يقرأُ المسبِّحاتِ[٣] في كلِّ ليلةٍ ويقولُ : « فيها آيةٌ أفضلُ مِنْ ألفِ آيةٍ »[٤] ، وكانَ العلماءُ يجعلونَها ستاً فيزيدونَ (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ) ؛ إذْ في الخبرِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يحبُّ (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ)[٥] ، وكانَ يقرأُ في ثلاثِ ركعاتِ الوترِ ثلاثَ سورٍ : (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) و(الإخلاصَ) ، فإذا فرغَ . . قالَ : « سبحانَ الملكِ القدوسِ » ثلاثَ مرَّاتٍ[٦] .

---

(١) روى الترمذي (٣٤٠٤) عن جابر رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتىٰ يقرأ بـ« تنزيل السجدة » و« تبارك ») .

(٢) روى الترمذي (٣٤٠٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتىٰ يقرأ « الزمر » و« بني إسرائيل ») ، و(سورة بني إسرائيل) هي (سورة الإسراء) .

(٣) وهي خمس سور : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٥٧) ، والترمذي (٢٩٢١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٩٧٢) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٩٦) .

(٦) رواه أبو داوود (١٤٢٣) ، والنسائي (٣/ ٢٤٤) واللفظ عنده ، وابن ماجه (١١٧١) .

الثالثُ : الوترُ ، وليوترْ قبلَ النومِ إنْ لمْ يكنْ عادتَهُ القيامَ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألاَّ أنامَ إلا علىٰ وترٍ)(١) .

وإنْ كانَ معتاداً صلاةَ الليلِ . . فالتأخيرُ أفضلُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ ، فإذا خفتَ الصبحَ . . فأوترْ بركعةٍ »(٢) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (أوترَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوَّلَ الليلِ وأوسطَهُ وآخرَهُ ، وانتهىٰ وترُهُ إلى السحرِ)(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الوترُ علىٰ ثلاثةِ أنحاءٍ : إنْ شئتَ . . أوترتَ أوَّلَ الليلِ ثمَّ صلَّيتَ ركعتينِ ركعتينِ ـ يعني : أنَّهُ يصيرُ وتراً بما مضىٰ ـ وإنْ شئتَ . . أوترتَ بركعةٍ ، فإذا استيقظتَ . . شفعتَ إليها أخرىٰ ثمَّ أوترتَ مِنْ آخرِ الليلِ ، وإنْ شئتَ أخَّرتَ الوترَ ليكونَ آخرَ صلاتِكَ)(٤) ، هـٰذا ما رُوي عنهُ ، والطريقُ الأوَّلُ والثالثُ لا بأسَ بهِ .

وأمَّا نقضُ الوترِ(٥) . . فقدْ صحَّ فيهِ نهيٌ ، فلا ينبغي أنْ ينقضَ(٦) ،

---

(١) رواه البخاري (١٩٨١) ، ومسلم (٧٢١) .

(٢) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) .

(٣) رواه البخاري (٩٩٦) ، ومسلم (٧٤٥) واللفظ له .

(٤) قوت القلوب (١/ ٣١) .

(٥) وهو الطريق الثاني ؛ كمن أوتر بأول الليل ، ثم شفع ، ثم أوتر من آخره .

(٦) والنهي رواه البخاري (٤١٧٦) عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه وقد سئل عن نقض الوتر فقال : (إذا أوترت من أوله . . فلا توتر من آخره) .

ورُوِيَ مطلقاً أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا وترانِ في ليلةٍ »[١] .

ولِمَنْ يتردَّدُ في استيقاظهِ تلطفٌ استحسنَهُ بعضُ العلماءِ ، وهوَ أنْ يصلِّيَ بعدَ الوترِ ركعتينِ جالساً علىٰ فراشِهِ عندَ النومِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزحفُ إلىٰ فراشِهِ ويصلِّيهما ، ويقرأُ فيهما : (إذا زلزلت) ، و(ألهاكم) ؛ لما فيهما مِنَ التحذيرِ والوعيدِ ، وفي روايةٍ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ؛ لما فيها مِنَ التبرئةِ وإفرادِ العبادةِ للهِ عزَّ وجلَّ[٢] ، فقيلَ : إنِ استيقظَ . . قامتا مقامَ ركعةٍ واحدةٍ ، وكانَ لهُ أنْ يوترَ بواحدةٍ في آخرِ صلاةِ الليلِ ، وكأنَّهُ صارَ ما مضىٰ شفعاً بهما وحسنَ استئنافُ الوترِ ، واستحسنَ هٰذا أبو طالبٍ المكيُّ رحمهُ اللهُ وقالَ : (فيهِ ثلاثةُ أعمالٍ : قصرُ الأملِ ، وتحصيلُ الوترِ ، والوترُ مِنْ آخرِ الليلِ)[٣] .

وهوَ كما ذكرَهُ ، لكنْ ربما يخطرُ أنَّهما لوْ شَفَعَتا ما مضىٰ . . لكانَ كذلكَ وإنْ لمْ يستيقظْ[٤] ، ولبطلَ وترُهُ الأوَّلُ ، فكونُهُ مُشفعاً إنِ استيقظَ غيرَ مُشفعٍ إنْ نامَ . . فيهِ نظرٌ ، إلا أنْ يصحَّ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيتارُهُ قبلَهُما وإعادتُهُ الوترَ ، فيفهمُ منهُ أنَّ الركعتينِ شفعٌ بصورتِهما وترٌ بمعناهُما ،

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٣٩) ، والترمذي (٤٧٠) ، والنسائي (٣/ ٢٢٩) .
(٢) ورد قراءة السور الثلاث المذكورة معاً في الوتر عند أحمد في « المسند » (١/ ٨٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٣) ، ولم يذكرا الزحف إلى الفراش ، والسياق لصاحب « القوت » (١/ ٢٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٠) .
(٤) أي : إنهما تشفعان صلاته الماضية استيقظ أم لم يستيقظ .

فيحسَبُ وتراً إنِ استيقظَ وشفعاً إنْ لمْ يستيقظْ .

ثمَّ يُستحبُّ بعدَ التسليمِ مِنَ الوترِ أنْ يقولَ : (سبحانَ الملكِ القدوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جلَّلتَ السماواتِ والأرضَ بالعظمةِ والجبروتِ ، وتعزَّزتَ بالقدرةِ ، وقهرتَ العبادَ بالموتِ)(١) .

ورُوي أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما ماتَ حتَّىٰ كانَ أكثرُ صلاتِهِ جالساً إلا المكتوبةَ(٢) ، وقدْ قالَ : « للقاعدِ نصفُ أجرِ القائمِ ، وللنائمِ نصفُ أجرِ القاعدِ »(٣) ، وذلكَ يدلُّ علىٰ صحةِ النافلةِ نائماً(٤) .

❊ ❊ ❊

الوردُ الثالثُ : النومُ :

ولا بأسَ أنْ يعدَّ ذلكَ في الأورادِ ؛ فإنَّهُ إذا روعيتْ آدابُهُ . . احتسبَ عبادةً ، فقدْ نُقِلَ أنَّهُ إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ ذاكراً للهِ تعالىٰ . . يكتبُ مصلِّياً حتَّىٰ يستيقظَ ، ويدخُلُ في شعارِهِ ملكٌ(٥) ، فإنْ تحرَّكَ في نومِهِ فذكرَ اللهَ عزَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠) ، والجملة الأولىٰ منه رواها أبو داوود (١٤٣٠) ، والنسائي (٣/ ٢٤٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٩٠) ، ومسلم (٧٣٢) ، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (لمَّا بَدَّنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقل . . كان أكثر صلاته جالساً) ، وبَدَّن : أَسَنَّ .

(٣) رواه البخاري (١١١٥) .

(٤) أي : مضطجعاً على الفراش كهيئة النائم . « إتحاف » (٥/ ١٥٧) .

(٥) **شعاره** : لباسه المتصل ببدنه .

وجلَّ . . دعا لهُ الملكُ واستغفرَ لهُ اللهُ[(١)] .

وفي الخبرِ أنَّهُ إذا نامَ العبدُ على طهارةٍ . . رُفِعَ روحُهُ إلى العرشِ[(٢)] .

هٰذا في العوامِّ ، فكيفَ بالخواصِّ والعلماءِ وأربابِ القلوبِ الصافيةِ ؟ فإنَّهُمْ يكاشَفونَ بالأسرارِ في النومِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نومُ العالمِ عبادةٌ ، ونفَسُهُ تسبيحٌ »[(٣)] .

وقالَ معاذٌ لأبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُما : كيفَ تصنعُ في قيامِ الليلِ ؟ فقالَ : أقومُ الليلَ أجمعَ ، لا أنامُ منهُ شيئاً ، وأتفوَّقُ القرآنَ فيهِ تفوُّقاً[(٤)] ، قالَ معاذٌ : لكنِّي أنامُ ثمَّ أقومُ ، وأحتسبُ في نومتي ما أحتسبُ في قومتي ، فذكرَا ذلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « معاذٌ أفقهُ منكَ »[(٥)] .

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٥١) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٥) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، ولفظه : (إذا نام الإنسان . . عرج بروحه حتىٰ يؤتىٰ بها إلى العرش ، فإن كان طاهراً . . أذن لها بالسجود ، وإن كان جنباً . . لم يؤذن لها بالسجود) .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٣١) ، ويشهد للجملة الأولىٰ منه ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٨٥) مرفوعاً : « نوم علىٰ علم خير من صلاة علىٰ جهل » .

(٤) أي : ألازم قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيءٍ ، وحيناً بعد حين . « فتح الباري » (٨/ ٦٢) .

(٥) رواه البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٨٢٤) ، دون قوله : « معاذ أفقه منك » ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٥٧) : (فكأن معاذ بن جبل فضل عليه) ، وروىٰ أبو إسماعيل الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٤٣٤) : (فكان معاذ أفضل منه) .

وآدابُ النومِ عشرةٌ :

الأوَّلُ : الطهارةُ والسواكُ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ . عُرِجَ بروحِهِ إلى العرشِ ، فكانتْ رؤياهُ صادقةً ، وإنْ لمْ ينمْ علىٰ طهارةٍ . . قصرتْ روحُهُ عنِ البلوغِ ، فتلكَ المناماتُ أضغاثُ أحلامٍ لا تصدقُ »[1] ، وهـٰذا أريدَ بهِ طهارةُ الظاهرِ والباطنِ جميعاً ، وطهارةُ الباطنِ هيَ المؤثرةُ في انكشافِ حُجُبِ الغيبِ .

* * *

الثاني : أنْ يعدَّ عندَ رأسِهِ سواكهُ وطهورَهُ ، وينويَ القيامَ للعبادةِ عندَ التيقُّظِ : وكلَّما انتبهَ . . استاكَ ، كذلكَ كانَ يفعلُ بعضُ السلفِ[2] ، ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يستاكُ في كلِّ ليلةٍ مراراً عندَ كلِّ نومةٍ ، وعندَ التنبُّهِ منها[3] .

وإنْ لمْ تتيسَّرْ لهُ **الطهارةُ** . . يستحبُّ لهُ مسحُ الأعضاءِ بالماءِ[4] ، فإنْ لمْ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٩٦) بنحوه ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/ ٣٤) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٣٣) .

(٣) رواه مسلم (٧٦٣) .

(٤) أي : إن لم تتيسر له الطهارة بسبب الكسل والفتور . . فليمسح أعضاءه بالماء في تقلُّبه وانتباهاته ، ففي ذلك فضل كبير لمن ثقل نومه وقلَّ قيامه . « إتحاف » (٥/ ١٥٨) ، وسبقت الإشارة إلىٰ ذلك عند صاحب « القوت » (١/ ٣٣) .

يجدْ . . فليقعدْ ، وليستقبلِ القبلةَ ، وليشتغلْ بالذكرِ والدعاءِ والتفكُّرِ في آلاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقدرتِهِ ، فذلكَ يقومُ مقامَ قيامِ الليلِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أتىٰ فراشَهُ وهوَ ينوي أنْ يقومَ يصلِّي مِنَ الليلِ فغلبتْهُ عيناهُ حتَّىٰ يصبحَ . . كُتِبَ لهُ ما نوىٰ ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ »(١) .

***

الثالثُ : ألاَّ يبيتَ مَنْ لهُ وصيةٌ إلا ووصيتُهُ مكتوبةٌ عندَ رأسِهِ : فإنَّهُ لا يأمنُ القبضَ في النومِ ، يُقالُ : إنَّ مَنْ ماتَ مِنْ غيرِ وصيةٍ . . لمْ يؤذنْ لهُ في الكلامِ بالبرزخِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، يتزاورُهُ الأمواتُ ويتحدَّثونَ وهوَ لا يتكلَّمُ ، فيقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ : هـٰذا المسكينُ ماتَ مِنْ غيرِ وصيةٍ(٢) .

وذلكَ مستحبٌّ خوفاً مِنْ موتِ الفجأةِ ، وموتُ الفجأةِ تخفيفٌ إلا لمَنْ ليسَ مستعدّاً للموتِ بكونِهِ مثقلَ الظهرِ بالمظالمِ(٣) .

***

(١) رواه النسائي (٣/ ٢٥٨) ، وابن ماجه (١٣٤٤) .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ٣٣) ، وروى الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٥٩٤٥) مرفوعاً : « من لم يوصِ . . لم يؤذن له في الكلام مع الموتىٰ » ، قيل : يا رسول الله ؛ ويتكلمون ؟ قال : « نعم ، ويتزاورون » . انظر « الإتحاف » (٥/ ١٥٨) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٣) .

الرابعُ : أنْ ينامَ تائباً مِنْ كلِّ ذنبٍ ، سليمَ القلبِ لجميعِ المسلمينَ ، لا يحدِّثُ نفسَهُ بظلْمِ أحدٍ ، ولا يعزمُ علىٰ معصيةٍ إنِ استيقظ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أوىٰ إلىٰ فراشِهِ لا ينوي ظلْمَ أحدٍ ، ولا يحقدُ علىٰ أحدٍ . . غُفرَ لهُ ما اجترمَ »(١) .

* * *

الخامسُ : ألاَّ يتنعَّمَ بتمهيدِ الفُرُشِ الناعمةِ : بلْ يتركُ ذلكَ أوْ يقتصدُ فيهِ ، كانَ بعضُ السلفِ يكرهُ التمهيدَ للنومِ ويرىٰ ذلكَ تكلُّفاً ، وكانَ أهلُ الصفَّةِ لا يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ الترابِ حاجزاً ، ويقولونَ : ﴿ منها خُلقْنا وإليها نردُّ ﴾ ، وكانوا يرونَ ذلكَ أرقَّ لقلوبِهِمْ وأجدرَ بتواضعِ نفوسِهِمْ(٢) ، فمَنْ لا تسمحُ بذلكَ نفسُهُ . . فليقتصدْ .

* * *

السادسُ : ألاَّ ينامَ ما لمْ يغلبْهُ النومُ ، ولا يتكلَّفَ استجلابَهُ إلا إذا قصدَ بهِ الاستعانةَ على القيامِ في آخرِ الليلِ : فقدْ كانَ نومُهُمْ غلبةً ، وأكلُهُمْ فاقةً ، وكلامُهُمْ ضرورةً ، ولذلكَ وُصفوا بأنَّهُمْ كانوا قليلاً مِنَ الليلِ ما يهجعونَ .

وإنْ غلبَهُ النومُ عنِ الصلاةِ والذكرِ ، وصارَ لا يدري ما يقولُ . . فلينمْ

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (١/ ٣٣) ، وقد روى الشهاب في « مسنده » (٤٢٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ٩٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٢٧٣) مرفوعاً : « من أصبح لا يهم بظلم أحد . . غفر له ما اجترم » .

(٢) قوت القلوب (١/ ٣٣) .

حتَّىٰ يعقلَ ما يقولُ ، كانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يكرهُ النومَ قاعداً[١] .

وفي الخبرِ : « لا تكابدوا الليلَ »[٢] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصلِّي بالليلِ ، فإذا غلبَها النومُ . . تعلَّقَتْ بحبلٍ ، فنهىٰ عن ذلكَ وقالَ : « ليصلِّ أحدُكُمْ مِنَ الليلِ ما تيسَّرَ لهُ ، فإذا غلبَهُ النومُ . . فليرقُدْ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكلَّفوا مِنَ العملِ ما تطيقونَ ، فإنَّ اللهَ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ هـٰذا الدينِ أيسرُهُ »[٥] .

---

(١) قوت القلوب (١ / ٢١) .

(٢) رواه الخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٢ / ٣٨٢) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٧٤٦٠) مرفوعاً : « لا تكابدوا هـٰذا الليل ؛ فإنكم لا تطيقونه ، وإذا نعس أحدكم . . فلينم علىٰ فراشه فإنه أسلم له » ، وعند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٩ / ١٠٦) موقوفاً على ابن مسعود : (لا تغالبوا هـٰذا الليل . . .) الحديث .

(٣) كذا في « القوت » (١ / ٢١) ، ورواه البخاري (١١٥٠) ، ومسلم (٧٨٤) ، وهي أم المؤمنين زينب بنت جحش ، وفيهما : (فليقعد) بدل (فليرقد) أي : يتمُّها قاعداً ، وجاء لفظ : (فليرقد) عند البخاري (٢١٢) ، ومسلم (٧٨٦) مرفوعاً : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي . . فليرقد حتىٰ يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلىٰ وهو ناعس لا يدري : لعله يستغفر فيسبُّ نفسه » .

(٤) رواه البخاري (٤٣ ، ٦٤٦٥) ، ومسلم (٧٨٢) .

(٥) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٢٩٦) ، وأحمد في « مسنده » (٣ / ٤٧٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٤١) ولفظه : « خير دينكم أيسره » .

وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً يصلِّي فلا ينامُ ، ويصومُ فلا يفطرُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكنِّي أصلِّي وأنامُ ، وأصومُ وأُفطرُ ، هـٰذهِ سنَّتِي ، فمَنْ رغبَ عنها . . فليسَ منِّي »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشادوا هـٰذا الدينَ ، فإنَّهُ متينٌ ، فمَنْ يشادُّهُ . . يغلبْهُ ، فلا تبغِّضْ إلىٰ نفسِكَ عبادةَ اللهِ »[٢] .

* * *

السابعُ : أنْ ينامَ مستقبلَ القبلةِ : والاستقبالُ علىٰ ضربين :

ـ **أحدُهما** : استقبالُ المحتضرِ ، وهوَ المستلقي علىٰ قفاهُ ، فاستقبالُهُ : أنْ يكونَ وجهُهُ وأخمصاهُ إلى القبلةِ .

ـ **والثاني** : استقبالُ اللحدِ ، وهوَ أنْ ينامَ علىٰ جنبٍ ، بأنْ يكونَ وجهُهُ إليها معَ قبالةِ بدنِهِ إذا نامَ على الشقِّ الأيمنِ .

* * *

الثامنُ : الدعاءُ عندَ النومِ : فيقولُ : (باسمِكَ اللهمَّ ربِّي وضعتُ جنبِي ،

---

(١) رواه النسائي (٤/ ٢١٠) دون ذكر الجملة الأخيرة منه ، وهو مجملاً في حكاية الرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم وكأنهم تقالُّوها عند البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، ولفظ المصنف في « القوت » (١/ ٢١) .

(٢) هو عند البخاري (٣٩) بنحوه ، ولفظه : « إن الدين يسر ، ولن يشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه . . . » الحديث ، وروى ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) : « إن هـٰذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، ولا تبغِّض إلىٰ نفسك عبادة الله تعالىٰ ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقىٰ » ، ولفظ المصنف في « القوت » (١/ ٢١) .

وباسمِكَ أرفعُهُ) إلىٰ آخرِ الدعواتِ المأثورةِ التي أوردناها في كتابِ الدعواتِ .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ الآياتِ المخصوصةَ ؛ مثلَ آيةِ الكرسيِّ ، وآخرِ (البقرةِ) ، وغيرِهما .

ويقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، يقالُ : إنَّ مَنْ قرأَها عندَ المنامِ . حفِظَ اللهُ عليهِ القرآنَ فلمْ ينسَهُ(١) .

ويقرأُ مِنْ (سورةِ الأعرافِ) هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وآخرَ (بني إسرائيلَ) : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ﴾ الآيتينِ ؛ فإنَّهُ يدخلُ في شعارِهِ ملكٌ يوكلُ بحفظِهِ فيستغفرُ لهُ(٢) .

ويقرأُ المعوِّذتينِ وينفثُ بهنَّ في يديهِ ويمسحُ بهما وجهَهُ وسائرَ جَسدِهِ ، كذلكَ رُوِيَ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣) .

وليقرأْ عشراً مِنْ أوَّلِ الكهفِ ، وعشراً مِنْ آخرِها ، وهٰذهِ الآيُ للاستيقاظِ لقيامِ الليلِ(٤) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٥١) .

(٣) رواه البخاري (٥٠١٨) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٣٢) .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (ما أرىٰ أنَّ رجلاً مستكمَلاً عقلُهُ ينامُ قبلَ أنْ يقرأَ الآيتينِ مِنْ آخرِ « سورةِ البقرةِ »)(١) .

وليقلْ خمساً وعشرينَ مرَّةً : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ليكونَ مجموعُ هـٰذهِ الكلماتِ الأربعِ مئةَ مرَّةٍ .

* * *

التاسعُ : أنْ يتذكَّرَ عندَ النومِ أنَّ النومَ نوعُ وفاةٍ ، والتيقُّظَ نوعُ بعثٍ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ فسمَّاه توفِّياً ، وكما أنَّ المستيقظَ تنكشفُ لهُ مشاهداتٌ لا تناسبُ أحوالَهُ في النومِ . فكذلكَ المبعوثُ يرىٰ ما لمْ يخطرْ قطُّ ببالِهِ ولا شاهدَهُ حسُّهُ ، ومثلُ النومِ بينَ الحياةِ والموتِ مثلُ البرزخِ بينَ الدنيا والآخرةِ(٢) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنْ كنتَ تشكُّ في الموتِ . . فلا تنمْ ؛ فكما أنَّكَ تنامُ . . كذلكَ تموتُ ، وإنْ كنتَ تشكُّ في البعثِ . . فلا تنتبهْ ؛ فكما أنَّكَ تنتبهُ بعدَ نومِكَ . . فكذلكَ تبعثُ بعدَ موتِكَ)(٣) .

وقالَ كعبُ الأحبارِ رحمَهُ اللهُ : (إذا نمتَ . . فاضطجعْ علىٰ شقِّكَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٢) ، وقد سبق بيان فضلها وأخواتها مما ذكره المصنف هنا .
(٢) قوت القلوب (١/ ٣٤) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٤) .

الأيمنِ ، واستقبلِ القبلةَ بوجهِكَ ؛ فإنَّهَا وفاةٌ)[١] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آخرُ ما يقولُ حينَ ينامُ وهوَ واضعٌ خدَّهُ علىٰ يدِهِ اليمنىٰ وهوَ يرىٰ أنَّهُ ميتٌ في ليلتِهِ تلكَ : « اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ السبعِ وربَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ . . . » الدعاءَ إلىٰ آخرِهِ كما ذكرناهُ في كتابِ الدعواتِ[٢] .

فحقٌّ على العبدِ أنْ يفتِّشَ عنْ قلبِهِ عندَ نومِهِ أنَّهُ علىٰ ماذا ينامُ ؟ وما الغالبُ عليهِ : حبُّ اللهِ تعالىٰ وحبُّ لقائِهِ أوْ حبُّ الدنيا ؟ وليتحقَّقْ أنَّهُ يُتوفَّىٰ علىٰ ما هوَ الغالبُ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما يُتوفَّىٰ عليهِ ؛ فإنَّ المرءَ معَ مَنْ أحبَّ ، ومعَ ما أحبَّ .

* * *

العاشرُ : الدعاءُ عندَ التنبُّهِ : فليقلْ في تيقظاتِهِ وتقلُّباتِهِ مهما تنبَّهَ ما كانَ يقولُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ، ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهُما العزيزُ الغفَّارُ »[٣] .

* * *

وليجتهدْ أنْ يكونَ آخرُ ما يجري علىٰ قلبِهِ عندَ النومِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٤) .

(٢) الحديث رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٥٥٧) .

(٣) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٦٣٤) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٧٥٧) .

وأوَّلُ ما يردُ علىٰ قلبهِ عندَ التيقُّظِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، فهوَ علامةُ الحبِّ ، ولا يلازمُ القلبَ في هاتينِ الحالتينِ إلا ما هوَ الغالبُ عليهِ ، فليجرِّبْ قلبَهُ بهِ ؛ فإنَّها علامةٌ تنكشفُ عنْ باطنِ القلبِ ، وإنما استُحبَّتْ هاذهِ الأذكارُ ليُستجرَّ القلبُ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ .

فإذا استيقظَ ليقومَ . . قالَ : (الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتنا وإليهِ النشورُ) إلىٰ آخرِ ما أوردناهُ مِنْ أدعيةِ التيقُّظِ .

* * *

الوِردُ الرابعُ : يدخلُ بمضيِّ النصفِ الأوَّلِ مِنَ الليلِ إلىٰ أنْ يبقىٰ مِنَ الليلِ سدسُهُ :

وعندَ ذلكَ يقومُ العبدُ للتهجُّدِ ، فاسمُ التهجُّدِ يختصُّ بما بعدَ الهجودِ والهجوعِ وهوَ النومُ .

وهاذا وسْطُ الليلِ ، ويشبهُ الوِردَ الذي بعدَ الزوالِ ، وهوَ وسْطُ النهارِ ، وبهِ أقسمَ اللهُ تعالىٰ فقالَ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أي : إذا سكنَ[1] ، وسكونُهُ : هدوءُهُ في هاذا الوقتِ ، فلا تبقىٰ عينٌ إلاَّ نائمةٌ سوى الحيِّ القيُّومِ الذي لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ ، وقيلَ : ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ إذا امتدَّ وطالَ ، وقيلَ : إذا أظلمَ[2] .

---

(١) روىٰ ذلك ابن جرير في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٨٩) عن قتادة والضحاك .

(٢) رواه ابن جرير في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والأقوال في « القوت » (١/ ٢١) .

وسئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الليلِ أسمعُ ؟ فقالَ : « جوفُ الليلِ »[1] .

وقالَ داوودُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إلـٰهي ؛ إنِّي أحبُّ أنْ أتعبَّدَ لكَ ، فأيُّ وقتٍ أفضلُ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ لا تقمْ أوَّلَ الليلِ ولا آخرَهُ ، فإنَّهُ منْ قامَ أوَّلَهُ . . نامَ آخرَهُ ، ومَنْ قامَ آخرَهُ . . لمْ يقمْ أوَّلَهُ ، ولكنْ قمْ وسْطَ الليلِ حتَّىٰ تخلوَ بي وأخلوَ بكَ ، وارفعْ إليَّ حوائجَكَ[2] .

وسئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الليلِ أفضلُ ؟ فقالَ : « نصفُ الليلِ الغابرِ »[3] ؛ يعني : الباقيَ .

وفي آخرِ الليلِ وردتِ الأخبارُ باهتزازِ العرشِ[4] ، وانتشارِ الرياحِ مِنْ جنَّاتِ عدنٍ[5] ، ومِنْ نزولِ الجبارِ تعالىٰ إلىٰ سماءِ الدنيا[6] ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأخبارِ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٢٧٧) ، والترمذي (٣٤٩٩) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٧٩) ولفظه : « جوف الليل الغابر » ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٦٤) ولفظه : « نصف الليل أو جوف الليل » دون لفظ : (الغابر) ، والغابر : ضدٌّ ، يطلق على الماضي والباقي .
(٤) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٠٣) عن سعيد الجريري : أن داوود قال : يا جبرائيل ؛ أي الليل أفضل ؟ قال : ما أدري ، غير أني أعلم أن العرش يهتز من السحر .
(٥) قوت القلوب (١/ ٢١) ، والسياق عنده .
(٦) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وترتيبُ هٰذا الوِردِ :

أنَّهُ بعدَ الفراغِ مِنَ الأدعيةِ التي للاستيقاظِ يتوضَّأُ وضوءاً كما سبقَ بسننِهِ وآدابِهِ وأدعيتِهِ ، ثمَّ يتوجَّهُ إلىٰ مصلاَّهُ ، ويقومُ مستقبلاً القبلةَ ، ويقولُ : (اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً) ، ثمَّ ليسبِّحْ عشراً ، وليحمدْ عشراً ، وليهللْ عشراً ، وليقلِ : (اللهُ أكبرُ ذو الملكوتِ والجبروتِ ، والكبرياءِ والعظمةِ ، والجلالِ والقدرةِ)(١) .

وليقلْ هٰذهِ الكلماتِ ؛ فإنَّها مأثورةٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِهِ للتهجُّدِ : اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ بهاءُ السَّماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ ربُّ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيُّومُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، ومَنْ عليهِنَّ ، أنتَ الحقُّ ، ومنكَ الحقُّ ، ولقاؤُكَ حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنشورُ حقٌّ ، والنبيُّونَ حقٌّ ، ومحمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حقٌّ .

اللهمَّ ؛ لكَ أسلمتُ ، وبكَ آمنتُ ، وعليكَ توكلْتُ ، وإليكَ أنبتُ ، وبكَ خاصمْتُ ، وإليكَ حاكمْتُ ، فاغفرْ لي ما قدمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ ، لا إلٰهَ إلا أنتَ(٢) .

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٤١٦) مصرحاً بصلاة الليل ، وأبو داوود (٨٧٤) ، والنسائي (٢/ ٢٣١) .

(٢) إلىٰ هنا رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٧٦٩) بألفاظ متقاربة .

اللهمَّ ؛ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها ، أنتَ وليُّها ومولاها(١) .

اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأعمالِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصْرِفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ(٢) .

أسألُكَ مسألةَ البائسِ المسكينِ ، وأدعوكَ دعاءَ المفتقرِ الذليلِ ، فلا تجعلني بدعائِكَ ربِّ شقيّاً ، وكنْ بي رؤوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسؤولينَ ، وأكرمَ المعطينَ(٣) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قامَ مِنَ الليلِ . . افتتحَ صلاتَهُ قالَ : « اللهمَّ ، ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، أنتَ تحكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يختلفونَ ؛ اهدني لما اختُلِفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذنِكَ ، إنَّكَ تهدي مَنْ تشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ »(٤) .

ثمَّ يفتتحُ الصلاةَ ويصلِّي ركعتينِ خفيفتينِ ، ثمَّ يصلِّي مثنىٰ مثنىٰ ما تيسَّرَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٢٠٩) في قيام الليل ، وهو عند مسلم (٢٧٢٢) من دعائه صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه النسائي (٢/١٢٩) بلفظ : (لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق) ، وهو عند مسلم (٧٧١) بلفظ : (الأخلاق) بدل (الأعمال) وفيه زيادة من أوله .

(٣) رواه الطبراني في « الصغير » (١/٢٤٧) .

(٤) رواه مسلم (٧٧٠) .

لهُ ، ويختمُ بالوترِ إنْ لمْ يكنْ قدْ صلَّى الوترَ ، ويستحبُّ أنْ يفصلَ بينَ الصلاتينِ عندَ تسليمِهِ بمئةِ تسبيحةٍ ؛ ليستريحَ ويزيدَ نشاطُهُ للصلاةِ .

وقدْ صحَّ في صلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالليلِ أنَّهُ صلَّىٰ أولاً ركعتينِ خفيفتينِ ، ثمَّ ركعتينِ طويلتينِ ، ثمَّ صلَّىٰ ركعتينِ دونَ اللتينِ قبلَهُما ، ثمَّ لمْ يزلْ يقصرُ بالتدريجِ إلىٰ ثلاثَ عشرةَ ركعةً[1] .

وسئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أكانَ يجهرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِ الليلِ أمْ يسرُّ ؟ فقالَت : (ربما جهرَ ، وربما أسرَّ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ ، فإذا خفتَ الصبحَ . . فأوترْ بركعةٍ »[3] .

وقالَ عليهِ السلامُ : « صلاةُ المغربِ أوترتْ صلاةَ النهارِ ، فأوترُوا صلاةَ الليلِ »[4] .

وأكثرُ ما صحَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِ الليلِ ثلاثَ عشرةَ ركعةً[5] .

---

(١) رواه مسلم (٧٦٥) .
(٢) رواه أبو داوود (٢٢٦) ، والترمذي (٤٤٩) ، والنسائي (٣/ ٢٢٤) ، وابن ماجه (١٣٥٤) .
(٣) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) .
(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٢٨) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٣٠) .
(٥) رواه مسلم (٧٦٥) ، والنسائي (٣/ ٢٣٧) .

ويقرأُ في هـٰذهِ الركعاتِ مِنْ وردِهِ مِنَ القرآنِ أوْ مِنَ السورِ المخصوصةِ ما خفَّ عليهِ ، وهوَ في حكْمِ هـٰذا الوِردِ إلىٰ قريبٍ مِنَ السدسِ الأخيرِ مِنَ الليلِ .

* * *

الوِردُ الخامسُ : السُّدُسُ الأخيرُ مِنَ الليلِ :

وهوَ وقتُ السحرِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قيلَ : يصلُّونَ ؛ لما فيها مِنَ الاستغفارِ(1) ، وهوَ مقاربٌ للفجرِ الذي هوَ وقتُ انصرافِ ملائكةِ الليلِ وإقبالِ ملائكةِ النهارِ .

وقدْ أمرَ بهـٰذا الوِردِ سلمانُ أخاه أبا الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما ليلةَ زارهُ في حديثٍ طويلٍ قالَ في آخرِهِ : فلمَّا كانَ الليلُ .. ذهبَ أبو الدرداءِ ليقومَ ، فقالَ لهُ سلمانُ : نمْ ، فنامَ ، ثمَّ ذهبَ ليقومَ ، فقالَ لهُ : نمْ ، فنامَ ، فلمَّا كانَ عندَ الصبحِ .. قالَ لهُ سلمانُ : قمِ الآنَ ، فقاما ، فصلَّيا ، فقالَ : إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقّاً ، وإنَّ لضيفِكَ عليكَ حقّاً ، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقّاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ . وذلكَ أنَّ امرأةَ أبي الدرداءِ أخبرتْ سلمانَ أنَّهُ

---

(1) رویٰ ذلك الطبري في « تفسيره » (١٣/٢٦/ ٢٤٥) عن ابن عمر والضحاك ومجاهد ، قال أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٢١) : (وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ يعني به الصلاة ، فكنىٰ بذلك القرآن والاستغفار عن الصلاة ؛ لأنهما وصفان منها... ، وكذلك يقال للصلاة استغفار ؛ لأنه يطلب بها المغفرة) .

لا ينامُ الليلَ ، قالَ : فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذكرَ ذلكَ لهُ ، فقالَ : « صدقَ سلمانُ »[(١)] .

وهٰذا هوَ الوِردُ الخامسُ ، وفيهِ يستحبُّ السحورُ ، وذلكَ عندَ خوفِ طلوعِ الفجرِ[(٢)] .

والوظيفةُ في هٰذينِ الوردينِ : الصلاةُ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . انقضتْ أورادُ الليلِ ودخلتْ أورادُ النهارِ ، فيقومُ ويصلِّي ركعتيِ الفجرِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ ، ثمَّ يقرأُ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ آخرِها ، ثمَّ يقولُ : (وأنا أشهدُ بما شهدَ اللهُ بهِ لنفسهِ ، وشهدتْ بهِ ملائكتُهُ وأولو العلمِ مِنْ خلقِهِ ، وأستودعُ اللهَ هٰذهِ الشهادةَ وهيَ لي عندَ اللهِ تعالىٰ وديعةٌ ، وأسألُهُ حفظَها حتَّىٰ يتوفاني عليها ، اللهمَّ ؛ احططْ بها عنِّي وزراً ، واجعلْ لي بها عندَكَ ذخراً ، واحفظْها عليَّ ، وتوفَّني عليها حتَّىٰ ألقاكَ بها غيرَ مبدِّلٍ تبديلاً)[(٣)] .

* * *

فهٰذا ترتيبُ الأورادِ للعُبَّادِ ، وقدْ كانوا يستحبونَ أنْ يجمعوا معَ ذلكَ في كلِّ يومٍ بينَ أربعةِ أمورٍ : صومٍ ، وصدقةٍ وإنْ قلَّتْ ، وعيادةِ مريضٍ ،

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨) ، ولفظ المصنف في « القوت » (١/ ٢١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١) وقال : (فمن لم يتسحَّر في أوله . . بغته الفجر) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢) ، والدعاء الأخير منه رواه الترمذي (٥٧٩) ، وابن ماجه (١٠٥٣) .

وشهودِ جنازةٍ ؛ ففي الخبرِ : « مَنْ جمعَ بينَ هٰذهِ الأربعِ في يومٍ . . غُفِرَ لهُ » ، وفي روايةٍ : « دخلَ الجنَّةَ »(١) ، فإنِ اتفقَ بعضُها وعجزَ عنِ الآخرِ . . كانَ لهُ أجرُ الجميعِ بحسَبِ نيَّتِهِ .

وكانوا يكرهونَ أنْ ينقضيَ اليومُ ولمْ يتصدَّقوا فيهِ بصدقةٍ ولوْ بتمرةٍ أوْ بَصَلَةٍ أوْ كسرةِ خبزٍ ؛ لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرجلُ في ظلِّ صدقتِهِ حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »(٢) ، ولقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ »(٣) .

ودفعتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها إلىٰ سائلٍ عنبةً واحدةً فأخذَها ، فنظرَ مَنْ كانَ عندَها بعضُ الحاضرينَ إلىٰ بعضٍ فقالتْ : (ما لكمْ ! إنَّ فيها لمثاقيلَ ذرٍّ كثيرٍ)(٤) .

وكانوا لا يستحبُّونَ ردَّ السائلِ ؛ إذْ كانَ منْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه مسلم (١٠٢٨) ، ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعن في امرىءٍ إلا دخل الجنة » . ورواية : « غفر له » أوردها صاحب « القوت » (١/ ٤٢) .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤١٦) .

(٣) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٤٢) .

عليهِ وسلَّمَ ذلكَ ، ما سألَهُ أحدٌ شيئاً فقالَ : لا ، ولكنَّهُ إنْ لمْ يقدرْ عليهِ . . سكتَ[1] ، وفي الخبرِ : « يصبحُ ابنُ آدمَ وعلىٰ كلِّ سُلامىٰ مِنْ جسدِهِ صدقةٌ ـ يعني : كلَّ مفصلٍ ، وفي جسدِهِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ مفصلاً ـ فأمرُكَ بالمعروفِ صدقةٌ ، ونهيُكَ عَنِ المنكرِ صدقةٌ ، وحملُكَ عنِ الضعيفِ صدقةٌ ، وهدايتُكَ إلى الطريقِ صدقةٌ ، وإماطتُكَ الأذىٰ صدقةٌ » ، حتَّىٰ ذكرَ التسبيحَ والتهليلَ ثمَّ قالَ : « وركعتا الضحىٰ تأتي علىٰ ذلكَ كلِّهِ ، أوْ تجمعُ ذلكَ كلَّهُ »[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (٢٣١١) ، والبزار (٦٤٣٩) .

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٩) ، ومسلم (٧٢٠) واللفظ له .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلمْ : أنَّ المريدَ لحرثِ الآخرةِ السالكَ لطريقِها لا يخلو عَنْ ستَّةِ أحوالٍ ؛ فإنَّهُ إما عابدٌ ، وإمَّا عالمٌ ، وإمَّا متعلِّمٌ ، وإمَّا والٍ ، وإمَّا محترفٌ ، وإمَّا موحِّدٌ مستغرقٌ بالواحدِ الصمدِ عَنْ غيرِهِ .

الأوَّلُ : العابدُ :

وهوَ المتجرِّدُ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، الذي لا شغلَ لهُ غيرُها أصلاً ، ولوْ تركَ العبادةَ . . لجلسَ بطَّالاً ، فترتيبُ أورادِهِ ما ذكرناهُ .

نعمْ ، لا يبعدُ أنْ تختلفَ وظائفُهُ ؛ بأنْ يستغرقَ أكثرَ أوقاتِهِ إمَّا في الصلاةِ ، أوْ في القراءةِ ، أوْ في التسبيحاتِ ، فقدْ كانَ في الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مَنْ وِردُهُ في اليومِ اثنا عشرَ ألفَ تسبيحةٍ[1] ، وكانَ فيهِمْ مَنْ وِردُهُ ثلاثونَ ألفاً ، وكانَ فيهِمْ مَنْ وِردُهُ ثلاثُ مئةِ ركعةٍ إلىٰ ستِّ مئةٍ ، وإلىٰ ألفِ ركعةٍ ، وأقلُّ ما نُقِلَ في أورادِهِمْ مِنَ الصلاةِ مئةُ ركعةٍ في اليومِ والليلةِ[2] .

وكانَ بعضُهُم أكثرُ وردِهِ القرآنُ ، فكانَ يختمُ الواحدُ منهُمْ في اليومِ مرَّةً ،

---

(١) كأبي هريرة رضي الله عنه ، روىٰ ذلك عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٢٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٦٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٠ـ٤١) .

ورُوِيَ : مرتينِ عَنْ بعضِهِمْ ، وكانَ بعضُهُمْ يقضي اليومَ أوِ الليلةَ في التفكُّرِ في آيةٍ واحدةٍ يرددُها .

وكانَ كُرْزُ بنُ وبرةَ مقيماً بمكَّةَ ، فكانَ يطوفُ في كلِّ يومٍ سبعينَ أسبوعاً ، وفي كلِّ ليلةٍ سبعينَ أسبوعاً ، وكانَ معَ ذلكَ يختمُ القرآنَ في اليومِ والليلةِ مرَّتينِ ، فحُسِبَ ذلكَ فكانَ عشرةَ فراسخَ ، ويكونُ معَ كلِّ أسبوعٍ ركعتانِ ، فهوَ مئتانِ وثمانونَ ركعةً ، وختمتانِ ، وعشرةُ فراسخَ(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فما الأولىٰ أنْ يصرفَ إليهِ أكثرَ الأوقاتِ مِنْ هٰذهِ الأورادِ ؟

فاعلمْ : أنَّ قراءةَ القرآنِ في الصلاةِ قائماً معَ التدبُّرِ يجمعُ الجميعَ ، ولكنْ ربما تعسرُ المواظبةُ عليهِ ، فالأفضلُ يختلفُ باختلافِ حالِ الشخصِ ، ومقصودُ الأورادِ تزكيةُ القلبِ وتطهيرُهُ ، وتحليتُهُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإيناسُهُ

---

(١) كذا في «القوت» (١/ ٤١)، وروىٰ أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨١) عن ابن شُبرمة يقول :

لو شئتُ كنت ككرز في تعبُّدِهِ أو كابنِ طارق حول البيتِ في الحرمِ
قد حال دون لذيذِ العيشِ خوفهما وسارعا في طِلاب الفوز والكرم

وكان محمد بن طارق يطوف في كل يوم وليلة سبعين أسبوعاً ، وكان كرز يختم القرآن في كل يوم وليلة ثلاث ختمات .

بهِ ، فلينظرِ المريدُ إلىٰ قلبهِ ، فما يراهُ أشدَّ تأثيراً فيهِ . . فليواظبْ عليهِ ، فإذا أحسَّ بملالةٍ منهُ . . فلينتقلْ إلىٰ غيرهِ .

ولذلكَ نرى الأصوبَ لأكثرِ الخلقِ توزيعَ هـٰذهِ الخيراتِ المختلفةِ على الأوقاتِ كما سبقَ ، والانتقالَ فيها مِنْ نوعٍ إلىٰ نوعٍ ؛ لأنَّ المَلالَ هوَ الغالبُ على الطبعِ ، وأحوالُ الشخصِ الواحدِ أيضاً في ذلكَ تختلفُ ، ولكنْ إذا فهمَ فقهَ الأورادِ وسرَّها . . فليتبعِ المعنىٰ ، فإنْ سمعَ تسبيحةً مثلاً وأحسَّ لها بوقعٍ في قلبهِ . . فليواظبْ علىٰ تكرارِها ما دامَ يجدُ لها وقعاً .

وقد رُوي عنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ عنْ بعضِ الأبدالِ : أنَّهُ قامَ ذاتَ ليلةٍ يصلِّي علىٰ شاطئِ البحرِ ، فسمعَ صوتاً عالياً بالتسبيحِ ولمْ يرَ أحداً ، فقالَ : مَنْ أنتَ أسمعُ صوتَكَ ولا أرىٰ شخصَكَ ؟ فقالَ : أنا مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ موكَّلٌ بهـٰذا البحرِ ، أسبِّحُ اللهَ تعالىٰ بهـٰذا التسبيحِ منذُ خُلقتُ ، قلتُ : فما اسمُكَ ؟ قالَ : مهلهيائيل ، قلتُ : فما ثوابُ مَنْ قالَهُ ؟ قالَ : مَنْ قالَهُ مئةَ مرَّةٍ . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ أوْ يُرىٰ لهُ[1] .

والتسبيحُ : هوَ قولُهُ : (سبحانَ اللهِ العليِّ الديَّانِ ، سبحانَ اللهِ الشديدِ الأركانِ ، سبحانَ مَنْ يذهبُ بالليلِ ويأتي بالنهارِ ، سبحانَ مَنْ لا يشغلُهُ شانٌ عَنْ شانٍ ، سبحانَ اللهِ الحنَّانِ المنَّانِ ، سبحانَ اللهِ المسبَّحِ في كلِّ مكانٍ) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٠) .

فهـٰذا وأمثالُهُ إذا سمعَهُ المريدُ ووجدَ لهُ في قلبهِ وقْعاً . . فيلازمُهُ ، وأيّاً ما وجدَ القلبَ عندَهُ وفُتحَ لهُ فيهِ خيرٌ . . فليواظبْ عليهِ .

❊ ❊ ❊

الثاني : العالمُ الذي ينفعُ الناسَ بعلمِهِ في فتوىٰ ، أوْ تدريسٍ ، أوْ تصنيفٍ :

فترتيبُهُ الأورادَ يخالفُ ترتيبَ العابدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى المطالعةِ للكتبِ ، وإلى التصنيفِ والإفادةِ ، ويحتاجُ إلىٰ مدَّةٍ لها لا محالةَ ، فإنْ أمكنَهُ استغراقُ الأوقاتِ فيهِ . . فهو أفضلُ ما يشتغلُ بهِ بعدَ المكتوباتِ ورواتبِها .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ جميعُ ما ذكرناهُ في فضيلةِ التعليمِ والتعلُّمِ في كتابِ العلمِ ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ وفي العلمِ المواظبةُ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتأمُّلِ ما قالَ اللهُ سبحانَهُ وقالَ رسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفيهِ منفعةُ الخلقِ وهدايتُهُمْ إلىٰ طريقِ الآخرةِ ؟! وربَّ مسألةٍ واحدةٍ يتعلَّمُها المتعلِّمُ فيصلحُ بها عبادةَ عمرِهِ ، ولوْ لمْ يتعلَّمْها . . لكانَ سعيُهُ ضائعاً .

وإنَّما نعني بالعلمِ المقدَّمِ على العبادةِ : العلمَ الذي يرغِّبُ الناسَ في الآخرةِ ويزهِّدُهم في الدنيا ، أوِ العلمَ الذي يعينُهُمْ علىٰ سلوكِ طريقِ الآخرةِ إذا تعلَّمُوهُ علىٰ قصدِ الاستعانةِ بهِ على السلوكِ ، دونَ العلومِ التي تزيدُ بها الرغبةُ في المالِ والجاهِ وقبولِ الخلقِ .

والأولىٰ بالعالمِ أنْ يقسمَ أوقاتَهُ أيضاً ؛ فإنَّ استغراقَ الأوقاتِ في ترتيبِ

العلمِ لا يحتملُهُ الطبعُ ، فينبغي أن يخصِّصَ ما بعدَ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ بالأذكارِ والأورادِ ، كما ذكرناه في الوِردِ الأوَّلِ .

وبعدَ الطلوعِ إلى ضحوةِ النهارِ في الإفادةِ والتعليمِ إنْ كانَ عندَهُ مَنْ يستفيدُ علماً لأجلِ الآخرةِ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فيصرفُهُ إلى الفِكْرِ ، ويتفكَّرُ فيما يشكلُ عليهِ مِنْ علومِ الدينِ ، فإنَّ صفاءَ القلبِ بعدَ الفراغِ مِنَ الذكرِ وقبلَ الاشتغالِ بهمومِ الدنيا يعينُ على التفطُّنِ للمشكلاتِ .

ومِنْ ضحوةِ النهارِ إلى العصرِ للتصنيفِ والمطالعةِ ، لا يتركُهما إلا في وقتِ أكلٍ وطهارةٍ ومكتوبةٍ وقيلولةٍ خفيفةٍ إنْ طالَ النهارُ .

ومِنَ العصرِ إلى الاصفرارِ يشتغلُ بسماعِ ما يُقرأُ بينَ يديهِ ؛ مِنْ تفسيرٍ أوْ حديثٍ أوْ علمٍ نافعٍ .

ومِنَ الاصفرارِ إلى الغروبِ يشتغلُ بالذكرِ والاستغفارِ والتسبيحِ .

فيكونُ وِردُهُ الأوَّلُ قبلَ طلوعِ الشمسِ في عملِ اللسانِ ، ووِردُهُ الثاني في عملِ القلبِ بالفكرِ إلى الضحوةِ ، ووِردُهُ الثالثُ إلى العصرِ في عملِ العينِ واليدِ بالمطالعةِ والكتابةِ ، ووِردُهُ الرابعُ بعدَ العصرِ في عملِ السمعِ ؛ ليروِّحَ فيهِ العينَ واليدَ ، فإنَّ المطالعةَ والكتابةَ بعدَ العصرِ ربما أضرَّا بالعينِ ، وعندَ الاصفرارِ يعودُ إلىٰ ذكرِ اللسانِ ، فلا يخلو جزءٌ مِنَ النهارِ عنْ عملٍ لهُ بالجوارحِ معَ حضورِ القلبِ في الجميعِ .

وأمَّا الليلُ . . فأحسنُ قسمةٍ فيهِ قسمةُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ كانَ

يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أجزاءٍ : ثلثٌ للمطالعةِ وترتيبِ العلمِ وهوَ الأوَّلُ ، وثلثٌ للصلاةِ وهوَ الوسطُ ، وثلثٌ للنومِ وهوَ الأخيرُ ، وهـٰذا يتيسَّرُ في ليالي الشتاءِ ، وأمَّا الصيفُ . . ربما لا يحتملُ ذلكَ إلا إذا كانَ أكثرَ النومَ بالنهارِ ، فهـٰذا ما نستحبُّهُ مِنْ ترتيبِ أورادِ العالمِ(١) .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : المتعلِّمُ :

والاشتغالُ بالتعلُّمِ أفضلُ مِنَ الاشتغالِ بالأذكارِ والنوافلِ(٢) ، فحكمُهُ حكمُ العالمِ في ترتيبِ الأورادِ ، ولكنْ يشتغلُ بالاستفادةِ حيثُ يشتغلُ العالمُ بالإفادةِ ، وبالتعليقِ والنسخِ حيثُ يشتغلُ العالمُ بالتصنيفِ .

ويرتِّبُ أوقاتَهُ كما ذكرناهُ .

وكلُّ ما ذكرناهُ في فضيلةِ التعلُّمِ والعلمِ مِنْ كتابِ العلمِ يدلُّ علىٰ أنَّ ذلكَ أفضلُ ، بلْ إنْ لمْ يكنْ متعلِّماً علىٰ معنىٰ أنَّهُ يعلِّقُ ويحصِّلُ ليصيرَ عالماً بلْ

---

(١) ومن اختار هـٰذا الترتيب في النهار والليل من العلماء . . بورك له في علمه وتصنيفه ، وذكر بعض العلماء في ترجمة المصنِّف قدِّس سرُّه أنه صنَّف هـٰذا الكتاب في مئة يوم ، ومع ذلك كان يختم القرآن في اليوم والليلة مرة ، فهـٰذا وأمثاله مما وقع لغيره من المصنفين من بركة الوقت وحسن إخلاصهم رحمهم الله تعالىٰ ونفعنا بهم آمين . « إتحاف » (٥/ ١٧٣) .

(٢) بل الاشتغال بالعلم اشتغال بالذكر ؛ إذ العلم الذي يشتغل به يذكر فيه الله ورسوله ، فهو في ذكر . « إتحاف » (٥/ ١٧٣) .

كانَ مِنَ العوامِّ . . فحضورُهُ مجالسَ الذكرِ والوعظِ والعلمِ أفضلُ مِن اشتغالِهِ بالأورادِ التي ذكرناها بعدَ الصبحِ وبعدَ الطلوعِ وفي سائرِ الأوقاتِ ، ففي حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ حضورَ مجلسِ ذكرٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وشهودِ ألفِ جنازةٍ ، وعيادةِ ألفِ مريضٍ)(١) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمْ رياضَ الجنَّةِ . . فارتعوا فيها » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قالَ : « حِلَقُ الذكرِ »(٢) .

وقالَ كعبُ الأحبارِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ ثوابَ مجالسِ العلماءِ بدا للناسِ . . لاقتتلوا عليهِ حتَّىٰ يتركَ كلُّ ذي إمارةٍ إمارتَهُ ، وكلُّ ذي سوقٍ سوقَهُ)(٣) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الرجلَ ليخرجُ مِنْ منزلِهِ وعليهِ مِنَ الذنوبِ مثلُ جبالِ تهامةَ ، فإذا سمعَ العالمَ . . خافَ واسترجعَ عنْ ذنوبِهِ ، وانصرفَ إلىٰ منزلِهِ وليسَ عليهِ ذنبٌ ، فلا تفارقوا مجالسَ العلماءِ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمْ يخلقْ علىٰ وجهِ الأرضِ تربةً أكرمَ مِنْ مجالسِ العلماءِ) .

وقالَ رجلٌ للحسنِ رحمهُ اللهُ : أشكو إليكَ قساوةَ قلبي ، فقالَ : أَدْنِهِ مِنْ مجالسِ الذكرِ(٤) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٩٩) .
(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠) .
(٣) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ١٧٤) لأبي نعيم في « الحلية » .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٩١) .

ورأىٰ عمارٌ الراهبُ مسكينةَ الطفاوية في المنامِ وكانتْ مِنَ المواظباتِ علىٰ حِلَقِ الذكرِ ، فقالَ : مرحباً يا مسكينةُ ، فقالتْ : هيهاتَ هيهاتَ ، ذهبتِ المسكنةُ وجاءَ الغنىٰ ، فقالَ : هيهِ ، فقالتْ : ما تسألُ عمَّنْ أبيحَ لها الجنةُ بحذافيرِها ، قالَ : وبمَ ذلكَ ؟ قالتْ : بمجالسةِ أهلِ الذكرِ (١) .

وعلى الجملةِ : فما ينحلُّ عنِ القلبِ مِنْ عقدةٍ مِنْ عُقدِ حبِّ الدنيا بقولِ واعظٍ حسنِ الكلامِ زكيِّ السيرةِ . . أشرفُ وأنفعُ مِنْ ركعاتٍ كثيرةٍ معَ اشتمالِ القلبِ علىٰ حبِّ الدنيا .

* * *

الرابعُ : المحترفُ الذي يحتاجُ إلى الكسبِ لعيالِهِ :

فليسَ لهُ أنْ يضيعَ العيالَ ويستغرقَ الأوقاتَ في العباداتِ، بلْ وِردُهُ في وقتِ الصناعةِ حضورُ السوقِ ، والاشتغالُ بالكسبِ ، ولكنْ ينبغي ألاَّ ينسىٰ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في صناعتِهِ ، بلْ يواظبُ على التسبيحاتِ والأذكارِ وقراءةِ القرآنِ ، فإنَّ ذلكَ يمكنُ أنْ يُجمَعَ إلى العملِ ، وإنَّما الذي لا يتيسَّرُ معَ العملِ الصلاةُ ، إلا أنْ يكونَ ناظوراً (٢) ، فإنَّهُ لا يعجَزُ عنْ إقامةِ أورادِ الصلاةِ معهُ .

---

(١) رواها ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٤٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٥) .

(٢) **الناظور** : هو الناطور ، حافظ البستان ونحوه .

ثمَّ مهما فرغَ مِنْ كفايتِهِ . . ينبغي أنْ يعودَ إلىٰ ترتيبِ الأورادِ ، وإنْ داومَ على الكسبِ وتصدَّقَ بما فضلَ عنْ حاجتِهِ . . فهوَ أفضلُ مِنْ سائرِ الأورادِ التي ذكرناها ؛ لأنَّ العبادةَ المتعديةَ فائدتُها أنفعُ مِنَ اللازمةِ ، والصدقةُ والكسبُ علىٰ هـٰذهِ النيَّةِ عبادةٌ لهُ في نفسِهِ تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يحصلُ بهِ فائدةٌ للغيرِ ، وتنجذبُ إليهِ بركاتُ دعواتِ المسلمينَ ، فيتضاعفُ بهِ الأجرُ .

* * *

الخامسُ : الوالي :

مثلُ الإمامِ والقاضي والمتولِّي لينظرَ في أمورِ المسلمينَ ، فقيامُهُ بحاجاتِ المسلمينَ وأغراضِهِمْ علىٰ وَفْقِ الشرعِ وقصْدِ الإخلاصِ أفضلُ مِنَ الأورادِ المذكورةِ ، فحقُّهُ أنْ يشتغلَ بحقوقِ الناسِ نهاراً ، ويقتصرَ على المكتوبةِ ، ويقيمَ الأورادَ المذكورةَ بالليلِ ؛ كما كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يفعلُهُ ؛ إذْ قالَ : (ما لي وللنومِ ، لوْ نمتُ بالنهارِ . . ضيَّعْتُ المسلمينَ ، ولوْ نمتُ بالليلِ . . ضيعتُ نفسي)(١) .

وقدْ فهمتَ ممَّا ذكرناهُ أنَّهُ يقدَّمُ على العباداتِ البدنيةِ أمرانِ : **أحدُهما :**

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٦٠٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧٣/٤٤) ، وكان ذلك جواباً لعمرو بن العاص حين كتب له فسأله : بلغني يا أمير المؤمنين أنك لا تنام بالليل ولا بالنهار إلا مغلباً .

العلمُ ، والآخرُ : الرفقُ بالمسلمينَ ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ العلمِ وفعلِ المعروفِ عملٌ في نفسِهِ ، وعبادةٌ تفضلُ سائرَ العباداتِ بتعدي فائدتِهِ وانتشارِ جدواهُ ، فكانا مقدَّمينِ عليهِ .

* * *

السادسُ : الموحِّدُ المستغرقُ بالواحدِ الصمدِ :

الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ[1] ، فلا يحبُّ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ ، ولا يخافُ إلا منهُ ، ولا يتوقَّعُ الرزقَ منْ غيرِهِ ، ولا ينظرُ في شيءٍ إلا ويرى اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ .

فمَنِ ارتفعتْ رتبتُهُ إلىٰ هـٰذهِ الدرجةِ . . لمْ يفتقرْ إلىٰ تنويعِ الأورادِ واختلافِها ، بلْ كانَ وردُهُ بعدَ المكتوباتِ وِرداً واحداً ، وهوَ حضورُ القلبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ حالٍ ، فلا يخطرُ بقلوبِهِمْ أمرٌ ، ولا يقرعُ سمعَهُمْ قارعٌ ، ولا يلوحُ لأبصارِهِمْ لائحٌ . . إلا كانَ لهُمْ فيهِ عِبرةٌ وفكرٌ ومزيدٌ ، فلا محرِّكَ لهُمْ ولا مسكِّنَ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

---

(١) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٣) مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » .
وروى ابن المبارك في « الزهد » (٨٥٨) عن الحسن قال : قال عامر بن عبد قيس لقوم ذكروا الدنيا : وإنكم لتهتمون ؟ ! والله لئن استطعت . . لأجعلنهما همّاً واحداً ، قال الحسن : ففعل والله ذلك حتىٰ لحق بالله .

فهؤلاءِ جميعُ أحوالِهِمْ تصلحُ أنْ تكونَ سبباً لازديادِهِمْ ، فلا تتميَّزُ عندَهُمْ عبادةٌ عنْ عبادةٍ ، وهُمُ الذينَ فرُّوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وتحقَّقَ فيهِمْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾[1] ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[2] .

وهٰذهِ منتهىٰ درجاتِ الصدِّيقينَ ، ولا وصولَ إليها إلا بعدَ ترتيبِ الأورادِ والمواظبةِ عليها دهراً طويلاً ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ المريدُ بما يسمعُهُ مِنْ ذلكَ فيدعيَهُ لنفسِهِ ، ويفترَ عنْ وظائفِ عباداتِهِ ، فذلكَ علامتُهُ ألاَّ يهجسَ في قلبِهِ وسواسٌ ، ولا يخطرَ في قلبِهِ معصيةٌ ، ولا تزعجَهُ هواجمُ الأهوالِ ، ولا تستفزَّهُ عظائمُ الأشغالِ ، وأنَّىٰ تُرزقُ هٰذهِ الرتبةُ لكلِّ أحدٍ ؟!

فيتعيَّنُ على الكافَّةِ ترتيبُ الأورادِ كما ذكرناهُ ، وجميعُ ما ذكرناهُ طرقٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ ، فكلُّهُمْ مهتدونَ وبعضُهُمْ أهدىٰ منْ بعضٍ .

وفي الخبرِ : « الإيمانُ ثلاثٌ وثلاثونَ وثلاثُ مئةِ طريقةٍ ، مَنْ لقيَ اللهَ

(١) والإشارة في قوله : ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، فهٰؤلاء نفوا عن قلوبهم عبادة غيره تعالىٰ ، فلم يحلَّ فيها خاطر للسوىٰ قط . « إتحاف » (٥/١٧٦) .

(٢) فالذهاب إلى الله هو الغنىٰ في الله ، بحيث لا يبقىٰ له خبر عما سوى الله . « إتحاف » (٥/١٧٦) .

تعالىٰ بالشَّهادةِ علىٰ طريقةٍ منها . . دخلَ الجنَّةَ »[1] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : الإيمانُ ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ خلقاً بعددِ الرسلِ ، كلُّ مؤمنٍ علىٰ خلقٍ منها ، فهوَ سالكٌ للطريقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذاً الناسُ وإنِ اختلفتْ طرقُهُمْ في العبادةِ . . فكلُّهُمْ على الصوابِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ، وإنَّما يتفاوتونَ في درجاتِ القربِ لا في أصلِهِ ، وأقربُهُمْ إلى اللهِ تعالىٰ أعرفُهُمْ بهِ ، وأعرفُهُمْ بهِ لا بدَّ وأنْ يكونَ أعبدَهُمْ لهُ ، فمَنْ عرفَهُ . . لمْ يعبدْ غيرَهُ .

* * *

والأصلُ في الأورادِ في حقِّ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ المداومةُ : فإنَّ المرادَ منهُ تغييرُ صفاتِ الباطنِ ، وآحادُ الأعمالِ يقلُّ آثارُها ، بلْ لا يُحَسُّ بآثارِها ، وإنَّما يترتَّبُ الأثرُ على المجموعِ ، فإذا لمْ يعقبِ العملُ الواحدُ أثراً محسوساً ، ولمْ يُردَفْ بثانٍ وثالثٍ على القربِ . . امَّحىٰ أثرُ الأوَّلِ ، وذلكَ كالفقيهِ الذي يريدُ أنْ يكونَ فقيهَ النفسِ ، فإنَّهُ لا يكونُ فقيهَ النفسِ إلا بتكرارٍ كثيرٍ ، فلوْ بالغَ ليلةً في التكرارِ وتركَ شهراً أوْ أسبوعاً ثمَّ عادَ وبالغَ ليلةً . . لمْ

(١) كذا لفظه في « القوت » (١/ ٨٣) ، وقد رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٣٠٦) ، واللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٥/ ٩٧٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ١٩٠٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٨١٩٠) بلفظ : « الإيمان ثلاث مئة وثلاث وثلاثون شريعة ، من وافى الله منها بشريعة . . دخل الجنة » .

يؤثِّرْ هٰذا فيهِ ، ولوْ وزَّعَ ذلكَ القدْرَ على الليالي المتواصلةِ . . لأثَّرَ فيهِ ، ولهٰذا السرِّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالىٰ أدومُها وإنْ قلَّ »(١) .

وسُئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها عَنْ عملِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالتْ : (كانَ عملُهُ ديمةً ، وكانَ إذا عملَ عملاً . . أثبتَهُ)(٢) .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عوَّدَهُ اللهُ تعالىٰ عبادةً فتركَها مَلالةً . . مقتَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ »(٣) .

وهٰذا هوَ السببُ في صلاتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ العصرِ تداركاً لما فاتَهُ مِنْ ركعتينِ شغلَهُ عنهُما الوفدُ ، ثمَّ لمْ يزلْ بعدَ ذلك يصلِّيهما بعدَ العصرِ ، ولكنْ في منزلِهِ لا في المسجدِ ؛ كي لا يُقتدىٰ بهِ ، روتْ ذلكَ عائشةُ وأمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهُما(٤) .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ لغيرِهِ أنْ يقتديَ بهِ في ذلكَ معَ أنَّ الوقتَ وقتُ كراهيةٍ ؟

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٣) .

(٢) رواه البخاري (١٩٨٧) ، ومسلم (٧٤٦ ، ٧٨٣) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٨٤) .

(٤) رواه البخاري (٥٩٠ ، ١٢٣٣) ، ومسلم (٨٣٤ ، ٨٣٥) ، وهاتان الركعتان كانتا بعد الظهر كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

فاعلمْ : أنَّ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في الكراهيةِ ؛ مِنَ الاحترازِ عنِ التشبُّهِ بعبدةِ الشمسِ ، أوِ السجودِ وقتَ ظهورِ قرْنِ الشيطانِ ، أوِ الاستراحةِ عنِ العبادةِ حذراً مِنَ الملالِ . . لا يتحقَّقُ في حقِّهِ ، فلا يقاسُ عليهِ عليهِ السلامُ في ذلكَ غيرُهُ ، ويشهدُ لذلكَ فعلُهُ في المنزلِ حتَّىٰ لا يُقتدىٰ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

* * *

الباب الثّاني
في الأسباب الميسّرة لقيام الليل، وفي الليالي التي يُستحبّ إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : « إنَّ أفضلَ الصلواتِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ صلاةُ المغربِ ، لمْ يحطَّها عنْ مسافرٍ ولا عنْ مقيمٍ ، فتحَ بها صلاةَ الليلِ ، وختمَ بها صلاةَ النهارِ ، فمَنْ صلَّى المغربَ وصلَّىٰ بعدَها ركعتينِ . . بنى اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ قصرينِ في الجنَّةِ ـ قالَ الراوي : لا أدري مِنْ ذهبٍ أوْ فضَّةٍ ـ ومَنْ صلَّىٰ بعدَها أربعَ ركعاتٍ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنبَ عشرينَ سنةً ، أوْ قالَ : أربعينَ سنةً »[1] .

وروتْ أمُّ سلمةَ عنْ أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنهُمَا[2] ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ

---

(١) كذا الحديث في « القوت » (١/ ٢٩) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، وقد رواه مختصراً الطبراني في « الأوسط » (٦٤٤٥) ، ورواه ابن شاهين في « الترغيب » وقد ساق سنده الحافظ الزيلعي في « تخريج الأحاديث والآثار » (٣/ ٣٦٠) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو الوليد يونس بن عبد الله الصفار في « كتاب الصلاة ») . « إتحاف » (٥/ ١٧٩) .

(٢) الذي في « القوت » (١/ ٣٠) : (أبو سلمة عن أبي هريرة) وأبو سلمة : هو =

عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَن صلَّىٰ ستَّ ركعاتٍ بعدَ المغربِ . . عدلَتْ لهُ عبادةَ سنةٍ كاملةٍ ، أوْ كأنَّهُ صلَّىٰ ليلةَ القدرِ »[1] .

وعنْ سعيدِ بن جبيرٍ ، عنْ ثوبانَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عكفَ نفسَهُ ما بينَ المغربِ والعشاءِ في مسجدِ جماعةٍ لمْ يتكلَّمْ إلاَّ بصلاةٍ أوْ قرآنٍ . . كانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يبنيَ لهُ قصرينِ في الجنَّةِ ، مسيرةُ كلِّ قصرٍ منهما مئةُ عامٍ ، ويغرسَ لهُ بينَهُما غراساً لوْ طافَهُ أهلُ الدنيا . . لوسعَهُمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ركعَ عشرَ ركعاتٍ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . بنى اللهُ لهُ قصراً في الجنَّةِ » ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إذاً تكثرَ

= عبد الله بن رافع الحضرمي المصري التابعي ، وهو ما صوَّبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/١٧٩) .

(١) رواه الترمذي (٤٣٥) ، وابن ماجه (١٣٧٤) بلفظ : « من صلىٰ بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن . . عدلن له عبادة ثنتي عشرة سنة » ، وزاد الحافظ العراقي : (وأما قوله : « كأنه صلىٰ ليلة القدر » . . فهو من قول كعب الأحبار ، رواه أبو الوليد الصفار والديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عباس : « من صلىٰ أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلِّم أحداً . . رفعت له في عليين ، وكان كمن أدرك ليلة القدر بالمسجد الأقصىٰ » وسنده ضعيف) . « إتحاف » (٥/١٧٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٣٠) ، ورواه أبو الفضل الزهري في « جزء يضمُّ حديثه » (٥٠٢) ، وقال ابن الملقن في « البدر المنير » (٥/٧٧٠) : (رواه الحاكم أبو أحمد في « كناه ») ، وقال الحافظ الزبيدي : (وبخط الحافظ ابن حجر : أسنده الديلمي من حديث ثوبان) . « إتحاف » (٥/١٧٩) .

قصورُنا يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « اللهُ أكثرُ وأفضلُ » أوْ قالَ : « أطيبُ »[1] .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى المغربَ في جماعةٍ ، ثمَّ صلَّىٰ بعدَها ركعتينِ لا يتكلَّمُ بشيءٍ فيما بينَ ذلكَ مِنْ أمرِ الدنيا ، ويقرأُ في الركعةِ الأولىٰ بـ(فاتحةِ الكتابِ) وعشرِ آياتٍ مِنْ أوَّلِ (سورةِ البقرةِ) وآيتينِ مِنْ وسطِها : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى آخرِ الآيةِ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ عشرةَ مرَّةً ، ثمَّ يركعُ ويسجدُ ، فإذا قامَ في الرَّكعةِ الثانيةِ . . قرأَ (فاتحةَ الكتابِ) وآيةَ الكرسيِّ وآيتينِ بعدَها إلى قولِهِ : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ (سورةِ البقرةِ) ، من قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى آخرِها ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ عشرةَ مرَّةً » ووصفَ مِنْ ثوابِهِ في الحديثِ ما يخرجُ عنِ الحصرِ[2] .

وقالَ كُرْزُ بنُ وبرةَ وهوَ مِنَ الأبدالِ : قلتُ للخضرِ عليهِ السلامُ : علِّمني شيئاً أعملُهُ في كلِّ ليلةٍ ، فقالَ : إذا صليتَ المغربَ . . فقمْ إلىٰ وقتِ صلاةِ العشاءِ مصلِّياً مِنْ غيرِ أنْ تكلِّمَ أحداً ، وأقبِلْ علىٰ صلاتِكَ التي أنتَ فيها ،

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٦٤) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٠) .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ٣٠) ، وسرد ما له من الجزاء طويلاً ، قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير ، وهو ضعيف) . « إتحاف » (٥/ ١٨٠) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢/ ١٢٣) .

وسلِّم منْ كلِّ ركعتينِ ، واقرأْ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرَّةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثاً ، فإذا فرغتَ مِنْ صلاتِكَ . . انصرفْ إلىٰ منزلِكَ ولا تكلِّمْ أحداً ، وصلِّ ركعتينِ ، واقرأْ (فاتحةَ الكتابِ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعَ مرَّاتٍ في كلِّ ركعةٍ ، ثمَّ اسجدْ بعدَ تسليمِكَ واستغفرِ اللهَ تعالىٰ سبعَ مرَّاتٍ ، وقلْ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ) سبعَ مرَّاتٍ ، ثمَّ ارفعْ رأسَكَ مِنَ السجودِ واستوِ جالساً ، وارفعْ يديكَ وقلْ : (يا حيُّ يا قيُّومُ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ ، يا إلـٰهَ الأوَّلينَ والآخرينَ ، يا رحمانَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما ، يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ ، يا أللهُ يا أللهُ يا أللهُ) ، ثمَّ قمْ وأنتَ رافعٌ يديكَ وادعُ بهـٰذا الدعاءِ ، ثمَّ نمْ حيثُ شئتَ مستقبلَ القبلةِ علىٰ يمينِكَ ، وصلِّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدمِ الصلاةَ عليهِ حتَّىٰ يذهبَ بكَ النومُ ، فقلتُ لهُ : أحبُّ أنْ تعلمَني ممَّنْ سمعتَ هـٰذا ، فقالَ : إنِّي حضرتُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ عُلِّمَ هـٰذا الدعاءَ وأُوحيَ إليهِ بهِ ، فكنتُ عندَهُ ، وكانَ ذلكَ بمحضرٍ منِّي ، فتعلَّمتُهُ ممَّنْ علَّمَهُ إيَّاهُ(١) .

ويُقالُ : إنَّ هـٰذا الدعاءَ وهـٰذهِ الصلاةَ مَنْ داومَ عليهما بحسْنِ يقينٍ وصدْقِ نيَّةٍ . . رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في منامِهِ قبلَ أنْ يخرجَ مِنَ الدنيا ، وقدْ فعلَ ذلكَ بعضُ الناسِ ، فرأىٰ أنَّهُ أُدخلَ الجنَّةَ ، ورأىٰ فيها

(١) قوت القلوب (١/ ٣٠) .

الأنبياءَ ، ورأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكلَّمَهُ وعلَّمَهُ[1] .

وعلى الجملةِ : ما وردَ في فضْلِ إحياءِ ما بينَ العشاءينِ كثيرٌ ، حتَّىٰ قيلَ لعُبيدٍ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : هلْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ بصلاةٍ غيرِ المكتوبةِ ؟ قالَ : ما بينَ المغربِ والعشاءِ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . فذلكَ صلاةُ الأوَّابينَ »[3] .

وقالَ الأسودُ : ما أتيتُ ابنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في هـٰذا الوقتِ إلا ورأيتُهُ يصلِّي ، فسألتُهُ ، فقالَ : نعمْ ، هيَ ساعةُ الغفلةِ[4] .

وكانَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ يواظبُ عليها ويقولُ : هيَ ناشئةُ الليلِ[5] ، ويقولُ : فيها نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[6] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣١) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٢٧٤) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥٩) عن ابن المنكدر مرسلاً .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٦١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٢٨٨) ، والأسود هو ابن يزيد النخعي ، والد عبد الرحمٰن .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٩٧٧) .
(٦) رواه أبو داوود (١٣٢١) ، والترمذي (٣١٩٦) .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ : أصومُ النهارَ وأتعشَّىٰ بينَ المغربِ والعشاءِ أحبُّ إليكَ أوْ أفطرُ بالنهارِ وأحيي ما بينَهما ؟ فقالَ : اجمعْ بينَهُما ، فقلتُ : إنْ لمْ يتيسَّرْ ؟ قال : أفطرْ وصلِّ ما بينَهُما[1] .

* * *

(١) قوت القلوب (١/ ٢٩) .

فضيلة قيام الليل

أمّا مِنَ الآياتِ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ . . . ﴾ الآيةَ[(١)] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .

وقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، قيلَ : هيَ قيامُ الليلِ يستعانُ بالصبرِ عليهِ علىٰ مجاهدةِ النفسِ .

* * *

ومِنَ الأخبارِ :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعقدُ الشيطانُ علىٰ قافيةِ أحدِكُمْ إذا هوَ نامَ ثلاثَ عقدٍ ، يضرِبُ مكانَ كلِّ عقدةٍ : عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقُدْ ، فإنِ استيقظَ

---

(١) فقد قرن الله سبحانه وتعالىٰ قوّام الليل برسوله صلى الله عليه وسلم وجمعهم معه في شكر المعاملة وحسن الجزاء فقال : ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ . « إتحاف » (٥/ ١٨٢) .

وذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فإنْ توضَّأَ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فإنْ صلَّىٰ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فأصبحَ نشيطاً طيِّبَ النَّفسِ ، وإلاَّ . . أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ »[1] .

وفي خبرٍ آخرَ : أنَّهُ ذُكِرَ عندَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ نامَ الليلَ كلَّهُ حتَّىٰ أصبحَ ، فقالَ : « ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذنِهِ »[2] .

وفي الخبرِ : « إنَّ للشيطانِ سَعُوطاً ولَعُوقاً وذَرُوراً ، فإذا أسعطَ العبدَ . . ساءَ خلقُهُ ، وإذا ألعقَهُ . . ذَرِبَ لسانُهُ بالشرِّ ، وإذا ذرَّهُ . . نامَ الليلَ كلَّهُ حتَّىٰ يصبحَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ركعتانِ يركعُهُما العبدُ في جوفِ الليلِ الآخرِ خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها ، ولولا أنْ أشقَّ علىٰ أمتي لفرضتُهما عليهِمْ »[4] .

---

(١) رواه البخاري (١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) .

(٢) رواه البخاري (١١٤٤) ، ومسلم (٧٧٤) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٤٠) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٠٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣٧٤) ، ولفظه : « إن للشيطان كحلاً ولعوقاً ، فإذا كحل الإنسان من كحله . . نامت عيناه عن الذكر ، وإذا لعَّقه من لعوقه . . ذرب لسانه بالشرِّ » ، ونحوه عند البيهقي في « الشعب » (٢٨٣٧) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١٨٥) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٩٤) عن حسان بن عطية مرسلاً ، ورفعه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٤٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي الصحيحِ عنْ جابرٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ مِنَ الليلِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالىٰ خيراً إلاَّ أعطاهُ إيَّاهُ » ، وفي روايةٍ : « يسألُ اللهَ تعالىٰ خيراً مِنَ الدنيا والآخرةِ وذلكَ كلَّ ليلةٍ »(١) .

وقالَ المغيرةُ بنُ شعبةَ : قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ تفطرَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ : أما قدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ منْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً »(٢) ، ويظهرُ مِنْ معناهُ : أنَّ ذلكَ كنايةٌ عنْ زيادةِ الرتبةِ ؛ فإنَّ الشكرَ سببُ المزيدِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أتريدُ أنْ تكونَ رحمةُ اللهِ عليكَ حيّاً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً ؟ قمْ مِنَ الليلِ فصلِّ وأنتَ تريدُ رضا ربِّكَ ، يا أبا هريرةَ ؛ صلِّ في زوايا بيتِكَ . يكنْ نورُ بيتِكَ في السماءِ كنورِ الكواكبِ والنجمِ عندَ أهلِ الدنيا »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بقيامِ الليلِ ؛ فإنَّهُ دأبُ الصالحينَ

---

(١) رواه مسلم (٧٥٧) ، وأحمد في « المسند » (٣/٣١٣) ، وسقط الحديث من (أ) .

(٢) رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) .

(٣) هـٰذا قطعة مما يسمىٰ بوصية أبي هريرة .

قبلَكُمْ ، وإنَّ قيامَ الليلِ قربةٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتكفيرٌ للذنوبِ ، ومطردةٌ للداءِ عنِ الجسدِ ، ومنهاةٌ عنِ الإثمِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ امرئٍ تكونُ لهُ صلاةٌ بالليلِ فغلبهُ عليها النومُ . . إلا كُتبَ لهُ أجرُ صلاتِهِ ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي ذرٍّ : « لوْ أردتَ سفراً . . أعددتَ لهُ عدَّةً ، فكيفَ سفرُ طريقِ القيامةِ ؟! ألا أنبئُكَ يا أبا ذرٍّ بما ينفعُكَ ذلكَ اليومَ ؟ » قالَ : بلىٰ بأبي أنتَ وأمِّي ، قالَ : « صمْ يوماً شديدَ الحرِّ ليومِ النشورِ ، وصلِّ ركعتينِ في ظلمةِ الليلِ لوحشةِ القبورِ ، وحجَّ حجَّةً لعظائمِ الأمورِ ، وتصدَّقْ بصدقةٍ علىٰ مسكينٍ ، أوْ كلمةَ حقٍّ تقولُها ، أوْ كلمةَ شرٍّ تسكتُ عنها »(٣) .

ورُوي أنَّهُ كانَ علىٰ عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ إذا أخذَ الناسُ مضاجعَهُمْ وهدأتِ العيونُ . . قامَ يصلِّي ويقرأُ القرآنَ ويقولُ : يا ربَّ النارِ ؛ أجرني منها ، فذُكِرَ ذلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « إذا كانَ ذلكَ . . فآذنوني » فأتاهُ ، فاستمعَ ، فلما أصبحَ . . قالَ : « يا فلانُ ؛ هلاَّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٩) .

(٢) رواه أبو داوود (١٣١٤) ، والنسائي (٣/ ٢٥٧) ، ونحوه ابن ماجه (١٣٤٤) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٨٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٥) من طريقه موقوفاً علىٰ أبي ذر ، ورفعه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٠) .

سألتَ الجنَّةَ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لستُ هناكَ ، ولا يبلغُ عملي ذلكَ ، فلمْ يلبَثْ إلا يسيراً حتَّىٰ نزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ وقالَ : أخبرْ فلاناً أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أجارَهُ مِنَ النارِ وأدخلَهُ الجنَّةَ[١] .

ويُروىٰ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمَ الرجلُ ابنُ عمرَ لوْ كانَ يصلِّي مِنَ الليلِ » ، فأخبرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ، فكانَ يداومُ بعدَهُ علىٰ قيامِ الليلِ[٢] ، قالَ نافعٌ : كانَ يصلِّي بالليلِ ثمَّ يقولُ : يا نافعُ ؛ أَسْحَرْنا ؟ فأقولُ : لا ، فيقومُ لصلاتِهِ ، ثمَّ يقولُ : يا نافعُ ؛ أسحرْنا ؟ فأقولُ : نعمْ ، فيقعدُ ، فيستغفرُ اللهَ تعالىٰ حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ[٣] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي الحرِّ : شبعَ يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ مِنْ خبزِ شعيرٍ ، فنامَ عنْ وِردِهِ حتَّىٰ أصبحَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا يحيىٰ ؛ أوجدتَ داراً خيراً لكَ مِنْ داري أمْ وجدتَ جواراً خيراً لكَ مِنْ جواري ؟! فوعزَّتي وجلالي يا يحيىٰ ؛ لوِ اطلعتَ إلى الفردوسِ اطلاعةً . . لذابَ جسمُكَ ، ولزهقتْ نفسُكَ اشتياقاً ، ولوِ اطلعتَ إلىٰ جهنَّمَ اطلاعةً . . لذابَ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٥/ ١٨٧) .
(٢) رواه البخاري (١١٢٢) ، ومسلم (٢٤٧٩) وليس فيه ذكر جبريل عليه السلام .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٠٣) ، وأبو الحسين الطيوري في « الطيوريات » (٦٩٣) .

شحمُكَ ، ولبكيتَ الصديدَ بعدَ الدموعِ ، ولبستَ الحديدَ بعدَ المسوحِ[١] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً يصلِّي بالليلِ ، فإذا أصبحَ . . سرقَ ، فقالَ : « سينهاهُ ما تقولُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : رحمَ اللهُ رجلاً قامَ مِنَ الليلِ فصلَّىٰ ، ثم أيقظ امرأتَهُ فصلَّتْ ، فإنْ أبتْ . . نضحَ في وجهِها الماءَ ، ورحمَ اللهُ امرأةً قامتْ مِنَ الليلِ فصلَّتْ ، ثمَّ أيقظتْ زوجَها فصلَّىٰ ، فإنْ أبىٰ . . نضحَتْ في وجههِ الماءَ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استيقظَ مِنَ الليلِ وأيقظَ امرأتَهُ فصلَّيا ركعتينِ . . كُتِبا مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصلاةِ بعدَ المكتوبةِ صلاةُ الليلِ »[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٤) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٤٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٦٠) .

(٣) رواه أبو داوود (١٣٠٨) ، والنسائي (٣/ ٢٠٥) ، وابن ماجه (١٣٢٦) .

(٤) رواه أبو داوود (١٤٥١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٣١٢) ، وابن ماجه (١٣٣٥) .

(٥) رواه مسلم (١١٦٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نامَ عنْ حزبِهِ أوْ عنْ شيءٍ منهُ بالليلِ فقرأَهُ بينَ صلاةِ الفجرِ والظهرِ . . كُتِبَ لهُ كأنَّما قرأَهُ مِنَ الليلِ »[(١)] .

* * *

الآثارُ :

يُروىٰ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يمرُّ بالآيةِ في وِردِهِ بالليلِ فيسقطُ ، حتَّىٰ يُعادُ منها أياماً كثيرةً كما يُعادُ المريضُ[(٢)] .

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا هدأتِ العيونُ . . قامَ ، فيُسمعُ لهُ دويٌّ كدويِّ النحلِ حتَّىٰ يصبحَ[(٣)] .

ويقالُ : إنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمَهُ اللهُ شبعَ ليلةً فقالَ : (إنَّ الحمارَ إذا زيدَ في علفِهِ . . زيدَ في عملِهِ) ، فقامَ تلكَ الليلةَ حتَّىٰ أصبحَ[(٤)] .

وكانَ طاووسٌ رحمهُ اللهُ إذا اضطجعَ علىٰ فراشِهِ . . يتقلَّىٰ عليهِ كما تتقلَّى

---

(١) رواه مسلم (٧٤٧) .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣٠٩) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١٥) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٦١) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٦٤) .

الحبَّةُ في المقلاةِ ، ثمَّ يثبُ ويصلِّي إلى الصباحِ ، ثمَّ يقولُ : (طَيَّرَ ذكرُ جهنَّمَ نومَ العابدينَ)(١) .

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : ما نعلمُ عملاً أشدَّ مِنْ مكابدةِ الليلِ ونفقةِ هـٰذا المالِ(٢) ، فقيلَ لهُ : ما بالُ المتهجِّدينَ مِنْ أحسنِ الناسِ وجوهاً ؟ فقالَ : إنَّهُمْ خلَوا بالرحمـٰنِ ، فألبسَهُمْ نوراً مِنْ نورِهِ(٣) .

وقدِمَ بعضُ الصالحينَ مِنْ سفرٍ ، فمُهِّدَ لهُ فراشٌ ، فنامَ عليهِ حتَّىٰ فاتَهُ وِردُهُ ، فحلفَ ألاَّ ينامَ بَعدَها علىٰ فراشٍ أبداً(٤) .

وكانَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ رحمَهُ اللهُ إذا جَنَّ الليلُ . . يأتي فراشَهُ ، فيمرُّ يدَهُ عليهِ ويقولُ : إنَّكَ للَيِّنٌ ، وواللهِ ؛ إنَّ فِي الجنَّةِ لألينَ منكَ ، ولا يزالُ يصلِّي الليلَ كلَّهُ(٥) .

وقالَ الفضيلُ رحمَهُ اللهُ : (إنِّي لأستقبلُ الليلَ مِنْ أوَّلِهِ ، فيهوِّلني طولُهُ ، فأفتتحُ القرآنَ ، فأصبحُ وما قضيتُ نهمتي)(٦) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٧) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٣٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧٩) .
(٥) وقد روى ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١١٨) صبره علىٰ قيام الليل .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٨٨) عن محمد بن المنكدر قاله لأمه .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ الرجلَ ليذنبُ الذنبَ فيحرمُ بهِ قيامَ الليلِ)[1] .

وقالَ الفضيلُ : (إذا لمْ تقدرْ علىٰ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ . . فاعلمْ أنَّكَ محرومٌ وقدْ كثرَتْ خطيئتُكَ)[2] .

وكانَ صلةُ بنُ أشيمَ رحمهُ اللهُ يصلِّي الليلَ كلَّهُ ، فإذا كانَ في السحرِ . . قالَ : (إلـٰهي ؛ ليسَ مثلي يطلبُ الجنَّةَ ، ولكنْ أجرني برحمتِكَ مِنَ النارِ)[3] .

وقالَ رجلٌ لبعضِ الحكماءِ : إنِّي لأضعفُ عَنْ قيامِ الليلِ ، فقالَ لهُ : يا أخي ؛ لا تعصِ اللهَ تعالىٰ بالنهارِ ولا تقمْ بالليلِ[4] .

وكانَ للحسنِ بنِ صالحٍ رحمهُ اللهُ جاريةٌ ، فباعَها مِنْ قومٍ ، فلمَّا كانَ في جوفِ الليلِ . . قامتِ الجاريةُ فقالَت : يا أهلَ الدارِ ؛ الصلاةَ الصلاةَ ، فقالوا : أصبحنا ، أطلع الفجرُ ؟! فقالتْ : وما تصلونَ إلا المكتوبةَ ؟! فقالوا : لا ، فرجعتْ إلى الحسنِ فقالَت : يا مولايَ ؛ بعتني مِنْ قومٍ لا يصلُّونَ بالليلِ ، ردَّني ، فردَّها[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣٦٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٠) .
(٤) أورد نحوه المروزي في « قيام الليل » (١/ ٦) .
(٥) أوردها العجلي في « الثقات » (١/ ٢٩٥) .

وقالَ الربيعُ : (بتُّ في منزلِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ لياليَ كثيرةً ، فلمْ يكنْ ينامُ منَ الليلِ إلا أيسرَهُ)[١] .

وقالَ أبو الجويريةِ : (لقدْ صحبتُ أبا حنيفةَ رحمَهُ اللهُ ستَّةَ أشهرٍ ، فما فيها ليلةٌ وضعَ جنبَهُ على الأرضِ)[٢] .

وكانَ أبو حنيفةَ يحيي نصفَ الليلِ ، فمرَّ بقومٍ ، فقالوا : إنَّ هـٰذا يحيي الليلَ كلَّهُ ، فقالَ : إنِّي أستحيي أنْ أُوصفَ بما لا أفعلُ ، فكانَ بعدَ ذلكَ يحيي الليلَ كلَّهُ[٣] ، ويُروىٰ أنَّهُ ما كانَ لهُ فراشٌ بالليلِ[٤] .

ويقالُ : إنَّ مالكَ بنَ دينارٍ رضيَ اللهُ عنهُ قامَ يردِّدُ هـٰذهِ الآيةَ ليلتَهُ حتَّىٰ أصبحَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . . ﴾ الآيةَ[٥] .

وقالَ المغيرةُ بنُ حبيبٍ : رمقتُ مالكَ بنَ دينارٍ ، فتوضَّأَ بعدَ العشاءِ ، ثمَّ قامَ إلىٰ مصلاَّهُ ، فقبضَ علىٰ لحيتِهِ ، فخنقتْهُ العبرةُ ، فجعلَ يقولُ : اللهمَّ ؛ حرِّمْ شيبةَ مالكٍ على النارِ ، إلـٰهي ؛ قدْ علمتَ ساكنَ الجنةِ مِنْ

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « مسند أبي حنيفة » (ص٢١) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٥٣) .
(٤) أورده الذهبي في « مناقب أبي حنيفة وصاحبيه » (ص ٢١) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٥٠) عن تميم الداري رضي الله عنه .

ساكنِ النارِ ، فأيُّ الرجلينِ مالكٌ ؟ وأيُّ الدارينِ دارُ مالكٍ ؟ فلمْ يزلْ ذلكَ قولَهُ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ[١] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : سهوتُ ليلةً عنْ وِردي ونمتُ ، فإذا أنا في المنامِ بجاريةٍ كأحسنِ ما يكونُ ، وفي يدِها رقعةٌ ، فقالتْ لي : أتحسنُ أنْ تقرأَ ؟ فقلتُ : نعمْ ، فدفعتْ إليَّ الرقعةَ ، فإذا فيها[٢] : [من الوافر]

أَأَلْهَتْـكَ ٱللَّـذائِـذُ وَٱلأَمـانِـي ... عَنِ ٱلْبِيضِ ٱلأَوانِسِ فِي ٱلْجِنانِ
تَعِيشُ مُخَلَّـداً لا مَـوْتَ فِيهـا ... وَتَلْهُو فِي ٱلْجِنَانِ مَعَ ٱلْحِسانِ
تَنَبَّـهْ مِـنْ مَنامِـكَ إِنَّ خَيْـراً ... مِـنَ ٱلنَّـوْمِ ٱلتَّهَجُّـدُ بِـٱلْقُـرانِ

وقيلَ : حجَّ مسروقٌ ، فما باتَ ليلةً إلا ساجداً[٣] .

ويُروىٰ عنْ أزهرَ بنِ مغيثٍ وكانَ مِنَ القوّامينَ أنَّهُ قالَ : رأيتُ في المنامِ امرأةً لا تشبهُ نساءَ أهلِ الدنيا ، فقلْتُ لها : مَنْ أنتِ ؟ فقالتْ : حوراءُ ،

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦١) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٥١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٤) عن بعض العابدين ، والخبر في « الحلية » (١٠/ ١٥) عن أبي سليمان الداراني ، وهي عند الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٤/ ٩٩) عن الحسن البصري .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٥) .

فقلتُ : زوجيني نفسَكِ ، فقالتِ : اخطبْني إلىٰ سيِّدي وأمهرْني ، فقلتُ : وما مهرُكِ ؟ فقالتْ : طولُ التهجُّدِ[1] .

وقالَ يوسفُ بنُ مهرانَ : بلغني أنَّ تحتَ العرشِ ملكاً في صورةِ ديكٍ ، براثنُهُ مِنْ لؤلؤٍ وصِئْصِئتُهُ مِنْ زبرجدٍ أخضرَ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ الأوَّلُ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ القائمونَ ، فإذا مضىٰ نصفُ الليلِ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ المتهجِّدونَ ، فإذا مضىٰ ثلثا الليلِ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقم المصلُّونَ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ الغافلونَ وعليهِمْ أوزارُهُمْ[2] .

ويُقالُ : إنَّ وهبَ بنَ منبِّهٍ اليمانيَّ رحمهُ اللهُ ما وضعَ جنبَهُ إلى الأرضِ ثلاثينَ سنةً ، وكانَ يقولُ : لأنْ أرىٰ في بيتي شيطاناً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرىٰ وسادةً ؛ لأنَّها تدعو إلى النومِ ، وكانتْ لهُ مسورةٌ مِنْ أدمٍ إذا غلبَهُ النومُ . . وضعَ صدرَهُ عليها وخفقَ خفقاتٍ ، ثمَّ يفزعُ إلى القيامِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ ربَّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ في النومِ ، فسمعتُهُ يقولُ : وعزَّتي وجلالي ؛ لأكرمَنَّ مثوىٰ سليمانَ التيميِّ ؛ فإنَّهُ صلَّىٰ لي الغداةَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٥٥) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣/ ١٠١٠) ، وأورده صاحب « القوت » (١/ ٣٦) ، **والصِّئصئة** : أعلى القفا ، أو قرن يكون في رجله ، وقد روى الحافظ الزبيدي حديث الديك الذي تحت العرش مسلسلاً في « إتحافه » (٥/ ١٩١) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٣٧) .

بوضوءِ العشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنةً[(١)] ، ويُقالُ : كانَ مذهبُهُ أنَّ النومَ إذا خامرَ القلبَ . . بطلَ الوضوءُ .

ورُوي في بعضِ الكتبِ القديمةِ عنِ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ قالَ : إنَّ عبدي الذي هوَ عبدي حقاً الذي لا ينتظرُ بقيامِهِ صياحَ الديكِ[(٢)] .

* * *

---

(١) القائل هو رقبة بن مصقلة ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٥٢) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٣٨) .

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلمْ : أنَّ قيامَ الليلِ عسيرٌ على الخلقِ إلاَّ علىٰ مَنْ وُفِّقَ للقيامِ بشروطِهِ الميسِّرةِ لهُ ظاهراً وباطناً .

فأمَّا الظاهرةُ . . فأربعةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : ألاَّ يكثرَ الأكلَ ، فيكثرَ الشربَ ، فيغلبَهُ النومُ ويثقلَ عليهِ القيامُ .

كانَ بعضُ الشيوخِ يقفُ على المائدةِ كلَّ ليلةٍ ويقولُ : (معاشرَ المريدينَ ؛ لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ؛ فترقُدوا كثيراً ، فتتحسَّروا عندَ الموتِ كثيراً)[1] ، وهـٰذا هوَ الأصلُ الكبيرُ ، وهوَ تخفيفُ المعدةِ عنْ ثقلِ الطعامِ[2] .

الثاني : ألاَّ يتعبَ نفسَهُ بالنهارِ في الأعمالِ التي تعيا بها الجوارحُ ، وتضعفُ بها الأعصابُ ، فإنَّ ذلكَ أيضاً مجلبةٌ للنومِ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٥٢٨) في نفر من بني إسرائيل ، وهو في « القوت » (٩٨/١) ، وفيه : (فتخسروا) .

(٢) ويتبع هـٰذا السبب الظاهر سبب آخر باطن ، وهو أن يتناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن ، فإنه يعين علىٰ قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب داؤه ، فإن وجد للطعام ثقلاً في المعدة . . فينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر ، فلا ينام حتىٰ يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . « إتحاف » (١٩٢/٥) .

الثالثُ : ألاَّ يتركَ القيلولةَ بالنهارِ ؛ فإنَّها سنَّةٌ للاستعانةِ علىٰ قيامِ الليلِ .

الرابعُ : ألاَّ يحتقبَ الأوزارَ بالنهارِ ، فإنَّ ذلكَ يقسِّي القلبَ ويحولُ بينَهُ وبينَ أسبابِ الرحمةِ .

قالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنِّي أبيتُ معافىً وأحبُّ قيامَ الليلِ ، وأعدُّ طهوري ، فما بالي لا أقومُ ؟ فقالَ : ذنوبُكَ قيَّدَتْكَ[(١)] .

وكانَ الحسنُ رحمهُ اللهُ إذا دخلَ السوقَ فسمعَ لغطَهُمْ ولغوَهُمْ . . يقولُ : أظنُّ أنَّ ليلَ هؤلاءِ ليلُ سوءٍ ؛ فإنَّهُمْ لا يقيلونَ[(٢)] .

وقالَ الثوريُّ : حرمتُ قيامَ الليلِ خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنبتُهُ ، قيلَ : وما ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : رأيتُ رجلاً بكىٰ ، فقلتُ في نفسي : هـٰذا مراءٍ[(٣)] .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ كرزِ بنِ وبرةَ وهوَ يبكي ، فقلتُ : أتاكَ نعيُ بعضِ أهلِكَ ؟ فقالَ : أشدُّ ، فقلتُ : وجعٌ يؤلمُكَ ؟ قالَ : أشدُّ ، قلتُ : فما ذاكَ ؟ قالَ : بابي مغلقٌ ، وستري مسبلٌ ، ولمْ أقرأْ حِزبيَ البارحةَ ، وما ذاكَ إلاَّ بذنبٍ أحدثتُهُ[(٤)] .

وهـٰذا لأنَّ الخيرَ يدعو إلى الخيرِ ، والشرَّ يدعو إلى الشرِّ ، والقليلُ منْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٩) ، وسبق نحوه عنه قريباً .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٥٣٥) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٧) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٩) بتمامه .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٧٩) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٩) .

كلِّ واحدٍ منهما يجرُّ إلى الكثيرِ ؛ ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (لا تفوتُ أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنبٍ)(١) .

وكانَ يقولُ : (الاحتلامُ بالليلِ عقوبةٌ ، والجنابةُ البعدُ)(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا صمتَ يا مسكينُ . . فانظرْ عندَ مَنْ تفطرُ ، وعلىٰ أيِّ شيءٍ تفطرُ ؛ فإنَّ العبدَ ليأكلُ الأكلةَ فينقلبُ قلبُهُ عمَّا كانَ عليهِ ، ولا يعودُ إلىٰ حالِهِ الأوَّلِ)(٣) .

فالذنوبُ كلُّها تورثُ قساوةَ القلبِ ، وتمنعُ مِنْ قيامِ الليلِ ، وأخصُّها بالتأثيرِ تناولُ الحرامِ ، وتؤثِّرُ اللقمةُ الحلالُ في تصفيةِ القلبِ وتحريكِهِ إلى الخيرِ ما لا يؤثِّرُ غيرُها ، ويعرفُ ذلكَ أهلُ المراقبةِ للقلوبِ بالتجربةِ بعدَ شهادةِ الشرعِ لهُ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (كمْ مِنْ أكلةٍ منعَتْ قيامَ ليلةٍ ، وكمْ مِنْ نظرةٍ منعَتْ قراءةَ سورةٍ ، وإنَّ العبدَ ليأكُلُ أكلةً أوْ يفعلُ فعلةً . . فيحرمُ بها قيامَ سنةٍ)(٤) .

وكما أنَّ الصلاةَ تنهىٰ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . فكذلكَ الفحشاءُ تنهىٰ عنِ الصلاةِ وسائرِ الخيراتِ .

وقالَ بعضُ السجَّانينَ بدِينَوَرَ : بقيتُ سجَّاناً نيفاً وثلاثينَ سنةً أسألُ عنْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٤٠) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٠) .

كلِّ مأخوذٍ بالليلِ أنَّهُ هلْ صلَّى العشاءَ في جماعةٍ ؟ فكانوا يقولونَ : لا[١] .

وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ بركةَ الجماعةِ تنهىٰ عنْ تعاطي الفحشاءِ والمنكرِ[٢] .

* * *

وأمَّا الميسراتُ الباطنةُ . . فأربعةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : سلامةُ القلبِ عنِ الحقدِ علىٰ أحدٍ مِنَ المسلمينَ ، وعنِ البدعِ ، وعنْ فضولِ همومِ الدنيا ، فالمستغرقُ الهمِّ بتدبيرِ الدنيا لا يتيسَّرُ لهُ القيامُ ، وإنْ قامَ . . فلا يتفكَّرُ في صلاتِهِ إلا في مهمَّاتِهِ ، ولا يجولُ إلا في وساوسِهِ ، وفي مثلِ ذلكَ يُقالُ[٣] : [من الطويل]

يخبِّرُني البوابُ أنَّكَ نائِمٌ ... وَأَنْتَ إذا ٱسْتَيْقَظْتَ أَيْضاً فَنائِمُ

الثاني : خوفٌ غالبٌ يلزمُ القلبَ معَ قصرِ الأملِ ؛ فإنَّهُ إذا تفكَّرَ في أهوالِ الآخرةِ ودركاتِ جهنَّمَ . . طارَ نومُهُ ، وعظمَ حذرُهُ ؛ كما قالَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٠) .

(٢) وذكر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ١٩٤) زيادة مُيسِّرات ، تتلخص في الوضوء قبل المغرب واستقبال الليل علىٰ طهارة مستقبل القبلة وهو يذكر الله تعالىٰ ، وإحياء ما بين العشاءين ، وترك الحديث بعد العشاء ، وتجديد الوضوء والطهارة بعده كذلك ، وذكر الله تعالىٰ والصلاة إلىٰ أن ينام ، وتغيير العادة بهيئة النوم .

(٣) البيت لمحمد بن عمرو الحربي (ت٢٤٠هـ) . انظر « معجم الشعراء » للمرزباني (ص ٤٦٦) .

طاووسٌ : (إنَّ ذكرَ جهنَّمَ طيَّرَ نومَ العابدينَ)[١] ، وكما حُكِيَ أنَّ غلاماً بالبصرةِ اسمُهُ صهيبٌ ، كانَ يقومُ الليلَ كلَّهُ ، فقالتْ لهُ سيِّدتُهُ : إنَّ قيامَكَ بالليلِ يضرُّ بعملِكَ بالنهارِ ، فقالَ : إنَّ صهيباً إذا ذكرَ النارَ.. لا يأتيهِ النومُ .

وقيلَ لغلامٍ آخرَ وهوَ يقومُ كلَّ الليلِ مثلَ ذلكَ ، فقالَ : إذا ذكرتُ النارَ.. اشتدَّ خوفي ، وإذا ذكرتُ الجنَّةَ.. اشتدَّ شوقي ، فلا أقدرُ أنْ أنامَ[٢] .

ولذي النونِ المصريِّ رحمهُ اللهُ[٣] : [من الكامل]

مَنَعَ ٱلْقُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ ٱلْعُيُونِ بِلَيْلِها أَنْ تَهْجَعا
فَهِمُوا عَنِ ٱلْمَلِكِ ٱلْجَلِيلِ كَلامَهُ ... فَرِقابُهُمْ ذَلَّتْ إِلَيْهِ تَخَضُّعا

وأنشدوا أيضاً : [من الخفيف]

يا طَوِيلَ ٱلرُّقادِ وَٱلْغَفَلاتِ ... كَثْرَةُ ٱلنَّوْمِ تُورِثُ ٱلْحَسَراتِ
إِنَّ فِي ٱلْقَبْرِ إِنْ نَزَلْتَ إِلَيْهِ ... لَرُقاداً يَطُولُ بَعْدَ ٱلْمَماتِ
وَمِهاداً مُمَهَّداً لَكَ فِيهِ ... بِذُنُوبٍ عَمِلْتَ أَوْ حَسَناتِ
أَأَمِنْتَ ٱلْبَياتَ مِنْ مَلَكِ ٱلْمَوْ ... تِ وكَمْ نالَ آمِناً بِبَياتِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) .

(٢) وهـٰذا الغلام كان لرباح القيسي ، وقد أورد الخبر أبو حيان التوحيدي في « البصائر والذخائر » (٨٨/٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٣/١) .

وقالَ ابنُ المباركِ رحمةُ اللهِ عليهِ[1] :		[من الوافر]

إذا ما ٱللَّيْلُ أَظْلَمَ كابَدُوهُ		فَيُسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعُ
أَطارَ ٱلْخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقامُوا		وَأَهْلُ ٱلأَمْنِ فِي ٱلدُّنْيا هُجُوعُ

الثالثُ : أنْ يعرفَ فضلَ قيامِ الليلِ بسماعِ هـٰذهِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ التي أوردناها ؛ حتَّىٰ يستحكمَ بذلكَ رجاؤُهُ وشوقُهُ إلىٰ ثوابِهِ ، فيهيِّجَهُ الشوقُ لطلبِ المزيدِ والرغبةِ في درجاتِ الجنانِ ؛ كما حُكِيَ أنَّ بعضَ الصالحينَ رجعَ مِنْ غزاةٍ غزاها ، فلمَّا كانَ الليلُ . . مهدَتِ امرأتُهُ فراشَها وجلستْ تنتظرُهُ ، فدخلَ المسجدَ ولمْ يزلْ يصلِّي حتَّىٰ أصبحَ ، فقالَتْ زوجتُهُ : كنَّا نتنظرُكَ مدَّةً ، فلمَّا قدمتَ . . صلَّيْتَ إلى الصبحِ ! قالَ : واللهِ ؛ إنِّي كنتُ أتفكَّرُ في حوراءَ مِنْ حورِ الجنَّةِ طولَ الليلِ ، فنسيتُ الزوجةَ والمنزلَ ، فقمتُ طولَ ليلتي شوقاً إليها .

الرابعُ : وهوَ أشرفُ البواعثِ ، الحبُّ للهِ تعالىٰ ، وقوَّةُ الإيمانِ بأنَّهُ في قيامِهِ لا يتكلَّمُ بحرفٍ إلا وهوَ مناجٍ بهِ ربَّهُ ، وهوَ مطَّلعٌ عليهِ معَ مشاهدةِ ما يخطرُ بقلبِهِ ، وأنَّ تلكَ الخطراتِ مِنَ اللهِ تعالىٰ خطابٌ معهُ ، فإذا أحبَّ اللهَ تعالىٰ . . أحبَّ ـ لا محالةَ ـ الخلوةَ بهِ ، وتلذَّذَ بالمناجاةِ ، فتحملُهُ لذَّةُ المناجاةِ بالحبيبِ علىٰ طولِ القيامِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) ديوان عبد الله بن المبارك (ص٥٤) .

ولا ينبغي أنْ يستبعدَ هـٰذهِ اللذَّةَ ؛ إذْ يشهدُ لها العقلُ والنقلُ :

فأمَّا العقلُ : فليعتبرْ حالَ المحبِّ لشخصٍ بسببِ جمالِهِ ، أوْ لمَلِكٍ بسببِ إنعامِهِ وأموالِهِ . . أنَّهُ كيفَ يتلذَّذُ بالخلوةِ بهِ ومناجاتِهِ حتَّىٰ لا يأتيهِ النومُ طولَ ليلِهِ ؟!

* * *

فإنْ قلتَ : إنَّ الجميلَ يُتلذَّذُ بالنظرِ إليهِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُرى ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لو كانَ الجميلُ المحبوبُ وراءَ سترٍ ، أوْ كانَ في بيتٍ مظلمٍ . . لكانَ المحبُّ يتلذَّذُ بمجاورتِهِ المجرَّدَةِ دونَ النظرِ ودونَ الطمعِ في أمرٍ آخرَ سواهُ ، وكانَ يتنعَّمُ بإظهارِ حبِّهِ إليهِ وذكرِهِ بلسانِهِ بمسمعٍ منهُ ، وإنْ كانَ ذلكَ أيضاً معلوماً عندَهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : إنَّهُ ينتظرُ جوابَهُ ، فيتلذَّذُ بسماعِ جوابِهِ ، وليسَ يسمعُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ وإنْ كانَ يعلمُ أنَّهُ لا يجيبُهُ ويسكتُ عنهُ . . فقدْ بقيتْ لهُ أيضاً لذَّةٌ في عرْضِ أحوالِهِ عليهِ ، ورفعِ سريرتِهِ إليهِ ، كيفَ والموقنُ يسمعُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلَّ ما يردُ علىٰ خاطرِهِ في أثناءِ مناجاتِهِ ، فيتلذَّذُ بهِ ، وكذا الذي يخلو بالمَلِكِ ويعرضُ عليهِ حاجاتِهِ في جنحِ الليلِ يتلذَّذُ بهِ في رجاءِ إنعامِهِ ،

والرجاءُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ أصدقُ ، وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقىٰ وأنفعُ ممَّا عندَ غيرِهِ ، فكيفَ لا يُتلذَّذُ بعرْضِ الحاجاتِ عليهِ في الخلواتِ ؟!

* * *

وأمَّا النقلُ : فيشهدُ لهُ أحوالُ قُوَّامِ الليلِ في تلذُّذِهِمْ بقيامِ الليلِ ، واستقصارِهِمْ لهُ كما يستقصِرُ المحبُّ ليلةَ وصالِ الحبيبِ ، حتَّىٰ قيلَ لبعضِهِمْ : كيفَ أنتَ والليلُ ؟ قال : ما راعيتُهُ قطُّ ، يريني وجهَهُ ثُمَّ ينصرفُ ، وما تأمَّلْتُهُ بعدُ[1] .

وقالَ آخرُ : (أنا والليلُ فرسا رهانٍ ، مرَّةً يسبقني إلى الفجرِ ، ومرَّةً يقطعني عنِ الفكرِ)[2] .

وقيلَ لبعضِهِمْ : كيفَ الليلُ عليكَ ؟ فقالَ : ساعةٌ أنا فيها بينَ حالينِ : أفرحُ بظلمتهِ إذا جاءَ ، وأغتمُّ بفجرِهِ إذا طلعَ ، ما تمَّ فرحي بهِ قطُّ[3] .

وقالَ عليُّ بنُ بكَّارٍ : (منذُ أربعينَ سنةً ما أحزنَني شيءٌ سوىٰ طلوعِ الفجرِ)[4] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (إذا غربَتِ الشمسُ . . فرحتُ بالظلامِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٣٦) .

لخلوتي بربِّي ، وإذا طلعَتْ . . حزنتُ لدخولِ الناسِ عليَّ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ : (أهلُ الليلِ في ليلِهِمْ أَلَذُّ مِنْ أهلِ اللهوِ في لهوِهِمْ ، ولولا الليلُ . . ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا)[2] .

وقالَ أيضاً : (لوْ عوَّضَ اللهُ سبحانَهُ أهلَ الليلِ مِنْ ثوابِ أعمالِهِمْ ما يجدونَهُ مِنَ اللذَّةِ . . لكانَ ذلكَ أكثرَ مِنْ ثوابِ أعمالِهِمْ)[3] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الدنيا وقتٌ يشبهُ نعيمَ أهلِ الجنَّةِ إلا ما يجدُهُ أهلُ التملُّقِ في قلوبِهِمْ بالليلِ مِنْ حلاوةِ المناجاةِ)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : (لذَّةُ المناجاةِ ليستْ منَ الدنيا ، إنَّما هيَ مِنَ الجنَّةِ أظهرَها اللهُ تعالىٰ لأوليائِهِ ، لا يجدُها سواهُمْ)[5] .

وقالَ ابنُ المنكدرِ : (ما بقيَ مِنْ لذَّاتِ الدنيا إلا ثلاثٌ : قيامُ الليلِ ، ولقاءُ الإخوانِ ، والصلاةُ في الجماعةِ)[6] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ بالأسحارِ إلىٰ قلوبِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٥) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ٣٦) بنحوه .
(٦) قوت القلوب (١/ ٣٧) .

المتيقِّظينَ فيملؤُها أنواراً ، فترِدُ الفوائدُ علىٰ قلوبِهِمْ فتستنيرُ ، ثمَّ تنتشرُ مِنْ قلوبِهِمْ العوافي إلىٰ قلوبِ الغافلينَ) .

وقالَ بعضُ العلماءِ مِنَ القدماءِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الصديقينَ أنَّ لي عباداً مِنْ عبادي يحبونَنِي وأحبُّهُمْ ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم ، ويذكروني وأذكرُهُمْ ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهِمْ ، فإنْ حذوتَ طريقَهُمْ . . أحببتُكَ ، وإنْ عدلْتَ عنهُمْ . . مقتُّكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما علامتُهُمْ ؟ قالَ : يراعونَ الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي غنمَهُ ، ويحنُّونَ إلىٰ غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلىٰ أوكارِها ، فإذا جنَّهُمُ الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ . . نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافترشوا لي وجوهَهُمْ ، وناجَوْني بكلامي ، وتملَّقوا إليَّ بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وباكٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حبِّي ، أوَّلُ ما أعطيهِمْ أقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ ، فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ ، والثانيةُ : لوْ كانتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهما في موازينِهِمْ . . لاستقلَلْتُها لهُمْ ، والثالثةُ : أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، فترىٰ مَنْ أقبلتُ بوجهي عليهِ أيعلمُ أحدٌ ما أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟!)[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمَهُ اللهُ : (إذا قامَ العبدُ يتهجَّدُ مِنَ الليلِ . . قربَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٧) ، ومعنى (افترشوا وجوههم) أي : بالسجود .

منهُ الجبَّارُ عزَّ وجلَّ ، وكانوا يرونَ ما يجدونَ في قلوبِهِمْ مِنَ الرقَّةِ والحلاوةِ والأنوارِ مِنْ قربِ الربِّ عزَّ وجلَّ مِنَ القلبِ)[1] .

وهٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وستأتي الإشارةُ إليهِ في كتابِ المحبَّةِ .

وفي الأخبارِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : (أيْ عبدي ؛ أنا اللهُ الذي اقتربتُ لقلبِكَ ، وبالغيبِ رأيتَ نوري)[2] .

وشكا بعضُ المريدينَ إلىٰ أستاذِهِ طولَ سهرِ الليلِ ، وطلبَ حيلةً يجتلبُ بها النومَ ، فقالَ أستاذُهُ : يا بنيَّ ؛ إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ نفحاتٍ في الليلِ والنهارِ تصيبُ القلوبَ المتيقِّظةَ ، وتخطىءُ القلوبَ النائمةَ ، فتعرَّضْ لتلكَ النفحاتِ ، فقالَ : يا أستاذُ ؛ تركتني لا أنامُ بالليلِ ولا بالنهارِ[3] .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ النفحاتِ بالليلِ أرجىٰ ؛ لما في قيامِ الليلِ مِنْ صفاءِ القلبِ واندفاعِ الشواغلِ ، وفي الخبرِ الصحيحِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ مِنَ الليلِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خيراً إلا أعطاهُ إيَّاهُ » ، وفي روايةٍ أخرىٰ :

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٩) عن مالك بن دينار قال : قرأت في التوراة : ابنَ آدم ؛ لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً ؛ فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نوري ، قال مالك : يعني : تلك الرقة وتلك الفتوح الذي يفتح الله لك منه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٣٦) .

« يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خيراً مِنْ أمرِ الدنيا والآخرةِ إلا أعطاهُ إيَّاهُ ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ »[1] .

ومطلوبُ القائمينَ تلكَ الساعةُ ، وهيَ مبهمةٌ في جملةِ الليلِ ؛ كليلةِ القدْرِ في شهرِ رمضانَ ، وكساعةِ يومِ الجمعةِ ، وهيَ ساعةُ النفحاتِ المذكورةِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) رواه مسلم (٧٥٧) .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلمْ : أنَّ إحياءَ الليلِ مِنْ حيثُ المقدارُ لهُ سبعُ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : إحياءُ كلِّ الليلِ : وهٰذا شأنُ الأقوياءِ الذين تجرَّدوا لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتلذَّذُوا بمناجاتِهِ ، وصارَ ذلكَ غذاءً لهمْ وحياةً لقلوبِهِمْ ، فلمْ يتعبوا بطولِ القيامِ ، وردُّوا المنامَ إلى النهارِ في وقتِ اشتغالِ الناسِ .

وقدْ كانَ ذلكَ طريقَ جماعةٍ مِنَ السلفِ ، كانوا يصلُّونَ الصبحَ بوضوءِ العشاءِ ، حكىٰ أبو طالبٍ المكيُّ أنَّ ذلكَ حُكِيَ علىٰ سبيلِ الاشتهارِ عنْ أربعينَ مِنَ التابعينَ ، وكانَ فيهِمْ مَنْ واظبَ عليهِ أربعينَ سنةً ، قالَ : (منهُمْ سعيدُ بنُ المسيَّبِ وصفوانُ بنُ سليمٍ المدنيانِ ، وفضيلُ بنُ عياضٍ ووهيبُ بنُ الوردِ المكِّيَّانِ ، وطاووسٌ ووهبُ بنُ منبِّهٍ اليمانيانِ ، والربيعُ بنُ خُثيمٍ والحكمُ الكوفيانِ ، وأبو سليمانَ الدارانيُّ وعليُّ بنُ بكّارٍ الشاميَّانِ ، وأبو عبدِ اللهِ الخوَّاصُ وأبو عاصمٍ العَبَّادِيَّانِ ، وحبيبٌ أبو محمدٍ وأبو جابرٍ السلمانيُّ الفارسيانِ ، ومالكُ بنُ دينارٍ وسليمانُ التيميُّ ويزيدُ الرَّقاشيُّ وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ ويحيى البكَّاءُ البصريونَ ، وكَهْمَسُ بنُ المِنْهالِ وكانَ يختمُ في الشهرِ تسعينَ ختمةً ، وما لمْ يفهمْهُ . رجعَ وقرأَهُ مرَّةً أخرىٰ ، وأيضاً مِنْ أهلِ المدينةِ

أبو حازمٍ ومحمدُ بنُ المنكدرِ في جماعةٍ يكثرُ عددُهُمْ)[١] .

* * *

المرتبةُ الثانيةُ : أنْ يقومَ نصفَ الليلِ : وهـٰذا لا ينحصرُ عددُ المواظبينَ عليهِ مِنَ السلفِ ، وأحسنُ طريقٍ فيهِ : أنْ ينامَ الثلثَ الأوَّلَ مِنَ الليلِ والسدسَ الأخيرَ منهُ ؛ حتَّىٰ يقعَ قيامُهُ في جوفِ **الليلِ** ووسطِهِ ، فهوَ الأفضلُ .

* * *

المرتبةُ الثالثةُ : أنْ يقومَ ثلثَ الليلِ : فينبغي أنْ ينامَ النصفَ الأوَّلَ والسدسَ الأخيرَ .

وبالجملةِ : نومُ آخرِ الليلِ محبوبٌ ؛ لأنَّهُ يذهبُ النعاسَ بالغداةِ ، وكانوا يكرهونَ ذلكَ[٢] ، ويقلِّلُ صفرةَ الوجهِ والشهرةَ بهِ ، فلوْ قامَ أكثرَ الليلِ ونام سَحراً . قلَّتْ صفرةُ وجههِ وقلَّ نعاسُهُ .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أوترَ مِنْ آخرِ الليلِ ؛ فإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ إلىٰ أهلِهِ . دنا منهنَّ ، وإلاَّ . .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٧ـ٣٨) ثم قال : (هـٰؤلاء المشهورون منهم) ، وممن كان يحيي الليل كلَّه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وقد تقدم ذلك للمصنف قريباً ، وكان ينبغي عداده في الكوفيين ، فهو أفضلهم وأورعهم . « إتحاف » (٥/ ٢٠٠) .

(٢) أي : يكرهون النعاس بالغداة . « إتحاف » (٥/ ٢٠١) .

اضطجعَ في مصلاَّهُ حتَّىٰ يأتيَهُ بلالٌ فيؤذنَهُ للصلاةِ)[١] .

وقالتْ أيضاً رضيَ اللهُ عنها : (ما ألفيتُهُ السحرَ الأعلىٰ إلا نائماً)[٢] ، حتَّىٰ قالَ بعضُ السلفِ : هٰذهِ الضجعةُ قبلَ الصبحِ سنةٌ ، منهُمْ أبو هريرة رضيَ اللهُ عنهُ[٣] .

وكانَ نومُ هٰذا الوقتِ سبباً للمكاشفةِ والمشاهدةِ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ وذلكَ لأربابِ القلوبِ ، وفيهِ استراحةٌ تعينُ على الوِردِ الأوَّلِ مِنْ أورادِ النهارِ .

وقيامُ ثلثِ الليلِ مِنَ النصفِ الأخيرِ ونومُ السدسِ الأخيرِ قيامُ داوودَ عليهِ السلامُ[٤] .

❊ ❊ ❊

المرتبةُ الرابعةُ : أنْ يقومَ سدسَ الليلِ أوْ خمسَهُ : وأفضلُهُ : أنْ يكونَ في النصفِ الأخيرِ وقبلَ السدسِ الأخيرِ منهُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (١١٤٦) ، ومسلم (٧٣٩) بنحوه .
(٢) رواه البخاري (١١٣٣) ، ومسلم (٧٤٢) .
(٣) هٰذه الضجعة تكون قبل سنة الصبح ، وهي مستحبة لمن يقوم الليل لما ورد ، واستحباب أبي هريرة في « القوت » (١/ ٣٨) .
(٤) كما في « البخاري » (١١٣١) ، ومسلم (١١٥٩) .

المرتبةُ الخامسةُ : ألاَّ يُراعيَ التقديرَ : فإنَّ ذلكَ إنَّما يتيسَّرُ لنبيٍّ يُوحىٰ إليهِ ، أوْ لمَنْ يعرفُ منازلَ القمرِ ويوكِّلُ بهِ مَنْ يراقبُهُ ويواظبُهُ ويوقظُهُ ، ثمَّ ربما يضطربُ في ليالي الغيمِ ، ولكنَّهُ يقومُ مِنْ أوَّلِ الليلِ إلىٰ أنْ يغلبَهُ النومُ ، فإذا انتبهَ . . قامَ ، فإذا غلبَهُ النومُ . . عادَ إلى النومِ ، فيكونُ لهُ في الليلِ نومتانِ وقومتانِ ، وهوَ مِنْ مكابدةِ الليلِ ، وأشدِّ الأعمالِ وأفضلِها .

وقدْ كانَ هـٰذا مِنْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) ، وهوَ طريقةُ ابنِ عمرَ ، وأولي العزمِ مِنَ الصحابةِ ، وجماعةٍ مِنَ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ(٢) .

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ : (هيَ أوَّلُ نومةٍ ، فإذا انتبهتُ ثمَّ عدتُ إلى النومِ . . فلا أنامَ اللهُ عيني)(٣) .

فأمَّا قيامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حيثُ المقدارُ . . فلمْ يكنْ علىٰ ترتيبٍ واحدٍ ، بلْ ربما كانَ عليهِ السلامُ يقومُ نصفَ الليلِ أوْ ثلثَهُ أوْ ثلثيهِ أوْ سدسَهُ ، يختلفُ ذلكَ في الليالي ، ودلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ في الموضعينِ

---

(١) روىٰ أبو داوود (١٤٦٦) واللفظ له ، والترمذي (٢٩٢٣) ، والنسائي (٣/ ٢١٤) عن أم سلمة رضي الله عنها : (كان يصلي وينام قدر ما صلىٰ ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلىٰ حتىٰ يصبح) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٣٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٠) .

مِنْ (سورةِ المزمِّلِ) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ ، فأدنىٰ مِنْ ثلثي الليل كأنَّهُ نصفُهُ ، ونصفُ سدسِهِ ، فإنْ كُسرَ قولُهُ : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ .. كانَ نصفَ الثلثينِ وثلثَهُ ، فيقربُ مِنَ الثلثِ والربعِ ، وإنْ نُصِبَ .. كانَ نصفَ الليلِ وثلثَهُ[١] .

وقدْ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقومُ إذا سمعَ الصارخَ) يعني : الديكَ[٢] ، وهـٰذا يكونُ السدسَ فما دونَهُ .

ورُوِيَ عنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : راعيتُ صلاةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في السفرِ ليلاً ، فنامَ بعدَ العشاءِ زماناً ، ثمَّ استيقظَ ، فنظرَ في الأفقِ فقالَ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ حتَّىٰ بلغَ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ، ثمَّ استلَّ مِنْ فراشِهِ سواكاً فاستاكَ بهِ ، وتوضَّأَ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ قلتُ : قدْ صلَّىٰ مثلَ الذي نامَ ، ثمَّ اضطجعَ حتَّىٰ قلتُ : قدْ نامَ مثلَ ما صلَّىٰ ، ثمَّ استيقظَ ، فقالَ ما قالَ أوَّلَ مرَّةٍ ، وفعلَ ما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ[٣] .

---

(١) قال أبو علي الفارسي في « الحجة » (٦/ ٣٣٦) : (قرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر : ﴿ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ ﴾ كسراً ، وقرأ الباقون : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ نصباً ، من نصب فقال : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ .. حمله علىٰ ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ ، وأدنىٰ في موضع نصب ، قال أبو عبيدة : أدنىٰ : أقرب ، فكأنه : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنىٰ من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه ، وأما من جرَّ فقال : ﴿ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ ﴾ .. فإنه يحمله على الحال) ، وانظر « القوت » (١/ ٣٩) .

(٢) رواه البخاري (١١٣٢) ، ومسلم (٧٤١) ، و(إذا) في الحديث لمجرد الظرفية ، لا للشرط .

(٣) رواه النسائي (٣/ ٢١٣) بنحوه .

المرتبةُ السادسةُ : وهي الأقلُّ ، أنْ يقومَ مقدارَ أربعِ ركعاتٍ أوْ ركعتينِ ، أوْ تتعذَّرُ عليهِ الطهارةُ فيجلسُ مستقبلَ القبلةِ ساعةً مشتغلاً بالذكرِ والدعاءِ : فيُكتبُ في جملةِ قوَّامِ الليلِ برحمةِ اللهِ وفضلِهِ .

وقدْ جاءَ في الأثرِ : « صلِّ مِنَ الليلِ ولو قدْرَ حلبِ شاةٍ »[1] .

* * *

فهٰذهِ طرقُ القسمةِ ، فليتخيَّرِ المريدُ لنفسِهِ ما يراهُ أيسرَ عليهِ .

وحيثُ يتعذَّرُ عليهِ القيامُ في وسَطِ الليلِ . . فلا ينبغي أنْ يهملَ إحياءَ ما بينَ العشاءينِ والوِردَ الذي بعدَ العشاءِ ، ثمَّ يقومُ قبلَ الصبحِ وقتَ السحرِ ، فلا يدركُهُ الصبحُ نائماً ، ويقومُ بطرفي الليلِ ، **وهٰذهِ هيَ الرتبةُ السابعةُ** .

* * *

ومهما كانَ النظرُ إلى المقدارِ فترتيبُ هٰذهِ المراتبِ بحسَبِ طولِ الوقتِ

---

(1) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٦٧٧) ، ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنهما : فذكرت صلاة الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نصفه ، ثلثه ، ربعه ، فُواقَ حلب ناقة ، فواق حلب شاةٍ » ، وأورده في « القوت » (١/ ٣٩) وقال : (فهٰذا قد يكون أربع ركعات ، وقد يكون ركعتين) ، وروى ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٢٩١) مرسلاً : « لا بد من قيام الليل ولو حلب ناقة ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد العشاء الآخرة فهو من الليل » .

وقصرِهِ[1] ، وأمَّا في الرتبةِ الخامسةِ والسابعةِ . . لمْ ينظرْ فيهما إلى المقدارِ ، فليسَ يجري أمرُهُما في التقدُّمِ والتأخُّرِ على الترتيبِ المذكورِ ؛ إذِ السابعةُ ليستْ دونَ ما ذكرناهُ في السادسةِ ، ولا الخامسةُ دونَ الرابعةِ .

* * *

(١) في مراعاة النصف والثلث والسدس ونحو ذلك ، وهو مختلف بين الشتاء والصيف .

بيان الليالي والأيام الفاضلة

اعلمْ : أنَّ الليالي المخصوصةَ بمزيدِ الفضلِ التي يتأكَّدُ فيها استحبابُ الإحياءِ في السنةِ خمسَ عشرةَ ليلةً .

لا ينبغي أنْ يغفُلَ المريدُ عنها ؛ فإنَّها مواسمُ الخيراتِ ، ومظانُّ التجاراتِ .

ومتىٰ غفَلَ التاجرُ عنِ المواسمِ . . لمْ يربحْ .

ومتىٰ غفَلَ المريدُ عنْ فضائلِ الأوقاتِ . . لمْ ينجحْ .

❊ ❊ ❊

فستٌّ مِنْ هـٰذهِ الليالي في شهرِ رمضانَ :

خمسٌ في أوتارِ العشرِ الأخيرِ ، إذْ فيها تطلبُ ليلةُ القدْرِ .

وليلةُ سبعَ عشرةَ مِنْ رمضانَ ، فهيَ ليلةٌ صبيحتُها يومُ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ ، فيهِ كانتْ وقعةُ بدرٍ .

وقالَ ابنُ الزبيرِ رحمهُ اللهُ : هيَ ليلةُ القدْرِ (١) .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٦٢) ، وروىٰ أنها ليلة القدر كذلك الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٩٨) عن زيد بن الأرقم رضي الله عنه ، (٩/ ٢٢١) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وأمَّا التسعُ الأُخَرُ :

فأوَّلُ ليلةٍ مِنَ المحرَّمِ(١) ، وليلةُ عاشوراءَ(٢) ، وأوَّلُ ليلةٍ مِنْ رجبٍ(٣) ، وليلةُ النصفِ منهُ ، وليلةُ سبعٍ وعشرينَ منهُ وهيَ ليلةُ المعراجِ ، وفيها صلاةٌ مأثورةٌ .

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للعاملِ في هـٰذهِ الليلةِ حسناتُ مئةِ سنةٍ ، فمَنْ صلَّىٰ فيها اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وسورةً مِنَ القرآنِ ، يتشهَّدُ في كلِّ ركعتينِ ويسلِّمُ في آخرهنَّ ، ثمَّ يقولُ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ مئةَ مرَّةٍ ، ثمَّ

---

(١) ونقل الإمام القرطبي في « تفسيره » (٢٠/ ٣٨) عن ابن عباس وقتادة أن فجر هـٰذه الليلة هو الذي أقسم الله تعالىٰ به مطلع (سورة الفجر) .
قال : (هو فجر أول يوم من المحرم ، منه تنفجر السنة) ، وهو مطلع سنة جديدة .
وفي الحديث الذي رواه الترمذي (٩٨١) : « ما من حافظين رفعا إلى الله ما حفظا من ليل أو نهار ، فيجد الله من أول الصحيفة وفي آخر الصحيفة خيراً . . إلا قال الله تعالىٰ : أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » .

(٢) وفضل هـٰذا اليوم ورد في الصحيح ، ونقل الحافظ ابن رجب في « لطائف المعارف » (ص١١٤) عن أبي موسى المديني مرفوعاً : « هـٰذا يوم تاب الله فيه علىٰ قوم ، فاجعلوه صلاة وصوماً » يعني يوم عاشوراء .

(٣) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣١٧) والبيهقي في « الشعب » (٣٤٤٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (خمس ليال لا يرد فيهن الدعاء : ليلة الجمعة ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلتي العيد) .
ورواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣١٩) عن الشافعي بلاغاً .

يستغفرُ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ، ويصلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مئةَ مرَّةٍ ، ويدعو لنفسهِ بما شاءَ مِنْ أمرِ دنياهُ وآخرتِهِ ، ويصبحُ صائماً . فإنَّ اللهَ تعالىٰ يستجيبُ دعاءَهُ كلَّهُ إلا أنْ يدعوَ في معصيةٍ »(١) .

وأمَّا ليلةُ النصفِ مِن شعبانَ : ففيها مئةُ ركعةٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ (الفاتحةِ) (سورةَ الإخلاصِ) عشرَ مرَّاتٍ ، كانوا لا يتركونَها كما أوردناهُ في صلاةِ التطوُّعِ .

وليلةُ عرفةَ ، وليلتا العيدينِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحيا ليلتِي العيدِ . لمْ يمتْ قلبُهُ يومَ تموتُ القلوبُ »(٢) .

* * *

وأمَّا الأيامُ الفاضلةُ :

فهيَ تسعةَ عشرَ ، يُستحبُّ مواصلةُ الأورادِ فيها :

يومُ عرفةَ ، ويومُ عاشوراءَ ، ويومُ سبعةٍ وعشرينَ مِنْ رجبٍ ، لهُ شرفٌ عظيمٌ ، روىٰ أبو هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صامَ يومَ سبعةٍ وعشرينَ مِنْ رجبٍ . كتبَ اللهُ لهُ صيامَ ستينَ شهراً ، وهوَ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكر أبو موسى المديني في كتاب « فضائل الأيام والليالي » : أن أبا محمد الخبازي رواه من طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل ، عن أبان ، عن أنس ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان) . « إتحاف » (٥/ ٢٠٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٧٨٢) بلفظ : « من قام ليلتي . . . » .

اليومُ الذي هبطَ فيهِ جبريلُ عليهِ السلامُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرسالةِ »[١] .

ويومُ سبعةَ عشرَ مِنْ شهرِ رمضانَ ، وهوَ يومُ وقعةِ بدرٍ .

ويومُ النصفِ مِن شعبانَ ، ويومُ الجمعةِ ، ويوما العيدينِ .

والأيامُ المعلوماتُ ؛ وهي عشْرُ ذي الحجَّةِ .

والأيامُ المعدوداتُ ؛ وهيَ أيامُ التشريقِ .

وقدْ روىٰ أنسٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا سلمَ يومُ الجمعةِ .. سلمتِ الأيامُ ، وإذا سلمَ شهرُ رمضانَ .. سلمتِ السنةُ »[٢] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ أخذَ مهناهُ في الأيامِ الخمسةِ في الدنيا .. لمْ ينلْ مهناهُ في الآخرةِ)[٣] .

وأرادَ بهِ : العيدينِ ، والجمعةَ ، وعرفةَ ، وعاشوراءَ .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٢٣٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٦٢) عن أنس ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .
ويشهد لمعناه حديث طرفي الصحيفة المتقدم قريباً ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٢٠٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٦٢) .

ومِنْ فواضلِ الأيامِ في الأسبوعِ :

يومُ الخميسِ والاثنينِ ، ترفعُ فيهما الأعمالُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ ذكرنا فضائلَ الأشهرِ والأيامِ للصيامِ في كتابِ الصومِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ ، واللهُ أعلمُ .

وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً مِنْ كلِّ العالمينَ .

* * *

تمّ كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات ، وتفصيل إحياء الليل

وهو آخر ربع العبادات من كتاب إحياء علوم الدين

بحمد الله وعونه وتأييده ونصره

وصلاته على خيرته من خلقه سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

يتلوه ربع العادات

وهو الرّبع الثاني من كتاب إحياء علوم الدّين

مَحْتَوى الكِتَابِ

رُبعُ العِبَادَاتِ / القِسمُ الثَّاني

كتاب أسرار الزكاة ٧

ـ معنى الإنفاق في سبيل الله ١٠

الفصل الأول: في أنواع الزكوات وأسباب وجوبها ١٣

النوع الأول: زكاة النعم ١٣

ـ على من تجب الزكاة ١٣

النوع الثاني: زكاة المعشرات ١٨

النوع الثالث: زكاة النقدين ٢٠

النوع الرابع: زكاة التجارة ٢١

النوع الخامس: زكاة الركاز والمعدن ٢٢

النوع السادس: صدقة الفطر ٢٣

الفصل الثاني: في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة ٢٥

بيان الشروط الظاهرة ٢٥

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة ٣١

وظائف مريد طريق الآخرة بزكاته ٣١

ـ صور من إخفاء الصدقة ٣٨

ـ حبُّ الجاه أخطر من حبِّ المال ٣٨

ـ الفقير هو المحسن على التحقيق ٤١

- تحريجة: ما هي العلامة الدالة على طهارة القلب عن دنس الرياء والترفع؟ . . ٤٤
- تحريجة: فما دواء ذلك؟ ٤٤
- دواء الاستعظام ٤٧
- الصفات التي يلزم مراعاتها عند الإنفاق فيمن تدفع إليه الصدقة ٥٠
- دفع الصدقة لفقراء الصوفية ٥١
- رؤية الأشياء من غير الله وصفُ الكافرين ٥٥

الفصل الثالث: في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه ٥٨

بيان أسباب الاستحقاق ٥٨

صفات الأصناف الثمانية المستحقة للزكاة ٥٨

- حكم تملك الكتب في الغنى والفقر ٦٠
- تحريجة: كيف السبيل لمعرفة صفات الأصناف الثمانية؟ ٦٣

بيان وظائف القابض ٦٥

- أحوال العباد في سعة الدنيا وضيقها ٦٥
- دعاء القابض للصدقة ٦٦
- ستر عيب العطاء من تمام الشكر ٦٧
- مذاهب العلماء في قدر المأخوذ من الزكاة ٧٠

الفصل الرابع: في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها ٧٣

بيان فضيلة الصدقة ٧٣

بيان إخفاء أخذ الصدقة وإظهارها ٨١

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة ٩٢

كتاب أسرار الصوم ومهماته ٩٥
ـ الآثار الواردة في فضيلة الصوم ٩٧
ـ علة تشريف الصوم بالنسبة له سبحانه وتعالى ١٠١
الفصل الأول: في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده ١٠٣
الواجبات الظاهرة ١٠٣
لوازم الإفطار ١٠٦
سنن الصوم ١٠٨
الفصل الثاني: في أسرار الصوم وشروطه الباطنة ١١٠
درجات الصوم ١١٠
ـ **تحريجة**: كيف صحح الفقهاء صوم العوامِّ وقد تركوا الشروط الباطنة؟ ... ١١٧
ـ الشبيه من القريب قريب ١١٧
الفصل الثالث: في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه ١٢٠
ـ الأشهر الفاضلة ١٢٢
ـ حكم صيام الدهر والخلاف فيه ١٢٣
ـ الفقه في اختيار المناسب من أحوال الصوم ١٢٥
ـ من رأى كراهية الإفطار أربعة أيام متواليات ١٢٦

كتاب أسرار الحج ومهماته ١٢٧
ـ شأن عبادة الحج في الشرع المطهر ١٢٩
الباب الأول: في فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها ١٣١

الفصل الأول: في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله وشد الرحال إلى المشاهد العظام ١٣١
فضيلة الحج ١٣١
فضيلة البيت ومكة حرسهما الله ١٣٩
فضيلة المقام بمكة المكرمة حرسها الله تعالى وكراهته ١٤٤
فضيلة مدينة رسول الله ﷺ على سائر البلاد ١٤٨
الفصل الثاني: في شروط وجوب الحج وصحته وأركانه وواجباته ومحظوراته ١٥٣
في شروط الحج ١٥٣
أركان الحج التي لا يصح الحج دونها ١٥٦
الواجبات المجبورة بالدم ١٥٦
وجوه أداء الحج والعمرة، وبيان الأفضل منها ١٥٧
محظورات الحج والعمرة ١٥٨
الباب الثاني: في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع، وهي عشر جمل ١٦٠
الجملة الأولى: في السنن من أول الخروج إلى الإحرام ١٦٠
الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة ١٦٧
الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف ١٧٠
الجملة الرابعة: في الطواف ١٧٤
الأمور التي ينبغي مراعاتها عند افتتاح الطواف ١٧٤
الجملة الخامسة: في السعي ١٨١

الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله ١٨٤
الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ وعن السلف في يوم عرفة ١٨٧
الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف ١٩٥
صفة التكبير ١٩٨
أسباب التحلل من الإحرام ٢٠٠
الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع ٢٠٣
أفضل مواقيت العمرة ٢٠٣
الجملة التاسعة: في طواف الوداع ٢٠٥
الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها ٢٠٧
فصل في سنن الرجوع من السفر ٢١٧
الباب الثالث: في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة ٢١٩
بيان دقائق الآداب ٢١٩
ـ أيهما أولى الحج والعمرة ماشياً أم راكباً؟ ٢٢٤
ـ تجويد الهدي خير من تكثيره ٢٣٠
بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره ٢٣٣
الفهم ٢٣٣
ـ تجلِّي معاني العبودية في أفعال الحجِّ ٢٣٥
الشوق ٢٣٧

العزم ٢٣٨
قطع العلائق ٢٣٨
الزاد ٢٣٩
الراحلة ٢٤٠
شراء ثوبي الإحرام ٢٤٠
الخروج من البلد ٢٤١
دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات ٢٤٢
الإحرام والتلبية من الميقات ٢٤٢
دخول مكة ٢٤٤
وقوع البصر على البيت ٢٤٤
الطواف بالبيت ٢٤٤
ـ الطواف الشريف هو طواف القلب لا القالب ٢٤٥
الاستلام ٢٤٥
التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم ٢٤٦
السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت ٢٤٦
الوقوف بعرفة ٢٤٧
ـ رحمة الله تصل بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض ٢٤٧
رمي الجمار ٢٤٨
ذبح الهدي ٢٤٩
زيارة المدينة ٢٤٩
زيارة رسول الله ﷺ ٢٥١

كتاب آداب تلاوة القرآن ٢٥٥
الباب الأول: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته ٢٥٩
فضيلة القرآن ٢٥٩
في ذم تلاوة الغافلين ٢٦٦
الباب الثاني: في ظاهر آداب التلاوة ٢٧٠
درجات الختم ٢٧٢
طريق تكلف البكاء ٢٧٩
الباب الثالث: في أعمال الباطن في التلاوة ٢٩١
الأمور التي تحجب الفهم ٣٠٣
ـ معنى قولهم: (العلم حجاب) ٣٠٤
ـ فرق ما بين التلبُّس بأحوال القرآن وحكايته ٣١٠
درجات القراءة ٣١٥
الباب الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ٣٢١
المراد من الأحاديث الواردة في النهي عن تفسير القرآن بالرأي ٣٢٥
فنونٌ لا بد فيها من السَّماع ٣٣٠

كتاب الأذكار والدعوات ٣٤١
الباب الأول: في فضيلة الذكر على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار ٣٤٥
فضيلة مجالس الذكر ٣٥١
فضيلة التهليل ٣٥٤

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار ٣٦٠
ـ **تحريجة**: كيف صار الذكر أفضل العبادات مع قلَّة التعب فيه؟ ٣٦٧
ـ مطلوب الذكر هو الأنس والحب ٣٦٨
ـ ذكر الله لا يفارقه العبد بالموت، بل الموت يرفع كل عائق عنه ٣٦٩
ـ ذكر الله تعالى من عالم الملكوت، فهو لا يفنى بعد الموت ٣٧٠
ـ حسن الخاتمة: وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق به سبحانه منقطع العلائق عن غيره ٣٧١
ـ سبب خوف العارفين من الخاتمة ٣٧٢
ـ كلُّ مقصود معبودٌ، وكل معبود إلهٌ ٣٧٣
الباب الثاني: في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ وفضيلة الاستغفار ٣٧٥
فضيلة الدعاء ٣٧٥
آداب الدعاء ٣٧٧
ـ أخبار في إجابة دعوات المستسقين الصادقين من العبَّاد والزهاد ٣٨٨
فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ وفضله ﷺ ٣٩٤
فضيلة الاستغفار ٤٠٠
الباب الثالث: في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المريد صباحاً ومساءً وبعقب كل صلاة ٤٠٨
دعاء رسول الله ﷺ بعد ركعتي الفجر ٤٠٨
دعاء عائشة رضي الله عنها ٤١٠
دعاء فاطمة رضي الله عنها ٤١١

دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٤١١
دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه ٤١٢
دعاء قبيصة بن المخارق رضي الله عنه ٤١٣
دعاء أبي الدرداء رضي الله عنه ٤١٣
دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام ٤١٤
دعاء عيسى عليه السلام ٤١٥
دعاء الخضر عليه السلام ٤١٥
دعاء معروف الكرخي رحمه الله ٤١٦
دعاء عتبة الغلام رحمه الله ٤١٧
دعاء آدم عليه السلام ٤١٧
دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٤١٨
دعاء أبي المعتمر وتسبيحاته رضي الله عنه ٤١٩
دعاء إبراهيم بن أدهم رحمه الله ٤٢٠
الباب الرابع: في أدعية مأثورة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن المنذر رحمهم الله ٤٢٢
أنواع الاستعاذة المأثورة عن رسول الله ﷺ ٤٣١
الباب الخامس: في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث ٤٣٦
- **تحريجة**: ما فائدة الدعاء والقضاءُ لا مردَّ له؟ ٤٥٢
- غالب الخلق لا تنصرف قلوبهم إلى الدعاء إلا عند الملمات ٤٥٣

كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل ٤٥٥
الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها ٤٥٩
فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله عز وجل ٤٥٩
بيان أعداد الأوراد وترتيبها ٤٦٤
بيان أوراد النهار ٤٦٥
بيان أوراد الليل ٤٩٨
آداب النوم ٥٠٦
بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال ٥٢٣
ـ **تحريجة**: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟ ٥٢٤
ـ ما يقدَّم على العبادات البدنية ٥٣١
ـ هذه الدرجة عزيزة لا ينبغي الاغترار بدعواها ٥٣٣
ـ تفاوت أهل الإيمان في درجات القرب من الله لا في أصله ٥٣٤
ـ **تحريجة**: هل لآحاد المسلمين القدوة به ﷺ إذا صلى نافلة بعد العصر وقد نص على كراهة التنفل في هذا الوقت؟ ٥٣٥
الباب الثاني: في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل ٥٣٧
فضيلة إحياء ما بين العشاءين ٥٣٧
فضيلة قيام الليل ٥٤٣
بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل ٥٥٦

ـ الصلاة تنهى عن الفحشاء، والفحشاء تنهى عن الصلاة ٥٥٨
ـ **تحريجة**: الجميل يُتلذَّذ بالنظر إليه، والله تعالى لا يُرى في الفانية ٥٦٢
ـ **تحريجة**: وكذلك لا مطمع في سماع جوابه ٥٦٢
بيان طرق القسمة لأجزاء الليل ٥٦٨
بيان الليالي والأيام الفاضلة ٥٧٥
محتوى الكتاب ٥٨١

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدِّد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

ربع العادات/ القسم الأول

كتاب
آداب الأكل ـ آداب النكاح
آداب الكسب والمعاش ـ الحلال والحرام

المجلد الثالث

دار المنهاج

الطَّبعَة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 - فاكس 6320392

ص. ب 22943 - جدة 21416

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كِتَابُ
آدَابِ الأكلِ

وهو الكتاب الأوّل من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب آداب الأكل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أحسنَ تدبيرَ الكائناتِ ، فخلقَ الأرضَ والسماواتِ ، وأنزلَ الماءَ الفراتَ مِنَ المعصراتِ ، فأخرجَ بهِ الحبَّ والنباتَ ، وقدَّرَ الأرزاقَ والأقواتَ ، وحفظَ بالمأكولاتِ قُوى الحيواناتِ ، وأعانَ على الطاعاتِ والأعمالِ الصالحاتِ بأكلِ الطيباتِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ ذي المعجزاتِ الباهراتِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً تتوالىٰ علىٰ ممرِّ الأوقاتِ ، وتتضاعفُ بتعاقبِ الساعاتِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ مقصدَ ذوي الألبابِ لقاءُ اللهِ تعالىٰ في دارِ الثوابِ ، ولا طريقَ إلى الوصولِ إلى اللقاءِ إلا بالعلمِ والعملِ ، ولا يمكنُ المواظبةُ عليهما إلا بسلامةِ البدنِ ، ولا تصفو سلامةُ البدنِ إلا بالأطعمةِ والأقواتِ ، والتناولِ منها بقدْرِ الحاجةِ علىٰ تكرُّرِ الأوقاتِ .

فمِنْ هٰذا الوجهِ قالَ بعضُ السلفِ الصالحينَ : إنَّ الأكلَ مِنَ الدِّينِ ،

وعليهِ نبَّهَ ربُّ العالمينَ بقولِهِ وهوَ أصدقُ القائلينَ : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾[١] .

فمَنْ يقدمُ على الأكلِ ليستعينَ بهِ على العلمِ والعملِ ، ويقوىٰ بهِ على التقوىٰ.. فلا ينبغي أنْ يتركَ نفسَهُ مهملاً سدىً ، يسترسلُ في الأكلِ استرسالَ البهائمِ في المرعىٰ ، فإنَّ ما هوَ ذريعةٌ إلى الدينِ ووسيلةٌ إليهِ ينبغي أنْ تظهرَ أنوارُ الدينِ عليهِ ، وإنَّما أنوارُ الدينِ آدابُهُ وسننُهُ التي يُزمُّ العبدُ بزمامِها ، ويُلجمُ المتقي بلجامِها ؛ حتَّىٰ يتزنَ بميزانِ الشرعِ شهوةَ الطعامِ في إقدامِها وإحجامِها ، فيصيرَ بسببها مدفعةً للوزرِ ومجلبةً للأجرِ[٢] ، وإنْ كانَ فيها أوفىٰ حظٌّ للنفسِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليؤجرُ حتَّىٰ في اللقمةِ يرفعُها إلىٰ فيهِ وإلىٰ في امرأتِهِ »[٣] ، وإنَّما ذلكَ إذا رفعَها بالدينِ وللدينِ ، مراعياً فيهِ آدابَهُ ووظائفَهُ .

وها نحنُ نرشدُ إلىٰ وظائفِ الدينِ في الأكلِ ؛ فرائضِها وسننِها وآدابِها

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٢٨٩) .

(٢) أي : يصير محلاً لدفع الوزر وجلب الأجر ، وكان سهل يقول : (من لم يحسن أدب الأكل.. لم يحسن أدب العمل ، والذي يتصنَّع في الأكل هو الذي يتصنع في العمل) . « قوت القلوب » (٢/ ١٧٨) .

(٣) رواه البخاري (١٢٩٦) ، ومسلم (١٦٢٨) ولفظه : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله.. إلا أجرت بها ، حتىٰ ما تجعل في في امرأتك » الحديث ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ٧٨) ، وزيادة « يرفعها إلىٰ فيه » رواها أحمد في « المسند » (١/ ٧٧) منفردة .

ومروءاتِها وهيئاتِها ، في أربعةِ أبوابٍ وفصلٍ في آخرِها :

البابُ الأوَّلُ : فيما لا بدَّ للآكلِ مِنْ مراعاتِهِ وإنِ انفردَ بالأكلِ .

البابُ الثاني : فيما يزيدُ مِنَ الآدابِ بسببِ الاجتماعِ على الأكلِ .

البابُ الثالثُ : فيما يخصُّ تقديمَ الطعامِ إلى الإخوانِ الزائرينَ .

البابُ الرابعُ : فيما يخصُّ الدعوةَ والضيافةَ وأشباهَها .

* * *

البَابُ الأَوَّلُ
فيما لا بدّ للمنفرد منه

وهوَ ثلاثةُ أقسامٍ : قسمٌ قبلَ الأكلِ ، وقسمٌ معَ الأكلِ ، وقسمٌ بعدَ الفراغِ منهُ .

القِسْمُ الأَوَّلُ
في الآدابِ التي تتقدَّمُ على الأكل
وهي سبعة

الأوَّلُ : أنْ يكونَ الطعامُ بعدَ كونِهِ حلالاً في نفسِهِ ، طيِّباً في جهةِ مكسبِهِ . . موافقاً للسنَّةِ والورعِ :

لمْ يُكتسبْ بسببٍ مكروهٍ في الشرعِ ، ولا بحكمِ هوىً ومداهنةٍ في الدينِ ، علىٰ ما سيأتي في معنى الطيِّبِ المطلقِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بأكلِ الطيِّبِ ، وهوَ الحلالُ ، وقدَّمَ النهيَ عنِ الأكلِ بالباطلِ على القتلِ ؛ تفخيماً لأمرِ الحرامِ ، وتعظيماً لبركةِ الحلالِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

---

(1) وتمامها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴾ .

فالأصلُ في الطعامِ كونُهُ طيِّباً ، وهوَ مِنَ الفرائضِ وأصولِ الدينِ .

* * *

الثاني : غسلُ اليدِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الوضوءُ قبلَ الطَّعامِ ينفي الفقرَ ، وبعدَهُ ينفي اللَّممَ » ، وفي روايةٍ : « ينفي الفقرَ قبلَ الطَّعامِ وبعدَهُ »(١) .

ولأنَّ اليدَ لا تخلو عنْ لوثٍ في تعاطي الأعمالِ ، فغسلُها أقربُ إلى النظافةِ والنزاهةِ ، ولأنَّ الأكلَ بقصدِ الاستعانةِ على الدينِ عبادةٌ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يُقدَّمَ عليهِ ما يجري منهُ مَجرى الطهارةِ مِنَ الصلاةِ .

* * *

الثالثُ : أنْ يوضعَ الطعامُ على السُّفْرَةِ الموضوعةِ على الأرضِ :

فهوَ أقربُ إلىٰ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ رفعِهِ على

---

(١) رواه متصلاً الشهاب في « مسنده » (٣١٠) بالرواية الأولىٰ مع زيادة : « ويصحُّ البصرَ » ، وأسنده الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١١٠) إلى الحسن البصري ، والرواية الثانية عند الطبراني في « الأوسط » (٧١٦٢) ، والديلمي بنحوه في « مسند الفردوس » (٧٢٣٩) ، وهو عند أبي داوود (٣٧٦١) ، والترمذي (١٨٤٦) بلفظ : « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » ، وروى ابن ماجه (٣٢٦٠) : « من أحب أن يكثر الله خير بيته .. فليتوضأ إذا حضر غداؤه وإذا رفع » . وقال الإمام البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/٢٧٦) : (الحديث في غسل اليد بعد الطعام حسن ، وهو قبل الطعام ضعيف) ، والمراد بالوضوء بهٰذا الأثر : الوضوء اللغوي ، وهو غسل اليدين .

المائدةِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أُتيَ بطعامٍ . . وضعَهُ على الأرضِ[1] ، فهٰذا أقربُ إلى التواضعِ .

فإنْ لمْ يكنْ . . فعلى السُّفْرةِ ، فإنَّها تذكرُ السفرَ ، ويتذكَّرُ مِنَ السفرِ سفرَ الآخرةِ وحاجتَهُ إلىٰ زادِ التقوىٰ .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ رحمهُ اللهُ : ما أكلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ خِوانٍ ولا في سُكُرُّجَةٍ ، قيلَ : فعلىٰ ماذا كنتُمْ تأكلونَ ؟ قالَ : على السُّفَرِ[2] .

وقيلَ : (أربعٌ أحدثَتْ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : الموائدُ ، والمناخلُ ، والأُشنانُ ، والشبعُ)[3] .

واعلمْ : أنَّا وإنْ قلنا : الأكلُ على السُّفْرةِ أولىٰ . . فلسنا نقولُ : الأكلُ على المائدةِ منهيٌّ عنهُ نهيَ كراهةٍ أوْ تحريمٍ ؛ إذ لمْ يثبتْ فيهِ نهيٌ ، وما يقالُ مِنْ أنَّهُ ابتدِعَ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فليسَ كلُّ ما أُبدعَ منهياً ،

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٢) ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس على الأرض ويأكل على الأرض) ، ويؤيده كذلك الحديث الآتي .

(٢) رواه البخاري (٥٣٨٦) ، **الخوان** : الذي يؤكل عليه ، والأكل عليه من دأب المترفين والجبارين ؛ لئلا يفتقروا إلى التطأطؤ والانحناء عند الأكل ، **والسكرجة** : صحاف صغار يؤكل فيها ، **والسفرة** : ما يبسط على الأرض ويؤكل عليه ، فهي هنا تكون بين الطعام والأرض .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٣) .

بل المنهيُّ عنهُ بدعةٌ تضادُّ سنةً ثابتةً ، وترفعُ أمراً مِنَ الشرعِ معَ بقاءِ علَّتهِ ، بلِ الابتداعُ قدْ يجبُ في بعضِ الأحوالِ إذا تغيَّرتِ الأسبابُ ، وليسَ في المائدةِ إلاَّ رفعُ الطعامِ عنِ الأرضِ لتيسيرِ الأكلِ ، وأمثالُ ذلكَ ممَّا لا كراهةَ فيهِ .

والأربعُ التي أُجمعَ عليها أنها مبتدعةٌ ليستْ متساويةً ؛ لأنَّ **الأُشنانَ** حسنٌ ؛ لما فيهِ مِنَ النظافةِ ، فإنَّ الغسلَ مستحبٌّ للنظافةِ ، والأُشنانُ أتمُّ في التنظيفِ ، وكانوا لا يستعملونَهُ لأنَّهُ ربما كانَ لا يُعتادُ عندَهُمْ أوْ لا يتيسَّرُ ، أوْ كانوا مشغولينَ بأمورٍ أهمَّ مِنَ المبالغةِ في النظافةِ ، فقدْ كانوا لا يغسلونَ اليدَ أيضاً ، وكانَتْ مناديلُهُمْ أخمصَ أقدامِهِمْ ، وذلكَ لا يمنعُ كونَ الغسلِ مستحباً .

وأمَّا المُنْخُلُ : فالمقصودُ منهُ تطييبُ الطعامِ ، وذلكَ مباحٌ ما لمْ ينتهِ إلى التنعُّمِ المفرطِ .

وأمَّا المائدةُ : فتيسيرٌ للأكلِ ، وهوَ أيضاً مباحٌ ما لم ينتَهِ إلى الكبرِ والتعاظمِ .

وأمَّا الشبعُ : فهوَ أشدُّ هـٰذهِ الأربعةِ ؛ فإنَّهُ يدعو إلىٰ تهييجِ الشهواتِ ، وتحريكِ الأدواءِ في البدنِ .

فلتدركِ التفرقةَ بينَ هـٰذهِ المبدعاتِ .

الرابعُ : أنْ يحسنَ الجِلسةَ على السُّفْرةِ في أوّلِ جلوسِهِ ويستديمَها كذلكَ :

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ربما جثا للأكلِ علىٰ ركبتيهِ وجلسَ علىٰ ظهرِ قدميهِ(١) ، وربما نصبَ رجلَهُ اليمنىٰ وجلسَ على اليسرىٰ(٢) ، وكانَ يقولُ : « لا آكلُ متّكئاً »(٣) ، « إنما أنا عبدٌ ، آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ »(٤) ، والشربُ متّكئاً مكروهٌ للمعدةِ أيضاً .

ويكرهُ الأكلُ نائماً ومتكئاً ، إلا ما يُتنقَّلُ بهِ مِنَ الحبوبِ(٥) ، رُوِيَ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ أكلَ كعْكاً علىٰ تُرْسٍ وهوَ مضطجعٌ ، ويقالُ : منبطحٌ علىٰ بطنِهِ ، والعربُ قدْ تفعلُهُ(٦) .

* * *

---

(١) رواه أبو داوود (٣٧٧٣) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (وروىٰ أبو الحسن بن المقرىء في « الشمائل » من حديث أنس : كان إذا جلس على الطعام.. استوفز علىٰ ركبته اليسرىٰ وأقام اليمنىٰ ثم قال : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأفعل كما يفعل العبد » ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٥/ ٢١٤) ، ومعناه في الحديث الآتي كذلك .

(٣) رواه البخاري (٥٣٩٨) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣) من زيادات نعيم بن حماد ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٤١٥) وتقدم قريباً .

(٥) **التنقُّل** : تناول النُّقْل ، اسم للحبوب وما في معناها تتناول . « إتحاف » (٥/ ٢١٥) .

(٦) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) ولفظه : (وقد رئي عليٌّ رضي الله عنه. . .) .

الخامسُ : أنْ ينويَ بأكلِهِ أنْ يتقوّىٰ بهِ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ :

ليكونَ مطيعاً بالأكلِ ، ولا يقصدُ التلذُّذَ والتنعُّمَ بالأكلِ ، قالَ إبراهيمُ بنُ شيبانَ : (منذُ ثمانينَ سنةً ما أكلتُ شيئاً لشهوتي)[1] .

ويعزمُ معَ ذلكَ علىٰ تقليلِ الأكلِ ؛ فإنَّهُ إذا أكلَ لأجلِ قوَّةِ العبادةِ . . لمْ تصدقْ نيتُهُ إلا بأكلِ ما دونَ الشبعِ ، فإنَّ الشبعَ يمنعُ مِنَ العبادةِ ولا يقوِّي عليها ، فمِنْ ضرورةِ هٰذهِ النيّةِ كسرُ الشهوةِ ، وإيثارُ القناعةِ على الاتساعِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرّاً مِنْ بطنِهِ ، حسبُ ابنِ آدمَ لقيماتٌ يقمْنَ صلبَهُ ، فإنْ لمْ يفعلْ . . فثلثٌ للطعامِ ، وثلثٌ للشرابِ ، وثلثٌ للنَّفَسِ »[2] .

ومِنْ ضرورةِ هٰذهِ النيّةِ ألا يمدَّ اليدَ إلى الطعامِ إلا وهوَ جائعٌ ، فيكونُ الجوعُ أحدَ ما لا بدَّ مِنْ تقديمِهِ على الأكلِ ، ثمَّ ينبغي أنْ يرفعَ اليدَ قبلَ الشبعِ ، ومَنْ فعلَ ذلكَ . . استغنىٰ عنِ الطبيبِ ، وستأتي فائدةُ قلَّةِ الأكلِ وكيفيةُ التدريجِ في التقليلِ منهُ في كتابِ كسرِ شهوةِ الطعامِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) اللمع (ص ٢٤٣) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٩٧) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .

السادسُ : أنْ يرضىٰ بالموجودِ مِنَ الرزقِ ، والحاضرِ مِنَ الطعامِ :

ولا يجتهدُ في التنعُّمِ وطلبِ الزيادةِ وانتظارِ الأُدْمِ ، بلْ مِنْ كرامةِ الخبزِ ألاَّ ينتظرَ بهِ الأُدْمَ ، وقدْ وردَ الأمرُ بإكرامِ الخبزِ[١] ، وكلُّ ما يديمُ الرمقَ ، ويقوِّي على العبادةِ . . فهوَ خيرٌ كثيرٌ ، لا ينبغي أنْ يُستحقرَ ، بلْ لا ينتظرُ بالخبزِ الصلاةَ وإنْ حضرَ وقتُها إذا كانَ في الوقتِ متَّسعٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حضرَ العَشاءُ والعِشاءُ . . فابدؤوا بالعَشاءِ »[٢] .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ربما سمعَ قراءةَ الإمامِ ولا يقومُ مِنْ عَشائِهِ[٣] .

ومهما كانتِ النفسُ لا تتوقُ إلى الطعامِ ، ولمْ يكنْ في تأخيرِ الطعامِ ضررٌ . . فالأولىٰ تقديمُ الصلاةِ ، فأمَّا إذا حضرَ الطعامُ ، وأقيمتِ الصلاةُ ، وكانَ في التأخيرِ ما يبردُ الطعامَ أوْ يشوِّشُ أمرَهُ . . فتقديمُهُ أحبُّ عندَ اتساعِ الوقتِ ، تاقتِ النفسُ أوْ لمْ تتقْ ؛ لعمومِ الخبرِ ، ولأنَّ القلبَ لا يخلو عنِ الالتفاتِ إلى الطعامِ الموضوعِ وإنْ لمْ يكنِ الجوعُ غالباً .

* * *

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨١) .
(٢) رواه البخاري (٥٤٦٥) ، ومسلم (٥٥٧) وروايته : « إذا حضر العَشاء وأقيمت الصلاة . . . » .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٨) .

السابعُ : أنْ يجتهدَ في تكثيرِ الأيدي على الطعامِ ولوْ مِنْ أهلِهِ وولدِهِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اجتمعوا علىٰ طعامِكُمْ . . يبارِكْ لكمْ فيهِ »[1] .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يأكلُ وحدَهُ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الطعامِ ما كثرتْ عليهِ الأيدي »[3] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو داوود (٣٧٦٤) ، وابن ماجه (٣٢٨٦) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (ص ٣٤٢) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٠٤٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٣١٣) بلفظ : « إن أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي » .

القِسمُ الثَّاني
في آدابِ حالةِ الأكل

وهوَ أنْ يبدأَ باسمِ اللهِ تعالىٰ في أوَّلِهِ ، وبالحمدِ للهِ في آخرِهِ ، ولوْ قالَ معَ كلِّ لقمةٍ : باسمِ اللهِ . . فهوَ حسنٌ ؛ حتَّىٰ لا يشغلَهُ الشرهُ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويقولُ معَ اللقمةِ الأولىٰ : باسمِ اللهِ ، ومعَ الثانيةِ : باسمِ اللهِ الرحمـٰنِ ، ومعَ الثالثةِ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، ويجهرُ بهِ ليذكِّرَ غيرَهُ(١) .

---

(١) وروى ابن الجعد في « مسنده » (٣٥٤٢) عن عبد الكريم بن أبي المخارق قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمِّي علىٰ كل لقمة) ، وقال ابن عبد البر في « التمهيد » (١/٣٩٨) بشأن التسمية عند كل لقمة : (وإن فعله أحد . . لم أستحسنه له ولم أذمه عليه) .

ونقل ابن مفلح في « الآداب الشرعية » (٢/٢٤٣) عن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله أنه كان يفعله ، قال : (قال إسحاق بن إبراهيم : تعشيت مرَّة أنا وأبو عبد الله وقرابة له ، فجعلنا لا نتكلم وهو يأكل ويقول : الحمد لله وباسم الله ، ثم قال : أكل وحمد خير من أكل وصمت) .

ولما رجع الإمام الغزالي إلىٰ طوس . . وصف له في بعض القرىٰ عبد صالح ، فقصده زائراً ، فصادفه يبذر الحنطة في الأرض ، فجاء أحدهم ليتولىٰ ذلك عن الشيخ ، فأبىٰ ، فلما سأله الإمام الغزالي عن سبب امتناعه . . قال : لأني أبذر هـٰذا البذر بقلب حاضر ذاكر أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئاً ، فلا أحب أن أسلمه إلىٰ هـٰذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر . « إتحاف » (٥/٢١٧) ملخصاً ، والتسمية في أول كل لقمة وبالهيئة المذكورة عند صاحب « القوت » (٢/١٨٠) .

ويأكلُ باليمينِ ، ويبدأُ بالملحِ ويختمُ بهِ ، ويصغِّرُ اللقمةَ ، ويجوِّدُ مضغَها ، وما لمْ يبتلعْها . . لمْ يمدَّ اليدَ إلى الأخرىٰ ؛ فإنَّ ذلك عجلةٌ في الأكلِ .

وألاَّ يذمَّ مأكولاً ، كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يعيبُ مأكولاً ، كانَ إذا أعجبَهُ . . أكلَهُ ، وإلاَّ . . تركَهُ(١) .

وأنْ يأكلَ ممَّا يليهِ إلا الفاكهةَ ، فإنَّ لهُ أنْ يجيلَ يدَهُ فيها ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلْ ممَّا يليكَ »(٢) ، ثمَّ كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يدورُ على الفاكهةِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : « ليسَ هوَ نوعاً واحداً »(٣) .

وألاَّ يأكلَ مِنْ ذروةِ القصعةِ ، ولا مِنْ وسَطِ الطعامِ ، بلْ يأكلُ مِنِ استدارةِ الرغيفِ ، إلا إذا قلَّ الخبزُ ، فيكسرُ الخبزَ ولا يقطعُ بالسكينِ ،

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٣) ، ومسلم (٢٠٦٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦) ، ومسلم (٢٠٢٢) ولفظه عن عمر بن أبي سلمة قال : كنت في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام ؛ سمِّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » ، فما زالت تلك طعمتي بعد .

(٣) روى الترمذي (١٨٤٨) ، وابن ماجه (٣٢٧٤) عن عِكْراشِ بن ذؤيب : أُتي النبي صلى الله عليه وسلم بجفنة كثيرة الثريد والودك ، فأقبلنا نأكل منها ، فخبطت يدي في نواحيها ، فقال : « يا عكراش ؛ كل من موضع واحد ؛ فإنه طعام واحد » ، ثم أُتينا بطبق فيه ألوانٌ من الرطب ، فجالت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطبق وقال : « يا عكراش ؛ كل من حيث شئت ؛ فإنه غير لون واحد » .

ولا يقطعُ اللحمَ أيضاً[١] ، فقدْ نُهِيَ عنهُ ، وقالَ : « انهشوهُ نهشاً »[٢] .

ولا يُوضعُ على الخبزِ قصعةٌ ولا غيرُها إلاَّ ما يؤكلُ بهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ سلَّمَ : « أكرموا الخبزَ ؛ فإنَّ الله تعالىٰ أنزلَهُ مِنْ بركاتِ السماءِ »[٣] .

ولا يمسحُ يدَهُ بالخبزِ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا وقعتْ لقمةُ أحدِكُمْ . . فليأخذْها ، فليمطْ ما كانَ بها مِنْ أذىً ، ولا يدعْها للشيطانِ ، ولا يمسحْ يدَهُ بالمنديلِ حتَّىٰ يلعقَ أصابعَهُ ؛ فإنَّهُ لا يدري في أيِّ طعامِهِ البركةُ »[٤] .

ولا ينفخُ في الطَّعامِ الحارِّ ، فهوَ منهيٌّ عنهُ[٥] ، بلْ يصبرُ إلىٰ أنْ يسهلَ أكلُهُ .

---

(١) روى الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٢٨٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٦٠٥) مرفوعاً : « لا تقطعوا الخبز بالسكين كما تقطعه الأعاجم » وزاد الطبراني : « وإذا أراد أحدكم أن يأكل اللحم . . فلا يقطعه بالسكين ، ولكن ليأخذه بيده فلينهشه بفيه ؛ فإنه أهنأ وأمرأ » .

(٢) رواه أبو داوود (٣٧٧٨) ، والترمذي (١٨٣٥) ولفظه : « انهسوا اللحم نهساً » ، والنهس والنهش بمعنىً ، وهو أخذ اللحم بمقدم الأسنان .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٨٧٦٦) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٣٦) وتمامه : « وأخرجه من بركات الأرض » ، وأورد الحافظ الزبيدي لهٰذا الحديث شواهد في « إتحافه » (٥/ ٢٢٠) .

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٣) .

(٥) روىٰ أحمد في « مسنده » (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النفخ في الطعام والشراب) ، وعند ابن ماجه (٣٢٨٨) عنه : (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ في طعام ولا شراب ، ولا يتنفس في الإناء) .

ويأكلُ مِنَ التمرِ وتراً ؛ سبعاً ، أوْ إحدىٰ عشرةَ ، أوْ إحدىٰ وعشرينَ ، أوْ ما اتفقَ[1] ، ولا يجمعُ بينَ التمرِ والنوىٰ في طبقٍ ، ولا يجمعُ في كفِّهِ ، بلْ يضعُ النواةَ مِنْ فيهِ علىٰ ظهرِ كفِّهِ ، ثمَّ يلقيها ، وكذا كلُّ ما لهُ عَجَمٌ وثُفْلٌ[2] .

وألاَّ يتركَ ما استرذلَهُ مِنَ الطعامِ واطَّرحَهُ في القصعةِ ، بلْ يتركُهُ معَ الثفلِ ؛ حتَّىٰ لا يلتبسَ علىٰ غيرِهِ فيأكلَهُ .

وألاَّ يكثرَ الشربَ في أثناءِ الطعامِ إلاَّ إذا غصَّ بلقمةٍ أوْ صدقَ عطشُهُ ، فقدْ قيلَ : إنَّ ذلكَ مستحبٌّ في الطبِّ ، وإنَّهُ دباغُ المعدةِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الشربُ : فأدبُهُ أنْ يأخذَ الكوزَ بيمينِهِ ، ويقولَ باسمِ اللهِ ، ويشربَهُ مصّاً لا عبّاً ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مصُّوا الماءَ مصّاً ، ولا تعبُّوهُ عبّاً ، فإنَّ الكُبادَ مِنَ العبِّ »[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٧٩) ، وروىٰ مسلم (٢٠٤٢) ، وأبو داوود (٣٧٢٩) واللفظ له : (أنه صلى الله عليه وسلم أكل تمراً ، فجعل يلقي النوىٰ علىٰ ظهر إصبعيه السبابة والوسطىٰ) ، وهو في معناه ، **والعجم** : النوىٰ ، واحدته : عَجَمة ؛ كقَصَب وقَصَبة ، **والثفل** : الحَبُّ .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٤٢٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٠٧٠) ، **والكُباد** : وجع الكبد .

ولا يشربُ قائماً ولا مضطجعاً ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عن الشربِ قائماً[١] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربَ قائماً[٢] ، ولعلَّهُ كانَ لعذرٍ .

ويراعي أسفلَ الكوزِ حتَّىٰ لا يقطرَ عليهِ ، وينظرُ في الكوزِ قبلَ الشربِ ، ولا يتجشَّأُ في الكوزِ ، ولا يتنفَّسُ فيهِ ، بلْ ينحِّيهِ عنْ فمِهِ بالحمدِ ويردُّهُ بالتسميةِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ الشربِ : « الحمدُ للهِ الذي جعلَهُ عذْباً فُراتاً برحمتِهِ ، ولمْ يجعلْهُ مِلْحاً أُجاجاً بذنوبِنا »[٣] .

والكوزُ وكلُّ ما يُدارُ علىٰ القومِ . . يُدارُ يمنةً .

وقدْ شربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبناً وأبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ شمالِهِ ، وأعرابيٌّ عنْ يمينِهِ ، وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ناحيةً ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أعطِ أبا بكرٍ ، فناولَ الأعرابيَّ وقالَ : « الأيمنَ فالأيمنَ »[٤] .

ويشربُ في ثلاثةِ أنفاسٍ ، يحمدُ اللهَ تعالىٰ في أواخرِها ، ويسمِّي اللهَ تعالىٰ في أوائلِها .

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢٤) .
(٢) رواه البخاري (٥٦١٥) من حديث سيدنا علي رضي الله تعالىٰ عنه .
(٣) رواه الطبراني في « الدعاء » (٨٩٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١٦٢) .
(٤) رواه البخاري (٢٣٥٢) ، ومسلم (٢٠٢٩) .

ويقولُ في آخرِ النَّفَسِ الأوَّلِ : الحمدُ للهِ ، وفي الثاني يزيدُ : ربِّ العالمينَ ، وفي الثالثِ يزيدُ : الرحمـٰنِ الرحيمِ[1] .

فهـٰذا قريبٌ مِنْ عشرينَ أدباً في حالةِ الأكلِ والشربِ ، دلَّتْ عليها الآثارُ والأخبارُ .

* * *

(١) إظهاراً لتمام المنَّة في الثالث ، وما ذكره المصنف هو في « القوت » (٢/ ١٨٠) ، وتقدم نحوه في البسملة أول الطعام .

القِسمُ الثَّالِثُ
ما يُستحبّ بعد الطّعام

وهوَ أنْ يُمسكَ عنِ الأكلِ قبلَ الشبعِ ، ويلعقَ أصابعَهُ ، ثمَّ يمسحَها بالمنديلِ ، ثمَّ يغسلَها ، ويلتقطَ فتاتَ الطعامِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أكلَ ما يسقطُ منَ المائدةِ . . عاشَ في سعةٍ ، وعوفيَ في ولدِهِ »(١) .

ويتخلَّلُ ولا يبتلعُ كلَّ ما يخرجُ مِنْ بينِ أسنانهِ بالخِلالِ ، إلاَّ ما يجتمعُ مِنْ أصولِ أسنانه بلسانِهِ ، أمَّا المُخْرَجُ بالخلالِ . . فيرميهِ(٢) ، وليتمضمضْ بعدَ الخِلالِ ، ففيهِ أثرٌ عنْ أهلِ البيتِ عليهِمُ السلامُ(٣) .

وأنْ يلعقَ القصعةَ ويشربَ ماءَها ، ويُقالُ : مَنْ لعقَ القصعةَ وشربَ ماءَها . . كانَ لهُ عتقُ رقبةٍ ، وإنَّ التقاطَ الفُتاتِ مهورُ الحورِ العينِ(٤) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من حديث جابر) ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٤٠) من حديث أنس ، وأورد له الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٢٢٤) طرقاً .

(٢) **الخلال** : العود الذي يتخلل به بين أسنانه ليخرج ما علق من الطعام ، وما يخرج بالخِلال يقال له : الفغم ، وقد ورد : (كلوا الوغم واطرحوا الفغم) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) ، وسبب المضمضة : لما يعقب الخلال بعض الدم ، فيتنجس به الفم ، فيزيله بالمضمضة . « إتحاف » (٥/ ٢٢٥) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٠) .

وأنْ يشكرَ اللهَ تعالىٰ بقلبهِ علىٰ ما أطعمَهُ ، فيرى الطعامَ نعمةً منهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ .

ومهما أكلَ حلالاً . . قالَ : (الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، وتنزلُ البركاتُ ، اللهمَّ ؛ أطعمْنا طيِّباً ، واستعملْنا صالحاً) .

وإنْ أكلَ شبهةً . . فليقلِ : (الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلْهُ قوَّةً لنا علىٰ معصيتِكَ)[1] .

ويقرأُ بعدَ الطعامِ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) و(لإيلافِ قريشٍ)[2] .

ولا يقومُ عنِ المائدةِ حتَّىٰ تُرفعَ أوَّلاً[3] .

فإنْ أكلَ طعامَ الغيرِ . . فليدعُ لهُ وليقلِ : (اللهمَّ ؛ أكثرْ خيرَهُ ، وباركْ لهُ فيما رزقتَهُ ، ويسِّرْ لهُ أنْ يفعلَ فيهِ خيراً ، وقنعْهُ بما أعطيتَهُ ، واجعلْنا وإيَّاهُ مِنَ الشاكرينَ) .

---

(١) الدعاءان في « القوت » (٢/ ١٨٠) .

(٢) أما (قل هو الله أحد) . . فلأجل حصول البركة ؛ فإنها تعدل ثلث القرآن ، وتنفي عن قارئها الفقر ، ولأنها تعرف بـ(سورة الإخلاص) ، فيلاحظ معنى الإخلاص فيما أكله ، وأيضاً فإنها تعرف بالصمدية ؛ لاشتمالها على اسم الصمد ، وهو ما لا جوف له ، ولا يحتاج إلىٰ طعام وشراب ، فيلاحظ هـٰذه المعاني عند قراءتها بعد الطعام ، وأما (لإيلاف قريش) . . فلمناسبة الألفة والاجتماع ، والأمان من الخوف والجوع . « إتحاف » (٥/ ٢٢٥) .

(٣) رویٰ ذلك ابن ماجه (٣٢٩٥) .

وإنْ أفطرَ عندَ قومٍ.. فليقلْ : (أفطرَ عندَكُمُ الصائمونَ ، وأكلَ طعامَكُمُ الأبرارُ ، وصلَّتْ عليكُمُ الملائكةُ)[١] .

وليكثرِ الاستغفارَ والحزنَ علىٰ ما أكلَ مِنْ شبهةٍ ؛ ليطفيءَ بدموعِهِ وحزنِهِ حرَّ النارِ التي تعرَّضَ لها ، لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ لحمٍ نبتَ مِنْ حرامٍ فالنَّارُ أولىٰ بهِ »[٢] ، وليسَ مَنْ يأكلُ ويبكي كمَنْ يأكلُ ويلهو .

وليقلْ إذا أكلَ لبناً : (اللهمَّ ؛ باركْ لنا فيما رزقتَنا وزِدْنا منهُ)[٣] ، وإنْ أكلَ غيرَهُ.. قالَ : (اللهمَّ ؛ باركْ لنا فيما رزقتَنا ، وارزقْنا خيراً منهُ)[٤] ، فذلكَ الدعاءُ ممَّا خصَّ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اللبنَ لعمومِ نفعِهِ .

ويُستحبُّ عَقِيبَ الطعامِ أنْ يقولَ : (الحمدُ للهِ الذي أطعمَنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، سيدُنا ومولانا ، يا كافي مِنْ كلِّ شيءٍ ولا يكفي منهُ شيءٌ ، أطعمتَ مِنْ جوعٍ ، وآمنتَ مِنْ خوفٍ ، فلكَ الحمدُ ، آويتَ مِنْ يُتْمٍ ،

---

(١) رواه أبو داوود (٣٨٥٤) ، وابن ماجه (١٧٤٧) .
(٢) رواه الترمذي (٦١٤) ولفظه : « إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولىٰ به » ، وعند البيهقي في « الشعب » (٥٣٧٦) بلفظ : « أيما لحم نبت من حرام.. فالنار أولىٰ به » .
(٣) رواه أبو داوود (٣٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٥٥) ، وابن ماجه (٣٣٢٢) .
(٤) رواه ابن ماجه (٣٣٢٢) في الحديث المتقدم ، والسبب في ذلك هو في تمام الحديث حيث قال : « فإني لا أعلم ما يجزيء من الطعام والشراب إلا اللبن » .

وهديتَ مِنْ ضلالةٍ ، وأغنيتَ مِنْ عَيْلةٍ ، فلكَ الحمدُ حمداً كثيراً دائماً طيِّباً نافعاً مباركاً فيهِ ، كما أنتَ أهلُهُ ومستحقُّهُ ، اللهمَّ ؛ أطعمتنا طيِّباً فاستعملْنا صالحاً ، واجعلْهُ عوناً لنا علىٰ طاعتِكَ ، ونعوذُ بكَ أنْ نستعينَ بهِ علىٰ معاصيكَ)(١) .

وأمَّا غسلُ اليدينِ بالأُشنانِ : فكيفيتُهُ : أنْ يجعلَ الأشنانَ في كفِّهِ اليسرىٰ ، ويغسلُ الأصابعَ الثلاثَ مِنَ اليدِ اليمنىٰ أوَّلاً ، ويضربُ أصابعَهُ على الأشنانِ اليابسِ ، فيمسحُ بهِ شفتيهِ ، ثمَّ ينعمُ غسلَ الفمِ بإصبعِهِ ، ويدلكُ ظاهرَ أسنانِهِ وباطنَها ، والحنكَ واللسانَ ، ثمَّ يغسلُ أصابعَهُ مِنْ ذلكَ بالماءِ ، ثمَّ يدلكُ ببقيةِ الأشنانِ اليابسِ أصابعَهُ ظهراً وبطناً ، ويستغني بذلكَ عَنْ إعادةِ الأشنانِ إلى الفمِ وإعادةِ غسلِهِ(٢) .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٣) .

البَابُ الثَّاني
فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل
وهي سبعة

الأوَّلُ : ألاَّ يبتدىءَ بالطعامِ ومعَهُ مَنْ يستحقُّ التقديمَ بكبرِ سنٍّ أوْ زيادةِ فضلٍ إلاَّ أنْ يكونَ هوَ المتبوعَ والمقتدىٰ بهِ ، فحينئذٍ ينبغي ألاَّ يطوِّلَ عليهِمُ الانتظارَ إذا اشرأبُّوا للأكلِ واجتمعوا لهُ .

* * *

الثاني : ألاَّ يسكتوا على الطعامِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ سيرةِ العجمِ ، ولكنْ يتكلَّمونَ بالمعروفِ ، ويتحدَّثونَ بحكاياتِ الصالحينَ في الأطعمةِ وغيرِها[1] .

* * *

الثالثُ : أنْ يرفقَ برفيقِهِ في القصعةِ ، فلا يقصدُ أنْ يأكلَ زيادةً علىٰ ما يأكلُهُ ؛ فإنَّ ذلكَ حرامٌ إنْ لمْ يكنْ موافقاً لرضا رفيقِهِ مهما كانَ الطعامُ مشتركاً ، بلْ ينبغي أنْ يقصدَ الإيثارَ ، ولا يأكلْ تمرتينِ في دفعةٍ إلا إذا فعلوا

---

(١) ليعتبروا بذلك ، ولكن لا يتكلم وهو يمضغ اللقمة ، فربما يبدو منها شيء فيقذر الطعام . « إتحاف » (٥/٢٢٨) .

ذلكَ أوِ استأذنَهُمْ ، فإنْ قلَّلَ رفيقهُ . . نشَّطَهُ ورغَّبَهُ في الأكلِ وقالَ لهُ : (كُلْ) ، ولا يزيدُ في قولِهِ : (كُلْ) علىٰ ثلاثِ مرَّاتٍ ؛ فإنَّ ذلكَ إلحاحٌ وإفراطٌ ؛ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا خُوطبَ في شيءٍ ثلاثاً . . لمْ يراجَعْ بعدَ الثلاثِ[1] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكرِّرُ الكلامَ ثلاثاً ، فليسَ مِنَ الأدبِ الزيادةُ عليهِ[2] .

فأمَّا الحلفُ عليهِ بالأكلِ . . فممنوعٌ ، قالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما : (الطعامُ أهونُ مِنْ أنْ يحلفَ عليهِ)[3] .

* * *

الرابعُ : ألاَّ يحوجَ رفيقَهُ إلىٰ أنْ يقولَ لهُ : (كُلْ) ، قالَ بعضُ الأدباءِ : (أحسنُ الآكلينَ أكلاً مَنْ لا يحوجُ صاحبَهُ إلىٰ تفقدِهِ في الأكلِ ، وحملَ عنْ أخيهِ مؤنةَ القولِ)[4] .

ولا ينبغي أنْ يدعَ شيئاً ممَّا يشتهيهِ لأجلِ نظرِ الغيرِ إليهِ ، فإنَّ ذلكَ تصنُّعٌ ، بل يجري على المعتادِ ولا ينقصُ مِنْ عادتِهِ في الوحدةِ شيئاً ، ولكنْ ليعوِّدْ نفسَهُ حسنَ الأدبِ في الوحدةِ حتَّىٰ لا يحتاجَ إلى التصنُّعِ عندَ الاجتماعِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٩٨) .
(٢) رواه البخاري (٩٤) ولفظه : (وإذا تكلم بالكلمة . . أعادها ثلاثاً) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) والسياق الآتي له .

نعمْ ، لوْ قلَّلَ مِنْ أكلِهِ إيثاراً لإخوانِهِ ونظراً لهُمْ عندَ الحاجةِ إلىٰ ذلكَ . . فهوَ حسنٌ ، وإنْ زادَ في الأكلِ علىٰ نيّةِ المساعدةِ وتحريكِ نشاطِ القومِ في الأكلِ . . فلا بأسَ بهِ ، بلْ هوَ حسنٌ .

وكانَ ابنُ المباركِ يقدِّمُ فاخرَ الرطبِ إلىٰ إخوانِهِ ويقولُ : (مَنْ أكلَ أكثرَ . . أعطيتُهُ بكلِّ نواةٍ درهماً) وكانَ يعدُّ النوىٰ ، فيعطي كلَّ مَنْ لهُ فضْلُ نوىً بعددِهِ دراهمَ[1] ، وذلكَ لرفعِ الحياءِ ، وزيادةِ النشاطِ في الانبساطِ .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أحبُّ إخواني إليَّ أكثرُهمْ أكلاً ، وأعظمُهُمْ لقمةً ، وأثقلُهُمْ عليَّ مَنْ يحوجني إلىٰ تعاهدِهِ في الأكلِ)[2] ، وكلُّ هـٰذا إشارةٌ إلى الجري على المعتادِ وتركِ التصنُّعِ .

وقالَ جعفرٌ رحمهُ اللهُ أيضاً : (تتبينُ جودةُ محبّةِ الرجلِ لأخيهِ بجودةِ أكلِهِ في منزلِهِ)[3] .

* * *

الخامسُ : أنَّ غسلَ اليدِ في الطستِ لا بأسَ بهِ ، ولهُ أنْ يتنخَّمَ فيهِ إنْ أكلَ وحدَهُ ، وإنْ أكلَ معَ غيرِهِ . . فلا ينبغي أنْ يفعلَ ذلكَ ، وإذا قدَّم الطستَ إليهِ غيرُهُ إكراماً لهُ . . فليقبلْهُ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٠) .

اجتمعَ أنسُ بنُ مالكٍ وثابتٌ البنانيُّ رضيَ اللهُ عنهُما علىٰ طعامٍ ، فقدَّم أنسٌ الطستَ إليهِ ، فامتنعَ ثابتٌ ، فقالَ أنسٌ : (إذا أكرمَكَ أخوكَ . . فاقبلْ كرامتَهُ ولا تردَّها ، فإنَّما يكرمُ اللهَ عزَّ وجلَّ)[١] .

ورويَ أنَّ هارونَ الرشيدَ دعا أبا معاويةَ الضريرَ ، فصبَّ الرشيدُ علىٰ يدهِ في الطستِ ، فلمَّا فرغَ . . قالَ : يا أبا معاويةَ ؛ تدري مَنْ صبَّ علىٰ يدِكَ ؟ فقالَ : لا ، قالَ : صبَّهُ أميرُ المؤمنينَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّما أكرمتَ العلمَ وأجللْتَهُ ، فأجلَّكَ اللهُ وأكرمَكَ كما أجلَلْتَ العلمَ وأهلَهُ[٢] .

ولا بأسَ أنْ يجتمعوا علىٰ غسلِ الأيدي في الطستِ في حالةٍ واحدةٍ ، فهوَ أقربُ إلى التواضعِ ، وأبعدُ عَنْ طولِ الانتظارِ ، فإنْ لمْ يفعلوا . . فلا ينبغي أنْ يُصبَّ ماءُ كلِّ واحدٍ[٣] ، بلْ يُجمعُ الماءُ في الطستِ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اجمعوا وضوءَكُمْ جمعَ اللهُ شملَكُمْ »[٤] ، قيلَ : إنَّ المرادَ بهِ هٰذا .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٨٦٤٠) مرفوعاً : « من أكرم امرأً مسلماً . . فإنما يكرم الله » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .

(٣) أي : لا تُرمىٰ غُسالة كل واحد علىٰ حدة ، هٰذا إن كان الطست الذي هو مجمع الغسالة واسعاً ، وإلا . . فيصبه ثم يأتي به لمن لم يغسل بعد . « إتحاف » (٥/ ٢٣٠) بتصرف .

(٤) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٣٣) وأوله : « لا ترفعوا الطست حتىٰ يطفَّ ، اجمعوا . . . » الحديث .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الأمصارِ : (لا يُرفعُ الطستُ منْ بينِ يدي قومٍ إلا مملوءةً ، ولا تشبَّهوا بالعجمِ)[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (اجتمِعُوا علىٰ غسلِ اليدِ في طستٍ واحدٍ ، ولا تستنُّوا بسنَّةِ الأعاجمِ)[٢] .

والخادمُ الذي يصبُّ الماءَ على اليدِ كرِهَ بعضُهُمْ أنْ يكونَ قائماً ، وأحبَّ أنْ يكونَ جالساً ؛ لأنَّهُ أقربُ إلى التواضعِ ، وكرهَ بعضُهُمْ جلوسَهُ ، فرويَ أنَّهُ صبَّ علىٰ يدِ واحدٍ خادمٌ جالساً ، فقامَ المصبوبُ علىٰ يدِهِ ، فقيلَ لهُ : لِمَ قمتَ ؟ فقالَ : أحدُنا لا بدَّ وأنْ يكونَ قائماً .

وهٰذا أولىٰ ؛ لأنَّهُ أيسرُ للصبِّ والغسلِ ، وأقربُ إلىٰ تواضعِ الذي يصبُّ ، وإذا كانَ لهُ نيَّةٌ فيهِ . . فتمكينُهُ مِنَ الخدمةِ ليسَ فيهِ تكبُّرٌ ؛ فإنَّ العادةَ جاريةٌ بذلكَ .

ففي الطستِ إذاً سبعةُ آدابٍ : ألاَّ يبزقَ فيهِ ، وأنْ يقدِّمَ بهِ المتبوعَ ، وأنْ يقبلَ الإكرامَ بالتقديمِ ، وأنْ يُدارَ يمنةً ، وأنْ يجتمعَ فيهِ جماعةٌ ، وأنْ يجمعَ الماءُ فيهِ ، وأنْ يكونَ الخادمُ قائماً ، وأنْ يمجَّ الماءَ مِنْ فيهِ ويرسلَهُ مِنْ يدِهِ برفْقٍ ؛ حتَّىٰ لا يرشَّ على الفراشِ وعلىٰ أصحابِهِ ، وليصبَّ صاحبُ المنزلِ بنفسِهِ الماءَ علىٰ يدِ ضيفِهِ ، هٰكذا فعلَ مالكٌ بالشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُما في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .

أوَّلِ نزولِهِ عليهِ وقالَ : (لا يرعْكَ ما رأيتَ منِّي ، فخدمةُ الضيفِ فرضٌ)[1] .

* * *

السادسُ : ألاَّ ينظرَ إلىٰ أصحابِهِ ، ولا يراقبَ أكلَهُمْ فيستحيونَ ، بلْ يغضُّ بصرَهُ عنهُمْ ، ويشتغلُ بنفسِهِ ، ولا يمسكُ قبلَ إخوانِهِ إذا كانوا يحتشمونَ الأكلَ بعدَهُ ، بلْ يمدُّ اليدَ ويقبضُها ، ويتناولُ قليلاً قليلاً إلىٰ أنْ يستوفوا ، فإنْ كانَ قليلَ الأكلِ توقَّفَ في الابتداءِ وقلَّلَ الأكلَ حتَّىٰ إذا توسَّعوا في الطعامِ أكلَ معهُمْ آخراً ، فقدْ فعلَ ذلكَ كثيرٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ[2] ، وإنِ امتنعَ لسببٍ . . فليعتذرْ إليهِمْ ؛ دفعاً للخجلةِ عنهُمْ .

* * *

السابعُ : ألاَّ يفعلَ ما يستقذرُهُ غيرُهُ ، فلا ينفضْ يدَهُ في القصعةِ ، ولا يقدِّمْ إليها رأسَهُ عندَ وضعِ اللقمةِ في فيهِ ، وإذا أخرجَ شيئاً مِنْ فيهِ . . صرفَ وجهَهُ عنِ الطعامِ وأخذَهُ بيسارِهِ ، ولا يغمسِ اللقمةَ الدسمةَ في الخلِّ ، ولا الخلَّ في الدسومةِ ؛ فقدْ يكرهُهُ غيرُهُ ، واللقمةُ التي قطعَها بسنِّهِ لا يغمسُ بقيَّتَها في المرقةِ والخلِّ ، ولا يتكلَّمْ بما يذكِّرُ المستقذراتِ .

* * *

---

(١) أورد الحكاية مفصلة ابن حجة الحموي في « طيب المذاق » (ص٤١٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .

البَابُ الثَّالِثُ
في آدابِ تقديمِ الطَّعامِ إلى الإخوانِ الزّائرين

تقديمُ الطعامِ إلى الإخوانِ فيهِ فضلٌ كثيرٌ ، قالَ جعفرُ بنُ محمدٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إذا قعدتُمْ معَ الإخوانِ على المائدةِ.. فأطيلوا الجلوسَ ؛ فإنَّها ساعةٌ لا تحسبُ عليكُمْ مِنْ أعمارِكُمْ)(1) .

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (كلُّ نفقةٍ ينفقُها الرجلُ علىٰ نفسِهِ وأبويهِ فمَنْ دونَهُمْ يحاسبُ عليها العبدُ ، إلا نفقةَ الرجلِ علىٰ إخوانِهِ في الطعامِ ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يستحيي أنْ يسألَهُ عنْ ذلكَ)(2) .

هـٰذا معَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ في الإطعامِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تزالُ الملائكةُ تصلِّي علىٰ أحدِكُمْ ما دامَتْ مائدتُهُ موضوعةً بينَ يديهِ حتَّىٰ ترفعَ »(3) .

ورُويَ عنْ بعضِ علماءِ خراسانَ أنَّهُ كانَ يقدِّمُ إلىٰ إخوانِهِ طعاماً كثيراً لا يقدرونَ علىٰ أكلِ جميعِهِ ، وكانَ يقولُ : بلغَنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(1) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .

(2) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .

(3) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٣٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٧٩) .

عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الإخوانَ إذا رفعوا أيديَهُمْ عنِ الطعامِ . . لمْ يحاسبْ مَنْ أكلَ فضلَ ذلكَ الطعامِ » ، فأنا أحبُّ أنْ أستكثرَ ممَّا أقدِّمُ إليكُمْ لنأكلَ فضلَ ذلكَ(١) .

وفي الخبرِ : « لا يُحاسبُ العبدُ علىٰ ما يأكلُهُ معَ إخوانِهِ »(٢) .

وكانَ بعضُهُمْ يكثرُ الأكلَ معَ الجماعةِ لذلكَ ، ويقلِّلُ إذا أكلَ وحدَهُ .

وفي الخبرِ : « ثلاثةٌ لا يُحاسبُ عليها العبدُ : أكلةُ السُّحورِ ، وما أفطرَ عليهِ ، وما أكلَ معَ الإخوانِ »(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أجمعَ إخواني علىٰ صاعٍ مِنْ طعامٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ رقبةً)(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) ، والبلاغ قال فيه الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٥/ ٢٣٢) .

(٢) هو في معنى الحديث الآتي .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٢) ، قال الحافظ العراقي : (رواه الأزدي في « الضعفاء » من حديث جابر : « ثلاثة لا يسألون عن النعيم : الصائم ، والمفطر ، والرجل يأكل مع ضيفه » ، أورده في ترجمة سليمان بن داوود الجزري وقال فيه : منكر الحديث ، وللديلمي في « مسند الفردوس » [٢٥٠١] نحوه من حديث أبي هريرة) ولفظه : « ثلاثة لا يسألون عن نعيم المطعم والمشرب : المفطر ، والمتسحر ، وصاحب الضيف . . . » . وفي أكلة الصائم وأكلة المتسحر روى البزار في « مسنده » (٤٧٨٢) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٥٩) عن ابن عباس مرفوعاً : « ثلاثة ليس عليهم حساب فيما طعموا إذا كان حلالاً : الصائم ، والمتسحر ، والمرابط في سبيل الله » .

(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٦٦) .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (منْ كرمِ الرجلِ طيبُ زادِهِ في سفرِه ، وبذلُهُ لأصحابِهِ)(١) .

وكانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم يقولونَ : (الاجتماعُ على الطعامِ مِنْ مكارمِ الأخلاقِ)(٢) .

وكانوا رضيَ اللهُ عنهُم يجتمعونَ علىٰ قراءةِ القرآنِ ولا يتفرقونَ إلا عنْ ذواقٍ(٣) .

وقيلَ : اجتماعُ الإخوانِ معَ الكفايةِ على الأنسِ والألفةِ ليسَ هوَ مِنَ الدنيا(٤) .

وفي الخبرِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ للعبدِ يومَ القيامةِ : يا بنَ آدمَ ؛ جُعْتُ فلمْ تطعمني ، فيقولُ : كيفَ أطعمُكَ وأنتَ ربُّ العالمينَ ، فيقولُ : جاعَ أخوكَ المسلمُ فلمْ تطعمْهُ ، ولوْ أطعمتَهُ . . كنتَ أطعمتَني »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا جاءَكُمُ الزَّائرُ . . فأكرموهُ »(٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ غرفاً يُرىٰ ظاهرُها مِنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٨) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٨١) ، ونحوه رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٥٦) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) .
(٥) رواه مسلم (٢٥٦٩) ولفظه : « يا بن آدم ؛ استطعمتك فلم تطعمني » الحديث .
(٦) رواه الخرائطي كما في « المنتقىٰ من مكارم الأخلاق » (١٣٥) للسلفي ، والشهاب في « مسنده » (٧٦٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٣٥١) .

باطِنِها ، وباطنُها مِنْ ظاهِرِها ، هيَ لمَنْ ألانَ الكلامَ ، وأطعمَ الطَّعامَ ، وصلَّىٰ باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُكُمْ مَنْ أطعمَ الطَّعامَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أطعمَ أخاهُ حتَّىٰ يشبعَهُ وسقاهُ حتَّىٰ يرويَهُ . . بعَّدَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ سبعَ خنادقَ ، ما بينَ كلِّ خندقينِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ »[3] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا آدابُهُ : فبعضُها في الدخولِ ، وبعضُها في تقديمِ الطعامِ .

أمَّا الدخولُ :

فليسَ مِنَ السنَّةِ أنْ يقصدَ قوماً متربِّصاً لوقتِ طعامِهِمْ ، فيدخلَ عليهِمْ وقتَ الأكلِ ؛ فإنَّ ذلكَ منَ المفاجأةِ ، وقدْ نُهيَ عنهُ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يعني : منتظرينَ حينَهُ ونضجَهُ[4] .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٤) بنحوه ، وأحمد في « المسند » (٢/ ١٧٣) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٨) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٤٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥١٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٩) .
(٤) روي ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة . انظر « تفسير الطبري » (١٢/ ٢٢/ ٤٥).

وفي الخبرِ : (مَنْ مشىٰ إلىٰ طعامٍ لمْ يدعَ إليهِ . . مشىٰ فاسقاً ، وأكلَ حراماً)(١) .

ولكنْ حقُّ الداخلِ إذا لمْ يتربَّصْ واتفقَ أنْ صادفَهُمْ علىٰ طعامٍ ألاَّ يأكلَ ما لمْ يؤذنْ لهُ ، فإذا قيلَ لهُ : كُلْ . . نظرَ ؛ فإنْ علمَ أنَّهُمْ يقولونَهُ عَنْ محبةٍ لمساعدتِهِ . . فليساعدْ ، وإنْ كانوا يقولونَ ذلكَ حياءً منهُ . . فلا ينبغي أنْ يأكلَ ، بلْ ينبغي أنْ يتعلَّلَ .

أمَّا إذا كانَ جائعاً ، فقصدَ بعضَ إخوانِهِ ليطعمَهُ ، ولمْ يتربَّصْ بهِ وقتَ أكلِهِ . . فلا بأسَ بهِ .

قصدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما منزلَ أبي الهيثمِ بنِ التَّيِّهانِ وأبي أيوبَ الأنصاريِّ لأجلِ طعامٍ يأكلونَهُ وكانوا جياعاً(٢) .

والدخولُ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ إعانةٌ لذلكَ المسلمِ علىٰ حيازةِ ثوابِ الإطعامِ ، وهيَ عادةُ السلفِ .

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٢٣٣٢) موقوفاً علىٰ أبي هريرة ، وهو عند أبي داوود (٣٧٤١) مرفوعاً بلفظ : « من دُعي فلم يجب . . فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخل علىٰ غير دعوة . . دخل سارقاً ، وخرج مغيراً » .

(٢) حديث خروجهم إلىٰ أبي الهيثم بن التيهان رواه الترمذي (٢٣٦٩) ، وأصله عند مسلم (٢٠٣٨) ، وحديث قصدهم أبا أيوب الأنصاري رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٢١٦) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٢٦٨) ، و« الصغير » (١/ ٦٧) .

كانَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ المسعوديُّ لهُ ثلاثُ مئةٍ وستونَ صديقاً يدورُ عليهِمْ في السنةِ ، ولآخرَ ثلاثونَ يدورُ عليهِمْ في الشهرِ ، ولآخرَ سبعةٌ يدورُ عليهِمْ في الجمعةِ .

فكانَ إخوانُهُمْ معلومَهُمْ وبدلاً عنْ كسبِهِمْ ، وكانَ قيامُ أولئكَ بهِمْ علىٰ قصدِ التبرُّكِ عبادةً لهُمْ[(١)] .

فإنْ دخلَ ولمْ يجدْ صاحبَ الدارِ ، وكانَ واثقاً بصداقتِهِ ، عالماً بفرحِهِ إذا أكلَ مِنْ طعامِهِ . فلهُ أنْ يأكلَ بغيرِ إذنِهِ ؛ إذِ المرادُ مِنَ الإذنِ الرضا ، لا سيما في الأطعمةِ .

وأمرُها على السعةِ ، فربَّ رجلٍ يصرِّحُ بالإذْنِ ويحلفُ وهوَ غيرُ راضٍ ، فأكْلُ طعامِهِ مكروهٌ ، وربَّ غائبٍ لمْ يأذَنْ وأكلُ طعامِهِ محبوبٌ ، وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ .

ودخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دارَ بريرةَ وأكلَ طعامَها وهيَ غائبةٌ ، وكانَ الطعامُ مِنَ الصدقةِ ، فقالَ : « بلغتِ الصدقةُ محلَّها » ، وذلكَ لعلمِهِ بسرورِها بذلكَ[(٢)] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٧) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٥) ، وحديث بريرة وإصابته صلى الله عليه وسلم من طعامها وهي غائبة وكان صدقة عند البخاري (١٤٩٣) ، ومسلم (١٠٧٤) ، وقوله : « بلغت الصدقة محلها » إنما قاله في حق نسيبة بنت كعب في قصة مشابهة ، هي عند البخاري (١٤٤٦) ، ومسلم (١٠٧٣) .

ولذلكَ يجوزُ أنْ يدخلَ الدارَ بغيرِ استئذانٍ اكتفاءً بعلمِهِ بالإذْنِ ، فإنْ لمْ يعلمْ . . فلا بدَّ مِنَ الاستئذانِ أوَّلاً ثمَّ الدخولُ .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ وأصحابُهُ يدخلونَ منزلَ الحسنِ ، فيأكلونَ ما يجدونَ بغيرِ إذنٍ ، وكانَ الحسنُ يدخلُ ويرىٰ ذلكَ فيسرُّ بهِ ويقولُ : هٰكذا كنَّا[(١)] .

ورُوِيَ عنِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ قائماً يأكلُ مِنْ متاعِ بقَّالٍ في السوقِ ، يأخذُ مِنْ هٰذهِ الجونةِ تينةً ، ومِنْ هٰذهِ قضبةً ، فقالَ لهُ هشامٌ[(٢)] : ما بدا لكَ يا أبا سعيدٍ في الورعِ ، تأكلُ متاعَ الرجلِ بغيرِ إذنِهِ ! فقالَ : يا لكعُ ؛ اتلُ عليَّ آيةَ الأكلِ ، فتلا إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ ، فقالَ : فمَنِ الصديقُ يا أبا سعيدٍ ؟ فقالَ : مَنِ استروحَتْ إليهِ النفسُ ، واطمأنَّ إليهِ القلبُ[(٣)] .

وجاءَ قومٌ إلىٰ منزلِ سفيانَ الثوريِّ فلمْ يجدوهُ ، ففتحوا البابَ وأنزلوا السُّفْرَةَ ، وجعلوا يأكلونَ ، فدخلَ الثوريُّ فجعلَ يقولُ : ذكَّرتموني أخلاقَ السلفِ ، هٰكذا كانوا[(٤)] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) .
(٢) هو هشام الأوقص قاضي مكة .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) ، وفيه : (فستقة) بدل (قضبة) ، وفي (ق) : (قسبة) وهي التمرة اليابسة .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) .

وزارَ قومٌ بعضَ التابعينَ ولمْ يكنْ عندَهُ ما يقدِّمُهُ إليهم ، فذهبَ إلىٰ منزلِ بعضِ إخوانِهِ ، فلمْ يصادفْهُ في المنزلِ ، فدخلَ ، فنظرَ إلىٰ قِدْرٍ قدْ طبخَها ، وإلىٰ خبزٍ قدْ خبزَهُ وغيرِ ذلكَ ، فحملَهُ كلَّهُ ، فقدَّمَهُ إلىٰ أصحابهِ وقالَ : كلوا ، فجاءَ ربُّ المنزلِ ، فلمْ يرَ الطعامَ ، فقيلَ لهُ : قدْ أخذَهُ فلانٌ ، فقالَ : قدْ أحسنَ ، فلمَّا لقيَهُ.. قالَ : يا أخي ؛ إنْ عادوا.. فعُدْ(١) .

فهٰذهِ آدابُ الدخولِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا آدابُ التقديمِ : فتركُ التكلُّفِ أوّلاً ، وتقديمُ ما حضرَ :

فإنْ لمْ يحضرْهُ شيءٌ ، ولمْ يملكْ.. فلا يستقرضْ لأجلِ ذلكَ ، فيشقَّ علىٰ نفسِهِ ، وإنْ حضرَهُ ما هوَ محتاجٌ إليهِ لقوتهِ ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بالتقديمِ.. فلا ينبغي أنْ يقدِّمَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٢٣٥) : ولكن ليس لكل أحد ينظر إلىٰ ظواهر هٰذه القصص ، فيدخل البيوت بغير استئذان ، ويمد يده إلىٰ ما [لا] يحل له النظر إليه فضلاً عن الأخذ ، ولكن بشروط هي الآن أعز من الكبريت الأحمر ، فأين الذي يطمئن إليه القلب أو تستروح النفوس إليه ؟! ولذا قال القائل :

صادُ الصديقِ وكافُ الكيمياءِ معاً		لا يوجدانِ فدعْ عنْ نفسِكَ الطمعا

دخلَ بعضُهُمْ علىٰ زاهدٍ وهوَ يأكلُ ، فقالَ : لولا أنِّي أخذتُهُ بدينٍ . . لأطعمتُكُمْ منهُ[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ في تفسيرِ التكلُّفِ : (أنْ تطعمَ أخاكَ ما لا تأكلُهُ أنتَ ، بلْ تقصدُ زيادةً عليهِ في الجودةِ والقيمةِ)[2] .

وكانَ الفضيلُ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (إنَّما تقاطعَ الناسُ بالتكلُّفِ ، يدعو أحدُهُمْ أخاهُ ، فيتكلَّفُ لهُ ، فيقطعُهُ عنِ الرجوعِ إليهِ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ما أبالي بمَنْ أتاني مِنْ إخواني ، فإنِّي لا أتكلَّفُ لهُ ، إنَّما أقرِّبُ ما عندي ، ولوْ تكلَّفْتُ لهُ . . لكرهْتُ مجيئَهُ وملَلتُهُ)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : كنتُ أدخلُ علىٰ أخٍ لي فيتكلَّفُ لي ، فقلتُ لهُ : إنَّكَ لا تأكلُ وحدَكَ هٰذا ولا أنا ، فما بالُنا إذا اجتمعنا . . أكلْناهُ ؟! فإمَّا أنْ تقطعَ هٰذا التكلُّفَ ، أوْ أقطعَ المجيءَ ، فقطعَ التكلُّفَ ، ودامَ اجتماعُنا بسببِهِ[5] .

ومِنَ التكلُّفِ : أنْ يقدِّمَ جميعَ ما عندَهُ ، فيجحِفَ بعيالِهِ ويؤذي

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٤) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٤) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٨٤) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٨٤) .

قلوبَهُمْ ، رُوِيَ أنَّ رجلاً دعا علياً رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ عليٌّ : أجيبُكَ علىٰ ثلاثِ شرائطَ : لا تُدخلْ مِنَ السوقِ شيئاً ، ولا تدخرْ ما في البيتِ ، ولا تجحِفْ بعيالِكَ[1] .

وكانَ بعضُهُمْ يقدِّمُ مِنْ كلِّ ما في بيتِهِ شيئاً ، فلا يتركُ نوعاً إلا ويحضرُ شيئاً منهُ[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلنا علىٰ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، فقدَّمَ إلينا خبزاً وخلاًّ وقالَ : (لولا أنَّا نُهينا عنِ التكلُّفِ . . لتكلَّفْتُ لكُمْ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا قُصِدتَ للزيارةِ . . فقدِّمْ ما حضرَ ، وإنِ استزرتَ . . فلا تبقِ ولا تذرْ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .

(٣) حديث جابر رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٧١) ولفظه : دخل علىٰ جابر نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدم لهم خبزاً وخلاً ، فقال : كلوا ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نعم الإدام الخل ، إنه هلاك بالرجل أن يدخل عليه النفر من إخوانه ، فيحتقر ما في بيته أن يقدمه إليهم ، وهلاك بالقوم أن يحتقروا ما قدِّم إليهم » .

وقوله : (لولا أنا نهينا . . .) هي في « مسند أبي حنيفة » (ص٢٦٦) ، وهي مشهورة عن سلمان رضي الله عنه ، رواها عنه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٣٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٣) وسيأتي .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٨١) ، واستزرت : طلبت للزيارة ، ولا تبق ولا تذر : لا تقصر .

وقالَ سلمانُ : (أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألاَّ نتكلَّفَ للضيفِ ما ليسَ عندَنا ، وأنْ نقدِّمَ إليهِ ما حضرَنا)[1] .

وفي حديثِ يونسَ النبيِّ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ أنَّهُ زارَهُ إخوانُهُ ، فقدَّمَ إليهِمْ كِسَراً ، وجزَّ لهُمْ بقْلاً كانَ يزرعُهُ ، ثمَّ قالَ لهمْ : (كُلُوا ، لولا أنَّ اللهَ لعنَ المتكلِّفينَ . . لتكلَّفْتُ لكُمْ)[2] .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ وغيرِهِ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم أنَّهُمْ كانوا يقدِّمون ما حضرَ مِنَ الكسَرِ اليابسةِ وحشفِ التمرِ ويقولونَ : (لا ندري أيُّهما أعظمُ وزراً: الذي يحتقرُ ما يقدَّمُ إليهِ، أوِ الذي يحتقرُ ما عندَهُ أنْ يقدِّمَهُ؟!)[3] .

* * *

الأدبُ الثاني ـ وهوَ للزائرِ ـ : ألاَّ يقترحَ ولا يتحكَّمَ بشيءٍ بعينِهِ :

فربما يشقُّ على المزورِ إحضارُهُ ، فإنْ خيَّرَهُ أخوهُ بينَ طعامينِ . . فليتخيَّرْ أيسرَهما عليهِ ، كذلكَ السنةُ ، وفي الخبرِ : (ما خيِّرَ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٢٩) ، وبنحوه رواه البزار في « مسنده » (٢٥١٤)، والطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٧١)، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٣).

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ شيئينِ إلا اختارَ أيسرَهُما)[١] .

وروى الأعمشُ عنْ أبي وائلٍ أنَّهُ قالَ : مضيتُ معَ صاحبٍ لي نزورُ سلمانَ ، فقدَّمَ إلينا خبزَ شعيرٍ وملحاً جرِيشاً ، فقالَ صاحبي : لوْ كانَ في هٰذا الملحِ سعترٌ . . كانَ أطيبَ ، فخرجَ سلمانُ ، ورهنَ مطهرتَهُ وأخذَ سعتراً ، فلمَّا أكلْنا . . قالَ صاحبي : الحمدُ للهِ الذي قنَّعَنا بما رزقَنا ، فقالَ سلمانُ : لوْ قنعتَ بما رُزِقتَ . . لمْ تكنْ مطهرتي مرهونةً[٢] .

هٰذا إذا توهَّمَ تعذُّرَ ذلكَ علىٰ أخيهِ أوْ كراهتَهُ لهُ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يُسَرُّ باقتراحِهِ ويتيسَّرُ عليهِ ذلكَ . . فلا يُكرَهُ لهُ الاقتراحُ ، فعلَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ ذلكَ معَ الزعفرانيِّ ؛ إذْ كانَ نازلاً عليهِ ببغدادَ ، وكانَ الزعفرانيُّ يكتبُ كلَّ يومٍ رقعةً بما يطبخُ مِنَ الألوانِ ويسلِّمُها إلى الجاريةِ ، فأخذَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ الرقعةَ في بعضِ الأيامِ وألحقَ بها لوناً آخرَ بخطِّهِ ، فلمَّا رأى الزعفرانيُّ ذلكَ اللونَ . . أنكرَهُ وقالَ : ما أمرتُ بهٰذا ، فعرضتْ عليهِ الرقعةَ ملحقاً فيها خطُّ الشافعيِّ ، فلمَّا وقعَتْ عينُهُ علىٰ خطِّهِ . . فرحَ بذلكَ ، وأعتقَ الجاريةَ سروراً باقتراحِ الشافعيِّ عليهِ[٣] .

وقالَ أبو بكرٍ الكتَّانيُّ : دخلتُ على السريِّ ، فجاءَ بفتيتٍ وأخذَ يجعلُ

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٧) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٣٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .

نصفَهُ في القدحِ ، فقلتُ لهُ : أيَّ شيءٍ تعملُ ؟ أنا أشربُهُ كلَّهُ في مرَّةٍ ، فضحكَ وقالَ : هـٰذا أفضلُ لكَ مِنْ حجةٍ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الأكلُ علىٰ ثلاثةِ أنواعٍ : معَ الفقراءِ بالإيثارِ ، ومعَ الإخوانِ بالانبساطِ ، ومعَ أبناءِ الدنيا بالأدبِ)[2] .

* * *

الأدبُ الثالثُ : أنْ يشهِّيَ المزورُ أخاهُ الزائرَ :

ويلتمسَ منهُ الاقتراحَ ، مهما كانتْ نفسُهُ طيِّبةً بفعلِ ما يقترحُ ، فذلكَ حسنٌ ، وفيهِ أجرٌ وفضلٌ جزيلٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صادفَ مِنْ أخيهِ شهوةً . . غُفِرَ لهُ ، ومَنْ سرَّ أخاهُ المؤمنَ . . فقدْ سرَّ اللهَ عزَّ وجلَّ »[3] .

---

(١) أي : عمل قليل وثوابه كثير ؛ لما فيه من النية الحسنة بإدخال السرور علىٰ أخيه . « إتحاف » (٥/ ٢٣٧) .

(٢) كذا في « اللمع » (ص ٢٤٣) ، ورواه أبو الحسين الطيوري في « الطيوريات » (١١١٧) عن جعفر الخلدي ، وأورده مبهماً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٩٨) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٢) ، والجملة الأولىٰ منه رواها البزار في « مسنده » (٤١١٠) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٤/ ١٤٢١) ، والجملة الثانية رواها البيهقي في « الشعب » (٧٢٤٧) ، قال الحافظ الزبيدي : (وقول ابن الجوزي : إنه موضوع . . فيه نظر) . « إتحاف » (٥/ ٢٣٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ جابرٌ : « مَنْ لذَّذَ أخاهُ بما يشتهي . . كتبَ اللهُ لهُ ألفَ ألفِ حسنةٍ ، ومحا عنهُ ألفَ ألفِ سيئةٍ ، ورفعَ لهُ ألفَ ألفِ درجةٍ ، وأطعمَهُ اللهُ مِنْ ثلاثِ جناتٍ : جنةِ الفردوسِ ، وجنةِ عدْنٍ ، وجنةِ الخلدِ »(١) .

❊ ❊ ❊

الأدبُ الرابعُ : ألاَّ يقولَ لهُ : هلْ أقدِّمُ لكَ طعاماً :

بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ إنْ كانَ ، قالَ سفيانُ الثوريُّ : (إذا زارَكَ أخوكَ . . فلا تقلْ لهُ : أتأكلُ ، أوْ أقدِّمُ إليكَ ؟ ولكنْ قدِّمْ ، فإنْ أكلَ ، وإلاَّ . . فارفعْ)(٢) .

وإنْ كانَ لا يريدُ أنْ يطعمَهُمْ طعاماً . . فلا ينبغي أنْ يظهرَهُ عليهِمْ أوْ يصفَهُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٢) ، قال الحافظ العراقي : (ذكره ابن الجوزي في « الموضوعات » [٢/ ٨٨] من رواية محمد بن نعيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، وقال أحمد ابن حنبل : هـٰذا باطل كذب) ، ويروىٰ عن أبي هريرة مرفوعاً : « من أطعم أخاه المسلم شهوته . . حرمه الله على النار » ، رواه البيهقي ـ في « الشعب » (٣١٠٩) ـ وعن معاذ : « من أطعم مؤمناً حتىٰ يشبعه من سغب . . أدخله الله باباً من أبواب الجنة لا يدخله إلا من كان مثله » ، رواه الطبراني ـ في « الكبير » (٢٠/ ٨٥) ـ وعن أبي سعيد : « من أطعم مسلماً جائعاً . . أطعمه الله من ثمار الجنة » ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣٤) . « إتحاف » (٥/ ٢٣٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) .

لهُمْ ، قالَ الثوريُّ : (إذا أردتَ ألاَّ تطعمَ عيالَكَ ممَّا تأكلُهُ . . فلا تحدِّثْهُمْ بهِ ، ولا يرونَهُ معَكَ)(١) .

وقالَ بعضُ الصوفيةِ : (إذا دخلَ عليكُمُ الفقراءُ . . فقدِّموا إليهِمْ طعاماً ، وإذا دخلَ الفقهاءُ . . فسلوهُمْ عنْ مسألةٍ ، وإذا دخلَ القرَّاءُ . . فدلُّوهُمْ على المحرابِ)(٢) .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) .

(٢) القول لأبي علي النُّوْرباطي كما في « اللمع » (ص ٢٤٢) ، ولأبي علي الروذباري كما أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٩٧) .

البَابُ الرَّابِعُ
في آدابِ الضِّيافة

ومظانُّ الآدابِ فيها ستةٌ : الدعوةُ أوّلاً ، ثمَّ الإجابةُ ، ثمَّ الحضورُ ، ثمَّ تقديمُ الطعامِ ، ثمَّ الأكلُ ، ثمَّ الانصرافُ .

ولنقدِّمْ علىٰ شرحِها فضيلةَ الضيافةِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتكلَّفوا للضيفِ فتبغضوهُ ؛ فإنَّهُ مَنْ أبغضَ الضيفَ . . فقدْ أبغضَ اللهَ تعالىٰ ، ومَنْ أبغضَ اللهَ . . أبغضَهُ اللهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا خيرَ فيمَنْ لا يضيفُ »[٢] .

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ لهُ إبلٌ وبقرٌ كثيرةٌ ، فلمْ يضفْهُ ، ومرَّ بامرأةٍ لها شويهاتٌ ، فذبحتْ لهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٥٤) بلفظ : « لا يتكلفن أحد للضيف ما لا يقدر عليه » ، وروى الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ٤٢٤) من حديث أبي قرصافة : « يا عائشة ؛ لا تتكلفي للضيف فتمليه ، ولكن أطعميه مما تأكلين » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٥) .

« انظروا إليهما ، إنَّما هـٰذهِ الأخلاقُ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فمَنْ شاءَ أنْ يمنحَهُ خُلُقاً حسناً . . فعلَ »[١] .

وقالَ أبو رافع مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّهُ نزلَ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فقالَ : « قلْ لفلانٍ اليهوديِّ : نزلَ بي ضيفٌ ، فأسلفْني شيئاً مِنَ الدقيقِ إلىٰ رجبٍ » ، فقالَ اليهوديُّ : واللهِ ؛ لا أسلفُهُ إلا برهنٍ ، فأخبرتُهُ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « واللهِ ؛ إنِّي لأمينٌ في السماءِ ، أمينٌ في الأرضِ ، ولوْ أسلفَني . . لأديتُهُ ، فاذهبْ بدرعي وارهنْهُ عندَهُ »[٢] .

وكانَ إبراهيمُ الخليلُ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ إذا أرادَ أنْ يأكلَ . . خرجَ ميلاً أوْ ميلينِ يلتمسُ مَنْ يتغدَّىٰ معهُ[٣] ، وكانَ يكنىٰ أبا الضيفانِ[٤] ، ولصدقِ نيَّتِهِ فيهِ دامتْ ضيافتُهُ في مشهدِهِ إلىٰ يومِنا هـٰذا ، فلا تنقضي ليلةٌ إلا ويأكلُ عندَهُ جماعةٌ مِنْ بينِ ثلاثةٍ إلىٰ عشرةٍ إلىٰ مئةٍ ، وقالَ قوَّامُ الموضعِ : إنَّهُ لمْ يخلُ إلى الآنَ ليلةٌ عنْ ضيفٍ[٥] .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٤٥) عن عمرو بن دينار ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣١) عن أبي المنهال مرسلاً .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٣١) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٢٥٢).

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٦٤٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٧٣) .

(٤) رواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/ ٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٣٥).

(٥) حكاه مجير الدين الحنبلي في « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » (١/ ٤٩) وفصل القول في ذلك ، قال الحافظ الزبيدي : (وقد اتفق لي أني لما وردت لزيارته . . =

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ما الإيمانُ ؟ فقالَ : « إطعامُ الطعامِ ، وبذلُ السلامِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكفاراتِ والدرجاتِ : « إطعامُ الطعامِ ، والصلاةُ بالليلِ والناسُ نيامٌ »(٢) .

وسئلَ عنِ الحجِّ المبرورِ فقالَ : « إطعامُ الطعامِ ، وطيبُ الكلامِ »(٣) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (كلُّ بيتٍ لا يدخلُهُ ضيفٌ لا تدخلُهُ الملائكةُ)(٤) .

❊ ❊ ❊

= كان معي جماعة نحو الخمسة ، فلما فرغت من الزيارة . . إذا أنا بسماط ممدود وفيه من أنواع الأطعمة ، فتعجبت لكوني ما أعرف هناك أحداً ، فمن أين هـٰذا ؟! فقال لي واحد : لا تتعجب ، هـٰذه ضيافة الخليل عليه السلام ، وهي لكل قادم إلىٰ زيارته ، ثم إني كنت في ضيافته ثلاثة أيام في أرغد عيش صلى الله عليه وعلىٰ ولده وسلم) . « إتحاف » (٥/ ٢٣٩) .

(١) رواه البخاري (١٢) ، ومسلم (٣٩) بلفظ : أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف » .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٨٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٦٢) .

(٤) أورده أبو حيان التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٢٨٧) .

والأخبارُ الواردةُ في فضْلِ الضيافةِ والإطعامِ لا تحصىٰ ، فلنذكرْ آدابَها :

أمَّا الدَّعوةُ :

فينبغي للداعي أنْ يقصدَ بدعوتِهِ الأتقياءَ دونَ الفسَّاقِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكلَ طعامَكُمُ الأبرارُ » في دعائِهِ لمَنْ دعا لهُ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تأكلْ إلا طعامَ تقيٍّ ، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ »[2] .

ويقصدُ الفقراءَ دونَ الأغنياءِ على الخصوصِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الطعامِ طعامُ الوليمةِ ؛ يُدعىٰ إليها الأغنياءُ دونَ الفقراءِ »[3] .

وينبغي ألاَّ يهملَ أقاربَهُ في ضيافتِهِ ، فإنَّ إهمالَهُمْ إيحاشٌ وقطعُ رحمٍ ، وكذلكَ يراعي الترتيبَ في أصدقائِهِ ومعارفِهِ ، فإنَّ في تخصيصِ البعضِ إيحاشاً للباقينَ .

وينبغي ألاَّ يقصدَ بدعوتهِ المباهاةَ والتفاخرَ ، بلِ استمالةَ قلوبِ الإخوانِ ، والتسنُّنَ بسنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في إطعامِ الطعامِ ، وإدخالَ السرورِ علىٰ قلوبِ المؤمنينَ .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٨٥٤) ، وابن ماجه (١٧٤٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٨٣٢) ، والترمذي (٢٣٩٥) بلفظ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » .
(٣) رواه البخاري (٥١٧٧) ، ومسلم (١٤٣٢) .

وينبغي ألاَّ يدعوَ مَنْ يعلمُ أنَّهُ يشقُّ عليهِ الإجابةُ ، وإذا حضرَ . . تأذَّىٰ بالحاضرينَ بسببٍ مِنَ الأسبابِ .

وينبغي ألاَّ يدعوَ إلاَّ مَنْ يحبُّ إجابتَهُ ، قالَ سفيانُ الثوريُّ : (مَنْ دعا أحداً إلىٰ طعامٍ وهوَ يكرهُ الإجابةَ . . فعليهِ خطيئةٌ[1] ، فإنْ أجابَهُ المدعوُّ . . فعليهِ خطيئتانِ ؛ لأنَّهُ حملَهُ على الأكلِ معَ كراهةٍ ، ولوْ علمَ ذلكَ . . لما كانَ يأكلُهُ) .

وإطعامُ التقيِّ إعانةٌ لهُ على الطاعةِ ، وإطعامُ الفاسقِ تقويةٌ لهُ على الفسقِ ، قالَ رجلٌ خياطٌ لابنِ المباركِ : أنا أخيطُ ثيابَ السلاطينِ ، فهلْ يُخافُ أنْ أكونَ مِنْ أعوانِ الظلمةِ ؟ قالَ : لا ، إنَّما أعوانُ الظلمةِ مَنْ يبيعُ منكَ الخيطَ والإبرةَ ، أمَّا أنتَ . . فمِنَ الظلمةِ أنفسِهِمْ[2] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الإجابةُ :

فهيَ سنَّةٌ مؤكدةٌ ، وقدْ قيلَ بوجوبِها في بعضِ المواضعِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ دُعيتُ إلىٰ كُراعٍ . . لأجبتُ ، ولوْ أُهديَ إليَّ ذراعٌ . . لقبلتُ »[3] .

---

(١) لأنه أظهر بلسانه خلاف ما في قلبه ، فتصنع بالكلام ، وهـٰذا من السمعة ، وداخل في محبة أن يحمد بما لم يفعل . « إتحاف » (٥/ ٢٤٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩١) ، قاله تحذيراً من أن يقترب من الظلمة .

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٨) .

وللإجابةِ خمسةُ آدابٍ :

الأوَّلُ : ألاَّ يميزَ الغنيَّ بالإجابةِ عنِ الفقيرِ ، فذلكَ هوَ التكبُّرُ المنهيُّ عنهُ ؛ ولأجلِ ذلكَ امتنعَ بعضُهُمْ عنْ أصلِ الإجابةِ وقالَ : (انتظارُ المرقةِ ذلٌّ) ، وقالَ آخرُ : (إذا وضعتُ يدي في قصعةِ غيري .. فقدْ ذلَّتْ لهُ رقبتي)[١] .

ومِنَ المتكبرينَ مَنْ يجيبُ الأغنياءَ دونَ الفقراءِ ، وهوَ خلافُ السنةِ ، كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجيبُ دعوةَ العبدِ ودعوةَ المسكينِ[٢] .

ومرَّ الحسينُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما بقومٍ مِنَ المساكينِ الذينَ يسألونَ الناسَ علىٰ قارعةِ الطريقِ وقدْ نشروا كِسَراً على الأرضِ في الرملِ وهمْ يأكلونَ ، وهوَ علىٰ بغلتِهِ ، فسلَّم عليهِمْ ، فقالوا لهُ : هلمَّ إلى الغداءِ يا بنَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقالَ : نعمْ ، إنَّ اللهَ لا يحبُّ المستكبرينَ ، فنزلَ وقعدَ معَهُمْ على الأرضِ وأكلَ ، ثمَّ سلَّمَ عليهِمْ وركبَ ، وقالَ : قدْ أجبتُكُمْ فأجيبوني ، قالوا : نعمْ ، فوعدَهُمْ وقتاً معلوماً ، فحضروا ، فقدَّمَ إليهِمْ فاخرَ الطعامِ ، وجلسَ يأكلُ معَهُمْ[٣] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) .

(٢) رواه الترمذي (١٠١٧) وليس فيه ذكر المسكين ، وهو مفهوم من عموم ما ورد في ذلك .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٠) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ١٨١) جميعهم عن =

وأمَّا قولُ القائلِ : (إنَّ مَنْ وضعتُ يدي في قصعتِهِ فقدْ ذلَّتْ لهُ رقبتي) . . فقدْ قالَ بعضُهُمْ : (هٰذا خلافُ السنَّة)[1] ، وليسَ كذلكَ ؛ فإنَّهُ ذُلٌّ إذا كانَ الداعي لا يفرحُ بالإجابةِ ، ولا يتقلَّدُ بها مِنَّةً ، وكانَ يرىٰ ذلكَ يداً لهُ على المدعوِّ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يحضرُ لعلمِهِ بأنَّ الداعيَ لهُ يتقلَّدُ منَّةً ، ويرىٰ ذلكَ شرفاً وذخراً لنفسِهِ في الدنيا والآخرةِ .

وهٰذا يختلفُ باختلافِ الحالِ ، فمَنْ ظنَّ بهِ أنَّهُ يستثقلُ الإطعامَ ، وإنَّما يفعلُ ذلكَ مباهاةً أوْ تكلُّفاً . . فليسَ مِنَ السنَّةِ إجابتُهُ[2] ، بلِ الأولى التعلُّلُ ؛ ولذلكَ قالَ بعضُ الصوفيةِ : (لا تجبْ إلا دعوةَ مَنْ يرىٰ أنَّكَ أكلتَ رزقَكَ ، وأنَّهُ سلَّمَ إليكَ وديعةً كانتْ لكَ عندَهُ ، ويرىٰ لكَ الفضلَ عليهِ في قبولِ تلكَ الوديعةِ منهُ)[3] .

وقال سريٌّ السقطيُّ رحمَهُ اللهُ : (آهٍ علىٰ لقمةٍ ليسَ عليَّ للهِ فيها تبعةٌ ، ولا لمخلوقٍ فيها منَّةٌ)[4] .

= سيدنا أبي عبد الله الحسين رضي الله تعالىٰ عنه ، وكذا في « القوت » (١٨٦) ، ووقع في النسخ : (الحسن) بدل (الحسين) .

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٦) .

(٢) رویٰ أبو داوود (٣٧٥٤) عن ابن عباس قال : (إن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن طعام المتباريين أن يؤكل) ، وهما المتعارضان بفعلهما للمباهاة والرياء .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٦) .

فإذا علمَ المدعوُّ أنَّهُ لا منَّةَ في ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ يردَّ .

وقالَ أبو ترابٍ النخشبيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (عُرِضَ عليَّ طعامٌ فامتنعتُ ، فابتليتُ بالجوعِ أربعةَ عشرَ يوماً ، فعلمتُ أنَّهُ عقوبتُهُ)(١) .

وقيلَ لمعروفٍ الكرخيِّ رضيَ اللهُ عنهُ : كُلُّ مَنْ دعاكَ تمرُّ إليهِ ؟ فقالَ : أنا ضيفٌ ، أنزلُ حيثُ أنزلوني(٢) .

❊ ❊ ❊

الثاني : أنَّهُ لا ينبغي أنْ يمتنعَ عنِ الإجابةِ لبعدِ المسافةِ ، كما لا يمتنعُ لفقرِ الداعي وعدمِ جاهِهِ ، بلْ كلُّ مسافةٍ يمكنُ احتمالُها في العادةِ لا ينبغي أنْ يمتنعَ بسببِها .

يقالُ في التوراةِ أوْ بعضِ الكتبِ : (سِرْ ميلاً . . عدْ مريضاً ، سِرْ ميلينِ . . شيِّعْ جنازةً ، سِرْ ثلاثةَ أميالٍ . . أجبْ دعوةً ، سِرْ أربعةَ أميالٍ . . زُرْ أخاً في اللهِ)(٣) ، وإنَّما قدَّمَ إجابةَ الدعوةِ والزيارةَ لأنَّ فيهِ قضاءَ حقِّ الحيِّ ، فهوَ أولىَ مِنَ الميتِ .

---

(١) كذا في « اللمع » (ص ٢٤٤) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٩٨) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٣٨٠) ، فهـٰذا مقام من شاهد الداعي الأول . « إتحاف » (٥/ ٢٤٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٧) ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٥٢٣) عن علي رضي الله عنه ، وروىٰ نحوه ابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٧٩) مرفوعاً ، وورد منثوراً علىٰ لسان التابعين كذلك .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ دعيتُ إلىٰ كُراعِ الغَمِيمِ . . لأجبتُ »[١] ، وهوَ موضعٌ علىٰ أميالٍ مِنَ المدينةِ[٢] ، أفطرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رمضانَ لمَّا بلغَهُ[٣] ، وقصرَ عندَهُ في سفرِهِ[٤] .

* * *

الثالثُ : ألاَّ يمتنعَ لكونِهِ صائماً ، بلْ يحضرُ ، فإنْ كانَ يسرُّ أخاهُ إفطارُهُ . . فليفطرْ ، وليحتسبْ في إفطارِهِ بنيَّةِ إدخالِ السرورِ علىٰ قلبِ أخيهِ ما يحتسبُ في الصومِ وأفضلَ ، وذلكَ في صومِ التطوُّعِ ، وإنْ لمْ يتحقَّقْ سرورَ قلبِهِ . . فليصدقْهُ بالظاهرِ وليفطرْ ، وإنْ تحقَّقَ أنَّهُ متكلِّفٌ . . فليتعلَّلْ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٧) دون زيادة (الغميم) ، ولم نقف علىٰ هـٰذه الزيادة فيما بين أيدينا من المصادر .
قال الحافظ العراقي : ذكر الغميم فيه لا يعرف ، والمعروف : « لو دعيت إلىٰ كراع » كما تقدم قبله بثلاثة أحاديث ، ويرد هـٰذه الزيادة ما رواه الترمذي من حديث أنس : « لو أهدي إليَّ كراع . . لقبلت » .
وقد تبع المصنف صاحب « القوت » في هـٰذا السياق علىٰ عادته في هـٰذا الكتاب . انظر « الإتحاف » (٥/ ٢٤٣) .

(٢) وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . انظر « معجم البلدان » (٤/ ٤٤٣) ، ونقل الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٢٤٣) عن شيخه ابن الطيب الفاسي في « حاشيته على القاموس » : (صوابه : علىٰ ثلاثة أميال من مكة) .

(٣) رواه مسلم (١١١٤) وكان ذلك في عام الفتح .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٧) ، قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . انظر « الإتحاف » (٥/ ٢٤٣) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنِ امتنعَ بعذرِ الصومِ : « تكلَّفَ لكَ أخوكَ وتقولُ : إنِّي صائمٌ ؟! »[1] .

وقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (مِنْ أفضلِ الحسناتِ إكرامُ الجلساءِ بالإفطارِ)[2] .

فالإفطارُ عبادةٌ بهٰذهِ النيَّةِ وحسنُ خلقٍ ، فثوابُهُ فوقَ ثوابِ الصومِ ، ومهما لمْ يفطرْ . فضيافتُهُ الطيبُ والمِجْمَرةُ والحديثُ الطيِّبُ ، وقدْ قيلَ : الكحلُ والدهنُ أحدُ القَراءَينِ[3] .

* * *

الرابعُ : أنْ يمتنعَ مِنَ الإجابةِ إنْ كانَ الطعامُ طعامَ شبهةٍ ، أوِ الموضعُ أوِ البساطُ المفروشُ منْ غيرِ حلالٍ ، أوْ كانَ يُقامُ في الموضعِ منكرٌ ؛ مِنْ فرشِ ديباجٍ ، أوْ إناءِ فضةٍ ، أوْ تصويرِ حيوانٍ علىٰ سقفٍ أوْ حائطٍ ، أوْ سماعِ شيءٍ مِنَ المزاميرِ والملاهي ، أوِ التشاغلِ بنوعٍ مِنَ اللهو والعزفِ والهزلِ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٧٩) ، وكان الداعي أبا سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولفظه : « دعاكم أخوكم وتكلف لكم ، ثم قال له : أفطر وصم مكانه يوماً إن شئت » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) ، ومن جملة إكرامهم مواساتهم وتأنيسهم بالمؤاكلة . « إتحاف » (٥/ ٢٤٣) .

(٣) القَراء : ما يقدم للضيف ، كالقِرىٰ ، وروى الترمذي (٨٠١) مرفوعاً : « تحفة الصائم الدهن والمجمر » ، قال في « القوت » (٢/ ١٨٩) : (يقال : الكحل والدهن أحد القِرَيين ، واللبن أحد اللحمين ، والفاكهة والحديث للضيف أحد الضيافتين) .

واللعبِ واستماعِ الغيبةِ والنميمةِ والزورِ والبهتانِ والكذبِ وشبهِ ذلكَ ؛ فكلُّ ذلكَ ممَّا يمنعُ الإجابةَ واستحبابَها ، ويوجبُ تحريمَها أوْ كراهيتَها ، وكذلكَ إذا كانَ الداعي ظالماً ، أوْ مبتدعاً ، أوْ فاسقاً ، أوْ شريراً ، أوْ متكلِّفاً طلباً للمباهاةِ والفخرِ .

* * *

الخامسُ : ألاَّ يقصدَ بالإجابةِ قضاءَ شهوةِ البطنِ ، فيكونَ عاملاً في أبوابِ الدنيا ، بلْ يحسنُ نيتَهُ ليصيرَ بالإجابةِ عاملاً للآخرةِ ، وذلكَ بأنْ تكونَ نيتُهُ الاقتداءَ بسنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ : « لوْ دُعيتُ إلىٰ كُراعٍ . . لأجبتُ »[1] .

وينوي الحذرَ مِن معصيةِ اللهِ تعالىٰ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يجبِ الداعيَ . . فقدْ عصى اللهَ ورسولَهُ »[2] .

وينوي إكرامَ أخيهِ المؤمنِ اتباعاً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ أكرمَ أخاهُ المؤمنَ . . فإنَّما أكرمَ اللهَ سبحانَهُ »[3] .

---

(١) رواه البخاري (٥١٧٨) .
(٢) رواه البخاري (٥١٧٧) ، ومسلم (١٤٣٢) وتقدم بعضه قريباً .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٦٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٧) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٥٤٥) ، وهو قطعة من الحديث الآتي كذلك .

وينوي إدخالَ السرورِ علىٰ قلبهِ امتثالاً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ سرَّ مؤمناً . . فقدْ سرَّ اللهَ تعالىٰ »(١) .

وينوي معَ ذلكَ زيارتَهُ ليكونَ مِنَ المتحابِّينَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ إذْ شرطَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ التزاورَ والتباذلَ للهِ تعالىٰ ، وقدْ حصلَ البذلُ مِنْ أحدِ الجانبينِ ، فتحصلُ الزيارةُ مِنْ جانبِهِ أيضاً(٢) .

وينوي صيانةَ نفسِهِ عنْ أنْ يُساءَ بهِ الظنُّ في امتناعِهِ ، ويطلقَ اللسانُ فيهِ ؛ بأنْ يحملَ علىٰ تكبُّرٍ أوْ سوءِ خلقٍ ، أوْ استحقارِ أخٍ مسلمٍ ، أوْ ما يجري مَجراهُ .

فهٰذهِ ستُّ نيّاتٍ تلحقُ إجابتَهُ بالقرباتِ آحادُها ، فكيفَ مجموعُها ؟

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ : (أنا أحبُّ أنْ يكونَ لي في كلِّ عملٍ نيَّةٌ ، حتَّىٰ في الطعامِ والشرابِ)(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٤٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٧) .

(٢) وهو ما رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٥٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « يقول الله تبارك وتعالىٰ : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، والمتباذلين فيَّ » ، وهو عند مسلم (٢٥٦٦) من حديث أبي هريرة بلفظ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلّي يوم لا ظل إلا ظلي » .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٨) بنحوه .

وفي مثلِ هـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ ، فمَنْ كانتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ . . فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومَنْ كانتْ هجرتُهُ إلىٰ دنيا يصيبُها ، أوِ امرأةٍ يتزوَّجُها . . فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ »[١] .

والنيَّةُ إنَّما تؤثِّرُ في المباحاتِ والطاعاتِ ، أمَّا المنهياتُ . . فلا ؛ فإنَّهُ لوْ نوىٰ أنْ يسرَّ إخوانهُ بمساعدتِهِمْ علىٰ شربِ الخمرِ أوْ حرامٍ آخرَ . . لمْ تنفعِ النيَّةُ ، ولمْ يجزْ أنْ يقالَ : الأعمالُ بالنيَّاتِ ، بلْ لوْ قصدَ بالغزوِ الذي هوَ طاعةٌ المباهاةَ وطلبَ المالِ . . انصرفَ عنْ جهةِ الطاعةِ ، وكذلكَ المباحُ المردَّدُ بينَ وجوهِ الخيراتِ وغيرِها ، يلتحقُ بوجوه الخيراتِ بالنيَّةِ ، فتؤثِّرُ النيَّةُ في هـٰذينِ القسمينِ ، لا في القسمِ الثالثِ .

* * *

وأمَّا الحضورُ :

فأدبُهُ أنْ يدخلَ الدارَ ، ولا يتصدَّرَ فيأخذَ أحسنَ الأماكنِ ، بلْ يتواضعُ .

ولا يطوِّلُ الانتظارَ عليهِمْ ، ولا يعجَلُ بحيثُ يفاجئُهُمْ قبلَ تمامِ الاستعدادِ[٢] ، ولا يضيِّقَ المكانَ على الحاضرينَ بالزحمةِ ، بلْ إنْ أشارَ إليهِ

---

(١) رواه البخاري (١ ، ٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) .
(٢) إلا إن علم من حال الداعي أنه يفرح بمجيئه قبل تمام الاستعداد ليستأنس به . . فلا =

صاحبُ الدارِ بموضعٍ.. لا يخالفُهُ ألبتةَ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ رتَّبَ في نفسِهِ موضعَ كلِّ واحدٍ ، فمخالفتُهُ تشوِّشُ عليهِ .

وإنْ أشارَ إليهِ بعضُ الضيفانِ بالارتفاعِ إكراماً.. فليتواضعْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ التواضعِ للهِ تعالى الرضا بالدونِ مِنَ المجلسِ »[1] .

ولا ينبغي أنْ يجلسَ في مقابلةِ بابِ حجرةِ النساءِ وسترِهِمْ ، ولا يكثرُ النظرَ إلى الموضعِ الذي يخرجُ منهُ الطعامُ ؛ فإنَّهُ دليلٌ على الشرهِ ، ويخصُّ بالتحيةِ والسؤالِ مَنْ يقربُ منهُ إذا جلسَ .

وإذا دخلَ ضيفٌ للمبيتِ.. فليعرِّفْهُ صاحبُ الدارِ عندَ الدخولِ القبلةَ وبيتَ الماءِ وموضعَ الوضوءِ ؛ كذلكَ فعلَ مالكٌ بالشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُما ، وغسلَ مالكٌ يدَهُ قبلَ الطعامِ قبلَ القومِ وقالَ : (الغسلُ قبلَ الطعامِ لربِّ البيتِ أولاً)[2] ؛ لأنَّهُ يدعو الناسَ إلىٰ كرمِهِ ، فحكمُهُ أنْ يتقدَّمَ

= بأس ، أو كان بالمدعو عذر لو تأخر.. كان سبباً لعدم حضوره . « إتحاف » (٥/ ٢٤٧) .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ١١٤) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ١٠٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٨٩) ولفظه : « إن من التواضع لله الرضا بالدون من شرف المجالس » .

(٢) الخبر بتفصيله أورده ابن حجة الحموي في « ثمرات الأوراق » (ص ٨٦) .

بالغسلِ ، وفي آخرِ الطعامِ يتأخَّرُ بالغسلِ ؛ لينتظرَ أنْ يدخلَ مَنْ يأكلُ ، فيأكلَ معهُ .

وإذا دخلَ فرأىٰ منكراً . . غيَّرَهُ إنْ قدرَ ، وإلاَّ . . أنكرَ بلسانِهِ وانصرفَ .

والمنكرُ : فرشُ الديباجِ ، واستعمالُ أواني الفضَّةِ والذهبِ ، والتصويرُ على الحيطانِ ، وسماعُ الملاهي والمزاميرِ ، وحضورُ النسوةِ المتكشِّفاتِ الوجوهَ[(١)] ، وغيرُ ذلكَ مِنَ المحرَّماتِ ، حتَّىٰ قال أحمدُ رحمَهُ اللهُ : (إذا رأىٰ مُكْحُلةً رأسُها مفضَّضٌ . . ينبغي أنْ يخرجَ) ، ولمْ يأذنْ في الجلوسِ إلا في ضبَّةٍ[(٢)] .

وقالَ : (إذا رأىٰ كِلَّةً . . فينبغي أنْ يخرجَ ، فإنَّ ذلكَ تكلُّفٌ لا فائدةَ فيهِ ، ولا تدفعُ حرّاً ولا برْداً ، ولا تسترُ شيئاً)[(٣)] .

وكذلكَ قالَ : (يخرجُ إذا رأىٰ حيطانَ البيتِ مستورةً بالديباجِ كما تُسترُ الكعبةُ)[(٤)] .

---

(١) ويفهم منه أنهن إن حضرن مستترات لغرض من الأغراض الشرعية . . فلا بأس بذلك إذا أمنوا علىٰ أنفسهم من الافتتان . « إتحاف » (٥/ ٢٤٩) .

(٢) كذا في « الورع » (ص١٣٧) كما رواه عنه ولده .

(٣) الورع (ص١٣٧) ، **والكِلَّة** : ستر رقيق يمنع دخول البعوض ونحوه ، وسيفصل القول فيها .

(٤) الورع (ص١٣٨) .

وقالَ : (إذا اكترىٰ بيتاً فيهِ صورةٌ ، أوْ دخلَ الحمَّامَ ورأىٰ صورةً . . فينبغي أنْ يحكَّها ، فإنْ لمْ يقدِرْ . . خرجَ)(١) .

وكلُّ ما ذكرَهُ صحيحٌ ، وإنَّما النظرُ في الكِلَّةِ وتزيينِ الحيطانِ بالديباجِ ، فإنَّ ذلكَ لا ينتهي إلى التحريمِ ، إذِ الحريرُ محرَّمٌ على الرجالِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هـٰذانِ حرامٌ علىٰ ذكورِ أمَّتي ، حِلٌّ لإناثِها »(٢) ، وما على الحائطِ ليسَ منسوباً إلى الذكورِ ، ولوْ حرمَ هـٰذا . . لحرمَ تزيينُ الكعبةِ ، بلِ الأولىٰ إباحتُهُ لموجَبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ ، لا سيما في وقتِ الزينةِ إذا لمْ يتخذْهُ عادةً للتفاخرِ .

وإنْ تُخيِّلَ أنَّ الرجالَ ينتفعونَ بالنظرِ إليهِ . . فلا يحرمُ على الرجالِ الانتفاعُ بالنظرِ إلى الديباجِ مهما لبسَهُ الجواري والنساءُ ، والحيطانُ في معنى النساءِ ؛ إذْ لسْنَ موصوفاتٍ بالذكورةِ .

* * *

وأمَّا إحضارُ الطعامِ . . فلهُ آدابٌ خمسةٌ :

الأوَّلُ : تعجيلُ الطعامِ : فذلكَ مِنْ إكرامِ الضيفِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليكرمْ ضيفَهُ »(٣) .

---

(١) الورع (ص١٣٨) ، وكلها عند صاحب « القوت » (٢/ ١٩٠) وبلفظ المصنف هنا .
(٢) رواه أبو داوود (٤٠٥٧) ، والنسائي (٨/ ١٦٠) ، وابن ماجه (٣٥٩٥) .
(٣) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

ومهما حضرَ الأكثرونَ وغابَ واحدٌ أوِ اثنانِ وتأخَّروا عنِ الوقتِ الموعودِ.. فحقُّ الحاضرينَ في التعجيلِ أَولىٰ مِنْ حقِّ أولئكَ في التأخيرِ ، إلاَّ أنْ يكونَ المتأخِّرُ فقيراً وينكسرُ قلبُهُ بذلكَ ، فلا بأسَ بالتأخيرِ(١) .

وأحدُ المعنيينِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ أنَّهُمْ أُكرِموا بتعجيلِ الطعامِ إليهِمْ ، دلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ، والروغانُ : الذهابُ بسرعةٍ ، وقيلَ : في خفيةٍ ، وقيلَ : جاءَ بفخذٍ مِن لحمٍ ، وإنَّما سُمِّيَ عجلاً لأنَّهُ عجَّلهُ ولمْ يلبثْ(٢) .

قالَ حاتمٌ الأصمُّ رحمهُ اللهُ : (العجلةُ مِنَ الشيطانِ إلا في خمسةٍ ، فإنَّها مِنْ سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إطعامُ الضيفِ ، وتجهيزُ الميِّتِ ، وتزويجُ البكرِ ، وقضاءُ الدينِ ، والتوبةُ مِنَ الذنبِ)(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٠) بنحوه .

(٢) مجموع الأقوال في « القوت » (٢/ ١٨٠) ، **والحنيذ** : المشوي بالحجارة المسخَّنة ، والذي يقطر ماؤه بعد الشيّ ، وسيأتي بيانه ، **والمعنى الثاني** : هو خدمته عليه السلام مع زوجه سارة لأضيافه بنفسهما . انظر « تفسير الطبري » (١٣/ ٢٦/ ٢٥٤) ، وسيحكي المصنف المعنى الثاني قريباً أنه في تقديم اللحم علىٰ غيره من الطعام .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٨) ، وكونها من سنته صلى الله عليه وسلم متوازع في السنة لمن تأمَّله ، وقد جمعها حاتم رحمه الله تعالىٰ بقوله هـٰذا لا علىٰ سبيل الحصر ، ومنها ما رواه الترمذي (١٧١) مرفوعاً : « يا عليُّ ؛ ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا آنتْ ، والجنازة إذا حضرت ، والأيِّم إذا وجدتَ لها كفئاً » .

ويُستحبُّ التعجيلُ في الوليمةِ ، فقد قيلَ : (الوليمةُ في أوَّلِ يومٍ سنَّةٌ ، وفي الثاني معروفٌ ، وفي الثالثِ رياءٌ)[1] .

* * *

الثاني : ترتيبُ الأطعمةِ : بتقديمِ الفاكهةِ أوَّلاً إنْ كانتْ ، فذلكَ أوفقُ في الطبِّ ؛ فإنَّها أسرعُ استحالةً ، فينبغي أنْ تقعَ في أسفلِ المعدةِ ، وفي القرآنِ تنبيهٌ علىٰ تقديمِ الفاكهةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .

ثمَّ أفضلُ ما يقدَّمُ بعدَ الفاكهةِ اللحمُ والثريدُ ؛ فقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فضلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ علىٰ سائرِ الطعامِ »[2] .

فإنْ جمعَ إليهِ حلاوةً بعدَهُ.. فقدْ جمعَ الطيِّباتِ ، ودلَّ علىٰ حصولِ الإكرامِ باللحمِ قولُهُ تعالىٰ في ضيفِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ إذْ أحضرَ العجلَ الحنيذَ ؛ أيِ : المحنوذَ ، وهوَ الذي أُجيدَ نضجُهُ ، وهوَ أحدُ معنيي الإكرامِ ؛ أعني : تقديمَ اللحمِ .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٤٤٧) عن الحسن مرسلاً ، وهو عند ابن ماجه (١٩١٥) عن أبي هريرة مرفوعاً ، **والوليمة** : طعام العرس ، وإن لم يمكنه جمع الكل في يوم أو يومين ، فدعا جماعة في أول يوم ، وآخرين في ثاني يوم ، وآخرين في ثالث يوم.. فلا يكون رياء ، بل أصاب فيما صنع . « إتحاف » (٥/ ٢٥٢) .
(٢) رواه البخاري (٣٤٣٤) ، ومسلم (٢٤٤٦) .

وقالَ تعالىٰ في وصفِ الطيباتِ : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ المنُّ : العسلُ ، والسلوىٰ : اللحمُ ، سُمِّيَ سلوىٰ لأنَّهُ يُتسلَّىٰ بهِ عنْ جميعِ الإدامِ ، ولا يقومُ غيرُهُ مقامَهُ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيِّدُ الإدامِ اللحمُ »(١) .

ثمَّ قالَ تعالىٰ بعدَ ذكرِ المنِّ والسلوىٰ : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ فاللحمُ والحلاوةُ مِنَ الطيِّباتِ ، قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أكلُ الطيِّباتِ يورثُ الرضا عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ)(٢) .

وتتمُّ هـٰذهِ الطيِّباتُ بشرْبِ الماءِ الباردِ ، وصبِّ الماءِ الفاترِ على اليدِ عندَ الغسلِ ، قالَ المأمونُ : (شربُ الماءِ بثلْجٍ يخلصُ الشكرَ للهِ تعالىٰ)(٣) .

وقالَ بعضُ الأدباءِ : (إذا دعوتَ إخوانَكَ وأطعْمتَهُمْ حِصْرِمِيَّةً

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٤٧٣) ، وتمام في « فوائده » (٩٧١) من حديث بريدة ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٥٠٨ ، ٥٥١٠) من حديث أنس وبريدة رضي الله عنهما ، وتسمية اللحم بالسلوىٰ حكاه في « القوت » (٢/ ١٨٠) ، وعن الفارسي : **السلوىٰ** : كل ما سلاك ، وهو مؤيد لقوله ، والمشهور أنه طائر كالسُّمَانَىٰ ، يشبه الحمام ، وهو لحم كذلك .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) ، وهـٰذا لمن يملك نفسه قبل أن تملكه ، فلا يخشى انقلاب الطيبات شهوات ، فمثله إذا أكل منها . . أعطاها مقامها من الشكر والرضا . « إتحاف » (٥/ ٢٥٥) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) .

وبُورانِيَّةً ، وسقيتَهُمْ ماءً بارداً . . فقدْ أكملتَ الضيافةَ)[١] .

وأنفقَ بعضُهُمْ دراهمَ كثيرةً في ضيافةٍ ، فقالَ بعضُ الحكماءِ : (لمْ تكنْ تحتاجُ إلىٰ هـٰذا ، إذا كانَ خبزُكَ جيداً ، وماؤكَ بارداً وخلُّكَ حامِضاً . . فهوَ كفايةٌ)[٢] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الحلاوةُ بعدَ الطعامِ خيرٌ مِنْ كثرةِ الألوانِ ، والتمكُّنُ على المائدةِ خيرٌ مِنْ زيادةِ لونينِ)[٣] .

ويُقالُ : إنَّ الملائكةَ تحضرُ المائدةَ إذا كانَ عليها بقْلٌ ، فذلكَ أيضاً مستحبٌّ ، ولما فيهِ مِنَ التزيُّنِ بالخضرةِ ، وفي الخبرِ : إنَّ المائدةَ التي أنزلتْ علىٰ بني إسرائيلَ كانَ عليها كلُّ البقولِ إلا الكرَّاثَ ، وكانَ عليها سمكةٌ عندَ رأسِها خلٌّ ، وعندَ ذنبِها ملْحٌ ، وسبعةُ أرغفةٍ ، علىٰ كلِّ رغيفٍ زيتونٌ وحبُّ رمَّانٍ ، فهـٰذا إذا جُمِعَ . . حسنَ للموافقةِ[٤] .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) ، **والحصرمية** : نوع من الطعام يعمل بالحصرم ، وهو أول العنب ، **والبورانية** : طعام ينسب إلىٰ بُوران بنت الحسن بن سهل وزير المأمون . « إتحاف » (٥/ ٢٥٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٩) .

(٤) خبر السمكة رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٧٠٢٩) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٩٩٩) .

الثالثُ : أنْ يقدِّمَ مِنَ الألوانِ ألطفَها : حتَّىٰ يستوفيَ منها منْ يريدُ ، فلا يكثرُ الأكلَ بعدهُ ، وعادةُ المترفِّهينَ تقديمُ الغليظِ ؛ ليستأنفَ حركةَ الشهوةِ بمصادفةِ اللطيفِ بعدَهُ ، وهوَ خلافُ السنَّةِ ؛ فإنه حيلةٌ في استكثارِ الأكلِ(١) .

وكانَ مِنْ سنَّةِ المتقدِّمينَ أنْ يقدِّموا جملةَ الألوانِ دفعةً واحدةً ، ويصفُّوا القِصاعَ مِنَ الطعامِ على المائدةِ ؛ ليأكلَ كلُّ واحدٍ ممَّا يشتهي ، وإنْ لمْ يكنْ عندَهُ إلاَّ لونٌ واحدٌ . ذكرَهُ ليستوفوا منهُ ، ولا ينتظروا أطيبَ منهُ .

ويُحكىٰ عنْ بعضِ أصحابِ المروءاتِ أنَّهُ كانَ يكتبُ نسخةً بما يستحضرهُ مِنَ الألوانِ ويعرضُ على الضيفانِ .

وقالَ بعضُ الشيوخُ : قدَّمَ إليَّ بعضُ المشايخِ لوناً بالشامِ ، فقلتُ : عندَنا بالعراقِ إنَّما يقدَّمُ هـٰذا آخراً ! فقالَ : وكذا عندَنا بالشامِ ، ولمْ يكنْ لهُ لونٌ غيرَهُ ، فخجلتُ منه(٢) .

وقالَ آخرُ : كنَّا جماعةً في ضيافةٍ ، فقُدِّمَ إلينا ألوانٌ مِنَ الرؤوسِ المشويةِ طبيخاً وقديداً ، فكنَّا لا نأكلُ ننتظرُ بعدَها لوناً أوْ حَمَلاً ، فجاءَنا بالطستِ ، ولمْ يقدِّمْ غيرَها ، فنظرَ بعضُنا إلىٰ بعضٍ ، فقالَ بعضُ الشيوخِ وكانَ مزَّاحاً :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٥) بمعناه .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٣) .

إنَّ اللهَ تعالىٰ يقدرُ أنْ يخلقَ رؤوساً بلا أبدانٍ ، قالَ : وبتنا تلكَ الليلةَ جياعاً نطلبُ فتيتاً إلى السحورِ(١) .

فلهٰذا يُستحبُّ أن يُقدِّمَ الجميعَ ، أوْ يُخبرَ بما عندَهُ .

* * *

الرابعُ : ألاَّ يبادرَ إلىٰ رفعِ الألوانِ : بلْ يمكِّنُهُمْ مِنَ الاستيفاءِ حتَّىٰ يرفعوا الأيديَ عنها ، فلعلَّ فيهِمْ مَنْ يكونُ بقيةُ ذلكَ اللونِ أشهىٰ عندَهُ ممَّا سيحضرُهُ ، أوْ بقيَتْ فيهِ حاجةٌ إلى الأكلِ ، فيتنغَّصُ عليهِ بالمبادرةِ ، وهو مِنَ التمكُّنِ على المائدةِ الذي يُقالُ : إنَّهُ خيرٌ منْ لونينِ ، فيُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ قطعَ الاستعجالِ ، ويُحتملُ أنْ يُرادَ بهِ سعةُ المكانِ .

حُكِيَ عن السُّتوريِّ وكانَ صوفياً مزَّاحاً ، فحضرَ عندَ واحدٍ مِنْ أبناءِ الدنيا علىٰ مائدةٍ ، فقدَّمَ إليهِمْ حَمَلاً ، وكانَ في صاحبِ المائدةِ بخلٌ ، فلمَّا رأى القومَ مزَّقوا الحملَ كلَّ ممزَّقٍ .. ضاقَ صدرُهُ وقالَ : يا غلامُ ؛ ارفعْ إلى الصبيانِ ، فرُفِعَ الحملُ إلىٰ داخلِ الدارِ ، فقامَ السُّتوريُّ يعدو خلْفَ الحَمَلِ ، فقيلَ لهُ : إلىٰ أينَ ؟ فقالَ : آكلُ معَ الصبيانِ ، فاستحيا الرجلُ وأمرَ بردِّ الحمَلِ(٢) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٤) .

ومِنْ هـٰذا الفنِّ : ألاَّ يرفعَ صاحبُ المائدةِ يدَهُ قبلَ القومِ ؛ لأنَّهُمْ يستحيونَ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ آخرَهُمْ أكلاً .

كانَ بعضُ الكرامِ يخبرُ القومَ بجميعِ الألوانِ ، ويتركُهُمْ يستوفونَ ، فإذا قاربوا الفراغَ . . جثا علىٰ ركبتيهِ ، ومدَّ يدَهُ إلى الطعامِ وأكلَ وقالَ : باسمِ اللهِ ، ساعدوني باركَ اللهُ فيكُمْ وعليكُمْ ، وكانَ السلفُ يستحسنونَ ذلكَ منهُ(١) .

* * *

الخامسُ : أنْ يقدِّمَ مِنَ الطعامِ قدْرَ الكفايةِ : فإنَّ التقليلَ عنِ الكفايةِ نقصٌ في المروءةِ ، والزيادةَ عليهِ تصنُّعٌ ومراءاةٌ ، لا سيما إذا كانَتْ لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يأكلوا الكلَّ ، إلا أنْ يقدِّمَ الكثيرَ وهوَ طيِّبُ النفسِ لوْ أخذوا الجميعَ ، ونوىٰ أنْ يتبرَّكَ بفضلةِ طعامِهِمْ ؛ إذْ في الحديثِ : أنَّه لا يحاسبُ عليهِ(٢) .

أحضرَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ طعاماً كثيراً علىٰ مائدتِهِ ، فقالَ لهُ سفيانُ رحمَهُما اللهُ : يا أبا إسحاقَ ؛ أما تخافُ أنْ يكونَ هـٰذا سرفاً ؟ فقالَ إبراهيمُ : ليسَ في الطعامِ سرفٌ(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٧ ، ١٨٠) .

فإنْ لمْ تكنْ هـٰذهِ النيَّةُ ، فالتكثيرُ تكلُّفٌ ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (نُهينا أنْ نجيبَ دعوةَ مَنْ يباهي بطعامِهِ)[١] .

وكرهَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ أكلَ طعامِ المباهاةِ ، ولهـٰذا كانَ لا يُرفعُ مِنْ بينِ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فضلةُ طعامٍ قطُّ[٢] ؛ لأنَّهُمْ كانوا لا يقدِّمونَ إلا قدْرَ الحاجةِ ، ولا يأكلونَ تمامَ الشبعِ .

وينبغي أنْ يعزلَ أوَّلاً نصيبَ أهلِ البيتِ حتَّىٰ لا تكونَ أعينُهُمْ طامحةً إلىٰ رجوعِ شيءٍ منهُ ، فلعلَّهُ لا يرجعُ ، فتضيقُ صدورُهُمْ ، وتنطلقُ في الضيفانِ ألسنتُهُمْ ، ويكونُ قدْ أطعمَ الضيفانَ ما يتبعُهُ كراهيةُ قومٍ ، وذلكَ خيانةٌ في حقِّهِمْ .

وما بقيَ مِنَ الأطعمةِ فليسَ للضيفانِ أخذُهُ ، وهوَ الذي تسمِّيهِ الصوفيَّةُ الزَّلَّةَ[٣] ، إلا إذا صرَّحَ صاحبُ الطعامِ بالإذنِ فيهِ عنْ قلبٍ راضٍ ، أوْ عُلِمَ ذلكَ بقرينةِ حالِهِ ، وأنَّهُ يفرحُ بهِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٢) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣٥١) عن أنس رضي الله عنه قال : (ما رُفع من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء قط ، ولا حملت معه طِنفسة يجلس عليها) ، وعند ابن ماجه (٣٣١٠) عنه قال : (ما رفع من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فضْل شواء قط ، ولا حملت معه طنفسة) ، وعند الترمذي (٢٣٥٩) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : (ما كان يفضل عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم خبز شعير) .

(٣) **الزَّلَّة** : اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك ، لغة عراقية أو عامية .

فإنْ كانَ يُظَنُّ كراهيتُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُؤخَذَ ، وإذا عُلِمَ رضاهُ . . فينبغي مراعاةُ العدْلِ والنصفةِ معَ الرفقاءِ ، فلا ينبغي أنْ يأخذَ الواحدُ إلا ما يخصُّهُ ، أوْ ما يرضىٰ بهِ رفيقُهُ عنْ طوعٍ ، لا عنْ حياءٍ .

* * *

وأمّا الانصرافُ . . فلهُ آدابٌ ثلاثةٌ :

الأول : أنْ يخرجَ معَ الضيفِ إلىٰ بابِ الدارِ : فهوَ سنةٌ ، وذلكَ من إكرامِ الضيفِ وقدْ أُمِرَ بإكرامِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليكرمْ ضيفَهُ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مِنْ سنَّةِ الضيفِ أنْ يُشيَّعَ إلىٰ بابِ الدارِ »(٢) .

قالَ أبو قتادةَ : قدمَ وفدُ النجاشيِّ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقامَ يخدمُهُمْ بنفسِهِ ، فقالَ لهُ أصحابُهُ : نحنُ نكفيكَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « إنَّهُمْ كانوا لأصحابي مكرمينَ ، وأنا أحبُّ أنْ أكافئَهُمْ »(٣) .

وتمامُ الإكرامِ طلاقةُ الوجهِ ، وطيبُ الحديثِ عندَ الدخولِ والخروجِ

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .
(٢) رواه ابن ماجه (٣٣٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٠٢) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٧٠٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٩١٥) .

وعلى المائدةِ ، قيلَ للأوزاعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ : ما كرامةُ الضيفِ ؟ قالَ : طلاقةُ الوجهِ ، وطيبُ الحديثِ(١) .

وقالَ يزيدُ بنُ أبي زيادٍ : (ما دخلتُ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ أبي ليلىٰ إلاَّ حدَّثنا حديثاً حسناً ، وأطعمَنا طعاماً حسناً)(٢) .

* * *

الثاني : أنْ ينصرفَ الضيفُ طيِّبَ النفسِ وإنْ جرىٰ في حقِّهِ تقصيرٌ : فذلكَ مِن حُسْنِ الخلقِ والتواضعِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليدركُ بحسْنِ خلقِهِ درجةَ الصائمِ القائمِ »(٣) .

ودُعِيَ بعضُ السلفِ برسولٍ ، فلمْ يصادفْهُ الرسولُ ، فلمَّا سمعَ . . حضرَ ، وكانوا قدْ تفرَّقوا وفرغوا ، فخرجَ إليهِ صاحبُ المنزلِ وقالَ : قدْ خرجَ القومُ ، قالَ : هَل بقيَ بقيةٌ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فكِسرةٌ إنْ بقيتْ ، قالَ : لمْ تبقَ ، قالَ : فالقدورَ أمسحُها ، قالَ : قدْ غسلناها ، فانصرفَ

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٠٤) ، وفي رجز للشماخ رضي الله عنه كما في « ديوانه » (ص٤٦٦) :

وربَّ ضيفٍ طرقَ الحيَّ سُرَىٰ صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهىٰ
إنَّ الحديثَ طرفٌ مِنَ القِرَىٰ

(٣) رواه أبو داوود (٤٧٩٨) ، وأحمد في « المسند » (٦/١٣٣) .

يحمدُ اللهَ تعالىٰ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : قدْ أحسنَ الرجلُ ، دعانا بنيَّةٍ وردَّنا بنيَّةٍ[1] .

فهٰذا هوَ معنى التواضعِ وحسنِ الخلقِ .

وحُكِيَ أنَّ أستاذَ أبي القاسمِ الجنيدِ دعاهُ صبيٌّ إلىٰ دعوةِ أبيهِ أربعَ مرَّاتٍ[2] ، فردَّهُ الأبُ في المرَّاتِ الأربعِ وهوَ يرجعُ في كلِّ مرَّةٍ تطييباً لقلْبِ الصبيِّ في الحضورِ ، ولقلبِ الأبِ في الانصرافِ[3] .

فهٰذهِ نفوسٌ قدْ ذُلِّلَتْ بالتواضعِ للهِ تعالىٰ ، واطمأنَّتْ بالتوحيدِ ، وصارتْ تشاهدُ في كلِّ ردٍّ وقبولٍ عبرةً فيما بينَها وبينَ ربِّها ، فلا تنكسرُ بما يجري مِنَ العبادِ مِنَ الإذلالِ ، كما لا تستبشرُ بما يجري منهُمْ مِنَ الإكرامِ ، بلْ يرونَ الكلَّ مِنَ الواحدِ القهَّارِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (أنا لا أجيبُ الدعوةَ إلاَّ لأنِّي أتذكَّرُ بهَا طعامَ الجنَّةِ) ؛ أيْ : هوَ طعامٌ طيِّبٌ يُحملُ عنَّا كدُّهُ ومؤنتُهُ وحسابُهُ[4] .

* * *

الثالثُ : ألاَّ يخرجَ إلا برضا صاحبِ المنزلِ وإذْنِهِ : ويراعي قلبَهُ في قدْرِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) .
(٢) في دعوة واحدة ، لا في دعوات متفرقات .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٥) ، وأستاذ الجنيد هو أبو جعفر بن الكرنبي كما في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤١٥) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٨٦) بنحوه .

الإقامةِ ، وإذا نزلَ ضيفاً . . فلا يزيدُ علىٰ ثلاثةِ أيامٍ ، فربَّما يتبرَّمُ بهِ ويحتاجُ إلىٰ إخراجهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الضيافةُ ثلاثةُ أيامٍ ، فما زادَ فصدقةٌ »[1] .

نعمْ ، لوْ ألحَّ ربُّ البيتِ عليهِ عنْ خلوصِ قلبٍ . . فلهُ المقامُ إذْ ذاكَ .

ويُستحبُّ أنْ يكونَ عندهُ فراشٌ للضيفِ النازلِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فراشٌ للرجلِ ، وفراشٌ للمرأةِ ، وفراشٌ للضيفِ ، والرابعُ للشيطانِ »[2] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ، ومسلم في اللقطة ، باب الضيافة ونحوها (٤٨) .
(٢) رواه مسلم (٢٠٨٤) ، والعبرة في وصف الفراش لعرف البلاد .

فصل
يجمع آداباً ومناهي طبية وشرعية متفرقة

الأوَّلُ : حُكِيَ عنْ إبراهيمَ النخعيِّ أنَّهُ قالَ : (الأكلُ في السوقِ دناءةٌ) ، وأسندَ هـٰذا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإسنادُهُ غريبٌ[1] ، وقدْ نقلَ علىٰ ضدِّهِ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ : (كنَّا نأكلُ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نمشي ، ونشربُ ونحنُ قيامٌ)[2] .

ورُئيَ بعضُ مشايخِ الصوفيةِ المعروفينَ يأكلُ في السوقِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : ويحَكَ ، أجوعُ في السوقِ وآكلُ في البيتِ ؟! فقيلَ : تدخلُ المسجدَ ، فقالَ : أستحيي منهُ أنْ أدخلَ بيتهُ للأكلِ فيهِ[3] .

ووجهُ الجمعِ : أنَّ الأكلَ في السوقِ تواضعٌ وترْكُ تكلُّفٍ مِنْ بعضِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٨٠) ، وسياق المصنف هنا من « القوت » (٢/ ١٨٨) حيث قال : (هـٰذا غريب مسنداً ، وليس بذاك الصحيح ، إنه من قول التابعين ، إبراهيم النخعي ومن دونه) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٢٦٣) .

(٢) رواه الترمذي (١٨٨١) ، وابن ماجه (٣٣٠١) ، والأثر ورد لبيان الجواز ؛ بدليل عطفه على الشرب قائماً مع وجود النهي عنه ، وسيسوق المصنف وجه الجمع بينهما .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٩) .

الناسِ ؛ فهوَ حسنٌ ، وخرقُ مروءةٍ مِنْ بعضِهِمْ ؛ فهوَ مكروهٌ ، ويختلفُ ذلكَ بعاداتِ البلادِ وأحوالِ الأشخاصِ ، فمَنْ لا يليقُ ذلكَ بسائرِ أعمالِهِ . . حملَ ذلكَ منهُ علىٰ قلَّةِ المروءةِ وفرْطِ الشَّرَهِ ، ويقدحُ ذلكَ في الشهادةِ ، ومَنْ يليقُ ذلكَ بجميعِ أحوالِهِ وأعمالِهِ في تركِ التكلُّفِ . . كانَ ذلكَ منهُ تواضعاً .

* * *

الثاني : قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ ابتدأَ غداءَهُ بالملحِ . . أذهبَ اللهُ عنهُ سبعينَ نوعاً مِنَ البلاءِ[1] ، ومَنْ أكلَ كلَّ يومٍ سبعَ تمراتٍ عجوةٍ . . قتلَتْ كلَّ دابةٍ في بطنِهِ[2] ، ومَنْ أكلَ كلَّ يومٍ إحدىٰ وعشرينَ زبيبةً حمراءَ . . لمْ يرَ في جسدِهِ شيئاً يكرهُهُ ، واللحمُ يُنبتُ اللحمَ[3] ، والثريدُ طعامُ العربِ ، والبِسْقارجاتُ تعظمُ البطنَ وترخي الأليتينِ[4] ، ولحمُ البقرِ داءٌ ، ولبنُها

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥٥٣) ، وقال : (قد أخرجناه بطوله في « مناقب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ») ، وعند ابن ماجه (٣٣١٥) في فضل الملح : « سيد إدامكم الملح » .

(٢) وقد روى البخاري (٥٤٤٥) ، ومسلم (٢٠٤٧) مرفوعاً : « من تصبَّح بسبع تمرات عجوة . . لم يضره ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر » .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥٠٩) وزاد : (فمن لم يأكل اللحم أربعين يوماً . . ساء خلقه) .

(٤) **البسقارجات** ـ بكسر الموحدة وسكون السين المهملة ـ : لفظة فارسية معناها : مرقة اللحم والدجاج ، والمراد منها : ما يطبخ في أمراقهما من اللحم . « إتحاف » (٥/٢٦٦) .

شفاءٌ ، وسمنُها دواءٌ[١] ، والشحمُ يُخرِجُ مثلَهُ مِنَ الداءِ ، ولنْ تستشفيَ النفساءُ بشيءٍ أفضلَ مِنَ الرطبِ[٢] ، والسمكُ يذيبُ الجسدَ[٣] ، وقراءةُ القرآنِ والسواكُ يذهبانِ البلغمَ ، ومَنْ أرادَ البقاءَ ـ ولا بقاءَ ـ فليباكرِ بالغداءِ ، وليقلَّ غشيانَ النساءِ ، وليخفِّفِ الرداءَ ؛ وهوَ الدَّيْنُ)[٤] .

* * *

الثالثُ : قالَ الحجَّاجُ لبعضِ الأطباءِ : صفْ لي صفةً آخذُ بها ولا أعدُوها ، قالَ : (لا تنكحْ مِنَ النساءِ إلا فتاةً ، ولا تأكلْ مِنَ اللحمِ إلا فتيّاً ، ولا تأكلِ المطبوخَ حتَّىٰ ينعمَ نضجُهُ ، ولا تشربنْ دواءً إلاَّ مِنْ علَّةٍ ،

---

(١) روىٰ أبو داوود في « المراسيل » (٤٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٤٢/٢٥) في لحم وسمن ولبن البقر مرفوعاً : « ألبانها شفاء ، وسمنها دواء ، ولحومها داء » .

(٢) روى الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٦٢/٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩٣/٧٠) مرفوعاً : « أطعموا نساءكم في نفاسهن التمر ؛ فإنه من كان طعامها في نفاسها التمر . خرج ولدها ذلك حليماً . . . » الحديث .

(٣) رواه الحاكم في « تاريخ نيسابور » وحكىٰ سنده الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٢٦٧/٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٧٠٥) .

(٤) تقدم في أول الحديث أنه بتمامه هٰكذا قد رواه البيهقي ، وهو في « القوت » (١٨٨/٢) ، ووقع في (ب) زيادة ، حيث قال : (ومن أراد البقاء ـ ولا بقاء ـ فليباكر الغداء ، وليلبس الحذاء ، وليكثر من العشاء . . .) وليست في « القوت » ، ومجيء الرداء بمعنى الدَّين نصَّ عليه أهل اللغة ، بمعنىٰ : يخفف عن ظهره ثقل الديون .

ولا تأكلْ منَ الفاكهةِ إلاَّ نضيجَها ، ولا تأكلْ طعاماً إلا أجدتَ مضغَهُ ، وكلْ ما أحببتَ مِنَ الطعامِ ، ولا تشربْ عليهِ ، فإذا شربتَ . . فلا تأكلْ عليهِ شيئاً ، ولا تحبسِ الغائطَ والبولَ ، وإذا أكلتَ بالنهارِ . . فنمْ ، وإذا أكلتَ بالليلِ . . فامشِ قبلَ أنْ تنامَ ولوْ مئةَ خطوةٍ)(١) .

وفي معناهُ قولُ العربِ : (تعشَّ تمشَّ ، وتغدَّ تمدَّ) يعني : تمدَّدْ(٢) ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أيْ : يتمطَّطُ .

ويُقالُ : إنَّ حبسَ البولِ يفسدُ مِنَ الجسدِ كما يفسدُ النهرُ ما حولَهُ إذا سُدَّ مجراهُ(٣) .

* * *

الرابعُ : في الخبرِ : (قطعُ العروقِ مسقمةٌ ، وتركُ العشاءِ مهرمةٌ)(٤) .

والعربُ تقولُ : (تركُ الغداءِ يذهبُ بشحمِ الكاذَةِ) يعني : الأليةَ(٥) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٨)، وطبيبه هو تياذوق، والخبر في «عيون الأخبار» (٣/ ٢٧٠).
(٢) فأبدلوا الألف من الدال الثانية كراهية التكرار ، ولازدواج الكلام . « قوت القلوب » (٢/ ١٨٨) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٨) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ١٨٨) ، والجملة الأولىٰ منه رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/ ٢٤٠) ، والثانية رواها الترمذي (١٨٥٦) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٨٨) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تخرجْ منْ منزلِكَ حتَّىٰ تأخذَ حِلمَكَ ؛ أيْ : تتغذَّىٰ)[1] إذْ بهِ يبقى الحلمُ ويزولُ الطيشُ ، وهوَ أيضاً أقلُّ لشهوةِ ما يرىٰ في السوقِ .

وقالَ حكيمٌ لسمينٍ : أرىٰ عليكَ قطيفةً مِنْ نسجِ أضراسِكَ فممَّا هيَ ؟ قالَ : آكلُ لُبابَ البُرِّ وصغارَ المعزِ ، وأدَّهنُ بجامِ بنفسجٍ ، وألبسُ الكتَّانَ[2] .

* * *

الخامسُ : الحِميةُ تضرُّ بالصحيحِ كما يضرُّ تركُها بالمريضِ ، هٰكذا قيلَ .

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنِ احتمىٰ . . فهوَ علىٰ يقينٍ مِنَ المكروهِ ، وعلىٰ شكٍّ مِنَ العوافي)[3] .

وهٰذا حسنٌ في حالِ الصحَّةِ .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صهيباً يأكلُ تمراً وإحدىٰ عينيهِ رمداءُ ، فقالَ : « تأكلُ التمرَ وأنتَ رمدٌ ؟! » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّما

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٨٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨٩) .

أمضغُ بالشقِّ الآخرِ ـ يعني : جانبَ السليمةِ ـ فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

※ ※ ※

السادسُ : أنَّهُ يُستحبُّ أنْ يُحملَ طعامٌ إلىٰ أهلِ الميتِ ، ولمَّا جاءَ نعيُ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ . . قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ آلَ جعفرٍ شُغلوا بميتِهِمْ عنْ صنعِ طعامِهِمْ ، فاحملوا إليهِمْ ما يأكلونَ »[2] ، فذلكَ سنةٌ ، وإذا قُدِّمَ ذلكَ إلى الجمعِ . . حلَّ الأكلُ منهُ ، إلا ما يهيَّأُ للنوائحِ والمُعِيناتِ عليهِ بالبكاءِ والجزعِ ، فلا ينبغي أنْ يُؤكلَ معهم .

※ ※ ※

السابعُ : لا ينبغي أنْ يحضرَ طعامَ ظالمٍ ؛ فإنْ أُكرهَ . . فليقلِّلِ الأكلَ ، ولا يقصدِ الطعامَ الأطيبَ ؛ ردَّ بعضُ المزكِّينَ شهادةَ مَنْ حضرَ طعامَ سلطانٍ ، فقالَ : كنتُ مُكرهاً ، فقالَ : رأيتُكَ تقصدُ الأطيبَ ، وتكبِّرُ اللقمةَ ، وما كنتَ مكرهاً عليهِ .

وأجبرَ السلطانُ هـٰذا المزكِّيَ على الأكلِ ، فقالَ : إمَّا أنْ آكلَ وأخليَ التزكيةَ ، أوْ أزكيَ ولا آكلَ ، فلمْ يجدوا بُدّاً مِنْ تزكيتِهِ ، فتركوهُ[3] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٣١٣٢) ، والترمذي (٩٩٨) ، وابن ماجه (١٦١٠) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .

وحُكيَ أنَّ ذا النونِ المصريَّ حُبسَ ، فلمْ يأكلْ أياماً في السجنِ ، فكانتْ لهُ أختٌ في اللهِ ، فبعثَتْ إليهِ مِنْ مغزلِها طعاماً علىٰ يدِ السجَّانِ ، فامتنعَ فلمْ يأكلْ ، فعاتبتْهُ المرأةُ بعدَ ذلكَ ، فقالَ : كانَ حلالاً ، ولكنْ جاءَني علىٰ طبقِ ظالمٍ ، وأشارَ بهِ إلىٰ يدِ السجَّانِ ، وهـٰذا غايةُ الورعِ[1] .

* * *

الثامنُ : حُكِيَ عن فتحٍ الموصليِّ رحمهُ اللهُ أنَّهُ دخلَ علىٰ بشرٍ الحافي زائراً ، فأخرجَ بشرٌ درهماً ودفعَهُ لأحمدَ الجلاءِ خادمِهِ وقالَ : اشترِ بهِ طعاماً جيِّداً ، وإداماً طيِّباً .

قالَ : فاشتريتُ خبزاً نظيفاً[2] ، وقلتُ : لمْ يقلِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لشيءٍ : « اللهمَّ ؛ باركْ لنا فيهِ ، وزدْنا منهُ »[3] سوى اللبنِ ، فاشتريتُ لبناً ، واشتريتُ تمراً جيِّداً ، فقدمتُهُ إليهِ ، فأكلَ وأخذَ الباقيَ .

فقالَ بشرٌ : أتدرونَ لِمَ قلتُ : اشترِ طعاماً طيباً ؟ لأنَّ الطعامَ الطيِّبَ يستخرجُ خالصَ الشكرِ .

أتدرونَ لِمَ لمْ يقلْ لي : كُلْ ؛ لأنَّهُ ليسَ للضيفِ أنْ يقولَ لصاحبِ الدارِ : كُلْ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩١) ، وكانت مَنْ آخته في الله عجوزاً صالحة كما ذكر .
(٢) أي : من لباب البر . « إتحاف » (٥/ ٢٧١) .
(٣) رواه أبو داوود (٣٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٥٥) ، وابن ماجه (٣٣٢٢) .

أتدرونَ لِمَ حملَ ما بقيَ ؟ لأنَّهُ إذا صحَّ التوكُّلُ . . لمْ يضرَّ الحملُ[1] .

وحَكىٰ أبو عليٍّ الروذباريُّ رحمهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عنْ رجلٍ أنَّهُ اتخذَ ضيافةً ، فأوقدَ فيها ألفَ سراجٍ ، فقالَ لهُ رجلٌ : قدْ أسرفتَ ، فقالَ لهُ : ادخلْ ، فكلُّ ما أوقدتُهُ لغيرِ اللهِ فأطفئْهُ ، فدخلَ الرجلُ ، فلمْ يقدرْ علىٰ إطفاءِ واحدٍ منها ، فانقطعَ[2] .

واشترىٰ أبو عليٍّ الروذباريُّ أحمالاً منَ السكرِ ، وأمرَ الحلاويينَ حتَّىٰ بنَوا جداراً مِنَ السكرِ ، عليهِ شُرَفٌ ومحاريبُ علىٰ أعمدةٍ منقوشةٍ كلُّها مِنْ سكرٍ ، ثمَّ دعا الصوفيةَ حتَّىٰ هدموها وانتهبوها[3] .

* * *

التاسعُ : قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الأكلُ علىٰ أربعةِ أنحاءٍ :

الأكلُ بإصبعٍ مِنَ المقتِ ، وبإصبعينِ مِنَ الكبرِ ، وبثلاثِ أصابعَ مِنَ السنةِ[4] ، وبأربعٍ وخمسٍ مِنَ الشرهِ .

وأربعٌ تقوِّي البدنَ : أكلُ اللحمِ ، وشمُّ الطيبِ ، وكثرةُ الغسلِ مِنْ غيرِ جماعٍ ، ولبسُ الكتَّانِ .

---

(١) كذا في « اللمع » (ص ٢٤٤) ، و« تهذيب الأسرار » (ص ٣٩٧) .
(٢) رواه أبو النصر السراج في « اللمع » (ص ٢٤٥) .
(٣) رواه أبو النصر السراج في « اللمع » (ص ٢٤٥) .
(٤) رواه مسلم (٢٠٣٢) .

وأربعٌ تُوهنُ البدنَ : كثرةُ الجماعِ ، وكثرةُ الهمِّ ، وكثرةُ شربِ الماءِ على الريقِ ، وكثرةُ أكلِ الحموضةِ .

وأربعٌ تقوي البصرَ : الجلوسُ حيالَ القبلةِ ، والكحلُ عندَ النومِ ، والنظرُ إلى الخضرةِ ، وتنظيفُ الملبسِ .

وأربعٌ توهنُ البصرَ : النظرُ إلى القذرِ ، والنظرُ إلى المصلوبِ(١) ، والنظرُ إلىٰ فرْجِ المرأةِ ، والقعودُ في استدبارِ القبلةِ .

وأربعٌ تزيدُ في الجماعِ : أكلُ العصافيرِ ، وأكلُ الإطْرِيفَلِ الأكبرِ(٢) ، وأكلُ الفسْتقِ ، وأكلُ الجرجيرِ .

والنومُ علىٰ أربعةِ أنحاءٍ : فنومٌ على القفا ؛ وهوَ نومُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، يتفكَّرونَ في خلقِ السماواتِ والأرضِ ، ونومٌ على اليمينِ ؛ وهوَ نومُ العلماءِ والعُبَّادِ ، ونومٌ على الشمالِ ؛ وهوَ نومُ الملوكِ لينهضمَ طعامُهُمْ ، ونومٌ على الوجهِ ؛ وهوَ نومُ الشياطينِ .

وأربعٌ تزيدُ في العقلِ : تركُ الفضولِ مِنَ الكلامِ ، والسواكُ ، ومجالسةُ الصالحينَ ، والعلماءِ(٣) .

---

(١) والمراد تكرير النظر إليه ، فأما إذا وقع فجأة عليه وعلى الذي قبله . . فليس داخلاً فيه . « إتحاف » (٥/ ٢٧٤) .

(٢) **الإطريفل** : لفظة عجمية عربت ، يقع على الهليلج والبليلج والإملج ، ثمرٌ ، منه الكبير والصغير ، وقد ورد في خبر رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٩٧٩) .

(٣) أي : ومجالسة العلماء ، وهي الرابعة .

وأربعٌ هنَّ مِنَ العبادةِ : ألاَّ تخطوَ خطوةً إلا علىٰ وضوءٍ ، وكثرةُ السجودِ ، ولزومُ المساجدِ ، وكثرةُ قراءةِ القرآنِ) .

وقالَ أيضاً : (عجبتُ لمَنْ يدخلُ الحمَّامَ على الريقِ ، ثمَّ يؤخِّرُ الأكلَ بعدَ أنْ يخرجَ كيفَ لا يموتُ ! وعجبتُ لِمَنِ احتجمَ ، ثمَّ يبادرُ الأكلَ كيفَ لا يموتُ !)(١) .

وقالَ : (لمْ أرَ شيئاً أنفعَ في الوباءِ مِنْ دهْنِ البنفسجِ ، يُدهنُ بهِ ويُشربُ)(٢) ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

تمَّ كتاب آداب الأكل

وهو الكتاب الأوّل من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله وحده ، وصلواته على محمّدٍ نبيّه وآله وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب آداب النّكاح

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٢٢) .

(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١١٨) .

كِتَابُ

آدَابِ النِّكَاحِ

وهو الكتاب الثّاني من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب آداب النّكاح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لا تصادفُ سهامُ الأوهامِ في عجائبِ صنعتِهِ مَجرىٰ ، ولا ترجعُ العقولُ عنْ أوائلِ بدائعِها إلا والهةً حيرىٰ ، ولا تزالُ لطائفُ نعمِهِ على العالمينَ تترىٰ ، فهيَ تتوالىٰ عليهِمُ اختياراً وقهراً ، ومن بدائعِ ألطافِهِ أنْ خلقَ مِنَ الماءِ بشراً ، فجعلَهُ نسباً وصهراً ، وسلَّطَ على الخلقِ شهوةً اضطرَّهُمْ بها إلى الحراثةِ جبراً ، واستبقىٰ بها نسلَهُمُ اقتهاراً وقسراً ، ثمَّ عظَّمَ أمرَ الأنسابِ وجعلَ لها قدراً ، فحرَّم بسببِها السفاحَ وبالغَ في تقبيحِهِ ردعاً وزجراً ، وجعلَ اقتحامَهُ جريمةً فاحشةً وأمراً إمْراً ، وندبَ إلى النكاحِ وحثَّ عليهِ استحباباً وأمراً .

فسبحانَ مَنْ كتبَ الموتَ علىٰ عبادِهِ فأذلَّهُمْ بهِ هدماً وكسراً ، ثمَّ بثَّ بذورَ النطفِ في أراضي الأرحامِ وأنشأَ منها خلقاً وجعلَهُ لكسْرِ الموتِ جبراً ؛ تنبيهاً علىٰ أنَّ بحارَ المقاديرِ فياضةٌ على العالمينَ نفعاً وضراً ، وخيراً وشرّاً ، وعسراً ويسراً ، وطيّاً ونشراً .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ المبعوثِ بالإنذارِ والبشرىٰ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً لا يستطيعُ لها الحسابُ عدّاً ولاحصراً ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ النكاحَ معينٌ على الدِّينِ ، ومهينٌ للشياطينِ ، وحصنٌ دونَ عدوِّ اللهِ حصينٌ ، وسببٌ للتكثيرِ الذي بهِ مباهاةُ سيِّدِ المرسلينَ لسائرِ النبيينَ .

فما أحراهُ بأنْ تُتحرىٰ أسبابُهُ ، وتُحفظَ سننُهُ وآدابُهُ ، وتُشرحَ مقاصدُهُ وآرابُهُ ، وتُفصلَ فصولُهُ وأبوابُهُ .

والقدْرُ المهمُّ مِنْ أحكامِهِ ينكشفُ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في الترغيبِ فيهِ وعنهُ .

البابُ الثاني : في الآدابِ المرعيَّةِ في العَقدِ والعاقدَيْنِ .

البابُ الثالثُ : في آدابِ المعاشرةِ بعدَ العَقْدِ إلى الفراقِ .

* * *

البَابُ الأوّلُ
في التّرغيبِ في النّكاحِ والتّرغيبِ عنه

اعلمْ : أنَّ العلماءَ قدِ اختلفوا في فضلِ النكاحِ ، فبالغَ بعضُهُمْ فيهِ حتَّىٰ زعمَ أنَّهُ أفضلُ مِنَ التخلّي لعبادةِ اللهِ تعالىٰ .

واعترفَ آخرونَ بفضلِهِ ، ولكنْ قدَّموا عليهِ التخلِّيَ لعبادةِ اللهِ ، مهما لمْ تتقِ النفسُ إلى النكاحِ توقاناً يشوِّشُ الحالَ ، ويدعو إلى الوقاعِ .

وقالَ آخرونَ : الأفضلُ تركُهُ في زمانِنا هـٰذا ، وقدْ كانَ لهُ فضيلةٌ مِنْ قبلُ ؛ إذْ لمْ تكنِ الأكسابُ محظورةً ، وأخلاقُ النساءِ مذمومةً .

ولا ينكشفُ الحقُّ فيهِ إلا بأنْ نقدّمَ أوّلاً ما وردَ مِنَ الأخبارِ والآثارِ في الترغيبِ فيهِ ، والترغيبِ عنهُ ، ثمَّ نشرحُ فوائدَ النكاحِ وغوائلَهُ ؛ حتَّىٰ يتضحَ منها فضيلةُ النكاحِ وتركِهِ في حقِّ كلِّ مَنْ سلمَ مِنْ غوائلِهِ أوْ لمْ يسلمْ منها .

❊ ❊ ❊

الترغيب في النكاح

أمَّا مِنَ الآياتِ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وهـٰذا أمرٌ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ ، وهـٰذا منعٌ مِنَ العضْلِ ونهيٌ عنهُ[1] .

وقالَ تعالىٰ في وصفِ الرسلِ ومدحِهِمْ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ ، فذكرَ ذلكَ في معرضِ الامتنانِ وإظهارِ الفضلِ .

ومدحَ أولياءَهُ بسؤالِ ذلكَ في الدعاءِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . . ﴾ الآيةَ .

ويُقالُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يذكرْ في كتابِهِ مِنَ الأنبياءِ إلا المتأهلينَ ، فقالوا : إنَّ يحيىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ قدْ تزوَّجَ ولمْ يجامعْ ، قيلَ : إنَّما فعلَ ذلكَ لنيلِ الفضلِ وإقامةِ السنةِ ، وقيلَ : لغضِّ البصرِ[2] ، وأمَّا عيسىٰ عليهِ السلامُ . . فإنَّه سينكحُ إذا نزلَ إلى الأرضِ ويولدُ لهُ[3] .

* * *

---

(١) **العضل** : منع الرجل موليته من التزوج . « إتحاف » (٥/ ٢٨٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .
(٣) رواه ابن الجوزي في « المنتظم » (١/ ٣٢٨) مرفوعاً ، وهو في « القوت » (٢/ ٢٤٣) .

وأمَّا الأخبارُ :

فقولهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النكاحُ سُنَّتي ، فمَنْ رغِبَ عنْ سنتي . . فقد رغبَ عنِّي » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النكاحُ سُنَّتي ، فمَنْ أحبَّ فطرتي . . فليستنَّ بسنَّتي »(١) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « تناكحوا تكثُروا ؛ فإنِّي أباهي بكمُ الأممَ يومَ القيامةِ حتَّىٰ بالسِّقطِ »(٢) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ رغبَ عنْ سنَّتِي . فليسَ منِّي ، وإنَّ مِنْ سُنَّتي النكاحَ ، فمَنْ أحبَّني . . فليستنَّ بسُنَّتي »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ التزويجَ مخافةَ العيلةِ . . فليسَ منَّا »(٤) ، وهـٰذا ذمٌّ لعلَّةِ الامتناعِ ، لا لأصلِ التركِ .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٦٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧٤٨) عن عبيد بن سعد مرسلاً ، ولفظه : « من أحب فطرتي . . فليستن بسنتي ، ومن سنتي النكاح » .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « تفسيره » من حديث ابن عمر بسند ضعيف) ، وروىٰ أبو داوود (٢٠٥٠) مرفوعاً: « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم » .

(٣) الجملة الأولىٰ منه رواها البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، وتقدم باقيه قريباً .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣٨) ، قال : (وروى الحسن عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٦٨) ، =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ ذا طولٍ . . فليتزوَّجْ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنِ استطاعَ منكُمُ الباءةَ . . فليتزوَّجْ ؛ فإنَّهُ أغضُّ للبصرِ ، وأحصنُ للفرجِ ، ومَنْ لا . . فليصمْ ؛ فإنَّ الصومَ لهُ وِجاءٌ »(٢) ، وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ سببَ الترغيبِ فيهِ خوفُ الفسادِ في العينِ والفرجِ ، **والوِجاءُ** : هوَ عبارةٌ عن رضِّ الخصيتينِ للفحلِ حتَّىٰ تزولَ فحولتُهُ ، فهوَ مستعارٌ للضعفِ عنِ الوقاعِ في الصومِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أتاكُم مَنْ ترضونَ دينَهُ وأمانتَهُ . . فزوِّجوهُ ، إلاَّ تفعلوا . . تكنْ فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ »(٣) ، وهـٰذا أيضاً تعليلٌ للترغيبِ بخوفِ الفسادِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «مَنْ نكحَ للهِ، وأنكحَ للهِ. . استحقَّ ولايةَ اللهِ»(٤).

= وأبو داوود في « المراسيل » (١٩٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٦٦) عن أبي نجيح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح . . فليس مني » .

(١) رواه النسائي (٤/ ١٧١) .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

(٣) رواه الترمذي (١٠٨٤) ، وابن ماجه (١٩٦٧) ، وفيهما : « وفساد عريض » .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣٨) ، وروى الترمذي (٢٥٢١) مرفوعاً : « من أعطىٰ لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله . . فقد استكمل إيمانَهُ » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تزوَّجَ . . فقدْ أحرزَ شطْرَ دينِهِ ، فليتَّقِ اللهَ في الشطرِ الثاني »[1] ، وهٰذا أيضاً إشارةٌ إلىٰ أنَّ فضيلتَهُ لأجلِ التحرُّزِ مِنَ المخالفةِ ؛ تحصُّناً مِنَ الفسادِ ، وكأنَّ المفسِدَ لدينِ المرءِ في الأغلبِ فرجُهُ وبطنُهُ ، وقدْ كُفِيَ بالتزويجِ أحدَهُما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ عملِ ابنِ آدمَ ينقطعُ إلا ثلاثاً : ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ . . . » الحديثَ[2] ، ولا يوصلُ إلىٰ هٰذا إلا بالنكاحِ .

* * *

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يمنعُ مِنَ النكاحِ إلاَّ عجْزٌ أوْ فجورٌ)[3] ، فبيَّنَ أنَّ الدينَ غيرُ مانعٍ منهُ ، وحصرَ المانعَ في أمرينِ مذمومينِ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لا يتمُّ نسكُ الناسكِ حتَّىٰ يتزوَّجَ)[4] ، يحتملُ أنَّهُ جعلَهُ مِنَ النسكِ وتتمةً لهُ ، ولكنَّ الظاهرَ أنَّهُ أرادَ بهِ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥١٠٠) ، وهو عند الطبراني في « الأوسط » (٩٧٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٦١) واللفظ له : « من رزقه الله امرأة صالحة . . فقد أعانه علىٰ شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الثاني » .

(٢) رواه مسلم (١٦٣١) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٧٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤٠) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦) عن طاووس .

أنَّهُ لا يسلَمُ قلبُهُ لغلبةِ الشهوةِ إلا بالتزويجِ ، ولا يتمُّ النسكُ إلا بفراغِ القلبِ ؛ ولذلكَ كانَ يجمعُ غلمانَهُ لمَّا أدركوا عكرمةَ وكُرَيباً وغيرَهما ويقولُ : (إنْ أردتُمُ النكاحَ . . أنكحتُكُمْ ؛ فإن العبد إذا زنىٰ . . نُزِعَ الإيمانُ مِنْ قلبِهِ)(١) .

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (لوْ لمْ يبقَ مِنْ عمري إلاَّ عشرةُ أيامٍ . . لأحببتُ أنْ أتزوَّجَ ؛ لكيلا ألقى اللهَ عزْباً)(٢) .

وماتَتِ ٱمرأتانِ لمعاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ في الطاعونِ ، وكانَ هوَ أيضاً مطعوناً ، فقالَ : (زوِّجوني ؛ فإنِّي أكرَهُ أنْ ألقى اللهَ عزباً)(٣) .

وهـٰذا منهما يدلُّ علىٰ أنَّهما رأيا في النكاحِ فضلاً لا مِنْ حيثُ التحرُّزُ عنْ غائلةِ الشهوةِ .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يكثرُ النكاحَ ويقولُ : (ما أتزوَّجُ إلا لأجلِ الولدِ)(٤) .

وكانَ بعضُ الصحابةِ قدِ انقطعَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخدمُهُ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٢٢) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦١٦٠) ، ولفظه في « القوت » (٢/ ٢٤١) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦١٥٧) ، وهو في « القوت » (٢/ ٢٤١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤٢) ، وقال : (وقد كانت هـٰذه نية جماعة من السلف ، يتزوجون لأجل أن يولد لهم ، فيعيش ، فيوحد الله تعالىٰ ويذكره ، أو يموت فيكون فرطاً صالحاً يثقل في ميزانه) .

ويبيتُ عندَهُ لحاجةٍ إنْ طرقتْهُ ، فقالَ لَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا تتزوَّجُ ؟ » فقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ؛ إنِّي فقيرٌ لا شيءَ لي ، وأنقطعُ عنْ خدمتِكَ ، فسكتَ ، ثمَّ أعادَ ثانياً ، فأعادَ الجوابَ ، ثمَّ تفكَّرَ الصحابيُّ وقالَ : واللهِ ؛ لَرسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أعلمُ بما يصلحُني في دنيايَ وآخرتي وما يقرِّبُني إلى اللهِ منِّي ، ولئنْ قالَ لي الثالثةَ . . لأفعلنَّ ، فقالَ لهُ ثالثةً : « ألا تتزوَّجُ ؟ » قالَ : فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ زوِّجني ، قالَ : « اذهبْ إلىٰ بني فلانٍ ، فقلْ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُكُمْ أنْ تُزوِّجوني فتاتَكُمْ » قَالَ : فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لا شيءَ لي ، فقالَ لأصحابِهِ : « اجمعوا لأخيكُمْ وزنَ نواةٍ مِنْ ذهبٍ » ، فجمعوا لهُ ، فذهبوا بهِ إلى القومِ ، فأنكحوهُ ، فقالَ لهُ : « أولِمْ » ، وجمعَ لهُ مِنَ الأصحابِ شاةً للوليمةِ(١) .

وهٰذا التكريرُ يدلُّ علىٰ فضلٍ في نفْسِ النكاحِ ، ويُحتملُ أنَّهُ توسَّمَ فيهِ الحاجةَ إلى النكاحِ .

وحُكيَ أنَّ بعضَ العبَّادِ في الأممِ السالفةِ فاقَ أهلَ زمانِهِ في العبادةِ ، فذُكِرَ لنبيٍّ زمانِهِ حسنُ عبادتِهِ ، فقالَ : نعمَ الرجلُ هوَ لولا أنَّهُ تاركٌ لشيءٍ مِنَ السنَّةِ ، فاغتمَّ العابدُ لمَّا سمعَ ذلكَ ، فسألَ النبيَّ عنْ ذلكَ ، فقالَ : أنتَ

---

(١) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (١١٧٣) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٥٨) ، والصحابي هو ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه .

تاركٌ للتزويجِ ، فقالَ : لستُ أحرِّمُهُ ولكنِّي فقيرٌ ، وأنا عيالٌ على الناسِ ، قالَ : أنا أزوِّجُكَ ابنتي ، فزوَّجَهُ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ابنتَهُ[1] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (فضَلَ عليَّ أحمدُ ابنُ حنبلٍ بثلاثٍ : بطلبِ الحلالِ لنفسِهِ ولغيرِهِ ، وأنا أطلبُهُ لنفسي فقطْ ، ولاتساعِهِ في النكاحِ ، وضيقي عنهُ ، ولأنَّهُ نصبَ إماماً للعامةِ)[2] .

ويُقالُ : إنَّ أحمدَ رحمَهُ اللهُ تزوَّجَ في اليومِ الثاني مِنْ وفاةِ أمِّ ولدِهِ عبدِ اللهِ ، وقالَ : (أكرهُ أنْ أبيتَ عزباً)[3] .

وأمَّا بشرٌ . . فإنَّهُ لمَّا قيلَ لهُ : إنَّ الناسَ يتكلَّمونَ فيكَ بتركِكَ النكاحَ ويقولونَ : هوَ تاركٌ للسنَّةِ ، فقالَ : قولُوا لهُمْ : هوَ مشغولٌ بالفرضِ عنِ السنَّةِ .

وعوتبَ مرَّةً أخرىٰ فقالَ : ما يمنعُني مِنَ التزويجِ إلا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ، فذُكِرَ ذلكَ لأحمدَ ، فقالَ : وأينَ مثلُ بشرٍ ؟! إنَّهُ قعدَ علىٰ مثلِ حدِّ السِّنانِ[4] .

ومعَ ذلكَ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ رُئيَ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقال : رُفعتْ منازلي في الجنَّةِ ، وأشرفَتْ بي علىٰ مقاماتِ الأنبياءِ ، ولمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) وتمامه : (وأنا أطلب الوحدة لنفسي) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .

أبلغْ منازلَ المتأهِّلينَ ، وفي روايةٍ : قالَ لي : ما كنتُ أحبُّ أنْ تلقاني عزباً ، قالَ : فقلنا لهُ : ما فعلَ أبو نصرٍ التمَّارُ ؟ فقالَ : رُفعَ فوقي بسبعينَ درجةً ، قلنا : بماذا ؟ فقدْ كنَّا نراكَ فوقَهُ ! قالَ : بصبرِهِ علىٰ بنيَّاتِهِ والعيالِ[1] .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (كثرةُ النساءِ ليستْ مِنَ الدنيا ؛ لأنَّ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ كانَ أزهدَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانَ لهُ أربعُ نسوةٍ وسبعَ عشرةَ سُرِّيَّةً ، فالنكاحُ سنَّةٌ ماضيةٌ ، وخُلُقٌ مِنْ أخلاقِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ)[2] .

وقالَ رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمَهُ اللهُ : طوبىٰ لكَ ، فقدْ تفرغتَ للعبادةِ بالعزوبةِ ، فقالَ : لروعةٌ منكَ بسببِ العيالِ أفضلُ مِنْ جميعِ ما أنا فيهِ ، قالَ : فما الذي يمنعُكَ مِنَ النكاحِ ؟ قالَ : ما لي حاجةٌ في امرأةٍ ، وما أريدُ أنْ أغرَّ امرأةً بنفسي[3] .

وقدْ قيلَ : (فضلُ المتأهِّلِ على العزبِ كفضْلِ المجاهدِ على القاعدِ ، وركعةٌ مِنْ متأهِّلٍ أفضلُ مِنْ سبعينَ ركعةً مِنْ عزبٍ)[4] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤٣) .

الترغيب عن النكاح [1]

وأمّا ما جاءَ في الترغيبِ عنِ النكاحِ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الناسِ بعدَ المئتينِ الخفيفُ الحاذِ الذي لا أهلَ لهُ ولا ولدَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يأتي على الناسِ زمانٌ يكونُ هلاكُ الرجلِ علىٰ يدِ زوجتِهِ وأبويهِ وولدِهِ ، يعيِّرونَهُ بالفقرِ ، ويكلِّفونَهُ ما لا يطيقُ ، فيدخلُ المداخلَ التي يذهبُ فيها دينُهُ ، فيهلِكُ »[3] .

وفي الخبرِ : (قلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارينِ ، وكثرتُهُمْ أحدُ الفقرينِ)[4] .

وسُئِلَ أبو سليمانَ الدارانيُّ عنِ النكاحِ فقالَ : (الصبرُ عنهُنَّ خيرٌ مِنَ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٦٧) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (١/ ١٥٠) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٢٩١) .

(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (ص١٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٦٩٧) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣٨) ، لم يجعله حديثاً ، وكذا المصنف هنا ، قال : (وقال بعض السلف) ثم حكاه ، وهو منقول عن سعيد بن المسيب ، رواه عنه ابن سعد في « الطبقات » (٧/ ١٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (١٠٣) بالجملة الأولىٰ منه ، والثانية مستفادة منها ، وقد روي مرفوعاً كذلك ، رواه الشهاب في « مسنده » (٣٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٢١) .

الصبرِ عليهِنَّ ، والصبرُ عليهِنَّ خيرٌ مِنَ الصبرِ على النارِ)[١] .

وقالَ أيضاً : (الوحيدُ يجدُ مِنْ حلاوةِ العملِ وفراغِ القلبِ ما لا يجدُ المتأهِّلُ)[٢] .

وقالَ مرَّةً : (ما رأيتُ أحداً مِنْ أصحابنا تزوَّجَ فثبتَ علىٰ مرتبتِهِ الأولىٰ)[٣] .

وقالَ أيضاً : (ثلاثٌ مَنْ طلبَهُنَّ فقدْ ركنَ إلى الدنيا : مَنْ طلبَ معاشاً ، أوْ تزوَّجَ امرأةً ، أوْ كتبَ الحديثَ)[٤] .

وقالَ الحسنُ : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . لمْ يشغلْهُ بأهلٍ ولا مالٍ)[٥] ، وقالَ ابنُ أبي الحَواري : (تناظرَ جماعةٌ في هٰذا الحديثِ[٦] ، فاستقرَّ رأيُهُمْ علىٰ أنَّهُ ليسَ معناهُ ألاَّ يكونا لهُ ، بلْ أنْ يكونا لهُ ولا يشغلانِهِ)[٧] ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٠) ، وحكاه عن أبي محمد سهل بن عبد الله التستري .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٧) ، وأوله : (من صبر على الشدة . . فالتزويج له أفضل) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٤٧) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤٧) ، **والمراد بكتب الحديث** : طلب الأسانيد العالية ، أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طريق الآخرة .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٤٩) .
(٦) أي : في حديث الحسن هٰذا ، وعبارة « القوت » (٢/ ٢٤٩) : (فناظرنا جماعة من العلماء . . .) .
(٧) قوت القلوب (٢/ ٢٤٩) .

وهوَ إشارةٌ إلىٰ قولِ أبي سليمانَ الدارانيِّ : (ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ)[1] .

وبالجملةِ : لمْ يُنقلْ عنْ أحدٍ الترغيبُ عنِ النكاحِ مطلقاً إلاَّ مقروناً بشرطٍ ، وأمَّا الترغيبُ في النكاحِ . . فقدْ وردَ مطلقاً ومقروناً بشرط[2] ، فلنكشفِ الغطاءَ عنهُ بحصرِ آفاتِ النكاحِ وفوائدِهِ .

* * *

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٣٦٢) .

(٢) فعبارة المصنف هنا تومىء إلىٰ تفضيل النكاح على العزوبة ؛ إذ العزوبة لا ترجح إلا بشرط .

آفات النِّكاح وفوائده

فوائد النِّكاح(١)

وفيهِ خمسُ فوائدَ : الولدُ ، وكسرُ الشهوةِ ، وتدبيرُ المنزلِ ، وكثرةُ العشيرةِ ، ومجاهدةُ النفسِ بالقيامِ بهنَّ .

الفائدةُ الأولىٰ : الولدُ :

وهوَ الأصلُ ، ولهُ وُضِعَ النكاحُ ، والمقصودُ بقاءُ النسلِ ، وألا يخلوَ العالمُ عنْ جنسِ الإنسِ ، وإنَّما الشهوةُ خُلقَتْ باعثةً مستحِثَّةً ، كالموكَّلِ بالفحلِ في إخراجِ البَذْرِ ، وبالأنثىٰ في التمكينِ مِنَ الحرثِ ؛ تلطفاً بهما في السياقةِ إلى اقتناصِ الولدِ بسببِ الوقاعِ ؛ كالتلطُّفِ بالطيرِ في بثِّ الحبِّ الذي يشتهيهِ ليساقَ إلى الشبكةِ .

وكانتِ القدرةُ الأزليَّةُ غيرَ قاصرةٍ عنِ اختراعِ الأشخاصِ ابتداءً مِنْ غيرِ حراثةٍ وازدواجٍ ، ولكنَّ الحكمةَ اقتضتْ ترتيبَ المسبَّباتِ على الأسبابِ معَ الاستغناءِ عنها ؛ إظهاراً للقدرةِ ، وإتماماً لعجائبِ الصنعةِ ، وتحقيقاً لما سبقتْ بهِ المشيئةُ وحقَّتْ بهِ الكلمةُ وجرىٰ بهِ القلمُ .

* * *

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

وفي التوصُّلِ إلى الولدِ قربةٌ مِنْ أربعةِ أوجهٍ هيَ الأصلُ في الترغيبِ فيهِ عندَ الأمْنِ مِنْ غوائلِ الشهوةِ ، حتَّىٰ لمْ يحبَّ أحدُهُمْ أنْ يلقى اللهَ تعالىٰ عزباً :

الأوَّلُ : موافقةُ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ بالسعيِ في تحصيلِ الولدِ لبقاءِ جنسِ الإنسانِ .

والثاني : طلبُ محبَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في تكثيرِ مَنْ بهِ مباهاتُهُ .

والثالثُ : طلبُ التبرُّكِ بدعاءِ الولدِ الصالحِ بعدَهُ .

والرابعُ : طلبُ الشفاعةِ بموتِ الولدِ الصغيرِ إذا ماتَ قبلَهُ .

* * *

أمَّا الوجهُ الأوَّلُ : فهوَ أدقُّ الوجوهِ ، وأبعدُها عنْ أفهامِ الجماهيرِ ، وهوَ أحقُّها وأقواها عندَ ذوي البصائرِ النافذةِ في عجائبِ صنْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومجاري حِكَمِهِ .

وبيانُهُ : أنَّ السيدَ إذا سلَّمَ إلىٰ عبدِهِ البَذْرَ وآلاتِ الحرْثِ وهيَّأَ لهُ أرضاً مهيَّأةً للحراثةِ ، وكانَ العبدُ قادراً على الحراثةِ ، ووكلَ بهِ مَنْ يتقاضاهُ عليها ؛ فإنْ تكاسلَ وعطَّلَ آلةَ الحرثِ ، وتركَ البذْرَ ضائعاً حتَّىٰ فسدَ ، ودفعَ الموكَّلَ عنْ نفسِهِ بنوعٍ مِنَ الحيلةِ . . كانَ مستحقّاً للمقتِ والعتابِ مِنْ سيِّدِهِ .

واللهُ تعالىٰ خلقَ الزوجينِ ، وخلقَ الذكرَ والأُنْثَيينِ ، وخلقَ النطفةَ في الفقارِ ، وهيَّأَ لها في الأُنْثَيينِ عروقاً ومجاريَ ، وخلقَ الرحمَ قَراراً ومستودعاً للنطفةِ ، وسلَّطَ متقاضيَ الشهوةِ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ الذكرِ والأنثىٰ ، فهـٰذهِ الأفعالُ والآلاتُ تشهدُ بلسانٍ ذَلْقٍ في الإعرابِ عنْ مرادِ خالقِها ، وتنادي أربابَ الألبابِ بتعريفِ ما أُعدَّتْ لهُ ، هـٰذا لوْ لمْ يصرِّحْ به الخالقُ تعالىٰ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمرادِ حيثُ قالَ : « تناكحوا تكثروا »[(١)] ، فكيفَ وقدْ صرَّحَ بالأمرِ وباحَ بالسرِّ ؟!

فكلُّ ممتنعٍ عنِ النكاحِ مُعْرِضٌ عنِ الحراثةِ مضيِّعٌ للبَذْرِ ، ومعطِّلٌ لما خلقَ اللهُ لهُ مِنَ الآلةِ المعدَّةِ ، وجانٍ علىٰ مقصودِ الفطرةِ والحكمةِ المفهومةِ مِنْ شواهدِ الخلقةِ المكتوبةِ علىٰ هـٰذهِ الأعضاءِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ ليسَ برقْمِ حروفٍ وأصواتٍ ، يقرؤُهُ كلُّ مَنْ لهُ بصيرةٌ ربَّانيةٌ نافذةٌ في إدراكِ دقائقِ الحكمةِ الأزليةِ .

ولذلكَ عظَّمَ الشرعُ الأمرَ في القتلِ للأولادِ ، وفي الوأْدِ ؛ لأنَّهُ منعٌ لتمامِ الوجودِ ، وإليهِ أشارَ مَنْ قالَ : (العزْلُ أحدُ الوأدينِ)[(٢)] ، فالناكحُ ساعٍ في

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « تفسيره » من حديث ابن عمر بسند ضعيف) ، وروىٰ أبو داوود (٢٠٥٠) مرفوعاً : « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم » .

(٢) روىٰ مسلم (١٤٤٢) مرفوعاً وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال : « ذلك الوأد الخفي » .

إتمامِ ما أحبَّ اللهُ تعالىٰ تمامَهُ ، والمعرضُ معطِّلٌ ومضيِّعٌ لما كرهَ اللهُ ضياعَهُ ، ولأجلِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ لبقاءِ النفوسِ أمرَ بالإطعامِ وحثَّ عليهِ ، وعبَّرَ عنهُ بعبارةِ القرضِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ .

* * *

فإنْ قلتَ : قولُكَ : (إنَّ بقاءَ النفسِ والنسلِ محبوبٌ) يوهمُ أنَّ فناءَها مكروهٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ فرقٌ بينَ الموتِ والحياةِ بالإضافةِ إلىٰ إرادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومعلومٌ أنَّ الكلَّ بمشيئةِ اللهِ سبحانَهُ ، وأنَّ اللهَ غنيٌّ عنِ العالمينَ ، فمِنْ أينَ يتميَّزُ عندَهُ موتُهُمْ عنْ حياتِهِمْ ، وبقاؤُهُمْ عنْ فنائِهِمْ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الكلمةَ حقٌّ أُريدَ بها باطلٌ(١) ؛ فإنَّ ما ذكرناهُ لا ينافي إضافةَ الكائناتِ كلِّها إلىٰ إرادةِ اللهِ سبحانه خيرِها وشرِّها ، نفعِها وضرِّها ، ولكنَّ المحبةَ والكراهةَ يتضادَّانِ ، وكلاهما لا يضادَّانِ الإرادةَ ، فربَّ مرادٍ مكروهٌ ، وربَّ مرادٍ محبوبٌ ، فالمعاصي مكروهةٌ وهيَ معَ الكراهةِ مرادةٌ ، والطاعاتُ مرادةٌ وهيَ معَ كونِها مرادةً محبوبةٌ ومرضيةٌ ، أمَّا الكفرُ والشرُّ . . فلا نقولُ : إنَّهُ مرضيٌّ ومحبوبٌ ، بلْ هوَ مرادٌ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ .

---

(١) وأول من فاه بهـٰذه الكلمة سيدنا علي رضي الله عنه ، روىٰ مسلم (١٠٦٦) : أن الحرورية لما خرجت . . قالوا : لا حُكْمَ إلا لله ، قال علي : (كلمة حقٍّ أريد بها باطل) الحديث .

وكيفَ يكونُ الفناءُ بالإضافةِ إلىٰ محبّةِ اللهِ وكراهتِهِ كالبقاءِ ؟! فإنَّهُ تعالىٰ يقولُ : « ما تردَّدْتُ في شيءٍ كترَدُّدِي في قبضِ روحِ عبدي المسلمِ ، هوَ يكرهُ الموتَ ، وأنا أكرهُ مساءتَهُ ، ولا بدَّ لهُ مِنَ الموتِ »(١) ، فقولُهُ : « لا بُدَّ لهُ مِنَ الموتِ » إشارةٌ إلىٰ سبْقِ الإرادةِ والتقديرِ المذكورِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ ، وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ ، ولا مناقضةَ بينَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ وبينَ قولِهِ : « وأنا أكرَهُ مساءتَهُ » ، ولكنْ إيضاحُ الحقِّ في هـٰذا يستدعي تحقيقَ معنى الإرادة والمحبّةِ والكراهةِ وبيانَ حقائقِها ، فإنَّ السابقَ إلى الأفهامِ منها أمورٌ تناسبُ إرادةَ الخلقِ ومحبَّتَهُمْ وكراهتَهُمْ ، وهيهاتَ ! فبينَ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِ الخلقِ مِنَ البعدِ ما بينَ ذاتِهِ العزيزِ وذَوَاتِهِمْ ، وكما أنَّ ذواتِ الخلقِ جوهرٌ وعرضٌ وذاتُ اللهِ مقدَّسٌ عنهُ ، ولا يناسبُ ما ليسَ بجوهرٍ وعرضٍ الجوهرَ والعرضَ . فكذا صفاتُهُ لا تناسبُ صفاتِ الخلقِ .

وهـٰذهِ الحقائقُ داخلةٌ في علمِ المكاشفةِ ، ووراءَهُ سرُّ القدرِ الذي منعَ مِنْ إفشائِهِ ، فلنقبضْ عنْ ذكرِهِ ، ولنقتصرْ علىٰ ما نبهْنا عليهِ مِنَ الفرقِ بينَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند أحمد في « المسند » (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقوله : « ولا بد له من الموت » هـٰذه الزيادة ليست عندهما ، وقد رواها ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣١٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥١٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

الإقدامِ على النكاحِ والإحجامِ عنهُ ، فإنَّ أحدَهُما مضيعٌ نسلاً أدامَ اللهُ وجودَهُ مِنْ آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عقباً بعدَ عقبٍ إلىٰ أنِ انتهىٰ إليهِ ، فالممتنعُ عنِ النكاحِ قدْ حسمَ الوجودَ المستدامَ مِنْ لدنْ وجودِ آدمَ عليهِ السلامُ علىٰ نفسِهِ ، فماتَ أبترَ لا عقبَ لهُ .

ولوْ كانَ الباعثُ على النكاحِ مجرَّدَ دفعِ الشهوةِ . . لما قالَ معاذٌ في الطاعون : (زوِّجوني ، لا ألقى اللهَ عزباً)(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فما كانَ معاذٌ يتوقَّعُ ولداً في ذلكَ الوقتِ ، فما وجهُ رغبتِهِ فيهِ ؟

فأقولُ : الولدُ يحصلُ بالوقاعِ ، ويحصلُ الوقاعُ بباعثِ الشهوةِ ، وذلكَ أمرٌ لا يدخلُ في الاختيارِ ، إنَّما المتعلِّقُ باختيارِ العبدِ إحضارُ المحرِّكِ للشهوةِ ، وذلكَ متوقَّعٌ في كلِّ حالٍ ، فمَنْ عقدَ . . فقدْ أدَّىٰ ما عليهِ ، وفعلَ ما إليهِ ، والباقي خارجٌ عنِ اختيارِهِ .

ولذلكَ يُستحبُّ النكاحُ للعنينِ أيضاً ؛ فإنَّ نهضاتِ الشهوةِ خفيَّةٌ لا يُطَّلَعُ عليها حتَّىٰ إنَّ الممسوحَ الذي لا يُتوقَّعُ لهُ ولدٌ لا ينقطعُ الاستحبابُ أيضاً في حقِّهِ على الوجهِ الذي يُستحبُّ للأصلعِ إمرارُ الموسىٰ علىٰ رأسِهِ اقتداءً

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦١٥٧) ، وهو في « القوت » (٢/ ٢٤١) .

بغيرِهِ ، وتشبُّهاً بالسلفِ الصالحينَ ، وكما يُستحبُّ الرملُ والاضطباعُ في الحجِّ الآنَ ، وقدْ كانَ المرادُ منهُ أوَّلاً إظهارَ الجَلَدِ للكفارِ ، فصارَ الاقتداءُ والتشبُّهُ بالذينَ أظهروا الجَلَدَ سنَّةً في حقِّ مَنْ بعدَهُمْ .

ويضعفُ هٰذا الاستحبابُ بالإضافةِ إلى الاستحبابِ في حقِّ القادرِ على الحرْثِ ، وربما يزدادُ ضعفاً بما يقابلُهُ مِنْ كراهةِ تعطيلِ المرأةِ وتضييعِها فيما يرجعُ إلىٰ قضاءِ الوطرِ ، فإنَّ ذلكَ لا يخلو عنْ نوعٍ مِنَ الخطرِ ، فهٰذا المعنىٰ هوَ الذي ينبِّهُ علىٰ شدَّةِ إنكارِهِمْ لتركِ النكاحِ معَ فتورِ الشهوةِ .

* * *

الوجهُ الثاني : السعيُ في محبَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ورضاهُ : بتكثيرِ ما بِهِ مباهاتُهُ ، إذْ قدْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ .

ويدلُّ علىٰ مراعاةِ أمرِ الولدِ جملةً بالوجوهِ كلِّها ما رُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ ينكحُ كثيراً ويقولُ : (إنَّما أنكحُ للولدِ)[1] .

وما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ في مذمَّةِ المرأةِ العقيمِ ؛ إذْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لحصيرٌ في ناحيةِ البيتِ خيرٌ مِنِ امرأةٍ لا تلدُ »[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العمر والشيب » (٨٥) بلفظ : (لولا الولد . . لم أتزوج) ، وسيأتي تمامه في الحديث بعده .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٢) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « العمر والشيب » (٨٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً عليه قال : (حصير في بيت خير من امرأة =

وقالَ : « خيرُ نسائِكُمُ الولودُ الودودُ »[1] ، وقال : « سوداءُ ولودٌ خيرٌ مِنْ حسناءَ لا تلدُ »[2] .

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ طلبَ الولدِ أدخلُ في اقتضاءِ فضْلِ النكاحِ مِنْ طلبِ دفعِ غائلةِ الشهوةِ ؛ لأنَّ الحسناءَ أصلحُ للتحصينِ وغضِّ البصرِ وقطعِ الشهوةِ .

* * *

الوجهُ الثالثُ : أنْ يبقىٰ بعدَهُ ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ : كما وردَ في الخبرِ : أنَّ جميعَ عملِ ابنِ آدمَ ينقطعُ إلا ثلاثةً ، فذكرَ الولدَ الصالحَ[3] ، وفي الخبرِ : (إنَّ الأدعيةَ تُعرضُ على الموتىٰ علىٰ أطباقٍ مِنْ نورٍ)[4] .

= لا تلد) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/ ٣٧٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٨٢) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٦١) ، وتمام في « فوائده » (٧٤٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ٥٠) ، **والمراد بلفظ** : « **سوداء** » : قبيحة الوجه ، لا مطلق اللون .

(٣) رواه مسلم (١٦٣١) .

(٤) إشارة من المصنف إلىٰ وصول دعاء كل حي للميت ولو لم يكن ولداً له ، وهٰذا الخبر رؤيا رآها بشار بن غالب ؛ إذ رأىٰ رابعة العدوية في منامه وكان كثير الدعاء لها ، فقالت له : يا بشار ؛ هداياك تأتينا علىٰ أطباق من نور مخمرة بمناديل من حرير . رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٠) ، ولم يصرح المصنف برفعه ، وقد ذكره مرفوعاً ابن حبان في « المجروحين » (١/ ١١٣) .

وقولُ القائلِ : (إنَّ الولدَ ربما لمْ يكنْ صالحاً) لا يؤثِّرُ ؛ فإنَّهُ مؤمنٌ ، والصلاحُ هوَ الغالبُ علىٰ أولادِ ذوي الدينِ ، لا سيما إذا عزمَ علىٰ تربيتِهِ وحملِهِ على الصلاحِ .

وبالجملةِ : دعاءُ المؤمنِ لأبويهِ مفيدٌ برّاً كانَ أوْ فاجراً ، فهوَ مثابٌ علىٰ دعواتِهِ وحسناتِهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ كسبِهِ ، وغيرُ مؤاخذٍ بسيئاتِهِ ؛ فإنَّهُ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾[1] أيْ : ما نقصْناهُمْ مِنْ أعمالِهِمْ ، وجعلْنا أولادَهُمْ مزيداً في إحسانِهِمْ .

* * *

الوجهُ الرابعُ : أنْ يموتَ الولدُ قبلَهُ ، فيكونَ لهُ شفيعاً : فقدْ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الطفلَ يجرُّ بأبويهِ إلى الجنَّةِ »[2] .

---

(١) وهي قراءة نافع ، وابن عامر ، وأبي عمرو ، جمعوا كلمة (ذرية) . انظر « الحجة » (٦/٢٢٧) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٦٠٨) ولفظه : « إن السِّقْطَ ليراغم ربه إذا أدخل أبويه النار ، فيقال : أيها السقط المراغم ربه ؛ أدخل أبويك الجنة ، فيجرهما بسَرَرِه ـ ما بقي بعد قطع السرَّة ـ حتىٰ يدخلهما الجنة » ، وروى ابن ماجه (١٦٠٩) ، وأحمد في « المسند » (٥/٢٤١) : « والذي نفسي بيده ؛ إن السقط ليجرُّ أمه بسرره إلى الجنة إذا احتسبته » ، ومعناه في الحديث بعده كذلك .

وفي بعضِ الأخبارِ : « يأخذُ بثوبِهِ كما أنا الآنَ آخذُ بثوبِكَ »(١) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المولودَ يُقالُ لهُ : ادخلِ الجنةَ ، فيقفُ علىٰ بابِ الجنةِ ، فيظلُّ محبنطئاً ـ أيْ : ممتلئاً غيظاً وغضباً ـ ويقولُ : لا أدخلُ الجنَّةَ إلا وأبوايَ معي ، فيُقالُ : أدخلوا أبويهِ معَهُ الجنَّةَ »(٢) .

وفي خبرٍ آخرَ : (إنَّ الأطفالَ يجتمعونَ في موقفِ القيامةِ عندَ عرْضِ الخلائقِ للحسابِ ، فيقالُ للملائكةِ : اذهبوا بهؤلاءِ إلى الجنَّةِ ، فيقفونَ علىٰ بابِ الجنةِ ، فيُقالُ لهُمْ : مرحباً بذراري المسلمينَ ، ادخلوا لا حسابَ عليكم ، فيقولونَ : فأينَ آباؤُنا وأُمهاتُنا ، فيقولُ الخزنةُ : إنَّ آباءَكُمْ وأمهاتِكُمْ ليسوا مثلَكُمْ ، إنَّهُ كانتْ لهُمْ ذنوبٌ وسيِّئاتٌ ، فهُمْ يحاسبونَ عليها ويطالبونَ ، قالَ : فيتضاغونَ ويضجُّونَ علىٰ بابِ الجنةِ ضجّةً واحدةً ، فيقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ وهوَ أعلمُ بهم : ما هٰذهِ الضجَّةُ ؟ فيقولونَ :

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٥) من حديث أبي هريرة ، طيَّب بروايته قلب مسلم بن عبد الله البصري وقد مات له ابنان ، ولفظه : « صغاركم دعاميص الجنة ، يتلقىٰ أحدهم أباه ـ أو قال : أبويه ـ فيأخذ بثوبه ـ أو قال بيده ـ كما آخذ أنا بصَنِفَة ـ طرف ـ ثوبك هٰذا . . . » الحديث .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ١٦١) وقد تقدم طرفه ، والطبراني في « الكبير » (١٩/ ٤١٦) ، و« الأوسط » (٥٧٤٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣١١٩) .

يا ربَّنا ؛ أطفالُ المسلمينَ قالوا : لا ندخلُ الجنَّةَ إلا معَ آبائِنا ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : تخلَّلوا الجمعَ ، فخذوا بأيدي آبائِهِمْ فأدخلوهُمُ الجنَّةَ)[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ لهُ اثنانِ مِنَ الولدِ . . فقدِ احتظرَ بحظارٍ مِنَ النارِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ لهُ ثلاثةٌ لمْ يبلغوا الحنثَ . . أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ بفضْلِ رحمتِهِ إيَّاهُمْ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ واثنانِ ؟ قَالَ : « واثنان »[3] .

وحُكِيَ أنَّ بعضَ الصالحينَ كانَ يُعرَضُ عليهِ التزويجُ فيأبىٰ برهةً مِنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٢) حيث قال : (وروينا خبراً غريباً) وحكاه ، ومعناه فيما اكتنفه من أخبار وآثار ، وروى النسائي (٤/ ٢٥) مرفوعاً : « ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث . . إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة ، قال : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، فيقولون : حتىٰ يدخل آباؤنا ، فيقال : ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٢) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٥/ ٢٧٣) عن زهير بن علقمة قال : جاءت امرأة من الأنصار إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابن لها مات ، فكأن القوم عنفوها ، فقالت : يا رسول الله ؛ قد مات لي اثنان مذ دخلت الإسلام سوىٰ هـٰذا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والله لقد احتظرت من النار احتظاراً شديداً » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٢) ، ورواه البخاري (١٣٨١) ولفظه : « ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث . . إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » ، وروى البخاري (١٢٥٠) ، ومسلم (٢٦٣٤) مرفوعاً : « أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد . . كانوا حجاباً من النار » ، قالت امرأة : واثنان ؟ قال : « واثنان » .

دهرِه ، قالَ : فانتبهَ مِنْ نومِهِ ذاتَ يومٍ وقالَ : زوِّجوني زوِّجوني ، فزوَّجوهُ ، فسُئلَ عنْ ذلكَ ، فقالَ : لعلَّ اللهَ تعالىٰ يرزقُني ولداً ويقبضُهُ فيكونَ لي مقدمةً في الآخرةِ ، ثمَّ قالَ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ القيامةَ قدْ قامَتْ ، وكأنِّي في جملةِ الخلائقِ في الموقفِ وبي مِنَ العطشِ ما كادَ أنْ يقطعَ عنقي ، وكذا الخلائقُ في شدَّةِ العطشِ والكربِ ، فنحنُ كذلكَ إذا وِلدانٌ يتخلَّلونَ الجمعَ ، عليهِمْ مناديلُ مِنْ نورٍ ، وبأيديهِمْ أباريقُ مِنْ فضَّةٍ ، وأكوابٌ مِنْ ذهبٍ ، وهمْ يَسقونَ الواحدَ بعدَ الواحدِ ، يتخلَّلونَ الجمعَ ، ويجاوزونَ أكثرَ الناسِ ، فمددتُ يدي إلىٰ أحدِهِمْ وقلتُ : اسقني ؛ فقدْ أجهدَني العطشُ ، فقالَ : ليسَ لكَ فينا ولَدٌ ، إنَّما نسقي آباءَنا ، فقلتُ : ومَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : نحنُ مَنْ ماتَ منْ أطفالِ المسلمينَ[(١)] .

وأحدُ المعاني المذكورةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ تقديمُ الأطفالِ إلى الآخرةِ[(٢)] .

فقدْ ظهرَ بهـٰذهِ الوجوهِ الأربعةِ أنَّ أكثرَ فضْلِ النكاحِ لأجلِ كونهِ سبباً للولدِ .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٢) عن بعض الصالحين ، وهو في « تسلية أهل المصائب » من رواية القفال عن جار له .
(٢) وهو وجه من وجوه ثلاثة حكاها صاحب « القوت » (٢/ ٢٤٣) ، والوجهان الآخران : النكاح ، والتسمية عند قضاء الوطر .

الفائدةُ الثانيةُ : التحصُّنُ عنِ الشيطانِ ، وكسرُ التوقانِ ، ودفعُ غوائلِ الشهوةِ ، وغضُّ البصرِ ، وحفظُ الفرجِ :

وإليهِ الإشارةُ بقولِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ نكحَ . . فقدْ حصَّنَ نصفَ دينِهِ ، فليتقِ اللهَ في الشطرِ الآخرِ »(١) .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ : « عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّ الصومَ لهُ وجاءٌ »(٢) .

وأكثرُ ما نقلناهُ مِنَ الآثارِ والأخبارِ إشارةٌ إلىٰ هـٰذا المعنىٰ ، وهـٰذا المعنىٰ دونَ الأوَّلِ ؛ لأنَّ الشهوةَ موكلةٌ بتقاضي تحصيلِ الولدِ ، فالنكاحُ كافٍ لشغلِهِ ، ودافعٌ لجعلِهِ ، وصارفٌ لشرِّ سطوتِهِ ، وليسَ مَنْ يجيبُ مولاهُ رغبةً في تحصيلِ رضاهُ كمَنْ يجيبُ لطلبِ الخلاصِ عنْ غائلةِ التوكيلِ ، فالشهوةُ والولدُ مقدرانِ ، وبينَهُما ارتباطٌ ، وليسَ يجوزُ أنْ يقالَ : المقصودُ اللذَّةُ والولدُ لازمٌ منها ؛ كما يلزمُ مثلاً قضاءُ الحاجةِ مِنَ الأكلِ وليسَ مقصوداً في ذاتِهِ ، بلِ الولدُ هوَ المقصودُ بالفطرةِ والحكمةِ ، والشهوةُ باعثةٌ عليهِ .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥١٠٠) ، وهو عند الطبراني في « الأوسط » (٩٧٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٦١) واللفظ له : « من رزقه الله امرأة صالحة . . فقد أعانه علىٰ شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الثاني » .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

ولَعمري ؛ في الشهوةِ حكمةٌ أخرىٰ سوى الإرهاقِ إلى الإيلادِ ، وهوَ ما في قضائِها مِنَ اللذةِ التي لا توازيها لذةٌ لوْ دامَتْ ، فهيَ منبِّهَةٌ على اللذاتِ الموعودةِ في الجنانِ ؛ إذِ الترغيبُ في لذةٍ لمْ يجدْ لها ذَواقاً . . لا ينفعُ ، فلوْ رُغِّبَ العنينُ في لذةِ الجماعِ ، أوْ الصبيُّ في لذَّةِ الملكِ والسلطنةِ . . لمْ ينفعِ الترغيبُ ، فإحدىٰ فوائدِ لذَّاتِ الدنيا الرغبةُ في دوامِها في الجنَّةِ ؛ ليكونَ باعثاً علىٰ عبادةِ اللهِ .

فانظرْ إلى الحكمةِ ، ثمَّ إلى الرحمةِ ، ثمَّ إلى التعبئةِ الإلهيةِ ، كيفَ عُبِّئَتْ تحتَ شهوةٍ واحدةٍ حياتانِ ؛ حياةٌ ظاهرةٌ ، وحياةٌ باطنةٌ :

فالحياةُ الظاهرةُ : حياةُ المرءِ ببقاءِ نسلِهِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ مِنْ دوامِ الوجودِ .

والحياةُ الباطنةُ : هيَ الحياةُ الأخرويَّةُ ؛ فإنَّ هـٰذهِ اللذَّةَ الناقصةَ بسرعةِ الانصرامِ تحرِّكُ الرغبةَ في اللذَّةِ الكاملةِ بلذَّةِ الدوامِ ، فيُستحثُّ على العبادةِ الموصلةِ إليها ، فيستفيدُ العبدُ بشدَّةِ الرغبةِ فيها تيسُّرَ المواظبةِ علىٰ ما يوصلُهُ إلىٰ نعيمِ الجِنانِ .

وما مِنْ ذرَّةٍ مِنْ ذرَّاتِ بدنِ الإنسانِ ظاهراً وباطناً بلْ مِنْ ذرَّاتِ ملكوتِ السماواتِ والأرضينَ إلا وتحتَها مِنْ لطائفِ الحِكَمِ وعجائبِها ما تحارُ العقولُ فيها ، ولكنْ إنَّما ينكشفُ للقلوبِ الطاهرةِ بقدْرِ صفائِها وبقدْرِ رغبتِها عنْ زهرةِ الدنيا وغرورِها وإغوائِها .

والنكاحُ بسببِ دفعِ غائلةِ الشهوةِ مهمٌّ في الدينِ لكلِّ مَنْ لا يُؤتىٰ عنْ عجزٍ

وعُنَّةٍ ، وهمْ غالبُ الخلقِ ؛ فإنَّ الشهوةَ إنْ غلبَتْ ولمْ تقاومْها قوَّةُ التقوىٰ . . جرَّتْ إلى اقتحامِ الفواحشِ ، وإليهِ أشارَ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، عنِ اللهِ تعالىٰ : « إلا تفعلوهُ . . تكنْ فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ »(١) .

وإنْ كانَ ملجماً بلجامِ التقوىٰ . . فغايتُهُ أنْ يكفَّ الجوارحَ عنْ إجابةِ الشهوةِ ، فيغضَّ البصرَ ، ويحفظَ الفرجَ ، فأمَّا حفظُ القلبِ عنِ الوسواسِ والفكرِ . . فلا يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ، بلْ لا تزالُ النفسُ تجاذبُهُ وتحدِّثُهُ بأمورِ الوقاعِ ، ولا يفترُ عنهُ الشيطانُ الموسوِسُ إليهِ في أكثرِ الأوقاتِ ، وقدْ يعرضُ لهُ ذلكَ في أثناءِ الصلاةِ ، حتَّىٰ يجري علىٰ خاطرِهِ مِنْ أُمورِ الوقاعِ ما لوْ صرَّحَ بهِ بينَ يدي أخسِّ الخلقِ . . لاستحيا منهُ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ قلبِهِ ، والقلبُ في حقِّ اللهِ كاللسانِ في حقِّ الخلقِ ، ورأسُ الأمرِ للمريدِ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ قلبُهُ .

والمواظبةُ على الصومِ لا تقطعُ مادةَ الوسوسةِ في حقِّ أكثرِ الخلقِ ، إلا أنْ ينضافَ إليهِ ضعفٌ في البدنِ وفسادٌ في المزاجِ ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لا يتمُّ نسكُ الناسكِ إلا بالنكاحِ)(٢) .

وهٰذهِ محنةٌ عامَّةٌ ، قلَّ مَنْ يتخلَّصُ منها .

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) ، وابن ماجه (١٩٦٧) ، وفيهما : « وفساد عريض » .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٠) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦) عن طاووس .

قالَ قتادةُ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ هوَ الغلمةُ[1] .

وعنْ عكرمةَ ومجاهدٍ أنَّهُما قالا في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ : إنَّهُ لا يصبرُ عنِ النساءِ[2] .

وقالَ فياضُ بنُ نجيحٍ : (إذا قامَ ذكرُ الرجلِ .. ذهبَ ثلثا عقلِهِ) ، وبعضُهُمْ يقولُ : (ذهبَ ثلثُ دينِهِ)[3] .

وفي نوادرِ التفسيرِ عنِ ابنِ عباسٍ ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قالَ : (قيامُ الذَّكَرِ)[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٠) ، وقد رواه ابن جرير في « تفسيره » (٣/ ٣/ ٢٠٥) عن سالم بن شابور ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣١٠٥) عن مكحول .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢) عن طاووس .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٠) ، وقد رواه ابن المقرىء في « معجمه » (٨٠٥) بالجملة الأولىٰ ، وفيه (تمام بن نجيح) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤٠) ، قال السمعاني في « تفسيره » (٦/ ٣٠٦) : (وذكر النقاش بإسناده عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : من شر الذكر إذا دخل ، قال النقاش : فذكرت ذلك لمحمد بن إسحاق بن خزيمة وقلت : هل يجوز أن تفسر القرآن بهٰذا ؟! قال : نعم ، قال النبي : « أعوذ بك من شر مني » ، وهو خبر معروف ، وهو أن النبي قال : « أعوذ بك من شري سمعي ، ومن شر بصري » فعدَّد أشياء ، وقال في آخرها : « ومن شر مني ») ، وهو ما سيحكيه المصنف رحمه الله تعالىٰ .

وهـٰذهِ بليَّةٌ غالبةٌ ، إذا هاجتْ . . لا يقاومُها عقلٌ ولا دينٌ ، وهيَ معَ أنَّها صالحةٌ لأنْ تكونَ باعثةً على الحياتينِ كما سبقَ ، فهيَ أقوىٰ آلةِ الشيطانِ علىٰ بني آدمَ ، وإليهِ أشارَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقولِهِ : « ما رأيتُ مِنْ ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أغلبَ لذوي الألبابِ منكنَّ »[١] ، وإنَّما ذلكَ لهيجانِ الشهوةِ[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري وقلبي وشرِّ منيِّي »[٣] ، وقالَ : « أسألُكَ أنْ تطهِّرَ قلبي ، وتحفظَ فرجي »[٤] ، فما يستعيذُ منهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كيفَ يجوزُ التساهلُ فيهِ لغيرِهِ ؟![٥] .

وكانَ بعضُ الصالحينَ يكثرُ النكاحَ ، حتَّىٰ كانَ لا يكادُ يخلو مِنِ اثنتينِ وثلاثٍ ، فأنكرَ عليهِ بعضُ الصوفيةِ ، فقالَ : هلْ يعرفُ أحدٌ منكُمْ أنَّهُ جلسَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ جلسةً ، أوْ وقفَ بينَ يديهِ موقفاً في معاملةٍ ، فخطرَ علىٰ قلبِهِ خاطرُ شهوةٍ ؟ فقالوا : يصيبُنا مِنْ ذلكَ كثيرٌ ، فقالَ : لوْ رضيتُ في

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤) ، ومسلم (٢٦١٣) .
(٢) أي : فيهن . « إتحاف » (٥/ ٣٠٣) .
(٣) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) ، والنسائي (٨/ ٢٥٥) .
(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٢١٤) ، والبيهقي في « الدعوات الكبير » (٢٥٦ ، ٢٥٧) .
(٥) أي : وإن كانت استعاذته منه استعاذة تعليم وتربية ؛ إذ هو صلى الله عليه وسلم منزه من تسلُّط الشهوة الغالبة عليه ، ولكن استعاذته دالة علىٰ خطر المستعاذ منه .

عمري كلِّه بمثلِ حالِكُم في وقتٍ واحدٍ . . لما تزوَّجْتُ ، لكنِّي ما خطرَ علىٰ قلبي خاطرٌ يشغلُني عنْ حالي إلا نفذتُهُ ؛ لأستريحَ منهُ ، وأرجعَ إلىٰ شغلي ، ومنذُ أربعينَ سنةً ما خطرَ علىٰ قلبي معصيةٌ(١) .

وأنكرَ بعضُ الناسِ حالَ الصوفيةِ ، فقالَ لهُ بعضُ ذوي الدينِ : ما الذي تنكرُ منهُمْ ؟ قالَ : يأكلونَ كثيراً ، قالَ : وأنتَ أيضاً لوْ جعتَ كما يجوعونَ . . لأكلتَ كما يأكلونَ ، قالَ : ينكحونَ كثيراً ، قالَ : وأنتَ أيضاً لوْ حفظتَ عينيكَ وفرجَكَ كما يحفظونَ . . لنكحتَ كما ينكحونَ(٢) .

وكانَ الجنيدُ يقولُ : (أحتاجُ إلى الجماعِ كما أحتاجُ إلى القوتِ)(٣) .

فالزوجةُ على التحقيقِ قوتٌ وسببٌ لطهارةِ القلبِ ، ولذلكَ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلَّ مَنْ وقعَ بصرُهُ على امرأةٍ فتاقتْ إليها نفسُهُ أنْ يجامعَ أهلَهُ ؛ لأنَّ ذلكَ يدفعُ الوسواسَ عنِ النفسِ(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٠) ، حيث قال في أوله : (وحدثنا بعض علماء خراسان ، عن شيخ له من الصالحين ، كان يصحب عبدان صاحب ابن المبارك . . .) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٠) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .

(٤) هـٰذا الأمر مستفاد من الحديث الآتي ؛ حيث قال : « فليأت أهله » ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٤/ ٢٣١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٣٨) عن أبي كبشة الأنماري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في أصحابه ، فدخل ثم خرج وقد اغتسل ، فقلنا : يا رسول الله ؛ قد كان شيء ؟ قال : « أجل ، مرت بي فلانة ، فوقع في قلبي شهوة النساء ، فأتيت بعض أزواجي فأصبتها ، فكذلك فافعلوا ، فإنه من أماثل أعمالكم إتيان الحلال » .

وروىٰ جابرٌ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأى امرأةً ، فدخلَ علىٰ زينبَ فقضىٰ حاجتَهُ وخرجَ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المرأةَ إذا أقبلتْ . . أقبلتْ بصورةِ شيطانٍ ، فإذا رأىٰ أحدُكُمْ امرأةً فأعجبتْهُ . . فليأتِ أهلَهُ ؛ فإنَّ معَها مثلَ الذي معَها »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تدخلوا على المُغِيباتِ ـ أيِ : التي غابَ زوجُها عنها ـ فإنَّ الشيطانَ يجري مِنْ أحدِكُمْ مجرى الدمِ » قلنا : ومنكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ومِنِّي ، ولكنَّ اللهَ أعانَني عليهِ فأسلمُ »(٢) .

قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (فأسلمُ ؛ يعني : فأسلمُ أنا منهُ ، هـٰذا معناهُ ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يُسْلِمُ)(٣) .

---

(١) رواه مسلم (١٤٠٣) ، والترمذي (١١٥٨) واللفظ له ، ومعنىٰ : « **أقبلت بصورة شيطان** » : في صفته ، شبه المرأة الجميلة به في صفة الوسوسة والإضلال ، يعني أن رؤيتها تثير الشهوة وتقيم الهمة ، فنسبها للشيطان لكون الشهوة من جنده وأسبابه ، والعقل من جند الملائكة . « إتحاف » (٥/ ٣٠٤) .

(٢) رواه الترمذي (١١٧٢) ، وعند مسلم (٢١٧٣) مرفوعاً : « لا يدخلن رجل بعد يومي هـٰذا علىٰ مُغِيبة إلا ومعه رجل أو اثنان » .

(٣) الخبر مع تفسير سفيان له رواه أبو الحسين الطيوري في « الطيوريات » (٩٣٢) ، وهو علىٰ رواية الرفع والهمزة في أوله همزة المتكلم ، وقد روي بالنصب كذلك ، ونقل الروايتين القاضي عياض في « مشارق الأنوار » (٢/ ٢١٨) ، و« إكمال المعلم » (٨/ ٣٥٠) وقال : رويناه بالضبطين من الرفع والفتح ، فمن رفع . . تأولها : فأسلم أنا منه ، وهي التي صحح الخطابي ورجح ، ومن فتح . . جعله صفة للقرين ، من الإسلام ، وهي عندي أظهر ؛ بدليل قوله : « فلا يأمرني إلا بخير ») ، وسيأتي للمصنف قريباً ما يؤيد أن شيطانه صلى الله عليه وسلم دخل في الإسلام حقيقة .

ولذلكَ يُحكىٰ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما وكانَ مِنْ زُهَّادِ الصحابةِ وعلمائِهِمْ أنَّهُ كانَ يفطرُ مِنَ الصومِ على الجماعِ قبلَ الأكلِ ، وربما جامعَ قبلَ أن يصلِّيَ المغربَ ، ثمَّ يغتسلُ ويصلِّي ؛ وذلكَ لتفريغِ القلبِ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإخراجِ عدَّةِ الشيطانِ منهُ(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ جامعَ ثلاثاً مِنْ جواريهِ في شهرِ رمضانَ قبلَ العشاءِ الآخرةِ(٢) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (خيرُ هـٰذهِ الأمةِ أكثرُها نساءً)(٣) .

ولمَّا كانتِ الشهوةُ أغلبَ علىٰ مزاجِ العربِ . . كانَ استكثارُ الصالحينَ منهُمْ للنكاحِ أشدَّ ، ولأجلِ فراغِ القلبِ أبيحَ نكاحُ الأمةِ عندَ خوفِ العنتِ معَ أنَّ فيهِ إرقاقاً للولدِ ، وهوَ نوعُ إهلاكٍ ، وهوَ محرَّمٌ علىٰ كلِّ مَنْ قدرَ علىٰ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) ، وفي (ب) : (غرة) بدل (عدة) أي : ما يوسوس بسببه في القلب . « إتحاف » (٥/ ٣٠٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) ، وفيه : (أربعاً) بدل (ثلاثاً) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٩) ، إذ قال ابن عباس رضي الله عنهما لسعيد بن جبير : هل تزوجت ؟ فقال : لا ، قال : فتزوج ؛ فإن خير هـٰذه الأمة أكثرها نساءً . قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٩/ ١١٤) : (والذي يظهر أن مراد ابن عباس بالخير النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالأمة أخصاء أصحابه ، وكأنه أشار إلىٰ أن ترك التزويج مرجوح) .

حرَّةٍ ، ولكنَّ إرقاقَ الولدِ أهونُ مِنْ إهلاكِ الدينِ ، وليسَ فيهِ إلا تنغيصُ الحياةِ على الولدِ مدَّةً ، وفي اقتحامِ الفاحشةِ تفويتُ الحياةِ الأخرويَّةِ التي تُستحقرُ الأعمارُ الطويلةُ بالإضافةِ إلىٰ يومٍ مِنْ أيامِها .

ورُوِيَ أنَّهُ انصرفَ الناسُ ذاتَ يومٍ مِنْ مجلسِ ابنِ عباسٍ ، وبقيَ شابٌّ لمْ يبرحْ ، فقالَ لهُ ابنُ عباسٍ : هلْ لكَ مِنْ حاجةٍ ؟ قالَ : نعمْ ، أردتُ أنْ أسألَ مسألةً فاستحييتُ مِنَ الناسِ ، وأنا الآنَ أهابُكَ وأجلُّكَ ، فقالَ ابنُ عباسٍ : إنَّ العالمَ بمنزلةِ الوالدِ ، فما أفضيتَ بهِ إلىٰ أبيكَ . . فأفضِ إليَّ بهِ ، فقالَ : إنِّي شابٌّ لا زوجةَ لي ، وربَّما خشيتُ العنتَ علىٰ نفسي ، فربَّما استمنيتُ بيدي ، فهلْ في ذلكَ معصيةٌ ، فأعرضَ عنهُ ابنُ عباسٍ ثمَّ قال : أُفٍّ وتُفٍّ ! نكاحُ الأمةِ خيرٌ منهُ ، وهوَ خيرٌ مِنَ الزنا[1] .

وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ العزبَ المغتلمَ مردَّدٌ بينَ ثلاثةِ شرورٍ ، أدناها نكاحُ الأمةِ وفيهِ إرقاقُ الولدِ ، وأشدُّ منهُ الاستمناءُ باليدِ ، وأفحشُهُ الزنا ، ولمْ يطلقِ ابنُ عباسٍ الإباحةَ في شيءٍ منهُ ؛ لأنَّهُما محذورانِ ، يُفزعُ إليهما حذراً مِنَ الوقوعِ في محذورٍ أشدَّ منهُ ؛ كما يُفزعُ إلىٰ تناولِ الميتةِ حذراً مِنْ هلاكِ النفسِ .

فليسَ ترجيحُ أهونِ الشرَّينِ في معنى الإباحةِ المطلقةِ ، ولا في معنى

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣٩) ، وقد رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ٣٩٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٩٩) .

الخيرِ المطلقِ ، وليسَ قطعُ اليدِ المتآكلةِ مِنَ الخيراتِ ، وإنْ كانَ يُؤذَنُ فيهِ عندَ إشرافِ النفسِ على الهلاكِ .

فإذاً ؛ في النكاحِ فضلٌ مِنْ هٰذا الوجهِ ، لكنْ هٰذا لا يعمُّ الكلَّ بلِ الأكثرَ ، فربَّ شخصٍ فترَتْ شهوتُهُ لكبرِ سنٍّ أوْ مرضٍ أوْ غيرِهِ ، فينعدمُ هٰذا الباعثُ في حقِّهِ ، ويبقىٰ ما سبقَ مِنْ أمرِ الولدِ ، فإنَّ ذلكَ عامٌّ إلا للممسوحِ ، وهوَ نادرٌ .

ومِنَ الطباعِ ما تغلبُ عليها الشهوةُ ؛ بحيثُ لا يحصِّنُها المرأةُ الواحدةُ ، فيُستحبُّ لصاحبِها الزيادةُ على الواحدةِ إلى الأربعِ ، فإنْ يسَّرَ اللهُ لهُ مودَّةً ورحمةً واطمأنَّ قلبُهُ بهنَّ ، وإلا . . فيُستحبُّ لهُ الاستبدالُ ، فقدْ نكحَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ وفاةِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها بسبعِ ليالٍ .

ويقالُ : إنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ منكاحاً ، حتَّىٰ نكحَ زيادةً علىٰ مئتي امرأةٍ ، وكانَ ربَّما عقدَ علىٰ أربعٍ في وقتٍ واحدٍ ، وربَّما طلَّقَ أربعاً في وقتٍ واحدٍ واستبدلَ بهنَّ[1] ، وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ

---

(١) وروى البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣/ ٢٧٧) : (أحصن الحسن بن علي تسعين امرأة ، فقال علي : لقد تزوج الحسن وطلق حتىٰ خفت أن يجني بذلك علينا عداوة أقوام) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٥٣٨) عن علي رضي الله عنه قال : (يا أهل العراق ، أو : يا أهل الكوفة ؛ لا تزوجوا حسناً ، فإنه رجل مطلاق) ، وسياق المصنف من « القوت » (٢/ ٢٤٦) حيث قال : (وتزوج الحسن بن علي رضي الله عنهما مئتين وخمسين امرأة ، وقيل : ثلاث مئة . . .) .

للحسنِ : « أشبهتَ خلْقي وخُلُقِي »(١) ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حسنٌ منِّي وحسينٌ مِنْ عليٍّ »(٢) ، فقيلَ : إنَّ كثرةَ نكاحِهِ أحدُ ما أشبَهَ بهِ خُلُقَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وتزوَّجَ المغيرةُ بنُ شعبةَ بثمانينَ امرأةً(٣) ، وكانَ في الصحابةِ مَنْ لهُ الثلاثُ والأربعُ ، ومَنْ كانَ لهُ اثنتانِ لا يحصىٰ ، ومهما كانَ الباعثُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٦) ، وهـٰذا قد قاله صلى الله عليه وسلم لابن عمِّه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، كما في « البخاري » (٢٧٠٠) ، وروى البخاري (٣٧٥٢) عن أنس رضي الله عنه قال : (لم يكن أحد أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الحسن بن علي) ، وكان الصديق رضي الله عنه كما روىٰ أحمد في « المسند » (١/ ٨) قد مرَّ بغلمان وفيهم الحسن ، فاحتمله علىٰ رقبته وهو يقول :

وا بأبي شبه النبي ليس شبيهاً بعلي

قال : وعلي يضحك .

(٢) رواه أبو داوود (٤١٣١) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٣٢) ، وروىٰ كذلك أحمد في « المسند » (٤/ ١٧٢) والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٦٤) والترمذي (٣٧٧٥) ، وابن ماجه (١٤٤) مرفوعاً : « حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، سبط من الأسباط » .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٠/ ٥٥) عن ليث بن أبي سليم قال : قال المغيرة بن شعبة : (أحصنت ثمانين امرأة ، فأنا أعلمكم بالنساء ، كنت أحبس المرأة لجمالها ، وأحبس المرأة لولدها ، وأحبس المرأة لقومها ، وأحبس المرأة لمالها ، فوجدت صاحب الواحدة إن زارت . . زار ، وإن حاضت . . حاض ، وإن نَفِسَت . . نَفِس ، وإن اعتلَّت . . اعتلَّ معها بانتظاره لها ، ووجدت صاحب الثنتين في حرب هما ناران تشتعلان ، ووجدت صاحب الثلاث في نعيم ، وإذا كنَّ أربعاً . . كان في نعيم لا يعدله شيء . . .) الخبر .

معلوماً . . فينبغي أنْ يكونَ العلاجُ بقدْرِ العلةِ ، فالمرادُ تسكينُ النفسِ ، فليُنظرْ إليهِ في الكثرةِ والقلَّةِ .

***

الفائدةُ الثالثةُ : ترويحُ النفسِ وإيناسُها بالمجالسةِ والنظرِ والملاعبةِ ؛ إراحةً للقلبِ وتقويةً لهُ على العبادةِ :

فإنَّ النفسَ ملولٌ ، وهيَ عنِ الحقِّ نفورٌ ؛ لأنَّهُ علىٰ خلافِ طبعِها ، فلوْ كُلِّفتِ المداومةَ بالإكراهِ علىٰ ما يخالفُها . . جمحَتْ وتأبَّتْ ، وإذا رُوِّحَتْ باللذَّاتِ في بعضِ الأوقاتِ . . قويَتْ ونشطَتْ ، وفي الاستئناسِ بالنساءِ مِنَ الاستراحةِ ما يزيلُ الكربَ ويروِّحُ القلبَ .

وينبغي أنْ يكونَ لنفوسِ المتقينَ استراحاتٌ إلى المباحاتِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (روِّحوا القلوبَ ساعةً ؛ فإنَّها إذا أُكرهَتْ . . عميَتْ)[1] .

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧١٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/١٨٣) ولفظه عنه : (روحوا القلوب ، وابتغوا لها طُرَف الحكمة ؛ فإنها تمل كما تمل الأبدان) ، وفي حديث حنظلة رضي الله عنه عند مسلم (٢٧٥٠) : « والذي نفسي بيده ؛ إن لو تدومون علىٰ ما تكونون عندي وفي الذكر . . لصافحتكم الملائكة علىٰ فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » ثلاث مرات .

وفي الخبرِ : « على العاقلِ أنْ يكونَ لهُ ثلاثُ ساعاتٍ : ساعةٌ يناجي فيها ربَّهُ ، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ ، وساعةٌ يخلو فيها بمطعمِهِ ومشربِهِ ؛ فإنَّ في هٰذهِ الساعةِ عوناً علىٰ تلكَ الساعاتِ »(١) .

ومثلُهُ بلفظٍ آخرَ : « لا يكونُ العاقلُ ظاعناً إلا في ثلاثٍ : تزوُّدٌ لمعادٍ ، أوْ مَرَمَّةٌ لمعاشٍ ، أوْ لذَّةٌ في غيرِ محرَّمٍ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لكلِّ عاملٍ شِرَّةٌ ، ولكلِّ شِرَّةٍ فترَةٌ ، فمَنْ كانتْ فترتُهُ إلىٰ سنَّتي . . فقدِ اهتدىٰ »(٣) ، **والشِّرَّةُ** : الجدُّ والمكابدةُ بحدَّةٍ وقوَّةٍ ، وذلكَ في ابتداءِ الإرادةِ ، **والفترةُ** : الوقوفُ للاستراحةِ .

وكانَ أبو الدرداءِ يقولُ : (إنِّي لأستجمُّ نفسي بشيءٍ مِنَ اللهوِ ؛ لأتقوَّىٰ بذلكَ فيما بعدُ على الحقِّ)(٤) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٣) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٢) عن وهب بن منبه من حكمة آل داوود ، ورواه مرفوعاً ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ضمن خبر طويل ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٨ ، ١٦٧) ، وعند الجميع عد الساعات أربع ، فزادوا : (وساعة يفضي فيها إلىٰ إخوانه يصدقونه عيوبه وينصحونه في نفسه) عن وهب ، وفي المرفوع : « وساعة يتفكر فيها في صنع الله » .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٧) وهو قطعة من الحديث المتقدم ، ومرمة الشيء : إصلاحه ، وهي كذلك اسم لمتاع البيت .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو المشهور والذي فيه ذكر عبادته وتبتله ، وهو عند الترمذي (٢٤٥٣) من حديث أبي هريرة بنحوه ، **والشرة** أيضاً : الحرص والرغبة والنشاط .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤٧) .

وفي بعضِ الأخبارِ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « شكوتُ إلىٰ جبريلَ عليهِ السلامُ ضعفي عنِ الوقاعِ ، فدلَّني على الهريسةِ »[1] ، فهٰذا إنْ صحَّ . . لا محملَ لهُ إلا الاستعدادُ للاستراحةِ ، ولا يمكنُ تعليلُهُ بدفعِ الشهوةِ ؛ لأنَّهُ استثارةٌ للشهوةِ ، ومَنْ عَدِمَ الشهوةَ . . عَدِمَ الأكثرَ مِنْ هٰذا الأنسِ .

وقال عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكم ثلاثٌ : الطيبُ ، والنساءُ ، وقرَّةُ عيني في الصلاةِ »[2] .

فهٰذهِ أيضاً فائدةٌ لا ينكرُها مَنْ جرَّبَ إتعابَ نفسِهِ في الأفكارِ والأذكارِ وصنوفِ الأعمالِ ، وهيَ خارجةٌ عنِ الفائدتينِ السابقتينِ ، حتَّىٰ إنَّها لتُطرِدُ

---

(١) سيشير المؤلف إلى الاختلاف في ثبوت هٰذا الحديث ، وقد رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٢)، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ١٤٤)، وتمام في « فوائده » (٩٨٨) ، وقد قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١/ ١٧٥) : (ألف الحافظ ابن ناصر الدين فيه جزءاً سماه : « رفع الدسيسة عن أخبار الهريسة ») ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٣٠٩).

(٢) رواه النسائي (٧/ ٦١) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨) كذلك ، دون زيادة كلمة (ثلاث) ، والمصنف تبع في ذكرها صاحب « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، وقد نقل الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٣١١) نقولاً عن الحفاظ تفيد خطأ زيادتها رواية ومعنىً ؛ إذ الصلاة ليست من الدنيا إلا علىٰ تأول شديد ، وإنما جاء الحديث بلفظ : « حُبِّبَ » مبنياً للمجهول دلالة علىٰ أن ذلك لم يكن من جبلته وطبعه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان علىٰ ذلك الحب رحمةً للعباد ورفقاً بهم ، كما أفاده الشارح نقلاً عن الطيبي .

في حقِّ الممسوحِ ومَنْ لا شهوةَ لهُ ، إلا أنَّ هـٰذِهِ الفائدةَ تجعلُ النكاحَ فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ هـٰذِهِ النيَّةِ ، وقلَّ مَنْ يقصدُ بالنكاحِ ذلكَ ، وأمَّا قصدُ الولدِ وقصدُ دفعِ الشهوةِ وأمثالُها . . فممَّا يكثرُ .

ثمَّ ربَّ شخصٍ يستأنسُ بالنظرِ إلى الماءِ الجاري والخضرةِ وأمثالِها ولا يحتاجُ إلىٰ ترويحِ النفسِ بمحادثةِ النساءِ وملاعبتِهنَّ ، فيختلفُ هـٰذا باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فليُتنبَّهْ لهُ .

* * *

الفائدةُ الرابعةُ : تفريغُ القلبِ عنْ تدبيرِ المنزلِ :

والتكفُّلِ بشغلِ الطبخِ والكنْسِ والفرشِ وتنظيفِ الأواني وتهيئةِ أسبابِ المعيشةِ ؛ فإنَّ الإنسانَ لوْ لمْ يكنْ لهُ شهوةُ الوقاعِ . . لتعذَّرَ عليهِ العيشُ في منزلِهِ وحدَهُ ، إذْ لوْ تكفَّلَ بجميعِ أشغالِ المنزلِ . . لضاعَتْ أكثرُ أوقاتِه ، ولمْ يتفرَّغْ للعلمِ والعملِ ، فالمرأةُ الصالحةُ المصلحةُ للمنزلِ عونٌ على الدينِ بهـٰذِهِ الطريقِ ، واختلالُ هـٰذِهِ الأسبابِ شواغلُ ومشوشاتٌ للقلبِ ومنغِّصاتٌ للعيشِ ، ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (الزوجةُ الصالحةُ ليسَتْ مِنَ الدنيا ، فإنَّها تفرِّغُكَ للآخرةِ)[1] ، وإنَّما تفريغُها بتدبيرِ المنزلِ وبقضاءِ الشهوةِ جميعاً .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٤) عن عمر رضي الله عنه .

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ في معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قالَ : المرأةُ الصالحةُ[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليتخذْ أحدُكُمْ قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجةً مؤمنةً تعينُهُ علىٰ آخرتِهِ »[٢] ، فانظرْ كيفَ جمعَ بينَها وبينَ الذكرِ والشكرِ .

وفي بعضِ التفاسيرِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قالَ : الزوجةُ الصالحةُ[٣] .

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (ما أُعطيَ عبدٌ بعدَ إيمانٍ باللهِ خيراً مِنِ امرأةٍ صالحةٍ ، وإنَّ منهنَّ غُنْماً لا يُحذىٰ منهُ ، ومنهنَّ غلاًّ لا يُفدىٰ منهُ)[٤] ، وقولُهُ : (لا يُحذىٰ) أيْ : لا يُعتاض عنهُ بعطاءٍ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فضلتُ علىٰ آدمَ بخصلتينِ : كانتْ زوجتُهُ عوناً لهُ على المعصيةِ ، وأزواجي أعوانٌ لي على الطاعةِ ، وكانَ شيطانُهُ كافراً ، وشيطاني مسلمٌ لا يأمرُ إلا بخيرٍ »[٥] ، فعدَّ معاونتَها على الطاعةِ فضيلةً .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٨٢) .
(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) واللفظ له .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٤٤) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٧٤٢٧)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٧/ ٨٢) .
(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٠١) ، وهو في « القوت » (٢/ ٢٤٣) ، قال =

فهـٰذهِ أيضاً مِنَ الفوائدِ التي يقصدُها الصالحونَ ، إلا أنَّها تخصُّ بعضَ الأشخاصِ الذينَ لا كافلَ لهُمْ ولا مدبِّرَ .

ولا تدعو إلى امرأتينِ ، بلِ الجمعُ ربَّما ينغِّصُ المعيشةَ ، وتضطربُ بهِ أمورُ المنزلِ .

ويدخلُ في هـٰذهِ الفائدةِ قصدُ الاستكثارِ بعشيرتِها ، وما يحصلُ مِنَ القوَّةِ بسببِ تداخلِ العشائرِ ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يُحتاجُ إليهِ في دفعِ الشرورِ وطلبِ السلامةِ ، ولذلكَ قيلَ : (ذلَّ مَنْ لا ناصرَ لهُ) ، ومَنْ وجدَ مَنْ يدفعُ عنهُ الشرورَ . . سلمَ حالُهُ ، وفُرِّغَ قلبُهُ للعبادةِ ؛ فإنَّ الذلَّ مشوِّشٌ للقلبِ ، والعزَّ بالكثرةِ دافعٌ للذلِّ .

* * *

الفائدةُ الخامسةُ : مجاهدةُ النفسِ ورياضتُها بالرعايةِ والولايةِ ، والقيامِ بحقوقِ الأهلِ ، والصبرِ علىٰ أخلاقِهِنَّ ، واحتمالِ الأذىٰ منهنَّ ، والسعيِ في إصلاحِهِنَّ وإرشادِهِنَّ إلىٰ طريقِ الدينِ ، والاجتهادِ في كسبِ الحلالِ لأجلِهِنَّ ، والقيامِ بتربيةِ الأولادِ :

فكلُّ هـٰذهِ أعمالٌ عظيمةُ الفضلِ ؛ فإنَّها رعايةٌ وولايةٌ ، والأهلُ والولدُ رَعِيَّةٌ ، وفضلُ الرعايةِ عظيمٌ ، وإنَّما يحترزُ منها مَنْ يحترزُ خيفةً مِنَ القصورِ

= الحافظ الزبيدي في « إتحافه » : (والصحيح أن الحديث ضعيف لضعف محمد بن الوليد ، ولا يدخل في حيز الموضوع) .

عنِ القيامِ بحقِّها ، وإلا . . فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يومٌ مِنْ والٍ عادلٍ أفضلُ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً »[١] ، ثمَّ قالَ : « ألا كلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُمْ مسؤولٌ عنْ رعيَّتِهِ »[٢] .

وليسَ مَنِ اشتغلَ بإصلاحِ نفسِهِ وغيرِهِ كمَنِ اشتغلَ بإصلاحِ نفسِهِ فقطْ ، ولا مَنْ صبرَ على الأذىٰ كمَنْ رفَّهَ نفسَهُ وأراحَها ، فمقاساةُ الأهلِ والولدِ بمنزلةِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، ولذلكَ قالَ بشرٌ : (فضلَ عليَّ أحمدُ ابنُ حنبلٍ بثلاثٍ : إحداها : أنَّهُ يطلبُ الحلالَ لنفسِهِ ولغيرِهِ)[٣] .

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما أنفقَ الرجلُ علىٰ أهلِهِ . . فهوَ صدقةٌ ، وإنَّ الرجلَ ليُؤجرُ في اللقمةِ يرفعُها إلىٰ في امرأتِهِ »[٤] .

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ العلماءِ : مِنْ كلِّ عملٍ قدْ أعطاني اللهُ نصيباً ، حتَّىٰ ذكرَ الحجَّ والجهادَ وغيرَهُما ، فقالَ لهُ : أينَ أنتَ مِنْ عملِ الأبدالِ ؟ قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : كسبُ الحلالِ ، والنفقةُ على العيالِ[٥] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٣٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٦٢) وبلفظ : (ستين سنة) .
(٢) رواه البخاري (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .
(٤) رواه البخاري (١٢٩٦) ، ومسلم (١٦٢٨) ولفظه : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله . . إلا أجرت بها ، حتىٰ ما تجعل في في امرأتك . . . » الحديث .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٤٨) .

وقالَ ابنُ المباركِ وهوَ معَ إخوانِهِ في الغزوِ : تعلمونَ عملاً أفضلَ ممَّا نحنُ فيهِ ؟ قالوا : ما نعلمُ ذلكَ ، قالَ : أنَا أعلمُ ، قالوا : فما هوَ ؟ قالَ : رجلٌ متعفِّفٌ ذو عيلةٍ ، قامَ مِنَ الليلِ ، فنظرَ إلىٰ صبيانِهِ نياماً متكشِّفينَ ، فسترَهُمْ وغطَّاهُمْ بثوبِهِ ، فعملُهُ أفضلُ ممَّا نحنُ فيهِ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حسنتْ صلاتُهُ ، وكثرَ عيالُهُ ، وقلَّ مالُهُ ، ولمْ يغتبِ المسلمينَ . . كانَ معي في الجنَّةِ كهاتينِ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[3] .

وفي الحديثِ : « إذا كثرَتْ ذنوبُ العبدِ . . ابتلاهُ اللهُ بِهَمٍّ ليكفِّرَها »[4] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفِّرُها إلا الغمُّ بالعيالِ)[5] ، وفيهِ أثرٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفِّرُها إلا الهمُّ بطلبِ المعيشةِ »[6] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٨) .
(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٩٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١١/ ٢٥٧) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٥٧) ، وفيه : (بالحزن) بدل (بهمٍّ) ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢/ ٢٤٨) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٤٨) وسياق المصنف عنده .
(٦) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٠٠) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ ثلاثُ بناتٍ ، فأنفقَ عليهنَّ ، وأحسنَ إليهنَّ حتَّىٰ يغنيَهُنَّ اللهُ عنهُ . . أوجبَ اللهُ تعالىٰ لهُ الجنَّةَ ألبتةَ ، إلا أنْ يعملَ عملاً لا يُغفرُ لهُ »(١) ، كانَ ابنُ عباسٍ إذا حدَّثَ بهـٰذا . . قالَ : هُوَ وَاللهِ مِنْ غَرائبِ الحديثِ وغررِهِ(٢) .

ورُوِيَ أنَّ بعضَ المتعبدينَ كانَ يحسنُ القيامَ علىٰ زوجتِهِ إلىٰ أنْ ماتَتْ ، فعُرِضَ عليهِ التزويجُ ، فامتنعَ وقالَ : الوحدةُ أروحُ لقلبي ، وأجمعُ لهمِّي ، قالَ : فرأيتُ في المنامِ بعدَ جمعةٍ مِنْ وفاتِها كأنَّ أبوابَ السماءِ فُتِحَتْ ، وكأنَّ رجالاً ينزلونَ ويسيرونَ في الهواءِ يتبعُ بعضُهُمْ بعضاً ، فكلَّما نزلَ واحدٌ . . نظرَ إليَّ وقالَ لمَنْ وراءَهُ : هـٰذا هوَ المشؤومُ ، فيقولُ الآخرُ : نعمْ ، ويقولُ الثالثُ كذلكَ ، فيقولُ الرابعُ : نعمْ ، وخفتُ أنْ أسألَهُمْ هيبةً مِنْ ذلكَ ، إلىٰ أنْ مرَّ بي آخرُهُمْ وكانَ غلاماً ، فقلتُ لهُ : يا هـٰذا ؛ مَنْ هـٰذا المشؤومُ الذي تومئونَ إليهِ ؟ قالَ : أنتَ ، فقلتُ : ولِمَ ذلِكَ ؟ قالَ : كنَّا نرفعُ عملَكَ في أعمالِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ، فمنذُ جمعةٍ أُمِرْنا أنْ نضعَ عملَكَ معَ الخالفينَ ، فلا ندري ما أحدثتَ ، فقالَ لإخوانِهِ : زوِّجوني زوِّجوني ، فلمْ يكنْ تفارقُهُ زوجتانِ أوْ ثلاثٌ(٣) .

---

(١) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (٦١٥) بنحوه ، وقريب منه ما رواه أبو داوود (٥١٤٧) ، والترمذي (١٩١٢) ، وابن ماجه (٣٦٦٩) .

(٢) كذا بزيادة هـٰذا القول لابن عباس رضي الله عنهما رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/ ١٧٨) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٤٩) .

وفي أخبارِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ : أنَّ قوماً دخلوا علىٰ يونسَ النبيِّ عليهِ السلامُ ، فأضافَهُمْ ، فكانَ يدخلُ ويخرجُ إلىٰ منزلِهِ ، فتؤذيهِ امرأتُهُ وتستطيلُ عليهِ وهوَ ساكتٌ ، فتعجَّبوا مِنْ ذلكَ ، فقالَ : لا تعجبوا ، فإنِّي سألتُ اللهَ تعالىٰ وقلتُ : ما أنتَ معاقبٌ لي بهِ في الآخرةِ فعجِّلْهُ لِي في الدنيا ، فقالَ : إنَّ عقوبتَكَ بنتُ فلانٍ تتزوَّجُ بها ، فتزوَّجْتُ بها ، وأنا صابرٌ علىٰ ما ترونَ منها(١) .

وفي الصبرِ علىٰ ذلكَ رياضةُ النفسِ ، وكسرُ الغضبِ ، وتحسينُ الخُلُقِ ؛ فإنَّ المنفردَ بنفسِهِ ، أوِ المشاركَ لمَنْ حَسُنَ خلقُهُ . . لا تترشَّحُ منهُ خبائثُ النفسِ الباطنةِ ، ولا تنكشفُ بواطنُ عيوبِهِ ، فحقٌّ علىٰ سالكِ طريقِ الآخرةِ أنْ يجرِّبَ نفسَهُ بالتعرُّضِ لأمثالِ هـٰذهِ المحرِّكاتِ ، واعتيادِ الصبرِ عليها ؛ لتعتدلَ أخلاقُهُ ، وترتاضَ نفسُهُ ، ويصفوَ عنِ الصفاتِ الذميمةِ باطنُهُ .

والصبرُ على العيالِ معَ أنَّهُ رياضةٌ ومجاهدةٌ تكفُّلٌ لهمْ ، وقيامٌ بهمْ ، وعبادةٌ في نفسِها .

فهـٰذهِ أيضاً مِنَ الفوائدِ ، ولكنَّهُ لا ينتفعُ بها إلا أحدُ رجلينِ :

إمَّا رجلٌ قصدَ المجاهدةَ والرياضةَ وتهذيبَ الأخلاقِ لكونِهِ في بدايةِ الطريقِ ، فلا يبعدُ أنْ يرىٰ هـٰذا طريقاً في المجاهدةِ وترتاضُ بهِ نفسُهُ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٩) .

وإمَّا رجلٌ مِنَ العابدينَ ليسَ لهُ سيرٌ بالباطنِ وحركةٌ بالفكرِ والقلبِ ، وإنَّما عملُهُ عملُ الجوارحِ ؛ بصلاةٍ أوْ حجٍّ أوْ غيرِهِ ، فعملُهُ لأهلِهِ وأولادِهِ بكسبِ الحلالِ لهُمْ والقيامِ بتربيتِهِمْ أفضلُ لهُ مِنَ العباداتِ اللازمةِ لبدنِهِ التي لا يتعدَّىٰ خيرُها إلىٰ غيرِهِ .

فأمَّا الرجلُ المهذَّبُ الأخلاقِ إمَّا بكفايةٍ في أصلِ الخلقةِ ، أوْ بمجاهدةٍ سابقةٍ إذا كانَ لهُ سيرٌ في الباطنِ وحركةٌ بفكرِ القلبِ في العلومِ والمكاشفاتِ . . فلا ينبغي أنْ يتزوَّجَ لهٰذا الغرضِ ؛ فإنَّ الرياضةَ هوَ مكفيٌّ فيها . وأمَّا العبادةُ بالعملِ في الكسبِ لهُمْ . . فالعلمُ أفضلُ مِنْ ذلكَ ؛ لأنَّهُ أيضاً عملٌ ، وفائدتُهُ أعمُّ وأشملُ لسائرِ الخلقِ مِنْ فائدةِ الكسبِ على العيالِ .

فهٰذهِ فوائدُ النكاحِ في الدينِ التي بها يُحكمُ له بالفضيلةِ .

* * *

آفات النّكاح(١)

أمّا آفاتُ النكاحِ . . فثلاثٌ :

الأولىٰ ـ وهيَ أقواها ـ : العجزُ عنْ طلبِ الحلالِ :

فإنَّ ذلكَ لا يتيسَّرُ لكلِّ أحدٍ ، لا سيما في هٰذهِ الأوقاتِ معَ اضطرابِ المعايشِ ، فيكونُ النكاحُ سبباً للتوسعِ في الطلبِ والإطعامِ مِنَ الحرامِ ، وفيهِ هلاكُهُ وهلاكُ أهلِهِ ، والمتعزبُ في أمنٍ مِنْ ذلكَ ، وأمَّا المتزوِّجُ . . ففي الأكثرِ يدخلُ في مداخلِ السوءِ ويتبعُ هوىٰ زوجتِهِ ، ويبيعُ آخرتَهُ بدنياهُ .

وفي الخبرِ : (إنَّ العبدَ ليُوقفُ عندَ الميزانِ ولهُ مِنَ الحسناتِ أمثالُ الجبالِ ، فيُسألُ عنْ رعايةِ عيالِهِ والقيامِ بِهِمْ ، وعنْ مالِهِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفيمَ أنفقَهُ حتَّىٰ تُستغرقَ بتلكَ المطالباتِ كلُّ أعمالِهِ ، فلا تبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فينادي الملائكةُ : هٰذا الذي أكلَ عيالُهُ حسناتِهِ في الدنيا ، وارتُهِنَ اليومَ بأعمالِهِ)(٢) .

ويُقالُ : إنَّ أوَّلَ ما يتعلَّقُ بالرجلِ في القيامةِ أهلُهُ وولدُهُ ، فيوقفونَهُ بينَ يدي اللهِ سبحانَهُ ويقولونَ : يا ربَّنا ؛ خُذْ لنا بحقِّنا منهُ ، فإنَّهُ ما علَّمنا

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه مختصراً ابن أبي الدنيا في « العيال » (٤٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٨١) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ، وانظر في « القوت » (٢/ ٢٥١) .

ما نجهلُ ، وكانَ يطعمُنا الحرامَ ونحنُ لا نعلمُ ، فيقتصُّ لهُمْ منهُ(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ شرّاً . . سلَّطَ عليهِ في الدنيا أنياباً تنهشُهُ)(٢) ؛ يعني العيالَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يلقى اللهَ سبحانَهُ أحدٌ بذنبٍ أعظمَ مِنْ جهالةِ أهلِهِ »(٣) .

فهٰذهِ آفةٌ عامَّةٌ ، قلَّ مَنْ يتخلَّصُ منها ، إلا مَنْ لهُ مالٌ موروثٌ أوْ مكتسبٌ مِنْ حلالٍ يفي بهِ وبأهلِهِ ، وكانَ لهُ مِنَ القناعةِ ما يمنعُهُ مِنَ الزيادةِ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥١) ، ومعناه في الخبر قبله ، وروى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٨٦) عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ ما أرسل به ، ثم قال : « إياكم والظلم ؛ فإن الله تبارك وتعالىٰ يقسم يوم القيامة فيقول : وعزتي ؛ لا يجوزني اليوم ظلم ، ثم ينادي مناد فيقول : أين فلان بن فلان ؟ فيأتي تتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتىٰ يقوم بين يدي الله الرحمـٰن عز وجل ، ثم يأمر المنادي فينادي : من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان . . فهلمَّ ، فيُقْبِلون ، حتىٰ يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمـٰن ، فيقول الرحمـٰن : اقضوا عن عبدي ، فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته ، فلا يزالون يأخذون منها حتىٰ لا يبقىٰ له حسنة . . . ، ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهـٰذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . . . ﴾ » الحديث ، وسيأتي بمعناه حديث المفلس ، والعيال أصحاب حق إن قصر الراعي فيما استرعي .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥١) ، وقال الحافظ العراقي : (ذكره صاحب « الفردوس » من حديث أبي سعيد ، ولم يجده ولده أبو منصور في « مسنده ») . « إتحاف » (٥/ ٣١٧) .

فإنَّ ذلكَ يتخلَّصُ مِنْ هـٰذهِ الآفةِ ، أوْ مَنْ هوَ محترفٌ ومقتدرٌ علىٰ كسبِ حلالٍ مِنَ المباحاتِ ، باحتطابٍ أوِ اصطيادٍ ، أوْ كانَ في صناعةٍ لا تتعلَّقُ بالسلاطينِ ، ويقدرُ علىٰ أنْ يعاملَ بها أهلَ الخيرِ ، ومَنْ ظاهرُهُ السلامةُ ، وغالبُ مالِهِ الحلالُ .

وقالَ ابنُ سالمٍ رحمهُ اللهُ وقدْ سُئِلَ عنِ التزويجِ ، فقالَ : (هُوَ أفضلُ في زمانِنا هـٰذا لمَنْ أدركَهُ شبقٌ غالبٌ ، مثلُ الحمارِ يرى الأتانَ ، فلا ينثني عنها بالضربِ ، ولا يملكُ نفسَهُ ، فإنْ ملكَ نفسَهُ . . فتركُهُ أولىٰ)(١) .

❊ ❊ ❊

الآفةُ الثانيةُ : القصورُ عنِ القيامِ بحقوقِهِنَّ ، والصبرِ علىٰ أخلاقِهِنَّ ، واحتمالِ الأذىٰ منهُنَّ :

وهـٰذهِ دونَ الأولىٰ في العمومِ ، فإنَّ القدرةَ علىٰ هـٰذهِ أيسرُ مِنَ القدرةِ على الأولىٰ ، وتحسينُ الخلقِ معَ النساءِ والقيامُ بحظوظِهِنَّ أهونُ مِنْ طلبِ الحلالِ .

وفي هـٰذا أيضاً خطرٌ ؛ لأنَّهُ راعٍ ومسؤولٌ عنْ رعيَّتِهِ ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ بالمرءِ إثماً أنْ يضيِّعَ مَنْ يعولُ »(٢) .

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٤٠) والقول لأبي الحسن علي بن سالم البصري . « إتحاف » (٥/٣١٨) .

(٢) رواه مسلم (٩٩٦) بلفظ : « كفىٰ بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته » ، وهو عند أبي داوود (١٦٩٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩١٣١) واللفظ له .

ورُوي أنَّ الهاربَ مِنْ عيالِهِ بمنزلةِ العبدِ الهاربِ الآبقِ ، لا تُقبلُ لهُ صلاةٌ ولا صيامٌ حتَّىٰ يرجعَ إليهِمْ[1] ، ومَنْ يُقصِّرُ عنِ القيامِ بحقِّهنَّ وإنْ كانَ حاضراً. . فهوَ بمنزلةِ هاربٍ ؛ فقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ ، أمرَنا أنْ نقيَهُمُ النَّارَ كما نقي أنفسَنا ، والإنسانُ قدْ يعجزُ عنِ القيامِ بحقِّ نفسِهِ ، وإذا تزوَّجَ . . تضاعفَ عليهِ الحقُّ ، وانضافَتْ إلىٰ نفسِهِ نفسٌ أخرىٰ ، والنفسُ أمَّارةٌ بالسوءِ ، إنْ كثرَتْ . . كثرَ الأمرُ بالسوءِ غالباً ، ولذلكَ اعتذرَ بعضُهُمْ مِنَ التزويجِ وقالَ : أنا مبتلىً بنفسي ، فكيفَ أضيفُ إليها نفساً أخرىٰ ؟ كما قيلَ : [من السريع]

لَـنْ يَسَـعَ ٱلْفَـأْرَةَ فِي جُحْـرِهـا   عَلَّقَـتِ ٱلْمِكْنَـسَ فِـي دُبْـرِهَـا[2]

وكذلكَ اعتذرَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ وقالَ : (لا أغرُّ امرأةً بنفسي ، ولا حاجةَ لي فيهِنَّ)[3] أيْ : مِنَ القيامِ بحقِّهِنَّ وتحصينِهِنَّ وإمتاعِهِنَّ ، وأنا عاجزٌ عنهُ .

وكذلكَ اعتذرَ بشرٌ وقالَ : (يمنعُني مِنَ النكاحِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ ﴾)[4] ، وكانَ يقولُ : (لوْ كنتُ أعولُ دجاجةً . .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥١) .

(٢) مثل يضرب لمن لا يقدر علىٰ تحمل شيء فيزيد عليه ما يثقله بالزيادة ، كما قالوا في قولهم : إنها لضغث علىٰ إبالة ؛ أي : حزمة حطب كبيرة وعليها جرزة صغيرة منه ، وفي « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٦٠) : (لم يسع الفأرة جحرها ، فاستصحبت مكنسة) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٤١) .

لخفتُ أَنْ أَصيرَ جلاداً على الجسرِ)[1] .

ورُئِيَ سفيانُ بنُ عيينةَ رحمهُ اللهُ علىٰ بابِ السلطانِ ، فقيلَ لهُ : ما هٰذا موقفَكَ ! فقالَ : وهلْ رأيتَ ذا عيالٍ أفلحَ ؟![2] .

وكانَ سفيانُ يقولُ[3] : [من الرجز]

يـا حَبَّـذا ٱلْعُـزْبَـةُ وَٱلْمِفْتـاحُ[4] وَمَسْكَـنٌ تَخْـرِقُـهُ ٱلـرِّيـاحُ

لا صَخَبٌ فِيهِ وَلا صِياحُ

فهٰذِهِ آفةٌ عامةٌ أيضاً ، وإنْ كانَتْ دونَ عمومِ الأولىٰ ، ولا يسلمُ منها إلا حكيمٌ عاقلٌ ، حسنُ الأخلاقِ ، بصيرٌ بعاداتِ النساءِ ، صبورٌ علىٰ لسانِهِنَّ ، وقّافٌ عنِ اتباعِ شهواتِهِنَّ ، حريصٌ على الوفاءِ بحقِّهِنَّ ، يتغافلُ عنْ زلَلِهِنَّ ، ويداري بعقلِهِ أخلاقَهُنَّ .

والأغلبُ على الناسِ السفهُ ، والفظاظةُ والحدَّةُ ، والطيشُ ، وسوءُ الخلقِ ، وعدمُ الإنصافِ معَ طلبِ تمامِ الإنصافِ ، ومثلُ هٰذا يزدادُ بالنكاحِ فساداً مِنْ هٰذا الوجهِ لا محالةَ ، فالوحدةُ أسلمُ لهُ .

---

(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ١٥١) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ١٨٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٥٩) .
(٤) **والمفتاح** : يكون عنده لا يفتح به غيره . « إتحاف » (٥/ ٣١٩) .

الآفةُ الثالثةُ ـ وهيَ دونَ الأولىٰ والثانيةِ ـ : أنْ يكونَ الأهلُ والولدُ شاغلاً لهُ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجاذباً إلىٰ طلبِ الدنيا وتدبيرِ حسنِ المعيشةِ للأولادِ بكثرةِ جمعِ المالِ وادِّخارِهِ لهُمْ ، وطلبِ التفاخرِ والتكاثرِ بهمْ :

وكلُّ ما شغلَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ . . فهوَ مشؤومٌ علىٰ صاحبِهِ ، ولستُ أعني بهـٰذا أنْ يدعوَهُ إلىٰ محظورٍ ، فإنَّ ذلكَ ممَّا اندرجَ تحتَ الآفةِ الأولىٰ والثانيةِ ، بلْ أنْ يدعوَهُ إلى التنعُّمِ بالمباحِ ، بلْ إلى الإغراقِ في ملاعبةِ النساءِ ومؤانستِهِنَّ والإمعانِ في التمتعِ بهنَّ ، ويثورُ مِنَ النكاحِ أنواعٌ مِنَ الشواغلِ مِنْ هـٰذا الجنسِ تستغرقُ القلبَ ، فينقضي الليلُ والنهارُ ولا يتفرَّغُ المرءُ فيهما للتفكُّرِ في الآخرةِ والاستعدادِ لها ؛ ولذلكَ قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (مَنْ تعوَّدَ أفخاذَ النساءِ . . لمْ يجىءْ منهُ شيءٌ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ رحمهُ اللهُ : (مَنْ تزوَّجَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[2] أيْ : يدعوهُ ذلكَ إلى الركونِ إلى الدنيا .

فهـٰذهِ مجامعُ الآفاتِ والفوائدِ .

* * *

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢٢٠) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ١٥١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .

فالحكمُ علىٰ شخصٍ واحدٍ بأنَّ الأفضلَ لهُ النكاحُ أوِ العزوبةُ مطلقاً قصورٌ عنِ الإحاطةِ بمجامعِ هـٰذهِ الأمورِ ، بلْ تُتخذُ هـٰذهِ الفوائدُ والآفاتُ معتبراً ومحكّاً ، ويعرضُ المريدُ عليها حالَهُ :

فإنِ انتفتْ في حقِّهِ الآفاتُ واجتمعتِ الفوائدُ ؛ بأنْ كانَ لهُ مالٌ حلالٌ ، وخُلُقٌ حسنٌ ، وجدٌّ في الدينِ تامٌّ ، لا يشغلُهُ النكاحُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ معَ ذلكَ شابٌّ يحتاجُ إلىٰ تسكينِ الشهوةِ ، ومنفردٌ يحتاجُ إلىٰ تدبيرِ المنزلِ والتحصُّنِ بالعشيرةِ . . فلا يُتمارىٰ في أنَّ النكاحَ أفضلُ لهُ معَ ما فيهِ مِنَ السعي في تحصيلِ الولدِ .

وإنِ انتفتِ الفوائدُ واجتمعتِ الآفاتُ . . فالعزوبةُ أفضلُ لهُ .

وإنْ تقابلَ الأمرانِ وهوَ الغالبُ . . فينبغي أنْ يُوزنَ بالميزانِ القسطِ حظُّ تلكَ الفائدةِ في الزيادةِ مِنْ دينِهِ وحظُّ تلكَ الآفاتِ في النقصانِ منهُ ؛ فإذا غلبَ على الظنِّ رجحانُ أحدِهما . . حكمَ بهِ .

وأظهرُ الفوائدِ : الولدُ ، وتسكينُ الشهوةِ ، وأظهرُ الآفاتِ : الحاجةُ إلىٰ كسبِ الحرامِ ، والاشتغالُ عنِ اللهِ سبحانَهُ ، فلنفرضْ تقابلَ هـٰذهِ الأمورِ ، فنقولُ :

مَنْ لمْ يكنْ في أذيّةٍ مِنَ الشهوةِ ، وكانتْ فائدةُ نكاحِهِ في السعي لتحصيلِ الولدِ ، وكانتِ الآفةُ الحاجةَ إلىٰ كسبِ الحرامِ ، والاشتغالَ عنِ اللهِ . .

فالعزوبةُ لهُ أولىٰ ، فلا خيرَ فيما يشغلُ عنِ اللهِ ، ولا خيرَ في كسبِ الحرامِ ، ولا يفي بنقصانِ هـٰذينِ الأمرينِ أمرُ الولدِ ؛ لأنَّ النكاحَ للولدِ سعيٌ في طلبِ حياةٍ للولدِ موهومةٍ ، وهـٰذا نقصانٌ في الدينِ ناجزٌ ، فحفظُهُ لحياةِ نفسِهِ وصونُها عنِ الهلاكِ أهمُّ مِنَ السعيِ في الولدِ ، وذلكَ ربحٌ ، والدينُ رأسُ مالٍ ، وفي فسادِ الدينِ بطلانُ الحياةِ الأخرويَّةِ ، وذهابُ رأسِ المالِ ، ولا تقاومُ هـٰذهِ الفائدةُ إحدىٰ هاتينِ الآفتينِ .

وأمَّا إذا انضافَ إلىٰ أمرِ الولدِ حاجةُ كسرِ الشهوةِ لتوقانِ النفسِ إلى النكاحِ . . نُظِرَ :

فإنْ لمْ يقوَ لجامُ التقوىٰ في رأسِهِ ، وخافَ علىٰ نفسِهِ الزنا . . فالنكاحُ لهُ أولىٰ ؛ لأنَّهُ متردِّدٌ بينَ أنْ يقتحمَ الزنا أوْ يأكلَ الحرامَ ، والكسبُ الحرامُ أهونُ الشرَّينِ .

وإنْ كانَ يثقُ بنفسِهِ أنَّهُ لا يزني ، ولكنْ لا يقدرُ معَ ذلكَ علىٰ غضِّ البصرِ عنِ الحرامِ . . فتركُ النكاحِ أولىٰ ؛ لأنَّ النظرَ حرامٌ ، والكسبُ مِنْ غيرِ وجهِهِ حرامٌ ، والكسبُ يقعُ دائماً ، وفيهِ عصيانُهُ وعصيانُ أهلِهِ ، والنظرُ يقعُ أحياناً ، وهوَ يخصُّهُ ، وينصرمُ علىٰ قربٍ ، والنظرُ زنا العينِ[1] ، ولكنْ إذا لمْ يصدِّقْهُ الفرجُ . . فهوَ إلى العفوِ أقربُ مِنْ أكلِ الحرامِ ، إلاَّ أنْ يخافَ

---

(١) روىٰ أحمد في « المسند » (٢/ ٣٧٢) مرفوعاً : « العينان تزنيان ، واللسان يزني ، واليدان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، يحقق ذلك الفرج أو يكذبه » .

إفضاءَ النظرِ إلىٰ معصيةِ الفرجِ ، فيرجعُ ذلكَ إلىٰ خوفِ العنتِ .

وإذا ثبتَ هـٰذا . . فالحالةُ الثالثةُ ـ وهوَ أنْ يقوىٰ علىٰ غضِّ البصرِ ولكنْ لا يقوىٰ علىٰ دفعِ الأفكارِ الشاغلةِ للقلبِ ـ أولىٰ بتركِ النكاحِ ؛ لأنَّ عملَ القلبِ إلى العفوِ أقربُ ، وإنَّما يُرادُ فراغُ القلبِ للعبادةِ ، ولا تتمُّ عبادةٌ معَ الكسبِ الحرامِ وأكلِهِ وإطعامِهِ .

فهكذا ينبغي أنْ تُوزنَ هـٰذهِ الآفاتُ بالفوائدِ ، ويُحكمَ بحسبِها ، ومَنْ أحاطَ بهـٰذا . . لمْ يشكلْ عليه شيءٌ ممَّا نُقلَ عنِ السلفِ مِنْ ترغيبٍ في النكاحِ مرَّةً ، ورغبةٍ عنهُ أخرىٰ ؛ إذْ ذلكَ بحسبِ الأحوالِ صحيحٌ .

* * *

فإنْ قلتَ : فَمَـنْ أَمِنَ الآفاتِ . . فالأفضلُ لهُ التخلِّي لعبادةِ اللهِ أَوِ النكاحُ ؟

فأقولُ : يجمعُ بينَهُما ؛ لأنَّ النكاحَ ليسَ مانعاً مِنَ التخلِّي لعبادةِ اللهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ عقدٌ ، ولكنْ مِنْ حيثُ الحاجةُ إلى الكسبِ ، فإنْ قدرَ على الكسبِ الحلالِ . . فالنكاحُ أيضاً أفضلُ ؛ لأنَّ الليلَ وسائرَ أوقاتِ النهارِ يبقىٰ للتخلِّي فيهِ للعبادةِ ، والمواظبةُ على العبادةِ مِنْ غيرِ استراحةٍ غيرُ ممكنٍ .

فإنْ فُرضَ كونُهُ مستغرقَ الأوقاتِ بالكسبِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ لهُ وقتٌ سوىٰ أوقاتِ المكتوبةِ والنومِ والأكلِ وقضاءِ الحاجةِ ؛ فإنْ كانَ الرجلُ ممَّنْ لا يسلكُ سبيلَ الآخرةِ إلا بالصلاةِ النافلةِ أوِ الحجِّ وما يجري مَجراهُ مِنَ

الأعمالِ البدنيَّةِ . . فالنكاحُ لهُ أفضلُ ؛ لأنَّ في كسبِ الحلالِ والقيامِ بالأهلِ والسعيِ في تحصيلِ الولدِ والصبرِ علىٰ أخلاقِ النساءِ أنواعاً مِنَ العباداتِ ، لا يقصرُ فضلُها عنْ نوافلِ العباداتِ .

وإنْ كانَ عبادتُهُ بالعلمِ والفكرِ وسيرِ الباطنِ والكسبُ يشوِّشُ عليهِ ذلكَ . . فتركُ النكاحِ أفضلُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فلمَ تركَ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ النكاحَ معَ فضلِهِ ؟ وإنْ كانَ الأفضلُ التخلِّيَ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ . . فلمَ استكثرَ رسولُنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الأزواجِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الأفضلَ الجمعُ بينَهُما في حقِّ مَنْ قدرَ عليهِ ، ومَنْ قويَتْ مُنَّتُهُ وعلَتْ همَّتُهُ . . فلا يشغلُهُ عنِ اللهِ شاغلٌ ، فرسولُنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ أخذَ بالقوَّةِ ، وجمعَ بينَ فضلِ العبادةِ والنكاحِ ، فلقدْ كانَ معَ تسعٍ مِنَ النسوةِ متخلِّياً لعبادةِ اللهِ ، وكانَ قضاءُ الوطرِ بالنكاحِ في حقِّهِ غيرَ مانعٍ ؛ كما لا يكونُ قضاءُ الحاجةِ في حقِّ المشغولينَ بتدبيراتِ الدنيا مانعاً لهُمْ عنِ التدبيرِ ، حتَّىٰ إنَّهُمْ يشتغلونَ في الظاهرِ بقضاءِ الحاجةِ وقلوبُهُمْ مستغرقةٌ بهِمَمِهِمْ غيرُ غافلةٍ عنْ مهمَّاتِهِمْ ، فكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعلوِّ درجتِهِ لا يمنعُهُ أمرُ هٰذا العالمِ عنْ حضورِ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ ، فكانَ ينزلُ عليهِ الوحيُ وهوَ في

فراشِ امرأتِه[١]، ومتىٰ يسلمُ مثلُ هٰذا المنصبِ لغيرِه؟! فلا يبعدُ أنْ يغيِّرَ السواقيَ ما لا يغيِّرُ البحرَ الخضمَّ ، فلا ينبغي أنْ يُقاسَ عليهِ غيرُهُ .

وأمَّا عيسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فإنَّهُ أخذَ بالحزمِ لا بالقوَّةِ ، واحتاطَ لنفسِهِ ، ولعلَّ حالتَهُ كانتْ حالةً يؤثِّرُ فيها الاشتغالُ بالأهلِ ، أوْ يتعذَّرُ معها طلبُ الحلالِ ، أوْ لا يتيسَّرُ فيها الجمعُ بينَ النكاحِ والتخلِّي للعبادةِ ، فآثرَ التخلِّيَ للعبادةِ .

وهمْ أعلمُ بأسرارِ أحوالِهِمْ ، وأحكامِ أعصارِهِمْ في طيبِ المكاسبِ وأخلاقِ النساءِ ، وما على الناكحِ مِنْ غوائلِ النكاحِ ، وما لهُ فيهِ .

ومهما كانتِ الأحوالُ منقسمةً ، حتَّىٰ يكونُ النكاحُ في بعضِها أفضلَ ، وتركُهُ في بعضِها أفضلَ . . فحقُّنا أنْ ننزِّلَ أفعالَ الأنبياءِ على الأفضلِ في كلِّ حالٍ[٢] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) كما روى البخاري (٣٧٧٥) : « يا أمَّ سلمة ؛ لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنَّ غيرها » .

(٢) فنقول : حال عيسىٰ عليه السلام أفضل في شريعته ، وقد نسخت الرهبانية في ملتنا ، وكلٌّ من الحالين له فضيلة ، وإذا تعارضا . . قدِّم التمسك بحال نبينا صلى الله عليه وسلم . « إتحاف » (٥/ ٣٢٤) .

البَابُ الثَّاني
فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أمَّا العقدُ : فأركانُهُ وشروطُهُ لينعقدَ ويفيدَ الحِلَّ أربعةٌ :

الأوَّلُ : إذنُ الوليِّ ، فإنْ لمْ يكنْ . . فالسلطانُ .

الثاني : رضا المرأةِ إنْ كانتْ ثيِّباً بالغةً ، أوْ كانتْ بكراً بالغةً ولكنْ يزوِّجُها غيرُ الأبِ والجدِّ .

الثالثُ : حضورُ شاهدينِ ظاهريِ العدالةِ ، فإنْ كانا مستورينِ . . حكمْنا بالانعقادِ للحاجةِ .

الرابعُ : إيجابٌ وقبولٌ متَّصلٌ بهِ بلفظِ الإنكاحِ أوِ التزويجِ أوْ معناهما الخاصِّ بكلِّ لسانٍ ، مِنْ شخصينِ مكلَّفينِ ليسَ فيهما امرأةٌ ، سواءً كانَ هوَ الزوجَ أوِ الوليَّ أوْ وكيلَهُما .

***

وأمَّا آدابُهُ : فتقديمُ الخِطبةِ معَ الوليِّ لا في حالِ عدَّةِ المرأةِ ، بلْ بعدَ انقضائِها إنْ كانتْ معتدةً ، ولا في حالِ سبقِ غيرِهِ بالخِطبةِ ؛

إذْ نُهِيَ عنِ الخِطبةِ على الخِطبةِ(١) .

ومِنْ آدابِهِ : الخُطبةُ قبلَ النكاحِ ، ومزْجُ التحميدِ بالإيجابِ والقبولِ :

فيقولُ المزوِّجُ : الحمدُ للهِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ ، زوَّجتُكَ ابنتي فلانةَ .

ويقولُ الزوجُ : الحمدُ للهِ ، والصلاةُ علىٰ رسولِ اللهِ ، قبلتُ نكاحَها علىٰ هـٰذا الصداقِ .

وليكنِ الصَّداقُ معلوماً وخفيفاً ، والتحميدُ قبلَ الخطبةِ أيضاً مستحبٌّ(٢) .

ومِنْ آدابِهِ : أنْ يلقيَ أمرَ الزوجِ إلىٰ سمْعِ الزوجةِ(٣) وإنْ كانتْ بكراً ، فذلكَ أولىٰ وأحرىٰ بالألفةِ .

ولذلكَ يُستحبُّ النظرُ إليها قبلَ النكاحِ ، فإنَّهُ أحرىٰ أنْ يُؤدَمَ بينَهُما .

---

(١) روى البخاري (٢١٤٠) ، ومسلم (١٤٠٨) مرفوعاً : « لا يخطب الرجل علىٰ خطبة أخيه » الحديث .

(٢) فيحمد الله ، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول : جئتكم خاطباً لكريمتكم ، ويقول الولي بعد الحمد والصلاة ، ولست بمرغوب عنه ، وما يشبه ذلك . « إتحاف » (٥/ ٣٣٠) .

(٣) ويشرح شأنه ؛ لتكون علىٰ بصيرة من أمره ، ويقين من حاله ، ويدخل على اختيار منها . « إتحاف » (٥/ ٣٣٠) .

ومِنَ الآدابِ : إحضارُ جمعٍ مِنْ أهلِ الصلاحِ زيادةً على الشاهدينِ اللذينِ هما ركنانِ للصحَّةِ .

ومنها : أنْ ينويَ بالنكاحِ إقامةَ السنَّةِ ، وغضَّ البصرِ ، وطلبَ الولدِ ، وسائرَ الفوائدِ التي ذكرناها .

ولا يكونُ قصدُهُ مجرَّدَ الهوىٰ والتمتُّعِ ، فيصيرَ عملُهُ مِنْ أعمالِ الدنيا ، ولا يمنعُ ذلكَ هـٰذهِ النيَّاتِ ، فربَّ حقٍّ يوافقُ الهوىٰ ، قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : (إذا وافقَ الحقُّ الهوىٰ . . فهوَ الزبدُ بالنِّرْسيانِ)(١) ، ولا يستحيلُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ مِنْ حظِّ النفسِ وحقِّ الدين باعثاً معاً .

ويُستحبُّ أنْ يعقدَ في المسجدِ ، وفي شهرِ شوَّالٍ ؛ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (تزوَّجَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شوالٍ ، وبنىٰ بي في شوالٍ)(٢) .

* * *

وأمَّا المنكوحةُ : فيُعتبرُ فيها نوعانِ : **أحدُهما** : للحلِّ ، **والثاني** : لطيبِ المعيشةِ وحصولِ المقاصدِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٤٨) ، وهو مثل قديم يضرب لما يستطاب ويستعذب ، **والنرسيان** : ضرب من التمر نجيب .
(٢) رواه مسلم (١٤٢٣) .

النوعُ الأوَّلُ : ما يُعتبرُ فيها للحلِّ : وهوَ أنْ تكونَ خليَّةً عنْ موانعِ النكاحِ ، **والموانعُ تسعةَ عشرَ** :

الأوَّلُ : أنْ تكونَ منكوحةً للغيرِ .

الثاني : أنْ تكونَ معتدةً للغيرِ ، سواءً كانتْ عِدَّةَ وفاةٍ ، أوْ طلاقٍ ، أوْ وطءِ شبهةٍ ، أوْ كانتْ في استبراءِ وطءٍ عنْ ملْكِ يمينٍ .

الثالثُ : أنْ تكونَ مرتدَّةً عنِ الدينِ بجريانِ كلمةٍ علىٰ لسانِها مِنْ كلماتِ الكفرِ .

الرابعُ : أنْ تكونَ مجوسيَّةً .

الخامسُ : أنْ تكونَ وثنيةً ، أوْ زِنديقةً[1] ، لا تُنسبُ إلىٰ نبيٍّ وكتابٍ ، ومنهُنَّ المعتقداتُ لمذهبِ الإباحةِ ، فلا يحلُّ نكاحُهُنَّ ، وكذلكَ كلُّ معتقدةٍ مذهباً فاسداً يُحكمُ بكفرِ معتقدِهِ .

السادسُ : أنْ تكونَ كتابيةً قدْ دانتْ بدينِهِمْ بعدَ التبديلِ ، أوْ بَعد مبعثِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومعَ ذلكَ فليستْ مِنْ نسبِ بني إسرائيلَ ، فإذا عدمَتْ كلتا الفضيلتينِ . . لمْ يحلَّ نكاحُها ، وإنْ عدمَتِ النسبَ فقطْ . . ففيهِ خلافٌ .

---

(١) الزنديق : من لا يتمسك بشريعة ويقول بدوام الدهر ، وهو المعبر عنه بالملحد الذي يطعن في الأديان .

السابعُ : أنْ تكونَ رقيقةً والناكحُ حرّاً قادراً علىٰ طَوْلِ الحرَّةِ ، أوْ غيرَ خائفٍ مِنَ العنتِ .

الثامنُ : أنْ تكونَ كلُّها أوْ بعضُها مملوكاً للناكحِ ملكَ يمينٍ .

التاسعُ : أنْ تكونَ قريبةً للزوجِ ، بأنْ تكونَ مِنْ أصولِهِ ، أوْ فصولِهِ ، أوْ فصولِ أوَّلِ أصولِهِ ، أوْ مِنْ أوَّلِ فصْلٍ مِنْ كلِّ أصلٍ بعدَهُ أصلٌ ، وأعني بأصولِهِ : الأمهاتِ والجدَّاتِ ، وبفصولِهِ : الأولادَ والأحفادَ ، وبفصولِ أوَّلِ أصولِهِ : الإخوةَ وأولادَهُمْ ، وبأوَّلِ فصلٍ مِنْ كلِّ أصلٍ بعدَهُ أصلٌ : العماتِ والخالاتِ دونَ أولادِهنَّ .

العاشرُ : أنْ تكونَ محرَّمَةً بالرضاعِ ، ويحرمُ مِنَ الرضاعِ ما يحرمُ مِنَ النسبِ مِنَ الأصولِ والفصولِ كما سبقَ ، ولكنَّ المحرِّمَ خمسُ رضعاتٍ ، وما دونَ ذلكَ لا يحرِّمُ .

الحاديَ عشرَ : المحرَّمُ بالمصاهرةِ ، وهوَ أنْ يكونَ الناكحُ قدْ نكحَ ابنتَها أوْ حفيدتَها مِنْ قبلُ أوْ وطئَهنَّ بالشبهةِ في عقدٍ ، أوْ وطىءَ أمَّها أوْ إحدىٰ جدَّاتِها بعقدٍ أوْ شبهةِ عقدٍ ، فمجرَّدُ العقدِ على المرأةِ يحرِّمُ أمَّهاتِها ، ولا يحرِّمُ فروعَها إلا بالوطءِ ، أوْ يكونَ أبوهُ أوِ ابنُهُ نكحَها قبلُ .

الثانيَ عشرَ : أنْ تكونَ المنكوحةُ خامسةً ؛ أيْ : يكونَ تحتَ الناكحِ أربعٌ سواها ، إمَّا في نفسِ النكاحِ ، أوْ في عِدَّةِ الرجعةِ ، فإنْ كانتْ في عِدَّةِ بينونةٍ . . لمْ تمنعِ الخامسةَ .

الثالثَ عشرَ : أنْ يكونَ تحتَ الناكحِ أختُها أوْ عمَّتُها أوْ خالتُها ، فيكونَ بالنكاحِ جامعاً بينَهُما ، وكلُّ شخصينِ بينَهُما قرابةٌ لوْ كانَ أحدُهما ذكراً والآخرُ أنثىٰ . . لمْ يجزْ بينَهُما النكاحُ ؛ فلا يجوزُ أنْ يجمعَ بينَهُما .

الرابعَ عشرَ : أنْ يكونَ هـٰذا الناكحُ قدْ طلَّقَها مِنْ قبلُ ثلاثاً ، فهيَ لا تحلُّ لهُ ما لمْ يطأْها زوجٌ غيرُهُ في نكاحٍ صحيحٍ .

الخامسَ عشرَ : أنْ يكونَ الناكحُ قدْ لاعنَ عنها(١) ؛ فإنَّها تحرمُ عليهِ أبداً بعدَ اللعانِ .

السادسَ عشرَ : أنْ تكونَ مُحْرِمةً بحجٍّ أوْ عمرةٍ ، أوْ كانَ الزوجُ كذلكَ ، فلا ينعقدُ النكاحُ إلا بعدَ تمامِ التحلُّلِ .

السابعَ عشرَ : أنْ تكونَ ثيِّباً صغيرةً ، فلا يصحُّ نكاحُها إلا بعدَ البلوغِ .

الثامنَ عشرَ : أنْ تكونَ يتيمةً ، فلا يصحُّ نكاحُها إلا بعدَ البلوغِ .

التاسعَ عشرَ : أنْ تكونَ مِنْ أزواجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ممَّنْ تُوفِّيَ عنْهَا أوْ دخلَ بها ؛ فإنَّهُنَّ أمهاتُ المؤمنينِ ، وذلكَ لا يُوجدُ في زمانِنا .

فهـٰذهِ هيَ الموانعُ المحرِّمةُ .

* * *

---

(١) انظر « نهاية المطلب » (١٥/ ٦٠) ، و« الوسيط » (٥/ ٥١) .

أمَّا الخصالُ المطيِّبةُ للعيشِ التي لا بدَّ مِنْ مراعاتِها في المرأةِ ليدومَ العقدُ وتتوفَّرَ مقاصدُهُ . ثمانيةٌ : الدينُ ، والخُلُقُ ، والحُسْنُ ، وخفَّةُ المهرِ ، والولادةُ ، والبكارةُ ، والنسبُ ، وألا تكونَ قرابةً قريبةً .

الأولىٰ : أنْ تكونَ صالحةً ذاتَ دينٍ : فهٰذا هوَ الأصلُ ، وبهِ ينبغي أنْ يقعَ الاعتناءُ ، فإنَّها إنْ كانتْ ضعيفةَ الدينِ في صيانةِ نفسِها وفرْجِها . . أزرَتْ بزوجِها ، وسوَّدَتْ بينَ الناسِ وجهَهُ ، وشوَّشَتْ بالغيرةِ قلبَهُ ، وتنغَّصَ بذلكَ عيشُهُ ، فإنْ سلكَ سبيلَ الحميَّةِ والغيرةِ . . لمْ يزلْ في بلاءٍ ومحنةٍ ، وإنْ سلكَ سبيلَ التساهلِ . . كانَ متهاوناً بدينهِ وعرضِهِ ، ومنسوباً إلىٰ قلَّةِ الأنفةِ والحميةِ .

وإذا كانتْ معَ الفسادِ جميلةً . . كانَ بلاؤُها أشدَّ ؛ إذْ يشقُّ على الزوجِ مفارقتُها ، فلا يصبرُ عنها ولا يصبرُ عليها ، ويكونُ كالذي جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ لي امرأةً لا تردُّ يدَ لامسٍ ، قالَ : « طلِّقْها » ، فقالَ : إنِّي أحبُّها ، قالَ : « أمسكْها »[1] ،

(١) رواه أبو داوود (٢٠٤٩) ، والنسائي (٦/ ٦٧) واللفظ له ، وجاء التصريح بأنها حسناء في رواية الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٢٤٠) ، واختلفوا في معنىٰ : (لا ترد يد لامس) ، وغالبهم أنه دال علىٰ فجورها ، وبعضهم قال : هو كناية عن بذل الطعام ، ونقل العلامة السهارنفوري في « بذل المجهود » (١٠/ ١٢ـ ١٣) عن الحافظ ابن كثير : حمل اللمس على الزنا بعيد جداً ، والأقرب حمله أن الزوج فهم منها أنها لا ترد من أراد منها السوء ، لا أنه تحقق وقوع ذلك منها ، بل ظهر له ذلك بقرائن ، فأرشده الشارع إلىٰ مفارقتها احتياطاً ، فلما أعلمه أنه لا يقدر علىٰ فراقها لمحبته لها ، =

وإنَّما أمرَهُ بإمساكِها خوفاً عليهِ بأنَّهُ إنْ طلَّقَها . . أتبعَها نفسَهُ وفسدَ هوَ أيضاً معَها ، فرأىٰ ما في دوامِ نكاحِهِ مِن دفعِ الفسادِ عنهُ معَ ضيقِ قلبِهِ أولىٰ .

وإنْ كانتْ فاسدةَ الدينِ باستهلاكِ مالِهِ[1] أوْ بوجهٍ آخرَ . . لمْ يزلِ العيشُ مشوَّشاً معَهُ ؛ فإنْ سكتَ ولمْ ينكرْ . . كانَ شريكاً في المعصيةِ ، مخالفاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ ، وإنْ أنكرَ وخاصمَ . . تنغَّصَ العمرُ ، ولهٰذا بالغَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التحريضِ علىٰ نكاحِ ذاتِ الدينِ فقالَ : « تُنكحُ المرأةُ لمالِها وجمالِها وحسبِها ودينِها ، فعليكَ بذاتِ الدينِ تربتْ يداكَ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ نكحَ المرأةَ لمالِها وجمالِها . . حُرِمَ مالَها وجمالَها ، ومَنْ نكحَها لدينِها . . رزقَهُ اللهُ مالَها وجمالَها »[3] .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تنكحِ المرأةَ لجمالِها ؛ فلعلَّ

= وأنه لا يصبر علىٰ ذلك . . رخص له في إبقائها ؛ لأن محبته لها متحققة ووقوع الفاحشة منها متوهم .

(١) بأن تضعه في غير مواضعه ، سواء أذن لها فيه أو لم يأذن . « إتحاف » (٥/ ٣٤٠) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٢٣٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٥) مرفوعاً : « من تزوج امرأة لعزها . . لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها . . لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها . . لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوجها لم يتزوجها إلا ليغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه . . إلا بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه » .

جمالَها يُرْديها ، ولا لمالِها ؛ فلعلَّ مالَها يُطْغيها ، وانكحِ المرأةَ لدينِها »(١) .

وإنَّما بالغَ في الحثِّ على الدينِ لأنَّ مثلَ هٰذهِ المرأةِ تكونُ عوناً على الدينِ ، فأمَّا إذا لمْ تكنْ متديِّنةً . . كانتْ شاغلةً عنِ الدينِ ومشوِّشةً لهُ .

* * *

الثانيةُ : حُسْنُ الخُلُقِ : وذلكَ أصلٌ مهمٌّ في طلبِ الفراغةِ والاستعانةِ على الدينِ ، فإنَّها إذا كانتْ سليطةً ، بذيئةَ اللسانِ ، سيئةَ الخلقِ ، كافرةً للنعمِ . . كانَ الضررُ منها أكثرَ مِنَ النفعِ .

والصبرُ علىٰ لسانِ النساءِ ممَّا يُمتحنُ بهِ الأولياءُ .

قالَ بعضُ العربِ : (لا تنكحوا مِنَ النساءِ ستّاً : لا أنَّانةً ، ولا منَّانةً ، ولا حنَّانةً ، ولا تنكحوا حدَّاقةً ، ولا برَّاقةً ، ولا شدَّاقةً)(٢) .

أمَّا الأنَّانةُ : فهيَ التي تكثرُ الأنينَ والتشكِّيَ ، وتعصبُ رأسَها كلَّ ساعةٍ ، فنكاحُ المِمْراضَةِ أوْ نكاحُ المتمارضةِ لا خيرَ فيهِ(٣) .

والمنَّانةُ : التي تمنُّ علىٰ زوجِها فتقولُ : فعلتُ لأجلكَ كذا وكذا .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، ورواه ابن ماجه (١٨٥٩) بلفظ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ؛ فعسىٰ حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن ؛ فعسىٰ أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥٥) ، وسياق المصنف في شرحه للخبر عنده كذلك .

(٣) والممراضة : من يصيبها المرض كثيراً ، والمتمارضة : من تظهره وليس بها علة .

والحنَّانةُ : التي تحنُّ إلىٰ زوجٍ آخرَ أوْ ولدٍ لها مِنْ زوجٍ آخرَ ، وهٰذا أيضاً ممَّا يجبُ اجتنابُهُ .

والحدَّاقَةُ : التي ترمي إلىٰ كلِّ شيءٍ بحدقتِها فتشتهيهِ ، وتكلِّفُ الزوجَ شراءَهُ .

والبرَّاقةُ : تحتملُ معنيينِ : أحدُهما : أنْ تكونَ طولَ النهارِ في تصقيلِ وجهِها وتزيينِهِ ؛ ليكونَ لوجهِها بريقٌ محصَّلٌ بالتصنُّعِ ، والثاني : أنْ تغضبَ على الطعامِ فلا تأكلَ إلا وحدَها ، وتستقلَّ نصيبَها مِنْ كلِّ شيءٍ ، وهٰذهِ لغةٌ يمانيةٌ ، يقولونَ : برقتِ المرأةُ وبرقَ الصبيُّ الطعامَ ؛ إذا غضبَ عندَهُ(١) .

والشدَّاقةُ : المتشدِّقةُ الكثيرةُ الكلامِ ، ومنهُ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ اللهَ يُبغضُ الثرثارينَ المتشدِّقينَ »(٢) .

ويُحكىٰ أنَّ السائحَ الأزديَّ لقيَ إلياسَ عليهِ السلامُ في سياحتِهِ ، فأمرَهُ بالتزويجِ ونهاهُ عنِ التبتُّلِ ، ثمَّ قالَ : (لا تنكحْ أربعاً : المختلعة ، والمباريةُ ، والعاهرُ ، والناشزُ)(٣) .

---

(١) ويحتمل أن تكون من برقتْ إذا تهددت وتوعدت . « إتحاف » (٥/ ٣٤١) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٥) ، ورواه الترمذي (٢٠١٨) ولفظه : « وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » الحديث .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٥٦) ، والخبر عن إلياس عليه السلام في « تفسير الثعلبي » (٨/ ١٦٧ـ ١٦٨) مروياً عن رجل من أهل عسقلان ، وعند الحافظ الزبيدي : (الأردني) بدل (الأزدي) وقال : (منسوب إلىٰ أردن كأفلس جمع فلس ، واد بالشام) . « إتحاف » (٥/ ٣٤١) .

فأمَّا المختلعةُ : فهيَ التي تطلبُ الخلْعَ كلَّ ساعةٍ مِنْ غيرِ سببٍ .

والمباريةُ : المباهيةُ لغيرِها ، المفاخرةُ بأسبابِ الدنيا .

والعاهرُ : الفاسقةُ التي تُعرفُ بخليلٍ وخدْنٍ ، وهيَ التي قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ .

والناشزُ : التي تعلو علىٰ زوجِها في الفعالِ والمقالِ ، والنشزُ : العالي مِنَ الأرضِ .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (شرُّ خصالِ الرجالِ خيرُ خصالِ النساءِ : البخلُ ، والزهوُ ، والجبنُ ؛ فإنَّ المرأةَ إذا كانتْ بخيلةً . . حفظتْ مالَها ومالَ زوجِها ، فإذا كانتْ مزهوةً . . استنكفَتْ أنْ تكلِّمَ كلَّ أحدٍ بكلامٍ لينٍ مريبٍ ، وإذا كانتْ جبانةً . . فَرِقَتْ مِنْ كلِّ شيءٍ ، فلمْ تخرجْ مِنْ بيتِها ، واتقَتْ مواضعَ التُّهَمِ خيفةً مِنْ زوجِها)(١) .

فهـٰذهِ الحكاياتُ ترشدُ إلىٰ مجامعِ الأخلاقِ المطلوبةِ في النكاحِ .

* * *

الثالثةُ : حسْنُ الوجهِ : فذلكَ أيضاً مطلوبٌ ؛ إذْ بهِ يحصلُ التحصُّنُ ، والطبعُ لا يكتفي بالدميمةِ غالباً ، كيفَ والغالبُ أنَّ حسْنَ الخُلُقِ والخَلْقِ لا يفترقانِ ؟!

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٥٦) .

وما نقلناهُ مِنَ الحثِّ على الدينِ ، وأنَّ المرأةَ لا تُنكحُ لجمالِها . . ليسَ زجراً عنْ رعايةِ الجمالِ ، بلْ هوَ زجرٌ عنِ النكاحِ لأجلِ الجمالِ المحضِ معَ الفسادِ في الدينِ ، فإنَّ الجمالَ وحدَهُ في غالبِ الأمرِ يُرغِّبُ في النكاحِ ، ويُهوِّنُ أمرَ الدينِ ، ويدلُّ على الالتفاتِ إلىٰ معنى الجمالِ أنَّ الأُلفةَ والمودَّةَ تحصلُ بهِ غالباً ، وقدْ ندبَ الشرعُ إلىٰ مراعاةِ أسبابِ الأُلفةِ ، ولذلكَ استحبَّ النظرَ فقالَ : « إذا أوقعَ اللهُ في نفسِ أحدِكُمْ مِنِ امرأةٍ شيئاً . . فلينظرْ إليها ؛ فإنَّهُ أحرىٰ أنْ يُؤدَمَ بينَهُما »[1] ؛ أيْ : يؤلَّفَ بينَهُما ؛ مِنْ وقوعِ الأُدَمَةِ على الأَدَمَةِ ، وهيَ الجلدةُ الباطنةُ ، والبشرةُ : الجلدةُ الظاهرةُ ، وإنما ذكرَ ذلكَ للمبالغةِ في الائتلافِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ في أعينِ الأنصارِ شيئاً ، فإذا أرادَ أحدُكُمْ أنْ يتزوَّجَ منهنَّ . . فلينظرْ إليهِنَّ »[2] ، قيلَ : كانَ في أعينِهِنَّ عَمَشٌ ، وقيلَ : صغرٌ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٠) في رواية له ، وقد رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٤٦٩) ، و« مسند الشاميين » (٩٠٥) عن المطعم بن المقدام قال : رأيت محمد بن مسلمة واقفاً علىٰ ظهر إجَّارٍ ـ وهو السطح ـ ينظر إلىٰ أخت الضحاك بن قيس ، فقلت : تفعل هٰذا وأنت صاحب رسول الله ؟! فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا أوقع الله في قلب امرىءٍ خطبة امرأة . . فلا بأس أن يتأمل خَلْقها » .

وروى الترمذي (١٠٨٧) ، والنسائي (٦/ ٦٩) ، وابن ماجه (١٨٦٥) في حديث المغيرة بن شعبة : « فانظر إليها ؛ فإنه أحرىٰ أن يؤدم بينكما » .

(٢) رواه مسلم (١٤٢٤) .

وكانَ بعضُ الورعينَ لا يُنكحونَ كرائمَهُمْ إلا بعدَ النظرِ ؛ احترازاً مِنَ الغرورِ .

وقالَ الأعمشُ : (كلُّ تزويجٍ يقعُ علىٰ غيرِ نظرٍ . . فآخِرُهُ همٌّ وغمٌّ)[١] .

ومعلومٌ أنَّ النظرَ لا يعرفُ الخُلُقَ والدينَ والمالَ ، وإنَّما يعرفُ الجمالَ والقبحَ .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً تزوَّجَ علىٰ عهدِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وكانَ قدْ خضبَ ، فنصلَ خضابُهُ ، فاستعدىٰ عليهِ أهلُ المرأةِ إلىٰ عمرَ وقالوا : حسبناهُ شابّاً ، فأوجعَهُ عمرُ ضرباً وقالَ : غررتَ القومَ[٢] .

ورُوِيَ أنَّ بلالاً وصهيباً أتيا أهلَ بيتٍ مِنَ العربِ ، فخطبا إليهِمْ ، فقيلَ لهما : مَنْ أنتُما ؟ فقالَ بلالٌ : أنا بلالٌ ، وهـٰذا أخي صهيبٌ ، كنَّا ضالينِ فهدانا اللهُ ، وكنَّا مملوكينِ فأعتقَنا اللهُ ، وكنَّا عائلينِ فأغنانا اللهُ ، فإنْ تزوِّجونا . . فالحمدُ للهِ ، وإنْ تردُّونا . . فسبحانَ اللهِ ، فقالوا : بل تُزوَّجانِ والحمدُ للهِ ، فقالَ صهيبٌ لبلالٍ : لوْ ذكرتَ مشاهدَنا وسوابقَنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ! فقالَ : اسكتْ ، فقدْ صدقتُ فأنكحَكَ الصدقُ[٣] .

والغرورُ يقعُ في الجمالِ والخُلُقِ جميعاً ، فيُستحبُّ إزالةُ الغرورِ في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٨) .

(٣) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢/ ٤٥٨) .

الجمالِ بالنظرِ ، وفي الخُلُقِ بالوصفِ والاستيصافِ ، فينبغي أنْ يقدِّمَ ذلكَ على النكاحِ ، ولا يستوصفُ في أخلاقِها وجمالِها إلا مَنْ هوَ بصيرٌ صادقٌ ، خبيرٌ بالظاهرِ والباطنِ ، ولا يميلُ إليها فيفرطَ في الثناءِ ، ولا يحسدُها فيقصِّرَ ؛ فالطباعُ مائلةٌ في مبادي النكاحِ ووصف المنكوحاتِ إلى الإفراطِ والتفريطِ ، وقَلَّ مَنْ يصدقُ فيهِ ويقتصدُ ، بلِ الخداعُ والإغراءُ أغلبُ ، والاحتياطُ فيهِ مهمٌّ لمَنْ يخشىٰ علىٰ نفسِهِ التشوُّفَ إلىٰ غيرِ زوجتِهِ .

فأمَّا مَنْ أرادَ مِنَ الزوجيَّةِ مجرَّدَ السنَّةِ ، أوِ الولدِ ، أوْ تدبيرِ المنزلِ . . فلو رغبَ عنِ الجمالِ فهوَ إلى الزهدِ أقربُ ؛ لأنَّهُ على الجملةِ بابٌ مِنَ الدنيا وإنْ كانَ قدْ يعينُ على الدينِ في حقِّ بعضِ الأشخاصِ .

قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الزهدُ في كلِّ شيءٍ حتَّىٰ في المرأةِ ، يتزوَّجُ الرجلُ العجوزَ ؛ إيثاراً للزهدِ في الدنيا)(١) .

وقدْ كانَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (يتركُ أحدُكُمْ أنْ يتزوَّجَ يتيمةً فقيرةً فيؤجرَ فيها ؛ إنْ أطعمَها وكساها . تكونُ خفيفةَ المؤنةِ ، ترضىٰ باليسيرِ ، ويتزوَّجُ بنتَ فلانٍ وفلانٍ ـ يعني : أبناءَ الدنيا ـ فتشتهي عليهِ الشهواتِ ، وتقولُ : اكسُني كذا وكذا !!)(٢) .

واختارَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ عوراءَ علىٰ أختِها ، وكانتْ أختُها جميلةً ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥٠) ، وبنحوه رواه أحمد في « الزهد » (١٨٧٥) .

فسأَلَ : مَنْ أعقلُهُما ؟ فقيلَ : العوراءُ ، فقالَ : زوِّجوني إيَّاها[1] . فهٰذا دأبُ مَنْ لَمْ يقصدِ التمتُّعَ .

فأمَّا مَنْ لا يأمنُ علىٰ دينِهِ ما لَمْ يكنْ لهُ مستمتعٌ . . فليطلبِ الجمالَ ، فالتلذُّذُ بالمباحِ حصنٌ للدينِ ، وقدْ قيلَ : إذا كانتِ المرأةُ حسناءَ ، خيرةَ الأخلاقِ ، سوداءَ الحدقةِ والشعرِ ، كبيرةَ العينِ ، بيضاءَ اللونِ ، محبَّةً لزوجِها ، قاصرةَ الطرفِ عليهِ . . فهيَ علىٰ صورةِ الحورِ العينِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ وصفَ نساءَ أهلِ الجنةِ بهٰذهِ الصفةِ في قولِهِ : ﴿ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ أرادَ بالخيراتِ : حسناتِ الأخلاقِ ، وفي قولِهِ : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ، وفي قولِهِ : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ فالعروبُ : هيَ العاشقةُ لزوجِها المشتهيةُ للوقاعِ ، وبهِ تتمُّ اللذةُ ، والحورُ : البيضُ ، والحوراءُ : شديدةُ بياضِ العينِ شديدةُ سوادِها في سوادِ الشعرِ ، والعيناءُ : الواسعةُ العينِ[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خيرُ نسائِكُمُ التي إذا نظرَ إليها زوجُها . . سرَّتْهُ ، وإذا أمرَها . . أطاعتْهُ ، وإذا غابَ عنها . . حفظتْهُ في نفسِها ومالِهِ »[3] ، وإنَّما يسرُّ بالنظرِ إليها إذا كانتْ محبَّةً للزوجِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٠) ، وقد روى الخبر ابن الجوزي في « مناقب أحمد » (ص٣٧٤) ، وكانت هـٰذه المرأة التي تزوجها ـ وهي ريحانة أم عبد الله ـ بعين واحدة ، وروىٰ بعده خبراً فيه : (مكثنا عشرين سنة ما اختلفنا في كلمة) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٤) .

(٣) رواه أبو داوود (١٦٦٤) ، والنسائي (٦/ ٦٨) ، وابن ماجه (١٨٥٧) بنحوه .

الرابعةُ : أنْ تكونَ خفيفةَ المهرِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ النساءِ أحسنُهُنَّ وجوهاً وأرخصُهُنَّ مهوراً »(١) .

وقد نُهِيَ عنِ المغالاةِ في المهرِ(٢)، تزوَّجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعضَ نسائِهِ علىٰ عشرةِ دراهمَ وأثاثِ بيتٍ ، وكانَ رحىٰ يدٍ وجرَّةً ووسادةً مِنْ أدَمٍ حشوُها ليفٌ(٣)، وأولمَ علىٰ بعضِ نسائِهِ بمُدَّينِ مِنْ شعيرٍ(٤)،

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٦٤) ، والشهاب في « مسنده » (١١٤٦) بلفظ : « خير نساء أمتي أصبحهن وجوهًا وأقلهن مهوراً » ، وروى النسائي في « الكبرىٰ » (٩٢٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها : « أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة » ، ولأحمد في « المسند » (٦/ ٧٧) : « من يُمْن المرأة تيسير خطبتها ، وتيسير صداقها ، وتيسير رحمها » أي : الولادة .

(٢) روىٰ أبو داوود (٢١٠٦) ، والترمذي (١١١٤) ، وابن ماجه (١٨٨٧) عن عمر رضي الله عنه قال : (لا تغالوا صدقة النساء ؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوىٰ عند الله . . لكان أولاكم بها نبي الله صلى الله عليه وسلم ، ما علمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه ، ولا أنكح شيئاً من بناته علىٰ أكثر من ثنتي عشرة أوقية) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٠) ، وروى الطيالسي في « مسنده » (٢٠٢٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٦٧) واللفظ له ، عن أبي سعيد الخدري : (أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أم سلمة علىٰ متاع بيت قيمته عشرة دراهم) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٦/ ٣١٣) قوله صلى الله عليه وسلم لأم سلمة : « أما إني لا أنقصك شيئاً مما أعطيت أختك فلانة ؛ رحيين ، وجرتين ، ووسادة من أدم حشوها ليف » ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم تزوج أم سلمة وإحدىٰ نسائه علىٰ ذلك .

(٤) رواه البخاري (٥١٧٢) ، قال الحافظ ابن حجر : (أقرب ما يفسر به أم سلمة) . « فتح الباري » (٩/ ٢٣٩) .

وعلىٰ أخرىٰ بمُدَّينِ مِنْ تمرٍ ومُدَّينِ مِنْ سويقٍ(١) .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ينهىٰ عنِ المغالاةِ ويقولُ : (ما تزوَّجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا زوَّجَ بناتِهِ بأكثرَ مِنْ أربعِ مئةِ درهمٍ ، ولوْ كانتِ المغالاةُ بمهورِ النساءِ مكرمةً.. لسبقَ إليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(٢) .

وقدْ تزوَّجَ بعضُ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ نواةٍ مِنْ ذهبٍ ، يُقالُ : قيمتُها خمسةُ دراهمَ(٣) .

وزوَّجَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ ابنتَهُ مِنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُما علىٰ درهمينِ ، ثمَّ حملَها هوَ إليهِ ليلاً ، فأدخلَها هوَ مِنَ البابِ ، ثمَّ انصرفَ ، ثمَّ جاءَها بعدَ سبعةِ أيامٍ يسلِّمُ عليها(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٧٤٤) ، والترمذي (١٠٩٥) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٥٦٦) ، وابن ماجه (١٩٠٩) ، وهي السيدة صفية رضي الله عنها ، وليس في الحديث التقييد بالمدين فيهما .

(٢) تقدم قريباً في النهي عن المغالاة في المهور .

(٣) وهو عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه ، رواه البخاري (٢٠٤٨) ، ومسلم (١٤٢٧) ، وقال له صلى الله عليه وسلم : « أولم ولو بشاة » كما سيأتي قريباً .

(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٦٧) ، والخبر فيه هو تزويج سعيد ابنته لابن أبي وداعة ، وسعيد كان صهراً لأبي هريرة رضي الله عنه ، وكان قد خطب ابنةَ سعيد عبدُ الملك لولده الوليد ، فأبىٰ وزوجها ابن أبي وداعة .

ولوْ تزوَّجَ علىٰ عشرةِ دراهمَ للخروجِ عنْ خلافِ العلماءِ . . فلا بأسَ بهِ[1] .

وفي الخبرِ : « مِنْ بركةِ المرأةِ سرعةُ تزويجِها ، وسرعةُ رحمِها ـ أي : الولادةِ ـ ويسْرُ مهرِها »[2] .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أبركُهُنَّ أقلُّهُنَّ مهراً » .

وكما تُكرهُ المغالاةُ في المهرِ مِنْ جهةِ المرأةِ فيُكرَهُ السؤالُ عنْ مالِها مِنْ جهةِ الرجلِ ، فلا ينبغي أنْ ينكحَ طمعاً في المالِ ، قالَ الثوريُّ : (إذا تزوَّجَ وقالَ : أيُّ شيءٍ للمرأةِ . . فاعلمْ أنَّهُ لصٌّ)[3] .

وإذا أهدىٰ إليهِمْ شيئاً . . فلا ينبغي أنْ يهديَ ليضطرَّهُمْ إلى المقابلةِ بأكثرَ منهُ ، وكذلكَ إذا أهدَوا إليهِ ، فنيَّةُ طلبِ الزيادةِ نيَّةٌ فاسدةٌ ، فأمَّا التهادي . . فمستحبٌّ ، وهوَ سببُ المودَّةِ ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « تهادوا تحابُّوا »[4] ، وأمَّا طلبُ الزيادةِ . . فداخلٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أيْ : تعطي لتطلبَ أكثرَ ، وتحتَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، فإنَّ الربا هوَ الزيادةُ ، وهـٰذا طلبُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥٠) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٠) ، ورواه أحمد في « المسند » (٦/ ٧٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٥٠) .
(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٩٤) .

زيادةٍ على الجملةِ وإنْ لمْ يكنْ في الأموالِ الربويَّةِ ، فكلُّ ذلكَ مكروهٌ وبدعةٌ في النكاحِ ، يشبهُ التجارةَ والقمارَ ، ويفسدُ مقاصدَ النكاحِ .

❊ ❊ ❊

الخامسةُ : أنْ تكونَ المرأةُ ولوداً : فإنْ عُرفتْ بالعُقْرِ . . فليمتنعْ مِنْ تزوُّجها ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكُمْ بالولودِ الودودِ »(١) ، وإنْ لمْ يكنْ لها زوجٌ ولمْ يعرفْ حالُها . . فيراعي صحَّتَها وشبابَها ؛ فإنَّها تكونُ ولوداً في الغالبِ معَ هـٰذينِ الوصفينِ .

❊ ❊ ❊

السادسةُ : أنْ تكونَ بكراً : قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لجابرٍ وقدْ نكحَ ثيباً : « هلاَّ بكراً تلاعبُها وتلاعبُكَ »(٢) .

وفي البكارةِ ثلاثُ فوائدَ :

أحدُها : أنْ تحبَّ الزوجَ وتألفَهُ ، فيؤثِّرَ في معنى الوُدِّ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالودودِ » ، والطباعُ مجبولةٌ على الأنسِ بأوَّلِ مألوفٍ ، وأمَّا التي اختبرتِ الرجالَ ومارستِ الأحوالَ . . فربَّما لا ترضىٰ بعضَ الأوصافِ التي تخالفُ ما ألفَتْهُ ، فتَقْلِي الزوجَ .

---

(١) رواه أبو داوود (٢٠٥٠) ، والنسائي (٦/ ٦٥) ، قال الحافظ العراقي في « طرح التثريب » (٧/ ١١) : (ليس المراد بالولود كثرة الأولاد ، وإنما المراد مَن هي في مظنَّة الولادة ، وهي الشابة دون العجوز التي انقطع حبلها) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (٧١٥) .

الثانيةُ : أنَّ ذلكَ أكملُ في مودَّتِهِ لها ؛ فإنَّ الطبعَ ينفرُ عنِ التي مسَّها غيرُ الزوجِ نفرةً ما ، وذلكَ يثقلُ على الطبعِ مهما تذكَّرَهُ ، وبعضُ الطباعِ في هٰذا أشدُّ نفوراً .

الثالثةُ : أنَّها لا تحنُّ إلى الزوجِ الأوَّلِ ، وآكدُ الحبِّ ما يقعُ معَ الحبيبِ الأوَّلِ غالباً .

* * *

السابعةُ : **أنْ تكونَ نسيبةً** : أعني : أنْ تكونَ مِنْ أهلِ بيتِ الدينِ والصلاحِ ؛ فإنَّها ستربِّي بناتِها وبنيها ، فإذا لمْ تكنْ مؤدبةً . . لمْ تحسنِ التأديبَ والتربيةَ ؛ ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إيَّاكُمْ وخضراءَ الدِّمَنِ » ، فقيلَ : ما خضراءُ الدمنِ ؟ قالَ : « المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « تخيَّروا لنطفِكُمْ ؛ فإنَّ العرْقَ نزَّاعٌ »(٢) .

* * *

---

(١) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٨٤) ، والشهاب في « مسنده » (٩٥٧) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٥٣٧) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) بلفظ : « تخيروا لنطفكم ، وأنكحوا الأكفاء ، وأنكحوا إليهم » ، والجملة الثانية من لفظ المصنف رواها الشهاب في « مسنده » (٦٣٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٧٧٤) ولفظه : « وانظر في أي نصاب تضع ولدك ؛ فإن العرق دساس » ، ومعناه في « البخاري » (٥٣٠٥) ، ومسلم (١٥٠٠) : « لعل ابنك هٰذا نزعَهُ عرق » ، في الرجل الذي ولدت له امرأته ولداً أسود .

الثامنةُ : **ألاَّ تكونَ مِنَ القرابةِ القريبةِ** : فإنَّ ذلكَ يقلِّلُ الشهوةَ ، قالَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تنكحوا القرابةَ القريبةَ ؛ فإنَّ الولدَ يُخلقُ ضاوياً »[١] أيْ : نحيفاً ، وذلكَ لتأثيرِهِ في تضعيفِ الشهوةِ ، فإنَّ الشهوةَ إنَّما تنبعثُ بقوَّةِ الإحساسِ بالنظرِ واللمسِ ، وإنَّما يقوى الإحساسُ بالأمرِ الغريبِ الجديدِ ، فأمَّا المعهودُ الذي دامَ النظرُ إليهِ مدَّةً . . فإنَّهُ يضعفُ الحسَّ عنْ تمامِ إدراكِهِ والتأثُّرِ بهِ ، فلا تنبعثُ بهِ الشهوةُ .

فهٰذهِ هيَ الخصالُ المرغَّبةُ في النساءِ .

* * *

ويجبُ على الوليِّ أيضاً أنْ يراعيَ خصالَ الزوجِ ، وينظرَ لكريمتِهِ ، فلا يزوِّجُها ممَّنْ ساءَ خُلُقُهُ أوْ خَلْقُهُ ، أوْ ضعفَ دينُهُ ، أوْ قصَّرَ عنِ القيامِ بحقِّها ، أوْ كانَ لا يكافئُها في نسبِها ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النكاحُ رقٌّ ، فلينظرْ أحدُكُمْ أينَ يضعُ كريمتَهُ »[٢] .

والاحتياطُ في حقِّها أهمُّ ؛ لأنَّها رقيقةٌ بالنكاحِ لا مخلصَ لها ، والزوجُ

---

(١) روى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٤٩) عن عمر رضي الله عنه قال : (يا بني السائب ؛ قد أضويتم ، فانكحوا في النزائع) ، **والنزائع** : الغرائب ، وانظر « البدر المنير » (٧/ ٤٩٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (١١٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٨٢) موقوفاً علىٰ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، وقال البيهقي عقبه : (وروي ذلك مرفوعاً ، والموقوف أصح) .

قادرٌ على الطلاقِ بكلِّ حالٍ ، ومهما زوَّجَ ابنتَهُ ظالماً ، أوْ فاسقاً ، أوْ مبتدعاً ، أوْ شاربَ خمرٍ . . فقدْ جنىٰ علىٰ دينِهِ ، وتعرَّضَ لسخطِ اللهِ ؛ لما قطعَ مِنْ حقِّ الرحمِ وسوءِ الاختيارِ .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : قدْ خطبَ ابنتي جماعةٌ ، فممَّنْ أزوِّجُها ؟ قالَ : ممَّنْ يتقي اللهَ ، فإنْ أحبَّها . . أكرمَها ، وإنْ أبغضَها . . لمْ يظلمْها(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ زوَّجَ كريمتَهُ مِنْ فاسقٍ . . فقدْ قطعَ رحمَها »(٢) .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (١٢٥) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٢٢) ، وقد رواه ابن حبان في « الثقات » (٥/ ١٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣١٤) عن الشعبي رحمه الله تعالىٰ .

البَابُ الثَّالِثُ
في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النّكاح والنّظر فيما على الزّوج وفيما على الزّوجة

القسم الأوّل : بيان ما على الزّوج(١)

أمَّا الزوجُ . . فعليهِ مراعاةُ الاعتدالِ والأدبِ في اثني عشرَ أمراً : في الوليمةِ، والمعاشرةِ، والدعابةِ، والسياسةِ ، والغيرةِ ، والنفقةِ ، والتعليمِ ، والقسمِ ، والتأديبِ بالنشوزِ ، والوقاعِ ، والولادةِ ، والمفارقةِ بالطلاقِ .

* * *

الأدبُ الأوَّلُ : الوليمةُ :

وهيَ مستحبَّةٌ ، قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ أثرَ صفرةٍ فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » فقالَ : تزوجتُ امرأةً علىٰ وزنِ نواةٍ منْ ذهبٍ ، فقالَ : « باركَ اللهُ لكَ ، أولمْ ولوْ بشاةٍ »(٢) .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .
(٢) رواه البخاري (٢٠٤٨) ، ومسلم (١٤٢٧) .

وأولَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ صفيَّةَ بسويقٍ وتمرٍ[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طعامُ أوَّلِ يومٍ حقٌّ ، وطعامُ الثاني سنَّةٌ ، وطعامُ الثالثِ سمعةٌ ، ومَنْ سَمَّعَ . . سَمَّعَ اللهُ بهِ » ، ولمْ يرفعْهُ إلا زيادُ بنُ عبدِ اللهِ ، وهوَ غريبٌ[٢] .

وتُستحبُّ التهنئةُ ، فيقولُ مَنْ دخلَ على الزوجِ : (باركَ اللهُ لكَ ، وباركَ عليكَ ، وجمعَ بينَكُما في خيرٍ) ، وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أمرَ بذلكَ[٣] .

ويُستحبُّ إظهارُ النكاحِ ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فصْلُ ما بينَ الحلالِ والحرامِ الدفُّ والصوتُ »[٤] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعلنوا هـٰذا النكاحَ ، واجعلوهُ في المساجدِ ، واضربوا عليهِ بالدفوفِ »[٥] .

وعنِ الرُّبيِّعِ بنتِ معوِّذٍ قالتْ : جاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ،

---

(١) روى الخبر أبو داوود (٣٧٤٤) ، والترمذي (١٠٩٥) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٥٦٦) ، وابن ماجه (١٩٠٩) .
(٢) رواه الترمذي (١٠٩٧) ، وهـٰذا القول له عقبه .
(٣) رواه أبو داوود (٢١٣٠) ، والترمذي (١٠٩١) ، وابن ماجه (١٩٠٥) .
(٤) رواه الترمذي (١٠٨٨) ، والنسائي (٦/ ١٢٧) ، وابن ماجه (١٨٩٦) .
(٥) رواه الترمذي (١٠٨٩) .

فدخلَ عليَّ غداةَ بُنِيَ بي ، فجلسَ علىٰ فراشي وجويرياتٌ لنا يضربنَ بدُفِّهِنَّ ويندُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبائي ، إلىٰ أنْ قالَت إحداهُنَّ : وَفِينا نَبِيٌّ يَعْلَمُ ما فِي غَدِ ، فقالَ لها : « اسكتي عنْ هـٰذهِ ، وقولِي ما كنتِ تقولينَ قبلَها »(١) .

* * *

الأدبُ الثاني : حسْنُ الخُلُقِ معَهنَّ ، واحتمالُ الأذىٰ منهُنَّ :

ترحُّماً عليهنَّ لقصورِ عقلِهنَّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في تعظيمِ حقِّهِنَّ : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

وقالَ : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ قيلَ : هيَ المرأةُ(٢) .

وآخرُ ما أوصىٰ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثٌ ، كانَ يتكلَّمُ بهنَّ حتَّىٰ تلجلجَ لسانُهُ ، وخفيَ كلامُهُ ، جعلَ يقولُ : « الصلاةَ الصلاةَ وما ملكتْ أيمانُكُمْ ، لا تكلفوهُمْ ما لا يطيقونَ ، اللهَ اللهَ في النساءِ ، فإنَّهُنَّ عوانٍ في أيديكُمْ ـ يعني : أسراءَ ـ أخذتموهُنَّ بعهدِ اللهِ ، واستحللتُمْ فروجَهُنَّ بكلمةِ اللهِ »(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠١) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ١١١) عن علي وعبد الله رضي الله عنهما ، والقول الأول : رفيق السفر .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٤) ، أما وصيته صلى الله عليه وسلم بالصلاة والأرقاء عند =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ صبرَ علىٰ سوءِ خلقِ امرأتِهِ . . أعطاهُ اللهُ مِنَ الأجرِ مثلَ ما أعطىٰ أيُّوبَ علىٰ بلائِهِ ، ومَنْ صبرَتْ علىٰ سوءِ خُلُقِ زوجِها . . أعطاها اللهُ عزَّ وجلَّ مثلَ ثوابِ آسِيَةَ امرأةِ فرعونَ »[1] .

واعلمْ : أنَّهُ ليسَ حُسْنُ الخلقِ معها كفَّ الأذىٰ عنها ، بلِ احتمالُ الأذىٰ منها ، والحلمُ عندَ طيشِها وغضبِها ؛ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقدْ كانَ أزواجُهُ يراجعْنَهُ الكلامَ ، وتهجرُهُ الواحدةُ منهُنَّ يوماً إلى الليلِ[2] .

وراجعتِ امرأةُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عمرَ في الكلامِ ، فقالَ : أوَتراجعيني يا لكعاءُ ؟! فقالتْ : إنَّ أزواجَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يراجعْنَهُ وهوَ خيرٌ منكَ ، فقالَ عُمرُ : خابَتْ حفصةُ وخسرَتْ إنْ راجعَتْهُ ، ثمَّ قالَ لحفصةَ : لا تغتري بابنةِ ابنِ أبي قحافةَ ، فإنَّها حِبُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وخوَّفَها مِنَ المراجعةِ[3] .

= موته . . فقد رواها النسائي في « الكبرىٰ » (٧٠٦٠) ، وابن ماجه (١٦٢٥) ، وقد جمع بين هـٰذه الوصية مع الوصية بالنساء الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٧٩٤) مختصراً ، وأما الوصية بهن . . فرواها مسلم (١٢١٨) وكان ذلك في حجة الوداع .

(١) رواه الحارث كما في « زوائده » (١/ ٣١٦) ضمن خطبة طويلة . انظر « اللآلىء المصنوعة » (٢/ ٣٦١ـ٣٧٣) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) .

(٣) هو في الحديث المتفق عليه السابق ، وليس فيه : (يا لكعاء) ولا (هو خير منك) ، وفيه قول عمر رضي الله عنه : (وكنا معشر قريش نغلبُ النساء ، فلما قدمنا على =

ورُوِيَ أنَّهُ دفعَتْ إحداهُنَّ في صدرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فزبرَتْها أمُّها ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « دعيها ، فإنَّهُنَّ يصنعْنَ أكثرَ مِنْ ذلكَ »(١) .

وجرىٰ بينَهُ وبينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها كلامٌ ، حتَّىٰ أدخلا بينَهُما أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ حكماً واستشهدَهُ ، فقالَ لها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكلَّمينَ أوْ أتكلَّمُ ؟ » فقالَتْ : بلْ تكلَّمْ أنتَ ولا تقلْ إلا حقّاً ، فلطمَها أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّىٰ دميَ فوها وقالَ : يا عُديَّةَ نفسِها ؛ أَوَيقولُ غيرَ الحقِّ ؟! فاستجارتْ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقعدَتْ خلفَ ظهرِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ ندعُكَ لهٰذا ، ولمْ نردْ هٰذا منكَ »(٢) .

وقالتْ لهُ مرَّةً في كلامٍ غضبَتْ عندَهُ : أنتَ الذي تزعُمُ أنَّكَ نبيُّ اللهِ ؟! فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ واحتملَ ذلكَ حلماً وكرماً(٣) .

= الأنصار . . إذا هم قوم يغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار . . .) الخبر .

(١) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٨/ ١٦٦) ، والآجري في « الشريعة » (١٨٩٠) ، وهي السيدة عائشة رضي الله تعالىٰ عنها ، والزاجرة لها فيهما هي أمُّ مبشر الأنصارية ، واللفظ لصاحب « القوت » (٢/ ٢٥٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٢١٥) ، واللفظ لصاحب « القوت » (٢/ ٢٥٣) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٦٧٠) ، وأبو الشيخ في « الأمثال » (٥٦) .

وكانَ يقولُ لها : « إنِّي لأعرفُ غضبَكِ مِنْ رضاكِ ؟ » قالتْ : وكيفَ تعرِفُهُ ؟ قالَ : « إذا رضيتِ.. قلتِ : لا وإلـهِ محمدٍ ، وإذا غضبتِ.. قلتِ : لا وإلـهِ إبراهيمَ » ، قالتْ : صدقتَ ، إنَّما أهجرُ اسمَكَ(١) .

ويُقالُ : (أوَّلُ حُبٍّ وقعَ في الإسلامِ حُبُّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها)(٢) .

وكانَ يقولُ لها : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمِّ زرعٍ غيرَ أنِّي لا أطلِّقُكِ »(٣) .

وكانَ يقولُ لنسائِهِ : « لا تؤذينني في عائشةَ ؛ فإنَّهُ ـ واللهِ ـ ما نزلَ عليَّ الوحيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ منكنَّ غيرِها »(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٨) ، ومسلم (٢٤٣٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٢٥٤) من كلام الزهري ، وروى البخاري (٣٦٦٢) ، ومسلم (٢٣٨٤) أن عمرو بن العاص سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » ، قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » الحديث ، وأما محبته صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة رضي الله عنها والتي قال فيها : « ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها ».. فقد وقع حبها ابتداءً قبل الإسلام ، أو يحمل الأمر علىٰ ما بعد الهجرة الشريفة .

(٣) رواه البخاري (٥١٨٩) ، ومسلم (٢٤٤٨) ، وروى الاستثناء الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ١٧٣) .

(٤) رواه البخاري (٣٧٧٥) وقد تقدم تعليقاً .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرحمَ الناسِ بالنساءِ والصبيانِ)[1] .

* * *

الأدبُ الثالثُ : أنْ يزيدَ على احتمالِ الأذىٰ بالمداعبةِ والمزاحِ والملاعبةِ :

فهيَ التي تطيِّبُ قلوبَ النساءِ ، وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يمزحُ معهنَّ ، وينزلُ إلىٰ درجاتِ عقولِهنَّ في الأعمالِ والأخلاقِ ، حتىٰ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يسابقُ عائشةَ في العَدْوِ ، فسبقَتْهُ يوماً ، وسبقَها في بعضِ الأيامِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « هٰذهِ بتلكِ »[2] .

وفي الخبرِ : أنَّهُ كانَ مِنْ أفْكَهِ الناسِ معَ نسائِهِ[3] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (سمعتُ أصواتَ أناسٍ مِنَ الحبشةِ وغيرِهِمْ وهمْ يلعبونَ في يومِ عاشوراءَ ، فقالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتحبينَ أنْ ترَي لعبَهُمْ ؟ » قالتْ : قلتُ : نعمْ ، فأرسلَ إليهم ، فجاؤوا ، وقامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ البابينِ ، فوضعَ كفَّهُ على

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٦) ولفظه : (ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) رواه أبو داوود (٢٥٧٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٨٩٣) ، وابن ماجه (١٩٧٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٠) دون قيد ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٦٣٥٧) وزاد : (من أفكه الناس مع صبي) .

البابِ ، ومدَّ يدَهُ ، ووضعتُ ذَقَنِي علىٰ يدِهِ ، وجعلوا يلعبونَ وأنا أنظرُ ، وجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « حسبُكِ » وأقولُ : اسكتْ ، مرتينِ أوْ ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : « يا عائشةُ ؛ حسبُكِ » ، فقلتُ : نعمْ ، فأشارَ إليهِمْ ، فانصرفوا(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهُمْ خُلُقاً وألطفُهُمْ بأهلِهِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خيارُكُمْ خيرُكُمْ لنسائِهِ ، وأنا خيرُكُمْ لنسائي »(٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه معَ خشونتِهِ : (ينبغي للرجلِ أنْ يكونَ في أهلِهِ مثلَ الصبيِّ ، فإذا التمسوا ما عندَهُ . . وُجِدَ رجلاً)(٤) .

وقالَ لقمانُ عليهِ السلامُ : (ينبغي للعاقلِ أنْ يكونَ في أهلِهِ كالصبيِّ ، فإذا كانَ في القومِ . . وُجِدَ رجلاً)(٥) .

---

(١) رواه البخاري (٩٥٠) ، ومسلم (٨٩٢) بألفاظ متقاربة ، وليس فيه قولها : (اسكت) ، ولا تقييده بيوم عاشوراء .
(٢) رواه الترمذي (٢٦١٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩١٠٩) .
(٣) رواه الترمذي (١١٦٢) بلفظ : « وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً » ، وعنده (٣٨٩٥) مرفوعاً كذلك بلفظ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٨٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٣٣١) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٥٣) .

وفي تفسيرِ الخبرِ المرويِّ : « إنَّ اللهَ يبغضُ الجَعْظَرِيَّ الجَوَّاظَ »[1] ، قيلَ : هوَ الشديدُ علىٰ أهلِهِ ، المتكبِّرُ في نفسِهِ ، وهوَ أحدُ ما قيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ عُتُلٍّ ﴾ ، قيلَ : العتلُّ : هوَ الفظُّ اللسانِ ، الغليظُ القلبِ علىٰ أهلِهِ[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لجابرٍ : « هلاَّ بكراً تلاعبُها وتلاعبُكَ »[3] .

ووصفتْ أعرابيَّةٌ زوجَها وقدْ ماتَ فقالَت : واللهِ ؛ لقدْ كانَ ضحوكاً إذا ولجَ ، سكوتاً إذا خرجَ ، آكلاً ما وجدَ ، غيرَ سائلٍ عمَّا فَقَدَ .

* * *

الأدبُ الرابعُ : ألاَّ ينبسطَ في الدعابةِ وحسْنِ الخلقِ والموافقةِ باتباعِ هواها إلىٰ حدٍّ يفسدُ خُلُقَها ، ويسقطُ بالكليَّةِ هيبتَهُ عندَها :

بلْ يراعي الاعتدالَ فيهِ ، فلا يدعُ الهيبةَ والانقباضَ مهما رأىٰ منكراً ، ولا يفتحُ بابَ المساعدةِ على المنكراتِ ألبتةَ ، بلْ مهما رأىٰ ما يخالفُ الشرعَ والمروءةَ . . تنمَّرَ وامتعضَ .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٤) ، وهو عند أبي داوود (٤٨٠١) بلفظ : « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري » .

(٢) التفسيران من « القوت » (٢/ ٢٥٣) .

(٣) رواه البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (٧١٥) .

قالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أصبحَ رجلٌ يطيعُ امرأتَهُ فيما تهوىٰ إلا أكبَّهُ اللهُ في النارِ)[1] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (خالفوا النساءَ ؛ فإنَّ في خلافِهِنَّ البركةَ)[2] .

وقدْ قيلَ : (شاوروهُنَّ وخالفوهُنَّ)[3] .

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « تَعِسَ عبدُ الزوجةِ »[4] ، وإنَّما قالَ ذلكَ لأنَّهُ إذا أطاعَها في هواها.. فهوَ عبدُها ، وقدْ تعِسَ ، فإنَّ اللهَ ملَّكَهُ المرأةَ فملَّكَها نفسَهُ ، فقدْ عكسَ الأمرَ ، وقلبَ القضيَّةَ ، وأطاعَ الشيطانَ لمَّا قالَ : ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ ﴾ ، إذْ حقُّ الرجلِ أنْ يكونَ متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمَّى الله عزَّ وجلَّ الرجالَ قوَّامينَ على النساءِ ، وسمَّى الزوجَ سيِّداً فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ ﴾ ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٨) .

(٢) رواه ابن الجعد في « مسنده » (٣٠٨١) .

(٣) هو في معنىٰ قول عمر رضي الله عنه السابق ، وروى ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٢٦٢) ، والشهاب في « مسنده » (٢٢٦) مرفوعاً : « طاعة النساء ندامة » ، وهاذه الأخبار حكم علىٰ طبع النساء عام ، لا تمنع وجود الخصوصية ، وسيسوق المصنف أخباراً عن خيارهن مع قصور في تصرفهن لبيان هاذا المعنىٰ .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٥) ، والمشهور : « تعس عبد الدينار » ، ومعنى الأثر في قول الحسن المتقدم قريباً .

فإذا انقلبَ السيِّدُ مسخَّراً . . فقدْ بدَّلَ نعمةَ اللهِ كفراً[١] .

ونفسُ المرأةِ علىٰ مثالِ نفسِكَ ، إنْ أرسلتَ عِنانَها قليلاً . . جمحَتْ بكَ طويلاً ، وإنْ أرخيتَ عذارَها فِتْراً . . جذبَتْكَ ذراعاً ، وإنْ كبحتَها وشددتَ يدَكَ عليها في محلِّ الشدَّةِ . . ملكتَها .

قال الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثةٌ إنْ أكرمتَهُمْ . . أهانوكَ ، وإنْ أهنتَهُمْ . . أكرموكَ : المرأةُ ، والخادمُ ، والنَّبَطِيُّ)[٢] ؛ أرادَ بهِ : إنْ محضتَ الإكرامَ ولمْ تمزجْ غلظَكَ بلينِكَ ، وفظاظتَكَ برفقِكَ .

وكانَتْ نساءُ العربِ يعلمنَ بناتِهِنَّ اختبارَ الأزواجِ ، وكانتِ المرأةُ تقولُ لابنتِها : اختبري زوجَكِ قبلَ الإقدامِ والجراءةِ عليهِ ؛ انزعي زُجَّ رمحِهِ ، فإنْ سكتَ . . فقطِّعي اللحمَ علىٰ ترسِهِ ، فإنْ سكتَ . . فكسِّري العظامَ بسيفِهِ ، فإن سكتَ . . فاجعلي الإكافَ علىٰ ظهرِهِ وامتطيه ، فإنَّما هوَ حمارُكِ[٣] .

وعلى الجملةِ : فبالعدلِ قامتِ السماواتُ والأرضُ ، وكلُّ ما جاوزَ حدَّهُ انعكسَ علىٰ ضدِّهِ ، فينبغي أنْ تسلكَ سبيلَ الاقتصادِ في المخالفةِ والموافقةِ ، وتتبعَ الحقَّ في جميعِ ذلكَ ؛ لتسلمَ مِنْ شرِّهِنَّ ، فإنَّ كيدَهُنَّ

---

(١) السياق في « القوت » (٢/ ٢٥٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥٥) .
(٣) عيون الأخبار (٤/ ٧٧) ، ولفظه عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٥٥) .

عظيمٌ ، وشرَّهُنَّ فاشٍ ، والغالبُ عليهِنَّ سوءُ الخلقِ وركاكةُ العقلِ ، ولا يعتدلُ ذلكَ منهُنَّ إلاَّ بنوعٍ لطفٍ ممزوجٍ بسياسةٍ .

قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مثلُ المرأةِ الصالحةِ في النساءِ كمثلِ الغرابِ الأعصمِ بينَ مئةِ غرابٍ »(١) ؛ يعني : الأبيضَ البطنِ .

وفي وصيَّةِ لقمانَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ اتقِ المرأةَ السوءَ ؛ فإنَّها تشيبُكَ قبلَ الشيبِ ، واتقِ شرارَ النساءِ ؛ فإنَّهُنَّ لا يدعونَ إلىٰ خيرٍ ، وكنْ مِنْ خيارِهِنَّ علىٰ حذرٍ)(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استعيذوا مِنَ الفواقرِ الثلاثِ » وعدَّ منهنَّ : « المرأةَ السوءَ ؛ فإنَّها المشيِّبةُ قبلَ الشيبِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « إنْ دخلتَ عليها . . لسبَتْكَ ، وإنْ غبتَ عنها . . خانَتْكَ »(٣) .

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في خَيْراتِ النساءِ : « إنَّكُنَّ صواحبُ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠١) ، وبنحوه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٤٥٢) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٤/ ١٩٧) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٢٢٣) : أنه صلى الله عليه وسلم مرَّ بمرِّ الظهران ، فرأىٰ غرباناً كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار والرجلين ، فقال : « لا يدخل الجنة من النساء إلا كقدر هٰذا الغراب مع هٰذه الغربان » ، والسياق في « القوت » (٢/ ٢٣٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٨) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/ ٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٠٧) ، وبالرواية الأولىٰ قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) . « إتحاف » (٥/ ٣٥٨) ، **والفواقر** : جمع فاقرة ، وهي الداهية ، سميت بذلك لأنها تفقر الظهر ، **واللسب** : شدة اللسع واللدغ .

يوسفَ »[1] يعني : إنَّ صرفكُنَّ أبا بكرٍ عنِ التقدُّمِ في الصلاةِ ميلٌ منكُنَّ عنِ الحقِّ إلى الهوىٰ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ حينَ أفشينَ سِرَّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أيْ : مالتْ ، وقالَ ذلكَ في خيرِ أزواجِهِ[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يفلحُ قومٌ تملِكُهُمُ امرأةٌ »[3] .

وقد زبرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ امرأتَهُ لمَّا راجعَتْهُ وقالَ : (ما أنتِ إلا لُعبةٌ في جانبِ البيتِ ، إنْ كانَتْ لنا إليكِ حاجةٌ ، وإلاَّ .. جلستِ كما أنتِ)[4] .

فإذاً ؛ فيهنَّ شرٌّ ، وفيهنَّ ضعفٌ ، فالسياسةُ والخشونةُ علاجُ الشرِّ ، والمطايبةُ والرحمةُ علاجُ الضعفِ ، والطبيبُ الحاذقُ هوَ الذي يقدِّرُ العلاجَ بقدْرِ الداءِ ، فلينظرِ الرجلُ أوَّلاً إلىٰ أخلاقِها بالتجربةِ ، ثمَّ ليعاملْها بما يصلحُها كما يقتضيهِ حالُها .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٤١٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) ، وهما عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٤٢٥) ، وبلفظه رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/٢٥٣) .

الأدبُ الخامسُ : الاعتدالُ في الغيرةِ :

وهوَ ألاَّ يتغافلَ عنْ مبادئِ الأمورِ التي تُخشىٰ غوائلُها ، ولا يبالغَ في إساءةِ الظنِّ والتعنُّتِ وتجسُّسِ البواطنِ ، فقدْ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ تُتبعَ عوراتُ النساءِ ، وفي لفظٍ آخرَ : أنْ تُبغَتَ النساءُ[١] .

ولمَّا قدمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سفرٍ . . قالَ قبلَ دخولِ المدينةِ : « لا تطرُقوا النساءَ ليلاً » ، فخالفَهُ رجلانِ ، فسبقا ، فرأىٰ كلُّ واحدٍ في منزلِهِ ما يكرَهُ[٢] .

وفي الخبرِ المشهورِ : « المرأةُ كالضِّلَعِ ؛ إنْ قوَّمْتَهُ . . كسرتَهُ ، فدعْهُ تستمتعْ بهِ علىٰ عوجٍ »[٣] ، وهـٰذا في تهذيبِ أخلاقِها .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مِنَ الغيرةِ غيرةً يبغضُها اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهيَ غيرةُ الرجلِ علىٰ أهلِهِ مِنْ غيرِ ريبةٍ »[٤] ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ سوءِ الظنِّ الذي نُهينا عنهُ ، فإنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٤) ، وعند مسلم (٧١٥) عن جابر قال : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخوَّنهم أو يلتمس عثراتهم) .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٤٥٨) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٤٥) .

(٣) رواه البخاري (٣٣٣١) ، ومسلم (١٤٦٨) .

(٤) رواه أبو داوود (٢٦٥٩) ، والنسائي (٥/ ٧٨) ، وابن ماجه (١٩٩٦) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تكثرِ الغيرةَ علىٰ أهلِكَ فترمىٰ بالسوءِ مِنْ أجلِكَ)[1] .

وأمَّا الغيرةُ في محلِّها . . فلا بدَّ منها ، وهيَ محمودةٌ ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يغارُ ، والمؤمنُ يغارُ ، وغيرةُ اللهِ تعالىٰ أنْ يأتيَ المؤمنُ ما حرَّمَ عليهِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أتعجبونَ مِنْ غيرةِ سعدٍ ؟ واللهِ ؛ لأنا أغيرُ منهُ ، واللهُ أغيرُ منِّي ، ولأجلِ غيرةِ اللهِ تعالىٰ حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ، ولا أحدَ أحبُّ إليهِ العذرُ مِنَ اللهِ ؛ ومن أجلِ ذلكَ بعثَ المنذرينَ والمبشرينَ ، ولا أحدَ أحبُّ إليهِ المدحةُ مِنَ اللهِ ، ولأجلِ ذلكَ وعدَ الجنَّةَ »[3] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ في الجنَّةِ قصراً وفيهِ جاريةٌ ، فقلتُ : لمَنْ هـٰذا ؟ فقيلَ : لعمرَ ، فأردتُ أنْ أنظرَ إليها ، فذكرتُ غيرتَكَ يا عمرُ » ، فبكىٰ عمرُ وقالَ : أعليكَ أغارُ يا رسولَ اللهِ[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٣) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٢٨٥) عن يحيى بن أبي كثير أنه من كلام سليمان بن داوود لابنه عليهما السلام .

(٢) رواه البخاري (٥٢٢٣) ، ومسلم (٢٧٦١) واللفظ له .

(٣) رواه البخاري (٧٤١٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

(٤) رواه البخاري (٥٢٢٧) ، ومسلم (٢٣٩٥) .

وكانَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (أتدعونَ نساءَكُمْ يزاحمْنَ العلوجَ في الأسواقِ ؟! قبّحَ اللهُ مَنْ لا يغارُ)[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مِنَ الغيرةِ ما يحبُّهُ اللهُ ، ومنها ما يبغضُهُ اللهُ ، ومِنَ الخيلاءِ ما يحبُّ اللهُ ، ومنها ما يبغضُ اللهُ ، فأمَّا الغيرةُ التي يحبُّها اللهُ . . فالغيرةُ في الريبةِ ، والغيرةُ التي يبغضُها اللهُ . . فالغيرةُ في غيرِ ريبةٍ ، والاختيالُ الذي يحبُّهُ اللهُ اختيالُ الرجلِ بنفسِهِ عندَ القتالِ وعندَ الصدقةِ ، والاختيالُ الذي يبغضُهُ اللهُ الاختيالُ في الباطلِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنِّي لغيورٌ ، وما مِنِ امرئٍ لا يغارُ إلا منكوسُ القلبِ »[3] .

والطريقُ المغني عنِ الغيرةِ : ألاَّ يدخلَ عليها الرجالُ ، وهيَ لا تخرجُ إلى الأسواقِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنتِهِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها : « أيُّ شيءٍ خيرٌ للمرأةِ ؟ » قالتْ : ألاَّ ترىٰ رجلاً ، ولا يراها رجلٌ ، فضمَّها

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٣) ، ورواه أحمد في « المسند » (١/ ١٣٣) من قول علي رضي الله عنه . **والعلوج** : جمع العِلج ، وهو الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه علىٰ مطلق الكفار .

(٢) رواه أبو داوود (٢٦٥٩) ، والنسائي (٥/ ٧٨) ، وابن ماجه (١٩٩٦) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨٠٠٩) مرسلاً ، **ومنكوس القلب** : الديوث أو المخنث . « إتحاف » (٥/ ٣٦٢) .

إليهِ وقالَ : « ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ ﴾ » واستحسنَ قولَها(١) .

وكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسدُّون الثقبَ والكُوَىٰ في الحيطانِ ؛ لئلا تطلعَ النسوانُ إلى الرجالِ(٢) .

ورأىٰ معاذٌ امرأتَهُ تطلعُ في الكوَّةِ فضربَها ، ورأى امرأتَهُ دفعَتْ إلىٰ غلامٍ لهُ تفاحةً قدْ أكلَتْ بعضَها فضربَها(٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أعْرُوا النساءَ يلزمنَ الحجالَ)(٤) ، وإنَّما قالَ ذلكَ لأنَّهُنَّ لا يرغبنَ في الخروجِ في الهيئةِ الرثَّةِ .

وقالَ أيضاً : (عوِّدُوا نساءَكمُ « لا »)(٥) .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٥٢٦) مرفوعاً ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٤١٢) عن العوام بن حوشب بلاغاً : أن علياً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أي شيء خير للمرأة ؟ » فسكتوا ، فلما رجع.. قال لزوجه فاطمة : أي شيء خير للنساء ؟ فقالت : ألا يراهن الرجال ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إنما فاطمة بضعة مني » رضي الله عنها .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥٣) .

(٣) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٧٤٣) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨٠٠٧) ولفظه : (استعينوا على النساء بالعري ، إن إحداهن إذا كثرت ثيابها ، وحسنت زينتها.. أعجبها الخروج) ، وبلفظ المصنف أرسله مسلمة بن مخلد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٤٣٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ٢١٤) .

(٥) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٣) ، ورواه ابن الجعد في « مسنده » (١١١٧) عن معاوية بن قرة .

وكانَ قدْ أذنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للنساءِ في حضورِ المساجدِ[1] ، والصوابُ الآنَ المنعُ إلا للعجائزِ ، بلِ استُصْوِبَ ذلكَ في زمانِ الصحابةِ ، حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لوْ علمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما أحدثَتِ النساءُ بعدَهُ . . لمنعَهُنَّ منَ الخروجِ)[2] .

ولمَّا قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ »[3] . . فقالَ بعضُ ولدِهِ : بلىٰ واللهِ ؛ لنمنعُهُنَّ ، فضربَهُ وغضبَ عليهِ وقالَ : تسمعُني أقولُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمنعوا » فتقولُ : بلى ؟![4] وإنَّما استجرأَ ولدُهُ على المخالفةِ لعلمِهِ بتغيُّرِ الزمانِ ، وإنَّما غضبَ عليهِ لإطلاقِهِ اللفظَ بالمخالفةِ ظاهراً مِنْ غيرِ إظهارِ العذرِ .

وكذلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ أذنَ لهنَّ في الأعيادِ خاصَّةً أنْ يخرجْنَ[5] ، ولكنْ لا يخرجْنَ إلا برضا أزواجِهِنَّ ، والخروجُ الآنَ أيضاً مباحٌ للمرأةِ العفيفةِ برضا زوجِها ، ولكنَّ القعودَ أسلمُ[6] .

---

(١) فقد روى البخاري (٨٦٥) ، ومسلم (٤٤٢) مرفوعاً : « إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد . . فأذنوا لهن » .

(٢) رواه البخاري (٨٦٩) ، ومسلم (٤٤٥) .

(٣) رواه البخاري (٩٠٠) ، ومسلم (٤٤٢) .

(٤) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٩٠٣) ، وأحمد في « مسنده » (٢ / ٣٦) .

(٥) رواه البخاري (٣٢٤) ، ومسلم (٨٩٠) .

(٦) روىٰ أبو داوود (٥٦٧) مرفوعاً : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » .

وينبغي ألاَّ تخرجَ إلاَّ لمهمٍّ ، فإنَّ الخروجَ للنظاراتِ[1] والأمورِ التي ليسَتْ مهمَّةً تقدحُ في المروءةِ ، وربما تفضي إلى الفسادِ ، فإذا خرجَتْ.. فينبغي أنْ تغضَّ بصرَها عنِ الرجالِ ، ولسنا نقولُ : إنَّ وجهَ الرجلِ في حقِّها عورةٌ كوجهِ المرأةِ في حقِّهِ ، بلْ هوَ كوجهِ الصبيِّ الأمردِ في حقِّ الرجلِ ، فيحرمُ النظرُ عندَ خوفِ الفتنةِ فقطْ ، فإنْ لمْ تكنْ فتنةٌ.. فلا ؛ إذْ لمْ يزلِ الرجالُ علىٰ ممرِّ الزمانِ مكشوفي الوجوهِ والنساءُ يخرجنَ متنقباتٍ ، ولوْ كانَ وجوهُ الرجالِ عورةً في حقِّ النساءِ.. لأمروا بالتنقُّبِ ، أوْ مُنعوا مِنَ الخروجِ إلا لضرورةٍ .

* * *

السادسُ : الاعتدالُ في النفقةِ :

فلا ينبغي أنْ يقتِّرَ عليهِنَّ في الإنفاقِ ، ولا ينبغي أنْ يسرفَ ، بلْ يقتصدُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُكُمْ خيرُكُمْ لأهلِهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دينارٌ أنفقتَهُ في سبيلِ اللهِ ، ودينارٌ أنفقتَهُ

(١) أي : للفُرَجِ والنزهات . « إتحاف » (٥/ ٣٦٣) .
(٢) رواه الترمذي (٣٨٩٥) .

في رقبةٍ ، ودينارٌ تصدقتَ بهِ علىٰ مسكينٍ ، ودينارٌ أنفقتَهُ علىٰ أهلِكَ ، أعظمُها أجراً الذي أنفقتَهُ علىٰ أهلِكَ »[(١)] .

وقيلَ : كانَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أربعُ نسوةٍ ، فكانَ يشتري لكلِّ واحدةٍ منهنَّ في كلِّ أربعةِ أيامٍ لحماً بدرهمٍ[(٢)] .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانوا في الرحالِ مخاصيبَ ، وفي الأثاثِ والثيابِ تقاربٌ)[(٣)] .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (يُستحبُّ للرجلِ أنْ يعملَ لأهلِهِ في كلِّ جمعةٍ فالوذجةً)[(٤)] ، وكأنَّ الحلاوةَ وإنْ لمْ تكنْ منَ المهماتِ ، ولكنَّ تركَها بالكليَّةِ تقتيرٌ في العادةِ .

وينبغي أنْ يأمرَها بالتصدُّقِ ببقايا الطعامِ وما يفسدُ لوْ تُرِكَ ، فهٰذا أقلُّ درجاتِ الخيرِ ، وللمرأةِ أنْ تفعلَ ذلكَ بحكمِ الحالِ مِنْ غيرِ صريحِ إذنٍ مِنَ الزوجِ .

---

(١) رواه مسلم (٩٩٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٢) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٠١٧) عن علي بن ربيعة قال : (كان لعلي امرأتان ، كان يشتري كل يوم لهٰذه بنصف درهم لحماً ، ولهٰذه بنصف درهم لحماً) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٢) ، **والمعنىٰ** : ما كانوا يعتنون بالتوسعة في أثاث البيت من فرش ووسائد وغيرها وفي ثياب اللبس وما يجري مجراها كما يتوسعون في الإنفاق على الأهل . « إتحاف » (٥/ ٣٦٤) ، وعبارة (ق) : (.. والثياب مجاديب) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٥٢) .

ولا ينبغي أنْ يستأثرَ عنْ أهلِهِ بمأكولٍ طيِّبٍ فلا يطعمَهُمْ منهُ ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يوغرُ الصدورَ ، ويبعدُ عنِ المعاشرةِ بالمعروفِ ، فإنْ كانَ مزمعاً علىٰ ذلكَ . . فليأكلْهُ في خفيةٍ ، بحيثُ لا يعرفُهُ أهلُهُ .

ولا ينبغي أنْ يصفَ عندَهُمْ طعاماً ليسَ يريدُ إطعامَهُمْ إيَّاهُ .

وإذا أكلَ . . فيقعدُ العيالَ كلَّهُم علىٰ مائدتِهِ ، فقدْ قالَ سفيانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (بلغَنا أنَّ اللهَ تعالىٰ وملائكتَهُ يصلُّونَ علىٰ أهلِ بيتٍ يأكلونَ في جماعةٍ) .

وأهمُّ ما يجبُ عليهِ مراعاتُهُ في الإنفاقِ : أنْ يطعمَها مِنَ الحلالِ ، ولا يدخلَ مداخلَ السوءِ لأجلِها ؛ فإنَّ ذلكَ جنايةٌ عليها لا مراعاةٌ لها ، وقدْ أوردنا الأخبارَ الواردةَ في ذلكَ عندَ ذكرِ آفاتِ النكاحِ .

* * *

السابعُ : أنْ يتعلَّمَ المتزوِّجُ مِنْ علْمِ الحيضِ وأحكامِهِ ما يحترزُ بِهِ الاحترازَ الواجبَ ، ويعلِّمَ زوجتَهُ أحكامَ الصلاةِ ، وما يُقضىٰ منها في الحيضِ وما لا يقضىٰ :

فإنَّه أُمِرَ بأنْ يقيَها النارَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ ، فعليهِ أنْ يلقِّنَها اعتقادَ أهلِ السنَّةِ ، ويزيلَ عنْ قلبِها كلَّ بدعةٍ إنْ سمعَتْها ، ويخوفَها اللهَ إذا تساهلَتْ في أمرِ الدِّينِ ، ويعلمَها مِنْ أحكامِ الحيضِ والاستحاضةِ ما تحتاجُ إليهِ .

وعلْمُ الاستحاضةِ يطولُ ، فأمَّا الذي لا بدَّ مِنْ إرشادِ النساءِ إليهِ في أمرِ الحيضِ بيانُ الصلواتِ التي تقضيها ، فإنَّها مهما انقطعَ دمُها قبيلَ المغربِ بمقدارِ ركعةٍ . . فعليها قضاءُ الظهرِ والعصرِ ، وإذا انقطعَ قبلَ الصبحِ بمقدارِ ركعةٍ . . فعليها قضاءُ المغربِ والعشاءِ ، وهٰذا أقلُّ ما يراعيهِ النساءُ .

فإنْ كانَ الرجلُ قائماً بتعليمِها . . فليسَ لها الخروجُ لسؤالِ العلماءِ ، وإنْ قصرَ علمُ الرجلِ ولكنْ نابَ عنها في السؤالِ وأخبرَها بجوابِ المفتي . . فليسَ لها الخروجُ ، فإنْ لمْ يكنْ ذلكَ . . فلها الخروجُ للسؤالِ ، بلْ عليها ذلكَ ، ويعصي الرجلُ بمنعِها(١) .

ومهما تعلمَتْ ما هوَ مِنَ الفرائضِ عليها . . فليسَ لها أنْ تخرجَ إلىٰ مجلسِ ذكرٍ ، ولا إلىٰ تعلُّمِ فضلٍ إلا برضاهُ .

ومهما أهملَتِ المرأةُ حكماً مِنْ أحكامِ الحيضِ والاستحاضةِ ولمْ يعلِّمْها الرجلُ . . حرجَ الرجلُ معها وشاركَها في الإثمِ .

* * *

الثامنُ : إذا كانَ لهُ نسوةٌ . . فينبغي أنْ يعدلَ بينهُنَّ ولا يميلَ إلىٰ بعضِهِنَّ :

فإنْ خرجَ إلىٰ سفرٍ وأرادَ استصحابَ واحدةٍ . . أقرعَ بينهُنَّ ؛ كذلكَ

(١) وينظر فيما إذا ترتبت في خروجها مفسدة ظاهرة ، هل يرجح الخروج أيضاً أم لزوم البيت ؟ والذي يظهر الثاني ، خصوصاً في هٰذه الأزمنة . « إتحاف » (٥/٣٦٧) .

كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

فإنْ ظلمَ امرأةً بليلتِها . . قضىٰ لها ، فإنَّ القضاءَ واجبٌ عليهِ ، وعندَ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ معرفةِ أحكامِ القسمِ ، وذلكَ يطولُ ذكرُهُ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ امرأتانِ فمالَ إلىٰ إحداهُما دونَ الأخرىٰ ـ وفي لفظٍ : ولمْ يعدلْ بينَهُما ـ جاءَ يومَ القيامةِ وأحدُ شقَّيْهِ مائلٌ »[2] .

وإنَّما عليهِ العدلُ في العطاءِ والمبيتِ ، وأمَّا في الحبِّ والوقاعِ . . فذلكَ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أيْ : لا تعدلونَ في شهوةِ القلبِ وميلِ النفسِ ، ويتبعُ ذلكَ التفاوتُ في الوقاعِ[3] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعدلُ بينَهُنَّ في العطاءِ والبيتوتةِ في الليالي ويقولُ : « اللهمَّ ؛ هٰذا جهدي فيما أملكُ ، ولا طاقةَ لي فيما تملكُ ولا أملكُ »[4] يعني : الحبَّ .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٩٤) ، ومسلم (٢٤٤٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٢١٣٣) ، والترمذي (١١٤١) ، والنسائي (٧/ ٦٣) ، وابن ماجه (١٩٦٩) .

(٣) روىٰ ذلك الطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ٤٠٣) عن عمر وابن عباس وجمع من التابعين .

(٤) رواه أبو داوود (٢١٣٤) ، والترمذي (١١٤٠) ، والنسائي (٧/ ٦٣) ، وابن ماجه (١٩٧١) .

وقدْ كانتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أحبَّ نسائهِ إليهِ وسائرُ نسائِهِ يعرفْنَ ذلكَ ، وكانَ يطافُ بهِ محمولاً في مرضِهِ في كلِّ يومٍ وكلِّ ليلةٍ ، فيبيتُ عندَ كلِّ واحدةٍ منهُنَّ ويقولُ : « أينَ أنا غداً » ، ففطنَتْ لذلكَ امرأةٌ منهُنَّ ، فقالتْ : إنَّما يسألُ عنْ يومِ عائشةَ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ أذنَّا لكَ أنْ تكونَ في بيتِ عائشةَ ؛ فإنَّهُ يشقُّ عليكَ أنْ تُحملَ في كلِّ ليلةٍ ، فقالَ : « وقد رضيتُنَّ بذلكَ ؟ » فقلنَ : نعمْ ، قالَ : « فحوِّلوني إلىٰ بيتِ عائشةَ »[1] .

ومهما وهبتْ واحدةٌ ليلتَها لصاحبتِها ورضيَ الزوجُ بذلكَ . . ثبتَ الحقُّ لها ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقسمُ بينَ نسائِهِ ، فقصدَ أنْ يطلِّقَ سودةَ بنتَ زمعةَ لمَّا كبرَتْ ، فوهبَتْ ليلتَها لعائشةَ ، وسألَتْهُ أنْ يقرَّها على الزوجيَّةِ ؛ حتَّىٰ تحشرَ في زمرةِ نسائِهِ ، فتركَها ، وكانَ لا يقسمُ لها ويقسمُ لعائشةَ ليلتينِ ولسائرِ أزواجِهِ ليلةً ليلةً[2] .

ولكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحسْنِ عدلِهِ وقوَّتِهِ كانَ إذا تاقتْ نفسُهُ إلىٰ واحدةٍ مِنَ النساءِ في غيرِ نوبتِها فجامعَها . . طافَ في يومِهِ أوْ ليلتِهِ علىٰ سائرِ نسائِهِ ؛ فمِنْ ذلكَ ما رُوي عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٢ / ٢٠٤) أنه صلى الله عليه وسلم كان يحمل في ثوب يطوف به علىٰ نسائه وهو مريض يقسم بينهن ، وفيه خبر أن يمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها ، وهو عند البخاري (١٣٨٩) ، ومسلم (٢٤٤٣) .
(٢) رواه أبو داوود (٢١٣٥) ، والترمذي (٣٠٤٠) .

عليهِ وسلَّمَ طافَ علىٰ نسائِهِ في ليلةٍ واحدةٍ[١] ، وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ طافَ علىٰ تسعِ نسوةٍ في ضحوةِ نهارٍ[٢] .

* * *

التاسعُ : في النشوزِ :

ومهما وقعَ بينَهُما خصامٌ ولمْ يلتئمْ أمرُهُما ؛ فإنْ كانَ مِنْ جانبِهِما جميعاً ، أوْ مِنَ الرجلِ ، فلا تتسلَّطُ الزوجةُ علىٰ زوجِها ولا يقدرُ علىٰ إصلاحِها . . فلا بدَّ مِنْ حكمينِ ؛ أحدُهُما مِنْ أهلِهِ والآخرُ مِنْ أهلِها ؛ لينظرا بينَهُما ويصلحا أمرَهما ، إنْ يريدا إصلاحاً . . يوفِّقِ اللهُ بينَهُما .

وقدْ بعثَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ حكماً إلىٰ زوجينِ ، فعادَ ولمْ يصلحْ أمرَهُما ، فعلاهُ بالدِّرةِ وقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾[٣] ، فعادَ الرجلُ وأحسنَ النيَّةَ وتلطَّفَ بهما ، فأصلحَ ما بينَهُما .

وأمَّا إذا كانَ النشوزُ مِنَ المرأةِ خاصةً . . فالرجالُ قوَّامونَ على النساءِ ، فلهُ أنْ يؤدِّبَها ويحملَها على الطاعةِ قهراً ، وكذا إذا كانتْ تاركةً للصلاةِ . .

---

(١) رواه البخاري (٢٦٧) ، ومسلم (١١٩٢) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧٦) .
(٣) قال القاضي البيضاوي في « تفسيره » (١/ ٢١٨) : (وفيه تنبيه علىٰ أن من أصلح نيته فيما يتحرّاه . . أصلح الله مبتغاه) .

فلهُ أنْ يحملَها على الصلاةِ قهراً، ولكنْ ينبغي أنْ يتدرَّجَ في تأديبها(١)، وهوَ أنْ يقدِّمَ أولاً الوعظَ والتحذيرَ والتخويفَ، فإنْ لمْ ينجعْ. . ولاَّها ظهرَهُ في المضجعِ، أوِ انفردَ عنها بالفراشِ وهجرَها وهوَ في البيتِ معَها مِنْ ليلةٍ إلىٰ ثلاثِ ليالٍ ، فإنْ لمْ ينجعْ ذلكَ. . ضربَها ضرباً غيرَ مبرِّحٍ ؛ بحيثُ يؤلمُها ولا يكسرُ لها عظماً ، ولا يدمي لها جسماً ، ولا يضربُ وجهَها ، فذلكَ منهيٌّ عنهُ(٢) .

وقدْ قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ما حقُّ المرأةِ على الرجلِ ؟ فقالَ : « يطعمُها إذا طعمَ ، ويكسوها إذا اكتسىٰ ، ولا يقبِّحُ الوجهَ ، ولا يضربُ إلا ضرباً غيرَ مبرِّحٍ ، ولا يهجرُها إلا في المبيتِ »(٣) .

ولهُ أنْ يغضبَ عليها ويهجرَها في أمرٍ مِنْ أمورِ الدِّينِ إلىٰ عشرٍ وإلىٰ عشرينَ وإلىٰ شهرٍ ، فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ أرسلَ بهديةٍ إلىٰ زينبَ فردَّتْها عليهِ ، فقالَتْ لهُ التي هوَ في بيتِها : لقدْ أقمأَتْكَ إذْ ردَّتْ عليكَ هديَّتَكَ ـ أيْ : أذلَّتْكَ واستصغرَتْكَ ـ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتُنَّ أهونُ على اللهِ أنْ تقمئْنَنِي » ، ثمَّ غضبَ عليهِنَّ كلِّهِنَّ شهراً إلىٰ أنْ عادَ إليهِنَّ(٤) .

* * *

---

(١) كما قال عز وجل : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ . . . ﴾ .
(٢) روىٰ أبو داوود (٤٤٩٣) مرفوعاً : « إذا ضرب أحدكم . . فليتق الوجه » .
(٣) رواه أبو داوود (٢١٤٢)، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١١٥)، وابن ماجه (١٨٥٠).
(٤) رواه ابن سعد في « الطبقات » (١٠/ ١٧٩) ، وبعضه عند ابن ماجه (٢٠٦٠) ، وأنه صلى الله عليه وسلم اعتزلهن شهراً عند البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) .

العاشرُ : في آدابِ الجماعِ :

ويُستحبُّ أنْ يبدأَ باسمِ اللهِ تعالىٰ ، ويقرأَ : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أوّلاً ، ويكبِّرَ ويهلِّلَ ، ويقولَ باسمِ اللهِ العليِّ العظيمِ ، اللهمَّ ؛ اجعلْها ذريَّةً طيبةً إنْ كنتَ قدَّرتَ أنْ تخرجَ ذلكَ مِنْ صلبي .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ أحدَكُمْ إذا أتىٰ أهلَهُ قالَ : اللهمَّ ؛ جنِّبْنا الشيطانَ وجنِّبِ الشيطانَ ما رزقتَنا ؛ فإنْ كانَ بينَهُما ولدٌ . . لمْ يضرَّهُ الشيطانُ »[(١)] .

وإذا قربتَ مِنَ الإنزالِ . . فقلْ في نفسِكَ ولا تحرِّكْ شفتيكَ : الحمد لله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرًا . . . ﴾ الآيةَ .

وكانَ بعضُ أهلِ الحديثِ يكبِّرُ حتَّىٰ يسمعَ أهلُ الدارِ صوتَهُ[(٢)] .

ثمَّ لينحرفْ عنِ القبلةِ ، ولا يستقبلِ القبلةَ بالوقاعِ ؛ إكراماً للقبلةِ ، وليغطِّ نفسَهُ وأهلَهُ بثوبٍ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يغطِّي رأسَهُ ويغضُّ صوتَهُ ويقولُ للمرأةِ : « عليكِ بالسكينةِ »[(٣)] .

وفي الخبرِ : « إذا جامعَ أحدُكُمْ أهلَهُ . . فلا يتجرَّدانِ تجرُّدَ العَيْرينِ »[(٤)] أيِ : الحمارينِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧١) ، ومسلم (١٤٣٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٣) .
(٣) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٣٧٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٥/ ٢٩٤).
(٤) رواه ابن ماجه (١٩٢١) .

وليقدِّمِ التلطُّفَ بالكلامِ والتقبيلِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقعَنَّ أحدُكُمْ على امرأتِهِ كما تقعُ البهيمةُ ، وليكنْ بينَهُما رسولٌ » ، فقيلَ : وما الرسولُ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « القبلةُ والكلامُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مِنَ العجزِ في الرجلِ : أنْ يلقىٰ مَنْ يحبُّ معرفتَهُ فيفارقَهُ قبلَ أنْ يعلمَ اسمَهُ ونسبَهُ ، والثاني : أنْ يكرمَهُ أخوهُ فيردَّ عليهِ كرامتَهُ ، والثالثُ : أنْ يقاربَ الرجلُ جاريتَهُ أو زوجتَهُ فيصيبَها قبلَ أن يحادثَها ويؤانسَها ، ويضاجعَها فيقضيَ حاجتَهُ منها قبلَ أنْ تقضيَ حاجتَها منهُ »(٢) .

ويُكرَهُ لهُ الجماعُ في ثلاثِ ليالٍ مِنَ الشهرِ : الأوَّلُ ، والآخرُ ، والنصفُ ، ويُقالُ : إنَّ الشيطانَ يحضرُ الجماعَ في هٰذهِ الليالي ، ويُقالُ : إنَّ الشياطينَ يجامعونَ فيها ، ورُوِيَ كراهةُ ذلكَ عنْ عليٍّ ومعاويةَ وأبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ(٣) .

ومِنَ العلماءِ مَنِ استحبَّ الجماعَ يومَ الجمعةِ وليلتَهُ ؛ تحقيقاً لأحدِ التأويلينِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس وهو منكر) . « إتحاف » (٥/ ٣٧٢) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي من حديث أنس أخصر منه ، وهو بعض الحديث الذي قبله) . « إتحاف » (٥/ ٣٧٢) ، وللحديث شواهد ستأتي ، وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ٣٦٥) عن جابر رضي الله عنه قال : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المواقعة قبل الملاعبة) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٥٧) ، وسياق المصنف عنده .

مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « رحمَ اللهُ مَنْ غسَّل واغتسلَ . . . » الحديثَ[1] .

ثمَّ إذا قضىٰ وطرَهُ . . فليتمهلْ علىٰ أهلِهِ حتَّىٰ تقضيَ هيَ أيضاً نهمتَها ، فإنَّ إنزالَها ربَّما يتأخَّرُ فتهيجُ شهوتُها ، ثمَّ القعودُ عنها إيذاءٌ لها .

والاختلافُ في طبعِ الإنزالِ يوجبُ التنافرَ مهما كان الزوجُ سابقاً إلى الإنزالِ ، والتوافقُ في وقتِ الإنزالِ ألذُّ عندَها ، ليشتغلَ الرجلُ بنفسِهِ عنها ، فإنَّها ربَّما تستحيي .

وينبغي أنْ يأتيَها في كلِّ أربعِ ليالٍ مرَّةً ، فهوَ أعدلُ ، إذْ عددُ النساءِ أربعةٌ ، فقدْ جازَ التأخيرُ إلىٰ هـٰذا الحدِّ[2] .

نعمْ ؛ ينبغي أن يزيدَ أوْ ينقصَ بحسَبِ حاجتِها في التحصينِ ، فإنَّ تحصينَها واجبٌ عليهِ وإنْ كانَ لا يثبتُ المطالبةُ بالوطءِ ؛ فذلكَ لعسرِ المطالبةِ والوفاءِ بها .

ولا يأتيها في الحيضِ ، ولا بعدَ انقطاعِهِ وقبلَ الغسلِ ، فهوَ مُحرَّمٌ بنصِّ الكتابِ ، وقيلَ : إنَّ ذلكَ يورثُ الجُذامَ في الولدِ .

ولهُ أنْ يستمتعَ بجميعِ بدنِ الحائضِ ، ولا يأتيها في غيرِ المأتىٰ ؛ إذْ حرمَ غشيانُ الحائضِ لأجلِ الأذىٰ ، والأذىٰ في غيرِ المأتىٰ دائمٌ ، فهوَ أشدُّ

---

(1) رواه أبو داوود (٣٤٥) ، والترمذي (٤٩٦) ، والنسائي (٣/ ٩٥) ، وابن ماجه (١٠٨٧) بنحوه .

(2) رویٰ ذلك عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ١٤٩ـ١٥٠) عن عمر رضي الله عنه أنه قضىٰ به .

تحريماً مِنْ إتيانِ الحائضِ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أيْ : أيَّ وقتٍ شئتُمْ .

ولهُ أنْ يستمنيَ بيدِها ، وأنْ يستمتعَ بما تحتَ الإزارِ بما يشتهي سوى الوقاعِ ، وينبغي أنْ تتزرَ المرأةُ بإزارٍ مِنْ حقوِها إلىٰ فوقِ الركبةِ في حالةِ الحيضِ ، فهـٰذا مِنَ الأدبِ .

ولهُ أنْ يؤاكلَ الحائضَ ، ويخالطَها في المضاجعةِ وغيرِها ، وليسَ عليهِ اجتنابُها .

فإنْ أرادَ أنْ يجامعَ ثانياً بعدَ أخرىٰ . . فليغسلْ فرجَهُ أوّلاً ، وإنِ احتلمَ . . فلا يجامعْ حتَّىٰ يغسلَ فرجَهُ أوْ يبولَ[1] .

ويُكرهُ الجماعُ في أوَّلِ الليلِ ؛ حتَّىٰ لا ينامَ علىٰ غيرِ طهارةٍ ، فإنْ أرادَ النومَ أوِ الأكلَ . . فليتوضَّأْ أوَّلاً وضوءَهُ للصلاةِ ، فهوَ سنَّةٌ ، قالَ عمرُ : قلتُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أينامُ أحدُنا وهوَ جنبٌ ؟ قالَ : « نعمْ ، إذا توضَّأَ »[2] .

ولكنْ قدْ وردتْ فيهِ رخصةٌ ؛ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ينامُ جنباً لمْ يمسَّ ماءً)[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥٧) وسياق المصنف عنده .
(٢) رواه البخاري (٢٨٧) ، ومسلم (٣٠٦) ، وفي غير (ب) الرواية عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهو راوٍ عن أبيه .
(٣) رواه أبو داوود (٢٢٨) ، والترمذي (١١٨) ، وابن ماجه (٥٨١) .

ومهما عادَ إلىٰ فراشِهِ . . فليمسحْ وجهَ فراشِهِ أوْ لينفضْهُ ؛ فإنَّهُ لا يدري ما حدثَ عليهِ بعدَهُ .

ولا ينبغي أنْ يحلقَ أوْ يقلمَ أوْ يستحدَّ أوْ يخرجَ الدمَ أوْ يبينَ مِنْ نفسِهِ جزْءاً وهوَ جنبٌ ؛ إذْ تردُ إليهِ سائرُ أجزائِهِ في الآخرةِ فيعودُ جنباً ، ويُقالُ : إنَّ كلَّ شعرةٍ تطالبُهُ بجنابتِها(١) .

ومِنَ الآدابِ : ألاَّ يعزلَ ، بلْ يسرحُ الماءَ إلىٰ محلِّ الحرثِ ، وهوَ الرحمُ ، فما مِنْ نسمةٍ قدَّرَ اللهُ كونَها إلا وهيَ كائنةٌ ، هٰكذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

فإنْ عزلَ . . فقدِ اختلفَ العلماءُ في إباحتِهِ وكراهتِهِ علىٰ أربعةِ مذاهبَ : فمِنْ مبيحٍ مطلقاً بكلِّ حالٍ ، ومِنْ محرِّمٍ بكلِّ حالٍ ، ومِنْ قائلٍ : يحلُّ برضاها ولا يحلُّ دونَ رضاها ، وكأنَّ هٰذا القائلَ يحرِّمُ الإيذاءَ دونَ العزلِ ، ومِنْ قائلٍ : يُباحُ في المملوكةِ دونَ الحرَّةِ .

والصحيحُ عندَنا : أنَّ ذلكَ مباحٌ ، وأمَّا الكراهيةُ . . فإنَّها تطلقُ لنهيِ التحريمِ ، ولنهيِ التنزيهِ ، ولتركِ الفضيلةِ ، فهوَ مكروهٌ بالمعنى الثالثِ ؛ أيْ : فيهِ تركُ فضيلةٍ ، كما يُقالُ : يُكرهُ للقاعدِ في المسجدِ أنْ يقعدَ فارغاً لا يشتغلُ بذكرٍ أوْ صلاةٍ ، ويُكرهُ للحاضرِ في مكَّةَ مقيماً بها ألاَّ يحجَّ كلَّ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥٧) .
(٢) رواه البخاري (٢٥٤٢) ، ومسلم (١٤٣٨) .

سنةٍ ، والمرادُ بهٰذهِ الكراهيةِ : تركُ الأَولىٰ والفضيلةِ فقطْ ، وهٰذا ثابتٌ لما بيَّنَّاهُ مِنَ الفضيلةِ بالولدِ ، ولما رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليجامعُ أهلَهُ فيُكتبُ لهُ بجماعِهِ أجرُ ولدٍ ذكرٍ قاتلَ في سبيلِ اللهِ فقتلَ »(١) ، وإنَّما قالَ ذلكَ لأنَّهُ لوْ وُلِدَ لهُ مثلُ هٰذا الولدِ .. لكانَ لهُ أجرُ التسبُّبِ إليهِ معَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خالقُهُ ومحييهِ ومقوِّيهِ على الجهادِ ، والذي إليهِ مِنَ التسبُّبِ فقدْ فعلَهُ ، وهوَ الوقاعُ ، وذلكَ عندَ الإمناءِ في الرحمِ(٢) .

وإنَّما قلنا : لا كراهةَ بمعنى التحريمِ والتنزيهِ .. لأنَّ إثباتَ النهيِ إنَّما يمكنُ بنصٍّ أوْ قياسٍ علىٰ منصوصٍ ، ولا نصَّ ، ولا أصلَ يُقاسُ عليهِ ، بلْ هٰهنا أصلٌ يُقاسُ عليهِ ، وهوَ تركُ النكاحِ أصلاً ، أوْ تركُ الجماعِ بعدَ النكاحِ ، أوْ تركُ الإنزالِ بعدَ الإيلاجِ ، فكلُّ ذلكَ تركٌ للأفضلِ وليسَ بارتكابِ نهيٍ ، ولا فرقَ ؛ إذِ الولدُ يتكوَّنُ بوقوعِ النطفةِ في الرحمِ ، ولها أربعةُ أسبابٍ : النكاحُ ، ثمَّ الوقاعُ ، ثمَّ الصبرُ إلى الإنزالِ بعدَ الجماعِ ، ثمَّ الوقوفُ لينصبَّ المنيُّ في الرحمِ ، وبعضُ هٰذهِ الأسبابِ أقربُ مِنْ بعضٍ ،

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (٢/٢٥٦) ، ورواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٩٧٨) ، وهو كذلك عند أحمد في « المسند » (٥/١٦٨) عن أبي ذر قال : كيف يكون لي الأجر في شهوتي ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرأيت لو كان لك ولد ، فأدرك ورجوت خيره ، ثم مات ، أكنت تحتسبه ؟ » قال : نعم ، قال : « فأنت خلقته ؟ » قال : بل الله خلقه ، قال : « فأنت هديته ؟ » قال : بل الله هداه ، قال : « فأنت كنت ترزقه ؟ » قال : بل الله رزقه ، قال : « كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامَه ، فإن شاء الله .. أحياه ، وإن شاء .. أماته ، ولك أجر » ، وسيبين ذلك المصنف .

(٢) ومعناه في قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ .

فالامتناعُ عنِ الرابعِ كالامتناعِ عنِ الثالثِ ، وكذا الثالثُ كالثاني ، والثاني كالأوَّلِ ، وليسَ هٰذا كالإجهاضِ والوَأْدِ ؛ لأنَّ ذلكَ جنايةٌ علىٰ موجودٍ حاصلٍ ، ولهُ أيضاً مراتبُ ، وأوَّلُ مراتبِ الوجودِ أنْ تقعَ النطفةُ في الرحمِ ، وتختلطَ بماءِ المرأةِ وتستعدَّ لقبولِ الحياةِ ، وإفسادُ ذلكَ جنايةٌ ، فإنْ صارَتْ مضغةً وعلقةً . . كانتِ الجنايةُ أفحشَ ، وإنْ نفخَ فيهِ الروحُ واستوتِ الخلقةُ . . ازدادتِ الجنايةُ تفاحشاً ، ومنتهى التفاحشِ في الجنايةِ بعدَ الانفصالِ حيّاً .

وإنَّما قلنا : مبدأُ سببِ الوجودِ مِنْ حيثُ وقوعُ المنيِّ في الرحمِ ، لا مِنْ حيثُ الخروجُ مِنَ الإحليلِ ؛ لأنَّ الولدَ لا يُخلقُ مِنْ منيِّ الرجلِ وحدَهُ ، بلْ مِنَ الزوجينِ جميعاً ، إمَّا مِنْ مائِهِ ومائِها ، أوْ مِنْ مائِهِ ودمِ الحيضِ .

وقالَ بعضُ أهلِ التشريحِ : إنَّ المضغةَ تُخلقُ بتقديرِ اللهِ تعالىٰ مِنْ دمِ الحيضِ ، وإنَّ الدمَ منها كاللبنِ مِنَ الرائبِ ، والنطفةُ مِنَ الرجلِ شرطٌ في خثورةِ دمِ الحيضِ وانعقادِهِ كالإنفحةِ للبنِ ؛ إذْ بها ينعقدُ الرائبُ ، وكيفما كانَ . . فماءُ المرأةِ ركنٌ في الانعقادِ ، فيجري الماءانِ مجرى الإيجابِ والقبولِ في الوجودِ الحكميِّ في العقودِ ، فمَنْ أوجبَ ثمَّ رجعَ قبلَ القبولِ . . لا يكونُ جانياً على العقدِ بالنقضِ والفسخِ ، ومهما اجتمعَ الإيجابُ والقبولُ . . كانَ الرجوعُ بعدَهُ رفعاً وفسخاً وقطعاً ، وكما أنَّ النطفةَ في الفقارِ لا يتخلَّقُ منها الولدُ ؛ فكذا بعدَ الخروجِ مِنَ الإحليلِ ما لمْ يمتزجْ بماءِ المرأةِ أوْ دمِها ، فهٰذا هوَ القياسُ الجليُّ .

فإنْ قلتَ : فإنْ لمْ يكنِ العزلُ مكروهاً مِنْ حيثُ إنَّهُ دفعٌ لوجودِ الولدِ . . فلا يبعدُ أنْ يكرهَ لأجلِ النيّةِ الباعثةِ عليهِ ، إذْ لا يبعثُ عليهِ إلا نيّةٌ فاسدةٌ فيها شيءٌ مِنْ شوائبِ الشرْكِ الخفيِّ .

فأقولُ : النيّاتُ الباعثةُ على العزلِ خمسٌ :

ـ الأولىٰ : في السراري[1] : وهوَ حفظُ الملكِ عنِ الهلاكِ باستحقاقِ العتاقِ ، وقصدُ استبقاءِ الملكِ بتركِ الإعتاقِ ودفعِ أسبابهِ ليسَ بمنهيٍّ عنهُ .

ـ الثانيةُ : استبقاءُ جمالِ المرأةِ وسمنِها لدوامِ التمتُّعِ ، واستبقاءُ حياتِها خوفاً مِنْ خطرِ الطلْقِ ، وهـٰذا أيضاً ليسَ منهيّاً عنهُ .

ـ الثالثةُ : الخوفُ مِنْ كثرةِ الحرجِ بسببِ كثرةِ الأولادِ ، والاحترازُ مِنَ الحاجةِ إلى التعبِ في الكسبِ ودخولِ مداخلِ السوءِ ، وهـٰذا أيضاً غيرُ منهيٍّ عنهُ ؛ فإنَّ قلَّةَ الحرْجِ معينٌ على الدينِ .

نعمْ ؛ الكمالُ والفضلُ في التوكُّلِ والثقةِ بضمانِ اللهِ تعالىٰ حيثُ قالَ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، فلا جرمَ فيهِ سقوطٌ عنْ ذروةِ الكمالِ وتركُ الأفضلِ ، ولكنَّ النظرَ في العواقبِ وحفظَ المالِ وادخارِهِ معَ كونِهِ مناقضاً للتوكُّلِ لا نقولُ : إنَّهُ منهيٌّ عنهُ .

ـ الرابعةُ : الخوفُ مِنَ الأولادِ الإناثِ ، لما يعتقدُ في تزويجِهِنَّ مِنَ

(١) في النسخ : (السرايا) ، وفي (ب) : (التسري) ، والمثبت من (ق) .

المعرَّةِ كما كانَتْ مِنْ عادةِ العربِ في قتلِهِمُ الإناثَ ، فهـٰذهِ نيَّةٌ فاسدةٌ لوْ تركَ بسببِها أصلَ النكاحِ أوْ أصلَ الوقاعِ . . أثمَ بها لا بتركِ النكاحِ والوطءِ ، فكذا في العزلِ ، والفسادُ في اعتقادِ المعرَّةِ في سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أشدُّ ، وينزلُ منزلةَ امرأةٍ تركتِ النكاحَ استنكافاً مِنْ أنْ يعلوَها رجلٌ فكانتْ تتشبَّهُ بالرجالِ ، فلا ترجعُ الكراهةُ إلىٰ عينِ تركِ النكاحِ ، إنما ترجعُ إلى النيَّةِ .

ـ **الخامسةُ** : أنْ تمتنعَ المرأةُ لتعزُّزِها ومبالغتِها في النظافةِ ، فتحترزَ مِنَ الطلْقِ والنفاسِ والرضاعِ ، وكانَ ذلكَ عادةُ نساءِ الخوارجِ ؛ لمبالغتِهِنَّ في استعمالِ المياهِ ، حتَّىٰ كُنَّ يقضينَ صلواتِ أيامِ الحيضِ ، ولا يدخلنَ الخلاءَ إلا عراةً ، فهـٰذهِ بدعةٌ تخالفُ السنَّةَ ، فهيَ نيةٌ فاسدةٌ ، واستأذنتْ واحدةٌ منهُنَّ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها لمَّا قدمتِ البصرةَ ، فلمْ تأذنْ لها[1] ، فيكونُ القصدُ هوَ الفاسدَ دونَ منعِ الولادةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ النكاحَ مخافةَ العيالِ . . فليسَ منَّا »[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٥٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/٢٤٢) ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٦/١٦٨) ، وأبو داوود في « المراسيل » (١٩٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/٣٦٦) عن =

قلنا : فالعزلُ كتركِ النكاحِ ، وقولُهُ : ليسَ منَّا ؛ أيْ : ليسَ موافقاً لنا علىٰ سنَّتِنا وطريقتِنا ، وسنتُنا فعلُ الأفضلِ[1] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في العزلِ : « ذلكَ الوأْدُ الخفيُّ » ، وقرأَ : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ ، وهوَ في الصحيحِ ؟[2] .

قلنا : وفي الصحيحِ أيضاً أخبارٌ صريحةٌ في الإباحةِ[3] ، وقولُهُ : « الوأْدُ الخفيُّ » كقولِهِ : « الشرْكُ الخفيُّ »[4] ، وذلكَ يوجبُ كراهةً لا تحريماً .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (العزلُ هوَ الوأْدُ الأصغرُ) وإنَّ الممنوعَ وجودُهُ بهِ هوَ الموءودةُ الصغرىٰ .

قلنا : هـٰذا قياسٌ منهُ لدفعِ الوجودِ علىٰ قطعِهِ ، وهوَ قياسٌ ضعيفٌ ، ولذلكَ أنكرَهُ عليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا سمعَهُ وقالَ : لا تكونُ موءودةً إلا بعدَ

= أبي نجيح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح . . فليس مني » .

(١) أو يحمل هـٰذا على النية الثالثة من النيات المتقدمة ، فهو يخشى العيلة .

(٢) رواه مسلم (١٤٤٢) .

(٣) سيسوق المصنف رحمه الله تعالىٰ بعضها قريباً .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٠٤) .

سبعٍ ـ أيْ : بعدَ سبعةِ أطوارٍ ـ وتلا الآيةَ الواردةَ في أطوارِ الخلقةِ ، وهيَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أيْ : نفخنا فيهِ الروحَ ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ في الآيةِ : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾[1] .

وإذا نظرتَ إلىٰ ما قدمناهُ في طريقِ القياسِ والاعتبارِ . . ظهرَ لكَ تفاوتُ منصبِ عليٍّ وابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في الغوصِ على المعاني ودرْكِ العلومِ .

كيفَ وفي المتفقِ عليهِ في « الصحيحينِ » عنْ جابرٍ أنَّهُ قالَ : (كنَّا نعزلُ علىٰ عهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والقرآنُ ينزلُ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (كنَّا نعزلُ ، فبلغَ ذلكَ نبيَّ اللهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فلمْ ينهَنا)[2] .

وفيهِ أيضاً عنْ جابرٍ أنَّهُ قالَ : (إنَّ رجلاً أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : إنَّ لي جاريةً هيَ خادمتُنا وساقيتُنا في النخلِ ، وأنا أطوفُ عليها ، وأكرهُ أنْ تحملَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : اعزلْ عنها إنْ شئتَ ، فإنَّهُ سيأتيها ما قُدِّرَ لها » ، فلبثَ الرجلُ ما شاءَ اللهُ ثمَّ أتاهُ فقالَ : إنَّ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٧) ، ونحوه من قول علي رضي الله عنه لابن عبد البر في « التمهيد » (٣/ ١٤٨) ، وقد رُوِيَ التعليل بالآية عن ابن عباس رضي الله عنهما كذلك ، رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ١٤٥) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٠٩) ، ومسلم (١٤٤٠) واللفظان عنده .

الجاريةَ قدْ حملَتْ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « قدْ أخبرتُكُمْ أنَّهُ سيأتيها ما قُدِّرَ لها »(١) ، كلُّ ذلكَ في « الصحيحينِ » .

* * *

الحاديَ عشرَ : في آدابِ الولادةِ : وهيَ خمسةٌ :

الأوّلُ : ألاَّ يكثرَ فرحَهُ بالذكرِ وحزنَهُ بالأنثىٰ ؛ فإنَّهُ لا يدري أنَّ الخيرةَ لهُ في أيِّهِما ، فكَمْ مِنْ صاحبِ ابنٍ يتمنَّىٰ ألاَّ يكونَ لهُ أوْ يكونَ بنتاً ، بلِ السلامةُ منهُنَّ أكثرُ ، والثوابُ فيهِنَّ أجزلُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ ابنةٌ ، فأدَّبَها ، وأحسنَ تأديبَها ، وغذَّاها فأحسنَ غذاءَها ، وأسبغَ عليها مِنَ النعمةِ التي أسبغَ اللهُ عليهِ . . كانتْ لهُ ميمنةً وميسرةً مِنَ النارِ إلى الجنَّةِ »(٢) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ يدركُ ابنتينِ ، فيحسنُ إليهما ما صحبتاهُ . . إلا أدخلتاهُ الجنَّةَ »(٣) .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانتْ لهُ ابنتانِ أوْ أختانِ ، فأحسنَ إليهما ما صحبتاهُ . . كنتُ أنا وهوَ في الجنَّةِ كهاتينِ »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (١٤٣٩) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٤/ ١١١) .
(٣) رواه ابن ماجه (٣٦٧٠) ، وهو عند البخاري في « الأدب المفرد » (٧٧) .
(٤) رواه هناد في « الزهد » (١٠٢١) ، وهو عند مسلم (٢٦٣١) بلفظ : « من عال جاريتين حتىٰ تبلغا . . جاء يوم القيامة أنا وهو » وضمَّ أصابعه .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خرجَ إلىٰ سوقٍ مِنْ أسواقِ المسلمينَ ، فاشترىٰ شيئاً ، فحملَهُ إلىٰ بيتِهِ ، فخصَّ بهِ الإناثَ دونَ الذكورِ . . نظرَ اللهُ إليهِ ، ومَنْ نظرَ اللهُ إليهِ . . لمْ يعذبْهُ »(١) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حملَ طرفةً مِنَ السوقِ إلىٰ عيالِهِ . . فكأنَّما حملَ إليهِمْ صدقةً حتَّىٰ يضعَها فيهِمْ ، وليبدأْ بالإناثِ قبلَ الذكورِ ؛ فإنَّهُ مَنْ فرَّحَ أنثىٰ . . فكأنَّما بكىٰ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ بكىٰ مِنْ خشيتِهِ . . حرَّمَ اللهُ تعالىٰ بدنَهُ على النارِ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَتْ لهُ ثلاثُ بناتٍ أوْ أخواتٍ ، فصبرَ علىٰ لأْوائِهِنَّ وضرَّائِهِنَّ وسرَّائِهِنَّ . . أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ بفضْلِ رحمتِهِ إيَّاهُنَّ » ، فقالَ رجلٌ : وثنتانِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وثنتانِ » فقالَ رجلٌ : أوْ واحدةٌ ؟ فقالَ : « أوْ واحدةٌ »(٣) .

* * *

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الخرائطي بسند ضعيف) . « إتحاف » (٥/ ٣٨٦) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٢٤٠) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه الخرائطي بسند ضعيف جداً ، وابن عدي في « الكامل » ، وقال ابن الجوزي : حديث موضوع) . « إتحاف » (٥/ ٣٨٦) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٣٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٧٦) .

الأدبُ الثاني : أنْ يؤذِّنَ في أذنِ المولودِ : روىٰ رافعٌ عنْ أبيهِ قالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أذَّنَ في أذنِ الحسنِ حينَ ولدَتْهُ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها(١) .

ورُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ وُلِدَ لهُ مولودٌ ، فأذَّنَ في أذنِهِ اليمنىٰ ، وأقامَ في أذنِهِ اليسرىٰ . دُفعَتْ عنهُ أمُّ الصبيانِ »(٢) .

ويُستحبُّ أنْ يلقِّنوهُ أوَّلَ انطلاقِ لسانِهِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ ليكونَ ذلكَ أوَّلَ حديثِهِ .

والختانُ في اليومِ السابعِ وردَ بهِ خبرٌ(٣) .

* * *

الأدبُ الثالثُ : أنْ يسمِّيَهُ باسمٍ حسنٍ ، فذلكَ مِنْ حقِّ الولدِ ، وقدْ قالَ

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٠٥) ، والترمذي (١٥١٤) ولكن عن أبي رافع رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ الزبيدي : (هكذا في نسخ الكتاب : رافع عن أبيه ، وهو غلط ، ولم أجد لرافع ذكراً في الكتب الستة ، وإنما هو من رواية عبد الله بن أبي رافع عن أبيه ، وعبد الله له صحبة أيضاً) . « إتحاف » (٥/ ٣٨٦) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٧٨٠) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٢٣) . انظر « الإتحاف » (٥/ ٣٨٦) . **وأم الصبيان** : هي التابعة من الجن ، أو الريح التي تعرض لهم وتكون حادة عليهم .

(٣) وهو ما رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٧٠٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٣٢٤) عن جابر : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عقَّ عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سمَّيتُمْ . . فعبِّدوا »[1] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أحبُّ الأسماءِ إلى اللهِ تعالىٰ : عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمـٰنِ »[2] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « سمُّوا باسمي ولا تُكَنُّوا بكنيتي »[3] ، قالَ العلماءُ : كانَ ذلكَ في عصرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ كانَ يُنادىٰ : يا أبا القاسمِ ، وأمَّا الآنَ . . فلا بأسَ .

نعمْ ، لاَ يجمعُ بينَ اسمهِ وكنيتهِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تجمعوا بينَ اسمي وكنيتي »[4] ، وقيلَ : إن هـٰذا أيضاً كانَ في حياتِهِ .

وتسمَّىٰ رجلٌ أبا عيسىٰ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ عيسىٰ لا أبَ لهُ »[5] ، فكرهَ ذلكَ .

والسِّقْطُ ينبغي أنْ يُسمَّىٰ ، قالَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ يزيدَ بنِ معاويةَ : بلغني

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٧٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣/ ١٢٢٩) ، ومعناه في الحديث الآتي .
(٢) رواه مسلم (٢١٣٢) .
(٣) رواه البخاري (٢١٢٠) ، ومسلم (٢١٣١) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٦٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٨١٤) .
(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو عمر النوقاتي في كتاب « معاشرة الأهلين » من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، ولأبي داوود [٤٩٦٣] : أن عمر ضرب ابناً له تكنَّى أبا عيسىٰ ، وأنكر على المغيرة بن شعبة تكنيته بأبي عيسىٰ ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كنَّاني ، وإسناده صحيح) « إتحاف » (٥/ ٣٨٨) .

أنَّ السِّقْطَ يصرخُ يومَ القيامةِ وراءَ أبيهِ ، فيقولُ : أنتَ ضيَّعتَني وتركتَني لا اسمَ لي ، فقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : كيفَ وقدْ لا يدري أنَّهُ غلامٌ أوْ جاريةٌ ؟! فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : منَ الأسماءِ ما يجمعُهُما ؛ كحمزةَ ، وعمارةَ ، وطلحةَ ، وعتبةَ(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكُمْ تُدعونَ يومَ القيامةِ بأسمائِكُمْ وأسماءِ آبائِكُمْ ، فأحسنوا أسماءَكُمْ »(٢) .

ومَنْ لهُ اسمٌ يُكرهُ . . يُستحبُّ تبديلُهُ ، بدَّلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اسمَ العاصِ بعبدِ اللهِ(٣) .

وقالَ أبو هريرةَ : كانَ اسمُ زينبَ برَّةَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « تزكِّي نفسَها » فسمَّاها زينبَ(٤) .

وكذلكَ وردَ نهيٌ في اسمِ أفلحَ ويسارٍ ونافعٍ وبركةَ ؛ لأنَّهُ يُقالُ : أثمَّ بركةُ ؟ فيقولُ : لا(٥) .

* * *

---

(١) وقد روى الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٩٢) : « سموا السقط . . يثقل الله به ميزانكم ، فإنه يأتي يوم القيامة فيقول : يا رب ؛ أضاعوني فلم يسموني » .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٤٨) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١/٢٤٨) ، وكانوا ثلاثة ، فبدَّل صلى الله عليه وسلم اسمهم إلىٰ عبد الله .
(٤) رواه البخاري (٦١٩٢) ، ومسلم (٢١٤١) .
(٥) كما روىٰ مسلم (٢١٣٦) مرفوعاً : « لا تسمِّ غلامك رباحاً ولا يساراً ولا أفلح =

الأدبُ الرابعُ : العقيقةُ عنِ الذكرِ بشاتينِ ، وعنِ الأنثىٰ بشاةٍ ، ولا بأسَ بالشاةِ ذكراً كانَ أوْ أنثىٰ .

روتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَ في الغلامِ بشاتينِ مكافئتينِ ، وفي الجاريةِ بشاةٍ[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ عقَّ عنِ الحسنِ بشاةٍ، وهـٰذا رخصةٌ في الاقتصارِ علىٰ واحدةٍ[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « معَ الغلامِ عقيقةٌ ، فأهريقوا عنهُ دماً ، وأميطوا عنهُ الأذىٰ »[3] .

ومِنَ السنَّةِ : أنْ يتصدَّقَ بوزنِ شعرِهِ ذهباً أوْ فضةً ؛ فقدْ وردَ فيهِ خبرٌ ؛ رُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أمرَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها يومَ سابعِ حسينٍ أنْ تحلقَ شعرَهُ ، وتتصدَّقَ بزنةِ شعرِهِ فضةً[4] .

= ولا نافعاً » ، وعنده كذلك (٢١٣٧) وفيه : « ولا نجيحاً ، فإنك تقول : أثمَّ هو ؟ فيقول : لا . . . » الحديث ، وعنده أيضاً (٢١٣٨) أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن ينهىٰ عن أن يسمىٰ بيعلىٰ وببركة وبأفلح وبيسار وبنافع وبنحو ذلك . . . الحديث .

(١) رواه الترمذي (١٥١٣) ، **والمكافئتان** : المتساويتان سناً وحسْناً .

(٢) رواه أبو داوود (٢٨٤١) بلفظ : (عقَّ عن الحسن والحسين كبشاً كبشاً) ، وأورده الترمذي في ذيل (١٥١٤) وقال : (وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ هـٰذا الحديث) ذاكراً الرخصة .

(٣) رواه البخاري (٥٤٧١) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٣٧) ، وهو عند الترمذي (١٥١٩) عن الحسن بدل الحسين رضي الله عنهما .

قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لا يُكسرُ للعقيقةِ عظمٌ)[1] .

❊ ❊ ❊

الأدبُ الخامسُ : أنْ يحنِّكَهُ بتمرةٍ أوْ حلاوةٍ ، رُوِيَ عنْ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّها قالتْ : (ولدتُ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ بقُباءَ ، ثمَّ أتيتُ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فوضعتُهُ في حجرِهِ ، ثمَّ دعا بتمرةٍ ، فمضغَها ، ثمَّ تفلَ في فيهِ ، فكانَ أوَّلَ شيءٍ دخلَ جوفَهُ ريقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ حنَّكَهُ بتمرةٍ ، ثمَّ دعا لهُ وبرَّكَ عليهِ ، وكانَ أوَّلَ مولودٍ ولدَ في الإسلامِ ، ففرحوا بهِ فرحاً شديداً ؛ لأنَّهُمْ قيلَ لَهُمْ : إنَّ اليهودَ قدْ سحَرتْكُمْ فلا يولدُ لكُمْ)[2] .

❊ ❊ ❊

الثانيَ عشرَ[3] : في الطلاقِ :

وليعلمْ أنَّهُ مباحٌ ، ولكنَّهُ أبغضُ المباحاتِ إلى اللهِ تعالىٰ[4] ، وإنَّما يكونُ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٤٧٤٦) .

(٢) رواه البخاري (٥٤٦٩) ، ومسلم (٢١٤٦) ، ومعنىٰ كونه **أول مولود في الإسلام** : أي بالمدينة من قريش .

(٣) من الآداب التي على الزوج مراعاتها مع زوجته .

(٤) وهـٰذا مبني علىٰ قول : إن المباح يشمل المكروه والمندوب ؛ إذ يفسر بما يجوز الإقدام عليه ، قال الإمام القرافي في « شرح تنقيح الفصول » (ص٧١) : (وتفسيرها ـ أي : الإباحة ـ باستواء الطرفين هو اصطلاح المتأخرين ، فإذا اندرج فيها المكروه ويكون الطلاق من أشد المكروهات.. فيفهم الحديث حينئذ ، وإلا.. يتعذر فهمه) . =

مباحاً إذا لمْ يكنْ فيهِ إيذاءٌ بالباطلِ ، ومهما طلَّقها . . فقدْ آذاها ، ولا يُباحُ إيذاءُ الغيرِ إلا بجنايةٍ مِنْ جانبها ، أوْ بضرورةٍ مِنْ جانبهِ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أيْ : لا تطلبوا حيلةً للفراقِ .

وإنْ كرهَها أبوهُ . . فليطلقْها ، قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : كانَ تحتي امرأةٌ أحبُّها ، وكانَ أبي يكرهُها ويأمرُني بطلاقِها ، فراجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا بنَ عمرَ ؛ طلِّقِ امرأتَكَ »(١) ، فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ حقَّ الوالدِ مقدَّمٌ ، ولكنْ والدٌ يكرهُها لا لغرضٍ فاسدٍ مثلُ عمرَ .

ومهما آذتْ زوجَها ، وبَذَتْ علىٰ أهلِهِ . . فهيَ جانيةٌ ، وكذلكَ مهما كانتْ سيئةَ الخلقِ ، أوْ فاسدةَ الدينِ ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ : (مهما بَذَتْ علىٰ أهلِهِ وآذتْ زوجَها . . فهوَ فاحشةٌ)(٢) ، وهـٰذا أريدَ

= والحديث هو ما رواه أبو داوود (٢١٧٨) ، وابن ماجه (٢٠١٨) مرفوعاً : « أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق » ، وقال الحافظ الزبيدي : (وإنما كان كذلك من حيث أداؤه إلىٰ قطع الوصلة وحل قيد العصمة المؤدي إلى التناسل الذي به تكثير هـٰذه الأمة ، لا من حقيقته في نفسه ؛ فإنه ليس بحرام ولا مكروه أصالة ، بل تجري فيه الأحكام الخمسة) . « إتحاف » (٥/ ٣٩١) .

(١) رواه أبو داوود (٥١٣٨) ، والترمذي (١١٨٩) ، وابن ماجه (٢٠٨٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٤) ، وقد رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٦/ ٣٢٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٤٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ونقل ابن عبد البر في « التمهيد » (١٩/ ١٤٩) القول عنهما ، وبذت : تكلمت بالبذاء ، وهو الفحش من القول .

بهِ في العِدَّةِ ، ولكنَّهُ تنبيهٌ على المقصودِ .

وإنْ كانَ الأذىٰ مِنَ الزوجِ . . فلها أنْ تفتديَ ببذْلِ مالٍ ، ويُكرهُ للرجلِ أنْ يأخذَ منها أكثرَ ممَّا أعطىٰ ؛ فإنَّ ذلكَ إجحافٌ بها وتحاملٌ عليها ، وتجارةٌ على البضْعِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ ، فردُّ ما أخذتْهُ فما دونَهُ لائقٌ بالفداءِ .

فإنْ سألتِ الطلاقَ بغيرِ ما بأسٍ . . فهيَ آثمةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما امرأةٍ سألتْ زوجَها طلاقَها مِنْ غيرِ ما بأسٍ . . لمْ ترِحْ رائحةَ الجنَّةِ » ، وفي لفظٍ : « فالجنَّةُ عليها حرامٌ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المختلعاتُ هُنَّ المنافقاتُ »(٢) .

* * *

ثمَّ ليراعِ الزوجُ في الطلاقِ أربعةَ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يطلِّقَها في طهرٍ لمْ يجامعْها فيهِ : فإنَّ الطلاقَ في الحيضِ أوِ الطهرِ الذي جامعَ فيهِ بدعيٌّ حرامٌ وإنْ كانَ واقعاً ؛ لما فيهِ مِنْ تطويلِ العِدَّةِ عليها .

فإنْ فعلَ ذلكَ . . فليراجعْها ، طلَّقَ ابنُ عمرَ امرأتَهُ في الحيضِ ، فقالَ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٢٢٦) ، والترمذي (١١٨٧) ، وابن ماجه (٢٠٥٥) .
(٢) رواه الترمذي (١١٨٦) ، والنسائي (٦/ ١٦٨) .

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ : « مرْهُ فليراجعْها حتَّىٰ تطهرَ ، ثمَّ تحيضَ ، ثمَّ تطهرَ ، ثمَّ إنْ شاءَ . . طلقَها ، وإنْ شاءَ . . أمسكَها ، فتلكَ العِدَّةُ التي أمرَ اللهُ تعالىٰ أنْ يطلَّقَ لها النساءُ »[1] ، وإنَّما أمرَهُ بالصبرِ بعدَ الرجعةِ طهرينِ لئلا يكونَ مقصودُ الرجعةِ الطلاقَ فقطْ .

❊ ❊ ❊

الثاني : أنْ يقتصرَ علىٰ طلقةٍ واحدةٍ : فلا يجمعَ بينَ الثلاثِ ؛ لأنَّ الطلقةَ الواحدةَ بعدَ العِدَّةِ تفيدُ المقصودَ ، ويستفيدُ بها الرجعةَ إنْ ندمَ في العِدَّةِ ، وتجديدَ النكاحِ إنْ أرادَ بعدَ العِدَّةِ[2] .

وإذا طلَّقَ ثلاثاً . . ربَّما ندمَ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يُزوِّجَها محلِّلاً وإلى الصبرِ مدةً ، وعقدُ المحلِّل منهيٌّ عنهُ[3] ، ويكونُ هوَ الساعيَ فيهِ ، ثمَّ يكونُ قلبُهُ معلَّقاً بزوجةِ الغيرِ وتطليقِهِ ؛ أعني : زوجةَ المحلِّلِ بعدَ أنْ زوَّجَ منهُ ، ثمَّ يورثُ ذلكَ تنفيراً مِنَ الزوجةِ ، وكلُّ ذلكَ ثمرةُ الجمعِ ، وفي الواحدةِ كفايةٌ في المقصودِ مِنْ غيرِ محذورٍ ، ولستُ أقولُ : الجمعُ حرامٌ ، ولكنَّهُ مكروهٌ بهٰذهِ المعاني ، وأعني بالكراهةِ : تركَهُ النظرَ لنفسِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٥٢٥٢) ، ومسلم (١٤٧١) .
(٢) قال تعالىٰ : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ ، وهو الندم الذي يحمل على الرجعة .
(٣) كما روىٰ ذلك أبو داوود (٢٠٧٦) ، والترمذي (١١١٩) ، والنسائي (٦/١٤٩) ، وابن ماجه (١٩٣٤) من لعن المحلِّلِ والمحلَّلِ له .

الثالثُ : أنْ يتلطَّفَ في التعلُّلِ بتطليقِها مِنْ غيرِ تعنيفٍ واستخفافٍ : ويطيِّبَ قلبَها بهديةٍ علىٰ سبيلِ الإمتاعِ والجبرِ لما فجعَها بهِ مِنْ أذى الفراقِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ ، وذلكَ واجبٌ مهما لمْ يُسمَّ لها مهرٌ في أصلِ النكاحِ(١) .

كانَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما مطلاقاً منكاحاً ، ووجَّهَ ذاتَ يومٍ بعضَ أصحابِهِ بطلاقِ امرأتينِ منْ نسائِهِ وقالَ : قلْ لهما : اعتدَّا ، وأمرَهُ أنْ يدفعَ إلىٰ كلِّ واحدةٍ عشرةَ آلافِ درهمٍ ، ففعلَ ، فلمَّا رجعَ إليهِ . . قالَ : ماذا فعلتا ؟ فقالَ : أمَّا إحداهما . . فنكسَتْ رأسَها وسكتَتْ ، وأمَّا الأخرىٰ . . فبكتْ وانتحبتْ ، فسمعتُها تقولُ : متاعٌ قليلٌ مِنْ حبيبٍ مفارقٍ ، فأطرقَ الحسنُ ، ورحمَ لها وقال : لوْ كنتُ مراجعاً امرأةً بعدَما أفارقُها . . لراجعتُها(٢) .

ودخلَ الحسنُ ذاتَ يومٍ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ فقيهِ المدينةِ ورئيسِها ، ولمْ يكنْ لهُ بالمدينةِ نظيرٌ ، وبهِ ضربتِ المثلَ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها حيثُ قالتْ : (لوْ لمْ أسرْ مسيري ذلكَ . . لكانَ أحبَّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ لي ستةَ عشرَ ذكراً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلُ عبدِ

---

(١) في النسخ : (لم يسلَّم) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .
(٢) تقدم الحديث عن ذلك ، والخبر رواه السراج القاري في « مصارع العشاق » (٢/١٩٨) ، وهو في « القوت » (٢/٢٤٦) .

الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ)(١) ، فدخلَ عليهِ في بيتِهِ ، فعظَّمَهُ عبدُ الرحمنِ وأجلسَهُ في مجلسِهِ وقالَ : ألا أرسلتَ إليَّ فكنتُ أجيئُكَ ؟! فقالَ : الحاجةُ لنا ، فقالَ : وما هيَ ؟ قالَ : جئتُكَ خاطباً ابنتَكَ ، فأطرقَ عبدُ الرحمنِ ثمَّ رفعَ رأسَهُ وقالَ : واللهِ ؛ ما علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ يمشي عليها أعزَّ عليَّ منكَ ، ولكنَّكَ تعلمُ أنَّ ابنتي بضعةٌ منِّي ، يسوءُني ما ساءَها ، ويسرُّني ما سرَّها ، وأنتَ مطلاقٌ ، فأخافُ أنْ تطلِّقَها ، وإنْ فعلتَ . . خشيتُ أنْ يتغيَّرَ قلبي في محبَّتِكَ ، وأكرهُ أنْ يتغيَّرَ قلبي عليكَ ؛ فإنَّكَ بضعةٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنْ شرطتَ ألاَّ تطلِّقَها . . زوجتُكَ ، فسكتَ الحسنُ وقامَ وخرجَ ، وقالَ بعضُ أهلِ بيتِهِ : سمعتُهُ وهوَ يمشي يقولُ : ما أرادَ عبدُ الرحمنِ إلا أنْ يجعلَ ابنتَهُ طوقاً في عنقي(٢) .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يضجرُ منْ كثرةِ تطليقِهِ ، فكانَ يعتذرُ منهُ على المنبرِ ويقولُ في خطبتِهِ : إنَّ حسناً مطلاقٌ ، فلا تُنكحوهُ ، حتَّىٰ قامَ رجلٌ منْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢/ ٤٣٥) ، وتقصد ترك سيرها يوم الجمل رضي الله عنها .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٦) ، وهلذا الرجل مع جلالة قدره ونبله لم يوفق إلىٰ أن يغلّب حبه الاختياري علىٰ حبه الاضطراري ، مع كثرة بناته ، فصرف ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير إجابة ، وتعلل بما لا يفيده ، هلا فعل مثل بني همدان كما سيذكره المصنف . « إتحاف » (٥/ ٤٠٠) .

همدانَ فقالَ : واللهِ ، يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لَنُنْكِحَنَّهُ ما شاءَ ، فإنْ أحبَّ . . أمسكَ ، وإنْ أحبَّ . . تركَ ، فسَرَّ ذلكَ علياً رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ(١) : [من الطويل]

وَلَوْ كُنْتُ بَوَّاباً عَلَىٰ بابِ جَنَّةٍ   لَقُلْتُ لِهَمْدانَ ٱدْخُلُوا بِسَلامِ

وهٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ مَنْ طعنَ في حبيبِهِ مِنْ أهلٍ وولدٍ لنوعِ حياءٍ فلا ينبغي أنْ يُوافقَ عليهِ ، فهٰذِهِ الموافقةُ قبيحةٌ ، بلِ الأدبُ المخالفةُ ما أمكنَ ، فإنَّ ذلكَ أسرُّ لقلبِهِ ، وأوفقُ لباطنِ رأيِهِ(٢) .

والقصدُ مِنْ هٰذا : بيانُ أنَّ الطلاقَ مباحٌ ، وقدْ وعدَ اللهُ تعالى الغنىٰ في الفراقِ والنكاحِ جميعاً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ .

* * *

الرابعُ : ألاَّ يفشيَ سرَّها لا في الطلاقِ ولا عندَ النكاحِ : فقدْ وردَ في إفشاءِ سرِّ النساءِ في الخبرِ الصحيحِ وعيدٌ عظيمٌ(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٤٦) ، وصبح الأعشىٰ (١٣/٢٣٤) ، والعقد الفريد (٣/٣٩٠) ، وانظر « ديوان سيدنا علي » الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٣٥٥) .

(٢) يريد بذلك تأديبه وتوبيخه ، وهٰذا هو الحق ، وقد غلط فيه كثيرون . « إتحاف » (٥/٤٠٠) .

(٣) كما روىٰ مسلم (١٤٣٧) مرفوعاً : « إن من أشرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجلَ يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم ينشر سرَّها » .

ويُروىٰ عنْ بعضِ الصالحينَ أنَّهُ أرادَ طلاقَ امرأةٍ ، فقيلَ لهُ : ما الذي يريبُكَ فيها ؟ فقالَ : العاقلُ لا يهتكُ سترَ امرأتِهِ ، فلمَّا طلَّقَها . . قيلَ لهُ : لمَ طلقْتَها ؟ فقالَ : ما لي ولامرأةٍ غيري ؟!

فهٰذا بيانُ ما على الزوجِ .

* * *

القسم الثاني من هذا الباب
النظر في حقوق الزوج عليها

والقولُ الشافي فيهِ : أنَّ النكاحَ نوعُ رقٍّ ، وهيَ رقيقةٌ لهُ ، فعليها طاعةُ الزوجِ مطلقاً في كلِّ ما طلبَ منها في نفسِها ، ممَّا لا معصيةَ فيهِ .

وقدْ وردَ في تعظيمِ حقِّ الزوجِ عليها أخبارٌ كثيرةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما امرأةٍ ماتَتْ وزوجُها عنها راضٍ . . دخلَتِ الجنَّةَ »(١) .

وكانَ رجلٌ قدْ خرجَ إلىٰ سفرٍ ، وعهدَ إلى امرأتِهِ ألاَّ تنزلَ مِنَ العلوِ إلى السفلِ ، وكانَ أبوها في السفلِ ، فمرضَ ، فأرسلتِ المرأةُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تستأذنُ في النزولِ إلىٰ أبيها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أطيعي زوجَكِ » ، فماتَ ، فاستأمرتْهُ ، فقالَ : « أطيعي زوجَكِ » ، فدُفنَ أبوها ، فأرسلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إليها يخبرُها أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ غفرَ لأبيها بطاعتِها لزوجِها(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا صلَّتِ المرأةُ خمسَها ، وصامَتْ شهرَها ، وحفظَتْ فرجَها ، وأطاعَتْ زوجَها . . دخلَتْ جنَّةَ ربِّها »(٣) .

---

(١) رواه الترمذي (١١٦١) ، وابن ماجه (١٨٥٤) .
(٢) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (١٣٧٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٦٤٤) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٩١/١) ، وابن حبان في صحيحه (٤١٦٣) .

وأضافَ طاعةَ الزوجِ إلىٰ مباني الإسلامِ .

وذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ النساءَ فقالَ : « حاملاتٌ ، والداتٌ ، مرضعاتٌ ، رحيماتٌ بأولادِهِنَّ ، لولا ما يأتينَ إلىٰ أزواجِهِنَّ . . دخلَ مُصلِّياتُهُنَّ الجنَّةَ »(١) .

وقالَ ﷺ : « اطلعتُ في النارِ ، فإذا أكثرُ أهلِها النساءُ » ، فقلنَ : لِمَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يكثِرْنَ اللعنَ ، ويكفرْنَ العشيرَ »(٢) يعني : الزوجَ المعاشرَ .

وفي خبرٍ آخرَ : « اطلعتُ في الجنَّةِ ، فإذا أقلُّ أهلِها النساءُ ، فقلتُ : أينَ النساءُ ؟ فقيلَ : شغلَهُنَّ الأحمرانِ ؛ الذهبُ والزعفرانُ »(٣) يعني : الحليَ ومصبغاتِ الثيابِ .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أتَتْ فتاةٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَتْ : يا نبيَّ اللهِ ؛ إنِّي فتاةٌ أُخطبُ ، وإنِّي أكرهُ التزويجَ ، فما حقُّ الزوجِ على المرأةِ ؟ قالَ : « لوْ كانَ مِنْ قرنِهِ إلىٰ قدمِهِ صديدٌ فلحستْهُ . . ما أدَّتْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠١٣) دون قوله : (مرضعات) ، وهي عند الطبراني في « الصغير » (٢/ ٤٧) ، وقوله : (لولا ما يأتين إلىٰ أزواجهن) ؛ أي : من كفران العشير ونحوه .

(٢) رواه البخاري (٣٠٤) ، ومسلم (٨٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٩) وفيه : (الحرير) بدل (الزعفران) ، وعند مسلم (٢٧٣٨) مرفوعاً : « إن أقلَّ ساكني الجنة النساء » ، وذكْر الزعفران جاء عند أبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣٤٠٢) .

شكرَهُ » ، قالتْ : فلا أتزوَّجُ ؟ قالَ : « بلىٰ تزوَّجِي ، فإنَّهُ خيرٌ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أتتِ امرأةٌ مِنْ خثعمٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالتْ : إنِّي امرأةٌ أيِّمٌ ، وأريدُ أنْ أتزوَّجَ ، فما حقُّ الزوجِ ؟ قالَ : « إنَّ مِنْ حقِّ الزوجِ على الزوجةِ إذا أرادَها علىٰ نفسِها وهيَ علىٰ ظهْرِ بعيرٍ ألاَّ تمنعَهُ ، ومِنْ حقِّهِ ألا تُعطيَ شيئاً منْ بيتِهِ إلا بإذنِهِ ، فإنْ فعلَتْ ذلكَ . . كانَ الوزْرُ عليها والأجرُ لهُ ، ومِنْ حقِّهِ ألاَّ تصومَ تطوُّعاً إلا بإذنِهِ ، فإنْ فعلَتْ . . فقدْ جاعَتْ وعطشَتْ ولمْ يُقبلْ منها ، ومِنْ حقِّه ألا تخرجَ مِنْ بيتِها إلا بإذنهِ ، فإنْ فعلَتْ . . لعنتْها الملائكةُ حتَّىٰ ترجعَ إلىٰ بيتِها أوْ تتوبَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أمرتُ أحداً أنْ يسجدَ لأحدٍ . . لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجِها مِنْ عظَمِ حقِّهِ عليها »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ ما تكونُ المرأةُ مِنْ وجهِ ربِّها إذا كانتْ في قعرِ بيتِها ، وإنَّ صلاتَها في صحنِ دارِها أفضلُ مِنْ صلاتِها في

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٢) حيث قال : (روينا عن أم عبد المغنية عن عائشة رضي الله عنها . . .) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٥٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٩٥١) وزاد : قيل : وإن كان ظالماً ؟ قال : « وإن كان ظالماً » ، ورواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٤٥٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٢٩٢) ، وبعضه في « الصحيحين » .

(٣) رواه الترمذي (١١٥٩) .

المسجدِ ، وصلاتَها في بيتِها أفضلُ مِنْ صلاتِها في صحْنِ دارِها ، وصلاتَها في مُخْدَعِها أفضلُ مِنْ صلاتِها في بيتِها »[١] ، والمخدعُ : بيتٌ في بيتٍ ، وذلكَ للسترِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرأةُ عورةٌ ، فإذا خرجَتْ . . استشرفَها الشيطانُ »[٢] .

وقالَ أيضاً : « للمرأةِ عشرُ عوراتٍ ، فإذا تزوَّجتْ . . سترَ الزوجُ عورةً واحدةً ، فإذا ماتتْ سترَ القبرُ العشرَ عوراتٍ »[٣] .

* * *

فحقوقُ الزوجِ على الزوجةِ كثيرةٌ ، وأهمُّها أمرانِ :

أحدُهما : الصيانةُ والسترُ .

والآخرُ: تركُ المطالبةِ ممَّا وراءَ الحاجةِ، والتعفُّفُ عنْ كسبِهِ إذا كانَ حراماً.

وهكذا كانتْ عادةُ النساءِ في السلفِ ، كانَ الرجلُ إذا خرجَ مِنْ منزلِهِ . . تقولُ امرأتُهُ أوِ ابنتُهُ : إيَّاكَ وكسبَ الحرامِ ؛ فإنَّا نصبرُ على الجوعِ والضرِّ ، ولا نصبرُ على النارِ[٤] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٥٢) وقد روى ابن حبان في « صحيحه » (٥٥٩٨) الشطر الأول منه ، وآخره عند أبي داوود (٥٧٠) .
(٢) رواه الترمذي (١١٧٣) .
(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٩٧٨) ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٢/٩٦) مرفوعاً : « هما ستران ، الزوج والقبر » .
(٤) كذا في «القوت» (٢/٢٤٧)، وبنحوه روى ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/٤/٣١١).

وهَمَّ رجلٌ مِنَ السلفِ بالسفرِ ، فكرهَ جيرانُهُ سفرَهُ ، فقالوا لزوجتِهِ : لِمَ ترضينَ بسفرِهِ ولمْ يدعْ لكِ نفقةً ؟ فقالَتْ : زوجي منذُ عرفتُهُ عرفتُهُ أكَّالاً ، وما عرفتُهُ رزَّاقاً ، ولي ربٌّ رزَّاقٌ ، يذهبُ الأكَّالُ ويبقى الرزَّاقُ(١) .

وخطبتْ رابعةُ بنتُ إسماعيلَ أحمدَ بنَ أبي الحَواري ، فكرهَ ذلكَ ؛ لما كانَ فيهِ مِنَ العبادةِ وقالَ لها : واللهِ ، ما لي همةٌ في النساءِ لشغلي بحالي ، فقالَتْ : إنِّي لأشغلُ بحالي منكَ ، وما لي شهوةٌ ، ولكنِّي ورثتُ مالاً جزيلاً مِنْ زوجي ، فأردتُ أنْ أنفقَهُ علىٰ إخوانِكَ ، وأعرفَ بكَ الصالحينَ ، فيكونَ لي طريقاً إلى اللهِ تعالىٰ ، فقالَ : حتَّىٰ أستأذنَ أستاذي ، فرجعَ إلىٰ أبي سليمانَ الدارانيِّ ، قالَ : وكانَ ينهاني عنِ التزويجِ ويقولُ : ما تزوَّجَ أحدٌ مِنْ أصحابِنا إلاَّ تغيَّرَ ، فلما سمعَ كلامَها . . قالَ : تزوَّجْ بها ؛ فإنَّها وليَّةٌ للهِ ، هـٰذا كلامُ الصدِّيقينَ ، قالَ : فتزوَّجْتُها ، فكانَ في منزِلنا كرٌّ مِنْ جصٍّ ، ففنيَ مِنْ غسْلِ أيدي المستعجلينَ للخروجِ بعدَ الأكلِ فضلاً عمَّنْ غسلَ بالأشنانِ ، قالَ : وتزوجتُ عليها ثلاثَ نسوةٍ ، فكانتْ تطعمُني الطيباتِ وتطيِّبُني وتقولُ : اذهبْ بنشاطِكَ وقوَّتِكَ إلىٰ أزواجِكَ ، وكانتْ رابعةُ هـٰذهِ تُشبَّهُ في أهلِ الشامِ برابعةَ العدويَّةِ في البصرةِ(٢) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤٧) .

ومِنَ الواجباتِ عليها : ألاَّ تفرِّطَ في مالِهِ ، بلْ تحفظُهُ عليهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لها أنْ تطعمَ مِنْ بيتِهِ إلا بإذنِهِ إلا الرَّطْبَ الذي يُخافُ فسادُهُ ، فإنْ أطعمَتْ عنْ رضاهُ . . كانَ لها مثلُ أجرِهِ ، وإنْ أطعمَتْ بغيرِ إذنِهِ . . كانَ لهُ الأجرُ وعليها الوزرُ »(١) .

ومِنْ حقِّها على الوالدينِ : تعليمُها حسنَ المعيشةِ ، وآدابَ العِشرةِ معَ الزوجِ ؛ كما رُوِيَ أنَّ أسماءَ بنَ خارجةَ الفزاريَّ قالَ لابنتِهِ عندَ التزوجِ : إنَّكِ خرجتِ مِنَ العشِّ الذي فيهِ درجتِ ، فصرتِ إلىٰ فراشٍ لمْ تعرفيهِ ، وقرينٍ لمْ تألفيهِ ، فكوني لهُ أرضاً . . يكنْ لكِ سماءً ، وكوني لهُ مهاداً . . يكنْ لكِ عماداً ، وكوني لهُ أمةً . . يكنْ لكِ عبداً ، لا تلحفي بهِ فيقلاكِ ، ولا تباعدي عنهُ فينساكِ ، إنْ دنا . . فاقربي منهُ ، وإنْ نأىٰ . . فابعدي عنهُ ، واحفظي أنفَهُ وسمعَهُ وعينَهُ ، لا يشمُّ منكِ إلا طِيباً ، ولا يسمعُ إلاَّ حَسناً ، ولا ينظرُ إلا جميلاً(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥١) ، رواه الطيالسي في « مسنده » (١٩٥١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٢٩٢) بنحوه ، وليس فيه ذكر الرطب ، وعند أبي داوود (١٦٨٦) في مبايعة النساء وقد قالت إحداهن : يا نبي الله ؛ إنا كلٌّ علىٰ آبائنا وأبنائنا وأزواجنا ، فما يحل لنا من أموالهم ؟ فقال : « الرطب تأكلنه وتهدينه » قال أبو داوود : الرَّطْب : الخُبز والبقل والرُّطَب .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥٥) ، وقد رواها عن أسماء بن خارجة كذلك ابن أبي الدنيا في « العيال » (١٣٦) مختصراً ، وبنحوه عند ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٦/ ٨٣) لامرأة عوف بن محلِّم توصي ابنتها أم إياس ، مع زيادة حسنة .

وقالَ رجلٌ لزوجتِهِ(1) :   [من الطويل]

خُذِي ٱلْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي   وَلا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ
وَلا تَنْقُرِينِي نَقْرَكِ ٱلدُّفَّ مَرَّةً   فَإِنَّكِ لاَ تَدْرِينَ كَيْفَ ٱلْمُغَيَّبُ
وَلاَ تُكْثِرِي ٱلشَّكْوَىٰ فتَذْهَبَ بِٱلْهَوَىٰ   وَيَأْبَاكِ قَلْبِي وَٱلْقُلُوبُ تَقَلَّبُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ ٱلْحُبَّ فِي ٱلْقَلْبِ وَٱلأَذَى   إِذا ٱجْتَمَعا لَمْ يَلْبَثِ ٱلْحُبُّ يَذْهَبُ

والقولُ الجامعُ في آدابِ المرأةِ مِنْ غيرِ تطويلٍ : أنْ تكونَ قاعدةً في قعرِ بيتها ، لازمةً لمغزلِها ، لا تُكثرُ صعودَها واطلاعَها ، قليلةَ الكلامِ لجيرانِها ، لا تدخلُ عليهِمْ إلا في حالٍ يوجبُ الدخولَ ، تحفظُ بعلَها في غيبتِهِ وحضرتِهِ ، وتطلبُ مسرَّتَهُ في جميعِ أمورِها ، ولا تخونُهُ في نفسِهَا ومالِهِ ، ولا تخرجُ مِن بيتِها إلا بإذنِهِ ، وإنْ خرجَتْ بإذنِهِ . . فمختفيةً في هيئةٍ رثَّةٍ ، تطلبُ المواضعَ الخاليةَ دونَ الشوارعِ والأسواقِ ، محترزةً مِنْ أنْ يسمعَ غريبٌ صوتَها ، أوْ يعرفَها بشخصِها ، لا تتعرَّفُ إلىٰ صديقِ بعلِها في حاجاتِها ، بلْ تتنكَّرُ علىٰ مَنْ تظنُّ أنَّهُ يعرفُها أو تعرفُهُ ، همُّها صلاحُ شأنِها ، وتدبيرُ بيتِها ، مقبلةً علىٰ صلاتِها وصيامِها ، وإذا استأذنَ صديقٌ

---

(1) والذي في « القوت » (٢/ ٢٥٥) ، و« العيال » (١٣٦) متابعة كلام أسماء بن خارجة حيث قالا : (وكوني كما قلتُ لأمك) وذكرا الأبيات ، وليس في « العيال » البيت الثاني . والأبيات لأسماء بن خارجة ، انظر « الأغاني » (٢٣/ ٨٠٦٩) ، وقيل : لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٣٨١) ، وانظر « المعمرون والوصايا » (ص ١٤٨) .

لبعلِها على البابِ وليسَ البعلُ حاضراً . . لمْ تستفهمْهُ ، ولمْ تعاودْهُ في الكلامِ[1] ؛ غيرةً علىٰ نفسِها وبعلِها ، وتكونُ قانعةً مِنْ زوجِها بما رزقَ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومقدمةً حقَّهُ علىٰ حقِّ نفسِها وحقِّ سائرِ أقاربِها، متنظفةً في نفسِها، مستعدَّةً في الأحوالِ كلِّها؛ ليستمتعَ بها إنْ شاءَ ، مشفقةً علىٰ أولادِها ، حافظةً للسترِ عليهِمْ ، قصيرةَ اللسانِ عنْ سبِّ الأولادِ ومراجعةِ الزوجِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وامرأةٌ سفعاءُ الخدينِ كهاتينِ في الجنَّةِ ؛ امرأةٌ آمَتْ مِنْ زوجِها وحبسَتْ نفسَها علىٰ بناتِها حتَّىٰ بانوا أوْ ماتوا »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حرَّم اللهُ علىٰ كلِّ آدميٍّ دخولَ الجنَّةِ قبلي ، غيرَ أنِّي أنظرُ عنْ يميني فإذا امرأةٌ تبادرُني إلىٰ بابِ الجنَّةِ ، فأقولُ : ما لهـٰذِهِ تبادرُني ؟ فيقالُ لي : يا محمدُ ؛ هـٰذِهِ امرأةٌ كانتْ حسناءَ جميلةً ، وكانَ عندَها يتامىٰ لها ، فصبرَتْ عليهِنَّ حتَّىٰ بلغَ أمرُهُنَّ الذي بلغَ ، فشكرَ اللهُ لها ذلكَ »[3] .

ومِنْ آدابِها : ألاَّ تتفاخرَ على الزوجِ بجمالِها ، ولا تزدريَ زوجَها

---

(١) وإن لزم الأمر لضرورة الخطاب . . فلتجعل أصابعها علىٰ فمها وتغير صوتها بحيث يظن أنه صوت عجوز لا شابة . « إتحاف » (٥/ ٤٠٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٥١٤٩) ، **وآمت** : مات عنها زوجها ، **وسفعاء الخدين** : متغيرة لون الخدين لما يكابدها من المشقة والضنك .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٥١) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨) .

لقبحِهِ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ الأصمعيَّ قالَ : دخلتُ الباديةَ ، فإذا أنا بامرأةٍ مِنْ أحسنِ الناسِ وجهاً تحتَ رجلٍ مِنْ أقبحِ الناسِ وجهاً ، فقلتُ لها : يا هٰذهِ ؛ أترضينَ لنفسِكِ أنْ تكوني تحتَ مثلِهِ ؟! فقالتْ : يا هٰذا ؛ اسكتْ ، فقدْ أسأتَ في قولِكَ ، لعلَّهُ أحسنَ فيما بينَهُ وبينَ خالقِهِ فجعلَني ثوابَهُ ، ولعلِّي أسأتُ فيما بيني وبينَ خالقي فجعلَهُ عقوبتي ، أفلا أرضىٰ بما رضيَ اللهُ لي ؟! فأسكتتني(١) .

وقالَ الأصمعيُّ : رأيتُ في الباديةِ امرأةً عليها قميصٌ أحمرُ ، وهيَ مختضبةٌ ، وبيدِها سبحةٌ ، فقلتُ : ما أبعدَ هٰذا مِن هٰذا ! فقالتْ : [من الطويل]

وللهِ مِنِّي جانبٌ لا أُضيعُهُ ... وَلِلَّهْوِ مِنِّي وَٱلْبَطالَةِ جانِبُ

فعلمتُ أنَّها امرأةٌ صالحةٌ لها زوجٌ تتزيَّنُ لهُ(٢) .

ومِنْ آدابِ المرأةِ : ملازمةُ الصلاحِ والانقباضِ في غيبةِ زوجِها ، والرجوعُ إلى اللعبِ والانبساطِ وأسبابِ اللذَّةِ في حضورِ زوجِها .

ولا ينبغي أنْ تؤذيَ زوجَها بحالٍ ، رُوِيَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلا قالَتْ زوجتُهُ مِنَ الحورِ العينِ : لا تؤذيهِ قاتلكِ اللهُ ، فإنَّما هوَ

---

(١) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (١٩٥) .
(٢) أورد الخبر ابن حمدون في « تذكرته » (٧/ ١٩٩) والبيت من غير نسبة ، وانظر « محاضرات الأدباء » (٣/ ٤٥١) .

عندَكِ دخيلٌ ، يوشكُ أنْ يفارقَكِ إلينا »[1] .

وممَّا يجبُ عليها مِنْ حقوقِ النكاحِ إذا ماتَ عنها زوجُها : ألاَّ تحدَّ عليهِ أكثرَ مِنْ أربعةِ أشهرٍ وعشرٍ ، وتتجنَّبُ الطيبَ والزينةَ في هـٰذهِ المدَّةِ ، قالتْ زينبُ بنتُ أبي سلمةَ : دخلتُ علىٰ أمِّ حبيبةَ زوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ توفِّيَ أبوها أبو سفيانَ بنُ حربٍ ، فدعَتْ بطيبٍ فيهِ صفرةُ خلوقٍ أوْ غيرِهِ ، فدهنَتْ بهِ جاريةً ثمَّ مسَّتْ بعارضيها ، ثمَّ قالتْ : واللهِ ؛ ما لي بالطيبِ مِنْ حاجةٍ ، غيرَ أنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ تُحدَّ علىٰ ميتٍ أكثرَ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ إلا علىٰ زوجٍ أربعةَ أشهرٍ وعشراً »[2] .

ويلزمُها لزومُ مسكنِ النكاحِ إلىٰ آخرِ العدَّةِ ، وليسَ لها الانتقالُ إلىٰ أهلِها ، ولا الخروجُ إلاَّ لضرورةٍ .

ومِنْ آدابِها : أنْ تقومَ بكلِّ خدمةٍ في الدارِ تقدرُ عليها ، فقد رُوِيَ عنْ أسماءَ بنتِ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّها قالَتْ : تزوَّجَني الزبيرُ وما لهُ في الأرضِ مِنْ مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ غيرَ فرسِهِ وناضحِهِ ، فكنتُ أعلفُ فرسَهُ ، وأكفيهِ مؤنتَهُ وأسوسُهُ ، وأدقُّ النوىٰ لناضحِهِ وأعلفُهُ ، وأستقي الماءَ ، وأخرزُ غَرْبَهُ ، وأعجنُ ، وكنتُ أنقلُ النوىٰ علىٰ رأسي مِنْ ثلثي

---

(١) رواه الترمذي (١١٧٤) ، وابن ماجه (٢٠١٤) .
(٢) رواه البخاري (١٢٨٢ ، ٥٣٣٤) ، ومسلم (١٤٨٦) .

فرسخٍ ، حتَّىٰ أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ بجاريةٍ ، فكفتني سياسةَ الفرسِ ، فكأنَّما أعتقَني ، ولقيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً ومعَهُ أصحابُهُ والنوىٰ علىٰ رأسي ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إخْ إخْ » ؛ لينيخَ ناقتَهُ ويحملَني خلفَهُ ، فاستحييتُ أنْ أسيرَ معَ الرجالِ وذكرتُ الزبيرَ وغيرتَهُ ، وكانَ أغيرَ الناسِ ، فعرفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنِّي قدِ استحييتُ ، فجئتُ الزبيرَ ، فحكيتُ لهُ ما جرىٰ ، فقالَ : واللهِ ؛ لحمْلُكِ النوىٰ علىٰ رأسِكِ أشدُّ عليَّ مِنْ ركوبِكِ معَهُ(١) .

* * *

تمّ كتاب آداب النّكاح

وهو الكتاب الثّاني من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلاته على نبيّنا محمّد وآله وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب آداب الكسب والمعاش

---

(١) إذ لا عار فيه ، بخلاف حمل النوىٰ ؛ فإنه ربما يتوهم منه خسة نفسه ودناءة همته . « إتحاف » (٥/ ٤١١) ، والخبر رواه البخاري (٥٢٢٤) ، ومسلم (٢١٨٢) .

كتاب
آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آداب الكسب والمعاش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نحمدُ اللهَ حمدَ موحِّدٍ امَّحقَ في توحيدِهِ ما سوى الواحدِ الحقِّ وتلاشىٰ ، ونمجِّدُهُ تمجيدَ مَنْ يصرِّحُ بأنَّ كلَّ شيءٍ ما سوى اللهِ باطلٌ ولا يتحاشىٰ ، وأنَّ كلَّ مَنْ في السماواتِ والأرضِ لنْ يخلقوا ذباباً ولوِ اجتمعوا لهُ ولا فَراشاً ، ونشكرُهُ إذْ رفعَ السماءَ لعبادِهِ سقفاً مبنياً ومهدَ الأرضَ بساطاً لهمْ وفِراشاً ، وكوَّرَ الليلَ على النهارِ فجعلَ الليلَ لباساً وجعلَ النهارَ معاشاً ؛ لينتشروا في ابتغاءِ فضلِهِ وينتعشوا بهِ عنْ ضرعةِ الحاجاتِ[1] انتعاشاً .

ونصلِّي علىٰ رسولِهِ الذي يصدرُ المؤمنونَ عَنْ حوضِهِ رِواءً بعدَ ورودِهِمْ عليهِ عطاشاً ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ لمْ يدعوا في نصرةِ دينِهِ تشمُّراً وانكماشاً[2] ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فإنَّ ربَّ الأربابِ ومسببَّ الأسبابِ جعلَ الآخرةَ دارَ الثوابِ والعقابِ ،

---

(١) أي : إلجاؤها بذلٍّ ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي : (ضراعة) بدل (ضرعة) . « إتحاف » (٥/ ٤١٢) .

(٢) **الانكماش** : الإسراع ، فهو تأكيد لمعنى التشمُّر .

والدنيا دارَ التمحُّلِ والاضطرابِ ، والتشمُّرِ والاكتسابِ ، وليسَ التشمُّرُ في الدنيا مقصوراً على المعادِ دونَ المعاشِ ، بلِ المعاشُ ذريعةٌ إلى المعادِ ومعينٌ عليهِ ؛ فالدنيا مزرعةُ الآخرةِ ومدرجةٌ إليها . **والناسُ ثلاثةٌ** :

رجلٌ شغلَهُ معاشُهُ عنْ معادِهِ فهوَ مِنَ الهالكينَ .

ورجلٌ شغلَهُ معادُهُ عنْ معاشِهِ فهوَ مِنَ الفائزينَ .

والأقربُ إلى الاعتدالِ هوَ الثالثُ الذي شغلَهُ معاشُهُ لمعادِهِ فهوَ مِنَ المقتصدينَ .

ولنْ ينالَ رتبةَ الاقتصادِ مَنْ لمْ يلازمْ في طلبِ المعيشةِ منهجَ السدادِ ، ولنْ ينتهضَ مَنْ طلبَ الدنيا وسيلةً إلى الآخرةِ وذريعةً ما لمْ يتأدَّبْ في طلبِها بآدابِ الشريعةِ .

وها نحنُ نوردُ آدابَ التجاراتِ والصناعاتِ وضروبَ الاكتساباتِ وسننَها ، ونشرحُها في خمسةِ أبوابٍ :

البابُ الأوّلُ : في فضلِ الكسبِ والحثِّ عليهِ .

البابُ الثاني : في علمِ صحيحِ البيعِ والشراءِ والمعاملاتِ .

البابُ الثالثُ : في بيانِ العدْلِ في المعاملةِ .

البابُ الرابعُ : في بيانِ الإحسانِ فيها .

البابُ الخامسُ : في شفقةِ التاجرِ علىٰ نفسِهِ ودينِهِ .

❊ ❊ ❊

البابُ الأوّلُ
في فضلِ الكسبِ والحثِّ عليه

أما مِنَ الكتابِ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ ، فذكرَهُ في معرضِ الامتنانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ، فجعلَها ربُّكَ نعمةً ، وطلبَ الشكرَ عليها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱنتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفِّرُها إلا الهمُّ في طلبِ المعيشةِ »[1] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٠٠) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « التاجرُ الصَّدوقُ يُحشرُ يومَ القيامةِ معَ الصديقينَ والشهداءِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ الدنيا حلالاً ؛ تعففاً عنِ المسألةِ ، وسعياً علىٰ عيالِهِ ، وتعطفاً علىٰ جارِهِ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ »[2] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالساً معَ أصحابِهِ ذاتَ يومٍ ، فنظروا إلىٰ شابٍّ ذي جلدٍ وقوَّةٍ وقدْ بكَّرَ يسعىٰ ، فقالوا : ويحَ هٰذا ! لوْ كانَ شبابُهُ وجلدُهُ في سبيلِ اللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقولوا هٰذا ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ يسعىٰ علىٰ نفسِهِ ليكفَّها عنِ المسألةِ ويغنيَها عنِ الناسِ . . فهوَ في سبيلِ اللهِ ، وإنْ كانَ يسعىٰ علىٰ أبوينِ ضعيفينِ أوْ ذريةٍ ضعافٍ ليغنيَهُمْ ويكفيَهُمْ . . فهوَ في سبيلِ اللهِ ، وإنْ كانَ يسعىٰ تفاخراً وتكاثراً . . فهوَ في سبيلِ الشيطانِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ العبدَ يتخذُ المهنةَ

---

(١) رواه الترمذي (١٢٠٩) ، وابن ماجه (٢١٣٩) بنحوه .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٢) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٩/ ١٢٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٤٧٩) .

يستغني بها عنِ الناسِ ، ويبغضُ العبدَ يتعلَّمُ العلمَ يتخذُهُ مهنةً »(١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ المؤمنَ المحترفَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحلُّ ما أكلَ الرجلُ مِنْ كسبِهِ ، وكلِّ بيعٍ مبرورٍ »(٣) .

وفي خبرٍ آخرَ : « أحلُّ ما أكلَ العبدُ كسبُ يدِ الصانعِ إذا نصحَ »(٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكُمْ بالتجارةِ ؛ فإنَّ فيها تسعةَ أعشارِ الرزقِ »(٥) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ رأىٰ رجلاً فقالَ : ما تصنعُ ؟ فقالَ : أتعبَّدُ ، قالَ : مَنْ يعولُكَ ؟ قالَ : أخي ، قالَ : أخوكَ أعبدُ منكَ(٦) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لا أعلمُ شيئاً يقرِّبُكُمْ مِنَ الجنَّةِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣١٦) من قول عيسى ابن مريم عليهما السلام .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٩٢٩) ، وابن عدي في « الكامل » (١/ ٣٧٨) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٥) ، ورواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠) ، **والبيع المبرور** : الذي لا غشَّ فيه ولا خيانة .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٣٤) ، **والنصح هنا** : بأن يعمل عمل إتقان وإحسان ، متجنباً للغش ، وافياً بحق الصنعة ، غير ملتفت إلىٰ مقدار الأجر ، وبذلك يحصل الخير والبركة . « إتحاف » (٥/ ٤١٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٢١٣) .

(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧٥٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٨) عن إبراهيم التيمي يرسله .

ويبعدُكُمْ مِنَ النارِ إلا أمرتُكُمْ بهِ ، ولا أعلمُ شيئاً يبعدُكُمْ مِنَ الجنَّةِ ويقرِّبُكُمْ مِنَ النارِ إلا نهيتُكُمْ عنهُ ، وإنَّ الروحَ الأمينَ نفثَ في روعي أنَّ نفساً لنْ تموتَ حتَّىٰ تستوفيَ رزقَها ، وإنْ أبطأَ عنها ، فاتقوا اللهَ وأجملوا في الطلبِ » ، أمرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالإجمالِ في الطلبِ ، ولمْ يقلِ : اتركوا الطلبَ ، ثمَّ قالَ في آخرِهِ : « ولا يحملنَّكُمُ استبطاءُ شيءٍ مِنَ الرزقِ علىٰ أنْ تطلبوهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ اللهَ لا يُنالُ ما عندَهُ بمعصيتِهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأسواقُ موائدُ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ أتاها . . أصابَ منها »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : «لأنْ يأخذَ أحدُكُمْ حبلَهُ فيحتطبَ علىٰ ظهرِهِ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يأتيَ رجلاً أعطاهُ اللهُ مِنْ فضلِهِ فيسألَهُ، أعطاهُ أوْ منعَهُ»[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ فتحَ علىٰ نفسِهِ بابَ المسألةِ . . فتحَ اللهُ عليهِ سبعينَ باباً مِنَ الفقرِ »[4] .

※ ※ ※

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢ / ٤) ، وهو عند ابن ماجه (٢١٤٤) مختصراً .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٣١) ، وابن الطيوري في « الطيوريات » (٨٢٥) عن الحسن البصري ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً) . « إتحاف » (٥/ ٤١٧) .
(٣) رواه البخاري (١٤٧٠) ، ومسلم (١٠٤٢) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤١٨) ، والترمذي (٢٣٢٥) ولفظه : « ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » أو كلمة نحوها .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ لقمانُ الحكيمُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ استغنِ بالكسبِ الحلالِ عنِ الفقرِ ؛ فإنَّهُ ما افتقرَ أحدٌ قطُّ إلا أصابَهُ ثلاثُ خصالٍ : رقَّةٌ في دينِهِ ، وضعفٌ في عقلِهِ ، وذهابُ مروءتِهِ ، وأعظمُ مِنْ هٰذهِ الثلاثِ استخفافُ الناسِ بهِ)(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يقعدُ أحدُكُمْ عنْ طلبِ الرزقِ ويقولُ : اللهمَّ ؛ ارزقْني ، فقدْ علمتُمْ أنَّ السماءَ لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً)(٢) .

وكانَ زيدُ بنُ مسلمةَ يغرسُ في أرضِهِ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أصبتَ ، استغنِ عنِ الناسِ . . يكنْ أصونَ لدينِكَ ، وأكرمَ لكَ عليهِمْ ، كما قالَ صاحبُكُمْ أحيحةُ(٣) : [من البسيط]

فَلَنْ أَزالَ عَلَى ٱلزَّوْراءِ أَعْمُرُها		إِنَّ ٱلْكَرِيْمَ عَلَى ٱلإِخْوَانِ ذُو ٱلْمالِ

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنِّي لأكرهُ أنْ أرى الرجلَ فارغاً ، لا في أمرِ دينِهِ ، ولا في أمرِ دنياهُ)(٤) .

وسئلَ إبراهيمُ عنِ التاجرِ الصدوقِ : أهوَ أحبُّ إليكَ أمِ المتفرِّغُ للعبادةِ ؟

---

(١) نقله صاحب « القوت » كما في « الإتحاف » (٥/٤١٧) .
(٢) نقله صاحب « القوت » كما في « الإتحاف » (٥/٤١٧) .
(٣) ديوانه (ص ٧٩) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٣٠) .

قالَ : التاجرُ الصدوقُ أحبُّ إليَّ ؛ لأنَّهُ في جهادٍ ، يأتيهِ الشيطانُ مِنْ طريقِ المكيالِ والميزانِ ، ومنْ قِبَلِ الأخذِ والعطاءِ فيجاهدُهُ . وخالفَهُ الحسنُ البصريُّ في هـٰذا(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْ موضعٍ يأتيني الموتُ فيهِ أحبَّ إليَّ مِنْ موطنٍ أتسوَّقُ فيهِ لأهلي أبيعُ وأشتري)(٢) .

وقالَ الهيثمُ : (ربما يبلغُني عنِ الرجلِ يقعُ فيَّ ، فأذكرُ استغنائي عنهُ ، فيهونُ ذلكَ عليَّ)(٣) .

وقالَ أيوبُ : (كسبٌ فيهِ شيءٌ أحبُّ إليَّ مِنْ سؤالِ الناسِ)(٤) .

وجاءَتْ ريحٌ عاصفةٌ في البحرِ ، فقالَ أهلُ السفينةِ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ وكانَ معَهُمْ فيها : أما ترىٰ هـٰذهِ الشدَّةَ ؟ فقالَ : ليسَ هـٰذهِ شدَّةً ، إنَّما الشدَّةُ الحاجةُ إلى الناسِ(٥) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٢) ، وإبراهيم هو النخعي ، وتفضيل الحسن للمتفرغ للعبادة لأنه أيضاً في جهاد أبداً ، يأتيه الشيطان بوساوسه في سائر نواحيه فيجاهده ، وكان يقول : فلا يسلم الدين في أعمال التجارات . انظر « الإتحاف » (٥/ ٤١٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٥٠٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٨١٣٤) ، والهيثم هو ابن جميل البغدادي .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٧٤) ، وأيوب هو السختياني .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣٢٣) .

وقالَ أيوبُ : قالَ لي أبو قلابةَ : الزمِ السوقَ ؛ فإنَّ الغنىٰ مِنَ العافيةِ[1] يعني : الغنىٰ عنِ الناسِ .

وقيلَ لأحمدَ : ما تقولُ فيمَنْ جلسَ في بيتِهِ أوْ مسجدِهِ وقالَ : لا أعملُ شيئاً حتَّىٰ يأتيَني رزقي ؟ فقالَ أحمدُ : هـٰذا رجلٌ جهلَ العلمَ ، أما سمعَ قولَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جعلَ رزقي تحتَ ظلِّ رمحي »[2] ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حينَ ذكرَ الطيرَ فقالَ : « تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً »[3] ، فذكرَ أنَّها تغدو في طلبِ الرزقِ ؟! وكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتَّجرونَ في البرِّ والبحرِ ، ويعملونَ في نخيلِهِمْ ، والقدوةُ بِهِمْ[4] .

وقالَ أبو قلابةَ لرجلٍ : (لأنْ أراكَ تطلبُ معاشَكَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أراكَ في زاويةِ المسجدِ) .

ورُوِيَ أنَّ الأوزاعيَّ لقيَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ رحمهُما اللهُ وعلىٰ عنقِهِ حزمةُ حطبٍ ، فقالَ لهُ : يا أبا إسحاقَ ؛ إلىٰ متىٰ هـٰذا ؟! إخوانُكَ يكفونَكَ ،

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٠) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٠) .

فقالَ : دعْني عنْ هٰذا يا أبا عمرٍو ؛ فإنَّهُ بلغَني أنَّهُ مَنْ وقفَ موقفَ مذلَّةٍ في طلبِ الحلالِ . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ(١) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (ليسَ العبادةُ عندَنا أنْ تصفَّ قدميكَ وغيرُكَ يقوتُ لكَ ، ولكنِ ابدأْ برغيفيكَ فأحرزْهُما ثمَّ تعبَّدْ)(٢) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يُنادي منادٍ يومَ القيامةِ : أينَ بُغَضاءُ اللهِ في أرضِهِ ؟ فيقومُ سُؤَّالُ المساجدِ)(٣) .

فهٰذهِ مذمَّةُ الشرعِ للسؤالِ والاتكالِ علىٰ كفايةِ الأغيارِ ، ومَنْ ليسَ لهُ مالٌ موروثٌ . . فلا ينجيهِ عنْ ذلكَ إلا الكسبُ والتجارةُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أوحيَ إليَّ أنِ اجمعِ المالَ وكنْ مِنَ التاجرينَ ، ولكنْ أُوحيَ إليَّ أنْ سبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكنْ مِنَ الساجدينَ ، واعبدْ ربَّكَ حتَّىٰ يأتيَكَ اليقينُ »(٤) ، وقيلَ لسلمانَ الفارسيِّ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١٦/٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٦٤/٩) .

(٣) هٰذا عن ابن عمر مرفوعاً وهو تالف ، انظر « المجروحين » (٢٥٦/١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٣/٨) عن إبراهيم بن أدهم قال : (المسألة مسألتان : مسألة علىٰ أبواب الناس ، ومسألة يقول الرجل : ألزم المسجد وأصلي وأصوم وأعبد الله ، فمن جاءني بشيء . . قبلته ، فهٰذه شر المسألتين ، وهٰذا قد ألحف في المسألة) .

(٤) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٠٧) .

رضيَ اللهُ عنهُ : أوصِنا ؛ فقالَ : (مَنِ استطاعَ منكُمْ أنْ يموتَ حاجّاً ، أوْ غازياً ، أوْ عامراً لمسجدِ ربِّهِ . . فليفعلْ ، ولا يموتنَّ تاجراً ولا جابياً) ؟[1] .

فالجوابُ : أنَّ وجهَ الجمعِ بينَ هـٰذهِ الأخبارِ تفصيلُ الأحوالِ ، فنقولُ : لسنا نقولُ : التجارةُ أفضلُ مطلقاً مِنْ كلِّ وجْهٍ ، ولكنَّ التجارةَ إمَّا أنْ تُطلبَ بها الكفايةُ ، أوِ الثروةُ والزيادةُ على الكفايةِ ، فإنْ طُلبَ منها الزيادةُ على الكفايةِ لاستكثارِ المالِ وادخارِهِ لا للصرفِ إلى الخيراتِ والصدقاتِ . . فهيَ مذمومةٌ ؛ لأنَّهُ إقبالٌ على الدنيا التي حبُّها رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، فإنْ كانَ معَ ذلكَ خائناً . . فهوَ ظلمٌ وفسقٌ ، وهـٰذا ما أرادَهُ سلمانُ بقولِهِ : (لا يموتَنَّ تاجراً ولا جابياً) ، وأرادَ بالتاجرِ طالبَ الزيادةِ .

فأمَّا إذا طلبَ بها الكفايةَ لنفسِهِ وأولادِهِ ، وكانَ يقدرُ علىٰ كفايتِهِمْ بالسؤالِ . . فالتجارةُ تعففاً عنِ السؤالِ أفضلُ ، وإنْ كانَ لا يحتاجُ إلى السؤالِ ، وكان يُعطىٰ مِنْ غيرِ سؤالٍ . . فالكسبُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ إنَّما يُعطىٰ لأنَّهُ سائلٌ بلسانِ حالِهِ ، ومنادٍ بينَ الناسِ بفقرِهِ[2] ، فالتعفُّفُ والتستُّرُ أولىٰ مِنَ البطالةِ ، بلْ مِنَ الاشتغالِ بالعباداتِ البدنيةِ .

* * *

(١) رواه ابن المبارك في « الجهاد » (٢١٥) ، وابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٤/ ٨٥) وفي (ب ، هـ ، و) : (خائناً) بدل (جابياً) .

(٢) وهو شر المسألتين كما تقدم في التعليق المنصرم قريباً .

وتركُ الكسبِ أفضلُ لأربعةٍ :

عابدٌ بالعباداتِ البدنيةِ .

أوْ رجلٌ لهُ سيرٌ بالباطنِ وعملٌ بالقلبِ في علومِ الأحوالِ والمكاشفاتِ .

أوْ عالمٌ يشتغلُ بتربيةِ علمِ الظاهرِ ممَّا ينتفعُ الناسُ بهِ في دينِهِمْ ؛ كالمفتي والمفسِّرِ والمحدِّثِ وأمثالِهِمْ .

أوْ رجلٌ مشتغلٌ بمصالحِ المسلمينَ وقد تكفَّلَ بأمورِهِمْ ؛ كالسلطانِ والقاضي والشاهدِ .

فهؤلاءِ إذا كانوا يُكفَوْنَ مِنَ الأموالِ المرصدةِ للمصالحِ أوِ الأوقافِ المسبَّلَةِ على العلماءِ والفقراءِ . . فإقبالُهُمْ علىٰ ما هُمْ فيهِ أفضلُ مِنَ الاشتغالِ بالكسبِ ، ولهٰذا أُوحيَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنْ سبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكنْ مِنَ الساجدينَ ، ولمْ يُوحَ إليهِ أنِ اجمعِ المالَ وكنْ مِنَ التاجرينَ ؛ لأنَّهُ كانَ جامعاً لهٰذهِ المعاني الأربعةِ إلىٰ زياداتٍ لا يحيطُ بها الوصفُ ، ولهٰذا أشارَ الصحابةُ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بتركِ التجارةِ لمَّا وليَ الخلافةَ ؛ إذْ كانَ ذلكَ يشغلُهُ عنِ المصالحِ ، وكانَ يأخذُ كفايتَهُ مِنْ مالِ المصالحِ ، ورأىٰ ذلكَ أولىٰ .

نعمْ ، لمَّا توفِّيَ . . أوصىٰ بردِّهِ إلىٰ بيتِ المالِ ، ولكنَّهُ رآهُ في الابتداءِ أولىٰ .

ولهؤلاءِ الأربعةِ حالتانِ أخريانِ :

إحداهُما : أنْ تكونَ كفايتُهُمْ عندَ تركِ الكسبِ مِنْ أيدي الناسِ وما يُتصدَّقُ بهِ عليهِمْ مِنْ زكاةٍ أوْ صدقةٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ سؤالٍ ، فتركُ الكسبِ والاشتغالُ بما هُمْ فيهِ أولىٰ ؛ إذْ فيهِ إعانةٌ للناسِ على الخيراتِ ، وقبولٌ منهُمْ لما هُوَ حقٌّ عليهِمْ أوْ فضلٌ لهمْ .

الحالةُ الثانيةُ : الحاجةُ إلى السؤالِ ، وهـٰذا في محلِّ النظرِ ، والتشديداتُ التي رويناها في السؤالِ وذمِّهِ تدلُّ ظاهراً علىٰ أنَّ التعفُّفَ عنِ السؤالِ أولىٰ ، وإطلاقُ القولِ فيهِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ الأحوالِ والأشخاصِ عسيرٌ ، بلْ هوَ موكولٌ إلى اجتهادِ العبدِ ونظرِهِ لنفسِهِ ؛ بأنْ يقابلَ ما يلقىٰ في السؤالِ مِنَ المذمَّةِ وهتكِ المروءةِ والحاجةِ إلى التثقيلِ والإلحاحِ بما يحصلُ مِنِ اشتغالِهِ بالعلمِ والعملِ مِنَ الفائدةِ لهُ ولغيرِهِ ، فربَّ شخصٍ تكثرُ فائدةُ الخلقِ وفائدتُهُ في اشتغالِهِ بالعلمِ والعملِ ويهونُ عليهِ بأدنىٰ تعريضٍ في السؤالِ تحصيلُ الكفايةِ ، وربما يكونُ بالعكسِ ، وربما يتقابلُ المطلوبُ والمحذورُ ، فينبغي أنْ يستفتيَ المريدُ فيهِ قلبَهُ وإنْ أفتاهُ المفتونَ ؛ فإنَّ الفتاوىٰ لا تحيطُ بتفاصيلِ الصورِ ودقائقِ الأحوالِ .

ولقدْ كانَ في السلفِ مَنْ لهُ ثلاثُ مئةٍ وستونَ صديقاً ، ينزلُ علىٰ كلِّ واحدٍ منهُمْ ليلةً ، ومَنْ لهُ ثلاثونَ ، وكانوا يشتغلونَ بالعبادةِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ المتكفِّلينَ بهِمْ يتقلَّدونَ منَّةً مِنْ قبولِهِمْ لمبرَّاتِهِمْ ، فكانَ قبولُهُمْ

لمبرَّاتِهِمْ خيراً مضافاً لهُمْ إلىٰ عبادتِهِمْ .

فينبغي أنْ يُدقَّقَ النظرُ في هـٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّ أجرَ الآخذِ كأجرِ المعطي مهما كانَ الآخذُ يستعينُ بهِ على الدينِ ، والمعطي يعطيهِ عنْ طيبةِ قلبٍ ، ومَنِ اطلعَ علىٰ هـٰذهِ المعاني . . أمكنَهُ أنْ يتعرَّفَ حالَ نفسِهِ ويستوضحَ منْ قلبِهِ ما هوَ الأفضلُ لهُ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِ ووقتِهِ ، واللهُ أعلمُ .

فهـٰذهِ فضيلةُ الكسبِ ، وليكنِ العقدُ الذي بهِ الاكتسابُ جامعاً لأربعةِ أمورٍ : الصحَّةُ ، والعدلُ ، والإحسانُ ، والشفقةُ على الدينِ ، ونحنُ نعقدُ في كلِّ واحدٍ باباً ، ونبتدىءُ بذكرِ أسبابِ الصحَّةِ في البابِ الثاني .

* * *

البَابُ الثَّاني
في علم الكسب بطريق البيع والرّبا والسَّلَم والإجارة والقراض والشّركة وبيان شروط الشّرع في صحّة هٰذه التّصرّفات التي هي مدار المكاسب في الشّرع

اعلمْ : أنَّ تحصيلَ علمِ هٰذا البابِ واجبٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ مكتسبٍ ؛ لأنَّ طلبَ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، وإنَّما هوَ طلبُ العلمِ المحتاجِ إليهِ ، والمكتسِبُ يحتاجُ إلىٰ علمِ الكسبِ .

ومهما حصَّلَ علمَ هٰذا البابِ . . وقفَ علىٰ مفسداتِ المعاملةِ ، فيتقيها ، وما شذَّ عنهُ مِنَ الفروعِ المشكلةِ فيقعُ علىٰ سببِ إشكالِها ، فيتوقفُ فيها إلىٰ أنْ يسألَ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يعلمْ أسبابَ الفسادِ بعلمٍ جُمليٍّ . . فلا يدري متىٰ يجبُ عليهِ التوقُّفُ والسؤالُ .

ولوْ قالَ : لا أقدِّمُ العلمَ ، ولكنِّي أصبرُ إلىٰ أنْ تقعَ ليَ الواقعةُ ، فعندَها أتعلَّمُ وأستفتي . . فيقالُ لهُ : وبمَ تعلمُ وقوعَ الواقعةِ مهما لمْ تعلَمْ جملَ مفسداتِ العقودِ ؟ فإنَّهُ يستمرُّ في التصرُّفاتِ ويظنُّها صحيحةً مباحةً ، فلا بدَّ لهُ مِنْ هٰذا القدْرِ مِنْ علمِ التجارةِ ؛ ليتميَّزَ لهُ المباحُ عنِ المحظورِ ، وموضعُ الإشكالِ عنْ موضعِ الوضوحِ .

ولذلكَ رُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ يطوفُ في السوقِ

ويضربُ بعضَ التجارِ بالدِّرةِ ويقولُ : (لا يبعْ في سوقِنا إلا مَنْ تفقَّهَ ، وإلا . . أكلَ الربا شاءَ أمْ أبىٰ)[1] .

وعلمُ العقودِ كثيرٌ ، ولكنَّ هـٰذهِ العقودَ الستَّةَ لا تنفكُّ المكاسبُ عنها ، وهيَ : البيعُ ، والربا ، والسَّلَمُ ، والإجارةُ ، والشِّرْكَةُ ، والقراضُ . فلنشرحْ شروطَها .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الترمذي (٤٨٧) دون زيادة : (وإلا . . أكل الربا . . .) ، وهي في « القوت » (٢٦٢/٢) .

العقد الأول : البيع

وقدْ أحلَّهُ اللهُ تعالىٰ ، ولهُ ثلاثةُ أركانٍ : العاقدُ ، والمعقودُ عليهِ ، واللفظُ .

* * *

الركنُ الأوَّلُ : العاقدُ :

ينبغي للتاجرِ ألاَّ يعاملَ بالبيعِ أربعةً : الصبيُّ ، والمجنونُ ، والعبدُ ، والأعمىٰ ؛ لأنَّ الصبيَّ غيرُ مكلَّفٍ ، وكذا المجنونُ ، وبيعُهُما باطلٌ ، فلا يصحُّ بيع الصبيِّ وإنْ أذنَ لهُ فيهِ الوليُّ عندَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وما أُخِذَ منهما مضمونٌ عليهِ لهما ، وما سلَّمَهُ في المعاملةِ إليهما ، فضاعَ في أيديهما . . فهوَ المضيِّعُ لهُ .

وأمَّا العبدُ العاقلُ . . فلا يصحُّ بيعُهُ وشراؤُهُ إلا بإذْنِ سيِّدِهِ ، فعلى البقَّالِ والخبَّازِ والقصَّابِ وغيرِهِمْ ألاَّ يعاملوا العبيدَ ما لَمْ يأذنْ لهمُ السادةُ في معاملتِهِمْ ، وذلكَ بأنْ يسمعَهُ صريحاً ، أوْ ينتشرَ في البلدِ أنَّهُ مأذونٌ لهُ في الشراءِ لسيِّدِهِ والبيعِ لهُ ، فيعوَّلُ على الاستفاضةِ ، أوْ علىٰ قولِ عدلٍ يخبرُهُ بذلكَ ، فإنْ عاملَهُ بغيرِ إذْنِ السيِّدِ . . فعقدُهُ باطلٌ ، وما أخذَهُ منهُ مضمونٌ عليهِ لسيِّدِهِ ، وما سلَّمَهُ إنْ ضاعَ في يدِ العبدِ . . لا يتعلَّقُ برقبتِهِ ولا يضمنُهُ سيِّدُهُ ، بلْ ليسَ لهُ إلا المطالبةُ بِهِ إذا عتقَ .

وأمَّا الأعمىٰ . . فإنَّهُ يبيعُ ويشتري ما لا يرىٰ ، فلا يصحُّ ذلكَ ، فليأمرْهُ بأنْ يوكِّلَ وكيلاً بصيراً ليشتريَ لهُ أوْ يبيعَ ، فيصحُّ توكيلُهُ ، ويصحُّ بيعُ وكيلِهِ ، فإنْ عاملَهُ بنفسِهِ . . فالمعاملةُ فاسدةٌ ، وما أخذَهُ منهُ مضمونٌ عليهِ بقيمتِهِ ، وما سلَّمَهُ إليهِ أيضاً مضمونٌ لهُ بقيمتِهِ .

وأمَّا الكافرُ . . فتجوزُ معاملتُهُ ، لكنْ لا يُباعُ منهُ المصحفُ ولا العبدُ المسلمُ ، ولا يُباعُ منهُ السلاحُ إنْ كانَ مِنْ أهلِ الحربِ ، فإنْ فعلَ . . فهيَ معاملاتٌ مردودةٌ ، وهوَ عاصٍ بها ربَّهُ .

وأمَّا الجنديةُ مِنَ الأتراكِ ، والتُّرْكمانيَّةُ ، والعربُ ، والأكرادُ[1] ، والسُّرَّاقُ ، والخونةُ ، وأكلةُ الربا ، والظلمةُ ، وكلُّ مَنْ أكثرُ مالِهِ حرامٌ . . فلا ينبغي أنْ يتملَّكَ ممَّا في أيديهِمْ شيئاً ؛ لأجلِ أنَّها حرامٌ ، إلا إذا عُرِفَ شيءٌ بعينِهِ أنَّهُ حلالٌ ، وسيأتي تفصيلُ ذلكَ في كتابِ الحلالِ والحرامِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

الركنُ الثاني : في المعقودِ عليهِ :

وهوَ المالُ المقصودُ نقلُهُ مِنْ أحدِ العاقدينِ إلى الآخرِ ، ثمناً كانَ أوْ مثمناً ، فيُعتبرُ فيهِ ستَّةُ شروطٍ :

الأوَّلُ : ألاَّ يكون نجساً في عينِهِ : فلا يصحُّ بيعُ كلبٍ وخنزيرٍ ، ولا بيعُ

---

(١) والمراد : الشذاذ وأهل الجهالة من هـٰذه الأجيال .

زِبْلٍ وعَذِرَةٍ ، ولا بيعُ العاجِ والأواني المتخذةِ منهُ ؛ فإنَّ العظْمَ ينجسُ بالموتِ ، ولا يطهرُ الفيلُ بالذبحِ ، ولا يطهرُ عظمُهُ بالتنقيةِ ، ولا يجوزُ بيعُ الخمرِ ، ولا بيعُ الوَدَكِ النجسِ المستخرجِ منَ الحيواناتِ التي لا تؤكلُ وإنْ كانَ يصلحُ للاستصباحِ أوْ طلاءِ السفنِ .

ولا بأسَ ببيعِ الدهنِ الطاهرِ في عينِهِ الذي نجسَ بوقوعِ نجاسةٍ أوْ موتِ فأرةٍ فيهِ ؛ فإنَّهُ يجوزُ الانتفاعُ بهِ في غيرِ الأكلِ وهو في عينِهِ ليسَ بنجسٍ .

وكذلكَ لا أرىٰ بأساً ببيعِ بزرِ القزِّ ؛ فإنَّهُ أصلُ حيوانٍ يُنتفعُ بهِ ، وتشبيهُهُ بالبيضِ ـ وهوَ أصلُ حيوانٍ ـ أولىٰ مِنْ تشبيهِهِ بالروثِ .

ويجوزُ بيعُ فارةِ المسْكِ ، ويُقضىٰ بطهارتِها إذا انفصلَتْ مِنَ الظبيةِ في حالةِ الحياةِ .

الثاني : أنْ يكونَ منتفعاً بهِ : فلا يجوزُ بيعُ الحشراتِ ، ولا الفأرةِ ، ولا الحيَّةِ ، ولا التفاتَ إلى انتفاعِ المشعوذِ بالحيَّةِ ، وكذلكَ لا التفاتَ إلى انتفاعِ أربابِ الحلقِ بإخراجِها مِنَ السلَّةِ وعرضِها على الناسِ .

ويجوزُ بيعُ الهرَّةِ والنحْلِ ، وبيعُ الفهدِ والأسدِ ، وما يصلحُ لصيدٍ ، أوْ ينتفعُ بجلدِهِ ، ويجوزُ بيعُ الفيلِ لأجلِ الحملِ ، ويجوزُ بيعُ الطوطيِّ(١) وهيَ البَبَّغاءُ ، والطاووسِ ، والطيورِ المليحةِ الصورِ وإنْ كانتْ لا تؤكلُ ؛ فإنَّ التفرُّجَ بأصواتِها والنظرَ إليها غرضٌ مقصودٌ مباحٌ ، وإنَّما الكلبُ هوَ الذي

---

(١) وهي لفظة فارسية في الأصل ، معناها ما ذكره المصنف .

لا يجوزُ أنْ يقتنىٰ إعجاباً بصورتِهِ ؛ لنهيِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنهُ[1] .

ولا يجوزُ بيعُ العُودِ والصَّنْجِ[2] والمزاميرِ والملاهي ؛ فإنَّهُ لا منفعةَ لها شرعاً ، وكذا بيعُ الصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ كالحيواناتِ التي تُباعُ في الأعيادِ للعبِ الصبيانِ ، فإنَّ كسرَها واجبٌ شرعاً .

وصورُ الأشجارِ يُتسامحُ بها .

وأمَّا الثيابُ والأطباقُ وعليها صورُ الحيواناتِ . . فيصحُّ بيعُها ، وكذا الستورُ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « اتخذي منها نمارقَ »[3] ، ولا يجوزُ استعمالُها منصوبةً ، ويجوزُ موضوعةً ، وإذا جازَ الانتفاعُ مِنْ وجهٍ . . صحَّ البيعُ لذلكَ الوجهِ .

الثالثُ : أنْ يكونَ المتصرَّفُ فيهِ مملوكاً للعاقدِ أوْ مأذوناً مِنْ جهةِ المالكِ : فلا يجوزُ أنْ يشتريَ مِنْ غيرِ المالكِ انتظاراً لإذنِ المالكِ ، بلْ لوْ رضيَ بعدَ ذلكَ . . وجبَ استئنافُ العقدِ .

---

(١) روى البخاري (٥٤٨٠) ، ومسلم (١٥٧٤) مرفوعاً : « من اقتنىٰ كلباً ليس بكلب ماشية أو ضاريةٍ . . نقص كل يوم من عمله قيراطان » .

(٢) **الصَّنْج عند العرب** : ما يتخذ مدوراً من نحاس ونحوه يضرب أحدهما بالآخر ، ويجعل كذلك في أطراف الدفوف ، **ولكنه في الفارسية** : آلة وترية ، وهي آلة الرباب ، وسيأتي كلام لسماع الآلات في كتاب السماع .

(٣) رواه البخاري (٥٩٥٤) ، ومسلم (٢١٠٧) ، حيث قالت : (فأخَّرته فجعلته وسائد) ، **والنُمْرُقة** : الوسادة .

ولا ينبغي أنْ يشتريَ مِنَ الزوجةِ مالَ الزوجِ ، ولا مِنَ الزوجِ مالَ الزوجةِ ، ولاَ منَ الوالدِ مالَ الولدِ ، ولا مِنَ الولدِ مالَ الوالدِ اعتماداً علىٰ أنَّهُ لوْ عرفَ . . لرضيَ بهِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يكنِ الرضا متقدماً . . لمْ يصحَّ البيعُ ، وأمثالُ ذلكَ ممَّا يكثرُ في الأسواقِ ، فواجبٌ على العبدِ المتديِّنِ أنْ يحترزَ منهُ .

الرابعُ : أنْ يكونَ المعقودُ عليهِ مقدوراً علىٰ تسليمِهِ شرعاً وحسّاً : فما لا يقدرُ علىٰ تسليمِهِ حسّاً . . لا يصحُّ بيعُهُ ؛ كالآبقِ ، والسمكِ في الماءِ ، والجنينِ في البطنِ ، وعسْبِ الفحلِ ، وكذلكَ بيعُ الصوفِ علىٰ ظهرِ الحيوانِ واللبنِ في الضرعِ لا يجوزُ ؛ فإنَّهُ يتعذَّرُ تسليمُهُ ؛ لاختلاطِ غيرِ المبيعِ بالمبيعِ .

والمعجوزُ عنْ تسليمِهِ شرعاً كالمرهونِ والموقوفِ والمستولدةِ . . فلا يصحُّ بيعُها أيضاً ، وكذا بيعُ الأمِّ دونَ الولدِ إذا كان الولدُ صغيراً ، وكذا بيعُ الولدِ دونَ الأمِّ ؛ لأنَّ تسليمَهُ تفريقٌ بينَهُما ، وهوَ حرامٌ ، فلا يصحُّ التفريقُ بينَهُما بالبيعِ .

الخامسُ : أنْ يكونَ المبيعُ معلومَ العينِ والقدْرِ والوصفِ : أمَّا العلمُ بالعينِ : فبأنْ يشيرَ إليهِ بعينِهِ ، فلو قالَ : بعتُكَ شاةً مِنْ هـٰذا القطيعِ أيَّ شاةٍ أردتَ ، أوْ ثوباً مِنْ هـٰذهِ الثيابِ التي بينَ يديكَ ، أوْ ذراعاً مِنْ هـٰذا الكرباسِ وخذْهُ مِنْ أيِّ جانبٍ شئتَ ، أوْ عشرةَ أذرعٍ مِنْ هـٰذهِ الأرضِ وخذْهُ مِنْ أيِّ

طرفٍ شئتَ . . فالبيعُ باطلٌ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يعتادُهُ المتساهلونَ في الدينِ إلا أنْ يبيعَ شائعاً ؛ مثلَ أنْ يبيعَ نصفَ الشيءِ أوْ عشرَهُ ، فإنَّ ذلكَ جائزٌ .

وأمَّا العلمُ بالقدرِ : فإنَّما يحصلُ بالكيلِ أوِ الوزنِ أوِ النظرِ إليهِ ، فلوْ قالَ : بعتُكَ هـٰذا الثوبَ بما باعَ بهِ فلانٌ ثوبَهُ وهما لا يدريانِ ذلكَ . . فهوَ باطلٌ ، ولوْ قالَ : بعتُك بزنةِ هـٰذهِ الصنجةِ . . فهوَ باطلٌ إذا لمْ تكنِ الصنجةُ معلومةً ، ولوْ قالَ : بعتُكَ هـٰذه الصُّبْرةَ مِنَ الحنطةِ . . فهو باطلٌ ، أوْ قالَ : بعتُكَ بهـٰذهِ الصُّبْرةِ مِنَ الدراهمِ أوْ بهـٰذِهِ القطعةِ مِنَ الذهبِ وهوَ يراها . . صحَّ البيعُ وكانَ تخمينُهُ بالنظرِ كافياً في معرفةِ المقدارِ .

وأمَّا العلمُ بالوصفِ : فيحصلُ بالرؤيةِ في الأعيانِ ، فلا يصحُّ بيعُ الغائبِ إلا إذا سبقَتْ رؤيتُهُ منذُ مدَّةٍ لا يغلبُ التغيرُ فيها ، والوصفُ لا يقومُ مقامَ العيانِ ، هـٰذا أسدُّ المذهبينِ .

ولا يجوزُ بيعُ التَّوَّزِيِّ في المُسُوحِ[1] اعتماداً على الرقومِ ، ولا بيعُ الحنطةِ في سنبلِها ، ويجوزُ بيعُ الأرزِّ في قشرتِهِ التي يُدَّخرُ فيها ، وكذا بيعُ الجوزِ واللوزِ في القشرةِ السفلىٰ ولا يجوزُ في القشرتينِ ، ويجوزُ بيعُ الباقلاءِ الرطبِ في قشرِهِ للحاجةِ ، ويُتسامحُ ببيعِ الفُقَّاعِ[2] ؛ لجريانِ عادةِ الأوَّلينَ

---

(١) **المسوح** : جمع مِسح ، كساء أسود من صوف ، **والتَّوَّزية منها** : ما نسب إلىٰ توَّز ، بلدة بفارس اشتهرت بصناعة الثياب الجيدة .

(٢) **الفقَّاع** : شراب يتخذ من الشعير ، سمي بذلك للزبد الذي يعلوه ، ونعته الزبيدي في « إتحافه » : بشراب الزبيب .

بهِ[1] ، ولكنْ نجعلُهُ إباحةً بعوضٍ ، فلوِ اشتراهُ ليبيعَهُ . . فالقياسُ بطلانُهُ ؛ لأنَّهُ ليسَ مستتراً خلقةً ، ولا يبعدُ أنْ يُتسامحَ بهِ ؛ إذْ في إخراجِهِ إفسادُهُ ، كالرمانِ وما يستترُ خلقةً .

السادسُ : أنْ يكونَ المبيعُ مقبوضاً إنْ كانَ قدِ استفادَ ملكَهُ بمعاوضةٍ : وهـٰذا شرطٌ خاصٌّ ، فقدْ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن بيعِ ما لمْ يُقبضْ[2] ، ويستوي فيهِ العقارُ والمنقولُ ، فكلُّ ما اشتراهُ أوْ باعَهُ قبلَ القبضِ . . فبيعُهُ باطلٌ ، وقبضُ المنقولِ بالنقلِ ، وقبضُ العقارِ بالتخليةِ ، وقبضُ ما ابتاعَهُ بشرطِ الكيلِ لا يتمُّ إلا بأنْ يكتالَهُ .

وأمَّا بيعُ الميراثِ والوصيةِ والوديعةِ وما لمْ يكنِ الملكُ حاصلاً فيهِ بمعاوضةٍ . . فهوَ جائزٌ قبلَ القبضِ .

❊ ❊ ❊

الركنُ الثالثُ : لفظُ العقدِ :

فلا بدَّ مِن جريانِ إيجابٍ وقبولٍ متَّصلٍ بهِ ، بلفظٍ دالٍّ على المقصودِ مفهمٍ ، إمَّا صريحٍ أوْ كنايةٍ ، فلوْ قالَ : (أعطيتُكَ هـٰذا بذاكَ) بدلَ قولِهِ : (بعتُكَ) فقالَ : (قبلْتُ) . . جازَ مهما قصدَ بهِ البيعَ ؛ فإنَّهُ قدْ يحتملُ الإعارةَ إذا كانَ في ثوبينِ أوْ دابَّتينِ ، والنيةُ تدفعُ الاحتمالَ ، والصريحُ أقطعُ

---

(١) أي : ببيعه من غير رؤية جميعه . « إتحاف » (٥/٤٣٨) .
(٢) رواه البخاري (٢١٣٢) ، ومسلم (١٥٢٥) .

للخصومةِ ، ولكنَّ الكنايةَ تفيدُ الملكَ والحلَّ أيضاً فيما يختارُهُ .

ولا ينبغي أنْ يقرنَ بالبيعِ شرطاً علىٰ خلافِ مقتضى العقدِ ، فلوْ شرطَ أنْ يزيدَهُ شيئاً آخرَ ، أوْ أنْ يحملَ المبيعَ إلىٰ دارِهِ ، أوِ اشترى الحطبَ بشرطِ النقلِ إلىٰ بيتِهِ . . فكلُّ ذلكَ فاسدٌ ، إلا إذا أفردَ استئجارَهُ على النقلِ بأجرةٍ معلومةٍ منفردةٍ عنِ الشراءِ للمنقولِ .

ومهما لمْ يجرِ بينَهُما إلا المعاطاةُ بالفعلِ دونَ التلفظِ باللسانِ . . لمْ ينعقدْ بيعٌ عندَ الشافعيِّ أصلاً ، وانعقدَ عندَ أبي حنيفةَ إنْ كانَ في المحقَّراتِ ، ثمَّ ضبطُ المحقَّراتِ عسيرٌ ، فإنْ ردَّ الأمرَ إلى العاداتِ . . فقدْ جاوزَ الناسُ المحقَّراتِ في المعاطاةِ ، إذْ يتقدَّمُ الدلاَّلُ إلى البزَّازِ يأخذُ منهُ ثوبَ ديباجٍ قيمتُهُ عشرةُ دنانيرَ مثلاً ، ويحملُهُ إلى المشتري ، ويعودُ إليهِ بأنَّهُ ارتضاهُ ، فيقولُ لهُ : خذْ عشرةً ، فيأخذُ مِنْ صاحبِهِ العشرةَ ويحملُها ويسلِّمُها إلى البزَّازِ ، فيأخذُها ويتصرَّفُ فيها ، ومشتري الثوبِ يقطعُهُ ولمْ يجرِ بينَهُما إيجابٌ وقبولٌ أصلاً !

وكذلكَ يجتمعُ المجهِّزونَ علىٰ حانوتِ البيَّاعِ ، فيعرضُ متاعاً قيمتُهُ مثلاً مئةُ دينارٍ فيمَنْ يزيدُ ، فيقولُ هٰذا : عليَّ بتسعينَ ، ويقولُ الآخرُ : عليَّ بخمسةٍ وتسعينَ ، ويقولُ الآخرُ : بمئةٍ ، فيقالُ لهُ : زِنْ ، فيزنُ ويسلِّمُ ويأخذُ المتاعَ مِنْ غيرِ إيجابٍ وقبولٍ ، وقدِ استمرَّتْ بهِ العاداتُ !

وهٰذهِ مِنَ المعضلاتِ التي ليستْ تقبلُ العلاجَ ؛ إذِ الاحتمالاتُ ثلاثةٌ :

ـ إما فتحُ بابِ المعاطاةِ مطلقاً في الحقيرِ والنفيسِ وهوَ محالٌ ؛ إذْ فيهِ نقلُ الملكِ مِنْ غيرِ لفظٍ دالٍّ عليهِ ، وقدْ أحلَّ اللهُ البيعَ ، والبيعُ اسمٌ للإيجابِ والقبولِ ، ولمْ يجرِ ، ولا ينطلقُ اسمُ البيعِ علىٰ مجرَّدِ فعلٍ بتسليمٍ وتسلُّمٍ ، فبماذا يحكمُ بانتقالِ الملكِ مِنَ الجانبينِ ؟ لا سيما في الجواري والعبيدِ والعقاراتِ والدوابِّ النفيسةِ ، وما يكثرُ التنازعُ فيهِ ؛ إذْ للمسلِّمِ أنْ يرجعَ ويقولَ : قدْ ندمتُ وما بعتُهُ ، إذْ لمْ يصدرْ منِّي إلا مجرَّدُ تسليمٍ ، وذلكَ ليسَ ببيعٍ !

ـ الاحتمالُ الثاني : أنْ نسدَّ البابَ بالكليةِ كما قالهُ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ مِنْ بطلانِ العقدِ ، وفيهِ إشكالٌ مِنْ وجهينِ :

أحدُهما : أنَّهُ يشبهُ أنْ يكونَ ذلكَ في المحقَّراتِ معتاداً في زمانِ الصحابةِ ، ولوْ كانوا يتكلَّفونَ الإيجابَ والقبولَ معَ البقالِ والخبَّازِ والقصَّابِ. . لثقلَ عليهمْ فعلُهُ ، ولنقلَ ذلكَ نقلاً منتشراً ، ولكانَ يُشتهرُ وقتُ الإعراضِ بالكلِّيَّةِ عنْ تلكَ العادةِ ؛ فإنَّ الأعصارَ في مثلِ هٰذا تتفاوتُ .

والثاني : أنَّ الناسَ الآنَ قدِ انهمكوا فيهِ ، فلا يشتري الإنسانُ شيئاً مِنَ الأطعمةِ وغيرِها إلا ويعلمُ أنَّ البائعَ قدْ تملَّكَهُ بالمعاطاةِ ، فأيُّ فائدةٍ في تلفُّظِهِ بالعقدِ إذا كانَ الأمرُ كذلكَ ؟

ـ الاحتمالُ الثالثُ : أنْ يفصلَ بينَ المحقَّراتِ وغيرِها كما قالَهُ أبو حنيفةَ

رحمَهُ اللهُ ، وعندَ ذلكَ يعسرُ الضبطُ في المحقَّراتِ ، ويشكلُ وجهُ نقلِ الملكِ مِنْ غيرِ لفظٍ يدلُّ عليهِ ، وقدْ ذهبَ ابنُ سريجٍ إلىٰ تخريجِ قولٍ للشافعيِّ رحمَهُ اللهُ علىٰ وَفْقِهِ[1] ، وهوَ أقربُ الاحتمالاتِ إلى الاعتدالِ ، فلا بأسَ لوْ ملنا إليهِ ؛ لمسيسِ الحاجاتِ ، ولعمومِ ذلكَ بينَ الخلقِ ، ولما يغلبُ على الظنِّ بأنَّ ذلكَ كانَ معتاداً في الأعصارِ الأُوَلِ .

فأمّا الجوابُ عنِ الإشكالينِ[2] . . فهوَ أنْ نقولَ :

ـ أمَّا الضبطُ في الفصلِ بينَ المحقَّراتِ وغيرِها : فليسَ علينا تكلُّفُهُ بالتقديرِ ، فإنَّ ذلكَ غيرُ ممكنٍ ، بلْ لهُ طرفانِ واضحانِ ، إذْ لا يخفىٰ أنَّ شراءَ البقلِ وقليلٍ مِنَ الفواكهِ والخبزِ واللحمِ مِنَ المعدودِ في المحقَّراتِ التي لا يُعتادُ فيها إلا المعاطاةُ ، وطالبُ الإيجابِ والقبولِ فيهِ يُعدُّ مستقصياً ، ويُستبردُ تكليفُهُ لذلكَ ويُستثقلُ ، ويُنسبُ إلىٰ أنَّهُ يقيمُ الوزنَ لأمرٍ حقيرٍ لا وزنَ لهُ ، فهـٰذا طرفُ الحقارةِ .

والطرفُ الثاني : الدوابُّ والعبيدُ والعقاراتُ والثيابُ النفيسةُ ، فذلكَ ممَّا لا يُستبعدُ تكلُّفُ الإيجابِ والقبولِ فيها ، وبينَهُما أوساطٌ متشابهةٌ يُشكُّ فيها هيَ في محلِّ الشبهةِ ، فحقُّ ذي الدينِ أنْ يميلَ فيها إلى الاحتياطِ ، وجميعُ ضوابطِ الشرعِ فيما يُعلمُ بالعادةِ كذلكَ ينقسمُ إلىٰ أطرافٍ واضحةٍ وأوساطٍ مشكلةٍ .

---

(١) العزيز شرح الوجيز (٤/ ١٠) . (٢) وهما الإشكالان الواردان في الاحتمال الثاني .

ـ وأمَّا الثاني ـ وهوَ طلبُ سببٍ لنقلِ الملكِ ـ : فهوَ أنْ يجعلَ الفعلَ باليدِ أخذاً وتسليماً سبباً ؛ إذِ اللفظُ لمْ يكنْ سبباً لعينِهِ ، بلْ لدلالتِهِ ، وهـٰذا الفعلُ قدْ دلَّ علىٰ مقصودِ البيعِ دلالةً مستمرَّةً في العادةِ ، وانضمَّ إليهِ مسيسُ الحاجةِ ، وعادةُ الأوَّلينَ واطرادُ جميعِ العاداتِ بقبولِ الهدايا مِنْ غيرِ إيجابٍ وقبولٍ مع التصرُّفِ فيها ، وأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يكونَ فيهِ عوضٌ أو لا يكونَ ؟ إذِ الملكُ لا بدَّ مِنْ نقلِهِ في الهبةِ أيضاً ، إلا أنَّ العادةَ السالفةَ لمْ تفرِّقْ في الهدايا بينَ الحقيرِ والنفيسِ ، بلْ كانَ طلبُ الإيجابِ والقبولِ يُستقبحُ فيهِ كيفَ كانَ ، وفي البيعِ لمْ يُستقبحْ في غيرِ المحقَّراتِ . هـٰذا ما نراهُ أعدلَ الاحتمالاتِ .

وحقُّ الورعِ المتديِّنِ ألاَّ يدعَ الإيجابَ والقبولَ ؛ للخروجِ عنْ شبهةِ الخلافِ ، ولا ينبغي أنْ يمتنعَ منهُ لأجلِ أنَّ البائع قدْ تملَّكَهُ بغيرِ إيجابٍ وقبولٍ ؛ فإنَّ ذلكَ لا يعرفُهُ تحقيقاً ، فربما اشتراهُ بإيجابٍ وقبولٍ ، فإنْ كانَ حاضراً عندَ شرائِهِ ، أوْ أقرَّ البائعُ بهِ . . فليمتنعْ منهُ ، وليشترِ مِنْ غيرِهِ ، فإنْ كانَ الشيءُ محقَّراً وهوَ إليهِ محتاجٌ . . فليتلفَّظْ بالإيجابِ والقبولِ ؛ فإنَّهُ يستفيدُ بهِ قطعَ الخصومةِ في المستقبلِ معَهُ ؛ إذِ الرجوعُ عنِ اللفظِ الصريحِ غيرُ ممكنٍ ، ومِنَ الفعلِ ممكنٌ .

※ ※ ※

فإنْ قلتَ : فإنْ أمكنَ هـٰذا فيما يشتريهِ . . فكيفَ يفعلُ إذا حضرَ في

ضيافةٍ أوْ علىٰ مائدةٍ وهوَ يعلمُ أنَّ أصحابَها يقنعونَ بالمعاطاةِ في البيعِ أوِ الشراءِ ، أوْ سمعَ منهُمْ ذلكَ ، أوْ رآهُ ، أيجبُ عليهِ الامتناعُ مِنَ الأكلِ ؟

فأقولُ : يجبُ عليهِ الامتناعُ مِنَ الشراءِ إذا كانَ ذلكَ الشيءُ الذي اشتروهُ مقداراً نفيساً ولمْ يكنْ مِنَ المحقَّراتِ ، وأمَّا الأكلُ . . فلا يجبُ الامتناعُ منهُ ، فإنِّي أقولُ : إنْ تردَّدْنا في جعلِ الفعلِ دلالةً علىٰ نقلِ الملكِ . . فلا ينبغي ألاَّ نجعلَهُ دلالةً على الإباحةِ ؛ فإنَّ أمرَ الإباحةِ أوسعُ ، وأمرَ نقلِ الملكِ أضيقُ ، فكلُّ مطعومٍ جرىٰ فيهِ بيعُ معاطاةٍ فتسليمُ البائعِ إذنٌ في الأكلِ ، يُعلمُ ذلكَ بقرينةِ الحالِ ؛ كإذنِ الحمَّاميِّ في دخولِ الحمامِ ، وإذنٌ في الإطعامِ لمَنْ يريدُهُ المشتري ، فينزَّلُ منزلةَ ما لوْ قالَ : (أبحتُ لكَ أنْ تأكلَ هـٰذا الطعامَ أوْ تطعمَ مَنْ أردتَ) فإنَّهُ يحلُّ لهُ ، ولوْ صرَّحَ وقالَ : كلْ هـٰذا الطعامَ ثمَّ اغرمْ لي عوضَهُ . . يحلُّ الأكلُ ويلزمُهُ الضمانُ بعدَ الأكلِ ، هـٰذا قياسُ الفقهِ عندي ، ولكنَّهُ بعدَ المعاطاةِ آكلٌ ملكَهُ ومتلفٌ لهُ ، فعليهِ الضمانُ ، وذلكَ في ذمَّتِهِ ، والثمنُ الذي سلَّمَهُ إنْ كانَ مثلَ قيمتِهِ . . فقدْ ظفرَ المستحِقُّ بمثلِ حقِّهِ ، فلهُ أنْ يتملَّكَهُ مهما عجزَ عنْ مطالبةِ مَنْ عليهِ ، وإنْ كانَ قادراً علىٰ مطالبتِهِ . . فإنَّهُ لا يتملَّكُ ما ظفرَ بهِ مِنْ ملكِهِ ؛ لأنَّهُ ربَّما لا يرضىٰ بتلكَ العينِ أنْ يصرفَها إلىٰ دينِهِ ، فعليهِ المراجعةُ .

وأمَّا هـٰهنا . . فقدْ عرفَ رضاهُ بقرينةِ الحالِ عندَ التسليمِ ، فلا يبعدُ أنْ يُجعلَ الفعلُ دلالةً على الرضا ؛ بأنْ يستوفيَ دينَهُ ممَّا يُسلَّمُ إليهِ ، فيأخذَهُ بحقِّهِ ، لكنْ علىٰ كلِّ الأحوالِ جانبُ البائعِ أغمضُ ؛ لأنَّ ما أخذَهُ قدْ يريدُ

المالكُ أنْ يتصرَّفَ فيهِ ، ولا يمكنُهُ التملُّكُ إلا إذا أُتلفَ عينُ طعامِهِ في يدِ المشتري ، ثمَّ ربَّما يفتقرُ إلى استئنافِ قصدِ التملُّكِ ، ثمَّ يكونُ قدْ تملَّكَ بمجرَّدِ رضاً استفادَهُ مِنَ الفعلِ دونَ القولِ .

فأمَّا جانبُ المشتري للطعامِ وهوَ لا يريدُ إلا الأكلَ . . فهيِّنٌ ؛ فإنَّ ذلكَ يُباحُ بالإباحةِ المفهومةِ مِنْ قرينةِ الحالِ ، ولكنْ ربَّما يلزمُ مِنْ مساقِ هٰذا أنَّ الضيفَ يضمنُ ما أتلفَهُ ، وإنَّما يسقطُ الضمانُ عنهُ إذا تملَّكَ البائعُ ما أخذَهُ مِنَ المشتري ، فيسقطُ فيكونُ كالقاضي دينَهُ والمتحمِّلِ عنهُ .

فهٰذا ما نراهُ في قاعدةِ المعاطاةِ علىٰ غموضِها ، والعلمُ عندَ اللهِ سبحانَهُ ، وهٰذهِ احتمالاتٌ وظنونٌ رددناها ، ولا يمكنُ بناءُ الفتوىٰ إلا علىٰ هٰذهِ الظنونِ ، وأمَّا الورعُ . . فإنَّهُ ينبغي أنْ يستفتيَ قلبَهُ ، ويتقيَ مواضعَ الشبهِ .

* * *

العقد الثّاني : عقد الرّبا

وقدْ حرَّمَهُ اللهُ تعالىٰ وشدَّدَ الأمرَ فيهِ ، ويجبُ الاحترازُ منهُ على الصيارفةِ المتعاملينَ على النقدينِ ، وعلى المتعاملينَ على الأطعمةِ ؛ إذْ لا ربا إلا في نقدٍ أوْ طعامٍ .

وعلى الصيرفيِّ أنْ يحترزَ مِنَ النسيئةِ والفضْلِ .

❊ ❊ ❊

أمَّا النسيئةُ : فألا يبيعَ شيئاً مِنْ جواهرِ النقدينِ بشيءٍ مِنْ جواهرِ النقدينِ إلا يداً بيدٍ، وهوَ أنْ يجريَ التقابضُ في المجلسِ ، وهٰذا احترازٌ مِنَ النسيئةِ .

وتسليمُ الصيارفةِ الذهبَ إلىٰ دارِ الضرْبِ وشراءُ الدنانيرِ المضروبةِ حرامٌ مِنْ حيثُ النَّساءُ ومِنْ حيثُ إنَّ الغالبَ أنَّه يجري فيهِ تفاضلٌ ، إذْ لا يردُّ المضروبُ بمثلِ وزنِهِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الفضلُ : فليحترزْ منهُ في ثلاثةِ أمورٍ :

ـ في بيعِ المكسَّرِ بالصحيحِ ، فلا تجوزُ المعاملةُ فيهما إلا معَ المماثلةِ .

ـ وفي بيعِ الجيِّدِ بالرديءِ ، فلا ينبغي أنْ يشتريَ رديئاً بجيِّدٍ دونَهُ في الوزنِ أوْ يبيعَ رديئاً بجيِّدٍ فوقَهُ في الوزنِ ؛ أعني : إذا باعَ الذهبَ بالذهبِ والفضةَ بالفضةِ ، فإنِ اختلفَ الجنسانِ . . فلا حرجَ في الفضْلِ .

ـ والثالثُ في المركَّباتِ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، فالدنانيرُ المخلوطةُ مِنَ الذهبِ والفضَّةِ إنْ كانَ مقدارُ الذهبِ أوِ الفضةِ مجهولاً . . لم تصحَّ المعاملةُ عليها أصلاً ، إلا إذا كانَ ذلكَ نقداً جارياً في البلدِ ، فإنَّا نرخِّصُ في المعاملةِ عليهِ إذا لمْ يُقابلْ بالنقدِ ، وكذا الدراهمُ المغشوشةُ بالنحاسِ إنْ لمْ تكنْ رائجةً في البلدِ . . لمْ تصحَّ المعاملةُ عليها ؛ لأنَّ المقصودَ منها النُّقْرَةُ ، وهيَ مجهولةٌ ، وإنْ كانَ نقداً رائجاً في البلدِ . . رخَّصْنا في المعاملةِ ؛ لأجلِ الحاجةِ ، وخروجِ النقرةِ عنْ أنْ يُقصدَ استخراجُها ، ولكنْ لا يُقابلُ بالنقرةِ أصلاً ، وكذلكَ كلُّ حليٍّ مركَّبٍ مِنْ ذهبٍ وفضةٍ ، فلا يجوزُ شراؤُهُ لا بالذهبِ ولا بالفضةِ ، بلْ ينبغي أنْ يُشترىٰ بمتاعٍ آخرَ إنْ كانَ قدْرُ الذهبِ منهُ معلوماً ، إلا إذا كانَ مموَّهاً بالذهبِ تمويهاً لا يحصلُ منهُ ذهبٌ مقصودٌ عندَ العرضِ على النارِ ، فيجوزُ بيعُها بمثلِها مِنَ النُّقرةِ وبما أريدَ مِنْ غيرِ النقرةِ .

وكذلكَ لا يجوزُ للصيرفيِّ أنْ يشتريَ قلادةً فيها خرزٌ وذهبٌ بذهبٍ ، ولا أنْ يبيعَهُ ، بلْ بالفضةِ يداً بيدٍ إنْ لمْ يكنْ فيها فضةٌ .

ولا يجوزُ شراءُ ثوبٍ منسوجٍ بذهبٍ يحصلُ منهُ ذهبٌ مقصودٌ عندَ العرضِ على النارِ بذهبٍ ، ويجوزُ بالفضةِ وغيرِها .

* * *

وأمَّا المتعاملونَ على الأطعمةِ : فعليهِمُ التقابضُ في المجلسِ ، اختلفَ

جنسُ الطعامِ المبيعِ والمشترىٰ أوْ لمْ يختلفْ ، فإنِ اتحدَ الجنسُ . . فعليهِمُ التقابضُ ومراعاةُ المماثلةِ ، والمعتادُ في هـٰذا معاملةُ القصَّابِ بأنْ يسلِّمَ إليهِ الغنمَ ويشتريَ بها اللحمَ نقداً أوْ نسيئةً ، فهوَ حرامٌ ، ومعاملةُ الخبَّازِ بأنْ يسلِّمَ إليهِ الحنطةَ ويشتريَ بها الخبزَ نسيئةً أوْ نقداً ، فهوَ حرامٌ ، ومعاملةُ العصَّارِ بأنْ يسلِّمَ إليهِ الجوزَ والسمسمَ والزيتونَ ليأخذَ منهُ الأدهانَ ، فهوَ حرامٌ ، وكذا اللبَّانُ يُعطى اللبنَ ليُؤخذَ منهُ الجبنُ والسمنُ والزبدُ وسائرُ أجزاءِ اللبنِ ، فهوَ أيضاً حرامٌ .

ولا يُباعُ الطعامُ بغيرِ جنسِهِ مِنَ الطعامِ إلاَّ نقداً[(١)] ، وبجنسِهِ إلا نقداً ومتماثلاً[(٢)] ، وكلُّ ما يتخذُ مِنَ الشيءِ المطعومِ فلا يجوزُ أنْ يباعَ بهِ متماثلاً ولا متفاضلاً ؛ فلا يباعُ بالحنطةِ دقيقٌ وخبزٌ وسويقٌ ، ولا بالعنبِ والتمرِ دبسٌ وخلٌّ وعصيرٌ ، ولا باللبنِ سمنٌ وزبْدٌ ومَخِيضٌ ومَصْلٌ وجبْنٌ ، والمماثلةُ لا تفيدُ إذا لمْ يكنِ الطعامُ في حالِ كمالِ الادخارِ ، فلا يباعُ الرطبُ بالرطبِ والعنبُ بالعنبِ متماثلاً ولا متفاضلاً .

* * *

---

(١) كما لو باع شعيراً ببرٍّ أو بالعكس ؛ فإنه تجب فيه رعاية الحلول والتقابض . « إتحاف » (٤٤٩/٥) .

(٢) كما لو باع البرَّ بالبرِّ أو الشعير بالشعير ؛ فإنه يجب فيه رعاية التماثل والحلول والتقابض . « إتحاف » (٤٤٩/٥) .

فهٰذهِ جملٌ مقنعةٌ في تعريفِ البيع ، والتنبيهِ علىٰ ما يشعرُ التاجرَ بمثاراتِ الفسادِ ، حتَّىٰ يستفتيَ فيها إذا تشكَّكَ والتبسَ عليهِ شيءٌ منها ، وإذا لمْ يعرفْ هٰذا . . لمْ يتفطَّنْ لمواضعِ السؤالِ ، واقتحمَ الربا والحرامَ وهوَ لا يدري .

* * *

العقد الثالث : السَّلَم

وليراعِ التاجرُ فيهِ عشرةَ شروطٍ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ رأسُ المالِ معلوماً علْمَ مثلِهِ : حتَّىٰ لو تعذَّرَ تسليمُ المسلَمِ فيهِ . . أمكنَ الرجوعُ إلىٰ قيمةِ رأسِ المالِ ، فإنْ أسلمَ كفّاً مِنَ الدراهمِ جُزافاً في كُرِّ حنطةٍ . . لمْ يصحَّ في أحدِ القولينِ .

* * *

الثاني : أنْ يسلِّمَ رأسَ المالِ في مجلسِ العقدِ قبلَ التفرُّقِ : فلوْ تفرَّقا قبلَ القبضِ . . انفسخَ السَّلَمُ .

* * *

الثالثُ : أنْ يكونَ المسلَمُ فيهِ ممَّا يمكنُ تعريفُ أوصافِهِ : كالحبوبِ والحيواناتِ والمعادنِ والقطنِ والصوفِ والإبريسمِ والألبانِ واللحومِ ومتاعِ العطَّارينَ وأشباهِها .

ولا يجوزُ في المعجوناتِ والمركَّباتِ وما تختلفُ أجزاؤُهُ ؛ كالقسيِّ المصنوعةِ[١] ، والنَّبْلِ المعمولِ ، والخِفافِ والنعالِ المختلفةِ أجزاؤُها وصنعتُها ، وجلودِ الحيواناتِ .

ويجوزُ السَّلَمُ في الخبزِ ، وما يتطرَّقُ إليهِ مِنِ اختلافِ قدْرِ الملْحِ

(١) تقييده بالمصنوعة احتراز عن القسيِّ العربية ، فإنها لا تركيب فيها . «إتحاف» (٥/ ٤٥٣) .

والماءِ بكثرةِ الطبخِ وقلّتِهِ . . يُعفىٰ عنهُ ويُتسامحُ فيهِ .

* * *

الرابعُ : أنْ يستقصيَ وصفَ هـٰذهِ الأمورِ القابلةِ للوصفِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ وصفٌ تتفاوتُ بهِ القيمةُ تفاوتاً لا يتغابنُ بمثلهِ الناسُ إلاَّ ذكرَهُ ؛ فإنَّ ذلكَ الوصفَ هوَ القائمُ مقامَ الرؤيةِ في البيعِ .

* * *

الخامسُ : أنْ يجعلَ الأجلَ معلوماً إنْ كانَ مؤجَّلاً ، فلا يؤجِّلُ إلى الحصادِ ، ولا إلىٰ إدراكِ الثمارِ ، بل إلى الأشهرِ والأيامِ ؛ فإنَّ الإدراكَ قدْ يتقدَّمُ أوْ يتأخَّرُ .

* * *

السادسُ : أنْ يكونَ المسلَمُ فيهِ ممَّا يقدرُ علىٰ تسليمِهِ وقتَ المحلِّ ، ويؤمنُ فيهِ وجودُهُ غالباً ، فلا ينبغي أنْ يسلِمَ في العنبِ إلىٰ أجلٍ لا يدركُ فيهِ ، وكذا سائرُ الفواكهِ ، فإنْ كانَ الغالبُ وجودَهُ وجاءَ المحِلُّ ، وعجزَ عن التسليمِ بسببِ آفةٍ . . فلَهُ أنْ يمهلَهُ إنْ شاءَ ، أوْ يفسخَ ويرجعَ في رأسِ المالِ إنْ شاءَ .

* * *

السابعُ : أنْ يذكرَ مكانَ التسليمِ فيما يختلفُ الغرضُ بهِ ، كيْ لا يثيرَ ذلكَ نزاعاً .

* * *

الثامنُ : ألاَّ يعلِّقَهُ بمعيَّنٍ فيقولَ : مِنْ حنطةِ هـٰذا الزرعِ أوْ ثمرةِ هـٰذا البستانِ ؛ فإنَّ ذلكَ يبطلُ كونَهُ ديناً .

نعمْ ، لوْ أضافَ إلىٰ ثمرةِ بلدٍ أوْ قريةٍ كبيرةٍ . . لمْ يضرَّ ذلكَ .

* * *

التاسعُ : ألاَّ يسلِمَ في شيءٍ نفيسٍ عزيزِ الوجودِ ، مثلِ دُرَّةٍ موصوفةٍ يعزُّ وجودُ مثلِها ، أوْ جاريةٍ حسناءَ معها ولدُها ، أوْ غيرِ ذلكَ ممَّا لا يُقدرُ عليهِ غالباً .

* * *

العاشرُ : ألاَّ يسلِمَ في طعامٍ مهما كانَ رأسُ المالِ طعاماً ، سواءٌ كانَ مِنْ جنسهِ أوْ لمْ يكنْ ، ولا يسلِمَ في نقدٍ إذا كانَ رأسُ المالِ نقداً ، وقدْ ذكرنا هـٰذا في الربا .

* * *

العقد الرّابع : الإجارة

ولهُ ركنانِ : الأجرةُ والمنفعةُ ، فأمَّا العاقدُ واللفظُ . . فيُعتبرُ فيهِ ما ذكرناهُ في البيعِ .

* * *

والأجرةُ كالثمنِ ، فينبغي أنْ يكونَ معلوماً وموصوفاً بكلِّ ما شرطناهُ في المبيعِ إنْ كانَ عيناً ، فإنْ كانَ ديناً . . فينبغي أنْ يكونَ معلومَ الصفةِ والقدْرِ .

وليحترزْ فيهِ عنْ أمورٍ جرتِ العادةُ بها ، وذلكَ مثلُ كراءِ الدارِ بعِمارتِها ، فذلكَ باطلٌ ؛ إذْ قدْرُ العمارةِ مجهولٌ ، ولو قدَّرَ دراهمَ وشرطَ على المكتري أنْ يصرفَها إلى العمارةِ . . لمْ يجزْ ؛ لأنَّ عملَهُ في الصرفِ إلى العمارةِ مجهولٌ .

ومنها استئجارُ السلاَّخِ علىٰ أنْ يأخذَ الجلدَ بعدَ السلخِ ، واستئجارُ حمَّالِ الجيفِ بجلدِ الجيفةِ ، واستئجارُ الطحَّانِ بالنخالةِ أوْ ببعضِ الدقيقِ ؛ فهوَ باطلٌ ، وكذلكَ كلُّ ما يتوقَّفُ حصولُهُ وانفصالُهُ علىٰ عملِ الأجيرِ ، فلا يجوزُ أنْ يُجعلَ أجرةً .

ومنها أنْ يقدرَ في إجارةِ الدورِ والحوانيتِ مبلغَ الأجرةِ ، فلوْ قالَ : لكلِّ شهرٍ دينارٌ ولمْ يقدِّرْ أشهرَ الإجارةِ . . كانتِ المدَّةُ مجهولةً ، ولمْ تنعقدِ الإجارةُ .

* * *

الركنُ الثاني : المنفعةُ المقصودةُ بالإجارةِ[١] : وهيَ العملُ ، وحدُّهُ : أنَّ كلَّ عملٍ مباحٍ معلومٍ يلحقُ العاملَ فيهِ كلفةٌ ، ويتطوَّعُ بهِ الغيرُ عنِ الغيرِ . . فيجوزُ الاستئجارُ عليهِ ، وجملةُ فروعِ البابِ تندرجُ تحتَ هـٰذهِ الرابطةِ ، ولكنَّا لا نطوِّلُ بشرحِها ، فقدْ طوَّلْنا القولَ فيها في الفقهيَّاتِ ، وإنَّما نشيرُ إلىٰ ما تعمُّ بهِ البلوىٰ .

❋ ❋ ❋

فليُراعَ في العملِ المستأجرِ عليهِ أمورٌ خمسةٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ متقوِّماً : بأنْ يكونَ فيهِ كلفةٌ وتعبٌ ، فلوِ استأجرَ طعاماً ليزيِّنَ بهِ الدكَّانَ ، أوْ أشجاراً ليجفِّفَ عليها الثيابَ ، أوْ دراهمَ ليزيِّنَ بها الدكَّانَ . . لمْ يجزْ ؛ فإنَّ هـٰذهِ المنافعَ تجري مَجرىٰ حبَّةِ سمسمٍ أوْ حبَّةِ برٍّ مِنَ الأعيانِ ، وذلكَ لا يجوزُ بيعُهُ ، وهيَ كالنظرِ في مرآةِ الغيرِ ، والشربِ منْ بئرِهِ ، والاستظلالِ بجدارِهِ ، والاقتباسِ من نارِهِ .

ولهـٰذا ؛ لوِ استأجرَ بيَّاعاً علىٰ أنْ يتكلَّمَ بكلمةٍ يروِّجُ بها سلعتَهُ . . لمْ يجزْ ، وما يأخذُهُ البيَّاعونَ عوضاً عنْ جاهِهِمْ وحشمتِهِمْ وقبولِ قولِهِمْ في ترويجِ السلعِ . . فهوَ حرامٌ ؛ إذْ ليسَ يصدرُ منهُمْ إلا كلمةٌ لا تعبَ فيها ، ولا قيمةَ لها ، وإنَّما تحلُّ لهُمْ إذا تعبوا ؛ إمَّا بكثرةِ التردُّدِ ، وإمَّا بكثرةِ

(١) والركن الأول هو الأجرة كما تقدم .

الكلامِ في تأليفِ أمرِ المعاملةِ ، ثمَّ لا يستحقونَ إلا أجرةَ المثلِ ، فأمَّا ما تواطأَ عليهِ الباعةُ . . فهوَ ظلمٌ ، وليسَ مأخوذاً بالحقِّ .

* * *

الثاني : ألاَّ تتضمَّنَ الإجارةُ استيفاءَ عينٍ مقصودةٍ : فلا يجوزُ إجارةُ الكرْمِ لارتفاعِهِ ، ولا إجارةُ البساتينِ لثمارِها ، ولا إجارةُ المواشي للبنِها ، ويجوزُ استئجارُ المرضعةِ ويكونُ اللبنُ تابعاً ؛ لأنَّ إفرادَهُ غيرُ ممكنٍ ، وكذا يُتسامحُ بحبرِ الورَّاقِ وخيطِ الخيَّاطِ ؛ لأنَّهُما لا يقصدانِ علىٰ حيالِهِما .

* * *

الثالثُ : أنْ يكونَ العملُ مقدوراً علىٰ تسليمِهِ حسّاً وشرعاً : فلا يصحُّ استئجارُ الضعيفِ علىٰ عملٍ لا يقدرُ عليهِ ، ولا استئجارُ الأخرسِ على التعليمِ ونحوِهِ(١) .

وما يحرمُ فعلُهُ فالشرعُ يمنعُ مِنْ تسليمِهِ ؛ كالاستئجارِ علىٰ قلعِ سنٍّ سليمةٍ ، أوْ قطعِ عضوٍ لا يرخِّصُ الشرعُ في قطعِهِ ، أوِ استئجارِ الحائضِ علىٰ كنسِ المسجدِ ، أوِ المعلِّمِ علىٰ تعليمِ السحرِ(٢) ، أوِ الفحشِ ، أوِ استئجارِ زوجةِ الغيرِ على الإرضاعِ دونَ إذْنِ زوجِها ، أوِ استئجارِ المصوِّرِ

---

(١) هـٰذا مثال المعجوز عن تسليمه حسّاً ، وسيسوق بعده المعجوز عن تسليمه شرعاً ، ومن مسائل هـٰذا الضابط أنه لا يجوز استئجار من لا يحسن قراءة القرآن لقراءته . انظر « الإتحاف » (٥/ ٤٦١) .

(٢) والطلسمات ، وفي معناها الأوفاق والجداول . « إتحاف » (٥/ ٤٦٢) .

علىٰ تصويرِ الحيواناتِ ، أوِ استئجارِ الصائغِ علىٰ صيغةِ الأواني مِنَ الذهبِ أوِ الفضةِ ، فكلُّ ذلكَ باطلٌ .

* * *

الرابعُ : ألاَّ يكونَ العملُ واجباً على الأجيرِ ، أو لا يكونَ بحيثُ لا تجري النيابةُ فيهِ عنِ المستأجرِ : فلا يجوزُ أخذُ الأجرةِ على الجهادِ ، ولا علىٰ سائرِ العباداتِ التي لا نيابةَ فيها ؛ إذْ لا يقعُ ذلكَ عنِ المستأجرِ .

ويجوزُ عنِ الحجِّ ، وغسلِ الميتِ ، وحفرِ القبورِ ، ودفنِ الموتىٰ ، وحملِ الجنائزِ .

وفي أخذِ الأجرةِ علىٰ إمامةِ صلاةِ التراويحِ ، وعلى الأذانِ ، وعلى التصدِّي للتدريسِ ، أوْ إقراءِ القرآنِ . . خلافٌ[1] ، أمَّا الاستئجارُ علىٰ تعليمِ مسألةٍ بعينِها ، أوْ تعليمِ سورةٍ بعينِها لشخصٍ معيَّنٍ . . فصحيحٌ .

* * *

الخامسُ : أنْ يكونَ العملُ والمنفعةُ معلوماً : فالخيَّاطُ يعرفُ عملَهُ

---

(١) وعبارة المصنف في « الوجيز » : (والاستئجار على الأذان جائز للإمام ، وقيل : إنه ممنوع كالجهاد ، وقيل : إنه يجوز لآحاد الناس ؛ ليحصل للمستأجر فائدة معرفة الوقت ، ولا يجوز الاستئجار علىٰ إمامة الصلوات الفرائض ، وفي إمامة التراويح خلاف ، والأصح منعه) . انظر « العزيز » (٦/ ١٠٢) .

بالثوبِ ، والمعلِّمُ يعرفُ عملَهُ بتعيينِ السورةِ ومقدارِها ، وحملُ الدوابِّ يُعرفُ بمقدارِ المحمولِ وبمقدارِ المسافةِ ، وكلُّ ما يثيرُ خصومةً في العادةِ فلا يجوزُ إهمالُهُ .

وتفصيلُ ذلكَ يطولُ ، وإنَّما ذكرْنا هـٰذا القدْرَ ليعرفَ بهِ جلياتِ الأحكامِ ويتفطَّنَ بهِ لمواقعِ الإشكالِ ، فيسألَ ؛ فإنَّ الاستقصاءَ شأنُ المفتي لا شأنُ العوامِّ .

* * *

العقد الخامس : القراض(١)

وليُراعَ فيهِ ثلاثةُ أركانٍ :

الركنُ الأوّلُ : رأسُ المالِ :

وشرطُهُ : أنْ يكونَ نقداً معلوماً مسلَّماً إلى العاملِ .

فلا يجوزُ القِراضُ على الفلوسِ ولا على العروضِ ؛ فإنَّ التجارةَ تضيقُ فيها .

ولا يجوزُ علىٰ صرَّةٍ مِنَ الدراهمِ ؛ لأنَّ قدْرَ الربحِ لا يتبيَّنُ فيها .

ولوْ شرطَ المالكُ اليدَ لنفسِهِ . . لمْ يجزْ ؛ لأنه يُضيِّقُ طريقَ التجارةِ .

* * *

الركنُ الثاني : الربحُ :

وليكنْ معلوماً بالجزئيةِ ؛ بأنْ يشرطَ لهُ الثلثَ ، أوِ النصفَ ، أوْ ما شاءَ ، فلو قالَ : (علىٰ أنَّ لكَ مِنَ الربحِ مئةً والباقي لي) . . لمْ يجزْ ؛ إذْ ربَّما لا يكونُ الربحُ أكثرَ مِنْ مئةٍ ، فلا يجوزُ تقديرُهُ بمقدارٍ معينٍ ، بلْ بمقدارٍ شائعٍ .

---

(١) **القراض والمضاربة** : لفظان يستعملان في عرف الفقهاء في عقد ، وهو أن يدفع إنسان مالاً إلىٰ غيره ليتجر فيه علىٰ أن يكون الربح بينهما علىٰ حسب ما يشترط ، والمشهور أن القراض لغة أهل الحجاز . « إتحاف » (٥/ ٤٦٥) .

الركنُ الثالثُ : العملُ الذي على العاملِ :

وشرطُهُ : أنْ يكونَ تجارةً غيرَ مضيقةٍ عليهِ بتعيينٍ وتأقيتٍ ، فلوْ شرطَ أنْ يشتريَ بالمالِ ماشيةً ليطلبَ نسلَها فيتقاسمانِ النسلَ ، أوْ حنطةً فيخبزَها ويتقاسمانِ الربحَ . . لمْ يصحَّ ؛ لأنَّ القِراضَ مأذونٌ فيهِ في التجارةِ ، وهوَ البيعُ والشراءُ وما يقعُ مِنْ ضرورتِهما فقطْ[1] ، وهٰذهِ حِرَفٌ ؛ أعني : الخبْزَ ورعايةَ المواشي .

ولو ضيَّقَ عليهِ وشرطَ ألاَّ يشتريَ إلا مِنْ فلانٍ ، أوْ لا يتجرَ إلا في الخزِّ الأحمرِ ، أوْ شرطَ ما يضيِّقُ بابَ التجارةِ . . فسدَ العقدُ .

ثمَّ مهما انعقدَ . . فالعاملُ وكيلٌ ، فيتصرَّفُ بالغبطةِ تصرُّفَ الوكلاءِ .

ومهما أرادَ المالكُ الفسخَ . . فلهُ ذلكَ ، فإذا فسخَ في حالةٍ والمالُ كلُّهُ نقدٌ . . لمْ يخفَ وجهُ القسمةِ ، وإنْ كانَ عرضاً ولا ربحَ فيهِ . . ردَّ عليهِ ، ولمْ يكنْ للمالكِ تكليفُهُ أنْ يردَّهُ إلى النقدِ ؛ لأنَّ العقدَ قدِ انفسخَ ، وهوَ لمْ يلتزمْ شيئاً ، وإنْ قالَ العاملُ : (أبيعُهُ) وأبى المالكُ . . فالمتبوعُ رأيُ المالكِ ، إلا إذا وجدَ العاملُ زبوناً يظهرُ بسببِهِ ربحٌ علىٰ رأسِ المالِ .

ومهما كانَ ربحٌ . . فعلى العاملِ بيعُ مقدارِ رأسِ المالِ بجنسِ رأسِ المالِ لا بنقدٍ آخرَ ؛ حتَّىٰ يتميَّزَ الفاضلُ ربحاً ، فيشتركانِ فيهِ ، وليس عليهِ بيعُ الفاضلِ علىٰ رأسِ المالِ .

---

(١) وهي لواحق التجارة ؛ كالنقل والكيل والوزن . « إتحاف » (٥/ ٤٦٩) .

ومهما كانَ رأسُ السنةِ . . فعليهِمْ تعرُّفُ قيمةِ المالِ لأجلِ الزكاةِ ، فإذا كانَ قدْ ظهرَ مِنَ الربحِ شيءٌ . . فالأقيسُ أنَّ زكاةَ نصيبِ العاملِ على العاملِ ، وأنَّهُ يملكُ الربحَ بالظهورِ .

وليسَ للعاملِ أنْ يسافرَ بمالِ القِراضِ دونَ إذْنِ المالكِ ، فإنْ فعلَ . . صحتْ تصرُّفاتُهُ ، ولكنَّهُ يضمنُ الأعيانَ والأثمانَ جميعاً ؛ لأنَّ عدوانَهُ بالنقلِ يتعدَّىٰ إلىٰ ثمنِ المنقولِ .

وإنْ سافرَ بالإذنِ . . جازَ ، ونفقةُ النقلِ وحفظُ المالِ علىٰ مالِ القِراضِ ؛ كما أنَّ نفقةَ الوزنِ والكيلِ والحملِ الذي لا يعتادُ التاجرُ مثلَهُ علىٰ رأسِ المالِ ، فأمَّا نشرُ الثوبِ وطيُّهُ ، والعملُ اليسيرُ المعتادُ . . فليسَ لهُ أنْ يبذلَ عليهِ أجرةً .

وعلى العاملِ نفقتُهُ وسكناهُ في البلدِ ، وليسَ عليهِ أجرةُ الحانوتِ ، ومهما تجرَّدَ في السفرِ لمالِ القراضِ . . فنفقتُهُ في السفرِ علىٰ مالِ القراضِ ، فإذا رجعَ . . فعليهِ أنْ يردَّ بقايا آلاتِ السفرِ مِنَ المطهرةِ والسفرةِ وغيرِهما .

❊ ❊ ❊

العقد السادس : الشركة

وهيَ أربعةُ أنواعٍ ، ثلاثةٌ منها باطلةٌ .

الأوَّلُ : شركةُ المفاوضةِ :

وهوَ أنْ يقولا : (تفاوضْنا لنشتركَ في كلِّ ما لنا وما علينا) ومالاهما ممتازانِ(١) ، وهيَ باطلةٌ .

* * *

الثاني : شركةُ الأبدانِ :

وهوَ أنْ يتشارطا الاشتراكَ في أجرةِ العملِ ، وهيَ باطلةٌ .

* * *

الثالثُ : شركةُ الوجوهِ :

وهوَ أنْ يكونَ لأحدِهما حشمةٌ وقولٌ مقبولٌ ، فيكونَ مِنْ جهتِهِ التنفيذُ ، ومِنْ جهةِ غيرِهِ العملُ ، فهيَ أيضاً باطلةٌ .

* * *

وإنَّما الصحيحُ الشركةُ الرابعةُ المسماةُ شركةَ العِنانِ :

وهوَ أنْ يختلطَ مالاهما بحيثُ يتعذَّرُ التمييز إلا بقسمةٍ ، ويأذنَ كلُّ

---

(١) أي : غير مختلطين ، وفي هـٰذه الشركة قال الإمام الشافعي في « الأم » (٤/ ٤٨٧) : (شركة المفاوضة باطل ، ولا أعرف شيئاً من الدنيا يكون باطلاً إن لم تكن شركة المفاوضة باطلاً) .

واحدٍ منهما لصاحبِهِ في التصرُّفِ .

ثمَّ حكمُهُما توزيعُ الربحِ والخسرانِ علىٰ قدْرِ المالينِ ، ولا يجوزُ أنْ يُغيَّرَ ذلكَ بالشرطِ ، ثمَّ بالعزلِ يمتنعُ التصرُّفُ على المعزولِ ، وبالقسمةِ ينفصلُ الملكُ عنِ الملكِ[1] .

والصحيحُ : أنَّهُ يجوزُ عقدُ الشركةِ على العروضِ المشتركةِ[2] ، ولا يُشترطُ النقدُ ، بخلافِ القِراضِ .

فهٰذا القدْرُ مِنْ علمِ الفقهِ يجبُ تعلُّمُهُ علىٰ كلِّ مكتسبٍ ، وإلاَّ . . اقتحمَ الحرامَ مِنْ حيثُ لا يدري .

وأمَّا معاملةُ القصَّابِ والخبَّازِ والبقَّالِ . . فلا يستغني عنها المكتسبُ وغيرُ المكتسبِ ، والخللُ فيها مِنْ ثلاثةِ وجوهٍ : مِنْ إهمالِ شروطِ البيعِ ، أوْ إهمالِ شروطِ السَّلَمِ ، أوِ الاقتصارِ على المعاطاةِ ؛ إذِ العاداتُ جاريةٌ بِكَتْبَةِ الخطوطِ علىٰ هؤلاءِ بحاجاتِ كلِّ يومٍ[3] ، ثمَّ المحاسبةِ في كلِّ مدَّةٍ ، ثمَّ التقويمِ بحسَبِ ما يقعُ عليهِ التراضي .

---

(١) أي : ينفصل مِلك الشريك عن ملك شريكه .

(٢) وفي « الإتحاف » للحافظ الزبيدي : (المشتراة) وزاد : أو الموروثة ؛ لشيوع الملك فيها ، وذلك أبلغ من الخلط ، بل الخلط إنما اكتفي به لإفادة الشيوع ، فإذا انضمَّ إليه الإذن في التصرف . . تمَّ العقد . « إتحاف » (٥/ ٤٧٥) .

(٣) بنحو إعداد ما يسمَّىٰ بدفتر الحسابات ، فيشتري الناس من عندهم دون عقد صحيح ، بل يحال هٰذا إلى التسجيل علىٰ هٰذا الدفتر ، ومال المصنف إلى التسامح في هٰذا ، والكتبة والكتابة بمعنىً .

وذلكَ ممَّا نرى القضاءَ بإباحتِهِ للحاجةِ ، ويُحملُ تسليمُهُمْ علىٰ إباحةِ التناولِ معَ انتظارِ العوضِ ، فيحلُّ أكلُهُ ، ولكنْ يجبُ الضمانُ بأكلِهِ ، وتلزمُ قيمتُهُ يومَ الإتلافِ ، فتجتمعُ في الذمَّةِ تلكَ القيمُ ، فإذا وقعَ التراضي علىٰ مقدارٍ ما . . فينبغي أنْ يُلتمسَ منهُمُ الإبراءُ المطلقُ ؛ حتَّىٰ لا تبقىٰ عليهِ عهدةٌ إنْ تطرَّقَ إليهِ تفاوتٌ في التقويمِ .

فهـٰذا ما تجبُ القناعةُ بهِ ؛ فإنَّ تكليفَ وزْنِ الثمنِ لكلِّ واحدةٍ مِنَ الحوائجِ في كلِّ يومٍ وكلِّ ساعةٍ . . تكليفٌ شططٌ ، وكذا تكليفُ الإيجابِ والقبولِ ، وتقديرُ ثمنِ كلِّ قدْرٍ يسيرٍ منهُ فيهِ عسرٌ ، وإذا كثرَ كلُّ نوعٍ . . سهلَ تقويمُهُ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

البَابُ الثَّالِثُ
في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلمْ : أنَّ المعاملةَ قدْ تجري علىٰ وجهٍ يحكمُ المفتي بصحَّتِها وانعقادِها ، ولكنَّها تشتملُ علىٰ ظلْمٍ يتعرَّضُ بهِ المعاملُ لسخطِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ليسَ كلُّ نهيٍ مقتضياً فسادَ العقدِ ، وهٰذا الظلْمُ نعني به ما يستضرُّ بهِ الغيرُ ، وهوَ منقسمٌ إلىٰ ما يعمُّ ضررُهُ ، وإلىٰ ما يخصُّ المعاملَ .

القسم الأول : فيما يعم ضرره
وهو أنواع

النوعُ الأوَّلُ : الاحتكارُ :

فبائعُ الطعامِ يدَّخرُ الطعامَ ينتظرُ بهِ غلاءَ الأسعارِ ، وهوَ ظلمٌ عامٌّ ، وصاحبُهُ مذمومٌ في الشرعِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ احتكرَ الطعامَ أربعينَ يوماً ثمَّ تصدَّقَ بهِ .. لمْ تكنْ صدقتُهُ كفارةً لاحتكارِهِ »(١) .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/ ١٠٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٣٧٨)، وقد رواه موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧٦٤) .

وروى ابنُ عمرَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنِ احتكرَ الطعامَ أربعينَ يوماً . . فقدْ برئَ منَ اللهِ وبرئَ اللهُ منهُ »(١) ، وقيلَ : « فكأنَّما قتلَ نفساً »(٢) .

وعنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ احتكرَ الطعامَ أربعينَ يوماً . . قسا قلبُهُ)(٣) .

وعنهُ أيضاً : (أنَّهُ أحرقَ طعامَ محتكرٍ بالنارِ)(٤) .

ورُوِيَ في فضْلِ تركِ الاحتكارِ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جلبَ طعاماً فباعَهُ بسعرِ يومِهِ . . فكأنَّما تصدَّقَ بهِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « فكأنَّما أعتقَ رقبةً »(٥) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٢) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٦) ، وقد روىٰ مسلم (١٦٠٥) في ذم الاحتكار مرفوعاً : « من احتكر . . فهو خاطئ » .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٦٦) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧٦٥ ، ٢٠٧٦٦) ، وإنما فعل ذلك لينزجر بذلك غيره .
(٥) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٦) ، وقد روىٰ نحوه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٢) عن اليسع بن المغيرة قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل بالسوق يبيع طعاماً بسعر هو أرخص من سعر السوق ، فقال : « تبيع في سوقنا بسعر هو أرخص من سعرنا ؟ » قال : نعم ، قال : « صبراً واحتساباً ؟ » قال : نعم ، قال : « أبشرْ ؛ فإن الجالب إلىٰ سوقنا كالمجاهد في سبيل الله ، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله » .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ : إنَّ الاحتكارَ مِنَ الظلمِ وداخلٌ تحتَهُ في الوعيدِ[1] .

وعنْ بعضِ السلفِ أنَّهُ كانَ بواسطٍ ، فجهَّزَ سفينةَ حنطةٍ إلى البصرةِ ، وكتبَ إلىٰ وكيلِهِ : بعْ هـٰذا الطعامَ يومَ يدخلُ البصرةَ ولا تؤخِّرْهُ إلىٰ غدٍ ، فوافقَ سعةً في السعرِ ، فقالَ لهُ التجّارُ : إنْ أخَّرتَهُ جمعةً.. ربحتَ فيهِ أضعافَهُ ، فأخَّرَهُ جمعةً ، فربحَ فيهِ أمثالَهُ ، وكتبَ إلىٰ صاحبِهِ بذلكَ ، فكتبَ إليهِ صاحبُ الطعامِ : يا هـٰذا ؛ إنَّا كنَّا قنعْنا بربحٍ يسيرٍ معَ سلامةِ دينِنا ، وإنَّكَ قدْ خالفتَ ، وما نحبُّ أنْ نربحَ أضعافَهُ بذهابِ شيءٍ مِنَ الدينِ ، فقدْ جنيتَ علينا جنايةً ، فإذا أتاكَ كتابي هـٰذا.. فخذِ المالَ كلَّهُ فتصدَّقْ بهِ علىٰ فقراءِ البصرةِ ، وليتني أنجو مِنْ إثمِ الاحتكارِ كفافاً ، لا عليَّ ولا لي[2] .

واعلمْ : أنَّ النهيَ مطلقٌ ، ويتعلَّقُ النظرُ بهِ في الوقتِ والجنسِ .

أمَّا الجنسُ : فيطردُ النهيُ في أجناسِ الأقواتِ ، أمَّا ما ليسَ بقوتٍ ولا هوَ معينٌ على القوتِ ؛ كالأدويةِ والعقاقيرِ والزعفرانِ وأمثالِهِ.. فلا يتعدَّى النهيُ إليهِ وإنْ كانَ مطعوماً ، وأمَّا ما يعينُ على القوتِ ؛ كاللحمِ والفواكهِ وما يسدُّ مسداً يغني عنِ القوتِ في بعضِ الأحوالِ وإنْ كانَ لا يمكنُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٦) ، وقد رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ١٧٩) عن حبيب بن أبي ثابت .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٦) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٦٦) .

المداومةُ عليهِ . . فهٰذا في محلِّ النظرِ ، فمِنَ العلماءِ مَنْ طردَ التحريمَ في السمْنِ والعسلِ والشَّيْرَجِ والجبنِ والزيتِ وما يجري مَجراهُ .

وأمَّا الوقتُ : فيُحتملُ أيضاً طردُ النهيِ في جميعِ الأوقاتِ ، وعليهِ تدلُّ الحكايةُ التي ذكرناها في الطعامِ الذي صادفَ بالبصرةِ سعةً في السعرِ ، ويحتملُ أنْ يُخصَّصَ بوقتِ قلَّةِ الأطعمةِ وحاجةِ الناسِ إليهِ ، حتَّىٰ يكونَ في تأخيرِ بيعِهِ ضررٌ ما ، فأمَّا إذا اتسعتِ الأطعمةُ وكثرَتْ ، واستغنى الناسُ عنها ، ولم يرغبوا فيها إلا بقيمةٍ قليلةٍ ، فانتظرَ صاحبُ الطعامِ ذلكَ ، ولمْ ينتظرْ قحْطاً . . فليسَ في هٰذا إضرارٌ .

وإذا كانَ الزمانُ زمانَ قحْطٍ . . كانَ في ادخارِ العسلِ والسمنِ والشَّيْرَجِ وأمثالِها إضرارٌ ، فينبغي أنْ يُقضىٰ بتحريمِهِ ، ويعوَّلُ في نفيِ التحريمِ وإثباتِهِ على الضرارِ ؛ فإنَّهُ مفهومٌ قطعاً مِنْ تخصيصِ الطعامِ .

وإذا لمْ يكنْ ضرارٌ . . فلا يخلو احتكارُ الأقواتِ عنْ كراهيةٍ ؛ لأنَّهُ ينتظرُ مبادئَ الضرارِ ، وهوَ ارتفاعُ الأسعارِ ، وانتظارُ مبادئِ الضرارِ محذورٌ ؛ كانتظارِ عينِ الضرارِ ، ولكنَّهُ دونَهُ ، وانتظارُ عينِ الضرارِ أيضاً هوَ دونَ الإضرارِ ، فبقدْرِ درجاتِ الإضرارِ تتفاوتُ درجاتُ الكراهيةِ والتحريمِ .

وبالجملةِ : التجارةُ في الأقواتِ ممَّا لا يُستحبُ ؛ لأنَّهُ طلبُ ربحٍ ، والأقواتُ أصولٌ خلقَتْ قِواماً ، والربحُ مِنَ المزايا ، فينبغي أنْ يُطلبَ الربحُ فيما خُلِقَ مِنْ جملةِ المزايا التي لا ضرورةَ للخلقِ إليها ، ولذلكَ أوصىٰ

بعضُ التابعين رجلاً وقالَ : لا تسلمْ ولدَكَ في بيعتينِ ، ولا في صنعتينِ : بيعُ الطعامِ وبيعُ الأكفانِ ؛ فإنَّهُ يتمنى الغلاءَ وموتَ الناسِ ، والصنعتانِ : أنْ يكونَ جزَّاراً ، فإنَّها صنعةٌ تقسي القلبَ ، أوْ صوَّاغاً ؛ فإنَّهُ يزخرفُ الدنيا بالذهبِ والفضةِ[1] .

* * *

النوعُ الثاني : ترويجُ الزيفِ مِنَ الدراهمِ في أثناءِ النقدِ[2] :

فهوَ ظلمٌ ؛ إذْ يستضرُّ بهِ المعاملُ إنْ لمْ يعرفْ ، وإنْ عرفَ . . فسيروِّجُهُ علىٰ غيرِهِ ، وكذلكَ الثالثُ والرابعُ ، ولا يزالُ يتردَّدُ في الأيدي ، ويعمُّ الضررُ ، ويشيعُ الفسادُ ، ويكونُ وزْرُ الكلِّ ووبالُهُ راجعاً إليهِ ؛ فإنَّهُ هوَ الذي فتحَ ذلكَ البابَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سنَّ سنَّةً سيئةً فعمِلَ بها مَنْ بعدَهُ . . كانَ عليهِ وزرُها ومثلُ وزرِ مَنْ عملَ بها ، لا ينقصُ مِنْ أوزارِهِمْ شيئاً »[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنفاقُ درهمٍ زيفٍ أشدُّ مِنْ سرقةِ مئةِ درهمٍ ؛ لأنَّ السرقةَ معصيةٌ واحدةٌ وقدْ تمَّتْ وانقطعَتْ ، وإنفاقُ الزيفِ بدعةٌ أظهرَها في الدينِ ، وسنةٌ سيئةٌ يعملُ بها مَنْ بَعدَهُ ، فيكونُ عليهِ وزرُها بعدَ موتِهِ إلىٰ مئةِ سنةٍ ، أو مئتي سنةٍ إلىٰ أنْ يفنىٰ ذلكَ الدرهمُ ، ويكونُ عليهِ ما فسدَ ونقصَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٦) .

(٢) ما يسمى اليوم بالعملة المزورة ، والنقد المغشوش .

(٣) رواه مسلم (١٠١٧) .

مِنْ أموالِ الناسِ بسببِهِ ، فطوبىٰ لمَنْ إذا ماتَ . . ماتَتْ معهُ ذنوبُهُ ، والويلُ الطويلُ لمَنْ يموتُ وتبقىٰ ذنوبُهُ مئةَ سنةٍ ومئتي سنةٍ أوْ أكثرَ يعذَّبُ بها في قبرِهِ ، ويُسألُ عنها إلىٰ آخرِ انقراضِها)[1] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ أي : نكتبُ أيضاً ما أخَّروهُ مِنْ آثارِ أعمالِهِمْ كما نكتبُ ما قدَّموه ، وفي مثلِهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ، وإنَّما أخَّرَ آثارَ أعمالِه مِنْ سنَّةٍ سيئةٍ عملَ بها غيرُهُ .

* * *

وليُعلمْ أنَّ في الزيفِ خمسةَ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنَّهُ إذا رُدَّ عليهِ شيءٌ منهُ . . فينبغي أنْ يطرحَهُ في بئرٍ ، بحيثُ لا تمتدُّ إليه اليدُ ، وإيَّاهُ أنْ يروِّجَهُ في بيعٍ آخرَ ، وإنْ أفسدَهُ بحيثُ لا يمكنُ التعاملُ بهِ . . جازَ[2] .

الثاني : أنَّهُ يجبُ على التاجرِ تعلُّمُ النقدِ ، لا ليستقصيَ لنفسِهِ ، ولكنْ لئلاَّ يسلِّمَ إلىٰ مسلمٍ زيفاً وهوَ لا يدري ، فيكونَ آثماً بتقصيرِهِ في تعلمِ ذلكَ العلمِ ، فلكلِّ عملٍ علمٌ بهِ يتمُّ نصحُ المسلمينَ فيجبُ تحصيلُهُ ، ولمثلِ هـٰذا كانَ السلفُ يتعلَّمونَ علاماتِ النقدِ ؛ نظراً لدينِهِمْ لا لدنياهُمْ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٩) .

(٢) كحرق العملات المزورة اليوم أو إتلافها بأي وجه كان ، قال الحافظ الزبيدي : (فينبغي أن يقبله ـ أي : عند ردِّه عليه ـ علىٰ بصيرة وعن سماحة ، ويحتسب بذلك الثواب من الله تعالىٰ) . « إتحاف » (٥/ ٤٨١) .

الثالثُ : أنَّهُ إنْ سلَّمَ وعرفَ المعاملُ أنَّهُ زيفٌ . . لمْ يخرجْ عنِ الإثمِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يأخذُهُ إلاَّ ليروِّجَهُ علىٰ غيرِهِ ولا يخبرَهُ ، ولوْ لمْ يعزمْ علىٰ ذلكَ . . لكانَ لا يرغبُ في أخذِهِ أصلاً ، فإنَّما يتخلَّصُ مِنْ إثمِ الضررِ الذي يخصُّ معاملَهُ فقطْ .

الرابعُ : أنَّهُ إنْ أخذَ الزيفَ ليعملَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ امرأً سهلَ البيعِ ، سهلَ الشراءِ ، سهلَ القضاءِ ، سهلَ الاقتضاءِ »(١) . . فهوَ داخلٌ في بركةِ هـٰذا الدعاءِ إنْ عزمَ علىٰ طرحِهِ في بئرٍ ، وإنْ كانَ عازماً علىٰ أنْ يروِّجَهُ في معاملةٍ . . فهـٰذا شرٌّ روَّجَهُ الشيطانُ عليهِ في معرضِ الخيرِ ، فلا يدخلُ تحتَ مَنْ تساهلَ في الاقتضاءِ .

الخامسُ : أنَّ الزيفَ نعني بهِ ما لا نقرةَ فيهِ أصلاً ، بلْ هوَ مموَّهٌ ، أوْ ما لا ذهبَ فيهِ ؛ أعني في الدنانيرِ ، أمَّا ما فيهِ نُقرةٌ . . فإنْ كانَ مخلوطاً بالنحاسِ وهوَ نقدُ البلدِ . . فقدِ اختلفَ العلماءُ في المعاملةِ عليهِ ، وقدْ رأينا الرخصةَ فيهِ إذا كانَ ذلكَ نقدَ البلدِ ، سواءٌ علمَ مقدارَ النُّقرةِ أوْ لمْ يعلمْ ، وإنْ لمْ يكنْ هوَ نقدَ البلدِ . . لمْ يجزْ إلا إذا علمَ قدْرَ النُّقرةِ ، فإنْ كانَ في مالِهِ قطعةٌ نُقرتُها ناقصةٌ عنْ نقدِ البلدِ . . فعليهِ أنْ يخبرَ بهِ معاملَهُ ، وألاَّ يعاملَ بهِ إلا مَنْ لا يستحلُّ الترويجَ في جملةِ النقدِ بطريقِ التلبيسِ ، فأمَّا مَنْ يستحلُّ

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٦) بلفظ : « سمحاً إذا باع . . . » ، وهو عند الترمذي (١٣٢٠) بلفظ : « غفر الله لرجل كان قبلكم كان سهلاً إذا باع ، سهلاً إذا اشترىٰ ، سهلاً إذا اقتضىٰ » .

ذلكَ . . فتسليمُهُ إليهِ تسليطٌ لهُ على الفسادِ ، فهوَ كبيعِ العنبِ ممَّنْ يعلمُ أنَّهُ يتخذُ منهُ الخمرَ ، وذلكَ محظورٌ ، وإعانةٌ على الشرِّ ومشاركةٌ فيهِ .

وسلوكُ طريقِ الحقِّ بأمثالِ هـٰذا في التجارةِ أشدُّ مِنَ المواظبةِ علىٰ نوافلِ العباداتِ والتخلِّي لها ، ولذلكَ قالَ بعضُهُم : (التاجرُ الصدوقُ أفضلُ عندَ اللهِ مِنَ المتعبِّدِ)[1] .

وقدْ كانَ السلفُ يحتاطونَ في مثلِ ذلكَ ، حتىٰ رُوِيَ عنْ بعضِ الغزاةِ في سبيلِ اللهِ أنَّهُ قالَ : حملتُ علىٰ فرسي لأقتلَ عِلجاً فقصَّرَ بي فرسي ، فرجعتُ ، ثمَّ دنا مني العلجُ ، فحملتُ ثانيةً ، فقصَّر فرسي فرجعتُ ، ثمَّ حملتُ الثالثةَ ، فنفرَ منِّي فرسي ، وكنتُ لا أعتادُ ذلكَ منهُ ، فرجعتُ حزيناً ، وجلستُ منكَّسَ الرَّأسِ منكسرَ القلبِ ؛ لما فاتَني مِنَ العلجِ ، وما ظهرَ لي مِنْ خُلُقِ الفرسِ ، فوضعتُ رأسي علىٰ عمودِ الفسطاطِ وفرسي قائمٌ ونمتُ ، فرأيتُ في النومِ كأنَّ الفرسَ يخاطبُني ويقولُ لي : باللهِ عليكَ ؛ أردتَ أنْ تأخذَ عليَّ العلجَ ثلاثَ مرَّاتٍ وأنتَ بالأمسِ اشتريتَ لي علفاً ودفعتَ في ثمنِهِ درهماً زائفاً ؟! لا يكونُ هـٰذا أبداً ، قالَ : فانتبهتُ فزعاً ، فذهبتُ إلى العلاَّفِ وأبدلتُ ذلكَ الدرهمَ[2] .

فهـٰذا مثالُ ما يعمُّ ضررُهُ ، وليُقَسْ عليهِ أمثالُهُ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٢) عن إبراهيم النخعي رحمه الله تعالىٰ .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٨) .

القسم الثاني : ما يخص ضرره المعامل

فكلُّ ما يستضرُّ بهِ المعاملُ فهوَ ظلمٌ، وإنَّما العدْلُ ألاَّ يضرَّ بأخيهِ المسلمِ.

والضابطُ الكلِّيُّ فيهِ : ألاَّ يحبَّ لأخيهِ إلا ما يحبُّ لنفسِهِ ، فكلُّ ما لوْ عوملَ بهِ لشَقَّ عليهِ وثقلَ علىٰ قلبِهِ . . فينبغي ألاَّ يعاملَ غيرَهُ بهِ ، بلْ ينبغي أنْ يستويَ عندَهُ درهمُهُ ودرهمُ غيرِهِ ، قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ باعَ أخاه شيئاً بدرهمٍ وليسَ يصلحُ لهُ لوِ اشتراهُ لنفسِهِ إلا بخمسةِ دوانيقَ[1] . . فإنَّهُ قدْ تركَ النصحَ المأمورَ بهِ في المعاملةِ ، ولمْ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ)[2] ، هٰذهِ جملتُهُ .

فأمَّا تفصيلُهُ ففي أربعةِ أمورٍ : ألاَّ يثنيَ على السلعةِ بما ليسَ فيها ، وألاَّ يكتمَ مِنْ عيوبِها وخفايا صفاتِها شيئاً أصلاً ، وألاَّ يكتمَ في وزنِها ومقدارِها شيئاً ، وألاَّ يكتمَ مِنْ سعرِها ما لوْ عرفَهُ المعاملُ . . لامتنعَ عنهُ .

* * *

أمَّا الأوَّلُ . . فهوَ تركُ الثناءِ :

فإنَّ وصفَهُ للسلعةِ إنْ كانَ بما ليسَ فيها . . فهوَ كذبٌ ، فإنْ قبلَ المشتري ذلكَ . . فهوَ تلبيسٌ وظلْمٌ معَ كونِهِ كذباً ، وإنْ لمْ يقبلْ . . فهوَ كذبٌ وإسقاطُ

---

(١) والدانق سدس الدرهم .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٣) .

مروءةٍ ؛ إذِ الكذبُ الذي يروِّجُ قدْ يقدحُ في ظاهرِ المروءةِ[1] ، وإنْ أثنىٰ على السلعةِ بما فيها . . فهوَ هذيانٌ وتكلُّمٌ بكلامٍ لا يعنيهِ ، وهوَ محاسبٌ علىٰ كلِّ كلمةٍ تصدرُ منهُ أنَّهُ لِمَ تكلَّمَ بها ؟ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، إلا أنْ يثنيَ على السلعةِ بما فيها ، ممَّا لا يعرفُهُ المشتري ما لمْ يذكرهُ ؛ كما يصفُهُ مِنْ خفيِّ أخلاقِ العبيدِ والجواري والدوابِّ ، فلا بأسَ بذكْرِ القدْرِ الموجودِ منهُ مِنْ غيرِ مبالغةٍ وإطنابٍ ، وليكنْ قصدُهُ منهُ أنْ يعرفَهُ أخوهُ المسلمُ فيرغبَ فيهِ وتنقضيَ بسببِهِ حاجتُهُ .

ولا ينبغي أنْ يحلفَ عليهِ ألبتةَ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ كاذباً . . فقدْ جاءَ باليمينِ الغموسِ ، وهيَ مِنَ الكبائرِ التي تذرُ الديارَ بلاقعَ[2] ، وإنْ كانَ صادقاً . . فقدْ جعلَ اللهَ تعالىٰ عرضةً لأيمانِهِ ، وقدْ أساءَ فيهِ ؛ إذِ الدنيا أخسُّ مِنْ أنْ يُقصدَ ترويجُها بذكرِ اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ غيرِ ضرورةٍ .

وفي الخبرِ : (ويلٌ للتاجرِ مِنْ بلىٰ واللهِ ، ولا واللهِ ، وويلٌ للصانعِ مِنْ غدٍ وبعدِ غدٍ)[3] .

وفي الخبرِ : « اليمينُ الكاذبةُ منفقةٌ للسلعةِ ، ممحقةٌ للبركةِ »[4] .

---

(١) كذا في (ب ، هـ ، ط) ، وفي غيرها : (قد لا يقدح) .

(٢) كما روىٰ ذلك البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٣٥) عن مكحول مرسلاً ، **والبلاقع** : التي لا شيء فيها .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٢) دون أن يذكر الرفع ، وانظر « ميزان الاعتدال » (١/ ٣١٦).

(٤) رواه البخاري (٢٠٨٧) ، ومسلم (١٦٠٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٦٥) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهمْ يومَ القيامةِ : عائلٌ مستكبرٌ[١] ، ومنَّانٌ بعطيتِهِ ، ومنفقُ سلعتِهِ بيمينِهِ »[٢] .

فإذا كانَ الثناءُ على السلعةِ معَ الصدقِ مكروهاً مِنْ حيثُ إنَّهُ فضولٌ لا يزيدُ في الرزقِ . . فلا يخفى التغليظُ في أمرِ اليمينِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ يونسَ بنِ عبيدٍ وكانَ خزَّازاً أنَّهُ طُلِبَ منهُ خزٌّ للشراءِ ، فأخرجَ غلامُهُ سَفَطَ الخزِّ ونشرَهُ ونظرَ إليهِ وقالَ : اللهمَّ ؛ ارزقْنا الجنَّةَ ، فقالَ لغلامِهِ : ردَّهُ إلىٰ موضعِهِ ، ولمْ يبعْهُ ، وخافَ أنْ يكونَ ذلكَ تعريضاً بالثناءِ على السلعةِ[٣] .

فمثلُ هؤلاءِ هُمُ الذينَ اتجروا في الدنيا ، ولمْ يضيِّعوا دينَهُمْ في تجارتِهِمْ ، بل علموا أنَّ ربحَ الآخرةِ أولىٰ بالطلبِ مِنْ ربحِ الدنيا .

* * *

---

(١) في غير (ب) : (عتلّ) بدل (عائل) ، وقد نبّه في « الإتحاف » (٥/ ٤٨٤) على أنها ربما تكون مصحّفة من (عيّل) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٢) ، وقد رواه بلفظ المصنف الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٥٢٣) ، وروىٰ مسلم (١٠٦) بنحوه مرفوعاً ، وعدَّهم : « المسبل ، والمنَّان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » ، وعنده كذلك (١٠٧) وعدَّهم : « شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٦٧) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨) .

الثاني : أنْ يُظهرَ جميعَ عيوبِ المبيعِ ، خفيَّها وجليَّها ، ولا يكتمَ منها شيئاً :

فذلكَ واجبٌ ، فإنْ أخفاهُ . . كانَ ظالماً غاشّاً ، والغشُّ حرامٌ ، وكانَ تاركاً للنصحِ في المعاملةِ ، والنصحُ واجبٌ .

ومهما أظهرَ أحسنَ وجهي الثوبِ وأخفى الثانيَ . . كانَ غاشّاً ، وكذلكَ إذا عرضَ الثيابَ في المواضعِ المظلمةِ ، وكذلكَ إذا عرضَ أحسنَ فردي الخفِّ والنعلِ وأمثالِهِ .

ويدلُّ علىٰ تحريمِ الغشِّ ما رُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّ برجلٍ يبيعُ طعاماً ، فأعجبَهُ ، فأدخلَ يدَهُ فيهِ ، فرأىٰ بللاً ، فقالَ : « ما هٰذا ؟ » فقالَ : أصابتْهُ السماءُ ، فقالَ : « فهلاَّ جعلتَهُ فوقَ الطعامِ حتَّىٰ يراهُ الناسُ ؟! مَنْ غشَّنا . . فليسَ منَّا »[1] .

ويدلُّ علىٰ وجوبِ النصحِ بإظهارِ العيوبِ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا بايعَ جَريراً على الإسلامِ . . ذهبَ لينصرفَ ، فجذبَ ثوبَهُ ، واشترطَ عليهِ النصحَ لكلِّ مسلمٍ ، فكانَ جريرٌ إذا قامَ إلى السلعةِ يبيعُها بصَّرَ عيوبَها ، ثمَّ خيَّرَ وقالَ : إنْ شئتَ . . فخذْ ، وإنْ شئتَ . . فاتركْ ، فقيلَ لهُ : إنَّكَ إذا فعلتَ مثلَ هٰذا . . لمْ ينفذْ لكَ بيعٌ ، فقالَ : إنَّا بايعْنا رسولَ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (١٠٢) ، وفيه : « من غشَّ . . فليس مني » .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على النصحِ لكلِّ مسلمٍ[1] .

وكانَ واثلةُ بنُ الأسقعِ واقفاً ، فباعَ رجلٌ ناقةً لهُ بثلاثِ مئةِ درهمٍ ، فغفلَ واثلةُ وقدْ ذهبَ الرجلُ بالناقةِ ، فسعىٰ وراءَهُ وجعلَ يصيحُ بهِ : يا هـٰذا ؛ اشتريتَها للحمِ أوْ للظهْرِ ؟ فقالَ : بلْ للظهرِ ، فقالَ : إنَّ بخفِّها نقْباً قدْ رأيتُهُ ، وإنَّها لا تتابعُ السيرَ ، فعادَ فردَّها ، فنقصَهُ البائعُ مئةَ درهمٍ ، وقالَ لواثلةَ : رحمَكَ اللهُ ، أفسدتَ عليَّ بيعي ! فقالَ : إنَّا بايعنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على النصحِ لكلِّ مسلمٍ ، وقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا يحلُّ لأحدٍ يبيعُ بيعاً ألاَّ يبيِّنَ ما فيهِ ، ولا يحلُّ لمَنْ يعلَمُ ذلكَ ألاَّ يبيِّنَهُ »[2] .

فقدْ فهموا منَ النصحِ ألاَّ يرضىٰ لأخيهِ إلا ما يرضاهُ لنفسِهِ ، ولمْ يعتقدوا أنَّ ذلكَ مِنَ الفضائلِ وزيادةِ المقاماتِ ، بلِ اعتقدوا أنها مِنْ شروطِ الإسلامِ الداخلةِ تحتَ بيعتِهِمْ ، وهـٰذا أمرٌ يشقُّ علىٰ أكثرِ الخلقِ ، فلذلكَ يختارونَ التخلِّيَ للعبادةِ والاعتزالَ عنِ الناسِ ؛ لأنَّ القيامَ بحقوقِ اللهِ تعالىٰ معَ المخالطةِ والمعاملةِ مجاهدةٌ لا يقومُ بها إلا الصدِّيقونَ .

ولنْ يتيسَّرَ ذلكَ على العبدِ إلا بأنْ يعتقدَ أمرينِ :

أحدُهما : أنَّ تلبيسَهُ العيوبَ وترويجَهُ السلعَ لا يزيدُ في رزقِهِ ، بلْ

(١) رواه البخاري (٢٧١٤) ، ومسلم (٥٦) .
(٢) روى القصة مع الحديث أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٣٢٠) .

يمحقُهُ ويذهبُ ببركتِهِ ، وما يجمعُهُ مِنْ مفرَّقاتِ التلبيساتِ يهلكُهُ اللهُ دفعةً واحدةً ، فقدْ حُكِيَ أنَّ واحداً كانَ لهُ بقرةٌ يحلبُها ويخلطُ الماءَ بلبنِها ويبيعُهُ ، فجاءَ سيلٌ فغرَّقَ البقرةَ ، فقالَ بعضُ أولادِهِ : إنَّ تلكَ المياهَ المتفرقةَ التي صببناها في اللبنِ اجتمعتْ دفعةً واحدةً وأخذتِ البقرةَ .

كيفَ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البيِّعانِ إذا صدَقا ونصحا . . بُورِكَ لهما في بيعِهِما ، وإذا كذبا وكتما . . نُزِعَتْ بركةُ بيعِهِما » ؟ ![1] .

وفي الحديثِ : « يدُ اللهِ على الشريكينِ ما لمْ يتخاونا ، فإذا تخاونا . . رفعَ يدَهُ عنهما »[2] .

فإذاً ؛ لا يزيدُ مالٌ مِنْ خيانةٍ ؛ كما لا ينقصُ مِنْ صدقةٍ ، ومَنْ لا يعرفُ الزيادةَ والنقصانَ إلا بالميزانِ . . لمْ يصدِّقْ بهٰذا الحديثِ ، ومَنْ عرفَ أنَّ الدرهمَ الواحدَ قدْ يُباركُ فيهِ حتَّىٰ يكونَ سبباً لسعادةِ الإنسانِ في الدينِ والدنيا ، والآلافُ المؤلفةُ قدْ ينزعُ اللهُ البركةَ منها حتَّىٰ تكونَ سبباً لهلاكِ مالكِها ، بحيثُ يتمنَّى الإفلاسَ منها ، ويراهُ أصلحَ لهُ في بعضِ أحوالِهِ . . فيعرفُ معنىٰ قولِنا : إنَّ الخيانةَ لا تزيدُ في المالِ ، والصدقةَ لا تنقصُ منهُ .

والمعنى الثاني الذي لا بدَّ مِنِ اعتقادِهِ ليتمَّ لهُ النصحُ ويتيسَّرَ عليهِ : أنْ

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٩) ، ومسلم (١٥٣٢) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧١) ، ورواه الدارقطني في « السنن » (٣/ ٣٥) ، وهو عند أبي داوود (٣٣٨٣) بلفظ : « إن الله يقول : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه . . خرجت من بينهما » .

يعلمَ أنَّ ربحَ الآخرةِ وغناها خيرٌ مِنْ ربحِ الدنيا ؛ وأنَّ فوائدَ أموالِ الدنيا تنقضي بانقضاءِ العمرِ ، وتبقىٰ مظالمُها وأوزارُها ، فكيفَ يستجيزُ العاقلُ أنْ يستبدلَ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ ، والخيرُ كلُّهُ في سلامةِ الدينِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تزالُ لا إلـٰهَ إلا اللهُ تدفعُ عنِ الخلْقِ سخطَ اللهِ ما لمْ يُؤثروا صفقةَ دنياهُمْ علىٰ آخرتِهِمْ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ما لمْ يبالوا ما نقصَ مِنْ دنياهم بسلامةِ دينِهِمْ ، فإذا فعلوا ذلكَ وقالوا : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . قالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتُمْ ، لستُمْ بها صادقينَ »[1] .

وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنَّةَ » ، قيلَ : وما إخلاصُها ؟ قالَ : « أَنْ تَحرزَهُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ »[2] .

وقالَ أيضاً : « ما آمنَ بالقرآنِ مَنِ استحلَّ محارمَهُ »[3] .

ومَنْ علمَ أنَّ هـٰذهِ الأمورَ قادحةٌ في إيمانِهِ ، وأنَّ إيمانَهُ رأسُ مالِه في تجارةِ الآخرةِ . . لمْ يضيِّعْ رأسَ مالِهِ المعدَّ لعمرٍ لا آخرَ لهُ بسببِ ربحٍ ينتفعُ بهِ أياماً معدودةً .

وعنْ بعضِ التابعينَ أنَّهُ قالَ : (لوْ دخلتُ الجامعَ وهوَ غاصٌّ بأهلِهِ وقيلَ لي : مَنْ خيرُ هؤلاءِ ؟ . . لقلتُ : مَنْ أنصحُهُمْ لهُمْ ؟ فإذا قالوا : هـٰذا . .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧١) ، ورواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠٣٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠١٥) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) .
(٣) رواه الترمذي (٢٩١٨) .

قلتُ : هوَ خيرُهُمْ ، ولوْ قالوا : مَنْ شرُّهُمْ ؟ . . قلتُ : مَنْ أغشُّهُمْ لهُمْ ؟ فإذا قيلَ : هـٰذا . . قلتُ : هوَ شرُّهُمْ)(١) .

والغِشُّ حرامٌ في البيوعِ والصنائعِ جميعاً ، فلا ينبغي أنْ يتهاونَ الصانعُ بعملِهِ علىٰ وجهٍ لوْ عاملَهُ بهِ غيرُهُ . . لما ارتضاهُ لنفسِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يحسنَ الصنعةَ ويحكمَها ، ثمَّ يبينَ عيبَها إنْ كانَ فيها عيبٌ ، فبذلكَ يتخلَّصُ .

وسألَ رجلٌ حذَّاءٌ ابنَ سالمٍ فقالَ : كيفَ لي أنْ أسلمَ في بيعِ النعالِ ؟ فقالَ : اجعلِ الوجهينِ سواءً ، ولا تفضِّلِ اليمنىٰ على اليسرىٰ ، وجوِّدِ الحشوَ ، وليكنْ شيئاً واحداً تامّاً ، وقاربْ بينَ الخرزِ ، ولا تطبِّقْ إحدى النعلينِ على الأخرىٰ(٢) .

ومِن هـٰذا الفنِّ ما سئلَ عنهُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمهُ اللهُ مِنَ الرفوِ بحيثُ لا يبينُ ، قالَ : لا يجوزُ لمَنْ يبيعُهُ أنْ يخفيَهُ ، وإنَّما يحلُّ للرفَّاءِ إذا علمَ أنَّهُ يظهرُهُ أوْ أنَّهُ لا يريدُهُ للبيعِ(٣) .

* * *

---

(١) رواه الدينوري مختصراً في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٨٣) ، والطبراني بتمامه في « مكارم الأخلاق » (ص ٦٨) عن بكر بن عبد الله المزني .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٧١) ، وابن سالم هو أبو الحسن علي بن سالم شيخ أبي طالب المكي .

(٣) والرفو : لأم خرق الثوب ونحوه ، والرفاء صاحب صنعته .

فإنْ قلتَ : فلا تتمُّ المعاملةُ مهما وجبَ على الإنسانِ أنْ يذكرَ عيوبَ المبيعِ !

فأقولُ : ليسَ كذلكَ إذْ شرطُ التاجرِ ألاَّ يشتريَ للبيعِ إلا الجيِّدَ الذي يرتضيهِ لنفسِهِ لوْ أمسكَهُ ، ثمَّ يقنعُ في بيعِهِ بربحٍ يسيرٍ ، فيباركُ اللهُ لهُ فيهِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ تلبيسٍ ، وإنَّما تعذَّرَ هـٰذا لأنَّهُمْ لا يقنعونَ بالربحِ اليسيرِ ، وليسَ يسلمُ الكثيرُ إلا بتلبيسٍ ، فمَنْ تعوَّدَ هـٰذا . . لمْ يشترِ المعيبَ ، فإنْ وقعَ في يدِهِ معيبٌ نادراً . . فليذكرْهُ ، وليقنعْ بقيمتِهِ .

باعَ ابنُ سيرينَ شاةً ، فقالَ للمشتري : أبرأُ إليكَ مِنْ عيبٍ فيها أنَّها تقلبُ العلفَ برجلِها(١) .

وباعَ الحسنُ بنُ صالحٍ جاريةً ، فقالَ للمشتري : إنَّها تنخَّمَتْ مرَّةً عندَنا دماً(٢) .

فهكذا كانتْ سيرةُ أهلِ الدينِ ، فمَنْ لا يقدرُ عليهِ . . فليتركِ المعاملةَ ، أوْ ليوطنْ نفسَهُ علىٰ عذابِ الآخرةِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨) عن يونس بن عبيد .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٧١) .

الثالثُ : ألاَّ يكتمَ في المقدارِ شيئاً :

وذلكَ بتعديلِ الميزانِ والاحتياطِ فيهِ ، وفي الكيلِ فينبغي أنْ يكيلَ كما يكتالُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

ولا يخلصُ مِنْ هـٰذا إلا بأنْ يرجحَ إذا أعطىٰ ، وينقصَ إذا أخذَ ؛ إذِ العدلُ الحقيقيُّ قلَّما يُتصوَّرُ ، فليستظهرْ بظهورِ الزيادةِ والنقصانِ ؛ فإنَّ مَنِ استقصىٰ حقَّهُ بكمالِهِ يوشكُ أنْ يتعدَّاهُ .

وكانَ بعضُهمْ يقولُ : لا أشتري الويلَ مِنَ اللهِ بحبَّةٍ ، فكانَ إذا أخذَ . . نقصَ حبَّةً ، وإذا أعطىٰ . . زادَ حبَّةً ، وكانَ يقولُ : ويلٌ لمَنْ باعَ بحبةٍ جنةً عرضُها السماواتُ والأرضُ ، وما أخسرَ مَنْ باعَ طوبىٰ بويلٍ (١) .

وإنَّما بالغوا في الاحترازِ منْ هـٰذا وشبهِهِ لأنَّها مظالمُ لا يمكنُ التوبةُ منها ؛ إذْ لا يعرفُ أصحابَ الحبَّاتِ حتَّىٰ يجتمعوا ويؤدِّيَ حقوقَهُمْ ، ولذلكَ لمَّا اشترىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شيئاً . . قالَ للوزَّانِ لمَّا كانَ يزنُ ثمنَهُ : « زنْ وأرجحْ »(٢) .

ونظرَ فضيلٌ إلى ابنِهِ وهوَ يغسلُ ديناراً يريدُ أنْ يصرفَهُ ، ويزيلُ تكحيلَهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٨) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٣٣٦) ، والترمذي (١٣٠٥) ، والنسائي (٧/ ٢٨٤) ، وابن ماجه (٢٢٢٠) .

وينقّيهِ حتَّىٰ لا يزيدَ وزنُهُ بسببِ ذلكَ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ فعلُكَ هـٰذا أفضلُ مِنْ حجَّتينِ وعشرينَ عمرةً[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (عجبتُ للتاجرِ والبائعِ كيفَ ينجو ، يزنُ ويحلفُ بالنهارِ وينامُ بالليلِ !)[2] .

وقالَ سليمانُ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ كما تدخلُ الحيَّةُ بينَ الحجرينِ . كذلكَ تدخلُ الخطيئةُ بينَ المتبايعينِ)[3] .

وصلَّىٰ بعضُ الصالحينَ علىٰ مخنَّثٍ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ فاسقاً ، فسكتَ ، فأُعيدَ عليهِ ، فقالَ : كأنَّكَ قلتَ لي : كانَ صاحبَ ميزانينِ ، يعطي بأحدِهما ويأخذُ بالآخرِ[4] . أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ فسقَهُ مظلمةٌ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ وهـٰذا مِنْ مظالمِ العبادِ ، والمسامحةُ والعفوُ فيهِ أبعدُ .

والتشديدُ في أمرِ الميزانِ عظيمٌ ، والخلاصُ منهُ يحصلُ بحبَّةٍ ونصفِ حبَّةٍ .

وفي قراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ولا تطغَوا في المِيزانِ وأقيمُوا الوَزنَ باللسانِ ولا تُخسِرُوا المِيزانَ﴾ أيْ : لسانِ الميزانِ ؛

---

(١) قوت القلوب (٢/٢٦٨) وعبارته : (أفضل من عشرين حجة) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٨) عن قتادة عن سيدنا سليمان عليه السلام .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٦٨) .
(٤) قوت القلوب (٢/٢٦٨) .

فإنَّ النقصانَ والرجحانَ يظهرُ بميلِهِ[1] .

وبالجملةِ : كلُّ مَنْ ينتصفُ لنفسِهِ مِنْ غيرِهِ ولوْ في كلمةٍ ، ولا ينصفُ بمثلِ ما ينتصفُ . . فهوَ داخلٌ تحتَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . . . ﴾ الآياتِ ؛ فإنَّ تحريمَ ذلكَ في المكيلِ ليسَ لكونِهِ مكيلاً ، بلْ لكونِهِ أمراً مقصوداً ، لتركِ العدْلِ والنَّصَفَةِ فيهِ ، فهوَ جارٍ في جميعِ الأعمالِ .

فصاحبُ الميزانِ في خطرِ الويلِ ، وكلُّ مكلَّفٍ فهوَ صاحبُ موازينَ في أفعالِهِ وأقوالِهِ وخطراتِهِ ، فالويلُ لهُ إنْ عدلَ عنِ العدْلِ ومالَ عنِ الاستقامةِ ، ولولا تعذُّرُ هٰذا واستحالتُهُ . . لما وردَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ فلا ينفكُّ عبدٌ ليسَ معصوماً عنِ الميلِ عنِ الاستقامةِ ، إلا أنَّ درجاتِ الميلِ تتفاوتُ تفاوتاً عظيماً ، فلذلكَ تتفاوتُ مدَّةُ مقامِهِمْ في النارِ إلىٰ أوانِ الخلاصِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بعضُهُمْ إلا بقدْرِ تَحِلَّةِ القسمِ ، ويبقىٰ بعضُهُمْ ألفاً وألوفَ سنينَ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقرِّبَنا مِنَ الاستقامةِ والعدْلِ ؛ فإن الاستدادَ علىٰ متنِ الصراطِ المستقيمِ مِنْ غيرِ ميلٍ عنهُ غيرُ مطموعٍ فيهِ ؛ فإنَّهُ أدقُّ مِنَ الشعرةِ وأحدُّ مِنَ السيفِ ، ولولاهُ . . لكانَ المستقيمُ عليهِ لا يقدرُ علىٰ جوازِ الصراطِ الممدودِ علىٰ متنِ النارِ الذي مِنْ صفتِهِ أنَّهُ أدقُّ مِنَ الشعرةِ وأحدُّ مِنَ

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٨) .

السيفِ ، وبقدْرِ الاستقامةِ على الصراطِ المستقيمِ في الدنيا . . يخفُّ العبدُ يومَ القيامةِ على الصراطِ .

وكلُّ مَنْ خلطَ بالطعامِ أو غيرِهِ تراباً ثمَّ كالَهُ . . فهوَ مِنَ المطففينَ في الكيلِ ، وكلُّ قصَّابٍ وزنَ معَ اللحمِ عظماً لمْ تجرِ العادةُ بمثلِهِ . . فهوَ مِنَ المطففينَ في الوزنِ ، وقسْ علىٰ هـٰذا سائرَ التقديراتِ ، حتَّىٰ في الذرْعِ الذي يتعاطاه البزَّازُ ؛ فإنَّهُ إذا اشترىٰ . . أرسلَ الثوبَ في وقتِ الذرْعِ ولمْ يمدُّهُ مدّاً ، وإذا باعَهُ . . مدَّهُ في الذرْعِ ؛ ليظهرَ تفاوتٌ في القدْرِ ، فكلُّ ذلكَ مِنَ التطفيفِ المعرِّضِ صاحبَهُ للويلِ .

* * *

الرابعُ : أنْ يصدقَ في سعْرِ الوقتِ ولا يُخفيَ منهُ شيئاً :

فقدْ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ تلقي الركبانِ ، ونهىٰ عنِ النَّجْشِ .

أمَّا تلقي الركبانِ : فهوَ أنْ يستقبلَ الرفقةَ ويتلقَّى المتاعَ ، ويكذبَ في سعرِ البلدِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتلقَّوُا الركبانَ ، ومَنْ تلقَّاها . . فصاحبُ السلعةِ بالخيارِ بعدَ أنْ يقدمَ السوقَ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٢١٥٠) ، ومسلم (١٥١٥) دون زيادة : (ومن تلقاها . . .) ، والزيادة رواها البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/٣٤٨) عن الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، وبنحوها رواها مسلم (١٥١٩) .

وهـٰذا الشراءُ منعقدٌ ، ولكنَّهُ إنْ ظهرَ كذبُهُ . . ثبتَ للبائعِ الخيارُ ، وإنْ كانَ صادقاً . . ففي الخيارِ خلافٌ ؛ لتعارضِ عمومِ الخبرِ معَ زوالِ التلبيسِ .

ونهىٰ أيضاً أنْ يبيعَ حاضرٌ لبادٍ[1] ؛ وهوَ أن يقدمَ البدويُّ البلدَ ومعهُ قوتٌ يريدُ أنْ يسارعَ إلىٰ بيعِهِ ، فيقولُ لهُ الحضريُّ : اتركْهُ عندي حتَّىٰ أغاليَ في ثمنِهِ وأنتظرَ ارتفاعَ سعرِهِ ، وهـٰذا في القوتِ محرَّمٌ ، وفي سائرِ السلعِ خلافٌ ، والأظهرُ تحريمُهُ ؛ لعمومِ النهيِ ، ولأنَّهُ تأخيرٌ للتضييقِ على الناسِ على الجملةِ مِنْ غيرِ فائدةٍ للفضولي المضيِّقِ .

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ النَّجَشِ[2] ؛ وهوَ أنْ يتقدَّمَ إلى البائعِ بينَ يدي الراغبِ المشتري ، ويطلبَ السلعةَ بزيادةٍ وهوَ لا يريدُها ، وإنَّما يريدُ تحريكَ رغبةِ المشتري فيها ، فهـٰذا إنْ لمْ تجرِ مواطأةٌ معَ البائعِ . . فهوَ فعلٌ حرامٌ مِنْ صاحبِهِ ، والبيعُ منعقدٌ ، وإنْ جرىٰ مواطأةٌ . . ففي ثبوتِ الخيارِ خلافٌ ، والأوْلىٰ إثباتُ الخيارِ ؛ لأنَّهُ تغريرٌ بفعلٍ يضاهي التغريرَ في المصرَّاةِ وتلقِّي الركبانِ[3] .

فهـٰذه المناهي تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يجوزُ أنْ يلبسَ على البائعِ والمشتري في سعرِ الوقتِ ، ويكتمَ منهُ أمراً لوْ علمَهُ . . لما أقدمَ على العقدِ ، ففعلُ هـٰذا

---

(١) كما في « البخاري » (٢١٤٠) ، و« مسلم » (١٤١٣) .
(٢) رواه البخاري (٢١٤٢) ، ومسلم (١٥١٦) . والنَّجْش بسكون الجيم وفتحها كما في « إرشاد الساري » (٤/ ٦٢) .
(٣) **المصراة** : الحلوب يُحبس لبنها فيها فلا تحلب أياماً ليوهم صاحبُها أنها ذات لبن .

مِنَ الغشِّ الحرامِ المضادِّ للنصحِ الواجبِ .

فقدْ حُكِيَ عنْ رجلٍ مِنَ التابعينَ أنَّهُ كانَ بالبصرةِ ولهُ غلامٌ بالسوسِ يجهِّزُ إليهِ السكَّرَ ، فكتبَ إليهِ غلامُهُ أنَّ قصبَ السكَّرِ قدْ أصابتْهُ آفةٌ في هـٰذهِ السنةِ ، فاشترِ السكَّرَ ، قالَ : فاشترىٰ سكراً كثيراً ، فلمَّا جاءَ وقتُهُ . . ربحَ فيهِ ثلاثينَ ألفاً ، فانصرفَ إلىٰ منزلِهِ فأفكرَ ليلتَهُ ، فقالَ : ربحتُ ثلاثينَ ألفاً وخسرتُ نصحَ رجلٍ منَ المسلمينَ ، فلمَّا أصبحَ . . غدا إلىٰ بائعِ السكَّرِ ، فدفعَ إليهِ ثلاثينَ ألفاً وقالَ : باركَ اللهُ لكَ فيها ، فقالَ : ومِنْ أينَ صارَتْ لي ؟ فقالَ : إنِّي كتمتكَ حقيقةَ الحالِ ، وكانَ السكَّرُ قدْ غلا في ذلكَ الوقتِ ، فقالَ : رحمَكَ اللهُ ، قدْ أعلمتَني الآنَ ، وقدْ طيَّبْتُها لكَ ، قالَ : فرجعَ بها إلىٰ منزلِهِ ، وتفكَّرَ وباتَ ساهراً ، وقالَ : ما نصحتُهُ ، فلعلَّهُ استحيا منِّي فتركَها لي ، فبكَّرَ إليهِ مِنَ الغدِ ، وقالَ : عافاكَ اللهُ ، خذْ مالَكَ إليكَ ، فهوَ أطيبُ لقلبي ، فأخذَ منهُ ثلاثينَ ألفاً(١) .

فهـٰذهِ الأخبارُ في المناهي والحكاياتُ تدلُّ علىٰ أنَّهُ ليسَ لهُ أنْ يغتنمَ فرصةً ، وينتهزَ غفلةَ صاحبِ المتاعِ ، ويخفيَ مِنَ البائعِ غلاءَ السعرِ ، أوْ مِنَ المشتري تراجعَ الأسعارِ .

فإنْ فعلَ ذلكَ . . كانَ ظالماً ، تاركاً للعدلِ والنصحِ للمسلمينَ .

---

(١) رواها ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١١٨) .

ومهما باعَ مرابحةً[1] ؛ بأنْ يقولَ : بعتُ بما قامَ عليَّ ، أوْ بما اشتريتُهُ . . فعليهِ أنْ يصدقَ بهِ ، ثمَّ يجبُ أنْ يخبرَ بما حدثَ بعدَ العقدِ مِنْ عيبٍ أوْ نقصانٍ .

ولوِ اشترىٰ إلىٰ أجلٍ . . وجبَ ذكرُهُ ، ولوِ اشترىٰ مسامحةً مِنْ صديقِهِ أوْ ولدِهِ . . يجبُ ذكرُهُ ؛ لأنَّ المعاملَ يعوِّلُ علىٰ عادتِهِ في الاستقصاءِ أنَّهُ لا يتركُ النظرَ لنفسِهِ ، فإذا تركَهُ بسببٍ مِنَ الأسبابِ . . فيجبُ إخبارُهُ ؛ إذِ الاعتمادُ فيهِ علىٰ أمانتِهِ .

* * *

(١) وذلك إذا سمَّىٰ لكل قدْر من الثمن ربحاً . « إتحاف » (٥/ ٤٩٤) .

البَابُ الرَّابِعُ
في الإحسان في المعاملة

وقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالعدلِ والإحسانِ جميعاً ، والعدلُ سببُ النجاةِ فقطْ ، وهوَ يجري مِنَ التجارةِ مَجرىٰ رأسِ المالِ ، والإحسانُ سببُ الفوزِ ونيلِ السعادةِ ، وهوَ يجري مِنَ التجارةِ مَجرى الربحِ ، ولا يُعدُّ مِنَ العقلاءِ مَنْ قنعَ في معاملاتِ الدنيا برأسِ مالِهِ ، فكذا في معاملاتِ الآخرةِ ، فلا ينبغي للمتديِّنِ أنْ يقتصرَ على العدْلِ واجتنابِ الظلمِ ويدعَ أبوابَ الإحسانِ وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ونعني بالإحسانِ : فعلَ ما ينتفعُ بِهِ المعاملُ وهوَ غيرُ واجبٍ عليهِ ، ولكنَّهُ تفضُّلٌ منهُ ؛ فإنَّ الواجبَ يدخلُ في بابِ العدلِ وتركِ الظلمِ ، وقدْ ذكرناهُ .

وتُنالُ رتبةُ الإحسانِ بواحدٍ مِنْ ستةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : في المغابنةِ :

فينبغي ألاَّ يغبنَ صاحبَهُ بما لا يُتغابنُ بهِ في العادةِ ، فأمَّا أصلُ المغابنةِ . . فمأذونٌ فيهِ ؛ لأنَّ البيعَ للربحِ ، ولا يمكنُ ذلكَ إلاَّ بغبنٍ ما ، ولكنْ يراعي

فيهِ التقريبَ ، فإنْ بذلَ المشتري زيادةً على الربحِ المعتادِ ؛ إمَّا لشدةِ رغبتِهِ ، أوْ لشدَّةِ حاجتِهِ إليهِ في الحالِ.. فينبغي أنْ يمتنعَ عنْ قبولِهِ ، فذلكَ مِنَ الإحسانِ .

ومهما لمْ يكنْ تلبيسٌ.. لمْ يكنْ أخذُ الزيادةِ ظلماً ، وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلىٰ أنَّ الغبنَ بما يزيدُ على الثلثِ يوجبُ الخيارَ ، ولسنا نرىٰ ذلكَ ، ولكنْ مِنَ الإحسانِ أنْ يحطَّ ذلكَ الغبنَ .

يُروىٰ أنَّهُ كانَ عندَ يونسَ بنِ عبيدٍ حُلَلٌ مختلفةُ الأثمانِ ، ضربٌ قيمةُ كلِّ حلَّةٍ منها أربعُ مئةٍ ، وضربٌ كلُّ حلَّةٍ قيمتُها مئتانِ ، فمضىٰ إلى الصلاةِ وخلَّفَ ابنَ أخيهِ في الدكَّانِ ، فجاءَ أعرابيٌّ وطلبَ حلَّةً بأربعِ مئةٍ ، فعرضَ عليهِ مِنْ حُلَلِ المئتين ، فاستحسنَها ورضيَها ، فاشتراها منهُ ، فمشىٰ بها وهيَ علىٰ يدِهِ ، فاستقبلَهُ يونسُ ، فعرفَ حلَّتَهُ ، فقالَ بكمِ اشتريتَ هـٰذهِ ؟ فقالَ : بأربعِ مئةٍ ، فقالَ : لا تَسْوىٰ أكثرَ مِنْ مئتينِ ، فارجعْ حتَّىٰ تردَّها ، فقالَ : هـٰذهِ تَسْوىٰ في بلدِنا خمسَ مئةٍ ، وأنا أرتضيها ، فقالَ لهُ يونسُ : انصرفْ ؛ فإنَّ النصحَ في الدينِ خيرٌ مِنَ الدنيا بما فيها ، ثمَّ ردَّهُ إلى الدكَّانِ ، وردَّ عليهِ مئتي درهمٍ ، وخاصمَ ابنَ أخيهِ وقاتلَهُ ، وقالَ : أما استحييتَ ، أما اتقيتَ اللهَ ؟! تربحُ مثلَ الثمنِ وتتركُ النصْحَ للمسلمينِ ؟! فقالَ : واللهِ ؛ ما أخذَها إلا وهو راضٍ بها ! قالَ : أفلا رضيتَ لهُ بما ترضاهُ لنفسِكَ ؟![1] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٧) ، وقد رواها أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٥) وفيها : =

وهـٰذا إنْ كانَ فيهِ إخفاءُ سعرٍ وتلبيسٌ . . فهوَ مِنْ بابِ الظلمِ ، وقدْ سبقَ .

وفي الحديثِ : « غبنُ المسترسلِ حرامٌ »[1] .

وكانَ الزبيرُ بنُ عديٍّ يقولُ : (أدركتُ ثمانيةَ عشرَ مِنَ الصحابةِ ما منهُمْ أحدٌ يحسنُ يشتري لحماً بدرهمٍ)[2] .

فغبْنُ مثلِ هـٰؤلاءِ المسترسلينَ ظلمٌ ، وإنْ كانَ مِنْ غيرِ تلبيسٍ . . فهوَ مِنْ تركِ الإحسانِ ، وقلَّما يتمُّ هـٰذا إلا بنوعِ تلبيسٍ وإخفاءِ سعرِ الوقتِ .

وإنَّما الإحسانُ المحْضُ ما نقلَ عنِ السريِّ السقطيِّ رحمهُ اللهُ : أنَّهُ اشترىٰ كُرَّ لوزٍ بستينَ ديناراً ، وكتبَ في رُوْزْنامَچه[3] : ثلاثةُ دنانيرَ ربحُهُ ، وكأنَّهُ رأىٰ أنْ يربحَ على العشرةِ نصفَ دينارٍ ، فصارَ اللوزُ بتسعينَ ديناراً ،

= أن الأعرابي قال : (أسألك بالله ، من أنت وما اسمك ؟ قال : يونس بن عبيد ، قال : فوالله إنا لنكون في نحر العدو ، فإذا اشتد علينا . . قلنا : اللهم ، ربَّ يونس بن عبيد ؛ فرج عنا ـ أو شبيه هـٰذا ـ فقال يونس : سبحان الله ، سبحان الله !) ، وقوله : (تسوىٰ) : لغة علىٰ قول في (تساوي) ، وعامة أهل اللغة علىٰ أنها ليست بفصيحة .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٣٤٩) ، **والمسترسل** : من استأنس لمعامله واطمأن إليه ، وكأنه قد سلَّم أمره إليه .

(٢) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٣/ ٣٤١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٢٨٠) .

(٣) **روزنامچه** : لفظة فارسية ، وهو سجل الوقائع كالروزنامه ، وقال الحافظ الزبيدي : (هو الدفتر الذي يكتب فيه حساب الداخل والخارج) . « إتحاف » (٥/ ٤٩٦) .

فأتاهُ الدلاَّلُ وطلبَ اللوزَ ، فقالَ : خُذْهُ ، فقالَ : بكمْ ؟ فقالَ : بثلاثةٍ وستينَ ديناراً ، فقالَ الدلاَّلُ ـ وكانَ منَ الصالحينَ ـ : قدْ صارَ اللوزُ بتسعينَ ! فقالَ السريُّ : قدْ عقدتُ عقداً لا أحلُّهُ ، لستُ أبيعُهُ إلا بثلاثةٍ وستينَ ، فقالَ الدلاَّلُ : وأنا عقدتُ بيني وبينَ اللهِ تعالىٰ ألاَّ أغشَّ مسلماً ، لستُ آخذُ منكَ إلا بتسعينَ ، قالَ : فلا الدلاَّلُ اشترىٰ منهُ ، ولا السريُّ باعَهُ ![1].

فهٰذا محضُ الإحسانِ مِنَ الجانبينِ ؛ فإنَّهُ معَ العلمِ بحقيقةِ الحالِ .

ويُروىٰ عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ أنَّهُ كانَ لهُ شقاقٌ[2] ؛ بعضُها بخمسةٍ ، وبعضُها بعشرةٍ ، فباعَ في غيبتِهِ غلامُهُ شُقَّةً مِنَ الخمسيَّاتِ بعشرةٍ ، فلمَّا عرفَ.. لمْ يزلْ يطلبُ ذلكَ الأعرابيَّ المشتريَ طولَ النهارِ حتَّىٰ وجدَهُ ، فقالَ لهُ : إنَّ الغلامَ قدْ غلطَ فباعَكَ ما يَسوىٰ خمسةً بعشرةٍ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ قدْ رضيتُ ، فقالَ : وإنْ رضيتَ.. فإنَّا لا نرضىٰ لكَ إلا ما نرضاهُ لأنفسِنا ، فاختَرْ إحدىٰ ثلاثِ خصالٍ : إمَّا أنْ تأخذَ شُقَّةً مِنَ العشريَّاتِ بدراهمِكَ ، وإمَّا أنْ نردَّ عليكَ خمسةً ، وإما أنْ تردَّ شُقَّتَنا وتأخذَ دراهمَكَ ،

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/١٨٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/١٨٣) .

(٢) **الشِّقاق** : جمع شُقَّة ؛ كقِباب وقُبَّة ، نوع من الثياب ، وتجمع علىٰ شُقَق قياساً مطرداً ، وضبطها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/٤٩٦) بضم الشين في الجمع ، ولم يذكره في « التاج » كذلك .

فقالَ : أعطني خمسةً ، فردَّ عليهِ خمسةً ، وانصرفَ الأعرابيُّ يسألُ ويقولُ : مَنْ هـٰذا الشيخُ ؟ فقيلَ لهُ : هـٰذا محمدُ بنُ المنكدرِ ، فقالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، هـٰذا الذي نستسقي بهِ في البوادي إذا قحطْنا .

فهـٰذا إحسانٌ في ألاَّ يُربَحَ على العشرةِ إلا نصفٌ أوْ واحدٌ على ما جرَتْ بهِ العادةُ في مثلِ ذلكَ المتاعِ في ذلكَ المكانِ .

ومَنْ قنعَ بربحٍ قليلٍ . . كثرَتْ معاملاتُهُ ، واستفادَ مِنْ تكرُّرِها ربحاً كثيراً ، وبهِ تظهرُ البركةُ ، كانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يدورُ في سوقِ الكوفةِ بالدِّرَّةِ ويقولُ : (معاشرَ التجَّارِ ؛ خذوا الحقَّ وأعطوا الحقَّ . . تسلموا ، لا تردُّوا قليلَ الربحِ فتُحرموا كثيرَهُ)[1] .

وقيلَ لعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ما سببُ يسارِكَ ؟ قالَ : ثلاثٌ : ما رددتُ ربحاً قطُّ ، ولا طُلِبَ منِّي حيوانٌ فأخَّرتُ بيعَهُ ، ولا بعتُ بنسيئةٍ[2] .

ويُقالُ : إنَّهُ باعَ ألفَ ناقةٍ ، فما ربحَ إلا عُقُلَها ، باعَ كلَّ عقالٍ بدرهمٍ ، فربحَ فيها ألفاً ، وربحَ مِنَ النفقةِ عليها ليومِهِ ألفاً[3] .

* * *

---

(١) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (٢/ ١٩٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٧٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٧٣) .

الثاني : في احتمالِ الغبْنِ :

فالمشتري إنِ اشترىٰ طعاماً مِنْ ضعيفٍ ، أوْ شيئاً مِنْ فقيرٍ . . فلا بأسَ أنْ يحتملَ **الغبْنَ** ويتساهلَ ، ويكونَ بهِ محسناً ، وداخلاً في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ امرأً سهلَ البيعِ ، سهلَ الشراءِ »(١) .

فأمَّا إذا اشترىٰ مِنْ غنيٍّ تاجرٍ يطلبُ الربحَ زيادةً علىٰ حاجتِهِ . . فاحتمالُ الغبْنِ منهُ ليسَ محموداً ، بلْ هوَ تضييعُ مالٍ مِنْ غيرِ أجرٍ ولا حمدٍ ، فقدْ وردَ في حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « المغبونُ لا محمودٌ ولا مأجورٌ »(٢) .

وكانَ إياسُ بنُ معاويةَ قاضي البصرةِ ـ وكانَ مِنْ عقلاءِ التابعينَ ـ يقولُ : (لستُ بِخبٍّ ، والخبُّ لا يغبنُني ، ولا يغبنُ ابنَ سيرينَ ، ولكنْ يغبنُ الحسنَ ويغبنُ أبي)(٣) يعني : معاويةَ بنَ قرَّةَ .

والكمالُ في ألاَّ يغبنَ ولا يُغبنَ ؛ كما وصفَ بعضُهُمْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (كانَ أكرمَ مِنْ أنْ يَخدعَ ، وأعقلَ مِنْ أن يُخدعَ)(٤) .

وكانَ الحسنُ والحسينُ وغيرُهما مِنْ خيارِ السلفِ يستقصونَ في الشراءِ ،

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٨٣٠) .
(٢) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٧/ ٤١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٧٨٣) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٨٣) .
(٣) رواه وكيع في «أخبار القضاة» (١/ ٣٤٨) وفيه : (يخدعني) بدل (يغبنني) وكذا سياقه .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧٦) من قول المغيرة بن شعبة في حق الفاروق رضي الله عنهما .

ثمَّ يهبونَ معَ ذلكَ الجزيلَ مِنَ المالِ ، فقيلَ لبعضِهمْ : تستقصي في شرائِكَ على اليسيرِ ثمَّ تهبُ الكثيرَ ولا تبالي ؟! فقالَ : (إنَّ الواهبَ يعطي فضلَهُ ، وإنَّ المغبونَ يغبنُ عقلَهُ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّما أغبنُ عقلي وبصيرتي ، فلا أمكِّنُ الغابنَ منهُ ، وإذا وهبتُ . . أعطي للهِ ولا أستكثرُ لهُ شيئاً)[2] .

* * *

الثالثُ : في استيفاءِ الثمنِ وسائرِ الديونِ :

والإحسانُ فيهِ : مرَّةً بالمسامحةِ وحطِّ البعضِ ، ومرَّةً بالإمهالِ والتأخيرِ ، ومرَّةً بالمساهلةِ في طلبِ جودةِ النقدِ .

وكلُّ ذلكَ مندوبٌ إليهِ ، ومحثوثٌ عليهِ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ ٱمرأً سهلَ البيعِ ، سهلَ الشراءِ ، سهلَ القضاءِ ، سهلَ الاقتضاءِ »[3] ، فليغتنمْ دعاءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اسمحْ . . يُسمَحْ لكَ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أنظرَ معسراً أوْ تركَ لهُ . . حاسبَهُ اللهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٧٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٧٠) .
(٣) تقدم قريباً .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٤٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٥١٠٨) .

حساباً يسيراً » ، وفي لفظٍ آخرَ : « أظلَّهُ اللهُ تحتَ ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ »(١) .

وذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً كانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، حُوسِبَ فلمْ يُوجدْ لهُ حسنةٌ ، فقيلَ لهُ : هلْ عملتَ خيراً قطُّ ؟ فقالَ : لا ، إلا أنِّي كنتُ رجلاً أداينُ الناسَ فأقولُ لفتياني : سامحوا الموسرَ وأنظروا المعسرَ ـ وفي لفظٍ آخرَ : وتجاوزوا عنِ المعسرِ ـ فقالَ اللهُ تعالىٰ : نحنُ أحقُّ بذلكَ منكَ ، فتجاوزَ اللهُ عنهُ وغفرَ لهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أقرضَ ديناً إلىٰ أجلٍ . . فلهُ بكلِّ يومٍ صدقةٌ إلىٰ أجلِهِ ، فإذا حلَّ الأجلُ فأنظرَهُ بعدَهُ . . فلَهُ بكلِّ يومٍ مثلُ ذلكَ الدينِ صدقةً »(٣) .

وقدْ كانَ مِنَ السلفِ مَنْ لا يحبُّ أنْ يقضيَ غريمُهُ الدينَ لأجلِ هـٰذا الخبرِ حتَّىٰ يكونَ كالمتصدِّقِ بجميعِهِ كلَّ يومٍ(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ علىٰ بابِ الجنَّةِ مكتوباً : الصدقةُ

---

(١) رواه مسلم (٣٠١٤) ، واللفظ الأول في « القوت » (٢/ ٢٧٠) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٧) ، ومسلم (١٥٦٠) واللفظ له .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٠) ، وقد رواه ابن ماجه (٢٤١٨) بلفظ : « من أنظر معسراً . . كان له بكل يوم صدقة ، ومن أنظره بعد حله . . كان له مثله في كل يوم صدقة » ، وفي (و) : (مَنْ أقرض ديناراً . . .) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٧٠) .

بعشرِ أمثالِها ، والقرضُ بثمانِ عشرةَ »[١] ، فقيلَ في معناهُ : إنَّ الصدقةَ تقعُ في يدِ المحتاجِ وغيرِ المحتاجِ ، ولا يتحمَّلُ ذلَّ الاستقراضِ إلا محتاجٌ[٢] .

ونظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ رجلٍ يلازمُ رجلاً بدينٍ ، فأومأَ إلىٰ صاحبِ الدينِ بيدِهِ : أنْ ضَعِ الشطرَ ، ففعلَ ، فقالَ للمديونِ : « قمْ فأعطِهِ »[٣] .

وكلُّ مَنْ باعَ شيئاً وتركَ ثمنَهُ في الحالِ ، ولمْ يرهقْ إلىٰ طلبِهِ . . فهوَ في معنى المقرِضِ ، ورُوِيَ أنَّ الحسنَ البصريَّ باعَ بغلةً لهُ بأربعِ مئةِ درهمٍ ، فلمَّا استوجبَ المالَ . . قالَ لهُ المشتري : اسمحْ يا أبا سعيدٍ ؛ قالَ : قدْ أسقطتُ عنكَ مئةً ، قالَ لهُ : فأحسنْ يا أبا سعيدٍ ؛ فقالَ : قد وهبتُ لكَ مئةً أخرىٰ ، فقبضَ مِنْ حقِّهِ مئتي درهمٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ ؛ هـٰذا نصفُ الثمنِ ! فقالَ : هـٰكذا يكونُ الإحسانُ ، وإلاَّ . . فلا[٤] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٣١) .

(٢) وهو تتمة الحديث ، ولفظه : « فقلت : يا جبريل ؛ ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » ، وقال الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢١٩) : (المتصدق حسبَ له الدرهم بعشرة ، فدرهم صدقته وتسعة زائدة ، فصارت له عشرة ، والقرض علىٰ ضعف الصدقة ، فدرهم قرضه يرجع إليه ، فلا يحسب ، بقي تسعة ، فتضاعف ، فيكون ثمانية عشر ، والله أعلم وأحكم) .

(٣) رواه البخاري (٤٧١) ، ومسلم (١٥٥٨) ، وصاحب الدين هو كعب بن مالك رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٧٠) .

وفي الخبرِ : « خذْ حقَّكَ في عفافٍ ، وافٍ أوْ غيرَ وافٍ . . يحاسبْكَ اللهُ حساباً يسيراً »(١) .

* * *

الرابعُ : في توفيةِ الدينِ :

ومنَ الإحسانِ فيهِ حسنُ القضاءِ ؛ وذلكَ بأنْ يمشيَ إلىٰ صاحبِ الحقِّ ولا يكلِّفَهُ أنْ يمشيَ إليهِ يتقاضاهُ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُكُمْ أحسنُكُمْ قضاءً »(٢) .

ومهما قدرَ علىٰ قضاءِ الدينِ . . فليبادرْ إليهِ ولوْ قبلَ وقتِهِ ، وليسلِّمْ أجودَ مما شرطَ عليهِ وأحسنَ .

وإنْ عجزَ . . فلينوِ قضاءَهُ مهما قدرَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ادَّانَ ديناً وهوَ ينوي قضاءَهُ . . وكلَ اللهُ بهِ ملائكةً يحفظونَهُ ويدعونَ لهُ حتَّىٰ يقضيَهُ »(٣) .

وكانَ جماعةٌ مِنَ السلفِ يستقرضونَ منْ غيرِ حاجةٍ لهٰذا الخبرِ(٤) .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٢٢) دون قوله : (يحاسبك . . .) ، وهي في « القوت » (٢/ ٢٧٠) .

(٢) رواه البخاري (٢٣٠٥) ، ومسلم (١٦٠١) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٥٠) ولفظه : « من داين الناس بدين يعلم الله منه أنه حريص علىٰ أدائه . . كان معه من الله عون وحافظ » ، وعند ابن ماجه (٢٤٠٨) : « ما من مسلم يدَّان ديناً يعلم الله منه أنه يريد أداءه . . إلا أداه الله عنه في الدنيا » .

(٤) كالسيدة عائشة رضي الله عنها ؛ روىٰ أحمد في « المسند » (٦/ ٧٢) : كانت عائشة تداين ، فقيل لها : ما لك وللدين ؟ قالت : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم =

ومهما كلَّمَهُ صاحبُ الحقِّ بكلامٍ خشنٍ.. فليحتملْهُ، وليقابلْهُ باللطفِ؛ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، إذْ جاءَهُ صاحبُ الدينِ عندَ حلولِ الأجلِ ولمْ يكنْ قدِ اتفقَ قضاؤُهُ، فجعلَ الرجلُ يشدِّدُ الكلامَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فهمَّ بهِ أصحابُهُ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « دعوهُ؛ فإنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً »(١).

ومهما دارَ الكلامُ بينَ المستقرضِ والمقرضِ.. فالإحسانُ أنْ يكونَ الميلُ الأكثرُ من المتوسِّطِ إلىٰ مَنْ عليهِ الدينُ؛ فإنَّ المقرضَ يقرضُ عن غنىً، والمستقرضُ يستقرضُ عنْ حاجةٍ، وكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ الإعانةُ للمشتري أكثرَ؛ فإنَّ البائعَ راغبٌ عنِ السلعةِ، يبغي ترويجَها، والمشتري محتاجٌ إليها.

هـٰذا هوَ الأحسنُ، إلا أنْ يتعدَّىٰ مَنْ عليهِ الدينُ حدَّهُ، فعندَ ذلكَ نصرتُهُ في منعِهِ مِنْ تعدِّيهِ وإعانةِ صاحبِهِ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « انصرْ أخاكَ ظالماً أوْ مظلوماً »، فقيلَ: كيفَ ننصرُهُ ظالماً؟ فقالَ: « منعُكَ إيَّاهُ مِنَ الظلمِ نصرةٌ لهُ »(٢).

* * *

= يقول: « ما من عبد كانت له نية في أداء دينه.. إلا كان له من الله عز وجل عون »، فأنا ألتمس ذلك العون.

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١)، وهو قطعة من الحديث المتقدم قريباً عندهما.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٤)، ومسلم (٢٥٨٤).

الخامسُ : أنْ يُقيلَ مَنْ يستقيلُهُ :

فإنَّهُ لا يستقيلُ إلا متندِّمٌ مستضرٌّ بالبيعِ ، ولا ينبغي أنْ يرضىٰ لنفسِهِ أنْ يكونَ سببَ استضرارِ أخيهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أقالَ نادماً صفقتَهُ . . أقالَهُ اللهُ عثرتَهُ يومَ القيامةِ »(١) أوْ كما قالَ .

* * *

السادسُ : أنْ يقصدَ في معاملتِهِ جماعةً مِنَ الفقراءِ بالنسيئةِ :

وهوَ في الحالِ عازمٌ علىٰ ألاَّ يطالبَهُمْ إنْ لمْ تظهرْ لهمْ ميسرةٌ ، فقدْ كانَ في صالحي السلفِ مَنْ لهُ دفترانِ للحسابِ ، أحدُهُما : ترجمتُهُ مجهولةٌ ، فيهِ أسماءُ مَنْ لا يعرفُهُ مِنَ الضعفاءِ والفقراءِ ، وذلكَ أنَّ الفقيرَ كانَ يرى الطعامَ أوِ الفاكهةَ فيشتهيهِ ، فيقولُ : أحتاجُ إلىٰ خمسةِ أرطالٍ مِنْ هـٰذا مثلاً وليسَ معي ثمنُهُ ، فكانَ يقولُ : خذْهُ واقضِ ثمنَهُ عندَ الميسرةِ ، ولمْ يكنْ يُعدُّ هـٰذا مِنَ الخيارِ ، بلْ عُدَّ مِنَ الخيارِ مَنْ لمْ يكنْ يثبتُ اسمَهُ في الدفترِ أصلاً ، ولا يجعلُهُ ديناً ، ولكنْ يقولُ : خذْ ما تريدُ ، فإنْ يسرَ لكَ . . فاقضِ ، وإلا . . فأنتَ في حلٍّ منهُ وسعةٍ(٢) .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٠٢٩) ، وفي (هـ) : (بيعته) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٧٢) .

فهٰذهِ طرقُ تجاراتِ السلفِ وقدِ اندرسَتْ، والقائمُ بهِ محيٍ لهٰذهِ السنَّةِ.

* * *

وبالجملةِ : التجارةُ محكُّ الرجالِ ، وبها يُمتحنُ دينُ الرجلِ وورعُهُ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من مجزوء الرمل]

لا يَغُـرَّنْـكَ مِـنَ ٱلْمَـرْ ... ءِ قَمِيـصٌ رَقَعَـهْ
أَوْ إِزارٌ فَـوْقَ كَعْـبِ ٱلـ ... ـسَّاقِ مِنْـهُ رَفَعَـهْ
أَوْ جَبِيـنٌ لاحَ فِيـهِ ... أَثَـرٌ قَـدْ قَلَعَـهْ[2]
وَلَـدَى ٱلـدِّرْهَـمِ فَـٱنْظُـرْ ... غَيَّـهُ أَوْ وَرَعَـهْ

ولذلكَ قيلَ : (إذا أثنىٰ على الرجلِ جيرانُهُ في الحضرِ ، وأصحابُهُ في السفرِ ، ومعاملوهُ في الأسواقِ . . فلا تشكُّوا في صلاحِهِ)[3] .

وشهدَ عندَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ شاهدٌ ، فقالَ : ائتني بمَنْ يعرفُكَ ، فأتاهُ برجلٍ ، فأثنىٰ عليهِ خيراً ، فقالَ لهُ عمرُ : أنتَ جارُهُ الأدنى الذي يعرفُ

---

(١) الأبيات في « المدهش » (١/ ٢١١) من غير نسبة .
(٢) **أثر قد قلعه** : تشبيه كثرة السجود وأثرها على الجبين بركبة العنز كيف فيها أثر القلع ، وقد يكون هٰذا مصطنعاً بمعالجة . انظر « الإتحاف » (٥/ ٥٠٥) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٢) ، ورواه بنحوه عن عمر رضي الله عنه هناد في « الزهد » (١٠٤١) .

مدخلَهُ ومخرجَهُ ؟ قالَ : لا ، فقالَ : كنتَ رفيقَهُ في السفرِ الذي يُستدلُّ بهِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ ؟ فقالَ : لا ، قالَ : فعاملتَهُ بالدينارِ والدرهمِ الذي يستبينُ بهِ ورعُ الرجلِ ؟ فقالَ : لا ، قالَ : أظنُّكَ رأيتَهُ قائماً في المسجدِ يهمهمُ بالقرآنِ ، يخفضُ رأسَهُ طوراً ويرفعُه أخرى ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ : اذهبْ ، فلستَ تعرفُهُ ، وقالَ للرجلِ : اذهبْ فأتني بمَنْ يعرفُكَ[1] .

❊ ❊ ❊

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٢) ، ورواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٢٥) .

البَابُ الخَامِسُ
في شفقة التّاجر على دينه فيما يخصّه ويعمّ آخرته

ولا ينبغي للتاجرِ أنْ يشغلَهُ معاشُهُ عنْ معادِهِ، فيكونَ عمرُهُ ضائعاً وصفقتُهُ خاسرةً ، وما يفوتُهُ مِنَ الربحِ في الآخرةِ لا يفي بهِ ما ينالُهُ في الدنيا ، فيكونُ ممَّنِ اشترى الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، بلِ العاقلُ ينبغي أنْ يشفقَ علىٰ نفسِهِ ، وشفقتُهُ علىٰ نفسِهِ بحفظِ رأسِ مالِهِ ، ورأسُ مالِهِ دينُهُ وتجارتُهُ فيهِ .

قالَ بعضُ السلفِ : (أولى الأشياءِ بالعاقلِ أحوجُهُ إليهِ في العاجلِ ، وأحوجُ شيءٍ إليهِ في العاجلِ أحمدُهُ عاقبةً في الآجلِ)(١) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ في وصيتِهِ : (إنَّهُ لا بدَّ لكَ مِنْ نصيبِكَ في الدنيا ، وأنتَ إلىٰ نصيبِكَ مِنَ الآخرةِ أحوجُ ، فابدأْ بنصيبِكَ مِنَ الآخرةِ فخذْهُ ؛ فإنَّكَ ستمرُّ علىٰ نصيبِكَ مِنَ الدنيا فتنظمُهُ)(٢) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أيْ : لا تنسَ في الدنيا نصيبَكَ منها للآخرةِ ؛ فإنَّها مزرعةُ الآخرةِ ، وفيها تُكتسبُ الحسناتُ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٣) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٣) .

وإنَّما تتمُّ شفقةُ التاجرِ علىٰ دينِهِ بمراعاةِ سبعةِ أمورٍ :

الأولُ : حسنُ النيَّةِ والعقيدةِ في ابتداءِ التجارةِ :

فلينوِ بها الاستعفافَ عنِ السؤالِ ، وكفَّ الطمعِ عنِ الناسِ ؛ استغناءً بالحلالِ عنهُمْ ، واستعانةً بما يكسبُهُ على الدينِ ، وقياماً بكفايةِ العيالِ ؛ ليكونَ مِنْ جملةِ المجاهدينَ بهِ .

ولينوِ النصحَ للمسلمينَ ، وأنْ يحبَّ لسائرِ الخلقِ ما يحبُّ لنفسِهِ .

ولينوِ اتباعَ طريقِ العدلِ والإحسانِ في معاملتِهِ كما ذكرناهُ .

ولينوِ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ في كلِّ ما يراهُ في السوقِ .

فإذا أضمرَ هـٰذهِ العقائدَ والنيَّاتِ . . كانَ عاملاً في طريقِ الآخرةِ ، فإنِ استفادَ مالاً . . فهوَ مزيدٌ ، وإن خسرَ في الدنيا . . ربحَ في الآخرةِ .

* * *

الثاني : أنْ يقصدَ القيامَ في صنعتِهِ أوْ تجارتِهِ بفرضٍ مِنْ فروضِ الكفاياتِ :

فإنَّ الصناعاتِ والتجاراتِ لوْ تُركَتْ . . بطلَتِ المعايشُ ، وهلكَ الخلقُ ، فانتظامُ أمرِ الكلِّ بتعاونِ الكلِّ ، وتكفُّلِ كلِّ فريقٍ بعملٍ ، ولوْ أقبلوا كلُّهُمْ علىٰ صنعةٍ واحدةٍ . . لتعطلَتِ البواقي وهلكوا ، وعلىٰ هـٰذا حملَ بعضُ الناسِ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اختلافُ أمَّتي رحمةٌ »(١)

(١) رواه البيهقي في « المدخل » (١٥٢) بلفظ : « واختلاف أصحابي لكم رحمة » .

أيِ : اختلافُ هممِهِمْ في الصناعاتِ والحِرَفِ .

ومِنَ الصناعاتِ ما هيَ مهمَّةٌ ، ومنها ما يُستغنىٰ عنها ؛ لرجوعِها إلىٰ طلبِ التنعُّمِ والتزيُّنِ في الدنيا ، فليشتغلْ بصناعةٍ مهمَّةٍ ؛ ليكونَ في قيامِهِ بها كافياً عنِ المسلمينَ مهماً في الدينِ .

وليجتنبْ صناعةَ النقشِ ، والصياغةَ ، وتشييدَ البنيانِ بالجصِّ ، وجميعَ ما وُضِعَ لتُزخرفَ بهِ الدنيا ، فكلُّ ذلكَ كرهَهُ ذوو الدينِ .

فأمَّا عملُ الملاهي والآلاتِ التي يحرمُ استعمالُها . . فاجتنابُ ذلكَ مِنْ قبيلِ تركِ الظلمِ ، ومِنْ جملةِ ذلكَ : خياطةُ الخيَّاطِ القباءَ مِنَ الإبريسمِ للرجالِ ، وصياغةُ الصائغِ مراكبَ الذهبِ(١) أوْ خواتيمَ الذهبِ للرجالِ ، فكلُّ ذلكَ مِنَ المعاصي ، والأجرةُ المأخوذةُ عليهِ حرامٌ ، ولذلكَ أوجبْنا الزكاةَ فيها وإنْ كنَّا لا نوجبُ الزكاةَ في الحليِّ ؛ لأنَّها إذا قُصدَتْ للرجالِ . . فهيَ محرَّمةٌ ، وكونُها مهيَّأةً للنساءِ لا يلحقُها بالحليِّ المباحِ ما لمْ يُقصدْ ذلكَ بها ، فيُكتسبُ حكمُها مِنَ القصدِ .

وقدْ ذكرنا أنَّ بيعَ الطعامِ وبيعَ الأكفانِ مكروهٌ ؛ لأنَّهُ يوجبُ انتظارَ موتِ الناسِ وحاجتِهِمْ ؛ لغلاءِ السعرِ(٢) ، ويُكرَهُ أنْ يكونَ جزَّاراً ؛ لما فيهِ مِنَ

---

(١) أي : السروج المتخذة منها .

(٢) كذا في جميع النسخ ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٥/٥٠٧) : (لأنه يحب موت الناس . . .) .

قساوةِ القلبِ ، وأنْ يكونَ حجّاماً أوْ كنّاساً ؛ لما فيهِ مِنْ مخامرةِ النجاسةِ ، وكذا الدبّاغُ وما في معناهُ .

وكرهَ ابنُ سيرينَ الدلالةَ(١) ، وكرهَ قتادةُ أجرةَ الدلاّلِ(٢) ، ولعلَّ السببَ فيهِ : قلّةُ استغناءِ الدلاّلِ عنِ الكذبِ ، والإفراطُ في الثناءِ على السلعةِ لترويجِها ، ولأنَّ العملَ فيهِ لا يتقدَّرُ ، فقدْ يقلُّ وقدْ يكثرُ ، ولا ينظرُ في مقدارِ الأجرةِ إلىٰ عملِهِ ، بلْ إلىٰ قدْرِ قيمةِ الثوبِ ، هٰذا هوَ العادةُ ، وهوَ ظلمٌ ، بلْ ينبغي أنْ ينظرَ إلىٰ قدْرِ التعبِ .

وكرهوا شراءَ الحيوانِ للتجارةِ ؛ لأنَّ المشتريَ يكرهُ قضاءَ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، وهوَ الموتُ الذي هوَ بصددِهِ ـ لا محالةَ ـ وخُلقَ لهُ ، وقيلَ : (بعِ الحيوانَ واشترِ المَوَتانَ)(٣) .

وكرهوا الصرْفَ ؛ لأنَّ الاحترازَ فيهِ عنْ دقائقِ الربا عسيرٌ ، ولأنَّهُ طلبٌ لدقائقِ الصفاتِ فيما لا يُقصدُ أعيانُها ، وإنَّما يُقصدُ رواجُها ، وقلَّما يتمُّ للصيرفيِّ ربْحٌ إلا باعتمادِ جهالةِ معاملِهِ بدقائقِ النقدِ ، فقلَّما يسلمُ الصيرفيُّ وإنِ احتاطَ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٦٨٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٦٦) والسياق له .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٦٦) عن بعض العرب ، قال : (كأنهم كرهوا رد الثمن في الحيوان لما يخافون من تلفه ، واستحبوا شراء المَوَات ، وهو ما لا روح فيه) ، والمَوَتان : خلاف الحيوان ؛ كالدور والأراضي .

ويُكرهُ للصيرفيِّ وغيرِهِ كسْرُ الدرهمِ الصحيحِ والدينارِ ، إلا عندَ الشكِّ في جودتِهِ ، أوْ عندَ ضرورةٍ ، قالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ : (وردَ نهيٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعنْ أصحابِهِ في الصياغةِ مِنَ الصحاحِ ، وأنا أكرهُ الكسرَ)[1] ، وقالَ : (يشتري بالدنانيرِ دراهمَ ، ثمَّ يشتري بالدراهمِ ذهباً ويصوغُهُ)[2] .

واستحبُّوا تجارةَ البزِّ ، قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (ما مِنْ تجارةٍ أحبَّ إليَّ مِنْ تجارةِ البزِّ ، ما لمْ يكنْ فيها أيمانٌ)[3] .

وقدْ رُوِيَ : (خيرُ تجارتِكُمْ البزُّ ، وخيرُ صناعتِكُمْ الخَرْزُ)[4] .

وفي حديثٍ آخرَ : « لوِ اتَّجَرَ أهلُ الجنَّةِ . . لاتَّجروا في البزِّ ، ولوِ اتَّجرَ أهلُ النارِ . . لاتَّجروا في الصرْفِ »[5] .

---

(١) روىٰ أبو داوود (٣٤٤٩) ، وابن ماجه (٢٢٦٣) عن عبد الله المزني رضي الله عنه قال : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس) .

(٢) القولان لأحمد في « الورع » (ص٥٧) .

(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٧/ ١٣٤) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٢٤٨) .

(٤) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٥٠٨) : (نقله صاحب « القوت » ، وقال العراقي : لم أقف له علىٰ إسناد ، وذكره صاحب « الفردوس » من حديث علي بن أبي طالب ؛ أي : تعليقاً) .

(٥) روىٰ صدره الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٦٥) ولفظه : « لو أذن الله لأهل الجنة في التجارة . . لاتجروا في البز والعطر » ، وهو بتمامه عند صاحب « الفردوس » (٥١٣٢) .

وقدْ كانَتْ غالبُ أعمالِ الأخيارِ مِنَ السلفِ عشرَ صنائعَ : الخرْزُ ، والنجارةُ ، والحمْلُ ، والخياطةُ ، والحذوُ ، والقصارةُ ، وعملُ الخِفافِ ، وعملُ الحديدِ ، وعملُ المغازلِ ، ومعالجةُ صيدِ البرِّ والبحرِ ، والوراقةُ(١) .

قالَ عبدُ الوهَّابِ الورَّاقُ : قالَ لي أحمدُ ابنُ حنبلٍ : ما صنعتُكَ ؟ قلتُ : الوراقةُ ، فقالَ : كسبٌ طيِّبٌ ، ولوْ كنتُ صانعاً بيدي . . لصنعتُ صنعتَكَ ، ثمَّ قالَ لي : لا تكتبْ إلا مواسطةً ، واستثنِ الحواشيَ وظهورَ الأجزاءِ(٢) .

وأربعةٌ مِنَ الصنَّاعِ موسومونَ عندَ الناسِ بضعْفِ الرأيِ : الحاكَةُ ، والقطَّانونَ ، والمغازليُّونَ ، والمعلِّمونَ ، ولعلَّ ذلكَ لأنَّ أكثرَ مخالطتِهِمْ معَ النساءِ والصبيانِ ، ومخالطةُ ضعفاءِ العقولِ تضعفُ العقلَ ، كما أنَّ مخالطةَ العقلاءِ تزيدُ في العقلِ .

وعنْ مجاهدٍ : أنَّ مريمَ عليها السلامُ مرَّتْ في طلبِها لعيسىٰ عليهِ السلامُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٦) ، وقوله : (والحذو) ليس في (ب) ، وهو في « القوت » و« الإتحاف » ، وبزيادتها تصير إحدىٰ عشرة حرفة .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٦) ، وفي (أ) : (مراصفة) بدل (مواسطة) أي : مقاربة ، وفي (ب ، هـ) : (مواضعة) ، وفي (و ، ط) : (مواصفة) ، وإنما نهاه عن الكتابة علىٰ ظهور الأجزاء لأنها قابلة للتلف .

بحاكةٍ ، فطلبتِ الطريقَ ، فأرشدوها غيرَ الطريقِ ، فقالتْ : اللهمَّ ؛ انزعِ البركةَ مِنْ كسبِهِمْ ، وأمتْهُمْ فقراءَ ، وحقِّرْهُمْ في أعينِ الناسِ ، فاستجيبَ دعاؤُها[1] .

وكرهَ السلفُ أخذَ الأجرةِ علىٰ كلِّ ما هوَ مِنْ قبيلِ العباداتِ وفروضِ الكفاياتِ ؛ كغسلِ الأمواتِ ودفنِهِمْ ، وكذا الأذانُ وصلاةُ التراويحِ ، وإنْ حُكمَ بصحَّةِ الاستئجارِ عليهِ ، وكذا تعليمُ القرآنِ ، وتعليمُ علْمِ الشرعِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ أعمالٌ حقُّها أنْ يتَّجرَ بها للآخرةِ ، فأخذُ الأجرةِ عليها استبدالٌ بالدنيا عنِ الآخرةِ ، ولا يُستحبُّ ذلكَ .

* * *

الثالثُ : ألا تمنعَهُ سوقُ الدنيا عنْ سوقِ الآخرةِ :

وأسواقُ الآخرةِ المساجدُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ .

فينبغي أنْ يجعلَ أوَّلَ النهارِ إلىٰ وقتِ دخولِ السوقِ لآخرتِهِ ، فيلازمُ المسجدَ ، ويواظبُ على الأورادِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٧٦) .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ للتجَّارِ : (اجعلوا أوَّلَ نهارِكُمْ لآخرتِكُمْ ، وما بعدَهُ لدنياكُمْ)[1] .

وكانَ صالحو السلفِ يجعلونَ أوَّلَ النهارِ وآخرَهُ للآخرةِ ، والوسطَ للتجارةِ ، ولمْ يكنْ يبيعُ الهريسةَ والرؤوسَ بكرةً إلا الصبيانُ وأهلُ الذمَّةِ ؛ لأنَّهُمْ كانوا في المساجدِ بعدُ[2] .

وفي الخبرِ : « إنَّ الملائكةَ إذا صعدَتْ بصحيفةِ العبدِ وفيها في أوَّلِ النهارِ وفي آخرِهِ ذكرٌ وخيرٌ . كفَّرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ما بينَهُما مِنْ سيِّئِ الأعمالِ »[3] .

وفي الخبرِ : « تلتقي ملائكةُ الليلِ والنهارِ عندَ طلوعِ الفجرِ وعندَ صلاةِ العصرِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ وهوَ أعلمُ بهِمْ : كيفَ تركتُمْ عبادِي ؟ فيقولونَ : تركناهُمْ وهمْ يصلُّونَ ، وجئناهُمْ وهمْ يصلُّونَ ، فيقولُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : أُشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ »[4] .

ثمَّ مهما سمعَ الأذانَ في وسطِ النهارِ للأولىٰ[5] والعصرِ . فينبغي ألاَّ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٣) ، ورواه الترمذي (٩٨١) بنحوه .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٧٣) ، ورواه البخاري (٣٢٢٣) ، ومسلم (٦٣٢) .
(٥) وهي صلاة الظهر . « إتحاف » (٥/ ٥١٠) .

يعرِّجَ علىٰ شغلٍ ، وينزعجَ عنْ مكانِهِ ، ويدعَ كلَّ ما كانَ فيهِ ، فما يفوتُهُ مِنْ فضيلةِ تكبيرةِ الإحرامِ معَ الإمامِ في أوَّلِ الوقتِ لا توازيها الدنيا بما فيها ، ومهما لمْ يحضرِ الجماعةَ . . عصىٰ عندَ بعضِ العلماءِ(١) .

وقدْ كانَ السلفُ يبتدرونَ عندَ الأذانِ ويُخْلونَ الأسواقَ للصبيانِ وأهلِ الذمَّةِ ، وكانوا يُستأجرونَ بالقراريطِ لحفظِ الحوانيتِ في أوقاتِ الصلواتِ ، وكانَ ذلكَ معيشةً لهُمْ ، وقدْ جاءَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أنَّهُمْ كانوا حدَّادينَ وخرَّازينَ ، فكانَ أحدُهُمْ إذا رفعَ المطرقةَ أوْ غرزَ الإشْفىٰ فسمعَ الأذانَ . . لمْ يخرجِ الإشْفىٰ مِنَ المغرزِ ، ولمْ يوقعِ المطرقةَ ورمىٰ بها ، وقامَ إلى الصلاةِ(٢) .

***

الرابعُ : ألاَّ يقتصرَ علىٰ هٰذا ، بلْ يلازمُ ذكرَ اللهِ سبحانَهُ في السوقِ :

ويشتغلُ بالتسبيحِ والتهليلِ ، فذكرُ اللهِ في السوقِ بينَ الغافلينَ أفضلُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالمقاتلِ خلْفَ الفارِّينَ ، وكالحيِّ بينَ الأمواتِ » ، وفي لفظٍ آخر : « كالشجرةِ الخضراءِ بينَ الهشيمِ »(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) والسياق عنده ، والإشفىٰ : إبرة الخرّاز .
(٣) رواه ابنُ المبارك في « الزهد » (٣٥٧) عن عون بن عبد الله ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٤١) بالجملة الأولىٰ منه ، ورواه مرفوعاً بألفاظ المصنف أبو نعيم في « الحلية » =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ دخلَ السوقَ فقالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . كتبَ اللهُ لهُ ألفَ ألفِ حسنةٍ »[١] ، وكانَ ابنُ عمرَ وسالمُ بنُ عبدِ اللهِ ومحمدُ بنُ واسعٍ وغيرُهُمْ يدخلونَ السوقَ قاصدينَ لنيلِ فضيلةِ هـٰذا الذكرِ[٢] .

وقالَ الحسنُ : (ذاكرُ اللهِ في السوقِ يجيءُ يومَ القيامةِ لهُ ضوءٌ كضوءِ القمرِ ، وبرهانٌ كبرهانِ الشمسِ ، ومنِ استغفرَ اللهَ في السوقِ . . غفرَ اللهُ لهُ بعددِ أهلِها)[٣] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا دخلَ السوقَ . يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الكفرِ والفسوقِ ، ومِنْ شرِّ ما أحاطَتْ بهِ السوقُ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ يمينٍ فاجرةٍ وصفقةٍ خاسرةٍ)[٤] .

وقالَ أبو جعفرٍ الفَرْغانيُّ : كنَّا يوماً عندَ الجنيدِ ، فجرىٰ ذكرُ ناسٍ

= (٦/ ١٨١) ولم يذكر : (وكالحي بين الأموات) ، وعند البخاري (٦٤٠٧) ، ومسلم (٧٧٩) مرفوعاً : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت » مطلقاً ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٥١١) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) ، وتقدم ذكر ذلك عند تخريج الحديث .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٥) ، وتقدم مرفوعاً بنحوه .

يجلسونَ في المساجدِ ويتشبَّهونَ بالصوفيَّةِ ويقصِّرونَ عمَّا يجبُ عليهِمْ مِنْ حقِّ الجلوسِ ، ويعيبونَ مَنْ يدخلُ السوقَ ، فقالَ الجنيدُ : كمْ ممَّنْ هوَ في السوقِ حكمُهُ أنْ يدخلَ المسجدَ ويأخذَ بأُذُنِ بعضِ مَنْ فيهِ فيخرجَهُ ويجلسَ مكانَهُ ، إنِّي لأعرفُ رجلاً يدخلُ السوقَ وردُهُ كلَّ يومٍ ثلاثُ مئةِ ركعةٍ وثلاثونَ ألفَ تسبيحةٍ ، قالَ : فسبقَ إليَّ وهمي أنَّهُ يعني نفسَهُ[1] .

فهكذا كانت تجارةُ مَنْ يتجرُ لطلبِ الكفايةِ لا للتنعُّمِ في الدنيا ؛ فإنَّ مَنْ يطلبُ الدنيا للاستعانةِ بها على الآخرةِ كيفَ يدعُ ربحَ الآخرةِ ؟! والسوقُ والمسجدُ والبيتُ لهُ حكمٌ واحدٌ ، وإنَّما النجاةُ بالتقوىٰ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ »[2] ، فوظيفةُ التقوىٰ لا تنقطعُ عنِ المتجردينَ للدِّينِ كيفما تقلبَتْ بهمُ الأحوالُ ، وبهِ تكونُ حياتُهُمْ وعيشُهُمْ ؛ إذْ فيهِ يرونَ تجارتَهُمْ وربحَهُمْ ، وقدْ قيلَ : مَنْ أحبَّ الآخرةَ.. عاشَ ، ومَنْ أحبَّ الدنيا.. طاشَ ، والأحمقُ يغدو ويروحُ في لاشَ ، والعاقلُ عنْ عيوبِ نفسِهِ فتَّاشٌ[3] .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٢) .
(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧) .
(٣) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (١٠٣١) عن سري السقطي ، ورواه عن ذي النون ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤٢٣) ، والجملة الأخيرة زيادة من (ب) ، وهي كذلك في « القوت » (٢/ ٢٦٥) ، **ولاش** : لا شيء ، وجاءت هـٰكذا مراعاة للسجعة ، وهي لا تأتي كذلك إلا في الازدواج ونحوه ، وتقرأ الجمل مسكنة الآخر لذلك .

الخامسُ : ألاَّ يكونَ شديدَ الحرصِ على السوقِ والتجارةِ :

وذلكَ بأنْ يكونَ أوَّلَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ ، وبأنْ يركبَ البحرَ في التجارةِ ، فهما مكروهانِ .

يُقالُ : (مَنْ ركبَ البحرَ . . فقدِ استقصىٰ في طلبِ الرزقِ)[1] .

وفي الخبرِ : « لا يُركبُ البحرُ إلا لحجٍّ ، أوْ لعمرةٍ ، أوْ غزوٍ »[2] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (لا تكنْ أوَّلَ داخلٍ في السوقِ ، ولا آخرَ خارجٍ منها ؛ فإنَّ بها باضَ الشيطانُ وفرَّخَ)[3] .

رُويَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ إبليسَ يقولُ لولدِهِ زَلَنْبُورَ لعنَهُما اللهُ : سِرْ بكتائبِكَ فأنتَ صاحبُ الأسواقِ ، زيِّنْ لهُمُ الكذبَ ، والحلِفَ ، والخديعةَ والمكرَ والخيانةَ ، وكنْ معَ أوَّلِ داخلٍ وآخرِ خارجٍ منها[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٧٣) .
(٢) رواه أبو داوود (٢٤٨٩) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٣) عنه ، وقد روي مرفوعاً عند الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٤٨) ، ولمسلم (٢٤٥١) عن سلمان رضي الله عنه قال : (لا تكونن ـ إن استطعت ـ أول من يدخل السوق ، ولا آخر من يخرج منها ؛ فإنها معركة الشيطان ، وبها ينصب رايته) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٧٣) ، وكون زلنبور صاحب الأسواق رواه أبو الشيخ في =

وفي الخبرِ : « شرُّ البقاعِ الأسواقُ ، وشرُّ أهلِها أوَّلُهُمْ دخولاً وآخرُهُمْ خروجاً »[1] .

وتمامُ هٰذا الاحترازِ : أنْ يراقبَ وقتَ كفايتِهِ ، فإذا حصلَ كفايةُ وقتِهِ . . انصرفَ واشتغلَ بتجارةِ الآخرةِ ، هٰكذا كانَ صالحو السلفِ ، فقدْ كانَ منهُمْ مَنْ إذا ربحَ دانقاً . . انصرفَ قناعةً بهِ ، وكانَ حمَّادُ بنُ سلمةَ يبيعُ الخزَّ في سفطٍ بينَ يديهِ ، فكانَ إذا ربحَ حبَّتينِ . . رفعَ سفطَهُ وانصرفَ[2] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ بشَّارٍ : قلتُ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمَهُ اللهُ : أمرُّ اليومَ أعملُ في الطينِ ؟ فقالَ : يا بنَ بشارٍ ؛ إنَّكَ طالبٌ ومطلوبٌ ، يطلبُكَ مَنْ لا تفوتُهُ ، وتطلبُ ما قد كُفيتَهُ ، أما رأيتَ حريصاً محروماً ، وضعيفاً مرزوقاً ؟ فقلتُ : إنَّ لي دانقاً عندَ البقَّالِ ، فقالَ : عزَّ عليَّ بكَ ، تملكُ دانقاً وتطلبُ العملَ ؟![3] .

= « العظمة » (١١٣٣) من قول مجاهد في تفسير قوله سبحانه : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ .

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٧١٣٦) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢٦٧) ، ومعناه فيما تقدم .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٥٠) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٧٣) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٢-١٣) وقبل قوله : (إن لي دانقاً) قال له ابن أدهم : (ما لك حيلة ؟) .

وقدْ كانَ فيهِمْ مَنْ ينصرفُ بعدَ الظهرِ ، ومنهُمْ بعدَ العصرِ ، ومنهُمْ مَنْ لا يعملُ في الأسبوعِ إلا يوماً أوْ يومينِ ، وكانوا يكتفونَ بهِ .

* * *

السادسُ : ألاَّ يقتصرَ على اجتنابِ الحرامِ بلْ يتقي مواقعَ الشبهةِ ومظانَّ الريبِ :

ولا ينظرُ إلى الفتاوىٰ ، بلْ يستفتي قلبَهُ ، فما وجدَ فيهِ حزازةً . . اجتنبَهُ ، وإذا حُمِلَ إليهِ سلعةٌ رابَهُ أمرُها . . سألَ عنها حتَّىٰ يعرفَ ، وإلا . . أكلَ الشبهةَ .

وقدْ حُمِلَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبنٌ ، فقالَ : « مِنْ أينَ لكُمْ هٰذا ؟ » فقيلَ : مِنَ الشاةِ ، فقالَ : « ومِنْ أينَ لكُمْ هٰذهِ الشاةُ ؟ » فقيلَ : مِنْ موضعِ كذا ، فشربَ منهُ ، ثمَّ قالَ : « إنَّا ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ أُمِرْنا ألاَّ نأكلَ إلا طيِّباً ، ولا نعملَ إلا صالحاً »(١) .

وقالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بهِ المرسلينَ ، فقالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ »(٢) .

فسألَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أصلِ الشيءِ ، وأصلِ أصلِهِ ، ولمْ يزدْ؛

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٥/ ١٧٤) .
(٢) رواه مسلم (١٠١٥) .

لأنَّ ما وراءَ ذلكَ يتعذَّرُ ، وسنبيِّنُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ موضعَ وجوبِ هـٰذا السؤالِ ؛ فإنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ لا يسألُ عنْ كلِّ ما يُحملُ إليهِ[1] ، وإنَّما الواجبُ أن ينظرَ التاجرُ إلىٰ مَنْ يعاملُهُ ، فكلُّ منسوبٍ إلىٰ ظلمٍ أوْ خيانةٍ أوْ سرقةٍ أوْ رباً . . فلا يعاملُهُ ، وكذا الأجنادُ والظلمةُ لا يعاملُهُمْ ألبتةَ ، ولا يعاملُ أصحابَهُمْ وأعوانَهُمْ ؛ لأنَّهُ معينٌ بذلكَ على الظلمِ .

وحُكِيَ عنْ رجلٍ أنَّهُ تولَّىٰ عملَ سورٍ لعمارةِ ثغرٍ مِنَ الثغورِ ، فقالَ : فوقعَ في نفسي مِنْ ذلكَ شيءٌ وإنْ كانَ ذلكَ العملُ مِنَ الخيراتِ ، بلْ مِنْ فرائضِ الإسلامِ ، ولكنْ كانَ الأميرُ الذي تولَّىٰ عن جهتهِ مِنَ الظلمةِ ، فسألتُ سفيانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : لا تكنْ عوناً لهُمْ علىٰ قليلٍ ولا كثيرٍ ، فقلتُ : هـٰذا سورٌ في سبيلِ اللهِ للمسلمينَ ، فقالَ : نعمْ ، ولكنْ أقلُّ ما يدخلُ عليكَ أنْ تحبَّ بقاءَهُمْ ليوفوكَ أجرَكَ ، فتكونَ قدْ أحببتَ بقاءَ مَنْ يعصي اللهَ تعالىٰ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : (مَنْ دعا لظالمٍ بالبقاءِ . . فقدْ أحبَّ أنْ يُعصى اللهُ في أرضِهِ)[2] ، وفي الحديثِ : « إنَّ اللهَ ليغضبُ إذا مُدحَ

---

(1) فقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٣٥١) عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بامرأة ، فذبحت لهم شاة . . . ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم لقمة ، فلم يستطع أن يسيغها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هـٰذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها » ، فقالت المرأة : يا نبي الله ؛ إنا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ ولا يحتشمون منا ، نأخذ منهم ويأخذون منا .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٦٠٤) عن الحسن ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٤٦) من قول سفيان .

الفاسقُ »[1] ، وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ أكرمَ فاسقاً .. فقدْ أعانَ علىٰ هدْمِ الإسلامِ »[2] .

وقدْ أُدخلَ سفيانُ على المهديِّ وبيدِهِ دَرْجٌ أبيضُ ، فقالَ : يا سفيانُ ؛ أعطني الدواةَ حتَّىٰ أكتبَ ، فقالَ : أخبرني ؛ أيَّ شيءٍ تكتبُ ؟ فإنْ كانَ حقّاً .. أعطيتُكَ[3] .

وطلبَ بعضُ الأمراءِ مِنْ بعضِ العلماءِ المحبوسينَ عندَهُ أنْ يناولَهُ طيناً ليختمَ بهِ الكتابَ ، فقالَ : ناولْني الكتابَ أوّلاً حتَّىٰ أنظرَ ما فيهِ[4] .

فهكذا كانوا يحترزونَ عنْ معاونةِ الظلمةِ ، ومعاملتُهُمْ أشدُّ أنواعِ الإعانةِ ، فينبغي أنْ يجتنبَها ذو الدينِ مهما وجدَ إلىٰ ذلكَ سبيلاً .

وبالجملةِ : فينبغي أنْ ينقسمَ الناسُ عندَهُ إلىٰ مَنْ يُعاملُ ومَنْ لا يُعاملُ ، وليكنْ مَنْ يعاملُهُ أقلَّ ممَّنْ لا يعاملُهُ في هـٰذا الزمانِ .

قالَ بعضُهُمْ : (أتىٰ على الناسِ زمانٌ كانَ الرجلُ يدخلُ السوقَ ويقولُ : مَنْ ترونَ لي أنْ أعاملَ منَ الناسِ ؟ فيُقالُ لهُ : عاملْ مَنْ شئتَ ، ثمَّ أتىٰ زمانٌ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٣) .

(٢) روى الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٨) مرفوعاً : « من وقَّر صاحب بدعة .. فقد أعان علىٰ هدم الإسلام » ، والقصة بتمامها عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٦٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٦٤) ، **والدرج** : الذي يكتب فيه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٦٤) .

آخرُ فكانَ يُقالُ : عاملْ مَنْ شئتَ إلا فلاناً وفلاناً ، ثمَّ أتىٰ زمانٌ آخرُ فكانَ يُقالُ : لا تعاملْ أحداً إلا فلاناً وفلاناً ، وأخشىٰ أنْ يأتيَ زمانٌ يذهبُ هـٰذا أيضاً)[1] ، وكأنَّهُ قدْ كانَ الذي خافَ أنْ يكونَ ، إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ .

❊ ❊ ❊

السابعُ : ينبغي أنْ يراقبَ جميعَ مجاري معاملتِهِ معَ كلِّ واحدٍ مِنْ معامليهِ :

فإنَّهُ مراقَبٌ ومحاسَبٌ ، فليعدَّ الجوابَ ليومِ الحسابِ والعقابِ في كلِّ فعلِهِ وقولِهِ أنَّهُ لِمَ أقدمَ عليها ولأجلِ ماذا ؟

فإنَّهُ يُقالُ : إنَّهُ يُوقفُ التاجرُ يومَ القيامةِ معَ كلِّ رجلٍ كانَ باعَهُ شيئاً وقفةً ويُحاسبُ عنْ كلِّ واحدٍ محاسبةً علىٰ عددِ مَنْ عاملَهُ .

قالَ بعضُهُمْ : رأيتُ بعضَ التجّارِ في النومِ ، فقلتُ لهُ : ماذا فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : نشرَ عليَّ خمسينَ ألفَ صحيفةٍ ، فقلتُ : هـٰذهِ كلُّها ذنوبٌ ؟! فقالَ : هـٰذهِ معاملاتُ الناسِ بعددِ كلِّ إنسانٍ عاملتَهُ في الدنيا ، لكلِّ إنسانٍ صحيفةٌ مفردةٌ فيما بينَكَ وبينَهُ مِنْ أوَّلِ معاملتِهِ إلىٰ آخرِها[2] .

فهـٰذا ما على المكتسبِ في معاملتِهِ منَ العدلِ والإحسانِ والشفقةِ على

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٧٢) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٨) .

الدينِ ، فإنِ اقتصرَ على العدْلِ . . كانَ مِنَ الصالحينَ ، وإنْ أضافَ إليهِ الإحسانَ . . كانَ منَ المقربينَ ، فإنْ راعىٰ معَ ذلكَ وظائفَ الدينِ كما ذكرناهُ في البابِ الخامسِ . . كانَ مِنَ الصديقينَ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

تمّ كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثّالث من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلاته على محمّدٍ نبيّه وآله وسلّم تسليمًا

ويتلوه كتاب الحلال والحرام

كتاب
الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الحلال والحرام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي خلقَ الإنسانَ مِنْ طينٍ لازبٍ وصلصالٍ ، ثمَّ ركَّبَ صورتَهُ في أحسنِ تقويمٍ وأتمِّ اعتدالٍ ، ثمَّ غذاهُ في أوَّلِ نشوئِهِ بلبنٍ استصفاهُ مِنْ بينِ فرْثٍ ودمٍ سائغاً كالماءِ الزلالِ ، ثمَّ حماهُ بما آتاهُ مِنْ طيِّباتِ الرزقِ عنْ دواعي الضعفِ والانحلالِ ، ثمَّ قيَّدَ شهوتَهُ المعاديةَ لهُ عنِ السطوةِ والصِّيالِ ، وقهرَها بما افترضَهُ عليهِ مِنْ طلبِ القوتِ الحلالِ ، وهزمَ بكسرِها جندَ الشيطانِ المتشمِّرِ للإضلالِ ، فلقدْ كانَ يجري مِن ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ السيَّالِ ، فضيَّقَ عليهِ عزَّةُ الحلالِ المجرىٰ والمجالَ ، إذ كانَ لا يُبذْرِقُهُ إلىٰ أعماقِ العروقِ إلا الشهواتُ المائلةُ إلى الغلبةِ والاسترسالِ[١] ، فبقيَ لمَّا زُمَّتْ بزمامِ الحلالِ خائباً خاسراً ما لهُ مِنْ ناصرٍ ولا والٍ[٢] .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الهادي مِنَ الضلالِ ، وعلىٰ آلهِ خيرِ آلٍ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

---

(١) **لا يبذرقه** : لا يوصله ، وأصل البذرقة الخفارة ، وهي لفظة فارسية .

(٢) **والمراد من هـٰذا التمثيل البديع** : تبيينُ أن الشيطان منفور منه في الظاهر ، متبوع في الباطن . مفاد من « الإتحاف » (٦/ ٤) .

أما بعد :

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ » ، رواهُ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ[1] ، وهٰذهِ الفريضةُ مِنْ بينِ سائرِ الفرائضِ أعصاها على العقولِ فهماً ، وأثقلُها على الجوارحِ فعلاً ، ولذلكَ اندرسَ بالكلِّيَّةِ عملاً وعلماً ، وصارَ غموضُ علمِهِ سبباً لاندراسِ عملِهِ ؛ إذْ ظنَّ الجهَّالُ أنَّ الحلالَ مفقودٌ ، وأنَّ السبيلَ دونَ الوصولِ إليهِ مسدودٌ ، وأنَّهُ لمْ يبقَ مِنَ الطيِّباتِ إلا الماءُ الفراتُ ، والحشيشُ النابتُ في المَواتِ ، وما عداهُ فقدْ أخبثَتْهُ الأيدي العاديةُ ، وأفسدَتْهُ المعاملاتُ الفاسدةُ .

وإذْ تعذرَتِ القناعةُ بالحشيشِ مِنَ النباتِ[2] . . لمْ يبقَ وجهٌ سوى الاتساعِ في المحرَّماتِ ، فرفضوا هٰذا القطبَ مِنَ الدينِ أصلاً ، ولمْ يدركوا بينَ الأموالِ فرقاً وفصلاً .

وهيهاتَ هيهاتَ ؛ فالحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ ، وبينَهُما أمورٌ متشابهاتٌ ، ولا تزالُ هٰذهِ الثلاثةُ مقترناتٍ كيفَما تقلبتِ الحالاتُ .

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ بدعةً عمَّ في الدينِ ضررُها ، واستطارَ في الخلْقِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٧٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٢٨) دون زيادة : « علىٰ كل مسلم » ، وهي عند الطبراني في « الأوسط » (٨٦٠٥) عن أنس مرفوعاً ، وسياق المصنف في « القوت » (٢/ ٢٨٦) .

(٢) **الحشيش** : هو اليابس من الكلأ ، وهو قول أئمة اللغة ، ومراد المصنف هنا هو الرطب ، أطلقه عليه تجوزاً ، وهٰذه لغة الفقهاء فيه . مفاد من « الإتحاف » (٦/ ٥) .

شرَرُها . . وجبَ كشفُ الغطاءِ عنْ فسادِها ، بالإرشادِ إلىٰ مُدْرَكِ الفرقِ بينَ الحلالِ والحرامِ والشبهةِ علىٰ وجهٍ في التحقيقِ والبيانِ لا يخرجُهُ التضييقُ عنْ حيِّزِ الإمكانِ ، **ونحنُ نوضِّحُ ذلكَ في سبعةِ أبوابٍ** :

البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ طلبِ الحلالِ ومذمَّةِ الحرامِ ، ودرجاتِ الحلالِ والحرامِ .

البابُ الثاني : في مراتبِ الشبهاتِ ، ومثاراتِها ، وتمييزِها عنِ الحلالِ والحرامِ .

البابُ الثالثُ : في البحثِ والسؤالِ ، والهجومِ والإهمالِ ، ومظانِّها في الحلالِ والحرامِ .

البابُ الرابعُ : في كيفيةِ خروجِ التائبِ عنِ المظالمِ الماليةِ .

البابُ الخامسُ : في إدراراتِ السلاطينِ وصِلاتِهِمْ ، وما يحلُّ منها وما يحرمُ .

البابُ السادسُ : في الدخولِ على السلاطينِ ومخالطتِهِمْ .

البابُ السابعُ : في مسائلَ متفرقةٍ .

* * *

البَابُ الأوَّلُ
في الحلال والحرام
وفيه فضيلة الحلال ومذمّة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمّة الحرام

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ، أمرَ بالأكلِ مِنَ الطيِّباتِ قبلَ العملِ ، وقيلَ : إنَّ المرادَ بهِ الحلالُ(1) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا . . . ﴾ الآية .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ، جعلَ آكلَ الربا أوَّلَ الأمرِ مؤذناً بمحاربةِ اللهِ تعالىٰ ، وفي آخرِهِ متعرِّضاً للنارِ .

---

(1) كما في « تفسير الطبري » (١٠/ ١٨/ ٣٧) ، و« القوت » (٢/ ٢٨٨) .

والآياتُ الواردةُ في الحلالِ والحرامِ لا تُحصىٰ .

* * *

وروى ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ » ، ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »(١) . . قالَ بعضُ العلماءِ : أرادَ بهِ طلبَ علمِ الحلالِ والحرامِ ، وجعلَ المرادَ بالحديثينِ واحداً(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سعىٰ علىٰ عيالِهِ مِنْ حلِّهِ . . فهوَ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، ومَنْ طلبَ الدنيا حلالاً في عفافٍ . كانَ في درجةِ الشهداءِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أكلَ الحلالَ أربعينَ يوماً . . نوَّرَ اللهُ قلبَهُ ، وأجرىٰ ينابيعَ الحكمةِ مِنْ قلبِهِ على لسانِهِ » ، وفي روايةٍ : « زهَّدَهُ اللهُ في الدنيا »(٤) .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨٧) .
(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٢٥) مرفوعاً : « ومن سعىٰ علىٰ عياله . . ففي سبيل الله » ، وروى الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ١٦٤) مرفوعاً : « من طلب مكسبة من باب الحلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله . . جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين هٰكذا » وأشار بإصبعه السبابة والوسطىٰ .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨٧) ، وثمَّ حديث يشبهه من حيث السياق وليس هو هٰذا =

ورُوِي أنَّ سعداً سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَهُ مجابَ الدعوةِ ، فقالَ لهُ : « أطبْ طعمتَكَ . . تُستجَبْ دعوتُكَ »(١) .

ولمَّا ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحريصَ على الدنيا . . قالَ : « ربَّ أشعثَ أغبرَ مشرَّدٍ في الأسفارِ ، مطعمُهُ حرامٌ ، وملبسُهُ حرامٌ ، وغُذِيَ بالحرامِ ، يرفعُ يديهِ فيقولُ : يا ربُّ ، يا ربُّ ؛ فأنَّىٰ يُستجابُ لذلكَ ؟!»(٢) .

وفي حديثِ ابنِ عباسٍ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ ملكاً علىٰ بيتِ المقدسِ ينادي كلَّ ليلةٍ : مَنْ أكلَ حراماً . . لمْ يُقبَلْ منهُ صرفٌ ولا عدلٌ » ، فقيلَ : الصرفُ : النافلةُ ، والعدلُ : الفريضةُ(٣) .

= الحديث كما نبه عليه الحافظ الزبيدي (٦/ ٧) ، وهو ما رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠١٤) عن مكحول مرسلاً ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٩) عنه عن أبي أيوب مرفوعاً قال : « من أخلص لله تعالىٰ أربعين يوماً . . ظهرت ينابيع الحكمة علىٰ لسانه » ، وتأمل تمام الحديث الآتي .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٤٩١) وتمامه : « والذي نفس محمد بيده ؛ إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه . . ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا . . فالنار أولىٰ به » .

(٢) رواه مسلم (١٠١٥) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨٨) عن ابن عباس مرفوعاً ، ومعناه في الحديث قبله ، وفي معناه كذلك ما رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٥٣) : « من أكل لقمة من حرام . . لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ، ولم يستجب له دعوة أربعين صباحاً . . . » الحديث .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اشترىٰ ثوباً بعشرةِ دراهمَ وفي ثمنِهِ درهمٌ حرامٌ . . لمْ يقبلِ اللهُ صلاتَهُ ما دامَ عليهِ منهُ شيٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ لحمٍ نبتَ مِنْ حرامٍ . . فالنارُ أولىٰ بهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يبالِ مِنْ أينَ اكتسبَ المالَ . . لمْ يبالِ اللهُ مِنْ أينَ أدخلَهُ النارَ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العبادةُ عشرةُ أجزاءٍ ، فتسعةٌ منها في طلبِ الحلالِ » ، رُوِيَ هـٰذا مرفوعاً وموقوفاً علىٰ بعضِ الصحابةِ أيضاً(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أمسىٰ وانياً مِنْ طلبِ الحلالِ . . باتَ مغفوراً لهُ ، وأصبحَ واللهُ عنهُ راضٍ »(٥) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٩٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٧٠٧) .

(٢) رواه الترمذي (٦١٤) ولفظه : « إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولىٰ به » ، والبيهقي في « الشعب » (٥٣٧٦) بلفظ : « أيما لحم نبت من حرام . . فالنار أولىٰ به » .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٣٩٩) موقوفاً علىٰ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٤) ولفظ صاحب « القوت » (٢/ ٢٨٨) : (وقال جماعة من السلف : الجهاد عشرة أجزاء ، تسعة في طلب الحلال) . وعند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٢٢) : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعة في الصمت ، والعاشرة في كسب اليد من الحلال » .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٥١٦) بلفظ : « من أمسىٰ كالاً من عمل يديه . . أمسىٰ مغفوراً له » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصابَ مالاً مِنْ مأثمٍ ، فوصلَ بهِ رحماً ، أوْ تصدَّقَ بهِ ، أوْ أنفقَهُ في سبيلِ اللهِ . . جمعَ اللهُ ذلكَ جميعاً ثمَّ قذفَهُ في النارِ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خيرُ دينِكُمُ الورعُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لقيَ اللهَ ورعاً . . أعطاهُ اللهُ ثوابَ الإسلامِ كلِّهِ »(٣) .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : « وأمَّا الورعونَ . . فأنا أستحي أنْ أحاسبَهُمْ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « درهمٌ مِن رباً أشدُّ عندَ اللهِ مِنْ ثلاثينَ زنيةً في الإسلامِ »(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢٥) ، وأبو داوود في « المراسيل » (١٢٤) عن القاسم بن المخيمرة مرسلاً ، ورواه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٣٢٧) .

(٢) هو شطر حديث رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢- ٩٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٩٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٧٨) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٦/ ٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١١٣) .

(٥) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨٦) ، ورواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٢٥) ولفظه : (من ستة وثلاثين) .

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « المعدةُ حوضُ البدنِ ، والعروقُ إليها واردةٌ ، فإذا صحَّتِ المعدةُ . . صدرَتِ العروقُ بالصحَّةِ ، وإذا سقمَتْ . . صدرَتْ بالسقْمِ »(١) ، ومثلُ الطعمةِ مِنَ الدينِ مثلُ الأساسِ مِنَ البنيانِ ، فإذا ثبتَ الأساسُ وقويَ . . استقامَ البناءُ وارتفعَ ، وإذا ضعفَ الأساسُ واعوجَّ . . انهارَ البنيانُ ووقعَ(٢) ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ .

وفي الحديثِ : « مَنِ اكتسبَ مالاً مِنْ حرامٍ ؛ فإنْ تصدَّقَ بهِ . . لمْ يُقبلْ منهُ ، وإنْ تركَهُ وراءَهُ . . كانَ زادَهُ إلى النارِ »(٣) .

وقدْ ذكرنا جملةً مِنَ الأخبارِ في كتابِ آدابِ الكسبِ تكشفُ عنْ فضيلةِ كسبِ الحلالِ .

* * *

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ رُوِيَ أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ شربَ لبناً مِنْ كسبِ عبدِهِ ، ثمَّ سألَ عبدَهُ عنهُ ، فقالَ : تكهنتُ لقومٍ فأعطوني ، فأدخلَ إصبعَهُ في فيهِ وجعلَ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٣٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤١٤) ، وقال الدارقطني في « العلل » (٨/ ٤٢) عنه : (لا يصح ولا يعرف هـٰذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، إنما هو من كلام عبد الملك بن سعيد بن أبجر) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤) .

يقيءُ ، قالَ : حتَّىٰ ظننتُ أنَّ نفسَهُ ستخرجُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعتذرُ إليكَ ممَّا حملتِ العروقُ وخالطَ الأمعاءَ(١) .

وفي بعضِ الأخبارِ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أُخبرَ بذلكَ ، فقالَ : « أوَما علمتُمْ أنَّ الصدِّيقَ لا يُدخِلُ جوفَهُ إلا طيّباً »(٢) .

وكذلكَ شربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ منْ لبنِ إبلِ الصدقةِ غلطاً ، فأدخلَ إصبعَهُ وتقيَّأ(٣) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (إنَّكُمْ لتغفلونَ عنْ أفضلِ العبادةِ ؛ الورعُ)(٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (لوْ صلَّيتُمْ حتَّىٰ تكونوا كالحنايا ، وصمتُمْ حتَّىٰ تكونوا كالأوتارِ . . ما يُقبلُ ذلكَ منكُمْ إلا بورعٍ حاجزٍ)(٥) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨٧) ، وقد رواه البخاري (٣٨٤٢) بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨٨) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده) . « إتحاف » (٦/ ١٠) .

(٣) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٢٦٩) .

(٤) الذي رواه البيهقي في « الشعب » (٧٧٩٨) : (تغفلون عن أفضل العبادة ؛ التواضع) ، وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ٣٩٥) مرفوعاً : « الورع سيد العمل » .

(٥) عزاه الحافظ الزبيدي إلىٰ صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦/ ١١) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (لمْ يدرِكْ مَنْ أدركَ إلا مَنْ كانَ يعقلُ ما يدخلُ جوفَهُ)[1] .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ عرفَ ما يدخلُ جوفَهُ . . كتبَهُ اللهُ صدِّيقاً ، فانظرْ عندَ مَنْ تفطرُ يا مسكينُ)[2] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ : لِمَ لا تشربُ مِنْ ماءِ زمزمَ ؟ فقالَ : لوْ كانَ لي دلوٌ . . لشربتُ[3] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أنفقَ مِنَ الحرامِ في طاعةِ اللهِ . . كانَ كمَنْ طهَّرَ الثوبَ النجسَ بالبولِ ، والثوبُ النجسُ لا يطهِّرُهُ إلا الماءُ ، والذنبُ لا يكفِّرُهُ إلا الحلالُ) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (الطاعةُ خزانةٌ مِنْ خزائنِ اللهِ تعالىٰ ، ومفتاحُها الدعاءُ ، وأسنانُهُ اللقمةُ الحلالُ) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لا يقبلُ اللهُ صلاةَ امرئٍ في جوفِهِ حرامٌ)[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٦٩) ولفظه : (يا شقيقُ ؛ لم ينبل عندنا من نبل بالحج ولا بالجهاد ، وإنما نبل عندنا من نبل من كان يعقل ما يدخل جوفه ؛ يعني الرغيفين من حله) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٣٩٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٥٤) .

(٤) كذا حكىٰ روايته ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » (١/ ٢٦٢) ، وبنحوه في « الرعاية » (ص٤٦٦) .

وقالَ سهلٌ التستريُّ : (لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يكونَ فيهِ أربعُ خصالٍ : أداءُ الفرائضِ بالسنَّةِ ، وأكلُ الحلالِ بالورعِ ، واجتنابُ النهيِ مِنَ الظاهرِ والباطنِ ، والصبرُ علىٰ ذلكَ إلى الموتِ)(١) .

وقالَ : (مَنْ أحبَّ أنْ يُكاشفَ بآياتِ الصدِّيقينَ . . فلا يأكلْ إلا حلالاً ، ولا يعملْ إلا في سنَّةٍ أوْ ضرورةٍ)(٢) .

ويُقالُ : (مَنْ أكلَ الشبهةَ أربعينَ يوماً . . أظلمَ قلبُهُ) ، وهوَ تأويلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٣) .

وقالَ ابنُ المباركِ : (ردُّ درهمٍ مِنْ شبهةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أن أتصدَّقَ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، ومئةِ ألفٍ ، ومئةِ ألفٍ حتَّىٰ بلغَ إلىٰ ستِّ مئةِ ألفٍ)(٤) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ العبدَ يأكلُ أكلةً فيتقلبُ قلبُهُ ، فينغَلُ كما ينغَلُ الأديمُ ، فلا يعودُ إلىٰ حالِهِ أبداً)(٥) .

وقالَ سهلٌ : (مَنْ أكلَ الحرامَ . . عصَتْ جوارحُهُ شاءَ أمْ أبىٰ ، علمَ أوْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٨٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (٢٠٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٨٨) ، **والنَّغَل** : الفساد ، **ونَغِلَ قلبه** : ضَغِن ، والنية فسدت ، وقد روىٰ نحوه ابن أبي الدنيا في « الورع » (٦٥) في حقِّ نظرة السوء .

لمْ يعلمْ ، ومَنْ كانَتْ طُعْمتُهُ حلالاً .. أطاعَتْ جوارحُهُ ، ووفقَتْ للخيراتِ)[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ أوَّلَ لقمةٍ يأكلُها العبدُ مِنْ حلالٍ يُغفرُ لهُ بها ما سلفَ مِنْ ذنوبِهِ ، ومنْ أقامَ نفسَهُ مقامَ ذلٍّ في طلبِ الحلالِ .. تساقطَتْ عنهُ ذنوبُهُ كما تساقطُ ورقُ الشجرِ)[2] .

ورُوِيَ في آثارِ السلفِ أنَّ الواعظَ كانَ إذا جلسَ للناسِ .. قالَ العلماءُ : تفقدوا منهُ ثلاثاً ، فإنْ كانَ معتقداً لبدعةٍ .. فلا تجالسوهُ ؛ فإنَّهُ عنْ لسانِ الشيطانِ ينطقُ ، وإنْ كانَ سيِّءَ الطُّعْمةِ .. فعنِ الهوىٰ ينطقُ ، وإنْ لمْ يكنْ مكينَ العقلِ .. فإنَّهُ يفسدُ بكلامِهِ أكثرَ ممَّا يصلحُ ، فلا تجالسوهُ[3] .

وفي الأخبارِ المشهورةِ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وغيرِهِ : (إنَّ الدنيا حلالُها حسابٌ وحرامُها عذابٌ)[4] ، وزادَ آخرونَ : (وشبهتُها عتابٌ)[5] .

ورُوي أنَّ بعضَ السائحينَ دفعَ طعاماً إلىٰ بعضِ الأبدالِ ، فلمْ يأكلْهُ ، فسألَهُ عنِ السببِ في امتناعِهِ ، فقالَ : نحنُ لا نأكلُ إلا حلالاً ، فلذلكَ تستقيمُ قلوبُنا ، ويدومُ حالُنا ، ونكاشفُ بالملكوتِ ، ونشاهدُ الآخرةَ ، ولوْ

---

(١) عزاه الحافظ الزبيدي إلى « القوت » . « إتحاف » (٦/ ١٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٨٨) .
(٤) رواه أبو داوود في « الزهد » (١١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٣٨) .
(٥) الزيادة ليوسف ووكيع بن الجراح ، كما في « القوت » (٢/ ٢٩٤) .

أكلْنا ممَّا تأكلونَ ثلاثةَ أيامٍ . . لما رجعْنا إلىٰ شيءٍ مِنْ علمِ اليقينِ ، ولذهبَ الخوفُ والمشاهدةُ مِنْ قلوبِنا ، فقالَ لهُ الرجلُ : فإنِّي أصومُ الدهرَ وأختمُ القرآنَ في كلِّ شهرٍ ثلاثينَ ختمةً ! فقالَ لهُ البدلُ : هـٰذهِ الشربةُ من لبني التي رأيتَني شربتُها أحبُّ إليَّ مِنْ ثلاثينَ ختمةً في ثلاثِ مئةِ ركعةٍ مِنْ أعمالِكَ ، وكانتْ شربةَ لبنٍ من ظبيةٍ وحشيَّةٍ(١) .

وقدْ كانَ بينَ أحمدَ ابنِ حنبلٍ ويحيىٰ بنِ معينٍ صحبةٌ طويلةٌ ، فهجرَهُ أحمدُ إذْ سمعَهُ يقولُ : إنِّي لا أسألُ أحداً شيئاً ، ولوْ أعطاني الشيطانُ شيئاً . . لأكلتُهُ ، حتَّى اعتذرَ يحيىٰ وقالَ : كنتُ أمزحُ ، فقالَ : تمزحُ بالدينِ ؟! أما علمتَ أنَّ الأكلَ مِنَ الدينِ ، قدَّمَهُ اللهُ تعالىٰ على العملِ الصالحِ فقالَ : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ ؟!(٢) .

وفي الخبرِ : أنَّهُ مكتوبٌ في التوراةِ : (مَنْ لمْ يبالِ مِنْ أينَ مطعمُهُ . . لمْ يبالِ اللهُ مِنْ أيِّ أبوابِ النارِ أدخلَهُ)(٣) .

وعنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ لمْ يأكلْ بعدَ قتلِ عثمانَ ونهبِ الدارِ طعاماً إلا مختوماً ؛ حذراً مِنَ الشبهةِ(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨٩) ، وفي (ب ، ج) : (السلطان) بدل (الشيطان) .
(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٣٩٩) موقوفاً علىٰ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٩٤) ، وذكر أنه رضي الله عنه دعا يوماً بطينة مختومة ، قال عامله : فظننت أن فيها جوهراً أو تبراً ، ففض ختامها ، فإذا فيها سويق شعير ، فنثره بين =

واجتمعَ الفضيلُ بنُ عياضٍ وابنُ عيينةَ وابنُ المباركِ عندَ وهيبِ بنِ الوردِ بمكَّةَ ، فذكروا الرطبَ ، فقالَ وهيبٌ : هوَ مِنْ أحبِّ الطعامِ إليَّ ، إلا أنِّي لا آكلُهُ لاختلاطِ رطبِ مكَّةَ ببساتينِ زبيدةَ وغيرِها[(١)] ، فقالَ لهُ ابنُ المباركِ : إنْ نظرتَ في مثلِ هـٰذا . . ضاقَ عليكَ الخبزُ ، قالَ : وما سببُهُ ؟ قالَ : إنَّ أصولَ الضياعِ قدِ اختلطتِ بالصوافي[(٢)] ، فغُشيَ علىٰ وهيبٍ ، فقالَ سفيانُ : قتلتَ الرجلَ ، فقالَ ابنُ المباركِ : ما أردتُ إلا أنْ أهوِّنَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : للهِ عليَّ ألاَّ آكلَ خبزاً أبداً حتَّىٰ ألقاهُ[(٣)] .

فكانَ يشربُ اللبنَ ، فأتتْهُ أمُّهُ بلبنٍ ، فسألَها ، فقالَتْ : هوَ مِنْ شاةِ بني فلانٍ ، فسألَ عنْ ثمنِها وأنَّهُ مِنْ أينَ لهُمْ ؟ فذكرَتْ ، فلمَّا أدناهُ مِنْ فيهِ . . قالَ : بقيَ أنَّها مِنْ أينَ كانتْ ترعىٰ ، فسكتَتْ ، فلمْ يشربْ ؛ لأنَّها كانتْ ترعىٰ مِنْ موضعٍ للمسلمينَ فيهِ حقٌّ[(٤)] ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : اشربْ ؛ فإنَّ اللهَ

= يدي وقال : كل من طعامنا ، فقلت : أتختم عليه يا أمير المؤمنين ؟! قال : نعم ، هـٰذا شيء اصطفيته لنفسي وأخاف أن يختلط فيه ما ليس منه .

(١) وكانت زبيدة ـ زوج الرشيد ـ قد اشترت عدة بساتين بمكة وأوقفتها في سبيل الله تعالىٰ . « إتحاف » (٦/ ١٣) .

(٢) **الصوافي** : الضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته ، وأيضاً التي لا وارث لها .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٤٣) وقال : (فزعموا أنه نحل جسمه حتىٰ مات هزلاً) .

(٤) فقد كانت ترعىٰ مع غنم لابن عبد الصمد الهاشمي أمير مكة في الحي . انظر «الإتحاف» (٦/ ١٣) .

تعالىٰ يغفرُ لكَ ، فقالَ : ما أحبُّ أنْ يغفرَ لي وقدْ شربتُهُ ، فأنالَ مغفرتَهُ بمعصيتِهِ[1] .

وكانَ بشرٌ الحافي رحمهُ اللهُ مِنَ الورعينَ ، فقيلَ لهُ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقالَ : مِنْ حيثُ تأكلونَ ، ولكنْ ليسَ مَنْ يأكلُ وهوَ يبكي كمَنْ يأكلُ وهوَ يضحكُ ، وقالَ : يدٌ أقصرُ مِنْ يدٍ ، ولقمةٌ أصغرُ مِنْ لقمةٍ[2] .

وهكذا كانوا يحترزونَ عنِ الشبهاتِ .

* * *

---

(1) قوت القلوب (٢/ ٢٩٥) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥١) .
(2) قوت القلوب (٢/ ٢٩٥) .

أصناف الحلال والحرام ومداخله

اعلمْ : أنَّ تفصيلَ الحلالِ والحرامِ إنَّما يتولىٰ بيانَهُ كتبُ الفقهِ ، ويستغني المريدُ عنْ تطويلِهِ بأنْ يكونَ لهُ طُعْمةٌ معيَّنةٌ يعرفُ بالفتوىٰ حلَّها ، ولا يأكلُ غيرَها ، فأمَّا مَنْ يتوسَّعُ في الأكلِ مِنْ وجوهٍ متفرِّقةٍ . . فيفتقرُ إلىٰ علمِ الحلالِ والحرامِ كلِّهِ كما فصَّلْناهُ في كتبِ الفقهِ .

ونحنُ الآنَ نشيرُ إلىٰ مجامعِهِ في سياقِ تقسيمٍ ، **وهوَ أنَّ المالَ إنَّما يحرمُ إمَّا لمعنىً في عينِهِ ، أوْ لخللٍ في جهةِ اكتسابِهِ .**

القسمُ الأوَّلُ : الحرامُ لصفةٍ في عينِهِ :

كالخمرِ والخنزيرِ وغيرِهما .

وتفصيلُهُ : أنَّ الأعيانَ المأكولةَ علىٰ وجهِ الأرضِ لا تعدو ثلاثةَ أقسامٍ : فإنَّها إمَّا أنْ تكونَ مِنَ المعادنِ كالملحِ والطينِ وغيرِهما ، أوْ مِنَ النباتِ ، أوْ مِنَ الحيوانِ .

فأمَّا المعادنُ ـ وهيَ أجزاءُ الأرضِ وجميعُ ما يخرجُ منها ـ : فلا يحرمُ أكلُهُ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يضرُّ بالآكلِ ، وفي بعضِها ما يجري مَجرى السُّمِّ ، والخبزُ لوْ كانَ مضرّاً . . لحَرُمَ أكلُهُ ، والطينُ الذي يُعتادُ أكلُهُ لا يحرمُ إلا مِنْ حيثُ الضررُ ، وفائدةُ قولِنا : (إنَّها لا تحرمُ) معَ أنَّها لا تؤكلُ : أنَّهُ لوْ وقعَ

شيءٌ منها في مرقةٍ أوْ طعامٍ مائعٍ . . لمْ يصرْ بهِ محرَّماً .

وأمَّا النباتُ : فلا يحرمُ منهُ إلا ما يزيلُ العقلَ ، أوْ يزيلُ الحياةَ ، أوِ الصحَّةَ ، فمزيلُ العقلِ : البَنْجُ والخمرُ وسائرُ المسكراتِ ، ومزيلُ الحياةِ : السمومُ ، ومزيل الصحَّةِ : الأدويةُ في غيرِ وقتِها .

وكأنَّ مجموعَ هٰذا يرجعُ إلى الضررِ إلا الخمرَ والمسكراتِ ، فإنَّ الذي لا يسكرُ منها أيضاً حرامٌ معَ قلَّتِهِ ؛ لعينِهِ وصفتِهِ ، وهيَ الشدَّةُ المطربةُ .

وأمَّا السَّمُّ إذا خرجَ عنْ كونِهِ مضرّاً لقلَّتِهِ أوْ لعجنِهِ بغيرِهِ . . فلا يحرمُ .

وأمَّا الحيواناتُ: فتنقسمُ إلىٰ ما يُؤكلُ وإلىٰ ما لا يُؤكلُ ، وتفصيلُهُ في كتابِ الأطعمةِ، والنظرُ يطولُ في تفصيلِها، لا سيما في الطيورِ الغريبةِ وحيواناتِ البرِّ والبحرِ ، وما يحلُّ أكلُهُ منها فإنَّما يحلُّ إذا ذُبحَ ذبحاً شرعياً ، رُوعيَ فيهِ شروطُ الذابحِ والآلةِ والمذبحِ، وذلكَ مذكورٌ في كتابِ الصيدِ والذبائحِ.

وما لمْ يُذبحْ ذبحاً شرعياً ، أوْ ماتَ . . فهوَ حرامٌ ، ولا يحلُّ إلا ميتتانِ ؛ السمكُ والجرادُ ، وفي معناهما ما يستحيلُ مِنَ الأطعمةِ ؛ كدودِ التفاحِ والخلِّ والجبنِ ؛ فإنَّ الاحترازَ منهما غيرُ ممكنٍ ، فأمَّا إذا أُفردتْ وأُكلتْ . . فحكمُها حكمُ الذبابِ والخنفساءِ والعقربِ وكلِّ ما ليسَ لهُ نفسٌ سائلةٌ ، ولا سببَ في تحريمِها إلا الاستقذارُ ، ولوْ لمْ يكنْ . . لكانَ لا يُكرهُ ، وإنْ وُجدَ شخصٌ لا يستقذرُهُ . . لمْ يُلتفَتْ إلىٰ خصوصِ طبعِهِ ؛ فإنَّهُ التحقَ بالخبائثِ لعمومِ

الاستقذارِ ، فيُكرَهُ أكلُهُ ؛ كما لوْ جمعَ المخاطَ وشربَهُ . . كُرِهَ ذلكَ .

وليستِ الكراهةُ لنجاستِها ؛ فإنَّ الصحيحَ أنَّها لا تنجسُ بالموتِ ، إذْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ يمقلَ الذبابُ في الطعامِ إذا وقعَ فيهِ[1] ، وربَّما يكونُ حارّاً ، ويكونُ ذلكَ سببَ موتِهِ .

ولوْ تهرَّتْ نملةٌ أوْ ذبابةٌ في قدْرٍ . . لمْ يجبْ إراقتُها ؛ إذِ المستقذرُ جرمُهُ إذا بقيَ لهُ جرمٌ ، ولمْ ينجسْ حتَّىٰ يحرمَ بالنجاسةِ ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ تحريمَهُ للاستقذارِ ، ولذلكَ نقولُ : لوْ وقعَ جزءٌ مِنْ آدميٍّ ميِّتٍ في قدْرٍ ولوْ قدْرَ دانقٍ . . حرمَ الكلُّ ، لا لنجاستِهِ ؛ فإنَّ الصحيحَ أنَّ الآدميَ لا ينجسُ بالموتِ ، ولكنْ لأنَّ أكلَهُ محرَّمٌ احتراماً لا استقذاراً .

وأمَّا الحيواناتُ المأكولةُ إذا ذُبحَتْ بشرطِ الشرعِ . . فلا تحلُّ جميعُ أجزائِها ، بلْ يحرمُ منها الدمُ والفرْثُ وكلُّ ما يُقضىٰ بنجاستِهِ منها ، بلْ تناولُ النجاسةِ مطلقاً محرَّمٌ ، وليسَ في الأعيانِ شيءٌ محرَّمٌ نجسٌ إلا مِنَ الحيواناتِ ، وأمَّا مِنَ النباتِ . . فالمسكراتُ فقطْ دونَ ما يزيلُ العقلَ ولا يسكِرُ ؛ كالبَنْجِ ، فإنَّ نجاسةَ المسكرِ تغليظٌ للزجرِ عنهُ ؛ لكونِهِ في مَظِنَّةِ التشوُّفِ .

ومهما وقعَتْ قطرةٌ مِنَ النجاسةِ أوْ جزءٌ مِنْ نجاسةٍ جامدةٍ في مرقةٍ أوْ

---

(١) كما روى البخاري (٣٣٢٠) مرفوعاً : « إذا وقع الذباب في شراب أحدكم . . فليغمسه ، ثم لينزعه ؛ فإن في إحدىٰ جناحيه داءً والأخرىٰ شفاء » ، وهو بلفظ : (فليمقله) عند النسائي (٧/ ١٧٨) ، **والمقل** : الغمس .

طعامٍ أوْ دهنٍ . . حَرُمَ أكلُ جميعِهِ ، ولا يحرمُ الانتفاعُ بهِ لغيرِ الأكلِ ، فيجوزُ الاستصباحُ بالدهْنِ النجسِ ، وكذا طلاءُ السفنِ والحيواناتِ وغيرِها .

فهٰذهِ مجامعُ ما يحرمُ لصفةٍ في ذاتِهِ .

* * *

القسمُ الثاني : ما يحرمُ لخللٍ في جهةِ إثباتِ اليدِ عليهِ ، وفيهِ يتسعُ النظرُ ، فنقولُ :

أخذُ المالِ : إمَّا أنْ يكونَ باختيارِ المتملِّكِ ، أوْ بغيرِ اختيارِهِ ، فالذي يكونُ بغيرِ اختيارِهِ ؛ كالإرثِ ، والذي يكونُ باختيارِهِ : إمَّا ألا يكونَ مِنْ مالكٍ ؛ كنيلِ المعادنِ ، أوْ يكونَ مِنْ مالكٍ ، والذي يُؤخذُ مِنْ مالكٍ : فإمَّا أنْ يُؤخذَ قهراً ، أوْ يُؤخذَ تراضياً ، والمأخوذُ قهراً : إمَّا أنْ يكونَ لسقوطِ عصمةِ المالكِ ؛ كالغنائمِ ، أوْ لاستحقاقِ الأخذِ ؛ كزكاةِ الممتنعينَ والنفقاتِ الواجبةِ عليهِمْ ، والمأخوذُ تراضياً : إمَّا أنْ يُؤخذَ بعوضٍ ؛ كالمبيعِ والصداقِ والأجرةِ ، وإمَّا أنْ يُؤخذَ بغيرِ عوضٍ ؛ كالهبةِ والوصيةِ ، **فيحصلُ مِنْ هٰذا السياقِ ستةُ أقسامٍ** :

الأوَّلُ : ما لا يُؤخذ من مالكٍ : كنيلِ المعادنِ ، وإحياءِ المَواتِ ، والاصطيادِ ، والاحتطابِ ، والاستقاءِ مِنَ الأنهارِ ، والاحتشاشِ ، **فهٰذا حلالٌ** ؛ بشرطِ ألا يكونَ المأخوذُ مختصّاً بذي حرمةٍ مِنَ الآدميينَ ، فإذا

انفكَّتْ عنِ الاختصاصاتِ . . ملكَها آخذُها ، **وتفصيلُ ذلكَ في كتابِ إحياءِ المواتِ** .

* * *

الثاني : **المأخوذُ قهراً ممَّنْ لا حرمةَ لَهُ** : وهوَ الفيءُ والغنيمةُ ، وسائرُ أموالِ الكفارِ المحاربينَ ، **وذلكَ حلالٌ للمسلمينَ** ؛ إذا أخرجوا منها الخمسَ ، وقسمُوها بينَ المستحقينَ بالعدلِ ، ولمْ يأخذوها مِنْ كافرٍ لَهُ حرمةٌ وأمانٌ أوْ عهدٌ ، **وتفصيلُ هاذهِ الشروطِ في كتابِ السِّيَرِ** ، **وكتابِ الفيءِ والغنيمةِ** ، **وكتابِ الجزيةِ** .

* * *

الثالثُ : **ما يُؤخذُ قهراً باستحقاقٍ عندَ امتناعِ مَنْ وجبَ عليهِ** : فيُؤخذُ دونَ رضاهُ ، **وذلكَ حلالٌ** ؛ إذا تمَّ سببُ الاستحقاقِ ، وتمَّ وصْفُ المستحقِّ الذي بهِ استحقاقُهُ ، واقتصرَ على القدْرِ المستحَقِّ ، واستوفاهُ مَنْ يملكُ الاستيفاءَ ؛ مِنْ قاضٍ أوْ سلطانٍ أوْ مستحِقٍّ ، **وتفصيلُ ذلكَ في كتابِ تفريقِ الصدقاتِ** ، **وكتابِ الوقْفِ** ، **وكتابِ النفقاتِ** ؛ إذْ فيها النظرُ في صفةِ المستحقِّينَ للزكاةِ والوقْفِ والنفقةِ وغيرِها مِنَ الحقوقِ ، فإذا استُوفيَتْ شرائطُها . . كانَ المأخوذُ حلالاً .

* * *

الرابعُ : **ما يُؤخذُ تراضياً بمعاوضةٍ** : **وذلكَ حلالٌ** ؛ إذا رُوعيَ شرطُ

العوضينِ ، وشرطُ العاقدينِ ، وشرطُ اللفظينِ ؛ أعني : الإيجابَ والقبولَ ، معَ ما تعبَّدَ الشرعُ بهِ مِنِ اجتنابِ الشروطِ المفسدةِ ، **وبيانُ ذلكَ في كتابِ البيعِ ، والسلمِ ، والإجارةِ ، والحوالةِ ، والضمانِ ، والقراضِ ، والشركةِ ، والمساقاةِ ، والشفعةِ ، والصلحِ ، والخلْعِ ، والكتابةِ ، والصداقِ ، وسائرِ المعاوضاتِ .**

* * *

الخامسُ : ما يُؤخذُ عنْ رضاً مِنْ غيرِ عوضٍ : **وهوَ حلالٌ** إذا رُوعِيَ فيهِ شرطُ المعقودِ عليهِ ، وشرطُ العاقدينِ ، وشرطُ العقْدِ ، ولمْ يؤدِّ إلىٰ ضررٍ بوارثٍ أوْ غيرِهِ ، **وذلكَ مذكورٌ في كتابِ الهباتِ ، والوصايا ، والصدقاتِ .**

* * *

السادسُ : ما يحصلُ بغيرِ اختيارٍ ؛ كالميراثِ : وهوَ حلالٌ إذا كانَ المورِّثُ قدِ اكتسبَ المالَ مِنْ بعضِ الجهاتِ الخمسِ علىٰ وجْهٍ حلالٍ ، ثمَّ كانَ ذلكَ بعدَ قضاءِ الدينِ ، وتنفيذِ الوصايا ، وتعديلِ القسمةِ بينَ الورثةِ ، وإخراجِ الزكاةِ والحجِّ والكفارةِ إنْ كانَتْ واجبةً ، **وذلكَ مذكورٌ في كتابِ الوصايا والفرائضِ .**

فهٰذهِ مجامعُ مداخلِ الحلالِ والحرامِ ، أومأْنا إلى جملتِها ؛ ليعلمَ المريدُ أنَّهُ إنْ كانَتْ طُعْمتُهُ متفرقةً لا مِنْ جهةٍ معيَّنةٍ . . فلا يستغني عنْ علمِ

هـٰذهِ الأمورِ ، فكلُّ ما يأكلُهُ مِنْ جهةٍ مِنْ هـٰذهِ الجهاتِ ينبغي **أنْ يستفتيَ فيهِ أهلَ العلمِ ، ولا يقدمَ عليهِ بالجهلِ** ؛ فإنَّهُ كما يُقالُ للعالمِ : لِمَ خالفتَ علمَكَ يُقالُ أيضاً للجاهلِ : لِمَ لازمتَ جهلَكَ ولمْ تتعلَّمْ بعدَ أنْ قيلَ لكَ : « طلبُ **العلمِ** فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ » ؟![1] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

درجات الحلال والحرام

اعلمْ : أنَّ الحرامَ كلَّهُ خبيثٌ ، ولكنَّ بعضَهُ أخبثُ مِنْ بعضٍ ، والحلالَ كلَّهُ طيِّبٌ ، ولكنَّ بعضَهُ أطيبُ مِنْ بعضٍ وأصفىٰ ، وكما أنَّ الطبيبَ يحكمُ علىٰ كلِّ حلوٍ بالحرارةِ ولكنْ يقولُ : بعضُها حارٌّ في الدرجةِ الأولىٰ ؛ كالسُّكَّرِ(١) ، وبعضُها حارٌّ في الثانيةِ ؛ كالفانيذِ(٢) ، وبعضُها حارٌّ في الثالثةِ ؛ كالدِّبْسِ(٣) ، وبعضُها حارٌّ في الرابعةِ ؛ كالعسلِ . . فكذلكَ الحرامُ ؛ بعضُهُ خبيثٌ في الدرجةِ الأولىٰ ، وبعضُهُ في الثانيةِ أوِ الثالثةِ أوِ الرابعةِ ، وكذا الحلالُ تتفاوتُ درجاتُ صفائِهِ وطيبِهِ .

فلنقتدِ بأهلِ الطبِّ في الاصطلاحِ علىٰ أربعِ درجاتٍ تقريباً وإنْ كانَ التحقيقُ لا يوجبُ هـٰذا الحصرَ ؛ إذْ يتطرَّقُ إلىٰ كلِّ درجةٍ مِنَ الدرجاتِ أيضاً تفاوتٌ لا ينحصرُ ؛ فكمْ من سُكَّرٍ أشدُّ حرارةً مِنْ سكَّرٍ ، وكذا غيرُهُ .

فلذلكَ نقولُ : **الورعُ عنِ الحرامِ علىٰ أربعِ درجاتٍ** :

ورعُ العدولِ : وهوَ الذي يجبُ الفسقُ باقتحامِهِ ، وتسقطُ العدالةُ بِهِ ، ويثبتُ اسمُ العصيانِ والتعرُّضُ للنارِ بسببِهِ ، وهوَ الورعُ عنْ كلِّ ما تحرِّمُهُ فتاوى الفقهاءِ .

---

(١) **والمقصود به** : السكَّرُ الطَّبَرْزَد ؛ المعتصر من قصب السُّكَّر .
(٢) **الفانيذ** : ضرب من الحلواء ، وهي لفظة فارسية يطلق على السكَّر المصفَّىٰ .
(٣) وهو عصارة الرطب .

الثانيةُ : ورعُ الصالحينَ : وهوَ الامتناعُ عمَّا يتطرَّقُ إليهِ احتمالُ التحريمِ ، ولكنَّ المفتيَ يرخِّصُ في التناولِ بناءً على الظاهرِ ، فهوَ مِنْ مواقعِ الشبهاتِ على الجملةِ ، فلنسمِّ التحرُّجَ عنْ ذلكَ ورعَ الصالحينَ ، وهوَ في الدرجةِ الثانيةِ .

الثالثةُ : ما لا تحرِّمُهُ الفتوىٰ ولا شبهةَ في حلِّهِ ، ولكنْ يُخافُ منهُ أداؤُهُ إلىٰ محرَّمٍ : وهوَ تركُ ما لا بأسَ بهِ مخافةً ممَّا بهِ بأسٌ ، وهٰذا ورعُ المتقينَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يبلغُ العبدُ درجةَ المتقينَ حتَّىٰ يدعَ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ما بهِ بأسٌ »(١) .

الرابعةُ : ما لا بأسَ بهِ أصلاً ولا يُخافُ منهُ أنْ يؤديَ إلىٰ ما بهِ بأسٌ ، ولكنَّهُ يُتناولُ لغيرِ اللهِ : لا علىٰ نيَّةِ التقوِّي بهِ علىٰ عبادةِ اللهِ ، أوْ تتطرَّقَ إلىٰ أسبابِهِ المسهلةِ لهُ كراهيةٌ أوْ معصيةٌ ، والامتناعُ منهُ **ورعُ الصدِّيقينَ** .

فهٰذهِ درجاتُ الحلالِ جملةً إلىٰ أنْ نفصِّلَها بالأمثلةِ والشواهدِ .

* * *

وأمَّا الحرامُ الذي ذكرناهُ في الدرجةِ الأولىٰ وهوَ الذي يُشترطُ التورُّعُ عنهُ في العدالةِ واطِّراحِ سمةِ الفسقِ . . فهوَ أيضاً علىٰ درجاتٍ في الخبثِ ، فالمأخوذُ بعقدٍ فاسدٍ ـ كالمعاطاةِ مثلاً فيما لا يجوزُ فيهِ المعاطاةُ ـ حرامٌ ، ولكنْ ليسَ في درجةِ المغصوبِ علىٰ سبيلِ القهرِ ، بلِ المغصوبُ أغلظُ ؛ إذْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) .

فيهِ تركُ طريقِ الشرعِ في الاكتسابِ وإيذاءُ الغيرِ ، وليسَ في المعاطاةِ إيذاءٌ ، وإنَّما فيها تركُ طريقِ التعبُّدِ فقطْ ، ثمَّ تركُ طريقِ التعبُّدِ بالمعاطاةِ أهونُ مِنْ تركِهِ بالربا .

وهـٰذا التفاوتُ يُدركُ بتشديدِ الشرعِ ووعيدِهِ وتأكيدِهِ في بعضِ المناهي ، علىٰ ما سيأتي في كتابِ التوبةِ ، عندَ ذكرِ الفرقِ بينَ الصغيرةِ والكبيرةِ ، بلِ المأخوذُ ظلماً مِنْ فقيرٍ أوْ صالحٍ أوْ يتيمٍ أخبثُ وأغلظُ مِنَ المأخوذِ مِنْ قويٍّ أوْ غنيٍّ أوْ فاسقٍ ؛ لأنَّ درجاتِ الإيذاءِ تختلفُ باختلافِ درجاتِ المُؤْذَىٰ .

فهـٰذهِ دقائقُ في تفاصيلِ الخبائثِ لا ينبغي أنْ يُذهلَ عنها ، فلولا اختلافُ درجاتِ العصاةِ . . لما اختلفَتْ دركاتُ النارِ .

وإذا عرفتَ مثاراتِ التغليظِ . . فلا حاجةَ إلىٰ حصرِها في ثلاثِ درجاتٍ أوْ أربعٍ ؛ فإنَّ ذلكَ جارٍ مَجرى التحكُّمِ والتشهِّي ، وهوَ طلبُ حصرٍ فيما لا حاصرَ لهُ ، ويدلُّكَ على اختلافِ درجاتِ الحرامِ في الخبثِ ما سيأتي في تعارضِ المحذوراتِ وترجيحِ بعضِهَا علىٰ بعضٍ ، حتَّىٰ إذا اضطرَّ إلىٰ أكلِ ميتةٍ ، أوْ أكلِ طعامِ الغيرِ ، أوْ أكلِ صيدِ الحَرَمِ . . فإنَّا نقدِّمُ بعضَ هـٰذهِ علىٰ بعضٍ .

❋ ❋ ❋

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها

أمَّا الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ ورعُ العدولِ ـ : فكلُّ ما اقتضى الفتوىٰ تحريمَهُ ، ممَّا يدخلُ في المداخلِ الستةِ التي ذكرناها مِنْ مداخلِ الحرامِ ، لفقدِ شرطٍ مِنَ الشروطِ . . فهوَ الحرامُ المطلقُ الذي يُنسبُ مقتحمُهُ إلى الفسقِ والمعصيةِ ، وهوَ الذي نريدُهُ بالحرامِ المطلقِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ أمثلةٍ وشواهدَ .

* * *

وأمَّا الدرجةُ الثانيةُ : فأمثلتُها كلُّ شبهةٍ لا نوجبُ اجتنابَها ، ولكنْ يُستحبُّ اجتنابُها كما سيأتي في بابِ الشبهاتِ ؛ إذْ مِنَ الشبهاتِ ما يجبُ اجتنابُها فتلتحقُ بالحرامِ .

ومنها **ما** يُكرهُ اجتنابُها والورعُ عنها ورعُ الموسوسِينَ ؛ كمَنْ يمتنعُ عنِ الاصطيادِ خوفاً مِنْ أنْ يكونَ الصيدُ قدْ أفلتَ مِنْ إنسانٍ أخذَهُ وملكَهُ ، وهـٰذا وسواسٌ .

ومنها ما يُستحبُّ اجتنابُها ولا يجبُ ، وهوَ الذي يُنزلُ عليهِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ »[1] ، ونحملُهُ علىٰ نهيِ التنزيهِ ، وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلْ ما أصميتَ ، ودعْ

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي (٨/ ٣٢٧) .

ما أنميتَ »[1] ، والإنماءُ : أنْ يجرحَ الصيدَ فيغيبَ عنهُ ، ثمَّ يدركَهُ ميتاً ؛ إذْ يُحتملُ أنَّهُ ماتَ بسقطةٍ أوْ بسببٍ آخرَ .

والذي نختارُهُ ـ كما سيأتي ـ أنَّ هـٰذا ليسَ بحرامٍ ، ولكنْ تركُهُ مِنْ ورعِ الصالحينَ ، وقولُهُ : « دعْ » أمرُ تنزيهٍ ؛ إذْ وردَ في بعضِ الرواياتِ : « كُلْ منهُ وإنْ غابَ عنكَ ما لمْ تجدْ فيهِ أثراً غيرَ سهمِكَ »[2] ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعديِّ بنِ حاتمٍ في الكلبِ المعلَّمِ : « وإنْ أكلَ . . فلا تأكلْ ؛ فإنِّي أخافُ أنْ يكونَ إنَّما أمسكَ علىٰ نفسِهِ »[3] علىٰ سبيلِ التنزيهِ لأجلِ الخوفِ ؛ إذْ قالَ لأبي ثعلبةَ الخشنيِّ : « كُلْ منهُ » فقالَ : وإنْ أكلَ ؟ فقالَ : « وإنْ أكلَ »[4] ، وذلكَ لأنَّ حالَ أبي ثعلبةَ وهوَ فقيرٌ مكتسبٌ لا تحتملُ هـٰذا الورعَ ، وحالَ عديٍّ كانتْ تحتملُهُ .

يُحكىٰ عنِ ابنِ سيرينَ أنَّهُ تركَ لشريكٍ لهُ أربعةَ آلافِ درهمٍ لأنَّهُ حاكَ في قلبِهِ شيءٌ ، معَ اتفاقِ العلماءِ علىٰ أنَّهُ لا بأسَ بهِ[5] .

فأمثلةُ هـٰذهِ الدرجةِ نذكرُها عندَ التعرُّضِ لدرجاتِ الشبهةِ ، فكلُّ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٢) مرفوعاً ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٢٤١) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري (٥٤٨٥) ، ومسلم (١٩٢٩) .

(٣) رواه البخاري (١٧٥) ، ومسلم (١٩٢٩) واللفظ له .

(٤) رواه أبو داوود (٢٨٥٢) .

(٥) بنحوه روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٦٦) .

ما هو شبهةٌ لا يجبُ اجتنابُهُ . . فهوَ مثالُ هـٰذهِ الدرجةِ .

وأمَّا الدرجةُ الثالثةُ : وهيَ ورعُ المتقينَ ، فيشهدُ لها قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يبلغُ العبدُ درجةَ المتقينَ حتَّىٰ يدعَ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ما بهِ بأسٌ »(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كنَّا ندعُ تسعةَ أعشارِ الحلالِ مخافةَ أنْ نقعَ في الحرامِ)(٢) ، وقيلَ : إنَّ هـٰذا عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما .

وقالَ أبو الدرداءِ : (إنَّ مِنْ تمامِ التقوىٰ أنْ يتقيَ العبدُ في مثقالِ ذرَّةٍ ، حتَّىٰ يتركَ بعضَ ما يرىٰ أنَّهُ حلالٌ خشيةَ أنْ يكونَ حراماً ، فيكونَ حجاباً بينَهُ وبينَ النارِ)(٣) .

ولهـٰذا كانَ لبعضِهِمْ مئةُ درهمٍ علىٰ إنسانٍ ، فحملَها إليهِ ، فأخذَ تسعةً وتسعينَ وتورَّعَ عنِ استيفاءِ الكلِّ خيفةَ الزيادةِ(٤) .

وكانَ بعضُهُمْ يتَّجرُ وكلُّ ما يستوفيهِ يأخذُهُ بنقصانِ حبةٍ ، وما يعطيهِ يوفِّيهِ بزيادةِ حبَّةٍ ؛ ليكونَ ذلكَ حاجزاً مِنَ النارِ(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) .
(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٨/ ١٥٢) ، وفيه : (مخافة الربا) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩) من زيادات نعيم بن حماد .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٩٦) بنحوه .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٦٨) .

ومِنْ هٰذهِ الدرجةِ الاحترازُ عمَّا يتسامحُ الناسُ بهِ : فإنَّ ذلكَ حلالٌ في الفتوىٰ ، ولكنْ يُخافُ مِنْ فتحِ بابهِ أنْ ينجرَّ إلىٰ غيرِهِ ، وتألفَ النفسُ الاسترسالَ ، فتتركَ الورعَ .

فمِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ عنْ عليِّ بْنِ معبدٍ أنَّهُ قالَ : كنتُ ساكناً في بيتٍ بكراءٍ ، فكتبتُ كتاباً ، وأردتُ أنْ آخذَ مِنْ ترابِ الحائطِ لأترِّبَهُ وأجفِّفَهُ ، ثمَّ قلتُ : الحائطُ ليسَ لي ، فقالَتْ لي نفسي : وما قدْرُ ترابٍ مِنْ حائطٍ ؟ فأخذتُ مِنَ الترابِ حاجتي ، فلما نمتُ . . فإذا أنا بشخصٍ واقفٍ يقولُ : يا عليُّ ؛ ستعلمُ غداً الذي يقولُ : وما قدْرُ ترابٍ مِنْ حائطٍ[1] .

ولعلَّ معنىٰ ذلكَ أنَّهُ يرىٰ كيفَ تُحطُّ منزلتُهُ ؛ فإنَّ للتقوىٰ منزلةً تفوتُ بفواتِ ورعِ المتقينَ ، فليسَ المرادُ بهِ أنْ يستحقَّ عقوبةً علىٰ فعلِهِ .

ومِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وصلَهُ مسكٌ مِنَ البحرينِ ، فقالَ : وددتُ لوْ أنَّ امرأةً وزنَتْ حتَّىٰ أقسمَهُ بينَ المسلمينَ ، فقالتِ امرأتُهُ عاتكةُ : أنا أجيدُ الوزنَ ، فسكتَ عنها ، ثمَّ أعادَ القولَ فأعادتِ الجوابَ ، فقالَ : لا ، أحببتِ أنْ تضعيهِ بكفَّةٍ ، ثمَّ تقولينَ : فيها أثرُ الغبارِ ، فتمسحينَ بها عنقَكِ ، فأصيبُ بذلكَ فضلاً على المسلمينَ[2] .

وكانَ يُوزنُ بينَ يدي عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ مسكٌ للمسلمينَ ، فأخذَ بأنفِهِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) بنحوه .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٣) .

حتَّىٰ لا تصيبَهُ الرائحةُ وقالَ : وهلْ يُنتفعُ منهُ إلا بريحِهِ ؟ لمَّا استُبعدَ ذلكَ منهُ[1] .

وأخذَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما تمرةً مِنْ تمرِ الصدقةِ وكانَ صغيراً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كِخْ كِخْ ، ألقِها »[2] .

ومِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ عندَ محتضرٍ ، فماتَ ليلاً ، فقالَ : أطفئوا السراجَ ؛ فقدْ حدثَ للورثةِ حقٌّ في الدهنِ[3] .

وروىٰ سليمانُ التيميُّ عنْ نعيمٍ عنِ العطَّارةِ قالَتْ : كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يدفعُ إلى امرأتِهِ طيباً مِنْ طيبِ المسلمينَ فتبيعُهُ ، فباعتْني طيباً ، فجعلَتْ تقومُ وتزيدُ وتنقصُ وتكسرُ بأسنانِها ، فيعلقُ بإصبعِها شيءٌ منهُ ، فقالَتْ بهِ هٰكذا بإصبعِها ثمَّ مسحَتْ بهِ خمارَها ، فدخلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : ما هٰذهِ الرائحةُ ؟ فأخبرتْهُ ، فقالَ : طيبُ المسلمينَ تأخذينَهُ ؟! فانتزعَ الخمارَ مِنْ رأسِها وأخذَ جرَّةً مِنْ ماءٍ فجعلَ يصبُّ على الخمارِ ثمَّ يدلكُهُ في الترابِ ، ثمَّ يشمُّهُ ، ثمَّ يصبُّ الماءَ ، ثمَّ يدلكُهُ في الترابِ ويشمُّهُ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ لهُ ريحٌ ، قالتْ : ثمَّ أتيتُها مرَّةً أخرىٰ ، فلما وزنَتْ . . علقَ بإصبعِها منهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٢٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨/ ٦٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٩١) ، ومسلم (١٠٦٩) ، والطيالسي في « مسنده » (٢٤٨٢) ، وكلمة (كخ) : كلمة ردع للصغير عن تناول شيء ، وفيها ست لغات ، وفي الخبر : تجنيب الطفل عن الحرام لينشأ عليه ويتمرن . انظر « الإتحاف » (٦/ ٢٧) .

(٣) روىٰ خبراً بنحوه أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ٢٨١) .

شيءٌ ، فأدخلَتْ إصبعَها في فيها ثمَّ مسحَتْ بها الترابَ[1] .

فهـٰذا مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ورعُ التقوىٰ ؛ لخوفِ أداءِ ذلكَ إلىٰ غيرِهِ ، وإلا . . فغسلُ الخمارِ ما كانَ يعيدُ الطيبَ إلى المسلمينَ ، ولكنْ أتلفَهُ عليها زجراً وردْعاً واتقاءً مِنْ أنْ يتعدَّى الأمرُ إلى الآخرينَ .

ومِنْ ذلكَ : ما سُئِلَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمهُ اللهُ عنْ رجلٍ يكونُ في المسجدِ يحملُ مِجْمَرَةً لبعضِ السلاطينِ ويبخِّرُ المسجدَ بالعودِ ، فقالَ : ينبغي أنْ يخرجَ مِنَ المسجدِ ؛ فإنَّهُ لا يُنتفعُ مِنَ العودِ إلا برائحتِهِ[2] .

وهـٰذا قدْ يقاربُ الحرامَ ؛ فإنَّ القدْرَ الذي يعبقُ بثوبِهِ مِنْ رائحةِ الطيبِ قدْ يُقصدُ ، وقدْ يُبخلُ بهِ ، فلا يدري أنَّهُ يُتسامحُ بهِ أم لا .

وسئلَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ عمَّنْ سقطَتْ منهُ ورقةٌ فيها أحاديثُ ، فهلْ لمَنْ وجدَها أنْ يكتبَ منها ثمَّ يردَّها ؟ فقالَ : لا ، بلْ يستأذنُ ثمَّ يكتبُ[3] .

وهـٰذا أيضاً قدْ يُشكُّ في أنَّ صاحبَها هلْ يرضىٰ بهِ أمْ لا ، فما هوَ في محلِّ الشكِّ والأصلُ تحريمُهُ . . فهوَ حرامٌ ، وتركُهُ مِنَ الدرجةِ الأولىٰ .

ومِنْ ذلكَ التورُّعُ عنِ الزينةِ : لأنَّهُ يُخافُ منها أنْ تدعوَ إلىٰ غيرِها ، وإنْ كانتِ الزينةُ مباحةً في نفسِها .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨١) ، ورواه كذلك أحمد في « الورع » (ص٣٧) .
(٢) كذا في « الورع » (ص٣٧) له .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٨٥) .

وقدْ سئلَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ عنِ النعالِ السنديةِ[(١)] ، فقالَ : أمَّا أنا.. فلا أستعملُها ، ولكنْ إنْ كانَ للطينِ.. فأرجو ، وأمَّا مَنْ أرادَ الزينةَ.. فلا .

ومِنْ ذلكَ : أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا وليَ الخلافةَ.. كانتْ لهُ زوجةٌ يحبُّها ، فطلَّقَها ؛ خيفةَ أنْ تشيرَ عليهِ بشفاعةٍ في باطلٍ ، فيطيعَها ويطلبَ رضاها ، وهـٰذا مِنْ تركِ ما لا بأسَ بهِ مخافةً مِمَّا بهِ بأسٌ ؛ أي : مخافةً منْ أنْ يفضيَ إليهِ .

وأكثرُ المباحاتِ داعيةٌ إلى المحظوراتِ ، حتَّى استكثارُ الأكلِ ، واستعمالُ الطيبِ للمتعزبِ ؛ فإنَّهُ يحرِّكُ الشهوةَ ، ثمَّ الشهوةُ تدعو إلى الفكرِ ، والفكرُ يدعو إلى النظرِ ، والنظرُ يدعو إلىٰ غيرِهِ[(٢)] .

وكذلكَ النظرُ إلىٰ دورِ الأغنياءِ وتجمُّلِهِمْ مباحٌ في نفسِهِ ، ولكنْ يهيِّجُ الحرصَ ، ويدعو إلىٰ طلبِ مثلِهِ ، ويلزمُ منهُ ارتكابُ ما لا يحلُّ في تحصيلِهِ .

وهكذا المباحاتُ كلُّها إذا لمْ تُؤخذْ بقدْرِ الحاجةِ وفي وقتِ الحاجةِ ، معَ التحرُّزِ مِنْ غوائلِها ؛ بالمعرفةِ أوَّلاً ، ثمَّ بالحذرِ ثانياً.. فقلَّما تخلو عاقبتُها

---

(١) كذا في « الورع » (ص١٧٢) له ، وفي (ط) : (السبتية) .
(٢) من المفاسد ، وفي هـٰذا يقولون : من أدار ناظره.. أتعب خاطره . « إتحاف » (٦/ ٢٨) .

عنْ خطرٍ ، وكذا كلُّ ما أُخذَ بالشَّرَهِ فقلَّما يخلو عن خطرٍ .

حتَّىٰ كرهَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ تجصيصَ الحيطانِ وقالَ : (أمَّا تجصيصُ الأرضِ . . فيمنعُ الترابَ ، وأمَّا تجصيصُ الحيطانِ . . فزينةٌ لا فائدةَ فيهِ)(١) .

حتَّىٰ أنكرَ تجصيصَ المساجدِ وتزيينَها ، واستدلَّ بما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ أنْ يكحلَ المسجدَ ، فقالَ : « لا ، عريشٌ كعريشِ موسىٰ »(٢) ، وإنَّما هوَ شيءٌ مثلُ الكحلِ يُطلىٰ بهِ ، فلمْ يرخِّصْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ(٣) .

وكرهَ السلفُ الثوبَ الرقيقَ ، وقالوا : (مَنْ رقَّ ثوبُهُ . . رقَّ دينُهُ)(٤) .

وكلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ سريانِ اتباعِ الشهواتِ في المباحاتِ إلىٰ غيرِها ، فإنَّ المحظورَ والمباحَ تشتهيهِما النفسُ بشهوةٍ واحدةٍ ، فإذا عوِّدتِ الشهوةُ المسامحةَ . . استرسلَتْ ، فاقتضىٰ خوفُ التقوى الورعَ عنْ هٰذا كلِّهِ ، فكلُّ

---

(١) كذا في « الورع » (ص١٨٢) له .
(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه الدارقطني في « الأفراد » من حديث أبي الدرداء وقال : غريب) . « إتحاف » (٦/ ٢٨) ، وأما لفظ : « عريش كعريش موسىٰ » دون ذكر الكحل . . فقد رواه الدارمي في « سننه » (٣٨) أي : لو رفع يده . . بلغ السقف .
(٣) كذا في « الورع » (١٨٤) له .
(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٦) ، ورواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٢/ ٨٠) عن أبي الغدير المليكي .

حلالٍ انفكَّ عنْ مثلِ هـٰذهِ المخافةِ . . فهوَ الحلالُ الطيِّبُ في الدرجةِ الثالثةِ ، وهوَ كلُّ ما لا يُخافُ أداؤُهُ إلىٰ معصيةٍ ألبتةَ .

* * *

أمَّا الدرجةُ الرابعةُ : وهوَ ورعُ الصديقينَ ، فالحلالُ المطلقُ عندَهُمْ : كلُّ ما لا تتقدَّمُ في أسبابِهِ معصيةٌ ، ولا يُستعانُ بهِ علىٰ معصيةٍ ، ولا يُقصدُ منهُ في الحالِ والمآلِ قضاءُ وطرٍ ، بلْ يُتناولُ للهِ تعالىٰ فقطْ ، وللتقوِّي علىٰ عبادتِهِ ، واستبقاءِ الحياةِ لأجلِهِ .

وهؤلاءِ هُمُ الذينَ يروْنَ كلَّ ما ليسَ للهِ حراماً ؛ امتثالاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ ، وهـٰذهِ رتبةُ الموحدينَ المتجرِّدينَ عنْ حظوظِ أنفسِهِمْ ، المتفرِّدينَ للهِ تعالىٰ بالقصدِ ، ولا شكَّ في أنَّ مَنْ يتورَّعُ عمَّا يُوصلُ إليهِ بمعصيةٍ أوْ يُستعانُ بهِ علىٰ معصيةٍ . . فيتورَّعُ عمَّا يقترنُ بسببِ اكتسابِهِ معصيةٌ أوْ كراهيةٌ .

فمِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ عنْ يحيىٰ بنِ يحيىٰ أنَّهُ شربَ الدواءَ ، فقالتْ لهُ امرأتُهُ : لوْ مشيتَ في الدارِ قليلاً حتَّىٰ يعملَ الدواءُ ، فقالَ : هـٰذهِ مشيةٌ لا أعرفُها ، وأنا أحاسبُ نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً(1) .

فكأنَّهُ لمْ تحضرْهُ نيَّةٌ في هـٰذهِ المشيةِ تتعلَّقُ بالدينِ ، فلمْ يُجوِّزِ الإقدامَ عليها .

---

(1) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨١)، وهو في « الورع » (ص١٢٢) وفيهما : (أربعين سنة).

وعنْ سريٍّ رحمهُ اللهُ أنَّهُ قالَ : انتهيتُ إلىٰ حشيشٍ في جبلٍ وماءٌ يخرجُ منهُ ، فتناولتُ مِنَ الحشيشِ وشربتُ مِنَ الماءِ ، وقلتُ في نفسي : إنْ كنتُ قدْ أكلتُ يوماً حلالاً طيِّباً . . فهوَ هـٰذا اليومُ ، فهتفَ بي هاتفٌ : إنَّ القوَّةَ التي أوصلتْكَ إلىٰ هـٰذا الموضعِ مِنْ أينَ هيَ ؟ فرجعتُ وندمتُ[١] .

ومِنْ هـٰذا : ما رُوِيَ عنْ ذي النونِ المصريِّ أنَّهُ كانَ جائعاً محبوساً ، فبعثَتْ لهُ امرأةٌ صالحةٌ طعاماً علىٰ يدِ السجَّانِ ، فلمْ يأكلْ[٢] ، ثمَّ اعتذرَ وقالَ : جاءني علىٰ يدِ ظالمٍ[٣] .

يعني : أنَّ القوَّةَ التي أوصلتِ الطعامَ إليَّ لمْ تكنْ طيِّبةً ، وهـٰذهِ الغايةُ القصوىٰ في الورعِ .

ومِنْ ذلكَ : أنَّ بشراً كانَ لا يشربُ الماءَ مِنَ الأنهارِ التي حفرَها الأمراءُ[٤] ؛ فإنَّ النهرَ سببٌ لجريانِ الماءِ ووصولِهِ إليهِ ، وإنْ كانَ الماءُ مباحاً في نفسِهِ ، فيكونُ كالمنتفعِ بالنهرِ المحفورِ بأعمالِ الأُجَراءِ ، وقدْ أُعطيَتْ أجرتُهُمْ منَ الحرامِ .

ولذلكَ امتنعَ بعضُهُمْ مِنَ العنبِ الحلالِ مِنْ كرمٍ حلالٍ ، وقالَ لصاحبِهِ :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٩٥) .
(٢) حتىٰ لقيته العجوز ، فعاتبته علىٰ رد الطعام ، وأخبرته أنه من عمل يدها حلال خالص .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٩٦) .

أفسدتَهُ إذْ سقيتَهُ مِنْ ماءٍ يجري في النهرِ الذي حفرتْهُ الظلمةُ[1] ، وهـٰذا أبعدُ عنِ الظلمِ مِنْ شربِ نفسِ الماءِ ؛ لأنَّهُ احترازٌ مِنِ استمدادِ العنبِ مِنْ ذلكَ الماءِ .

وكانَ بعضُهُمْ إذا مرَّ في طريقِ الحجِّ . . لمْ يشربْ مِنَ المصانعِ التي عملتْها الظلمةُ معَ أنَّ الماءَ مباحٌ ، ولكنَّهُ بقيَ محفوظاً بالمصنعِ ، والمصنعُ عُمِلَ بهِ بمالٍ حرامٍ ، فكأنَّهُ انتفاعٌ بهِ[2] .

وامتناعُ ذي النونِ مِنْ تناولِ الطعامِ مِنْ يدِ السجَّانِ أعظمُ مِنْ هـٰذا كلِّهِ ؛ لأنَّ يدَ السجَّانِ لا تُوصفُ بأنَّها حرامٌ ، بخلافِ الطبقِ المغصوبِ إذا حُملَ عليهِ ، ولكنْ لمَّا وصلَ إليهِ بقوَّةٍ اكتُسبَتْ بالغذاءِ الحرامِ . . . امتنعَ منهُ .

ولذلكَ تقيَّأَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنَ اللبنِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُحدثَ الحرامُ فيهِ قوَّةً ، معَ أنَّهُ شربَهُ علىٰ جهلٍ[3] ، وكانَ لا يجبُ إخراجُهُ ، ولكنْ

---

(١) والخبر في « القوت » (٢/ ٢٩٦) ، قال : (وحدثت أن امرأة أهدت بشر بن الحارث سلة عنب ، فقالت : هـٰذه من صنيعة أبي ، فردَّها بشر عليها ، فقالت : سبحان الله ! تشك في كرم أبي وفي صحة ملكه وميراثي منه ، وشهادتي مكتوبة في كتاب الشراء ؟ فقال : صدقت ، ملك أبيك ، ولكنك أفسدت الكرم ، قالت : بماذا ؟ قال : سقيته من نهر طاهر ؛ يعني : طاهر بن الحسين بن مصعب بن عبد الله بن طاهر ، صاحب المأمون) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٩٦) عن طاووس ووهب بن منبه اليمانيين .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٨٧) ، ورواه البخاري (٣٨٤٢) .

تخليةُ الباطنِ عنِ الخبيثِ مِنْ ورعِ الصدِّيقينَ .

ومِنْ ذلكَ : التورُّعُ مِنْ كسبِ حلالٍ اكتسبَهُ خيَّاطٌ يخيطُ في المسجدِ ، فإنَّ أحمدَ رحمَهُ اللهُ كرهَ جلوسَ الخيَّاطِ في المسجدِ[1] ، وسُئِلَ عنِ المغازليِّ يجلسُ في قبَّةٍ في المقابرِ في وقتٍ يخافُ مِنَ المطرِ ، فقالَ : المقابرُ إنَّما هِيَ مِنْ أمرِ الآخرةِ ، وكرهَ جلوسَهُ فيها لذلكَ[2] .

وأطفأ بعضُهُمْ سراجاً أسرجَهُ غلامُهُ مِنْ قومٍ يُكرهُ مالُهُمْ[3] ، وامتنعَ مِنْ تسجيرِ تنُّورٍ للخبزِ وقدْ بقيَ فيهِ جمرٌ مِنْ حطبٍ مكروهٍ[4] ، وامتنعَ بعضُهُمْ مِنْ أنْ يحكِمَ شسعَ نعلِهِ في مشعلةِ سلطانٍ[5] .

فهٰذهِ دقائقُ الورعِ عندَ سالكي طريقِ الآخرةِ .

والتحقيقُ فيهِ : أنَّ الورعَ لهُ أوَّلٌ ؛ وهوَ الامتناعُ عمَّا حرَّمَتْهُ الفتوىٰ ، وهوَ ورعُ العدولِ ، ولهُ غايةٌ ؛ وهوَ ورعُ الصدِّيقينَ ، وذلكَ هوَ الامتناعُ مِنْ كلِّ ما ليسَ للهِ ، ممَّا أُخذَ بشهوةٍ ، أوْ توصِّلَ إليهِ بمكروهٍ ، أوِ اتصلَ بسببِهِ مكروهٌ ، وبينَهُما درجاتٌ في الاحتياطِ ، فكلَّما كانَ العبدُ أشدَّ تشديداً علىٰ نفسِهِ . كانَ أخفَّ ظهراً يومَ القيامةِ ، وأسرعَ جوازاً على الصراطِ ، وأبعدَ

(١) كذا في « الورع » (ص٥٩) له .
(٢) كذا في « الورع » (ص٦١) له .
(٣) وهو عثمان بن زائدة . انظر « الورع » (ص١٠٤) .
(٤) كذا في « الورع » (١٠٤) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٩١) بنحوه .

عنْ أنْ تترجَّحَ كفَّةُ سيئاتِهِ علىٰ كفَّةِ حسناتِهِ .

وتتفاوتُ المنازلُ في الآخرةِ بحسَبِ تفاوتِ هـٰذهِ الدرجاتِ في الورعِ ؛ كما تتفاوتُ دركاتُ النارِ في حقِّ الظلمةِ بحسَبِ تفاوتِ درجاتِ الحرامِ في الخبثِ .

وإذا علمتَ حقيقةَ الأمرِ . . فإليكَ الخيرةُ ؛ فإنْ شئتَ . . فاستكثرْ مِنَ الاحتياطِ ، وإنْ شئتَ فترخَّصْ ، فلنفسكَ تحتاطُ ، وعلىٰ نفسِكَ تترخَّصُ ، والسلامُ .

* * *

البَابُ الثَّاني
في مراتب الشّبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحلالُ بيِّنٌ ، والحرامُ بيِّنٌ ، وبينَهُما أمورٌ مشتبهاتٌ ، لا يعلمُها كثيرٌ مِنَ الناسِ ، فمَنِ اتقى الشبهاتِ . . فقدِ استبرأَ لعرضِهِ ودينِهِ ، ومَنْ وقعَ في الشبهاتِ . . واقعَ الحرامَ ؛ كالراعي حولَ الحمىٰ ، يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ »[1] .

فهٰذا الحديثُ نصٌّ في إثباتِ الأقسامِ الثلاثةِ ، والمشكلُ منها القسمُ المتوسِّطُ الذي لا يعرفُهُ كثيرٌ مِنَ الناسِ ، **وهوَ الشبهةُ** ، فلا بدَّ مِنْ بيانِها ، وكشفِ الغطاءِ عنها ؛ فإنَّ ما لا يعرفُهُ الكثيرُ قدْ يعرفُهُ القليلُ ، فنقولُ :

الحلالُ المطلقُ : هوَ الذي انحلَّ عنْ ذاتِهِ الصفاتُ الموجبةُ للتحريمِ في عينِهِ ، وانحلَّ عنْ أسبابِهِ ما تطرَّقَ إليهِ تحريمٌ أوْ كراهيةٌ .

ومثالُهُ : الماءُ الذي يأخذُهُ الإنسانُ مِنَ المطرِ قبلَ أنْ يقعَ علىٰ ملكِ أحدٍ ، ويكونُ واقفاً عندَ أخذِهِ وجمعِهِ مِنَ الهواءِ في ملكِ نفسِهِ أوْ في أرضٍ مباحةٍ .

والحرامُ المحضُ : هوَ ما فيهِ صفةٌ محرِّمةٌ لا يُشكُّ فيها ؛ كالشدَّةِ

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

المطربةِ في الخمرِ ، والنجاسةِ في البولِ ، أوْ حصلَ بسببٍ منهيٍّ عنهُ قطعاً ؛ كالمحصَّلِ بالظلمِ والربا ونظائرِهِ .

فهٰذانِ طرفانِ ظاهرانِ .

* * *

ويلتحقُ بالطرفينِ ما تُحقِّقَ أمرُهُ ولكنِ احتُملَ تغيُّرُهُ ، ولمْ يكنْ لذلكَ الاحتمالِ سببٌ يدلُّ عليهِ : فإنَّ صيدَ البرِّ والبحرِ حلالٌ ، ومَنْ أخذَ ظبيةً فيُحتملُ أنْ يكونَ قدْ ملكَها صيَّادٌ ثمَّ أفلتَتْ منهُ ، وكذلكَ السمكُ يحتملُ أنْ يكونَ قدْ تزلَّقَ مِنَ الصيَّادِ بعدَ وقوعِهِ في يدِهِ وخريطتِهِ[1] ، فمثلُ هٰذا الاحتمالِ لا يتطرَّقُ إلىٰ ماءِ المطرِ المختطفِ مِنَ الهواءِ ، ولكنَّهُ في معنىٰ ماءِ المطرِ ، والاحترازُ منهُ وسواسٌ ، **فلنسمِّ هٰذا الفنَّ ورعَ الموسْوِسينَ** ؛ حتَّىٰ تلتحقَ بهِ أمثالُهُ ، وذلكَ لأنَّ هٰذا وهمٌ مجرَّدٌ لا دلالةَ عليهِ .

نعمْ ، لوْ دلَّ عليهِ دليلٌ ، فإنْ كانَ قاطعاً ؛ كما لوْ وجدَ حلقةً في أُذنِ السمكِ ، أوْ كانَ محتملاً ؛ كما لو وجدَ على الظبيةِ جراحةً يُحتملُ أنْ يكونَ كيّاً لا يقدرُ عليهِ إلا بعدَ الضبطِ ، ويُحتملُ أنْ يكونَ جرحاً . . فهٰذا موضعُ الورعِ ، وإذا انتفتِ الدلالةُ مِنْ كلِّ وجهٍ . . فالاحتمالُ المعدومُ دلالتُهُ كالاحتمالِ المعدومِ في نفسِهِ ، ومِنْ هٰذا الجنسِ مَنْ يستعيرُ داراً ، فيغيبُ

---

(١) وهي الكيس الذي يجمع فيه ما صاده . « إتحاف » (٦/٣٣) ، وهي لفظة فارسية أيضاً ، معناها القربة أو الحقيبة .

عنهُ المعيرُ ، فيخرجُ ويقولُ : لعلَّهُ ماتَ وصارَ الحقُّ للوارثِ ، فهـٰذا وسواسٌ إذا لمْ يدلَّ علىٰ موتِهِ سببٌ قاطعٌ أوْ مشكِّكٌ ؛ إذِ الشبهةُ المحذورةُ ما تنشأُ مِنَ الشكِّ .

والشكُّ : عبارةٌ عنِ اعتقادينِ متقابلينِ نشأَا عنْ سببينِ ، فما لا سببَ لهُ لا يثبتُ عقدُهُ في النفسِ حتَّىٰ يساويَ العقدَ المقابلَ لهُ ، فيصيرَ شكّاً ، ولهـٰذا نقولُ : مَنْ شكَّ أنَّهُ صلَّىٰ ثلاثاً أوْ أربعاً . . أخذَ بالثلاثِ ؛ إذِ الأصلُ عدمُ الزيادةِ ، ولوْ سُئِلَ إنسانٌ أنَّ صلاةَ الظهرِ التي أدَّاها قبلَ هـٰذا بعشرِ سنينَ كانتْ أربعاً أوْ ثلاثاً . . لمْ يتحقَّقْ قطعاً أنَّها أربعٌ ، وإذا لمْ يقطعْ . . جُوِّزَ أنْ تكونَ ثلاثاً ، وهـٰذا التجويزُ لا يكونُ شَكّاً ؛ إذْ لمْ يحضرْهُ سببٌ أوجبَ اعتقادَ كونِها ثلاثاً .

فلتفهَمْ حقيقةَ الشكِّ ؛ حتَّىٰ لا يشتبهَ بالوهمِ والتجويزِ بغيرِ سببٍ ، **فهـٰذا يلتحق بالحلالِ المطلقِ** .

ويلتحقُ بالحرامِ المحضِ ما تُحقِّقَ تحريمُهُ وإنْ أمكنَ طريانُ محلِّلٍ ، ولكنْ لمْ يدلَّ عليهِ سببٌ ؛ كمَنْ في يدِهِ طعامٌ لمورِّثِهِ الذي لا وارثَ لهُ سواهُ ، فغابَ عنهُ ، فقالَ : يُحتملُ أنَّهُ ماتَ ، وقدِ انتقلَ الملكُ إليَّ فآكُلُهُ ، فإقدامُهُ عليهِ إقدامٌ علىٰ حرامٍ محضٍ ؛ لأنَّهُ احتمالٌ لا مستندَ لهُ ، فلا ينبغي أنْ يُعدَّ هـٰذا النمطُ مِنْ أقسامِ الشبهاتِ ، وإنَّما الشبهةُ نعني بها : ما اشتبهَ علينا أمرُهُ ؛ بأنْ تعارضَ لنا فيهِ اعتقادانِ صدرا عنْ سببينِ مقتضيينِ للاعتقادينِ .

ومثاراتُ الشبهةِ أربعةٌ :

المثار الأول : الشك في السبب المحلل والمحرم

وذلكَ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ متعادلاً ، أوْ غلبَ أحدُ الاحتمالينِ ؛ فإنْ تعادلَ الاحتمالانِ.. كانَ الحكمُ لما عُرِفَ قبلَهُ ، فيُستصحبُ ولا يُتركُ بالشكِّ ، وإنْ غلبَ أحدُ الاحتمالينِ عليهِ فصدرَ عنْ دلالةٍ معتبرةٍ.. كانَ الحكمُ للغالبِ .

ولا يُتبيَّنُ هٰذا إلا بالأمثالِ والشواهدِ ، **فلنقسِّمْهُ إلىٰ أقسامٍ أربعةٍ** :

القسمُ الأوَّلُ : أنْ يكونَ التحريمُ معلوماً مِنْ قبلُ ، ثمَّ يقعُ الشكُّ في المحلِّلِ ، فهٰذهِ شبهةٌ يجبُ اجتنابُها ، ويحرمُ الإقدامُ عليها .

مثالُهُ : أنْ يرميَ إلىٰ صيدٍ فيجرحَهُ ، ويقعَ في الماءِ ، فيصادفَهُ ميتاً ، ولا يدري أنَّهُ ماتَ بالغرقِ أوْ بالجرحِ ؛ **فهٰذا حرامٌ ؛ لأنَّ** الأصلَ التحريمُ ، إلا إذا ماتَ بطريقٍ معيَّنٍ ، وقدْ وقعَ الشكُّ في الطريقِ المعيَّنِ ، **فلا يُتركُ اليقينُ بالشكِّ** ؛ كما في الأحداثِ والنجاساتِ وركعاتِ الصلاةِ وغيرِها .

وعلىٰ هٰذا يُنزَّلُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعديِّ بنِ حاتمٍ : « لا تأكلْهُ ؛ فلعلَّهُ قتلَهُ غيرُ كلبِكَ »(١) .

ولذلكَ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أُتِيَ بشيءٍ اشتبهَ عليهِ أنَّهُ صدقةٌ أوْ

---

(١) رواه البخاري (١٧٥) ، ومسلم (٣/١٩٢٩) .

هديةٌ . . سألَ عنهُ حتَّىٰ يعلمَ أيُّهما هوَ[(١)] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرقَ ليلةً ، فقالَ لهُ بعضُ نسائِهِ : أرقتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أجلْ ، وجدتُ تمرةً ، فخشيتُ أنْ تكونَ مِنَ الصدقةِ » ، وفي روايةٍ : « فأكلتُها ، فخشيتُ أنْ تكونَ منَ الصدقةِ »[(٢)] .

ومِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : كنَّا في سفرٍ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأصابنا الجوعُ ، فنزلنا منزلاً كثيرَ الضِّبابِ ، فبينا القدورُ تغلي بها إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّةٌ مُسِخَتْ مِنْ بني إسرائيلَ ، فأخافُ أنْ تكونَ هٰذهِ » ، فأكفأنا القدورَ[(٣)] .

ثمَّ أعلمَهُ اللهُ بعدَ ذلكَ أنَّهُ لمْ يمسخِ اللهُ خلقاً فجعلَ لهُ نسلاً[(٤)] ، وكانَ امتناعُهُ أوَّلاً لأنَّ الأصلَ عدمُ الحلِّ ، وشكَّ في كونِ الذبحِ محلِّلاً .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني : أنْ يعرفَ الحلَّ ويشكَّ في المحرِّمِ ، فالأصلُ الحلُّ ، ولهُ الحكمُ ؛ كما إذا نكحَ رجلانِ امرأتينِ وطارَ طائرٌ ، فقالَ أحدُهما : إنْ كانَ

---

(١) رواه البخاري (٢٥٧٦) ، ومسلم (١٠٧٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/١٨٣ ، ١٩٣) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٩٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٢٦٦) وفيه : (فأكفأنا وإنا لجياع) ، وقريب منه عند أبي داوود (٣٧٩٥) وزاد مرفوعاً : « وإني لا أدري أيُّ الدواب هي ؟» .
(٤) فقد روىٰ مسلم (٢٦٦٣) مرفوعاً : « إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً » .

هـٰذا غراباً . . فامرأتي طالقٌ ، وقالَ الآخرُ : إنْ لمْ يكنْ . . فامرأتي طالقٌ ، والتبسَ أمرُ الطائرِ ، فلا يُقضىٰ بالتحريمِ في واحدةٍ منهما ، ولمْ يلزمْهُما اجتنابُهُما ، ولكنَّ الورعَ اجتنابُهُما وتطليقُهُما حتَّىٰ تحلاَّ لسائرِ الأزواجِ ، وقدْ أمرَ مكحولٌ بالاجتنابِ في هـٰذهِ المسألةِ(١) .

وأفتى الشعبيُّ بالاجتنابِ في رجلينِ كانا قدْ تنازعا ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : أنتَ حسودٌ ، فقالَ الآخرُ : أحسدُنا زوجتُهُ طالقٌ ثلاثاً ، فقالَ الآخرُ : نعمْ ، وأشكلَ الأمرُ(٢) .

وهـٰذا إنْ أرادَ بهِ اجتنابَ الورعِ . . فصحيحٌ ، وإنْ أرادَ التحريمَ المحقَّقَ . . فلا وجهَ لهُ ؛ إذْ ثبتَ في المياهِ والنجاساتِ والأحداثِ والصلواتِ أنَّ اليقينَ لا يجبُ تركُهُ بالشكِّ ، وهـٰذا في معناهُ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : وأيُّ مناسبةٍ بينَ هـٰذا وبينَ ذلكَ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لا يحتاجُ إلى المناسبةِ ؛ فإنَّهُ لازمٌ مِنْ غيرِ ذلكَ في بعضِ الصورِ ؛ فإنَّهُ مهما تيقَّنَ طهارةَ الماءِ ثمَّ شكَّ في نجاستِهِ . . جازَ لهُ أنْ يتوضأَ

---

(١) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٣٩٥ ، ١٩٣٩٦) الاجتنابَ عن قتادة والشعبي .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٣٩٣) وقال : (قد خبتما وخسرتما ، وبانت منكما امرأتاكما) .

بهِ ، فكيفَ لا يجوزُ لهُ أنْ يشربَهُ ؟ وإذا جُوِّزَ الشربُ . . فقدْ سُلِّمَ أنَّ اليقينَ لا يُزالُ بالشكِّ .

إلا أنَّ هـٰهنا دقيقةً ، وهوَ أنَّ وِزانَ الماءِ[1] : أنْ يشكَّ في أنَّهُ طلَّقَ زوجتَهُ أمْ لا ، فيُقالُ : الأصلُ أنَّهُ ما طلَّقَ[2] ، ووِزانَ مسألةِ الطائرِ : أنْ يتحقَّقَ نجاسةَ أحدِ الإناءينِ ويشتبهَ عينُهُ ، فلا يجوزُ أنْ يستعملَ أحدَهما بغيرِ اجتهادٍ ؛ لأنَّهُ قابلَ يقينَ النجاسةِ بيقينِ الطهارةِ ، فبطلَ الاستصحابُ ، فكذلكَ هـٰهنا قدْ وقعَ الطلاقُ علىٰ إحدى الزوجتينِ قطعاً ، والتبسَ عينُ المطلقةِ بغيرِ المطلقةِ .

فنقولُ : اختلفَ أصحابُ الشافعيِّ في الإناءينِ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ :

فقالَ قومٌ : يستصحبُ بغيرِ اجتهادٍ .

وقالَ قومٌ : بعدَ حصولِ يقينِ النجاسةِ في مقابلةِ يقينِ الطهارةِ يجبُ الاجتنابُ ، ولا يغني الاجتهادُ .

وقالَ المقتصدونَ : يجتهدُ ، وهوَ الصحيحُ .

ولكنْ وِزانُهُ : أنْ تكونَ لهُ زوجتانِ ، فيقولَ : (إنْ كانَ غراباً . . فزينبُ طالقٌ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فعمرةُ طالقٌ) ، فلا جرمَ لا يجوزُ لهُ غشيانُهُما بالاستصحابِ ، ولا يجوزُ الاجتهادُ ؛ إذْ لا علامةَ ، ونحرمُهُما عليهِ ؛ لأنَّهُ

---

(١) أي : مثيلة مسألة الماء .
(٢) فلا تأثير للشك هنا . « إتحاف » (٦/ ٣٥) .

لوْ وطئَهُما . . كانَ مقتحماً للحرامِ قطعاً ، وإنْ وطىءَ إحداهُما وقالَ : (أقتصرُ علىٰ هـٰذهِ) . . كانَ متحكِّماً بتعيينِها مِنْ غيرِ ترجيحٍ ، ففي هـٰذا افترقَ حكْمُ شخصٍ واحدٍ وشخصينِ ؛ لأنَّ التحريمَ علىٰ شخصٍ واحدٍ متحقِّقٌ ، بخلافِ الشخصينِ ؛ إذْ كلُّ واحدٍ شكَّ في التحريمِ في حقِّ نفسِهِ .

* * *

فإنْ قِيلَ : فلوْ كانَ الإناءانِ لشخصينِ . . فينبغي أنْ يُستغنىٰ عنِ الاجتهادِ ويتوضَّأَ كلُّ واحدٍ بإنائِهِ ؛ لأنَّهُ تيقَّنَ طهارتَهُ ، وقدْ شكَّ الآنَ فيهِ ؟

فنقولُ : هـٰذا محتملٌ في الفقهِ ، والأرجحُ في الظنِّ المنعُ ، وأنَّ تعدُّدَ الشخصِ هـٰهنا كاتحادِهِ ؛ لأنَّ صحةَ الوضوءِ لا تستدعي مُلْكاً ، بلْ وضوءُ الإنسانِ بماءِ غيرِهِ في رفعِ الحدثِ كوضوئِهِ مِنْ مائِهِ ، فلا يتبيَّنُ لاختلافِ الملكِ واتحادِهِ أثرٌ ، بخلافِ الوطءِ لزوجةِ الغيرِ ؛ فإنَّهُ لا يحلُّ ، ولأنَّ للعلاماتِ مدخلاً في النجاساتِ ، والاجتهادُ فيهِ ممكنٌ ، بخلافِ الطلاقِ[1] ، فوجبَ تقويةُ الاستصحابِ بعلامةٍ ليدفعَ بها قوَّةَ يقينِ النجاسةِ المقابلةَ ليقينِ الطهارةِ .

وأبوابُ الاستصحابِ والترجيحاتِ مِنْ غوامضِ الفقهِ ودقائقِهِ ، وقدِ استقصيناهُ في كتبِ الفقهِ ، ولسنا نقصدُ الآنَ إلا التنبيهَ علىٰ قواعدِها .

* * *

---

(١) فلا مدخل للأمارات فيه ، ولا يفتقر إلى الاجتهاد . « إتحاف » (٦/ ٣٧) .

القسمُ الثالثُ : أنْ يكونَ الأصلُ التحريمَ ، ولكنْ طرأَ ما أوجبَ تحليلَهُ بظنٍّ غالبٍ ، فهوَ مشكوكٌ فيهِ ، والغالبُ حلُّهُ .

فهـٰذا ينظرُ فيهِ ؛ فإنِ استندَ غلبةُ الظنِّ إلىٰ سببٍ معتبرٍ شرعاً . . فالذي نختارُ فيهِ : أنَّهُ يحلُّ ، وأنَّ اجتنابَهُ مِنَ الورعِ .

مثالُهُ : أنْ يرميَ إلىٰ صيدٍ ، فيغيبَ ، ثمَّ يدركَهُ ميتاً وليسَ عليهِ أثرٌ سوىٰ سهمِهِ ، ولكنْ يُحتملُ أنَّهُ ماتَ بسقطةٍ أوْ سببٍ آخرَ ؛ فإنْ ظهرَ عليهِ أثرُ صدمةٍ أوْ جراحةٍ أخرىٰ . . التحقَ بالقسمِ الأوَّلِ[1] .

وقدِ اختلفَ قولُ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ في هـٰذا القسمِ ، **والمختارُ** : أنَّهُ حلالٌ ؛ لأنَّ الجرحَ سببٌ ظاهرٌ وقدْ تحقَّقَ ، والأصلُ أنَّهُ لمْ يطرأْ غيرُهُ عليهِ ، فطريانُهُ مشكوكٌ فيهِ ، فلا يُدفعُ اليقينُ بالشكِّ .

※ ※ ※

فإنْ قيلَ : فقدْ قالَ ابنُ عباسٍ : (كُلْ ما أصميتَ ، ودعْ ما أنميتَ)[2] ، وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ رجلاً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأرنبٍ ، فقالَ : رميَتي عرفتُ فيها سهمي ، فقالَ : « أصميتَ أوْ أنميتَ ؟ » فقالَ : بلْ أنميتُ ، قالَ : « إنَّ الليلَ خلْقٌ مِنْ

---

(١) وهو أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل ، وهو حرام ، والسياق في (ب) : (وإن لم يظهر عليه . . فقد اختلف قول الشافعي . . .) .
(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٢٤١) .

خلقِ اللهِ لا يُقدِّرُ قدرَهُ إلا الذي خلقَهُ ، لعلَّهُ أعانَ علىٰ قتلِهِ شيءٌ ؟ »[(١)] .

وكذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعديِّ بنِ حاتمٍ في كلبِهِ المعلَّمِ : « وإنْ أكلَ . . فلا تأكلْ ؛ فإنِّي أخافُ أنْ يكونَ إنَّما أمسكَ علىٰ نفسِهِ »[(٢)] ، والغالبُ أنَّ الكلبَ المعلَّمَ لا ينسىٰ خُلقَهُ ، ولا يمسكُ إلا علىٰ صاحبِهِ ، ومعَ ذلكَ نهىٰ عنهُ ، وهـٰذا التحقيقُ ؛ وهو أنَّ الحلَّ إنَّما يتحقَّقُ إذا تحقَّقَ تمامُ السببِ ، وتمامُ السببِ بأنْ يفضيَ إلى الموتِ سليماً مِنْ طريانِ غيرِهِ عليهِ ، وقدْ شُكَّ فيهِ ، فهوَ شكٌّ في تمامِ السببِ ، حتَّى اشتبَهَ أنَّ موتَهُ على الحلِّ أوْ على الحرمةِ ، فلا يكونُ هـٰذا في معنىٰ ما تُحقِّقَ موتُهُ على الحلِّ في ساعةٍ ، ثمَّ شُكَّ فيما يطرأُ عليهِ ؟

فالجوابُ : أنَّ نهيَ ابنِ عباسٍ ونهيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمولٌ على الورعِ والتنزيهِ ؛ بدليلِ ما رُويَ في بعضِ الرواياتِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « كُلْ منهُ وإنْ غابَ عنكَ ما لمْ تجدْ فيهِ أثراً غيرَ سهمِكَ »[(٣)] ، وهـٰذا تنبيهٌ على المعنى الذي ذكرناهُ ، وهوَ أنَّهُ إنْ وجدَ أثراً آخرَ . . فقدْ تعارضَ السببانِ فتعارضَ الظنُّ ، وإنْ لمْ يجدْ سوىٰ جرحِهِ . .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٠٣٣) بلفظ المصنف وزاد : « انبذها » ، وبنحوه عند أبي داوود في « المراسيل » (٣٧٤) ، وهو عندهما من حديث موسى بن أبي عائشة عن أبي رزين مرسلاً ، لا من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه البخاري (٥٤٨٧) ، ومسلم (١٩٢٩) ، وقد تقدم بعضه .

(٣) رواه البخاري (٥٤٨٥) ، ومسلم (١٩٢٩) .

حصلَ غلبةُ الظنِّ، فيحكمُ بهِ على الاستصحابِ ؛ كما يحكمُ على الاستصحابِ بخبرِ الواحدِ ، والقياسِ المظنونِ والعموماتِ المظنونةِ وغيرِها .

وأمَّا قولُ القائلِ : إنَّهُ لمْ يُتحقَّقْ موتُهُ على الحلِّ في ساعةٍ ، فيكونَ شكّاً في السببِ.. فليسَ كذلكَ ، بلِ السببُ قدْ تحقَّقَ ؛ إذِ الجرحُ سببُ الموتِ ، وطريانُ الغيرِ شكٌّ فيهِ .

ويدلُّ علىٰ صحَّةِ هـٰذا الإجماعُ علىٰ أنَّ مَنْ جُرِحَ وغابَ ، فوُجدَ ميتاً.. فيجبُ القصاصُ علىٰ جارحِهِ ، بلْ إنْ لمْ يغبْ.. يُحتملُ أنْ يكونَ موتُهُ بهيجانِ خلطٍ في باطنِهِ ؛ كما يموتُ الإنسانُ فجأةً ، فينبغي ألا يجبَ القصاصُ إلا بحزِّ الرقبةِ والجرحِ المدفِّفِ[1] ؛ لأنَّ العللَ القاتلةَ في الباطنِ لا تُؤمنُ ، ولأجلِها يموتُ الصحيحُ فجأةً ، **ولا قائلَ بذلكَ** ، معَ أنَّ القصاصَ مبناهُ على الشبهةِ ، وكذلكَ جنينُ المذكَّىٰ حلالٌ ، ولعلَّه ماتَ قبلَ ذبحِ الأصلِ ، لا بسببِ ذبحِهِ ، أو لمْ يُنفخْ فيهِ الروحُ ، وغرَّةُ الجنينِ تجبُ ، ولعلَّ الروحَ لمْ يُنفخْ فيهِ ، أوْ كانَ قدْ ماتَ قبلَ الجنايةِ بسببٍ آخرَ ، **ولكنْ يُبنىٰ على الأسبابِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ الاحتمالَ الآخرَ إذا لمْ يستندْ إلىٰ دلالةٍ تدلُّ عليهِ.. التحقَ بالوهمِ والوسواسِ كما ذكرناهُ** ، فكذلكَ هـٰذا .

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخافُ أنْ يكونَ إنَّما أمسكَ علىٰ نفسِهِ ».. فللشافعيِّ رحمهُ اللهُ في هـٰذهِ الصورةِ قولانِ ، والذي نختارُهُ

(١) دَفَّف ـ وكذا ذفَّف بالمعجمة ـ : أجهز على الجريح فقتله ؛ أي : الإسراع في موته .

الحكمُ بالتحريمِ ؛ لأنَّ السببَ قدْ تعارضَ ؛ إذِ الكلبُ المعلَّمُ كالآلةِ والوكيلِ ، يمسكُ علىٰ صاحبِهِ فيحلُّ ، ولوِ استرسلَ المعلَّمُ بنفسِهِ ، فأخذَ . . لمْ يحلَّ ؛ لأنَّهُ يُتصوَّرُ منهُ أنْ يصطادَ لنفسِهِ ، ومهما انبعثَ بإشارتِهِ ثمَّ أكلَ . . دلَّ ابتداءُ انبعاثِهِ علىٰ أنَّهُ نازلٌ منزلةَ آلتِهِ ، وأنَّهُ يسعىٰ في وكالتِهِ ونيابتِهِ ، ودلَّ أكلُهُ آخراً علىٰ أنَّهُ أمسكَ لنفسِهِ لا لصاحبِهِ ، فقدْ تعارضَ السببُ الدالُّ ، فيتعارضُ الاحتمالُ ، والأصلُ التحريمُ ؛ فيستصحبُ ، ولا يزالُ بالشكِّ .

وهوَ كما لو وكَّلَ رجلاً بأنْ يشتريَ لهُ جاريةً ، فاشترىٰ جاريةً ، وماتَ قبلَ أنْ يبيِّنَ أنَّهُ اشتراها لنفسِهِ أوْ لموكِّلِهِ . . لمْ يحلَّ للموكِّلِ وطؤُها ؛ لأنَّ للوكيلِ قدرةً على الشراءِ لنفسِهِ ولموكِّلِهِ جميعاً ، ولا دليلَ يرجِّحُ ، والأصلُ التحريمُ ، فهـٰذا يلتحقُ بالقسمِ الأوَّلِ ، لا بالقسمِ الثالثِ .

* * *

القسمُ الرابعُ: أنْ يكونَ الحلُّ معلوماً، ولكنْ يغلبُ على الظنِّ طريانُ محرِّمٍ بسببٍ معتبرٍ في غلبةِ الظنِّ شرعاً؛ فيُرفعُ الاستصحابُ، ويُقضىٰ بالتحريمِ؛ إذْ بانَ لنا أنَّ الاستصحابَ ضعيفٌ، ولا يبقىٰ لهُ حكمٌ معَ غالبِ الظنِّ.

ومثالُهُ : أنْ يؤدِّيَ اجتهادُهُ إلىٰ نجاسةِ أحدِ الإناءينِ بالاعتمادِ علىٰ علامةٍ معيَّنةٍ توجبُ غلبةَ الظنِّ ، فتوجبُ تحريمَ شربِهِ ؛ كما أوجبَتْ منعَ الوضوءِ بهِ .

وكذا إذا قالَ : (إنْ قتلَ زيدٌ عمراً ، أوْ قتلَ زيدٌ صيداً منفرداً بقتلِهِ . . فامرأتي طالقٌ) ، فجرحَهُ وغابَ عنهُ ، فوُجدَ ميتاً . . حرمَتْ زوجتُهُ ؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّهُ منفردٌ بقتلِهِ كما سبقَ .

وقد نص الشافعيُّ رحمهُ اللهُ أنَّ مَنْ وجدَ في الغدرانِ ماءً متغيراً احتملَ أنْ يكونَ تغيُّرُهُ بطولِ المكْثِ أوْ بالنجاسةِ . . فيستعملُهُ ، ولوْ رأىٰ ظبيةً بالَتْ فيهِ ، ثمَّ وجدَهُ متغيِّراً ، واحتملَ أنْ يكونَ بالبولِ أوْ بطولِ المكثِ . . لمْ يجزِ استعمالُهُ ؛ إذْ صارَ البولُ المشاهدُ دلالةً مغلِّبَةً لاحتمالِ النجاسةِ[1] .

وهوَ مثالُ ما ذكرناهُ ، وهـٰذا في غلبةِ ظنٍّ استندَ إلىٰ علامةٍ متعلقةٍ بعينِ الشيءِ .

فأمَّا غلبةُ الظنِّ لا مِنْ جهةِ علامةٍ تتعلَّقُ بعينِ الشيءِ . . فقدِ اختلفَ قولُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في أنَّ أصلَ الحلِّ : هلْ يزالُ بهِ ؟ إذِ اختلفَ قولُهُ في التوضُّؤِ مِنْ أواني المشركينَ ومدمني الخمرِ ، والصلاةِ في المقابرِ المنبوشةِ ، والصلاةِ معَ طينِ الشوارعِ ؛ أعني : المقدارَ الزائدَ علىٰ ما يتعذَّرُ الاحترازُ عنهُ .

وعبَّرَ الأصحابُ عنهُ بأنَّهُ **إذا تعارضَ الأصلُ والغالبُ فأيُّهُما يُعتبرُ** ؟ وهـٰذا جارٍ في حلِّ الشربِ مِنْ أواني مدمني الخمرِ والمشركينَ ؛ لأنَّ النجسَ لا يحلُّ شربُهُ ، فإذاً مأخذُ النجاسةِ والحلِّ واحدٌ ، فالتردُّدُ في أحدِهِما

---

(١) الأم (١/٣٣) .

يوجبُ التردُّدَ في الآخرِ ، **والذي أختارُهُ** : أنَّ الأصلَ هوَ المعتبرُ ، وأنَّ العلامةَ إذا لمْ تتعلَّقْ بعينِ المتناولِ . . لمْ توجبْ رفعَ الأصلِ ، وسيأتي بيانُ ذلكَ وبرهانُهُ في المثارِ الثاني للشبهةِ ، وهيَ شبهةُ الخلطِ .

فقدِ اتضحَ مِنْ هـٰذا : حكْمُ حلالٍ شكَّ في طريانِ محرِّمٍ عليهِ أوْ ظنَّ ، وحكْمُ حرامٍ شكَّ في طريانِ محلِّلٍ عليهِ أوْ ظنَّ ، وبانَ فرقٌ بينَ ظنٍّ يستندُ إلىٰ علامةٍ في عينِ الشيءِ ، وبينَ ما لا يستندُ إليهِ .

وكلُّ ما حكمْنا في هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ بحلِّهِ . . فهوَ حلالٌ في الدرجةِ الأولىٰ ، والاحتياطُ تركُهُ ، فالمقدِمُ عليهِ لا يكونُ مِنْ زمرةِ المتقينَ والصالحينَ ، بلْ مِنْ زمرةِ العدولِ الذينَ لا يُقضىٰ في فتوى الشرعِ بفسقِهِمْ وعصيانِهِمْ واستحقاقِهِمُ العقوبةَ ، إلا ما ألحقناهُ برتبةِ الوسواسِ ؛ فإنَّ الاحترازَ عنهُ ليسَ مِنَ الورعِ أصلاً .

* * *

المثار الثاني للشبهة : شكٌّ منشؤه الاختلاط

وذلكَ بأنْ يختلطَ الحلالُ بالحرامِ ، ويشتبهَ الأمرُ فلا يتميَّزَ .

والخلطُ لا يخلو : إمَّا أنْ يقعَ بعددٍ لا يُحصرُ مِنَ الجانبينِ أوْ مِنْ أحدِهما ، أوْ بعددٍ محصورٍ .

فإنِ اختلطَ بمحصورٍ . . فلا يخلوُ : إمَّا أنْ يكونَ اختلاطَ امتزاجٍ ؛ بحيثُ لا يتميَّزُ بالإشارةِ ؛ كاختلاطِ المائعاتِ ، أوْ يكونَ اختلاطَ استبهامٍ معَ تميُّزِ الأعيانِ ؛ كاختلاطِ الأعبدِ والدورِ والأفراسِ .

والذي يختلطُ بالاستبهامِ فلا يخلو : أنْ يكونَ ممَّا يُقصدُ عينُهُ ؛ كالعروضِ ، أوْ لا يُقصدُ ؛ كالنقودِ ، فيخرجُ مِنْ هـٰذا التقسيمِ ثلاثةُ أقسامٍ[1] .

القسمُ الأوَّلُ : أنْ تستبهمَ العينُ بعددٍ محصورٍ : كما لوِ اختلطتِ الميتةُ بذكيَّةٍ أوْ بعشرِ ذكيَّاتٍ ، أوْ تختلطُ رضيعةٌ بعشرِ نسوةٍ ، أوْ يتزوَّجُ إحدى الأختينِ ثمَّ تلتبسُ ، **فهـٰذهِ شبهةٌ يجبُ اجتنابُها بالإجماعِ** ؛ لأنَّهُ لا مجالَ للاجتهادِ والعلاماتِ في هـٰذا .

وإذا اختلطَ بعددٍ محصورٍ . . صارتِ الجملةُ كالشيءِ الواحدِ[2] ، وتقابلَ

(١) كذا في (ق) ، وفي (ب) : (. . . من هـٰذا القسم أقسامٌ) ، وفي باقي النسخ : (. . . سبعةُ أقسامٍ) ، ولعل المثبت هو الصواب ، والله أعلم .
(٢) أي : للكل حكم الواحد . « إتحاف » (٦ / ٤١) .

فيهِ يقينُ التحريمِ والتحليلِ ، ولا فرقَ في هـٰذا بينَ أنْ يثبتَ حلٌّ فيطرأَ اختلاطٌ بمحرَّمٍ ؛ كما لوْ وقعَ الطلاقُ علىٰ إحدىٰ زوجتيهِ في مسألةِ الطائرِ ، أوْ يختلط قبلَ الاستحلالِ ؛ كما لوِ اختلطَتْ رضيعةٌ بأجنبيةٍ ، فأرادَ استحلالَ واحدةٍ .

وهـٰذا قدْ يُشكلُ في طريانِ التحريمِ ؛ كطلاقِ إحدى الزوجتينِ لما سبقَ مِنَ الاستصحابِ ، وقدْ نبهنا علىٰ وجهِ الجوابِ ، وهوَ أنَّ يقينَ التحريمِ قابلَ يقينَ الحلِّ ، فضعفَ الاستصحابُ ، وجانبُ الخطرِ أغلبُ في نظرِ الشرعِ ؛ فلذلكَ ترجَّحَ .

وهـٰذا إذا اختلطَ حلالٌ محصورٌ بحرامٍ محصورٍ ، فإنِ اختلطَ حلالٌ محصورٌ بحرامٍ غيرِ محصورٍ . . فلا يخفىٰ أنَّ وجوبَ الاجتنابِ أولىٰ .

* * *

القسمُ الثاني : حرامٌ محصورٌ بحلالٍ غيرِ محصورٍ : كما لوِ اختلطتْ رضيعةٌ أوْ عشرُ رضائعَ بنسوةِ بلدٍ كبيرٍ ، فلا يلزمُ بهـٰذا اجتنابُ نكاحِ نساءِ أهلِ البلدِ ، بلْ لهُ أنْ ينكحَ مَنْ شاءَ منهنَّ ، وهـٰذا لا يجوزُ أنْ يعلَّلَ بكثرةِ الحلالِ ؛ إذْ يلزمُ عليهِ أنْ يجوزَ النكاحُ إذا اختلطتْ واحدةٌ حرامٌ بتسعِ حلالٍ ، ولا قائلَ بهِ ، بل العلَّةُ الغلبةُ والحاجةُ جميعاً ؛ إذْ كلُّ مَنْ ضاعَ لهُ رضيعٌ أوْ قريبٌ أوْ محرمٌ بمصاهرةٍ أوْ بسببٍ مِنَ الأسبابِ . . فلا يمكنُ أنْ يُسدَّ عليهِ بابُ النكاحِ .

وكذلكَ مَنْ علمَ أنَّ مالَ الدنيا خالطَهُ حرامٌ قطعاً . . لا يلزمُهُ تركُ الشراءِ

والأكلِ ؛ فإنَّ ذلكَ حرجٌ ، وما في الدينِ مِنْ حرجٍ .

ويُعلمُ هٰذا بأنَّهُ لما سُرقَ في زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِجَنٌّ ، وغلَّ واحدٌ في الغنيمةِ عباءةً[1] . . لمْ يمتنعْ أحدٌ مِنْ شراءِ المجنِّ والعباءةِ في الدنيا ، وكذلكَ كلُّ ما سُرِقَ .

وكذلكَ كانَ يُعرفُ أنَّ في الناسِ منْ يُربي في الدراهمِ والدنانيرِ ، وما تركَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا الناسُ الدراهمَ والدنانيرَ بالكليَّةِ .

وبالجملةِ : إنَّما تنفكُّ الدنيا عنِ الحرامِ إذا عُصِمَ الخلقُ كلُّهُمْ عنِ المعاصي ، وهوَ محالٌ ، وإذا لمْ يُشترطْ هٰذا في الدنيا . . لمْ يُشترطْ أيضاً في بلدٍ ، إلا إذا وقعَ بينَ جماعةٍ محصورينَ ، **بلِ اجتنابُ هٰذا ورعُ الموسوِسينَ** ؛ إذْ لمْ يُنقلْ ذلكَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا عنْ أحدٍ منَ الصحابةِ ، ولا يُتصوَّرُ الوفاءُ بهِ في ملَّةٍ مِنَ المللِ ، ولا في عصرٍ مِنَ الأعصارِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكلُّ عددٍ محصورٌ في علمِ اللهِ سبحانَهُ ، فما حدُّ المحصورِ؟ ولوْ أرادَ الإنسانُ أنْ يحصرَ أهلَ بلدٍ . . لقدرَ عليهِ أيضاً إنْ مُكِّنَ منهُ .

---

(١) سرقة المجن في زمنه صلى الله عليه وسلم عند البخاري (٦٧٩٥) ، ومسلم (١٦٨٦) ، وحديث غل العباءة عند البخاري (٣٠٧٤) .

فاعلمْ : أنَّ تحديدَ أمثالِ هـٰذهِ الأمورِ غيرُ ممكنٍ ، وإنما يُضبطُ بالتقريبِ .

فنقولُ : كلُّ عددٍ لوِ اجتمعَ علىٰ صعيدٍ واحدٍ . . لعسرَ على الناظرِ عدُّهُمْ بمجرَّدِ النظرِ ؛ كالألفِ والألفينِ . . فهوَ غيرُ محصورٍ ، وما سهلَ ؛ كالعشرةِ والعشرينِ . . فهوَ محصورٌ ، وبينَ الطرفينِ أوساطٌ متشابهةٌ تلحقُ بأحدِ الطرفينِ بالظنِّ ، وما وقعَ الشكُّ فيهِ استفتيَ فيهِ القلبُ ؛ فإنَّ الإثمَ حَوَازُّ القلوبِ ، وفي مثلِ هـٰذا المقامِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوابصةَ : « استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتَوْكَ وأفتَوْكَ وأفتَوْكَ »(١) .

وكذلكَ الأقسامُ الأربعةُ التي ذكرناها في المثارِ الأوَّلِ يقعُ فيها أطرافٌ متقابلةٌ واضحةٌ في النفيِ والإثباتِ ، وأوساطٌ متشابهةٌ ، فالمفتي يفتي بالظنِّ ، وعلى المستفتي أنْ يستفتيَ قلبَهُ ، فإنْ حاكَ في صدرِهِ شيءٌ . . فهوَ الآثمُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فلا ينجيهِ في الآخرةِ فتوى المفتي ؛ فإنَّهُ يفتي بالظاهرِ ، واللهُ يتولَّى السرائرَ .

* * *

القسمُ الثالثُ : أنْ يختلطَ حرامٌ لا يُحصرُ بحلالٍ لا يُحصرُ ؛ كحكمِ الأموالِ في زمانِنا هـٰذا ، فالذي يأخذُ الأحكامَ مِنَ الصورِ قدْ يظنُّ أنْ نسبةَ غيرِ المحصورِ إلىٰ غيرِ المحصورِ كنسبةِ المحصورِ إلى المحصورِ ، وقدْ

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) .

حكمْنا ثَمَّ بالتحريمِ ، فلنحكمْ هـٰهُنا بهِ ! **والذي نختارُهُ خلافُ ذلكَ** ، وهوَ أنَّهُ لا يحرمُ بهـٰذا الاختلاطِ أنْ يتناولَ شيئاً بعينِهِ احتُملَ أنَّهُ حرامٌ وأنَّهُ حلالٌ إلا أنْ يقترنَ بتلكَ العينِ علامةٌ تدلُّ علىٰ أنَّهُ مِنَ الحرامِ، فإنْ لمْ يكنْ في العينِ علامةٌ تدلُّ علىٰ أنَّهُ مِنَ الحرامِ . . فتركُهُ ورعٌ ، وأخذُهُ حلالٌ لا يفسقُ بهِ آكلُهُ .

ومِنَ العلاماتِ أنْ يأخذَهُ مِنْ يدِ سلطانٍ ظالمٍ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ العلاماتِ التي سيأتي ذكرُها .

ويدلُّ عليهِ الأثرُ والقياسُ :

فأمَّا الأثرُ : فما علمَ في زمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والخلفاءِ الراشدينَ بعدَهُ ، إذْ كانَتْ أثمانُ الخمورِ ودراهمُ الربا مِنْ أيدي أهلِ الذمَّةِ مختلطةً بالأموالِ ، وكذا غلولُ الغنيمةِ .

ومِنَ الوقتِ الذي نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الربا إذْ قالَ : « أوَّلُ رباً أضعُهُ ربا العباسِ »[(١)] ما تركَ الناسُ الربا بأجمعِهِمْ ، كما لمْ يتركوا شربَ الخمورِ وسائرَ المعاصي ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ بعضَ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باعَ الخمرَ ، فقالَ عمرُ رَضيَ اللهُ عنهُ : (لعنَ اللهُ فلاناً ، هوَ أوَّلُ مَنْ سنَّ بيعَ الخمرِ)[(٢)] ، إذْ لمْ يكنْ قدْ فهمَ أنَّ تحريمَ الخمرِ تحريمٌ لثمنِها .

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨) .

(٢) رواه الشافعي في « الأم » (٧/ ٤٤٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ فلاناً يجرُّ في النارِ عباءةً قدْ غلَّها »[١] .

وقُتِلَ رجلٌ ، ففتَّشوا متاعَهُ ، فوجدوا فيهِ خرزاتٍ مِنْ خرزِ اليهودِ لا تساوي درهمينِ قدْ غلَّها[٢] .

وكذلكَ أدركَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأئمةَ الظلمةَ[٣] ، ولمْ يمتنعْ أحدٌ منهُمْ عنِ الشراءِ في السوقِ بسببِ نهبِ المدينةِ ، وقدْ نهبَها أصحابُ يزيدَ ثلاثةَ أيامٍ[٤] ، وكانَ مَنْ يمتنعُ مِنْ تلكَ الأموالِ مشاراً إليهِ في الورعِ ، والأكثرونَ لمْ يمتنعوا ، معَ الاختلاطِ وكثرةِ الأموالِ المنهوبةِ في أيامِ الظلمةِ .

ومَنْ أوجبَ ما لمْ يوجبْهُ السلفُ الصالحُ ، وزعمَ أنَّهُ تفطَّنَ مِنَ الشرعِ ما لمْ يتفطَّنوا لهُ .. فهوَ موسوسٌ مختلُّ العقلِ ، ولوْ جازَ أنْ يُزادَ عليهِمْ في أمثالِ هٰذا .. لجازَ مخالفتُهُمْ في مسائلَ لا مستندَ فيها سوى اتفاقِهِمْ ؛ كقولِهِمْ : إنَّ الجدَّةَ كالأمِّ في التحريمِ ، وابنَ الابنِ كالابنِ ، وشعرَ الخنزيرِ

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٤) .
(٢) رواه أبو داوود (٢٧١٠) ، والنسائي (٤/ ٦٤) ، وابن ماجه (٢٨٤٨) .
(٣) **فمن الأصحاب** : أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وزيد بن ثابت ، وأبو أيوب الأنصاري ، وجرير بن عبد الله ، وجابر ، وأنس ، والمسور بن مخرمة ، رضي الله تعالىٰ عنهم . **ومن الأئمة الظلمة** : يزيد بن معاوية ، وعبيد الله بن زياد ، ومروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والحجاج بن يوسف . انظر « الإتحاف » (٦/ ٤٣) .
(٤) في وقعة الحرَّة التي كان أميرها المسرف مسلم بن عقبة بأمر من يزيد .

وشحمَهُ كاللحمِ المذكورِ تحريمُهُ في القرآنِ ، والربا جارٍ فيما عدا الأشياءَ الستةَ[1] ، وذلكَ محالٌ ؛ فإنَّهُمْ أولىٰ بفهْمِ الشرعِ مِنْ غيرِهِمْ .

وأمَّا القياسُ : فهوَ أنَّهُ لوْ فُتِحَ هـٰذا البابُ.. لانسدَّ بابُ جميعِ التصرُّفاتِ ، وخربَ العالمُ ؛ إذِ الفسقُ يغلبُ على الناسِ ، ويتساهلونَ بسببِهِ في شروطِ الشرعِ في العقودِ ، ويؤدي ذلكَ ـ لا محالةَ ـ إلى الاختلاطِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فقدْ نقلتُمْ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امتنعَ مِن أكلِ الضبِّ وقالَ : « أخشىٰ أنْ يكونَ ممَّا مسخَهُ اللهُ »[2] وهوَ في اختلاطِ غيرِ المحصورِ .

قلنا : يحملُ ذلكَ على الورعِ والتنزُّهِ ، أوْ نقولُ : للضبِّ شكلٌ غريبٌ ، ربَّما يدلُّ علىٰ أنَّهُ مِنَ المسخِ ، فهيَ دلالةٌ في عينِ المتناولِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فهـٰذا معلومٌ في زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وزمانِ الصحابةِ ؛ بسببِ الربا والسرقةِ والنهبِ وغلولِ الغنيمةِ وغيرِها ، ولكنْ كانتْ هيَ الأقلَّ بالإضافةِ إلى الحلالِ ، فماذا تقولُ في زمانِنا وقدْ صارَ الحرامُ أكثرَ ما في أيدي الناسِ ؛ لفسادِ المعاملاتِ ، وإهمالِ شروطِها ،

---

(١) وهي الذهب والفضة والحنطة والشعير والتمر والملح التي وردت في الحديث .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٩٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٢٦٦) .

وكثرةِ الربا ، وأموالِ السلاطينِ الظلمةِ ؟ فمَنْ أخذَ مالاً لمْ يشهدْ عليهِ علامةً معيَّنةً في عينِهِ للتحريمِ . . فهلْ هوَ حرامٌ أم لا ؟

فأقولُ : ليسَ ذلكَ حراماً ، وإنَّما الورعُ تركُهُ ، وهـٰذا الورعُ أهمُّ مِنَ الورعِ إذا كانَ قليلاً ، **ولكنَّ الجوابَ عنْ هـٰذا** : أنَّ قولَ القائلِ : (أكثرُ الأموالِ حرامٌ في زمانِنا) غلطٌ محضٌ ، ومنشؤُهُ الغفلةُ عنِ الفرقِ بينَ الكثيرِ والأكثرِ ، فأكثرُ الناسِ ، بلْ أكثرُ الفقهاءِ يظنُّونَ أنَّ ما ليسَ بنادرٍ . . فهوَ الأكثرُ ، ويتوهَّمونَ أنَّهُما قسمانِ متقابلانِ ليسَ بينَهُما ثالثٌ ، وليسَ كذلكَ ، بلِ **الأقسامُ ثلاثةٌ** : **قليلٌ** وهوَ النادرُ ، **وكثيرٌ** ، **وأكثرُ** .

ومثالُهُ : أنَّ الخنثىٰ فيما بينَ الخلْقِ نادرٌ ، وإذا أضيفَ إليهِ المريضُ . . وُجدَ كثيراً ، وكذا السفرُ ، حتَّىٰ يُقالَ : المرضُ والسفرُ مِنَ الأعذارِ العامَّةِ ، والاستحاضةُ مِنَ الأعذارِ النادرةِ ، ومعلومٌ أنَّ المرضَ ليسَ بنادرٍ ، وليسَ بالأكثرِ أيضاً ، بلْ هوَ كثيرٌ .

والفقيهُ إذا تساهلَ وقالَ : (المرضُ والسفرُ غالبٌ ، وهوَ عذرٌ عامٌّ) . . أرادَ بهِ أنَّهُ ليسَ بنادرٍ ، فإنْ لمْ يردْ هـٰذا . . فهوَ غلطٌ ، والصحيحُ والمقيمُ هوَ الأكثرُ ، والمسافرُ والمريضُ كثيرٌ ، والمستحاضةُ والخنثىٰ نادرٌ .

فإذا فُهمَ هـٰذا . . فنقولُ : قولُ القائلِ : (الحرامُ أكثرُ) باطلٌ ؛ لأنَّ مستندَ هـٰذا القائلِ إمَّا أنْ يكونَ كثرةَ الظلمةِ والجنديَّةِ[1] ، أوْ كثرةَ الربا

(١) والمراد بالجندية هنا : عسكر الأمراء وأعوانهم .

والمعاملاتِ الفاسدةِ ، أوْ كثرةَ الأيدي التي تكرَّرَتْ مِنْ أوَّلِ الإسلامِ إلىٰ زمانِنا هـٰذا علىٰ أصولِ الأموالِ الموجودةِ اليومَ .

أمّا المستندُ الأوَّلُ . . فباطلٌ ؛ فإنَّ الظلمةَ كثيرٌ ، وليسَ بالأكثرِ ؛ فإنَّهُمُ الجنديةُ ، إذْ لا يظلمُ إلا ذو غلبةٍ وشوكةٍ ، وهمْ إذا أضيفوا إلىٰ كلِّ العالمِ . . لم يبلغوا عُشْرَ عَشيرِهِمْ ، فكلُّ سلطانٍ يجتمعُ عليهِ مِنَ الجنودِ مئةُ ألفٍ مثلاً ، فيملكُ إقليماً يجمعُ ألفَ ألفٍ وزيادةً ، ولعلَّ بلدةً واحدةً مِنْ بلادِ مملكتِهِ يزيدُ عددُها علىٰ جميعِ عسكرِهِ .

ولوْ كانَ عددُ السلاطينِ أكثرَ مِنْ عددِ الرعايا . . لهلك الكلُّ ؛ إذْ كانَ يجبُ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ الرعيَّةِ أنْ يقومَ بعشرةٍ منْهُمْ مثلاً معَ تنعمِهِمْ في المعيشةِ ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ ، بلْ كفايةُ الواحدِ منهُمْ تجمعُ مِنْ ألفٍ منَ الرعيَّةِ وزيادةٍ .

وكذا القولُ في السرَّاقِ ؛ فإنَّ البلدةَ الكبيرةَ تشتملُ منهُمْ علىٰ عددٍ قليلٍ .

وأمَّا المستندُ الثاني ـ وهوَ كثرةُ الربا والمعاملاتِ الفاسدةِ ـ فهيَ أيضاً كثيرةٌ ، وليستْ بالأكثرِ ، إذْ أكثرُ المسلمينَ يتعاملونَ بشروطِ الشرعِ ، فعددُ هؤلاءِ أكثرُ ، والذي يعاملُ بالربا وغيرِهِ فلوْ عُدَّتْ معاملاتُهُ وحدَهُ . . لكانَ عددُ الصحيحِ منها يزيدُ على الفاسدِ ، إلا أنْ يطلبَ الإنسانُ بوهمِهِ في البلدِ مخصوصاً بالمجَانةِ والخبثِ وقلَّةِ الدينِ ، حتَّىٰ يُتصوَّرَ أنْ يُقالَ : معاملاتُهُ

الفاسدةُ أكثرُ ، ومثلُ ذلكَ المخصوصِ نادرٌ ، وإنْ كانَ كثيراً . . فليسَ بالأكثرِ لوْ كانَ كلُّ معاملاتِهِ فاسدةً ، كيفَ ولا يخلو هوَ أيضاً عنْ معاملةٍ صحيحةٍ تساوي الفاسدةَ أوْ تزيدُ عليها ؟! وهـٰذا مقطوعٌ بهِ لِمَنْ تأمَّلَهُ .

وإنَّما غلبَ هـٰذا على النفوسِ لاستكثارِ النفوسِ الفسادَ ، واستبعادِها إيَّاهُ ، واستعظامِها لهُ ، وإنْ كانَ نادراً ، حتَّىٰ ربَّما يُظنُّ أنَّ الزنا وشربَ الخمرِ قدْ شاعَ كما شاعَ الحرامُ ، فيُتخيَّلُ أنَّهُمُ الأكثرونَ ، وهوَ خطأٌ ؛ فإنَّهُمُ الأقلُّونَ ، وإنْ كانَ فيهِمْ كثرةٌ .

وأمَّا المستندُ الثالثُ ـ وهو أخيلُها[1] ـ **أنْ يُقالَ** : الأموالُ إنَّما تحصلُ مِنَ المعادنِ والنباتِ والحيوانِ .

والنباتُ والحيوانُ حاصلٌ بالتوالدِ ، فإذا نظرْنا إلىٰ شاةٍ مثلاً ، وهيَ تلدُ في كلِّ سنةٍ ، فيكونُ عددُ أصولِها إلىٰ زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قريباً من خمسِ مئةٍ ولا يخلو هـٰذا مِنْ أنْ يتطرَّقَ إلىٰ واحدٍ مِنْ تلكَ الأصولِ غصبٌ أوْ معاملةٌ فاسدةٌ ، فكيفَ يُقدَّرُ أنْ تسلمَ أصولُها عنْ تصرُّفٍ باطلٍ إلىٰ زمانِنا هـٰذا ؟

وكذا بذورُ الحبوبِ والفواكهِ تحتاجُ إلىٰ خمسِ مئةِ أصلٍ أوْ ألفِ أصلٍ مثلاً إلىٰ أوَّلِ الشرعِ ، ولا يكونُ هـٰذا حلالاً ما لمْ يكنْ أصلُهُ وأصلُ أصلِهِ وكذلكَ إلىٰ أوَّلِ زمانِ النبوَّةِ حلالاً .

---

(١) أي : أكثرها خيالاً في النفوس . « إتحاف » (٦/ ٤٥) .

وأمَّا المعادنُ . . فهيَ التي يمكنُ نيلُها علىٰ سبيلِ الابتداءِ ، وهيَ أقلُّ الأموالِ ، وأكثرُ ما يُستعملُ منها الدراهمُ والدنانيرُ ، ولا تخرجُ إلا مِنْ دارِ الضرْبِ ، وهيَ في أيدي الظلمةِ ، بلِ المعادنُ في أيدي الظلمةِ يمنعونَ الناسَ منها ، ويلزمونَ الفقراءَ استخراجَها بالأعمالِ الشاقَّةِ ، ثمَّ يأخذونَها منهمْ غصْباً ، فإذا نُظرَ إلىٰ هـٰذا . . عُلِمَ أنَّ بقاءَ دينارٍ واحدٍ بحيثُ لمْ يتطرَّقْ إليهِ عقدٌ فاسدٌ ولا ظلمٌ وقتَ النيلِ ولا وقتَ الضرْبِ في دارِ الضربِ ولا بعدَهُ في معاملاتِ الصرفِ والربا . . بعيدٌ نادرٌ أو محالٌ ؛ فلا يبقىٰ إذاً حلالٌ إلا الصيدُ والحشيشُ في الصحارى المواتِ والمفاوزِ والحطبُ المباحُ ، ثمَّ مَنْ يحصِّلُهُ لا يقدرُ علىٰ أكلِهِ ، فيفتقرُ إلىٰ أنْ يشتريَ بهِ الحبوبَ والحيواناتِ التي لا تحصلُ إلا بالاستنباتِ والتوالدِ ، فيكونُ قدْ بذلَ حلالاً في مقابلةِ حرامٍ ، فهـٰذا هوَ أشدُّ الطرقِ تخييلاً .

فالجوابُ : أنَّ هـٰذهِ الغلبةَ لمْ تنشأْ مِنْ كثرةِ الحرامِ المخلوطِ بالحلالِ ، فخرجَ عنِ النمطِ الذي نحنُ فيهِ ، والتحقَ بما ذكرناهُ مِنْ قبلُ ، وهوَ تعارضُ الأصلِ والغالبِ ؛ إذِ الأصلُ في هـٰذهِ الأموالِ قبولُها للتصرفاتِ ، وجوازُ التراضي عليها ، وقدْ عارضَهُ سببٌ غالبٌ يخرجُهُ عنِ الصلاحِ لهُ ، فيضاهي هـٰذا محلَّ القولينِ للشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في حكْمِ النجاساتِ ، **والصحيحُ عندَنا** : أنَّهُ تجوزُ الصلاةُ في الشوارعِ إذا لمْ يرَ نجاسةً ، وأنَّ طينَ الشوارعِ طاهرٌ ، وأنَّ الوضوءَ مِنْ أواني المشركينَ جائزٌ ، وأنَّ الصلاةَ في المقابرِ المنبوشةِ جائزةٌ ، فنثبتُ هـٰذا أوَّلاً ، ثمَّ نقيسُ ما نحنُ فيهِ عليهِ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ توضُّؤُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منْ مَزادةِ مشركٍ[١] ، وَتوضُّؤُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ جرَّةِ نصرانيةٍ[٢] ، معَ أنَّ مشربَهُمُ الخمرُ ومطعمَهُمُ الخنزيرُ ، ولا يحترزونَ عمَّا نتجنَّبُهُ في شرعِنا ، فكيفَ تسلمُ أُوانيهِمْ مِنْ أيديهِمْ ؟!

بلْ نقولُ : نعلمُ قطعاً أنَّهُمْ كانوا يلبسونَ الفراءَ المدبوغةَ والثيابَ المصبوغةَ والمقصورةَ ، ومَنْ تأمَّلَ أحوالَ الدبَّاغينَ والقصَّارينَ والصبَّاغينَ . . علمَ أنَّ الغالبَ عليهِمُ النجاسةُ ، وأنَّ الطهارةَ في تلكَ الثيابِ محالٌ أوْ نادرٌ !

بلْ نقولُ : نعلمُ أنَّهُمْ كانوا يأكلونَ خبزَ البُرِّ والشعيرِ ولا يغسلونَهُ معَ أنَّهُ يُداسُ بالبقرِ والحيواناتِ ، وهي تبولُ عليهِ وتروثُ ، وقلَّما يخلصُ مِنْ ذلكَ ، وكانوا يركبونَ الدوابَّ وهيَ تعرقُ ، وما كانوا يغسلونَ ظهورَها معَ كثرةِ تمرُّغِها في النجاساتِ !

بلْ كلُّ دابَّةٍ تخرجُ مِنْ بطنِ أمِّها وعليها رطوباتٌ نجسةٌ قدْ تزيلُها الأمطارُ وقدْ لا تزيلُها ، وما كانَ يُحترزُ عنها .

وكانوا يمشونَ حفاةً في الطرقِ وبالنعالِ ، ويصلُّونَ معها ، ويجلسونَ

---

(١) رویٰ ذلك البخاري (٣٥٧١) ، ومسلم (٦٨٢) في حديث طويل .
(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) : إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته ، وفضل وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

على الترابِ ، ويمشونَ في الطينِ مِنْ غيرِ حاجةٍ ، وكانوا لا يمشونَ في البولِ والعذرةِ ، ولا يجلسونَ عليها ، ولا يستنزهونَ منهُ ، ومتىٰ تسلمُ الشوارعُ عنِ النجاساتِ معَ كثرةِ الكلابِ وأبوالِها ، وكثرةِ الدوابِّ وأرواثِها ؟!

ولا ينبغي أنْ نظنَّ أنَّ الأعصارَ والأمصارَ تختلفُ في مثلِ هـٰذا ، حتَّىٰ يُظنَّ أنَّ الشوارعَ كانتْ تُغسلُ في عصرِهِمْ ، أوْ كانتْ تُحرسُ عن الدوابِّ ، هيهاتَ ! فذلكَ معلومٌ استحالتُهُ بالعادةِ قطعاً ، فدلَّ علىٰ أنَّهُمْ لمْ يحترزوا إلا مِنْ نجاسةٍ مشاهدةٍ ، أوْ علامةٍ على النجاسةِ دالَّةٍ على العينِ .

فأمَّا الظنُّ الغالبُ الذي يُستثارُ مِنْ ردِّ الوهمِ إلىٰ مجاري الأحوالِ . . فلمْ يعتبروهُ ، وهـٰذا عندَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، وهوَ يرىٰ أنَّ الماءَ القليلَ ينجسُ مِنْ غيرِ تغيُّرٍ واقعٍ ؛ إذْ لمْ يزلِ الصحابةُ يدخلونَ الحماماتِ ، ويتوضؤونَ مِنَ الحياضِ وفيها المياهُ القليلةُ والأيدي المختلفةُ تُغمسُ فيها على الدوامِ ، وهـٰذا قاطعٌ في هـٰذا الغرضِ ، ومهما ثبتَ جوازُ التوضُّؤِ مِنْ جرَّةٍ نصرانيةٍ . . ثبتَ جوازُ شربِهِ ، والتحقَ حكمُ الحلِّ بحكمِ النجاسةِ .

* * *

فإنْ قيلَ : لا يجوزُ قياسُ الحلِّ على النجاسةِ ؛ إذْ كانوا يتوسَّعونَ في أمورِ الطهاراتِ ويحترزونَ مِنْ شبهاتِ الحرامِ غايةَ التحرُّزِ ، فكيفَ يُقاسُ عليهِ ؟

فنقولُ : إنْ أُريدَ بهِ أنَّهُمْ صلَّوا معَ النجاسةِ والصلاةُ معها معصيةٌ وهيَ

عمادُ الدينِ. . فبئسَ الظنُّ ، بلْ يجبُ أنْ نعتقدَ فيهِمْ أنَّهُمْ احترزوا عنْ كلِّ نجاسةٍ وجبَ اجتنابُها ، وإنَّما تسامحوا حيثُ لمْ يجبْ ، وكانَ في محلِّ تسامحِهِمْ هـٰذهِ الصورُ التي تعارضَ فيها الأصلُ والغالبُ ، فبانَ أنَّ الغالبَ الذي لا يستندُ إلىٰ علامةٍ تتعلَّقُ بعينِ ما فيهِ النظرُ . . مطَّرَحٌ .

وأمَّا تورُّعُهُمْ في الحلالِ . . فكانَ بطريقِ التقوىٰ ، وهوَ تركُ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ما بهِ بأسٌ ؛ لأنَّ أمرَ الأموالِ مَخُوفٌ ، والنفسُ تميلُ إليها إنْ لمْ تُضبطْ عنها ، وأمرُ الطهارةِ ليسَ كذلكَ ، فقدِ امتنعَ طائفةٌ منهُمْ عنِ الحلالِ المحضِ خيفةَ أنْ يُشغلَ قلبُهُ .

وهلْ حُكِيَ عنْ واحدٍ منهُمْ أنَّهُ احترزَ عنِ الوضوءِ مِنْ ماءِ البحرِ وهوَ الطهورُ المحضُ ؟!

فالافتراقُ في ذلكَ لا يقدحُ في الغرضِ الذي أجمعْنا فيهِ ، علىٰ أنَّا نجري في هـٰذا المستندِ على الجوابِ الذي قدَّمْناهُ في المستندينِ السابقينِ ، ولا نسلِّمُ ما ذكروهُ مِنْ أنَّ الأكثرَ هوَ الحرامُ ؛ لأنَّ المالَ وإنْ كثرَتْ أصولُهُ . . فليسَ بواجبٍ أنْ يكونَ في أصولِهِ حرامٌ ، بلِ الأموالُ الموجودةُ اليومَ ممَّا تطرَّقَ الظلمُ إلىٰ أصولِ بعضِها دونَ بعضٍ .

وكما أنَّ الذي يبتدأُ غصبُهُ اليومَ هوَ الأقلُّ بالإضافةِ إلىٰ ما لا يُغصبُ ولا يُسرقُ فهكذا كلُّ مالٍ في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ أصلٍ ، فالمغصوبُ مِنْ مالِ الدنيا والمتناولُ بالفسادِ في كلِّ زمانٍ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ أقلُّ ، وليسَ ندري

أنَّ هـٰذا الفرعَ بعينِهِ مِنْ أيِّ القسمينِ ، فلا نسلِّمُ أنَّ الغالبَ تحريمُهُ ؛ فإنَّهُ كما يزيدُ المغصوبُ بالتوالدِ يزيدُ غيرُ المغصوبِ بالتوالدِ ، فيكونُ فرعُ الأكثرِ ـ لا محالةَ ـ أكثرَ في كلِّ عصرٍ وزمانٍ .

بلِ الغالبُ أنَّ الحبوبَ المغصوبةَ تُغصبُ للأكلِ لا للبذرِ ، وكذا الحيواناتُ المغصوبةُ أكثرُها يُؤكلُ ولا يُقتنىٰ للتوالدِ ، فكيفَ يُقالُ : إنَّ فروعَ الحرامِ أكثرُ ولمْ تزلْ أصولُ الحلالِ أكثرَ منْ أصولِ الحرامِ ؟!

وليتفهَّمِ المسترشدُ مِنْ هـٰذا طريقَ معرفةِ الأكثرِ ؛ فإنَّهُ مزلَّةُ قدمٍ ، وأكثرُ العلماءِ يغلطونَ فيهِ ، فكيفَ العوامُّ ؟!

هـٰذا في المتولِّداتِ مِنَ الحيواناتِ والحبوبِ .

فأمَّا المعادنُ : فإنَّها مخلاَّةٌ مسبَّلَةٌ ، يأخذُها في بلادِ التركِ وغيرِها مَنْ شاءَ ، ولكنْ قدْ يأخذُ السلاطينُ بعضَها منهُمْ ، أوْ يأخذونَ الأقلَّ ـ لا محالةَ ـ لا الأكثرَ ، ومَنْ حازَ مِنَ السلاطينِ معدناً فظلمُهُ يمنعُ الناسَ عنهُ ، فأمَّا ما يأخذُهُ الآخذُ منهُ .. فيأخذُهُ منَ السلطانِ بأجرةٍ ، والصحيحُ أنَّهُ يجوزُ الاستنابةُ في إثباتِ اليدِ على المباحاتِ والاستئجارُ عليها ، فالمستأجرُ على الاستقاءِ إذا حازَ الماءَ .. دخلَ في ملكِ المستقىٰ لهُ ، واستحقَّ الأجرةَ ، وكذا النيلُ ، فإذا فرَّعْنا علىٰ هـٰذا .. لمْ تحرمْ عينُ الذهبِ ، إلا أنْ يُقدَّرَ ظلمُهُ بنقصانِ أجرةِ العملِ ، وذلكَ قليلٌ بالإضافةِ ، ثمَّ لا يوجبُ تحريمَ عينِ الذهبِ ، بلْ يكونُ ظالماً ببقاءِ الأجرةِ في ذمَّتِهِ .

وأمَّا دارُ الضربِ . . فليسَ الذهبُ الخارجُ منها مِنْ أعيانِ ذهبِ السلطانِ الذي غصبَهُ وظلمَ بهِ الناسَ ، بلِ التجّارُ يحملونَ إليهِمُ الذهبَ المسبوكَ أوِ النقدَ الرديءَ أوِ النقارِ[١] ، ويستأجرونَهُمْ على السبكِ والضرْبِ ، ويأخذونَ مثلَ وزنِ ما سلَّموهُ إليهِم إلا شيئاً قليلاً يتركونَهُ أجرةً لهُمْ على العملِ ، وذلكَ جائزٌ ، وإنْ فُرِضَ دنانيرُ مضروبةٌ مِنْ ذهبِ السلطانِ . . فهيَ بالإضافةِ إلىٰ مالِ التجّارِ أقلُّ لا محالةَ .

نعم ، السلطانُ يظلمُ أُجراءَ دارِ الضرْبِ بأنْ يأخذَ منهُمْ ضريبةً ؛ لأنَّهُ خصَّصَهُمْ بها مِنْ بينِ سائرِ الناسِ ، حتَّىٰ توفَّرَ عليهِمْ مالٌ بحشمةِ السلطانِ ، فما يأخذُهُ السلطانُ عوضٌ عنْ حشمتِهِ ، وذلكَ مِنْ بابِ الظلمِ ، وهوَ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما يخرجُ مِنْ دارِ الضرْبِ ، فلا يَسلمُ لأهلِ دارِ الضرْبِ وللسلطانِ مِنْ جملةِ ما يخرجُ منهُ مِنَ المئةِ واحدٌ ، وهوَ عشرُ العُشْرِ ، فكيفَ يكونُ هوَ الأكثرَ ؟!

فهٰذهِ أغاليطُ سبقَتْ إلى القلوبِ بالوهْمِ ، وتشمَّرَ لتزيينِها جماعةٌ ممَّنْ رقَّ دينُهُمْ ؛ حتَّىٰ قبَّحوا الورعَ وسدُّوا بابَهُ ، واستقبحوا تمييزَ مَنْ يميِّزُ بينَ مالٍ ومالٍ ، وذلكَ عينُ البدعةِ والضلالِ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قيلَ : فلوْ قدِّرَ غلبةُ الحرامِ وقدِ اختلطَ غيرُ محصورٍ بغيرِ محصورٍ . .

---

(١) **النقار** : السبائك من الذهب والفضة ، معاً أو مفترقاً .

فماذا تقولونَ فيهِ إذا لمْ يكنْ في العينِ المتناولةِ علامةٌ خاصَّةٌ ؟

فنقولُ : الذي نراهُ أنْ تركَهُ ورعٌ ، وأنَّ أخذَهُ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّ الأصلَ الحلُّ ، ولا يُرفعُ إلا بعلامةٍ معينةٍ ؛ كما في طينِ الشوارعِ ونظائرِهِ .

بل أزيدُ وأقولُ : لوْ طبَّقَ الحرامُ الدنيا حتَّىٰ عُلمَ يقيناً أنَّهُ لمْ يبقَ في الدنيا حلالٌ . . لكنتُ أقولُ : نستأنفُ تمهيدَ الشروطِ مِنْ وقتِنا ونعفو عمَّا سلفَ ، ونقولُ : ما جاوزَ حدَّهُ . . انعكسَ إلىٰ ضدِّهِ ، **فمهما حرمَ الكلُّ . . حلَّ الكلُّ** .

وبرهانُهُ : أنَّهُ إذا وقعتْ هـٰذهِ الواقعةُ . . **فالاحتمالاتُ خمسةٌ** :

أحدُها : أنْ يُقالَ : يدعُ الناسُ الأكلَ حتَّىٰ يموتوا عنْ آخرِهِمْ .

الثاني : أنْ يقتصروا منها علىٰ قدْرِ الضرورةِ وسدِّ الرمقِ يُزجُّونَ عليها أياماً إلى الموتِ .

الثالثُ : أنْ يُقالَ : يتناولونَ قدْرَ الحاجةِ كيفَ شاؤوا ، سرقةً وغصباً وتراضياً مِنْ غيرِ تمييزٍ بينَ مالٍ ومالٍ وجهةٍ وجهةٍ .

الرابعُ : أنْ يتبعوا شروطَ الشرعِ ويستأنفوا قواعدَهُ مِنْ غيرِ اقتصارٍ علىٰ قدْرِ الحاجةِ .

الخامسُ : أنْ يقتصروا معَ شروطِ الشرعِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ .

أمَّا الأوَّلُ . . فلا يخفىٰ بطلانُهُ(١) .

---

(١) إذ هو إلقاء بالأيدي إلى التهلكة ، وهو حرام . « إتحاف » (٦/ ٤٩) .

وأمَّا الثاني. . فباطلٌ قطعاً ؛ لأنَّهُ إذا اقتصرَ الناسُ علىٰ سدِّ الرمقِ وزجُّوا أوقاتَهُمْ معَ الضعفِ . . فشا فيهِمُ المُوتانُ[1] ، وبطلتِ الأعمالُ والصناعاتُ ، وخربتِ الدنيا بالكليَّةِ ، وفي خرابِ الدنيا خرابُ الدينِ ؛ لأنَّها مزرعةُ الآخرةِ ، وأحكامُ الخلافةِ والقضاءِ والسياساتِ بلْ أكثرُ أحكامِ الفقهِ مقصودُها حفظُ مصالحِ الدنيا ؛ ليتمَّ بها مصالحُ الدينِ .

وأمَّا الثالثُ ـ وهوَ الاقتصارُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ مِنْ غيرِ زيادةٍ عليهِ معَ التسويةِ بينَ مالٍ ومالٍ بالغصبِ والسرقةِ والتراضي وكيفما اتفقَ ـ فهوَ رفعٌ لسدِّ الشرعِ بينَ المفسدينَ وبينَ أنواعِ الفسادِ ، فتمتدُّ الأيدي بالغصبِ والسرقةِ وأنواعِ الظلمِ ، ولا يمكنُ زجرُهُمْ عنهُ ، إذْ يقولونَ : ليسَ يتميَّزُ صاحبُ اليدِ عنَّا باستحقاقٍ ؛ فإنَّهُ حرامٌ عليهِ وعلينا ، وذو اليدِ لهُ قدْرُ الحاجةِ فقطْ ، فإنْ كانَ هوَ محتاجاً فإنَّا أيضاً محتاجونَ ، وإنْ كانَ الذي أخذتُهُ في حقِّي زائداً على الحاجةِ . . فقدْ سرقتُهُ ممَّا هوَ زائدٌ علىٰ حاجةِ يومِهِ وإذا لمْ يُراعَ حاجةُ اليومِ أوِ السنةِ . . فما الذي يُراعىٰ ؟ وكيفَ يُضبطُ ؟ وهٰذا يؤدي إلىٰ بطلانِ سياسةِ الشرعِ ، وإغراءِ أهلِ الفسادِ بالفسادِ .

فلا يبقىٰ إلا الاحتمالُ الرابعُ : وهوَ أنْ يُقالَ : كلُّ ذي يدٍ علىٰ ما في يدِهِ وهوَ أولىٰ بهِ ، لا يجوزُ أنْ يُؤخذَ منهُ سرقةً ولا غصباً ، بلْ يُؤخذُ برضاهُ ، والتراضي هوَ طريقُ الشرعِ ، وإذا لمْ يجزْ إلا بالتراضي . . فللتراضي أيضاً

---

(١) **المُوتان** : الموت الذريع .

منهاجٌ في الشرعِ تتعلَّقُ بهِ المصالحُ ، فلِمَ يُعتبرُ أصلُ التراضي ويُعطَّلُ تفصيلُهُ ؟!

وأمَّا الاحتمالُ الخامسُ ـ وهوَ الاقتصارُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ معَ الاكتسابِ بطريقِ الشرعِ مِنْ أصحابِ الأيدي ـ فهوَ الذي نراهُ لائقاً بالورعِ لمَنْ يريدُ سلوكَ طريقِ الآخرةِ ، ولكنْ لا وجهَ لإيجابِهِ على الكافَّةِ ، ولا لإدخالِهِ في فتوى العامَّةِ ؛ لأنَّ أيديَ الظلمةِ تمتدُّ إلى الزيادةِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ في أيدي الناسِ ، وكذا أيدي السرَّاقِ ، وكلُّ مَنْ غلبَ سلبَ ، وكلُّ مَنْ وجدَ فرصةً سرقَ ، ويقولُ : لا حقَّ لهُ إلا في قدْرِ الحاجةِ ، وأنا محتاجٌ ، فلا يبقىٰ إلا أنْ يجبَ على السلطانِ أنْ يُخرجَ كلَّ زيادةٍ علىٰ قدْرِ الحاجةِ مِنْ أيدي الملاَّكِ ، ويستوعبَ بها أهلَ الحاجةِ ، ويدرَّ على الكلِّ الأموالَ يوماً فيوماً ، أوْ سنةً فسنةً ، **وفيهِ تكليفُ شططٍ وتضييعُ أموالٍ** :

أمَّا تكليفُ الشططِ : فهوَ أنَّ السلطانَ لا يقدرُ على القيامِ بهـٰذا معَ كثرةِ الخلقِ ، بلْ لا يُتصوَّرُ ذلكَ أصلاً .

وأمَّا التضييعُ : فهوَ أنَّ ما فضلَ عنِ الحاجةِ مِنَ الفواكهِ واللحومِ والحبوبِ ينبغي أنْ يُلقىٰ في البحرِ أوْ يُتركَ حتَّىٰ يتعفَّنَ ، فإنَّ الذي خلقَهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ الفواكهِ والحبوبِ زائدٌ علىٰ قدْرِ توسُّعِ الخلقِ وترفُّهِهِمْ ، فكيفَ علىٰ قدْرِ حاجتِهِمْ ؟!

ثمَّ يؤدي ذلكَ إلىٰ سقوطِ الحجِّ والزكاةِ والكفاراتِ الماليةِ ، وكلِّ عبادةٍ

نيطَتْ بالغنىٰ عنِ الناسِ ، إذا أصبحَ الناسُ لا يملكونَ إلا قدْرَ حاجاتِهِمْ ، وهوَ في غايةِ القبْحِ .

بلْ أقولُ : لوْ وردَ نبيٌّ في مثلِ هـٰذا الزمانِ ـ ضرباً للمثلِ ـ لوجبَ عليهِ أنْ يستأنفَ الأمرَ[1] ، ويمهِّدَ تفصيلَ أسبابِ الأملاكِ بالتراضي وسائرِ الطرقِ ، ويفعلَ ما يفعلُهُ لوْ وجدَ جميعَ الأموالِ حلالاً مِنْ غيرِ فرْقٍ ، وأعني بقولي : (يجبُ عليهِ) إذا كانَ النبيُّ ممَّنْ بُعثَ لمصلحةِ الخلقِ في دينِهِمْ ودنياهُمْ ، إذْ لا يتمُّ الصلاحُ بردِّ الكافَّةِ إلىٰ قدْرِ الضرورةِ والحاجةِ ألبتةَ ، فإنْ لمْ يُبعثْ للصلاحِ . . لمْ يجبْ هـٰذا[2] ، ونحنُ نجوِّزُ أنْ يقدِّرَ اللهُ تعالىٰ سبباً يهلكُ بهِ الخلقَ عنْ آخرِهِمْ ، فيفوِّتُ دنياهُمْ ويضلُّونَ في دينِهِمْ ، فإنَّهُ يهدي مَنْ يشاءُ ، ويضلُّ مَنْ يشاءُ ، ويميتُ مَنْ يشاءُ ، ويحيي مَنْ يشاءُ ، ولكنَّا نقدِّرُ الأمرَ جارياً علىٰ ما أُلِفَ مِنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في بعثةِ الأنبياءِ لصلاحِ الدينِ والدنيا .

وما لي أقدِّرُ هـٰذا وقدْ كانَ ما أقدِّرُهُ ؟! فلقدْ بعثَ اللهُ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فترةٍ مِنَ الرسلِ ، وكانَ شرعُ عيسىٰ عليهِ السلامُ قدْ مضىٰ عليهِ

---

(١) كما أشار إلىٰ هـٰذا المعنى المصنف قريباً ؛ إذ استأنف النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة مشكلة الربا التي كانت مستباحة ، فوضعها ، وأول ما وضع ربا العباس رضي الله عنه .

(٢) وإليه الإشارة بما ورد في الخبر : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أي : إنه بعث لمصالح الدين والدنيا وإتمامها . « إتحاف » (٦/ ٥٠) .

قريبٌ مِنْ ستِّ مئةِ سنةٍ ، والناسُ منقسمونَ إلىٰ مكذِّبينَ لهُ مِنَ اليهودِ وعبدةِ الأوثانِ ، وإلىٰ مصدِّقينَ لهُ قدْ شاعَ الفسقُ فيهِمْ كما شاعَ في زمانِنا الآنَ ، والكفَّارُ مخاطبونَ بفروعِ الشريعةِ[١] ، والأموالُ كانتْ في أيدي المكذِّبينَ لهُ والمصدِّقينَ .

أمَّا المكذِّبونَ . . فكانوا يتعاملونَ بغيرِ شرعِ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، وأمَّا المصدِّقونَ . . فكانوا يتساهلونَ معَ أصلِ التصديقِ كما يتساهلُ الآنَ المسلمونَ معَ أنَّ العهدَ بالنبوةِ أقربُ ، فكانتِ الأموالُ كلُّها أوْ أكثرُها أوْ كثيرٌ منها حراماً ، وعفا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّا سلفَ[٢] ، ولمْ يتعرَّضْ لهُ ، وخصَّصَ أصحابَ الأيدي بالأموالِ ، ومهَّدَ الشرعَ .

وما ثبتَ تحريمُهُ في شرعٍ لا ينقلبُ حلالاً لبعثةِ رسولٍ ، ولا ينقلبُ حلالاً بأنْ يسْلِمَ الذي في يدِهِ الحرامُ ، فإنَّا لا نأخذُ في الجزيةِ مِنْ أهلِ الذمَّةِ ما يُعرفُ بعينِهِ أنَّهُ ثمنُ خمرٍ أوْ مالُ رباً ، فقدْ كانتْ أموالُهُمْ في ذلكَ الزمانِ كأموالِنا الآنَ ، وأمرُ العربِ كانَ أشدَّ ؛ لعمومِ النهْبِ والغارةِ فيهِمْ .

فبانَ أنَّ الاحتمالَ الرابعَ متعيِّنٌ في الفتوىٰ ، والاحتمالَ الخامسَ هوَ طريقُ الورعِ ، بلْ تمامُ الورعِ الاقتصارُ في المباحِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، وتركُ التوسُّعِ

---

(١) وهي مسألة مختلف فيها ، والمراد بالمخاطبة بالفروع ـ كما نقل الحافظ الزبيدي عن المجد الأيكي ـ : تضاعف العذاب بسبب ترك الفروع على العذاب بترك الإيمان . انظر « الإتحاف » (٦/ ٥١) .

(٢) كما بيَّن في خطبة الوداع ، وقد سبق .

في الدنيا بالكليَّةِ ، وذلكَ طريقُ الآخرةِ ، ونحنُ الآنَ نتكلَّمُ في الفقهِ المنوطِ بمصالحِ الخلقِ ، وفتوى الظاهرِ لهُ حكمٌ ومنهاجٌ علىٰ حسَبِ مقتضى المصالحِ ، وطريقُ الدينِ لا يقدرُ علىٰ سلوكِهِ إلا الآحادُ ، ولوِ اشتغلَ الخلقُ كلُّهُمْ بهِ . . لبطلَ النظامُ وخربَ العالمُ ؛ فإنَّ ذلكَ طلبُ ملكٍ كبيرٍ في الآخرةِ ، ولوِ اشتغلَ كلُّ الخلْقِ بطلبِ ملكِ الدنيا وتركوا الحرفَ الدنيئةَ والصناعاتِ الخسيسةَ . . بطلَ النظامُ ، ثمَّ يبطلُ ببطلانِهِ الملْكُ أيضاً ، فالمحترفونَ إنَّما سُخِّروا لينتظمَ الملْكُ للملوكِ ، وكذلكَ المقبلونَ على الدنيا سُخِّروا ليسلمَ طريقُ الدينِ لذوي الدينِ ، وهوَ ملْكُ الآخرةِ ، ولولاهُ . . لما سلمَ لذوي الدينِ أيضاً دينُهُمْ ، فشرطُ سلامةِ الدينِ لهُمْ أنْ يعرضَ الأكثرونَ عنْ طريقِهِمْ ، ويشتغلوا بأمورِ الدنيا ، وتلكَ قسمةٌ سبقَتْ بها المشيئةُ الأزليَّةُ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ .

* * *

فإنْ قيلَ : لا حاجةَ إلىٰ تقديرِ عمومِ التحريمِ حتَّىٰ لا يبقىٰ حلالٌ ، فإنَّ ذلكَ غيرُ واقعٍ ، وهوَ معلومٌ ، ولا شكَّ في أنَّ البعضَ حرامٌ ، وذلكَ البعضُ هوَ الأقلُّ أوِ الأكثرُ فيهِ نظرٌ ، وما ذكرتموهُ مِنْ أنَّهُ الأقلُّ بالإضافةِ إلى الكلِّ جليٌّ ، ولكنْ لا بدَّ مِنْ دليلٍ محصِّلٍ علىٰ تجويزِهِ ليسَ مِنَ المصالحِ المرسلةِ ، وما ذكرتموهُ مِنَ التقسيماتِ كلِّها مصالحُ مرسلةٌ ، فلا بدَّ لها مِنْ شاهدٍ معينٍ تُقاسُ عليهِ حتَّىٰ يكونَ الدليلُ مقبولاً بالاتفاقِ ، فإنَّ

بعضَ العلماءِ لا يقبلُ المصالحَ المرسلةَ .

فأقولُ : إنْ سُلِّمَ أنَّ الحرامَ هوَ الأقلُّ . . فيكفينا برهاناً عصرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصحابةِ معَ وجودِ الربا والسرقةِ والغلولِ والنهبِ ، وإنْ قُدِّرَ زمانٌ يكونُ الأكثرُ هوَ الحرامَ . . فيحلُّ التناولُ أيضاً ، **وبرهانُهُ ثلاثةُ أمورٍ** :

ـ **الأوَّلُ** : التقسيمُ الذي حصرناهُ ، وأبطلْنا منهُ أربعةَ أقسامٍ ، وأثبتنا القسمَ الخامسَ ، فإنَّ ذلكَ إذا جرىٰ فيما إذا كانَ الكلُّ حراماً . . كانَ أجرىٰ فيما إذا كانَ الحرامُ هوَ الأكثرَ أوِ الأقلَّ ، وقولُ القائلِ : (هوَ مصلحةٌ مرسلةٌ) هوسٌ ؛ فإنَّ ذلكَ إنَّما تخيَّلَ مَنْ تخيَّلَهُ في أمورٍ مظنونةٍ ، وهٰذا مقطوعٌ بهِ ، فإنَّا لا نشكُّ في أنَّ مصلحةَ الدينِ والدنيا مرادُ الشرعِ ، وهوَ معلومٌ بالضرورةِ وليسَ بمظنونٍ ، ولا شكَّ في أنَّ ردَّ كافَّةِ الناسِ إلىٰ قدْرِ الضرورةِ أوِ الحاجةِ أوْ إلى الحشيشِ والصيدِ . . مخرِّبٌ للدنيا أوَّلاً ، وللدينِ بواسطةِ الدنيا ثانياً ، فما لا يُشكُّ فيهِ لا يحتاجُ إلىٰ أصلٍ يشهدُ لهُ ، وإنَّما يُستشهدُ على الخيالاتِ المظنونةِ المتعلِّقةِ بآحادِ الأشخاصِ .

❊ ❊ ❊

ـ **البرهانُ الثاني** : أنْ يعلَّلَ بقياسٍ محرَّرٍ مردودٍ إلىٰ أصلٍ يتفقُ الفقهاءُ الآنسونَ بالأقيسةِ الجزئيةِ عليهِ، وإنْ كانتِ الجزئياتُ مستحقرةً عندَ المحصِّلينَ بالإضافةِ إلىٰ مثلِ ما ذكرناهُ مِنَ الأمرِ الكلِّيِّ الذي هوَ ضرورةُ النبيِّ لوْ بعثَ

في زمانٍ عمَّ التحريمُ فيهِ ، حتَّىٰ لوْ حكمَ بغيرِهِ . . لخرِبَ العالمُ .

والقياسُ المحرَّرُ الجزئيُّ : هوَ أنَّهُ قدْ تعارضَ أصلٌ وغالبٌ فيما انقطعتْ فيهِ العلاماتُ المعينةُ مِنَ الأمورِ التي ليسَتْ محصورةً ، فيُحكمُ بالأصلِ لا بالغالبِ ؛ قياساً علىٰ طينِ الشوارعِ وجرَّةِ النصرانيةِ وأواني المشركينَ ، وذلكَ قدْ أثبتناهُ مِنْ قبلُ بفعلِ الصحابةِ .

وقولُنا : (انقطعَتِ العلاماتُ المعينةُ) احترازٌ عنِ الأواني التي يتطرَّقُ الاجتهادُ إليها ، وقولُنا : (ليسَتْ محصورةً) احترازٌ عنِ التباسِ الميتةِ بالذكيَّةِ ، والرضيعةِ بالأجنبيةِ .

* * *

فإنْ قيلَ : كونُ الماءِ طهوراً مستيقنٌ ، وهوَ الأصلُ ، ومَنْ يسلِّمُ أنَّ الأصلَ في الأموالِ الحلُّ ؟ بلِ الأصلُ فيها التحريمُ .

فنقولُ : الأموالُ التي لا تحرمُ لصفةٍ في عينِها حرمةَ الخمرِ والخنزيرِ خُلقَتْ علىٰ صفةٍ تستعدُّ لقبولِ المعاملاتِ بالتراضي ؛ كما خُلقَ الماءُ مستعداً للوضوءِ ، وقدْ وقعَ الشكُّ في بطلانِ هـٰذا الاستعدادِ منهُما ، فلا فرقَ بينَ الأمرينِ ، فإنَّها تخرجُ عنْ قبولِ المعاملةِ بالتراضي بدخولِ الظلمِ عليها كما يخرجُ الماءُ عنْ قبولِ الوضوءِ بدخولِ النجاسةِ عليهِ ، فلا فرقَ .

والجوابُ الثاني : أنَّ اليدَ دلالةٌ ظاهرةٌ دالَّةٌ على الملكِ ، نازلةٌ منزلةَ الاستصحابِ وأقوىٰ منهُ ؛ بدليلِ أنَّ الشرعَ ألحقَها بهِ ، إذْ مَنِ ادعيَ عليهِ

دينٌ . . فالقولُ قولُهُ ؛ لأنَّ الأصلَ براءةُ ذمَّتِهِ ، وهـٰذا استصحابٌ ، ومَنِ ادعيَ عليهِ ملكٌ في يدِهِ . . فالقولُ أيضاً قولُهُ ؛ إقامةً لليدِ مقامَ الاستصحابِ ، فكلُّ ما وُجِدَ في يدِ الإنسانِ فالأصلُ أنَّهُ ملكُهُ ، ما لمْ يدلَّ علىٰ خلافِهِ علامةٌ معينةٌ .

* * *

ـ **البرهانُ الثالثُ** : هوَ أنَّ ما دلَّ علىٰ جنسٍ لا يُحصرُ ولا يدلُّ علىٰ معيَّنٍ . . لمْ يُعتبرْ وإنْ كانَ قطعاً ، فبألا يعتبرَ إذا دلَّ بطريقِ الظنِّ أولىٰ .

وبيانُهُ : أنَّ ما عُلِمَ أنَّهُ ملكُ زيدٍ فحقُّهُ يمنعُ مِنَ التصرُّفِ فيهِ بغيرِ إذنِهِ .

ولوْ عُلِمَ أنَّ لهُ مالكاً في العالمِ ولكنْ وقعَ اليأسُ عنِ الوقوفِ عليهِ وعلىٰ وارثِهِ . . فهوَ مالٌ مرصدٌ لمصالحِ المسلمينَ ، يجوزُ التصرُّفُ فيهِ بحكمِ المصلحةِ .

ولوْ دلَّ علىٰ أنَّ لهُ مالكاً محصوراً في عشرةِ أشخاصٍ مثلاً أوْ عشرينَ . . امتنعَ التصرُّفُ فيهِ بحكمِ المصلحةِ ، فالذي يشكُّ في أنَّ لهُ مالكاً سوىٰ صاحبِ اليدِ أمْ لا . . لا يزيدُ على الذي يتيقَّنُ قطعاً أنَّ لهُ مالكاً ولكنْ لا يعرفُ عينَهُ ، فليَجُزِ التصرُّفُ فيهِ بالمصلحةِ ، والمصلحةُ ما ذكرناهُ في الأقسامِ الخمسةِ ، فيكونُ هـٰذا الأصلُ شاهداً لهُ .

وكيفَ لا وكلُّ مالٍ ضائعٍ فُقِدَ مالكُهُ يصرفُهُ السلطانُ إلى المصالحِ ، ومِنَ المصالحِ الفقراءُ وغيرُهُمْ ، فلوْ صُرِفَ إلىٰ فقيرٍ . . ملكَهُ ، ونفذَ فيهِ

تصرُّفُهُ ، ولوْ سرقَهُ منهُ سارقٌ . . قُطعَتْ يدُهُ ، فكيفَ نفذَ تصرُّفُهُ في ملكِ الغيرِ ؟

ليسَ ذلكَ إلا لحكمِنا بأنَّ المصلحةَ تقتضي أنْ ينتقلَ الملكُ إليهِ ويحلَّ لهُ ، فقضينا بموجَبِ المصلحةِ .

* * *

فإنْ قيلَ : ذلكَ يختصُّ بالتصرُّفِ فيهِ السلطانُ .

فنقولُ : والسلطانُ لمْ يُجوَّزْ لهُ التصرُّفُ في ملكِ غيرِهِ بغيرِ إذنِهِ ، ولا سببَ لهُ إلا المصلحةُ ؛ وهوَ أنَّهُ لوْ تُرِكَ . . لضاعَ ، فهوَ مردَّدٌ بينَ تضييعِهِ وبينَ صرفِهِ إلىٰ مهمٍّ ، والصرفُ إلىٰ مهمٍّ أصلحُ مِنَ التضييعِ ، فرجحَ عليهِ ، والمصلحةُ فيما يُشكُّ فيهِ ولا يُعلمُ تحريمُهُ أنْ يُحكمَ فيهِ بدلالةِ اليدِ ، ويُتركَ علىٰ أربابِ الأيدي ؛ إذِ انتزاعُهُ بالشكِّ وتكليفُهُمُ الاقتصارَ على الحاجةِ . . يؤدِّي إلى الضررِ الذي ذكرناهُ ، وجهاتُ المصلحةِ تختلفُ ؛ فإنَّ السلطانَ تارةً يرىٰ مِنَ المصلحةِ أنْ يبنيَ بذلكَ المالِ قنطرةً ، وتارةً أنْ يصرفَهُ إلىٰ جندِ الإسلامِ ، وتارةً إلى الفقراءِ ، ويدورُ معَ المصلحةِ كيفما دارَتْ ؛ فكذلكَ الفتوىٰ في مثلِ هـٰذا تدورُ على المصلحةِ .

وقدْ خرجَ مِنْ هـٰذا أنَّ الخلقَ غيرُ مأخوذينَ في أعيانِ الأموالِ بظنونٍ لا تستندُ إلىٰ خصوصِ دلالةٍ في ملكِ الأعيانِ ؛ كما لمْ يُؤاخذِ السلطانُ والفقراءُ الآخذونَ منهُ بعلمِهِمْ أنَّ المالَ لهُ مالكٌ ، حيثُ لمْ يتعلَّقِ العلمُ بعينِ

مالكٍ مشارٍ إليهِ ، ولا فرقَ بينَ عينِ المالكِ وبينَ عينِ الأملاكِ في هـٰذا المعنىٰ .

فهـٰذا بيانُ شبهةِ الاختلاطِ ، ولمْ يبقَ إلا النظرُ في امتزاجِ المائعاتِ والدراهمِ والعروضِ في يدِ مالكٍ واحدٍ ، وسيأتي بيانُهُ في بابِ تفصيلِ طريقِ الخروجِ مِنَ المظالمِ .

* * *

المثار الثالث للشبهة : أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إمَّا في قرائنِهِ ، وإمَّا في لواحقِهِ ، وإمَّا في سوابقِهِ ، أوْ في عوضِهِ ، وكانتْ مِنَ المعاصي التي لا توجبُ فسادَ العقدِ وإبطالَ السببِ المحلِّلِ .

مثالُ المعصيةِ في القرائنِ : البيعُ في وقتِ النداءِ يومَ الجمعةِ ، والذبحُ بالسكينِ المغصوبةِ ، والاحتطابُ بالقَدُومِ المغصوبِ ، والبيعُ علىٰ بيعِ الغيرِ ، والسومُ علىٰ سومِهِ ، وكلُّ نهيٍ وردَ في العقودِ ولمْ يدلَّ علىٰ فسادِ العقدِ . فإنَّ الامتناعَ مِنْ جميعِ ذلكَ ورعٌ ، وإنْ لمْ يكنِ المستفادُ بهٰذهِ الأسبابِ محكوماً بتحريمِهِ .

وتسميةُ هٰذا النمطِ شبهةً فيهِ تسامحٌ ؛ لأنَّ الشبهةَ في غالبِ الأمرِ تطلقُ لإرادةِ الاشتباهِ والجهلِ(١) ، ولا اشتباهَ هٰهنا ، بلِ العصيانُ بالذبحِ بسكينِ الغيرِ معلومٌ ، وحلُّ الذبيحةِ أيضاً معلومٌ ، ولكنْ قدْ تُشتقُّ الشبهةُ مِنَ المشابهةِ ، وتناولُ الحاصلِ مِنْ هٰذهِ الأمورِ مكروهٌ ، والكراهةُ تشبهُ التحريمَ ، فإنْ أريدَ بالشبهةِ هٰذا . . فتسميةُ هٰذا شبهةً لهُ وجهٌ ، وإلا . . فينبغي أنْ يسمَّىٰ هٰذا كراهةً لا شبهةً .

---

(١) بأن يجهل حل الشيء من حرمته على الحقيقة ، ولذا عبَّر عنها بعضهم بقوله : ما لم يتعين حلُّه ولا حرمتُهُ . « إتحاف » (٦/ ٥٦) .

وإذا عُرفَ المعنىٰ . . فلا مشاحَّةَ في الأسامي ، فعادةُ الفقهاءِ التسامحُ في الإطلاقاتِ .

* * *

ثمَّ اعلمْ أنَّ هـٰذهِ الكراهةَ لها ثلاثُ درجاتٍ :

الأولىٰ منها تقربُ مِنَ الحرامِ ، والورعُ عنهُ مهمٌّ . **والأخيرةُ** تنتهي إلىٰ نوعٍ مِنَ المبالغةِ تكادُ تلتحقُ بورعِ الموسوسِينَ .

وبينهَمُا أوساطٌ نازعةٌ إلى الطرفينِ .

فالكراهةُ في صيدِ كلبٍ مغصوبٍ أشدُّ منها في الذبيحةِ بسكينٍ مغصوبٍ أوِ المقتنصِ بسهمٍ مغصوبٍ ؛ إذ الكلبُ لهُ اختيارٌ ، وقدِ اختلفَ في أنَّ الحاصلَ بهِ لمالكِ الكلبِ أوْ للصيَّادِ[1] ؟ ويليهِ البذرُ المزروعُ في أرضٍ مغصوبةٍ ؛ فإنَّ الزرعَ لمالكِ البذرِ ، ولكنْ فيهِ شبهةٌ ، ولوْ أثبتْنا حقَّ الحبْسِ لمالكِ الأرضِ في الزرعِ . . لكانَ كالثمنِ الحرامِ ، ولكنِ الأقيسُ ألا يَثبتَ حقُّ حبسٍ ؛ كما لوْ طحنَ بطاحونةٍ مغصوبةٍ أوِ اقتنصَ بشبكةٍ مغصوبةٍ ، إذْ لا يتعلَّقُ حقُّ صاحبِ الشبكةِ في منفعتِها بالصيدِ ، ويليهِ الاحتطابُ بالقَدُومِ المغصوبِ ، ثمَّ ذبحُهُ ملكَ نفسِهِ بالسكينِ المغصوبِ ؛ إذْ لمْ يذهبْ أحدٌ إلىٰ تحريمِ الذبيحةِ .

---

(١) والصياد هو الغاصب ، فمنهم من قال : (لمالك الكلب) نظراً إلى الأصل ، فلا يحل للصياد أخذه، ومنهم من قال : (للصياد، وعليه وزر الغصب) . « إتحاف » (٦/ ٥٦).

ويليهِ البيعُ في وقتِ النداءِ ؛ فإنَّهُ ضعيفُ التعلُّقِ بمقصودِ العقدِ ، وإنْ ذهبَ قومٌ إلىٰ فسادِ العقدِ[1] ؛ إذْ ليسَ فيهِ إلا أنَّهُ اشتغلَ بالبيعِ عنْ واجبٍ آخرَ كانَ عليهِ ، ولوْ أُفسدَ البيعُ بمثلِهِ . . لأُفسدَ بيعُ كلِّ مَنْ عليهِ زكاةُ درهمٍ أوْ صلاةٌ فائتةٌ وجوبُها على الفورِ ، أوْ في ذمَّتِهِ مظلمةُ دانقٍ ؛ فإنَّ الاشتغالَ بالبيعِ مانعٌ لهُ عنِ القيامِ بالواجباتِ ، فليسَ للجمعةِ إلا الوجوبُ بعدَ النداءِ .

وينجرُّ ذلكَ إلىٰ ألا يصحَّ نكاحُ أولادِ الظلمةِ وكلِّ مَنْ في ذمَّتِهِ درهمٌ ؛ لأنَّهُ اشتغلَ بقولِهِ عنِ الفعلِ الواجبِ عليهِ ، إلاَّ أنَّهُ مِنْ حيثُ وردَ في يوم الجمعةِ نهيٌ على الخصوصِ . . ربَّما سبقَ إلى الأفهامِ خصوصٌ فيهِ ، فتكونُ الكراهةُ أشدَّ ، ولا بأسَ بالحذرِ منهُ ، ولكنْ قدْ ينجرُّ إلى الوسواسِ ، حتَّىٰ يتحرَّجَ عنْ نكاحِ بناتِ أربابِ المظالمِ وسائرِ معاملاتِهِمْ .

وقدْ حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ اشترىٰ شيئاً مِنْ رجلٍ ، فسمعَ أنَّهُ اشتراهُ يومَ الجمعةِ ، فردَّهُ ؛ خيفةَ أنْ يكونَ ذلكَ ممَّا اشتراهُ وقتَ النداءِ ، وهـٰذا غايةُ المبالغةِ ؛ لأنَّهُ ردٌّ بالشكِّ ، ومثلُ هـٰذا الوهمِ في تقديرِ المناهي أوِ المفسداتِ لا ينقطعُ عنْ يومِ السبتِ وسائرِ الأيامِ ، والورعُ حسنٌ ، والمبالغةُ فيهِ أحسنُ ، ولكنْ إلىٰ حدٍّ معلومٍ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلَكَ المتنطِّعونَ »[2] .

---

(١) وهم أصحاب مالك وأحمد ، فقالوا : إن البيع فيه باطل ، والعقد فاسد . « إتحاف » (٦/ ٥٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠) .

فليحذرْ مِنْ أمثالِ هٰذهِ المبالغاتِ ؛ فإنَّها وإنْ كانتْ لا تضرُّ صاحبَها . . ربَّما أوهمَتْ عندَ الغيرِ أنَّ مثلَ ذلكَ مهمٌّ ، ثمَّ يعجزُ عمَّا هوَ أيسرُ منهُ ، فيتركُ أصلَ الورعِ ، وهوَ مستندُ أكثرِ الناسِ في زمانِنا هٰذا ؛ إذْ ضُيِّقَ عليهِمُ الطريقُ ، فأيسوا عنِ القيامِ بهِ ، فاطَّرَحُوهُ ، فكما أنَّ الموسوسَ في الطهارةِ قدْ يعجزُ عنِ الطهارةِ فيتركُها ، فكذا بعضُ الموسوسينَ في الحلالِ سبقَ إلىٰ أوهامِهِمْ أنَّ مالَ الدنيا كلَّهُ حرامٌ ، فتوسَّعوا ، وتركوا التمييزَ ، وهوَ عينُ الضلالِ .

وأمَّا مثالُ اللواحقِ : فهوَ كلُّ تصرُّفٍ يفضي في سياقِهِ إلىٰ معصيةٍ ، وأعلاهُ بيعُ العنبِ مِنَ الخمَّارِ ، وبيعُ الغلامِ مِنَ المعروفِ بالفجورِ بالغلمانِ ، وبيعُ السيفِ مِنْ قطَّاعِ الطريقِ .

وقدِ اختلفَ العلماءُ في صحَّةِ ذلكَ ، وفي حلِّ الثمنِ المأخوذِ منهُ ، والأقيسُ : أنَّ ذلكَ صحيحٌ ، والمأخوذُ حلالٌ ، والرجلُ عاصٍ بعقدِهِ ، كما يعصي بالذبحِ بالسكينِ المغصوبِ والذبيحةُ حلالٌ ، فإنَّهُ يعصي عصيانَ الإعانةِ على المعصيةِ ؛ إذ لا يتعلَّقُ ذلكَ بعينِ العقدِ ، فالمأخوذُ مِنْ هٰذا مكروهٌ كراهيةً شديدةً ، وتركُهُ مِنَ الورعِ المهمِّ ، وليسَ بحرامٍ(١) .

ويليهِ في الرتبةِ بيعُ العنبِ ممَّنْ يشربُ الخمرَ ولمْ يكنْ خمَّاراً ، وبيعُ

---

(١) وبه قال أبو حنيفة ، وذهب أحمد إلىٰ أنه باطل ، وقال مالك : يفسخ البيع ما لم يفت ، فإن فات . . تصدق بثمنه . « إتحاف » (٦/ ٥٨) .

السيفِ ممَّن يغزو ويظلمُ أيضاً ؛ لأنَّ الاحتمالَ قدْ تعارضَ ، وقدْ كرهَ السلفُ بيعَ السيفِ في وقتِ الفتنةِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يشتريَهُ ظالمٌ ، فهـٰذا ورعٌ فوقَ الأوَّلِ ، والكراهةُ فيهِ أخفُّ .

ويليهِ ما هوَ مبالغةٌ ، ويكادُ يلتحقُ بالوسواسِ ـ وهوَ قولُ جماعةٍ ـ أنَّهُ لا تجوزُ معاملةُ الفلاَّحينَ بآلاتِ الحرثِ ؛ لأنَّهُمْ يستعينونَ بها على الحراثةِ ويبيعونَ الطعامَ منَ الظلمةِ ، فلا يُباعُ منهمُ البقرُ ولا الفدَّانُ وآلاتُ الحرثِ[1] ، وهـٰذا ورعُ الوسوسةِ ؛ إذْ ينجرُّ إلىٰ ألا يُباعَ مِنَ الفلاحِ طعامٌ ؛ لأنَّهُ يتقوَّىٰ بهِ على الحراثةِ ، ولا يُسقىٰ مِنَ الماءِ العامِّ لذلكَ ، وينتهي هـٰذا إلىٰ حدِّ التنطُّعِ المنهيِّ عنهُ ، وكلُّ متوجِّهٍ إلىٰ شيءٍ علىٰ قصْدِ خيرٍ لا بدَّ وأنْ يسرفَ إنْ لمْ يزمَّهُ العلمُ المحقَّقُ[2] ، وربَّما يقدمُ علىٰ ما يكونُ بدعةً في الدينِ ليستضرَّ الناسُ بعدَهُ بها ، وهوَ يظنُّ أنَّهُ مشغولٌ بالخيرِ ، ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[3] ، والمتنطِّعونَ همُ الذينَ يُخشىٰ عليهِمْ أنْ يكونوا ممَّنْ قيلَ فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

* * *

(١) الفدَّان : آلة الحرث ، ويطلق على الثورين يحرث عليهما في قران .
(٢) يزمُّه : يمنعه . « إتحاف » (٦/ ٥٨) ، وفي (ب) : (يلزمه) .
(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

وبالجملةِ : لا ينبغي أنْ يشتغلَ الإنسانُ بدقائقِ الورعِ إلا بحضرةِ عالمٍ متقنٍ ؛ فإنَّهُ إذا جاوزَ ما رُسِمَ لهُ ، وتصرَّفَ بذهنِهِ مِنْ غيرِ سماعٍ . . كانَ ما يفسدُهُ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وقدْ رُوِيَ عنْ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ أحرقَ كرمَهُ خوفاً مِنْ أنْ يُباعَ العنبُ ممَّنْ يتخذُهُ خمراً ، وهـٰذا لا أعرفُ لهُ وجهاً[(١)] ، إنْ لمْ يعرفْ هوَ سبباً خاصاً يُوجبُ الإحراقَ ؛ إذْ ما أحرقَ نخيلَهُ وكرْمَهُ مَنْ كانَ أرفعَ قدراً منهُ منَ الصحابةِ ، ولوْ جازَ هـٰذا . . لجازَ قطعُ الذكرِ خيفةً مِنَ الزنا ، وقطعُ اللسانِ خيفةً منَ الكذبِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الإتلافاتِ .

* * *

وأمَّا المقدماتُ : فلتطرُّقِ المعصيةِ إليها أيضاً ثلاثُ درجاتٍ :

الدرجةُ العليا التي تشتدُّ الكراهةُ فيها : ما بقيَ أثرُهُ في المتناولِ ؛ كالأكلِ مِنْ شاةٍ عُلِفَتْ بعلفٍ مغصوبٍ ، أوْ رعَتْ في مرعىً حرامٍ ؛ فإنَّ ذلكَ معصيةٌ ، وقدْ كانَ سبباً لبقائِها[(٢)] ، وربَّما يكونُ الباقي مِنْ دمِها ولحمِها وأجزائِها مِنْ ذلكَ العلفِ .

وهـٰذا الورعُ مهمٌّ وإنْ لمْ يكنْ واجباً ، ونُقِلَ ذلكَ عنْ جماعةٍ مِنَ

---

(١) ولعل ذلك السبب الخاص أن الكرْم المذكور كان قد تعود الخمار بأخذ عنبه في كل سنة ، فرأى المصلحة في إحراقه . « إتحاف » (٦/ ٥٩) .

(٢) أي : العلف المذكور . « إتحاف » (٦/ ٥٩) .

السلفِ ، وكانَ لأبي عبدِ اللهِ الطوسيِّ التُّرُوغْبَذِيِّ(١) شاةٌ يحملُها علىٰ رقبتِهِ كلَّ يومٍ إلى الصحراءِ ، ويرعاها وهوَ يصلِّي ، وكانَ يأكلُ منْ لبنِها ، فغفلَ عنها ساعةً ، فتناولتْ مِنْ ورقِ كرمٍ علىٰ طرفِ بستانٍ ، فتركَها في البستانِ ، ولمْ يستحلَّ أخذَها .

* * *

فإنْ قيلَ : فقدْ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ وعبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُما اشتريا إبلاً ، فبعثاها إلى الحمىٰ(٢) ، فرعتْ فيهِ إبلُهُما حتَّىٰ سمنَتْ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أرعيتُماها في الحمى ؟ فقالا : نعمْ ، فشاطرَهُما ، وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ رأى اللحمَ الحاصلَ مِنَ العلفِ لصاحبِ العلفِ ، فليُوجبْ هـٰذا تحريماً .

قلنا : ليسَ كذلكَ ، فإنَّ العلفَ يفسدُ بالأكلِ ، واللحمُ خلقٌ جديدٌ ، وليسَ هوَ عينَ العلفِ ، فلا شركةَ لصاحبِ العلفِ شرعاً ، ولكنَّ عمرَ غرَّمَهُما قيمةَ الكلأِ ، ورأىٰ ذلكَ مثلَ شطرِ الإبلِ ، فأخذَ الشطرَ بالاجتهادِ ؛ كما شاطرَ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ مالَهُ لمَّا قدمَ منَ الكوفةِ ، وكذلكَ شاطرَ

---

(١) عارف زاهد مشهور ، نسبته إلىٰ تُرُوغْبَذ ؛ بضمتين ومعجمة ساكنة وفتح الموحدة وذال معجمة ، قرية من قرىٰ طوس .

(٢) أي : حمى النقيع بالنون والقاف ، وهي الأرض التي كان حماها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لإبل الصدقة خاصة . « إتحاف » (٦/٥٩) .

أبا هريرة رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ رأىٰ أنَّ كلَّ ذلكَ لا يستحقُّهُ العاملُ ، ورأىٰ شطرَ ذلكَ كافياً علىٰ حقِّ عملِهِمْ ، وقدَّرَهُ بالشطرِ اجتهاداً .

* * *

الرتبةُ الوسطىٰ : ما نُقِلَ عنْ بشرِ بنِ الحارثِ مِنِ امتناعِهِ عنْ ماءٍ يُساقُ في نهرٍ قدِ احتفرَهُ الظلمةُ ؛ لأنَّ النهرَ موصلٌ إليهِ ، وقدْ عُصيَ اللهُ بحفرِهِ ، وامتناعِ آخرَ عنْ عنبِ كرْمٍ يُسقىٰ بماءٍ يجري في نهرٍ حُفِرَ ظلماً ، وهوَ أرفعُ منهُ وأبلغُ في الورعِ ، وامتناعِ آخرَ منَ الشربِ مِنْ مصانعِ السلاطينِ في الطرقِ ، وأعلىٰ مِنْ ذلكَ امتناعُ ذي النونِ مِنْ طعامٍ حلالٍ أُوصلَ إليهِ علىٰ يدِ سجَّانٍ وقولُهُ : إنَّهُ جاءَني علىٰ طبقِ ظالمٍ[1] ، ودرجاتُ هٰذهِ الرتبِ لا تنحصرُ .

* * *

الرتبةُ الثالثةُ ، وهي قريبٌ مِنَ الوسواسِ والمبالغةِ : أنْ يمتنعَ مِنْ حلالٍ وصلَ علىٰ يدِ رجلٍ عصى اللهَ تعالىٰ بالزنا أوِ القذفِ ، وليسَ هٰذا كما لوْ عصىٰ بأكلِ الحرامِ ، فإنَّ الموصلَ قوَّتُهُ الحاصلةُ مِنَ الغذاءِ الحرامِ ، والزنا والقذفُ لا يوجبُ قوَّةً يُستعانُ بها على الحملِ ، بلِ الامتناعُ مِنْ أخذِ حلالٍ وصلَ علىٰ يدِ كافرٍ وسواسٌ ، بخلافِ أكلِ الحرامِ ؛ إذِ الكفرُ لا يتعلَّقُ بحملِ الطعامِ ، وينجرُّ هٰذا إلىٰ ألا يؤخذَ مِنْ يدِ مَنْ عصى اللهَ ولوْ بغيبةٍ أوْ كذْبةٍ ، وهوَ غايةُ التنطُّعِ والإسرافِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩١) .

فليضبطْ ما عرفَ مِنْ ورعِ ذي النونِ وبشرٍ بالمعصيةِ في السببِ الموصلِ ؛ كالنهرِ وقوَّةِ اليدِ المستفادةِ بالغذاءِ الحرامِ .

ولوِ امتنعَ عنِ الشربِ بالكوزِ لأنَّ الفَخَّارَ[1] الذي عملَ الكوزَ كانَ قدْ عصى اللهَ يوماً بضرْبِ إنسانٍ أوْ شتمِهِ .. لكانَ هـٰذا وسواساً ، ولوِ امتنعَ مِنْ لحمِ شاةٍ ساقَها آكلُ حرامٍ .. فهـٰذا أبعدُ مِنْ يدِ السجَّانِ ؛ لأنَّ الطعامَ يسوقُهُ قوَّةُ السجَّانِ ، والشاةُ تمشي بنفسِها ، والسائقُ يمنعُها عنِ العدولِ في الطريقِ فقطْ ، فهـٰذا قريبٌ منَ الوسواسِ .

فانظرْ كيفَ تدرَّجنا في بيانِ ما تتداعىٰ إليهِ هـٰذهِ الأمورُ .

* * *

واعلمْ : أنَّ كلَّ هـٰذا خارجٌ عنْ فتوىٰ علماءِ الظاهرِ ؛ فإنَّ فتوى الفقيهِ تختصُّ بالدرجةِ الأولى التي يمكنُ تكليفُ عامَّةِ الخلْقِ بها ، ولوِ اجتمعوا عليهِ .. لمْ يخربِ العالمُ ، دونَ ما عداهُ مِنْ ورعِ المتقينَ والصالحينَ[2] .

والفتوىٰ في هـٰذا : ما قالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوابصةَ ؛ إذْ قالَ لهُ : « استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ وأفتوكَ »[3] ، وعرَّفَ ذلكَ إذْ قالَ :

(١) **الفخَّار** هنا : الذي يعمل الأواني من الطين ، فهو كالحدَّاد والنَّحاس .
(٢) إذ الاجتماع علىٰ ورع المتقين والصالحين يؤدي إلىٰ خراب العالم كما سبق للمصنف بيانه .
(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨) .

« الإثمُ حَوَازُّ القلوبِ »(١) ، وكلُّ ما حاكَ في صدرِ المريدِ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ فلوْ أقدمَ عليهِ معَ حزازةِ القلبِ.. استضرَّ بهِ ، وأظلمَ قلبُهُ بقدْرِ الحزازةِ التي يجدُها ، بلْ لوْ أقدمَ علىٰ حرامٍ في علْمِ اللهِ تعالىٰ وهوَ يظنُّ أنَّهُ حلالٌ.. لمْ يؤثِّرْ ذلكَ في قساوةِ قلبِهِ ، ولوْ أقدمَ علىٰ ما هوَ حلالٌ في فتوىٰ علماءِ الظاهرِ ولكنَّهُ يجدُ حزازةً في قلبهِ.. فذلكَ يضرُّهُ .

وإنَّما الذي ذكرناهُ في النهيِ عنِ المبالغةِ أردْنا بهِ أنَّ القلبَ الصافيَ المعتدلَ هوَ الذي لا يجدُ حزازةً في مثلِ تلكَ الأمورِ ، فإنْ مالَ قلبُ موسوسٍ عنِ الاعتدالِ ، ووجدَ الحزازةَ ، فأقدمَ معَ ما يجدُ في قلبِهِ.. فذلكَ يضرُّهُ ؛ لأنَّهُ مأخوذٌ في حقِّ نفسِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ بفتوىٰ قلبِهِ ؛ ولذلكَ نشدِّدُ على الموسوسِ في الطهارةِ ونيَّةِ الصلاةِ ؛ فإنَّهُ إذا غلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّ الماءَ لمْ يصلْ إلىٰ جميعِ أجزائِهِ بثلاثِ مرَّاتٍ لغلبةِ الوسوسةِ عليهِ.. فيجبُ عليهِ أنْ يستعملَ الرابعةَ ، وصارَ ذلكَ حُكماً في حقِّهِ وإنْ كانَ مخطئاً في نفسِهِ .

وأولئكَ قومٌ شدَّدوا فشدَّدَ اللهُ عليهِمْ ، ولذلكَ شدَّدَ علىٰ قومِ موسىٰ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وحوازُّ القلوب ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي لفقد الطمأنينة إليها . ورواه شمر : « الإثم حوَّاز القلوب » بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروى : « الإثم حزَّاز القلوب » بزايين ، الأولىٰ مشددة وهي فعّال من الحزّ .

عليهِ السلامُ لمَّا استقصوا في السؤالِ عنِ البقرةِ ، ولوْ أخذوا أوَّلاً بعمومِ لفظِ البقرةِ وكلِّ ما ينطلقُ عليهِ اسمُ البقرةِ . . لأجزأَهُمْ ذلكَ .

فلا تغفُلْ عنْ هـٰذهِ الدقائقِ التي رددناها نفياً وإثباتاً ؛ فإنَّ مَنْ لا يطَّلعُ علىٰ كنْهِ الكلامِ ولا يحيطُ بمجامعِهِ . . يوشكُ أنْ يزلَّ في درْكِ مقاصدِهِ .

* * *

وأمَّا المعصيةُ في العوضِ . . فلها أيضاً درجاتٌ :

الدرجةُ العليا : التي تشتدُّ الكراهةُ فيها : أنْ يشتريَ شيئاً في الذمَّةِ ويقضيَ ثمنَهُ مِنْ غصبٍ أوْ مالٍ حرامٍ ، فيُنظرُ ؛ فإنْ سلَّمَ البائعُ إليهِ الطعامَ قبلَ قبضِ الثمنِ بطيبِ قلبِهِ ، فأكلَهُ قبلَ قضاءِ الثمنِ . . فهوَ حلالٌ ، وتركُهُ ليسَ بواجبٍ بالإجماعِ ؛ أعني : قبلَ قضاءِ الثمنِ ، ولا هوَ أيضاً مِنَ الورعِ المؤكَّدِ .

فإنْ قضى الثمنَ بعدَ الأكلِ مِنَ الحرامِ . . فكأنَّهُ لمْ يقضِ الثمنَ ، ولوْ لمْ يقضِهِ أصلاً . . لكانَ متقلِّداً للمظلمةِ بترْكِ ذمَّتِهِ مرتهنةً بالدَّيْنِ ، ولا ينقلبُ ذلكَ حراماً .

فإنْ قضى الثمنَ مِنَ الحرامِ ، وأبرأَهُ البائعُ معَ العلمِ بأنَّهُ حرامٌ . . فقدْ برئَتْ ذمَّتُهُ ، ولمْ يبقَ عليهِ إلا مظلمةُ تصرُّفِهِ في الدراهمِ الحرامِ بصرفِها إلى البائعِ ، وإنْ أبرأَهُ علىٰ ظنِّ أنَّ الثمنَ حلالٌ . . فلا تحصلُ البراءةُ ؛ لأنَّهُ يبرئُهُ ممَّا أخذَهُ إبراءَ استيفاءٍ ، ولا يصلحُ ذلكَ للإيفاءِ .

فهـٰذا حكمُ المشترىٰ والأكلِ منهُ وحكمُ الذمَّةِ .

وإنْ لمْ يسلِّمْ إليهِ بطيبةِ قلبٍ ولكنْ أخذَهُ . . فأكْلُهُ حرامٌ ، سواءٌ أكلَهُ قبلَ توفيةِ الثمنِ مِنَ الحرامِ أوْ بعدَهُ ؛ لأنَّ الذي نرى الفتوىٰ بهِ ثبوتُ حقِّ الحبسِ للبائعِ حتَّىٰ يتعيَّنَ ملكُهُ بإقباضِ النقدِ كما تعيَّنَ ملكُ المشتري ، وإنَّما يبطلُ حقُّ حبسِهِ إمَّا بالإبراءِ ، أوِ الاستيفاءِ ، ولمْ يجرِ شيءٌ منهما ، ولكنَّهُ أكلَ ملكَ نفسِهِ ، وهوَ عاصٍ بهِ عصيانَ الراهنِ للطعامِ إذا أكلَهُ بغيرِ إذنِ المرتهنِ(١) ، وبينَهُ وبينَ أكلِ طعامِ الغيرِ فرقٌ ، ولكنْ أصلُ التحريمِ شاملٌ ، هـٰذا كلُّهُ إذا قبضَ قبلَ توفيةِ الثمنِ ؛ إمَّا بطيبةِ قلبِ البائعِ ، أوْ مِنْ غيرِ طيبةِ قلبِهِ .

فأمَّا إذا وفَّى الثمنَ الحرامَ أوَّلاً ثمَّ قبضَ ؛ فإنْ كانَ البائعُ عالماً بأنَّ الثمنَ حرامٌ ومعَ هـٰذا أقبضَ المبيعَ . . بطلَ حقُّ حبسِهِ وبقيَ لهُ الثمنُ في ذمَّتِهِ ؛ إذْ ما أخذَهُ ليسَ بثمنٍ ، ولا يصيرُ أكلُ المبيعِ حراماً بسببِ بقاءِ الثمنِ .

فأمَّا إذا لمْ يعلمْ أنَّهُ حرامٌ وكانَ بحيثُ لوْ علمَ لما رضيَ بهِ ولا أقبضَ المبيعَ . . فحقُّ حبسِهِ لا يبطلُ بهـٰذا التلبيسِ ، فأكلُهُ حرامٌ تحريمَ أكلِ المرهونِ إلىٰ أنْ يبرئَهُ أوْ يوفِّيَ مِنْ حلالٍ ، أوْ يرضىٰ هوَ بالحرامِ ويبرئَ ، فيصحُّ إبراؤُهُ ، ولا يصحُّ رضاهُ بالحرامِ .

---

(١) إذ لو رهن الإنسان طعاماً عند غيره . . فلا يجوز لذلك الإنسان التصرف فيه بالأكل أو غيره إلا إن أذن له المرتهن . « إتحاف » (٦/ ٦١) .

فهٰذا مقتضى الفقهِ وبيانُ الحكمِ في الدرجةِ الأولىٰ منَ الحلِّ والحرمةِ ، فأمَّا الامتناعُ عنهُ . . فمِنَ الورعِ المهمِّ ؛ لأنَّ المعصيةَ إذا تمكَّنَتْ مِنَ السببِ الموصلِ إلى الشيءِ . . تشتدُّ الكراهيةُ فيهِ كما سبقَ ، وأقوى الأسبابِ الموصلةِ الثمنُ ، ولولا الثمنُ الحرامُ . . لما رضيَ البائعُ بتسليمِهِ إليهِ ، فرضاهُ لا يخرجُهُ عنْ كونِهِ مكروهاً كراهيةً شديدةً ، ولكنَّ العدالةَ لا تنخرمُ بهِ ، وتزولُ بهِ درجةُ التقوىٰ والورعِ .

ولوِ اشترىٰ سلطانٌ مثلاً ثوباً أوْ أرضاً في الذمَّةِ وقبضَهُ برضا البائعِ قبلَ توفيةِ الثمنِ ، وسلَّمَهُ إلىٰ فقيهٍ أوْ غيرِهِ صلةً أوْ خلعةً وهوَ شاكٌّ في أنَّهُ سيقضي ثمنَهُ مِنَ الحلالِ أوِ الحرامِ . . فهٰذا أخفُّ ؛ إذْ وقعَ الشكُّ في تطرُّقِ المعصيةِ إلى الثمنِ ، وتفاوتُ خفَّتِهِ بتفاوتِ كثرةِ الحرامِ وقلَّتِهِ في مالِ ذلكَ السلطانِ ، وما يغلبُ على الظنِّ فيهِ ، وبعضُهُ أشدُّ مِنْ بعضٍ ، والرجوعُ فيهِ إلىٰ ما ينقدحُ في القلبِ .

* * *

الرتبةُ الوسطىٰ : ألا يكونَ العوضُ غصباً ولا حراماً ، ولكنْ يتهيَّأُ لمعصيةٍ ؛ كما لوْ سلَّمَ عوضاً عنِ الثمنِ عنباً والآخذُ شاربُ خمرٍ ، أوْ سيفاً وهوَ قاطعُ طريقٍ ، فهٰذا لا يوجبُ تحريماً في مبيعٍ اشتراهُ في الذمَّةِ ، ولكنْ يقتضي فيهِ كراهيةً دونَ الكراهيةِ التي في الغصْبِ ، وتتفاوتُ درجاتُ هٰذهِ الرتبةِ أيضاً بتفاوتِ غلبةِ المعصيةِ علىٰ قابضِ الثمنِ وندورِها .

ومهما كانَ العوضُ عملاً حراماً . . فبذلُهُ حرامٌ ، وإنِ احتُملَ تحريمُهُ ولكنْ أُبيحَ بظنٍّ . . فبذلُهُ مكروهٌ ، وعليهِ ينزَّلُ عندي النهيُ عنْ كسبِ الحجَّامِ وكراهتُهُ[1] ؛ إذْ نهىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عنهُ مرَّاتٍ ، ثمَّ أمرَ بأنْ يُعلفَ الناضحُ[2] ، وما سبقَ إلى الوهمِ مِنْ أنَّ سببَهُ مباشرةُ النجاسةِ والقذرِ فهوَ فاسدٌ ؛ إذْ يجبُ طردُهُ في الدبَّاغِ والكنَّاسِ ، ولا قائلَ بهِ .

فإنْ قيلَ بهِ . . فلا يمكنُ طردُهُ في القصَّابِ ؛ إذْ كيفَ يكونُ كسبُهُ مكروهاً وهوَ بدلٌ عنِ اللحمِ ، واللحمُ في نفسِهِ غيرُ مكروهٍ ، ومخامرةُ القصَّابِ للنجاسةِ أكثرُ منهُ للحجَّامِ والفصَّادِ ، فإنَّ الحجَّامَ يأخذُ الدمَ بالمِحْجمةِ ويمسحُهُ بالقطنةِ .

ولكنَّ السببَ أنَّ الحجامةَ والفصدَ جراحةٌ ، وهيَ تخريبٌ لبنيةِ الحيوانِ وإخراجٌ لدمِهِ وبهِ قوامُ حياتِهِ ، والأصلُ فيهِ التحريمُ ، وإنَّما يحلُّ لضرورةٍ ، وتُعلمُ الحاجةُ والضرورةُ بحدْسٍ واجتهادٍ ، وربَّما يُظنُّ نافعاً ويكونُ ضارّاً ، فيكونُ حراماً عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ حُكِمَ بحلِّهِ بالظنِّ والحدْسِ ، ولذلكَ لا يجوزُ للفصَّادِ فصْدُ عبدٍ ولا صبيٍّ ولا معتوهٍ إلا بإذنِ وليِّهِ وقولِ طبيبٍ ،

---

(١) إذ روىٰ مسلم (١٥٦٨) مرفوعاً : « ثمن الكلب خبيث ، ومهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث » ، وعند النسائي (٧/ ٣١٠) وابن ماجه (٢١٦٥) صريح النهي عن كسب الحجام .

(٢) فقد روىٰ أبو داوود (٣٤٢٢) ، والترمذي (١٢٧٧) ، وابن ماجه (٢١٦٦) عن مُحَيِّصة أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في إجارة الحجام ، فنهاه عنها ، فلم يزل يسأله ويستأذنه حتىٰ قال : « اعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك » .

ولولا أنَّهُ حلالٌ في الظّاهرِ.. لما أعطىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أجرةَ الحجَّامِ(١) ، ولولا أنَّهُ يحتملُ التحريمَ.. لما نهىٰ عنهُ ، فلا يمكنُ الجمعُ بينَ إعطائِهِ ونهيِهِ إلا باستنباطِ هـٰذا المعنىٰ .

وهـٰذا كانَ ينبغي أنْ نذكرَهُ في القرائنِ المقرونةِ بالسببِ ؛ فإنَّهُ أقربُ إليهِ .

* * *

الرتبةُ السفلىٰ : وهي درجةُ الوسواسِ : وذلكَ أنْ يحلفَ إنسانٌ علىٰ ألا يلبسَ مِنْ غزلِ أمِّهِ ، فباعَ غزلَها ، واشترىٰ بثمنِهِ ثوباً ، فهـٰذا لا كراهيةَ فيهِ ، والورعُ عنهُ وسوسةٌ . ورُوِيَ عنِ المغيرةِ أنَّهُ قالَ في هـٰذهِ الواقعةِ : لا يجوزُ ، واستشهدَ بأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعنَ اليهودَ ؛ إذْ حُرِّمَتْ عليهمُ الخمورُ ، فباعوها وأكلوا أثمانَها(٢) ، وهـٰذا غلطٌ ؛ لأنَّ بيعَ الخمورِ باطلٌ ؛ إذْ لمْ يبقَ للخمرِ منفعةٌ في الشرعِ ، وثمنُ البيعِ الباطلِ حرامٌ(٣) .

---

(١) كما في « البخاري » (٢١٠٣) ، و« مسلم » (١٢٠٢) وفيه : (ولو كان حراماً.. لم يعطه) .

(٢) ما رواه البخاري (٢٢٢٣) ، ومسلم (١٥٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما : (بلغ عمر أن فلاناً باع خمراً فقال : قاتل الله فلاناً ، ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قاتل الله اليهود ، حرِّمت عليهم الشحوم ، فجملوها ، فباعوها ») ، ولفظ (الشحوم) وما يناسبه في السياق هو في (ب) ، وسيأتي الكلام عليه .

(٣) سبق أن أصل الحديث جاء بلفظ (الشحوم) لا (الخمور) ، ومع هـٰذا فالشاهد لا يبطل ؛ إذ الشحوم حكمها عند اليهود حكم الخمر في إثبات الحرمة ، وبيع الخمر =

وليسَ هـٰذا مِنْ ذلكَ بلْ مثالُ هـٰذا : أنْ يملكَ الرجلُ جاريةً هيَ أختُهُ مِنَ الرضاعِ ، فباعَها بجاريةٍ أجنبيةٍ ، فليسَ لأحدٍ أنْ يتورَّعَ عنهُ ، ويشبِّهَ ذلكَ ببيعِ الخمرِ ، فهـٰذا غايةُ السرفِ في هـٰذا الطرفِ .

وقدْ عرفنا جميعَ الدرجاتِ وكيفيةَ التدريجِ فيها ، وإنْ كانَ تفاوتُ هـٰذهِ الدرجاتِ لا ينحصرُ في ثلاثٍ أوْ أربعٍ ولا في عددٍ ، ولكنِ المقصودُ مِنَ التعديدِ التقريبُ والتفهيمُ .

* * *

فإنْ قيلَ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اشترىٰ ثوباً بعشرةِ دراهمَ فيها درهمٌ حرامٌ . . لمْ يقبلِ اللهُ لهُ صلاةً ما كانَ عليهِ » ، ثمَّ أدخلَ ابنُ عمرَ إصبعيهِ في أذنيهِ وقالَ : (صُمَّتا إنْ لمْ أكنْ سمعتُهُ منهُ)[1] .

= والشحم عندهم باطل ، وثمنه حرام ، وهـٰذا مستفاد من تشبيه سيدنا عمر الخمر بالشحم ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٤/ ٤١٥) : (ووجه تشبيه عمر بيع المسلمين الخمر ببيع اليهود المذاب من الشحم الاشتراكُ في النهي عن تناول كل منهما) ، وبالتعيين : النهي عن الانتفاع بهما ؛ وعليه يكون إثبات لفظ (الشحوم) ومشتقات هـٰذا الجذر في السياق كما جاء في (ب) وعدم مخالفة المصنف لنص الحديث . . غيرَ بعيد .

وقال الحافظ الزبيدي : (هـٰذا إن ثبت أن المغيرة رضي الله عنه رفعت إليه هـٰذه الحادثة بعينها من طريق صحيحة وأجاب بما تقدم ، فإني لم أر رواية المغيرة لهـٰذا الحديث في مظانها ، والله أعلم) . « إتحاف » (٦/ ٦٤) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٩٨) .

قلنا : ذلكَ محمولٌ علىٰ ما لوِ اشترىٰ بعشرةٍ بعينِها لا في الذمَّةِ ، وإذا اشترىٰ في الذمَّةِ . . فقدْ حكمْنا بالتحريمِ في أكثرِ الصورِ ، فليُحملْ عليها .

ثمَّ كمْ مِنْ مِلْكٍ يُتوعَّدُ عليهِ بمنعِ قبولِ الصلاةِ لمعصيةٍ تطرَّقَتْ إلىٰ سببِهِ ، وإنْ لمْ يدلَّ ذلكَ علىٰ فسادِ العقدِ ؛ كالمشترىٰ في وقتِ النداءِ وغيرِهِ .

* * *

المثار الرابع : الاختلاف في الأدلة

فإنَّ ذلكَ كالاختلافِ في السببِ ؛ لأنَّ السببَ سببٌ لحكمِ الحلِّ والحرمةِ ، والدليلَ سببٌ لمعرفةِ الحلِّ والحرمةِ ، فهوَ سببٌ في حقِّ المعرفةِ ، وما لمْ يثبتْ في معرفةِ العبدِ . . فلا فائدةَ في ثبوتِهِ في نفسِهِ وإنْ جرىٰ سببُهُ في علمِ اللهِ .

وهوَ إمَّا أنْ يكونَ لتعارضِ أدلةِ الشرعِ ، أوْ لتعارضِ العلاماتِ الدالَّةِ ، أوْ لتعارضِ المتشابهِ .

* * *

القسمُ الأوَّلُ : أنْ تتعارضَ أدلَّةُ الشرعِ :

مثلُ تعارضِ عمومينِ مِنَ القرآنِ أوِ السنةِ ، أوْ تعارضِ قياسينِ ، أوْ تعارضِ قياسٍ وعمومٍ .

وكلُّ ذلكَ يورثُ الشكَّ ، ويُرجَعُ فيهِ إلى الاستصحابِ ، أوِ الأصلِ المعلومِ قبلَهُ إنْ لمْ يكنْ ترجيحٌ ، فإنْ ظهرَ ترجيحٌ في جانبِ الحظْرِ . . وجبَ الأخذُ بهِ ، وإنْ ظهرَ في جانبِ الحلِّ . . جازَ الأخذُ بهِ ، ولكنَّ الورعَ تركُهُ .

واتقاءُ مواضعِ الخلافِ مهمٌّ في الورعِ في حقِّ المفتي والمقلِّدِ ، وإنْ كانَ المقلِّدُ يجوزُ لهُ أنْ يأخذَ بما أفتىٰ لهُ مقلَّدُهُ الذي يظنُّ أنَّهُ أفضلُ علماءِ بلدِهِ ،

ويعرِفُ ذلكَ بالتسامعِ ، كما يعرفُ أفضلَ أطباءِ البلدِ بالتسامعِ والقرائنِ وإنْ كانَ لا يحسنُ الطبَّ .

وليسَ للمستفتي أنْ ينتقدَ مِنَ المذاهبِ أسهلَها عليهِ وأوسعَها[١] ، بلْ عليهِ أنْ يبحثَ حتَّىٰ يغلبَ علىٰ ظنِّهِ الأفضلُ ، ثمَّ يتبعُهُ فلا يخالفُهُ أصلاً .

نعمْ ، إنْ أفتىٰ لهُ إمامُهُ بشيءٍ ولإمامِهِ فيهِ مخالفٌ ؛ فالفرارُ مِنَ الخلافِ إلى الإجماعِ منَ الورعِ المؤكّدِ ، وكذا المجتهدُ إذا تعارضَتْ عندَهُ الأدلَّةُ ، ورجَّحَ جانبَ الحلِّ بحدْسٍ وتخمينٍ وظنٍّ . . فالورعُ لهُ الاجتنابُ ، فلقدْ كانَ المفتونَ يفتونَ بحلِّ أشياءَ لا يقدمونَ عليها قطُّ ؛ تورُّعاً منها ، وحذراً مِنَ الشبهةِ فيها .

* * *

ولنقسمْ هـٰذا أيضاً علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

ـ **الرتبةُ الأولىٰ** : ما يتأكَّدُ الاستحبابُ في التورُّعِ عنهُ : وهوَ ما يقوىٰ فيهِ دليلُ المخالفِ ويدقُّ وجهُ ترجيحِ المذهبِ الآخرِ عليهِ .

فمِنَ المهمَّاتِ التورُّعُ عنْ فريسةِ الكلبِ المعلَّمِ إذا أكلَ منها وإنْ أفتى المفتي بأنَّهُ حلالٌ ؛ لأنَّ الترجيحَ فيهِ غامضٌ ، وقدِ اخترنا أنَّ ذلكَ حرامٌ ، فهوَ أقيسُ قولَيِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ ، ومهما وُجدَ للشافعيِّ قولٌ جديدٌ موافقٌ لمذهبِ أبي حنيفةَ رحمَهُ اللهُ أوْ غيرِهِ مِنَ الأئمَّةِ . . كانَ الورعُ فيه مهمّاً ، وإنْ أفتى المفتي بالقولِ الآخرِ .

---

(١) ينتقد هنا : يختار وينتقي .

ومنْ ذلكَ: الورعُ عنْ متروكِ التسميةِ وإنْ لمْ يختلفْ فيهِ قولُ الشافعيِّ[١] ؛ لأنَّ الآيةَ ظاهرةٌ في إيجابِها ، والأخبارَ متواردةٌ فيها ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لكلِّ مَنْ سألَهُ عنِ الصيدِ : « إذا أرسلتَ كلبَكَ المعلَّمَ وذكرتَ اسمَ اللهِ عليهِ . . فكُلْ »[٢] ، ونُقلَ ذلكَ على التكرارِ ، وقدْ شُهرَ الذبحُ بالتسميةِ[٣] ، وكلُّ ذلكَ يقوِّي دليلَ الاشتراطِ ، ولكنْ لمَّا صحَّ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يذبحُ على اسمِ اللهِ تعالىٰ سمَّىٰ أوْ لمْ يسمِّ »[٤] ؛ فاحتملَ أنْ يكونَ

---

(١) إذ رأى الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ أن التسمية سنة مستحبة ، وقال في « الأم » (٣/ ٥٩٣) : (لأن المسلم يذبح على اسم الله عز وجل وإن نسي) ، ويتجلى الورع في هـٰذه المسألة فيما إذا تعمد الذابح ترك التسمية ؛ إذ الجمهور علىٰ حرمة أكل مثل هـٰذه الذبيحة ، والشافعية على الكراهة . انظر « الإتحاف » (٦/ ٦٦) ، وتعليل المصنف الآتي هو بيان لمثار الشبهة في هـٰذه المسألة .

(٢) رواه البخاري (١٧٥) ، ومسلم (١٩٢٩) .

(٣) ومنه ما رواه البخاري (٢٤٨٨) ، ومسلم (١٩٦٨) : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه . . فكلوه ليس السنَّ والظُّفُرَ . . . » الحديث .

(٤) وقد رواه أبو داوود في « المراسيل » (٣٦٩) عن الصلت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر » ، وعند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٢٣٩) : عن ابن عباس رضي الله عنهما فيمن ذبح ونسي التسمية قال : (المسلم فيه اسم الله وإن لم يذكر التسمية) ، وقال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٩/ ٦٣٦) : (الحديث الذي اعتمد عليه ـ أي : الإمام الغزالي ـ وحكم بصحته . . بالغ النووي في إنكاره فقال : هو مجمع علىٰ ضعفه ، قال : وقد أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة وقال : منكر لا يحتج به) ، ثم ذكر حديث أبي داوود المرسل وقال : (الصلت يقال له : السدوسي ، ذكره ابن حبان في « الثقات » ، وهو مرسل جيد) ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ٦٧) .

هـٰذا عامّاً موجِباً لصرفِ الآيةِ وسائرِ الأخبارِ عن ظواهرِها ، ويُحتملُ أنْ يُخصَّصَ هـٰذا بالناسي وتُتركَ الظواهرُ ولا تُؤوَّلُ ، وكانَ حملُهُ على الناسي ممكناً ؛ تمهيداً لعذرِهِ في تركِ التسميةِ بالنسيانِ ، وكانَ تعميمُهُ وتأويلُ الآيةِ ممكناً إمكاناً أقربَ . . رجحْنا ذلكَ ، ولا يُنكرُ رفعُ الاحتمالِ المقابلِ لهُ ، فالورعُ عنْ مثلِ هـٰذا مهمٌّ واقعٌ في الدرجةِ الأولىٰ .

❁ ❁ ❁

ـ **الثانيةُ** : وهيَ تزاحمُ درجةِ الوسواسِ : أنْ يتورَّعَ الإنسانُ عنْ أكلِ الجنينِ الذي يصادفُ في بطنِ الحيوانِ المذبوحِ ، وعنِ الضبِّ ، وقدْ صحَّ في الصحاحِ مِنَ الأخبارِ حديثُ الجنينِ وأنَّ ذكاتَهُ ذكاةُ أمِّهِ صحَّةً لا يتطرَّقُ احتمالٌ إلىٰ متنِهِ ولا ضعفٌ إلىٰ سندِهِ[1] ، وكذلكَ صحَّ أنَّهُ أُكِلَ الضبُّ علىٰ مائدةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ نُقلَ ذلكَ في « الصحيحينِ »[2] .

فالظنُّ بأبي حنيفةَ أنَّهُ لمْ تبلغْهُ هـٰذهِ الأحاديثُ ، ولوْ بلغَتْهُ . . لقالَ بها إنْ أنصفَ ، وإنْ لمْ ينصفْ منصفٌ فيهِ . . كانَ خلافُهُ غلطاً لا يعتدُّ بهِ ولا يورثُ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨٢٧) ، والترمذي (١٤٧٦) ، وابن ماجه (٣١٩٩) ، وقد أشار الحافظ ابن الملقن في « البدر المنير » (٩/ ٤٠٠) ، والحافظ العراقي في « تخريجه » كما في نسخة الحافظ الزبيدي (٦/ ٧٠) إلىٰ أن المصنف هنا تبع في حكمه علىٰ هـٰذا الحديث شيخه إمام الحرمين الجويني في « الأساليب » ، وكلام المصنف في هـٰذه الرتبة والتي قبلها صاغه الإمام النووي في « المجموع » (٩/ ٣٢٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٧٥) ، ومسلم (١٩٤٧) .

شبهةٌ[1] ؛ كما لوْ لمْ يخالفْ ، وعُلِمَ الشيءُ بخبرِ الواحدِ[2] .

* * *

(١) القول بالكراهة أو الحرمة في أكل الضب ليس هو قول أبي حنيفة وحده ، بل هو قول الكوفيين غيره ، كما حكاه ابن بطال ، وحكاه ابن المنذر عن علي ، وابن حزم عن جابر ، وهو عند مسلم (١٩٦١) . انظر « الإتحاف » (٦/ ٧٢) .

وقد روىٰ أبو داوود (٣٧٩٦) عن عبد الرحمـٰن بن شبل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن أكل لحم الضب ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٦/ ١٠٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٤٦١) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ضب ، فلم يأكل منه ، فقلت : يا رسول الله ؛ ألا أطعمه السؤَّال ؟ قال : « لا أطعم السؤَّال إلا ما آكل منه » . قال الحافظ البدر العيني في « عمدة القاري » (١٣/ ١٣٤) : (وقال أصحابنا : الأحاديث التي وردت بإباحة أكل الضب منسوخة بأحاديثنا) إلىٰ آخر كلامه .

وعليه : فحديث : « ذكاة الجنين ذكاة أمه » ليس كما قال المصنف من كونه لا يتطرق الاحتمال إلىٰ متنه ، وقد قال ابن الملقن في « البدر المنير » (٩/ ٤٠١) بعد أن نقل قول المصنف في الحكم علىٰ هـٰذا المتن حجة من ذهب إلىٰ ترك الاحتجاج به كابن حزم والإشبيلي : (وهـٰذا من العجب العجاب ، وخير الأمور أوسطها) ، ثم لا تقف المسألة علىٰ صحة متنه ؛ فإن الاحتمال متطرق إلىٰ فهمه ، وهـٰذا ما لا حاجة فيه إلى الرد ، ثم قول الحنفية بالكراهة في أكل الضب له أصل ، أياً كان هـٰذا الأصل ، بل إن الاقتداء بتركه لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأكله تقذراً ـ وهو ما لا يخالف فيه أحد ـ لا يبعد فيه التسنن والتورع ؛ لوجود صورة القدوة به صلى الله عليه وسلم .

إذاً ؛ فأمثلة هـٰذه الرتب تتفاوت بتفاوت أقوال المجتهدين ومقلديهم ، فما يكون مباحاً دون شبهة . . قد يكون حراماً أو فيه شبهة عند بعض المجتهدين المتبعين ، وللتوسع في هذا الموضوع يرجع إلى كتاب : « أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء » للعلامة الشيخ محمد عوامة نفع الله به فإنه نافع .

(٢) وهو ما سيأتي الحديث عنه في الرتبة الثالثة الآتية .

ـ الرتبةُ الثالثةُ : ألا يشتهرَ في المسألةِ خلافٌ أصلاً ، ولكنْ يكونُ الحلُّ معلوماً بخبرِ الواحدِ ، فيقولُ القائلُ : قدِ اختلفَ الناسُ في خبرِ الواحدِ ؛ فمنهُمْ مَنْ لا يقبلُهُ[١] ، فأنا أتورَّعُ ؛ فإنَّ النَّقَلَةَ وإن كانوا عدولاً . . فالغلطُ جائزٌ عليهِمْ ، والكذبُ لغرضٍ خفيٍّ جائزٌ عليهِمْ ؛ فإنَّ العدلَ أيضاً قدْ يكذبُ ، والوهمُ جائزٌ عليهِمْ ؛ فإنَّهُ قدْ يسبقُ إلىٰ سمعِهِمْ خلافُ ما يقولُهُ القائلُ ، وكذا إلىٰ فهمِهِمْ .

فهـٰذا ورعٌ لمْ يُنقلْ مثلُهُ عنِ الصحابةِ فيما كانوا يسمعونَهُ مِنْ عدْلٍ تسكنُ نفوسُهُمْ إليهِ .

وأمَّا إذا تطرَّقتْ شبهةٌ بسببٍ خاصٍّ ودلالةٍ معيَّنةٍ في حقِّ الراوي . . فللتوقُّفِ وجهٌ ظاهرٌ وإنْ كانَ عدلاً ، وخلافُ مَنْ خالفَ في أخبارِ الآحادِ غيرُ معتدٍّ بهِ ، وهوَ كخلافِ النظَّامِ في أصلِ الإجماعِ[٢] ، وقولِهِ : (إنَّهُ ليسَ بحجَّةٍ) ، ولوْ جازَ مثلُ هـٰذا الورعِ . . لكانَ مِنَ الورعِ أنْ يمتنعَ الإنسانُ مِنْ أنْ يأخذَ ميراثَ الجدِّ أبي الأبِ ويقولَ : (ليسَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ذكرٌ إلا

---

(١) وهم الشيعة وبعض المعتزلة ، ومن المحدثين إبراهيم بن عُلَيَّة ، إلا أنه مهجور القول عند الأئمة لميله إلى الاعتزال . انظر « الإتحاف » (٦/ ٧٢ ، ٧٣) .

(٢) وإبراهيم النظَّام هو مبتدع القول برد الإجماع ، كما في « البرهان » (١/ ٦٧٠ـ٦٧٥) ، وتعرض له المصنف في « الاقتصاد » (ص٣٠٧) ورد علىٰ منكري القول بالإجماع ، ومع هـٰذا فإن النظَّام في مسألة خبر الواحد يثبت العلم به ولا يلتفت إلى العدد . انظر « المنخول » (ص٣٢٧) .

للبنينَ ، وإلحاقُ ابنِ الابنِ بالابنِ مِنْ إجماعِ الصحابةِ ، وهمْ غيرُ معصومينَ ، والغلطُ عليهِمْ جائزٌ ، وخالفَ النظَّامُ فيهِ) .

وهٰذا هوسٌ ، ويتداعىٰ إلىٰ أنْ يتركَ ما علمَ بعموماتِ القرآنِ ، إذْ منَ المتكلمينَ مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّ العموماتِ لا صيغةَ لها ، وإنَّما يُحتجُّ بما فهمَهُ الصحابةُ منها بالقرائنِ والدلالاتِ ، وكلُّ ذلكَ وسواسٌ .

فإذاً ؛ لا طرفَ مِنْ أطرافِ الشبهاتِ إلا وفيهِ غلوٌّ وإسرافٌ ، فليُفهمْ ذلكَ .

ومهما أشكلَ أمرٌ مِنْ هٰذهِ الأمورِ . فليستفتِ فيهِ القلبَ ، وليدعِ الوَرِعُ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وليتركْ حزازاتِ القلوبِ وما يحكُّ بالصدورِ ، وذلكَ يختلفُ بالأشخاصِ والوقائعِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يحفظَ قلبَهُ عنْ دواعي الوسواسِ ؛ حتَّىٰ لا يحكمَ إلا بالحقِّ ، ولا ينطويَ علىٰ حزازةٍ في مظانِّ الوسواسِ ، ولا يخلوَ عنِ الحزازةِ في مظانِّ الكراهةِ .

وما أعزَّ مثلَ هٰذا القلبِ[1] ، ولذلكَ لمْ يردَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كلَّ أحدٍ إلىٰ فتوى القلبِ، وإنَّما قالَ ذلكَ لوابصةَ لما كانَ قدْ عرفَهُ مِنْ حالِهِ[2] .

---

(١) وهٰذا القلب أعز من الذهب في سائر المعادن ، وهو القلب الذي رد إليه صلى الله عليه وسلم في الحكم لما سئل عن البر والإثم فقال : « البر ما اطمأن إليه القلب ، والإثم حواز القلوب » ، وقال : « الإثم ما حاك في صدرك » . « إتحاف » (٦/ ٧٥) ، وأصله في « القوت » (٢/ ٢٩٠) .

(٢) روىٰ ذلك الخبر أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨) .

القسمُ الثاني : أنْ تتعارضَ العلاماتُ الدالَّةُ على الحلِّ والحرمةِ[1] :

فإنَّهُ قدْ يُنهبُ نوعٌ مِنَ المتاعِ في وقتٍ ، ويندرُ وقوعُ مثلِهِ مِنْ غيرِ النهبِ ، فيُرىٰ مثلاً في يدِ رجلٍ مِنْ أهلِ الصلاحِ ، فيدلُّ صلاحُهُ علىٰ أنَّهُ حلالٌ ، ويدلُّ نوعُ المتاعِ وندورُهُ مِنْ غيرِ المنهوبِ علىٰ أنَّهُ حرامٌ ، فيتعارضُ الأمرانِ .

وكذلكَ يخبرُ عدلٌ بأنَّهُ حرامٌ ، وآخرُ بأنَّهُ حلالٌ ، أوْ تتعارضُ شهادةُ فاسقينِ ، أوْ قولُ صبيٍّ وبالغٍ !

فإنْ ظهرَ ترجيحٌ . . حُكِمَ بهِ ، والورعُ الاجتنابُ ، وإنْ لمْ يظهرْ ترجيحٌ . . وجبَ التوقُّفُ ، وسيأتي تفصيلُهُ في بابِ التعرُّفِ بالبحثِ والسؤالِ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثالثُ : تعارضُ الأشباهِ في الصفاتِ التي تُناطُ بها الأحكامُ :

مثالُهُ : أنْ يُوصىٰ بمالٍ للفقهاءِ ، فيُعلمَ أنَّ الفاضلَ في الفقهِ داخلٌ فيهِ ، وأنَّ الذي ابتدأَ التعلُّمَ مِنْ يومٍ أوْ شهرٍ لا يدخلُ فيهِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا تُحصىٰ ، يقعُ الشكُّ فيها ، فالمفتي يفتي بحسَبِ الظنِّ ، والورعُ الاجتنابُ .

---

(١) أي : تكون كل من العلامتين معارضة للأخرىٰ ؛ فإحداهما تدل علىٰ حلِّه ، والأخرىٰ علىٰ حرمته . « إتحاف » (٦/ ٧٥) .

وهـٰذا أغمضُ مثاراتِ الشبهةِ ، فإنَّ فيها صوراً يتحيَّرُ المفتي فيها تحيُّراً لازماً لا حيلةَ لهُ فيهِ ؛ إذْ يكونُ المتصفُ بصفةٍ في درجةٍ متوسطةٍ بينَ الدرجتينِ المتقابلتينِ ، لا يظهرُ لهُ ميلُهُ إلىٰ أحدِهما .

وكذلكَ الصدقاتُ المصروفةُ إلى المحتاجينَ ؛ فإنَّ مَنْ لا شيءَ لهُ معلومٌ أنَّهُ محتاجٌ ، ومَنْ لهُ مالٌ كثيرٌ معلومٌ أنَّهُ غنيٌّ ، ويتصدىٰ بينَهما مسائلُ غامضةٌ ؛ كمَنْ لهُ دارٌ ، وأثاثٌ ، وثيابٌ ، وكتبٌ ، فإنَّ قدْرَ الحاجةِ منهُ لا يمنعُ مِنَ الصرفِ إليهِ ، والفاضلُ يمنعُ ، والحاجةُ ليسَت محدودةً ، وإنَّما تُدركُ بالتقريبِ ، ويتصدىٰ منهُ النظرُ في مقدارِ سعةِ الدارِ وأبنيتِها ، ومقدارِ قيمتِها ؛ لكونِها في وسَطِ البلدِ ، ووقوعِ الاكتفاءِ بدارٍ دونَها ، وكذلكَ في نوعِ أثاثِ البيتِ إذا كانَ مِنَ الصفرياتِ لا مِنَ الخزفِ ، وكذلكَ في عددِها وكذلكَ في قيمتِها ، وكذلكَ فيما يحتاجُ إليهِ كلَّ يومٍ ، وما يحتاجُ إليهِ في كلِّ سنةٍ كآلاتِ الشتاءِ ، وما لا يحتاجُ إليهِ إلا في السنينَ ، وشيءٌ مِنْ ذلكَ لا حدَّ لهُ .

والوجهُ في مثلِ هـٰذا ما قالَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ؛ إذْ قالَ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ »[1] ، وكلُّ ذلكَ في محلِّ الريبِ .

فإنْ توقَّفَ المفتي . . فلا وجهَ إلا التوقُّفُ ، وإنْ أفتى المفتي بظنٍّ وتخمينٍ . . فالورعُ التوقُّفُ ، وهوَ أهمُّ مواضعِ الورعِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٢٠١) .

وكذلكَ ما يجبُ بقدْرِ الكفايةِ مِنْ نفقةِ الأقاربِ وكسوةِ الزوجاتِ ، وكفايةِ الفقهاءِ والعلماءِ علىٰ بيتِ المالِ ؛ إذْ فيهِ طرفانِ ؛ يُعلمُ أنَّ أحدَهُما قاصرٌ ، وأنَّ الآخرَ زائدٌ ، وبينَهُما أمورٌ متشابهةٌ تختلفُ باختلافِ الشخصِ والحالِ ، والمطلعُ على الحاجاتِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، وليسَ للبشرِ وقوفٌ علىٰ حدودِها ، فما دونَ الرَّطلِ المكيِّ في اليومِ قاصرٌ عنْ كفايةِ الرجلِ الضخمِ ، وما فوقَ ثلاثةِ أرطالٍ زائدٌ على الكفايةِ ، وما بينَهُما لا يُتحقَّقُ لهُ حدٌّ ، فليدعِ الوَرِعُ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ .

وهٰذا جارٍ في كلِّ حكمٍ نيطَ بسببٍ ، يُعرفُ ذلكَ السببُ بلفظٍ[1] ، إذِ العربُ وسائرُ أهلِ اللغاتِ لمْ يقدِّروا متضمناتِ اللغاتِ بحدودٍ محدودةٍ تنقطعُ أطرافُها عنْ مقابلاتِها ؛ كلفظِ الستَّةِ ؛ فإنَّهُ لا يحتملُ ما دونَها وما فوقَها مِنَ الأعدادِ ، وسائرِ ألفاظِ الحسابِ[2] والتقديراتِ ، فليستِ الألفاظُ اللغويَّةُ كذلكَ ، ولا لفظَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا ويتطرَّقُ الشكُّ إلىٰ أوساطٍ في مقتضياتِها ، تدورُ بينَ أطرافٍ متقابلةٍ وتعظمُ الحاجةُ إلىٰ هٰذا الفنِّ في الوصايا والأوقافِ .

فالوقفُ على الصوفيَّةِ مثلاً ممَّا يصحُّ ، ومَنِ الداخلُ تحتَ موجَبِ هٰذا اللفظِ ؟

---

(١) أي : بلفظ خاص . « إتحاف » (٦/ ٧٦) .
(٢) في (ب) : (التخمينات) بدل (الحساب) .

هٰذا مِنَ الغوامضِ ، وكذلكَ سائرُ الألفاظِ[1] ، وسنشيرُ إلىٰ مقتضىٰ لفظِ الصوفيَّةِ على الخصوصِ ؛ ليُعلمَ بهِ طريقُ التصرُّفِ في الألفاظِ ، وإلا.. فلا مطمعَ في استيفائِها ، فهٰذهِ اشتباهاتٌ تثورُ مِنْ علاماتٍ متعارضةٍ ، تجذبُ إلىٰ طرفينِ متقابلينِ ، وكلُّ ذلكَ مِنَ الشبهاتِ التي يجبُ اجتنابُها إذا لمْ يترجَّحْ جانبُ الحلِّ بدلالةٍ تغلبُ على الظنِّ أوْ باستصحابٍ ؛ بموجَبِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ » ، وبموجَبِ سائرِ الأدلَّةِ التي سبقَ ذكرُها .

فهٰذهِ مثاراتُ الشبهاتِ ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، ولوْ تظاهرَتْ شبهاتٌ شتَّىٰ علىٰ شيءٍ واحدٍ.. كانَ الأمرُ أغلظَ ؛ مثلَ أنْ يأخذَ طعاماً مختلفاً فيهِ عوضاً عنْ عنبٍ باعَهُ مِنْ خمَّارٍ بعدَ النداءِ يومَ الجمعةِ ، والبائعُ قدْ خالطَ مالَهُ حرامٌ ليسَ هوَ أكثرَ مالِهِ[2] ، ولكنَّهُ صارَ مشتبهاً بهِ ، فقدْ يؤدِّي ترادفُ الشبهاتِ إلىٰ أنْ يشتدَّ الأمرُ في اقتحامِها .

فهٰذهِ مراتبُ عرفْنا طريقَ الوقوفِ عليها ، وليسَ في قوَّةِ البشرِ حصرُها ، فما اتضحَ مِنْ هٰذا الشرحِ.. أُخذَ بهِ ، وما التبسَ.. فليُجتنبْ ؛ فإنَّ الإثمَ حَوَازُّ القلوبِ ، وحيثُ قضينا باستفتاءِ القلبِ.. أردْنا بهِ حيثُ أباحَ المفتي ، أمَّا حيثُ حرَّمَ.. فيجبُ الامتناعُ .

---

(١) كالفقهاء والعلماء والطلبة وغيرهم . « إتحاف » (٦/ ٧٧) .
(٢) فصارت الشُّبهُ أربعاً ، كل واحدة تدعو للورع .

ثمَّ لا يعوَّلُ على كلِّ قلبٍ ، فربَّ موسوسٍ ينفرُ عنْ كلِّ شيءٍ ، وربَّ شَرِهٍ متساهِلٍ يطمئنُّ إلىٰ كلِّ شيءٍ ، ولا اعتبارَ بهٰذينِ القلبينِ ، وإنَّما الاعتبارُ بقلبِ العالمِ الموفَّقِ المراقبِ لدقائقِ الأحوالِ ، فهوَ المحكُّ الذي تُمتحنُ بهِ خفايا الأمورِ ، وما أعزَّ هٰذا القلبَ في القلوبِ ، فمَنْ لمْ يثقْ بقلبِ نفسِهِ.. فليلتمسِ النورَ مِنْ قلبٍ بهٰذهِ الصفةِ ، وليعرضْ عليهِ واقعتَهُ .

وجاءَ في الزبورِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : قُلْ لبني إسرائيلَ : إنِّي لا أنظرُ إلىٰ صلاتِكُمْ ولا صيامِكُمْ ، ولكنْ أنظرُ إلىٰ مَنْ شكَّ في شيءٍ فتركَهُ لأجلي ، فذاكَ الذي أنظرُ إليهِ وأؤيِّدُهُ بنصري ، وأباهي بهِ ملائكتي(١) .

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٩٢) .

البَابُ الثَّالِثُ
في البحث والسّؤال والهجوم والإهمال ومظانّهما

اعلمْ : أنَّ كلَّ مَنْ قدَّمَ إليكَ طعاماً أوْ هديةً ، أوْ أردتَ أنْ تشتريَ منهُ أوْ تتَّهِبَ . . فليسَ لكَ أنْ تفتِّشَ عنهُ وتسألَ ، أوْ تقولَ : هـٰذا ممَّا لا أتحقَّقُ حلَّهُ ، فلا آخذُهُ ، بلْ أفتِّشُ عنهُ ، وليسَ لكَ أيضاً أنْ تتركَ البحثَ فتأخذَ كلَّ ما لا تتيقَّنُ تحريمَهُ ، بلِ السؤالُ واجبٌ مرَّةً ، وحرامٌ أخرىٰ ، ومندوبٌ مرَّةً ومكروهٌ أخرىٰ ، فلا بدَّ مِنْ تفصيلِهِ .

والقولُ الشافي فيهِ : هوَ أنَّ مَظِنَّةَ السؤالِ مواقعُ الريبةِ ، ومنشأُ الريبةِ ومثارُها : إمَّا أمرٌ يتعلَّقُ بالمالِ ، أوْ يتعلَّقُ بصاحبِ المالِ .

المثار الأوّل : أحوال المالك

ولهُ بالإضافةِ إلىٰ معرفتِكَ ثلاثةُ أحوالٍ : إمَّا أنْ يكونَ مجهولاً ، أوْ مشكوكاً فيهِ ، أوْ معلوماً بنوعِ ظنٍّ يستندُ إلىٰ دلالةٍ .

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يكونَ مجهولاً :

والمجهولُ هوَ الذي ليسَ معهُ قرينةٌ تدلُّ علىٰ فسادِهِ وظلمِهِ ؛ كزيِّ

الأجنادِ[1] ، ولا ما يدلُّ علىٰ صلاحِهِ ؛ كثيابِ أهلِ التصوُّفِ والتجارةِ والعلمِ وغيرِ ذلكَ مِنَ العلاماتِ[2] .

فإذا دخلتَ قريةً لا تعرفُها ، فرأيتَ رجلاً لا تعرفُ مِنْ حالِهِ شيئاً ، ولا عليهِ علامةٌ تنسبُهُ إلىٰ أهلِ صلاحٍ أوْ أهلِ فسادٍ . . فهوَ مجهولٌ .

وإذا دخلتَ بلدةً غريباً ، ودخلتَ سوقَها ، ووجدتَ رجلاً قصَّاباً أوْ خبَّازاً أوْ غيرَهُ ، ولا علامَةَ تدلُّ علىٰ كونِهِ مريباً[3] أوْ خائناً ، ولا ما يدلُّ علىٰ نفيِهِ . . فهـٰذا مجهولٌ لا تدري حالَهُ ، ولا نقولُ : إنَّهُ مشكوكٌ فيهِ ؛ لأنَّ الشكَّ عبارةٌ عنِ اعتقادينِ متقابلينِ ، لهما سببانِ متقابلانِ ، وأكثرُ الفقهاءِ لا يدركونَ الفرقَ بينَ ما لا يُدرىٰ وبينَ ما يُشكُّ فيهِ ، وقدْ عرفتَ بما سبقَ أنَّ الورعَ تركُ ما لا يُدرىٰ[4] .

قالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (منذُ ثلاثينَ سنةً ما حاكَ في قلبي شيءٌ إلا تركتُهُ)[5] .

---

(١) كتطويل الشوارب والثياب . « إتحاف » (٦/ ٧٨) .
(٢) فمن علامات الصوفية مدرعة وصوف أو مرقعة وتقصير الملابس ، والتجار من عمامة مدورة وغيرها ، والعلماء من فرجية وطيلسان وعمامة كبيرة . انظر « الإتحاف » (٦/ ٧٨) ، والاعتبار بزي كل زمان .
(٣) أي : محل الريب ، وفي (أ) : (مرابياً) ، وفي (ب ، ط) : (مربياً) بدل (مريباً) .
(٤) لا ترك ما يجهل . « إتحاف » (٦/ ٧٨) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٤) .

وتكلَّمَ جماعةٌ في أشدِّ الأعمالِ ، فقالوا : هوَ الورعُ ، فقالَ لهُم حسَّانُ بنُ أبي سنانٍ : ما شيءٌ أهونَ عندي مِنَ الورعِ ، إذا حاكَ في صدري شيءٌ . . تركتُهُ[1] .

فهٰذا شرطُ الورعِ ، وإنَّما نذكرُ الآنَ حكمَ الظاهرِ ، فنقولُ :

حكمُ هٰذهِ الحالةِ : أنَّ المجهولَ إنْ قدَّمَ إليكَ طعاماً ، أوْ حملَ إليكَ هديَّةً ، أوْ أردتَ أنْ تشتريَ مِنْ دكَّانِهِ شيئاً . . فلا يلزمُكَ السؤالُ ، بلْ يدُهُ وكونُهُ مسلماً دلالتانِ كافيتانِ في الهجومِ علىٰ أخذِهِ ، وليسَ لكَ أنْ تقولَ : الفسادُ والظلمُ غالبٌ على الناسِ ، فهٰذهِ وسوسةٌ ، وسوءُ ظنٍّ بهٰذا المسلمِ بعينِهِ ، وإنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ ، وهٰذا المسلمُ يستحقُّ بإسلامِهِ عليكَ ألا تسيءَ الظنَّ بهِ ، فإنْ أسأتَ الظنَّ بهِ في عينِهِ لأنَّكَ رأيتَ فساداً مِنْ غيرِهِ . . فقدْ جنيتَ عليهِ وأثمتَ بهِ في الحالِ نقداً مِنْ غيرِ شكٍّ ، ولوْ أخذتَ المالَ . . لكانَ كونُهُ حراماً مشكوكاً فيهِ .

ويدلُّ عليهِ أنَّا نعلمُ أنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُم في غزواتِهِمْ وأسفارِهِمْ كانوا ينزلونَ في القرىٰ ولا يَردُّونَ القِرَىٰ ، ويدخلونَ البلادَ ولا يحترزونَ مِنَ الأسواقِ ، وكانَ الحرامُ أيضاً موجوداً في زمانِهِمْ ، وما نُقِلَ عنهُمْ سؤالٌ إلا عنْ ريبةٍ ؛ إذْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يسألُ عنْ كلِّ ما يُحملُ إليهِ[2] ، بلْ سألَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (٤٦ ، ٤٧) .
(٢) فقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٣٥١) عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله =

في أوَّلِ قدومِهِ إلى المدينةِ عمَّا يُحملُ إليهِ : أصدقةٌ أوْ هديَّةٌ[1] ، لأنَّ قرينةَ الحالِ ـ وهوَ دخولُ المهاجرينَ المدينةَ وهمْ فقراءُ[2] ـ يغلبُ على الظنِّ أنَّ ما يُحملُ إليهِمْ يُحملُ بطريقِ الصدقةِ ، ثمَّ إسلامُ المعطي ويدُهُ لا يدلاَّن علىٰ أنَّهُ ليسَ بصدقةٍ ، وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يُدعىٰ إلى الضيافاتِ فيجيبُ ، ولا يسألُ أصدقةٌ أم لا[3] ؛ إذِ العادةُ ما جرتْ بالتصدُّقِ بالضيافةِ ؛ ولذلكَ دعتْهُ أمُّ سُليمٍ[4] ، ودعاهُ الخيَّاطُ ـ فيما رواهُ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ ـ وقدَّمَ إليهِ طعاماً فيهِ قرعٌ[5] ، ودعاهُ الرجلُ الفارسيُّ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أنا وعائشةُ ؟ » فقالَ : لا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

= صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بامرأة ، فذبحت لهم شاة. . . ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم لقمة ، فلم يستطع أن يسيغها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هـٰذه شاة ذبحت بغير إذن أهلها » ، فقالت المرأة : يا نبي الله ؛ إنا لا نحتشم من آل سعد بن معاذ ولا يحتشمون منا ، نأخذ منهم ويأخذون منا .

(١) رواه البخاري (٢٥٧٦) ، ومسلم (١٠٧٧) .

(٢) وكانوا قد خرجوا بأنفسهم متجردين عن أملاكهم فارين بدينهم . « إتحاف » (٦/٧٩) .

(٣) وأمثلة ذلك كثيرة ، منها ما رواه البخاري (٢٠٨١) ، ومسلم (٢٠٣٦) من دعوة أبي شعيب له صلى الله عليه وسلم وبضع من أصحابه ، فأجاب ولم يسأل عن أصل الطعام .

(٤) كما في « البخاري » (٣٥٧٨) ، ومسلم (٢٠٤٠) .

(٥) كما في « البخاري » (٢٠٩٢) ، ومسلم (٢٠٤١) ، إذ قدَّم إليه خبزاً ومرقاً فيه دُبَّاء وقديد ، قال أنس : (فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حوالي القصعة ، قال : فلم أزل أحب الدباء من يومئذ) .

« فلا » ، ثمَّ أجابَهُ بعدَ ذلكَ ، فذهبَ هوَ وعائشةُ يتساوقانِ ، فقرَّبَ إليهما إهالةً[1] ، ولمْ يُنقَلِ السؤالُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ .

وسألَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عبدَهُ عنْ كسبِهِ لمَّا رابَهُ مِنْ أمرِهِ شيءٌ[2] ، وسألَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ الذي سقاهُ مِنْ لبنِ إبلِ الصدقةِ إذْ رابَهُ ، وكانَ أعجبَهُ طعمُهُ ولمْ يكنْ على ما كانَ يألفُهُ كلَّ ليلةٍ[3] ، وهاذهِ أسبابُ الريبةِ .

فكلُّ مَنْ وجدَ ضيافةً عندَ رجلٍ مجهولٍ . . لمْ يكنْ عاصياً بإجابتِهِ مِنْ غيرِ تفتيشٍ ، بلْ لوْ رأى في دارِهِ تجمُّلاً ومالاً كثيراً . . فليسَ لهُ أنْ يقولَ : (الحلالُ عزيزٌ وهاذا كثيرٌ ، فمِنْ أينَ يجتمعُ هاذا مِنَ الحلالِ ؟) بلْ هاذا الشخصُ بعينِهِ إذا احتمِلَ أنْ يكونَ وَرِثَ مالاً أوِ اكتسبَهُ . . فهوَ بعينِهِ يستحقُّ إحسانَ الظنِّ بهِ ، وأزيدُ على هاذا وأقولُ : ليسَ لهُ أنْ يسألَهُ ، بلْ إنْ كانَ يتورَّعُ ولا يُدخِلُ جوفَهُ إلا ما يدري مِنْ أينَ هوَ . . فهوَ حسنٌ ، فليتلطَّفْ في التركِ ، وإنْ كانَ لا بدَّ لهُ مِنْ أكلِهِ . . فليأكلْ بغيرِ سؤالٍ ؛ إذِ السؤالُ إيذاءٌ وهتْكُ سترٍ وإيحاشٌ ، وهوَ حرامٌ بلا شكٍّ[4] .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٠٣٧) ، **والإهالة** : الشحم والودك أو ما أذيب منهما أو الزيت وما يؤتدم به .
(٢) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٢٨٧) ، وروى ذلك الأثر البخاري (٣٨٤٢) .
(٣) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٢٦٩) .
(٤) إذ قد ورد الوعيد فيمن آذى أخاه ، وفيمن هتك ستره . « إتحاف » (٦/ ٨٠) .

فإنْ قلتَ : لعلَّهُ لا يتأذّىٰ بالسؤالِ .

فأقولُ : لعلَّهُ يتأذَّىٰ ، وأنتَ تسألُ حذراً مِنْ (لعلَّ) ، فإنْ قنعتَ بـ(لعلَّ) . . فلعلَّ مالَهُ حلالٌ ! وليسَ الإثمُ المحذورُ في إيذاءِ مسلمٍ بأقلَّ مِنَ الإثمِ في أكلِ الشبهةِ أوِ الحرامِ ، والغالبُ على الناسِ الاستيحاشُ بالتفتيشِ .

ولا يجوزُ لهُ أنْ يسألَ مِنْ غيرِهِ مِنْ حيثُ يدري هوَ بهِ ؛ لأنَّ الإيذاءَ في ذلكَ أكثرُ ، وإنْ سألَ مِنْ حيثُ لا يدري هوَ . . ففيهِ إساءةُ ظنٍّ وهتكُ سترٍ ، وفيهِ تجسُّسٌ ، وفيهِ تشبيبٌ بالغيبةِ[1] وإنْ لمْ يكنْ ذلكَ صريحاً ، وكلُّ ذلكَ منهيٌّ عنهُ في آيةٍ واحدةٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا ﴾ .

وكمْ مِنْ زاهدٍ جاهلٍ يوحشُ القلوبَ في التفتيشِ ويتكلَّمُ بالكلامِ الخشنِ المؤذي ، وإنَّما يحسِّنُ الشيطانُ ذلكَ عندَهُ طلباً للشهرةِ بأكلِ الحلالِ ، ولوْ كانَ باعثُهُ محضَ الدينِ . . لكانَ خوفُهُ علىٰ قلبِ مسلمٍ أنْ يتأذَّىٰ أشدَّ مِنْ خوفِهِ علىٰ بطنِهِ أنْ يدخلَهُ ما لا يدري ، وهوَ غيرُ مؤاخذٍ بما لا يدري بهِ إنْ لمْ يكنْ ثَمَّ علامةٌ توجبُ الاجتنابَ .

فليعلمْ أنَّ طريقَ الورعِ التركُ دونَ التجسُّسِ ، وإذا لمْ يكنْ بدٌّ مِنَ الأكلِ . . فالورعُ الأكلُ وإحسانُ الظنِّ ، هـٰذا هوَ المألوفُ مِنَ الصحابةِ

---

(١) في (ب) : (تسبيب) ، وفي (ج) : (تشبيه) .

رضيَ اللهُ عنهُم ، ومَنْ زادَ عليهِمْ في الورعِ فهوَ ضالٌّ مبتدعٌ ، وليس بمتَّبعٍ ؛ فلنْ يبلغَ أحدٌ مُدَّ أحدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ ولوْ أنفقَ ما في الأرضِ جميعاً[1] .

كيفَ وقدْ أكلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طعامَ بريرةَ ، فقيلَ : إنَّهُ صدقةٌ ، فقالَ : « هوَ لها صدقةٌ ولنا هديَّةٌ »[2] ، ولمْ يسألْ عنِ المتصدِّقِ عليها ، فكانَ المتصدِّقُ مجهولاً عندَهُ ، ولمْ يمتنعْ ؟!

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ مشكوكاً فيهِ بسببِ دلالةٍ أورثَتْ ريبةً :

فلنذكرْ صورةَ الريبةِ ثمَّ حكمَها .

أمَّا الصورةُ : فهوَ أنْ تدلَّ علىٰ تحريمِ ما في يدِهِ دلالةٌ إمَّا مِنْ خلقتِهِ ، أوْ مِنْ زيِّهِ وثيابِهِ ، أوْ مِنْ فعلِهِ وقولِهِ .

ـ **أمَّا الخلقةُ :** فأنْ يكونَ علىٰ خلقةِ الأتراكِ والبوادي والمعروفينَ بالظلمِ وقطعِ الطريقِ ، وأنْ يكونَ طويلَ الشاربِ ، وأنْ يكونَ الشعرُ مفرقاً علىٰ رأسِهِ علىٰ دأبِ أهلِ الفسادِ .

ـ **وأمَّا الثيابُ :** فالقَباءُ والقلنسوةُ وزيُّ أهلِ الفسادِ والظلمِ مِنَ الأجنادِ وغيرِهِمْ[3] .

---

(١) كما في « البخاري » (٣٦٧٣) ، و« مسلم » (٢٥٤٠) .
(٢) رواه البخاري (١٤٩٣) ، ومسلم (١٠٧٤) .
(٣) وهـٰذا الذي ذكره من هيئاتهم وملابسهم فباعتبار ما كان موجوداً في زمنه ، وأما بعده . . =

ـ **وأمَّا الفعلُ والقولُ** : فهوَ أنْ يُشاهدَ منهُ الإقدامُ علىٰ ما لا يحلُّ ؛ فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ يتساهلُ أيضاً في المالِ ، ويأخذُ ما لا يحلُّ . فهٰذهِ مواضعُ الريبةِ .

فإذا أرادَ أنْ يشتريَ مِنْ مثلِ هٰذا شيئاً ، أوْ يأخذَ منهُ هديَّةً ، أوْ يجيبَهُ إلىٰ ضيافةٍ ، وهوَ غريبٌ مجهولٌ عندَهُ ، لمْ يظهرْ لهُ منهُ إلا هٰذهِ العلاماتُ . . فيُحتملُ أنْ يُقالَ : (اليدُ تدلُّ على الملكِ ، وهٰذهِ الدلالاتُ ضعيفةٌ ، فالإقدامُ جائزٌ ، والتركُ مِنَ الورعِ) ، ويُحتملُ أنْ يُقالَ : (إنَّ اليدَ دلالةٌ ضعيفةٌ ، وقدْ قابلَها مثلُ هٰذهِ الدلالةِ ، فأورثَتْ ريبةً ، فالهجومُ غيرُ جائزٍ) ، **وهوَ الذي نختارُهُ ونفتي بهِ** ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ »[1] ، وظاهرُهُ أمرٌ وإنْ كانَ يحتملُ الاستحبابَ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإثمُ حَوَازُّ القلوبِ »[2] وهٰذا لهُ وقعٌ في القلبِ لا يُنكرُ ، ولأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ : « أصدقةٌ أوْ

= فقد تغيرت أحوالهم في الهيئات والملابس علىٰ طرق شتىٰ ، والاعتبار بزي كل زمان . « إتحاف » (٦/ ٨١) .

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٢٠١) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وحَوَازُّ القلوب ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي لفقد الطمأنينة إليها .

هديَّةٌ ؟ »[1] ، وسألَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ غلامَهُ ، وسألَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ساقيَهُ ، وكلُّ ذلكَ كانَ في موضعِ الريبةِ ، وحملُهُ على الورعِ وإنْ كانَ ممكناً ولكنْ لا يُحملُ عليهِ إلا بقياسٍ حكميٍّ ، والقياسُ ليسَ يشهدُ بتحليلِ هـٰذا ؛ فإنَّ دلالةَ اليدِ والإسلامِ وقدْ عارضَتْها هـٰذهِ الدلالاتُ أورثتْ ريبةً ، فإذا تقابلا . . فالاستحلالُ لا مستندَ لهُ ، وإنَّما لا يُتركُ حكمُ اليدِ والاستصحابِ بشكٍّ لا يستندُ إلىٰ علامةٍ ؛ كما إذا وجدْنا الماءَ متغيِّراً واحتملَ أنْ يكونَ بطولِ المكثِ ، فإنْ رأينا ظبيةً بالَتْ فيهِ ، ثمَّ احتملَ التغيُّرُ بهِ وبغيرِهِ . . تركنا الاستصحابَ ، وهـٰذا قريبٌ منهُ ، ولكنْ بينَ هـٰذهِ الدلالاتِ تفاوتٌ ؛ فإنَّ طولَ الشاربِ ولبسَ القَباءِ وهيئةَ الأجنادِ يدلُّ على الظلْمِ بالمالِ ، أمَّا القولُ والفعلُ المخالفُ للشرعِ إنْ تعلَّقَ بظلمِ المالِ . . فهوَ أيضاً دليلٌ ظاهرٌ ؛ كما لوْ سمعَهُ يأمرُ بالغصْبِ والظلمِ ، أوْ يعقدُ عقدَ الربا ، فأمَّا إذا رآهُ قدْ شتمَ غيرَهُ في غضبِهِ ، أوْ أتبعَ نظرَهُ امرأةً مرَّتْ بهِ . . فهـٰذهِ الدلالةُ ضعيفةٌ ؛ فكمْ مِنْ إنسانٍ يتحرَّجُ في طلبِ المالِ ولا يكتسبُ إلا الحلالَ ومعَ ذلكَ فلا يملكُ نفسَهُ عندَ هيجانِ الغضبِ والشهوةِ .

فليُتنبَّهْ لهـٰذا التفاوتِ ، ولا يمكنُ أنْ يضبطَ هـٰذا بحدٍّ ، فليستفتِ العبدُ في مثلِ ذلكَ قلبَهُ .

وأقولُ : إنَّ هـٰذا إنْ رآهُ مِنْ مجهولٍ . . فلهُ حكمٌ ، وإنْ رآهُ ممَّنْ عرفَهُ

---

(١) رواه البخاري (٢٥٧٦) ، ومسلم (١٠٧٧) .

بالورعِ في الطهارةِ والصلاةِ وقراءةِ القرآنِ . . فلهُ حكمٌ آخرُ ؛ إذْ تعارضَتِ الدلالتانِ بالإضافةِ إلى المالِ فتساقطتا وعادَ الرجلُ كالمجهولِ ؛ إذْ ليسَتْ إحدى الدلالتينِ تناسبُ المالَ على الخصوصِ ، فكَمْ مِنْ متحرِّجٍ في المالِ لا يتحرَّجُ في غيرِهِ ، وكمْ مِنْ محسنٍ للصلاةِ والوضوءِ والقراءةِ ويأكلُ مِنْ حيثُ يجدُ ، فالحكمُ في مثلِ هـٰذهِ الوقائعِ ما يميلُ إليهِ القلبُ ، فإنَّ هـٰذا أمرٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فلا يبعدُ أنْ يُناطَ بسببٍ خفيٍّ لا يطلعُ عليهِ إلا هوَ وربُّ الأربابِ[١] ، وهوَ حكْمُ حزازةِ القلبِ .

ثمَّ ليُتنبَّهْ لدقيقةٍ أخرىٰ ، وهيَ أنَّ هـٰذهِ الدلالةَ ينبغي أنْ تكونَ بحيثُ تدلُّ علىٰ أنَّ أكثرَ مالِهِ حرامٌ ، بأنْ يكونَ جندياً ، أوْ عاملَ سلطانٍ ، أوْ نائحةً ، أوْ مغنِّياً[٢] ، فإنْ دلَّ علىٰ أنَّ في مالِهِ حراماً قليلاً . . لمْ يكنِ السؤالُ واجباً ، بلْ كانَ السؤالُ مِنَ الورعِ .

* * *

الحالةُ الثالثةُ : أنْ تكونَ الحالُ معلومةً بنوعِ خبرةٍ وممارسةٍ ؛ بحيثُ يوجبُ ذلك ظنّاً في حلِّ المالِ أوْ تحريمِهِ :

مثلَ أنْ يُعرفَ صلاحُ الرجلِ وديانتُهُ وعدالتُهُ في الظاهرِ ، وجُوِّزَ أنْ يكونَ الباطنُ بخلافِهِ ، فهـٰهنا لا يجبُ السؤالُ ولا يجوزُ ؛ كما في المجهولِ ، بلْ

---

(١) في (أ) : (لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ وهو رب الأرباب) .
(٢) في (د) : (مغنِّية) .

أولىٰ[1] ، والإقدامُ هٰهنا أبعدُ عنِ الشبهةِ مِنَ الإقدامِ علىٰ طعامِ المجهولِ ، فإنَّ ذلكَ بعيدٌ عنِ الورعِ وإنْ لمْ يكنْ حراماً .

وأمَّا أكلُ طعامِ أهلِ الصلاحِ . . فدأبُ الأنبياءِ والأولياءِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تأكلْ إلا طعامَ تقيٍّ ، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ »[2] .

فأمَّا إذا علمَ بالخبرةِ أنَّهُ جنديٌّ ، أوْ مغنٍّ ، أوْ مربٍ ، واستغنىٰ عنِ الاستدلالِ عليهِ بالهيئةِ والشكْلِ والثيابِ . . فهٰهنا السؤالُ واجبٌ لا محالةَ ؛ كما في موضعِ الريبةِ ، بلْ أولىٰ .

* * *

---

(١) أي : أولىٰ من المجهول في عدم السؤال . « إتحاف » (٦/ ٨٢) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٣٢) ، والترمذي (٢٣٩٥) بلفظ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » .

المثار الثاني : ما يستند الشك فيه إلى سببٍ في المال لا في حال المالك

وذلكَ بأنْ يختلطَ الحلالُ بالحرامِ ؛ كما إذا طُرِحَ في سوقٍ أحمالٌ مِنْ طعامٍ غصْبٍ ، واشتراها أهلُ السوقِ ، فليسَ يجبُ علىٰ مَنْ يشتري في تلكَ البلدةِ وذلكَ السوقِ أنْ يسألَ عمَّا يشتريهِ إلا أنْ يظهرَ أنَّ أكثرَ ما في أيديهِمْ حرامٌ ، فعندَ ذلكَ يجبُ السؤالُ ، فإنْ لمْ يكنْ هوَ الأكثرَ . . فالتفتيشُ مِنَ الورعِ ، وليسَ بواجبٍ ، والسوقُ الكبيرُ حكمُهُ حكْمُ بلدٍ .

والدليلُ علىٰ أنَّهُ لا يجبُ السؤالُ والتفتيشُ إذا لمْ يكنِ الأغلبُ الحرامَ . . أنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُم لمْ يمتنعوا عنِ الشراءِ في الأسواقِ وفيها دراهِمُ الربا وغلولُ الغنيمةِ وغيرُها ، وكانوا لا يسألونَ في كلِّ عقدٍ ، وإنَّما السؤالُ نُقِلَ عنْ آحادِهِمْ نادراً في بعضِ الأحوالِ ، وهيَ محالُّ الرِّيبةِ في حقِّ ذلكَ الشخصِ المعيَّنِ ، وكذلكَ كانوا يأخذونَ الغنائمَ مِنَ الكفَّارِ الذين كانُوا قدْ قاتلوا المسلمينَ ، وربَّما أخذوا أموالَهُمْ ، واحتملَ أنْ يكونَ في تلكَ المغانمِ شيءٌ ممَّا أخذوهُ مِنَ المسلمينَ ، وذلكَ لا يحلُّ أخذُهُ مجَّاناً بالاتفاقِ ، بلْ يُردُّ علىٰ صاحبِهِ عندَ الشافعيِّ ، وصاحبُهُ أولىٰ بهِ بالثمنِ عندَ أبي حنيفةَ ، ولمْ ينقلْ قطُّ التفتيشُ عنْ هـٰذا .

وكتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ أذْرَبيجانَ : (إنَّكُمْ في بلادٍ تُذبحُ فيها الميتةُ ، فانظروا ذكيَّهُ من ميتِهِ)[1] ، أَذِنَ في السؤالِ وأمَرَ بِهِ ، ولمْ يأمرْ

---

(١) بنحوه رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٣٢٠) .

بالسؤالِ عنِ الدراهمِ التي هيَ أثمانُها ؛ لأنَّ أكثرَ دراهِمِهِمْ لمْ تكنْ أثمانَ الجلودِ ، وإنْ كانَتْ هيَ أيضاً تُباعُ ، وأكثرُ الجلودِ كانَ كذلكَ .

وكذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (إنَّكُمْ في بلادٍ أكثرُ قصَّابيها المجوسُ ، فانظروا الذكيَّ مِنَ الميتةِ) ، فخصَّ بالأكثرِ الأمرَ بالسؤالِ .

ولا يتضحُ مقصودُ هـٰذا البابِ إلا بذكرِ صورٍ وفرضِ مسائلَ يكثرُ وقوعُها في العاداتِ ، فلنفرضْها .

مَسْألَة

[فيمَنْ مالُهُ مختلطٌ منَ الحلالِ والحرامِ]

شخصٌ معيَّنٌ خالطَ مالَهُ الحرامُ ، مثلَ أنْ يُباعَ علىٰ دكانِ بيَّاعٍ طعامٌ مغصوبٌ أوْ مالٌ منهوبٌ ، ومثلَ أنْ يكونَ القاضي أوِ الرئيسُ أوِ العاملُ أوِ الفقيهُ الذي لهُ إدرارٌ مِنْ سلطانٍ ظالمٍ . . لهُ أيضاً مالٌ موروثٌ ودهقنةٌ أوْ تجارةٌ[1] ، أوْ رجلٌ تاجرٌ يعاملُ بمعاملاتٍ صحيحةٍ ويُربي أيضاً .

فإنْ كانَ الأكثرُ مِنْ مالِهِ حراماً . . فلا يجوزُ الأكلُ مِنْ ضيافتِهِ ، ولا قبولُ هديَّتِهِ وصدقتِهِ إلا بعدَ التفتيشِ ؛ فإنْ ظهرَ أنَّ المأخوذَ مِنْ وجهٍ حلالٍ . . فذاكَ ، وإلا . . تُرِكَ .

وإنْ كانَ الحرامُ أقلَّ والمأخوذُ مشتبهٌ . . فهـٰذا في محلِّ النظرِ ؛ لأنَّهُ علىٰ

---

(١) والدهقنة بالفارسية : الفلاحة والزراعة هنا .

رتبةٍ بينَ الرتبتينِ ، إذْ قضينا بأنَّهُ لوِ اشتبهَ ذكيَّةٌ بعشْرِ ميتاتٍ مثلاً . . وجبَ اجتنابُ الكلِّ ، وهاذا يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ مالَ الرجلِ الواحدِ كالمحصورِ ، لا سيما إذا لمْ يكنْ كثيرَ المالِ مثلَ السلطانِ ، ويخالفُهُ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ الميتةُ يُعلمُ وجودُها في الحالِ يقيناً ، والحرامُ الذي خالطَ مالَهُ يُحتملُ أنْ يكونَ قدْ خرجَ مِنْ يدهِ وليسَ موجوداً في الحالِ .

وإنْ كانَ المالُ قليلاً وعُلِمَ قطعاً أنَّ الحرامَ موجودٌ في الحالِ . . فهوَ ومسألةُ اختلاطِ الميتةِ واحدٌ ، وإنْ كثرَ المالُ واحتملَ أنْ يكونَ الحرامُ غيرَ موجودٍ في الحالِ . . فهاذا أخفُّ مِنْ ذلكَ ، ويشبهُ مِنْ وجهِ الاختلاطَ بغيرِ محصورٍ ؛ كما في الأسواقِ والبلادِ ، ولكنَّهُ أغلظُ منهُ ؛ لاختصاصِهِ بشخصٍ واحدٍ ، ولا يُشَكُّ في أنَّ الهجومَ عليهِ بعيدٌ مِنَ الورعِ جداً ، ولكنَّ النظرَ في كونِهِ فسقاً مناقضاً للعدالةِ ، وهاذا مِنْ حيثُ المعنىٰ غامضٌ ؛ لتجاذبِ الأشباهِ ، ومِنْ حيثُ النقلُ أيضاً غامضٌ ؛ لأنَّ ما يُنقلُ فيهِ عنِ الصحابةِ مِنَ الامتناعِ في مثلِ هاذا وكذا عنِ السلفِ . . يمكنُ حملُهُ على الورعِ ، ولا يصادفُ فيهِ نصٌّ على التحريمِ .

وما يُنقلُ مِنْ إقدامِ مَنْ أقدمَ منهُمْ على الأكلِ ؛ كأكلِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ طعامَ معاويةَ مثلاً إنْ قُدِّرَ في جملةِ ما في يدِهِ حرامٌ . . فذلكَ أيضاً يُحتملُ أنْ يكونَ إقدامُهُ بعدَ التفتيشِ واستبانةِ أنَّ عينَ ما يأكلُهُ مِنْ وجهٍ مباحٍ (١) .

---

(١) بدلالة أن معاوية رضي الله عنه كان يحترز في مأكله كما هو اللائق بشأنه ، ورواية أنه كان =

فالأفعالُ في هٰذا ضعيفةُ الدلالةِ ، ومذاهبُ العلماءِ المتأخرينَ مختلفةٌ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (لوْ أعطاني السلطانُ شيئاً . . لأخذتُهُ)[1] ، وطردَ الإباحةَ فيما إذا كانَ الأكثرُ أيضاً حراماً ، مهما لمْ يعرفْ عينَ المأخوذِ واحتملَ أنْ يكونَ حلالاً ، واستدلَّ بأخذِ بعضِ السلفِ جوائزَ السلاطينِ ؛ كما سيأتي في بابِ بيانِ أموالِ السلاطينِ .

فإذا كانَ الحرامُ هوَ الأقلَّ واحتملَ ألا يكونَ موجوداً في الحالِ . . لمْ يكنِ الأكلُ حراماً ، وإنْ تُحقِّقَ وجودُهُ في الحالِ ؛ كما في مسألةِ اشتباهِ الميتةِ بالذكية . . فهٰذا ممَّا لا أدري ما أقولُ فيهِ ! وهوَ مِنَ المتشابهاتِ التي يتحيَّرُ المفتي فيها ؛ لأنَّها مترددةٌ بينَ مشابهةِ المحصورِ وغيرِ المحصورِ ، والرضيعةُ إذا اشتبهَتْ في قريةٍ فيها عشرُ نسوةٍ . . وجبَ الاجتنابُ ، وإنْ كانَ ببلدةٍ فيها عشرةُ آلافٍ . . لمْ يجبْ ، وبينَهُما أعدادٌ لوْ سئلتُ عنها . . لكنتُ لا أدري ما أقولُ فيها .

ولقدْ توقَّفَ العلماءُ في مسائلَ هيَ أوضحُ مِنْ هٰذا ؛ إذْ سئلَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمهُ اللهُ عنْ رجلٍ رمىٰ صيداً فوقعَ في ملكِ غيرِهِ : أيكونُ الصيدُ للرامي أوْ لمالكِ الأرضِ ؟ فقالَ : لا أدري ، فروجعَ فيهِ مرَّاتٍ ، فقالَ : لا أدري[2] .

= يألف مائدة معاوية ويصلي خلف علي رضي الله عن الجميع . . فهي من الأقوال المحكية التي لا يعرف لها سند . انظر « الإتحاف » (٦/ ٨٤ـ ٨٥) .

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨٩) .

(٢) كذا في « الورع » (ص١٠٣) ، والفتوىٰ لعبد الله بن المبارك رحمه الله تعالىٰ .

وكثيراً مِنْ ذلكَ حكيناهُ عنِ السلفِ في كتابِ العلمِ ، فليقطعِ المفتي طمعَهُ عنْ درْكِ الحكمِ في جميعِ الصورِ .

وقدْ سألَ ابنَ المباركِ صاحبُهُ مِنَ البصرةِ عنْ معاملتِهِ قوماً يعاملونَ السلاطينَ ، فقالَ : إنْ لمْ يعاملوا سوى السلطانِ .. فلا تعاملْهُمْ ، وإنْ عاملوا السلطانَ وغيرَهُ .. فعاملْهُمْ(١) .

وهٰذا يدلُّ على المسامحةِ في الأقلِّ ، ويحتملُ المسامحةَ في الأكثرِ أيضاً .

وبالجملةِ : فلمْ يُنقلْ عنِ الصحابةِ أنَّهُمْ كانوا يهجرونَ **بالكليّةِ** معاملةَ القصابِ والخبازِ والتاجرِ لتعاطيهِ عقداً واحداً فاسداً ، أوْ لمعاملتِهِ السلطانَ مرَّةً ، وتقديرُ ذلكَ فيهِ بعدٌ ، والمسألةُ مشكلةٌ في نفسِها .

* * *

فإنْ قيلَ : فقدْ رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ رخَّصَ فيهِ ، وقالَ : (خُذْ ما يعطيكَ السلطانُ فإنَّما يعطيكَ مِنَ الحلالِ ، وما يأخذُ مِنَ الحلالِ أكثرُ مِنَ الحرامِ) .

وسُئِلَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في ذلكَ ، فقالَ لهُ السائلُ : إنَّ لي جاراً لا أعلمُهُ إلا خبيثاً ، يدعونا ، أو نحتاجُ فنستسلفُهُ ، فقالَ : إذا دعاكَ ..

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٧٢) بنحوه .

فأجبْهُ ، وإذا احتجتَ . . فاستسلفْهُ ؛ فإنَّ لكَ المهنأَ وعليهِ المأثمَ[١] .

وأفتىٰ سلمانُ رضيَ اللهُ عنهُ بمثلِ ذلكَ[٢] .

وقدْ علَّلَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بالكثرةِ ، وعلَّلَ ابنُ مسعودٍ بطريقِ الإشارةِ بأنَّ عليهِ المأثمَ ؛ لأنَّهُ يعرفُهُ ، و(لكَ المهنأُ) أيْ : أنتَ لا تعرفُهُ .

ورُوِيَ أنَّهُ قالَ رجلٌ لابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ لي جاراً يأكلُ الربا ، فيدعونا إلىٰ طعامِهِ ، أفنأتيهِ ؟ فقالَ : نعَمْ[٣] .

ورُوِيَ ذلكَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ برواياتٍ كثيرةٍ مختلفةٍ ، وأخذَ الشافعيُّ ومالكٌ رضيَ اللهُ عنهُما جوائزَ الخلفاءِ والسلاطينِ ، معَ العلمِ بأنَّهُ قدْ خالطَ مالَهُمُ الحرامُ ؟

قلنا : أمَّا ما رُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ . . فقدِ اشتهرَ مِنْ ورعِهِ ما يدلُّ علىٰ خلافِ ذلكَ ؛ فإنَّهُ كانَ يمتنعُ مِنْ مالِ بيتِ المالِ ولا يأكلُ منهُ[٤] ، حتىٰ إنَّهُ أمرَ ببيعِ سيفِهِ[٥] ، ولا يكونُ لهُ إلا قميصٌ واحدٌ في وقتِ الغسلِ لا يجدُ

---

(١) رواه الحميري في « جزئه » (١٣) ، وسيأتي نحوه قريباً .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٤٦٧٧) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٤٦٧٥) ، وهو عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٣٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) إذ روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٠) أنه أعطىٰ جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول : (يا صفراء ويا بيضاء ؛ غري غيري ، ها وها ، حتىٰ ما بقي منه دينار ولا درهم ، ثم أمر بنضحه وصلىٰ فيه ركعتين) .

(٥) روىٰ أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨٣) عن يزيد بن محجن قال : كنت مع علي وهو بالرحبة، فدعا بسيف فسلَّه ، فقال : (من يشتري سيفي هـٰذا ؟ فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته).

غيرَهُ[1] ، ولستُ أنكرُ أنَّ رخصتَهُ صريحٌ في الجوازِ ، وفعلَهُ محتملٌ للورعِ ، ولكنَّهُ إنْ صحَّ . . فمالُ السلطانِ لهُ حكمٌ آخرُ ؛ فإنَّهُ بحكمِ كثرتِهِ يكادُ يلتحقُ بما لا يُحصَرُ ، وسيأتي بيانُ ذلكَ ، وكذلكَ فعلُ الشافعيِّ ومالكٍ رضيَ اللهُ عنهُما متعلِّقٌ بمالِ السلطانِ ، وسيأتي حكمُهُ ، وإنَّما كلامُنا في آحادِ الخلْقِ ، وأموالُهُمْ قريبةٌ مِنَ الحصْرِ .

وأمَّا قولُ ابنِ مسعودٍ . . فقيلَ : إنَّما نقلَهُ جوَّابٌ التيميُّ ، وإنَّهُ ضعيفُ الحفظِ[2] ، والمشهورُ عنهُ ما يدلُّ على توقِّي الشبهاتِ ؛ إذْ قالَ : (لا يقولنَّ أحدُكُمْ : أخافُ وأرجو ؛ فإنَّ الحلالَ بيِّنٌ والحرامَ بيِّنٌ ، وبينَ ذلكَ أمورٌ مشتبهاتٌ ، فدعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ)[3] ، وقالَ : (اجتنبوا الحكَّاكاتِ ، فإنَّ فيها الإثمَ)[4] .

* * *

فإنْ قيلَ : فلِمَ قلتُمْ : (إذا كانَ الأكثرُ حراماً . . لمْ يجزِ الأخذُ) معَ أنَّ المأخوذَ ليسَ فيهِ علامةٌ تدلُّ علىٰ تحريمِهِ على الخصوصِ ، واليدُ علامةٌ

---

(١) بنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (١/ ٨٢) .
(٢) جوَّاب التيمي : بتثقيل الواو وآخره موحدة ، صدوق رمي بالإرجاء ، صرَّح بتضعيفه ابن نمير ، وذكره ابن حبان في « الثقات » (٣/ ٢٦٤) ، وقال يعقوب بن سفيان : ثقة يتشيع . انظر « تهذيب التهذيب » (١/ ٣١٩) ، و« تقريب التهذيب » (ص١٤٣) ، و« الإتحاف » (٦/ ٨٧) .
(٣) رواه النسائي (٨/ ٢٣٠) بنحوه ، وقد سبق بعضه في المرفوع .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٧٩) .

على الملكِ ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ سرقَ مالَ مثلِ هـٰذا الرجلِ قطعَتْ يدُهُ ، والكثرةُ توجبُ ظنّاً مرسلاً لا يتعلَّقُ بالعينِ ، فليكنْ كغالبِ الظنِّ في طينِ الشوارعِ ، وغالبِ الظنِّ في الاختلاطِ بغيرِ محصورٍ إذا كانَ الأكثرُ هوَ الحرامَ ، ولا يجوزُ أنْ يُستدلَّ علىٰ هـٰذا بعمومِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ » لأنَّهُ مخصوصٌ ببعضِ المواضعِ بالاتفاقِ ، وهوَ أنْ يريبَهُ بعلامةٍ في عينِ الملكِ بدليلِ اختلاطِ القليلِ بغيرِ المحصورِ ؛ فإنَّ ذلكَ يوجبُ ريبةً ، ومعَ ذلكَ قطعتُمْ بأنَّهُ لا يحرمُ ؟!

فالجوابُ : أنَّ اليدَ دلالةٌ ضعيفةٌ ؛ كالاستصحابِ ، وإنَّما تؤثِّرُ إذا سلمَتْ عنْ معارضٍ قويٍّ ، فإذا تحقَّقْنا الاختلاطَ ، وتحقَّقْنا أنَّ الحرامَ المخالطَ موجودٌ في الحالِ ، والمالَ غيرُ خالٍ عنهُ ، وتحقَّقْنا أنَّ الأكثرَ هوَ الحرامُ ، وذلكَ في حقِّ شخصٍ معيَّنٍ يقربُ مالُهُ مِنَ الحصرِ . . ظهرَ وجوبُ الإعراضِ عنْ مقتضى اليدِ ، وإنْ لمْ يُحملْ عليهِ قولُهُ عليه الصلاةُ والسلامُ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ » . . لا يبقىٰ لهُ محملٌ ؛ إذْ لا يمكنُ أنْ يُحملَ على اختلاطِ قليلٍ بحلالٍ غيرِ محصورٍ ؛ إذْ كانَ ذلكَ موجوداً في زمانِهِ ، وكانَ لا يدعُهُ .

وعلىٰ أيِّ موضعٍ حُملَ هـٰذا . . كانَ هـٰذا في معناهُ ، وحملُهُ على التنزيهِ صرفٌ لهُ عنْ ظاهرِهِ بغيرِ قياسٍ(١) ، فإنَّ تحريمَ هـٰذا غيرُ بعيدٍ عنْ قياسٍ

---

(١) جواب لسؤال مقدر : فلم لا يجوز أن يحمل ذلك على التنزيه ولا مانع من ذلك ؟ انظر « الإتحاف » (٦/ ٨٧) .

العلاماتِ والاستصحابِ ، وللكثرةِ تأثيرٌ في تحقيقِ الظنِّ ، وكذا للحصرِ ، وقدِ اجتمعا ، حتَّىٰ قالَ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يُجتهدُ في الأواني إلا إذا كانَ الطاهرُ هوَ الأكثرَ)، فاشترطَ اجتماعَ الاستصحابِ والاجتهادِ بالعلامةِ وقوَّةِ الكثرةِ.

ومَنْ قالَ : (يأخذُ أيَّ آنيةٍ أرادَ مِنْ غيرِ اجتهادٍ) بناءً علىٰ مجرَّدِ الاستصحابِ ؛ فجوَّزَ الشربَ أيضاً.. فيلزمُهُ التجويزُ هٰهنا بمجرَّدِ علامةِ اليدِ ، ولا يجري ذلكَ في بولٍ اشتبهَ بماءٍ ؛ إذ لا استصحابَ فيهِ ، ولا نطردُهُ أيضاً في ميتةٍ اشتبهَتْ بذكيَّةٍ ؛ إذْ لا استصحابَ في الميتةِ ؛ إذِ اليدُ لا تدلُّ علىٰ أنَّها غيرُ ميتةٍ ، وتدلُّ في الطعامِ المباحِ علىٰ أنَّهُ ملكٌ ، **فهٰهنا أربعُ متعلَّقاتٍ** : استصحابٌ ، وقلةٌ في المخلوطِ أوْ كثرةٌ ، وانحصارٌ أوِ اتساعٌ في المخلوطِ بهِ ، وعلامةٌ خاصَّةٌ في عينِ الشيءِ يتعلَّقُ بها الاجتهادُ ، فمَنْ يغفُلُ عنْ مجموعِ الأربعةِ.. ربَّما يغلطُ ، فيُشبِّهُ بعضَ المسائلِ بما لا يُشبهُهُ .

فحصلَ ممَّا ذكرناهُ أنَّ المختلطَ في ملكِ شخصٍ واحدٍ : إمَّا أنْ يكونَ الحرامُ أكثرَهُ أوْ أقلَّهُ ، وكلُّ واحدٍ إمَّا أنْ يُعلمَ بيقينٍ أوْ بظنٍّ عنْ علامةٍ أوْ توهُّمٍ، والسؤالُ يجبُ في موضعينِ ، وهوَ أنْ يكونَ الحرامُ أكثرَ يقيناً أوْ ظنّاً ؛ كما لوْ رأىٰ تركياً مجهولاً يُحتملُ أنْ يكونَ كلُّ مالِهِ مِنْ غنيمةٍ ، وأنْ يكونَ مالُهُ مِنْ غيرِ غنيمةٍ يرتخصُهُ[1] ، وإنْ كانَ الأقلُّ معلوماً باليقينِ.. فهوَ محلُّ التوقُّفِ،

(١) وهٰذه الجملة زيادة من (أ) .

وتكادُ تشيرُ سيرُ أكثرِ السلفِ وضرورةُ الأحوالِ إلى الميلِ إلى الرخصةِ .

وأمَّا الأقسامُ الثلاثةُ الباقيةُ . . فالسؤالُ فيها غيرُ واجبٍ أصلاً .

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ علمَ وجودَ حرامٍ في يدٍ ، ثمَّ جهلَ : هل بقيَ منهُ شيءٌ أمْ لا ؟]

إذا حضرَ طعامَ إنسانٍ علمَ أنَّهُ دخلَ في يدهِ حرامٌ مِنْ إدرارٍ كانَ قدْ أخذَهُ ، أوْ مِنْ وجهٍ آخرَ ، ولا يدري أنَّهُ بقيَ إلى الآنَ أمْ لا . . فلهُ الأكلُ ، ولا يلزمُهُ التفتيشُ ، وإنما التفتيشُ فيهِ مِنَ الورعِ ، ولوْ علمَ أنَّهُ قدْ بقيَ منهُ شيءٌ ، ولكنْ لمْ يدرِ أنَّهُ الأكثرُ أمِ الأقلُّ . . فلهُ أنْ يأخذَ بأنَّهُ الأقلُّ ، وقدْ سبقَ أنَّ أمرَ الأقلِّ مشكلٌ ، وهـٰذا يقربُ منهُ .

مَسْأَلَةٌ

[إنْ كانَ عندَ متولِّي الوقفِ مالانِ ، وثَمَّ مَنْ يستحقُّ أحدَهُما لوجودِ صفتِهِ ، فهلْ لهُ الأخذُ دونَ سؤالٍ ؟]

إذا كانَ في يدِ المتولِّي لسبلِ الخيراتِ مِنَ الأوقافِ أوِ الوصايا مالانِ ، يستحقُّ هوَ أحدَهُما ولا يستحقُّ الثانيَ ؛ لأنَّهُ غيرُ موصوفٍ بتلكَ الصفةِ ، فهلْ لهُ أنْ يأخذَ ما يسلِّمُهُ إليهِ صاحبُ الوقفِ ؟

نُظِرَ ؛ فإنْ كانتْ تلكَ الصفةُ ظاهرةً يعرفُها المتولِّي ، وكانَ المتولِّي

ظاهرَ العدالةِ . . فلهُ أنْ يأخذَ بغيرِ بحثٍ ؛ لأنَّ الظنَّ بالمتولِّي أنَّهُ لا يصرفُ إليهِ ما يصرفُهُ إلا مِنَ المالِ الذي يستحقُّهُ .

وإنْ كانتِ الصفةُ خفيَّةً ، أوْ كانَ المتولِّي ممَّنْ عُرِفَ حالُهُ أنَّهُ يخلطُ ولا يبالي كيفَ يفعلُ . . فعليهِ السؤالُ ؛ إذْ ليسَ هـٰهنا يدٌ ولا استصحابٌ يُعوَّلُ عليهِ ، وهوَ وِزانُ سؤالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الصدقةِ والهديَّةِ عندَ تردُّدِهِ فيهما[1] ؛ لأنَّ اليدَ لا تخصِّصُ الهديَّةَ عنِ الصدقةِ ولا الاستصحابَ ، فلا ينجي منهُ إلا السؤالُ ؛ فإنَّ السؤالَ حيثُ أسقطناهُ في المجهولِ أسقطناهُ بعلامةِ اليدِ والإسلامِ ، حتَّىٰ لوْ لمْ يعلمْ أنَّهُ مسلمٌ ، وأرادَ أنْ يأخذَ مِنْ يدِهِ لحماً مِنْ ذبيحتِهِ ، واحتملَ أنْ يكونَ مجوسياً . . لمْ يجزْ لهُ ما لمْ يعرفْ أنَّهُ مسلمٌ ؛ إذِ اليدُ لا تدلُّ على الميتةِ ، ولا الصورةُ تدلُّ على الإسلامِ إلا إذا كانَ أكثرُ هـٰذا البلدِ مسلمينَ ، فيجوزُ أنْ يُظنَّ بالذي ليسَ عليهِ علامةُ الكفرِ أنَّهُ مسلمٌ وإنْ كانَ الخطأُ ممكناً فيهِ ، فلا ينبغي أنْ تلتبسَ المواضعُ التي تشهدُ فيها اليدُ والحالُ بالتي لا تشهدُ .

مَسْأَلَةٌ

[في بلدٍ فيهِ دورٌ مغصوبةٌ ، هلْ لهُ شراءُ دارٍ فيهِ ؟]

لهُ أنْ يشتريَ في البلدِ داراً وإنْ علمَ أنَّها تشتملُ علىٰ دورٍ مغصوبةٍ ؛ لأنَّ

---

(١) رواه البخاري (٢٥٧٦) ، ومسلم (١٠٧٧) .

ذلكَ اختلاطٌ بغيرِ محصورٍ ، ولكنَّ السؤالَ احتياطٌ وورعٌ .

وإنْ كانَ في سكَّةٍ عشرُ دورٍ مثلاً ، إحداها مغصوبةٌ أوْ وقفٌ . . لمْ يجزِ الشراءُ ما لمْ يتميزْ ، ويجبُ البحثُ عنهُ .

ومَنْ دخلَ بلدةً وفيها رباطاتٌ خُصِّصَ بوقفِها أربابُ المذاهبِ ، وهوَ علىٰ مذهبِ واحدٍ مِنْ جملةِ تلكَ المذاهبِ . . فليسَ لهُ أنْ يسكنَ أيَّها شاءَ ، ويأكلَ مِنْ وقفِها بغيرِ سؤالٍ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ بابِ اختلاطٍ في المحصورِ ، فلا بدَّ مِنَ التمييزِ ، ولا يجوزُ الهجومُ معَ الإبهامِ ؛ لأنَّ الرباطاتِ والمدارسَ في البلدِ لا بدَّ وأنْ تكونَ محصورةً .

مَسْأَلَةٌ

[متىٰ يمتنعُ السؤالُ ومتىٰ يجبُ]

حيثُ جعلنا السؤالَ مِنَ الورعِ . . فليسَ لهُ أنْ يسألَ صاحبَ الطعامِ والمالِ إذا لمْ يأمنْ غضبَهُ ، ولا يُؤمنُ قطُّ غضبُهُ ، وإنَّما أوجبْنا السؤالَ إذا تحقَّقَ أنَّ أكثرَ مالِهِ حرامٌ ، وعندَ ذلكَ لا يُبالىٰ بغضبِ مثلِهِ ؛ إذْ يجبُ إيذاءُ الظالمِ بأكثرَ مِنْ ذلكَ ، والغالبُ أنَّ مثلَ هـٰذا لا يغضبُ مِنَ السؤالِ .

نعم ، إنْ كانَ يأخذُ مِنْ يدِ وكيلِهِ أوْ غلامِهِ أوْ تلميذِهِ أوْ بعضِ أهلِهِ ممَّنْ هوَ تحتَ رعايتِهِ . . فلهُ أنْ يسألَ مهما استرابَ ؛ لأنَّهُمْ لا يغضبونَ مِنْ سؤالِهِ ، ولأنَّ عليهِ أنْ يسألَ ليعلِّمَهُمْ طريقَ الحلالِ ، ولذلكَ سألَ أبو بكرٍ

رضيَ اللهُ عنهُ غلامَهُ ، وسألَ عمرُ مَنْ سقاهُ مِنْ إبلِ الصدقةِ[1] ، وسألَ أبا هريرةَ أيضاً لمَّا أنْ قدمَ عليهِ بمالٍ كثيرٍ ، فقالَ : (ويحكَ ، أكلُّ هـٰذا طيِّبٌ ؟!) مِنْ حيثُ إنَّهُ تعجَّبَ مِنْ كثرتِهِ[2] ، وكانَ هوَ مِنْ رعيَّتِهِ ، لا سيما وقدْ رفقَ في صيغةِ السؤالِ .

وكذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ شيءٌ أحبَّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ عدْلِ إمامٍ ورفقِهِ ، ولا شيءَ أبغضُ إليهِ مِنْ جورِهِ وخرقِهِ)[3] .

مَسْأَلَةٌ

[في تركِ السؤالِ خوفاً منْ هتكِ السترِ وتحصيلِ البغضاءِ]

قالَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمهُ اللهُ : (لوْ كانَ لهُ صديقٌ أوْ أخٌ ، وهوَ يأمنُ غضبَهُ لوْ سألَهُ . . فلا ينبغي أنْ يسألَهُ لأجلِ الورعِ ؛ لأنَّهُ ربَّما يبدو لهُ ما كانَ مستوراً عنهُ، فيكونُ قدْ حملَهُ علىٰ هتكِ السترِ ، ثمَّ يؤدي ذلك إلى البغضاءِ) .

وما ذكرَهُ حسنٌ ؛ لأنَّ السؤالَ إذا كانَ منَ الورعِ لا مِنَ الوجوبِ . . فالورعُ في مثلِ هـٰذهِ الأمورِ احترازاً عنْ هتكِ السترِ وإثارةِ البغضاءِ أهمُّ .

---

(١) أما سؤال أبي بكر رضي الله عنه . . فقد ورد في « القوت » (٢/ ٢٨٧) ، ورواه البخاري (٣٨٤٢) ، وأما سؤال عمر رضي الله عنه . . فقد رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٢٦٩) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٣٢٣) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (١٢٨١) بنحوه ، ولكن عن عمر رضي الله عنه .

وزادَ علىٰ هـٰذا فقالَ : (وإنْ رابَهُ شيءٌ منهُ أيضاً . . لمْ يسألْهُ ، ويظنُّ بهِ أنَّهُ يطعمُهُ مِنَ الطيِّبِ ويجنِّبُهُ الخبيثَ ، فإنْ كانَ لا يطمئنُّ قلبُهُ إليهِ . . فليحترِزْ متلطِّفاً ، ولا يهتكُ سترَهُ بالسؤالِ ، قالَ : لأنِّي لمْ أرَ أحداً منَ العلماءِ فعلَهُ) .

فهـٰذا منهُ معَ ما اشتُهِرَ بهِ مِنَ الزهدِ يدلُّ علىٰ مسامحتِهِ فيما إذا خالطَ المالَ الحرامُ القليلُ ، ولكنَّ ذلكَ عندَ التوهُّمِ لا عندَ التحقُّقِ ؛ لأنَّ لفظَ الريبةِ يدلُّ على التوهُّمِ بدلالةٍ تدلُّ عليهِ ، ولا يوجبُ اليقينَ . فليراعِ هـٰذهِ الدقائقَ في السؤالِ .

مَسْأَلَةٌ

[في احتمالِ كذبِ المسؤولِ وإخفائِهِ بيانَ أصلِ المالِ]

ربَّما يقولُ القائلُ : أيُّ فائدةٍ في السؤالِ ممَّنْ بعضُ مالِهِ حرامٌ ، ومَنْ يستحلُّ المالَ الحرامَ ربَّما يكذبُ ؟ فإنْ وثقَ بأمانتِهِ . . فليثقْ بديانتِهِ في الحلالِ .

فأقولُ : مهما علمتَ بمخالطةِ الحرامِ لمالِ إنسانٍ ، وكانَ لهُ غرضٌ في حضورِكَ ضيافتَهُ ، أوْ قبولِكَ هديَّتَهُ . . فلا تحصلُ الثقةُ بقولِهِ ، فلا فائدةَ في السؤالِ منهُ ، فينبغي أنْ يسألَ مِنْ غيرِهِ ، وكذا إنْ كانَ بيَّاعاً وهوَ يُرغِّبُ في البيعِ لطلبِ الربحِ ، فلا تحصلُ الثقةُ بقولِهِ : (إنَّهُ حلالٌ) ، ولا فائدةَ في

السؤالِ منهُ ، وإنَّما يسألُ منْ غيرِهِ ، وإنَّما يسألُ مِنْ صاحبِ اليدِ إذا لمْ يكنْ متَّهماً ؛ كما يسألُ المتولِّيَ على المالِ الذي يسلِّمُهُ أنَّهُ مِنْ أيِّ جهةٍ ، وكما سألَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الهديَّةِ والصدقةِ[1] ؛ فإنَّ ذلكَ لا يُؤذي ولا يُتهمُ القائلُ فيهِ .

وكذلكَ إذا اتهمَهُ بأنَّهُ ليسَ يدري طريقَ الكسبِ الحلالِ ، فلا يُتهمُ في قولِهِ إذا أخبرَ عنْ طريقٍ صحيحٍ ، وكذلكَ يسألُ عبدَهُ وخادمَهُ ليعرفَ طريقَ اكتسابِهِ ، فهٰهنا يفيدُ السؤالُ .

فإذا كانَ صاحبُ المالِ متهماً . . فليسألْ مِنْ غيرِهِ ، فإذا أخبرَهُ عدْلٌ واحدٌ . . قبلَهُ ، وإنْ أخبرَهُ فاسقٌ يعلمُ مِنْ قرينةِ حالِهِ أنَّهُ لا يكذبُ حيثُ لا غرضَ له فيهِ . . جازَ قبولُهُ ؛ لأنَّ هٰذا أمرٌ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والمطلوبُ ثقةُ النفسِ ، وقدْ يحصلُ منَ الثقةِ بقولِ فاسقٍ ما لا يحصلُ بقولِ عدْلٍ في بعضِ الأحوالِ ، وليسَ كلُّ مَنْ فسقَ يكذبُ ، ولا كلُّ مَنْ تُرى العدالةُ في ظاهرِهِ يصدقُ ، وإنَّما نيطتِ الشهادةُ بالعدالةِ الظاهرةِ لضرورةِ الحكمِ ؛ فإنَّ البواطنَ لا يُطلعُ عليها ، وقدْ قبلَ أبو حنيفةَ رحمهُ اللهُ شهادةَ الفاسقِ ، وكم مِنْ شخصٍ تعرفُهُ ، وتعرفُ أنَّهُ قدْ يقتحمُ المعاصيَ ، ثمَّ إذا أخبركَ بشيءٍ . . وثقتَ بهِ .

(١) رواه البخاري (٢٥٧٦) ، ومسلم (١٠٧٧) .

وكذلكَ إذا أخبرَ بهِ صبيٌّ مميِّزٌ ممَّنْ عرفتَهُ بالتثبُّتِ ، فقدْ تحصلُ الثقةُ بقولِهِ ، فيحلُّ الاعتمادُ عليهِ .

فأمَّا إذا أخبرَ بهِ مجهولٌ لا يُدرىٰ مِنْ حالِهِ شيءٌ أصلاً . . فهٰذا ممَّنْ جوزْنا الأكلَ مِنْ يدِهِ ؛ لأنَّ يدَهُ دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ ملكِهِ ، وربَّما يقالُ : إسلامُهُ دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ صدقِهِ ، وهٰذا فيهِ نظرٌ ، ولا يخلو قولُهُ عنْ أثرٍ ما في النفسِ ، حتَّىٰ لوِ اجتمعَ منهُمْ جماعةٌ . . لأفادَ اجتماعُهُمْ ظنّاً قويّاً ، إلاَّ أنَّ أثرَ الواحدِ فيهِ في غايةِ الضعفِ ، فليُنظرْ إلىٰ حدِّ تأثيرِهِ في القلبِ ؛ فإنَّ المفتيَ هوَ القلبُ في مثلِ هٰذا الموضعِ ، وللقلبِ التفاتاتٌ إلىٰ قرائنَ خفيَّةٍ يضيقُ عنها نطاقُ النطقِ ، فليُتأملْ فيهِ .

ويدلُّ علىٰ وجوبِ الالتفاتِ إليهِ ما رُوِيَ عنْ عقبةَ بنِ الحارثِ أنَّهُ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : إنِّي تزوَّجتُ امرأةً ، فجاءَتْ أمةٌ سوداءُ ، فزعمَتْ أنَّها قدْ أرضعتْنا ، وهيَ كاذبةٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دَعْها » فقالَ : إنَّها سوداءُ ـ يصغِّرُ مِنْ شأنِها ـ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فكيفَ وقدْ زعمَتْ أنَّها قدْ أرضعتْكُما ؟! لا خيرَ لكَ فيها ، دعْها عنكَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « كيفَ وقدْ قيلَ ؟! »(١) ، ومهما لمْ يعلمْ كذبَ المجهولِ ، ولمْ تظهرْ أمارةُ غرضٍ لهُ فيهِ . . كانَ لهُ وقعٌ في القلبِ لا محالةَ ، فلذلكَ يتأكَّدُ الأمرُ بالاحترازِ ، فإنِ اطمأنَّ إليهِ القلبُ . . كانَ الاحترازُ حتماً واجباً .

---

(١) الحديث رواه بألفاظ متقاربة البخاري (٥١٠٥) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٧) .

مَسْأَلَةٌ

[في تعارضِ أقوالِ المخبرينَ]

حيثُ يجبُ السؤالُ ؛ فلوْ تعارضَ قولُ عدلينِ . . تساقطا ، وكذا قولُ فاسقينِ ، ويجوزُ أنْ يترجَّحَ في قلبِهِ قولُ أحدِ العدلينِ أوْ أحدِ الفاسقينِ .

ويجوزُ أنْ يترجَّحَ أحدُ الجانبينِ بالكثرةِ أوْ بالاختصاصِ بالخبرةِ والمعرفةِ ، وذلكَ ممَّا يتشعَّبُ تصويرُهُ .

مَسْأَلَةٌ

[في نهبِ متاعٍ ثمَّ وجودِهِ في يدٍ ، فهلْ يجوزُ ابتياعُهُ ؟]

لوْ نُهِبَ متاعٌ مخصوصٌ ، فصادفَ مِنْ ذلكَ النوعِ متاعاً في يدِ إنسانٍ ، وأرادَ أنْ يشتريَهُ ، واحتملَ ألا يكونَ مِنَ المغصوبِ ؛ فإنْ كانَ ذلكَ الشخصُ ممَّنْ عرفَهُ بالصلاحِ . . جازَ الشراءُ ، وكانَ تركُهُ مِنَ الورعِ ، وإنْ كانَ الرجلُ مجهولاً لا يعرفُ منهُ شيئاً ؛ فإنْ كانَ يكثرُ نوعُ ذلكَ المتاعِ مِنْ غيرِ المغصوبِ . . فلهُ أنْ يشتريَ ، وإنْ كانَ لا يوجدُ ذلكَ المتاعُ في تلكَ البقعةِ إلا نادراً ، وإنَّما كثرَ بسببِ الغصبِ . . فليسَ يدلُّ على الحلِّ إلا اليدُ ، وقدْ عارضَتْها علامةٌ خاصَّةٌ مِنْ شكلِ المتاعِ ونوعِهِ ؛ فالامتناعُ عنْ شرائِهِ مِنَ الورعِ المهمِّ ، ولكنَّ الوجوبَ فيهِ نظرٌ ؛ فإنَّ العلامةَ متعارضةٌ ، ولستُ أقدرُ علىٰ أنْ أحكمَ فيهِ بحكمٍ إلا أنْ أردَّهُ إلىٰ قلْبِ المستفتي لينظرَ ما الأقوىٰ في

نفسِهِ ؟ فإنْ كانَ الأقوىٰ أنَّهُ مغصوبٌ . . لزمَهُ تركُهُ ، وإلا . . حلَّ لهُ شراؤُهُ .

وأكثرُ هٰذهِ الوقائعِ يلتبسُ الأمرُ فيها ، فهيَ مِنَ المتشابهاتِ التي لا يعرفُها كثيرٌ مِنَ الناسِ ، فمَنْ توقَّاها . . فقدِ استبرأَ لدينِهِ وعرضِهِ ، ومَنِ اقتحمَها . . فقدْ حامَ حَولَ الحمىٰ وخاطرَ بنفسِهِ .

مَسْأَلَةٌ

[في عددِ الأصولِ التي يجبُ السؤالُ عنْها وضابطُ ذلكَ]

لوْ قالَ قائلٌ : قدْ سألَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ لبنٍ قُدِّمَ إليهِ ، فذُكِرَ أنَّهُ مِنْ شاةٍ ، فسألَ عنِ الشاةِ مِنْ أينَ هيَ ، فذُكِرَ لهُ ، فسكتَ عنِ السؤالِ[1] ، أفيجبُ السؤالُ عنْ أصلِ المالِ أم لا ؟ وإنْ وجبَ . . فعنْ أصلٍ واحدٍ أوِ اثنينِ أوْ ثلاثةٍ ؟ وما الضبطُ فيهِ ؟

فأقولُ : لا ضبطَ فيهِ ولا تقديرَ ، بلْ ينظرُ إلى الريبةِ المقتضيةِ للسؤالِ ، إمَّا وجوباً أوْ ورعاً ، ولا غايةَ للسؤالِ إلا حيثُ تنقطعُ الريبةُ المقتضيةُ لهُ ، وذلكَ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ ، فإنْ كانَتِ التهمةُ مِنْ حيثُ لا يدري صاحبُ اليدِ كيفَ طريقُ الكسبِ الحلالِ ؛ فإنْ قالَ : (اشتريتُ) . . انقطعَ بسؤالٍ واحدٍ ، وإنْ قالَ : (مِنْ شاتي) . . وقعَ الشكُّ في الشاةِ ، فإذا قالَ : (اشتريتُها) . . انقطعَتِ الريبةُ ، وإنْ كانَتِ الريبةُ مِنَ الظلمِ ـ وذلكَ فيما بينَ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٥/ ١٧٤) .

العربِ ، ويتوالدُ في أيديهِمُ المغصوبُ ـ فلا تنقطعُ بقولِهِ : (إنَّهُ مِنْ شاتي) ولا بقولِهِ : (إنَّ الشاةَ ولدتْها شاتي) ، فإنْ أسندَهُ إلى الوراثةِ مِنْ أبيهِ وحالُ أبيهِ مجهولةٌ . . انقطعَ السؤالُ ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّ جميعَ مالِ أبيهِ حرامٌ . . فقدْ ظهرَ التحريمُ ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّ أكثرَهُ حرامٌ . . فكثرةُ التوالدِ وطولُ الزمانِ وتطرُّقُ الإرثِ إليهِ لا يغيِّرُ حكمَهُ ، فلينظرْ في هـٰذهِ المعاني .

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ أوقفَ علىٰ خانَقاهِ الصوفيةِ وغيرِهِمْ ، فهلْ يجوزُ للقائمِ خلطُ الوقفينِ وتقديمُهُ لهؤلاءِ وهؤلاءِ ؟ وما حكمُ أكلِ طعامِهِمْ ؟]

سُئلتُ عنْ جماعةٍ مِنْ سكانِ خانَقاهِ الصوفيَّةِ[1] ، وفي يدِ خادمِهِمُ الذي يقدِّمُ إليهِمُ الطعامَ وقْفٌ علىٰ ذلكَ المسكنِ ووقفٌ آخرُ علىٰ جهةٍ أخرىٰ غيرِ هؤلاءِ ، وهوَ يخلطُ الكلَّ وينفقُ علىٰ هؤلاءِ وهؤلاءِ ، فأكلُ طعامِهِمْ حلالٌ أوْ حرامٌ أوْ شبهةٌ ؟

فقلتُ : إنَّ هـٰذا يلتفتُ إلىٰ سبعةِ أصولٍ :

---

(١) **الخانقاه** : بقعة يسكنها أهل الصلاة والخير والصوفية ، والنون مفتوحة ، فارسي معرب من (خانكاه) ومعناه : زاوية الصوفية ، وحكى المقريزي في « المواعظ والاعتبار » (٢/ ٤١٤) أنها حدثت في حدود الأربع مئة من سني الهجرة ، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالىٰ ، والمصنف واحد ممن اتخذ خانقاه في آخر حياته .

الأصلُ الأوَّلُ : أنَّ الطعامَ الذي يُقدَّمُ إليهِمْ في الغالبِ يشتريهِ بالمعاطاةِ ، والذي اخترناهُ صحَّةُ المعاطاةِ ، لا سيما في الأطعمةِ والمستحقراتِ ، فليسَ في هـٰذا إلا شبهةُ الخلافِ .

الأصلُ الثاني : أنْ ينظرَ أنَّ الخادمَ هلْ يشتريهِ بعينِ المالِ الحرامِ أوْ في الذمةِ ؟ فإنِ اشتراهُ بعينِ المالِ الحرامِ فهوَ حرامٌ ، وإنْ لمْ يُعرفْ . . فالغالبُ أنَّهُ يشتري في الذمَّةِ ، ويجوزُ الأخذُ بالغالبِ ، ولا ينشأُ مِنْ هـٰذا تحريمٌ ، بلْ شبهةُ احتمالٍ بعيدٍ ، وهوَ شراؤُهُ بعينِ مالٍ حرامٍ .

الأصلُ الثالثُ : أنَّهُ مِنْ أينَ يشتريهِ ؟ فإنِ اشترىٰ ممَّنْ أكثرُ مالِهِ حرامٌ . . لمْ يجزْ ، وإنْ كانَ ممَّنْ أقلُّ مالِهِ حرامٌ . . ففيهِ نظرٌ قدْ سبقَ ، وإذا لمْ يعرفْ . . جازَ لهُ الأخذُ بأنَّهُ يشتريهِ ممَّنْ مالُهُ حلالٌ ، أوْ ممَّنْ لا يدري المشتري حالَهُ بيقينٍ ؛ كالمجهولِ ، وقدْ سبقَ جوازُ الشراءِ مِنَ المجهولِ ؛ لأنَّ ذلكَ هوَ الغالِبُ ، فلا ينشأُ مِنْ هـٰذا تحريمٌ ، بلْ شبهةُ احتمالٍ .

الأصلُ الرابعُ : أنْ يشتريَهُ لنفسِهِ أوْ للقومِ ؛ فإنَّ المتولِّيَ والخادمَ كالنائبِ ، ولهُ أنْ يشتريَ لهُمْ ولنفسِهِ ، ولكنْ يكونُ ذلكَ بالنيَّةِ أوْ صريحِ اللفظِ ، وإذا كانَ يجري بالمعاطاةِ . . فلا يجزىءُ اللفظُ ، والغالبُ أنَّهُ لا ينوي عندَ المعاطاةِ ، والقصَّابُ والخبَّازُ ومَنْ يعاملُهُ يعوِّلُ عليهِ ، ويقصدُ البيعَ منهُ ، لا ممَّنْ لا يحضرونَ ، فيقعُ عنْ جهتِهِ ، ويدخلُ في ملكِهِ .

وهـٰذا الأصلُ ليسَ فيهِ تحريمٌ ولا شبهةٌ ، ولكنْ يثبتُ أَنَّهُمْ يأكلونَ مِنْ ملكِ الخادمِ .

الأصلُ الخامسُ : أنَّ الخادمَ يقدِّمُ الطعامَ إليهِمْ ، ولا يمكنُ أنْ يجعلَ ضيافةً وهديةً بغيرِ عوضٍ ؛ فإنَّهُ لا يرضىٰ بذلكَ ، وإنَّما يقدِّمُ اعتماداً علىٰ عوضِهِ مِنَ الوقفِ ، فهوَ معاوضةٌ ، ولكنْ ليسَ ببيعٍ ولا إقراضٍ ؛ لأنَّهُ لوِ انتهضَ لمطالبتِهِمْ بالثمنِ . . لاستبعدَ ذلكَ ، وقرينةُ الحالِ لا تدلُّ عليهِ ، فأشبهُ أصلٍ تتنزَّلُ عليهِ هـٰذهِ الحالةُ الهبةُ بشرطِ الثوابِ ؛ أعني : هديةً لا لفظَ فيها ، مِنْ شخصٍ تقتضي قرينةُ حالِهِ أنَّهُ يطمعُ في ثوابٍ ، وذلكَ صحيحٌ ، والثوابُ لازمٌ ، وهـٰهنا ما طمعَ الخادمُ في أنْ يأخذَ ثواباً عمَّا قدَّمَهُ إلا حقَّهُمْ مِنَ الوقفِ ؛ ليقضيَ بهِ دينَهُ مِنَ الخبَّازِ والقصَّابِ والبقَّالِ وغيرِهِ ، فهـٰذا ليسَ فيهِ شبهةٌ ؛ إذْ لا يُشترطُ لفظٌ في الهديَّةِ ولا في تقديمِ الطعامِ ، وإنْ كانَ معَ انتظارِ الثوابِ ، ولا مبالاةَ بقولِ مَنْ لا يصحِّحُ هديَّةً في انتظارِ ثوابٍ .

الأصلُ السادسُ : أنَّ الثوابَ الذي يلزمُ فيهِ خلافٌ : فقيلَ : إنَّهُ أقلُّ متموَّلٍ ، وقيلَ : قدْرُ القيمةِ ، وقيلَ : ما يرضىٰ بهِ الواهبُ ، حتَّىٰ إنَّ لهُ ألا يرضىٰ بأضعافِ القيمةِ .

والصحيحُ : أنَّهُ يتبعُ رضاهُ ، فإذا لمْ يرضَ . . يردُّ عليهِ ، وهـٰهنا الخادمُ قدْ رضيَ بما يأخذُ مِنْ حقِّ السكَّانِ على الوقفِ ، فإنْ كانَ لهُمْ مِنَ الحقِّ بقدْرِ ما أكلوهُ . . فقدْ تمَّ الأمرُ ، وإنْ كانَ ناقصاً ورضيَ بهِ الخادمُ . . صحَّ أيضاً ،

وإنْ علمَ أنَّ الخادمَ لا يرضىٰ لولا أنَّ في يدِهِ الوقفَ الآخرَ الذي يأخذُهُ بقوَّةِ هؤلاءِ السكَّانِ . . فكأنَّهُ رضيَ في الثوابِ بمقدارٍ بعضُهُ حلالٌ وبعضُهُ حرامٌ ، والحرامُ لمْ يدخلْ في أيدي السكَّانِ ، فهـٰذا كالخللِ المتطرِّقِ إلى الثمنِ ، وقدْ ذكرنا حكمَهُ مِنْ قبلُ وأنَّهُ متىٰ يقتضي التحريمَ ومتىٰ يقتضي الشبهةَ .

وهـٰذا لا يقتضي تحريماً علىٰ ما فصلناهُ ، فلا تنقلبُ الهديَّةُ حراماً بتوصُّلِ المُهدي بسببِ الهديَّةِ إلىٰ حرامٍ[1] .

الأصلُ السابعُ : أنَّهُ يقضي دينَ الخبَّازِ والقصَّابِ والبقَّالِ مِنِ ارتفاعِ الوقفينِ[2] ، فإنْ وفَّىٰ ما أخذَ مِنْ حقِّهِمْ بقيمةِ ما أطعمَهُمْ . . فقدْ صحَّ الأمرُ ، وإنْ قصَّرَ عنهُ ورضيَ القصَّابُ والخبَّازُ بأيِّ ثمنٍ كانَ حراماً أوْ حلالاً . . فهـٰذا خللٌ تطرَّقَ إلىٰ ثمنِ الطعامِ أيضاً ، فليلتفتْ إلىٰ ما قدمناهُ مِنَ الشراءِ في الذمَّةِ ، ثمَّ قضاءِ الثمنِ مِنْ حرامٍ ، هـٰذا إذا علمَ أنَّهُ قضاهُ مِنْ حرامٍ .

فإنِ احتملَ ذلكَ واحتملَ غيرُهُ . . فالشبهةُ أبعدُ .

وقدْ خرجَ مِنْ هـٰذا : أنَّ أكلَ هـٰذا ليسَ بحرامٍ ، ولكنَّهُ أكلُ شبهةٍ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ الورعِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ الأصولَ إذا كثرتْ ، وتطرَّقَ إلىٰ كلِّ واحدٍ

---

(١) وبه يتميَّز عن الرشوة ؛ إذ الرشوة ما يتوصل به إلىٰ حرام ، وبينهما فرق . « إتحاف » (٦/ ٩٤) .

(٢) أي : مما يتحصل من جهتهما ، ويسمىٰ ذلك ارتفاعاً لكونه يفيض عنه فيرتفع . « إتحاف » (٦/ ٩٤) .

احتمالٌ . . صارَ احتمالُ الحرامِ بكثرتِهِ أقوىٰ في النفسِ ، كما أنَّ الخبرَ إذا طالَ إسنادُهُ . . صارَ احتمالُ الكذبِ والغلطِ فيهِ أقوىٰ ممَّا إذا قربَ إسنادُهُ .

فهٰذا حكْمُ هٰذهِ الواقعةِ ، وهيَ منَ الفتاوىٰ ، وإنَّما أوردناها ليُعرفَ كيفيةُ تخريجِ الوقائعِ الملتفَّةِ الملتبسةِ ، وأنَّها كيفَ تُردُّ إلى الأصولِ ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يعجِزُ عنهُ أكثرُ المفتينَ .

* * *

الباب الرابع
في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلمْ : أنَّ مَنْ تابَ وفي يدِهِ مالٌ مختلطٌ . . فعليهِ وظيفةٌ في تمييزِ الحرامِ وإخراجِهِ ، ووظيفةٌ أخرىٰ في مصرِفِ المخرجِ ، فلينظرْ فيهما .

النظر الأول : في كيفية التمييز والإخراج

اعلمْ : أنَّ كلَّ مَنْ تابَ وفي يدِهِ ما هوَ حرامٌ معلومُ العينِ ؛ مِنْ غصبٍ ، أوْ وديعةٍ ، أوْ غيرِهِ . . فأمرُهُ سهلٌ ، فعليهِ تمييزُ الحرامِ .

وإنْ كانَ ملتبساً مختلطاً . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ في مالٍ هوَ مِنْ ذواتِ الأمثالِ ؛ كالحبوبِ والنقودِ والأدهانِ ، وإمَّا أنْ يكونَ في أعيانٍ متمايزةٍ ؛ كالعبيدِ والدورِ والثيابِ .

فإنْ كانَ في المتماثلاتِ ، أوْ كانَ شائعاً في المالِ كلِّهِ ؛ كمَنِ اكتسبَ المالَ بتجارةٍ يعلمُ أنَّهُ قدْ كذبَ في بعضِها في المرابحةِ وصدقَ في بعضِها ، أوْ مَنْ غصبَ دهناً وخلطَهُ بدهنِ نفسِهِ ، أوْ فعلَ ذلكَ في الحبوبِ أوِ الدراهمِ والدنانيرِ . . فلا يخلو ذلك : إمَّا أنْ يكونَ معلومَ القدْرِ أوْ مجهولَهُ .

فإنْ كانَ معلومَ القدْرِ ؛ مثلَ أنْ يعلمَ أنَّ قدْرَ النصفِ مِنْ جملةِ مالِهِ

حرامٌ . . فعليهِ تمييزُ النصْفِ ، وإنْ أشكلَ . . فلهُ طريقانِ :

أحدُهما : الأخذُ باليقينِ .

والآخرُ : الأخذُ بغالبِ الظنِّ .

وكلاهما قدْ قالَ بهِ العلماءُ في اشتباهِ ركعاتِ الصلاةِ ، ونحنُ لا نجوِّزُ في الصلاةِ إلا الأخذَ باليقينِ ؛ لأنَّ الأصلَ اشتغالُ الذمَّةِ ، فيُستصحبُ ، ولا يُغيَّرُ إلا بعلامةٍ قويَّةٍ ، وليسَ في أعدادِ الركعاتِ علاماتٌ يُوثَقُ بها ، وأمَّا هـٰهنا . . فلا يمكنُ أنْ يُقالَ : الأصلُ أنَّ ما في يدِهِ حرامٌ ، بلْ هوَ مشكلٌ ، فيجوزُ لهُ الأخذُ بغالبِ الظنِّ اجتهاداً ، ولكنِ الورعُ في الأخذِ باليقينِ .

فإنْ أرادَ الورعَ . . فطريقُ التحرِّي والاجتهادِ ألا يستبقيَ إلا القدْرَ الذي يتيقَّنُ أنَّهُ حلالٌ .

وإنْ أرادَ الأخذَ بالظنِّ . . فطريقُهُ مثلاً أنْ يكونَ في يدِهِ مالُ تجارةٍ فسدَ بعضُها ، فيتيقَّنُ أنَّ النصْفَ حلالٌ ، وأنَّ الثلثَ مثلاً حرامٌ ، ويبقىٰ سدسٌ يشكُّ فيهِ ، فيحكمُ فيهِ بغالبِ الظنِّ .

وهكذا طريقُ التحرِّي في كلِّ مالٍ ، وهوَ أنْ يقتطعَ القدْرَ المتيقَّنَ مِنَ الجانبينِ في الحلِّ والحرمةِ ، والقدرُ المتردَّدُ فيهِ إنْ غلبَ علىٰ ظنِّهِ التحريمُ . . أخرجَهُ ، وإنْ غلبَ الحلُّ . . جازَ لهُ الإمساكُ ، والورعُ إخراجُهُ ، وإنْ شكَّ فيهِ . . جازَ الإمساكُ ، والورعُ إخراجُهُ ، وهـٰذا الورعُ آكدُ ؛ لأنَّهُ صارَ مشكوكاً فيهِ ، وجازَ إمساكُهُ اعتماداً علىٰ أنَّهُ في يدِهِ ،

فيكونُ الحلُّ أغلبَ عليهِ ، وقدْ صارَ ضعيفاً بعدَ يقينِ اختلاطِ الحرامِ ، ويُحتملُ أنْ يُقالَ : الأصلُ التحريمُ ، فلا يأخذُ إلا ما يغلبُ علىٰ ظنِّهِ أنَّهُ حلالٌ ، وليسَ أحدُ الجانبينِ بأولىٰ مِنَ الآخرِ ، وليسَ يتبيَّنُ لي في الحالِ ترجيحٌ ، وهوَ مِنَ المشكلاتِ .

* * *

فإنْ قيلَ : هبْ أنَّهُ أخذَ باليقينِ ، لكنْ الذي يخرجُهُ ليسَ يدري أنَّهُ عينُ الحرامِ ، فلعلَّ الحرامَ ما بقيَ في يدِهِ ، فكيفَ يُقدمُ عليهِ ؟ ولو جازَ هـٰذا . . لجازَ أنْ يُقالَ : إذا اختلطَتْ ميتةٌ بتسعِ ذكيَّاتٍ فهيَ العشرُ . فلَهُ أنْ يطرحَ واحدةً أيَّ واحدةٍ كانَتْ ويأخذَ الباقيَ ويستحلُّهُ ولكنْ يُقالُ : لعلَّ الميتةَ فيما استبقاهُ ، بلْ لوْ طرحَ التسعَ واستبقىٰ واحدةً . . لمْ تحلَّ ؛ لاحتمالِ أنَّها هيَ الحرامُ .

فنقولُ : هـٰذهِ الموازنةُ كانَتْ تصحُّ لولا أنَّ المالَ يحلُّ بإخراجِ البدلِ ؛ لتطرُّقِ المعاوضةِ إليهِ ، وأمَّا الميتةُ . . فلا تتطرَّقُ المعاوضةُ إليها .

فليُكشفِ الغطاءُ عنْ هـٰذا الإشكالِ بالفرضِ في درهمٍ معيَّنٍ اشتبَهَ بدرهمٍ آخرَ فيمَنْ لهُ درهمانِ ؛ أحدُهما حرامٌ وقدِ اشتبهَ عينُهُ ، وقدْ سئلَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ مثلِ هـٰذا فقالَ : يدعُ الكلَّ حتَّىٰ يتبيَّنَ ، وكانَ قدْ رهنَ آنيةً ، قيلَ : إنَّهُ سطلٌ ، فلما قضى الدينَ . . حملَ إليهِ المرتهنُ آنيتينِ ، وقالَ : لا أدري أيتُهما آنيتُك ، فتركَهُما كلتيهِما ، فقالَ المرتهنُ : هـٰذا هوَ

الذي لكَ ، وإنَّما كنتُ أختبرُكَ ، فقضىٰ دينَهُ ولمْ يأخذِ الرهنَ[1] ، وهـٰذا ورعٌ ، ولكنَّا نقولُ : إنَّهُ غيرُ واجبٍ .

فلنفرضِ المسألةَ في درهمٍ لهُ مالكٌ معيَّنٌ حاضرٌ ، فنقولُ : إذا ردَّ أحدَ الدرهمينِ عليهِ ، ورضيَ بهِ معَ العلمِ بحقيقةِ الحالِ . . حلَّ لهُ الدرهمُ الآخرُ ؛ لأنَّهُ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ المردودُ في علمِ اللهِ هوَ المأخوذَ ؛ فقدْ حصلَ المقصودُ ، وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ . . فقدْ حصلَ لكلِّ واحدٍ درهمٌ في يدِ صاحبِهِ ، فالاحتياطُ أنْ يتبايعا باللفظِ ، فإنْ لمْ يفعلا . . وقع التقاصُّ والتبادلُ بمجرَّدِ المعاطاةِ وإنْ كانَ المغصوبُ منهُ قدْ فاتَ لهُ درهمٌ في يدِ الغاصبِ ، وعسرَ الوصولُ إلىٰ عينِهِ ، واستحقَّ ضمانَهُ ، فلمّا أخذَهُ . . وقعَ عنِ الضمانِ بمجرَّدِ القبضِ ، وهـٰذا في جانبهِ واضحٌ ؛ فإنَّ المضمونَ لهُ يملكُ الضمانَ بمجرَّدِ القبضِ مِنْ غيرِ لفظٍ ، والإشكالُ في الجانبِ الآخرِ أنَّهُ لمْ يدخلْ في ملكِهِ ، فنقولُ : لأنَّهُ أيضاً إنْ كانَ قدْ سلَّمَ درهمَ نفسِهِ . . فقدْ فاتَ لهُ أيضاً درهمٌ هوَ في يدِ الآخرِ ، وليسَ يمكنُ الوصولُ إليهِ ، فهوَ كالغائبِ ، فيقعُ هـٰذا بدلاً عنهُ في علمِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إنْ كانَ الأمرُ كذلكَ ، ويقعُ هـٰذا التبادلُ في علمِ اللهِ سبحانَهُ كما يقعُ التقاصُّ لوْ أتلفَ رجلانِ كلُّ واحدٍ منهما درهماً علىٰ صاحبِهِ ، بلْ في عينِ مسألتِنا لوْ ألقىٰ كلُّ

---

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٦٩) ، وهو في « الرسالة القشيرية » (ص٢١٤) ، والآنية : جمع إناء ، وقد يستعمله الفقهاء ـ كما يفيده السياق هنا ـ مفرداً ، وليس بمفرد . انظر « الإتحاف » (٦/٨٨ ، ٩٦) .

واحدٍ ما في يدِهِ في البحرِ أوْ أحرقَهُ . . كانَ قدْ أتلفَهُ ، ولمْ يكنْ عليهِ عهدةٌ للآخرِ بطريقِ التقاصِّ ، فكذا إذا لمْ يتلفْ ؛ فإنَّ القولَ بهٰذا أولىٰ مِنَ المصيرِ إلىٰ أنَّ مَنْ يأخذُ درهماً حراماً ويطرحُهُ في ألفِ ألفِ درهمٍ لرجلٍ آخرَ . . يصيرُ كلُّ المالِ محجوراً عليهِ لا يجوزُ التصرُّفُ فيهِ ، وهٰذا المذهبُ يؤدي إليهِ .

فانظرْ ما في هٰذا مِنَ البعدِ ، وليسَ فيما ذكرناهُ إلا تركُ اللفظِ ، والمعاطاةُ بيعٌ ، ومَنْ لا يجعلُها بيعاً يتطرَّقُ إليهِ احتمالُهُ ؛ إذِ الفعلُ تضعفُ دلالتُهُ حيثُ يمكنُ التلفُّظُ ، وهٰهنا هٰذا التسليمُ والتسلُّمُ للمبادلةِ قطعاً ، والبيعُ غيرُ ممكنٍ ؛ لأنَّ المبيعَ غيرُ مشارٍ إليهِ ولا معلومٌ في عينِهِ ، وقدْ يكونُ ممَّا لا يقبلُ البيعَ ؛ كما لوْ خُلطَ رطلُ دقيقٍ بألفِ رطلِ دقيقٍ لغيرِهِ ، وكذا الدِّبْسُ والرُّطَبُ وكلُّ ما لا يباعُ البعضُ منهُ بالبعضِ .

* * *

فإنْ قيلَ : فأنتمْ جوزْتُمْ تسليمَ قدْرِ حقِّهِ في مثلِ هٰذهِ الصورةِ وجعلتموهُ بيعاً .

قلنا : لا نجعلُهُ بيعاً ، بلْ نقولُ : هوَ بدلٌ عمَّا فاتَ في يدِهِ ، فيملكُهُ كما يملكُ المتلفُ عليهِ مِنَ الرطبِ إذا أخذَ مثلَهُ ، هٰذا إذا ساعدهُ صاحبُ المالِ ، فإنْ لمْ يساعدْهُ وأصرَّ وقالَ : (لا آخذُ درهماً أصلاً إلا عينَ ملكي ، فإنِ استبهَمَ . . فأتركُهُ ولا أهبُهُ ، وأعطِّلُ عليكَ مالكَ) .

فأقولُ : على القاضي أنْ ينوبَ عنهُ في القبضِ حتَّىٰ يطيبَ للرجلِ مالُهُ ؛ فإنَّ هـٰذا محضُ التعنُّتِ والتضييقِ ، والشرعُ لمْ يردْ بهِ ، فإنْ عجزَ عنِ القاضي ولمْ يجدْهُ . . فليحكِّمْ رجلاً متديِّناً ليقبضَ عنهُ ، فإنْ عجزَ . . فيتولَّىٰ هوَ بنفسِهِ ، ويفرزُهُ علىٰ نيَّةِ الصرفِ إليهِ درهماً ، ويتعيَّنُ ذلكَ لهُ ، ويطيبُ لهُ الباقي ، وهـٰذا في خلْطِ المائعاتِ أظهرُ وألزمُ .

* * *

فإنْ قيلَ : فينبغي أنْ يحلَّ لهُ الأخذُ ، وينتقلَ الحقُّ إلىٰ ذمَّتِهِ ، فأيُّ حاجةٍ إلى الإخراجِ أولاً ثمَّ التصرُّفِ في الباقي ؟

قلنا : قالَ قائلونَ : يحلُّ لهُ أنْ يأخذَ ما دامَ يبقىٰ قدْرُ الحرامِ ، ولا يجوزُ لهُ أنْ يأخذَ الكلَّ ، فأحدٌ لم يجوِّزْ ذلكَ .

وقالَ آخرونَ : ليسَ لهُ أنْ يأخذَ ما لمْ يُخرجْ قدْرَ الحرامِ بالتوبةِ وقصدِ الإبدالِ .

وقالَ آخرونَ : يجوزُ للآخذِ في التصرُّفِ أنْ يأخذَ منهُ ، وأمَّا هوَ . . فلا يعطي ، فإنْ أعطىٰ . . عصىٰ هوَ دونَ الآخذِ منه وما جوَّزَ أحدٌ أخذَ الكلِّ ؛ وذلكَ لأنَّ المالكَ لوْ ظهرَ . . فلهُ أنْ يطلبَ حقَّهُ مِنْ هـٰذهِ الجملةِ ، إذْ يقولُ : لعلَّ المصروفَ إليَّ يقعُ عينَ حقِّي ، وبالتعيينِ وإخراجِ حقِّ الغيرِ وتمييزِهِ يندفعُ هـٰذا الاحتمالُ ، فهـٰذا المالُ يترجَّحُ بهـٰذا الاحتمالِ علىٰ

غيرِهِ ، وما هوَ أقربُ إلى الحقِّ مقدَّمٌ ؛ كما يُقدَّمُ المثلُ على القيمةِ ، والعينُ على المثلِ ، فكذلكَ ما يُحتملُ فيهِ رجوعُ المثلِ مقدَّمٌ علىٰ ما يُحتملُ فيهِ رجوعُ القيمةِ ، وما يُحتملُ فيهِ رجوعُ العينِ مقدَّمٌ علىٰ ما يُحتملُ فيهِ رجوعُ المثلِ ، ولوْ جازَ لهٰذا أنْ يقولَ ذلكَ . . لجازَ لصاحبِ الدرهمِ الآخرِ أنْ يأخذَ الدرهمينِ ويتصرَّفَ فيهما ، ويقولَ : (عليَّ قضاءُ حقِّكَ مِنْ موضعٍ آخرَ) إذِ الاختلاطُ مِنَ الجانبينِ ، وليسَ ملكُ أحدِهما بأَنْ يقدَّرَ فائتاً بأولىٰ مِنَ الآخرِ(١) ، إلا أنْ ينظرَ إلى الأقلِّ ، فيقدِّرَ أنَّهُ فائتٌ ، أوْ ينظرَ إلى الذي خلطَ ، فيُجعلَ بفعلِهِ متلفاً لحقِّ غيرِهِ ، وكلاهما بعيدانِ جداً . وهٰذا واضحٌ في ذواتِ الأمثالِ ؛ فإنَّها تقعُ عوضاً في الإتلافاتِ مِنْ غيرِ عقدٍ .

أمَّا إذا اشتبهَ دارٌ بدورٍ ، أوْ عبدٌ بعبيدٍ . . فلا سبيلَ إلا المصالحةُ والتراضي ، فإنْ أبىٰ أنْ يأخذَ إلا عينَ حقِّهِ ولمْ يقدرْ عليهِ ، وأرادَ الآخرُ أنْ يعوِّقَ عليهِ جميعَ ملكِهِ ؛ فإنْ كانَتْ متماثلةَ القيمِ . . فالطريقُ أنْ يبيعَ القاضي جميعَ الدورِ ويوزِّعَ الثمنَ عليهِمْ بقدْرِ النسبةِ ، وإنْ كانَتْ متفاوتةً . . أخذَ مِنْ طالبِ البيعِ قيمةَ أنفسِ الدورِ وصرفَ إلى الممتنعِ منهُ مقدارَ قيمةِ الأقلِّ ، وتوقَّفَ في قدْرِ التفاوتِ إلى البيانِ أوِ الاصطلاحِ ؛ لأنَّهُ مشكلٌ ، وإنْ لمْ يوجدِ القاضي . . فللذي يريدُ الخلاصَ وفي يدِهِ الكلُّ أنْ يتولَّىٰ ذلكَ بنفسِهِ ،

---

(١) في النسخ : (وليس ملك أحدنا . . .) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الأولى ، والله أعلم .

هـٰذهِ هيَ المصلحةُ ، وما عداها مِنَ الاحتمالاتِ ضعيفةٌ لا نختارُها ، وفيما سبقَ تنبيهٌ على العلَّةِ .

* * *

وهـٰذا في الخلْطِ ظاهرٌ[1] ، وفي النقودِ دونَهُ ، وفي العروضِ أغمضُ ؛ إذْ لا يقعُ البعضُ بدلاً عنِ البعضِ ، فلذلكَ احتيجَ إلى البيعِ .

ولنرسمْ مسائلَ بها يتمُّ بيانُ هـٰذا الأصلِ :

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ ورثَ مغصوباً وردَّ عليهِ الغاصبُ نصيباً معيناً ، فهوَ لجميعِ الورثةِ]

إذا ورثَ معَ جماعةٍ وكانَ السلطانُ قدْ غصبَ ضيعةً لمورِّثِهِمْ ، فردَّ عليهِ قطعةً معيَّنةً . . فهيَ لجميعِ الورثةِ .

ولوْ ردَّ منَ الضيعةِ نصفاً وهوَ قدْرُ حقِّهِ . . ساهمَهُ الورثةُ[2] ؛ فإنَّ النصفَ الذي لهُ لا يتميَّزُ حتَّىٰ يُقالَ : هوَ المردودُ ، والباقي هوَ المغصوبُ ، ولا يصيرُ مميزاً بنيَّةِ السلطانِ وقصدِهِ لحصرِ الغصبِ في نصيبِ الآخرينَ .

---

(١) في (أ ، ب) : (الحنطة) بدل (الخلط) .

(٢) أي : شاركوه في سُهْمَته ، وهي النصيب . « إتحاف » (٦/٩٨) .

مَسْأَلَةٌ

[في الزيادةِ على المغصوبِ وحكمِها]

إذا وقعَ في يدِهِ مالٌ أخذَهُ مِنْ سلطانٍ ظالمٍ ثمَّ تابَ ، والمالُ عقارٌ ، وكانَ قدْ حصلَ منهُ ارتفاعٌ ، فينبغي أنْ يحسبَ أجرةَ مثلِهِ لطولِ تلكَ المدَّةِ ، وكذلكَ كلُّ مغصوبٍ لهُ منفعةٌ أوْ حصلَ منهُ زيادةٌ ، فلا تصحُّ توبتُهُ ما لمْ يخرجْ أجرةَ المغصوبِ وكذلكَ كلُّ زيادةٍ حصلتْ منهُ .

وتقديرُ أجرةِ العبيدِ والثيابِ والأواني وأمثالِ ذلكَ ممَّا لا يُعتادُ إجارتُها ممَّا يعسرُ ولا يُدركُ ذلكَ إلا باجتهادٍ وتخمينٍ ، وهكذا كلُّ التقويماتِ تقعُ بالاجتهادِ ، وطريقُ الورعِ الأخذُ بالأقصىٰ ، وما ربحَهُ على المالِ المغصوبِ في عقودٍ عقدَها على الذمَّةِ وقضى الثمنَ منهُ . . فهوَ ملكٌ لهُ ، ولكنْ فيهِ شبهةٌ ؛ إذْ كانَ ثمنُهُ حراماً كما سبقَ حكمُهُ ، وإنْ كانَ بأعيانِ تلكَ الأموالِ . . فالعقودُ كانَتْ فاسدةً ، وقدْ قيلَ : تنفذُ بإجازةِ المغصوبِ منهُ للمصلحةِ ، فيكونُ المغصوبُ منهُ أولىٰ بهِ .

والقياسُ أنَّ تلكَ العقودَ تُفسخُ ويُستردُّ الثمنُ ، وتُردُّ الأعواضُ ، وإنْ عجزَ عنهُ لكثرتِهِ . . فهيَ أموالٌ حرامٌ حصلَتْ في يدِهِ ، فللمغصوبِ منهُ قدْرُ رأسِ مالِهِ ، والفضلُ حرامٌ يجبُ إخراجُهُ ليتصدَّقَ بهِ ، فلا يحلُّ للغاصبِ ولا للمغصوبِ منهُ ، بلْ حكمُهُ حكمُ كلِّ حرامٍ يقعُ في يدِهِ .

مَسْأَلَةٌ

[في جهالةِ حالِ المورِّثِ وجهةِ اكتسابِهِ]

مَنْ ورثَ مالاً ولمْ يدْرِ أنَّ مورِّثَهُ مِنْ أينَ اكتسبَهُ ؛ أَمِنْ حلالٍ أمْ مِنْ حرامٍ ، ولمْ يكنْ ثَمَّ علامةٌ . . فهوَ حلالٌ باتفاقِ العلماءِ .

وإنْ علمَ أنَّ فيهِ حراماً وشكَّ في قدْرِهِ . . أخرجَ مقدارَ الحرامِ بالتحرِّي .

وإنْ لمْ يعلمْ ذلكَ ولكنْ علمَ أنَّ مورِّثَهُ كانَ يتولَّىٰ أعمالاً للسلاطينِ ، واحتملَ أنَّهُ لمْ يكنْ يأخذُ في عملِهِ شيئاً ، أوْ كانَ قدْ أخذَ ولمْ يبقَ في يدِهِ منهُ شيءٌ لطولِ المدَّةِ . . فهـٰذهِ شبهةٌ يحسنُ التورُّعُ عنها ولا يجبُ .

وإنْ علمَ أنَّ بعضَ مالِهِ كانَ مِنَ الظلمِ . . فيلزمُهُ إخراجُ ذلكَ القدْرِ بالاجتهادِ .

وقالَ بعضُ العلماءِ : لا يلزمُهُ ، بلِ الإثمُ على المورِّثِ[١] .

واستدلَّ بما رُوِيَ أنَّ رجلاً ممَّنْ وليَ عملَ السلطانِ ماتَ ، فقالَ صحابيٌّ : (الآنَ طابَ مالُهُ) أيْ : لوارثِهِ ، وهـٰذا ضعيفٌ ؛ لأنَّهُ لمْ يذكرِ اسمَ الصحابيِّ ، ولعلَّهُ صدرَ مِنْ متساهلٍ ، فقدْ كانَ في الصحابةِ مَنْ

---

(١) حكاه المحاسبي عن طائفة من المتفقهة في « المكاسب » (ص٨٤) .

يتساهلُ ، ولكنْ لا يُذكرُ بهِ لحرمةِ الصحبةِ ، وكيفَ يكونُ موتُ الرجلِ مبيحاً للحرامِ المتيقَّنِ المختلطِ ؟ ومِنْ أينَ يؤخذُ هـٰذا ؟

نعمْ ، إذا لمْ يتيقَّنْ . . يجوزُ أنْ يُقالَ : هوَ غيرُ مأخوذٍ بما لا يدري ، فيطيبُ لوارثٍ لا يدري أنَّ فيهِ حراماً يقيناً[١] .

* * *

(١) نظَّر الحافظ الزبيدي في هـٰذه المسألة في أمور : منها تضعيفُ الخبر لجهالة الصحابي مع اتفاقهم أن جهالة الصحابي لا تضر ، ونعتُ بعض الصحابة بالتساهل مع العلم أن هـٰذا إنما يكون اجتهاداً وليس تساهلاً ، هـٰذا إن صح الخبر فيه ، ولم يتعرض لتخريجه ، وتركُ الكشفِ عمن أدرج هـٰذه الزيادة ؛ فإن كان ثقة . . . قبلت منه ، وإلا . . فلا ، ثم ارتضىٰ أخيراً ما أوَّله المصنف من عدم التيقُّن ؛ حيث قال : (وهو أولىٰ من المصير إلىٰ نسبة بعض الصحابة إلى التساهل) . « إتحاف » (٦/ ٩٩) .

النظر الثاني : في المصرف

فإذا أخرجَ الحرامَ . . فلهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

إمَّا أنْ يكونَ لهُ مالكٌ معيَّنٌ : فيجبُ الصرفُ إليهِ ، أوْ إلىٰ وارثِهِ ، وإنْ كانَ غائباً . . فينتظرُ حضورُهُ أوِ الإيصالُ إليهِ ، وإنْ كانَتْ لهُ زيادةٌ ومنفعةٌ . . فلتُجمعْ فوائدُهُ إلىٰ وقتِ حضورِهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ لمالكٍ غيرِ معيَّنٍ ، وقعَ اليأسُ منَ الوقوفِ علىٰ عينِهِ ، ولا يدري أنَّهُ ماتَ عنْ وارثٍ أمْ لا : فهٰذا لا يمكنُ الردُّ فيهِ للمالكِ ، ويوقفُ حتَّىٰ يتضحَ الأمرُ فيهِ ، وربَّما لا يمكنُ الردُّ لكثرةِ المُلاَّكِ ؛ كغلولِ الغنيمةِ ؛ فإنَّها بعدَ تفرُّقِ الغزاةِ كيفَ يقدرُ علىٰ جمعِهِمْ ؟ وإنْ قدرَ . . فكيفَ يُفرَّقُ دينارٌ واحدٌ مثلاً علىٰ ألفٍ وألفينِ ؟ فهٰذا ينبغي أنْ يتصدَّقَ بهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ مِنْ مالِ الفيءِ والأموالِ المرصدةِ لمصالحِ المسلمينَ كافَّةً : فيصرفُ ذلكَ إلى القناطرِ ، والمساجدِ ، والرباطاتِ ، ومصانعِ طريقِ مكَّةَ(١) ، وأمثالِ هٰذهِ الأمورِ التي يشتركُ في الانتفاعِ بها كلُّ مَنْ يمرُّ بها منَ المسلمينَ ؛ ليكونَ عامّاً للمسلمينَ .

وحكمُ القسمِ الأوَّلِ لا شبهةَ فيهِ ، أمَّا التصدُّقُ وبناءُ القناطرِ . . فينبغي أنْ

(١) أي : مخازن المياه . « إتحاف » (٦/ ١٠٠) .

يتولاَّهُ القاضي ، فيسلِّمُ إليهِ المالَ إنْ وجدَ قاضياً متديِّناً ، وإنْ كانَ القاضي مستحلاً . . فهوَ بالتسليمِ إليهِ ضامنٌ لوِ ابتدأَ بهِ فيما لا يضمنُهُ ، فكيفَ يسقطُ عنهُ بهِ ضمانٌ قدِ استقرَّ عليهِ ؟ بلْ يحكِّمُ مِنْ أهلِ البلدِ عالماً متديِّناً ؛ فإنَّ التحكيمَ أولىٰ مِنَ الانفرادِ .

فإنْ عجزَ عنْ ذلكَ . . فليتولَّ ذلكَ بنفسِهِ ؛ فإنَّ المقصودَ الصرفُ ، وأمَّا عينُ الصارفِ فإنَّما نطلبُهُ لمصارفاتٍ دقيقةٍ في المصالحِ ، فلا يُتركُ أصلُ الصرْفِ بسببِ العجزِ عنْ صارفٍ هوَ أولىٰ عندَ القدرةِ عليهِ .

* * *

فإنْ قيلَ : ما دليلُ جوازِ التصدُّقِ بما هوَ حرامٌ ؟ وكيفَ يتصدَّقُ بما لا يملكُ وقدْ ذهبَ جماعةٌ إلىٰ أنَّ ذلكَ غيرُ جائزٍ ؛ لأنَّهُ حرامٌ ؟ وحُكِيَ عنِ الفضيلِ أنَّهُ وقعَ في يدِهِ درهمانِ ، فلمَّا علمَ أنَّهُما مِن غيرِ وجهِهِ . . رماهُما بينَ الحجارةِ وقالَ : (لا أتصدَّقُ إلا بالطيِّبِ ، ولا أرضىٰ لغيري ما لا أرضاهُ لنفسي) ؟[1] .

فنقولُ : نعمْ ، ذلكَ لهُ وجهٌ واحتمالٌ ، ولكنَّا اخترنا خلافَهُ للخبرِ والأثرِ والقياسِ .

أمَّا الخبرُ : فأمْرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالتصدُّقِ بالشاةِ المصليَّةِ

---

(١) وأصله قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ ، ويدل له أيضاً حديث عائشة المتقدم في كراهة أكل الضب . « إتحاف » (٦/ ١٠٠) .

التي قُدِّمتْ إليهِ فكلمتْهُ بأنَّها حرامٌ ، إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أطعموها الأسارىٰ »(١) .

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ . . كذبهُ المشركونَ وقالوا للصحابةِ : ألا ترونَ ما يقولُ صاحبُكُمْ ؟ يزعمُ أنَّ الرومَ ستغلبُ ، فخاطرَهُمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بإذنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) ، فلمَّا حقَّقَ اللهُ صدقهُ . . جاءَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بما قمرَهُمْ به فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « هـٰذا سحتٌ ، فتصدَّقْ بهِ » ، وفرحَ المؤمنونَ بنصرِ اللهِ ، وكانَ قدْ نزلَ تحريمُ القمارِ بعدَ إذنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ في المخاطرةِ معَ الكفَّارِ(٣) .

وأمَّا الأثرُ : فإنَّ ابنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ اشترىٰ جاريةً ولمْ يظفرْ بمالكِها لينقدَهُ الثمنَ ، فطلبَهُ كثيراً فلمْ يجدْهُ ، فتصدَّقَ بالثمنِ ، وقالَ : اللهمَّ ؛ هـٰذا عنهُ إنْ رضيَ ، وإلا . . فالأجرُ لي(٤) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٩٣) ، وأبو داوود (٣٣٣٢) .
(٢) **خاطرهم** : راهنهم علىٰ مال .
(٣) أصل الخبر عند الترمذي (٣١٩٤) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٣٣٣) ، ولفظ المرفوع عزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٦/ ٤٧٩) إلىٰ أبي يعلىٰ وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر .
(٤) علَّقه البخاري في « صحيحه » قبل الحديث (٥٠٩٢) (باب حكم المفقود في أهله ومـالـه) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ٣٤٦) ، وانظر « تغليق التعليق » (٤/ ٤٦٩) .

وسُئِلَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ توبةِ الغالِّ بعدَ تفرُّقِ الجيشِ قالَ : يتصدَّقُ بهِ[1] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً سوَّلَتْ لهُ نفسُهُ فغلَّ مئةَ دينارٍ مِنَ الغنيمةِ ، ثمَّ أتىٰ أميرَهُ ليردَّها عليهِ ، فأبىٰ أنْ يقبضَها ، وقالَ لهُ : تفرَّقَ الناسُ ، فأتىٰ معاويةَ ، فأبىٰ أنْ يقبضَ ، فأتىٰ بعضَ النسَّاكِ ، فقالَ : ادفعْ خُمُسَها إلىٰ معاويةَ ، وتصدَّقْ بما بقيَ ، فبلغَ معاويةَ قولُهُ ، فتلهَّفَ إذْ لمْ يخطرْ لهُ ذلكَ[2] .

وقدْ ذهبَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ والحارثُ المحاسبيُّ وجماعةٌ مِنَ الورعينَ إلىٰ ذلكَ[3] .

وأمَّا القياسُ : فهوَ أنْ يقالَ : إنَّ هٰذا المالَ مردَّدٌ بينَ أنْ يضيعَ وبينَ أنْ يُصرفَ إلىٰ خيرٍ ، إذ قدْ وقعَ اليأسُ عنْ مالكِهِ ، وبالضرورةِ يعلمُ أنَّ صَرْفَهُ إلىٰ خيرٍ أولىٰ مِنْ إلقائِهِ في البحرِ ؛ فإنَّا إنْ رميناهُ في البحرِ . . فقدْ فوتناهُ علىٰ أنفسِنا وعلى المالكِ ، ولمْ تحصلْ منهُ فائدةٌ ، وإذا رميناهُ في يدِ فقيرٍ يدعو لمالكِهِ . . حصلَ للمالكِ بركةُ دعائِهِ ، وحصلَ للفقيرِ سدُّ حاجتِهِ ، وحصولُ الأجرِ للمالكِ بغيرِ اختيارِهِ في التصدُّقِ لا ينبغي أنْ ينكرَ ؛ فإنَّ في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٤٢٢٤) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣٨/٢٩) .
(٣) كذا في « الورع » (ص١٠٣)، وممن أفتىٰ بذلك من الورعين الزهري وعطاء بن أبي رباح ومجاهد ، فقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٥٩٢ ، ٢٣٥٩٣ ، ٢٣٥٩٤) عنهم ذلك ، منها : قال رجل لعطاء بن أبي رباح : رجل أصاب مالاً من حرام ؟ قال : ليردَّه إلىٰ أهله ، فإن لم يعرف أهله . . فليتصدق به ، ولا أدري ينجيه ذلك من إثمه ؟!

الخبرِ الصحيحِ : « إنَّ للزارعِ والغارسِ أجراً في كلِّ ما يصيبُهُ الناسُ والطيورُ مِنْ ثمارِهِ وزرعِهِ »[1] ، وذلكَ بغيرِ اختيارِهِ .

وأمَّا قولُ القائلِ : (لا نتصدَّقُ إلا بالطيِّبِ) . . فذلكَ إذا طلبْنا الأجرَ لأنفسِنا ، ونحنُ الآنَ نطلبُ الخلاصَ مِنَ المظلمةِ لا الأجرَ ، وتردَّدْنا بينَ التضييعِ وبينَ التصدُّقِ ، ورجَّحْنا جانبَ التصدُّقِ علىٰ جانبِ التضييعِ .

وقولُ القائلِ : (لا نرضىٰ لغيرِنا ما لا نرضاهُ لأنفسنا) . . فهوَ كذلكَ ، ولكنَّهُ علينا حرامٌ لاستغنائِنا عنهُ ، وللفقيرِ حلالٌ ؛ إذْ أحلَّهُ دليلُ الشرعِ ، وإذا اقتضتِ المصلحةُ التحليلَ . . وجبَ التحليلُ ، وإذا حلَّ . . فقدْ رضينا لهُ الحلالَ .

ونقولُ : إنَّ لهُ أنْ يتصدَّقَ علىٰ نفسِهِ وعيالِهِ إذا كانَ فقيراً .

أمَّا عيالُهُ وأهلُهُ . . فلا يخفىٰ ؛ لأنَّ الفقرَ لا ينتفىٰ عنهُمْ بكونِهِمْ مِنْ عيالِهِ وأهلِهِ ، بلْ همْ أولىٰ مَنْ يتصدَّقُ عليهِمْ . وأمَّا هوَ . . فلهُ أنْ يأخذَ منهُ قدْرَ حاجتِهِ ؛ لأنَّهُ أيضاً فقيرٌ ، ولوْ تصدَّقَ بهِ علىٰ فقيرٍ . . لجازَ ، فكذا إذا كانَ هوَ الفقيرَ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٠) ، ومسلم (١٥٥٢) بنحوه ، وفي بعض رواياته : « وما يرزؤه أحد إلا كان له صدقة » ، وقد لاحظ هـٰذا المعنى الإمام البيهقي ؛ وبيَّن ضعف أخبار إحراق الغلول من الغنيمة في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ١٠٢) .

ولنرسمْ في بيانِ هـٰذا الأصلِ أيضاً مسائلَ :

مَسْأَلَةٌ

[فيما إذا وقعَ في يدِهِ مالٌ منْ سلطانٍ]

إذا وقعَ في يدِهِ مالٌ مِنْ يدِ سلطانٍ . . قالَ قومٌ : يردُّ إلى السلطانِ ؛ فهوَ أعلمُ بما تولاَّهُ ، فيقلِّدُهُ ما تقلَّدَهُ ، وهوَ خيرٌ منْ أنْ يتصدَّقَ بهِ ، واختارَ المحاسبيُّ ذلكَ ، وقالَ : كيفَ يتصدَّقُ بهِ ولعلَّ لهُ مالكاً معيَّناً ؟ ولوْ جازَ ذلكَ . . لجازَ أنْ يسرقَ مِنَ السلطانِ ويتصدَّقَ بهِ .

وقالَ قومٌ : يتصدَّقُ بهِ إذا علمَ أنَّ السلطانَ لا يردُّهُ إلى المالكِ ؛ لأنَّ ذلكَ إعانةٌ للظالمِ ، وتكثيرٌ لأسبابِ ظلمِهِ ، فالردُّ إليهِ تضييعٌ لحقِّ المالكِ .

والمختارُ : أنَّهُ إذا علمَ مِنْ عادةِ السلطانِ أنَّهُ لا يردُّهُ إلىٰ مالكِهِ . . فليتصدقْ بهِ عنِ المالكِ ، فهوَ خيرٌ للمالكِ ـ إنْ كانَ لهُ مالكٌ معيَّنٌ ـ مِنْ أنْ يُردَّ على السلطانِ ؛ لأنَّهُ ربَّما لا يكونُ لهُ مالكٌ معيَّنٌ ، ويكونُ حقَّ المسلمينَ ، وردُّهُ على السلطانِ تضييعٌ ، وإنْ كانَ لهُ مالكٌ معيَّنٌ . . فالردُّ على السلطانِ تضييعٌ ، وإعانةٌ للسلطانِ الظالمِ ، وتفويتٌ لبركةِ دعاءِ الفقيرِ على المالكِ ، وهـٰذا ظاهرٌ .

فإذا وقعَ في يدِهِ مِنْ ميراثٍ ، ولمْ يتعدَّ هوَ بالأخذِ مِنَ السلطانِ . . فإنَّهُ شبيهٌ باللقطةِ التي أيسَ عنْ معرفةِ صاحبِها ؛ إذْ لمْ يكنْ لهُ أنْ يتصرَّفَ فيها

بالتصدُّقِ عنِ المالكِ ، ولكنْ لهُ أنْ يتملَّكَها ثَمَّ وإنْ كانَ غنياً ؛ مِنْ حيثُ إنَّهُ اكتسبَها بجهةٍ مباحةٍ وهوَ الالتقاطُ ، وهٰهنا لمْ يحصلِ المالُ بجهةٍ مباحةٍ ، فيؤثِّرُ في منعِهِ مِنَ التملُّكِ ، ولا يؤثِّرُ في المنعِ مِنَ التصدُّقِ .

مَسْأَلَةٌ

[في تعيينِ قدرِ الحاجةِ إنْ أبحنا لهُ الأخذَ]

إذا حصلَ في يدِهِ مالٌ لا مالكَ لهُ ، وجوزنا لهُ أنْ يأخذَ قَدْرَ حاجتِهِ لفقرِهِ . . ففي قدْرِ حاجتِهِ نظرٌ ذكرناهُ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ؛ فقدْ قالَ قومٌ : يأخذُ كفايةَ سنةٍ لنفسِهِ وعيالِهِ ، وإنْ قدرَ علىٰ شراءِ ضيعةٍ أوْ تجارةٍ يكتسبُ بها لعيالِهِ . . فعلَ ، وهٰذا ما اختارَهُ المحاسبيُّ ، ولكنَّهُ قالَ : (الأولىٰ أنْ يتصدَّقَ بالكلِّ إنْ وجدَ مِنْ نفسِهِ قوَّةَ التوكُّلِ ، وينتظرُ لطْفَ اللهِ سبحانَهُ في الحلالِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فلهُ أنْ يشتريَ ضيعةً ، أوْ يتخذَ رأسَ مالٍ يتعيَّشُ بالمعروفِ منهُ ، وكلَّ يومٍ وجدَ فيهِ حلالاً أمسكَ ذلكَ اليومَ عنهُ ، فإذا فنيَ . . عادَ إليهِ ، فإذا وجدَ حلالاً معيناً[١] . . تصدَّقَ بمثلِ ما أنفقَهُ مِنْ قبلُ ، ويكونُ ذلكَ قرْضاً عندَهُ ، ثمَّ إنَّهُ يأكلُ الخبزَ[٢] ويتركُ اللحمَ إنْ قويَ عليهِ ، وإلا . . أكلَ اللحمَ مِنْ غيرِ تنعُّمٍ وتوسُّعٍ) .

---

(١) في (ب ، هـ) : (مغنياً) .
(٢) في (ب) : (ثم إنه لا يأكل إلا الخبز) .

وما ذكرَهُ لا مزيدَ عليهِ ، ولكنْ جعلُ ما أنفقَهُ قرْضاً عندَهُ فيهِ نظرٌ ، ولا شكَّ في أنَّ الورعَ أنْ يجعلَهُ قرضاً ، فإذا وجدَ حلالاً . . تصدَّقَ بمثلِهِ ، ولكنْ مهما لمْ يجبْ ذلكَ على الفقيرِ الذي يتصدَّقُ بهِ عليهِ . . فلا يبعدُ ألا يجبَ عليهِ أيضاً إذا أخذَهُ لفقرِهِ ، لا سيما إذا وقعَ في يدِهِ مِنْ ميراثٍ ، ولمْ يكنْ متعدِّياً بغصبِهِ وكسبِهِ حتَّىٰ يُغلَّظَ الأمرُ عليهِ فيهِ .

مَسْألَةٌ

[في ترتيبِ الأكلِ عندَ مَنْ في يدِهِ حلالٌ وحرامٌ أو شبهةٌ]

إذا كانَ في يدِهِ حلالٌ وحرامٌ أوْ شبهةٌ ، وليسَ يفضلُ الكلُّ عنْ حاجتِهِ ؛ فإذا كانَ لهُ عيالٌ . . فليخُصَّ نفسَهُ بالحلالِ ، لأنَّ الحجَّةَ عليهِ آكدُ في نفسِهِ منها في عبدِهِ وعيالِهِ وأولادِهِ الصغارِ ، والكبارُ منْ أولادِهِ يحرسُهُمْ عنِ الحرامِ إنْ كانَ لا يفضي بهِمْ إلىٰ ما هوَ أشدُّ منهُ ، فإنْ أفضىٰ . . فيطعمُهُمْ بقدْرِ الحاجةِ .

وبالجملةِ : كلُّ ما يحذرُهُ في غيرِهِ فهوَ محذورٌ في نفسِهِ وزيادةٌ ؛ وهوَ أنَّهُ يتناولُ معَ العلمِ ، والعيالُ ربَّما يُعذرونَ إذا لمْ يعلموا ؛ إذْ لمْ يتولَّوا الأمرَ بأنفسِهِمْ .

فليبدأْ في الحلالِ بنفسِهِ ، ثمَّ بمَنْ يعولُ ، وإذا تردَّدَ في حقِّ نفسِهِ بينَ ما يخصُّ قوتَهُ وكسوتَهُ وبينَ غيرِهِ مِنَ المؤنِ ؛ كأجرةِ الحجَّامِ والصبَّاغِ

والقصَّارِ والحمَّالِ ، والاطلاءِ بالنُّورةِ والدهنِ ، وعمارةِ المنزلِ ، وتعهُّدِ الـدابَّـةِ ، وتسجيرِ التنُّورِ ، وثمنِ الحطبِ ودهنِ السراجِ . . فليخصَّ بالحلالِ قوتَهُ ولباسَهُ ؛ فإنَّ ما يتعلَّقُ ببدنِهِ ولا غنىً بهِ عنهُ هوَ أولىٰ بأنْ يكونَ طيِّباً .

وإذا دارَ الأمرُ بينَ القوتِ واللباسِ . . فيُحتملُ أنْ يُقالَ : يخصُّ القوتَ بالحلالِ ؛ لأنَّهُ الممتزجُ بلحمهِ ودمِهِ ، وكلُّ لحمٍ نبتَ مِنْ حرامٍ . . فالنارُ أولىٰ بهِ ، وأمَّا الكسوةُ . . ففائدتُها سترُ عورتِهِ ، ودفعُ الحرِّ والبرْدِ والأبصارِ عنْ بشرتِهِ ، وهـٰذا هوَ الأظهرُ عندي .

وقالَ الحارثُ المحاسبيُّ : يُقدَّمُ اللباسُ ؛ لأنَّهُ يبقىٰ عليهِ مدَّةً ، والطعامُ لا يبقىٰ عليهِ ؛ لما رُوِيَ أنَّهُ لا يقبلُ اللهُ صلاةَ مَنْ عليهِ ثوبٌ اشتريَ بعشرةِ دراهمَ فيها درهمٌ حرامٌ(١) ، وهـٰذا محتملٌ ، ولكنَّ أمثالَ هـٰذا قدْ وردَ فيمَنْ في بطنِهِ حرامٌ ونبتَ لحمُهُ مِنْ حرامٍ ، فمراعاةُ اللحْمِ والعظمِ أنْ ينبتَ مِنَ الحلالِ أولىٰ ؛ ولذلكَ تقيأَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ ما شربَهُ معَ الجهلِ ؛ حتَّىٰ لا ينبتَ منهُ لحمٌ يلبثُ ويبقىٰ .

* * *

فإنْ قيلَ : فإذا كانَ الكلُّ منصرفاً إلىٰ أغراضهِ . . فأيُّ فرْقٍ بين نفسهِ وغيرِهِ ، وبينَ جهةٍ وجهةٍ ، وما مُدرَكُ هـٰذا الفرْقِ ؟

---

(١) الحديث رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٩٨) .

قلنا : عرفَ ذلكَ بما رُوِيَ أنَّ رافعَ بنَ خديجٍ رحمهُ اللهُ ماتَ وخلَّفَ ناضحاً وعبداً حجَّاماً ، فسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ ذلكَ . . فمنعَ منْ كسبِ الحجَّامِ ، فروجعَ مرَّاتٍ ، فمنعَ منهُ ، فقيلَ : إنَّ لهُ أيتاماً ، فقالَ : « اعلفوهُ الناضحَ »(١) .

فهٰذا يدلُّ على الفرْقِ بينَ ما يأكلُهُ هوَ أوْ دابتُهُ .

وإذا انفتحَ سبيلُ الفرْقِ . . فقسْ عليهِ التفصيلَ الذي ذكرناهُ .

مَسْأَلَةٌ

[في تفاوتِ الصرفِ بينَهُ وبينَ الفقراءِ ونحوِ ذلكَ]

الحرامُ الذي في يدِهِ لوْ تصدَّقَ بهِ على الفقراءِ . . فلهُ أنْ يوسِّعَ عليهِمْ ، وإذا أنفقَ علىٰ نفسِهِ . . فليضيِّقْ ما قدرَ ، وما أنفقَ علىٰ عيالِهِ . . فليقتصدْ ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٤١) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٧٥) عن عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج يحدث أن جدَّه حين مات ترك جارية وناضحاً وغلاماً حجاماً وأرضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجارية ، فنهىٰ عن كسبها ، قال شعبة : مخافة أن تبغي ، وقال : « ما أصاب الحجام . . فاعلفه الناضح » ، وقال في الأرض : « ازرعها أو ذرها » . ولكن ليس المراد بلفظ (الجد) في هٰذه الرواية رافعاً ؛ إذ رافع لم يمت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلعل المراد هو جده خديج ، وقد ذكر له صحبة البغوي في « معجم الصحابة » (٢/ ٢٨٦) ، وبسط القول في هٰذا الحديث ونسبته الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (١/ ٤٢٠) ، وذكر في ترجمة رافع (١/ ٤٨٣) أنه مات سنة أربع وسبعين وهو ابن ست وثمانين سنة .

وليكنْ وسطاً بينَ التوسيعِ والتضييقِ ، فيكونُ الأمرُ علىٰ ثلاثِ مراتبَ .

فإنْ أنفقَ علىٰ ضيفٍ قدمَ عليهِ وهوَ فقيرٌ . . فليوسِّعْ عليهِ ، وإنْ كانَ غنياً . . فلا يطعمْهُ إلا إذا كانَ في بريّةٍ أوْ قدمَ ليلاً ولمْ يجدْ شيئاً ؛ فإنَّهُ في ذلكَ الوقتِ فقيرٌ .

وإنْ كانَ الفقيرُ الذي حضرَ ضيفاً تقيّاً ، لوْ علمَ ذلكَ لتورَّعَ عنهُ . . فليعرضِ الطعامَ وليخبرْهُ ؛ جمعاً بينَ حقِّ الضيافةِ وتركِ الخداعِ .

فلا ينبغي أنْ يكرمَ أخاهُ بما يكرَهُ ، ولا ينبغي أنْ يعوِّلَ علىٰ أنَّهُ لا يدري فلا يضرُّهُ ؛ لأنَّ الحرامَ إذا حصلَ في المعدةِ . . أثَّرَ في قساوةِ القلبِ وإنْ لمْ يعرفْهُ صاحبُهُ .

ولذلكَ تقيَّأَ أبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما وكانا قدْ شربا علىٰ جهلٍ[1] ، وهٰذا وإنْ أفتيْنا بأنَّهُ حلالٌ للفقيرِ . . فإنَّما أحللْناهُ بحكْمِ الحاجةِ إليهِ ، فهوَ كالخنزيرِ والخمرِ إذا أحللْناهُما بالضرورةِ ، فلا يلتحقُ بالطيِّباتِ .

مَسْأَلَةٌ

[فيما إذا كانَ الحرامُ في يدِ أبويهِ أو أحدِهِما]

إذا كانَ الحرامُ أوِ الشبهةُ في يدِ أبويهِ . . فليمتنعْ عنْ مؤاكلتِهِما ، فإنْ كانا

(١) وأكل الحرام وشربه جهلاً بحاله لا يوجب التقيُّؤ ، ففعلُهما دليل علىٰ ثبوت أثر لهٰذا الحرام في القلب والبدن .

يسخطانِ . . فلا يوافقْهُما على الحرامِ المحضِ ، بلْ ينهاهُما ، فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ(١) .

وإنْ كانَ شبهةً ، وكانَ امتناعُهُ للورعِ . . فهٰذا قدْ عارضَهُ أنَّ الورعَ طلبُ رضاهُما ، بلْ هوَ واجبٌ ، فليتلطَّفْ في الامتناعِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فليوافقْ وليقلِّلِ الأكلَ ؛ بأنْ يصغِّرَ اللقمةَ ، ويطيلَ المضْغَ ، ولا يتوسَّعَ ، فإنَّ ذلكَ غرورٌ .

والأخُ والأختُ قريبانِ مِنْ ذلكَ ؛ لأنَّ حقَّهما أيضاً مؤكَّدٌ .

وكذلكَ إذا ألبستْهُ أمُّهُ ثوباً مِنْ شبهةٍ وكانتْ تسخطُ بردِّهِ ، فليقبلْهُ وليلبسْهُ بينَ يديها ، ولينزعْهُ في غيبتِها ، وليجتهدْ ألاَّ يصلِّيَ فيهِ إلا عندَ حضورِها ، فيصلِّي فيهِ صلاةَ المضطرِّ .

وعندَ تعارضِ أسبابِ الورعِ ينبغي أنْ يتفقَّدَ هٰذهِ الدقائقَ .

وقدْ حُكِيَ عنْ بشرٍ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ سلَّمَتْ إليهِ أمُّهُ رطبةً ، وقالَتْ : بحقِّي عليكَ أنْ تأكلَها ، وكانَ يكرهُهُ ، فأكلَ ، ثمَّ صعدَ غرفةً ، فصعدتْ أمُّهُ وراءَهُ ، فرأتْهُ يتقيَّأُ ، وإنَّما فعلَ ذلكَ ؛ لأنَّهُ أرادَ أنْ يجمعَ بينَ رضاها وبينَ صيانةِ المعدةِ(٢) .

وقدْ قيلَ لأحمدَ ابنِ حنبلٍ : سئلَ بشرٌ : هلْ للوالدينِ طاعةٌ في الشبهةِ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ أحمدُ : هٰذا شديدٌ ، فقيلَ لهُ : سئلَ محمدُ بنُ مقاتلٍ

---

(١) وهٰذا قد رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/ ١٧٠) مرفوعاً بهٰذا اللفظ .

(٢) كذا في « الورع » (ص٨٥) لأحمد ، والخبر في « القوت » (٢/ ٢٧٨) .

العَبَّادانيُّ عنها فقالَ : بِرَّ والديكَ ، فماذا تقولُ ؟ فقالَ للسائلِ : أحبُّ أنْ تعفيَني ؛ فقدْ سمعتَ ما قالا ، ثمَّ قالَ : ما أحسنَ أنْ تداريَهُما(١) .

مَسْأَلَةٌ

[لا تجبُ العباداتُ الماليةُ علىٰ مَنْ في يدِهِ مالٌ حرامٌ محضٌ]

مَنْ في يدِهِ مالٌ حرامٌ محضٌ . . فلا حجَّ عليهِ ، ولا تلزمُهُ كفارةٌ ماليَّةٌ ؛ لأنَّهُ مفلسٌ ، ولا تجبُ الزكاةُ ؛ إذْ معنى الزكاةِ وجوبُ إخراجِ ربعِ العشرِ مثلاً ، وهـٰذا يجبُ عليهِ إخراجُ الكلِّ ؛ إمَّا رداً على المالكِ إنْ عرفَهُ ، أوْ صرفاً إلى الفقراءِ إنْ لمْ يعرفِ المالكَ .

وأمَّا إذا كانَ مالَ شبهةٍ يُحتملُ أنَّهُ حلالٌ ؛ فإذا لمْ يخرجْهُ مِنْ يدِهِ . . لزمَهُ الحجُّ ؛ لأنَّ كونَهُ حلالاً ممكنٌ ، ولا يسقطُ الحجُّ إلا بالفقرِ ، ولمْ يتحققْ فقرُهُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

وإذا وجبَ عليهِ التصدُّقُ بما يزيدُ علىٰ حاجتِهِ ، حيثُ يغلبُ علىٰ ظنِّهِ تحريمُهُ . . فالزكاةُ أولىٰ بالوجوبِ .

وإنْ لزمتْهُ كفارةٌ . . فليجمعْ بينَ الصومِ والإعتاقِ ؛ ليتخلَّصَ بيقينٍ ، وقدْ قالَ قومٌ : عليهِ الجمعُ ، وقالَ قومٌ : يلزمُهُ الصومُ دونَ الإطعامِ ؛ إذْ ليسَ لهُ يسارٌ معلومٌ ، وقالَ المحاسبيُّ : يكفيهِ الإطعامُ .

---

(١) بنحوه في « الورع » (ص٤٨ ، ٤٩) لأحمد ، وهو في « القوت » (٢/ ٢٧٧) .

والذي نختارُهُ : أنَّ كلَّ شبهةٍ حكمْنا بوجوبِ اجتنابِها ، وألزمناهُ إخراجَها مِنْ يدِهِ ؛ لكونِ احتمالِ الحرامِ أغلبَ علىٰ ما ذكرناهُ . . فعليهِ الجمعُ بينَ الصومِ والإطعامِ ، أمَّا الصومُ . . فلأنَّهُ مفلسٌ حكماً ، وأمَّا الإطعامُ . . فلأنَّهُ قدْ وجبَ عليهِ التصدُّقُ بالجميعِ ، ويُحتملُ أنْ يكونَ لهُ ، فيكونَ اللزومُ مِنْ جهةِ الكفَّارةِ .

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ أرادَ الحجَّ وبيدِهِ مالٌ حرامٌ أمسكَهُ للحاجةِ]

مَنْ في يدِهِ مالٌ حرامٌ أمسكَهُ للحاجةِ ، فأرادَ أنْ يتطوَّعَ بالحجِّ ؛ فإنْ كانَ ماشياً . . فلا بأسَ بهِ ؛ لأنَّهُ سيأكلُ هٰذا المالَ في غيرِ عبادةٍ ، فأكلُهُ في عبادةٍ أولىٰ ، وإنْ كانَ لا يقدرُ علىٰ أنْ يمشيَ ، ويحتاجُ إلىٰ زيادةٍ للمركوبِ . . فلا يجوزُ الأخذُ لمثلِ هٰذهِ الحاجةِ في الطريقِ ، كما لا يجوزُ شراءُ المركوبِ في البلدِ ، وإنْ كانَ يتوقَّعُ القدرةَ علىٰ حلالٍ لوْ أقامَ ؛ بحيثُ يستغني بهِ عنْ بقيَّةِ الحرامِ . . فالإقامةُ في انتظارِهِ أولىٰ مِنَ الحجِّ ماشياً بالمالِ الحرامِ .

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ خرجَ لحجٍّ واجبٍ بمالٍ فيهِ شبهةٌ]

مَنْ خرجَ لحجٍّ واجبٍ بمالٍ فيهِ شبهةٌ . . فليجتهدْ أنْ يكونَ قوتُهُ مِنَ

الطيِّبِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فمِنْ وقتِ الإحرامِ إلى التحلُّلِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فليجتهدْ يومَ عرفةَ ألا يكونَ قيامُهُ بينَ يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ ودعاؤُهُ في وقتٍ مطعمُهُ حرامٌ وملبسُهُ حرامٌ ، فليجتهدْ ألا يكونَ في بطنِهِ حرامٌ ، ولا علىٰ ظهرِهِ حرامٌ ؛ فإنَّا وإنْ جوَّزْنا هـٰذا للحاجةِ . . فهوَ نوعُ ضرورةٍ ، وما ألحقناهُ بالطيِّباتِ(١) .

فإنْ لمْ يقدرْ . . فليلازمْ قلبَهُ الخوفَ والغمَّ لما هوَ مضطرٌّ إليهِ مِنْ تناولِ ما ليسَ بطيِّبٍ ، فعسى اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ ينظرَ إليهِ بعينِ الرحمةِ ، ويتجاوزَ عنهُ بسببِ حزنِهِ وخوفِهِ وكراهتِهِ .

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ ماتَ وكانَ يعاملُ مَنْ تُكرهُ معاملتُهُ]

سُئِلَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمهُ اللهُ فقالَ لهُ قائلٌ : ماتَ أبي وتركَ مالاً ، وكانَ يعاملُ مَنْ تُكرهُ معاملتُهُ ، فقالَ : تدعُ مِنْ مالِهِ بقدْرِ ما ربحَ ، فقالَ : لهُ دينٌ وعليهِ دينٌ ، فقالَ : تقضي وتقتضي ، فقالَ : أفترىٰ ذلكَ ؟ فقالَ أفتدعُهُ محتبساً بدينِهِ ؟!(٢) .

وما ذكرَهُ صحيحٌ ، وهوَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ رأى التحرِّيَ بإخراجِ مقدارِ

---

(١) وإنما جوَّزناه للضرورات . « إتحاف » (٦/ ١٠٩) .
(٢) كذا في « الورع » (ص١٤٨) لأحمد ، وهو في « القوت » (٢/ ٢٧٧) .

الحرامِ ، إذْ قالَ : (يخرجُ قدْرَ الربحِ) ، وأنَّهُ رأىٰ أنَّ أعيانَ أموالِهِ ملكٌ لهُ بدلاً عمَّا بذلَهُ في المعاوضاتِ الفاسدةِ بطريقِ التقاصِّ والتقابلِ مهما كثُرَ التصرُّفُ وعسُرَ الردُّ ، وعوَّلَ في قضاءِ دينِهِ علىٰ أنَّهُ يقينٌ ، فلا يتركُ بسببِ الشبهةِ .

* * *

البابُ الخامسُ
في إدرارات السّلاطين وصِلاتهم وما يحِلّ منها وما يحرم

اعلمْ : أنَّ مَنْ أخذَ مالاً مِنْ سلطانٍ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ النظرِ في ثلاثةِ أمورٍ :

في مدخلِ ذلكَ إلىٰ يدِ السلطانِ مِنْ أينَ هوَ ؟

وفي صفتِهِ التي بها يستحقُّ الأخذَ .

وفي المقدارِ الذي يأخذهُ هلْ يستحقُّهُ إذا أضيفَ إلىٰ حالهِ وحالِ شركائِهِ في الاستحقاقِ ؟

النّظر الأوّل : في جهات الدّخل للسّلطان

وكلُّ ما يحلُّ للسلطانِ سوى الإحياء وما يشتركُ فيهِ الرعيَّةُ قسمانِ :

مأخوذٌ منَ الكفَّارِ : وهوَ الغنيمةُ المأخوذةُ بالقهرِ ، والفيءُ ؛ وهوَ الذي حصلَ مِنْ مالِهِمْ في يدهِ مِنْ غيرِ قتالٍ ، والجِزيةُ وأموالُ المصالحةِ ؛ وهيَ التي تؤخذُ بالشرطِ والمعاقدةِ .

* * *

والقسمُ الثاني : المأخوذُ مِنَ المسلمينَ : ولا يحلُّ منهُ إلا قسمانِ :

ـ المواريثُ وسائرُ الأموالِ الضائعةِ التي لا يتعيَّنُ لها مالكٌ .

ـ والأوقافُ التي لا متولِّيَ لها .

أمَّا الصدقاتُ . . فليسَ تؤخذُ في هـٰذا الزمانِ ، وما عدا ذلكَ ؛ مِنَ الخراجِ المضروبِ على المسلمينَ ، والمصادراتِ ، وأنواعِ الرِّشوةِ . . كلُّها حرامٌ .

فإذا كتبَ لفقيهٍ أوْ غيرِهِ إدراراً ، أوْ صلةً أوْ خلعةً علىٰ جهةٍ . . فلا يخلو مِنْ أحوالٍ ثمانيةٍ ؛ فإنَّهُ إمَّا أنْ يكتبَ لهُ ذلكَ على الجزيةِ ، أوْ على المواريثِ ، أوْ على الأوقافِ ، أوْ علىٰ مواتٍ أحياهُ السلطانُ ، أوْ علىٰ ملْكٍ اشتراهُ ، أوْ علىٰ عاملِ خراجِ المسلمينَ ، أوْ علىٰ بيَّاعٍ مِنْ جملةِ التجَّارِ ، أوْ على الخزانةِ .

* * *

فالأوَّلُ : هوَ الجزيةُ : وأربعةُ أخماسِها للمصالحِ[1] ، وخمسُهَا لجهاتٍ معيَّنةٍ ، فما يُكتبُ على الخمسِ مِنْ تلكَ الجهاتِ ، أوْ على الأخماسِ الأربعةِ لما فيهِ مصلحةٌ ، وروعيَ فيهِ الاحتياطُ في القدْرِ . . فهوَ حلالٌ بشرطِ أنْ تكونَ **الجزيةُ** مضروبةً علىٰ وجهٍ شرعيٍّ ؛ ليسَ فيها زيادةٌ علىٰ دينارٍ ، أوْ

(1) كسد الثغور ، وبناء القناطر والجسور ، وكفاية القضاة والعلماء والمقاتلة ووزرائهم ؛ لأنه مأخوذ بقوة المسلمين ، فيصرف إلىٰ مصالحهم ، وهـٰؤلاء عملة المسلمين ، قد حبسوا أنفسهم لمصالح المسلمين ، فكان الصرف إليهم تقوية للمسلمين . « إتحاف » (٦/ ١١٠) .

علىٰ أربعةِ دنانيرَ ؛ فإنَّهُ أيضاً في محلِّ الاجتهادِ[1] ، وللسلطانِ أنْ يفعلَ ما هوَ في محلِّ الاجتهادِ ، وبشرطِ أنْ يكونَ الذميُّ الذي تُؤخذُ الجزيةُ منهُ مكتسباً مِنْ وجهٍ لا يُعلمُ تحريمُهُ ، فلا يكونُ عاملَ سلطانٍ ظالمٍ ، ولا بيَّاعَ خمرٍ ، ولا صبياً ولا امرأةً ؛ إذْ لا جزيةَ عليهما .

فهٰذهِ أمورٌ تُراعىٰ في كيفيةِ ضرْبِ الجزيةِ ، ومقدارِها ، وصفةِ مَنْ تُصرفُ إليهِ ، ومقدارِ ما يُصرفُ ، فيجبُ النظرُ في جميعِ ذلكَ .

* * *

الثاني : **المواريثُ والأموالُ الضائعةُ** : فهيَ للمصالحِ ، والنظرُ في أنَّ الذي خلَّفَهُ هلْ كانَ مالُهُ كلُّهُ حراماً أَوْ أكثرُهُ أَوْ أقلُّهُ ؟ وقدْ سبقَ حكمُهُ ، فإنْ لمْ يكنْ حراماً . بقيَ النظرُ في صفةِ مَنْ يُصرفُ إليهِ ؛ بأنْ يكونَ في الصرْفِ إليهِ مصلحةٌ ، ثمَّ في المقدارِ المصروفِ .

* * *

الثالثُ : **الأوقافُ** : وكذا يجري النظرُ فيها كما يجري في الميراثِ ، معَ زيادةِ أمرٍ ؛ وهوَ شرْطُ الواقفِ ، حتَّىٰ يكونَ المأخوذُ موافقاً لهُ في جميعِ شرائطِهِ .

* * *

---

(١) فتقدير الدينار هو قول الإمام الشافعي ، وتقديرها بأربعة دنانير هو قول الإمام مالك ، علىٰ تفصيل في ذلك . انظر « الإتحاف » (٦/ ١١٠) .

الرابعُ : ما أحياهُ السلطانُ : وهـٰذا لا يُعتبرُ فيهِ شرْطٌ ؛ إذْ لهُ أنْ يعطيَ مِنْ ملكِهِ ما شاءَ ، لمَنْ شاءَ ، أيَّ قدْرٍ شاءَ ، وإنَّما النظرُ في أنَّ الغالبَ أنَّهُ أحياهُ بإكراهِ الأجراءِ ، أوْ بأداءِ أجرتِهِمْ مِنْ حرامٍ ؛ فإنَّ الإحياءَ يحصلُ بحفْرِ القناةِ والأنهارِ وبناءِ الجدرانِ ، وتسويةِ الأرضِ ، ولا يتولاَّهُ السلطانُ بنفسِهِ .

فإنْ كانوا مكرهينَ على الفعلِ . . لمْ يتملكْهُ السلطانُ ، وهوَ حرامٌ ، وإنْ كانوا مستأجرينَ ، ثمَّ قُضيتْ أجورُهُمْ مِنَ الحرامِ . . فهـٰذا يورثُ شبهةً قدْ نبهنا عليها في تعلُّقِ الكراهةِ بالأعواضِ .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : ما اشتراهُ السلطانُ في الذمَّةِ مِنْ أرضٍ أوْ ثيابِ خِلْعةٍ ، أوْ فرسٍ ، أوْ غيرِهِ : فهوَ ملكُهُ ، ولهُ أنْ يتصرَّفَ فيهِ ، ولكنَّهُ سيقضي ثمنَهُ مِنْ حرامٍ ، وذلكَ يوجبُ التحريمَ تارةً ، والشبهةَ أخرىٰ ، وقدْ سبقَ تفصيلُهُ[1] .

❊ ❊ ❊

السادسُ : أنْ يكتبَ علىٰ عاملِ خراجِ المسلمينَ[2] أوْ مَنْ يجمعُ أموالَ

---

(١) فموجب التحريم كونه اشترىٰ من مال حرام ، وموجب الشبهة أنه اشتراه في الذمة ، ثم أدىٰ ثمنه من حرام . « إتحاف » (٦/ ١١١) .

(٢) أي : على الأراضي الخراجية .

القسمةِ[1] **والمصادرةِ** : وهوَ الحرامُ السحْتُ الذي لا شبهةَ فيهِ ، وهوَ أكثرُ الإدراراتِ في هٰذا الزمانِ ، إلا ما علىٰ أراضي العراقِ ؛ فإنَّها وقْفٌ عندَ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ علىٰ مصالحِ المسلمينَ[2] .

* * *

السابعُ : ما يُكتبُ علىٰ بيّاعٍ يعاملُ السلطانَ : فإنْ كانَ لا يُعاملُ غيرَهُ . . فمالُهُ كمالِ خزانةِ السلطانِ ، وإنْ كانتْ معاملتُهُ معَ غيرِ السلطانِ أكثرَ . . فما يعطيهِ قرضٌ على السلطانِ ، وسيأخذُ بدلَهُ مِنَ الحرامِ ، فالخللُ يتطرّقُ إلى العوضِ ، وقد سبقَ حكمُ الثمنِ الحرامِ .

* * *

الثامنُ : ما يُكتبُ على الخزانةِ ، أوْ علىٰ عاملٍ يجتمعُ عندَهُ مِنَ الحلالِ والحرامِ : فإنْ لمْ يُعرفْ للسلطانِ دخلٌ إلا مِنَ الحرامِ . . فهوَ سحْتٌ محضٌ ، وإنْ عُرفَ يقيناً أنَّ الخزانةَ تشتملُ علىٰ مالٍ حلالٍ ومالٍ حرامٍ ، واحتملَ أنْ يكونَ ما يسلَّمُ إليهِ بعينِهِ مِنْ الحلالِ احتمالاً قريباً لهُ وقْعٌ في النفسِ ، واحتملَ أنْ يكونَ مِنَ الحرامِ وهوَ الأغلبُ ؛ لأنَّ أغلبَ أموالِ السلاطينِ حرامٌ في هٰذهِ الأعصارِ ، والحلالُ في أيديهِمْ معدومٌ أوْ عزيزٌ . . فقدِ اختلفَ الناسُ في هٰذا :

---

(١) في (ب) : (الرشوة) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٦/ ١١١) : (الغنيمة) .
(٢) إذ استطاب عمر رضي الله عنه قلوب الغانمين وآجرها من أهلها . انظر « الأم » (٥/ ٦٨٤) ، و« السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣١٨) للبيهقي ، و« الإتحاف » (٦/ ١١١) .

فقالَ قومٌ : كلُّ ما لا أتيقَّنُ أنَّهُ حرامٌ . . فلي أنْ آخذَهُ .

وقالَ آخرونَ : لا يحلُّ أنْ يُؤخذَ ما لمْ يُتحقَّقْ أنَّهُ حلالٌ ؛ فلا تحلُّ شبهةٌ أصلاً .

وكلاهما إسرافٌ ، والاعتدالُ ما قدمنا ذكرَهُ ، وهوَ الحكمُ بأنَّ الأغلبَ إذا كانَ حراماً . . حرمَ ، وإنْ كانَ الأغلبُ حلالاً وفيهِ يقينُ حرامٍ . . فهوَ موضعٌ توقفنا فيهِ كما سبقَ .

* * *

ولقدِ احتجَّ مَنْ جوَّزَ أخذَ أموالِ السلاطينِ إذا كانَ فيها حرامٌ وحلالٌ مهما لمْ يتحقَّقْ أنَّ عينَ المأخوذِ حرامٌ . . بما رُوِيَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ أنَّهُمْ أدركوا أيامَ الأئمةِ الظلمةِ وأخذوا الأموالَ ؛ منهُمْ : أبو هريرةَ ، وأبو سعيدٍ الخدريُّ ، وزيدُ بنُ ثابتٍ ، وأبو أيُّوبَ الأنصاريُّ ، وجريرُ بنُ عبدِ اللهِ ، وجابرٌ ، وأنسُ بنُ مالكٍ ، والمِسْوَرُ بنُ مخرمةَ .

فأخذَ أبو سعيدٍ وأبو هريرةَ مِنْ مروانَ ويزيدَ ومِنْ عبدِ الملكِ[١] ، وأخذ ابنُ عمرَ وابنُ عباسٍ مِنْ الحجَّاجِ[٢] .

---

(١) فقد أُمِّر عبد الملك في زمن معاوية رضي الله عنه ؛ إذ كان أميره على المدينة وعمره ست عشرة سنة . انظر « الطبقات الكبرىٰ » (٧/ ٢٢١) .

(٢) عقد ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧٠٢ـ٢٠٧٢٢) باباً فيمن رخص في جوائز الأمراء والعمال .

وأخذَ كثيرٌ مِنَ التابعينَ منهُمْ ؛ كالشعبيِّ ، والنخعيِّ ، والحسنِ ، وابنِ أبي ليلىٰ .

وأخذَ الشافعيُّ مِنْ هارونَ الرشيدِ ألفَ دينارٍ في دفعةٍ واحدةٍ ، وأخذَ مالكٌ مِنَ الخلفاءِ أموالاً جمَّةً .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (خذْ ما يعطيكَ السلطانُ ؛ فإنَّما يعطيكَ مِنَ الحلالِ ، وما يأخذُ مِنَ الحلالِ أكثرُ) .

وإنما تركَ مَنْ تركَ العطاءَ منهُمْ تورُّعاً ؛ مخافةً علىٰ دينِهِ أنْ يحملَ علىٰ ما لا يحلُّ .

ألا ترىٰ قولَ أبي ذرٍّ للأحنفِ بنِ قيسٍ : (خذِ العطاءَ ما كانَ نحلةً ، فإذا كانَ أثمانَ دينِكُمْ . . فدعوهُ)(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا أُعطِينا . . قبلْنا ، وإذا مُنعْنا . . لمْ نسألْ)(٢) .

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ أنَّ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ إذا أعطاهُ معاويةُ . . سكتَ ، وإنْ منعَهُ . . وقعَ فيهِ(٣) .

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٤/ ٢١٦) .
(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٧٤) بنحوه .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٧٣) بنحوه .

وعنِ الشعبيِّ ، عنْ مسروقٍ[١] : (لا يزال العطاء بأهلِ العطاءِ حتَّىٰ يدخلَهُمُ النارَ)[٢] أيْ : يحملُهُمْ ذلكَ على الحرامِ ، لا أنَّهُ في نفسِهِ حرامٌ .

وروىٰ نافعٌ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ المختارَ كانَ يبعثُ إليهِ المالَ فيقبلُهُ ، ثمَّ يقولُ : (لا أسألُ أحداً ، ولا أردُّ ما رزقَني اللهُ)[٣] ، وأهدىٰ إليهِ ناقةً فقبلَها ، وكانَ يُقالُ لها : ناقةُ المختارِ[٤] .

ولكنْ هٰذا يعارضُهُ ما رُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ لمْ يردَّ هديةَ أحدٍ إلا هديَّةَ المختارِ ، والإسنادُ في ردِّهِ أثبتُ[٥] .

وعنْ نافعٍ أنَّهُ قالَ : بعثَ ابنُ معمرٍ إلى ابنِ عمرَ ستينَ ألفاً ، فقسمَها

---

(١) في (أ ، ج ، هـ ، ط) : (ابن مسروق) ، وفي (ب ، د) : (أبي مسروق) ، والمثبت من بعض نسخ وقف عليها الحافظ الزبيدي ، فالشعبي إنما يروي عن مسروق بن الأجدع الكوفي التابعي المشهور . انظر « الإتحاف » (٦/ ١١٣) .

(٢) قد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧١١) أن خالد بن أسيد بعث إلىٰ مسروق بثلاثين ألفاً ، فردها ، فقالوا له : لو أخذتها فتصدقت بها ووصلت بها ؟! فأبىٰ أن يأخذها .

(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٤/ ١٤٠) ، والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي الكذاب .

(٤) معناه في الخبر قبله ، وسيأتي خبر حبيب قريباً .

(٥) خبر ردِّه هدايا المختار رواه ابن سعد في « طبقاته » (٤/ ١٤٧) قال نافع : ما رد ابن عمر علىٰ أحد وصية ولا رد علىٰ أحد هدية إلا على المختار .

على الناسِ ، ثمَّ جاءَهُ سائلٌ ، فاستقرضَ لهُ مِنْ بعضِ مَنْ أعطاهُ ، وأعطى السائلَ[(١)] .

ولمَّا قدمَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما علىٰ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : ألا أجيزُكَ بجائزةٍ لمْ أجزْها أحداً قبلَكَ مِنَ العربِ ، ولا أجيزُها أحداً بعدَكَ مِنَ العربِ ؟ قالَ : فأعطاهُ أربعَ مئةِ ألفِ درهمٍ ، فأخذَها[(٢)] .

وعنْ حبيبِ بنِ أبي ثابتٍ قالَ : لقدْ رأيتُ جائزةَ المختارِ لابنِ عمرَ وابنِ عباسٍ فقبلاها ، فقيلَ : ما هيَ ؟ قالَ : مالٌ وكسوةٌ[(٣)] .

وعنِ الزبيرِ بنِ عديٍّ أنَّهُ قالَ : قالَ سلمانُ : (إذا كانَ لكَ صديقٌ عاملٌ أوْ تاجرٌ يقارفُ الربا ، فدعاكَ إلىٰ طعامٍ أوْ نحوهِ ، أوْ أعطاكَ شيئاً . . فاقبلْ ، فإنَّ المهنأَ لكَ وعليهِ الوزرُ)[(٤)] ، وإذا ثبتَ هـٰذا في المُرْبي . . فالظالمُ في معناهُ .

---

(١) روىٰ نحوه ابن سعد في « الطبقات » (٤/١٣٨) .
(٢) وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/١١٣) قال : دخل الحسن والحسين علىٰ معاوية ، فأمر لهما في وقته بمئتي ألف درهم ، قال : خذاها وأنا ابن هند ، ما أعطاها أحد قبلي ولا يعطيها أحد بعدي ، وقد كان من جواب سيدنا الحسين رضي الله عنه علىٰ ذلك (٥٩/١٩٣) أن قال : والله ما أعطىٰ أحد قبلك ولا أحد بعدك لرجلين أشرف ولا أفضل منا .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧٠٣) بنحوه ، وسبقت الإشارة إليه قريباً .
(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٤٦٧٧) .

وعنْ جعفرٍ عنْ أبيهِ : أنَّ الحسنَ والحسينَ رضيَ اللهُ عنهُم كانا يقبلان جوائزَ معاويةَ(١) .

وقالَ حكيمُ بنُ جبيرٍ : مررْنا علىٰ سعيدِ بنِ جبيرٍ وقدْ جُعِلَ عشَّارون مِنْ أسفلِ الفراتِ ، فأرسلَ إلى العشَّارينَ : أطعمونا ممَّا عندَكُمْ ، فأرسلوا بطعامٍ ، فأكلَ وأكلْنا معهُ(٢) .

وقالَ العلاءُ بنُ زهيرٍ الأزديُّ : أتىٰ إبراهيمَ أبي وهوَ عاملٌ علىٰ حُلوانَ ، فأجازَهُ ، فقبلَ(٣) .

وقالَ إبراهيمُ : (لا بأسَ بجائزةِ العمَّالِ ، إنَّ للعمَّالِ مؤنةً ورزْقاً ، ويدخلُ بيتَ مالِهِ الخبيثُ والطيِّبُ ، فما أعطاكَ فهوَ مِنْ طيِّبِ مالِهِ)(٤) .

فقدْ أخذَ هؤلاءِ كلُّهُمْ جوائزَ السلاطينِ الظلمةِ ، وكلُّهُمْ طعنوا علىٰ مَنْ أطاعَهُمْ في معصيةِ اللهِ تعالىٰ .

وزعمَتْ هـٰذهِ الفرقةُ أنَّ ما يُنقلُ مِنِ امتناعِ جماعةٍ مِنَ السلفِ مِنَ العطاءِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/ ١٩٤) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٦٨٤) ، وسعيد رحمه الله بهـٰذا حمل حالهم علىٰ أن لهم رزقاً وكفاية من بيت المال تحت خدمتهم ، فيحل لهم ، وما حل لهم حل لغيرهم . « إتحاف » (٦/ ١١٤) .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٨/ ٣٩٤) ، وإبراهيم هو النخعي .

(٤) تقدم نحو هـٰذا عن علي رضي الله عنه ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (٨/ ٣٩٤) عن عون قال : كان إبراهيم يأتي السلطان فيسألهم الجوائز .

لا يدلُّ على التحريمِ ، بلْ على الورعِ ؛ كالخلفاءِ الراشدينَ وأبي ذرٍّ وغيرِهِمْ مِنَ الزهَّادِ ؛ فإنَّهُمُ امتنعوا مِنَ الحلالِ المطلقِ زهداً ، ومِنَ الحلالِ الذي يُخافُ إفضاؤُهُ إلىٰ محذورٍ ورعاً وتقوىٰ ، فإقدامُ هؤلاءِ يدلُّ على الجوازِ ، وامتناعُ أولئكَ لا يدلُّ على التحريمِ .

وما نقلَ عنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ أنَّهُ تركَ عطاءَهُ في بيتِ المالِ حتَّى اجتمعَ بضعةٌ وثلاثونَ ألفاً[١] ، وما نُقلَ عنِ الحسنِ مِنْ قولِهِ : (لا أتوضَّأُ مِنْ ماءِ صيرفيٍّ وإنْ ضاقَ وقتُ الصلاةِ ؛ لأني لا أدري أصلَ مالِهِ) . . كلُّ ذلكَ ورعٌ لا يُنكرُ ، واتباعُهُمْ عليهِ أحسنُ مِن اتباعِهِمْ على الاتساعِ ، ولكنْ لا يحرمُ اتباعُهُمْ على الاتساعِ أيضاً . فهٰذهِ هيَ شبهةُ مَنْ يجوِّزُ أخذَ مالِ السلطانِ الظالمِ .

والجوابُ : أنَّ ما نُقلَ مِنْ أخذِ هؤلاءِ محصورٌ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما نقلَ مِنْ رَدِّهِمْ وإنكارِهِمْ ، فإنْ كانَ يتطرَّقُ إلى امتناعِهِمُ احتمالُ الورعِ . . فيتطرَّقُ إلىٰ أخذِ مَنْ أخذَ ثلاثةُ احتمالاتٍ متفاوتةٍ في الدرجةِ بتفاوتِهِمْ في الورعِ ؛ فإنَّ للورعِ في حقِّ السلاطينِ أربعَ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ : ألا يأخذَ منْ مالِهِمْ شيئاً أصلاً ؛ كما فعلَهُ الورعونَ منهُمْ ، وكما كانَ يفعلُهُ الخلفاءُ الراشدونَ ، حتَّىٰ إنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ١٢٩) .

حسَبَ جميعَ ما كانَ أخذَهُ مِنْ بيتِ المالِ ، فبلغَ ستةَ آلافِ درهمٍ ، فغرِمَها لبيتِ المالِ[1] .

وحتىٰ إنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يقسمُ مالَ بيتِ المالِ يوماً ، فدخلَتِ ابنةٌ لهُ وأخذَتْ درهماً مِنَ المالِ ، فنهضَ عمرُ في طلبِها حتَّىٰ سقطَتِ الملحفةُ عنْ أحدِ منكبيهِ ، ودخلَتِ الصبيَّةُ إلىٰ بيتِ أهلِها تبكي ، وجعلَتِ الدرهمَ في فيها ، فأدخلَ عمرُ إصبعَهُ فأخرجَهُ مِنْ فيها ، وطرحَهُ على الخراجِ ، وقالَ : (أيُّها الناسُ ؛ ليسَ لعمرَ ولا لآلِ عمرَ إلا ما للمسلمينَ قريبِهِمْ وبعيدِهِمْ) .

وكسحَ أبو موسى الأشعريُّ بيتَ المالِ ، فوجدَ درهماً ، فمرَّ ببُنَيٍّ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأعطاهُ الدرهمَ فرآهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في يدِ الغلامِ ، فقالَ لهُ : مِنْ أينَ لكَ هـٰذا ؟ فقالَ : أعطانيهِ أبو موسىٰ ، فقالَ : يا أبا موسىٰ ؛ ما كانَ في أهلِ المدينةِ بيتٌ أهونَ عليكَ مِنْ آلِ عمرَ ؟! أردتَ ألا يبقىٰ مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحدٌ إلا طلبَنا بمظلمةٍ ؟! وردَّ الدرهمَ إلىٰ بيتِ المالِ[2] .

هـٰذا معَ أنَّ المالَ كانَ حلالاً ، ولكنْ خافَ ألا يستحقَّ هوَ ذلكَ القدْرَ ، فكانَ يستبرىءُ لدينِهِ ، ويقتصرُ على الأقلِّ ؛ امتثالاً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٧٦) .
(٢) عزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٣٦٠٢٤) لابن النجار .

وسلَّمَ : « دعْ ما يريبُكَ إلىٰ ما لا يريبُكَ »[1] ، ولقولِهِ : « فمَنْ تركَها . . فقدِ استبرأَ لعرضِهِ ودينِهِ »[2] ، ولِمَا سمعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ التشديداتِ في الأموالِ السلطانيةِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ بعثَ عبادةَ بنَ الصامتِ إلى الصدقةِ : « اتقِ اللهَ يا أبا الوليدِ ؛ لا تجيءْ يومَ القيامةِ ببعيرٍ تحملُهُ علىٰ رقبتِكَ لهُ رغاءٌ ، أوْ بقرةٍ لها خوارٌ ، أوْ شاةٍ لها ثُؤاجٌ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أهكذا يكونُ ؟ قالَ : « نعمْ ، والذي نفسي بيدِهِ إلا مَنْ رحمَ اللهُ » ، قالَ : فوالذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ لا أعملُ علىٰ شيءٍ أبداً[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لا أخافُ عليكُمْ أنْ تشركوا بعدي ، ولكنْ أخافُ عليكُمْ أنْ تنافَسُوا »[4] ، وإنَّما خافَ التنافُسَ في المالِ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في حديثٍ طويلٍ يذكرُ فيهِ مَالَ بيتِ المالِ :

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٢٠١) .

(٢) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

(٣) رواه الشافعي في « الأم » (١٤٦/٣) مرسلاً ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٥٨/٤) موصولاً ، و**الثؤاج** : صوت النعجة وصياح الغنم ، وهو عند البيهقي : (لا أعمل علىٰ شيء أبداً ، أو قال : على اثنين) ، قال الرافعي في « شرح مسند الشافعي » (١٦٦/٢) : (كأنه أراد عمل الزكاة ؛ لأنه روي أن عبادة مات بقبرس والياً عليها من قبل عمر رضي الله عنه ، والظاهر من حال الصحابة الوفاء بما قالوه وحلفوا عليه) ، فكأن رواية (اثنين) أوفق لهٰذه العلة ، والمعنىٰ كما ذكر الحافظ الزبيدي : لا ألي الحكم على اثنين ، ولا أقوم علىٰ أحد . « إتحاف » (١١٥/٦) .

(٤) رواه البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦) .

(إنِّي لمْ أجدْ نفسي فيهِ إلا كالوالِي مالَ اليتيمِ ؛ إنِ استغنيتُ . . استعففتُ ، وإنِ افتقرتُ . . أكلتُ بالمعروفِ)[1] .

ورُوِيَ أنَّ ابناً لطاووسٍ افتعلَ كتاباً عن لسانِهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأعطاهُ ثلاثَ مئةِ دينارٍ ، فباعَ طاووسٌ ضيعةً لهُ ، وبعثَ مِنْ ثمنِها إلىٰ عمرَ بثلاثِ مئةِ دينارٍ[2] ، هـٰذا معَ أنَّ السلطانَ مثلُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ .

هـٰذهِ هيَ الدرجةُ العليا في الورعِ .

الدرجةُ الثانيةُ : هوَ أنْ يأخذَ مالَ السلطانِ ولكنْ إنَّما يأخذُ إذا علمَ أنَّ ما يأخذُهُ مِنْ جهةٍ حلالٍ ، فاشتمالُ يدِ السلطانِ علىٰ حرامٍ آخرَ لا يضرُّهُ ، وعلىٰ هـٰذا ينزَّلُ جميعُ ما نُقِلَ مِنَ الآثارِ أوْ أكثرُها ، أوْ ما اختصَّ منها بأكابرِ الصحابةِ والورعينَ منهُمْ ؛ مثلَ ابنِ عمرَ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنَ المبالغينَ في الورعِ ، فكيفَ يتوسَّعُ في مالِ السلطانِ وقدْ كانَ مِنْ أشدِّهِمْ إنكاراً عليهِمْ ، وأشدِّهِمْ ذمّاً لأموالِهِمْ ؟! وذلكَ أنَّهُمُ اجتمعوا عندَ ابنِ عامرٍ وهوَ في مرضِهِ ، وأشفقَ علىٰ نفسِهِ مِنْ ولايتِهِ وكونِهِ مأخوذاً عندَ اللهِ بها ، فقالوا لهُ : إنَّا لنرجو لكَ الخيرَ ؛ حفرتَ الآبارَ ، وسقيتَ الحاجَّ ، وصنعتَ وصنعتَ ، وابنُ عمرَ ساكتٌ ، فقالَ : ماذا تقولُ يا بنَ عمرَ ؟ فقالَ : أقولُ ذلكَ إذا طابَ

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ٢٥٦) .
(٢) كذا في « الورع » (ص٨٦) لأحمد .

المكسبُ ، وزكتِ النفقةُ ، وستردُ فترى !(١) .

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّهُ قالَ : إنَّ الخبيثَ لا يكفِّرُ الخبيثَ ، وإنَّكَ قدْ وُليتَ البصرةَ ولا أحسبُكَ إلا قدْ أصبتَ منها شرّاً ، فقالَ لهُ ابنُ عامرٍ : ألا تدعو لي ؟ فقالَ ابنُ عمرَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا يقبلُ اللهُ صلاةً بغيرِ طهورٍ ، ولا صدقةً مِنْ غلولٍ » ، وقدْ وُليتَ البصرةَ(٢) . فهـٰذا قولُهُ فيما صرفَهُ إلى الخيراتِ .

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ في أيامِ الحجَّاجِ : (ما شبعتُ مِنَ الطعامِ مذِ انتهبتِ الدارُ إلىٰ يومي هـٰذا)(٣) .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ لهُ سويقٌ في إناءٍ مختومٍ يشربُ منهُ ، فقيلَ : أتفعلُ هـٰذا بالعراقِ معَ كثرةِ طعامِهِ ؟! فقالَ : أما إنِّي لا أختمُهُ بخلاً بهِ ، ولكنْ أكرَهُ أنْ يُجعلَ فيهِ ما ليسَ منهُ ، وأكرهُ أنْ يدخلَ بطني غيرُ طيبٍ(٤) . فهـٰذا هوَ المألوفُ منهُمْ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٨) .
(٢) مجمل الخبر رواه أحمد في « الزهد » (١٠٦٣ـ١٠٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٢٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ١٩١) ، والحديث المرفوع فيه رواه مسلم (٢٢٤) .
(٣) رواه بنحوه أبو داوود في « الزهد » (٣٠٩) ، ونسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » كذلك ، وقال : (قوله المذكور أن أكله للطعام لم يكن إلا علىٰ قدر الضرورة من غير توسع فيه) . « إتحاف » (٦/ ١١٧) .
(٤) رواه ضمن خبر طويل أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٢) .

وكانَ ابنُ عمرَ لا يعجبُهُ شيءٌ إلا خرجَ عنهُ ، فطُلِبَ منهُ نافعٌ بثلاثينَ ألفاً ، فقالَ : إنِّي أخافُ أنْ تفتنَني دراهمُ ابنِ عامرٍ ـ وكانَ هوَ الطالبَ ـ اذهبْ فأنتَ حرٌّ[1] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : (ما منَّا أحدٌ إلاَّ وقدْ مالَتْ بهِ الدنيا إلا ابنُ عمرَ)[2] .

فبهـٰذا يتضحُ أنَّهُ لا يُظنُّ بهِ وبمَنْ كانَ في منصبِهِ أنَّهُ أخذَ ما لا يدري أنَّهُ حلالٌ .

﴿ ﴿ ﴿

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يأخذَ ما أخذَهُ مِنَ السلطانِ ليتصدَّقَ بهِ على الفقراءِ ، أوْ يفرِّقَهُ على المستحقينَ ؛ فإنَّ ما لا يتعيَّنُ مالكُهُ هـٰذا حكمُ الشرعِ فيهِ ، فإذا كانَ السلطانُ إنْ لمْ يأخذْ منهُ لمْ يفرِّقْهُ ، واستعانَ بهِ علىٰ ظلمٍ . . فقدْ نقولُ : أخذُهُ منهُ وتفرقتُهُ أولىٰ مِنْ تركِهِ في يدِهِ ، وهـٰذا قدْ رآهُ بعضُ العلماءِ ، وسيأتي وجهُهُ .

وعلىٰ هـٰذا ينزَّلُ ما أخذَهُ أكثرُهُمْ ، ولذلكَ قالَ ابنُ المباركِ : إنَّ الذينَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٩٥) .
(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣/ ١٧٠٧) عن جابر لا عن أبي سعيد ، رضي الله عنهما .

يأخذونَ الجوائزَ اليومَ ويحتجُّونَ بابنِ عمرَ وعائشةَ . . ما يقتدونَ بهما ؛ لأنَّ ابنَ عمرَ فرَّقَ ما أخذَ حتَّى استقرضَ في مجلسِهِ بعدَ تفرقتِهِ ستينَ ألفاً[١] ، وعائشةُ فعلَتْ مثلَ ذلكَ[٢] ، وجابرُ بنُ زيدٍ جاءَهُ مالٌ فتصدَّقَ بهِ ، وقالَ : رأيتُ أنْ آخذَهُ منهُمْ وأتصدَّقَ بهِ أحبّ إليَّ مِنْ أنْ أدعَها في أيديهِمْ ، وهٰكذا فعلَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ بما قبلَهُ مِنْ هارونَ الرشيدِ ؛ فإنَّهُ فرَّقَهُ علىٰ قرْبٍ ، حتَّىٰ لمْ يمسكْ لنفسِهِ حبَّةً واحدةً[٣] .

* * *

الدرجةُ الرابعةُ : ألا يتحقَّقَ أنَّهُ حلالٌ ، ولا يفرِّقَ ، بلْ يستنفقُ[٤] ، ولكنْ يأخذُ مِنْ سلطانٍ أكثرُ مالِهِ حلالٌ ، وهكذا كانَ الخلفاءُ في زمانِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم والتابعينَ بعدَ الخلفاءِ الراشدينَ ، ولمْ يكنْ أكثرُ مالِهِمْ حراماً ، ويدلُّ عليهِ تعليلُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (فإنَّ ما يأخذُهُ مِنَ الحلالِ أكثرُ) .

وهٰذا ممَّا قدْ جوَّزَهُ جماعةٌ مِنَ العلماءِ ؛ تعويلاً على الأكثرِ ، ونحنُ إنَّما توقفْنا فيهِ في حقِّ آحادِ الناسِ ، ومالُ السلطانِ أشبهُ بالخروجِ عنِ الحصرِ ،

---

(١) روىٰ نحوه ابن سعد في « الطبقات » (٤/ ١٣٨) .
(٢) كما هو عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٠٧٠٥) .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٦) بنحوه .
(٤) **يستنفق** : يصرفها نفقة ، يقال : أنفق الرجل علىٰ عياله واستنفق .

فلا يبعدُ أنْ يؤديَ اجتهادُ مجتهدٍ إلىٰ جوازِ أخذِ ما لمْ يُعلمْ أنَّهُ حرامٌ ؛ اعتماداً على الأغلبِ ، وإنَّما منعْنا إذا كانَ الأكثرُ حراماً .

فإذا فهمتَ هٰذهِ الدرجاتِ . . تحققتَ أنَّ إدراراتِ الظلمةِ في زمانِنا لا تجري مجرىٰ ذلكَ ، وأنَّها تفارقُهُ مِنْ وجهينِ قاطعينِ :

أحدُهما : أنَّ أموالَ السلاطينِ في عصرِنا حرامٌ كلُّها أوْ أكثرُها ، وكيفَ لا والحلالُ هوَ الصدقاتُ والفيءُ والغنيمةُ ولا وجودَ لها وليسَ يدخلُ منها شيءٌ في يدِ السلاطينِ ؟! (١) ولمْ يبقَ إلا الجزيةُ ، وأنَّها تُؤخذُ بأنواعٍ مِنَ الظلمِ لا يحلُّ أخذُها بذلكَ ؛ فإنَّهُمْ يجاوزونَ حدودَ الشرعِ في المأخوذِ والمأخوذِ منهُ ، والوفاءِ لهُ بالشرطِ ، ثمَّ إذا نُسبَ ذلكَ إلىٰ ما ينصبُّ إليهِمْ مِنَ الخراجِ المضروبِ على المسلمينَ ، ومِنَ المصادراتِ ، والرشا ، وصنوفِ الظلمِ . . لمْ يبلغْ عُشرَ معشارِ عَشيرِهِ .

والوجهُ الثاني : أنَّ الظلمةَ في العصرِ الأوَّلِ لقربِ عهدِهِمْ بزمانِ الخلفاءِ الراشدينَ . . كانوا مستشعرينَ(٢) مِنْ ظلمِهِمْ ، ومتشوِّفينَ إلى استمالةِ قلوبِ الصحابةِ والتابعينَ ، وحريصينَ علىٰ قبولِهِمْ عطاياهُمْ وجوائزَهُمْ ، وكانوا يبعثونَ إليهم مِنْ غيرِ سؤالٍ وإذلالٍ ، بلْ كانوا يتقلَّدونَ المنَّةَ بقبولِهِمْ ويفرحونَ بهِ ، فكانوا يأخذونَ منهُمْ ويفرِّقونَ ، ولا يطيعونَ السلاطينَ في

---

(١) أي : في وقت المصنف .

(٢) أي : متخوفين .

أغراضِهِمْ ، ولا يغشَونَ مجالسَهُمْ ، ولا يكثرونَ جمعَهُمْ ، ولا يحبُّونَ بقاءَهُمْ ، بلْ يدعونَ عليهِمْ ، ويطلقونَ اللسانَ فيهِمْ ، وينكرونَ المنكراتِ منهُمْ ، فما كانَ يُحذرُ عليهِمْ أنْ يصيبوا مِنْ دينِهِمْ بقدْرِ ما أصابوا مِنْ دنياهُمْ ، فلمْ يكنْ بأخذِهِمْ بأسٌ .

فأمَّا الآنَ . . فلا تسمحُ نفوسُ السلاطينِ بعطيَّةٍ إلا لمَنْ طمعوا في استخدامِهِ ، والتكثُّرِ بهِ ، والاستعانةِ بهِ على أغراضِهِمْ ، والتجمُّلِ بغشيانِ مجالسِهِمْ ، وتكليفِهِمُ المواظبةَ على الدعاءِ والثناءِ ، والتزكيةِ والإطراءِ في حضورِهِمْ ومغيبِهِمْ ، فلوْ لمْ يذلَّ الآخذُ نفسَهُ بالسؤالِ أوَّلاً ، وبالتردُّدِ في الخدمةِ ثانياً ، وبالثناءِ والدعاءِ ثالثاً ، وبالمساعدةِ لهُ على أغراضِهِ عندَ الاستعانةِ رابعاً ، وبتكثيرِ جمعِهِ في مجلسِهِ وموكبِهِ خامساً ، وبإظهارِ الحبِّ والموالاةِ والمناصرةِ لهُ على أعدائِهِ سادساً ، وبالسترِ على ظلمِهِ ومقابحِهِ ومساوىءِ أعمالِهِ سابعاً[1] . . لمْ يُنعمْ عليهِ بدرهمٍ واحدٍ ، ولوْ كانَ في فضلِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ مثلاً !

فإذاً ؛ لا يجوزُ أنْ يُؤخذَ منهُمْ في هٰذا الزمانِ ما يُعلمُ أنَّهُ حلالٌ ؛ لإفضائِهِ إلى هٰذهِ المعاني ، فكيفَ ما يُعلمُ أنَّهُ حرامٌ أوْ يشكُّ فيهِ ؟!

فمَنِ استجرأَ على أموالِهِمْ ، وشبَّهَ نفسَهُ بالصحابةِ والتابعينَ . . فقدْ قاسَ

---

(١) والانتساب إليه في أحواله ثامناً ، والتعويل عليه في مهماته تاسعاً ، وجر أسباب تحصيل الأموال إليه عاشراً . « إتحاف » (٦/١١٩) .

الملائكةَ بالحدَّادينَ ؛ ففي أخذِ الأموالِ منهُمْ حاجةٌ إلىٰ مخالطتِهِمْ ومراعاتِهِمْ وخدمةِ عمَّالِهِمْ ، واحتمالِ الذلِّ منهُمْ ، والثناءِ عليهِمْ ، والتردُّدِ إلىٰ أبوابِهِمْ وكلُّ ذلكَ معصيةٌ علىٰ ما سنبينُ في البابِ الذي يلي هـٰذا .

فإذاً ؛ قدْ تبيَّنَ ممَّا تقدَّمَ مداخلُ أموالِهِمْ ، وما يحلُّ منها وما لا يحلُّ .

فلو تُصوِّرَ أنْ يأخذَ الإنسانُ منها ما يحلُّ بقدْرِ استحقاقِهِ وهوَ جالسٌ في بيتِهِ يُساقُ إليهِ ذلكَ ، لا يحتاجُ فيهِ إلىٰ تفقُّدِ عاملٍ وخدمتِهِ ، ولا إلى الثناءِ عليهِمْ وتزكيتِهِمْ ، ولا إلىٰ مساعدتِهِمْ . فلا يحرمُ الأخذُ ، ولكنْ يُكرهُ لمعانٍ سننبِّهُ عليها في البابِ الذي يلي هـٰذا .

* * *

النّظر الثّاني والثّالث من هٰذا الباب : في قدر المأخوذ وصفة الآخذ

ولنفرضِ المالَ مِنْ أموالِ المصالحِ ؛ كأربعةِ أخماسِ الفيءِ ، والمواريثِ ، فإنَّ ما عداهُ ممَّا قدْ تعيَّنَ مستحقُّهُ إنْ كانَ مِنْ وقفٍ ، أوْ صدقةٍ ، أوْ خمسِ فيءٍ ، أوْ خمسِ غنيمةٍ ، وما كانَ مِنْ ملكِ السلطانِ ممَّا أحياهُ أوِ اشتراهُ . . فلهُ أنْ يعطيَ ما شاءَ لمَنْ شاءَ .

وإنَّما النظرُ في الأموالِ الضائعةِ ومالِ المصالحِ ، فلا يجوزُ صرفُهُ إلا إلىٰ مَنْ فيهِ مصلحةٌ عامةٌ ، أوْ هوَ محتاجٌ إليهِ عاجزٌ عنِ الكسبِ .

فأمَّا الغنيُّ الذي لا مصلحةَ فيهِ . . فلا يجوزُ صرفُ مالِ بيتِ المالِ إليهِ ، هٰذا هوَ الصحيحُ ، وإنْ كانَ العلماءُ قدِ اختلفوا فيهِ(١) ، وفي كلامِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ما يدلُّ علىٰ أنَّ لكلِّ مسلمٍ حقّاً في مالِ بيتِ المالِ ؛ لكونِهِ مسلماً مكثراً جمعَ الإسلامِ ، ولكنَّهُ معَ هٰذا ما كانَ يقسمُ المالَ على المسلمينَ كافَّةً ، بلْ علىٰ مخصوصينَ بصفاتٍ .

فإذا ثبتَ هٰذا . . فكلُّ مَنْ يتولَّىٰ أمراً يقومُ بهِ ، تتعدَّىٰ مصلحتُهُ إلى المسلمينَ ، ولوِ اشتغلَ بالكسبِ لتعطَّلَ عليهِ ما هوَ فيهِ . . فلهُ في بيتِ المالِ حقُّ الكفايةِ ، ويدخلُ فيهِ العلماءُ كلُّهُمْ ؛ أعني : العلومَ التي تتعلَّقُ بمصالحِ

---

(١) فمن قائل : إنه يخمَّس ، وآخر : لا يخمَّس ويصرف في مصالح عامة المسلمين . انظر « الإتحاف » (٦/ ١١٩) .

الدينِ ؛ مِنْ علمِ الفقهِ ، والحديثِ ، والتفسيرِ ، والقراءةِ[1] ، حتَّىٰ يدخلُ فيهِ المعلِّمونَ ، والمؤذنونَ ، وطلبةُ هـٰذهِ العلومِ أيضاً يدخلونَ فيهِ[2] ، فإنَّهُ إنْ لمْ يُكفَوا . . لمْ يتمكَّنوا مِنَ الطلبِ .

ويدخلُ فيهِ العمَّالُ ، وهمُ الذينَ ترتبطُ مصالحُ الدنيا بأعمالِهِمْ ، وهمُ الأجنادُ المرتزقةُ الذينَ يحرسونَ المملكةَ بالسيوفِ عنْ أهلِ العداوةِ وأهلِ البغيِ وأعداءِ الإسلامِ .

ويدخلُ فيهِ الكتَّابُ والحسَّابُ والوكلاءُ ، وكلُّ مَنْ يُحتاجُ إليهِ في ترتيبِ ديوانِ الخراجِ ؛ أعني : العمالَ على الأموالِ الحلالِ لا على الحرامِ ، فإنَّ هـٰذا المالَ للمصالحِ ، والمصلحةُ إمَّا أنْ تتعلَّقَ بالدينِ أوْ بالدنيا ، وبالعلماءِ حراسةُ الدينِ ، وبالأجنادِ حراسةُ الدنيا ، والدينُ والملكُ توءمانِ ، فلا يستغني أحدُهما عنِ الآخرِ ، والطبيبُ وإنْ كانَ لا يرتبطُ بعلمِهِ أمرٌ دينيٌّ ولكنْ يرتبطُ بهِ صحَّةُ الجسدِ ، والدينُ يتبعُهُ ، فيجوزُ أنْ يكونَ لهُ ولمَنْ يجري مجراهُ في العلومِ المحتاجِ إليها في مصلحةِ الأبدانِ أوْ مصلحةِ البلادِ . . إدرارٌ مِنْ هـٰذهِ الأموالِ ؛ ليتفرَّغوا لمعالجةِ المسلمينَ ؛ أعني : مَنْ يعالجُ منهُمْ بغيرِ أجرةٍ ، وليسَ يُشترطُ في هؤلاءِ الحاجةُ ، بلْ يجوزُ أنْ يُعطَوا معَ الغنىٰ ، فإنَّ الخلفاءَ الراشدينَ كانوا يعطونَ المهاجرينَ والأنصارَ ، ولمْ

---

(١) وما تتوقف عليه مما هو جارٍ مجرى الوسائل والوسائط ؛ كالنحو والصرف والمعاني والبيان ، فلها حكم علوم الدين . « إتحاف » (٦/ ١٢٠) .

(٢) سواء كان من شهر أو سنة أو أزيد أو أقل . « إتحاف » (٦/ ١٢٠) .

يُعرفوا بالحاجةِ ، وليسَ يتقدَّرُ أيضاً بمقدارٍ ، بلْ هوَ إلى اجتهادِ الإمامِ ، ولهُ أنْ يوسِّعَ ويغنيَ ، ولهُ أنْ يقتصرَ على الكفايةِ علىٰ ما يقتضيهِ الحالُ وسعةُ المالِ ، فقدْ أخذَ الحسنُ مِنْ معاويةَ في دفعةٍ واحدةٍ أربعَ مئةِ ألفِ درهمٍ[1] ، وقدْ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يعطي لجماعةٍ اثني عشرَ ألفَ درهمٍ نُقرةً في السنةِ[2] ، وأثبتَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في هـٰذهِ الجريدةِ[3] ، ولجماعةٍ عشرةَ آلافٍ ، ولجماعةٍ ستةَ آلافٍ ، وهـٰكذا .

فهـٰذا مالُ هؤلاءِ ، فيُوزَّعُ عليهِمْ حتَّىٰ لا يبقىٰ منهُ شيءٌ ، فإنْ خصَّ واحداً منهُمْ بمالٍ كثيرٍ .. فلا بأسَ .

وكذلكَ للسلطانِ أنْ يخصَّ مِنْ هـٰذا المالِ ذوي الخصائصِ بالخلعِ والجوائزِ ، فقدْ كانَ يُفعلُ ذلكَ في السلفِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يلتفتَ فيهِ إلى المصلحةِ ، ومهما خُصَّ عالمٌ أوْ شجاعٌ بصلةٍ .. كانَ فيهِ بعثٌ للناسِ ، وتحريضٌ على الاشتغالِ والتشبُّهِ بهِ .

فهـٰذهِ فائدةُ الخلَعِ والصلاتِ وضروبِ التخصيصاتِ ، وكلُّ ذلكَ منوطٌ باجتهادِ السلطانِ .

وإنَّما النظرُ في السلاطينِ الظلمةِ في شيئينِ :

أحدُهما : أنَّ السلطانَ الظالمَ عليهِ أنْ يكفَّ عنْ ولايتهِ ، وهوَ إمَّا

---

(١) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ١١٣) نحوه .
(٢) **النقرة** : القطعة المذابة من الفضة .
(٣) فكانت تأخذ هـٰذا القدر من العطاء في كل سنة . « إتحاف » (٦/ ١٢١) .

معزولٌ ، أوْ واجبُ العزلِ ، فكيفَ يجوزُ أنْ يأخذَ مِنْ يدِهِ وهوَ على التحقيقِ ليسَ بسلطانٍ ؟!

والثاني : أنَّهُ ليسَ يعمِّمُ بمالِهِ جميعَ المستحقينَ ، فكيفَ يجوزُ للآحادِ أنْ يأخذوا ؟ أفيجوزُ لهمُ الأخذُ بقدْرِ حصصِهِمْ ، أمْ لا يجوزُ أصلاً ، أمْ يجوزُ أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ ما أعطي ؟

أمَّا الأوَّلُ . . فالذي نراهُ أنَّهُ لا يمنعُ أخذَ الحقِّ ؛ لأنَّ السلطانَ الظالمَ الجاهلَ مهما ساعدتْهُ الشوكةُ ، وعسرَ خلعُهُ ، وكانَ في الاستبدالِ بهِ فتنةٌ ثائرةٌ لا تطاقُ . . وجبَ تركُهُ ، ووجبَتِ الطاعةُ لهُ كما تجبُ طاعةُ الأمراءِ ، وقدْ وردَ في الأمرِ بطاعةِ الأمراءِ ، والمنعِ مِنْ سلِّ اليدِ عنْ مساعدتِهِمْ أوامرُ وزواجرُ[1] ، فالذي نراهُ أنَّ الخلافةَ منعقدةٌ للمتكفِّلِ بها مِنْ بني العبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ ، وأنَّ الولايةَ نافذةٌ للسلاطينِ في أقطارِ البلادِ المبايِعينَ للخليفةِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ « المستظهريِّ » المستنبطِ مِنْ كتابِ « كشفِ الأسرارِ وهتكِ الأستارِ » تأليفِ القاضي أبي الطيِّبِ في الردِّ علىٰ أصنافِ

---

(١) كالذي روى البخاري (٦٩٣) مرفوعاً : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل حبشيٌّ رأسه زبيبة » ، وما رواه البخاري (٣٦٠٣) ، ومسلم (١٨٤٣) مرفوعاً : « إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها » قالوا : يا رسول الله ؛ كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : « تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم » ، وروى البخاري (٧٠٥٣) ، ومسلم (١٨٤٩) مرفوعاً : « من كره من أميره شيئاً . . فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبراً . . مات ميتة جاهلية » .

الروافضِ والباطنيةِ . . ما يشيرُ إلىٰ وجهِ المصلحةِ فيه[١] .

والقولُ الوجيزُ : أنَّا نراعي الصفاتِ والشروطَ في السلاطينِ ؛ تشوُّفاً إلىٰ مزايا المصالحِ ، ولوْ قضينا ببطلانِ الولاياتِ الآنَ . . لبطلتِ المصالحُ رأساً ، فكيفَ يفوتُ رأسُ المالِ في طلبِ الربحِ[٢] ؟ بلِ الولايةُ الآنَ لا تتبعُ إلا الشوكةَ ، فمَنْ بايعَهُ صاحبُ الشوكةِ . . فهوَ الخليفةُ ، ومَنِ استبدَّ بالشوكةِ وهوَ مطيعٌ للخليفةِ في أصلِ الخطبةِ والسكَّةِ . . فهوَ سلطانٌ نافذُ الحكمِ[٣] ، والقضاةُ في أقطارِ الأرضِ ولاةٌ نافذو الأحكامِ ، وتحقيقُ هـٰذا قدْ ذكرناهُ في أحكامِ الإمامةِ مِنْ كتابِ « الاقتصادِ في الاعتقادِ »[٤] ، فلسنا نطوِّلُ الآنَ بهِ .

وأمَّا الإشكالُ الآخرُ ، وهوَ أنَّ السلطانَ إذا لمْ يعمِّمْ بالعطاءِ كلَّ مستحقٍّ . . فهلْ يجوزُ للواحدِ أنْ يأخذَ منهُ ؟ فهـٰذا ممَّا اختلفَ العلماءُ فيهِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

فغلا بعضُهُمْ وقالَ : كلُّ ما يأخذُهُ فالمسلمونَ كلُّهُمْ فيهِ شركاءُ ، ولا يدري أنَّ حصَّتَهُ منهُ دانقٌ أوْ حبَّةٌ ، فليتركِ الكلَّ .

---

(١) انظر « المستظهري » (١٦٩ ، ١٩٤) .
(٢) فالمصالح بمنزلة طلب الربح ، وولي الأمر بمنزلة رأس المال . « إتحاف » (٦/ ١٢٢) .
(٣) وهو الحال الذي كان في عصر المصنف رحمه الله تعالىٰ .
(٤) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٩١ـ٢٩٧) .

وقالَ قومٌ : لهُ أنْ يأخذَ قدْرَ قوتِ يومِهِ فقطْ ، فإنَّ هـٰذا القدْرَ يستحقُّهُ لحاجتِهِ على المسلمينَ .

وقالَ قومٌ : لهُ قوتُ سنةٍ ، فإنَّ أخذَ الكفايةِ كلَّ يومٍ عسيرٌ ، وهوَ ذو حقٍّ في هـٰذا المالِ ، فكيفَ يتركُهُ ؟[1] .

وقالَ قومٌ : إنَّهُ يأخذُ ما يعطىٰ ، والمظلومُ هُمُ الباقونَ ، وهـٰذا هوَ القياسُ ؛ لأنَّ المالَ ليسَ مشتركاً بينَ المسلمينَ كالغنيمةِ بينَ الغانمينَ ، ولا كالميراثِ بينَ الورثةِ ؛ لأنَّ ذلكَ صارَ ملكاً لهُمْ ، وهـٰذا لوْ لمْ يتفقْ قسمتُهُ حتَّىٰ ماتَ هؤلاءِ . . لمْ يجبِ التوزيعُ علىٰ ورثتِهِمْ بحكمِ الميراثِ ، بلْ هـٰذا الحقُّ غيرُ متعيّنٍ ، وإنَّما يتعيَّنُ بالقبضِ ، بلْ هوَ كالصدقاتِ ، ومهما أُعطيَ الفقراءُ حصَّتَهُمْ مِنَ الصدقاتِ . . وقعَ ذلكَ ملكاً لهُمْ ، ولمْ يمتنعْ بظلمِ المالكِ بقيَّةَ الأصنافِ بمنعِ حقِّهِمْ هـٰذا إذا لمْ يُصرفْ إليهِ كلُّ المالِ ، بلْ صرفَ إليهِ مِنَ المالِ ما لوْ صرفَ إليهِ بطريقِ الإيثارِ والتفضيلِ معَ تعميمِ الآخرينَ . . لجازَ لهُ أنْ يأخذَهُ .

والتفضيلُ جائزٌ في العطاءِ ؛ سوَّىٰ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فراجعَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : إنَّما فضلُهُمْ عندَ اللهِ ، وإنَّما الدنيا بلاغٌ[2] .

---

(١) وإذا قسطه الإمام علىٰ أثلاث ؛ فيعطىٰ في كل أربعة أشهر مرة واحدة قدر ما يكفيه في هـٰذه المدة . . كان حسناً ، وهو الذي أراه وأذهب إليه . « إتحاف » (٦/ ١٢٣) .

(٢) قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ في « الأم » (٥/ ٣٤٥) : (وإن أبا بكر حين قال له عمر : أتجعل الذين جاهدوا في الله بأموالهم وأنفسهم وهجروا ديارهم له كمن إنما دخل =

وفضَّلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في زمانِهِ ، فأعطىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها اثني عشرَ ألفاً ، وزينبَ عشرةَ آلافٍ ، وجويريةَ ستةَ آلافٍ ، وكذا صفيَّةُ[1] .

وأقطعَ عمرُ لعليٍّ خاصَّةً رضيَ اللهُ عنهُما ، وأقطعَ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً مِنَ السوادِ خمسَ جنَّاتٍ ، وآثرَ عثمانُ علياً رضيَ اللهُ عنهُما بها ، فقبلَ ذلكَ منهُ ولمْ ينكرْ .

وكلُّ ذلكَ جائزٌ ؛ فإنَّهُ في محلِّ الاجتهادِ ، وهوَ مِنَ المجتهداتِ التي أقولُ فيها : إنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ ؛ وهيَ كلُّ مسألةٍ لا نصَّ فيها علىٰ عينِها ، ولا علىٰ مسألةٍ تقرُبُ منها ، فتكونُ في معناها بقياسٍ جليٍّ ؛ كهـٰذهِ المسألةِ ومسألةِ حدِّ الشربِ ؛ فإنَّهُمْ جلدوا أربعينَ وثمانينَ ، والكلُّ سنَّةٌ وحقٌّ ، وإنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما مصيبٌ باتفاقِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم ، وأنَّ المفضولَ ما ردَّ في زمانِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ شيئاً إلى الفاضلِ ممَّا قدْ كانَ أخذَهُ في زمانِ أبي بكرٍ ، ولا الفاضلُ امتنعَ مِنْ قبولِ الفضْلِ في زمانِ عمرَ ، واشتركَ في ذلكَ كلُّ الصحابةِ ، واعتقدوا أنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الرأيينِ حقٌّ[2] .

= في الإسلام كرهاً ؟! فقال أبو بكر : إنما عملوا لله ، وإنما أجورهم على الله عز وجل ، وإنما الدنيا بلاغ ، وخير البلاغ أوسعه) ، ثم اختاره الإمام الشافعي .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٥٣٧) .

(٢) المستصفىٰ من علم الأصول (٢/ ٣٦٥) ، وفيه قال : (ومن نظر في المسائل الفقهية التي لا نص فيها . . علم ضرورة انتفاء دليل قاطع فيها ، وإذا انتفى الدليل . . فتكليف الإصابة من غير دليل قاطع تكليف محال ، فإذا انتفى التكليف . . انتفى الخطأ) .

فليُؤخذْ هٰذا الجنسُ دستوراً للاختلافاتِ التي يُصوَّبُ فيها كلُّ مجتهدٍ .

فأمَّا كلُّ مسألةٍ شذَّ عنْ مجتهدٍ فيها نصٌّ أوْ قياسٌ جليٌّ ؛ بغفلةٍ ، أوْ سوءِ رأيٍ ، وكانَ في القوَّةِ بحيثُ يُنقضُ بهِ حكمُ المجتهدِ . . فلا نقولُ فيها : إنَّ كلَّ واحدٍ مصيبٌ ، بلِ المصيبُ مَنْ أصابَ النصَّ أوْ ما في معنى النصِّ .

وقدْ تحصَّلَ مِنْ مجموعِ هٰذا أنَّ مَنْ وجدَ مِنْ أهلِ الخصوصِ الموصوفينَ بصفةٍ تتعلَّقُ بها مصالحُ الدينِ أوِ الدنيا ، وأخذَ مِنَ السلطانِ خلعةً أوْ إدراراً على التركاتِ أوِ الجزيةِ . . لمْ يصرْ فاسقاً بمجرَّدِ أخذِهِ ، وإنَّما يفسقُ بخدمتِهِ لهُمْ ومعاونتِهِ إيَّاهُمْ ، ودخولِهِ عليهِمْ ، وثنائِهِ وإطرائِهِ لهُمْ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ لوازمَ لا يسلمُ المالُ غالباً إلا بها ؛ كما سنبيِّنُهُ .

* * *

البَابُ السَّادِسُ
فيما يَحِلّ من مخالطة السّلاطين الظّلَمة ويحرم وحكم غشيان مجالسهم والدّخول عليهم والإكرام لهم

اعلمْ : أنَّ لكَ معَ الأمراءِ والعمَّالِ الظلمةِ ثلاثةَ أحوالٍ :

الحالةُ الأولىٰ ـ وهيَ شرُّها ـ : أنْ تدخلَ عليهِمْ .

والثانيةُ ـ وهي دونَها ـ : أنْ يدخلوا عليكَ .

والثالثةُ ـ وهيَ الأسلمُ ـ : أنْ تعتزلَ عنهُمْ ، فلا تراهم ولا يرونَكَ .

***

أمَّا الحالةُ الأولىٰ ـ وهيَ الدخولُ عليهِمْ ـ :

فهوَ مذمومٌ جدّاً في الشرعِ ، وفيهِ تغليظاتٌ وتشديداتٌ تواردَتْ بها الأخبارُ والآثارُ ، فننقلُها لتعرفَ ذمَّ الشرعِ لهُ ، ثمَّ نتعرَّضُ لما يحرمُ منهُ وما يُباحُ وما يُكرهُ ، علىٰ ما تقتضيهِ الفتوىٰ في ظاهرِ العلمِ .

***

أمَّا الأخبارُ :

فلمَّا وصفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأمراءَ الظلمةَ . . قالَ :

« فمَنْ نابذَهُمْ . . نجا ، ومَنْ اعتزَلَهُمْ . . سلمَ أوْ كادَ يسلمُ ، ومَنْ وقعَ معَهُمْ في دنياهُمْ . . فهوَ منهُمْ »(١) ، وذلكَ لأنَّ مَنِ اعتزلَهُمْ . . سلمَ مِنْ إثمِهِمْ ، ولكنْ لمْ يسلَمْ مِنْ عذابٍ يعمُّهُ معَهمْ إنْ نزلَ بِهِمْ ؛ لتركِهِ المنابذَةَ والمنازعةَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ مِنْ بعدي أمراءُ يظلمونَ ويكذبونَ ، فمَنْ صدَّقهُمْ بكذبِهِمْ ، وأعانَهُمْ علىٰ ظلمِهِمْ . . فليسَ منِّي ولستُ منهُ ، ولمْ يردْ عليَّ الحوضَ »(٢) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « أبغضُ القرَّاءِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ الذين يزورونَ الأمراءَ »(٣) .

وفي الخبرِ : (خيرُ الأمراءِ الذينَ يأتونَ العلماءَ ، وشرُّ العلماءِ الذينَ يأتونَ الأمراءَ)(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٨٩٨) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٩) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٤٣) ، والترمذي (٢٢٥٩) ، والنسائي (٧/ ١٦٠) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٦) .

(٤) روى الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٦٦) من حديث عمر رضي الله عنه : « إن الله عز وجل يحب الأمراء إذا خالطوا العلماء ، وإن الله يمقت العلماء إذا خالطوا الأمراء ؛ لأن العلماء إذا خالطوا الأمراء . . رغبوا في الدنيا ، وإن الأمراء إذا خالطوا العلماء . . رغبوا في الآخرة » .

وفي الخبرِ : « العلماءُ أمناءُ الرسلِ علىٰ عبادِ اللهِ ما لمْ يخالطوا السلطانَ ، فإذا فعلوا ذلكَ . . فقدْ خانُوا الرسلَ ، فاحذروهُمْ واعتزلوهُمْ » ، رواهُ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ(١) .

* * *

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ حذيفةُ : إيَّاكُمْ ومواقفَ الفتنِ ، قيلَ : وما مواقفُ الفتنِ ؟ قالَ : أبوابُ الأمراءِ ، يدخلُ أحدُكُمْ على الأميرِ فيصدِّقُهُ بالكذبِ ، ويقولُ ما ليسَ فيهِ(٢) .

وقالَ أبو ذرٍّ لسلمةَ : (يا سلمةُ ؛ لا تغشَ أبوابَ السلاطينِ ؛ فإنَّكَ لا تصيبُ مِنْ دنياهُمْ شيئاً إلا أصابوا مِنْ دينكَ أفضلَ منهُ)(٣) .

وقالَ سفيانُ : (في جهنَّمَ وادٍ لا يسكنُهُ إلا القرَّاءُ الزوَّارونَ للملوكِ)(٤) .

---

(١) رواه العقيلي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢١٠) ، وقال الحافظ المناوي نقلاً عن السيوطي : (قوله ـ أي ابن الجوزي : « موضوع » ممنوع ، وله شواهد فوق الأربعين ، فنحكم له علىٰ مقتضىٰ صناعة الحديث بالحسن) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٧) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٨٨٧) ، وسلمة هو ابن قيس .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٩٧) .

وقالَ الأوزاعيُّ : (ما مِنْ شيءٍ أبغضَ عندَ اللهِ مِنْ عالمٍ يزورُ عاملاً)[١] .

وقالَ سُمنونٌ : (ما أسمجَ بالعالمِ أَنْ يؤتىٰ إلىٰ مجلسهِ ، فلا يُوجدُ ، فيُسألُ عنهُ ، فيُقالُ : إنَّهُ عندَ الأميرِ ، وكنتُ أسمعُ أنَّهُ يُقالُ : « إذا رأيتمُ العالمَ يحبُّ الدنيا . . فاتهموهُ علىٰ دينِكُمْ » حتَّىٰ جرَّبْتُ ذلكَ ؛ إذْ ما دخلتُ قطُّ علىٰ هـٰذا السلطانِ إلا وحاسبتُ نفسي بعدَ الخروجِ ، فأرىٰ عليها الدركَ ، معَ ما أواجهُهُمْ بهِ مِنَ الغلظةِ والمخالفةِ لهواهُمْ)[٢] .

وقالَ عبادةُ بنُ الصامتِ : (حبُّ القارىءِ الناسكِ للأمراءِ نفاقٌ ، وحُبُّهُ للأغنياءِ رياءٌ) .

وقالَ أبو ذرٍّ : (مَنْ كثَّرَ سوادَ قومٍ . . فهوَ منهُمْ)[٣] أيْ : مَنْ كثَّرَ سوادَ الظلمةِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ الرجلَ ليدخلُ على السلطانِ ومعَهُ دينُهُ ، فيخرجُ ولا دينَ لهُ ! قيلَ لهُ : ولِمَ ؟ قالَ : لأنَّهُ يرضيهِ بسخطِ اللهِ[٤] .

---

(١) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٥) .
(٢) ترتيب المدارك (١/ ٣٥٧) .
(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ١٢٨) : (هكذا رواه ابن المبارك في « الزهد » عنه موقوفاً) ، وقد رواه مرفوعاً ابن أبي عاصم في « السنة » (١٥٠٥) عن أنس رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٥٦٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
(٤) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٨/ ٣٢٧) بتمامه ، ونحوه عند ابن المبارك في « الزهد » (٣٨٢) .

واستعملَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رجلاً ، فقيلَ : كانَ عاملاً للحجَّاجِ ، فعزلَهُ ، فقالَ الرجلُ : إنَّما عملتُ لهُ علىٰ شيءٍ يسيرٍ ، فقالَ لهُ عمرُ : حسبُكَ بصحبتِهِ يوماً أوْ بعضَ يومٍ شؤماً وشرّاً(١) .

وقالَ الفضيلُ : (ما ازدادَ رجلٌ مِنْ ذي سلطانٍ قرباً . . إلا ازدادَ مِنَ اللهِ بعداً)(٢) .

وكانَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ يتَّجرُ في الزيتِ ويقولُ : إنَّ في هـٰذا لغنىً عن هؤلاءِ السلاطينِ(٣) .

وقالَ وهيبٌ : (هؤلاءِ الذينَ يدخلونَ على الملوكِ لهُمْ أضرُّ على الأمَّةِ مِنَ المقامرينَ)(٤) .

وقالَ محمدُ بنُ سلمةَ : (الذبابُ على العذرةِ أحسنُ مِنْ قارىءٍ علىٰ بابِ هؤلاءِ)(٥) .

---

(١) رواه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » (١/٦٠٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/١٩٧) .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (٥٩٧) عن عبيد بن عمير مرسلاً ، وعند أحمد في « المسند » (٢/٣٧١) مرفوعاً : « من بدا . . جفا ، ومن اتبع الصيد . . غفَل ، ومن أتىٰ أبواب السلطان . . افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قرباً . . إلا ازداد من الله بعداً » .

(٣) كونه يتاجر بالزيت عند الترمذي (١٢٦٧) إشارة لذلك .

(٤) رواه أحمد في « الورع » (ص٨٢) .

(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/٤٤٦) عن محمد بن السماك .

ولمَّا خالطَ الزهريُّ السلطانَ(١) .. كتبَ أخٌ لهُ في الدينِ إليهِ : (عافانا اللهُ وإيَّاكَ أبا بكرٍ مِنَ الفتنِ ، فقدْ أصبحتَ بحالٍ ينبغي لمَنْ عرفَكَ أنْ يدعوَ لكَ اللهَ ويرحمَكَ ، أصبحتَ شيخاً كبيراً ، وقدْ أثقلتْكَ نعَمُ اللهِ ؛ لما فهَّمَكَ مِنْ كتابِهِ ، وعلَّمَكَ مِنْ سنَّةِ نبيِّهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وليسَ كذلكَ أخذَ اللهُ الميثاقَ على العلماءِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ .

واعلمْ: أنَّ أيسرَ ما ارتكبتَ وأخفَّ ما احتملتَ أنَّكَ آنستَ وحشةَ الظالمِ، وسهَّلْتَ سبيلَ الغيِّ بدنوِّكَ ممَّنْ لمْ يؤدِّ حقّاً ولمْ يتركْ باطلاً ، حينَ أدناكَ اتخذوكَ قطباً تدورُ عليكَ رحىٰ ظلمِهِمْ ، وجسراً يعبُرُونَ عليكَ إلىٰ بلائِهِمْ ، وسُلَّماً يصعدونَ فيهِ إلىٰ ضلالتِهِمْ ، ويُدخلونَ بكَ الشكَّ على العلماءِ ، ويقتادونَ بكَ قلوبَ الجهلاءِ ، فما أيسرَ ما عَمَروا لكَ في جنْبِ ما خرَّبوا عليكَ ، وما أكثرَ ما أخذوا منكَ في جنبِ ما أفسدوا عليكَ مِنْ دينِكَ ، فما يؤمنُكَ أنْ تكونَ ممَّنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ . . . ﴾ الآيةَ، وإنَّكَ تعاملُ مَنْ لا يجهلُ، ويحفظُ عليكَ مَنْ لا يغفُلُ ، فداوِ دينَكَ ؛ فقدْ دخلَهُ سقمٌ ، وهيِّئْ زادَكَ ؛ فقدْ حضرَ سفرٌ بعيدٌ ، وما يخفىٰ على اللهِ مِنْ شيءٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ، والسلامُ)(٢) .

---

(١) يعني به عبد الملك بن مروان ، فإنه كان قد خالطه وقدم عليه دمشق مراراً ، وكذا ولده هشام . « إتحاف » (٦/ ١٢٨) .

(٢) هـٰذا الكتاب أرسله أبو حازم سلمة بن دينار إلى الزهري رحمهما الله تعالىٰ ، رواه =

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تدلُّ علىٰ ما في مخالطةِ السلاطينِ مِنَ الفتنِ وأنواعِ الفسادِ ، **ولكنْ نفصِّلُ ذلكَ تفصيلاً فقهياً ، نميِّزُ فيهِ المحظورَ عنِ المكروهِ والمباحِ ، فنقولُ :**

الداخلُ على السلطانِ معرَّضٌ لأنْ يعصيَ اللهَ تعالىٰ ؛ إمَّا بفعلِهِ ، أوْ بسكوتِهِ ، وإمَّا بقولِهِ ، وإمَّا باعتقادِهِ ، ولا ينفكُّ عنْ أحدِ هٰذهِ الأمورِ[1] .

أمَّا الفعلُ : فالدخولُ عليهِمْ في غالبِ الأحوالِ يكونُ إلىٰ دورٍ مغصوبةٍ ، وتخطِّيها والدخولُ فيها بغيرِ إذنِ الملاَّكِ حرامٌ ، ولا يغرنَّكَ قولُ القائلِ : (إنَّ ذلكَ ممَّا يتسامحُ بهِ الناسُ ؛ كتمرةٍ أوْ فتاتِ خبزٍ) ؛ فإنَّ ذلكَ صحيحٌ في غيرِ المغصوبِ ، **أمَّا** المغصوبُ . . فلا ؛ لأنَّهُ إنْ قيلَ : إنَّ كلَّ جلسةٍ خفيفةٍ لا تنقصُ الملكَ فهيَ في محلِّ التسامحِ ، وكذلكَ الاجتيازُ . . فيجري هٰذا في كلِّ واحدٍ ، فيجري أيضاً في المجموعِ ، والغصبُ إنَّما تمَّ بفعلِ الجميعِ ، وإنَّما يُتسامحُ بهِ إذا انفردَ ، إذْ لوْ علمَ المالكُ بهِ . . ربَّما لمْ يكرهْهُ ، فأمَّا إذا كانَ ذلكَ طريقاً إلى الاستغراقِ بالاشتراكِ . . فحكمُ التحريمِ ينسحبُ على الكلِّ ، فلا يجوزُ أن يُتخذَ ملكُ الرجلِ طريقاً اعتماداً علىٰ أنَّ

= أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/٤١) ضمن خبر طويل .

(١) **ووجه الاستقراء** : أن الداخل لا يخلو عند دخوله أن يفعل شيئاً ، أو يسكت علىٰ شيء ، أو يقول شيئاً ، أو يعتقد في نفسه شيئاً ، والقول ما كان باللسان ، والفعل ما كان بالجوارح . « إتحاف » (٦/١٣١) .

كلَّ واحدٍ مِنَ المارِّينَ إنَّما يخطو خطوةً لا تنقصُ الملكَ ؛ لأنَّ المجموعَ مفوِّتٌ للملكِ ، وهو كضربةٍ خفيفةٍ في التعليمِ تُباحُ ولكنْ بشرطِ الانفرادِ ، فلوِ اجتمعَ جماعةٌ بضرباتٍ توجبُ القتلَ . . وجبَ القصاصُ على الجميعِ معَ أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الضرباتِ لوِ انفردَتْ . . لكانَتْ لا توجبُ قصاصاً .

فإنْ فُرضَ كونُ الظالمِ في موضعٍ غيرِ مغصوبٍ ؛ كالمواتِ مثلاً ؛ فإنْ كانَ تحتَ خيمةٍ أوْ مِظلَّةٍ مِنْ مالِهِ . . فهوَ حرامٌ(١) ، والدخولُ إليهِ غيرُ جائزٍ ؛ لأنَّهُ انتفاعٌ بالحرامِ واستظلالٌ بهِ .

فإنْ فُرضَ كلُّ ذلكَ حلالاً . . فلا يعصي بالدخولِ مِنْ حيثُ إنَّهُ دخولٌ ، ولا بقولِهِ : (السلامُ عليكَ) ، ولكنْ إنْ سجدَ ، أوْ ركعَ ، أوْ مثلَ قائماً في سلامِهِ وخدمتِهِ . . كانَ مكرِّماً للظالمِ بسببِ ولايتِهِ التي هيَ آلةُ ظلمِهِ ، والتواضعُ للظالمِ معصيةٌ ، بلْ مَنْ تواضعَ لغنيٍّ ليسَ بظالمٍ لأجلِ غناهُ لا لمعنىً آخرَ يقتضي التواضعَ . . ذهبَ ثلثا دينِهِ(٢) ، فكيفَ إذا تواضعَ لظالمٍ ؟!

فلا يُباحُ إلا مجرَّدُ السلامِ ، فأمَّا تقبيلُ اليدِ ، والانحناءُ في الخدمةِ . . فهوَ معصيةٌ ، إلا عندَ الخوفِ(٣) ، أوْ لإمامٍ عادلٍ ، أوْ لعالمٍ ، أوْ لمَنْ

---

(١) لكون أغلب أموال السلاطين كذلك . « إتحاف » (٦/ ١٣١) .

(٢) كما روىٰ ذلك الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٤٤٩) من حديث أبي ذر ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٥) عن فرقد السبخي يعزوه للتوراة .

(٣) منه علىٰ نفسه وعياله أو ضيعته ، فإن قبّل اليد . . فلا بأس بذلك ، وأما ما عداه مما ذكر . . فغير جائز ؛ فإنه ليس من شعار المسلمين . « إتحاف » (٦/ ١٣٢) .

يستحقُّ ذلكَ بأمرٍ دينيٍّ[1] ؛ قبَّلَ أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ يدَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لمَّا أنْ لقيَهُ بالشامِ ، فلمْ ينكرْ عليهِ[2] .

وقدْ بالغَ بعضُ السلفِ حتَّى امتنعَ عنْ ردِّ جوابِهِمْ في السلامِ ، والإعراضُ عنهُمُ استحقاراً لهُمْ مِنْ محاسنِ القرباتِ[3] ، فأمَّا السكوتُ عنْ ردِّ الجوابِ . . ففيهِ نظرٌ ؛ لأنَّ ذلكَ واجبٌ ، فلا ينبغي أنْ يسقطَ بالظلمِ .

فإنْ تركَ الداخلُ جميعَ ذلكَ ، واقتصرَ على السلامِ . . فلا يخلو مِنَ الجلوسِ علىٰ بساطِهِمْ ، وإذا كانَ أغلبُ أموالِهِمْ حراماً . . فلا يجوزُ الجلوسُ علىٰ فرشِهِمْ ، هـٰذا مِنْ حيثُ الفعلُ .

فأمَّا السكوتُ : فهوَ أنَّهُ سيرىٰ في مجالسِهِمْ مِنَ الفُرُشِ الحريرِ وأواني الفضَّةِ والحريرِ الملبوسِ عليهِمْ وعلىٰ غلمانِهِمْ ما هوَ حرامٌ ، وكلُّ مَنْ رأىٰ منكراً وسكتَ عنهُ . . فهوَ شريكٌ في ذلكَ المنكرِ ، بلْ يسمعُ مِنْ كلامِهِمْ

---

(١) كشيخ مسنٍّ صالح شابَ في الإسلام ، أو شيخه في العلم ولو كان شاباً ، أو والده ، أو والدته ، والعم بمنزلة الأب . « إتحاف » (٦/ ١٣٢) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٣٢) ، وأبو سعيد البصري في « القُبَل والمعانقة والمصافحة » (ص٩) .

(٣) والعبارة عند الحافظ الزبيدي : (والإعراضِ عنهم استحقاراً لهم ، وجعلوه من محاسن القربات) . « إتحاف » (٦/ ١٣٢) ، وأما الامتناع من رد السلام عليهم . . فقد أورده السيوطي عن ابن باكويه مسنداً في « أخبار الصوفية » حيث قال : (تعززوا علىٰ أبناء الدنيا بترك السلام عليهم) . انظر « ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين » (ص٢٣) .

ما هوَ فحشٌ وكذبٌ وشتمٌ وإيذاءٌ ، والسكوتُ علىٰ جميعِ ذلكَ حرامٌ ، بلْ يراهُمْ لابسينَ الثيابَ الحرامَ وآكلينَ الطعامَ الحرامَ وجميعُ ما في أيديهِمْ حرامٌ ، والسكوتُ علىٰ ذلكَ غيرُ جائزٍ ، فيجبُ عليهِ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ بلسانِهِ إنْ لمْ يقدِرْ بفعلِهِ .

* * *

فإنْ قيلَ : إنَّهُ يخافُ علىٰ نفسِهِ ، فهوَ معذورٌ في السكوتِ . . **فهـٰذا حقٌّ** ، ولكنَّهُ مستغنٍ عنْ أنْ يعرِّضَ نفسَهُ لارتكابِ ما لا يُباحُ إلا بعذرٍ ؛ فإنَّهُ لوْ لمْ يدخلْ ولمْ يشاهدْ . . لمْ يتوجَّهْ عليهِ الخطابُ بالحِسبةِ ، حتَّىٰ يسقطَ عنهُ بالعذْرِ ، وعندَ هـٰذا أقولُ : مَنْ علمَ فساداً في موضعٍ ، وعلمَ أنَّهُ لا يقدرُ علىٰ إزالتِهِ . . فلا يجوزُ لهُ أنْ يحضرَ ليجريَ ذلكَ بينَ يديهِ وهوَ يشاهدُهُ ويسكتُ ، بلْ ينبغي أنْ يحترزَ عنْ مشاهدتِهِ .

وأمَّا القولُ : فهوَ أنْ يدعوَ للظالمِ ، أوْ يثنيَ عليهِ ، أوْ يصدِّقَهُ فيما يقولُ مِنْ باطلٍ ؛ بصريحِ قولِهِ ، أوْ بتحريكِ رأسِهِ ، أوْ باستبشارٍ في وجهِهِ ، أوْ يظهرَ لهُ الحبَّ والموالاةَ والاشتياقَ إلىٰ لقائِهِ ، والحرصَ علىٰ طولِ عمرِهِ وبقائِهِ ؛ فإنَّهُ في الغالبِ لا يقتصرُ على السلامِ ، بلْ يتكلَّمُ ولا يعدو كلامُهُ هـٰذهِ الأقسامَ .

أمَّا الدعاءُ لهُ . . فلا يحلُّ ، إلا أنْ يقولَ : أصلحكَ اللهُ ، أوْ وفَّقكَ اللهُ للخيراتِ ، أوْ طوَّلَ اللهُ عمرَكَ في طاعتِهِ ، أو ما يجري هـٰذا المجرىٰ .

فأمَّا الدعاءُ بالحراسةِ ، وطولِ البقاءِ ، وإسباغِ النعمةِ ، معَ الخطابِ بالمولىٰ وما في معناهُ . . فغيرُ جائزٍ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ دعا لظالمٍ بالبقاءِ . . فقدْ أحبَّ أنْ يُعصى اللهُ في أرضِهِ »(١) .

فإنْ جاوزَ الدعاءَ إلى الثناءِ . . فسيذكرُ ما ليسَ فيهِ ، فيكونُ بهِ كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالمٍ ، وهٰذهِ ثلاثُ معاصٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليغضبُ إذا مُدحَ الفاسقُ »(٢) ، وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ أكرمَ فاسقاً . . فقدْ أعانَ علىٰ هدمِ الإسلامِ »(٣) .

فإنْ جاوزَ ذلكَ إلى التصديقِ لهُ فيما يقولُ ، والتزكيةِ والثناءِ علىٰ ما يعملُ . . كانَ عاصياً بالتصديقِ وبالإعانةِ ؛ فإنَّ التزكيةَ والثناءَ إعانةٌ على المعصيةِ ، وتحريكٌ للرغبةِ فيهِ ، كما أنَّ التكذيبَ والمذمَّةَ والتقبيحَ زجرٌ عنهُ ، وتضعيفٌ لدواعيهِ ، والإعانةُ على المعصيةِ معصيةٌ ، ولوْ بشطرِ كلمةٍ .

ولقدْ سئلَ سفيانُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ ظالمٍ أشرفَ على الهلاكِ في بريَّةٍ ؛

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٦٠٤) عن الحسن ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٤٦) من قول سفيان .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٣) .

(٣) روى الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٨) مرفوعاً : « من وقَّر صاحب بدعة . . فقد أعان علىٰ هدم الإسلام » ، والقصة بتمامها عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٦٤) .

هلْ يُسقىٰ شربةَ ماءٍ ؟ فقالَ : لا ، فقيلَ لهُ : يموتُ ! فقالَ : دعْهُ حتىٰ يموتَ ؛ فإنَّ ذلكَ إعانةٌ لهُ علىٰ ظلمِهِ .

وقالَ غيرُهُ : يُسقىٰ إلىٰ أنْ تثوبَ إليهِ نفسُهُ ، ثمَّ يُعرضُ عنهُ .

فإنْ جاوزَ ذلكَ إلىٰ إظهارِ الحبِّ والشوقِ إلىٰ لقائِهِ وطولِ بقائِهِ ؛ فإنْ كانَ كاذباً . . عصىٰ بمعصيةِ الكذبِ والنفاقِ ، وإنْ كانَ صادقاً . . عصىٰ بحبِّهِ بقاءَ ظالمٍ ، وحقُّهُ أنْ يبغضَهُ في اللهِ ويمقتَهُ ، فالبغضُ في اللهِ واجبٌ ، ومحبُّ المعصيةِ والراضي بها عاصٍ ، ومَنْ أحبَّ ظالماً ؛ فإنْ أحبَّهُ لظلمِهِ . . فهوَ عاصٍ بمحبَّتِهِ ، وإنْ أحبَّهُ لسببٍ آخرَ . . فهوَ عاصٍ مِنْ حيثُ إنَّهُ لمْ يبغضْهُ ، وكانَ الواجبُ عليهِ أنْ يبغضَهُ ، وإنِ اجتمعَ في شخصٍ واحدٍ خيرٌ وشرٌّ . . وجبَ أنْ يُحبَّ لأجلِ ذلكَ الخيرِ ، ويُبغضَ لأجلِ ذلكَ الشرِّ ، وسيأتي في كتابِ الأخوةِ والمتحابينَ في اللهِ وجهُ الجمعِ بينَ البغضِ والحبِّ .

فإنْ سلِمَ مِنْ ذلكَ كلِّهِ وهيهاتَ . . فلا يسلمُ مِنْ فسادٍ يتطرَّقُ إلىٰ قلبِهِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ إلىٰ توسُّعِهِ في النعمةِ فيزدري نعمَ اللهِ عليهِ ، ويكونُ مقتحماً نهيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « يا معشرَ المهاجرينَ ؛ لا تدخلوا علىٰ أهلِ الدنيا ، فإنَّها مسخطةٌ للرِّزقِ »(١) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٦٠) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٣١٢/٤) مرفوعاً : « أقلوا الدخول على الأغنياء ، فإنه قمنٌ ألا تزدروا نعم الله عز وجل » .

وهـٰذا معَ ما فيهِ مِنِ اقتداءِ غيرِهِ بِهِ في الدخولِ ، ومِنْ تكثيرِهِ سوادَ الظلمةِ بنفسِهِ ، وتجميلِهِ إيَّاهُمْ إنْ كانَ ممَّنْ يتجمَّلُ بهِ ، وكلُّ ذلكَ إمَّا مكروهاتٌ وإمَّا محظوراتٌ .

دُعِيَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ إلى البيعةِ للوليدِ وسليمانَ ابنَي عبدِ الملكِ بنِ مروانَ(١) ، فقالَ : لا أبايعُ اثنينِ ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ بيعتينِ(٢) ، فقالَ : فقيلَ : ادخلْ مِنَ البابِ واخرجْ مِنَ البابِ الآخرِ ، قالَ : لا واللهِ ؛ لا يقتدي بي أحدٌ مِنَ الناسِ ، قالَ : فجلدَهُ مئةً وألبسَهُ المسوحَ(٣) .

فلا يجوزُ الدخولُ عليهِمْ إلا بعذرينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ مِنْ جهتِهِمْ أمرُ إلزامٍ لا أمرُ إكرامٍ ، وعلمَ أنَّهُ لوِ امتنعَ . . أُوذِيَ أوْ فسدَ عليهِمْ طاعةُ الرعيةِ واضطربَ أمرُ السياسةِ ، فيجبُ عليهِ حينئذٍ الإجابةُ ، طاعةً لهُمْ ، ومراعاةً لمصلحةِ الخلقِ ؛ حتَّىٰ لا تضطربَ الولايةُ(٤) .

---

(١) وكان الداعي له هو والدهما عبد الملك . « إتحاف » (٦/ ١٣٤) .
(٢) رواه الترمذي (١٣٣١) ، والنسائي (٧/ ٢٩٥) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٧٠) ، **والمسوح** : جمع مِسح ، وهو الكساء الأسود .
(٤) في نسخة الحافظ الزبيدي : (لا طاعة لهم ، بل مراعاة لمصلحة . . .) . « إتحاف » (٦/ ١٣٥) ، والعبارتان موجهتان .

والثاني : أنْ يدخلَ عليهِمْ في دفعِ ظلمٍ عنْ مسلمٍ سواهُ ، أوْ عنْ نفسِهِ ؛ إمَّا بطريقِ الحِسبةِ ، أوْ بطريقِ التظلُّمِ ، فذلكَ رخصةٌ ، بشرطِ ألا يكذبَ ، ولا يثنيَ ، ولا يدعَ نصيحةً يتوقَّعُ لها قبولاً ، فهٰذا حكمُ الدخولِ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يدخلَ عليكَ السلطانُ الظالمُ زائراً :

فجوابُ السلامِ لا بدَّ منهُ ، وأمَّا القيامُ والإكرامُ لهُ . . فلا يحرمُ مقابلةً لهُ علىٰ إكرامِهِ ، فإنَّهُ بإكرامِ العلمِ والدينِ مستحقٌّ للإحمادِ ، كما أنَّهُ بالظلمِ مستحقٌّ للإبعادِ ، فالإكرامُ بالإكرامِ ، والجوابُ بالسلامِ ، ولكنَّ الأولىٰ ألا يقومَ إنْ كانَ معهُ في خلوةٍ ؛ ليظهرَ لهُ بذلكَ عزَّ الدينِ وحقارةَ الظلْمِ ، ويظهرَ لهُ غضبَهُ للدينِ ، وإعراضَهُ عمَّنْ أعرضَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، فأعرضَ اللهُ تعالىٰ عنْهُ .

وإنْ كانَ الداخلُ عليهِ في جمعٍ . . فمراعاةُ حشمةِ أربابِ الولاياتِ فيما بينَ الرعايا مهمٌّ ، فلا بأسَ بالقيامِ علىٰ هٰذهِ النيّةِ ، وإنْ علمَ أنَّ ذلكَ لا يورثُ فساداً في الرعيّةِ ، ولا ينالُهُ أذىً مِنْ غضبِهِ . . فتركُ الإكرامِ بالقيامِ أولىٰ .

ثمَّ يجبُ عليهِ بعدَ أنْ وقعَ اللقاءُ أنْ ينصحَهُ ، فإنْ كانَ يقارفُ ما لا يعرفُ تحريمَهُ ، وهوَ يتوقَّعُ أنْ يتركَهُ إذا عرفَ . . فليعرِّفْهُ ، فذلكَ واجبٌ .

وأمَّا ذكرُ تحريمِ ما يعلمُ تحريمَهُ ؛ مِنَ الشربِ والظلمِ . . فلا فائدةَ فيهِ ، بلْ عليهِ أنْ يخوِّفَهُ فيما يرتكبُهُ مِنَ المعاصي مهما ظنَّ أنَّ التخويفَ يؤثِّرُ فيهِ ،

وعليهِ أنْ يرشدَهُ إلىٰ طريقِ المصلحةِ إنْ كانَ يعرفُ طريقاً علىٰ وَفْقِ الشرعِ ؛ بحيثُ يحصلُ بهِ غرضُ الظالمِ مِنْ غيرِ معصيةٍ ، فيصدَّهُ بذلكَ عنِ الوصولِ إلىٰ غرضِهِ بالظلمِ .

فإذاً ؛ يجبُ عليهِ **التعريفُ** في محلِّ جهلِهِ ، **والتخويفُ** فيما هوَ مستجرىءٌ عليهِ ، **والإرشادُ** إلىٰ ما هوَ غافلٌ عنهُ ممَّا يغنيهِ عنِ الظلمِ .

فهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ تلزمُهُ إذا توقَّعَ للكلامِ فيها أثراً ، وذلكَ أيضاً لازمٌ علىٰ كلِّ مَنِ اتفقَ لهُ دخولٌ على السلطانِ بعذرٍ أوْ بغيرِ عذرٍ .

روىٰ مقاتلُ بنُ صالحٍ قالَ : كنتُ عندَ حمَّادِ بنِ سلمةَ ، وإذا ليسَ في البيتِ إلا حصيرٌ وهوَ جالسٌ عليهِ ، ومصحفٌ يقرأُ فيهِ ، وجرابٌ فيهِ علمُهُ ، ومَطهرةٌ يتوضَّأُ منها ، فبينا أنا عندَهُ . إذْ دقَّ داقٌّ البابَ ، فإذا هوَ محمدُ بنُ سليمانَ ، فأذنَ لهُ ، فدخلَ وجلسَ بينَ يديهِ ، ثمَّ قالَ : ما لي إذا رأيتُكَ . . امتلأتُ منكَ رُعباً ؟ قالَ حمادٌ : لأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ لهُ : « إنَّ العالمَ إذا أرادَ بعلمِهِ وجهَ اللهِ . . هابَهُ كلُّ شيءٍ ، وإنْ أرادَ أنْ يكنزَ بهِ الكنوزَ . . هابَ مِنْ كلِّ شيءٍ »(١) ، ثمَّ عرضَ عليهِ أربعينَ ألفَ درهمٍ وقالَ : تأخذُها وتستعينُ بها ، قالَ : ارددْها علىٰ مَنْ ظلمتَهُ بها ، قالَ : واللهِ ما أعطيتُكَ إلا ممَّا ورثتُهُ ، قالَ : لا حاجةَ لي فيها ، قالَ : فتأخذُها فتقسمُها ، قالَ : لعلِّي إنْ عدلتُ في قسمتِها أخافُ أنْ يقولَ بعضُ مَنْ لمْ

---

(١) هٰذا الحديث المرفوع رواه حماد كما سيأتي في تخريج الخبر .

يُرزقْ منها : إنَّهُ لمْ يعدِلْ في قسمتِها ، فيأثمُ ، فازوها عنِّي[١] .

* * *

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يعتزلَهُمْ فلا يراهُمْ ولا يرونَهُ :

وهوَ الواجبُ ؛ إذْ لا سلامةَ إلا فيهِ ، فعليهِ أنْ يعتقدَ بغضَهُمْ علىٰ ظلمِهِمْ ، ولا يحبَّ بقاءَهُمْ ، ولا يثنيَ عليهِمْ ، ولا يستخبرَ عنْ أحوالِهِمْ ، ولا يتقرَّبَ إلى المتصلينَ بهِمْ ، ولا يتأسَّفَ علىٰ ما يفوتُ بسببِ مفارقتِهِمْ ، وذلكَ إذا خطرَ ببالِهِ أمرُهُمْ ، وإنْ غفلَ عنهُمْ . . فهوَ الأحسنُ .

وإذا خطرَ ببالِهِ تنعُّمُهُمْ . . فليذكرْ ما قالَهُ حاتِمٌ الأصمُّ : (إنَّما بيني وبينَ الملوكِ يومٌ واحدٌ ، أمَّا أمسِ . . فلا يجدونَ لذَّتَهُ ، وإنِّي وإيَّاهُمْ مِن غدٍ لعلىٰ وجلٍ ، وإنَّما هوَ اليومُ ، وما عسىٰ أنْ يكونَ في اليومِ ؟!)[٢] .

وما قالَهُ أبو الدرداءِ إذْ قالَ : (أهلُ الأموالِ يأكلونَ ونأكلُ ، ويشربونَ ونشربُ ، ويلبسونَ ونلبسُ ، ولهُمْ فضولُ أموالٍ ينظرونَ إليهَا وننظرُ معَهُمْ إليها ، وعليهِمْ حسابُها ونحنُ منها برآءُ)[٣] .

---

(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٥٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ١٣٢) ، والحديث المرفوع في الخبر ساقه بسنده متصلاً حماد إذ قال : سمعت ثابتاً البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وذكره ، فهو من روايتهما .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٦٩) عن أبي حازم سلمة بن دينار .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٢) .

وكلُّ مَنْ أحاطَ علمُهُ بظلمِ ظالمٍ ومعصيةِ عاصٍ . . فينبغي أنْ يحطَّ ذلكَ مِنْ درجتِهِ في قلبِهِ ، فهـٰذا واجبٌ عليهِ ؛ لأنَّ مَنْ صدرَ منهُ ما يكرهُ . . نقصَ ذلكَ مِنْ رتبتِهِ في القلبِ لا محالةَ ، والمعصيةُ ينبغي أنْ تُكرهَ ، فإنَّهُ إمَّا أنْ يغفُلَ عنها ، أوْ يرضىٰ بها ، أوْ يكرهَ ، ولا غفلةَ معَ العلمِ ، ولا وجهَ للرضا ، فلا بدَّ مِنَ الكراهةِ ، فليكنْ جنايةُ كلِّ أحدٍ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ كجنايتِهِ علىٰ حقِّكَ .

* * *

فإنْ قلتَ : الكراهةُ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فكيفَ تجبُ ؟

قلنا : ليسَ كذلكَ ؛ فإنَّ المحبَّ يكرهُ بضرورةِ الطبعِ ما هوَ مكروهٌ عندَ محبوبِهِ ومخالفٌ لهُ ، فإنَّما لا يكرهُ معصيةَ اللهِ مَنْ لا يحبُّ اللهَ تعالىٰ ، وإنَّما لا يحبُّ اللهَ تعالىٰ مَنْ لا يعرفُهُ ، والمعرفةُ واجبةٌ ، والمحبةُ للهِ واجبةٌ ، وإذا أحبَّهُ . . كرهَ ما كرهَهُ ، وأحبَّ ما أحبَّهُ ، وسيأتي تحقيقُ ذلكَ في كتابِ المحبَّةِ والرضا .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ كانَ علماءُ السلفِ يدخلونَ على السلاطينِ .

فأقولُ : نعمْ ، تعلَّمِ الدخولَ منهُمْ ثمَّ ادخلْ ؛ كما حُكِيَ أنَّ هشامَ بنَ عبدِ الملكِ قدمَ حاجّاً إلىٰ مكَّةَ ، فلمَّا دخلَها . . قالَ : ائتوني برجلٍ مِنَ الصحابةِ ، فقيلَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قدْ فنُوا ، فقالَ : فمنَ التابعينَ ، فأُتِيَ

بطاووسٍ اليمانيِّ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . خلعَ نعليهِ بحاشيةِ بساطِهِ ، ولمْ يسلِّمْ عليهِ بإمرةِ المؤمنينَ ، ولكنْ قالَ : السلامُ عليكَ يا هشامُ ، ولمْ يكنِّهِ ، وجلسَ بإزائِهِ ، وقالَ : كيفَ أنتَ يا هشامُ ؟ فغضبَ هشامٌ غضباً شديداً حتَّىٰ همَّ بقتلِهِ ، فقيلَ لهُ : أنتَ في حرمِ اللهِ وحرمِ رسولِهِ ، فلا يمكنُ ذلكَ ، فقالَ لهُ : يا طاووسُ ؛ ما الذي حملَكَ علىٰ ما صنعتَ ؟ قالَ : وما الذي صنعتُ ؟ فازدادَ غضباً وغيظاً ، قالَ : خلعتَ نعليكَ بحاشيةِ بساطي ، ولمْ تقبِّلْ يدي ، ولمْ تسلِّم عليَّ بإمرةِ المؤمنينَ ، ولمْ تكنِّني ، وجلستَ بإزائي بغيرِ إذني ، وقلتَ : كيفَ أنتَ يا هشامُ .

فقالَ : أمَّا ما فعلتُ مِنْ خلْعِ نعلي بحاشيةِ بساطِكَ . . فإنِّي أخلعُهُما بينَ يدي ربِّ العزَّةِ كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ ولا يعاقبُني ، ولا يغضبُ عليَّ ، وأمَّا قولُكَ : لمْ تقبِّلْ يدي . . فإنِّي سمعتُ أميرَ المؤمنينَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (لا يحلُّ لرجلٍ أنْ يقبِّلَ يدَ أحدٍ ؛ إلا يدَ امرأتِهِ مِنْ شهوةٍ ، أوْ ولدِهِ مِنْ رحمةٍ) ، وأمَّا قولُكَ : لمْ تسلِّمْ عليَّ بإمرةِ المؤمنينَ . . فليسَ كلُّ الناسِ راضينَ بإمرتِكَ ، فكرهتُ أنْ أكذبَ ، وأمَّا قولُكَ : لمْ تكنِّني . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ سمَّىٰ أنبياءَهُ وأولياءَهُ فقالَ : يا داوودُ ، يا يحيىٰ ، يا عيسىٰ ، وكنَّىٰ أعداءَهُ فقالَ : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ، وأمَّا قولُكَ : جلستَ بإزائي . . فإنِّي سمعتُ أميرَ المؤمنينَ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (إذا أردتَ أنْ تنظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ . . فانظرْ إلىٰ رجلٍ جالسٍ وحولَهُ قومٌ قيامٌ) .

فقالَ لهُ هشامٌ : عظْني ، فقالَ : سمعتُ مِنْ أميرِ المؤمنينَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (إنَّ في جهنَّمَ حيَّاتٍ كالقلالِ ، وعقاربَ كالبغالِ ، تلدغُ كلَّ أميرٍ لا يعدلُ في رعيتِهِ) ، ثمَّ قامَ وخرجَ .

وعنْ سفيانَ الثوريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : أُدخلتُ علىٰ أبي جعفرٍ المنصورِ بمنىً ، فقالَ لي : ارفعْ إلينا حاجتكَ ، فقلتُ لهُ : اتقِ اللهَ فقدْ ملأتَ الأرضَ ظلماً وجوراً ، قالَ : فطأطأَ رأسَهُ ثمَّ رفعَهُ فقالَ : ارفعْ إلينا حاجتكَ ، قالَ : فقلتُ : إنَّما أُنزلتَ هـٰذهِ المنزلةَ بسيوفِ المهاجرينَ والأنصارِ وأبناؤُهُمْ يموتونَ جوعاً ، فاتقِ اللهَ وأوصل إليهِمْ حقوقَهُمْ ، فطأطأَ رأسَهُ ثمَّ رفعَ فقالَ : ارفعْ إلينا حاجتكَ ، فقلتُ : حجَّ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ لخازنِهِ : كمْ أنفقتَ ؟ قالَ : بضعةَ عشرَ درهماً ، وأرىٰ هـٰهنا أموالاً لا تطيقُ الجمالُ حملَها ، وخرج[1] .

فهكذا كانوا يدخلونَ على السلاطينِ إذا أُكرهوا ، فكانوا يغررونَ بأرواحِهِمْ في الانتقامِ للهِ مِمَّنْ ظلمَ .

ودخلَ ابنُ أبي شميلةَ علىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، فقالَ لهُ : تكلَّمْ ، فقالَ : إنَّ الناسَ لا ينجونَ في القيامةِ مِنْ غُصصِها ومراراتِها ومعاينةِ الردىٰ فيها إلا مَنْ أرضى اللهَ بسخطِ نفسِهِ ، فبكىٰ عبدُ الملكِ وقالَ : لأجعلنَّ هـٰذهِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٤٤) ، وفيها وفي النسخ : (... أموراً لا تطيقها الجبال) ، والمثبت من (ق) .

الكلمةَ مثالاً نصْبَ عينيَّ ما عشتُ[(١)] .

ولمَّا استعملَ عثمانُ بنُ عفَّانَ رضيَ اللهُ عنهُ عبدَ اللهِ بنَ عامرٍ[(٢)] . . أتاهُ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأبطأَ عنهُ أبو ذرٍّ وكانَ لهُ صديقاً ، فعاتبَهُ ، فقالَ أبو ذرٍّ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ الرجلَ إذا وليَ ولايةً . . تباعدَ اللهُ عنهُ »[(٣)] .

ودخلَ مالكُ بنُ دينارٍ علىٰ أميرِ البصرةِ ، فقالَ : أيُّها الأميرُ ؛ قرأتُ في بعضِ الكتبِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : مَنْ أحمقُ مِنَ السلطانِ ، ومَنْ أجهلُ ممَّنْ عصاني ، ومَنْ أعزُّ ممَّنِ اعتزَّ بي ؟! أيُّها الراعي السوءُ ؛ دفعتُ إليكَ غنماً سماناً صحاحاً[(٤)] ، فأكلتَ اللحمَ ، ولبستَ الصوفَ ، وتركتَها عظاماً تتقعقعُ ، فقالَ لهُ والي البصرةِ : أتدري ما الذي يجرِّئُكَ علينا ويجنِّبُنا عنكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : قلَّةُ الطمعِ إلينا ، وتركُ الإمساكِ لما في أيدينا[(٥)] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٠٥) .

(٢) في (أ ، ج ، د) : (العباس) ، وفي (ب) : (ابن عباس) ، وفي (هـ) : (استُعمِل عثمانُ) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٦/ ١٣٩) ، وروىٰ هناد في « الزهد » (٥٩٧) عن عبيد بن عمير مرسلاً ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٣٧١) مرفوعاً ما يفيد معناه ، وفيه : « وما ازداد عبد من السلطان دنوّاً . . إلا ازداد من الله بعداً » .

(٤) شبه السلطان براعي الغنم ، والرعية بالغنم . انظر « الإتحاف » (٦/ ١٣٩) .

(٥) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٥٤) ، والأمير هو بلال بن أبي بردة =

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ واقفاً معَ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فسمعَ سليمانُ صوتَ الرعدِ ، فجزعَ ووضعَ صدرَهُ علىٰ مقدمةِ الرحْلِ ، فقالَ لهُ عمرُ : هـٰذا صوتُ رحمتِهِ ، فكيفَ إذا سمعتَ صوتَ عذابِهِ ، ثمَّ نظرَ سليمانُ إلى الناسِ فقالَ : ما أكثرَ الناسَ ! فقالَ عمرُ : خصماؤُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ لهُ سليمانُ : ابتلاكَ اللهُ بهِمْ(١) .

وحُكيَ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ قدِمَ المدينةَ وهوَ يريدُ مكَّةَ ، فأرسلَ إلىٰ أبي حازمٍ فدعاهُ ، فلما دخلَ عليهِ.. قالَ لهُ سليمانُ : يا أبا حازمٍ ؛ ما لنا نكرهُ الموتَ ؟ فقالَ : لأنَّكُمْ خرَّبْتُمْ آخرتَكُمْ وعمَّرْتُمْ دنياكُمْ ، فكرهْتُمْ أنْ تنتقلوا مِنَ العمرانِ إلى الخرابِ .

فقالَ : يا أبا حازمٍ ؛ كيفَ القدومُ على اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أمَّا المحسنُ.. فكالغائبِ يقدَمُ علىٰ أهلِهِ ، وأمَّا المسيءُ.. فكالآبقِ يقدَمُ علىٰ مولاهُ .

فبكىٰ سليمانُ وقالَ : ليتَ شعري ! ما لي عندَ اللهِ ؟ قالَ أبو حازمٍ : اعرضْ نفسَكَ علىٰ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ .

= الأشعري ، ووقع في (أ ، د) : (ومن أغرُّ ممن اغترَّ بي) وهو موافق لإحدىٰ نسخ « عيون الأخبار » كما بين ذلك محققُهُ .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٨٨) .

قالَ سليمانُ : فأينَ رحمةُ اللهِ ؟ قالَ : قريبٌ مِنَ المحسنينَ .

ثمَّ قالَ سليمانُ : يا أبا حازمٍ ؛ أيُّ عبادِ اللهِ أكرمُ ؟ قالَ : أهلُ المروءةِ والتقىٰ .

قالَ : فأيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : أداءُ الفرائضِ معَ اجتنابِ المحارمِ .

قالَ : فأيُّ الدعاءِ أسمعُ ؟ قالَ : دعاءُ المحسَنِ إليهِ للمحسنينَ .

قالَ : فأيُّ الصدقةِ أفضلُ ؟ قالَ : السائلُ البائسُ ، وجهْدُ المقلِّ ، ليسَ فيها مَنٌّ ولا أذىً .

قالَ : فأيُّ القولِ أعدلُ ؟ قالَ : قولُ الحقِّ عندَ مَنْ تخافُ وترجو .

قالَ : فأيُّ المؤمنينَ أكيسُ ؟ قالَ : رجلٌ عملَ بطاعةِ اللهِ ودعا الناسَ إليها .

قالَ : فأيُّ المؤمنينَ أخسرُ ؟ قالَ : رجلٌ خطا في هوىٰ أخيهِ وهوَ ظالمٌ ، فباعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ .

قالَ سليمانُ : فما تقولُ فيما نحنُ فيهِ ؟ قالَ : أوتعفيني ؟ قالَ : لا بدَّ ، ولكنْ نصيحةٌ تلقيها إليَّ ، قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ آباءَكَ قهروا الناسَ بالسيفِ ، وأخذوا هـٰذا الملكَ عنوةً مِنْ غيرِ مشورةٍ مِنَ المسلمينَ ولا رضاً منهُمْ ، حتَّىٰ قتلوا منهُمْ مقتلةً عظيمةً ، وقدِ ارتحلوا ، فلوْ شعرتَ بما قالوا وما قيلَ لهُمْ ، فقالَ لهُ رجلٌ مِنْ جلسائِهِ : بئسما قلتَ ، قالَ أبو حازمٍ : إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ قدْ أخذَ الميثاقَ على العلماءِ ليُبيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يكتمونَهُ ،

قالَ : فكيفَ لنا أنْ نصلحَ هـٰذا الفسادَ ؟ قالَ : أنْ تأخذَهُ مِنْ حلِّهِ فتضعَهُ في حقِّهِ ، فقالَ سليمانُ : ومَنْ يقدرُ علىٰ ذلكَ ؟ فقالَ : مَنْ يطلبُ الجنَّةَ ويخافُ مِنَ النارِ .

فقالَ سليمانُ : ادعُ لي ، فقالَ أبو حازمٍ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ سليمانُ وليَّكَ . . فيسِّرْهُ لخيرِ الدنيا والآخرةِ ، وإنْ كانَ عدوَّكَ . . فخذْ بناصيتِهِ إلىٰ ما تحبُّ وترضىٰ .

فقالَ سليمانُ : أوصني ، فقالَ : أوصيكَ وأُوجِزُ ؛ عظِّمْ ربَّكَ ، ونزِّهْهُ أنْ يراكَ حيثُ نهاكَ ، أوْ يفقدَكَ حيثُ أمرَكَ(١) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لأبي حازمٍ : عظْني ، فقالَ : اضطجعْ ، ثمَّ اجعلِ الموتَ عندَ رأسِكَ ، ثمَّ انظرْ ما تحبُّ أنْ يكونَ فيكَ تلكَ الساعةَ . . فخذْ بهِ الآنَ ، وما تكرهُ أنْ يكونَ فيكَ تلكَ الساعةَ . . فدعْهُ الآنَ ، فلعلَّ تلكَ الساعةَ قريبةٌ(٢) .

ودخلَ أعرابيٌّ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فقالَ : تكلَّمْ يا أعرابيُّ ؛ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِّي مكلِّمُكَ بكلامٍ فاحتملْهُ وإنْ كرهتَهُ ، فإنَّ وراءَهُ ما تحبُّ إنْ قبلتَهُ ، فقالَ : يا أعرابيُّ ؛ إنَّا لنجودُ بسعةِ الاحتمالِ علىٰ

---

(١) رویٰ هـٰذا الخبر بألفاظ متقاربة مع زيادات الدارمي في « سننه » (٦٧٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٣٤) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣١٧) .

مَنْ لا نرجو نصحَهُ ، ولا نأمنُ غشَّهُ ، فكيفَ بمَنْ نأمَنُ غشَّهُ ونرجو نصحَهُ ؟! فقالَ الأعرابيُّ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ قدْ تكنَّفَكَ رجالٌ أساؤوا الاختيارَ لأنفسِهِمْ ، وابتاعوا دنياهُمْ بدينِهِمْ ، ورضاكَ بسخطِ ربِّهِمْ ، خافوكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ولمْ يخافوا اللهَ فيكَ ، حربٌ للآخرةِ سلْمٌ للدنيا ، فلا تأمنْهُمْ علىٰ ما ائتمنَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ ، فإنَّهُمْ لمْ يألوا في الأمانةِ تضييعاً ، وفي الأمَّةِ خسفاً وعسفاً ، وأنتَ مسؤولٌ عمَّا اجترحوا ، وليسوا بمسؤولينَ عمَّا اجترحتَ ، فلا تصلحْ دنياهُمْ بفسادِ آخرتِكَ ، فإنَّ أعظمَ الناسِ غبْناً مَنْ باعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ ، فقالَ سليمانُ : أما إنَّكَ يا أعرابيُّ قدْ سللْتَ لسانَكَ وهوَ أقطعُ سيفَيْكَ ، فقالَ : أجلْ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ولكنْ لكَ لا عليكَ(١) .

وحُكِيَ أنَّ أبا بكرةَ دخلَ علىٰ معاويةَ ، فقالَ : اتقِ اللهَ يا معاويةُ ؛ واعلمْ أنَّكَ في كلِّ يومٍ يخرجُ عنكَ ، وفي كلِّ ليلةٍ تأتي عليكَ . . لا تزدادُ منَ الدنيا إلا بعداً ، ومنَ الآخرةِ إلا قرباً ، وعلىٰ أثرِكَ طالبٌ لا تفوتُهُ ، وقدْ نصبَ لكَ عَلَماً لا تجوزُهُ ، فما أسرعَ ما تبلغُ العَلَمَ ، وما أوشكَ ما يلحقُ بكَ الطالبُ ، وإنَّا وما نحنُ فيهِ زائلٌ ، وفي الذي نحنُ إليهِ صائرونَ باقٍ ، إنْ خيراً . . فخيرٌ ، وإنْ شراً . . فشرٌّ .

فهكذا كانَ دخولُ أهلِ العلمِ على السلاطينِ ؛ أعني : علماءَ الآخرةِ ، فأمَّا علماءُ الدنيا . . فيدخلونَ يتقرَّبونَ إلىٰ قلوبِهِمْ ، فيدلُّونَهُمْ على

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٧٥) .

الرخصِ ، ويستنبطونَ لهُمْ بدقائقِ الحيلِ طرقَ السعةِ فيما يوافقُ أغراضَهُمْ ، وإنْ تكلَّموا بمثلِ ما ذكرناهُ في معرضِ الوعظِ . . لمْ يكنْ قصدُهُمْ الإصلاحَ ، بلِ اكتسابُ الجاهِ والقبولِ عندَهُمْ ، **وفي هـٰذا غروران يغترُّ بِهما الحمقىٰ** :

أحدُهما : أنْ يظهروا أنَّ قصدَهُمْ في الدخولِ عليهِمْ إصلاحُهُمْ بالوعظِ ، وربَّما يلبِّسونَ علىٰ أنفسِهِمْ بذلكَ ، وإنَّما الباعثُ لهُمْ شهوةٌ خفيَّةٌ للشهرةِ ، وتحصيلُ المعرفةِ عندَهُمْ .

وعلامةُ الصدقِ في طلبِ الإصلاحِ أنَّهُ لوْ تولَّىٰ ذلكَ الوعظَ غيرُهُ ، ممَّنْ هوَ مِنْ أقرانِهِ منَ العلماءِ ، ووقعَ موقعَ القبولِ ، وظهرَ بهِ أثرُ الصلاحِ . . فينبغي أنْ يفرحَ بذلكَ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كفايتِهِ هـٰذا المهمَّ ؛ كمَنْ وجبَ عليهِ أنْ يعالجَ مريضاً ضائعاً ، فقامَ بمعالجتِهِ غيرُهُ ، فإنَّهُ يعظمُ بهِ فرحُهُ ، فإنْ كانَ يصادفُ في قلبِهِ ترجيحاً لكلامِهِ علىٰ كلامِ غيرِهِ . . فهوَ مغرورٌ .

الثاني : أنْ يزعمَ أنِّي أقصدُ الشفاعةَ لمسلمٍ في دفعِ ظلامةٍ ، وهـٰذا أيضاً مَظِنَّةُ الغرورِ ، ومعيارُهُ ما تقدَّمَ ذكرُهُ .

* * *

وإذْ ظهرَ طريقُ الدخولِ عليهِمْ . فلنرسمْ في الأحوالِ العارضةِ في مخالطةِ السلاطينِ ومباشرةِ أموالِهِمْ مسائلَ :

مَسْأَلَةٌ

[فيمَنْ بعثَ إليهِ السلطانُ مالاً ليفرِّقَهُ]

إذا بعثَ إليكَ السلطانُ مالاً لتفرِّقَهُ على الفقراءِ ، فإنْ كانَ لهُ مالكٌ معيَّنٌ . . فلا يحلُّ أخذُهُ ، وإنْ لمْ يكنْ ، بلْ كانَ حكمُهُ أنَّهُ يجبُ التصدُّقُ بِهِ على المساكينِ كما سبقَ . . فلكَ أنْ تأخذَهُ وتتولَّىٰ تفرقتَهُ ، ولا تعصي بأخذِهِ ، ولكنْ مِنَ العلماءِ مَنِ امتنعَ منْ ذلكَ ، فعندَ هٰذا ينظرُ في الأَوْلىٰ ، فنقولُ : **الأَوْلىٰ أنْ تأخذَهُ إنْ أمنتَ ثلاثَ غوائلَ** :

الغائلةُ الأُولىٰ : أنْ يظنَّ السلطانُ بسببِ أخذِكَ أنَّ مالَهُ طيِّبٌ ، ولولا أنَّهُ طيِّبٌ . . لما كنتَ تمدُّ اليدَ إليهِ ، ولا تُدخلُهُ في ضمانِكَ ، فإنْ كانَ كذلكَ . . فلا تأخذْهُ ؛ فإنَّ ذلكَ محذورٌ ولا يفي الخيرُ في مباشرتِكَ التفرقةَ بما يحصلُ لهُ مِنَ الجرأةِ علىٰ كسْبِ الحرامِ .

* * *

الغائلةُ الثانيةُ : أنْ ينظرَ إليكَ غيرُكَ مِنَ العلماءِ والجهَّالِ ، فيعتقدونَ أنَّهُ حلالٌ ، فيقتدونَ بكَ في الأخذِ ، ويستدلُّونَ بهِ علىٰ جوازِهِ ، ثمَّ لا يفرِّقونَ ، فهٰذا أعظمُ مِنَ الأوَّلِ ، فإنَّ جماعةً يستدلُّونَ بأخذِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ جوازِ الأخذِ ، ويغفُلُونَ عنْ تفرقتِهِ وأخذِهِ علىٰ نيَّةِ التفرقةِ ، فالمقتدىٰ والمتشبَّهُ بهِ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ هٰذا غايةَ الاحترازِ ، فإنَّهُ يكونُ فعلُهُ سببَ ضلالِ خلقٍ كثيرٍ .

وقدْ حكىٰ وهبُ بنُ منبهٍ أنَّ رجلاً أُتِيَ بهِ إلىٰ ملكٍ بمشهدٍ مِنَ الناسِ ليُكْرهَ علىٰ أكلِ لحمِ الخنزيرِ ، فلمْ يأكلْ ، فقُدِّمَ إليهِ لحمُ غنمٍ وأُكرِهَ بالسيفِ ، فلمْ يأكلْ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّ الناسَ قَدِ اعتقدوا أنِّي طُولبتُ بأكلِ لحمِ الخنزيرِ ، فإذا خرجتُ سالماً وقدْ أكلتُ.. فلا يعلمونَ ماذا أكلتُ فيضلُّونَ[1] .

ودخلَ وهبُ بنُ منبهٍ وطاووسٌ علىٰ محمدِ بنِ يوسفَ أخي الحجَّاجِ وكانَ عاملاً ، وكانَ في غداةٍ باردةٍ في مجلسٍ بارزٍ ، فقالَ لغلامِهِ : هلمَّ ذلكَ الطيلسانَ وألقِهِ علىٰ أبي عبدِ الرحمٰنِ ـ أيْ : طاووسٍ ـ وكانَ قدْ قعدَ علىٰ كرسيٍّ ، فألقىٰ عليهِ ، فلمْ يزلْ يحرِّكُ كتفيهِ حتَّىٰ ألقى الطيلسانَ عنهُ ، فغضبَ محمدُ بنُ يوسفَ ، فقالَ وهبٌ : كنتَ غنياً عنْ أنْ تغضبَهُ ، لوْ أخذتَ الطيلسانَ وتصدقتَ بهِ ، قالَ : نعمْ ، لولا أنْ يقولَ مَنْ بعدي : إنَّهُ أخذَهُ طاووسٌ ، ولا يصنعُ بهِ ما أصنعُ بهِ.. إذاً لفعلتُ[2] .

* * *

الغائلةُ الثالثةُ : أنْ يتحرَّكَ قلبُكَ إلىٰ حبِّهِ لتخصيصِهِ إيَّاكَ وإيثارِهِ لكَ بما أنفذَهُ إليكَ ، فإنْ كانَ كذلكَ.. فلا تقبلْ ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ السمُّ القاتلُ ،

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٥٥) ، وفيه قوله عند امتناعه وكان قد قُدِّم له لحم جدي : لا ، قد علمت أنه هو ـ لحم الجدي ـ ولكني خفت أن يفتتن الناس بي ، فإذا أريد أحدهم علىٰ أكل لحم الخنزير.. قال : قد أكله فلان ، فيستن بي ، فأكون فتنة لهم ، فقتل رحمة الله عليه .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٨/ ١٠١) ، وقريب منه عند صاحب « الحلية » (٤/ ٤).

والداءُ الدفينُ ؛ أعني : ما يحبِّبُ الظلمةَ إليكَ ، فإنَّ مَنْ أحببتَهُ لا بدَّ أنْ تحرصَ عليهِ وتداهنَ فيهِ ؛ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (جُبلَتِ النفوسُ علىٰ حبِّ مَنْ أحسنَ إليها)[1] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اللَّهُمَّ ؛ لا تجعلْ لفاجرٍ عندي يداً فيحبَّهُ قلبي »[2] ، بيَّنَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ القلبَ لا يكادُ يمتنعُ عنْ ذلكَ .

ورُوِيَ أنَّ بعضَ الأمراءِ أرسلَ إلىٰ مالكِ بنِ دينارٍ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فأخرجَها كلَّها ، فأتاهُ محمدُ بنُ واسعٍ وقالَ : ما صنعتَ بما أعطاكَ هٰذا المخلوقُ ، فقالَ : سلْ أصحابي ، فقالوا : أخرجَهُ كلَّهُ ، فقالَ : أنشدكَ اللهَ ؛ أقلبُكَ أشدُّ حبّاً لهُ الآنَ أمْ قبلَ أنْ يرسلَ إليكَ ؟ فقالَ : بلِ الآنَ ، قالَ : إنَّما كنتُ أخافُ هٰذا[3] .

---

(١) رواه القضاعي في « مسنده » (٥٩٩) من طريق ابن عائشة مرفوعاً ، وقد أشار الحافظ الزبيدي إلى احتمال وقوع الوهم بين عائشة وابن عائشة في الرواية ، قال : (ولم أر أحداً من الحفاظ نسبه إلىٰ عائشة مطلقاً) ، وطوّل الكلام في تخريجه . « إتحاف » (٦/ ١٤٧) ، وقد رواه كذلك أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص١٧١) ، ويؤيده الحديث بعده .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسمَّ ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلاً ، وأسانيده ضعيفة) . « إتحاف » (٦/ ١٤٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٤) ، وفيه أن جواب مالك : اللهم ؛ لا ، قال : ترىٰ أي شيء دخل عليك ؟ فقال مالك لجلسائه : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع .

وقدْ صدقَ ؛ فإنَّهُ إذا أحبَّهُ.. أحبَّ بقاءَهُ ، وكرهَ عزلَهُ ونكبتَهُ وموتَهُ ، وأحبَّ اتساعَ ولايتِهِ وكثرةَ مالِهِ ، وكلُّ ذلكَ حبٌّ لأسبابِ الظلمِ ، وهوَ مذمومٌ ، قالَ سلمانُ وابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ رضيَ بأمرٍ وإنْ غابَ عنهُ.. كانَ كمَنْ شهدَهُ)(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ قيلَ : (لا ترضَوا بأعمالِهِمْ)(٢) ، فإنْ كنتَ في القوَّةِ بحيثُ لا تزدادُ حبّاً لهُمْ بذلكَ.. فلا بأسَ بالأخذِ .

وقدْ حُكِيَ عنْ بعضِ عبّادِ البصرةِ أنَّهُ كانَ يأخذُ أموالاً ويفرِّقُها ، فقيلَ لهُ : ألا تخافُ أنْ تحبَّهُمْ ؟ فقالَ : لوْ أخذَ رجلٌ بيدي وأدخلَني الجنَّةَ ثمَّ عصىٰ ربَّهُ ما أحبَّهُ قلبي ؛ لأنَّ الذي سخَّرَهُ للأخذِ بيدي هوَ الذي أبغضُهُ لأجلِهِ ؛ شكراً لهُ علىٰ تسخيرِهِ إيَّاهُ .

وبهـٰذا تبينَ أنَّ أخذَ المالِ الآنَ منهُم وإنْ كانَ ذلكَ المالُ بعينِهِ مِنْ وجهٍ حلالٍ.. محذورٌ ومذمومٌ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ هـٰذهِ الغوائلِ .

---

(١) وقد روىٰ ذلك البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٢٦٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ : (إذا عمل بالخطيئة في الأرض.. كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها.. كان كمن شهدها) ، وقد رواه مرفوعاً أبو داوود (٤٣٤٥) ، وبلفظ المصنف هو عند أبي يعلىٰ في « المسند » (٦٧٨٥) من حديث الحسين رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٧/ ١٢/ ١٥٦) عن أبي العالية .

مَسْأَلَةٌ

[فإنْ جازَ أخذُ مالِهِ وتفريقُهُ . . فهلْ يجوزُ سرقتُهُ ونحوُها وتفريقُهُ ؟]

إنْ قالَ قائلٌ : إذا جازَ أخذُ مالِهِ وتفرقتُهُ . . فهلْ يجوزُ أنْ يُسرقَ مالُهُ ، أوْ تُخفىٰ وديعتُهُ وتُنكرَ وتُفرَّقَ على الناسِ ؟

فنقولُ : ذلكَ غيرُ جائزٍ ؛ لأنَّهُ ربما يكونُ لهُ مالكٌ معيَّنٌ ، وهوَ علىٰ عزمِ أنْ يردَّهُ عليهِ ، وليسَ هـٰذا كما إذا بعثَهُ إليكَ ، فإنَّ العاقلَ لا يُظنُّ بهِ أنْ يتصدَّقَ بما يعلمُ مالكَهُ ، فيدلُّ تسليمُهُ علىٰ أنَّهُ لا يعرفُ مالكَهُ ، فإنْ كانَ ممَّنْ يشكلُ عليهِ مثلُهُ . . فلا يجوزُ أنْ يقبلَ منهُ المالَ ما لمْ يعرفْ ذلكَ .

ثمَّ كيفَ يسرقُ ويُحتملُ أنْ يكونَ ملكُهُ قدْ حصلَ لهُ بشراءٍ في ذمَّتِهِ ؟! فإنَّ اليدَ دلالةٌ على الملكِ، فهـٰذا لا سبيلَ إليهِ، بلْ لوْ وجدَ لقطةً، وظهرَ أنَّ صاحبَها جنديٌّ ، واحتملَ أنْ تكونَ لهُ بشراءٍ في الذمَّةِ أوْ غيرِهِ . . وجبَ الردُّ عليهِ .

فإذاً ؛ لا يجوزُ سرقةُ مالِهِمْ ، لا منهُمْ ولا ممَّنْ أودعَ عندَهُ ، ولا يجوزُ إنكارُ وديعتِهِمْ ، ويجبُ الحدُّ علىٰ سارقِ مالِهِمْ إلا إذا ادَّعى السارقُ أنَّهُ ليسَ ملكاً لهُمْ ، فعندَ ذلكَ يسقطُ الحدُّ بالدعوىٰ .

مَسْأَلَةٌ

[في بيانِ حرمةِ المعاملةِ معَ السلاطينِ وأتباعِهِمْ]

المعاملةُ معهُمْ حرامٌ ؛ لأنَّ أكثرَ مالِهِمْ حرامٌ ، فما يُؤخذُ عوضاً فهوَ

حرامٌ ، فإنْ أدَّى الثمنَ مِنْ موضعٍ يعلمُ حلَّهُ . . فيبقى النظرُ فيما سلَّمَ إليهِمْ ، فإنْ علمَ أنَّهُمْ يعصونَ اللهَ بهِ ؛ كبيعِ الديباجِ منهُمْ وهوَ يعلمُ أنَّهُمْ يلبسونَهُ . . فذلكَ حرامٌ ؛ كبيعِ العنبِ مِنَ الخمَّارِ ، وإنَّما الخلافُ في الصحَّةِ ، وإنْ أمكنَ ذلكَ ، وأمكنَ أنْ يلبسَها نساؤُهُ . . فهوَ شبهةٌ مكروهةٌ ، هٰذا فيما يُعصىٰ في عينِهِ مِنَ الأموالِ ، وفي معناهُ بيعُ الفرسِ منهُمْ ، لا سيما في وقتِ ركوبِهِمْ إلىٰ قتالِ المسلمينَ أوْ جبايةِ أموالِهِمْ ؛ فإنَّ ذلكَ إعانةٌ لهُمْ بفرسِهِ ، وهيَ محظورةٌ .

فأمَّا بيعُ الدراهمِ والدنانيرِ منهُمْ ، وما يجري مجراهُ ممَّا لا يُعصىٰ بهِ في عينِهِ ، بلْ يُتوصَّلُ بهِ إلى الظلمِ . . فهوَ مكروهٌ ؛ لما فيهِ مِنْ إعانتِهِمْ على الظلمِ ؛ لأنَّهُمْ يستعينونَ علىٰ ظلمِهِمْ بالأموالِ والدوابِّ وسائرِ الأسبابِ ، وهٰذهِ الكراهيةُ جاريةٌ في الإهداءِ إليهِمْ ، وفي العملِ لهُمْ مِنْ غيرِ أجرةٍ ، حتَّىٰ في تعليمِهِمْ وتعليمِ أولادِهِمُ الكتابةَ والترسُّلَ والحسابَ .

وأمَّا تعليمُ القرآنِ . . فلا يُكرهُ إلا مِنْ حيثُ أخذُ الأجرةِ ، فإنَّ ذلكَ حرامٌ إلا مِنْ وجهٍ يُعلمُ حلُّهُ .

ولوِ انتصبَ وكيلاً لهُمْ ليشتريَ لهُمْ في الأسواقِ مِنْ غيرِ جُعْلٍ أوْ أجرةٍ . . فهوَ مكروهٌ مِنْ حيثُ الإعانةُ .

وإنِ اشترىٰ لهُمْ ما يعلمُ أنَّهُمْ يقصدونَ بهِ المعصيةَ ؛ كالغلامِ ، والديباجِ للفراشِ واللبسِ ، والفرسِ للركوبِ إلى الظلمِ والقتلِ . . فذلكَ

حرامٌ ، فمهما ظهرَ قصدُ المعصيةِ بالمبتاعِ . . حصلَ التحريمُ ، ومهما لمْ يظهرْ ، واحتملَ بحكمِ الحالِ ودلالتِها عليهِ . . حصلتِ الكراهةُ .

مَسْأَلَةٌ

[حرمةُ الانتفاعِ بالأسواقِ التي بنوها منْ حرامٍ]

الأسواقُ التي بنَوها بالمالِ الحرامِ تحرمُ التجارةُ فيها ، ولا يجوزُ سكناها ، فإنْ سكنَها تاجرٌ واكتسبَ بطريقٍ شرعيٍّ . . لمْ يحرمْ كسبُهُ وكانَ عاصياً بسكناهُ ، وللناسِ أنْ يشتروا منهُمْ ، ولكنْ لوْ وجدوا سوقاً أخرىٰ . . فالأولى الشراءُ منها ؛ فإنَّ ذلكَ إعانةٌ لسكناهُمْ ، وتكثيرٌ لكراءِ حوانيتِهِمْ ، وكذلكَ معاملةُ السوقِ التي لا خراجَ لهُمْ عليها أحبُّ مِنْ معاملةِ سوقٍ لهمْ عليها خراجٌ .

وقدْ بالغَ قومٌ حتَّىٰ لمْ يجوِّزوا معاملةَ الفلاحينَ وأصحابِ الأراضي التي لهُمْ عليها الخراجُ ؛ لأنَّهُم ربَّما يصرفونَ ما يأخذونَ إلى الخراجِ ، فيحصلُ بهِ الإعانةُ ، وهـٰذا غلوٌّ في الدينِ ، وحرجٌ على المسلمينَ ؛ فإنَّ الخراجَ قدْ عمَّ الأراضيَ ، ولا غنىٰ بالناسِ عنِ ارتفاعِ الأرضِ ، فلا معنىٰ للمنعِ منهُ ، ولوْ جازَ هـٰذا . . لحرمَ على المالكِ زراعةُ الأرضِ ؛ حتَّىٰ لا يُطلبَ خراجُها منهُ ، وذلكَ ممَّا يطولُ ويتداعىٰ إلىٰ حسمِ بابِ المعاشِ .

مَسْأَلَةٌ

[حرمةُ معاملةِ أعوانِ السلاطينِ ومتنفذيهم]

معاملةُ قضاتِهِمْ وعمَّالِهِمْ وخدمِهِمْ حرامٌ كمعاملتِهِمْ ، بلْ أشدُّ .

أمَّا القضاةُ . . فلأنَّهُمْ يأخذونَ مِنْ أموالِهِمُ الحرامَ الصريحَ ، ويكثِّرونَ جمعَهُمْ ، ويغرُّونَ الخلقَ بزيِّهِمْ ، فإنَّهُمْ علىٰ زيِّ العلماءِ ، ويختلطونَ بهِمْ ، ويأخذونَ مِنْ أموالِهِمْ ، والطباعُ مجبولةٌ على التشبُّهِ والاقتداءِ بذوي الجاهِ والحشمةِ ، فهُمْ سببُ انقيادِ الخلقِ إليهم .

وأمَّا الخدمُ والحشمُ . . فأكثرُ أموالِهِمْ مِنَ الغصبِ الصريحِ ، ولا يقعُ في أيديهِمْ مالُ مصلحةٍ وميراثٍ وجزيةٍ ولا وجهُ حلالٍ حتَّىٰ تضعفَ الشبهةُ باختلاطِ الحلالِ بأموالِهِمْ ، قالَ طاوُوسٌ : (لا أشهدُ عندَهُمْ وإنْ تحقَّقْتُ ؛ لأنِّي أخافُ تعدِّيَهُمْ علىٰ مَنْ شهدتُ عليهِ)[١] .

* * *

وبالجملةِ : إنَّما فسدتِ الرعيَّةُ بفسادِ الملوكِ ، وفسادُ الملوكِ بفسادِ العلماءِ ، فلولا القضاةُ السوءُ والعلماءُ السوءُ . . لقلَّ فسادُ الملوكِ خوفاً مِنْ إنكارِهِمْ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تزالُ هـٰذهِ الأمَّةُ تحتَ يدِ اللهِ وكنفِهِ ما لمْ تُمالِئْ قرَّاؤُها أمراءَها »[٢] .

---

(١) وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٧٩٠) عن طاووس قال : (لو رأيت رجلاً شجَّ رجلاً ، فدعاني إلىٰ إمام جائر أشهد له . . ما شهدت له) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٢١) عن الحسن مرسلاً .

وإنَّما ذكرَ القرَّاءَ لأنَّهُمْ كانوا هُمُ العلماءَ ، وإنَّما كانَ علمُهُمْ بالقرآنِ ومعانيهِ المفهومةِ بالسنَّةِ ، وما وراءَ ذلكَ مِنَ العلومِ فهيَ محدثةٌ بعدَهُمْ .

وقدْ قالَ سفيانُ : (لا تخالطِ السلطانَ ، ولا مَنْ يخالطُهُ) ، وقالَ : (صاحبُ القلمِ وصاحبُ الدواةِ وصاحبُ القرطاسِ وصاحبُ الليطةِ . . بعضُهُمْ شركاءُ بعضٍ)(١) .

وقدْ صدقَ ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعنَ في الخمرِ عشرةً حتَّى العاصرَ والمعتصرَ(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (آكلُ الربا وموكلُهُ وشاهداهُ وكاتبُهُ ملعونونَ علىٰ لسانِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(٣) ، وكذا رواهُ جابرٌ وعمرُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٤) .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (لا تحملْ للسلطانِ كتاباً حتَّىٰ تعلمَ ما فيهِ) .

وامتنعَ سفيانُ رحمهُ اللهُ مِنْ مناولةِ الخليفةِ في زمانِهِ دواةً بينَ يديهِ ، وقالَ : حتَّىٰ أعلمَ ما تكتبُهُ .

---

(١) **والليطة** : القصبة المحدَّة .
(٢) رواه الترمذي (١٢٩٥) ، وابن ماجه (٣٣٨١) .
(٣) رواه بنحو لفظ المصنف النسائي (٨/ ١٤٧) ، وكذا رواه مسلم (١٥٩٧) مختصراً ، وأبو داوود (٣٣٣٣) والترمذي (١٢٠٦) ، وابن ماجه (٢٢٧٧) .
(٤) حديث جابر رواه مسلم (١٥٩٨) ، وله ولعمر أشار له الترمذي (١٢٠٦) .

فكلُّ مَنْ حواليْهِمْ مِنْ خدمِهِمْ وأتباعِهِمْ ظلمةٌ مثلُهُمْ ، يجبُ بغضُهُمْ في اللهِ جميعاً .

رُوي عنْ عثمانَ بنِ زائدةَ أنَّهُ سألَهُ بعضُ الجندِ وقالَ : أينَ الطريقُ ؟ فسكتَ ، وأظهرَ أنَّ بهِ صمماً ، وخافَ أنْ يكونَ متوجِّهاً إلىٰ ظلمٍ ، فيكونَ هوَ بإرشادِهِ إلى الطريقِ معيناً .

وهٰذهِ المبالغةُ لمْ تُنقلْ عنِ السلفِ معَ الفسَّاقِ مِنَ التجَّارِ والحاكةِ والحجَّامينَ وأهلِ الحمَّاماتِ والصاغةِ والصبَّاغينَ وأربابِ الحرفِ ، معَ غلبةِ الكذبِ والفسقِ عليهِمْ ، بل معَ الكفَّارِ مِنْ أهلِ الذمَّةِ ، وإنَّما هٰذا في الظلمةِ خاصَّةً الآكلينَ لأموالِ اليتامىٰ والمساكينِ ، المواظبينَ علىٰ إيذاءِ المسلمينَ ، الذينَ تعاونوا علىٰ طمْسِ رسومِ الشريعةِ وشعائرِها ، وهٰذا لأنَّ المعصيةَ منقسمةٌ إلىٰ لازمةٍ ومتعديةٍ ، والفسقُ لازمٌ لا يتعدَّىٰ ، وكذا الكفرُ ، وهوَ جنايةٌ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وحسابُهُ على اللهِ ، وأمَّا معصيةُ الولاةِ بالظلمِ . فهوَ متعدٍّ ، وإنَّما يغلظُ أمرُهُمْ لذلكَ ، وبقدْرِ عمومِ الظلمِ وعمومِ التعدِّي يزدادونَ مِنَ اللهِ سبحانهُ مقتاً ، فيجبُ أنْ يزدادَ منهُمُ اجتناباً ، ومِنْ معاملتِهِمُ احترازاً ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقالُ للشرطيِّ : دعْ سوطَكَ وادخلِ النَّارَ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أشراطِ

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٤٨١) ، وهو عند الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥١٧) بلفظ : « يقال لرجال يوم القيامة : اطرحوا سياطكم وادخلوا جهنم » .

السَّاعةِ رجالٌ معَهُمْ سياطٌ كأذنابِ البقرِ »[١] .

فهٰذا حُكمُهُمْ ، ومَنْ عُرفَ بذلكَ منهُمْ .. فقدْ عُرفَ ، ومَنْ لمْ يُعرفْ .. فعلامتُهُ القَباءُ ، وطولُ الشواربِ ، وسائرُ الهيئاتِ المشهورةِ .

فمَنْ رُئيَ علىٰ تلكَ الهيئةِ .. وجبَ اجتنابُهُ ، ولا يكونُ ذلكَ مِنْ سوءِ الظنِّ ؛ لأنَّهُ الذي جنىٰ علىٰ نفسِهِ إذْ تزيَّا بزيِّهِمْ ، ومساواةُ الزيِّ تدلُّ علىٰ مساواةِ القلبِ ، فلا يتجانَنُ إلا مجنونٌ ، ولا يتشبَّهُ بالفسَّاقِ إلا فاسقٌ ، نعمْ ، الفاسقُ قدْ يلتبسُ فيتشبَّهُ بأهلِ الصلاحِ ، فأمَّا الصالحُ .. فليسَ لهُ أنْ يتشبَّهَ بأهلِ الفسادِ ؛ لأنَّ ذلكَ تكثيرٌ لسوادِهِمْ ، وإنَّما نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ في قومٍ مِنَ المسلمينَ كانوا يكثِّرونَ جماعةَ المشركينَ بالمخالطةِ[٢] .

وقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يوشعَ بنِ نونٍ : أنِّي مهلكٌ مِنْ قومِكَ أربعينَ ألفاً مِنْ خيارِهِمْ ، وستينَ ألفاً مِنْ شرارِهِمْ ، فقالَ : ما بالُ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٠) ولفظه : « يكون في هٰذه الأمة في آخر الزمان رجال ـ أو قال : يخرج رجال من هٰذه الأمة في آخر الزمان ـ معهم أسياط كأنها أذناب البقر ، يغدون في سخط الله ويروحون في غضبه » ، وعند مسلم (٢١٢٨) : « صنفان من أهل النار لم أرهما ؛ قوم معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات . . . » الحديث .

(٢) إذ تخلَّفوا عن الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقوا مع المشركين في مكة . انظر « تفسير الطبري » (٤/ ٥/ ٣٠٢) .

الأخيارِ ؟! قالَ : إنَّهُمْ لمْ يغضبوا لغضبي ، فكانوا يؤاكلونَهُمْ ويشاربونَهُمْ[(١)] .

وبهذا يتبيَّنُ أنَّ بغضَ الظلمةِ والغضبَ للهِ عليهِمْ واجبٌ .

وروى ابنُ مسعودٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّ اللهَ لعنَ علماءَ بني إسرائيلَ إذْ خالطوا الظَّالمينَ في معاشِهِمْ[(٢)] .

مَسْألَةٌ

[في حكمِ الانتفاعِ بما بنوا منْ مرافقَ]

المواضعُ التي بناها الظلمةُ ؛ كالقناطرِ والرباطاتِ ، والمساجدِ ، والسقاياتِ[(٣)] . . ينبغي أنْ يُحتاطَ فيها ويُنظرَ .

أمَّا القنطرةُ : فيجوزُ العبورُ عليها للحاجةِ ، والورعُ الاحترازُ ما أمكنَ ، وإنْ وجدَ عنهُ معدلاً . . تأكَّدَ الورعُ ، وإنَّما جوَّزْنا العبورَ وإنْ وجدَ معدلاً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٧١) عن إبراهيم بن عمر الصنعاني ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٢) عنه ، عن الوضين بن عطاء .

(٢) رواه أبو داوود (٤٣٣٦) ، والترمذي (٣٠٤٧) ولفظه : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي . . نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم علىٰ لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

(٣) فالقناطر ما شيد على الأنهار ، والرباطات للصوفية ، والسقايات لشرب الماء وللوضوء أيضاً . « إتحاف » (٦/ ١٥٢) .

لأنَّهُ إذا لمْ يعرفْ لتلكَ الأعيانِ مالكاً . . كانَ حكمُها أن تُرصدَ للخيراتِ ، وهـٰذا خيرٌ .

فأمَّا إذا عرفَ أنَّ الآجُرَّ والحجرَ قدْ نُقلَ مِنْ دارٍ معلومةٍ ، أوْ مقبرةٍ ، أوْ مسجدٍ معيَّنٍ . . فهـٰذا لا يحلُّ العبورُ فيهِ أصلاً ، إلا لضرورةٍ يحلُّ بها مثلُ ذلكَ مِنْ مالِ الغيرِ ، ثمَّ يجبُ عليهِ الاستحلالُ مِنَ المالكِ الذي يعرفُهُ .

وأمَّا المسجدُ : فإنْ بُنِيَ في أرضٍ مغصوبةٍ ، أوْ بخشبٍ مغصوبٍ مِنْ مسجدٍ آخرَ أوْ مالكٍ معيَّنٍ . . فلا يجوزُ دخولُهُ أصلاً ، ولا للجمعةِ ، بلْ لوْ وقفَ الإمامُ فيهِ . . فليصلِّ هوَ خلفَ الإمامِ وليقفْ خارجَ المسجدِ ؛ فإنَّ الصلاةَ في الأرضِ المغصوبةِ تُسقطُ الفرضَ ، وتنعقدُ في حقِّ الاقتداءِ ؛ فلذلكَ جوَّزْنا للمقتدي الاقتداءَ بمَنْ صلَّىٰ في الأرضِ المغصوبةِ وإنْ عصىٰ صاحبُهُ بالوقوفِ في الغصبِ .

وإنْ كانَ مِنْ مالٍ لا يُعرفُ مالكُهُ . . فالورعُ العدولُ إلىٰ مسجدٍ آخرَ إنْ وجدَ ، فإنْ لمْ يجدْ غيرَهُ . . فلا يتركُ الجمعةَ والجماعةَ ؛ لأنَّهُ يُحتملُ أنْ يكونَ مِنَ الملكِ الذي بناهُ ولوْ علىٰ بعدٍ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ مالكٌ معيَّنٌ ، فهوَ لمصالحِ المسلمينَ .

ومهما كانَ في المسجدِ الكبيرِ بناءٌ لسلطانٍ ظالمٍ . . فلا عذرَ لمَنْ يصلِّي فيهِ معَ اتساعِ المسجدِ ؛ أعني : في الورعِ ، قيلَ لأحمدَ ابنِ حنبلٍ : ما حجَّتُكَ في تركِ الخروجِ إلى الصلاةِ في جماعةٍ ونحنُ بالعسكرِ ؟ فقالَ : حجَّتي أنَّ الحسنَ

وإبراهيمَ التيميَّ خافا أنْ يفتنَهُما الحجَّاجُ ، وأنا أخافُ أنْ أفتنَ أيضاً[١] .

وأمَّا الخلوقُ والتجصيصُ . . فلا يمنعُ مِنَ الدخولِ ؛ فإنَّهُ غيرُ منتفعٍ بهِ في الصلاةِ ، وإنَّما هوَ زينةٌ ، والأولىٰ أنَّهُ لا يُنظرُ إليهِ .

وأمَّا البواري التي فرشوها : فإنْ كانَ لها مالكٌ معيَّنٌ . . فيحرمُ الجلوسُ عليها ، وإلا . . فبعدَ أنْ أُرصدتْ لمصلحةٍ عامةٍ . . جازَ افتراشُها ، ولكنَّ الورعَ العدولُ عنها ؛ فإنَّها محلُّ شبهةٍ .

وأمَّا السقايةُ : فحكمُها ما ذكرناهُ ، وليسَ مِنَ الورعِ الوضوءُ والشربُ منها والدخولُ فيها إلا إذا كانَ يخشىٰ فواتَ الصلاةِ ، فيتوضَّأُ ، وكذا مصانعُ طريقِ مكَّةَ .

وأمَّا الرباطاتُ والمدارسُ : فإنْ كانَتْ رقبةُ الأرضِ مغصوبةً ، أوِ الآجرُ منقولاً مِنْ موضعٍ معيَّنٍ يمكنُ الردُّ إلىٰ مستحقِّهِ . . فلا رخصةَ للدخولِ فيها ، وإنِ التبسَ المالكُ . . فقدْ أُرصدَ لجهةٍ مِنَ الخيرِ ، فالورعُ الاجتنابُ ، ولكنْ لا يلزمُ الفسقُ بدخولِهَا .

وهـٰذهِ الأبنيةُ إنْ صدرَتْ مِنْ خدمِ السلاطينِ فالأمرُ فيها أشدُّ ؛ إذْ ليسَ لهُمْ صرْفُ الأموالِ الضائعةِ إلى المصالحِ ، ولأنَّ الحرامَ أغلبُ علىٰ أموالِهِمْ ؛ إذْ ليسَ لهُمْ أخذُ مالِ المصالحِ ، وإنَّما يجوزُ ذلكَ للولاةِ وأربابِ الأمرِ .

---

(١) كذا في « الورع » (ص٧٩) لأحمد .

مَسْأَلَةٌ

[فيما إذا كانَ أصلُ الشارعِ أرضاً مغصوبةً ونحوَ ذلكَ]

الأرضُ المغصوبةُ إذا جُعلتْ شارعاً . . لمْ يجزْ أنْ يتخطَّىٰ فيهِ ألبتةَ ، وإنْ لمْ يكنْ لها مالكٌ معيَّنٌ . . جازَ ، والورعُ العدولُ إنْ أمكنَ .

فإنْ كانَ الشارعُ مباحاً وفوقَهُ ساباطٌ[1] . . جازَ العبورُ ، وجازَ الجلوسُ تحتَ الساباطِ علىٰ وجهٍ لا يحتاجُ فيهِ إلى السقفِ ، كما يقفُ في الشارعِ لشغلٍ ، فإذا انتفعَ بالسقفِ ؛ في دفعِ حرِّ الشمسِ ، أوِ المطرِ ، أوْ غيرِهِ . . فهوَ حرامٌ ؛ لأنَّ السقفَ لا يُرادُ إلا لذلكَ وهٰكذا حكمُ مَنْ يدخلُ مسجداً أوْ أرضاً مباحةً سُقِّفَ أوْ حُوِّطَ بغصبٍ ، فإنَّهُ بمجرَّدِ التخطِّي لا يكونُ منتفعاً بالحيطانِ والسقفِ إلا إذا كانَ لهُ فائدةٌ في الحيطانِ والسقفِ ؛ لحرٍّ أوْ بردٍ ، أوْ تستُّرٍ عنْ بصرٍ أوْ غيرِهِ ، فذلكَ حرامٌ ؛ لأنَّهُ انتفاعٌ بالحرامِ ، إذْ لمْ يحرمِ الجلوسُ على الغصبِ لما فيهِ مِنَ المماسَّةِ ، بلْ للانتفاعِ ، والأرضُ تُرادُ للاستقرارِ عليها ، والسقفُ للاستظلالِ بهِ ، فلا فرقَ بينَهُما .

* * *

---

(١) وهو السقيفة التي تحتها ممر نافذ ، والجمع سوابيط . « إتحاف » (٦/ ١٥٤) .

البَابُ السَّابِعُ
في مسائل متفرّقة يكثر مسيس الحاجة إليها، وقد سُئل عنها في الفتاوى

مَسْأَلَةٌ
[فيما يجمعُهُ خادمُ الصوفيةِ ومَنْ يجوزُ لهُ أنْ يأكلَ منهُ]

سُئِلَ عنْ خادمِ الصوفيَّةِ يخرجُ إلى السوقِ، ويجمعُ طعاماً أوْ نقداً، ويشتري بهِ طعاماً ، فمَنِ الذي يحلُّ لهُ أنْ يأكلَ منهُ ؟ وهلْ يختصُّ بالصوفيَّةِ أمْ لا ؟

فقلتُ : أمَّا **الصوفيَّةُ** . . فلا شبهةَ في حقِّهِمْ إذا أكلوهُ ، وأمَّا غيرُهُمْ . . فيحلُّ لهُمْ إذا أكلوهُ برضا الخادمِ ، ولكنْ لا يخلو عنْ شبهةٍ .

أمَّا الحلُّ . . فلأنَّ ما يُعطىٰ خادمُ الصوفيَّةِ إنَّما يُعطىٰ بسببِ الصوفيَّةِ ، ولكنْ هوَ المُعطىٰ لا الصوفيَّةُ ، فهوَ كالرجلِ المُعيلِ يُعطىٰ بسببِ عيالِهِ ؛ لأنَّهُ متكفِّلٌ بهمْ ، وما يأخذُهُ يقعُ ملكاً لهُ لا للعيالِ ، ولهُ أنْ يطعمَ غيرَ العيالِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يُقالَ : لمْ يخرجْ عنْ ملكِ المُعطي ، ولا يتسلَّطُ الخادمُ على الشراءِ بهِ والتصرُّفِ فيهِ ؛ لأنَّ ذلكَ مصيرٌ إلىٰ أنَّ المعاطاةَ لا تكفي ، وهوَ ضعيفٌ ، ثمَّ لا صائرَ إليهِ في الصدقاتِ والهدايا .

ويبعدُ أنْ يُقالَ : زالَ الملكُ إلى الصوفيَّةِ الحاضرينَ الذينَ هُمْ وقتَ

سؤالِهِ في الخانقاهِ ؛ إذْ لا خلافَ أنَّ لهُ أنْ يطعمَ منهُ مَنْ يقدَمُ بعدَهُمْ ، ولوْ ماتوا كلُّهُمْ أوْ واحدٌ منهُمْ . . لا يجبُ صرْفُ نصيبِهِ إلىٰ وارثِهِ .

ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ وقعَ لجهةِ التصوُّفِ ولا يتعيَّنُ لهُ مستحقٌّ ؛ لأنَّ إزالةَ الملكِ إلى الجهةِ لا توجبُ تسليطَ الآحادِ على التصرُّفِ ، فإنَّ الداخلينَ فيهِ لا ينحصرونَ ، بلْ يدخلُ فيهِ مَنْ يُولدُ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وإنَّما يتصرَّفُ فيهِ الولاةُ ، والخادمُ لا يجوزُ لهُ أنْ ينتصبَ نائباً عنِ الجهةِ .

فلا وجهَ إلا أنْ يُقالَ : هوَ ملكُهُ ، وإنَّما يطعمُ الصوفيَّةَ بوفاءِ شرطِ التصوُّفِ والمروءَةِ ، فإنْ منعَهُمْ عنهُ . . منعوهُ عنْ أنْ يُظهرَ نفسَهُ في معرِضِ التكفُّلِ بهِمْ حتَّىٰ ينقطعَ رفقُهُ كما ينقطعُ عمَّنْ ماتَ عيالُهُ .

مَسْأَلَةٌ

[أوصىٰ إلى الصوفيةِ ، فإلىٰ مَنْ يُصرفُ ؟]

سُئِلَ عَنْ مالٍ أُوصِيَ بهِ للصوفيَّةِ ، فمَنِ الذي يجوزُ أن يُصرَفَ إليهِ ؟

فقلتُ : التصوُّفُ أمرٌ باطنٌ لا يُطلعُ عليهِ ، فلا يمكنُ ربطُ الحكمِ بحقيقتِهِ ، بلْ بأمورٍ ظاهرةٍ يعوِّلُ عليها أهلُ العرْفِ في إطلاقِ اسمِ الصوفيِّ .

والضابطُ الكلِّيُّ : أنَّ كلَّ مَنْ هوَ بصفةٍ إذا نزلَ في خانَقاهِ الصوفيَّةِ لمْ يكنْ

نزولُهُ فيهِ واختلاطُهُ بهِمْ منكراً عندَهُمْ . . فهوَ داخلٌ في غُمارِهِمْ(١) .

والتفصيلُ : أنْ يُلاحظَ فيهِ خمسُ صفاتٍ : الصلاحُ ، والفقرُ ، وزيُّ الصوفيَّةِ ، وألا يكونَ مشتغلاً بحرفةٍ ، وأنْ يكونَ مخالطاً لهُمْ بطريقِ المساكنةِ في الخانَقاهِ .

ثمَّ بعضُ هـٰذهِ الصفاتِ ممَّا يوجبُ زوالُها زوالَ الاسمِ ، وبعضُها ينجبرُ بالبعضِ .

فالفسقُ يمنعُ هـٰذا الاستحقاقَ ؛ لأنَّ الصوفيَّ بالجملةِ عبارةٌ عنْ رجلٍ مِنْ أهلِ الصلاحِ بصفةٍ مخصوصةٍ ، فالذي يظهرُ فسقُهُ وإنْ كانَ علىٰ زيِّهِمْ . . لا يستحقُّ ما أُوصيَ بهِ للصوفيَّةِ ، ولسنا نعتبرُ فيهِ الصغائرَ .

وأمَّا الحرفةُ والاشتغالُ بالكسبِ . . يمنعُ هـٰذا الاستحقاقَ ، فالدُّهقانُ(٢) ، والعاملُ ، والتاجرُ ، والصانعُ في حانوتِهِ أوْ دارِهِ ، والأجيرُ الذي يخدمُ بأجرةٍ . . كلُّ هؤلاءِ لا يستحقُّونَ ما أُوصي بهِ للصوفيَّةِ ، ولا ينجبرُ هـٰذا بالزيِّ والمخالطةِ .

فأمَّا الوِراقةُ والخياطةُ وما يقربُ منهما ؛ ممَّا يليقُ بالصوفيَّةِ تعاطيها ؛ فإذا تعاطاها لا في حانوتٍ ، ولا علىٰ جهةِ اكتسابٍ وحرفةٍ . . فذلكَ لا يمنعُ

---

(١) **الغمار** ـ بضم الغين المعجمة ويفتح ـ : جماعة الناس ولفيفهم وزحمتهم .

(٢) **الدهقان** : لفظة فارسية ، أصل معناها العمدة أو رئيس القرية ، كما تطلق علىٰ من له مال وعقار .

الاستحقاقَ ، وكانَ ذلكَ ينجبرُ بمساكنتِهِ إيّاهُمْ معَ بقيّةِ الصفاتِ .

وأمّا القدرةُ على الحِرَفِ مِنْ غيرِ مباشرةٍ . . فلا تمنعُ .

وأمّا الوعظُ والتدريسُ . . فلا ينافي اسمَ التصوّفِ إذا وُجِدَتْ بقيّةُ الخصالِ مِنَ الزيِّ والمساكنةِ والفقْرِ ؛ إذْ لا يتناقضُ أنْ يُقالَ : صوفيٌّ مقرىءٌ ، وصوفيٌّ واعظٌ ، وصوفيٌّ عالمٌ أوْ مدرِّسٌ ، ويتناقضُ أنْ يُقالَ : صوفيٌّ دُِهقانٌ ، وصوفيٌّ تاجرٌ ، وصوفيٌّ عاملٌ .

وأمّا الفقرُ : فإنْ زالَ بغنىً مفرطٍ يُنسبُ الرجلُ بهِ إلى الثروةِ الظاهرةِ . . فلا يجوزُ معَهُ أخذُ ما أُوصيَ بهِ إلى الصوفيّةِ ، وإنْ كانَ لهُ مالٌ ولا يفي دخلُهُ بخرْجِهِ . . لمْ يبطلْ حقُّهُ ، وكذا إذا كانَ لهُ مالٌ قاصرٌ عنْ وجوبِ الزكاةِ وإنْ لمْ يكنْ لهُ خرْجٌ ، وهـٰذهِ أمورٌ لا دليلَ لها إلا العاداتُ .

وأمّا المخالطةُ لهُمْ ومساكنتُهُمْ . . فلها أثرٌ ، ولكنْ مَنْ لا يخالطُهُمْ وهوَ في دارِهِ أوْ في مسجدٍ علىٰ زيِّهِمْ ، ومتخلِّقٌ بأخلاقِهِمْ . . فهوَ شريكٌ في سهمِهِمْ ، وكانَ تركُ المخالطةِ يجبرُها ملازمةُ الزيِّ ، فإنْ لمْ يكنْ علىٰ زيِّهِمْ ووُجِدَتْ فيهِ بقيّةُ الصفاتِ . . فلا يستحقُّ إلا إذا كانَ مساكناً لهُمْ في الرباطِ ، فينسحبُ عليهِ حكمُهُمْ بالتبعيّةِ ، فالمخالطةُ والزيُّ ينوبُ كلُّ واحدٍ منهما عنِ الآخرِ .

والفقيهُ الذي ليسَ علىٰ زيِّهِمْ هـٰذا حكمُهُ ، فإنْ كانَ خارجاً . . لمْ يُعدَّ

صوفياً ، وإنْ كانَ ساكناً معَهُمْ ووُجِدَتْ بقيَّةُ الصفاتِ . . لمْ يبعدْ أنْ ينسحبَ بالتبعيَّةِ عليهِ حكمُهُمْ .

وأمَّا لبسُ المرقعِ مِنْ يدِ شيخٍ مِنْ مشايخِهِمْ . . فلا يُشترطُ ذلكَ في الاستحقاقِ ، وعدمُهُ لا يضرُّهُ معَ وجودِ الشرائطِ المذكورةِ[(١)] .

وأمَّا المتأهِّلُ المتردِّدُ بينَ الرباطِ والمسكنِ . . فلا يخرجُ بذلكَ عنْ جملتِهِمْ .

مَسْأَلَةٌ

[في حكمِ ما وُقفَ علىٰ رباطِ الصوفيةِ وسكانِهِ]

ما وُقِفَ علىٰ رباطِ الصوفيَّةِ وسكَّانِهِ . . فالأمرُ فيهِ أوسعُ ممَّا أُوصيَ بهِ للصوفيَّةِ ؛ لأنَّ معنى الوقفِ الصرفُ إلىٰ مصالحِهِمْ ، فلغيرِ الصوفيِّ أنْ يأكلَ معَهُمْ برضاهُمْ علىٰ مائدتِهِمْ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ؛ فإنَّ أمرَ الأطعمةِ مبناهُ على التسامحِ ، حتَّىٰ جازَ الانفرادُ بها في الغنائمِ المشتركةِ[(٢)] .

وللقوَّالِ[(٣)] أنْ يأكلَ معَهُمْ في دعوتِهِمْ مِنْ ذلكَ الوقْفِ، وكانَ ذلكَ مِنْ مصالحِ

---

(١) إلا أنه إنْ وجد فيهم من لبس من يد شيخه . . فهـٰذا علامة كماله المنبىء عن كمال الاستحقاق . « إتحاف » (٦/ ١٥٦) .

(٢) في (ب) : (حتىٰ كان الانفراد بها في الغنائم المشتركة جائزاً) .

(٣) وهو المنشد لهم في حلقة الذكر . « إتحاف » (٦/ ١٥٦) .

معايشِهِمْ، وما أُوصيَ بهِ للصوفيَّةِ لا يجوزُ أنْ يُصرفَ إلىٰ قوَّالِ الصوفيَّةِ، بخلافِ الوقْفِ، وكذلكَ مَنْ حضرَهُمْ مِنَ العمَّالِ والتجَّارِ والقضاةِ والفقهاءِ ممَّنْ لهُمْ غرضٌ في استمالةِ قلوبِهِمْ. يحلُّ لهُمُ الأكلُ برضاهُمْ، فإنَّ الواقفَ لا يقفُ إلا معتقداً فيهِ ما جرَتْ بهِ عاداتُ الصوفيَّةِ، فينزَّلُ على العرْفِ، ولكنْ ليسَ هـٰذا على الدوامِ، فلا يجوزُ لمَنْ ليسَ صوفيّاً أنْ يسكنَ معَهُمْ على الدوامِ ويأكلَ وإنْ رضوا بهِ، إذْ ليسَ لهُمْ تغييرُ شرطِ الواقفِ بمشاركةِ غيرِ جنسِهِمْ.

وأمَّا الفقيهُ إذا كانَ علىٰ زيِّهِمْ وأخلاقِهِمْ.. فلهُ النزولُ عليهِمْ، وكونُهُ فقيهاً لا ينافي كونَهُ صوفيّاً، والجهلُ ليسَ بشرطٍ في التصوُّفِ عندَ مَنْ يعرفُ التصوُّفَ، ولا يُلتفتُ إلىٰ خرافاتِ بعضِ الحمقىٰ بقولِهِمْ: (إنَّ العلمَ حجابٌ)، بلِ الجهلُ هوَ الحجابُ، وقدْ ذكرنا تأويلَ هـٰذهِ الكلمةِ في كتابِ العلمِ، وأنَّ الحجابَ هوَ العلمُ المذمومُ دونَ المحمودِ، وذكرنا المحمودَ والمذمومَ وشرحَهُما.

وأمَّا الفقيهُ إذا لمْ يكنْ علىٰ زيِّهِمْ وأخلاقِهِمْ.. فلهُمْ منعُهُ مِنَ النزولِ عليهِمْ، وإنْ رضوا بنزولِهِ.. فيحلُّ لهُ الأكلُ معَهُمْ بطريقِ التبعيَّةِ، فكأنَّ عدمَ الزيِّ تجبرُهُ المساكنةُ، ولكنْ برضا أهلِ الزيِّ.

وهـٰذهِ أمورٌ تشهدُ لها العاداتُ، وفيها أمورٌ متقابلةٌ لا يخفىٰ أطرافُها في النفيِ والإثباتِ، وتتشابهُ أوساطُها، فمَنِ احترزَ في مواضعِ الاشتباهِ.. فقدِ استبرأَ لدينِهِ كما نبهْنا عليهِ في بابِ الشبهاتِ.

مَسْأَلَةٌ

[في بيانِ الفرقِ بينَ الرِّشوةِ والهديةِ ، وأحوالِ القابضِ]

سُئِلَ عنِ الفرقِ بينَ الرِّشوةِ والهديَّةِ ، معَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يصدرُ عنِ الرضا ، ولا يخلو عنْ غرضٍ ، وقد حرمَتْ إحداهُما دونَ الأخرىٰ .

فقلتُ : باذلُ المالِ لا يبذلُهُ قطُّ إلا لغرضٍ ، ولكنَّ الغرضَ إمَّا آجلٌ كالثوابِ ، وإمَّا عاجلٌ ، والعاجلُ إمَّا مالٌ ، وإمَّا فعلٌ وإعانةٌ علىٰ مقصودٍ معيَّنٍ ، وإمَّا تقرُّبٌ إلىٰ قلبِ المُهدىٰ إليهِ بطلبِ محبَّتِهِ ، إمَّا للمحبَّةِ في عينِها ، وإمَّا للتوصُّلِ بالمحبةِ إلىٰ غرضٍ وراءَها ، **فالأقسامُ الحاصلةُ مِنْ هـٰذهِ خمسةٌ** :

الأوَّلُ: ما غرضُهُ الثوابُ في الآخرةِ: وذلكَ إمَّا أنْ يكونَ لكونِ المصروفِ إليهِ محتاجاً، أوْ عالماً ، أوْ منتسباً بنسبٍ دينيٍّ ، أوْ صالحاً في نفسِهِ متديِّناً .

فما علمَ الآخذُ أنَّهُ يُعطاهُ لحاجتِهِ . . فلا يحلُّ لهُ أخذُهُ إنْ لمْ يكنْ محتاجاً ، وما علمَ أنَّهُ يُعطاهُ لشرفِ نسبِهِ . . فلا يحلُّ لهُ إنْ علمَ أنَّهُ كاذبٌ في دعوى النسبِ ، وما يُعطىٰ لعلمِهِ . . فلا يحلُّ لهُ أنْ يأخذَهُ إلا أنْ يكونَ في العلمِ كما يعتقدُهُ المُعطي ، فإنْ كانَ خيَّلَ إليهِ كمالاً في العلمِ حتَّىٰ بعثَهُ بذلكَ على التقرُّبِ ولمْ يكنْ كاملاً . . لمْ يحلَّ لهُ ، وما يُعطىٰ لدينِهِ وصلاحِهِ . . فلا يحلُّ لهُ أنْ يأخذَهُ إنْ كانَ فاسقاً في الباطنِ فسقاً لوْ علمَهُ المُعطي . . لما أعطاهُ .

وقلَّما يكونُ الصالحُ بحيثُ لوِ انكشفَ باطنُهُ.. لبقيَتِ القلوبُ مائلةً إليهِ ، وإنَّما سترُ اللهِ الجميلُ هوَ الذي يحبِّبُ الخلْقَ إلى الخلقِ ، وكانَ المتورِّعونَ يوكلونَ في الشراءِ مَنْ لا يُعرفُ أنَّهُ وكيلُهُمْ ؛ حتَّىٰ لا يُسامحوا في المبيعِ خيفةً مِنْ أنْ يكونَ ذلكَ أكلاً بالدِّينِ ، فإنَّ ذلكَ مُخطرٌ .

والتَّقوىٰ خفيٌّ ، لا كالعلمِ والنسبِ والفقرِ ، فينبغي أنْ يجتنبَ الأخذَ بالدينِ ما أمكنَ .

* * *

القسمُ الثاني : ما يُقصدُ بهِ في العاجلِ غرضٌ معيَّنٌ : كالفقيرِ يُهدي إلى الغنيِّ طمعاً في خلعتِهِ ، فهٰذهِ هديَّةٌ بشرطِ الثوابِ ولا يخفىٰ حكمُها[1] ، وإنَّما تحلُّ عندَ الوفاءِ بالثوابِ المطموعِ فيهِ ، وعندَ وجودِ شروطِ العقودِ[2] .

* * *

الثالثُ : أنْ يكونَ المرادُ إعانةً بفعلٍ معيَّنٍ : كالمحتاجِ إلى السلطانِ

---

(١) كما تقدم حيث قال : (ولا مبالاة بقول من قال : لا تصح هدية في انتظار ثواب) .

(٢) وهٰذا مبني علىٰ أن هٰذا بيع في صورة الهدية ، وإنما قصد من هديته حقيقة العوض ، ولهٰذا قيّد المصنف هٰذه الهدية بشرط الثواب الذي هو العوض ، أما إن نوى المُهدي عطف الغني عليه وتحننه.. فهي هدية حقيقية . انظر « الإتحاف » (٦/ ١٥٨) .

يُهدي إلىٰ وكيلِ السلطانِ وخاصَّتِهِ ومَنْ لهُ مكانةٌ عندَهُ ، فهـٰذِهِ هديَّةٌ بشرطِ ثوابٍ يُعرفُ بقرينةِ الحالِ ، فيُنظرُ في ذلكَ العملِ الذي هوَ الثوابُ ؛ فإنْ كانَ حراماً ؛ كالسعي في تنجيزِ إدرارٍ حرامٍ ، أوْ ظلمِ إنسانٍ أوْ نحوِ ذلكَ . . حرمَ الأخذُ ، وإنْ كانَ واجباً ؛ كدفعِ ظلمٍ متعيِّنٍ علىٰ كلِّ مَنْ يقدرُ علىٰ إزالتِهِ ، أوْ شهادةٍ متعينةٍ . . فيحرمُ عليهِ ما يأخذُهُ ، وهيَ **الرِّشوةُ** التي لا يُشكُّ في تحريمِها .

وإنْ كانَ مباحاً لا واجباً ولا حراماً ، وكانَ فيهِ تعبٌ ؛ بحيثُ لوْ عُرِفَ لجازَ الاستئجارُ عليهِ . . فما يأخذُهُ حلالٌ مهما وفَّىٰ بالغرضِ ، وهو جارٍ مجرى الجعالةِ ؛ كقولِهِ : (أوصلْ هـٰذهِ القصَّةَ إلىٰ يدِ فلانٍ أوْ يدِ السلطانِ ولكَ دينارٌ) وكانَ بحيثُ يحتاجُ إلىٰ تعبٍ وعملٍ متقوَّمٍ ، أوْ قالَ : (اقترحْ علىٰ فلانٍ أنْ يعينَني في غرضٍ كذا ، أوْ ينعمَ عليَّ بكذا) وافتقرَ في تنجيزِ غرضِهِ إلىٰ كلامٍ طويلٍ ؛ فذلكَ **جعلٌ** ، كما يأخذُهُ الوكيلُ بالخصومةِ بينَ يدي القاضي ، فليسَ بحرامٍ إذا كانَ لا يسعىٰ في حرامٍ .

وإنْ كانَ مقصودُهُ يحصلُ بكلمةٍ لا تعبَ فيها ، ولكنْ تلكَ الكلمةُ مِنْ ذي الجاهِ أوْ تلكَ الفعلةُ مِنْ ذي الجاهِ مفيدةٌ ؛ كقولِهِ للبوَّابِ : لا تغلقْ دونَهُ بابَ السلطانِ ، أوْ كوضعِهِ قصتَهُ بينَ يدي السلطانِ فقطْ . . فهـٰذا حرامٌ ؛ لأنَّهُ عوضٌ عنِ الجاهِ ، ولمْ يثبتْ في الشرعِ جوازُ ذلكَ ، بلْ ثبتَ ما يدلُّ على النهيِ عنهُ كما سيأتي في هدايا الملوكِ ، وإذا كانَ لا يجوزُ العوضُ عنْ إسقاطِ الشفعةِ ، والردِّ بالعيبِ ، ودخولِ الأغصانِ في هواءِ

الملكِ ، وجملةٍ مِنَ الأغراضِ معَ كونِها مقصودةً . . فكيفَ يُؤخذُ عنِ الجاهِ ؟!

ويقربُ مِنْ هٰذا أخذُ الطبيبِ العوضَ علىٰ كلمةٍ واحدةٍ ينبِّهُ بها علىٰ دواءٍ ينفردُ بمعرفتِهِ ؛ كواحدٍ ينفردُ بالعلمِ بنبتٍ يقلعُ البواسيرَ أوْ غيرِهِ ، فلا يذكرُهُ إلا بعوضٍ ، فإنَّ عملَهُ في التلفُّظِ بهِ غيرُ متقوَّمٍ ؛ كحبَّةٍ مِنْ سمسمٍ ، فلا يجوزُ أخذُ العوضِ عليهِ ولا علىٰ علمِهِ ؛ إذْ ليسَ ينتقلُ علمُهُ إلىٰ غيرِهِ ، وإنَّما يحصلُ لغيرِهِ مثلُ علمِهِ ويبقىٰ هوَ عالماً بهِ .

ودونَ هٰذا الحاذقُ في الصناعةِ ؛ كالصيقلِ مثلاً الذي يزيلُ اعوجاجَ السيفِ أوِ المرآةِ بدَقَّةٍ واحدةٍ لحسْنِ معرفتِهِ بموقعِ الخللِ ، ولحذْقِهِ بإصابتِهِ ، فقدْ يزيدُ بدَقَّةٍ واحدةٍ مالٌ كثيرٌ في قيمةِ السيفِ والمرآةِ(١) ، فهٰذا لا أرىٰ بأساً بأخْذِ الأجرةِ عليهِ ؛ لأنَّ مثلَ هٰذهِ الصناعاتِ يتعبُ الرجلُ في تعلُّمِها ليكتسبَ بها ، ويخفِّفَ عنْ نفسِهِ كثرةَ العملِ(٢) .

***

الرابعُ : ما يُقصدُ بهِ المحبَّةُ وجلبُها مِنْ قبَلِ المُهدىٰ إليهِ ، لا لغرضٍ معيَّنٍ ، ولكنْ طلباً للاستئناسِ ، وتأكيداً للصحبةِ ، وتودُّداً إلى القلوبِ :

---

(١) ومنه المثل علىٰ ألسنة العامة : دقَّةُ المعلِّم بألف . « إتحاف » (٦/ ١٥٩) وحكىٰ قصة المثل .

(٢) وقال التقي السبكي : (وفي تحريم ما قاله مما يحصل به غرض صحيح وإن لم يكن فيه تعب . . نظرٌ، وقد أجاز أبو إسحاق الاعتياض عن حق الشفعة) . « إتحاف » (٦/ ١٥٩).

فذلكَ مقصودٌ للعقلاءِ ، ومندوبٌ إليهِ في الشرعِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تهادَوا تحابُّوا »(١) .

وعلى الجملةِ : فلا يقصدُ الإنسانُ في الغالبِ أيضاً محبَّةَ غيرِهِ لعينِ المحبَّةِ ، بلْ لفائدةٍ في محبَّتِهِ ، ولكنْ إذا لمْ تتعيَّنْ تلكَ الفائدةُ ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ غرضٌ معيَّنٌ يبعثُها في الحالِ أوِ المآلِ . . سُمِّيَ ذلكَ هديةً وحلَّ أخذُها .

* * *

الخامسُ : أنْ يطلبَ التقرُّبَ إلىٰ قلبِهِ وتحصيلَ محبَّتِهِ ، لا لمحبَّتِهِ ولا للأنسِ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ أنسٌ فقطْ ، بلْ ليتوصَّلَ بجاهِهِ إلىٰ أغراضٍ لهُ ينحصرُ جنسُها وإنْ لمْ تتخصصْ عينُها ، وكانَ لولا جاهُهُ وحشمتُهُ . . لكانَ لا يهدي إليهِ : فإنْ كانَ جاهُهُ لأجلِ علْمٍ أوْ نسبٍ . . فالأمرُ فيهِ أخفُّ ، وأخذُهُ مكروهٌ ، فإنَّ فيهِ شائبةَ الرُّشوةِ ، ولكنَّها هديَّةٌ في ظاهرِها .

فإنْ كانَ جاهُهُ بولايةٍ تولاَّها ؛ مِنْ قضاءٍ ، أوْ عملٍ ، أوْ ولايةِ صدقةٍ ، أوْ جبايةِ مالٍ ، أوْ غيرِهِ مِنَ الأعمالِ السلطانيَّةِ حتَّىٰ ولايةِ الأوقافِ مثلاً ، وكانَ لولا تلكَ الولايةُ لكانَ لا يُهدىٰ إليهِ . . فهٰذهِ رشوةٌ عُرضَتْ في معرضِ الهديَّةِ ، إذِ القصدُ بها في الحالِ طلبُ التقرُّبِ واكتسابُ المحبَّةِ ، ولكنْ لأمرٍ ينحصرُ جنسُهُ ؛ إذْ ما يمكنُ التوصُّلُ إليهِ بالولاياتِ لا يخفىٰ ، وآيةُ أنَّهُ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٩٤) .

لا يبغي المحبَّةَ أنَّهُ لوْ وَلِيَ في الحالِ غيرُهُ . . لسلَّمَ المالَ إلىٰ ذلكَ الغيرِ ، فهـٰذا ممَّا اتفقوا علىٰ أنَّ الكراهةَ فيهِ شديدةٌ ، واختلفوا في كونِهِ حراماً ، والمعنىٰ فيهِ متعارضٌ ؛ فإنَّهُ دائرٌ بينَ الهديَّةِ المحضةِ وبينَ الرشوةِ المبذولةِ في مقابلةِ جاهٍ محضٍ في غرضٍ معيَّنٍ ، وإذا تعارضَتِ المشابهةُ القياسيَّةُ ، وعضدتِ الأخبارُ والآثارُ أحدَهُما . . تعيَّنَ الميلُ إليهِ ، وقدْ دلَّتِ الأخبارُ علىٰ تشديدِ الأمرِ في ذلكَ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يأتي على النَّاسِ زمانٌ يُستحلُّ فيهِ السحتُ بالهديَّةِ ، والقتلُ بالموعظةِ ، يُقتلُ البريءُ لتُوعظَ بهِ العامَّةُ »(١) .

وسئلَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ السحتِ ، فقالَ : (يقضي الرجلُ الحاجةَ فتُهدىٰ لهُ الهديَّةُ)(٢) ، ولعلَّهُ أرادَ قضاءَ الحاجةِ بكلمةٍ لا تعبَ فيها ، أوْ تبرَّعَ بها لا علىٰ قصدِ أجرةٍ ، فلا يجوزُ أنْ يأخذَ بعدَهُ شيئاً في معرضِ العوضِ .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٢٠٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/١٩٦٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٣٢١ ، ٣٤٥٩) بألفاظ متقاربة ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٨٢) : (وأخرج ابن مردويه عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون من بعدي ولاة يستحلون الخمر بالنبيذ ، والبخس بالصدقة ، والسحت بالهدية ، والقتل بالموعظة ، يقتلون البريء لتوطِّيء العامة لهم ، فيزدادوا إثماً ») .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/٦/٣١٠) بنحوه .

وشفعَ مسروقٌ شفاعةً ، فأهدىٰ إليهِ المشفوعُ لهُ جاريةً ، فغضبَ وردَّها ، وقالَ : لوْ علمتُ ما في قلبِكَ .. لما تكلَّمْتُ في حاجتِكَ ، ولا أتكلَّمُ فيما بقيَ منها(١) .

وسُئِلَ طاووسٌ عنْ هدايا السلطانِ ، فقالَ : سحتٌ(٢) .

وأخذَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ربحَ مالِ القراضِ الذي أخذَهُ ولداهُ مِنْ بيتِ المالِ ، وقالَ : (إنَّما أُعطيتُما لمكانِكُما منِّي)(٣) ، إذْ علمَ أنَّهُما أُعطيا لأجلِ جاهِ الولايةِ .

وأهدَتِ امرأةُ أبي عبيدةَ بنِ الجراحِ إلىٰ خاتونَ ملكةِ الرومِ خَلوقاً ، فكافأتْها بجوهرٍ ، فأخذَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فباعَهُ وأعطاها ثمنَ خَلوقِها ، وردَّ باقيَهِ إلىٰ بيتِ مالِ المسلمينَ(٤) .

وقالَ جابرٌ وأبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُما : (هدايا الملوكِ غلولٌ)(٥) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥١١٦) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٣٩٢) .
(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٦٨٧ـ٦٨٨) ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ١٦٢) .
(٤) أورد نحو هـٰذا الخبر الإمام السرخسي في « شرح السير الكبير » (٤/ ١٢٤١) : أن امرأة عمر رضي الله عنه أهدت امرأة ملك الروم هدية من طيب أو غيره ، فأهدت إليها امرأة الملك هدايا ، فأعطاها عمر من ذلك مثل هديتها ، وأخذ ما بقي من ذلك فجعله في بيت المال .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٣٩١) من قول سيدنا جابر رضي الله عنه ، ورواه وكيع في « أخبار القضاة » (١/ ٥٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ١٦٢) .

ولما ردَّ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الهديَّةَ . . قيلَ لهُ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُ الهديَّةَ ! فقالَ : (كانَ ذلكَ لهُ هديةً ، وهوَ لنا رشوةٌ)(١) أيْ : كانَ يُتقرَّبُ إليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لنبوَّتهِ لا لولايتِهِ ، ونحنُ إنَّما نُعطىٰ للولايةِ .

وأعظمُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ ما روىٰ أبو حميدٍ الساعديُّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ والياً علىٰ صدقاتِ الأزْدِ ، فلمَّا جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أمسكَ بعضَ ما معَهُ ، وقالَ : هٰذا مالُكُمْ ، وهٰذا لي هديةٌ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ألا جلسْتَ في بيتِ أبيكَ وبيتِ أمِّكَ حتَّىٰ تأتيَكَ هديَّتُكَ إنْ كنتَ صادقاً ؟! » ثمَّ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما لي أستعملُ الرَّجُلَ منكُمْ فيقولَ : هٰذا لكُمْ وهٰذا لي هديَّةٌ ؟! ألا جلسَ في بيتِ أمِّهِ ليُهدىٰ لهُ ، والَّذي نفسي بيدِهِ ؛ لا يأخذُ منكُمْ أحدٌ شيئاً بغيرِ حقِّهِ إلا أتى اللهَ يحملُهُ ، فلا يأتينَّ أحدُكُمْ يومَ القيامةِ ببعيرٍ لهُ رُغاءٌ ، أوْ بقرةٍ لها خوارٌ ، أوْ شاةٍ تيعرُ » ، ثمَّ رفعَ يديهِ حتَّىٰ رأيتُ بياضَ إبطيهِ ، ثمَّ قالَ : « اللَّهُمَّ ؛ هلْ بلَّغْتُ »(٢) .

وإذا ثبتَتْ هٰذهِ التشديداتُ . . فالقاضي والوالي ينبغي أنْ يقدِّرَ نفسَهُ في

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٢٠) ، وقبوله صلى الله عليه وسلم للهدية رواه البخاري (٢٥٨٥) .

(٢) وهو الحديث المشهور بحديث ابن اللُّتبيَّة ، رواه البخاري (٦٩٧٩ ، ٧١٩٧) ، ومسلم (١٨٣٢) .

بيتِ أمِّهِ وأبيهِ ، فما كانَ يُعطىٰ بعدَ العزلِ وهوَ في بيتِ أمِّهِ . . يجوزُ لهُ أنْ يأخذَهُ في ولايتِهِ ، وما يعلمُ أنَّهُ يُعطىٰ لولايتِهِ . . حرمَ أخذُهُ ، وما أشكلَ عليهِ في هدايا أصدقائِهِ أنَّهُمْ هلْ كانوا يعطونَهُ لوْ كانَ معزولاً . . فهوَ شبهةٌ ، فليجتنبْهُ . واللهُ أعلمُ .

* * *

تمَّ كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرّابع من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

ولله الحمد والمنّة ، وصلواته على أشرف خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب آداب الصّحبة والأخوّة والمعاشرة مع أصناف الخلق

مُحتوى الكتاب
رُبعُ العادات / القسم الأول

كتاب آداب الأكل ٧

الباب الأول: فيما لا بد للمنفرد منه ١٢

القسم الأول: في الآداب التي تقدم على الأكل ١٢

ـ ليس كل ما أبدع منهياً عنه ١٤

القسم الثاني: في آداب حالة الأكل ٢٠

ـ التسمية عند كل لقمة ٢٠

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام ٢٦

كيفية غسل اليدين بالأشنان ٢٩

الباب الثاني: فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل ٣٠

ـ الطعام أهون من أن يحلف عليه ٣١

ـ تنشيط الآكلين والأخبار في ذلك ٣٢

ـ الأكل على قدْرِ المحبة ٣٢

سبعة آداب في الطست ٣٤

الباب الثالث: في آداب تقديم الطعام إلىٰ الإخوان الزائرين ٣٦

آداب بعضها في الدخول على الإخوان، وبعضها في تقديم الطعام ٣٩

ـ أخبار في الأكل من مال الأصدقاء ٤٢

الباب الرابع: في آداب الضيافة ٥١

فضيلة الضيافة ٥١

ـ سبب انتقاء الصلحاء دون الفسقة في الدعوة للطعام ٥٥

آداب إجابة الدعوة ٥٥
ـ متى تؤثِّر النية ٦٣
ـ تفصيل من المصنف في حكم اتخاذ الستور من الحرير ٦٦
آداب إحضار الطعام ٦٦
ـ تمام الطيبات شرب الماء البارد، وغسل اليد بالفاتر ٦٩
آداب انصراف الضيف ٧٥
ـ أخبار في تواضع المدعوين ٧٦
فصل يجمع آداباً ومناهي طبية وشرعية متفرقة ٧٩

كتاب آداب النكاح ٨٩
الباب الأول: في الترغيب في النكاح والترغيب عنه ٩٣
الترغيب في النكاح ٩٤
الترغيب عن النكاح ١٠٢
فوائد النكاح ١٠٥
التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه ١٠٦
ـ كيف يكون طلب الولد استدراراً لمحبة الله تعالى؟ ١٠٦
ـ **تحريجة**: إذا كان بقاء النسل محبوباً.. ففناؤه مكروه، فكيف تفرِّق بين البقاء والفناء في الحكم وهما متساويان أمام مشيئة الله وقدرته؟ ١٠٨
ـ **تحريجة**: قول معاذ: (زوجوني) وكان مطعوناً لا يُتوقع فيه الولد، فما وجه رغبته؟ ١١٠
ـ فما الشأن إن لم يكن الولد صالحاً؟ ١١٣
ـ وجود اللذة منبه على اللذات الموعودة في الجنان ومرغب فيها ١١٨

ـ غاية المتقي كفُّ الجوارح عن إجابة الشهوة، أما مادة الوسوسة بها.. فلا تنقطع إلا بالنكاح ١١٩
ـ ترويح النفس من المهمات ١٢٨
ـ عون العزِّ يفرِّغ القلب للعبادة ١٣٣
آفات النكاح ١٣٩
ـ تفصيل المصنف في ترجيح النكاح على العزوبة أو العكس ١٤٥
ـ **تحريجة**: مَنْ أمن الآفات فالأفضل له التخلي للعبادة أو النكاح؟ ١٤٧
ـ **تحريجة**: فما بال سيدنا عيسى عليه السلام ترك النكاح مع فضله، ونبينا عليه السلام استكثر منه مع شغله؟ ١٤٨
الباب الثاني: فيما يراعىٰ حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد ١٥٠
أركان العقد وشروطه ١٥٠
آداب العقد ١٥٠
الموانع المحرمة للنكاح ١٥٣
الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ١٥٦
ـ من ضوابط الهدية بين الزوجين ١٦٧
فوائد البكارة ١٦٨
ـ مراعاة حق الزوجة كذلك فيمَنْ يكافئها ١٧٠
الباب الثالث: في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما علىٰ الزوجة ١٧٢
القسم الأول: بيان ما علىٰ الزوج ١٧٢
ـ منع النساء من حضور المساجد لما حدث من الفتن ١٨٩
ـ حكم النظر إلى وجه الرجل من قبل المرأة ١٩٠

- ليس للمرأة الخروج للاستفتاء والتعلُّم إن قام الرجل بتعليمها أو ناب عنها في السؤال ١٩٣
- العدل يكون في العطاء والمبيت ١٩٤
- تأديب الرجل زوجه إن كانت تاركة للصلاة ١٩٦
- الهجر فوق ثلاث لأجل التأديب ١٩٧

آداب الجماع ١٩٨

- أحكام العزل ٢٠٢
- **تحريجة**: قد يكون العزل مكروهاً لأجل نية فاسدة باعثة عليه ٢٠٥
- **تحريجة**: فقد قال ﷺ: «من ترك النكاح مخافة العيال.. فليس منَّا» ٢٠٦
- **تحريجة**: وقد قال ﷺ: «ذلك الوأد الخفي» ٢٠٧
- **تحريجة**: وقال ابن عباس: «هو الوأد الأصغر» ٢٠٧

آداب الولادة ٢٠٩

- ما يراعيه الزوج إن أراد طلاقاً ٢١٧

القسم الثاني: النظر في حقوق الزوج عليها ٢٢٣

القول الجامع في آداب المرأة ٢٢٩

ما يجب على المرأة من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها ٢٣٢

كتاب آداب الكسب والمعاش ٢٣٥

الباب الأول: في فضل الكسب والحث عليه ٢٣٩

- **تحريجة**: فما تصنع بالأخبار الواردة في ذم التجارة ونحوها؟ ٢٤٦

أربعة ترك الكسب أفضل لهم ٢٤٨

الباب الثاني: في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة، وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع ٢٥١
العقد الأول: البيع ٢٥٣
ـ إجراء العقد بالمعاطاة وتفصيل القول فيه ٢٦٠
ـ **تحريجة**: فكيف يفعل إن كان ضيفاً على جماعة يقنعون بالمعاطاة؟ ٢٦٣
العقد الثاني: عقد الربا ٢٦٦
العقد الثالث: السلم ٢٧٠
العقد الرابع: الإجارة ٢٧٣
خمسة أمور تراعىٰ في العمل المستأجر عليه ٢٧٤
العقد الخامس: القراض ٢٧٨
العقد السادس: الشركة ٢٨١
ـ الخلل الشائع في معاملة الخباز والقصاب والبقال وطلب الإبراء منهم ٢٨٢
الباب الثالث: في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة ٢٨٤
القسم الأول: فيما يعم ضرره وهو أنواع ٢٨٤
القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل ٢٩٢
ـ تفصيل القول في الغشِّ وما يعين على نفيه عن العبد ٢٩٥
ـ **تحريجة**: ذكر عيوب المبيع يمنع المعاملة ٣٠٠
الباب الرابع: في الإحسان في المعاملة ٣٠٨
الأمور التي تنال بها رتبة الإحسان ٣٠٨
الباب الخامس: في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته ٣٢٢

كتاب الحلال والحرام ٣٤١
الباب الأول: في الحلال والحرام ٣٤٦
فضيلة الحلال ومذمة الحرام ٣٤٦
أصناف الحلال والحرام ومداخله ٣٥٩
ـ علم الحلال والحرام تتولى بيانه كتب الفقه ٣٥٩
ـ علة تحريم ما ليس له نفس سائلة هي الاستقذار ٣٦٠
درجات الحلال والحرام ٣٦٦
ـ كيفية إدراك تفاوت آحاد الدرجة الواحدة ٣٦٨
أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها ٣٦٩
ـ تفريقه ﷺ بين ورع وورع مراعاة للحال ٣٧٠
ـ أخبار في ورع المتقين ٣٧٢
ـ أخطار الميل إلى الزينة ٣٧٤
ـ أخبار في ورع الصديقين ٣٧٧
الباب الثاني: في مراتب الشبهات، ومثاراتها، وتمييزها عن الحلال والحرام .. ٣٨٢
مثارات الشبهة ٣٨٥
ـ **تحريجة**: أين المناسبة في تشبيه مسائل الطلاق بمسائل المياه والنجاسات؟ ٣٨٧
ـ **تحريجة**: قد ورد النهي فيما فيه شك، فلِمَ لا نقول بحرمته وقد وقع الشك في تمام السبب؟ ٣٩٠
ـ كل عدد محصورٌ في علم الله تعالى، فما حدُّ المحصور؟ ٣٩٨
ـ على المستفتي أن يستفتي قلبه فيما حاك في صدره ٣٩٩
ـ **تحريجة**: امتناعه ﷺ من أكل الضب هو من مسائل اختلاط غير المحصور بغير المحصور ٤٠٢

ـ **تحريجة**: ما القول في زماننا وقد صار الحرام أكثر ما في أيدي الناس؟ ... ٤٠٢
ـ **تحريجة**: لا يجوز قياس الحل على النجاسة، فقد كانوا يتوسعون في أمور الطهارات ويحترزون عن الشبهات ٤٠٨
ـ المراد من ترويج هذه الأغاليط سدُّ باب الورع ٤١١
ـ **تحريجة**: لو غلب الحرام واختلط غير محصور بغير محصور، فيما القول إن لم تكن علامة مميزة؟ ٤١١
ـ سالكو طريق الآخرة هم الأقلون ٤١٧
ـ **تحريجة**: ما ذكرتموه من التقسيمات كلها مصالح مرسلة، فهل من شاهد متفق عليه؟ ٤١٧
ـ **تحريجة**: من يسلم أن الأصل في الأموال الحل؟ ٤١٩
ـ **تحريجة**: ما لا مالك له يختصُّ السلطان بالتصرف فيه ٤٢١
ـ لا يُشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن ٤٢٨
ـ **تحريجة**: ثمَّ أثر يومىء إلى حرمة هذا، فلِمَ لا نقول به؟ ٤٢٩
ـ أثر العلم في إشراق القلب وإظلامه ٤٣١
ـ **تحريجة**: قد قال ﷺ: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام.. لم يقبل له صلاة ما كان عليه» ٤٣٨
ـ لا يجوز للمستفتي أن يبحث عن أوسع المذاهب عليه ٤٤١
ـ تظافر الشبهات يؤكد حزم الأمر بالورع ٤٥٠
ـ القلب المعتبر في الاستفتاء ٤٥١
الباب الثالث: **في البحث والسؤال، والهجوم والإهمال، ومظانهما** ٤٥٢
مثار الريبة ومنشؤها ٤٥٢
ـ الفرق بين الجهالة والشك ٤٥٣

ـ السؤال عن أصل المال من غير ريبة فيه إيذاء وهتك ستر ٤٥٦
ـ **تحريجة**: لعله لا يتأذى بالسؤال ٤٥٧
مسألة: فيمن ماله مختلط من الحلال والحرام ٤٦٤
ـ **تحريجة**: قد نقل عن السلف إباحة مثل هذه الصورة ٤٦٧
ـ **تحريجة**: فلِمَ منعتم الأخذ لكون الأكثر حراماً، ولا علامة تمنع من الأخذ واليد علامة الملك؟ ٤٦٩
مسألة: فيمن علم وجود حرام في يدٍ، ثم جهل: هل بقي منه شيء أم لا؟ .. ٤٧٢
مسألة: إن كان عند متولي الوقف مالان، وثَمَّ من يستحق أحدهما لوجود صفته، فهل له الأخذ دون سؤال؟ ٤٧٢
مسألة: في بلد فيه دور مغصوبة، هل له شراء دار فيه؟ ٤٧٣
مسألة: متى يمتنع السؤال ومتى يجب ٤٧٤
مسألة: في ترك السؤال خوفاً من هتك الستر وتحصيل البغضاء ٤٧٥
مسألة: في احتمال كذب المسؤول وإخفائه بيانَ أصل المال ٤٧٦
مسألة: في تعارض أقوال المخبرين ٤٧٩
مسألة: في نهب متاع ثم وجوده في يدٍ، فهل يجوز ابتياعه؟ ٤٧٩
مسألة: في عدد الأصول التي يجب السؤال عنها وضابط ذلك ٤٨٠
مسألة: فيمن أوقف على خانقاه الصوفية وغيرهم، فهل يجوز للقائم خلط الوقفين وتقديمه لهؤلاء وهؤلاء؟ وما حكم أكل طعامهم؟ ٤٨١
الباب الرابع: في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية ٤٨٦
ـ **تحريجة**: فلعله إن أخرج القدر الحرام.. أخرج الحلال وبقي الحرام لعدم التمايز ٤٨٨
ـ **تحريجة**: قد جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعاً .. ٤٩٠

ـ **تحريجة**: فإن كان الأمر كذلك.. فلِمَ لا نجوِّز له التصرف قبل الإخراج؟.. ٤٩١
مسألة: فيمن ورث مغصوباً ورد عليه الغاصب نصيباً معيناً، فهو لجميع الورثة ٤٩٣
مسألة: في الزيادة على المغصوب وحكمها ٤٩٤
ـ للمغصوب منه قدر رأس المال، والفضل حرام يجب التصدق به، لا يحل لا للغاصب ولا للمغصوب منه ٤٩٤
مسألة: في جهالة حال المورِّث وجهة اكتسابه ٤٩٥
ـ **تحريجة**: ما دليل جواز التصدق بما هو حرام؟ ٤٩٨
ـ هو يجوز أن يتصدق على نفسه وعياله من هذا الحرام؟ ٥٠١
مسألة: فيما إذا وقع في يده مال من سلطان ٥٠٢
مسألة: في تعيين قدر الحاجة إن أبحنا له الأخذ ٥٠٣
مسألة: في ترتيب الأكل عند من في يده حلال وحرام أو شبهة ٥٠٤
ـ **تحريجة**: فالكل منصرف إلى أغراضه فما فائدة الترتيب؟ ٥٠٥
مسألة: في تفاوت الصرف بينه وبين الفقراء ونحو ذلك ٥٠٦
مسألة: فيما إذا كان الحرام في يد أبويه أو أحدهما ٥٠٧
مسألة: لا تجب العبادات المالية على من في يده مال حرام محض ٥٠٩
مسألة: فيمن أراد الحج وبيده مال حرام أمسكه للحاجة ٥١٠
مسألة: فيمن خرج لحج واجب بمال فيه شبهة ٥١٠
مسألة: فيمن مات وكان يعامل من تكره معاملته ٥١١
الباب الخامس: **في إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم** ... ٥١٣
درجات الورع في حق السلاطين ٥٢٣
ـ من له حق في بيت مال المسلمين ٥٣٣
ـ لا تشترط الحاجة حتى يجوز العطاء، بل الأمر لاجتهاد الإمام ٥٣٤

ـ النظر في السلاطين الظلمة ٥٣٥
ـ مسائل يكون فيها كل مجتهد على حق ٥٣٩
ـ مسائل المصيب فيها من أصاب النص أو ما في معنى النص ٥٤٠
الباب السادس: فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ويحرم، وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم ٥٤١
لك مع الأمراء والعمال والظلمة ثلاثة أحوال ٥٤١
ـ **تحريجة**: إنما سكت خوفاً على نفسه ٥٥٠
ـ الأعذار المبيحة للدخول على السلاطين ٥٥٣
ـ مراعاة حشمة أرباب الولايات بين الرعايا مهم ٥٥٤
ـ **تحريجة**: الكراهة لا تدخل تحت الاختيار فكيف تجب؟ ٥٥٧
ـ **تحريجة**: علماء السلف كانوا يدخلون على السلاطين ٥٥٧
ـ علامة صدق الناصحين الداخلين على السلطان ٥٦٥
مسألة: فيمن بعث إليه السلطان مالاً ليفرِّقه ٥٦٦
مسألة: فإن جاز أخذ ماله وتفريقه.. فهل يجوز سرقته ونحوها وتفريقه؟ .. ٥٧٠
مسألة: في بيان حرمة المعاملة مع السلاطين وأتباعهم ٥٧٠
مسألة: حرمة الانتفاع بالأسواق التي بنوها من حرام ٥٧٢
مسألة: حرمة معاملة أعوان السلاطين ومتنفذيهم ٥٧٣
ـ فساد الرعية بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء ٥٧٣
ـ مساواة الزيِّ تدل على مساواة القلب ٥٧٦
مسألة: في حكم الانتفاع بما بنوا من مرافق ٥٧٧
مسألة: فيما إذا كان أصل الشارع أرضاً مغصوبة ونحو ذلك ٥٨٠

الباب السابع : في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوىٰ ٥٨١
مسألة : فيما يجمعه خادم الصوفية ومن يجوز له أن يأكل منه ٥٨١
مسألة : أوصى إلى الصوفية ، فإلى من يصرف؟ ٥٨٢
مسألة : في حكم ما وقف على رباط الصوفية وسكانه ٥٨٥
مسألة : في بيان الفرق بين الرشوة والهدية ، وأحوال القبض ٥٨٧
محتوى الكتاب ٥٩٧

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدِّد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

رُبعُ العادات / القسم الثاني

كتاب

آدابِ الصُّحبةِ والأُخوَّةِ والمعاشرةِ مع أصنافِ الخلقِ

آدابِ العزلةِ ـ آدابِ السفرِ ـ آدابِ السماعِ والوجدِ

الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ـ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوةِ

المجلد الرابع

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص . ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بسم الله الرحمن الرحيم

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ

كِتَابُ
آدَابِ الصُّحْبَةِ وَالأُخُوَّةِ وَالمُعَاشَرَةِ
مَعَ أَصْنَافِ الخَلْقِ

وهو الكتاب الخامس من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آداب الصّحبة والأخوّة والمعاشرة مع أصناف الخلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي غمرَ صفوةَ عبادِهِ بلطائفِ التخصيصِ طَوْلاً وامتناناً ، وألَّفَ بينَ قلوبِهِمْ فأصبحوا بنعمتِهِ إخواناً ، ونزعَ الغِلَّ مِنْ صدورِهِمْ فظلُّوا في الدنيا أصدقاءَ وأخداناً ، وفي الآخرةِ رفقاءَ وخلاَّناً ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ المصطفىٰ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ اتبعوهُ واقتدَوا بهِ قولاً وفعلاً وعدلاً وإحساناً .

أما بعد :

فإنَّ التحابَّ في اللهِ تعالىٰ ، والأخوَّةَ في دينِهِ . . مِنْ أفضلِ القرباتِ ، وألطفِ ما يُستفادُ مِنَ الطاعاتِ في مجاري العاداتِ ، ولها شروطٌ بها يلتحقُ المتصاحبونَ بالمتحابِّينَ في اللهِ تعالىٰ ، وفيها حقوقٌ بمراعاتِها تصفو الأخوَّةُ عن شوائبِ الكدوراتِ ونزغاتِ الشيطانِ ، فبالقيامِ بحقوقِها يُتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ زُلفىٰ ، وبالمحافظةِ عليها تُنالُ الدرجاتُ العُلىٰ ، ونحنُ نبيِّنُ مقاصدَ هـٰذا الكتابِ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الإُلفةِ والأخوَّةِ في اللهِ تعالىٰ ، وشروطِها ، ودرجاتِها ، وفوائدِها .

البابُ الثاني : في حقوقِ الصحبةِ ، وآدابِها ولوازِمِها .

البابُ الثالثُ : في حقِّ المسلمِ والرَّحِمِ والجوارِ والملكِ ، وكيفيةِ المعاشرةِ معَ مَنْ قدْ يدلي بهٰذهِ الأسبابِ .

* * *

البَابُ الأَوَّلُ
في فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

اعلمْ : أنَّ الأُلفة ثمرةُ حسْنِ الخلقِ ، والتفرُّقَ ثمرةُ سوءِ الخلقِ ، فحسْنُ الخلقِ يوجبُ التحابَّ والتآلفَ والتوافقَ ، وسوءُ الخلقِ يثمرُ التباغضَ والتحاسدَ والتدابرَ ، ومهما كانَ المثمَرُ محموداً . كانتِ الثمرةُ محمودةً ، وحسْنُ الخلقِ لا تخفىٰ في الدينِ فضيلتُهُ ، وهوَ الذي مدحَ اللهُ سبحانَهُ بهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ ما يُدخلُ الناسَ الجنَّةَ تقوى اللهِ وحسْنُ الخلقِ »(١) .

وقالَ أسامةُ بنُ شريكٍ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ما خيرُ ما أُعطيَ الإنسانُ ؟ فقالَ : « خلقٌ حسنٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ »(٣) .

---

(١) هو جزء من حديث رواه الترمذي (٢٠٠٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٤).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٣٦) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٨١) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩١) واللفظ له .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أثقلُ ما يُوضعُ في الميزانِ خلقٌ حسنٌ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حسَّنَ اللهُ خَلْقَ امْرِئٍ وخُلُقَهُ فتطعمَهُ النَّارُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ عليكَ بحسْنِ الخلقِ » ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : وما حسْنُ الخلقِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعفو عمَّنْ ظلمَكَ ، وتعطي مَنْ حرمَكَ »[٣] .

ولا يخفىٰ أنَّ ثمرةَ الخلُقِ الحسنِ الأُلفةُ وانقطاعُ الوَحشةِ ، ومهما طابَ المثمِرُ . طابتِ الثمرةُ ، كيفَ وقدْ وردَ في الثناءِ علىٰ نفْسِ الألفةِ ـ سيما إذا كانتِ الرابطةُ هيَ التقوىٰ والدينَ وحبَّ اللهِ تعالىٰ ـ مِنَ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ ما فيهِ كفايةٌ ومقنعٌ ؟!

قالَ اللهُ سبحانَهُ مظهراً عظيمَ منَّتِهِ على الخلْقِ بنعمةِ الأُلفةِ : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ أيْ : بالألفةِ[٤] .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٢) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٧٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٨) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٧٢٥) ، وللحديث روايات متعددة عن غير أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) انظر « تفسير الطبري » (٣/ ٤/ ٤٦) .

ثمَّ ذمَّ التفرقةَ وزجرَ عنها ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أقربَكُمْ منِّي مجلساً أحاسنُكُمْ أخلاقاً ، الموطَّؤونَ أكنافاً ، الّذين يألفونَ ويُؤلفونَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ إِلْفٌ مألوفٌ ، ولا خيرَ فيمَنْ لا يألَفُ ولا يُؤلَفْ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الثناءِ على الأخوَّةِ في الدينِ : « مَنْ أرادَ اللهُ بهِ خيراً . . رزقَهُ خليلاً صالحاً ، إنْ نسيَ . . ذكَّرَهُ ، وإنْ ذكرَ . . أعانَهُ »(٤) .

---

(١) وهي : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

(٢) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٦) ، وهو بنحوه عند ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٣٠٠) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٣١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٣) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٤) ، وقد ورد هـٰذا في الوزير الناصح الصادق لولي الأمر ؛ فقد روىٰ أبو داوود (٢٩٣٢) ، والنسائي (٧/ ١٥٩) : « من ولي منكم أمراً ، فأراد الله به خيراً . . جعل له وزيراً صالحاً ، إن نسي . . ذكَّره ، وإن ذكر . . أعانه » ، وروى السلمي في « آداب الصحبة » (٢٨) مرفوعاً : « من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الأخوينِ إذا التقيا مثلُ اليدينِ تغسلُ إحداهُما الأخرىٰ ، وما التقىٰ مؤمنانِ قطُّ إلاَّ أفادَ اللهُ أحدَهُما مِنْ صاحبهِ خيراً »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في الترغيبِ في الأخوَّةِ في اللهِ : « مَنْ آخىٰ أخاً في اللهِ . . رفعَهُ اللهُ درجةً في الجنَّةِ لا ينالُها بشيءٍ مِنْ عملِهِ »[2] .

وقالَ أبو إدريسَ الخولانيُّ لمعاذٍ : إنِّي أحبُّكَ في اللهِ ، فقالَ لهُ : أبشرْ ثمَّ أبشرْ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُنصبُ لطائفةٍ مِنَ النَّاسِ كراسيُّ حولَ العرشِ يومَ القيامةِ ، وجوهُهُمْ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، يفزعُ النَّاسُ وهمْ لا يفزعونَ ، ويخافُ النَّاسُ وهمْ لا يَخافونَ ، وهُمْ أولياءُ اللهِ الَّذينَ لا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ » ، فقيلَ : مَنْ هؤلاءِ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « هُمُ المتحابُّونَ في اللهِ تعالىٰ »[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٤) ، وقد رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٢٨) ، وابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (٤٣٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٤١١) ، ورواه الحربي في « الحربيات » عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً ، وحكىٰ سنده الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ١٧٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٤) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٢٦) بلفظ : « ما أحدث رجل أخاً في الله عز وجل إلا بنى الله له بيتاً في الجنة » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٧) عن محمد بن سوقة : (ما استفاد رجل أخاً في الله إلا رفعه الله بذلك درجة) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٧) ، وسياق المصنف عنده ، ولقاء أبي إدريس مع معاذ رضي الله عنه رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٥٣) ، وأحمد في « المسند » =

ورواهُ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ فيهِ : « إنَّ حولَ العرشِ منابرَ مِنْ نورٍ ، عليها قومٌ لباسُهُمْ نورٌ ، ووجوهُهُمْ نورٌ ، ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ ، يغبطُهُمُ النبيُّونَ والشهداءُ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ حلِّهِمْ لنا[1] ، فقالَ : « هُمُ المتحابُّونَ في اللهِ ، والمتجالسونَ في اللهِ ، والمتزاورونَ في اللهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تحابَّ اثنانِ في اللهِ إلاَّ كانَ أحبُّهُما إلى اللهِ أشدَّهُما حبّاً لصاحبِهِ »[3] .

ويقالُ : إنَّ الأخوينِ في اللهِ إذا كانَ أحدُهُما أعلىٰ مقاماً مِنَ الآخرِ . . رُفِعَ الآخرُ معَهُ إلىٰ مقامِهِ ، وإنَّهُ يُلحَقُ بهِ كما تُلحَقُ الذريَّةُ بالأبوينِ والأهلُ بعضُهُمْ ببعضٍ ؛ لأنَّ الأخوَّةَ إذا اكتُسِبَتْ في اللهِ تعالىٰ . . لمْ تكنْ دونَ أخوَّةِ الولادةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : حقَّتْ محبَّتي للَّذينَ يتزاورونَ مِنْ أجلي ، وحقَّتْ محبَّتي للَّذينَ يتحابُّونَ مِنْ أجلِي ،

= (٥/ ٢٢٩) ولفظ المرفوع عندهما : « وجبت محبتي . . . » وسيأتي ، وعند أحمد في « المسند » (٥/ ٣٤٣) قريب مما نقله المصنف عن صاحب « القوت » ولكن عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالىٰ عنه .

(١) أي : اذكر لنا حليتهم ؛ أي : وصفهم .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٧) ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١٧٢) بنحوه ، وهو من حديث أبي مالك الأشعري المشار إليه في التعليق السابق .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٦٦) .

وحقَّتْ محبَّتي للذينَ يتباذلونَ مِنْ أجلي ، وحقَّتْ محبَّتي للذينَ يتناصرونَ مِنْ أجلي »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ : أينَ المتحابُّونَ بجلالي ؟ اليومَ أظلُّهُمْ في ظلِّي يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظلِّي »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّهُ : إمامٌ عادلٌ ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ ، ورجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمسجدِ ؛ إذا خرجَ منهُ حتَّىٰ يعودَ إليهِ ، ورجلانِ تحابَّا في اللهِ ؛ اجتمعا علىٰ ذلكَ وتفرَّقا عليهِ ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ ، ورجلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسبٍ وجمالٍ فقالَ : إنِّي أخافُ اللهَ تعالىٰ ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدَقةٍ فأخفاها حتَّىٰ لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما زارَ رجلٌ رجلاً في اللهِ شوقاً إليهِ ، ورغبةً في لقائهِ . . إلاَّ ناداهُ ملكٌ مِنْ خلفِهِ : طبتَ وطابَتْ لكَ الجنَّةُ »[4] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧١٦) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٣٨٦) .
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٦) .
(٣) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) ، وقوله : (حسب وجمال) هي عند الترمذي (٢٣٩١) .
(٤) رواه بلفظه ابنُ المبارك في « الزهد » (٧٠٩) عن سعد الطائي ، ورواه مرفوعاً عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٠٣) ، والبزار كما في « مختصر زوائده » (١٨١٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤١٤٠) دون قوله : (شوقاً إليه ورغبة في لقائه) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً زارَ أخاً لهُ في اللهِ ، فأرصدَ اللهُ لهُ ملكاً ، فقالَ : أينَ تريدُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ أزورَ أخي فلاناً ، فقالَ : لحاجةٍ لكَ عندَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لقرابةٍ بينَكَ وبينَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فبنعمةٍ لهُ عندَكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فبِمَهْ ؟ قالَ : أحبُّهُ في اللهِ ، قالَ : فإنَّ اللهَ تعالىٰ أرسلني إليكَ يخبرُكَ بأنَّهُ يحبُّكَ بحبِّكَ إيَّاهُ ، وقد أوجبَ لكَ الجنَّةَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ »(٢) .

فبهٰذا يجبُ أنْ يكونَ للرجلِ أعداءٌ يبغضُهُمْ في اللهِ ، كما يكونُ لهُ أصدقاءُ وإخوانٌ يحبُّهُمْ في اللهِ .

ويُروىٰ أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ نبيٍّ مِنَ الأنبياءِ : (أمَّا زهدُكَ في الدنيا . . فقدْ تعجلتَ الراحةَ ، وأمَّا انقطاعُكَ إليَّ . . فقدْ تعززتَ بي ، ولكنْ : هلْ عاديتَ فيَّ عدوّاً ، أوْ هلْ واليتَ فيَّ وليّاً)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ لا تجعلْ لفاجرٍ عليَّ منَّةً ، فترزقَهُ منِّي محبَّةً »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٧) ، ونحوه عند أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٢) .
(٢) رواه الطيالسي في « مسنده » (٧٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٤/ ٢٨٦) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١٧) .
(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن =

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لوْ أنَّكَ عبدتَني بعبادةِ أهلِ السماواتِ والأرضِ ، وحبٌّ في اللهِ ليسَ وبغضٌ في اللهِ ليسَ . . ما أغنىٰ عنكَ ذلكَ شيئاً)[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : تحبَّبوا إلى اللهِ ببغْضِ أهلِ المعاصي ، وتقرَّبوا إلى اللهِ بالتباعدِ منهُمْ ، والتمسوا رضا اللهِ بسخطِهِمْ ، قالوا : يا روحَ اللهِ ؛ فمَنْ نجالسُ ؟ قالَ : جالسوا مَنْ تذكِّرُكُمْ باللهِ رؤيتُهُ ، ومَنْ يزيدُ في علمِكُمْ منطقُهُ ، ومَنْ يرغِّبُكُمْ في الآخرةِ عملُهُ[2] .

ورُوِيَ في الأخبارِ السالفةِ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (يا بنَ عمرانَ ؛ كُنْ يقظاناً ، وارتدْ لنفسِكَ إخواناً ، وكلُّ خدْنٍ وصاحبٍ لا يُؤازرُكَ علىٰ مسرَّتي فهوَ لكَ عدوٌّ)[3] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ فقالَ : يا داوودُ ؛ ما لي أراكَ منتبذاً وحيداً ؟ قالَ : إلـٰهي ؛ قليتُ الخلْقَ مِنْ أجلِكَ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ كنْ يقظاناً ، وارتدْ لنفسِكَ أخداناً ، فكلُّ خدْنٍ لا يوافقُكَ علىٰ مسرَّتي . . فلا

= رجل لم يسمَّ ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلاً ، وأسانيده ضعيفة) . « إتحاف » (٦/ ١٤٨) .

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٤٥) عن مالك بن دينار عنه عليه السلام .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٥٥) عن مالك بن مغول بلاغاً عنه عليه السلام .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٤٣٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٤٩٠) عن محمد بن النضر الحارثي عنه عليه السلام بنحوه .

تصحبْهُ ؛ فإنَّهُ لكَ عدوٌّ يقسِّي قلبَكَ ويباعدُكَ منِّي[(١)] .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ لي أنْ يحبَّني الناسُ كلُّهُمْ ، وأسلمَ فيما بيني وبينَكَ ؟ قالَ : خالقِ الناسَ بأخلاقِهِمْ ، وأحسنْ فيما بيني وبينَكَ[(٢)] .

وفي بعضِها : خالقْ أهلَ الدنيا بأخلاقِ الدنيا ، وخالقْ أهلَ الآخرةِ بأخلاقِ الآخرةِ[(٣)] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إلى اللهِ الَّذينَ يألفونَ ويُؤلفونَ ، وإنَّ أبْغضَكُمْ إلى اللهِ المشَّاؤونَ بالنَّميمةِ المفرِّقونَ بينَ الإخوانِ »[(٤)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ ملكاً نصفُهُ مِنَ النارِ ، ونصفُهُ مِنَ الثلجِ ، يقولُ : اللَّهمَّ ؛ كما أَلَّفْتَ بينَ الثلجِ والنارِ كذلكَ أَلِّفْ بينَ قلوبِ عبادِكَ الصَّالحينَ »[(٥)] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٤) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٤٣) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١٤) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٩٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١/ ٣٩٩) .

(٥) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٣٣) مرفوعاً من حديث معاذ بن جبل والعرباض بن سارية رضي الله عنهما ، و(٤٨٥ ، ٤٨٦) عن خالد بن معدان وزياد بن أبي حبيب ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٤) عن ابن معدان وأشار إلىٰ روايته عن العرباض =

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما أحدثَ عبدٌ أخاً في اللهِ إلاَّ أحدثَ اللهُ له درجةً في الجنَّةِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المتحابُّونَ في اللهِ علىٰ عمودٍ مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ في رأسِ العمودِ سبعونَ ألفَ غرفةٍ ، يشرفونَ علىٰ أهلِ الجنَّةِ يضيءُ حسنُهُمْ لأهْلِ الجنَّةِ كما تضيءُ الشَّمسُ لأهلِ الدُّنيا ، فيقولُ أهلُ الجنَّةِ : انطلِقوا بنا ننظرْ إلى المتحابِّينَ في اللهِ ، فيضيءُ حسنُهُمْ لأهلِ الجنَّةِ كما تضيءُ الشَّمسُ ، عليهِمْ ثيابُ سندسٍ خضرٌ ، مكتوبٌ علىٰ جباهِهِمْ : المتُحابُّونَ في اللهِ »(٢) .

* * *

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : عليكُمْ بالإخوانِ ؛ فإنَّهُمْ عُدَّةٌ في الدنيا والآخرةِ ، ألا تسمعُ إلىٰ قولِ أهلِ النارِ : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ ؟!

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (واللهِ ؛ لوْ صمتُ النهارَ

= رضي الله عنه ، ورواه الديلمي مرفوعاً في « مسند الفردوس » كما حكىٰ سنده الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦ / ١٧٨) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٢٦) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٣٦) ، وأبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٩٦) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٤٠) .

لا أفطرُهُ ، وقمتُ الليلَ لا أنامُهُ ، وأنفقتُ مالي عِلْقاً عِلْقاً في سبيلِ اللهِ ، أموتُ يومَ أموتُ وليسَ في قلبي حبٌّ لأهلِ طاعةِ اللهِ ، وبغضٌ لأهلِ معصيةِ اللهِ . . ما نفعَني ذلكَ شيئاً)(١) .

وقالَ ابنُ السمَّاكِ عندَ موتِهِ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنِّي إذا كنتُ أعصيكَ . . كنتُ أحبُّ مَنْ يطيعُكَ ، فاجعلْ ذلكَ قربةً لي إليكَ)(٢) .

وقالَ الحسنُ علىٰ ضدِّهِ : (يا بنَ آدمَ ؛ لا يغرنَّكَ قولُ مَنْ يقولُ : « المرءُ مَعَ مَنْ أحبَّ » ؛ فإنَّكَ لنْ تلحقَ الأبرارَ إلا بأعمالِهِمْ ؛ فإنَّ اليهودَ والنَّصارىٰ يحبُّونَ أنبياءَهُمْ وليسوا معَهُمْ)(٣) .

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ مجرَّدَ ذلكَ مِنْ غيرِ موافقةٍ في بعضِ الأعمالِ أوْ كلِّها . . لا ينفعُ(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٨) بنحوه ، والعِلْق : النفيس من كل شيء .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٣٤٧) .

(٣) ذكر الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص٣٧٩) أنه رواه العسكري من جهة داوود بن المحبر .

(٤) والموافقة في بعضها يكون بأصل الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد يكون العبد صادقاً في حبه مقصراً في حقه كما يقول أبو عثمان الحيري ، وانظر كلام الحافظ البيهقي في « الشعب » (٤٩٥ ـ ٤٩٨) ، وقد حكى الحديث الذي رواه البخاري (٦٧٨٠) : أن رجلاً علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يُضحك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب ، فأتي به يوماً ، فأمر بجلده ، فقال رجل من القوم : اللهم ؛ العنه ، ما أكثر ما يؤتىٰ به ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنوه ؛ فوالله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله » .

وقالَ الفضيلُ في بعضِ كلامِهِ : (هاهْ ؛ تريدُ أنْ تسكنَ الفردوسَ ، وتجاورَ الرحمـٰنَ في دارِهِ معَ النبيِّينَ والصِّديقينَ والشهداءِ والصالحينَ ؟ بأيِّ عملٍ عملتَهُ ؟! بأيِّ شهوةٍ تركتَها ؟! بأيِّ غيظٍ كظمتَهُ ؟! بأيِّ رحمٍ قاطعٍ وصلتَها ؟! بأيِّ زلَّةٍ لأخيكَ غفرتَها ؟! بأيِّ قريبٍ باعدتَهُ في اللهِ ؟! بأيِّ بعيدٍ قاربتَهُ في اللهِ ؟!)(١) .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : هلْ عملتَ لي عملاً قطُّ ؟ فقالَ : إلـٰهي ؛ إنِّي صلَّيتُ لكَ ، وصمتُ ، وتصدَّقْتُ وزكَّيتُ ، فقالَ : إنَّ الصلاةَ لكَ برهانٌ ، والصومَ جُنَّةٌ ، والصدقةَ ظلٌّ ، والذكرُ نورٌ ، فأيَّ عملٍ عملتَ لي ؟ قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ دلَّني علىٰ عملٍ هوَ لكَ ، قالَ : يا موسىٰ ؛ هلْ واليتَ لي وليّاً قطُّ ، وهلْ عاديتَ فيَّ عدوّاً قطُّ ؟ فعلمَ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّ أفضلَ الأعمالِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ رجلاً قامَ بينَ الركنِ والمقامِ يعبدُ اللهَ سبعينَ سنةً . . لبعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ معَ مَن يحبُّ)(٣) .

---

(١) وهـٰذا الخبر هو مجموع خبرين رواهما أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٨٥ ، ٩٠) .
(٢) روى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١٧) بنحوه ، وفي (ب) : (والزكاة نور) ، وفي (هـ) : (والذكر أنس) .
(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٣١٨ ، ٣١٩) بنحوه عن علي وسلمان رضي الله عنهما .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مصارمةُ الفاسقِ قربانٌ إلى اللهِ)[١] .

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ واسعٍ : إنِّي لأحبُّكَ في اللهِ ، فقالَ : أحبَّكَ الذي أحببتَني لهُ ، ثمَّ حوَّلَ وجهَهُ وقالَ : اللَّهُمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أُحبَّ فيكَ وأنتَ لي مبغضٌ[٢] .

ودخلَ رجلٌ علىٰ داوودَ الطائيِّ ، فقالَ لهُ : ما حاجتُكَ ؟ فقالَ : زيارتُكَ ، فقالَ : أمَّا أنتَ . . فقدْ عملتَ خيراً حينَ زرتَ ، ولكنِ انظرْ ماذا ينزلُ بي إذا قيلَ لي : مَنْ أنتَ فتزارَ ؟ أمِنَ الزهَّادِ أنتَ ؟ لا واللهِ ، أمِنَ العبَّادِ أنتَ ؟ لا واللهِ ، أمِنَ الصالحينَ أنتَ ؟ لا واللهِ ، ثمَّ أقبلَ يوبِّخُ نفسَهُ ويقولُ : كنتُ في الشبيبةِ فاسقاً ، فلمَّا شِخْتُ . . صرْتُ مرائياً ، واللهِ ؛ لَلْمُرائي شرٌّ مِنَ الفاسقِ .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا أصابَ أحدُكُمْ ودّاً مِنْ أخيهِ . . فليتمسَّكْ بهِ ، فقلَّما يصيبُ ذلكَ)[٣] .

وقالَ مجاهدٌ : (المتحابُّون في اللهِ تعالىٰ إذا التقوا فكَشرَ بعضُهُمْ إلىٰ

---

(١) رواه أبو إسماعيل الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٦٩٣) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦) من زيادات نعيم بن حماد ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٨) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/١٥١) .
(٣) قوت القلوب (٢/٢١٤) .

بعضٍ.. تتحاتُّ عنهُمُ الخطايا كما يتحاتُّ ورقُ الشجرِ في الشتاءِ إذا يبسَ)[1] .

وقالَ الفضيلُ : (نظرُ الرجلِ إلىٰ وجهِ أخيهِ على المودَّةِ والرحمةِ عبادةٌ)[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٧) ، وكشر : ضحك ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٥٦) مرفوعاً : « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم ، فأخذ بيده.. تحاتَّت عنهما ذنوبهما كما تتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف... » الحديث .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .

بيان معنى الأخوّة في الله، وتمييزها عن الأخوّة في الدّنيا

اعلمْ : أنَّ الحبَّ في اللهِ والبغضَ في اللهِ غامضٌ ، وينكشفُ الغطاءُ عنهُ بما نذكرُهُ ، وهوَ أنَّ الصحبةَ تنقسمُ إلىٰ ما يقعُ **بالاتفاقِ** ؛ كالصحبةِ بسببِ الجوارِ ، أوْ بسببِ الاجتماعِ في المكتبِ ، أوْ في المدرسةِ ، أوْ في السوقِ ، أوْ علىٰ بابِ السلطانِ ، أوْ في الأسفارِ ، وإلىٰ ما ينشأُ **اختياراً ويُقصدُ** ، وهوَ الذي نريدُ بيانَهُ ؛ إذِ الأخوَّةُ في الدينِ واقعةٌ في هـٰذا القسمِ لا محالةَ ، إذْ لا ثوابَ إلا على الأفعالِ الاختياريةِ ، ولا ترغيبَ إلا فيها ، والصحبةُ عبارةٌ عنِ المجالسةِ والمخالطةِ والمجاورةِ ، وهـٰذهِ الأمورُ لا يقصدُ الإنسانُ بها غيرَهُ إلا إذا أحبَّهُ ؛ فإنَّ غيرَ المحبوبِ يُجتنبُ ويُباعدُ ، ولا تُقصدُ مخالطتُهُ .

والذي يُحبُّ فإمَّا أنْ يُحبَّ لذاتِهِ لا ليُتوصَّلَ بهِ إلىٰ محبوبٍ ومقصودٍ وراءَهُ ، وإمَّا أَنْ يُحبَّ للتوصُّلِ بهِ إلىٰ مقصودٍ ، وذلكَ المقصودُ إمَّا أنْ يكونَ مقصوراً على الدنيا وحظوظِها ، وإمَّا أنْ يكونَ متعلقاً بالآخرةِ ، وإمَّا أنْ يكونَ متعلقاً باللهِ تعالىٰ ، فهـٰذهِ أربعةُ أقسامٍ .

أمَّا القسمُ الأوَّلُ : **وهوَ حبُّكَ الإنسانَ لذاتِهِ** :

فذلكَ ممكنٌ ، وهوَ أنْ يكونَ هوَ في ذاتِهِ محبوباً عندَكَ ، علىٰ معنىٰ أنَّكَ تلتذُّ برؤيتِهِ ومعرفتِهِ ومشاهدةِ أخلاقِهِ ؛ لاستحسانِكَ لهُ ، فإنَّ كلَّ جميلٍ لذيذٌ

في حقِّ مَنْ أَدركَ جمالَهُ ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ ، واللذَّةُ تتبعُ الاستحسانَ ، والاستحسانُ يتبعُ المناسبةَ والملاءمةَ والموافقةَ بينَ الطباعِ .

ثمَّ ذلكَ المستحسنُ إمَّا أنْ يكونَ هوَ الصورةَ الظاهرةَ ؛ أعني : حسنَ الخِلْقةِ ، وإمَّا أنْ يكونَ هوَ الصورةَ الباطنةَ ؛ أعني : كمالَ العقلِ وحسنَ الأخلاقِ ، ويتبعُ حسنَ الأخلاقِ حسنُ الأفعالِ لا محالةَ ، ويتبعُ كمالَ العقلِ غزارةُ العلمِ ، وكلُّ ذلكَ مستحسنٌ عندَ الطبعِ السليمِ والعقلِ المستقيمِ ، وكلُّ مستحسنٍ مستلذٌّ بهِ ومحبوبٌ ، بلْ في ائتلافِ القلوبِ أمرٌ أغمضُ مِنْ هـٰذا ؛ فإنَّهُ قدْ تستحكمُ المودَّةُ بينَ شخصينِ مِنْ غيرِ مَلاحةٍ في صورةٍ ، ولا حسنٍ في خَلْقٍ وخُلُقٍ ، ولكنْ لمناسبةٍ باطنةٍ توجبُ الألفةَ والموافقةَ ؛ فإنَّ شبهَ الشيءِ منجذبٌ إليهِ بالطبعِ ، والأشباهُ الباطنةُ خفيَّةٌ ، ولها أسبابٌ دقيقةٌ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها .

وعنْ ذلكَ عبَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »(١) ، فالتناكرُ نتيجةُ التباينِ ، والائتلافُ نتيجةُ التناسبِ الذي عبَّرَ عنهُ بالتعارفِ .

وفي بعضِ الألفاظِ : « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ تلتقي ، فتَشامُّ في الهواءِ »(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢١٦) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/١٩٦٨) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ١٨٢) بعد أن نقل تخريج هـٰذا الحديث عن الحافظ العراقي : (ورأيت بالهامش نقلاً من خط الحافظ ابن حجر =

وقدْ كنَّىٰ بعضُ العلماءِ عنْ هـٰذا بأنْ قالَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الأرواحَ ، ففلقَ بعضَها فلْقاً ، وأطافَها حولَ العرشِ ، فأيُّ روحينِ مِنْ فلقتينِ تعارفا هناكَ فالتقيا . . تواصلا في الدنيا)[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أرواحَ المؤمنينِ ليلتقيانِ علىٰ مسيرةِ يومٍ وما رأىٰ أحدُهُما صاحبَهُ قطُّ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ امرأةً بمكةَ كانَتْ تُضحكُ النساءَ ، وكانَتْ بالمدينةِ أخرىٰ ، فنزلَتِ المكيَّةُ على المدنيَّةِ ، فدخلَتْ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فأضحكَتْها ، فقالَتْ : أينَ نزلتِ ، فذكرَتْ لها صاحبتَها ، فقالَتْ : صدقَ اللهُ ورسولُهُ ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ . . . » الحديثَ[3] .

= ما نصه : حديث علي اختلفوا في رفعه ووقفه ، وقد روي من حديث ابن مسعود) . وحديث ابن مسعود رضي الله عنه رواه البيهقي في « الشعب » (٨٦٢٠) قال : (الأرواح جنود مجندة ، تلاقىٰ فتشامُّ كما تشامُّ الخيل ، فما تعارف . . .) الخبر .

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٥) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٦١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٦٢١) ، وفي هـٰذا المعنىٰ ما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٤) أنه لما اجتمع أويس بهرم بن حيان العبدي ولم يكن لقيه قبلُ . . خاطبه أويسٌ باسمه ، فتعجب لذلك هرمٌ وقال : يرحمك الله ! من أين عرفت اسمي واسم أبي ؟ فوالله ما رأيتك قط ولا رأيتني ، قال : عرفت روحي روحك حيث كلمت نفسي ؛ لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل ، وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل .

والحقُّ في هٰذا : أنَّ المشاهدةَ والتجربةَ تشهدُ للائتلافِ عندَ التناسبِ ، والتناسبُ في الطباعِ والأخلاقِ باطناً وظاهراً أمرٌ مفهومٌ .

وأمَّا الأسبابُ التي أوجبَتْ تلكَ المناسبةَ . . فليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، وغايةُ هذيانِ المنجِّمِ أنْ يقولَ : إذا كانَ طالعُهُ علىٰ تسديسِ طالعِ غيرِهِ أوْ تثليثِهِ(١) . . فهٰذا نظرُ الموافقةِ والمودَّةِ ؛ فتقتضي التناسبَ والتوادَّ ، وإذا كانَ علىٰ مقابلتِهِ أوْ تربيعِهِ . . اقتضى التباغضَ والعداوةَ ! وهٰذا لوْ صدقَ بكونِهِ كذلكَ في مجاري سنَّةِ اللهِ في خلقِ السماواتِ والأرضِ . . لكانَ الإشكالُ فيهِ أكثرَ مِنَ الإشكالِ في أصلِ التناسبِ ؛ فلا معنىٰ للخوضِ فيما لا يُكشفُ سرُّهُ للبشرِ ، فما أوتينا مِنَ العلمِ إلا قليلاً .

ويكفينا في التصديقِ بذلكَ التجربةُ والمشاهدةُ ؛ فقدْ وردَ الخبرُ بهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ مؤمناً دخلَ إلىٰ مجلسٍ فيهِ مئةُ منافقٍ ومؤمنٌ واحدٌ . . لجاءَ حتَّىٰ يجلسَ إليهِ ، ولوْ أنَّ منافقاً دخلَ إلىٰ مجلسٍ فيه مئةُ مؤمنٍ ومنافقٌ واحدٌ . . لجاءَ حتَّىٰ يجلسَ إليهِ »(٢) ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ شبهَ الشيءِ منجذبٌ إليهِ بالطبعِ وإنْ كانَ هوَ لا يشعرُ بهِ .

---

(١) طالع اليوم هو البرج الذي فيه الشمس ، وطالع الساعة هو برجها الذي هو مختص بها . « إتحاف » (٦/ ١٨٣) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « الأمثال » (١٠٨) مرفوعاً ، وأوقفه البيهقي في « الشعب » (٨٦٢٠) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وقد ذكر قريباً ، وأوله : (الأرواح جنود مجندة . . .) الحديث .

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ : (لا يتفقُ اثنانِ في عشرةٍ إلا وفي أحدِهِما وصفٌ مِنَ الآخرِ ، وإنَّ أشكالَ الناسِ كأجناسِ الطيرِ ، ولا يتفقُ نوعانِ مِنَ الطيرِ في الطيرانِ إلا وبينَهُما مناسبةٌ) ، قالَ : فرأىٰ يوماً غراباً معَ حمامةٍ ، فعجبَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ : اتفقا وليسَا مِنْ شكلٍ واحدٍ ! ثمَّ طارا ، فإذا هما أعرجانِ ، فقالَ : مِنْ هـٰهنا اتفقا[1] .

ولذلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ : كلُّ إنسانٍ يأنسُ إلىٰ شكلِهِ ، كما أنَّ كلَّ طيرٍ يطيرُ معَ جنسِهِ ، وإذا اصطحبَ اثنانِ برهةً مِنْ زمانٍ ولم يتشاكلا في الحالِ . . فلا بدَّ أنْ يفترقا[2] ، وهـٰذا معنىً خفيٌّ تفطَّنَ لهُ الشعراءُ حتَّىٰ قالَ قائلُهُم[3] : [من السريع]

وَقـائِـلٍ كَيْـفَ تَفـارَقْتُما ... فَقُلْـتُ قَـوْلاً فِيـهِ إنْصـافُ
لَـمْ يَـكُ مِـنْ شَكْلِـي فَفـارَقْتُـهُ ... وَالنَّـاسُ أَشْكـالٌ وأُلَّافُ

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٥) ، أما الغراب . . فإنه يمشي مشية الأعرج ، وأما الحمامة . . فكان أصابها العرج حقيقة ، فقوله : (هما أعرجان) على التغليب ، أو كان العرج فيهما حقيقة . « إتحاف » (٦/ ١٨٤) .
وقال الحافظ الزبيدي أيضاً : (وهـٰذه الحكاية اشتهر بين الخواص نسبتها للمصنف ، وأنه هو الذي كان يقول بالمناسبة ، وهو الذي رأىٰ غراباً وبلبلاً يمشيان متفقين في صحن المسجد الأقصىٰ ، فلما رأوا ذلك . . أنكروا على المصنف ، فتعجب من ذلك حتىٰ كاد أن يقول بعدم التناسب ، فبينما كذلك إذ أخذ بحجر فرماهما به ، فطارا ، فإذا البلبل أعرج ، فقال : من هـٰهنا اتفقا) . « إتحاف » (٦/ ١٨٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٥) .
(٣) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي في « ديوانه » (ص ٧٥) .

فقدْ ظهرَ مِنْ هـٰذا أنَّ الإنسانَ قدْ يُحبُّ لذاتِهِ ، لا لفائدةٍ تُنالُ منهُ في حالٍ أوْ مآلٍ ، بلْ لمجرَّدِ المجانسةِ والمناسبةِ في الطباعِ الباطنةِ والأخلاقِ الخفيَّةِ .

ويدخلُ في هـٰذا القسمِ الحبُّ للجمالِ إذا لمْ يكنِ المقصودُ قضاءَ الشهوةِ ؛ فإنَّ الصورةَ الجميلةَ مستلذَّةٌ في عينِها وإنْ قُدِّرَ فقدُ أصلِ الشهوةِ ، حتَّىٰ يُستلذُّ النظرُ إلى الفواكهِ ، والأنوارِ والأزهارِ ، والتفاحِ المشربِ بالحمرةِ ، وإلى الماءِ الجاري والخضرةِ . . مِنْ غيرِ غرضٍ سوىٰ عينِها .

وهـٰذا الحبُّ **لا يدخلُ فيهِ الحبُّ للهِ** ، بلْ هوَ حبٌّ بالطبعِ وشهوةِ النفسِ ، ويُتصوَّرُ ذلكَ ممَّنْ لا يُؤمنُ باللهِ ، إلا أنَّهُ إذا اتصلَ بهِ غرضٌ مذمومٌ . . صارَ مذموماً ؛ كحبِّ الصورةِ الجميلةِ لقضاءِ الشهوةِ حيثُ لا يحلُّ قضاؤُها ، وإنْ لمْ يتصلْ بهِ غرضٌ مذمومٌ . . فهوَ مباحٌ لا يُوصفُ بحمدٍ ولا بذمٍّ ؛ إذِ الحبُّ إمَّا محمودٌ ، وإمَّا مذمومٌ ، وإمَّا مباحٌ لا يُحمدُ ولا يُذمُّ .

القسمُ الثاني : أنْ يحبَّهُ لينالَ مِنْ ذاتِهِ غيرَ ذاتِهِ :

فيكونَ وسيلةً إلىٰ محبوبٍ غيرِهِ ، والوسيلةُ إلى المحبوبِ محبوبٌ ، وما يُحبُّ لغيرِهِ كانَ ذلكَ الغيرُ هوَ المحبوبَ بالحقيقةِ ، ولكنَّ الطريقَ إلى المحبوبِ محبوبٌ ، ولذلكَ أحبَّ الناسُ الذهبَ والفضةَ ولا غرضَ فيهما ؛ إذْ لا يُطعمانِ ولا يُشربانِ ، ولكنَّهما وسيلةٌ إلى المحبوباتِ ، فمِنَ الناسِ مَنْ

يُحبُّ كما يُحبُّ الذهبُ والفضةُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وسيلةٌ إلى المقصودِ ؛ إذْ يتوصَّلُ بهِ إلىٰ نيلِ جاهٍ أوْ مالٍ أوْ علمٍ ؛ كما يحبُّ الرجلُ سلطاناً لانتفاعِهِ بمالِهِ أوْ جاهِهِ ، ويحبُّ خواصَّهُ لتحسينِهِمْ حالَهُ عندَهُ ، وتمهيدِهِمْ أمرَهُ في قلبِهِ ، فالمتوسَّلُ إليهِ إنْ كانَ مقصورَ الفائدةِ على الدنيا . . لمْ يكنْ حبُّهُ مِنْ جملةِ الحبِّ في اللهِ .

وإنْ لمْ يكنْ مقصورَ الفائدةِ على الدنيا ، ولكنَّهُ ليسَ يقصدُ بهِ إلا الدنيا ؛ كحبِّ التلميذِ لأستاذِهِ ، فهوَ أيضاً خارجٌ عنِ الحبِّ للهِ ؛ فإنَّهُ إنَّما يُحبُّهُ ليحصِّلَ منهُ العلمَ لنفسِهِ ، فمحبوبُهُ العلمُ ، فإذا كانَ لا يقصدُ العلمَ للتقرُّبِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، بلْ لينالَ بهِ الجاهَ والمالَ والقبولَ عندَ الخلقِ . . فمحبوبُهُ الجاهُ والقبولُ ، والعلمُ وسيلةٌ إليهِ ، والأستاذُ وسيلةٌ إلى العلمِ ، فليسَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ حبٌّ للهِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ كلُّ ذلكَ ممَّنْ لا يؤمنُ باللهِ تعالىٰ أصلاً .

ثمَّ ينقسمُ هٰذا أيضاً إلىٰ مذمومٍ ومباحٍ ، فإنْ كانَ يقصدُ بهِ التوصُّلَ إلىٰ مقاصدَ مذمومةٍ ؛ مِنْ قهرِ الأقرانِ ، وحيازةِ أموالِ اليتامىٰ ، وظلمِ الرعيَّةِ بولايةِ القضاءِ أوْ غيرِهِ . . كانَ الحبُّ مذموماً ، وإنْ كانَ يقصدُ بهِ التوصُّلَ إلىٰ مباحٍ . . فهوَ مباحٌ ، وإنَّما تكتسبُ الوسيلةُ الحكمَ والصفةَ مِنَ المقصدِ المتوسَّلِ إليهِ ؛ فإنَّها تابعةٌ لهُ ، غيرُ قائمةٍ بنفسِها .

القسمُ الثالثُ : أنْ يحبَّهُ لا لذاتِهِ ، بلْ لغيرِهِ ، وذلكَ الغيرُ ليسَ راجعاً إلىٰ حظوظِهِ في الدنيا ، بلْ يرجعُ إلىٰ حظوظِهِ في الآخرةِ :

فهٰذا أيضاً ظاهرٌ لا غموضَ فيهِ ، وذلكَ كمَنْ يحبُّ أستاذَهُ وشيخَهُ لأنَّهُ يتوسَّلُ بهِ إلىٰ تحصيلِ العلمِ وتحسينِ العملِ ، ومقصودُهُ مِنَ العلمِ والعملِ الفوزُ في الآخرةِ ، فهٰذا مِنْ جملةِ المحبِّينَ في اللهِ .

وكذلكَ مَنْ يحبُّ تلميذَهُ لأنَّهُ يتلقَّفُ منهُ العلمَ ، وينالُ بواسطتِهِ رتبةَ التعليمِ ، ويرقىٰ بهِ إلىٰ درجةِ التعظيمِ في ملكوتِ السماءِ ؛ إذْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ علمَ وعملَ وعلَّمَ . . فذلكَ يُدعىٰ عظيماً في ملكوتِ السماءِ)(١) ، ولا يتمُّ التعليمُ إلا بمتعلِّمٍ ، فهوَ إذاً آلةٌ في تحصيلِ هٰذا الكمالِ ، فإنْ أحبَّهُ لأنَّهُ آلةٌ لهُ ؛ إذْ جعلَ صدرَهُ مزرعةً لحرثِهِ الذي هوَ سببُ ترقِّيهِ إلىٰ رتبةِ العظمةِ في ملكوتِ السماءِ . . فهوَ محبٌّ في اللهِ .

بلِ الذي يتصدَّقُ بأموالِهِ للهِ ، ويجمعُ الضيفانَ ، ويهيِّئُ لهُمُ الأطعمةَ اللذيذةَ الغريبةَ تقرُّباً إلى اللهِ ، فأحبَّ طبَّاخاً لحسْنِ صنعتِهِ في الطبيخِ . . فهوَ في جملةِ المحبِّينَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، وكذا لوْ أحبَّ مَنْ يتولَّىٰ لهُ إيصالَ الصدقةِ إلى المستحقِّينَ . . فقدْ أحبَّهُ في اللهِ .

بلْ نزيدُ علىٰ هٰذا ونقولُ : إذا أحبَّ مَنْ يخدمُهُ بنفسِهِ في غسْلِ ثيابِهِ ، وكنْسِ بيتِهِ ، وطبخِ طعامِهِ ، ويفرِّغُهُ بذلكَ للعلمِ والعملِ ، ومقصودُهُ مِنَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٩١ ، ١٢١٦) .

استخدامِهِ في هـٰذهِ الأعمالِ الفراغُ للعبادةِ . . فهوَ محبٌّ في اللهِ .

بلْ نزيدُ عليهِ ونقولُ : إذا أحبَّ مَنْ ينفقُ عليهِ مالَهُ ، ويواسيهِ بكسوتِهِ وطعامِهِ ومسكنِهِ ، وجميعِ أغراضِهِ التي يقصدُها في دنياهُ ، ومقصودُهُ مِنْ جملةِ ذلكَ الفراغُ للعلمِ والعملِ المقرِّبِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . فهوَ محبٌّ في اللهِ ، فقدْ كانَ جماعةٌ مِنَ السلفِ تكفَّلَ بكفايتِهِمْ جماعةٌ مِن أولي الثروةِ ، وكانَ المواسِي والمواسَىٰ جميعاً مِنَ المتحابِّينَ في اللهِ .

بلْ نزيدُ علىٰ ذلكَ ونقولُ : مَنْ نكح امرأةً صالحةً ليتحصَّنَ بها عنْ وساوسِ الشيطانِ ، ويصونَ بها دينَهُ ، أوْ ليُولدَ لهُ منها ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ ، وأحبَّ زوجتَهُ لأنَّها آلتُهُ في هـٰذهِ المقاصدِ الدينيةِ . . فهوَ محبٌّ في اللهِ تعالىٰ ، ولذلكَ وردَ في الأخبارِ وفورُ الأجرِ والثوابِ على الإنفاقِ على العيالِ ، حتَّى اللقمةِ يضعُها الرجلُ في في امرأتِهِ .

بلْ نقولُ : كلُّ مَنِ استُهتِرَ بحبِّ اللهِ وحبِّ رضائِهِ ، وحبِّ لقائِهِ في الدارِ الآخرةِ ، فإذا أحبَّ غيرَهُ كانَ محبّاً في اللهِ ؛ لأنَّهُ لا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ شيئاً إلا لمناسبتِهِ لما هوَ محبوبٌ عندَهُ ، وهوَ رضا اللهِ عزَّ وجلَّ .

بلْ أزيدُ علىٰ هـٰذا وأقولُ : إذا اجتمعَ في قلبِهِ محبَّتانِ ؛ محبَّةُ اللهِ ومحبَّةُ الدنيا ، واجتمعَ في شخصٍ واحدٍ المعنيانِ جميعاً ، حتَّىٰ صلحَ لأنْ يتوسَّلَ بهِ إلى اللهِ وإلى الدنيا ، فإذا أحبَّهُ لصلاحِهِ للأمرينِ . . فهوَ مِنَ المحبِّينَ في اللهِ ؛ كمَنْ يحبُّ أستاذَهُ الذي يعلِّمُهُ الدينَ ويكفيهِ مهمَّاتِ الدنيا بالمواساةِ بالمالِ ، فأحبَّهُ مِنْ حيثُ إنَّ في طبعِهِ طلبَ الراحةِ في الدنيا

والسعادةِ في الآخرةِ ، فهوَ وسيلةٌ إليهما . . فهوَ محبٌّ في اللهِ .

وليسَ مِنْ شرطِ حبِّ اللهِ ألا يحبَّ في العاجلِ حظّاً ألبتةَ ؛ إذِ الدعاءُ الذي أمرَ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وسلامُهُ فيهِ جمعٌ بينَ الدنيا والآخرةِ ، ومِنْ ذلكَ قولُهُمْ : « ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً »(١) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ في دعائهِ : (اللَّهُمَّ ؛ لا تُشْمِتْ بي عدوِّي ، ولا تسُؤْ بِي صديقي ، ولا تجعلْ مصيبتي في ديني ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ همِّي)(٢) ، فدفعُ شماتةِ الأعداءِ مِنْ حظوظِ الدنيا ، ولمْ يقلْ : (ولا تجعلِ الدنيا أصلاً مِنْ همِّي) ، بلْ قالَ : (لا تجعلْها أكبرَ همِّي) .

وقال نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللَّهُمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً أنالُ بها شرفَ كرامتِكَ في الدُّنيا والآخرةِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « اللَّهُمَّ ؛ عافني مِنْ بلاءِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٦٧٢) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٣٧) ، وأحمد في « الزهد » (٤٩٢) .

(٣) هو جزء من حديث طويل رواه الترمذي (٣٤١٩) .

(٤) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٦٦) ولفظه : « وأعوذ بك من جهد بلاء الدنيا ومن عذاب الآخرة » ، ونحوه عند أحمد في « المسند » (٤/ ١٨١) ولفظه : « اللهم ؛ أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » ، قال الحافظ الزبيدي : (ومما يشهد لهـٰذا المقام أيضاً ما رواه مسلم [٢٧٢٠] من حديث أبي هريرة رفعه : « اللهم ؛ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ») . « إتحاف » (٦/ ١٨٧) .

وعلى الجملةِ : فإذا لمْ يكنْ حبُّ السعادةِ في الآخرةِ مناقضاً لحبِّ اللهِ تعالىٰ.. فحبُّ السلامةِ والصحَّةِ والكفايةِ والكرامةِ في الدنيا كيفَ يكونُ مناقضاً لحبِّ اللهِ ؟

والدنيا والآخرةُ عبارةٌ عنْ حالتينِ ، إحداهُما أقربُ مِنَ الأخرىٰ ، فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ حظوظَ نفسِهِ غداً ولا يحبَّها اليومَ ؟! وإنَّما يحبُّها غداً ؛ لأنَّ الغدَ سيصيرُ حالاً راهنةً ، فالحالةُ الراهنةُ لا بدَّ أنْ تكونَ مطلوبةً أيضاً ، إلا أنَّ الحظوظَ العاجلةَ منقسمةٌ إلىٰ **ما يضادُّ** حظوظَ الآخرةِ ويمنعُ منها ؛ وهيَ التي احترزَ عنها الأنبياءُ والأولياءُ ، وأمروا بالاحترازِ عنها ، وإلىٰ **ما لا يضادُّ** ؛ وهيَ التي لم يمتنعوا منها ؛ كالنكاحِ الصحيحِ ، وأكلِ الحلالِ ، وغيرِ ذلكَ .

فما يضادُّ حظوظَ الآخرةِ فحقُّ العاقلِ أنْ يكرهَهُ ولا يحبَّهُ ؛ أعني : أنْ يكرهَهُ بعقلِهِ لا بطبعِهِ ، كما يكرهُ التناولَ مِنْ طعامٍ لذيذٍ لملكٍ مِنَ الملوكِ يعلمُ أنَّهُ لوْ أقدمَ عليهِ.. لقُطعَتْ يدُهُ أوْ حُزَّتْ رقبتُهُ ، لا بمعنىٰ أنَّ الطعامَ اللذيذَ يصيرُ بحيثُ لا يشتهيهِ بطبعِهِ ولا يستلذُّهُ لوْ أكلَهُ ؛ فإنَّ ذلكَ محالٌ ، ولكنْ علىٰ معنىٰ أنَّهُ يزجرُهُ عقلُهُ عنِ الإقدامِ عليهِ ، وتحصلُ فيهِ كراهةٌ للضررِ المتعلِّقِ بهِ .

والمقصودُ مِنْ هٰذا : أنَّهُ لوْ أحبَّ أستاذَهُ لأنَّهُ يواسيهِ ويعلِّمُهُ ، أوْ تلميذَهُ لأنَّهُ يتعلَّمُ منهُ ويخدمُهُ ، وأحدُهُما حظٌّ عاجلٌ والآخرُ آجلٌ.. لكانَ في

زمرةِ المتحابِّينَ في اللهِ ، ولكنْ بشرطٍ واحدٍ ؛ وهوَ أنْ يكونَ بحيثُ لوْ منعَهُ العلمَ مثلاً ، أوْ تعذَّرَ عليهِ تحصيلُهُ . . لنقصَ حبُّهُ بسببِهِ ، فالقدْرُ الذي ينقصُ بسببِ فقدِهِ هوَ للهِ تعالىٰ ، ولهُ علىٰ ذلكَ القدْرِ ثوابُ الحبِّ في اللهِ .

وليسَ بمستنكرٍ أنْ يشتدَّ حبُّكَ لإنسانٍ لجملةِ أغراضٍ ترتبطُ لكَ بهِ ، فإنِ امتنعَ بعضُها . . نقصَ حبُّكَ ، وإنْ زادَ . . زادَ الحبُّ ، فليسَ حبُّكَ للذهبِ كحبِّكَ للفضَّةِ إذا تساوىٰ مقدارُهُما ؛ لأنَّ الذهبَ يوصلُ إلىٰ أغراضٍ هيَ أكثرُ ممَّا توصِلُ إليهِ الفضَّةُ ، فإذاً يزيدُ الحبُّ بزيادةِ الغرضِ ، ولا يستحيلُ اجتماعُ الأغراضِ الدنيويَّةِ والأخرويَّةِ ، فهوَ داخلٌ في جملةِ الحبِّ للهِ .

وحدُّهُ : هوَ أنَّ كلَّ حبٍّ لولا الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . لمْ يُتصوَّرْ وجودُهُ . . فهوَ حبٌّ في اللهِ ، وكذلكَ كلُّ زيادةٍ في الحبِّ لولا الإيمانُ باللهِ لمْ تكنْ تلكَ الزيادةُ . . فتلكَ الزيادةُ مِنَ الحبِّ في اللهِ ، فذلكَ وإنْ دقَّ فهوَ عزيزٌ .

قالَ الجريريُّ : (تعاملَ الناسُ في القرنِ الأوَّلِ بالدينِ حتَّىٰ رقَّ الدينُ ، وتعاملوا في القرنِ الثاني بالوفاءِ حتَّىٰ ذهبَ الوفاءُ ، وفي الثالثِ بالمروءةِ حتَّىٰ ذهبتِ المروءةُ ، ولمْ يبقَ إلا الرهبةُ والرغبةُ)(١) .

---

(١) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (٨١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٣٧٣) من طريقه ، وعندهما زيادة : (حتىٰ ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتىٰ ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة) ، **والقرن** : أهل الزمان الواحد .

القسمُ الرابعُ : أنْ يحبَّ للهِ وفي اللهِ ، لا لينالَ منهُ علماً أوْ عملاً ، أوْ يتوسَّلَ بهِ إلىٰ أمرٍ وراءَ ذاتِهِ :

وهٰذا أعلى الدرجاتِ ، وهوَ أدقُّها وأغمضُها ، وهٰذا القسم أيضاً ممكنٌ ؛ فإنَّ مِنْ آثارِ غلبةِ الحبِّ أنْ يتعدَّىٰ مِنَ المحبوبِ إلىٰ كلِّ مَنْ يتعلَّقُ بالمحبوبِ ويناسبُهُ ، ولوْ منْ بُعْدٍ ، فمَنْ أحبَّ إنساناً حبّاً شديداً . . أحبَّ مُحبَّ ذلكَ الإنسانِ ، وأحبَّ محبوبَهُ ، وأحبَّ مَنْ يخدمُهُ ، وأحبَّ مَنْ يثني عليهِ محبوبُهُ ، وأحبَّ مَنْ يتسارعُ إلىٰ رضا محبوبِهِ ، حتَّىٰ قالَ بقيَّةُ بنُ الوليدِ : (إنَّ المؤمنَ إذا أحبَّ المؤمنَ . . أحبَّ كلبَهُ)[(١)] ، وهوَ كما قالَ ، ويشهدُ لهُ التجربةُ في أحوالِ العشَّاقِ ، ويدلُّ عليهِ أشعارُ الشعراءِ ، ولذلكَ يحفظُ ثوبَ المحبوبِ وتحفتَهُ ؛ تذكرةً مِنْ جهتِهِ ، ويحبُّ منزلَهُ ومحلتَهُ وجيرانَهُ ، حتَّىٰ قالَ مجنونُ بني عامرٍ[(٢)] : [من الوافر]

أَمُرُّ عَلَى ٱلدِّيارِ دِيارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذا ٱلْجِدارَ وَذَا ٱلْجِدارا
وَما حُبُّ ٱلدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ ٱلدِّيارا

فإذاً ؛ المشاهدةُ والتجربةُ تدلُّ علىٰ أنَّ الحبَّ يتعدَّىٰ مِنْ ذاتِ المحبوبِ إلىٰ ما يحيطُ بهِ ويتعلَّقُ بأسبابِهِ ، ويناسبُهُ ولوْ مِنْ بُعْدٍ ، ولكنَّ ذلكَ مِنْ

---

(١) أي : أحب كل شيء يتعلق به حتىٰ كلبه . « إتحاف » (٦/ ١٨٨) . وفي هٰذا المعنىٰ أنشدوا :

أحبُّ كلبٍ مِنْ كلاباتِ الناسْ ... إلـيَّ نَبْحاً كلبُ أمِّ العبَّاسْ

(٢) ديوانه (ص ١٧٠) .

خاصِّيةِ فرْطِ المحبَّةِ ، فأصلُ المحبَّةِ لا يكفي فيهِ .

ويكونُ اتساعُ الحبِّ في تعدِّيهِ مِنَ المحبوبِ إلىٰ ما يكتنفُهُ ويحيطُ بهِ ويتعلَّقُ بأسبابِهِ بحسَبِ إفراطِ المحبَّةِ وقوَّتِها ، وكذلكَ حبُّ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إذا قَوِيَ وغلبَ على القلبِ . . استولىٰ عليهِ حتَّى انتهىٰ إلىٰ حدِّ الاستهتارِ ، فيتعدَّىٰ إلىٰ كلِّ موجودٍ سواهُ ؛ فإنَّ كلَّ موجودٍ سواهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، ومَنْ أحبَّ إنساناً . . أحبَّ صنعتَهُ وخطَّهُ وجميعَ أفعالِهِ ، ولذلكَ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا حُمِلَ إليهِ باكورةٌ منَ الفواكِهِ[1] . . مسحَ بها عينيهِ وأكرمَها وقالَ : « إنَّهُ قريبُ العهدِ بربِّنا »[2] .

وحبُّ اللهِ تعالىٰ تارةً يكونُ لصدْقِ الرجاءِ في مواعيدِهِ ، وما يُتوقَّعُ في الآخرةِ مِنْ نعيمِه ، وتارةً لما سلفَ مِنْ أياديهِ وصنوفِ نعمتِهِ ، وتارةً لذاتِهِ لا لأمرٍ آخرَ ، وهوَ أدقُّ ضروبِ المحبَّةِ وأعلاها ، وسيأتي تحقيقُها في كتابِ المحبَّةِ مِنْ ربعِ المنجياتِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وكيفما اتفقَ حبُّ اللهِ ؛ فإذا

---

(١) أي : أول الثمر .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (٢/ ١١) : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أُتي بالباكورة من الثمرة . . قبَّلها ، أو جعلها بين عينيه ، ثم أعطاها أصغر من يحضره من الولدان) ، ورواه مرسلاً عن ابن شهاب أبو داوود في « المراسيل » (٤٧٠ ، ٤٧١) وفيه : « اللهم ؛ كما بلغتنا أولها فبلغنا آخرها » ، وبنحوه كذلك عند البيهقي في « الدعوات الكبير » (٥١٤) ، وإكرامه لها بهذا الفعل ، وبإعطائها لمن لم يصب ذنباً ، ولم ترد لفظة : (وأكرمها) عندهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « قريب العهد بربنا » ورد بنحوه عند مسلم (٨٩٨) قاله صلى الله عليه وسلم في حق باكورة المطر ، إذ كان يحسر عن ثوبه ليصيبه المطر ويقول : « لأنه حديث عهد بربه » .

قويَ . . تعدَّىٰ إلىٰ كلِّ متعلِّقٍ بهِ ضرباً مِنَ التعلُّقِ ، حتَّىٰ يتعدَّىٰ إلىٰ ما هوَ في نفسهِ مؤلمٌ مكروهٌ، ولكنْ فرْطُ الحبِّ يضعفُ الإحساسَ بالألمِ، والفرحُ بفعلِ المحبوبِ وقصدِهِ إيَّاهُ بالإيلامِ يغمرُ إدراكَ الألمِ ، وذلكَ كالفرحِ بضربةٍ مِنَ المحبوبِ أوْ قرصةٍ فيها نوعُ معاتبةٍ ؛ فإنَّ قوَّةَ المحبَّةِ تثيرُ فرحاً يغمرُ إدراكَ الألمِ فيهِ ، وقدِ انتهَتْ محبَّةُ اللهِ تعالىٰ بقومٍ إلىٰ أنْ قالوا : لا نفرِّقُ بينَ البلاءِ والنعمةِ[1] ؛ فإنَّ الكلَّ مِنَ اللهِ ، ولا نفرحُ إلا بما فيهِ رضاهُ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (لا أريدُ أنْ أنالَ مغفرةَ اللهِ بمعصيةِ اللهِ) ، وقالَ سُمنونٌ[2] : [من مخلع البسيط]

وَلَيْسَ لِي فِي سِواكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَٱخْتَبِرْنِي

وسيأتي تحقيقُ ذلكَ في كتابِ المحبَّةِ .

والمقصودُ : أنَّ حبَّ اللهِ تعالىٰ إذا قَوِيَ . . أثمرَ حبَّ كلِّ منْ يقومُ بحقِّ عبادةِ اللهِ في علمٍ أوْ عملٍ ، وأثمرَ حبَّ كلِّ مَنْ فيهِ صفةٌ مرضيَّةٌ عندَ اللهِ مِنْ خُلُقٍ حسنٍ ، أوْ تأدَّبَ بأدبِ الشرعِ ، وما مِنْ مؤمنٍ محبٍّ للآخرةِ ومحبٍّ للهِ إلا إذا أُخبرَ عنْ حالِ رجلينِ ؛ أحدُهُما : عالمٌ عابدٌ ، والآخرُ : جاهلٌ فاسقٌ . . إلا وجدَ في نفسهِ ميلاً إلى العالمِ العابدِ ، ثمَّ يضعفُ ذلكَ الميلُ ويقوىٰ بحسَبِ ضعْفِ إيمانِهِ وقوَّتِهِ ، وبحسَبِ ضعفِ حبِّهِ للهِ وقوَّتِهِ ، وهٰذا الميلُ حاصلٌ وإنْ كانا غائبينِ عنهُ ، بحيثُ يعلم أنَّهُ لا يصيبُهُ منهما خيرٌ

(١) كما بينه المصنف رحمه الله تعالىٰ في كتاب الشكر .
(٢) عقلاء المجانين (ص ٣٣٩) ، والرسالة القشيرية (ص٨٨) .

ولا شرٌّ في الدنيا ولا في الآخرةِ ، فذلكَ الميلُ هوَ حبٌّ في اللهِ وللهِ مِنْ غيرِ حظٍّ ، فإنَّهُ إنَّما يحبُّهُ لأنَّ اللهَ يحبُّهُ ، ولأنَّهُ مرضيٌّ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولأنَّهُ يحبُّ اللهَ تعالىٰ ، ولأنَّهُ مشغولٌ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ ، إلا أنَّهُ إذا ضعفَ.. لمْ يظهرْ أثرُهُ ، فلا يظهرُ لهُ ثوابٌ ولا أجرٌ ، فإذا قويَ.. حملَ على الموالاةِ والنصرةِ ، والذبِّ بالنفسِ والمالِ واللسانِ ، وتتفاوتُ الناسُ فيهِ بحسَبِ تفاوتِهِمْ في حبِّ اللهِ تعالىٰ .

ولوْ كانَ الحبُّ مقصوراً علىٰ حظٍّ يُنالُ مِنَ المحبوبِ في الحالِ أوِ المآلِ.. لما تُصوِّرَ حبُّ الموتىٰ منَ العلماءِ والعبَّادِ ، ومِنَ الصحابةِ والتابعينَ ، بلْ مِنَ الأنبياءِ المنقرضينَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وسلامُهُ ، وحبُّ جميعِهِمْ مكنونٌ في قلبِ كلِّ مسلمٍ متديِّنٍ ، ويتبينُ ذلكَ بغضبهِ عندَ طعْنِ أعدائِهِمْ في واحدٍ منهُمْ ، وبفرحِهِ عند الثناءِ عليهِمْ وذكرِ محاسِنِهِمْ ، وكلُّ ذلكَ حبٌّ للهِ ؛ لأنَّهُمْ خواصُّ عبادِ اللهِ ، ومَنْ أحبَّ ملكاً أوْ شخصاً جميلاً.. أحبَّ خواصَّهُ وخدمَهُ ، وأحبَّ مَنْ أحبَّهُ .

إلا أنَّهُ يُمتحنُ الحبُّ بالمقابلةِ بحظوظِ النفسِ(١) ، وقدْ يغلبُ بحيثُ لا يبقىٰ للنفسِ حظٌّ إلا فيما هوَ حظُّ المحبوبِ ، وعنهُ عبَّرَ قولُ مَنْ قالَ(٢) : [من الوافر]

أُريدُ وِصالَهُ وَيُريدُ هَجْري		فَأَتْرُكُ ما أُريدُ لِما يُريدُ

---

(١) والعبارة في (أ) : (إلا أنه يمتحن القلب بالمقابلة لحظوظ النفس) .
(٢) البيت لابن المنجم الواعظ ، انظر « فوات الوفيات » (٢/٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/٢٦٨) .

وقولُ مَنْ قالَ[١] : [من البسيط]

. . . . وَما لِجُرْحٍ إِذا أَرْضاكُمُ أَلَمُ

وقدْ يكونُ الحبُّ بحيثُ يُتركُ بهِ بعضُ الحظوظِ دونَ بعضٍ ، كمَنْ تسمحُ نفسُهُ بأنْ يشاطرَ محبوبَهُ في نصْفِ مالِهِ أوْ في ثلثِهِ أوْ في عشْرِهِ ؛ فمقاديرُ الأموالِ موازينُ المحبَّةِ ؛ إذْ لا تعرفُ درجةُ المحبوبِ إلا بمحبوبٍ يُتركُ في مقابلتِهِ ، فمَنِ استغرقَ الحبُّ جميعَ قلبِهِ . . لمْ يبقَ لهُ محبوبٌ سواهُ ، فلا يمسكُ لنفسِهِ شيئاً ؛ مثلُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّهُ لمْ يتركْ لنفسِهِ أهلاً ولا مالاً ؛ فسلَّمَ ابنتَهُ التي هيَ قرَّةُ عينِهِ ، وبذلَ جميعَ مالِهِ[٢] .

قالَ ابنُ عمرَ : بينَما النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ وعندَهُ أبو بكرٍ الصديقُ ، وعليهِ عباءةٌ قدْ خلَّلَها علىٰ صدرِهِ بخلالٍ . . إذْ نزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فأقرأَهُ مِنَ اللهِ السلامَ ، وقالَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لي أرىٰ أبا بكرٍ عليهِ عباءةٌ قدْ خلَّلَها علىٰ صدرِهِ بخلالٍ ؟ فقالَ : « أنفقَ مالَهُ عليَّ قبلَ الفتحِ » ، قالَ : فأقرِئْهُ مِنَ اللهِ السلامَ ، وقُلْ لهُ : يقولُ لكَ ربُّكَ : أراضٍ أنتَ عنِّي في فقرِكَ هٰذا أمْ ساخطٌ ؟ قالَ : فالتفتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أبي بكرٍ وقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ هٰذا جبريلُ يقرئُكَ السَّلامَ منَ اللهِ تعالىٰ

---

(١) عجز بيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٠) وتمامه :

إنْ كانَ سرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا فمـا لجـرحٍ إذا أرضـاكـم أَلـمُ

(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) .

ويقولُ : أراضٍ أنتَ عنِّي في فقرِكَ هٰذا أمْ ساخطٌ ؟ » قالَ : فبكىٰ أبو بكر رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : أعلىٰ ربِّي أسخطُ ، أنا عنْ ربِّي راضٍ ، أنا عنْ ربِّي راضٍ[1] .

فحصلَ مِنْ هٰذا أنَّ كلَّ مَنْ أحبَّ عالماً أوْ عابداً ، أوْ أحبَّ شخصاً راغباً في علْمٍ أوْ في عبادةٍ أوْ في خيرٍ . . فإنَّما أحبَّهُ في اللهِ وللهِ ، ولهُ فيهِ مِنَ الأجرِ والثوابِ بقدْرِ قوَّةِ حبِّهِ .

فهٰذا شرحُ الحبِّ في اللهِ ودرجاتِهِ ، وبهٰذا يتضحُ البغضُ في اللهِ ، ولكنْ نزيدُهُ بياناً أيضاً .

* * *

(١) رواه الثعلبي في « تفسيره » (٩/ ٢٣٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٠٥) ، وابن حزم في « المحلىٰ » (٩/ ١٣٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ١٠٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٧١) .

بيان البغض في الله

اعلمْ : أنَّ كلَّ مَنْ يحبُّ في اللهِ لا بدَّ أنْ يبغضَ في اللهِ ؛ فإنَّكَ إذا أحببتَ إنساناً لأنَّهُ مُطيعٌ للهِ ، ومحبوبٌ عندَ اللهِ ؛ فإنْ عصاهُ.. فلا بدَّ أنْ تبغضَهُ ؛ لأنَّهُ عاصٍ للهِ ، وممقوتٌ عندَ اللهِ ، ومَنْ أحبَّ بسببٍ.. فبالضرورةِ يبغضُ لضدِّهِ ، وهـٰذانِ متلازمانِ ، لا ينفصلُ أحدُهُما عنِ الآخرِ ، وهوَ مطردٌ في الحبِّ والبغضِ في العاداتِ ، ولكنْ كلُّ واحدٍ مِنَ الحبِّ والبغضِ داءٌ دفينٌ في القلبِ ، وإنَّما يترشَّحُ عندَ الغلبةِ ، ويترشَّحُ بظهورِ أفعالِ المحبِّينَ والمبغضينَ في المقاربةِ والمباعدةِ ، وفي المخالفةِ والموافقةِ ، فإذا ظهرَ في الفعلِ.. سمِّيَ موالاةً ومعاداةً ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : « هلْ واليتَ فيَّ وليّاً ، وهلْ عاديتَ فيَّ عدوّاً » كما نقلناهُ .

وهـٰذا واضحٌ في حقِّ مَنْ لمْ يُظهرْ لكَ إلا طاعتَهُ ؛ إذْ تقدرُ علىٰ أنْ تحبَّهُ ، أوْ لمْ يُظهرْ لكَ إلا فسقَهُ وفجورَهُ وأخلاقَهُ السيئةَ ، فتقدرُ علىٰ أنْ تبغضَهُ ، وإنَّما المشكلُ إذا اختلطتِ الطاعاتُ بالمعاصي ، فإنَّكَ تقولُ : كيفَ أجمعُ بينَ البغضِ والمحبَّةِ وهما متناقضانِ ؟ وكذلكَ تتناقضُ ثمرتُهُما مِنَ الموافقةِ والمخالفةِ ، والموالاةِ والمعاداةِ ؟

فأقولُ : ذلكَ غيرُ متناقضٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ كما لا يتناقضُ في الحظوظِ البشريَّةِ ؛ فإنَّهُ مهما اجتمعَ في شخصٍ واحدٍ خصالٌ يُحبُّ بعضُها

ويُكرهُ بعضُها . . فإنَّكَ تحبُّهُ مِنْ وجهٍ وتبغضُهُ مِنْ وجهٍ ، فمَنْ لهُ زوجةٌ حسناءُ فاجرةٌ ، أوْ ولدٌ ذكيٌّ خدومٌ ولكنَّهُ فاسقٌ . . فإنَّهُ يحبُّهُما مِنْ وجهٍ ويبغضُهُما مِنْ وجهٍ ، ويكونُ معَهُما علىٰ حالةٍ بينَ حالتينِ ، إذْ لوْ فُرِضَ لهُ ثلاثةُ أولادٍ : أحدُهُمْ ذكيٌّ بارٌّ ، والآخرُ بليدٌ عاقٌّ ، والآخرُ بليدٌ بارٌّ أوْ ذكيٌّ عاقٌّ . . فإنَّهُ يصادفُ نفسَهُ معَهُمْ علىٰ ثلاثةِ أحوالٍ متفاوتةٍ بحسَبِ تفاوتِ خصالِهِمْ ؛ فكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ حالُكَ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ غلبَ عليهِ الفجورُ ، ومَنْ غلبَتْ عليهِ الطاعةُ ، ومَنِ اجتمعَ فيهِ كلاهُما . . متفاوتةً علىٰ ثلاثِ مراتبَ ، وذلكَ بأنْ تعطيَ كلَّ صفةٍ حظَّها مِنَ البغضِ والحبِّ ، والإعراضِ والإقبالِ ، والصحبةِ والقطيعةِ ، وسائرِ الأفعالِ الصادرةِ منهُمْ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فكلُّ مسلمٍ فإسلامُهُ طاعةٌ منهُ ، فكيفَ أبغضُهُ معَ الإسلامِ ؟

فأقولُ : تحبُّهُ لإسلامِهِ ، وتبغضُهُ لمعصيتِهِ ، وتكونُ معَهُ علىٰ حالةٍ لوْ قستَها بحالِ كافرٍ أوْ فاجرٍ . . أدركتَ تفرقةً بينَهُما ، وتلكَ التفرقةُ حبٌّ للإسلامِ وقضاءٌ لحقِّهِ .

وقدْرُ الجنايةِ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ والطاعةِ لهُ . . كالجنايةِ علىٰ حقِّكَ والطاعةِ لكَ ، فمَنْ وافقَكَ علىٰ غرضٍ وخالفَكَ في آخرَ . . فكُنْ معَهُ علىٰ حالةٍ متوسطةٍ بينَ الانقباضِ والاسترسالِ ، وبينَ الإقبالِ والإعراضِ ، وبينَ التودُّدِ إليهِ والتوحُّشِ مِنهُ ، فلا تبالغْ في إكرامِهِ مبالغتَكَ في إكرامِ مَنْ يوافقُكَ

علىٰ جميعِ أغراضِكَ ، ولا تبالغُ في إهانتِهِ مبالغتَكَ في إهانةِ مَنْ خالفَكَ في جميعِ أغراضِكِ ، ثمَّ ذلكَ التوسُّطُ تارةً يكونُ ميلُهُ إلىٰ طرفِ الإهانةِ عندَ غلبةِ الجنايةِ ، وتارةً إلىٰ طرفِ المجاملةِ والإكرامِ عندَ غلبةِ الموافقةِ .

فهكذا ينبغي أنْ يكونَ فيمَنْ يطيعُ اللهَ تعالىٰ ويعصيهِ ، ويتعرَّضُ لرضاهُ مرَّةً ولسخطِهِ أخرىٰ .

***

فإنْ قلتَ : فبماذا يمكنُ إظهارُ البغضِ ؟

فأقولُ : أمَّا في القولِ . . فبكفِّ اللسانِ عنْ مكالمتِهِ ومحادثتِهِ مرَّةً ، وبالاستخفافِ والتغليظِ في القولِ أخرىٰ ، وأمَّا في الفعلِ . . فبقطعِ السعي في إعانتِهِ مرَّةً ، وبالسعي في إساءتِهِ وإفسادِ مآربِهِ أخرىٰ ، وبعضُ هٰذا أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وهوَ بحسَبِ درجاتِ الفسقِ والمعصيةِ الصادرةِ منهُ .

أمَّا ما يجري مَجرى الهفوةِ التي يعلمُ أنَّهُ متندِّمٌ عليها ، ولا يصرُّ عليها . . فالأولىٰ فيهِ السترُ والإغماضُ .

وأمَّا ما أصرَّ عليهِ مِنْ صغيرةٍ أوْ كبيرةٍ ؛ فإنْ كانَ ممَّنْ تأكَّدتْ بينَكَ وبينَهُ مودَّةٌ وصحبةٌ وأخوَّةٌ . . فلهُ حكمٌ آخرُ ، وسيأتي ، وفيهِ خلافٌ بينَ العلماءِ .

وأمَّا إذا لمْ تتأكَّدْ أخوَّةٌ وصحبةٌ . . فلا بدَّ مِنْ إظهارِ أثرِ البغضِ ؛ إمَّا في الإعراضِ والتباعدِ عنهُ ، وقلَّةِ الالتفاتِ إليهِ ، وإمَّا في الاستخفافِ وتغليظِ القولِ عليهِ ، وهٰذا أشدُّ مِنَ الإعراضِ ، وهوَ بحسبِ غلظِ المعصيةِ وخفَّتِها .

وكذلكَ في الفعلِ أيضاً رتبتانِ :

إحداهما : قطعُ المعونةِ والرفْقِ والنصرةِ عنهُ ، وهوَ أقلُّ الدرجاتِ .

والأخرىٰ : السعيُ في إفسادِ أغراضِهِ عليهِ ؛ كفعلِ الأعداءِ المبغضينَ ، وهٰذا لا بدَّ منهُ ، ولكنْ فيما يفسدُ عليهِ طريقَ المعصيةِ ، وذلكَ فيما يؤثِّرُ فيهِ .

أمَّا ما لا يؤثِّرُ فيهِ . . فلا ، ومثالُهُ : رجلٌ عصى اللهَ بشرْبِ الخمرِ ، وقدْ خطبَ امرأةً لوْ تيسَّرَ لهُ نكاحُها . . لكانَ مغبوطاً فيها بالمالِ والجمالِ والجاهِ ، إلا أنَّ ذلكَ لا يؤثِّرُ في منعِهِ مِنْ شربِ الخمرِ ، ولا في بعثٍ وتحريضٍ عليهِ ، فإذا قدرتَ علىٰ إعانتِهِ ليتمَّ لهُ غرضُهُ ومقصودُهُ ، وقدرتَ علىٰ تشويشِهِ ليفوتَهُ غرضُهُ . . فليسَ لكَ السعيُ في تشويشِهِ ، أمَّا الإعانةُ فلوْ تركتَها إظهاراً للغضبِ عليهِ في فسقِهِ . . فلا بأسَ ، وليسَ يجبُ تركُها ؛ إذْ ربَّما يكونُ لكَ نيَّةٌ في أنْ تتلطَّفَ بإعانتِهِ وإظهارِ الشفقةِ عليهِ ليعتقدَ مودَّتَكَ ويقبلَ نصحَكَ ، فهٰذا حسنٌ .

وإنْ لمْ تنتظرْ ذلكَ منهُ ولكنْ رأيتَ أنْ تعينَهُ علىٰ غرضِهِ قضاءً لحقِّ إسلامِهِ . . فذلكَ ليسَ بممنوعٍ ، بلْ هوَ الأحسنُ إنْ كانَتْ معصيتُهُ بالجنايةِ علىٰ حقِّكَ أوْ حقِّ مَنْ يتعلَّقُ بكَ ، وفيهِ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[1] إذْ تكلَّمَ مِسْطَحُ بنُ

---

(١) والآية بتمامها : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أُثاثةَ في واقعةِ الإفكِ ، فحلفَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يقطعَ عنهُ رفقَهُ ، وقدْ كانَ يواسيهِ بالمالِ ، فنزلَتِ الآيةُ ، معَ عظمِ معصيةِ مسطحٍ[1] .

وأيَّةُ معصيةٍ تزيدُ على التعرُّضِ لحرمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وإطالةِ اللسانِ في مثلِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ؟! إلا أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ كالمجنيِّ عليهِ في نفسِهِ بتلكَ الواقعةِ ، والعفوُ عمَّنْ ظلمَ والإحسانُ إلىٰ مَنْ أساءَ مِنْ أخلاقِ الصدِّيقينَ ، وإنَّما يحسنُ الإحسانُ إلىٰ مَنْ ظلمَكَ .

فأمَّا مَنْ ظلمَ غيرَكَ ، وعصى اللهَ بهِ . . فلا يحسنُ الإحسانُ إليهِ ؛ لأنَّ في الإحسانِ إلى الظالمِ إساءةً إلى المظلومِ ، وحقُّ المظلومِ أولىٰ بالمراعاةِ ، وتقويةُ قلبِهِ بالإعراضِ عنِ الظالمِ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ تقويةِ قلبِ الظالمِ .

فأمَّا إذا كنتَ أنتَ المظلومَ . . فالأحسنُ في حقِّكَ العفوُ والصفحُ .

وطرقُ السلفِ الصالحِ رضيَ اللهُ عنهُم قدِ اختلَفتْ في إظهارِ البغْضِ للهِ معَ أهلِ المعاصي ، وكلُّهُمْ اتفقوا علىٰ إظهارِ البغْضِ للظلمةِ والمبتدعةِ ، وكلِّ مَنْ عصى اللهَ بمعصيةٍ متعدِّيةٍ منهُ إلىٰ غيرِهِ .

❊ ❊ ❊

فأمَّا مَنْ عصى اللهَ في نفسِهِ . . فمنهُمْ مَنْ نظرَ بعينِ الرحمةِ إلى العصاةِ كلِّهِمْ ، ومنهُمْ مَنْ شدَّدَ الإنكارَ واختارَ المهاجرةَ .

فقدْ كانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ يهجرُ الأكابرَ في أدنىٰ كلمةٍ ، حتَّىٰ

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

هجرَ يحيىٰ بنَ معينٍ في قولِهِ : (إني لا أسألُ أحداً شيئاً ، ولوْ حملَ السلطانُ إليَّ شيئاً . . لأخذتُهُ)[1] .

وهجرَ الحارثَ المحاسبيَّ في تصنيفِهِ في الردِّ على المعتزلةِ ، وقالَ : (إنَّكَ لا بدَّ توردُ أوَّلاً شبهتَهُمْ ، وتحملُ الناسَ على التفكُّرِ فيهَا ، ثمَّ تردُّ عليهِمْ)[2] .

وهجرَ أبا ثورٍ في تأويلِهِ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[3] .

وهٰذا أمرٌ يختلفُ باختلافِ النيَّةِ ، وتختلفُ النيَّةُ باختلافِ الحالِ ، فإنْ كانَ الغالبُ على القلبِ النظرَ إلى اضطرارِ الخلقِ وعجزِهِمْ ، وأنَّهُمْ مسخَّرونَ لما قُدِّروا لهُ . . أورثَ هٰذا تساهلاً في المعاداةِ والبغْضِ ، ولهُ وجهٌ ، ولكنْ قدْ تلتبسُ بهِ المداهنةُ[4] ، فأكثرُ البواعثِ على الإغضاءِ عنِ المعاصي المداهنةُ ومراعاةُ القلوبِ ، والخوفُ مِنْ وحشتِها ونفارِها ، وقدْ يلبِّسُ الشيطانُ ذلكَ على الغبيِّ الأحمقِ ، بأنَّهُ ينظرُ بعينِ الرحمةِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨٩) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦٨) ، وانظر « الإتحاف » (٢/ ٤٩) .

(٣) هجر أحمد لأبي ثور لذلك حكاه أبو طالب في « القوت » (١/ ١٦٨) مع ذكر القولين السابقين كذلك ، والحديث المرفوع رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) .

(٤) وهي هنا : ترك دفع منكر هو قادر عليه لقلَّة مبالاة بالدين ، أو حفظاً لجانب مرتكبه . « إتحاف » (٦/ ١٩٤) .

ومحكُّ ذلكَ : أنْ ينظرَ إليهِ بعينِ الرحمةِ إنْ جنىٰ علىٰ خاصِّ حقِّهِ ، ويقولُ : إنَّهُ قد سُخِّرَ لهُ ، والقدرُ لا ينفعُ منهُ الحذرُ ، وكيفَ لا يفعلُهُ وقدْ كُتِبَ عليهِ ؟! فمثلُ هـٰذا قدْ تصحُّ لهُ نيَّةٌ في الإغماضِ عنِ الجنايةِ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ .

فإنْ كانَ يغتاظُ عندَ الجنايةِ علىٰ حقِّهِ ، ويترحَّمُ عندَ الجنايةِ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فهـٰذا مداهنٌ مغرورٌ بمكيدةٍ مِنْ مكايدِ الشيطانِ ، فليُتنبَّهْ لهُ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فأقلُّ الدرجاتِ في إظهارِ البغضِ الهجرُ والإعراضُ ، وقطعُ الرفقِ والإعانةِ ، فهلْ يجبُ ذلكَ حتَّىٰ يعصي العبدُ بتركِهِ ؟

فأقولُ : لا يدخلُ ذلكَ في ظاهرِ العلمِ تحتَ التكليفِ والإيجابِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّ الذينَ شربوا الخمرَ وتعاطَوا الفواحشَ في زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصحابةِ . . ما كانوا يهجرونَ بالكلِّيَّةِ ، بلْ كانوا منقسمينَ فيهِمْ إلىٰ مَنْ يغلظُ القولَ فيهِ ويظهرُ البغضَ لهُ ، وإلىٰ منْ يعرضُ عنهُ ولا يتعرَّضُ لهُ ، وإلىٰ مَنْ ينظرُ إليهِ بعينِ الرحمةِ ولا يؤثرُ المقاطعةَ والتباعدَ .

❊ ❊ ❊

فهـٰذهِ دقائقُ دينيَّةٌ تختلفُ فيها طرقُ السالكينَ لطريقِ الآخرةِ ، ويكونُ عملُ كلِّ واحدٍ علىٰ ما يقتضيهِ حالُهُ ووقتُهُ ، ومقتضى الأحوالِ في هـٰذهِ الأمورِ إمَّا مكروهةٌ أوْ مندوبةٌ ، فتكونُ في رتبةِ الفضائلِ ، ولا تنتهي إلى

التحريمِ والإيجابِ ؛ فإنَّ الداخلَ تحتَ التكليفِ أصلُ المعرفةِ للهِ تعالىٰ وأصلُ الحبِّ ، وذلكَ قدْ لا يتعدَّىٰ مِنَ المحبوبِ إلىٰ غيرِهِ ، وإنَّما المتعدِّي إفراطُ الحبِّ واستيلاؤُهُ ، وذلكَ لا يدخلُ في الفتوىٰ وتحتَ ظاهرِ التكليفِ في حقِّ عوامِّ الخلقِ أصلاً .

* * *

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم

فإنْ قلتَ : إظهارُ البغضِ والعداوةِ بالفعلِ إنْ لمْ يكنْ واجباً . . فلا شكَّ أنَّهُ مندوبٌ إليهِ ، والعصاةُ والفسَّاقُ علىٰ مراتبَ مختلفةٍ ، فكيفَ ينالُ الفضلَ عندَ معاملتِهِمْ ؟ وهلْ يسلكُ بجميعِهِمْ مسلكاً واحداً أمْ لا ؟

فاعلمْ : أنَّ المخالفَ لأمرِ اللهِ سبحانَهُ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ مخالفاً في عقدِهِ، أوْ في عملِهِ ، والمخالفُ في العقدِ : إمَّا مبتدعٌ ، أوْ كافرٌ ، والمبتدعُ : إمَّا داعٍ إلىٰ بدعتِهِ ، أوْ ساكتٌ ، والساكتُ : إما بعجزِهِ ، أوْ باختيارِهِ .

❊ ❊ ❊

فأقسامُ الفسادِ في الاعتقادِ ثلاثةٌ :

الأوَّلُ : الكفرُ :

والكافرُ إنْ كانَ محارباً . . فهوَ يستحقُّ القتلَ والإرقاقَ ، وليسَ بعدَ هـٰذينِ إهانةٌ .

وأمَّا الذمِّيُّ : فإنَّهُ لا يجوزُ إيذاؤُهُ إلا بالإعراضِ عنهُ والتحقيرِ لهُ ؛ بالاضطرارِ إلىٰ أضيقِ الطرقِ(١) ، وتركِ المفاتحةِ بالسلامِ(٢) ، فإذا قالَ :

---

(١) إن كان ماشياً في طريق فيه زحمة بحيث لا يقع في وهدة ولا يصدمه نحو جدار ؛ فإن إيذاءهم بلا سبب لا يجوز ، وإنما المراد : ولا تتركوا لهم صدر الطريق إكراماً لهم ، وفيه تنبيه علىٰ ضيق مسلك الكفر ، وأنه يلجىء إلى النار ، وهـٰذه سنة قد أميتت من زمان ، فمن أحياها . . فله الأجر . « إتحاف » (٦/ ١٩٥) .

(٢) وكذلك ما يقوم مقام السلام من التحايا ؛ كأن يقول : صبَّحك الله بالخير ، أو أسعد الله =

(السلامُ عليكَ).. قلتَ : (وعليكَ) ، والأولى الكفُّ عن مخالطتِهِ ومعاملتِهِ ومواكلتِهِ ، فأمَّا الانبساطُ معَهُ والاسترسالُ إليهِ كما يسترسلُ إلى الأصدقاءِ.. فهوَ مكروهٌ كراهةً شديدةً يكادُ ينتهي ما يقوىٰ منهُ إلىٰ حدِّ التحريمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ... ﴾ الآيةَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المسلمُ والمشركُ لا تتراءَىٰ ناراهُما »[(١)].

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ... ﴾ الآيةَ .

* * *

الثاني : المبتدعُ الذي يدعو إلىٰ بدعتِهِ :

فإنْ كانتِ البدعةُ بحيثُ يكفرُ بها.. فأمرُهُ أشدُّ مِنَ الذميِّ ؛ لأنَّهُ لا يقرُّ بجزيةٍ ولا يسامحُ بعقْدِ ذمَّةٍ .

وإنْ كانتْ ممَّا لا يكفرُ بها.. فأمرُهُ بينَهُ وبينَ اللهِ أخفُّ مِنْ أمرِ الكافرِ لا محالةَ ، ولكنَّ الأمرَ في الإنكارِ عليهِ أشدُّ منهُ على الكافرِ ؛ لأنَّ شرَّ الكافرِ غيرُ متعدٍّ ؛ فإنَّ المسلمينَ اعتقدوا كفرَهُ ، فلا يلتفتونَ إلىٰ قولِهِ ؛ إذْ لا يدَّعي لنفسِهِ الإسلامَ واعتقادَ الحقِّ ، أمَّا المبتدعُ الذي يدعو إلى البدعةِ ، ويزعمُ

= صباحك ، أو مثل ذلك مما جرت به العادات الآن . « إتحاف » (٦/ ١٩٥) .

(١) رواه أبو داوود (٢٦٤٥) ، والترمذي (١٦٠٤) مرفوعاً من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنهما ، والنسائي (٨/ ٣٦) وهو عنده مرسل من حديث قيس بن أبي حازم ، ومطلع الحديث عندهم : « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » .

أنَّ ما يدعو إليهِ حقٌّ . . فهوَ سببٌ لغوايةِ الخلقِ ، فشرُّهُ متعدٍّ ، فالاستحبابُ في إظهارِ بغضِهِ ومعاداتِهِ ، والانقطاعِ عنهُ وتحقيرِهِ ، والتشنيعِ عليهِ ببدعتِهِ ، وتنفيرِ الناسِ عنهُ . . أشدُّ .

وإنْ سلَّمَ في خلوةٍ . . فلا بأسَ بردِّ جوابِهِ ، وإنْ علمَ أنَّ الإعراضَ عنهُ والسكوتَ عنْ جوابِهِ يقبِّحُ في نفسِهِ بدعتَهُ ويؤثِّرُ في زجرِهِ . . فتركُ الجوابِ أولىٰ ؛ لأنَّ جوابَ السلامِ وإنْ كانَ واجباً فيسقطُ بأدنىٰ غرضٍ فيهِ مصلحةٌ ، حتَّىٰ يسقطُ بكونِ الإنسانِ في الحمَّامِ ، أوْ في قضاءِ حاجتِهِ ، وغرضُ الزجرِ أهمُّ مِنْ هـٰذهِ الأغراضِ ، وإنْ كانَ في ملأٍ . . فتركُ الجوابِ أولىٰ ؛ تنفيراً للناسِ عنهُ ، وتقبيحاً لبدعتِهِ في أعينِهِمْ .

وكذلكَ الأولىٰ كفُّ الإحسانِ والإعانةِ عنهُ ، لا سيما فيما يظهرُ للخلْقِ ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنِ انتهرَ صاحبَ بدْعَةٍ . . ملأَ اللهُ قلبَهُ أمْناً وإيماناً ، ومَنْ أهانَ صاحبَ بدعةٍ . . أمَّنَهُ اللهُ يومَ الفزعِ الأكبرِ ، ومَنْ ألانَ لهُ وأكرمَهُ أوْ لقيَهُ ببشرٍ . . فقدِ استخفَّ بما أنزلَ اللهُ علىٰ محمدٍ » صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

* * *

الثالثُ : المبتدعُ العاميُّ الذي لا يقدرُ على الدعوةِ ، ولا يُخافُ الاقتداءُ بهِ :

فأمرُهُ أهونُ ، والأولىٰ ألا يُفاتحَ بالتغليظِ والإهانةِ ، بلْ يُتلطَّفُ بهِ في

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٩٩) ، والهروي في « ذم الكلام » (٩٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

النصحِ ؛ فإنَّ قلوبَ العوامِّ سريعةُ التقلُّبِ فإنْ لمْ ينفعِ النصحُ ، وكانَ في الإعراضِ عنهُ تقبيحٌ لبدعتِهِ في عينِهِ . . تأكَّدَ الاستحبابُ في الإعراضِ ، وإنْ عُلِمَ أنَّ ذلكَ لا يؤثِّرُ فيهِ ؛ لجمودِ طبعِهِ ، ورسوخِ عقدِهِ في قلبِهِ . . فالإعراضُ أولىٰ ؛ لأنَّ البدعةَ إذا لمْ يُبالغْ في تقبيحِها . . شاعَتْ بينَ الخلقِ وعمَّ فسادُها .

وأمَّا العاصي بفعلِهِ وعملِهِ لا باعتقادِهِ : فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ بحيثُ يتأذَّىٰ بهِ غيرُهُ ؛ كالظلمِ ، والغصْبِ ، وشهادةِ الزورِ ، والغيبةِ ، والتضريبِ بينَ الناسِ ، والمشيِ بالنميمةِ ، وأمثالِها ممَّا لا يقتصرُ عليهِ ويؤذي غيرَهُ ، وذلكَ ينقسمُ إلىٰ ما يدعو غيرَهُ إلى الفسادِ ؛ كصاحبِ الماخورِ[1] الذي يجمعُ بينَ الرجالِ والنساءِ ، ويهيِّئُ أسبابَ الشربِ والفسادِ لأهلِ الفسادِ ، أوْ لا يدعو غيرَهُ إلىٰ فعلِهِ ؛ كالذي يشربُ أوْ يزني ، وهـٰذا الذي لا يدعو غيرَهُ إمَّا أنْ يكونَ عصيانُهُ بكبيرةٍ أوْ بصغيرةٍ ، وكلُّ واحدٍ فإمَّا أنْ يكونَ مصرّاً عليهِ أوْ غيرَ مصرٍّ .

❊ ❊ ❊

فهـٰذهِ التقسيماتُ يتحصَّلُ منها ثلاثةُ أقسامٍ ، ولكلِّ قسمٍ منها رتبةٌ ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، فلا نسلكُ بالكلِّ مسلكاً واحداً .

---

(١) **الماخور** : لفظة فارسية ، وهو حان الخمر وبيت الدعارة ، أو هو مجلس الفسق والريبة .

القسمُ الأوَّلُ ـ وهو أشدُّها ـ : ما يتضرَّرُ بهِ الناسُ ؛ كالظلمِ والغصْبِ وشهادةِ الزورِ والغيبةِ والنميمةِ :

فهؤلاءِ الأولى الإعراضُ عنهُمْ ، وتركُ مخالطتِهِمْ ، والانقباضُ عنْ معاملتِهِمْ ؛ لأنَّ المعصيةَ شديدةٌ فيما يرجعُ إلىٰ إيذاءِ الخلْقِ ، ثمَّ هؤلاءِ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يظلمُ في الدماءِ ، وإلىٰ مَنْ يظلمُ في الأموالِ ، وإلىٰ مَنْ يظلمُ في الأعراضِ ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، فالاستحبابُ في إهانتِهِمْ والإعراضِ عنهُمْ مؤكَّدٌ جداً ، ومهما كانَ يُتوقَّعُ مِنَ الإهانةِ زجرٌ لهُمْ أوْ لغيرِهِمْ . . كانَ الأمرُ فيهِ آكدَ وأشدَّ .

❊ ❊ ❊

الثاني : صاحبُ الماخورِ الذي يهيِّءُ أسبابَ الفسادِ ، ويسهِّلُ طرقَهُ على الخلقِ :

فهـٰذا لا يؤذي الخلْقَ في دنياهُمْ ، ولكنْ يجتاحُ بفعلِهِ دينَهُمْ ، وإنْ كانَ علىٰ وَفْقِ رضاهُمْ . . فهوَ قريبٌ مِنَ الأوَّلِ ولكنَّهُ أخفُّ منهُ ؛ فإنَّ المعصيةَ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ إلى العفوِ أقربُ ، لكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ متعدٍّ على الجملةِ إلىٰ غيرِهِ فهوَ شديدٌ ، وهـٰذا أيضاً يقتضي الإهانةَ والإعراضَ والمقاطعةَ ، وتركَ جوابِ السلامِ إذا ظنَّ أنَّ فيهِ نوعاً مِنَ الزجرِ لهُ أوْ لغيرِهِ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : الذي يفسقُ في نفسِهِ بشرْبِ خمرٍ ، أوْ ترْكِ واجبٍ ، أوْ مقارفةِ محظورٍ يخصُّهُ :

فالأمرُ فيهِ أخفُّ ، ولكنَّهُ في وقتِ مباشرتِهِ إنْ صُودفَ . . يجبُ منعُهُ بما يمتنعُ بهِ منهُ ، ولوْ بالضربِ والاستخفافِ ، فإنَّ النهيَ عنِ المنكرِ واجبٌ ، وإذا فرغَ منهُ ، وعلمَ أنَّ ذلكَ مِنْ عادتِهِ ، وهوَ مصرٌّ عليهِ ؛ فإنْ تحقَّقَ أنَّ نصحَهُ يمنعُهُ مِنَ العَوْدِ إليهِ . . وجبَ النصحُ ، وإنْ لمْ يتحقَّقْ ولكنَّهُ كانَ يرجوهُ . . فالأفضلُ النصحُ والزجرُ بالتلطُّفِ ، أوْ بالتغليظِ إنْ كانَ هوَ الأنفعَ .

فأمَّا الإعراضُ عنْ جوابِ سلامِهِ ، والكفُّ عنْ مخالطتِهِ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يصرُّ وأنَّ النصحَ ليسَ ينفعُهُ . . فهٰذا فيهِ نظرٌ ، وسيرُ العلماءِ فيهِ مختلفةٌ .

والصحيحُ : أنَّ ذلكَ يختلفُ باختلافِ نيَّةِ الرجلِ ، فعندَ هٰذا يُقالُ : الأعمالُ بالنيَّاتِ ؛ إذْ في الرِّفْقِ والنظرِ بعينِ الرحمةِ إلى الخلقِ نوعٌ مِنَ التواضعِ ، وفي العنْفِ والإعراضِ نوعٌ مِنَ الزجرِ ، والمستفتَىٰ فيهِ القلبُ ، فما يراهُ أميلَ إلىٰ هواهُ ومقتضىٰ طبعِهِ . . فالأولىٰ ضدُّهُ ؛ إذْ قدْ يكونُ استخفافُهُ وعنفُهُ عنْ كبرٍ وعجْبٍ ، والتذاذٍ بإظهارِ العلوِّ والإدلالِ بالصلاحِ ، وقدْ يكونُ رفقُهُ عنْ مداهنةٍ واستمالةِ قلبٍ للوصولِ بهِ إلىٰ غرضٍ ، أوْ لخوفٍ مِنْ تأثيرِ وحشةٍ ونفرةٍ في جاهٍ أوْ مالٍ ، بظنٍّ قريبٍ أوْ بعيدٍ ، وكلُّ ذلكَ تردُّدٌ علىٰ إشاراتِ الشيطانِ ، وبعيدٌ عنْ أعمالِ أهلِ الآخرةِ .

فكلُّ راغبٍ في أعمالِ الدينِ مجتهدٌ معَ نفسِهِ في التفتيشِ عنْ هٰذهِ الدقائقِ ، ومراقبةِ هٰذهِ الأحوالِ ، والقلبُ هوَ المفتي فيهِ ، وقدْ يصيبُ الحقَّ في اجتهادِهِ وقدْ يُخطىءُ ، وقدْ يقدمُ على اتباعِ هواهُ وهوَ عالمٌ بهِ ، وقدْ يقدمُ وهوَ بحكمِ الغرورِ ظانٌّ أنَّهُ عاملٌ للهِ ، وسالكٌ طريقَ الآخرةِ ، وسيأتي بيانُ هٰذهِ الدقائقِ في كتابِ الغرورِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ .

ويدلُّ علىٰ تخفيفِ الأمرِ في الفسقِ القاصرِ الذي هوَ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ما رُوِيَ أنَّ شاربَ خمرٍ ضُرِبَ مرَّاتٍ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يعودُ ، فقالَ واحدٌ مِن الصحابةِ : لعنَهُ اللهُ ، ما أكثرَ ما يشربُ ! فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تكنْ عوناً للشيطانِ علىٰ أخيكَ »[1] أوْ لفظاً هٰذا معناهُ ، وكانَ هٰذا إشارةً إلىٰ أنَّ الرفْقَ أولىٰ مِن العنْفِ والتغليظِ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (٦٧٨١) ولفظه : « لا تكونوا عون الشيطان علىٰ أخيكم » .

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلمْ : أنَّهُ لا يصلحُ للصحبةِ كلُّ إنسانٍ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ علىٰ دينِ خليلِه ، فلينظرْ أحدُكُمْ مَنْ يخالِلُ »[1] ، فلا بدَّ أنْ يتميَّزَ بخصالٍ وصفاتٍ يُرغبُ بسببِها في صحبتِهِ ، وتُشترطُ تلكَ الخصالُ بحسَبِ الفوائدِ المطلوبةِ مِنَ الصحبةِ ؛ إذْ معنى الشرطِ : ما لا بدَّ منهُ للوصولِ إلى المقصودِ ، فبالإضافةِ إلى المقصودِ تظهرُ الشروطُ .

❊ ❊ ❊

ويُطلبُ مِنَ الصحبةِ فوائدُ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ :

أمَّا الدنيويةُ : فكالانتفاعِ بالمالِ أوِ الجاهِ ، أوْ مجرَّدِ الاستئناسِ بالمشاهدةِ والمجاورةِ ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا .

وأمَّا الدينيَّةُ : فيجتمعُ فيها أيضاً أغراضٌ مختلفةٌ ؛ إذْ منها الاستفادةُ مِنَ العلمِ والعملِ ، ومنها الاستفادةُ مِنَ الجاهِ تحصُّناً بهِ عنْ إيذاءِ مَنْ يشوشُ القلبَ ويصدُّ عنِ العبادةِ ، ومنها استفادةُ المالِ للاكتفاءِ بهِ عنْ تضييعِ الأوقاتِ في طلبِ القوتِ ، ومنها الاستعانةُ في المهمَّاتِ ليكونَ عدَّةً في المصائبِ وقوَّةً في الأحوالِ ، ومنها التبرُّكُ بمجرَّدِ الدعاءِ ، ومنها انتظارُ الشفاعةِ في الآخرةِ ؛ فقدْ قالَ بعضُ السلفِ : (استكثروا مِنَ الإخوانِ ؛ فإنَّ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٢٧٨) .

لكلِّ مؤمنٍ شفاعةً ، فلعلَّكَ تدخلُ في شفاعةِ أخيكَ)[١] .

ورُوِيَ في غريبِ التفسيرِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ قالَ : يشفِّعُهُمْ في إخوانِهِمْ ، فيدخلُهُمُ الجنَّةَ معَهُمْ[٢] .

ويُقالُ : إذا غُفِرَ للعبدِ . . شُفِّعَ في إخوانِهِ[٣] ، ولذلكَ حثَّ جماعةٌ مِنَ السلفِ على الصحبةِ والأُلفةِ والمخالطةِ ، وكرهوا العزلةَ والانفرادَ .

فهٰذِهِ فوائدُ ، تستدعي كلُّ فائدةٍ شروطاً لا تحصلُ إلا بها ، ولا يخفىٰ تفصيلُها .

❁ ❁ ❁

أمَّا على الجملةِ :

فينبغي أنْ يكونَ فيمَنْ تُؤثِرُ صحبتُهُ خمسُ خصالٍ : أنْ يكونَ عاقلاً ، حسنَ الخلُقِ ، غيرَ فاسقٍ ، ولا مبتدعٍ ، ولا حريصٍ على الدنيا :

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ٢١٤) ، ورواه ابن النجار في « تاريخه » مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه كما في « فيض القدير » (١/ ٥٠٠) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٨٤) عن الضحاك رحمه الله ، وروى الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٥/ ٣٧) عن إبراهيم النخعي في تفسير هٰذه الآية : (يشفَّعون في إخوانهم ، ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ ، قال : يشفعون في إخوان إخوانهم) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١٤) .

أمَّا العقلُ : فهوَ رأسُ المالِ ، وهوَ الأصلُ ، فلا خيرَ في صحبةِ الأحمقِ ، فإلى الوحشةِ والقطيعةِ ترجعُ عاقبتُها وإنْ طالَتْ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ[(١)] : [من الهزج]

فَـلا تَصْحَـبْ أَخـا ٱلْجَهْـلِ ... وإِيَّـــاكَ وَإِيَّـــاهُ
فَكَـمْ مِـنْ جـاهِـلٍ أَرْدَى ... حَلِيمـاً حِيـنَ آخـاهُ
يُقـاسُ ٱلْمَـرْءُ بِـٱلْمَـرْءِ ... إِذا مـا هُـوَ مـاشـاهُ
وَلِلشَّـيْءِ مِـنَ ٱلشَّـيْءِ ... مَقـايِيـسٌ وَأَشْبـاهُ
وَلِلْقَلْـبِ عَلَـى ٱلْقَلْـبِ ... دَلِيـلٌ حِيـنَ يَلْقـاهُ

كيفَ والأحمقُ قدْ يضرُّكَ وهوَ يريدُ نفعَكَ وإعانتكَ مِنْ حيثُ لا يدري ، ولذلكَ قالَ الشاعرُ[(٢)] : [من الكامل]

إِنِّـي لآمَـنُ مِـنْ عَـدُوٍّ عـاقِـلٍ ... وَأَخـافُ خِـلاًّ يَعْتَـرِيـهِ جُنُـونُ
فَـٱلْعَقْـلُ فَـنٌّ واحِـدٌ وَطَـرِيقَـهُ ... أَدْرِي فَـأَرْصُـدُ وَٱلْجُنُـونُ فُنُـونُ

ولذلكَ قيلَ : (مقاطعةُ الأحمقِ قربانٌ إلى اللهِ) .

وقالَ الثوريُّ : (النظرُ إلىٰ وجهِ الأحمقِ خطيئةٌ مكتوبةٌ)[(٣)] .

---

(١) الأبيات مما يُنسب لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص٢٦٣) ، وكذا تنسب لأبي العتاهية في « ديوانه » (٦٦٥ ، ٦٦٧) .

(٢) فاكهة الخلفاء (ص ٤٤١) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٣٤) .

ونعني بالعاقلِ : الذي يفهمُ الأمورَ علىٰ ما هيَ عليهِ ؛ إمَّا بنفسِهِ ، وإمَّا إذا فُهِّمَ وعُلِّمَ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا حُسْنُ الخلُقِ : فلا بدَّ منهُ ؛ إذْ ربَّ عاقلٍ يدركُ الأشياءَ علىٰ ما هيَ عليهِ ولكنْ إذا غلبَهُ غضبٌ أوْ شهوةٌ ، أوْ بخلٌ أوْ جبنٌ . . أطاعَ هواهُ ، وخالفَ ما هوَ المعلومُ عندَهُ ؛ لعجزِهِ عنْ قهرِ صفاتِهِ ، وتقويمِ أخلاقِهِ ، فلا خيرَ في صحبتِهِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الفاسقُ المصرُّ على الفسقِ : فلا فائدةَ في صحبتِهِ ؛ لأنَّ مَنْ يخافُ اللهَ لا يصرُّ علىٰ كبيرةٍ ، ومَنْ لا يخافُ اللهَ لا تُؤمنُ غائلتُهُ ، ولا يُوثقُ بصداقتِهِ ، بلْ يتغيَّرُ بتغيُّرِ الأغراضِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وقالَ : ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ ، وفي مفهومِ ذلكَ زجرٌ عنِ الفاسقِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا المبتدعُ : ففي صحبتِهِ خطرُ سرايةِ البدعةِ ، وتعدِّي شؤمِها إليهِ ، فالمبتدعُ مستحقٌّ للهجرِ والمقاطعةِ ، فكيفَ تُؤْثَرُ صحبتُهُ ؟!

وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في الحثِّ علىٰ طلبِ التديُّنِ في الصديقِ فيما

رواهُ سعيدُ بنُ المسيَّبِ ، قالَ : (عليكَ بإخوانِ الصدقِ . . تعشْ في أكنافِهِمْ ، فإنَّهُمْ زينةٌ في الرخاءِ ، وعدَّةٌ في البلاءِ ، وضعْ أمرَ أخيكَ علىٰ أحسنِهِ حتَّىٰ يجيئَكَ ما يغلبُكَ منهُ ، واعتزلْ عدوَّكَ ، واحذرْ صديقَكَ إلا الأمينَ منَ القومِ ، ولا أمينَ إلا مَنْ خشيَ اللهَ ، ولا تصحبِ الفاجرَ فتتعلَّمَ مِنْ فجورِهِ ، ولا تطلعْهُ علىٰ سرِّكَ ، واستشرْ في أمرِكَ الذين يخشونَ اللهَ تعالىٰ)[1] .

وأمَّا حسنُ الخلُقِ . . فقدْ جمعَهُ علقمةُ العُطارديُّ في وصيَّتِهِ لابنِهِ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ ، قالَ : (يا بنيَّ ؛ إنْ عرضَتْ لكَ إلىٰ صحبةِ الرجالِ حاجةٌ . . فاصحبْ مَنْ إذا خدمتَهُ . . صانَكَ ، وإنْ صحبتَهُ . . زانَكَ ، وإنْ قعدَتْ بكَ مؤنةٌ . . مانَكَ ، اصحبْ مَنْ إذا مددَتْ يدَكَ بخيرٍ . . مدَّها ، وإنْ رأىٰ منكَ حسنةً . . عدَّها ، وإن رأىٰ سيئةً . . سدَّها ، اصحبْ مَنْ إذا سألتَهُ . . أعطاكَ ، وإنْ سكتَّ . . ابتداكَ ، وإنْ نزلَتْ بكَ نازلةٌ . . واساكَ ، اصحبْ مَنْ إذا قلتَ . . صدَّقَ قولَكَ ، وإنْ حاولتما أمراً . . أمَّرَكَ ، وإنْ تنازعتُما . . آثرَكَ)[2] .

فكأنَّهُ جمعَ بهٰذا جميعَ حقوقِ الصحبةِ ، وشرطَ أنْ يكونَ قائماً

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٥) ضمن وصية له ، وقد رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٨٩) .

(٢) رواه صاحب « القوت » (٢/ ٢١٦) عن يحيى بن أكثم ، روىٰ ذلك الخبر عن علقمة العطاردي للمأمون ، والسياق عنده .

بجميعِها ، قالَ ابنُ أكثمَ : قالَ المأمونُ : فأينَ هـٰذا ؟! فقيلَ لهُ : أتدري لِمَ أوصاهُ بذلكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لأنَّهُ أرادَ ألا يصحبَ أحداً .

وقالَ بعضُ الأدباءِ : (لا تصحبْ مِنَ الناسِ إلا مَنْ يكتمُ سرَّكَ ، ويسترُ عيبَكَ ، ويكونُ معكَ في النوائبِ ، ويؤثرُكَ بالرغائبِ ، وينشرُ حسنَكَ ، ويطوي سيِّئَكَ ، فإنْ لمْ تجدْهُ . . فلا تصحبْ إلا نفسَكَ)[1] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ[2] : [من الرجز]

إِنَّ أَخاكَ ٱلْحَقَّ مَنْ كانَ مَعَكْ		وَمَـنْ يَضُـرُّ نَفْسَـهُ لِيَنْفَعَـكْ
وَمَـنْ إِذا رَيْبُ زَمـانٍ صَـدَعَـكْ		شَتَّـتَ شَمْـلَ نَفْسِـهِ لِيَجْمَعَـكْ

وقالَ بعضُ العلماءِ : (لا تصحبْ إلا أحدَ رجلينِ : رجلٌ تتعلَّمُ منهُ شيئاً مِنْ أمرِ دينِكَ فينفعُكَ ، ورجلٌ تعلِّمُهُ شيئاً مِنْ أمرِ دينِهِ فيقبلُ منكَ ، والثالثُ فاهربْ منهُ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الناسُ أربعةٌ : فواحدٌ حلْوٌ كلُّهُ فلا يُشبعُ منهُ ، وآخرُ مرٌّ كلُّهُ فلا يُؤكلُ منهُ ، وآخرُ فيهِ حموضةٌ فخذْ مِنْ هـٰذا قبلَ أنْ يأخذَ منكَ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٦) .
(٢) والذي في « القوت » (٢/ ٢٢٠) : (وروينا عن الحسن بن علي عليهما السلام في وصف الأخ كلاماً رجزاً جامعاً مختصراً) وذكرهما ، والبيتان مما نسب للمأمون ، وانظر « عيون الأخبار » (٣/ ٤) ، و« الجليس الصالح الكافي » (١/ ٣٥٨) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٦) .

وآخرُ فيهِ ملوحةٌ فخذْ منهُ وقتَ الحاجةِ فقطْ)[1] .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ : لا تصحبْ خمسةً : الكذابُ ؛ فإنَّكَ منهُ علىٰ غررٍ ، وهوَ مثلُ السرابِ ، يقرِّبُ منكَ البعيدَ ، ويبعِّدُ منكَ القريبَ ، والأحمقُ ؛ فإنَّكَ لستَ منهُ علىٰ شيءٍ ، يريدُ أنْ ينفعَكَ فيضرَّكَ ، والبخيلُ ؛ فإنَّهُ يقطعُ بكَ أحوجَ ما تكونُ إليهِ ، والجبانُ ؛ فإنَّهُ يسلمُكَ ويفرُّ عندَ الشدَّةِ ، والفاسقُ ؛ فإنَّهُ يبيعُكَ بأكلةٍ أوْ أقلَّ منها ، فقيلَ : وما أقلُّ منها ؟ قالَ : الطمعُ فيها ثمَّ لا ينالُها[2] .

وقالَ الجنيدُ : (لأَنْ يصحبَني فاسقٌ حسَنُ الخلقِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يصحبَني قارئٌ سيِّئُ الخلُقِ)[3] .

وقالَ ابنُ أبي الحَواري : قالَ لي أستاذي أبو سليمانَ : (يا أحمدُ ؛ لا تصحبْ إلا أحدَ رجلينِ : رجلاً ترتفقُ بهِ في أمرِ دنياكَ ، أوْ رجلاً تزيدُ معَهُ وتنتفعُ بهِ في أمرِ آخرتِكَ ، والاشتغالُ بغيرِ هـٰذينِ حمقٌ كبيرٌ)[4] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (اجتنبْ صحبةَ ثلاثةٍ مِنْ أصنافِ الناسِ :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٧) ، والقول لأبي جعفر محمد بن علي يخاطب ابنه جعفر بن محمد رضي الله عنهم ، ونحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٤٠٩) .

(٣) حكاه الحافظ الزبيدي عن صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦/ ٢٠٢) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٦) .

الجبابرةِ الغافلينَ ، والقرّاءِ المداهنينَ ، والمتصوِّفةِ الجاهلينَ)[1] .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الكلماتِ أكثرُها غيرُ محيطٍ بجميعِ أغراضِ الصحبةِ ، والمحيطُ ما ذكرناهُ مِنْ ملاحظةِ المقاصدِ ، ومراعاةِ الشروطِ بالإضافةِ إليها ، فليسَ ما يُشترطُ للصحبةِ في مقاصدِ الدنيا مشروطاً في الصحبةِ في الآخرةِ والأخوَّةِ ؛ كما قالَهُ بشرُ بنُ الحارثِ : (الإخوةُ ثلاثةٌ : أخٌ لآخرتِكَ ، وأخٌ لدنياكَ ، وأخٌ لتأنسَ بهِ)[2] ، وقلَّما تجتمعُ هٰذهِ المقاصدُ في واحدٍ ، بلْ تتفرَّقُ علىٰ جمعٍ ، فتتفرَّقُ الشروطُ فيهِمْ لا محالةَ .

وقدْ قالَ المأمونُ : (الإخوانُ ثلاثةٌ : أحدُهُمْ مثلُهُ مثلُ الغذاءِ لا يُستغنىٰ عنهُ ، والآخرُ مثلُهُ مثلُ الدواءِ يُحتاجُ إليهِ في وقتٍ دونَ وقتٍ ، والثالثُ مثلُهُ مثلُ الداءِ لا يُحتاجُ إليهِ قطُّ ، ولكنَّ العبدَ قدْ يُبتلىٰ بهِ ، وهوَ الذي لا أنسَ فيهِ ولا نفعَ)[3] .

وقدْ قيلَ : (مثلُ جملةِ الناسِ مثلُ الشجرِ والنباتِ ، فمنها ما لهُ ظلٌّ وليسَ لهُ ثمرٌ ، وهوَ مثلُ الذي يُنتفَعُ بهِ في الدنيا دونَ الآخرةِ ، فإنَّ نفعَ الدنيا كالظلِّ السريعِ الزوالِ ، ومنها ما لهُ ثمرٌ وليسَ لهُ ظلٌّ ، وهوَ مثلُ الذي يصلحُ للآخرةِ دون الدنيا ، ومنها ما لهُ ثمرٌ وظلٌّ جميعاً ، ومنها ما ليسَ لهُ واحدٌ منهما ؛ كأمِّ غَيْلانَ ، تمزِّقُ الثيابَ ولا طعمَ فيها ولا شرابَ ، ومثلُهُ

---

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص١٠٢) عن يحيى بن معاذ .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٦) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٦) .

مِنَ الحيواناتِ الفأرةُ والعقربُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾)[1] .

وقالَ الشاعرُ[2] : [من البسيط]

ٱلنَّاسُ شَتَّىٰ إِذا ما أَنْتَ ذُقْتَهُمُ ... لا يَسْتَوُونَ كَما لا يَسْتَوِي ٱلشَّجَرُ
هَـٰذَا لَـهُ ثَمَـرٌ حُلْـوٌ مَـذاقَتُـهُ ... وَذاكَ لَيْـسَ لَـهُ طَعْـمٌ وَلا ثَمَـرُ

فإذاً ؛ مَنْ لمْ يجدْ رفيقاً يؤاخيهِ ويستفيدُ بهِ أحدَ هـٰذهِ المقاصدِ . . فالوحدةُ أولىٰ بهِ ، قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الوحدةُ خيرٌ مِنَ الجليسِ السوءِ ، والجليسُ الصالحُ خيرٌ مِنَ الوحدةِ) ويُروىٰ مرفوعاً[3] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الديانةُ وعدمُ الفسقِ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ ، ولأنَّ مشاهدةَ الفسقِ والفسَّاقِ تهوِّنُ أمرَ المعصيةِ على القلبِ ، وتبطلُ نفرةَ القلبِ عنها ، وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (لا تنظروا إلى

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٧) ، **وشجرة أم غيلان** : شجرة الغضا ، وهو شوك البرية ، وسميت به لما تزعم العرب أنها مأوىٰ شياطين الجن ، كذا أفاده الحافظ الزبيدي ، وحكىٰ في « تاج العروس » أن لها ثمراً أحلىٰ من العسل ، ونقل عن شيخه ردَّ سبب التسمية وقول من قال : (أم غِيلان) علىٰ أنها جمع غول .
(٢) البيتان للمؤمَّل بن أميل . انظر « لباب الآداب » (٢/ ٧٨) .
(٣) رواه ابن أبي عاصم في « الزهد » (٦٥) ، ورواه مرفوعاً الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣٤٣) من حديثه .

الظلمةِ فتحبطَ أعمالُكُمُ الصالحةُ)[1] .

بلْ هؤلاءِ لا سلامةَ في مخالطتِهِمْ ، وإنَّما السلامةُ في الانقطاعِ عنهُمْ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ أيْ : سلامةً ، والألفُ بدلٌ مِن الهاءِ ، ومعناهُ : إنَّا سَلِمْنا مِنْ إثمِكُمْ ، وأنتُمْ سلمتُمْ مِنْ شرِّنا[2] .

※ ※ ※

وأمَّا الحريصُ على الدنيا : فصحبتُهُ سمٌّ قاتلٌ ؛ لأنَّ الطباعَ مجبولةٌ على التشبُّهِ والاقتداءِ ، بلِ الطبعُ يسرقُ مِنَ الطبعِ مِنْ حيثُ لا يدري صاحبُهُ ، فمجالسةُ الحريصِ على الدنيا تحرِّكُ الحِرْصَ ، ومجالسةُ الزاهدِ تزهِّدُ في الدنيا ، فلذلكَ تُكرهُ صحبةُ طلاَّبِ الدنيا ، وتُستحبُّ صحبةُ الراغبينَ في الآخرةِ .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أحيوا الطاعاتِ بمجالسةِ مَنْ يُستحيا منهُ)[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٥) ، ومثال الإبدال قول مكرز بن حصن :

تبـدَّل حصْـنٌ بـأزواجـه عِشـاراً وعَبْقـرةً عبقـرا

أراد : عبقرةً ، فأبدل من الهاء ألفاً ، وفي الآية لازدواج الكلم ومراعاة الفاصلة .
(٣) حكاه السلمي في « آداب الصحبة » (٣٣) .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ : (ما أوقعَني في بليَّةٍ إلا صحبةُ مَنْ لا أحتشِمُهُ)[1] .

وقالَ لقمانُ : (يا بنيَّ ؛ جالسِ العلماءَ ، وزاحمْهُم بركبتيكَ ؛ فإنَّ القلوبَ لتحيا بالحكمةِ كما تحيا الأرضُ الميتةُ بوابلِ القطرِ)[2] .

فهـٰذا ما أَرَدْنا أنْ نذكرَهُ مِنْ معاني الأخوَّةِ وشروطِها وفوائدِها ، فلنشرعِ الآنَ في ذكرِ حقوقِها ولوازمِها ، وطريقِ القيامِ بها .

* * *

(١) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (٣٤) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ١٠٠٢) بلاغاً ، وعند البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٤٤٥) عن عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما .

الباب الثاني
في حقوق الأخوة والصحبة

اعلمْ : أنَّ عقدَ الأُخوَّةِ رابطةٌ بينَ الشخصينِ كعقدِ النكاحِ بينَ الزوجينِ ، وكما يقتضي النكاحُ حقوقاً يجبُ الوفاءُ بها قياماً بحقِّ النكاحِ كما سبقَ ذكرُهُ في كتابِ آدابِ النكاحِ .. فكذا عقدُ الأخوَّةِ ، فلأخيكَ عليكَ حقٌّ في المالِ ، وفي النفسِ ، وفي اللسانِ ، وفي القلبِ ، بالعفوِ ، وبالدعاءِ ، وبالإخلاصِ والوفاءِ ، وبالتخفيفِ وتركِ التكلُّفِ والتكليفِ ، وذلكَ يجمعُهُ ثمانيةُ حقوقٍ :

الحقّ الأوّل: في المال

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الأخوينِ مثلُ اليدينِ تغسلُ إحداهُما الأُخرىٰ »(١) ، وإنَّما شبَّهَهُما باليدينِ لا باليدِ والرِّجْلِ لأنَّهُما يتعاونانِ علىٰ غرضٍ واحدٍ ، فكذا الأخوانِ إنَّما تتمُّ أخوَّتهُما إذا توافقا في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٤) ، وقد رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٢٨) ، وابن شاهين في « الترغيب والترهيب » (٤٣٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٤١١) ، ورواه الحربي في « الحربيات » عن سلمان رضي الله عنه موقوفاً ، وحكىٰ سنده الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ١٧٤) .

مقصدٍ واحدٍ ، فهما مِنْ وجهٍ كالشخصِ الواحدِ ، وهـٰذا يقتضي المساهمةَ في السرَّاءِ والضرَّاءِ ، والمشاركةَ في المآلِ والحالِ ، وارتفاعَ الاختصاصِ والاستئثارِ .

والمواساةُ بالمالِ معَ الأخوَّةِ علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

أدناها : أنْ تنزلَهُ منزلةَ عبدِكَ أو خادمِكَ ، فتقومَ بحاجتِهِ مِنْ فضلةِ مالكَ ، فإذا سنحَتْ لهُ حاجةٌ ، وكانَتْ عندكَ فضلةٌ علىٰ حاجتِكَ . . أعطيتَهُ ابتداءً ، ولمْ تحوجْهُ إلى السؤالِ ، فإنْ أحوجتَهُ إلى السؤالِ . . فهوَ غايةُ التقصيرِ في حقِّ الأخوَّةِ .

الثانيةُ : أنْ تنزلَهُ منزلةَ نفسِكَ ، وترضىٰ بمشاركتِهِ إيَّاكَ في مالِكَ ، ونزولِهِ منزلتَكَ ، حتَّىٰ تسمحَ بمشاطرتِهِ المالَ .

قالَ الحسنُ : (كانَ أحدُهُمْ يشقُّ إزارَهُ بينَهُ وبينَ أخيهِ باثنينِ)[(١)] .

الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ : أنْ تؤثرَهُ علىٰ نفسِكَ ، وتقدِّمَ حاجتَهُ علىٰ حاجتِكَ ، وهـٰذهِ رتبةُ الصدِّيقينَ ، ومنتهىٰ درجاتِ المتحابِّينَ ، ومِنْ تمامِ هـٰذهِ الرتبةِ الإيثارُ بالنفسِ أيضاً ؛ كما رُوِيَ أنَّهُ سُعِيَ بجماعةٍ مِنَ الصوفيَّةِ إلىٰ بعضِ الخلفاءِ ، فأمرَ بضربِ رقابِهِمْ ، وفيهِمْ أبو الحسينِ النوريُّ ، فبادرَ إلى السيَّافِ ليكونَ هوَ أوَّلَ مقتولٍ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ : فقالَ : أحببتُ أنْ

---

(١) حكى الحافظ الزبيدي نقله عن صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦/ ٢٠٤) .

أوثرَ إخواني بالحياةِ في هـٰذهِ اللحظةِ ، فكانَ ذلكَ سببَ نجاةِ جميعِهِمْ ، في حكايةٍ طويلةٍ[١] .

❁ ❁ ❁

فإنْ لمْ تصادفْ نفسَكَ في رتبةٍ مِنْ هـٰذهِ الرتبِ معَ أخيكَ . . فاعلمْ أنَّ عقدَ الأخوَّةِ لمْ ينعقدْ بعدُ في الباطنِ ، وإنَّما الجاري بينَكُما مخالطةٌ رسميَّةٌ ، لا وقعَ لها في العقلِ والدينِ ، فقدْ قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (مَنْ رضيَ مِنَ الإخوانِ بتركِ الأفضالِ . . فليؤاخِ أهلَ القبورِ)[٢] .

وأمَّا الدرجةُ الدنيا . . فليسَتْ أيضاً مرضيةً عندَ ذوي الدينِ ، رُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ جاءَ إلىٰ منزلِ رجلٍ كانَ قدْ آخاهُ ، فقالَ : أحتاجُ مِنْ مالِكَ إلىٰ أربعةِ آلافٍ ، فقالَ : خُذ ألفينِ ، فأعرضَ عنهُ وقالَ : آثرتَ الدنيا على اللهِ ، أما استحييتَ أنْ تدَّعيَ الأخوَّةَ في اللهِ وتقولَ هـٰذا ؟![٣] .

ومنْ كانَ في الدرجةِ الدنيا مِنَ الأخوَّةِ ينبغي ألا تعاملَهُ في الدنيا ، قالَ أبو حازمٍ : (إذا كانَ لكَ أخٌ في اللهِ تعالىٰ . . فلا تعاملْهُ في أمورِ دنياكَ)[٤] ، وإنَّما أرادَ بهِ مَنْ كانَ في هـٰذهِ الرتبةِ .

---

(١) رواها أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٤١٩) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٣) ، ورواه بنحوه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٣٦٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .
(٤) نقله الحافظ الزبيدي عن صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦/ ٢٥٠) .

وأمَّا الرتبةُ العليا . . فهيَ التي وصفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بها في قولِهِ : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أيْ : كانوا خلطاءَ في الأموالِ ، لا يميزُ بعضُهُمْ رحلَهُ عنْ بعضٍ(١) .

وكانَ فيهِمْ مَنْ لا يصحبُ مَنْ قالَ : نعلي ؛ لأنَّهُ أضافَهُ إلىٰ نفسِهِ(١) .

وجاءَ فتحٌ الموصليُّ إلىٰ منزلِ أخٍ لهُ وكانَ غائباً ، فأمرَ جاريتَهُ فأخرجَتْ صندوقَهُ ، ففتحَهُ وأخرجَ حاجتَهُ ، فأخبرَتِ الجاريةُ مولاها ، فقالَ : إنْ صدقتِ . . فأنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ ؛ سروراً بما فعلَ(١) .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أؤاخيَكَ في اللهِ ، فقالَ : أتدري ما حقُّ الإخاءِ ؟ قالَ : عرِّفْني ، قالَ : ألاَّ تكونَ أحقَّ بدينارِكَ ودرهمِكَ منِّي ، قالَ : لمْ أبلغْ هٰذهِ المنزلةَ بعدُ ، قالَ : فاذهبْ عنِّي(٢) .

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما لرجلٍ : هلْ يدخلُ أحدُكُمْ يدَهُ في كمِّ أخيهِ أوْ كيسِهِ فيأخذُ منهُ ما يريدُ بغيرِ إذنٍ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فلستُم بإخوانٍ(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٣) ، والخبر رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨٧) عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله عنهما .

ودخلَ قومٌ على الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالوا : يا أبا سعيدٍ ؛ أصلَّيتَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالوا : فإنَّ أهلَ السوقِ لمْ يصلُّوا بعدُ ، قالَ : ومنْ يأخذُ دينَهُ مِنْ أهلِ السوقِ ؟! بلغَني أنَّ أحدَهُمْ يمنعُ أخاهُ الدرهمَ . قالَهُ كالمتعجِّبِ منهُ[1] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ وهوَ يريدُ بيتَ المقدسِ ، فقالَ لهُ : إنِّي أريدُ أنْ أرافقَكَ ، فقالَ لهُ إبراهيمَ : علىٰ أنْ أكونَ أملكَ لشيئِكَ منكَ ، قالَ : لا ، قالَ : أعجبَني صدقُكَ[2] .

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ إذا رافقَهُ رجلٌ لمْ يخالفْهُ ، وكانَ لا يصحبُ إلا مَنْ يوافقُهُ ، وصحبَهُ رجلٌ شرَّاكٌ[3] ، فأهدىٰ رجلٌ إلىٰ إبراهيمَ في بعضِ المنازلِ قصعةً مِنْ ثريدٍ ، ففتحَ جِرابَ رفيقِهِ وأخذَ حزمةً مِنْ شُرُكٍ ، وجعلَها في القصعةِ ، وردَّها إلىٰ صاحبِ الهديَّةِ ، فلمَّا جاءَ رفيقُهُ قالَ : أينَ الشُّرُكُ ؟ قالَ : ذلكَ الثريدُ الذي أكلتَهُ أَيشٍ كانَ ؟ قالَ : كنتَ تعطيهِ شراكينِ أوْ ثلاثةً ، قالَ : اسمحْ . . يسمحْ لكَ[4] .

وأعطىٰ مرَّةً حماراً كانَ لرفيقِه بغيرِ إذنِهِ رجلاً رآهُ راجلاً ، فلمَّا

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٦٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٨) ، وفي رواية عنده زيادة : (فنعم الصاحب أنت) .
(٣) شرَّاك : وهو الذي يعمل الشَّرَك للنعال . « إتحاف » (٦/٢٠٦) .
(٤) قوت القلوب (٢/٢٢٣) .

جاءَ رفيقُهُ . . سكتَ ولمْ يكرهْ ذلكَ(١) .

قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أُهديَ لرجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأسُ شاةٍ ، فقالَ : أخي فلانٌ أحوجُ منِّي إليهِ ، فبعثَ بهِ إليهِ ، فبعثَهُ ذلكَ الإنسانُ إلىٰ آخرَ ، فلمْ يَزلْ يبعثُ بهِ واحدٌ إلىٰ آخرَ حتَّىٰ رجعَ إلى الأوَّلِ بعدَ أنْ تداولَهُ سبعةٌ(٢) .

ورُوِيَ أنَّ مسروقاً ادَّانَ ديناً ثقيلاً ، وكانَ علىٰ أخيهِ خيثمةَ دينٌ ، قالَ : فذهبَ مسروقٌ فقضىٰ دينَ خيثمةَ وهوَ لا يعلمُ ، وذهبَ خيثمةُ فقضىٰ دينَ مسروقٍ وهوَ لا يعلمُ(٣) .

ولمَّا آخىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ وسعدِ بنِ الربيعِ . . آثرهُ سعدٌ بالمالِ والنفسِ ، فقالَ : باركَ اللهُ لكَ فيهما ، فآثرَهُ عبدُ الرحمـٰنِ بما آثرَهُ بهِ ، وكأنَّهُ قبلَهُ ثمَّ آثرَهُ بهِ ، وذلكَ مساواةٌ ، والبدايةُ إيثارٌ ، والإيثارُ أفضلُ مِنَ المساواةِ(٤) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (لوْ أنَّ الدنيا كلَّها لي ، فجعلتُها في فمِ أخٍ مِنْ إخواني . . لاستقللْتُها لهُ)(٥) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٣) وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٨٤) .
(٢) انظر « الإتحاف » (١/ ٣٩٨) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٤) ، وقصة إيثار سعد لعبد الرحمـٰن رضي الله عنهما عند البخاري (٣٧٨٠) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .

وقالَ أيضاً : (إنِّي لألقمُ اللقمةَ أخاً مِنْ إخواني ، فأجدُ طعمَها في حلقي)(١) .

ولمَّا كانَ الإنفاقُ على الإخوانِ أفضلَ مِنَ الصدقاتِ على الفقراءِ . . قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لعشرونَ درهماً أعطيها أخي في اللهِ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بمئةِ درهمٍ على المساكينِ)(٢) .

وقالَ أيضاً : (لأنْ أصنعَ صاعاً مِنْ طعامٍ وأجمعَ عليهِ إخواني في اللهِ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ رقبةً)(٣) .

واقتداءُ الكلِّ في الإيثارِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ دخلَ غيضةً معَ بعضِ أصحابِهِ ، فاجتنىٰ منها سواكينِ ؛ أحدُهُما معوجٌّ ، والآخرُ مستقيمٌ ، فدفعَ المستقيمَ إلىٰ صاحبِهِ ، فقالَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ، كنتَ واللهِ أحقَّ بالمستقيمِ منِّي ، فقالَ : « ما منْ صاحبٍ يصحبُ صاحباً ولوْ ساعةً مِنَ النهارِ إلا سُئِلَ عنْ صحبتِهِ : هلْ أقامَ فيها حقَّ اللهِ أمْ أضاعَهُ ؟ »(٤) .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ بئرٍ يغتسلُ عندَها ، فأمسكَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .
(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٦٦) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣٧) ، وقد رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ١١٢) ، وابن حبان في « المجروحين » (١/ ١٥٦) ، والنهرواني في « الجليس الصالح » (١/ ٣٩٥) .

حذيفةُ بنُ اليمانِ الثوبَ وقامَ يسترُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى اغتسلَ ، ثمَّ جلسَ حذيفةُ ليغتسلَ ، فتناولَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الثوبَ ، وقامَ يسترُ حذيفةَ عنِ الناسِ ، فأبىٰ حذيفةُ وقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لا تفعلْ ، فأبىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا أنْ يسترَهُ بالثوبِ حتَّى اغتسلَ(١) .

فأشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ الإيثارَ هوَ القيامُ بحقِّ الله عزَّ وجلَّ في الصحبةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اصطحبَ اثنانِ قطُّ إلا كانَ أحبُّهُما إلى اللهِ تعالىٰ أرفقَهُما بصاحبِهِ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ مالكَ بنَ دينارٍ ومحمدَ بنَ واسعٍ دخلا منزلَ الحسنِ وكانَ غائباً ، فأخرجَ محمدُ بنُ واسعٍ سلَّةً فيها طعامٌ مِنْ تحتِ سريرِ الحسنِ ، فجعلَ يأكلُ ، فقالَ لهُ مالكٌ : كفَّ يدَكَ حتَّىٰ يجيءَ صاحبُ البيتِ ، فلمْ يلتفتْ محمدٌ إلىٰ قولِهِ ، وأقبلَ على الأكلِ ، وكانَ أبسطَ منهُ وأحسنَ خلقاً ، فدخلَ الحسنُ ، فقالَ : يا مويلِكُ ؛ هٰكذا كنَّا ، لا يحتشمُ بعضُنا عنْ بعضٍ حتَّىٰ ظهرتَ أنتَ وأصحابُكَ(٣) .

---

(١) قال الحافظ الزبيدي : (أخرجه ابن أبي عاصم في « الوحدان ») . « إتحاف » (٦/ ٢٠٧) .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٦٦) ، وفيه هناك : (أشدهما حباً لصاحبه) ، واللفظ المثبت في « القوت » (٢/ ٢١٧) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣٢) ، ورواه ابن قدامة في « المتحابين » (١١١) .

وأشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ الانبساطَ في بيوتِ الإخوانِ مِنَ الصفاءِ في الأخوَّةِ ، كيفَ وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ ، وقالَ : ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥ﴾ إذْ كانَ الأخُ يدفعُ مفتاحَ بيتِهِ إلىٰ أخيهِ ، ويفوِّضُ التصرُّفَ كما يريدُ ، وكانَ يتحرَّجُ عنِ الأكلِ بحكمِ التقوىٰ ، حتَّىٰ أنزلَ اللهُ هٰذهِ الآيةَ ، وأذنَ لهُمْ في الانبساطِ في طعامِ الإخوانِ والأصدقاءِ (١) .

* * *

---

(١) ثم قال عز وجل : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ بحضرة الإخوان ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ حال تفرقهم ، فسوَّىٰ بين غيبتهم ومشهدهم ؛ لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم ، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم في البذل والمحبة لتناول المبذول ، وهٰذا تحقيق . « إتحاف » (٦/ ٢٠٨) .

الحق الثاني : في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهٰذهِ أيضاً لها درجاتٌ كما للمواساةِ بالمالِ ، فأدناها القيامُ بالحاجةِ عندَ السؤالِ والقدرةِ ، ولكنْ معَ البشاشةِ والاستبشارِ ، وإظهارِ الفرحِ وقبولِ المنَّةِ .

قالَ بعضُهُمْ : (إذا استقضيتَ أخاكَ حاجةً فلمْ يقضِها . . فذكِّرْهُ ثانيةً ؛ فلعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ نسيَ ، فإنْ لمْ يقضِها . . فكبِّرْ عليهِ ، واقرأْ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾)[1] .

وقضى ابنُ شُبْرُمَةَ حاجةً لبعضِ إخوانِهِ كبيرةً ، فجاءَهُ بهديَّةٍ ، فقالَ : ما هٰذا ؟! قالَ : لما أسديتَهُ إليَّ ، فقالَ : خذْ مالَكَ عافاكَ اللهُ ، إذا سألتَ أخاكَ حاجةً ، فلمْ يجهدْ نفسَهُ في قضائِها . . فتوضَّأْ للصلاةِ وكبِّرْ عليهِ أربعَ تكبيراتٍ ، وعدَّهُ في الموتىٰ[2] .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : (إنِّي لأتسارعُ إلىٰ قضاءِ حوائجِ أعدائي مخافةَ أنْ أردَّهُمْ فيستغنوا عنِّي)[3] ، هٰذا في الأعداءِ ، فكيفَ في الأصدقاءِ ؟!

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٣) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤١٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ٣٠٦) .

(٣) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٤٩) .

وكانَ في السلفِ مَنْ يتفقَّدُ عيالَ أخيهِ وأولادَهُ بعدَ موتِهِ أربعينَ سنةً يقومُ بحاجتِهِمْ[1] ، ويتردَّدُ كلَّ يومٍ إليهِمْ ، ويمونُهُمْ بمالِهِ ، فكانوا لا يفقدونَ مِنْ أبيهِمْ إلا عينَهُ ، بلْ كانوا يرونَ منهُ ما لمْ يرَوا مِنْ أبيهِمْ في حياتِهِ .

وكانَ الواحدُ منهُمْ يتردَّدُ إلىٰ بابِ دارِ أخيهِ ويسألُ ويقولُ : هلْ لكُمْ زيتٌ ؟ هلْ لكُمْ ملحٌ ؟ هلْ لكُمْ حاجةٌ ؟ وكانَ يقومُ بها مِنْ حيثُ لا يعرفُهُ أخوهُ ، وبهـٰذا تظهرُ الشفقةُ والأخوَّةُ[2] .

فإذا لمْ تثمرِ الشفقةُ حتَّىٰ يشفقَ علىٰ أخيهِ كما يشفقُ علىٰ نفسِهِ . . فلا خيرَ فيها ، قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (مَنْ لمْ تنتفعْ بصداقتِهِ . . لمْ تضرَّكَ عداوتُهُ) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا وإنَّ للهِ أوانيَ في أرضِهِ ، وهيَ القلوبُ ، فأحبُّ القلوبِ إلى اللهِ تعالىٰ أصفاها وأصلبُها وأرقُّها »[3] ،

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣١٠) عن الحسن قال : (إن كان الرجل ليخلف أخاه في أهله بعد موته أربعين سنة) .

(٢) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٣٢) عن الفضيل وقد سأله رجل عن المؤاخاة : (إن كان الرجل ليحفظ ولد أخيه من بعد موته يتعاهدهم أربعين خمسين سنة عمره كله ، يأتي أهله فيقوم علىٰ بابه فيقول : هل لكم من حاجة ؟ تريدون شيئاً ؟ عندكم دقيق ؟ عندكم سويق ؟ عندكم زيت ؟ عندكم حطب ؟ عندكم كذا ؟ حتىٰ يسألهم عن الكسوة ، فيقولون : نعم ، فيقول : أروني ، فإن كان عندهم ، وإلا . . اشترىٰ لهم الخادم بخمس مئة درهم) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٧) من حديث أبي أمامة مرفوعاً ، ونحوه من حديث أبي عنبسة الخولاني رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) بنحوه ، واللفظ هنا =

أصفاها مِنَ الذنوبِ ، وأصلبُها في الدينِ ، وأرقُّها على الإخوانِ .

❊ ❊ ❊

وبالجملةِ : فينبغي أنْ تكونَ حاجةُ أخيكَ مثلَ حاجتِكَ ، أوْ أهمَّ مِنْ حاجتِكَ ، وأنْ تكونَ متفقِّداً لأوقاتِ الحاجةِ ، غيرَ غافلٍ عنْ أحوالِهِ ؛ كما لا تغفُلُ عنْ أحوالِ نفسِكَ ، وتغنيَهُ عنِ السؤالِ وإظهارِ الحاجةِ إلى الاستعانةِ ، بلْ تقومُ بحاجتِهِ كأنَّكَ لا تدري أنَّكَ قمتَ بها ، ولا ترىٰ لنفسِكَ حقّاً بسببِ قيامِكَ بها ، بل تتقلَّدُ منَّةً بقبولِهِ سعيَكَ في حقِّهِ وقيامَكَ بأمرِهِ .

ولا ينبغي أنْ تقتصرَ علىٰ قضاءِ الحاجةِ ، بلْ تجتهدُ في البدايةِ بالإكرامِ في الزيادةِ ، والإيثارِ والتقديمِ على الأقاربِ والولدِ .

كانَ الحسنُ يقولُ : (إخوانُنا أحبُّ إلينا مِنْ أهلِنا وأولادِنا ؛ لأنَّ أهلَنا يذكِّرونَنا الدنيا وإخوانَنا يذكِّرونَنا الآخرةَ)[1] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ شيَّعَ أخاهُ في اللهِ . . بعثَ اللهُ ملائكةً مِنْ تحتِ

= عند صاحب « القوت » (١/ ١١٧) عن علي رضي الله عنه ، وسيأتي للمصنف في وصف القلب .

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٩) عن الحسن وأبي قلابة ، وفيه (٢/ ٢٢٠) قال : (وكان عبد الله بن الحسن البصري يصرف إخوان الحسن إذا جاؤوا لطول لبثهم عنده ولشدة شغله بهم ، فيقول لهم : لا تملُّوا الشيخ ، فكان الحسن إذا علم ذلك . . يقول : دعهم يا لكع ؛ فإنهم أحب إلي منكم ، هؤلاء يحبوني لله عز وجل ، وأنتم تريدوني للدنيا) .

عرشِهِ يومَ القيامةِ يشيِّعونَهُ إلى الجنَّةِ)(١) .

وفي الأثرِ : (ما زارَ رجلٌ أخاً في اللهِ شوقاً إلىٰ لقائِهِ إلا ناداهُ ملكٌ مِنْ خلفِهِ . . طبتَ وطابتْ لكَ الجنَّةُ)(٢) .

وقالَ عطاءٌ : (تفقَّدوا إخوانَكُمْ بعدَ ثلاثٍ ، فإنْ كانوا مرضىٰ . . فعودُوهُمْ ، أوْ مشاغيلَ . . فأعينوهُمْ ، أوْ كانوا نسوا . . فذكِّرُوهُمْ)(٣) .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ يلتفتُ يميناً وشمالاً بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : أحببتُ رجلاً ، فأنا أطلبُهُ ولا أراهُ ، فقالَ : « إذا أحببتَ أحداً . . فسلْهُ عنِ اسمِهِ واسمِ أبيهِ ، وعنْ منزلِهِ ، فإنْ كانَ مريضاً . . عدْتَهُ ، وإنْ كانَ مشغولاً . . أعنتَهُ » ، وفي روايةٍ : « وعنِ اسمِ جدِّهِ وعشيرتِهِ »(٤) .

وقالَ الشعبيُّ في الرجلِ يجالسُ الرجلَ ، فيقولُ : أعرفُ وجهَهُ ولا أعرفُ اسمَهُ : تلكَ معرفةُ النَّوكَىٰ(٥) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٩) ، ورواه عبد الله بن وهب في « جامعه » (١٦٨) .

(٢) رواه بلفظه ابن المبارك في « الزهد » (٧٠٩) عن سعد الطائي ، ورواه مرفوعاً عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٠٣) ، والبزار كما في « مختصر زوائده » (١٨١٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤١٤٠) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٩٨) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٩) ، وقد رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٧٢) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (٤٤) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٧٣) ، والنَّوكى : الحمقىٰ .

وقيلَ لابنِ عباسٍ : مَنْ أحبُّ الناسِ إليكَ ؟ قالَ : جليسي[1] .

وقالَ : (ما اختلفَ رجلٌ إلىٰ مجلسي ثلاثاً مِنْ غيرِ حاجةٍ لهُ إليَّ فعلمتُ ما مكافأتُهُ مِنَ الدنيا)[2] .

وقال سعيدُ بنُ العاصِ : (لجليسي عليَّ ثلاثٌ : إذا دنا . . رحبتُ بهِ ، وإذا حدَّثَ . . أقبلتُ عليهِ ، وإذا جلسَ . . أوسعتُ لهُ)[3] .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إشارةً إلى الشفقةِ والإكرامِ ، ومِنْ تمامِ الشفقةِ ألا ينفردَ بطعامٍ لذيذٍ أوْ بحضورٍ في مسرَّةٍ دونَهُ ، بلْ يتنغَّصُ لفراقِهِ ، ويستوحشُ بانفرادِهِ عنْ أخيهِ .

* * *

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١١٤٥) بلفظ : (أكرم الناس عليَّ جليسي) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٩) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ١٣٧) .

الحقّ الثّالث : على اللّسان بالسّكوت مرّةً وبالنّطق أخرىٰ

أمَّا السكوتُ : فهوَ أنْ يسكتَ عنْ ذكرِ عيوبِهِ في حضرتِهِ وغيبتِهِ ، بلْ يتجاهلُ عنهُ ، ويسكتُ عنِ الردِّ عليهِ فيما يتكلَّمُ بهِ : فلا يماريهِ ولا يناقشُهُ ، وأنْ يسكتَ عنِ التجسُّسِ والسؤالِ عنْ أحوالِهِ ، وإذا رآهُ في طريقٍ أوْ في حاجةٍ[1] ولمْ يفاتحْهُ بذكرِ غرضِهِ ومصدرِهِ ومورِدِهِ . . فلا يسألُهُ عنهُ ، فربَّما يثقلُ عليهِ ذكرُهُ ، أوْ يحتاجُ إلىٰ أنْ يكذبَ فيهِ .

وأنْ يسكتَ عنْ أسرارِهِ التي بثَّها إليهِ ، فلا يبثُّها إلىٰ غيرِهِ ألبتةَ ، ولا إلىٰ أخصِّ أصدقائِهِ ، ولا يكشفُ شيئاً منها ولوْ بعدَ القطيعةِ والوحشةِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ لؤْمِ الطبعِ وخبثِ الباطنِ .

وأنْ يسكتَ عنِ القدحِ في أحبابِهِ وأهلِهِ وولدِهِ .

وأنْ يسكتَ عنْ حكايةِ قدْحِ غيرِهِ فيهِ ، فإنَّ الذي سبَّكَ مَنْ بلَّغكَ ، قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يواجهُ أحداً بشيءٍ يكرهُهُ)[2] ، والتأذِّي يحصلُ أوَّلاً مِنَ المبلِّغِ ، ثمَّ مِنَ القائلِ .

نعمْ ، لا ينبغي أنْ يخفيَ ما يسمعُ مِنَ الثناءِ عليهِ ؛ فإنَّ السرورَ بهِ أوَّلاً يحصلُ مِنَ المبلِّغِ للمدْحِ ، ثمَّ مِنَ القائلِ ، وإخفاءُ ذلكَ مِنَ الحسدِ .

---

(١) في (ب) : (أو في جماعة) ، وهو مناسب للسياق كذلك .
(٢) رواه أبو داوود (٤١٨٢) ، والترمذي في « الشمائل » (٣٤٦) .

وبالجملةِ : فليسكتْ عنْ كلِّ كلامٍ يكرهُهُ جملةً وتفصيلاً ، إلا إذا وجبَ عليهِ النطقُ في أمرٍ بمعروفٍ ، أوْ نهيٍ عنْ منكرٍ ، ولمْ يجدْ رخصةً في السكوتِ . . فإذْ ذاكَ لا يبالي بكراهتهِ ؛ فإنَّ ذلكَ إحسانٌ إليهِ في التحقيقِ ، وإنْ كانَ يظنُّ أنَّها إساءةٌ في الظاهرِ (١) .

أمَّا ذكرُ مساوئِهِ وعيوبِهِ ومساوىءِ أهلِهِ . . فهوَ مِنَ الغيبةِ ، وذلكَ حرامٌ في حقِّ كلِّ مسلمٍ ، ويزجرُكَ عنهُ أمرانِ :

أحدُهما : أنْ تطالعَ أحوالَ نفسِكَ ، فإنْ وجدتَ فيها شيئاً واحداً مذموماً . . فهوِّنْ علىٰ نفسِكَ ما تراهُ مِنْ أخيكَ ، وقدِّرْ أنَّهُ عاجزٌ عنْ قهرِ نفسِهِ في تلكَ الخصلةِ الواحدةِ كما أنَّكَ عاجزٌ عمَّا أنتَ مبتلىً بهِ ، ولا تستثقلْهُ بخصلةٍ واحدةٍ مذمومةٍ ، فأيُّ الرجالِ المهذَّبُ ؟!

وكلُّ ما لا تصادفُهُ مِنْ نفسِكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا تنتظرْهُ مِنْ أخيكَ في حقِّ نفسِكَ ، فليسَ حقُّكَ عليهِ بأكثرَ مِنْ حقِّ اللهِ عليكَ .

والأمرُ الثاني : أنْ تعلمَ أنَّكَ لوْ طلبتَ منزهاً عنْ كلِّ عيبٍ . . اعتزلتَ عنِ الخلقِ كافَّةً ، ولمْ تجدْ مَنْ تصاحبُهُ أصلاً ، فما مِنْ أحدٍ مِنَ الناسِ إلا ولهُ محاسنُ ومساوىءُ ، فإذا غلبَتِ المحاسنُ المساوىءَ . . فهوَ الغايةُ والمنتهىٰ ، والمؤمنُ الكريمُ أبداً يُحضرُ في نفسِهِ محاسنَ أخيهِ ؛ لينبعثَ مِنْ

---

(١) ومنهم من قال : يكتبه في لوح ، فيعرض عليه ، لعله يعتبر فيرتدع عنه ، فهـٰذا هو أولى الأشياء ، وأبعد من غرور المواجهة . « إتحاف » (٦/ ٢١١) .

قلبِهِ التوقيرُ والودُّ والاحترامُ ، وأمَّا المنافقُ اللئيمُ . . فإنَّهُ أبداً يلاحظُ المساوئَ والعيوبَ .

قالَ ابنُ المباركِ : (المؤمنُ يطلبُ المعاذيرَ ، والمنافقُ يطلبُ العثراتِ)[1] .

وقالَ الفضيلُ : (الفتوَّةُ الصفحُ عنْ زلاَّتِ الإخوانِ)[2] .

ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استعيذوا باللهِ مِنْ جارِ السوءِ ؛ الذي إنْ رأىٰ خيراً . . سترَهُ ، وإنْ رأىٰ شراً . . أظهرَهُ »[3] .

وما مِنْ شخصٍ إلا ويمكنُ تحسينُ حالِهِ بخصالٍ فيهِ ، ويمكنُ تقبيحُهُ أيضاً ، رويَ أنَّ رجلاً أثنىٰ علىٰ رجلٍ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلما كانَ مِنَ الغدِ . . ذمَّهُ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أنتَ بالأمسِ تثني عليهِ واليومَ تذمُّهُ ؟! » فقالَ : واللهِ ؛ لقدْ صدقتُ عليهِ بالأمسِ وما كذبتُ عليهِ اليومَ ، إنَّهُ أرضاني بالأمسِ ؛ فقلتُ أحسنَ ما علمتُ فيهِ ، وأغضبَني اليومَ ؛ فقلتُ أقبحَ ما علمتُ فيهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مِنَ

---

(١) حكاه الحافظ الزبيدي عن صاحب « القوت » . « إتحاف » (٦/ ٢١٢) .

(٢) رواه القشيري في « الرسالة » (ص٣٩٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٣٠) .

(٣) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٦/ ٢٧٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، وقد تقدم بعضه في حديث الفواقر الثلاث ، وروى النسائي (٨/ ٢٧٤) عن أبي هريرة مرفوعاً : « تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام ، فإن جار البادية يتحول عنك » .

البيانِ لسحراً »⁽¹⁾ ، وكأنَّهُ كرهَ ذلكَ ، فشبَّهَهُ بالسحرِ .

ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في خبرٍ آخرَ : « البَذاءُ والبيانُ شعبتانِ مِنَ النفاقِ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « إنَّ اللهَ يكرهُ لكُمُ البيانَ كلَّ البيانِ »[3] .

ولذلكَ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أحدٌ مِنَ المسلمينَ يطيعُ اللهَ فلا يعصيهِ ، ولا أحدٌ يعصي اللهَ ولا يطيعُهُ ، فمَنْ كانَتْ طاعتُهُ أغلبَ مِنْ معاصيهِ . . فهوَ عدْلٌ)[4] ، وإذا جُعِلَ مثلُ هٰذا عدلاً في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فبأنْ تراهُ عدلاً في حقِّ نفسِكَ ومقتضىٰ أخوَّتِكَ أولىٰ .

❁ ❁ ❁

وكما يجبُ عليكَ السكوتُ بلسانِكَ عنْ مساوئِهِ . . يجبُ عليكَ السكوتُ بقلبِكَ : وذلكَ بتركِ إساءةِ الظنِّ ، فسوءُ الظنِّ غيبةٌ بالقلبِ ، وهوَ منهيٌّ عنهُ أيضاً ، وحدُّهُ : ألا تحملَ فعلَهُ علىٰ وجهٍ فاسدٍ ما أمكنَ أنْ تحملَهُ علىٰ وجهٍ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٦٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٦١٣) والرجلان هما الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٢٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/١٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن السني في كتاب « رياضة المتعلمين » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف) . « إتحاف » (٦/٢١٣) .

(٤) رواه الخطيب في « الكفاية » (ص٧٥ـ ٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/١٩٧) بنحوه .

حسنٍ ، فأمَّا ما انكشفَ بيقينٍ ومشاهدةٍ . فلا يمكنُكَ ألا تعلمَهُ ، وعليكَ أنْ تحملَ ما تشاهدُ علىٰ سهوٍ ونسيانٍ إنْ أمكنَ .

وهـٰذا الظنُّ ينقسمُ إلىٰ **ما يسمَّىٰ تفرُّساً** ، وهوَ الذي يستندُ إلىٰ علامةٍ ، فإنَّ ذلكَ يحرِّكُ الظنَّ تحريكاً ضرورياً لا يُقدرُ علىٰ دفعِهِ ، وإلىٰ **ما منشؤُهُ سوءُ اعتقادِكَ فيهِ** ، حتَّىٰ يصدرَ منهُ فعلٌ لهُ وجهانِ ، فيحملُكَ سوءُ الاعتقادِ علىٰ أنْ تنزلَهُ على الوجهِ الأردأِ مِنْ غيرِ علامةٍ تخصُّهُ بها ، وذلكَ جنايةٌ عليهِ بالباطنِ ، وذلكَ جارٍ في حقِّ كلِّ مؤمنٍ[1] ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ حرَّمَ مِنَ المؤمنِ دمَهُ ومالَهُ وعرضَهُ ، وأنْ يُظنَّ بهِ ظنُّ السَّوْءِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : «إيَّاكُمْ والظنَّ ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ»[3] .

وسوءُ الظنِّ يدعو إلى التجسُّسِ والتحسُّسِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تقاطَعوا ، ولا تدابَروا ، وكونوا ـ عِبادَ اللهِ ـ إخواناً »[4] ، والتجسُّسُ في تطلُّعِ الأخبارِ ، والتحسُّسُ بالمراقبةِ بالعينِ[5] ، فسترُ العيوبِ والتجاهلُ والتغافلُ عنها شيمةُ أهلِ الدينِ .

---

(١) في هامش (ب) : نسخة : (حرام) بدل (جار) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣١)، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٨٠) .
(٣) رواه البخاري (٥١٤٤ ، ٦٠٦٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) .
(٤) هو تتمة الحديث المتقدم قبله .
(٥) **وأصله** : طلب الشيء بحاسته ؛ كاستراق السمع وإبصار الشيء بخفية ، وقيل : الأول : التفحص عن عورات الناس وبواطن أمورهم بنفسه أو بغيره ، والثاني : أن يتولاه بنفسه ، وقيل : الأول يخصُّ الشر ، والثاني أعم . « إتحاف » (٦/ ٢١٤) .

ويكفيكَ تنبيهاً علىٰ كمالِ الرتبةِ في سترِ القبيحِ وإظهارِ الجميلِ أنَّ اللهَ تعالىٰ وُصِفَ بهِ في الدعاءِ ، فقيلَ : (يا مَنْ أظهرَ الجميلَ وسترَ القبيحَ)[١] ، والمرضيُّ عندَ اللهِ مَنْ تخلَّقَ بأخلاقِهِ ؛ فإنَّهُ ستَّارُ العيوبِ وغفَّارُ الذنوبِ ، ومتجاوزٌ عنِ العبيدِ ، فكيفَ لا تتجاوزُ أنتَ عمَّنْ هوَ مثلُكَ أوْ فوقَكَ ، وما هوَ بكلِّ حالٍ عبدَكَ ولا مخلوقَكَ ؟!

وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ للحواريينَ : كيفَ تصنعونَ إذا رأيتُمْ أخاكُمْ نائماً وقدْ كشفَتِ الريحُ ثوبَهُ عنهُ ؟ قالوا : نسترُهُ ونغطِّيهِ ، قالَ : بلْ تكشفونَ عورتَهُ ، قالوا : سبحانَ اللهِ ! مَنْ يفعلُ هـٰذا ؟! فقالَ : أحدُكُمْ يسمعُ بالكلمةِ في أخيهِ فيزيدُ عليها ويشيعُها بأعظمَ منها[٢] .

واعلمْ : أنَّهُ لا يتمُّ إيمانُ المرءِ ما لمْ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ ، وأقلُّ درجاتِ الأخوَّةِ أنْ يعاملَ أخاهُ بما يحبُّ أنْ يعاملَهُ بهِ ، ولا شكَّ في أنَّهُ ينتظرُ منهُ سترَ العورةِ ، والسكوتَ عنِ المساوِئِ والعيوبِ ، ولوْ ظهرَ لهُ منهُ نقيضُ ما ينتظرُهُ . اشتدَّ عليهِ غيظُهُ وغضبُهُ ، فما أبعدَهُ عنِ الإنصافِ إذا كانَ ينتظرُ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٤٤) وتمامه : (يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، يا من لا يؤاخذ على الجريرة ، ولا يهتك الستر ، يا عظيم العفو ، يا حسن التجاوز ، يا واسع المغفرة ، يا باسط اليدين بالرحمة ، يا صاحب كل نجوىٰ ، ويا منتهىٰ كل شكوىٰ ، يا كريم الصفح ، يا عظيم المنِّ ، يا مبتدىء النعم قبل استحقاقها ، يا ربنا ، ويا سيدنا ، ويا مولانا ، ويا غاية رغبتنا ؛ أسألك يا الله ألا تشويَ خلقي بالنار) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .

منهُ ما لا يضمرُهُ لهُ ، ولا يعزمُ عليهِ لأجلِهِ ، وويلٌ لهُ في نصِّ كتابِ اللهِ تعالىٰ حيثُ قالَ : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ، فكلُّ مَنْ يلتمسُ مِنَ الإنصافِ أكثرَ ممَّا تسمحُ بهِ نفسُهُ . . فهوَ داخلٌ تحتَ مقتضىٰ هٰذهِ الآيةِ .

❋ ❋ ❋

ومنشأُ التقصيرِ في سترِ العورةِ أوِ السعيِ في كشفِها : الداءُ الدفينُ في الباطنِ ، وهوَ الحقدُ والحسدُ ؛ فإنَّ الحقودَ الحسودَ يمتلىءُ باطنُهُ بالخبْثِ ، ولكنَّهُ يحبسُهُ في باطنِهِ ، ويخفيهِ ولا يبديهِ مهما لمْ يجدْ لهُ مجالاً ، فإذا وجدَ فرصةً . . انحلَّتِ الرابطةُ ، وارتفعَ الحياءُ ، وترشَّحَ الباطنُ بخبثِهِ الدفينِ .

ومهما انطوى الباطنُ علىٰ حقدٍ وحسدٍ . . فالانقطاعُ أولىٰ ، قالَ بعضُ الحكماءِ : (ظاهرُ العتابِ خيرٌ مِنْ مكنونِ الحقدِ ، ولا يزيدُ لطفُ الحقودِ إلا وحشةً منهُ)[1] ، ومنْ في قلبِهِ سخيمةٌ علىٰ مسلمٍ . . فإيمانُهُ ضعيفٌ وأمرُهُ مخطرٌ ، وقلبُهُ خبيثٌ لا يصلحُ للقاءِ اللهِ .

وقدْ روىٰ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ جبيرِ بنِ نفيرٍ عنْ أبيهِ أنَّهُ قالَ : كنتُ باليمنِ ، ولي جارٌ يهوديٌّ يخبرني عنِ التوراةِ ، فقدمَ عليَّ اليهوديُّ مِنْ سفرٍ ، فقلتُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ بعثَ فينا نبياً ، فدعانا إلى الإسلامِ ، فأسلمْنا ، وقدْ نزَّلَ علينا كتاباً مصدقاً للتوراةِ ، فقالَ اليهوديُّ : صدقتَ ، ولكنَّكُمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .

لا تستطيعونَ أنْ تقوموا بما جاءَكُمْ بهِ ، إنَّا نجدُ نعتهُ ونعتَ أمَّتِهِ في التوراةِ : أنَّهُ لا يحلُّ لامرئٍ يخرجُ مِنْ عتبةِ بابهِ وفي قلبهِ سخيمةٌ علىٰ أخيهِ المسلمِ[1] .

❊ ❊ ❊

ومِنْ ذلكَ : **أنْ يسكتَ عنْ إفشاءِ سرِّهِ الذي استودعَهُ إيَّاهُ** : ولهُ أنْ ينكرَهُ وإنْ كانَ كاذباً ، فليسَ الصدقُ واجباً في كلِّ مقامٍ ؛ فإنَّهُ كما يجوزُ للرجلِ أنْ يخفيَ عيوبَ نفسِهِ وأسرارَهُ وإنِ احتاجَ إلى الكذبِ . فلهُ أنْ يفعلَ ذلكَ في حقِّ أخيهِ ؛ فإنَّ أخاهُ نازلٌ منزلتَهُ ، وهما كشخصٍ واحدٍ لا يختلفانِ إلا بالبدنِ .

هـٰذهِ حقيقةُ الأخوَّةِ .

ولذلكَ لا يكونُ بالعملِ بينَ يديهِ مرائياً وخارجاً عنْ أعمالِ السرِّ إلىٰ أعمالِ العلانيةِ ، فإنَّ معرفةَ أخيهِ بعملِهِ كمعرفتِهِ بنفسِهِ مِنْ غيرِ فرقٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سترَ عورةَ أخيهِ . . سترَهُ اللهُ تعالىٰ في الدنيا والآخرةِ »[2] .

وفي خبرٍ آخرَ : « فكأنَّما أحيا موءودةً مِنْ قبرِها »[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) ، **والسخيمةُ** : الحقد والضغينة والموجدة في النفس .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) وفيه : (يوم القيامة) بدل (في الدنيا والآخرة) ، وعند البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) : « ومن ستر مسلماً . . ستره الله يوم القيامة » .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٩١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٢٤١) وزيادة : (من قبرها) عنده .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حدَّثَ الرجلُ بحديثٍ ثمَّ التفتَ . . فهوَ أمانةٌ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المجالسُ بالأمانةِ إلا ثلاثةَ مجالسَ ، مجلسٌ يُسفكُ فيهِ دمٌ حرامٌ ، ومجلسٌ يُستحلُّ فيهِ فرجٌ حرامٌ ، ومجلسٌ يُستحلُّ فيهِ مالٌ مِنْ غيرِ حلِّهِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما يتجالسُ المتجالسانِ بالأمانةِ ، ولا يحلُّ لأحدِهِما أنْ يفشيَ علىٰ صاحبِهِ ما يكرهُ »[3] .

قيلَ لبعضِ الأدباء : كيفَ حفظُكَ للسرِّ ؟ قالَ : أنا قبرُهُ[4] .

وقدْ قيلَ : (صدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ)[5] .

وقيلَ : إنَّ قلبَ الأحمقِ في فيهِ ، ولسانَ العاقلِ في قلبِهِ ؛ أيْ : لا يستطيعُ الأحمقُ إخفاءَ ما في نفسِهِ ، فيبديهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فمِنْ هـٰذا يجبُ مقاطعةُ الحمقىٰ ، والتوقِّي عنْ صحبتِهِمْ ، بلْ عَنْ مشاهدتِهِمْ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٦٨) ، والترمذي (١٩٥٩) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٦٩) ، فمن قال : أريد قتل فلان ، أو الزنا بفلانة ، أو مال فلان ظلماً . . لا يجوز للمستمعين حفظ سرِّه ، بل عليهم إفشاؤه دفعاً للمفسدة . « إتحاف » (٦/ ٢١٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٦٧٧) عن أبي بكر بن حزم مرسلاً .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) ، ونحوه في « عيون الأخبار » (١/ ٣٩) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٧٧) عن ذي النون المصري .

وقدْ قيلَ لآخرَ : كيفَ تحفظُ السرَّ ؟ قالَ : أجحدُ المُخبِرَ ، وأحلفُ للمستخبِرِ[1] .

وقالَ آخرُ : أسترُهُ وأسترُ أنِّي أسترُهُ .

وعبَّرَ عنهُ ابنُ المعتزِّ بقولِهِ[2] : [من الطويل]

وَمُسْتَوْدِعِي سِرّاً تَبَوَّأْتَ كَتْمَهُ فَأَوْدَعْتَهُ صَدْرِي فَصارَ لَهُ قَبْرَا

وقالَ آخرُ وأرادَ الزيادةَ عليهِ[3] : [من الطويل]

وَما ٱلسِّرُّ فِي صَدْرِي كَثاوٍ بِقَبْرِهِ لأَنِّي أَرَى ٱلْمَقْبُورَ يَنْتَظِرُ ٱلنَّشْرا
ولَـٰكِنَّنِي أَنْساهُ حَتَّىٰ كَأَنَّنِي بِما كانَ مِنْهُ لَمْ أُحِطْ ساعَةً خُبْرا
وَلَوْ جازَ كَتْمُ ٱلسِّرِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ عَنِ ٱلسِّرِّ وَٱلأَحْشَاءِ لَمْ تَعْلَمِ ٱلسِّرَّا

وأفشىٰ بعضُهُمْ سرّاً لهُ إلىٰ أخيهِ ، ثمَّ قالَ لهُ : حفظتَ ؟ فقالَ : بلْ نسيتُ[4] .

وكانَ أبو سعيدٍ الثوريُّ يقولُ : (إذا أردتَ أنْ تؤاخيَ رجلاً . . فأغضبْهُ ،

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٤٠) ، قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .
(٢) رواه له صاحب « القوت » (٢/ ٢٢٤) قال : (ومن أحسن ما سمعت في حفظ السر ما حدثني بعض أشياخنا عن إخوان له دخلوا علىٰ عبد الله بن المعتز ، فاستنشدوه شيئاً من شعره في حفظ السر ، فأنشدهم على البديهة) ، والبيت ليس في « ديوانه » .
(٣) الأبيات لمحمد بن داوود الأصبهاني كما في « القوت » (٢/ ٢٢٤) ، وانظر « لباب الآداب » لابن منقذ (ص ٢٤١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .

ثمَّ دُسَّ عليهِ مَنْ يسألُهُ عنكَ وعنْ أسرارِكَ ؛ فإنْ قالَ خيراً وكتمَ سرَّكَ.. فاصحبْهُ)[1] .

وقيلَ لأبي يزيدَ : مَنْ تصحبُ مِنَ الناسِ ؟ قالَ : مَنْ يعلمُ منكَ ما يعلمُ اللهُ ، ثمَّ يسترُ عليكَ كما يسترُ اللهُ[2] .

وقالَ ذو النونِ : (لا خيرَ في صحبةِ مَنْ لا يحبُّ أنْ يراكَ إلا معصوماً)[3] .

ومَنْ أفشى السرَّ عندَ الغضبِ.. فهوَ اللئيمُ ؛ لأنَّ إخفاءَهُ عندَ الرضا تقتضيهِ الطباعُ السليمةُ كلُّها ، وقدْ قالَ بعضُ الحكماءِ : (لا تصحبْ مَنْ يتغيَّرُ عليكَ عندَ أربعٍ : عندَ غضبِهِ ورضاهُ ، وعندَ طمعِهِ وهواهُ)[4] ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ صدْقُ الأخوَّةِ ثابتاً على اختلافِ هاذهِ الأحوالِ ، ولذلكَ قيلَ[5] : [من الكامل]

وَتَرَى ٱلْكَرِيمَ إِذا تَصَرَّمَ وَصْلُهُ ... يُخْفِي ٱلْقَبِيحَ وَيُظْهِرُ ٱلإِحْسانا
وَتَرَى ٱللَّئِيمَ إِذا تَقَضَّىٰ وَصْلُهُ ... يُخْفِي ٱلْجَمِيلَ وَيُظْهِرُ ٱلْبُهْتانا

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٥) ، وقد رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٩١) من قول لقمان لابنه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٥) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٦) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢١٥) حيث قال قبلهما : (أنشدنا بعض العلماء الحكماء) .

وقالَ العباسُ لابنِهِ عبدِ اللهِ : إنِّي أرىٰ هٰذا الرجلَ ـ يعني عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ـ يقدِّمُكَ على الأشياخِ ، فاحفظْ عنِّي خمساً : لا تفشينَّ لهُ سرّاً ، ولا تغتابنَّ عندَهُ أحداً ، ولا تجرينَّ عليهِ كذباً ، ولا تعصينَّ لهُ أمراً ، ولا يطلعنَّ منكَ علىٰ خيانةٍ ، فقالَ الشعبيُّ : كلُّ كلمةٍ مِنْ هٰذهِ الخمسِ خيرٌ مِنْ ألفٍ[1] .

* * *

ومِنْ ذلكَ : السكوتُ عنِ المماراةِ والمدافعةِ في كلِّ ما يتكلَّمُ بهِ أخوكَ : قالَ ابنُ عباسٍ : (لا تمارِ سفيهاً فيؤذيَكَ ، ولا حليماً فيقليَكَ)[2] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المراءَ وهوَ مبطلٌ . . بُنِيَ لهُ بيتٌ في ربضِ الجنَّةِ ، ومَنْ تركَهُ وهوَ محقٌّ . . بُنِيَ لهُ بيتٌ في أعلى الجنةِ »[3] ، هٰذا معَ أنَّ تركَهُ مبطلاً واجبٌ ، وقدْ جعلَ ثوابَ النفلِ أعظمَ ؛ لأنَّ السكوتَ عنِ الحقِّ أشدُّ على النفسِ مِنَ السكوتِ على الباطلِ ، وإنَّما الأجرُ علىٰ قدْرِ النصبِ .

وأشدُّ الأسبابِ لإثارةِ نارِ الحقدِ بينَ الإخوانِ المماراةُ والمناقشةُ ؛ فإنَّها

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣١٨) ، ولم يذكرا الأخيرتين ، وهو عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٢٤) من روايتين أدخل إحداهما في الأخرىٰ .

(٢) رواه أبو داوود في « الزهد » (٣٤٨) ضمن وصية له .

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) .

عينُ التدابرِ والتقاطعِ ، فإنَّ التقاطعَ يقعُ أوّلاً بالآراءِ ، ثمَّ بالأقوالِ ، ثمَّ بالأبدانِ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدابروا ، ولا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا ـ عبادَ اللهِ ـ إخواناً ، المسلمُ أخو المسلمِ ، لا يظلمُهُ ولا يحرمُهُ ولا يخذلُهُ ، بحسْبِ المرءِ مِنَ الشرِّ أنْ يحقرَ أخاهُ المسلمَ »[1] .

وأشدُّ الاحتقارِ المماراةُ ؛ فإنَّ منْ ردَّ علىٰ غيرِهِ كلامَهُ . . فقدْ نسبَهُ إلى الجهلِ والحمقِ ، أوْ إلى الغفلةِ والسهوِ عنْ فهمِ الشيءِ علىٰ ما هوَ عليهِ ، وكلُّ ذلكَ استحقارٌ ، وإيغارٌ للصدرِ وإيحاشٌ .

وفي حديثِ أبي أمامةَ الباهليِّ قالَ : خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نتمارىٰ ، فغضبَ وقالَ : « ذَرُوا المراءَ لقلَّةِ خيرِهِ ، وذَرُوا المراءَ فإنَّ نفعَهُ قليلٌ ، وإنَّهُ يهيِّجُ العداوةَ بينَ الإخوانِ »[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مَنْ لاحى الإخوانَ وماراهُمْ . . قلَّتْ مروءَتُهُ ، وذهبَتْ كرامتُهُ)[3] .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

(٢) رواه أبو إسماعيل الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/٣٦٧) ضمن خبر طويل ، وصدره عند الطبراني في « الكبير » (٨/١٥٢) .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٢٢) ، وقد روى البيهقي في « الشعب » (٨٠٨١) : « ومن لاحى الرجال . . سقطت مروءته ، وذهبت كرامته » .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ : (إيَّاكَ ومماراةَ الرجالِ ؛ فإنَّكَ لنْ تعدمَ مكرَ حليمٍ ، أوْ مفاجأةَ لئيمٍ)(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (أعجزُ الناسِ مَنْ قصَّرَ في طلبِ الإخوانِ ، وأعجزُ منهُ مَنْ ضيَّعَ مَنْ ظفرَ بهِ منهمْ)(٢) .

وكثرةُ المماراةِ توجبُ التضييعَ والقطيعةَ ، وتورثُ العداوةَ ، وقدْ قالَ الحسنُ : (لا تشترِ عداوةَ رجلٍ بمودَّةِ ألفِ رجلٍ)(٣) .

❊ ❊ ❊

وعلى الجملةِ : فلا باعثَ على المماراةِ إلا إظهارُ التمييزِ بمزيدِ العقلِ والفضلِ ، واحتقارُ المردودِ عليهِ بإظهارِ جهلِهِ ، وهـٰذا يشتملُ على التكبُّرِ والاحتقارِ ، والإيذاءِ والشتْمِ بالحمْقِ والجهلِ ، ولا معنىً للمعاداةِ إلا هـٰذا ، فكيفَ تضامُّهُ الأخوَّةُ والمصافاةُ ؟!

وقدْ روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لا تمارِ أخاكَ ، ولا تمازحْهُ ، ولا تعدْهُ موعداً فتخلفَهُ »(٤) .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٩٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/٣٨٨) .

(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٠٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٢٢٢) ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٩٤) عن إسماعيل بن مسلم .

(٤) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكُمْ لا تسعونَ الناسَ بأموالِكُمْ ، ولكنْ ليسعْهُمْ منكُمْ بسطُ وجهٍ وحسْنُ خلقٍ »[1] .

والمماراةُ مضادةٌ لحسْنِ الخلقِ .

وقدِ انتهى السلفُ في الحذرِ عنِ المماراةِ والحضِّ على المساعدةِ إلىٰ حدٍّ لمْ يَروا السؤالَ أصلاً ، وقالوا : إذا قلتَ لأخيكَ : قُمْ ، فقالَ : إلىٰ أينَ ؟ . . فلا تصحبْهُ[2] .

بلْ قالوا : ينبغي أنْ يقومَ ولا يسألَ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : كانَ لي أخٌ بالعراقِ ، فكنتُ أجيئُهُ في النوائبِ ، فأقولُ : أعطني مِنْ مالكَ شيئاً ، فكانَ يلقي إليَّ كيسَهُ ، فآخذُ منهُ ما أريدُ ، فجئتُهُ ذاتَ يومٍ ، فقلتُ : أحتاجُ إلىٰ شيءٍ ، فقالَ : كمْ تُريدُ ؟ فخرجَتْ حلاوةُ إخائِهِ مِنْ قلبي[3] .

وقالَ آخرُ : إذا طلبتَ مِنْ أخيكَ مالاً ، فقالَ : ماذا تصنعُ بهِ ؟ . . فقدْ تركَ حقَّ الإخاءِ[4] .

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٥٣٦) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ١٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٢) .

واعلمْ : أنَّ قِوامَ الأخوَّةِ بالموافقةِ في الكلامِ والفعلِ وبالشفقةِ ، قالَ أبو عثمانَ الحيريُّ : (موافقةُ الإخوانِ خيرٌ مِنَ الشفقةِ عليهِمْ)(١) ، وهوَ كما قالَ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٤) .

الحقّ الرّابع : على اللّسان بالنّطق

فإنَّ الأخوَّةَ كما تقتضي السكوتَ عَنِ المكارهِ فتقتضي أيضاً النطقَ بالمحابِّ ، بلْ هوَ أخصُّ بالأخوَّةِ ؛ لأنَّ مَنْ قنعَ بالسكوتِ . . صحبَ أهلَ القبورِ ، وإنَّما تُرادُ الإخوانُ ليُستفادَ منهُمْ ، لا ليُتخلَّصَ عنْ أذاهُمْ ، والسكوتُ معناهُ كفُّ الأذىٰ .

فعليهِ أنْ يتودَّدَ إليهِ بلسانِهِ ، ويتفقدَهُ في أحوالِهِ التي يحبُّ أنْ يُتفقَّدَ فيها ؛ كالسؤالِ عَنْ عارضٍ إنْ عرضَ ، وإظهارِ شغْلِ القلبِ بسببِهِ ، واستبطاءِ العافيةِ عنهُ ، وكذا جملةُ أحوالِهِ التي يكرهُها ، ينبغي أنْ يظهرَ بلسانِهِ وأفعالِهِ كراهتَها ، وجملةُ أحوالِهِ التي يُسرُّ بها ، ينبغي أنْ يظهرَ بلسانِهِ مشاركتَهُ لهُ في السرورِ بها ، فمعنى الأخوَّةِ المساهمةُ في السرَّاءِ والضرَّاءِ .

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « إذا أحبَّ أحدُكُمْ أخاهُ . . فليخبرْهُ »[1] ، وإنَّما أمرَ بالإخبارِ لأنَّ ذلكَ يوجبُ زيادةَ حبٍّ ، فإنْ عرفَ أنَّكَ تحبُّهُ . . أحبَّكَ بالطبعِ لا محالةَ ، فإذا عرفتَ أنَّهُ أيضاً يحبُّكَ . . زادَ حبُّكَ لا محالةَ ، فلا يزالُ الحبُّ يتزايدُ مِنَ الجانبينِ ويتضاعفُ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٢٤) ، والترمذي (٢٣٩٢) .

والتحابُّ بينَ المؤمنينَ مطلوبٌ في الشرعِ ، ومحبوبٌ في الدينِ ، ولذلكَ علَّمَ فيهِ الطريقَ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تهادَوا تحابُّوا »[1] .

❋ ❋ ❋

ومِنْ ذلكَ : **أنْ تدعوَهُ بأحبِّ أسمائِهِ إليهِ في غيبتِهِ وحضورِهِ** : قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ يصفينَ لكَ وُدَّ أخيكَ : أنْ تسلِّمَ عليهِ إذا لقيتَهُ أوَّلاً ، وتوسعَ لهُ في المجلسِ ، وتدعوَهُ بأحبِّ أسمائِهِ إليهِ)[2] .

❋ ❋ ❋

ومِنْ ذلكَ : **أنْ تثنيَ عليهِ بما تعرفُ مِنْ محاسنِ أحوالِهِ عندَ مَنْ يؤثرُ هوَ الثناءَ عندَهُ** : فإنَّ ذلكَ مِنْ أعظمِ الأسبابِ في جلْبِ المحبَّةِ ، وكذلكَ الثناءُ علىٰ أولادِهِ وأهلِهِ ، وصنعتِهِ وفعلِهِ ، حتَّىٰ علىٰ عقلِهِ وخلقِهِ وهيئتِهِ ، وخطِّهِ وشِعْرِهِ وتصنيفِهِ ، وجميعِ ما يفرحُ بهِ ، وذلكَ مِنْ غيرِ كذبٍ وإفراطٍ ، ولكنْ تحسينُ ما يقبلُ التحسينَ لا بدَّ منهُ .

وآكدُ مِنْ ذلكَ : أنْ تبلغَهُ ثناءَ مَنْ أثنىٰ عليهِ معَ إظهارِ الفرحِ بهِ ، فإنَّ إخفاءَ ذلكَ محضُ الحسدِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٩٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣١٦) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (٤٢) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٢٩) مرفوعاً من حديث عثمان بن طلحة رضي الله عنه .

ومِنْ ذلكَ : أنْ تشكرَهُ علىٰ صنيعِهِ في حقِّكَ ، بلْ علىٰ نيَّتِهِ وإنْ لمْ يتمَّ ذلكَ : قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ لمْ يحمدْ أخاهُ علىٰ حسنِ النيَّةِ . . لمْ يحمدْهُ علىٰ حسْنِ الصنيعةِ)[١] .

وأعظمُ مِنْ ذلكَ تأثيراً في جلبِ المحبّةِ : **الذبُّ عنهُ في غيبتِهِ مهما قُصِدَ بسوءٍ أوْ تعرَّضَ لعرضِهِ بكلامٍ صريحٍ أوْ تعريضٍ** : فحقُّ الأخوَّةِ التشميرُ في الحمايةِ والنصرةِ ، وتبكيتُ المتعنِّتِ ، وتغليظُ القولِ عليهِ ، فالسكوتُ عنْ ذلكَ موغرٌ للصدرِ ، ومنفِّرٌ للقلبِ ، وتقصيرٌ في حقِّ الأخوَّةِ .

وإنَّما شبَّهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأخوينِ باليدينِ تغسلُ إحداهُما الأخرىٰ . . لينصرَ أحدُهُما الآخرَ وينوبَ عنهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المسلمُ أخو المسلمِ ، لا يظلمُهُ ولا يخذلُهُ ولا يُسلِمُهُ »[٢] ، وهاذا من الإسلامِ والخذلانِ ؛ فإنَّ إهمالَهُ ليُمَزَّقَ عرضُهُ كإهمالِهِ ليُمَزَّقَ لحمُهُ ، وأخسسْ بأخٍ يراكَ والكلابُ تفترسُكَ وتمزِّقُ لحمَكَ وهوَ ساكتٌ لا تحركُهُ الشفقةُ والحميَّةُ للدفعِ عنكَ ، وتمزيقُ الأعراضِ أشدُّ على النفوسِ مِنْ تمزيقِ اللحومِ ، ولذلكَ شبَّهَهُ اللهُ تعالىٰ بأكلِ لحمِ الميتةِ فقالَ : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٩١) عن عبيد الله بن محمد التيمي قال : كان يقال . . . وذكره .
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

والمَلَكُ الذي يمثِّلُ في المنامِ ما تطالعُهُ الروحُ مِنَ اللوحِ المحفوظِ بالأمثلةِ المحسوسةِ يمثِّلُ الغيبةَ بأكلِ لحمِ الميتةِ ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ رأىٰ أنَّهُ يأكلُ لحمَ ميتةٍ . . فإنَّهُ يغتابُ الناسَ ؛ لأنَّ ذلكَ المَلَكَ في تمثيلِه يراعي المشاركةَ والمناسبةَ بينَ الشيءِ وبينَ مثالِهِ في المعنى الذي يجري مِنَ المثالِ مَجرى الروحِ ، لا في ظاهرِ الصورِ .

فإذاً ؛ حمايةُ الأخوَّةِ بدفعِ ذمِّ الأعداءِ وتعنُّتِ المتعنِّتينَ واجبٌ في عقدِ الأخوَّةِ ، فقدْ قالَ مجاهدٌ : (لا تذكرْ أخاكَ في غيبتِهِ إلا كما تحبُّ أنْ يذكرَكَ في غيبتِكَ)[1] .

فإذاً ؛ لكَ فيهِ معيارانِ :

أحدُهما : أنْ تقدِّرَ أنَّ الذي قيلَ فيهِ لوْ قيلَ فيكَ وكانَ أخوكَ حاضراً . . ما الذي كنتَ تحبُّ أنْ يقولَهُ أخوكَ فيكَ ؟ فينبغي أنْ تعاملَ المتعرِّضَ لعرضِهِ بهِ .

والثاني : أنْ تقدِّرَ أنَّهُ حاضرٌ مِنْ وراءِ جدارٍ يتسمَّعُ قولَكَ ، ويظنُّ أنَّكَ لا تعرفُ حضورَهُ ، فما كانَ يتحرَّكُ في قلبِكَ مِنَ النصرةِ لهُ بمسمَعٍ منهُ ومرأىً . . فينبغي أنْ يكونَ في مغيبِهِ كذلكَ ، فقدْ قالَ بعضُهُمْ : (ما ذُكِرَ أخٌ لي بغيبٍ إلا تصوَّرتُهُ جالساً ، فقلتُ فيهِ ما يحبُّ أنْ يسمعَهُ لوْ حضرَ)[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) من وصية ابن عباس رضي الله عنهما لمجاهد .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .

وقالَ آخرُ : (ما ذُكرَ أخٌ لي إلا تصوَّرْتُ نفسي في صورتِهِ ، فقلتُ فيهِ مثلَ ما أحبُّ أنْ يُقالَ فيَّ)(١) .

وهـٰذا مِنْ صدقِ الإسلامِ ، وهوَ ألا يرىٰ لأخيهِ إلا ما يراهُ لنفسِهِ .

وقدْ نظرَ أبو الدرداءِ إلىٰ ثورينِ يحرثانِ في فدَّانٍ(٢) ، فوقفَ أحدُهُما يحكُّ جسمَهُ ، فوقفَ الآخرُ ، فبكىٰ أبو الدرداءِ وقالَ : هـٰكذا الأخوانِ في اللهِ يعملانِ للهِ ، فإذا وقفَ أحدُهُما . . وافقَهُ الآخرُ(٣) .

وبالموافقةِ يتمُّ الإخلاصُ ، ومَنْ لمْ يكنْ مخلصاً في إخائِهِ . . فهوَ منافقٌ ، والإخلاصُ استواءُ الغيبِ والشهادةِ ، واللسانِ والقلبِ ، والسرِّ والعلانيةِ ، والجماعةِ والخلوةِ ، والاختلافُ والتفاوتُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ مماذقةٌ في المودَّةِ(٤) ، وهوَ دَخَلٌ في الدينِ ، ووليجةٌ في طريقِ المؤمنينَ(٥) .

ومَنْ لا يقدرُ مِنْ نفسِهِ علىٰ هـٰذا . . فالانقطاعُ والعزلةُ أولىٰ بهِ مِنَ المؤاخاةِ والمصاحبةِ ؛ فإنَّ حقَّ الصحبةِ ثقيلٌ ، لا يطيقُهُ إلا محقِّقٌ ، فلا جرمَ أجرُهُ جزيلٌ لا ينالُهُ إلا موفَّقٌ ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أبا هرٍّ ؛

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .

(٢) **الفدَّان** : آلة الثورين للحرث ، وقد تقدم استعمال هـٰذه اللفظة .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٨) .

(٤) يقال : فلان يمذق في الود ؛ إذا لم يخلصه ، فالمماذقة ضد المخالصة .

(٥) السياق عند صاحب « القوت » (٢/ ٢١٨) .

أحسنْ مجاورةَ مَنْ جاورَكَ . . تكنْ مسلماً ، وأحسنْ مصاحبةَ مَنْ صاحبَكَ . . تكنْ مؤمناً »(١) .

فانظرْ كيفَ جعلَ الإيمانَ جزاءَ الصحبةِ ، والإسلامَ جزاءَ الجوارِ ، والفرقُ بينَ فضْلِ الإيمانِ وفضلِ الإسلامِ علىٰ حدِّ الفرقِ بينَ المشقَّةِ في القيامِ بحقِّ الجوارِ والقيامِ بحقِّ الصحبةِ ؛ فإنَّ الصحبةَ تقتضي حقوقاً كثيرةً في أحوالٍ متقاربةٍ مترادفةٍ ، بلْ على الدوامِ ، والجوارُ لا يقتضي إلا حقوقاً قريبةً في أوقاتٍ متباعدةٍ لا تدومُ .

* * *

ومِنْ ذلكَ : التعليمُ والنصيحةُ : فليسَ حاجةُ أخيكَ إلى العلمِ بأقلَّ مِنْ حاجتِهِ إلى المالِ ، فإنْ كنتَ غنياً بالعلمِ . . فعليكَ مواساتُهُ مِنْ فضلِكَ ، وإرشادُهُ إلىٰ كلِّ ما ينفعُهُ في الدينِ والدنيا ، فإنْ علَّمْتَهُ وأرشدتَهُ ، فلمْ يعملْ بمقتضى العلمِ . . فعليكَ نصحُهُ ، وذلكَ بأنْ تذكرَ آفاتِ ذلكَ الفعلِ ، وفوائدَ تركِهِ ، وتخوِّفَهُ بما يكرهُهُ في الدنيا والآخرةِ لينزجرَ عنهُ ، وتنبهَهُ علىٰ عيوبِهِ ، وتقبِّحَ القبيحَ في عينِهِ ، وتحسِّنَ الحسنَ .

ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ ذلكَ في سرٍّ لا يطلعُ عليهِ أحدٌ ، فما كانَ على

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٦٤٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٧٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ المصنف ، وروى ابن ماجه (٤٢١٧) القطعة الأولىٰ منه ، وهو عند الترمذي (٢٣٠٥) بلفظ : (مؤمناً) بدل (مسلماً) .

الملأِ . . فهوَ توبيخٌ وفضيحةٌ ، وما كانَ في السرِّ . . فهوَ شفقةٌ ونصيحةٌ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ »[١] أيْ : يرىٰ منهُ ما لا يرىٰ مِنْ نفسِهِ ، فيستفيدُ المرءُ بأخيهِ معرفةَ عيوبِ نفسِهِ ، ولوِ انفردَ . . لمْ يستفدْ ؛ كما يستفيدُ بالمرآةِ الوقوفَ علىٰ عيوبِ صورتِهِ الظاهرةِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ وعظَ أخاهُ سرّاً . . فقدْ نصحَهُ وزانَهُ ، ومَنْ وعظَهُ علانيةً . . فقدْ فضحَهُ وشانَهُ)[٢] .

وقيلَ لِمِسْعَرٍ : تحبُّ مَنْ يخبرُكَ بعيوبِكَ ؟ فقالَ : إنْ نصحَني فيما بيني وبينَهُ . . فنعمْ ، وإنْ قرَّعَني بينَ الملأِ . . فلا[٣] .

وقدْ صدقَ ؛ فإنَّ النصحَ على الملأِ فضيحةٌ ، واللهُ تعالىٰ يعاتبُ المؤمنَ يومَ القيامةِ تحتَ كنفِهِ وفي ظلِّ سترِهِ ، فيوقفُهُ علىٰ ذنوبِهِ سرّاً[٤] .

وقدْ يدفعُ كتابَ عملِهِ مختوماً إلى الملائكةِ الذينَ يحفونَ بِهِ إلى الجنَّةِ ، فإذا قاربوا بابَ الجنَّةِ . . أعطَوهُ الكتابَ مختوماً ليقرأَهُ ، وأمَّا أهلُ المقْتِ . . فينادونَ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ ، وتُستنطقُ جوارحُهُمْ بفضائِحِهِمْ ، فيزدادونَ بذلكَ خزْياً وافتضاحاً ، نعوذُ باللهِ مِنَ الخزي يومَ العرْضِ الأكبرِ .

فالفرقُ بينَ التوبيخِ والنصيحةِ بالإسرارِ والإعلانِ ؛ كما أنَّ الفرقَ بينَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩١٨) بلفظه ، ونحوه عند الترمذي (١٩٢٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٤٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٨١) ، وابن الطيوري في « الطيوريات » (٣٤٦) .
(٤) السياق عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٢١) ، والخبر سيأتي .

المداراةِ والمداهنةِ بالغرضِ الباعثِ على الإغضاءِ ، فإنْ أغضيتَ لسلامةِ دينِكَ ، ولما ترىٰ فيهِ مِنْ إصلاحِ أخيكَ بالإغضاءِ . . فأنتَ مدارٍ ، وإنْ أغضيتَ لحظِّ نفسِكَ ، واجتلابِ شهواتِكَ ، وسلامةِ جاهِكَ . . فأنتَ مداهنٌ .

وقالَ ذو النونِ : (لا تصحبْ معَ اللهِ إلا بالموافقةِ ، ولا معَ الخلقِ إلا بالمناصحةِ ، ولا معَ النفسِ إلا بالمخالفةِ ، ولا معَ الشيطانِ إلا بالعداوةِ)[1] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : إذا كانَ في النصحِ ذكرُ العيوبِ ، وفيهِ إيحاشٌ للقلبِ ، فكيفَ يكونُ ذلكَ مِنْ حقِّ الأخوَّةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الإيحاشَ إنَّما يحصلُ مِنْ ذكرِ عيبٍ يعلمُهُ أخوكَ مِنْ نفسِهِ ، فأمَّا تنبيهُهُ علىٰ ما لا يعلمُهُ . . فهوَ عينُ الشفقةِ ، وهوَ استمالةٌ للقلوبِ ؛ أعني : قلوبَ العقلاءِ ، وأمَّا الحمقىٰ . . فلا يُلتفتُ إليهِمْ ؛ فإنَّ مَنْ ينبهُكَ علىٰ فعلٍ مذمومٍ تعاطيتَهُ ، أوْ صفةٍ مذمومةٍ اتصفتَ بها ؛ لتزكِّيَ نفسَكَ عنها . . كانَ كمَنْ ينبهُكَ علىٰ حيَّةٍ أوْ عقربٍ تحتَ ذيلِكَ وقدْ همَّتْ بإهلاكِكَ ، فإنْ كنتَ تكرهُ ذلكَ . . فما أشدَّ حمقَكَ !

والصفاتُ الذميمةُ عقاربُ وحيَّاتٌ ، وهيَ في الآخرةِ مهلكاتٌ ، فإنَّها

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٤٨٩) .

تلدغُ القلوبَ والأرواحَ ، وألمُها شديدٌ ، بلْ أشدُّ ممَّا يلدغُ الظواهرَ والأجسادَ ، وهيَ مخلوقةٌ مِنْ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ .

ولذلكَ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يستهدي ذلكَ مِنْ إخوانِهِ ويقولُ : (رحمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إلىٰ أخيهِ عيوبَهُ)(١) .

ولذلكَ قالَ عمرُ لسلمانَ وقدْ قدمَ عليهِ : ما الذي بلغَك منِّي ممَّا تكرهُ ، فاستعفىٰ ، فألحَّ عليهِ ، فقالَ : بلغَني أنَّ لكَ حلَّتينِ ؛ تلبسُ إحداهُما بالنهارِ ، والأخرىٰ بالليلِ ، وبلغَني أنَّكَ جمعتَ بينَ إدامينِ علىٰ مائدةٍ واحدةٍ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أمَّا هـٰذانِ . . فقدْ كُفيتَهُما ، فهلْ بلغَكَ غيرُهُما ؟ فقالَ : لا(٢) .

وكتبَ حذيفةُ المرعشيُّ إلىٰ يوسفَ بنِ أسباطٍ : (بلغَني أنَّكَ بعتَ دينَكَ بحبَّتينِ ، وقفتَ علىٰ صاحبِ لبنٍ ، فقلتَ : بكمْ هـٰذا ؟ فقالَ : بسدسٍ ، فقلتَ : لا ، بثُمُنٍ ، فقالَ : هوَ لكَ ، وكانَ يعرفُكَ ، اكشفْ عنْ رأسِكَ قناعَ الغافلينَ ، وانتبهْ عنْ رقدةِ الموتىٰ ، واعلمْ أنَّ مَنْ قرأَ القرآنَ فلمْ يستغنِ ، وآثرَ الدنيا . . لمْ يأمنْ أنْ يكونَ بآياتِ اللهِ مِنَ المستهزئينَ)(٣) .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى الكاذبينَ ببغضِهِمْ للناصحينَ إذْ قالَ : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢١) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠١٧٠) .
(٣) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (٣٢) .

وهـٰذا في عيبٍ هوَ غافلٌ عنهُ ، فأمَّا ما علمتَ أنَّهُ يعلمُهُ مِنْ نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مقهورٌ عليهِ مِنْ طبعِهِ . فلا ينبغي أنْ يُكشفَ فيهِ سترُهُ إنْ كانَ يخفيهِ ، وإنْ كانَ يظهرُهُ . فلا بدَّ مِنَ التلطُّفِ في النصحِ ؛ بالتعريضِ مرَّةً ، وبالتصريحِ أخرىٰ ، إلىٰ حدٍّ لا يؤدِّي إلى الإيحاشِ .

فإنْ علمتَ أنَّ النصحَ غيرُ مؤثِّرٍ فيهِ ، وأنَّهُ مضطرٌّ مِنْ طبعِهِ إلى الإصرارِ عليهِ . . فالسكوتُ عنهُ أولىٰ ، **وهـٰذا كلُّهُ فيما يتعلَّقُ بمصالحِ أخيكَ في دينِهِ أوْ دنياهُ .**

❁ ❁ ❁

فأمَّا ما يتعلَّقُ بتقصيرِهِ في حقِّكَ . . فالواجبُ فيهِ الاحتمالُ ، والعفوُ والصفحُ ، والتعامي عنهُ ، فالتعرُّضُ لذلكَ ليسَ مِنَ النصحِ في شيءٍ ، نعمْ ، إنْ كانَ بحيثُ يؤدِّي استمرارُهُ عليهِ إلى القطيعةِ . . فالعتابُ في السرِّ خيرٌ مِنَ القطيعةِ ، والتعريضُ بهِ خيرٌ مِنَ التصريحِ ، والكتابةُ خيرٌ مِنَ المشافهةِ ، **والاحتمالُ خيرٌ مِنَ الكلِّ** ؛ إذْ ينبغي أنْ يكونَ قصدُكَ مِنْ أخيكَ إصلاحَ نفسِكَ بمراعاتِكَ إيَّاهُ ، وقيامِكَ بحقِّهِ ، واحتمالِكَ تقصيرَهُ ، لا الاستعانةَ بهِ والاسترفاقَ منهُ .

قالَ أبو بكرٍ الكَتَّانيُّ : (صحبَني رجلٌ وكانَ علىٰ قلبي ثقيلاً ، فوهبتُهُ يوماً شيئاً علىٰ أنْ يزولَ ما في قلبي ، فلمْ يزلْ ، فأخذتُ بيدِهِ يوماً إلى البيتِ ، وقلتُ لهُ : ضعْ رجلَكَ علىٰ خدِّي ، فأبىٰ ، فقلتُ :

لا بدَّ ، ففعلَ ، فزالَ ذلكَ مِنْ قلبي)[1] .

وقالَ أبو عليٍّ الرباطيُّ : صحبتُ عبدَ اللهِ الرازيَّ ، وكانَ يدخلُ الباديةَ ، فقالَ : علىٰ أنْ تكونَ أنتَ الأميرَ أوْ أنا ؟ فقلتُ : بلْ أنتَ ، فقالَ : وعليكَ الطاعةُ ؟ فقلتُ : نعمْ ، فأخذَ مخلاةً ، ووضعَ فيها الزادَ ، وحملَها علىٰ ظهرِهِ ، فإذا قلتُ لهُ : أعطني.. قالَ : ألستَ قلتَ : أنتَ الأميرُ ؟ فعليكَ الطاعةُ ، فأخذَنا المطرُ ليلةً ، فوقفَ علىٰ رأسي إلى الصباحِ وعليهِ كساءٌ وأنا جالسٌ يمنعُ عنِّي المطرَ ، فكنتُ أقولُ معَ نفسي : ليتني متُّ ولمْ أقلْ : أنتَ الأميرُ[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤٨٨) وفيه : (فقلت : لا بد ، ففعل ، واعتقدت أن لا يرفع رجله من خدي حتىٰ يرفع الله من قلبي ما كنت أجده ، فلما زال عن قلبي ما كنت أجده.. قلت له : ارفع رجلك الآن) ، وإنما أهدىٰ له أولاً عملاً بخبر : « تهادوا تحابوا » فلما لم يرفع الثقل عنه.. عمد إلى اتهام نفسه ، والتسبب في إزالة ما انطوىٰ له في باطنه . انظر « عوارف المعارف » (٢/ ٧٦٣) ، و« الإتحاف » (٦/ ٢٢٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٤٨١) .

الحقّ الخامس : العفو عن الزّلات والهفوات

وهفوةُ الصديقِ لا تخلُو : إمَّا أنْ تكونَ في دينِهِ بارتكابِ معصيةٍ ، أوْ في حقِّكَ بتقصيرٍ في الأخوَّةِ .

أمَّا ما يكونُ في الدينِ مِنِ ارتكابِ معصيةٍ والإصرارِ عليها : فعليكَ التلطُّفُ في نصحِهِ بما يقيمُ أودَهُ ، ويجمعُ شملَهُ ، ويعيدُ إلى الصلاحِ والورعِ حالَهُ ، فإنْ لمْ تقدرْ ، وبقيَ مصرّاً . فقدِ اختلفَتْ طرقُ الصحابةِ والتابعينَ في إدامةِ حقِّ مودَّتِهِ أوْ مقاطعتِهِ .

فذهبَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ إلى الانقطاعِ ، وقالَ : (إذا انقلبَ أخوكَ عمَّا كانَ عليهِ . . فأبغضْهُ مِنْ حيثُ أحببتَهُ)[1] ، ورأىٰ ذلكَ مِنْ مقتضى الحبِّ في اللهِ والبغضِ في اللهِ .

وأمَّا أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ وجماعةٌ مِنَ الصحابةِ . . فذهبوا إلىٰ خلافِهِ ، فقالَ أبو الدرداءِ : (إذا تغيَّرَ أخوكَ وحالَ عمَّا كانَ عليهِ . . فلا تدعْهُ لأجلِ ذلكَ ، فإنَّ أخاكَ يعوجُّ مرَّةً ويستقيمُ أخرىٰ)[2] .

وقالَ إبراهيمُ النخعيُّ : (لا تقطعْ أخاكَ ، ولا تهجرْهُ عندَ الذنبِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٨) والسياق عنده .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٨) .

بذنبِهِ ، فإنَّهُ يرتكبُهُ اليومَ ويتركُهُ غداً)(١) .

وقالَ أيضاً : (لا تحدِّثوا الناسَ بزلَّةِ العالِمِ ؛ فإنَّ العالمَ يزلُّ الزلَّةَ ثمَّ يتركُها)(٢) .

وفي الخبرِ : « اتقوا زلَّةَ العالِمِ ولا تقطعوهُ وانتظروا فيئتَهُ »(٣) .

وفي حديثِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وقدْ سألَ عنْ أخٍ كانَ آخاهُ ، فخرجَ إلى الشامِ ، فسألَ عنهُ بعضَ مَنْ قدمَ عليهِ فقالَ : ما فعلَ أخي ؟ فقالَ : ذلكَ أخو الشيطانِ ، قالَ : مَهْ ، قالَ : إنَّهُ قارفَ الكبائرَ حتَّىٰ وقعَ في الخمرِ ، قالَ : إذا أردتَ الخروجَ . . فآذنِّي ، فكتبَ عندَ خروجِهِ إليهِ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ . . . ﴾ الآيةَ ، ثمَّ عاتبَهُ تحتَ ذلكَ وعذلَهُ ، فلمَّا قرأَ الكتابَ . . بكىٰ ، وقالَ : صدقَ اللهُ ونصحَ لي عمرُ ، فتابَ ورجعَ(٤) .

وحُكِيَ أنَّ أخوينِ ابتُلِيَ أحدُهُما بهوىً ، فأظهرَ عليهِ أخاهُ وقالَ : إنِّي قدِ

---

(١) قوت القلوب (٢/٢١٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/٢١٨) .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/٦٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٢١١) من حديث عمرو بن عوف مرفوعاً .

(٤) كذا في « القوت » (٢/٢١٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٩٧) بنحوه ، وزاد من قول عمر رضي الله عنه بعد أن بلغته أوبته : (هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة . . فسددوه ووفقوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه) .

اعتللتُ[١] ، فإنْ شئتَ ألا تعقدَ علىٰ محبَّتي للهِ . . فافعلْ ، فقالَ : ما كنتُ لأحُلَّ عقْدَ أخوَّتكَ لأجلِ خطيئتِكَ أبداً ، ثمَّ عقدَ أخوهُ بينَهُ وبينَ اللهِ ألا يأكلَ ولا يشربَ حتَّىٰ يُعافيَ اللهُ أخاهُ مِنْ هواهُ ، فطوىٰ أربعينَ يوماً في كلِّها يسألُهُ عنْ هواهُ ، فكانَ يقولُ : القلبُ مقيمٌ علىٰ حالِهِ ، وما زالَ هوَ ينحَلُ مِنَ الغمِّ والجوعِ ، حتَّىٰ زالَ الهوىٰ عنْ قلبِ أخيهِ بعدَ الأربعينَ ، فأخبرَهُ بذلكَ ، فأكلَ وشربَ بعدَ أنْ كادَ يتلفُ هزالاً وضرّاً[٢] .

وكذلكَ حُكِيَ عنْ أخوينِ مِنَ السلفِ انقلبَ أحدُهُما عنِ الاستقامةِ ، فقيلَ لأخيهِ : ألا تقطعُهُ وتهجرُهُ ؟ فقالَ : أحوجُ ما كانَ إليَّ في هـٰذا الوقتِ لمَّا وقعَ في عثرتِهِ أنْ آخُذَ بيدِهِ ، وأتلطَّفَ لهُ في المعاتبةِ ، وأدعوَ لهُ بالعَوْدِ إلىٰ ما كانَ عليهِ[٣] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ أخوينِ عابدينِ كانا في جبلٍ نزلَ أحدُهُما يشتري مِنَ المصرِ لحماً بدرهمٍ ، فرأىٰ بغيّاً عند اللحَّامِ ، فرمقَها وعشقَها ، واجتذبَها إلى خلوةٍ وواقعَها ، ثمَّ أقامَ عندَها ثلاثاً ، واستحيا أنْ يرجعَ إلىٰ أخيهِ ؛ حياءً مِنْ جنايتِهِ ، قالَ : فافتقدَهُ أخوهُ واهتمَّ بشأنِهِ ، فنزلَ إلى المدينةِ ، فلمْ يزلْ يسألُ عنهُ حتَّىٰ دُلَّ عليهِ ، فدخلَ عليهِ وهوَ جالسٌ معَها ،

---

(١) أي : أصابتني علة العشق . « إتحاف » (٦/ ٢٢٨) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٣) .

فاعتنقَهُ وجعلَ يقبِّلُهُ ويلتزمُهُ ، وأنكرَ الآخرُ أنَّهُ يعرفُهُ لفرْطِ استحيائِهِ منهُ ، فقالَ : قمْ يا أخي ؛ فقدْ علمتُ شأنَكَ وقصَّتَكَ ، وما كنتَ قطُّ أحبَّ إليَّ ولا أعزَّ عليَّ مِنْ ساعتِكَ هـٰذهِ ، فلمَّا رأىٰ أنَّ ذلكَ لمْ يسقطْهُ مِنْ عينِهِ . . قامَ فانصرفَ معَهُ(١) .

فهـٰذهِ طريقةُ قومٍ ، وهيَ ألطفُ وأفقهُ مِنْ طريقةِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وطريقتُهُ أخشنُ وأسلمُ(٢) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : ولِمَ قلتَ : (هـٰذهِ ألطفُ وأفقهُ) ومقارفُ هـٰذهِ المعصيةِ لا تجوزُ مؤاخاتُهُ ابتداءً ، فتجبُ مقاطعتُهُ انتهاءً ؛ لأنَّ الحكمَ إذا ثبتَ بعلَّةٍ . . فالقياسُ أنْ يزولَ بزوالِها ، وعلَّةُ عقْدِ الأخوَّةِ التعاونُ في الدينِ ، ولا يستمرُّ ذلكَ معَ مقارفةِ المعصيةِ ؟

فأقولُ : أمَّا كونُها ألطفَ . . فلما فيها مِنَ الرفقِ والاستمالةِ والتعطُّفِ المفضي إلى الرجوعِ والتوبةِ ؛ لاستمرارِ الحياءِ عندَ دوامِ الصحبةِ ، ومهما قوطعَ وانقطعَ طمعُهُ عنِ الصحبةِ . . أصرَّ واستمرَّ .

وأمَّا كونُها أفقهَ . . فمِنْ حيثُ إنَّ الأخوَّةَ عقدٌ ينزِّلُ منزلةَ القرابةِ ، فإذا انعقدَتْ . . تأكَّدَ الحقُّ ، ووجبَ الوفاءُ بموجَبِ العقدِ ، ومِنَ الوفاءِ بهِ ألا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .
(٢) في (ج) : (أحسن وأسلم) .

يُهملَ أيامَ حاجتِهِ وفقرِهِ ، وفقرُ الدينِ أشدُّ مِنْ فقْرِ المالِ ، وقدْ أصابَتْهُ جائحةٌ ، وألمَّتْ بهِ آفةٌ افتقرَ بسببِها في دينِهِ ، فينبغي أنْ يُراقبَ ويُراعىٰ ولا يُهملَ ، بل لا يزالُ يُتلطَّفُ بهِ ليُعانَ على الخلاصِ مِنْ تلكَ الوقعةِ التي ألمَّتْ بهِ ، فالأخوَّةُ عُدَّةٌ للنائباتِ وحوادثِ الزمانِ ، وهٰذا مِنْ أشدِّ النوائبِ .

والفاجرُ إذا صحبَ تقيّاً وهوَ ينظرُ إلىٰ خوفِهِ ومداومتِهِ[1] . . فسيرجعُ علىٰ قرْبٍ ، ويستحيي مِنَ الإصرارِ ، بلِ الكسلانُ يصحبُ الحريصَ في العملِ فيحرصُ حياءً منهُ .

قالَ جعفرُ بنُ سليمانَ : (مهما فترتُ في العملِ . . نظرتُ إلىٰ محمدِ بنِ واسعٍ وإقبالِهِ على الطاعةِ ؛ فيرجعُ إليَّ نشاطي في العبادةِ ، وفارقَني الكسلُ ، وعملتُ عليهِ أسبوعاً)[2] .

وهٰذا التحقيقُ ، وهوَ أنَّ الصداقةَ لُحمةٌ كلُحمةِ النسبِ ، والقريبُ لا يجوزُ أنْ يُهجرَ بالمعصيةِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عشيرتِهِ : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولمْ يقلْ : إنِّي بريءٌ منكُم ؛ مراعاةً لحقِّ القرابةِ ولحمةِ النسبِ[3] .

---

(١) أي : ينظر إلىٰ دوام خوف هٰذا التقي من الله عز وجل .
(٢) روى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٧) عن جعفر بن سليمان قال : (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة . . نظرت إلىٰ وجه محمد بن واسع نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع . . حسبت أن وجهه وجه ثكلىٰ) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١٨) ، **واللُّحمة** : القرابة أو الاختلاط .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ أبو الدرداءِ لمَّا قيلَ لهُ : ألا تبغضُ أخاكَ وقدْ فعلَ كذا ؟ فقالَ : إنَّما أبغضُ عملَهُ ، وإلا . . فهوَ أخي[١] .

وأخوَّةُ الدينِ آكدُ مِنْ أخوَّةِ القرابةِ ، ولذلكَ قيلَ لحكيمٍ[٢] : أيُّما أحبُّ إليكَ : أخوكَ أوْ صديقُكَ ؟ فقالَ : إنَّما أحبُّ أخي إذا كانَ صديقاً .

وكانَ الحسنُ يقولُ : (كمْ مِنْ أخٍ لمْ تلدْهُ أمُّكَ)[٣] .

ولذلكَ قيلَ : القرابةُ تحتاجُ إلىٰ مودَّةٍ ، والمودَّةُ لا تحتاجُ إلىٰ قرابةٍ[٤] .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مودَّةُ يومٍ صلةٌ ، ومودَّةُ شهرٍ قرابةٌ ، ومودَّةُ سنةٍ رحمٌ ماسَّةٌ ، مَنْ قطعَها . . قطعَهُ اللهُ)[٥] .

فإذاً ؛ الوفاءُ بعقْدِ الأخوَّةِ إذا سبقَ انعقادُها واجبٌ ، وهـٰذا جوابُنا عنِ

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٨٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٥) ولفظه عندهما : أن أبا الدرداء مرَّ علىٰ رجل قد أصاب ذنباً ، فكانوا يسبونه ، فقال : أرأيتم لو وجدتموه في قَليب . . ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذي عافاكم ، قالوا : أفلا تبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله ، فإذا تركه . . فهو أخي . والخبر عند صاحب « القوت » (٢/ ٢١٨) متوازع بين روايتين كذلك .

(٢) أي : حكيم بن مرَّة ، وهو كلاب ، أحد أجداد المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، صرح بنسبة القول له أبو طالب في « القوت » (٢/ ٢١٨) ، وقول الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص٢٤٥) : (وقد قيل لبعض قريش : أيما . . .) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٨٢) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢١٨) .

(٥) أورده السلمي في « آداب الصحبة » (١٦٩) .

ابتداءِ المؤاخاةِ معَ الفاسقِ ؛ فإنَّهُ لمْ يتقدَّمْ لهُ حقٌّ ، فإذا تقدَّمَتْ لهُ قرابةٌ . . فلا جرمَ لا ينبغي أنْ يقاطعَ ، بلْ يجاملُ ، والدليلُ علىٰ ذلكَ : أنَّ تركَ المؤاخاةِ والصحبةِ ابتداءً ليسَ بمذمومٍ ولا مكروهٍ ، بلْ قالَ قائلونَ : الانفرادُ أولىٰ ، فأمَّا قطعُ الأخوَّةِ عنْ دوامِها . . فمنهيٌّ عنهُ ، ومذمومٌ في نفسِهِ ، ونسبتُهُ إلىٰ تركِها ابتداءً كنسبةِ الطلاقِ إلىٰ تركِ النكاحِ ، فالطلاقُ أبغضُ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ تركِ النكاحِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ عبادِ اللهِ تعالى المشَّاؤونَ بالنميمةِ ، المفرِّقونَ بينَ الأحبَّةِ »(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ في زلاتِ الإخوانِ : (ودَّ الشيطانُ أنْ يلقيَ علىٰ أخيكُمْ مثلَ هـٰذا ؛ حتَّىٰ تهجروهُ وتقطعوهُ ، فماذا اتقيتُمْ منْ محبَّةِ عدوِّكُمْ ؟!)(٢) .

وهـٰذا لأنَّ التفرُّقَ بينَ الأحبابِ مِنْ محابِّ الشيطانِ، كما أنَّ مقارفةَ العصيانِ مِنْ محابِّهِ ، فإذا حصَّلَ الشيطانُ أحدَ غرضيهِ . . فلا ينبغي أنْ يُضافَ إليهِ الآخرُ ، وإلىٰ هـٰذا أشارَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الذي شتمَ الرجلَ الذي أتىٰ فاحشةً إذ قالَ : « مَهْ ـ وزبرَهُ ـ لا تكونوا عوناً للشيطانِ علىٰ أخيكُمْ »(٣) .

فبهـٰذا كلِّهِ يتبيَّنُ الفرقُ بينَ الدوامِ والابتداءِ ؛ لأنَّ مخالطةَ الفسَّاقِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٢٧) عن عبد الرحمـٰن بن غنم بلاغاً ، ولفظه : « خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا . . ذكر الله ، وشرار عباد الله المشَّاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة » الحديث .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٨) .

(٣) رواه البخاري (٦٧٨١) ولفظه : « لا تكونوا عون الشيطان علىٰ أخيكم » .

محذورةٌ ، ومفارقةَ الأحبابِ والإخوانِ أيضاً محذورةٌ ، وليسَ مَنْ سلِمَ عنْ معارضةِ غيرِهِ كالذي لمْ يسلمْ ، وفي الابتداءِ قدْ سلِمَ ، فرأينا أنَّ المهاجرةَ والتباعدَ هوَ الأولىٰ ، وفي الدوامِ تعارضا ، فكانَ الوفاءُ بحقِّ الأخوَّةِ أولىٰ ، هـٰذا كلُّهُ في زلَّتِهِ في دينِهِ .

* * *

أمَّا زلَّتُهُ في حقِّهِ بما يوجبُ إيحاشَهُ : فلا خلافَ في أنَّ الأولى العفوُ والاحتمالُ ، بلْ كلُّ ما يحتملُ تنزيلُهُ علىٰ وجهٍ حسنٍ ، ويُتصوَّرُ تمهيدُ عذرٍ فيهِ ، قريبٍ أوْ بعيدٍ . فهوَ واجبٌ بحقِّ الأخوَّةِ ، فقدْ قيلَ : ينبغي أنْ تستنبطَ لزلَّةِ أخيكَ سبعينَ عذراً ، فإنْ لمْ يقبلْهُ قلبُكَ . . فردَّ اللومَ علىٰ نفسِكَ ، فتقولُ لقلبِكَ : ما أقساكَ ! يعتذرُ إليكَ أخوكَ سبعينَ عذراً فلا تقبلُهُ ؟! فأنتَ المعيبُ لا أخوكَ[1] ، فإنْ ظهرَ بحيثُ لمْ يقبلِ التحسينَ . . فينبغي ألا تغضبَ إنْ قدرتَ ، ولكنْ ذلكَ لا يمكنُ ، وقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنِ استُغضبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ ، ومَنِ استُرضيَ فلمْ يرضَ . . فهوَ شيطانٌ)[2] ، فلا تكنْ حماراً ولا شيطاناً ، واسترضِ قلبَكَ بنفسِكَ نيابةً عنْ أخيكَ ، واحترزْ أنْ تكونَ شيطاناً إنْ لمْ تقبلْ .

---

(١) وقد روى السلمي في « آداب الصحبة » (١٤) عن حمدون القصار قال : (إذا زل أخ من إخوانكم . . فاطلبوا له سبعين عذراً ، فإن لم تقبله قلوبكم . . فاعلموا أن المعيب أنفسكم ؛ حيث ظهر لمسلم سبعون عذراً فلم تقبله) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٤٣) .

وقالَ الأحنفُ : (حقُّ الصديقِ أنْ تحتملَ منهُ ثلاثاً : ظلمُ الغضبِ ، وظلمُ الدالَّةِ ، وظلمُ الهفوةِ)[1] .

وقالَ آخرُ : (ما شتمتُ أحداً قطُّ ؛ لأنَّهُ إنْ شتمَني كريمٌ . . فأنا أحقُّ مَنْ غفرَها لهُ ، أوْ لئيمٌ . . فلا أجعلُ عرضي لهُ غرضاً)[2] ، ثمَّ تمثَّلَ وقالَ[3] : [من الطويل]

وَأَغْفِرُ عَوْراءَ[4] ٱلْكَرِيمِ ٱدِّخارَهُ ... وَأُعْرِضُ عَنْ شَتْمِ ٱللَّئِيمِ تَكَرُّما

وقدْ قيلَ[5] : [من مجزوء الكامل]

خُـذْ مِـنْ خليلِـكَ مـا صَفـا ... وَدَعِ ٱلَّـذِي فِيـهِ ٱلْكَـدَرْ

فَـٱلْعُمْـرُ أَقْصَـرُ مِـنْ مُعـا ... تَبَـةِ ٱلْخَلِيـلِ عَلَـى ٱلْغِيَـرْ

ومهما اعتذرَ أخوكَ كاذباً كانَ أوْ صادقاً . . فاقبلْ عذرَهُ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «مَنِ اعتذرَ إليهِ أخوهُ فلمْ يقبلْ . . فعليهِ مثلُ إثْمِ صاحبِ المكسِ»[6] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٤٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١١٧) مع التمثُّلِ الآتي .
(٣) البيت لحاتم الطائي في « ديوانه » (ص٢٢٤) .
(٤) **العوراء** : الكلمة القبيحة .
(٥) البيت لديك الجن في « ديوانه » (ص٢٥٧) .
(٦) رواه ابن ماجه (٣٧١٨) عن جُودان مرفوعاً ، وهو مختلف في صحبته ، وقد رواه له كذلك البغويُّ في « معجم الصحابة » (١/ ٥٠٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٧٥) ، ورواه في « الأوسط » (٨٦٣٩) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، **وصاحب المكس** : هو ما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع والشراء ، وفي معنى =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المؤمنُ سريعُ الغضبِ ، سريعُ الرضا »[1] ، فلمْ يصفْهُ بأنَّهُ لا يغضبُ .

وكذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ولمْ يقلْ : (والفاقدينَ الغيظَ) ، وهـٰذا لأنَّ العادةَ لا تنتهي إلىٰ أنْ يُجرحَ الإنسانُ فلا يتألَّمَ ، بلْ تنتهي إلىٰ أنْ يصبرَ عليهِ ويحتملَ ، وكما أنَّ التألُّمَ بالجرحِ مُقْتَضىٰ طبعِ البدنِ . . فالتألُّمُ بأسبابِ الغضبِ طبعٌ للقلبِ لا يمكنُ قلعُهُ ، ولكنْ يمكنُ ضبطُهُ وكظمُهُ ، والعملُ بخلافِ مقتضاهُ ، فإنَّهُ يقتضي التشفِّيَ والانتقامَ والمكافأةَ ، وتركُ العملِ بمقتضاهُ ممكنٌ ، وقدْ قالَ الشاعرُ[2] : [من الطويل]

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ عَلَىٰ شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجالِ ٱلْمُهَذَّبُ[3]

قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ لأحمدَ بنِ أبي الحَواري : إذا واخيتَ أخاً في هـٰذا الزمانِ . . فلا تعاتبْهُ علىٰ ما تكرهُهُ ، فإنَّكَ لا تأمنُ أنْ ترىٰ في جوابِهِ

= الحديث أن من صفات الله تعالىٰ قبول الاعتذار والعفو عن الزلات ، فمن أبىٰ واستكبر عن ذلك . . فقد عرض نفسه لغضب الله ومقته . انظر « الإتحاف » (٦/ ٢٣٢) .

(١) نسب الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٢٣٢) لفظه لصاحب « القوت » وزاد : (فهـٰذه بهـٰذه) ، وقد روىٰ نحوه الترمذي (٢١٩١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : « ألا إن بني آدم خلقوا علىٰ طبقات شتىٰ » إلىٰ أن قال صلى الله عليه وسلم : « ومنهم سريع الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك » .

(٢) البيت للنابغة الذبياني في « ديوانه » (ص ٧٤) .

(٣) لا تلمه : لا تصلحه ، علىٰ شعث : تفرق وفساد حال ، ثم الاستفهام للاستبعاد والاستقلال ، وبيان عزّته .

ما هوَ شرٌّ مِنَ الأوَّلِ ، قالَ : فجربتُهُ ، فوجدتُهُ كذلكَ(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (الصبرُ علىٰ مضضِ الأخِ خيرٌ مِنْ معاتبتِهِ ، والمعاتبةُ خيرٌ مِن القطيعةِ ، والقطيعةُ خيرٌ منَ الوقيعةِ)(٢) .

وينبغي ألا يبالغَ في البغضِ عندَ الوقيعةِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أحبِبْ حبيبَكَ هوناً ما ؛ عسىٰ أنْ يكونَ بغيضَكَ يوماً ما ، وأبغضْ بغيضَكَ هوناً ما ؛ عسىٰ أنْ يكونَ حبيبَكَ يوماً ما »(٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يكنْ حبُّكَ كلفاً ، ولا بغضُكَ تلفاً)(٤) ، وهوَ أنْ تحبَّ تلفَ صاحبِكَ معَ هلاكِهِ(٥) .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٧) ، وروى الدينوري في « عيون الأخبار » (٣/ ٢٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (معاتبة الأخ خير من فقده ، ومن لك بأخيك كلِّه؟!).
(٣) رواه الترمذي (١٩٩٧) حيث قال : (عن أبي هريرة أُراهُ رفعه) ، قال الحافظ العراقي : (رواه الترمذي وقال : « غريب » ، قلت : رجاله رجال مسلم ، لكن الراوي تردد في رفعه) ، وأوقفه البخاري في « الأدب المفرد » (١٣٢١) من كلام علي رضي الله عنه .
(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٣٢٢) وتمامه : فقلت ـ أي : أسلم راوي الحديث ـ : كيف ذاك ؟ قال : إذا أحببت . . كلفت كلف الصبي ، وإذا أبغضت . . أحببت لصاحبك التلف ، وأورده في « القوت » (٢/ ٢١٥) .
(٥) في النسخ : (هلاكك) ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

الحقّ السّادس : الدّعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكلّ ما يحبّه لنفسه ولأهله وكلّ متعلّق به

فتدعو لهُ كما تدعو لنفسِكَ ، ولا تفرِّقْ بينَ نفسِكَ وبينَهُ ، فإنَّ دعاءَكَ لهُ دعاءٌ لنفسِكَ على التحقيقِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دعا الرجلُ لأخيهِ في ظهرِ الغيبِ . قالَ الملكُ : ولكَ بمثلِ ذلكَ »(١) ، وفي لفظٍ آخرَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : بكَ أبدأُ »(٢) .

وفي الحديثِ : « يُستجابُ للرجلِ في أخيهِ ما لا يُستجابُ لهُ في نفسِهِ »(٣) ، وفي الحديثِ : « دعوةُ الرجلِ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ لا تُرَدُّ »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٢) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/٢٢٨) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد هـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٦/٢٣٤) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٢٢٨) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٦/٤٥٢) عن أم الدرداء رضي الله عنها مرفوعاً : « يستجاب للمرء بظهر الغيب لأخيه ، فما دعا لأخيه بدعوة إلا قال الملك : ولك بمثل » وقد تقدم نحوه ، وروىٰ أبو داوود (١٥٣٥) ، والترمذي (١٩٨٠) مرفوعاً : « إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب » .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٨٦) ، وهو عند مسلم (٢٧٣٣) بلفظ : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة » الحديث حديث أم الدرداء ، وقد تقدم بعضه .

وكانَ أبو الدرداءِ يقولُ : (إنِّي لأدعو لسبعينَ مِن إخواني في سجودي ، أسميهِمْ بأسمائِهِمْ)(١) .

وكانَ محمدُ بنُ يوسفَ الأصبهانيُّ يقولُ : (وأينَ مثلُ الأخِ الصالحِ ؟! أهلُكَ يقتسمونَ ميراثَكَ ويتنعَّمونَ بما خلَّفتَ ، وهوَ منفردٌ بحزنِكَ ، مهتمٌّ بما قَدِمتَ وما صرتَ إليهِ ، يدعو لكَ في ظلمةِ الليلِ وأنتَ تحتَ أطباقِ الثرىٰ)(٢) .

وكأنَّ الأخَ الصالحَ يقتدي بالملائكةِ ؛ إذْ جاءَ في الخبرِ : « إذا ماتَ العبدُ . . قالَ الناسُ : ما خلَّفَ ؟ وقالتِ الملائكةُ : ما قدَّمَ ؟ »(٣) يفرحونَ لهُ بما قدَّمَ ، ويسألونَ عنهُ ، ويشفقونَ عليهِ .

ويُقالُ : (مَنْ بلغَهُ موتُ أخيهِ ، فترحَّمَ عليهِ واستغفرَ لهُ . . كُتِبَ لهُ كأنَّهُ شهدَ جنازتَهُ وصلَّىٰ عليهِ)(٤) .

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مثلُ الميِّتِ في قبرِهِ مثلُ الغريقِ يتعلَّقُ بكلِّ شيءٍ ، ينتظرُ دعوةً مِنْ ولدٍ أوْ والدٍ ، أوْ أخٍ أوْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨١٨٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ١٨٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٨) والسياق عنده ، وفيه : (بحسرتك) بدل (بحزنك) ، وروىٰ بعضه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٣١) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٨) .

قريبٍ ، وإنَّهُ ليدخلُ علىٰ قبورِ الأمواتِ مِنْ دعاءِ الأحياءِ مِنَ الأنوارِ مثلُ الجبالِ »[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (الدعاءُ للأمواتِ بمنزلةِ الهدايا للأحياءِ ، فيدخلُ الملكُ على الميِّتِ ومعَهُ طبقٌ مِنْ نورٍ ، عليهِ منديلٌ مِنْ نورٍ ، فيقولُ : هـٰذهِ هديَّةٌ لكَ مِنْ عندِ أخيكَ فلانٍ ، مِنْ عندِ قريبِكَ فلانٍ ، قالَ : فيفرحُ بذلكَ كما يفرحُ الحيُّ بالهديَّةِ)[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً وأوله : « ما الميت في القبر إلا كالغريق المتغوِّث ، ينتظر دعوة . . . » الحديث .

(٢) تقدم نحو هـٰذا ، وأنها رؤيا رآها بشار بن غالب في حق رابعة رحمهما الله تعالىٰ ، وقد روي نحوه مرفوعاً ، رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٠٠) .

الحقّ السّابع : الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاءِ : الثباتُ على الحبِّ وإدامتُهُ إلى الموتِ معَهُ ، وبعدَ الموتِ معَ أولادِهِ وأصدقائِهِ ، فإنَّ الحبَّ إنَّما يرادُ للآخرةِ ، فإنِ انقطعَ قبلَ الموتِ . . حبطَ العملُ ، وضاعَ السعيُ ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في السبعةِ الذينَ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ : « ورجلانِ تحابّا في اللهِ اجتمعا علىٰ ذلكَ ، وتفرَّقا عليهِ »(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (قليلُ الوفاءِ بعدَ الوفاةِ خيرٌ منْ كثيرِهِ في حالِ الحياةِ)(٢) .

ولذلكَ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكرمَ عجوزاً دخلَتْ عليهِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : « إنَّها كانَتْ تأتينا أيامَ خديجةَ ، وإنَّ كرمَ العهدِ مِنَ الدينِ »(٣) .

❊ ❊ ❊

فمِنَ الوفاءِ للأخِ : مراعاةُ جميعِ أصدقائِهِ وأقاربِهِ والمتعلقينَ بهِ ، ومراعاتُهُمْ أوقعُ في قلبِ الصديقِ مِنْ مراعاةِ الأخِ نفسِهِ ، فإنَّ فرحَهُ بتفقُّدِ مَنْ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) ، وفي (هـ) : (يظلهم الله تعالىٰ تحت عرشه : « أخوين تحابّا في الله اجتمعا . . . ») .

(٢) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٢٤) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ١٥) .

يتعلَّقُ بهِ أكثرُ ؛ إذْ لا يدلُّ علىٰ قوّةِ الشفقةِ والحبِّ إلا تعديهما مِنَ المحبوبِ إلىٰ كلِّ مَنْ يتعلَّقُ بهِ ، حتَّى الكلبِ الذي علىٰ بابِ دارِهِ ينبغي أنْ يتميَّزَ في القلبِ عنْ سائرِ الكلابِ(١) .

ومهما انقطعَ الوفاءُ بدوامِ المحبَّةِ . . شمتَ بهِ الشيطانُ ؛ فإنَّهُ لا يحسدُ متعاونينِ علىٰ برٍّ كما يحسدُ متواخيينِ في اللهِ ومتحابَّينِ فيهِ ، فإنَّهُ يجهدُ نفسَهُ لإفسادِ ما بينَهُما ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقالَ مخبراً عنْ يوسفَ عليهِ السلامُ : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ .

ويُقالُ : (ما تواخى اثنانِ في اللهِ فتفرَّقَ بينَهُما إلا بذنبٍ يرتكبُهُ أحدُهُما)(٢) .

وكانَ بشرٌ يقولُ : (إذا قصَّرَ العبدُ في طاعةِ اللهِ . . سلبَهُ اللهُ مَنْ يؤنسُهُ)(٣) .

وذلكَ لأنَّ الإخوانَ مسلاةٌ للهمومِ ، وعونٌ على الدينِ ، ولذلكَ قالَ ابنُ المباركِ : (ألذُّ الأشياءِ مجالسةُ الإخوانِ ، والانقلابُ إلىٰ كفايةٍ)(٤) .

---

(١) هـٰذا هو الغاية القصوىٰ في حسن العهد ، وقس علىٰ ذلك جيرانه وأهل حارته ، بل أهل قريته . « إتحاف » (٦/ ٢٣٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٥) ، والسياق عنده .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤٣٨) من قوله في حق أخته مضغة لما ماتت وقد كانت أنيسته .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢١٩) عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

والمودَّةُ الدائمةُ هيَ التي تكونُ في اللهِ ، وما يكونُ لغرضٍ . . يزولُ بزوالِ ذلكَ الغرضِ .

ومِنْ ثمراتِ المودَّةِ في اللهِ سبحانَهُ ألا تكونَ معَ حسدٍ في دينٍ ولا دنيا ، وكيفَ يحسدُهُ وكلُّ ما هوَ لأخيهِ فإليهِ ترجعُ فائدتُهُ ؟! وبهِ وصفَ اللهُ تعالى المحبِّينَ في اللهِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ووجودُ الحاجةِ : هوَ الحسدُ[1] .

* * *

ومِنَ **الوفاءِ** : ألا يتغيَّرَ حالُهُ في التواضعِ معَ أخيهِ وإنِ ارتفعَ شأنُهُ ، واتسعَتْ ولايتُهُ ، وعظمَ جاهُهُ ، فالترفُّعُ على الإخوانِ بما يتجدَّدُ مِنَ الأحوالِ لؤْمٌ ، ومنْ ذلكَ قولُ الشاعرِ[2] : [من البسيط]

إنَّ ٱلْكِرامَ إذا ما أَسْهَلُوا ذَكَرُوا ... مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ فِي ٱلْمَنْزِلِ ٱلْخَشِنِ

وأوصىٰ بعضُ السلفِ ابنَهُ فقالَ : (يا بنيَّ ؛ لا تصحبْ مِنَ الناسِ إلا مَنْ إنِ افتقرتَ إليهِ . . قَرُبَ منكَ ، وإنِ استغنيتَ . . لمْ يطمعْ فيكَ ، وإنْ علَتْ مرتبتُهُ . . لمْ يرتفعْ عليكَ)[3] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/ ٢٨/ ٥٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم قد قسم أموال بني النضير بين المهاجرين الأولين دون الأنصار ، فلم يحسدوهم علىٰ ما آتاهم الله ورسوله من الفيء .

(٢) البيت لدعبل الخزاعي في « ديوانه » (ص ٤٦٢) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٨) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا وَلِيَ أخوكَ ولايةً ، فثبتَ علىٰ نصفِ مودَّتِهِ لكَ . . فهوَ كثيرٌ)[١] .

وحكى الربيعُ أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ آخىٰ رجلاً ببغدادَ ، ثمَّ إنَّ أخاهُ وَلِيَ السِّيبَيْنِ[٢] ، فتغيَّرَ لهُ عمَّا كانَ عليهِ ، فكتبَ إليهِ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ هٰذهِ الأبياتَ[٣] : [من الكامل]

اِذْهَبْ فَوُدُّكَ مِنْ فُؤَادِي طالِقٌ ... أَبَداً وَلَيْسَ طَلاقَ ذاتِ ٱلْبَيْنِ
فَإِنِ ٱرْعَوَيْتَ فَإِنَّها تَطْلِيقَةٌ ... وَيَدُومُ وُدُّكَ لي عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ
وَإِنِ ٱمْتَنَعْتَ شَفَعْتُها بِمِثالِها ... فَتَكُونُ تَطْلِيقَيْنِ في حَيْضَيْنِ
فَإِذا ٱلثَّلاثُ أَتَتْكَ مِنِّي بَتَّةً ... لَمْ تُغْنِ عَنْكَ وِلايَةُ ٱلسِّيبَيْنِ

* * *

واعلمْ : أنَّهُ ليسَ مِنَ الوفاءِ موافقةُ الأخِ فيما يخالفُ الحقَّ في أمرٍ يتعلَّقُ بالدينِ، بلْ مِنَ الوفاءِ لهُ المخالفةُ: وقدْ كانَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ آخىٰ محمدَ ابنَ عبدِ الحكمِ ، وكانَ يقربُهُ ويقبلُ عليهِ ، ويقولُ : ما يقيمُني بمصرَ غيرُهُ ، فاعتلَّ محمدٌ ، فعادَهُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ[٤] : [من مجزوء الكامل]

مَرِضَ ٱلْحَبِيبُ فَعُدْتُهُ ... فَمَرِضْتُ مِنْ حَذَرِي عَلَيْهِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٧) ، والسياق عنده .
(٢) السِّيبان : كورة من سواد الكوفة . انظر « معجم البلدان » (٣/ ٢٩٣) .
(٣) ديوان الإمام الشافعي (ص ١٣٥) .
(٤) ديوان الإمام الشافعي (ص ١٥١) .

وَأَتَــى ٱلْحَبِيــبُ يَعُــودُنِــي   فَبَــرِئْــتُ مِــنْ نَظَــرِي إِلَيْــهْ

وظنَّ الناسُ لصدْقِ مودَّتِهما أنَّهُ يفوِّضُ أمرَ حلقتِهِ بعدَ وفاتِهِ إليهِ ، فقيلَ للشافعيِّ في علَّتِهِ التي ماتَ فيها رضيَ اللهُ عنهُ : إلىٰ مَنْ نجلسُ بعدَكَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ فاستشرفَ لهُ محمدُ ابنُ عبدِ الحكمِ وهوَ عندَ رأسِهِ ليومِئَ إليهِ ، فقالَ الشافعيُّ : سبحانَ اللهِ ! أيُشَكُّ في هٰذا ! أبو يعقوبَ البويطيُّ ، فانكسرَ لها محمدٌ ، ومالَ أصحابُهُ إلى البويطيِّ معَ أنَّ محمداً كانَ قدْ حملَ عنهُ مذهبَهُ كلَّهُ ، لكنْ كانَ البويطيُّ أفضلَ وأقربَ إلى الزهدِ والورعِ ، فنصحَ الشافعيُّ للهِ تعالىٰ وللمسلمينَ ، وتركَ المداهنةَ ، ولمْ يؤثرْ رضا الخلقِ علىٰ رضا اللهِ تعالىٰ[1] .

فلمَّا توفِّيَ . . انقلبَ محمدُ ابنُ عبد الحكم عنْ مذهبِهِ ، ورجعَ إلىٰ مذهبِ أبيهِ ، ودرسَ كتبَ مالكٍ ، وهوَ مِنْ كبارِ أصحابِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ[2] ، وآثرَ البويطيُّ الزهدَ والخمولَ ، ولمْ يعجبْهُ الجمعُ والجلوسُ في الحلقةِ ، واشتغلَ بالعبادةِ[3] ، وصنَّفَ كتابَ « الأمِّ » الذي يُنسبُ الآنَ إلى الربيعِ بنِ سليمانَ ويُعرفُ بهِ ، وإنَّما صنَّفَهُ البويطيُّ ، ولكنْ لمْ يذكرْ نفسَهُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٧) والسياق عنده ، ونحوه رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٣٣٧) دون ذكر قول الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أي : والده عبد الله بن عبد الحكم ، وانتقاله إلىٰ مذهب الإمام مالك رحمه الله حكاه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٣٤١) .

(٣) حتىٰ روى البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٣٣٩) عن الربيع أنه قال : (ما رأيت البويطي بعدما فطنت له إلا رأيت شفته تتحرك إما بذكر وإما بقراءة قرآن) .

فيهِ ، ولمْ ينسبْهُ إلىٰ نفسِهِ ، فزادَ الربيعُ فيهِ وتصرَّفَ وأظهرَهُ(١) .

والمقصودُ : أنَّ الوفاءَ بالمحبَّةِ مِنْ تمامِها(٢) .

قالَ الأحنفُ : (الإخاءُ جوهرةٌ رقيقةٌ ، إنْ لمْ تحرسْها . كانَتْ معرَّضةً للآفاتِ ، فاحرسْها بالكظْمِ حتَّىٰ تعتذرَ إلىٰ مَنْ ظلمَكَ ، وبالرضا حتَّىٰ لا تستكثرَ مِنْ نفسِكَ الفضلَ ، ولا مِنْ أخيكَ التقصيرَ)(٣) .

* * *

ومِنْ آثارِ الصدقِ والإخلاصِ وتمامِ الوفاءِ : أنْ تكونَ شديدَ الجزعِ مِنَ المفارقةِ ، نفُورَ الطبعِ عنْ أسبابِها ، كما قيلَ(٤) : [من الطويل]

وَجَدْتُ مُصِيباتِ ٱلزَّمانِ جَمِيعَهَا ... سِوَىٰ فُرْقَةِ ٱلأحبابِ هَيِّنَةَ ٱلْخَطْبِ

وأنشدَ ابنُ عيينةَ هـٰذا البيتَ وقالَ : (لقدْ عهدتُ أقواماً فارقتُهُمْ منذُ ثلاثينَ سنةً ، ما يخيَّلُ إليَّ أنَّ حسرتَهُمْ ذهبَتْ مِنْ قلبي)(٥) .

* * *

ومِنَ الوفاءِ : ألا يسمعَ بلاغاتِ الناسِ علىٰ صديقِهِ ، لا سيما مَنْ يظهرُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٨) .

(٢) أي : من تمام المحبة الوفاء بها ، كذا في جميع النسخ ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي : (والمقصود : أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله) . « إتحاف » (٦/ ٢٣٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٤٢) .

(٤) البيت لقيس بن ذريح في « ديوانه » (ص٦٦) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٢٣) .

أوَّلاً أنَّهُ محبٌّ لصديقِهِ كي لا يُتَّهَمَ ، ثمَّ يُلقي الكلامَ عرضاً ، وينقلُ عنِ الصديقِ ما يوغرُ القلبَ ، فذلكَ مِنْ دقائقِ الحيلِ في التضريبِ ، ومَنْ لمْ يحترزْ منهُ . . لمْ تدمْ مودَّتُهُ أصلاً .

قال رجلٌ لحكيمٍ : قدْ جئتُ خاطباً لمودَّتِكَ ، قالَ : إنْ جعلتَ مهرَها ثلاثاً . . فعلتُ ، قالَ : وما هيَ ؟ قالَ : لا تسمعْ عليَّ بلاغةً ، ولا تخالفْني في أمرٍ ، ولا توطِئْني عُشوةً[1] .

❊ ❊ ❊

ومِنَ الوفاءِ : ألا يصادقَ عدوَّ صديقِهِ ، قالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (إذا أطاعَ صديقُكَ عدوَّكَ . . فقدِ اشتركا في عداوتِكَ) .

❊ ❊ ❊

---

(١) يقال : أوطأني فلان عشوة ؛ أي : حملني علىٰ أمر غير رشيد ، والخبر في « القوت » (٢/ ٢٢٩) ، وفيه الثالثة : (ولا تعطين فيَّ رشوة) ، ثم زاد : (قد فعلت ، قال : قد آخيتك) .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلكَ بألا يكلِّفَ أخاهُ ما يشقُّ عليهِ ، بلْ يروِّحُ سرَّهُ مِنْ مهمَّاتِهِ وحاجاتِهِ ، ويرفِّهُهُ عنْ أنْ يحمِّلَهُ شيئاً مِنْ أعبائِهِ ، ولا يستمدُّ منهُ مِنْ جاهٍ ومالٍ ، ولا يكلِّفُهُ التواضعَ لهُ ، والتفقُّدَ لأحوالِهِ ، والقيامَ بحقوقِهِ ، بلْ لا يقصدُ بصحبتِهِ إلا اللهَ سبحانَه ؛ تبرُّكاً بدعائِهِ ، واستئناساً بلقائِهِ ، واستعانةً بهِ على دينِهِ ، وتقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ بالقيامِ بحقوقِهِ وبحمْلِ مؤنتِهِ .

قالَ بعضُهُمْ : (مَنِ اقتضىٰ مِنْ إخوانِهِ ما لا يقتضونَهُ منهُ.. فقدْ ظلمَهُمْ ، ومَنِ اقتضىٰ منهُمْ مثلَ ما يقتضونَهُ.. فقدْ أتعبَهُمْ ، ومَنْ لمْ يقتضِ.. فهوَ المتفضِّلُ عليهِمْ)(١) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنْ جعلَ نفسَهُ عندَ الإخوانِ فوقَ قدْرِهِ.. أثمَ وأثموا ، ومَنْ جعلَ نفسَهُ في قدْرِهِ.. تعبَ وأتعبَهُمْ ، ومَنْ جعلَها دونَ قدْرِهِ.. سلمَ وسلموا)(٢) .

❊ ❊ ❊

وتمامُ التخفيفِ : بطيِّ بساطِ التكلُّفِ ، حتَّىٰ لا يستحيَ منهُ فيما لا يستحي مِنْ نفسِهِ ، وقالَ الجنيدُ : (ما تواخى اثنانِ في اللهِ ، فاستوحشَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .

أحدُهُما مِنْ صاحبِهِ أوِ احتشمَ . . إلا لعلَّةٍ في أحدِهِما)[١] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (شرُّ الأصدقاءِ مَنْ تكلَّفَ لكَ ، ومَنْ أحوجَكَ إلىٰ مداراةٍ ، وألجأكَ إلى اعتذارٍ)[٢] .

وقالَ الفضيلُ : (إنَّما تقاطعَ الناسُ بالتكلُّفِ ، يزورُ أحدُهُمْ أخاهُ ، فيتكلَّفُ لهُ ، فيقطعُهُ ذلكَ عنهُ)[٣] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (المؤمنُ أخو المؤمنِ ، لا يغتنمُهُ ، ولا يحتشمُهُ)[٤] .

وقالَ الجنيدُ : (صحبتُ أربعَ طبقاتٍ مِنْ هـٰذهِ الطائفةِ ، كلُّ طبقةٍ ثلاثونَ رجلاً : حارثاً المحاسبيَّ وطبقتَهُ ، وحسناً المسوحيَّ وطبقتَهُ ، وسريّاً السقطيَّ وطبقتَهُ ، وابنَ الكُرينيِّ وطبقتَهُ ، فما تواخى اثنانِ في اللهِ واحتشمَ أحدُهُما مِنْ صاحبِهِ أوِ استوحشَ . . إلا لعلَّة في أحدِهِما)[٥] .

وقيلَ لبعضِهِمْ : مَنْ نصحبُ ؟ قالَ : مَنْ يرفعُ عنكَ ثقلَ التكلُّفِ ، وتسقطُ بينَكَ وبينَهُ مؤنةُ التحفُّظِ[٦] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) ، وهما عنده قولان ، جمع المصنف هنا بينهما .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٢٤) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٢٥) ، والجملة الأولىٰ رويت في المرفوع .
(٥) تقدم بعضه قريباً عن صاحب « القوت » .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٠٤٩) عن أبي بكر الزقاق .

وكانَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (أثقلُ إخواني عليَّ مَنْ يتكلَّفُ لي وأتحفَّظُ منهُ ، وأخفُّهُمْ علىٰ قلبي مَن أكونُ معَهُ كما أكونُ وحدي)(١) .

وقالَ بعضُ الصوفيَّةِ : (لا تعاشرْ مِنَ الناسِ إلا منْ لا تزيدُ عندَهُ ببرٍّ ولا تنقصُ بإثمٍ ، يكونُ ذلكَ لكَ وعليكَ وأنتَ عندَهُ سواءٌ)(١) ، وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّ بهِ يتخلَّصُ عنِ التكلُّفِ والتحفُّظِ ، وإلا . . فالطبعُ يحملُهُ علىٰ أنْ يتحفَّظَ منهُ إذا علمَ أنَّ ذلكَ ينقصُهُ عندَهُ .

وقالَ بعضُهُمْ : (كنْ معَ أبناءِ الدنيا بالأدبِ ، ومعَ أبناءِ الآخرةِ بالعلمِ ، ومعَ العارفينَ كيفَ شئتَ) .

وقالَ آخرُ : (لا تصحبْ إلا مَنْ يتوبُ عنكَ إذا أذنبتَ ، ويعتذرُ إليكَ إذا أسأتَ ، ويحملُ عنكَ مؤنةَ نفسِكَ ، ويكفيكَ مؤنةَ نفسِهِ)(١) .

وقائلُ هـٰذا قدْ ضيَّقَ طريقَ الأخوَّةِ على الناسِ ، وليسَ الأمرُ كذلكَ ، بلْ ينبغي أنْ يؤاخيَ كلَّ متديِّنٍ عاقلٍ ، ويعزمَ علىٰ أنْ يقومَ بهـٰذهِ الشروطِ ، ولا يكلفَها أخاهُ ؛ حتَّىٰ تكثرَ إخوانُهُ ، إذْ بهِ يكونُ مؤاخياً في اللهِ ، وإلا . . كانَتْ مؤاخاتُهُ لحظوظِ نفسِهِ فقطْ .

ولذلكَ قالَ رجلٌ للجنيدِ : قدْ عزَّ الإخوانُ في هـٰذا الزمانِ ، أينَ أخٌ

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٥) .

في اللهِ ؟! فأعرضَ الجنيدُ حتَّىٰ أعادَهُ ثلاثاً ، فلمَّا أكثرَ . . قالَ لهُ : إنْ أردتَ أخاً يكفيكَ مؤنتكَ ، ويتحمَّلُ أذاكَ . . فهـٰذا لعمري قليلٌ ، وإنْ أردتَ أخاً في اللهِ تحملُ أنتَ مؤنتَهُ ، وتصبرُ علىٰ أذاهُ . . فعندي جماعةٌ أعرفُهُمْ لكَ ، فسكتَ الرجلُ[1] .

* * *

واعلمْ : **أنَّ الناسَ ثلاثةٌ** : رجلٌ تنتفعُ بصحبتِهِ ، ورجلٌ تقدرُ علىٰ أنْ تنفعَهُ ولا تتضرَّرُ بهِ ولكنْ لا تنتفعُ بهِ ، ورجلٌ لا تقدرُ أيضاً علىٰ أنْ تنفعَهُ وتتضرَّرُ بهِ ، وهوَ الأحمقُ أوِ السيِّءُ الخلقِ ، فهـٰذا الثالثُ ينبغي أنْ يُجتنبَ ، فأمَّا الثاني . . فلا يُجتنبُ ؛ لأنَّكَ تنتفعُ في الآخرةِ بشفاعتِهِ وبدعائِهِ ، وبثوابِكَ على القيامِ بهِ ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : إنْ أطعتَني . . فما أكثرَ إخوانَكَ ؛ أيْ : إنْ واسيتَهُمْ واحتملتَ منهُمْ ولمْ تحسدْهُمْ[2] .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (صحبتُ الناسَ خمسينَ سنةً ، فما وقعَ بيني وبينَهُمْ خلافٌ ؛ لأنِّي كنتُ معَهُمْ علىٰ نفسي)[3] ، ومَنْ كانتْ هـٰذِهِ شيمتَهُ . . كثرَ إخوانُهُ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢٥) ، وقال : (فهـٰذا ـ لعمري ـ يكون محباً لنفسه إذا اقتضىٰ هـٰذا من أخيه ، لا محباً لأخٍ في الله تعالىٰ) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٥) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٩٣) ، وهو لأبي سعيد الخرَّاز .

ومنَ التخفيفِ وترْكِ التكلُّفِ : ألا يعترضَ عليهِ في نوافلِ العباداتِ : كانَ طائفةٌ مِنَ الصوفيةِ يصطحبونَ علىٰ شرطِ المساواةِ بينَ أربعةِ معانٍ : إنْ أكلَ أحدُهُمُ النهارَ كلَّهُ.. لمْ يقلْ لهُ صاحبُهُ : صُمْ ، وإنْ صامَ الدهرَ كلَّهُ.. لمْ يقلْ لهُ : أفطرْ ، وإنْ نامَ الليلَ كلَّهُ.. لمْ يقلْ لهُ : قُمْ ، ولمَنْ صلَّى الليلَ كلَّهُ.. لمْ يقلْ لهُ : نمْ ، وتستوي حالاتُهُ عندَهُ بلا مزيدٍ ولا نقصانٍ ؛ لأنَّ ذلكَ إنْ تفاوتَ عندَهُ.. حرَّكَ الطبعَ إلى الرياءِ والتحفُّظِ لا محالةَ[1] ، وقدْ قيلَ : (مَنْ سقطَتْ كلفتُهُ.. دامَتْ ألفتُهُ ، ومَنْ خفَّتْ مؤنتُهُ.. دامَتْ مودَّتُهُ)[2] .

وقالَ بعضُ الصحابةِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ لعنَ المتكلِّفينَ) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا والأتقياءُ مِنْ أمَّتي برآءُ مِنَ التكلُّفِ »[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا عملَ الرجلُ في بيتِ أخيهِ أربعَ خصالٍ.. فقدْ تمَّ أنسُهُ بهِ : إذا أكلَ عندَهُ ، ودخلَ الخلاءَ ، وصلَّىٰ ونامَ) ، فذُكرَ ذلكَ

---

(١) السياق هنا عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٢٥ـ٢٢٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢٩) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٩) ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٢٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥/ ٢٧٨) بلفظ : « إني بريء من التكلف وصالحو أمتي » ، وعند البخاري (٧٢٩٣) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر رضي الله عنه : (نهينا عن التكلُّف) .

لبعضِ المشايخِ[١] ، فقالَ : بقيتْ خامسةٌ ؛ وهيَ أنْ يحضرَ معَ الأهلِ في بيتِ أخيهِ ويجامعَها ؛ لأنَّ البيتَ إنَّما يتخذُ للاستخفاءِ في هٰذهِ الأمورِ الخمسِ ، وإلا . . فالمساجدُ أروحُ لقلوبِ المتعبدينَ ، فإذا فعلَ هٰذهِ الخمسَ . . فقدْ تمَّ الإخاءُ ، وارتفعَتِ الحشمةُ ، وتأكَّدَ الانبساطُ .

وقولُ العربِ في تسليمِهِمْ يشيرُ إلىٰ ذلكَ[٢] ، إذْ يقولُ أحدُهُمْ لصاحبِهِ : مرحباً وأهلاً وسهلاً ؛ أيْ : لكَ عندَنا مرحبٌ وهوَ السعةُ في القلبِ والمكانِ ، ولكَ عندنا أهلٌ تأنسُ بهِمْ بلا وحشةٍ لكَ منَّا ، ولكَ عندنا سهولةٌ في ذلكَ كلِّهِ ؛ أيْ : لا يشتدُّ علينا شيءٌ ممّا تريدُ .

❊ ❊ ❊

ولا يتمُّ التخفيفُ وتركُ التكلُّفِ إلا بأنْ يرىٰ نفسَهُ دونَ إخوانِهِ ، ويحسنَ الظنَّ بهمْ ويُسيئَه بنفسِهِ ، فإذا رآهُمْ خيراً مِنْ نفسِهِ . . فعندَ ذلكَ يكونُ هوَ خيراً منهُمْ[٣] .

قالَ أبو معاويةَ الأسودُ : إخواني كلُّهُمْ خيرٌ منِّي ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟

---

(١) وهو من بعض مشايخ أبي طالب المكي كما حكىٰ هٰذا الخبر في « القوت » (٢/ ٢٣٠) وسياقه عنده ، وقد وقع هٰذا الخبر في نسخة الحافظ العراقي مرفوعاً وهو ليس كذلك ، أشار لهٰذا الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٢٤٢) .

(٢) وكذلك تشير إليه عبارة صاحب « القوت » (٢/ ٢٣٠) .

(٣) ومن هنا قولهم : سيد القوم خادمهم ، فلا تتم السيادة إلا باطِّراح النفس وترك الترفع على الإخوان . « إتحاف » (٦/ ٢٤٣) .

قالَ: كلُّهُمْ يرىٰ لي الفضلَ عليهِ، ومَنْ فضَّلَني علىٰ نفسِهِ. . فهوَ خيرٌ منّي[١] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ علىٰ دينِ خليلِهِ ، ولا خيرَ في صحبةِ مَنْ لا يرىٰ لكَ مثلَ ما ترىٰ لهُ »[٢] .

فهٰذهِ أقلُّ الدرجاتِ وهيَ النظرُ بعينِ المساواةِ والكمالِ في رؤيةِ الفضلِ للأخِ ، ولذلكَ قالَ سفيانُ : (إذا قيلَ لكَ : يا شرَّ الناسِ ، فغضبتَ . . فأنتَ شرُّ الناسِ)[٣] أيْ : ينبغي أنْ تكونَ معتقداً ذلكَ في نفسِكَ أبداً ، وسيأتي وجهُ ذلكَ في كتابِ الكبرِ والعجْبِ .

وقدْ قيلَ في معنى التواضعِ ورؤيةِ الفضلِ للإخوانِ أبياتٌ[٤] : [من المتقارب]

تَـذَلَّـلْ لِمَـنْ إنْ تَـذَلَّلْـتَ لَـهْ ... يَـرَىٰ ذاكَ لِلْفَضْـلِ لا لِلْبَلَـهْ

وَجـانِـبْ صَـداقَـةَ مَـنْ لا يَـزالْ ... عَلَى ٱلأَصْدِقاءِ يرى ٱلفَضْلَ لَهْ

وقالَ آخرُ[٥] : [من الخفيف]

كَـمْ صَـدِيـقٍ عَـرَفْتُـهُ بِصَـدِيـقٍ ... صارَ أَحْظَىٰ مِنَ ٱلصَّدِيقِ ٱلعَتِيقِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٧٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ١٨) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٢٤٧) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٠٧) ، وتقدم تخريج الجملة الأولىٰ منه ، وروىٰ نحو الجملة الثانية منفردة أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥) .

(٣) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » . « إتحاف » (٦/ ٢٤٣) .

(٤) البيتان لجحظة البرمكي في « ديوانه » (ص ١٤١) .

(٥) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢٠) لبعض الأدباء ، وانظر «الصداقة والصديق» (ص ٣٤٩).

وَرَفِيــقٍ رَأَيْتُــهُ فِــي طَـرِيــقٍ   صارَ عِنْدِي هُوَ ٱلصَّدِيقَ ٱلْحَقِيقِي

ومهما رأى الفضلَ لنفسِهِ . . فقدِ احتقرَ أخاهُ ، وهٰذا في عمومِ المسلمينَ مذمومٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسْبِ امرئٍ مِنَ الشرِّ أنْ يحقرَ أخاهُ المسلمَ »(١) .

* * *

ومِنْ تتمَّةِ الانبساطِ وتركِ التكلُّفِ : أنْ يشاورَ إخوانَهُ في كلِّ ما يقصدُهُ ، ويقبلَ إشارتَهُمْ ، فقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ .

ولا ينبغي أنْ يخفيَ عنهُمْ شيئاً مِنْ أسرارِهِ ؛ كما رُوِيَ عنْ يعقوبَ ابنِ أخي معروفٍ قالَ : جاءَ أسودُ بنُ سالمٍ إلىٰ عمِّي معروفٍ ، وكانَ مؤاخياً لهُ ، فقالَ : إنَّ بشرَ بنَ الحارثِ يحبُّ مؤاخاتَكَ ، وهوَ يستحي أنْ يشافهَكَ بذلكَ ، وقدْ أرسلَني إليكَ يسألُكَ أنْ تعقدَ لهُ فيما بينَكَ وبينَهُ أخوَّةً يحتسبُها ويعتدُّ بها ، إلا أنَّهُ يشترطُ فيها شروطاً : لا يحبُّ أنْ يشتهرَ بذلكَ ، ولا يكونُ بينَكَ وبينَهُ مزاورةٌ ولا ملاقاةٌ ، فإنَّهُ يكرهُ كثرةَ الالتقاءِ ، فقالَ معروفٌ : أمَّا أنا فإذا أحببتُ أحداً . . لمْ أحبَّ مفارقتَهُ ليلاً ولا نهاراً ، ولزرتُهُ في كلِّ وقتٍ ، ولآثرتُهُ علىٰ نفسي في كلِّ حالٍ ، ثمَّ ذكرَ مِنْ فضلِ الأخوَّةِ والحبِّ في اللهِ أحاديثَ كثيرةً ، ثمَّ قالَ فيها : وقدْ آخىٰ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علياً رضيَ اللهُ عنهُ[1] ، فشاركَهُ في العلمِ ، وقاسمَهُ في البُدْنِ ، وأنكحَهُ أفضلَ بناتِهِ وأحبَّهُنَّ إليهِ ، وخصَّه بذلكَ لمؤاخاتِهِ ، وأنا أشهدُكَ أنِّي قدْ عقدتُ لهُ أخوَّةً بيني وبينَهُ ، وعقدتُ إخاءهُ في اللهِ لرسالتِكَ ولمسألتِهِ علىٰ ألا يزورَني إنْ كرهَ ذلكَ ، ولكنِّي أزورُهُ متىٰ أحببتُ ، وآمرُهُ أنْ يلقاني في مواضعَ نلتقي فيها ، وآمرُهُ ألا يخفيَ عليَّ شيئاً مِنْ شأنِهِ ، وأنْ يطلعَني علىٰ جميعِ أحوالِهِ ، فأخبرَ ابنُ سالمٍ بشراً بذلكَ ، فرضيَ وسرَّ بهِ[2] .

❁ ❁ ❁

فهـٰذا جامعُ حقوقِ الصحبةِ ، وقدْ أجملناهُ مرَّةً ، وفصلناهُ أخرىٰ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بأنْ تكونَ علىٰ نفسِكَ للإخوانِ ، ولا تكونَ لنفسِكَ عليهِمْ ، وأنْ تنزلَ نفسَكَ منزلةَ الخادمِ لهُمْ ، فتقيدَ بحقوقِهِمْ جميعَ جوارحِكَ .

أمَّا البصرُ : فبأنْ تنظرَ إليهِمْ نظرَ مودَّةٍ يعرفونَها منكَ ، وتنظرَ إلىٰ محاسنِهِمْ ، وتتعامىٰ عنْ عيوبِهِمْ ، ولا تصرفَ بصرَكَ عنهُمْ في وقتِ إقبالِهِمْ عليكَ وكلامِهِمْ معَكَ .

رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يُعطي كلَّ مَنْ جلسَ إليهِ نصيبَهُ مِنَ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/١٢٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠/١١٩) ، وقال صاحب « القوت » (٢/٢٣٦) : (وهـٰذا من أعلىٰ فضائله ؛ لأن علمه من علمه ، وحاله من وصفه) .

(٢) الخبر بتمامه في « قوت القلوب » (٢/٢٣٦) .

وجهِهِ ، وما استصغاهُ أحدٌ إلا ظنَّ أنَّهُ أكرمُ الناسِ عليهِ ، حتَّىٰ كانَ مجلسُهُ وسمعُهُ وحديثُهُ ولطيفُ مسألتِهِ وتوجهُهُ للجالسِ إليهِ ، وكانَ مجلسُهُ مجلسَ حياءٍ وتواضعٍ وأمانةٍ[1] ، وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أكثرَ الناسِ تبسُّماً وضحكاً في وجوهِ أصحابِهِ ، وتعجباً ممَّا يحدثونَهُ بهِ ، وكانَ ضحكُ أصحابِهِ عندَهُ التبسُّمَ ؛ اقتداءً منهُمْ بفعلِهِ ، وتوقيراً لهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ[2] .

وأمَّا السمعُ : فبأنْ تسمعَ كلامَهُمْ متلذذاً بسماعِهِ ، ومصدِّقاً بهِ ، ومظهراً للاستبشارِ بهِ ، ولا تقطعَ حديثَهُمْ عليهِمْ بمرادَّةٍ ولا منازعةٍ ومداخلةٍ واعتراضٍ ، فإنْ أرهقَكَ عارضٌ . . اعتذرتَ إليهِمْ ، وتحرسَ سمعَكَ عنْ سماعِ ما يكرهونَ .

وأمَّا اللسانُ : فقدْ ذكرنا حقوقَهُ ، فإنَّ القولَ فيه يطولُ ، ومنْ ذلكَ ألا يرفعَ صوتَهُ عليهمْ ولا يخاطبَهُمْ إلاَّ بما يفقهونَ .

---

(١) ففي الحديث الذي رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٣٦) في وصف مجلسه عليه الصلاة والسلام : (يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتىٰ يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول . . . ، مجلسه مجلس حلم وحياء ، وأمانة وصبر) الحديث .

(٢) روى الترمذي في « الشمائل » (٣٥١) في وصفه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه : (يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه) ، وعنده (٢٢٥) : (جلُّ ضحكه التبسم) ، وكذا (٢٢٧) : (ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وأمَّا اليدانِ : فألا يقبضَهُما عنْ معونتِهِمْ في كلِّ ما يُتعاطىٰ باليدِ .

وأمَّا الرجلانِ : فأنْ يمشيَ بهِما وراءَهُمْ مشيَ الأتباعِ لا مشيَ المتبوعينَ ، ولا يتقدَّمَهُمْ إلا بقدْرِ ما يقدِّمونَهُ ، ولا يقرُبَ منهُمْ إلا بقدْرِ ما يقرِّبونَهُ ، ويقومَ لهُمْ إذا أقبلوا ، ولا يقعدَ إلا بقعودِهِمْ ، ويقعدَ متواضعاً حيثُ يُقعَدُ .

ومهما تمَّ الاتحادُ .. خفَّ حملُهُ مِنْ هٰذهِ الحقوقِ ؛ مثلُ القيامِ والاعتذارِ والثناءِ ، فإنَّها مِنْ حقوقِ الصحبةِ ، وفي ضمنِها نوعٌ مِنَ الأجنبيةِ والتكلُّفِ ، فإذا تمَّ الاتحادُ .. انطوىٰ بساطُ التكلُّفِ بالكليَّةِ ، فلا يسلكُ بهِ إلا مسلَكَ نفسِهِ ؛ لأنَّ هٰذهِ الآدابَ الظاهرةَ عنوانُ آدابِ الباطنِ وصفاءِ القلبِ ، ومهما صفتِ القلوبُ .. استُغنيَ عنْ تكلُّفِ إظهارِ ما فيها ، ومَنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ صحبةِ الخلْقِ .. فتارةً يعوجُّ وتارةً يستقيمُ ، ومَنْ كانَ نظرُهُ إلى الخالقِ .. لزمَ الاستقامةَ ظاهراً وباطناً ، وزيَّنَ باطنَهُ بالحبِّ للهِ ولخلقِهِ ، وزيَّنَ ظاهرَهُ بالعبادةِ للهِ والخدمةِ لعبادِهِ ؛ فإنَّها أعلىٰ أنواعِ الخدمةِ للهِ ، إذْ لا وصولَ إليها إلا بحسْنِ الخُلُقِ ، ويدركُ العبدُ بحسْنِ خلقِهِ درجةَ القائمِ الصائمِ وزيادةً(١) .

* * *

(١) وتقدم حديث : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم الصائم » .

خاتمةٌ لهذا الباب نذكر فيها جملةً من آداب المعيشة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إنْ أردتَ حسْنَ المعيشةِ . . فالْقَ صديقَكَ وعدوَّكَ بوجهِ الرضا ، مِنْ غيرِ ذلَّةٍ لهُمْ ولا هيبةٍ منهُمْ ، وتوقَّرْ مِنْ غيرِ كبْرٍ ، وتواضعْ في غيرِ مذلَّةٍ ، وكنْ في جميعِ أمورِكَ في أوسطِها ، فكلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميمٌ .

ولا تنظرْ في عِطفيكَ ، ولا تكثرِ الالتفاتَ ، ولا تقفْ على الجماعاتِ ، وإذا جلستَ . . فلا تستوفزْ[1] ، وتحفَّظْ مِنْ تشبيكِ أصابعِكَ ، والعبثِ بلحيتِكَ وخاتمِكَ ، وتخليلِ أسنانِكَ[2] ، وإدخالِ إصبعِكَ في أنفِكَ[3] ، وكثرةِ بصاقِكَ وتنخُّمِكَ ، وطردِ الذبابِ مِنْ وجهِكَ ، وكثرةِ التمطِّي والتثاؤبِ في وجوهِ الناسِ ، وفي الصلاةِ وغيرِها .

وليكنْ مجلسُكَ هادياً[4] ، وحديثُكَ منظوماً ومرتَّباً ، وأصْغِ إلى الكلامِ الحسنِ ممَّنْ حدَّثَكَ بغيرِ إظهارِ تعجُّبٍ مفرِطٍ ، ولا تسألْهُ إعادتَهُ ، واسكتْ

---

(١) **الاستيفاز** : جلوس منتصب علىٰ هيئة من يريد القيام .

(٢) وسبقت قصة ابن المبارك ، وفيها : (وهل يستاك الرجل بين يدي صديقه ؟!) .

(٣) أو أذنك ، فكل ذلك فيه تقذير ، إلا إن احتيج إليه . . فمرة واحدة . « إتحاف » (٦/ ٢٤٦) .

(٤) يهتدي به الناس إلى الخير ، ووصف المجلس بالهادي علىٰ سبيل المبالغة ، أو المراد بالهادي هنا اللين . « إتحاف » (٦/ ٢٤٦) ، وهي كذلك (هادياً) في « روضة العقلاء » (ص١٩٩) .

عنِ المضاحكِ والحكاياتِ ، ولا تحدِّثْ عن إعجابِكَ بولدِكَ ولا جاريتِكَ ، ولا شِعرِكَ ولا تصنيفِكَ وسائرِ ما يخصُّكَ .

ولا تتصنَّعْ تصنُّعَ المرأةِ في التزيُّنِ ، ولا تتبذَّلْ تبذُّلَ العبدِ ، وتوقَّ كثرةَ الكحْلِ والإسرافَ في الدهنِ ، ولا تلحَّ في الحاجاتِ ، ولا تشجِّعْ أحداً على الظلْمِ .

ولا تُعلمْ أهلَكَ وولدَكَ فضلاً عنْ غيرِهِمْ مقدارَ مالِكَ ؛ فإنَّهُمْ إنْ رأوهُ قليلاً . . هنتَ عليهِمْ ، وإنْ كانَ كثيراً . . لمْ تبلغْ قطُّ رضاهُمْ ، وأخفْهُمْ في غيرِ عنْفٍ ، ولِنْ لهُمْ مِنْ غيرِ ضعفٍ ، ولا تهازلْ أمتَكَ ولا عبدَكَ فيسقطَ وقارُكَ .

وإذا خاصمتَ . . فتوقَّرْ وتحفَّظْ مِنْ جهلِكَ ، وتجنَّبْ عجلتَكَ ، وتفكَّرْ في حجَّتِكَ ، ولا تكثرِ الإشارةَ بيديكَ ، ولا تكثرِ الالتفاتَ إلىٰ مَنْ وراءَكَ ، ولا تجثُ علىٰ ركبتيكَ ، وإذا هدأَ غضبُكَ . . فتكلَّمْ .

وإنْ قرَّبَكَ سلطانٌ . . فكنْ منهُ علىٰ مثلِ حدِّ السنانِ ، وإنِ استرسلَ إليكَ . . فلا تأمنِ انقلابَهُ عليكَ ، وارفقْ بهِ رفقَكَ بالصبيِّ ، وكلِّمْهُ بما يشتهيهِ ما لمْ يكنْ معصيةً ، ولا يحملنَّكَ لطفُهُ بكَ أنْ تدخلَ بينَهُ وبينَ أهلِهِ وولدِهِ وحشمِهِ وإنْ كنتَ لذلكَ مستحقاً عندَهُ ، فإنَّ سقطةَ الداخلِ بينَ المَلِكِ وأهلِهِ سقطةٌ لا تنعشُ (١) ، وزلَّةٌ لا تُقالُ .

---

(١) أي : لا تقام ، يقال : انتعش العاثر ؛ إذا نهض من عثرته .

وإيَّاكَ وصديقَ العافيةِ ؛ فإنَّهُ أعدى الأعداءِ ، ولا تجعلْ مالَكَ أكرمَ مِنْ عرضِكَ .

وإذا دخلتَ مجلساً . . فالأدبُ فيهِ البدايةُ بالتسليمِ ، وتركُ التخطِّي لمَنْ سبقَ ، والجلوسُ حيثُ اتسعَ ، وحيثُ يكونُ أقربَ إلى التواضعِ ، وأنْ تحييَ بالسلامِ مَنْ قربَ منكَ عندَ الجلوسِ .

ولا تجلسْ على الطريقِ ، فإنْ جلستَ . . فأدبُهُ غضُّ البصرِ ، ونصرةُ المظلومِ ، وإغاثةُ الملهوفِ ، وعونُ الضعيفِ ، وإرشادُ الضالِّ ، وردُّ السلامِ ، وإعطاءُ السائلِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنهيُ عنِ المنكرِ ، والارتيادُ لموضعِ البصاقِ ، ولا تبصقْ في جهةِ القبلةِ ، ولا عنْ يمينِكَ ، ولكنْ عنْ يسارِكَ ، وتحتَ قدمِكَ اليسرىٰ .

ولا تجالسِ الملوكَ ، فإنْ فعلتَ . . فأدبُهُ تركُ الغيبةِ ، ومجانبةُ الكذبِ ، وصيانةُ السرِّ ، وقلَّةُ الحوائجِ ، وتهذيبُ الألفاظِ ، والإعرابُ في الخطابِ ، والمذاكرةُ بأخلاقِ الملوكِ ، وقلَّةُ المداعبةِ ، وكثرةُ الحذرِ منهُمْ وإنْ ظهرَتْ لكَ المودَّةُ ، وألا تتجشَّأَ بحضرتِهِمْ ، ولا تتخلَّلَ بعدَ الأكلِ عندَهُ ، وعلى الملكِ أنْ يحتملَ كلَّ شيءٍ إلا إفشاءَ السرِّ ، والقدْحَ في الملْكِ ، والتعرُّضَ للحُرَمِ .

ولا تجالسِ العامَّةَ ، فإنْ فعلتَ . . فأدبُهُ تركُ الخوضِ في حديثِهِمْ ، وقلَّةُ

الإصغاءِ إلىٰ أراجيفِهِمْ[1] ، والتغافلُ عمَّا يجري في سوءِ ألفاظِهِمْ ، وقلَّةُ اللقاءِ لهُمْ معَ الحاجةِ إليهِمْ .

وإيَّاكَ أنْ تمازحَ لبيباً أوْ غيرَ لبيبٍ ؛ فإنَّ اللبيبَ يحقدُ عليكَ ، والسفيهَ يجترىءُ عليكَ ؛ لأنَّ المزاحَ يخرقُ الهيبةَ ، ويسقطُ ماءَ الوجهِ ، ويعقبُ الحقدَ ، ويذهبُ بحلاوةِ الوُدِّ ، ويشينُ فقهَ الفقيهِ ، ويجرِّىءُ السفيهَ ، ويسقطُ المنزلةَ عندَ الحكيمِ ، ويمقتُهُ المتقونَ ، وهوَ يميتُ القلبَ ، ويباعدُ عنِ الربِّ تعالىٰ ، ويكسبُ الغفلةَ ، ويورثُ الذلَّةَ ، وبهِ تظلمُ السرائرُ وتموتُ الخواطرُ ، وبهِ تكثرُ العيوبُ وتبينُ الذنوبُ .

وقدْ قيلَ : لا يكونُ المزاحُ إلا مِنْ سخْفٍ أوْ بطرٍ ، ومَنْ بليَ في مجلسٍ بمزاحٍ أوْ لغطٍ . فليذكرِ اللهَ عزَّ وجلَّ عندَ قيامِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جلسَ في مجلسٍ ، فكثرَ فيهِ لغطُهُ ، فقالَ قبلَ أنْ يقومَ مِنْ مجلِسِهِ ذلكَ : سبحانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ ، أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ أنتَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ . . إلا غُفِرَ لهُ ما كانَ في مجلسِهِ ذلكَ »[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) وهي الأقوال السيئة والأخبار الكاذبة ، وقد أرجف القوم الشيء وبه ؛ إذا أكثروا من تلك الأقوال والأخبار حتىٰ يضطر الناس بها . « إتحاف » (٦/٢٤٨) .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٣٣) .

البَابُ الثَّالِثُ
في حقّ المسلم والرّحم والجوار والملك
وكيفيّة المعاشرة مع من يدلي بهذه الأسباب

اعلمْ : أنَّ الإنسانَ إما أنْ يكونَ وحدهُ ، أوْ معَ غيرِهِ ، وإذا تعذَّرَ عيشُ الإنسانِ إلا بمخالطةِ منْ هوَ مِنْ جنسِهِ . . لمْ يكنْ لهُ بدٌّ مِنْ تعلُّمِ آدابِ المخالطةِ ، وكلُّ مخالطٍ ففي مخالطتِهِ أدبٌ ، والأدبُ علىٰ قدْرِ حقِّهِ ، وحقُّهُ علىٰ قدْرِ رابطتِهِ التي بها وقعَتِ المخالطةُ .

والرابطةُ : إمَّا القرابةُ وهيَ أخصُّها ، أوْ أخوَّةُ الإسلامِ وهيَ أعمُّها ، وإمَّا الجوارُ ، وإمَّا صحبةُ السفرِ أوِ المكتبِ أوِ الدرْسِ ، وإمَّا الصداقةُ أوِ الأخوَّةُ .

ولكلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الروابطِ درجاتٌ ، فالقرابةُ لها حقٌّ ، ولكنْ حقُّ الرحمِ المحرمِ آكدُ ، وللمحرمِ حقٌّ ، ولكنْ حقُّ الوالدينِ آكدُ .

وكذلكَ حقُّ الجارِ ولكنْ يختلفُ بحسَبِ قربِهِ مِنَ الدارِ وبعدِهِ ، ويظهرُ التفاوتُ عندَ النسبةِ ، حتىٰ إنَّ البلديَّ في بلادِ الغربةِ يجري مَجرى القريبِ في الوطنِ ؛ لاختصاصِهِ بحقِّ الجوارِ في البلدِ .

وكذلكَ حقُّ المسلمِ يتأكَّدُ بتأكُّدِ المعرفةِ ، وللمعارفِ درجاتٌ ، فليسَ

حقُّ الذي عُرِفَ بالمشاهدةِ كحقِّ الذي عُرِفَ بالسماعِ ، بلْ آكدُ منهُ ، والمعرفةُ بعدَ وقوعِها تتأكَّدُ بالاختلاطِ .

وكذلكَ الصحبةُ تتفاوتُ درجاتُها ، فحقُّ الصحبةِ في الدرسِ والمكتبِ آكدُ مِنْ حقِّ صحبةِ السفرِ .

وكذلكَ الصداقةُ تتفاوتُ ، فإنَّها إذا قويَتْ . . صارَتْ أخوَّةً ، فإنِ ازدادَتْ . . صارَتْ محبَّةً ، فإنِ ازدادَتْ . . صارَتْ خلَّةً ، والخليلُ أقربُ مِنَ الحبيبِ ، والمحبَّةُ ما تتمكَّنُ مِنْ حبَّةِ القلْبِ ، والخلَّةُ ما تتخلَّلُ سرَّ القلبِ ، فكلُّ خليلٍ حبيبٌ ، وليسَ كلُّ حبيبٍ خليلاً .

وتفاوتُ درجاتِ الصداقةِ لا يخفىٰ بحكْمِ المشاهدةِ والتجربةِ ، فأمَّا كونُ الخلَّةِ فوقَ الأخوَّةِ . . فمعناهُ : أنَّ لفظَ الخلَّةِ عبارةٌ عنْ حالةٍ هيَ أتمُّ مِنَ الأخوَّةِ ، وتعرفُهُ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كنتُ متخذاً خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكنَّ صاحبَكُمْ خليلُ اللهِ »[1] ؛ إذِ الخليلُ هوَ الذي يتخلَّلُ الحبُّ جميعَ أجزاءِ قلبِهِ ظاهراً وباطناً ويستوعبُهُ ، ولمْ يكنْ يستوعبُ قلبُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ منعتْهُ الخلَّةُ عنِ الاشتراكِ فيهِ[2] ، معَ أنَّهُ اتخذَ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ أخاً ، فقالَ : « عليٌّ

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢ ، ٢٣٨٣) ، قال الحافظ الزبيدي : (الحديث متواتر ، وقد رواه زهاء خمسة عشر من الصحابة) . « الإتحاف » (٦/ ٢٥٠).

(٢) أي : لما اتخذه خليلاً . . لم يصلح أن يشترك في خلة الخالق خلة الخلق، ثم قال: «ولكن أخوة الإسلام»، فأوقفه مع الأخوة؛ لأن فيها مشاركة في الحال. «إتحاف» (٦/ ٢٥١).

منِّي بمنزلةِ هارونَ مِنْ موسىٰ إلا النبوَّةَ »[1] ، فعدلَ بعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبوَّةِ كما عدلَ بأبي بكرٍ عنِ الخلَّةِ ، فشاركَ أبو بكرٍ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُما في الأخوَّةِ وزادَ عليهِ بمقاربةِ الخلَّةِ وأهليتِهِ لها لوْ كانَ للشركةِ في الخلَّةِ مجالٌ ، فإنَّهُ نبَّهَ عليهِ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً » .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبيبَ اللهِ وخليلَهُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صعدَ المنبرَ يوماً مستبشراً فرحاً ، فقالَ : « إنَّ اللهَ قدِ اتخذَني خليلاً كما اتخذَ إبراهيمَ خليلاً ، فأنا حبيبُ اللهِ ، وأنا خليلُ اللهِ تعالىٰ »[2] .

فإذاً ؛ ليسَ قبلَ المعرفةِ رابطةٌ ، ولا بعدَ الخلَّةِ درجةٌ ، وما سواهُما مِنَ الدرجاتِ بينَهُما ، وقدْ ذكرنا حقَّ الصحبةِ والأخوَّةِ ، ويدخلُ فيهما ما وراءَهُما مِنَ المحبَّةِ والخلَّةِ ، وإنَّما تتفاوتُ الرتبُ في تلكَ الحقوقِ كما سبقَ بحسَبِ تفاوتِ المحبَّةِ والأخوَّةِ ، حتىٰ ينتهيَ أقصاها إلىٰ أنْ يوجبَ الإيثارَ بالنفسِ والمالِ ؛ كما آثرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3] ،

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٦) ، ومسلم (٢٤٠٤) بلفظ : « أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبي بعدي » ، وعند أحمد في « المسند » (١/ ١٧٠) : « أوما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلا النبوة ؟ » .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣١) ، وقد رواه مسلم (٥٣٢) دون زيادة : (فأنا حبيب الله ، وأنا خليل الله) ، وقوله : (حبيب الله) رواه الترمذي (٣٦١٦) ولفظه ضمن حديث : « وأنا حبيب الله ولا فخر » ، والجملة الثانية ثابتة بالحديث المتقدم .

(٣) كما روى اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢٤٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٣) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٤٧٦) .

وكما آثَرَهُ أبو طلحةَ ببدنِهِ ، إذْ جعلَ نفسَهُ وقايةً لشخصِهِ العزيزِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ[1] .

فنحنُ الآنَ نريدُ أنْ نذكرَ حقَّ أخوَّةِ الإسلامِ ، وحقَّ الرحمِ ، وحقَّ الوالدينِ ، وحقَّ الجوارِ ، وحقَّ المِلْكِ ؛ أعني : ملكَ اليمينِ ؛ فإنَّ مِلْكَ النكاحِ قدْ ذكرنا حقوقَهُ في كتابِ آدابِ النكاحِ .

* * *

(١) كما روى البخاري (٣٨١١) ، ومسلم (١٨١١) .

حقوق المسلم

هيَ أنْ يسلِّمَ عليهِ إذا لقيَهُ ، ويجيبَهُ إذا دعاهُ ، ويشمِّتَهُ إذا عطسَ ، ويعودَهُ إذا مرضَ ، ويشهدَ جنازتَهُ إذا ماتَ ، ويبرَّ قسمَهُ إذا أقسمَ عليهِ ، وينصحَ لهُ إذا استنصحَهُ ، ويحفظَهُ بظهرِ الغيبِ إذا غابَ عنهُ ، ويحبَّ لهُ ما يحبُّ لنفسِهِ ، ويكرَهَ لهُ ما يكرَهُ لنفسِهِ ، وردَ جميعُ ذلكَ في أخبارٍ وآثارٍ(١) .

وقدْ روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أربعٌ مِنْ حقِّ المسلمينَ عليكَ : أنْ تعينَ محسنَهُمْ ، وأنْ تستغفرَ

---

(١) منها ما رواه البخاري (١٢٤٠) ، ومسلم (٢١٦٢) واللفظ له : « حق المسلم على المسلم ستٌّ » قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : « إذا لقيته . . فسلِّم عليه ، وإذا دعاك . . فأجبه ، وإذا استنصحك . . فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله . . فسمِّته ، وإذا مرض . . فعده ، وإذا مات . . فاتبعه » ، والتسميت والتشميت بمعنىً .

ومنها ما رواه أحمد في « المسند » (١/٨٨) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً : « للمسلم على المسلم من المعروف ست : يسلم عليه إذا لقيه ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشهده إذا توفي ، ويحب له ما يحب لنفسه ، وينصح له بالغيب » .

ومنها ما رواه البخاري (١٢٣٩) ، ومسلم (٢٠٦٦) وفيه : (وإبرار القسم أو المقسم ، ونصرة المظلوم) ، وقد جمع أصول هٰذه الأخبار أبو طالب المكي في « القوت » (٢/١٤١) .

لمذنبِهِمْ ، وأنْ تدعوَ لمدبرِهِمْ ، وأنْ تحبَّ تائبَهُمْ »(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ قالَ : (يدعو صالحُهُمْ لطالحِهِمْ ، وطالحُهُمْ لصالحِهِمْ ، إذا نظرَ الطالحُ إلى الصالحِ مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ باركْ لهُ فيما قسمتَ لهُ مِنَ الخيرِ ، وثبتْهُ عليهِ ، وانفعْنا بهِ ، وإذا نظرَ الصالحُ إلى الطالحِ . . قالَ : اللهمَّ ؛ اهدِهِ وتبْ عليهِ ، واغفرْ لهُ)(٢) .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ ، ويكرَهَ لهُمْ ما يكرَهُ لنفسِهِ : قالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مثلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتراحُمِهِمْ كمثلِ الجسدِ ، إذا اشتكىٰ عضوٌ منهُ . . تداعىٰ سائرُهُ بالحمىٰ والسهرِ »(٣) .

وروىٰ أبو موسىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً »(٤) .

❁ ❁ ❁

---

(١) قال صاحب « القوت » (١٤١/٢) : (روينا عن إسماعيل بن أبي زياد ، عن أبان بن عياش ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) وذكره ، وقد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (١٤٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٤١) .

(٣) رواه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

(٤) رواه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

ومنها : **ألا يؤذيَ أحداً مِنَ المسلمينَ بفعلٍ ولا قولٍ** : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المسلمُ مَنْ سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ طويلٍ يأمرُ فيهِ بالفضائلِ : « فإنْ لمْ تقدرْ . فدعِ الناسَ مِنَ الشرِّ ؛ فإنَّها صدقةٌ تصدَّقُ بها علىٰ نفسِكَ »[2] .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ المسلمينَ مَنْ سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتدرونَ مَنِ المسلمُ ؟ » فقالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « المسلمُ مَنْ سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ » ، قالوا : فمَنِ المؤمنُ ؟ قالَ : « مَنْ أمنَهُ المؤمنونَ علىٰ أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ » ، قالوا : فمَنِ المهاجرُ ؟ قالَ : « مَنْ هجرَ السوءَ واجتنبَهُ »[4] .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الإسلامُ ؟ قالَ : « أنْ يسلمَ قلبُكَ للهِ ، ويسلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِكَ ويدِكَ »[5] .

---

(١) رواه البخاري (١٠) ، ومسلم (٤١) ، وإنما ذكر اللسان واليد وخصَّهما لأن أكثر وأغلب الأذىٰ بهما .

(٢) رواه البخاري (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) ، قاله صلى الله عليه وسلم لأبي ذرٍّ رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (١١) ، ومسلم (٤٢) وقد سئل صلى الله عليه وسلم : (أي المسلمين أفضل ؟) فذكره .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٣٤) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١١٤) .

وقالَ مجاهدٌ : (يُسلَّطُ علىٰ أهلِ النارِ الجربُ ، فيحتكُّونَ حتَّىٰ يبدوَ عظمُ أحدِهِمْ مِنْ جلدِهِ ، فيُنادَىٰ : يا فلانُ ؛ هلْ يؤذيكَ هـٰذا ؟ فيقولُ : نعمْ ، فيُقالُ : هـٰذا بما كنتَ تؤذي المؤمنينَ)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ رأيتُ رجلاً يتقلَّبُ في الجنَّةِ في شجرةٍ قطعَها عنْ ظهْرِ الطريقِ كانَتْ تؤذي الناسَ »(٢) .

وقالَ أبو برزةَ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ علِّمْني شيئاً أنتفعُ بهِ ، قالَ : « اعزلِ الأذىٰ عنْ طريقِ المسلمينَ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زحزحَ عنْ طريقِ المسلمينَ شيئاً يؤذيهِمْ . . كتبَ اللهُ لهُ بهِ حسنةً ، ومَنْ كتبَ اللهُ لهُ حسنةً . . أوجبَ لهُ بها الجنَّةَ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يشيرَ إلىٰ أخيهِ بنظرةٍ تؤذيهِ »(٥) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٢٤)، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩٤).

(٢) رواه مسلم (١٩١٤/ ١٢٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٦١٨) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٤٠) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٩) عن حمزة بن عبدة مرسلاً ، وزاد الحافظ العراقي : (وفي « البر والصلة » له من زيادات الحسين المروزي : حمزة بن عبد الله بن أبي سمي ، وهو الصواب) . « إتحاف » (٦/ ٢٥٥) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٥/ ٥٠٤) : (عن حمزة بن عبيد مرسلاً ، هو ابن عبد الله بن عمر ، قال الذهبي : ثقة إمام) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يروِّعَ مسلماً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يكرَهُ أذى المؤمنِ »(٢) .

وقالَ الربيعُ بنُ خثيمٍ : (الناسُ رجلانِ : مؤمنٌ فلا تؤذِهِ ، وجاهلٌ فلا تجاهلْهُ)(٣) .

* * *

ومنها : أنْ يتواضعَ لكلِّ مسلم ، ولا يتكبَّرَ عليهِ : فإنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليَّ : أنْ تواضعوا ؛ حتَّىٰ لا يفخرَ أحدٌ علىٰ أحدٍ »(٤) .

ثمَّ إنْ تفاخرَ عليهِ غيرُهُ . . فليحتملْ ، فاللهُ تعالىٰ قالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٠٤) عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : حدثنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلىٰ حبْل معه ـ وعند أحمد في « المسند » (٥/ ٣٦٢) : إلىٰ نبل معه ـ فأخذه ، ففزع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً » .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩٢) عن عكرمة بن خالد مرسلاً ، وذكره الترمذي (٢٨٢٥) تعليقاً .

(٣) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (٣٨) .

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥) ضمن خطبة له صلى الله عليه وسلم ، ورواه مفرداً أبو داوود (٤٨٩٥) ، وابن ماجه (٤١٧٩) .

وعنِ ابنِ أبي أوفىٰ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتواضعُ لكلِّ مسلمٍ، ولا يأنفُ ولا يستكبرُ أنْ يمشيَ معَ الأرملةِ والمسكينِ فيقضيَ حاجتَهُ)[١] .

❋ ❋ ❋

ومنها : ألا يسمعَ بلاغاتِ الناسِ بعضِهِمْ علىٰ بعضٍ ، ولا يبلِّغَ بعضَهُمْ ما يسمعُ منْ بعضٍ: قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ »[٢] .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (مَنْ نمَّ إليكَ . . نمَّ عليكَ ، ومَنْ أخبرَكَ بخبرِ غيرِكَ . . أخبرَ غيرَكَ بخبرِكَ)[٣] .

❋ ❋ ❋

ومنها : ألا يزيدَ في الهجرةِ لمَنْ يعرفُهُ علىٰ ثلاثةِ أيامٍ مهما غضبَ عليهِ : قالَ أبو أيوبَ الأنصاريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ ، يلتقيانِ فيعرضُ هٰذا ويعرضُ هٰذا ، وخيرُهُما الذي يبدأُ بالسلامِ »[٤] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أقالَ مسلماً عثرتَهُ . . أقالَهُ اللهُ يومَ القيامةِ »[٥] .

---

(١) رواه النسائي (٣/ ١٠٨) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) ، **والقتّات** : النمَّام .
(٣) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٢١) .
(٤) رواه البخاري (٦٠٧٧) ، ومسلم (٢٥٦٠) .
(٥) رواه أبو داوود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩)، ولفظه عند أبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٤٥).

قالَ عكرمةُ : (قالَ اللهُ تعالىٰ ليوسفَ بنِ يعقوبَ : بعفوِكَ عنْ إخوتِكَ . . رفعتُ ذكرَكَ في الذاكرينَ)(١) .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما انتقمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لنفسِهِ قطُّ إلا أنْ تُنتَهَكَ حرمةُ اللهِ ، فينتقمَ للهِ)(٢) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ما عفا رجلٌ عنْ مظلمةٍ إلا زادَهُ اللهُ بها عزّاً)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما نقصَ مالٌ مِنْ صدقةٍ ، وما زادَ اللهُ رجلاً بعفوٍ إلا عزّاً ، وما منْ أحدٍ تواضعَ للهِ إلا رفعَهُ اللهُ »(٤) .

* * *

ومنها : **أنْ يحسنَ إلىٰ كلِّ مَنْ قدرَ عليهِ منهُمْ ما استطاعَ** : لا يميزُ بينَ الأهلِ وغيرِ الأهلِ ، رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ رضيَ اللهُ عنهُم قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اصنعِ المعروفَ إلىٰ أهلِهِ وإلىٰ غيرِ أهلِهِ ، فإنْ أصبتَ أهلَهُ . . فهوَ أهلُهُ ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٣٧) .
(٢) رواه البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٧) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٢١) .
(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨) ولفظه عنده : (ما نقصت صدقة من مال . . .) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وإنْ لمْ تصبْ أهلَهُ . . فأنتَ أهْلُهُ »[١] .

وعنهُ بإسنادِهِ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأسُ العقلِ بعدَ الدينِ التودُّدُ إلى الناسِ واصطناعُ المعروفِ إلىٰ كلِّ برٍّ وفاجرٍ »[٢] .

وقالَ أبو هريرةَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يأخذُ أحدٌ بيدِهِ فينزعُ يدَهُ حتَّىٰ يكونَ الرجلُ هوَ الذي يرسلُهُ ، ولمْ تكنْ تُرىٰ ركبتُهُ خارجةً عنْ ركبةِ جليسِهِ ، ولمْ يكنْ أحدٌ يكلمُهُ إلا أقبلَ عليهِ بوجهِهِ ، ثمْ لمْ يصرفْهُ عنهُ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ كلامِهِ)[٣] .

* * *

ومنها : **ألا يدخلَ علىٰ أحدٍ منهُمْ إلا بإذنِهِ** : بلْ يستأذنُ ثلاثاً ، فإنْ لمْ يُؤذنْ لهُ . . انصرفَ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الاستئذانُ ثلاثٌ ، فالأولىٰ يستنصتونَ ، والثانيةُ : يستصلحونَ ، والثالثةُ : يأذنونَ أوْ يردُّونَ »[٤] .

---

(١) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٧٨) ، والجصاص في « أحكام القرآن » (٣/ ٢٦٧) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (١٣٨) ، وهو عند الدارقطني في « العلل » (٣/ ١٠٧) .

(٢) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٣٩) بتمامه ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٠٧٦) الجملة الأولىٰ منه .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٦٨٣) ، ونحوه عند الترمذي (٢٤٩٠) ، وابن ماجه (٣٧١٦) .

(٤) رواه السلمي في « آداب الصحبة » (١٦٢) ، **ويستصلحون** : أي : المكان للجلوس ، =

ومنها : أنْ يخالقَ الجميعَ بخلقٍ حسنٍ ، ويعاملَهُمْ بحسَبِ طريقتِهِ : فإنَّهُ إنْ أرادَ لقاءَ الجاهلِ بالعلمِ ، والأميِّ بالفقهِ ، والعييِّ بالبيانِ . . آذىٰ وتأذّىٰ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يوقِّرَ المشايخَ ويرحمَ الصبيانَ : قالَ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «ليسَ منَّا مَنْ لمْ يوقِّرْ كبيرَنا ، ولمْ يرحمْ صغيرَنا»(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ إجلالِ اللهِ إكرامُ ذي الشيبةِ المسلمِ »(٢) .

ومِنْ تمامِ توقيرِ المشايخِ : ألا يتكلمَ بينَ أيديهِمْ إلا بالإذنِ ، قالَ جابرٌ : قدمَ وفدُ جهينةَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقامَ غلامٌ ليتكلمَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَهْ ، فأينَ الكبيرُ ؟ »(٣) .

= أو يصلحون عليهم ثيابهم ونحو ذلك ، وعند البخاري (٦٢٤٥) ، ومسلم (٢١٥٣) واللفظ له : « الاستئذان ثلاث ، فإن أُذن لك ، وإلا . . فارجع » .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٢٣) ، ورواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٥٤) ، وأبو داوود (٤٩٤٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٤٣) وتمامه : « وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط » .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤٨٦) ، وفي (ب ، هـ ، ط ، ي) : (الكُبْر) بدل (الكبير) وهي رواية .

وفي الخبرِ : « ما وقَّرَ شابٌّ شيخاً إلا قيَّضَ اللهُ لهُ في سنِّهِ مَنْ يوقِّرُهُ »(١) ، وهٰذهِ بشارةٌ بدوامِ الحياةِ ، فليُتنبَّهْ لها ، فلا يُوفَّقُ لتوقيرِ الشيوخِ إلا مَنْ قضى اللهُ لهُ بطولِ العمرِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقومُ الساعةُ حتىٰ يكونَ الولدُ غيظاً ، والمطرُ قيظاً ، وتفيضُ اللئامُ فيضاً ، وتغيضُ الكرامُ غيضاً ، ويجترىءُ الصغيرُ على الكبيرِ ، واللئيمُ على الكريمِ »(٢) .

والتلطُّفُ بالصبيانِ مِنْ عادةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣) ، كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقدمُ منَ السفرِ ، فيتلقاهُ الصبيانُ ، فيقفُ عليهِمْ ، ثمَّ يأمرُ بهِمْ فيُرفعونَ إليهِ ، فيرفعُ منهُمْ بينَ يديهِ وخلفَهُ ، ويأمرُ أصحابَهُ أنْ يحملوا بعضَهُمْ ، فربَّما تفاخرَ الصبيانُ بعدَ ذلكَ ، فيقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ : حملَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ يديهِ ، وحملَكَ أنتَ وراءَهُ ، ويقولُ بعضُهُمْ : أمرَ أصحابَهُ أنْ يحملوكَ وراءَهُمْ(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٢٢) ولفظه : « ما أكرم شاب . . . » الحديث .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٤٢٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٤٩) .

(٣) تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان أفكه الناس مع صبي .

(٤) روى البخاري (٣٠٨٢) ، ومسلم (٢٤٢٧) عن ابن أبي مليكة قال : قال ابن الزبير لابن جعفر رضي الله عنهم : أتذكر إذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس ؟ قال : نعم ، فحملنا وتركك .

وروىٰ مسلم (٢٤٢٨) عن عبد الله بن جعفر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر . تُـلُقِّيَ بصبيان أهل بيته ، قال : وإنه قدم من سفر ، فسُبق بي إليه ، فحملني =

وكانَ يُؤتىٰ بالصبيِّ الصغيرِ ليدعوَ لهُ بالبركةِ وليسمِّيَهُ ، فيأخذُهُ فيضعُهُ في حجرِهِ[١] ، فربما بالَ الصبيُّ عليهِ ، فيصيحُ بهِ بعضُ مَنْ يراهُ ، فيقولُ : « لا تُزْرِموا الصبيَّ بولَهُ » ، فيدعُهُ حتَّىٰ يقضيَ بولَهُ ، ثمَّ يفرغُ مِنْ دعائِهِ لهُ وتسميتِهِ ، ويبلغُ سرورَ أهلِهِ فيهِ ، وألا يروا أنَّهُ تأذَّىٰ ببولِهِ ، فإذا انصرفوا . . غسلَ ثوبَهُ بعدَهُ[٢] .

= بين يديه ، ثم جيء بأحد ابني فاطمة ، فأردفه خلفه ، فأدخلنا المدينة ثلاثة علىٰ دابة .

(١) فقد روى البخاري (٥٤٦٨) ، ومسلم (٢١٤٧) واللفظ له : (كان يؤتىٰ بالصبيان ، فيبرِّك عليهم ويحنِّكهم) .

(٢) روى الطبراني في « الأوسط » (٦١٩٣) عن أم سلمة رضي الله عنها : أن الحسن أو الحسين بال علىٰ بطن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهبوا ليأخذوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تُزْرِموا ابني ولا تستعجلوه » فتركه حتىٰ قضىٰ بوله ، فدعا بماء فصبه عليه .

وروى البخاري (٦٣٥٥) ، ومسلم (٢٨٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤتىٰ بالصبيان ، فيدعو لهم ، فأُتي بصبي ، فبال علىٰ ثوبه ، فدعا بماء فأتبعه إياه ولم يغسله) .

وروىٰ أحمد بن منيع في « مسنده » كما في « البدر المنير » (١/ ٥٣٩ـ٥٤٠) عن حسين بن علي ـ أو ابن حسين بن علي ـ : حدثتنا امرأة من أهلنا ، قالت : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقياً علىٰ ظهره يلاعب صبياً علىٰ صدره . . إذ بال ، فقامت لتأخذه وتضربه ، قال : « دعيه ، ائتوني بكوز من ماء » فنضح الماء على البول حتىٰ تفايض الماء على البول . . . الحديث .

ووقع في (أ ، ج) هنا : (ولا يروا) بدل (وألا يروا) ، وفي (د) : (وألا يري والديه أنه . . .) .

ومنها : أنْ يكونَ معَ كافةِ الخلْقِ مستبشراً طلْقَ الوجهِ رفيقاً : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتدرونَ علىٰ منْ حُرمَتِ النارُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « على الليِّنِ الهيِّنِ السهلِ القريبِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ السهلَ الطلْقَ »[2] .

وقالَ بَعضُهُمْ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنَّةَ ، فقالَ : « إنَّ مِنْ موجباتِ المغفرةِ بذلَ السلامِ ، وحسنَ الكلامِ »[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (البرُّ شيءٌ هيِّنٌ ؛ وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ)[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ تجدوا . . فبكلمةٍ طيِّبةٍ »[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ لغرفاً يُرىٰ ظهورُها مِنْ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤١٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٥٢) ، وهو عند الترمذي (٢٤٨٨) من غير كلمة (اللين) .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٩٨) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٨٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٤٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٠٢) .

(٥) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .

بطونِها ، وبطونُها منْ ظهورِها » ، فقالَ أعرابيٌّ : لمَنْ هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « لِمَنْ أطابَ الكلامَ ، وأطعمَ الطعامَ ، وصلَّىٰ بالليلِ والناسُ نيامٌ »(١) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوصيكَ بتقوى اللهِ ، وصدقِ الحديثِ ، ووفاءٍ بالعهدِ ، وأداءِ الأمانةِ ، وتركِ الخيانةِ ، وحفظِ الجارِ ، ورحمةِ اليتيمِ ، ولينِ الكلامِ ، وبذلِ السلامِ ، وخفضِ الجناحِ »(٢) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ عرضَتْ لنبيِّ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةٌ وقالَتْ : لي معكَ حاجةٌ ، وكان معهُ ناسٌ مِنْ أصحابِهِ ، فقالَ : « اجلسي في أيِّ نواحي السككِ شئتِ . . أجلِسْ إليكِ » ، ففعلَتْ ، فجلسَ إليها حتَّىٰ قضَتْ حاجتَها(٣) .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : إنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ صامَ سبعينَ سنةً ، يفطرُ في كلِّ سبعةِ أيامٍ ، فسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يريَهُ كيفَ يغوي الشيطانُ الناسَ ، فلمَّا طالَ عليهِ ذلكَ ولمْ يُجَبْ . . قالَ : لوِ اطلعتُ علىٰ خطيئتي وذنبي بيني وبينَ ربِّي . . لكانَ خيراً لي مِنْ هـٰذا الأمرِ الذي طلبتُهُ ، فأرسلَ اللهُ إليهِ ملكاً فقالَ

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٤٣٤) .

(٣) رواه مسلم (٢٣٢٦) .

لهُ : إنَّ اللهَ أرسلَني إليكَ وهوَ يقولُ لكَ : إنَّ كلامَكَ هـٰذا الذي تكلَّمْتَ بهِ أحبُّ إليَّ ممَّا مضىٰ مِنْ عبادتِكَ ، وقدْ فتحَ اللهُ بصرَكَ فانظرْ ، فنظرَ ، فإذا جنودُ إبليسَ قدْ أحاطَتْ بالأرضِ ، وإذا ليسَ أحدٌ مِنَ الناسِ إلا والشياطينُ حولَهُ كالذبابِ، فقالَ: أيْ ربِّ ؛ مَنْ ينجو مِنْ هـٰذا؟ فقالَ: الوادعُ الليِّنُ[1] .

❊ ❊ ❊

ومنها : **ألا يعدَ مسلماً بوعدٍ إلا ويفي بهِ** : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العِدَةُ عطيَّةٌ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العِدَةُ دينٌ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ثلاثٌ في المنافقِ : إذا حدثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا اؤتمنَ . . خانَ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيهِ . . فهوَ منافقٌ وإنْ صامَ وصلَّىٰ » وذكرَ ذلكَ[5] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٢) ، وفيها وفي (ق) : (الورع) بدل (الوادع) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٧٧٣) عن قباث بن أشيم رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٥٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٩٥) ، وأبو داوود في « المراسيل » (٥١٨) عن الحسن مرسلاً .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٥٣٨) ، و« الصغير » (١/ ١٤٩) عن علي وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .
(٤) رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .
(٥) رواه مسلم (٥٩) بهـٰذا اللفظ ، وأصله في « الصحيحين » كما تقدم .

ومنها : أنْ ينصفَ الناسَ مِنْ نفسِهِ ، ولا يأتيَ إليهِمْ إلا بما يحبُّ أنْ يُؤتىٰ إليهِ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ يكونَ فيهِ ثلاثُ خصالٍ : الإنفاقُ مِنَ الإقتارِ ، والإنصافُ مِنْ نفسِهِ ، وبذلُ السلامِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يُزحزحَ عنِ النارِ ويدخلَ الجنَّةَ . . فلتأتِهِ منيَّتُهُ وهوَ يشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وليأتِ إلى الناسِ ما يحبُّ أنْ يُؤتىٰ إليهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا الدرداءِ ؛ أحسنْ مجاورةَ مَنْ جاورَكَ . . تكنْ مؤمناً ، وأحبَّ للناسِ ما تحبُّ لنفسِكَ . . تكنْ مسلماً »[3] .

وقالَ الحسنُ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأربعِ خصالٍ ، وقالَ : فيهنَّ جماعُ الأمرِ لكَ ولولدِكَ : واحدةٌ لي ، وواحدةٌ لكَ ، وواحدةٌ بيني وبينَكَ ، وواحدةٌ بينكَ وبينَ الخلقِ ؛ فأما التي لي . . فتعبدُني ولا تشركُ بي شيئاً ، وأمَّا التي لكَ . . فعملُكَ أجزيكَ بهِ أفقرَ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٤١) ، وأوقفه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠/٣٨٦) علىٰ راويه عمار بن ياسر رضي الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (١٨٤٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧٣٨) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٥٢) ، وسبق أنه قاله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه .

ما تكونُ إليهِ ، وأمَّا التي بيني وبينَكَ . . فعليكَ الدعاءُ وعليَّ الإجابةُ ، وأمَّا التي بينَكَ وبينَ الناسِ . . فتصحبُهُمْ بالذي تحبُّ أنْ يصحبوكَ بهِ)[١] .

وسألَ موسىٰ عليهِ السلامُ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : أيْ ربِّ ؛ أيُّ عبادِكَ أعدلُ ؟ قالَ : مَنْ أنصفَ مِنْ نفسِهِ[٢] .

❊ ❊ ❊

ومنها : أن يزيدَ في توقيرِ مَنْ تدلُّ هيئتُهُ وثيابُهُ علىٰ علوِّ منزلتِهِ : فينزلُ الناسَ منازلَهُمْ ، رُوِيَ أنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها كانَتْ في سفرٍ ، فنزلَتْ منزلاً ، فوضعَتْ طعامَها ، فجاءَ سائلٌ ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : ناولوا هـٰذا المسكينَ قرصاً ، ثمَّ مرَّ رجلٌ علىٰ دابَّةٍ ، فقالَتْ : ادعوهُ إلى الطعامِ ، فقيلَ لها : تعطينَ السائلَ وتدعينَ هـٰذا الغنيَّ ؟! فقالَتْ : إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أنزلَ الناسَ منازلَ ، لا بدَّ لنا أنْ ننزلَهُمْ تلكَ المنازلَ ، هـٰذا المسكينُ يرضىٰ بقرصٍ ، وقبيحٌ بنا أنْ نعطيَ هـٰذا الغنيَّ علىٰ هـٰذهِ الهيئةِ قرصاً[٣] .

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٣) من طريق الحسن عن أنس مرفوعاً .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (٤٨٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١٣٩) عن أبي عمرو الشيباني بلاغاً .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٧٩) بنحوه ، وفيه قولها رضي الله عنها : (وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن ننزل الناس منازلهم) .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخلَ بعضَ بيوتِهِ ، فدخلَ عليهِ أصحابُهُ حتَّىٰ غصَّ المجلسُ وامتلأَ ، فجاءَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ البجليُّ ، فلمْ يجدْ مكاناً ، فقعدَ على البابِ ، فلفَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رداءَهُ ، فألقاهُ إليهِ وقالَ لهُ : « اجلسْ علىٰ هـٰذا » ، فأخذَهُ جريرٌ ووضعَهُ علىٰ وجهِهِ ، وجعلَ يقبِّلُهُ ويبكي ، ثمَّ لفَّهُ ورمىٰ بهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : ما كنتُ لأجلسَ علىٰ ثوبِكَ ، أكرمَكَ اللهُ كما أكرمتَني ، فنظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يميناً وشمالاً ثمَّ قال : « إذا أتاكُمْ كريمُ قومٍ . . فأكرموهُ »(١) .

وكذلكَ كلُّ مَنْ لهُ عليهِ حقٌّ قديمٌ فليكرمْهُ ، رُوِيَ أنَّ ظئرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التي أرضعَتْهُ جاءَتْ إليهِ ، فبسطَ لها رداءَهُ ، ثمَّ قالَ لها : « مرحباً بأمِّي » ، ثمَّ أجلسَها على الرداءِ ، ثمَّ قالَ لها : « اشفعي . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٧١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٠٦) .

قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (١/ ٢٤١) : (ليس المراد بكريم القوم عالمهم أو صالحهم كما وهم البعض ، ألا ترىٰ أنه لم ينسبه في الحديث إلىٰ علم ولا إلىٰ دين ومن هـٰذا السياق انكشف أن استثناء الكافر والفاسق كما وقع لبعضهم منشؤه الغفلة عما تقرّر من أن الإكرام منوط بخوف محذور ديني أو دنيوي أو لحوق ضرر للفاعل أو للمفعول معه ، فمتىٰ خيف شيء من ذلك . . شرع إكرامه ، بل قد يجب ، فمن قدم عليه بعض الولاة الظلمة الفسقة ، فأقصىٰ مجلسه ، وعامله معاملة الرعية . . فقد عرّض نفسه وماله للبلاء ، فإن أوذي ولم يصبر . . فقد خسر الدنيا والآخرة) .

تشفَّعِي ، وسَلِي . . تعطَي » ، فقالَتْ : قَومي ، فقالَ : « أمَّا حقِّي وحقُّ بني هاشمٍ . . فهوَ لكِ » ، فقامَ الناسُ مِنْ كلِّ ناحيةٍ وقالوا : وحقُّنا يا رسولَ اللهِ .

ثمَّ وصلَها بعدُ ، وأخدمَها ، ووهبَ لها سُهْمانَهُ بخيبرَ ، فبيعَ ذلكَ مِنْ عثمانَ بنِ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ (١) .

---

(١) روى أبو داوود (٥١٤٤) عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقسم لحماً بالجعرانة ، قال أبو الطفيل : وأنا يومئذ غلام أحمل عظم جزور ، إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هي ؟ قالوا : أمه التي أرضعته .

وروى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢١٤) عن عبد الرحمان بن أبي الحسين : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتت خالته من الرضاعة ـ يعني : سلمى بنت أبي ذؤيب ـ فنزع رداءه عن ظهره ، فبسطه لها وقال : « مرحباً بأمي » .

وروى ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٩٣) عن عمر بن سعد قال : جاءت ظئر النبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبسط لها رداءه ، وأدخل يده في ثيابها ووضعها على صدرها ، وقضى حاجتها ، قال : فجاءت إلى أبي بكر ، فبسط لها رداءه وقال لها : دعيني أضع يدي خارجاً من الثياب ، قال : ففعل وقضى لها حاجتها ، ثم جاءت إلى عمر ، ففعل مثل ذلك .

ثم حكى ابن سعد منَّهُ صلى الله عليه وسلم على عشيرة حليمة رضي الله عنها ، وقوله عليه الصلاة والسلام لهم : « أما ما لي ولبني عبد المطلب . . فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صليت بالناس الظهر . . فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإني سأقول لكم : ما كان لي . . . » الحديث ، وهو عند النسائي كذلك (٦/ ٣٦٢) ، وأصله في « الصحيحين » .

ووقع في (ب ، ق) : (ووهب لها أحدَ سهمانه بحنين) .

ولربَّما أتاهُ مَنْ يأتيهِ وهو علىٰ وسادةٍ جالسٌ ، فلا يكونُ فيها سعةٌ يجلسُ معَهُ ، فينتزعُها ويضعُها تحتَ الذي يجلسُ إليهِ ، فإنْ أبىٰ . . عزمَ عليهِ حتىٰ يفعلَ(١) .

＊ ＊ ＊

ومنها : أنْ يصلحَ ذاتَ البينِ بينَ المسلمينَ مهما وجدَ إليهِ سبيلاً : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكُمْ بأفضلَ مِنْ درجةِ الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ ؟ » قالوا : بلىٰ ، قالَ : « إصلاحُ ذاتِ البينِ ، وفسادُ ذاتِ البينِ هيَ الحالقةُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصدقةِ إصلاحُ ذاتِ البينِ »(٣) .

وعنْ أنسٍ قالَ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ إذْ ضحكَ حتَّىٰ بدَتْ ثناياهُ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بأبي أنتَ

---

(١) روى الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٩٩) عن أنس رضي الله عنه قال : دخل سلمان الفارسي علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو متكىء علىٰ وسادة ، فألقاها له ، فقال سلمان : صدق الله ورسوله ـ ثم قال ـ : دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكىء علىٰ وسادة ، فألقاها إلي ثم قال : « يا سلمان ؛ ما من مسلم يدخل علىٰ أخيه ، فيلقي له وسادة إكراماً له إلا غفر الله له » .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٠٤) ، وأبو داوود (٤٩١٩) ، والترمذي (٢٥٠٩) ، **والحالقة** : الخصلة التي شأنها أن تحلق ؛ أي : تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل المزينون الشعر ، أو المراد : المزيلة لمن وقع فيها . « إتحاف » (٦/ ٢٦٧) .

(٣) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (٣٣٥) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٨٠) .

وأمِّي ، ما الذي أضحكَكَ ؟ قالَ : « رجلانِ مِنْ أمَّتي جَثيا بينَ يدي ربِّ العزَّةِ ، فقالَ أحدُهُما : يا ربِّ ؛ خذْ لي مظلمتي مِنْ هـٰذا ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : ردَّ علىٰ أخيكَ مظلمتَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ لمْ يبقَ لي مِنْ حسناتي شيءٌ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : كيفَ تصنعُ بأخيكَ ، ولمْ يبقَ لهُ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ؟ فقالَ : يا ربِّ ؛ فليحملْ عنِّي مِنْ أوزاري » ، ثمَّ فاضَتْ عينُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالبكاءِ ، فقالَ : « إنَّ ذلكَ ليومٌ عظيمٌ ، يومٌ يحتاجُ الناسُ فيهِ إلىٰ أنْ يُحملَ عنهُمْ مِنْ أوزارِهِمْ » ، قالَ : « فيقولُ اللهُ تعالىٰ للمتظلِّمِ : ارفعْ بصرَكَ فانظرْ في الجنانِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أرىٰ مدائنَ مِنْ فضةٍ وقصوراً مِنْ ذهبٍ مكللةً باللؤلؤِ ، لأيِّ نبيٍّ هـٰذا ، أوْ لأيِّ صدِّيقٍ أوْ لأيِّ شهيدٍ هـٰذا ؟ قالَ اللهُ تعالىٰ : هـٰذا لمَنْ أعطى الثمنَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ ومَنْ يملكُ ذلكَ ، قالَ : أنتَ تملكُهُ ، قالَ : بماذا يا ربِّ ؟ قالَ : بعفوكَ عنْ أخيكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ قدْ عفوتُ عنهُ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : خذْ بيدِ أخيكَ فأدخلْهُ الجنَّةَ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكُمْ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يصلحُ بينَ المؤمنينَ يومَ القيامةِ »(١) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابٍ مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ فقالَ خيراً »(٢) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٥٧٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ وجوبِ الإصلاحِ بينَ الناسِ ؛ لأنَّ تركَ الكذبِ واجبٌ ، ولا يسقطُ الواجبُ إلا بواجبٍ آكدَ منهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ الكذبِ مكتوبٌ إلا أنْ يكذبَ الرجلُ في الحرْبِ ، فإنَّ الحربَ خَدعةٌ ، أوْ يكذبَ بينَ اثنينِ فيصلحَ بينَهُما ، أوْ يكذبَ لامرأتِهِ ليرضيَها »(١) .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يسترَ عوراتِ المسلمينَ كلِّهِمْ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سترَ علىٰ مسلمٍ . . سترَهُ اللهُ تعالىٰ في الدنيا والآخرةِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : «لا يسترُ عبدٌ عبداً إلا سترَهُ اللهُ يومَ القيامةِ»(٣) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يرى امرؤٌ مِنْ أخيهِ عورةً فيسترُها عليهِ إلا دخلَ الجنَّةَ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لماعزٍ لما أخبرَهُ : « لوْ سترتَهُ بثوبِكَ . . كانَ خيراً لكَ »(٥) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٨٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٤٦٠) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) ، وعند البخاري (٢٤٤٢) : « ومن ستر مسلماً . . ستره الله يوم القيامة » .
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٠) .
(٤) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (٨٨٥) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٠٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، ورواه في « الكبير » (١٧/ ٢٨٨) من حديث عقبة رضي الله عنه
(٥) رواه أبو داوود (٤٣٧٧) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٢٣٤) .

فإذاً ؛ على المسلمِ أنْ يسترَ عورةَ نفسِهِ ، فحقُّ إسلامِهِ واجبٌ عليهِ كحقِّ إسلامِ غيرِهِ ، قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أخذتُ شارباً . . لأحببتُ أنْ يسترَهُ اللهُ ، ولوْ أخذتُ سارقاً . . لأحببتُ أنْ يسترَهُ اللهُ)(١) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يعسُّ بالمدينةِ ذاتَ ليلةٍ ، فرأىٰ رجلاً وامرأةً علىٰ فاحشةٍ ، فلمَّا أصبحَ . . قالَ للناسِ : أرأيتُمْ لوْ أنَّ إماماً رأىٰ رجلاً وامرأةً علىٰ فاحشةٍ ، فأقامَ عليهِما الحدَّ . . ما كنتُمْ فاعلينَ ؟ قالوا : إنَّما أنتَ إمامٌ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : ليسَ ذلكَ لكَ ، إذاً يقامُ عليكَ الحدُّ ؛ إنَّ اللهَ لمْ يأمنْ علىٰ هـٰذا الأمرِ أقلَّ مِنْ أربعةِ شهداءَ ، ثمَّ تركَهُمْ ما شاءَ اللهُ أنْ يتركَهُمْ ، ثمَّ سألَهُمْ ، فقالَ القومُ مثلَ مقالتِهِمُ الأولىٰ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ مثلَ مقالتِهِ(٢) .

وهـٰذا يشيرُ إلىٰ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ متردِّداً في أنَّ الواليَ هلْ لهُ أنْ يقضيَ بعلمِهِ في حدودِ اللهِ تعالىٰ ، فلذلكَ راجعَهُمْ في معرضِ الفتوىٰ ، لا في معرضِ الإخبارِ ، خيفةً مِنْ ألا يكونَ لهُ ذلكَ ، فيكونَ قاذفاً بإخبارِهِ ، ومالَ رأيُ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ إلىٰ أنَّهُ ليسَ لهُ ذلكَ .

وهـٰذا مِنْ أعظمِ الأدلَّةِ علىٰ طلبِ الشرعِ لسترِ الفواحشِ ، فإنَّ أفحشَها الزنا ، وقدْ نيطَ بأربعةٍ مِنَ العدولِ يشاهدونَ ذلكَ منهُ في ذلكَ منها كالمرْوَدِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٨٦٦٤) .
(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٢٤) .

في المُكْحُلَةِ ، وهـٰذا قطُّ لا يتفقُ ، وإنْ علمَهُ القاضي تحقيقاً . . لمْ يكنْ لهُ أنْ يكشفَ عنهُ .

فانظرْ إلى الحكمةِ في حسْمِ بابِ الفاحشةِ بإيجابِ الرجمِ الذي هوَ أعظمُ العقوباتِ ، ثمَّ انظرْ إلىٰ كثيفِ سترِ اللهِ كيفَ أسبلَهُ على العصاةِ مِنْ خلقِهِ بتضييقِ الطريقِ في كشفِهِ .

فنرجو ألا نُحرمَ هـٰذا الكرمَ يومَ تُبلى السرائرُ ، ففي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا سترَ علىٰ عبدٍ عورتَهُ في الدنيا . . فهوَ أكرمُ مِنْ أنْ يكشفَها في الآخرةِ ، وإنْ كشفَها في الدنيا . . فهوَ أكرمُ مِنْ أنْ يكشفَها مرةً أخرىٰ »[1] .

وعنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : حرستُ معَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ليلةً في المدينةِ ، فبينَما نحنُ نمشي . . إذْ ظهرَ لنا سراجٌ ، فانطلقنا نؤمُّهُ ، فلمَّا دنونا منهُ . . إذا بابٌ مغلقٌ علىٰ قومٍ لهمْ أصواتٌ ولغطٌ ، فأخذَ عمرُ بيدي ، وقالَ لي : أتدري بيتَ مَنْ هـٰذا ؟ قلتُ : لا ، قالَ : هـٰذا بيتُ ربيعةَ بنِ أميّةَ بنِ خلفٍ ، وهُمُ الآنَ شَرْبٌ[2] ، فما ترى ؟ قلتُ : أرىٰ أنَّا قدْ أتينا ما نهانا اللهُ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ :

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) عن عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « من أصاب حدّاً فعُجّل في عقوبته في الدنيا . . فالله أعدل من أن يثنّي علىٰ عبده العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حداً فستره الله عليه وعفا عنه . . فالله أكرم من أن يعود إلىٰ شيء قد عفا عنه » ، وعند مسلم (٢٥٩٠) مرفوعاً : « لا يستر الله علىٰ عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » .

(٢) أي : يشربون الخمر .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، فرجعَ عمرُ وتركَهُمْ[1] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ وجوبِ السترِ وتركِ التتبُّعِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمعاويةَ : « إنَّكَ إنِ اتبعتَ عوراتِ الناسِ . . أفسدتَهُمْ أوْ كدتَ تفسدُهُمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ مَنْ آمنَ بلسانِهِ ولمْ يدخلِ الإيمانُ في قلبِهِ ؛ لا تغتابوا المسلمينَ ولا تتبَّعُوا عوراتِهِمْ ؛ فإنَّهُ مَنْ يتَّبعْ عورةَ أخيهِ المسلمِ . . يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ . . يفضحْهُ ولوْ كانَ في جوفِ بيتِهِ »[3] .

وقالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ رأيتُ أحداً علىٰ حدٍّ مِنْ حدودِ اللهِ تعالىٰ . . ما أخذتُهُ ، ولا دعوتُ لهُ أحداً حتَّىٰ يكونَ معيَ غيري)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : كنتُ قاعداً معَ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ جاءَهُ رجلٌ بآخرَ ، فقالَ : هـٰذا نشوانُ ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : استنكهوهُ ، فاستنكهوهُ فإذا هوَ نشوانُ ، فحبسَهُ حتَّىٰ ذهبَ سكرُهُ ، ثمَّ دعا

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٢٣١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٧٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٣٣٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٨٨) وبعده : فقال أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله تعالىٰ بها .

(٣) رواه أبو داوود (٤٨٨٠) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٣١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٤٤) .

بسوطٍ ، فكسرَ ثمرَهُ ، ثمَّ قالَ للجلاَّدِ : اجلدْ وارفعْ يدَكَ ، وأعطِ كلَّ عضوٍ حقَّهُ ، فجلدَهُ وعليهِ قَباءٌ أوْ قُرْطُقٌ ، فلمَّا فرغَ . . قالَ للذي جاءَ بهِ : ما أنتَ منهُ ؟ قالَ : عمُّهُ ، قالَ عبدُ اللهِ : ما أدبتَ فأحسنتَ الأدبَ ، ولا سترتَ الخَرْبَةَ ، إنَّهُ ينبغي للإمامِ إذا انتهىٰ إليهِ حدٌّ أنْ يقيمَهُ ، وإنَّ اللهَ عفوٌّ يحبُّ العفوَ ، ثمَّ قرأَ : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ . . .﴾ الآيةَ ، ثمَّ قالَ : إنِّي لأذكُرُ أوَّلَ رجلٍ قطعَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أُتِيَ بسارقٍ فقطعَهُ ، فكأنَّما أُسِفَّ وجهُهُ ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ كأنَّكَ كرهتَ قطعَهُ ، قالَ : « وما يمنعُني ، لا تكونوا عوناً للشياطينِ علىٰ أخيكُمْ ، فقالُوا : ألا عفوتَ عنهُ ؟! فقالَ : إنَّهُ ينبغي للسلطانِ إذا انتهىٰ إليهِ حدٌّ أنْ يقيمَهُ ، إنَّ اللهَ عفوٌّ يحبُّ العفوَ ، وقرأَ : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ » ، وفي روايةٍ : (فكأنَّما سُفِيَ في وجهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رمادٌ لشدَّةِ تغيُّرِهِ)(١) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يعسُّ بالمدينةِ مِنَ الليلِ ، فسمعَ صوتَ رجلٍ في بيتٍ يتغنَّىٰ ، فتسوَّرَ عليهِ ، فوجدَ عندَهُ امرأةً وعندَهُ خمرٌ ، فقالَ : يا عدوَّ اللهِ ؛ أظننْتَ أنَّ اللهَ يسترُكَ وأنتَ علىٰ معصيتِهِ ؟! فقالَ : وأنتَ

---

(١) الخبر بتمامه رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ٣٧٠) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٩) ، والحديث المرفوع فيه رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤١٩ ، ٤٣٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٢) ، **والقرطق** : ثوب كالقَباء ، وأصله لفظة فارسية (كُرْتِه) معناها : السربال والقميص ، **والخَربة** : العورة ، والذلة والهوان والفضيحة ، أو الفساد في الدين ، **وأُسِفَّ وسُفِيَ** : هو من الإسفاف ، والمراد منه التغيُّر والتقبُّض .

يا أميرَ المؤمنينِ ؛ فلا تعجلْ ، فإنْ كنتُ قدْ عصيتُ اللهَ واحدةً . . فقدْ عصيتَ اللهَ في ثلاثٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقدْ تجسسْتَ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ وقدْ تسوَّرْتَ عليَّ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وقدْ دخلتَ بيتي بغيرِ إذنٍ ولا سلامٍ ! فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : هلْ عندَكَ مِنْ خيرٍ إنْ عفوتُ عنكَ ؟ قالَ : نعمْ واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لئنْ عفوتَ عنِّي . . لا أعودُ لمثلِها أبداً ، فعفا عنهُ وخرجَ وتركَهُ[1] .

وقالَ رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ كيفَ سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في النجوىٰ يومَ القيامةِ ؟ قالَ : سمعتُهُ يقولُ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ ليُدني منهُ المؤمنَ ، فيضعُ عليهِ كنفَهُ ويسترُهُ مِنَ الناسِ ، فيقولُ : أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ فيقولُ : نعمْ يا ربِّ ؛ حتَّىٰ إذا قرَّرَهُ بذنوبِهِ ، ورأىٰ في نفسِهِ أنَّهُ قدْ هلَكَ . . قالَ لهُ : يا عبدي ؛ إنِّي لمْ أسترْها عليكَ في الدنيا إلا وأنا أريدُ أنْ أغفرَها لكَ اليومَ ، فيُعطىٰ كتابَ حسناتِهِ ، وأمَّا الكافرونَ والمنافقونَ . . فيقولُ الأشهادُ : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ »[2] .

وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ أمَّتي معافىً إلا المجاهرينَ ، وإنَّ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٤٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) ، **والأشهاد** : هم الحفظة من الملائكة الذين شهدوا ما فعلوا .

مِنَ المجاهرةِ أنْ يعملَ الرجلُ السوءَ سرّاً ثمَّ يخبرَ بهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استمعَ خبرَ قومٍ وهمْ لهُ كارهونَ . . صُبَّ في أذنيهِ الآنُكُ يومَ القيامةِ »(٢) .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يتقيَ مواضعَ التهمِ : صيانةً لقلوبِ الناسِ عنْ سوءِ الظنِّ ، ولألسنتِهِمْ عنِ الغيبةِ ، فإنَّهُمْ إذا عصَوا اللهَ بذكرِهِ ، وكانَ هوَ السببَ فيهِ . . كانَ شريكاً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ ترونَ مَنْ يسبُّ أبويهِ ؟ » فقالوا : وهلْ مِنْ أحدٍ يسبُّ أبويهِ ؟ فقالَ : « نعمْ ، يسبُّ أبوي غيرِهِ فيسبُّونَ أبويهِ »(٣) .

وقدْ روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٢) ، **والآنك** : الرصاص المذاب ، أو خالصه ، وحدَّه بعضهم بالقصدير ، وهـٰذا فيمن يستمع بمفسدة ؛ كنميمة ، أما مستمع حديث قوم بقصد منعهم من الفساد أو ليتحرَّز من شرِّهم . . فلا يدخل تحته ، بل قد يندب ، بل يجب ، بحسب المواطن ، وللوسائل حكم المقاصد . « إتحاف » (٦/ ٢٧٢) .

(٣) رواه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) ولفظه عندهما : « من الكبائر شتم الرجل والديه » ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسبُّ أبا الرجل ، فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمَّهُ ، فيسبُّ أمَّه » .

كلَّمَ إحدىٰ نسائِهِ ، فمرَّ بهِ رجلٌ ، فدعاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « يا فلانُ ؛ هـٰذهِ زوجتي صفيَّةُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، مَنْ كنتُ أظنُّ فيهِ . . فإنِّي لمْ أكنْ أظنُّ فيكَ ! فقالَ : « إنَّ الشيطانَ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ » ، وزادَ في روايةٍ « إنِّي خشيتُ أنْ يقذفَ في قلوبِكُما شيئاً » وكانا رجلينِ ، فقالَ : « علىٰ رسلِكُما ، إنَّها صفيةُ » الحديثَ ، وكانَتْ قدْ زارتْهُ في العشرِ الأواخرِ مِنْ رمضانَ[1] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أقامَ نفسَهُ مقامَ التهمِ . . فلا يلومَنَّ مَنْ أساءَ بهِ الظنَّ)[2] .

ومرَّ برجلٍ يكلِّمُ امرأةً علىٰ ظهرِ الطريقِ ، فعلاهُ بالدِّرةِ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّها امرأتي ! فقالَ : فهلا حيثُ لا يراكَ الناسُ[3] .

* * *

ومنها : أنْ يشفعَ لكلِّ مَنْ لهُ حاجةٌ مِنَ المسلمينَ إلىٰ مَنْ لهُ عندَهُ منزلةٌ ، ويسعىٰ في قضاءِ حاجتِهِ بما يقدرُ عليهِ : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي أُوتىٰ وأُسألُ ، وتُطلبُ إليَّ الحاجةُ وأنتمْ عندي ، فاشفعوا . . تُؤجروا ، ويقضي اللهُ علىٰ يدي نبيِّهِ ما أحبَّ »[4] .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٥ ، ٣٢٨١) ، ومسلم (٢١٧٥) .
(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٧) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٩) .
(٤) رواه البخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

وقالَ معاويةُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اشفعوا إليَّ . . تُؤجرُوا ، وإنِّي أريدُ الأمرَ فأؤخِّرُهُ كيْ تشفعوا إليَّ فتُؤجروا »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ صدقةٍ أفضلَ مِنْ صدقةِ اللسانِ » ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : « الشفاعةُ يُحقَنُ بها الدمُ ، وتُجَرُّ بها المنفعةُ إلىٰ آخرَ(٢) ، ويُدفَعُ بها المكروهُ عنْ آخرَ »(٣) .

وروىٰ عكرمةُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ زوجَ بريرةَ كانَ عبداً يُقالُ لهُ : مغيثٌ ، كأنِّي أنظرُ إليهِ خلفَها وهوَ يبكي ودموعُهُ تسيلُ علىٰ لحيتِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للعباسِ : « ألا تعجبُ مِنْ شدَّةِ حبِّ مغيثٍ لبريرةَ ، وشدَّةِ بغضِ بريرةَ مغيثاً ؟! » ، فقالَ لها النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ راجعتِيهِ ؛ فإنَّهُ أبو ولدِكِ » ، قالَتْ : يا رسولَ اللهِ ، أتأمرني فأفعلَ ؟ فقالَ : « لا ، إنَّما أنا شافعٌ »(٤) .

❊ ❊ ❊

ومنها : أنْ يبدأَ كلَّ مسلمٍ بالسلامِ قبلَ الكلامِ ، ويصافحَهُ عندَ السلامِ :

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٣٢) ، والنسائي (٥/ ٧٨) .
(٢) في (ج) : (وتجري) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٦٦٩) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٣٠) .
(٤) رواه البخاري (٥٢٨٣) .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بدأَ بالكلامِ قبلَ السلامِ . . فلا تجبْهُ حتَّىٰ يبدأَ بالسلامِ »(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ أسلِّمْ ولمْ أستأذنْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارجعْ فقلِ : السلامُ عليكُمْ ، أدخلُ ؟ »(٢) .

وروىٰ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دخلتُمْ بيوتَكُمْ . . فسلِّموا علىٰ أهلِها ؛ فإنَّ الشيطانَ إذا سلَّمَ أحدُكُمْ . . لمْ يدخلْ بيتَهُ »(٣) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : « خدمتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمانيَ حججٍ ، فقالَ لي : « يا أنسُ ؛ أسبغِ الوضوءَ . . يُزَدْ في عمرِكَ ، وسلِّمْ علىٰ مَنْ لقيتَهُ مِنْ أمَّتي . . تكثرْ حسناتُكَ ، وإذا دخلتَ منزلَكَ . . فسلِّمْ علىٰ أهلِ بيتِكَ . . يكثرْ خيرُ بيتِكَ »(٤) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٣٠) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢١٤) .

(٢) رواه أبو داوود (٥١٧٦) ، والترمذي (٢٧١٠) ، وصاحب القصة هو كَلَدَةُ بن حنبلٍ رضي الله عنه ، وفي غير (ب) : (وادخل) بدل (أدخلُ) ، والمثبت هو الصواب كما في « الإتحاف » (٦/ ٢٧٤) ، والله أعلم .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤٣) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٩) ، وعند الترمذي (٢٦٩٨) مرفوعاً : « يا بنيَّ ؛ إذا دخلت علىٰ أهلك . . فسلِّم يكون بركة عليك وعلىٰ أهل بيتك » .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لا تدخلونَ الجنَّةَ حتَّىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتَّىٰ تحابُّوا ، أفلا أدلُّكُمْ علىٰ عملٍ إذا عملتموهُ . . تحاببْتُمْ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أفشوا السلامَ بينكُمْ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا سلَّمَ المسلمُ على المسلمِ فردَّ عليهِ . . صلَّتْ عليهِ الملائكةُ سبعينَ مرَّةً »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الملائكةَ تعجبُ مِنَ المسلمِ يمرُّ على المسلمِ فلا يسلِّمُ عليهِ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يسلِّمُ الراكبُ على الماشي ، وإذا سلَّمَ مِنَ القومِ واحدٌ . . أجزأَ عنهُمْ »[٤] .

وقالَ قتادةُ : (كانَتْ تحيَّةُ مَنْ كانَ قبلَكُمُ السجودَ ، فأعطى اللهُ عزَّ وجلَّ

---

(١) رواه مسلم (٥٤) ، قال الإمام النووي : (هكذا هو في جميع الأصول والروايات بحذف النون من آخره ، وهي لغة معروفة صحيحة) ، وفي (أ) : (تؤمنون) ، وهي عند أحمد في « المسند » (٢/ ٣٩١) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (ذكره صاحب « الفردوس » من حديث أبي هريرة ، ولم يسنده ولده) . « إتحاف » (٦/ ٢٧٥) ، وهو قطعة من الوصية المشهورة ، وتقدم ذكرها .

(٣) هو قطعة من الوصية المتقدم ذكرها كذلك .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٥٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٣٨٧) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، وعند البخاري (٦٢٣٢) ، ومسلم (٢١٦٠) مرفوعاً بلفظ : « يسلم الراكب على الماشي . . . » وسيأتي ، وعند أبي داوود (٥٢١٠) مرفوعاً : « يجزىء عن الجماعة إذا مرُّوا أن يُسلِّم أحدهم ، ويجزىء عن الجلوس أن يردَّ أحدهم » .

هـٰذهِ الأمَّةَ السلامَ ، وهي تحيَّةُ أهلِ الجنَّةِ)(١) .

وكانَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ يمرُّ علىٰ قومٍ فلا يسلِّمُ عليهِمْ ، ويقولُ : ما يمنعُني إلا أنِّي أخشىٰ ألا يردُّوا فتلعنَهُمُ الملائكةُ(٢) .

والمصافحةُ أيضاً سنَّةٌ معَ السلامِ ، وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : السلامُ عليكُمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عشرُ حسناتٍ »، فجاء آخرُ فقالَ: السلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ، فقالَ : « عشرونَ »، فجاءَ آخرُ فقالَ : السلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ ، فقالَ : « ثلاثونَ »(٣) .

وكانَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ يمرُّ على الصبيانِ فيسلِّمُ عليهِمْ ، وروىٰ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ فعلَ ذلكَ(٤) .

وروىٰ عبدُ الحميدِ بنُ بهرامَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ في المسجدِ يوماً وعصبةٌ منَ النساءِ قعودٌ، فأومأَ بيدِهِ بالتسليمِ، وأشارَ عبدُ الحميدِ بيدِهِ للحكايةِ(٥) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٨٧) .

(٢) ولقد كان الفخر ابن عساكر لا يمر علىٰ مدرسة الحنابلة ، فقيل له ، فقال : أخشىٰ أن يقعوا فيَّ ، فأكون سبباً لمقتهم ، يشير إلىٰ ما كان بينهم وبين الأشاعرة من المخاصمات . « إتحاف » (٦/ ٢٧٦) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٤٩٣) بلفظ المصنف ، ونحوه عند أبي داوود (٥١٩٥) ، والترمذي (٢٦٨٩) .

(٤) رواه البخاري (٦٢٤٧) ، ومسلم (٢١٦٨) .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٩٧) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تبدؤوا اليهودَ والنصارىٰ بالسلامِ ، وإذا لقيتُمْ أحدَهُمْ في الطريقِ . . فاضطرُّوهُ إلىٰ أضيقِهِ »[1] .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تصافحوا أهلَ الذمَّةِ ، ولا تبدؤوهُمْ بالسلامِ ، وإذا لقيتموهُمْ في الطريقِ . . فاضطرُّوهُمْ إلىٰ أضيقِهِ »[2] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : إنَّ رهطاً مِنَ اليهودِ دخلوا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا : السامُ عليكَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وعليكُمْ » ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فقلتُ : بلْ عليكمُ السامُ واللعنةُ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في كلِّ شيءٍ » ، قالَتْ عائشةُ : ألمْ تسمعْ ما قالوا ؟! فقالَ : « فقدْ قلتُ : عليكُمْ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يسلِّمُ الراكبُ على الماشي ، والماشي على القاعدِ ، والقليلُ على الكثيرِ ، والصغيرُ على الكبيرِ »[4] .

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٧) ، بحيث لا يقع في وهدة ، ولا يصدمه نحو جدار ، فإن كان الطريق واسعاً . . فلا تضيّق عليهم ؛ لأنه إيذاء بلا سبب ، وقد نهينا عن إيذائهم . « إتحاف » (٦/ ٢٧٧) ، وانظر « فيض القدير » (٦/ ٣٨٦) .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٣٦) ضمن خبر طويل .

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) .

(٤) رواه البخاري (٦٢٣٢) ، ومسلم (٢١٦٠) ، دون ذكر سلام الصغير على الكبير ، وهي عند البخاري (٦٢٣٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تشبَّهوا باليهودِ والنصارىٰ ؛ فإنَّ تسليمَ اليهودِ الإشارةُ بالأصابعِ ، وتسليمَ النصارى الإشارةُ بالأكفِّ » ، قالَ أبو عيسىٰ : إسنادُهُ ضعيفٌ[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا انتهىٰ أحدُكمْ إلىٰ مجلسٍ . . فليسلِّمْ ، فإنْ بدا لهُ أنْ يجلسَ . . فليجلسْ ، ثمَّ إذا قامَ . . فليسلِّمْ ، فليستِ الأولىٰ بأحقَّ مِنَ الآخرةِ »[2] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا التقى المؤمنانِ فتصافحا . . قسمَتْ بينَهُما سبعونَ مغفرةً ؛ تسعةٌ وستونَ لأحسنِهِما بِشْراً »[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إذا التقى المسلمانِ ، فسلَّمَ كلُّ واحدٍ منهما علىٰ صاحبِهِ وتصافحا . . نزلَتْ بينَهُما مئةُ رحمةٍ ؛ للبادىء تسعونَ ، وللمصافحِ عشرٌ »[4] .

وقالَ الحسنُ : (المصافحةُ تزيدُ في الوُدِّ)[5] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٩٥) .
(٢) رواه أبو داوود (٥٢٠٨) ، والترمذي (٢٧٠٦) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤٩) ، وفي النسخ : (عشرة) بدل (عشر) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٢٠)، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٥٠).

وسلَّمَ : « تمامُ تحيَّاتِكُمْ بينَكُمُ المصافحةُ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « قبلةُ المسلمِ أخاهُ المصافحةُ »[٢] .

ولا بأسَ بقبلةِ يدِ المعظَّمِ في الدينِ ؛ تبرُّكاً بهِ وتوقيراً لهُ .

رُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : (قبَّلْنا يدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[٣] .

وعنْ كعبِ بنِ مالكٍ قالَ : (لمَّا نزلَتْ توبتي . . أتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقبَّلْتُ يدَهُ)[٤] .

ورُوِيَ أنَّ أعرابياً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ائذنْ لي فأقبِّلَ رأسَكَ ويدَكَ ، قالَ : فأذنَ لهُ ، ففعلَ[٥] .

ولقيَ أبو عبيدةَ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُما ، فصافحَهُ وقبَّلَ يدَهُ ، وتنحَّيا يبكيانِ[٦] .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ أنَّهُ سلَّمَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٥١) ، وهو عند الترمذي (٢٧٣١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٥٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٢٦٤٧) .

(٤) رواه أبو بكر ابن المقرىء في « الرخصة في تقبيل اليد » (١) .

(٥) رواه أبو بكر ابن المقرىء في « الرخصة في تقبيل اليد » (٥) ، وفيه : (ورجلك) بدل (ويدك) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٢٩) .

يتوضَّأُ ، فلمْ يردَّ عليهِ حتَّىٰ فرغَ مِنْ وضوئِهِ ، فردَّ عليهِ ، ومدَّ يدَهُ إليهِ فصافحَهُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما كنتُ أرىٰ هـٰذا إلا مِنْ أخلاقِ الأعاجمِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسلمينِ إذا التقيا فتصافحا . . تحاتَّتْ ذنوبُهما »[1] .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا مرَّ الرجلُ بالقومِ فسلَّمَ عليهِمْ ، فردوا عليهِ . . كانَ لهُ عليهِمْ فضلُ درجةٍ ؛ لأنَّهُ ذكَّرَهُمُ السلامَ ، وإنْ لمْ يردوا عليهِ . . ردَّ عليهِ ملأٌ خيرٌ منهُمْ وأطيبُ» ، أوْ قالَ : «وأفضلُ»[2] .

والانحناءُ عندَ السلامِ منهيٌّ عنهُ ، قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ أينحني بعضُنا لبعضٍ ؟ قالَ : « لا » ، قالَ : فيقبِّلُ بعضُنا بعضاً ؟ قالَ : « لاَ » ، قالَ : فيصافحُ بعضُنا بعضاً ؟ قالَ : « نعم »[3] .

والالتزامُ والتقبيلُ قدْ وردَ بهِ الخبرُ عندَ القدومِ مِنَ السفرِ[4] ، وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما لقيتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا صافحَني ، وطلبَني

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٥٧) ، وعند أبي داوود (٥٢١٢) ، والترمذي (٢٧٢٧) ، وابن ماجه (٣٧٠٣) مرفوعاً : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرَّقا » .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٥٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٨٤٠٠ ، ٨٤٠٣) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومرفوعاً .

(٣) رواه الترمذي (٢٧٢٨) ، وابن ماجه (٣٧٠٢) .

(٤) وهو ما رواه الترمذي (٢٧٣٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، فأتاه ، فقرع الباب ، فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرياناً يجرُّ ثوبه ، والله ما رأيته عرياناً قبله ولا بعده ، فاعتنقه وقبَّله) .

يوماً فلمْ أكنْ في البيتِ ، فلمَّا أُخبرتُ . . جئتُ وهو علىٰ سريرٍ ، فالتزمَني ، فكانَتْ أجودَ وأجودَ)[١] .

والأخذُ بالركابِ في توقيرِ العلماءِ وردَ بهِ الأثرُ ، فعلَ ابنُ عباسٍ ذلكَ بركابِ زيدِ بنِ ثابتٍ[٢] ، وأخذَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بغَرْزِ زيدٍ حتىٰ رفعَهُ ، وقالَ : هٰكذا فافعلوا بزيدٍ وأصحابِ زيدٍ[٣] .

والقيامُ مكروهٌ علىٰ سبيلِ الإعظامِ ، لا علىٰ سبيلِ الإكرام ، قالَ أنسٌ : ما كانَ شخصٌ أحبَّ إلينا مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانوا إذا رأوهُ . . لمْ يقوموا ؛ لما يعلمونَ مِنْ كراهيتِهِ لذلكَ[٤] .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ مرَّةً : « إذا رأيتموني . . فلا تقوموا كما تصنعُ الأعاجمُ »[٥] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يمثلَ لهُ الرجالُ قياماً . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[٦] .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٢١٤) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٣٢) ، وأصله عند الطبراني في « الكبير » (٥/١٠٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٤٢٣) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٥٤) ، وزيد هنا : هو ابن صُوحان ، تابعي كبير اختلف في صحبته . والغرز : ركاب الإبل .
(٤) رواه الترمذي (٢٧٥٤) .
(٥) رواه أبو داوود (٥٢٣٠) ، وابن ماجه (٣٨٣٦) .
(٦) رواه أبو داوود (٥٢٢٩) ، والترمذي (٢٧٥٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقيمُ الرجلُ الرجلَ مِنْ مجلسِهِ ثمَّ يجلسُ فيهِ ، ولكنْ توسَّعوا وتفسَّحوا »[1] ، وكانوا يحترزونَ عنْ ذلكَ لهٰذا النهيِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أخذَ القومُ مجالسَهُمْ ؛ فإنْ دعا رجلٌ أخاهُ فأوسعَ لهُ . . فليأتِهِ ، فإنَّما هيَ كرامةٌ أكرمَهُ بها أخوهُ ، فإنْ لمْ يوسعْ لهُ . . فلينظرْ إلىٰ أوسعِ مكانٍ يجدُهُ فليجلسْ فيهِ »[2] .

ورُوِيَ أنَّهُ سلَّمَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يبولُ ، فلمْ يجبْهُ[3] ؛ فيُكرهُ السلامُ علىٰ مَنْ يقضي حاجتَهُ .

ويُكرهُ أنْ يقولَ ابتداءً : عليكَ السلامُ ؛ فإنَّهُ قالَهُ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ عليكَ السلامُ تحيَّةُ الموتىٰ » قالها ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : « إذا لقيَ أحدُكُمْ أخاهُ . . فليقلِ : السلامُ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ »[4] .

ويُستحبُّ للداخلِ إذا سلَّمَ ولمْ يجدْ مجلساً ألا ينصرفَ ، بلْ يقعدُ وراءَ الصفِّ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالساً في المسجدِ ، إذْ أقبلَ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٦٩ ، ٦٢٧٠) ، ومسلم (٢١٧٧) .
(٢) رواه البغوي في « معجم الصحابة » (٣/ ٢٩٤) من حديث شيبة بن عثمان ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ١٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .
(٣) رواه مسلم (٣٧٠) ، ونحوه عند البخاري (٣٣٧) .
(٤) رواه أبو داوود (٥٢٠٩) ، والترمذي (٢٧٢١) .

ثلاثةُ نفرٍ ، فأقبلَ اثنانِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأمَّا أحدُهُما . . فوجدَ فُرجةً فجلسَ فيها ، وأمَّا الثاني . . فجلسَ خلفَهُمْ ، وأمَّا الآخرُ . . فأدبرَ ذاهباً ، فلمَّا فرغَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : « ألا أخبرُكُمْ عنِ النفرِ الثلاثةِ ؟ أمَّا أحدُهُمْ . . فأوَىٰ إلى اللهِ ؛ فآواهُ اللهُ ، وأمَّا الثاني . . فاستحيا ؛ فاستحيا اللهُ منهُ ، وأمَّا الثالثُ . . فأعرضَ ؛ فأعرضَ اللهُ عنهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ مسلمينِ يلتقيانِ فيتصافحانِ إلا غُفِرَ لهما قبلَ أنْ يفترقا »(٢) .

وسلَّمَتْ أمُّ هانىءٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ هـٰذهِ ؟ » فقيلَ لهُ : أمُّ هانىءٍ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مرحباً بأمِّ هانىءٍ »(٣) .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يصونَ عِرْضَ أخيهِ المسلمِ ونفسَهُ ومالَهُ عنْ ظلمِ غيرِهِ مهما قدرَ ، ويردَّ عنهُ ويناضلَ دونَهُ وينصرَهُ ؛ فإنَّ ذلكَ يجبُ عليهِ بمقتضىٰ أخوَّةِ الإسلامِ : روىٰ أبو الدرداءِ أنَّ رجلاً نالَ مِنْ رجلٍ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

(١) رواه البخاري (٦٦) ، ومسلم (٢١٧٦) .
(٢) رواه أبو داوود (٥٢١٢) ، والترمذي (٢٧٢٧) .
(٣) رواه البخاري (٣٥٧) ، ومسلم (٣٣٦) .

عليهِ وسلَّمَ ، فردَّ عنهُ رجلٌ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ردَّ عنْ عِرْضِ أخيهِ . . كانَ لهُ حجاباً مِنَ النارِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنِ امرئٍ مسلمٍ يردُّ عنْ عِرْضِ أخيهِ إلا كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يردَّ عنهُ نارَ جهنَّمَ يومَ القيامةِ »(٢) .

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ ذُكِرَ عندَهُ أخوهُ المسلمُ وهوَ يستطيعُ نصرَهُ فلمْ ينصرْهُ . . أدركَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها في الدنيا والآخرةِ ، ومَنْ ذُكِرَ عندَهُ أخوهُ المسلمُ فنصرَهُ . . نصرَهُ اللهُ تعالىٰ بها في الدنيا والآخرةِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حمىٰ عرضَ أخيهِ المسلمِ في الدنيا . . بعثَ اللهُ تعالىٰ لهُ ملكاً يحميهِ يومَ القيامةِ مِنَ النارِ »(٤) .

وقالَ جابرٌ وأبو طلحةَ : سمعنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنِ امرئٍ ينصرُ مسلماً في موضعٍ يُنتهكُ فيهِ مِنْ عرضِهِ ، وتُستحلُّ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٨٥) ، ولفظ المرفوع عند الترمذي (١٩٣١) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٤٩) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٨٦) واللفظ له .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٤٣) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٨٨) ، والمصنف هنا جمع بين الروايتين .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٤٢) ، وهو عند أبي داوود (٤٨٨٣) بنحوه .

حرمتُهُ إلا نصرَهُ اللهُ في موطنٍ يحبُّ فيهِ نصرَهُ ، وما مِن امرئٍ خذلَ مسلماً في موطنٍ يُنتهكُ فيهِ مِنْ حرمتِهِ إلا خذلَهُ اللهُ في موضعٍ يحبُّ فيهِ نصرتَهُ »(١) .

❊ ❊ ❊

ومنها : تشميتُ العاطسِ : قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في العاطسِ يقولُ : الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ ، ويقولُ الذي يشمِّتُهُ : يرحمُكُمُ اللهُ ، ويردُّ عليهِ العاطسُ فيقولُ : يهديكُمُ اللهُ ويصلحُ بالَكُمْ(٢) .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعلِّمُنا ، يقولُ : « إذا عطَسَ أحدُكُمْ . . فليقلِ : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، فإذا قالَ ذلكَ . . فليقلْ مَنْ عندَهُ : يرحمُكَ اللهُ ، فإذا قالوا ذلكَ . . فليقلْ : يغفِرُ اللهُ لي ولكُمْ »(٣) .

وشمَّتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاطساً ولمْ يشمِّتْ آخرَ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : « إنَّهُ حمدَ اللهَ وأنتَ سكتَّ »(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٨٤) .
(٢) رواه البخاري (٦٢٢٤) ، وأبو داوود (٥٠٣٣) واللفظ له ، والترمذي (٢٧٤١) ، وابن ماجه (٣٧١٥) .
(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٩٨١) .
(٤) رواه البخاري (٦٢٢١ ، ٦٢٢٥) ، ومسلم (٢٩٩١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُشمَّتُ المسلمُ إذا عطسَ ثلاثاً ، فإنْ زادَ . . فهوَ زُكامٌ »(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ شمَّت عاطساً ثلاثاً، فعطسَ أخرىٰ ، فقالَ : « إنَّكَ مزكومٌ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا عطسَ . . غضَّ صوتَهُ ، واستتر بثوبِهِ أوْ يدِهِ) ، ورُوِيَ : (وخمَّرَ وجهَهُ)(٣) .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : كانَ اليهودُ يتعاطسونَ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجاءَ أنْ يقولَ : يرحمُكُمُ اللهُ ، فكانَ يقولُ : « يهديكُمُ اللهُ »(٤) .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ عنْ أبيهِ : أنَّ رجلاً عطسَ خلفَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصلاةِ ، فقالَ : الحمدُ للهِ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيهِ ، كما يرضاهُ ربُّنا وبعدَ ما يرضىٰ ، والحمدُ لله علىٰ كلِّ حالٍ ، فلمَّا سلَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : « مَنْ صاحبُ الكلماتِ ؟ » فقالَ : أنا يا رسولَ اللهِ ، ما أردتُ بهنَّ إلا خيراً ، فقالَ : « لقدْ رأيتُ اثني عشرَ ملكاً كلُّهُمْ يبتدرُونَها أيُّهُم يكتبُها »(٥) .

---

(١) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٥٠) ، وأبو داوود (٥٠٣٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٩٩٣) .
(٣) رواه أبو داوود (٥٠٢٩) ، والترمذي (٢٧٤٥) ، وتخمير الوجه رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٠) .
(٤) رواه أبو داوود (٥٠٣٨) ، والترمذي (٢٧٣٩) .
(٥) رواه أبو داوود (٧٧٤) بنحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عُطِسَ عندَهُ فسبقَ إلى الحمدِ . . لمْ يشتكِ خاصرتَهُ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العطاسُ مِنَ اللهِ ، والتثاؤبُ مِنَ الشيطانِ ، فإذا تثاءبَ أحدُكُمْ . . فليضعْ يدَهُ على فيهِ ، فإذا قالَ : آهْ آهْ . . فإنَّ الشيطانَ يضحكُ مِنْ جوفِهِ »(٢) .

وقالَ إبراهيمُ النخعيُّ : (إذا عطسَ في قضاءِ الحاجةِ . . فلا بأسَ بأنْ يذكرَ اللهَ)(٣) .

وقالَ الحسنُ : (يحمدُ اللهَ في نفسِهِ)(٤) .

وقالَ كعبٌ : قالَ موسى عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ أقريبٌ أنتَ فأناجيَكَ ، أمْ بعيدٌ فأناديَكَ ؟ فقالَ : أنا جليسُ مَنْ ذكرَني ، فقالَ : فإنَّا نكونُ على حالٍ نجلُّكَ أنْ نذكرَكَ عليها ؛ كالجنابةِ والغائطِ ، فقالَ : اذكرْني على كلِّ حالٍ(٥) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧١٣٧) ولفظه : « من بادر العاطس بالحمد . . عوفي من وجع الخاصرة ، ولم يشتك ضرسه أبداً » .

(٢) رواه الترمذي (٢٧٤٦) بلفظ المصنف هنا ، وأصله عند البخاري (٣٢٨٩) ، ومسلم (٢٩٩٤) ، وقوله : (آه آه) هو حكاية صوت التثاؤب ، وعند أبي داوود (٥٠٢٨) : « ولا يقل : هاه هاه ؛ فإنما ذلكم الشيطان يضحك منه » .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢٣٣) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢٣٤) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١١٥) .

ومنها : أنَّهُ إذا بُلِيَ بذي شرٍّ . . فينبغي أنْ يجاملَهُ ويتقيَهُ : قالَ بعضُهُمْ : (خالصِ[1] المؤمنَ مخالصةً ، وخالقِ الفاجرَ مخالقةً ، فإنَّ الفاجرَ يرضىٰ بالخلقِ الحسنِ في الظاهرِ)[2] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (إنَّا لنكشُرُ[3] في وجوهِ أقوامٍ وإنَّ قلوبَنا لتلعنُهُمْ)[4] ، وهـٰذا معنى المداراةِ ، وهيَ ملاطفةٌ معَ مَنْ يخافُ شرَّهُ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ .

قالَ ابنُ عباسٍ في معنىٰ قولِهِ : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي : الفحشَ والأذىٰ بالسلامِ والمداراةِ[5] .

ورُوِيَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ قالَ : بالرغبةِ والرهبةِ ، والحياءِ والمداراةِ[6] .

---

(١) أي : عاشره بإخلاص وحسن نية .
(٢) قاله صعصعة بن صوحان لابن أخيه زيد كما في « القوت » (٢/ ٢١٤) حيث قال له : (أنا كنت أحب إلىٰ أبيك منك ، وأنت أحب إلي من ابني ، خصلتان أوصيك بهما ، فاحفظهما : خالص المؤمن مخالصة ، وخالق الفاجر مخالقة ؛ فإن الفاجر يرضىٰ منك بالخلق الحسن ، وإنه لحق عليك أن تخالص المؤمن) ، **والمجاملة** : إظهار الخلق الجميل .
(٣) أي : نَبشُّ .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٩١) ، وهو من معلقات البخاري (كتاب الأدب ، باب المداراة مع الناس) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢١٥) .
(٦) قوت القلوب (٢/ ٢١٥) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : استأذنَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ائذنوا لهُ ، فبئسَ رجلُ العشيرةِ هوَ » ، فلمَّا دخلَ . . ألانَ لهُ القولَ حتَّىٰ ظننتُ أنَّ لهُ عندَهُ منزلةً ، فلمَّا خرجَ . . قلتُ لهُ : لمَّا دخلَ . . قلتَ الذي قلتَ ، ثمَّ ألنتَ لهُ القولَ ! فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ شرَّ النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ يومَ القيامةِ منْ تركَهُ النَّاسُ اتِّقاءَ فحشِهِ »[١] .

وفي الخبرِ : « ما وقىٰ بهِ المرءُ عرضَهُ . . فهوَ لهُ صدقةٌ »[٢] .

وفي الأثرِ : (خالطوا الناسَ بأعمالِهِمْ ، وزايلوهُمْ بالقلوبِ)[٣] .

وقالَ محمدُ بنُ الحنفيةِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ بحكيمٍ مَنْ لمْ يعاشِرْ بالمعروفِ مَنْ لا يجدُ مِنْ معاشرتِهِ بدّاً ، حتَّىٰ يجعلَ اللهُ لهُ منهُ فرجاً)[٤] .

* * *

ومنها : أنْ يجتنبَ مخالطةَ الأغنياءِ ، ويختلطَ بالمساكينِ ، ويحسنَ إلى الأيتامِ : كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ أحيني مسكيناً ، وأمتْني مسكيناً ، واحشرْني في زمرةِ المساكينِ »[٥] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢) ، ومسلم (٢٥٩١) واللفظ له .
(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (٣/ ٢٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٠) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً .
(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٤٤) من قول عمر رضي الله عنه بنحوه ، ولفظه في « القوت » (٢/ ٢١٥) .
(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٩) .
(٥) رواه الترمذي (٢٣٥٢)، وابن ماجه (٤١٢٦)، **والمسكنة هنا : الإخبات والخمول لا القلة** .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : كانَ سليمانُ عليهِ السلامُ في ملكِهِ إذا دخلَ المسجدَ فرأىٰ مسكيناً . . جلسَ إليهِ ، وقالَ : مسكينٌ جالسَ مسكيناً .

وقيلَ : (ما كانَ منْ كلمةٍ تُقالُ لعيسىٰ عليهِ السلامُ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يُقالَ لهُ : يا مسكينُ)[1] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (ما في القرآنِ مِنْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ . . فهوَ في التوراةِ : يا أيُّها المساكينُ)[2] .

وقالَ عبادةُ بنُ الصامتِ : (إنَّ للنارِ سبعةَ أبوابٍ ؛ ثلاثةٌ للأغنياءِ ، وثلاثةٌ للنساءِ ، وواحدٌ للفقراءِ والمساكينِ) .

وقالَ الفضيلُ : (بلغَني أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ قالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ لي أنْ أعلمَ رضاكَ عنِّي ؟ فقالَ : انظرْ كيفَ رضا المساكينِ عنكَ)[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إيَّاكُمْ ومجالسةَ الموتىٰ » ، قيلَ : ومنِ الموتىٰ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الأغنياءُ »[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٦٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٧٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٢٢) عن خيثمة بن عبد الرحمـٰن رحمه الله تعالىٰ .

(٣) روىٰ أحمد في «الزهد» (٢٩١) عن وهب خبراً من الإسرائيليات وفيه : (إن أرادوا رضاي . . فليرضوا المساكين ؛ فإنهم إن أرضوهم . . رضيت ، وإذا أسخطوهم . . سخطت) .

(٤) رواه الترمذي (١٧٨٠) ولفظه : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردت اللحوق بي . . فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياكِ ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقي ثوباً حتىٰ ترقعيه » .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ أينَ أبغيكَ ؟ قالَ : عندَ المنكسرةِ قلوبُهُم[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تَغبطَنَّ فاجراً بنعمةٍ ؛ فإنَّكَ لا تدري إلىٰ ما يصيرُ بعدَ الموتِ ، فإنَّ مِنْ ورائِهِ طالباً حثيثاً »[2] .

وأمَّا اليتيمُ . . فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ضمَّ يتيماً مِنْ أبوينِ مسلمينِ حتَّىٰ يستغنيَ . . فقدْ وجبَتْ لهُ الجنَّةُ ألبتَّةَ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنَّةِ كهاتينِ » وهوَ يشيرُ بإصبعيهِ[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِ يتيمٍ ترحُّماً . . كانَتْ لهُ بكلِّ شعرةٍ تمرُّ عليها يدُهُ حسنةٌ »[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ بيتٍ مِنَ المسلمينَ بيتٌ فيهِ يتيمٌ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) .

(٢) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢/ ٢١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٢٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، وأوقفه عليه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢٣) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٥٦) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٣٤٤) .

(٤) رواه البخاري (٥٣٠٤) ، ومسلم (٢٩٨٣) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٥٢) عن ثابت بن العجلان بلاغاً عنه صلى الله عليه وسلم بلفظ المصنف ، وله (٦٥٥) ، ولأحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠٢) من حديث أبي أمامة مرفوعاً : « من مسح رأس يتيم لا يمسحه إلا لله . . كان له بكل شعرة مرّت عليها يده حسنات » الحديث .

يحسنُ إليهِ ، وشرُّ بيتٍ مِنَ المسلمينَ بيتٌ فيهِ يتيمٌ يُساءُ إليهِ »(١) .

❊ ❊ ❊

ومنها : **النصيحةُ لكلِّ مسلمٍ ، والجهدُ في إدخالِ السرورِ علىٰ قلبِهِ** : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يحبُّ للمؤمنِ ما يحبُّ لنفسِهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتَّىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحدَكُمْ مرآةُ أخيهِ ، فإذا رأىٰ بهِ شيئاً . . فليمطْهُ عنهُ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَن قضىٰ حاجةً لأخيهِ . . فكأنَّما خدمَ اللهَ عمرَهُ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أقرَّ عينَ مؤمنٍ . . أقرَّ اللهُ عينَهُ يومَ القيامةِ »(٦) .

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٧٩) ، وهو عند البخاري في « الأدب المفرد » (١٣٧) .
(٢) قال العراقي : لم أره بهٰذا اللفظ . قلت : هو معنى الحديث الآتي . « الإتحاف » (٦/ ٢٩١) .
(٣) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .
(٤) رواه الترمذي (١٩٢٩) .
(٥) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٧/ ٣٥٢) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٢٠٦٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٥٥) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٦) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٥) مرسلاً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ مشىٰ في حاجةِ أخيهِ ساعةً مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ ، قضاها أوْ لمْ يقضِها . . كانَ خيراً لهُ مِنِ اعْتِكافِ شهرينِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فرَّجَ عنْ مغمومٍ ، أوْ أعانَ مظلوماً . . غفرَ اللهُ لهُ ثلاثاً وسبعينَ مغفرةً »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصُرْ أخاكَ ظالماً أوْ مظلوماً » ، فقيلَ : كيفَ ينصرُهُ ظالماً ؟ قالَ : « يمنعُهُ مِنَ الظلمِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مِنْ أحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ إدخالَ السرورِ على قلبِ المؤمنِ ، أوْ أن تفرِّجَ عنهُ غمّاً ، أوْ تقضيَ عنهُ ديناً ، أوْ تطعمَهُ مِنْ جوعٍ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حمىٰ مؤمناً مِنْ منافقٍ يعنتُهُ . . بعثَ اللهُ إليهِ ملكاً يحمي لحمَهُ يومَ القيامةِ مِنْ نارِ جهنَّمَ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خصلتانِ ليسَ فوقَهُما شيءٌ مِنَ الشَّرِّ :

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٠) .
(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ١٣٨) بألفاظ مقاربة .
(٣) رواه البخاري (٢٤٤٤) ، ومسلم (٢٥٨٤) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٤) عن أبي شريك مرسلاً ، وروى الطبراني في « الكبير » (١١/ ٧١) من حديث ابن عباس مرفوعاً : « إن أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم » .
(٥) رواه أبو داوود (٤٨٨٣) .

الشِّركُ باللهِ ، والضرُّ لعبادِ اللهِ ، وخصلتانِ ليسَ فوقَهُما شيءٌ مِنَ البرِّ : الإيمانُ باللهِ ، والنَّفعُ لعبادِ اللهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يهتمَّ للمسلمينَ . . فليسَ منهُمْ »[2] .

وقالَ معروفٌ الكرخيُّ : (مَنْ قالَ كلَّ يومٍ : اللهمَّ ؛ ارحمْ أمَّةَ محمدٍ . . كتبَهُ اللهُ مِنَ الأبدالِ ، وفي روايةٍ أخرىٰ : اللهمَّ ؛ أصلحْ أمَّةَ محمدٍ ، اللهمَّ ؛ ارحمْ أمَّةَ محمدٍ ، اللهمَّ ؛ فرِّجْ عنْ أمَّةِ محمدٍ ، كلَّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ . . كتبَهُ اللهُ مِنَ الأبدالِ)[3] .

وبكىٰ عليُّ بنُ الفضيلِ يوماً ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : أبكي علىٰ مَنْ ظلمَني إذا وقفَ غداً بينَ يدَيِ اللهِ تعالىٰ وسئلَ عنْ ظلمِهِ ولمْ تكنْ لهُ حجَّةٌ[4] .

* * *

ومنها أنْ يعودَ مرضاهمْ : والمعرفةُ والإسلامُ كافيانِ في إثباتِ هٰذا الحقِّ ونيلِ فضلِهِ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكره صاحب « الفردوس » (٢٩٨٨) من حديث علي ، ولم يسنده ولده في « مسنده ») . « إتحاف » (٦/ ٢٩٣) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٤٦٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٦٦) بنحوه ، وفيه : (عشر مرات) .

(٤) أورده إبراهيم البيهقي في « المحاسن والمساوىء » (ص٥٠٠) .

وأدبُ العائدِ : خفَّةُ الجلسةِ ، وقلَّةُ السؤالِ ، وإظهارُ الرقَّةِ ، والدعاءُ بالعافيةِ ، وغضُّ البصرِ عنْ عوراتِ الموضعِ ، وعندَ الاستئذانِ لا يقابلُ البابَ ، ويدقُّ برفقٍ ، ولا يقولُ : (أنا) إذا قيلَ لهُ : (مَنْ ؟) ، ولا يقولُ : (يا غلامُ) ، ولكنْ يحمدُ ويسبِّحُ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تمامُ عيادةِ المريضِ أنْ يضعَ أحدُكُمْ يدَهُ علىٰ جبهتِهِ أوْ علىٰ يدِهِ ويسألَهُ : كيفَ هوَ ؟ وتمامُ تحيَّاتِكُمُ المصافحةُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عادَ مريضاً . . قعدَ في مخارفِ الجنَّةِ ، حتَّىٰ إذا قامَ . . وُكِّلَ بهِ سبعونَ ألفَ ملكٍ يصلُّونَ عليهِ حتَّى الليلِ »[3] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا عادَ الرجلُ المريضَ . . خاضَ في الرحمةِ ، فإذا قعدَ عندَهُ . . قرَّتْ فيهِ »[4] .

---

(١) وإن قال : فلان بن فلان . . لا بأس بذلك ؛ لأن المقصود الإعلام ، وهو يحصل بذكر الاسم أكثر من التسبيح ، وإن جمع بينهما . . فحسن . « إتحاف » (٦/ ٢٩٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٧٣١) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٠٩٨) ، والترمذي (٩٦٩) ، وابن ماجه (١٤٤٢) بألفاظ مقاربة ، وعند مسلم (٢٥٦٨) مرفوعاً : « من عاد مريضاً . . لم يزل في خُرفة الجنة حتىٰ يرجع » ، و**مخارف** : جمع مخرف ، موضع الاختراف ، وخرف الثمار واخترفها : قطعها وجناها ، والمراد بمخارف الجنة : مجاني ثمارها . « إتحاف » (٦/ ٢٩٤) .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٦) بلاغاً ، ووصله من طرق ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/ ٢٧٣) ، ورواه كذلك بنحوه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٦٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٢٢) بألفاظ مقاربة .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا عادَ المسلمُ أخاهَ أوْ زارَهُ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : طبتَ وطابَ ممشاكَ ، وتبوَّأْتَ منزلاً في الجنَّةِ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا مرضَ العبدُ . . بعثَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ إليهِ ملكينِ ، فقالَ : انظرا ماذا يقولُ لعوَّادِهِ ، فإنْ هوَ إذا جاؤوهُ حمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ . . رفعا ذلكَ إلى اللهِ وهوَ أعلمُ ، فيقولُ : لعبدي عليَّ إنْ توفَّيْتُهُ أنْ أدخلَهُ الجنَّةَ ، وإنْ أنا شفيتُهُ أنْ أبدلَ لهُ لحماً خيراً مِنْ لحمهِ ، ودماً خيراً مِنْ دمِهِ ، وأنْ أكفِّرَ عنهُ سيِّئاتِهِ »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يُصِبْ منهُ »(٣) .

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : مرضتُ ، فعادَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « بسْمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، أعيذُكَ باللهِ الأحدِ الصمدِ ، الَّذي لمْ يلدْ ولمْ يولدْ ، ولمْ يكنْ لهُ كفواً أحدٌ ، مِنْ شرِّ ما تجدُ » ، قالَها مراراً(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨) ، وابن ماجه (١٤٤٣) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) عن عطاء بن يسار مرسلاً ، وأسنده موصولاً ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٤٧) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

(٣) رواه البخاري (٥٦٤٥) ، وقال الحافظ ابن حجر : (ونسبه أبو الفضل بن عمار الشهيد إلىٰ تخريج مسلم وأعلَّه ، وليس هو في النسخ الموجودة الآن) . «إتحاف» (٦/ ٢٩٦).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٩٤) ، والطبراني في « الدعاء » (١١٢١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٥٣) .

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ مريضٌ، فقالَ لهُ : « قلِ : اللَّهُمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ تعجيلَ عافيتِكَ ، أوْ صبراً علىٰ بليَّتِكَ، أوْ خروجاً مِنَ الدُّنيا إلىٰ رحمتِكَ ؛ فإنَّكَ ستُعطىٰ إحداهُنَّ »[1] .

ويُستحبُّ للعليلِ أيضاً أنْ يقولَ : (أعوذُ بعزَّةِ اللهِ وقدرتِهِ مِنْ شرِّ ما أجدُ وأحاذِرُ)[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا شكا أحدُكُمْ بطنَهُ . . فليسألِ امرأتَهُ شيئاً مِنْ صَداقِها ، فيشتريَ بهِ عسلاً ، فيشربَهُ بماءِ السماءِ ، فيجتمعَ لهُ الهنيءُ والمريءُ والشفاءُ والمباركُ)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ ألا أخبرُكَ بأمرٍ هوَ حقٌّ ، مَنْ تكلَّمَ بهِ في أوَّلِ مضجعِهِ مِنْ مرضِهِ . . نجَّاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ؟ »قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ؛ قالَ : « يقولُ : لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٣٠) ، ولم يصرح أنه دخل علىٰ علي رضي الله عنه ، ولكن صرَّح به القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٧٠) .

(٢) لما روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٢) عن عثمان بن أبي العاص أنه أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه وجع كاد يهلكه ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « امسحه بيمينك سبع مرات وقل : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد » ، وعند مسلم (٢٢٠٢) زيادة : « وأحاذر » .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٤١٥٥) ، والإشارة فيه إلىٰ قوله تعالىٰ في صداق المرأة : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ ، وقوله تعالىٰ في العسل : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ، وقوله تعالىٰ في المطر : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ .

لا يموتُ ، سبحانَ اللهِ ربِّ العبادِ والبلادِ ، والحمدُ للهِ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيهِ علىٰ كلِّ حالٍ ، اللهُ أكبرُ كبيراً ، كبرياءُ ربِّنا وجلالُهُ وقدرتُهُ بكلِّ مكانٍ ، اللهمَّ ؛ إنْ أنتَ أمرضتَني لتقبضَ روحي في مرضي هٰذا . . فاجعلْ رُوحي في أرواحِ مَنْ سبقَتْ لهُ منكَ الحسنىٰ ، وباعدْني مِنَ النَّارِ كما باعدتَ أولياءَكَ الَّذينَ سبقَتْ لهُمْ منكَ الحسنىٰ »(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « عيادةُ المريضِ فُواقَ ناقةٍ »(٢) .

وقالَ طاووسٌ : (أفضلُ العيادةِ أخفُّها)(٣) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (عيادةُ المريضِ مرَّةً سُنةٌ ، فما ازددتَ . . فنافلةٌ)(٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : (عيادةُ المريضِ بعدَ ثلاثٍ)(٥) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٥٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٨٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٧٨٦) ، **والفواق** : الوقت ما بين الحلبتين ، إذ تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدرَّ ، وقيل : ما بين قبض اليد عند الحلب وفتحها ، فيكون مجازاً دالاً على التخفيف .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٥٩٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٨١) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٥٨) .

(٥) رواه هناد في « الزهد » (٣٧٩) ، وابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٤٢) كلاهما عن النعمان بن أبي عياش الزرقي من قوله .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أغِبُّوا في العيادةِ ، وأرْبِعُوا فيها »[1] .

وجملةُ آدابِ المريضِ : حسنُ الصبرِ ، وقلَّةُ الشكوىٰ والضجرِ ، والفزعُ إلى الدعاءِ ، والتوكُّلُ بعدَ الدواءِ علىٰ خالقِ الدواءِ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يشيِّعَ جنائزَهُمْ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شيَّعَ جَنازةً . . فلهُ قيراطٌ مِنَ الأجرِ ، فإنْ وقفَ حتَّىٰ تُدفنَ . . فلهُ قيراطانِ »[2] .

وفي الخبرِ : « القيراطُ مثلُ أحدٍ »[3] .

ولمَّا روىٰ أبو هريرةَ هـٰذا الحديثَ وسمعَهُ ابنُ عمرَ . . قالَ : (لقدْ فرَّطْنا في قراريطَ كثيرةٍ)[4] .

والقصدُ مِنَ التشييعِ : قضاءُ حقِّ المسلمينَ والاعتبارُ ، وكانَ مكحولٌ الدمشقيُّ إذا رأىٰ جَنازةً . . قالَ : (اغدوا ؛ فإنَّا رائحونَ ، موعظةٌ بليغةٌ ، وغفلةٌ سريعةٌ ، يذهبُ الأوَّلُ والآخرُ لا عقلَ لهُ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٧٨٢) من حديث جابر مرفوعاً ، وزاد : « إلا أن يكون مغلوباً فلا يعاد » ، وأغبُّوا : زوروه يوماً ودعوه يوماً ، وأربعوا : زوروه يوماً ، ودعوه يومين ، وعودوه في الرابع . انظر « فيض القدير » (٢/ ١٥) .

(٢) رواه البخاري (٤٧ ، ١٣٢٥) ، ومسلم (٩٤٥) .

(٣) هو قطعة من الحديث السابق ، وأيضاً عند مسلم (٩٤٦) .

(٤) رواه البخاري (١٣٢٤) .

(٥) حكاه عنه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٥٣) ، وقد =

وخرجَ مالكُ بنُ دينارٍ خلفَ جِنازةِ أخيهِ وهوَ يبكي ويقولُ : (واللهِ ؛ لا تقرُّ عيني حتَّىٰ أعلمَ إلامَ صرتَ ، ولا واللهِ لا أعلمُهُ ما دمتُ حيّاً)(١) .

وقالَ الأعمشُ : (كنَّا نشهدُ الجنائزَ ، فلا ندري مَنْ نعزِّي لحزنِ القومِ كلِّهِمْ)(٢) .

ونظرَ إبراهيمُ الزيَّاتُ إلىٰ أناسٍ يترحَّمونَ علىٰ ميِّتٍ فقالَ : لوْ ترحمونَ أنفسَكُمْ . . لكانَ أولىٰ ؛ إنَّهُ نجا مِنْ أهوالٍ ثلاثةٍ : وجهَ ملكِ الموتِ قدْ رأىٰ ، ومرارةَ الموتِ قدْ ذاقَ ، وخوفَ الخاتمةِ قدْ أمنَ)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يتبعُ الميِّتَ ثلاثةٌ ، فيرجعُ اثنانِ ويبقىٰ واحدٌ ، يتبعُهُ أهلُهُ ومالُهُ وعملُهُ ، فيرجعُ أهلُهُ ومالُهُ ، ويبقىٰ عملُهُ »(٤) .

❊ ❊ ❊

ومنها : أنْ يزورَ قبورَهُمْ : والمقصودُ الدعاءُ والاعتبارُ وترقيقُ القلبِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رأيتُ منظراً إلاَّ والقبرُ أفظعُ منهُ »(٥) .

= رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٥٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) رواه ابن عساكر في « تعزية المسلم » (٢٨) ، واسم أخيه المتوفىٰ هو ملحان .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٨٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٥٠) .

(٣) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١١٦) .

(٤) رواه البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) .

(٥) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : خرجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأتى المقابرَ ، فجلسَ إلىٰ قبرٍ ، وكنتُ أدنى القومِ منهُ ، فبكىٰ وبكينا ، فقالَ : « ما يبكيكُمْ ؟ » قلنا : بكينا لبكائِكَ ، قالَ : « هـٰذا قبرُ آمنةَ بنتِ وهبٍ ، استأذنتُ ربِّي في زيارَتِها فأذنَ لي ، واستأذنتُهُ في أنْ أستغفرَ لها . . فأبىٰ عليَّ ، فأدْركَني ما يدركُ الولدَ مِنَ الرقَّةِ »(1) .

وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا وقفَ علىٰ قبرٍ . . بكىٰ حتَّىٰ تُبلَّ لحيتُهُ ، ويقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ القبرَ أوَّلُ منازلِ الآخرةِ ، فإنْ نجا منهُ صاحبُهُ . . فما بعدَهُ أيسرُ ، وإنْ لمْ ينجُ منهُ . . فما بعدَهُ أشدُّ »(2) .

وقالَ مجاهدٌ : (أوَّلُ ما يكلِّمُ ابنَ آدمَ حفرتُهُ ، فتقولُ : أنا بيتُ الدودِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الغربةِ ، وبيتُ الظلمةِ ، فهـٰذا ما أعددتُ لكَ ، فما أعددتَ لي ؟!)(3) .

وقالَ أبو ذرٍّ : (ألا أخبرُكُمْ بيومِ فقري ؟ يومَ أُوضعُ في قبري)(4) .

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٥٥) بنحو لفظ المصنف من حديث بريدة رضي الله عنه ، وهو مختصراً عند مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(2) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) .
(3) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٤٩٦) عن علي رضي الله عنه من طريق مجاهد ، وقد رواه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .
(4) حكاه الحافظ الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٠) .

وكانَ أبو الدرداءِ يقعدُ إلى القبورِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (أجلسُ إلىٰ قومٍ يذكِّرُونَني معادي ، وإنْ قمتُ عنهُم . . لمْ يغتابوني) .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (مَنْ مرَّ بالمقابرِ فلمْ يتفكَّرْ لنفسِهِ ، ولمْ يَدْعُ لهمْ . . فقدْ خانَ نفسَهُ وخانَهُمْ)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ ليلةٍ إلاَّ وينادي منادٍ : يا أهلَ القبورِ ؛ مَنْ تغبطونَ ؟ فيقولونَ : نغبطُ أهلَ المساجدِ ؛ لأنَّهُمْ يصومونَ ولا نصومُ ، ويصلُّونَ ولا نصلِّي ، ويذكرونَ اللهَ ولا نذكرُهُ »(٢) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (مَنْ أكثرَ ذكرَ القبرِ . . وجدَهُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومَنْ غفَلَ عنْ ذكرِهِ . . وجدَهُ حفرةً مِنْ حفرِ النارِ)(٣) .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ إذا وجدَ في قلبِهِ قساوةً . . دخلَ فيهِ فاضطجعَ فيهِ ، ومكثَ ساعةً ، ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ ، ثمَّ يقولُ : يا ربيعُ ؛ قدْ رجعْتَ ، فاعملِ الآنَ قبلَ ألا ترجعَ(٤) .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : خرجتُ معَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إلى المقبرةِ فلمَّا

---

(١) حكاه الحافظ الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥) .
(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٦/ ٣٠١) ، والإشارة فيه إلى انقطاع العمل للمؤمنين ، والتحسر علىٰ فواته لغيرهم ، وهـٰذا ثابت المعنىٰ .
(٣) حكاه الحافظ الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥) .
(٤) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٣١١) .

نظرَ إلى القبورِ . . بكىٰ ، وقالَ : يا ميمونُ ؛ هـٰذهِ قبورُ آبائي بني أميَّةَ ؛ كأنَّهُمْ لمْ يشاركوا أهلَ الدنيا في لذَّاتِهِمْ ، أما تراهُمْ صرعىٰ قدْ خلَتْ بهِمُ المَثُلاتُ ، وأصابَ الهوامُّ مِنْ أبدانِهِمْ ؟ ثمَّ بكىٰ وقالَ : واللهِ ؛ ما أعلمُ أحداً أنعمَ ممَّنْ صارَ إلىٰ هـٰذهِ القبورِ وقدْ أمنَ عذابَ اللهِ(١) .

وآدابُ المعزِّي : خفضُ الجناحِ ، وإظهارُ الحزْنِ ، وقلَّةُ الحديثِ ، وتركُ التبسُّمِ(٢) .

وآدابُ تشييعِ الجنازةِ : لزومُ الخشوعِ ، وتركُ الحديثِ ، وملاحظةُ الميتِ ، والتفكُّرُ في الموتِ ، والاستعدادُ لهُ ، وأنْ يمشيَ أمامَ الجنازةِ بقربِها ، والإسراعُ بالجنازةِ سنةٌ .

فهـٰذهِ جملُ آدابٍ تنبِّهُ علىٰ آدابِ المعاشرةِ معَ عمومِ الخلقِ .

والجملةُ الجامعةُ في ذلكَ : ألا تستصغرَ منهُمْ أحداً ، حيّاً كانَ أوْ ميتاً فتهلكَ ؛ لأنَّكَ لا تدري لعلَّهُ خيرٌ منكَ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ فاسقاً فلعلَّهُ يُختمُ لكَ بمثلِ حالِهِ ويُختمُ لهُ بالصلاحِ !

ولا تنظرْ إليهِمْ بعينِ التعظيمِ لهمْ في حالِ دنياهُمْ ، فإنَّ الدنيا صغيرةٌ عندَ اللهِ ، صغيرٌ ما فيها ، ومهما عَظُمَ أهلُ الدنيا في نفسِكَ . . فقدْ عظَّمْتَ الدنيا ، فتسقطُ مِنْ عينِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/٢٣٢) .

(٢) ولا بأس بالجلوس لها ثلاثة أيام من غير ارتكاب محظور . « إتحاف » (٦/٣٠٢) .

ولا تبذلْ لهُمْ دينَكَ لتنالَ مِنْ دنياهُمْ فتصغرَ في أعينِهِمْ ، ثمَّ تُحرمَ دنياهُمْ ، فإنْ لمْ تُحرمْ . . كنتَ قدِ استبدلْتَ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ .

ولا تعادِهِمْ بحيثُ تظهرُ العداوةَ ، فيطولَ الأمرُ عليكَ في المعاداةِ ، ويذهبَ دينُكَ ودنياك فيهِمْ ، ويذهبَ دينُهُمْ فيكَ ، إلا إذا رأيتَ منكراً في الدينِ ، فتعادي أفعالَهُمُ القبيحةَ ، وتنظرُ إليهِمْ بعينِ الرحمةِ لهُمْ ؛ لتعرُّضِهِمْ لمقتِ اللهِ وعقوبتِهِ بعصيانِهِمْ ، فحسبُهُمْ جهنَّمُ يصلونَها ، فما لكَ تحقدُ عليهِمْ ؟!

ولا تسكنْ إليهِمْ في مودتِهِمْ لكَ ، وثنائِهِمْ عليكَ في وجهِكَ ، وحسنِ بشرِهِمْ لكَ ؛ فإنَّكَ إنْ طلبتَ حقيقةَ ذلكَ . . لمْ تجدْ في المئةِ إلا واحداً ، وربَّما لا تجدُهُ .

ولا تشْكُ إليهِمْ أحوالَك فيكلَكَ اللهُ إليهِمْ ، ولا تطمعْ أنْ يكونوا لكَ في الغيبِ والسرِّ كما في العلانيةِ ، فذلكَ طمعٌ كاذبٌ ، وأنَّىٰ تظفرُ بهِ ؟!

ولا تطمعْ فيما في أيديهِمْ فتستعجلَ الذلَّ ولا تنالَ الغرضَ ، ولا تعلُ عليهِمْ تكبُّراً لاستغنائِكَ عنهُمْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يلجئُكَ إليهِمْ عقوبةً على التكبُّرِ بإظهارِ الاستغناءِ .

وإذا سألتَ أحداً منهُمْ حاجةً فقضاها . . فهوَ أخٌ مستفادٌ ، وإنْ لمْ يقضِ . . فلا تعاتبْهُ ، فيصيرَ عدوّاً تطولُ عليكَ مقاساتُهُ .

ولا تشتغلْ بوعظِ مَنْ لا ترىٰ فيهِ مخايلَ القبولِ ، فلا يسمعُ منكَ

ويعاديكَ ، وليكنْ وعظُكَ عرْضاً وإرسالاً مِنْ غيرِ تنصيصٍ على الشخصِ .

ومهما رأيتَ منهُمْ كرامةً وخيراً . . فاشكرِ اللهَ الذي سخَّرَهُمْ لكَ ، واستعذْ باللهِ أنْ يكلَكَ إليهِمْ ، وإذا بلغَكَ منهُمْ غيبةٌ ، أوْ رأيتَ منهُمْ شرّاً ، أوْ أصابَكَ منهُمْ ما يسوءُكَ . . فكِلْ أمرَهُمْ إلى اللهِ ، واستعذْ باللهِ مِنْ شرِّهِمْ ، ولا تشغَلْ نفسَكَ بالمكافأةِ فيزيدَ الضررُ ، ويضيعَ العمرُ بشغلِهِ ، ولا تقلْ لهُمْ : (لمْ تعرِفوا موضعي) ، واعتقدْ أنَّكَ لوِ استحققْتَ ذلكَ . . لجعلَ اللهُ لكَ موضعاً في قلوبِهِمْ ، فاللهُ المحبِّبُ والمبغِّضُ إلى القلوبِ .

وكُنْ فيهِمْ سميعاً لحقِّهِمْ ، أصمَّ عنْ باطِلِهِمْ ، نطوقاً بحقِّهِمْ ، صَموتاً عنْ باطلِهِمْ .

واحذرْ صحبةَ أكثرِ الناسِ ، فإنَّهُمْ لا يقيلونَ عثرةً ، ولا يغفرونَ زلَّةً ، ولا يسترونَ عورةً ، ويحاسبونَ على النقيرِ والقطميرِ ، ويحسدونَ على القليلِ والكثيرِ ، ينتصفونَ ولا ينصفونَ ، ويؤاخذونَ على الخطأِ والنسيانِ ولا يعفونَ ، يغرونَ الإخوانَ بالإخوانِ بالنميمةِ والبهتانِ ، فصحبةُ أكثرِهِمْ خسرانٌ ، وقطيعتُهُمْ رجحانٌ ، إنْ رضوا . . فظاهرُهُمُ الملَقُ ، وإنْ سخطوا . . فباطنُهُمُ الحَنَقُ ، لا يؤمنونَ في حنقِهِمْ ، ولا يرجونَ في ملقِهِمْ ، ظاهرُهُمْ ثيابٌ ، وباطنُهُمْ ذئابٌ ، يقطعونَ بالظنونِ ، ويتغامزونَ وراءَكَ بالعيونِ ، ويتربَّصونَ بصديقِهِمْ مِنَ الحسدِ ريبَ المنونِ(١) ، يحصونَ

---

(١) المنون هنا : الدهر .

عليكَ العثراتِ في صحبتِهِمْ ؛ ليجبهوكَ بها في غضبِهِمْ ووحشتِهِمْ[1] .

ولا تعوِّلْ علىٰ مودَّةِ مَنْ لمْ تخبرْهُ حقَّ الخبرةِ ؛ بأنْ تصحبَهُ مدَّةً في دارٍ أوْ موضعٍ واحدٍ ، فتجرِّبَهُ في عزلِهِ وولايتِهِ ، وغناهُ وفقرِهِ ، أوْ تسافرَ معَهُ ، أوْ تعاملَهُ في الدينارِ والدرهمِ ، أوْ تقعَ في شدَّةٍ فتحتاجَ إليهِ ، فإنْ رضيتَهُ في هٰذهِ الأحوالِ . . فاتخذْهُ أباً لكَ إنْ كانَ كبيراً ، أوِ ابناً لكَ إنْ كانَ صغيراً ، أوْ أخاً إنْ كانَ مثلَكَ .

فهٰذهِ جملةُ آدابِ المعاشرةِ معَ أصنافِ الخلقِ .

* * *

(١) في نسخة علىٰ هامش (ب) : (ليجهِّلوك) بدل (ليجبهوك) ، وجبهَهُ : لقيه بالمكروه .

حقوق الجوار

اعلمْ : أنَّ الجوارَ يقتضي حقّاً وراءَ ما تقتضيهِ أخوَّةُ الإسلامِ ، فيستحقُّ الجارُ المسلمُ ما يستحقُّهُ كلُّ مسلمٍ وزيادةً ؛ إذْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجيرانُ ثلاثةٌ : جارٌ لهُ حقٌّ واحدٌ ، وجارٌ لهُ حقَّانِ ، وجارٌ لهُ ثلاثةُ حقوقٍ ؛ فالجارُ الَّذي لهُ ثلاثةُ حقوقٍ الجارُ المسلمِ ذو الرَّحِمِ ، فلهُ حقُّ الجوارِ وحقُّ الإسلامِ وحقُّ الرَّحمِ ، وأمَّا الذي لهُ حقَّان . . فالجارُ المسلمُ ، لهُ حقُّ الجوارِ وحقُّ الإسلامِ ، وأمَّا الذي لهُ حقٌّ واحدٌ . . فالجارُ المشركُ »[١] ، فانظرْ كيفَ أثبتَ للمشركِ حقّاً بمجرَّدِ الجوارِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحسنْ مجاورةَ مَنْ جاورَكَ . . تكنْ مسلماً »[٢] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما زالَ جبريلُ يوصيني بالجارِ حتَّىٰ ظننتُ أنَّهُ سيورِّثُهُ »[٣] .

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (١٠٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٤١) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٤٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١١٣) ، وسيأتي للحديث بقية .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٥) ، وابن ماجه (٤٢١٧) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٦٤٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٧٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٠١٤) ، ومسلم (٢٦٢٥) ، ومعنىٰ (سيورثه) : كاد يجعل له حقاً في المال ، تنبيه علىٰ إنزاله منزلة من يرث من البر والصلة .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . فليكرمْ جارَهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « لا يؤمنُ عبدٌ حتَّىٰ يأمنَ جارُهُ بوائقَهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ خصمينِ يومَ القيامةِ جارانِ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: « إذا أنتَ رميتَ كلبَ جارِكَ . . فقدْ آذيتَهُ »[4] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً جاءَ إلى ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ لهُ : إنَّ لي جاراً يؤذيني ويشتمُني ويضيِّقُ عليَّ ، فقالَ لهُ : اذهبْ ؛ فإنْ هوَ عصى اللهَ فيكَ . . فأطِعِ اللهَ فيهِ[5] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ وتؤذي جيرانَها ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هيَ في النَّارِ »[6] .

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يشكو جارَهُ ، فقالَ لهُ النبيُّ

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٩) ، ومسلم (٤٧) .
(٢) رواه البخاري (٦٠١٦) ، ونحوه عند مسلم (٤٦) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٥١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/٣٠٣) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .
(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) .
(٥) وفي هٰذا المعنىٰ قالة عمر الفاروق رضي الله عنه التي رواها ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٨٩) : (ما كافأت من يعصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه) .
(٦) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٤٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اصبِرْ » ، ثمَّ قالَ لهُ في الثالثةِ أوِ الرابعةِ : « اطرحْ متاعَكَ في الطَّريقِ » ، قالَ : فجعلَ الناسُ يمرُّونَ بهِ فيقولونَ: ما لكَ ؟ فيُقالُ : آذاهُ جارُهُ ، قالَ : فجعلوا يقولونَ : لعنَهُ اللهُ، فجاءَهُ جارُهُ فقالَ لهُ : رُدَّ متاعَكَ، فواللهِ؛ لا أعودُ(١) .

وروى الزهريُّ أنَّ رجلاً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فجعلَ يشكو جارَهُ ، فأمرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ ينادِيَ علىٰ بابِ المسجدِ : « ألا إنَّ أربعينَ داراً جارٌ »(٢) ، قالَ الزهريُّ : (أربعونَ هٰكذا ، وأربعونَ هٰكذا ، وأربعونَ هٰكذا ، وأربعونَ هٰكذا) ، وأومأَ إلىٰ أربعِ جهاتٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليُمْنُ والشؤمُ في المرأةِ والمسكنِ والفرسِ ، فيُمْنُ المرأةِ خفَّةُ مهرِها ، ويسرُ نكاحِها ، وحسنُ خُلُقِها ، وشؤمُها غلاءُ مهرِها ، وعسرُ نكاحِها ، وسوءُ خُلُقِها ، ويُمْنُ المسكَنِ سَعتُهُ وحسنُ جوارِ أهلِهِ ، وشؤمُهُ ضيقُهُ وسوءُ جوارِ أهلِهِ ، ويُمْنُ الفرسِ ذلُّهُ وحسنُ خُلقِهِ ، وشؤمُهُ صعوبتُهُ وسوءُ خُلُقِهِ »(٣) .

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٥٣) .

(٢) رواه أبو داوود في « المراسيل » (٣٤٢) عن الزهري ، وعنده تمام قول الزهري ، ووصله من طريقه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٧٣) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه مسلم [٢٢٢٥] من حديث ابن عمر : « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » ، وفي رواية له [٢٢٢٥/ ١١٧] : « إن يكن من الشؤم شيء حقاً » ، وله من حديث سهل بن سعد [٢٢٢٥/ ١١٩] : « إن كان.. ففي الفرس والمرأة والمسكن » ، وللترمذي [٢٨٢٤] من حديث حكيم بن معاوية : « لا شؤم ، وقد يكون =

واعلمْ : أنَّهُ ليسَ حقُّ الجوارِ كفَّ الأذىٰ فقطْ ، بلِ احتمالُ الأذىٰ ، فإنَّ الجارَ أيضاً قدْ كفَّ أذاهُ ، فليسَ في ذلكَ قضاءُ حقٍّ .

ولا يكفي أيضاً احتمالُ الأذىٰ ، بلْ لا بدَّ مِنَ الرفقِ ، وإسداءِ الخيرِ والمعروفِ ؛ إذْ يُقالُ : إنَّ الجارَ الفقيرَ يتعلَّقُ بجارِهِ الغنيِّ يومَ القيامةِ ويقولُ : يا ربِّ ؛ سلْ هـٰذا : لِمَ منعَني معروفَهُ وسدَّ بابَهُ دوني ؟[1] .

وبلغَ ابنَ المقفَّعِ أنَّ جاراً لهُ يبيعُ دارَهُ في دينٍ ركبَهُ ، وكانَ ابنُ المقفَّعِ يجلسُ في ظلِّ دارِهِ ، فقالَ : ما قمتُ إذاً بحرمةِ ظلِّ دارِهِ إنْ باعَها مُعدِماً ، فدفعَ إليهِ ثمنَ الدارِ ، وقالَ : لا تبعْها[2] .

= اليمن في الدار والمرأة والفرس » ، ورواه ابن ماجه [١٩٩٣] فسماه عمر بن معاوية ـ هو مخْمَر بن معاوية عم حكيم ـ وللطبراني ـ في « الكبير » [٢٤/ ١٥٣] ـ من حديث أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله ؛ ما سوء الدار ؟ قال : « ضيق ساحتها ، وخبث جيرانها » ، قيل : فما سوء الدابة ؟ قال : « منعها ظهرها ، وسوء خلقها » ، قيل : فما سوء المرأة ؟ قال : « عقم رحمها ، وسوء خلقها » ، وكلاهما ضعيف ، ورويناه في « كتاب الخيل » للدمياطي من حديث سالم بن عبد الله مرسلاً : « إذا كان الفرس ضروباً . . فهو شؤم ، وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجاً قبل زوجها فحنَّت إلى الزوج الأول . . فهي مشؤومة ، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والإقامة . . فهي مشؤومة » ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٦/ ٣٠٦) ، وجعلت السيدة عائشة الشؤم هنا حكاية حال أهل الجاهلية ، ويحمل كذلك على عدم الموافقة كما أفاده الحافظ الزبيدي وغيره .

(١) روى البخاري في « الأدب المفرد » (ص١١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع » .

(٢) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣٩) .

وشكا بعضُهُمْ كثرةَ الفأرِ في دارِهِ ، فقيلَ لهُ : لوِ اقتنيتَ هرّاً ، فقالَ : أخشىٰ أنْ يسمعَ الفأرُ صوتَ الهرِّ فيهربَ إلىٰ دورِ الجيرانِ ، فأكونَ قدْ أحببتُ لهُمْ ما لا أحبُّ لنفسي .

* * *

وجملةُ حقِّ الجارِ : أنْ يبدأَهُ بالسلامِ ، ولا يطيلَ معهُ الكلامَ ، ولا يكثرَ عنْ حالِهِ السؤالَ ، ويعودَهُ في المرضِ ، ويعزِّيَهِ في المصيبةِ ، ويقومَ معَهُ في العزاءِ ، ويهنِّئَهُ في الفرحِ ، ويظهرَ الشركةَ في السرورِ معَهُ ، ويصفحَ عنْ زلاتِهِ ، ولا يتطلَّعَ مِنَ السطحِ إلىٰ عوراتِهِ ، ولا يضايقَهُ في وضعِ الجذعِ علىٰ جدارِهِ ، ولا في مصبِّ الماءِ في ميزابِهِ ، ولا في مطرحِ الترابِ في فِنائِهِ ، ولا يضيقَ طريقَهُ إلى الدارِ ، ولا يتبعَهُ النظرَ فيما يحملُهُ إلىٰ دارِهِ ، ويسترَ ما ينكشفُ لهُ مِنْ عوراتِهِ ، ويتعيَّنُ أن يعينَهُ إذا نابتْهُ نائبةٌ[(١)] ، ولا يغفُلَ عنْ ملاحظةِ دارِهِ عندَ غيبتِهِ ، ولا يتسمَّعَ عليهِ كلامَهُ[(٢)] ، ويغضَّ بصرَهُ عنْ حرمتِهِ ، ولا يديمَ النظرَ إلىٰ خادمتِهِ ، ويتلطَّفَ بولدِهِ في كلمتِهِ ، ويرشدَهُ إلىٰ ما يجهلُهُ مِنْ أمرِ دينِهِ ودنياهُ ، هٰذا إلىٰ جملةِ الحقوقِ التي ذكرناها لعامَّةِ المسلمينَ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتدرونَ ما حقُّ الجارِ ؟ إنِ استعانَ

---

(١) في (أ) : (وينعش من صرعته) .
(٢) في (ب) : (ولا يستمع عليه كلاماً) .

بكَ . . أعنتَهُ ، وإنِ استنصرَكَ . . نصرتَهُ ، وإنِ استقرضَكَ . . أقرضْتَهُ ، وإنِ افتقرَ . . عدتَ عليهِ ، وإنْ مرضَ . . عدتَهُ ، وإنْ ماتَ . . تبعتَ جَنازتَهُ ، وإنْ أصابَهُ خيرٌ . . هنأتَهُ ، وإنْ أصابَتْهُ مصيبةٌ . . عزَّيتَهُ ، ولا تستطلْ عليهِ بالبناءِ فتحجبَ عنهُ الريحَ إلا بإذنِهِ ، ولا تؤذِهِ ، وإذا اشتريتَ فاكهةً . . فأهدِ لهُ ، فإنْ لمْ تفعلْ . . فأدخلْها سرّاً ، ولا يخرجْ بها ولدُكَ ليغيظَ بها ولدَهُ ، ولا تؤذِهِ بقُتارِ قدْرِكَ ، إلا أنْ تغرفَ لهُ منها ، ثمَّ قالَ : أتدرونَ ما حقُّ الجارِ ؟ والذي نفسي بيدِهِ ؛ لا يبلغُ حقَّ الجارِ إلا مَنْ رحمَهُ اللهُ » . هٰكذا رواهُ عمرُو بنُ شعيبٍ عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

قالَ مجاهدٌ : كنتُ عندَ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو وغلامٌ لهُ يسلخُ شاةً ، فقالَ : يا غلامُ ؛ إذا سلختَ . . فابدأْ بجارِنا اليهوديِّ ، حتَّىٰ قالَ ذلكَ مراراً ، فقالَ لهُ : كمْ تقولُ هٰذا ! فقالَ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يزلْ يوصينا بالجارِ حتَّىٰ خشينا أنَّهُ سيورِّثُهُ[2] .

وقالَ هشامٌ : (كانَ الحسنُ لا يرىٰ بأساً أنْ تطعمَ الجارَ اليهوديَّ والنصرانيَّ مِنْ أضحيتِكَ)[3] .

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٤٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٧١) ، قال الحافظ في « فتح الباري » (١٠/ ٤٤٦) بعد ذكر من خرَّجه : (وأسانيدهم واهية ، لكن اختلاف مخارجها يشعر بأن للحديث أصلاً) .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٢٨) بلفظ المصنف هنا ، وكذا بنحوه أبو داوود (٥١٥٢) ، والترمذي (١٩٤٣) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٢٢) .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « إذا طبختَ قدْراً . . فأكثرْ ماءَها ، ثمَّ انظرْ بعضَ أهلِ بيتٍ مِنْ جيرانِكَ فاغرفْ لهُمْ منها »(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ لي جارينِ ، أحدُهُما مقبلٌ ببابِهِ ، والآخرُ ناءٍ ببابِهِ عنِّي ، وربَّما كانَ الذي عندي لا يسعُهُما ، فأيُّهُما أعظمُ حقّاً ؟ فقالَ : « المقبلُ عليكِ ببابِهِ »(٢) .

ورأى الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ ولدَهُ عبدَ الرحمـٰنِ وهوَ يماظُّ جاراً لهُ ، فقالَ : (لا تماظَّ جارَكَ ؛ فإنَّ هـٰذا يبقىٰ والناسُ يذهبونَ)(٣) .

وقالَ الحسنُ بنُ عيسى النيسابوريُّ : سألتُ عبدَ اللهِ بنَ المباركِ ، فقلتُ : الرجلُ المجاورُ يأتيني فيشكو غلامي أنَّهُ أتىٰ إليهِ أمراً ، والغلامُ ينكرُ ، فأكرَهُ أنْ أضربَهُ ولعلَّهُ بريءٌ ، وأكرَهُ أنْ أدعَهُ فيجدَ عليَّ جاري ، فكيفَ أصنعُ ؟ قالَ : إنَّ غلامَكَ لعلَّهُ أنْ يحدثَ حدثاً يستوجبُ فيهِ الأدبَ ، فاحفظْهُ عليهِ ، فإذا شكاهُ جارُكَ . . فأدِّبْهُ علىٰ ذلكَ الحدثِ ، فتكونَ قدْ أرضيتَ جارَكَ وأدبتَهُ علىٰ ذلكَ الحدثِ(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٥) .

(٢) رواه البخاري (٢٢٥٩) ، والذي رواه المروزي في « البر والصلة » (٢٤٣) أقرب للفظ المصنف .

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٦٩٩)، والمماظَّة : المخاصمة والمشاقَّة وشدة المنازعة .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٤٣) .

وهٰذا تلطُّفٌ في الجمعِ بينَ الحقَّينِ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (خلالُ المكارمِ عشرٌ ، تكونُ في الرجلِ ولا تكونُ في أبيهِ ، وتكونُ في العبدِ ولا تكونُ في سيِّدِهِ ، يقسمُها اللهُ تعالىٰ لِمَنْ أحبَّ : صدقُ الحديثِ ، وصدقُ الناسِ ، وإعطاءُ السائلِ ، والمكافأةُ بالصنائعِ ، وصلةُ الرحمِ ، وحفظُ الأمانةِ ، والتذمُّمُ للجارِ ، والتذمُّمُ للصاحبِ ، وقِرى الضيفِ ، ورأسُهُنَّ الحياءُ)(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا نساءَ المسلماتِ ؛ لا تحقرَنْ جارةٌ لجارتِها ولوْ فِرْسِنَ شاةٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ سعادةِ المرءِ المسلمِ المسكنَ الواسعَ ، والجارَ الصالحَ ، والمركبَ الهنيءَ »(٣) .

وقالَ عبدُ اللهِ : قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ لي أنْ أعلمَ إذا أحسنتُ أوْ أسأتُ ؟ قالَ : « إذا سمعتَ جيرانَكَ يقولونَ : قدْ أحسنتَ . . فقدْ أحسنتَ ، وإذا سمعتَهُمْ يقولونَ : قدْ أسأتَ . . فقدْ أسأتَ »(٤) .

وقالَ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (١٠٤٦) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٤٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣١٩) .
(٢) رواه البخاري (٢٥٦٦) ، ومسلم (١٠٣٠) .
(٣) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (٣٨٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٦) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٢٣) ، وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه .

جارٌ في حائطٍ أوْ شريكٌ . . فلا يبعْهُ حتَّىٰ يعرضَهُ عليهِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الجارَ يضعُ جذوعَهُ في حائطِ جارِهِ ، شاءَ أمْ أبىٰ)[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يمنعنَّ أحدُكُمْ جارَهُ أنْ يضعَ خشبَهُ في حائطِهِ »[3] ، وكانَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (ما لي أراكُمْ عنها معرضينَ ؟ واللهِ ؛ لأرمينَّها بينَ أكتافِكُمْ)[4] ، وقد ذهبَ بعضُ العلماءِ إلىٰ وجوبِ ذلكَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ اللهُ بهِ خيراً . . عسلَهُ » ، قيلَ : وما عسلَهُ ؟ قالَ : « يحبِّبُهُ إلىٰ جيرانِهِ »[5] .

* * *

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٥٨) ، وعند ابن ماجه (٢٤٩٢) مرفوعاً : « من كانت له نخل أو أرض . . فلا يبيعها حتىٰ يعرضها علىٰ شريكه » .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٥٩) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٦١) ، وهو عند البخاري (٢٤٦٣) ، ومسلم (١٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره » .

(٤) رواه البخاري (٢٤٦٣) وهي تمام الحديث المشار إليه قبل عنده ، وهي عند الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٦٢) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٦٣) .

حقوق الأقارب والرّحم

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا الرحمـٰنُ ، وهـٰذهِ الرحمُ ، شققْتُ لها اسماً من اسمي ، فمَنْ وصلَها . . وصلْتُهُ ، ومنْ قطعَها بتتُّهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يُنسأَ لهُ في أثرِهِ ، ويُوسَّعَ عليهِ في رزقِهِ . . فليصلْ رحمَهُ » ، وفي روايةٍ أخرىٰ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يُمدَّ لهُ في عمرِهِ ، ويُوسَّعَ لهُ في رزقِهِ . . فليتقِ اللهَ وليصلْ رحمَهُ »(٢) .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الناسِ أفضلُ ؟ فقالَ : « أتقاهُمْ للهِ وأوصلُهُمْ للرحمِ ، وآمَرُهُمْ بالمعروفِ ، وأنهاهُمْ عنِ المنكرِ »(٣) .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصلةِ

---

(١) رواه البخاري (٥٩٨٩) ، ومسلم (٢٥٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها ، وهو عند أبي داوود (١٦٩٤) ، والترمذي (١٩٠٧) بلفظ المصنف من حديث عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وزيادة : (فليتق الله) عند أحمد في « المسند » (١/ ١٤٣) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٣٢) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٥٧) من حديث درة بنت أبي لهب رضي الله عنها .

الرحمِ وإنْ أدبرَتْ ، وأمرَني أنْ أقولَ الحقَّ وإنْ كانَ مرّاً)[(١)] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ الرحمَ معلَّقةٌ بالعرشِ ، وليسَ الواصلُ المكافئَ ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا انقطعَتْ رحمُهُ . . وصلَها »[(٢)] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ أعجلَ الطاعةِ ثواباً صلةُ الرحمِ ، حتَّىٰ إنَّ أهلَ البيتِ ليكونونَ فُجّاراً ، فتنمو أموالُهُمْ ويكثرُ عددُهُمْ إذا وصلوا أرحامَهُمْ »[(٣)] .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : لمَّا خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ مكَّةَ . . عرضَ لهُ رجلٌ ، فقالَ : إنْ كنتَ تريدُ النساءَ البيضَ والنوقَ الأُدْمَ . . فعليكَ ببني مدلجٍ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ منعَ منِّي بني مدلجٍ بصلتِهِمُ الرحمَ »[(٤)] .

وقالَتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُما : قدمَتْ عليَّ أمِّي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أمي قدمَتْ عليَّ وهيَ مشركةٌ ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٤٩) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٣) ، وهو عند البخاري (٥٩٩١) دون الجملة الأولىٰ منه .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٤٤٠) ، والطبراني في « الأوسط » (١٠٩٦) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٧٦) ، وزاد : « وطعنهم في ألباب الإبل » ، قال القاسم بن سلام في « غريب الحديث » (٣/ ٣٠) : (وبعضهم يرويه : « في لبَّات الإبل ») ثم نعته بالمحفوظ .

أفأصلُها ؟ قالَ : « نعمْ » ، وفي روايةٍ : أفأعطيها ؟ قالَ : « نعمْ ، صليها »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الصدقةُ على المساكينِ صدقةٌ ، وعلىٰ ذي الرحمِ ثنتانِ »[2] .

ولمَّا أرادَ أبو طلحةَ أنْ يتصدَّقَ بحائطٍ لهُ كانَ يعجبُهُ ؛ عملاً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . . قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هوَ في سبيلِ اللهِ والفقراءِ والمساكينِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « وجبَ أجرُكَ ، فاقسمْهُ في أقاربِكَ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الصدقةِ علىٰ ذي الرحمِ الكاشحِ »[4] ، وهوَ في معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الفضائلِ أنْ تصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ ، وتصفحَ عمَّنْ ظلمَكَ »[5] .

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٣) ، ومسلم (١٠٠٣) ، والرواية الثانية عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ١٩١) .

(٢) رواه الترمذي (٦٥٨) ، والنسائي (٥/ ٩٢) ، وابن ماجه (١٨٤٤) .

(٣) رواه البخاري (١٤٦١) ، وهو بلفظه عند الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٨٥) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤١٦) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ١٣٨) ، **والكاشح** : هو الذي يضمر العداوة ويطوي عليها كشحه ، والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٨)، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٨٨)، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩٥) .

وَرُوِيَ أَنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كتبَ إلىٰ عمَّالِهِ : (مُرُوا الأقاربَ أنْ يتزاوروا ولا يتجاوروا)[1] وإنَّما قالَ ذلكَ لأنَّ التجاورَ يورثُ التزاحمَ على الحقوقِ ، وربَّما يورثُ الوحشةَ وقطيعةَ الرحمِ .

* * *

(١) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣/ ٨٨) ، كتب بذلك إلىٰ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

حقوق الوالدين والولد

لا يخفىٰ أنَّهُ إذا تأكَّدَ حقُّ القرابةِ والرحمِ فأخصُّ الأرحامِ وأمسُّها الولادةُ ، فيتضاعفُ تأكُّدُ الحقِّ فيها ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لنْ يجزيَ ولدٌ والدَهُ حتَّىٰ يجدَهُ مملوكاً فيشتريَهُ فيعتقَهُ »(١) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « برُّ الوالدينِ أفضلُ مِنَ الصلاةِ والصدقةِ والصومِ والحجِّ والعمرةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ مُرضياً لأبويهِ . . أصبحَ لهُ بابانِ مفتوحانِ إلى الجنَّةِ ، ومَنْ أمسىٰ . . فمثلُ ذلكَ ، وإنْ كانَ واحداً . . فواحدٌ ، ومَنْ أصبحَ مسخطاً لأبويهِ . . أصبحَ لهُ بابانِ مفتوحانِ إلى النارِ ، ومَنْ أمسىٰ . . مثلُ ذلكَ ، وإنْ كانَ واحداً . . فواحدٌ ، وإنْ ظَلَما ، وإنْ ظَلَما ، وإنْ ظَلَما »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (١٥١٠) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ٣١٤) : (قال العراقي : لم أجده هكذا ، وروىٰ أبو يعلىٰ ـ في « مسنده » [٢٧٦٠] ـ والطبراني في « الصغير » [١/ ٨٠] و« الأوسط » (٢٩٣٦) من حديث أنس : أتىٰ رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه ، قال : « هل بقي من والديك أحد ؟ » قال : أمي ، قال : « قابل الله في برها ، فإذا فعلت ذلك . . فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » وإسناده حسن) .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٩٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٣٨) ، ونحوه عند البخاري في « الأدب المفرد » (٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الجنَّةَ يُوجدُ ريحُها مِنْ مسيرةِ خمسِ مئةِ عامٍ ، ولا يجدُ ريحَها عاقٌّ ولا قاطعُ رحمٍ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بِرَّ أمَّكَ وأباكَ ، وأختكَ وأخاكَ ، ثمَّ أدناكَ فأدناكَ »(٢) .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لموسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ إنَّهُ مَنْ برَّ والديه وعقَّني . . كتبتُهُ بارّاً ، ومَنْ برَّني وعقَّ والديهِ . . كتبتُهُ عاقّاً .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أكبرُ الكبائرِ الإشراكُ باللهِ وعقوقُ الوالدينِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يدخلُ الجنَّةَ مدمنُ خمرٍ ، ولا عاقٌّ لوالديهِ ، ولا منَّانٌ »(٤) .

وقيلَ : لمَّا دخلَ يعقوبُ علىٰ يوسفَ عليهما السلامُ . . لمْ يقمْ لهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : أتتعاظمُ أنْ تقومَ لأبيكَ ؟! وعزَّتي وجلالي ؛ لا أخرجْتُ مِنْ صلبِكَ نبيّاً .

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٤٥) من حديث أبي هريرة ، وليس فيه ذكر القاطع ، وهي في « الأوسط » (٥٦٦٠) من حديث جابر ، إلا أنه قال : « ألف عام » .

(٢) رواه النسائي (٥/ ٦١) ضمن حديث ، وهو عند أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٦) مفرداً من حديث أبي رمثة رضي الله عنه ، وفي (أ) بزيادة (برَّ) أوَّله ، وليست في الحديث .

(٣) هـٰذا الحديث والذي يليه زيادة من (أ) ، والحديث رواه البخاري (٦٩١٩) ، ومسلم (٨٧) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٣٥٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما علىٰ أحدٍ إذا أرادَ أنْ يتصدَّقَ بصدقةٍ أنْ يجعلَها لوالديهِ إذا كانا مسلمينِ ، فيكونَ لوالديهِ أجرُها ويكونَ لهُ مثلُ أجورِهما مِنْ غيرِ أنْ ينقصَ مِنْ أجورِهما شيءٌ »(١) .

وقالَ مالكُ بنُ ربيعةَ : بينما نحنُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ جاءَهُ رجلٌ مِنْ بني سَلِمةَ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ بقيَ عليَّ منْ برِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهُما بهِ بعدَ وفاتِهما ؟ قالَ : « نعمِ ، الصلاةُ عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ عهدِهما ، وإكرامُ صديقِهما ، وصلةُ الرحمِ التي لا تُوصلُ إلا بهما »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أبرِّ البرِّ أنْ يصلَ الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيهِ بعدَ أنْ يولِّيَ الأبُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « برُّ الوالدةِ على الوالدِ ضعفانِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعوةُ الوالدةِ أسرعُ إجابةً » ، قيلَ :

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/٣٠٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٥١٤٢) ، وابن ماجه (٣٦٦٤) .

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٣١) دون قوله أخيراً: (الأب) .

(٤) الذي رواه البخاري (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) مرفوعاً عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمُّك » ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : « ثم أمُّك » ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : « ثم أمُّك » ، قال : ثم مَنْ ؟ قالَ : « ثمَّ أبوكَ » .

يا رسولَ اللهِ ؛ ولِمَ ذاكَ ؟ قالَ : « هيَ أرحمُ مِنَ الأبِ ، ودعوةُ الرحِمِ لا تسقطُ »(١) .

وسألَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبرُّ ؟ فقالَ : « بِرَّ والديكَ » ، فقالَ : ليسَ لي والدانِ ، فقالَ : « برَّ ولدَكَ ، كما أنَّ لوالديكَ عليكَ حقّاً . . كذلكَ لولدِكَ عليكَ حقٌّ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ والداً أعانَ ولدَهُ علىٰ برِّهِ »(٣)

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٦/ ٣١٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (١٥١) من حديث عمران بن عبد الله الخزاعي مرسلاً وليس فيه : « كما أن لوالديك . . . » ، وقال الحافظ العراقي : (رواه النوقاتي في كتاب « معاشرة الأهلين » من حديث عثمان بن عفان دون قوله : « فكما أن لوالديك . . . » ، وهاذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر ، قال الدارقطني في « العلل » (١٢/ ٤١١) : إن الأصح وقفه على ابن عمر) . « إتحاف » (٦/ ٣١٦) .

وعند مسلم (١١٥٩) في رواية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « وإن لولدك عليك حقاً » ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (٨/ ٤٣) : (فيه أن على الأب تأديب ولده وتعليمه ما يحتاج إليه من وظائف الدين ، وهاذا التعليم واجب على الأب وسائر الأولياء قبل بلوغ الصبي والصبية ، نص عليه الشافعي وأصحابه ، قال الشافعي وأصحابه : وعلى الأمهات أيضاً هاذا التعليم إذا لم يكن أب ؛ لأنه من باب التربية ، ولهن مدخل في ذلك ، وأجرة هاذا التعليم من مال الصبي ، فإن لم يكن له مال . . فعلىٰ من تلزمه نفقته ؛ لأنه مما يحتاج إليه) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٩٢٤) ، وهناد في « الزهد » (٩٩٥) عن الشعبي مرسلاً ، ووصله من حديثه السلميُّ في « آداب الصحبة » (١٣٧) من طريق آل البيت عن علي كرم الله وجهه .

أيْ : لمْ يحملْهُ على العقوقِ بسوءِ عملِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ساووا بينَ أولادِكُمْ في العطيَّةِ »[١] .

وقدْ قيلَ : (ولدُكَ ريحانتُكَ سبعاً ، وخادمُكَ سبعاً ، ثمَّ هوَ عدوُّكَ أوْ شريكُكَ)[٢] .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغلامُ يُعقُّ عنهُ يومَ السابعِ ويُسمَّىٰ ويُماطُ عنهُ الأذىٰ ، فإذا بلغَ ستَّ سنينَ . . أُدِّبَ ، فإذا بلغَ تسعَ سنينَ . . عُزِلَ فراشُهُ ، فإذا بلغَ ثلاثَ عشرةَ سنةً . . ضُربَ على الصلاةِ ، فإذا بلغَ ستَّ عشرةَ سنةً . . زوَّجَهُ أبوهُ ، ثمَّ أخذَ بيدِهِ وقالَ : قدْ أدبْتُكَ وعلَّمْتُكَ وأنكحتُكَ ، أعوذُ باللهِ مِنْ فتنتِكَ في الدنيا وعذابِكَ في الآخرةِ »[٣] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٥٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وروى البخاري (٢٥٨٧) مرفوعاً : « اعدلوا بين أولادكم » .

(٢) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣/ ٩٤) ، ومعنىٰ (**ريحانتك سبعاً**) : هو بمنزلة الريحان تشمه وتحبه سبع سنين ؛ كما روى الترمذي (١٩١٠) عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول : « إنكم لتبخِّلون وتجبِّنون وتجهِّلون ، وإنكم لمن ريحان الله » .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الضحايا والعقيقة » ، إلا أنه قال : « وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة » ، ولم يذكر الصوم ، وفي إسناده من لم يسم) . « إتحاف » (٦/ ٣١٧) ، وجمل الحديث متوازعة في كتب السنة .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حقِّ الولدِ على الوالدِ أنْ يحسنَ أدبَهُ ، ويحسنَ اسمَهُ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كلُّ غلامٍ رهينٌ ـ أوْ رهينةٌ ـ بعقيقتِهِ ، تُذبحُ عنهُ يومَ السابعِ ، ويُحلقُ رأسُهُ »(٢) .

وقالَ قتادةُ : (إذا ذُبحَتِ العقيقةُ . . أُخذَتْ صوفةٌ منها فاستُقبلَتْ بها أوداجُها ، ثمَّ تُوضعُ علىٰ يافوخِ الصبيِّ حتَّىٰ يسيلَ منهُ مثلُ الخيطِ ، ثمَّ يُغسلُ رأسُهُ ويُحلقُ بعدَهُ)(٣) .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ ، فشكا إليهِ بعضَ ولدِهِ ، فقالَ : هلْ دعوتَ عليهِ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : أنتَ أفسدتَهُ .

ويُستحبُ الرفْقُ بالولدِ ، رأى الأقرعُ بنُ حابسٍ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يقبِّلُ ولدَهُ الحسنَ ، فقالَ : إنَّ لي عشرةً مِنَ الولدِ ما قبَّلْتُ واحداً منهُمْ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مَنْ لا يرحمُ . . لا يُرحمُ »(٤) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩١ ، ٨٣٠٠) من حديث ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم .

(٢) رواه أبو داوود (٢٨٣٧) ، والترمذي (١٥٢٢) ، والنسائي (٧/ ١٦٦) ، وابن ماجه (٣١٦٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٢٨٣٧) تتمة الحديث السابق ، وقتادة أحد رواته ، والتدمية مكروهة عند الجمهور ، ورأوا مكانها التضمخ بالخَلوق والزعفران ، وممن ذهب إليها من الشافعية الإمام الماوردي ، وكلام المصنف يشير إلىٰ هـٰذا أيضاً . انظر « طرح التثريب » (٥/ ٢١٥ـ٢١٦) .

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٧) ، ومسلم (٢٣١٨) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً : « اغسلي وجهَ أسامةَ » ، فجعلتُ أغسلُهُ وأنا أتقيهِ ، فضربَ يدي ، ثمَّ أخذَهُ فغسلَ وجهَهُ ، ثمَّ قبَّلَهُ ، ثمَّ قالَ : « قدْ أحسنَ بنا إذْ لمْ يكنْ جاريةً »(١) .

وتعثَّرَ الحسنُ والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ منبرِهِ ، فنزلَ ، فحملَهُ ، وقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(٢) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ شدَّادٍ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّي بالناسِ . . إذْ جاءَهُ الحسنُ ، فركبَ عنقَهُ وهوَ ساجدٌ ، فأطالَ السجودَ بالناسِ حتَّىٰ ظنُّوا أنَّهُ قدْ حدثَ أمرٌ ، فلمَّا قضىٰ صلاتَهُ . . قالوا : قدْ أطلتَ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٧٦) ولفظه عنها رضي الله عنها : عثر أسامة بعتبة الباب فشُجَّ في وجهه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أميطي عنه الأذىٰ » ، فتقذَّرته ، فجعل يمصُّ عنه الدم ويمجُّه عن وجهه ، ثم قال : « لو كان أسامة جارية . . لحليته وكسوته حتىٰ أنفِّقه » ، ورواه ابن راهويه في « مسنده » (١٧٧٥) بنحو لفظ المصنف ، وفيه : أصاب وجه أسامة شيء فدمي ، فغسلت وجهه ، فمسحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقميصه وقال : « أحسن الله بنا إذ لم يكن جارية » ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نظر إلىٰ وجه أسامة بعد موت أبيه . . بكىٰ . وفي (ب) : (وأنا آنفُهُ) ، وفي هامشها : (نسخة : أتعيَّبُهُ) .

(٢) رواه أبو داوود (١١٠٩) ، والترمذي (٣٧٧٤) ، والنسائي (٣/ ١٠٨) ، وابن ماجه (٣٦٠٠) ، من حديث بريدة ، ولفظه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل ، فأخذهما ، فصعد بهما المنبر ثم قال : « صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، رأيت هـٰذين فلم أصبر » ، ثم أخذ في الخطبة .

السجودَ يا رسولَ اللهِ حتَّىٰ ظننَّا أنَّهُ قدْ حدثَ أمرٌ ! فقالَ : « إنَّ ابني قدِ ارتحلَني ، فكرهتُ أنْ أعجلَهُ حتَّىٰ يقضيَ حاجَتَهُ »[1] .

وفي ذلك فوائدُ :

إحداها : القربُ منَ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ العبدَ أقربُ ما يكونُ منَ اللهِ تعالىٰ إذا كانَ ساجداً .

وفيه : الرفقُ بالولدِ ، والبرُّ ، وتعليمٌ لأمتِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ريحُ الولدِ مِنْ ريحِ الجنَّةِ »[2] .

وقالَ يزيدُ بنُ معاويةَ : أرسلَ أبي إلى الأحنفِ بنِ قيسٍ ، فلمَّا صارَ إليهِ . . قالَ لهُ : يا أبا بحرٍ ؛ ما تقولُ في الولدِ ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ثمارُ قلوبِنا ، وعمادُ ظهورِنا ، ونحنُ لهُمْ أرضٌ ذليلةٌ ، وسماءٌ ظليلةٌ ، وبهِمْ نصولُ علىٰ كلِّ جليلةٍ ، فإنْ طلبوا . . فأعطِهِمْ ، وإنْ غضبوا . . فأرضِهِمْ يمنحوكَ وُدَّهُمْ ، ويحبُّوكَ جهدَهُمْ ، ولا تكنْ عليهِمْ ثقلاً ثقيلاً فيملُّوا حياتَكَ ، ويحبُّوا وفاتَكَ ، ويكرهوا قربَكَ ، فقالَ لهُ معاويةُ : للهِ أنتَ يا أحنفُ ! لقدْ دخلتَ عليَّ وأنا مملوءٌ غضباً وغيظاً علىٰ يزيدَ ، فلمَّا خرجَ الأحنفُ مِنْ عندِهِ . . رضيَ عنْ يزيدَ ، وبعثَ إليهِ بمئتي ألفِ درهمٍ ، ومئتي

---

(١) رواه النسائي (٢/ ٢٢٩) عن عبد الله بن شداد عن أبيه ، شك بين الحسن والحسين رضي الله عنهما .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (٢/ ٢١) ، و« الأوسط » (٥٨٥٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

ثوبٍ ، فأرسلَ يزيدُ إلى الأحنفِ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، ومئةِ ثوبٍ ، فقاسمَهُ إيَّاها على الشطرِ (١) .

فهٰذهِ هيَ الأخبارُ الدالَّةُ علىٰ تأكُّدِ حقِّ الوالدينِ ، وكيفيةُ القيامِ بحقِّهما تُعرفُ ممَّا ذكرناهُ في حقِّ الأخوَّةِ ؛ فإنَّ هٰذهِ الرابطةَ آكدُ مِنَ الأخوَّةِ ، بلْ يزيدُ هٰهنا أمرانِ :

أحدُهما : أنَّ أكثرَ العلماءِ علىٰ أنَّ طاعةَ الأبوينِ واجبةٌ في الشبهاتِ وإنْ لمْ تجبْ في الحرامِ المحضِ ، حتَّىٰ إذا كانا يتنغصانِ بانفرادِكَ عنهُما بالطعامِ . . فعليكَ أنْ تأكلَ معَهُما ؛ لأنَّ تركَ الشبهةِ ورعٌ ، ورضا الوالدينِ حتمٌ .

وكذلكَ ليسَ لكَ أنْ تسافرَ في مباحٍ أوْ نافلةٍ إلا بإذنِهما ، والمبادرةُ إلى الحجِّ الذي هوَ فرضُ الإسلامِ نفلٌ ؛ لأنَّهُ على التأخيرِ ، والخروجُ لطلبِ العلمِ نفلٌ إلا إذا كنتَ تطلبُ علمَ الفرْضِ مِنَ الصلاةِ والصومِ ولمْ يكنْ في بلدِكَ مَنْ يعلِّمُكَ ، وذلكَ كمَنْ يُسْلِمُ ابتداءً في بلدٍ ليسَ فيها مَنْ يعلِّمُهُ شرْعَ الإسلامِ ، فعليهِ الهجرةُ ، ولا يتقيَّدُ بحقِّ الوالدينِ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : هاجرَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ اليمنِ وأرادَ الجهادَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « هلْ باليمنِ أبواكَ؟» قالَ : نعمْ ، قالَ : « هلْ أذِنا لكَ ؟ » فقالَ : لا ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فارجعْ إلىٰ أبويكَ فاستأذنْهُما ، فإنْ فعلا . . فجاهدْ ، وإلا . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (١٥٢) ، ونحوه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٩١) .

فبِرَّهُما ما استطعتَ ؛ فإنَّ ذلكَ خيرُ ما تلقى اللهَ بهِ بعدَ التوحيدِ »[1] .

وجاءَ آخرُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يستشيرُهُ في الغزوِ ، فقالَ : « ألكَ والدةٌ ؟ » قالَ : نعمْ ، قالَ : « فالزمْها ؛ فإنَّ الجنَّةَ تحتَ رجليها »[2] .

وجاءَ آخرُ وطلبَ البيعةَ على الهجرةِ ، وقالَ : ما جئتُكَ حتَّىٰ أبكيتُ والديَّ ، فقالَ : « ارجعْ إليهِما فأضحكْهُما كما أبكيتَهُما »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حقُّ كبيرِ الإخوةِ علىٰ صغيرِهِمْ كحقِّ الوالدِ علىٰ ولدِهِ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا استصعبَتْ علىٰ أحدِكُمْ دابَّتُهُ ، أوْ ساءَ خلقُ زوجتِهِ أوْ أحدٌ مِنْ أهلِ بيتِهِ . . فليؤذِّنْ في أذنِهِ »[5] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو داوود (٢٥٣٠) إلىٰ قوله : « وإلا . . فبرَّهُما » ، وعند البخاري (٣٠٠٤) ، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد ، فقال : « أحيٌّ والداك ؟ » قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد » .

(٢) رواه النسائي (٦/ ١١) ، وابن ماجه (٢٧٨١) .

(٣) رواه أبو داوود (٢٥٢٨) ، والنسائي (٧/ ١٤٣) ، وابن ماجه (٢٧٨٢) .

(٤) رواه أبو داوود في « المراسيل » (٤٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٥٣) من حديث سعيد بن العاص مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١٥٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بسند ضعيف نحوه) . « إتحاف » (٦/ ٣٢٢) .

حقوق المملوك

اعلمْ : أنَّ ملكَ النكاحِ قدْ سبقَ ذكرُ حقوقِهِ في آدابِ النكاحِ .

فأمَّا ملكُ اليمينِ . . فهوَ أيضاً يقتضي حقوقاً في المعاشرةِ لا بدَّ مِنْ مراعاتِها .

فقدْ كانَ مِنْ آخرِ ما أوصىٰ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ قالَ : « اتقوا اللهَ فيما ملكَتْ أيمانُكُمْ ، أطعموهُمْ ممَّا تأكلونَ ، واكسوهُمْ ممَّا تلبسُونَ ، ولا تكلِّفُوهُمْ مِنَ العملِ ما لا يطيقونَ ، فما أحببتُمْ . . فأمسكوا ، وما كرهتُمْ . . فبيعُوا ، ولا تعذِّبوا خلقَ اللهِ ، فإنَّ اللهَ سبحانَهُ ملَّكَكُمْ إيَّاهُمْ ، ولوْ شاءَ . . لملَّكَهُمْ إيَّاكُمْ »(1) .

---

(1) قال الحافظ العراقي : (هو مفرق في عدة أحاديث ، فروىٰ أبو داوود [٥١٥٦] من حديث علي : كان آخر كلامِ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » ، وفي « الصحيحين » من حديث أنس : كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، ولهما ـ البخاري [٣٠] ، ومسلم [١٦٦١] ـ من حديث أبي ذر : « أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم . . فأعينوهم » لفظ رواية لمسلم ، وفي رواية أبي داوود [٥١٦١] : « من لاءمكم من مملوكيكم . . فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ومن لم يلائمكم منهم . . فبيعوه ، ولا تعذبوا خلق الله تعالىٰ » ، وإسناده صحيح) . « إتحاف » (٦/ ٣٢٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للمملوكِ طعامُهُ وكسوتُهُ بالمعروفِ ، ولا يكلَّفُ مِنَ العملِ ما لا يطيقُ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يدخلُ الجنَّةَ خِبٌّ ، ولا متكبِّرٌ ، ولا خائنٌ ، ولا سيِّئُ المَلَكَةِ »[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ : جاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كمْ نعفو عنِ الخادمِ ؟ فصمتَ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ : « اعفُ عنهُ في كلِّ يومٍ سبعينَ مرَّةً »[3] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يذهبُ إلى العوالي كلَّ يومِ سبتٍ ، فإذا وجدَ عبداً في عملٍ لا يطيقُهُ . . وضعَ عنهُ منهُ[4] .

ويُروىٰ عنْ أبي هريرةَ أنَّهُ رأىٰ رجلاً علىٰ دابَّتِهِ وغلامُهُ يسعىٰ خلفَهُ ، فقالَ لهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ احملْهُ ، فإنَّما هوَ أخوكَ ، روحُهُ مثلُ روحِكَ ،

---

(١) رواه مسلم (١٦٦٢) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤) ، واقتصر الترمذي (١٩٤٦) ، وابن ماجه (٣٦٩١) علىٰ (سيىء الملكة) ، وقوله : (**سيىء الملكة**) أي : يسيءُ السيرة مع من يملكه . **والخِبُّ** بالكسر : الخدَّاع . وليس لفظ (متكبر) عندهم .
(٣) رواه أبو داوود (٥١٦٤) ، والترمذي (١٩٤٩) .
(٤) هو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٨٠) بلاغاً ، **والعوالي** : موضع بقرب المدينة ، به نخيل وزراعة ، كأنه جمع عالية ، ومعنىٰ (**عنه منه**) : خففه عليه بأن يعينه بنفسه في عمله . « إتحاف » (٦/ ٣٢٤) .

فحملَهُ ، ثمَّ قالَ : (لا يزالُ العبدُ يزدادُ مِنَ اللهِ بُعداً ما مشىٰ خلفَهُ)[1] .

وقالَتْ جاريةٌ لأبي الدرداءِ : إنِّي سمَّمْتُكَ منذُ سنةٍ ، وما عملَ فيكَ شيئاً ، فقالَ : لِمَ فعلتِ ذلكَ ؟ فقالتْ : أردتُ الراحةَ منكَ ، فقالَ : اذهبي فأنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ .

وقالَ الزهريُّ : (متىٰ قلتُ للمملوكِ : أخزاكَ اللهُ . . فهوَ حرٌّ)[2] .

وقيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ : ممَّنْ تعلَّمْتَ الحلمَ ؟ قالَ : مِنْ قيسِ بنِ عاصمٍ ، قيلَ : فما بلغَ منْ حلمِهِ ؟ قالَ : بينما هوَ جالسٌ في دارِهِ . . إذْ أتتْهُ خادمةٌ لهُ بسَفُّودٍ عليهِ شواءٌ ، فسقطَ السَّفُّودُ مِنْ يدِها على ابنٍ لهُ ، فعقرَهُ فماتَ ، فدهشَتِ الجاريةُ ، فقالَ : ليسَ يسكنُ روعَ هـٰذهِ الجاريةِ إلا العتقُ ، فقالَ لها : أنتِ حرَّةٌ لا بأسَ عليكِ[3] .

وكانَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ إذا عصاهُ غلامُهُ . . قالَ : ما أشبهَكَ بمولاكَ ، مولاكَ يعصي مولاهُ ، وأنتَ تعصي مولاكَ .

وأغضبَهُ يوماً ، فقالَ : إنَّما تريدُ أنْ أضربَكَ ، اذهبْ فأنتَ حرٌّ[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢١) من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٩/ ٤٤٧) عن الشعبي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١١) ، والسَّفُّود : الحديد الذي يُشوىٰ عليه اللحم .

(٤) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٧) .

وكانَ عندَ ميمونِ بنِ مهرانَ ضيفٌ ، فاستعجلَ علىٰ جاريتِهِ بالعَشاءِ ، فجاءَتْ مسرعةً ومعها قصعةٌ مملوءةٌ ، فعثرَتْ فأراقتْها علىٰ رأسِ سيِّدِها ميمونٍ ، فقالَ : يا جاريةُ ؛ أحرقتِني ، قالتْ : يا معلِّمَ الخيرِ ، ومؤدِّبَ الناسِ ؛ ارجعْ إلىٰ ما قالَ اللهُ تعالىٰ ، قالَ : وما قالَ الله تعالىٰ ؟ قالَتْ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، قالَ : قدْ كظمتُ غيظي ، قالتْ : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، قالَ : قدْ عفوتُ عنكِ ، قالَتْ : زدْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قالَ : أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ(١) .

وقالَ ابنُ المنكدرِ : إنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضربَ عبداً لهُ ، فجعلَ العبدُ يقولُ : أسألُكَ باللهِ ، أسألُكَ بوجهِ اللهِ ، فلمْ يعفِهِ ، فسمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صياحَ العبدِ ، فانطلقَ إليهِ ، فلمَّا رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمسكَ يدَهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سألَكَ بوجهِ اللهِ فلمْ تعفِهِ ، فلمَّا رأيتَني أمسكتَ يدكَ ؟! قالَ : فإنَّهُ حرٌّ لوجهِ اللهِ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « لوْ لمْ تفعلْ . . لسفعَتْ وجهَكَ النارُ »(٢) .

---

(١) رویٰ نحوه البيهقي في « الشعب » (٧٩٦٤) عن علي بن الحسين رضي الله عنهما .

(٢) عزاه الحافظ العراقي لابن المبارك في « الزهد » عن محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه مسلم (١٦٥٩) مرفوعاً عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أنه كان يضرب غلامه ، فجعل يقول : أعوذ بالله ، قال : فجعل يضربه ، فقال : أعوذ برسول الله ، فتركه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله ، لله أقدر عليك منك عليه » ، قال : فأعتقه . وسيأتي قريباً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العبدُ إذا نصحَ لسيِّدهِ وأحسنَ عبادةَ اللهِ . . فلهُ أجرُهُ مرَّتينِ »[١] .

ولمَّا أُعتقَ أبو رافعٍ . . بكىٰ وقالَ : (كانَ لي أجرانِ ، فذهبَ أحدُهُما)[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُرِضَ عليَّ أوَّلُ ثلاثةٍ يدخلونَ الجنَّةَ ، وأوَّلُ ثلاثةٍ يدخلونَ النارَ ؛ فأمَّا أوَّلُ ثلاثةٍ يدخلونَ الجنَّةَ : فالشهيدُ ، وعبدٌ مملوكٌ أحسنَ عبادةَ ربِّهِ ونصحَ لسيِّدِهِ ، وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيالٍ ، وأوَّلُ ثلاثةٍ يدخلونَ النارَ : أميرٌ مسلَّطٌ ، وذو ثروةٍ لا يُعطِي حقَّ اللهِ ، وفقيرٌ فخورٌ »[٣] .

وعنْ أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قالَ : بينا أنا أضربُ غلاماً لي . . إذْ سمعتُ صوتاً مِنْ خلفي : « اعلمْ أبا مسعودٍ مرتينِ ، فالتفتُّ ، فإذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فألقيتُ السوطَ مِنْ يدي ، فقالَ : « واللهِ ؛ للهُ أقدرُ عليكَ منكَ علىٰ هٰذا »[٤] .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٤٦) ، ومسلم (١٦٦٤) .
(٢) حكاه عنه النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » (٢/٤٨٩) ، وكان أعتقه صلى الله عليه وسلم يومَ بشَّرَهُ بإسلامِ العباس رضي الله عنه .
(٣) رواه الترمذي (١٦٤٢) ولم يذكر الثلاثة الأخيرة ، وبتمامه ابن حبان في « صحيحه » (٤٦٥٦) .
(٤) رواه مسلم (١٦٥٩) ، وقد تقدم قريباً تعليقاً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ابتاعَ أحدُكُمُ الخادمَ . . فليكنْ أوَّلُ شيءٍ يطعمُهُ الحلوَ ؛ فإنَّهُ أطيبُ لنفسِهِ » رواهُ معاذٌ[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أتىٰ أحدَكُمْ خادمُهُ بطعامِهِ . . فليجلسْهُ ، وليأكلْ معهُ ، فإنْ لمْ يفعلْ . . فليناولْهُ » .

وفي روايةٍ : « إذا كفىٰ أحدَكُمْ مملوكُهُ صنعةَ طعامِهِ ، فكفاهُ حرَّهُ ومؤنتَهُ ، وقرَّبَهُ إليهِ . . فليجلسْهُ ، وليأكلْ معَهُ ، فإنْ لم يفعلْ . . فليناوِلْهُ ، أوْ ليأخذْ أكلةً فليروِّغْها ـ وأشارَ بيدِهِ ـ وليضعْها في يدِهِ وليقلْ : كُلْ هٰذِهِ »[2] .

ودخلَ علىٰ سلمانَ رجلٌ وهوَ يعجنُ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ[3] ؛ ما هٰذا ؟ قالَ : بعثنا الخادمَ في شغلٍ ، فكرهْنا أنْ نجمعَ عليهِ عملينِ[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَتْ عندَهُ جاريةٌ ، فعالَها وأحسنَ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥١٢) .
(٢) الحديث بلفظ المصنف وروايتيه رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥١٣ ، ٥١٤) ، وهو بنحوه عند البخاري (٢٥٥٧) ، ومسلم (١٦٦٣) ، ومعنىٰ (فليروغها) : يغمسها بالإدام ونحو ذلك .
(٣) هي كنية سيدنا سلمان رضي الله تعالىٰ عنه . « الإصابة » (٢/ ٦٠) .
(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٠) .

إليها ، ثمَّ أعتقَها وتزوَّجَها . . فذلكَ لهُ أجرانِ »[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُمْ مسؤولٌ عنْ رعيَّتِهِ »[2] .

* * *

فجملةُ حقِّ المملوكِ : أنْ يشركَهُ في طعمتِهِ وكسوتِهِ ، ولا يكلِّفَهُ فوقَ طاقتِهِ ، ولا ينظرَ إليهِ بعينِ الكبرِ والازدراءِ .

وأنْ يعفوَ عنْ زلَّتِهِ ، ويتفكَّرَ عندَ غضبِهِ عليهِ بهفوتِهِ أوْ بجنايتِهِ في معاصيهِ ، وجنايتِهِ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وتقصيرِهِ في طاعتِهِ ، معَ أنَّ قدرةَ اللهِ عليهِ فوقَ قدرتِهِ .

ورویٰ فضالةُ بنُ عبيدٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ثلاثةٌ لا يُسألُ عنهُمْ :

رجلٌ فارقَ الجماعةَ ، أوْ عصىٰ إمامَهُ ، فماتَ عاصياً ، فلا يُسألُ عنهُ[3] .

وامرأةٌ غابَ عنها زوجُها وقدْ كفاها مؤنةَ الدنيا ، فتبرَّجَتْ بعدَهُ ، فلا يُسألُ عنها » .

---

(١) رواه البخاري (٩٧ ، ٢٥٤٤) ، ومسلم (١٥٤) .
(٢) رواه البخاري (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) .
(٣) في نسخة الحافظ الزبيدي (٦/٣٢٧) : (ورجل عصىٰ إمامه ومات عاصياً ، فلا يسأل عنهما) .

و« ثلاثةٌ لا يُسألُ عنهُمْ : رجلٌ ينازعُ اللهَ سبحانَهُ رداءَهُ ، ورداؤُهُ الكبرياءُ وإزارُهُ العزُّ ، ورجلٌ في شكٍّ منَ اللهِ ، والقَنوطُ مِنْ رحمةِ اللهِ »(١) .

* * *

تمّ كتاب آداب الصّحبة والأخوّة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، حمدًا دائمًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه

وصلى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ العربيّ المصطفى

خيرة الله من خلقه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا

يتلوه كتاب آداب العزلة

(١) رواهما الطبراني في « الكبير » (١٨/٣٠٦ ، ٣٠٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٥٥٩) ، وفيهما : « وعصىٰ إمامه فمات عاصياً ، فلا يسأل عنه ، وأمة أو عبد أبق من سيده فمات . . . » وانظر « الإتحاف » (٦/٣٢٧_٣٢٨) .

كِتَابُ

آدَابِ العُزْلَة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات

من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب آداب العزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي أعظمَ النعمةَ علىٰ خيرةِ خلقِهِ وصَفوتِهِ ، بأنْ صرفَ همَمَهُمْ إلىٰ مؤانستِهِ ، وأجزلَ حظَّهُمْ مِنَ التلذُّذِ بمشاهدةِ آلائِهِ وعظمتِهِ ، وروَّحَ أسرارَهُمْ بمناجاتِهِ وملاطفتِهِ ، وحقَّرَ في قلوبِهِمُ النظرَ إلىٰ متاعِ الدنيا وزهرتِها حتَّى اغتبطَ بعزلتِهِ كلُّ مَنْ طُويتِ الحُجُبُ عنْ مجاري فكرتِهِ ، فاستأنسَ بمطالعةِ سُبُحاتِ وجهِهِ تعالىٰ في خلوتِهِ(١) ، واستوحشَ بذلكَ عنِ الأُنسِ بالإنسِ وإنْ كانَ مِنْ أخصِّ خاصَّتِهِ .

والصَّلاةُ علىٰ سيدِنا محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ وخيرتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وصحابتِهِ سادةِ الخلقِ وأئمَّتِهِ(٢) .

أمَّا بعدُ :

فإنَّ للناسِ اختلافاً كثيراً في العزلةِ والمخالطةِ وتفضيلِ إحداهما على الأخرى ، معَ أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما لا تنفكُّ عنْ غوائلَ تنفرُ عنها ، وفوائدَ تدعو إليها .

---

(١) **سبحات** : بضمتين ؛ أي : نوره وبهاؤه وجلاله وعظمته .
(٢) في (أ) : (الحق) بدل (الخلق) .

وميلُ أكثرِ العبّادِ والزهّادِ إلى اختيارِ العزلةِ وتفضيلِها على المخالطةِ ، وما ذكرناهُ في كتابِ الصحبةِ مِنْ فضيلةِ المخالطةِ والمؤاخاةِ والمؤالفةِ يكادُ يناقضُ ما مالَ إليهِ الأكثرونَ مِنِ اختيارِ الاستيحاشِ والخلوةِ ، فكشفُ الغطاءِ عنِ الحقِّ في ذلكَ مهمٌّ ، ويحصلُ ذلكَ برسمِ بابينِ :

البابُ الأوَّلُ : في نقلِ المذاهبِ والحججِ فيها .

البابُ الثاني : في كشفِ الغطاءِ عنِ الحقِّ بحصْرِ الفوائدِ والغوائلِ .

* * *

البَابُ الأَوّلُ
في نقل المذاهب والأقاويل وذكر حجج الفريقين في ذلك

أمَّا المذاهبُ: فقدِ اختلفَ الناسُ فيها، وظهرَ هـٰذا الاختلافُ بينَ التابعينَ:

فذهبَ إلى اختيارِ العزلةِ وتفضيلِها على المخالطةِ: سفيانُ الثوريُّ، وإبراهيمُ بنُ أدهمَ، وداوودُ الطائيُّ، وفضيلُ بنُ عياضٍ، وسليمانُ الخوَّاصُ، ويوسفُ بنُ أسباطٍ، وحذيفةُ المرعشيُّ، وبشرٌ الحافي.

وقالَ أكثرُ التابعينَ باستحبابِ المخالطةِ، واستكثارِ المعارفِ والإخوانِ؛ للتألُّفِ والتحبُّبِ إلى المؤمنينَ، والاستعانةِ بِهِمْ في الدينِ؛ تعاوناً على البرِّ والتقوىٰ، ومالَ إلىٰ هـٰذا: سعيدُ بنُ المسيَّبِ، والشعبيُّ، وابنُ أبي ليلىٰ، وهشامُ بنُ عروةَ، وابنُ شُبْرمةَ، وشريحٌ، وشريكُ بنُ عبدِ اللهِ، وابنُ عيينةَ، وابنُ المباركِ، والشافعيُّ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ، وجماعةٌ[1].

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٤)، وهنا سرد الشارح الحافظ الزبيدي أقوالاً في تفضيل العزلة أو الخلطة علىٰ أختها، ثم قال: (وقال الكرماني في «شرح البخاري»: المختار في عصرنا تفضيل الاعتزال؛ لندور خلو المحافل من المعاصي، وقال البدر العيني: أنا موافق له فيما قال، فإن الاختلاط مع الناس في هـٰذا الزمان لا يجلب إلا الشرور، وقال أبو البقاء الأحمدي: وأنا أقول بأفضلية العزلة لبعدها عن الرياء في العمل، وخلو الخاطر وشهود سر الوحدانية في الأزل، قلت: وأنا موافق لما قالوا من تفضيل العزلة؛ لفساد الزمان والإخوان، والله المستعان). «إتحاف» (٦/ ٣٣١).

والمأثورُ عنِ العلماءِ مِنَ الكلماتِ ينقسمُ إلىٰ كلماتٍ مطلقةٍ تدلُّ على الميلِ إلىٰ أحدِ الرأيينِ ، وإلىٰ كلماتٍ مقرونةٍ بما يشيرُ إلىٰ علّةِ الميلِ ، فلننقلِ الآنَ مطلقاتِ تلكَ الكلماتِ ؛ لنتبيَّنَ المذاهبَ فيها ، وما هوَ مقرونٌ بذكرِ العلَّةِ نوردُها عندَ التعرُّضِ للغوائلِ والفوائدِ ، فنقولُ :

قدْ رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : (خذوا بحظِّكُمْ مِنَ العزلةِ)(١) .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (العزلةُ عبادةٌ)(٢) .

وقالَ الفضيلُ : (كفىٰ باللهِ مُحبّاً ، وبالقرآنِ مؤنِساً ، وبالموتِ واعظاً ، اتخذِ اللهَ صاحباً ، ودعِ الناسَ جانباً)(٣) .

وقالَ أبو الربيعِ الزاهدُ لداوودَ الطائيِّ : عظْني ، قالَ : صُمْ عنِ الدنيا ، واجعلْ فطرَكَ الآخرةَ ، وفرَّ مِنَ الناسِ فرارَكَ مِنَ الأسدِ(٤) .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كلماتٌ أحفظُهُنَّ مِنَ التوراةِ : قنعَ ابنُ آدمَ فاستغنىٰ ، اعتزلَ الناسَ فسَلِمَ ، تركَ الشهواتِ فصارَ حرّاً ، تركَ الحسدَ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١) من زيادات نعيم بن حماد ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٨١) .
(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (٢٧) .
(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (٣٣) بتمامه ، والقطعة الأخيرة (اتخذ الله صاحباً . . .) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٧٣) عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يرتجزه إذا عمل .
(٤) رواه الخطابي في « العزلة » (٣٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٠) .

فظهرَتْ مروءتُهُ ، صبرَ قليلاً فتمتَّعَ طويلاً)(١) .

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : (بلغَنا أنَّ الحكمةَ عشرةُ أجزاءٍ ؛ تسعةٌ منها في الصمتِ ، والعاشرُ في عزلةِ الناسِ)(٢) .

وقالَ يوسفُ بنُ مسلمٍ لعليِّ بنِ بكَّارٍ : ما أصبرَكَ على الوحدةِ ـ وقدْ كانَ لزمَ البيتَ ـ فقالَ : كنتُ وأنا شابٌّ أصبرُ على أشدَّ مِنْ هـٰذا ، كنتُ أجالسُ الناسَ ولا أكلِّمُهُمْ(٣) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (هـٰذا وقتُ السكوتِ ، وملازمةِ البيوتِ)(٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : كنتُ في سفينةٍ ومعنا شابٌّ من العلويَّةِ(٥) ، فمكثَ معنا سبعاً لا نسمعُ لهُ كلاماً ، فقلنا لهُ : يا هـٰذا ؛ قدْ جمعَنا اللهُ وإيَّاكَ منذُ سبعٍ ولا نراكَ تخالطُنا ولا تكلِّمُنا ؟! فأنشأَ يقولُ(٦) : [من الوافر]

قَلِيلُ ٱلْهَمِّ لا وَلَدٌ يَمُوتُ وَلا أَمْرٌ يُحاذِرُهُ يَفُوتُ

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (٣٧) ، فهي خمس كلمات ، ولكل منها شاهد في المرفوع من الأخبار . « إتحاف » (٦/ ٣٣٢) .
(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٤٢) ، ورواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٤٤٢) .
(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (٣٩) .
(٤) ذكره الخطابي في « العزلة » (٤٠) عقب الخبر الآتي .
(٥) أي : من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه . « إتحاف » (٦/ ٣٣٢) .
(٦) رواه الخطابي في « العزلة » (٤٠) عن محمد بن يوسف النحوي ، عن بعض أشياخه ، وانظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/ ٤٠ـ ٤١) .

قَضَىٰ وَطَرَ ٱلصِّبا وَأَفادَ عِلْماً   فَغَـايَتُـهُ ٱلتَّفَـرُّدُ وَٱلسُّكُـوتُ

وقالَ إبراهيمُ النخعيُّ لرجلٍ : (تفقَّهْ ثمَّ اعتزلْ) ، وكذا قالَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ[1] .

وقيلَ : كانَ مالكُ بنُ أنسٍ يشهدُ الجنائزَ ، ويعودُ المرضىٰ ، ويعطي الإخوانَ حقوقَهُمْ ، فتركَ ذلكَ واحداً واحداً حتَّىٰ تركَها كلَّها ، وكانَ يقولُ : (لا يتهيَّأُ للمرءِ أنْ يخبرَ بكلِّ عذرٍ لهُ)[2] .

وقيلَ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : لوْ تفرغتَ لنا ؟ فقالَ : ذهبَ الفراغُ ، فلا فراغَ إلا عندَ اللهِ تعالىٰ[3] .

وقالَ الفضيلُ : (إنِّي لأجدُ للرجلِ عندي يداً إذا لقيَني ألا يسلِّمَ عليَّ ، وإذا مرضتُ ألا يعودَني) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : بينَما الربيعُ بنُ خُثيمٍ جالسٌ علىٰ بابِ دارِهِ إذْ جاءَهُ حجرٌ فصكَّ جبهتَهُ ، فشجَّهُ ، فجعلَ يمسحُ الدمَ ويقولُ : لقدْ وُعظتَ يا ربيعُ ، فقامَ ودخلَ دارَهُ ، فما جلسَ بعدَ ذلكَ علىٰ بابِ دارِهِ حتَّىٰ أُخرجَتْ جنازتُهُ[4] .

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (٤٢) عنهما بسندين متفرقين .
(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (٥٠) ، واستمر على العزلة نحو اثنتي عشرة سنة ، وأقام عليه أهل عصره النكير ، وكثر فيه الكلام . « إتحاف » (٦/ ٣٣٣) .
(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ٣٨٥) .
(٤) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ٣٣) .

وكانَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ وسعيدُ بنُ زيدٍ لزما بيوتَهُما بالعقيقِ ، فلمْ يكونا يأتيانِ المدينةَ لجمعةٍ ولا غيرِها ، حتَّىٰ ماتا بالعقيقِ[1] .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : سمعتُ سفيانَ الثوريَّ يقولُ : (واللهِ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ ؛ لقدْ حلَّتِ العزلةُ)[2] .

وقالَ بشرُ بنُ عبدِ اللهِ : (أقِلَّ مِنْ معرفةِ الناسِ ؛ فإنَّكَ لا تدري ما يكونُ يومَ القيامةِ ، فإنْ تكنْ فضيحةٌ . . كانَ مَنْ يعرفُكَ قليلاً)[3] .

ودخلَ بعضُ الأمراءِ علىٰ حاتمٍ الأصمِّ ، فقالَ لهُ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : نعمْ ، قالَ : ما هيَ ؟ قالَ : ألا تراني ولا أراكَ .

وقالَ رجلٌ لسهلٍ : أريدُ أنْ أصحبَكَ ، فقالَ : إذا ماتَ أحدُنا ؛ فمَنْ يصحبُهُ الآخرُ . . فليصحبْهُ الآنَ[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٥٨) ، وأصله عند مالك في « الموطأ » (١/ ٢٣٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٨) ، ونقل اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص١٣٣) عن بعض العارفين : (إن كانت حلَّت في زمانه . . فقد وجبت في زماننا) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤١) عن بشر بن منصور السَّليمي .

(٤) في (أ) : (فمن يصحبه . . فليصحبه الآن) ، وفي (ب) : (فمن يصحبه إلى الآخرة . . فليصحبه الآن) ، والخبر رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٨٧) ، ولفظه : إذا مات أحدنا فمن يصحبه الباقي ؟ قال : الله ، فقال له : فليصحبه الآن . قال الحافظ الزبيدي : (وفيه صحة إطلاق الصحبة على الله ، ويؤيده خبر : « اللهم ؛ أنت الصاحب في السفر ») . « إتحاف » (٦/ ٣٣٤) .

وقيلَ للفضيلِ : إنَّ علياً ابنَكَ يقولُ : لوددتُ أنِّي في مكانٍ أرى الناسَ ولا يروني ، فبكى الفضيلُ وقالَ : يا ويحَ عليٍّ ! أفلا أتمَّها فقالَ : لا أراهُمْ ولا يروني ؟!(١) .

وقالَ الفضيلُ أيضاً : (مِنْ سخافةِ عقْلِ الرجلِ كثرةُ معارفِهِ)(٢) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أفضلُ المجالسِ مجلسٌ في قعْرِ بيتِكَ ، لا ترىٰ ولا تُرىٰ)(٣) .

فهـٰذهِ أقاويلُ المائلينَ إلى العزلةِ .

* * *

---

(١) قال الحافظ الزبيدي : (أخرجه صاحب « الحلية » ، أشار بذلك إلىٰ أن المقام الثاني أفضل وأعلىٰ درجة ، إذ رؤيته للناس شغل كبير عن الله تعالىٰ) . « إتحاف » (٦/ ٣٣٤) .

(٢) روىٰ نحوه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (١٣٨) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « الحلية » . « إتحاف » (٦/ ٣٣٤) .

ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتجَّ هؤلاءِ بقولِه تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ . . . ﴾ الآيةَ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ ، فامتنَّ على الناسِ بالسببِ المؤلِّفِ .

وهٰذا ضعيفٌ ؛ لأنَّ المرادَ بِهِ تفرُّقُ الآراءِ واختلافُ المذاهبِ في معاني كتابِ اللهِ وأصولِ الشريعةِ ، والمرادُ بالألفةِ : نزعُ الغوائلِ مِنَ الصدورِ ، وهيَ الأسبابُ المثيرةُ للفتنِ المحرِّكةُ للخصوماتِ ، والعزلةُ لا تنافي ذلكَ .

واحتجُّوا بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ آلِفٌ مألوفٌ ، ولا خيرَ فيمَنْ لا يألفُ ولا يُؤلفُ »[1] .

وهٰذا أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنَّهُ إشارةٌ إلىٰ مذمَّةِ سوءِ الخُلُقِ الذي تمتنعُ بسببِهِ المؤالفةُ ، ولا يدخلُ تحتَهُ الحسنُ الخلقِ ، الذي إنْ خالطَ . . ألِفَ وأُلِفَ ، ولكنَّهُ تركَ المخالطةَ اشتغالاً بنفسِهِ ، وطلباً للسلامةِ مِنْ غيرِهِ .

واحتجُّوا بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فارقَ الجماعةَ شبراً . . خلعَ ربقةَ الإسلامِ منْ عنقِهِ »[2] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٣١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٣) .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرى » (٨/ ١٥٧) .

وقالَ : « مَنْ فارقَ الجماعةَ فماتَ . . فميتتُهُ جاهليَّةٌ »[1] ، وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شقَّ عصا المسلمينَ والمسلمونَ في إسلامٍ دامجٍ . . فقدْ خلعَ ربقةَ الإسلامِ منْ عنقِهِ »[2] .

وهٰذا ضعيفٌ ؛ لأنَّ المرادَ بهِ الجماعةُ التي اتفقتْ آراؤُهُمْ علىٰ إمامٍ بعقدِ البيعةِ ، فالخروجُ عليهِمْ بغيٌ ، وذلكَ مخالفةٌ بالرأيِ وخروجٌ عليهِمْ ، وذلكَ محظورٌ ؛ لاضطرارِ الخلقِ إلىٰ إمامٍ مطاعٍ يجمعُ رأيَهُمْ ، ولا يكونُ ذلكَ إلا بالبيعةِ مِنَ الأكثرِ ، فالمخالفةُ فيها تشويشٌ مثيرٌ للفتنةِ ، فليسَ في هٰذا تعرُّضٌ للعزلةِ .

واحتجوا بنهيِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنِ الهجرِ فوقَ ثلاثٍ ؛ إذْ قالَ : « مَنْ هجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ فماتَ . . دخلَ النارَ »[3] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ ، والسابقُ يدخلُ الجنَّةَ »[4] ، وقالَ : « مَنْ هجرَ أخاهُ سنةً . . فهوَ كسافكِ دمِهِ »[5] ، قالوا : والعزلةُ هجرُهُ بالكلِّيَّةِ .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٧٠٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٩١٤) .

(٤) رواه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩) دون زيادة الجملة الأخيرة ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٧٨٧٠) : « والذي يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة » .

(٥) رواه أبو داوود (٤٩١٥) ، وفيه : (كسفك دمه) بدل (كسافك دمه) .

وهٰذا ضعيفٌ ؛ لأنَّ المرادَ بِهِ الغضبُ على الناسِ ، واللجاجُ فيهِ بقطعِ الكلامِ والسلامِ والمخالطةِ المعتادةِ ، فلا يدخلُ فيهِ تركُ المخالطةِ أصلاً مِنْ غيرِ غضبٍ ، معَ أنَّ الهجر فوقَ ثلاثٍ جائزٌ في موضعينِ :

أحدُهُما : أنْ يرىٰ فيهِ استصلاحاً للمهجورِ في الزيادةِ .

والثاني : أنْ يرىٰ لنفسِهِ سلامةً فيهِ .

والنهيُ وإنْ كانَ عاماً فهوَ محمولٌ علىٰ ما وراءَ الموضعينِ المخصوصينِ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هجرَهَا ذا الحجةِ والمحرَّمَ وبعضَ صفرٍ[١] .

وروىٰ عمرُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اعتزلَ نساءَهُ وآلىٰ منهُنَّ شهراً ، وصعدَ إلىٰ غرفةٍ لهُ ، وهيَ خزانتُهُ ، فلبثَ تسعاً وعشرينَ يوماً ، فلمَّا نزلَ . . قيلَ لهُ: إنَّكَ كنتَ فيها تسعاً وعشرينَ ؟ فقالَ: «الشهرُ قدْ يكونُ تسعةً وعشرينَ»[٢] .

---

(١) وإنما الهجْرُ وقع في حق أم المؤمنين زينب ؛ إذ طلب منها صلى الله عليه وسلم أن تعطي صفية بعيراً مكان بعيرها الذي كان قد اعتلَّ ، فقالت : أنا أعطي تلك اليهودية ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم فهجرها ، وعائشة رضي الله عنها هي راوية الحديث ، فالضمير في قولها : (فهجرها) عائد علىٰ زينب لا عليها ، والحديث رواه أبو داوود (٤٦٠٢) .

(٢) الحديث ضمن خبر طويل رواه ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم كما في « البخاري » (٢٤٦٨) ، و« مسلم » (١٤٧٩) ، ورواه البخاري (١٩١٠) ، ومسلم (١٠٨٥) عن أم سلمة بنحو لفظ المصنف واختصاره .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجر أخاهُ فوقَ ثلاثةِ أيامٍ ، إلا أنْ يكونَ ممَّنْ لا تُؤمنُ بوائقُهُ »(١) ، فهٰذا صريحٌ في التخصيصِ ، وعلىٰ هٰذا ينزَّلُ قولُ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (هجرانُ الأحمقِ قربةٌ إلى اللهِ)(٢) ؛ فإنَّ ذلكَ يدومُ إلى الموتِ ، إذِ الحماقةُ لا يُنتظرُ علاجُها .

وذُكِرَ عندَ محمدِ بنِ عمرَ الواقديِّ رجلٌ هجرَ رجلاً حتَّىٰ ماتَ ، فقالَ : (هٰذا شيءٌ قدْ تقدَّمَ فيهِ قومٌ : سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ كانَ مهاجراً لعمَّارِ بنِ ياسرٍ حتَّىٰ ماتا ، وعثمانُ بنُ عفَّانَ كانَ مهاجراً لعبدِ الرحمٰنِ بنِ عوفٍ ، وعائشةُ كانَتْ مهاجرةً لحفصةَ ، وكانَ طاووسٌ مهاجراً لوهْبِ بنِ منبِّهٍ حتَّىٰ ماتَ)(٣) ، وكلُّ ذلكَ يحملُ علىٰ رؤيتِهِمْ سلامتَهُمْ في المهاجرةِ .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/١٤٦) ، والخطابي في « العزلة » (٤٧) ثم قال : (ومحمد بن الحجاج المصفر وإن لم يكن بالقوي عند أهل الحديث . . فإن دلائل الكتاب والسنة والقياس متضافرة علىٰ جواز هجران من لا تؤمن بوائقه والتباعد عنه ، بل هو الواجب علىٰ كل أحد من الناس) .

(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (٤٨) ، وكذا جعله الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٠٠٤) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما .

(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (٤٩) ، وزاد أمثلة الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٢٣٤) حيث قال : (والحسن وابن سيرين ، وهجر ابن المسيب أباه وكان زياتاً فلم يكلمه إلىٰ أن مات ، وكان الثوري يتعلم من ابن أبي ليلىٰ ثم هجره ، فمات ابن أبي ليلىٰ فلم يشهد جنازته ، وهجر أحمد ابن حنبل عمه وأولاده لقبولهم جائزة السلطان) ، وروىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٦٣٤) عن عطاء بن يسار : (أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها ، فقال أبو الدرداء : =

واحتجوا بما رُوِيَ أنَّ رجلاً أتى الجبلَ ليتعبَّدَ فيهِ ، فجيءَ بهِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « لا تفعلْ أنتَ ولا أحدٌ منكُمْ ، لَصبرُ أحدِكُمْ في بعضِ مواطنِ الإسلامِ خيرٌ لهُ مِنْ عبادةِ أحدِكُمْ وحدَهُ أربعينَ عاماً »(١) .

والظاهرُ : أنَّ هـٰذا إنَّما كانَ لما فيهِ مِنْ تركِ الجهادِ معَ شدَّةِ وجوبِهِ في ابتداءِ الإسلامِ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : غزونا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فمررْنا بشعبٍ فيهِ عيينةٌ طيِّبةُ الماءِ ، فقالَ واحدٌ مِنَ القومِ : لوِ اعتزلتُ الناسَ في هـٰذا الشعبِ ، ولنْ أفعلَ ذلكَ حتَّىٰ أذكرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفعلْ ؛ فإنَّ مقامَ أحدِكُمْ في سبيلِ اللهِ خيرٌ مِنْ صلاتِهِ في أهلِهِ ستينَ عاماً ، ألا تحبُّونَ أنْ يغفرَ اللهُ لكُمْ وتدخلوا الجنَّةَ ، اغزوا في

= سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهىٰ عن مثل هـٰذا إلا مثلاً بمثل ، فقال له معاوية : ما أرىٰ بمثل هـٰذا بأساً ، فقال أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية ؟! أنا أخبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبرني عن رأيه ! لا أساكنك بأرض أنت بها . . .) الخبرَ .

وفي ذيل خبر الخطابي المزبور قال : (وإنما كان هجران طاووس وهباً لأن وهباً مال في آخر أمره إلىٰ رأي القدرية وأظهره للناس ، فعاتبه طاووس علىٰ ذلك ، فلما لم ينته عنه . . نابذه وهجره) .

(١) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (١٢٠٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ٢٢٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٧٥) بنحوه .

سبيلِ اللهِ ؛ فإنَّهُ مَنْ قاتلَ في سبيلِ اللهِ فُواقَ ناقةٍ . . أدخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ »[1] .

واحتجوا بما روىٰ معاذُ بنُ جبلٍ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « إنَّ الشيطانَ ذئبُ الإنسانِ كذئبِ الغنمِ ، يأخذُ القاصيةَ والناحيةَ والشاردةَ ، إيَّاكُمْ والشعابَ ، وعليكُمْ بالعامَّةِ والجماعةِ والمساجدِ »[2] .

وهٰذا إنَّما أرادَ بهِ مَنِ اعتزلَ قبلَ تمامِ العلمِ ، وسيأتي بيانُ ذلكَ ، وأنَّ ذلكَ منهيٌّ عنهُ إلا لضرورةٍ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الترمذي (١٦٥٠) ، وفيه : (سبعين) بدل (ستين) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٢) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٦٤) .

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقولِهِ تعالىٰ حكايةً عنْ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ. . . ﴾ الآيةَ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ إشارةً إلىٰ أنَّ ذلكَ ببركةِ العزلةِ .

وهٰذا ضعيفٌ ؛ لأنَّ مخالطةَ الكفارِ لا فائدةَ فيها إلا دعوتُهُمْ إلى الدينِ ، وعندَ اليأسِ مِنْ إجابتِهِمْ فلا وجهَ إلا هجرتُهُمْ ، وإنَّما الكلامُ في مخالطةِ المسلمينَ وما فيها مِنَ البركةِ ؛ لما رُوِيَ أنَّهُ قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : الوضوءُ مِنْ جرٍّ مخمَّرٍ أحبُّ إليكَ أوْ مِنْ هٰذهِ المطاهرِ التي يتطهَّرُ منها الناسُ ؟ فقالَ : « بلْ مِنْ هٰذهِ المطاهرِ ؛ التماساً لبركةِ أيدي المسلمينَ »(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا طافَ بالبيتِ . . عدلَ إلىٰ زمزمَ ليشربَ منها ، فإذا التمرُ المنقعُ في حياضِ الأدمِ وقدْ مغثَهُ الناسُ بأيديهِمْ وهمْ يتناولونَ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٩٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٣) ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : « بل من هٰذه المطاهر ، إن دين الله الحنيفية السمحة » ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث إلى المطاهر ، فيؤتىٰ بالماء ، فيشربه يرجو بركة أيدي المسلمين ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (١/ ٧٤) عن محمد بن واسع مرسلاً . **والجرُّ** : جمع جرَّة ، الإناء المعهود المصنوع من الخزف .

منهُ ويشربونَ[١] ، فاستسقىٰ منهُ وقالَ : « اسقوني » ، فقالَ العباسُ : إنَّ هـٰذا النبيذَ شرابٌ قدْ مُغِثَ وخِيضَ بالأيدي ، أفلا آتيكَ بشرابٍ أنظفَ منْ هـٰذا منْ جَرٍّ مخمَّرٍ في البيتِ ؟ فقالَ : « اسقوني مِنْ هـٰذا الذي يشربُ منهُ الناسُ ، ألتمسُ بركةَ أيدي المسلمينَ » ، فشربَ منهُ[٢] .

فإذاً ؛ كيفَ يُستدلُّ باعتزالِ الكفارِ والأصنامِ على اعتزالِ المسلمينَ معَ كثرةِ البركةِ فيهِمْ ؟

واحتجوا أيضاً بقولِ موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ ، فإنَّهُ فزعَ إلى العزلةِ عندَ اليأسِ منهُمْ .

وقالَ تعالىٰ في أصحابِ الكهفِ : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أمرَهُم بالعزلةِ .

وقدِ اعتزلَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قريشاً لمَّا آذوهُ وجفوهُ ، ودخلَ الشِّعْبَ[٣] ، وأمرَ أصحابَهُ باعتزالِهِمْ والهجرةِ إلىٰ أرضِ الحبشةِ[٤] ،

---

(١) **مغثه الناس** : مرسوه ودلكوه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٢٠) ، والأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ٥٢ـ٥٣) بنحوه ، وأصله عند البخاري (١٦٣٦) ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢/ ٢٣٤) .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٧٧) موصولاً ومرسلاً ، وعنده أن المشركين هم من حصروا بني هاشم في شِعْب أبي طالب ، ورواه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣١١) من طريق موسى بن عقبة الواقدي صاحب « المغازي » وفيه اختيار أبي طالب الدخول ، وأنه هو من أمر به .

(٤) رواه أبو داوود (٣٢٠٥) .

ثمَّ تلاحقوا بهِ في المدينة بعدَ أنْ أعلى اللهُ كلمتَهُ .

وهٰذا أيضاً اعتزالٌ عنِ الكفَّارِ عندَ اليأسِ منهُمْ ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يعتزلِ المسلمينَ ولا منْ توقَّعَ إسلامَهُ مِنَ الكفَّارِ ، وأهلُ الكهْفِ ما اعتزلَ بعضُهُمْ بعضاً وهمْ مؤمنونَ ، وإنَّما اعتزلوا الكفَّارَ ، وإنَّما النظرُ في العزلةِ مِنَ المؤمنينَ .

واحتجُّوا بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عامرٍ الجهنيِّ لمَّا قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما النجاةُ ؟ قالَ : « ليسعْكَ بيتُكَ ، وأمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وابْكِ علىٰ خطيئتِكَ »(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ قيلَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الناسِ أفضلُ ؟ قالَ : « مؤمنٌ مجاهدٌ بنفسِهِ ومالِهِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ » ، قيلَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « رجلٌ معتزلٌ في شعبٍ مِنَ الشعابِ يعبدُ ربَّهُ ويدعُ الناسَ مِنْ شرِّهِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ »(٣) .

وفي الاحتجاجِ بهٰذهِ الأحاديثِ نظرٌ : فأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عامرٍ . . فلا يمكنُ تنزيلُهُ إلا علىٰ ما عرفَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٧٨٦) ، ومسلم (١٨٨٨) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٥) ، ويؤكد استدلالهم أنه من رواية صحابي معتزل هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قاله لابنه حين قال له : أنزلتَ في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم ؟ .

بنورِ النبوَّةِ مِنْ حالِهِ ، وأنَّ لزومَ البيتِ كانَ أليقَ بهِ وأسلمَ لهُ مِنَ المخالطةِ ؛ فإنَّهُ لمْ يأمرْ جميعَ الصحابةِ بذلكَ ، وربَّ شخصٍ تكونُ سلامتُهُ في العزلةِ لا في المخالطةِ ، كما قدْ تكونُ سلامتُهُ في القعودِ في البيتِ ، وألا يخرجَ إلى الجهادِ ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ تركَ الجهادِ أفضلُ .

وفي مخالطةِ الناسِ مجاهدةٌ ومقاساةٌ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ ويصبرُ علىٰ أذاهُمْ خيرٌ مِنَ الذي لا يخالطُ الناسَ ولا يصبرُ علىٰ أذاهمْ »(١) .

وعلىٰ هٰذا ينزَّلُ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « رجلٌ معتزلٌ يعبدُ ربَّهُ ويدعُ الناسَ مِنْ شرِّهِ » ، فهٰذا إشارةٌ إلىٰ شرِّيرٍ بطبعِهِ يتأذَّى الناسُ بمخالطتِهِ .

وقولُهُ : « إنَّ اللهَ يحبُّ التقيَّ الخفيَّ » إشارةٌ إلىٰ إيثارِ الخمولِ ، وتوقِّي الشهرةِ ، وذلكَ لا يتعلَّقُ بالعزلةِ ، فكمْ مِنْ راهبٍ معتزلٍ تعرفُهُ كافَّةُ الناسِ ، وكمْ مِنْ مخالطٍ خاملٍ لا ذكرَ لهُ ولا شهرةَ ، فهٰذا تعرُّضٌ لأمرٍ لا يتعلَّقُ بالعزلةِ .

واحتجُّوا بما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « ألا أنبئُكُمْ بخيرِ الناسِ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، فأشارَ بيدِهِ نحوَ المغربِ وقالَ : « رجلٌ آخذٌ بعنانِ فرسِهِ في سبيلِ اللهِ ، ينتظرُ أنْ يُغيرَ أو يغارَ عليهِ ، ألا أنبئُكُمْ بخيرِ الناسِ بعدَهُ ؟ » وأشارَ بيدِهِ نحوَ الحجازِ وقالَ : « رجلٌ في غنمِهِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٧) ، وابن ماجه (٤٠٣٢) واللفظ له .

يقيمُ الصلاةَ ، ويؤتي الزكاةَ ، ويعلمُ حقَّ اللهِ في مالِهِ ، اعتزلَ شرورَ الناسِ »[1] .

فإذا ظهرَ أنَّ هـٰذهِ الأدلةَ لا شفاءَ فيها منَ الجانبينِ . . فلا بدَّ مِنْ كشفِ الغطاءِ بالتصريحِ بفوائدِ العزلةِ وغوائلِها ، ومقايسةِ بعضِها بالبعضِ ؛ ليتبيَّنَ الحقُّ فيها .

* * *

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٤٤٥) بنحوه عن عطاء بن يسار مرسلاً ، ورواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/ ٢٩٦) بلفظ المصنف ، والطبراني في « الكبير » (٢٥/ ١٠٤) وفيه : (المشرق) بدل (المغرب) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٧/ ٤٥٠) وفيه : (الشام) بدل (المغرب) .

الباب الثَّاني
في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحقّ في فضلها

اعلمْ : أنَّ اختلافَ الناسِ في هٰذا يضاهي اختلافَهُمْ في فضيلةِ النكاحِ والعزوبةِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ ذلكَ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، بحسَبِ ما فصَّلْناهُ مِنْ آفاتِ النكاحِ وفوائدِهِ ، فكذلكَ القولُ فيما نحنُ فيهِ .

فلنذكرْ أوَّلاً فوائدَ العزلةِ ، وهيَ تنقسمُ إلىٰ فوائدَ دينيَّةٍ ودنيويَّةٍ :

والدينيَّةُ : تنقسمُ إلىٰ **تمكُّنٍ** مِنْ تحصيلِ الطاعاتِ في الخلوةِ ؛ بالمواظبةِ على العبادةِ والفكرِ وتربيةِ العلمِ ، وإلىٰ **تخلُّصٍ** مِنِ ارتكابِ المناهي التي يتعرَّض الإنسانُ لها بالمخالطةِ ؛ كالرياءِ والغيبةِ والسكوتِ عنِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ومسارقةِ الطبعِ مِنَ الأخلاقِ الرديئةِ والأعمالِ الخبيثةِ مِنْ جلساءِ السوءِ .

وأمَّا الدنيويَّةُ : فتنقسمُ إلىٰ **تمكُّنٍ** مِنَ التحصيلِ بالخلوةِ ؛ كتمكُّنِ المحترفِ في خلوتِهِ ، وإلىٰ **تخلصٍ** مِنْ محذوراتٍ يتعرَّضُ لها بالمخالطةِ ؛ كالنظرِ إلىٰ زهرةِ الدنيا وإقبالِ الخلْقِ عليها ، وطمعِهِ في الناسِ وطمعِ الناسِ فيهِ ، وانكشافِ سترِ مروءتِهِ بالمخالطةِ ، والتأذِّي بسوءِ خلقِ الجليسِ في

مِرائِهِ أوْ سوءِ ظنِّهِ ، أوْ نميمتِهِ أوْ محاسدتِهِ ، أوِ التأذِّي بثقلِهِ وتشوُّهِ خلقتِهِ[1] .

※ ※ ※

وإلىٰ هـٰذا ترجعُ مجامعُ فوائدِ العزلةِ ، فلنحصرْها في ستِّ فوائدَ :

الفائدةُ الأولىٰ : الفراغُ للعبادةِ والفكرِ ، والاستئناسُ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ عنْ مناجاةِ الخلْقِ ، والاشتغالُ باستكشافِ أسرارِ اللهِ تعالىٰ في أمرِ الدنيا والآخرةِ ، وملكوتِ السماوات والأرضِ :

فإنَّ ذلكَ يستدعي فراغاً ، ولا فراغَ معَ المخالطةِ ، فالعزلةُ وسيلةٌ إليهِ ، ولهـٰذا قالَ بعضُ الحكماءِ : (لا يتمكَّنُ أحدٌ مِنَ الخلوةِ إلا بالتمسُّكِ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، والمتمسِّكونَ بكتابِ اللهِ تعالىٰ همُ الذين استراحوا مِنَ الدنيا بذكرِ اللهِ ، الذاكرونَ اللهَ باللهِ ، عاشوا بذكرِ اللهِ ، وماتوا بذكرِ اللهِ ، ولقوا اللهَ بذكرِ اللهِ) ، ولا شكَّ في أنَّ هؤلاءِ تمنعُهُمُ المخالطةُ عنِ الفكرِ والذكرِ ، فالعزلةُ أولىٰ بهِمْ .

ولذلكَ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ابتداءِ أمرِهِ يتبتَّلُ في جبلِ حِراءٍ وينعزلُ إليهِ[2] ، حتىٰ قويَ فيهِ نورُ النبوَّةِ ، فكانَ الخلْقُ لا يحجبونَهُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، فكانَ ببدنِهِ معَ الخلْقِ ، وبقلبِهِ مقبلاً على اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ كانَ

---

(١) في (ب) : (وسوء خلقته) ، وفي (هـ) : (وبسوء خلقه) .
(٢) رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) .

الناسُ يظنُّونَ أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ خليلُهُ ، فأخبرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عنِ استغراقِ همِّهِ باللهِ فقالَ : « لوْ كنتُ متَّخذاً خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكنْ صاحبُكُمْ خليلُ اللهِ »[1] .

ولنْ يتسعَ للجمعِ بينَ مخالطةِ الناسِ ظاهراً والإقبالِ على اللهِ سرّاً إلا قوَّةُ النبوَّةِ[2] ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ كلُّ ضعيفٍ بنفسِهِ فيطمعَ في ذلكَ .

ولا يبعدُ أنْ تنتهيَ درجةُ بعضِ الأولياءِ إليهِ ، فقدْ نُقِلَ عنِ الجنيدِ أنَّهُ قالَ : (أنا أكلِّمُ اللهَ منذُ ثلاثينَ سنةً والناسُ يظنُّونَ أنِّي أكلِّمُهُمْ)[3] ، وهـٰذا إنَّما يتيسَّرُ للمستغرقِ بحبِّ اللهِ استغراقاً لا يبقىٰ لغيرِهِ فيهِ متَّسعٌ ، وذلكَ غيرُ منكَرٍ ، ففي المستهتَرينَ بحبِّ الخلْقِ مَنْ يخالطُ الناسَ ببدنِهِ وهوَ لا يدري ما يقولُ ولا ما يقالُ لهُ لفرطِ عشقِهِ لمحبوبِهِ ، بلِ الذي دهاهُ ملمَّةٌ تشوِّشُ عليهِ أمراً مِنْ أمورِ دنياهُ قدْ يستغرقُهُ الهمُّ بحيثُ يخالطُ الناسَ ولا يحسُّ بهِمْ ولا يسمعُ أصواتَهُمْ لشدَّةِ استغراقِهِ ، وأمرُ الآخرةِ أعظمُ عندَ العقلاءِ ، فلا

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٣/٦) ، قال الحافظ الزبيدي : (الحديث متواتر ، وقد رواه زهاء خمسة عشر من الصحابة) . « الإتحاف » (٦/ ٢٥٠) .

(٢) إذ لها وجه إلى الخلق من حيث تبليغ الأحكام إلى الأنام ، ووجه إلى الحق من حيث المثول بين يديه ، والاستئناس بالقرب ، فالوجه الأول هو وجه النبوة ، والثاني هو وجه الولاية ، وهي سر النبوة وخلاصها ، فقول من قال : الولاية أفضل من النبوة ؛ إنما يعني بها ولاية النبوة ، وقد جمع له صلى الله عليه وسلم بين الوجهين في آن واحد . « إتحاف » (٦/ ٣٤٢) .

(٣) التعرُّف لمذهب التصوف (ص١٤٤) .

يستحيلُ ذلكَ فيهِ ، ولكنَّ الأولىٰ بالأكثرينَ الاستعانةُ بالعزلةِ ، ولذلكَ قيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما الذي أرادوا بالخلوةِ واختيارِ العزلةِ ؟ فقالَ : ليستدعوا بذلكَ دوامَ الفكرةِ ، وتثبتَ العلومُ في قلوبِهِمْ ؛ ليحيَوا حياةً طيِّبةً ، ويذوقوا حلاوةَ المعرفةِ[1] .

وقيلَ لبعضِ الرهبانِ : ما أصبرَكَ على الوحدةِ ؟ فقالَ : ما أنا وحدي ، أنا جليسُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، إذا شئتُ أنْ يناجيَني . . قرأتُ كتابَهُ ، وإذا شئتُ أنْ أناجيَهُ . . صلَّيْتُ .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : إلىٰ أيِّ شيءٍ أفضىٰ بِهِمُ الزهدُ والخلوةُ ؟ فقالَ : إلى الأنسِ باللهِ[2] .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : لقيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ رحمهُ اللهُ في بلادِ الشامِ ، فقلتُ لهُ : يا إبراهيمُ ؛ تركتَ خراسانَ ؟ فقالَ : ما تهنأتُ بالعيشِ إلا هـٰهنا ، أفرُّ بديني مِنْ شاهقٍ إلىٰ شاهقٍ ، فمَنْ يراني يقولُ : موسوِسٌ أوْ حمَّالٌ أوْ ملاَّحٌ[3] .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٣) ، وفي غير (ب ، هـ) : (المغفرة) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٣٦) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٦٩) ، والسائل عندهما هو شقيق بن إبراهيم ، لا سفيان ، **والموسوِس** ـ على صيغة اسم الفاعل ـ : مَنْ تعتريه الوساوس ، وهو يحدِّث نفسه بها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ .

وقيلَ لغزوانَ الرقاشيِّ : هبْكَ لا تضحكُ ، فما يمنعُكَ مِنْ مجالسةِ إخوانِكَ ؟ قالَ : إنِّي أصيبُ راحةَ قلبي في مجالسةِ مَنْ عندَهُ حاجتي[1] .

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ هٰهنا رجلٌ لمْ نرهُ قطُّ جالساً إلا وحدَهُ خلفَ ساريةٍ ! فقالَ الحسنُ : إذا رأيتموهُ . . فأخبروني بهِ ، فنظروا إليهِ ذاتَ يومٍ ، فقالوا للحسنِ : هٰذا الرجلُ الذي أخبرناكَ بهِ ، وأشاروا إليهِ ، فمضىٰ إليهِ الحسنُ وقالَ لهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أراكَ قدْ حُبِّبَتْ إليكَ العزلةُ ، فما يمنعُكَ مِنْ مجالسةِ الناسِ ؟ فقالَ : أمرٌ شغلَني عنِ الناسِ ، قالَ : فما يمنعُكَ أنْ تأتيَ هٰذا الرجلَ الذي يقالُ لهُ : الحسنُ فتجلسَ إليهِ ؟ فقالَ : أمرٌ شغلَني عنِ الناسِ وعنِ الحسنِ ، فقالَ لهُ الحسنُ : وما ذاكَ الشغلُ رحمَكَ اللهُ ؟ قال : إنِّي أصبحُ وأمسي بينَ نعمةٍ وذنبٍ ، فرأيتُ أنْ أشغلَ نفسي بشكرِ اللهِ تعالى على النعمةِ ، والاستغفارِ مِنَ الذنبِ ، فقالَ لهُ الحسنُ : أنتَ يا عبدَ اللهِ أفقهُ عندي مِنَ الحسنِ ، فالزمْ ما أنتَ عليهِ[2] .

وقيلَ : بينَما أويسٌ القرنيُّ جالسٌ إذْ أتاهُ هَرِمُ بنُ حيَّانَ ، فقالَ لهُ أويسٌ : ما جاءَ بكَ ؟ قالَ : جئتُ لآنسَ بكَ ، فقالَ أويسٌ : ما كنتُ أرىٰ أنَّ أحداً يعرفُ ربَّهُ فيأنسَ بغيرِهِ ![3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (١٧٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٧٠) .
(٣) روى ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٢٠١) عن هرم عن أويس قال : (الوحدة أحب إليَّ) .

وقالَ الفضيلُ : (إذا رأيتُ الليلَ مقبلاً . . فرحتُ بهِ وقلتُ : أخلو بربِّي ، وإذا رأيتُ الصبحَ أدركَني . . استرجعتُ كراهيةَ لقاءِ الناسِ ، وأنْ يجيئَني مَنْ يشغلُني عنْ ربِّي)(١) .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : طوبىٰ لمَنْ عاشَ في الدنيا وعاشَ في الآخرةِ، قيلَ لهُ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : يناجي اللهَ في الدنيا ، ويجاورُهُ في الآخرةِ .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : (سرورُ المؤمنِ ولذَّتُهُ في الخلوةِ بمناجاةِ ربِّهِ)(٢) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (مَنْ لمْ يأنسْ بمحادثةِ اللهِ عزَّ وجلَّ عنْ محادثةِ المخلوقينَ . . فقدْ قلَّ علمُهُ ، وعميَ قلبُهُ ، وضيَّعَ عمرَهُ)(٣) .

وقالَ ابنُ المباركِ : (ما أحسنَ حالَ منِ انقطعَ إلى اللهِ تعالىٰ)(٤) .

ويُروىٰ عنْ بعضِ الصالحينَ أنَّهُ قالَ : بينَما أنا أسيرُ في بعضِ بلادِ الشامِ إذا أنا بعابدٍ خارجٍ مِنْ بعضِ تلكَ الجبالِ ، فلمَّا نظرَ إليَّ . . تنحَّىٰ إلىٰ أصلِ شجرةٍ وتستَّرَ بها ، فقلتُ : سبحانَ اللهِ ! تبخلُ عليَّ بالنظرِ إليك ؟! فقالَ : يا هٰذا ؛ إنِّي أقمتُ في هٰذا الجبلِ دهراً طويلاً أعالجُ قلبي في الصبرِ عنِ الدنيا وأهلِها ، فطالَ في ذلك تعبي ، وفنيَ فيهِ عمري ، فسألتُ الله عزَّ وجلَّ

---

(١) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) عن سفيان الثوري .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٤٢) عن عابد باليمن .
(٣) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٨٥) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٢) .

ألا يجعلَ حظِّي مِنْ أيامي في مجاهدةِ قلبي ، فسكَّنَهُ اللهُ عنِ الاضطرابِ وألفَ الوحدةَ والانفرادَ ، فلمَّا نظرتُ إليكَ . . خفتُ أنْ أقعَ في الأمرِ الأوَّلِ ، فإليكَ عنِّي ، فإنِّي أعوذُ مِنْ شرِّكَ بربِّ العارفينَ وحبيبِ التائبينَ ، ثمَّ صاحَ : وا غمَّاهُ مِنْ طولِ المكثِ في الدنيا ، ثمَّ حوَّلَ وجهَهُ عنِّي ، ثمَّ نفضَ يديهِ وقالَ : إليكِ عنِّي يا دنيا ، لغيري فتزيَّني ، وأهلَكِ فغرِّي ، ثمَّ قالَ : سبحانَ مَنْ أذاقَ قلوبَ العارفينَ مِنْ لذَّةِ الخدمةِ وحلاوةِ الانقطاعِ إليهِ ما ألهىٰ قلوبَهُمْ عنْ ذكرِ الجنانِ ، وعنِ الحورِ الحسانِ ؟! وجمعَ همَمَهُمْ في ذكرِهِ ، فلا شيءَ ألذُّ عندَهُمْ منْ مناجاتِهِ ، ثمَّ تركَني ومضىٰ وهوَ يقولُ : قدوسٌ قدوسٌ(١) .

فإذاً ؛ في الخلوةِ أنسٌ بذكرِ اللهِ ، واستكثارٌ مِنْ معرفةِ اللهِ ، وفي مثلِ ذلكَ قيلَ(٢) : [من الطويل]

وَإِنِّي لأَسْتَغْشِي وَما بِيَ غَشْوَةٌ ... لَعَلَّ خَيالاً مِنْكِ يَلْقَىٰ خَيالِيا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْجُلُوسِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ بِٱلسِّرِّ خالِيا

ولذلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّما يستوحشُ الإنسانُ مِنْ نفسِهِ لخلوِّ ذاتِهِ عنِ الفضيلةِ ، فيكثرُ حينئذٍ ملاقاةَ الناسِ ، ويطردُ الوحشةَ عنْ نفسِهِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٥٦) بنحوه .
(٢) البيتان لمجنون ليلىٰ في « ديوانه » (ص ٢٩٤ ، ٢٩٦) ، ونسبا لقيس بن ذريح أيضاً . انظر « ديوانه » (ص ١٦١) .

بالكونِ معَهُمْ ، فإذا كانَتْ ذاتُهُ فاضلةً . . طلبَ الوحدةَ ؛ ليستعينَ بها على الفكرةِ ، ويستخرجَ العلمَ والحكمةَ)[1] .

وقدْ قيلَ : (الاستئناسُ بالناسِ مِنْ علاماتِ الإفلاسِ)[2] .

فإذاً ؛ هٰذهِ فائدةٌ جزيلةٌ ولكنْ في حقِّ بعضِ الخواصِّ .

ومَنْ يتيسَّرُ لهُ بدوامِ الذكرِ الأنسُ باللهِ ، أوْ بدوامِ الفِكرِ التحقُّقُ في معرفةِ اللهِ . . فالتجرُّدُ لهُ أفضلُ منْ كلِّ ما يتعلَّقُ بالمخالطةِ ، فإنَّ غايةَ العباداتِ وثمرةَ المعاملاتِ أنْ يموتَ الإنسانُ محبّاً للهِ ، عارفاً باللهِ ، ولا محبَّةَ إلا بالأنسِ الحاصلِ بدوامِ الذكرِ ، ولا معرفةَ إلا بدوامِ الفِكرِ ، وفراغُ القلبِ شرطُ كلِّ واحدٍ منهما ، ولا فراغَ معَ المخالطةِ .

* * *

الفائدةُ الثانيةُ : التخلُّصُ بالعزلةِ عنِ المعاصي التي يتعرَّضُ الإنسانُ لها غالباً بالمخالطةِ ، ويسلمُ منها في الخلوةِ :

وهيَ أربعةٌ : الغيبةُ ، والرياءُ ، والسكوتُ عنِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ومسارقةُ الطبعِ مِنَ الأخلاقِ الرديئةِ والأعمالِ الخبيثةِ التي يوجبُها الحرصُ على الدنيا .

أمَّا الغيبةُ : فإذا عرفتَ في كتابِ آفاتِ اللسانِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ

(١) حكاه الخطابي في « العزلة » (ص٢٣) .
(٢) حكاه الخطابي في « العزلة » (ص٢٣) .

وجوهَها.. عرفتَ أنَّ التحرُّزَ عنها معَ المخالطةِ عظيمٌ ، لا ينجو منها إلا الصدِّيقونَ ، فإنَّ عادةَ الناسِ كافةً التمضمضُ بأعراضِ الناسِ ، والتفكُّهُ بها ، والتنقُّلُ بحلاوتِها ، وهيَ طعمتُهُمْ ولذَّتُهُمْ ، وإليها يستروحونَ مِنْ وحشتِهِمْ في الخلوةِ ، فإنْ خالطتَهُمْ ووافقتَ.. أثمتَ وتعرضتَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ سكتَّ.. كنتَ شريكاً ، والمستمعُ أحدُ المغتابينَ ، وإنْ أنكرتَ.. أبغضوكَ ، وتركوا ذلكَ المغتابَ واغتابوكَ ، فازدادوا غيبةً إلىٰ غيبةٍ ، وربما زادُوا على الغيبةِ وانتهوا إلى الاستخفافِ والشتْمِ .

* * *

وأمَّا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ : فهوَ مِنْ أصولِ الدينِ ، وهوَ واجبٌ كما سيأتي بيانُهُ في آخرِ هـٰذا الربعِ ، ومَنْ خالطَ الناسَ.. فلا يخلو عنْ مشاهدةِ المنكراتِ ، فإنْ سكتَ.. عصى اللهَ بهِ ، وإنْ أنكرَ.. تعرَّضَ لأنواعٍ مِنَ الضررِ ؛ إذْ ربَّما يجرُّهُ طلبُ الخلاصِ منهُ إلىٰ معاصٍ هيَ أكبرُ ممَّا نهىٰ عنهُ ابتداءً ، وفي العزلةِ خلاصٌ من هـٰذا ؛ فإنَّ الأمرَ في إهمالِهِ شديدٌ ، والقيامَ بهِ شاقٌّ .

وقدْ قامَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ خطيباً وقالَ : (أيُّها الناسُ ؛ إنَّكُمْ تقرؤونَ هـٰذهِ الآيةَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، وإنَّكُمْ تضعونَها في غيرِ موضعِها ، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إذا رأى الناسُ المنكرَ فلمْ

يغيِّروهُ . . أوشكَ أنْ يعمَّهُمُ اللهُ بعقابٍ »)[١] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليسألُ العبدَ حتَّىٰ يقولُ : ما منعكَ إذ رأيتَ المنكرَ في الدنيا أنْ تنكرَهُ ؟ فإذا لقَّنَ اللهُ عبداً حجَّتَهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ رجوتُكَ وخفتُ الناسَ »[٢] .

وهٰذا إذا خافَ مِنْ ضربٍ أوْ أمرٍ لا يطاقُ ، ومعرفةُ حدودِ ذلكَ مشكلٌ ، وفيهِ خطرٌ ، وفي العزلةِ خلاصٌ ، وفي الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ إثارةٌ للخصوماتِ ، وتحريكٌ لغوائلِ الصدورِ ، كما قيلَ[٣] : [من الطويل]

وَكَمْ سُقْتُ فِي آثارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ ... وَقَدْ يَسْتَفِيدُ ٱلْبُغْضَةَ ٱلْمُتَنَصِّحُ

ومَنْ جرَّبَ الأمرَ بالمعروفِ . . ندمَ عليهِ غالباً ، فإنَّهُ كجدارٍ مائلٍ يريدُ الإنسانُ أنْ يقيمَهُ ، فيوشكُ أنْ يسقطَ عليهِ ، فإذا سقطَ عليهِ . . يقولُ : يا ليتَني تركتُهُ مائلاً .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١١٠٩٢) ، وابن ماجه (٤٠٠٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٧) ، وفيه : (وفَرِقت من الناس) ، وبلفظ المصنف رواه الخطابي في « العزلة » (٦٧) ، وقال عقبه : (هٰذا طريق في الرواية يرتضيه أهل النقل من أهل الحديث ، فعلىٰ هٰذا لا يحرج المرء ـ إن شاء الله ـ إن ترك أن يتعرض لأهل المنكر إذا خاف عاديتهم ، ولم يأمن بوائقهم ، مادام كارهاً لفعلهم بقلبه ، ومصارماً لهم بعزمه ونيته) ، ثم ساق كلاماً في تفضيل العزلة من هٰذا الباب فريداً .

(٣) أنشده الخطابي في « العزلة » (ص٣٨) ، والمبرد في « الكامل » (٣/١٥٠٢) عن الرياشي ، وهو في « ديوان عمارة بن عقيل » (ص ٩٢) .

نعمْ ، لوْ وجدَ أعواناً أمسكوا الحائطَ حتَّىٰ يحكمَهُ بدعامةٍ . . استقامَ ، وأنتَ اليومَ لا تجدُ الأعوانَ ، فدعْهُمْ وانجُ بنفسِكَ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الرياءُ : فهوَ الداءُ العضالُ ، الذي يعسرُ على الأبدالِ والأوتادِ الاحترازُ عنهُ ، وكلُّ مَنْ خالطَ الناسَ . . داراهُمْ ، ومَنْ داراهُمْ . . راءاهُمْ ، ومَنْ راءاهُمْ . . وقعَ فيما وقعوا فيهِ ، وهلكَ كما هلكوا .

وأقلُّ ما يلزمُ فيهِ النفاقُ ، فإنَّكَ إنْ خالطتَ متعاديينِ ولمْ تلقَ كلَّ واحدٍ منهما بوجْهٍ يوافقُهُ . . صرتَ بغيضاً إليهما جميعاً ، وإنْ جاملتَهُما . . كنتَ مِنْ شرارِ الناسِ[1] ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجدونَ مِنْ شِرارِ الناسِ ذا الوجهينِ ، الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ »[2] .

وأقلُّ ما يجبُ في مخالطةِ الناسِ إظهارُ الشوقِ والمبالغةُ فيهِ ، ولا يخلو ذلكَ عنْ كذبٍ ؛ إمَّا في الأصلِ ، وإمَّا في الزيادةِ ، فإظهارُ الشفقةِ بالسؤالِ عنِ الأحوالِ بقولِكَ : كيفَ أنتَ ؟ وكيفَ أهلُكَ ؟ وأنتَ في الباطنِ فارغُ القلبِ مِنْ همومِهِ . . نفاقٌ محضٌ ، قالَ ابنُ مسعودٍ : (إنَّ الرجلَ فيكُمْ ليخرجُ مِنْ بيتِهِ ، فيلقي الرجلُ لهُ إليهِ حاجةٌ ، فيقولُ : ذيتَ وذيتَ ،

---

(١) واستثني من ذلك ما كان القصد فيه الإصلاح . « إتحاف » (٦/٣٤٦) .
(٢) رواه البخاري (٣٤٩٤) ، ومسلم (٢٥٢٦) .

فيمدحُهُ ، فعسىٰ ألا يحكيَ مِنْ حاجتِهِ بشيءٍ ، فيرجعَ وقدْ أسخطَ اللهَ عليهِ ، ما معَهُ مِنْ دينِهِ شيءٌ)(١) .

قالَ سريٌّ : (لوْ دخلَ عليَّ أخٌ لي ، فسوَّيتُ لحيتي بيدي لدخولِهِ . . خشيتُ أنْ أكتبَ في جريدةِ المنافقينَ) .

وكانَ الفضيلُ جالساً وحدَهُ في المسجدِ الحرامِ ، فجاءَ إليهِ أخٌ لهُ ، فقالَ لهُ : ما جاءَ بكَ ؟ قالَ : المؤانسةُ يا أبا عليٍّ ، فقالَ : هيَ ـ واللهِ ـ بالمواحشةِ أشبهُ ، هلْ تريدُ إلا أنْ تتزيَّنَ لي وأتزيَّنَ لكَ ، وتكذبَ لي وأكذبَ لكَ ، إمَّا أنْ تقومَ عنِّي ، وإمَّا أنْ أقومَ عنكَ(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ما أحبَّ اللهُ عبداً إلا أحبَّ ألا يُشعرَ بهِ)(٣) .

ودخلَ طاووسٌ على الخليفةِ هشامٍ ، فقالَ : كيفَ أنتَ يا هشامُ ؟ فغضبَ عليهِ وقالَ : لِمَ لمْ تخاطبْني بأميرِ المؤمنينَ ؟ فقالَ : لأنَّ جميعَ المسلمينَ لمْ يتفقوا علىٰ خلافتِكَ ، فخشيتُ أنْ أكونَ كاذباً .

فمَنْ أمكنَهُ أنْ يحترزَ هـٰذا الاحترازَ . . فليخالطِ الناسَ ، وإلا . . فليرضَ بإثباتِ اسمِهِ في جريدةِ المنافقينَ ، فقدْ كانَ السلفُ يتلاقونَ ويحترزونَ في قولِهِمْ : كيفَ أصبحتَ ؟ وكيفَ أمسيتَ ؟ وكيفَ أنتَ ؟ وكيفَ حالُكَ ؟

---

(١) رواه الفريابي في « صفة المنافق » (٨٧) ، وذيتَ وذيت : من ألفاظ الكنايات ؛ مثل : كيت وكيت .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٧٢) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٦٦) .

وفي الجوابِ عنهُ ، وكانَ سؤالُهُمْ عنْ أحوالِ الدينِ لا عنْ أحوالِ الدنيا[1] .

قالَ حاتمٌ الأصمُّ لحامدٍ اللفَّافِ : كيفَ أنتَ في نفسِكَ ؟ قالَ : سالمٌ معافىً ، فكرهَ حاتمٌ جوابَهُ ، فقالَ : يا حامدُ ؛ السلامةُ مِنْ وراءِ الصراطِ ، والعافيةُ في الجنةِ !

وكانَ إذا قيلَ لعيسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : كيفَ أصبحتَ ؟ . . قالَ : (أصبحتُ لا أملكُ نفعَ ما أرجو ، ولا أستطيعُ دفعَ ما أحاذرُ ، وأصبحتُ مرتهناً بعملي ، والخيرُ كلُّهُ بيدِ غيري ، فلا فقيرَ أفقرُ منِّي)[2] .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ إذا قيلَ لهُ : كيفَ أصبحتَ . . قالَ : (أصبحْنا ضعفاءَ مذنبينَ ، نستوفي أرزاقَنا ، وننتظرُ آجالَنا)[3] .

وكانَ أبو الدرداءِ إذا قيلَ لهُ : كيفَ أصبحتَ ؟ . . قالَ : (أصبحتُ بخيرٍ إنْ نجوتُ مِنَ النارِ) .

وكانَ سفيانُ الثوريُّ إذا قيلَ لهُ : كيفَ أصبحتَ ؟ . . يقولُ : (أصبحتُ أشكو ذا إلىٰ ذا ، وأذمُّ ذا إلىٰ ذا ، وأفرُّ مِنْ ذا إلىٰ ذا) .

وقيلَ لأويسٍ القرنيِّ : كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : (كيفَ يصبحُ رجلٌ إذا أمسىٰ لا يدري أنَّهُ يصبحُ ، وإذا أصبحَ لا يدري أنَّهُ يمسي ؟!) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٣) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٩٩٩ ، ٣٥٣٧٧) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥١) من زيادات نعيم بن حماد .

وقيلَ لمالكِ بنِ دينارٍ : كيفَ أصبحتَ ؟ فقالَ : (أصبحتُ في عمرٍ ينقصُ ، وذنوبٌ تزيدُ) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : (أصبحتُ لا أرضىٰ حياتي لمماتي ، ولا نفسي لربِّي) .

وقيلَ لحكيمٍ : كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : (أصبحتُ آكلُ رزقَ ربِّي ، وأطيعُ عدوَّهُ إبليسَ) .

وقيلَ لمحمدِ بنِ واسعٍ : كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : (ما ظنُّكَ برجلٍ يرتحلُ كلَّ يومٍ إلى الآخرةِ مرحلةً)(١) .

وقيلَ لحامدٍ اللفَّافِ : كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : أصبحتُ أشتهي عافيةَ يومٍ إلى الليلِ ، فقيلَ لهُ : ألستَ في عافيةٍ كلَّ الأيامِ ؟ فقالَ : العافيةُ يومٌ لا أعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ(٢) .

وقيلَ لرجلٍ وهوَ يجودُ بنفسِهِ : ما حالُكَ ؟ فقالَ : وما حالُ مَنْ يريدُ سفراً بعيداً بلا زادٍ ، ويدخلُ قبراً موحشاً بلا مؤنسٍ ، وينطلقُ إلىٰ ملكٍ عدْلٍ بلا حجَّةٍ ؟!(٣) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/٣٤٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/١٦٩) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٨٥٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦٩) عن حامد اللفاف ، عن شيخه حاتم الأصم .

(٣) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/٣١٠) عن بعض حكماء فارس .

وقيلَ لحسانَ بنِ أبي سنانٍ : ما حالكَ ؟ قالَ : ما حالُ مَنْ يموتُ ثمَّ يُبعثُ ثمَّ يُحاسبُ ؟!(١) .

وقالَ ابنُ سيرينَ لرجلٍ : كيفَ حالكَ ؟ فقالَ : وما حالُ مَنْ عليهِ خمسُ مئةِ درهمٍ ديناً وهوَ معيلٌ ؟ فدخلَ ابنُ سيرينَ منزلَهُ ، فأخرجَ لهُ ألفَ درهمٍ ، فدفعَها إليهِ وقالَ : خمسُ مئةٍ اقضِ بها دينَكَ ، وخمسُ مئةٍ عُدْ بها علىٰ نفسِكَ وعيالِكَ ، ولمْ يكنْ عندَهُ غيرُها ، ثمَّ قالَ : واللهِ ؛ لا أسألُ أحداً عنْ حالِهِ أبداً .

وإنَّما فعلَ ذلكَ لأنَّهُ خشيَ أنْ يكونَ سؤالُهُ عنْ غيرِ اهتمامٍ بأمرِهِ ، فيكونَ مرائياً منافقاً ، فقدْ كانَ سؤالُهُمْ عنْ أمورِ الدينِ وأحوالِ القلبِ في معاملةِ اللهِ ، وإنْ سألوا عنْ أمورِ الدنيا . . فعنِ اهتمامٍ ، وعزمٍ على القيامِ بما يظهرُ لهُمْ مِنَ الحاجةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأعرفُ أقواماً كانوا لا يتلاقَونَ(٢) ، ولوْ حكمَ أحدُهُمْ علىٰ صاحبِهِ بجميعِ ما يملكُهُ . . لمْ يمنعْهُ ، وأرى الآنَ أقواماً يتلاقَونَ ويتساءلونَ حتىٰ عنِ الدجاجةِ في البيتِ ، ولوِ انبسطَ أحدُهُمْ لحبَّةٍ مِنْ مالِ صاحبِهِ . . لمنعَهُ ، فهلْ هـٰذا إلا مجرَّدُ الرياءِ والنفاقِ ؟!) .

وآيةُ ذلكَ أنَّكَ ترىٰ هـٰذا يقولُ : كيفَ أنتَ ؟ ويقولُ الآخرُ : كيفَ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٦٥) .
(٢) في (ب) : (يتمالقون) ، وكذا الآتية هي نسخة علىٰ هامشها .

أنتَ ؟ فالسائلُ لا ينتظر الجوابَ ، والمسؤولُ يشتغلُ بالسؤالِ ولا يجيبُ ، وذلكَ لمعرفتِهِمْ بأنَّ ذلكَ عنْ رياءٍ وتكلُّفٍ ، ولعلَّ القلوبَ لا تخلو عنْ ضغائنَ وأحقادٍ والألسنةُ تنطلقُ بالسؤالِ .

قالَ الحسنُ : (إنَّما كانوا يقولونَ : السلامُ عليكُمْ إذا سلمَتْ ـ واللهِ ـ القلوبُ ، أمَّا الآنَ . . كيفَ أصبحْتَ عافاكَ اللهُ ؟ كيفَ أنتَ أصلحَكَ اللهُ ؟ فإنْ أخذنا بقولِهِمْ . . كانَتْ بدعةً ، لا ولا كرامةَ ، فإنْ شاؤوا . . غضبوا علينا ، وإنْ شاؤوا . . لا)(١) .

وإنَّما قالَ ذلكَ لأنَّ البدايةَ بقولِكَ : كيفَ أصبحتَ . . بدعةٌ(٢) .

وقالَ رجلٌ لأبي بكرِ بنِ عيَّاشٍ : كيفَ أصبحتَ ؟ فما أجابَهُ ، وقالَ : دَعُونا مِنْ هـٰذهِ البدعةِ ، وقالَ : إنَّما حدثَ هـٰذا في زمانِ الطاعونِ الذي كانَ يُدعىٰ طاعونَ عَمْواسَ بالشامِ ؛ مِنَ الموتِ الذريعِ ، كانَ الرجلُ يلقاهُ أخوهُ غدوةً ، فيقولُ : كيفَ أصبحتَ مِنَ الطاعونِ ؟ ويلقاهُ عشيَّةً ، فيقولُ : كيفَ أمسيتَ ؟(٣) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٣) .
(٢) ففي الخبر : « من بدأكم بالكلام قبل السلام . . فلا تجيبوه » ، وقد تقدم . « إتحاف » (٦/ ٣٤٩) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٦٣) ، **وطاعون عمواس** : أول طاعون ظهر في الإسلام ، نسب إلىٰ بلد عمواس علىٰ ستة أميال من بيت المقدس ، وقيل : إنما سمي بذلك لكونه عمَّ وآسىٰ ، فهو اسم مركب عليه . انظر « الإتحاف » (٦/ ٣٥٠) .

والمقصودُ : أنَّ الالتقاءَ في غالبِ العاداتِ ليسَ يخلو عنْ أنواعٍ مِنَ التصنُّعِ والرياءِ والنفاقِ ، وكلُّ ذلكَ مذمومٌ ، بعضُهُ محظورٌ ، وبعضُهُ مكروهٌ ، وفي العزلةِ الخلاصُ مِنْ ذلكَ ؛ فإنَّ مَنْ لقيَ الخلقَ ولمْ يخالقْهُمْ بأخلاقِهِمْ . . مقتوهُ واستثقلوهُ ، واغتابوهُ وتشمَّروا لإيذائِهِ ، فيذهبُ دينُهُمْ فيهِ ، ويذهبُ دينُهُ ودنياهُ في الانتقامِ منهُمْ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا مسارقةُ الطبعِ لما يشاهدُهُ مِنْ أخلاقِ الناسِ وأعمالِهِمْ : فهوَ داءٌ دفينٌ ، قلَّما يتنبَّهُ لهُ العقلاءُ فضلاً عنِ الغافلينَ ، فلا يجالسُ الإنسانُ فاسقاً مدَّةً معَ كونِهِ مُنْكراً عليهِ في باطنِهِ إلا ولوْ قاسَ نفسَهُ إلىٰ ما قبلَ مجالستِهِ . . أدركَ فيها تفرقةً في النفرةِ عنِ الفسادِ واستثقالِهِ ؛ إذْ يصيرُ الفسادُ بكثرةِ المشاهدةِ هيِّناً على الطبعِ ، فيسقطُ وقعُهُ واستعظامُهُ لهُ ، وإنَّما الوازعُ عنه شدَّةُ وقْعِهِ في القلبِ ، فإذا صارَ مستصغراً بطولِ المشاهدةِ . . أَوْشَكَ أنْ تنحلَّ القوَّةُ الوازعةُ ، ويذعنَ الطبعُ للميلِ إليهِ أوْ لما دونَهُ ، ومهما طالَتْ مشاهدتُهُ للكبائرِ مِنْ غيرِهِ . . استحقرَ الصغائرَ مِنْ نفسِهِ ، ولذلكَ يزدري الناظرُ إلى الأغنياءِ نعمةَ اللهِ عليهِ ، فتؤثِّرُ مجالستُهُمْ في أنْ يستصغرَ ما عندَهُ ، وتؤثِّرُ مجالسةُ الفقراءِ في استعظامِ ما أُتيحَ لهُ مِنَ النعمِ .

فكذلكَ النظرُ إلى المطيعينَ والعصاةِ هٰذا تأثيرُهُ في الطبعِ ، فمَنْ يقصرُ نظرَهُ علىٰ ملاحظةِ أحوالِ الصحابةِ والتابعينَ في العبادةِ والتنزُّهِ عنِ الدنيا . .

فلا يزالُ ينظرُ إلىٰ نفسِهِ بعينِ الاستصغارِ ، وإلىٰ عبادتِهِ بعينِ الاستحقارِ ، وما دامَ يرىٰ نفسَهُ مقصِّراً . . فلا يخلو عنْ داعيةِ الاجتهادِ ؛ رغبةً في الاستكمالِ ، واستتماماً للاقتداءِ .

ومَنْ نظرَ إلى الأحوالِ الغالبةِ علىٰ أهلِ الزمانِ ، وإعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإقبالِهِمْ على الدنيا ، واعتيادِهِمُ المعاصيَ . . استعظمَ أمرَ نفسِهِ بأدنىٰ رغبةٍ في الخيرِ يصادفُها في قلبِهِ ، **وذلكَ هوَ الهلاكُ** .

ويكفي في تغييرِ الطبعِ مجرَّدُ سماعِ الخيرِ والشرِّ فضلاً عنْ مشاهدتِهِ ، وبهـٰذهِ الدقيقةِ يُعرفُ سرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عندَ ذكرِ الصالحينَ تنزَّلُ الرحمةُ »[1] ، فإنَّما الرحمةُ دخولُ الجنَّةِ ولقاءُ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ ينزلُ عندَ الذكرِ عينُ ذلكَ ولكنْ سببُهُ ؛ وهوَ انبعاثُ الرغبةِ مِنَ القلبِ ، وحركةُ الحرْصِ على الاقتداءِ بهِمْ ، والاستنكافُ مما هوَ ملابسٌ لهُ مِنَ القصورِ والتقصيرِ ، ومبدأُ الرحمةِ فعلُ الخيرِ ، ومبدأُ فعلِ الخيرِ الرغبةُ ، ومبدأُ الرغبةِ ذكرُ أحوالِ الصالحينَ ، فهـٰذا معنىٰ نزولِ الرحمةِ .

والمفهومُ مِنْ فحوىٰ هـٰذا الكلامِ عند الفَطِنِ كالمفهومِ مِنْ نظمِهِ ، وهوَ أنَّ عندَ ذكرِ الفاسقينَ تنزلُ اللعنةُ ؛ لأنَّ كثرةَ ذكرِهِمْ تهوِّنُ على الطبعِ أمرَ المعاصي ، واللعنةُ هيَ البعدُ ، ومبدأُ البعدِ مِنَ اللهِ هوَ المعاصي والإعراضُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٨٥) من كلام ابن عيينة دون رفع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وانظر « مقدمة ابن الصلاح » (ص ٤٢٨) ، و« الإتحاف » (٦/ ٣٥١) .

عنِ اللهِ ؛ بالإقبالِ على الحظوظِ العاجلةِ والشهواتِ الحاضرةِ لا على الوجهِ المشروعِ ، ومبدأُ المعاصي سقوطُ ثقلِها وتفاحشِها عنِ القلبِ ، ومبدأُ سقوطِ الثقلِ وقوعُ الأنسِ بها بكثرةِ السماعِ .

وإذا كانَ هـٰذا حالَ ذكرِ الصالحينَ والفاسقينَ . . فما ظنُّكَ بمشاهدتِهِمْ ، بلْ قدْ صرَّحَ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مثلُ الجليسِ السوءِ كمثلِ الكِيرِ ، إنْ لمْ يحرقْكَ بشررِهِ . . علقَ بكَ مِنْ ريحِهِ »(١) ، فكما أنَّ الريحَ يعلقُ بالثوبِ ولا يشعرُ بهِ . . فكذلكَ يسهلُ الفسادُ على القلبِ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مثلُ الجليسِ الصالحِ كمثلِ صاحبِ المسكِ ، إنْ لمْ يهبْ لكَ منهُ . . تجدْ ريحَهُ »(٢) .

ولهـٰذا أقولُ : مَنْ عرفَ مِنْ عالمٍ زلَّةً . . حَرُمَ عليهِ حكايتُها ؛ لعلتينِ :

إحداهُما : أنَّها غيبةٌ .

والثانيةُ ـ وهيَ أعظمُهُما ـ : أنَّ حكايتَها تهوِّنُ على المستمعينَ أمرَ تلكَ الزلَّةِ ، ويسقطُ مِنْ قلوبِهِمُ استعظامُهُمُ الإقدامَ عليها ، فيكونُ ذلكَ سبباً لتهوينِ تلكَ المعصيةِ ؛ فإنَّهُ مهما وقعَ فيها فاستنكرَ ذلكَ . . دفعَ الاستنكارَ وقالَ : كيفَ يُستبعدُ هـٰذا منَّا وكلُّنا مضطرونَ إلىٰ مثلِهِ حتَّى العلماءُ والعبَّادُ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٢١٠١) ، ومسلم (٢٦٢٨) ، ولفظ المصنف عند ابن حبان في « صحيحه » (٥٧٩) .

(٢) قطعة من الحديث المتقدم قبله .

ولوِ اعتقدَ أنَّ مثلَ ذلكَ لا يقدِمُ عليهِ عالمٌ ، ولا يتعاطاهُ مرموقٌ معتبرٌ . . لشقَّ عليهِ الإقدامُ ، فكَمْ مِنْ شخصٍ يتكالبُ على الدنيا ، ويحرصُ علىٰ جمعِها ، ويتهالَكُ علىٰ حبِّ الرئاسةِ وتزيينِها ، ويهوِّنُ علىٰ نفسِهِ قبحَها ويزعمُ أنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُم لمْ ينزِّهوا أنفسَهُم عنْ حبِّ الرئاسةِ ، وربَّما يستشهدُ عليهِ بقتالِ عليٍّ ومعاويةَ رضيَ اللهُ عنهُما ، ويخمِّنُ في نفسِهِ أنَّ ذلكَ لمْ يكنْ لطلبِ الحقِّ ، بلْ لطلبِ الرئاسةِ . . فهٰذا الاعتقادُ الخطأُ يهوِّنُ عليهِ أمرَ الرئاسةِ ولوازمَها مِنَ المعاصي .

والطبعُ اللئيمُ يميلُ إلى اتباعِ الهفواتِ ، والإعراضِ عنِ الحسناتِ ، بلْ إلىٰ تقديرِ الهفوةِ فيما لا هفوةَ فيهِ بالتنزيلِ علىٰ مقتضى الشهوةِ ؛ ليتعلَّلَ بهِ ، وهوَ مِنْ دقائقِ مكايدِ الشيطانِ ، ولذلكَ وصفَ اللهُ المراغمينَ للشيطانِ فيها بقولِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾ .

وضربَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لذلكَ مثلاً وقالَ : « مثلُ الذي يجلسُ يستمعُ الحكمةَ ثمَّ لا يعملُ إلا بشرِّ ما يسمعُ . . كمثلِ رجلٍ أتىٰ راعياً فقالَ لهُ : يا راعي ؛ اجزرْ لي شاةً مِنْ غنمِكَ ، فقالَ : اذهبْ فخُذْ خيرَ شاةٍ فيها ، فذهبَ فأخذَ بأذنِ كلبِ الغنمِ ! »(١) .

وكلُّ مَنْ ينقلُ هفواتِ الأئمةِ فهٰذا مثالُهُ أيضاً .

وممَّا يدلُّ علىٰ سقوطِ وقعِ الشيءِ عنِ القلبِ بسببِ تكرُّرِهِ ومشاهدتِهِ :

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٧٢) وفيه : (أجزرني) بدل (اجزر لي) .

أنَّ أكثرَ الناسِ إذا رأَوا مسلماً أفطرَ في نهارِ رمضانَ . . استبعدوهُ استبعاداً يكادُ يفضي إلى اعتقادِهِمْ كفرَهُ ، وقدْ يشاهدونَ مَنْ يخرجُ صلواتٍ عنْ أوقاتِها فلا تنفرُ عنهُ طباعُهُمْ كنفرتِهِمْ عنْ تأخيرِ الصومِ ، معَ أنَّ صلاةً واحدةً يقتضي تركُها الكفرَ عندَ قومٍ ، وحزَّ الرقبةِ عندَ قومٍ ، وتركُ صومِ رمضانَ كلِّهُ لا يقتضيهِ ، ولا سببَ لهُ إلا أنَّ الصلاةَ تتكرَّرُ ، والتساهلُ فيها ممَّا يكثرُ ، فيسقطُ وقعُها بالمشاهدةِ عنِ القلبِ .

وكذلكَ لوْ لبسَ الفقيهُ ثوباً مِنْ حريرٍ ، أوْ خاتماً مِنْ ذهبٍ ، أوْ شربَ مِنْ إناءِ فضةٍ . . استبعدَتْهُ النفوسُ ، واشتدَّ إنكارُها ، وقدْ يُشاهدُ في مجلسٍ طويلٍ لا يتكلَّمُ إلا بما هوَ اغتيابٌ للناسِ ولا يستبعدُ منهُ ذلكَ ، والغيبةُ أشدُّ مِنَ الزنا[1] ، فكيفَ لا تكونُ أشدَّ مِنْ لبسِ الحريرِ ؟! ولكنَّ كثرةَ سماعِ الغيبةِ ومشاهدةَ المغتابينَ . . أسقطَ عنِ القلوبِ وقعَها ، وهوَّنَ على النفسِ أمرَها .

فتفطَّنْ لهـٰذهِ الدقائقِ ، وفرَّ مِنَ الناسِ فرارَكَ مِنَ الأسدِ ، فإنَّكَ لا تشاهدُ منهُمْ إلا ما يزيدُ في حرصِكَ على الدنيا ، وغفلتِكَ عنِ الآخرةِ ، ويهوِّنُ

---

(١) فقد روىٰ هناد في « الزهد » (١١٧٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٨٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣١٥ ، ٦٣١٦) مرفوعاً : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا » ، قالوا : يا رسول الله ؛ وكيف الغيبة أشد من الزنا ؟ قال : « إن الرجل قد يزني ثم يتوب ، فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتىٰ يغفر له صاحبه » ، وسيأتي للمصنف .

عليكَ المعصيةَ ، ويضعفُ رغبتكَ في الطاعةِ .

فإنْ وجدتَ جليساً تذكِّرُك باللهِ صورتُهُ وسيرتُهُ . . فالزمْهُ ولا تفارقْهُ ، واغتنمْهُ ولا تستحقرْهُ ؛ فإنَّها غنيمةُ العاقلِ ، وضالَّةُ المؤمنِ ، وتحقَّقْ أنَّ الجليسَ الصالحَ خيرٌ مِنَ الوحدةِ ، وأنَّ الوحدةَ خيرٌ مِنَ الجليسِ السوءِ ، ومهما فهمتَ هٰذهِ المعانيَ ، ولاحظتَ طبعَكَ ، والتفتَّ إلىٰ حالِ منْ أردتَ مخالطتَهُ . . لمْ يخفَ عليكَ أنَّ الأولى التباعُدُ عنهُ بالعزلةِ ، أوِ التقرُّبُ إليهِ بالخلطةِ .

وإيَّاكَ أنْ تحكمَ مطلقاً على العزلةِ أوِ الخلطةِ بأنَّ إحداهما أولىٰ ؛ إذْ كلُّ مفصَّلٍ فإطلاقُ القولِ فيهِ بلا أوْ نعمْ خلْفٌ محضٌ ، ولا حقَّ في المفصَّلِ إلا التفصيلُ .

* * *

الفائدةُ الثالثةُ : الخلاصُ مِنَ الفتنِ والخصوماتِ ، وصيانةُ الدينِ والنفسِ عنِ الخوضِ فيها والتعرضِ لأخطارِها :

وقلَّما تخلو البلادُ عنْ تعصباتٍ وفتنٍ وخصوماتٍ ، فالمعتزلُ عنهُمْ في سلامةٍ منها ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : لمَّا ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الفتنَ ووصفَها وقالَ : « إذا رأيتَ الناسَ مَرِجَتْ عهودُهُمْ ، وخفَّتْ أماناتُهُمْ ، وكانوا هٰكذا » وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ . . فقلتُ : فما تأمرني ؟ فقالَ : « الزمْ بيتَكَ ، واملكْ عليكَ لسانَكَ ، وخذْ ما تعرفُ ،

ودعْ ما تنكرُ ، وعليكَ بأمرِ الخاصَّةِ ، ودعْ عنكَ أمرَ العامَّةِ »[١] .

وروىٰ أبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يوشكُ أنْ يكونَ خيرُ مالِ المسلمِ غنماً يتبعُ بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القطرِ ، يفرُّ بدينِهِ مِنَ الفتنِ منْ شاهقٍ إلىٰ شاهقٍ »[٢] .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « سيأتي على الناسِ زمانٌ لا يسلمُ لذي دينٍ دينُهُ ، إلا مَنْ فرَّ بدينِهِ مِنْ قريةٍ إلىٰ قريةٍ ، ومِنْ شاهقٍ إلىٰ شاهقٍ ، ومِنْ حجرٍ إلىٰ حجرٍ ؛ كالثعلبِ الذي يروغُ » ، قيلَ لهُ : ومتىٰ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « إذا لمْ تُنلِ المعيشةُ إلا بمعاصي اللهِ تعالىٰ ، فإذا كانَ ذلكَ الزمانُ . . حلَّتِ العزوبةُ » ، قالوا : وكيفَ ذاكَ يا رسولَ اللهِ وقدْ أمرتَنا بالتزويجِ ؟ قالَ : « إذا كانَ ذلكَ الزمانُ . . كانَ هلاكُ الرجلِ علىٰ يدي أبويهِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ أبوانِ . . فعلىٰ يدِي زوجتِهِ وولدِهِ ، فإنْ لمْ يكنْ . . فعلىٰ يدي قرابتِهِ » ، قالوا : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ :

---

(١) رواه أبو داوود (٤٣٤٣) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٩٦٢) ، ومرجت : اضطربت وفسدت ، قال الخطابي في « العزلة » (ص١٥) عند شرحه لهـٰذا الخبر : (أمر الخاصة : هو كل ما يخصه ويعنيه ويخص كل إنسان في ذاته ؛ من إعالة أهله ، وسياسة ذويه ، والقيام لهم والسعي في مصالحهم ، ونهاه عن التعرض لأمر العامة ، والتعاطي لسياستهم ، والترؤس عليهم ، والتوسط في أمورهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دع عنك أمر العامة ») ، وسياق المصنف هنا عنده .

(٢) رواه البخاري (١٩) .

« يعيِّرونَهُ بضيقِ اليدِ، فيتكلَّفُ ما لا يطيقُ ، حتَّىٰ يوردوهُ مواردَ الهلكةِ »[١] .

وهٰذا الحديثُ وإنْ كانَ في العزوبةِ فالعزلةُ مفهومةٌ منهُ ؛ إذْ لا يستغني المتأهِّلُ عنِ المعيشةِ والمخالطةِ ، ثمَّ لا ينالُ المعيشةَ إلا بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ .

ولستُ أقولُ : هٰذا أوانُ ذلكَ الزمانِ ، فلقدْ كانَ هٰذا بأعصارٍ قبلَ هٰذا العصرِ ، ولأجلِهِ قالَ سفيانُ الثوريُّ : (واللهِ ؛ لقدْ حلَّتِ العزلةُ)[٢] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الفتنةَ وأيامَ الهرْجِ ، قلتُ : وما الهرجُ ؟ قالَ : « حينَ لا يأمنُ الرجلُ جليسَهُ » ، قلتُ : فبمَ تأمُرُني إنْ أدركتُ ذلكَ الزمانَ ؟ قالَ : « كفَّ نفسَكَ ويدَكَ وادخلْ دارَكَ » ، قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ إنْ دخلَ عليَّ داري ؟ قالَ : « فادخلْ بيتَكَ » ، قلتُ : فإنْ دخلَ عليَّ بيتي ؟ قالَ : « فادخلْ مسجدَكَ واصنعْ هٰكذا ـ وقبضَ على الكوعِ ـ وقلْ : ربيَّ اللهُ حتَّىٰ تموتَ »[٣] .

وقالَ سعدٌ لمَّا دُعِيَ إلى الخروجِ أيامَ معاويةَ . . قالَ : (لا ، إلا أنْ تعطوني سيفاً لهُ عينانِ بصيرتانِ ولسانٌ ينطقُ بالكافرِ فأقتلَهُ ، وبالمؤمنِ فأكفَّ عنهُ) ، وقالَ : (مثلُنا ومثلُكُمْ كمثلِ قومٍ كانوا علىٰ محجَّةٍ بيضاءَ ، فبينا هُمْ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٦٩٧) ، ولفظه هنا عند الخطابي في « العزلة » (٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٨) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٢٥٨) مختصراً ، ورواه بتمامه الخطابي في « العزلة » (١١) .

كذلكَ يسيرونَ . . إذْ هاجَتْ ريحٌ عجاجةٌ ، فضلُّوا الطريقَ والتبسَ عليهِمْ ، فقالَ بعضُهُمْ : الطريقُ ذاتَ اليمينِ ، فأخذوا فيها ، فتاهوا وضلُّوا ، وقالَ بعضُهُمْ : ذاتَ الشمالِ ، فأخذوا فيها ، فتاهوا وضلُّوا ، وأناخَ آخرونَ ، وتوقَّفوا حتَّىٰ ذهبَتِ الريحُ ، وتبيَّنَتِ الطريقُ) ، فسعدٌ وجماعةٌ فارقوا الفتنَ ، ولمْ يخالطوا إلا بعدَ زوالِ الفتنِ(١) .

وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّهُ لمَّا بلغَهُ أنَّ الحسينَ رضيَ اللهُ عنهُ توجَّهَ إلى العراقِ . . تبعَهُ ، فلحقَهُ علىٰ مسيرةِ ثلاثةِ أيامٍ ، فقالَ لهُ : أينَ تريدُ ؟ فقالَ : العراقَ ، فإذا معهُ طواميرُ وكتبٌ(٢) ، فقالَ : هٰذهِ كتبُهُمْ وبيعتُهُمْ ، فقالَ : لا تنظرْ إلىٰ كتبِهِمْ ولا تأتِهِمْ ، فأبىٰ ، فقالَ : إنِّي محُدِّثُكَ حديثاً ، إنَّ جبريلَ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فخيَّرَهُ بينَ الدنيا والآخرةِ ، فاختارَ الآخرةَ على الدنيا ، وإنَّكَ بضعةٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واللهِ ؛ لا يليها أحدٌ منكُمْ أبداً ، وما صرفَها عنكُمْ إلا للذي هوَ خيرٌ لكُمْ ، فأبىٰ أنْ يرجعَ ، فاعتنقَهُ ابنُ عمرَ وبكىٰ ، وقالَ : أستودعُكَ اللهَ مِنْ قتيلٍ أو أسيرٍ(٣) .

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (١٧) .

(٢) الطوامير : جمع طُومار ، وهي الصحيفة ، أو لفظة فارسية معناها : الكتاب الطويل أو الخطاب الطويل .

(٣) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٦٨) ، والخطابي في « العزلة » (٢٥) بلفظ المصنف .

وكانَ في الصحابةِ عشرةُ آلافٍ ، فما خفَّ أيامَ الفتنةِ أكثرُ مِنْ أربعينَ رجلاً[1] .

وجلسَ طاووسٌ في بيتِهِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : فسادُ الزمانِ ، وحيفُ الأئمةِ[2] .

ولمَّا بنىٰ عروةُ قصرَهُ بالعقيقِ ولزمَهُ . . قيلَ لهُ : لزمتَ القصرَ وتركتَ مسجدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : رأيتُ مساجدَكُمْ لاهيةً ، وأسواقَكُمْ لاغيةً ، والفاحشةَ في فجاجِكُمْ عاليةً ، وفيما هناكَ عمَّا أنتُمْ فيهِ عافيةٌ[3] .

فإذاً ؛ الحذرُ مِنَ الخصوماتِ ومثاراتِ الفتنِ إحدىٰ فوائدِ العزلةِ .

* * *

الفائدةُ الرابعةُ : الخلاصُ مِنْ شرِّ الناسِ :

فإنَّهُمْ يؤذونَكَ مرَّةً بالغيبةِ ، ومرَّةً بسوءِ الظنِّ والتهمةِ ، ومرَّةً بالاقتراحاتِ والأطماعِ الكاذبةِ التي يعسرُ الوفاءُ بها ، وتارةً بالنميمةِ أوِ الكذبِ ، فربَّما يرونَ منكَ مِنَ الأعمالِ أوِ الأقوالِ ما لا تبلغُ عقولُهُمْ كنهَهُ ، فيتخذونَ ذلكَ ذخيرةً عندَهُمْ يدخرونَها لوقتٍ تظهرُ فيهِ فرصةٌ للشرِّ ، فإذا

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (١٩) من قول ابن سيرين رحمه الله تعالىٰ .
(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (٢٦) .
(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (٢٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٤٠٣) .

اعتزلتَهُمُ . . استغنيتَ عنِ التحفُّظِ عنْ جميعِ ذلكَ ، ولذلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ لغيرِهِ : أعلِّمُكَ بيتينِ خيرٌ مِنْ عشرةِ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : ما هما ؟ قالَ[1] :		[من الخفيف]

اِخْفِضِ ٱلصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ		وَٱلْتَفِتْ بِٱلنَّهَارِ قَبْلَ ٱلْمَقَالِ
لَيْسَ لِلْقَوْلِ رَجْعَةٌ حِينَ يَبْدُو		بِقَبِيحٍ يَكُونُ أَوْ بِجَمَالِ

ولا شكَّ أنَّ مَنِ اختلطَ بالناسِ ، وشاركَهُمْ في أعمالِهِمْ . . لمْ ينفكَّ مِنْ حاسدٍ وعدوٍّ يسيءُ الظنَّ بهِ ، ويتوهَّمُ أنَّهُ يستعدُّ لمعاداتِهِ ، ولنصبِ المكيدةِ عليهِ ، ولتدسيسِ غائلةٍ وراءَهُ ، فالناسُ مهما اشتدَّ حرصُهُمْ علىٰ أمرٍ . . يحسبونَ كلَّ صيحةٍ عليهِمْ ، هُمُ العدوُّ فاحذرْهُمْ .

وقدِ اشتدَّ حرصُهُمْ على الدنيا ، فلا يظنُّونَ بغيرِهِمْ إلا الحرصَ عليها ، قالَ المتنبِّي[2] :		[من الطويل]

إذا ساءَ فِعْلُ ٱلْمَرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ		وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعَادَىٰ مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عِداتِهِ		فَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ ٱلشَّكِّ مُظْلِمِ

وقدْ قيلَ : (معاشرةُ الأشرارِ تورثُ سوءَ الظنِّ بالأبرارِ)[3] .

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (٦٥) ، وانظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/ ٤٨) .
(٢) ديوانه بشرح العكبري (٤/ ١٣٥) ، وسياق المصنف عند الخطابي في « العزلة » (ص٤٠) .
(٣) حكاه الخطابي في « العزلة » (ص٤٠) .

وأنواعُ الشرِّ الذي يلقاهُ الإنسانُ مِنْ معارفِهِ ومَنْ يختلطُ بهِ كثيرةٌ ، ولسنا نطوِّلُ بتفصيلِها ، ففيما ذكرناهُ إشارةٌ إلىٰ مجامعِها ، وفي العزلةِ خلاصٌ عنْ جميعِها ، وإلىٰ هـٰذا أشار أكثرُ مَنِ اختارَ العزلةَ ، فقالَ أبو الدرداءِ : (اخْبُرْ تَقْلِهْ)[١] .

وقالَ الشاعرُ[٢] : [من السريع]

مَـنْ حَمِـدَ ٱلنَّـاسَ وَلَـمْ يَبْلُهُـمْ ... ثُـمَّ بَـلاهُـمْ ذَمَّ مَـنْ يَحْمَـدُ

وَصَـارَ بِـٱلْـوَحْـدَةِ مُسْتَـأْنِسـاً ... يُـوحِشُـهُ ٱلأَقْـرَبُ وَٱلأَبْعَـدُ

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (في العزلةِ راحةٌ مِنَ الخليطِ السوءِ)[٣] .

وقيلَ لعبدِ اللهِ ابنِ الزبيرِ : ألا تأتي المدينةَ ؟ فقالَ : ما بقيَ فيها إلا حاسدُ نعمةٍ ، أوْ فَرِحٌ بنقمةٍ[٤] .

وقال ابنُ السمَّاكِ : (كتبَ صاحبٌ لنا : أمَّا بعدُ : فإنَّ الناسَ كانوا دواءً يُتداوىٰ بهِ ، فصاروا داءً لا دواءَ لهُ ، ففرَّ منهُمْ فرارَكَ مِنَ الأسدِ)[٥] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٨٥) ، ورواه الخطابي في « العزلة » (٨٦) عنه يرفعه ، ومعناه : من خَبَر الناس وعرفهم.. أبغضهم وتركهم ، والهاء في (تقلِه) للسكت .

(٢) انظر « الموشىٰ » (ص ٢٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦١٨) ، والخطابي في « العزلة » (١٣) .

(٤) القول لعبد الله بن عروة بن الزبير ، رواه عنه الخطابي في « العزلة » (٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٢٩٩) .

(٥) رواه الخطابي في « العزلة » (٣٥) وتمامه : (واتخذ الله تعالىٰ مؤنساً والسلام) .

وكانَ بعضُ الأعرابِ يلازمُ شجراً ويقولُ : هوَ نديمٌ فيهِ ثلاثُ خصالٍ : إنْ سمعَ منِّي. . لمْ ينمَّ عليَّ ، وإنْ تفلتُّ في وجهِهِ. . احتملَ منِّي ، وإنْ عربدتُ عليهِ. . لمْ يغضبْ ، فسمعَ الرشيدُ ذلكَ فقالَ : زهَّدَني في الندماءِ(١) .

وكانَ بعضُهُمْ قد لزمَ الدفاترَ والمقابرَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : لمْ أرَ أسلمَ مِنْ وحدةٍ ، ولا أوعظَ مِنْ قبرٍ ، ولا جليساً أمتعَ مِنْ دفترٍ(٢) .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : أردتُ الحجَّ ، فسمعَ ثابتٌ البنانيُّ ذلكَ ، وكانَ أيضاً مِنْ أولياءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : بلغَني أنَّكَ تريدُ الحجَّ ، فأحببتُ أنْ نصطحبَ ، فقالَ لهُ الحسنُ : ويحَكَ ، دعْنا نتعاشرُ بسترِ اللهِ علينا ، إنِّي أخافُ أنْ نصطحبَ فيرىٰ بعضُنا مِنْ بعضٍ ما نتماقتُ عليهِ(٣) .

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ فائدةٍ أخرىٰ في العزلةِ ، وهيَ **بقاءُ السترِ على الدينِ والمروءةِ والأخلاقِ ، والفقرِ وسائرِ العوراتِ** ، وقدْ مدحَ اللهُ سبحانَهُ المتسترِّينَ فقالَ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ .

وقالَ الشاعرُ(٤) : [من الطويل]

وَلا عارَ إِنْ زالَتْ عَنِ ٱلْحُرِّ نِعْمَةٌ وَلَـٰكِنَّ عاراً أَنْ يَزُولَ ٱلتَّجَمُّلُ

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (٤٤) .
(٢) حكاه الخطابي في « العزلة » (ص٢٧) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٠١) .
(٤) البيت لعلي بن الجهم في « ديوانه » (ص١٧٣) .

ولا يخلو الإنسانُ في دينِهِ ودنياهُ وأخلاقِهِ وأَفعالِهِ عنْ عوراتٍ ، الأَولىٰ لهُ في الدينِ والدنيا سترُها ، ولا تبقى السلامةُ معَ انكشافِها .

وقالَ أبو الدرداءِ : (كانَ الناسُ ورقاً لا شوكَ فيهِ ، فالناسُ اليومَ شوكٌ لا ورقَ فيهِ)(١) ، وإذا كانَ هـٰذا حكْمَ زمانِهِ وهوَ في أواخرِ القرنِ الأوَّلِ . . فلا ينبغي أنْ يُشكَّ في أنَّ الأخيرَ شرٌّ .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : قالَ لي سفيانُ الثوريُّ في اليقظةِ في حياتِهِ ، وفي المنامِ بعدَ وفاتِهِ : (أقلِلْ مِن معرفةِ الناسِ ؛ فإنَّ التخلُّصَ منهُمْ شديدٌ ، ولا أحسبُ أنِّي رأيتُ ما أكرهُ إلا ممَّنْ عرفتُ)(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : جئتُ إلىٰ مالكِ بنِ دينارٍ وهوَ قاعدٌ وحدَهُ ، وإذا كلبٌ قدْ وضعَ حنكَهُ علىٰ ركبتِهِ ، فذهبتُ أطردُهُ ، فقالَ : دعْهُ يا هـٰذا ؛ هـٰذا لا يضرُّ ولا يؤذي ، وهوَ خيرٌ مِنَ الجليسِ السوءِ(٣) .

وقيلَ لبعضِهِمْ : ما حملَكَ علىٰ أنْ تعتزلَ الناسَ ؟ قالَ : خشيتُ أنْ أُسلبَ ديني ولا أشعرُ(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣) .
(٢) قول الثوري في اليقظة رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٩) عن خلف بن تميم ، وفي المنام (٦/ ٣٨٣) بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٤) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٦) من زوائد نعيم بن حماد ، والقول لشرحبيل بن السمط .

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مسارقةِ الطبعِ مِنْ أخلاقِ القرينِ السوءِ .

وقالَ أبو الدرداءِ : (اتقوا اللهَ واحذروا الناسَ ؛ فإنَّهُمْ ما ركبوا ظهرَ بعيرٍ إلا أدبروهُ ، ولا ظهرَ جوادٍ إلا عقروهُ ، ولا قلبَ مؤمنٍ إلا خرَّبوهُ)(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (أقللْ مِنَ المعارفِ ؛ فإنَّهُ أسلمُ لدينِكَ وقلبِكَ ، وأخفُّ لسقوطِ الحقوقِ عنكَ)(٢) ؛ لأنَّهُ كلَّما كثُرَتِ المعارفُ .. كثُرَتِ الحقوقُ وعسرَ القيامُ بالجميعِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (أنكرْ مَنْ تعرفُ ، ولا تتعرَّفْ إلىٰ مَنْ لا تعرفُ)(٣) .

* * *

الفائدةُ الخامسةُ : أنْ ينقطعَ طمعُ الناسِ عنكَ ، وينقطعَ طمعُكَ عنِ الناسِ :

فأمَّا انقطاعُ طمعِ الناسِ .. ففيهِ كلُّ الجدوىٰ ؛ فإنَّ رضا الناسِ غايةٌ لا تدركُ ، فاشتغالُ المرءِ بإصلاحِ نفسِهِ أولىٰ .

ومِنْ أهونِ الحقوقِ وأيسرِها حضورُ الجنائزِ ، وعيادةُ المريضِ ، وحضورُ الولائمِ والإملاكاتِ ، وفيها تضييعُ الأوقاتِ ، والتعرُّضُ للآفاتِ .

ثمَّ قدْ تعوِّقُ عنْ بعضِها العوائقُ ، وتُستقبلُ فيها المعاذيرُ ، ولا يمكنُ

---

(١) أدبروه : أحفوه أو نقبوه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢١٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١٤) .

إظهارُ كلِّ الأعذارِ ، فيقولونَ لهُ : قمتَ بحقِّ فلانٍ وقصَّرْتَ في حقِّنا ، ويصيرُ ذلكَ سببَ عداوةٍ ، فقدْ قيلَ : مَنْ لمْ يعدْ مريضاً في وقتِ العيادةِ . . اشتهىٰ موتَه خيفةً مِنْ تخجيلِهِ ـ إذا صحَّ ـ علىٰ تقصيرِهِ .

ومَنْ عمَّمَ الناسَ كلَّهُمْ بالحرمانِ . . رضُوا عنهُ كلُّهُمْ ، ولوْ خصَّصَ . . استوحشوا ، وتعميمُهُمْ بجميعِ الحقوقِ لا يقدرُ عليهِ المتجرِّدُ لهُ طولَ الليلِ والنهارِ ، فكيفَ مَنْ لهُ مهمٌّ يشغلُهُ في دينٍ أوْ دنيا ؟!

قالَ عمرُو بنُ العاصِ : (كثرةُ الأصدقاءِ كثرةُ الغرماءِ) .

وقالَ ابنُ الروميِّ[1] : [من الوافر]

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَـدِيقِـكَ مُسْتَفَـادٌ ... فَـلا تَسْتَكْثِـرَنَّ مِـنَ ٱلصِّحَـابِ
فَـإِنَّ ٱلـدَّاءَ أَكْثَـرُ مـا تَـراهُ ... يَكُـونُ مِنَ ٱلطَّعـامِ أَوِ ٱلشَّرابِ

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أصلُ كلِّ عداوةٍ اصطناعُ المعروفِ إلى اللئامِ)[2] .

وأمَّا انقطاعُ طمعِكَ عنهُمْ . . فهوَ أيضاً فائدةٌ جزيلةٌ ، فإنَّ مَنْ نظرَ إلىٰ زهرةِ الدنيا وزينتِها . . تحرَّكَ حرصُهُ ، وانبعثَ بقوَّةِ الحرصِ طمعُهُ ، ولا يرىٰ إلا الخيبةَ في أكثرِ الأطماعِ ، فيتأذَّىٰ بهِ ، ومهما اعتزلَ . . لمْ

---

(١) ديوانه (١/ ٢٣١) .
(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٩٤) بنحوه ، وبلفظه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٩٠) ولكن عن سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .

يشاهدْ ، وإذا لمْ يشاهدْ . . لمْ يشتهِ ولمْ يطمعْ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انظروا إلىٰ مَنْ هوَ دونَكُمْ ، ولا تنظروا إلىٰ مَنْ هوَ فوقَكُمْ ؛ فإنَّهُ أجدرُ ألا تزدروا نعمةَ اللهِ عليكُمْ »(١) .

وقالَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ : (كنتُ أجالسُ الأغنياءَ ، فلمْ أزلْ مغموماً ، كنتُ أرىٰ ثوباً أحسنَ مِنْ ثوبي ، ودابَّةً أفرهَ مِنْ دابَّتي ، فجالستُ الفقراءَ فاسترحتُ)(٢) .

وحُكِيَ أنَّ المزنيَّ رحمَهُ اللهُ خرجَ مِنْ بابِ جامعِ الفسطاطِ وقدْ أقبلَ ابنُ عبدِ الحكمِ في موكبِهِ ، فبهرَهُ ما رأىٰ مِنْ حالِهِ وحسنِ هيئتِهِ ، فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ ، ثمَّ قالَ : بلىٰ أصبرُ وأرضىٰ ، وكانَ فقيراً مقلّاً(٣) .

فالذي هوَ في بيتِهِ لا يُبتلىٰ بمثلِ هـٰذهِ الفتنِ ؛ فإنَّ مَنْ شاهدَ زينةَ الدنيا . . فإمَّا أنْ يقوىٰ دينُهُ ويقينُهُ فيصبرَ ، فيحتاجَ إلىٰ أنْ يتجرَّعَ مرارةَ الصبرِ ، وهُوَ أمرُّ مِنَ الصَّبِرِ ، أوْ تنبعثَ رغبتُهُ ، فيحتالَ في طلبِ الدنيا ، فيهلَكَ هلاكاً مؤبَّداً ، أمَّا في الدنيا . . فبالطمعِ الذي يخيبُ في أكثرِ الأوقاتِ ، فليسَ كلُّ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣) .

(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٣٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٤٣) .

(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٣٥) .

مَنْ يطلبُ الدنيا تتيسَّرُ لهُ ، وأمَّا في الآخرةِ . . فبإيثارِهِ متاعَ الدنيا علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ والتقرُّبِ إليهِ .

ولذلكَ قالَ ابنُ الأعرابيِّ[1] : [من الطويل]

إذا كانَ بابُ ٱلذُّلِّ مِنْ جانِبِ ٱلْغِنَىٰ   سَمَوْتُ إِلَى ٱلْعَلْيَاءِ مِنْ جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

أشارَ إلىٰ أنَّ الطمعَ يوجبُ في الحالِ ذلاًّ .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ السادسةُ : الخلاصُ مِنْ مشاهدةِ الثقلاءِ والحمقىٰ ومقاساةِ حمقِهِمْ وأخلاقِهِمْ :

فإنَّ رؤيةَ الثقيلِ هيَ العمى الأصغرُ .

قيلَ للأعمشِ : ممَّ عمشتْ عيناكَ ؟ قالَ : مِنَ النظرِ إلى الثقلاءِ[2] .

ويُحكىٰ أنَّهُ دخلَ عليهِ أبو حنيفةَ ، فقالَ لهُ : في الخبرِ أنَّ مَنْ سلبَ اللهُ كريمتيهِ . . عوَّضَهُ اللهُ عنهما ما هوَ خيرٌ منهما[3] ، فما الذي عوَّضكَ ؟ فقالَ في معرضِ المطايبةِ : عوَّضني عنهما أنَّهُ كفاني رؤيةَ الثقلاءِ وأنتَ منهُمْ[4] .

---

(١) رواه له الخطابي في « العزلة » (ص٣٦) ، وانظر « شرح نهج البلاغة » (١٠ / ٥١) .
(٢) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٤٢) .
(٣) فقد روى البخاري (٥٦٥٣) مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » ، يريد عينيه .
(٤) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦ / ٣٢٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٦٤) بنحوه ، وانظر « الإتحاف » (٦ / ٣٦١) .

وقالَ ابنُ سيرينَ : سمعتُ رجلاً يقولُ : (نظرتُ إلىٰ ثقيلٍ مرَّةً فغشيَ عليَّ)(١) .

وقالَ جالينوسُ : (لكلِّ شيءٍ حمىً ، وحمى الروحِ النظرُ إلى الثقلاءِ)(٢) .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما جالستُ ثقيلاً إلا وجدتُ الجانبَ الذي يليهِ مِنْ بدني كأنَّهُ أثقلُ عليَّ مِنَ الجانبِ الآخرِ) .

وهـٰذهِ الفوائدُ ما سوى الأوليينِ متعلقةٌ بالمقاصدِ الدنيويةِ الحاضرةِ ، ولكنَّها أيضاً تتعلَّقُ بالدينِ ، فإنَّ الإنسانَ مهما تأذَّىٰ برؤيةِ ثقيلٍ . . لمْ يأمنْ أنْ يغتابَهُ ، ويستنكرَ ما هوَ صنْعُ اللهِ ، فإذا تأذَّىٰ مِنْ غيرِه بغيبةٍ أوْ سوءِ ظنٍّ أوْ محاسدةٍ أوْ نميمةٍ أوْ غيرِ ذلكَ . . لمْ يصبرْ عنْ مكافأتِه ، وكلُّ ذلكَ يجرُّ إلىٰ فسادِ الدينِ ، وفي العزلةِ سلامةٌ عنْ جميعِ ذلكَ ، فليفهمْ .

* * *

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٤٣) .

(٢) حكاه الخطابي في « العزلة » (ص٤٣) عن الأعمش عن جالينوس .

آفات العزلة

اعلمْ : أنَّ مِنَ المقاصدِ الدينيةِ والدنيويةِ ما يُستفادُ مِن الاستعانةِ بالغيرِ ، ولا يحصلُ ذلكَ إلا بالمخالطةِ ، فكلُّ ما يُستفادُ مِنَ المخالطةِ يفوتُ بالعزلةِ ، وفواتُهُ مِنْ آفاتِ العزلةِ .

فانظرْ إلىٰ فوائدِ المخالطةِ ، والدواعي إليها ما هيَ ؟ وهيَ التعليمُ والتعلُّمُ ، والنفعُ والانتفاعُ ، والتأديبُ والتأدُّبُ ، والاستئناسُ والإيناسُ ، ونيلُ الثوابِ وإنالتُهُ في القيامِ بالحقوقِ ، واعتيادُ التواضعِ ، واستفادةُ التجاربِ مِنْ مشاهدةِ الأحوالِ والاعتبارِ بها .

فلنفصِّلْ ذلكَ ؛ فإنَّها مِنْ فوائدِ المخالطةِ ، وهيَ سبعٌ :

الفائدةُ الأولىٰ : التعليمُ والتعلُّمُ :

وقدْ ذكرنا فضلَهُما في كتابِ العلمِ ، وهما أعظمُ العباداتِ في الدنيا ، ولا يتصوَّرُ ذلكَ إلا بالمخالطةِ ، إلا أنَّ العلومَ كثيرةٌ ، وعنْ بعضِها مندوحةٌ ، وبعضُها ضروريٌّ في الدنيا .

فالمحتاجُ إلى التعلُّمِ لما هوَ فرضٌ عليهِ عاصٍ بالعزلةِ ، وإنْ تعلَّمَ الفرضَ وكانَ لا يتأتَّىٰ منهُ الخوضُ في العلومِ ، ورأى الاشتغالَ بالعبادةِ . . فليعتزلْ .

وإنْ كانَ يقدرُ على التبرُّزِ في علومِ الشرعِ والعقلِ . . فالعزلةُ في حقِّهِ قبلَ

التعلُّمِ غايةُ الخسرانِ ، ولهـٰذا قال النخعيُّ وغيرُهُ : (تفقَّهْ ثمَّ اعتزِلِ)[1] .

ومنِ اعتزلَ قبلَ التعلُّمِ . . فهوَ في الأكثرِ مضيِّعٌ أوقاتَهُ بنومٍ أوْ فكرٍ في هوسٍ ، وغايتُهُ أنْ يستغرقَ الأوقاتَ بأورادٍ يستوعبُها ، ولا ينفكُّ في أعمالِهِ بالبدنِ والقلبِ عنْ أنواعٍ مِنَ الغرورِ ، فيخيبُ سعيُهُ ، ويبطلُ عملُهُ بحيثُ لا يدري ، ولا ينفكُّ في اعتقادِهِ في اللهِ وصفاتِهِ عنْ أوهامٍ يتوهَّمُها ويأنسُ بها ، وعنْ خواطرَ فاسدةٍ تعتريهِ فيها ، فيكونُ في أكثرِ أحوالِهِ ضُحْكَةً للشيطانِ ، وهوَ يرىٰ نفسَهُ مِنَ العبَّادِ !

فالعلمُ هوَ أصلُ الدينِ ، فلا خيرَ في عزلةِ العوامِّ والجهَّالِ ؛ أعني : مَنْ لا يحسنُ العبادةَ في الخلوةِ ، ولا يعرفُ جميعَ ما يلزمُهُ فيها .

فمثالُ النفسِ مثالُ مريضٍ يفتقرُ إلىٰ طبيبٍ متلطِّفٍ يعالجُهُ ، فالمريضُ الجاهلُ إذا خلا بنفسِهِ عنِ الطبيبِ قبلَ أنْ يتعلَّمَ الطبَّ . . تضاعفَ ـ لا محالةَ ـ مرضُهُ ، فلا تليقُ العزلةُ إلا بالعالمِ .

وأمَّا التعليمُ . . ففيهِ ثوابٌ عظيمٌ مهما صحَّتْ نيَّةُ المعلِّمِ والمتعلِّمِ ، ومهما كانَ القصدُ إقامةَ الجاهِ والاستكثارَ بالأصحابِ والأتباعِ . . فهوَ هلاكُ الدينِ ، وقدْ ذكرنا وجهَ ذلكَ في كتابِ العلمِ .

وحكْمُ العالمِ في هـٰذا الزمانِ ، أنْ يعتزلَ إنْ أرادَ سلامةَ دينِهِ ؛ فإنَّهُ لا يرىٰ مستفيداً يطلبُ فائدةً لدينِهِ ، بلْ لا طالبَ إلا لكلامٍ مزخرفٍ يُستمالُ

---

(١) رواه الخطابي في « العزلة » (٤٢) .

بِهِ العوامُّ في معرضِ الوعظِ ، أو لجدالٍ معقَّدٍ يُتوصَّلُ بهِ إلىٰ إفحامِ الأقرانِ ، ويُتقرَّبُ بهِ إلى السلطانِ ، ويُستعملُ في معرضِ المنافسةِ والمباهاةِ .

وأقربُ علمٍ مرغوبٍ فيهِ المذهبُ[1] ، ولا يطلبُ غالباً إلا للتوصُّلِ إلى التقدُّمِ على الأمثالِ ، وتولِّي الولاياتِ ، واجتلابِ الأموالِ ، فهؤلاءِ كلُّهُمْ يقتضي الدينُ والحزمُ الاعتزالَ عنهُمْ .

فإنْ صُودفَ طالبٌ للهِ ، ومتقرِّبٌ بالعلمِ إلى اللهِ . . فأكبرُ الكبائرِ الاعتزالُ عنهُ ، وكتمانُ العلمِ منهُ ، وهـٰذا لا يُصادفُ في بلدةٍ كبيرةٍ أكثرُ مِنْ واحدٍ أوِ اثنينِ إنْ صُودفَ .

ولا ينبغي أنْ يغترَّ الإنسانُ بقولِ سفيانَ : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ)[2] ؛ فإنَّ الفقهاءَ يتعلَّمونَ لغيرِ اللهِ ثمَّ يرجعونَ إلى اللهِ ، وانظرْ إلىٰ أواخرِ أعمارِ الأكثرينَ منهُمْ واعتبرْهُمْ أنَّهُمْ ماتوا وهمْ هلكىٰ علىٰ طلبِ الدنيا ومتكالبونَ عليها ، أوْ راغبونَ عنها وزاهدونَ فيها ، وليسَ الخبرُ كالمعاينةِ .

واعلمْ : أنَّ العلمَ الذي أشارَ إليهِ سفيانُ هوَ علمُ الحديثِ وتفسيرُ القرآنِ ومعرفةُ سيرِ الأنبياءِ والصحابةِ ، فإنَّ فيها التخويفَ والتحذيرَ ، وهوَ سببٌ

---

(١) أي : المسائل المتعلقة بمذهبه . « إتحاف » (٦/ ٢٦٣) ، ولا يبعد أن يراد به هنا الفقه خصوصاً ؛ إذ قد أشار المصنف أنه كتب « الإحياء » علىٰ رسْمِهِ استمالةً للقلوب .

(٢) قد شرحها المصنف كذلك في « ميزان العمل » (ص ٣٤٣) .

لإثارةِ الخوفِ مِنَ اللهِ ، فإنْ لمْ يؤثِّرْ في الحالِ . . أثَّرَ في المآلِ .

فأمَّا الكلامُ والفقهُ المجرَّدُ الذي يتعلَّقُ بفتاوى المعاملاتِ وفصْلِ الخصوماتِ ؛ المذهبُ منهُ والخلافُ . . لا يردُّ الراغبَ فيهِ للدنيا إلى اللهِ تعالىٰ ، بلْ لا يزالُ متمادياً في حرصِهِ إلىٰ آخرِ عمرِهِ .

ولعلَّ ما أودعناهُ هـٰذا الكتابَ إنْ تعلَّمَهُ المتعلِّمُ رغبةً في الدنيا . . فيجوزُ أنْ يرخَّصَ فيهِ ؛ إذْ يُرجىٰ أنْ ينزجرَ بهِ في آخرِ عمرِهِ ؛ فإنَّهُ مشحونٌ بالتخويفِ باللهِ ، والترغيبِ في الآخرةِ ، والتحذيرِ مِنَ الدنيا ، وذلكَ ممَّا يُصادفُ في الأحاديثِ وتفسيرِ القرآنِ ، ولا يُصادفُ في كلامٍ ، ولا خلافٍ ، ولا في مذهبٍ ، فلا ينبغي أنْ يخادعَ الإنسانُ نفسَهُ ، فإنَّ المقصِّرَ العالمَ بتقصيرِهِ أسعدُ حالاً مِنَ الجاهلِ المغرورِ ، أوِ المتجاهلِ المغبونِ .

وكلُّ عالمٍ اشتدَّ حرصُهُ على التعليمِ يوشكُ أنْ يكونَ غرضُهُ القبولَ والجاهَ ، وحظُّهُ تلذُّذَ النفسِ في الحالِ ؛ باستشعارِ الإدلالِ على الجهَّالِ والتكبُّرِ عليهم ، فآفةُ العلمِ الخيلاءُ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

ولذلكَ حُكِيَ عنْ بشرٍ أنَّهُ دفنَ سبعةَ عشرَ قمطراً مِنْ كتبِ الأحاديثِ التي سمعَها ، وكانَ لا يحدِّثُ ، ويقولُ : (إنِّي أشتهي أنْ أحدِّثَ ، فلذلكَ

---

(١) المعروف ـ كما قال الحافظ العراقي ـ هو حديث : « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » ، وهو قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٤٣٢٦) ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ٣٦٤) .

لا أحدِّثُ ، ولوِ اشتهيتُ ألا أحدِّثَ . . لحدثْتُ)[١] .

ولذلكَ قالَ : (« حدَّثنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، وإذا قالَ الرجلُ : « حدَّثنا » . . فإنَّما يقولُ : أوسعوا لي)[٢] .

وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ لسفيانَ الثوريِّ : نعمَ الرجلُ أنتَ لولا رغبتُكَ في الدنيا ، قالَ : وفي ماذا رغبتُ ؟ قالَتْ : في الحديثِ[٣] .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ تزوَّجَ ، أوْ كتبَ الحديثَ ، أوِ اشتغلَ بالسفرِ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[٤] .

❊ ❊ ❊

فهٰذهِ آفاتٌ قدْ نبهنا عليها في كتابِ العلمِ ، والحزْمُ الاحترازُ بالعزلةِ ، وتركُ الاستكثارِ مِنَ الأصحابِ ما أمكنَ ، بلِ الذي يطلبُ الدنيا بتدريسِهِ وتعليمِهِ . . فالصوابُ لهُ ـ إنْ كانَ عاقلاً ـ في مثلِ هٰذا الزمانِ أنْ يتركَهُ ، فلقدْ صدقَ أبو سليمانَ الخطابيُّ حيثُ قالَ : (دعِ الراغبينَ في صحبتِكَ والتعلُّمِ منكَ ، فليسَ لكَ منهُمْ مالٌ ولا جمالٌ ، إخوانُ العلانيةِ أعداءُ السرِّ ، إذا لقوكَ . . تملَّقوكَ ، وإذا غبْتَ عنهُمْ . . سلقوكَ ، مَنْ أتاكَ منهُمْ . . كانَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وبنحوه رواه عنه الخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (٢٣٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .

عليكَ رقيباً ، وإذا خرجَ . . كانَ عليكَ خطيباً ، أهلُ نفاقٍ ونميمةٍ ، وغلٍّ وخديعةٍ ، فلا تغترَّ باجتماعِهِمْ عليكَ ، فما غرضُهُمُ العلمَ ، بلِ الجاهُ والمالُ ، وأنْ يتخذوكَ سلَّماً إلىٰ أوطارِهِمْ وأغراضِهِمْ ، وحماراً في حاجاتِهِمْ .

إنْ قصَّرْتَ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِمْ . . كانوا أشدَّ أعدائِكَ ، ثمَّ يعدُّونَ تردُّدَهُمْ إليكَ دالَّةً عليكَ ، ويرونَهُ حقّاً واجباً لديكَ ، ويفرضونَ عليكَ أنْ تبذلَ عرضَكَ وجاهَكَ ودينَكَ لهُمْ ، فتعاديَ عدوَّهُمْ ، وتنصرَ قريبَهُمْ وخادمَهُمْ ووليَّهُمْ ، وتنتهضَ لهُمْ سفيهاً وقدْ كنتَ فقيهاً ، وتكونَ لهُمْ تابعاً خسيساً بعدَ أنْ كنتَ متبوعاً رئيساً ، ولذلكَ قيلَ : اعتزالُ العامَّةِ مروءةٌ تامَّةٌ)[1] .

فهٰذا معنىٰ كلامِهِ وإنْ خالفَ بعضَ ألفاظِهِ ، وهوَ حقٌّ وصدْقٌ ، فإنَّكَ ترى المدرسينَ في رِقٍّ دائمٍ ، وتحتَ حقٍّ لازمٍ ، ومِنَّةٍ ثقيلةٍ ممَّنْ يتردَّدُ إليهِمْ ، فكأنَّهُ يُهدي تحفةً إليهِمْ ، فيرىٰ حقَّهُ واجباً عليهِمْ ، وربَّما لا يختلفُ إليهِ ما لمْ يتكفَّلْ برزقٍ لهُ على الإدرارِ ، ثمَّ المدرِّسُ المسكينُ قدْ يعجزُ عنِ القيامِ بذلكَ مِنْ مالِهِ ، فلا يزالُ يتردَّدُ إلىٰ أبوابِ السلاطينِ ، ويقاسي الذلَّ والشدائدَ مقاساةَ الذليلِ المهينِ ، حتَّىٰ يُكتبَ لهُ علىٰ بعضِ وجوهِ السحتِ مالٌ حرامٌ ، ثمَّ لا يزالُ العاملُ يسترقُّهُ ويستخدمُهُ ، ويمتهنُهُ ويستذلُّهُ إلىٰ أنْ يسلمَ إليهِ ما يقدرُهُ نعمةً مستأنفةً مِنْ عندِهِ عليهِ ، ثمَّ يبقىٰ في

---

(١) العزلة (ص٣٩) .

مقاساةِ القسمةِ علىٰ أصحابِهِ ؛ إنْ سوَّىٰ بينَهُمْ . . مقتَهُ المبرِّزونَ ، ونسبوهُ إلى الحمْقِ وقلَّةِ التمييزِ ، والقصورِ عنْ درْكِ مصارفاتِ الفضلِ ، والقيامِ في مقاديرِ الحقوقِ بالعدلِ ، وإنْ فاوتَ بينَهُمْ . . سلقَهُ السفهاءُ بألسنةٍ حدادٍ ، وثاروا عليهِ ثورانَ الأساودِ والآسادِ(١) ، فلا يزالُ في مقاساتِهِمْ في الدنيا ، وفي مظالمِ ما يأخذُهُ ويفرِّقُهُ في العقبىٰ .

والعجبُ أنَّهُ معَ هـٰذا البلاءِ كلِّهِ تمنِّيهِ نفسُهُ بالأباطيلِ ، وتدلِّيهِ بحبلِ الغرورِ ، وتقولُ لهُ : لا تفترْ عنْ صنيعِكَ ، فإنَّما أنتَ بما تفعلُهُ مريدٌ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، ومذيعٌ شرْعَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وناشرٌ علمَ دينِ اللهِ ، وقائمٌ بكفايةِ طلابِ العلمِ مِنْ عبادِ اللهِ ، وأموالُ السلاطينِ لا مالكَ لها ، وهيَ مرصدةٌ للمصالحِ ، وأيُّ مصلحةٍ أكبرُ مِنْ تكثيرِ أهلِ العلمِ ؟! فبِهِمْ يظهرُ الدينُ ويتقوَّىٰ أهلُهُ ، ولوْ لمْ يكنْ ضُحْكةً للشيطانِ . . لعلمَ بأدنىٰ تأمُّلٍ أنَّ فسادَ الزمانِ لا سببَ لهُ إلا كثرةُ أمثالِ أولئكَ الفقهاءِ ، الذينَ يأكلونَ ما يجدونَ ، ولا يميِّزونَ بينَ الحلالِ والحرامِ ، فتلحظُهُمْ أعينُ الجهَّالِ ، ويستجرئونَ على المعاصي باستجرائِهِمْ ؛ اقتداءً بهِمْ ، واقتفاءً لآثارِهِمْ ، ولذلكَ قيلَ : ما فسدَتِ الرعيَّةُ إلا بفسادِ الملوكِ ، وما فسدَتِ الملوكُ إلا بفسادِ العلماءِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الغرورِ والعمىٰ ؛ فإنَّهُ الداءُ الذي ليسَ لهُ دواءٌ .

* * *

---

(١) **الأساود** : جمع أسود ، الحية السوداء ، **والآساد** : جمع أسد .

الفائدةُ الثانيةُ : النفعُ والانتفاعُ :

أمَّا الانتفاعُ بالناسِ : فبالكسبِ والمعاملةِ ، وذلكَ لا يتأتَّىٰ إلا بالمخالطةِ ، والمحتاجُ إليهِ مضطرٌ إلىٰ تركِ العزلةِ ، فيقعُ في جهادٍ مِنَ المخالطةِ إنْ طلبَ موافقةَ الشرعِ فيهِ كما ذكرناهُ في كتابِ الكسبِ .

فإنْ كانَ معَهُ ما لوِ اكتفىٰ بهِ قانعاً لأقنعَهُ . . فالعزلةُ أفضلُ لهُ إذا انسدَّتْ طرقُ المكاسبِ في الأكثرِ إلا مِنَ المعاصي ، إلا أنْ يكونَ غرضُهُ الكسْبَ للصدقةِ ، فإذا اكتسبَ مِنْ وجهِهِ وتصدَّقَ . . فهوَ أفضلُ مِن العزلةِ ؛ للاشتغالِ بالنافلةِ ، وليسَ بأفضلَ مِنَ العزلةِ ؛ للاشتغالِ بالتحقُّقِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ علومِ الشرعِ ، ولا مِنَ الإقبالِ بكنهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، والتجرُّدِ بهِ لذكرِ اللهِ ؛ أعني : مَنْ حصلَ لهُ أنْسٌ بمناجاةِ اللهِ عنْ كشفٍ وبصيرةٍ ، لا عنْ أوهامٍ وخيالاتٍ فاسدةٍ .

وأمَّا النفعُ : فهوَ أنْ ينفعَ الناسَ ؛ إمَّا بمالِهِ أوْ ببدنِهِ ، فيقومَ بحاجاتِهِمْ علىٰ سبيلِ الحسبةِ ، ففي النهوضِ بقضاءِ حوائجِ المسلمينَ ثوابٌ ، وذلكَ لا يُنالُ إلا بالمخالطةِ ، ومَنْ قدرَ عليها معَ القيامِ بحدودِ الشرعِ . . فهيَ أفضلُ لهُ مِنَ العزلةِ إنْ كانَ لا يشتغلُ في عزلتِهِ إلا بنوافلِ الصلواتِ والأعمالِ البدنيةِ ، وإنْ كانَ ممَّنِ انفتحَ لهُ طريقُ العملِ بالقلبِ ؛ بدوامِ ذكرٍ أوْ فكرٍ . . فذلكَ لا يُعدلُ بهِ غيرُهُ ألبتةَ .

الفائدةُ الثالثةُ : التأديبُ والتأدُّبُ :

ونعني بهِ[1] : الارتياضَ بمقاساةِ الناسِ ، والمجاهدةَ في تحمُّلِ أذاهُمْ ؛ كسراً للنفسِ ، وقهراً للشهواتِ ، وهيَ مِنَ الفوائدِ التي تُستفادُ بالمخالطةِ ، وهيَ أفضلُ مِنَ العزلةِ في حقِّ مَنْ لمْ تتهذَّبْ أخلاقُهُ ، ولمْ تذعنْ لحدودِ الشرعِ شهواتُهُ .

ولهٰذا انتدبَ خدَّامُ الصوفيَّةِ في الرباطاتِ ، فيخالطونَ الناسَ بخدمتِهِمْ ، وأهلَ السوقِ للسؤالِ منهُمْ ؛ كسراً لرعونةِ النفسِ ، واستمداداً مِنْ بركةِ دعاءِ الصوفيَّةِ المنصرفينَ بهمَمِهِمْ إلى اللهِ سبحانَهُ .

وكانَ هٰذا هوَ المبدأَ في الأعصارِ الخاليةِ ، والآنَ قدْ خالطَتْهُ الأغراضُ الفاسدةُ ، ومالَ ذلكَ عنِ القانونِ كما مالَتْ سائرُ شعائرِ الدينِ ، فصارَ يُطلبُ مِنَ التواضعِ بالخدمةِ التكثيرُ بالاستتباعِ ، والتذرُّعُ إلىٰ جمعِ المالِ ، والاستظهارُ بكثرةِ الأتباعِ ، فإنْ كانَتِ النيَّةُ هٰذا . . فالعزلةُ خيرٌ منهُ ، ولو إلى القبرِ ، وإنْ كانَتِ النيَّةُ رياضةَ النفسِ . . فهيَ خيرٌ مِنَ العزلةِ في حقِّ المحتاجِ إلى الرياضةِ ، وذلكَ ممَّا يُحتاجُ إليهِ في بدايةِ الإرادةِ ، فبعدَ حصولِ الارتياضِ ينبغي أنْ يفهمَ أنَّ الدابَّةَ لا يُطلبُ مِنْ رياضتِها عينُ رياضتِها ، بلِ المرادُ منها أنْ تُتخذَ مركباً يُقطعُ بهِ المراحلُ ، ويُطوىٰ علىٰ

---

(١) أي : بالتأدُّب ، وسيأتي الكلام على التأديب .

ظهرِهِ الطريقُ[1] ، والبَدَنُ مطيّةٌ للقلبِ ، يركبُها ليسلكَ بها طريقَ الآخرةِ ، وفيها شهواتٌ إنْ لمْ يكسرْها . . جمحَتْ بهِ في الطريقِ ، فمَنِ اشتغلَ طولَ العمرِ بالرياضةِ . . كانَ كمَنْ اشتغلَ طولَ عمرِ الدابّةِ برياضتِها ولمْ يركبْها ، فلا يستفيدُ منها إلا الخلاصَ في الحالِ مِنْ عضِّها ورفْسِها ورَمْحِها ، وهيَ ـ لعمري ـ فائدةٌ مقصودةٌ ، ولكنْ مثلُها حاصلٌ منَ البهيمةِ الميتةِ ، والدابّةُ تُرادُ لفائدةٍ تحصلُ مِنْ حياتِها ، فكذلكَ الخلاصُ عنْ ألمِ الشهواتِ في الحالِ يحصلُ بالنومِ والموتِ ، فلا ينبغي أنْ يقنعَ بها ؛ كالراهبِ الذي قيلَ لهُ : يا راهبُ ؛ فقالَ : (ما أنا براهبٍ ، إنَّما أنا كلبٌ عقورٌ ، حبستُ نفسي حتَّىٰ لا أعقرَ الناسَ) ، وهـٰذا حسنٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يعقرُ الناسَ ، ولكنْ لا ينبغي أنْ يقتصرَ عليهِ ، فإنَّ مَنْ قتلَ نفسَهُ أيضاً . . لمْ يعقرِ الناسَ ، بلْ ينبغي أنْ يتشوَّفَ إلى الغايةِ المقصودةِ بها ، ومنْ فهمَ ذلكَ واهتدىٰ إلى الطريقِ وقدرَ على السلوكِ . . استبانَ لهُ أنَّ العزلةَ أعونُ لهُ مِنَ المخالطةِ ، فالأفضلُ لمثلِ هـٰذا الشخصِ المخالطةُ أوَّلاً والعزلةُ آخراً .

وأمَّا التأديبُ : فإنَّما نعني بهِ أنْ يروِّضَ غيرَهُ ، وهوَ حالُ شيخِ الصوفيّةِ معَهُمْ ، فإنَّهُ لا يقدرُ علىٰ تهذيبِهِمْ إلا بمخالطتِهِمْ ، وحالُهُ حالُ المعلِّمِ ، وحكمُهُ حكمُهُ ، ويتطرَّقُ إليهِ مِنْ دقائقِ الآفاتِ والرياءِ ما يتطرَّقُ إلىٰ نشرِ العلمِ ، إلا أنَّ مخايلَ طلبِ الدنيا مِنَ المريدينَ الطالبينَ للارتياضِ أبعدُ منها

---

(١) في (ب) : (يقطع بها المراحل ، ويطوىٰ علىٰ ظهرها الطريق) .

مِنْ طلبةِ العلمِ ، ولذلكَ يُرىٰ فيهِمْ قلةٌ ، وفي طلبةِ العلمِ كثرةٌ ، فينبغي أنْ يقيسَ ما تيسَّرَ لهُ مِنَ الخلوةِ بما تيسَّرَ لهُ مِنَ المخالطةِ وتهذيبِ القومِ ، وليقابلْ أحدَهُما بالآخرِ ، وليؤثرِ الأفضلَ ، وذلكَ يدركُ بدقيقِ الاجتهادِ ، ويختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فلا يمكنُ الحكمُ عليهِ مطلقاً بنفيٍ ولا إثباتٍ .

* * *

الفائدةُ الرابعةُ : الاستئناسُ والإيناسُ :

وهوَ غرضُ مَنْ يحضرُ الولائمَ والدعواتِ ، ومواضعَ المعاشرةِ والأنسِ ، وهـٰذا يرجعُ إلىٰ حظِّ النفسِ في الحالِ ، وقدْ يكونُ ذلكَ علىٰ وجهٍ حرامٍ ؛ بمؤانسةِ مَنْ لا تجوزُ مؤانستُهُ ، أوْ علىٰ وجهٍ مباحٍ ، وقدْ يُستحبُّ ذلكَ لأمرِ الدينِ ، وذلكَ فيمَنْ يستأنسُ بمشاهدةِ أحوالِهِ وأقوالِهِ في الدينِ ؛ كالأنسِ بالمشايخِ الملازمينَ لسمْتِ التقوىٰ ، وقدْ يتعلَّقُ بحظِّ النفسِ ، ويُستحبُّ إذا كانَ الغرضُ منهُ ترويحَ القلبِ ؛ لتهييجِ دواعي النشاطِ في العبادةِ ، فإنَّ القلوبَ إذا أكرهَتْ . . عميَتْ ، ومهما كانَ في الوحدةِ وحشةٌ ، وفي المجالسةِ أنسٌ يروِّحُ القلبَ . . فهيَ أولىٰ ؛ إذِ الرفقُ في العبادةِ مِنْ حزْمِ العبادةِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا »[1] ،

(١) هو شطر حديث رواه البخاري (٤٣ ، ٦٤٦٥) ، ومسلم (٧٨٢) .

وهـٰذا أمرٌ لا يُستغنىٰ عنهُ ؛ فإنَّ النفسَ لا تألفُ الحقَّ على الدوامِ ما لَمْ تُروَّحْ ، وفي تكليفِها الملازمةَ تنفيرٌ ، ومَنْ يشادَّ هـٰذا الدينَ . . يغلبْهُ ؛ فإنَّ الدينَ متينٌ ، والإيغالُ فيهِ برفْقٍ دأبُ المستبصرينَ[1] .

ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لولا مخافةُ الوسواسِ . . لَمْ أجالسِ الناسَ) ، وقالَ مرَّةً : (. . . لدخلتُ بلاداً لا أنيسَ بها ، وهلْ يفسدُ الناسَ إلا الناسُ)[2] .

فلا يستغني المعتزلُ إذاً عنْ رفيقٍ يستأنسُ بمشاهدتِهِ ومحادثتِهِ في اليومِ والليلةِ ساعةً ، فليجتهدْ في طلبِ مَنْ لا يفسدُ عليهِ في ساعتِهِ تلكَ سائرَ ساعاتِهِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ علىٰ دينِ خليلِهِ ، فلينظرْ أحدُكُمْ مَنْ يخاللُ »[3] .

وليحرِصْ أنْ يكونَ حديثُهُ عندَ اللقاءِ في أمورِ الدينِ ، وحكايةِ أحوالِ القلبِ ، وشكواهُ وقصورِهِ عنِ الثباتِ على الحقِّ ، والاهتداءِ إلى الرشدِ ، ففي ذلكَ متنفَّسٌ ومتروَّحٌ للنفسِ ، وفيهِ مجالٌ رحْبٌ لكلِّ مشغولٍ بإصلاحِ نفسِهِ ؛ فإنَّهُ لا تنقطعُ شكواهُ ولوْ عُمِّرَ أعماراً طويلةً ، والراضي عنْ نفسِهِ مغرورٌ قطعاً[4] .

---

(١) إشارة إلىٰ ما رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٩٨) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس» (١٢٦)، وهو بلفظيه عند صاحب «القوت» (٢/ ١٤٢).
(٣) رواه أبو داوود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٢٧٨) .
(٤) ولا يذاكره في أمور الدنيا ، وأحوال فساد الخلق ، والشكوىٰ على الظالمين ، وما انتشر من فساد حال الرعية والعامة . « إتحاف » (٦/ ٣٦٩) .

فهٰذا النوعُ مِنَ الاستئناسِ في بعضِ أوقاتِ النهارِ ربَّما يكونُ أفضلَ مِنَ العزلةِ في حقِّ بعضِ الأشخاصِ ، فليتفقدْ فيهِ أحوالَ القلبِ وأحوالَ الجليسِ أوّلاً ، ثمَّ ليجالسْ .

***

الفائدةُ الخامسةُ : في نيلِ الثوابِ وإنالتهِ :

أمَّا النيلُ : فبحضورِ الجنائزِ ، وعيادةِ المرضىٰ ، وحضورِ العيدينِ ، وأمَّا حضورُ الجمعةِ . . فلا بدَّ منهُ ، وحضورُ الجماعةِ في سائرِ الصلواتِ أيضاً لا رخصةَ في تركِهِ إلا لخوفِ ضررٍ ظاهرٍ يقاومُ ما يفوتُ مِنْ فضيلةِ الجماعةِ ويزيدُ عليهِ ، **وذلكَ لا يتفقُ إلا نادراً** ، وكذلكَ في حضورِ الإملاكاتِ والدعواتِ ثوابٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ إدخالُ سرورٍ علىٰ قلبِ مسلمٍ .

وأمَّا إنالتُهُ : فهوَ أنْ يفتحَ البابَ لتعودَهُ الناسُ ، أوْ يعزُّوهُ في المصائبِ ، أوْ يهنُّوهُ على النعمِ ، فإنَّهُمْ ينالونَ بهِ ثواباً ، وكذلكَ إذا كان مِنَ العلماءِ وأذنَ لهُمْ في الزيارةِ . . نالوا ثوابَ الزيارةِ ، وكانَ هوَ بالتمكينِ سبباً فيهِ .

فينبغي أنْ يزنَ ثوابَ هٰذهِ المخالطاتِ بآفاتِها التي ذكرناها ، وعندَ ذلكَ قدْ ترجحُ العزلةُ وقدْ ترجحُ المخالطةُ ، فقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ مِنَ السلفِ مثلِ مالكِ بنِ أنسٍ وغيرِهِ تركُ إجابةِ الدعواتِ وعيادةِ المرضىٰ وحضورِ الجنائزِ ، بلْ كانوا أحلاسَ بيوتِهِمْ[1] ، لا يخرجونَ إلا للجمعةِ وزيارةِ القبورِ ،

---

(١) **أحلاس** : جمع حِلْس ، وهو الحصير الذي يلي الأرض ؛ أي : كانوا ملازمين بيوتهم ، =

وبعضُهُمْ فارقَ الأمصارَ وانحازَ إلىٰ قُلَلِ الجبالِ ؛ تفرُّغاً للعبادةِ وفراراً مِنَ الشواغلِ .

* * *

الفائدةُ السادسةُ مِنَ المخالطةِ : التواضعُ :

فإنَّهُ مِنْ أفضلِ المقاماتِ ، ولا يُقدرُ عليهِ في الوحدةِ(١) ، وقدْ يكونُ الكِبْرُ سبباً في اختيارِ العزلةِ ، فقدْ رُوِيَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ حكيماً مِنَ الحكماءِ صنَّفَ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مصحفاً في الحكمةِ ، حتَّىٰ ظنَّ أنَّهُ قدْ نالَ عندَ اللهِ منزلةً ، فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِ : قلْ لفلانٍ : إنَّكَ قدْ ملأتَ الأرضَ نفاقاً ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً ، قالَ : فتخلَّىٰ وانفرد في سرْبٍ تحتَ الأرضِ ، وقالَ : الآنَ قدْ بلغتُ رضا ربِّي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّه : قلْ لهُ : إنَّكَ لمْ تبلغْ رضايَ ، قالَ : فدخلَ الأسواقَ ، وخالطَ العامَّةَ وجالسَهُمْ ، وواكلَهُمْ وأكلَ الطعامَ بينَهُمْ ، ومشىٰ في الأسواقِ معَهُمْ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلى نبيِّهِ : الآنَ قدْ بلغتَ رضايَ(٢) .

فكَمْ مِنْ معتزلٍ في بيتِهِ وباعثُهُ التكبُّرُ ، ومانعُهُ عنِ المحافلِ ألا يُوقَّرَ

= لا ينتقلون كما أن الأحلاس لا تنقل ، وفي هٰذا إشارة إلىٰ كمال التواضع . « إتحاف » (٦/ ٣٦٩) .

(١) لأن التواضع تفاعل يقتضي الاثنينية . « إتحاف » (٦/ ٣٧٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٣) ، وتقدم مختصراً .

أوْ لا يُقدَّمَ ، أوْ يرى الترفُّعَ عنْ مخالطتِهِمْ أرفعَ لمحلِّهِ ، وأبقىٰ لطراوةِ ذكرِهِ بينَ الناسِ .

وقدْ يعتزلُ خيفةً مِنْ أنْ تظهرَ مقابحُهُ لوْ خالطَ ، فلا يُعتقدُ فيهِ الزهدُ والاشتغالُ بالعبادةِ ، فيتخذُ مِنَ البيتِ ستراً علىٰ مقابحِهِ ؛ إبقاءً على اعتقادِ الناسِ في زهدِهِ وتعبُّدِهِ مِنْ غيرِ استغراقِ وقتٍ في الخلوةِ بذكرٍ أوْ فكرٍ .

وعلامةُ هؤلاءِ : أنَّهُمْ يحبُّونَ أنْ يُزاروا ولا يحبُّونَ أنْ يزوروا ، ويفرحونَ بتقرُّبِ العوامِّ والسلاطينِ إليهِمْ ، واجتماعِهِمْ علىٰ بابِهِمْ وطريقِهِمْ ، وتقبيلِهِمْ أيديَهُمْ علىٰ سبيلِ التبرُّكِ ، ولوْ كانَ الاشتغالُ بنفسِهِ هوَ الذي يبغِّضُ إليهِ المخالطةَ وزيارةَ الناسِ .. لبغضَ إليهِ زيارتَهُمْ لهُ ؛ كما حكيناهُ عنِ الفضيلِ حيثُ قالَ : (وهلْ جئتَني إلا لأتزيَّنَ لكَ وتتزيَّنَ لي ؟!)[1] ، وعنْ حاتمٍ الأصمِّ أنَّهُ قالَ للأميرِ الذي زارَهُ : (حاجتي ألاَّ أراكَ ولا تراني) .

فمَنْ ليسَ مشغولاً معَ نفسِهِ بذكرِ اللهِ .. فاعتزالُهُ عنِ الناسِ سببُهُ شدَّةُ اشتغالِهِ بالناسِ ؛ لأنَّ قلبَهُ متجرِّدٌ للالتفاتِ إلىٰ نظرِهِمْ إليهِ بعينِ الوقارِ والاحترامِ .

والعزلةُ لهٰذا السببِ جهلٌ مِنْ وجوهٍ :

أحدُها : أنَّ التواضعَ والمخالطةَ لا تنقُصُ مِنْ منصبِ مَنْ هوَ كبيرٌ بعلمِهِ أوْ دينِهِ ؛ إذْ كانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يحملُ التمرَ والملحَ في ثوبِهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٧٢) .

ويدِهِ ويقولُ(١) : [من الرجز]

لا يَنْقُصُ ٱلْكامِلَ مِنْ كَمالِهِ ... ما جَرَّ مِنْ نَفْعٍ إِلَىٰ عِيالِهِ

وكانَ أبو هريرةَ وحذيفةُ وأُبيٌّ وابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ يحملونَ حزمةَ الحطبِ وجرابَ الدقيقِ علىٰ أكتافِهِمْ(٢) .

وكانَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ وهو والي المدينةِ والحطبُ علىٰ رأسِهِ : طرِّقوا لأميرِكُمْ(٣) .

وكانَ سيِّدُ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يشتري الشيءَ فيحملُهُ إلىٰ بيتِهِ بنفسِهِ ، فيقولُ لهُ صاحبُهُ : أعطني أحملْهُ ، فيقولُ : « صاحبُ الشيءِ أحقُّ بحملِهِ »(٤) .

وكانَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما يمرُّ بالسُّؤَّالِ وبينَ أيديهِمْ كِسَرٌ ، فيقولونَ : هلمَّ إلى الغداءِ يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ فكانَ ينزلُ ويجلسُ على الطريقِ ويأكلُ معَهُمْ ، ثمَّ يركبُ ويقولُ : إنَّ اللهَ لا يحبُّ المستكبرينَ .

---

(١) ديوان سيدنا علي (ص ٢١٢) ، وهو أيضاً لمحمد بن كناسة . انظر « الأغاني » (١٣/ ٤٨٥١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٣) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٦٩) .
(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٦٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٠) ، ومن سأله الحمل عنه هو سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان قد اشترىٰ صلى الله عليه وسلم سراويل له يلبسه .

الوجهُ الثاني : أنَّ الذي شغلَ نفسَهُ بطلبِ رضا الناسِ عنهُ ، وتحسينِ اعتقادِهِمْ فيهِ . . مغرورٌ ؛ لأنَّهُ لوْ عرفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ . . علمَ أنَّ الخلقَ لا يغنونَ عنهُ مِنَ اللهِ شيئاً ، وأنَّ ضررَهُ ونفعَهُ بيدِ اللهِ ، فلا نافعَ ولا ضارَّ سواهُ ، وأنَّ مَنْ طلبَ رضا الناسِ ومحبَّتَهُمْ بسخطِ اللهِ . . سخطَ اللهُ عليهِ وأسخطَ عليهِ الناسَ(١) ، بلْ رضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ ، فرضا اللهِ أولىٰ بالطلبِ ، ولذلكَ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ ليونسَ بنِ عبدِ الأعلىٰ : واللهِ ؛ ما أقولُ لكَ إلا نصحاً ، إنَّهُ ليسَ إلى السلامةِ مِنَ الناسِ سبيلٌ ، فانظرْ ما يصلحُكَ فافعلْهُ(٢) .

ولذلكَ قيلَ(٣) :	[من مخلع البسيط]

مَـنْ راقَـبَ ٱلنَّـاسَ مـاتَ غَمّـاً	وَفــازَ بِــٱللَّــذَّةِ ٱلْجَسُــورُ

ونظرَ سهلٌ إلىٰ واحدٍ مِنْ أصحابِهِ فقالَ : اعملْ كذا وكذا ـ لشيءٍ أمرَهُ بهِ ـ فقالَ : يا أستاذُ ؛ لا أقدرُ عليهِ لأجلِ الناسِ ، فالتفتَ إلىٰ أصحابِهِ وقالَ : (لا ينالُ عبدٌ حقيقةً مِنْ هٰذا الأمرِ حتَّىٰ يكونَ بأحدِ وصفينِ : عبدٌ تسقطُ الناسُ مِنْ عينِهِ ، فلا يرىٰ في الدنيا إلا خالقَهُ ، وأنَّ أحداً لا يقدرُ علىٰ أنْ يضرَّهُ

---

(١) وهو معنىٰ حديث رواه الترمذي (٢٤١٤) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من التمس رضا الله بسخط الناس . . كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله . . وَكَلَهُ اللهُ إلى الناس » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٣٣) .

(٣) البيت لسلم الخاسر في « ديوانه » (ص ١٠٤) ضمن « شعراء عباسيون » لغرونباوم .

ولا ينفعَهُ ، وعبدٌ سقطَتْ نفسُهُ عنْ قلبِهِ ، فلا يبالي بأيِّ حالٍ يرونَهُ)[١] .

وقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (ليسَ مِنْ أحدٍ إلا ولهُ محبٌّ ومبغضٌ ، فإذا كانَ هـٰكذا . . فكنْ معَ أهلِ طاعةِ اللهِ)[٢] .

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّ قوماً يحضرونَ مجلسَكَ ليسَ بغيتُهُمْ إلا تتبُّعَ سقطاتِ كلامِكَ ، وتعنُّتَكَ بالسؤالِ ! فتبسَّمَ وقالَ للقائلِ : هوِّنْ عليكَ ، فإنِّي حدثتُ نفسي بسكنى الجنانِ ومجاورةِ الرحمـٰنِ فطمعَتْ ، وما حدثتُ نفسي بالسلامةِ مِنَ الناسِ ؛ لأنِّي قدْ علمتُ أنَّ خالقَهُمْ ورازقَهمْ ومحييَهُمْ ومميتَهُمْ لمْ يسلمْ منهُمْ[٣] .

وقالَ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا ربِّ ؛ احبسْ عنِّي ألسنةَ الناسِ ، فقالَ : يا موسى ؛ هـٰذا شيءٌ لمْ أصطفِهِ لنفسي ، فكيفَ أفعلُهُ بكَ ؟![٤] .

وأوحى اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ عُزيرٍ : إنْ لمْ تطبْ نفساً بأنْ أجعلَكَ عِلكاً في أفواهِ الماضغينَ . . لمْ أكتبْكَ عندي مِنَ المتواضعينَ[٥] .

فإذاً ؛ مَنْ حبسَ نفسَهُ في البيتِ ليحسِّنَ اعتقاداتِ الناسِ وأقوالَهُمْ فيهِ . . فهوَ في عناءٍ حاضرٍ في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٤) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١١٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٣٤) وتمامه : (فكيف أحدث نفسي بالسلامة منهم ؟!) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٣٤) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٣٤) .

فإذاً ؛ لا تُستحبُّ العزلةُ إلا لمستغرقِ الأوقاتِ بربِّهِ ذكراً وفكراً ، وعبادةً وعلماً ؛ بحيثُ لوْ خالطَ الناسَ . . لضاعَتْ أوقاتُهُ ، وكثرَتْ آفاتُهُ ، وتشوَّشَتْ عليهِ عباداتُهُ .

فهٰذهِ غوائلُ خفيةٌ في اختيارِ العزلةِ ، ينبغي أنْ تُتقىٰ ؛ فإنَّها مهلكاتٌ في صورِ منجياتٍ .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ السابعةُ : التجارِبُ :

فإنَّها تُستفادُ مِنْ مخالطةِ الخلقِ ومجاري أحوالِهِمْ ، والعقلُ الغريزيُّ ليسَ كافياً في تفهُّمِ مصالحِ الدينِ والدنيا ، وإنَّما تفيدُها التجربةُ والممارسةُ ، ولا خيرَ في عزلةِ مَنْ لمْ تحنِّكْهُ التجارِبُ ، فالصبيُّ إذا اعتزلَ . . بقيَ غُمراً جاهلاً ، بلْ ينبغي أنْ يشتغلَ بالتعلُّمِ ليحصلَ لهُ في مدَّةِ التعلُّمِ ما يحتاجُ إليهِ مِنَ التجارِبِ ، ويكفيهِ ذلكَ ، ويحصِّلُ بقيةَ التجارِبِ بسماعِ الأحوالِ ، فلا يحتاجُ إلى المخالطةِ .

ومِنْ أهمِّ التجارِبِ : أنْ يجرِّبَ نفسَهُ وأخلاقَهُ وصفاتِ باطنِهِ ، وذلكَ لا يقدرُ عليهِ في الخلوةِ ؛ فإنَّ كلَّ مجرَّبٍ في الخلاءِ يسيرٌ ، وكلَّ غضوبٍ أوْ حقودٍ أوْ حسودٍ إذا خلا بنفسِهِ . . لمْ يترشَّحْ منهُ خبثُهُ ، وهٰذهِ الصفاتُ مهلكاتٌ في أنفسِها ، يجبُ إماطتُها وقهرُها ، ولا يكفي تسكينُها بالتباعدِ عمَّا يحرِّكُها .

فمثالُ القلبِ المشحونِ بهٰذه الخبائثِ مثالُ دُمَّلٍ ممتلىءٍ بالصديدِ والمِدَّةِ(١) ، وقدْ لا يحسُّ صاحبُهُ بألمِهِ ما لمْ يتحرَّكْ أوْ يمسُّهُ غيرُهُ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ يدٌ تمسُّهُ ، أوْ عينٌ تبصرُ صورتَهُ ، ولمْ يكنْ معَهُ مَنْ يحرِّكُهُ . . ربَّما ظنَّ بنفسِهِ السلامةَ ، ولمْ يشعرْ بالدُّمَّلِ في نفسِهِ ، واعتقدَ فقدَهُ ، ولكنْ لوْ حرَّكَهُ محرِّكٌ ، أوْ أصابَهُ مِشرطُ حجَّامٍ . . انفجرَ منهُ الصديدُ وفارَ فورانَ الشيءِ المحتقنِ إذا حُبِسَ عنِ الاسترسالِ ؛ فكذلكَ القلبُ المشحونُ بالبخلِ والحقدِ والغضبِ والحسدِ وسائرِ الأخلاقِ الذميمةِ إنَّما تتفجرُ منهُ خبائثُهُ إذا حُرِّكَ .

وعنْ هٰذا كانَ السالكونَ لطريقِ الآخرةِ ، الطالبونَ لتزكيةِ القلوبِ يجرِّبونَ أنفسَهُمْ ، فمَنْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ كِبْراً . . سعىٰ في إماطتِهِ حتىٰ كانَ بعضُهُمْ يحملُ قِربةَ ماءٍ علىٰ ظهرِهِ بينَ الناسِ ، أوْ حزمةَ حطبٍ علىٰ رأسِهِ ويتردَّدُ في الأسواقِ ؛ ليجرِّبَ بهِ نفسَهُ ، فإنَّ غوائلَ النفسِ ومكايدَ الشيطانِ خفيَّةٌ ، قلَّ منْ يتفطَّنُ لها .

ولذلكَ حُكِيَ عَنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : أعدتُ صلاةَ ثلاثينَ سنةً معَ أنِّي كنتُ أصلِّيها في الصفِّ الأوَّلِ ، ولكنْ تخلَّفْتُ يوماً لعذرٍ ، فما وجدتُ موضعاً في الصفِّ الأوَّلِ ، فوقفتُ في الصفِّ الثاني ، فوجدتُ نفسي تستشعرُ خجلةً منْ نظرِ الناسِ إليَّ ، وقدْ سُبقتُ إلى الصفِّ الأوَّلِ ، فعلمتُ أنَّ جميعَ صلواتي

---

(١) المِدَّة : ما يجتمع في الجرح من القيح .

كانَتْ مشوبةً بالرياءِ ، ممزوجةً بلذَّةِ نظرِ الناسِ إليَّ ورؤيتِهِمْ إيَّايَ في زمرةِ السابقينَ إلى الخيرِ .

فالمخالطةُ لها فائدةٌ ظاهرةٌ عظيمةٌ في استخراجِ الخبائثِ وإظهارِها ، ولذلكَ قيلَ : (السفرُ يُسْفِرُ عنِ الأخلاقِ) ؛ فإنَّهُ نوعٌ مِنَ المخالطةِ الدائمةِ .

وستأتي غوائلُ هـٰذهِ المعاني ودقائقُها في ربعِ المهلكاتِ ، فإنَّ بالجهلِ بها يحبطُ العملُ الكثيرُ ، وبالعلمِ بها يزكو العملُ القليلُ ، ولولا ذلكَ . . لما فضلَ العلمُ على العملِ ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يكونَ العلمُ بالصلاةِ ولا يُرادُ إلا للصلاةِ أفضلَ مِنَ الصلاةِ ؛ فإنَّا نعلمُ أنَّ ما يُرادُ لغيرِهِ فذلكَ الغيرُ أشرفُ منهُ ، وقدْ قضى الشرعُ بتفضيلِ العالمِ على العابدِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضْلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدْنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[1] ، **فمعنىٰ تفضيلِ العلمِ يرجعُ إلىٰ ثلاثةِ أوجهٍ** :

أحدُها : ما ذكرناهُ .

والثاني : عمومُ نفعِهِ ؛ إذْ تتعدَّىٰ فائدتُهُ ، والعملُ لا يتعدَّىٰ .

والثالثُ : أنْ يُرادَ بهِ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فذلكَ أفضلُ مِنْ كلِّ عملٍ ، بلْ مقصودُ الأعمالِ صرْفُ القلوبِ عنِ الخلقِ إلى الخالقِ ؛ لتنبعثَ بعدَ الانصرافِ إليهِ لمعرفتِهِ ومحبَّتِهِ ، فالعملُ وعلمُ العملِ مرادانِ لهـٰذا العلمِ .

وهـٰذا العلمُ غايةُ المريدينَ ، والعملُ كالشرطِ لهُ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فالكلمُ الطيِّبُ : هوَ هـٰذا العلمُ ، والعملُ الصالحُ كالحمَّالِ الرافعِ لهُ إلىٰ مقصدِهِ ، فيكونُ المرفوعُ أفضلَ مِنَ الرافعِ .

وهـٰذا كلامٌ معترِضٌ لا يليقُ بهـٰذا الكلامِ ، فلنرجعْ إلى المقصودِ فنقولُ :

إذا عرفتَ فوائدَ العزلةِ وغوائلَها.. تحققتَ أنَّ الحكمَ عليها مطلقاً بالتفضيلِ نفياً وإثباتاً خطأٌ ، بلْ ينبغي أنْ يُنظرَ إلى الشخصِ وحالِهِ ، وإلى الخليطِ وحالِهِ ، وإلى الباعثِ علىٰ مخالطتِهِ وإلى الفائتِ بسببِ مخالطتِهِ مِنْ هـٰذهِ الفوائدِ المذكورةِ ، ويُقاسُ الفائتُ بالحاصلِ ، فعندَ ذلكَ يتبيَّنُ الحقُّ ، ويتضحُ الأفضلُ .

وكلامُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ هوَ فصْلُ الخطابِ ؛ إذْ قالَ : (يا يونسُ ؛ الانقباضُ عنِ الناسِ مكسبةٌ للعداوةِ ، والانبساطُ إليهِمْ مجلبةٌ لقرناءِ السوءِ ، فكُنْ بينَ المنقبضِ والمنبسطِ)(١) .

فلذلكَ يجبُ الاعتدالُ في المخالطةِ والعزلةِ ، ويختلفُ ذلكَ بالأحوالِ ، وبملاحظةِ الفوائدِ والآفاتِ يتبيَّنُ الأفضلُ ، هـٰذا هوَ الحقُّ الصُّراحُ ، وكلُّ ما ذُكرَ سوىٰ هـٰذا فهوَ قاصرٌ ، وإنَّما هوَ إخبارُ كلِّ واحدٍ عنْ حالةٍ خاصَّةٍ هوَ فيها ، فلا يجوزُ أنْ يحكمَ بها علىٰ غيرِهِ المخالفِ لهُ في الحالِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٢٢) ، ويونس هو ابن عبد الأعلى الصدفي .

والفرقُ بينَ العالِمِ والصوفيِّ في ظاهرِ العلمِ يرجعُ إلىٰ هـٰذا ؛ وهوَ أنَّ الصوفيَّ لا يتكلَّمُ إلا عنْ حالِهِ ، فلا جرمَ تختلفُ أجوبتُهُمْ في المسائلِ ، والعالمُ هوَ الذي يدركُ الحقَّ علىٰ ما هوَ عليهِ ، ولا ينظرُ إلىٰ حالِ نفسِهِ ، فيكشفُ الحقَّ فيهِ ، وذلكَ ممَّا لا يُختلفُ فيهِ ؛ فإنَّ الحقَّ واحدٌ أبداً ، والقاصرُ عنِ الحقِّ كثيرٌ لا ينحصرُ .

ولذلكَ سُئِلَ الصوفيَّةُ عنِ الفقرِ ، فما مِنْ واحدٍ إلا وأجابَ بجوابٍ غيرِ جوابِ الآخرِ ، وكلُّ ذلكَ حقٌّ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِ ، وليسَ بحقٍّ في نفسِهِ ؛ إذِ الحقُّ لا يكونُ إلا واحداً .

ولذلكَ قالَ أبو عبدِ اللهِ الجلاءُ وقدْ سُئِلَ عنِ الفقرِ فقالَ : (اضربْ بكمَّيْكَ الحائطَ وقُلْ : ربِّيَ اللهُ ، فهوَ الفقرُ)(١) .

وقالَ الجنيدُ : (الفقيرُ : هوَ الذي لا يسألُ أحداً ولا يعارِضُ ، وإنْ عُورِضَ . . سكتَ)(٢) .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (الفقيرُ : الذي لا يسألُ ولا يدَّخرُ)(٣) .

وقالَ آخرُ : (هو ألا يكونَ لكَ ، فإذا كانَ لكَ . . فلا يكونُ لكَ ،

---

(١) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٧٤) ، وهو إشارة إلىٰ كمال التخلي عن الدنيا ، وصدق التوجه والالتجاء إلى الله تعالىٰ . « إتحاف » (٦/ ٣٧٥) .
(٢) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٧٥) .
(٣) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٧٥) ، وفيه : (لا يسأل ولا يرد ولا يحبس) .

ومِنْ حيثُ لمْ يكنْ لكَ . . لمْ يكنْ لكَ)[١] .

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : (هوَ تركُ الشكوىٰ ، وإظهارُ أثرِ البلوىٰ)[٢] .

والمقصودُ : أنَّهُ لوْ سُئِلَ منهُمْ مئةٌ . . لسُمِعَ منهُمْ مئةُ جوابٍ مختلفةٌ ، قلَّما يتفقُ منها اثنانِ ، وذلكَ كلُّهُ حقٌّ مِنْ وجهٍ ؛ فإنَّهُ خبرُ كلِّ واحدٍ عنْ حالِهِ وما غلبَ علىٰ قلبِهِ ، ولذلكَ لا ترى اثنينِ منهُمْ يُثبتُ أحدُهُما لصاحبِهِ قدماً في التصوفِ أوْ يثني عليهِ ، بلْ كلُّ واحدٍ منهُمْ يدَّعي أنَّهُ الواصلُ إلى الحقِّ والواقفُ عليهِ ؛ لأنَّ أكثرَ تردُّدِهِمْ علىٰ مقتضى الأحوالِ التي تعرضُ لقلوبِهِمْ ، فلا يشتغلونَ إلا بأنفسِهِمْ ، ولا يلتفتونَ إلىٰ غيرِهِمْ .

ونورُ العلمِ إذا أشرقَ . . أحاطَ بالكلِّ ، وكشفَ الغطاءَ ، ورفعَ الاختلافَ .

ومثالُ نظرِ هؤلاءِ ما رأيتَ مِنْ نَظرِ قومٍ في أدلَّةِ الزوالِ بالنظرِ في الظلِّ ، فقالَ بعضُهُمْ : هوَ في الصيفِ قدمانِ ، وحُكيَ عنْ آخرَ أنَّهُ نصفُ قدمٍ ، وآخرَ يردُّ عليهِ وأنَّهُ في الشتاءِ سبعةُ أقدامٍ ، وحُكِيَ عنْ آخرَ أنَّهُ خمسةُ أقدامٍ ، وآخرَ يردُّ عليهِ ، فهـٰذا يشبهُ أجوبةَ الصوفيةِ واختلافَهُمْ ؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ أخبرَ عنِ الظلِّ الذي رآهُ ببلدِ نفسِهِ ، فصدقَ في قولِهِ ، وأخطأَ في تخطئتِهِ صاحبَهُ ؛ إذْ ظنَّ أنَّ العالمَ كلَّهُ بلدُهُ ، أوْ هوَ مثلُ بلدِهِ ،

---

(١) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٧٥) ، وهو لابن الجلاء كذلك .
(٢) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٧٥) .

كما أنَّ الصوفيَّ لا يحكمُ على العالمِ إلا بما هوَ حالُ نفسِهِ .

والعالمُ بالزوالِ هوَ الذي يعرفُ علَّةَ طولِ الظلِّ وقِصَرِهِ ، وعلَّةَ اختلافِهِ بالبلادِ ، فيخبرُ بأحكامٍ مختلفةٍ في بلادٍ مختلفةٍ ، ويقولُ في بعضِها : لا يبقىٰ ظلٌّ ، وفي بعضِها : يطولُ ، وفي بعضِها : يقصُرُ ، فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنْ فضيلةِ العزلةِ والمخالطةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فمَنْ آثرَ العزلةَ ورآها أفضلَ لهُ وأسلمَ . . فما آدابُهُ في العزلةِ ؟

فنقولُ : إنَّما يطولُ النظرُ في آدابِ المخالطةِ ، وقدْ ذكرناها في كتابِ آدابِ الصحبةِ .

وأمَّا آدابُ العزلةِ . . فلا تطولُ ، فينبغي للمعتزلِ أنْ ينويَ بعزلتِهِ كفَّ شرِّ نفسِهِ عنِ الناسِ **أوَّلاً** ، ثمَّ طلبَ السلامةِ مِنْ شرِّ الأشرارِ **ثانياً**[1] ، ثمَّ الخلاصَ مِنْ آفةِ القصورِ عنِ القيامِ بحقوقِ المسلمينَ **ثالثاً** ، ثمَّ التجرُّدَ بكنْهِ الهمَّةِ لعبادةِ اللهِ **رابعاً** . **فهٰذهِ آدابُ نيَّتِهِ** .

ثمَّ ليكنْ في خلوتِهِ مواظباً على العلمِ والعملِ ، والذكْرِ والفكْرِ ؛ ليجتنيَ

---

(١) وإنما قال المصنف : (من شر الأشرار) ، ولم يقل : (من شرهم) إشارة إلىٰ أنه ليس كل خليط شريراً ، فإذا لم يكن كذلك . . فلا يطلب السلامة منه ؛ لأنه لا شر عنده ، وهو احتراس حسن ، وإن كان يفهم من قولهم : (من شرهم) أي : من شر أشرارهم . « إتحاف » (٦/ ٣٧٧) .

ثمرةَ العزلةِ ، وليمنعَ الناسَ عنْ أنْ يكثروا غشيانَهُ وزيارتَهُ ، فيتشوَّشَ وقتُهُ ، وليكفَّ عنِ السؤالِ عنْ أخبارِهِمْ ، وعنِ الإصغاءِ إلىٰ أراجيفِ البلدِ ، وما الناسُ مشغولونَ بهِ ، فإنَّ كلَّ ذلكَ ينغرسُ في القلبِ حتَّىٰ ينبعثَ في أثناءِ الصلاة أوِ الفكرِ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ ، فوقوعُ الأخبارِ في السمعِ كوقوعِ البذْرِ في الأرضِ ، فلا بدَّ أنْ ينبتَ وتتفرَّعَ عروقُها وأغصانُها ، ويتداعىٰ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وأحدُ مهمَّاتِ المعتزلِ قطعُ الوساوسِ الصارفةِ عنْ ذكرِ اللهِ ، والأخبارُ ينابيعُ الوساوسِ وأصولُها .

وليقنعْ باليسيرِ مِنَ المعيشةِ ، وإلا . . اضطرَّهُ التوسُّعُ إلى الناسِ ، واحتاجَ إلىٰ مخالطتِهِمْ .

وليكنْ صبوراً علىٰ ما يلقاهُ مِنْ أذى الجيرانِ ، وليسدَّ سمعَهُ عنِ الإصغاءِ إلىٰ ما يُقالُ فيهِ مِنْ ثناءٍ عليهِ بالعزلةِ ، أوْ قدْحٍ فيهِ بترْكِ الخلطةِ ؛ فإنَّ كلَّ ذلكَ يؤثِّرُ في القلبِ ولوْ مدَّةً يسيرةً ، وحالَ اشتغالِ القلبِ بهِ لا بدَّ أنْ يكونَ واقفاً عنْ سيرِهِ في طريقِ الآخرةِ ؛ فإنَّ السيرَ إمَّا **بالمواظبةِ** علىٰ وِرْدٍ وذكْرٍ معَ حضورِ قلبٍ ، وإمَّا **بالفكرِ** في جلالِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وملكوتِ سماواتِهِ وأرضِهِ ، وإمَّا **بالتأمُّلِ** في دقائقِ الأعمالِ ومفسداتِ القلوبِ وطلبِ طرقِ التحصُّنِ منها ، وكلُّ ذلكَ يستدعي الفراغَ ، والإصغاءُ إلىٰ جميعِ ذلكَ ممَّا يشوِّشُ القلبَ في الحالِ ، وقدْ يتجدَّدُ ذكرُهُ في دوامِ الذكرِ مِنْ حيثُ لا ينتظرُ .

وليكنْ لهُ أهلٌ صالحةٌ أوْ جليسٌ صالحٌ لتستريحَ نفسُهُ إليهِ في اليومِ ساعةً

عنْ كدِّ المواظبةِ ، ففيهِ عونٌ علىٰ بقيّةِ الساعاتِ .

ولا يتمُّ لهُ الصبرُ في العزلةِ إلا بقطْعِ الطمعِ عنِ الدنيا وما الناسُ منهمكونَ فيهِ ، ولا ينقطعُ طمعُهُ إلا بقصَرِ الأملِ ، بألا يقدِّرَ لنفسِهِ عمراً طويلاً ، بلْ يصبحُ علىٰ أنَّهُ لا يمسي ، ويمسي علىٰ أنَّهُ لا يصبحُ ، فيسهلُ عليهِ صبرُ يومٍ ، ولا يسهلُ عليهِ العزمُ على الصبرِ عشرينَ سنةً لوْ قدَّرَ تراخي الأجلِ .

وليكنْ كثيرَ الذكرِ للموتِ ووحدةِ القبرِ مهما ضاقَ قلبُهُ مِنَ الوحدةِ ، وليتحقَّقْ أنَّ منْ لمْ يحصلْ في قلبِهِ مِنْ ذكرِ اللهِ ومعرفتِهِ ما يأنسُ بهِ . . فلا يطيقُ وحشةَ الوحدةِ بعدَ الموتِ ، وأنَّ مَن أنسَ بذكرِ اللهِ ومعرفتِهِ . . فلا يزيلُ الموتُ أنسَهُ ؛ إذ لا يهدمُ الموتُ محلَّ الأنسِ والمعرفةِ ، بلْ يبقىٰ حيّاً بمعرفتِهِ وأنسِهِ ، فرحاً بفضْلِ اللهِ عليهِ ورحمتِهِ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ في الشهداءِ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، وكلُّ متجرِّدٍ للهِ في جهادِ نفسِهِ فهوَ شهيدٌ مهما أدركَهُ الموتُ مقبلاً غيرَ مدبرٍ ، فالمجاهدُ مَن جاهدَ نفسَهُ وهواهُ ؛ كما صرَّحَ بِهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) ، والجهادُ الأكبرُ جهادُ النفسِ ،

---

(١) رواه الترمذي (١٦٢١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٦٢٤) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٢٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ١١) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٣٠٩) .

كما قالَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم : (رجعنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ)[1] يعنونَ جهادَ النفسِ .

* * *

تمّ كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السّادس من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين

والصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب آداب السّفر

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٨) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (ص١١٨) عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » .

كِتَابُ
آدَابِ السَّفَرِ

وهو الكتاب السابع من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آداب السَّفر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي فتحَ بصائرَ أوليائِهِ بالحكمِ والعبرِ ، واستخلصَ هممَهُمْ لمشاهدةِ عجائبِ صنعِهِ في الحضرِ والسفرِ ، فأصبحوا راضينَ بمجاري القدرِ ، منزِّهينَ قلوبَهُمْ عنِ التلفُّتِ إلىٰ مُنتزهاتِ البصرِ ، إلا علىٰ سبيلِ الاعتبارِ بما يسنحُ في مسارحِ النظرِ ومجاري الفكرِ ، فاستوىٰ عندَهُمْ البرُّ والبحرُ ، والسهلُ والوعرُ ، والبدوُ والحضرُ .

والصلاةُ علىٰ محمَّدٍ سيِّدِ البشرِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابه المقتفينَ لآثارِهِ في الأخلاقِ والسيرِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ السفرَ وسيلةٌ إلى الخلاصِ عنْ مهروبٍ عنْهُ ، أوِ الوصولِ إلىٰ مطلوبٍ مرغوبٍ فيهِ .

والسفر سفران : سفرٌ بظاهرِ البدنِ عنِ المستقرِّ والوطنِ إلى الصحارىٰ والفلواتِ ، **وسفرٌ بسيرِ القلبِ** عنْ أسفلِ السافلينَ إلىٰ ملكوتِ السماواتِ ، وأشرفُ السفرينِ السفرُ الباطنُ .

فإنَّ الواقفَ على الحالةِ التي نشأَ عليها عَقيبَ الوِلادةِ ، الجامدَ علىٰ

ما تلقَّنَهُ بالتقليدِ مِنَ الآباءِ والأجدادِ.. لازمٌ درجةَ القصورِ، وقانعٌ برتبةِ النقْصِ، ومستبدلٌ بمتسعِ فضاءِ جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ظلمةَ السجنِ وضيقَ الحبسِ، وقدْ صدقَ القائلُ[1]:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ شَيْئاً   كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِينَ عَلَى ٱلتَّمَامِ

إلا أنَّ هـٰذا السفرَ لمَّا كانَ مقتحِمُهُ في خطْبٍ خطيرٍ.. لمْ يستغنِ فيهِ عنْ دليلٍ وخفيرٍ، فاقتضىٰ غموضُ السبيلِ، وفقدُ الخفيرِ والدليلِ، وقناعةُ السالكينَ عنِ الحظِّ الجزيلِ بالنصيبِ النازلِ القليلِ.. اندراسَ مسالكِهِ، فانقطعَ فيهِ الرفاقُ، وخلا عنِ الطائفينَ[2] منتزهاتُ الأنفسِ والملكوتِ والآفاقِ.

وإليهِ دعا اللهُ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾، وبقولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

وعلى القعودِ عنْ هـٰذا السفرِ وقعَ الإنكارُ بقولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، وبقولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

فمَنْ تيسَّرَ لهُ هـٰذا السفرُ.. لمْ يزلْ في سيرِهِ متنزِّهاً في جنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ وهوَ ساكنٌ بالبدنِ، مستقرٌّ في الوطنِ، وهوَ السفرُ الذي

---

(١) البيت من الوافر، وهو للمتنبي في «ديوانه بشرح العكبري» (٤/١٤٥).
(٢) في (أ): (الطالبين) بدل (الطائفين).

لا تضيقُ فيهِ المناهلُ والمواردُ ، ولا يضرُّ فيهِ التزاحمُ والتواردُ ، بلْ تزيدُ بكثرةِ المسافرينَ غنائمُهُ ، وتتضاعفُ ثمراتُهُ وفوائدُهُ ، فغنائمُهُ دائمةٌ غيرُ ممنوعةٍ ، وثمراتُهُ متزايدةٌ غيرُ مقطوعةٍ ، إلا إذا بدا للمسافرِ فترةٌ في سفرِه ووَقفةٌ في حركتِهِ ، فإنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتَّىٰ يغيِّروا ما بأنفسِهِمْ ، وإذا زاغوا . . أزاغَ اللهُ قلوبَهُمْ ، وما اللهُ بظلَّامٍ للعبيدِ ، ولكنَّهُمْ يظلمونَ أنفسَهُمْ .

ومَنْ لمْ يؤهَّلْ للجَوَلانِ في هٰذا الميدانِ ، والتطوافِ في متنزَّهاتِ هٰذا البستانِ . . ربَّما سافرَ بظاهرِ بدنِهِ في مدَّةٍ مديدةٍ فراسخَ معدودةً ، مغتنماً بها تجارةً للدنيا أوْ ذخيرةً للآخرةِ ، فإنْ كانَ مطلبُهُ العلمَ والدينَ ، أوِ الكفايةَ للاستعانةِ على الدينِ . . كانَ مِنْ سالكي سبيلِ الآخرةِ ، وكانَ لهُ في سفرِه شروطٌ وآدابٌ إنْ أهملَها . . كانَ مِنْ عمَّالِ الدنيا وأتباعِ الشيطانِ ، وإنْ واظبَ عليها . . لمْ يخلُ سفرُهُ عنْ فوائدَ تُلحقُهُ بعمَّالِ الآخرةِ وأولياءِ الرحمٰنِ ، ونحنُ نذكرُ آدابَهُ وشروطَهُ في بابينِ :

البابُ الأوَّلُ : في الآدابِ مِنْ أوَّلِ النهوضِ إلىٰ آخرِ الرجوعِ ، وفي نيَّةِ السفرِ وفائدتِهِ .

البابُ الثاني : فيما لا بدَّ للمسافرِ مِنْ تعلُّمِهِ مِنْ رخصِ السفرِ وأدلَّةِ القبلةِ والأوقاتِ .

❊ ❊ ❊

البابُ الأوّلُ
في الآداب من أوّل النهوض إلى آخر الرجوع ، وفي نيّة السّفر وفائدته
وفيه فصلان

الفَصلُ الأوّلُ
في فوائد السّفر وفضله ونيّته

اعلمْ : أنَّ السفرَ نوعُ حركةٍ ومخالطةٍ ، وفيهِ فوائدُ ولهُ آفاتٌ كما ذكرناهُ في كتابِ الصحبةِ والعزلةِ .

والفوائدُ الباعثةُ على السفرِ لا تخلو مِنْ هربٍ أوْ طلبٍ ، فإنَّ المسافرَ إمَّا أنْ يكونَ لهُ مزعجٌ عنْ مُقامِهِ ولولاهُ لما كانَ لهُ مقصدٌ يسافرُ إليهِ ، وإمَّا أنْ يكونَ لهُ مقصدٌ ومطلبٌ .

والمهروبُ عنهُ : إمَّا أمرٌ لهُ نكايةٌ في الأمورِ الدنيويةِ ؛ كالطاعونِ والوباءِ إذا ظهرَ ببلدٍ ، أوْ خوفٌ سببُهُ فتنةٌ أوْ خصومةٌ ، أوْ غلاءُ سعرٍ .

وهوَ إمَّا عامٌّ ؛ كما ذكرناهُ ، أوْ خاصٌّ ؛ كمَنْ يُقصدُ بأذيَّةٍ في بلدِهِ فيهربُ منها ، وإمَّا أمرٌ لهُ نكايةٌ في الدينِ ؛ كمَنِ ابتليَ في بلدِهِ بجاهٍ ومالٍ واتساعِ أسبابٍ تصدُّهُ عنِ التجرُّدِ للهِ ، فيؤثرُ الغربةَ والخمولَ ، ويجتنبُ السعةَ والجاهَ ، أوْ كمَنْ يُدعىٰ إلىٰ بدعةٍ قهراً ، أوْ إلىٰ ولايةِ عملٍ

لا تحلُّ مباشرتُهُ ، فيطلبُ الفرارَ منهُ .

وأمَّا المطلوبُ . فهوَ إمَّا دنيويٌّ كالمالِ والجاهِ ، أوْ دينيٌّ .

والدينيٌّ إمَّا علمٌ وإمَّا عملٌ .

والعلمُ إمَّا علمٌ مِنَ العلومِ الدينيةِ ، وإمَّا علمٌ بأخلاقِ نفسِهِ وصفاتِهِ علىٰ سبيلِ التجربةِ ، وإمَّا علمٌ بآياتِ الأرضِ وعجائبِها ؛ كسفرِ ذي القرنينِ وطوافِهِ في نواحي الأرضِ .

والعملُ إمَّا عبادةٌ وإمَّا زيارةٌ .

والعبادةُ هيَ الحجُّ والعمرةُ والجهادُ ، والزيارةُ أيضاً مِنَ القرباتِ ، وقدْ يُقصدُ بها مكانٌ ؛ كمكَّةَ والمدينةِ وبيتِ المقدسِ والثغورِ ؛ فإنَّ الرباطَ بها قربةٌ ، وقدْ يُقصدُ بها الأولياءُ والعلماءُ ، وهُمْ إمَّا موتىٰ فتُزارُ قبورُهُمْ ، وإمَّا أحياءٌ فيُتبرَّكُ بمشاهدتِهِمْ ، ويُستفادُ مِنَ النظرِ إلىٰ أحوالِهِمْ قوَّةُ الرغبةِ في الاقتداءِ بهِمْ .

* * *

فهٰذهِ هيَ أقسامُ الأسفارِ ، ويخرجُ مِنْ هٰذهِ القسمةِ أقسامٌ :

القسمُ الأوَّلُ : السفرُ في طلبِ العلمِ :

وهوَ إمَّا واجبٌ ، وإمَّا نفلٌ ، وذلكَ بحسبِ كونِ العلمِ واجباً أوْ نفلاً ، وذلكَ العلمُ إمَّا علمٌ بأمورِ دينِهِ ، أوْ بأخلاقِهِ في نفسِهِ ، أوْ بآياتِ اللهِ في أرضِهِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ في طلبِ العلمِ . . فهوَ في سبيلِ اللهِ حتَّىٰ يرجعَ »(١) .

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ سلكَ طريقاً يلتمسُ فيهِ علماً . . سهَّلَ اللهُ لهُ طريقاً إلى الجنَّةِ »(٢) .

وكانَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ يسافرُ الأيامَ في طلبِ الحديثِ الواحدِ(٣) .

وقالَ الشعبيُّ : (لوْ سافرَ رجلٌ مِنَ الشامِ إلىٰ أقصى اليمنِ في كلمةٍ تدلُّهُ علىٰ هدىً ، أوْ تردُّهُ عنْ ردىً . . ما كانَ سفرُهُ ضائعاً)(٤) .

ورحلَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ مِنَ المدينةِ إلىٰ مصرَ معَ غيرِهِ مِنَ الصحابةِ ، فساروا شهراً في حديثٍ بلغَهُمْ عنْ عبدِ اللهِ بنِ أُنيسٍ الأنصاريِّ يحدِّثُ بهِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ سمعوهُ(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٧) ، وقوله : « حتىٰ يرجع » إشارة إلىٰ أنه بعد الرجوع وإنذار القوم له درجة أعلىٰ من تلك الدرجة ؛ لأنه حينئذٍ وارث الأنبياء في تكميل الناقصين . « فيض القدير » (٦/ ١٢٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) .

(٣) فقد روى ابن سعد في « طبقاته » (٢/ ٣٢٨) عنه أنه قال : (إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٠٥) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٧) ، وأشار إلىٰ ذلك البخاري في « صحيحه » (كتاب العلم/ باب الخروج في طلب العلم) حيث قال : (ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلىٰ عبد الله بن أُنيس في حديث واحد) .

وقلَّ مذكورٌ في العلمِ محصِّلٌ مِنْ زمانِ الصحابةِ إلىٰ زمانِنا هـٰذا إلا وحصَّلَ العلمَ بالسفرِ وسافرَ لأجلِهِ .

وأمّا علمُهُ بنفسِهِ وأخلاقِهِ : فذلك أيضاً مهمٌّ ؛ فإنَّ طريقَ الآخرةِ لا يمكنُ سلوكُهُ إلا بتحسينِ الخُلقِ وتهذيبِهِ ، ومَنْ لا يطلعُ علىٰ أسرارِ باطنِهِ وخبائثِ صفاتِهِ . . لا يقدرُ علىٰ تطهيرِ القلبِ منها ، وإنَّما السفرُ هوَ الذي يسفرُ عنْ أخلاقِ الرجالِ ، وبهِ يُخرجُ اللهُ الخبْءَ في السماواتِ والأرضِ .

وإنَّما سُمِّيَ السفرُ سفراً لأنَّهُ يسفرُ عنِ الأخلاقِ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ للذي كانَ يعرِّفُ عندَهُ بعضَ الشهودِ : هلْ صحبتَهُ في السفرِ الذي يُستدلُّ بهِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : ما أراكَ تعرفُهُ[1] .

وكانَ بشرٌ يقولُ : (يا معشرَ القرَّاءِ ؛ سِيحوا . . تطيبوا ؛ فإنَّ الماءَ إذا ساحَ . . طابَ ، وإذا كثُرَ مُقامُهُ في موضعٍ . . تغيَّرَ)[2] .

وبالجملةِ : فإنَّ النفسَ في الوطنِ معَ مواتاةِ الأسبابِ لا تظهرُ خبائثُ أخلاقِها ؛ لاستئناسِها بما يوافقُ طبعَها مِنَ المألوفاتِ المعهودةِ ، فإذا حملَتْ وعثاءَ السفرِ ، وصُرفَتْ عنْ مألوفاتِها المعتادةِ ، وامتُحنَتْ بمشاقِّ الغربةِ . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٣) ، وبلفظ المصنف في « القوت » (٢/ ١١٥) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٠٧) بنحوه ، ولفظه في « القوت » (٢/ ٢٠٤) .

انكشفَتْ غوائلُها ، ووقعَ الوقوفُ علىٰ عيوبِها ، فيمكنُ الاشتغالُ بعلاجِها .

وقدْ ذكرنا في كتابِ العزلةِ فوائدَ المخالطةِ ، والسفرُ مخالطةٌ معَ زيادةِ اشتغالٍ واحتمالِ مشاقَّ .

وأمَّا آياتُ اللهِ في أرضِهِ : ففي مشاهدتِها فوائدُ للمستبصرِ ، ففيها قِطَعٌ متجاوراتٌ ، وفيها الجبالُ ، والبراري والبحارُ ، وأنواعُ الحيوانِ والنباتِ ، وما مِنْ شيءٍ منها إلا وهوَ شاهدٌ للهِ بالوحدانيةِ ، ومسبِّحٌ لهُ بلسانٍ ذَلِقٍ[1] لا يدركُهُ إلا مَنْ ألقى السمعَ وهوَ شهيدٌ ، وأمَّا الجاحدونَ والغافلونَ والمغترُّونَ بلامعِ السرابِ مِنْ زهرةِ الدنيا . . فإنَّهُمْ لا يبصرونَ ولا يسمعونَ ؛ لأنَّهُمْ عنِ السمعِ معزولونَ ، وعنْ آياتِ ربِّهِمْ محجوبونَ ، يعلمونَ ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا وهُمْ عنِ الآخرةِ همْ غافلونَ .

وما أُريدَ بالسمعِ السمعُ الظاهرُ ؛ فإنَّ الذينَ أُريدوا بهِ ما كانوا معزولينَ عنهُ ، وإنَّما أُريدَ بهِ السمعُ الباطنُ ، ولا يُدركُ بالسمعِ الظاهرِ إلا الأصواتُ ، ويشاركُ فيهِ الإنسانَ سائرُ الحيواناتِ ، فأمَّا السمعُ الباطنُ . . فيُدركُ بهِ لسانُ الحالِ ، وهوَ نطقٌ وراءَ نطقِ المقالِ ، يشبهُ قولَ القائلِ حكايةً لكلامِ الوتدِ والحائطِ : قالَ الجدارُ للوَتِدِ : لِمَ تشقُّني ؟ فقالَ : سَلْ مَنْ يدقُّني فلمْ يتركْني ، وراءِ الحجرَ الذي ورائي[2] .

---

(١) ذلق : فصيح .
(٢) راءِ : فعل أمر من راءىٰ يرائي ؛ أي : انظر . « إتحاف » (٢/ ٧٨) .

وما مِنْ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ إلا ولها أنواعُ شهاداتٍ للهِ سبحانَهُ بالوحدانيةِ هيَ توحيدُها ، وأنواعُ شهاداتٍ لصانعِها بالتقدُّسِ هيَ تسبيحُها ، ولكنْ لا يفقهونَ تسبيحَها ؛ لأنَّهُمْ لمْ يسافروا مِنْ مضيقِ سَمْعِ الظاهرِ إلىٰ فضاءِ سَمْعِ الباطنِ ، ومِنْ رَكاكةِ لسانِ المقالِ إلىٰ فصاحةِ لسانِ الحالِ ، ولوْ قدرَ كلُّ عاجزٍ علىٰ مثلِ هـٰذا السيرِ . . لما كانَ سليمانُ عليهِ السلامُ مختصّاً بفهمِ منطقِ الطيرِ ، ولما كانَ موسىٰ عليهِ السلامُ مختصّاً بسماعِ كلامِ اللهِ تعالى الذي يجبُ تقديسُهُ عَنْ مشابهةِ الحروفِ والأصواتِ .

ومَنْ يسافرُ ليستقرئَ هـٰذهِ الشهاداتِ مِنَ الأسطرِ المكتوبةِ بالخطوطِ الإلهيةِ علىٰ صفحاتِ الجماداتِ . . لمْ يطلْ سفرُهُ بالبدنِ ، بلْ يستقرُّ في موضعٍ ويفرِّغُ قلبَهُ للتمتُّعِ بسماعِ نغماتِ التسبيحاتِ مِنْ آحادِ الذرَّاتِ ، فما لهُ وللتردُّدِ في الفلواتِ ولهُ غنيةٌ في ملكوتِ السماواتِ ؟! فالشمسُ والقمرُ والنجومُ بأمرِهِ مسخراتٌ ، وهيَ إلىٰ أبصارِ ذوي البصائرِ مسافراتٌ في الشهرِ والسنةِ مراتٍ ، بلْ هيَ دائبةٌ في الحركةِ علىٰ توالي الأوقاتِ ، فمِنَ الغرائبِ أنْ يدأبَ في الطوافِ بآحادِ المساجدِ مَنْ أُمرتِ الكعبةُ أنْ تطوفَ بهِ ! ومِنَ الغرائبِ أنْ يطوفَ في أكنافِ الأرضِ مَنْ تطوفُ بهِ أقطارُ السماءِ ![1] .

ثمَّ ما دامَ المسافرُ مفتقراً إلىٰ أنْ يبصرَ عالمَ المُلكِ والشهادةِ بالبصرِ

---

(١) انظر ما ذكره العلامة الآلوسي في « تفسيره » (٢٣/ ١٤ـ ١٥) ، وقد سبقت الإشارة إليه في كتاب (أسرار الحج) عند قوله : (فضيلة المقام بمكة المكرمة وكراهته) .

الظاهرِ . . فهوَ يُعدُّ في المنزلِ الأوَّلِ مِنْ منازلِ السائرينِ إلى الله تعالىٰ والمسافرينَ إلىٰ حضرتِهِ ، وكأنَّهُ معتكفٌ علىٰ بابِ الوطنِ لمْ يفضِ بهِ المسيرُ إلىٰ متسعِ الفضاءِ ، ولا سببَ لطولِ المُقامِ في هـٰذا المنزلِ إلا الجبنُ والقصورُ ، ولذلك قالَ بعضُ أربابِ القلوبِ : (إنَّ الناسَ يقولونَ : افتحوا أعينَكُمْ حتَّىٰ تبصروا ، وأنا أقولُ : غمِّضوا أعينَكُمْ حتَّىٰ تبصروا) ، وكلُّ واحدٍ مِنَ القولينِ حقٌّ ، إلا أنَّ الأوَّلَ خبَّرَ عنِ المنزلِ الأوَّلِ القريبِ مِنَ الوطنِ ، والثانيَ خبَّرَ عمَّا بعدَهُ مِنَ المنازلِ البعيدةِ عنِ الوطنِ ، التي لا يطؤُها إلا مخاطرٌ بنفسِهِ ، والمجاوزُ إليها ربَّما يتيهُ فيها سنينَ ، وربَّما يأخذُ التوفيقُ بيدِهِ فيرشدُهُ إلىٰ سواءِ السبيلِ ، والهالكونَ في التيهِ همُ الأكثرونَ مِنْ ركَّابِ هـٰذهِ الطرقِ ، ولكنِ السائحونَ السالمونَ بنورِ التوفيقِ فازوا بالنعيمِ والملكِ المقيمِ ، وهمُ الذينَ سبقَتْ لهُمْ مِنَ اللهِ الحسنىٰ .

واعتبرْ هـٰذا الملكَ بملكِ الدنيا ؛ فإنَّهُ يقلُّ بالإضافةِ إلىٰ كثرةِ الخلقِ طلابُهُ ، ومهما عظمَ المطلوبُ . . قلَّ المساعدُ ، ثمَّ الذي يهلِكُ أكثرُ مِنَ الذي يملكُ ، ولا يتصدَّىٰ لطلبِ الملكِ العاجزُ الجبانُ ؛ لعظيمِ الخطرِ وطولِ التعبِ .

وَإِذا كـانَـتِ ٱلنُّفـوسُ كِبـاراً تَعِبَتْ فِي مُرادِها ٱلأَجْسامُ(١)

وما أودعَ اللهُ العزَّ والملكَ في الدينِ والدنيا إلا في متنِ الخطرِ .

---

(١) البيت من الخفيف ، وهو للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٤٥) .

وقدْ يُسمِّي الجبانُ الجبنَ والقصورَ باسمِ الحـزْمِ والحذرِ ؛ كما قيل(١) : [من الوافر]

تَـرَى ٱلْجُبَنَـاءُ أَنَّ ٱلْجُبْـنَ حَـزْمٌ ... وَتِلْـكَ خَـدِيعَـةُ ٱلطَّبْـعِ ٱللَّئِيـمِ

فهٰذا حكْمُ السفرِ الظاهرِ إذا أُريدَ بهِ السفرُ الباطنُ بمطالعةِ آياتِ اللهِ في الأرضِ ، فلنرجعْ إلى الغرضِ الذي كنَّا نقصدُهُ ولنبيِّنْ .

* * *

القسمُ الثاني : وهوَ أنْ يسافرَ لأجلِ العبادةِ : إمَّا لجهادٍ أوْ لحجٍّ :

وقدْ ذكرنا فضْلَ ذلكَ وآدابَهُ وأعمالَهُ الظاهرةَ والباطنةَ في كتابِ أسرارِ الحجِّ ، ويدخلُ في جملتِهِ زيارةُ قبورِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، وزيارةُ قبورِ الصحابةِ والتابعينَ ، وسائرِ العلماءِ والأولياءِ ، وكلُّ مَنْ يُتبرَّكُ بمشاهدتِهِ في حياتِهِ يُتبرَّكُ بزيارتِهِ بعدَ وفاتِهِ .

ويجوزُ شدُّ الرحالِ لهٰذا الغرضِ ، ولا يمنعُ مِنْ هٰذا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تُشدُّ الرحالُ إلا إلىٰ ثلاثةِ مساجدَ : مسجدي هٰذا ، والمسجدِ الحرامِ ، والمسجدِ الأقصىٰ »(٢) ؛ لأنَّ ذلكَ في المساجدِ ، فإنَّها متماثلةٌ بعدَ هٰذهِ المساجدِ ، وإلا . . فلا فرقَ بينَ زيارةِ قبورِ الأنبياءِ وبينَ الأولياءِ والعلماءِ في أصلِ الفضلِ ، وإنْ كانَ يتفاوتُ في الدرجاتِ تفاوتاً

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/ ١٢٠) ، وفيه : (أن العجز عقل) .
(٢) رواه البخاري (١١٨٩) ، ومسلم (١٣٩٧) .

عظيماً بحسَبِ اختلافِ درجاتِهِمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وبالجملةِ : زيارةُ الأحياءِ أولىٰ مِنْ زيارةِ الأمواتِ ، والفائدةُ مِنْ زيارةِ الأحياءِ طلبُ بركةِ الدعاءِ وبركةِ النظرِ إليهِمْ ؛ فإنَّ النظرَ إلىٰ وجوهِ العلماءِ والصلحاءِ عبادةٌ[1] ، وفيه أيضاً حركةُ الرغبةِ في الاقتداءِ بهِمْ ، والتخلُّقِ بأخلاقِهِمْ وآدابِهِمْ ، هـٰذا سوىٰ ما يُنتظرُ مِنَ الفوائدِ العلميَّةِ المستفادةِ مِنْ أنفاسِهِمْ وأفعالِهِمْ ، كيفَ ومجرَّدُ زيارةِ الإخوانِ في اللهِ عزَّ وجلَّ فيهِ فضْلٌ كما ذكرناهُ في كتابِ الصحبةِ ؟! وفي التوراةِ : (سِرْ أربعةَ أميالٍ : زُرْ أخاً في اللهِ)[2] .

وأمَّا البقاعُ . . فلا معنىٰ لزيارتِها سوى المساجدِ الثلاثةِ ، وسوى الثغورِ للرباطِ بها ، فالحديثُ ظاهرٌ في أنَّهُ لا تُشدُّ الرحالُ لطلبِ بركةِ البقاعِ إلا إلى المساجدِ الثلاثةِ .

وقدْ ذكرنا فضائلَ الحرمينِ في كتابِ الحجِّ ، وبيتُ المقدسِ أيضاً لهُ فضلٌ كبيرٌ ، خرجَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ مِنَ المدينةِ قاصداً بيتَ المقدسِ حتَّىٰ صلَّىٰ فيهِ الصلواتِ الخمسَ ثمَّ كرَّ راجعاً مِنَ الغدِ إلى المدينةِ[3] .

---

(١) فإنهم إذا رُؤوا . . ذكر الله ، والذكر عبادة . « إتحاف » (٦/ ٣٨٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٧) ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٥٢٣) عن علي رضي الله عنه ، وروىٰ نحوه ابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٧٩) مرفوعاً ، وورد منثوراً علىٰ لسان التابعين كذلك .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٥) .

وقدْ سألَ سليمانُ عليهِ السلامُ ربَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّ مَنْ قصدَ هـٰذا المسجدَ لا يعنيهِ إلا الصلاةُ فيهِ ألا تصرفَ نظرَكَ عنهُ ما دامَ مقيماً فيهِ حتَّىٰ يخرجَ منهُ ، وأنْ تخرجَهُ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أمُّهُ ، فأعطاهُ اللهُ ذلكَ[1] .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ : أنْ يكونَ السفرُ للهربِ مِنْ سببٍ مشوِّشٍ للدينِ :

وذلكَ أيضاً حسنٌ ، فالفرارُ ممَّا لا يُطاقُ مِنْ سننِ الأنبياءِ والمرسلينَ .

وممَّا يجبُ الهربُ منهُ : الولايةُ ، والجاهُ ، وكثرةُ العلائقِ والأسبابِ ؛ فإنَّ كلَّ ذلكَ يشوِّشُ فراغَ القلبِ ، والدينُ لا يتمُّ إلا بقلبٍ فارغٍ عنْ غيرِ اللهِ ، فإنْ لمْ يتمَّ فراغُهُ . . فبقدْرِ فراغِهِ يُتصوَّرُ أنْ يشتغلَ بالدينِ ، ولا يُتصوَّرُ فراغُ القلبِ في الدنيا عنْ مهمَّاتِ الدنيا والحاجاتِ الضروريةِ ، ولكنْ يُتصوَّرُ تخفيفُها وتثقيلُها ، وقدْ نجا المخفُّونَ وهلكَ المثقلونَ[2] ، والحمدُ للهِ الذي لمْ يعلِّقِ النجاةَ بالفراغِ المطلقِ عنْ جميعِ الأوزارِ والأعباءِ ، بلْ قَبِلَ المخفَّ بفضلِهِ ، وشمَلَهُ بسعةِ رحمتِهِ .

والمخفُّ : هوَ الذي ليستِ الدنيا أكبرَ همِّهِ ، وذلكَ لا يتيسَّرُ في الوطنِ لمَنِ اتسعَ جاهُهُ ، وكثرَتْ علائقُهُ ، فلا يتمُّ مقصودُهُ إلا بالغربةِ والخمولِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٠٥) ، ونحوه عند النسائي (٢/ ٣٤) .
(٢) فقد روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٣) من حديث أبي الدرداء مرفوعاً : « إن أمامكم عقبة كؤوداً ، لا يجوزها المثقلون ، فأحب أن أتخفف لتلك العقبة » .

وقطعِ العلائقِ التي لهُ بدٌّ عنها ؛ حتَّىٰ يروِّضَ نفسَهُ مدَّةً مديدةً ، ثمَّ ربَّما يمدُّهُ اللهُ بمعونتِهِ ، فينعمُ عليهِ بما يقوىٰ بهِ يقينُهُ ، ويطمئنُّ بهِ قلبُهُ ، فيستوي عندَهُ الحضرُ والسفرُ ، ويتقاربُ عندَهُ وجودُ الأسبابِ والعلائقِ وعدمُها ، فلا يصدُّهُ شيءٌ منها عمَّا هوَ بصددِهِ مِنْ ذكرِ اللهِ ، وذلكَ ممَّا يعزُّ وجودُهُ جدّاً ، بلِ الغالبُ على القلوبِ الضعفُ ، والقصورُ عنِ الاتساعِ للخلْقِ والخالقِ ، وإنَّما يسعدُ بهـٰذهِ القوَّةِ الأنبياءُ والأولياءُ ، والوصولُ إليها بالكسبِ شديدٌ وإنْ كانَ للاجتهادِ والكسبِ فيها مدخلٌ أيضاً .

ومثالُ تفاوتِ القوَّةِ الباطنةِ فيهِ كتفاوتِ القوَّةِ الظاهرةِ في الأعضاءِ ، فربَّ رجلٍ قويٍّ ذي مِرَّةٍ ، سويٍّ شديدِ الأعصابِ محكَمِ البنيةِ ، يستقلُّ بحملِ ما وزنُهُ ألفُ رطلٍ مثلاً ، فلوْ أرادَ الضعيفُ المريضُ أنْ ينالَ رتبتَهُ بممارسةِ الحملِ والتدريجِ فيهِ قليلاً قليلاً . . لمْ يقدرْ عليهِ ، ولكنَّ الممارسةَ والجهْدَ يزيدُ في قوَّتِهِ زيادةً ما ، وإنْ كانَ ذلكَ لا يبلِّغُهُ درجتَهُ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ الجهدَ عندَ اليأسِ عنِ الرتبةِ العليا ؛ فإنَّ ذلكَ غايةُ الجهلِ ونهايةُ الضلالِ .

وقدْ كانَ مِنْ عادةِ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مفارقةُ الوطنِ خيفةً مِنَ الفتنِ ، قالَ سفيانُ الثوريُّ : (هـٰذا زمانُ سوءٍ ، لا يؤمنُ فيهِ على الخاملِ ، فكيفَ على المشهورينَ ؟! هـٰذا زمانُ رجلٍ ينتقلُ مِنْ بلدٍ إلىٰ بلدٍ ، كلَّما عُرِفَ في موضعٍ . . تحوَّلَ إلىٰ غيرِهِ)[1] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٥) .

وقالَ أبو نعيمٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ وقدْ علَّقَ قلَّتَهُ بيدِهِ ، ووضعَ جرابَهُ علىٰ ظهرِهِ ، فقلتُ : إلىٰ أينَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ قالَ : بلغَني عنْ قريةٍ فيها رخْصٌ ، أريدُ أنْ أقيمَ بها ، فقلتُ لهُ : وتفعلُ هـٰذا ؟ قالَ : نعمْ ، إذا بلغَكَ أنَّ قريةً فيها رخْصٌ. . فأقمْ بها ؛ فإنَّهُ أسلمُ لدينِكَ وأقلُّ لهمِّكَ[1] . وهـٰذا هربٌ مِنْ غلاءِ السعرِ .

وكانَ سريٌّ السقطيُّ يقولُ للصوفيَّةِ : (إذا خرجَ الشتاءُ . . فقدْ خرجَ آذارُ ، وأورقَتِ الأشجارُ ، وطابَ الانتشارُ ؛ فانتشروا)[2] .

وقدْ كانَ الخوَّاصُ لا يقيمُ في بلدٍ أكثرَ مِنْ أربعينَ يوماً ، وكانَ مِنَ المتوكلينَ ، ويرى الإقامةَ اعتماداً على الأسبابِ قادحاً في التوكُّلِ[3] ، وسيأتي أسرارُ الاعتمادِ على الأسبابِ في كتابِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

القسمُ الرابعُ : السفرُ هرباً ممَّا يقدحُ في البدنِ ؛ كالطاعونِ ، أوْ في المالِ ؛ كغلاءِ السعرِ وما يجري مجراهُ :

ولا حرجَ في ذلكَ ، بلْ ربَّما يجبُ الفرارُ في بعضِ المواضعِ ، وربَّما يُستحبُّ في بعضٍ ؛ بحسَبِ وجوبِ ما يترتَّبُ عليهِ مِنَ الفوائدِ واستحبابِهِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٣) ، وأبو نعيم هو الفضل بن دكين .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٧) .

ولكنْ يُستثنىٰ منهُ الطاعونُ ، فلا ينبغي أنْ يفرَّ منهُ ؛ لورودِ النهيِ فيهِ ، قالَ أسامةُ بنُ زيدٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هـٰذا الوجعَ أوِ السقمَ رجزٌ عُذِّبَ بهِ بعضُ الأممِ قبلَكُمْ ، ثمَّ بقيَ بعدُ في الأرضِ ، فيذهبُ المرَّةَ ويأتي الأخرىٰ ، فمَنْ سمعَ بهِ في أرضٍ . . فلا يقدمَنَّ عليهِ ، ومَنْ وقعَ بأرضٍ وهوَ بها . . فلا يخرجَنَّهُ الفرارُ منهُ »(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ فناءَ أمَّتي بالطعنِ والطاعونِ » ، فقلتُ : هـٰذا الطعنُ قدْ عرفناهُ ، فما الطاعونُ ؟ قالَ : « غدَّةٌ كغدَّةِ البعيرِ تأخذُهُمْ في مراقِهِمْ ، المسلمُ الميتُ منهُ شهيدٌ ، والمقيمُ عليهِ المحتسِبُ كالمرابطِ في سبيلِ اللهِ ، والفارُّ منهُ كالفارِّ مِنَ الزحفِ »(٢) .

وعنْ مكحولٍ عنْ أمِّ أيمنَ قالَتْ : أوصىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعضَ أهلِهِ : « لا تشركْ باللهِ شيئاً وإنْ عُذِّبْتَ أوْ حُرِّقتَ ، وأطعْ والديكَ ، وإنْ أمراكَ أنْ تخرجَ مِنْ كلِّ شيءٍ هوَ لكَ . . فاخرجْ منهُ ، ولا تتركِ الصلاةَ عمداً ؛ فإنَّهُ مَنْ تركَ الصلاةَ عمداً . . فقدْ برئَتْ منهُ ذمَّةُ اللهِ ، وإيَّاكَ والخمرَ ؛ فإنَّها مفتاحُ كلِّ شرٍّ ، وإيَّاكَ والمعصيةَ ؛ فإنَّها تسخطُ اللهَ ، ولا تفرَّ مِنَ الزحفِ ، وإنْ أصابَ الناسَ مُوْتانٌ وأنتَ فيهِمْ . . فاثبتْ فيهِمْ ،

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) واللفظ له .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٤٥) .

أنفقْ مِنْ طَولِكَ علىٰ أهلِ بيتِكَ ، ولا ترفعْ عصاكَ عنهُمْ ، أخِفْهُمْ في اللهِ »[(١)].

فهٰذهِ الأحاديثُ تدلُّ علىٰ أنَّ الفرارَ مِنَ الطاعونِ منهيٌّ عنهُ ، وكذا القدومُ عليهِ ، وسيأتي سِرُّ ذلك في كتابِ التوكُّلِ .

❊ ❊ ❊

فهٰذهِ أقسامُ الأسفارِ ، وقدْ خرجَ منهُ أنَّ السفرَ ينقسمُ : إلىٰ مذمومٍ ، وإلىٰ محمودٍ ، وإلىٰ مباحٍ ، والمذمومُ ينقسمُ : إلىٰ **حرامٍ** ؛ كإباقِ العبدِ وسفرِ العاقِّ ، وإلىٰ **مكروهٍ** ؛ كالخروجِ مِنْ بلدِ الطاعونِ ، والمحمودُ ينقسمُ : إلىٰ **واجبٍ** ؛ كالحجِّ وطلبِ العلمِ الذي هوَ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، وإلىٰ **مندوبٍ إليه** ؛ كزيارةِ العلماءِ وزيارةِ مشاهدِهِمْ .

ومِنْ هٰذهِ الأسبابِ تتبيَّنُ النيَّةُ في السفرِ ، فإنَّ معنى النيّةِ الانبعاثُ للسببِ الباعثِ والانتهاضُ لإجابةِ الداعيةِ ، ولتكنْ نيّتُهُ الآخرةَ في جميعِ أسفارِهِ ، وذلكَ ظاهرٌ في الواجبِ والمندوبِ ، ومحالٌ في المكروهِ والمحظورِ ، وأمَّا **المباحُ** . فمرجعُهُ إلى النيةِ ، فمهما كانَ قصدُهُ بطلبِ المالِ مثلاً التعفُّفَ عنِ السؤالِ ، ورعايةَ سترِ المروءةِ على الأهلِ والعيالِ ، والتصدُّقَ بما فضلَ مِنَ المالِ عنْ مبلغِ الحاجاتِ . صارَ هٰذا المباحُ بهٰذهِ

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٣٠٤) ، وحكىٰ إرساله بين مكحول وأم أيمن رضي الله عنها ، ثم قال : (قال أبو عبيد : قال الكسائي وغيره : يقال إنه لم يرد العصا التي يضرب بها ، ولا أمر أحداً بذلك ، ولكنه أراد الأدب) ، **والموتان** ـ بوزان بُطْلان ـ : الموت الكثير الذريع .

النيّةِ مِنْ أعمالِ الآخرةِ ، ولوْ خرجَ إلى الحجِّ وباعثُهُ الرياءُ والسمعةُ . . لخرجَ عنْ كونِهِ مِنْ أعمالِ الآخرةِ ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأعمالُ بالنيّاتِ »(1) عامٌّ في الواجباتِ والمباحاتِ دونَ المحظوراتِ ؛ فإنَّ النيَّةَ لا تؤثِّرُ في إخراجِها عَنْ كونِها محظورةً .

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ وكَّلَ بالمسافرينَ ملائكةً ينظرونَ إلىٰ مقاصدِهِمْ ، فيُعطي كلَّ واحدٍ علىٰ نحوِ نيَّتِهِ ، فمَنْ كانَتْ نيَّتُهُ الدنيا . . أُعطيَ منها ونقصَ مِنْ آخرتِهِ أضعافُهُ ، وفُرِّقَ عليهِ همُّهُ ، وكثرَ بالحرصِ والرغبةِ شغلُهُ ، ومَنْ كانَتْ نيَّتُهُ الآخرةَ . . أُعطيَ مِنَ البصيرةِ والفطنةِ ، وفُتِحَ لهُ مِنَ التذكرةِ والعبرةِ بقدْرِ نيَّتِهِ ، وجُمِعَ لهُ همُّهُ ، ودعَتْ لهُ الملائكةُ واستغفرَتْ لهُ)(2) .

وأمَّا النظرُ في أنَّ السفرَ هوَ الأفضلُ أوِ الإقامةَ . . فذلكَ يضاهي النظرَ في أنَّ الأفضلَ هوَ العزلةُ أوِ المخالطةُ ، وقدْ ذكرنا منهاجَهُ في كتابِ العزلةِ ، فليفهمْ هٰذا منهُ ؛ فإنَّ السفرَ نوعُ مخالطةٍ معَ زيادةِ تعبٍ ومشقةٍ تفرِّقُ الهمَّ وتشتِّتُ القلبَ في حقِّ الأكثرينَ ، والأفضلُ في هٰذا ما هوَ الأعونُ على الدينِ .

ونهايةُ ثمرةِ الدينِ في الدنيا تحصيلُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وتحصيلُ الأنسِ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والأنسُ يحصلُ بدوامِ الذكرِ ، والمعرفةُ تحصلُ بدوامِ الفكرِ ،

---

(1) رواه بهٰذا اللفظ ابن حبان في « صحيحه » (٣٨٨) ، وقد تقدم .

(2) قوت القلوب (٢/ ٢٠٤) .

ومَنْ لمْ يتعلَّمْ طريقَ الفكرِ والذكرِ . . لمْ يتمكَّنْ منهما ، والسفرُ هوَ المعينُ على التعلُّمِ في الابتداءِ، والإقامةُ هيَ المعينةُ على العملِ بالعلمِ في الانتهاءِ.

وأمَّا السياحةُ في الأرضِ على الدوامِ . . فمِنَ المشوشاتِ للقلبِ إلا في حقِّ الأقوياءِ ؛ فإنَّ المسافرَ ومالَهُ لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى اللهُ[1] ، فلا يزالُ المسافرُ مشغولَ القلبِ ، تارةً بالخوفِ علىٰ نفسِهِ ومالِهِ ، وتارةً بمفارقةِ ما ألفَهُ واعتادَهُ في إقامتِهِ ، وإنْ لمْ يكنْ معَهُ مالٌ يخافُ عليهِ . . فلا يخلو عنِ الطمعِ والاستشرافِ إلى الخلْقِ ، فتارةً يضعفُ قلبُهُ بسببِ الفقرِ ، وتارةً يقوىٰ باستحكامِ أسبابِ الطمعِ .

ثمَّ شغلُ الحطِّ والترحالِ مشوِّشٌ لجميعِ الأحوالِ ، فلا ينبغي أنْ يسافرَ المريدُ إلا في طلبِ علمٍ ، أوْ مشاهدةِ شيخٍ يُقتدىٰ بهِ في سيرتِهِ وتُستفادُ الرغبةُ في الخيرِ مِنْ مشاهدتِهِ ، فإنِ اشتغلَ بنفسِهِ واستبصرَ ، وانفتحَ لهُ طريقُ الفكرِ أوِ العملِ . . فالسكونُ أولىٰ بهِ ، إلا أنَّ أكثرَ متصوِّفةِ هـٰذهِ الأعصارِ لمَّا خلَتْ بواطنُهُمْ مِنْ لطائفِ الأفكارِ ودقائقِ الأعمالِ ، ولمْ يحصلْ لهُمْ أنسٌ باللهِ تعالىٰ وبذكرِهِ في الخلوةِ ، وكانوا بطَّالينَ غيرَ محترفينَ ولا مشغولينَ ، قدْ ألفوا البطالةَ واستثقلوا العملَ ، واستوعروا طريقَ الكسبِ ، واستلانوا جانبَ السؤالِ والكديةِ[2] ، واستطابوا الرباطاتِ المبنيَّةَ لهُمْ في البلادِ ،

---

(١) القَلَت : الهلاك ، يقال : أصبح علىٰ قَلَت ؛ أي : علىٰ شرف هلاك .
(٢) الكدية : الاستجداء من الناس ، والإلحاح في المسألة .

واستسخروا الخدمَ المنتصبينَ للقيامِ بخدمةِ القومِ ، واستخفُّوا عقولَهُمْ وأديانَهُمْ ؛ مِنْ حيثُ لمْ يكنْ قصدُهُمْ مِنَ الخدمةِ إلا الرياءَ والسمعةَ وانتشارَ الصيتِ ، واقتناصَ الأموالِ بطريقِ السؤالِ ؛ تعلُّلاً بكثرةِ الأتباعِ ، فلمْ يكنْ لهُمْ في الخانَقاهاتِ حكمٌ نافذٌ ، ولا تأديبٌ للمسافرينَ نافعٌ ، ولا حجرٌ عليهِمْ قاهرٌ ، فلبسوا المرقَّعاتِ ، واتخذوا مِنَ الخانقاهاتِ متنزَّهاتٍ ، وربما تلقَّنُوا ألفاظاً مزخرفةً مِنْ أهلِ الطاماتِ ، فينظرونَ إلىٰ أنفسِهِمْ وقدْ تشبَّهوا بالقومِ في خرقتِهِمْ ، وفي سياحتِهِمْ ، وفي لفظِهِمْ وعبارتِهِمْ ، وفي آدابٍ ظاهرةٍ مِنْ سيرتِهِمْ ، فيظنُّونَ بأنفسِهِمْ خيراً ، ويحسبونَ أنَّهُمْ يحسنونَ صنعاً ، ويعتقدونَ أنَّ كلَّ سوداءَ تمرةٌ ، ويتوهَّمونَ أنَّ المشاركةَ في الظواهرِ توجبُ المساهمةَ في الحقائقِ .

وهيهاتَ ! فما أغزرَ حماقةَ مَنْ لا يميِّزُ بينَ الشحْمِ والورَمِ ! فهؤلاءِ بغضاءُ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ الشابَّ الفارغَ ، ولمْ يحملْهُمْ على السياحةِ إلا الشبابُ والفراغُ ، إلا مَنْ سافرَ لحجٍّ أوْ عمرةٍ في غيرِ رياءٍ ولا سمعةٍ ، أوْ سافرَ لمشاهدةِ شيخٍ يُقتدىٰ به في علمِهِ وسيرتِهِ ، وقدْ خلتِ البلادُ عنهُ الآنَ .

والأمورُ الدينيَّةُ كلُّها قدْ فسدَتْ وضعفَتْ إلا التصوُّفَ ، فإنَّهُ قدِ انمحقَ بالكليَّةِ وبطلَ ؛ لأنَّ العلومَ لمْ تندرسْ بعدُ ، والعالمُ وإنْ كانَ عالمَ سوءٍ فإنَّما فسادُهُ في سيرتِهِ لا في علمِهِ ، فيبقىٰ عالماً غيرَ عاملٍ بعلمِهِ ، والعملُ غيرُ العلمِ .

وأمَّا التصوُّفُ . . فإنَّهُ عبارةٌ عنْ تجرُّدِ القلبِ للهِ تعالىٰ ، واستحقارِ

ما سوى اللهِ ، وحاصلُهُ يرجعُ إلىٰ عملِ القلبِ والجوارحِ ، ومهما فسدَ العملُ . . فاتَ الأصلُ .

وفي أسفارِ هؤلاءِ نظرٌ للفقهاءِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّهُ إتعابُ نفسٍ بلا فائدةٍ ، وقدْ يُقالُ : إنَّ ذلكَ ممنوعٌ[١] ، **ولكنَّ الصوابَ عندنا أنْ نحكمَ بالإباحةِ** ، فإنَّ حظوظَهُمُ التفرُّجُ عنْ كرْبِ البطالةِ بمشاهدةِ البلادِ المختلفةِ[٢] ، وهٰذهِ الحظوظُ وإنْ كانَت خسيسةً فنفوسُ المتحرِّكينَ لهٰذهِ الحظوظِ أيضاً خسيسةٌ ، ولا بأسَ بإتعابِ حيوانٍ خسيسٍ لحظٍّ خسيسٍ يليقُ بهِ ويعودُ إليهِ ، فهوَ المتأذِّي وهوَ المتلذِّذُ .

والفتوىٰ تقتضي تشتيتَ العوامِّ في المباحاتِ التي لا نفعَ فيها ولا ضررَ ، فالسائحونَ مِنْ غيرِ مهمٍّ في الدينِ والدنيا ، بلْ لمحضِ التفرُّجِ في البلادِ ؛ كالبهائمِ المتردِّدةِ في الصحارىٰ ، فلا بأسَ بسياحتِهِمْ ما كفُّوا عنِ الناسِ شرَّهُمْ ، ولمْ يلبسوا على الخلقِ حالَهُمْ ، وإنَّما عصيانُهُمْ في التلبيسِ والسؤالِ على اسمِ التصوُّفِ ، والأكلِ منَ الأوقافِ التي وُقفَت على الصوفيَّةِ ؛ لأنَّ الصوفيَّ عبارةٌ عنْ رجلٍ صالحٍ عدْلٍ في دينِهِ ، معَ صفاتٍ

---

(١) وسند المنع أنا لا نسلم أنه إتعاب نفس ، فأقل ما يقال فيه : إن تلك الحركة لا تخلو عن مشقة ، وهي لا تقصر عن رياضة للبدن ، وهٰذه فائدة في الجملة . « إتحاف » (٦/ ٣٩٥) .

(٢) فإن البطالة ثقل معنوي ، لا يخففها إلا التنقل من أرض إلىٰ أرض . « إتحاف » (٦/ ٣٩٥) .

أخرىٰ وراءَ الصلاحِ ، ومِنْ أقلِّ أحوالِ هؤلاءِ أكلُهُمْ أموالَ السلاطينِ ، وأكلُ الحرامِ مِنَ الكبائرِ ، فلا تبقىٰ معَهُ العدالةُ والصلاحُ .

ولوْ تُصُوِّرَ صوفيٌّ فاسقٌ . . لتُصُوِّرَ صوفيٌّ كافرٌ ، وفقيهٌ يهوديٌّ ، وكما أنَّ الفقيهَ عبارةٌ عنْ مسلمٍ مخصوصٍ . . فالصوفيُّ عبارةٌ عنْ عدْلٍ مخصوصٍ لا يقتصرُ في دينِهِ على القدْرِ الذي تحصلُ بهِ العدالةُ ، وكذلكَ مَنْ نظرَ إلىٰ ظواهرِهِمْ ولمْ يعرفْ بواطنَهُمْ وأعطاهُمْ مِنْ مالِهِ علىٰ سبيلِ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ . . حرمَ عليهِمُ الأخذُ ، وكانَ ما أكلوهُ سحتاً ، وأعني بهِ : إذا كانَ المعطي بحيثُ لوْ عرفَ بواطنَ أحوالِهِمْ . . ما أعطاهُمْ .

وأخذُ المالِ بإظهارِ التصوُّفِ مِنْ غيرِ اتصافٍ بحقيقتِهِ كأخذِهِ بإظهارِ نسبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ سبيلِ الدعوىٰ ، ومَنْ زعمَ أنَّهُ علويٌّ(١) وهوَ كاذبٌ ، وأعطاهُ مسلمٌ مالاً لحبِّهِ أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولوْ علمَ أنَّهُ كاذبٌ . . لمْ يعطِهِ شيئاً ؛ فأخذُهُ عليهِ حرامٌ ، وكذلكَ الصوفيُّ .

ولهٰذا احترزَ المحتاطونَ عنِ الأكلِ بالدينِ ؛ فإنَّ المبالغَ في الاحتياطِ لدينِهِ لا ينفكُّ في باطنِهِ عنْ عوراتٍ لوِ انكشفَتْ للراغبِ في مواساتِهِ . . لفترَتْ رغبتُهُ عنِ المواساةِ ، فلا جرمَ كانوا لا يشترونَ شيئاً بأنفسِهِمْ مخافةَ

---

(١) أي : من أولاد علي ـ كرم الله وجهه ـ بواسطة أحد أولاده الخمسة ؛ الحسن والحسين ومحمد والعباس وعمر . « إتحاف » (٦/ ٣٩٦) .

أنْ يُسامحوا لأجلِ دينِهِمْ ، فيكونوا آكلينَ بالدينِ ، وكانوا يوكلونَ مَنْ يشتري لهُمْ ، ويشترطونَ على الوكيلِ ألا يظهرَ أنَّهُ لمَنْ يشتري .

نعمْ ، إنَّما يحلُّ أخذُ ما يُعطىٰ لأجلِ الدينِ إذا كانَ الآخذُ بحيثُ لوْ علمَ المعطي مِنْ باطنِهِ ما يعلمُهُ اللهُ تعالىٰ . . لمْ يقتضِ ذلكَ فتوراً في رأيِهِ فيهِ ، والعاقلُ المنصفُ يعلمُ مِنْ نفسِهِ أنَّ ذلكَ ممتنعٌ أوْ عزيزٌ ، والمغرورُ الجاهلُ بنفسِهِ أحرىٰ بأنْ يكونَ جاهلاً بأمرِ دينِهِ ، فإنَّ أقربَ الأشياءِ إلىٰ قالبِهِ قلبُهُ ، فإذا التبسَ علىٰ قالبِهِ أمرُ قلبِهِ . . فكيفَ ينكشفُ لهُ غيرُهُ ؟! ومَنْ عرفَ هٰذهِ الحقيقةَ . . لزمَهُ ـ لا محالةَ ـ ألا يأكلَ إلا مِنْ كسبِهِ ؛ ليأمنَ مِنْ هٰذهِ الغائلةِ ، أوْ لا يأكلَ إلا مِنْ مالِ مَنْ يعلمُ قطعاً أنَّهُ لوِ انكشفَ لهُ عوراتُ باطنِهِ . . لمْ يمنعْهُ ذلكَ عنْ مواساتِهِ .

فإنِ اضطرَّ طالبُ الحلالِ ومريدُ طريقِ الآخرةِ إلىٰ أخذِ مالِ غيرِهِ . . فليصرِّحْ لهُ وليقلْ : (إنَّكَ إنْ كنتَ تعطيني لما تعتقدُهُ فيَّ مِنَ الدينِ . . فلستُ مستحقّاً لذلكَ ، ولوْ كشفَ اللهُ تعالىٰ ستري . . لمْ ترني بعينِ التوقيرِ ، بلِ اعتقدتَ أنِّي شرُّ الخلقِ أوْ مِنْ شرارِهِمْ) ، فإنْ أعطاهُ معَ ذلكَ . . فليأخذْ ؛ فإنَّهُ ربَّما يرضىٰ منهُ هٰذهِ الخصلةَ ، وهوَ اعترافُهُ علىٰ نفسِهِ بركاكةِ الدينِ ، وعدمِ استحقاقِهِ لما يأخذُهُ[1] .

ولكنْ هٰهنا مكيدةٌ للنفسِ بيِّنةٌ ومخادعةٌ فليُتفطَّنْ لها ؛ وهوَ أنَّهُ قدْ يقولُ

---

(١) في النسخ : (وعدم استحلاله) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

ذلكَ مظهراً أنَّهُ متشبِّهٌ بالصالحينَ في ذمِّهِمْ نفوسَهُمْ واستحقارِهِمْ لها ، ونظرِهِمْ إليها بعينِ المقْتِ والازدراءِ ، فتكونُ صورةُ الكلامِ صورةَ القدحِ والازدراءِ ، وباطنُهُ وروحُهُ هوَ عينُ المدحِ والإطراءِ ، فكمْ مِنْ ذامٍّ نفسَهُ وهوَ لها مادحٌ بعينِ ذمِّهِ ، فذمُّ النفسِ في الخلوةِ معَ النفسِ هوَ المحمودُ ، فأمَّا الذمُّ في الملأِ . . فهوَ عينُ الرياءِ ، إلا إذا أوردَهُ إيراداً يحصلُ للمستمعِ يقيناً أنَّهُ مقترفٌ للذنوبِ ومعترفٌ بها ، وذلكَ ممَّا يمكنُ تفهيمُهُ بقرائنِ الأحوالِ ، ويمكنُ تلبيسُهُ بقرائنِ الأحوالِ ، والصادقُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ يعلمُ أنَّ مخادعتَهُ للهِ عزَّ وجلَّ أوْ مخادعتَهُ لنفسِهِ محالٌ ، فلا يتعذَّرُ عليهِ الاحترازُ عنْ أمثالِ ذلكَ .

فهـٰذا هوَ القولُ في أقسامِ السفرِ ، ونيَّةِ المسافرِ ، وفضيلتِهِ .

* * *

الفَصلُ الثَّاني
في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه
وهي أحد عشر أدباً

الأوَّلُ : أنْ يبدأَ بردِّ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، وإعدادِ النفقةِ لمَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ : ويردُّ الودائعَ إنْ كانَتْ عندَهُ ، ولا يأخذُ لزادِهِ إلا الطيِّبَ الحلالَ ، وليأخذْ قدراً يوسِّعُ بهِ علىٰ رفقائِهِ ، قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (مِنْ كرمِ الرجلِ طيبُ زادِهِ في سفرِهِ)(١) .

ولا بدَّ في السفرِ مِنْ طيبِ الكلامِ ، وإطعامِ الطعامِ ، وإظهارِ مكارمِ الأخلاقِ ؛ فإنَّ السفرَ يُخرجُ خبايا الباطِنِ ، ومَنْ صلحَ لصحبةِ السفرِ . . صلحَ لصحبةِ الحضرِ ، وقدْ يصلحُ في الحضرِ مَنْ لا يصلحُ للسفرِ ، ولذلكَ قيلَ : (إذا أثنىٰ على الرجلِ معاملوهُ في الحضرِ ، ورفقاؤُهُ في السفرِ . . فلا تشكُّوا في صلاحِهِ)(٢) .

والسفرُ مِنْ أسبابِ الضجرِ ، ومَنْ أحسنَ خُلُقَهُ في الضجرِ . . فهوَ الحسنُ الخُلُقِ ، وإلا . . فعندَ مساعدةِ الأمورِ علىٰ وَفقِ الغرضِ قلَّما يظهرُ سوءُ الخلقِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٧) عن بعض السلف .

وقدْ قيلَ : (ثلاثةٌ لا يُلامونَ على الضجرِ : الصائمُ ، والمريضُ ، والمسافرُ)[1] .

وتمامُ حسنِ خلقِ المسافرِ الإحسانُ إلى المكاري ، ومعاونةُ الرفقةِ بكلِّ ممكنٍ ، والرفقُ بكلِّ منقطعٍ ؛ بألا يجاوزَهُ إلا بإعانةٍ بمركوبٍ أوْ زادٍ أوْ توقُّفٍ لأجلِهِ ، وتمامُ ذلكَ معَ الرفقاءِ بمزاحٍ ومطايبةٍ في بعضِ الأوقاتِ مِنْ غيرِ فحشٍ ولا معصيةٍ ؛ ليكونَ ذلكَ شفاءً لضجرِ السفرِ ومشاقِّهِ .

* * *

الثاني : أنْ يختارَ رفيقاً : فلا يخرجُ وحدَهُ ، فالرفيقُ ثمَّ الطريقُ ، وليكنْ رفيقُهُ ممَّنْ يعينُهُ على الدينِ ، فيذكِّرُهُ إذا نسيَ ، ويعينُهُ ويساعدُهُ إذا ذكَرَ ؛ فإنَّ المرءَ علىٰ دينِ خليلِهِ ، ولا يُعرفُ الرجلُ إلا برفيقِهِ .

وقدْ نهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ أنْ يسافرَ الرجلُ وحدَهُ وقالَ : « الثلاثةُ نفرٌ »[2] ، وقالَ : « إذا كنتُمْ ثلاثةً في سفرٍ . . فأمِّروا أحدَكُمْ »[3] ، وكانوا يفعلونَ ذلكَ ، ويقولونَ : هٰذا أميرٌ أمَّرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٠٧) ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٣٠٠) عن يحيى بن أبي كثير ، وزاد : (الشيخ الفاني) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٠٧) ، والذي رواه أبو داوود (٢٦٠٧) ، والترمذي (١٦٧٤) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧٩٨) مرفوعاً : « الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب » .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٨٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤٣) عن عمر رضي الله عنه ، والسياق عند صاحب « القوت » (٢/ ٢٠٧) .

وليؤمِّروا أحسنَهُمْ أخلاقاً ، وأرفقَهُمْ بالأصحابِ ، وأسرعَهُمْ إلى الإيثارِ وطلبِ الموافقةِ ، وإنَّما يُحتاجُ إلى الأميرِ لأنَّ الآراءَ تختلفُ في تعيينِ المنازلِ والطرقِ ومصالحِ السفرِ ، ولا نظامَ إلا في الوحدةِ ، ولا فسادَ إلا مِنَ الكثرةِ ، وإنَّما انتظمَ أمرُ العالمِ لأنَّ مدبِّرَ الكلِّ واحدٌ ، ولوْ كانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدَتا ، ومهما كانَ المدبِّرُ واحداً . . انتظمَ أمرُ التدبيرِ ، وإذا كثرَ المدبِّرونَ . . فسدَتِ الأمورُ في الحضرِ والسفرِ ، إلا أنَّ مواطنَ الإقامةِ لا تخلو عنْ أميرٍ عامٍّ كأميرِ البلدِ ، وأميرٍ خاصٍّ كربِّ الدارِ ، وأمَّا السفرُ . . فلا يتعيَّنُ لهُ أميرٌ إلا بالتأميرِ ، فلهـٰذا وجبَ التأميرُ ليجمعَ شتاتَ الآراءِ .

ثمَّ على الأميرِ ألا ينظرَ إلا لمصلحةِ القومِ ، وأنْ يجعلَ نفسَهُ وقايةً لهُمْ ؛ كما نُقلَ عنْ عبدِ اللهِ المروزيِّ أنَّهُ صحبَهُ أبو عليٍّ الرباطيُّ فقالَ : علىٰ أنْ تكونَ أنتَ الأميرَ أوْ أنا ؟ فقالَ : بلْ أنتَ ، فلمْ يزلْ يحملُ الزادَ لنفسِهِ ولأبي عليٍّ علىٰ ظهرِهِ ، وأمطرتِ السماءُ ذاتَ ليلةٍ ، فقامَ عبدُ اللهِ طولَ الليلِ علىٰ رأسِ رفيقِهِ وفي يدِهِ كساءٌ يمنعُ عنهُ المطرَ ، فكلَّما قالَ لهُ عبدُ اللهِ : لا تفعلْ . . يقولُ : ألمْ تقلْ : إنَّ الإمارةَ مسلَّمةٌ لكَ ؟ فلا تتحكَّمْ عليَّ ، ولا ترجعْ عنْ قولِكَ ، حتَّىٰ قالَ أبو عليٍّ : وددتُ أنِّي مِتُّ ولمْ أقلْ لهُ : أنتَ الأميرُ . فهكذا ينبغي أنْ يكونَ الأميرُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأصحابِ أربعةٌ »(١) ،

(١) رواه أبو داوود (٢٦١١) ، والترمذي (١٥٥٥) ولفظه : « خير الصحابة أربعة » .

وتخصيصُ الأربعةِ مِنْ بينِ سائرِ الأعدادِ لا بدَّ أنْ يكونَ لهُ فائدةٌ ، والذي ينقدحُ فيهِ أنَّ المسافرَ لا يخلو عنْ رحلٍ يحتاجُ إلىٰ حفظِهِ ، وعنْ حاجةٍ يحتاجُ إلى التردُّدِ فيها ، ولوْ كانوا ثلاثةً . . لكانَ المتردِّدُ في الحاجةِ واحداً ، فيتردَّدُ في السفرِ بلا رفيقٍ ، فلا يخلو عنْ خطرٍ وعنْ ضيقِ قلبٍ ؛ لفقدِ أنسِ الرفيقِ ، ولوْ تردَّدَ في الحاجةِ اثنانِ . . لكانَ الحافظُ للرحلِ واحداً ، فلا يخلو أيضاً عنِ الخطرِ وعنْ ضيقِ الصدرِ(١) .

فإذاً ؛ ما دونَ الأربعةِ لا يفي بالمقصودِ ، وما فوقَ الأربعةِ يزيدُ ، فلا تجمعُهُمْ رابطةٌ واحدةٌ ، فلا ينعقدُ بينَهُمُ الترافقُ ؛ لأنَّ الخامسَ زيادةٌ بعدَ الحاجةِ ، ومَنْ يُستغنىٰ عنهُ لا تصرفُ الهمَّةُ إليهِ ، فلا تتمُّ المرافقةُ معهُ .

نعمْ ، في كثرةِ الرفقاءِ فائدةٌ للأمنِ مِنَ المخاوفِ ، ولكنَّ الأربعةَ خيرٌ للرفاقةِ الخاصَّةِ لا للرفاقةِ العامَّةِ ، وكَمْ مِنْ رفيقٍ في الطريقِ عندَ كثرةِ الرفاقِ لا يُكلَّمُ ولا يُخالَطُ إلىٰ آخرِ الطريقِ للاستغناءِ عنهُ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يودِّعَ رفقاءَ الحضرِ والأهلَ والأصدقاءَ : وليدعُ عندَ الوداعِ بدعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ بعضُهُمْ : صحبتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما مِنَ مكَّةَ إلى المدينةِ حرسَها اللهُ ، فلمَّا أردتُ أنْ

---

(١) ويقرب منه أن يقال : وجه تخصيص هٰذا العدد لأن أحدهم لو مرض . . أمكنه جعل واحد وصياً والآخرين شهيدين ، ولأنهم لو كانوا ثلاثة ربما تناجى اثنان دون واحد وهو منهي عنه . انظر « الإتحاف » (٦/ ٣٩٩) .

أفارقَهُ . . شيَّعَني وقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « قالَ لقمانُ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا استُودعَ شيئاً . . حفظَهُ ، وإنِّي أستودعُ اللهَ دينَكَ وأمانتَكَ وخواتيمَ عملِكَ »[1] .

وروىٰ زيدُ بنُ أرقمَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا أرادَ أحدُكُمْ سفراً . . فليودِّعْ إخوانَهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ جاعلٌ لهُ في دعائِهِمُ البركةَ »[2] .

وعنْ عمرِو بنِ شعيبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا ودَّعَ رجلاً قال : « زوَّدَكَ اللهُ التقوىٰ ، وغفرَ ذنبَكَ ، ووجَّهَكَ للخيرِ حيثُ توجَّهْتَ »[3] ، فهٰذا دعاءُ المقيمِ للمودِّعِ .

وقالَ موسىٰ بنُ وردانَ : أتيتُ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أودِّعُهُ لسفرٍ أردتُهُ ، فقالَ : ألا أعلِّمُكَ يا بنَ أخي شيئاً علَّمَنيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الوداعِ ؟ فقلتُ : بلىٰ ، قالَ : قلْ : « أستودعُكَ اللهَ الذي لا تضيعُ ودائعُهُ »[4] .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رجلاً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : إنِّي أريدُ سفراً فأوصني ، فقالَ لهُ : « في حفْظِ اللهِ وفي

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٧٣) .
(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٠٥) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٠٦) ، وبنحوه عند الترمذي (٣٤٤٤) .
(٤) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٢٦٩) ، وابن ماجه (٢٨٢٥) .

كنفِهِ ، زوَّدَكَ اللهُ التقوىٰ ، وغفرَ ذنبَكَ ، ووجَّهَكَ للخيرِ حيثُ كنتَ أوْ أينَما كنتَ » شكَّ فيهِ الراوي(١) .

وينبغي إذا استودعَ اللهَ تعالىٰ ما يخلفُهُ أنْ يستودعَ الجميعَ ولا يخصِّصَ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يعطي الناسَ عطاياهُمْ ، إذْ جاءَهُ رجلٌ معَهُ ابنٌ لهُ فقالَ لهُ عمرُ : ما رأيتُ أحداً أشبهَ بأحدٍ مِنْ هـٰذا بكَ ، فقالَ لهُ الرجلُ : أحدِّثُكَ عنهُ يا أميرَ المؤمنينَ بأمرٍ ؟ إنِّي أردتُ أنْ أخرجَ في سفرٍ وأمُّهُ حاملٌ بهِ فقالَتْ : تخرجُ وتدعُني علىٰ هـٰذهِ الحالِ ؟! فقلتُ : أستودعُ اللهَ ما في بطنِكِ ، فخرجتُ ، ثمَّ قدمتُ فإذا هيَ قدْ ماتَتْ ، فجلسنا نتحدَّثُ ، فإذا نارٌ علىٰ قبرِها ، فقلتُ للقومِ : ما هـٰذهِ النارُ ؟ فقالوا : هـٰذا مِنْ قبرِ فلانةَ ، نراها كلَّ ليلةٍ ، فقلتُ : واللهِ إنْ كانَتْ لصوَّامةً قوَّامةً ، فأخذتُ المعولَ حتَّى انتهينا إلى القبرِ ، فحفرنا ، فإذا سراجٌ ، وإذا هـٰذا الغلامُ يدبُّ ، فقيلَ لي : إنَّ هـٰذهِ وديعتُكَ ، ولوْ كنتَ استودعتَ أمَّهُ . . لوجدتَها ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : لهوَ أشبهُ بكَ مِنَ الغرابِ بالغرابِ(٢) .

❀ ❀ ❀

الرابعُ : أنْ يصليَ قبلَ السفرِ صلاةَ الاستخارةِ : كما وصفناها في كتابِ

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٢٧١٣) ، وهو عند الترمذي (٣٤٤٤) دون « في حفظ الله وفي كنفه » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مجابو الدعوة » (٤٧) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٩٩) واللفظ له .

الصلاةِ ، ووقتَ الخروجِ يصلِّي لأجلِ السفرِ ، فقدْ روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رجلاً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : إنِّي نذرتُ سفراً ، وقدْ كتبتُ وصيَّتي ، فإلىٰ أيِّ الثلاثةِ أدفعُها : إلىٰ أبي ، أمْ أخي ، أمِ ابني ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما استخلفَ عبدٌ في أهلِهِ مِنْ خليفةٍ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ أربعِ ركعاتٍ يصلِّيهنَّ في بيتِهِ إذا شدَّ عليهِ ثيابَ سفرِهِ ، يقرأُ فيهنَّ بـ(فاتحةِ الكتابِ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، ثمَّ يقولُ : اللهمَّ ، إنِّي أتقرَّبُ بهِنَّ إليكَ ؛ فاخلفْني بهِنَّ في أهلي ومالي ، فهيَ خليفتُهُ في أهلِهِ ومالِهِ ، وحرزٌ حولَ دارِهِ حتَّىٰ يرجعَ إلىٰ أهلِهِ »[1] .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : إذا حصلَ علىٰ بابِ الدارِ . . فليقلْ : بِاسمِ اللهِ ، توكَّلْتُ على اللهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ[2] ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أضلَّ أوْ أُضَلَّ ، أوْ أزلَّ أوْ أُزَلَّ ، أوْ أظلمَ أوْ أظلمَ ، أوْ أجهلَ أوْ يُجهلَ عليَّ[3] .

فإذا مشىٰ . . قالَ : اللهمَّ ، بكَ انتشرتُ ، وعليكَ توكلتُ ، وبكَ اعتصمتُ ، وإليكَ توجهتُ ، اللهمَّ ، أنتَ ثقتي ، وأنتَ رجائي ؛ فاكفني ما أهمَّني وما لا أهتمُّ بهِ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، عزَّ جارُكَ ، وجلَّ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٥٢) .
(٢) رواه أبو داوود (٥٠٩٥) ، والترمذي (٣٤٢٦) .
(٣) رواه النسائي (٨/ ٢٦٨) ، وابن ماجه (٣٨٨٤) .

ثناؤُكَ ، ولا إلـهَ غيرُكَ ، اللهمَّ ؛ زودْني التقوىٰ ، واغفرْ لي ذنبي ، ووجهْني للخيرِ أينَما توجهتُ[1] .

وليدعُ بهـٰذا الدعاءِ في كلِّ منزلٍ يرحلُ عنهُ .

فإذا ركبَ الدابّةَ . . فليقلْ : باسمِ اللهِ ، وباللهِ ، واللهُ أكبرُ ، توكلتُ على اللهِ ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ، فإذا استوتِ الدابّةُ تحتَهُ . . فليقلْ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ اللهمَّ ، أنتَ الحاملُ على الظهرِ ، وأنتَ المستعانُ على الأمورِ[2] .

* * *

السادسُ : أنْ يرحلَ مِنَ المنازلِ بكرةً : روىٰ جابرٌ : أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رحلَ يومَ الخميسِ وهوَ يريدُ تبوكَ وبكَّرَ ، وقالَ : « اللهمَّ ؛ باركْ لأمَّتي في بكورِها »[3] .

---

(١) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٤٩٥) دون قوله : « عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إلـه غيرك » ، والبيهقي في « الدعوات الكبير » (٤٥١) بتمامه .
(٢) انظر « الإتحاف » (٦/ ٤٠٤ـ٤٠٥) .
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٣٥) بلفظ المصنف ، وهو عند أبي داوود (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٢١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣٦) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه بنحوه .

ويُستحبُّ أنْ يبتدىءَ بالخروجِ يومَ الخميسِ ، فقدْ روىٰ كعبُ بنُ مالكٍ عنْ أبيهِ قالَ : قلمَّا كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخرجُ إلىٰ سفرٍ إلا يومَ الخميسِ(١) .

وروىٰ أنسٌ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ باركْ لأمَّتي في بكورِها يومَ السبتِ »(٢) .

وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إذا بعثَ سريَّةً . . بعثَها أوَّلَ النهارِ(٣) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ باركْ لأمَّتي في بكورِها يومَ خميساتِها »(٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ : إذا كانَ لكَ إلىٰ رجلٍ حاجةٌ . . فاطلبْها إليهِ نهاراً ، ولا تطلبْها ليلاً ، واطلبْها بكرةً ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ باركْ لأمَّتي في بكورِها »(٥) .

ولا ينبغي أنْ يسافرَ بعدَ طلوعِ الفجرِ مِنْ يومِ الجمعةِ ، فيكونَ عاصياً بتركِ الجمعةِ ، واليومُ منسوبٌ إليها ، فكانَ أوَّلُهُ مِنْ أسبابِ وجوبِها .

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٩) ، وهو عن عبد الرحمـٰن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب رضي الله عنه ، وسقط من النسخ اسم الابن ، وقد أشار لهـٰذا أيضاً الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٤٠٥) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٣٧) .

(٣) هو في حديث صخر الغامدي رضي الله عنه المتقدم قريباً .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٢٣٧) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤١) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٤٢) .

والتشييعُ للوداعِ سنَّةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ أشيِّعَ مجاهداً في سبيلِ اللهِ فأكنفَهُ علىٰ رحلِهِ غدوةً أوْ روحةً . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها »[1] .

❊ ❊ ❊

السابعُ : ألا ينزلَ حتىٰ يحمى النهارُ : فهوَ السنَّةُ ، ويكونُ أكثرُ سيرِهِ في الليلِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالدُّلجةِ ؛ فإنَّ الأرضَ تُطوىٰ بالليلِ ما لا تُطوىٰ بالنهارِ »[2] .

ومهما أشرفَ على المنزلِ . . فليقلِ : اللهمَّ ، ربَّ السمواتِ السبعِ وما أظللْنَ ، وربَّ الأرضينَ السبعِ وما أقللْنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أضللْنَ ، وربَّ الرياحِ وما ذرينَ ، وربَّ البحارِ وما جرينَ ؛ أسألُكَ خيرَ هٰذا المنزلِ وخيرَ أهلِهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ هٰذا المنزلِ وشرِّ ما فيهِ ، اصرفْ عنِّي شرَّ شرارِهِمْ[3] .

فإذا نزلَ المنزلَ . . فليصلِّ فيهِ ركعتينِ ، ثمَّ ليقلْ : اللهمَّ ، إنِّي أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يجاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما خلقَ[4] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٢٤) ، وأكنفه : أعينه عليه .
(٢) رواه أبو داوود (٢٥٧١) دون : « ما لا تطوىٰ بالنهار » ، وهي عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٧٩) مرسلةً .
(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧٧٦) .
(٤) رواه مسلم (٢٧٠٨) بنحوه .

فإذا جنَّ عليهِ الليلُ . . فليقلْ : يا أرضُ ؛ ربِّي وربُّكِ اللهُ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، ومِنْ شرِّ ما فيكِ ، وشرِّ ما دبَّ عليكِ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ كلِّ أسدٍ وأسودَ وحيَّةٍ وعقربٍ ، ومِنْ ساكنِ البلدِ ووالدٍ وما ولدَ[1] ، ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ومهما علا نشزاً مِنَ الأرضِ في وقتِ السيرِ . . فينبغي أنْ يقولَ : (اللهمَّ ، لكَ الشرفُ علىٰ كلِّ شرفٍ ، ولكَ الحمدُ علىٰ كلِّ حالٍ)[2] ، ومهما هبطَ . . سبَّحَ ، ومهما خافَ الوحشةَ في سفره . . قالَ : (سبحانَ الملكِ القدُّوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جللتَ السماواتِ بالعزَّةِ والجبروتِ)[3] .

＊ ＊ ＊

الثامنُ : أنْ يحتاطَ بالنهارِ : فلا يمشي منفرداً خارجَ القافلةِ ؛ لأنَّهُ ربَّما يُغتالُ أوْ ينقطعُ ، **ويكونَ بالليلِ متحفِّظاً عندَ النومِ** ، كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا نامَ في ابتداءِ الليلِ في السفرِ . . افترشَ ذراعَهُ ، وإنْ نامَ في آخرِ الليلِ . . نصبَ ذراعَهُ نصباً ، وجعلَ رأسَهُ في كفِّهِ[4] .

---

(١) رواه أبو داوود (٢٦٠٣)، **وسكّان البلد** : الجن، **ووالد وما ولد هنا** : إبليس والشياطين.

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٩) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٤٢٩٧) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٢٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٤) .

(٤) كما في « مسلم » (٦٨٣) عن أبي قتادة قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر ، فعرّس بليل . . اضطجع علىٰ يمينه ، وإذا عرّس قبيل الصبح . . نصب ذراعه ، ووضع رأسه علىٰ كفه) .

والغرضُ مِنْ ذلكَ : ألا يستثقلَ في النومِ فتطلعَ الشمسُ وهوَ نائمٌ لا يدري فيكونَ ما يفوتهُ مِنَ الصلاةِ أفضلَ ممَّا يطلبُهُ بسفرِهِ .

والمستحبُّ بالليلِ أنْ يتناوبَ الرفقاءُ في الحراسةِ ، فإذا نامَ واحدٌ.. حرسَ آخرُ ، فهوَ السنَّةُ[1] .

ومهما قصدَهُ عدوٌّ أوْ سبعٌ في ليلٍ أوْ نهارٍ.. فليقرأْ آيةَ الكرسيِّ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ ، وسورةَ الإخلاصِ ، والمعوِّذتينِ ، وليقلْ : باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوَّةَ إلا باللهِ ، حسبيَ اللهُ ، توكَّلتُ على اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يأتي بالخيرِ إلا اللهُ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ ، حسبيَ اللهُ وكفىٰ ، سمعَ اللهُ لمَنْ دعا ، ليسَ وراءَ اللهِ منتهىٰ ، ولا دونَ اللهِ ملجا ، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ ، تحصنتُ باللهِ العظيمِ ، واستعنتُ بالحيِّ القيومِ الذي لا يموتُ ، اللهمَّ ؛ احرسْنا بعينِكَ التي لا تنامُ ، واكنفْنا بركنِكَ الذي لا يرامُ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بقدرتِكَ علينا ، فلا نهلِكُ وأنتَ ثقتُنا ورجاؤُنا ، اللهمَّ ؛ اعطفْ علينا قلوبَ عبادِكَ وإمائِكَ برأفةٍ ورحمةٍ ؛ إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ .

❁ ❁ ❁

التاسعُ : أنْ يرفقَ بالدابَّةِ : إنْ كانَ راكباً.. فلا يحمِّلُها ما لا تطيقُ ،

---

(١) رواه ابن خزيمة في « صحيحه » (٣٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٩٦) ، وأبو داوود (١٩٨) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٣٤٣) .

ولا يضربُها في وجهِها ؛ فإنَّهُ منهيٌّ عنهُ ، ولا ينامُ عليها ؛ فإنَّهُ يثقلُ بالنومِ ، وتتأذَّىٰ بهِ الدابَّةُ ، كانَ أهلُ الورعِ لا ينامونَ على الدوابِّ إلا غفوةً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتخذوا ظهورَ دوابِّكُمْ كراسيَّ »(١) .

ويُستحبُّ أنْ ينزلَ عنِ الدابَّةِ غَدوةً وعشيَّةً يروحُها بذلكَ ، فهوَ سنَّةٌ(٢) ، وفيهِ آثارٌ عنِ السلفِ(٣) .

وكانَ بعضُ السلفِ يكتري بشرطِ ألا ينزلَ ويوفِّي الأجرةَ ، ثمَّ كانَ ينزلُ ؛ ليكونَ بذلكَ محسناً إلى الدابَّةِ ، فيوضعَ في ميزانِ حسناتِهِ لا في ميزانِ حسناتِ المكاري(٤) .

ومَنْ آذى الدابَّةَ بضربٍ أوْ حملِ ما لا تطيقُ . . طُولبَ بهِ يومَ القيامةِ ، إذْ في كلِّ كبدٍ حرَّاءَ أجرٌ(٥) .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ لبعيرٍ لهُ عندَ الموتِ : (أيُّها البعيرُ ؛

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤٤) .
(٢) روى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في السفر . . مشىٰ ـ زاد فيه غيره : قليلاً ـ وناقته تقاد) .
(٣) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٤٠٦) : (أن نافع بن جبير كان يحج ماشياً وناقته أو راحلته تقاد معه) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .
(٥) كما روىٰ ذلك ابن ماجه (٣٦٨٦) ، وفيه : (حرَّىٰ) بوزان فعلىٰ ، وحرَّىٰ وحرَّاء : للدلالة على الحياة .

لا تخاصمْني إلىٰ ربِّكَ ، فإنِّي لمْ أكنْ أحملُكَ فوقَ طاقتِكَ)[1] .

وفي النزولِ ساعةً صدقتانِ : إحداهُما : ترويحُ الدابَّةِ ، والثانيةُ : إدخالُ السرورِ علىٰ قلْبِ المكاري .

وفيهِ فائدةٌ أخرىٰ ، وهيَ رياضةُ البدنِ ، وتحريكُ الرجلينِ ، والحذرُ مِنْ خدرِ الأعصابِ بطولِ الركوبِ .

وينبغي أنْ يقرِّرَ معَ المكاري ما يحملُهُ عليها شيئاً شيئاً ويعرضَهُ عليهِ ، ويستأجرَ الدابَّةَ بعقدٍ صحيحٍ ؛ لئلا يثورَ بينَهُما نزاعٌ يؤذي القلبَ ويحملُ على الزيادةِ في الكلامِ ، فما يلفظُ العبدُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ، فليحترزْ عنْ كثرةِ الكلامِ واللجاجِ معَ المكاري .

ولا ينبغي أنْ يحملَ فوقَ المشروطِ شيئاً وإنْ خفَّ ؛ فإنَّ القليلَ يجرُّ إلى الكثيرِ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ .

قالَ رجلٌ لابنِ المباركِ وهوَ علىٰ دابَّتِهِ : احملْ لي هٰذهِ الرقعةَ إلىٰ فلانٍ ، فقالَ : حتَّىٰ أستأذنَ الجمَّالَ ؛ فإنِّي لمْ أشارطْهُ علىٰ هٰذهِ الرقعةِ .

فانظرْ كيف لمْ يلتفتْ إلىٰ قولِ الفقهاءِ : إنَّ هٰذا ممَّا يتسامحُ بهِ ، ولكنْ سلكَ طريقَ الورعِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٣) ، واسم بعيره هٰذا : دمون .

العاشرُ : ينبغي أنْ يستصحبَ ستةَ أشياءَ : قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا سافرَ . حملَ معهُ خمسةَ أشياءَ : المرآةُ ، والمُكْحُلةُ ، والمِدرىٰ ، والسواكُ ، والمشطُ)[1] ، وفي روايةٍ أخرىٰ عنها ستةُ أشياءَ : (المرآةُ ، والقارورةُ ، والمقراضُ ، والسواكُ ، والمُكْحُلةُ ، والمشطُ)[2] .

وقالَتْ أمُّ سعدٍ الأنصاريَّةُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يفارقُهُ في السفرِ المرآةُ والمُكْحُلةُ)[3] .

وقالَ صهيبٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالإثمدِ عندَ مضجعِكُمْ ، فإنَّهُ ممَّا يزيدُ في البصرِ ، وينبتُ الشعرَ »[4] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يكتحلُ ثلاثاً ثلاثاً ، وفي روايةٍ أخرى أنَّهُ اكتحلَ لليمنىٰ ثلاثاً ، ولليسرىٰ ثنتينِ[5] .

وقد زادَ الصوفيَّةُ الرَّكوةَ والحبلَ ، وقالَ بعضُ الصوفيَّةِ : (إذا لمْ يكنْ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٢٨) واللفظ له ، والطبراني في « الأوسط » (٥٢٣٨) ، والمدرىٰ : شيء يعمل من حديد أو خشب علىٰ شكل سن من أسنان المشط وأطول منه ، يسرح به الشعر الملبد . « إتحاف » (٦/ ٤١٠) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٢٩) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٢٧) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة »(٦/ ٣٥٠٩) في ترجمة أم سعد بنت زيد بن ثابت ، أو امرأته .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨٣٠) .

(٥) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤١٦)، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٩٥٣) .

معَ الفقيرِ رَكوةٌ وحبلٌ . . دلَّ على نقصانِ دينِهِ)[1] ، وإنَّما زادوا هٰذا لما رأوهُ مِنَ الاحتياطِ في طهارةِ الماءِ وغسلِ الثيابِ ، فالرَّكوةُ لحفظِ الماءِ الطاهرِ ، والحبلُ لتجفيفِ الثوبِ المغسولِ ، ولنزحِ الماءِ مِنَ الآبارِ .

وكانَ الأوَّلونَ يكتفونَ بالتيمُّمِ ، ويغنونَ أنفسَهُمْ عنْ نقلِ الماءِ ، ولا يبالونَ بالوضوءِ مِنَ الغدرانِ ومِنَ المياهِ كلِّها ما لمْ يتيقَّنوا نجاستَها ، حتَّىٰ توضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ ماءٍ في جرَّةٍ نصرانيَّةٍ[2] ، وكانوا يكتفون بالأرضِ والجبالِ عنِ الحبلِ ، فيفرشونَ الثيابَ المغسولةَ عليها ، فهٰذهِ بدعةٌ ، إلا أنَّها بدعةٌ حسنةٌ ، وإنَّما البدعةُ المذمومةُ ما تضادُّ السننَ الثابتةَ ، أمَّا ما يعينُ على الاحتياطِ في الدينِ . . فمستحسنٌ .

وقدْ ذكرنا أحكامَ المبالغةِ في الطهاراتِ في كتابِ الطهارةِ ، وأنَّ المتجرِّدَ لأمرِ الدينِ لا ينبغي أنْ يؤثرَ طريقَ الرخصةِ ، بلْ يحتاطُ في الطهارة ما لمْ يمنعْهُ ذلكَ عنْ عملٍ أفضلَ منهُ .

وقيلَ : كانَ الخوَّاصُ مِنَ المتوكلينَ ، وكانَ لا يفارقُهُ أربعةُ أشياءَ في السفرِ والحضرِ : الرَّكوةُ ، والحبْلُ ، والإبرةُ بخيوطِها ، والمقراضُ ، وكانَ يقولُ : هٰذهِ ليسَتْ مِنَ الدنيا[3] .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٧) .

(٣) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ٢٠٧) ، و« الرسالة القشيرية » (ص٤٨٢) .

الحاديَ عشرَ : في آدابِ الرجوعِ مِنَ السفرِ : كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قفلَ مِنْ غزوٍ أوْ حجٍّ أوْ عمرةٍ أوْ غيرِهِ . . يكبِّرُ علىٰ كلِّ شرفٍ مِنَ الأرضِ ثلاثَ تكبيراتٍ ويقولُ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، آيبونَ تائبونَ عابدونَ ساجدونَ لربِّنا حامدونَ ، صدقَ اللهُ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ »[١] .

وإذا أشرفَ علىٰ مدينتِهِ . . فليقلِ : (اللهمَّ ؛ اجعلْ لنا بها قراراً ورزقاً حسناً)[٢] ، ثمَّ ليرسلْ إلىٰ أهلِهِ مَنْ يبشِّرُهُمْ بقدومِهِ ؛ كي لا يقدمَ عليهِمْ بغتةً فيرىٰ ما يكرهُ ، ولا ينبغي لهُ أن يطرقَهُمْ ليلاً ، فقدْ وردَ النهيُ عنهُ[٣] .

وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قدمَ . . دخلَ المسجدَ أوَّلاً وصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ دخلَ البيتَ[٤] ، وإذا دخلَ . . قالَ : « توباً توباً ، لربِّنا أوْباً ، لا يغادرُ علينا حوباً »[٥] .

وينبغي أنْ يحملَ لأهلِ بيتِهِ ولأقاربِهِ تحفةً مِنْ مطعومٍ أوْ غيرِهِ ، علىٰ قدْرِ إمكانِهِ ، فهوَ سنَّةٌ ، فقدْ رُوِيَ أنَّهُ إنْ لمْ يجدْ شيئاً . . فليضعْ في مخلاتِهِ

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .
(٢) رواه المحاملي في « الدعاء » (٩٥) .
(٣) رواه البخاري (٥٠٧٩) ، ومسلم (١٩٢٨/ ١٨١) .
(٤) رواه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٧١٦) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٥٥) .

حجراً[1] ، وكأنَّ هـٰذا مبالغةٌ في الاستحثاثِ علىٰ هـٰذهِ المكرمةِ ؛ لأنَّ الأعينَ تمتدُّ إلى القادمِ مِنَ السفرِ ، والقلوبَ تفرحُ بهِ ، فيتأكَّدُ الاستحبابُ في تأكيدِ فرحِهِمْ وإظهارِ التفاتِ القلبِ في السفرِ إلىٰ ذكرِهِمْ بما يستصحبُ في الطريقِ لهُمْ .

فهـٰذهِ جملةٌ مِنَ الآدابِ الظاهرةِ .

* * *

فأمَّا الآدابُ الباطنةُ . . ففي الفصلِ الأوَّلِ بيانُ جملةٍ منها .

وجملتُهُ : ألا يسافرَ إلا إذا كانَ زيادةُ دينِهِ في السفرِ ، ومهما وجدَ قلبَهُ متغيراً إلىٰ نقصانٍ . . فليقفْ ولينصرفْ .

ولا ينبغي أنْ يجاوزَ همُّهُ منزلَهُ ، بلْ ينزلُ حيثُ ينزلُ قلبُهُ ، وينوي في دخولِ كلِّ بلدةٍ أنْ يرىٰ شيوخَها ، ويجتهدُ أنْ يستفيدَ مِنْ كلِّ واحدٍ أدباً أوْ كلمةً لينتفعَ بها ، لا ليحكيَ ذلكَ ويظهرَ أنَّهُ لقيَ المشايخَ .

ولا يقيمُ ببلدةٍ أكثرَ مِنْ أسبوعٍ أوْ عشرةِ أيامٍ ، إلا أنْ يأمرَهُ الشيخُ المقصودُ بذلكَ ، ولا يجالسُ في مدَّةِ الإقامةِ إلا الفقراءَ الصادقينَ ، وإنْ كانَ قصدُهُ زيارةَ أخٍ . . فلا يزيدُ علىٰ ثلاثةِ أيامٍ ، فهوَ حدُّ الضيافةِ ، إلا إذا شقَّ علىٰ أخيهِ مفارقتُهُ .

---

(١) روى الدارقطني في « سننه » (٢/ ٣٠٠) من حديث عائشة مرفوعاً : « إذا قدم أحدكم من سفر . . فليهد إلىٰ أهله ، وليطرفهم ولو كانت حجارة » .

وإذا قصدَ زيارةَ شيخٍ . . فلا يقيمُ عندَهُ أكثرَ مِنْ يومٍ وليلةٍ ، ولا يشتغلُ بالعِشْرةِ ؛ فإنَّ ذلكَ يقطعُ بركةَ سفرِهِ .

وكلَّما يدخلُ البلدَ . . فلا يشتغلُ بشيءٍ سوى زيارةِ الشيخِ بزيارةِ منزلِهِ ، فإنْ كانَ في بيتِهِ . . فلا يدقُّ عليهِ بابَهُ ولا يستأذنُ عليهِ إلىٰ أنْ يخرجَ ، فإذا خرجَ . . تقدَّمَ إليهِ بأدبٍ فسلَّمَ عليهِ ، ولا يتكلَّمُ بينَ يديهِ إلا أنْ يسألَهُ ، فإنْ سألَهُ . . أجابَ بقدْرِ السؤالِ ، ولا يسألُهُ عنْ مسألةٍ ما لمْ يستأذنْ أوَّلاً[1] .

وإذا كانَ في السفرِ . . فلا يكثرُ ذكرَ أطعمةِ البلدانِ وأسخيائِها ، ولا ذكرَ أصدقائِهِ فيها ، وليذكرْ مشايخَها وفقراءَها .

ولا يهملُ في سفرِهِ زيارةَ قبورِ الصالحينَ ، بلْ يتفقدُها في كلِّ قريةٍ وبلدةٍ ، ولا يظهرُ حاجتَهُ إلا بقدْرِ الضرورةِ ، ومعَ مَنْ يقدرُ علىٰ إزالتِها ، ويلازمُ في الطريقِ الذكْرَ وقراءةَ القرآنِ بحيثُ لا يسمعُ غيرُهُ ، وإذا كلَّمَهُ إنسانٌ . . فليتركِ الذكرَ وليجبْهُ ما دامَ يحدِّثُهُ ، ثمَّ ليرجعْ إلىٰ ما كانَ عليهِ .

فإنْ تبرَّمَتْ نفسُهُ بالسفرِ أوْ بالإقامةِ . . فليخالفْها ، فالبركةُ في مخالفةِ النفسِ ، فإذا تيسَّرَتْ لهُ خدمةُ قومٍ صالحينَ . . فلا ينبغي لهُ أنْ يسافرَ تبرُّماً بالخدمةِ ، فذلكَ كفرانُ نعمةٍ[2] .

---

(١) وقال الإمام أبو طالب في « القوت » (١/ ١٦٤) : (كانوا يقعدون علىٰ أبوابهم وفي مساجدهم ينتظرون خروجهم لأوقات الصلاة ؛ إجلالاً للعلم ، وهيبة للعلماء) .

(٢) فإن خدمة الصالحين نعمة من الله ، فإذا تركها تبرماً . . دل علىٰ كفرانه لها . « إتحاف » (٦/ ٤١٤) .

ومهما وجدَ نفسَهُ في نقصانٍ عمَّا كانَ عليهِ في الحضرِ . . فليعلمْ أنَّ سفرَهُ معلولٌ ، وليرجعْ ؛ إذْ لوْ كانَ بحقٍّ . . لظهرَ أثرُهُ .

قالَ رجلٌ لأبي عثمانَ المغربيِّ : خرجَ فلانٌ مسافراً ، فقالَ : (السفرُ غربةٌ ، والغربةُ ذِلَّةٌ ، وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ)(١) ، وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ مَنْ ليسَ لهُ في السفرِ زيادةُ دينٍ فقدْ أذلَّ نفسَهُ ، وإلاَّ . . فعزُّ الدينِ لا يُنالُ إلا بذلَّةِ الغربةِ .

فليكنْ سفرُ المريدِ مِنْ وطنِ هواهُ ومرادِهِ وطبعِهِ حتىٰ يعزَّ في هـٰذهِ الغربةِ ولا يذلَّ ؛ فإنَّ مَنِ اتبعَ هواهُ في سفرِهِ . . ذلَّ ـ لا محالةَ ـ إمَّا عاجلاً وإمَّا آجلاً .

❋ ❋ ❋

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص٣٥٩) ، وعند الترمذي (٢٢٥٤) ، وابن ماجه (٤٠١٦) : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » مرفوعاً .

البابُ الثّاني
فيما لا بدّ للمسافر من تعلّمه من رخص السّفر وأدلّة القبلة والأوقات

اعلمْ : أنَّ المسافرَ يحتاجُ في أوَّلِ سفرِهِ إلىٰ أنْ يتزوَّدَ لدنياهُ ولآخرتِهِ .

أما زادُ الدنيا : فالطعامُ والشرابُ ، وما يحتاجُ إليهِ مِنَ النفقةِ .

فإنْ خرجَ متوكِّلاً مِنْ غيرِ زادٍ . . فلا بأسَ بهِ إذا كانَ سفرُهُ في قافلةٍ أوْ بينَ قرىً متصلةٍ .

وإنْ ركبَ الباديةَ وحدَهُ أوْ معَ قومٍ لا طعامَ معهُمْ ولا شرابَ ؛ فإنْ كانَ ممَّنْ يصبرُ على الجوعِ أسبوعاً أوْ عشراً مثلاً ، ويقدرُ علىٰ أنْ يجتزىءَ بالحشيشِ . . فلهُ ذلكَ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ قوَّةُ الصبرِ على الجوعِ ولا القدرةُ على الاجتزاءِ بالحشيشِ . . فخروجُهُ مِنْ غيرِ زادٍ معصيةٌ ؛ فإنَّهُ ألقىٰ نفسَهُ بيدِهِ إلى التهلكةِ ، ولهٰذا سرٌّ سيأتي في كتابِ التوكُّلِ .

وليسَ معنى التوكُّلِ التباعدَ عنِ الأسبابِ بالكليَّةِ ، ولوْ كانَ كذلكَ . . لبطلَ التوكُّلُ بطلبِ الدلوِ والحبلِ ، ونزحِ الماءِ مِنَ البئرِ ، ولوجبَ أنْ يصبرَ حتَّىٰ يسخِّرَ اللهُ ملكاً أوْ شخصاً آخرَ حتَّىٰ يصبَّ الماءَ في فيهِ ، فإنْ كانَ حفظُ الدلوِ والحبلِ لا يقدحُ في التوكُّلِ وهوَ آلةُ الوصولِ إلى المشروبِ . . فحملُ عينِ المطعومِ والمشروبِ حيثُ لا يُنتظرُ لهُ وجودٌ أولىٰ بألا يقدحَ فيهِ .

وستأتي حقيقةُ التوكُّلِ في موضعِهِ ؛ فإنَّهُ ملتبسٌ إلا على المحققينَ مِنْ علماءِ الدينِ .

* * *

وأمّا زادُ الآخرةِ : فهوَ العلمُ الذي يحتاجُ إليهِ في طهارتِهِ وصومِهِ وصلاتِهِ وعباداتِهِ ، فلا بدَّ أنْ يتزوَّدَ منهُ ؛ إذِ السفرُ تارةً يخففُ عنهُ أموراً فيحتاجُ إلىٰ معرفةِ القدْرِ الذي يخفِّفُهُ السفرُ ؛ كالقصرِ ، والجمعِ ، والفطرِ ، وتارةً يشدِّدُ عليهِ أموراً كانَ مستغنياً عنها في الحضرِ ؛ كالعلمِ بالقبلةِ ، وأوقاتِ الصلواتِ ؛ فإنَّه في البلدِ مكفيٌّ بغيرِهِ مِنْ محاريبِ المساجدِ ، وأذانِ المؤذنينَ ، وفي السفرِ قدْ يحتاجُ إلىٰ أنْ يتعرَّفَ بنفسِهِ .

* * *

فإذاً ؛ ما يفتقرُ إلىٰ تعلُّمِهِ ينقسمُ إلىٰ قسمينِ :

القسم الأول : العلم برخص السفر

والسفرُ يفيدُ في الطهارةِ رخصتينِ : مسحُ الخفَّينِ والتيمُّمُ ، وفي صلاةِ الفرضِ رخصتينِ : القصرُ والجمعُ ، وفي النفلِ رخصتينِ : أداؤُهُ على الراحلةِ وأداؤُهُ ماشياً ، وفي الصومِ رخصةً واحدةً ، وهيَ الفطرُ ، فهٰذهِ سبعُ رخصٍ .

الرخصةُ الأولىٰ : المسحُ على الخفينِ :

قالَ صفوانُ بنُ عسَّال : (أمرنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا كنَّا مسافرينَ أوْ سَفْراً ألا ننزعَ خفافَنا ثلاثةَ أيامٍ ولياليَهُنَّ)(١) ، فكلُّ مَنْ لبسَ الخفَّ علىٰ طهارةٍ مبيحةٍ للصلاةِ ثمَّ أحدثَ . . فلهُ أنْ يمسحَ علىٰ خفِّهِ مِنْ وقتِ حدثِهِ ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليَهُنَّ إنْ كانَ مسافراً ، ويوماً وليلةً إنْ كانَ مقيماً ، ولكنْ بخمسةِ شروطٍ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ اللبسُ بعدَ كمالِ الطهارةِ : فلوْ غسلَ الرجلَ اليمنىٰ وأدخلَها في الخفِّ ، ثمَّ غسلَ اليسرىٰ وأدخلَها في الخفِّ . . لمْ يجزْ لهُ المسحُ عندَ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ حتَّىٰ ينزعَ خفَّ اليمنىٰ ويعيدَ لبسَهُ .

الثاني : أنْ يكونَ الخفُّ قويّاً يمكنُ المشيُ فيهِ ، ويجوزُ المسحُ على الخفِّ وإنْ لمْ يكنْ منعَّلاً ؛ إذِ العادةُ جاريةٌ بالتردُّدِ فيهِ في المنازلِ ؛ لأنَّ فيهِ

---

(١) رواه الترمذي (٩٦) ، والنسائي (١/ ٨٣) ، وابن ماجه (٤٧٨) .

قوَّةً على الجملةِ ، بخلافِ جوربِ الصوفيَّةِ ؛ فإنَّهُ لا يجوزُ المسحُ عليهِ ، وكذا الجُرْموقُ الضعيفُ .

الثالثُ : ألا يكونَ في موضعِ فرضِ الغسلِ خرقٌ ، فإنْ تخرَّقَ بحيثُ انكشفَ محلُّ الفرضِ . . لمْ يجزِ المسحُ ، وللشافعيِّ قولٌ قديمٌ أنَّهُ يجوزُ ما دامَ يستمسكُ على الرجلِ ، وهوَ مذهبُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، ولا بأسَ بهِ لمسيسِ الحاجةِ إليهِ ، وتعذُّرِ الخرْزِ في السفرِ في كلِّ وقتٍ .

والمداسُ المنسوجُ يجوزُ المسحُ عليهِ مهما كانَ ساتراً لا تبدو بشرةُ القدمِ مِنْ خلالِهِ ، وكذا المشقوقُ الذي يُردُّ علىٰ محلِّ الشقِّ بشَرَجٍ[1] ؛ لأنَّ الحاجةَ تمسُّ إلىٰ جميعِ ذلكَ ، فلا يُعتبرُ إلا أنْ يكونَ ساتراً إلىٰ ما فوقَ الكعبينِ كيفما كانَ ، فأمَّا إذا سترَ بعضَ ظهرِ القدمِ وسترَ الباقيَ باللفافةِ . . لمْ يجزِ المسحُ عليهِ .

الرابعُ : ألا ينزعَ الخفَّ بعدَ المسحِ عليهِ ، فإنْ نزعَ . . فالأولى استئنافُ الوضوءِ ، فإنِ اقتصرَ علىٰ غسلِ القدمينِ . . جازَ .

الخامسُ : أنْ يمسحَ على الموضعِ المحاذي لمحلِّ فرضِ الغسلِ لا على الساقِ ، وأقلُّهُ : ما يسمَّىٰ مسْحاً علىٰ ظهرِ القدمِ مِنَ الخفِّ ، وإذا مسحَ بثلاثِ أصابعَ . . خرجَ مِنْ شبهةِ الخلافِ ، وأكملُهُ : أنْ يمسحَ أعلاهُ وأسفلَهُ

---

(١) صورته : ما لو كان المداس مفتوحاً ويغطَّىٰ بما يشبه الأزرار والعُرىٰ ، والشَّرَج : العروة .

دفعةً واحدةً مِنْ غيرِ تكرارٍ ، كذلكَ فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

ووصْفُهُ : أنْ يبلَّ اليدينِ ويضعَ رؤوسَ أصابعِ اليمنىٰ مِنْ يدِهِ علىٰ رؤوسِ أصابعِ اليمنىٰ مِنْ رجلِهِ ويمسحَهُ ؛ بأنْ يجرَّ أصابعَهُ إلىٰ جهةِ نفسِهِ ، ويضعَ رؤوسَ أصابعِ يدِهِ اليسرىٰ علىٰ عقبِهِ مِنْ أسفلِ الخفِّ ويمرَّها إلىٰ رأسِ القدمِ .

ومهما مسحَ مقيماً ثمَّ سافرَ ، أوْ مسافراً ثمَّ أقامَ . . غَلَّبَ حكْمَ الإقامةِ ، فليقتصرْ علىٰ يومٍ وليلةٍ .

وعددُ الأيامِ الثلاثةِ محسوبٌ مِنْ وقتِ حدثِهِ بعدَ المسحِ على الخفِّ ، فلوْ لبسَ الخفَّ في الحضرِ ولمْ يمسحْ في الحضرِ ، ثمَّ خرجَ وأحدثَ في السفرِ وقتَ الزوالِ مثلاً . . مسحَ ثلاثةَ أيامٍ ولياليَهُنَّ ، مِنْ وقتِ الزوالِ إلى الزوالِ مِنَ اليومِ الرابعِ ، فإذا زالَتِ الشمسُ مِنَ اليومِ الرابعِ . . لمْ يكنْ لهُ أنْ يصلِّيَ إلا بعدَ غسلِ الرجلينِ ، فيغسلُ رجليهِ ويعيدُ لبسَ الخفِّ ، ويراعي وقتَ الحدثِ ويستأنفُ الحسابَ مِنْ وقتِ الحدثِ .

ولوْ أحدثَ بعدَ لبسِ الخفِّ في الحضرِ ثمَّ خَرجَ بعدَ الحدثِ . . فلهُ أنْ يمسحَ ثلاثةَ أيامٍ ؛ لأنَّ العادةَ قدْ تقتضي اللبسَ قبلَ الخروجِ ، ثمَّ لا يمكنُ الاحترازُ مِنَ الحدثِ ، فأمَّا إذا مسحَ في الحضرِ ثمَّ سافرَ . . اقتصرَ علىٰ مدَّةِ المقيمينَ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٥) ، والترمذي (٩٧) ، وابن ماجه (٥٥٠) .

ويُستحبُّ لكلِّ مَنْ يريدُ لبسَ خفٍّ في حضرٍ أوْ سفرٍ أنْ ينكسَ الخفَّ وينفضَ ما فيهِ ؛ حذراً مِنْ حيَّةٍ أوْ عقربٍ أوْ شوكةٍ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أبي أمامةَ أنَّهُ قالَ : دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بخفَّيهِ ، فلبسَ أحدَهُما ، فجاءَ غرابٌ فاحتملَ الآخرَ ثمَّ رمىٰ به فخرجتْ منهُ حيَّةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فلا يلبسْ خفَّيْهِ حتَّىٰ ينفضَهُما »(١) .

* * *

الرخصةُ الثانيةُ : التيمُّمُ :

والترابُ بدلٌ عنِ الماءِ عندَ العذرِ ، وإنَّما يتعذَّرُ الماءُ بأنْ يكونَ بعيداً عنِ المنزلِ بعداً لوْ مشىٰ إليهِ . . لمْ يلحقْهُ غوثُ القافلةِ إنْ صاحَ أوِ استغاثَ ، وهوَ البعدُ الذي لا يعتادُ أهلُ المنزلِ في ترداداهِمْ لقضاءِ الحاجةِ التردُّدَ إليهِ ، وكذا إنْ نزلَ على الماءِ عدوٌّ أوْ سبعٌ ، فيجوزُ التيمُّمُ ، وإنْ كانَ الماءُ قريباً ، وكذا إنِ احتاجَ إليهِ لعطشِهِ في يومِهِ أوْ بعدَ يومِهِ لفقدِ الماءِ بينَ يديهِ ، فلهُ التيمُّمُ ، وكذا إنِ احتاجَ إليهِ لعطشِ أحدِ رفقائِهِ ، فلا يجوزُ لهُ الوضوءُ ، ويلزمُهُ بذلُهُ ، إمَّا بثمنٍ أوْ بغيرِ ثمنٍ .

ولوْ كانَ يحتاجُ إليهِ لطبخِ مرقةٍ أوْ لحمٍ أوْ لبلِّ فتيتٍ يجمعُهُ بهِ . . لمْ يجزْ لهُ التيمُّمُ ، بلْ عليهِ أنْ يجتزِىءَ بالفتيتِ اليابسِ ويتركَ تناولَ المرقةِ ، ومهما

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٣٧) .

وُهِبَ لهُ الماءُ . . وجبَ قبولُهُ ، وإنْ وُهِبَ ثمنُهُ . . لمْ يجبْ قبولُهُ ؛ لما فيهِ مِنَ المنَّةِ ، وإنْ بيعَ بثمنِ المثلِ . . لزمَهُ الشراءُ ، وإنْ بيعَ بغبنٍ . . لمْ يلزمْهُ .

فإذا لمْ يكنْ معَهُ ماءٌ وأرادَ أنْ يتيمَّمَ . . فأوَّلُ ما يلزمُهُ طلبُ الماءِ مهما جُوِّزَ الوصولَ إليهِ بالطلبِ ، وذلكَ بالتردُّدِ حَوالَي المنزلِ ، وتفتيشِ الرحلِ ، وطلبِ البقايا مِنَ الأواني والمطاهرِ ، فإنْ نسيَ الماءَ في رحلِهِ ، أوْ نسيَ بئراً بالقربِ منهُ . . لزمَهُ إعادةُ الصلاةِ ؛ لتقصيرِهِ في الطلبِ ، وإنْ علمَ أنَّهُ سيجدُ الماءَ في آخرِ الوقتِ . . فالأولىٰ أنْ يصليَ بالتيمُّمِ في أوَّلِ الوقتِ ؛ فإنَّ العمرَ لا يوثقُ بهِ ، وأوَّلُ الوقتِ رضوانُ اللهِ .

تيمَّمَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما ، فقيلَ لهُ : أتيتمَّمُ وجدرانُ المدينةِ تنظرُ إليكَ ؟ فقالَ : أوَأبقىٰ إلىٰ أنْ أدخلَها ؟![1] .

ومهما وجدَ الماءَ بعدَ الشروعِ في الصلاةِ . . لمْ تبطلْ صلاتُهُ ، ولمْ يلزمْهُ الوضوءُ ، وإذا وجدَهُ قبلَ الشروعِ في الصلاةِ . . لزمَهُ الوضوءُ .

ومهما طلبَ فلمْ يجدْ . . فليقصدْ صعيداً طيِّباً عليهِ ترابٌ يثورُ منهُ غبارٌ ، وليضربْ عليهِ كفَّيْهِ بعدَ ضمِّ أصابعِهِ ضربةً ، فيمسحُ بهما وجهَهُ ، ويضربُ ضربةً أخرىٰ بعدَ نزعِ الخاتمِ وتفريجِ الأصابعِ ويمسحُ بها يديه إلىٰ مرفقيهِ ،

---

(١) قال الحافظ ابن الملقن في « خلاصة البدر المنير » (١/ ٧١) : (رواه مالك والشافعي والدارقطني بنحوه بأسانيد صحيحة ، وذكره البخاري بغير إسناد) ، وانظر « البدر المنير » (٢/ ٦٦٦) .

فإنْ لمْ يستوعبْ بضربةٍ واحدةٍ جميعَ يديهِ . . ضربَ ضربةً أخرىٰ ، وكيفيَّةُ التلطُّفِ فيهِ ما ذكرناهُ في كتابِ الطهارةِ ، فلا نعيدُهُ .

ثم إذا صلىٰ بهِ فريضةً واحدةً . . فلهُ أنْ يتنفَّلَ ما شاءَ بذلكِ التيمُّمِ ، وإن أرادَ الجمعَ بينَ فريضتينِ . . فعليهِ أنْ يعيدَ التيمُّمَ للصلاةِ الثانيةِ ، فلا يصلِّي فرضينِ إلا بتيمُّمَينِ .

ولا ينبغي أنْ يتيمَّمَ لصلاةٍ قبلَ دخولِ وقتِها ، فإنْ فعلَ . . وجبَ عليهِ إعادةُ التيمُّمِ .

ولينوِ عندَ مسحِ الوجهِ استباحةَ الصلاةِ ، ولوْ وجدَ مِنَ الماءِ ما يكفيهِ لبعضِ طهارتِهِ . . فليستعملْهُ ثمَّ ليتيمَّمَ بعدَهُ تيمُّماً تامّاً .

* * *

الرخصةُ الثالثةُ : في الصلاةِ المفروضةِ القصرُ :

ولهُ أنْ يقتصرَ في كلِّ واحدةٍ مِنَ الظهرِ والعصرِ والعشاءِ علىٰ ركعتينِ ، ولكنْ بشروطٍ ثلاثةٍ :

الأوَّلُ : أنْ يؤديَها في أوقاتِها ، فلوْ صارَتْ قضاءً . . فالأظهرُ لزومُ الإتمامِ .

الثاني : أنْ ينويَ القصرَ ، فلوْ نوى الإتمامَ . لزمَهُ الإتمامُ ، ولوْ شكَّ في أنَّهُ نوى القصرَ أوِ الإتمامَ . . لزمَهُ الإتمامُ .

الثالثُ : ألا يقتديَ بمقيمٍ ولا بمسافرٍ متمٍّ ، فإنْ فعلَ . . لزمَهُ الإتمامُ ،

بلْ إنْ شكَّ في أنَّ إمامَهُ مقيمٌ أوْ مسافرٌ . . لزمَهُ الإتمامُ وإنْ تيقَّنَ بعدَهُ أنَّهُ مسافرٌ ؛ لأنَّ شعارَ المسافرِ لا يخفىٰ ، فليكنْ متحقِّقاً عندَ النيَّةِ .

وإنْ شكَّ في أنَّ إمامَهُ هلْ نوى القصرَ أمْ لا بعدَ أنْ عرفَ أنَّهُ مسافرٌ . . لمْ يضرُّهُ ذلكَ ؛ لأنَّ النيَّاتِ لا يُطلعُ عليها .

وهـٰذا كلُّهُ إذا كانَ في سفرٍ طويلٍ مباحٍ ، وحدُّ السفرِ مِنْ جهةِ البدايةِ والنهايةِ فيهِ إشكالٌ ، فلا بدَّ مِنْ معرفتِهِ ، **والسفرُ** : هوَ الانتقالُ مِنْ موضعِ الإقامةِ معَ ربطِ القصدِ بمقصدٍ معلومٍ ، فالهائمُ وراكبُ التعاسيفِ ليسَ لهُ الترخُّصُ(١) ، وهوَ الذي لا يقصدُ موضعاً معيَّناً .

ولا يصيرُ مسافراً ما لمْ يفارقْ عمرانَ البلدِ ولا يُشترطُ أنْ يجاوزَ خرابَ البلدةِ وبساتينَها التي قدْ يخرجُ أهلُ البلدةِ إليها للتنزُّهِ وأمَّا القريةُ . . فالمسافرُ منها ينبغي أنْ يجاوزَ البساتينَ المحوطةَ دونَ التي ليستَ بمحوطةٍ .

ولوْ رجعَ المسافرُ إلى البلدِ لأخذِ شيءٍ نسيهُ . . لمْ يترخَّصْ إنْ كانَ ذلكَ وطنَهُ ما لمْ يجاوزِ العمرانَ ، وإنْ لمْ يكنْ ذلكَ هوَ الوطنَ . . فلهُ الترخُّصُ ؛ إذْ صارَ مسافراً بالانزعاجِ والخروجِ منهُ .

وأمَّا نهايةُ السفرِ فبأحدِ أمورٍ ثلاثةٍ :

الأوَّلُ : الوصولُ إلى العمرانِ مِنَ البلدِ الذي عزمَ على الإقامةِ بهِ .

---

(١) **راكب التعاسيف** : هو الذي يسلك علىٰ غير طريق ، كأنه جمع تَعساف ، مثل التضراب والتقتال والترحال ، والتفعال مطرد في كل فعل ثلاثي غالباً . « إتحاف » (٦ / ٤٢٩) .

الثاني : العزمُ على الإقامةِ ثلاثةَ أيامٍ فصاعداً ؛ إمَّا في بلدٍ أوْ صحراءَ .

الثالثُ : صورةُ الإقامةِ وإنْ لمْ يعزمْ ، كما إذا أقامَ علىٰ موضعٍ واحدٍ ثلاثةَ أيامٍ سوىٰ يومِ الدخولِ . . لمْ يكنْ لهُ الترخُّصُ بعدَهُ .

وإنْ لمْ يعزمْ على الإقامةِ وكانَ لهُ شغلٌ وهوَ يتوقَّعُ كلَّ يومٍ أنْ يتنجَّزَ ، ولكنَّهُ يتعوَّقُ عليهِ ويتأخَّرُ . . فلهُ أنْ يترخَّصَ وإنْ طالَتِ المدَّةُ علىٰ أقيسِ القولينِ ؛ لأنَّهُ منزعجٌ بقلبِهِ ومسافرٌ عنِ الوطنِ بصورتِهِ ، ولا مبالاةَ بصورةِ الثبوتِ علىٰ موضعٍ واحدٍ معَ انزعاجِ القلبِ ، ولا فرقَ بينَ أنْ يكونَ هاذا الشغلُ قتالاً أوْ غيرَهُ ، ولا بينَ أنْ تطولَ المدَّةُ أوْ تقصرَ ، ولا بينَ أنْ يتأخَّرَ الخروجُ لمطرٍ لا يُعلمُ بقاؤُهُ ثلاثةَ أيامٍ أوْ لغيرِهِ ؛ إذْ ترخَّصَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقصرَ في بعضِ الغزواتِ ثمانيةَ عشرَ يوماً علىٰ موضعٍ واحدٍ(١) ، وظاهرُ الأمرِ أنَّهُ لوْ تمادى القتالُ . . لتمادىٰ ترخُّصُهُ ؛ إذْ لا معنىٰ للتقديرِ بثمانيةَ عشرَ يوماً ، والظاهرُ : أنَّ قصْرَهُ كانَ لكونِهِ مسافراً ، لا لكونِهِ غازياً مقاتلاً . **هاذا معنى السفرِ** .

وأمَّا معنى الطويلِ : فهوَ أنْ يكونَ مرحلتينِ ، كلُّ مرحلةٍ ثمانيةُ فراسخَ ، وكلُّ فرسخٍ ثلاثةُ أميالٍ، وكلُّ ميلٍ أربعةُ آلافِ خطوةٍ، وكلُّ خطوةٍ ثلاثةُ أقدامٍ .

ومعنى المباحِ : ألا يكونَ عاقّاً لوالديهِ هارباً منهُما ، ولا هارباً مِنْ مالكِهِ ، ولا تكونَ المرأةُ هاربةً مِنْ زوجِها ، ولا أن يكونَ مَنْ عليهِ الدينُ

---

(١) رواه أبو داوود (١٢٢٩) ، وجاء ذلك في قصة فتح مكة .

هارباً مِنَ المستحقِّ معَ اليسارِ ، ولا يكونَ متوجِّهاً في قطعِ طريقٍ ، أوْ قتلِ إنسانٍ، أوْ طلبِ إدرارِ حرامٍ مِنْ سلطانٍ ظالمٍ، أوْ سعيٍ بالفسادِ بينَ المسلمينَ .

وبالجملةِ : فلا يسافرُ الإنسانُ إلا في غرضٍ ، والغرضُ هوَ المحرِّكُ ، فإنْ كانَ تحصيلُ ذلكَ الغرضِ حراماً ، ولولا ذلكَ الغرضُ لكانَ لا ينبعثُ لسفرِهِ . . فسفرُهُ معصيةٌ ، ولا يجوزُ فيهِ الترخُّصُ .

وأمَّا الفسقُ في السفرِ بشربِ الخمرِ وغيرِهِ . . فلا يمنعُ الرخصةَ ، بلْ كلُّ سفرٍ ينهى الشرعُ عنهُ فلا يعينُ عليهِ بالرخصةِ .

ولوْ كانَ لهُ باعثانِ ؛ أحدُهُما مباحٌ ، والآخرُ محظورٌ ، وكانَ بحيثُ لوْ لمْ يكنِ الباعثُ المحظورُ لكانَ المباحُ مستقلاً بتحريكِهِ ، ولكانَ ـ لا محالةَ ـ يسافرُ لأجلِهِ . . فلهُ الترخُّصُ .

والمتصوِّفةُ الطوَّافونَ في البلادِ مِنْ غيرِ غرضٍ صحيحٍ سوى التفرُّجِ لمشاهدةِ البقاعِ المختلفةِ . . في ترخُّصِهِمْ خلافٌ ، **والمختارُ** : أنَّ لهمُ الترخُّصَ .

❊ ❊ ❊

الرخصةُ الرابعةُ : الجمعُ بينَ الظهرِ والعصرِ في وقتيهِما ، وبينَ المغربِ والعشاءِ في وقتيهِما :

فذلكَ أيضاً جائزٌ في كلِّ سفرٍ طويلٍ مباحٍ ، وفي جوازِهِ في السفرِ القصيرِ قولانِ ، ثمَّ إنْ قدَّمَ العصرَ إلى الظهرِ . . فلينوِ الجمعَ قبلَ الفراغِ مِنَ الظهرِ ، وليؤذِّنْ للظهرِ وليقمْ ، وعندَ الفراغِ يقيمُ للعصرِ ، ويجدِّدُ التيمُّمَ أوَّلاً إنْ كانَ

متيمِّماً ، ولا يفرِّقُ بينَهُما بأكثرَ مِنْ تيمُّمٍ وإقامةٍ ، فإنْ قدَّمَ العصرَ . . لمْ يجزْ ، وإنْ نوى الجمعَ عندَ التحرُّمِ بصلاةِ العصرِ جازَ عندَ المزنيِّ ، ولهُ وجهٌ في القياسِ ، إذْ لا مستندَ لإيجابِ تقديمِ النيَّةِ ، بلِ الشرعُ جوَّزَ الجمعَ ، وهاذا جمعٌ ، وإنَّما الرخصةُ في العصرِ ، فتكفي النيَّةُ فيها ، وأمَّا الظهرُ . . فجارٍ على القانونِ .

ثمَّ إذا فرغَ مِنَ الصلاتينِ . . فينبغي أنْ يجمعَ بينَ سننِ الصلاتينِ ، أمَّا العصرُ . . فلا سنَّةَ بَعدَها ولكنِ السنَّةُ التي بعدَ الظهرِ يصلِّيها بعدَ الفراغِ مِنَ العصرِ ، إمَّا راكباً أوْ مقيماً ؛ لأنَّهُ لوْ صلَّىٰ راتبةَ الظهرِ قبلَ العصرِ . . لانقطعَتِ الموالاةُ ، وهيَ واجبةٌ علىٰ وجهٍ ، وإنْ أرادَ أنْ يقيمَ الأربعَ المسنونةَ قبلَ الظهرِ والأربعَ المسنونةَ قبلَ العصرِ . . فليجمعْ بينهُما قبلَ الفريضتينِ ، فيصلِّي سنَّةَ الظهرِ أوَّلاً ، ثمَّ سنَّةَ العصرِ ، ثمَّ فريضةَ الظهرِ ، ثمَّ فريضةَ العصرِ ، ثمَّ سنَّةَ الظهرِ الركعتانِ اللتانِ هما بعدَ الفرضِ .

ولا ينبغي أنْ يهملَ النوافلَ في السفرِ ، فما يفوتُهُ مِنْ ثوابِها أكثرُ ممَّا ينالُهُ مِنَ الربحِ ، لا سيما وقدْ خفَّفَ الشرعُ عليهِ وجوَّزَ لَهُ أداءَها على الراحلةِ ؛ كي لا يتعوَّقَ عنِ الرفقةِ بسببِها .

وإنْ أخَّرَ الظهرَ إلى العصرِ . . فيجري علىٰ هاذا الترتيبِ ، ولا يبالي بوقوعِ راتبةِ الظهرِ بعدَ العصرِ في الوقتِ المكروهِ ؛ لأنَّ ما لهُ سببٌ لا يُكرهُ في هاذا الوقتِ ، وكذلكَ يفعلُ في المغربِ والعشاءِ والوترِ إذا قدَّمَ أوْ أخَّرَ ،

فبعدَ الفراغِ مِنَ الفرضِ يشتغلُ بجميعِ الرواتبِ ويختمُ الجميعَ بالوترِ .

وإنْ خطرَ لهُ ذكرُ الظهرِ قبلَ خروجِ وقتِهِ . . فليعزمْ علىٰ أدائِهِ معَ العصرِ جمعاً ، فهوَ نيّةُ الجمعِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يخلو عنْ هـٰذهِ النيّةِ إمَّا بنيّةِ التركِ ، أوْ بنيّةِ التأخيرِ عَنْ وقتِ العصرِ وذلكَ حرامٌ ، والعزمُ عليهِ حرامٌ .

وإنْ لمْ يتذكَّرِ الظهرَ حتَّىٰ خرجَ وقتُهُ ؛ إمَّا لنومِهِ ، وإمَّا لشغلٍ . . فلهُ أنْ يؤديَ الظهرَ معَ العصرِ ولا يكونُ عاصياً ؛ لأنَّ السفرَ كما يشغلُ عنْ فعلِ الصلاةِ . . فقدْ يشغلُ عنْ ذكرِها ، ويُحتملُ أنْ يقالَ : إنَّ الظهرَ إنَّما تقعُ أداءً إذا عزمَ علىٰ فعلِها قبلَ خروجِ وقتِها ، لكنِ الأظهرُ أنَّ وقتَ الظهرِ والعصرِ صارَ مشتركاً في السفرِ بينَ الصلاتينِ ، ولذلكَ يجبُ على الحائضِ قضاءُ الظهرِ إذا طهرَتْ قبلَ الغروبِ ، ولذلكَ ينقدحُ ألا تُشترطَ الموالاةُ ولا الترتيبُ بينَ الظهرِ والعصرِ عندَ تأخيرِ الظهرِ ، أمَّا إذا قدَّمَ العصرَ على الظهرِ . . لمْ يُجزِ ؛ لأنَّ ما بعدَ الفراغِ مِنَ الظهرِ هوَ الذي جعلَ وقتاً للعصرِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يشتغلَ بالعصرِ مَنْ هوَ عازمٌ علىٰ تركِ الظهرِ أوْ علىٰ تأخيرِهِ .

وعذرُ المطرِ مجوِّزٌ للجمعِ كعذرِ السفرِ .

وتركُ الجمعةِ أيضاً مِنْ رخصِ السفرِ ، وهيَ متعلِّقةٌ بفرائضِ الصلواتِ .

ولوْ نوى الإقامةَ بعدَ أنْ صلَّى العصرَ ، فأدركَ وقتَ العصرِ في الحضرِ . . فعليهِ أداءُ العصرِ ، وما مضىٰ إنَّما كانَ مُجزِئاً بشرطِ أنْ يبقى العذرُ إلىٰ خروجِ وقتِ العصرِ .

الرخصةُ الخامسةُ في التنفُّلِ راكباً :

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصلِّي علىٰ راحلتِهِ أينما توجَّهَتْ بِهِ دابَتُهُ ، وأوترَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الراحلةِ[1] .

وليسَ على المتنفِّلِ الراكبِ في الركوعِ والسجودِ إلا الإيماءُ ، وينبغي أنْ يجعلَ سجودَهُ أخفضَ مِنْ ركوعِهِ ، ولا يلزمُهُ الانحناءُ إلىٰ حدٍّ يتعرَّضُ بِهِ لخطرٍ بسببِ الدابّةِ ، فإنْ كانَ في مرقدٍ . . فليتمَّ الركوعَ والسجودَ ؛ فإنَّهُ قادرٌ عليهِ .

وأمَّا استقبالُ القبلةِ . . فلا يجبُ لا في ابتداءِ الصلاةِ ولا في دوامِها ، ولكنْ صوبُ الطريقِ بدلٌ عنِ القبلةِ ، فليكنْ في جميعِ صلاتِهِ إمَّا مستقبلاً للقبلةِ أوْ متوجِّهاً في صوبِ الطريقِ ؛ لتكونَ لهُ جهةٌ يثبتُ فيها ، فلوْ حرفَ دابّتَهُ عنِ الطريقِ قصداً . . بطلَتْ صلاتُهُ ، إلا إذا حرفَها إلى القبلةِ ، ولوْ حرفَها ناسياً وقصُرَ الزمانُ . . لمْ تبطلْ صلاتُهُ ، وإنْ طالَ . . ففيهِ خلافٌ .

وإن جمحَتْ بِهِ الدابّةُ فانحرفَتْ . . لمْ تبطلْ صلاتُهُ ؛ لأنَّ ذلكَ ممَّا يكثرُ وقوعُهُ ، وليسَ عليهِ سجودُ سهوٍ ؛ إذِ الجماحُ غيرُ منسوبٍ إليهِ ، بخلافِ ما لوْ حرفَ ناسياً ، فإنَّهُ يسجدُ للسهوِ بالإيماءِ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٠٠٠) ، ومسلم (٧٠٠) .

الرخصةُ السادسةُ : التنفُّلُ للماشي جائزٌ في السفرِ :

ويوميءُ بالركوعِ والسجودِ ، ولا يقعدُ للتشهدِ ؛ لأنَّ ذلكَ يبطلُ فائدةَ الرخصةِ ، وحكمُهُ حكمُ الراكبِ ، لكنْ ينبغي أنْ يتحرَّمَ بالصلاةِ مستقبلاً للقبلةِ ؛ لأنَّ الانحرافَ في لحظةٍ لا عسرَ فيهِ ، بخلافِ الراكبِ ؛ فإنَّ في تحريفِ الدابةِ وإنْ كانَ العِنانُ بيدِهِ نوعَ عسرٍ ، وربَّما تكثرُ الصلاةُ فيطولُ عليهِ ذلكَ .

ولا ينبغي أنْ يمشيَ في نجاسةٍ رطبةٍ عمداً ، فإنْ فعلَ . . بطلَتْ صلاتُهُ ، بخلافِ ما لوْ وطئَتْ دابَّةُ الراكبِ نجاسةً ، وليسَ عليهِ أنْ يشوِّشَ المشيَ علىٰ نفسِهِ بالاحترازِ مِنَ النجاساتِ التي لا تخلو الطرقُ عنها غالباً .

وكلُّ هاربٍ مِنْ عدوٍّ أوْ سيلٍ أوْ سبعٍ . . فلهُ أنْ يصلِّيَ الفريضةَ راكباً وماشياً كما ذكرناهُ في التنفُّلِ .

❊ ❊ ❊

الرخصةُ السابعةُ : الفطرُ :

وهوَ في الصومِ ، فللمسافرِ أنْ يفطرَ ، إلا إذا أصبحَ مقيماً ثمَّ سافرَ ، فعليهِ إتمامُ ذلكَ اليومِ ، وإنْ أصبحَ مسافراً صائماً ثمَّ أقامَ . . فعليهِ الإتمامُ ، وإنْ أقام مفطراً . . فليسَ عليهِ الإمساكُ بقيَّةَ النهارِ ، وإنْ أصبحَ مسافراً علىٰ عزْمِ الصومِ . . لمْ يلزمْهُ ، بلْ لهُ أنْ يفطرَ إذا أرادَ .

والصومُ أفضلُ مِنَ الفطرِ ، والقصرُ أفضلُ مِنَ الإتمامِ ؛ للخروجِ عنْ

شبهةِ الخلافِ[1] ، ولأنَّهُ ليسَ في عهدةِ القضاءِ ، بخلافِ المفطرِ ، فإنَّهُ في عهدةِ القضاءِ ، وربَّما يتعذَّرُ عليهِ ذلكَ بعائقٍ ، فيبقىٰ في ذمَّتِهِ ، إلا إذا كانَ الصومُ يضرُّ بهِ ، فالإفطارُ أفضلُ .

فهـٰذهِ سبعُ رخصٍ ، تتعلَّقُ ثلاثٌ منها بالسفرِ الطويلِ ، وهيَ القصرُ ، والفطرُ ، والمسحُ ثلاثةَ أيامٍ ، وتتعلَّقُ اثنتانِ منها بالسفرِ طويلاً كانَ أوْ قصيراً ، وهما سقوطُ الجمعةِ ، وسقوطُ القضاءِ عندَ أداءِ الصلاةِ بالتيمُّمِ .

* * *

وأمَّا صلاةُ النافلةِ ماشياً وراكباً . . ففيهِ خلافٌ ، والأصحُّ جوازُهُ في القصيرِ ، والجمعُ بينَ الصلاتينِ فيهِ خلافٌ ، والأظهرُ اختصاصُهُ بالطويلِ .

وأمَّا صلاةُ الفرضِ راكباً وماشياً للخوفِ . . فلا تتعلَّقُ بالسفرِ ، وكذا أكلُ الميتةِ ، وكذا أداءُ الصلاةِ في الحالِ بالتيمُّمِ عندَ فقدِ الماءِ ، بلْ يشتركُ فيها الحضرُ والسفرُ مهما وُجدَتْ أسبابُها .

* * *

فإنْ قلتَ : فالعلمُ بهـٰذهِ الرخصِ هلْ يجبُ على المسافرِ تعلُّمُهُ قبلَ السفرِ أمْ يُستحبُّ لهُ ذلكَ ؟

---

(١) فإن أبا حنيفة رحمه الله قال : هو عزيمة ، وقد شدد فيه حتىٰ قال ببطلان صلاة من صلىٰ أربعاً ولم يجلس بعد الركعتين ، ويروىٰ عن مالك أيضاً أنه عزيمة ، وكذلك ترك الجمع أفضل للخروج من الخلاف . انظر « الإتحاف » (٦/ ٤٣٧) .

فاعلمْ : أنَّهُ إنْ كانَ عازماً علىٰ تركِ المسحِ والقصرِ والجمعِ والفطرِ وتركِ التنفُّلِ راكباً وماشياً . . لمْ يلزمْهُ علمُ شروطِ الترخُّصِ في ذلكَ ؛ لأنَّ الترخُّصَ ليسَ بواجبٍ عليهِ ، وأمَّا علمُ رخصةِ التيمُّمِ . . فيلزمُهُ ؛ لأنَّ فقدَ الماءِ ليسَ إليهِ إلا أنْ يسافرَ علىٰ شطِّ نهرٍ يُوثقُ ببقاءِ مائِهِ ، أوْ يكونَ معَهُ في الطريقِ عالمٌ يقدرُ على استفتائِهِ عندَ الحاجةِ ، فلهُ أنْ يؤخِّرَ إلىٰ وقتِ الحاجةِ ، أمَّا إذا كانَ يظنُّ عدمَ الماءِ ، ولمْ يكنْ معَهُ عالمٌ . . فيلزمُهُ التعلُّمُ لا محالةَ .

* * *

فإنْ قلتَ : التيمُّمُ يُحتاجُ إليهِ لصلاةٍ لمْ يدخلْ بعدُ وقتُها ، فكيفَ يجبُ علمُ الطهارةِ لصلاةٍ بعدُ لمْ تجبْ وربَّما لا تجبُ ؟

فأقولُ : مَنْ بينَهُ وبينَ الكعبةِ مسافةٌ لا تُقطعُ إلا في سنةٍ . . فيلزمُهُ قبلَ أشهرِ الحجِّ ابتداءُ السفرِ ، ويلزمُهُ تعلُّمُ المناسكِ ـ لا محالةَ ـ إذا كانَ يظنُّ أنَّهُ لا يجدُ في الطريقِ مَنْ يتعلَّمُ منهُ ؛ لأنَّ الأصلَ الحياةُ واستمرارُها ، وما لا يُتوصَّلُ إلى الواجبِ إلا بهِ . . فهوَ واجبٌ ، وكلُّ ما يُتوقَّعُ وجوبُهُ توقعاً ظاهراً غالباً على الظنِّ ولهُ شرطٌ لا يُتوصَّلُ إليهِ إلا بتقديمِ ذلكَ الشرطِ علىٰ وقتِ الوجوبِ . . فيجبُ تقديمُ تعلُّمِ الشرطِ لا محالةَ ؛ كعلمِ المناسكِ قبلَ وقتِ الحجِّ وقبلَ مباشرتِهِ ؛ فلا يحلُّ إذاً للمسافرِ أنْ ينشئَ السفرَ ما لمْ يتعلَّمْ هٰذا القدْرَ مِنْ علمِ التيمُّمِ .

وإنْ كانَ عازماً علىٰ سائرِ الرخصِ . . فعليهِ أنْ يتعلَّمَ أيضاً القدْرَ الذي

ذكرناهُ مِنْ علمِ التيمُّمِ وسائرِ الرخصِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يعلمِ القدْرَ الجائزَ لرخصةِ السفرِ . . لمْ يمكنْهُ الاقتصارُ عليهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : إنْ لمْ يتعلَّمْ كيفيةَ التنفُّلِ راكباً وماشياً ماذا يضرُّهُ وغايتُهُ إذا صلَّىٰ أنْ تكونَ صلاتُهُ فاسدةً ، وهيَ غيرُ واجبةٍ ، فكيفَ يكونُ علمُها واجباً ؟

فأقولُ : إنَّ مِنَ الواجبِ ألا يصلِّيَ النفلَ علىٰ نعتِ الفسادِ ، فالتنفُّلُ معَ الحدثِ والنجاسةِ وإلىٰ غيرِ القبلةِ ومِنْ غيرِ إتمامِ شروطِ الصلاةِ وأركانِها . . حرامٌ ، فعليهِ أنْ يتعلَّمَ ما يحترزُ بهِ عنِ النافلةِ الفاسدةِ ؛ حذراً مِنَ الوقوعِ في المحظورِ .

فهٰذا بيانُ علْمِ ما خُفِّفَ عنِ المسافرِ في سفرِهِ .

* * *

القسم الثاني : ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهوَ علمُ القبلةِ والأوقاتِ ، وذلكَ أيضاً واجبٌ في الحضرِ ، ولكنْ في الحضرِ مَنْ يكفيهِ ؛ مِنْ محرابٍ متفقٍ عليهِ يغنيهِ عنْ طلبِ القبلةِ ، ومؤذِّنٍ يراعي الوقتَ فيغنيهِ عنْ طلبِ علْمِ الوقتِ .

والمسافرُ قدْ تشتبهُ عليهِ القبلةُ ، وقدْ يلتبسُ عليهِ الوقتُ ، فلا بدَّ لهُ مِنَ العلمِ بأدلَّةِ القبلةِ والمواقيتِ .

أمَّا أدلَّةُ القبلةِ . . فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ :

أرضيَّةٌ : كالاستدلالِ بالجبالِ والقرىٰ والأنهارِ .

وهوائيَّةٌ : كالاستدلالِ بالرياحِ شمالِها وجنوبِها ، وصباها ودَبورِها(١) .

وسماويَّةٌ : وهيَ النجومُ .

❊ ❊ ❊

فأمَّا الأرضيَّةُ والهوائيَّةُ : فتختلفُ باختلافِ البلادِ .

فربَّ طريقٍ فيهِ جبلٌ مرتفعٌ يعلمُ أنَّهُ علىٰ يمينِ المستقبلِ أوْ شمالِهِ أوْ ورائِهِ أوْ قدَّامِهِ ، فليتعلَّمْ ذلكَ وليفهمْهُ .

---

(١) والصبا تأتي من مشرق الشمس ، وهي القبول أيضاً ، والدبور تأتي من ناحية المغرب . « إتحاف » (٦/ ٤٣٩) .

وكذلكَ الرياحُ قدْ تدلُّ في بعضِ البلادِ ، فليفهمْ ذلكَ ، ولسنا نقدرُ على استقصاءِ ذلكَ ؛ إذْ لكلِّ بلدٍ وإقليمٍ حكْمٌ آخرُ .

＊ ＊ ＊

وأمَّا السماويَّةُ : فأدلتُها تنقسمُ إلىٰ نهاريَّةٍ وإلىٰ ليليَّةٍ :

أمَّا النهاريَّةُ . . فالشمسُ .

فلا بدَّ أنْ يراعيَ قبلَ الخروجِ مِنَ البلدِ أنَّ الشمسَ عندَ الزوالِ أينَ تقعُ منهُ ، أهيَ بينَ الحاجبينِ ، أوْ هيَ على العينِ اليمنىٰ أوِ اليسرىٰ ، أوْ تميلُ إلى الجبينِ ميلاً أكثرَ مِنْ ذلكَ ؟

فإنَّ الشمسَ لا تعدو في البلادِ الشماليَّةِ هـٰذهِ المواقعَ .

فإذا حفظَ ذلكَ فمهما عرفَ الزوالَ بدليلِهِ الذي سنذكرُهُ . . عرفَ القبلةَ بهِ .

وكذلكَ يراعي موقعَ الشمسِ منهُ وقتَ العصرِ ، فإنَّهُ في هـٰذينِ الوقتينِ يحتاجُ إلى القبلةِ بالضرورةِ ، وهـٰذا أيضاً لمَّا كانَ يختلفُ بالبلادِ . . فليسَ يمكنُ استقصاؤُهُ .

وأمَّا القبلةُ وقتَ المغربِ . . فإنَّها تُدركُ بموضعِ الغروبِ ، وذلكَ بأنْ يحفظَ أنَّ الشمسَ تغربُ عنْ يمينِ المستقبِلِ أوْ هيَ مائلةٌ إلىٰ وجهِهِ أوْ قفاهُ .

وبالشفقِ أيضاً تُعرفُ القبلةُ للعشاءِ الآخرةِ ، وبمشرقِ الشمسِ تُعرفُ القبلةُ لصلاةِ الصبحِ .

فكأنَّ الشمسَ تدلُّ على القبلةِ في الصلواتِ الخمسِ ، ولكنْ يختلفُ ذلكَ بالشتاءِ والصيفِ ؛ فإنَّ المشارقَ والمغاربَ كثيرةٌ ، وإنْ كانَتْ محصورةً في جهتينِ . . فلا بدَّ مِنْ تعلُّمِ ذلكَ أيضاً .

ولكنْ قدْ يصلِّي المغربَ والعشاءَ بعدَ غيبوبةِ الشفقِ ، فلا يمكنُهُ أنْ يستدلَّ على القبلةِ بهِ ، فعليهِ أنْ يراعيَ موقعَ القطبِ ، وهوَ الكوكبُ الذي يُقالُ لهُ : الجدْيُ[1] ، فإنَّهُ كوكبٌ كالثابتِ ، لا تظهرُ حركتُهُ عنْ موضعِهِ[2] ، وذلكَ إمَّا أنْ يكونَ علىٰ قفا المستقبلِ ، أوْ علىٰ منكبهِ الأيمنِ مِنْ ظهرِهِ ، أوْ منكبِهِ الأيسرِ في البلادِ الشماليةِ مِنْ مكَّةَ ، وفي البلادِ الجنوبيةِ كاليمنِ وما وراءَها ، فيقعُ في مقابلةِ المستقبلِ ، فليتعلَّمْ ذلكَ .

وما عرفَهُ في بلدِهِ . . فليعوِّلْ عليهِ في الطريقِ كلِّهِ ، إلا إذا طالَ السفرُ ، فإنَّ المسافةَ إذا بعدَتْ . . اختلفَ موقعُ الشمسِ وموقعُ القطبِ ومواقعُ

---

(١) وفي تعبيره هـٰذا مسامحة ؛ فإن الذي عرَّفه غيره من علماء هـٰذا الفن أنه نجم صغير في بنات نعش الصغرىٰ بين الفرقدين . « إتحاف » (٦/ ٤٣٩) ، وقال الجوهري في « الصحاح » (ج د ي) : (نجم إلىٰ جنب القطب تعرف به القبلة) .

(٢) ولذلك سمي قطباً ، تشبيهاً له بقطب الرحىٰ . « إتحاف » (٦/ ٤٤٠) .

المشارقِ والمغاربِ ، إلا أنَّهُ ينتهي في أثناءِ سفرِهِ إلىٰ بلدٍ فينبغي أنْ يسألَ أهلَ البصيرةِ ، أوْ يراقبَ هـٰذهِ الكواكبَ وهوَ مستقبلٌ محرابَ جامعِ البلدِ ؛ حتَّىٰ يتضحَ لهُ ذلكَ ، فمهما تعلَّمَ هـٰذهِ الأدلَّةَ . . فلهُ أنْ يعوِّل عليها .

فإنْ بانَ لهُ أنَّهُ أخطأَ مِنْ جهةِ القبلةِ إلىٰ جهةٍ أخرىٰ منَ الجهاتِ الأربعِ . . فينبغي أنْ يقضيَ .

وإنِ انحرفَ عنْ حقيقةِ محاذاةِ القبلةِ ولكنْ لمْ يخرجْ عنْ جهتِها . . لمْ يلزمْهُ القضاءُ .

وقدْ أوردَ الفقهاءُ خلافاً في أنَّ المطلوبَ جهةُ الكعبةِ أوْ عينُها ؟ وأشكلَ معناهُ علىٰ قومٍ ، إذْ قالوا :

إنْ قلنا : المطلوبُ العينُ . . فمتىٰ يتصوَّرُ هـٰذا مع بُعدِ الديارِ ؟

وإنْ قلنا : المطلوبُ الجهةُ . . فالواقفُ في المسجدِ إنِ استقبلَ جهةَ الكعبةِ وهوَ خارجٌ ببدنِهِ عنْ موازاةِ الكعبةِ . . لا خلافَ في أنَّهُ لا تصحُّ صلاتُهُ !

وقدْ طوَّلوا في تأويلِ معنى الخلافِ في الجهةِ والعينِ .

ولا بدَّ أوّلاً مِنْ فهمِ معنىٰ مقابلةِ العينِ ومقابلةِ الجهةِ :

فمعنىٰ مقابلةِ العينِ : أنْ يقفَ موقفاً لوْ خرجَ خطٌّ مستقيمٌ مِنْ بينِ عينيهِ

إلىٰ جدارِ الكعبةِ . . لاتصلَ بهِ وحصلَ مِنْ جانبي الخطِّ زاويتانِ متساويتانِ ، وهـٰذهِ صورتُهُ :

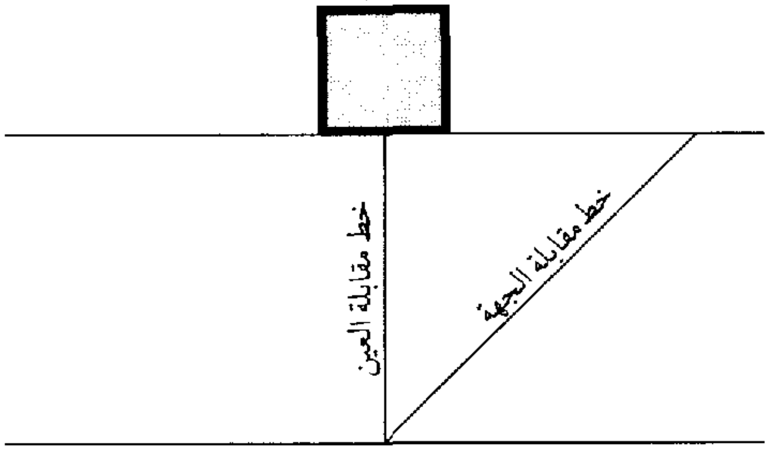

---

(١) كذا الرسم في (أ ، ب) ، وسقط من (ج) ، ولبيانه بالمسمَّيات : **معنى استقبال عين الكعبة** : أن يكون في موقف لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلىٰ جدار الكعبة . . لاتصل به ، وهو الخط (أ ب) ، ولا يشترط أن يتصل بوسط جدار الكعبة ، بل بأي نقطة منه (من نقاط القطعة د هـ) ، ويتحصل من هـٰذا الموقف تساوي الزاويتين (أ١ ، أ٢) ، والنقطة (ب) هي النقطة المفروضة الوحيدة لتساوي الزاويتين كما لا يخفىٰ .

فلو اتصل الخط الصادر عن (أ) بغيرها من نقاط الخط (ق١) . . لم يكن المصلي مستقبلاً للعين ، ولكنه يكون مستقبلاً للجهة ؛ كالخط (أ ج) مثلاً كما سيبين ذلك المصنف مع ضابط ذلك .

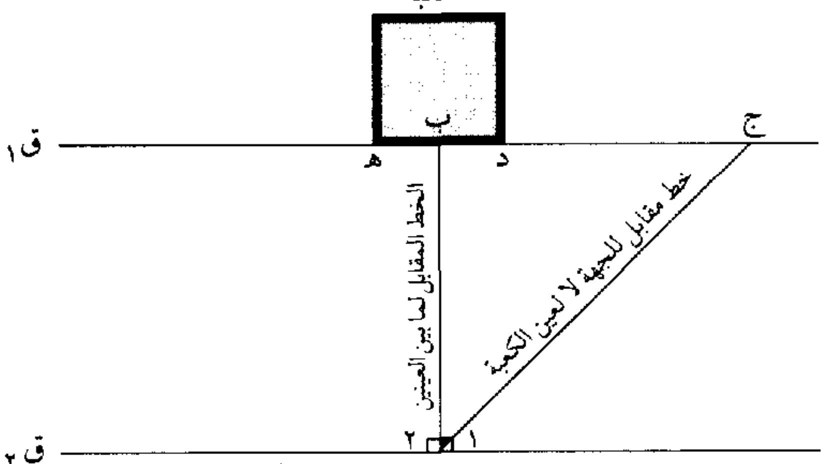

والخطُّ الخارجُ مِنْ موقفِ المصلِّي يقدِّرُ أنَّهُ خارجٌ مِنْ بينِ عينيهِ ، فهـٰذهِ صورةُ مقابلةِ العينِ .

وأمَّا مقابلةُ الجهةِ . . فيجوزُ فيها أنْ يتصلَ طرفُ الخطِّ الخارجِ مِنْ بينِ العينينِ إلى الكعبةِ مِنْ غيرِ أنْ يتساوى الزاويتانِ عنْ جنبتيِ الخطِّ ، بلْ لا يتساوى الزاويتانِ إلا إذا انتهى الخطُّ إلىٰ نقطةٍ معيَّنةٍ هيَ واحدةٌ ، فلو مُدَّ هـٰذا الخطُّ على الاستقامةِ إلىٰ سائرِ النقطِ مِنْ يمينِها أوْ شمالِها . . كانَتْ إحدى الزاويتينِ أضيقَ ، فيخرجُ عنْ مقابلةِ العينِ ، ولكنْ لا يخرجُ عنْ مقابلةِ الجهةِ ، كالخطِّ الذي كتبنا عليهِ : (مقابلةَ الجهةِ) فإنَّهُ لوْ قدَّرَ الكعبةَ علىٰ طرفِ ذلكَ الخطِّ . . لكانَ الواقفُ مستقبلاً لجهةِ الكعبةِ لا لعينِها[1] .

وحدُّ تلكَ الجهةِ : ما يقعُ بينَ خطَّينِ يتوهمُهُما الواقفُ مستقبلاً لجهةٍ خارجينِ مِنَ العينينِ ، يلتقي طرفاهُما في داخلِ الرأسِ بينَ العينينِ علىٰ زاويةٍ قائمةٍ ، فما يقعُ بينَ الخطَّينِ الخارجينِ مِنَ العينينِ . . فهوَ داخلٌ في الجهةِ ، وسعةُ ما بينَ الخطينِ تتزايدُ بطولِ الخطَّينِ وبالبعدِ عنِ الكعبةِ ، وهـٰذهِ صورتُهُ[2] :

---

(١) فالمصلي يقف عند النقطة (أ) ، والكعبة عند النقطة (ج) هنا .

(٢) كذا في (ب) ، وسقط الرسم في (ج) ، وفي (أ) صورة الكعبة علىٰ جهة اليمين بين القائمتين ، وطول الخطين مع زيادة سعة الجهة يكون بالبعد عن الكعبة ، والعكس بالعكس ، وموقف المصلي هو عند التقاطع .

الكعبة (1)

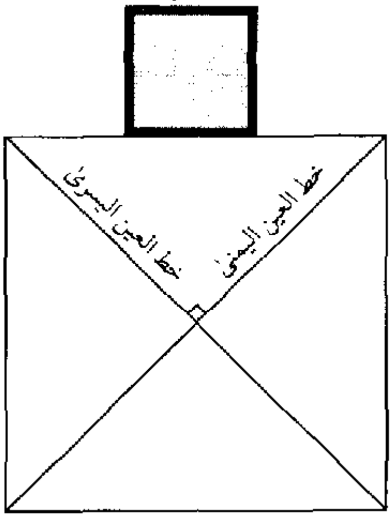

فإذا فُهِمَ معنى العينِ والجهةِ . . فأقولُ : الذي يصحُّ عندَنا في الفتوىٰ أنَّ المطلوبَ العينُ إنْ كانَتِ الكعبةُ ممَّا يمكنُ رؤيتُها ، وإنْ كانَ يُحتاجُ إلى الاستدلالِ عليها لتعذُّرِ رؤيتِها[1] . . فيكفي استقبالُ الجهةِ .

فأمَّا طلبُ العينِ عندَ المشاهدةِ . . فمجمعٌ عليهِ ، وأمَّا الاكتفاءُ بالجهةِ عندَ تعذُّرِ المعاينةِ . . فيدلُّ عليهِ الكتابُ والسنَّةُ وفعلُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ والقياسُ .

أمَّا الكتابُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أيْ : نحوَهُ[2] ، ومَنْ قابلَ جهةَ الكعبةِ . . يُقالُ : قدْ ولَّىٰ وجهَهُ شطرَها .

وأمَّا السنَّةُ : فما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ لأهلِ المدينةِ : « ما بينَ المغربِ والمشرقِ قبلةٌ »[3] ، والمغربُ يقعُ علىٰ يمينِ

---

(1) بأن حال بينه وبينها حائل أصلي ؛ كالجبل ، أو طارىء ؛ كالبناء . « إتحاف » (٦/ ٤٤٥).
(٢) كما روىٰ ذلك الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) رواه الترمذي (٣٤٢ ، ٣٤٤) ، والنسائي (٤/ ١٧١) ، وابن ماجه (١٠١١) .

أهلِ المدينةِ ، والمشرقُ علىٰ يسارِهِمْ ، فجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جميعَ ما يقعُ بينَهُما قبلةً ، ومساحةُ الكعبةِ لا تفي بما بينَ المشرقِ والمغربِ ، وإنَّما يفي بذلكَ جهتُها .

ورُوِيَ هٰذا اللفظُ أيضاً عنْ عمرَ وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما[١] .

وأمَّا فعلُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : فما رُوِيَ أنَّ أهلَ مسجدِ قُباءٍ كانوا في صلاةِ الصبحِ بالمدينةِ مستقبلينَ لبيتِ المقدسِ مستدبرينَ للكعبةِ ؛ لأنَّ المدينةَ بينَهُما ، فقيلَ لهُمْ : الآنَ قدْ حُوِّلَتِ القبلةُ إلى الكعبةِ ، فاستداروا في أثناءِ الصلاةِ مِنْ غيرِ طلبِ دلالةٍ ، ولمْ يُنكرْ عليهِمْ ، وسمِّيَ مسجدُهُمْ ذا القبلتينِ[٢] .

ومقابلةُ العينِ مِنَ المدينةِ إلىٰ مكَّةَ لا تُعرفُ إلا بأدلَّةٍ هندسيَّةٍ يطولُ النظرُ فيها ، فكيفَ أدركوا ذلكَ على البديهةِ في أثناءِ الصلاةِ وفي ظلمةِ الليلِ ؟!

ويدلُّ أيضاً مِنْ فعلِهِمْ أنَّهُمْ بنَوا المساجدَ حوالَي مكَّةَ وفي سائرِ بلادِ الإسلامِ ولمْ يحضروا قطُّ مهندساً عندَ تسويةِ المحاريبِ ، ومقابلةُ العينِ لا تُدركُ إلا بدقيقِ نظرِ الهندسةِ .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/١٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٢٠٥ـ ٢٠٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/٩) .
(٢) رواه البخاري (٤٠) ، ومسلم (٥٢٧) .

وأمَّا القياسُ : فهوَ أنَّ الحاجةَ تمسُّ إلى الاستقبالِ وبناءِ المساجدِ في جميعِ أقطارِ الأرضِ ، ولا يمكنُ مقابلةُ العينِ إلا بعلومٍ هندسيَّةٍ لمْ يردِ الشرعُ بالنظرِ فيها ، بل ربَّما يزجرُ عنِ التعمُّقِ في علمِها ، فكيفَ ينبني أمرُ الشرعِ عليها ؟! فيجبُ الاكتفاءُ بالجهةِ للضرورةِ .

وأمَّا دليلُ صحَّةِ الصورةِ التي صورناها وهوَ حصْرُ جهاتِ العالمِ في أربعِ جهاتٍ : فقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في آدابِ قضاءِ الحاجةِ : « لا تستقبلوا بها القبلةَ ولا تستدبرُوها، ولكنْ شرِّقوا أوْ غرِّبوا »[1]، وقالَ هـٰذا بالمدينةِ ، والمشرقُ علىٰ يسارِ المستقبلِ بها ، والمغربُ علىٰ يمينِهِ ، فنهىٰ عنْ جهتينِ ورخَّصَ في جهتينِ ، ومجموعُ ذلكَ أربعُ جهاتٍ ، ولمْ يخطرْ ببالِ أحدٍ أنَّ جهاتِ العالمِ يمكنُ أنْ تُفرضَ ستّاً أوْ سبعاً أو عشراً ، وكيفَما كانَ فما حكمُ الباقي ؟ بلِ الجهاتُ تثبتُ في الاعتقاداتِ بناءً علىٰ خلقةِ الإنسانِ ، وليسَ لهُ إلا أربعُ جهاتٍ ؛ قدَّامٌ ، وخلفٌ ، ويمينٌ ، وشمالٌ[2] ، فكانتِ الجهاتُ بالإضافةِ إلى الإنسانِ في ظاهرِ النظرِ أربعاً ، والشرعُ لا يُبنىٰ إلا علىٰ مثلِ هـٰذهِ الاعتقاداتِ ، فظهرَ أنَّ المطلوبَ الجهةُ ، وذلكَ يسهِّلُ أمرَ الاجتهادِ فيها ، وتُعلمُ بهِ أدلَّةُ القبلةِ .

فأمَّا مقابلةُ العينِ . . فإنَّما تُعرفُ بمعرفةِ مقدارِ عرضِ مكَّةَ عنْ خطِّ

---

(١) رواه البخاري (٣٩٤) ، ومسلم (٢٦٤) .

(٢) أي : في مستوٍ واحد ، وهو أيضاً مجال تصور القبلة .

الاستواءِ ، ومقدارِ درجاتِ طولِها ، وهوَ بعدُها عنْ أوَّلِ عمارةٍ في المشرقِ[1] ، ثمَّ يُعرفُ ذلكَ أيضاً في موقفِ المصلِّي ، ثمَّ يُقابلُ أحدُهُما بالآخرِ ، ويُحتاجُ فيهِ إلىٰ آلاتٍ وأسبابٍ طويلةٍ ، والشرعُ غيرُ مبنيٍّ عليها قطعاً ، فإذاً ؛ القدْرُ الذي لا بدَّ مِنْ تعلُّمِهِ مِنْ أدلَّةِ القبلةِ موقعُ المشرقِ والمغربِ في الزوالِ ، وموقعُ الشمسِ وقتَ العصرِ ، فبهـٰذا يسقطُ الوجوبُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فلوْ خرجَ المسافرُ مِنْ غيرِ تعلُّمِ ذلكَ . . هل يعصي ؟

فأقولُ : إنْ كانَ طريقُهُ علىٰ قرىً متصلةٍ فيها محاريبُ ، أوْ كانَ معَهُ في الطريقِ بصيرٌ بأدلَّةِ القبلةِ موثوقٌ بعدالتِهِ وبصيرتِهِ ، يقدرُ علىٰ تقليدِهِ . . فلا يعصي ، وإنْ لمْ يكنْ معَهُ شيءٌ مِن ذلكَ . . عصىٰ ؛ لأنَّهُ سيتعرَّضُ لوجوبِ الاستقبالِ ولمْ يكنْ قدْ حصَّلَ علمَهُ ، فصارَ ذلكَ كعلمِ التيمُّمِ وغيرِهِ .

فإنْ تعلَّمَ هـٰذهِ الأدلَّةَ واستبهمَ عليهِ الأمرُ بغيمٍ مظلمٍ ، أوْ تركَ التعلُّمَ ولمْ يجدْ في الطريقِ مَنْ يقلِّدُهُ . . فعليهِ أنْ يصلِّيَ في الوقتِ علىٰ حسبِ

---

(١) وهـٰذا الموضع المعروف بجزائر الخالدات وجزائر السعداء ، وقيل : موضع يسمىٰ بكنك دز ، وبينهما (١٨٠°) درجة . « إتحاف » (٦/ ٤٤٨) .

حالِهِ ، ثمَّ عليهِ القضاءُ سواءٌ أصابَ أمْ أخطأَ .

* * *

والأعمىٰ ليسَ لهُ إلا التقليدُ ، فليقلِّدْ مَنْ يُوثقُ بدينِهِ وبصيرتِهِ إنْ كانَ مقلَّدُهُ مجتهداً في القبلةِ ، وإنْ كانَتِ القبلةُ ظاهرةً . . فلهُ اعتمادُ قولِ كلِّ عدْلٍ يخبرُهُ بذلكَ في حضرٍ أوْ سفرٍ .

وليسَ للأعمىٰ ولا للجاهلِ أنْ يسافرَ في قافلةٍ ليسَ فيها مَنْ يعرفُ أدلَّةَ القبلةِ حيثُ يُحتاجُ إلى الاستدلالِ ، كما ليسَ للعامِّيِّ أنْ يقيمَ ببلدةٍ ليسَ فيها فقيهٌ عالمٌ بتفصيلِ الشرعِ ، بلْ يلزمُهُ الهجرةُ إلىٰ حيثُ يجدُ مَنْ يعلِّمُهُ دينَهُ ، وكذا إنْ لمْ يكنْ في البلدِ إلا فقيهٌ فاسقٌ ، فعليهِ الهجرةُ أيضاً ؛ إذْ لا يجوزُ لهُ اعتمادُ فتوى الفاسقِ ، بلِ العدالةُ شرطٌ لجوازِ قبولِ الفتوىٰ ؛ كما في الروايةِ ، وإنْ كانَ معروفاً بالفقهِ مستورَ الحالِ في العدالةِ والفسقِ . . فلهُ القبولُ مهما لمْ يجدْ مَنْ لهُ عدالةٌ ظاهرةٌ ؛ لأنَّ المسافرَ في البلادِ لا يقدرُ أنْ يبحثَ عنْ عدالةِ المفتينَ ، وإنْ رآهُ لابساً للحريرِ أوْ ما يغلبُ عليهِ الإبريسَمُ[(١)] ، أوْ راكباً لفرسٍ عليهِ مركبُ ذهبٍ . . فقدْ ظهرَ فسقُهُ ، وامتنعَ عليهِ قبولُ قولِهِ ، فليطلبْ غيرَهُ ، وكذلكَ إذا رآهُ يأكلُ علىٰ مائدةِ سلطانٍ أغلبُ مالِهِ حرامٌ ، أوْ يأخذُ منهُ إدراراً أوْ صلةً مِنْ غيرِ أنْ يعلمَ أنَّ الذي يأخذُهُ

---

(١) **الإبريسم** : لفظة فارسية ، وهو الحرير الخام .

مِنْ وجهٍ حلالٍ ، فكلُّ ذلكَ فسقٌ يقدحُ في العدالةِ ويمنعُ مِنْ قبولِ الفتوىٰ والروايةِ والشهادةِ .

***

وأمَّا معرفةُ أوقاتِ الصلواتِ الخمسِ . . فلا بدَّ منها :

فوقتُ الظهرِ : يدخلُ بالزوالِ ، فإنَّ كلَّ شخصٍ لا بدَّ أنْ يقعَ لهُ في ابتداءِ النهارِ ظلٌّ مستطيلٌ في جانبِ المغربِ ، ثمَّ لا يزالُ ينقصُ إلىٰ وقتِ الزوالِ ، ثمَّ يأخذُ في الزيادةِ في جهةِ المشرقِ ، ولا يزالُ يزيدُ إلى الغروبِ ، فليقمِ المسافرُ في موضعٍ أوْ لينصبْ عوداً مستقيماً ، وليعلِّمْ علىٰ رأسِ الظلِّ ، ثمَّ لينظرْ بعدَ ساعةٍ ، فإنْ رآهُ في النقصانِ . . فلمْ يدخلْ بعدُ وقتُ الظهرِ .

وطريقُهُ في معرفةِ ذلكَ : أنْ ينظرَ في البلدِ وقتَ أذانِ المؤذِّنِ المعتمدِ ظلَّ قامتِهِ ، فإنْ كانَ مثلاً ثلاثةَ أقدامٍ بقدمِهِ ؛ فمهما صارَ كذلك في السفرِ وأخذَ في الزيادةِ . . صلَّىٰ ؛ فإنْ زادَ عليهِ ستةُ أقدامٍ ونصفٌ بقدمِهِ . . دخلَ **وقتُ العصرِ** ، إذْ ظلُّ كلِّ شخصٍ بقدمِهِ ستُّ أقدامٍ ونصفٌ بالتقريبِ .

ثمَّ ظلُّ الزوالِ يزيدُ كلَّ يومٍ إنْ كانَ سفرُهُ مِنْ أوَّلِ الصيفِ ، وإنْ كانَ مِنْ أوَّلِ الشتاءِ . . فينقصُ كلَّ يومٍ ، وأحسنُ ما يُعرفُ بهِ ظلُّ الزوالِ الميزانُ ، فليستصحبْهُ المسافرُ ، وليتعلَّمِ اختلافَ الظلِّ بهِ في كلِّ وقتٍ .

وإنْ عرفَ موقعَ الشمسِ مِنْ مستقبلِ القبلةِ وقتَ الزوالِ ، وكانَ في السفرِ في موضعٍ ظهرَتِ القبلةُ فيهِ بدليلٍ آخرَ . . فيمكنُهُ أنْ يعرفَ الوقتَ بالشمسِ ؛ بأنْ تصيرَ بينَ عينيهِ مثلاً إنْ كانَتْ كذلكَ في البلدِ .

وأمّا وقتُ المغربِ : فيدخلُ بالغروبِ ، ولكنْ قدْ تحجبُ الجبالُ المغربَ عنهُ ، فينبغي أنْ ينظرَ إلىٰ جانبِ المشرقِ ، فمهما ظهرَ سوادٌ في الأفقِ مرتفعٌ مِنَ الأرضِ قيدَ رمحٍ . . فقدْ دخلَ وقتُ المغربِ .

وأمّا العشاءُ : فيعرفُ بغيبوبةِ الشفقِ ، وهوَ الحمرةُ ، فإنْ كانتْ محجوبةً عنهُ بجبالٍ . . فيعرفُهُ بظهورِ الكواكبِ الصغارِ وكثرتِها ، فإنَّ ذلكَ يكونُ بعدَ غيبوبةِ الحمرةِ .

وأمّا الصبحُ : فيبدو في الأوَّلِ مستطيلاً كذنبِ السِّرْحانِ ، فلا حكمَ لهُ إلىٰ أنْ ينقضيَ زمانٌ ثمَّ يظهرُ بياضٌ معترضٌ لا يعسرُ إدراكُهُ بالعينِ لظهورِهِ ، فهـٰذا أوَّلُ الوقتِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الصبحُ هـٰكذا ـ وجمعَ كفيهِ ـ وإنَّما الصبحُ هـٰكذا » ووضعَ إحدىٰ سبابتيهِ على الأخرىٰ وفتحَهُما ، وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّهُ معترضٌ(١) .

---

(١) رواه ابن ماجه (١٦٩٦) ، ولم يشر إلى الكف والسبابتين ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٤/ ٢٣) من حديث طلق بن علي مرفوعاً : « ليس الفجر بالمستطيل في الأفق ، ولكنه المعترض الأحمر » .

وقدْ يُستدلُّ عليهِ بالمنازلِ ، وذلكَ تقريبٌ لا تحقيقٌ فيهِ ، بلِ الاعتمادُ علىٰ مشاهدةِ انتشارِ البياضِ عرضاً ؛ لأنَّ قوماً ظنُّوا أنَّ الصبحَ يطلعُ قبلَ الشمسِ بأربعةِ منازلَ ، وهٰذا خطأٌ ؛ لأنَّ ذلكَ هوَ الفجرُ الكاذبُ ، والذي ذكرهُ المحقِّقونَ أنَّهُ يتقدَّمُ على الشمسِ بمنزلتينِ .

وهٰذا تقريبٌ ولكنْ لا اعتمادَ عليهِ ؛ فإنَّ بعضَ المنازلِ تطلعُ معترضةً منحرفةً فيقصرُ زمانُ طلوعِها ، وبعضُها منتصبةً فيطولُ زمانُ طلوعِها ، ويختلفُ ذلكَ في البلادِ اختلافاً يطولُ ذكرُهُ .

نعمْ ، تصلحُ المنازلُ لأنْ يُعلمَ بها قربُ وقتِ الصبحِ وبعدُهُ ، فأمَّا حقيقةُ أوَّلِ الصبحِ . . فلا يمكنُ ضبطُهُ بمنزلتينِ أصلاً .

وعلى الجملةِ : فإذا بقيَتْ أربعُ منازلَ إلىٰ طلوعِ قرصِ الشمسِ بمقدارِ منزلةٍ . . يُتيقَّنُ أنَّهُ الصبحُ الكاذبُ ، وإذا بقيَ قريبٌ مِنْ منزلتينِ . . يُتحقَّقُ طلوعُ الصبحِ الصادقِ .

ويبقىٰ بينَ الصبحينِ قدْرُ ثلثي منزلةٍ بالتقريبِ يُشكُّ فيهِ أنَّهُ مِنْ وقتِ الصبحِ الصادقِ أوِ الكاذبِ ، وهوَ مبدأُ ظهورِ البياضِ وانتشارِهِ قبلَ اتساعِ عرضِهِ .

فمِنْ وقتِ الشكِّ ينبغي أنْ يتركَ الصائمُ السحورَ ويقدِّمَ القائمُ الوترَ عليهِ ، ولا يصلِّيَ صلاةَ الصبحِ حتَّىٰ تنقضيَ مدَّةُ الشكِّ ، فإذا تحقَّقَ . . صلَّىٰ .

ولوْ أرادَ مريدٌ أنْ يقدِّرَ على التحقيقِ وقتاً معيَّناً يشربُ فيهِ متسحِّراً ، ويقومُ عقيبَهُ ، ويصلِّي الصبحَ متصلاً بهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ ذلكَ ؛ فليسَ معرفةُ ذلكَ في قوَّةِ البشرِ أصلاً ، بلْ لا بدَّ مِنْ مهلةٍ للتوقُّفِ والشكِّ ، ولا اعتمادَ إلا على العيانِ ولا اعتمادَ في العيانِ إلا علىٰ أنْ يصيرَ الضوءُ منتشراً في العرْضِ حتَّىٰ تبدوَ مبادي الصفرةِ .

وقدْ غلطَ في هٰذا جمعٌ مِنَ الناسِ كثيرٌ ، يصلُّونَ قبلَ الوقتِ ، ويدلُّ عليهِ ما روىٰ أبو عيسى الترمذيُّ في « جامعِهِ » بإسنادِهِ عنْ طلْقِ بنِ عليٍّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كلوا واشربوا ولا يَهِيدَنَّكُمْ الساطعُ المصعِدُ ، وكلوا واشربوا حتىٰ يعترِضَ لكُمُ الأحمرُ » ، وهٰذا صريحٌ في رعايةِ الحمرةِ ، قالَ أبو عيسىٰ : (وفي البابِ عنْ عديِّ بنِ حاتمٍ ، وأبي ذرٍّ ، وسَمُرَةَ بنِ جندبٍ ، وهوَ حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، والعملُ علىٰ هٰذا عندَ أهلِ العلمِ)[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (كلوا واشربوا ما دامَ الضوءُ ساطعاً) ، قالَ صاحبُ « الغريبينِ » : (أيْ : مستطيلاً)[2] .

فإذاً ؛ لا ينبغي أنْ يُعوَّلَ إلا علىٰ ظهورِ الصفرةِ ، وكأنَّها مبادي

---

(1) رواه الترمذي (٧٠٥) ، وهو عند أبي داوود (٢٣٤٨) كذلك ، ولا يهيدنكم : لا يزعجنكم ولا يمنعكم الأكل ، وأصل الهيد الزجر . « إتحاف » (٦/ ٤٥٢) .

(2) انظر « الغريبين » (٣/ ٨٩٣) ، و« تهذيب اللغة » (٢/ ٦٥) ، و« النهاية في غريب الحديث » (٢/ ٣٦٥) .

الحمرةِ ، وإنَّما يحتاجُ المسافرُ إلىٰ معرفةِ الأوقاتِ لأنَّهُ قدْ يبادرُ بالصلاةِ قبلَ الرحيلِ حتَّىٰ لا يشقَّ عليهِ النزولُ ، أوْ قبلَ النومِ حتَّىٰ يستريحَ ، فإنْ وطَّنَ نفسَهُ علىٰ تأخيرِ الصلاةِ إلىٰ أنْ يتيقَّنَ فتسمحَ نفسُهُ بفواتِ فضيلةِ أوَّلِ الوقتِ ، ويتجشَّمَ كلفةَ النزولِ وكلفةَ تأخيرِ النومِ إلى اليقينِ . . استغنىٰ عنْ تعلُّمِ علمِ الأوقاتِ ، فإنَّ المشكلَ أوائلُ الأوقاتِ لا أوساطُها ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تمَّ كتابُ آدابِ السَّفرِ

وهو الكتابُ السَّابعُ من ربعِ العاداتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدِّين

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه

وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ النَّبيِّ العربيِّ المصطفى

وعلى آلهِ وأصحابهِ وأتباعهِ أجمعين وسلَّم كثيراً

يتلوه كتابُ آدابِ السَّماعِ والوجدِ

كتاب

آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آداب السّماع والوجد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أحرقَ قلوبَ أوليائِهِ بنارِ محبَّتِهِ ، واسترقَّ همَمَهُمْ وأرواحَهُمْ بالشوقِ إلىٰ لقائِهِ ومشاهدتِهِ ، ووقفَ أبصارَهُمْ وبصائرَهُمْ علىٰ ملاحظةِ جمالِ حضرتِهِ ، حتَّىٰ أضحَوا من تنسُّمِ روحِ الوصالِ سكرىٰ[1] ، وأصبحَتْ قلوبُهُمْ مِنْ ملاحظةِ سُبُحاتِ الجلالِ والهةً حيرىٰ ، فلمْ يرَوا في الكونينِ شيئاً سواهُ ، ولمْ يذكروا في الدارينِ إلا إيَّاهُ .

إنْ سنحَتْ لأبصارِهِمْ صورةٌ . . عبرَتْ إلى المصوِّرِ بصائرُهُمْ ، وإنْ قرعَتْ أسماعَهُمْ نغمةٌ . . سبقَتْ إلى المحبوبِ سرائرُهُمْ ، وإنْ وردَ عليهِمْ صوتٌ مزعجٌ أوْ مقلقٌ ، أوْ مطربٌ أوْ محزنٌ ، أوْ مبهجٌ أوْ مشوِّقٌ أوْ مهيِّجٌ . . لمْ يكنِ انزعاجُهُمْ إلا إليهِ ، ولا طربُهُمْ إلا بِهِ ، ولا قلقُهُمْ إلا عليهِ ، ولا حزنُهُمْ إلا فيهِ ، ولا شوقُهُمْ إلا إلىٰ ما لديهِ ، ولا انبعاثُهُمْ إلا لهُ ، ولا تردُّدُهُمْ إلا حوالَيْهِ ، فمنهُ سماعُهُمْ ، وإليهِ استماعُهُمْ ، فقدْ أقفلَ عنْ غيرِهِ أبصارَهُمْ وأسماعَهُمْ ، أولئكَ الذينَ اصطفاهُمُ اللهُ لولايتِهِ ، واستخلصَهُمْ مِنْ بينِ أصفيائِهِ وخاصَّتِهِ .

---

(١) والسكر عندهم : غيبة بوارد قوي ، وهو يعطي الطرب والالتذاذ ، وهو أقوىٰ من الغيبة وأتم منها . « إتحاف » (٦/ ٤٥٤) .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ المبعوثِ برسالتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ أئمَّةِ الحقِّ وقادتِهِ ، وسلمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ القلوبَ والسرائرَ[1] خزائنُ الأسرارِ ومعادنُ الجواهرِ ، وقدْ طُويَتْ فيها جواهرُها كما طُويَتِ النارُ في الحديدِ والحجرِ ، وأُخفيَتْ كما أُخفيَ الماءُ تحتَ الترابِ والمدرِ ، ولا سبيلَ إلى استثارةِ خفاياها إلا بقوادحِ السماعِ ، ولا منفذَ إلى القلوبِ إلا مِنْ دهليزِ الأسماعِ ، فالنغماتُ الموزونةُ المستَلَذَّةُ تخرجُ ما فيها ، وتظهرُ محاسنَها أوْ مساويَها ، فلا يظهرُ مِنَ القلبِ عندَ التحريكِ إلا ما يحويهِ ، كما لا يرشحُ الإناءُ إلا بما فيهِ .

فالسماعُ للقلبِ محكٌّ صادقٌ[2] ، ومعيارٌ ناطقٌ ، فلا تصلُ روحُ السماعِ إليهِ إلا وقدْ تحرَّكَ فيهِ ما هوَ الغالبُ عليهِ .

وإذا كانَتِ القلوبُ بالطباعِ مطيعةً للأسماعِ ، حتَّىٰ أبدَتْ بوارداتِها مكامنَها ، وكشفَتْ بها عنْ مساويها وأظهرَتْ محاسنَها . . وجبَ شرحُ القولِ في السماعِ والوجدِ ، وبيانُ ما فيهما مِنَ الفوائدِ والآفاتِ ، وما يُستحبُّ

---

(١) **السرائر** : هي خواطر النفس ، فهي غير القلوب ، إذ القلب عبارة عن لطيفة ربانية لها بهـٰذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلقٌ ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان . « إتحاف » (٦/ ٤٥٥) .

(٢) **المحكُّ** : الحجر الأسود البرّاق الذي تحك عليه الجواهر المعدنية ، فيبين الخالص من غيره .

فيهما مِنَ الآدابِ والهيئاتِ ، وما يتطرَّق إليهما مِنْ خلافِ العلماءِ في أنَّهُما مِنَ المحظوراتِ أوِ المباحاتِ .

ونحنُ نوضِّحُ ذلكَ في بابينِ :

البابُ الأوَّلُ : في بيانِ إباحةِ السماعِ .

البابُ الثاني : في آدابِ السماعِ ، وآثارِهِ في القلبِ بالوجدِ ، وفي الجوارحِ بالرقصِ والزعقِ وتمزيقِ الثيابِ .

* * *

البَابُ الأَوَّلُ
في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه

اعلمْ : أنَّ السماعَ هوَ أوّلُ الأمرِ ، ويثمرُ السماعُ حالةً في القلبِ تسمَّى الوجدَ ، ويثمرُ الوجدُ تحريكَ الأطرافِ ؛ إمَّا بحركةٍ غيرِ موزونةٍ فتُسمَّى الاضطرابَ ، وإمَّا موزونةٍ فتُسمَّى التصفيقَ والرقصَ .

فلنبدأ بحكمِ السماعِ وهوَ الأوَّلُ ، وننقلُ فيهِ الأقاويلَ المعربةَ عنِ المذاهبِ فيهِ ، ثم نذكرُ الدليلَ علىٰ إباحتِهِ ، ثمَّ نردفُهُ بالجوابِ عمَّا تمسَّكَ بهِ القائلونَ بتحريمِهِ .

فأمَّا نقلُ المذاهبِ :

فقدْ حكى القاضي أبو الطيِّبِ الطبريُّ عنِ الشافعيِّ ومالكٍ وأبي حنيفةَ وسفيانَ وجماعةٍ مِنَ العلماءِ ألفاظاً يُستدلُّ بها علىٰ أنَّهُمْ رأوا تحريمَهُ(١) .

وقالَ : (قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في كتابِ آدابِ القضاءِ : إنَّ الغناءَ لهوٌ مكروهٌ يشبهُ الباطلَ ، ومَنِ استكثرَ منهُ . . فهوَ سفيهٌ تُردُّ شهادتُهُ)(٢) .

---

(١) حكىٰ ذلك أبو الطيب الطبري في رسالته « الرد علىٰ من يحب السماع » (ص٢٧ ـ ٣٢) ، وانظر ما ذكره الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ٤٦٢ ـ ٤٦٥) .

(٢) الرد علىٰ من يحب السماع (ص٢٧) ، والأم (٧/ ٥١٨) .

وقالَ القاضي أبو الطيِّبِ : (استماعُهُ مِنَ المرأةِ التي ليسَتْ بمَحْرمٍ لهُ لا يجوزُ عندَ أصحابِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ بحالٍ ، سواءٌ كانَتْ مكشوفةً أوْ مِنْ وراءِ حجابٍ ، وسواءٌ كانَتْ حرَّةً أوْ مملوكةً)[1] .

وقالَ : (قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : صاحبُ الجاريةِ إذا جمعَ الناسَ لسماعِها . . فهوَ سفيهٌ تردُّ شهادتُهُ)[2] .

وقالَ : (حُكِيَ عنِ الشافعيِّ أنَّهُ كانَ يكرهُ الطقطقةَ بالقضيبِ ، ويقولُ : وضعَتْهُ الزنادقةُ ليشتغلوا بهِ عنِ القرآنِ ، وقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : ويُكرهُ مِنْ جهةِ الخبرِ اللعبُ بالنردِ أكثرَ ممَّا يُكرهُ اللعبُ بشيءٍ مِنَ الملاهي ، ولا أحبُّ اللعبَ بالشِّطرنجِ ، وأكرهُ كلَّ ما لعبَ بهِ الناسُ ؛ لأنَّ اللعبَ ليسَ مِنْ صنعةِ أهلِ الدينِ ولا المروءةِ .

وأمَّا مالكٌ رحمهُ اللهُ . . فقدْ نهىٰ عنِ الغناءِ ، وقالَ : إذا اشترىٰ جاريةً فوجدَها مغنيةً . . كانَ لهُ ردُّها ، وهوَ مذهبُ سائرِ أهلِ المدينةِ إلا إبراهيمَ بنَ سعدٍ وحدَهُ .

وأمَّا أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ . . فإنَّهُ كانَ يكرهُ ذلكَ ، ويجعلُ سماعَ الغناءِ مِنَ الذنوبِ ، وكذلكَ سائرُ أهلِ الكوفةِ ؛ سفيانُ الثوريُّ وحمادٌ ، وإبراهيمُ ، والشعبيُّ ، وغيرُهُمْ) .

---

(١) الرد علىٰ من يحب السماع (ص٢٧) ، وانظر « المهذب » (٢/٤١٧) .
(٢) الأم (٧/٥١٨) .

فهٰذا كلُّهُ نقلَهُ القاضي أبو الطيِّبِ الطبريُّ[1] .

ونقلَ أبو طالبٍ المكيُّ إباحةَ السماعِ عنْ جماعةٍ ، فقالَ : (سمعَ مِنَ الصحابةِ : عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ[2] ، وعبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ[3] ، والمغيرةُ بن شعبةَ[4] ، ومعاويةُ ، وغيرُهُمْ)[5] .

وقالَ : (قدْ فعلَ ذلكَ كثيرٌ مِنَ السلفِ الصالحِ ، صحابيٌّ وتابعيٌّ بإحسانٍ)[6] .

---

(١) أي : في رسالته « الرد على من يحب السماع » (ص٢٩ ـ ٣١) ، وانظر ما قاله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ٤٥٧) .

(٢) قال عنه ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص٣٨٧) : (كان لا يرىٰ بسماع الغناء بأساً) .

(٣) قال إمام الحرمين الجويني في « نهاية المطلب » (١٩/ ٢٣) : (وقد روى الرواة أن ابن الزبير كانت له جوارٍ عوَّادات ، فدخل عليه ابن عمر وبالقرب منه عود ، فقال له ابن الزبير : يا صاحب رسول الله ؛ ما هٰذا ؟ فأخذه وتأمله ، فقال : ميزان شامي وأنا ابن عمر) ، قال الحافظ الزبيدي : (وحكىٰ سماع الغناء عنه الشيخ تاج الدين الفزاري وغيره) . « إتحاف » (٦/ ٤٥٩) .

(٤) روى الطبري في « تاريخه » (٥/ ٣٣٦) عن محمد بن عامر قال : (لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء ، فدخل يوماً علىٰ معاوية ومعه بُديح ، ومعاوية واضع رجلاً علىٰ رجل ، فقال عبد الله لبُديح : إيهاً يا بديح ؛ فتغنَّىٰ ، فحرَّك معاوية رجله ، فقال عبد الله : مه يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : إن الكريم طروب) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ٦٢) .

(٦) منهم الفاروق عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو مسعود البدري ، وعبد الله بن الأرقم ، وأسامة بن زيد ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعبد الله بن عمر ، والبراء بن =

وقالَ : (لمْ يزلِ الحجازيونَ عندَنا بمكَّةَ يسمعونَ السماعَ في أفضلِ أيامِ السنةِ ، وهيَ الأيامُ المعدوداتُ التي أمرَ اللهُ عبادَهُ فيها بذكرِهِ ؛ كأيامِ التشريقِ ، ولمْ يزلْ أهلُ المدينةِ مواظبينَ كأهلِ مكَّةَ على السماعِ إلىٰ زمانِنا هـٰذا ، فأدركنا أبا مروانَ القاضيَ ولهُ جوارٍ يسمعنَ الناسَ التلحينَ قدْ أعدَّهُنَّ للصوفيةِ)(١) .

قالَ : (وكانَ لعطاءٍ جاريتانِ تلحنانِ ، فكانَ إخوانُهُ يستمعونَ إليهما)(٢) .

قالَ : (وقيلَ لأبي الحسنِ بنِ سالمٍ : كيفَ تنكرُ السماعَ وقدْ كانَ الجنيدُ وسريٌّ السقطيُّ وذو النونِ يسمعونَ ؟ فقالَ : كيفَ أنكرُ السماعَ وأجازَهُ وسمعَهُ مَنْ هوَ خيرٌ منِّي ، وقدْ كانَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ الطيَّارِ يسمعُ ؟! وإنَّما أنكرُ اللهوَ واللعبَ في السماعِ)(٣) .

ورُوِيَ عنْ يحيىٰ بنِ معاذٍ أنَّهُ قالَ : (فقدنا ثلاثةَ أشياءَ ، فما نراها

= مالك ، وعمرو بن العاص ، والنعمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، وخوات بن جبير ، ورباح بن المغترف ، وعبيد الله بن عمر ، وعائشة الصديقة ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وابن سيرين . انظر « السماع » للحافظ ابن القيسراني (ص٣٧) وما بعدها ، و« الإتحاف » (٦/ ٤٥٩) .

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٢) إلىٰ قوله : (كأيام التشريق) ، وأبو مروان القاضي وثقه أبو حاتم كما في « الجرح والتعديل » (٨/ ٢٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٢) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٦٢) ، وابن سالم هو شيخ صاحب « القوت » .

ولا أراها تزدادُ إلا قلَّةً : حسنُ الوجهِ معَ الصيانةِ ، وحسنُ القولِ معَ الديانةِ ، وحسنُ الإخاءِ معَ الوفاءِ)[(١)] .

ورأيتُ في بعضِ الكتبِ هـٰذا محكياً بعينِهِ عنِ الحارثِ المحاسبي[(٢)] ، وفيه ما يدلُّ علىٰ تجويزِهِ السماعَ معَ زهدِهِ وتصاونِهِ وجدِّهِ في الدينِ وتشميرِهِ .

قالَ : (وكانَ ابنُ مجاهدٍ لا يجيبُ دعوةً إلا أنْ يكونَ فيها سماعٌ)[(٣)] .

وحكىٰ بعضُهُمْ أنَّهُ قالَ : اجتمعْنا في دعوةٍ ومعَنا أبو القاسمِ ابنُ بنتِ منيعٍ وأبو بكرِ بنُ أبي داوودَ وابنُ مجاهدٍ في نظرائِهِمْ ، فحضرَ سماعٌ ، فجعلَ ابنُ مجاهدٍ يحرِّضُ ابنَ بنتِ منيعٍ على ابنِ أبي داوودَ في أنْ يسمعَ ، فقالَ ابنُ أبي داوودَ : حدَّثَني أبي عنْ أحمدَ ابنِ حنبلٍ أنَّهُ كرهَ السماعَ ، وكانَ أبي يكرهُهُ ، وأنا علىٰ مذهبِ أبي ، فقالَ أبو القاسم ابنُ بنتِ منيعٍ : أمَّا جدِّي أحمدُ بنُ منيعٍ . . فحدَّثَني عنْ صالحِ بنِ أحمدَ : أنَّ أباهُ كانَ يسمعُ قولَ ابنِ الخبَّازةِ ، فقالَ ابنُ مجاهدٍ لابنِ أبي داوودَ : دعني أنتَ منْ أبيكَ ، وقالَ لابنِ بنتِ منيعٍ : دعني أنتَ مِنْ جدِّكَ ، أيشٍ تقولُ يا أبا بكرٍ فيمَنْ أنشدَ بيتَ شعرٍ ، أهوَ حرامٌ ؟ فقالَ ابنُ أبي داوودَ : لا ، قالَ : فإنْ كانَ حسنَ الصوتِ . . حرُمَ عليهِ إنشادُهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنْ أنشدَهُ وطوَّلَهُ ، وقصَّرَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٢) .

(٢) رواه عنه القشيري في « الرسالة » (ص٤١١ ، ٥٤٨) .

(٣) انظر « تاريخ بغداد » (٥/ ٣٥٤) .

منهُ الممدودَ ، ومدَّ منهُ المقصورَ . . أيحرمُ عليهِ ؟ قالَ : أنا لمْ أقوَ لشيطانٍ واحدٍ ، فكيفَ أقوىٰ لشيطانينِ ؟![1] .

قالَ : (وكانَ أبو الخيرِ العسقلانيُّ الأسودُ مِنَ الأولياءِ يسمعُ ويولَّهُ عندَ السماعِ ، وصنَّفَ فيهِ كتاباً ردَّ فيهِ علىٰ منكريهِ ، وكذلكَ جماعةٌ منهُمْ صنَّفوا في الردِّ علىٰ منكريهِ)[2] .

وحكي عنْ بعضِ الشيوخِ أنَّهُ قالَ : رأيتُ أبا العباسِ الخضرَ عليهِ السلامُ ، فقلتُ لهُ : ما تقولُ في هـٰذا السماعِ الذي اختلفَ فيهِ أصحابُنا ؟ فقالَ : هوَ الصافي الزلالُ الذي لا يثبتُ عليهِ إلا أقدامُ العلماءِ[3] .

وحُكِيَ عنْ مِمْشاذَ الدينوريِّ : أنَّهُ قالَ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النومِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ تنكرُ مِنْ هـٰذا السماعِ شيئاً ؟ فقالَ : ما أنكرُ منهُ شيئاً ، ولكنْ قُلْ لهُمْ يفتتحونَ قبلَهُ بالقرآنِ ويختمونَ بعدَهُ بالقرآنِ[4] .

وحُكِيَ عنْ طاهرِ بنِ بلالٍ الهمدانيِّ الورَّاقِ وكانَ مِنْ أهلِ العلمِ أنَّهُ قالَ :

---

(١) القصة بهـٰذا السياق عند صاحب « القوت » كما نقلها الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٦/ ٤٦٨) ، وسماع أحمد لغناء ابن الخبازة رواه الحافظ ابن القيسراني في « السماع » (ص٤٦) عن صالح بن أحمد ابن حنبل .

(٢) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » . « الإتحاف » (٦/ ٤٦٨) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٦٢) .

(٤) كذا في « القوت » كما ذكر ذلك الحافظ الزبيدي ، وقال : (هكذا أورده صاحب « القوت » وصاحب « الإمتاع » . « إتحاف » (٦/ ٤٦٨) .

كنتُ معتكفاً في جامعِ جُدَّةَ على البحرِ ، فرأيتُ يوماً طائفةً يقولونَ في جانبٍ منهُ قولاً ويسمعونَ ، فأنكرتُ ذلكَ بقلبي ، وقلتُ : في بيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ تعالىٰ يقولونَ الشعرَ ؟! قالَ : فرأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلكَ الليلةَ وهوَ جالسٌ في تلكَ الناحيةِ ، وإلىٰ جنبهِ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ ، وإذا أبو بكرٍ يقولُ شيئاً مِنَ القولِ والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يستمعُ إليهِ ويضعُ يدَهُ علىٰ صدرِهِ كالواجدِ بذلكَ ، فقلتُ في نفسي : ما كانَ ينبغي لي أنْ أنكرَ علىٰ أولئكَ الذينَ كانوا يسمعونَ وهـٰذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسمعُ وأبو بكرٍ يقولُ ، فالتفتَ إليَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : هـٰذا حقٌّ بحقٍّ ، أوْ قالَ : حقٌّ مِنْ حقٍّ ، أنا أشكُّ فيهِ[1] .

وقالَ الجنيدُ : (تنزلُ الرحمةُ علىٰ هـٰذهِ الطائفةِ في ثلاثةِ مواضعَ : عندَ الأكلِ ؛ لأنَّهُمْ لا يأكلونَ إلا عنْ فاقةٍ ، وعندَ المذاكرةِ ؛ لأنَّهُمْ لا يتحاورونَ إلا في مقاماتِ الصديقينَ ، وعندَ السماعِ ؛ لأنَّهُمْ يسمعونَ بوجْدٍ ويشهدونَ حقاً)[2] .

وعنِ ابنِ جريجٍ أنَّهُ كانَ يرخِّصُ في السماعِ ، فقيلَ لهُ : أيُؤتىٰ بهِ يومَ القيامةِ في جملةِ حسناتِكَ أوْ سيئاتِكَ ؟ فقالَ : لا في الحسناتِ ولا في السيئاتِ ؛ لأنَّهُ شبيهٌ باللغوِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ .

---

(١) كذا في « القوت » كما ذكر ذلك الحافظ الزبيدي . « إتحاف » (٦/ ٤٦٩) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٥٤٨) .

هـٰذا ما نُقلَ مِنَ الأقاويلِ ، ومَنْ طلبَ الحقَّ مِنْ التقليدِ ؛ فمهما استقصىٰ . . تعارضَتْ عندَهُ هـٰذهِ الأقاويلُ ، فيبقىٰ متحيِّراً أوْ مائلاً إلىٰ بعضِ الأقاويلِ بالتشهِّي ، وكلُّ ذلكَ قصورٌ ، بلْ ينبغي أنْ يُطلبَ الحقُّ بطريقِهِ ، وذلكَ بالبحثِ عنْ مداركِ الحظرِ والإباحةِ كما سنذكرُهُ .

❋ ❋ ❋

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلمْ : أنَّ قولَ القائلِ : (السماعُ حرامٌ) معناهُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ يعاقبُ عليهِ ، وهـٰذا أمرٌ لا يُعرفُ بمجرَّدِ العقلِ ، بلْ بالسمعِ ، ومعرفةُ الشرعيَّاتِ محصورةٌ في النصِّ ، أوِ القياسِ على المنصوصِ ، وأعني بالنصِّ : ما أظهرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ أوْ فعلِهِ ، وبالقياسِ : المعنى المفهومَ مِنْ ألفاظِهِ وأفعالِهِ ، فإنْ لمْ يكنْ فيهِ نصٌّ ، ولمْ يستقمْ فيهِ قياسٌ علىٰ منصوصٍ : بطلَ القولُ بتحريمِهِ ، وبقيَ فعلاً لا حرجَ فيهِ كسائرِ المباحاتِ .

ولا يدلُّ علىٰ تحريمِ السماعِ نصٌّ ولا قياسٌ ، ويتضحُ ذلكَ في جوابِنا عنْ أدلَّةِ المائلينَ إلى التحريمِ ، ومهما تمَّ الجوابُ عنْ أدلَّتِهِمْ . . كانَ ذلكَ مسلكاً كافياً في إثباتِ هـٰذا الغرضِ ، لكنْ نستفتحُ ونقولُ : **قدْ دلَّ القياسُ والنصُّ جميعاً علىٰ إباحتِهِ** :

أمَّا القياسُ : فهوَ أنَّ الغناءَ اجتمعَ فيهِ معانٍ ينبغي أنْ يُبحثَ عنْ أفرادِها ، ثمَّ عنْ مجموعِها ، فإنَّ فيهِ سماعَ صوتٍ طيِّبٍ ، موزونٍ ، مفهومِ المعنىٰ ، محرِّكٍ للقلبِ .

فالوصفُ الأعمُّ أنَّهُ صوتٌ طيِّبٌ ، ثمَّ الطيِّبُ ينقسمُ إلى الموزونِ وغيرِهِ ، والموزونُ ينقسمُ إلى المفهومِ كالأشعارِ ، وإلىٰ غيرِ المفهومِ كأصواتِ الجماداتِ وسائرِ الحيواناتِ .

أمّا سماعُ الصوتِ الطيّبِ مِنْ حيثُ إنَّهُ طيّبٌ : فلا ينبغي أنْ يُحرَّمَ ، بلْ هوَ حلالٌ بالنصِّ والقياسِ .

أمّا القياسُ : فهوَ أنَّهُ يرجعُ إلىٰ تلذُّذِ حاسَّةِ السمعِ بإدراكِ ما هوَ مخصوصٌ بهِ ، وللإنسانِ عقلٌ وخمسُ حواسَّ ، ولكلِّ حاسَّةٍ إدراكٌ ، وفي مدركاتِ تلكَ الحواسِّ ما يُستلذُّ ، فلذَّةُ **البصرِ** في المبصراتِ الجميلةِ ؛ كالخضرةِ والماءِ الجاري والوجهِ الحسنِ ، وبالجملةِ : سائرُ الألوانِ الجميلةِ ، وهيَ في مقابلةِ ما يُكرهُ مِنَ الألوانِ الكدرةِ القبيحةِ ، **وللشمِّ** الروائحُ الطيبةُ ، وهيَ في مقابلةِ الأنتانِ المستكرهةِ ، **وللذوقِ** الطعومُ اللذيذةُ ؛ كالدسومةِ والحلاوةِ والحموضةِ ، وهيَ في مقابلةِ المرارةِ المستبشعةِ ، **وللمسِ** لذَّةُ اللينِ والنعومةِ والملاسةِ ، وهيَ في مقابلةِ الخشونةِ والضراسةِ ، **وللعقلِ** لذَّةُ العلمِ والمعرفةِ ، وهيَ في مقابلةِ الجهلِ والبلادةِ .

فكذلكِ الأصواتُ المدركةُ بالسمعِ تنقسمُ إلىٰ مستلذَّةٍ ؛ كصوتِ العنادلِ والمزاميرِ ، ومستكرهةٍ ؛ كنهيقِ الحميرِ وغيرِهِ ، فما أظهرَ قياسَ هـٰذهِ الحاسَّةِ ولذَّتِها علىٰ سائرِ الحواسِّ ولذَّاتِها !

وأمّا النصُّ : فيدلُّ علىٰ إباحةِ سماعِ الصوتِ الحسنِ امتنانُ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ بهِ ؛ إذْ قالَ تباركَ وتعالىٰ : ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ ، فقيل : هوَ الصوتُ الحسنُ[1] .

---

(١) الدر المنثور (٧/ ٤)، إذ روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن الزهري كذلك.

وفي الحديثِ : « ما بعثَ اللهُ نبياً إلا حسنَ الصوتِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أشدُّ أذَناً للرجلِ الحسنِ الصوتِ بالقرآنِ مِنْ صاحبِ القينةِ إلىٰ قينتِهِ »(٢) .

وفي الحديثِ في معرضِ المدحِ لداوودَ عليهِ السلامُ : أنَّهُ كانَ حسنَ الصوتِ في النياحةِ علىٰ نفسِهِ ، وفي تلاوةِ الزبورِ ، حتَّىٰ كانَ يجتمعُ الإنسُ والجنُّ والوحشُ والطيرُ لسماعِ صوتِهِ ، وكانَ يُحملُ مِنْ مجلسِهِ أربعُ مئةِ جنازةٍ وما يقربُ منْ ذلكَ في الأوقاتِ(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مدحِ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُ : « لقدْ أُعطيَ مزماراً مِنْ مزاميرِ آلِ داوودَ »(٤) .

وقولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ يدلُّ بمفهومِهِ علىٰ مدحِ الصوتِ الحسنِ ، ولو جازَ أنْ يقالَ : إنَّما أُبيحَ ذلكَ بشرطِ أنْ يكونَ في القرآنِ . . للزمَهُ أنْ يُحرِّمَ سماعَ صوتِ العندليبِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يقرأُ القرآنَ ، وإذا جازَ سماعُ صوتٍ غفْلٍ لا معنىٰ لهُ . . فلِمَ لا يجوزُ سماعُ صوتٍ يُفهمُ منهُ

---

(١) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٢٠) عن قتادة ، وأوقفه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٣٥٠) على أنس رضي الله عنه ، وانظر « علل الدار قطني » (١٢/ ١٥٩) ، إذ صوَّب أنه من قول قتادة .

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٤٠) ، وأصله عند مسلم (٧٩٢) ، والأَذَن : الاستماع .

(٣) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٥٤٦) ، وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٩٩) نحوه .

(٤) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) .

الحكمةُ والمعاني الصحيحةُ ؟! فإنَّ مِنَ الشعرِ لحكمةً .

فهٰذا نظرٌ في الصوتِ مِنْ حيثُ إنَّهُ طيِّبٌ حسنٌ .

❊ ❊ ❊

الدرجةُ الثانيةُ : النظرُ في الصوتِ الطيِّبِ الموزونِ : فإنَّ الوزْنَ وراءَ الحُسْنِ ، فكمْ مِنْ صوتٍ حسنٍ خارجٌ عنِ الوزنِ ، وكمْ مِنْ صوتٍ موزونٍ غيرُ مستطابٍ .

والأصواتُ الموزونةُ باعتبارِ مخارجِها ثلاثةٌ : فإنَّها إمَّا أنْ تخرجَ مِنْ جمادٍ ؛ كصوتِ المزاميرِ والأوتارِ وضربِ القضيبِ والطبلِ وغيرِهِ ، وإمَّا أنْ تخرجَ مِنْ حنجرةِ حيوانٍ ، وذلكَ الحيوانُ : إمَّا إنسانٌ وإمَّا غيرُهُ ؛ فصوتُ العنادلِ والقماريِّ وذواتِ السجعِ مِنَ الطيورِ معَ طيبِها موزونةٌ متناسبةُ المطالعِ والمقاطعِ ، فلذلكَ يُستلذُّ سماعُها .

والأصلُ في الأصواتِ حناجرُ الحيواناتِ ، وإنَّما وُضعَتْ المزاميرُ علىٰ صورِ الحناجرِ ، وهوَ تشبيهٌ للصنعةِ بالخلقةِ ، وما مِنْ شيءٍ توصَّلَ أهلُ الصناعاتِ بصناعتِهِمْ إلىٰ تصويرِهِ إلا ولهُ مثالٌ في الخلقةِ التي استأثرَ اللهُ تعالىٰ باختراعِها ، فمنهُ تعلَّمَ الصنَّاعُ ، وبهِ قصدوا الاقتداءَ ، وشرحُ ذلكَ يطولُ .

فسماعُ هٰذهِ الأصواتِ يستحيلُ أنْ يُحرَّمَ لكونِها طيِّبةً أوْ موزونةً ، فلا ذاهبَ إلىٰ تحريمِ سماعِ صوتِ العندليبِ وسائرِ الطيورِ ، ولا فرْقَ بينَ

حَنجرةٍ وحَنجرةٍ ، ولا بينَ جمادٍ وحيوانٍ ، فينبغي أنْ يُقاسَ علىٰ صوتِ العندليبِ الأصواتُ الخارجةُ مِنْ سائرِ الأجسامِ باختيارِ الآدميِّ ؛ كالذي يخرجُ مِنْ حلقِهِ ، أوْ مِنَ القضيبِ والطبلِ والدفِّ وغيرِهِ ، ولا يُستثنىٰ مِنْ هـٰذِهِ إلا الملاهي والأوتارُ والمزاميرُ ؛ إذ وردَ الشرعُ بالمنعِ منها ، لا للذَّتِها ؛ إذْ لوْ كانَ للذَّةِ .. لقيسَ عليها كلُّ ما يلتذُّ بهِ الإنسانُ ، ولكنْ حُرِّمَتِ الخمورُ واقتضَتْ ضراوةُ الناسِ بها المبالغةَ في الفطامِ عنها ، حتَّى انتهى الأمرُ في الابتداءِ إلىٰ كسرِ الدنانِ ، فحرمَ معَها ما هوَ شعارُ أهلِ الشربِ ، وهيَ الأوتارُ والمزاميرُ فقطْ ، وكانَ تحريمُها من قبيلِ الإتْباعِ ؛ كما حرمَتِ الخلوةُ بالأجنبيةِ لأنَّها مقدمةُ الجماعِ ، وحرمَ النظرُ إلى الفخذِ لاتصالِهِ بالسوءتين ، وحرمَ قليلُ الخمرِ وإنْ كانَ لا يسكرُ لأنَّهُ يدعو إلى السكْرِ .

وما مِنْ حرامٍ إلا ولهُ حريمٌ يطيفُ بهِ ، وحكْمُ الحرمةِ ينسحبُ علىٰ حريمِهِ ؛ ليكونَ حمىً للحرامِ ووقايةً لهُ ، وحظاراً مانعاً حولَهُ ، كما قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ ملكٍ حمىً ، وإنَّ حمى اللهِ محارمُهُ »(١) ، فهيَ محرَّمةٌ تبعاً لتحريمِ الخمرِ بثلاثِ عللٍ :

إحداها : أنَّها تدعو إلىٰ شربِ الخمرِ ، فإنَّ اللذَّةَ الحاصلةَ بها إنَّما تتمُّ بالخمرِ ، ولمثلِ هـٰذهِ العلَّةِ حرمَ قليلُ الخمرِ .

الثانية : أنَّها في حقِّ قريبِ العهدِ بشربِ الخمرِ تذكِّرُ مجالسَ الأنسِ

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

بالشربِ ، فهيَ سببُ الذكرِ ، والذكرُ سببُ انبعاثِ الشوقِ ، وانبعاثُ الشوقِ إذا قويَ . . فهوَ سببُ الإقدامِ ، ولهـٰذهِ العلَّةِ نُهِيَ عنِ الانتباذِ في المزفَّتِ والحَنْتَمِ والنقيرِ[١] ، وهيَ الأواني التي كانَتْ مخصوصةً بها بهيئاتِها ، فإنَّ مشاهدةَ صورِها تذكِّرُ بها ، وهـٰذهِ العلَّةُ تفارقُ الأولىٰ ، إذْ ليسَ فيها اعتبارُ لذَّةٍ في المذكِّرِ ، إذْ لا لذَّةَ في رؤيةِ القنينةِ وأواني الشربِ ، لكنْ مِنْ حيثُ التذكيرُ بها ، فإنْ كانَ السماعُ يذكِّرُ الشربَ تذكيراً يشوِّقُ إلى الخمرِ عندَ مَنْ ألفَ ذلكَ معَ الشربِ . . فهوَ منهيٌّ عنِ السماعِ لخصوصِ هـٰذهِ العلَّةِ فيهِ .

الثالثة : الاجتماعُ عليها لمَّا أنْ صارَ مِنْ عادةِ أهلِ الفسقِ ، فيُمنعُ مِنَ التشبُّهِ بهمْ ؛ لأنَّ مَنْ تشبَّهَ بقومٍ . . فهوَ منهُمْ ، وبهـٰذهِ العلَّةِ نقولُ بتركِ السنَّةِ مهما صارَتْ شعاراً لأهلِ البدعةِ ؛ خوفاً مِنَ التشبُّهِ بهِمْ ، وبهـٰذهِ العلَّةِ يحرمُ ضربُ الكوبةِ ، وهوَ طبلٌ مستطيلٌ دقيقُ الوسطِ واسعُ الطرفينِ ، وضربُها عادةُ المخنَّثينَ ، ولولا ما فيهِ مِنَ التشبُّهِ . . لكانَ مثلَ طبلِ الحجِّ والغزوِ .

وبهـٰذهِ العلَّةِ نقولُ : لوِ اجتمعَ جماعةٌ ، وزيَّنوا مجلساً ، وأحضروا آلاتِ الشربِ وأقداحَهُ ، وصبُّوا فيها السكنجبينَ[٢] ، ونصَّبوا ساقياً يدورُ

---

(١) كما في « البخاري » (٥٣) ، ومسلم (١٧) ، والنهي منه صلى الله عليه وسلم كان لوفد عبد القيس ، **والمزفَّت** : الإناء المطلي بالزفت ، **والحنتم** : جرار يجلب فيها الخمر ، تسرع الشدة فيها ، **والنقير** : خشبة تنقر وتجوَّف تتخذ في الانتباذ .

(٢) **السكنجبين** : المعمول بالخلِّ والعسل ، أو صبوا فيها اللبن الممزوج بالسكر . « إتحاف » (٦/ ٤٧٤) .

عليهِمْ ويسقيهِمْ ، فيأخذونَ مِنَ الساقي ويشربونَ ، ويحيّي بعضُهُم بعضاً بكلماتِهِمُ المعتادةِ بينَهُمْ . . حرمَ ذلكَ عليهِمْ وإنْ كانَ المشروبُ مباحاً في نفسِهِ ؛ لأنَّ فيهِ تشبُّهاً بأهلِ الفسادِ ، بلْ لهـٰذا يُنهىٰ عنْ لبسِ القَباءِ وعنْ تركِ الشعرِ على الرأسِ قزعاً في بلادٍ صارَ القَباءُ فيها مِنْ لباسِ أهلِ الفسادِ ، ولا يُنهىٰ عنْ ذلكَ فيما وراءَ النهرِ ؛ لاعتيادِ أهلِ الصلاحِ ذلكَ فيهِمْ .

فبهـٰذهِ المعاني حرمَ المزمارُ العراقيُّ والأوتارُ كلُّها ؛ كالعودِ والصنْجِ والربابِ والبَرْبَطِ وغيرِها(١) ، وما عدا ذلكَ فليسَ في معناها ؛ كشاهينِ الرعاةِ والحجيجِ(٢) ، وشاهينِ الطبَّالينَ ، وكالطبلِ والقضيبِ ، وكلِّ آلةٍ يُستخرجُ منها صوتٌ مستطابٌ موزونٌ سوىٰ ما يعتادُهُ أهلُ الشربِ ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ لا يتعلَّقُ بالخمرِ ، ولا يذكِّرُ بها ، ولا يشوِّقُ إليها ، ولا يوجبُ التشبُّهَ بأربابِها . . فلمْ يكنْ في معناها ، فبقيَ علىٰ أصلِ الإباحةِ ؛ قياساً علىٰ أصواتِ الطيورِ وغيرِها .

بلْ أقولُ : سماعُ الأوتارِ ممَّنْ يضربُ بها علىٰ غيرِ وزنٍ متناسبٍ مستلَذٍّ

---

(١) **العُود** : آلة وترية معروفة ، **والصنج** : تقدم أنها آلة الرباب ، وأنها لفظة فارسية على اعتبار ذلك ، أو هي ما يتخذ من الصفر كالنحاس يضرب أحدهما على الآخر ، **والرباب** : آلة وترية كذلك ، **والبربط** : بوزان جعفر ، وهو العود ، وعطف المصنف له على العود مشعر بالتغاير ، وسقط لفظ (العود) من (أ) ، وعليه فلا إشكال ، وهو لفظة فارسية بفتحتين أوَّله يطلق على القيثارة والعود ونحوها .

(٢) **والشاهين** : الصرناي ، وهو قصبة متسع آخرها يزمَّر بها ، ونحوه الشبابة والناي أو اليراع .

حرامٌ أيضاً ، وبهٰذا يتبيَّنُ أنَّهُ ليستِ العلَّةُ في تحريمِها مجرَّدَ اللذَّةِ والطيبةِ[1] ، بلِ القياسُ تحليلُ الطيِّباتِ كلِّها إلا ما في تحليلِهِ فسادٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، فهٰذهِ الأصواتُ لا تحرمُ مِنْ حيثُ إنَّها أصواتٌ موزونةٌ ، وإنَّما تحرمُ بعارضٍ آخرَ كما سيأتي بيانُ العوارضِ المحرِّمةِ .

❊ ❊ ❊

الدرجةُ الثالثةُ : الموزونُ المفهومُ : وهوَ الشعرُ ، وذلكَ لا يخرجُ إلا مِنْ حَنجرةِ الإنسانِ ، فيُقطعُ بإباحةِ ذلكَ ؛ لأنَّهُ ما زادَ إلا كونُهُ مفهوماً ، والكلامُ المفهومُ غيرُ حرامٍ ، والصوتُ الطيِّبُ الموزونُ غيرُ حرامٍ ، فإذا لمْ يحرمِ الآحادُ . . فمِنْ أينَ يحرمُ المجموعُ ؟!

نعمْ ، يُنظرُ فيما يُفهمُ منهُ ، فإنْ كانَ فيهِ أمرٌ محظورٌ . . حرمَ نثرُهُ ونظمُهُ ، وحرمَ التصويتُ بهِ ، سواءٌ كانَ بألحانٍ أوْ لمْ يكنْ .

والحقُّ فيهِ ما قالَهُ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ ؛ إذْ قالَ : (الشعرُ كلامٌ ، فحسنُهُ حسنٌ ، وقبيحُهُ قبيحٌ)[2] ، ومهما جازَ إنشادُ الشعرِ بغيرِ صوتٍ وألحانٍ . . جازَ إنشادُهُ معَ الألحانِ ، فإنَّ أفرادَ المباحاتِ إذا اجتمعَتْ . . كانَ ذلكَ

---

(١) في نسخة الحافظ الزبيدي : (اللذة الطيبة) بسقوط الواو . « إتحاف » (٦/ ٤٧٥) .
(٢) الأم (٧/ ٥١٣) ، ورفعه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٦٨) ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٥) عن عمران بن الحصين : (إن الشعر كلام ، وإن من الكلام حقاً وباطلاً) .

المجموعُ مباحاً ، ومهما انضمَّ مباحٌ إلىٰ مباحٍ . . لم يحرمْ إلا إذا تضمَّنَ المجموعُ محظوراً لا تتضمَّنُهُ الآحادُ ، ولا محظورَ هـٰهنا .

وكيفَ يُنكرُ إنشادُ الشعرِ وقدْ أُنشدَ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟!(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ مِنَ الشعرِ لحكمةً »(٢) .

وأنشدَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : [من الكامل]

ذَهَبَ ٱلَّذِينَ يُعاشُ فِي أَكْنافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ ٱلأَجْرَبِ(٣)

وفي « الصحيحينِ » عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : لمَّا قدمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المدينةَ . . وُعِكَ أبو بكرٍ وبلالٌ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكانَ بها وباءٌ ، فقلتُ : يا أبتِ ؛ كيفَ تجدُكَ ؟ ويا بلالُ ؛ كيفَ

---

(١) فقد روى البخاري (٣٢١٢) ، ومسلم (٢٤٨٥) : مرَّ عمر في المسجد وحسان ينشد ، فقال : كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلىٰ أبي هريرة فقال : أنشدك بالله ؛ أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أجب عني ، اللهم ؛ أيده بروح القدس » ؟! قال : نعم .

(٢) رواه البخاري (٦١٤٥) .

(٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٥٧) ، وقد تمثلت به السيدة الطاهرة عائشة رضي الله عنها كما روىٰ ذلك عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٤٦) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٨٢) ، ورواه مسلسلاً بالترحم الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٤٧٧) .

تجدُكَ، فكانَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا أخذَتْهُ الحمَّىٰ . . يقولُ[1] : [من الرجز]

كُـلُّ ٱمْـرِىءٍ مُصَبَّـحٌ فِـي أَهْلِـهِ وَٱلْمَوْتُ أَدْنَىٰ مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ

وكانَ بلالٌ إذا أُقْلِعَ عنهُ الحمىٰ يرفعُ عقيرتَهُ ويقولُ[2] : [من الطويل]

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِـوادٍ وَحَـوْلِـي إِذْخِـرٌ وَجَلِيـلُ

وَهَـلْ أَرِدَنْ يَـوْمـاً مِيـاهَ مَجَنَّـةٍ وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شامَةٌ وَطَفِيلُ

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فأخبرتُ بذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « اللهمَّ ؛ حبِّبْ إلينا المدينةَ كحبِّنا مكَّةَ أو أشدَّ »[3] .

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينقلُ اللَّبِنَ معَ القومِ في بناءِ المسجدِ وهوَ يقولُ :

هَـٰذا ٱلْحِمـالُ لا حِمـالُ خَيْبَـرْ هـٰـذا أَبَـرُّ رَبَّنـا وَأَطْهَـرْ[4]

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً أخرىٰ :

اللَّهُمَّ إِنَّ ٱلْعَيْشَ عَيْشُ ٱلآخِرَةْ فَـٱرْحَـمِ الأَنْصَـارَ وَٱلْمُهـاجِـرَةْ

وهـٰذا في « الصحيحين »[5] .

---

(١) البيت في « ديوان سيدنا أبي بكر » (ص ٧٠) .

(٢) البيتان في « التعازي والمراثي » (ص ٢٦٧) .

(٣) روىٰ ذلك البخاري (١٨٨٩) ، ومسلم (١٣٧٦) ، والشعر عند البخاري فقط ، **والإذخر والجليل** : نبتان ، **وشامة وطفيل** : جبلان .

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٦) .

(٥) رواه البخاري (٢٨٣٤) ، ومسلم (١٨٠٥) ، وكان ذلك في قصة حفر الخندق ، وفي البيت خزم ، وهو زيادة بعض حروف المعاني في أوله ، وعجزه روي مختلفاً فيه .

وكانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضعُ لحسانَ منبراً في المسجدِ يقومُ عليهِ قائماً يفاخرُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوْ ينافحُ ، ويقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيِّدُ حسانَ بروحِ القُدُسِ ما نافحَ أوْ فاخرَ عنْ رسولِ اللهِ » صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) .

ولمَّا أنشدَهُ النابغةُ شعرَهُ . . قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ »(٢) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتناشدونَ عندَهُ الأشعارَ وهوَ يتبسَّمُ)(٣) .

وعنْ عمرِو بنِ الشريدِ ، عنْ أبيهِ قالَ : أنشدتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مئةَ قافيةٍ مِنْ قولِ أميَّةَ بنِ أبي الصلتِ ، كلُّ ذلكَ يقولُ : « هيهِ هيهِ » ، ثمَّ قالَ : « إنْ كادَ في شعرِهِ ليسلمُ »(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٤٦) ، وعند البخاري (٣٥٣١) ، ومسلم (٢٤٨٧) قول السيدة عائشة رضي الله عنها : (إنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/٢٣١٨) ، وابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٧٣٧)، وتقدم قريباً تعليقاً قوله صلى الله عليه وسلم مثل هـٰذا للعباس رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٢٨٥٠) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، فربما تبسم معهم) ، قال الحافظ العراقي : (ولم أقف عليه من حديث عائشة) . « إتحاف » (٦/٤٨٢) .

(٤) رواه مسلم (٢٢٥٥) ، وقوله : (هيه) بمعنىٰ : زدني ، ويجوز في هائها الأخيرة السكون والفتح والتنوين نصباً وجراً .

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يُحدىٰ لهُ في السفرِ ، وأنَّ أنجشةَ كانَ يحدو بالنساءِ ، والبراءَ بنَ مالكٍ كانَ يحدو بالرجالِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «يا أنجشةُ ؛ رويدَكَ سوقَكَ بالقواريرِ»[1] .

ولمْ يزلِ الحُداءُ وراءَ الجمالِ مِنْ عادةِ العربِ في زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وزمانِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم ، وما هوَ إلا أشعارٌ تؤدَّىٰ بأصواتٍ طيِّبةٍ وألحانٍ موزونةٍ ، ولمْ يُنقلْ عنْ أحدٍ مِنَ الصحابةِ إنكارُهُ ، بلْ ربَّما كانوا يلتمسونَ ذلكَ تارةً لتحريكِ الجمالِ ، وتارةً للاستلذاذِ ، فلا يجوزُ أنْ يحرمَ مِنْ حيثُ إنَّهُ كلامٌ مفهومٌ مستلذٌّ ، مؤدّىً بأصواتٍ طيِّبةٍ وألحانٍ موزونةٍ .

❁ ❁ ❁

الدرجةُ الرابعةُ : النظرُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ محرِّكٌ للقلبِ ومهيِّجٌ لما هوَ الغالبُ عليهِ :

فأقولُ : للهِ تعالىٰ سرٌّ في مناسبةِ النغماتِ الموزونةِ للأرواحِ ، حتَّىٰ إنَّها لتؤثِّرُ فيها تأثيراً عجيباً ، فمِنَ الأصواتِ ما يفرحُ ، ومنها ما يحزنُ ، ومنها ما ينوِّمُ ، ومنها ما يضحكُ ويطربُ ، ومنها ما يستخرجُ مِنَ الأعضاءِ حركاتٍ علىٰ وزنِها باليدِ والرجْلِ والرأسِ .

---

(١) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٢٠٤٨) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٢٥٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٢٦٤) ، وهو عند البخاري (٦١٤٩) ، ومسلم (٢٣٢٣) في قصة أنجشة فقط .

ولا ينبغي أن يُظنَّ أنَّ ذلكَ لفهمِ معاني الشعرِ ، بلْ هـٰذا جارٍ في الأوتارِ ، حتىٰ قيلَ : (مَنْ لمْ يحرِّكْهُ الربيعُ وأزهارُهُ ، والعودُ وأوتارُهُ . . فهوَ فاسدُ المزاجِ ، ليسَ لهُ علاجٌ) .

وكيفَ يكونُ ذلكَ لفهمِ المعنىٰ وتأثيرُهُ مشاهدٌ في الصبيِّ في مهدِهِ ؟! فإنَّهُ يسكِّنُهُ الصوتُ الطيِّبُ عنْ بكائِهِ ، وتنصرفُ نفسُهُ عمَّا يبكيهِ إلى الإصغاءِ إليهِ ، والجملُ معَ بلادةِ طبعِهِ يتأثَّرُ بالحُداءِ تأثُّراً يستخفُّ معَهُ الأحمالَ الثقيلةَ ، ويستقصرُ لقوَّةِ نشاطِهِ في سماعِهِ المسافاتِ الطويلةَ ، وينبعثُ فيهِ مِنَ النشاطِ ما يسكرُهُ ويولِّهُهُ ، فتراها إذا طالَتْ عليها البوادي ، واعتراها الإعياءُ والكلالُ تحتَ الأحمالِ والمحاملِ ، إذا سمعَتْ مناديَ الحُداءِ . . تمدُّ أعناقَها ، وتصغي إلى الحادي ناصبةً آذانَها ، وتسرعُ في سيرِها حتَّىٰ تتزعزعَ عليها أحمالُها ومحاملُها[1] .

---

(١) ذكر في « أدب النديم » (ص ٩٦) أنه كتب إلىٰ بعض من كان يزهد في السماع أبياتاً ، وفيها صوَّر ما حدَّث عنه إمامنا الغزالي هنا إذ قال :

إنْ كنـتَ تنكـرُ أنَّ فـي الـ ... ألحـانِ فـائـدةً ونفعـا
فـانظـرْ إلـى الإبـلِ التـي ... هـيَ وَيْـكَ أغلـظُ منـكَ طبعـا
تصغـي لأصـواتِ الحُـدا ... ةِ فتقطـعِ الفلـواتِ قطعـا
ومـنَ العجـائـبِ أنَّهُـمْ ... يُظْمُـونَهـا خمسـاً وربعـا
فـإذا تـورَّدتِ الحِيـا ... ضَ وشارفتْ في الماءِ كرعا
وتشـوَّفـتْ للصـوتِ مـن ... حـادٍ تصيـخُ إليـه سمعـا
ذهلـتْ عـن المـاءِ الـذي ... تلتـذُّه بـرداً ونفعـا
شـوقـاً إلـى النغـمِ التـي ... أطـربْنَهـا لحنـاً وسمعـا

وربما تتلفُ أنفسَها في شدَّةِ السيرِ وثقلِ الحملِ ، وهيَ لا تشعرُ بهِ لنشاطِها ؛ فقدْ حكىٰ أبو بكرٍ محمدُ بنُ داوودَ الدينوريُّ المعروفُ بالدُّقيِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كنتُ بالباديةِ ، فوافيتُ قبيلةً مِنْ قبائلِ العربِ ، فأضافني رجلٌ منهم ، وأدخلَني خباءهُ ، فرأيتُ في الخباءِ عبداً أسودَ مقيداً بقيدٍ ، ورأيتُ جِمالاً قدْ ماتَتْ بينَ يدي البيتِ وقدْ بقيَ منها جملٌ وهوَ ناحلٌ ذابلٌ ، كأنَّهُ تُنزعُ روحُهُ ، فقالَ لي الغلامُ : أنتَ ضيفٌ ، ولكَ حقٌّ ، فتشفَّعْ فيَّ إلىٰ مولايَ ؛ فإنَّهُ مكرمٌ لضيفِهِ ، فلا يردُّ شفاعتَكَ في هـٰذا القدرِ ، فعساهُ يحلُّ القيدَ عنِّي ، قالَ : فلمَّا أحضروا الطعامَ . . امتنعتُ ، وقلتُ : لا آكلُ ما لمْ أشفعْ في هـٰذا العبدِ ، فقالَ : إنَّ هـٰذا الغلامَ قدْ أفقرَني وأهلكَ جميعَ مالي ، فقلتُ : ماذا فعلَ ؟ فقالَ : إنَّ لهُ صوتاً طيِّباً ، وإنِّي كنتُ أعيشُ مِنْ ظهورِ هـٰذهِ الجمالِ ، فحمَّلَها أحمالاً ثقالاً ، وكانَ يحدو بها حتَّىٰ قطعَتْ مسيرةَ ثلاثةِ أيَّامٍ في ليلةٍ واحدةٍ مِنْ طيبِ نغمتِهِ ، فلمَّا حطَّتْ أحمالَها . . ماتَتْ كلُّها إلا هـٰذا الجملَ الواحدَ ، ولكنْ أنتَ ضيفي ، فلكرامتِكَ قدْ وهبتُهُ لكَ .

قالَ : فأحببتُ أنْ أسمعَ صوتَهُ ، فلمَّا أصبحنا . . أمرَهُ أنْ يحدوَ علىٰ جملٍ يستقي الماءَ مِنْ بئرٍ هناكَ ، فلمَّا رفعَ صوتَهُ . . هامَ ذلكَ الجملُ وقطعَ حبالَهُ ، ووقعتُ أنا علىٰ وجهي ، فما أظنُّ أني سمعتُ قطُّ صوتاً أطيبَ منهُ[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الطوسي في « اللمع » (ص٣٤٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٤٧) .

فإذاً ؛ تأثيرُ السماعِ في القلبِ محسوسٌ ، ومَنْ لَمْ يحركْهُ السماعُ . . فهوَ ناقصٌ مائلٌ عنِ الاعتدالِ، بعيدٌ عنِ الروحانيّةِ، زائدٌ في غلظِ الطبعِ وكثافتِهِ على الجمالِ والطيورِ، بلْ علىٰ سائرِ البهائمِ ، فإنَّ جميعَها تتأثَّرُ بالنغماتِ الموزونةِ، ولذلكَ كانَتِ الطيورُ تقفُ علىٰ رأسِ داوودَ عليهِ السلامُ لاستماعِ صوتِهِ .

ومهما كانَ النظرُ في السماعِ باعتبارِ تأثيرِهِ في القلوبِ . . لَمْ يجزْ أنْ يحكمَ فيهِ مطلقاً بإباحةٍ ولا تحريمٍ ، بلْ يختلفُ ذلكَ بالأحوالِ والأشخاصِ ، واختلافِ طرقِ النغماتِ ، فحكمُهُ حكمُ ما في القلبِ[1] .

قالَ أبو سليمانَ : (السماعُ لا يجعلُ في القلبِ ما ليسَ فيهِ ، ولكنْ يحرِّكُ ما هوَ فيهِ)[2] .

❁ ❁ ❁

فالترنُّمُ بالكلماتِ المسجعةِ الموزونةِ معتادٌ في مواضعَ لأغراضٍ مخصوصةٍ ترتبطُ بها آثارٌ في القلبِ ، وهي سبعةُ مواضعَ :

الأوَّلُ : غناءُ الحجيجِ : فإنَّهُمْ يدورونَ أوّلاً في البلادِ بالطبلِ والشاهينِ والغناءِ ، وذلكَ مباحٌ ؛ لأنَّها أشعارٌ نُظمَتْ في وصفِ الكعبةِ والمقامِ والحطيمِ وزمزمَ وسائرِ المشاعرِ ، ووصفِ الباديةِ وغيرِها ، وتأثيرُ ذلكَ

---

(١) فالمنكر له من غير تفصيل . . إما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصرُّ على الإنكار . « إتحاف » (٦/ ٤٨٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٥٥٧) ولفظه : إن الصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئاً ، وإنما يحرك من القلب ما فيه . قال ابن أبي الحواري : صدق والله أبو سليمان .

تهييجُ الشوقِ إلىٰ حجٍّ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، واشتعالُ نيرانِهِ إنْ كانَ ثمَّ شوقٌ حاصلٌ ، أوِ استثارةُ الشوقِ واجتلابُهُ إنْ لمْ يكنْ حاصلاً ، وإذا كانَ الحجُّ قربةً والشوقُ إليه محموداً . كانَ التشويقُ إليهِ بكلِّ ما يشوِّقُ محموداً ، وكما يجوزُ للواعظِ أنْ ينظمَ كلامَهُ في الوعظِ ، ويزيِّنَهُ بالسجعِ ، ويشوِّقَ الناسَ إلى الحجِّ بوصفِ البيتِ والمشاعرِ ، ووصفِ الثوابِ عليهِ . . جازَ لغيرِهِ ذلكَ علىٰ نظمِ الشعرِ ؛ فإنَّ الوزنَ إذا انضافَ إلى السجعِ . . صارَ الكلامُ أوقعَ في القلبِ ، فإذا أُضيفَ إليهِ صوتٌ طيِّبٌ ونغماتٌ موزونةٌ . . زادَ وقعُهُ ، فإنْ أُضيفَ إليهِ الطبلُ والشاهينُ وحركاتُ الإيقاعِ . . زادَ التأثيرُ ، وكلُّ ذلكَ جائزٌ ما لمْ يدخلْ فيهِ المزاميرُ والأوتارُ التي هيَ منْ شعارِ الأشرارِ .

نعمْ ، إنْ قصدَ بهِ تشويقَ مَنْ لا يجوزُ لهُ الخروجُ إلى الحجِّ ؛ كالذي أسقطَ الفرضَ عنْ نفسِهِ ولمْ يأذنْ لهُ أبواهُ في الخروجِ . . فهٰذا يحرمُ عليهِ الخروجُ ؛ فيحرمُ تشويقُهُ إلى الخروجِ بالسماعِ وبكلِّ كلامٍ يشوِّقُ إلى الخروجِ ؛ فإنَّ التشويقَ إلى الحرامِ حرامٌ ، وكذا إذا كانَتِ الطريقُ غيرَ آمنةٍ ، وكانَ الهلاكُ غالباً . . لمْ يجزْ تحريكُ القلوبِ ومعالجتُها بالتشويقِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : ما يعتادُهُ الغزاةُ لتحريضِ الناسِ على الغزوِ : وذلكَ أيضاً مباحٌ كما للحاجِّ ، ولكنْ ينبغي أنْ تخالفَ أشعارُهُمْ وطرقُ ألحانِهِمْ أشعارَ الحاجِّ وطرقَ ألحانِهِ؛ لأنَّ استثارةَ داعيةِ الغزوِ بالتشجيعِ ، وتحريكِ الغيظِ والغضبِ فيهِ على الكفارِ ، وتحسينِ الشجاعةِ واستحقارِ النفسِ والمالِ بالإضافةِ إليهِ .

والأشعارُ المشجعةُ مثلُ قولِ المتنبِّي[1] : [من الطويل]

وَإِلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السيوفِ مُكَرَّماً   تَمُتْ وَتُقَاسِ ٱلذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

وقولِهِ أيضاً[2] : [من الوافر]

يَـرَى ٱلْجُبَنَـاءُ أَنَّ ٱلْجُبْـنَ حَـزْمٌ   وَتِلْـكَ خَـدِيعَـةُ ٱلطَّبْـعِ ٱللَّئِيـمِ

وأمثالُ ذلكَ ، وطرقُ الأوزانِ المشجعةِ تخالفُ الطرقَ المشوقةَ ، فهٰذا أيضاً مباحٌ في وقتٍ يُباحُ فيهِ الغزوُ ، ومندوبٌ إليهِ في وقتٍ يُستحبُّ فيهِ الغزوُ ، ولكنْ في حقِّ مَنْ يجوزُ لهُ الخروجُ إلى الغزوِ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : الرجزياتُ التي يستعملُها الشجعانُ في وقتِ اللقاءِ : والغرضُ منها التشجيعُ للنفسِ وللأنصارِ ، وتحريكُ النشاطِ فيهِمْ للقتالِ[3] ، وفيهِ التمدُّحُ بالشجاعةِ والنجدةِ ، وذلكَ إذا كانَ بلفظٍ رشيقٍ وصوتٍ طيِّبٍ . كانَ أوقعَ في النفسِ ، **وذلكَ مباحٌ** في كلِّ قتالٍ مباحٍ ، **ومندوبٌ** في كلِّ قتالٍ مندوبٍ ، **ومحظورٌ** في قتالِ المسلمينَ وأهلِ الذمَّةِ وكلِّ قتالٍ محظورٍ ؛ لأنَّ تحريكَ الدواعي إلى المحظورِ محظورٌ .

وذلكَ منقولٌ عنْ شجعانِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ كعليٍّ وخالدٍ

---

(١) ديوانه بشرح العكبري (٤/ ٣٣) .
(٢) كذا في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/ ١٢٠) ، وفيه : (العجز) بدل (الجبن) .
(٣) في النسخ : (فيه للقتال) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

رضيَ اللهُ عنهُما وغيرِهما ، ولذلكَ نقولُ : ينبغي أنْ يُمنعَ مِنَ الضربِ بالشاهينِ في معسكرِ الغزاةِ ؛ فإنَّ صوتَهُ مرقِّقٌ محزنٌ يحلُّ عقدةَ الشجاعةِ ، ويضعفُ ضرامةَ النفسِ(١) ، ويشوِّقُ إلى الأهلِ والوطنِ ، ويورثُ الفتورَ في القتالِ ، وكذا سائرُ الأصواتِ والألحانِ المرققةِ للقلبِ ، فالألحانُ المرققةُ المحزنةُ تباينُ الألحانَ المحرِّكةَ المشجِّعةَ ، فمَنْ فعلَ ذلكَ علىٰ قصدِ تغييرِ القلوبِ وتفتيرِ الآراءِ عنِ القتالِ الواجبِ . . فهوَ عاصٍ ، ومَنْ فعلَهُ علىٰ قصدِ التفتيرِ عنِ القتالِ المحظورِ . . فهوَ بهِ مطيعٌ .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : أصواتُ النياحةِ ونغماتُها : وتأثيرُها في تهييجِ الحزنِ والبكاءِ وملازمةِ الكآبةِ ، **والحزنُ قسمانِ : محمودٌ ، ومذمومٌ** :

فأما المذمومُ : فكالحزنِ علىٰ ما فاتَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ ، والحزنُ على الأمواتِ مِنْ هٰذا القبيلِ ؛ فإنَّهُ تسخُّطٌ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وتأسُّفٌ علىٰ ما لا تداركَ لهُ ، فهٰذا الحزنُ لمَّا كانَ مذموماً . . كانَ تحريكُهُ بالنياحةِ مذموماً ، فلذلكَ وردَ النهيُ الصريحُ في النياحةِ(٢) .

---

(١) في (ب ، د ، هـ) : (صرامة النفس) ، وكلٌّ متجه .

(٢) فقد روى البخاري (١٣٠٦) ، ومسلم (٩٣٦) عن أم عطية رضي الله عنها : (أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة ألا ننوح) .

وأمَّا الحزنُ المحمودُ : فهوَ حزنُ الإنسانِ علىٰ تقصيرِهِ في أمرِ دينِهِ ، وبكاؤُهُ علىٰ خطاياهُ ، والبكاءُ والتباكي والحزنُ والتحازنُ علىٰ ذلكَ محمودٌ ، وعليهِ بكىٰ آدمُ عليهِ السلامُ ، وتحريكُ هـٰذا الحزنِ وتقويتُهُ محمودٌ ؛ لأنَّهُ يبعثُ على التشمُّرِ للتداركِ ، ولذلكَ كانَتْ نياحةُ داوودَ عليهِ السلامُ محمودةً ؛ إذْ كانَ ذلكَ معَ دوامِ الحزنِ وطولِ البكاءِ بسببِ الخطايا والذنوبِ ، فقدْ كانَ عليهِ السلامُ يَحزنُ ويُحزنُ ويبكي ويُبكي ، حتَّىٰ كانَتِ الجنائزُ تُرفعُ مِنْ مجالسِ نياحتِهِ ، وكانَ يفعلُ ذلكَ بألفاظِهِ وألحانِهِ ، **وذلك محمودٌ** ؛ لأنَّ المفضيَ إلى المحمودِ محمودٌ ، وعلىٰ هـٰذا لا يحرمُ على الواعظِ الطيِّبِ الصوتِ أنْ ينشدَ على المنبرِ بألحانِهِ الأشعارَ المحزنةَ المرقِّقَةَ للقلبِ ، ولا أنْ يبكيَ ويتباكىٰ ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ تبكيةِ غيرِهِ وإثارةِ حزنِهِ .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : السماعُ في أوقاتِ السرورِ تأكيداً للسرورِ وتهييجاً لهُ : **وهوَ مباحٌ** إنْ كانَ ذلكَ السرورُ مباحاً ؛ كالغناءِ في أيامِ العيدِ ، وفي العرسِ ، وفي وقتِ قدومِ الغائبِ ، وفي وقتِ الوليمةِ والعقيقةِ ، وعندَ ولادةِ المولودِ ، وعندَ ختانِهِ ، وعندَ حفظِهِ للقرآنِ العزيزِ ، وكلُّ ذلكَ مباحٌ لأجلِ إظهارِ السرورِ بهِ .

ووجهُ جوازِهِ : أنَّ مِنَ الألحانِ ما يثيرُ الفرحَ والسرورَ والطربَ ، فكلُّ ما جازَ السرورُ بهِ . . جازَ إثارةُ السرورِ فيهِ ، ويدلُّ علىٰ هـٰذا مِنَ النقلِ إنشادُ

النساءِ على السطوحِ بالدفِّ والألحانِ عندَ قدومِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : [من مجزوء الرمل]

طَلَــعَ ٱلْبَــدْرُ عَلَيْنــا   مِــنْ ثَنِيَّــاتِ ٱلْــوَداعِ
وَجَــبَ ٱلشُّكْــرُ عَلَيْنــا   مــا دَعــا للهِ داعِ[1]

---

(١) استقباله صلى الله عليه وسلم بالفرح والسرور ، وخروجهم في الطرقات ، واعتلاؤهم السطوح للنظر إليه صلى الله عليه وسلم ، والغناء والرقص وضرب الدف له من قبل الجواري في أزقة المدينة . . مما ثبت بالأخبار ، وإنشاد البيتين السالفين رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٥٠٦) عن ابن عائشة ـ وهو عبيد الله بن محمد ، وهو من ذرية عائشة بنت طلحة ـ يقول : لما قدم عليه الصلاة والسلام المدينة . . جعل النساء والصبيان يقلن ، وذكر البيتين .

وجاء ذكر الدف والغناء عند ابن ماجه (١٨٩٩) عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ ببعض المدينة ، فإذا هو بجوار يضربن بدفِّهنَّ ويتغنين ويقلن :

نحــنُ جــوارٍ مِــنْ بنــي النجــارِ   يــا حبَّــذا محمــدٌ مِــنْ جــارِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يعلم الله إني لأحبكُنَّ » ، وكان ذلك عند دخوله المدينة ، وتحديداً عند بني النجار ، وعند أحمد في « المسند » (١/ ٢) من حديث الصديق رضي الله عنه : (حتىٰ قدمنا المدينة ، فتلقاه الناس ، فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير ـ السطوح ـ فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون : الله أكبر ، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم) وفيه ذكر نزوله في بني النجار كذلك ، وكذا ثبت الرقص واللعب بالحراب كما روىٰ أبو داوود (٤٩٢٣) عن أنس قال : (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . . لعبت الحبشة لقدومه فرحاً بذلك ، لعبوا بحرابهم) .

وقد بحث العلامة الحافظ الزرقاني نفي وثبوت هـٰذين البيتين في حادثة الهجرة أو عند قفوله من تبوك ، وذلك للخلاف في كون ثنية الوداع هل هي في جهة الشام أو مكة ؟ =

فهٰذا إظهارٌ للسرورِ بقدومِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ سرورٌ محمودٌ ، فإظهارُهُ بالشعرِ والنغماتِ والرقصِ والحركاتِ أيضاً محمودٌ ، فقدْ نُقلَ عَنْ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أنَّهُمْ حَجَلوا في سرورٍ أصابَهُمْ كما سيأتي في أحكامِ الرقصِ ، وهوَ جائزٌ في قدومِ كلِّ قادمٍ يجوزُ الفرحُ بهِ ، وفي كلِّ سببٍ مباحٍ مِنْ أسبابِ السرورِ .

ويدلُّ علىٰ هٰذا ما رُوِيَ في « الصحيحينِ » عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : (رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسترُني بردائِهِ ، وأنا أنظرُ إلى الحبشةِ يلعبونَ في المسجدِ حتَّىٰ أكونَ أنا الذي أسأمُهُ ، فاقدُروا قدْرَ الجاريةِ الحديثةِ السنِّ ، الحريصةِ على اللهوِ)[1] إشارةً إلىٰ طولِ مدَّةِ وقوفِها .

وروى البخاريُّ ومسلمٌ أيضاً في « صحيحيهما » حديثَ عُقيلٍ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ عروةَ ، عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ عليها وعندَها جاريتانِ في أيَّامِ منىً تُدَفِّفانِ وتضربانِ والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ متغشٍّ بثوبِهِ ، فانتهرَهُما أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فكشفَ النبيُّ

= والجمع دال علىٰ وجود أكثر من ثنية ، فالحاج يستقبل ويودع من ثنية مكة ، وقاصد الشام من ثنية الشام ، بل ما حكاه ياقوت في « معجم البلدان » (٢/ ٨٦) يؤكد أنها من جهة المدينة ، حيث قال : (ثنية الوداع : بفتح الواو ، وهو اسم من التوديع عند الرحيل ، وهي ثنية مشرفة على المدينة ، يطؤها من يريد مكة) ، ومجمل المرويات يشير إلىٰ ثبوت السماع فرحاً بقدومه عليه الصلاة والسلام ، وهو مراد المصنف وشاهده .

(١) رواه البخاري (٥٢٣٦) ، ومسلم (٨٩٢/ ١٧) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ وجهِهِ فقالَ : « دعْهُما يا أبا بكرٍ ؛ فإنَّها أيامُ عيدٍ »[١] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يسترُني بردائِهِ وأنا أنظرُ إلى الحبشةِ وهمْ يلعبونَ في المسجدِ ، فزجرَهُمْ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمناً يا بني أرْفِدةَ »[٢] يعني مِنَ الأمنِ ، وفي حديثِ عمرِو بنِ الحارثِ عنِ ابنِ شهابٍ نحوُه ، وفيهِ : (تغنِّيانِ وتضربانِ)[٣] .

وفي حديثِ أبي طاهرٍ ، عنِ ابنِ وهبٍ : (واللهِ ؛ لقدْ رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقومُ علىٰ بابِ حجرتي والحبشةُ يلعبونَ بحرابِهِمْ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ يسترُني بردائِهِ لكيْ أنظرَ إلىٰ لعبِهِمْ ، ثمَّ يقومُ مِنْ أجلي حتَّىٰ أكونَ أنا الذي أنصرفُ)[٤] .

ورُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : (كنتُ ألعبُ بالبناتِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالت : وكانَ يأتيني صواحبُ لي ، فكنَّ يتقنَّعْنَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُسرِّبُهُنَّ إليَّ فيلعبنَ معي)[٥] .

---

(١) رواه البخاري (٩٨٨) ، ومسلم (٨٩٢) .
(٢) رواه البخاري (٩٨٨) ، ومسلم (٨٩٣) .
(٣) رواه مسلم (٨٩٢/١٧) ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ٤٩١) .
(٤) رواه مسلم (٨٩٢/١٨) .
(٥) رواه البخاري (٦١٣٠) ، ومسلم (٢٤٤٠) ، **ويسربهن** : يرسلهن .

وفي روايةٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لها يوماً : « ما هـٰذا ؟ » قالَتْ : بناتي ، قالَ : « فما هـٰذا الذي أرىٰ في وَسْطِهِنَّ ؟ » قالَتْ : فرسٌ ، قالَ : « ما هـٰذا الذي عليهِ ؟ » قالَتْ : جناحانِ ، قالَ : « فرسٌ لهُ جناحانِ ؟! » قالَتْ : أوَما سمعتَ أنَّهُ كانَ لسليمانَ بنِ داوودَ عليهِ السلامُ خيلٌ لها أجنحةٌ ، قالَتْ : فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ بدَتْ نواجذُهُ(١) .

والحديثُ محمولٌ عندَنا علىٰ عادةِ الصبيانِ في اتخاذِ اللعبِ مِنَ الخزفِ والرقاعِ مِنْ غيرِ تكميلِ صورتِهِ ، بدليلِ ما رُوِيَ في بعضِ الرواياتِ أنَّ الفرسَ كانَ لهُ جناحانِ مِنْ رقاعٍ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : دخلَ عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندي جاريتانِ تغنِّيانِ بغناءِ بُعاثَ ، فاضطجعَ على الفراشِ وحوَّلَ وجهَهُ ، فدخلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فانتهرَني وقالَ : مزمارُ الشيطانِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فأقبلَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « دعْهُما » ، فلمَّا غفلَ . . غمزتُهُما ، فخرجَتا ، وكانَ يومَ عيدٍ يلعبُ فيهِ السودانُ بالدَّرَقِ والحِرابِ ، فإمَّا سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وإمَّا قالَ : « تشتهينَ تنظرينَ ؟ » فقلتُ : نعمْ ، فأقامَني وراءَهُ وخدِّي علىٰ خدِّهِ ، ويقولُ : « دونَكُمْ يا بني أرْفِدةَ » حتَّىٰ إذا مَلِلْتُ . . قالَ :

---

(١) رواها أبو داوود (٤٩٣٢) .

« حسْبُكِ ؟» قلتُ : نعمْ ، قالَ : « فاذهبي » ، وفي « صحيح مسلم » : (فوضعتُ رأسي علىٰ منكبِهِ ، فجعلتُ أنظرُ إلىٰ لعبهِمْ ، حتَّىٰ كنتُ أنا الذي انصرفتُ)(١) .

فهٰذهِ الأحاديثُ كلُّها في « الصحيحين »(٢) ، وهوَ نصٌّ صريحٌ في أنَّ الغناءَ واللعبَ ليسَ بحرامٍ ، **وفيها دلالةٌ علىٰ أنواعٍ مِنَ الرخصِ** :

الأوَّلُ : اللعبُ ، ولا تخفىٰ عادةُ الحبشةِ في الرقْصِ واللعبِ .

والثاني : فعلُ ذلكَ في المسجدِ .

والثالثُ : قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دونَكُمْ يا بني أرْفِدةَ » وهوَ أمرٌ باللعبِ ، والتماسٌ لهُ ، فكيفَ يُقدَّرُ كونُهُ حراماً ؟!

والرابعُ : منعُهُ لأبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما عنِ الإنكارِ والتغييرِ ، وتعليلُهُ بأنَّهُ يومُ عيدٍ ؛ أي : هوَ وقتُ السرورِ ، وهٰذا مِنْ أسبابِ السرورِ .

والخامسُ : وقوفُهُ طويلاً في مشاهدةِ ذلكَ وسماعِهِ لموافقةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، وفيهِ دليلٌ علىٰ أنَّ حسْنَ الخلقِ في تطييبِ قلوبِ النساءِ والصبيانِ بمشاهدةِ اللعبِ أحسنُ مِنْ خشونةِ الزهدِ والتقشُّفِ في الامتناعِ والمنعِ منهُ .

---

(١) رواه البخاري (٩٥٠) ، ومسلم (٨٩٢) ، **ويوم بُعاث** : من أيام الأوس والخزرج بين المبعث والهجرة ، كانت الغلبة فيه للأوس ، وهو اسم حصن لهم .

(٢) سوىٰ بعض الروايات ، كرواية أبي داوود السابقة ، وأصلها في « الصحيحين » ، فلا اعتراض ، وثمَّ نصوص أخرىٰ في بيان جواز الغناء واللعب والترخيص بذينك ، أورد بعضها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٤٩٣) .

والسادسُ : قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ابتداءً لعائشةَ : « أتشتهينَ أنْ تنظري ؟ » فلمْ يكنْ ذلكَ عنِ اضطرارٍ إلىٰ مساعدةِ الأهلِ خوفاً مِنْ غضبٍ أوْ وحشةٍ ، فإنَّ الالتماسَ إذا سبقَ . . ربَّما كانَ الردُّ سببَ وحشةٍ ، وهوَ محذورٌ ، فيُقدَّمُ محذورٌ علىٰ محذورٍ ، فأمَّا ابتداءُ السؤالِ . . فلا حاجةَ فيهِ .

والسابعُ : الرخصةُ في الغناءِ والضربِ بالدفِّ مِنَ الجاريتينِ معَ أنَّهُ شبَّهَ ذلكَ بمزاميرِ الشيطانِ ، وفيهِ بيانُ أنَّ المزمارَ المحرَّمَ غيرُ ذلكَ .

والثامنُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقرعُ سمعَهُ صوتُ الجاريتينِ وهوَ مضطجعٌ ، ولوْ كانَ يضربُ بالأوتارِ في موضعٍ . . لما جوَّزَ الجلوسَ هناكَ ليقرعَ صوتُ الأوتارِ سمعَهُ ، فيدلُّ هاذا علىٰ أنَّ صوتَ النساءِ غيرُ محرَّمٍ تحريمَ صوتِ المزاميرِ ، بلْ إنَّما يُحرَّمُ عندَ خوفِ الفتنةِ .

فهاذهِ المقاييسُ والنصوصُ تدلُّ علىٰ إباحةِ الغناءِ ، والرقصِ ، والضربِ بالدفِّ ، واللعبِ بالدَّرَقِ والحرابِ ، والنظرِ إلىٰ رقصِ الحبشةِ والزنوجِ في أوقاتِ السرورِ كلِّها قياساً علىٰ يومِ العيدِ ؛ فإنَّهُ وقتُ سرورٍ ، وفي معناهُ يومُ العرسِ ، والوليمةِ ، والعقيقةِ ، والختانِ ، ويومُ القدومِ مِنَ السفرِ ، وسائرُ أسبابِ الفرحِ ، وهوَ كلُّ ما يجوزُ الفرحُ بهِ شرعاً .

ويجوزُ الفرحُ بزيارةِ الإخوانِ ولقائِهِمْ واجتماعِهِمْ في موضعٍ واحدٍ علىٰ طعامٍ أوْ كلامٍ ، فهوَ أيضاً مظِنَّةُ السماعِ .

السادسُ : سماعُ العشاقِ تحريكاً للشوقِ وتهييجاً للعشقِ وتسليةً للنفسِ : فإنْ كانَ في مشاهدةِ المعشوقِ . . فالغرضُ تأكيدُ اللذَّةِ ، وإنْ كانَ معَ المفارقةِ . . فالغرضُ تهييجُ الشوقِ ، والشوقُ وإنْ كانَ ألماً ففيهِ نوعُ لذَّةٍ إذا انضافَ إليهِ رجاءُ الوصالِ ، فإنَّ الرجاءَ لذيذٌ ، واليأسَ مؤلمٌ ، وقوَّةُ لذَّةِ الرجاءِ بحسَبِ قوَّةِ الشوقِ والحبِّ للشيءِ المرجوِّ .

ففي هٰذا السماعِ تهييجُ العشقِ ، وتحريكُ الشوقِ ، وتحصيلُ لذَّةِ الرجاءِ المقدَّرِ في الوصالِ ، معَ الإطنابِ في وصْفِ حسنِ المحبوبِ .

وهٰذا حلالٌ إنْ كانَ المشتاقُ إليهِ ممَّنْ يُباحُ وصالُهُ ؛ كمَنْ يعشقُ زوجتَهُ أوْ سُرِّيَّتَهُ ، فيُصغي إلىٰ غنائِها لتتضاعفَ لذتُهُ في لقائِها ، فيحظىٰ بالمشاهدةِ البصرُ ، وبالسماعِ الأذنُ ، ويفهمَ لطائفَ معاني الوصالِ والفراقِ القلبُ ، فتترادفَ أسبابُ اللذَّةِ ، فهٰذا نوعُ تمتُّعٍ مِنْ جملةِ مباحاتِ الدنيا ومتاعِها ، وما الحياةُ الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ ، وهٰذا منهُ .

وكذلكَ إنْ غضبَتْ منهُ جاريتُهُ ، أوْ حيلَ بينَهُ وبينَها بسببٍ مِنَ الأسبابِ . . فلهُ أنْ يحرِّكَ بالسماعِ شوقَهُ ، وأنْ يستثيرَ بهِ لذَّةَ رجاءَ الوصالِ ، فإنْ باعَها أوْ طلَّقَها . . حرمَ عليهِ ذلكَ بعدَهُ ؛ إذْ لا يجوزُ تحريكُ الشوقِ حيثُ لا يجوزُ تحقيقُهُ بالوصالِ واللقاءِ .

وأمَّا مَنْ يتمثَّلُ في نفسِهِ صورةَ صبيٍّ أوِ امرأةٍ لا يحلُّ لهُ النظرُ إليها ، وكانَ ينزِّلُ ما يسمعُ علىٰ ما تمثَّلَ في نفسِهِ . . فهٰذا حرامٌ ؛ لأنَّهُ محرِّكٌ

للفكرِ في الأفعالِ المحظورةِ ، ومهيِّجٌ للداعيةِ إلىٰ ما لا يُباحُ الوصولُ إليهِ ، وأكثرُ الفساقِ والسفهاءِ مِنَ الشبانِ في وقتِ هيجانِ الشهوةِ لا ينفكُّونَ عنْ إضمارِ شيءٍ مِنْ ذلكَ ، فذلكَ ممنوعٌ في حقِّهِمْ ؛ لما فيهِ مِنَ الداءِ الدفينِ ، لا لأمرٍ يرجعُ إلىٰ نفسِ السماعِ ، ولذلكَ سئلَ حكيمٌ عنِ العشقِ ، فقالَ : (دخانٌ يصعدُ إلىٰ دماغِ الإنسانِ ، يزيلُهُ الجماعُ ، ويهيِّجُهُ السماعُ) .

❁ ❁ ❁

السابعُ : سماعُ مَنْ أحبَّ اللهَ تعالىٰ وعشقَهُ واشتاقَ إلىٰ لقائِهِ : فلا ينظرُ إلىٰ شيءٍ إلا رآهُ فيهِ سبحانَهُ ، ولا يقرعُ سمعَهُ قارعٌ إلا سمعَهُ منهُ أوْ فيهِ ، فالسماعُ في حقِّهِ مهيِّجٌ لشوقِهِ ، ومؤكِّدٌ لعشقِهِ وحبِّهِ[1] ، ومُورٍ زنادَ قلبِهِ ، ومستخرجٌ منهُ أحوالاً مِنَ المكاشفاتِ والملاطفاتِ لا يحيطُ الوصفُ بها ، يعرفُها مَنْ ذاقَها ، وينكرُها مَنْ كَلَّ حسُّهُ عنْ ذوقِها ، وتسمَّىٰ تلكَ الأحوالُ بلسانِ الصوفيةِ : وَجْداً ، مأخوذاً مِنَ الوجودِ والمصادفةِ ؛ أيْ : يصادفُ مِنْ نفسِهِ أحوالاً لمْ يكنْ يصادفُها قبلَ السماعِ ، ثمَّ تكونُ تلكَ الأحوالُ أسباباً لروادفَ وتوابعَ لها تحرقُ القلبَ نيرانُها ، وتنقيهِ من الكدوراتِ كما تنقي النارُ الجواهرَ المعروضةَ عليها مِنَ الخَبَثِ ، ثمَّ يتبعُ الصفاءَ الحاصلَ بهِ مشاهداتٌ ومكاشفاتٌ ، وهيَ غايةُ مطالبِ المحبِّينَ للهِ تعالىٰ ، ونهايةُ ثمرةِ

---

(١) سيبين المصنف قريباً جواز إطلاق لفظ العشق في حقِّه عزَّ شأنه ، ويكون ذلك في حقِّ من يفهم حقيقة المعنىٰ ، ويمنع في حق من يوهمه معاني يجب تنزيه الحق عنها .

القرباتِ كلِّها ، فالمفضي إليها مِنْ جملةِ القرباتِ ، لا مِنْ جملةِ المعاصي والمباحاتِ .

وحصولُ هـٰذهِ الأحوالِ للقلبِ بالسماعِ سببُهُ سرُّ اللهِ تعالىٰ في مناسبةِ النغماتِ الموزونةِ للأرواحِ ، وتسخيرُ الأرواحِ لها وتأثُّرُها بها شوقاً ، وفرحاً وحزناً ، وانبساطاً وانقباضاً ، ومعرفةُ السبب في تأثرِ الأرواحِ بالأصواتِ مِنْ دقائقِ علومِ المكاشفاتِ ، والبليدُ الجامدُ القاسي القلبِ ، المحرومُ عَنْ لذَّةِ السماعِ . . يتعجَّبُ مِنَ التذاذِ المستمعِ ووَجْدِهِ واضطرابِ حالِهِ وتغيُّرِ لونِهِ تعجُّبَ البهيمةِ مِنْ لذَّةِ اللَّوزِينَجِ[1] ، وتعجُّبَ العنينِ مِنْ لذَّةِ المباشرةِ ، وتعجُّبَ الصبيِّ مِنْ لذَّةِ الرئاسةِ واتساعِ أسبابِ الجاهِ ، وتعجُّبَ الجاهلِ مِنْ لذَّةِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ جلالِهِ وعظمتِهِ وعجائبِ صنعِهِ .

ولكلٍّ ذلكَ سببٌ واحدٌ ، وهوَ أنَّ اللذَّةَ نوعُ إدراكٍ ، والإدراكُ يستدعي مُدرَكاً ويستدعي قوَّةً مدرِكةً ، فمَنْ لمْ تكملْ قوَّةُ إدراكِهِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ التلذُّذُ ، فكيفَ يدركُ لذَّةَ الطعومِ مَنْ فقدَ الذوقَ ؟ وكيفَ يدركُ لذَّةَ الألحانِ مَنْ فقدَ السمعَ ، ولذَّةَ المعقولاتِ مَنْ فقدَ العقلَ ؟ فكذلكَ ذوقُ السماعِ بالقلبِ بعدَ وصولِ الصوتِ إلى السمعِ يدركُ بحاسَّةٍ باطنةٍ في القلبِ ، مَنْ فقدَها . . عدمَ ـ لا محالةَ ـ لذَّتَهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) **اللوزينج** : نوع من الحلواء شبه القطائف ، يؤدم بدهن اللوز ، وهي لفظة فارسية .

ولعلَّكَ تقولُ : كيفَ يُتصوَّرُ العشقُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ حتَّىٰ يكونَ السماعُ محرِّكاً لهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ عرفَ اللهَ . . أحبَّهُ لا محالةَ ، ومَنْ تأكَّدَتْ معرفتُهُ . . تأكَّدَتْ محبَّتُهُ بقدْرِ تأكُّدِ معرفتِهِ ، والمحبَّةُ إذا تأكَّدَتْ . . سُمِّيَتْ عشقاً ، فلا معنىٰ للعشْقِ إلا محبةٌ مؤكَّدةٌ مفرطةٌ ، ولذلكَ قالتِ العربُ : (إنَّ محمداً عشقَ ربَّهُ) لمَّا رأوهُ يتخلَّىٰ للعبادةِ في جبلِ حراءٍ[1] .

واعلمْ : أنَّ كلَّ جمالٍ محبوبٌ عندَ مدركِ ذلكَ الجمالِ ، واللهُ تعالىٰ جميلٌ يحبُّ الجمالَ[2] ، ولكنَّ الجمالَ إنْ كانَ بتناسبِ الخلقةِ وصفاءِ اللونِ . . أُدركَ بحاسَّةِ البصرِ ، وإنْ كانَ الجمالُ بالجلالِ والعظمةِ وعلوِّ الرتبةِ ، وحسنِ الصفاتِ والأخلاقِ ، وإرادةِ الخيراتِ لكافَّةِ الخلقِ وإفاضتِها عليهم على الدوام ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الصفاتِ الباطنةِ . . أُدركَ بحاسَّةِ القلبِ ، ولفظُ الجمالِ قدْ يُستعارُ أيضاً لها ، فيُقالُ : (إنَّ فلاناً جميلٌ

---

(١) كونه صلى الله عليه وسلم تخلَّىٰ للعبادة والتحنث في غار حراء رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) ، وفيه : (ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه) ، **ومعنى العشق هنا** : إفراط المحبة .

وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٥) أثراً مرسلاً عن الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالىٰ : إذا كان الغالب علىٰ عبدي الاشتغال بي . . جعلت نعيمه ولذته في ذكري ، فإذا جعلت نعيمه ولذته في ذكري . . عشقني وعشقته . . . » الخبر .

(٢) كما جاء مرفوعاً ، رواه مسلم (٩١) .

وحسنٌ) ولا تُرادُ صورتُهُ ، وإنَّما يُعنىٰ بهِ : أنَّهُ جميلُ الأخلاقِ ، محمودُ الصفاتِ ، حسنُ السيرةِ ، حتَّىٰ قدْ يُحبُّ الرجلُ لهـٰذهِ الصفاتِ الباطنةِ استحساناً لها كما تُحبُّ الصورةُ الظاهرةِ .

وقدْ تتأكَّدُ هـٰذهِ المحبَّةُ فتُسمَّىٰ عشقاً ، وكمْ مِنَ الغلاةِ في حبِّ أربابِ المذاهبِ ؛ كالشافعيِّ ومالكٍ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ يبذلونَ أموالَهُمْ وأرواحَهُمْ في نصرتِهِمْ وموالاتِهِمْ ، ويزيدونَ علىٰ كلِّ عاشقٍ في الغلوِّ والمبالغةِ .

ومِنَ العجبِ أنْ يُعقلَ عشقُ شخصٍ لمْ تُشاهدْ قطُّ صورتُهُ أجميلٌ هوَ أمْ قبيحٌ ، وهوَ الآنَ ميِّتٌ ، ولكنْ لجمالِ صورتِهِ الباطنةِ ، وسيرتِهِ المرضيةِ ، والخيراتِ الحاصلةِ مِنْ علمِهِ لأهلِ الدينِ ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الخصالِ.. ثمَّ لا يُعقلَ عشقُ مَنْ تُرى الخيراتُ منهُ ، بلْ على التحقيقِ مَنْ لا خيرَ ولا جمالَ ولا محبوبَ في العالمِ إلا وهوَ حسنةٌ مِنْ حسناتِهِ ، وأثرٌ مِنْ آثارِ كرمِهِ ، وغرفةٌ مِنْ بحرِ جودِهِ !! بلْ كلُّ حسنٍ وجمالٍ في العالمِ أُدركَ بالعقولِ والأبصارِ والأسماعِ وسائرِ الحواسِّ ، مِنْ مبتدأِ العالمِ إلىٰ منقرضِهِ ، ومِنْ ذروةِ الثريَّا إلىٰ منتهى الثرىٰ . فهوَ ذرَّةٌ مِنْ خزائنِ قدرتِهِ ، ولمعةٌ مِنْ أنوارِ حضرتِهِ .

فليتَ شعري ، كيفَ لا يُعقلُ حبُّ مَنْ هـٰذا وصفُهُ ؟! وكيفَ لا يتأكَّدُ عندَ العارفينَ بأوصافِهِ حبُّهُ حتَّىٰ يجاوزَ حدّاً يكونُ إطلاقُ اسمِ العشقِ عليهِ ظُلماً في حقِّه ؛ لقصورِهِ عنِ الإنباءِ عنْ فرطِ محبَّتِهِ ؟!

فسبحانَ مَنِ احتجبَ عنِ الظهورِ بشدَّةِ ظهورِهِ ، واستترَ عنِ الأبصارِ

بإشراقِ نورِهِ ، ولولا احتجابُهُ بسبعينَ حجاباً مِنْ نورِهِ . . لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ أبصارَ الملاحظينَ لجمالِ حضرتِهِ ، ولولا أنَّ ظهورَهُ سببُ خفائِهِ . . لبُهتَتِ العقولُ ، ودَهِشَتِ القلوبُ ، وتخاذلَتِ القوىٰ ، وتناثرَتِ الأعضاءُ ، ولوْ رُكِّبَتِ القلوبُ مِنَ الحجارةِ والحديدِ . . لأصبحَتْ تحتَ مبادي أنوارِ تجلِّيهِ دكّاً دكّاً ، فأنَّىٰ تطيقُ كنْهَ نورِ الشمسِ أبصارُ الخفافيشِ ؟!

وسيأتي تحقيقُ هٰذهِ الإشارةِ في كتابِ المحبّةِ ، ويتضحُ أنَّ محبّةَ غيرِ اللهِ تعالىٰ قصورٌ وجهلٌ ، بلِ المتحقِّقُ بالمعرفةِ لا يعرفُ غيرَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ليسَ في الوجودِ تحقيقاً إلا اللهُ تعالىٰ وأفعالُهُ ، ومَنْ عرفَ الأفعالَ مِنْ حيثُ إنّها أفعالٌ . . فلمْ يجاوزْ معرفةَ الفاعلِ إلىٰ غيرِهِ ؛ فمَنْ عرفَ الشافعيَّ رحمَهُ اللهُ مثلاً وعلمَهُ وتصنيفَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ تصنيفُهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ بياضٌ وجلْدٌ وحبْرٌ وورقٌ وكلامٌ منظومٌ ولغةٌ عربيةٌ فلمْ يجاوزْ معرفتَهُ الشافعيَّ إلىٰ غيرِهِ ، ولا جاوزَتْ محبتُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فكلُّ موجودٍ سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ تصنيفُ اللهِ تعالىٰ وفعلُهُ وبديعُ أفعالِهِ ، فمَنْ عرفَها مِنْ حيثُ هِيَ صنعُ اللهِ تعالىٰ ، فرأىٰ مِنَ الصنعِ صفاتِ الصانعِ كما يرىٰ مِنْ حسنِ التصنيفِ فضلَ المصنِّفِ وجلالةَ قدرِهِ . . كانَتْ معرفتُهُ ومحبَّتُهُ مقصورةً على اللهِ تعالىٰ ، غيرَ مجاوزةٍ إلىٰ سواهُ.

ومِنْ حدِّ هٰذا العشقِ أنَّهُ لا يقبلُ الشِّرْكةَ ، وكلُّ ما سوىٰ هٰذا العشقِ فهوَ قابلٌ للشركةِ ؛ إذْ كلُّ محبوبٍ سواهُ يُتصوَّرُ لهُ نظيرٌ : إمَّا في الوجودِ ، وإمَّا في الإمكانِ ، فأمَّا هٰذا الجمالُ . . فلا يُتصوَّرُ لهُ ثانٍ ، لا في الإمكانِ ، ولا في الوجودِ ، فكانَ اسمُ العشقِ علىٰ حبِّ غيرِهِ مجازاً محضاً لا حقيقةً .

نعم ، الناقصُ القريبُ في نقصانِهِ مِنَ البهيمةِ قدْ لا يدركُ مِنْ لفظِ العشقِ إلا طلبَ الوصالِ الذي هوَ عبارةٌ عنْ تماسِّ ظواهرِ الأجسامِ وقضاءِ شهوةِ الوقاعِ ، فمثلُ هـٰذا الحمارِ ينبغي ألا يُستعملَ معَهُ لفظُ العشقِ والشوقِ والوصالِ والأنْسِ ، بلْ يجنَّبُ هـٰذهِ الألفاظَ والمعانيَ كما تُجنَّبُ البهيمةُ النرجسَ والريحانَ ، وتُخصَّصُ بالقتِّ والحشيشِ وأوراقِ القضبانِ ؛ فإنَّ الألفاظَ إنَّما يجوزُ إطلاقُها في حقِّ اللهِ تعالىٰ إذا لمْ تكنْ موهمةً معنىً يجبُ تقديسُ اللهِ تعالىٰ عنهُ ، والأوهامُ تختلفُ باختلافِ الأفهامِ ، فليُتنبَّهْ لهـٰذهِ الدقيقةِ في أمثالِ هـٰذهِ الألفاظِ .

بلْ لا يبعدُ أنْ ينشأَ مِنْ مجرَّدِ سماعٍ لصفاتِ اللهِ تعالىٰ وجدٌ غالبٌ ينقطعُ بسببهِ نِياطُ القلبِ ، فقدْ روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنَّه ذكرَ غلاماً كانَ في بني إسرائيلَ علىٰ جبلٍ ، فقالَ لأمِّهِ : مَنْ خلقَ السماءَ ؟ قالَتِ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، قالَ : فمَنْ خلقَ الأرضَ ؟ قالَتِ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، قالَ : فمَنْ خلقَ الجبالَ ؟ قالَتِ : اللهُ تعالىٰ ، قالَ : فمَنْ خلقَ هـٰذهِ الغنمَ ؟ قالَتِ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : إنِّي لأسمعُ للهِ تعالىٰ شأناً ، ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ مِنَ الجبلِ ، فتقطَّعَ »(١) ، وهـٰذا كأنَّهُ سمعَ ما دلَّ علىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ وتمامِ قدرتِهِ ، فطربَ لهُ ووَجَدَ ، فرمىٰ نفسَهُ مِنَ الوجْدِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٣) وحكىٰ سنده، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٧٨) ولكن من حديث ابن عمر ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن حبان) . « إتحاف » (٦/ ٥٠٠)، وعزاه ابن كثير في « جامع المسانيد » (٢٨/ ٣٧٣) لأبي يعلىٰ في « مسنده » .

وما أُنزلتِ الكتبُ إلا ليطربوا بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، قال بعضُهُمْ : رأيتُ مكتوباً في الإنجيلِ : (غنَّيْنا لكُمْ فلم تطربوا ، وزمَّرْنا لكُمْ فلمْ ترقصوا) أيْ : شوَّقناكُمْ بذكرِ اللهِ تعالىٰ فلمْ تشتاقوا[١] .

فهٰذا ما أردْنا أنْ نذكرَهُ مِنْ أقسامِ السماعِ ، وبواعثِهِ ، ومقتضياتِهِ ، وقدْ ظهرَ على القطْعِ إباحتُهُ في بعضِ المواضعِ ، والندبُ إليهِ في بعضِ المواضعِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فهلْ لهُ حالةٌ يحرمُ فيها ؟

فأقولُ : إنَّهُ يحرمُ بخمسةِ عوارضَ : عارضٌ في المُسْمِعِ ، وعارضٌ في آلةِ السماعِ ، وعارضٌ في نظمِ الصوتِ ، وعارضٌ في نفسِ المستمعِ ، أوْ في مواظبتِهِ ، وعارضٌ في كونِ الشخصِ منْ عوامِّ الخلقِ[٢] ؛ لأنَّ أركانَ السماعِ هوَ المُسْمِعُ ، والمستمِعُ ، وآلةُ السماعِ .

❊ ❊ ❊

العارضُ الأوَّلُ : أنْ يكونَ المُسْمِعُ امرأةً لا يحلُّ النظرُ إليها ، وتُخشى الفتنةُ في سماعِها : وفي معناها الصبيُّ الأمردُ الذي تُخشىٰ فتنتُهُ ، وهٰذا حرامٌ ؛ لما فيهِ مِنْ خوفِ الفتنةِ ، وليسَ ذلكَ لأجلِ الغناءِ ، بلْ لوْ كانَتِ المرأةُ بحيثُ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٥٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٣٦) عن مالك بن دينار قرأه في التوراة ، والكلام علىٰ وجه التمثيل .
(٢) قوله : (وعارض في كون الشخص من عوامّ الخلق) زيادة من (ق) .

يُفتنُ بصوتِها في المحاورةِ من غيرِ ألحانٍ . . فلا يجوزُ محاورتُها ومحادثتُها، ولا سماعُ صوتِها في القرآنِ أيضاً ، وكذلكَ الصبيُّ الذي تُخاف فتنتُهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ تقولُ : إنَّ ذلكَ حرامٌ بكلِّ حالٍ حسماً للبابِ ، أوْ لا يحرمُ إلا حيثُ تُخافُ الفتنةُ في حقِّ مَنْ يخافُ الفتنة ؟

فأقولُ : هٰذهِ مسألةٌ محتملةٌ مِنْ حيثُ الفقهُ يتجاذبُها أصلانِ :

أحدُهُما : أنَّ الخلوةَ بالأجنبيةِ والنظرَ إلىٰ وجهِها حرامٌ ، سواءٌ خيفَتِ الفتنةُ أوْ لمْ تُخفْ ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الفتنةِ على الجملةِ ، فقضى الشرعُ بحسْمِ البابِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلى الصورِ .

والثاني : أنَّ النظرَ إلى الصبيانِ مباحٌ إلا عندَ خوفِ الفتنةِ ، فلا يُلحقُ الصبيانُ بالنساءِ في عمومِ الحسمِ ، بلْ يُتبعُ فيهِ الحالُ .

وصوتُ المرأةِ دائرٌ بينَ هٰذينِ الأصلينِ ، فإنْ قسناهُ على النظرِ إليها . . وجبَ حسْمُ البابِ ، وهوَ قياسٌ قريبٌ ، ولكنْ بينَهُما فرقٌ ؛ إذِ الشهوةُ تدعو إلى النظرِ في أوَّلِ هيجانِها ، ولا تدعو إلىٰ سماعِ الصوتِ ، وليسَ تحريكُ النظرِ لشهوةِ المماسَّةِ كتحريكِ السماعِ ، بلْ هوَ أشدُّ .

وصوتُ المرأةِ في غيرِ الغناءِ ليسَ بعورةٍ ، فلمْ تزلِ النساءُ في زمنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يكلِّمْنَ الرجالَ في السلامِ والاستفتاءِ والسؤالِ والمشاورةِ وغيرِهِ ، ولكنْ للغناءِ مزيدُ أثرٍ في تحريكِ الشهوةِ ، فقياسُ هٰذا

على النظرِ إلى الصبيانِ أولىٰ ؛ لأنَّهُمْ لمْ يُؤمروا بالاحتجابِ كما لمْ تُؤمرِ النساءُ بسترِ الأصواتِ ؛ فينبغي أنْ يتَّبعَ مثارَ الفتنِ ويقتصرَ التحريمُ عليهِ ، **هـٰذا هوَ الأشبهُ الأقيسُ عندي .**

ويتأيَّدُ بحديثِ الجاريتينِ المغنِّيتينِ في بيتِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها(١) ، إذْ يُعلمُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يسمعُ صوتَهُما ولمْ يحترزْ منهُ ، ولكنْ لمْ تكنِ الفتنةُ مَخُوفةً عليهِ ، فلذلكَ لمْ يحترزْ .

فإذاً ؛ يختلفُ هـٰذا بأحوالِ المرأةِ ، وأحوالِ الرجلِ في كونِهِ شابّاً أو شيخاً ، ولا يبعدُ أنْ يختلفَ الأمرُ في مثلِ هـٰذا بالأحوالِ ؛ فإنَّا نقولُ للشيخِ أنْ يقبِّلَ زوجتَهُ وهوَ صائمٌ ، وليسَ للشابِّ ذلكَ ؛ لأنَّ القبلةَ تدعو إلىٰ وقاعٍ في الصومِ ، وهوَ محظورٌ ، والسماعُ يدعو إلى النظرِ والمقاربةِ ، وهوَ حرامٌ ، فيختلفُ ذلك أيضاً بالأشخاصِ(٢) .

* * *

العارضُ الثاني : في الآلة : بأنْ تكونَ مِنْ شعائرِ أهلِ الشربِ أوِ المخنثينَ ، وهيَ المزاميرُ ، والأوتارُ ، وطبلُ الكوبةِ ، فهـٰذهِ ثلاثةُ أنواعٍ

---

(١) رواه البخاري (٩٨٨) ، ومسلم (٨٩٢) .

(٢) قال الأدفوي في « الإمتاع » أكثر من ذلك ، كما نقله العلامة الحافظ الزبيدي : (إني أقول : إذا خاف الفتنة . . فهو محل نظر أيضاً ، فإن المفسدة غير حاصلة ، وإنما تتوقع ، فيحتمل حصولها ويحتمل عدمه ، والأمور المتوقعة لا تلحق بالواقعة إلا بنص أو إجماع ، فإن ورد شيء من ذلك . . فهو المعتمد ، والشافعية لا يقولون بالمصالح المرسلة ، وكذلك أكثر العلماء) . « إتحاف » (٦/ ٥٠٢) .

ممنوعةٍ ، وما عدا ذلكَ يبقىٰ علىٰ أصلِ الإباحةِ ؛ كالدُّفِّ وإنْ كانَ فيهِ الجلاجلُ ، وكالطبلِ والشاهينِ والضربِ بالقضيبِ وسائرِ الآلاتِ[١] .

❊ ❊ ❊

العارضُ الثالثُ : في نظمِ الصوتِ : وهوَ الشعرُ ، فإنْ كانَ فيهِ شيءٌ مِنَ الخنا والفحشِ والهجوِ ، أوْ ما هوَ كذبٌ على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أو على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم ؛ كما رتَّبَهُ الروافضُ في هجاءِ الصحابةِ وغيرِهِمْ . . فسماعُ ذلكَ حرامٌ ، بألحانٍ وغيرِ ألحانٍ ، والمستمعُ شريكُ القائلِ .

وكذلكَ ما فيهِ وصفُ امرأةٍ بعينِها ، فإنَّهُ لا يجوزُ وصْفُ المرأةِ بينَ يدي الرجالِ .

وأمَّا هجاءُ الكفَّارِ وأهلِ البدعِ . . فذلكَ جائزٌ ، فقدْ كانَ حسانُ بنُ ثابتٍ ينافحُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويهاجي الكفَّارَ ، وأمرَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[٢] .

---

(١) ذكر الحافظ الزبيدي في العود : أن المعروف في مذاهب الأئمة الأربعة أن الضرب به وسماعه حرام ، وذهبت طائفة إلىٰ جوازه ، وحكي سماعه عن عبد الله بن جعفر وابن عمر وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وحسان بن ثابت وابنه ، وخارجة بن زيد ، ونقله الأستاذ أبو منصور أيضاً عن مالك ، وكذلك حكاه الفوراني في كتابه « الغمد » ، وتقدمت نقولات في سماعه إلىٰ أن قال : (ونقل عن العز بن عبد السلام أنه سئل عنه ، فقال : إنه مباح، وهـٰذا هو الذي يقتضيه سياق المصنف هنا) . « إتحاف » (٦/ ٥٠٥).

(٢) إذ روى البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦) مرفوعاً : «اهجُهُمْ أو هاجهمْ وجبريل معك».

فأمَّا النسيبُ ، وهوَ الذي فيهِ التشبيبُ بوصفِ الخدودِ والأصداغِ وحسنِ القدِّ والقامةِ وسائرِ أوصافِ النساءِ.. فهـٰذا فيهِ نظرٌ ، **والصحيحُ** : أنَّهُ لا يحرمُ نظمُهُ وإنشادُهُ بصوتٍ وغيرِ صوتٍ ، وعلى المستمعِ ألا ينزِّلَهُ على امرأةٍ معيَّنةٍ ، وإنْ نزَّلَهُ.. نزَّلَهُ علىٰ مَنْ يحلُّ لهُ ؛ مِنْ زوجتِهِ وجاريتِهِ ، فإنْ نزَّلَهُ علىٰ أجنبيةٍ.. فهوَ العاصي بالتنزيلِ وإجالةِ الفكرِ فيهِ ، **ومَنْ هـٰذا وصفُهُ.. فينبغي أنْ يجتنبَ السماعَ رأساً** ، فإنَّ مَنْ غلبَ عليهِ عشقٌ.. نزَّلَ كلَّ ما سمعَهُ عليهِ ، سواءٌ كانَ اللفظُ مناسباً لهُ أوْ لمْ يكنْ ؛ إذْ ما مِنْ لفظٍ إلا ويمكنُ تنزيلُهُ علىٰ معانٍ بطريقِ الاستعارةِ ، فالذي يغلبُ علىٰ قلبِهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ.. يتذكَّرُ بسوادِ الصدغِ مثلاً ظلمةَ الكفرِ ، وبنضارةِ الخدِّ نورَ الإيمانِ ، وبذكرِ الوصالِ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، وبذكرِ الفراقِ الحجابَ عنِ اللهِ تعالىٰ في زمرةِ المردودينَ ، وبذكرِ الرقيبِ المشوِّشِ لروحِ الوصالِ عوائقَ الدنيا وآفاتِها المشوِّشةَ لدوامِ الأنسِ باللهِ تعالىٰ .

ولا يحتاجُ في تنزيلِ ذلكَ عليهِ إلى استنباطٍ وتفكُّرٍ ومهلةٍ ، بلْ تسبقُ المعاني الغالبةُ على القلبِ إلىٰ فهمِهِ معَ اللفظِ ؛ كما رُوِيَ عنْ بعضِ الشيوخِ أنَّهُ مرَّ في السوقِ ، فسمعَ واحداً يقولُ : (الخيارُ عشرةٌ بحبَّةٍ) ، فغلبَهُ الوجدُ ، فسُئِلَ عنْ ذلكَ ، فقالَ : إذا كانَ الخيارُ عشرةٌ بحبَّةٍ.. فما قيمةُ الأشرارِ ؟!(١) .

---

(١) وصاحب القصة هو الشبلي رحمه الله تعالىٰ . انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٥٥٧) .

واجتازَ بعضُهُمْ في السوقِ ، فسمعَ قائلاً يقولُ : (يا سعترَ برِّي) ، فغلبَ عليهِ الوجدُ ، فقيلَ لهُ : علىٰ ماذا كانَ وجدُكَ ؟ فقالَ : سمعتُهُ كأنَّهُ يقولُ : اسعَ . . ترَ بِرِّي[1] .

حتَّىٰ إنَّ العجميَّ قدْ يغلبُ عليهِ الوجدُ على الأبياتِ المنظومةِ بلغةِ العربِ ، فإنَّ بعضَ حروفِها يوازنُ الحروفَ العجمية ، فيفهمُ منها معانٍ أخرَ ، وأنشدَ بعضُهُمْ[2] : [من الطويل]

وَما زارَنِي فِي ٱلنَّوْمِ إِلاَّ خَيالُهُ فَقُلْتُ لَهُ : أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَبا

فتواجدَ عليهِ رجلٌ أعجميٌّ ، فسُئِلَ عنْ سببِ وجدِهِ ، فقالَ : إنَّهُ يقولُ : (مازاريم) ، وهوَ كما يقولُ ، فإنَّ لفظَ (زارَ) يدلُّ في العجميةِ على المشرفِ على الهلاكِ ، فتوهَّمَ أنَّهُ يقولُ : (كلُّنا مشرفونَ على الهلاكِ) ، فاستشعرَ عندَ ذلكَ خطرَ هلاكِ الآخرةِ .

والمحترقُ في حبِّ اللهِ تعالىٰ وجدُهُ بحسَبِ فهمِهِ ، وفهمُهُ بحسَبِ تخيُّلِهِ ، وليسَ مِنْ شرطِ تخيُّلِهِ أنْ يوافقَ مرادَ الشاعرِ ولغتَهُ ، فهٰذا الوجدُ حقٌّ وصدقٌ ، ومَنِ استشعَرَ خطرَ هلاكِ الآخرةِ . . فجديرٌ بأنْ يتشوَّشَ عليهِ عقلُهُ ، وتضطربَ عليهِ أعضاؤُهُ .

فإذاً ؛ ليسَ في تغييرِ أعيانِ الألفاظِ كبيرُ فائدةٍ ، بلِ الذي غلبَ عليهِ عشقُ

---

(١) وصاحب القصة هو أبو سليمان الدمشقي . انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٥٥٥) .
(٢) انظر « مصارع العشاق » (٢/ ١٣٢) .

مخلوقٍ ينبغي أنْ يحترزَ مِنَ السماعِ بأيِّ لفظٍ كانَ ، والذي غلبَ عليهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ فلا تضرُّهُ الألفاظُ ، ولا تمنعُهُ عنْ فهمِ المعاني اللطيفةِ المتعلِّقةِ بمجاري همَّتِهِ الشريفةِ .

❊ ❊ ❊

العارضُ الرابعُ : في المستمعِ : وهوَ أنْ تكونَ الشهوةُ غالبةً عليهِ ، وكانَ في غُرَّةِ الشبابِ ، وكانَتْ هـٰذهِ الصفةُ أغلبَ عليهِ مِنْ غيرِها . . فالسماعُ حرامٌ عليهِ ، سواءٌ غلبَ علىٰ قلبِهِ حبُّ شخصٍ معيَّنٍ أوْ لمْ يغلبْ ؛ فإنَّهُ كيفما كانَ . . فلا يسمعُ وصفَ الصدغِ والخدِّ ، والوصالِ والفراقِ إلا ويحرِّكُ ذلكَ شهوتَهُ ، وينزِّلُهُ علىٰ صورةٍ معيَّنةٍ ينفخُ الشيطانُ بها في قلبِهِ ، فتشتعلُ فيهِ نارُ الشهوةِ ، وتحتدُّ بواعثُ الشرِّ ، وذلكَ هوَ النصرةُ لحزبِ الشيطانِ ، والتخذيلُ للعقلِ المانعِ منهُ الذي هوَ حزبُ اللهِ تعالىٰ .

والقتالُ في القلبِ دائمٌ بينَ جنودِ الشيطانِ وهيَ الشهواتُ وبينَ حزبِ اللهِ تعالىٰ وهوَ نورُ العقلِ ، إلا في قلبٍ قدْ فتحَهُ أحدُ الجندينِ واستولىٰ عليهِ بالكلِّيَّةِ ، وغالبُ القلوبِ الآنَ قدْ فتحَها جندُ الشيطانِ ، وغلبَ عليها ، فتحتاجُ حينئذٍ إلىٰ أنْ تستأنفَ أسبابَ القتالِ لإزعاجِها ، فكيفَ يجوزُ تكثيرُ أسلحتِها وتشحيذُ سيوفِها وأسنَّتِها ، والسماعُ مُشَحِّذٌ لأسلحةِ جندِ الشيطانِ في حقِّ مثلِ هـٰذا الشخصِ ؟! فليُخرجْ مثلُ هـٰذا عنْ مَجْمَعِ السماعِ ؛ فإنَّهُ يُستضرُّ بهِ[1] .

❊ ❊ ❊

(١) في (ي) : (فليتحرج) بدل (فليخرج) .

العارضُ الخامسُ : أنْ يكونَ الشخصُ مِنْ عوامِّ الخلقِ[1] : ولمْ يغلبْ عليهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ ليكونَ السماعُ لهُ محبوباً ، ولا غلبَتْ عليهِ الشهوةُ ليكونَ في حقِّه محظوراً ، ولكنَّهُ أُبيحَ في حقِّهِ كسائرِ أنواعِ اللذَّاتِ المباحةِ ، إلا أنَّهُ إذا اتخذَهُ ديدنَهُ وهِجِّيراهُ ، وقصرَ عليهِ أكثرَ أوقاتِهِ . . فهٰذا هوَ السفيهُ الذي تُردُّ شهادتُهُ ؛ فإنَّ المواظبةَ على اللهوِ جنايةٌ ، وكما أنَّ الصغيرةَ بالإصرارِ والمداومةِ تصيرُ كبيرةً . . فكذلكَ بعضُ المباحاتِ بالمداومةِ يصيرُ صغيرةً ، وهوَ كالمواظبةِ علىٰ متابعةِ الزنوجِ والحبشةِ والنظرِ إلىٰ لعبِهِمْ على الدوامِ ، فإنَّهُ ممنوعٌ وإنْ لمْ يكنْ أصلُهُ ممنوعاً ؛ إذْ فعلَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومِنْ هٰذا القبيلِ اللعبُ بالشطرنجِ ، فإنَّهُ مباحٌ ، ولكنَّ المواظبةَ عليهِ مكروهةٌ كراهةً شديدةً ، ومهما كانَ الغرضُ اللعبَ والتلذُّذَ باللهوِ . . فذلكَ إنَّما يُباحُ لما فيهِ مِنْ ترويحِ القلبِ ، إذْ راحةُ القلبِ معالجةٌ لهُ في بعضِ الأوقاتِ لتنبعثَ دواعيهِ فتشتغلَ في سائرِ الأوقاتِ بالجدِّ في الدنيا ؛ كالكسبِ والتجارةِ ، أوْ في الدينِ ؛ كالصلاةِ والقراءةِ ، واستحسانُ ذلكَ فيما بينَ تضاعيفِ الجدِّ كاستحسانِ الخالِ عَلَى الخدِّ ، ولوِ استوعبَتِ

---

(١) **وأراد بالعوام هنا** : غير أهل المعرفة بالله تعالىٰ ، فدخل فيه علماء الدنيا بسائر فنونهم ، والمتكلمون على العلوم الغريبة ، والمشتغلون بالتدريس والتصنيف ، وقال القاضي حسين ـ نقلاً عن الجنيد ـ في « تعليقه » : (الناس في السماع علىٰ ثلاثة أضرب : العوام ، والزهاد ، والعارفون ، فأما العوام . . فحرام عليهم ؛ لبقاء نفوسهم ، وأما الزهاد . . فيباح لهم ؛ لحصول مجاهداتهم ، وأما أصحابنا . . فيستحب لهم ؛ لحياة قلوبهم) . « إتحاف » (٦/ ٥١١) .

الخِيلانُ الوجهَ . . لشوَّهَتْهُ ، فما أقبحَ ذلكَ ! فيعودُ ذلكَ الحسنُ قبحاً بسببِ الكثرةِ ، فما كلُّ حسنٍ يحسنُ كثيرُهُ ، ولا كلُّ مباحٍ يُباحُ كثيرُهُ ، بلِ الخبزُ مباحٌ ، والاستكثارُ منهُ حرامٌ[(١)] ، فهـٰذا المباحُ كسائرِ المباحاتِ[(٢)] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فقدْ أدَّىٰ مساقُ هـٰذا الكلامِ إلىٰ أنَّهُ مباحٌ في بعضِ الأحوالِ دونَ بعضٍ ، فلِمَ أطلقتَ القولَ أوَّلاً بالإباحةِ ؟ إذْ إطلاقُ القولِ في المفصَّلِ بـ(لا) أوْ بـ(نعم) خلفٌ وخطأٌ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا غلطٌ ؛ لأنَّ الإطلاقَ إنَّما يمتنعُ بتفصيلٍ ينشأُ مِنْ عينِ ما فيهِ النظرُ ، فأمَّا ما ينشأُ مِنَ الأحوالِ العارضةِ المتصلةِ بهِ مِنْ خارجٍ . . فلا يمنعُ الإطلاقَ ، ألا ترىٰ أنَّا إذا سُئلنا عن العسلِ : أهوَ حلالٌ أمْ لا ؟ . .

---

(١) أي : إذا كان يستضرُّ به ، وكذا شراب الرمان مباح شربه ، وهو شفاء ، والاستكثار منه مضرٌّ بالمعدة . « إتحاف » (٦/ ٥١١) .

(٢) لم يرتض الأدفوي هـٰذا التأصيل في « الإمتاع » ، وقد نقله الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٥١١) ، قال : (وهـٰذا الذي ذكره المصنف صحيح من جهة القياس ، وقد ناقضه صاحب « الإمتاع » من أصله فقال : وأما من فرَّق بين القليل والكثير . . فغير متجه ، ولا دليل له ، والقياس أن المباح قليله يباح كثيره إلا أن يدل الدليل كسائر المباحات) ، وبيَّن وجه إباحته ، إلىٰ أن قال : (ولو قيل : إن بعض المباحات يصير بالمداومة مكروهاً . . لأمكن أن يكون له وجه ؛ فإن الاشتغال بالمباحات وترك ما هو أنفع منها في الآخرة تفريط ، والإنسان مطلوب منه الاشتغال بالطاعات بحسب القدرة . . . ، وإذا صرف أكثر وقته النفيس إلى المباح . . كان تاركاً للأولىٰ ، ولا نعني بالكراهة هنا إلا ترك الأولىٰ) .

قلنا : إنَّهُ حلالٌ على الإطلاقِ ، معَ أنَّهُ حرامٌ على المحرورِ الذي يستضرُّ بِهِ ، وإذا سئلْنا عنِ الخمرِ . . قلنا : إنَّها حرامٌ ، معَ أنَّها تحلُّ لمَنْ غصَّ بلقمةٍ أنْ يشربَها مهما لمْ يجدْ غيرَها ، ولكنْ هوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ خمرٌ حرامٌ ، وإنَّما أُبيحَ لعارضِ الحاجةِ ، والعسلُ مِنْ حيثُ إنَّهُ عسلٌ حلالٌ ، وإنَّما حرمَ لعارضِ الضررِ ، وما يكونُ لعارضٍ . . فلا يُلتفتُ إليهِ ، فإنَّ البيعَ حلالٌ ، ويحرمُ بعارضِ الوقوعِ في وقتِ النداءِ يومَ الجمعةِ وبجملةٍ مِنَ العوارضِ ، فالسماعُ مِنْ جملةِ المباحاتِ مِنْ حيثُ إنَّهُ سماعُ صوتٍ موزونٍ طيِّبٍ مفهومٍ ، وإنَّما تحريمُهُ بعارضٍ خارجٍ عنْ حقيقةِ ذاتِهِ .

وإذا انكشفَ الغطاءُ عنْ دليلِ الإباحةِ . . فلا نبالي بمَنْ يخالفُ بعدَ ظهورِ الدليلِ .

وأمَّا الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ . . فليسَ تحريمُ الغناءِ مِنْ مذهبِهِ أصلاً[1] ، وقدْ نصَّ الشافعيُّ وقالَ : في الرجلِ يتخذُهُ صناعةً : لا تجوزُ شهادتُهُ ، وذلكَ لأنَّهُ مِنَ اللهوِ المكروهِ الذي يشبهُ الباطلَ ، ومَنِ اتخذَهُ

---

(١) قال صاحب « الإمتاع » ـ العلامة الأدفوي ـ : (وتتبعت أنا عدة كثيرة من المصنفات ، فلم أر نصاً في تحريمه ، وطالعت جملة من « الأم » و« الرسالة » وتصانيف متقدمي الأصحاب ومتوسطيهم ومتأخريهم ، فلم يحك أحد عنه التحريم ، بل حكىٰ عنه الأستاذ أبو منصور البغدادي أن مذهبه إباحة السماع بالقول والألحان إذا سمعه الرجل من رجل ، أو من جاريته ، أو من امرأة يحل له النظر إليها ، متىٰ سمعه في داره وفي دار بعض أصدقائه ، ولم يسمعه علىٰ قارعة الطريق ، ولم يقترن سماعه بشيء من المنكرات ، ولم يضيع مع ذلك أوقات الصلاة عن أدائها فيها ، ولم يضيع شهادة لزمه أداؤها) . « إتحاف » (٦/ ٥١٢) .

صنعةً[1] . . كانَ منسوباً إلى السفاهةِ وسقوطِ المروءةِ، وإنْ لمْ يكنْ محرَّماً بيِّنَ التحريمِ ، فإنْ كانَ لا ينسبُ نفسَهُ إلى الغناءِ ، ولا يُؤتىٰ لذلكَ ، ولا يأتي لأجلِهِ ، وإنَّما يُعرفُ بأنَّهُ قدْ يطربُ في الحالِ ، فيترنَّمُ فيها . . لمْ يُسقطْ هـٰذا مروءتَهُ ولمْ يبطلْ شهادتَهُ ، واستدلَّ بحديثِ الجاريتينِ اللتينِ كانتا تغنيانِ في بيتِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها[2] .

وقالَ يونسُ بنُ عبدِ الأعلىٰ : سألتُ الشافعيَّ رحمهُ اللهُ عنْ إباحةِ أهلِ المدينةِ للسماعِ ، فقالَ الشافعيُّ : لا أعلمُ أحداً مِنْ علماءِ الحجازِ كرهَ السماعَ ، إلا ما كانَ منهُ في الأوصافِ ، فأمَّا الحُداءُ ، وذكرُ الأطلالِ والمرابعِ ، وتحسينُ الصوتِ بألحانِ الأشعارِ . . فمباحٌ[3] .

وحيثُ قالَ : (إنَّهُ لهوٌ مكروهٌ يشبهُ الباطلَ) ، فقولُهُ : (لهوٌ) صحيحٌ ، ولكنِ اللهوُ مِنْ حيثُ إنَّهُ لهوٌ ليسَ بحرامٍ ، فلعبُ الحبشةِ ورقصُهُمْ لهوٌ ، وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينظرُ إليهِ ولا يكرهُهُ ، بلِ اللهوُ واللغوُ لا يؤاخذُ اللهُ تعالىٰ بهِ إنْ عنىٰ بهِ أنَّهُ فعلٌ لا فائدةَ فيهِ ؛ فإنَّ الإنسانَ لوْ وظَّفَ علىٰ نفسِهِ أنْ يضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ . . فهـٰذا عبثٌ لا فائدةَ فيهِ ولا يحرمُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ

---

(١) في النسخ : (ومن صنعه) بدل (ومن اتخذه صنعة) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .
(٢) الأم (٧/٥١٨) .
(٣) رواه الحافظ ابن القيسراني المقدسي في « صفوة التصوف » (ص ٣٢٩) .

أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ ، فإذا كانَ ذكرُ اسمِ اللهِ تعالىٰ على الشيءِ علىٰ طريقِ القَسَمِ منْ غيرِ عقدٍ عليهِ ولا تصميمٍ ، والمخالفةُ فيهِ معَ أنَّهُ لا فائدةَ فيهِ لا يؤاخذُ بهِ . . فكيفَ يؤاخذُ بالشعْرِ والرقصِ ؟!

وأمَّا قولُهُ : (يشبهُ الباطلَ) . . فهٰذا لا يدلُّ على اعتقادِهِ تحريمَهُ ، بلْ لوْ قالَ : (هوَ باطلٌ) صريحاً . . لما دلَّ على التحريمِ ، وإنَّما يدلُّ علىٰ خلوِّهِ عنِ الفائدةِ ، فالباطلُ ما لا فائدةَ فيهِ ، فقولُ الرجلِ لزوجتِهِ مثلاً : (بعتُ نفسي منكِ) ، وقولُها : (اشتريتُ) . . عقدٌ باطلٌ مهما كانَ القصدُ اللعبَ والمطايبةَ ، وليسَ بحرامٍ إلا إذا قصدَ التمليكَ المحقَّقَ الذي منعَ الشرعُ منهُ .

وأمَّا قولُهُ : (مكروهٌ) . . فيُنزَّلُ علىٰ بعضِ المواضعِ التي ذكرناها ، أوْ يُنزَّلُ على التنزيهِ ، فإنَّهُ نصَّ علىٰ إباحةِ لعبِ الشطرنجِ ، وذكرَ : (إنِّي أكرَهُ كلَّ لعبٍ) ، وتعليلُهُ يدلُّ عليهِ ، فإنَّه قالَ : (ليسَ ذلكَ مِنْ عادةِ ذوي الدينِ والمروءةِ)[1] ، فهٰذا يدلُّ على التنزيهِ .

وردُّهُ الشهادةَ بالمواظبةِ عليهِ لا يدلُّ علىٰ تحريمِهِ أيضاً ، بلْ قدْ تُردُّ الشهادةُ بالأكلِ في السوقِ ، وما يخرمُ المروءةَ ، بلِ الحياكةُ مباحةٌ ، وليسَتْ مِنْ صنائعِ ذوي المروءةِ ، وقدْ تُردُّ شهادةُ المحترفِ بالحرفةِ الخسيسةِ ، فتعليلُهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ أرادَ بالكراهةِ التنزيهَ ، وهٰذا هوَ الظنُّ أيضاً بغيرِهِ مِنْ كبارِ الأئمَّةِ ، وإنْ أرادوا التحريمَ . . فما ذكرناهُ حجَّةٌ عليهِم .

* * *

---

(١) الأم (٧/ ٥١٥) .

بيان حجة القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجُّوا بقولِه تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ ، قالَ ابنُ مسعودٍ والحسنُ البصريُّ والنخعيُّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : إنَّ لهْوَ الحديثِ هوَ الغناءُ[1] .

وروَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ حرَّمَ القينةَ وبيعَها وثمنَها وتعليمَها)[2] .

فنقولُ : أمَّا القينةُ : فالمرادُ بها الجاريةُ التي تغنِّي للرجالِ في مجلسِ الشربِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ غناءَ الأجنبيَّةِ للفسَّاقِ ومَنْ يُخافُ منهُ الفتنةُ حرامٌ ، وهمْ لا يقصدونَ بالقينةِ إلا ما هوَ محظورٌ ، فأمَّا غناءُ الجاريةِ لمالكِها . . فلا يُفهمُ تحريمُهُ مِنْ هٰذا الحديثِ ، بلْ لغيرِ مالكِها سماعُها عندَ عدمِ الفتنةِ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ في « الصحيحينِ » مِنْ غناءِ الجاريتينِ في بيتِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها[3] .

وأمَّا شراءُ لهوِ الحديثِ بالدينِ استبدالاً بهِ ليضلَّ عنْ سبيلِ اللهِ . . فهوَ حرامٌ مذمومٌ ، وليسَ النزاعُ فيهِ ، وليسَ كلُّ غناءٍ بدلاً عنِ الدينِ مشترىً بهِ ومضلاً عنْ سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ المرادُ في الآيةِ ، ولوْ قرأَ القرآنَ ليضلَّ بهِ عنْ سبيلِ اللهِ . . لكانَ حراماً .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤١١/٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢١٥٤٥) عن النخعي عن مجاهد .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٥١٠) .
(٣) روىٰ ذلك البخاري (٩٨٨) ، ومسلم (٨٩٢) .

حُكِيَ عنْ بعضِ المنافقينَ أنَّهُ كانَ يؤمُّ الناسَ ولا يقرأُ إلا (سورةَ عبسَ) لما فيها مِنَ العتابِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهمَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بقتلِهِ ورأىٰ فعلَهُ حراماً ؛ لما فيهِ منَ الإضلالِ[1] ، فالإضلالُ بالشعرِ والغناءِ أولىٰ بالتحريمِ .

❋ ❋ ❋

واحتجُّوا بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : هوَ الغناءُ بلغةِ حِمْيرٍ[2] ؛ يعني السمدَ ، فنقولُ : فينبغي أنْ يحرمَ الضحكُ وعدمُ البكاءِ أيضاً ؛ لأنَّ الآيةَ تشتملُ عليهِ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قيلَ : إنَّ ذلكَ مخصوصٌ بالضحكِ على المسلمينَ لإسلامِهِمْ . . فهٰذا أيضاً مخصوصٌ بأشعارِهِمْ وغنائِهِمْ في معرضِ الاستهزاءِ بالمسلمين ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ وأرادَ بهِ شعراءَ الكفَّارِ ، ولمْ يدلَّ ذلكَ علىٰ تحريمِ نظمِ الشعرِ في نفسِهِ .

❋ ❋ ❋

واحتجُّوا بما روىٰ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ :

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٣) وفيه أنَّه ضرب عنقه .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٧/ ١٠٣) ، وفيه من معاني السمد : البرطمة ، وهي الشموخ .

« كانَ إبليسُ أوَّلَ مَنْ ناحَ ، وأوَّلَ مَنْ تغنَّىٰ »[1] ، فقدْ جمعَ بينَ النياحةِ والغناءِ .

قلنا : لا جرمَ كما استثنيَ عنهُ نياحةُ داوودَ عليهِ السلامُ ، ونياحةُ المذنبينَ علىٰ خطاياهُمْ . فكذلكَ يُستثنى الغناءُ الذي يُرادُ بهِ تحريكُ السرورِ والحزنِ والشوقِ حيثُ يباحُ تحريكُهُ ، بلْ كما استثنيَ غناءُ الجاريتينِ يومَ العيدِ في بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وغناؤُهُنَّ عندَ قدومِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقولِهِنَّ : [من مجزوء الرمل]

طَلَـــعَ ٱلْبَــدْرُ عَلَيْنَـــا مِـــنْ ثَنِيَّـــاتِ ٱلْـــوَداعِ[2]

※ ※ ※

واحتجُّوا بما روىٰ أبو أمامةَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ما رفعَ أحدٌ صوتَهُ بغناءٍ إلا بعثَ اللهُ تعالىٰ إليهِ شيطانينِ علىٰ منكبيهِ يضربانِ بأعقابِهِما علىٰ صدرِهِ حتَّىٰ يمسكَ »[3] .

قلنا : هوَ منزَّلٌ علىٰ بعضِ أنواعِ الغناءِ الذي قدمناهُ ، وهوَ الذي يحرِّكُ مِنَ القلبِ ما هوَ مرادُ الشيطانِ مِنَ الشهوةِ وعشقِ المخلوقِ ، فأمَّا ما يحرِّكُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً من حديث جابر ، وذكره صاحب « الفردوس » من حديث علي بن أبي طالب ، ولم يخرجه ولده في « مسنده » [٤٢]) ، فردُّ المصنف إذاً من باب التنزُّل .

(٢) إنشاد البيت رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٥٠٦) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠٤) .

الشوقَ إلى اللهِ أوِ السرورَ بالعيدِ أوْ حدوثِ الولدِ أوْ قدومِ الغائبِ . . فهٰذا كلُّهُ يضادُّ مرادَ الشيطانِ ، بدليلِ قصَّةِ الجاريتينِ والحبشةِ والأخبارِ التي نقلناها مِنَ الصحاحِ ، **فالتجويزُ في موضعٍ واحدٍ نصٌّ في الإباحةِ ، والمنعُ في ألفِ موضعٍ محتملٌ للتأويلِ ومحتملٌ للتنزيهِ** ، أمَّا الفعلُ . . فلا تأويلَ لهُ ؛ إذْ ما حرمَ فعلُهُ إنَّما يحلُّ بعارضِ الإكراهِ فقطْ ، وما أُبيحَ فعلُهُ يحرمُ بعوارضَ كثيرةٍ حتَّى النياتِ والقُصُودِ .

❊ ❊ ❊

واحتجُّوا بما روىٰ عقبةُ بنُ عامرٍ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كلُّ شيءٍ يلهو بهِ الرجلُ فهوَ باطلٌ ، إلا تأديبَهُ فرسَهُ ، ورميَهُ بقوسِهِ ، وملاعبتَهُ امرأتَهُ »[(١)] .

قلنا : فقولُهُ : « باطلٌ » لا يدلُّ على التحريمِ ، بلْ يدلُّ علىٰ عدمِ الفائدةِ ، وقدْ يُسلَّمُ ذلكَ ، علىٰ أنَّ التلهيَ بالنظرِ إلى الحبشةِ خارجٌ عنْ هٰذهِ الثلاثةِ وليسَ بحرامٍ ، بلْ يلحقُ بالمحصورِ غيرُ المحصورِ قياساً[(٢)] ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدىٰ ثلاثٍ »[(٣)] ،

---

(١) رواه أبو داوود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٦/ ٢٢٢)، وابن ماجه (٢٨١١).

(٢) وهٰذا تقرير جواب ثان ، **وحاصله** : أن هٰذا العام خرجت منه مفردات كثيرة جداً ، وإذا كثرت مخصصات العام . . لم تبق فيه حجة عند قوم ، وعند من يتمسك بالعموم فنقول : هٰذا العام خرج منه الغناء بالأدلة التي ذكرت . « إتحاف » (٦/ ٥٣٠) .

(٣) رواه البخاري (٦٨٧٨) ، ومسلم (١٦٧٦) وتمامه : « النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمارق من الدين التارك للجماعة » .

فإنَّهُ يُلحقُ بهِ رابعٌ وخامسٌ ، فكذلكَ ملاعبتُهُ امرأتَهُ لا فائدةَ فيهِ إلا التلذُّذُ ، وفي هٰذا دليلٌ علىٰ أنَّ التفرُّجَ في البساتينِ وسماعَ أصواتِ الطيورِ وأنواعَ المداعباتِ ممَّا يلهو بهِ الرجلُ لا يحرمُ عليهِ شيءٌ منها وإنْ جازَ وصفُهُ بأنَّهُ باطلٌ .

❁ ❁ ❁

واحتجُّوا بقولِ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما تغنَّيْتُ ، ولا تمنَّيتُ ، ولا مسستُ ذكري بيميني منذُ بايعتُ بها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1] .

قلنا : فليكنِ التمنِّي ومسُّ الذكرِ باليمينِ حراماً إنْ كانَ هٰذا دليلَ تحريمِ الغناءِ[2] ، فمِنْ أينَ ثبتَ أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ لا يتركُ إلا الحرامَ؟![3] .

❁ ❁ ❁

واحتجُّوا بقولِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الغناءُ ينبتُ النفاقَ في القلبِ) ، وزادَ بعضُهُمْ : (كما ينبتُ الماءُ البقلَ) ، ورفعَهُ بعضُهُمْ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ غيرُ صحيحٍ[4] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٣١١) .
(٢) وهما ليسا كذلك . « إتحاف » (٦/ ٥٢٥) .
(٣) وإنما تنزه عن ذلك كما تنزه عن غيره من المباحات ، وكثير من الصحابة رضي الله عنهم تورعوا وزهدوا في كثير من المباحات . « إتحاف » (٦/ ٥٢٥) .
(٤) رواه موقوفاً ومرفوعاً البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٢٣) ، ورواه مرفوعاً أبو داوود (٤٩٢٧) ، وبيَّن الحافظ الزبيدي ضعفه في « الإتحاف » (٦/ ٥٢٥) .

قالوا : ومرَّ على ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قومٌ محرمونَ وفيهِمْ رجلٌ يغنِّي ، فقالَ : (ألا لا أسمعَ اللهُ لكُمْ ، ألا لا أسمعَ اللهُ لكمْ) .

وعنْ نافعٍ أنَّهُ قالَ : كنتُ معَ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما في طريقٍ ، فسمعَ زمَّارةَ راعٍ ، فوضعَ إصبعيهِ في أذنيهِ ، ثمَّ عدلَ عنِ الطريقِ ، فلمْ يزلْ يقولُ : يا نافعُ ؛ أتسمعُ ذلكَ ؟ حتَّىٰ قلتُ : لا ، فأخرجَ إصبعيهِ وقالَ : هٰكذا رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صنعَ(١) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (الغناءُ رقيةُ الزنا)(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : (الغناءُ رائدٌ مِنْ روَّادِ الفجورِ)(٣) .

وقالَ يزيدُ بنُ الوليدِ : (إيَّاكُمْ والغناءَ ؛ فإنَّهُ ينقصُ الحياءَ ويزيدُ الشهوةَ، ويهدمُ المروءةَ ، وإنَّهُ لينوبُ عنِ الخمرِ ، ويفعلُ ما يفعلُهُ السكرُ ، فإنْ كنتُمْ لا بدَّ فاعلينَ . . فجنِّبوه النساءَ ؛ فإنَّ الغناءَ داعيةُ الزنا)(٤) .

فنقولُ : قولُ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ينبتُ النفاقَ) أرادَ بهِ في حقِّ المغنِّي ، فإنَّهُ في حقِّهِ ينبتُ النفاقَ ؛ إذْ غرضُهُ كلُّهُ أنْ يعرضَ نفسَهُ علىٰ غيرِهِ ، ويروِّجَ صوتَهُ عليهِ ، ولا يزالُ ينافقُ ويتودَّدُ إلى الناسِ ليرغبوا في

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩٢٤) ونعته بالمنكر ، ونحوه عند ابن ماجه (١٩٠١) عند سماع طبل .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٧٥٥) .

(٣) أورده ابن منظور في « مختصر تاريخ دمشق » (٦/ ٢٢) للحطيئة الشاعر .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٧٥٤) .

غنائِهِ ، وذلكَ أيضاً لا يوجبُ تحريماً ، فإنَّ لبْسَ الثيابِ الجميلةِ وركوبَ الخيلِ المهملجةِ وسائرَ أنواعِ الزينةِ والتفاخرِ بالحرثِ والأنعامِ والزرعِ وغيرِ ذلكَ[١] . . ينبتُ الرياءَ والنفاقَ في القلبِ ، ولا يُطلقُ القولُ بتحريمِ ذلكَ كلِّهِ ، فليسَ السببُ في ظهورِ النفاقِ في القلبِ المعاصيَ فقطْ ، بلِ المباحاتُ التي هيَ مواقعُ نظرِ الخلقِ أكثرُ تأثيراً ، ولذلكَ نزلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ فرسٍ هملجٍ تحتَهُ وقطعَ ذنبَهُ[٢] ؛ لأنَّهُ استشعرَ في نفسِهِ الخيلاءَ لحسْنِ مشيتِهِ ، فمبدأُ النفاقِ مِنَ المباحاتِ .

وأمَّا قولُ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (ألا لا أسمعَ اللهُ لكمْ) . . فلا يدلُّ على التحريمِ مِنْ حيثُ إنَّهُ غناءٌ ، بلْ كانوا محرمينَ ، ولا يليقُ بهِمُ الرفثُ[٣] ، وظهرَ لهُ مِنْ مخايلِهِمْ أنَّ سماعَهُمْ لمْ يكنْ لوجدٍ وشوقٍ إلىٰ زيارةِ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، بلْ لمجرَّدِ اللهوِ ، فأنكرَ ذلكَ عليهِمْ لكونِهِ منكراً بالإضافةِ إلىٰ حالِهِمْ وحالِ الإحرامِ ، وحكاياتُ الأحوالِ تكثرُ فيها وجوهُ الاحتمالِ .

وأمَّا وضعُهُ إصبعيهِ في أذنيهِ . . فيعارضُهُ أنَّهُ لمْ يأمرْ نافعاً بذلكَ ولا أنكرَ عليهِ سماعَهُ ، وإنَّما فعلَ ذلكَ هوَ لأنَّهُ رأىٰ أنْ ينزِّهَ سمعَهُ في الحالِ وقلبَهُ عنْ

---

(١) ولكونه عطف الزرع على الحرث فقد يتعين كون الحرث هنا : جمع المال وكسبه ، **والمهملجة** : مذللة منقادة ، وهي لفظة فارسية .

(٢) رواه بنحوه أبو داوود في « الزهد » (٧٧) .

(٣) إذ فرق بين القصائد والأغاني ، قال أبو طالب في « القوت » (٢/ ٦٢) : (والفرق بين الأغاني والقصائد أن الأغاني ما شبّب به النساء ، وذكر فيه الغزل ووصفن به ، وشهدن منه ، ودعا إلى الهوىٰ ، وشوّق إلى اللهو) .

صوتٍ ربَّما يحرِّكُ اللهوَ ويمنعُهُ عنْ فكرٍ كانَ فيهِ أوْ ذكْرٍ هوَ أولىٰ منهُ ، وكذلكَ فِعلُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ أنَّهُ لمْ يمنعِ ابنَ عمرَ لا يدلُّ أيضاً على التحريمِ ، بلْ يدلُّ علىٰ أنَّ الأولىٰ تركُهُ ، **ونحنُ نرىٰ أنَّ الأولىٰ تركُهُ في أكثرِ الأحوالِ** ، بلْ أكثرُ مباحاتِ الدنيا الأولىٰ تركُها إذا علمَ أنَّ ذلكَ يؤثِّرُ في القلبِ ، فقدْ خلعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ ثوبَ أبي جهمٍ(١) ؛ إذْ كانَتْ عليهِ أعلامٌ شغلَتْ قلبَهُ ، أفترىٰ أنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ تحريمِ الأعلامِ على الثوبِ ؟! فلعلَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في حالةٍ كانَ صوتُ زمَّارةِ الراعي يشغلُهُ عنْ تلكَ الحالةِ كما شغلَهُ العَلَمُ عنِ الصلاةِ .

بلِ الحاجةُ إلى استثارةِ الأحوالِ الشريفةِ مِنَ القلبِ بحيلةِ السماعِ قصورٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ دائمُ الشهودِ للحقِّ وإنْ كانَ كمالاً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، ولذلكَ قالَ الحصريُّ : (ماذا أعملُ بسماعٍ ينقطعُ إذا ماتَ مَنْ يُسمعُ منهُ ؟!)(٢) ، إشارةً إلىٰ أنَّ السماعَ مِنَ اللهِ تعالىٰ هوَ الدائمُ ، والأنبياءُ عليهِمُ السلامُ على الدوامِ في لذَّةِ السمعِ والشهودِ ، فلا يحتاجونَ إلى التحريكِ بالحيلةِ .

وأمَّا قولُ الفضيلِ : (هوَ رقيةُ الزنا) وكذلكَ ما عداهُ مِنَ الأقاويلِ القريبةِ

---

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/ ٦٢) .
(٢) رواه الطوسي في « اللمع » (ص ٣٤٣) عنه مباشرة ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٥٠) ، والحصري هو علي بن إبراهيم البصري .

منهُ . . فهوَ منزَّلٌ علىٰ سماعِ العشاقِ والمغتلمينَ مِنَ الشبَّانِ ، ولوْ كانَ ذلكَ عامّاً . . لما سُمعَ مِنَ الجاريتينِ في بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

﴿ ﴿ ﴿

وأمَّا القياسُ : فغايةُ ما يذكرُ فيهِ أنْ يُقاسَ على الأوتارِ ، وقدْ سبقَ الفرقُ ، أوْ يُقالُ : هوَ لهوٌ ولعبٌ ، وهوَ كذلكَ ، لكنِ الدنيا كلُّها لهوٌ ولعبٌ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لزوجتِهِ : (إنَّما أنتِ لعبةٌ في زاويةِ البيتِ)(١) ، وجميعُ الملاعبةِ معَ النساءِ لهوٌ إلا الحراثةَ التي هيَ سببُ وجودِ الولدِ .

وكذلكَ المزحُ الذي لا فحشَ فيهِ حلالٌ ، نُقِلَ ذلكَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعنِ الصحابةِ كما سيأتي تفصيلُهُ في كتابِ آفاتِ اللسانِ إنْ شاءَ اللهُ ، وأيُّ لهوٍ يزيدُ علىٰ لهوِ الحبشةِ والزنوجِ في لعبِهِمْ وقدْ ثبتَ بالنصِّ إباحتُهُ ؟! علىٰ أنِّي أقولُ : اللهوُ مروِّحٌ للقلبِ ، ومخفِّفٌ عنهُ أعباءَ الفكرِ ، والقلوبُ إذا أُكرهتْ . . عميَتْ ، وترويحُها إعانةٌ لها على الجدِّ ، فالمواظبُ على التفقُّهِ مثلاً ينبغي أنْ يتعطَّلَ يومَ الجمعةِ ؛ لأنَ عطلةَ يومٍ تبعثُ النشاطَ في سائرِ الأيامِ ، والمواظبُ على نوافلِ الصلواتِ في سائرِ الأوقاتِ ينبغي أنْ يتعطَّلَ في بعضِ الأوقاتِ ، ولأجلهِ كُرِهَتِ الصلاةُ في بعضِ الأوقاتِ ، فالعطلةُ معونةٌ على العملِ ، واللهوُ معينٌ على الجدِّ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥٣) .

ولا يصبرُ على الجدِّ المحضِ والحقِّ المرِّ إلا نفوسُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ .

فاللهوُ دواءُ القلبِ عنْ داءِ الإعياءِ والملالِ ، فينبغي أنْ يكونَ مباحاً ، ولكنْ لا ينبغي أنْ يستكثرَ منهُ كما لا يستكثرُ مِنَ الدواءِ .

فإذاً ؛ اللهوُ علىٰ هـٰذهِ النيّةِ يصيرُ قربةً ، هـٰذا في حقِّ مَنْ لا يحرِّكُ السماعُ مِنْ قلبِهِ صفةً محمودةً يُطلبُ تحريكُها ، بلْ ليسَ لهُ إلا اللذةُ والاستراحةُ المحضةُ ، فينبغي أنْ يُستحبَّ لهُ ذلكَ ؛ ليتوصَّلَ بهِ إلى المقصودِ الذي ذكرناهُ .

نعمْ ، هـٰذا يدلُّ علىٰ نقصانٍ عنْ ذروةِ الكمالِ ؛ فإنَّ الكاملَ هوَ الذي لا يحتاجُ أنْ يروِّحَ نفسَهُ بغيرِ الحقِّ ، ولكنَّ حسناتِ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ ، ومَنْ أحاطَ بعلمِ علاجِ القلوبِ ، ووجوهِ التلطُّفِ بها للسياقةِ إلى الحقِّ . . علمَ قطعاً أنَّ ترويحَها بأمثالِ هـٰذهِ الأمورِ دواءٌ نافعٌ لا غنىٰ عنهُ .

❋ ❋ ❋

البَابُ الثَّاني
في آثار السماع وآدابه

اعلمْ : أنَّ أوَّلَ درجةِ السماعِ فهمُ المسموعِ وتنزيلُهُ علىٰ معنىً يقعُ للمستمعِ ، ثمَّ يثمرُ الفهمُ الوجدَ ، ويثمرُ الوجدُ الحركةَ بالجوارحِ ، فليُنظرْ في هاذهِ المقاماتِ الثلاثةِ .

المقام الأول : في الفهم

وهوَ يختلفُ باختلافِ أحوالِ المستمعِ ، وللمستمعِ أربعةُ أحوالٍ :

إحداها : أنْ يكونَ سماعُهُ بمجرَّدِ الطبعِ :
أيْ : لا حظَّ لهُ في السماعِ إلا استلذاذُ الألحانِ والنغماتِ ، وهاذا مباحٌ ، وهوَ أخسُّ رتبِ السماعِ إذِ الإبلُ شريكةٌ لهُ فيهِ ، وكذا سائرُ البهائمِ ، بلْ لا يستدعي هاذا الذوقَ إلا الحياةُ ، فلكلِّ حيوانٍ نوعُ تلذُّذٍ بالأصواتِ الطيِّبةِ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يسمعَ بفهمٍ ولكنْ ينزِّلُهُ علىٰ صورةِ مخلوقٍ :
إمَّا معيَّناً أوْ غيرَ معيَّنٍ ، وهوَ سماعُ الشبَّانِ وأربابِ الشهوةِ ، ويكونُ

تنزيلُهُمْ للمسموعِ علىٰ حسَبِ شهواتِهِمْ ومقتضىٰ أحوالِهِمْ ، وهٰذهِ الحالةُ أخسُّ مِنْ أنْ نتكلَّمَ فيها إلا ببيانِ خسَّتِها والنهيِ عنها .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الثالثةُ : أنْ ينزِّلَ ما يسمعُهُ علىٰ أحوالِ نفسِهِ في معاملتِهِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتقلُّبِ أحوالِهِ في التمكُّنِ مرَّةً وتعذُّرِهِ أخرىٰ :

وهٰذا سماعُ المريدينَ ، لا سيما المبتدئينَ ، فإنَّ للمريدِ ـ لا محالةَ ـ مراداً هوَ مقصدُهُ ، ومقصدُهُ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، ولقاؤُهُ والوصولُ إليهِ بطريقِ المشاهدةِ بالسرِّ وكشفِ الغطاءِ ، ولهُ في مقصدِهِ طريقٌ هوَ سالكُهُ ، ومعاملاتٌ هوَ مثابرٌ عليها ، وحالاتٌ تستقبلُهُ في معاملاتِهِ .

فإذا سمعَ ذكرَ عتابٍ أوْ خطابٍ ، أوْ قبولٍ أوْ ردٍّ ، أوْ وصلٍ أوْ هجرٍ ، أوْ قربٍ أوْ بعدٍ ، أوْ تلهُّفٍ علىٰ فائتٍ أوْ تعطُّشٍ إلىٰ منتظرٍ ، أوْ شوقٍ إلىٰ واردٍ ، أوْ طمعٍ أوْ يأسٍ ، أوْ وحشةٍ أوِ استئناسٍ ، أوْ وفاءٍ بالوعدِ أوْ نقضٍ للعهدِ ، أوْ خوفِ فراقٍ أوْ فرحٍ بوصالٍ ، أوْ ذكرَ ملاحظةِ الحبيبِ ومدافعةِ الرقيبِ ، أوْ همولِ العبراتِ ، أوْ ترادفِ الحسراتِ ، أوْ طولِ الفراقِ ، أوْ عدةِ الوصالِ ، أوْ غيرِ ذلكَ ممَّا يشتملُ علىٰ وصفِهِ الأشعارُ . فلا بدَّ أنْ يوافقَ بعضُها حالَ المريدِ في طلبِهِ ، فيجريَ ذلكَ مجرى القدَّاحِ الذي يوري زنادَ قلبِهِ ، فتشتعلُ بهِ نيرانُهُ ، ويقوىٰ بهِ انبعاثُ الشوقِ وهيجانُهُ ، ويهجمُ بسببِهِ عليهِ أحوالٌ مخالفةٌ لعادتِهِ ، ويكونُ لهُ مجالٌ رحبٌ في تنزيلِ الألفاظِ علىٰ أحوالِهِ .

وليسَ على المستمعِ مراعاةُ مرادِ الشاعرِ مِنْ كلامِهِ ، بلْ لكلِّ كلامٍ وجوهٌ ، ولكلِّ ذي فهمٍ في اقتباسِ المعنىٰ منهُ حظٌّ .

ولنضربْ لهـٰذهِ التنزيلاتِ والفهومِ أمثلةً كي لا يظنَّ الجاهلُ أنَّ المستمعَ لأبياتٍ فيها ذكرُ الفمِ والخدِّ والصُّدْغِ إنَّما يُفهمُ منها ظواهرُها ، ولا حاجةَ بنا إلىٰ ذكرِ كيفيةِ فهمِ المعاني مِنَ الأبياتِ ، ففي حكاياتِ أهلِ السماعِ ما يكشفُ عنْ ذلكَ .

فقد حُكِيَ أنَّهُ سمعَ بعضُهُمْ قائلاً يقولُ : [من مجزوء الكامل]

قَالَ ٱلرَّسُولُ غَداً تَزُو ... رُ فَقُلْتُ تَدْرِي مَا تَقُولُ

فاستفزَّهُ القولُ واللحنُ ، وتواجدَ ، وجعلَ يكرِّرُ ذلكَ ويجعلُ مكانَ التاءِ نوناً ، فيقولُ : (قالَ ٱلرَّسُولُ : غداً نزورُ) ، حتَّىٰ غُشيَ عليهِ مِنْ شدَّةِ الفرحِ واللذَّةِ والسرورِ ، فلمَّا أفاقَ . . سُئِلَ عنْ وجدِهِ مِمَّ كانَ ؟ فقالَ : ذكرتُ قولَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ يزورونَ ربَّهُمْ في كلِّ يومِ جمعةٍ مرَّةً »(١) .

وحكى الدُّقيُّ عنِ ابنِ الدَّرَّاجِ أنَّهُ قالَ : كنتُ أنا وابنُ الفُوَطِيِّ مارَّينِ على الدجلةِ بينَ البصرةِ والأُبُلَّةِ ، وإذا بقصرٍ حسنٍ لهُ منظرةٌ وعليهِ رجلٌ بينَ يديهِ جاريةٌ تغنِّي وتقولُ : [من مجزوء الرمل]

كُلَّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنْ ... غَيْرُ هَـٰذا بِكَ أَجْمَلْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٩) ، وابن ماجه (٤٣٣٦) .

فإذا شابٌّ حسنٌ تحتَ المنظرةِ وبيدِهِ ركْوةٌ وعليهِ مرقَّعةٌ يستمعُ ، فقالَ : يا جاريةُ ؛ باللهِ وبحياةِ مولاكِ إلاَّ أعدتِ عليَّ هـٰذا البيتَ ، فأعادَتْ ، فكانَ الشابُّ يقولُ : واللهِ ؛ هـٰذا تلوُّني مع الحقِّ في حالي ، فشهقَ شهقةً وماتَ ، قالَ ؛ فقلنا : قدِ استقبلَنا فرضٌ ، فوقفْنا فقالَ صاحبُ القصرِ للجاريةِ : أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ : ثمَّ خرجَ أهلُ البصرةِ وصلَّوا عليهِ ، فلمَّا فرغوا مِنْ دفنِهِ . . قالَ صاحبُ القصرِ : أشهدُكُمْ أنَّ كلَّ شيءٍ لي في سبيلِ اللهِ ، وكلَّ جواريَّ أحرارٌ ، وهـٰذا القصرُ للسبيلِ ، قالَ : ثمَّ رمىٰ بثيابِهِ ، واتَّزرَ بإزارٍ ، وارتدىٰ بآخرَ ، ومرَّ علىٰ وجهِهِ والناسُ ينظرونَ إليهِ حتَّىٰ غابَ عنْ أعينِهِمْ وهمْ يبكونَ ، فلمْ يُسمعْ لهُ بعدُ خبرٌ(١) .

والمقصودُ : أنَّ هـٰذا الشخصَ كانَ مستغرقَ الوقتِ بحالِهِ معَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ عجزِهِ عنِ الثبوتِ علىٰ حسنِ الأدبِ في المعاملةِ ، وتأسُّفِهِ علىٰ تقلُّبِ قلبِهِ ، وميلِهِ عنْ سَنَنِ الحقِّ ، فلمَّا قرعَ سمعَهُ ما يوافقُ حالَهُ . . سمعَهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ كأنَّهُ يخاطبُهُ ويقولُ لهُ :

كُلَّ يَوْمٍ تتَلَوَّنْ غَيْرُ هَـٰذا بِكَ أَجْمَلْ

ومَنْ كانَ سمعُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ وعلى اللهِ وفيهِ . . فينبغي أنْ يكونَ قدْ أحكمَ قانونَ العلمِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ ، وإلا . . خطرَ لهُ في السماعِ

---

(١) رواه الطوسي في « اللمع » (ص٣٥٨) عن الدقي مباشرة ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٥٥) .

في حقِّ اللهِ تعالىٰ ما يستحيلُ عليهِ تعالىٰ ويكفرُ بهِ ، ففي سماعِ المريدِ المبتدئِ خطرٌ إلا إذا لمْ ينزِّلْ ما يسمعْ إلا علىٰ حالِهِ مِنْ حيثُ لا يتعلَّقُ بوصفِ اللهِ تعالىٰ .

ومثالُ الخطأِ فيهِ : هـٰذا البيتُ بعينِهِ لوْ سمعَهُ في نفسِهِ وهوَ مخاطبٌ بهِ ربَّهِ عزَّ وجلَّ ، فيضيفُ التلوُّنَ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ فيكفرُ ، وهـٰذا قدْ يقعُ عنْ جهلٍ محضٍ مطلقٍ غيرِ ممزوجٍ بتحقيقٍ ، وقدْ يكونُ عنْ جهلٍ ساقَهُ إليهِ نوعٌ مِنَ التحقيقِ ، وهوَ أنْ يرىٰ تقلُّبَ أحوالِ قلبِهِ ، بلْ تقلُّبَ سائرِ أحوالِ العالمِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ حقٌّ ، فإنَّهُ تارةً يبسطُ قلبَهُ ، وتارةً يقبضُهُ ، وتارةً ينوِّرُهُ ، وتارةً يظلمُهُ ، وتارةً يقسِّيهِ ، وتارةً يُليِّنُهُ ، وتارةً يثبِّتُهُ علىٰ طاعتِهِ ويقوِّيهِ عليها ، وتارةً يسلِّطُ الشيطانَ عليهِ ليصرفَهُ عنْ سَنَنِ الحقِّ ، وهـٰذا كلُّهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ يصدرُ منهِ أحوالٌ مختلفةٌ في أوقاتٍ متقاربةٍ فقدْ يُقالُ لهُ في العادةِ : إنَّهُ ذو بَداواتٍ ، وإنَّهُ متلوِّنٌ ، ولعلَّ الشاعرَ لمْ يردْ بهِ إلا نسبةَ محبوبِهِ إلى التلوُّنِ في قبولِهِ وردِّهِ ، وتقريبِهِ وإبعادِهِ ، وهـٰذا هوَ المعنىٰ ، وسماعُ هـٰذا كذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ كفرٌ محضٌ ، بلْ ينبغي أنْ يعلمَ أنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يلوِّنُ ولا يتلوَّنُ ، ويغيِّرُ ولا يتغيَّرُ ، بخلافِ عبادِهِ ، وذلكَ العلمُ يحصلُ للمريدِ باعتقادٍ تقليديٍّ إيمانيٍّ ، ويحصلُ للعارفِ البصيرِ بيقينٍ كشفيٍّ حقيقيٍّ ، وذلكَ مِنْ أعاجيبِ أوصافِ الربوبيَّةِ ، وهوَ التغييرُ مِنْ غيرِ تغيُّرٍ ، ولا يتصوَّرُ ذلكَ إلا في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ كلُّ مغيِّرٍ سواهُ فلا يغيِّرُ ما لمْ يتغيَّرْ .

ومِنْ أربابِ الوجدِ مَنْ يغلبُ عليهِ حالٌ مثلُ السكْرِ المدهشِ ، فيطلقُ

لسانَهُ بالعتابِ معَ اللهِ ، ويستنكرُ اقتهارَهُ للقلوبِ وقسمتَهُ للأحوالِ الشريفةِ علىٰ تفاوتٍ ، فإنَّهُ المستصفي لقلوبِ الصدِّيقينَ ، والمبعدُ لقلوبِ الجاحدينَ والمغرورينَ ، فلا مانعَ لما أعطىٰ ، ولا معطيَ لما منعَ ، ولمْ يقطعِ التوفيقَ عنِ الكفَّارِ لجنايةٍ متقدمةٍ ، ولا أمدَّ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ بتوفيقِهِ ونورِ هدايتِهِ لوسيلةٍ سابقةٍ ، ولكنَّهُ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ .

فإنْ خطرَ ببالِكَ أنَّهُ لِمَ اختلفَتِ السابقةُ وهمْ في ربقةِ العبوديَّةِ مشتركونَ ؟ . . نوديتَ مِنْ سُرادِقاتِ الجلالِ : لا تجاوزْ حدَّ الأدبْ ، فإنَّهُ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهمْ يُسألونَ .

ولعمري ؛ تأدُّبُ اللسانِ والظاهرِ ممَّا يقدرُ عليهِ الأكثرونَ ، فأمَّا تأدُّبُ السرِّ عنْ إضمارِ الاستبعادِ لهٰذا الاختلافِ الظاهرِ في التقريبِ والإبعادِ ، والإشقاءِ والإسعادِ ، معَ بقاءِ السعادةِ والشقاوةِ أبدَ الآبادِ . . فلا يقوىٰ عليهِ إلا العلماءُ الراسخونَ في العلمِ .

ولهٰذا قالَ الخضرُ عليهِ السلامُ لمَّا سُئِلَ عنِ السماعِ في المنامِ : (إنَّهُ الصفاءُ الزلالُ الذي لا يثبتُ عليهِ إلا أقدامُ العلماءِ)[1] ؛ لأنَّهُ محرِّكٌ لأسرارِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٢) .

القلوبِ ومكامِنها ، ومشوِّشٌ لها تشويشَ السكْرِ المدهشِ الذي يكادُ يحلُّ عقدةَ الأدبِ عنِ السرِّ إلا ممَّنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ بنورِ هدايتِهِ ولطْفِ عصمتِهِ .

ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ليتَنا نجونا مِنْ هٰذا السماعِ رأساً برأسٍ)[١] ، ففي هٰذا الفنِّ مِنَ السماعِ خطرٌ يزيدُ علىٰ خطرِ السماعِ المحرِّكِ للشهوةِ ، فإنَّ غايةَ ذلكَ معصيةٌ ، وغايةُ الخطأِ هٰهنا كفرٌ .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ الفهمَ قد يختلفُ بأحوالِ المستمعِ ، فيغلبُ الوجدُ علىٰ مستمعينِ لبيتٍ واحدٍ وأحدُهُما مصيبٌ في الفهمِ والآخرُ مخطىءٌ ، أوْ كلاهُما مصيبانِ وقدْ فهما معنيينِ مختلفينِ متضادَّينِ ، ولكنَّهُ بالإضافةِ إلى اختلافِ أحوالِهِما لا يتناقضُ ؛ كما حُكِيَ عنْ عتبةَ الغلامِ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ : [من مجزوء الكامل]

سُبْحَانَ جَبَّارِ ٱلسَّمَا		إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لَفِي عَنَا

فقالَ : صدقتَ ، وسمعَهُ رجلٌ آخرُ فقالَ : كذبتَ ، فقالَ بعضُ ذوِي البصائرِ : (أصابا جميعاً)[٢] .

وهوَ الحقُّ ؛ فالتصديقُ كلامُ محبٍّ غيرِ ممكَّنٍ مِنَ المرادِ ، بلْ مصدودٌ متعبٌ بالصدِّ والهجرِ ، والتكذيبُ كلامُ مستأنسٍ بالحبِّ مستلذٍّ لما يقاسيهِ

---

(١) والقائل هو أبو علي الروذباري رحمه الله كما في « اللمع » (ص ٣٤٣) .
(٢) رواه الطوسي في « اللمع » (ص٣٦٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥٥٥) .

بسببِ فرْطِ حبِّهِ غيرِ متأثِّرٍ بهِ ، أوْ كلامُ محبٍّ غيرِ مصدودٍ عنْ مرادِهِ في الحالِ ، ولا مستشعرٍ لخطرِ الصدِّ في المآلِ ، وذلكَ لاستيلاءِ الرجاءِ وحسنِ الظنِّ علىٰ قلبِهِ ، فباختلافِ هـٰذهِ الأحوالِ يختلفُ الفهمُ .

وحُكِيَ عنْ أبي القاسمِ بنِ مروانَ وكانَ قدْ صحبَ أبا سعيدٍ الخرَّازَ رحمهُ اللهُ ، وتركَ حضورَ السماعِ سنينَ كثيرةً ، فحضرَ في دعوةٍ يقولُ إنسانٌ فيها : [من مجزوء الرمل]

واقِــفٌ فِــي ٱلْمـــاءِ عَطْشـــا نٌ وَلَـٰكِـــنْ لَيْـــسَ يُسْقَـــى

فقامَ القومُ وتواجدوا ، فلمَّا سكنوا . . سألَهُمْ عنْ معنىٰ ما وقعَ لهَمْ مِن معنى البيتِ ، فأشاروا إلى التعطُّشِ إلى الأحوالِ الشريفةِ والحرمانِ منها معَ حضورِ أسبابِها ، فلمْ يقنعْهُ ذلكَ ، فقيلَ لهُ : فماذا عندكَ فيهِ ؟ فقالَ : أنْ يكونَ في وسَطِ الأحوالِ ويُكرمَ بالكراماتِ ولا يُعطىٰ منها ذرَّةً[1] .

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ إثباتِ حقيقةٍ وراءَ الأحوالِ والكراماتِ ، فالأحوالُ سوابقُها ، والكراماتُ تسنحُ في مباديها ، والحقيقةُ بعدُ لمْ يقعِ الوصولُ إليها ، ولا فرقَ بينَ المعنى الذي فهمَهُ وبينَ ما ذكروهُ إلا في تفاوتِ رتبةِ المتعطَّشِ إليهِ ، فإنَّ المحرومَ مِنَ الأحوالِ الشريفةِ أوَّلاً يتعطَّشُ إليها ، فإنْ مُكِّنَ منها . . تعطَّشَ إلىٰ ما وراءَها ، فليسَ بينَ المعنيينِ اختلافٌ في الفهمِ ، بلِ الاختلافُ بينَ الرتبتينِ .

---

(١) رواه الطوسي في « اللمع » (ص٣٦١) ، وبنحوه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/٣١) .

وكانَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ كثيراً ما يتواجدُ علىٰ هـٰذا البيتِ[1] : [من الطويل]

وِدادُكُـمُ هَجْـرٌ وَحُبُّكُـمُ قِلًـى ... وَوَصْلُكُمُ صَرْمٌ وَسِلْمُكُمُ حَرْبُ

وهـٰذا البيتُ يمكنُ سماعُهُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ ، بعضُها حقٌّ وبعضُها باطلٌ ، **وأظهرُها** : أنْ يُفهمَ هـٰذا في الخلقِ ، بلْ في الدنيا بأسرِها ، بلْ في كلِّ ما سوى اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ الدنيا مكَّارةٌ خدَّاعةٌ ، قتَّالةٌ لأربابِها ، معاديةٌ لهُمْ في الباطنِ ، ومظهرةٌ صورةَ الوُدِّ ، فما امتلأَتْ منها دارٌ حَبْرةً إلا امتلأَتْ عبرةً ، كما وردَ في الخبرِ[2] ، وكما قالَ الثعالبيُّ في وصفِ الدنيا[3] : [من الطويل]

تَنَحَّ عَنِ ٱلدُّنْيا فَلا تَخْطِبَنَّها ... وَلا تَخْطِبَنْ قَتَّالَةً مَنْ تُناكِحُ

فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوُّها بِمَخُوفِها ... وَمَكْرُوهُها إِمَّا تَأَمَّلْتَ راجِحُ

لَقَدْ قالَ فِيها ٱلْواصِفُونَ فَأَكْثَرُوا ... وَعِنْدِي لَها وَصْفٌ لَعَمْرِيَ صَالِحُ

سُلافٌ قُصاراها زُعافٌ وَمَرْكَبٌ ... شَهِيٌّ إِذا ٱسْتَلْذَذْتَهُ فَهْوَ جامِحُ

وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُونِقُ ٱلنَّاسَ حُسْنُهُ ... وَلَـٰكِنْ لَهُ أَسْرارُ سُوءٍ قَبائِحُ

والمعنى الثاني : أنْ ينزِّلَهُ علىٰ نفسِهِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ إذا تفكَّرَ . .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٦٩) ، والطوسي في « اللمع » (ص٣٦٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص١٦٧) ، والبيت مما نسب إلى الشبلي ، وهو في « ديوانه » (ص ١٣٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٦٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٠٣) عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً .

(٣) ديوانه (ص ٣٩) .

فمعرفتُهُ جهلٌ ، إذْ ما قدروا اللهَ حقَّ قدرِهِ ، وطاعتُهُ رياءٌ ؛ إذْ لا يتقي اللهَ حقَّ تقاتِهِ ، وحبُّهُ معلولٌ ؛ إذْ لا يدعُ شهوةً مِنْ شهواتِهِ في حبِّهِ ، ومَنْ أرادَ اللهُ بهِ خيراً وبصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ . . رأىٰ مصداقَ هـٰذا البيتِ في نفسِهِ ، وإنْ كانَ عليَّ الرتبةِ بالإضافةِ إلى الغافلينَ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[1] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرَّةً »[2] ، وإنَّما كانَ استغفارُهُ عنْ أحوالٍ هيَ درجاتُ بُعْدٍ بالإضافةِ إلىٰ ما بعدَها ، وإنْ كانَتْ قُرْباً بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَها ، فلا قربَ إلا ويبقىٰ وراءَهُ قرْبٌ لا نهايةَ لهُ ؛ إذْ سبيلُ السلوكِ إلى اللهِ تعالىٰ غيرُ متناهٍ ، والوصولُ إلىٰ أقصىٰ درجاتِ القربِ محالٌ .

والمعنى الثالثُ : أنْ ينظرَ في مبادئِ أحوالِهِ فيرتضيَها ، ثمَّ ينظرَ في عواقبِها فيزدريَها ؛ لاطلاعِهِ علىٰ خفايا الغرورِ فيها ، فيرىٰ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيستمعَ البيتَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ شكايةً مِنَ القضاءِ والقدرِ ، وهـٰذا كفرٌ كما سبقَ بيانُهُ .

وما مِنْ بيتٍ إلا ويمكنُ تنزيلُهُ علىٰ معانٍ ، ذلكَ بقدْرِ غزارةِ علْمِ المستمعِ وصفاءِ قلبِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧) بزيادة : (أكثر) ، وبنحو لفظ المصنف عند الترمذي (٣٢٥٩) ، وابن ماجه (٣٨١٦) .

الحالةُ الرابعةُ : سماعُ مَنْ جاوزَ الأحوالَ والمقاماتِ :

فعزبَ عنْ فهمِ ما سوى اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ عزبَ عنْ نفسِهِ وأحوالِها ومعاملاتِها ، وكانَ كالمدهوشِ الغائصِ في بحرِ عينِ الشهودِ الذي يضاهي حالُهُ حالَ النسوةِ اللاتي قطعْنَ أيديَهُنَّ في مشاهدةِ جمالِ يوسفَ عليهِ السلامُ ، حتَّىٰ بهتْنَ وسقطَ إحساسُهُنَّ وعنْ مثلِ هٰذهِ الحالةِ تعبِّرُ الصوفيَّةُ بأنَّهُ قدْ فَنِيَ عنْ نفسِهِ ، ومهما فنيَ عنْ نفسِهِ . . فهوَ عنْ غيرِهِ أفنىٰ ، فكأنَّهُ فنيَ عنْ كلِّ شيءٍ إلا عنْ الواحدِ المشهودِ ، وفنيَ أيضاً عنِ الشهودِ ، فإنَّ القلبَ إنِ التفتَ إلى الشهودِ وإلىٰ نفسِهِ بأنَّهُ مشاهدٌ . . فقدْ غفلَ عنِ المشهودِ ؛ فالمستهتَرُ بالمرئيِّ لا التفاتَ لهُ في حالِ استغراقِهِ إلىٰ رؤيتِهِ ، ولا إلىٰ عينِهِ التي بها رؤيتُهُ ، ولا إلىٰ قلبِهِ الذي بهِ لذَّتُهُ ، فالسكرانُ لا خبرَ لهُ مِنْ سكرِهِ ، والمتلذِّذُ لا خبرَ لهُ منِ التذاذِهِ ، وإنَّما خبرُهُ مِن الملتذِّ بهِ فقطْ .

ومثالُهُ : العلمُ بالشيءِ ؛ فإنَّهُ مغايرٌ للعلمِ بالعلمِ بذلكَ الشيءِ ، فالعالمُ بالشيءِ مهما وردَ عليهِ العلمُ بالعلمِ بالشيءِ . . كانَ معرضاً عنِ الشيءِ ، ومثلُ هٰذهِ الحالةِ قدْ تطرأُ في حقِّ المخلوقينَ ، فتطرأُ أيضاً في حقِّ الخالقِ ، ولكنَّها في الغالبِ تكونُ كالبرقِ الخاطفِ الذي لا يثبتُ ولا يدومُ ، فإنْ دامَ . . لمْ تطقْهُ القوَّةُ البشريَّةُ ، فربَّما يضطربُ تحتَ أعبائِهِ اضطراباً تهلكُ فيهِ نفسُهُ ؛ كما رُوِيَ عنْ أبي الحسينِ النوريِّ أنَّهُ حضرَ مجلساً ، فسمعَ هٰذا البيتَ : [من الكامل]

ما زِلْتُ أَنْزِلُ فِي وِدادِكَ مَنْزِلاً ... تَتَحَيَّرُ ٱلْأَلْبابُ عِنْدَ نُزُولِهِ

فقامَ وتواجدَ ، وهامَ على وجهِهِ ، فوقعَ في أجمةِ قصبٍ قدْ قُطعَ وبقيَتْ أصولُهُ مثلَ السيوفِ ، فصارَ يعدو فيها ، ويعيدُ البيتَ إلى الغداةِ ، والدمُ يخرجُ مِنْ رجليهِ ، حتَّىٰ ورمَتْ قدماهُ وساقاهُ ، وعاشَ بعدَ ذلكَ أياماً وماتَ رحمَهُ اللهُ (١) .

فهٰذهِ درجةُ الصديقينَ في الفهمِ والوجدِ ، وهيَ أعلى الدرجاتِ ؛ لأنَّ السماعَ على الأحوالِ نازلٌ عنْ درجاتِ الكمالِ ، وهيَ ممتزجةٌ بصفاتِ البشريةِ ، وهوَ نوعُ قصورٍ ، وإنَّما الكمالُ أنْ يفنىٰ بالكليَّةِ عنْ نفسهِ وأحوالِهِ ؛ أعني أنَّهُ ينساها ، فلا يبقىٰ لهُ التفاتٌ إليها ، كما لمْ يكنْ للنسوةِ التفاتٌ إلى الأيدي والسكاكينِ ، فيسمعُ باللهِ وللهِ ، وفي اللهِ ومِنَ اللهِ ، وهٰذهِ رتبةُ مَنْ خاضَ لجةَ الحقائقِ وعبرَ ساحلَ الأحوالِ والأعمالِ ، واتحدَ بصفاءِ التوحيدِ ، وتحقَّقَ بمحضِ الإخلاصِ ، فلمْ يبقَ فيهِ منهُ شيءٌ أصلاً ، بلْ خمدَتْ بالكليَّةِ بشريتُهُ ، وفنيَ التفاتُهُ إلىٰ صفاتِ البشريَّةِ رأساً ، ولستُ أعني بفنائِهِ فناءَ جسدِهِ ، بلْ فناءَ قلبِهِ ، ولستُ أعني بالقلبِ اللحمَ والدمَ ، بلْ سرٌّ لطيفٌ لهُ إلى القلبِ الظاهرِ نسبةٌ خفيَّةٌ وراءَها سرُّ الروحِ الذي هوَ مِنْ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، عرفَها مَنْ عرفَها ، وجهلَها مَنْ جهلَها ، ولذلكَ السرِّ وجودٌ ، وصورةُ ذلكَ الوجودِ ما يحضرُ فيهِ ، فإذا حضرَ فيهِ غيرُهُ . . فكأنَّهُ

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/٣٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٤) ، وأورده الطوسي في « اللمع » (ص٣٦٣) .

لا وجودَ إلا للحاضرِ ، ومثالُهُ : المرآةُ المجلوَّةُ ، إذْ ليسَ لها لونٌ في نفسِها ، بلْ لونُها لونُ الحاضرِ فيها ، وكذلكَ الزجاجةُ ، فإنَّها تحكي لونَ قرارِها ، ولونُها لونُ الحاضرِ فيها ، وليسَ لها في نفسِها صورةٌ ، بلْ صورتُها قبولُ الصورِ ، ولونُها هوَ هيئةُ الاستعدادِ لقبولِ الألوانِ ، ويعربُ عنْ هٰذهِ الحقيقةِ ـ أعني : سرَّ القلبِ ـ بالإضافةِ إلىٰ ما يحضرُ فيهِ قولُ الشاعرِ[1] :

[من الكامل]

رَقَّ ٱلزُّجَاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ ٱلأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلاَ خَمْرُ

وهٰذهِ مغاضةٌ من مغاضاتِ علومِ المكاشفةِ[2] ، منها نشأَ خيالُ مَنِ ادعى الحلولَ والاتحادَ ، وقالَ : أنا الحقُّ ، وحولَهُ يدندنُ كلامُ النصارىٰ في دعوى اتحادِ اللاهوتِ بالناسوتِ ، أوْ تدرُّعِها بها أوْ حلولِها فيها ، علىٰ ما اختلفَتْ فيهِ عباراتُهُمْ ، وهوَ غلطٌ محضٌ ، يضاهي غلطَ مَنْ يحكمُ على المرآةِ بصورةِ الحمرةِ إذا ظهرَ فيها لونُ الحمرةِ مِنْ مقابلِها .

وإذا كانَ هٰذا غيرُ لائقٍ بعلمِ المعاملةِ . . فلنرجعْ إلى الغرضِ ، فقدْ ذكرنا تفاوتَ الدرجاتِ في فهمِ المسموعاتِ .

* * *

---

(١) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .
(٢) هي من قولهم : أعطاه غيضاً من فيض ، **والغيض** : القليل .

المقام الثاني بعد الفهم والتنزيل : الوجد

وللناسِ كلامٌ طويلٌ في حقيقةِ الوجْدِ ؛ أعني : للصوفيةِ ، وللحكماءِ الناظرينَ في وجهِ مناسبةِ السماعِ للأرواحِ ، فلننقلْ مِنْ أقوالِهِمْ ألفاظاً ، ثمَّ لنكشفْ عنِ الحقيقةِ فيهِ .

❊ ❊ ❊

أمَّا الصوفيَّةُ : فقدْ قالَ ذو النونِ المصريُّ رحمهُ اللهُ في السماعِ : (إنَّهُ واردُ حقٍّ جاءَ يزعجُ القلوبَ إلى الحقِّ ، فمَنْ أصغىٰ إليهِ بحقٍّ . . تحقَّقَ ، ومَنْ أصغىٰ إليهِ بنفسٍ . . تزندقَ)[1] ، فكأنَّهُ عبَّرَ عنِ الوجدِ بانزعاجِ القلوبِ إلى الحقِّ ، وهوَ الذي يجدُهُ عندَ ورودِ واردِ السماعِ ، إذْ سمَّى السماعَ واردَ حقٍّ .

وقالَ أبو الحسينِ الدَّرَّاجُ مخبراً عمَّا وجدَهُ في السماعِ : (والوجدُ عبارةٌ عمَّا يُوجدُ عندَ السماعِ ، وقالَ : جالَ بي السماعُ في ميادينِ البهاءِ ، فأوجدَني وجودَ الحقِّ عندَ العطاءِ ، فأسقاني بكأسِ الصفاءِ ، فأدركتُ بهِ منازلَ الرضاءِ ، وأخرجَني إلىٰ رياضِ النزهةِ والفضاءِ)[2] .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٥٤٨) ، وبيَّنَ الإمام الهجويري معنىٰ هـٰذا إذ قال في « كشف المحجوب » (ص٤٥٠) : (ويقصد الشيخ ذو النون بإعماله هـٰذه اللفظة ـ أي : الزندقة ـ أن أهل الحق يقفون بسماعهم على الحقيقة ، أما أهل الهوىٰ . . فإنهم يجادلون في الحق بتأويل غامض ، وبذلك وقعوا في المعصية) .

(٢) اللمع (ص٣٤٢) .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (السماعُ ظاهرُهُ فتنةٌ ، وباطنُهُ عبرةٌ ، فمَنْ عرفَ الإشارةَ .. حلَّ لهُ استماعُ العبرةِ ، وإلا .. فقدِ استدعى الفتنةَ ، وتعرَّضَ للبليَّةِ)(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (السماعُ غذاءُ الأرواحِ لأهلِ المعرفةِ ؛ لأنَّهُ وصفٌ يدقُّ عنْ سائرِ الأعمالِ ، ويُدركُ برقَّةِ الطبعِ لرقَّتِهِ ، وبصفاءِ السرِّ لصفائِهِ ولطفِهِ عندَ أهلِهِ)(٢) .

وقالَ عمروُ بنُ عثمانَ المكيُّ : (لا يقعُ على كيفيةِ الوجْدِ عبارةٌ ؛ لأنَّهُ سرُّ اللهِ عندَ المؤمنينَ الموقنينَ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمُ : (الوجدُ مكاشفاتٌ مِنَ الحقِّ)(٤) .

وقالَ أبو سعيدِ بنُ الأعرابيِّ : (الوجدُ رفعُ الحجابِ ، ومشاهدةُ الرقيبِ ، وحضورُ الفهمِ ، وملاحظةُ الغيبِ ، ومحادثةُ السرِّ ، وإيناسُ المفقودِ ، وهوَ فناؤُكَ أنتَ مِنْ حيثُ أنتَ)(٥) .

وقالَ أيضاً : (الوجدُ أوَّلُ درجاتِ الخصوصِ ، وهوَ ميراثُ التصديقِ

---

(١) اللمع (ص ٣٤٢) ، والرسالة القشيرية (ص ٥٤٨) .
(٢) بنحوه أورده القشيري في « رسالته » (ص ٥٤٩) .
(٣) اللمع (ص ٣٧٥) .
(٤) نقله الطوسي في « اللمع » (ص ٣٧٥) .
(٥) اللمع (ص ٣٧٦) ، ولأبي سعيد بن الأعرابي ـ وهو من أصحاب الجنيد ـ كتاب في الوجد ، أكثر عنه النقل الإمام الطوسي في « اللمع » ، بل عقد لتلخيصه باباً (ص ٣٨٥) .

بالغيبِ ، فلمَّا ذاقوها وسطعَ في قلوبِهِمْ نورُها.. زالَ عنهُمْ كلُّ شكٍّ وريبٍ)[1] .

وقالَ أيضاً : (الذي يحجبُ عنِ الوجدِ رؤيةُ آثارِ النفسِ ، والتعلُّقُ بالعلائقِ والأسبابِ ؛ لأنَّ النفسَ محجوبةٌ بأسبابِها ، فإذا انقطعَتِ الأسبابُ ، وخلصَ الذكرُ ، وصحا القلبُ ورقَّ وصفا ، ونجعَتِ الموعظةُ فيهِ ، وحلَّ مِنَ المناجاةِ في محلٍّ غريبٍ ، وخُوطبَ وسمعَ الخطابَ بأُذُنٍ واعيةٍ ، وقلبٍ شاهدٍ ، وسرٍّ ظاهرٍ ، فشاهدَ ما كانَ منهُ خالياً.. فذلكَ هوَ الوجدُ ؛ لأنَّهُ قدْ وجدَ ما كانَ معدوماً عندَهُ)[2] .

وقالَ أيضاً : (الوجدُ ما يكونُ عندَ ذكرٍ مزعجٍ ، أوْ خوفٍ مقلقٍ ، أوْ توبيخٍ علىٰ زلَّة ، أوْ محادثةٍ بلطيفةٍ ، أوْ إشارةٍ إلىٰ فائدةٍ ، أوْ شوقٍ إلىٰ غائبٍ ، أوْ أسفٍ علىٰ فائتٍ ، أوْ ندمٍ علىٰ ماضٍ ، أوِ استجلابٍ إلىٰ حالٍ ، أوْ داعٍ إلىٰ واجبٍ ، أوْ مناجاةٍ بسرٍّ ، وهوَ مقابلةُ الظاهرِ بالظاهرِ ، والباطنِ بالباطنِ ، والغيبِ بالغيبِ ، والسرِّ بالسرِّ ، واستخراجُ ما لَكَ بما عليكَ ، ممَّا سبقَ لكَ السعيُ فيهِ ، فيكتبُ ذلكَ لكَ بعدَ كونِهِ منكَ ، فيثبتُ لكَ قدمٌ بلا قدمٍ ، وذكرٌ بلا ذكرٍ ، إذْ كانَ هوَ المبتدئَ بالنعمِ والمتولِّيَ ، وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلُّهُ)[3] .

---

(١) اللمع (ص ٣٧٦) .
(٢) اللمع (ص ٣٧٦) .
(٣) اللمع (ص ٣٨٥) .

فهٰذا ظاهرُ علْمِ الوجدِ ، وأقوالُ الصوفيّةِ مِنْ هٰذا الجنسِ في الوجدِ كثيرةٌ .

* * *

وأمَّا الحكماءُ : فقالَ بعضُهُمْ : (في القلبِ فضيلةٌ شريفةٌ تعذَّرَ علىٰ قوَّةِ النطْقِ إخراجُها باللفظِ ، فأخرجتْها النفسُ بالألحانِ ، فلمَّا ظهرتْ . . سرتْ وطربتْ إليها ، فاستمعوا مِنَ النفسِ وناجوها ، ودعوا مناجاةَ الظواهرِ)(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (نتائجُ السماعِ استنهاضُ العاجزِ مِنَ الرأيِ ، واستجلابُ العازبِ مِنَ الأفكارِ ، وحدةُ الكالِّ مِنَ الأفهامِ والآراءِ ، حتىٰ يثوبَ ما عزبَ ، وينهضَ ما عجزَ ، ويصفوَ ما كدرَ ، ويمرحَ في كلِّ رأيٍ ونيَّةٍ ، فيصيبَ ولا يخطىءَ ، ويأتيَ ولا يبطىءَ) .

وقالَ آخرُ : (كما أنَّ الفكرَ يطرقُ العلمَ إلى المعلومِ . . فالسماعُ يطرقُ القلبَ إلى العالمِ الروحانيِّ) .

وقالَ بعضُهُمْ وقدْ سُئِلَ عنْ سببِ حركةِ الأطرافِ بالطبعِ علىٰ وزنِ الألحانِ والإيقاعاتِ فقالَ : (ذلكَ عشقٌ عقليٌّ ، والعاشقُ العقليُّ لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يناغيَ معشوقَهُ بالمنطقِ الجرْميِّ ، بلْ يناغيهِ ويناجيهِ بالتبسُّمِ ، واللحظِ ، والحركةِ اللطيفةِ بالحاجبِ والجفنِ والإشارةِ وهٰذهِ نواطقُ أجمعُ ، إلا أنَّها روحانيَّةٌ ، وأمَّا العاشقُ البهيميُّ . . فإنَّهُ يستعملُ النطقَ

---

(١) حكىٰ بعض ذلك كشاجم في « أدب النديم » (ص ٩٦) .

الجِرْمِيَّ ليعبِّرَ بهِ عنهُ ، ويموِّهَ ظاهرَ شوقِهِ الضعيفِ وعشقِهِ الداثرِ) .

وقالَ آخرُ : (مَنْ حزنَ . . فليسمعِ الألحانَ ، فإنَّ النفسَ إذا دخلَها الحزنُ . . خمدَ نورُها ، وإذا فرحَتِ . . اشتعلَ نورُها ، وظهرَ زِبْرِجُها ، فيظهرُ الحنينُ بقدْرِ قبولِ القابلِ ، وذلكَ بقدْرِ صفائِهِ ونقائِهِ مِنَ الغشِّ والدنسِ)[1] .

❊ ❊ ❊

والأقاويلُ المفرَّقةُ في السماعِ والوجدِ كثيرةٌ ، ولا معنىٰ للاستكثارِ مِنْ إيرادِها ، فلنشتغلْ بتفهيمِ المعنى الذي الوجْدُ عبارةٌ عنهُ ، فنقولُ : إنَّهُ عبارةٌ عنْ حالةٍ يثمرُها السماعُ ، وهوَ واردُ حقٍّ جديدٌ عَقيبَ السماعِ يجدُهُ المستمعُ مِنْ نفسِهِ ، وتلكَ الحالةُ لا تخلو عنْ قسمينِ ؛ فإنَّها إمَّا أنْ ترجعَ إلىٰ مكاشفاتٍ ومشاهداتٍ هيَ مِنْ قبيلِ العلومِ والتنبيهاتِ ، وإمَّا أنْ ترجعَ إلىٰ تغيُّراتٍ وأحوالٍ ليسَتْ مِنَ العلومِ ، بلْ هيَ كالشوقِ والخوفِ ، والحزنِ والقلقِ والسرورِ ، والأسفِ والندمِ ، والبسطِ والقبضِ ، وهـٰذهِ الأحوالُ يهيِّجُها السماعُ ويقوِّيها ، فإنْ ضعُفَتْ بحيثُ لمْ يؤثِّرْ في تحريكِ الظاهرِ أوْ تسكينِهِ ، أوْ تغييرِ حالِهِ حتَّىٰ يتحرَّكَ علىٰ خلافِ عادتِهِ ، أوْ يطرقَ أوْ يسكنَ عنِ النظرِ والنطقِ والحركةِ علىٰ خلافِ عادتِهِ . . لمْ يُسمَّ وجْداً ، وإنْ ظهرَ على الظاهرِ . . سُمِّيَ وجْداً ؛ إمَّا ضعيفاً ، وإمَّا قويّاً ، بحسَبِ ظهورِهِ

---

(١) والزِبْرِج : الزينة ، أو هو الذهب ، وزبرج الشيء : حسنه .

وتغييرِهِ للظاهرِ ، وتحريكُهُ بحسَبِ قوّةِ ورودِهِ ، وحفظُ الظاهرِ عنِ التغيُّرِ بحسَبِ قوّةِ الواجدِ وقدرتِهِ علىٰ ضبطِ جوارحِهِ ، فقدْ يقوى الوجْدُ في الباطنِ ولا يتغيَّرُ الظاهرُ لقوّةِ صاحبِهِ ، وقدْ لا يظهرُ لضعفِ الواردِ وقصورِهِ عنِ التحريكِ ، وحلِّ عقدِ التماسكِ .

وإلىٰ معنى الأوّلِ أشارَ أبو سعيدِ بنُ الأعرابيِّ حيثُ قالَ في الوجدِ : (إنَّه مشاهدةُ الرقيبِ ، وحضورُ الفهمِ ، وملاحظةُ الغيبِ) .

ولا يبعدُ أنْ يكونَ السماعُ سبباً لكشفِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً قبلَهُ ، فإنَّ الكشفَ يحصلُ بأسبابٍ :

منها : التنبيهُ ، والسماعُ منبهٌ .

ومنها : تغيُّرُ الأحوالِ ومشاهدتُها وإدراكُها ، فإنَّ إدراكَها نوعُ علمٍ يفيدُ إيضاحَ أمورٍ لمْ تكنْ معلومةً قبلَ الورودِ(١) .

ومنها : صفاءُ القلبِ ، والسماعُ يؤثِّرُ في تصفيةِ القلبِ ، والصفاءُ يسبِّبُ الكشفَ .

ومنها : انبعاثُ نشاطِ القلبِ بقوّةِ السماعِ ، فيقوىٰ بهِ علىٰ مشاهدةِ ما كانَ تقصرُ عنهُ قبلَ ذلكَ قوّتُهُ ؛ كما يقوى البعيرُ علىٰ حملِ ما كانَ لا يقوىٰ عليه قبلَهُ ، وعملُ القلبِ الاستكشافُ وملاحظةُ أسرارِ الملكوتِ ، كما أنَّ عملَ البعيرِ حملُ الأثقالِ .

---

(١) والسماع سبب لإدراكها . « إتحاف » (٦/٥٤٣) .

فبواسطةِ هـٰذهِ الأسبابِ يكونُ سبباً للكشفِ ، بلِ القلبُ إذا صفا . . ربَّما يمثلُ لهُ الحقُّ في صورةٍ مشاهدةٍ ، أوْ في لفظٍ منظومٍ يقرعُ سمعَهُ ؛ يُعبَّرُ عنهُ بصوتِ الهاتفِ إذا كانَ في اليقظةِ ، وبالرؤيا إذا كانَ في المنامِ ، وذلكَ جزءٌ منْ ستَّةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ، وعلمُ تحقيقِ ذلكَ خارجٌ عنْ علمِ المعاملةِ .

وذلك كما رُوِيَ عنْ محمدِ بنِ مسروقٍ البغداديِّ أنَّهُ قالَ : خرجتُ ليلةً في أيّامِ جاهليَّتي وأنا نشوانُ ، وكنتُ أغنِّي بهـٰذا البيتِ : [من البسيط]

بِطِيزَنَاباذَ كَرْمٌ ما مَرَرْتُ بِهِ إِلاَّ تَعَجَّبْتُ مِمَّنْ يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ

فسمعتُ قائلاً يقولُ : [من البسيط]

وَفِي جَهَنَّمَ مَاءٌ مَا تَجَرَّعَهُ خَلْقٌ فَأَبْقَىٰ لَهُ فِي ٱلْجَوْفِ أَمْعَاءَ

قالَ : فكانَ ذلكَ سببَ توبتي ، واشتغالي بالعلمِ والعبادةِ[1] .

فانظرْ كيفَ أثَّرَ الغناءُ في تصفيةِ قلبِهِ حتَّىٰ تمثَّلَ لهُ حقيقةُ الحقِّ في صفةِ جهنَّمَ في لفظٍ موزونٍ منظومٍ ، وقرعَ ذلكَ سمعَهُ الظاهرَ .

ورُوِيَ عنْ مسلمٍ العبَّادانيِّ أنَّهُ قالَ : قدمَ علينا مرَّةً صالحٌ المريُّ ، وعتبةُ

---

(١) انظر « المحب والمحبوب » (٤/ ٣٦٧) ، والخبر عند الطوسي في « اللمع » (ص٣٧٠) ، وقد روىٰ نحوه ابن أبي الدنيا في « الهواتف » (٣٩) وصاحب القصة أبو نواس عنده ، **وطيزناباذ** : بلدة بين القادسية والكوفة ، وهي أعجمية ، اشتهرت بالخمر ، كما في « معجم البلدان » (٤/ ٥٥) ، وكذا روى الخبر عن أبي نواس ، وعبارة الطوسي في بيان المراد من القصة : (ألا ترىٰ أنه حين أدركته العناية . . امتحق الباطل الذي كان فيه بمصادفة الحق له ، وكان باطله سبباً لنجاته حين صحبه التوفيق وشملته الرعاية) .

الغلامُ ، وعبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ ، ومسلمٌ الأَسْوارِيُّ ، فنزلوا على الساحلِ ، قالَ : فهيَّأتُ لهُمْ ذاتَ ليلةٍ طعاماً ، فدعوتُهُمْ إليهِ ، فجاؤوا ، فلمَّا وضعتُ الطعامَ بينَ أيديهِمْ . . إذا قائلٌ يقولُ رافعاً صوتَهُ : [من الطويل]

وَتُلْهِيكَ عَنْ دارِ ٱلْخُلُودِ مَطاعِمٌ وَلَــذَّةُ نَفْــسٍ غَيُّهــا غَيْــرُ نــافِــعِ

قالَ : فصاحَ عتبةُ الغلامُ صيحةً وخرَّ مغشياً عليهِ ، وبكى القومُ ، فرفعْنا الطعامَ وما ذاقوا ـ واللهِ ـ منهُ لقمةً[1] .

وكما يُسمعُ صوتُ الهاتفِ عندَ صفاءِ القلبِ . . يُشاهدُ أيضاً بالبصرِ صورةُ الخضرِ عليهِ السلامُ ، فإنَّه يتمثَّلُ لأربابِ القلوبِ بصورٍ مختلفةٍ[2] ، وفي مثلِ هـٰذهِ الحالةِ تتمثَّلُ الملائكةُ للأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إمَّا علىٰ حقيقةِ صورتِها ، وإمَّا علىٰ مثالٍ يُحاكي صورتَها بعضَ المحاكاةِ .

وقدْ رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جبريلَ عليهِ السلامُ مرتينِ في صورتِهِ ، وأخبرَ عنهُ أنَّهُ سدَّ الأفقَ[3] ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ هـٰذهِ الآياتِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٠) .
(٢) هـٰذا هو اعتقاد الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في الخضر عليه السلام أنه يمكن الاجتماع به ، وهو كذلك اعتقاد الكثير من الحفاظ والعلماء والصلحاء ، وقد تقدم الحديث عن الخضر عليه السلام .
(٣) كما في « البخاري » (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) ، وفيهما بيان كون الآيات الآتية في جبريل عليه السلام .

وفي مثلِ هـٰذهِ الأحوالِ مِنَ الصفاءِ يقعُ الاطلاعُ علىٰ ضمائرِ القلوبِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنْ ذلكَ الاطلاعِ بالتفرُّسِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فِراسةَ المؤمنِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ بنورِ اللهِ »[١] .

وقدْ حُكِيَ أنَّ واحداً منَ المجوسِ كانَ يدورُ على المسلمينَ ويقولُ : ما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فِراسةَ المؤمنِ » ؟ فكانَ يُذكرُ لهُ تفسيرُهُ ولا يقنعُهُ ذلكَ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ بعضِ المشايخِ مِنَ الصوفيَّةِ ، فسألَهُ ، فقالَ لهُ : معناهُ أنْ تقطعَ الزُّنارَ الذي علىٰ وسَطِكَ تحتَ ثوبِكَ ، فقالَ : صدقتَ ، هـٰذا معناهُ ، وأسلمَ ، وقالَ : الآنَ عرفتُ أنَّكَ مؤمنٌ ، وأنَّ إيمانَكَ حقٌّ[٢] .

وكما حُكِيَ عنْ إبراهيمَ الخوَّاصِ قالَ : كنتُ ببغدادَ في جماعةٍ مِنَ الفقراءِ في الجامعِ ، فأقبلَ شابٌّ طيِّبُ الرائحةِ حسنُ الوجهِ ، فقلتُ لأصحابي : يقعُ لي أنَّهُ يهوديٌّ ، فكلُّهُمْ كرهوا ذلكَ ، فخرجتُ وخرجَ الشابُّ ، ثمَّ رجعَ إليهِمْ ، وقالَ : أيشٍ قالَ الشيخُ فيَّ ؟ فاحتشموهُ ، فألحَّ عليهِمْ ، فقالوا لهُ : قالَ : إنَّكَ يهوديٌّ ، قالَ : فجاءَني وأكبَّ علىٰ يديَّ وقبَّلَ رأسي ، وأسلمَ ، وقالَ : نجدُ في كتبِنا أنَّ الصدِّيقَ لا تخطىءُ فِراستُهُ ، فقلتُ : أمتحنُ المسلمينَ ، فتأمَّلتُهُمْ ، فقلتُ : إنْ كانَ فيهِمْ

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) .

(٢) روى القشيري في « الرسالة » (ص ٤٠٨) نحو هـٰذا عن الجنيد في رجل نصراني .

صدِّيقٌ . . ففي هـٰذهِ الطائفةِ ؛ لأنَّهُمْ يقولونَ حديثَهُ سبحانَهُ ، ويقرؤونَ كلامَهُ ، فلبَّسْتُ عليكُمْ ، فلمَّا اطلعَ عليَّ الشيخُ وتفرَّسَ فيَّ . . علمتُ أنَّهُ صدِّيقٌ ، قالَ : وصارَ الشابُّ مِنْ كبارِ الصوفيَّةِ(١) .

وإلىٰ مثلِ هـٰذا الكشفِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »(٢) ، وإنَّما تحومُ الشياطينُ على القلوبِ إذا كانَتْ مشحونةً بالصفاتِ المذمومةِ ؛ فإنَّها مرعى الشيطانِ وجندِهِ ، ومَنْ خَلَصَ قلبُهُ مِنْ تلكَ الصفاتِ وصفا . . لمْ يطفِ الشيطانُ حولَ قلبِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ .

والسماعُ سببٌ لصفاءِ القلبِ ، وهوَ شبكةٌ للحقِّ بواسطةِ الصفاءِ ، وعلىٰ هـٰذا يدلُّ ما رُوِيَ أنَّ ذا النونِ المصريَّ رحمَهُ اللهُ دخلَ بغدادَ ، فاجتمعَ إليهِ قومٌ مِنَ الصوفيَّةِ ومعهُمْ قوَّالٌ ، فاستأذنوهُ في أنْ يقولَ لهُمْ شيئاً ، فأذنَ لهُمْ في ذلكَ ، فأنشأَ يقولُ : [من مجزوء الوافر]

صَغِيـرُ هَـواكَ عَـذَّبَنِـي ... فَكَيْـفَ بِـهِ إِذَا ٱحْتَنَكَـا
وَأَنْـتَ جَمَعْـتَ فِـي قَلْبِـي ... هَـوىً قَـدْ كَـانَ مُشْتَـرَكَـا
أَمَـا تَـرْثِـي لِمُكْتَئِـبٍ ... إِذا ضَحِـكَ ٱلْخَلِـيُّ بَكَـىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٤٠٥) .
(٢) هو عند أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً .

فقامَ ذو النونِ وسقطَ علىٰ وجهِهِ ، ثمَّ قامَ رجلٌ آخرُ ، فقالَ ذو النونِ : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ، فجلسَ ذلكَ الرجلُ ، وكانَ ذلكَ اطلاعاً مِنْ ذي النونِ علىٰ قلبِهِ أنَّهُ متكلِّفٌ متواجدٌ ، فعرَّفَهُ أنَّ الذي يراهُ حينَ يقومُ هوَ الخصمُ في قيامِهِ لغيرِ اللهِ تعالىٰ ، ولوْ كانَ الرجلُ صادقاً . . لما جلسَ(١) .

فإذاً ؛ قدْ رجعَ حاصلُ الوجدِ إلىٰ مكاشفاتٍ وإلىٰ حالاتٍ .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينقسمُ إلىٰ ما يمكنُ التعبيرُ عنهُ عندَ الإفاقةِ منهُ ، وإلىٰ ما لا تمكنُ العبارةُ عنهُ أصلاً ، ولعلكَ تستبعدُ حالةً أوْ علماً لا تعلمُ حقيقتَهُ ، ولا يمكنُ التعبيرُ عن حقيقتِهِ فلا تستبعدْ ذلكَ ؛ فإنَّكَ تجدُ في أحوالِكَ القريبةِ لذلك شواهدَ :

أمَّا العلمُ : فكمْ مِنْ فقيهٍ تُعرضُ عليهِ مسألتانِ متشابهتانِ في الصورةِ ، ويدركُ الفقيهُ بذوقِهِ أنَّ بينَهُما فرقاً في الحكمِ ، وإذا كُلِّفَ ذكرَ وجهِ الفرقِ . . لمْ يساعدهُ اللسانُ على التعبيرِ وإنْ كانَ مِنْ أفصحِ الناسِ ، فيدركُ بذوقِهِ الفرقَ ولا يمكنُهُ التعبيرُ عنهُ ، وإدراكُهُ الفرقَ علمٌ يصادفُهُ في قلبِهِ بالذوقِ ، ولا شكَّ أنَّ لوقوعِهِ في قلبِهِ سبباً ، ولهُ عندَ اللهِ تعالىٰ حقيقةٌ ، ولا يمكنُهُ

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/٣٩٣) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٥٢) ، والأبيات لابن الزيات في « ديوانه » (ص ١٠٧) ، **واحتنك** : استحكم واستولىٰ ، ومنه : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

التعبيرُ عنهُ ، لا لقصورٍ في لسانِهِ ، بلْ لدقَّةِ المعنىٰ في نفسِهِ عنْ أنْ تنالَهُ العبارةُ ، وهـٰذا ممَّا قدْ تفطَّنَ لهُ المواظبونَ على النظرِ في المشكلاتِ .

وأمَّا الحالُ : فكمْ مِنْ إنسانٍ يدركُ في قلبِهِ في الوقتِ الذي يصبحُ فيهِ قبضاً أوْ بسطاً ولا يعلمُ سببَهُ ، وقدْ يتفكَّرُ الإنسانُ في شيءٍ فيؤثِّرُ في نفسِهِ أثراً ، فينسىٰ ذلكَ السببَ ويبقى الأثرُ في نفسِهِ ، وهوَ يحسُّ بهِ ، وقدْ تكونُ الحالةُ التي يحسُّ بها سروراً ثبتَ في نفسِهِ بتفكُّرِهِ في سببٍ موجبٍ للسرورِ ، أوْ حزناً فينسى المتفكَّرَ فيهِ ، ويحسُّ بالأثرِ عَقيبَهُ ، وقدْ تكونُ تلكَ الحالةُ حالةً غريبةً لا يعربُ عنها لفظُ السرورِ والحزنِ ، ولا يصادفُ لها عبارةً مطابقةً مفصحةً عنِ المقصودِ ، بلْ ذوقُ الشعرِ الموزونِ ، والفرقُ بينَهُ وبينَ غيرِ الموزونِ . . يختصُّ بهِ بعضُ الناسِ دونَ بعضٍ ، وهيَ حالةٌ يدركُها صاحبُ الذوقِ ، بحيثُ لا يشكُّ فيها ؛ أعني : التفرقةَ بينَ الموزونِ والمنزحفِ ، ولا يمكنُهُ التعبيرُ عنها بما يتضحُ بهِ مقصودُهُ لمَنْ لا ذوقَ لهُ ، وفي النفسِ أحوالٌ غريبةٌ هـٰذا وصفُها[1] .

بلِ المعاني المشهورةُ مِنَ الخوفِ والحزنِ والسرورِ إنَّما تحصلُ في

---

(١) بل في المحسوسات لو قيل لك : ما الفرق بين رائحة الزبد ورائحة المسك ، وطولبت بعبارة تميز بينهما . . لعسرت عليك وأنت تدرك الفرق بينهما قطعاً من نفسك ، ولو قيل لك : ما الفرق بين حلاوة السكر وحلاوة العسل . . لكان كذلك ، وإذا عسرت العبارات عن تمييز هـٰذه المحسوسات . . فعسرها عن موارد القلوب وما يفتح به الحق ويخلقه فيها من المحبة والشوق والفرح والأنس وغيرها من أحوال القلوب أولىٰ . « إتحاف » (٦/ ٥٤٧) .

السماع عنْ غناءٍ مفهومٍ ، فأمَّا الأوتارُ وسائرُ النغماتِ التي ليسَتْ مفهومةً . . فإنَّها تؤثِّرُ في النفسِ تأثيراً عجيباً ، ولا يمكنُ التعبيرُ عنْ عجائبِ تلكَ الآثارِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنها بالشوقِ ، ولكنْ شوقٌ لا يعرفُ صاحبُهُ المشتاقَ إليهِ ، فهوَ عجيبٌ ، والذي اضطربَ قلبُهُ بسماعِ الأوتارِ أوِ الشاهينِ وما أشبهَهُ ليسَ يدري إلىٰ ماذا يشتاقُ ، ويجدُ في نفسِهِ حالةً كأنَّها تتقاضىٰ أمراً ليسَ يدري ما هوَ ، حتَّىٰ يقعَ ذلكَ للعوامِّ ، ومَنْ لا يغلبُ علىٰ قلبِهِ لا حبُّ آدميٍّ ولا حبُّ اللهِ تعالىٰ .

وهٰذا لهُ سرٌّ ، وهوَ أنَّ كلَّ شوقٍ فلَهُ ركنانِ :

أحدُهُما : صفةُ المشتاقِ ، وهوَ نوعُ مناسبةٍ معَ المشتاقِ إليهِ .

والثاني : معرفةُ المشتاقِ إليهِ ، ومعرفةُ صورةِ الوصولِ إليهِ .

فإنْ وُجدَتِ الصفةُ التي بها الشوقُ ، ووُجِدَ العلمُ بصورةِ المشتاقِ إليهِ . . كانَ الأمرُ ظاهراً ، وإنْ لمْ يُوجدِ العلمُ بالمشتاقِ إليهِ ، ووُجدتِ الصفةُ المشوِّقةُ ، وحُرِّكَتْ تلكَ الصفةُ وأُشعلَ نارُها . . أورثَ ذلكَ دهشةً وحيرةً لا محالةَ ، ولوْ نشأَ آدميٌّ وحدَهُ حيثُ لمْ يرَ صورةَ النساءِ ، ولا عرفَ صورةَ الوقاعِ ، ثمَّ راهقَ الحلمَ ، وغلبَتْ عليهِ الشهوةُ . . لكانَ يحسُّ مِنْ نفسِهِ بنارِ الشهوةِ ، ولكنْ لا يدري أنَّهُ يشتاقُ إلى الوقاعِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يدري صورةَ الوقاعِ ، ولا يعرفُ صورةَ النساءِ ؛ فكذلكَ في نفسِ الآدميِّ مناسبةٌ معَ العالمِ الأعلىٰ ، واللذَّاتِ التي وُعدَ بها في سدرةِ المنتهىٰ والفراديسِ العلا ، إلا أنَّهُ لمْ يتخيَّلْ مِنْ هٰذهِ الأمورِ إلا الصفاتِ والأسماءَ ، كالذي سمعَ لفظَ الوقاعِ

واسمَ النساءِ ولمْ يشاهدْ صورةَ امرأةٍ قطُّ ، ولا صورةَ رجلٍ ، ولا صورةَ نفسِهِ في المرآةِ ليعرفَ بالمقايسةِ ، فالسماعُ يحرِّكُ منهُ الشوقَ ، والجهلُ المفرطُ والاشتغالُ بالدنيا قدْ أنساهُ نفسَهُ ، وأنساهُ ربَّهُ ، وأنساهُ مستقرَّهُ الذي إليهِ حنينُهُ واشتياقُهُ بالطبعِ ، فيتقاضاهُ قلبُهُ أمراً ليسَ يدري ما هوَ ، فيدهشُ ويتحيَّرُ ويضطربُ ، ويكونُ كالمنخنقِ الذي لا يعرفُ طريقَ الخلاصِ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأحوالِ التي لا يُدركُ تمامُ حقائقِها ، ولا يمكنُ المتصفَ بها أنْ يعبِّرَ عنها ، فقدْ ظهرَ انقسامُ الوجدِ إلىٰ ما يمكنُ إظهارُهُ ، وإلىٰ ما لا يمكنُ إظهارُهُ .

❊ ❊ ❊

واعلمْ أيضاً : أنَّ الوجدَ ينقسمُ إلىٰ **هاجمٍ** ، وإلىٰ **متكلَّفٍ** ويُسمَّى التواجدَ ، **وهٰذا التواجدُ** المتكلَّفُ : فمنهُ **مذمومٌ** ؛ وهوَ الذي يُقصدُ بهِ الرياءُ ، وإظهارُ الأحوالِ الشريفةِ معَ الإفلاسِ منها ، ومنهُ ما هوَ **محمودٌ** ؛ وهوَ التوصُّلُ إلى استدعاءِ الأحوالِ الشريفةِ واكتسابِها واجتلابِها بالحيلةِ ، فإنَّ للكسبِ مدخلاً في جلبِ الأحوالِ الشريفةِ .

ولذلكَ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَنْ لمْ يحضرْهُ البكاءُ في قراءةِ القرآنِ أنْ يتباكىٰ ويتحازنَ ، فإنَّ هٰذهِ الأحوالَ قدْ تُتكلَّفُ مبادئُها ، ثمَّ تتحقَّقُ أواخرُها ، وكيفَ لا يكونُ التكلُّفُ سبباً في أنْ يصيرَ المتكلَّفُ بالآخرةِ طبعاً وكلُّ مَنْ يتعلَّمُ القرآنَ أوَّلاً يحفظُهُ تكلُّفاً ويقرؤُهُ تكلُّفاً منْ غيرِ

تمامِ التأمُّلِ وإحضارِ الذهنِ ، ثمَّ يصيرُ ذلكَ ديدناً للسانِ مطرداً ، حتىٰ يجري بهِ لسانُهُ في الصلاةِ وغيرِها وهوَ غافلٌ ، فيقرأُ تمامَ السورةِ وتثوبُ نفسُهُ إليهِ بعدَ انتهائِهِ إلىٰ آخرِها ، ويعلمُ أنَّهُ قرأَها في حالِ غفلتِهِ ؟! وكذلكَ الكاتبُ يكتبُ في الابتداءِ بجهدٍ شديدٍ ، ثمَّ تمرُنُ عليهِ يدُهُ ، فتصيرُ الكتابةُ لهُ طبعاً ، فيكتبُ أوراقاً كثيرةً وهوَ مستوفي القلبِ بفكرٍ آخرَ .

فجميعُ ما تحتملُهُ النفسُ والجوارحُ مِنَ الصفاتِ لا سبيلَ إلى اكتسابِهِ إلا بالتكلُّفِ والتصنُّعِ أوَّلاً ، ثمَّ يصيرُ بالعادةِ طبعاً ، وهوَ المرادُ بقولِ بعضِهِمْ : (العادةُ طبيعةٌ خامسةٌ) ، فكذلكَ الأحوالُ الشريفةُ لا ينبغي أنْ يقعَ اليأسُ منها عندَ فقدِها ، بلْ ينبغي أنْ يُتكلَّفَ اجتلابُها بالسماعِ وغيرِهِ ، فلقدْ شُوهدَ في العاداتِ مَنِ اشتهىٰ أنْ يعشقَ شخصاً ولمْ يكنْ يعشقُهُ ، فلمْ يزلْ يردِّدُ ذكرَهُ علىٰ نفسِهِ ، ويديمُ النظرَ إليهِ ، ويقرِّرُ علىٰ نفسِهِ الأوصافَ المحبوبةَ والأخلاقَ المحمودةَ فيهِ . . حتَّىٰ عشقَهُ ، ورسخَ ذلكَ في قلبِهِ رسوخاً خرجَ عنْ حدِّ اختيارِهِ ، واشتهىٰ بعدَ ذلكَ الخلاصَ منهُ فلمْ يتخلَّصْ .

فكذلكَ حبُّ اللهِ تعالىٰ ، والشوقُ إلىٰ لقائِهِ ، والخوفُ مِنْ سخطِهِ ، وغيرُ ذلكَ مِنَ الأحوالِ الشريفةِ ، إذا فقدَها الإنسانُ . . فينبغي أنْ يتكلَّفَ اجتلابَها بمجالسةِ الموصوفينَ بها ، ومشاهدةِ أحوالِهِمْ ، وتحسينِ صفاتِهِمْ في النفسِ ، وبالجلوسِ معَهُمْ في السماعِ ، وبالدعاءِ والتضرُّعِ إلى اللهِ تعالىٰ في أنْ يرزقَهُ تلكَ الحالةَ بأنْ ييسِّرَ لهُ أسبابَها ، ومِنْ أسبابِها السماعُ ومجالسةُ الصالحينَ والخائفينَ والمحبِّينَ والمشتاقينَ والخاشعينَ ، فمَنْ

جالسَ شخصاً . . سرتْ إليهِ صفاتُهُ مِنْ حيثُ لا يدري .

ويدلُّ علىٰ إمكانِ تحصيلِ الحبِّ وغيرِهِ مِنَ الأحوالِ بالأسبابِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ ، وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ ما يقرِّبُني إلىٰ حبِّكَ »[1] ، فقدْ فزِعَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلى الدعاءِ في طلبِ الحبِّ .

فهٰذا بيانُ انقسامِ الوجدِ إلىٰ مكاشفاتٍ وإلىٰ أحوالٍ، وانقسامِهِ إلىٰ ما يمكنُ الإفصاحُ عنهُ ، وإلىٰ ما لا يمكنُ ، وانقسامِهِ إلى المتكلَّفِ وإلى المطبوعِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما بالُ هؤلاءِ لا يظهرُ وجدُهُمْ عندَ سماعِ القرآنِ وهوَ كلامُ اللهِ سبحانَهُ ، ويظهرُ عندَ الغناءِ وهوَ كلامُ الشعراءِ ؟! فلوَ كانَ ذلكَ حقّاً مِنْ لطفِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يكنْ باطلاً مِنْ غرورِ الشيطانِ . . لكانَ القرآنُ أولىٰ بهِ مِنَ الغناءِ .

فنقولُ : الوجدُ الحقُّ هوَ ما ينشأُ مِنْ فرْطِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وصدْقِ إرادتِهِ ، والشوقِ إلىٰ لقائِهِ ، وذلكَ يهيجُ بسماعِ القرآنِ أيضاً ، وإنَّما الذي لا يهيجُ بسماعِ القرآنِ حبُّ الخلقِ والعشقُ للمخلوقِ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٥) .

ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، وكلُّ ما يُوجدُ عَقيبَ السماعِ بسببِ السماعِ في النفسِ فهوَ وجْدٌ ، فالطمأنينةُ والاقشعرارُ والخشيةُ ولينُ القلبِ كلُّ ذلكَ وجْدٌ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، فالوجلُ والخشوعُ وجْدٌ مِنْ قبيلِ الأحوالِ ، وإنْ لمْ يكنْ مِنْ قبيلِ المكاشفاتِ ، ولكنْ قدْ يصيرُ سبباً للمكاشفاتِ والتنبيهاتِ ، ولهٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زيِّنوا القرآنَ بأصواتِكُمْ »(١) ، وقالَ لأبي موسى الأشعريِّ : « لقدْ أُوتِي مِزماراً مِنْ مزاميرِ آلِ داوودَ عليهِ السلامُ »(٢) .

وأمَّا الحكاياتُ الدالَّةُ علىٰ أنَّ أربابَ القلوبِ ظهرَ عليهِمُ الوجدُ عندَ سماعِ القرآنِ . . فكثيرةٌ ؛ فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها »(٣) خبرٌ عنِ الوجْدِ ، فإنَّ الشيبَ يحصلُ مِنَ الحزنِ والخوفِ ، وذلكَ وجْدٌ .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قرأَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (سورةَ النساءِ) ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ . . قالَ : « حسبُكَ » ، وكانَتْ عيناهُ تذرفانِ بالدمعِ(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٦٨) ، والنسائي (٢/ ١٧٩) ، وابن ماجه (١٣٤٢) .
(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) .
(٣) رواه الترمذي (٣٢٩٧) .
(٤) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .

وفي روايةٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ هٰذهِ الآيةَ أوْ قُرِىءَ عندَهُ : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فصعقَ[(١)] .

وفي روايةٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ فبكىٰ[(٢)] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا مرَّ بآيةِ رحمةٍ دعا واستبشرَ[(٣)] ، والاستبشارُ وجْدٌ .

وقدْ أثنى الله تعالىٰ علىٰ أهلِ الوجدِ بالقرآنِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصلِّي ولصدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ[(٤)] .

وأمَّا ما نُقلَ مِنَ الوجدِ بالقرآنِ عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ والتابعينَ . . فكثيرٌ ، فمنهُمْ مَنْ صعقَ ، ومنهُمْ مَنْ بكىٰ ، ومنهُمْ مَنْ غُشِيَ عليهِ ، ومنهُمْ مَنْ ماتَ في غشيتِهِ، ورُوِيَ أنَّ زرارةَ بنَ أبي أوفىٰ وكانَ مِنَ التابعينَ كانَ يؤمُّ الناسَ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٤٣٦) عن أبي حرب بن أبي الأسود مرسلاً ، وعن حمران بن أعين يرفعه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعن حمران أيضاً رواه هناد في « الزهد » (٢٦٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٠٢) .

(٣) رواه مسلم (٧٧٢) ، ولم يذكر فيه الاستبشار ، بل هو عند الطوسي في « اللمع » (ص ٣٥٣) .

(٤) رواه أبو داوود (٩٠٤) ، والنسائي (٣/ ١٣) .

بالرقَّةِ ، فقرأَ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ فصعقَ وماتَ في محرابِهِ رحمهُ اللهُ [١] .

وسمع عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً يقرأُ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ ، فصاحَ صيحةً وخرَّ مغشياً عليهِ ، فحُملَ إلىٰ بيتهِ ، فلمْ يزلْ مريضاً في بيتِهِ شهراً [٢] .

وأبو جهيرٍ مِنَ التابعينَ قرأَ عليهِ صالحٌ المريُّ ، فشهقَ وماتَ [٣] .

وسمعَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ قارئاً يقرأُ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ فغُشيَ عليهِ [٤] .

وسمعَ عليُّ بنُ الفضيلِ قارئاً يقرأُ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فسقطَ مغشياً عليهِ ، فقالَ الفضيلُ : شكرَ اللهُ لكَ ما قدْ علمَهُ منكَ [٥] .

وكذلكَ نُقلَ عنْ جماعةٍ منهُمْ ، وكذلكَ الصوفيَّةُ ، فقدْ كانَ الشبليُّ في مسجدِهِ ليلةً مِنْ رمضانَ وهوَ يصلِّي خلفَ إمامٍ لهُ ، فقرأَ الإمامُ : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ، فزعقَ الشبليُّ زعقةً ظنَّ الناسُ أنَّهُ قدْ طارَتْ روحُهُ ، واحمرَّ وجهُهُ ، وارتعدَتْ فرائصُهُ ، فكانَ يقولُ : (بمثلِ

---

(١) رواه الترمذي (٤٤٥) بنحوه .

(٢) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص ١٣٧) وذكر أنه بقي ناقهاً عشرين يوماً .

(٣) روىٰ ذلك ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤٦/٥٦) ضمن خبر طريف .

(٤) مناقب الشافعي (٢/١٧٦ـ١٧٧) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٩٧) ، وانظر « تهذيب الكمال » (٢١/١٠٠) .

هـٰذا يُخاطبُ الأحبابُ) ، يردِّدُ ذلكَ مراراً[1] .

وقالَ الجنيدُ : دخلتُ علىٰ سريٍّ السقطيِّ ، فرأيتُ بينَ يديهِ رجلاً قدْ غُشِيَ عليهِ ، فقالَ لي : هـٰذا رجلٌ قدْ سمعَ آيةً مِنَ القرآنِ فغُشِيَ عليهِ ، فقلتُ : اقرؤوا عليهِ تلكَ الآيةَ بعينِها ، فقُرِئَتْ ، فأفاقَ ، فقالَ : مِنْ أينَ قلتَ هـٰذا ؟ فقلتُ : رأيتُ يعقوبَ عليهِ السلامُ كانَ عماهُ مِنْ أجلِ مخلوقٍ ، فبمخلوقٍ أبصرَ ، ولوْ كانَ عماهُ مِنْ أجلِ الحقِّ ما أبصرَ بمخلوقٍ ، فاستحسنَ ذلكَ[2] .

ويشيرُ إلىٰ ما قالَهُ الجنيدُ قولُ الشاعرِ[3] : [من المتقارب]

وَكَـأْسٍ شَـرِبْـتُ عَلَـىٰ لَـذَّةٍ ... وَأُخْـرَىٰ تَـدَاوَيْـتُ مِنْهـا بِهـا

وقالَ بعضُ الصوفيةِ : كنتُ أقرأُ ليلةً هـٰذهِ الآيةَ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، فجعلتُ أردِّدُها ، فإذا هاتفٌ يهتفُ بي : كمْ تردِّدُ هـٰذهِ الآيةَ ؟! فقدْ قتلتَ أربعةً من الجنِّ لمْ يرفعوا رؤوسَهُمْ إلى السماءِ منذُ خُلقوا[4] .

وقالَ أبو عليٍّ المغازليُّ للشبليِّ : ربَّما تطرقُ سمعي آيةٌ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ فتحدوني على الإعراضِ عنِ الدنيا ، ثمَّ أرجعُ إلىٰ أحوالي وإلى الناسِ ، فلا أبقىٰ علىٰ ذلكَ ، فقالَ : ما طرقَ سمعَكَ مِنَ القرآنِ فاجتذَبَكَ بهِ إليهِ . فذلكَ عطفٌ منهُ عليكَ ، ولطفٌ منهُ بكَ ، وإذا ردَّكَ إلىٰ نفسِكَ . .

---

(١) رواه الطوسي في « اللمع » (ص ٣٥٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٥٣) .
(٢) اللمع (ص ٣٥٤) ، والرسالة القشيرية (ص ٥٥٣) .
(٣) البيت للأعشى الكبير في « ديوانه » (ص ٢٢٣) .
(٤) اللمع (ص٣٥٤) .

فهوَ شفقةٌ منهُ عليكَ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُ لكَ إلا التبرّي مِنَ الحولِ والقوّةِ في التوجُّهِ إليهِ[1] .

وسمعَ رجلٌ مِنْ أهلِ التصوُّفِ قارئاً يقرأُ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ ، فاستعادَها مِنَ القارئِ ، وقالَ : كمْ أقولُ لها : (ارجعي) وليسَتْ ترجعُ ، وتواجدَ ، وزعقَ زعقةً فخرجَتْ روحُهُ .

وسمعَ بكرُ بنُ معاذٍ قارئاً يقرأُ : ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ . . . ﴾ الآيةَ ، فاضطربَ ، ثمَّ صاحَ : ارحمْ مَنْ أنذرتَهُ ولمْ يُقبلْ إليكَ بعدَ النذيرِ بطاعتِكَ ، ثمَّ غُشِيَ عليهِ[2] .

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَهُ اللهُ إذا سمعَ أحداً يقرأُ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ . . اضطربَتْ أوصالُهُ حتَّىٰ كانَ يرتعدُ .

وعنْ محمدِ بنِ صبيحٍ قالَ : كانَ رجلٌ يغتسلُ في الفراتِ ، فمرَّ بهِ رجلٌ على الشاطئِ يقرأُ : ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ ، فلمْ يزلِ الرجلُ يضطربُ حتَّىٰ غرقَ وماتَ .

وذُكرَ أنَّ سلمانَ الفارسيَّ أبصرَ شاباً يقرأُ ، فأتىٰ علىٰ آيةٍ ، فاقشعرَّ جلدُهُ ، فأحبَّهُ سلمانُ ، وفقدَهُ ، فسألَ عنهُ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ مريضٌ ، فأتاهُ يعودُهُ ، فإذا هوَ في الموتِ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أرأيتَ تلكَ القشعريرة

(١) اللمع (ص٣٥٤) ، والرسالة القشيرية (ص٥٥٣) .
(٢) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص٦٥) .

التي كانَتْ منِّي ، فإنَّها أتتني في أحسنِ صورةٍ ، فأخبرَتني أنَّ اللهَ قدْ غفرَ لي بها كلَّ ذنبٍ .

وبالجملةِ : لا يخلو صاحبُ القلبِ عنْ وجْدٍ عندَ سماعِ القرآنِ ، فإنْ كانَ القرآنُ لا يؤثِّرُ فيهِ أصلاً . . فمثلُهُ كمثلِ الذي ينعقُ بما لا يسمعُ إلا دعاءً ونداءً ، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهُمْ لا يعقلونَ ، بلْ صاحبُ القلبِ تؤثِّرُ فيهِ الكلمةُ مِنَ الحكمةِ يسمعُها ، قالَ جعفرٌ الخلديُّ : دخلَ رجلٌ مِنْ أهلِ خراسانَ على الجنيدِ وعندَهُ جماعةٌ ، فقالَ للجنيدِ : متىٰ يستوي عندَ العبدِ حامدُهُ وذامُّهُ ؟ فقالَ بعضُ الشيوخِ : إذا دخلَ المارستانَ وقيِّدَ بقيدينِ ، فقالَ الجنيدُ : ليسَ هٰذا مِنْ شأنِكَ ، ثمَّ أقبلَ على الرجلِ ، وقالَ : إذا تحقَّقَ أنَّهُ مخلوقٌ ، فشهقَ الرجلُ شهقةً وخرجَتْ روحُهُ[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : فإنْ كانَ سماعُ القرآنِ مفيداً للوجدِ . . فما بالُهُمْ يجتمعونَ علىٰ سماعِ الغناءِ مِنَ القوَّالينَ دونَ القارئينَ ؟! فكانَ ينبغي أنْ يكونَ اجتماعُهُمْ وتواجدُهُمْ في حلقِ القرَّاءِ لا حلقِ المغنِّينَ ، وكانَ ينبغي أنْ يُطلبَ عندَ كلِّ اجتماعٍ في كلِّ دعوةٍ قارئٌ لا قوَّالٌ ، فإنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنَ الغناءِ لا محالةَ .

فاعلم : أنَّ الغناءَ أشدُّ تهييجاً للوجدِ مِنَ القرآنِ مِنْ **سبعةِ أوجهٍ** :

---

(١) اللمع (ص٣٦٨) .

الوجهُ الأوَّلُ : أنَّ جميعَ آياتِ القرآنِ لا تناسبُ حالَ المستمعِ ولا تصلحُ لفهمِهِ وتنزيلِهِ علىٰ ما هوَ ملابسٌ لهُ : فمنِ استولىٰ عليهِ حزنٌ أوْ شوقٌ أوْ ندمٌ . فَمِنْ أينَ يناسبُ حالَهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ﴾ ، وكذلكَ جميعُ الآياتِ التي فيها بيانُ أحكامِ الميراثِ والطلاقِ والحدودِ وغيرِها ؟! وإنَّما المحرِّكُ لما في القلبِ ما يناسبُهُ ، والأبياتُ إنَّما نظمَها الشعراءُ إعراباً بها عن أحوالِ القلبِ ، فلا يُحتاجُ في فهمِ الحالِ منها إلىٰ تكلُّفٍ .

نعمْ ، مَنْ يستولي عليهِ حالةٌ غالبةٌ قاهرةٌ . . لمْ تُبقِ فيهِ متَّسعاً لغيرِها ، ومعهُ تيقُّظٌ وذكاءٌ ثاقبٌ يتفطَّنُ بهِ للمعاني البعيدةِ منَ الألفاظِ . . فقدْ يحضرُ وجْدُهُ علىٰ كلِّ مسموعٍ ؛ كمَنْ يخطرُ لهُ عندَ ذكرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ﴾ حالةُ الموتِ المحوجِ إلى الوصيةِ ، وأنَّ كلَّ إنسانٍ لا بدَّ أنْ يخلفَ مالَهُ وولدَهُ ، وهما محبوباهُ مِنَ الدنيا ، فيتركَ أحدَ المحبوبينِ للثاني ويهجرَهُما جميعاً ، فيغلبُ عليهِ الخوفُ والجزعُ .

أوْ يسمعُ ذكرَ اللهِ في قولِهِ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فيدهشُهُ مجرَّدُ الاسمِ عمَّا قبلَهُ وبعدَهُ ، أوْ يخطرُ لهُ رحمةُ اللهِ علىٰ عبادِهِ وشفقتُهُ بأنْ تولَّىٰ قسْمَ مواريثِهِمْ بنفسِهِ نظراً لهُمْ في حياتِهِمْ وموتِهِمْ ، فيقولُ : إذا نظرَ لأولادِنا بعدَ موتِنا . . فلا نشكُّ أنَّهُ ينظرُ لنا ، فيهيجُ منهُ حالُ الرجاءِ ، ويورثُهُ ذلكَ استبشاراً وسروراً .

أوْ يخطرُ لهُ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ تفضيلُ الذكرِ بكونِهِ رجلاً على الأنثىٰ ، وأنَّ الفضلَ في الآخرةِ لرجالٍ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ ، وأنَّ مَنْ ألهاهُ غيرُ اللهِ تعالىٰ عنِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مِنَ الإناثِ لا مِنَ الرجالِ تحقيقاً ، فيخشىٰ أنْ يُحجبَ أوْ يُؤخَّرَ في نعيمِ الآخرةِ كما أُخِّرَتِ الأنثىٰ في أموالِ الدنيا .

فأمثالُ هـٰذا قدْ يحرِّكُ الوجدَ ، ولكنْ لمَنْ فيهِ وصفانِ :

أحدُهُما : حالةٌ غالبةٌ مستغرقةٌ قاهرةٌ .

والآخرُ : تفطُّنٌ بليغٌ وتيقُّظٌ كاملٌ للتنبيهِ بالأمورِ القريبةِ على المعاني البعيدةِ .

وذلكَ ممَّا يعزُّ ، فلأجلِ ذلكَ يُفزعُ إلى الغناءِ الذي هوَ ألفاظٌ مناسبةٌ للأحوالِ ، حتىٰ يتسارعَ هيجانُها .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ أبو الحسينِ النوريُّ معَ جماعةٍ في دعوةٍ ، فجرىٰ بينَهُمْ مسألةٌ في العلمِ وأبو الحسينِ ساكتٌ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ وأنشدَهُمْ : [من الرمل]

رُبَّ وَرْقاءَ هَتُوفٍ فِي ٱلضُّحَى ... ذاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
ذَكَرَتْ إِلْفاً وَدَهْراً صالِحاً ... وَبَكَتْ حُزْناً فَهاجَتْ حَزَنِي
فَبُكائِي رُبَّما أَرَّقَها ... وَبُكاها رُبَّما أَرَّقَنِي
وَلَقَدْ تَشْكُو فَما أَفْهَمُها ... وَلَقَدْ أَشْكُو فَما تَفْهَمُنِي
غَيْرَ أَنِّي بِٱلْجَوَىٰ أَعْرِفُها ... وَهْيَ أَيْضاً بِٱلْجَوَىٰ تَعْرِفُنِي

قالَ : فما بَقِيَ أحدٌ مِنَ القومِ إلا قامَ وتواجدَ ، ولمْ يحصلْ لهُمْ هٰذا الوجْدُ مِنَ العلمِ الذي خاضوا فيهِ ، وإنْ كانَ العلمُ جدّاً وحقّاً[١] .

❊ ❊ ❊

الوجهُ الثاني : أنَّ القرآنَ محفوظٌ للأكثرينَ ، ومتكرِّرٌ على الأسماعِ والقلوبِ : وكلُّ ما سُمِعَ أوّلاً .. عظُمَ أثرُهُ في القلوبِ ، وفي الكرَّةِ الثانيةِ يضعفُ أثرُهُ ، وفي الثالثةِ يكادُ يسقطُ أثرُهُ ، ولوْ كُلِّفَ صاحبُ الوجدِ الغالبِ أنْ يحضرَ وجدَهُ علىٰ بيتٍ واحدٍ على الدوامِ في مرَّاتٍ متقاربةٍ في الزمانِ ، في يومٍ أوْ أسبوعٍ .. لمْ يمكنْهُ ذلكَ ، ولوْ أُبدلَ ببيتٍ آخرَ .. لتجدَّدَ لهُ أثرٌ في قلبهِ وإنْ كانَ معرباً عنْ عينِ ذلكَ المعنىٰ ، ولكنْ كونُ النظْمِ واللفظِ غريباً بالإضافةِ إلى الأوَّلِ يحرِّكُ النفسَ وإنْ كانَ المعنىٰ واحداً .

وليسَ يقدرُ القارىءُ علىٰ أنْ يقرأَ قرآناً غريباً في كلِّ وقتٍ ودعوةٍ ، فإنَّ القرآنَ محصورٌ لا يمكنُ الزيادةُ عليهِ ، وكلُّهُ محفوظٌ ومتكرِّرٌ .

وإلىٰ ما ذكرناهُ أشارَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ رأى الأعرابَ يقدمونَ فيستمعونَ القرآنَ ويبكونَ ، فقالَ : (كنَّا كما كنتُمْ ، ثمَّ قسَتْ قلوبُنا)[٢] ، ولا تظنَّنَّ أنَّ قلْبَ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ أقسىٰ مِنْ قلوبِ الأجلافِ مِنَ

---

(١) اللمع (ص٣٧٩) ، والأبيات حكيت عن الشبلي كما في « ديوانه » (ص ١٥٢) ، **والورقاء** : الحمامة ، **والهتوف** : كثيرة الهدير ، **والشجو** : الحزن ، **والحَزَن** : لغة في الحُزْن ، **والإِلْف** : الصاحب الأليف ، **والجوىٰ** : وجد الباطن وحرقته .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٣) .

العربِ ، وأنَّهُ كانَ أخلىٰ عنْ حبِّ اللهِ تعالىٰ وحبِّ كلامِهِ مِنْ قلوبِهِمْ ، ولكنَّ التكرارَ علىٰ قلبِهِ اقتضى المرونَ عليهِ ، وقلَّةَ التأثُّرِ بهِ ، لما حصلَ لهُ مِنَ الأنْسِ بكثرةِ سماعِهِ ؛ إذْ محالٌ في العادةِ أنْ يسمعَ السامعُ آيةً لمْ يسمعْها قبلُ فيبكيَ ، ثمَّ يدومُ بكاؤُهُ عليها عشرينَ سنةً يردِّدُها ويبكي ، ولا يفارقُ الأوَّلُ الآخرَ إلا في كونِهِ غريباً جديداً ، ولكلِّ جديدٍ لذَّةٌ ، ولكلِّ طارىءٍ صدمةٌ ، ومعَ كلِّ مألوفٍ أنسٌ يناقضُ الصدمةَ .

ولهـٰذا همَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يمنعَ الناسَ مِنْ كثرةِ الطوافِ ، وقالَ : (قدْ خشيتُ أنْ يتساهلَ الناسُ بهـٰذا البيتِ) أيْ : يأنسوا بهِ ، ومَنْ قدمَ حاجّاً ، فرأى البيتَ أوَّلاً . . بكىٰ وزعقَ ، وربَّما غُشِيَ عليهِ إذا وقعَ عليهِ بصرُهُ ، وقدْ يقيمُ بمكَّةَ شهراً ولا يحسُّ مِنْ ذلكَ في نفسِهِ بأثرٍ .

فإذاً ؛ المغنِّي يقدرُ على الأبياتِ الغريبةِ في كلِّ وقتٍ ، ولا يقدرُ في كلِّ وقتٍ علىٰ آيةٍ غريبةٍ .

* * *

الوجهُ الثالثُ : أنَّ لوزنِ الكلامِ بذوقِ الشعرِ تأثيراً في النفسِ : فليسَ الصوتُ الموزونُ الطيِّبُ كالصوتِ الطيِّبِ الذي ليسَ بموزونٍ ، وإنَّما يُوجدُ الوزنُ في الشعرِ دونَ الآياتِ ، ولوْ زحفَ المغنِّي البيتَ الذي ينشدُهُ ، أوْ لحنَ فيهِ ، أوْ مالَ عنْ حدِّ تلكَ الطريقةِ في اللحنِ . . لاضطربَ قلبُ المستمعِ ، وبطلَ وجْدُهُ وسماعُهُ ، ونفرَ طبعُهُ ؛ لعدمِ المناسبةِ ، وإذا نفرَ

الطبعُ . . اضطربَ القلبُ وتشوَّشَ ، فالوزنُ إذاً مؤثِّرٌ ، فلذلكَ طُلِبَ الشعرُ .

❊ ❊ ❊

الوجهُ الرابعُ : أنَّ الشعرَ الموزونَ يختلفُ تأثيرُهُ في النفسِ بالألحانِ التي تُسمَّى الطرقَ والدستاناتِ[1] : وإنَّما اختلافُ تلكَ الطرقِ بمدِّ المقصورِ وقصْرِ الممدودِ ، والوقفِ في أثناءِ الكلماتِ ، والقطعِ والوصلِ في بعضِها ، وهـٰذا التصرُّفُ جائزٌ في الشعرِ ، ولا يجوزُ في القرآنِ إلا التلاوةُ كما أُنزلَ ، فقصرُهُ ومدُّهُ ، والوقفُ والوصلُ والقطعُ فيهِ علىٰ خلافِ ما تقتضيهِ التلاوةُ . . حرامٌ أوْ مكروهٌ ، وإذا رتَّلَ القرآنَ كما أُنزلَ . . سقطَ عنهُ الأثرُ الذي سببُهُ وزْنُ الألحانِ ، وهوَ سببٌ مستقلٌّ بالتأثيرِ وإنْ لمْ يكنْ مفهوماً ؛ كما في الأوتارِ والشاهينِ وسائرِ الأصواتِ التي لا تفهمُ .

❊ ❊ ❊

الوجهُ الخامسُ : أنَّ الألحانَ الموزونةَ تُعضدُ وتُؤكَّدُ بإيقاعاتٍ وأصواتٍ أخرَ موزونةٍ خارجَ الحلقِ : كالضربِ بالقضيبِ والدُّفِّ وغيرِهِ ؛ لأنَّ الوجدَ الضعيفَ لا يُستثارُ إلا بسببٍ قويٍّ[2] ، وإنَّما يقوىٰ بمجموعِ هـٰذهِ الأسبابِ ،

---

(١) **الدستانات** : الأعواد التي عليها يعوَّل في لين الوتر وشدَّته ، وتعديل رنَّتِهِ ، تكون علىٰ طرف العود ، وهي لفظة فارسية .

(٢) **وسبب ضعفه** : سذاجة القلب ، وبلادة الطبع ، واستحكام الشواغل الفكرية ، أو رداءة المزاج . « إتحاف » (٦/ ٥٥٧) .

ولكلٍّ واحدٍ منها حظٌّ في التأثيرِ ، وواجبٌ أنْ يُصانَ القرآنُ عنْ مثلِ هٰذهِ القرائنِ ؛ لأنَّ صورتَها عندَ عامَّةِ الخلقِ صورةُ اللهوِ واللعبِ ، والقرآنُ جدٌّ كلُّهُ عندَ كافَّةِ الخلقِ ، فلا يجوزُ أنْ يُمزجَ بالحقِّ المحضِ ما هوَ لهوٌ عندَ العامَّةِ ، وصورتُهُ صورةُ اللهوِ عندَ الخاصَّةِ ، وإنْ كانوا لا ينظرونَ إليها مِنْ حيثُ إنَّها لهوٌ ، بلْ ينبغي أنْ يُوقَّرَ القرآنُ ، فلا يُقرأُ علىٰ شوارعِ الطرقِ ، بلْ في مجلسٍ ساكنٍ ، ولا في حالِ الجنابةِ ، ولا علىٰ غيرِ طهارةٍ ، ولا يقدرُ على الوفاءِ بحقِّ حرمةِ القرآنِ في كلِّ حالٍ إلا المراقبونَ لأحوالِهِمْ ، فيُعدلُ إلى الغناءِ الذي لا يستحقُّ هٰذهِ المراقبةَ والمراعاةَ .

ولذلكَ لا يجوزُ الضربُ بالدفِّ معَ قراءةِ القرآنِ ليلةَ العرسِ ، وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بضرْبِ الدفِّ في العرسِ وقالَ : « أظهروا النكاحَ ولوْ بضربِ الغربالِ »(١) ، أوْ بلفظٍ هٰذا معناهُ ، وذلكَ جائزٌ معَ الشعرِ دونَ القرآنِ .

ولذلكَ لمَّا دخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيتَ الرُّبيِّعِ بنتِ معوِّذٍ وعندَها جوارٍ يغنينَ ، فسمعَ إحداهُنَّ تقولُ :

(وَفِينا نَبِيٌّ يَعْلَمُ ما في غَدٍ) علىٰ وجهِ الغناءِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعي هٰذا ، وقولي ما كنتِ تقولينَ »(٢) ، وهٰذهِ شهادةٌ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٩) .

(٢) رواه البخاري (٤٠٠١) .

بالنبوَّةِ ، فزجرَها عنها ، وردَّها إلى الغناءِ الذي هوَ لهوٌ ؛ لأنَّ هـٰذا جدٌّ محضٌ ، فلا يُقرنُ بصورةِ اللهوِ .

فإذاً ؛ يتعذَّرُ بسببِهِ تقويةُ الأسبابِ التي بها يصيرُ السماعُ محرِّكاً للقلبِ ، فواجبٌ في الاحترامِ العدولُ إلى الغناءِ عنِ القرآنِ ، كما وجبَ علىٰ تلكَ الجاريةِ العدولُ عنْ شهادةِ النبوَّةِ إلى الغناءِ .

* * *

الوجهُ السادسُ : أنَّ المغنيَ قدْ يغني ببيتٍ لا يوافقُ حالَ المستمعِ ، فيكرهُهُ ، وينهاهُ عنهُ ، ويستدعي غيرَهُ : فليسَ كلُّ كلامٍ موافقاً لكلِّ حالٍ ، فلوِ اجتمعوا في الدعواتِ على القارىءِ . . فربما يقرأُ آيةً لا توافقُ حالَهُمْ ؛ إذِ القرآنُ شفاءٌ للناسِ كلِّهِمْ على اختلافِ الأحوالِ ، فآياتُ الرحمةِ شفاءُ الخائفِ ، وآياتُ العذابِ شفاءُ المغرورِ الآمنِ ، وتفصيلُ ذلكَ ممَّا يطولُ .

فإذاً ؛ لا يُؤمنُ ألا يوافقَ المقروءُ الحالَ ، وتكرهَهُ النفسُ ، فيتعرَّضَ بهِ لخطرِ كراهةِ كلامِ اللهِ سبحانَهُ مِنْ حيثُ لا يجدُ سبيلاً إلىٰ دفعِهِ ، فالاحترازُ عنْ خطرِ ذلكَ حزمٌ بالغٌ وحتمٌ واجبٌ ؛ إذْ لا يجدُ الخلاصَ عنهُ إلا بتنزيلِهِ علىٰ وَفْقِ حالِهِ ، ولا يجوزُ تنزيلُ كلامِ اللهِ تعالىٰ إلا علىٰ ما أرادَ اللهُ تعالىٰ .

وأمَّا قولُ الشاعرِ . . فيجوزُ تنزيلُهُ علىٰ غيرِ مرادِهِ ، ففيهِ خطرُ الكراهةِ أوْ خطرُ التأويلِ الخطأِ لموافقةِ الحالِ ، فيجبُ توقيرُ كلامِ اللهِ وصيانتُهُ عنْ ذلكَ .

هـٰذا ما ينقدحُ لي في عللِ انصرافِ الشيوخِ إلىٰ سماعِ الغناءِ عنْ سماعِ القرآنِ في حالةِ الجمعِ والأوقاتِ .

※ ※ ※

وهـٰهنا وجهٌ سابعٌ ذكرَهُ أبو نصرٍ السرَّاجُ الطوسيُّ في الاعتذارِ عنْ ذلكَ : فقالَ : القرآنُ كلامُ اللهِ وصفةٌ مِنْ صفاتِهِ ، وهوَ حقٌّ لا تطيقُهُ القوَّةُ البشريَّةُ ؛ لأنَّهُ غيرُ مخلوقٍ ، فلا تطيقُهُ الصفاتُ المخلوقةُ ، ولوْ كُشفَ للقلوبِ ذرَّةٌ مِنْ معناهُ وهيبتِهِ . . لتصدَّعَتْ ودَهِشَتْ وتحيَّرَتْ ، والألحانُ الطيِّبَةُ مناسبةٌ للطباعِ ، ونسبتُها نسبةُ الحظوظِ لا نسبةُ الحقوقِ ، والشعرُ نسبتُهُ نسبةُ الحظوظِ ، فإذا علقَتِ الألحانُ والأصواتُ بما في الأبياتِ مِنَ الإشاراتِ واللطائفِ . . شاكلَ بعضُها بعضاً ، وكانَ أقربَ إلى الحظوظِ وأخفَّ على القلوبِ ؛ لمشاكلةِ المخلوقِ المخلوقَ ، فما دامَتِ البشريَّةُ باقيةً ، ونحنُ بصفاتِنا وحظوظِنا نتنعَّمُ بالنغماتِ الشجيَّةِ والأصواتِ الطيِّبةِ . . فانبساطُنا بمشاهدةِ بقاءِ هـٰذهِ الحظوظِ إلى القصائدِ أولىٰ مِنِ انبساطِنا إلىٰ كلامِ اللهِ تعالى الذي هوَ صفتُهُ وكلامُهُ ، الذي منهُ بدأَ وإليهِ يعودُ . هـٰذا حاصلُ المقصودِ مِنْ كلامِهِ واعتذارِهِ(١) .

وقدْ حُكِيَ عنْ أبي الحسينِ الدَّرَّاجِ أنَّهُ قالَ : قصدتُ يوسفَ بنَ الحسينِ الرازيَّ مِنْ بغدادَ للزيارةِ والسلامِ عليهِ ، فلمَّا دخلتُ الريَّ وكنتُ أسألُ

(١) اللمع (ص٣٥٦) .

عنهُ . . فكلُّ مَنْ سألتُهُ قالَ : أيشٍ تعملُ بذلكَ الزنديقِ ؟! فضيّقوا صدري حتَّىٰ عزمتُ على الانصرافِ ، ثمَّ قلتُ في نفسي : قدْ جبتُ هـٰذا الطريقَ كلَّهُ ، فلا أقلَّ مِنْ أنْ أراهُ ، فلمْ أزلْ أسألُ عنهُ حتَّىٰ دخلتُ عليهِ في مسجدٍ وهوَ قاعدٌ في المحرابِ ، وبينَ يديهِ رحلٌ ، وبيدِهِ مصحفٌ وهوَ يقرأُ ، وإذا هوَ شيخٌ بهيٌّ حسنُ الوجهِ واللحيةِ ، فسلمتُ عليهِ ، فأقبلَ عليَّ وقالَ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقلتُ : مِنْ بغدادَ ، فقالَ : وما الذي جاءَ بكَ ؟ فقلتُ : قصدتُكَ للسلامِ عليكَ ، فقالَ : لوْ أنَّ في بعضِ هـٰذهِ البلدانِ قالَ لكَ إنسانٌ : أقمْ عندَنا حتَّىٰ نشتريَ لكَ داراً أوْ جاريةً . . أكانَ يقعدُكَ ذلكَ عنِ المجيءِ ؟ فقلتُ : ما امتحنَني اللهُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، ولوِ امتحنَني . . ما كنتُ أدري كيفَ أكونُ ، ثمَّ قالَ لي : أتحسنُ أنْ تقولَ شيئاً ؟ فقلتُ : نعمْ ، فقالَ : هاتِ ، فابتدأتُ أقولُ : [من الطويل]

رَأَيْتُكَ تَبْنِي دائِباً فِي قَطِيعَتِي ... ولوَ كُنْتَ ذا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ ما تَبْنِي
كَأَنِّي بِكُمْ وَاللَّيْتُ أَفْضَلُ قَوْلِكُمْ ... أَلا لَيْتَنا كُنَّا إِذا ٱللَّيْتُ لا يُغْنِي

قالَ : فأطبقَ المصحفَ ، ولمْ يزلْ يبكي حتَّى ابتلَّتْ لحيتُهُ وابتلَّ ثوبُهُ حتَّىٰ رحمتُهُ مِنْ كثرةِ بكائِهِ ، ثمَّ قالَ : يا بنيَّ ؛ تلومُ أهلَ الريِّ يقولونَ : (يوسفُ زنديقٌ) ، هـٰذا أنا مِنْ صلاةِ الغداةِ أقرأُ في المصحفِ لمْ تقطرْ مِنْ عيني قطرةٌ ، وقدْ قامَتِ القيامةُ عليَّ بهـٰذينِ البيتينِ ؟![1] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٤٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٥٤) ، والبيتان للوليد بن يزيد في « ديوانه » (ص ٨٥ ـ ٨٦) .

فإذاً ؛ القلوبُ وإنْ كانَتْ محترقةً بحبِّ الله تعالىٰ ، فإنَّ البيتَ الغريبَ يهيِّجُ منها ما لا تهيِّجُ تلاوةُ القرآنِ ، وذلكَ لوزنِ الشعرِ ومشاكلتِهِ للطباعِ ، ولكونِهِ مشاكلاً للطبعِ اقتدرَ البشرُ علىٰ نظمِ الشعرِ ، وأمَّا القرآنُ.. فنظمُهُ خارجٌ عنْ أساليبِ الكلامِ ومنهاجِهِ ، وهوَ لذلكَ معجزٌ لا يدخلُ في قوَّةِ البشرِ ؛ لعدمِ مشاكلتِهِ لطبعِهِ .

ورُوِيَ أنَّ إسرافيلَ أستاذَ ذي النونِ المصريِّ دخلَ عليهِ رجلٌ ، فرآهُ وهوَ ينكتُ الأرضَ بإصبعِهِ ، ويترنَّمُ ببيتٍ ، فقالُ : هلْ تحسنُ أنْ تترنَّمَ بشيءٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : فأنتَ بلا قلبٍ .

إشارةً إلىٰ أنَّ مَنْ لهُ قلبٌ وعرفَ طبعَهُ.. علمَ أنَّهُ تحرِّكُهُ الأبياتُ والنغماتُ تحريكاً لا يُصادفُ في غيرِها ، فيتكلَّفُ طريقَ التحريكِ ؛ إمَّا بصوتِ نفسِهِ أوْ بغيرِهِ .

* * *

فقدْ ذكرنا حكمَ المقامِ الأوَّلِ في فهمِ المسموعِ وتنزيلِهِ ، وحكمَ المقامِ الثاني في الوجْدِ الذي يُصادفُ في القلبِ ، فلنذكرِ الآنَ أثرَ الوجْدِ ؛ أعني : ما يترشَّحُ منهُ إلى الظاهرِ ؛ مِنْ صعقةٍ ، وبكاءٍ ، وحركةٍ ، وتمزيقِ ثوبٍ وغيرِهِ ، فنقولُ :

المقام الثالث من السماع : نذكر فيه آداب السماع ظاهراً وباطناً وما يُحمد من آثار الوجد وما يُذمّ

فأمَّا الآدابُ . . فهيَ خمسُ جملٍ :

الأوَّلُ : مراعاةُ الزمانِ والمكانِ والإخوانِ :

قالَ الجنيدُ : (السماعُ يحتاجُ إلىٰ ثلاثةِ أشياءَ ، وإلا . . فلا تسمعْ : الزمانُ ، والمكانُ ، والإخوانُ)(1) ، **ومعناهُ** : أنَّ الاشتغالَ بهِ في وقتِ حضورِ طعامٍ ، أوْ خصامٍ ، أوْ صلاةٍ ، أوْ صارفٍ مِنَ الصوارفِ معَ اضطرابِ القلبِ . . لا فائدةَ فيهِ ، فهٰذا معنىٰ مراعاةِ **الزمانِ** ، فيراعي حالةَ فراغِ القلبِ لهُ .

وأمَّا **المكانُ** . . فقدْ يكونُ شارعاً مطروقاً ، أوْ موضعاً كريهَ الصورةِ ، أوْ فيهِ سببٌ يشغلُ القلبَ ، فيجتنبُ ذلكَ .

وأمَّا **الإخوانُ** . . فسببُهُ أنَّهُ إذا حضرَ غيرُ الجنسِ ؛ مِنْ منكرٍ للسماعِ ، متزهِّدٍ بالظاهرِ ، مفلسٍ مِنْ لطائفِ القلوبِ . . كانَ مستثقَلاً في المجلسِ ، واشتغلَ القلبُ بهِ ، وكذلكَ إذا حضرَ متكبِّرٌ مِنْ أهلِ الدنيا يُحتاجُ إلىٰ مراقبتِهِ ومراعاتِهِ ، أوْ متكلِّفٌ متواجدٌ مِنْ أهلِ التصوُّفِ يرائي بالوجدِ والرقصِ وتمزيقِ الثيابِ ، فكلُّ ذلكَ مشوِّشاتٌ ، فتركُ السماعِ عندَ فقدِ هٰذهِ الشروطِ أولىٰ ، ففي هٰذهِ الشروطِ نظرٌ للمستمعِ .

❁ ❁ ❁

(1) أورده الطوسي في « اللمع » (ص٣٤٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥٤٨) .

الأدبُ الثاني : وهوَ نظرُ الحاضرينَ أنَّ الشيخَ إذا كانَ حولَهُ مريدونَ يضرُّهُمُ السماعُ . . فلا ينبغي أنْ يسمعَ في حضورِهِمْ :

فإنْ سمعَ . . فليشغلْهُمْ بشغلٍ آخرَ .

والمريدُ الذي يستضرُّ بالسماعِ أحدُ ثلاثةٍ :

ـ **أقلُّهُمْ درجةً** : هوَ الذي لمْ يدركْ مِنَ الطريقِ إلا الأعمالَ الظاهرةَ ، ولمْ يكنْ لهُ ذوقُ السماعِ ، فاشتغالُهُ بالسماعِ اشتغالٌ بما لا يعنيهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ أهلِ اللهوِ فيلهوَ ، ولا مِنْ أهلِ الذوقِ فيتنعَّمَ بذوقِ السماعِ ، فليشتغلْ بذكرٍ أوْ خدمةٍ ، وإلا . . فهوَ تضييعٌ لزمانِهِ .

ـ **الثاني** : هوَ الذي لهُ ذوقُ السماعِ ، ولكنْ فيهِ بقيَّةٌ مِنَ الحظوظِ والالتفاتِ إلى الشهواتِ والصفاتِ البشريَّةِ ، ولمْ ينكسرْ بعدُ انكساراً تُؤمنُ غوائلُهُ ، فربَّما يهيِّجُ السماعُ منهُ داعيةَ اللهوِ والشهوةِ ، فيقطعُ عليهِ طريقَهُ ، ويصدُّهُ عنِ الاستكمالِ .

ـ **الثالث** : أنْ يكونَ قدِ انكسرَتْ شهوتُهُ ، وأُمنَتْ غائلتُهُ ، وانفتحَتْ بصيرتُهُ ، واستولىٰ علىٰ قلبِهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّهُ لمْ يحكمْ ظاهرَ العلمِ ، ولمْ يعرفْ أسماءَ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وما يجوزُ عليهِ وما يستحيلُ(١) ، فإذا فُتِحَ لهُ بابُ السماعِ . . نزَّلَ المسموعَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ علىٰ ما يجوزُ وما لا يجوزُ ، فيكونُ ضررُهُ مِنْ تلكَ الخواطرِ التي هيَ كفرٌ أعظمَ مِنْ نفعِ السماعِ .

---

(١) اللمع (ص٣٥٩) .

قال سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (كلُّ وجدٍ لا يشهدُ لهُ الكتابُ والسنةُ فهوَ باطلٌ)(١) ، فلا يصلحُ السماعُ لمثلِ هـٰذا ، ولا لمَنْ قلبُهُ بعدُ ملوَّثٌ بحبِّ الدنيا وشهوةِ المحمدةِ والثناءِ ، ولا لمَنْ يسمعُ لأجلِ التلذُّذِ والاستطابةِ بالطبعِ فيصيرُ ذلكَ عادةً لهُ ، ويشغلُهُ ذلكَ عنْ عباداتِهِ ومراعاةِ قلبِهِ ، وينقطعُ عليهِ طريقُهُ ، فالسماعُ مزلَّةُ قدمٍ يجبُ حفظُ الضعفاءِ عنهُ .

قالَ الجنيدُ : رأيتُ إبليسَ في النومِ ، فقلتُ لهُ : هلْ تظفرُ مِنْ أصحابِنا بشيءٍ ؟ قالَ : نعمْ ، في وقتينِ ، وقتِ السماعِ ووقتِ النظرِ ، فإنِّي أدخلُ عليهِمْ بِهِ ، فقالَ بعضُ الشيوخِ : لوْ رأيتُهُ أنا . . لقلتُ لهُ : ما أحمقَكَ ! مَنْ سمعَ منهُ إذا سمعَ ، ونظرَ إليهِ إذا نظرَ . . كيفَ تظفرُ بهِ . فقالَ الجنيدُ : صدقتَ .

* * *

الأدبُ الثالثُ : أنْ يكونَ مصغياً إلىٰ ما يقولُ القائلُ :

حاضرَ القلبِ ، قليلَ الالتفاتِ إلى الجوانبِ ، متحرِّزاً عنِ النظرِ إلىٰ وجوهِ المستمعينَ وما يظهرُ عليهِم مِنْ أحوالِ الوجْدِ ، مشتغلاً بنفسِهِ ومراعاةِ قلبِهِ ومراقبةِ ما يفتحُ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنْ رحمتِهِ في سرِّهِ ، متحفِّظاً عنْ حركةٍ تشوِّشُ علىٰ أصحابِهِ قلوبَهُمْ ، بلْ يكونُ ساكنَ الظاهرِ ، هادئَ الأطرافِ ، محترزاً عنِ التنحنحِ والتثاؤبِ ، ويجلسُ مطرقاً رأسَهُ كجلوسِهِ في فكْرٍ

---

(١) اللمع (ص٣٧٦) .

مستغرقٍ لقلبهِ ، متماسكاً عنِ التصفيقِ والرقصِ وسائرِ الحركاتِ علىٰ وجهِ التصنُّعِ والتكلُّفِ والمراءاةِ ، ساكتاً عنِ النطقِ في أثناءِ القولِ بكلِّ ما عنهُ بدٌّ .

فإنْ غلبَهُ الوجْدُ وحرَّكَهُ بغيرِ اختيارِهِ . . فهوَ فيهِ معذورٌ غيرُ ملومٍ ، ومهما رجعَ إليهِ الاختيارُ . . فليعدْ إلىٰ هدوئِهِ وسكونِهِ ، ولا ينبغي أن يستديمَهُ حياءً مِنْ أنْ يُقالَ : (انقطعَ وَجْدُهُ على القرْبِ) ، ولا أنْ يتواجدَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (هوَ قاسي القلبِ ، عديمُ الصفاءِ والرقَّةِ) .

حُكِيَ أنَّ شابّاً كانَ يصحبُ الجنيدَ ، فكانَ إذا سمعَ شيئاً مِنَ الذكرِ يزعقُ ، فقالَ لهُ الجنيدُ يوماً : إنْ فعلتَ ذلكَ مرَّةً أخرىٰ . . لمْ تصحبْني ، فكانَ بعدَ ذلكَ يضبطُ نفسَهُ ، حتَّىٰ يقطرُ مِنْ كلِّ شعرةٍ منهُ قطرةُ ماءٍ ولمْ يزعقْ ، فحُكِيَ أنَّهُ اختنقَ يوماً لشدَّةِ ضبطِهِ لنفسِهِ ، فشهقَ شهقةً فانشقَّ قلبُهُ وتلفَتْ نفسُهُ[1] .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ قصَّ في بني إسرائيلَ ، فمزَّقَ واحدٌ منهُمْ ثوبَهُ أوْ قميصَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : قلْ لهُ : مزِّقْ لي قلبَكَ ، ولا تمزِّقْ ثيابَكَ[2] .

قالَ أبو القاسمِ النصراباذيُّ لأبي عمرٍو بنِ نجيدٍ : أنا أقولُ : إذا اجتمعَ

---

(١) رواه الطوسي في « اللمع » (ص ٣٥٨) واللفظ له ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٥٤) .

(٢) اللمع (ص٢٤٦) ، والرسالة القشيرية (ص٥٥٣) .

القومُ فيكونُ معَهُمْ قوَّالٌ يقولُ . . خيرٌ مِنْ أنْ يغتابوا ، فقالَ أبو عمرٍو : الرياءُ في السماعِ ، وهوَ أنْ ترىٰ مِنْ نفسِكَ حالاً ليسَتْ فيكَ شرٌّ مِنْ أنْ تغتابَ ثلاثينَ سنةً ، أوْ نحوَ ذلكَ[1] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : هلِ الأفضلُ هوَ الذي لا يحرِّكُهُ السماعُ ولا يؤثِّرُ في ظاهرِهِ ، أوِ الذي يظهرُ عليهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ عدمَ الظهورِ تارةً يكونُ لضعفِ الواردِ مِنَ الوجْدِ[2] ؛ فهوَ **نقصانٌ** ، وتارةً يكونُ معَ قوَّةِ الوجْدِ في الباطنِ ، ولكنْ لا يظهرُ لكمالِ القوَّةِ علىٰ ضبْطِ الجوارحِ ، وهوَ **كمالٌ** ، وتارةً يكونُ لكونِ حالِ الوجْدِ ملازماً ومصاحباً في الأحوالِ كلِّها ، فلا يتبيَّنُ للسماعِ مزيدُ تأثيرٍ ، وهوَ **غايةُ الكمالِ** ، فإنَّ صاحبَ الوجْدِ في غالبِ الأحوالِ لا يدومُ وجْدُهُ ، فمَنْ هوَ في وجدٍ دائمٍ فهوَ المرابطُ للحقِّ والملازمُ لعينِ الشهودِ ، فهٰذا لا تغيِّرُهُ طوارقُ الأحوالِ ، ولا يبعدُ أنْ تكونَ الإشارةُ بقولِ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ : (كنَّا كما كنتُمْ ثمَّ قسَتْ قلوبُنا) ، معناهُ : قويتْ قلوبُنا واشتدَّتْ ، فصارَتْ تطيقُ ملازمةَ الوجْدِ في كلِّ الأحوالِ ، فنحنُ في سماعِ معاني القرآنِ على الدوامِ ، فلا يكونُ القرآنُ جديداً في حقِّنا طارئاً علينا حتَّىٰ نتأثَّرَ بهِ .

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٥٨) .

(٢) إما لجهله بمنزلة السماع ، أو لسواد قلبه من ارتكاب المعاصي ، أو لجمود طبعه مع الوقوف على الإنكار . « إتحاف » (٦/ ٥٦٤) .

فإذاً ؛ قوَّةُ الوجْدِ تحرِّكُ ، وقوَّةُ العقْلِ والتماسكِ تضبطُ الظواهرَ ، وقدْ يغلبُ أحدُهُما الآخرَ ؛ إمَّا لشدَّةِ قوَّتِهِ ، وإمَّا لضعفِ ما يقابلُهُ ، ويكونُ النقصانُ والكمالُ بحسَبِ ذلكَ ، فلا تظنَّنَّ أنَّ الذي يضطربُ بنفسِهِ على الأرضِ أتمُّ وجداً مِنَ الساكنِ باضطرابِهِ ، بلْ ربَّ ساكنٍ أتمُّ وجداً منَ المضطربِ ، فقدْ كانَ الجنيدُ يتحرَّكُ في السماعِ في بدايتِهِ ، ثمَّ صارَ لا يتحرَّكُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ : فقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾(١) .

إشارةً إلىٰ أنَّ القلبَ مضطربٌ جائلٌ في الملكوتِ والجوارحُ متأدِّبةٌ في الظاهرِ ساكنةٌ .

وقالَ أبو الحسنِ محمدُ بنُ أحمدَ وكانَ بالبصرةِ : صحبتُ سهلَ بنَ عبدِ اللهِ ستينَ سنةً ، فما رأيتُهُ تغيَّرَ عندَ شيءٍ كانَ يسمعُهُ مِنَ الذكرِ أوِ القرآنِ ، فلمَّا كانَ في آخرِ عمرِهِ . . قرأَ رجلٌ بينَ يديهِ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ . . . ﴾ الآيةَ ، فرأيتُهُ قدِ ارتعدَ وكادَ يسقطُ ، فلمَّا عادَ إلىٰ حالِهِ . . سألتُهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : نعمْ يا حبيبي قدْ ضعفْنا(٢) .

---

(١) اللمع (ص٣٦٦) ، ونحوه في « الرسالة القشيرية » (ص١٤٠) وفيه قول الجريري : (أنا إذا حضرت موضعاً فيه سماع وهناك محتشم . . أمسكت علىٰ نفسي وجدي ، فإذا خلوت . . أرسلت وجدي ، فتواجدت) .

(٢) رواه عنه الطوسي في « اللمع » (ص٣٦٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٥٦) .

وكذلكَ سمعَ مرَّةً قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ ، فاضطربَ ، فسألَهُ ابنُ سالمٍ وكانَ مِنْ أصحابِهِ ، فقالَ : قدْ ضعفتُ ، فقيلَ لهُ : فإنْ كانَ هٰذا مِنَ الضعفِ . . فما قوَّةُ الحالِ ، فقالَ : ألا يردَ عليهِ واردٌ إلا وهوَ يبتلعُهُ بقوَّةِ حالِهِ ، فلا تغيِّرُهُ الوارداتُ وإنْ كانَتْ قويةً[1] .

وسببُ القدرةِ علىٰ ضبطِ الظاهرِ معَ وجودِ الوجدِ استواءُ الأحوالِ بملازمةِ الشهودِ ؛ كما حُكِيَ عنْ سهلٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ أنَّهُ قالَ : (حالي قبلَ الصلاةِ وبعدَها واحدةٌ)[2] ، لأنَّهُ كانَ مراعياً للقلبِ حاضرَ الذكرِ معَ اللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ ، فكذلكَ يكونُ قبلَ السماعِ وبعدَهُ ؛ إذْ يكونُ وجْدُهُ دائماً ، وعطشُهُ متصلاً ، وشربُهُ مستمراً ، بحيثُ لا يؤثرُ السماعُ في زيادتِهِ ، كما رُوِيَ أنَّ ممشاذَ الدينوريَّ أشرفَ علىٰ جماعةٍ فيهِمْ قوَّالٌ ، فسكَتُوا ، فقالَ : ارجعُوا إلىٰ ما كنتُمْ فيهِ ، فلوْ جُمعَتْ ملاهي الدنيا في أذني . . ما شُغِلَ همِّي ولا شُفِيَ بعضُ ما بي[3] .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (لا يضرُّ نقصانُ الوجدِ معَ فضْلِ العلمِ ، وفضْلُ العلمِ أتمُّ مِنْ فضْلِ الوجدِ) .

❊ ❊ ❊

---

(١) اللمع (ص٣٦٥) .
(٢) اللمع (ص٣٦٦) ، ولحاق المصنف عنده .
(٣) رواه الطوسي في « اللمع » (ص٣٦٦) .

فإنْ قلتَ : فمثلُ هـٰذا لِمَ يحضرُ السماعَ ؟

فاعلمْ : أنَّ مِنْ هؤلاءِ مَنْ تركَ السماعَ في كبرِهِ ، وكانَ لا يحضرُ إلا نادراً ؛ لمساعدةِ أخٍ مِنَ الإخوانِ ، وإدخالاً للسرورِ علىٰ قلبِهِ ، وربَّما حضرَ ليعرفَ القومُ كمالَ قوَّتِهِ ، فيعلمونَ أنَّهُ ليسَ الكمالُ بالوجْدِ الظاهرِ ، فيتعلَّمونَ منهُ ضبطَ الظاهرِ عنِ التكلُّفِ ، وإنْ لمْ يقدروا على الاقتداءِ بهِ في صيرورتِهِ طبعاً لهُمْ .

وإنِ اتفقَ حضورُهُمْ معَ غيرِ أبناءِ جنْسِهِمْ . . فيكونونَ معهُمْ بأبدانِهِمْ ، نائينَ عنهُمْ بقلوبِهِمْ وبواطِنِهِمْ ؛ كما يجلسونَ مِنْ غيرِ سماعٍ معَ غيرِ جنسِهِمْ بأسبابٍ عارضةٍ تقتضي الجلوسَ معَهُمْ .

وبعضُ مَنْ نُقِلَ عنهُ تركُ السماعِ ويُظن أنَّهُ كرهَهُ . . كانَ سببُ تركِهِ استغناءَهُ عنِ السماعِ بما ذكرناهُ ، وبعضُهُمْ كانَ مِنَ الزهَّادِ ، ولمْ يكنْ لهُ حظٌّ روحانيٌّ في السماعِ ، ولا كانَ هوَ مِنْ أهلِ اللهوِ ، فتركَهُ لئلا يكونَ مشغولاً بما لا يعنيهِ ، وبعضُهُمْ تركَهُ لفقدِ الإخوانِ ، قيلَ : لبعضِهِمْ ؛ لِمَ لا تسمعُ ؟ فقالَ : ممَّنْ ؟ ومعَ مَنْ ؟

❁ ❁ ❁

الأدبُ الرابعُ : ألا يقومَ ولا يرفعَ صوتَهُ بالبكاءِ وهوَ يقدرُ علىٰ ضبطِ نفسِهِ :

ولكنْ إنْ رقصَ أوْ تباكىٰ . . فهوَ مباحٌ إذا لمْ يقصدْ بهِ المراءاةَ ؛ لأنَّ التباكيَ استجلابٌ للحزنِ ، والرقصَ سببٌ في تحريكِ السرورِ والنشاطِ ،

فكلُّ سرورٍ مباحٌ ، فيجوزُ تحريكُهُ ، ولوْ كانَ ذلكَ حراماً . . لما نظرَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها إلى الحبشةِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهمْ يزفنونَ ، هـٰذا لفظُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في بعضِ الرواياتِ(١) .

وقد رُوِيَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أنَّهُمْ حَجَلوا لمَّا وردَ عليهِمْ سرورٌ أوجبَ ذلكَ ، وذلكَ في قصَّةِ ابنةِ حمزةَ لمَّا اختصَمَ فيها عليُّ بنُ أبي طالبٍ وأخوهُ جعفرٌ وزيدُ بنُ حارثةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، فتشاحُّوا في تربيتِها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ : « أنتَ منِّي وأنا منكَ » فحَجَلَ عليٌّ ، وقالَ لجعفرٍ : « أشبهتَ خَلقي وخُلقي » فحَجَلَ وراءَ حجْلِ عليٍّ ، وقالَ لزيدٍ : « أنتَ أخونا ومولانا » فحَجَلَ زيدٌ وراءَ حجْلِ جعفرٍ ، ثمَّ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « هيَ لجعفرٍ ، لأنَّ خالتَها تحتَهُ ، والخالةُ والدةٌ »(٢) .

وفي بعضِ الرواياتِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها :

---

(١) رواه مسلم (٨٩٢/ ٢٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١٠٨) ، وأصله في « البخاري » (٢٦٩٩) ، ونص ابن حجر في « فتح الباري » (٧/ ٥٠٧) أن الحجل هو الوقوف علىٰ رجل واحدة ، وهو الرقص بهيئة مخصوصة ، وضبط الفعل بفتح فكسر ، وقال القاضي عياض في « مشارق الأنوار » (١/ ١٨٢) : (وقوله : « فحجل » ؛ أي : قفز علىٰ رجْل سروراً وفرحاً ؛ كالرقص ، ويرفع الأخرىٰ ، وقد يكون بهما معاً) ، وقال ابن منظور في « اللسان » (ح ج ل) : (ويكون بالرجلين جميعاً ، إلا أنه قفز وليس بمشي) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٥٦٧) : (وأصل الحجل مشي المقيد ، والقيد هو الحجل بالكسر ، ومنه قولهم : الغراب يحجل ، ولا شك أن مشي المقيد إنما هو وثب واهتزاز ، وهو الرقص) .

« أتحبِّينَ أنْ تنظري إلىٰ زَفْنِ الحبشةِ ؟ »[1] ، والزَّفْنُ والحَجْلُ هوَ الرقصُ ، وذلكَ يكونُ لفرحٍ أوْ شوقٍ ، فحكمُهُ حكمُ مهيِّجِهِ ؛ إنْ كانَ فرحُهُ محموداً والرقصُ يزيدُهُ ويؤكِّدُهُ . . فهوَ محمودٌ ، وإنْ كانَ مباحاً . . فهوَ مباحٌ ، وإنْ كانَ مذموماً . . فهوَ مذمومٌ .

نعمْ ، لا يليقُ اعتيادُ ذلكَ بمناصبِ الأكابرِ وأهلِ القدوةِ ؛ لأنَّهُ في الأكثرِ يكونُ عنْ لهوٍ ولعبٍ ، وما لهُ صورةُ اللعبِ واللهوِ في أعينِ الناسِ فينبغي أنْ يجتنبَهُ المقتدىٰ بهِ لئلا يصغرَ في أعينِ الخلقِ ، فيُترَكَ الاقتداءُ بهِ .

وأمَّا تمزيقُ الثوبِ . . فلا رخصةَ فيهِ إلا عندَ خروجِ الأمرِ عنِ الاختيارِ ، ولا يبعدُ أنْ يغلبَ الوجدُ بحيثُ يمزِّقُ ثوبَهُ وهوَ لا يدري ؛ لغلبةِ سكْرِ الوجْدِ عليهِ ، أوْ يدري ولكنْ يكونُ كالمضطرِّ الذي لا يقدرُ علىٰ ضبطِ نفسِهِ ، وتكونُ صورتُهُ صورةَ المكرهِ ؛ إذْ يكونُ لهُ في الحركةِ والتمزيقِ متنفَّسٌ ، فيضطرُّ إليهِ اضطرارَ المريضِ إلى الأنينِ ، ولوْ كُلِّفَ الصبرَ عنهُ . . لمْ يقدرْ عليهِ ، معَ أنَّهُ فعلٌ اختياريٌّ ، **فليسَ كلُّ فعلٍ حصولُهُ بالإرادةِ يقدرُ الإنسانُ علىٰ تركِهِ** ، فالتنفُّسُ فعلٌ يحصلُ بالإرادةِ ، ولوَ كلَّفَ الإنسانُ نفسَهُ أنْ يمسكَ النَّفَسَ ساعةً . . لاضطرَّ مِنْ باطنِهِ إلىٰ أنْ يختارَ التنفُّسَ ، فكذلكَ الزعقةُ وتمزيقُ الثيابِ قدْ يكونُ كذلكَ ، فهـٰذا لا يوصفُ بالتحريمِ ، فقدْ ذُكِرَ عندَ السريِّ حديثُ الوجدِ الحادِّ الغالبِ ، فقالَ : نعمْ ، يضربُ وجهَهُ

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/١١٦) .

بالسيفِ وهوَ لا يدري ، فروجعَ فيهِ واستبعدَ أن ينتهيَ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، فأصرَّ عليهِ ولمْ يرجعْ ، ومعناهُ : أنهُ في بعضِ الأحوالِ قدْ ينتهي إلىٰ هـٰذا الحدِّ في بعضِ الأشخاصِ (١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فما تقولُ في تمزيقِ الصوفيَّةِ الثيابَ الجديدةَ بعدَ سكونِ الوجْدِ والفراغِ مِنَ السماعِ ؟ فإنَّهُمْ يمزِّقونَها قطعاً صغاراً ويفرِّقونَها على القومِ ، ويسمونَها الخرقةَ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ مباحٌ إذا مزِّقَ قطعاً مربَّعةً تصلحُ لترقيعِ الثيابِ والسجاداتِ ، فإنَّ الكرباسَ يُمزَّقُ حتَّىٰ يُخاطَ منهُ القميصُ ، ولا يكونُ ذلكَ تضييعاً ؛ لأنَّهُ تمزيقٌ لغرضٍ ، وكذلكَ ترقيعُ الثيابِ لا يمكنُ إلا بالقطعِ الصغارِ ، وذلكَ مقصودٌ ، والتفرقةُ على الجميعِ ليعمَّ ذلكَ الخيرُ مقصودٌ ، فهوَ مباحٌ ، ولكلِّ مالكٍ أنْ يقطعَ كرباسَهُ مئةَ قطعةٍ ويعطيَها لمئةِ مسكينٍ ، ولكنْ ينبغي أنْ تكونَ القطعُ بحيثُ يمكنُ أنْ يُنتفعَ بها في الرقاعِ ، وإنَّما منعنا في السماعِ التمزيقَ المفسدَ للثوبِ الذي يهلكُ بعضُهُ ، بحيثُ لا يبقىٰ منتفعاً بهِ ، فهوَ تضييعٌ محضٌ لا يجوزُ بالاختيارِ .

* * *

(١) اللمع (ص٣٨١) .

الأدبُ الخامسُ : موافقةُ القومِ في القيامِ إذا قامَ واحدٌ منهُمْ في وجْدٍ صادقٍ مِنْ غيرِ رياءٍ وتكلُّفٍ ، أوْ قامَ باختيارٍ مِنْ غيرِ إظهارِ وجْدٍ وقامَ لهُ الجماعةُ :

فلا بدَّ مِنَ الموافقةِ ، فذلكَ مِنْ آدابِ الصحبةِ ، وكذلكَ إنْ جرَتْ عادةُ طائفةٍ بتنحيةِ العِمامةِ علىٰ موافقةِ صاحبِ الوجْدِ إذا سقطَتْ عِمامتُهُ ، أوْ خلعِ الثيابِ إذا سقطَ عنهُ ثوبُهُ بالتمزيقِ ، فالموافقةُ في هٰذهِ الأمورِ مِنْ حسنِ الصحبةِ والعشرةِ ؛ إذِ المخالفةُ موحشةٌ ، ولكلِّ قومٍ رسمٌ ، ولا بدَّ مِنْ مخالقةِ الناسِ بأخلاقِهِمْ كما وردَ في الخبرِ(١) ، لا سيما إذا كانَتْ أخلاقاً فيها حسْنُ العشرةِ والمجاملةُ وتطييبُ القلبِ بالمساعدةِ .

وقولُ القائلِ : إنَّ ذلكَ بدعةٌ لمْ تكنْ في الصحابةِ . . فليسَ كلُّ ما يُحكمُ بإباحتِهِ منقولاً عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وإنَّما المحذورُ ارتكابُ بدعةٍ تراغمُ سنَّةً مأثورةً ، ولمْ يُنقلِ النهيُ عنْ شيءٍ مِنْ هٰذا ، والقيامُ عندَ الدخولِ للداخلِ لمْ يكنْ مِنْ عادةِ العربِ ، بلْ كانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ لا يقومونَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأحوالِ كما رواهُ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ(٢) ، ولكنْ إذا لمْ يثبتْ فيهِ نهيٌ عامٌّ . . فلا نرىٰ بهِ بأساً في البلادِ التي جرتِ العادةُ فيها بإكرامِ الداخلِ بالقيامِ ، فإنَّ القصدَ منهُ الاحترامُ والإكرامُ ، وتطييبُ القلبِ بهِ ، وكذلكَ سائرُ أنواعِ المساعدةِ إذا قُصدَ بها

---

(١) كما روى الحاكم في « المستدرك » (٣/٣٤٣) مرفوعاً : « خالقوا الناس بأخلاقهم ، وخالفوهم في أعمالهم » .

(٢) رواه الترمذي (٢٧٥٤) .

تطييبُ القلبِ[1] ، واصطلحَ عليها جماعةٌ . . فلا بأسَ بمساعدتِهِمْ عليها ، بلِ الأحسنُ المساعدةُ ، إلا فيما وردَ فيهِ نهيٌ لا يقبلُ التأويلَ .

ومِنَ الأدبِ : ألا يقومَ للرقصِ معَ القومِ إنْ كانَ يُستثقلُ رقصُهُ ، ولا يشوشَ عليهِمْ أحوالَهُمْ ؛ إذِ الرقصُ مِنْ غيرِ إظهارِ التواجدِ مباحٌ ، والمتواجدُ : هوَ الذي يلوحُ للجمعِ منهُ أثرُ التكلُّفِ ، ومَنْ يقومُ عنْ صدقٍ لا تستثقلُهُ الطباعُ ، فقلوبُ الحاضرينَ إذا كانوا مِنْ أربابِ القلوبِ محكٌّ للصدقِ والتكلُّفِ .

سئلَ بعضُهُمْ عنِ الوجدِ الصحيحِ فقالَ : (صحتُهُ قبولُ قلوبِ الواجدينَ لهُ إذا كانوا أشكالاً غيرَ أضدادٍ)[2] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما بالُ الطباعِ تنفرُ عنِ الرقصِ ، ويسبقُ إلى الأوهامِ أنَّهُ باطلٌ ولهوٌ ومخالفٌ للدينِ ، فلا يراهُ ذو جدٍّ في الدينِ إلا وينكرُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ الجدَّ لا يزيدُ على جِدِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ رأى الحبشةَ يزفنونَ في المسجدِ وما أنكرَهُ ، لمَّا كانَ في وقتٍ لائقٍ بهِ ، وهوَ العيدُ ، ومِنْ شخصٍ لائقٍ بهِ ، وهمُ الحبشةُ .

نعمْ ، نفرةُ الطباعِ عنهُ لأنَّهُ يُرى غالباً مقروناً باللهوِ واللعبِ ، واللهوُ

---

(١) في النسخ : (طيبة القلب) ، والمثبت من (ق) .
(٢) القول لأبي يعقوب النهرجوري ، انظر « اللمع » (ص٣٧٨) .

واللعبُ مباحٌ ، ولكنْ للعوامِّ مِنَ الزنوجِ والحبشةِ ومَنْ أشبهَهُمْ ، وهوَ مكروهٌ لذوي المناصبِ ؛ لأنَّهُ لا يليقُ بهِمْ ، وما كُرِهَ لكونِهِ غيرَ لائقٍ بمنصبِ ذي المنصبِ . . فلا يجوزُ أنْ يُوصفَ بالتحريمِ ، فمنْ سألَ فقيراً شيئاً ، فأعطاهُ رغيفاً . . كانَ ذلكَ طاعةً مستحسنةً ، ولوْ سألَ مَلِكاً ، فأعطاهُ رغيفاً أو رطلاً مِنَ الخبزِ . . كانَ ذلكَ منكراً عندَ الناسِ كافَّةً ، ومكتوباً في تواريخِ الأخبارِ مِنْ جملةِ مساوئِهِ ، يُعيَّرُ بهِ أعقابُهُ وأشياعُهُ ، ومعَ هٰذا فلا يجوزُ أنْ يُقالَ : (ما فعلَهُ حرامٌ) ؛ لأنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ أعطىٰ خبزاً لفقيرٍ حسنٌ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ منصبِهِ كالمنعِ بالإضافةِ إلى الفقيرِ مستقبحٌ ؛ فكذلكَ الرقصُ وما يجري مجراهُ منَ المباحاتِ ، ومباحاتُ العوامِّ سيئاتُ الأبرارِ ، وحسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ ، ولكنْ هٰذا مِنْ حيثُ الالتفاتُ إلى المناصبِ ، فأمَّا إذا نُظِرَ إليهِ في نفسِهِ . . وجبَ الحكمُ بأنَّهُ هوَ في نفسِهِ لا تحريمَ فيهِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

فقدْ خرجَ مِنْ جملةِ التفصيلِ السابقِ : أنَّ السماعَ قدْ يكونُ **حراماً** محضاً ، وقدْ يكونُ **مباحاً** ، وقدْ يكونُ **مستحباً** ، وقدْ يكونُ **مكروهاً** .

أمَّا الحرامُ : فهوَ لأكثرِ الناسِ مِنَ الشبَّانِ ، ومَنْ غلبَتْ عليهِمْ شهوةُ الدنيا ، فلا يحرِّكُ السماعُ منهُمْ إلا ما هوَ الغالبُ علىٰ قلوبِهِمْ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ .

وأمَّا المكروهُ : فهوَ لمَنْ لا ينزِّلُهُ علىٰ صورةِ المخلوقينَ ، ولكنَّهُ يتخذُهُ عادةً لهُ في أكثرِ الأوقاتِ علىٰ سبيلِ اللهوِ .

وأما المباحُ : فهوَ لمَنْ لا حظَّ لهُ منهُ إلا التلذُّذُ بالصوتِ الحسنِ .

وأمَّا المستحبُّ : فهوَ لمَنْ غلبَ عليهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يحرِّكِ السماعُ منهُ إلا الصفاتِ المحمودةَ ، والحمدُ للهِ وحدَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمّدٍ وآلِهِ ، والسلامُ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تمّ كتاب آداب السّماع والوجد

وهو الكتاب الثّامن من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وسلّم

يتلوه كتاب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لا تُستفتحُ الكتبُ إلا بحمدِهِ ، ولا تُستمنحُ النعمُ إلا بواسطةِ كرمِهِ ورفدِهِ(١) ، والصلاةُ علىٰ سيِّدِ الأنبياءِ محمدٍ رسولِهِ وعبدِهِ ، وعلىٰ آلِهِ الطيِّبينَ وأصحابِهِ الطاهرينَ مِنْ بعدِهِ .

أما بعد :

فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ هوَ القطبُ الأعظمُ في الدينِ ، وهوَ المهمُّ الذي ابتعثَ اللهُ لهُ النبيِّينَ أجمعينَ ، ولوْ طُوِيَ بساطُهُ ، وأُهملَ علمُهُ وعملُهُ . . لتعطلَتِ النبوَّةُ ، واضمحلَتِ الديانةُ ، وعمَّتِ الفتنةُ(٢) ، وفشَتِ الضلالةُ ، وشاعَتِ الجهالةُ ، واستشرى الفسادُ ، واتسعَ الخرقُ ، وخربَتِ البلادُ ، وهلكَ العبادُ ، ولمْ يشعروا بالهلاكِ إلىٰ يومِ التنادِ .

وقدْ كانَ الذي خفْنا أنْ يكونَ ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ؛ إذْ قدِ اندرسَ مِنْ هٰذا القطبِ عملُهُ وعلمُهُ ، وانمحقَ بالكليَّةِ حقيقتُهُ ورسمُهُ ، فاستولَتْ

---

(١) في (ب ، ج ، د) : (مجده) بدل (رفده) .
(٢) في غير (أ ، ب) : (الفترة) بدل (الفتنة) ، وفي (ج) زيادة : (وعميت البصيرة) .

على القلوبِ مداهنةُ الخلْقِ ، وانمحَتْ عنها مراقبةُ الخالقِ ، واسترسلَ الناسُ في اتباعِ الهوىٰ والشهواتِ استرسالَ البهائمِ ، وعزَّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مؤمنٌ صادقٌ لا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ .

فمَنْ سعىٰ في تلافي هـٰذهِ الفترةِ ، وسدِّ هـٰذهِ الثُّلمةِ ؛ إمَّا متكفِّلاً بعلمِها[1] ، أوْ متقلِّداً لتنفيذِها ، مجدِّداً لهـٰذهِ السنَّةِ الداثرةِ ، ناهضاً بأعبائِها ، ومتشمِّراً في إحيائِها . . كانَ مستأثراً مِنْ بينِ الخلقِ بإحياءِ سنَّةٍ أفضى الزمانُ إلىٰ إماتتِها ، ومستبداً بقربةٍ تتضاءَلُ درجاتُ القرْبِ دونَ ذروتِها ، **وها نحنُ نشرحُ علمَ ذلكَ في أربعةِ أبوابٍ** :

البابُ الأوّلُ : في وجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ وفضيلتِهِ .

البابُ الثاني : في أركانِهِ وشروطِهِ .

البابُ الثالثُ : في مجاريهِ وبيانِ المنكراتِ المألوفةِ في العاداتِ .

البابُ الرابعُ : في أمرِ الأمراءِ والسلاطينِ بالمعروفِ ونهيِهِمْ عنِ المنكرِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) بأن يعلِّم الناس بما أعطاه من بيان قوانينها ورسومها وحدودها ، إن لم يكن أهلاً للعمل بها . « إتحاف » (٧/٣) .

البَابُ الأوّلُ
في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمّة في إهماله وإضاعته

ويدلُّ علىٰ ذلكَ بعدَ إجماعِ الأمَّةِ عليهِ وإشاراتِ العقولِ السليمةِ إليهِ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ .

أمّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، ففي الآيةِ بيانُ الإيجابِ ، فإنَّ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ أمرٌ ، وظاهرُ الأمرِ الإيجابُ ، وفيها بيانُ أنَّ الفلاحَ منوطٌ بهِ ؛ إذْ حصرَ وقالَ : ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وفيها بيانُ أنَّهُ فرضُ كفايةٍ لا فرضُ عينٍ ، وأنَّهُ إذا قامَ بهِ أمَّةٌ . . سقطَ الفرضُ عنِ الباقينَ ؛ إذْ لمْ يقلْ : (كونوا كلُّكُمْ آمرينَ بالمعروفِ) ، بلْ قالَ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ ، فإذاً ؛ مهما قامَ بهِ واحدٌ أوْ جماعةٌ . . سقطَ الحرجُ عنِ الآخرينَ ، واختصَّ الفلاحُ بالقائمينَ بهِ المباشرينَ لهُ ، وإنْ تقاعدَ عنهُ الخلْقُ أجمعونَ . . عمَّ الحرجُ كافَّةَ القادرينَ عليهِ لا محالةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ

ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۝ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، فلمْ يشهدْ لهمْ بالصلاحِ بمجرَّدِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، حتَّىٰ أضافَ إليهِ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، فقدْ نعتَ المؤمنينَ بأنَّهُمْ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ ، فالذي هجرَ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ خارجٌ عنْ هؤلاءِ المؤمنينَ المنعوتينَ في هـٰذهِ الآيةِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ ، وهـٰذا غايةُ التشديدِ ؛ إذْ علَّلَ استحقاقَهُمُ اللعنةَ بتركِهِمُ النهيَ عنِ المنكرِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ ، وهـٰذا يدلُّ علىٰ فضيلةِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ؛ إذْ بيَّنَ أنَّهُمْ كانوا بهِ خيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للناسِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُمُ استفادوا النجاةَ بالنهيِ عنِ السوءِ ، ويدلُّ ذلكَ على الوجوبِ أيضاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ، فقرنَ ذلكَ بالصلاةِ والزكاةِ في نعتِ الصالحينَ والمؤمنينَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ وهـٰذا أمرٌ جزْمٌ ، ومعنى التعاونِ : الحثُّ عليهِ ، وتسهيلُ طرقِ الخيرِ ، وسدُّ سبلِ الشرِّ والعدوانِ بحسَبِ الإمكانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ أثموا بترْكِ النهيِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ ، فبيَّنَ أنَّهُ أهلكَ جميعَهُمْ إلا قليلاً منهم كانوا ينهونَ عنِ الفسادِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ، وذلكَ هوَ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ للوالدينِ والأقربينَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا . . . ﴾ الآيةَ ،

والإصلاحُ : نهيٌ عنِ البغيِ ، وإعادةٌ إلى الطاعةِ ، فإنْ لمْ يفعلْ . . فقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بقتالِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ ، وذلكَ هوَ النهيُ عنِ المنكرِ .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فمنها ما رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ في خطبةٍ خطبَها : (أيُّها الناسُ ؛ إنَّكُمْ تقرؤونَ هٰذهِ الآيةَ وتؤوِّلونَها علىٰ خلافِ تأويلِها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ ، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنْ قومٍ عملوا بالمعاصي وفيهِمْ مَنْ يقدرُ أنْ ينكرَ عليهِمْ ، فلمْ يفعلْ . . إلا يوشكُ أنْ يعمَّهُمُ اللهُ بعذابٍ مِنْ عندِهِ »)[1] .

ورُوِيَ عنْ أبي ثعلبةَ الخشنيِّ أنَّهُ سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ ، فقالَ : « يا أبا ثعلبةَ ؛ مُرْ بالمعروفِ وانْهَ عنِ المنكرِ ، فإذا رأيتَ شُحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرةً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ بنفسِكَ ، ودعْ عنكَ العوامَّ ، إنَّ مِنْ ورائِكُمْ فتناً كقطعِ الليلِ المظلمِ ، للمتمسِّكِ فيها بمثلِ الذي أنتمْ عليهِ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١١٠٩٢) ، وابن ماجه (٤٠٠٥) .

أجرُ خمسينَ منكُمْ » ، قيلَ : بلْ منهُمْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « بلْ منكُمْ ؛ لأنَّكُمْ تجدونَ على الخيرِ أعواناً ولا يجدونَ عليهِ أعواناً »(١) .

وسُئِلَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ تفسيرِ هـٰذهِ الآيةِ ، فقالَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ هـٰذا ليسَ زمانَها ، إنَّها اليومَ مقبولةٌ ، ولكنْ قدْ أوشكَ أنْ يأتيَ زمانُها ، تأمرونَ بالمعروفِ فيُصنعُ بكمْ كذا وكذا ، وتقولونَ فلا يُقبلُ منكُمْ ، فحينئذٍ عليكُمْ أنفسَكُم ، لا يضرُّكُمْ مَنْ ضلَّ إذا اهتديتُمْ)(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتأمرُنَّ بالمعروفِ وتنهوُنَّ عنِ المنكرِ أوْ ليسلِّطَنَّ اللهُ عليكُمْ شرارَكُمْ ، ثمَّ يدعو خيارُكُمْ فلا يُستجابُ لهُمْ »(٣) ، معناهُ : تسقطُ مهابتُهُمْ منْ أعينِ الأشرارِ ، فلا يخافونَهُمْ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ اللهَ يقولُ : لتأمرُنَّ بالمعروفِ ولتنهوُنَّ عنِ المنكرِ قبلَ أنْ تدعوا فلا يُستجابُ لكُمْ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أعمالُ البرِّ عندَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٥/ ٧/ ١٢٣) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٨٥١٠) ، والطبراني في « الأوسط » (١٤٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ونحوه رواه الترمذي (٢١٦٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ مقارب ، وهو عن ابن ماجه (٤٠٠٤) ولم يذكر فيه أنه من كلام الله تعالىٰ .

إلا كنفثةٍ في بحرٍ لجِّيٍّ ، وما جميعُ أعمالِ البرِّ والجهادِ في سبيلِ اللهِ عندَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ إلا كنفثةٍ في بحرٍ لجِّيٍّ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ ليسألُ العبدَ : ما منعَكَ إذْ رأيْتَ المنكرَ أنْ تنكرَهُ ؟ فإذا لقَّنَ اللهُ العبدَ حجَّتَهُ . قالَ : ربِّ ؛ وثقتُ بكَ وفَرِقْتُ مِنَ الناسِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والجلوسَ على الطرقاتِ » ، قالوا : ما لنا بدٌّ ، إنَّما هيَ مجالسُنا نتحدَّثُ فيها ، قالَ : « فإذا أبيتُمْ إلا ذلكَ . . فأعطوا الطريقَ حقَّها » ، قالوا : وما حقُّ الطريقِ ؟ قالَ : « غضُّ البصرِ ، وكفُّ الأذىٰ ، وردُّ السلامِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنهيُ عنِ المنكرِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَلامُ ابنِ آدمَ كلُّهُ عليهِ لا لهُ ، إلا أمرٌ بمعروفٍ أوْ نهيٌ عنْ منكرٍ ، أوْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ »[4] .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٦٣٢٦] مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر ـ وهو عنده [٦٣٠٣] من حديث أبي هريرة بلفظ أقرب ـ بإسناد ضعيف ، وأما الشطر الأخير . . فرواه علي بن معبد في كتاب « الطاعة والمعصية » من رواية يحيى بن عطاء مرسلاً أو معضلاً ، ولا أدري من يحيى بن عطاء) « إتحاف » (٧/ ٨) ، وفي (ج) : (كتفلة) بدل (كنفثة) في الموضعين .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٧) ، والخطابي في « العزلة » (٦٧) ، ولفظه هنا قريب لما رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٢٤٦٥) ، ومسلم (٢١٢١) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤١٢) ، وابن ماجه (٣٩٧٤) بنحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا يعذِّبُ الخاصَّةَ بذنوبِ العامَّةِ حتَّىٰ يُرى المنكرُ بينَ أظهرِهِمْ وهمْ قادرونَ علىٰ أنْ ينكروهُ فلا ينكروهُ »[١] .

ورَوىٰ أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « كيْفَ أنتُمْ إذا طغىٰ نساؤُكُمْ ، وفسقَ شبَّانُكُمْ ، وتركتُمْ جهادكُمْ ؟ » قالوا : وإنَّ ذلكَ لكائنٌ يا رسولَ اللهِ ؟! قالَ : « نعمْ ، والذي نفسي بيدِهِ ، وأشدُّ منهُ سيكونُ » ، قالوا : وما أشدُّ منهُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كيفَ أنتُمْ إذا لمْ تأمرُوا بمعروفٍ ولمْ تنهَوا عنْ منكرٍ ؟ » قالُوا : وكائنٌ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « نعمْ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ وأشدُّ منْهُ سيكونُ » ، قالُوا : وما أشدُّ منهُ ؟ قالَ : « كيفَ أنتُمْ إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً ، وَرأيتُمُ المنكرَ معروفاً ؟ » قالوا : وكائنٌ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟! قالَ : « نعمْ ، والذي نفسي بيدِهِ ، وأشدُّ منْهُ سيكونُ » ، قالوا : وما أشدُّ منهُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كيفَ أنتُمْ إذا أمرتُمْ بالمنكرِ ونهيتُمْ عنِ المعروفِ ؟ » قالوا : وكائنٌ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟! قالَ : « نعمْ ، والذي نفسي بيدِهِ ، وأشدُّ منهُ سيكونُ ، يقولُ اللهُ تعالىٰ : بي حلفتُ ؛ لأتيحنَّ لهُمْ فتنةً يصيرُ الحليمُ فيها حيرانَ »[٢] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٥٢) وفيه : (فلا ينكرونه) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٩٢) من حديث عدي الكندي .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٣١) ، ونحوه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٤٢٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٣٢١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وعنْ عكرمةَ ، عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقفنَّ عندَ رجلٍ يُقتلُ مظلوماً ؛ فإنَّ اللعنةَ تنزلُ علىٰ مَنْ حضرَهُ حينَ لمْ يدفعوا عنهُ ، ولا تقفنَّ عندَ رجلٍ يَضربُ مظلوماً ؛ فإنَّ اللعنةَ تنزلُ علىٰ مَنْ حَضرَهُ »(١) .

قالَ : وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي لامرئٍ يشهدُ مقاماً فيهِ حقٌّ إلا تكلَّم بهِ ؛ فإنَّهُ لنْ يقدِّمَ أجلَهُ ، ولنْ يحرمَهُ رزقاً هوَ لهُ »(٢) .

وهٰذا الحديثُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يجوزُ دخولُ دورِ الظلمةِ والفسقةِ ، ولا حضورُ المواضعِ التي يُشاهدُ المنكرُ فيها ولا يُقدرُ علىٰ تغييرِه ، فإنَّهُ قالَ : « اللعنةُ تنزلُ علىٰ مَنْ حضرَ » .

ولا يجوزُ لهُ مشاهدةُ المنكرِ مِنْ غيرِ حاجةٍ اعتذاراً بأنَّهُ عاجزٌ ، ولهٰذا اختارَ جماعةٌ مِنَ السلفِ العزلةَ ؛ لمشاهدتِهِمُ المنكراتِ في الأسواقِ والأعيادِ والمجامعِ وعجزِهِمْ عنِ التغييرِ ، وهٰذا يقتضي لزومَ الهجرةِ للخلقِ .

ولهٰذا قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (ما ساحَ السوَّاحُ وخلَّوا دورَهُمْ وأولادَهُمْ إلا لمثلِ ما نزلَ بنا حينَ رأوا الشرَّ قدْ ظهرَ ، والخيرَ قدِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧١٧٣) .
(٢) كذا رواه البيهقي في « الشعب » (٧١٧٣) بسند الحديث السابق .

اندرسَ ، ورأوا أنَّهُ لا يُقبلُ ممَّن تكلَّمَ ، ورأوا الفتنَ ولمْ يأمنوا أنْ تعتريَهُمْ ، وأنْ ينزلَ العذابُ بأولئكَ القومِ فلا يسلمونَ منهُ ، فرأَوا أنَّ مجاورةَ السباعِ وأكلَ البقولِ خيرٌ مِنْ مجاورةِ هؤلاءِ في نعيمِهِمْ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ قالَ : ففرَّ قومٌ ، فلولا ما جعلَ اللهُ جلَّ ثناؤُهُ في النبوَّةِ مِنَ السرِّ . لقلنا : ما همْ بأفضلَ مِنْ هؤلاءِ فيما بلغَنا إنَّ الملائكةَ عليهمُ السلامُ لتلقَّاهُمْ وتصافحُهُمْ ، والسحابُ والسباعُ تمرُّ بأحدِهِمْ فيناديها فتجيبُهُ ، ويسألُها : أينَ أُمرتِ ؟ فتخبرُهُ ، وليسَ بنبيٍّ) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حضرَ معصيةً فكرهَها . . فكأنَّهُ غابَ عنها ، ومَنْ غابَ عنها فأحبَّها . . فكأنَّهُ حضرَها »[1] ، ومعنى الحديثِ : أنْ يحضرَ لحاجةٍ أوْ يتفقَ جريانُ ذلكَ بينَ يديهِ ، فأمَّا الحضورُ قصداً . . فممنوعٌ بدليلِ الحديثِ الأوَّلِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيّاً إلا ولهُ حواريٌّ ، فيمكثُ النبيُّ بينَ أظهرِهِمْ ما شَاءَ اللهُ تعالىٰ يعملُ فيهِمْ بكتابِ اللهِ وبأمرِهِ ، حتَّىٰ إذا قبضَ اللهُ نبيَّهُ . . مكثَ الحواريُّونَ يعملونَ بكتابِ اللهِ وبأمرِهِ ، وبسنَّةِ نبيِّهِمْ ، فإذا انقرضوا . . كانَ مِنْ بعدِهِمْ قومٌ يركبونَ رؤوسَ المنابرِ ، يقولونَ ما تعرفونَ ، ويعملونَ ما تنكرونَ ، فإذا رأيتُمْ ذلكَ . . فحقٌّ علىٰ كلِّ مؤمنٍ جهادُهُمْ بيدِهِ ، فإنْ لمْ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ٢٣٠) ، وهو عند أبي داوود (٤٣٤٥) من حديث العرس بن عميرة رضي الله عنه .

يستطعْ . . فبلسانِهِ ، فإنْ لمْ يستطعْ . . فبقلبِهِ ، وليسَ وراءَ ذلكَ إسلامٌ »(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ أهلُ قريةٍ يعملونَ بالمعاصي ، وكانَ فيهِمْ أربعةُ نفرٍ ينكرونَ ما يعملونَ ، فقامَ أحدُهُمْ فقالَ : إنَّكُمْ تعملونَ كذا وكذا ، فجعلَ ينهاهُمْ ويخبرُهُمْ بقبيحِ ما يصنعونَ ، فجعلوا يردُّونَ عليهِ ولا يرعوونَ عنْ أعمالِهِمْ ، فسبَّهُمْ فسبُّوهُ ، وقاتلَهُمْ فغلبوهُ ، فاعتزلَ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي نهيتُهُمْ فعصوني ، وسببتُهُمْ فسبُّوني ، وقاتلتُهُمْ فغلبوني ، ثمَّ ذهَبَ ، ثمَّ قامَ الآخرُ ، فنهاهُمْ ، فلمْ يطيعوهُ ، فسبَّهُمْ فسبُّوهُ ، فاعتزلَ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي قَدْ نهيتُهُمْ فلمْ يطيعوني ، وسببتُهُمْ فسبُّوني ، ولوْ قاتلتُهُمْ . . لغلبوني ، ثمَّ ذهبَ ، ثمَّ قامَ الثالثُ ، فنهاهُمْ ، فلم يطيعوهُ ، فاعتزلَ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ نهيتُهُمْ فلمْ يطيعوني ، ولوْ سببْتُهُمْ . . لسبُّوني ، ولوْ قاتلتُهُمْ . . لغلبوني ، ثمَّ ذهبَ ، ثمَّ قَامَ الرابُع فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي لوْ نهيتُهُمْ . . لعصوني ، ولوْ سببتُهُمْ . . لسبُّوني ، ولوْ قاتلتُهُمْ . . لغلبوني ، ثمَّ ذهبَ ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : كانَ الرابُع أدناهُم منزلةً ، وقليلٌ فيكُمْ مثلُهُ) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أتهلكُ القريةُ وفيها الصالحونَ ؟ قالَ : « نعمْ » ، قيلَ : بِمَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « بتهاونِهِمْ وسكوتِهِمْ عنْ معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ »(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٥٠) بنحوه .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٤٧٤٣) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٧٠) .

وقـالَ جـابـرُ بـنُ عبـدِ اللهِ : قـالَ رسـولُ اللهِ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ : « أوحى اللهُ تباركَ وتعالىٰ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملائكةِ : أنِ اقلبْ مدينةَ كذا وكذا علىٰ أهلِها ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنَّ فيهِمْ عبدَكَ فلاناً ، لَمْ يعصِكَ طرفةَ عينٍ ! قالَ : اقلبْها عليهِ وعليهِمْ ؛ فإنَّ وجهَهُ لمْ يتمعَّرْ فيَّ ساعةً قطُّ »(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُذِّبَ أهلُ قريةٍ فيها ثمانيةَ عشرَ ألفاً عملُهُمْ عملُ الأنبياءِ » ، قالوا : يـا رسـولَ اللهِ ؛ كيـفَ ؟ قـالَ : « لـمْ يكـونـوا يغضبـونَ للهِ ، ولا يـأمـرونَ بالمعروفِ ، ولا ينهونَ عنِ المنكرِ »(٢) .

وعنْ عروةَ عنْ أبيهِ قالَ : قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ أيُّ عبادِكَ أحبُّ إليكَ ؟ قالَ : الذي يتسرَّعُ إلىٰ هوايَ كما يتسرَّعُ النسرُ إلىٰ هواهُ ، والذي يكلَفُ بعباديَ الصالحينَ كما يكلَفُ الصبيُّ بالثدي ، والذي يغضبُ إذا أُتيتْ محارمي كما يغضبُ النَّمِرُ لنفسِهِ ، فإنَّ النمرَ إذا غضبَ لنفسِهِ . . لمْ يبالِ قلَّ الناسُ أمْ كثروا(٣) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٥٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧١٨٩) ، والتمعُّرُ : تغيُّرُ الوجه عند الغضب .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أقف عليه مرفوعاً) ، وسيأتي نحوه للمصنف قريباً . انظر « الإتحاف » (٧/ ١١) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٢٥) ، وهناد في « الزهد » (٤٨٨) ، ورواه من حديث عائشة مرفوعاً الطبراني في « الأوسط » (١٨٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣) .

وهٰذا يدلُّ علىٰ فضيلةِ الحِسْبَةِ معَ شدَّةِ الخوفِ .

وقالَ أبو ذرٍّ الغفاريُّ : قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ مِنْ جهادٍ غيرِ قتالِ المشركينَ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمْ يا أبا بكرٍ ؛ إنَّ للهِ تباركَ وتعالىٰ مجاهدينَ في الأرضِ ، أفضلُ مِنَ الشهداءِ ، أحياءٌ مرزوقونَ ، يمشونَ على الأرضِ ، يباهي اللهُ بِهِمْ ملائكةَ السماءِ ، وتُزيَّنُ لهُمُ الجنَّةُ كما تزيَّنَتْ أمُّ سلمةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ » ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : « هُمُ الآمرونَ بالمعروفِ ، والناهونَ عنِ المنكرِ ، والمحبُّونَ في اللهِ ، والمبغضونَ في اللهِ » ، ثمَّ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ العبدَ منهُمْ ليكونُ في الغرفةِ فوقَ الغرفاتِ فوقَ غُرَفِ الشهداءِ ، للغرفةِ منها ثلاثُ مئةِ ألفِ بابٍ ، منها الياقوتُ والزمردُ الأخضرُ ، علىٰ كلِّ بابٍ نورٌ ، وإنَّ الرجلَ منهُمْ ليُزوَّجُ بثلاثِ مئةِ ألفِ حوراءَ قاصراتِ الطرفِ عينٍ ، كلَّما التفتَ إلىٰ واحدةٍ منهُنَّ فنظرَ إليها.. تقولُ لهُ : أتذكرُ يومَ كذا وكذا أمرتَ بالمعروفِ ونهيتَ عنِ المنكرِ ؟ كلَّما التفتَ إلىٰ واحدةٍ منهُنَّ.. ذكرَتْ لهُ كلَّ مقامٍ أمرَ فيهِ بمعروفٍ ، ونهىٰ فيهِ عنْ منكرٍ »[1] .

وقالَ أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاحِ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الشهداءِ أكرمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالَ : « رجلٌ قامَ إلىٰ والٍ جائرٍ ، أَمرَهُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (الحديث بطوله لم أقف له علىٰ أصل ، وهو منكر) . « إتحاف » (٧/ ١٢) .

بالمعروفِ ونهاهُ عنِ المنكرِ فقتلَهُ ، فإنْ لمْ يقتلْهُ . . فإنَّ القلمَ لا يجري عليهِ بعدَ ذلكَ وإنْ عاشَ ما عاشَ »(١) .

وقالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ شهداءِ أمَّتي رجلٌ قامَ إلىٰ إمامٍ جائرٍ ، فأمرَهُ بالمعروفِ ونهاهُ عنِ المنكرِ فقتلَهُ علىٰ ذلكَ ، فذلكَ الشهيدُ منزلتُهُ في الجنَّةِ بينَ حمزةَ وجعفرٍ »(٢) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « بئسَ القومُ قومٌ لا يأمرونَ بالقسطِ ، وبئسَ القومُ قومٌ لا يأمرونَ بالمعروفِ ولا ينهونَ عنِ المنكرِ »(٣) .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لتأمرنَّ بالمعروفِ ، ولتَنهوُنَّ عنِ المنكرِ أوْ ليسلِّطنَّ اللهُ عليكُمْ سلطاناً ظالماً ، لا يجلُّ كبيرَكُمْ ، ولا يرحمُ

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٣٥٤١) إلىٰ قوله : (فقتله) ، ونعت الحافظ العراقي الزيادة بأنها منكرة . انظر « الإتحاف » (٧/ ١٢) .

(٢) روىٰ نحو هـٰذا من حديث جابر الحاكمُ في « المستدرك » (٣/ ١٩٥) ، ولفظه : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلىٰ إمام جائر فأمره ونهاه ، فقتله » .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ ابن حيان من حديث جابر بسند ضعيف ، وأما حديث عمر . . فأشار إليه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بقوله : وفي الباب ، ورواه علي بن معبد في كتاب « الطاعة والمعصية » من حديث الحسن مرسلاً) . « إتحاف » (٧/ ١٢) .

صغيرَكُمْ ، ويدعو عليهِ خيارُكُمْ فلا يُستجابُ لهُمْ ، وتنتصرونَ فلا تُنصرونَ ، وتستغفرونَ فلا يُغفرُ لكُمْ)[١] .

وسُئِلَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ ميتِ الأحياءِ ، فقالَ : (الذي لا ينكرُ المنكرَ بيدِهِ ، ولا بلسانِهِ ، ولا بقلبِهِ)[٢] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : كانَ حبرٌ مِنْ أحبارِ بني إسرائيلَ يغشى الرجالُ والنساءُ منزلَهُ ، يعظُهُمْ ويذكِّرُهُمْ بأيامِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فرأىٰ بعضَ بنيهِ يوماً وقدْ غمزَ بعضَ النساءِ ، فقالَ : مهلاً يا بنيَّ مهلاً ، فسقطَ مِنْ سريرِهِ ، فانقطعَ نخاعُهُ ، وأسقطَتِ امرأتُهُ ، وقتلَ بنوهُ في الجيشِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ زمانِهِ أنْ أخبرْ فلاناً الحبْرَ أنِّي لا أُخرجُ مِنْ صلبِكَ صدِّيقاً أبداً ، أما كانَ مِنْ غضبِكَ لي إلا أنْ قلتَ : مهلاً يا بنيَّ مهلاً ؟![٣]

وقالَ حذيفةُ : يأتي على الناسِ زمانٌ لأنْ تكونَ فيهِمْ جيفةُ حمارٍ أحبُّ إليهِمْ مِنْ مؤمنٍ يأمرُهُمْ وينهاهُمْ[٤] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ يوشعَ بنِ نونٍ عليهِ السلامُ : إنِّي مهلكٌ مِنْ قومِكَ أربعينَ ألفاً مِنْ خيارِهِمْ وستينَ ألفاً مِنْ شرارِهِمْ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ هؤلاءِ

---

(١) كذا أورده أبو الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٩٧) ، والثعلبي في « تفسيره » (٣/ ١٢٣) ، وتقدم معناه في المرفوع .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧١٨٤) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٧٢) .
(٤) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٣/ ١٢٣) .

الأشرارُ ، فما بالُ الأخيارِ ؟! فقالَ : إنَّهُمْ لمْ يغضبوا لغضبي ، وواكلوهُمْ وشاربوهُمْ[1] .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إنَّ المعصيةَ إذا أُخفيَتْ . . لمْ تضرَّ إلا صاحبَها ، فإذا أُعلنَتْ ولم تُغيَّرْ . . أضرَّتْ بالعامَّةِ)[2] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ لأبي مسلمٍ الخولانيِّ : كيفَ منزلتُكَ مِنْ قومِكَ ؟ قالَ : حسنةٌ ، قالَ كعبٌ : إنَّ التوراةَ لتقولُ غيرَ ذلكَ ! قالَ : وما تقولُ ؟ قالَ : تقولُ : إنَّ الرجلَ إذا أمرَ بالمعروفِ ، ونهىٰ عنِ المنكرِ . . ساءَتْ منزلتُهُ عندَ قومِهِ ، فقالَ : صدقتِ التوراةُ وكذبَ أبو مسلمٍ[3] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما يأتي العمَّالَ ، ثمَّ قعدَ عنهُمْ ، فقيلَ لَه : لوْ أتيتَهُمْ فلعلَّهُمْ يجدونَ في أنفسِهِمْ ، فقالَ : أرهبُ إنْ تكلَّمْتُ أنْ يروا أنَّ الذي بي غيرُ الذي بي ، وإنْ سكتُّ . . رهبتُ أنْ آثمَ[4] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ عجزَ عنِ الأمرِ بالمعروفِ . . فعليهِ أنْ يبعدَ عنْ ذلكَ الموضعِ ويستترَ عنهُ ؛ حتىٰ لا يجريَ بمشهدٍ منهُ .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (أوَّلُ ما تُغلبونَ عليهِ مِنَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٥٠) .

(٣) رواه الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/٢٠٣) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٥٥) .

الجهادِ الجهادُ بأيديكُمْ ، ثمَّ الجهادُ بألسنتِكُمْ ، ثمَّ الجهادُ بقلوبِكُمْ ، فإذا لمْ يعرفِ القلبُ المعروفَ ، ولمْ ينكرِ المنكرَ . . نكسَ ، فجُعلَ أعلاهُ أسفلَهُ)[(١)] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمهُ اللهُ : (أيُّما عبدٍ عملَ في شيءٍ مِنْ دينِهِ بما أُمِرَ بِهِ أوْ نُهِيَ عنهُ ، وتعلَّقَ بهِ عندَ فسادِ الأمورِ وتنكُّرِها وتشوشِ الزمانِ . . فهوَ ممَّنْ قدْ قامَ للهِ في زمانِهِ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ) ، معناهُ : أنَّهُ إذا لمْ يقدرْ إلا علىٰ نفسِهِ ، فقامَ بها ، وأنكرَ أحوالَ الغيرِ بقلبِهِ . . فقدْ جاءَ بما هوَ الغايةُ في حقِّهِ .

وقيلَ للفضيلِ : ألا تأمرُ وتنهى ؟ فقالَ : إنَّ قوماً أمروا ونهوا فكفروا ، وذلكَ أنَّهُمْ لمْ يصبروا علىٰ ما أُصيبوا .

وقيلَ للثوريِّ : ألا تأمرُ بالمعروفِ وتنهىٰ عنِ المنكرِ ؟ فقالَ : إذا انبثقَ البحرُ . . فمَنْ يقدرُ أنْ يسكُرَهُ[(٢)] .

فقدْ ظهرَ بهٰذهِ الأدلَّةِ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ واجبٌ ، وأنَّ فرضَهُ لا يسقطُ معَ القدرةِ إلا بقيامِ قائمٍ بهِ ، فلنذكرِ الآنَ شروطَهُ وشروطَ وجوبِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٧٣٣) .

(٢) رواه أبو بكر الخلال في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٢٠) ، يقال : سَكَر النهر سَكْراً ؛ إذا سدَّه .

البَابُ الثَّاني
في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلمْ : أنَّ الأركانَ في الحِسْبةِ التي هيَ عبارةٌ شاملةٌ للأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ . أربعةٌ : المحتسِبُ ، والمحتسَبُ عليهِ ، والمحتسَبُ فيهِ ، ونفسُ الاحتسابِ[1] .

فهٰذهِ أربعةُ أركانٍ ، ولكلِّ واحدٍ منها شروطٌ .

الركن الأوّل : المحتسِب

ولهُ شروطٌ ؛ وهوَ أنْ يكونَ مكلَّفاً ، مسلماً ، قادراً .

فيخرجُ منهُ : المجنونُ ، والصبيُّ ، والكافرُ ، والعاجزُ[2] ، ويدخلُ فيهِ : آحادُ الرعايا وإنْ لمْ يكونوا مأذونينَ ، ويدخلُ فيهِ : الفاسقُ ، والرقيقُ ، والمرأةُ .

فلنذكرْ وجهَ اشتراطِ ما اشترطناهُ ، ووجهَ اطِّراحِ ما اطَّرحْناهُ .

---

(١) **الحِسبة بالكسر** : اسم من الاحتساب ؛ بمعنىٰ : ادخار الأجر عند الله تعالىٰ .
(٢) زيادة من (ب ، ج) .

أمّا الشرطُ الأوَّلُ وهوَ التكليفُ :

فلا يخفىٰ وجهُ اشتراطِهِ ، فإنَّ غيرَ المكلَّفِ لا يلزمُهُ أمرٌ ، وما ذكرناهُ أردْنا بهِ أنَّهُ شرطُ الوجوبِ ، فأمَّا إمكانُ الفعلِ وجوازُهُ . . فلا يستدعي إلا العقلَ ، حتىٰ إنَّ الصبيَّ المراهقَ للبلوغِ المميِّزَ وإنْ لمْ يكنْ مكلَّفاً فلهُ إنكارُ المنكرِ ، ولهُ أنْ يريقَ الخمرَ ويكسرَ الملاهيَ ، وإذا فعلَ ذلكَ . . نالَ بهِ ثواباً ، ولمْ يكنْ لأحدٍ منعُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ليسَ بمكلَّفٍ ، فإنَّ هـٰذهِ قربةٌ ، وهوَ مِنْ أهلِها ؛ كالصلاةِ والإمامةِ وسائرِ القرباتِ ، وليسَ حكمُهُ حكمَ الولاياتِ ، حتَّىٰ يُشترطَ فيهِ التكليفُ ، ولذلكَ أثبتناهُ للعبدِ وآحادِ الرعيَّةِ .

نعمْ ، في المنعِ بالفعلِ وإبطالِ المنكرِ نوعُ ولايةٍ وسلطنةٍ ، ولكنَّها تُستفادُ بمجرَّدِ الإيمانِ ؛ كقتلِ المشركِ وإبطالِ أسبابِهِ وسلْبِ أسلحتِهِ ، فإنَّ للصبيِّ أنْ يفعلَ ذلكَ حيثُ لا يستضرُّ بهِ ، فالمنعُ عنِ الفسقِ كالمنعِ عنِ الكفرِ .

* * *

وأمَّا الشرطُ الثاني وهوَ الإيمانُ :

فلا يخفىٰ وجهُ اشتراطِهِ ؛ لأنَّ هـٰذا نصرةٌ للدينِ ، فكيفَ يكونُ مِنْ أهلِهِ مَنْ هوَ جاحدٌ لأصلِ الدينِ وعدوٌّ لهُ ؟!

* * *

وأمَّا الشرطُ الثالثُ وهوَ العدالةُ :

فقدِ اعتبرَها قومٌ ، وقالوا : ليسَ للفاسقِ أنْ يحتسِبَ ، وربَّما استدلوا فيهِ

بالنكيرِ الواردِ علىٰ مَنْ يأمرُ بما لا يفعلُهُ ؛ مثلَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وبما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مررتُ ليلةَ أُسريَ بي بقومٍ تُقرضُ شفاهُهُمْ بمقاريضَ مِنْ نارٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتُمْ ، فقالوا : كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نأتيهِ ، وننهىٰ عنِ الشرِّ ونأتيهِ »(١) ، وبما رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا بنَ مريمَ ؛ عِظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظتَ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي)(٢) .

وربما استدلوا مِنْ طريقِ القياسِ بأنَّ هدايةَ الغيرِ فرعٌ للاهتداءِ ، فكذلكَ تقويمُ الغيرِ فرعٌ للاستقامةِ ، والإصلاحُ زكاةٌ عنْ نصابِ الصلاحِ ، فمَنْ ليسَ بصالحٍ في نفسِهِ . . فكيفَ يصلحُ غيرَهُ ؟ ومتىٰ يستقيمُ الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟

وكلُّ ما ذكروهُ خيالاتٌ ، وإنَّما الحقُّ أنَّ للفاسقِ أنْ يحتسبَ .

وبرهانُهُ : هوَ أنْ نقولَ : هلْ يُشترطُ في الاحتسابِ أنْ يكونَ متعاطيهِ معصوماً عنِ المعاصي كلِّها ؟ فإنْ شُرطَ ذلكَ . . فهوَ خرقٌ للإجماعِ ، ثمَّ حسمٌ لبابِ الاحتسابِ ؛ إذْ لا عصمةَ للصحابةِ فضلاً عمَّنْ دونَهُمْ ، والأنبياءُ عليهِمُ السلامُ قدِ اختلفَ في عصمتِهِمْ عنِ الخطايا ، والقرآنُ العزيزُ دالٌّ علىٰ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٢٠) بنحوه .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .

نسبةِ آدمَ عليهِ السلامُ إلى المعصيةِ ، وكذا جماعةٌ مِنَ الأنبياءِ[1] ، ولهـٰذا قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (إنْ لمْ يأمرْ بالمعروفِ ولمْ ينهَ عنِ المنكرِ إلا مَنْ لا يكونُ فيهِ شيءٌ . . لمْ يأمرْ أحدٌ بشيءٍ) ، فأعجبَ مالكاً ذلكَ مِنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ .

وإنْ زعموا أنَّ ذلكَ لا يُشترطُ عنِ الصغائرِ[2] ، حتَّىٰ يجوزُ للابسِ الحريرِ أنْ يمنعَ مِنَ الزنا وشربِ الخمرِ . . فنقولُ : وهلْ لشاربِ الخمرِ أنْ يغزوَ الكفَّارَ ويحتسبَ عليهِمْ بالمنعِ مِنَ الكفرِ ؟

فإنْ قالوا : لا . . خرقوا الإجماعَ ؛ إذْ جنودُ المسلمينَ لمْ تزلْ مشتملةً على البرِّ والفاجرِ وشاربِ الخمرِ وظالمِ الأيتامِ ، ولمْ يُمنعوا مِنَ الغزوِ ،

---

(١) الخلاف واقع في العصمة عن الصغائر ، وهو رأي الإمام الغزالي في بعض كتبه الكلامية ، قال في « الاقتصاد » (ص ٢٨٦) : (فإن عصمة الأنبياء عن الكبائر عرفت شرعاً ، وعن الصغائر مختلف فيها) ، وهو رأي شيخه إمام الحرمين الجويني ، حيث قال في « الإرشاد » (ص ٣٥٦) حين حرَّج نفسه : أيهما أغلب جواز وقوع الصغائر أو عدمها ؟ قال : (الأغلب على الظن عندنا جوازها ، وقد شهدت أقاصيص الأنبياء في آي من كتاب الله تعالىٰ علىٰ ذلك ، فالله أعلم بالصواب) ، وللعلامة المتكلم عبد الكريم الشهرستاني كلمة بديعة ، حيث قال في « نهاية الإقدام » (ص ٤٤٥) : (**والأصح** : أنهم معصومون عن الصغائر عصمتهم عن الكبائر ، فإن الصغائر إذا توالت . . صارت بالاتفاق كبائر ، وما أسكر كثيره . . فقليله حرام ، لكن المجوَّز عليهم عقلاً وشرعاً مثل ترك الأولىٰ من الأمرين المتقابلين جوازاً وجوازاً ، وحظراً وحظراً ، ولكن التشديد عليهم في ذلك القدر يوازي التشديد علىٰ غيرهم في كبائر الأمور ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وتحت كل زلة يجري عليهم سر عظيم ، فلا تلتفت إلىٰ ظواهر الأحوال ، وانظر إلىٰ سرائر المآل) .

(٢) في (ب) : (وإن زعموا أن ذلك لا يشترط فيه العصمة عن الصغائر) .

لا في عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا بعدَهُ .

وإنْ قالوا : نعمْ . . فنقولُ : شاربُ الخمرِ هلْ لهُ أنْ يمنعَ مِنَ القتلِ أمْ لا ؟

فإنْ قالوا : لا . . قلنا : فما الفرقُ بينَهُ وبينَ لابسِ الحريرِ ؟! إذْ جازَ لهُ المنعُ مِنَ الخمرِ ، والقتلُ كبيرةٌ بالنسبةِ إلى الشربِ ، كالشربِ بالنسبةِ إلىٰ لبسِ الحريرِ ، فلا فرقَ .

وإنْ قالوا : نعم ، وفصَّلوا الأمرَ فيهِ ؛ بأنَّ كلَّ مقدِمٍ علىٰ شيءٍ فلا يمنعُ عنْ مثلِهِ ولا عمَّا دونَهُ ، وإنما يمنعُ عمَّا فوقَهُ . . فهٰذا تحكُّمٌ ؛ فإنَّهُ كما لا يبعُد أنْ يمنعَ الشاربُ مِنَ الزنا والقتلِ فمِنْ أينَ يبعدُ أنْ يمنعَ الزاني مِنَ الشربِ ؟ بلْ مِنْ أينَ يبعدُ أنْ يشربَ ويمنعَ غلمانَهُ وخدمَهُ منَ الشربِ ، ويقولَ : يجبُ عليَّ الانتهاءُ والنهيُ ، فمن أين يلزمُني بالعصيانِ بأحدِهِما أنْ أعصيَ اللهَ تعالىٰ بالثاني ؟! وإذْ كانَ النهيُ واجباً عليَّ ، فمِنْ أينَ سقطَ وجوبُهُ بإقدامي ؟! إذْ يستحيلُ أنْ يُقالَ : يجبُ النهيُ عنْ شربِ الخمرِ عليهِ ما لمْ يشربْ ، فإذا شربَ . . سقطَ عنهُ النهيُ !

* * *

فإنْ قيلَ : فيلزمُ علىٰ هٰذا أَنْ يقولَ القائلُ : الواجبُ عليَّ الوضوءُ والصلاةُ ، فأنا أتوضَّأُ وإنْ لمْ أصلِّ ، وأتسحَّرُ وإنْ لمْ أصمْ ؛ لأنَّ المستحبَّ ليَ الصومُ والسحورُ جميعاً ، ولكنْ يُقالُ : أحدُهُما مرتَّبٌ على الآخرِ ،

فكذلكَ تقويمُ الغيرِ مرتَّبٌ علىٰ تقويمِهِ نفسَهُ ، فليبدأْ بنفسِهِ ثمَّ بمَنْ يعولُ .

فالجوابُ : أنَّ التسحُّرَ يُرادُ للصوم ، ولولا الصومُ . . لما كانَ التسحُّرُ مستحبّاً ، وما يُرادُ لغيرِهِ لا ينفكُّ عنْ ذلكَ الغيرِ ؛ وإصلاحُ الغيرِ لا يُرادُ لإصلاحِ النفسِ ، ولا إصلاحُ النفسِ لإصلاحِ الغيرِ ، فالقولُ بترتُّبِ أحدِهِما على الآخرِ تحكُّمٌ .

وأمَّا الوضوءُ والصلاةُ . . فهوَ لازمٌ ، فلا جرمَ أنَّ مَنْ توضَّأَ ولمْ يصلِّ كانَ مؤدِّياً أمرَ الوضوءِ ، وكانَ عقابُهُ أقلَّ مِنْ عقابِ تركِ الوضوءِ والصلاةِ جميعاً ، فليكنْ مَنْ تركَ النهيَ والانتهاءَ أكثرَ عقاباً ممَّنْ نهىٰ ولمْ ينتهِ ، كيفَ والوضوءُ شرطٌ لا يُرادُ لنفسِهِ ، بلْ للصلاةِ ، فلا حكمَ لهُ دونَ الصلاةِ ، فأمَّا الحِسبةُ . . فليسَتْ شرطاً في الانتهاءِ والائتمارِ ، فلا مشابهةَ بينَهُما .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فيلزمُ علىٰ هـٰذا أنْ يُقالَ : إذا زنى الرجلُ بامرأةٍ وهيَ مكرهةٌ مستورةُ الوجهِ ، فكشفَتْ وجهَها باختيارِها ، فأخذَ الرجلُ يحتسبُ في أثناءِ الزنا ويقولُ : أنتِ مكرهةٌ في الزنا ، ومختارةٌ في كشفِ الوجهِ لغيرِ مَحْرَمٍ ، وهـٰأنا غير محرمٍ لكِ ، فاستري وجهَكِ ، فهـٰذا احتسابٌ شنيعٌ يستنكرُهُ قلبُ كلِّ عاقلٍ ، ويستبشعُهُ كلُّ طبعٍ سليمٍ !

فالجوابُ : أنَّ الحقَّ قدْ يكونُ شنيعاً ، وأنَّ الباطلَ قدْ يكونُ مستحسناً بالطباعِ ، والمتبعُ الدليلُ دونَ نفرةِ الأوهامِ والخيالاتِ ، فإنَّا نقولُ : قولُهُ

لها في تلكَ الحالةِ : (لا تكشفي وجهَكِ) واجبٌ ، أوْ مباحٌ ، أو حرامٌ ؟

فإنْ قلتُمْ : (إنَّهُ واجبٌ) . . فهوَ الغرضُ ؛ لأنَ الكشفَ معصيةٌ ، والنهيُ عنِ المعصيةِ حقٌّ .

وإنْ قلتُمْ : (إنَّهُ مباحٌ) . . فإذاً لهُ أنْ يقولَ ما هوَ مباحٌ ، فما معنىٰ قولِكُمْ : (ليسَ للفاسقِ الحِسبةُ) ؟

وإنْ قلتُمْ : (إنَّهُ حرامٌ) . . فنقولُ : كان هـٰذا واجباً ، فمِنْ أينَ حَرُمَ بإقدامِهِ على الزنا ؟! ومِنَ الغريبِ أنْ يصيرَ الواجبُ حراماً بسببِ ارتكابِ حرامٍ آخرَ !

* * *

وأمَّا نفرةُ الطباعِ عنهُ واستنكارُها لهُ . . فهوَ لسببينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ تركَ الأهمَّ واشتغلَ بما هوَ مهمٌّ ، وكما أنَّ الطباعَ تنفرُ عنْ تركِ المهمِّ إلىٰ ما لا يعني . . فتنفرُ أيضاً عنْ تركِ الأهمِّ والاشتغالِ بالمهمِّ ، كما تنفرُ عمَّنْ يتحرَّجُ عنْ تناولِ طعامٍ مغصوبٍ وهوَ مواظبٌ على الربا ، وكما تنفرُ عمَّنْ يتصاونُ عنِ الغيبةِ ويشهدُ بالزورِ ؛ لأنَّ الشهادةَ بالزورِ أفحشُ وأشدُّ مِنَ الغيبةِ التي هيَ إخبارٌ عنْ كائنٍ يصدقُ فيهِ المخبرُ ، وهـٰذا الاستبعادُ في النفوسِ لا يدلُّ علىٰ أنَّ تركَ الغيبةِ ليسَ بواجبٍ وأنَّهُ لوِ اغتابَ أوْ أكلَ لقمةً مِنْ حرامٍ . . لمْ تزدْ بذلكَ عقوبتُهُ ، فكذلكَ ضررُهُ في الآخرةِ مِنْ معصيتِهِ أكثرُ مِنْ ضررِهِ مِنْ معصيةِ غيرِهِ ، فاشتغالُهُ بالأقلِّ عنِ الأكثرِ مستنكرٌ

في الطبع مِنْ حيثُ إنَّهُ تركَ الأكثرَ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ أتىٰ بالأقلِّ .

فمَنْ غُصِبَ فرسُهُ ولجامُ فرسِهِ ، فاشتغلَ بطلبِ اللجامِ وتركَ الفرسَ . . نفرَتْ عنهُ الطباعُ ، ويُرىٰ مسيئاً إذْ قدْ صدرَ منهُ طلبُ اللجامِ ، وهوَ غيرُ منكرٍ مِنْ هـٰذا الوجهِ ، ولكنِ المنكرُ تركُهُ لطلبِ الفرسِ بطلبِ اللجامِ ، فاشتدَّ الإنكارُ عليهِ لتركِهِ الأهمَّ بما هوَ دونَهُ ؛ فكذلكَ حِسبةُ الفاسقِ تُستبعدُ مِنْ هـٰذا الوجهِ ، وهـٰذا لا يدلُّ علىٰ أنَّ حِسبتَهُ مِنْ حيثُ إنَّها حِسبةٌ مستنكرةٌ .

الثاني : أنَّ الحِسبةَ تارةً تكونُ بالنهيِ بالوعظِ ، وتارةً بالقهرِ ، ولا ينجعُ وعظُ مَنْ لا يتعظُ أوَّلاً ، ونحنُ نقولُ : مَنْ علمَ أنَّ قولَهُ لا يُقبلُ في الحِسبةِ لعلمِ الناسِ بفسقِهِ . . فليسَ عليهِ الحسبةُ بالوعظِ ؛ إذْ لا فائدةَ في وعظِهِ ، فالفسقُ يؤثِّرُ في إسقاطِ فائدةِ كلامِهِ ، ثمَّ إذا سقطَتْ فائدةُ كلامِهِ . . سقطَ وجوبُ الكلامِ .

فأمَّا إذا كانَتِ الحِسبةُ بالمنعِ . . فالمرادُ منهُ القهرُ ، وتمامُ القهرِ أنْ يكونَ بالفعلِ والحجَّةِ جميعاً ، وإذا كانَ فاسقاً . . فإنْ قهرَ بالفعلِ فقدْ قهرَ بالحجَّةِ ، إذْ يتوجَّهُ عليهِ ؟ أنْ يُقالَ لهُ : فأنتَ لِمَ تقدمُ عليهِ فتنفرُ الطباعُ عنْ قهرِهِ بالفعلِ معْ كونِهِ مقهوراً بالحجَّةِ ، وذلكَ لا يخرجُ الفعلَ عنْ كونِهِ حقّاً ، كما أنَّ مَنْ يذبُّ الظالمَ عنْ آحادِ المسلمينَ ويهملُ أباهُ وهوَ مظلومٌ معَهُمْ تنفرُ الطباعُ عنهُ ، ولا يخرجُ دفعُهُ عنِ المسلمِ عنْ كونِهِ حقّاً .

فخرجَ مِنْ هـٰذا أنَّ الفاسقَ ليسَ عليهِ الحِسبةُ بالوعظِ علىٰ مَنْ يعرفُ

فسقَهُ ؛ لأنَّهُ لا يتعظُ ، وإذا لمْ يكنْ عليهِ ذلكَ وعلمَ أنَّهُ يفضي إلىٰ تطويلِ اللسانِ في عرضِهِ بالإنكارِ . . فنقولُ : ليسَ لهُ ذلكَ أيضاً ، فرجعَ الكلامُ إلىٰ أنَّ أحدَ نوعيِ الاحتسابِ ـ وهوَ الوعظيُّ ـ قدْ بطلَ بالفسقِ ، وصارَتِ العدالةُ مشروطةً فيهِ .

وأمَّا الحِسبةُ القهريةُ . . فلا يُشترطُ فيها ذلكَ ، فلا حجرَ على الفاسقِ في إراقةِ الخمورِ وكسْرِ الملاهي وغيرِها إذا قدرَ ، وهٰذا غايةُ الإنصافِ والكشفِ في المسألةِ .

وأمّا الآياتُ التي استدلُّوا بها . . فهوَ إنكارٌ عليهِمْ مِنْ حيثُ تركُهُمُ المعروفَ ، لا مِنْ حيثُ أمرُهُم بهِ ، ولكنَّ أمرَهُمْ دلَّ علىٰ قوّةِ علمِهِمْ ، وعقابُ العالمِ أشدُّ ؛ لأنَّهُ لا عذرَ لهُ معَ قوّةِ علمِهِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ المرادُ بهِ : الوعدُ الكاذبُ[١] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ إنكارٌ مِنْ حيثُ إنَّهُمْ نسوا أنفسَهُمْ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُمْ أمروا غيرَهُمْ ، ولكنْ ذكرَ أمرَ الغيرِ استدلالاً بهِ علىٰ علمِهِمْ وتأكيداً للحجَّة عليهِمْ .

وقولُهُ تعالىٰ : (يا بنَ مريمَ ؛ عِظْ نفسَكَ) الحديثَ . . هوَ في الحِسبةِ بالوعظِ ، وقدْ سلَّمْنا أنَّ وعظَ الفاسقِ ساقطُ الجدوىٰ عندَ مَنْ يعرفُ فسقَهُ ،

(١) فهو ليس من باب الحسبة ، وانظر « تفسير الطبري » (١٤/ ٢٨/ ١٠٣) .

ثمَّ قولُهُ : (فاستحيِ منِّي) لا يدلُّ علىٰ تحريمِ وعظِ الغيرِ ، بلْ معناهُ : استحيِ منِّي فلا تتركِ الأهمَّ وتشتغلَ بالمهمِّ ، كما يُقالُ : احفظْ أباكَ ثمَّ جارَكَ وإلا . . فاستحيِ .

* * *

فإنْ قيلَ : فليجزْ للكافرِ الذميِّ أنْ يحتسبَ على المسلمِ إذا رآهُ يزني ؛ لأنَّ قولَهُ : (لا تزنِ) حقٌّ في نفسِهِ ، فمحالٌ أنْ يكونَ حراماً عليهِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ مباحاً أوْ واجباً .

قلنا : الكافرُ إنْ منعَ المسلمَ بفعلِهِ . . فهوَ تسلُّطٌ عليهِ ، فيمنعُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ تسلُّطٌ ، وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، وأمَّا مجرَّدُ قولِهِ : (لا تزنِ) . . فليسَ بمحرَّمٍ عليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ نهيٌ عنِ الزنا ، ولكنْ مِنْ حيثُ إنَّهُ إظهارُ دالَّةِ الاحتكامِ على المسلمِ ، وفيهِ إذلالٌ للمتحكَّمِ عليهِ والفاسقُ يستحقُّ الإذلالَ ، ولكنْ لا مِنَ الكافرِ الذي هوَ أولىٰ بالذلِّ منهُ .

فهٰذا وجهُ منعِنا إيَّاهُ مِنَ الحِسبةِ ، وإلا . . فلسنا نقولُ : إنَّ الكافرَ يُعاقبُ بسببِ قولِهِ : (لا تزنِ) مِنْ حيثُ إنَّهُ نهيٌ ، بلْ نقولُ : إنَّهُ إذا لمْ يقلْ : (لا تزنِ) يُعاقبُ عليهِ إنْ رأينا خطابَ الكافرِ بفروعِ الدينِ ، وفيهِ نظرٌ استوفيناهُ في الفقهياتِ ، وليسَ يليقُ بغرضِنا الآنَ .

* * *

الشرطُ الرابعُ : كونُهُ مأذوناً مِنْ جهةِ الإمامِ والوالي :

فقدْ شرطَ قومٌ هـٰذا الشرطَ ، ولمْ يثبتوا للآحادِ مِنَ الرعيَّةِ الحِسبةَ ، **وهـٰذا الاشتراطُ فاسدٌ** ؛ فإنَّ الآياتِ والأخبارَ التي أوردْناها تدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ مَنْ رأىٰ منكراً فسكتَ عليهِ . . عصىٰ ؛ إذْ يجبُ نهيُهُ أينَما رآهُ وكيفَما رآهُ على العمومِ ، والتخصيصُ بشرطِ التفويضِ مِنَ الإمامِ تحكُّمٌ لا أصلَ لهُ .

والعجبُ أنَّ الروافضَ زادوا علىٰ هـٰذا ، فقالوا : لا يجوزُ الأمرُ بالمعروفِ ما لمْ يخرجِ الإمامُ المعصومُ ، وهوَ الإمامُ الحقُّ عندَهُمْ ، وهؤلاءِ أخسُّ رتبةً مِنْ أنْ يُكلَّموا ، بلْ جوابُهُمْ أنْ يُقالَ لهم إذا جاؤوا إلى القضاةِ طالبينَ لحقوقِهِمْ في دمائِهِمْ وأموالِهِمْ : إنَّ نصرتَكُمْ أمرٌ بالمعروفِ ، واستخراجَ حقوقِكُمْ مِنْ أيدي مَنْ ظلمَكُمْ نهيٌ عنِ المنكرِ ، وطلبَكُمْ لحقِّكُمْ مِنْ جملةِ المعروفِ ، وما هـٰذا زمانَ النهيِ عنِ الظلمِ وطلبِ الحقوقِ ؛ لأنَّ الإمامَ الحقَّ بعدُ لمْ يخرجْ !

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : في الأمرِ بالمعروفِ إثباتُ سلطنةٍ وولايةٍ ، واحتكامٌ على المحكومِ عليهِ ، ولذلكَ لمْ يثبتْ للكافرِ على المسلمِ معَ كونِهِ حقّاً ، فينبغي ألا يثبتَ لآحادِ الرعيَّةِ إلا بتفويضٍ مِنَ الوالي وصاحبِ الأمرِ .

فنقولُ : أمَّا الكافرُ . . فممنوعٌ ؛ لما فيهِ مِنَ السلطنةِ وعزِّ الاحتكامِ ، والكافرُ ذليلٌ لا يستحقُّ أنْ ينالَ عزَّ التحكُّمِ على المسلمِ .

وأمّا آحادُ المسلمينَ . . فيستحقُّونَ هٰذا العزَّ بالدينِ والمعرفةِ ، وما فيهِ مِنْ عزِّ السلطنةِ والاحتكامِ لا يحوجُ إلىٰ تفويضٍ ، كعزِّ التعليمِ والتعريفِ ؛ إذْ لا خلافَ في أنَّ تعريفَ التحريمِ والإيجابِ لِمَنْ هوَ جاهلٌ ومقدمٌ على المنكرِ بجهلِهِ . . لا يحتاجُ إلىٰ إذْنِ الوالي ، وفيهِ عزُّ الإرشادِ وعلى المعرَّفِ ذلُّ التجهيلِ ، وذلكَ يكفي فيهِ مجرَّدُ الدينِ ؛ فكذلكَ النهيُ .

***

وشرحُ القولِ في هٰذا : أنَّ الحسبةَ لها خمسُ مراتبَ كما سيأتي :

أولاها : التعريفُ .

والثانيةُ : الوعظُ بالكلامِ اللطيفِ .

والثالثةُ : السبُّ والتعنيفُ ، ولستُ أعني بالسبِّ الفحشَ ، بلْ أنْ يقولَ : يا جاهلُ ، يا أحمقُ ، يا فاسقُ ؛ ألا تخافُ مِنَ اللهِ ؟ وما يجري هٰذا المجرىٰ .

والرابعةُ : المنعُ بالقهرِ بطريقِ المباشرةِ ؛ ككسرِ الملاهي ، وإراقةِ الخمرِ ، واختطافِ الثوبِ الحريرِ مِنْ بدنِهِ[1] ، واستلابِ الثوبِ المغصوبِ منهُ وردِّهِ علىٰ صاحبِهِ .

والخامسةُ : التخويفُ والتهديدُ بالضربِ ، أوْ مباشرةُ الضربِ لهُ حتَّىٰ يمتنعَ عمَّا هوَ عليهِ ؛ كالمواظبِ على الغيبةِ والقذفِ ، فإنَّ سلبَ لسانِهِ غيرُ ممكنٍ ، ولكنْ يُحملُ على اختيارِ السكوتِ بالضربِ ، وهٰذا قدْ يحوجُ إلى

(١) في غير (أ) : (من رأسه) ، وفي (ق) : (من لابسه) .

استعانةٍ وجمعِ أعوانٍ مِنَ الجانبينِ ، ويجرُّ ذلكَ إلىٰ قتالٍ .

وسائرُ المراتبِ لا يخفىٰ وجهُ استغنائها عنْ إذنِ الإمامِ إلا المرتبةَ الخامسةَ ، فإنَّ فيها نظراً سيأتي .

* * *

أمَّا التعريفُ والوعظُ . . فكيفَ يحتاجُ إلىٰ إذنِ الإمامِ ؟! وأمَّا التجهيلُ والتحميقُ والنسبةُ إلى الفسقِ وقلَّةِ الخوفِ مِنَ اللهِ وما يجري مجراهُ . . فهوَ كلامٌ صدقٌ ، والصدقُ مستحقٌّ ، بلْ أفضلُ الدرجاتِ كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ كما وردَ في الحديثِ[1] ، فإذا جازَ الحكمُ على الإمامِ علىٰ مراغمتِهِ . . فكيفَ يُحتاجُ إلىٰ إذنِهِ ؟! وكذلكَ كسرُ الملاهي وإراقةُ الخمورِ فإنَّهُ تعاطي ما يُعرفُ كونُهُ حقّاً مِنْ غيرِ اجتهادٍ ، فلمْ يفتقرْ إلى الإمامِ .

فأمَّا جمعُ الأعوانِ وشهرُ الأسلحةِ . . فذلكَ قدْ يجرُّ إلىٰ فتنةٍ عامَّةٍ ، ففيهِ نظرٌ سيأتي .

واستمرارُ عاداتِ السلفِ على الحِسبةِ على الولاةِ قاطعٌ بإجماعِهِمْ على الاستغناءِ عنِ التفويضِ ، بلْ كلُّ مَنْ أمرَ بمعروفٍ ؛ فإنْ كانَ الوالي راضياً بهِ . . فذاكَ ، وإنْ كانَ ساخطاً لهُ . . فسخطُهُ لهُ منكرٌ يجبُ الإنكارُ عليهِ ، فكيفَ يُحتاجُ إلىٰ إذنِهِ في الإنكارِ عليهِ ؟!

ويدلُّ علىٰ ذلكَ عادةُ السلفِ في الإنكارِ على الأئمةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٣٤٤) ، والترمذي (٢١٧٤) ، وابن ماجه (٤٠١١) .

أجمعينَ ؛ كما رُوِيَ أنَّ مروانَ بنَ الحكمِ خطبَ قبلَ الصلاةِ في العيدِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : إنَّما الخطبةُ بعدَ الصلاةِ ، فقالَ لهُ مروانُ : تُرِكَ ذلكَ يا أبا فلانٍ ، فقالَ أبو سعيدٍ : أمَّا هـٰذا . . فقدْ قضىٰ ما عليهِ ، قالَ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رأىٰ منكُمْ منكراً . . فلينكرْهُ بيدِهِ ، فإنْ لمْ يستطعْ . . فبلسانِهِ ، فإنْ لمْ يستطعْ . . فبقلبِهِ ، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ »[1] ، فلقدْ كانوا فهموا مِنْ هـٰذهِ العموماتِ دخولَ السلاطينِ تحتَها ، فكيفَ يُحتاجُ إلىٰ إذنِهِمْ ؟!

ورُوِيَ أنَّ المهديَّ لمَّا قدمَ مكةَ . . لبثَ بها ما شاءَ اللهُ ، فلمَّا أخذَ في الطوافِ . . نحّى الناسَ عنِ البيتِ ، فوثبَ عبدُ اللهِ بنُ مرزوقٍ فلبَّبَهُ بردائِهِ ثمَّ هزَّهُ وقالَ لهُ : انظرْ ما تصنعُ ! مَنْ جعلَكَ بهـٰذا البيتِ أحقَّ ممَّنْ أتاهُ مِنَ البعدِ أوِ القربِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ ، حتَّىٰ إذا صارَ عندَهُ حُلْتَ بينَهُ وبينَهُ ؟! مَنْ جعلَ لكَ هـٰذا ؟! فنظرَ في وجهِهِ وكانَ يعرفُهُ لأنَّهُ مِنْ مواليهِمْ ، فقالَ : أعبدُ اللهِ بنُ مرزوقٍ ؟ قالَ : نعمْ ، فأُخِذَ ، فجيءَ بهِ إلىٰ بغدادَ ، فكرهَ أنْ يُعاقبَهُ عقوبةً يشنَّعُ عليهِ بها في العامَّةِ ، فجعلَهُ في إصطبلِ الدوابِّ ليسوسَ الدوابَّ ، وضمُّوا إليهِ فرساً عَضوضاً سيِّءَ الخلقِ ليعقِرَهُ الفرسُ ، فليَّنَ اللهُ تعالىٰ لهُ الفرسَ ، قالَ : ثمَّ صيَّروهُ إلىٰ بيتٍ وأغلقُوا عليهِ وأخذَ المهديُّ المفتاحَ عندَهُ ، فإذا هوَ قدْ خرجَ بعدَ ثلاثٍ إلى البستانِ يأكلُ البقلَ ، فأُوذِنَ بهِ المهديُّ ، فقالَ لهُ : مَنْ أخرجَكَ ؟ قالَ :

(١) رواه مسلم (٤٩) .

الذي حبسَني ، فضجَّ المهديُّ وصاحَ وقالَ : ما أخلقَ بنا أنْ نقتلَكَ ! فرفعَ عبدُ اللهِ إليهِ رأسَهُ يضحكُ وهوَ يقولُ : لوْ كنتَ تملكُ حياةً أوْ موتاً ، فما زالَ محبوساً حتَّىٰ ماتَ المهديُّ ، ثمَّ خلوا عنهُ ، ورجعَ إلىٰ مكَّةَ ، قالَ : وكانَ قدْ جعلَ علىٰ نفسهِ نذراً إنْ خلَّصَهُ اللهُ مِنْ أيديهِمْ أنْ ينحرَ مئة بَدنةٍ ، فكانَ يعملُ في ذلكَ حتَّىٰ نحرَها(١) .

ورُوِيَ عنْ حبانَ بنِ عبدِ اللهِ قالَ : تنزَّهَ هارونُ الرشيدُ بالدَّوِينِ ومعَهُ رجلٌ مِنْ بني هاشمٍ ، وهوَ سليمانُ بنُ أبي جعفرٍ ، فقالَ لهُ هارونُ : قدْ كانَتْ لكَ جاريةٌ تغنِّي فتحسنُ ، فجئْنا بها ، قالَ : فجاءَتْ فغنَّتْ ، فلمْ يحمدْ غناءَها ، فقالَ لها : ما شأنُكِ ؟ فقالَتْ : ليسَ هـٰذا عودي ، فقالَ للخادمِ : جئْها بعودِها ، قالَ : فجاءَ بالعودِ ، فوافقَ شيخاً يلقطُ النوىٰ ، فقالَ : الطريقَ يا شيخُ ؛ فرفعَ الشيخُ رأْسَهُ ، فرأى العودَ ، فأخذَهُ مِنَ الخادمِ فضربَ بهِ الأرضَ وكسرَهُ ، فأخذَهُ الخادمُ وذهبَ بهِ إلىٰ صاحبِ الربعِ ، فقالَ : احتفظْ بهـٰذا ، فإنَّهُ طلبةُ أميرِ المؤمنينَ ، فقالَ لهُ صاحبُ الربعِ : ليسَ ببغدادَ أعبدُ مِن هـٰذا ، فكيفَ يكونُ طلبةَ أميرِ المؤمنينَ ؟! فقالَ لهُ : اسمعْ ما أقولُ لكَ ، ثمَّ دخلَ علىٰ هارونَ ، فقالَ : إنِّي مررتُ علىٰ شيخٍ يلقطُ النوىٰ ، فقلتُ لهُ : الطريقَ ، فرفعَ رأسَهُ ، فرأى العودَ ، فأخذَهُ ، فضربَ بهِ الأرضَ فكسرَهُ ، فاستشاطَ هارونُ غضباً واحمرَّتْ عيناهُ ، فقالَ لهُ سليمانُ بنُ أبي جعفرٍ :

---

(١) الإمامة والسياسة (ص ٣٢٠) ، ذكر فيه ابن قتيبة إنكاره علىٰ أبي جعفر المنصور وعلى المهدي من بعده .

ما هـٰذا الغضبُ يا أميرَ المؤمنينَ ! ابعثْ إلىٰ صاحبِ الربعِ يضربْ عنقَهُ ويرمِ بهِ في الدجلةِ ، فقالَ : لا ، ولكنْ نبعثُ إليهِ ونناظرُهُ أوّلاً ، فجاءَ الرسولُ فقالَ : أجبْ أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : نعمْ ، قالَ : اركبْ ، قالَ : لا ، فجاءَ يمشي حتَّىٰ وقفَ علىٰ بابِ القصرِ ، فقيلَ لهارونَ : قدْ جاءَ الشيخُ ، فقالَ للندماءِ : أيَّ شيءٍ ترونَ ؟ نرفعُ ما هـٰهنا مِنَ المنكرِ حتَّىٰ يدخلَ هـٰذا الشيخُ أوْ نقومُ إلىٰ مجلسٍ آخرَ ليسَ فيهِ منكرٌ ؟ فقالوا لهُ : نقومُ إلىٰ مجلسٍ آخرَ ليسَ فيهِ منكرٌ أصلحُ ، فقاموا إلىٰ مجلسٍ ليسَ فيهِ منكرٌ ، ثمَّ أمرَ بالشيخِ فأدخلَ وفي كمِّهِ الكيسُ الذي فيهِ النوىٰ ، فقالَ لهُ الخادمُ : أخرجْ هـٰذا مِنْ كمِّكَ وادخلْ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، فقالَ : مِنْ هـٰذا عشائي الليلةَ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، قالَ : نحنُ نعشِّيكَ ، قالَ : لا حاجةَ لي إلىٰ عشائِكُمْ ، فقالَ هارونُ للخادمِ : أيَّ شيءٍ تريدُ منهُ ، فقالَ : في كمِّهِ نوىً ، فقلتُ لهُ : اطرحْهُ وادخلْ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، فقالَ : دعْهُ لا يطرحْهُ ، فدخلَ ، فسلَّمَ ، ثم جلسَ ، فقالَ لهُ هارونُ : يا شيخُ ؛ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ ، قالَ : وأيَّ شيءٍ صنعتُ ؟ وجعلَ هارونُ يستحي أنْ يقولَ : كسرتَ عودَنا ، فلمَّا أكثرَ عليهِ . . قالَ : إنِّي سمعتُ أباكَ وأجدادَكَ يقرؤون هـٰذهِ الآيةَ على المنبرِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ ، وأنا رأيتُ منكراً فغيَّرتُهُ ، فقالَ : فغيِّرْهُ ، فواللهِ ما قالَ إلا هـٰذا ، فلما خرجَ . . أعطىٰ الخليفةُ رجلاً بدرةً وقالَ : اتبعِ الشيخَ ، فإنْ رأيتَهُ يقولُ : قلتُ لأميرِ المؤمنينَ وقالَ لي . . فلا تعطِهِ شيئاً ، وإنْ رأيتَهُ لا يكلِّمُ أحداً . . فأعطِهِ

البدرةَ ، فلمَّا خرجَ مِنَ القصرِ . . فإذا هوَ بنواةٍ في الأرضِ قدْ غاصَتْ ، فجعلَ يعالجُها ولمْ يكلِّمْ أحداً ، فقالَ لهُ : يقولُ لكَ أميرُ المؤمنينَ : خذْ هٰذهِ البدرةَ ، فقالَ : قلْ لأميرِ المؤمنينَ يردُّها مِنْ حيثُ أخذَها .

ورُوِيَ أنَّهُ أقبلَ بعدَ فراغِهِ مِنْ كلامِهِ على النواةِ يعالجُ قلعَها مِنَ الأرضِ وهوَ يقولُ(١) : [من الوافر]

أَرَى ٱلدُّنْيا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ ... هُمُوماً كُلَّما كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِينُ ٱلْمُكْرِمِينَ لَها بِصُغْرٍ ... وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هانَتْ عَلَيْهِ
إِذا ٱسْتَغْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعْهُ ... وَخُذْ ما أَنْتَ مُحْتاجٌ إِلَيْهِ

وعنْ سفيانَ الثوريِّ رحمهُ اللهُ قالَ : حجَّ المهديُّ سنةَ ستٍّ وستينَ ومئةٍ ، فرأيتُهُ يرمي جمرةَ العقبةِ والناسُ يُخبطونَ يميناً وشمالاً بالسياطِ ، فوقفتُ فقلتُ : يا حسنَ الوجهِ ؛ حدَّثَنا أيمنُ بنُ نابلٍ عنْ قدامةَ بنِ عبدِ اللهِ الكلابيِّ قالَ : (رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرمي الجمرةَ يومَ النحرِ علىٰ جملٍ لا ضربَ ولا طردَ ولا جلْدَ ، ولا إليكَ إليكَ)(٢) ، وهٰأنتَ يُخبطُ الناسُ بينَ يديكَ يميناً وشمالاً ، فقالَ لرجلٍ : مَنْ هٰذا ؟ قالَ : سفيانُ الثوريُّ ، فقالَ : يا سفيانُ ؛ لوْ كانَ المنصورُ . . ما احتملَكَ علىٰ هٰذا ، فقلتُ : لوْ أخبرَكَ المنصورُ بما لقيَ . . لأقصرتَ عمَّا أنتَ فيهِ ، قالَ : فقيلَ

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤١٠ـ ٤١١) .
(٢) رواه الترمذي (٩٠٣) ، والنسائي (٥/ ٢٧٠) ، وابن ماجه (٣٠٣٥) .

لهُ : إنَّهُ قالَ لكَ : يا حسنَ الوجهِ ، ولمْ يقلْ لكَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : اطلبوهُ ، فطُلِبَ سفيانُ ، فاختفىٰ[1] .

وقدْ رُوِيَ عنِ المأمونِ أنَّهُ بلغَهُ أنَّ رجلاً محتسِباً يمشي في الناسِ يأمرُهُمْ بالمعروفِ وينهاهُمْ عنِ المنكرِ ولمْ يكنْ مأموراً مِنْ عندِهِ بذلكَ ، فأمرَ بأنْ يُدخلَ عليهِ ، فلمَّا صارَ بينَ يديهِ . . قالَ لُه : إنَّهُ بلغَني أنَّكَ رأيتَ نفسَكَ أهلاً للأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ مِنْ غيرِ أنْ نأمرَكَ ، وكانَ المأمونُ جالساً علىٰ كرسيٍّ ينظرُ في كتابٍ أوْ قصَّةٍ ، فأغفلَهُ ، فوقعَ منهُ ، فصارَ تحتَ قدمِهِ مِنْ حيثُ لمْ يشعرْ ، فقالَ لهُ المحتسبُ : ارفعْ قدمَكَ عنْ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ثمَّ قلْ ما شئتَ ، فلمْ يفهمِ المأمونُ مرادَهُ ، فقالَ : ماذا تقولُ ؟ حتَّىٰ أعادَهُ ثلاثاً ، فلمْ يفهمْ ، فقالَ : إمَّا رفعتَ أوْ أذنتَ لي حتَّىٰ أرفعَ ، فقالَ : قدْ أذنتُ لكَ ، فنظرَ المأمونُ تحتَ قدمِهِ ، فرأى الكتابَ فأخذَهُ وقبَّلَهُ وخجلَ ، ثمَّ عادَ وقالَ : لِمَ تأمرُ بالمعروفِ وقدْ جعلَ اللهُ ذلكَ إلينا أهلَ البيتِ ؟ ونحنُ الذينَ قال اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ ، فقالَ : صدقتَ يا أميرَ

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٧٧) نحو هـٰذا ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٢٢) : (هكذا أورد المصنف هـٰذه القصة تبعاً لغيره ، وقد عرفت أن سفيان توفي قبل هـٰذه المدة بخمس سنوات ، ولكن ثبت أنه اختفىٰ من المهدي حين طلبه ، وأنه كان ذلك بسبب أمره بالمعروف) ، ثم ساق الحافظ الزبيدي حديث أبي نعيم وقال : (فبان بهـٰذا أن للقصة المذكورة أصلاً ، وإنما الغلط جاء من التاريخ ، وكان تولية المهدي سنة ثمان وخمسين ، فلعل حقه سنة ستين ، فتأمل) .

المؤمنينَ ، أنتَ كما وصفتَ نفسَكَ مِنَ السلطانِ والتمكينِ ، غيرَ أنَّا أعوانُكَ وأولياؤُكَ فيهِ ، ولا ينكرُ ذلكَ إلا مَنْ جهلَ كتابَ اللهِ تعالىٰ وسنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . . ﴾ الآيةَ ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً »[1] ، وقدْ مُكِّنتَ في الأرضِ ، وهٰذا كتابُ اللهِ وسنَّةُ نبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فإنِ انقدتَ لهُما . . شكرتَ لمَنْ أعانَكَ بجزءٍ منهُما ، وإنِ استكبرتَ عنهُما ولمْ تنقدْ لما لزمَكَ منهُما . . فإنَّ الذي إليهِ أمرُكَ وبيدِهِ عزُّكَ وذلُّكَ قدْ شرطَ أنَّهُ لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً ، فقلِ الآنَ ما شئتَ ، فأُعجبَ المأمونُ بكلامِهِ وسُرَّ بِهِ ، وقالَ : مثلُكَ يجوزُ لهُ أنْ يأمرَ بالمعروفِ ، فامضِ علىٰ ما كنتَ عليهِ بأمرِنا وعنْ رأينا ، فاستمرَّ الرجلُ علىٰ ذلكَ .

ففي سياقِ هٰذهِ الحكاياتِ بيانُ الدليلِ على الاستغناءِ عنِ الإذنِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قيلَ : أفتثبتُ ولايةَ الحِسبةِ للولدِ على الوالدِ ، والعبدِ على السيِّدِ ، والزوجةِ على الزوجِ ، والتلميذِ على الأستاذِ ، والرعيَّةِ على الوالي مطلقاً . . كما يثبتُ للوالدِ على الولدِ ، والسيِّدِ على العبدِ ، والزوجِ على الزوجةِ ، والأستاذِ على التلميذِ ، والسلطانِ على الرعيَّةِ ، أو بينَهُما فرقٌ ؟

(١) رواه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

فاعلمْ : أنَّ الذي نراهُ أنَّهُ يثبتُ أصلُ الولايةِ ، ولكنْ بينَهُما فرقٌ في التفصيلِ ، ولنفرضْ ذلكَ في الولدِ معَ الوالدِ ، **فنقولُ** : قدْ رتَّبْنا للحِسبةِ خمسَ مراتبَ ، وللولدِ الحِسبةُ بالرتبتينِ الأوليينِ ، وهما التعريفُ ، ثمَّ الوعظُ والنصحُ باللطفِ ، وليسَ لهُ الحِسبةُ بالسبِّ والتعنيفِ ، والتهديدِ ، ولا بمباشرةِ الضرْبِ ، وهما الرتبتانِ الأخيرتانِ .

وهلْ لهُ الحِسبةُ بالرتبةِ الثالثةِ(١) ، حيثُ تؤدِّي إلىٰ أذى الوالدِ وسخطِهِ ؟

هـٰذا فيهِ نظرٌ(٢) ، وهوَ بأنْ يكسرَ مثلاً عودَهُ ، ويريقَ خمرَهُ ، ويحلَّ الخيوطَ عنِ ثيابِهِ المنسوجةِ مِنَ الحريرِ ، ويردَّ إلى الملاَّكِ ما يجدُهُ في بيتِهِ مِنَ المالِ الحرامِ الذي غصبَهُ أوْ سرقَهُ أوْ أخذَهُ عنْ إدرارٍ ورزقٍ مِنْ ضريبةِ المسلمينَ إذا كانَ صاحبُهُ معيَّناً ، ويبطلَ الصورَ المنقوشةَ علىٰ حيطانِهِ ، والمنقورةَ في خشبِ بيتِهِ ، ويكسرَ أوانيَ الذهبِ والفضةِ ، فإنَّ فعلَهُ في هـٰذهِ الأمورِ ليسَ يتعلَّقُ بذاتِ الأبِ ، بخلافِ الضرْبِ والسبِّ ، ولكنَّ الوالدَ يتأذَّىٰ بهِ ويسخطُ بسببِهِ ، إلا أنَّ فعلَ الولدِ حقٌّ ، وسخطُ الأبِ منشؤُهُ حبُّهُ للباطلِ وللحرامِ !

والأظهرُ في القياسِ : أنَّهُ يثبتُ للولدِ ذلكَ ، بلْ يلزمُهُ أنْ يفعلَ ذلكَ ،

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : (بالرتبة الرابعة) حسبما ذكره سابقاً .

(٢) **ووجه النظر** : أن رضا الوالد مطلوب علىٰ كل حال ، فهل يقدَّم على الاحتساب ؟ والاحتساب أيضاً مأمور به ، فهل يقدم عليه ولو أدىٰ ذلك إلى السخط ؟ فصار الأمر ملتبساً . « إتحاف » (٧/ ٢٤) .

ولا يبعدُ أنْ ينظرَ فيهِ إلىٰ قبحِ المنكرِ وإلىٰ مقدارِ الأذىٰ والسخطِ ، فإنْ كانَ المنكرُ فاحشاً وسخطُهُ عليهِ قريباً ؛ كإراقةِ خمرِ مَنْ لا يشتدُّ غضبُهُ . . فذلكَ ظاهرٌ ، وإنْ كانَ المنكرُ قريباً والسخطُ شديداً ؛ كما لوْ كانَتْ لهُ آنيةٌ مِنْ بلَّورٍ أوْ زجاجٍ علىٰ صورةِ حيوانٍ وفي كسرِها خسرانُ مالٍ كثيرٍ . . فهٰذا ممَّا يشتدُّ فيهِ الغضبُ ، وليسَ تجري هٰذهِ المعصيةُ مَجرى الخمرِ وغيرِهِ ، فهٰذا كلُّهُ مجالُ النظرِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : ومِنْ أينَ قلتُمْ : ليسَ لهُ الحِسبةُ بالتعنيفِ والضربِ والإرهاقِ إلىٰ تركِ الباطلِ والأمرُ بالمعروفِ في الكتابِ والسنَّةِ وردَ عامّاً مِنْ غيرِ تخصيصٍ ، وأمَّا النهيُ عنِ التأفيفِ والإيذاءِ . . فقدْ ورَد وهوَ خاصٌّ فيما لا يتعلَّقُ بارتكابِ المنكراتِ ؟

فنقولُ : قدْ وردَ في حقِّ **الأبِ على الخصوصِ** ما يوجبُ الاستثناءَ عنِ العمومِ ؛ إذْ لا خلافَ في أنَّ الجلاَّدَ ليسَ لهَ أنْ يقتلَ أباهُ حداً في الزنا ، ولا لهُ أنْ يباشرَ إقامةَ الحدِّ عليهِ ، بلْ لا يباشرُ قتلَ أبيهِ الكافرِ ، بلْ لوْ قطعَ يدَهُ . . لمْ يلزمْهُ قصاصٌ ، ولمْ يكنْ لَهُ أنْ يؤذيَهُ في مقابلتِهِ ، وقدْ وردَ في ذلكَ أخبارٌ[1] ، وثبتَ بعضُها بالإجماعِ .

---

(١) منها حديث الذي حذف ابنه بسيف ، فأصاب ساقه ، فنزا في جرحه ، فمات ، فأخذ منه عمر رضي الله عنه ديته ودفعها إلىٰ ورثته دونه ، روىٰ ذلك الشافعي في « الأم » (٧/ ٨٥) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩/ ٤٠٣) ، والبيهقي في « السنن =

فإذا لَمْ يجزْ لهُ إيذاؤُهُ بعقوبةٍ هيَ حقٌّ علىٰ جنايةٍ سابقةٍ . . فلا يجوزُ لهُ إيذاؤُهُ بعقوبةٍ هيَ منعٌ عنْ جنايةٍ مستقبلةٍ متوقَّعةٍ ، بلْ أولىٰ .

وهٰذا الترتيبُ أيضاً ينبغي أنْ يجريَ في **العبدِ والزوجةِ معَ السيِّدِ والزوجِ** فهما قريبانِ مِنَ الوالدِ في لزومِ الحقِّ ، وإنْ كانَ ملكُ اليمينِ آكدَ مِنْ ملكِ النكاحِ ، ولكنْ في الخبرِ : (أنَّهُ لوْ جازَ السجودُ لمخلوقٍ . . لأمرتُ المرأةَ بالسجودِ لبعلِها)[1] ، وهٰذا يدلُّ علىٰ تأكيدِ الحقِّ أيضاً .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الرعيَّةُ معَ السلطانِ . . فالأمرُ فيها أشدُّ مِنَ الوالدِ ، فليسَ لهُمْ معَهُ إلا التعريفُ والنصحُ ، فأما الرتبةُ الثالثةُ . . ففيها نظرٌ مِنْ حيثُ إنَّ الهجومَ علىٰ أخذِ الأموالِ مِنْ خزانتِهِ وردِّها إلى الملاَّكِ ، وعلىٰ تحليلِ الخيوطِ مِنْ ثيابِهِ الحريرِ ، وكسرِ آنيةِ الخمورِ في بيتِهِ . . يكادُ يفضي إلىٰ خرْقِ هيبتِهِ وإسقاطِ حشمتِهِ ، وذلكَ محظورٌ وردَ النهيُ عنْه[2] ، كما ورَدَ النهيُ عنِ السكوتِ

= الكبرىٰ » (٨/ ٣٨) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (١/ ١٦) ، والترمذي (١٤٠٠) ، من حديث عمر رضي الله عنه ـ وهو في الخبر السابق كذلك ـ مرفوعاً : « لا يقاد الوالد بالولد » ، ورواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٣٩) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه كذلك .

(١) رواه الترمذي (١١٥٩) .

(٢) كما روى الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٩٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٦٤) من حديث عياض بن غنم رضي الله عنه مرفوعاً : « من كانت عنده نصيحة لذي سلطان . . فلا يكلمه بها علانية ، وليأخذ بيده فليخل به ، فإن قبلها . . قبلها ، =

على المنكرِ ، فقدْ تعارضَ فيهِ أيضاً محذورانِ ، والأمرُ فيهِ موكولٌ إلى اجتهادٍ منشؤُهُ النظرُ في تفاحشِ المنكرِ ، ومقدارِ ما يسقطُ مِنْ حشمتِهِ بسببِ الهجومِ عليهِ ، وذلكَ ممَّا لا يمكنُ ضبطُهُ .

وأمَّا التلميذُ والأستاذُ . . فالأمرُ فيما بينَهُما أخفُّ ؛ لأنَّ المحترمَ هوَ الأستاذُ المفيدُ للعلمِ مِنْ حيثُ الدينُ ، ولا حرمةَ لعالمٍ لا يعملُ بعلمِهِ ، فلهُ أنْ يعاملَهُ بموجَبِ علمِهِ الذي تعلَّمَهُ منهُ .

ورُوِيَ أنَّهُ سُئِلَ الحسنُ عنِ الولدِ كيفَ يحتسبُ على والدِهِ ؟ فقالَ : يعظُهُ ما لمْ يغضبْ ، فإنْ غضبَ . . سكتَ عنهُ .

❊ ❊ ❊

الشرطُ الخامسُ : كونُهُ قادراً : ولا يخفىٰ أنَّ العاجزَ ليسَ عليهِ حِسبةٌ إلا بقلبِهِ ؛ إذْ كلُّ مَنْ أحبَّ اللهَ تعالىٰ فيكرهُ معاصيَهُ وينكرُها ، وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (جاهدوا الكفَّارَ بأيديكُمْ ، فإنْ لمْ تستطيعوا إلا أنْ تكفهرُّوا في وجوهِهِمْ . . فافعلوا)[1] .

= وإلا . . كان قد أدى الذي عليه والذي له » ، وللترمذي (٢٢٢٤) ، من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه مرفوعاً : « من أهان سلطان الله في الأرض . . أهانه الله » ، قاله أبو بكرة لرجل سمعه يقول : (انظروا إلىٰ أميرنا يلبس ثياب الفساق) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٧) ولفظه : (جاهدوا المنافقين بأيديكم ، فإن لم تستطيعوا . . فبألسنتكم ، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم . . فاكفهروا في وجوههم) .

واعلمْ : أنَّهُ لا يقفُ سقوطُ الوجوبِ على العجْزِ الحسِّيِّ ، بلْ يلتحقُ بهِ ما يخافُ عليهِ مكروهاً ينالُهُ ، فذلكَ في معنى العجْزِ ، وكذلكَ إذا لمْ يخفْ مكروهاً ولكنْ علمَ أنَّ إنكارَهُ لا ينفعُ ، فليلتفتْ إلىٰ معنيينِ :

أحدُهُما : عدمُ إفادةِ الإنكارِ امتناعاً .

والآخرُ : خوفُ مكروهٍ .

ويحصلُ منِ اعتبارِ المعنيينِ أربعةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يجتمعَ المعنيانِ : بأنْ يعلمَ أنَّهُ لا ينفعُ كلامُهُ ، ويُضربُ إنْ تكلَّمَ ، فلا تجبُ عليهِ الحِسبةُ ، بلْ ربَّما تحرمُ في بعضِ المواضعِ .

نعمْ ، يلزمُهُ ألا يحضرَ مواضعَ المنكرِ ، ويعتزلَ في بيتِهِ حتَّىٰ لا يشاهدَهُ ، ولا يخرجُ إلا لحاجةٍ مهمَّةٍ أوْ واجبٍ ، ولا يلزمُهُ مفارقةُ تلكَ البلدةِ والهجرةُ إلا إذا كانَ يرهقُ إلى الفسادِ[1] ، أوْ يحملُ علىٰ مساعدةِ السلاطينِ في الظلمِ والمنكراتِ ، فتلزمُهُ الهجرةُ إنْ قدرَ عليها ، فإنَّ الإكراهَ لا يكونُ عذراً في حقِّ مَنْ يقدرُ على الهربِ مِنَ الإكراهِ .

الحالةُ الثانيةُ : أنْ ينتفيَ المعنيانِ جميعاً : بأنْ يعلمَ أنَّ المنكرَ يزولُ بقولِهِ وفعلِهِ ، ولا يقدرُ لهُ علىٰ مكروهٍ ، فيجبُ عليهِ الإنكارُ ، وهٰذهِ هيَ القدرةُ المطلقةُ .

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يعلمَ أنَّهُ لا يفيدُ إنكارُهُ ، لكنَّهُ لا يخافُ مكروهاً : فلا

---

(١) يرهق هنا : يقترب ويدنو منه .

تجبُ عليهِ الحِسبةُ ؛ لعدمِ فائدتِها ، ولكنْ تُستحبُّ لإظهارِ شعائرِ الإسلامِ ، وتذكيرِ الناسِ بأمرِ الدينِ .

الحالةُ الرابعةُ : عكسُ هٰذهِ : وهوَ أنْ يعلمَ أنَّهُ يصابُ بمكروهٍ ، ولكنْ يبطلُ المنكرَ بفعلِهِ ، كما يقدرُ علىٰ أنْ يرميَ زجاجةَ الفاسقِ بحجرٍ فيكسرَها ويريقَ الخمرَ ، أوْ يضربَ العودَ الذي في يدِهِ ضربةً مختطفةً فيكسرَهُ في الحالِ ، ويتعطَّلَ عليهِ هٰذا المنكرُ ، ولكنَّهُ يعلمُ أنَّهُ يرجعُ إليهِ فيضربُ رأسَهُ ، فهٰذا ليسَ بواجبٍ وليسَ بحرامٍ ، بل هوَ مستحبٌّ ، ويدلُّ عليهِ الخبرُ الذي أوردناهُ في فضلِ كلمةِ حقٍّ عندَ إمامٍ جائرٍ ، ولا شكَّ في أنَّ ذلكَ مَظِنَّةُ الخوفِ .

ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ عنْ أبي سليمانَ الدارانيِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ أنَّهُ قَالَ : (سمعتُ مِنْ بعضِ الخلفاءِ كلاماً ، فأردتُ أنْ أنكرَ عليهِ وعلمتُ أنِّي أقتلُ ، ولمْ يمنعْني القتلُ ، ولكنْ كانَ في ملأٍ مِنَ الناسِ ، فخشيتُ أنْ يعترِيَني التزيُّنُ للخلقِ ، فأقتلَ مِنْ غيرِ إخلاصٍ في الفعلِ)[1] .

* * *

فإنْ قيلَ : فما معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ ؟

قلنا : لا خلافَ في أنَّ المسلمَ الواحدَ لهُ أنْ يهجمَ علىٰ صفِّ الكفَّارِ ويقاتلَ وإنْ علمَ أنَّهُ يُقتلُ ، وهٰذا ربَّما يُظنُّ أنَّهُ مخالفٌ لموجَبِ الآيةِ ، وليسَ كذلكَ ، فقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ليسَ التهلكةُ ذلكَ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .

بلْ تركُ النفقةِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ)[1] أيْ : مَنْ لمْ يفعلْ ذلكَ . . فقدْ أهلكَ نفسَهُ .

وقالَ البراءُ بنُ عازبٍ : (التهلكةُ : هوَ أنْ يذنبَ الذنبَ ثمَّ يقولَ : لا يُتابُ عليَّ)[2] .

وقالَ عَبيدةُ : (هوَ أنْ يذنبَ ثمَّ لا يعملَ بعدَهُ خيراً حتَّىٰ يهلكَ)[3] .

وإذا جازَ أنْ يقاتلَ الكفَّارَ حتَّىٰ يُقتلَ . . جازَ أيضاً لهُ ذلكَ في الحِسبةِ ، ولكنْ لوْ علمَ أنَّهُ لا نكايةَ لهجومِهِ على الكفَّارِ ؛ كالأعمىٰ يطرحُ نفسَهُ على الصفِّ أوِ العاجزِ . . فذلكَ حرامٌ ، وداخلٌ تحتَ عمومِ آيةِ التهلكةِ ، وإنَّما جازَ لهُ الإقدامُ إذا علمَ أنَّهُ يقاتلُ إلىٰ أنْ يُقتلَ ، أوْ علمَ أنَّهُ يكسرُ قلوبَ الكفَّارِ بمشاهدتِهِمْ جراءتَهُ ، واعتقادِهِمْ في سائرِ المسلمينَ قلَّةَ المبالاةِ وحبَّهُمْ للشهادةِ في سبيلِ اللهِ ، فتُكسرُ بذلكَ شوكتُهُمْ ؛ فكذلكَ يجوزُ للمحتسبِ ، بلْ يُستحبُّ لهُ أنْ يعرِّضَ نفسَهُ للضربِ والقتلِ إذا كانَ لحسبتِهِ تأثيرٌ في رفعِ المنكرِ ، أوْ في كسرِ جاهِ الفاسقِ ، أوْ في تقويةِ قلوبِ أهلِ الدينِ .

فأمَّا إنْ رأىٰ فاسقاً متغلباً وحدَهُ وعندَهُ سيفٌ وبيدِهِ قدحٌ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ أنكرَ عليهِ لشربَ القدحَ وضربَ رقبتَهُ . . فهـٰذا ممَّا لا أرىٰ للحسبةِ فيهِ

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٢٦٥) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٢٦٨) .
(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٢٦٨) ، وعَبيدة هو السلماني ، وروىٰ نحوه عن ابن سيرين كذلك .

وجهاً ، وهوَ عينُ الإهلاكِ ، فإنَّ المقصودَ أنْ يؤثِّرَ في الدينِ أثراً ويفديَهُ بنفسِهِ ، فأمَّا تعريضُ النفسِ للهلاكِ مِنْ غيرِ أثرٍ . فلا وجهَ لهُ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ هـٰذا حراماً .

وإنَّما يُستحبُّ لهُ الإنكارُ إذا قدرَ علىٰ إبطالِ المنكرِ ، أوْ ظهرَ لفعلِهِ فائدةٌ ، وذلكَ بشرطِ أنْ يقتصرَ المكروهُ عليهِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يُضربُ معَهُ غيرُهُ مِنْ أصحابِهِ أوْ أقاربِهِ أوْ رفقائِهِ . . فلا تجوزُ لهُ الحِسبةُ ، بلْ تحرمُ ؛ لأنَّهُ عجزَ عنْ دفعِ المنكرِ ، إلا بأنْ يفضيَ ذلكَ إلىٰ منكرٍ آخرَ ، وليسَ ذلكَ مِنَ القدرةِ في شيءٍ ، بلْ لوْ علمَ أنَّهُ لوِ احتسبَ لبطلَ ذلكَ المنكرُ ولكنْ كانَ ذلكَ سبباً لمنكرٍ آخرَ يتعاطاهُ غيرُ المحتسَبِ عليهِ . . فلا يحلُّ لهُ الإنكارُ على الأظهرِ ؛ لأنَّ المقصودَ عدمُ مناكيرِ الشرعِ مطلقاً ، لا مِنْ زيدٍ ولا مِنْ عمرٍو ، وذلكَ بأنْ يكونَ مثلاً معَ الإنسانِ شرابٌ حلالٌ نَجِسَ بسببِ وقوعِ نجاسةٍ فيهِ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ أراقَهُ . . لشربَ صاحبُهُ الخمرَ ، أوْ شربَ أولادُهُ الخمرَ ؛ لإعوازِهِمُ الشرابَ الحلالَ ، فلا معنىٰ لإراقةِ ذلكَ .

ويحتملُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ يريقُ ذلكَ ، فيكونُ هوَ مبطلاً لمنكرٍ ، وأمَّا شربُ الآخرِ . . فهوَ الملومُ فيهِ ، والمحتسبُ غيرُ قادرٍ علىٰ منعِهِ مِنْ ذلكَ المنكرِ .

وقدْ ذهبَ إلىٰ هـٰذا ذاهبونَ ، وليسَ ببعيدٍ ؛ فإنَّ هـٰذهِ مسائلُ فقهيةٌ لا يمكنُ فيها الحكمُ إلا بظنٍّ ، ولا يبعدُ أنْ يُفرَّقَ بينَ درجاتِ المنكرِ المغيَّرِ والمنكرِ الذي تفضي إليهِ الحِسبةُ والتغييرُ ، فإنَّهُ إذا كانَ يذبحُ شاةً لغيرِهِ حتَّىٰ

يأكلَها وعلمَ أنَّهُ لوْ منعَهُ مِنْ ذلكَ لذبحَ إنساناً وأكلَهُ . . فلا معنىٰ لهٰذهِ الحِسبةِ .

نعمْ ؛ لوْ كانَ منْعُهُ عنْ ذبحِ إنسانٍ أوْ قطعِ طرفِهِ يحملُهُ علىٰ أخذِ مالِهِ . . فذلكَ لهُ وجهٌ .

فهٰذِه دقائقُ واقعةٌ في محلِّ الاجتهادِ ، وعلى المحتسبِ اتباعُ اجتهادِهِ في ذلكَ كلِّهِ ، ولهٰذهِ الدقائقِ نقولُ : العامِّيُّ ينبغي لهُ ألا يحتسبَ إلا في الجليَّاتِ المعلومةِ ؛ كشربِ الخمرِ ، والزنا ، وتركِ الصلاةِ ، فأمَّا ما يُعلمُ كونُهُ معصيةً بالإضافةِ إلىٰ ما يطيفُ بهِ مِنَ الأفعالِ ، ويفتقرُ فيهِ إلى اجتهادٍ . . فالعامِّيُّ إنْ خاضَ فيهِ . . كانَ ما يفسدُهُ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وعنْ هٰذا يتأكَّدُ ظنُّ مَنْ لا يثبتُ ولايةَ الحِسبةِ إلا بتعيينِ الوالي ، إذْ ربَّما يُنتدبُ لها مَنْ ليسَ أهلاً لها ؛ لقصورِ معرفتِهِ ، أوْ قصورِ ديانتِهِ ، فيودِّي ذلكَ إلىٰ وجوهٍ مِنَ الخللِ ، وسيأتي كشفُ الغطاءِ عنْ ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

***

فإنْ قيلَ : وحيثُ أطلقْتُم العلمَ بأنَّهُ يصيبُهُ مكروهٌ أوْ أنَّهُ لا تفيدُ حسبتُهُ ؛ فلوْ كانَ بدلَ العلمِ ظنٌّ . . فما حكمُهُ ؟

قلنا : الظنُّ الغالبُ في هٰذهِ الأبوابِ في معنى العلمِ ، وإنَّما يظهرُ الفرقُ عندَ تعارضِ الظنِّ والعلمِ ، إذْ يرجحُ العلمُ اليقينيُّ على الظنِّ ، ويُفرَّقُ بينَ العلمِ والظنِّ في مواضعَ أخرَ ، وهوَ أنَّهُ يسقطُ وجوبُ الحِسبةِ عنهُ حيثُ علمَ

قطعاً أنَّهُ لا يفيدُ ، فإنْ كانَ غالبُ ظنِّهِ أنَّهُ لا يفيدُ ولكنْ يحتملُ أنْ يفيدَ ، وهوَ مَعَ ذلكَ لا يتوقَّعُ مكروهاً . . فقدِ اختلفوا في وجوبِهِ ، والأظهرُ : وجوبُهُ ؛ إذ لا ضررَ فيهِ ، وجدواهُ متوقعٌ[1] ، وعموماتُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ تقتضي الوجوبَ بكلِّ حالٍ ، ونحنُ إنَّما نستثني عنهُ بطريقِ التخصيصِ ما إذا عُلمَ أنَّهُ لا فائدةَ فيهِ ؛ إمَّا بالإجماعِ ، أوْ بقياسٍ ظاهرٍ ، وهوَ أنَّ الأمرَ ليسَ يُرادُ لعينِهِ ، بلْ للمأمورِ ؛ فإذا عُلمَ اليأسُ عنهُ . . فلا فائدةَ فيهِ ، فأمَّا إذا لمْ يكنْ يأسٌ . . فينبغي ألا يسقطَ الوجوبُ .

* * *

فإنْ قيلَ : فالمكروهُ الذي تُوقَّعُ إصابتُهُ إنْ لمْ يكنْ متيقناً ولا معلوماً بغالبِ الظنِّ ، ولكنْ كانَ مشكوكاً فيهِ ، أوْ كانَ غالبُ ظنِّهِ أنَّهُ لا يُصابُ بمكروهٍ ، ولكنِ احتملَ أنْ يُصابَ بمكروهٍ . . فهـٰذا الاحتمالُ هلْ يُسقطُ الوجوبَ حتَّىٰ لا يجبُ إلا عندَ اليقينِ بأنَّهُ لا يصيبُهُ مكروهٌ ، أمْ يجبُ في كلِّ حالٍ إلا إذا غلبَ علىٰ ظنِّهِ أنَّهُ يُصابُ بمكروهٍ ؟

قلنا : إنْ غلبَ على الظنِّ أنَّهُ يُصابُ . . لمْ يجبْ ، وإنْ غلبَ أنَّهُ لا يُصابُ . . وجبَ ، ومجرَّدُ التجويزِ لا يسقطُ الوجوبَ ؛ فإنَّ ذلكَ ممكنٌ في كلِّ حِسبةٍ .

وإنْ شكَّ فيهِ مِنْ غيرِ رجحانٍ . . فهـٰذا محلُّ النظرِ ، فيُحتملُ أنْ يُقالَ :

---

(١) أي : نفعه ؛ لوجود الاحتمال . « إتحاف » (٧/ ٢٨) .

الأصلُ الوجوبُ بحكمِ العموماتِ ، وإنَّما يسقطُ بمكروهٍ ، والمكروهُ هوَ الذي يُظنُّ أوْ يُعلمُ حتَّىٰ يكونَ متوقعاً، وهـٰذا هوَ الأظهرُ ، ويُحتملُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ إنَّما يجبُ عليهِ إذا علمَ أنَّهُ لا ضررَ فيهِ عليهِ ، أوْ ظنَّ أنَّهُ لا ضررَ عليهِ .

والأوَّلُ أصحُّ ؛ نظراً إلىٰ قضيَّةِ العموماتِ الموجبةِ للأمرِ بالمعروفِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فالتوقُّعُ للمكروهِ يختلفُ بالجبْنِ والجراءةِ ، فالجبانُ الضعيفُ القلبِ يرى البعيدَ قريباً ، حتَّىٰ كأنَّهُ يشاهدُهُ ويرتاعُ منهُ ، والمتهوِّرُ الشجاعُ يبعدُ وقوعَ المكروهِ بهِ بحكمِ ما جُبِلَ عليهِ مِنْ حسْنِ الأملِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يصدِّقُ بهِ إلا بعدَ وقوعِهِ ، فعلىٰ ماذا التعويلُ ؟

قلنا : التعويلُ على اعتدالِ الطبعِ ، وسلامةِ العقلِ والمزاجِ ، فإنَّ الجبنَ مرضٌ ، وهوَ ضعفٌ في القلبِ سببُهُ قصورٌ في القوَّةِ وتفريطٌ ، والتهوُّرُ إفراطٌ في القوَّةِ وخروجٌ عنِ الاعتدالِ بالزيادةِ ، وكلاهُما نقصانٌ ، وإنَّما الكمالُ في الاعتدالِ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالشجاعةِ ، وكلُّ واحدٍ مِنَ الجبنِ والتهوُّرِ يصدرُ تارةً عنْ نقصانِ العقلِ ، وتارةً عنْ خللٍ في المزاجِ بتفريطٍ أوْ إفراطٍ ، فإنَّ مَنِ اعتدلَ مزاجُهُ في صفةِ الجبنِ والجراءةِ قدْ لا يتفطَّنُ لمداركِ الشرِّ ، فيكونُ سببَ جراءتِهِ جهلُهُ ، وقدْ لا يتفطَّنُ لمداركِ دفعِ الشرِّ ، فيكونُ سببَ جبنِهِ جهلُهُ ، وقدْ يكونُ عالماً بحكمِ التجربةِ والممارسةِ بمداخلِ الشرِّ ودوافعِهِ ، ولكنْ يعملُ الشرُّ البعيدُ في تخذيلِهِ وتحليلِ قوَّتِهِ في الإقدامِ بسببِ ضعفِ

قلبِهِ ما يفعلُهُ الشرُّ القريبُ في حقِّ الشجاعِ المعتدلِ الطبعِ ، فلا التفاتَ إلى الطرفينِ .

وعلى الجبانِ أنْ يتكلَّفَ إزالةَ الجبنِ بإزالةِ علَّتِهِ ، وعلَّتُهُ جهلٌ أوْ ضعفٌ ، ويزولُ الجهلُ بالتجربةِ ، ويزولُ الضعفُ بممارسةِ الفعلِ المَخُوفِ منهُ تكلُّفاً حتَّىٰ يصيرَ معتاداً ، إذِ المبتدىءُ في المناظرةِ والوعظِ مثلاً قدْ يجبنُ عنهُ طبعُهُ لضعفِهِ ، فإذا مارسَ واعتادَ . . فارقَهُ الضعفُ ، فإنْ صارَ ذلكَ ضرورياً غيرَ قابلٍ للزوالِ بحكمِ استيلاءِ الضعفِ على القلبِ . . فحكْمُ ذلكَ الضعيفِ يتبعُ حالَهُ ، فيُعذرُ كما يُعذرُ المريضُ في التقاعدِ عنْ بعضِ الواجباتِ .

ولذلكَ قدْ نقولُ علىٰ رأيٍ : لا يجبُ ركوبُ البحرِ لأجلِ حَجَّةِ الإسلامِ علىٰ مَنْ يغلبُ عليهِ الجبنُ في ركوبِ البحرِ ، ويجبُ علىٰ مَنْ لا يعظمُ خوفُهُ منهُ ، فكذلكَ الأمرُ في وجوبِ الحِسبةِ .

* * *

فإنْ قيلَ : فالمكروهُ المتوقَّعُ ما حدُّهُ ؟ فإنَّ الإنسانَ قدْ يكرهُ كلمةً ، وقدْ يكرهُ ضربةً ، وقدْ يكرهُ طولَ لسانِ المحتسَبِ عليهِ في حقِّهِ بالغيبةِ ، وما مِنْ شخصٍ يُؤمرُ بالمعروفِ إلا ويُتوقَّعُ منه نوعٌ مِنَ الأذىٰ ، وقدْ يكونُ منهُ أنْ يسعىٰ بهِ إلىٰ سلطانٍ ، أوْ يقدحَ فيهِ في مجلسٍ يتضرَّرُ بقدحِهِ فيهِ ، فما حدُّ المكروهِ الذي يسقطُ الوجوبُ بهِ ؟

قلنا : هٰذا أيضاً فيهِ نظرٌ غامضٌ ، وصورُهُ منتشرةٌ ، ومجاريهِ كثيرةٌ ، ولكنَّا نجتهدُ في ضمِّ نشرِهِ وحصرِ أقسامِهِ ، فنقولُ :

المكروهُ نقيضُ المطلوبِ ، ومَطالبُ الخلقِ في الدنيا ترجعُ إلىٰ أربعةِ أمورٍ :

أمَّا في النفسِ . . فالعلمُ .

وأمَّا في البدنِ . . فالصحةُ والسلامةُ .

وأمَّا في المالِ . . فالثروةُ .

وأمَّا في قلوبِ الناسِ . . فقيامُ الجاهِ .

فإذاً ؛ المطلوبُ : العلمُ ، والصحةُ ، والثروةُ ، والجاهُ .

ومعنى الجاهِ : ملكُ قلوبِ الناسِ ، كما أنَّ معنى الثروةِ ملكُ الدراهمِ ؛ لأنَّ قلوبَ الناسِ وسيلةٌ إلى الأغراضِ ، كما أنَّ ملكَ الدراهمِ وسيلةُ جمعِ ما في الدنيا منَ المطالبِ ، وسيأتي تحقيقُ معنى الجاهِ وسببُ ميلِ الطبعِ إليهِ في ربعِ المهلكاتِ .

وكلُّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الأربعةِ يطلبُها الإنسانُ لنفسِهِ ولأقاربِهِ والمختصينَ بهِ ، ويُكرهُ في هٰذهِ الأربعةِ أمرانِ :

أحدُهُما : زوالُ ما هوَ حاصلٌ موجودٌ .

والآخرُ : امتناعُ ما هوَ منتظرٌ مفقودٌ ؛ أعني : اندفاعَ ما يتوقَّعُ وجودَهُ .

فلا ضررَ إلا في فواتِ حاصلٍ وزوالِهِ ، أوْ تعوُّقِ منتظرٍ ، فإنَّ المنتظرَ عبارةٌ عنِ الممكنِ حصولُهُ ، والممكنُ حصولُهُ كأنَّهُ حاصلٌ ، وفواتُ إمكانِهِ كأنَّهُ فواتُ حصولِهِ ، فرجعَ المكروهُ إلىٰ قسمينِ :

أحدُهُما : خوفُ امتناعِ المنتظرِ : وهـٰذا لا ينبغي أنْ يكونَ مرخِّصاً في تركِ الأمرِ بالمعروفِ أصلاً ، ولنذكرْ مثالَهُ في المطالبِ الأربعةِ :

أمَّا العلمُ : فمثالُهُ : تركُهُ الحسبةَ علىٰ مَنْ يختصُّ بأستاذِهِ خوفاً مِنْ أن يقبحَ حالُهُ عندَهُ فيمتنعَ مِنْ تعليمِهِ .

وأمَّا الصحةُ : فتركُهُ الإنكارَ على الطبيبِ الذي يدخلُ عليهِ مثلاً وهوَ لابسٌ حريراً خوفاً مِنْ أنْ يتأخَّرَ عنهُ فتمتنعَ بسببِهِ صحتُهُ المنتظرةُ .

وأمَّا المالُ : فتركُهُ الحسبةَ على السلطانِ وأصحابِهِ ، وعلىٰ مَنْ يواسيهِ مِنْ مالِهِ خيفةً مِنْ أنْ يقطعَ إدرارَهُ في المستقبلِ ويتركَ مواساتَهُ .

وأمَّا الجاهُ : فتركُهُ الحسبةَ علىٰ مَنْ يتوقَّعُ منهُ نصرةً وجاهاً في المستقبلِ خيفةً مِنْ ألا يحصلَ لهُ الجاهُ ، أوْ خيفةً مِنْ أنْ يقبحَ حالُهُ عندَ السلطانِ الذي يتوقَّعُ منهُ ولايةً .

وهـٰذا كلُّهُ لا يُسقطُ وجوبَ الحِسبةِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ زياداتٌ امتنعَتْ ، وتسميةُ امتناعِ حصولِ الزياداتِ ضرراً مجازٌ ، وإنَّما الضررُ الحقيقيُّ فواتُ حاصلٍ ، ولا يُستثنىٰ عنْ هـٰذا شيءٌ إلا ما تدعو إليهِ الحاجةُ ، ويكونُ في فواتِهِ محذورٌ يزيدُ علىٰ محذورِ السكوتِ على المنكرِ ، كما إذا كانَ محتاجاً

إلى الطبيبِ لمرضٍ ناجزٍ ، والصحَّةُ منتظرةٌ مِنْ معالجةِ الطبيبِ ، ويعلمُ أنَّ في تأخُّرِهِ شدَّةَ الضنا بهِ وطولَ المرضِ ، وقدْ يفضي إلى الموتِ ، وأعني بالعلمِ : الظنَّ الذي يجوزُ بمثلِهِ تركُ استعمالِ الماءِ ، والعدولُ إلى التيممِ ، فإذا انتهىٰ إلىٰ هـٰذا الحدِّ . . لمْ يبعدْ أنْ يرخَّصَ في تركِ الحِسبةِ .

وأمَّا في العلمِ : فمثلُ أنْ يكونَ جاهلاً بمهمَّاتِ دينِهِ ، ولمْ يجدْ إلا معلِّماً واحداً ، ولا قدرةَ لهُ على الرحلةِ إلىٰ غيرِهِ ، وعلمَ أنَّ المحتسَبَ عليهِ قادرٌ علىٰ أنْ يسدَّ عليهِ طريقَ الوصولِ إليهِ ؛ لكونِ العالمِ مطيعاً لهُ ، أوْ مستمعاً لقولِهِ .

فإذاً ؛ الصبرُ على الجهلِ بمهمَّاتِ الدينِ محذورٌ ، والسكوتُ على المنكرِ محذورٌ ، ولا يبعدُ أنْ يرجحَ أحدُهُما ، ويختلفُ ذلكَ بتفاحشِ المنكرِ ، وشدَّةِ الحاجةِ إلى العلمِ لتعلُّقِهِ بمهمَّاتِ الدينِ .

وأمَّا في المالِ : فكمَنْ يعجزُ عنِ الكسبِ والسؤالِ وليسَ هوَ قويَّ النفسِ في التوكُّلِ ، ولا منفقَ عليهِ سوىٰ شخصٍ واحدٍ ، ولوِ احتسبَ عليهِ . . قطعَ رزقَهُ ، وافتقرَ في تحصيلِهِ إلىٰ طلبِ إدرارٍ حرامٍ ، أوْ ماتَ جوعاً ؛ فهـٰذا أيضاً إذا اشتدَّ الأمرُ فيهِ . . لمْ يبعدْ أنْ يُرخَّصَ لهُ في السكوتِ .

وأمَّا الجاهُ : فهوَ أنْ يؤذيَهُ شريرٌ ، ولا يجدَ سبيلاً إلىٰ دفعِ شرِّهِ إلا بجاهٍ يكتسبُهُ مِنْ سلطانٍ ، ولا يقدرَ على التوصُّلِ إليهِ إلا بواسطةِ شخصٍ يلبسُ الحريرَ ، أوْ يشربُ الخمرَ ، ولوِ احتسبَ عليهِ . . لمْ يكنْ واسطةً ووسيلةً لهُ ، فيمتنعُ عليهِ حصولُ الجاهِ ، ويدومُ بسببِهِ أذى الشريرِ .

فهـٰذهِ الأمورُ كلُّها إذا ظهرَتْ وقويَتْ . . لمْ يبعدِ استثناؤُها ، ولكنَّ الأمرَ فيها منوطٌ باجتهادِ المحتسِبِ ، حتَّىٰ يستفتيَ فيها قلبَهُ ، ويزنَ أحدَ المحذورينِ بالآخرِ ، ويرجِّحَ بنظرِ الدينِ لا بموجَبِ الهوىٰ والطبعِ ، فإنْ رجحَ بموجَبِ الدينِ . . سُمِّيَ سكوتُهُ مداراةً ، وإنْ رجحَ بموجَبِ الهوىٰ . . سُمِّيَ سكوتُهُ مداهنةً .

وهـٰذا أمرٌ باطنٌ لا يُطلعُ عليهِ إلا بنظرٍ دقيقٍ ، ولكنَّ الناقدَ بصيرٌ ، فحقٌّ علىٰ كلِّ متديِّنٍ أنْ يراقبَ قلبَهُ ، ويعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ باعثِهِ وصارفِهِ أنَّهُ الدينُ أوِ الهوىٰ ، وستجدُ كلُّ نفسٍ ما عملَتْ مِنْ سوءٍ أوْ خيرٍ محضراً عندَ اللهِ ، ولوْ في فلتةِ خاطرٍ أوْ في لفتةِ ناظرٍ ، مِنْ غيرِ ظلمٍ وجورٍ ، فما اللهُ بظلَّامٍ للعبيدِ .

* * *

وأمَّا القسمُ الثاني وهوَ فواتُ الحاصلِ : فهوَ مكروهٌ ومعتبرٌ في جوازِ السكوتِ في الأمورِ الأربعةِ إلا العلمَ ، فإنَّ فواتَهُ غيرُ مخوفٍ إلا بتقصيرٍ منهُ ، وإلا . . فلا يقدرُ أحدٌ علىٰ سلبِ العلمِ مِنْ غيرِهِ وإنْ قدرَ علىٰ سلبِ الصحَّةِ والسلامةِ والثروةِ والجاهِ والمالِ ، وهـٰذا أحدُ أسبابِ شرفِ العلمِ ، فإنَّهُ يدومُ في الدنيا ، ويدومُ ثوابُهُ في الآخرةِ ، فلا انقطاعَ لهُ أبدَ الآبادِ .

وأمَّا الصحةُ والسلامةُ : ففواتُهُما بالضربِ ، فكلُّ مَنْ علمَ أنَّهُ لوْ أمرَ بالمعروفِ ونهىٰ عنِ المنكرِ أنَّهُ يُضربُ ضرباً مؤلماً يتأذَّىٰ بهِ في الحِسبةِ . .

لمْ تلزمْهُ الحسبةُ ، وإنْ كانَ يُستحبُّ لهُ ذلكَ كما سبقَ ، وإذا فُهِمَ هـٰذا في الإيلامِ بالضربِ . . فهوَ في الجرحِ والقطعِ والقتلِ أظهرُ .

وأمَّا الثروةُ : فهوَ بأنْ يعلمَ أنَّهُ تُنهبُ دارُهُ ، ويخربُ بيتُهُ ، وتُسلبُ ثيابُهُ ، فهـٰذا أيضاً يسقطُ عنهُ الوجوبَ ، ويبقى الاستحبابُ ؛ إذْ لا بأسَ بأنْ يفديَ دينَهُ بدنياهُ ، ولكلِّ واحدٍ مِنَ الضربِ والنهْبِ حدٌّ في القلَّةِ لا يُكترثُ بهِ ؛ كالحبَّةِ في المالِ ، واللطمةِ الخفيفِ ألمُها في الضربِ ، وحدٌّ في الكثرةِ يُتيقَّنُ باعتبارِهما ، ووسطٌ يقعُ في محلِّ الاشتباهِ والاجتهادِ ، وعلى المتديِّنِ أنْ يجتهدَ في ذلكَ ، ويرجِّحَ جانبَ الدينِ ما أمكنَ .

وأمَّا الجاهُ : ففواتُهُ بأنْ يُضربَ ضرباً غيرَ مؤلمٍ ، أوْ يُسبَّ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، أوْ يُطرحَ منديلُهُ في رقبتِهِ ويُدارَ بهِ في البلدِ ، أوْ يُسوَّدَ وجهُهُ ويُطافَ بهِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ غيرِ ضربٍ مؤلمٍ للبدنِ ، وهوَ قادحٌ في الجاهِ ، ومؤلمٌ للقلبِ .

وهـٰذا لهُ درجاتٌ ، والصوابُ : أنْ يُقسمَ إلىٰ ما يُعبَّرُ عنهُ بسقوطِ المروءةِ ؛ كالطوافِ بهِ في البلدِ حاسراً حافياً ، فهـٰذا يرخَّصُ في السكوتِ ؛ لأنَّ المروءةَ مأمورٌ بحفظِها في الشرعِ ، وهـٰذا مؤلمٌ للقلبِ ألماً يزيدُ علىٰ ألمِ ضرباتٍ معدودةٍ ، وعلىٰ فواتِ دريهماتٍ قليلةٍ ، **فهـٰذهِ درجةٌ** .

الثانيةُ : ما يُعبَّرُ عنهُ بالجاهِ المحضِ وعلوِّ الرتبةِ ، فإنَّ الخروجَ في ثيابٍ فاخرةٍ تجمُّلٌ ، وكذلكَ الركوبُ للخيولِ ، فلوْ علمَ أنَّهُ لوِ احتسبَ . . لكُلِّفَ

المشيَ في السوقِ في ثيابٍ لا يعتادُ هوَ مثلَها ، أوْ كُلِّفَ المشيَ راجلاً وعادتُهُ الركوبُ .

فهٰذا مِنْ جملةِ المزايا ، وليسَ المواظبةُ علىٰ حفظِها محمودةً ، وحفظُ المروءةِ محمودٌ ، فلا ينبغي أنْ يسقطَ وجوبُ الحِسبةِ بمثلِ هٰذا القدْرِ .

وفي معنىٰ هٰذا ما لوْ خافَ أنْ يُتعرَّضَ لهُ باللسانِ إمَّا في حضرتِهِ بالتجهيلِ والتحميقِ والنسبةِ إلى الرياءِ والنفاقِ ، وإمَّا في غيبتِهِ بأنواعِ الغيبةِ ، فهٰذا لا يُسقطُ الوجوبَ ؛ إذْ ليسَ فيهِ إلا زوالُ فضلاتِ الجاهِ التي ليسَ إليها كبيرُ حاجةٍ ، ولوْ تُركتِ الحِسبةُ بلومِ لائمٍ ، أوْ باغتيابِ فاسقٍ ، أوْ شتمِهِ وتعنيفِهِ ، أوْ سقوطِ المنزلةِ عَنْ قلبِهِ وقلبِ أمثالِهِ . . لمْ يكنْ للحِسبةِ وجوبٌ أصلاً ؛ إذْ لا تنفكُّ الحِسبةُ عنْ ذلكَ إلا إذا كانَ المنكرُ هوَ الغيبةَ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ أنكرَ . . لمْ يسكتِ المغتابُ ، ولكنْ أضافَهُ إليهِ وأدخلَهُ معَهُ في الغيبةِ ، فتحرمُ هٰذهِ الحِسبةُ ؛ لأنَّها سببُ زيادةِ المعصيةِ ، وإنْ علمَ أنَّهُ يتركُ تلكَ الغيبةَ ويقتصرُ علىٰ غيبتِهِ . . فلا تجبُ عليهِ الحسبةُ ؛ لأنَّ غيبتَهُ أيضاً معصيةٌ في حقِّ المغتابِ ، ولكنْ يُستحبُّ لهُ ذلك ؛ ليفديَ عرضَ المذكورِ بعرْضِ نفسِهِ علىٰ سبيلِ الإيثارِ .

وقدْ دلَّتِ العموماتُ علىٰ تأكُّدِ وجوبِ الحِسبةِ وعظمِ الخطرِ في السكوتِ عنها ، فلا يقابلُهُ إلا ما عظمَ في الدينِ خطرُهُ ، والمالُ والنفسُ والمروءةُ قدْ ظهرَ في الشرعِ خطرُها ، فأمَّا مزايا الجاهِ والحشمةِ ودرجاتُ التجمُّلِ وطلبُ ثناءِ الخلقِ . . فكلُّ ذلكَ لا خطرَ لهُ .

وأمَّا امتناعُهُ لخوفِ شيءٍ مِنْ هٰذهِ المكارهِ في حقِّ أولادِهِ وأقاربِهِ . . فهوَ في حقِّهِ دونَهُ ؛ لأنَّ تأذيَهُ بأمرِ نفسِهِ أشدُّ مِنْ تأذِّيهِ بأمرِ غيرِهِ ، ومِنْ وجهِ الدينِ هوَ فوقَهُ ؛ لأنَّ لهُ أنْ يسامحَ في حقوقِ نفسِهِ ، وليسَ لهُ المسامحةُ في حقِّ غيرِهِ .

فإذاً ؛ ينبغي أنْ يمتنعَ ، فإنَّهُ إنْ كانَ ما يفوتُ مِنْ حقوقِهِمْ يفوتُ علىٰ طريقِ المعصيةِ ؛ كالضربِ والنهْبِ . . فليسَ لهُ هٰذهِ الحِسبةُ ؛ لأنَّهُ دفْعُ منكرٍ يفضي إلىٰ منكرٍ .

وإنْ كانَ يفوتُ لا بطريقِ المعصيةِ . . فهوَ إيذاءُ مسلمٍ أيضاً ، وليسَ لهُ ذلكَ إلا برضاهُمْ .

فإنْ كانَ يؤدِّي ذلكَ إلىٰ أذىٰ قومِهِ . . فليتركْهُ ، وذلكَ كالزاهدِ الذي لهُ أقاربُ أغنياءُ ، فإنَّهُ لا يخافُ علىٰ مالِهِ إنِ احتسبَ على السلطانِ ، ولكنَّهُ يقصدُ أقاربَهُ انتقاماً منهُ بواسطتِهِمْ ، فإذا كانَ يتعدَّى الأذىٰ مِنْ حِسبتِهِ إلىٰ أقاربِهِ وجيرانِهِ . . فليتركْها ؛ فإنَّ إيذاءَ المسلمينَ محذورٌ ، كما أنَّ السكوتَ على المنكرِ محذورٌ(١) .

نعمْ ، إنْ كانَ لا ينالُهُمْ أذىً في مالٍ ونفسٍ ، ولكنْ ينالُهُمُ الأذىٰ بالشتمِ والسبِّ . . فهٰذا فيهِ نظرٌ ، ويختلفُ الأمرُ فيهِ بدرجاتِ المنكراتِ في تفاحشِها ، ودرجاتِ الكلامِ المحذورِ في نكايتِهِ في القلبِ وقدحِهِ في العرضِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) والأرجح : ترك إيذاء المسلمين . « إتحاف » (٧/ ٣٣) .

فإنْ قيلَ : فلو قصدَ الإنسانُ قطعَ طرفٍ مِنْ نفسِهِ ، وكانَ لا يمتنعُ عنهُ إلا بقتالٍ ربَّما يؤدِّي إلىٰ قتلِهِ . . فهلْ نقاتلُهُ عليهِ ؟ فإنْ قلتُمْ : (نقاتلُ) . . فهوَ محالٌ ؛ لأنَّهُ إهلاكُ نفسٍ خوفاً مِنْ إهلاكِ طرفٍ ، وفي إهلاكِ النفسِ إهلاكُ الطرفِ أيضاً !

قلنا : نمنعُهُ عنهُ ونقاتلُهُ ؛ إذْ ليسَ غرضُنا حفْظَ نفسِهِ وطرفِهِ ، بلِ الغرضُ حسْمُ سبيلِ المنكرِ والمعصيةِ ، وقتلُهُ في الحِسبةِ ليسَ بمعصيةٍ ، وقطعُهُ طرفَ نفسِهِ معصيةٌ ، وذلكَ كدفعِ الصائلِ علىٰ مالِ مسلمٍ بما يأتي علىٰ قتلِهِ ، فإنَّهُ جائزٌ لا علىٰ معنىٰ أنَّا نفدي درهماً مِنْ مالِ مسلمٍ بروحِ مسلمٍ ، فإنَّ ذلكَ محالٌ ، ولكنْ قصدُهُ لأخذِ مالِ المسلمينَ معصيةٌ ، وقتلُهُ في الدفعِ عنِ المعصيةِ ليسَ بمعصيةٍ ، وإنَّما المقصودُ دفعُ المعاصي .

* * *

فإنْ قيلَ : فإنْ علمْنا أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ قطعَ طرفَ نفسِهِ . . فينبغي أنْ نقتلَهُ في الحالِ حسماً لبابِ المعصيةِ !

قلنا : ذلكَ لا يُعلمُ يقيناً ، ولا يجوزُ سفكُ دمِهِ بتوهُّمِ معصيةٍ ، ولكنَّا إذا رأيناهُ في حالِ مباشرةِ القطعِ . . دفعناهُ ، فإنْ قاتلَنا . . قاتلناهُ ، ولمْ نبالِ بما يأتي علىٰ روحِهِ .

* * *

فإذاً ؛ المعصيةُ لها ثلاثةُ أحوالٍ :

إحداها : أنْ تكونَ متصرِّمةً ، فالعقوبةُ علىٰ ما تصرَّمَ منها حدٌّ أوْ تعزيرٌ ، وهوَ إلى الولاةِ لا إلى الآحادِ .

الثانيةُ : أنْ تكونَ المعصيةُ راهنةً وصاحبُها مباشرٌ لها ؛ كلبسِهِ الحريرَ ، وإمساكِهِ العودَ والخمرَ ، فإبطالُ هـٰذهِ المعصيةِ واجبٌ بكلِّ ما يمكنُ ما لمْ تؤدِّ إلىٰ معصيةٍ أفحشَ منها أوْ مثلِها ، وذلكَ يثبتُ للآحادِ والرعيَّةِ[1] .

الثالثةُ : أنْ يكونَ المنكرُ متوقَّعاً ؛ كالذي يستعدُّ بكنسِ المجلسِ وتزيينِهِ وجمعِ الرياحينِ لشربِ الخمرِ وبعدُ لمْ يحضرِ الخمرُ ، فهـٰذا مشكوكٌ فيهِ ، إذْ ربَّما يعوِّقُ عنهُ عائقٌ ، فلا يثبتُ للآحادِ سلطنةٌ على العازمِ على الشربِ إلا بطريقِ الوعظِ والنصحِ ، فأمَّا بالتعنيفِ والضربِ .. فلا يجوزُ للآحادِ ولا للسلطانِ ، إلا إذا كانَتْ تلكَ المعصيةُ عُلمتْ منهُ بالعادةِ المستمرَّةِ ، وقدْ أقدمَ على السببِ المفضي إليها ، ولمْ يبقَ لحصولِ المعصيةِ إلا ما ليسَ لهُ فيهِ إلا الانتظارُ ، وذلكَ كوقوفِ الأحداثِ علىٰ أبوابِ حماماتِ النساءِ للنظرِ إليهنَّ عندَ الدخولِ والخروجِ ، فإنَّهُمْ وإنْ لم يضيِّقوا الطريقَ لسعتِهِ .. فتجوزُ الحِسبةُ عليهِمْ بإقامتِهِمْ مِنَ الموضعِ ومنعِهِمْ مِنَ الوقوفِ بالتعنيفِ والضربِ .

---

(١) كذا في جميع النسخ و« الإتحاف » (٧/٣٣) ، وفيه : (وفي نسخة : « للآحاد من الرعية ») .

وكانَ تحقيقُ هـٰذا إذا بُحِثَ عنهُ يرجعُ إلىٰ أنَّ هـٰذا الوقوفَ في نفسِهِ معصيةٌ ، وإنْ كانَ مقصدُ العاصي وراءَهُ ، كما أنَّ الخلوةَ بالأجنبيةِ في نفسِها معصيةٌ ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ وقوعِ المعصيةِ ، وتحصيلُ مظنَّةِ المعصيةِ معصيةٌ ، ونعني بالمظنَّةِ : ما يتعرَّضُ الإنسانُ بهِ لوقوعِ المعصيةِ غالباً ؛ بحيثُ لا يقدرُ على الانكفافِ عنها ، فإذاً هوَ على التحقيقِ حِسبةٌ علىٰ معصيةٍ راهنةٍ ، لا علىٰ معصيةٍ منتظرةٍ .

* * *

الرّكن الثّاني للحسبة : ما فيه الحسبة

وهوَ كلُّ منكرٍ موجودٍ في الحالِ ، ظاهرٍ للمحتسِبِ بغيرِ تجسُّسٍ ، معلومٍ كونُهُ منكراً بغيرِ اجتهادٍ .

فهٰذِهِ أربعةُ شروطٍ ، فلنبحثْ عنها .

الأوَّلُ : كونُهُ منكراً :

ونعني بهِ : أنْ يكونَ محذورَ الوقوعِ في الشرعِ ، وعدلْنا عنْ لفظِ المعصيةِ إلىٰ هٰذا لأنَّ المنكرَ أعمُّ مِنَ المعصيةِ ؛ إذْ مَنْ رأىٰ صبيّاً أوْ مجنوناً يشربُ الخمرَ . . فعليهِ أنْ يريقَ خمرَهُ ويمنعَهُ ، وكذا إنْ رأىٰ مجنوناً يزني بمجنونةٍ أوْ بهيمةٍ . . فعليهِ أنْ يمنعَهُ منهُ ، وليسَ ذلكَ لتفاحشِ صورةِ الفعلِ وظهورِهِ بينَ الناسِ ، بلْ لوْ صادفَ هٰذا المنكرَ في خلوةٍ . . وجبَ المنعُ منهُ .

وهٰذا لا يُسمَّىٰ معصيةً في حقِّ المجنونِ ؛ إذْ معصيةٌ لا عاصيَ بها محالٌ ، فلفظُ المنكرِ أدلُّ عليهِ وأعمُّ مِنْ لفظِ المعصيةِ .

وقدْ أدرجْنا في عمومِ هٰذا الصغيرةَ والكبيرةَ ، فلا تختصُّ الحِسبةُ بالكبائرِ ، بلْ كشفُ العورةِ في الحمَّامِ ، والخلوةُ بالأجنبيةِ ، وإتباعُ النظرِ للنسوةِ الأجنبيَّاتِ . . كلُّ ذلكَ مِنَ الصغائرِ ، ويجبُ النهيُ عنها ، وفي الفرْقِ بينَ الصغيرةِ والكبيرةِ نظرٌ سيأتي في كتابِ التوبةِ .

الشرطُ الثاني : أنْ يكونَ موجوداً في الحالِ :

وهوَ احترازٌ عنِ الحِسبةِ علىٰ مَنْ فرغَ مِنْ شربِ الخمرِ ، فإنَّ ذلكَ ليسَ إلى الآحادِ وقدِ انقرضَ المنكرُ ، واحترازٌ عمَّا سيوجدُ في ثاني الحالِ ، كمَنْ يُعلمُ بقرينةِ حالِهِ أنَّهُ عازمٌ على الشرْبِ في ليلتِهِ ، فلا حِسبةَ عليهِ إلا بالوعظِ ، وإنْ أنكرَ عزمَهُ عليهِ . . لمْ يجزْ وعظُهُ أيضاً فيهِ ، فإنَّ فيهِ إساءةَ ظنٍّ بالمسلمِ ، وربَّما صدقَ في قولِهِ ، وربَّما لا يقدمُ علىٰ ما عزمَ عليهِ لعائقٍ .

وليتنبَّهْ للدقيقةِ التي ذكرناها ؛ وهوَ أنَّ الخلوةَ بالأجنبيةِ معصيةٌ ناجزةٌ ، وكذا الوقوفُ علىٰ بابِ حمَّامِ النساءِ وما يجري مجراهُ .

❁ ❁ ❁

الشرطُ الثالثُ : أنْ يكونَ المنكرُ ظاهراً للمحتسِبِ بغيرِ تجسُّسٍ :

فكلُّ مَنْ سترَ معصيةً في دارِهِ وأغلقَ بابَهُ . . لا يجوزُ أنْ يُتجسَّسَ عليهِ ، وقدْ نهى اللهُ تعالىٰ عنهُ ، وقصَّةُ عمرَ وعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُما فيهِ مشهورةٌ ، وقدْ أوردناها في كتابِ آدابِ الصحبةِ .

وكذلكَ ما رُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ تسلَّقَ دارَ رجلٍ ، فرآهُ علىٰ حالةٍ مكروهةٍ ، فأنكرَ عليهِ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنْ كنتُ أنا قدْ عصيتُ اللهَ مِنْ وجهٍ واحدٍ . . فقدْ عصيتَهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ ، فقالَ : وما هيَ ؟ فقالَ : قدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقدْ تجسَّسْتَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأْتُوا

﴿ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ وقدْ تسوَّرْتَ مِنَ السطحِ ، وقالَ : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ وقدْ دخلتَ وما سلَّمتَ عليَّ ، فتركَهُ عمرُ ، وشرطَ عليهِ التوبةَ .

ولذلكَ شاورَ عمرُ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ وهوَ على المنبرِ ، وسألَهُمْ عنِ الإمامِ إذا شاهدَ بنفسِهِ منكراً . . فهلْ لهُ إقامةُ الحدِّ فيهِ ؟ وأشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بأنَّ ذلكَ منوطٌ بعدلينِ ، فلا يكفي فيهِ واحدٌ .

وقدْ أوردْنا هـٰذهِ الأخبارَ في بيانِ حقِّ المسلمِ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فلا نعيدُها .

* * *

فإنْ قلتَ : فما حدُّ الظهورِ والاستتارِ ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ أغلقَ بابَ دارِهِ وتستَّرَ بحيطانِهِ . . فلا يجوزُ الدخولُ عليهِ بغيرِ إذنِهِ لتُعرفَ المعصيةُ ، إلا أنْ يظهرَ في الدارِ ظهوراً يعرفُهُ مَنْ هوَ خارجَ الدارِ ؛ كأصواتِ المزاميرِ والأوتارِ إذا ارتفعَتْ بحيثُ جاوزَ ذلكَ حيطانَ الدارِ ، فمَنْ سمعَ ذلكَ . . فلهُ دخولُ الدارِ وكسرُ الملاهي ، وكذلكَ إذا ارتفعَتْ أصواتُ السكارىٰ بالكلماتِ المألوفةِ بينَهُمْ ، بحيثُ يسمعُهُ أهلُ الشوارعِ ، فهـٰذا إظهارٌ موجبٌ للحِسبةِ .

فإذاً ؛ إنَّما يُدرَكُ معَ تخلُّلِ الحيطانِ صوتٌ أوْ رائحةٌ ، فإذا فاحَتْ روائحُ الخمرِ ؛ فإنِ احتملَ أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ الخمورِ المحترمةِ . . فلا يجوزُ

قصدُها بالإراقةِ ، وإنْ علمَ بقرينةِ الحالِ أنَّها فاحَتْ لتعاطيهِمُ الشربَ. . فهٰذا محتملٌ ، والظاهرُ : جوازُ الحسبةِ .

وقدْ تُسترُ قارورةُ الخمرِ وظروفُهُ في الكمِّ وتحتَ الذيلِ ، وكذلكَ الملاهي ، فإذا رأىٰ فاسقاً وتحتَ ذيلِهِ شيءٌ . . لمْ يجزْ أنْ يكشفَ عنهُ ما لمْ يظهرْ بعلامةٍ خاصَّةٍ ، فإنَّ فسقَهُ لا يدلُّ علىٰ أنَّ الذي معَهُ خمرٌ ؛ إذِ الفاسقُ يحتاجُ أيضاً إلى الخلِّ وغيرِهِ ، ولا يجوزُ أنْ يستدلَّ بإخفائِهِ ، وأنَّهُ لوْ كانَ خلاًّ . . لما أخفاهُ ؛ لأنَّ الأغراضَ في الإخفاءِ ممَّا تكثرُ .

وإنْ كانَتِ الرائحةُ فائحةً . . فهٰذا محلُّ النظرِ ، والظاهرُ : أنَّ لهُ الاحتسابَ ؛ لأنَّ هٰذهِ علامةٌ تفيدُ الظنَّ ، والظنُّ كالعلمِ في أمثالِ هٰذهِ الأمورِ ، وكذلكَ العودُ ربَّما يُعرفُ بشكلِهِ إذا كانَ الثوبُ الساترُ لهُ رقيقاً ، فدلالةُ الشكْلِ كدلالةِ الرائحةِ والصوتِ ، وما ظهرَتْ دلالتُهُ فهوَ غيرُ مستورٍ ، بلْ هوَ مكشوفٌ .

وقدْ أُمرْنا بأنْ نسترَ ما سترهُ اللهُ تعالىٰ ، وننكرَ علىٰ مَنْ أبدىٰ لنا صفحتَهُ[1] ، والإبداءُ لهُ درجاتٌ ؛ فتارةً يبدو لنا بحاسَّةِ السمعِ ، وتارةً بحاسَّةِ الشمِّ ، وتارةً بحاسَّةِ البصرِ ، وتارةً بحاسَّةِ اللمسِ ولا يمكنُ

---

(١) روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٨٢٥) عن زيد بن أسلم يرفعه للنبي صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ؛ قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله ، من أصاب من هٰذه القاذورات شيئاً . . فليستتر بستر الله ، فإنه من يبدي لنا صفحته . . نُقم عليه كتاب الله » .

تخصيصُ ذلكَ بحاسَّةِ البصرِ ، بلِ المرادُ العلمُ ، وهـٰذهِ الحواسُّ أيضاً تفيدُ العلمَ ، فإذاً إنَّما يجوزُ أنْ يكسرَ ما تحتَ الثوبِ إذا علمَ أنَّهُ خمرٌ ، وليسَ لهُ أنْ يقولَ : أرني لأعلمَ ما فيهِ ، فإنَّ هـٰذا تجسُّسٌ ، **ومعنى التجسُّسِ** : طلبُ الأماراتِ المعرِّفةِ ، فالأمارةُ المعرِّفةُ إنْ حصلَتْ وأورثَتِ المعرفةَ . . جازَ العملُ بمقتضاها ، وأمَّا طلبُ الأمارةِ المعرِّفةِ . . فلا رخصةَ فيهِ أصلاً .

❊ ❊ ❊

الشرطُ الرابعُ : أنْ يكونَ كونُهُ منكراً معلوماً بغيرِ اجتهادٍ :

فكلُّ ما هوَ في محلِّ الاجتهادِ فلا حِسبةَ فيهِ ، فليسَ للحنفيِّ أنْ ينكرَ على الشافعيِّ أكلَهُ الضبَّ والضبعَ ومتروكَ التسميةِ ، ولا للشافعيِّ أنْ ينكرَ على الحنفيِّ شربَهُ النبيذَ الذي ليسَ بمسكرٍ وتناولَهُ ميراثَ ذوي الأرحامِ ، وجلوسَهُ في دارٍ أخذَها بشفعةِ الجوارِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مجاري الاجتهادِ .

نعمْ ، لوْ رأى الشافعيُّ شافعياً يشربُ النبيذَ ، وينكحُ بلا وليٍّ ويطأُ زوجتَهُ . . فهـٰذا في محلِّ النظرِ ، والأظهرُ : أنَّ لهُ الحِسبةَ والإنكارَ ، إذْ لمْ يذهبْ أحدٌ مِنَ المحصِّلينَ إلىٰ أنَّ المجتهدَ يجوزُ لهُ أنْ يعملَ بموجَبِ اجتهادِ غيرِهِ ، ولا أنَّ الذي أدَّى اجتهادُهُ في التقليدِ إلىٰ شخصٍ رآهُ أفضلَ العلماءِ أنَّ لهُ أنْ يأخذَ بمذهبِ غيرِهِ ، فينتقدَ مِنَ المذاهبِ أطيبَها عندَهُ ، بلْ علىٰ كلِّ مقلِّدٍ اتباعُ مقلَّدِهِ في كلِّ تفصيلٍ .

فإذاً ؛ مخالفتُهُ للمقلَّدِ متفقٌ علىٰ كونِهِ منكراً بينَ المحصِّلينَ ، وهوَ عاصٍ بالمخالفةِ .

إلا أنَّهُ يلزمُ مِنْ هـٰذا أمرٌ أغمضُ منهُ ، وهوَ أنَّهُ يجوزُ للحنفيِّ أنْ يعترضَ على الشافعيِّ إذا نكحَ بغيرِ وليٍّ ، بأنْ يقولَ لهُ : الفعلُ في نفسِهِ حقٌّ ، ولكنْ لا في حقِّكَ ، فأنتَ مبطلٌ بالإقدامِ عليهِ معَ اعتقادِكَ أنَّ الصوابَ مذهبُ الشافعيِّ ، ومخالفةُ ما هوَ صوابٌ عندَكَ معصيةٌ في حقِّكَ وإنْ لمْ يكنْ صواباً عندَ اللهِ تعالىٰ[1] ، وكذلكَ الشافعيُّ يحتسبُ على الحنفيِّ إذا شاركَهُ في أكلِ الضبِّ ومتروكِ التسميةِ وغيرِهِ ، ويقولُ : إمَّا أنْ تعتقدَ أنَّ الشافعيَّ أولىٰ بالاتباعِ ثمَّ تقدمَ عليهِ أوْ لا تقدمَ عليهِ علىٰ خلافِ معتقدِكَ .

ثمَّ ينجرُّ هـٰذا إلىٰ أمرٍ آخرَ في المحسوساتِ ، وهوَ أنْ يجامعَ الأصمُّ مثلاً امرأةً علىٰ قصدِ الزنا ، وعلمَ المحتسبُ أنَّ هـٰذهِ امرأتُهُ زوَّجَهُ إيَّاها أبوهُ في صغرِهِ ، ولكنَّهُ ليسَ يدري ، وعجزَ عنْ تعريفِهِ ذلكَ لصممِهِ ، أوْ لكونِهِ غيرَ عالمٍ بلغتِهِ ، فهوَ في الإقدامِ معَ اعتقادِهِ أنَّها أجنبيَّةٌ عاصٍ ومعاقبٌ عليهِ في الدارِ الآخرةِ ، فينبغي أنْ يمنعَهُ منهُ معَ أنَّها زوجتُهُ ، وهوَ بعيدٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ حلالٌ في علمِ اللهِ ، قريبٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ حرامٌ عليهِ بحكمِ غلطِهِ وجهلِهِ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ علَّقَ طلاقَ زوجتِهِ علىٰ صفةٍ في قلبِ المحتسبِ مثلاً مِنْ مشيئةٍ أوْ غضبٍ أوْ غيرِهِ ، وقدْ وجدَتِ الصفةُ في قلبِهِ وعجزَ عنْ تعريفِ

---

(١) وفي (ج) : (وإن كان صواباً) .

الزوجينِ ذلكَ ، ولكنْ علمَ وقوعَ الطلاقِ في الباطنِ ، فإذا رآهُ يجامعُها . . فعليهِ المنعُ ؛ أعني : باللسانِ ؛ لأنَّ ذلكَ زناً ، إلا أنَّ الزانيَ غيرُ عالمٍ بهِ ، والمحتسبُ عالمٌ بأنَّها طلقَتْ منهُ ثلاثاً ، وكونُهُما غيرَ عاصيينِ لجهلِهِما بوجودِ الصفةِ . . لا يُخرجُ الفعلَ عنْ كونِهِ منكراً ، ولا يتقاعدُ ذلكَ عنْ زنا المجنونِ ، وقدْ بيَّنا أنَّهُ يمنعُ منهُ .

فإذا كانَ يمنعُ ممَّا هوَ منكرٌ عندَ اللهِ وإنْ لمْ يكنْ منكراً عندَ الفاعلِ ولا هوَ عاصٍ بهِ لعذرِ الجهلِ . . فيلزمُ مِنْ عكسِ هـٰذا أنْ يُقالَ : ما ليسَ بمنكرٍ عندَ اللهِ وإنَّما هوَ منكرٌ عندَ الفاعلِ لجهلِهِ . . لا يمنعُ منهُ ، **وهـٰذا هوَ الأظهرُ والعلمُ عندَ اللهِ** .

فتحصَّلَ مِنْ هـٰذا أنَّ الحنفيَّ لا يعترضُ على الشافعيِّ في النكاحِ بلا وليٍّ ، وأنَّ الشافعيَّ يعترضُ على الشافعيِّ فيهِ ؛ لكونِ المعترَضِ عليهِ منكراً باتفاقِ المحتسبِ والمحتسَبِ عليهِ .

وهـٰذهِ مسائلُ فقهيَّةٌ دقيقةٌ ، والاحتمالاتُ فيها متعارضةٌ ، وإنَّما أفتينا فيها بحسَبِ ما ترجَّحَ عندَنا في الحالِ ، ولسنا نقطعُ بخطأِ المخالفِ فيها إنْ رأىٰ أنَّه لا يجري الاحتسابُ إلا في معلومٍ على القطعِ ، وقدْ ذهبَ إليهِ ذاهبونَ ، وقالوا : (لا حِسبةَ إلا في مثلِ الخمرِ والخنزيرِ وما يُقطعُ بكونِهِ حراماً) ، ولكنَّ الأشبهَ عندَنا أنَّ الاجتهادَ يؤثِّرُ في حقِّ المجتهدِ ، إذْ يبعدُ غايةَ البعدِ أنْ يجتهدَ في القبلةِ ويعترفَ بظهورِ القبلةِ عندَهُ في جهةٍ بالدلالاتِ

الظنِّيَّةِ ثمَّ يستدبرَها ، ولا يمنعُ منهُ لأجلِ ظنِّ غيرِه ، إذْ ربَّما يظنُّ غيرُهُ أنَّ الاستدبارَ هوَ الصوابُ .

ورأيُ مَنْ يرىٰ أنَّهُ يجوزُ لكلِّ مقلِّدٍ أنْ يختارَ مِنَ المذاهبِ ما أرادَ . . غيرُ معتدٍّ بهِ ، ولعلَّهُ لا يصحُّ ذهابُ ذاهبٍ إليهِ أصلاً ، فهـٰذا مذهبٌ لا يثبتُ ، وإنْ ثبتَ . . فلا يُعتدُّ بهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : إذا كانَ لا يُعترضُ على الحنفيِّ في النكاحِ بلا وليٍّ لأنَّهُ يرىٰ أنَّهُ حقٌّ . . فينبغي ألا يُعترضَ على المعتزليِّ في قولِهِ : (إنَّ اللهَ لا يُرىٰ) ، وقولِهِ : (إنَّ الخيرَ مِنَ اللهِ ، والشرَّ ليسَ مِنَ اللهِ) ، وقولِهِ : (كلامُ اللهِ مخلوقٌ) ، ولا على الحشويِّ في قولِهِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ جسمٌ ولهُ صورةٌ ، وإنَّهُ مستقرٌّ على العرشِ) ، بلْ لا ينبغي أنْ يُعترضَ على الفلسفيِّ في قولِهِ : (الأجسادُ لا تُبعثُ ، وإنَّما تُبعثُ النفوسُ) ؛ لأنَّ هـٰؤلاءِ أيضاً أدَّى اجتهادُهُمْ إلىٰ ما قالوهُ ، وهمْ يظنُّونَ أنَّ ذلكَ هوَ الحقُّ ، فإنْ قلتَ : بطلانُ مذهبِ هؤلاءِ ظاهرٌ . . فبطلانُ مذهبِ مَنْ يخالفُ نصَّ الحديثِ الصحيحِ أيضاً ظاهرٌ ، وكما ثبتَ بظواهرِ النصوصِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يُرىٰ والمعتزليُّ ينكرُها بالتأويلِ . . فكذلكَ ثبتَ بظواهرِ النصوصِ مسائلُ خالفَ فيها الحنفيُّ ؛ كمسألةِ النكاحِ بلا وليٍّ ، ومسألةِ شفعةِ الجوارِ ونظائرِهما .

فاعلمْ : أنَّ المسائلَ تنقسمُ :

إلىٰ ما يتصوَّرُ أنْ يُقالَ فيها : (كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ) ، وهيَ أحكامُ الأفعالِ في الحلِّ والحرمةِ ، وذلكَ هوَ الذي لا يُعترضُ على المجتهدينَ فيهِ ؛ إذْ لا يُعلمُ خطؤُهُمْ قطعاً ، بلْ ظنّاً .

وإلىٰ ما لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ المصيبُ فيهِ إلا واحداً ؛ كمسألةِ الرؤيةِ ، والقدرِ ، وقدمِ الكلامِ ، ونفيِ الصورةِ والجسميةِ والاستقرارِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، فهٰذا ممَّا يُعلمُ خطأُ المخطئِ فيهِ قطعاً ، فلا يبقىٰ لخطئِهِ الذي هوَ جهلٌ محضٌ . . وجهٌ .

فإذاً ؛ البدعُ كلُّها ينبغي أنْ تُحسمَ أبوابُها ، وتُنكرَ على المبتدعينَ بدعُهُمْ وإنِ اعتقدوا أنَّها الحقُّ ؛ كما يُردُّ على اليهودِ والنصارىٰ كفرُهُمْ وإنْ كانوا يعتقدونَ أنَّ ذلكَ حقٌّ ؛ لأنَّ خطأَهُمْ معلومٌ على القطعِ ، بخلافِ الخطأِ في مظانِّ الاجتهادِ .

***

فإنْ قلتَ : فمهما اعترضتَ على القدريِّ في قولِهِ : (الشرُّ ليسَ مِنَ اللهِ) . . اعترضَ عليكَ القدريُّ أيضاً في قولِكَ : (الشرُّ مِنَ اللهِ) ، وكذلكَ في قولِكَ : (إنَّ اللهَ يُرىٰ) ، وفي سائرِ المسائلِ ، إذِ المبتدعُ محقٌّ عندَ نفسِهِ ، والمحقُّ مبتدعٌ عندَ المبتدعِ ، وكلٌّ يدَّعي أنَّهُ محقٌّ وينكرُ كونَهُ مبتدعاً ، فكيفَ يتمُّ الاحتسابُ ؟

فاعلمْ : أنَّا لأجلِ هـٰذا التعارضِ نقولُ : ينظرُ إلى البلدةِ التي فيها أظهرَتْ تلكَ البدعةُ ، فإنْ كانَتِ البدعةُ غريبةً والناسُ كلُّهُمْ على السنَّةِ . . فلهُمُ الحِسبةُ عليهِمْ بغيرِ إذنِ السلطانِ ، وإنِ انقسمَ أهلُ البلدِ إلىٰ أهلِ البدعةِ وأهلِ السنَّةِ ، وكانَ في الاعتراضِ تحريكُ فتنةٍ بالمقاتلةِ . . فليسَ للآحادِ الحِسبةُ في المذاهبِ إلا بنصبِ السلطانِ ، فإذا رأى السلطانُ الرأيَ الحقَّ ونصرَهُ ، وأذنَ لواحدٍ أنْ يزجرَ المبتدعةَ عنْ إظهارِ البدعةِ . . كانَ لهُ ذلكَ وليسَ لغيرِهِ ، فإنَّ ما يكونُ بإذنِ السلطانِ لا يتقابلُ ، وما يكونُ مِنْ جهةِ الآحادِ فيتقابلُ الأمرُ فيهِ .

وعلى الجملةِ : فالحِسبةُ في البدعِ أهمُّ مِنَ الحِسبةِ في كلِّ المنكراتِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يُراعىٰ فيها هـٰذا التفصيلُ الذي ذكرناهُ ؛ كي لا يتقابلَ الأمرُ فيها ، ولا ينجرَّ إلىٰ تحريكِ الفتنةِ .

بلْ لوْ أذنَ السلطانُ مطلقاً في منعِ كلِّ مَنْ يصرِّحُ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ ، أوْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُرىٰ ، أوْ أنَّهُ مستقرٌّ على العرشِ مماسٌّ لهُ ، أوْ غيرِ ذلكَ مِنَ البدعِ . . تَسلَّطَ الآحادُ على المنعِ منهُ ، ولمْ يتقابلِ الأمرُ فيهِ ، وإنَّما يتقابلُ عندَ عدمِ إذنِ السلطانِ فقطْ .

❋ ❋ ❋

الركن الثالث : المحتسَب عليه

وشرطُهُ : أنْ يكونَ بصفةٍ يصيرُ الفعلُ الممنوعُ منهُ في حقِّهِ منكراً ، ولعلَّهُ(١) يكفي في ذلكَ أنْ يكونَ إنساناً ، ولا يُشترطُ كونُهُ مكلَّفاً ، إذْ بيَّنَّا أنَّ الصبيَّ لوْ شربَ الخمرَ . . مُنِعَ منهُ واحتسبَ عليهِ ، وإنْ كانَ قبلَ البلوغِ ، ولا يُشترطُ كونُهُ مميِّزاً ، إذْ بيَّنَّا أنَّ المجنونَ لوْ كانَ يزني بمجنونةٍ أوْ يأتي بهيمةً . . لوجبَ منعُهُ منهُ .

نعمْ ، مِنَ الأفعالِ ما لا يكونُ منكراً في حقِّ المجنونِ ؛ كتركِ الصلاةِ والصومِ وغيرِهِ ، ولكنَّا لسنا نلتفتُ إلى اختلافِ التفاصيلِ ، فإنَّ ذلكَ أيضاً ممَّا يختلفُ فيهِ المقيمُ والمسافرُ ، والمريضُ والصحيحُ ، وغرضُنا الإشارةُ إلى الصفةِ التي بها يتهيَّأُ توجُّهُ أصلِ الإنكارِ عليهِ ، لا ما بهِ يُتهيَّأُ للتفاصيلِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فاكتفِ بكونِهِ حيواناً ، ولا تشترطْ كونَهُ إنساناً ، فإنَّ البهيمةَ لوْ كانَتْ تفسدُ زرعاً لإنسانٍ . . لكنَّا نمنعُها منهُ كما نمنعُ المجنونَ مِنَ الزنا وإتيانِ البهيمةِ .

فاعلمْ : أنَّ تسميةَ ذلكَ حِسبةً لا وجهَ لها ؛ إذِ الحِسبةُ عبارةٌ عنِ المنعِ عنْ منكرٍ لحقِّ اللهِ ؛ صيانةً للممنوعِ عنْ مقارفةِ المنكرِ ، ومنعُ المجنونِ عنِ

(١) وعند الحافظ الزبيدي : (وأقلُّ ما) . انظر « الإتحاف » (٧/ ٣٩) .

الزنا وإتيانِ البهيمةِ لحقِّ اللهِ ، وكذا منعُ الصبيِّ عنْ شربِ الخمرِ ، والإنسانُ إذا أتلفَ زرعَ غيرِهِ . . مُنعَ منهُ لحقَّينِ :

أحدُهُما : حقُّ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ فعلَهُ معصيةٌ .

والثاني : حقُّ المتلَفِ عليهِ .

فهما علَّتانِ ، تنفصلُ إحداهُما عنِ الأخرىٰ ، فلوْ قطعَ طرفَ غيرِهِ بإذنِهِ . . فقدْ وُجدتِ المعصيةُ وسقطَ حقُّ المجنيِّ عليهِ بإذنِهِ ، فتثبتُ الحِسبةُ والمنعُ بإحدى العلَّتينِ ، والبهيمةُ إذا أتلفَتْ . . فقدْ عدمَتِ المعصيةُ ، ولكنْ يثبتُ المنعُ بإحدى العلَّتينِ ، ولكنْ فيهِ دقيقةٌ ، وهوَ أنَّا لسنا نقصدُ بإخراجِ البهيمةِ منعَ البهيمةِ ، بلْ حفظَ مالِ المسلمِ ؛ إذِ البهيمةُ لوْ أكلَتْ ميتةً أوْ شربَتْ مِنْ إناءٍ فيهِ خمرٌ أوْ ماءٌ مشوبٌ بخمرٍ . . لمْ نمنعْها منهُ ، بلْ يجوزُ إطعامُ كلابِ الصيدِ الجيفَ والميتاتِ ، ولكنَّ مالَ المسلمِ إذا تعرَّضَ للضياعِ وقدرنا علىٰ حفظِهِ بغيرِ تعبٍ . . وجبَ ذلكَ علينا ؛ حفظاً للمالِ .

بلْ لوْ وقعَتْ جرَّةٌ لإنسانٍ مِنْ علوٍّ وتحتَها قارورةٌ لغيرِهِ ، فتُدفعُ الجرَّةُ لحفظِ القارورةِ ، لا لمنعِ الجرَّةِ مِنَ السقوطِ ، فإنَّا لا نقصدُ منعَ الجرَّةِ وحراستَها مِنْ أنْ تصيرَ كاسرةً للقارورةِ .

ونمنعُ المجنونَ مِنَ الزنا وإتيانِ البهيمةِ وشربِ الخمرِ وكذا الصبيَّ . . لا صيانةً للبهيمةِ المأتيةِ أوِ الخمرِ المشروبِ ، بلْ صيانةً للمجنونِ عنْ شربِ الخمرِ ، وتنزيهاً لهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ إنسانٌ محترمٌ .

فهـٰذهِ لطائفُ دقيقةٌ لا يتفطَّنُ لها إلا المحقِّقونَ ، فلا ينبغي أنْ يُغفلَ عنها .

ثمَّ فيما يجبُ تنزيهُ الصبيِّ والمجنونِ عنهُ نظرٌ ؛ إذْ قدْ يتردَّدُ في منعِهما مِنْ لبسِ الحريرِ وفي غيرِ ذلكَ ، وسنتعرَّضُ لما نشيرُ إليهِ في البابِ الثالثِ .

﴿ ﴿ ﴿

فإنْ قلتَ : فكلُّ مَنْ رأىٰ بهائمَ قدِ استرسلَتْ في زرعِ إنسانٍ فهلْ يجبُ عليهِ إخراجُها ؟ وكلُّ مَنْ رأىٰ مالاً لمسلمٍ أشرفَ على الضياعِ هلْ يجبُ عليهِ حفظُهُ ؟

فإنْ قلتُمْ : (إنَّ ذلكَ واجبٌ) . . فهـٰذا تكليفٌ شططٌ يؤدِّي إلىٰ أنْ يصيرَ الإنسانُ مسخَّراً لغيرِهِ طولَ عمرِهِ ، وإنْ قلتُمْ : (لا يجبُ) . . فلمَ يجبُ الاحتسابُ علىٰ مَنْ يغصِبُ مالَ غيرِهِ وليسَ لهُ سببٌ سوىٰ مراعاةِ مالِ الغيرِ .

فنقولُ : هـٰذا بحثٌ دقيقٌ غامضٌ ، والقولُ الوجيزُ فيهِ أنْ نقولَ : مهما قدرَ علىٰ حفظِهِ عنِ الضياعِ ، مِنْ غيرِ أنْ ينالَهُ تعبٌ في بدنِهِ ، أوْ خسرانٌ في مالِهِ ، أوْ نقصانٌ في جاهِهِ . . وجبَ عليهِ ذلكَ ، فذلكَ القدْرُ واجبٌ في حقوقِ المسلمِ ، بلْ هوَ أقلُّ درجاتِ الحقوقِ .

والأدلَّةُ الموجبةُ لحقوقِ المسلمينَ كثيرةٌ ، وهـٰذا أقلُّ درجاتِها وهوَ أولىٰ بالإيجابِ مِنْ ردِّ السلامِ ؛ فإنَّ الأذىٰ في هـٰذا أكثرُ مِنَ الأذىٰ في تركِ ردِّ السلامِ ، بلْ لا خلافَ في أنَّ مالَ الإنسانِ إذا كانَ يضيعُ بظلمِ ظالمٍ ، وكانَ

عندَهُ شهادةٌ لوْ تكلَّمَ بها لرجعَ الحقُّ إليهِ . . وجبَ عليهِ ذلكَ ، وعصىٰ بكتمانِ الشهادةِ ، ففي معنىٰ تركِ الشهادةِ تركُ كلِّ دفعٍ لا ضررَ على الدافعِ فيهِ .

فأمَّا إنْ كانَ عليهِ تعبٌ أوْ ضررٌ في مالٍ أوْ جاهٍ . . لمْ يلزمْهُ ذلكَ ؛ لأنَّ حقَّهُ مرعيٌّ في منفعةِ بدنِهِ وفي مالِهِ وجاهِهِ كحقِّ غيرِهِ ، فلا يلزمُهُ أنْ يفديَ غيرَهُ بنفسِهِ .

نعمْ ، الإيثارُ مستحبٌّ ، وتجشُّمُ المصاعبِ لأجلِ المسلمينَ قربةٌ ، فأمَّا إيجابُها . . فلا .

فإذاً ؛ إنْ كانَ يتعبُ بإخراجِ البهائمِ عنِ الزرعِ . . لمْ يلزمْهُ السعيُ في ذلكَ ، ولكنْ إذا كانَ لا يتعبُ ؛ بتنبيهِ صاحبِ الزرعِ مِنْ نومِهِ ، أوْ بإعلامِهِ . . يلزمُهُ ذلكَ ، فإهمالُ تعريفِهِ وتنبيهِهِ كإهمالِ تعريفِ القاضي بالشهادةِ ، وذلكَ لا رخصةَ فيهِ .

ولا يمكنُ أنْ يُراعىٰ فيهِ الأقلُّ والأكثرُ ، حتَّىٰ يُقالَ : إنْ كانَ لا يضيعُ مِنْ منفعتِهِ في مدَّةِ اشتغالِهِ بإخراجِ البهائمِ إلا قدْرُ درهمٍ مثلاً ، وصاحبُ الزرعِ يفوتُهُ مالٌ كثيرٌ ، فيترجَّحُ جانبُهُ ؛ لأنَّ الدرهمَ الذي لهُ هوَ يستحقُّ حفظَهُ كما يستحقُّ صاحبُ الألفِ حفظَ الألفِ ، فلا سبيلَ للمصيرِ إلىٰ ذلكَ .

فأمَّا إذا كانَ فواتُ المالِ بطريقٍ هوَ معصيةٌ ؛ كالغصبِ ، أوْ قتلِ عبدٍ مملوكٍ للغيرِ . . فهاذا يجبُ المنعُ منهُ وإنْ كانَ فيهِ تعبٌ ما ؛ لأنَّ

المقصودَ حقُّ الشرعِ ، والغرضُ دفعُ المعصيةِ .

وعلى الإنسانِ أنْ يُتعبَ نفسَهُ في دفعِ المعاصي كما عليهِ أنْ يُتعبَ نفسَهُ في تركِ المعاصي ، والمعاصي كلُّها في تركِها تعبٌ ، وإنَّما الطاعاتُ كلُّها ترجعُ إلىٰ مخالفةِ النفسِ ، وهيَ غايةُ التعبِ ، ثمَّ لا يلزمُهُ احتمالُ كلِّ ضررٍ ، بلِ التفصيلُ فيهِ ما ذكرناهُ مِنْ درجاتِ المحذوراتِ التي يخافُها المحتسبُ .

وقدِ اختلفَ الفقهاءُ في مسألتينِ تقرُبانِ مِنْ غرضِنا :

إحداهُما : أنَّ الالتقاطَ هلْ هوَ واجبٌ ، واللُّقَطَةُ ضائعةٌ ، والملتقطُ مانعٌ عنِ الضياعِ وساعٍ في الحفظِ ؟

والحقُّ فيهِ عندَنا : أنْ يُفصَّلَ ويُقالَ :

إنْ كانَتِ اللقطةُ في موضعٍ لوْ تركَها فيهِ لمْ تضعْ ، بلْ يلتقطُها مَنْ يعرِّفُها ، أوْ تُتركُ ؛ كما لوْ كانَتْ في مسجدٍ ، أوْ رباطٍ يتعيَّنُ مَنْ يدخلُهُ وكلُّهُمْ أمناءُ . . فلا يلزمُهُ الالتقاطُ .

وإنْ كانتْ في مَضيعةٍ . . نظرَ ؛ فإنْ كانَ عليهِ تعبٌ في حفظِها ، كما لوْ كانَتْ بهيمةً وتحتاجُ إلىٰ علفٍ وإصطبلٍ . . فلا يلزمُهُ ذلكَ ؛ لأنَّهُ إنَّما يجبُ الالتقاطُ لحقِّ المالكِ ، وحقُّهُ بسببِ كونِهِ إنساناً محترماً ، والملتقطُ أيضاً إنسانٌ ، ولهُ حقٌّ في ألا يتعبَ لأجلِ غيرِهِ ، كما لا يتعبُ غيرُهُ لأجلِهِ .

وإنْ كانتِ اللقطةُ ذهباً أوْ ثوباً أوْ شيئاً لا ضررَ عليهِ فيهِ إلا مجرَّدُ تعبِ

التعريفِ . . فهـٰذا ينبغي أنْ يكونَ في محلِّ الوجهينِ ؛ فقائلٌ يقولُ : التعريفُ والقيامُ بشرطِهِ شبْهُ تعبٍ ، فلا سبيلَ إلىٰ إلزامِهِ ذلكَ إلا أنْ يتبرَّعَ فيلتزمَ طلباً للثوابِ ، وقائلٌ يقولُ : إنَّ هـٰذا القدْرَ مِنَ التعبِ مستصغرٌ بالإضافةِ إلىٰ مراعاةِ حقوقِ المسلمينَ ، فينزَّلُ هـٰذا منزلةَ تعبِ الشاهدِ في حضورِ مجلسِ الحكمِ ، فإنَّهُ لا يلزمُهُ السفرُ إلىٰ بلدةٍ أخرىٰ إلا أنْ يتبرَّعَ بهِ ، وإذا كانَ مجلسُ القاضي في جوارِهِ . . لزمَهُ الحضورُ وكانَ التعبُ بهـٰذهِ الخطواتِ لا يُعدُّ تعباً في غرضِ إقامةِ الشهادةِ وأداءِ الأمانةِ ، وإنْ كانَ في الطرفِ الآخرِ مِنَ البلدِ وأحوجَ إلى الحضورِ في الهاجرةِ وعندَ شدَّةِ الحرِّ . . فهـٰذا قدْ يقعُ في محلِّ الاجتهادِ والنظرِ .

فإذاً ؛ الضررُ الذي ينالُ الساعيَ في حفظِ حقِّ الغيرِ لهُ طرفٌ في القلَّةِ لا يُشكُّ في أنَّهُ لا يُبالىٰ بهِ ، وطرفٌ في الكثرةِ لا يُشكُّ في أنَّهُ لا يلزمُ احتمالُهُ ، ووسطٌ يتجاذبُهُ الطرفانِ ، ويكونُ ذلكَ أبداً في محلِّ الشبهةِ والنظرِ ، وهيَ مِنَ الشبهاتِ المزمنةِ التي ليسَ في مقدورِ البشرِ إزالتُها ، إذْ لا علَّةَ تفرِّقُ بينَ أجزائِها المتقاربةِ ، ولكنَّ المتقيَ ينظرُ فيها لنفسِهِ ويدعُ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ .

فهـٰذا نهايةُ الكشفِ عنْ هـٰذا الأصلِ(١) .

❋ ❋ ❋

(١) ولم يذكر المصنف المسألة الثانية التي تقرب من الغرض . « إتحاف » (٧/ ٤١) .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

ولهُ درجاتٌ وآدابٌ .

أمَّا الدرجاتُ : فأوَّلُها : التعرُّفُ ، ثمَّ التعريفُ ، ثمَّ النهيُ بالوعظِ والنصحِ ، ثمَّ السبُّ والتعنيفُ ، ثمَّ التغييرُ باليدِ ، ثمَّ التهديدُ بالضربِ ، ثمَّ إيقاعُ الضربِ وتحقيقُهُ ، ثمَّ شهْرُ السلاحِ ، ثمَّ الاستظهارُ فيهِ بالأعوانِ وجمعِ الجنودِ .

* * *

أمَّا الدرجةُ الأولىٰ : وهي التعرُّفُ :

ونعني بهِ طلبَ المعرفةِ بجريانِ المنكرِ ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وهوَ التجسُّسُ الذي ذكرناهُ ، فلا ينبغي أن يسترقَ السمعَ علىٰ دارِ غيرِهِ ليسمعَ صوتَ الأوتارِ ، ولا أنْ يستنشقَ ليدركَ رائحةَ الخمرِ ، ولا أنْ يمسَّ ما في ثوبِهِ ليعرفَ شكلَ المزمارِ ، ولا أنْ يستخبرَ مِنْ جيرانِهِ ليخبروهُ بما يجري في دارِهِ .

نعمْ ، لوْ أخبرَهُ عدلانِ ابتداءً مِنْ غيرِ استخبارٍ بأنَّ فلاناً يشربُ الخمرَ في دارِهِ ، أوْ بأنَّ في دارِهِ خمراً أعدَّهُ للشربِ . فلهُ إذْ ذاكَ أنْ يدخلَ دارَهُ ، ولا يلزمُهُ الاستئذانُ ، ويكونُ تخطِّي ملكِهِ بالدخولِ للتوصُّلِ إلىٰ دفعِ المنكرِ ؛ ككسرِ رأسِهِ بالضربِ للمنعِ مهما احتاجَ إليهِ .

وإنْ أخبرَهُ عبدانِ أوْ عدلٌ واحدٌ ، وبالجملةِ : كلُّ مَنْ تقبلُ روايتُهُ لا شهادتُهُ . . ففي جوازِ الهجومِ علىٰ دارِهِ بقولِهِمْ نظرٌ واحتمالٌ ، والأولىٰ أنْ يمتنعَ ؛ لأنَّ لهُ حقّاً في ألا يتخطَّىٰ دارَهُ بغيرِ إذنِهِ ، ولا يسقطُ حقُّ المسلمِ عمَّا ثبتَ عليهِ حقُّهُ إلا بشاهدينِ ، فهـٰذا أولىٰ ما يُجعلُ مردّاً فيهِ[1] ، وقدْ قيلَ : إنَّهُ كانَ نقشُ خاتمِ لقمانَ : (السترُ لما عاينتَ أحسنُ مِنْ إذاعةِ ما ظننتَ) .

❊ ❊ ❊

الدرجةُ الثانيةُ : التعريفُ :

فإنَّ المنكرَ قدْ يقدمُ عليهِ المقدمُ بجهلِهِ ، وإذا عُرِّفَ أنَّهُ منكرٌ . . تركَهُ ؛ كالسواديِّ يصلي ولا يحسنُ الركوعَ والسجودَ[2] ، فيُعلمُ أنَّ ذلكَ لجهلِهِ بأنَّ هـٰذهِ ليستْ بصلاةٍ ، ولوْ رضيَ بألا يكونَ مصلِّياً . . لتركَ أصلَ الصلاةِ .

فيجبُ تعريفُهُ باللطفِ مِنْ غيرِ عنفٍ ، وذلكَ لأنَّ في ضمنِ التعريفِ نسبةً إلى الجهلِ والحمقِ ، والتجهيلُ إيذاءٌ ، وقلَّما يرضى الإنسانُ بأنْ يُنسبَ إلى الجهلِ بالأمورِ ، لا سيما بالشرعِ ، ولذلكَ ترى الذي يغلبُ عليهِ الغضبُ كيفَ يغضبُ إذا نُبِّهَ على الخطأِ والجهلِ ، وكيفَ يجتهدُ في مجاحدةِ الحقِّ بعدَ معرفتِهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ تنكشفَ عورةُ جهلِهِ .

والطباعُ أحرصُ علىٰ سترِ عورةِ الجهلِ منها علىٰ سترِ العورةِ الحقيقيةِ ؛

---

(١) أي : يردُّ عليه ، ففي كل منهما إسقاط الحق . « إتحاف » (٧/ ٤٢) .

(٢) **السوادي** : المنسوب إلىٰ سواد البلد ، وتقدم بيان السواديَّة وأنهم الأكَّارون ومن يعمل بالفلاحة .

لأنَّ الجهلَ قبحٌ في صورةِ النفسِ ، وسوادٌ في وجهِهِ ، وصاحبُهُ ملومٌ عليهِ ، وقبحُ السوءتينِ يرجعُ إلىٰ صورةِ البدنِ ، والنفسُ أشرفُ مِنَ البدنِ ، وقبحُها أشدُّ مِنْ قبحِ البدنِ ، ثمَّ هوَ غيرُ ملومٍ عليهِ ؛ لأنَّهُ خِلقةٌ لمْ يدخلْ تحتَ اختيارِهِ حصولُهُ ، ولا في اختيارِهِ إزالتُهُ وتحسينُهُ ، والجهلُ قبحٌ يمكنُ إزالتُهُ وتبديلُهُ بحسْنِ العلمِ ، فلذلكَ يعظمُ تألُّمُ الإنسانِ بظهورِ جهلِهِ ، ويعظمُ ابتهاجُهُ في نفسِهِ بعلمِهِ ، ثمَّ لذَّتُهُ عندَ ظهورِ جمالِ علمِهِ لغيرِهِ .

وإذا كانَ التعريفُ كشفاً للعورةِ مؤذياً للقلبِ . . فلا بدَّ وأنْ يُعالجَ دفعُ أذاهُ بلطفِ الرفقِ ، فنقولُ لهُ : إنَّ الإنسانَ لا يُولدُ عالماً ، ولقدْ كنَّا أيضاً جاهلينَ بأمورِ الصلاةِ ، فعلَّمنا العلماءُ ، ولعلَّ قريتَكَ خاليةٌ عنْ أهلِ العلمِ ، أوْ عالِمَها مقصِّرٌ في شرحِ الصلاةِ وإيضاحِها ، إنَّما شرطُ الصلاةِ الطمأنينةُ في الركوعِ والسجودِ .

فهكذا يتلطَّفُ بهِ ليحصلَ التعريفُ مِنْ غيرِ إيذاءٍ ، فإنَّ إيذاءَ المسلمِ حرامٌ محذورٌ ، كما أنَّ تقريرَهُ على المنكرِ محذورٌ ، وليسَ مِنَ العقلاءِ مَنْ يغسلُ الدمَ بالدمِ أوْ بالبولِ ، ومَنِ اجتنبَ محذورَ السكوتِ على المنكرِ واستبدلَ عنهُ محذورَ الإيذاءِ للمسلمِ معَ الاستغناءِ عنهُ . . فقدْ غسلَ الدمَ بالبولِ على التحقيقِ .

وأمَّا إذا وقفتَ علىٰ خطأٍ في غيرِ أمرِ الدينِ . . فلا ينبغي أنْ تردَّهُ عليهِ ؛ فإنَّهُ يستفيدُ منكَ علماً ، ويصيرُ لكَ عدوّاً ، إلا إذا علمتَ أنَّهُ يغتنمُ العلمَ ، وذلكَ عزيزٌ جدّاً .

❁ ❁ ❁

الدرجة الثالثة : النهيُ بالوعظِ والنصحِ والتخويفِ باللهِ عزَّ وجلَّ :

وذلكَ فيمَنْ يُقدمُ على الأمرِ وهوَ عالمٌ بكونِهِ منكراً ، أوْ فيمَنْ أصرَّ عليهِ بعدَ أنْ عرفَ كونَهُ منكراً ؛ كالذي يواظبُ على الشربِ ، أوْ على الظلمِ ، أوْ على اغتيابِ المسلمينَ ، أوْ ما يجري مَجراهُ .

فينبغي أنْ يُوعظَ ويُخوَّفَ باللهِ تعالىٰ ، وتُوردَ عليهِ الأخبارُ الواردةُ بالوعيدِ في ذلكَ ، وتُحكىٰ لهُ سيرةُ السلفِ وعادةُ المتقينَ ، وكلُّ ذلكَ بشفقةٍ ولطفٍ مِنْ غيرِ عنفٍ وغضبٍ ، بلْ ينظرُ إليهِ نظرَ المترحِّمِ عليهِ ، ويرىٰ إقدامَهُ على المعصيةِ مصيبةً علىٰ نفسِهِ ؛ إذِ المسلمونَ كنفسٍ واحدةٍ .

وهٰهنا آفةٌ عظيمةٌ ينبغي أنْ يتوقَّاها ؛ فإنَّها مهلكةٌ ، وهيَ أنَّ العالِمَ يرىٰ عندَ التعريفِ عزَّ نفسِهِ بالعلمِ وذلَّ غيرِهِ بالجهلِ ، فربَّما يقصدُ بالتعريفِ الإذلالَ وإظهارَ التميُّزِ بشرفِ العلمِ وإذلالَ صاحبِهِ بالنسبةِ إلىٰ خسَّةِ الجهلِ ، فإنْ كانَ الباعثُ هٰذا . فهٰذا المنكرُ أقبحُ في نفسِهِ مِنَ المنكرِ الذي يعترضُ عليهِ .

ومثالُ هٰذا المحتسِبِ مثالُ مَنْ يخلِّصُ غيرَهُ مِنَ النارِ بإحراقِ نفسِهِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ ، وهٰذهِ مزلَّةٌ عظيمةٌ ، وغائلةٌ هائلةٌ[1] ، وغرورٌ للشيطانِ يتدلَّىٰ بحبلِهِ كلُّ إنسانٍ ، إلا مَنْ عرَّفَهُ اللهُ عيوبَ نفسِهِ ، وفتحَ بصيرتَهُ بنورِ هدايتِهِ ، فإنَّ في الاحتكامِ على الغيرِ لذَّةً للنفسِ عظيمةً مِنْ وجهينِ :

أحدُهما : مِنْ جهةِ دالَّةِ العلمِ .

---

(١) **الغائلة هنا** : الشر العظيم والداهية .

والآخرُ : مِنْ جهةِ دالَّةِ الاحتكامِ والسلطنةِ .

وذلكَ يرجعُ إلى الرياءِ وطلبِ الجاهِ ، وهوَ الشهوةُ الخفيَّةُ الداعيةُ إلى الشرْكِ الخفيِّ ، ولهُ محكٌّ ومعيارٌ ينبغي أنْ يمتحنَ بهِ المحتسبُ نفسَهُ ، وهوَ أنْ يكونَ امتناعُ ذلكَ الإنسانِ عنِ المنكرِ بنفسِهِ أوْ باحتسابِ غيرِهِ أحبَّ إليهِ منِ امتناعِهِ باحتسابِهِ ؛ فإنْ كانَتِ الحِسبةُ شاقَّةً عليهِ ثقيلةً علىٰ نفسِهِ ، وهوَ يودُّ أنْ يُكفىٰ بغيرِهِ . . فليحتسبْ ؛ فإنَّ باعثَهُ هوَ الدينُ .

وإنْ كانَ اتعاظُ ذلكَ العاصي بوعظِهِ وانزجارُهُ بزجرِهِ أحبَّ إليهِ منِ اتعاظِهِ بوعظِ غيرِهِ . . فما هوَ إلا متبعٌ هوىٰ نفسِهِ ، ومتوسِّلٌ إلىٰ إظهارِ جاهِ نفسِهِ بواسطةِ حسبتِهِ ، فليتقِ اللهَ تعالىٰ فيهِ ، وليحتسبْ أولاً علىٰ نفسِهِ ، وعندَ هـٰذا يُقالُ لهُ ما قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظتَ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي)(١) .

وقيلَ لداوودَ الطائيِّ : أرأيتَ رجلاً دخلَ علىٰ هؤلاءِ الأمراءِ ، فأمرَهُمْ بالمعروفِ ونهاهُمْ عنِ المنكرِ ، فقالَ : أخافُ عليهِ السوطَ ، قيلَ : إنَّهُ يقوىٰ عليهِ ، قالَ : أخافُ عليهِ السيفَ ، قيلَ : إنَّهُ يقوىٰ عليهِ ، قالَ : أخافُ عليهِ الداءَ الدفينَ ، وهوَ العجبُ(٢) .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٨) .

الدرجةُ الرابعةُ : السبُّ والتعنيفُ بالقولِ الغليظِ الخشنِ :

وذلكَ يُعدلُ إليهِ عندَ العجزِ عنِ المنعِ باللطفِ ، وظهورِ مبادي الإصرارِ والاستهزاءِ بالوعظِ والنصحِ ، وذلكَ مثلُ قولِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولسنا نعني بالسبِّ الفحشَ بما فيهِ نسبةٌ إلى الزنا ومقدماتِهِ ، ولا الكذبَ ، بلْ أنْ يخاطبَهُ بما فيهِ ، ممَّا لا يُعدُّ مِنْ جملةِ الفحشِ ؛ كقولِهِ : يا فاسقُ ، يا أحمقُ ، يا جاهلُ ؛ ألا تخافُ اللهَ ، وكقولِهِ : يا سواديُّ ، يا غبيُّ ، وما يجري هـٰذا المَجرىٰ ، فإنَّ كلَّ فاسقٍ فهوَ أحمقُ وجاهلٌ ، ولولا حمقُهُ .. لما عصى اللهَ تعالىٰ ، بلْ كلُّ مَنْ ليسَ بكيِّسٍ فهوَ أحمقُ ، والكيِّسُ : مَنْ شهدَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالكياسةِ حيثُ قالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[1] .

ولهـٰذهِ الرتبةِ أدبانِ :

أحدُهُما : ألا يقدمَ عليها إلا عندَ الضرورةِ والعجزِ عنِ اللطفِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلاَّم في « غريب الحديث » (٣/ ١٣٤) ، **دان نفسه** : جعلها منقادة مطيعة لربِّها تعالىٰ ، **وتمنّىٰ على الله** : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات .. لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٧/ ٤٤) .

والثاني : ألا ينطقَ إلا بالصدقِ ، ولا يسترسلَ فيهِ ، فيطلقَ لسانَهُ الطويلَ بما لا يُحتاجُ إليه ، بلْ يقتصرُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ .

فإنْ علمَ أنَّ خطابَهُ بهـٰذهِ الكلماتِ الزاجرةِ ليستْ تزجرُهُ . . فلا ينبغي أن يطلقَهُ ، بلْ يقتصرُ علىٰ إظهارِ الغضبِ والاستحقارِ لهُ ، والإزراءِ بمحلِّهِ لأجلِ معصيتِهِ ؟

وإنْ علمَ أنَّهُ لوْ تكلَّمَ . . ضربَ ، ولوِ اكفهرَّ وأظهرَ الكراهةَ بوجهِهِ لمْ يضربْ . . لزمَهُ ولمْ يكفِهِ الإنكارُ بالقلبِ ، بلْ يلزمُهُ أنْ يقطِّبَ وجهَهُ ويظهرَ الإنكارَ لهُ .

❊ ❊ ❊

الدرجةُ الخامسةُ : التغييرُ باليدِ :

وذلكَ ككسرِ الملاهي ، وإراقةِ الخمرِ ، وخلعِ الحريرِ مِنْ رأسِهِ وعنْ بدنِهِ ، ومنعِهِ مِنَ الجلوسِ عليهِ ، ودفعِهِ عنِ الجلوسِ علىٰ مالِ الغيرِ ، وإخراجِهِ مِنَ الدارِ المغصوبةِ بالجرِّ برجْلِهِ ، وإخراجِهِ مِنَ المسجدِ إذا كانَ جالساً فيهِ وهوَ جنبٌ ، وما يجري مَجراهُ .

ويُتصوَّرُ ذلكَ في بعضِ المعاصي دونَ بعضٍ ، فأمَّا معاصي اللسانِ والقلبِ . . فلا يُقدرُ علىٰ مباشرةِ تغييرِها ، وكذلكَ كلُّ معصيةٍ تقتصرُ علىٰ نفسِ العاصي وجوارحِهِ الباطنةِ .

وفي هـٰذهِ الدرجةِ أدبانِ :

أحدُهما : ألا يباشرَ بيدِهِ التغييرَ ما لمْ يعجزْ عنْ تكليفِ المحتسَبِ عليهِ ذلكَ ، فإذا أمكنَهُ أنْ يكلِّفَهُ المشيَ في الخروجِ عنِ الأرضِ المغصوبةِ والمسجدِ . . فلا ينبغي أنْ يدفعَهُ أوْ يجرَّهُ ، وإذا قدرَ علىٰ أن يكلِّفَهُ إراقةَ الخمرِ ، وكسرَ الملاهي ، وحلَّ دروزِ الثوبِ الحريرِ[1] . . فلا ينبغي أنْ يباشرَ ذلكَ بنفسِهِ ، فإنَّ في الوقوفِ علىٰ حدِّ الكسرِ نوعَ عسرٍ ، فإذا لم يتعاطَ بنفسِهِ ذلكَ . . كُفِيَ الاجتهادَ فيهِ ، وتولاَّهُ مَنْ لا حجرَ عليهِ في فعلِهِ .

الثاني : أنْ يقتصرَ في طريقِ التغييرِ على القدْرِ المحتاجِ إليهِ ، وهوَ ألا يأخذَ بلحيتِهِ في الإخراجِ ولا برجلِهِ إذا قدرَ علىٰ جرِّهِ بيدِهِ ، فإنَّ زيادةَ الأذىٰ فيهِ مستغنىً عنهُ، وألا يمزِّقَ الثوبَ الحريرَ، بل يحلَّ دروزَهُ فقطْ ، ولا يحرقَ الملاهيَ والصليبَ الذي أظهرَهُ النصارىٰ، بلْ يبطلُ صلاحيتَها للفسادِ بالكسرِ .

وحدُّ الكسرِ : أنْ يصيرَ إلىٰ حالٍ تحتاجُ في استئنافِ إصلاحِهِ إلىٰ تعبٍ يساوي تعبَ الاستئنافِ مِنَ الخشبِ ابتداءً .

وفي إراقةِ الخمورِ يتوقَّىٰ كسرَ الأواني إنْ وجدَ إليهِ سبيلاً ، فإنْ لم يقدرْ عليها إلا بأنْ يرميَ ظروفَها بحجرٍ . . فلهُ ذلكَ ، وسقطَتْ قيمةُ الظرْفِ وتقوُّمُهُ بسببِ الخمرِ ؛ إذْ صارَ حائلاً بينَهُ وبينَ الوصولِ إلىٰ إراقةِ الخمرِ ، ولوْ سترَ الخمرَ ببدنِهِ . . لكنَّا نقصدُ بدنَهُ بالجرحِ والضربِ ؛ لنتوصَّلَ إلىٰ

---

(١) **ودروز الثوب** : هي العقود التي تربط بها مواضع من الثوب على البدن ، وهي في بلاد العجم بمنزلة الأزرار في هـٰذه البلاد . « إتحاف » (٧/ ٤٥) .

إراقةِ الخمرِ ، فإذاً لا تزيدُ حرمةُ ملكِهِ في الظروفِ علىٰ حرمةِ نفسِهِ .

ولوْ كانَ الخمرُ في قواريرَ ضيِّقةِ الرؤوسِ ولوِ اشتغلَ بإراقتِها طالَ الزمانُ وأدركَهُ الفسَّاقُ ومنعوهُ . . فلهُ كسرُها ، فهـٰذا عذرٌ ، وإنْ كانَ لا يحذرُ ظفرَ الفسَّاقِ بهِ ومنْعَهُمْ ، ولكنْ كانَ يضيعُ فيهِ زمانُهُ ، وتتعطَّلُ عليهِ أشغالُهُ . . فلهُ كسرُها ، فليسَ عليهِ أنْ يضيِّعَ منفعةَ بدنِهِ وغرضَهُ مِنْ أشغالِهِ لأجلِ ظروفِ الخمرِ ، وحيثُ تكونُ الإراقةُ متيسرةً بدونِ الكسرِ فكسرَهُ . . لزمَهُ الضمانُ .

❁ ❁ ❁

فإن قلت : فهلاَّ جازَ الكسرُ لأجلِ الزجرِ ؟ وهلاَّ جازَ الجرُّ بالرجْلِ في الإخراجِ عنِ الغصبِ ليكونَ ذلكَ أبلغَ في الزجرِ ؟!

فاعلم : أنَّ الزجرَ إنَّما يكونُ عنِ المستقبلِ ، والعقوبةَ تكونُ على الماضي ، والدفعَ عنِ الحاضرِ الراهنِ ، وليسَ إلىٰ آحادِ الرعيَّةِ إلا الدفعُ ، وهوَ إعدامُ المنكرِ ، فما زادَ علىٰ قدْرِ الإعدامِ فهوَ إمَّا عقوبةٌ علىٰ جريمةٍ سابقةٍ أوْ زجرٌ عنْ لاحقٍ ، وذلكَ إلى الولاةِ ، لا إلى الرعيَّةِ .

نعمْ ، الوالي لهُ أنْ يفعلَ ذلكَ إذا رأى المصلحةَ فيهِ .

وأقولُ : لهُ أنْ يأمرَ بكسرِ الظروفِ التي فيها الخمرُ زجراً ، وقدْ فُعِلَ ذلكَ في زمانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تأكيداً للزجرِ (١) ، ولمْ يثبتْ

---

(١) فقد روى الترمذي (١٢٩٣) عن أبي طلحة رضي الله عنه أنه قال : يا نبيَّ الله ؛ إني اشتريت خمراً لأيتام في حجري ، قال : « أهرق الخمر ، واكسر الدنان » .

نسخُهُ ، ولكنْ كانَتِ الحاجةُ إلى الزجرِ والفطامِ شديدةً ، فإذا رأى الوالي باجتهادِهِ مثلَ تلكَ الحاجةِ . . جازَ لهُ مثلُ ذلكَ ، وإذا كانَ هـٰذا منوطاً بنوعِ اجتهادٍ دقيقٍ . . لمْ يكنْ ذلكَ لآحادِ الرعيَّةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فليجزْ للسلطانِ زجرُ الناسِ عنِ المعاصي بإتلافِ أموالِهِمْ وتخريبِ دورِهِمُ التي فيها يشربونَ ويعصونَ ، وإحراقِ أموالِهِمُ التي بها يتوصَّلونَ إلى المعاصي !

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ لوْ وردَ الشرعُ بهِ . . لمْ يكنْ خارجاً عنْ سننِ المصالحِ ، ولكنَّا لا نبتدعُ المصالحَ ، بلْ نتبعُ فيها ، وكسرُ ظروفِ الخمرِ قدْ ثبتَ عندَ شدَّةِ الحاجةِ ، وتركُهُ بعدَ ذلكَ لعدمِ شدَّةِ الحاجةِ لا يكونُ نسخاً ، بلِ الحكمُ يزولُ بزوالِ العلَّةِ ، ويعودُ بعودِها ، وإنَّما جوزْنا ذلكَ للإمامِ بحكمِ الاتباعِ ، ومنعْنا آحادَ الرعيَّةِ منهُ لخفاءِ وجهِ الاجتهادِ فيهِ .

بلْ نقولُ : لوْ أُريقَتِ الخمورُ أوَّلاً . . فلا يجوزُ كسْرُ الأواني بعدَها ، وإنَّما جازَ كسرُها تبعاً للخمرِ ، فإذا خلَتْ عنها . . فهوَ إتلافُ مالٍ ، إلا أنْ تكونَ ضاريةً بالخمرِ لا تصلحُ إلا لها(١) .

فكأنَّ الفعلَ المنقولَ عنِ العصرِ الأوَّلِ كانَ مقروناً بمعنيينِ :

---

(١) **الإناء الضاري** : هو الذي ضَرِيَ بالخمر وعوِّد بها ، فإذا وضع فيها شيء آخر . . فسد ، ولم ينتفع به .

أحدُهما : شدَّةُ الحاجةِ إلى الزجرِ .

والآخرُ : تبعيَّةُ الظروفِ للخمرِ التي هيَ مشغولةٌ بها .

وهما معنيانِ مؤثِّرانِ لا سبيلَ إلىٰ حذفِهما .

ومعنىً ثالثٌ : وهوَ صدورُهُ عنْ رأيِ صاحبِ الأمرِ ؛ لعلمِهِ بشدَّةِ الحاجةِ إلى الزجرِ ، وهوَ أيضاً مؤثِّرٌ ، فلا سبيلَ إلىٰ إلغائِهِ .

فهٰذهِ تصرُّفاتٌ دقيقةٌ فقهيةٌ يحتاجُ المحتسِبُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ معرفتِها .

* * *

الدرجةُ السادسةُ : التهديدُ والتخويفُ :

كقولِهِ : دعْ عنكَ هٰذا أوْ لأكسرنَّ رأسَكَ ، أوْ لأضربنَّ رقبتَكَ ، أوْ لآمرنَّ بكَ ، وما أشبهَهُ .

وهٰذا ينبغي أنْ يُقدَّمَ علىٰ تحقيقِ الضربِ إذا أمكنَ تقديمُهُ .

والأدبُ في هٰذهِ الرتبةِ : ألا يهدِّدَهُ بوعيدٍ لا يجوزُ لهُ تحقيقُهُ ؛ كقولِهِ : لأنهبنَّ دارَكَ ، أوْ لأضربنَّ ولدَكَ ، أوْ لأسبينَّ زوجتَكَ ، وما يجري مَجراهُ ، بلْ ذلكَ إنْ قالَهُ عنْ عزمٍ . . فهوَ حرامٌ ، وإنْ قالَهُ عنْ غيرِ عزمٍ . . فهوَ كذبٌ .

نعمْ ، إذا تعرَّضَ لوعيدِهِ بالضربِ والاستخفافِ . . فلهُ العزمُ عليهِ إلىٰ حدٍّ معلومٍ يقتضيهِ الحالُ ، ولهُ أنْ يزيدَ في الوعيدِ علىٰ ما هوَ في عزمِهِ الباطنِ إذا علمَ أنَّ ذلكَ ممَّا يقمعُهُ ويردعُهُ ، وليسَ ذلكَ مِنَ الكذبِ

المحذورِ ، بلِ المبالغةُ في مثلِ ذلكَ معتادةٌ ، وهوَ في معنىٰ مبالغةِ الرجلِ في إصلاحِهِ بينَ شخصينِ ، وتأليفِهِ بينَ الضرَّتينِ ، وذلكَ ممَّا رُخِّصَ فيهِ للحاجةِ ، وهـٰذا في معناهُ ؛ فإنَّ القصدَ بِهِ إصلاحُ ذلكَ الشخصِ .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ أشارَ بعضُ الناسِ أنَّهُ لا يقبحُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ أنْ يتوعَّدَ بما لا يفعلُ ؛ لأنَّ الخلفَ في الوعيدِ كرمٌ ، وإنَّما يقبحُ أنْ يَعِدَ بما لا يفعلُ ، وهـٰذا غيرُ مرضيٍّ عندَنا ؛ فإنَّ الكلامَ القديمَ لا يتطرَّقُ إليهِ الخلْفُ ، وعداً كانَ أوْ وعيداً ، وإنَّما يتصوَّرُ هـٰذا في حقِّ العبادِ ، وهوَ كذلكَ ، إذِ الخلفُ في الوعيدِ ليسَ بحرامٍ[1] .

* * *

(١) وعليه ؛ فلا بد أن يصدق الوعيد ولو علىٰ فرد واحد ، ويقول إمام الحرمين في « الإرشاد » (ص ٣٩٢) في سياق رده علىٰ من أوجب على الله تعالىٰ عقاب المصر على المعاصي : (فإذا حَسُنَ من الواحد منا الصفح مع تلذذه بالانتقام والتشفي ، وتعرضه للمضار لو كظم غيظه . . فلأن يحسن العفو من الرب تعالى المتنزِّه عن الحاجة ، المنعوت بالغنىٰ حقاً . . أولىٰ وأحرىٰ ، وما ذكروه إبطال لفضل الله ورحمته) .

ويقول أبو المظفر الإسفراييني في « التبصير في الدين » (ص ١٦١) : (ولم يكن من مشاهيرهم ـ أهل السنة والجماعة ـ من تدنس بشيء من بدع الروافض والخوارج والقدرية ، مثل أبي عمرو بن العلاء ، الذي قال له عمرو بن عبيدي القدري : قد ورد من الله تعالى الوعد والوعيد ، والله تعالىٰ يصدق وعده ووعيده ، فأراد بهـٰذا الكلام أن ينصر بدعته التي ابتدعها في أن العصاة من المؤمنين خالدون مخلدون ، فقال أبو عمرو : فأين أنت من قول العرب إن الكريم إذا أوعد . . عفا ، وإذا وعد . . وفىٰ ، وافتخار قائلهم بالعفو عند الوعيد حيث قال :

وإنـــي إذا أوعـــدتـــه أو وعـــدتـــه		لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فعدَّه من الكرم ، لا من الخلق المذموم) .

الدرجةُ السابعةُ : مباشرةُ الضربِ باليدِ والرِّجْلِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا ليسَ فيهِ شهرُ سلاحٍ :

وذلكَ جائزٌ للآحادِ ، بشرطِ الضرورةِ والاقتصارِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ في الدفعِ ، فإذا اندفعَ المنكرُ . . فينبغي أنْ يكفَّ .

والقاضي قدْ يرهقُ مَنْ ثبتَ عليهِ الحقُّ إلى الأداءِ بالحبسِ ، فإنْ أصرَّ المحبوسُ ، وعلمَ القاضي قدرتَهُ علىٰ أداءِ الحقِّ ، وكونَهُ معانداً . . فلهُ أنْ يلزمَهُ الأداءَ بالضربِ على التدريجِ كما يُحتاجُ إليهِ ، وكذلكَ المحتسبُ يراعي التدريجَ ، فإنِ احتاجَ إلىٰ شهْرِ سلاحٍ وكانَ يقدرُ علىٰ دفعِ المنكرِ بشهْرِ السلاحِ وبالجرحِ . . فلهُ أنْ يتعاطىٰ ذلكَ ما لمْ تثُرْ فتنةٌ ، كما لوْ قبضَ فاسقٌ مثلاً على امرأةٍ ، أوْ كانَ يضربُ بمزمارٍ معَهُ وبينَهُ وبينَ المحتسبِ نهرٌ حائلٌ أوْ جدارٌ مانعٌ ؛ فيأخذُ قوسَهُ ويقولُ لهُ : خلِّ عنها أوْ لأرمينَّكَ ، فإنْ لمْ يخلِّ عنها . . فلهُ أنْ يرميَ ، وينبغي ألا يقصدَ المقتلَ ، بلِ الساقَ والفخذَ وما أشبهَهُ ، ويراعيَ فيهِ التدريجَ ، وكذلكَ يسلُّ السيفَ ويقولُ : اتركْ هٰذا المنكرَ أوْ لأضربنَّكَ ، فكلُّ ذلكَ دفعٌ للمنكرِ ، ودفعُهُ واجبٌ بكلِّ ممكنٍ ، ولا فرقَ في ذلكَ بينَ ما يتعلَّقُ بخاصِّ حقِّ اللهِ وما يتعلَّقُ بحقِّ الآدميينَ .

وقالَتِ المعتزلةُ : ما لا يتعلَّقُ بالآدميينَ . . فلا حسبةَ فيهِ إلا بالكلامِ أوْ بالضربِ ، ولكنْ للإمامِ لا للآحادِ .

الدرجةُ الثامنةُ : ألا يقدرَ عليهِ بنفسِهِ ويحتاجَ فيهِ إلىٰ أعوانٍ يشهرونَ السلاحَ :

وربَّما يستمدُّ الفاسقُ أيضاً بأعوانِهِ ، ويؤدِّي ذلكَ إلىٰ أنْ يتقابلَ الصفَّانِ ويتقاتلا ، فهـٰذا قدْ ظهرَ الاختلافُ في احتياجِهِ إلىٰ إذنِ الإمامِ .

فقالَ قائلونَ : لا يستقلُّ آحادُ الرعيَّةِ بذلكَ ؛ لأنَّهُ يؤدي إلىٰ تحريكِ الفتنِ وهيجانِ الفسادِ وخرابِ البلادِ .

وقالَ آخرونَ : لا يحتاجُ إلى الإذنِ ، وهوَ الأقيسُ ؛ لأنَّهُ إذا جازَ للآحادِ الأمرُ بالمعروفِ وأوائلُ درجاتِهِ تدعو إلىٰ ثوانيهِ ، وقدْ تنتهي ـ لا محالةَ ـ إلى التضاربِ ، والتضاربُ يدعو إلى التعاونِ . . فلا ينبغي أنْ يباليَ بلوازمِ الأمرِ بالمعروفِ ، ومنتهاهُ تجنيدُ الجنودِ في رضا اللهِ ودفعِ معاصيهِ ، ونحنُ نجوِّزُ للآحادِ مِنَ الغزاةِ أنْ يجتمعوا ويقاتلوا مَنْ أرادوا مِنْ فرقِ الكفَّارِ ؛ قمعاً لأهلِ الكفرِ ، فكذلكَ قمعُ أهلِ الفسادِ جائزٌ ؛ لأنَّ الكافرَ لا بأسَ بقتلِهِ ، والمسلمُ إنْ قُتِلَ فهوَ شهيدٌ ؛ فكذلكَ الفاسقُ المناضلُ عنْ فسقِهِ لا بأسَ بقتلِهِ ، والمحتسبُ المحقُّ إنْ قُتِلَ مظلوماً . فهوَ شهيدٌ .

وعلى الجملةِ : فانتهاءُ الأمرِ إلىٰ هـٰذا مِنَ النوادرِ في الحِسبةِ ، فلا يُغيَّرُ بهِ قانونُ القياسِ ، بلْ يُقالُ : كلُّ مَنْ قدرَ علىٰ دفعِ منكرٍ . فلهُ أنْ يدفعَ ذلكَ بيدِهِ ، وسلاحِهِ ونفسِهِ وبأعوانِهِ ، فالمسألةُ إذاً محتملةٌ كما ذكرنا .

فهـٰذهِ درجاتُ الاحتسابِ ، فلنذكرْ آدابَها ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

بيان آداب المحتسب

قدْ ذكرْنا تفاصيلَ الآدابِ في آحادِ الدرجاتِ ، ونذكرُ الآنَ جملَها ومصادرَها ، فنقولُ : جميعُ آدابِ المحتسبِ مصدرُها ثلاثُ صفاتٍ في المحتسِبِ : العلمُ ، والورعُ ، وحسنُ الخلقِ .

أمَّا العلمُ : فليعلمَ مواقعَ الحسبةِ وحدودَها ومجاريَها وموانعَها ؛ ليقتصرَ علىٰ حدِّ الشرعِ فيها .

وأمَّا الورعُ : فليزعجَهُ[1] عنْ مخالفةِ معلومِهِ ، فما كلُّ مَنْ علمَ عملَ بعلمِهِ ، بلْ ربَّما يعلمُ أنَّهُ مسرفٌ في الحسبةِ وزائدٌ على الحدِّ المأذونِ فيهِ شرعاً ، ولكنْ يحملُهُ عليهِ غرضٌ مِنَ الأغراضِ ، وليكونَ كلامُهُ ووعظُهُ مقبولاً ؛ فإنَّ الفاسقَ يُهزأُ بهِ إذا احتسبَ ، ويورثُ ذلكَ جراءةً عليهِ .

وأمَّا حسنُ الخلقِ : فليتمكَّنَ بهِ مِنَ اللطفِ والرفقِ ، **وهوَ أصلُ البابِ وأساسُهُ** ، والعلمُ والورعُ لا يكفيانِ فيهِ ؛ فإنَّ الغضبَ إذا هاجَ . . لا يكفي مجرَّدُ العلمِ والورعِ في قمعِهِ ما لمْ يكنْ في الطبعِ قبولٌ لهُ بحسنِ الخلقِ .

وعلى التحقيقِ : فلا يتمُّ الورعُ إلا معَ حسنِ الخلقِ ، والقدرةِ علىٰ ضبطِ الشهوةِ والغضبِ ، وبهِ يصبرُ المحتسبُ علىٰ ما أصابَهُ في دينِ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) كذا في (ب) ، وفي (أ) : (ليزعه) ، وفي (هـ ، ط) : (ليردعه) ، وفي (ي) : (لينزعه) .

وإلا . . فإذا أُصيبَ عرضُهُ أوْ مالُهُ أوْ نفسُهُ بشتمٍ أوْ ضربٍ . . نسيَ الحِسبةَ ، وغفلَ عنْ دينِ اللهِ ، واشتغلَ بنفسِهِ ، بلْ ربَّما يقدمُ عليهِ ابتداءً لطلبِ الجاهِ والاسمِ .

فهٰذهِ الصفاتُ الثلاثُ بها تصيرُ الحِسبةُ مِنَ القرباتِ ، وبها تندفعُ المنكراتُ ، وإنْ فُقِدَتْ . . لمْ يندفعِ المنكرُ ، بلْ ربَّما كانَتِ الحِسبةُ أيضاً منكرةً ؛ لمجاوزةِ حدِّ الشرعِ فيها .

ودلَّ علىٰ هٰذهِ الآدابِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهىٰ عنِ المنكرِ إلا رفيقٌ فيما يأمرُ بهِ ، رفيقٌ فيما ينهىٰ عنهُ ، حليمٌ فيما يأمرُ بهِ ، حليمٌ فيما ينهىٰ عنهُ ، فقيهٌ فيما يأمرُ بهِ ، فقيهٌ فيما ينهىٰ عنهُ »[1] ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يُشترطُ أنْ يكونَ فقيهاً مطلقاً ، بلْ فيما يأمرُ بهِ وينهىٰ عنهُ ، وكذا الحلْمُ .

وقالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا كنتَ ممَّنْ يأمرُ بالمعروفِ . . فكنْ مِنْ آخذِ الناسِ بهِ ، وإلا . . هلكتَ)[2] .

---

(١) روىٰ نحوه مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه الديلميُّ في « مسند الفردوس » (٧٧٤١) ولفظه : « لا ينبغي للرجل أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر حتىٰ يكون فيه خصال ثلاثة : رفيق بما يأمر رفيق بما ينهىٰ ، عالم فيما يأمر عالم فيما ينهىٰ ، عدل فيما يأمر عدل فيما ينهىٰ » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٩١) .

ولأبي العتاهيةِ[١] : [من الطويل]

تَدُلُّ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ وَأَنْتَ مُقَصِّرٌ أَيا مَنْ يُداوِي ٱلنَّاسَ وَهْوَ سَقِيمُ
وَإِنَّ ٱمْرَأً لَـمْ يَجْعَلِ ٱلبِرَّ كَنْزَهُ وَلَوْ كانَتِ ٱلدُّنْيا لَـهُ لَعَـدِيمُ

وقدْ قيلَ[٢] : [من السريع]

لا تَلُـمِ ٱلْمَـرْءَ عَلَـىٰ فِعْلِـهِ وَأَنْـتَ مَنْسُـوبٌ إِلَـىٰ مِثْلِـهِ
مَـنْ ذَمَّ شَيْئـاً وَأَتَـىٰ مِثْلَـهُ فَـإِنَّمـا يَـزْرِي عَلَـىٰ عَقْلِـهِ

ولسنا نعني بهـٰذا أنَّ الأمرَ بالمعروفِ يصيرُ ممنوعاً بالفسقِ، ولكنْ يسقطُ أثرُهُ عنِ القلوبِ بظهورِ فسقِهِ للناسِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا نأمرُ بالمعروفِ حتَّىٰ نعملَ بهِ كلِّهِ ، ولا ننهىٰ عنِ المنكرِ حتَّىٰ نجتنبَهُ كلَّهُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلْ مروا بالمعروفِ وإنْ لمْ تعملوا بهِ كلِّهِ، وانهَوا عنِ المنكرِ وإنْ لمْ تجتنبوهُ كلَّهُ »[٣] .

وأوصىٰ بعضُ السلفِ بنيهِ فقالَ : (إنْ أرادَ أحدُكُمْ أنْ يأمرَ بالمعروفِ . . فليوطِّنْ نفسَهُ على الصبرِ ، وليثقْ بالثوابِ مِنَ اللهِ ، فمَنْ وثقَ بالثوابِ مِنَ اللهِ . . لمْ يجدْ مسَّ الأذىٰ)[٤] .

* * *

(١) ديوانه (ص ٣٤٨) .
(٢) البيتان لمحمد بن عيسى التميمي . انظر « معجم الشعراء » (ص ٤٠٨) .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٦٢٤) ، و« الصغير » (٢/ ٧٨) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٠٣) ، والموصي هو عمير بن حبيب .

فإذاً ؛ مِنْ آدابِ الحِسبةِ توطينُ النفسِ على الصبرِ ، ولذلكَ قرنَ اللهُ الصبرَ بالأمرِ بالمعروفِ ، فقالَ حاكياً عنْ لقمانَ : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ .

ومِنَ الآدابِ تقليلُ العلائقِ ؛ حتَّىٰ لا يكثرَ خوفُهُ ، وقطعُ الطمعِ عنِ الخلائقِ ؛ حتَّىٰ تزولَ عنهُ المداهنةُ ، فقدْ رُوِيَ عنْ بعضِ المشايخِ أنَّهُ كانَ لهُ سِنَّورٌ ، وكانَ يأخذُ مِنْ قصَّابٍ في جوارِهِ كلَّ يومٍ شيئاً مِنَ الغددِ لسِنَّورِهِ ، فرأىٰ على القصَّابِ منكراً ، فدخلَ الدارَ أوَّلاً وأخرجَ السنَّورَ ، ثمَّ جاءَ واحتسبَ على القصَّابِ ، فقالَ لهُ القصَّابُ : لا أعطيكَ بعدَ هـٰذا شيئاً لسِنَّورِكَ ، فقالَ : ما احتسبتُ عليكَ إلا بعدَ إخراجِ السِّنَّورِ وقطعِ الطمعِ منكَ .

وهوَ كما قالَ ، فمَنْ لمْ يقطعِ الطمعَ مِنَ الخلقِ . . لمْ يقدرْ على الحِسبةِ ، ومَنْ طمعَ في أنْ تكونَ قلوبُ الناسِ عليهِ طيِّبةً ، وألسنتُهُمْ بالثناءِ عليهِ مطلقةً . . لمْ تتيسَّرْ لهُ الحِسبةُ .

قالَ كعبُ الأحبارِ لأبي مسلمٍ الخولانيِّ : كيفَ منزلتُكَ بينَ قومِكَ ؟ قالَ : حسنةٌ ، قالَ : إنَّ التوراةَ تقولُ : إنَّ الرجلَ إذا أمرَ بالمعروفِ ونهىٰ عنِ المنكرِ . . ساءَتْ منزلتُهُ عندَ قومِهِ ! فقالَ : أبو مسلمٍ : صدقتِ التوراةُ وكذبَ أبو مسلمٍ[1] .

---

(١) رواه الخولاني في « تاريخ داريا » (ص ٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٣/٢٧) .

ويدلُّ علىٰ وجوبِ الرفقِ ما استدلَّ بهِ المأمونُ إذْ وعظَهُ واعظٌ وعنَّفَ لهُ في القولِ ، فقالَ : يا رجلُ ؛ ارفقْ ؛ فقدْ بعثَ اللهُ مَنْ هوَ خيرٌ منكَ إلىٰ مَنْ هو شرٌّ منّي وأمرَهُ بالرفقِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾(١) .

فليكنِ اقتداءُ المحتسبِ في الرفقِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، فقدْ روىٰ أبو أمامةَ أنَّ غلاماً شابّاً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ أتأذنُ لي في الزنا ؟ فصاحَ الناسُ بهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقرُّوهُ ، ادنُ » ، فدنا حتَّىٰ جلسَ بينَ يديهِ ، فقالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أتحبُّهُ لأمِّكَ ؟ » فقالَ : لا ، جعلَني اللهُ فداكَ ، قالَ : « كذلكَ الناسُ لا يحبُّونَهُ لأمَّهاتِهِمْ ، أتحبُّهُ لابنتِكَ ؟ » قالَ : لا ، جعلَني اللهُ فداكَ ، قالَ : « كذلكَ الناسُ لا يحبُّونَهُ لبناتِهِمْ ، أتحبُّهُ لأختِكَ ؟ » وزادَ ابنُ عوفٍ أنَّهُ ذكرَ العمَّةَ والخالةَ ، وهوَ يقولُ في كلِّ واحدٍ : لا ، جعلَني اللهُ فداكَ ، وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « وكذلكَ الناسُ لا يحبُّونَهُ » ، وقالا جميعاً في حديثِهِما ـ أعني : ابنَ عوفٍ والراويَ الآخرَ ـ : فوضعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدَهُ علىٰ صدرِهِ وقالَ : « اللهمَّ ؛ طهِّرْ قلبَهُ ، واغفرْ ذنبَهُ ، وحصِّنْ فرجَهُ » ، فلمْ يكنْ شيءٌ أبغضَ إليهِ منهُ ؛ يعني مِنَ الزنا(٢) .

---

(١) روىٰ نحوها ابن الجوزي في « المنتظم » (٥/ ٢٤٧٦) ، وأوردها عن المأمون ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١/ ٥٧) وكان الواعظ له هو الحارث بن مسكين .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٦) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ١٦٢) .

وقيلَ للفضيلِ بنِ عياضٍ : إنَّ سفيانَ بنَ عيينة قَبِلَ جوائزَ السلطانِ ، فقالَ الفضيلُ : ما أخذَ منهُمْ إلا دونَ حَقِّهِ ، ثمَّ خلا بهِ وعذلَهُ ووبَّخَهُ ، فقالَ سفيانُ : (يا أبا عليٍّ ؛ إنْ لمْ نكنْ مِنَ الصالحينَ . . فإنّا لنحبُّ الصالحينَ)(١) .

وقالَ حمَّادُ بنُ سلمةَ : إنَّ صلةَ بنَ أشيمَ مرَّ عليهِ رجلٌ قدْ أسبلَ إزارَهُ ، فهمَّ أصحابُهُ أنْ يأخذوهُ بشدَّةٍ ، فقالَ : دعوني ، أنا أكفيكُمْ ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ إنَّ لي إليكَ حاجةً ، قالَ : وما حاجتُكَ يا عمُّ ؛ قالَ : أحبُّ أنْ ترفعَ مِنْ إزارِكَ ، فقالَ : نعمْ وكرامةً ، فرفعَ إزارَهُ ، فقالَ لأصحابِهِ : لوْ أخذتموهُ بشدَّةٍ . . لقالَ : لا ولا كرامةَ ، وشتمَكُمْ(٢) .

وقالَ محمدُ بنُ زكريَّا الغلابيُّ : شهدتُ عبيدَ اللهِ بنَ محمدِ بنِ عائشةَ ليلةً وقدْ خرجَ مِنَ المسجدِ بعدَ المغربِ يريدُ منزلَهُ ، وإذا في طريقِهِ غلامٌ مِنْ قريشٍ سكرانُ ، وقدْ قبضَ على امرأةٍ فجذبَها ، فاستغاثَتْ ، فاجتمعَ الناسُ عليهِ يضربونَهُ ، فنظرَ إليهِ ابنُ عائشةَ فعرفَهُ ، فقالَ للناسِ : تنحَّوا عنِ ابنِ أخي ، ثمَّ قالَ : إليَّ يا بنَ أخي ، فاستحيا الغلامُ ، فجاءَ إليهِ فضمَّهُ إلىٰ نفسِهِ ، ثمَّ قالَ لهُ : امضِ معي ، فمضىٰ معه حتَّىٰ صارَ إلىٰ منزلِهِ وأدخلَهُ

---

(١) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (٢٤١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٣٨) .

الدارَ ، وقالَ لبعضِ غلمانِهِ : بيِّتْهُ عندَكَ ، فإذا أفاقَ مِنْ سكرِهِ فأعلِمْهُ بما كانَ منهُ ، ولا تدعْهُ ينصرفُ حتَّىٰ تأتيَني بهِ ، فلمَّا أفاقَ . . ذكرَ لهُ ما جرىٰ ، فاستحيا منهُ وبكىٰ ، وهمَّ بالانصرافِ ، فقالَ الغلامُ : قدْ أمرَ أنْ تأتيَهُ ، فأدخلَهُ عليهِ ، فقالَ لهُ : أما استحييتَ لنفسِكَ ، أما استحييتَ لشرفِكَ ، أما ترىٰ مَنْ وَلَدَكَ ؟! فاتقِ اللهَ وانزعْ عمَّا أنتَ عليهِ ، فبكى الغلامُ منكِّساً رأسَهُ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ وقالَ : عاهدتُ اللهَ تعالىٰ عهداً يسألُني عنهُ يومَ القيامةِ : أنِّي لا أعودُ لشربِ النبيذِ ، ولا لشيءٍ ممَّا كنتُ فيهِ ، وأنا تائبٌ ، فقالَ : ادنُ منِّي ، فقبَّلَ رأسَهُ وقالَ : أحسنتَ يا بنيَّ ، فكانَ الغلامُ بعدَ ذلكَ يلزمُهُ ويكتبُ الحديثَ ، وكانَ ذلكَ ببركةِ رفقِهِ ، ثمَّ قالَ : إنَّ الناسَ يأمرونَ بالمعروفِ ويكونُ معروفُهُمْ منكراً ، فعليكُمْ بالرفقِ في جميعِ أمورِكُمْ . . تنالوا بهِ ما تطلبونَ .

وعنِ الفتحِ بنِ شَخرفٍ قالَ : تعلَّقَ رجلٌ بامرأةٍ وتعرَّضَ لها ، وبيدِهِ سكينٌ لاَ يدنو منهُ أحدٌ إلا عقرَهُ ، وكانَ الرجلُ شديدَ البدنِ ، فبينا الناسُ كذلكَ والمرأةُ تصيحُ مِنْ يدِهِ . . إذْ مرَّ بشرُ بنُ الحارثِ ، فدنا منهُ ، وحكَّ كتفَهُ بكتفِ الرجلِ ، فوقعَ الرجلُ على الأرضِ ، ومشىٰ بشرٌ ، فدنوا مِنَ الرجلِ وهوَ يترشَّحُ عرقاً كثيراً ، ومضتِ المرأةُ بحالِها ، فسألوهُ : ما حالُكَ ؟ فقالَ : ما أدري ، ولكنْ حاكَّني شيخٌ وقالَ لي : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ناظرٌ إليكَ وإلىٰ ما تعملُ ، فضعفَتْ لقولِهِ قدمايَ ، وهبتُهُ هيبةً شديدةً ، ولا أدري مَنْ ذلكَ الرجلُ ، فقالوا لهُ : ذاكَ بشرُ بنُ الحارثِ ، فقالَ :

واسوءتاهُ ، كيفَ ينظرُ إليَّ بعدَ اليومِ ، وحُمَّ الرجلُ مِنْ يومِهِ ، وماتَ يومَ السابعِ[1] .

وهكذا كانَتْ عادةُ أهلِ الدينِ في الحِسبةِ ، وقدْ نقلنا فيها آثاراً وأخباراً في بابِ البغضِ في اللهِ والحبِّ في اللهِ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

فهٰذا تمامُ النظرِ في درجاتِ الاحتسابِ وآدابِهِ ، واللهُ الموفِّقُ بكرمِهِ ، والحمدُ للهِ على جميعِ نعمِهِ .

* * *

---

(١) رواه ابن قدامة في « التوابين » (ص٢١٣) .

البَابُ الثَّالِثُ
في المنكرات المألوفة في العادات

نشيرُ إلىٰ جملٍ منها ؛ ليُستدلَّ بها علىٰ أمثالِها ، إذْ لا مطمعَ في حصرِها واستقصائِها ، فمِنْ ذلكَ :

منكرات المساجد

اعلمْ : أنَّ المنكراتِ تنقسمُ إلىٰ مكروهةٍ ، وإلىٰ محظورةٍ :

فإذا قلنا : (هـٰذا منكرٌ مكروهٌ) .. فاعلمْ أنَّ المنعَ منهُ مستحبٌّ ، والسكوتَ عليهِ مكروهٌ وليسَ بحرامٍ ، إلا إذا لمْ يعلمِ الفاعلُ أنَّهُ مكروهٌ ، فيجبُ ذكرهُ لهُ ؛ لأنَّ الكراهةَ حكْمٌ في الشرعِ يجبُ تبليغُهُ إلىٰ مَنْ لا يعرفُهُ .

وإذا قلنا : (منكرٌ محظورٌ) ، أوْ قلنا : (منكرٌ) مطلقاً .. فنريدُ بهِ المحظورَ ، ويكونُ السكوتُ عليهِ معَ القدرةِ محظوراً .

فممَّا يُشاهدُ كثيراً في المساجدِ : إساءةُ الصلاةِ بتركِ الطمأنينةِ في ركوعِها وسجودِها ، وهوَ منكرٌ مبطلٌ للصلاةِ بنصِّ الحديثِ ، فيجبُ النهيُ عنهُ ، إلا

عندَ الحنفيِّ الذي يعتقدُ أنَّ ذلكَ لا يمنعُ صحَّةَ الصلاةِ ، إذْ لا ينفعُ النهيُ معهُ[1] .

ومَنْ رأىٰ مسيئاً في صلاتِهِ ، فسكتَ عليهِ . . فهوَ شريكُهُ ، هٰكذا وردَ بهِ الأثرُ[2] ، وفي الخبرِ ما يدلُّ عليهِ ؛ إذْ وردَ في الغيبةِ أنَّ المستمعَ شريكُ القائلِ[3] ، وكذلكَ كلُّ ما يقدحُ في صحَّةِ الصلاةِ ؛ مِنْ نجاسةٍ علىٰ ثوبِهِ لا يراها ، أوِ انحرافٍ عنِ القبلةِ بسببِ ظلامٍ أوْ عمىً ، فكلُّ ذلكَ تجبُ الحِسبةُ فيهِ .

❊ ❊ ❊

ومنها : قراءةُ القرآنِ باللحنِ ، يجبُ النهيُ عنهُ ، ويجبُ تلقينُ الصحيحِ .

فإنْ كانَ المعتكفُ في المسجدِ يضيِّعُ أكثرَ أوقاتِهِ في أمثالِ ذلكَ ،

---

(١) وفيه خلاف مشهور في مذهب أبي حنيفة ، والقول المفتىٰ به عن أبي يوسف وجوب التعديل في الأركان . « إتحاف » (٧/ ٥٣) .

(٢) روى ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٨٨) عن مالك بن دينار قال : (قرأت في التوراة : من كان له جار يعمل بالمعاصي فلم ينهه . . فهو شريكه) ، وقال الإمام أبو طالب في « القوت » (٢/ ٢٦٤) : (وكل معين لمبتدع أو عاصٍ . . فهو شريكه في بدعته ومعصيته) .

(٣) إذ روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٢١) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغناء والاستماع إلى الغناء ، ونهىٰ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة) .

ويشتغلُ بهِ عنِ التطوُّعِ والذكرِ . . فليشتغلْ بهِ ؛ فإنَّ هـٰذا أفضلُ لهُ مِنْ ذكرِهِ وتطوُّعِهِ ؛ لأنَّ هـٰذا فرضٌ ، وهيَ قربةٌ تتعدَّىٰ فائدتُها ، فهيَ أفضلُ مِنْ نافلةٍ تقتصرُ عليهِ فائدتُها .

وإنْ كانَ ذلكَ يمنعُهُ عنِ الوِراقةِ مثلاً أوْ عنِ الكسبِ الذي هوَ طعمتُهُ ؛ فإنْ كانَ معَهُ مقدارُ كفايتِهِ . . لزمَهُ الاشتغالُ بذلكَ ، ولمْ يجزْ لهُ تركُ الحِسبةِ لطلبِ زيادةِ الدنيا ، وإنِ احتاجَ إلى الكسبِ لقوتِ يومِهِ . . فهوَ عذرٌ لهُ ، فيسقطُ الوجوبُ عنهُ لعجزِهِ .

والذي يكثرُ اللحنَ في القرآنِ ؛ إنْ كانَ قادراً على التعلُّمِ . . فليمتنعْ عنِ القراءةِ قبلَ التعلُّمِ ، فإنَّهُ عاصٍ بهِ ، وإنْ كانَ لا يطاوعُهُ اللسانُ ؛ فإنْ كانَ أكثرُ ما يقرؤُهُ لحناً . . فليتركْهُ ، وليجتهدْ في تعلُّمِ الفاتحةِ وتصحيحِها ، وإنْ كانَ الأكثرُ صحيحاً وليسَ يقدرُ على التسويةِ . . فلا بأسَ لهُ أنْ يقرأَ ، ولكنْ ينبغي أنْ يخفضَ بهِ الصوتَ ؛ حتَّىٰ لا يسمعَ غيرُهُ ، ولمنعِهِ سرّاً منهُ أيضاً وجهٌ ، ولكنْ إذا كانَ ذلكَ منتهىٰ قدرتِهِ ، وكانَ لهُ أنسٌ بالقراءةِ وحَرصَ عليها . . فلستُ أرىٰ بهِ بأساً ، واللهُ أعلمُ .

* * *

ومنها : تراسلُ المؤذنينَ في الأذانِ ، وتطويلُهُمْ بمدِّ كلماتِهِ[1] ،

---

(١) وتراسل المؤذنين : أن يجتمعوا على الأذان ، يبتدىء هـٰذا ويمد صوته ، فيقبض ويسكت ، ويأخذ غيره في مد الصوت ، ويرجع الأول ، وهـٰكذا إلىٰ أن ينتهي ، وهو منهي عنه . « إتحاف » (٧/ ٥٣) .

وانحرافُهُمْ عنْ صوبِ القبلةِ بجميعِ الصدْرِ في الحَيْعلتينِ ، أوِ انفرادِ كلِّ واحدٍ بأذانٍ ولكنْ مِنْ غيرِ توقُّفٍ إلى انقطاعِ أذانِ الآخرِ ، بحيثُ يضطربُ على الحاضرينَ جوابُ الأذانِ ؛ لتداخلِ الأصواتِ .

فكلُّ ذلكَ منكراتٌ مكروهةٌ يجبُ تعريفُها ، وإنْ صدرَتْ عن معرفةٍ . . فيُستحبُّ المنعُ منها والحِسبةُ فيها ، وكذلكَ إذا كانَ للمسجدِ مؤذنٌ واحدٌ وهوَ يؤذِّنُ قبلَ الصبحِ ، فينبغي أنْ يُمنعَ مِنَ الأذانِ بعدَ الصبحِ ، فذلكَ مشوِّشٌ للصومِ والصلاةِ على الناسِ ، إلا إذا عُرِفَ أنَّهُ يؤذِّنُ قبلَ الصبحِ[1] ، حتَّىٰ لا يُعوَّلَ علىٰ أذانِهِ في صلاةٍ وتركِ سحورٍ ، أوْ كانَ معَهُ مؤذِّنٌ آخرُ معروفُ الصوتِ يؤذِّنُ معَ الصبحِ .

* * *

ومنَ المكروهاتِ أيضاً : تكثيرُ الأذانِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ بعدَ طلوعِ الفجرِ في مسجدٍ واحدٍ في أوقاتٍ متعاقبةٍ متقاربةٍ ، إمَّا مِنْ واحدٍ أوْ جماعةٍ ؛ فإنَّهُ لا فائدةَ فيهِ ، إذا لمْ يبقَ في المسجدِ نائمٌ ، ولمْ يكنِ الصوتُ ممَّا يخرجُ عنِ المسجدِ حتَّىٰ ينبِّهَ غيرَهُ ، فكلُّ ذلكَ مِنَ المكروهاتِ المخالفةِ لسنَّةِ الصحابةِ والسلفِ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ الخطيبُ لابساً لثوبٍ أسودَ يغلبُ عليهِ الإبريسمُ ، أوْ

---

(١) في نسخة علىٰ هامش (ب) : زيادة (وبعده) .

ممسكاً لسيفٍ مذهبٍ ، فهوَ فاسقٌ ، والإنكارُ عليهِ واجبٌ .

وأمَّا مجرَّدُ السوادِ.. فليسَ بمكروهٍ ، ولكنَّهُ ليسَ بمحبوبٍ ؛ إذ أحبُّ الثيابِ إلى اللهِ تعالى البيضُ ، ومَنْ قالَ : إنَّهُ مكروهٌ وبدعةٌ.. أرادَ بهِ أنَّهُ لمْ يكن معهوداً في العصرِ الأوَّلِ ، ولكنْ إذا لمْ يردْ فيهِ نهيٌ.. فلا ينبغي أن يُسمَّىٰ بدعةً ومكروهاً ، ولكنَّهُ تركٌ للأحبِّ .

❊ ❊ ❊

ومنها : كلامُ القصَّاصِ والوعَّاظِ الذين يمزجونَ بكلامِهِمُ البدعةَ[1] ، فالقاصُّ إنْ كانَ يكذبُ في أخبارِهِ.. فهوَ فاسقٌ ، والإنكارُ عليهِ واجبٌ ، وكذا الواعظُ المبتدعُ يجبُ منعُهُ ، ولا يجوزُ حضورُ مجلسِهِ إلا علىٰ قصْدِ إظهارِ الردِّ عليهِ ؛ إمَّا للكافَّةِ إنْ قدرَ عليهِ ، أوْ لبعضِ الحاضرينَ حوالَيْهِ ، فإنْ لمْ يقدرْ.. فلا يجوزُ سماعُ البدعةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

ومهما كانَ كلامُهُ مائلاً إلى الإرجاءِ[2] ، وتجرئةِ الناسِ على المعاصي ، وكانَ الناسُ يزدادونَ بكلامِهِ جُرأةً ، وبعفوِ اللهِ وبرحمتِهِ وثوقاً يزيدُ بسببِهِ رجاؤُهُمْ علىٰ خوفِهِمْ.. فهوَ منكرٌ ، ويجب منعُهُ منهُ ؛ لأنَّ فسادَ ذلكَ عظيمٌ ، بلْ لوْ رجحَ خوفُهُمْ علىٰ رجائِهِمْ.. فذلكَ أقربُ وأليقُ بطباعِ

---

(١) تقدم الحديث عن ذم القصاص وبيان المراد من ذلك .

(٢) **المراد بكلمة (الإرجاء) هنا كما يقتضيه السياق** : ترجيح الرجاء على الخوف في القلب ، لا (الإرجاء) المنسوب إلى الفرقة المعروفة بالمرجئة .

الخلقِ ؛ فإنَّهُمْ إلى الخوفِ أحوجُ ، وإنَّما العدلُ تعديلُ الخوفِ والرجاءِ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ نادىٰ منادٍ يومَ القيامةِ : ليدخلِ النارَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لرجوتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الرجلَ ، ولوْ نادىٰ منادٍ : ليدخلِ الجنَّةَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لخفتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الرجلَ)[1] .

ومهما كانَ الواعظُ شابّاً متزيِّناً للنساءِ في ثيابِهِ وهيئتِهِ[2] ، كثيرَ الأشعارِ والإشاراتِ والحركاتِ ، وقدْ حضرَ مجلسَهُ النساءُ . . فهـٰذا منكرٌ يجبُ المنعُ منهُ ؛ فإنَّ الفسادَ فيهِ أكثرُ مِنَ الصلاحِ ، ويتبيَّنُ ذلكَ منهُ بقرائنِ أحوالِهِ ، بلْ لا ينبغي أنْ يُسلَّمَ الوعظُ إلا لمَنْ ظاهرُهُ الورعُ ، وهيئتُهُ السكينةُ والوقارُ ، وزيُّهُ زيُّ الصالحينَ ، وإلا . . فلا يزدادُ الناسُ بهِ إلا تمادياً في الضلالِ .

ويجبُ أن يُضربَ بينَ الرجالِ والنساءِ حائلٌ يمنعُ مِنَ النظرِ ، فإنَّ ذلكَ أيضاً مظِنَّةُ الفسادِ ، والعاداتُ تشهدُ لهـٰذهِ المنكراتِ .

ويجبُ منعُ النساءِ مِنْ حضورِ المساجدِ للصلاةِ ولمجالسِ الذكرِ إذا خيفَتِ الفتنةُ بهنَّ ، فقدْ منعتْهُنَّ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ، فقيلَ لها : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما منعَهُنَّ مِنَ الجماعاتِ ، فقالَتْ : لوْ علمَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٣) بنحوه .
(٢) في (أ) : (الناس) بدل (النساء) .

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما أحدثَ النساءُ بعدَهُ . . لمنعَهُنَّ)[1] .

فأمَّا اجتيازُ المرأةِ بالمسجدِ مستترةً . . فلا تُمنعُ منهُ ، إلا أنَّ الأولىٰ ألا تتخذَ المسجدَ مجازاً أصلاً .

وقراءةُ القرآنِ بينَ يدي الوعَّاظِ معَ التمديدِ والألحانِ علىٰ وجهٍ يغيِّرُ نظمَ القرآنِ ، ويجاوزُ حدَّ الترتيلِ . . منكرٌ مكروهٌ شديدُ الكراهةِ ، أنكرَهُ جماعةٌ مِنَ السلفِ .

❊ ❊ ❊

ومنها : الحِلَقُ يومَ الجمعةِ لبيعِ الأدويةِ والأطعمةِ والتعويذاتِ ، وكقيامِ السؤَّالِ وقراءتِهِمُ القرآنَ ، وإنشادِهِمُ الأشعارَ وما يجري مجراهُ .

فهٰذهِ الأشياءُ منها ما هوَ حرامٌ لكونهِ تلبيساً وكذباً ، كالكذَّابينَ مِنْ طُرقيَّةِ الأطباءِ ، وكأهلِ الشعبذةِ والتلبيساتِ ، وكذا أربابُ التعويذاتِ في الأغلبِ يتوصَّلونَ إلىٰ بيعِها بتلبيساتٍ على الصبيانِ والسواديَّةِ ، فهٰذا حرامٌ في المسجدِ وخارجَ المسجدِ ، ويجبُ المنعُ منهُ ، بلْ كلُّ بيعٍ فيهِ كذبٌ وتلبيسٌ وإخفاءُ عيبٍ على المشتري . . فهوَ حرامٌ .

❊ ❊ ❊

ومنها ما هوَ مباحٌ خارجَ المسجدِ ؛ كالخياطةِ ، وبيعِ الأدويةِ والكتبِ والأطعمةِ ، فهٰذا في المسجدِ أيضاً لا يحرمُ إلا بعارضٍ ، وهوَ أنْ يضيِّقَ

(١) رواه البخاري (٨٦٩) ، ومسلم (٤٤٥) .

المكانَ على المصلِّينَ ، ويشوِّشَ عليهِمْ صلاتَهُمْ ، فإنْ لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فليسَ بحرامٍ ، والأولىٰ تركُهُ ، ولكنْ شرطُ إباحتِهِ أنْ يجريَ في أوقاتٍ نادرةٍ وأيَّامٍ معدودةٍ ، فإنِ اتخذَ المسجدَ دُكَّاناً على الدوامِ . . حرمَ ذلكَ ومُنِعَ منهُ ، فمِنَ المباحاتِ ما يُباحُ بشرطِ القلَّةِ ، فإنْ كثرَ . . صارَ صغيرةً ، كما أنَّ مِنَ الذنوبِ ما يكونُ صغيرةً بشرطِ عدمِ الإصرارِ ، فإنْ كانَ القليلُ مِنْ هـٰذا لوْ فُتحَ بابُهُ لخيفَ منهُ أنْ ينجرَّ إلى الكثيرِ . . فليُمنعْ منهُ ، وليكنْ هـٰذا المنعُ إلى الوالي أو إلى القيِّمِ بمصالحِ المسجدِ مِنْ جهةِ الوالي ؛ لأنَّهُ يدركُ ذلكَ بالاجتهادِ ، وليسَ للآحادِ المنعُ ممَّا هوَ مباحٌ في نفسِهِ لخوفِهِ أنَّ ذلكَ يكثرُ .

* * *

ومنها : دخولُ المجانينِ والصبيانِ والسكارىٰ في المسجدِ ، ولا بأسَ بدخولِ الصبيِّ المسجدَ إذا لمْ يلعبْ ، ولا يحرمُ عليهِ اللعبُ في المسجدِ ولا السكوتُ علىٰ لعبِهِ ، إلا إذا اتخذَ المسجدَ ملعباً ، وصارَ ذلكَ معتاداً ، فيجبُ المنعُ منهُ ، فهـٰذا ممَّا يحلُّ قليلُهُ دونَ كثيرِهِ .

ودليلُ حلِّ قليلِهِ : ما رُوِيَ في « الصحيحينِ » أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقفَ لأجلِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها حتَّىٰ نظرَتْ إلى الحبشةِ يزفنونَ ويلعبونَ بالدَّرَقِ والحِرابِ يومَ العيدِ في المسجدِ ، ولا شكَّ في أنَّ الحبشةَ لوِ اتخذوا المسجدَ ملعباً . . لمُنعوا منهُ ، ولمْ يرَ ذلكَ على الندرةِ والقلَّةِ

منكراً ، حتَّىٰ نظرَ إليهِ ، بلْ أمرَهُمْ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لتبصرَهُمْ عائشةُ رضي اللهُ عنها تطييباً لقلبِها إذْ قالَ : « دونَكُمْ يا بني أرْفِدةَ »[١] كما نقلناهُ في كتابِ السماعِ .

وأمَّا المجانينُ . . فلا بأسَ بدخولِهِمُ المسجدَ ، إلا أنْ يُخشىٰ تلويثُهُمْ لهُ أوْ شتمُهُمْ أوْ نطقُهُمْ بما هوَ فحشٌ ، أوْ تعاطيهِمْ لما هوَ منكرٌ في صورتِهِ ؛ ككشفِ العورةِ وغيرِهِ .

وأمَّا المجنونُ الهادئُ الساكنُ الذي قدْ عُلِمَ بعادتِهِ سكونُهُ وسكوتُهُ . . فلا يجبُ إخراجُهُ مِنَ المسجدِ .

والسكرانُ في معنى المجنونِ ، فإنْ خيفَ منهُ القذفُ ؛ أعني : القيءَ أوِ الإيذاءَ باللسانِ . . وجبَ إخراجُهُ ، وكذا إن كانَ مضطربَ العقلِ ، فإنَّهُ يُخافُ ذلكَ منهُ ، وإنْ كانَ قدْ شربَ ولمْ يسكرْ والرائحةُ منهُ تفوحُ . . فهوَ منكرٌ مكروهٌ شديدُ الكراهةِ ، وكيفَ لا ومَنْ أكلَ الثومَ والبصلَ . . فقدْ نهاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حضورِ المساجدِ ؟ ![٢]، ولكنْ يُحملُ ذلكَ على الكراهةِ ، والأمرُ في الخمرِ أشدُّ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٩٥٠) ، ومسلم (٨٩٢) .

(٢) وهو ما رواه البخاري (٨٥٤) ، ومسلم (٥٦٤) واللفظ له ، من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « من أكل البصل والثوم والكرّاث . . فلا يقربنَّ مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه بنو آدم » .

فإنْ قالَ قائلٌ : ينبغي أنْ يُضربَ السكرانُ ويُخرجَ مِنَ المسجدِ زجراً .

قلنا : لا ، بلْ ينبغي أنْ يُلزمَ القعودَ في المسجدِ ويُدعىٰ إليهِ ، ويُؤمرَ بتركِ الشربِ مهما كانَ في الحالِ عاقلاً ، فأمَّا ضربُهُ للزجرِ . . فليسَ ذلكَ إلى الآحادِ ، بلْ هوَ إلى الولاةِ ، وذلكَ عندَ إقرارِهِ أوْ شهادةِ شاهدينِ ، فأمَّا بمجَّردِ الرائحةِ . . فلا .

نعمْ ، إذا كانَ يمشي بينَ الناسِ متمايلاً ، بحيثُ يُعرفُ سكرُهُ . . فيجوزُ ضربُهُ في المسجدِ وغيرِ المسجدِ ؛ منعاً لهُ عنْ إظهارِ أثرِ السكرِ ، فإنَّ إظهارَ أثرِ الفاحشةِ فاحشةٌ ، والمعاصي يجبُ تركُها ، وبعدَ الفعلِ يجبُ سترُها وسترُ آثارِها .

فإنْ كانَ مستتراً مُخْفِياً لأثرِهِ . . فلا يجوزُ أنْ يُتجسَّسَ عليهِ ، والرائحةُ قدْ تفوحُ مِنْ غيرِ شربٍ ؛ بالجلوسِ في موضعِ الخمرِ ، وبوصولِهِ إلى الفمِ دونَ الابتلاعِ ، فلا ينبغي أنْ يُعوَّلَ عليهِ .

❋ ❋ ❋

منكرات الأسواق

مِنَ المنكراتِ المعتادةِ في الأسواقِ : الكذبُ في المرابحةِ ، وإخفاءُ العيبِ ، فمَنْ قالَ : اشتريتُ هـٰذهِ السلعةَ مثلاً بعشرةٍ وأربحُ فيها درهماً وكانَ كاذباً . . فهوَ فاسقٌ ، وعلىٰ مَنْ عرفَ ذلكَ أنْ يخبرَ المشتريَ بكذبِهِ ، فإنْ سكتَ مراعاةً لقلبِ البائعِ . . كانَ شريكاً لهُ في الخيانةِ وعصىٰ بسكوتِهِ .

وكذا إذا علمَ بهِ عيباً فيلزمُهُ أنْ ينبِّهَ المشتريَ عليهِ ، وإلا . . كانَ راضياً بضياعِ مالِ أخيهِ المسلمِ ، وهوَ حرامٌ .

وكذا التفاوتُ في الذراعِ والمكيالِ والميزانِ يجبُ علىٰ كلِّ مَنْ عرفَهُ تغييرُهُ بنفسِهِ ، أوْ رفعُهُ إلى الوالي حتَّىٰ يغيِّرَهُ .

❊ ❊ ❊

ومنها : تركُ الإيجابِ والقبولِ ، والاكتفاءُ بالمعاطاةِ ، ولكنَّ ذلكَ في محلِّ الاجتهادِ ، فلا ينكرُ إلا علىٰ مَنِ اعتقدَ وجوبَهُ[1] ، وكذا في الشروطِ الفاسدةِ المعتادةِ بينَ الناسِ يجبُ الإنكارُ فيها ، فإنَّها مفسدةٌ للعقودِ ، وكذا في الربوياتِ كلِّها ، وهيَ غالبةٌ ، وكذلكَ سائرُ التصرُّفاتِ الفاسدةِ .

❊ ❊ ❊

ومنها : بيعُ الملاهي ، وبيعُ أشكالِ الحيواناتِ المصوَّرةِ في أيامِ العيدِ

---

(١) بحث المصنف حكم المعاطاة ، وله تفصيل فيه .

لأجلِ الصبيانِ ، فذلكَ يجبُ كسرُهُ والمنعُ مِنْ بيعهِ كالملاهي ، وكذلكَ بيعُ الأواني المتخذةِ مِنَ الذهبِ والفضَّةِ ، وكذلكَ بيعُ ثيابِ الحريرِ وقلانسِ الذهبِ والحريرِ ؛ أعني : الذي لا يصلحُ إلا للرجالِ ، أوْ يُعلمُ بعادةِ البلدِ أنَّهُ لا يلبسُهُ إلا الرجالُ ، وكلُّ ذلكَ منكرٌ محظورٌ .

وكذلكَ مَنْ يعتادُ بيعَ الثيابِ المبتذلةِ المقصورةِ التي يلبِّسُ على الناسِ بقصارتِها ابتذالَها واستعمالَها ، ويَزعمُ أنَّها جديدةٌ ، فهٰذا الفعلُ حرامٌ ، والمنعُ منهُ واجبٌ ، وكذلكَ تلبيسُ انخراقِ الثيابِ بالرَّفْوِ ، وما يؤدِّي إلى الالتباسِ ، وكذلكَ جميعُ أنواعِ العقودِ المؤدِّيةِ إلى التلبيساتِ ، وذلكَ يطولُ إحصاؤُهُ ، فليقسْ بما ذكرناهُ ما لمْ نذكرْهُ .

* * *

منكرات الشوارع

فمِنَ المنكراتِ المعتادةِ فيها : وضعُ الإسطواناتِ ، وبناءُ الدكاكِ متصلاً بالأبنيةِ المملوكةِ ، وغرسُ الأشجارِ ، وإخراجُ القوابيلِ والأجنحةِ[1] ، ووضعُ الخشبِ وأحمالِ الحبوبِ والأطعمةِ على الطرقِ ، فكلُّ ذلكَ منكرٌ إنْ كانَ يؤدِّي إلىٰ تضييقِ الطرقِ واستضرارِ المارَّةِ ، وإنْ لمْ يؤدِّ إلىٰ ضررٍ أصلاً لسعةِ الطريقِ . . فلا يمنعُ منهُ .

* * *

نعمْ ، يجوزُ وضعُ الحطبِ وأحمالِ الأطعمةِ في الطريقِ في القدْرِ الذي ينقلُ إلى البيوتِ ، فإنَّ ذلكَ يشتركُ في الحاجةِ إليهِ الكافَّةُ ، ولا يمكنُ المنعُ منهُ .

وكذلكَ ربْطُ الدوابِّ على الطرقِ ، بحيثُ يضيِّقُ الطريقَ وينجِّسُ المجتازينَ[2] منكرٌ يجبُ المنعُ منهُ إلا بقدْرِ حاجةِ النزولِ والركوبِ ، وهـٰذا لأنَّ الشوارعَ مشتركةُ المنفعةِ ، وليسَ لأحدٍ أنْ يختصَّ بها إلا بقدْرِ الحاجةِ ، والمرعيُّ هوَ الحاجةُ التي تُرادُ الشوارعُ لأجلِها في العادةِ دونَ سائرِ الحاجاتِ .

---

(١) في (د) : (الرواشن) بدل (القوابيل) ، **والقابول** : الساباط ، سقيفة بين حائطين تحتها طريق ، **والروشن** : الكوة والرف ونحو ذلك .

(٢) في (ب) : (يحبس) بدل (ينجس) .

ومنها : سوقُ الدوابِّ وعليها الشوكُ ، بحيثُ يمزِّقُ ثيابَ الناسِ ، فذلكَ منكرٌ إنْ أمكنَ شدُّها وضمُّها بحيثُ لا تمزِّقُ ، أوْ أمكنَ العدولُ بها إلىٰ موضعٍ واسعٍ ، وإلا . . فلا منعَ ؛ إذْ حاجةُ أهلِ البلدِ تمسُّ إلىٰ ذلكَ .

نعمْ ، لا تُترَكُ ملقاةً على الشوارعِ إلا بقدْرِ مدَّةِ النقلِ .

وكذلكَ تحميلُ الدوابِّ مِنَ الأحمالِ ما لا تطيقُهُ منكرٌ يجبُ منعُ الملاَّكِ منهُ .

وكذلكَ ذبحُ القصَّابِ إذَا كانَ يذبحُ في الطريقِ حذاءَ بابِ الحانوتِ ويلوِّثُ الطريقَ بالدمِ ، فإنَّهُ منكرٌ يجبُ المنعُ منهُ ، بلْ حقُّهُ أنْ يتخذَ في دكَّانِهِ مذبحاً ، فإنَّ ذلكَ تضييقٌ للطريقِ ، وإضرارٌ بالناسِ بسببِ ترشيشِ النجاسةِ ، وإضرارٌ بسببِ استقذارِ الطباعِ للقاذوراتِ .

وكذلكَ طرحُ الكُناسةِ علىٰ جَوادِّ الطرقِ ، وتبديدُ قشورِ البطِّيخِ ، أوْ رشُّ الماءِ بحيثُ يُخشىٰ منهُ التزليقُ والسقوطُ[1] ، فكلُّ ذلكَ مِنَ المنكراتِ .

وكذلكَ إرسالُ الماءِ مِنَ الميازيبِ المُخْرَجَةِ مِنَ الحائطِ في الطريقِ الضيِّقةِ ؛ فإنَّ ذلكَ ينجِّسُ الثيابَ ، أوْ يضيِّقُ الطريقَ ، ولا يُمنعُ منهُ في الطرقِ الواسعةِ ؛ إذِ العدولُ عنهُ ممكنٌ ، فأمَّا ترْكُ مياهِ المطرِ والأوحالِ والثلوجِ في الطرقِ مِنْ غيرِ كسْحٍ . . فذلكَ منكرٌ ، ولكنْ ليسَ يختصُّ بهِ شخصٌ معيَّنٌ إلا الثلجَ الذي يختصُّ بطرحِهِ على الطريقِ واحدٌ ، والماءَ الذي

---

(١) في (د) : (التزلق والتعثر) .

يجتمعُ على الطريقِ مِنْ ميزابٍ معيَّنٍ ، فعلىٰ صاحبِهِ على الخصوصِ كسْحُ الطريقِ ، وإنْ كانَ مِنَ المطرِ . . فذلكَ حِسبةٌ عامَّةٌ ، فعلى الولاةِ تكليفُ الناسِ القيامَ بها ، وليسَ للآحادِ فيها إلا الوعْظُ فقطْ .

وكذلكَ إذا كانَ لهُ كلبٌ عقورٌ علىٰ بابِ دارِهِ يؤذي الناسَ ، فيجبُ منعُهُ منهُ ، وإنْ كانَ لا يؤذي إلا بتنجيسِ الطريقِ ، وكانَ يمكنُ الاحترازُ عنْ نجاستِهِ . . لمْ يُمنعْ منهُ ، وإنْ كانَ يضيِّقُ الطريقَ ببسطِهِ ذراعيهِ . . فيُمنعُ منهُ ، بلْ يُمنعُ صاحبُهُ مِنْ أنْ ينامَ على الطريقِ أوْ يقعدَ قعوداً يضيِّقُ الطريقَ ، فكلبُهُ أولىٰ بالمنعِ .

* * *

منكرات الحمّامات

منها : الصورُ التي تكونُ علىٰ بابِ الحمَّامِ أوْ داخلَ الحمَّام يجبُ إزالتُها علىٰ كلِّ مَنْ يدخلُها إنْ قدرَ ، فإنْ كانَ الموضعُ مرتفعاً لا تصلُ إليهِ يدُهُ . . فلا يجوزُ لهُ الدخولُ إلا لضرورةٍ ، فليعدلْ إلىٰ حمَّامٍ آخرَ ؛ فإنَّ مشاهدةَ المنكرِ غيرُ جائزةٍ .

ويكفيهِ أنْ يشوِّهَ وجهَها ويبطلَ بهِ صورتَها ، ولا يُمنعُ مِنْ صورِ الأشجارِ وسائرِ النقوشِ سوىٰ صورِ الحيوانِ .

❊ ❊ ❊

ومنها : كشفُ العوراتِ والنظرُ إليها ، ومِنْ جملتِها كشفُ الدلاَّكِ عنِ الفخذِ وما تحتَ السَّرةِ لتنحيةِ الوسخِ ، بلْ مِنْ جملتِها إدخالُ اليدِ تحتَ الإزارِ ، فإنَّ مسَّ عورةِ الغيرِ حرامٌ كالنظرِ إليها .

❊ ❊ ❊

ومنها : الانبطاحُ على الوجهِ بينَ يدي الدلاَّكِ لتغميزِ الأعجازِ والأفخاذِ ، فهٰذا مكروهٌ وإنْ كانَ معَ حائلٍ ، ولكنْ لا يكونُ محظوراً إذا لمْ يُخشَ مِنْ حركةِ الشهوةِ .

وكذلكَ كشفُ العورةِ للحجَّامِ الذمِّيِّ مِنَ الفواحشِ ، فإنَّ المرأةَ لا يجوزُ لها أنْ تكشفَ بدنَها للذميَّاتِ في الحمَّامِ، فكيفَ يجوزُ لها كشفُ العورةِ للرجالِ؟!

ومنها : غمسُ اليدِ والأواني النجسةِ في المياهِ القليلةِ ، وغسلُ الإزارِ والطاسِ النجسِ في الحوضِ وماؤُهُ قليلٌ ؛ فإنَّهُ منجِّسٌ للماءِ إلا علىٰ مذهبِ مالكٍ ، فلا يجوزُ الإنكارُ فيهِ على المالكيَّةِ ، ويجوزُ على الحنفيَّةِ والشافعيَّةِ[١] .

وإنِ اجتمعَ مالكيٌّ وشافعيٌّ في حمَّامٍ . . فليسَ للشافعيِّ منعُ المالكيِّ مِنْ ذلكَ إلا بطريقِ الالتماسِ واللطفِ ، وهوَ أنْ يقولَ لهُ : إنَّا نحتاجُ إلىٰ أنْ نغسلَ اليدَ أوَّلاً ، ثمَّ نغمسَها في الماءِ ، وأمَّا أنتَ . . فمستغنٍ عنْ إيذائي وتفويتِ الطهارةِ عليَّ ، هـٰذا وما يجري مجراهُ ، فإنَّ مظانَّ الاجتهادِ لا يمكنُ الحِسبةُ فيها بالقهرِ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ في مداخلِ بيوتِ الحمَّامِ ومجاري مياهِها حجارةٌ ملساءُ مُزْلِقةٌ يزلَقُ عليها الغافلونَ ، فهـٰذا منكرٌ ، ويجبُ قلعُهُ وإزالتُهُ ، ويُنكرُ على الحمَّاميِّ إهمالُهُ ؛ فإنَّهُ يفضي إلى السقطةِ ، وقدْ تؤدِّي السقطةُ إلى انكسارِ عضوٍ أوِ انخلاعِهِ .

وكذلكَ ترْكُ السدْرِ والصابونِ المُزْلِقِ علىٰ أرضِ الحمَّامِ منكرٌ ، ومَنْ فعلَ ذلكَ وخرجَ وتركَهُ فتزلقَ بهِ إنسانٌ ، وانكسرَ عضوٌ مِنْ أعضائِهِ ، وكانَ

---

(١) سبق وقد بيَّن المصنف رأيه في تنجُّس الماء القليل بأدنىٰ نجاسة وإن لم يظهر لها أثر ، وميله ظاهراً إلىٰ مذهب السادة المالكية .

ذلكَ في موضعٍ لا يظهرُ فيهِ ، بحيثُ يتعذَّرُ الاحترازُ عنهُ . . فالضمانُ مترِدِّدٌ بينَ الذي تركَهُ وبينَ الحمَّامِيِّ ؛ إذ على الحمَّاميِّ تنظيفُ الحمَّامِ ، والوجهُ : إيجابُ الضمانِ علىٰ تاركِهِ في اليومِ الأوَّلِ ، وعلى الحمَّاميِّ في اليومِ الثاني ؛ إذْ عادةُ تنظيفِ الحمَّامِ كلَّ يومٍ معتادةٌ ، والرجوعُ في مواقيتِ إعادةِ التنظيفِ إلى العاداتِ ، فليُعتبرْ بها .

وفي الحمَّامِ أمورٌ أخرُ مكروهةٌ ، ذكرناها في كتابِ أسرارِ الطهارةِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِها .

* * *

منكرات الضيافة

فمنها : فرشُ الحريرِ للرجالِ ، فهوَ حرامٌ ، وكذلكَ تبخيرُ البخورِ في مجمرةِ فضةٍ أوْ ذهبٍ ، وكذلكَ الشربُ منها ، أوِ استعمالُ ماءِ الوردِ منهما ، أو ممَّا رأسُهُ منهما .

❋ ❋ ❋

ومنها : إسدالُ الستورِ وعليها الصورُ .

❋ ❋ ❋

ومنها : سماعُ الأوتارِ أوْ سماعُ القيناتِ .

❋ ❋ ❋

ومنها : اجتماعُ النساءِ على السطوحِ للنظرِ إلى الرجالِ مهما كانَ في الرجالِ شبَّانٌ يُخافُ الفتنةُ بينهُمْ ، فكلُّ ذلكَ محظورٌ منكرٌ يجبُ تغييرُهُ ، ومَنْ عجزَ عنْ تغييرِهِ . لزمَهُ الخروجُ ولمْ يجزْ لهُ الجلوسُ ، فلا رخصةَ لهُ في الجلوسِ في مشاهدةِ المنكراتِ .

وأمَّا الصورُ التي على النمارقِ والزرابيِّ المفروشةِ . فليسَ منكراً ، وكذا على الأطباقِ والقصاعِ ، لا الأواني المتخذةِ على شكلِ الصورِ ، فقدْ تكونُ بعضُ رؤوسِ المجامرِ على شكلِ طيرٍ ، فذلكَ حرامٌ يجبُ كسْرُ مقدارِ الصورةِ منهُ .

وفي المُكْحُلةِ الصغيرةِ مِنَ الفضَّةِ خلافٌ ، وقدْ خرجَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ عنِ الضيافةِ بسببِها[1] .

ومهما كانَ الطعامُ حراماً ، أوْ كانَ الموضعُ مغصوباً ، أوْ كانَتِ الثيابُ المفروشةُ حراماً . . فهوَ مِنْ أشدِّ المنكراتِ .

فإنْ كانَ فيها مَنْ يتعاطىٰ شربَ الخمرِ وحدَهُ . . فلا يجوزُ الحضورُ ؛ إذْ لا يحلُّ حضورُ مجالسِ الشربِ وإنْ كانَ معَ تركِ الشربِ ، ولا يجوزُ مجالسةُ الفاسقِ في حالةِ مباشرتِهِ للفسقِ ، وإنَّما النظرُ في مجالستِهِ بعدَ ذلكَ ، وأنَّهُ هلْ يجبُ بغضُهُ في اللهِ ومقاطعتُهُ كما ذكرناهُ في بابِ الحبِّ والبغضِ في اللهِ ، وكذلكَ إنْ كانَ فيهِمْ مَنْ يلبسُ الحريرَ أوْ خاتمَ الذهبِ . . فهوَ فاسقٌ لا يجوزُ الجلوسُ معَهُ مِنْ غيرِ ضرورةٍ .

فإنْ كانَ الثوبُ علىٰ صبيٍّ غيرِ بالغٍ . . فهٰذا في محلِّ النظرِ ، والصحيحُ : أنَّ ذلكَ منكرٌ ويجبُ نزعُهُ عنْهُ إنْ كانَ مميِّزاً ؛ لعمومِ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هٰذانِ حرامٌ علىٰ ذكورِ أمَّتي »[2] ، وكما يجبُ منعُ الصبيِّ مِنْ شربِ الخمرِ لا لكونِهِ مكلَّفاً ، ولكنْ لأنَّهُ يأنسُ بهِ ، فإذا بلغَ عسرَ عليهِ الصبرُ عنهُ . . فكذلكَ شهوةُ التزيُّنِ بالحريرِ تغلبُ عليهِ إذا اعتادَهُ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨٠) ، وكثير من مسائل المصنف عنده ، وقصة خروجه بسبب مكحلة فضة حكاها عن صاحب « القوت » الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٦١) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٠٥٧) ، والنسائي (٨/ ١٦٠) ، وابن ماجه (٣٥٩٥) .

فيكونُ ذلكَ بذراً للفسادِ يبذرُ في صدرِهِ ، فتنبتُ منهُ شجرةٌ منَ الشهوةِ راسخةٌ يعسرُ قلعُها بعدَ البلوغِ .

أمَّا الصبيُّ الذي لا يميِّزُ . فيضعفُ معنى التحريمِ في حقِّهِ ، ولا يخلو عنِ احتمالٍ ، والعلمُ عندَ اللهِ فيهِ(١) ، والمجنونُ في معنى الصبيِّ الذي لا يميِّزُ .

نعمْ ، يحلُّ التزيُّنُ بالذهبِ والحريرِ للنساءِ مِنْ غيرِ إسرافٍ .

ولا أرىٰ رخصةً في تثقيبِ أذنِ الصبيَّةِ لأجلِ تعليقِ حلقِ الذهبِ فيها ؛ فإنَّ هٰذا جرحٌ مؤلمٌ ، ومثلُهُ موجبٌ للقصاصِ ، فلا يجوزُ إلا لحاجةٍ مهمَّةٍ ، كالفصدِ والحجامةِ والختانِ ، والتزيُّنُ بالحلقِ غيرُ مهمٍّ ، بلْ في التقريطِ بتعليقِهِ على الأذنِ ، وفي المخانقِ والأَسْورَةِ كفايةٌ عنهُ ، فهٰذا وإنْ كانَ معتاداً فهوَ حرامٌ ، والمنعُ منهُ واجبٌ ، والاستئجارُ عليهِ غيرُ صحيحٍ ، والأجرةُ المأخوذةُ عليهِ حرامٌ ، إلا أنْ يثبتَ من جهةِ النقلِ فيه رخصةٌ ، ولمْ يبلغْنا إلى الآنَ فيهِ رخصةٌ(٢) .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ في الضيافةِ مبتدِعٌ يتكلَّمُ في بدعتِهِ ، فيجوزُ الحضورُ لِمَنْ يقدرُ على الردِّ عليهِ علىٰ عزمِ الردِّ ، فإنْ كانَ لا يقدرُ عليهِ . لمْ يجزْ ،

---

(١) ومذهب أبي حنيفة وأصحابه المنع مطلقاً ، سواء كان مميزاً أو لا .

(٢) واستدل المجوِّزون من الشافعية وغيرهم ببعض الآثار الواردة في جواز ذلك ، ينظر « تحفة المحتاج » (٩/ ١٩٥) .

وإنْ كانَ المبتدعُ لا يتكلَّمُ ببدعتِهِ . . فيجوزُ الحضورُ معَ إظهارِ الكراهةِ عليهِ والإعراضِ عنهُ ، كما ذكرناهُ في بابِ البغضِ في اللهِ .

وإنْ كانَ فيها مضحكٌ بالحكاياتِ وأنواعِ النوادرِ ؛ فإنْ كانَ يضحكُ بالفحشِ والكذبِ . . لمْ يجزِ الحضورُ ، وعندَ الحضورِ يجبُ الإنكارُ ، وإنْ كانَ ذلكَ بمزحٍ لا كذبَ فيهِ ولا فحشَ . . فهوَ مباحٌ ؛ أعني ما يقلُّ منهُ ، فأمَّا اتخاذُهُ صنعةً وعادةً . . فليسَ بمباحٍ .

وكلُّ كذبٍ لا يخفىٰ أنَّهُ كذبٌ ولا يقصدُ منهُ التلبيسُ . . فليسَ مِنْ جملةِ المنكراتِ ؛ كقولِ الإنسانِ مثلاً : (قدْ طلبتُكَ اليومَ مئةَ مرَّةٍ) و(أعدتُ الكلامَ عليكَ ألفَ مرَّةٍ) ، وما يجري مجراهُ ممَّا يُعلمُ أنَّهُ ليسَ يُقصدُ بهِ التحقيقُ ، فذلكَ لا يقدحُ في العدالةِ ، ولا تُردُّ الشهادةُ بهِ ، وسيأتي حدُّ المزاحِ المباحِ والكذبِ المباحِ في كتابِ آفاتِ اللسانِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ .

* * *

ومنها : الإسرافُ في الطعامِ والبناءِ ، فهوَ منكرٌ ، بلْ في المالِ منكرانِ :

أحدُهُما : الإضاعةُ .

والآخرُ : الإسرافُ .

فالإضاعةُ : تفويتُ مالٍ بلا فائدةٍ يُعتدُّ بها ؛ كإحراقِ الثوبِ وتمزيقِهِ ، وهدمِ البناءِ مِنْ غيرِ غرضٍ ، وإلقاءِ المالِ في البحرِ ، وفي معناهُ صرفُ المالِ

إلى النائحةِ والمطربِ ، وفي أنواعِ الفسادِ ؛ لأنَّها فوائدُ محرَّمةٌ شرعاً ، فصارَتْ كالمعدومةِ .

وأمَّا الإسرافُ : فقدْ يُطلقُ لإرادةِ صرْفِ المالِ إلى النائحةِ والمطربِ والمنكراتِ ، وقدْ يُطلقُ على الصرْفِ إلى المباحاتِ في جنسِها ولكنْ معَ المبالغةِ ، والمبالغةُ تختلفُ بالإضافةِ إلى الأحوالِ ، فنقولُ : مَنْ لمْ يملكْ إلا مئةَ دينارٍ مثلاً ومعَهُ عيالُهُ وأولادُهُ ، ولا معيشةَ لهُمْ سواهُ ، فأنفقَ الجميعَ في وليمةٍ . . فهوَ مسرفٌ يجبُ منعُهُ منهُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ نزلَ هٰذا في رجلٍ بالمدينةِ قسمَ جميعَ مالِهِ ولمْ يبقِ شيئاً لعيالِهِ ، فطُولبَ بالنفقةِ ، فلمْ يقدرْ علىٰ شيءٍ[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ .

وكذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، فمَنْ يُسرفُ هٰذا الإسرافَ يُنكرُ عليهِ ، ويجبُ على القاضي أنْ يحجرَ عليهِ ، إلا إذا كانَ الرجلُ وحدَهُ ، وكانَ لهُ قوَّةٌ في التوكُّلِ صادقةٌ ، فلهُ أنْ ينفقَ جميعَ مالِهِ في أبوابِ البرِّ ، ومَنْ لهُ عيالٌ أوْ كانَ عاجزاً عنِ التوكُّلِ . . فليسَ لهُ أنْ يتصدَّقَ بجميعِ مالِهِ .

وكذلكَ لوْ صرفَ جميعَ مالِهِ إلىٰ نقوشِ حيطانِهِ وتزيينِ بُنيانِهِ ، فهوَ

---

(١) وقد روى الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٥/ ٩٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما في هٰذه الآية : (هٰذا في النفقة) .

إسرافٌ محرَّمٌ ، وفعلُ ذلكَ ممَّنْ لهُ مالٌ كثيرٌ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّ التزيينَ مِنَ الأغراضِ الصحيحةِ ، ولمْ تزلِ المساجدُ تُزيَّنُ وتُنقشُ أبوابُها وسقوفُها معَ أنَّ نقشَ البابِ والسقفِ لا فائدةَ فيهِ إلا مجرَّدُ الزينةِ ، فكذا الدورُ .

وكذلكَ القولُ في التجمُّلِ بالثيابِ والأطعمةِ ، فذلكَ مباحٌ في جنسِهِ ، ويصيرُ إسرافاً باعتبارِ حالِ الرجلِ وثروتِهِ .

وأمثالُ هـٰذهِ المنكراتِ كثيرةٌ لا يمكنُ حصرُها ، فقسْ بهـٰذا منكراتِ المجامعِ ، ومجالسِ القضاةِ ، ودواوينِ السلاطينِ ، ومدارسِ الفقهاءِ ، ورباطاتِ الصوفيَّةِ ، وخاناتِ الأسواقِ ، فلا تخلو بقعةٌ عنْ منكرٍ مكروهٍ أوْ محظورٍ ، واستقصاءُ جميعِ المنكراتِ يستدعي استيعابَ جميعِ تفاصيلِ الشرعِ ، أصولِها وفروعِها ، فلنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدرِ منها .

* * *

المنكرات العامّة

اعلمْ : أنَّ كلَّ قاعدٍ في بيتِهِ أينما كانَ فليسَ خالياً في هٰذا الزمانِ عنْ منكرٍ مِنْ حيثُ التقاعدُ عنْ إرشادِ الناسِ وتعليمِهِمْ وحملِهِمْ على المعروفِ ، فأكثرُ الناسِ جاهلونَ بالشرعِ في شروطِ الصلاةِ في البلادِ ، فكيفَ في القرىٰ والبوادي ، ومنهُمُ الأعرابُ والأكرادُ والتركمانيَّةُ وسائرُ أصنافِ الخلقِ ، وواجبٌ أنْ يكونَ في كلِّ مسجدٍ ومحلَّةٍ مِنَ البلدِ فقيهٌ يعَلِّمُ الناسَ دينَهُمْ ، وكذا في كلِّ قريةٍ .

وواجبٌ علىٰ كلِّ فقيهٍ فَرَغَ مِنْ فرضِ عينِهِ وتفرَّغَ لفرضِ الكفايةِ أنْ يخرجَ إلىٰ مَنْ يجاورُ بلدَهُ مِنْ أهلِ السوادِ ومِنَ العربِ والأكرادِ وغيرِهِمْ ويعلِّمَهُمْ دينَهُمْ وفرائضَ شرعِهِمْ ، ويستصحبُ معَ نفسِهِ زاداً يأكلُهُ ، ولا يأكلُ مِنْ أطعمتِهِمْ ؛ فإنَّ أكثرَها تكونُ مغصوبةً ، فإنْ قامَ بهٰذا الأمرِ واحدٌ . . سقطَ الحرجُ عنِ الآخرينَ ، وإلا . . عمَّ الحرجُ الكافَّةَ أجمعينَ ؛ أمَّا العالمُ . . فلتقصيرِهِ في الخروجِ ، وأمَّا الجاهلُ . . فلتقصيرِهِ في تركِ التعلُّمِ .

وكلُّ عاميٍّ عرفَ شروطَ الصلاةِ . . فعليهِ أنْ يعرِّفَ غيرَهُ ، وإلا . . فهوَ شريكٌ في الإثمِ ، ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ لا يُولدُ عالماً بالشرعِ ، وإنَّما يجبُ التبليغُ علىٰ أهلِ العلمِ ، وكلُّ مَنْ تعلَّمَ مسألةً واحدةً . . فهوَ مِنْ أهلِ العلمِ بها .

ولعمري ؛ الإثمُ على الفقهاءِ أشدُّ ؛ لأنَّ قدرتَهُمْ فيهِ أظهرُ ، وهوَ بصناعتِهِمْ أليقُ ؛ لأنَّ المحترفينَ لوْ تركوا حرفتَهُمْ . . لبطلتِ المعايشُ ، فهمْ قدْ تقلَّدوا أمراً لا بدَّ منهُ في صلاحِ الخلقِ ، وشأنُ الفقيهِ وحرفتُهُ تبليغُ ما بلَغَهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ العلماءَ همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وليسَ للإنسانِ أنْ يقعدَ في بيتِهِ ولا يخرجَ إلى المسجدِ لأنَّه يرى الناسَ لا يحسنونَ الصلاةَ ، بلْ إذا علمَ ذلكَ . . وجبَ عليهِ الخروجُ للتعليمِ والنهيِ .

وكذلكَ كلُّ مَنْ تيقَّنَ أنَّ في السوقِ منكراً يجري على الدوامِ ، أوْ في وقتٍ بعينِهِ وهوَ قادرٌ علىٰ تغييرِهِ ، فلا يجوزُ لهُ أنْ يسقطَ ذلكَ عنْ نفسِهِ بالقعودِ في البيتِ ، بلْ يلزمُهُ الخروجُ ، فإنْ كانَ لا يقدرُ علىٰ تغييرِ البعضِ وهوَ محترزٌ عنْ مشاهدتِهِ ويقدرُ على البعضِ . . لزمَهُ الخروجُ ؛ لأنَّ خروجَهُ إذا كانَ لأجلِ تغييرِ ما يقدرُ عليهِ . . فلا يضرُّهُ مشاهدةُ ما لا يقدرُ عليهِ ، وإنَّما يُمنعُ الحضورَ لمشاهدةِ المنكرِ مِنْ غيرِ غرضٍ صحيحٍ .

فحقٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ : أنْ يبدأَ بنفسِهِ فيصلحَها بالمواظبةِ على الفرائضِ وتركِ المحرَّماتِ ، ثمَّ يعلِّمَ ذلكَ أهلَهَ وأقاربَهُ ، ثمَّ يتعدَّىٰ بعدَ الفراغِ منهُمْ إلىٰ جيرانِهِ ، ثمَّ إلىٰ أهلِ محلَّتِهِ ، ثمَّ إلىٰ أهلِ بلدِهِ ، ثمَّ إلىٰ أهلِ السوادِ المكتنفِ ببلدِهِ ، ثمَّ إلىٰ أهلِ البوادي مِنَ الأكرادِ والعربِ وغيرِهِمْ ، وهٰكذا إلىٰ أقصى العالمِ ، فإنْ قامَ بهِ الأدنىٰ . . سقطَ عنِ الأبعدِ ، وإلا . . حَرِجَ بهِ

كلُّ قادرٍ عليهِ ، قريباً كانَ أوْ بعيداً ، ولا يسقطُ الحرجُ ما دامَ يبقىٰ علىٰ وجهِ الأرضِ جاهلٌ بفرْضٍ مِنْ فروضِ دينِهِ ، وهوَ قادرٌ علىٰ أنْ يسعىٰ إليهِ بنفسِهِ أوْ بغيرِهِ فيعلمَهُ فرضَهُ .

وهـٰذا شغلٌ شاغلٌ لمَنْ يهمُّهُ أمرُ دينِهِ ، يشغلُهُ عنْ تجزئةِ الأوقاتِ في التفريعاتِ النادرةِ والتعمُّقِ في دقائقِ العلومِ التي هيَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، ولا يتقدَّمُ علىٰ هـٰذا إلا فرضُ عينٍ ، أوْ فرضُ كفايةٍ هوَ أهمُّ منهُ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

الباب الرّابع
في أمر الأمراء والسّلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قدْ ذكرنا درجاتِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، وأنَّ **أوّلَهُ** التعريفُ ، **وثانيهُ** الوعظُ ، **وثالثُهُ** التخشينُ في القولِ ، **ورابعهُ** المنعُ بالقهرِ ، **والحملُ** على الحقِّ بالضربِ والعقوبةِ[1] .

والجائزُ مِنْ جملةِ ذلكَ معَ السلاطينِ الرتبتانِ الأوليانِ ، وهما التعريفُ والوعظُ .

وأمَّا المنعُ بالقهرِ . . فليسَ ذلكَ لآحادِ الرعيَّةِ معَ السلطانِ ، فإنَّ ذلكَ يحرِّكُ الفتنةَ ، ويهيِّجُ الشرَّ ، ويكونُ ما يتولَّدُ منهُ مِنَ المحذورِ أكثرَ .

وأمَّا التخشينُ في القولِ ؛ كقولِهِ : يا ظالمُ ، يا مَنْ لا يخافُ اللهَ ، وما يجري مجراهُ ؛ فذلكَ إنْ كانَ يحرِّكُ فتنةً يتعدَّىٰ شرُّها إلىٰ غيرِهِ . . لمْ يجزْ ، وإنْ كانَ لا يخافُ إلا علىٰ نفسِهِ . . فهوَ جائزٌ ، بلْ مندوبٌ إليهِ .

فلقدْ كانَ مِنْ عادةِ السلفِ التعرُّضُ للأخطارِ ، والتصريحُ بالإنكارِ ، مِنْ غيرِ مبالاةٍ بهلاكِ المهجةِ ، والتعرُّضِ لأنواعِ العذابِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ ذلكَ شهادةٌ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الشهداءِ حمزةُ بنُ عبدِ

---

(١) قوله : (والحمل على الحق بالضرب) هو الدرجة الخامسة كما عدّها سابقاً .

المطلبِ ، ثمَّ رجلٌ قامَ إلىٰ إمامٍ فأمرَهُ ونهاهُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ ، فقتلَهُ علىٰ ذلكَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ »[2] .

ووصفَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : « قرنٌ مِنْ حديدٍ ، لا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، تركَهُ الحقُّ ما لهُ مِنْ صديقٍ »[3] .

ولمَّا علمَ المتصلِّبونَ في الدينِ أنَّ أفضلَ الكلامِ كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ ، وأنَّ صاحبَ ذلكَ إنْ قُتلَ فهوَ شهيدٌ كما وردَتْ بهِ الأخبارُ . أقدموا علىٰ ذلكَ موطِّنينَ أنفسَهُمْ على الهلاكِ ، ومحتملينَ أنواعَ العذابِ ، وصابرينَ عليهِ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ ، ومحتسبينَ لما يبذلونَهُ مِنْ مهجِهِمْ عندَ اللهِ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٩٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٣٤٤) ، والترمذي (٢١٧٤) ، وابن ماجه (٤٠١١) .

(٣) روى الترمذي (٣٧١٤) من حديث علي رضي الله تعالىٰ عنه مرفوعاً : « رحم الله عمرَ ، يقول الحق وإن كان مرّاً ، تركه الحقُّ وما له صديق » ، وروى الطبراني في « الكبير » (١/ ٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٥) أن عمر بن الخطاب أرسل إلىٰ كعب الأحبار ، فقال : يا كعبُ ؛ كيف تجد نعتي ؟ قال : أجد نعتك قرناً من حديد ، قال : وما قرنٌ من حديد ؟ قال : أمير سديد ، لا يأخذه في الله لومة لائم .

وطريقُ وعظِ السلاطينِ وأمرِهِمْ بالمعروفِ ونهيِهِمْ عنِ المنكرِ : ما نُقلَ عنْ علماءِ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وقدْ أوردْنا جملةً مِنْ ذلكَ في بابِ الدخولِ على السلاطينِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، ونقتصرُ الآنَ علىٰ حكاياتٍ تعرِّفُ وجهَ الوعظِ وكيفيَّةَ الإنكارِ عليهِمْ .

فمنها : ما رُوِيَ مِنْ إنكارِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ أكابرِ قريشٍ حينَ قصدوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالسوءِ ، وذلكَ ما رُوِيَ عنْ عروةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو : ما أكثرُ ما رأيتَ قريشاً نالَتْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما كانَتْ تُظهرُ مِنْ عداوتِهِ ؟ قالَ : حضرتُهُمْ وقدِ اجتمعَ أشرافُهُمْ يوماً في الحِجْرِ ، فذكروا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : ما رأينا مثلَ ما صبرْنا عليهِ مِنْ هـٰذا الرجلِ ، سفَّهَ أحلامَنا ، وشتمَ آباءَنا ، وعابَ دينَنا ، وفرَّقَ جماعتَنا ، وسبَّ آلهتَنا ، ولقدْ صبرْنا منهُ علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، أوْ كما قالوا ، فبينا هُمْ في ذلكَ . . إذْ طلعَ عليهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقبلَ يمشي حتَّى استلمَ الركنَ ، ثمَّ مرَّ بهِمْ طائفاً بالبيتِ ، فلما مرَّ بهِمْ . . غمزوهُ ببعضِ القولِ ، قالَ : فعرفتُ ذلكَ في وجهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ مضىٰ فلمَّا مرَّ بهِمُ الثانيةَ . . غمزوهُ بمثلِها ، فعرفتُ ذلكَ في وجهِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، ثمَّ مضىٰ ، فمرَّ بهِمُ الثالثةَ ، فغمزوهُ بمثلِها حتَّىٰ وقفَ ، ثمَّ قالَ : « أتسمعونَ يا معشرَ قريشٍ ؟ أما والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ؛ لقدْ جئتُكُمْ بالذبحِ » قالَ : فأطرقَ القومُ حتَّىٰ ما منهُمْ رجلٌ إلا كأنَّما علىٰ رأسِهِ طائرٌ واقعٌ ، حتَّىٰ إنَّ

أشدَّهُمْ فيهِ وصاةً قبلَ ذلكَ ليرفؤُهُ بأحسنِ ما يجدُ مِنَ القولِ[1] ، حتَّىٰ إنَّهُ ليقولُ : انصرفْ يا أبا القاسمِ راشداً ، فو اللهِ ؛ ما كنتَ جهولاً ، قالَ : فانصرفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ إذا كانَ مِنَ الغدِ . . اجتمعوا في الحِجْرِ وأنا معَهُمْ ، فقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ : ذكرتُمْ ما بلغَ منكُمْ وما بلغَكُمْ عنهُ حتىٰ إذا بادأَكُمْ بما تكرهونَ . . تركتموهُ ! فبينا هُمْ في ذلكَ . . إذْ طلعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فوثبوا إليهِ وثبةَ رجلٍ واحدٍ ، فأحاطوا بهِ يقولونَ : أنتَ الذي تقولُ كذا ، أنتَ الذي تقولُ كذا ؟ لما كانَ بلغَهُمْ مِنْ عيبِ آلهتِهِمْ ودينِهِمْ ، قالَ : فيقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمْ ، أنا الذي أقولُ ذلكَ » ، قالَ : فلقدْ رأيتُ منهُمْ رجلاً أخذَ بمجامعِ ردائِهِ ، قالَ : وقامَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ دونَهُ يقولُ وهوَ يبكي : ويلكُمْ ؛ أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ : ربِّيَ اللهُ ؟! قالَ : ثمَّ انصرفوا عنهُ ، وإنَّ ذلكَ لأشدُّ ما رأيتُ قريشاً بلغَتْ منهُ قطُّ[2] .

وفي روايةٍ أخرىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : بينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بفناءِ الكعبةِ . . إذْ أقبلَ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ ، فأخذَ بمَنْكِبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلفَّ ثوبَهُ في عنقِهِ ، فخنقَهُ

---

(١) **الوصاة** : أشد من كان يوصي غيره بإيذائه صلى الله عليه وسلم ، **ويرفؤه** : يسكنه ويرفق به ويدعو له .
(٢) أصله عند البخاري (٣٦٧٨) ، وهو بطوله عند أحمد في « المسند » (٢/٢١٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٥٦٧) .

خنقاً شديداً ، فجاءَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فأخذَ بمنكبِهِ ، ودفعَهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ : ربِّيَ اللهُ ، وقدْ جاءَكُمْ بالبيناتِ منْ ربِّكُمْ ؟![1] .

ورُوِيَ أنَّ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ حبسَ العطاءَ ، فقامَ إليهِ أبو مسلمٍ الخولانيُّ فقالَ لهُ : يا معاويةُ ؛ إنَّهُ ليسَ مِنْ كدِّكَ ، ولا كدِّ أبيكَ ، ولا كدِّ أمِّكَ ، قالَ : فغضبَ معاويةُ ونزلَ عنِ المنبرِ وقالَ لهُمْ : مكانَكُمْ ، فغابَ عنْ أعينِهِمْ ساعةً ثمَّ خرجَ عليهِمْ وقدِ اغتسلَ فقالَ : إنَّ أبا مسلمٍ كلَّمَني بكلامٍ أغضبَني ، وإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الغضبُ مِنَ الشيطانِ ، والشيطانُ خُلِقَ مِنَ النارِ ، وإنَّما تُطفأُ النارُ بالماءِ ، فإذا غضبَ أحدُكُمْ . . فليغتسلْ »[2] ، وإنِّي دخلتُ فاغتسلتُ ، وصدقَ أبو مسلمٍ ، إنَّهُ ليسَ مِنْ كدِّي ولا كدِّ أبي ، فهلمُّوا إلىٰ عطائِكُمْ[3] .

ورُوِيَ عنْ ضَبَّةَ بنِ مِحْصَنٍ العَنْزِيِّ قالَ : كانَ علينا أبو موسى الأشعريُّ أميراً بالبصرةِ ، فكانَ إذا خطبَنا فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . وأنشأَ يدعو لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : فغاظَني ذلكَ منهُ ، فقمتُ إليهِ فقلتُ لهُ : أينَ أنتَ مِنْ صاحبِهِ ، تفضِّلُهُ عليهِ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٦) ، وهو الحديث السابق عنده .
(٢) رواه أبو داوود (٤٧٨٤) من حديث عطية بن عروة رضي الله عنه .
(٣) رواه بهـٰذه القصة أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/ ١٦٩) .

فصنعَ ذلكَ جُمعاً ، ثمَّ كتبَ إلىٰ عمرَ يشكوني ، يقولُ : إنَّ ضبَّةَ بنَ محصنٍ العَنْزيَّ يتعرَّضُ لي في خطبتي ، فكتبَ إليهِ عمرُ أنْ أشخصْهُ إليَّ ، قالَ : فأشخصَني إليهِ ، فقدمتُ ، فضربتُ عليهِ البابَ ، فخرجَ إليَّ ، فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ فقلتُ : أنا ضبَّةُ بنُ محصنٍ العَنْزيُّ ، فقالَ لي : لا مرحباً ، ولا أهلاً ، قلتُ : أمَّا المرحبُ . . فمِنَ اللهِ ، وأمَّا الأهلُ . . فلا أهلَ لي ولا مالَ ، فبماذا استحللتَ يا عمرُ إشخاصي مِنْ مصري بلا ذنبٍ أذنبتُهُ ولا شيءٍ أتيتُهُ ؟ فقالَ : ما الذي شجرَ بينَكَ وبينَ عاملي ؟ قالَ : قلتُ : الآنَ أخبرُكَ بهِ ، إنَّهُ كانَ إذا خطبَنا فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أنشأَ يدعو لكَ ، فغاظَني ذلكَ منهُ ، فقمتُ إليهِ فقلتُ لهُ : أينَ أنتَ مِنْ صاحبِهِ تفضِّلُهُ عليهِ ، فصنعَ ذلكَ جُمعاً ، ثمَّ كتبَ إليكَ يشكوني ، قالَ : فاندفعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ باكياً وهوَ يقولُ : أنتَ واللهِ أوفقُ منهُ وأرشدُ ، فهلْ أنتَ غافرٌ لي ذنبي يغفرُ اللهُ لكَ ؟ قالَ : قلتُ : غفرَ اللهُ لكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : ثمَّ اندفعَ باكياً وهوَ يقولُ : واللهِ ؛ لليلةٌ مِنْ أبي بكرٍ ويومٌ خيرٌ مِنْ عمرَ وآلِ عمرَ ، فهلْ لكَ أنْ أحدثَكَ بليلتِهِ ويومِهِ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : أمَّا الليلةُ : فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا أرادَ الخروجَ مِنْ مكَّةَ هارباً مِنَ المشركينَ . . خرجَ ليلاً ، فتبعَهُ أبو بكرٍ ، فجعلَ يمشي مرَّةً أمامَهُ ومرَّةً خلفَهُ ، ومرَّةً عنْ يمينِهِ ، ومرَّةً عنْ يسارِهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما هٰذا يا أبا بكرٍ ؟ ما أعرفُ هٰذا مِنْ أفعالِكَ ! » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أذكرُ الرصْدَ . . فأكونُ أمامَكَ ، وأذكرُ الطلبَ . . فأكونُ خلفَكَ ، ومرَّةَ عنْ

يمينِكَ ، ومرةً عنْ يسارِكَ ، لا آمنُ عليكَ ، قالَ : فمشىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلتَهُ علىٰ أطرافِ أصابعِهِ حتَّىٰ حفيَتْ ، فلمَّا رأىٰ أبو بكر أنَّها قدْ حفيَتْ . . حملَهُ علىٰ عاتقِهِ ، وجعلَ يشتدُّ بهِ حتَّىٰ أتىٰ فمَ الغارِ فأنزلَهُ ، ثمَّ قالَ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبيّاً ؛ لا تدخلُهُ حتَّىٰ أدخلَهُ ، فإنْ كانَ فيهِ شيءٌ . . نزلَ بي قبلَكَ ، قالَ : فدخلَ ، فلمْ يرَ فيهِ شيئاً ، فحملَهُ فأدخلَهُ ، وكانَ في الغارِ خَرْقٌ فيهِ حيَّاتٌ وأفاعٍ فألقمَهُ أبو بكرٍ قدمَهُ ؛ مخافةَ أنْ يخرجَ منهُ شيءٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيؤذيَهُ ، فنهشَتْهُ حيةٌ[1] ، وجعلَتْ دموعُ أبي بكرٍ تنحدرُ علىٰ خدَّيْهِ مِنْ ألمِ ما يجدُهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لأبي بكرٍ : « يا أبا بكرٍ ؛ لا تحزنْ ، إنَّ اللهَ معنا » ، فأنزلَ اللهُ سكينتَهُ عليهِ ؛ أيِ : الطمأنينةَ لأبي بكرٍ ، فهـٰذهِ ليلتُهُ .

وأمَّا يومُهُ : فلمَّا تُوفِّيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ارتدَّتِ العربُ ، فقالَ بعضُهُمْ : نصلِّي ولا نزكِّي ، فأتيتُهُ لا آلوهُ نصحاً ، فقلتُ : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ تألَّفِ الناسَ وارفقْ بهِمْ ، فقالَ لي : أجبارٌ في الجاهليةِ خوارٌ في الإسلامِ ؟! فبماذا أتألَّفُهُمْ ؟! قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وارتفعَ الوحيُ ، فواللهِ ؛ لوْ منعوني عِقالاً كانوا يعطونَهُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لقاتلْتُهُمْ عليهِ ، قالَ : فقاتلنا عليهِ ، فكانَ واللهِ رشيدَ الأمرِ ، فهـٰذا يومُهُ .

---

(١) قوله : (فنهشته حية) زيادة من (ب ، هـ) ، وفي (ط) : (وجعلن يضربن أبا بكر) بدل (فنهشته حية) .

ثمَّ كتبَ إلىٰ أبي موسىٰ يلومُهُ[1] .

وعنِ الأصمعيِّ قالَ : دخلَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ علىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ وهوَ جالسٌ علىٰ سريرِهِ ، وحواليْهِ الأشرافُ مِنْ كلِّ بطنٍ ، وكانَ بمكَّةَ في وقتِ حجِّهِ في خلافتِهِ ، فلما بصرَ بهِ . . قامَ إليهِ وأجلسَهُ معَهُ على السريرِ ، وقعدَ بينَ يديهِ ، وقالَ لهُ : يا أبا محمدٍ ؛ ما حاجتُكَ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ اتقِ اللهَ في حرمِ اللهِ وحرمِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتعاهدْهُ بالعمارةِ ، واتقِ اللهَ في أولادِ المهاجرينَ والأنصارِ ؛ فإنَّكَ بهِمْ جلستَ هٰذا المجلسَ ، واتقِ اللهَ في أهلِ الثغورِ ؛ فإنَّهُمْ حصنُ المسلمينَ ، وتفقدْ أمورَ المسلمينَ ؛ فإنَّكَ وحدَكَ المسؤولُ عنهُمْ ، واتقِ اللهَ فيمَنْ علىٰ بابِكَ ، فلا تغفُلْ عنهُمْ ، ولا تغلقْ بابَكَ دونَهُمْ ، فقالَ لهُ : أجلْ ، أفعلُ ، ثمَّ نهضَ وقامَ ، فقبضَ عليهِ عبدُ الملكِ ، فقالَ : يا أبا محمدٍ ؛ إنَّما سألتَنا حاجةً لغيرِكَ وقدْ قضيناها ، فما حاجتُكَ ؟ فقالَ : ما لي إلىٰ مخلوقٍ حاجةٌ ، ثمَّ خرجَ ، فقالَ عبدُ الملكِ : هٰذا ـ وأبيكَ ـ الشرفُ[2] .

ورُوِيَ أنَّ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ قالَ لحاجبِهِ يوماً : قِفْ على البابِ ، فإذا

---

(١) رواه بسياق المصنف هنا أبو قاسم المقدسي في « تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق » (ص ١٢٤) ، وبنحوها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٣) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٤٧٦) . وروىٰ مفرداً حادثة الغار البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) ، وحادثة مقاتلة المرتدين كذلك البخاري (١٤٠٠) ، ومسلم (٢٠) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٣٨٥) .

مرَّ بكَ رجلٌ فأدخلْهُ عليَّ ليحدِّثَني ، فخرجَ الحاجبُ ، فوقفَ على البابِ مدَّةً ، فمرَّ بهِ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ وهوَ لا يعرفُهُ ، فقالَ لهُ : يا شيخُ ؛ ادخلْ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ ؛ فإنَّهُ أمرَ بذلكَ ، فدخلَ عطاءٌ على الوليدِ وعندَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ، فلمَّا دنا عطاءٌ مِنَ الوليدِ.. قالَ : السلامُ عليكَ يا وليدُ ، قالَ : فغضبَ الوليدُ علىٰ حاجبِهِ وقالَ لهُ : ويلَكَ ، أمرتُكَ أنْ تدخلَ إليَّ رجلاً يحدِّثُني ويسامرُني ، فأدخلتَ إليَّ رجلاً لمْ يرضَ أنْ يسمِّيَني بالاسمِ الذي اختارَهُ اللهُ لي ! فقالَ لهُ حاجبُهُ : ما مرَّ بي غيرُهُ ، ثمَّ قالَ لعطاءٍ : اجلسْ ، ثمَّ أقبلَ عليهِ يحدِّثُهُ فكانَ فيما حدَّثَهُ عطاءٌ أنْ قالَ : بلغَنا أنَّ في جهنَّمَ وادياً يُقالُ لهُ : هَبْهَبُ ، أعدَّهُ اللهُ لكلِّ إمامٍ جائرٍ في حكمِهِ[1] ، فصعقَ الوليدُ مِنْ قولِهِ ، وكانَ جالساً بينَ يدي عتبةِ بابِ المجلسِ ، فوقعَ علىٰ قفاهُ إلىٰ جوفِ المجلسِ مغشيّاً عليهِ ، فقالَ عمرُ لعطاءٍ : قتلتَ أميرَ المؤمنينَ ، فقبضَ عطاءٌ علىٰ ذراعِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فغمزَهُ غمزةً شديدةً وقالَ لهُ : يا عمرُ ؛ إنَّ الأمرَ جدٌّ فجدَّ ، ثمَّ قامَ عطاءٌ وانصرفَ ، فبلغَنا عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ أنَّهُ قالَ : مكثتُ سنةً أجدُ ألمَ غمزتِهِ في ذراعي[2] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٥٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولفظه مرفوعاً : « في جهنم واد ، في ذلك الوادي بئر يقالُ له : هبهبُ ، حق على الله تعالىٰ أن يسكنها كل جبار » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مواعظ الخلفاء » . « إتحاف » (٧/٦٩) .

وكانَ ابنُ أبي شميلةَ يُوصفُ بالعقلِ والأدبِ ، فدخلَ علىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، فقالَ لهُ عبدُ الملكِ : تكلَّمْ ، قالَ : بمَ أتكلَّمُ وقدْ علمتُ أنَّ كلَّ كلامٍ تكلَّمَ بهِ المتكلِّمُ عليهِ وبالٌ إلا ما كانَ للهِ ؟ فبكىٰ عبدُ الملكِ ثمَّ قالَ : يرحمُكَ اللهُ ، لمْ يزلِ الناسُ يتواعظونَ ويتواصَونَ ، فقالَ الرجلُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ الناسَ في القيامةِ لا ينجونَ مِنْ غصصِ مرارتِها ومعاينةِ الردىٰ فيها ، إلا مَنْ أرضى اللهَ بسخطِ نفسِهِ ، فبكىٰ عبدُ الملكِ ، ثمَّ قالَ : لا جرمَ ، لأجعلنَّ هـٰذهِ الكلماتِ مثالاً نصبَ عينيَّ ما عشتُ حيّاً(١) .

ويُروىٰ عنِ ابنِ عائشةَ أنَّ الحجَّاجَ دعا فقهاءَ البصرةِ وفقهاءَ الكوفةِ ، فدخلوا عليهِ ، ودخلَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ آخرَ مَنْ دخلَ ، فقالَ الحجَّاجُ : مرحباً بأبي سعيدٍ ، إليَّ إليَّ ، ثمَّ دعا بكرسيٍّ ، فوُضِعَ إلىٰ جنبِ سريرِهِ ، فقعدَ عليهِ ، فجعلَ الحجَّاجُ يذاكرُنا ويسألُنا ، إذْ ذكرَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فنالَ منهُ ، ونلنا منهُ مقاربةً لهُ وفرقاً مِنْ شرِّهِ ، والحسنُ ساكتٌ عاضٌّ علىٰ إبهامِهِ ، فقالَ : يا أبا سعيدٍ ؛ ما لي أراكَ ساكتاً ؟ قالَ : ما عسيتُ أنْ أقولَ ؟ قالَ : أخبرْني برأيكَ في أبي ترابٍ ، قالَ : سمعتُ اللهَ جلَّ ذكرُهُ يقولُ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فعليٌّ ممَّنْ هدى اللهُ مِنْ أهلِ الإيمانِ ، فأقولُ : ابنُ عمِّ النبيِّ عليهِ الصلاةُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٠٥) ، وقد تقدم .

والسلامُ ، وختنُهُ على ابنتِهِ ، وأحبُّ الناسِ إليهِ ، وصاحبُ سوابقَ مباركاتٍ سبقَتْ لهُ مِنَ اللهِ ، لنْ تستطيعَ أنتَ ولا أحدٌ مِنَ الناسِ أنْ يحظرَها عليهِ ، ولا يحولَ بينَهُ وبينَها ، وأقولُ : إنَّهُ إنْ كانَتْ لعليٍّ هناةٌ . . فاللهُ حسيبُهُ[(١)] ، واللهِ ؛ ما أجدُ فيهِ قولاً أعدلَ مِنْ هٰذا ، فبسرَ وجهُ الحجَّاجِ وتغيَّرَ ، وقامَ عنِ السريرِ مغضباً ، فدخلَ بيتاً خلفَهُ وخرجْنا ، قالَ عامرٌ الشعبيُّ : فأخذتُ بيدِ الحسنِ ، فقلتُ : يا أبا سعيدٍ ؛ أغضبتَ الأميرَ وأوغرتَ صدرَهُ ، فقالَ : إليك عنِّي يا عامرُ ، يقولُ الناسُ : عامرٌ الشعبيُّ عالمُ أهلِ الكوفةِ ! أتيتَ شيطاناً مِنْ شياطينِ الإنسِ تكلِّمُهُ بهواهُ ، وتقاربُهُ في رأيِهِ ؟ ويحكَ يا عامرُ ؛ هلاَّ اتقيتَ إنْ سئلتَ . . فصدقْتَ ، أوْ سكتَّ . . فسلمْتَ ؟ قالَ عامرٌ : يا أبا سعيدٍ ؛ قدْ قلتَها وأنا أعلمُ ما فيها ، قالَ الحسنُ : فذاكَ أعظمُ في الحجَّةِ عليكَ ، وأشدُّ في التبعةِ .

قالَ : وبعثَ الحجَّاجُ إلى الحسنِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . قالَ : أنتَ الذي تقولُ : قاتلَهُمُ اللهُ ، قتلوا عبادَ اللهِ على الدينارِ والدرهمِ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : ما حملَكَ على هٰذا ؟ قالَ : ما أخذَ اللهُ على العلماءِ مِنَ المواثيقِ ليبيننَّهُ للناسِ ولا يكتمونَهُ ، قالَ : يا حسنُ ؛ أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وإيَّاكَ أنْ يبلغَني عنكَ ما أكرهُ فأفرقَ بينَ رأسِكَ وجسدِكَ[(٢)] .

---

(١) في (ب) : (إنه كانت لعلي هناة والله حسنة ، والله ما أجد فيه) ، وفي (د ، هـ) : (حسبه) .

(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٢/٣٧٩) وفيه : (إنه إن كانت لعلي ذنوب . . فالله حسيبه) ، ولم يذكر القطعة الأخيرة من استدعاء الحجاج للحسن .

وحُكِيَ أنَّ حطيطاً الزياتَ جيءَ بهِ إلى الحجَّاجِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . قالَ : أنتَ حطيطٌ ؟ قالَ : نعمْ ، سلْ عمَّا بدا لك ؛ فإنِّي عاهدتُ اللهَ عندَ المقامِ علىٰ ثلاثِ خصالٍ : إنْ سُئلتُ . . لأصدقَنَّ ، وإنِ ابتليتُ . . لأصبرَنَّ ، وإنْ عُوفيتُ . . لأشكرَنَّ ، قالَ : فما تقولُ فيَّ ؟ قالَ : أقولُ : إنَّكَ مِنْ أعداءِ اللهِ في الأرضِ ، تنتهكُ المحارمَ ، وتقتلُ بالظِّنَّةِ ، قالَ : فما تقولُ في أميرِ المؤمنينَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ؟ قالَ : أقولُ : إنَّهُ أعظمُ جرماً منكَ ، وإنَّما أنتَ خطيئةٌ مِنْ خطاياهُ ، قالَ : فقالَ الحجَّاجُ : ضعوا عليهِ العذابَ ، قالَ : فانتهىٰ بهِ العذابُ إلىٰ أنْ شُقِّقَ لهُ القصبُ ، ثمَّ جعلوهُ علىٰ لحمِهِ ثمَّ شدُّوهُ بالحبالِ ، ثمَّ جعلوا يمدُّونَ قصبةً قصبةً حتى انتجلوا لحمَهُ ، فما سمعوهُ يقولُ شيئاً ![1] .

قالَ : فقيلَ للحجَّاجِ : إنَّهُ في آخرِ رمقٍ ، فقالَ : أخرجوهُ فارموا بهِ في السوقِ ، قالَ جعفرٌ : فأتيتُهُ أنا وصاحبٌ لهُ ، فقلنا لهُ : حطيطُ ؛ ألكَ حاجةٌ ؟ قالَ : شربةَ ماءٍ ، فأتوهُ بشربةٍ ؛ ثمَّ ماتَ وكانَ ابنَ ثمانِ عشرةَ سنةً رحمَهُ اللهُ[2] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ هبيرةَ دعا بفقهاءِ أهلِ البصرةِ وأهلِ الكوفةِ وأهلِ المدينةِ وأهلِ الشامِ وقرَّائِها ، فجعلَ يسألُهُمْ ، وكلَّمَ عامراً الشعبيَّ ، فجعلَ

---

(١) **انتجلوا لحمه** : نجل الشيء ينجله نجلاً ؛ شقه ، والمنجول : هو الذي يُسلخ من رجليه إلىٰ رأسه .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٣١) .

لا يسألُهُ عنْ شيءٍ إلا وجدَ عندَهُ منهُ علماً ، ثمَّ أقبلَ على الحسنِ البصريِّ فسألَهُ ، ثمَّ قالَ : هما هـٰذانِ ، هـٰذا رجلُ أهلِ الكوفةِ ؛ يعني الشعبيَّ ، وهـٰذا رجلُ أهلِ البصرةِ ؛ يعني الحسنَ ، فأمرَ الحاجبَ فأخرجَ الناسَ ، وخلا بالشعبيِّ والحسنِ ، فأقبلَ على الشعبيِّ ، فقالَ : يا أبا عمرٍو ؛ إنِّي أمينُ أميرِ المؤمنينَ على العراقِ وعاملُهُ عليها ، ورجلٌ مأمورٌ على الطاعةِ ، ابتليتُ بالرعيَّةِ ، ولزمَني حقُّهُمْ ، فأنا أحبُّ حفظَهُمْ ، وتعهُّدَ ما يصلحُهُمْ معَ النصيحةِ لهُمْ ، وقدْ يبلغُني عنِ العصابةِ مِنْ أهلِ الديارِ الأمرُ أجدُ عليهِمْ فيهِ ، فأقبضُ طائفةً مِنْ عطائِهِمْ فأضعُهُ في بيتِ المالِ ، ومِنْ نيَّتي أنْ أردَّهُ عليهِمْ ، فيبلغُ أميرَ المؤمنينَ أنِّي قدْ قبضتُهُ علىٰ ذلكَ النحوِ ، فيكتبُ إليَّ ألا تردَّهُ ، فلا أستطيعُ ردَّ أمرِهِ ، ولا بدَّ مِنْ إنفاذِ كتابِهِ ، وإنَّما أنا رجلٌ مأمورٌ على الطاعةِ ، فهلْ عليَّ في هـٰذا تبعةٌ وفي أشباهِهِ مِنَ الأمورِ والنيَّةُ فيها علىٰ ما ذكرتُ ؟

قالَ الشعبيُّ : فقلتُ : أصلحَ اللهُ الأميرَ ! إنَّما السلطانُ والدٌ يخطىءُ ويصيبُ ، قالَ : فسُرَّ بقولي وأُعجبَ بهِ ، ورأيتُ البشرَ في وجهِهِ ، وقالَ : فللهِ الحمدُ .

ثمَّ أقبلَ على الحسنِ ، فقالَ : ما تقولُ يا أبا سعيدٍ ؟ قالَ : قدْ سمعتُ قولَ الأميرِ ، يقولُ : إنَّهُ أمينُ أميرِ المؤمنينَ على العراقِ وعاملُهُ عليها ، ورجلٌ مأمورٌ على الطاعةِ ، ابتليتُ بالرعيَّةِ ، ولزمَني حقُّهُمْ والنصيحةُ لهُمْ ، والتعهُّدُ لما يصلحُهُمْ ، وحقُّ الرعيَّةِ لازمٌ لكَ ، وحقٌّ عليكَ أنْ تحوطَهُمْ

بالنصيحةِ ، وإنِّي سمعتُ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ سمرةَ القرشيَّ صاحبَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ استُرعِيَ رعيَّةً فلمْ يحطْها بالنصيحةِ . . حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّةَ »[١] ، وتقولُ : إنِّي إنَّما قبضتُ مِنْ عطائِهِمْ إرادةَ صلاحِهِمْ واستصلاحِهِمْ ، وأنْ يرجعوا إلىٰ طاعتِهِمْ ، فيبلغُ أميرَ المؤمنينَ أنِّي قبضتُها علىٰ ذلكَ النحوِ ، فيكتبُ إليَّ ألا تردَّهُ ، فلا أستطيعُ ردَّ أمرِهِ ، ولا أستطيعُ إلا إنفاذَ كتابِهِ ، وحقُّ اللهِ ألزمُ مِنْ حقِّ أميرِ المؤمنينَ ، واللهُ أحقُّ أنْ يُطاعَ ، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ اللهِ ، فاعرضْ كتابَ أميرِ المؤمنينَ علىٰ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنْ وجدتَهُ موافقاً لكتابِ اللهِ . . فخذْ بهِ ، وإنْ وجدتَهُ مخالفاً لكتابِ اللهِ . . فانبذْهُ ، يا بنَ هبيرةَ ؛ اتقِ اللهَ ، فإنَّهُ يوشكُ أنْ يأتيَكَ رسولٌ مِنْ ربِّ العالمينَ يزيلُكَ عنْ سريرِكَ ، ويخرجُكَ مِنْ سعةِ قصرِكَ إلىٰ ضيقِ قبرِكَ ، فتدعُ سلطانَكَ ودنياكَ خلفَ ظهرِكَ ، وتقدمُ علىٰ ربِّكَ ، وتنزلُ علىٰ عملِكَ ، يا بنَ هبيرةَ ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليمنعُكَ مِنْ يزيدَ ، وإنَّ يزيدَ لا يمنعُكَ مِنَ اللهِ ، وإنَّ أمرَ اللهِ فوقَ كلِّ أمرٍ ، وإنَّهُ لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ ،

---

(١) رواه تمام في « فوائده » (٩١١) ، ولفظه عن الشعبي قال : سمعت الحسن بن أبي الحسن يحدث ونحن عند ابن هبيرة ، قال : حدثنا عبد الرحمـٰن بن سمرة صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من استرعي رعية فلم يحطها بالنصيحة . . حرَّم الله عليه الجنة » . وأصل الحديث عند البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قاله لزياد بن أبيه .

وإنِّي أحذِّرُكَ بأسَ اللهِ الذي لا يُردُّ عنِ القومِ المجرمينَ .

فقالَ ابنُ هبيرةَ : اربعْ علىٰ ظَلْعِكَ أيُّها الشيخُ[١] ؛ وأعرضْ عنْ ذكرِ أميرِ المؤمنينَ ، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ صاحبُ العلمِ وصاحبُ الحلمِ وصاحبُ الفضلِ ، وإنَّما ولاَّهُ اللهُ تعالىٰ ما ولاَّهُ مِنْ أمرِ هٰذهِ الأمَّةِ لعلمِهِ بهِ ، وما يعلمُ مِنْ فضلِهِ ونيَّتِهِ .

فقالَ الحسنُ : يا بنَ هبيرةَ ؛ الحسابُ مِنْ ورائِكَ سوطٌ بسوطٍ ، وغضبٌ بغضبٍ ، واللهُ بالمرصادِ ، يا بنَ هبيرةَ ؛ إنَّكَ إنْ تلقَ مَنْ ينصحُ لكَ في دينِكَ ، ويحملُكَ علىٰ أمرِ آخرتِكَ . . خيرٌ مِنْ أنْ تلقىٰ رجلاً يغرُّكَ ويمنِّيكَ .

فقامَ ابنُ هبيرةَ وقدْ بسرَ وجهُهُ وتغيَّرَ لونُهُ ، وقالَ الشعبيُّ : فقلتُ : يا أبا سعيدٍ ؛ أغضبتَ الأميرَ ، وأوغرتَ صدرَهُ ، وحرمتَنا معروفَهُ وصلتَهُ ، فقالَ : إليكَ عنِّي يا عامرُ .

قالَ : فخرجَتْ إلى الحسنِ التحفُ والطرفُ ، وكانَتْ لهُ المنزلةُ ، واستُخفَّ بنا وجُفينا ، فكانَ أهلاً لما أدَّىٰ إليهِ ، وكنَّا أهلاً أنْ يُفعلَ ذلكَ بنا ، فما رأيتُ مثلَ الحسنِ فيمَنْ رأيتُ مِنَ العلماءِ إلا مثلَ الفرسِ العربيِّ بينَ المقاريفِ[٢] ، وما شهدْنا مشهداً إلا برزَ علينا ، وقالَ للهِ عزَّ وجلَّ وقلنا مقاربةً لهُمْ .

---

(١) **اربع علىٰ ظلعك** : كأنه يشير إلىٰ ضعفه ، **والظلع** : العرج ، فقوله له هٰذا معناه : لا تحمل نفسك ما لا تطيق .

(٢) **المقاريف من الخيل** : هي الهجينة لا الأصيلة .

قالَ عامرٌ الشعبيُّ : وأنا أعاهدُ اللهَ عزَّ وجلَّ ألا أشهدَ سلطاناً بعدَ هـٰذا المجلسِ فأحابيَهُ[(١)] .

ودخلَ محمدُ بنُ واسعٍ علىٰ بلالِ بنِ أبي بردةَ ، فقالَ لهُ : ما تقولُ في القدرِ ؟ فقالَ : جيرانُكَ أهلُ القبورِ فتفكَّرْ فيهِمْ ؛ فإنَّ فيهِمْ شُغلاً عنِ القدرِ[(٢)] .

وعنِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : حدَّثنا عمِّي محمدُ بنُ عليٍّ قالَ : إنِّي لحاضرٌ مجلسَ أميرِ المؤمنينَ أبي جعفرٍ المنصورِ وفيهِ ابنُ أبي ذئبٍ ، وكانَ والي المدينةِ الحسنَ بنَ زيدٍ ، قالَ : فأتى الغفاريُّونَ ، فشكَوا إلىٰ أبي جعفرٍ شيئاً مِنْ أمرِ الحسنِ بنِ زيدٍ ، فقالَ الحسنُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ سلْ عنهُمُ ابنَ أبي ذئبٍ ، قالَ : فسألَهُ ، فقالَ : ما تقولُ فيهِمْ يا بنَ أبي ذئبٍ ؟ فقالَ : أشهدُ أنَّهُمْ أهلُ تحكُّمٍ في أعراضِ الناسِ ، كثيرو الأذىٰ لهُمْ ، فقالَ : أبو جعفرٍ : قدْ سمعتُمْ ، فقالَ الغفاريُّونَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ سلْهُ عنِ الحسنِ بنِ زيدٍ ، فقالَ : يا بنَ أبي ذئبٍ ؛ ما تقولُ في الحسنِ بنِ زيدٍ ؟ فقالَ : أشهدُ عليهِ أنَّهُ يحكمُ بغيرِ الحقِّ ويتبعُ هواهُ ، فقالَ : قدْ سمعتَ يا حسنُ ما قالَ فيكَ ابنُ أبي ذئبٍ وهوَ الشيخُ الصالح ؟! فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ سلْهُ عنْ نفسِكَ ، فقالَ : ما تقولُ فيَّ ؟ قالَ : تعفيني يا أميرَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٩) بنحوه .

(٢) هو قريب مما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٤) أن بلال بن أبي بردة قال لمحمد بن واسع : ما تقول في القضاء والقدر ؟ قال : أيها الأمير ؛ إن الله عز وجل لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره ، إنما يسألهم عن أعمالهم .

المؤمنينَ ؟ قالَ : أسألُكَ باللهِ إلا أخبرتَني ، قالَ : تسألُني باللهِ كأنَّكَ لا تعرفُ نفسَكَ ، قالَ : واللهِ لتخبرُني ، قالَ : أشهدُ أنَّكَ أخذتَ هـٰذا المالَ مِنْ غيرِ حقِّهِ ، فجعلتَهُ في غيرِ أهلِهِ ، وأشهدُ أنَّ الظلمَ ببابِكَ فاشٍ .

قالَ : فجاءَ أبو جعفرٍ مِنْ موضعِهِ حتَّىٰ وضعَ يدَهُ في قفا ابنِ أبي ذئبٍ فقبضَ عليهِ ، ثمَّ قالَ لهُ : أما واللهِ ؛ لولا أنِّي جالسٌ ههنا . . لأخذتْ فارسُ والرومُ والديلمُ والتركُ بهـٰذا المكانِ منكَ ، قالَ : فقالَ ابنُ أبي ذئبٍ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قدْ وليَ أبو بكرٍ وعمرُ ، فأخذا بالحقِّ ، وقسما بالسويَّةِ ، وأخذا بأقفاءِ فارسَ والرومِ ، وأصغرا آنافَهُمْ ، قالَ : فخلَّىٰ أبو جعفرٍ قفاهُ وخلَّىٰ سبيلَهُ ، وقالَ : واللهِ ؛ لولا أنِّي أعلمُ أنَّكَ صادقٌ . . لقتلتُكَ ، فقالَ ابنُ أبي ذئبٍ : واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِّي لأنصحُ لكَ مِنِ ابنِكَ المهديِّ (١) .

قالَ : فبلغَنا أنَّ ابنَ أبي ذئبٍ لمَّا خرجَ مِنْ مجلسِ المنصورِ . . لقيَهُ سفيانُ الثوريُّ ، فقالَ لهُ : يا أبا الحارثِ ؛ لقدْ سرَّني ما خاطبتَ بهِ هـٰذا الجبَّارَ ، ولكنْ ساءَني قولُكَ لهُ : ابنُكَ المهديُّ ، فقالَ : يغفرُ اللهُ لكَ ، يا أبا عبدِ اللهِ ؛ كلُّنا مهديٌّ ، كلُّنا كانَ في المهدِ .

وعنِ الأوزاعيِّ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عمروٍ قالَ : بعثَ إليَّ أبو جعفرٍ المنصورُ أميرُ المؤمنينَ وأنا بالساحلِ ، فأتيتُهُ ، فلمَّا وصلتُ إليهِ وسلَّمتُ

---

(١) رواه أبو عبد الله الحميدي في « جذوة المقتبس » (ص ٢٨١) .

عليهِ بالخلافةِ . . ردَّ عليَّ واستجلسَني ، ثمَّ قالَ لي : ما الذي بطَّأَ بكَ عنَّا يا أوزاعيُّ ؟ قالَ : قلتُ : وما الذي تريدُ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : أريدُ الأخذَ عنكُمْ والاقتباسَ منكُم ، قالَ : قلتُ : فانظرْ يا أميرَ المؤمنينَ ألا تجهلَ شيئاً ممَّا أقولُ لكَ ، قالَ : وكيفَ أجهلُهُ وأنا أسألُكَ عنهُ ، وفيهِ وجَّهْتُ إليكَ وأقدمتُكَ لهُ ، قالَ : قلتُ : أخافُ أنْ تسمعَهُ ثمَّ لا تعملَ بهِ ، قالَ : فصاحَ بيَ الربيعُ وأهوىٰ بيدِهِ إلى السيفِ ، فانتهرَهُ المنصورُ وقالَ : هٰذا مجلسُ مثوبةٍ لا مجلسُ عقوبةٍ ، فطابَتْ نفسي ، وانبسطتُ في الكلامِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ حدَّثَني مكحولٌ ، عنْ عطيَّةَ بنِ بسرٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما عبدٍ جاءَتْهُ موعظةٌ مِنَ اللهِ في دينِهِ فإنَّها نعمةٌ مِنَ اللهِ سيقَتْ إليهِ ، فإنْ قبلَها بشكرٍ ، وإلا . . كانَتْ حجَّةً مِنَ اللهِ عليهِ ليزدادَ بها إثماً ، ويزدادَ اللهُ عليهِ بها سخطاً »[(١)] .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ حدَّثَني مكحولٌ ، عنْ عطيَّةَ بنِ بسرٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما والٍ ماتَ غاشّاً لرعيَّتِهِ . . حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنَّةَ »[(٢)] .

---

(١) رواه مع تمام القصة بما فيها من الأحاديث ابنُ أبي الدنيا في « مواعظ الخلفاء » كما نقل ذلك الحافظ الزبيدي عن الحافظ العراقي في « إتحافه » (٧/ ٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٣٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٢٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥/ ٢١٤) ، وبعضه عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٨٧) ، وما سيذكر في تخريج الأحاديث الآتية زيادة علىٰ هٰؤلاء .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ٨٨) كذلك .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ مَنْ كرهَ الحقَّ.. فقدْ كرهَ اللهَ ، إنَّ اللهَ هوَ الحقُّ المبينُ ، إنَّ الذي ليَّنَ قلوبَ أمَّتِكُمْ لكُمْ حينَ ولاَّكُمْ أمورَهُمْ لقرابتِكُمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ كانَ بهِمْ رؤوفاً رحيماً ، مواسياً لهُمْ بنفسِهِ في ذاتِ يدِهِ ، محموداً عندَ اللهِ وعندَ الناسِ ، فحقيقٌ بكَ أنْ تقومَ لهُ فيهِمْ بالحقِّ ، وأنْ تكونَ بالقسطِ لهُ فيهِمْ قائماً ، ولعوراتِهِمْ ساتراً ، لا تغلقُ عليكَ دونَهُمُ الأبوابَ ، ولا تقيمُ دونَهُمُ الحجَّابَ ، تبتهجُ بالنعمةِ عندَهُمْ ، وتبتئسُ بما أصابَهُمْ مِنْ سوءٍ .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قدْ كنتَ في شغلٍ شاغلٍ مِنْ خاصَّةِ نفسِكَ عنْ عامَّةِ الناسِ الذينَ أصبحتَ تملكُهُمْ ؛ أحمرَهُمْ وأسودَهُمْ ، مسلمَهُمْ وكافرَهُمْ ، وكلٌّ لهُ عليكَ نصيبٌ مِنَ العدلِ ، فكيفَ بكَ إذا انبعثَ منهُمْ فِئامٌ وراءَ فِئامٍ ليسَ منهُمْ أحدٌ إلا وهوَ يشكو بليَّةً أدخلْتَها عليهِ ، أوْ ظُلامةً سقتَها إليهِ ؟!

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ حدثَني مكحولٌ ، عنْ عروةَ بنِ رويمٍ قالَ : كانَتْ بيدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جريدةٌ يستاكُ بها ، ويروِّعُ بها المنافقينَ ، فأتاهُ جبرائيلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : يا محمدُ ؛ ما هـٰذهِ الجريدةُ التي كسرتَ بها قلوبَ أمَّتِكَ ، وملأتَ قلوبَهُمْ رعباً ؟(١) .

فكيفَ بمَنْ شقَّقَ أبشارَهُمْ ، وسفكَ دماءَهُمْ ، وخرَّبَ ديارَهُمْ ، وأجلاهُمْ عنْ بلادِهِمْ ، وغشيَهُمُ الخوفُ منهُ ؟!

---

(١) هو عند مخرجي مجمل الخبر .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ حدَّثَني مكحولٌ ، عنْ زيادِ بنِ جاريةَ ، عنْ حبيبِ بنِ مسلمةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دعا إلى القصاصِ مِنْ نفسِهِ في خدْشٍ خدشَهُ أعرابياً لمْ يتعمدْهُ ، فأتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ إنَّ اللهَ لمْ يبعثْكَ جبَّاراً ولا متكبِّراً ، فدعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأعرابيَّ فقالَ : « اقتصَّ منِّي » ، فقالَ الأعرابيُّ : قدْ أحللتُكَ بأبي أنتَ وأمِّي ، وما كنتُ لأفعلَ ذلكَ أبداً ولوْ أتيتَ علىٰ نفسي ، فدعا لهُ بخيرٍ(١) .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ رُضْ نفسَك لنفسِكَ ، وخذْ لها الأمانَ مِنْ ربِّكَ ، وارغبْ في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، التي يقولُ فيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقيدُ قوسِ أحدِكُمْ مِنَ الجنَّةِ خيرٌ له مِنَ الدنيا وما فيها »(٢) .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ الملكَ لوْ بقيَ لمَنْ قبلَكَ . . لمْ يصلْ إليكَ ، وكذا لا يبقىٰ لكَ كما لمْ يبقَ لغيرِكَ .

---

(١) هو عند مخرجي مجمل الخبر كذلك ، وروى النسائي (٨/ ٣٤) ، وأبو داوود (٤٥٣٧) ، أن عمر رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصُّ من نفسه) .

(٢) هو عند البخاري (٢٧٩٣) بلفظ : « لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » ، وعند ابن حبان في « صحيحه » (٦١٥٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « لقيد سوط أحدكم من الجنة خير له مما بين السماء والأرض » ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٧٥) : (وجدت بخط الحافظ السخاوي علىٰ طرة هـٰذا الكتاب : بل الراوي شك : هل قال : قاب أو قيد) .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أتدري ما جاءَ في تأويلِ هٰذهِ الآيةِ عنْ جدِّكَ : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ؟

قالَ : الصغيرةُ التبسُّمُ ، والكبيرةُ الضحكُ[1] ، فكيفَ بما عملتْهُ الأيدي وحصدتْهُ الألسنُ ؟!

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ بلغَني أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : لوْ ماتَتْ سخلةٌ علىٰ شاطىءِ الفراتِ ضيعةً . . لخشيتُ أنْ أُسألَ عنها[2] ، فكيفَ بمَنْ حُرِمَ عدلَكَ وهوَ علىٰ بساطِكَ ؟!

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أتدري ما جاءَ في تأويلِ هٰذهِ الآيةِ عنْ جدِّكَ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ؟

قالَ اللهُ تعالىٰ في الزبورِ : يا داوودُ ؛ إذا قعدَ الخصمانِ بينَ يديكَ فكانَ لكَ في أحدِهما هوىً . . فلا تتمنَّيَنَّ في نفسِكَ أنْ يكونَ الحقُّ لهُ فيفلحَ علىٰ صاحبِهِ فأمحوَكَ منْ نبوَّتِي ، ثمَّ لا تكونَ خليفتي ولا كرامةَ ، يا داوودُ ؛ إنَّما جعلتُ رسلي إلىٰ عبادي رعاءً كرعاءِ الإبلِ ؛ لعلمِهِمْ بالرعايةِ ، ورفقِهِمْ بالسياسةِ ، ليجبروا الكسيرَ ، ويدلُّوا الهزيلَ على الكلأِ والماءِ[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦٩) .
(٣) هو عند مخرجي مجمل الخبر .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّكَ بُليتَ بأمرٍ لوْ عُرِضَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ لأبينَ أنْ يحملنَهُ وأشفقنَ منهُ .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ حدَّثَني يزيدُ بنُ جابرٍ ، عنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ أبي عمرةَ الأنصاريِّ ؛ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ استعملَ رجلاً مِنَ الأنصارِ على الصدقةِ ، فرآهُ بعدَ أيامٍ مقيماً ، فقالَ لهُ : ما منعَكَ مِنَ الخروجِ إلىٰ عملِكَ ؟! أما علمتَ أنَّ لكَ مثلَ أجرِ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لأنَّهُ بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما مِنْ والٍ يلي شيئاً مِنْ أمورِ الناسِ إلا أُتِيَ بهِ يومَ القيامةِ مغلولةً يدُهُ إلىٰ عنقِهِ لا يفكُّها إلا عدلُهُ ، فيوقَفُ علىٰ جسرٍ مِنَ النارِ ينتفضُ بهِ ذلكَ الجسرُ انتفاضةً تزيلُ كلَّ عضوٍ منهُ عنْ موضعِهِ ، ثمَّ يُعادُ فيُحاسبُ ، فإنْ كانَ محسناً . . نجا بإحسانِهِ ، وإنْ كان مسيئاً . . انخرقَ بهِ ذلكَ الجسرُ ، فيهوي بهِ في النارِ سبعينَ خريفاً »[1] ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ممَّنْ سمعتَ هـٰذا ؟ قالَ : مِنْ أبي ذرٍّ وسلمانَ ، فأرسلَ إليهما عمرُ ، فسألَهُما ، فقالا : نعمْ ، سمعناهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عمرُ : واعمراهُ ، مَنْ يتولاَّها بما فيها ؟!! فقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : مَنْ سلتَ اللهُ أنفَهُ وألصقَ خدَّهُ بالأرضِ .

قالَ : فأخذَ المنديلَ ، فوضعَهُ علىٰ وجهِهِ ، ثمَّ بكىٰ وانتحبَ حتَّىٰ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٩) .

أبكاني ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قدْ سألَ جدُّكَ العباسُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إمارةَ مكَّةَ أوِ الطائفِ أوِ اليمنِ ، فقالَ لهُ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا عباسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ نفسٌ تنجيها خيرٌ مِنْ إمارةٍ لا تحصيها »[1] ، نصيحةً منهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمِّهِ وشفقةً عليهِ ، وأخبرَهُ أنَّهُ لا يغني عنهُ مِنَ اللهِ شيئاً ؛ إذْ أوحى اللهُ إليهِ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فقالَ : « يا عباسُ ، ويا صفيَّةُ عمَّي النبيِّ ، ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ؛ إنِّي لستُ أغني عنكُمْ مِنَ اللهِ شيئاً ، إنَّ لي عملي ولكُمْ عملُكُمْ »[2] .

وقدْ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يقيمُ أمرَ الناسِ إلا حصيفُ العقلِ ، أريبُ العقدِ ، لا يُطَّلعُ منهُ علىٰ عورةٍ ، ولا يحنقُ منه علىٰ جِرَّةٍ ، ولا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ)[3] .

وقالَ : (الأمراءُ أربعةٌ :

فأميرٌ قويٌّ ، ظلفَ نفسَهُ وعمَّالَهُ ، فذلكَ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، يدُ اللهِ باسطةٌ عليهِ بالرحمةِ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١١) ، والبيهقي كذلك في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٩٦) من حديث ابن المنكدر .

(٢) رواه البخاري (٢٧٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) هو عند مخرجي مجمل الخبر ، ومعنىٰ (أريب العقد) : شديده ، و(لا يحنق علىٰ جِرَّةٍ) : لا يحقد علىٰ أحد ، سليم الباطن .

وأميرٌ فيهِ ضعفٌ ، ظلفَ نفسَهُ وأرتعَ عمَّالَهُ لضعفِهِ ، فهوَ علىٰ شفا هلاكٍ إلا أنْ يرحمَهُ اللهُ .

وأميرٌ ظلفَ عمَّالَهُ وأرتعَ نفسَهُ ، فذلكَ الحطمةُ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الرعاءِ الحطمةُ »(١) ، فهوَ الهالكُ وحدَهُ .

وأميرٌ أرتعَ نفسَهُ وعمَّالَهُ ، فهلكوا جميعاً)(٢) .

وقدْ ـ بلغَني يا أميرَ المؤمنينَ ـ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : أتيتُكَ حينَ أمرَ اللهُ بمنافيخِ النارِ ، فوُضعَتْ على النارِ تسعرُ ليومِ القيامةِ ، فقالَ لهُ : « يا جبريلُ ؛ صفْ ليَ النارَ » ، فقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ بها فأُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتَّى احمرَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتَّى اصفرَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتَّى اسودَّتْ ، فهيَ سوداءُ مظلمةٌ ، لا يضيءُ لهبُها ولا جمرُها(٣) ، والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ لوْ أنَّ ثوباً منْ ثيابِ أهلِ النارِ أُظهرَ لأهلِ الأرضِ . . لماتوا جميعاً ، ولوْ أنَّ ذَنوباً مِنْ شرابِها صُبَّ في مياهِ الأرضِ جميعاً . . لقتلَ مَنْ ذاقَهُ ، ولوْ أنَّ ذراعاً مِنَ السلسلةِ التي ذكرَها اللهُ وُضعَ علىٰ جبالِ الأرضِ جميعاً . . لذابَتْ وما استقلَّتْ ، ولوْ أنَّ رجلاً أُدخلَ النارَ ثمَّ أُخرجَ منها . . لماتَ أهلُ الأرضِ مِنْ نتنِ ريحِهِ

---

(١) رواه مسلم (١٨٣٠) من حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه .
(٢) هو عند مخرجي مجمل الخبر ، وظلف : منع ، والمراد : المنع عما نهى الله من تعدي مرعىٰ حرماته .
(٣) كذا في النسخ ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي : (لا يضيء جمرها ، ولا يطفأ لهيبها) .

وتشويهِ خلقِهِ وعظْمِهِ . فبكى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وبكىٰ جبريلُ عليهِ السلامُ لبكائِهِ ، وقالَ : أتبكي يا محمدُ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبكَ وما تأخَّرَ ؟! قالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ، ولِمَ بكَيْتَ يا جبريلُ وأنتَ الروحُ الأمينُ أمينُ اللهِ علىٰ وحيِهِ ؟ » قالَ : أخافُ أنْ أُبتلىٰ بما ابتليَ بهِ هاروتُ وماروتُ ، فهوَ الذي منعَني مِنِ اتكالي علىٰ منزلتِي عندَ ربِّي ، فأكونُ قدْ أمنتُ مكرَهُ . فلمْ يزالا يبكيانِ حتَّىٰ نُوديا مِنَ السماءِ : يا جبريلُ ويا محمدُ ؛ إنَّ اللهَ قدْ آمنَكما أنْ تعصياهُ فيعذبَكُما ، وفضْلُ محمدٍ علىٰ سائرِ الأنبياءِ كفضلِ جبريلَ علىٰ سائرِ ملائكةِ السماءِ(١) .

وقدْ بلغَني يا أميرَ المؤمنينَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنِّي أبالي إذا قعدَ الخصمانِ بينَ يديَّ علىٰ مَنْ مالَ الحقُّ مِنْ قريبٍ أوْ بعيدٍ . . فلا تمهلْني طرفةَ عينٍ) .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ أشدَ الشدَّةِ القيامُ للهِ بحقِّهِ ، وإنَّ أكرمَ الكرمِ عندَ اللهِ التقوىٰ ، وإنَّهُ مَنْ طلبَ العزَّ بطاعةِ اللهِ . . رفعَهُ اللهُ وأعزَّهُ ، ومَنْ طلبَهُ بمعصيةِ اللهِ . . أذلَّهُ اللهُ ووضعَهُ . فهٰذهِ نصيحتي إليكَ والسلامُ عليكَ .

ثمَّ نهضتُ ، فقالَ لي : إلىٰ أينَ ؟ فقلتُ : إلى الولدِ والوطنِ بإذنِ أميرِ المؤمنينَ إنْ شاءَ اللهُ ، قالَ : قدْ أذنتُ لكَ ، وشكرتُ لكَ نصيحتَكَ وقبلتُها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (١٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

بقبولِها ، واللهُ الموفِّقُ للخيرِ والمعينُ عليهِ ، وبهِ أستعينُ ، وعليهِ أتوكَّلُ ، وهوَ حسبي ونعمَ الوكيلُ ، فلا تخلِني من مطالعتِك إيَّايَ بمثلِ هـٰذا ، فإنَّكَ المقبولُ القولِ غيرُ المتهمِ في النصيحةِ ، قلتُ : أفعلُ إنْ شاءَ اللهُ .

قالَ محمدُ بنُ مصعبٍ : فأمرَ لهُ بمالٍ يستعينُ بهِ علىٰ خروجِهِ ، فلمْ يقبلْهُ ، وقالَ : أنا في غنىً عنهُ ، وما كنتُ لأبيعَ نصيحتي بعرضٍ مِنَ الدنيا ، وعرفَ المنصورُ مذهبَهُ ، فلمْ يجدْ عليهِ في ذلكَ(١) .

وعنِ ابنِ المهاجرِ قالَ : قدمَ أميرُ المؤمنينَ المنصورُ مكَّةَ شرَّفَها اللهُ حاجّاً ، فكانَ يخرجُ مِنْ دارِ الندوةِ إلى الطوافِ في آخرِ الليلِ ، يطوفُ ويصلِّي ولا يُعلمُ بهِ ، فإذا طلعَ الفجرُ . رجعَ إلىٰ دارِ الندوةِ ، وجاءَ المؤذنونَ فسلَّموا عليهِ ، وأُقيمتِ الصلاةُ ، فيصلِّي بالناسِ ، فخرجَ ذاتَ ليلةٍ حينَ أسحرَ ، فبينا هوَ يطوفُ . . إذْ سمعَ رجلاً عندَ الملتزمِ وهوَ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أشكو إليكَ ظهورَ البغيِ والفسادِ في الأرضِ ، وما يحولُ بينَ الحقِّ وأهلِهِ مِنَ الظلمِ والطمعِ ، فأسرعَ المنصورُ في مشيِهِ حتَّىٰ ملأَ مسامعَهُ مِنْ قولِهِ ، ثمَّ خرجَ فجلسَ ناحيةً مِنَ المسجدِ ، وأرسلَ إليهِ فدعاهُ ، فأتاهُ

---

(١) هنا تنتهي موعظة الأوزاعي للمنصور ، وقد تقدم تخريجها في الحديث الأول منها ، وقال الحافظ العراقي كذلك : (قصة الأوزاعي هـٰذه مع المنصور وموعظته له وفيه عشرة أحاديث مرفوعة ، وهي بجملتها رواها ابن أبي الدنيا في « مواعظ الخلفاء » ، ورويناها في « مشيخة الخفاف » و« مشيخة ابن طبرزد » ، وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح ، قال ابن عدي : يحدث بمناكير ، وهو عندي من أهل الصدق) .

الرسولُ ، فقالَ لهُ : أجبْ أميرَ المؤمنينَ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، واستلمَ الركنَ ، وأقبلَ معَ الرسولِ ، فسلَّمَ عليهِ ، فقالَ لهُ المنصورُ : ما هـٰذا الذي سمعتُكَ تقولُهُ مِنْ ظهورِ البغيِ والفسادِ في الأرضِ ، وما يحولُ بينَ الحقِّ وأهلِهِ مِنَ الطمعِ والظلمِ ؟! فواللهِ لقدْ حشوتَ مسامعي ما أمرضَني وأقلقَني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنْ أمَّنتَني علىٰ نفسي . . أنبأتُكَ بالأمورِ مِنْ أصولِها ، وإلا . . اقتصرتُ علىٰ نفسي ، ففيها لي شغلٌ شاغلٌ ، فقالَ لهُ : أنت آمنٌ علىٰ نفسِكَ ، فقالَ : إنَّ الذي دخلَهُ الطمعُ حتَّىٰ حالَ بينَهُ وبينَ الحقِّ وإصلاحِ ما ظهرَ مِنَ البغيِ والفسادِ في الأرضِ أنتَ .

قالَ : ويحَكَ ، وكيفَ يدخلُني الطمعُ والصفراءُ والبيضاءُ علىٰ يديَّ ، والحلوُ والحامضُ في قبضتي ؟!

قالَ : وهلْ دخلَ أحداً مِنَ الطمعِ ما دخلَكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! إنَّ اللهَ تعالى استرعاكَ أمورَ المسلمينَ وأموالَهُمْ ، فأغفلتَ أمورَهُمْ واهتممتَ بجمعِ أموالِهِمْ ، وجعلتَ بينَكَ وبينَهُمْ حجاباً مِنَ الجِصِّ والآجُرِّ وأبواباً مِنَ الحديدِ ، وحجبةً معهُمُ السلاحُ ، ثمَّ سجنتَ نفسَكَ فيها منهُمْ ، وبعثتَ عمَّالَكَ في جمعِ الأموالِ وجبايتِها ، واتخذتَ وزراءَ وأعواناً ظلمةً ، إنْ نسيتَ . . لمْ يذكِّروكَ ، وإنْ ذكرْتَ . . لمْ يعينوكَ ، وقوَّيتَهُمْ علىٰ ظلمِ الناسِ بالأموالِ والكراعِ والسلاحِ ، وأمرتَ ألا يدخلَ عليكَ مِنَ الناسِ إلا فلانٌ وفلانٌ ، نفرٌ سمَّيتَهُمْ ، ولمْ تأمرْ بإيصالِ المظلومِ ولا الملهوفِ ، ولا الجائعِ ولا العاري ، ولا الضعيفِ ولا الفقيرِ ، ولا أحدَ إلا ولهُ في هـٰذا المالِ حقٌّ .

فلمَّا رآكَ هؤلاءِ النفرُ الذين استخلصتَهُمْ لنفسِكَ ، وآثرتَهُمْ علىٰ رعيَّتِكَ ، وأمرتَ ألا يُحجبوا عنكَ تجبي الأموالَ ولا تقسمُها . . قالوا : هـٰذا قدْ خانَ اللهَ ، فما لنا لا نخونُهُ وقدْ سُخِّرَ لنا ، فأتمروا علىٰ ألا يصلَ إليكَ مِنْ علمِ أخبارِ الناسِ إلا ما أرادوا ، وألا يخرجَ لكَ عاملٌ فيخالفَ لهُمْ أمراً إلا أقصَوْهُ حتَّىٰ تسقطَ منزلتُهُ ، ويصغرَ قدرُهُ .

فلمَّا انتشرَ ذلكَ عنكَ وعنهُمْ . . أعظمَهُمُ الناسُ وهابوهُمْ ، وكانَ أوَّلَ مَنْ صانعَهُمْ عمَّالُكَ بالهدايا والأموالِ ؛ ليتقوَّوا بهِ علىٰ ظلمِ رعيَّتِكَ ، ثمَّ فعلَ ذلكَ ذوو القدرةِ والثروةِ مِنْ رعيَّتِكَ ؛ لينالوا ظلْمَ مَنْ دونَهُمْ من الرعيَّةِ .

فامتلأَتْ بلادُ اللهِ بالطمعِ بغياً وفساداً ، وصارَ هؤلاءِ القومُ شركاءَكَ في سلطانِكَ وأنتَ غافلٌ .

فإنْ جاءَ متظلِّمٌ . . حيلَ بينَهُ وبينَ الدخولِ إليكَ ، وإنْ أرادَ رفعَ قصَّةٍ إليكَ عندَ ظهورِكَ . . وجدَكَ قدْ نهيتَ عنْ ذلكَ ، ووقفتَ للناسِ رجلاً ينظرُ في مظالمِهِمْ ، فإنْ جاءَ ذلكَ الرجلُ فبلغَ بطانتَكَ . . سألوا صاحبَ المظالمِ ألا يرفعَ مظلمتَهُ ، وإنْ كانَتْ للمتظلِّمِ بهِ حرمةٌ وإجابةٌ . . لمْ يمكنْهُ ما يريدُ خوفاً منهُمْ ، فلا يزالُ المظلومُ يختلفُ إليهِ ويلوذُ بهِ ويشكو ويستغيثُ وهوَ يدفعُهُ ويعتلُّ عليهِ ، فإذا جهدَ وأُحرجَ وظهرتَ . . صرخَ بينَ يديكَ ، فيُضربُ ضرباً مبرِّحاً ؛ ليكونَ نكالاً لغيرِهِ ، وأنتَ تنظرُ ولا تنكرُ ولا تغيِّرُ ، فما بقاءُ الإسلامِ وأهلِهِ علىٰ هـٰذا ؟!

وقدْ كانَتْ بنو أميَّةَ وكانَتِ العربُ لا ينتهي إليهِمُ المظلومُ إلا رُفعَتْ ظُلامتُهُ إليهِمْ فيُنصَفُ ، ولقدْ كانَ الرجلُ يأتي مِنْ أقصى البلادِ حتَّىٰ يبلغَ بابَ سلطانِهِمْ ، فينادي : يا أهلَ الإسلامِ ؛ فيبتدرونَهُ ما لكَ ما لكَ ؟ فيرفعونَ مظلمتَهُ إلىٰ سلطانِهِمْ ، فيُنتصَفُ لهُ .

ولقدْ كنتُ ـ يا أميرَ المؤمنينَ ـ أسافرُ إلىٰ أرضِ الصينِ وبها ملكٌ ، فقدمتُها مرَّةً وقدْ ذهبَ سمْعُ ملكِهِمْ ، فجعلَ يبكي ، فقالَ لهُ وزراؤُهُ : ما لكَ تبكي لا بكتْ عيناكَ ؟ فقالَ : أما إنِّي لستُ أبكي على المصيبةِ التي نزلَتْ بي ، ولكنْ أبكي لمظلومٍ بالبابِ يصرخُ فلا أسمعُ صوتَهُ ، ثمَّ قالَ : أما إنْ كانَ قدْ ذهبَ سمعي . . فإنَّ بصري لمْ يذهبْ ، نادوا في الناسِ ألا يلبسَ ثوباً أحمرَ إلا مظلومٌ ، فكانَ يركبُ الفيلَ ويطوفُ طرفَيِ النهارِ ؛ هلْ يرىٰ مظلوماً فينصفَهُ .

هـٰذا ـ يا أميرَ المؤمنينَ ـ مشركٌ باللهِ ! قدْ غلبَتْ رأفتُهُ بالمشركينَ ورقَّتُهُ علىٰ شحِّ نفسِهِ في ملكِهِ ، وأنتَ مؤمنٌ باللهِ وابنُ عمِّ نبيِّ اللهِ لا تغلبُكَ رأفتُكَ بالمسلمينَ ورقَّتُكَ علىٰ شحِّ نفسِكَ ؛ فإنَّكَ لا تجمعُ الأموالَ إلا لواحدٍ مِنْ ثلاثةٍ :

إنْ قلتَ : أجمعُها لولدي . . فقدْ أراكَ اللهُ عبراً في الطفلِ الصغيرِ ، يسقطُ مِنْ بطنِ أمِّهِ وما لهُ على الأرضِ مالٌ ، وما مِنْ مالٍ إلا ودونَهُ يدٌ شحيحةٌ تحويهِ ، فما يزالُ اللهُ تعالىٰ يلطفُ بذلكَ الطفلِ حتَّىٰ تعظمَ رغبةُ الناسِ إليهِ ، ولستَ الذي تعطي ، بلِ اللهُ يُعطي مَنْ يشاءُ .

وإنْ قلتَ : أجمعُ المالَ لأشيدَ سلطاني . . فقدْ أراكَ اللهُ عبراً فيمَنْ كانَ قبلَكَ ، ما أغنىٰ عنهُمْ ما جمعوهُ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، وما أعدُّوا مِنَ الرجالِ والسلاحِ والكُراعِ ، وما ضرَّكَ وولدَ أبيكَ ما كنتُمْ فيهِ مِنْ قلَّةِ الجِدَةِ والضعفِ حينَ أرادَ اللهُ بكُمْ ما أرادَ .

وإنْ قلتَ : أجمعُ المالَ لطلبِ غايةٍ هيَ أجسمُ مِنَ الغايةِ التي أنتَ فيها . . فواللهِ ما فوقَ ما أنتَ فيهِ إلا منزلةٌ لا تدركُ إلا بالعملِ الصالحِ .

يا أميرَ المؤمنينَ ؛ هلْ تعاقبُ مَنْ عصاكَ مِنْ رعيَّتِكَ بأشدَّ مِنَ القتلِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فكيفَ تصنعُ بالملكِ الذي خوَّلَكَ اللهُ وما أنتَ فيهِ مِنْ ملكِ الدنيا وهوَ تعالىٰ لا يعاقبُ مَنْ عصاهُ بالقتلِ ، ولكنْ يعاقبُ مَنْ عصاهُ بالخلودِ في العذابِ الأليمِ ؟! وهوَ الذي يرىٰ منكَ ما عقدَ عليهِ قلبُكَ ، وأضمرَتْهُ جوارحُكَ ، فماذا تقولُ إذا انتزعَ الملكُ الحقُّ المبينُ ملكَ الدنيا مِنْ يدكَ ، ودعاكَ إلى الحسابِ ؟ هلْ يغني عنكَ عندَهُ شيءٌ ممَّا كنتَ فيهِ ممَّا شححتَ عليهِ مِنْ ملكِ الدنيا ؟

فبكى المنصورُ بكاءً شديداً حتَّىٰ نحبَ وارتفعَ صوتُهُ ، ثمَ قالَ : يا ليتَني لمْ أُخلقْ ولمْ أكُ شيئاً ، ثمَّ قالَ : كيفَ احتيالي فيما خُوِّلْتُ ولمْ أرَ مِنَ الناسِ إلا خائناً ؟

قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ عليكَ بالأئمَّةِ الأعلامِ المرشدينَ ، قالَ : ومَنْ هُم ؟ قالَ : العلماءُ ، قالَ : قد فرُّوا منِّي ، قالَ : هربوا منكَ مخافةَ أنْ

تحملَهُمْ علىٰ ما ظهرَ مِنْ طريقتِكَ مِنْ قبلِ عمَّالِكَ ، ولكنِ افتحِ الأبوابَ ، وسهِّلِ الحجابَ ، وانتصرْ للمظلومِ ، وامنعِ الظالمَ ، وخذِ الشيءَ ممَّا حلَّ وطابَ ، واقسمْهُ بالحقِّ والعدلِ ، وأنا ضامنٌ عمَّنْ هربَ منكَ أَنْ يأتيَكَ فيعاونَكَ علىٰ صلاحِ أمرِكَ ورعيَّتِكَ ، فقالَ المنصورُ : اللهمَّ ؛ وفِّقْني أنْ أعملَ بما قالَ هـٰذا الرجلُ .

وجاءَ المؤذِّنون فَسلَّموا عليهِ ، وأُقيمتِ الصلاةُ ، فخرجَ فصلَّىٰ بهِمْ ، ثمَّ قالَ للحرسيِّ : عليكَ بالرجلِ ، لئنْ لمْ تأتني بهِ . . لأضربنَّ عنقَكَ ، واغتاظَ عليهِ غيظاً شديداً إذْ لمْ يُوجدْ ، فخرجَ الحرسيُّ يطلبُ الرجلَ ، فبينا هوَ يطوفُ . . فإذا هوَ بالرجلِ يصلِّي في بعضِ الشعابِ ، فقعدَ حتَّىٰ صلَّىٰ ، ثمَّ قالَ : يا ذا الرجلُ ؛ أما تتقي اللهَ ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : أما تعرفُهُ ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : فانطلقْ معي إلى الأميرِ ؛ فقدْ آلىٰ أنْ يقتلَني إنْ لم آتِهِ بكَ ، قالَ : ليسَ إلىٰ ذلكَ مِنْ سبيلٍ ، قالَ : يقتلُني ؟ قالَ : لا ، قالَ : وكيفَ ؟ قال : تحسنُ تقرأُ ؟ قالَ : لا ، فأخرجَ مِنْ مزودٍ كانَ معَهُ رقّاً مكتوباً فيهِ شيءٌ ، فقالَ : خذْهُ فاجعلْهُ في جيبِكَ ، فإنَّ فيهِ دعاءَ الفرجِ ، قالَ : وما دعاءُ الفرجِ ؟ قالَ : لا يُرزقُهُ إلا الشهداءُ ، قلتُ : رحمَكَ اللهُ ، قدْ أحسنتَ إليَّ ، فإنْ رأيتَ أنْ تخبرَني ما هـٰذا الدعاءُ وما فضلُهُ ، قالَ : مَنْ دعا بهِ مساءً وصباحاً . . هُدمَتْ ذنوبُهُ ، ودامَ سرورُهُ ، ومُحيَتْ خطاياهُ ، واستُجيبَ دعاؤُهُ ، وبُسِطَ لهُ في رزقِهِ ، وأُعطيَ أملَهُ ، وأُعينَ علىٰ عدوِّهِ ، وكُتِبَ عندَ اللهِ صدِّيقاً ، ولا يموتُ إلا شهيداً ، تقولُ :

اللهمَّ ؛ كما لطفتَ في عظمتِكَ دونَ اللطفاءِ ، وعلوتَ بعظمتِكَ على العظماءِ ، وعلمتَ ما تحتَ أرضِكَ كعلمِكَ بما فوقَ عرشِكَ ، وكانَتْ وساوسُ الصدورِ كالعلانيةِ عندَكَ ، وعلانيةُ القولِ كالسرِّ في علمِكَ ، وانقادَ كلُّ شيءٍ لعظمتِكَ ، وخضعَ كلُّ ذي سلطانٍ لسلطانِكَ ، وصارَ أمرُ الدنيا والآخرةِ كلُّهُ بيدِكَ . . اجعلْ لي مِنْ كلِّ همٍّ أمسيتُ فيهِ فرجاً ومخرجاً .

اللهمَّ ؛ إنَّ عفوَكَ عنْ ذنوبي ، وتجاوزَكَ عنْ خطيئتي ، وسترَكَ علىٰ قبيحِ عملي . . أطمعَني أنْ أسألَكَ ما لا أستوجبُهُ ممَّا قصرتُ فيهِ ، أدعوكَ آمناً ، وأسألُكَ مستأنساً ، وإنَّكَ المحسنُ إليَّ وأنا المسيءُ إلىٰ نفسي فيما بيني وبينَكَ ، تتودَّدُ إلي بنعمِكَ وأتبغَّضُ إليكَ بالمعاصي ، ولكنَّ الثقةَ بكَ حملَتْني على الجُرأةِ عليكَ ، فعُدْ بفضلِكَ وإحسانِكَ عليَّ ؛ إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ .

قالَ : فأخذتُهُ ، فصيَّرتُهُ في جيبي ، ثمَّ لمْ يكنْ لي همٌّ غيرَ أميرِ المؤمنينَ ، فدخلتُ فسلَّمْتُ عليهِ ، فرفعَ رأسَهُ ، فنظرَ إليَّ وتبسَّمَ ، ثمَّ قالَ : ويلكَ ! وتحسنُ السحرَ ؟ فقلتُ : لا واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ، ثمَّ قصصْتُ عليهِ أمري معَ الشيخِ ، فقالَ : هاتِ الرقَّ الذي أعطاكَ ، ثمَّ جعلَ يبكي ، وقالَ : قدْ نجوتَ ، وأمرَ بنسخِهِ ، وأعطاني عشرةَ آلافِ درهمٍ ، ثمَّ قالَ : أتعرفُهُ ؟ قلتُ : لا ، قالَ ذاكَ الخضرُ عليهِ السلامُ[1] .

---

(١) خبر المنصور هـٰذا مع الخضر عليه السلام أورده بطوله ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/٣٣٣) ، ولم يذكر القطعة الأخيرة منه ، ورواه كما هو هنا عند المصنف ابنُ الجوزي في « المنتظم » (٥/١٠٩) .

وعنْ أبي عمرانَ الجونيِّ قالَ : لمَّا وليَ هارونُ الرشيدُ الخلافةَ . . زارَهُ العلماءُ ، فهنَّوهُ بما صارَ إليهِ منْ أمرِ الخلافةِ ، ففتحَ بيوتَ الأموالِ ، وأقبلَ يجيزُهُمْ بالجوائزِ السنيَّةِ ، وكانَ قبلَ ذلكَ يجالسُ العلماءَ والزُّهَّادَ ، وكانَ يظهرُ النسكَ والتقشُّفَ ، وكانَ مؤاخياً لسفيانَ بنِ سعيدِ بنِ المنذرِ الثوريِّ قديماً(١) ، فهجرَهُ سفيانُ ولمْ يزرْهُ ، فاشتاقَ هارونُ إلىٰ زيارتِهِ ليخلوَ بهِ ويحدِّثَهُ ، فلمْ يزرْهُ ولمْ يعبأْ بموضعِهِ ولا بما صارَ إليهِ ، فاشتدَّ ذلكَ علىٰ هارونَ ، فكتبَ إليهِ كتاباً يقولُ فيهِ :

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، مِنْ عبْدِ اللهِ هارونَ الرشيدِ أميرِ المؤمنينَ إلىٰ أخيهِ سفيانَ بنِ سعيدِ بنِ المنذرِ ؛ أمَّا بعدُ : يا أخي ؛ قدْ علمتَ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ آخىٰ بينَ المؤمنينَ ، وجعلَ ذلكَ فيهِ ولهُ ، واعلمْ أنِّي آخيتُكَ مؤاخاةً لمْ أصرمْ منها حبلَكَ ، ولمْ أقطعْ منها وُدَّكَ ، وإنِّي منطوٍ لكَ علىٰ أفضلِ المحبَّةِ والإرادةِ ، ولولا هذهِ القلادةُ التي قلَّدنيها اللهُ تعالىٰ . . لأتيتُكَ ولوْ حبْواً ؛ لما أجدُ لكَ في قلبي مِنَ المحبَّةِ .

واعلمْ يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أنَّهُ ما بقيَ مِنْ إخواني وإخوانِكَ أحدٌ إلا وقدْ زارَني وهنَّأَني بما صرتُ إليهِ ، وقدْ فتحتُ بيوتَ الأموالِ وأعطيتُهُمْ مِنَ الجوائزِ السنيَّةِ ما فرحَتْ بها نفسي وقرَّتْ بها عيني ، وإنِّي استبطأْتُكَ ، فلمْ تأتني ، وقدْ كتبتُ إليكَ كتاباً شوقاً منِّي إليكَ شديداً ، وقدْ علمتَ

(١) لعل الحكاية وقعت مع المهدي أو المنصور وليس الرشيد .

ـ يا أبا عبدِ اللهِ ـ ما جاءَ في فضلِ المؤمنِ وزيارتِهِ ومواصلتِهِ ، فإذا وردَ عليكَ كتابي . . فالعجلَ العجلَ .

قالَ : فلمّا كتبَ الكتابَ . . التفتَ إلىٰ مَنْ عندَهُ ، فإذا كلُّهُمْ يعرفونَ سفيانَ الثوريَّ وخشونتَهُ ، فقالَ : عليَّ برجلٍ مِنَ البابِ ، فأُدخلَ عليهِ رجلٌ يُقالُ لهُ : عبَّادٌ الطالقانيُّ ، فقالَ : يا عبَّادُ ؛ خذْ كتابي هـٰذا فانطلقْ بهِ إلى الكوفةِ ، فإذا دخلتَها . . فسلْ عنْ قبيلةِ بني ثورٍ ، ثمَّ سلْ عنْ سفيانَ الثوريِّ ، فإذا رأيتَهُ . . فألقِ كتابي هـٰذا إليهِ ، وعِ بسمعِكَ وقلبِكَ جميعَ ما يكونُ ، فأحصِ عليهِ دقيقَ أمرِهِ وجليلَهُ لتخبرَني بهِ .

فأخذَ عبَّادٌ الكتابَ ، وانطلقَ بهِ حتَّىٰ وردَ الكوفةَ ، فسألَ عنِ القبيلةِ ، فأُرشدَ إليها ، ثمَّ سألَ عنْ سفيانَ ، فقيلَ لهُ : هوَ في المسجدِ ، قالَ عبَّادٌ : فأقبلتُ إلى المسجدِ ، فلمَّا رآني . . قامَ قائماً وقالَ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، وأعوذُ بكَ اللهمَّ مِنْ طارقٍ يطرقُ إلا بخيرٍ ، قالَ عبَّادٌ : فوقعَتِ الكلمةُ في قلبي ، فخرجتُ ، فلمَّا رآني نزلتُ ببابِ المسجدِ . . قامَ يصلِّي ولمْ يكنْ وقتَ صلاةٍ ، فربطتُ فرسي ببابِ المسجدِ ودخلتُ ، فإذا جلساؤُهُ قعودٌ قدْ نكسوا رؤوسَهُمْ كأنَّهُمْ لصوصٌ قدْ وردَ عليهِمُ السلطانُ ، فهُمْ خائفونَ مِنَ العقوبةِ ، فسلَّمْتُ فما رفعَ أحدٌ إليَّ رأسَهُ ، وردُّوا السلامَ عليَّ برؤوسِ الأصابعِ[1] ، فبقيتُ واقفاً ، ما منهُمْ أحدٌ

(١) الإشارة بالسلام بالرأس أو باليد بدعة حدثت بعد العصر الأول ، وكيف يجوز لأصحاب =

يعرضُ عليَّ الجلوسَ ، وقدْ علاني مِنْ هيبتِهِمْ الرعدةُ ، ومددتُ عيني إليهِمْ فقلتُ : إنَّ المصلِّيَ هوَ سفيانُ ، فرميتُ بالكتابِ إليهِ ، فلمَّا رأى الكتابَ . . ارتعدَ وتباعدَ عنهُ كأنَّهُ حيَّةٌ عرضَتْ لهُ في محرابِهِ ، فركعَ وسجدَ وسلَّمَ ، وأدخلَ يدَهُ في كمِّهِ ولفَّها بعباءتِهِ وأخذَهُ فقلبَهُ بيدِهِ ، ثمَّ رماهُ إلىٰ مَنْ كانَ خلفَهُ ، وقالَ : يأخذُهُ بعضُكُمْ يقرؤُهُ ؛ فإنِّي أستغفرُ اللهَ أنْ أمسَّ شيئاً مسَّهُ ظالمٌ بيدِهِ .

قالَ عبَّادٌ : فمدَّ بعضُهُمْ يدَهُ إليهِ ، فحلَّهُ كأنَّهُ خائفٌ مِنْ فمِ حيَّةٍ تنهشُهُ ، ثمَّ فضَّهُ وقرأَهُ ، وأقبلَ سفيانُ يتبسَّمُ تبسُّمَ المتعجِّبِ ، فلمَّا فرغَ مِنْ قراءتِهِ . . قالَ : اقلبوهُ واكتبوا إلى الظالمِ في ظهرِ كتابِهِ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ إنَّهُ خليفةٌ ، فلوْ كتبتَ إليهِ في قرطاسٍ نقيٍّ ، فقالَ : اكتبوا إلى الظالمِ في ظهرِ كتابِهِ ، فإنْ كانَ اكتسبَهُ مِنْ حلالٍ . . فسوفَ يُجزىٰ بهِ ، وإنْ كانَ اكتسبَهُ مِنْ حرامٍ . . فسوفَ يُصلىٰ بهِ ، ولا يبقىٰ شيءٌ مسَّهُ ظالمٌ عندَنا فيفسدَ علينا دينَنا ، فقيلَ لهُ : ما نكتبُ إليهِ ؟ فقالَ : اكتبوا :

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ ، مِنَ العبدِ الميِّتِ[1] سفيانَ بنِ سعيدِ بنِ المنذرِ الثوريِّ ، إلى العبدِ المغرورِ بالآمالِ هارونَ الذي سُلبَ حلاوةَ الإيمانِ ، أمَّا بعدُ : فإنِّي قدْ كتبتُ إليكَ أعلمُكَ أنِّي قدْ صرمتُ حبلَكَ ، وقطعتُ وُدَّكَ ،

= سفيان أن يتركوا رد السلام باللسان ؟! هـٰذا بعيد عن مثلهم . « إتحاف » (٧/ ٨٣) ، وهـٰذا من الحافظ الزبيدي مبني علىٰ أساس رفض الخبر كما سبق بيانه .

(١) في (ط ، ي) : (المذنب) بدل (الميت) .

وقليتُ موضعَكَ ، وإنَّكَ قدْ جعلتَني شاهداً عليكَ بإقرارِكَ علىٰ نفسِكَ في كتابِكَ ، بما هجمتَ بهِ علىٰ بيتِ مالِ المسلمينَ فأنفقتَهُ في غيرِ حقِّهِ ، وأنفذتَهُ في غيرِ حكمِهِ ، ثمَّ لمْ ترضَ بما فعلتَهُ وأنتَ ناءٍ عنِّي حتَّىٰ كتبتَ إليَّ تشهدُني علىٰ نفسِكَ ، أما إنِّي قدْ شهدتُ عليكَ أنا وإخواني الذينَ شهدوا قراءةَ كتابِكَ ، وسنؤدِّي الشهادةَ عليكَ غداً بينَ يدَيِ اللهِ تعالىٰ .

يا هارونُ ؛ هجمتَ علىٰ بيتِ مالِ المسلمينَ بغيرِ رضاهُمْ ، هلْ رَضِيَ بفعلِكَ المؤلَّفةُ قلوبُهُمْ ، والعاملونَ عليها في أرضِ اللهِ تعالىٰ ، والمجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ، وابنُ السبيلِ ، أمْ رضيَ بذلكَ حملةُ القرآنِ ، وأهلُ العلمِ ، والأراملُ والأيتامُ ، أمْ هلْ رضيَ بذلكَ خلقٌ مِنْ رعيَّتِكَ ؟!

فشُدَّ ـ يا هارونُ ـ مئزرَكَ ، وأعدَّ للمسألة جواباً ، وللبلاءِ تِجفافاً[1] ، واعلمْ أنَّكَ سوفَ تقفُ بينَ يدَيِ الحكَمِ العدْلِ ، فقدْ رُزِئتَ في نفسِكَ ؛ إذْ سُلبتَ حلاوةَ العلمِ والزهدِ ، ولذيذَ القرآنِ ومجالسةَ الأخيارِ ، ورضيتَ لنفسِكَ أنْ تكونَ ظالماً ، وللظالمينَ إماماً .

يا هارونُ ؛ قعدتَ على السريرِ ، ولبستَ الوثيرَ ، وأسبلتَ ستراً دونَ بابِكَ ، وتشبهتَ بالحجبةِ بربِّ العالمينَ ، ثمَّ أقعدتَ أجنادَكَ الظلمةَ دونَ بابِكَ وسترِكَ ، يظلمونَ الناسَ ولا ينصفونَ ، يشربونَ الخمورَ ، ويضربونَ

(١) **التِّجفاف** : ما يلبسه الإنسان ليقيه في الحرب ، كناية عن الحذر هنا ، وفي (ج) : (جلباباً) ، وفي (هـ) : (تجفافاً وجلباباً) .

مَنْ يشربُها ، ويزنونَ ويحدُّونَ الزانيَ ، ويسرقونَ ويقطعونَ السارقَ ، أفلا كانَتْ هذهِ الأحكامُ عليكَ وعليهِمْ قبلَ أنْ تحكمَ بها على الناسِ ؟

فكيفَ بكَ ـ يا هارونُ ـ غداً إذا نادى المنادي مِنَ قِبَلِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ أينَ الظلمةُ وأعوانُ الظلمةِ ؟ فقدمتَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ويداكَ مغلولتانِ إلىٰ عنقِكَ لا يفكُّهُما إلا عدْلُكَ وإنصافُكَ ؟ والظالمونَ حولَكَ وأنتَ لهُمْ سابقٌ وإمامٌ إلى النارِ ؟

كأنِّي بكَ ـ يا هارونُ ـ وقدْ أخذتَ بضيقِ الخناقِ ، ووردتَ المساقَ ، وأنتَ ترىٰ حسناتِكَ في ميزانِ غيرِكَ ، وسيئاتِ غيرِكَ في ميزانِكَ زيادةً علىٰ سيئاتِكَ ، بلاءً علىٰ بلاءٍ ، وظلمةً فوقَ ظلمةٍ ، فاحتفظْ بوصيَّتي واتعظْ بموعظتي التي وعظتُكَ بها .

واعلمْ أنِّي قدْ نصحتُكَ ، وما أبقيتُ لكَ في النصحِ غايةً ، فاتقِ اللهَ ـ يا هارونُ ـ في رعيَّتِكَ ، واحفظْ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أمَّتِهِ ، وأحسنِ الخلافةَ عليهِمْ .

واعلمْ أنَّ هـٰذا الأمرَ لوْ بقيَ لغيرِكَ . . لمْ يصلْ إليكَ ، وهوَ صائرٌ إلىٰ غيرِكَ ، وكذا الدنيا تنتقلُ بأهلِها واحداً بعدَ واحدٍ ، فمنهُمْ مَنْ تزوَّدَ زاداً نفعَهُ ، ومنهُمْ مَنْ خسرَ دنياهُ وآخرتَهُ ، وإنِّي أحسبُكَ ـ يا هارونُ ـ ممَّنْ خسرَ دنياهُ وآخرتَهُ ، فإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تكتبَ إليَّ كتاباً بعدَ هـٰذا ، فلا أجيبُكَ عنهُ ، والسلامُ .

قالَ عبَّادٌ : فألقىٰ إليَّ الكتابَ منشوراً غيرَ مطويٍّ ولا مختومٍ ، فأخذتُهُ وأقبلتُ إلىٰ سوقِ الكوفةِ ، وقدْ وقعَتِ الموعظةُ مِنْ قلبي ، فناديتُ : يا أهلَ الكوفةِ ، فأجابوني ، فقلتُ لهُمْ : يا قومُ ؛ مَنْ يشتري رجلاً هربَ مِنَ اللهِ إلى اللهِ ؟ فأقبلوا إليَّ بالدنانيرِ والدراهِمِ ، فقلتُ : لا حاجةَ لي في المالِ ، ولكنْ جبَّةَ صوفٍ خشنةً ، وعباءةً قطوانيَّةً ، قالَ : فأُتيتُ بذلكَ ، ونزعتُ ما كانَ عليَّ مِنَ اللباسِ الذي كنتُ ألبسُهُ معَ أميرِ المؤمنينَ ، وأقبلتُ أقودُ البرذونَ وعليهِ السلاحُ الذي كنتُ أحملُهُ ، حتَّىٰ أتيتُ بابَ أميرِ المؤمنينَ هارونَ حافياً راجلاً ، فهزأَ بي مَنْ كانَ علىٰ بابِ الخليفةِ ، ثمَّ استُؤذنَ لي ، فلمَّا دخلتُ مجلسَهُ وبصرَ بي هارونُ علىٰ تلكَ الحالةِ . . قامَ وقعدَ ، ثمَّ قامَ قائماً وجعلَ يلطمُ رأسَهُ ووجهَهُ ، ويدعو بالويلِ والحزْنِ ويقولُ : انتفعَ الرسولُ وخابَ المرسِلُ ، ما لي وللدنيا ، ما لي ولملكٍ يزولُ عنِّي سريعاً ؟!

ثمَّ ألقيتُ الكتابَ إليهِ منشوراً كما دُفِعَ إليَّ ، فأقبلَ هارونُ يقرؤُهُ ودموعُهُ تتحدَّرُ مِنْ عينيهِ ، ويقرأُ ويشهقُ ، فقالَ بعضُ جلسائِهِ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لقدْ اجترأَ عليكَ سفيانُ ، فلوْ وجَّهْتَ إليهِ فأثقلتَهُ بالحديدِ ، وضيَّقْتَ عليهِ السجنَ . . كنتَ تجعلُهُ عبرةً لغيرِهِ ، فقالَ هارونُ : اتركونا يا عبيدَ الدنيا ، المغرورُ مَنْ غررتموهُ ، والشقيُّ مَنْ أهلكتموهُ ، وإنَّ سفيانَ أمَّةٌ وحدَهُ ، فاتركوا سفيانَ وشأنَهُ ، ثمَّ لمْ يزلْ كتابُ سفيانَ إلىٰ جنبِ هارونَ يقرؤُهُ عندَ كلِّ صلاةٍ ، حتَّىٰ تُوفِّيَ رحمَهُ اللهُ .

فرحمَ اللهُ عبداً نظرَ لنفسِهِ ، واتقى اللهَ فيما يقدمُ عليهِ غداً مِنْ عملِهِ ، فإنَّهُ عليهِ يُحاسبُ ، وبهِ يُجازىٰ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ مهرانَ قالَ : حجَّ الرشيدُ ، فوافى الكوفةَ ، فأقامَ بها أياماً ، ثمَّ ضربَ بالرحيلِ ، فخرجَ الناسُ ، وخرجَ بهلولٌ المجنونُ فيمَنْ خرجَ ، فجلسَ بالكناسةِ والصبيانُ يؤذونَهُ ويَولَعونَ بهِ ، إذْ أقبلَتْ هوادجُ هارونَ ، فكفَّ الصبيانُ عنِ الوَلوعِ بهِ ، فلمَّا جاءَ هارونُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فكشفَ هارونُ السجافَ بيدِهِ عنْ وجهِهِ ، فقالَ : لبيكَ يا بهلولُ ؛ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ حدَّثَنا أيمنُ بنُ نائلٍ ، عنْ قدامةَ بنِ عبدِ اللهِ العامريِّ قالَ : (رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منصرفاً مِنْ عرفةَ علىٰ ناقةٍ لهُ صهباءَ ، لا ضربَ ولا طردَ ولا إليكَ إليكَ)(١) ، وتواضعُكَ في سفرِكَ هٰذا يا أميرَ المؤمنينَ خيرٌ لكَ مِنْ تكبُّرِكَ وتجبُّرِكَ ، قالَ : فبكىٰ هارونُ حتَّىٰ سقطَتْ دموعُهُ على الأرضِ .

ثمَّ قالَ : يا بهلولُ ؛ زدْنا رحمَكَ اللهُ ، قالَ : نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ ، رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً وجَمالاً ، فأنفقَ مِنْ مالِهِ وعفَّ في جمالِهِ . . كُتبَ في خالصِ ديوانِ اللهِ تعالىٰ معَ الأبرارِ ، قالَ : أحسنتَ يا بهلولُ ودفعَ لهُ جائزةً ، فقالَ : اردِدِ الجائزةَ علىٰ مَنْ أخذتَها منهُ ، فلا حاجةَ لي فيها .

---

(١) رواه الترمذي (٩٠٣) ، والنسائي (٥/ ٢٧٠) ، وابن ماجه (٣٠٣٥) .

قالَ : يا بهلولُ ؛ فإنْ يكنْ عليكَ دينٌ . . قضيناهُ ، قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ هؤلاءِ أهلُ العلمِ بالكوفةِ متوافرونَ ، اجتمعَتْ آراؤُهُمْ أنَّ قضاءَ الدينِ بالدينِ لا يجوزُ .

قالَ : يا بهلولُ ؛ فنجري عليكَ ما يقوتُكَ أوْ يقيمُكَ ، قالَ : فرفعَ بهلولٌ رأسَهُ إلى السماءِ ثمَّ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أنا وأنتَ مِنْ عيالِ اللهِ ، فمحالٌ أنْ يذكرَكَ وينساني .

قالَ : فأسبلَ هارونُ السجافَ ومضىٰ(١) .

وعنْ أبي العباسِ الهاشميِّ مِنْ ولدِ صالحِ بنِ المأمونِ(٢) ، قالَ : دخلتُ على الحارثِ المحاسبيِّ رحمَهُ اللهُ ، فقلتُ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ هلْ حاسبتَ نفسَكَ ؟ قالَ : كانَ هٰذا مرَّةً ، قلتُ لهُ : فاليومَ ، قالَ : أكاتمُ حالي ، إنِّي لأقرأُ آيةً مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ فأضنُّ بها أنْ تسمعَها نفسي ، ولولا أنْ يغلبَني فيها فرحٌ . . ما أعلنتُ بها ، ولقدْ كنتُ ليلةً قاعداً في محرابي ، فإذا أنا بفتىً حسنِ الوجهِ ، طيِّبِ الرائحةِ ، فسلَّمَ عليَّ ، ثمَّ قعدَ بينَ يديَّ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا واحدٌ مِنَ السيَّاحينَ ، أقصدُ المتعبِّدينَ في محاريبِهِمْ ، ولا أرىٰ لكَ اجتهاداً ، فأيُّ شيءٍ عملُكَ ؟ قالَ : قلتُ لهُ : كتمانُ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ٤٠٨) بنحوه ، **والبهلول** : السيد الجامع لكل خير ، ويطلق على الضحَّاك من الرجال ، وبهلول هنا علم ، وهو ابن عمرو الصيرفي ، رویٰ عن مالك . انظر « الإتحاف » (٧/ ٨٥) .

(٢) في (ج) : (من ولد صالح المرِّي) .

المصائبِ ، واستجلابُ الفوائدِ ، قالَ : فصاحَ وقالَ : ما علمتُ أنَّ أحداً بينَ جنبَتِي المشرقِ والمغربِ هذهِ صفتُهُ ، قالَ الحارثُ : فأردتُ أنْ أزيدَ عليهِ ، فقلتُ لهُ : أما علمتَ أنَّ أهلَ القلوبِ يُخمِلونَ أحوالَهُمْ ويكتمونَ أسرارَهُمْ ، ويسألونَ اللهَ عزَّ وجلَّ كتمانَ ذلكَ عليهِمْ ، فمِنْ أينَ تعرفُهُمْ ؟ قالَ : فصاحَ صيحةً غُشِيَ عليهِ منها ، فمكثَ عندي يومينَ لا يعقلُ ، ثمَّ أفاقَ وقدْ أحدثَ في ثيابِهِ ، فعلمتُ إزالةَ عقلِهِ ، فأخرجتُ لهُ ثوباً جديداً ، وقلتُ لهُ : هـٰذا كفني قدْ آثرتُكَ بهِ ، فاغتسلْ وأعدْ صلواتِكَ ، فقالَ : هاتِ الماءَ ، فاغتسلَ وصلَّىٰ .

ثمَّ التحفَ بالثوبِ وخرجَ ، فقلتُ لهُ : أينَ تريدُ ؟ فقالَ لي : قُمْ معي ، فلمْ يزلْ يمشي حتَّىٰ دخلَ على المأمونِ أميرِ المؤمنينَ فسلَّمَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا ظالمُ ، وأنا ظالمٌ إنْ لمْ أقلْ لكَ : يا ظالمُ ، أستغفرُ اللهَ مِنْ تقصيري فيكَ ، أما تتقي اللهَ تعالىٰ فيما قدْ ملَّكَكَ ، وتكلَّمَ بكلامٍ كثيرٍ ، ثم أقبلَ يريدُ الخروجَ وأنا جالسٌ بالبابِ ، فأقبلَ عليهِ المأمونُ وقالَ : مَنْ أنتَ ؟ قالَ : أنا رجلٌ مِنَ السيَّاحينَ ، فكَّرْتُ فيما عملَ الصدِّيقونَ قبلي ، فلمْ أجدْ لنفسي فيهِ حظّاً ، فتعلقتُ بموعظتِكَ لعلِّي ألحقُهُمْ ، قالَ : فأمرَ بضربِ عنقِهِ ، فأُخرجَ وأنا قاعدٌ على البابِ ملفوفاً في ذلكَ الثوبِ ، ومنادٍ ينادي : مَنْ وليُّ هـٰذا فليأخذْهُ ، قالَ حارثٌ : فاختبأتُ عنهُ ، فأخذهُ أقوامٌ غرباءُ فدفنوهُ ، وكنتُ معَهُمْ لا أعلمُهُمْ بحالِهِ ، فأقمتُ في مسجدٍ في المقابرِ محزوناً على الفتىٰ ، فغلبَتني عيناي ، فإذا هوَ بينَ وصائفَ لمْ أرَ أحسنَ منهُنَّ ، وهوَ

يقولُ : يا حارثُ ؛ أتيتُ واللهِ الكاتمينَ الذينَ يخفونَ أحوالَهُمْ ويطيعونَ ربَّهُمْ ، قلتُ : وما فعلوا ؟ قالَ : الساعةَ يتلقونَكَ ، فنظرتُ إلىٰ جماعةٍ ركبانٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتمْ ؟ قالوا : الكاتمونَ أحوالَهُمْ ، حرَّكَ هٰذا الفتىٰ كلامُكَ لهُ ، فلمْ يكنْ في قلبِهِ ممَّا وصفتَ شيءٌ ، فخرجَ للأمرِ والنهيِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ أنزلَهُ معنا وغضبَ لعبدِهِ .

وعنْ أحمدَ بنِ إبراهيمَ المقريِّ قالَ : كانَ أبو الحسينِ النوريُّ رجلاً قليلَ الفضولِ ، لا يسألُ عمَّا لا يعنيهِ ، ولا يفتِّشُ عمَّا لا يحتاجُ إليهِ ، وكانَ إذا رأىٰ منكراً . . غيَّرَهُ ولوْ كانَ فيهِ تلفُهُ ، فنزلَ ذاتَ يومٍ إلىٰ مشرعةٍ[1] تُعرفُ بمشرعةِ الفحَّامينَ يتطهَّرُ للصلاةِ ، إذْ رأىٰ زورقاً فيهِ ثلاثونَ دَنّاً مكتوبٌ عليها بالقارِ : لطفٌ ، فقرأهُ وأنكرَهُ ؛ لأنَّهُ لمْ يعرفْ في التجاراتِ ولا في البيوعِ شيئاً يُعبَّرُ عنهُ بلطفٍ ، فقالَ للملاحِ : أَيْشٍ في هذهِ الدنانِ ؟ فقالَ : وأَيْشٍ عليكَ ؟ امضِ لشغلِكَ ، فلمَّا سمعَ النوريُّ مِنَ الملاحِ هٰذا القولَ . . ازدادَ تعطُّشاً إلىٰ معرفتِهِ ، فقالَ لهُ : أحبُّ أنْ تخبرَني أَيْشٍ في هذهِ الدنانِ ؟ فقالَ الملاحُ : وأيْشٍ عليكَ ؟ أنتَ واللهِ صوفيٌّ فضوليٌّ ، هٰذا خمرٌ للمعتضدِ يريدُ أنْ يتمِّمَ بهِ مجلسَهُ ، فقالَ النوريُّ : هٰذا خمرٌ ؟! قالَ : نعمْ ، فقالَ : أحبُّ أنْ تعطيَني ذلكَ المُرْدِيَّ[2] ، فاغتاظَ الملاَّحُ عليهِ وقالَ لغلامِهِ : أعطِهِ المُرْدِيَّ حتَّىٰ أنظرَ ما يصنعُ ، فلمَّا صارَتِ المُرْدِيُّ في يدِهِ . . صعدَ إلى

---

(١) مشرعة : مورد من موارد الدجلة . « إتحاف » (٧/ ٨٧) .
(٢) المُرْدِي : خشبة تدفع بها السفينة تكون في يد الملاح .

الزورقِ ، ولمْ يزلْ يكسرُها دَنّاً دَنّاً حتَّىٰ أتىٰ علىٰ آخرِها إلا دَنّاً واحداً والملاحُ يستغيثُ ، إلىٰ أنْ ركبَ صاحبُ الجسرِ وهوَ يومَئذٍ يونسُ الخادمُ[1] ، فقبضَ على النوريِّ ، وأشخصَهُ إلىٰ حضرةِ المعتضدِ ، وكانَ المعتضدُ سيفُهُ قبلَ كلامِهِ ، ولمْ يشكَّ الناسُ في أنَّهُ سيقتلُهُ .

قالَ أبو الحسينِ : فأُدخلتُ عليهِ وهوَ جالسٌ علىٰ كرسيٍّ حديدٍ ، وبيدِهِ عمودٌ يقلبُهُ ، فلمَّا رآني .. قالَ : مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : محتسبٌ ، قالَ : مَنْ ولاَّكَ الحِسبةَ ؟ قلتُ : الذي ولاَّكَ الإمامةَ ولاَّني الحِسبةَ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : فأطرقَ إلى الأرضِ ساعةً ثمَّ رفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : ما الذي حملَكَ علىٰ ما صنعتَ ؟ فقلتُ : شفقةٌ منِّي عليكَ ، إذْ بسطتُ يدي إلىٰ صرفِ مكروهٍ عنكَ فقصرتُ عنهُ ، قالَ : فأطرقَ مفكِّراً في كلامي ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : كيفَ تخلَّصَ هٰذا الدَّنُّ الواحدُ مِنْ جملةِ الدنانِ ؟ فقلتُ : في تخلُّصِهِ علَّةٌ أخبرُ بها أميرَ المؤمنينَ إنْ أذنَ ، فقالَ : هاتِ خبِّرني ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِّي أقدمتُ على الدنانِ بمطالبةِ الحقِّ سبحانَهُ لي بذلكَ ، وغمرَ قلبي شاهدُ الإجلالِ للحقِّ وخوفِ المطالبةِ ، فغابَتْ هيبةُ الخلْقِ عنِّي ، فأقدمْتُ عليها بهذهِ الحالِ ، إلىٰ أنْ صرتُ إلىٰ هٰذا الدَّنِّ ، فوجدتُ في نفسي كبْراً علىٰ أنِّي أقدمتُ علىٰ مثلِكَ ، فمنعتُ ، ولوْ أقدمتُ عليهِ

(١) المثبت من (د) ، وفي (ج) : (قريش بن أفلح) ، وفي (هـ) : (مؤنس بن أفلح) ، وفي بقيتها : (مؤنس أفلح) ، وعند الحافظ الزبيدي في نسخة عنده : (ابن بشر أفلح) . « إتحاف » (٧/ ٨٧) .

بالحالِ الأوَّلِ وكانَتْ ملءَ الدنيا دنانٌ . . لكسرتُها ولمْ أبالِ .

فقالَ المعتضدُ : اذهبْ ، فقدْ أطلقْنا يدكَ ، غيِّرْ ما أحببتَ أنْ تغيِّرَهُ مِنَ المنكرِ .

قالَ أبو الحسينِ : فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ بَغُضَ إليَّ التغييرُ[1] ؛ لأنِّي كنتُ أغيِّرُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وأنا الآنَ أغيِّرُ عن شرطيٍّ ، فقالَ المعتضدُ : ما حاجتُكَ ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ تأمرُ بإخراجي سالماً ، فأمرَ لهُ بذلكَ ، وخرجَ إلى البصرةِ ، فكانَ أكثرُ أيامِهِ بها ؛ خوفاً مِنْ أنْ يُسألَ حاجةً يسألُها المعتضدَ[2] ، فأقامَ بالبصرةِ إلىٰ أنْ تُوفِّيَ المعتضدُ ، ثمَّ رجعَ إلىٰ بغدادَ .

فهذهِ كانَتْ سيرةُ العلماءِ وعادتُهُمْ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، وقلَّةِ مبالاتِهِمْ بسطوةِ السلاطينِ ، لكنَّهُمُ اتكلوا علىٰ فضلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يحرسَهُمْ ، ورضوا بحكمِ اللهِ تعالىٰ إنْ رزقَهُمُ الشهادةَ ، فلمَّا أخلصوا للهِ النيَّةَ . . أثَّرَ كلامُهُمْ في القلوبِ القاسيةِ فليَّنَها ، وأزالَ قساوتَها .

وأمَّا الآنَ . . فقدْ قيَّدتِ الأطماعُ ألسنَ العلماءِ فسكتوا ، وإنْ تكلَّموا . . لمْ تساعدْ أقوالَهُمْ أحوالُهُمْ ، فلم ينجحوا ، فلوْ صدقوا اللهَ وقصدوا حقَّ العلمِ . . لأفلحوا .

---

(١) كذا في جميع النسخ ، وفي هامش (ب) : (نسخة : أبغض) .
(٢) أي : خوفاً من كثرة الشفاعات . « إتحاف » (٧/ ٨٨) .

ففسادُ الرعايا بفسادِ الملوكِ ، وفسادُ الملوكِ بفسادِ العلماءِ ، وفسادُ العلماءِ باستيلاءِ حبِّ المالِ والجاهِ ، ومَنِ استولىٰ عليهِ حبُّ الدنيا . . لمْ يقدرْ على الحِسبةِ على الأرذالِ ، فكيفَ على الملوكِ والأكابرِ ؟! واللهُ المستعانُ علىٰ كلِّ حالٍ .

واللهُ الموفِّقُ للرشادِ ، والهادي إلى السدادِ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا نبيِّهِ محمدٍ وآلِهِ الطاهرينَ .

* * *

تمّ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التّاسع من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، حمدًا دائمًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ العربيّ المصطفى وعلى آله وصحبه وسلّم

يتلوه كتاب آداب المعيشة وأخلاق النّبوّة

كِتَابُ
آدَابِ المَعِيشَةِ
وَأَخْلَاقِ النُّبُوَّةِ

وهو الكتاب العاشر من ربع العادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي خلقَ كلَّ شيءٍ فأحسنَ خلْقَهُ وترتيبَهُ ، وأدَّبَ نبيَّهُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأحسنَ تأديبَهُ ، وزكَّىٰ أوصافَهُ وأخلاقَهُ ثمَّ اتخذَهُ صفيَّهُ وحبيبَهُ ، ووفَّقَ للاقتداءِ بهِ مَنْ أرادَ تهذيبَهُ ، وحرمَ عنِ التخلُّقِ بأخلاقِهِ مَنْ أرادَ تخييبَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وعلىٰ آلهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ آدابَ الظواهرِ عنوانُ آدابِ البواطنِ ، وحركاتِ الجوارحِ ثمراتُ الخواطرِ ، والأعمالَ نتيجةُ الأخلاقِ ، والآدابَ رشْحُ المعارفِ ، وسرائرَ القلوبِ هيَ مغارسُ الأفعالِ ومنابعُها ، وأنوارَ السرائرِ هيَ التي تشرقُ على الظواهرِ فتزيِّنُها وتجلِّيها ، وتبدِّلُ بالمحاسنِ مكارهَها ومساويَها ، ومَنْ لمْ يخشعْ قلبُهُ . . لمْ تخشعْ جوارحُهُ ، ومَنْ لمْ يكنْ صدرُهُ مشكاةَ الأنوارِ الإلـٰهيَّةِ . . لمْ يفضْ علىٰ ظاهرِهِ جمالُ الآدابِ النبويَّةِ .

ولقدْ كنتُ عزمتُ علىٰ أنْ أختمَ ربعَ العاداتِ مِنْ هـٰذا الكتابِ بكتابٍ جامعٍ لآدابِ المعيشةِ ؛ لئلاَّ يشقَّ علىٰ طالبِها استخراجُها مِنْ جميعِ هـٰذهِ

الكتبِ ، ثمَّ رأيتُ كلَّ كتابٍ مِنْ ربعِ العباداتِ وربعِ العاداتِ قدْ أتىٰ علىٰ جملةٍ مِنَ الآدابِ ، فاستثقلتُ تكريرَها وإعادتَها ؛ فإنَّ ظِلَّ الإعادةِ ثقيلٌ ، والنفوسُ مجبولةٌ علىٰ معاداةِ المعاداتِ .

فرأيتُ أنْ أقتصرَ في هـٰذا الكتابِ علىٰ ذكرِ آدابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأخلاقِهِ المأثورةِ عنهُ بالإسنادِ ، فأسردَها مجموعةً فصْلاً فصْلاً ، محذوفةَ الأسانيدِ ؛ ليجتمعَ فيهِ معَ جمعِ الآدابِ تجديدُ الإيمانِ ، وتأكيدُهُ بمشاهدةِ أخلاقِهِ الكريمةِ ، التي يشهدُ آحادُها على القطعِ بأنَّهُ أكرمُ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، وأعلاهُمْ رتبةً ، وأجلُّهُمْ قدْراً ، فكيفَ مجموعُها ؟!

ثمَّ أضيفُ إلىٰ ذكرِ أخلاقِهِ ذكرَ خلقتِهِ ، ثمَّ ذكرَ معجزاتِهِ التي صحَّتْ بها الأخبارُ ؛ ليكونَ ذلكَ معرِّفاً مكارمَ الأخلاقِ والشيمِ ، ومنتزِعاً عنْ آذانِ الجاحدينَ لنبوَّتِهِ صِمامَ الصممِ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التوفيقِ للاقتداءِ بسيِّدِ المرسلينَ ؛ في الأخلاقِ والأحوالِ وسائرِ معالمِ الدينِ ؛ فإنَّهُ دليلُ المتحيِّرينَ ، ومجيبُ دعوةِ المضطرِّينَ .

ولنذكرْ فيه أوَّلاً بيانَ تأديبِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ بالقرآنِ ، ثمَّ بيانَ جوامعَ مِنْ محاسنِ أخلاقِهِ ، ثمَّ بيانَ جملةٍ مِنْ آدابِهِ وأخلاقِهِ ، ثمَّ بيانَ كلامِهِ وضحكِهِ ، ثمَّ بيانَ أخلاقِهِ وآدابِهِ في الطعامِ ، ثمَّ بيانَ أخلاقِهِ وآدابِهِ في اللباسِ ، ثمَّ بيانَ عفوِهِ معَ القدرةِ ، ثمَّ بيانَ إغضائِهِ عمَّا كانَ يكرهُ ، ثمَّ بيانَ سخاوتِهِ وجودِهِ ، ثمَّ بيانَ شجاعتِهِ وبأسِهِ ، ثمَّ بيانَ تواضعِهِ ، ثمَّ بيانَ صورتِهِ وخِلْقتِهِ ، ثمَّ بيانَ جوامعِ معجزاتِهِ وآياتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثيرَ الضَّراعةِ والابتهالِ ، دائمَ السؤالِ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يزيِّنَهُ بمحاسنِ الآدابِ ومكارمِ الأخلاقِ ، فكانَ يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ حسِّنْ خَلْقِي وخُلُقِي »(١) ، ويقولُ : « اللهمَّ ؛ جنِّبْني منكراتِ الأخلاقِ »(٢) .

فاستجابَ اللهُ تعالىٰ دعاءَهُ وفاءً بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، فأنزلَ عليهِ القرآنَ ، وأدَّبَهُ بهِ ، فكانَ خلقُهُ القرآنَ .

قالَ سعدُ بنُ هشامٍ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها وعنْ أبيها ، فسألتُها عنْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : أما تقرأُ القرآنَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَتْ : كانَ خلقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ القرآنَ(٣) .

وإنَّما أدَّبَهُ القرآنُ بمثلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/٤٠٣) ، (٦/٦٨) من حديث عبد الله بن مسعود وعائشة رضي الله عنهما ، ولفظه : « اللهم ، أحسنت خلقي فأحسن خُلقي » ، وحديث ابن مسعود رواه كذلك ابن حبان في « صحيحه » (٩٥٩) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩١) ولفظه : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء » .

(٣) رواه مسلم (٧٤٦) .

وقولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

وقولِهِ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

وقولِهِ : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقولِهِ : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

وقولِهِ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وقولِهِ: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقولِهِ : ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ .

ولمَّا كُسرتْ رَباعِيتُهُ وشُجَّ يومَ أحدٍ . . فجعلَ الدمُ يسيلُ علىٰ وجهِهِ ، وهوَ يمسحُ الدمَ ويقولُ : « كيفَ يفلحُ قومٌ خضبوا وجْهَ نبيِّهِمْ بالدمِ وهوَ يدعُوهُمْ إلىٰ ربِّهِمْ ؟! » فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾(١) تأديباً لهُ علىٰ ذلكَ .

وأمثالُ هٰذهِ التأديباتِ في القرآنِ لا تنحصرُ .

---

(١) رواه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس رضي الله عنه .

وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المقصودُ الأوَّلُ بالتأديبِ والتهذيبِ ، ثمَّ منهُ يشرقُ النورُ علىٰ كافَّةَ الخلقِ ، فإنَّهُ أُدِّبَ بالقرآنِ ، وأُدِّبَ الخلقُ بهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ »[1] ، ثمَّ رغَّبَ الخلقَ في حسنِ الأخلاقِ بما أوردناهُ في كتابِ رياضةِ النفسِ وتهذيبِ الأخلاقِ ، فلا نعيدُهُ .

ثمَّ لمَّا أكملَ اللهُ تعالىٰ خُلُقَهُ .. أثنىٰ عليهِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ ، وأتمَّ امتنانَهُ ! انظرْ إلىٰ عميمِ فضلِهِ كيفَ أعطىٰ ثمَّ أثنىٰ ، فهوَ الذي زيَّنَهُ بالخُلُقِ الكريمِ ، ثمَّ أضافَ إليهِ ذلكَ فقالَ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للخلقِ أنَّ اللهَ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ ويبغضُ سفسافَها[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا عجباً لرجلٍ مسلمٍ ! يجيئُهُ أخوهُ المسلمُ في حاجةٍ ، فلا يرىٰ نفسَهُ للخيرِ أهلاً ، فلوْ كانَ لا يرجو ثواباً ولا يخشىٰ

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٨١) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩١) واللفظ له .

(2) روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (١/٤٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، ورواه هناد في « الزهد » (٨٢٨) ، والبيهقي أيضاً في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩١) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً .

عقاباً . . لقدْ كانَ ينبغي لهُ أنْ يسارعَ في مكارمِ الأخلاقِ ؛ فإنَّها ممَّا تدلُّ علىٰ سبيلِ النجاةِ . فقالَ لهُ رجلٌ : أسمعتهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ قالَ : نعمْ ، وما هوَ خيرٌ منهُ ؛ لمَّا أُتِيَ بسبايا طَيِّىءٍ . . وقفَتْ جاريةٌ في السبيِ ، فقالَتْ : يا محمدُ ؛ إنْ رأيتَ أنْ تخلِّيَ عنِّي ولا تُشْمِتْ بي أحياءَ العربِ ، فإنِّي بنتُ سيِّدِ قومي ، وإنَّ أبي كانَ يحمي الذِّمارَ ، ويفكُّ العانيَ ، ويشبعُ الجائعَ ، ويطعمُ الطعامَ ، ويفشي السلامَ ، ولمْ يردَّ طالبَ حاجةٍ قطُّ ، أنا ابنةُ حاتِمِ طيِّىءٍ ، فقالَ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا جاريةُ ؛ هـٰذهِ صفةُ المؤمنينَ حقّاً ؛ لوْ كانَ أَبُوكِ مُسْلِماً . . لترحَّمْنا عليهِ ، خلُّوا عنها ؛ فإنَّ أباها كانَ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ ، وإنَّ اللهَ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ » ، فقامَ أبو بردةَ بنُ نيَّارٍ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ اللهُ يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ ؟ فقالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لا يدخلُ الجنَّةَ إلا حسنُ الأخلاقِ »(١) .

وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ حفَّ الإسلامَ بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمالِ ، ومِنْ ذلكَ : حسنُ المعاشرةِ ، وكرمُ الصنيعةِ ، ولينُ الجانبِ ، وبذلُ المعروفِ ، وإطعامُ الطعامِ ، وإفشاءُ السلامِ ، وعيادةُ المريضِ المسلمِ ؛ برّاً

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٢٩) ، ورواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٥/ ٢٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١١/ ٣٥٨) ، وصاحبة الخبر هي سفانة بنت حاتم .

كانَ أوْ فاجراً ، وتشييعُ جنازةِ المسلمِ ، وحسنُ الجوارِ لمَنْ جاورتَ ؛ مسلماً كانَ أوْ كافراً ، وتوقيرُ ذي الشيبةِ المسلمِ ، وإجابةُ الطعامِ والدعاءُ عليهِ ، والعفوُ ، والإصلاحُ بينَ الناسِ ، والجودُ ، والكرمُ ، والسماحةُ ، والابتداءُ بالسلامِ ، وكظمُ الغيظِ ، والعفوُ عنِ الناسِ ، واجتنابُ ما حرَّمَهُ الإسلامُ منَ اللهوِ ، والباطلِ ، والغناءِ ، والمعازفِ كلِّها ، وكلِّ ذي وَتْرٍ وكلِّ ذي ذَحْلٍ[١] ، والكذبِ ، والغيبةِ ، والبخلِ ، والشحِّ ، والجفاءِ ، والمكرِ ، والخديعةِ ، والنميمةِ ، وسوءِ ذاتِ البينِ ، وقطيعةِ الأرحامِ ، وسوءِ الخلقِ ، والتكبُّرِ ، والفخرِ ، والاختيالِ ، والاستطالةِ ، والبذخِ ، والفُحْشِ ، والتفحُّشِ ، والحقدِ ، والحسدِ ، والطِّيَرَةِ ، والبغْيِ ، والعدوانِ والظلمِ »[٢] .

قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : فلمْ يدعْ نصيحةً أوْ خصلةً جميلةً إلا قدْ دعانا إليها وأمرنَا بها ، ولمْ يدعْ غشّاً ـ أوْ قالَ : عيباً ـ ولا شيناً إلا حذرَناهُ ونهانا عنهُ ، ويكفي مِنْ ذلكَ كلِّهِ هـذهِ الآيةُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[٣] .

---

(١) الوَتْر : الثأر ، والذَّحْل : الحقد والعداوة ، والثأر أيضاً ، وهو أيضاً بالدال المهملة والخاء المعجمة .

(٢) قال الحافظ العراقي : (الحديث بطوله لم أقف له علىٰ أصل ، ويغني عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث) . « إتحاف » (٧/ ٩٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ إسناد ، وهو صحيح من حيث الواقع) ، وعلَّق علىٰ ذلك الحافظ الزبيدي : (والذي يظهر لي من سياق المصنف أن الحديث =

وقال معاذٌ رضيَ اللهُ عنهُ : أوصاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا معاذُ ؛ أوصيكَ باتقاءِ اللهِ ، وصدقِ الحديثِ ، والوفاءِ بالعهدِ ، وأداءِ الأمانةِ ، وتركِ الخيانةِ ، وحفظِ الجارِ ، ورحمةِ اليتيمِ ، ولينِ الكلامِ ، وبذلِ السلامِ ، وحسْنِ العملِ ، وقصرِ الأملِ ، ولزومِ الإيمانِ ، والتفقُّهِ في القرآنِ ، وحبِّ الآخرةِ ، والجزعِ مِنَ الحسابِ ، وخفضِ الجناحِ ، وأنهاكَ أنْ تسبَّ حكيماً ، أوْ تكذِّبَ صادقاً ، أوْ تطيعَ آثماً ، أوْ تعصيَ إماماً عادلاً ، أوْ تفسدَ أرضاً ، وأوصيكَ باتقاءِ اللهِ عندَ كلِّ شجرٍ وحجرٍ ومدرٍ ؛ وأنْ تحدثَ لكلِّ ذنبٍ توبةً ، السرَّ بالسرِّ والعلانيةُ بالعلانيةِ »[1] .

فهكذا أدَّبَ عبادَ اللهِ ، ودعاهُمْ إلىٰ مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الآدابِ[2] .

* * *

= المتقدم هو من رواية أنس عن معاذ ، فتأمل) .
وروى الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : (إن أجمع آية في القرآن لخير وشر آية في سورة النحل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ الآية) .
وروى الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ٢٠٠) عن قتادة : (إنه ليس من خُلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيِّىء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإنما نهىٰ عن سفاسف الأخلاق ومذامِّها) .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٤٣٤) .
(٢) شرح هـٰذا البيان بتمامه العلامة اللحجي في « منتهى السول » (٢/ ٣١٦ـ٣٨٥) .

بيان جملة من محاسن أخلاقه صلّى الله عليه وسلّم التي جمعها بعض العلماء، والتقطها من الأخبار

فقالَ : كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحلمَ الناسِ[(١)] ، وأشجعَ الناسِ[(٢)] ، وأعدلَ الناسِ[(٣)] ، وأعفَّ الناسِ ، لمْ تمسَّ يدُهُ قطُّ يدَ امرأةٍ لا يملكُ رقَّها ، أوْ عصمةَ نكاحِها ، أوْ تكونَ ذاتَ محرمٍ منهُ[(٤)] .

وكانَ أسخى الناسِ ، لا يبيتُ عندَهُ دينارٌ ولا درهمٌ ، وإنْ فضلَ شيءٌ ولمْ يجدْ مَنْ يعطيهِ وفجأهُ الليلُ . لمْ يأوِ إلىٰ منزلِهِ حتَّىٰ يتبرَّأَ منهُ إلىٰ مَنْ يحتاجُ إليهِ[(٥)] .

ولا يأخذُ ممَّا آتاهُ اللهُ إلا قوتَ عامِهِ فقطْ ، مِنْ أيسرِ ما يجدُ مِنَ التمرِ والشعيرِ ، ويضعُ سائرَ ذلكَ في سبيلِ اللهِ .

---

(١) كما في « أخلاق النبي وآدابه » (١٧٣) من حديث عبد الرحمـٰن بن أبزىٰ رضي الله عنه ، و« صحيح ابن حبان » (٢٨٨) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

(٢) كما في « البخاري » (٢٨٢٠) ، و« مسلم » (٢٣٠٧) .

(٣) كما في « الشمائل » للترمذي (٣٣٦) من حديث سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٤) كما في « البخاري » (٢٧١٣) ، و« مسلم » (١٨٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها ، والترمذي (٣٣٠٦) عن طاووس مرسلاً ، ومالك (٢/ ٩٨٢) من حديث أميمة بنت رقيقة مرفوعاً .

(٥) رواه أبو داوود (٣٠٥٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٥١) من حديث بلال رضي الله عنه .

لا يُسألُ شيئاً إلا أعطاهُ[١] ، ثمَّ يعودُ علىٰ قوتِ عامِهِ فيؤثِرُ منهُ ، حتَّىٰ إنَّهُ ربَّما احتاجَ قبلَ انقضاءِ العامِ إنْ لمْ يأتِهِ شيءٌ[٢] .

وكانَ يخصفُ النعلَ[٣] ، ويرقعُ الثوبَ ، ويخدمُ في مِهْنَةِ أهلِهِ[٤] ، ويقطعُ اللحمَ معَهُنَّ[٥] ، وكانَ أشدَّ الناسِ حياءً ، لا يثبتُ بصرُهُ في وجهِ أحدٍ[٦] .

ويجيبُ دعوةَ العبدِ والحرِّ[٧] ، ويقبلُ الهديَّةَ ولوْ أنَّها جَرعةُ لبنٍ أوْ فخذُ أرنبٍ ، ويكافِئُ عليها[٨] ، ويأكلُها ولا يأكلُ الصدقةَ ، ولا يستكبرُ عنْ إجابةِ الأَمَةِ والمسكينِ .

يغضبُ لربِّهِ عزَّ وجلَّ ولا يغضبُ لنفسِهِ[٩] ، وينفذُ الحقَّ وإنْ عادَ

---

(١) كما في « البخاري » (١٢٧٧ ، ٢٠٩٣) ، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، و« مسلم » (٢٣١٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٢٩١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) أي : يصلحها بترقيع وخرز .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٦٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٩٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٦) كما في « البخاري » (٣٥٦٢) ، و« مسلم » (٢٣٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وانظر « جوامع السيرة » (ص ٣٣) .

(٧) لما روى الترمذي (١٠١٧) واللفظ له ، وابن ماجه (٤١٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٨) لما روى البخاري (١٦٦٢ ، ٢٥٧٢ ، ٢٥٨٥) من حديث أم المؤمنين عائشة وغيرها رضي الله عنهم ، ومسلم (١١٢٣ ، ١٩٥٣) .

(٩) كما روى البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها ، والترمذي في « الشمائل » (٢٢٥) من حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه .

ذلكَ بالضررِ عليهِ أوْ علىٰ أصحابِهِ[١] .

عُرِضَ عليهِ الانتصارُ بالمشركينَ على المشركينَ ، وهوَ في قلَّةٍ وحاجةٍ إلىٰ إنسانٍ واحدٍ يزيدُه في عددِ مَنْ معَهُ . . فأبىٰ وقالَ : « إنَّا لا نستنصرُ بمشركٍ »[٢] .

ووجدَ مِنْ فضلاءِ أصحابِهِ وخيارِهِمْ قتيلاً بينَ اليهودِ ، فلمْ يحفِ عليهِمْ[٣] ، ولا زادَ علىٰ مُرِّ الحقِّ ، بلْ وداهُ بمئةِ ناقةٍ ، وإنَّ بأصحابِهِ لحاجةً إلىٰ بعيرٍ واحدٍ يتقوَّونَ بهِ[٤] .

---

(١) أشار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ١٠٠) أنه وجد بخط الحافظ ابن حجر في طرة كتاب شيخه العراقي في تخريجه لـ« الإحياء » : (أشار به إلىٰ قصة أبي جندل بن سهيل بن عمرو) ، وهي عند البخاري (٢٧١٣) ؛ حيث اشترط لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد كل آت وإن كان مسلماً كما طلب ذلك سهيل ، فردَّ ولده أبا جندل وأنفذ الحق مع أنه جاء مسلماً .

(٢) روىٰ مسلم (١٨١٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر ، فلما كان بحرَّة الوبرة . . أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه ، فلما أدركه . . قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : لا ، قال : « فارجع ، فلن أستعين بمشرك » . وكان قد راجعه ، فلم يقبله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أقرَّ بالإيمان بالله ورسوله .

(٣) أي : لم يجرْ عليهم . « إتحاف » (٧/ ١٠٠) .

(٤) روىٰ ذلك البخاري (٣١٧٣) ، ومسلم (١٦٦٩) ، والقتيل هو عبد الله بن سهل الأنصاري رضي الله عنه .

وكانَ يعصِبُ الحجرَ علىٰ بطنِهِ مرَّةً مِنَ الجوعِ[١] ، ومرَّةً يأكلُ ما حضرَ ، ولا يردُّ ما وجدَ ، ولا يتورَّعُ عنْ مطعمٍ حلالٍ[٢] .

وإنْ وجدَ تمراً دونَ خبزٍ . . أكلَهُ[٣] ، وإنْ وجدَ شواءً . . أكلَهُ[٤] ، وإنْ وجدَ خبزَ بُرٍّ أوْ شعيرٍ . . أكلَهُ[٥] ، وإنْ وجدَ حلواءَ أوْ عسلاً . . أكلَهُ[٦] ، وإنْ وجدَ لبناً دونَ خبزٍ . . اكتفىٰ بهِ[٧] ، وإنْ وجدَ بطيخاً أوْ رطباً . . أكلَهُ[٨] .

لا يأكلُ متَّكئاً ، ولا علىٰ خِوانٍ ، منديلُهُ باطنُ قدميهِ[٩] .

لمْ يشبعْ مِنْ خبزِ برٍّ ثلاثةَ أيامٍ متواليةٍ حتَّىٰ لقيَ اللهَ تعالىٰ ؛ إيثاراً علىٰ نفسِهِ ، لا فقراً ولا بخلاً .

---

(١) كما جاء ذلك في قصة الخندق في « البخاري » (٤١٠١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) روىٰ ذلك ابن المبارك في « الزهد » (٥٧١) عن الأوزاعي مرسلاً ، ومسلم (٢٠٥٢) .

(٣) رواه مسلم (٢٠٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه الترمذي (١٨٢٩) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٥) لما روى البخاري (٥٤١٦) ، ومسلم (٢٩٧٠) واللفظ له من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٦) كما روى البخاري (٥٤٣١) ، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٧) كما روى البخاري (٢١١) ، ومسلم (٣٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٨) رواه أبو داوود (٣٨٣٨) ، والترمذي (١٨٤٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦٦٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٩) رواه البخاري (٥٤٥٧) من قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

يجيبُ الوليمةَ ، ويعودُ المرضىٰ[1] ، ويشهدُ الجنائزَ[2] ، ويمشي وحدَهُ بينَ أعدائِهِ بلا حارسٍ[3] .

أشدُّ الناسِ تواضعاً ، وأسكنُهُمْ في غيرِ كبرٍ[4] ، وأبلغُهُمْ في غيرِ تطويلٍ[5] ، وأحسنُهم بشراً[6] .

لا يهولُهُ شيءٌ مِنْ أمورِ الدنيا[7] ، ويلبسُ ما وجدَ ؛ فمرَّةً شملةً ، ومرَّةً بردَ حِبرةٍ يمانياً ، ومرَّةً جبةَ صوفٍ ، ما وجدَ مِنَ المباحِ لبسَ[8] .

وخاتمُهُ فضةٌ[9] ، يلبسُهُ في خِنْصَرِهِ الأيمنِ وربَّما في الأيسرِ[10] .

---

(١) كعيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة رضي الله عنه كما في « البخاري » (٤٥٦٦) ، و« مسلم » (١٧٩٨) .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٣٠٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) قال الحافظ العراقي : (روىٰ أبو الحسن بن الضحاك في « الشمائل » من حديث أبي سعيد الخدري ، في صفته صلى الله عليه وسلم : متواضع في غير ذلة) .

(٥) لما روى البخاري (٣٥٦٨) ، ومسلم (٢٤٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٦) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٥١) من حديث علي رضي الله عنه .

(٧) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٨) رواه البخاري (١٢٧٧ ، ٥٧٩٩ ، ٥٨١٢) ، ومسلم (٢٧٤ ، ٢٠٧٩) من حديث أنس والمغيرة رضي الله عنهما .

(٩) كما في « البخاري » (٦٥) ، و« مسلم » (٢٠٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(١٠) رواه مسلم (٢٠٩٤ ، ٢٠٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

يردفُ خلفَهُ عبدَهُ أوْ غيرَهُ[1] ، يركبُ ما أمكنَهُ ؛ مرَّةً فرساً[2] ، ومرَّةً بعيراً[3] ، ومرَّةً بغلةً شهباءَ[4] ، ومرَّةً حماراً ، ومرَّةً يمشي راجلاً حافياً بلا رداءٍ ولا عِمامةٍ ولا قلنسوةٍ ، يعودُ المرضىٰ في أقصى المدينةِ[5] .

يحبُّ الطيبَ ، ويكرهُ الرائحةَ الرديئةَ[6] .

ويجالسُ الفقراءَ[7] ، ويؤاكلُ المساكينَ[8] .

ويكرمُ أهلَ الفضلِ في أخلاقِهِمْ ، ويتألَّفُ أهلَ الشرفِ بالبرِّ لهُمْ[9] .

يصلُ ذوي رحمِهِ مِنْ غيرِ أنْ يؤثرَهُمْ علىٰ مَنْ هوَ أفضلُ منهُمْ[10] .

---

(١) فمن ذلك : إردافه لأسامة بن زيد والفضل بن عباس رضي الله عنهم في حجه صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (٥٤٤) .
(٢) رواه البخاري (٢٦٢٧) ، ومسلم (٢٣٠٧) .
(٣) رواه البخاري (٢٧٣٤) .
(٤) رواه البخاري (٢٨٦٤) ، ومسلم (١٧٧٦) .
(٥) كما روىٰ مسلم (٩٢٥) في حديث عيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة رضي الله عنه .
(٦) لما روى النسائي (٧/ ٦١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وأبو داوود (٤٠٧٤) عن عائشة رضي الله عنها .
(٧) رواه أبو داوود (٣٦٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٨) رواه البخاري (٦٤٥٢) من قول أبي هريرة رضي الله عنه .
(٩) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٣٦) من حديث علي كرم الله وجهه ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٠٤) .
(١٠) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣٢٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، والبخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً .

لا يجفو علىٰ أحدٍ[1] .

يقبلُ معذرةَ المعتذرِ إليهِ[2] .

يمزحُ ولا يقولُ إلا حقّاً[3] ، يضحكُ مِنْ غيرِ قهقهةٍ[4] ، يرى اللعبَ المباحَ فلا ينكرُهُ .

ويسابقُ أهلَهُ ، وتُرفعُ الأصواتُ عليهِ فيصبرُ[5] .

وكانَ لهُ لِقاحٌ وغنمٌ يتقوَّتُ هوَ وأهلُهُ مِن ألبانِها[6] .

ولهُ عبيدٌ وإماءٌ لا يرتفعُ عليهِمْ في مأكلٍ ولا ملبسٍ[7] .

لا يمضي لهُ وقتٌ في غيرِ عملٍ للهِ تعالىٰ ، أوْ فيما لا بدَّ لهُ مِنْ صلاحِ نفسِهِ[8] .

---

(١) كما روىٰ أبو داوود (٤١٨٢) من حديث أنس رضي الله عنه ، والترمذي في « الشمائل » (٣٤٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٢) كما في البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

(٣) كما في « الترمذي » (١٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) جوامع السيرة (ص ٣٥) ، ورواه البخاري (٤٣٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (٧/١٠٦) .

(٦) كما في « البخاري » (٤١٩٤) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، و« أبي داوود » (١٤٢) من حديث لقيط بن صبرة ، وابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٢٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٧) كما روىٰ ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٤٢٨) من حديث سلمىٰ رضي الله عنها .

(٨) كما روى الترمذي في « الشمائل » (٣٣٦) من حديث علي كرم الله وجهه .

يخرجُ إلىٰ بساتينِ أصحابِهِ .

لا يحقرُ مسكيناً لفقرِهِ وزمانتِهِ ، ولا يهابُ ملكاً لملْكِهِ ، يدعو هٰذا وهٰذا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ دعاءً مستوياً[(١)] .

قدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ لهُ السيرةَ الفاضلةَ ، والسياسةَ التامَّةَ ، وهوَ أمِّيٌّ لا يقرأُ ولا يكتبُ ، نشأَ في بلادِ الجهلِ والصحارىٰ ، في فقرٍ وفي رعايةِ غنمٍ ، يتيماً لا أبَ لهُ ولا أمَّ ، فعلَّمَهُ اللهُ تعالىٰ جميعَ محاسنِ الأخلاقِ ، والطرقَ الحميدةَ ، وأخبارَ الأوَّلينَ والآخرينَ ، وما فيهِ النجاةُ والفوزُ في الآخرةِ ، والغبطةُ والخلاصُ في الدنيا ، ولزومَ الواجبِ وتركَ الفضولِ .

وفَّقَنا اللهُ لطاعتِهِ في أمرِهِ ، والتأسِّي بهِ في فعلِهِ ، آمينَ آمينَ يا ربَّ العالمينَ[(٢)] .

❋ ❋ ❋

---

(١) كما روى البخاري (٥٠٩١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، ومسلم (١٧٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) انظر « جوامع السيرة » (ص٣٤ ـ ٣٥) للإمام ابن حزم .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه صلى الله عليه وسلم

ممَّا رواهُ أبو البَخْتَرِيِّ : قالوا : ما شتمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحداً مِنَ المؤمنينَ بشتيمةٍ إلا جُعِلَ لهُ كفارةً ورحمةً(١) ، وما لعنَ امرأةً قطُّ ولا خادماً بلعنةٍ(٢) .

وقيلَ لهُ وهوَ في القتالِ : لوْ لعنتَهُمْ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنما بُعثتُ رحمةً ولمْ أُبعثْ لعَّاناً »(٣) .

وكانَ إذا سُئِلَ أنْ يدعوَ علىٰ أحدٍ ، مسلمٍ أوْ كافرٍ ، عامٍّ أوْ خاصٍّ . . عدلَ عنِ الدعاءِ عليهِ إلى الدعاءِ لهُ(٤) .

وما ضربَ بيدِهِ أحداً قطُّ إلا أنْ يضربَ بها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، وما انتقمَ مِنْ شيءٍ صُنعَ إليهِ قطُّ إلا أنْ تُنتهكَ حرمةُ اللهِ ، وما خُيِّرَ بينَ أمرينِ

---

(١) روى البخاري (٦٣٦١) ، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « اللهم ؛ إنما أنا بشر ، فأيُّما رجلٍ من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته . . فاجعلها له زكاة ورحمة » .

(٢) سيأتي هـٰذا المعنىٰ في الحديث بعده ، وروى البخاري (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) من حديث خادمه أنس رضي الله عنه قال : (خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي : أف ، ولا لم صنعت ، ولا ألا صنعت) .

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٩) .

(٤) لما روى البخاري (٢٩٣٧) ، ومسلم (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قطُّ إلا اختارَ أيسرَهُما ، إلا أنْ يكونَ فيهِ إثمٌ أوْ قطيعةُ رحمٍ ، فيكونَ أبعدَ الناسِ مِنْ ذلكَ(١) .

وما كانَ يأتيهِ أحدٌ ؛ حرٌّ أوْ عبدٌ أوْ أمةٌ إلا قامَ معَهُ في حاجتِهِ(٢) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : والذي بعثَهُ بالحقِّ ؛ ما قالَ لي في شيءٍ قطُّ كرهَهُ : لِمَ فعلتَهُ ، ولا لامَني أحدٌ مِنْ أهلِهِ إلا قالَ : « دعوهُ ، إنَّما كانَ هـٰذا بكتابٍ وقدَرٍ »(٣) .

قالوا : وما عابَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَضْجَعاً ، إنْ فرشوا لهُ . . اضطجعَ ، وإنْ لمْ يفرشْ لهُ . . اضطجعَ على الأرضِ(٤) .

---

(١) قد تقدم ، وهو عند البخاري (٦١٢٦) ، ومسلم (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٢) معلقاً من حديث أنس رضي الله عنه ، وتقدم موصولاً عند ابن ماجه (٤١٧٧) .

(٣) تقدم قريباً حديث الشيخين ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣١) من حديث أنس رضي الله عنه قال : فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال : « دعوه ، فلو قدِّر ـ أو قال : لو قضي ـ أن يكون . . كان » .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ ، والمعروف : « ما عاب طعاماً » ، ويؤخذ من عموم حديث علي بن أبي طالب : « ليس بفظ » إلىٰ أن قال : « ولا عياب » ، رواه الترمذي في « الشمائل » [٣٥١] ، والطبراني وأبو نعيم في « دلائل النبوة » ، وروى ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » [٣٦٣] من حديث أنس : « ما عاب عليَّ شيئاً قط » ، وفي « الصحيحين » ـ البخاري [٤٩١٣] ، ومسلم [١٤٧٩] ـ من حديث عمر اضطجاعه علىٰ حصير ، وللترمذي [٢٣٧٧] وصححه من حديث ابن مسعود : « نام علىٰ حصير ، فقام وقد أثر في جنبه » الحديث) . « إتحاف » (٧/ ١٠٨) .

وقدْ وصفَهُ اللهُ تعالىٰ في التوراةِ قبلَ أنْ يبعثَهُ في السطرِ الأوَّلِ فقالَ : (محمدٌ رسولُ اللهِ ، عبدي المختارُ ، لا فظٌّ ولا غليظٌ ، ولا صخَّابٌ في الأسواقِ ، ولا يجزي بالسيئةِ السيئةَ ، ولكنْ يعفو ويصفحُ ، مولدُهُ بمكَّةَ ، وهجرتُهُ بطابةَ ، وملكُهُ بالشامِ ، يأتزرُ علىٰ وَسَطِهِ ، هوَ ومَنْ معَهُ دعاةٌ للقرآنِ والعلمِ ، يتوضَّأُ علىٰ أطرافِهِ)[1] .

وكذلكَ نعتُهُ في الإنجيلِ[2] .

وكانَ مِنْ خلقِهِ أنْ يبدأَ مَنْ لقيَهُ بالسلامِ[3] ، ومَنْ قاومَهُ لحاجةٍ . . صابرَهُ حتَّىٰ يكونَ هوَ المنصرفَ[4] ، وما أخذَ أحدٌ بيدِهِ فيرسلَ يدَهُ حتَّىٰ يرسلَها الآخذُ[5] .

وكانَ إذا لقيَ أحداً مِنْ أصحابِهِ . . بدأهُ بالمصافحةِ[6] ، ثمَّ أخذَ بيدِهِ فشابكَهُ ، ثمَّ شدَّ قبضتَهُ عليها[7] .

---

(١) رواه الدارمي في « مسنده » (٥ ، ٧) عن كعب الأحبار .
(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٨) من حديث هند ابن أبي هالة رضي الله عنه .
(٤) في (ب ، ي) : (فاوضه) ، وفي (ج) : (أقامه) بدل (قاومه) ، روىٰ ذلك ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣٦٢ـ ٣٦٥) ، والترمذي في « الشمائل » (٣٣٦) من حديث علي كرم الله وجهه .
(٥) رواه الترمذي (٢٤٩٠) ، وابن ماجه (٣٧١٦) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٦) عند أبي داوود (٥٢١٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .
(٧) لما روىٰ عبد الله بن وهب في « جامعه » (١٨٢) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، وقد روى الحاكم في « معرفة علوم الحديث » (ص ٣٣) الحديث المسلسل =

وكانَ لا يقومُ ولا يجلسُ إلا علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ(١) .

وكانَ لا يجلسُ إليهِ أحدٌ وهوَ يصلِّي إلا خفَّفَ صلاتَهُ وأقبلَ عليهِ ، فقالَ : « ألكَ حاجةٌ ؟ » ، فإذا فرغَ مِنْ حاجتِهِ . . عادَ إلىٰ صلاتِهِ(٢) .

وكانَ أكثرُ جلوسِهِ أنْ ينصبَ ساقيهِ جميعاً ، ويمسكَ بيديهِ عليهِما شبهَ الحبوةِ(٣) .

ولَمْ يكنْ يُعرفُ مجلسُهُ مِنْ مجالسِ أصحابِهِ ؛ لأنَّهُ كانَ حيثُ انتهىٰ بهِ المجلسُ جلسَ(٤) .

وما رُئِيَ قطُّ مادّاً رجليهِ بينَ أصحابِهِ حتىٰ يضيِّقَ بهما علىٰ أحدٍ ، إلا أنْ يكونَ المكانُ واسعاً لا ضيقَ فيهِ(٥) .

= بالمشابكة ، وينتهي لأبي هريرة رضي الله عنه ويقول : (شبَّك بيدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم . . .) الحديث .

(١) كما هو عند الترمذي في « الشمائل » (٣٣٦) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٣/ ٥٠٠) ، والبخاري (٧٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٦٢٧٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وأبو داوود (٤٨٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) كما روىٰ أبو داوود (٤٦٩٨) ، والنسائي (٨/ ١٠١) من حديث أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥٠) من حديث جابر رضي الله عنه ، والترمذي (٢٤٩٠) ، وابن ماجه (٣٧١٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

وكانَ أكثرَ ما يجلسُ مستقبلَ القبلةِ[1] .

وكانَ يُكرمُ مَنْ يدخلُ عليهِ ، حتَّىٰ ربَّما بسطَ ثوبَهُ لمَنْ ليسَتْ بينَهُ وبينَهُ قرابةٌ ولا رضاعٌ يجلسُهُ عليهِ[2] .

وكانَ يؤثرُ الداخلَ عليهِ بالوسادةِ التي تكونُ تحتَهُ ، فإنْ أبىٰ أنْ يقبلَها . . عزمَ عليهِ حتَّىٰ يفعلَ .

وما استصفاهُ أحدٌ إلا ظنَّ أنَّهُ أكرمُ الناسِ عليهِ ، حتَّىٰ يعطي كلَّ مَنْ جلسَ إليهِ نصيبَهُ مِنْ وجهِهِ ، حتَّىٰ كأنَّ مجلسَهُ وسمعَهُ وحديثَهُ ولطيفَ مجلسِهِ وتوجهَهُ للجالسِ إليهِ ، ومجلسُهُ معَ ذلكَ مجلسُ حياءٍ وتواضعٍ وأمانةٍ[3] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

ولقدْ كانَ يدعو أصحابَهُ بكناهُمْ إكراماً لهُمْ واستمالةً لقلوبِهِمْ[4] ، ويكني مَنْ لمْ تكنْ لهُ كنيةٌ ، فكانَ يُدعىٰ بما كنَّاهُ بهِ[5] ، وكانَ يكني أيضاً النساءَ

(١) لما روى الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٢٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) لما روى الترمذي في « الشمائل » (٣٤٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٤) كما روى البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٢٣) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٦٥) .

(٥) لما رواه الترمذي (٣٨٣٠) ، وابن ماجه (٣٧٣٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٨) .

اللاتي لهنَّ أولادٌ ، واللاتي لمْ يلدنَ يبتدىءُ لهنَّ الكُنىٰ[1] ، ويكني الصبيانَ فيَسْتَلْينُ بهِ قلوبَهُم[2] .

وكانَ أبعدَ الناسِ غضباً ، وأسرعَهُمْ رضاً[3] .

وكانَ أرأفَ الناسِ بالناسِ ، وخيرَ الناسِ للناسِ ، وأنفعَ الناسِ للناسِ[4] .

ولمْ تكنْ تُرفعُ في مجلسِهِ الأصواتُ[5] .

وكانَ إذا قامَ مِنْ مجلسِهِ . قالَ : « سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، أشهدُ ألا إلـٰهَ إلا أنتَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ » ، ثمَّ يقولُ : « علَّمَنيهنَّ جبريلُ عليهِ السلامُ » .

* * *

(١) لما رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٦٣) ، وابن ماجه (٣٧٣٩) ، وأبو داوود (٤٩٧٠) .
(٢) كما رواه البخاري (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٣) قال الحافظ العراقي : (هـٰذا من المعلوم ، ويدل عليه إخباره صلى الله عليه وسلم أن بني آدم خيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، رواه الترمذي [٢١٩١] من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال : حديث حسن ، وهو صلى الله عليه وسلم خير بني آدم وسيدهم) . « إتحاف » (٧/ ١١١) .
(٤) كما روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ١٩٧) من حديث علي كرم الله وجهه .
(٥) كما هو عند الترمذي في « الشمائل » (٣٣٦) من حديث علي كرم الله وجهه ، وفيه : (مجلسه مجلس حلم وحياء ، وأمانة وصبر ، لا ترفع فيه الأصوات) .

بيان كلامه وضحكه صلّى الله عليه وسلّم

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أفصحَ الناسِ منطقاً ، وأحلاهم كلاماً[١] .

وكانَ يقولُ : « أنا أفصحُ العربِ »[٢] ، وإنَّ أهلَ الجنَّةِ يتكلمونَ فيها بلغةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٣] .

وكانَ نزرَ الكلامِ ، سمْحَ المقالةِ ، إذا نطقَ . . ليسَ بمهذارٍ ، وكأنَّ كلامَهُ كخرزاتِ النظمِ[٤] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ لا يسردُ الكلامَ كسردِكُمْ هـٰذا ، كانَ كلامُهُ نزراً ، وأنتُمْ تنثرونَ الكلامَ نثراً)[٥] .

قالوا : وكانَ أوجزَ الناسِ كلاماً ، وبذلكَ جاءَهُ جبريلُ ، وكانَ معَ

---

(١) رواه الحافظ السلفي في « معجم السفر » (١١٠٣) من حديث بريدة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٤٠٨) عن الحسن ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ٣٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣/ ١٢٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، والحاكم في « معرفة علوم الحديث » (ص ١١٦) من حديث عمر رضي الله عنه .

(٣) كما روى ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢١٨ ، ٢١٩) من حديث ابن عباس موقوفاً .

(٤) كما روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٩٦ـ ١٩٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ٩٤) في خبر أم معبد .

(٥) الجملة الأولىٰ رواها البخاري (٣٥٦٨) ، ومسلم (٢٤٩٣) ، والأخيرتان رواهما ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٣٣) .

الإيجازِ يجمعُ كلَّ ما أرادَ ، وكانَ يتكلَّمُ بجوامعِ الكلمِ ، لا فضولَ ولا تقصيرَ ؛ كلامٌ يتبعُ بعضُهُ بعضاً ، بينَ كلامِهِ توقُّفٌ ، يحفظُهُ سامعُهُ ويعيهِ(١) .

وكانَ جهيرَ الصوتِ ، أحسنَ الناسِ نغمةً(٢) .

وكانَ طويلَ السكوتِ ، لا يتكلَّمُ في غيرِ حاجةٍ(٣) ، ولا يقولُ المنكرَ ، ولا يقولُ في الرضا والغضبِ إلا الحقَّ(٤) .

---

(١) لما روى الدارقطني في « سننه » (٤/ ١٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وشطره الأول عند البخاري (٢٩٧٧) ، ومسلم (٥٢٣) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (روى الترمذي [٣٥٣٥] ، والنسائي في « الكبرىٰ » [١١١١٤] من حديث صفوان بن عسال قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، بينما نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري : يا محمد ؛ فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نحو من صوته : « هاؤم » الحديث .

وقال أحمد في « مسنده » [٤/ ٢٤٠] : وأجابه نحواً مما تكلم به ، الحديث .

فقد يؤخذ منه أنه صلى الله عليه وسلم كان جهوري الصوت ولم يكن يرفعه دائماً .

وقد يقال : لم يكن جهوري الصوت ، وإنما رفعه رفقاً بالأعرابي ؛ حتىٰ لا يكون صوته أرفع من صوته ، وهو الظاهر) . « إتحاف » (٧/ ١١٣) .

وروى البخاري (٧٦٩) ، ومسلم (٤٦٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ : « والتين والزيتون » في العشاء ، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه أو قراءة) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٢٥) من حديث هند بن أبي هالة المشهور .

(٤) روىٰ أبو داوود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

ويعرضُ عمَّنْ تكلَّمَ بغيرِ جميلٍ[1] ، ويكني عمَّا اضطرَّهُ الكلامُ إليهِ ممَّا يكرهُ[2] .

وكانَ إذا سكتَ . . تكلَّمَ جلساؤُهُ ولا يُتنازع عندَهُ في الحديثِ[3] .

ويعظُ بالجدِّ والنصيحةِ[4] .

ويقولُ : « لا تضربوا القرآنَ بعضَهُ ببعضٍ ؛ فإنَّهُ أُنزلَ علىٰ وجوهٍ »[5] .

وكانَ أكثرَ الناسِ تبسُّماً وضحكاً في وجوهِ أصحابِهِ ، وتعجُّباً ممَّا تحدَّثوا بهِ ، وخلطاً لنفسِهِ بهِمْ[6] ، ولربَّما ضحكَ حتَّىٰ تبدوَ نواجذُهُ[7] ، وكانَ ضحكُ أصحابِهِ عندَهُ التبسُّمَ ؛ اقتداءً بهِ ، وتوقيراً لهُ .

---

(١) كما روى الترمذي في « الشمائل » (٣٥١) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٢) لما رواه البخاري (٢٦٣٩) ، ومسلم (١٤٣٣) ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) هو عند الترمذي في « الشمائل » (٣٥١) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٤) كما رواه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٥) روى ابن سعد في « الطبقات » (٤/ ١٧٩) مرفوعاً : « إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به » ، وعند أحمد في « المسند » (٢/ ١٨٥) نحوه ، ولفظه : « وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض. . . » الحديث . وروى البخاري (٢٤١٩) ، ومسلم (٨١٨) مرفوعاً : « إن هـٰذا القرآن أنزل علىٰ سبعة أحرف » .

(٦) تقدم الحديث عن تبسمه صلى الله عليه وسلم ، وروى الترمذي في « الشمائل » (٣٥١) من حديث علي كرم الله وجهه الطويل ، وفيه : (يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه) .

(٧) فمن ذلك ما رواه البخاري (١٩٣٦) ، ومسلم (١١١١) .

قالوا : ولقدْ جاءَهُ أعرابيٌّ يوماً وهوَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ متغيِّرٌ ينكرُهُ أصحابُهُ ، فأرادَ أنْ يسألَهُ ، فقالوا : لا تفعلْ يا أعرابيُّ ؛ فإنَّا نُنكرُ لونَهُ ، فقالَ : دعوني ، فوالذي بعثَهُ بالحقِّ نبيّاً ؛ لا أدعُهُ حتَّىٰ يتبسمَ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ بلغَنا أنَّ المسيحَ ـ يعني : الدجالَ ـ يأتي الناسَ بالثريدِ وقدْ هلكوا جوعاً ، أفترىٰ لي ـ بأبي أنتَ وأمِّي ـ أنْ أكفَّ عنْ ثريدِهِ تعفُّفاً وتنزُّهاً حتَّىٰ أهلكَ هزالاً ، أمْ أضربَ في ثريدِهِ حتَّىٰ إذا تضلعتُ شبعاً . آمنتُ باللهِ وكفرتُ بهِ ؟ قالوا : فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ بدَتْ نواجذُهُ ، ثمَّ قالَ : « لا ، بلْ يغنيكَ اللهُ بما يغني بهِ المؤمنينَ »(١) .

قالوا : وكانَ مِنْ أكثرِ الناسِ تبسُّماً ، وأطيبِهِمْ نفساً ، ما لمْ ينزلْ عليه قرآنٌ(٢) ، أوْ يذكرِ الساعةَ(٣) ، أوْ يخطبْ خطبةً عظةً(٤) ، أوْ تحينَ الصلاةُ(٥) ، أوْ ينشأَ عارضٌ(٦) .

وكانَ إذا سُرَّ ورضيَ . . فهوَ أحسنُ الناسِ رضاً ، فإنْ وعظَ . . وعظَ

---

(١) كذا أورده الآبي في « نثر الدر » (٢/١٣٣) ، قال الحافظ العراقي : (وهو حديث منكر ، لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٧/١١٥) .

(٢) لما روى الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٢٢) عن جابر رضي الله عنه .

(٣) لما روى النسائي (٣/١٨٨) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) لما روىٰ مسلم (٨٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري (٦٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٦) لما روى البخاري (٣٢٠٦) ، ومسلم (٨٩٩) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقوله : (أو تحين الصلاة ، أو ينشأ عارض) زيادة من (ج) .

بجدٍّ ، وإنْ غضبَ ولمْ يكنْ يغضبُ إلا للهِ . . لمْ يقمْ لغضبِهِ شيءٌ ، وكذلكَ كانَ في أمورِهِ كلِّها[1] .

وكانَ إذا نزلَ بهِ الأمرُ . . فوَّضَ الأمرَ إلى اللهِ ، وتبرَّأَ مِنَ الحولِ والقوَّةِ ، واستنزلَ الهدىٰ ، فيقولُ : « اللهمَّ ؛ أرني الحقَّ حقّاً فأتبعَهُ ، وأرني المنكرَ منكراً وارزقْني اجتنابَهُ ، وأعذْني مِنْ أنْ يشتبهَ عليَّ فأتبعَ هوايَ بغيرِ هدىً منكَ ، واجعلْ هوايَ تبعاً لطاعتِكَ ، وخذْ رضا نفسِكَ مِنْ نفسي في عافيةٍ ، واهدني لما اختُلفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذنِكَ ، إنكَّ تهدي مَنْ تشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ »[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) لما روى البخاري (٣٥٥٦) ، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب رضي الله عنه .

(٢) كما روىٰ مسلم (٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٩٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢/ ٣٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بيان أخلاقه وآدابه صلى الله عليه وسلم في الطعام

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأكلُ ما وجدَ .

وكانَ أحبُّ الطعامِ إليهِ ما كانَ علىٰ ضَفَفٍ ، **والضففُ** : ما كثرَتْ عليهِ الأيدي[(١)] .

وكانَ إذا وضعَتِ المائدةُ . . قالَ : « باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ اجعلْها نعمةً مشكورةً ، تصلُ بها نعمةَ الجنَّةِ »[(٢)] .

وكانَ كثيراً إذا جلسَ يأكلُ . . يجمعُ بينَ ركبتيهِ وبينَ قدميهِ كما يجلسُ المصلِّي ، إلا أنَّ الركبةَ تكونَ فوقَ الركبةِ ، والقدمَ فوقَ القدمِ ، ويقولُ : إنَّما أنا عبدٌ ، آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ »[(٣)] .

---

(١) كما روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٢٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، والترمذي في « الشمائل » (٧٢) بنحوه عن مالك بن دينار .

(٢) قال الحافظ العراقي : (أما التسمية . . فرواها النسائي من رواية من خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاماً . . قال : « باسم الله » الحديث ، وإسناده صالح ، وأما بقية الحديث . . فلم أجده) . « إتحاف » (٧/ ١١٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه عبد الرزاق في « المصنف » [١٠/ ٤١٥] من رواية أيوب معضلاً ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل . . احتفز وقال : « آكل كما يأكل العبد » الحديث ، وروى ابن الضحاك في « الشمائل » من حديث أنس بسند ضعيف : كان إذا قعد على الطعام . . استوفز علىٰ ركبته اليسرىٰ وأقام اليمنىٰ ، ثم قال : « إنما أنا عبد ، أجلس كما يجلس العبد ، وأفعل كما يفعل العبد » ، وروىٰ أبو الشيخ في =

وكانَ لا يأكلُ الحارَّ ، ويقولُ : « إنَّهُ غيرُ ذي بركةٍ ، وإنَّ اللهَ لمْ يطعمْنا ناراً ، فأبردُوهُ »[1] .

وكانَ يأكلُ ممَّا يليهِ[2] .

ويأكلُ بأصابعِهِ الثلاثِ ، وربَّما استعانَ بالرابعةِ[3] ، ولمْ يكنْ يأكلُ بإصبعينِ ، ويقولُ : « إنَّ ذلكَ أكلةُ الشيطانِ »[4] .

وجاءَهُ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ بفالوذجٍ ، فأكلَ منهُ ، وقالَ : « ما

= « الأخلاق » بسند جيد من حديث أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه ، وكان لا يتكىء ، أورده في صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللبزار من حديث ابن عمر : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد » ، ولأبي يعلىٰ من حديث عائشة [٤٩٢٠] : « آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » ، وإسنادهما ضعيف) . « إتحاف » (١١٦/٧) .

(١) روى الحاكم في « المستدرك » (١١٨/٤) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « أبردوا الطعام الحار ؛ فإن الطعام الحار غير ذي بركة » ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٧٠٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بصحفة تفور ، فأشرع يده فيها ، ثم رفع يده فقال : « إن الله لم يطعمنا ناراً » .

(٢) ويأمر بذلك كما في « البخاري » (٥٣٧٦) ، و« مسلم » (٢٠٢٢) .

(٣) أما أكله بالثلاث . . فعند مسلم (٢٠٣٢) ، وأما استعانته بالرابعة . . فعند أبي بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٩٦١) عن عبد الله بن عامر عن أبيه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أكل . . أكل بثلاث أصابع ويستعين بالرابعة) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٤٩٥٣) عن الزهري مرسلاً : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بالخمس) .

(٤) لما روى الطبراني في « الكبير » (١٢٦/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

هـٰذا يا أبا عبدِ اللهِ ؟ » قالَ : بأبي أنتَ وأمِّي ، نجعلُ السمنَ والعسلَ في البُرْمةِ ونضعُها على النارِ ، ثمَّ نغليهِ ، ثمَّ تأخذُ مخَّ الحنطةِ إذا طُحنَتْ ، فنلقيهِ على السمنِ والعسلِ في البرمةِ ، ثمَّ نسوطُهُ حتَّىٰ ينضجَ فيأتي كما ترىٰ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هـٰذا الطعامَ طيِّبٌ »(١) .

وكانَ يأكلُ خبزَ الشعيرِ غيرَ منخولٍ(٢) .

وكانَ يأكلُ القثاءَ بالرطبِ وبالملحِ(٣) .

وكانَ أحبُّ الفواكهِ الرطبةِ إليهِ البطيخَ والعنبَ(٤) .

وكانَ يأكلُ البطيخَ بالخبزِ وبالسكرِ(٥) ، وربَّما أكلَهُ بالرطبِ .

---

(١) كما روى البيهقي في « الشعب » (٥٥٣٢) من حديث ليث بن أبي سليم مرسلاً ، وابن ماجه (٣٣٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) كما في « البخاري » (٥٤١٣) .

(٣) أما أكل القثاء بالرطب . . فعند البخاري (٥٤٤٠) ، ومسلم (٢٠٤٣) ، وأما أكلها بالملح . . فقال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ من حديث عائشة ، وفيه يحيى بن هاشم ، كذبه ابن معين وغيره ، ورواه ابن عدي ـ في « الكامل » [٤/ ٣٣٥] ـ وفيه عباد بن كثير ، متروك) . « إتحاف » (٧/ ١١٨) .

(٤) روىٰ أبو داوود (٣٨٣٦) ، والترمذي (١٨٤٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل البطيخ بالرطب) ، وقال الحافظ العراقي : (روىٰ أبو نعيم في « الطب النبوي » من رواية أمية بن زيد العبسي : أن النبي صلى الله عليه وسلم يحب من الفاكهة العنب والبطيخ) . « إتحاف » (٧/ ١١٨) .

(٥) أما أكل البطيخ بالخبز . . فقال الحافظ العراقي : (لم أره ، وإنما وجدت أكله العنب بالخبز في حديث عائشة عند ابن عدي بسند ضعيف) . « إتحاف » (٧/ ١١٨) ، وأما أكل البطيخ بالسكر . . فالسكر في زمنه صلى الله عليه وسلم هو نوع من التمر ، بل هو =

ويستعينُ باليدينِ جميعاً(١) .

وأكلَ يوماً رطباً كانَ في يمينِهِ ، وكانَ يحفظُ النوىٰ في يسارِهِ ، فمرَّتْ شاةٌ ، فأشارَ إليها بالنوىٰ ، فجعلَتْ تأكلُ في كفِّهِ اليسرىٰ ، وهوَ يأكلُ بيمينِهِ حتَّىٰ فرغَ وانصرفَتِ الشاةُ(٢) .

وكانَ ربَّما أكلَ العنبَ خرطاً(٣) ، يُرىٰ رؤالُهُ علىٰ لحيتِهِ كخرزِ اللؤلؤِ ، وهوَ الماءُ الذي يتقطرُ منهُ .

وكانَ أكثرُ طعامِهِ الماءَ والتمرَ(٤) .

= الرطب الشديد الحلاوة ، وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم أكل البطيخ بالرطب قريباً تعليقاً ، وسياق المصنف يفيد المغايرة بين السكر والرطب .

(١) روىٰ أحمد في « المسند » (١/ ٢٠٤) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : (إن آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدىٰ يديه رطبات وفي الأخرىٰ قثاء ، وهو يأكل من هـٰذه ويعض من هـٰذه) ، قال الحافظ العراقي : (ولا يلزم من هـٰذا ـ لو ثبت ـ أكله صلى الله عليه وسلم بشماله ، فلعله كان يأخذ بيده اليمنىٰ من الشمال رطبة رطبة فيأكلها مع ما في يمينه ، فلا مانع من ذلك) . « إتحاف » (٧/ ١١٩) .

(٢) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٩٨٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٥٦٥) ، **خرطاً** : يقال : خرط العنقود وأخرطه . . إذا وضعه في فمه وأخذ حبه ، وخرج عرجونه عارياً ، وفي رواية ذكرها ابن الأثير : « خرصاً » بالصاد بدل الطاء ؛ أي : من غير عدد .

(٤) فعند البخاري (٥٣٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : (توفي النبي صلى الله عليه وسلم حين شبعنا من الأسودين : التمر والماء) .

وكانَ يتمجَّعُ اللبنَ بالتمرِ ويسمِّيهِ : الأطيبينِ[(١)] .

وكانَ أحبُّ الطعامِ إليهِ اللحمَ ، ويقولُ : « هوَ يزيدُ في السمعِ ، وهوَ سيِّدُ الطعامِ في الدنيا والآخرةِ ، ولوْ سألتُ ربِّي أنْ يطعمَنيهِ كلَّ يومٍ . . لفعلَ »[(٢)] .

وكانَ يأكلُ الثريدَ باللحمِ والقرعِ[(٣)] .

وكانَ يحبُّ القرعَ ويقولُ : « إنَّها شجرةُ أخي يونسَ عليهِ السلامُ »[(٤)] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : وكانَ يقولُ : « يا عائشةُ ؛ إذا طبختُمْ قدراً . . فأكثروا فيها مِنَ الدباءِ ؛ فإنَّهُ يشدُّ قلبَ الحزينِ »[(٥)] .

وكانَ يأكلُ لحمَ الطيرِ الذي يُصادُ ، وكانَ لا يتبعُهُ ولا يصيدُهُ ، ويحبُّ أنْ يُصادَ لهُ ، ويُؤتىٰ بهِ فيأكلَهُ[(٦)] .

---

(١) كما هو عند أحمد في « المسند » (٣/ ٤٧٤) من رواية إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ من رواية ابن سمعان ، قال : سمعت من علمائنا يقولون : كان أحب الطعام إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم . . . الحديث ، وللترمذي في « الشمائل » [١٧٩] من حديث جابر : أتانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا ، فذبحنا له شاة ، فقال : « كأنهم علموا أنا نحب اللحم » ، وإسناده صحيح ، ولابن ماجه [٣٣٠٥] من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم) . « إتحاف » (٧/ ١١٩) .

(٣) كما هو عند البخاري (٢٠٩٢) ، ومسلم (٢٠٤١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) لما روى البخاري (٢٠٩٢) ، ومسلم (٢٠٤١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٩٥٦) .

(٦) روىٰ أبو داوود (٣٧٩٧) ، والترمذي (١٨٢٨) من حديث سفينة رضي الله عنه قال : =

وكانَ إذا أكلَ اللحمَ . . لمْ يطأطئْ رأسَهُ إليهِ ، ويرفعُهُ إلىٰ فيهِ رفعاً ، ثمَّ ينتهشُهُ انتهاشاً(١) .

وكانَ يأكلُ الخبزَ والسمنَ(٢) .

وكانَ يحبُّ مِنَ الشاةِ الذراعَ والكتفَ ، ومِنْ القدْرِ الدُّبَّاءَ(٣) ، ومِنَ الصباغِ الخلَّ ، ومِنَ التمرِ العجوةَ(٤) .

= (أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لحم حُبارىٰ) ، وأما كونه صلى الله عليه وسلم لا يتبع الصيد . . فقد قال الحافظ العراقي : (هٰذا هو الظاهر من أحواله ، فقد قال : « من تبع الصيد . . غفل » ، رواه أبو داوود [٢٨٥٩] ، والترمذي (٢٢٥٦) ، والنسائي [١٩٥/٧] من حديث ابن عباس ، وقال الترمذي : حسن غريب ، وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني ـ في « الكبير » [٥١/٨] ـ : « قد كانت قبلي لله رسل كلهم يصطاد أو يطلب الصيد » . . فهو ضعيف جداً) .

(١) روىٰ أبو داوود (٣٧٧٩) ، والترمذي (١٨٣٥) من حديث صفوان بن أمية قال : كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فآخذ اللحم بيدي من العظم ، فقال : « أدْنِ العظم من فيك ؛ فإنه أهنأ وأمرأ » ، وعند البخاري (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه : (فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة) ، **والنهس والنهش** : أخذ اللحم بمقدم الأسنان ، فهما بمعنىً ، وقيل : النهس : لمقدم الأسنان ، والنهش : بالأسنان والأضراس .

(٢) كما في خبر أبي طلحة وأم سليم حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ طعام هو خبز مأدوم بالسمن ، وهو عند البخاري (٣٥٧٨) ، ومسلم (٢٠٤٠) .

(٣) **القدر** : أي المطبوخ في القدر .

(٤) لما روىٰ أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

ودعا في العجوةِ بالبركةِ[1] ، وقالَ : « هيَ منَ الجنَّةِ ، وشفاءٌ مِنَ السمِّ والسحرِ »[2] .

وكانَ يحبُّ مِنَ البقولِ الهندباءَ[3] ، والباذروجَ[4] ، والبقلةَ الحمقاءَ التي يُقالُ لها : الرجلةُ[5] .

وكانَ يكرهُ الكليتينِ لمكانِهما مِنَ البولِ[6] .

وكانَ لا يأكلُ مِنَ الشاةِ سبعاً : الذَّكَرَ ، والأُنثيينِ ، والمثانةَ ،

---

(١) لما روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١١/ ٢٢٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) روى الترمذي (٢٠٦٦) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٦٣٦) ، وابن ماجه (٣٤٥٣) من حديث أبي سعيد وجابر مرفوعاً : « والعجوة من الجنة ، وهي شفاء من السم » ، وعند البخاري (٥٤٤٥) ، ومسلم (٢٠٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعاً : « من تصبَّح كل يوم سبعَ تمرات عجوةً.. لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر » .

(٣) لما روىٰ أبو القاسم الجرجاني في « تاريخ جرجان » (١/ ١٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) **الباذروج** : لفظة فارسية ، وهي الريحان ، وقال الحافظ الزبيدي : (هو الريحان القرنفلي ، وهو الضيمران) . « إتحاف » (٧/ ١٢١) .

(٥) لما روى الحارث بن أسامة كما في « زوائده » (٥٣٥) ، والجرجاني في « تاريخ جرجان » (١/ ٢٤٢) أنه صلى الله عليه وسلم دعا للرجلة بالبركة فقال : « انبتي حيث شئتِ ، فأنت شفاء من سبعين داء أدناها الصداع » .

(٦) قال الحافظ العراقي : (رويناه في « جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيد الله بن الشخير » من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوي ، أحد الكذابين) . « إتحاف » (٧/ ١٢١) ، وزاد : (رواه ابن السني في كتاب « الطب النبوي ») .

والمرارةَ ، والغددَ ، والحياءَ ، والدمَ[1] ويكرهُ ذلكَ .

وكانَ لا يأكلُ الثومَ ، ولا البصلَ ، ولا الكرَّاثَ[2] .

وما ذمَّ طعاماً قطُّ ، ولكنْ إنْ أعجبَهُ . . أكلَهُ ، وإنْ كرهَهُ . . تركَهُ ، وإنْ عافَهُ . . لمْ يبغِّضْهُ إلىٰ غيرِهِ[3] .

وكانَ يعافُ الضبَّ والطحالَ ولا يحرمُهُما[4] .

---

(١) روى النهي عنها الطبراني في « الأوسط » (٩٤٧٦) من حديث ابن عمر ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهم . **والحياء هنا** : الفرج من ذوات الخف والظلف ، **والدم** : المقصود به غير المسفوح ، إذ المسفوح حرام بالإجماع .

(٢) ونهىٰ عن ذلك ، فقد روىٰ مسلم (٥٦٤) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً : « من أكل البصل والثوم والكراث . . فلا يقربنَّ مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه بنو آدم » ، وفي قصة أبي أيوب رضي الله عنه إذ بعث للنبي صلى الله عليه وسلم بطعام فيه ثوم ، فلم يأكل منه ، كما في « مسلم » (٢٠٥٣) ، وقال : « ولكني أكرهه من أجل ريحه » ، وفي « الحلية » (٦/ ٣٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يأكل الثوم ولا الكراث ولا البصل . قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ١٢٢) : (ويقاس علىٰ هٰؤلاء الفجل وكل بقلة كريهة) .

(٣) تقدم أنه صلى الله عليه وسلم ما عاب طعاماً قط .

(٤) تقدم الحديث عن حكم أكل الضب والخلاف فيه ، وهو في « الصحيحين » بأنه صلى الله عليه وسلم كان يعافه لأنه ليس في أرض قومه ، وأما الطحال . . فعند ابن ماجه (٣٣١٤) مرفوعاً : « أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان . . فالحوت والجراد ، وأما الدمان . . فالكبد والطحال » ، وروى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (إني لآكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلي أنه لا بأس به) .

وكانَ يلعقُ بأصابعِهِ الصحفةَ ويقولُ : « آخرُ الطعامِ أكثرُ بركةً »(١) .

وكانَ يلعقُ أصابعَهُ مِنَ الطعامِ حتَّىٰ تحمرَّ(٢) .

وكانَ لا يمسحُ يدَهُ بالمنديلِ حتَّىٰ يلعقَ أصابعَهُ واحدةً واحدةً ، ويقولُ : « إنَّهُ لا يُدرىٰ في أيِّ الأصابعِ البركةُ »(٣) ، وإذا فرغَ . . قالَ : « اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ ، أطعمتَ فأشبعتَ ، وسقيتَ فأرويتَ ، لكَ الحمدُ غيرَ مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغنىً عنهُ »(٤) .

وكانَ إذا أكلَ الخبزَ واللحمَ خاصَّةً . . غسلَ يديهِ غسلاً جيِّداً ، ثمَّ يمسحُ بفضْلِ الماءِ علىٰ وجهِهِ(٥) .

وكانَ يشربُ في ثلاثِ دفعاتٍ ، ولهُ فيها ثلاثُ تسمياتٍ ، وفي آخرِها ثلاثُ تحميداتٍ(٦) .

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٦٧٣٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه مسلم (٢٠٣٢) من حديث كعب رضي الله عنه ، وقوله : (حتىٰ تحمرَّ) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٢٣/٧) : (والمعنىٰ : المبالغة في لعقها ، وكأنه أخذ ذلك من رواية الترمذي في « الشمائل » (١٣٧) : كان يلعق أصابعه ثلاثاً ؛ أي : كل إصبع ثلاث مرات) .

(٣) تقدم في الحديث الذي قبله ، وفي (ط) : (في أي الطعام البركة) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٦/٤) ، ونحوه عند البخاري (٥٤٥٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٥) لما روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٥٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٦) روىٰ ذلك الطبراني في « الأوسط » (٨٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند =

وكانَ يمَصُّ الماءَ مصّاً ولا يعبُّ عبّاً[1] .

وربَّما كانَ يشربُ بنفَسٍ واحدٍ حتَّىٰ يفرغ[2] .

وكانَ لا يتنفَّسُ في الإناءِ ، بلْ ينحرفُ عنهُ[3] .

وكانَ يدفعُ فضْلَ سؤرِهِ إلىٰ مَنْ علىٰ يمينِهِ[4] ، فإنْ كانَ مَنْ علىٰ يسارِهِ أجلَّ رتبةً . . قالَ للذي علىٰ يمينِهِ : السنَّةُ أنْ تُعطىٰ ، فإنْ أحببتَ . . آثرتهُمْ »[5] .

وأُتيَ بإناءٍ فيهِ عسلٌ ولبنٌ ، فأبىٰ أنْ يشربَهُ ، وقالَ : « شربتانِ في شربةٍ ، وإدامانِ في إناءٍ واحدٍ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا

= البخاري (٥٦٣١) ، ومسلم (٢٠٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يتنفس ثلاثاً .

(١) لما روى الطبراني في « الكبير » (٢/ ٤٧) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٤٤٠) من حديث بهز .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف ، وللحاكم حديث أبي قتادة وصححه : « إذا شرب أحدكم . . فليشرب بنفس واحد » ، ولعل تأويل هـٰذين الحديثين علىٰ ترك التنفس في الإناء ، والله أعلم) . « إتحاف » (٧/ ١٢٥) .

(٣) لما روى البخاري (١٥٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) كما في « البخاري » (٢٣٥٢) ، و« مسلم » (٢٠٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) لما روى البخاري (٢٣٥١) ، ومسلم (٢٠٣٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

أحرِّمُهُ ، ولكنِّي أكرَهُ الفخرَ والحسابَ بفضولِ الدنيا غداً ، وأحبُّ التواضعَ ، فإنَّ مَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ »[١] .

وكانَ في بيتِهِ أشدَّ حياءً مِنَ العاتقِ[٢] ، لا يسألُهُمْ طعاماً ولا يتشهَّاهُ عليهِمْ، إنْ أطعموهُ . . أكلَ، وما أعطوْهُ . . قبلَ[٣] ، وما سقوهُ . . شربَ[٤] .

وكانَ ربَّما قامَ فأخذَ ما يأكلُ بنفسِهِ أوْ يشربُ[٥] .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٨٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) **العاتق** : المرأة خرجت عن خدمة أبويها ، وعن أن يملكها زوجها . « إتحاف » (١٢٦/٧) .

(٣) في غير (ج) : (وما أطعموه) بدل (وما أعطوه) .

(٤) لما روىٰ مسلم (١١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) لما روىٰ أبو داوود (٣٨٥٦) ، والترمذي (٢٠٣٧) من حديث أم المنذر الأنصارية ، والترمذي (١٨٩٢) ، وابن ماجه (٣٤٢٣) من حديث كبشة رضي الله عنها قالت : (دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشرب من في قربةٍ معلقة قائماً ، فقمت إلىٰ فيها فقطعته) .

بيان آدابه وأخلاقه صلّى الله عليه وسلّم في اللّباس

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يلبسُ مِنَ الثيابِ ما وجدَ مِنْ إزارٍ ورداءٍ ، أوْ قميصٍ أوْ جبةٍ ، أوْ غيرِ ذلكَ[١] .

وكانَ يعجبُهُ الثيابُ الخضْرُ[٢] .

وكانَ أكثرُ لباسِهِ البياضَ ، ويقولُ : « ألبسوها أحياءَكُمْ ، وكفِّنوا فيها موتاكُمْ »[٣] .

وكانَ يلبسُ القَباءَ المحشوَّ للحربِ وغيرَ المحشوِّ[٤] .

وكانَ لهُ قَباءٌ سندسٌ فيلبسُهُ ، فتحسنُ خضرتُهُ علىٰ بياضِ لونِهِ[٥] .

---

(١) لما روى البخاري (٣١٠٨) ، ومسلم (٢٠٨٠) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ١٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) لما روى الطبراني في « الأوسط » (٥٧٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأبو داوود (٤٠٦٥) ، والترمذي (٢٨١٢) عن أبي رمثة .

(٣) روىٰ أبو داوود (٣٨٧٨) ، والترمذي (٩٩٤) ، وابن ماجه (١٤٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » ، وعند النسائي (٨/ ٢٠٥) من حديث سمرة رضي الله عنه مرفوعاً : « عليكم بالبياض من الثياب ، فليلبسها أحياؤكم ، وكفنوا فيها موتاكم ؛ فإنها من خير ثيابكم » .

(٤) لما روىٰ مسلم (٢٠٧٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٥) كما روى البخاري (٢٦١٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٢٠٦) .

وكانَتْ ثيابُهُ كلُّها مشمرةً فوقَ الكعبينِ ، ويكونُ الإزارُ فوقَ ذلكَ إلىٰ نصفِ الساقِ[1] .

وكانَ قميصُهُ مشدودَ الأزرارِ ، وربَّما حلَّ الأزرارَ في الصلاةِ وغيرِها[2] .

وكانَتْ لهُ ملحفةٌ مصبوغةٌ بالزعفرانِ ، وربَّما صلَّىٰ بالناسِ فيها وحدَها[3] ، وربَّما لبسَ الكساءَ وحدَهُ ما عليهِ غيرُهُ[4] .

وكانَ لهُ كساءٌ ملبَّدٌ يلبسُهُ ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ ألبسُ كما يلبَسُ العبدُ »[5] .

وكانَ لهُ ثوبانِ لجمعتِهِ خاصَّةً سوىٰ ثيابِهِ في غيرِ الجمعةِ[6] .

وربَّما لبسَ الإزارَ الواحدَ ليسَ عليهِ غيرُهُ[7] ، ويعقدُ طرفيهِ بينَ

---

(١) كما روى الحافظ ابن طاهر في « صفوة التصوف » (ص٢٢٧) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه ، والترمذي في « الشمائل » (١٢٠) من حديث عبيد بن خالد .

(٢) لما رویٰ أبو داوود (٤٠٨٢) ، وابن ماجه (٣٥٧٨) من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٧٧٩) عن زيد بن أسلم .

(٣) كما هو عند أبي داوود من حديث قيس بن سعد رضي الله عنه ، والترمذي (٢٨١٤) من حديث قيلة بنت مخرمة .

(٤) لما روى ابن ماجه (١٠٣٢) من حديث ثابت بن الصامت رضي الله عنه .

(٥) تقدم حديث السيدة عائشة رضي الله عنها وذكرها للكساء الملبد الذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٦) لما روى الطبراني في « الأوسط » (٣٥٤٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٧) كما هو عند مسلم (١٤٧٩) في حديث هجره نساءه صلى الله عليه وسلم .

كتفيهِ(١) ، وربَّما أمَّ بهِ الناسَ على الجنائزِ(٢) .

وربَّما صلَّىٰ في بيتِهِ في الإزارِ الواحدِ ملتحفاً بهِ ، مخالفاً بينَ طرفيهِ ، ويكونُ ذلكَ الإزارُ الذي جامعَ فيهِ يومئذٍ(٣) .

وكانَ ربَّما صلَّىٰ بالليلِ في الإزارِ ، ويرتدي ببعضِ الثوبِ ممَّا يلي هدبَهُ ، ويلقي البقيَّة علىٰ بعضِ نسائِهِ ، فيصلِّي كذلكَ(٤) .

ولقدْ كانَ لهُ كساءٌ أسودُ ، فوهبَهُ ، فقالَتْ لهُ أمُّ سلمَةَ رضيَ اللهُ عنها : بأبي أنتَ وأمي ، ما فعلَ ذلكَ الكساءُ الأسودُ ؟ فقالَ : « كسوتُهُ » ، فقالَتْ : ما رأيتُ شيئاً قطُّ كانَ أحسنَ مِنْ بياضِكَ علىٰ سوادِهِ(٥) .

وقالَ أنسٌ : (وربَّما رأيتُهُ يصلِّي بنا الظهرَ في شملةٍ عاقداً بينَ طرفيها)(٦) .

---

(١) رواه البخاري (٣٥٢) عن محمد بن المنكدر .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أقف عليه) . « إتحاف » (٧/ ١٢٨) .

(٣) كما روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (٧١٤٠) من حديث معاوية رضي الله عنه .

(٤) كما روىٰ أبو داوود (٦٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) رواه أبو داوود (٤٠٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقال الحافظ العراقي : (لم أقف عليه من حديث أم سلمة) . « إتحاف » (٧/ ١٢٨) .

(٦) قال الحافظ العراقي : (رواه البزار وأبو يعلىٰ بلفظ : صلىٰ في ثوب واحد قد خالف بين طرفيه ، وللبزار : خرج في مرضه الذي مات فيه مرتدياً بثوب قطن ، فصلىٰ بالناس ، وإسنادهما صحيح ، ولابن ماجه [٣٥٥٣] من حديث عبادة بن الصامت : صلىٰ في شملة قد عقد عليها ، وفي « كامل ابن عدي » [١/ ٤١٤] : قد عقد عليها هٰكذا ، وأشار سفيان إلىٰ قفاه) . « إتحاف » (٧/ ١٢٩) ، وهو عند ابن عساكر في « تاريخ =

وكانَ يتختَّمُ[1] .

وربَّما خرجَ وفي خاتمِهِ الخيطُ المربوطُ يستذكرُ بهِ الشيءَ[2] .

وكانَ يختمُ بهِ على الكتبِ ، ويقولُ : « الخاتمُ على الكتابِ خيرٌ مِنَ التهمةِ »[3] .

وكانَ يلبسُ القلانسَ تحتَ العمائمِ وبغيرِ عِمامةٍ ، وربَّما نزعَ قلنسوتَهُ مِنْ رأسِهِ فجعلهَا سترةً بينَ يديهِ ثمَّ يصلِّي إليها[4] .

وربَّما لمْ تكنِ العِمامةُ ، فيشدُّ العصابةَ علىٰ رأسِهِ وعلىٰ جبهتِهِ[5] .

وكانَتْ لهُ عِمامةٌ تسمَّى السحابَ ، فوهبَها مِنْ عليٍّ ، فربَّما طلعَ عليٌّ

= دمشق » (٣/٣٨) : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قطيفة رومية قد عقدها علىٰ عنقه ثم صلىٰ بنا ما عليه غيرها) .

(١) كما في « البخاري » (٦٥) ، و« مسلم » (٢٠٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) كما روى ابن عدي في « الكامل » (٢/١٣) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، وابن سعد في « الطبقات » (١/٣٣٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) ختمُهُ على الكتب جاء في الحديث المتقدم الذي رواه البخاري (٦٥) ، ومسلم (٢٠٩٢) ، وأما الحديث الذي أورده المصنف . . فقال الحافظ العراقي : (لم أقف عليه) . « إتحاف » (٧/١٢٩) .

(٤) لما رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٣٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٨٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولأبي الشيخ (٣٠٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ولأبي داوود (٤٠٧٨) ، وللترمذي (١٧٨٤) من حديث ركانة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٥) كما هو عند البخاري (٩٢٧) وكان ذلك بمرض موته صلى الله عليه وسلم .

فيها ، فيقولُ : صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتاكُمْ عليٌّ في السحابِ »[1] .

وكانَ إذا لبسَ ثوباً . . يلبسُهُ مِنْ قِبَلِ ميامنِهِ[2] ، ويقولُ : « الحمدُ للهِ الذي كساني ما أواري بهِ عورتي وأتجمَّلُ بهِ في الناسِ »[3] .

وإذا نزعَ ثوبَهُ . . أخرجَهُ مِنْ مياسرِهِ[4] .

وكانَ لهُ ثوبٌ لجمعتِهِ خاصَّةً سوىٰ ثيابِهِ لغيرِ الجمعةِ .

وكانَ إذا لبسَ جديداً . . أعطىٰ خَلَقَ ثيابِهِ مسكيناً ، ثمَّ يقولُ : « ما مِنْ مسلمٍ يكسو مسلماً مِنْ سَمَلِ ثيابِهِ ، لا يكسوهُ إلا للهِ . . إلا كانَ في ضمانِ اللهِ وحرزِهِ وخيرِهِ ما واراهُ حيّاً وميّتاً »[5] .

وكانَ لهُ فراشٌ مِنْ أدمٍ ، حشوهُ ليفٌ ، طولُهُ ذراعانِ أوْ نحوُهُ ، وعرضُهُ ذراعٌ وشبرٌ أوْ نحوُهُ[6] .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٣٩٠) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٢٩٧) .

(٢) كما في « الترمذي » (١٧٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٦٠) ، وابن ماجه (٣٥٥٧) من حديث عمر رضي الله عنه .

(٤) كما هو عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٧٨٢) بنحوه .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٨٧٣) من حديث عمر رضي الله عنه ، وليس فيه ذكر التصدق .

(٦) رواه مسلم (٢٠٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وليس فيه ذكر الطول والعرض ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤٦٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

وكانَتْ لهُ عباءةٌ تفرشُ لهُ حيثما تنقلَ ، تُثْنىٰ طاقينِ تحتَهُ[١] .

وكانَ ينامُ على الحصيرِ ليسَ تحتَهُ شيءٌ غيرُهُ[٢] .

وكانَ مِنْ خلقِهِ تسميةُ دوابِّهِ وسلاحِهِ ومتاعِهِ ، وكانَ اسمُ رايتِهِ العقابَ[٣] ، واسمُ سيفِهِ الذي يشهدُ بِهِ الحروبَ ذو الفقارِ[٤] .

وكانَ لهُ سيفٌ يُقالُ لهُ : المِخْذَمُ ، وآخرُ يُقالُ لهُ : الرسوبُ ، وآخرُ يُقالُ لهُ : القضيبُ[٥] .

وكانتْ قَبيعَةُ سيفِهِ محلاةً بالفضةِ[٦] .

وكانَ يلبسُ المنطقةَ مِنَ الأدمِ ، فيها ثلاثُ حلقٍ مِنْ فضةٍ[٧] .

---

(١) لما روى ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٤٠٠) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) جاء هـٰذا في حديث اعتزاله صلى الله عليه وسلم زوجاته رضي الله تعالىٰ عنهن ، كما في « البخاري » (٤٩١٣) ، و« مسلم » (١٤٧٩) من حديث عمر رضي الله عنه .

(٣) روىٰ ذلك ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣٩٢) من مرسل الحسن .

(٤) كما في « الترمذي » (١٥٦١) ، و« ابن ماجه » (٢٨٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) لما روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤١٨) عن مروان بن أبي سعيد بن المعلىٰ .

(٦) روىٰ ذلك أبو داوود (٢٥٨٣) ، والترمذي (١٦٩١) ، والنسائي (٨/ ٢١٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، **والقبيعة** بوزان سفينة : التي علىٰ طرف مقبض السيف .

(٧) لما روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤١٩) من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلاً ، وحكى ابن سعد في « طبقاته » (٢/ ٣٥) في حديثه عن غزوة أحد نحوه .

وكانَ اسمُ قوسِهِ الكتومَ ، وجَعبتِهِ الكافورَ(١) .

وكانَ اسمُ ناقتِهِ القصواءَ ، وهيَ التي يُقالُ لها : العضباءُ ، واسمُ بغلتِهِ الدُّلْدُلَ ، وكانَ اسمُ حمارِهِ يعفوراً ، واسمُ شاتِهِ التي يشربُ لبنَها عينةَ(٢) .

وكانَ لهُ مطهرةٌ مِنْ فخَّارٍ يتوضَّأُ فيها ويشربُ منها ، فيرسلُ الناسُ أولادَهُمُ الصِّغارَ الذين قدْ عقلوا ، فيدخلونَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلا يُدفعونَ عنهُ ، فإذا وجدوا في المطهرةِ ماءً . . شربوا منهُ ومسحوا علىٰ وجوهِهِمْ وأجسادِهِمْ ؛ يبتغونَ بذلكَ البركةَ(٣) .

* * *

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٢/ ١٧٦) عن مروان بن أبي سعيد بن المعلى الأنصاري .

(٢) لما روى البخاري (٢٧٣٤) في حديث الحديبية ، وعنده أيضاً (٢٨٧١) من حديث أنس رضي الله عنه ، وابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٢٢) ، وأحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، والسيوطي في « الشمائل » (ص ٢٢٣) ، وابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٢٦) . وفي (ب ، ي) : (عيبة) بدل (عينة) ، وفي (ج) : (عتبة) ، وسقطت من بقية النسخ .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) ، أما التبرك بماء باشره عليه الصلاة والسلام . . فالأخبار فيه متوافرة في « الصحيحين » وغيرهما ، وأما اتخاذه صلى الله عليه وسلم مطهرة خاصة . . فلقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صاحب النعلين والوساد والمطهرة ؛ كما في « البخاري » (٣٧٤٢) .

بيان عفوه صلّى الله عليه وسلّم مع القدرة

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحلمَ الناسِ ، وأرغبَهُمْ في العفوِ معَ القدرةِ ، حتَّىٰ أُتِي بقلائدَ مِنْ ذهبٍ وفضَّةٍ ، فقسمَها بينَ أصحابِهِ ، فقامَ رجلٌ مِنْ أهلِ الباديةِ فقالَ : يا محمدُ ؛ واللهِ لئنْ أمرَكَ اللهُ أنْ تعدلَ . . فما أراكَ تعدلُ ! فقالَ : « ويحَكَ ! فمَنْ يعدلُ عليكَ بعدي ؟! » ، فلمَّا ولَّىٰ . . قالَ : « ردُّوهُ عليَّ رويداً »[1] .

وروىٰ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقبضُ للناسِ يومَ حنينٍ مِنْ فضةٍ في ثوبِ بلالٍ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ اعدلْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويحَكَ ! فمَنْ يعدلُ إذا لمْ أعدلْ ؟! فقد خبتُ إذاً وخسرتُ إنْ كنتُ لا أعدلُ » ، فقامَ عمرُ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا أضربُ عنقَهُ ؛ فإنَّهُ منافقٌ ؟ فقالَ : « معاذَ اللهِ أنْ يتحدَّثَ الناسُ أنِّي أقتلُ أصحابي »[2] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حربٍ ، فرأوا مِنَ المسلمينَ غِرَّةً ، فجاءَ رجلٌ حتَّىٰ قامَ علىٰ رأسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالسيفِ

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٧١) .
(٢) رواه مسلم (١٠٦٣) ، وهو عند البخاري (٣٦١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

فقالَ : مَنْ يمنعُكَ منِّي ؟ فقالَ : « اللهُ » ، قالَ : فسقطَ السيفُ مِنْ يدِهِ ، فأخذَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ السيفَ وقالَ : « مَنْ يمنعُكَ منِّي ؟ » فقالَ : كُنْ خَيْرَ آخذٍ ، قالَ : « قُلْ : أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ » ، فقالَ : لا ، غيرَ أنِّي لا أقاتلُكَ ، ولا أكونُ معَكَ ، ولا أكونُ معَ قومٍ يقاتلونَكَ ، فخلَّىٰ سبيلَهُ ، فجاءَ أصحابَهُ فقالَ : جئتُكُمْ مِنْ عندِ خيرِ الناسِ[١] .

ورویٰ أنسٌ أنَّ يهوديةً أتتِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بشاةٍ مسمومةٍ ليأكلَ منها ، فجيءَ بها إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَها عنْ ذلكَ ، فقالَتْ : أردتُ قتلَكَ ، فقالَ : « ما كانَ اللهُ ليسلِّطَكِ علىٰ ذلكَ » ، قالوا : أفلا نقتلُها ؟ فقالَ : « لا »[٢] .

وسحرَهُ رجلٌ مِنَ اليهودِ ، فأخبرَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ بذلكَ حتَّى استخرجَهُ وحلَّ العقدَ ، فوجدَ لذلكَ خفَّةً ، وما ذكرَ ذلكَ لليهوديِّ ولا أظهرَهُ عليهِ قطُّ[٣] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٩) ، واسم الرجل : غورث بن الحارث ، وأصل القصة عند البخاري (٣٩١٠) ، ومسلم (٨٤٣) .

(٢) رواه البخاري (٢٦١٧) ، ومسلم (٢١٩٠) ، وعلىٰ رواية قتلها كما هي عند أبي داوود (٤٥١٢) فإنما اقتصَّ منها النبي صلى الله عليه وسلم لموت بشر بن البراء بن معرور بسمِّها ، وكان ذلك عام خيبر .

(٣) رواه النسائي (٧/ ١١٢) من حديث زيد بن الأرقم رضي الله عنه ، وأصله عند البخاري (٣٢٦٨) ، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : بعثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنا والزبيرَ والمقدادَ فقالَ : « انطلقوا حتَّىٰ تأتوا روضةَ خاخٍ ، فإنَّ بها ظعينةً معها كتابٌ فخذوهُ منها » ، فانطلقْنا ، حتَّىٰ أتينا روضةَ خاخٍ فإذا الظعينةُ ، فقلنا : أخرجي الكتابَ ، فقالَتْ : ما معي كتابٌ ، فقلنا : لتُخرجنَّ الكتابَ أوْ لننزعنَّ الثيابَ ، فأخرجتْهُ مِنْ عقاصِها ، فأتينا بهِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا فيهِ : مِنْ حاطبِ بنِ أبي بلتعةَ إلىٰ أناسٍ مِنَ المشركينَ بمكَّةَ ، يخبرُهُمْ أمراً مِنْ أمرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا حاطبُ ؛ ما هـٰذا ؟ » قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ لا تعجلْ عليَّ ، إنِّي كنتُ امرأً ملصقاً في قومي ، وكانَ مَنْ معَكَ مِنَ المهاجرينَ لهُمْ قراباتٌ بمكَّةَ يحمونَ أهليهِمْ ، فأحببتُ إذْ فاتَني ذلكَ منهُمْ مِنَ النسبِ أنْ أتخذَ فيهِمْ يداً يحمونَ بها قرابتي ، ولمْ أفعلْ ذلك كفراً ، ولا رضاً بالكفرِ بعدَ الإسلامِ ، ولا ارتداداً عنْ ديني ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقَكُمْ » ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : دعْني أضربْ عنقَ هـٰذا المنافقِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ شهدَ بدراً ، وما يدريكَ ؛ لعلَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدِ اطلعَ علىٰ أهلِ بدرٍ فقالَ : اعملوا ما شئتُمْ فقدْ غفرتُ لكُمْ »(١) .

وقسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قسمةً ، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ : هـٰذهِ قسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ ، فذُكِرَ ذلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ،

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

فاحمرَّ وجهُهُ وقالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ، قدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هٰذا فصبرَ »[1] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا يبلِّغُني أحدٌ منكُمْ عنْ أحدٍ مِنْ أصحابي شيئاً ؛ فإنِّي أحبُّ أنْ أخرجَ إليكُمْ وأنا سليمُ الصدرِ »[2] .

* * *

---

(1) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

(2) رواه أبو داوود (٤٨٦٠) ، والترمذي (٣٨٩٦) .

بيان إغضائه صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يكرهه

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رقيقَ البشرةِ ، لطيفَ الظاهرِ والباطنِ ، يُعرفُ في وجههِ غضبُهُ ورضاهُ .

وكانَ إذا اشتدَّ وجدُهُ . . أكثرَ مسَّ لحيتِهِ(١) .

وكانَ لا يشافِهُ أحداً بما يكرهُهُ ؛ دخلَ عليهِ رجلٌ وعليهِ صفرةٌ ، فكرهَهَا ، فلمْ يقلْ لهُ شيئاً حتَّىٰ خرجَ ، فقالَ لبعضِ القومِ : « لوْ قلتُمْ لهـٰذا أنْ يدعَ هـٰذهِ » ؛ يعني : الصفرةَ(٢) .

وبالَ أعرابيٌّ في المسجدِ بحضرتِهِ ، فهمَّ بهِ الأصحابُ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تزرموهُ » أيْ : لا تقطعوا عليهِ البولَ ، ثمَّ قالَ لهُ : « إنَّ هـٰذهِ المساجدَ لا تصلحُ لشيءٍ مِنَ هـٰذا القذرِ ، والبولِ ، والخلاءِ » ، وفي روايةٍ : « قرِّبوا ولا تنفِّروا »(٣) .

وجاءَهُ أعرابيٌّ يوماً يطلبُ منهُ شيئاً ، فأعطاهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه أبو داوود (٤١٨٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ١٣٧) : (الظاهر أن ذلك الأثر لم يكن محرماً وإلا . . لم يؤخر أمره صلى الله عليه وسلم بتركه إلىٰ مفارقته للمجلس) .

(٣) رواه البخاري (٢١٩ ، ٦١٢٨) ، ومسلم (٢٨٤) ، وعند البخاري (٢٢٠) : « إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » .

لهُ : « أحسنتُ إليكَ ؟ » قالَ الأعرابيُّ : لا ، ولا أجملتَ ، قالَ : فغضبَ المسلمونَ وقاموا إليهِ ، فأشارَ إليهِمْ أنْ كُفُّوا ، ثُمَّ قامَ ودخلَ منزلَهُ ، وأرسلَ إلى الأعرابيِّ وزادَهُ شيئاً ، ثمَّ قالَ : « أحسنتُ إليكَ ؟ » قالَ : نعمْ ، فجزاكَ اللهُ مِنْ أهلٍ وعشيرةٍ خيراً ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكَ قلتَ ما قلتَ وفي نفسِ أصحابي شيءٌ مِنْ ذلكَ ، فإنْ أحببتَ . . فقلْ بينَ أيديهِمْ ما قلتَ بينَ يديَّ حتَّىٰ يذهبَ مِنْ صدورِهِمْ ما فيها عليكَ ، قالَ : نعمْ .

فلمَّا كانَ الغدُ أوْ مِنَ العشيِّ . . جاءَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هـٰذا الأعرابيَّ قالَ ما قالَ ، فزدناهُ ، فزعمَ أنَّهُ رضيَ ، أكذلكَ ؟ » فقالَ الأعرابيُّ : نعمْ ، فجزاكَ اللهُ مِنْ أهلٍ وعشيرةٍ خيراً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مثلي ومثلَ هـٰذا الأعرابيِّ كمثلِ رجلٍ كانَتْ لهُ ناقةٌ شردَتْ عليهِ ، فاتَّبعَها الناسُ ، فلم يزيدُوها إلا نفوراً ، فناداهُمْ صاحبُ الناقةِ : خلُّوا بيني وبينَ ناقتي ؛ فإنِّي أرفقُ بها وأعلمُ ، فتوجَّهَ لها صاحبُ الناقةِ بينَ يديها ، فأخذَ لها مِنْ قمامِ الأرضِ ، فردَّها هُوْيْ هُوْيْ ، حتَّىٰ جاءَتْ واستناخَتْ ، وشدَّ عليها رحلَها ، واستوىٰ عليها ، وإنِّي لوْ تركتُكُمْ حيثُ قالَ الرجلُ ما قالَ ، فقتلتموهُ . . دخلَ النارَ »[1] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٧٥) ، وقوله : (هوي هوي) بسكون الواو والياء وضم الهاء في أوله ، اسم صوت لدعاء الناقة . انظر « الإتحاف » (٧/ ١٣٨) .

بيان سخاوته وجوده صلّى الله عليه وسلّم

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجودَ الناسِ وأسخاهُمْ ، وكانَ في شهرِ رمضانَ كالريحِ المرسلةِ لا يمسكُ شيئاً[1] .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ إذا وصفَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : كانَ أجودَ الناسِ كفّاً ، وأجرأَ الناسِ صدراً ، وأصدقَ الناسِ لهجةً ، وأوفاهُمْ بذمَّةٍ ، وألينَهُمْ عريكةً ، وأكرمَهُمْ عشرةً ، مَنْ رآهُ بديهةً . . هابَهُ ، ومَنْ خالطَهُ معرفةً . . أحبَّهُ ، يقولُ ناعتُهُ : لمْ أرَ قبلَهُ ولا بعدَهُ مثلَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وما سُئِلَ عنْ شيءٍ قطُّ على الإسلامِ إلا أعطاهُ ، وإنَّ رجلاً أتاهُ فسألَهُ ، فأعطاهُ غنماً سدَّتْ ما بينَ جبلينِ ، فرجعَ إلىٰ قومِهِ وقالَ : أسلموا ؛ فإنَّ محمداً يُعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقةَ[3] .

وما سُئِلَ شيئاً قطُّ فقالَ : لا[4] .

---

(١) رواه البخاري (٦) ، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وتقدم الحديث عن جوده صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه الترمذي (٣٦٣٨) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٨٥) واللفظ له .

(٣) رواه مسلم (٢٣١٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) تقدم بنحوه ، ورواه بلفظه هنا أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٩٢) .

وحُمِلَ إليهِ سبعونَ ألفَ درهمٍ ، فوضعَها علىٰ حصيرٍ ، ثمَ قامَ إليها فقسمَها ، فما ردَّ سائلاً حتَّىٰ فرغَ منهُ(١) .

وجاءَهُ رجلٌ يسألُهُ ، فقالَ : « ما عندي شيءٌ ، ولكنِ ابتعْ عليَّ ، فإذا جاءَنا شيءٌ . . قضيناهُ » ، فقالَ عمرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما كلَّفَكَ اللهُ ما لا تقدرُ عليهِ ، فكرهَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذلكَ ، فقالَ الرجلُ : أنفقْ ولا تخشَ مِنْ ذي العرشِ إقلالاً ، فتبسَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعُرِفَ السرورُ في وجهِهِ(٢) .

ولمَّا قفلَ مِنْ حنينٍ . . جاءَتِ الأعرابُ يسألونَهُ ، حتَّى اضطروهُ إلىٰ شجرةٍ ، فخطفَتْ رداءَهُ ، فوقفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « أعطوني ردائي ، لوْ كانَ لي عددُ هٰذهِ العِضاهِ نعماً . . لقسمتُهُ بينَكُمْ ، ثمَّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً »(٣) .

❋ ❋ ❋

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٩٥) ، وفي (أ ، ي) : (تسعون ألف) .
(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٥٥) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٩٩) .
(٣) رواه البخاري (٢٨٢١) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه .

بيان شجاعته صلّى الله عليه وسلّم

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنجدَ الناسِ وأشجعَهُمْ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لقدْ رأيتُني يومَ بدرٍ ونحنُ نلوذُ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ أقربُنا إلى العدوِّ ، وكانَ مِنْ أشدِّ الناسِ يومئذٍ بأساً)(١) .

وقالَ أيضاً : (كنَّا إذا احمرَّ البأسُ ، ولقيَ القومُ القومَ . . اتقينا برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فما يكونُ أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منهُ)(٢) .

وقيلَ : (كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قليلَ الكلامِ ، قليلَ الحديثِ ، فإذا أمرَ الناسَ بالقتالِ . . تشمَّرَ ، وكانَ منْ أشدِّ الناسِ بأساً)(٣) .

وكانَ الشجاعُ هوَ الذي يقربُ منهُ في الحربِ ، لقربِهِ مِنَ العدوِّ(٤) .

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٠٤) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/١٥٦) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٠٥) ، وعند مسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب : (كنَّا ـ والله ـ إذا احمر البأس . . نتقي به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به) يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٠٦) عن سعيد بن عياض الثمالي .

(٤) هـٰذا مفاد من حديث البراء المتقدم تعليقاً ، وفيه : (وإن الشجاع منا للذي يحاذي به) .

وقالَ عمرانُ بنُ حصينٍ : (ما لقيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كتيبةً إلا كانَ أوَّلَ مَنْ يضربُ فيها)[١] .

وقالوا : (كانَ قويَّ البطشِ)[٢] .

ولمَّا غشيَهُ المشركونَ . . نزلَ ، فجعلَ يقولُ :

« أَنَا ٱلنَّبِيُّ لا كَذِبْ	أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ »

فما رُئيَ يومئذٍ أحدٌ كانَ أشدَّ منهُ[٣] .

* * *

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١١٠) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١١٤) من رواية أبي جعفر معضلاً بلفظ : (كان شديد البطش) .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١١٩) بتمام لفظ المصنف ، وهو عند البخاري (٢٨٦٤) ، ومسلم (١٧٧٦) .

بيان تواضعه صلّى الله عليه وسلّم

كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أشدَّ الناسِ تواضعاً في علوِّ منصبِهِ ، قالَ ابنُ عامرٍ : (رأيتُهُ يرمي الجمرةَ علىٰ ناقةٍ شهباءَ ، لا ضربَ ولا طردَ ، ولا إليكَ إليكَ)(١) .

وكانَ يركبُ الحمارَ موكفاً عليهِ قطيفةٌ ، وكانَ معَ ذلكَ يستردفُ(٢) .

وكانَ يعودُ المريضَ ، ويتبعُ الجنازةَ ، ويجيبُ دعوةَ المملوكِ(٣) ، ويخصفُ النعلَ ، ويرقعُ الثوبَ ، وكانَ يصنعُ في بيتِهِ معَ أهلِهِ في حاجتِهِم(٤) .

وكانَ أصحابُهُ لا يقومونَ لهُ ؛ لما عرفوا مِن كراهتِهِ لذلكَ(٥) .

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٢٠) من حديث قدامة بن عبد الله بن عامر كما ذكره المصنف ، وهو عند الترمذي (٩٠٣) ، والنسائي (٥/ ٢٧٠) ، وابن ماجه (٣٠٣٥) .

(٢) روى البخاري (٢٩٨٧) ، ومسلم (١٧٩٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب علىٰ حمار علىٰ إكاف عليه قطيفة ، وأردف أسامة وراءه .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٢١) ، وقد تقدم نحوه .

(٤) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٢٢) .

(٥) تقدم هـٰذا والحديث عنه ، وهو عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٢٦) .

وكانَ يمرُّ على الصبيانِ فيسلِّمُ عليهِمْ .

وأُتيَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ ، فأَرعدَ مِنْ هيبتِهِ ، فقالَ : « هوِّنْ عليكَ ، فلستُ بملكٍ ، إنَّما أَنا ابنُ امرأَةٍ مِنْ قريشٍ تأكلُ القديدَ »[(١)] .

وكانَ يجلسُ بينَ أصحابِهِ مختلطاً بهِمْ كأنَّهُ أحدُهُمْ ، فيأتي الغريبُ فلا يدري أَيُّهُمْ هوَ حتَّىٰ يسألَ ، حتَّىٰ طلبوا إليهِ أنْ يجلسَ مجلساً يعرفُهُ الغريبُ ، فبنوا لهُ دُكَّاناً مِنْ طينٍ فكانَ يجلسُ عليهِ[(٢)] .

وقالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كُلْ ـ جعلَني اللهُ فداكَ ـ متكئاً ؛ فإِنَّهُ أهونُ عليكَ ، قالَتْ : فأصغىٰ برأسِهِ حتَّىٰ كادَ أَنْ تصيبَ جبهتُهُ الأرضَ ، ثمَّ قالَ : « بلْ آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ »[(٣)] .

وكانَ لا يأكلُ علىٰ خوانٍ ولا في سُكُرُّجَةٍ حتَّىٰ لحقَ باللهِ تعالىٰ[(٤)] .

وكانَ لا يدعوهُ أحدٌ مِنْ أَصحابِهِ وغيرِهِمْ إلا قالَ : « لبَّيكَ »[(٥)] .

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٣٨) ، ونحوه عند ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه .

(٢) تقدم ، ولفظه هنا عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٣٩) .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٤٠) .

(٤) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (١٤١) ، وأصله عند البخاري (٥٣٨٦) ، وقد تقدم .

(٥) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٢) ، وعند النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٩٧) عن محمد بن حاطب قال : تناولتُ قدراً كانت لي ، =

وكانَ إذا جلسَ معَ الناسِ إنْ تكلَّموا في معنى الآخرةِ. . أخذَ معَهُمْ ، وإنْ تحدَّثوا في طعامٍ أوْ شرابٍ. . تحدَّثَ معَهُمْ ، وإنْ تكلَّموا في الدنيا. . تحدَّثَ معَهُمْ[١] ؛ رفقاً بهِمْ ، وتواضعاً لهُمْ .

وكانوا يتناشدونَ الشعرَ بينَ يديهِ أحياناً ، ويذكرونَ أشياءَ مِنْ أمرِ الجاهليةِ ، ويضحكونَ ، فيتبسمُ هوَ إذا ضحكوا ، ولا يزجرُهُمْ إلا عنْ حرامٍ[٢] .

* * *

= فاحترقت يدي ، فانطلقت بي أمي إلىٰ رجل جالس ، فقالت له : يا رسول الله ؛ فقال : « لبيك وسعديك » الحديث .

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٣٢٢) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٦) .

بيان صورته وخلقته صلّى الله عليه وسلّم

كانَ مِنْ صفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قامتِهِ أنَّهُ لمْ يكنْ بالطويلِ البائنِ ، ولا بالقصيرِ المتردِّدِ ، بلْ كانَ يُنسبُ إلى الرَّبعةِ إذا مشىٰ وحدَهُ ، ومعَ ذلكَ فلمْ يكنْ يماشيهِ أحدٌ مِنَ الناسِ يُنسبُ إلى الطولِ إلا طالَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولربما اكتنفَهُ الرجلانِ الطويلانِ فيطولُهُما ، فإذا فارقاهُ . . نُسبا إلى الطولِ ، ونُسبَ هوَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلى الربعةِ، ويقولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « جُعلَ الخيرُ كلُّهُ في الرَّبعةِ »[1] .

وأمَّا لونُهُ : فقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أزهرَ اللونِ ، ولمْ يكنْ بالآدمِ ، ولا بالشديدِ البياضِ ، والأزهرُ : هوَ الأبيضُ الناصعُ الذي لا تشوبُهُ صفرةٌ ولا حمرةٌ ولا شيءٌ مِنَ الألوانِ .

ونعتَهُ عمُّهُ أبو طالبٍ فقالَ[2] : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمالُ ٱلْيَتَامَىٰ عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ[3]

---

(١) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (١/ ٢٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن خبر طويل سيأتي تمامه ، وسياق المصنف في هـٰذا البيان عنده ، ورواه أيضاً ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ٣٥٦) من طريق البيهقي .

(٢) ديوانه (ص ٧٥) .

(٣) رواه البخاري (١٠٠٩) ، وابن ماجه (١٢٧٢) ، **والثمال** : العِماد والملجأ ، **والعصمة** : ما يعتصم به ويتمسك .

ونعتَهُ بعضُهُمْ بأنَّهُ مشربٌ بحمرةٍ ، فقالَ : إنَّما كانَ المشربُ منهُ بالحمرةِ ما ظهرَ للشمسِ والرياحِ ؛ كالوجهِ والرقبة ، والأزهرُ الصافي عنِ الحمرةِ ما تحتَ الثيابِ منهُ .

وكانَ عرقُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وجهِهِ كاللؤلؤِ أطيبَ مِنَ المسكِ الأَذْفَرِ .

وأمَّا شعرُهُ : فقدْ كانَ رجْلَ الشعرِ حسنَهُ ، ليسَ بالسبْطِ ، ولا الجعْدِ القطَطِ ، وكانَ إذا مشطَهُ بالمشطِ . . يأتي كأنَّهُ حُبُكُ الرمْلِ(١) .

وقيلَ : كانَ شعرُهُ يضربُ منكبيهِ ، وأكثرُ الروايةِ أنَّهُ كانَ إلىٰ شحمةِ أذنيهِ .

وربَّما جعلَهُ غدائرَ أربعاً تخرجُ كلُّ أُذُنٍ مِن بينِ غديرتينِ ، وربَّما جعلَ شعرَهُ علىٰ أذنيهِ ، فتبدو سوالفُهُ تتلألأُ .

وكانَ شَيْبُهُ في الرأسِ واللحيةِ سبعَ عشرةَ شعرةً ، ما زادَ علىٰ ذلكَ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحسنَ الناسِ وجهاً وأنورَهُمْ ، لمْ يصفْهُ واصفٌ إلا شبَّهَهُ بالقمرِ ليلةَ البدرِ ، وكانَ يُرىٰ رضاهُ وغضبُهُ في وجهِهِ لصفاءِ بشرتِهِ ، وكانوا يقولونَ : هوَ كما وصفَهُ صاحبُهُ أبو بكرٍ الصديقُ رضِيَ اللهُ عنهُ حيثُ يقولُ(٢) : [من الوافر]

أَمِينٌ مُصْطَفىً لِلْخَيْرِ يَدْعُو كَضَوْءِ ٱلْبَدْرِ زايَلَهُ ٱلظَّلامُ

---

(١) أي : فيه شيء لطيف من التكسر .
(٢) ديوانه (ص ٣٦) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ واسعَ الجبهةِ ، أزجَّ الحاجبينِ سابغَهُما ، وكانَ أبلجَ ما بينَ الحاجبينِ ، كأنَّ ما بينَهُما الفضةُ المخلصةُ .

وكانَتْ عيناهُ نجلاوينِ أدعجَهُما ، وكانَ في عينيهِ تمزُّجٌ منْ حمرةٍ ، وكانَ أهدبَ الأشفارِ ، حتَّىٰ تكادُ تلتبسُ مِنْ كثرتِها .

وكانَ أقنى العِرنينِ ؛ أيْ : مستويَ الأنفِ .

وكانَ مفلَّجَ الأسنانِ ؛ أيْ : متفرِّقَها ، وكانَ إذا افترَّ ضاحكاً . . افترَّ عنْ مثلِ سنا البرقِ إذا تلألأَ .

وكانَ مِنْ أحسنِ عبادِ اللهِ شفتينِ ، وألطفِهِمْ ختْمَ فمٍ .

وكانَ سهلَ الخدَّينِ صلبَهُما ، ليسَ بالطويلِ الوجهِ ولا المُكَلْثَمِ[1] ، كثَّ اللحيةِ ، وكانَ يعفي لحيتَهُ ويأخذُ منْ شاربِهِ .

وكانَ أحسنَ عبادِ اللهِ عنقاً ، لا يُنسبُ إلى الطولِ ولا إلى القصرِ ، ما ظهرَ مِنْ عنقِهِ لِلشمسِ والرياحِ فكأنَّهُ إبريقُ فضَّةٍ مشربٌ ذهباً ، يتلألأُ في بياضِ الفضةِ وفي حمرةِ الذهبِ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عريضَ الصدرِ ، لا يعدو لحمُ بعضِ بدنِهِ بعضاً ، كالمرايا في استوائِهِ ، وكالقمرِ في بياضِهِ[2] ، موصولَ ما بينَ لبَّتِهِ

---

(١) المكلثم : المدور الوجه .

(٢) وعبارة البيهقي في « دلائل النبوة » (١/ ٣٠٤) : (وكان عريض الصدر ممسوحه ، كأنه المرايا في شدتها واستوائها ، لا يعدو بعض لحمه بعضاً ، علىٰ بياض القمر ليلة البدر) .

وسرَّتِه بشعرٍ منقادٍ كالقضيبِ ، لمْ يكنْ في صدرِهِ ولا بطنِهِ شعرٌ غيرُهُ .

وكانتْ لهُ عُكَنٌ ثلاثٌ يغطِّي الإزارُ منها واحدةً ويظهرُ اثنتانِ[1] .

وكانَ عظيمَ المنكبينِ أشعرَهُما ، ضخمَ الكراديسِ ؛ أيْ : رؤوسِ العظامِ مِنَ المنكبينِ والمرفقينِ والوَرِكَينِ .

وكانَ واسعَ الظهرِ ، ما بينَ كتفيهِ خاتمُ النبوَّةِ ، وهوَ ممَّا يلي منكبَهُ الأيمنَ ، فيهِ شامةٌ سوداءُ تضربُ إلى الصفرةِ ، حولَها شعراتٌ متوالياتٌ كأنَّها مِنْ عُرْفِ فرسٍ .

وكانَ عبْلَ العضدينِ والذراعينِ ، طويلَ الزَّنْدينِ ، رحْبَ الراحتينِ ، سائلَ الأطرافِ ، كأنَّ أصابعَهُ قضبانُ الفضَّةِ ، كفُّهُ ألينُ مِنَ الخزِّ ، كأنَّ كفَّهُ كفُّ عطَّارٍ طيباً ، مسَّها بطيبٍ أوْ لمْ يمسَّها ، يصافحُهُ المصافحُ فيظلُّ يومَهُ يجدُ ريحَها ، ويضعُ يدَهُ علىٰ رأسِ الصبيِّ فيُعرفُ مِنْ بينِ الصبيانِ بريحِها علىٰ رأسِهِ .

وكانَ عَبْلَ ما تحتَ الإزارِ مِنَ الفخذِ والساقِ .

وكانَ معتدلَ الخَلْقِ في السمنِ ، بدنَ في آخرِ زمانِهِ ، وكَانَ لحمُهُ متماسكاً يكادُ يكونُ على الخلقِ الأوَّلِ لمْ يضرَّهُ السمنُ .

وأمَّا مشيُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فكانَ يمشي كأنَّما يتقلَّعُ مِنْ صخرٍ ،

---

(١) وعند البيهقي روايتان ، فقال زيادة علىٰ ما هنا : (ومنهم من قال : يغطي الإزار منها ثنتين وتظهر واحدة ، تلك العكن أبيض من القباطي المطواة وألين مسّاً) .

وينحدرُ مِنْ صببٍ ، يخطو تكفِّياً ، ويمشي الهوينىٰ بغيرِ تبخترٍ : والهوينىٰ : تقاربُ الخطا .

وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يقولُ : « أنا أشبهُ النّاسِ بآدمَ عليهِ السلامُ ، وكانَ أبي إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أشبهَ النّاسِ بي خَلْقاً وخُلُقاً »(١) .

وكانَ يقولُ : « إنَّ لي عندَ ربِّي عشرةَ أسماءٍ : أنا محمَّدٌ ، وأنا أحمدُ ، وأنا الماحي الّذي يمحو اللهُ بي الكفرَ ، وأنا العاقبُ الذي ليسَ بعدَهُ أحدٌ ، وأنا الحاشرُ يحشرُ اللهُ العبادَ علىٰ قدمي ، وأنا رسولُ الرّحمةِ ، ورسولُ التّوبةِ ، ورسولُ الملاحمِ ، والمقفِّي قفيتُ النّاسَ جميعاً ، وأنا قُثَمُ »(٢) ، قال أبو البختري : والقثمُ : الكاملُ الجامعُ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) هنا تمَّ الحديث الذي ابتدأ ببداية البيان الذي ساقه المصنف ، وهٰذا الحديث قطعة منه ، وقد تصرف المصنف رحمه الله تعالىٰ ببعض ألفاظه ، وسبقت الإشارة إلىٰ تخريجه .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ٦٤) ، ونحوه بزيادة ونقص عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ٢٨) عن أبي الطفيل وقال : (حفظت منها ثمانية) ، وذكر سيف بن وهب أن أبا جعفر قال : (إن الاسمين الباقيين يس وطه) .

وعند البخاري (٣٥٣٢) ، ومسلم (٢٣٥٤) مرفوعاً : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس علىٰ قدمي ، وأنا العاقب » .

وعند مسلم (٢٣٥٥) عن أبي موسى الأشعري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والمقفي ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم

اعلمْ : أنَّ مَنْ شاهدَ أحوالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوْ أصغىٰ إلىٰ سماعِ أخبارِهِ المشتملةِ علىٰ أخلاقِهِ ، وأفعالِهِ وأحوالِهِ ، وعاداتِهِ وسجاياهُ ، وسياستِهِ لأصنافِ الخلقِ ، وهدايتِهِ إلىٰ ضبطِهِمْ وتألُّفِهِ أصنافَ الخلقِ ، وقودِهِ إيَّاهُمْ إلىٰ طاعتِهِ ، معَ ما يُحكىٰ مِنْ عجائبِ أجوبتِهِ في مضايقِ الأسئلةِ ، وبدائعِ تدبيراتِهِ في مصالحِ الخلقِ ، ومحاسنِ إشاراتِهِ في تفصيلِ ظاهرِ الشرعِ ، الذي يعجزُ الفقهاءُ والعقلاءُ عنْ إدراكِ أوائلِ دقائقِها في طولِ أعمارِهِمْ . . لمْ يبقَ لهُ ريبٌ ولا شكٌّ في أنَّ ذلكَ لمْ يكنْ مكتسباً بحيلةٍ تقومُ بها القوَّةُ البشريَّةُ ، بلْ لا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا بالاستمدادِ مِنْ تأييدٍ سماويٍّ وقوَّةٍ إلـٰهيَّةٍ ، وأنَّ ذلكَ كلَّهُ لا يُتصوَّرُ لكذَّابٍ ولا ملبِّسٍ ، بلْ كانَتْ شمائلُهُ وأحوالُهُ شواهدَ قاطعةً بصدقِهِ ، حتَّىٰ إنَّ العربيَّ القُحَّ كانَ يراهُ فيقولُ : (واللهِ ؛ ما هـٰذا وجهَ كذَّابٍ)(١) ، فكانَ يشهدُ لهُ بالصدْقِ بمجرَّدِ شمائلِهِ ، فكيفَ مَنْ شاهدَ أخلاقَهُ ، ومارسَ أحوالَهُ في جميعِ مصادرِهِ ومواردِهِ ؟!

وإنَّما أوردْنا بعضَ أخلاقِهِ لتُعرفَ محاسنُ الأخلاقِ ، وليُتنبَّهَ لصدقِهِ

---

(١) روى الترمذي (٢٤٨٥) ، وابن ماجه (١٣٣٤) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (فلما استثبتُّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلوِّ منصبهِ ومكانتِهِ العظيمةِ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ آتاهُ اللهُ جميعَ ذلكَ ، وهوَ رجلٌ أميٌّ لم يمارسِ العلمَ ، ولمْ يطالعِ الكتبَ ، ولمْ يسافرْ قطُّ في طلبِ علمٍ ، ولمْ يزلْ بينَ أظهرِ الجهَّالِ مِنَ الأعرابِ يتيماً ضعيفاً مستضعفاً ، فمِنْ أينَ حصلَ لهُ مِنْ محاسنِ الأخلاقِ والآدابِ ومعرفةِ مصالحِ الفقْهِ مثلاً فقطْ دونَ غيرِهِ مِنَ العلومِ فضلاً عنْ معرفتِهِ باللهِ تعالىٰ وملائكتِهِ وكتبِهِ ، وغيرِ ذلكَ مِنْ خواصِّ النبوَّةِ . . لولا صريحُ الوحيِ ؟! ومِنْ أينَ للبشرِ الاستقلالُ بذلكَ ؟!

فلو لمْ يكنْ لهُ إلا هـٰذهِ الأمورُ الظاهرةُ . . لكانَ فيهِ كفايةٌ .

وقدْ ظهرَ مِنْ آياتِهِ ومعجزاتِهِ ما لا يستريبُ فيهِ محصِّلٌ ، فلنذكرْ مِنْ جملتِها ما استفاضَتْ بهِ الأخبارُ ، واشتملَتْ عليهِ الكتبُ الصحيحةُ ، إشارةً إلىٰ مجامعِها مِنْ غيرِ تطويلٍ بحكايةِ التفصيلِ .

فقدْ خرقَ اللهُ العادةَ علىٰ يدِهِ غيرَ مرَّةٍ ؛ إذْ شقَّ لهُ القمرَ بمكَّةَ لمَّا سألتْهُ قريشٌ آيةً (١) .

وأطعمَ النفرَ الكثيرَ في منزلِ جابرٍ (٢) ، وفي منزلِ أبي طلحةَ ، ويومَ الخندقِ (٣) .

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٦ ، ٣٨٦٨) ، ومسلم (٢٨٠٠ ، ٢٨٠٢) .
(٢) رواه البخاري (٤١٠١ ، ٤١٠٢) ، ومسلم (٢٠٣٩) .
(٣) رواه البخاري (٣٥٧٨) ، ومسلم (٢٠٤٠) .

ومرَّةً أطعمَ ثمانينَ مِنْ أربعةِ أمدادِ شعيرٍ وعناقٍ ، وهوَ مِنْ أولادِ المعزِ فوقَ العتودِ(١) .

ومرَّةً أكثرَ مِنْ ثمانينَ رجلاً مِنْ أقراصِ شعيرٍ حملَها أنسٌ في يدِهِ(٢) .

ومرَّةً أهلَ الجيشِ مِنْ تمرٍ يسيرٍ ساقَتْهُ بنتُ بشيرٍ في يدِها ، فأكلوا كلُّهُمْ حتَّىٰ شبعوا مِنْ ذلكَ وفضلَ لهُمْ(٣) .

ونبعَ الماءُ مِنْ بينِ أصابعِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فشربَ أهلُ العسكرِ كلُّهُمْ وهمْ عطاشٌ ، وتوضَّؤوا مِنْ قدحٍ صغيرٍ ضاقَ عنْ أنْ يبسطَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يدَهُ فيهِ(٤) .

وأهراقَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وضوءَهُ في عينِ تبوكَ ولا ماءَ فيها ، ومرَّةً

---

(١) كذا في النسخ : (ثمانين) ، والصواب : ثمان مئة كما يدل له سياق القصة . « إتحاف » (٧/ ١٦٧) ، قال الحافظ العراقي : (رواه الإسماعيلي في « صحيحه » ، ومن طريقه البيهقي في « الدلائل » [٣/ ٤٢٢] من حديث جابر ، وفيه : إنهم كانوا مئة أو ثلاث مئة ، وهو عند البخاري دون ذكر العدد ، وفي رواية لأبي نعيم : وهم ألف) ، وقوله : (مرة) فيما يأتي : إشارة إلىٰ زمن غزوة الخندق .

(٢) رواه مسلم (٢٠٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣/ ٤٢٧) من حديث ابنة بشير بن سعيد ، وكان ذلك مع أهل الخندق .

(٤) نبع الماء الشريف من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم لوضوء أصحابه رضي الله عنهم عند البخاري (١٦٩) ، ومسلم (٢٢٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، وحديث شربهم وهم عطاش عند البخاري (٣٥٧٦) ، ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

أخرىٰ في بئرِ الحديبيةِ فجاشتا بالماءِ ، فشربَ مِنْ عينِ تبوكَ أهلُ الجيشِ وهمْ ألوفٌ حتَّىٰ رووا ، وشربَ مِنْ بئرِ الحديبيةِ ألفٌ وخمسُ مئةٍ ، ولمْ يكنْ فيها قبلَ ذلكَ ماءٌ(١) .

وأمرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يزوِّدَ أربعَ مئةِ راكبٍ مِنْ تمرٍ كانَ في اجتماعِهِ كربضةِ البعيرِ ، وهوَ موضعُ بروكِهِ ، فزوَّدَهُمْ كلَّهُمْ منهُ ، وبقيَ بجثتِهِ(٢) .

ورمى الجيشَ بقبضةٍ مِنْ ترابٍ فعميَتْ عيونُهُمْ ، ونزلَ بذلكَ القرآنُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾(٣) .

وأبطلَ اللهُ تعالى الكهانةَ بمبعثِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فعُدمَتْ ، وكانَتْ ظاهرةً موجودةً(٤) .

وحنَّ الجذعُ الذي كانَ يخطبُ إليهِ إذْ عُمِلَ لهُ المنبرُ ، حتَّىٰ سمعَ منهُ

---

(١) خبر عين تبوك رواه مسلم (٧٠٦) من حديث معاذ رضي الله عنه ، وخبر بئر الحديبية عند البخاري (٢٧٣٤) ، ومسلم (١٨٠٧) ، وكانوا ألفاً وأربع مئة .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٤٥) من حديث النعمان بن مقرن رضي الله عنه ، وفيه : (وكنت أنا في آخر القوم ، قال : فالتفت وما أفقد موضع تمرة وقد احتمل منه أربع مئة رجل) .

(٣) رواه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه .

(٤) رواه الخرائطي في « هواتف الجنَّان » (٤) ضمن خبر طويل مفاده ما نقله المصنف هنا ، وأصل هـٰذا عند البخاري (٧٧٣) ، ومسلم (٤٤٩) .

جميعُ أصحابِهِ مثل صَوتِ الإبلِ ، فضمَّهُ إليهِ فسكنَ(١) .

ودعا اليهودَ إلىٰ تمنِّي الموتِ ، وأخبرَهُمْ بأنَّهُمْ لا يتمنَّونَهُ ، فحيلَ بينَهُمْ وبينَ النطقِ بذلكَ ، وعجزوا عنهُ(٢) ، وهـٰذا مذكورٌ في سورةٍ يُقرأُ بها في جميعِ جوامعِ أهلِ الإسلامِ مِنْ شرقِ الأرضِ إلىٰ غربِها يومَ الجمعةِ جهراً ؛ تعظيماً للآيةِ التي فيها(٣) .

وأخبرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالغيوبِ :

وأنذرَ بأنَّ عثمانَ تصيبُهُ بلوىٰ بعدَها الجنَّةُ(٤) .

وبأنَّ عمَّاراً تقتلُهُ الفئةُ الباغيةُ(٥) .

وأنَّ الحسنَ يُصلحُ اللهُ بهِ بينَ فئتينِ مِنَ المسلمينَ عظيمتينِ(٦) .

وأخبرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عنْ رجلٍ قاتلَ في سبيلِ اللهِ أنَّهُ مِنْ أهلِ النارِ ، فظهرَ ذلكَ بأنَّ ذلكَ الرجلَ قتلَ نفسَهُ(٧) .

---

(١) رواه البخاري (٩١٨) .
(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٩٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) وهي قوله عز شأنه : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .
(٤) رواه البخاري (٣٦٧٤) ، ومسلم (٢٤٠٣) .
(٥) رواه البخاري (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٥) .
(٦) رواه البخاري (٢٧٠٤) .
(٧) رواه البخاري (٢٨٩٨) ، ومسلم (١١٢) .

وهٰذهِ كلُّها أشياءُ لا تُعرفُ ألبتةَ بشيءٍ مِنْ وجوهِ تَقْدمَةِ المعرفةِ[١] ؛ لا بنجومٍ ولا بكتفٍ[٢] ، ولا بخطٍّ ولا بزجرٍ[٣] ، لكنْ بإعلامِ اللهِ تعالىٰ لهُ ووحيِهِ إليهِ .

واتبعَهُ سراقةُ ابنُ جُعْشُمٍ ، فساخَتْ قدما فرسِهِ بالأرضِ واتَّبعهُ دخانٌ[٤] ، حتَّى استغاثَهُ ، فدعا لهُ فانطلقَتِ الفرسُ ، وأنذرَهُ بأنْ سيُوضعُ في ذراعيهِ سوارا كسرىٰ ، فكانَ كذلكَ[٥] .

وأخبرَ بمقتلِ الأسودِ العَنْسيِّ الكذَّابِ ليلةَ قتلِهِ وهوَ بصنعاءِ اليمنِ ، وأخبرَ بمَنْ قتلَهُ[٦] .

---

(١) كذا في النسخ ، وعند الحافظ الزبيدي في «إتحافه» (٧/ ١٧٩) : (تقدمت المعرفةُ بها) .

(٢) في (ب ، هـ) : (ولا بكهن) بدل (ولا بكتف) .

(٣) كما كانت أهل الجاهلية تفعله ، فكان بعضهم ينظر في النجوم وما في أحكامها من التسديس والتثليث والتربيع والمقابلة ، ومنهم من ينظر في الكتف فيخبر عن حوادث كونية ، ومنهم من يخط على الرمل خطوطاً فيخبر به عن غائب ، ومنهم من يزجر الطيور والسوانح والبوارح فيخبر بها عن أمور ستقع ، وكل ذلك حرمها الشارع وأبطل الاشتغال بها . « إتحاف » (٧/ ١٨٠) .

(٤) أي : غبار من الأرض ؛ أي : مع يبوسة الأرض .

(٥) أصل القصة عند البخاري (٣٦١٥) ، ومسلم (٢٠٠٩) ، وقصة إلباسه سواري كسرىٰ رواها البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ٣٢٥) ، وسراقة هو ابن مالك بن جعشم .

(٦) روى البخاري (٤٣٧٥) ، ومسلم (٢٢٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « بينما أنا نائم أُتيت بخزائن الأرض ، فوضع في كفي سواران من ذهب ، فكَبُرا عليَّ ، فأوحى الله إلي أن أنفخهما ، فنفختهما فذهبا ، فأوَّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما ، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة » . =

وخرجَ علىٰ مئةٍ مِنْ قريشٍ ينتظرونَهُ ، فوضعَ الترابَ علىٰ رؤوسِهِمْ ولمْ يروهُ[1] .

وشكا إليهِ البعيرُ بحضرةِ أصحابِهِ وتذلَّلَ لهُ[2] .

وقالَ لنفرٍ مِنْ أصحابِهِ مجتمعينَ : « أحدُكُمْ في النارِ ضرسُهُ مثلُ أحدٍ » فماتوا كلُّهُمْ على استقامةٍ وارتدَّ منهُمْ واحدٌ فقتلَ مرتداً[3] .

= وعند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩/ ١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الأسود العنسي فقال : « قتله الرجل الصالح فيروز بن الديلمي ، رجل من فارس » .

(١) جوامع السيرة (ص ١١) ، ورواه الطبري في « تاريخه » (٢/ ٣٧٢) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً .

(٢) رواه أبو داوود (٢٥٤٩) ، وخبر سجود الجمل له صلى الله عليه وسلم رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٥٨) .

(٣) روى الطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٨٣) عن رافع بن خديج قال : كان بالرجال بن عُنْفُوة من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير فيما يرىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء عجب ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً والرجَّال معنا جالس مع نفر ، فقال : « أحد هـٰؤلاء النفر في النار » ، قال رافع : فنظرت في القوم ، فإذا بأبي هريرة الدوسي ، وأبي أروى الدوسي ، والطفيل بن عمرو الدوسي ، ورجَّال بن عنفوة ، فجعلت أنظر وأتعجب ، وأقول : من هـٰذا الشقي ؟!

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.. رجعت بنو حنيفة ، فسألت : ما فعل الرجَّال بن عنفوة ؟ فقالوا : فتن ، هو الذي شهد لمسيلمة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أشركه في أمره من بعده ، فقلت : ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق ، وسمع الرجال يقول : كبشان انتطحا ، فأحبهما إلينا كبشنا . وانظر « جوامع السيرة » (ص ١١) .

وقالَ لآخرينَ منهُمْ : « آخرُكُمْ موتاً في النارِ ، فسقطَ آخرُهُمْ موتاً في النارِ فاحترقَ فيها فماتَ[١] .

ودعا شجرتينِ فأتتاهُ واجتمعتا ، ثمَّ أمرَهُما فافترقَتا[٢] .

وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ نحوَ الربعةِ، فإذا مشىٰ معَ الطوالِ . . طالَهُمْ .

ودعا عليهِ الصلاةُ والسلامُ النصارىٰ إلى المباهلةِ ، فامتنعوا ، وأخبرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُمْ إنْ فعلوا ذلكَ . . هلكوا ، فعلموا صحَّةَ قولِهِ ، فامتنعوا[٣] .

وأتاهُ عامرُ بنُ الطفيلِ بنِ مالكٍ ، وأربدُ بنُ قيسٍ ـ وهما فارسا العربِ وفاتكاهُمْ ـ عازمَيْنِ علىٰ قتلِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فحيلَ بينَهُما وبينَ ذلكَ ، ودعا عليهما ، فهلكَ عامرٌ بغدَّةٍ ، وهلكَ أربدُ بصاعقةٍ أحرقَتْهُ[٤] .

وأخبرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّهُ يقتلُ أبيَّ بنَ خلفٍ الجمحيَّ ، فخدشَهُ يومَ أحدٍ خدشاً لطيفاً ، فكانَتْ فيهِ منيَّتُهُ[٥] .

---

(١) رواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/ ١١٥) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ٤٥٨) .

(٢) رواه مسلم (٣٠١٢) وهو قطعة من حديث جابر رضي الله عنه الطويل .

(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٩٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد تقدمت قطعة منه قريباً .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩١٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مفصلاً ، وخبر مقتل عامر أيضاً عند أحمد في « المسند » (٣/ ٢١٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٢/ ٤٣) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٣/ ٢١١) .

وأُطعمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ السمَّ ، فماتَ الذي أكلَ معَهُ ، وعاشَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَهُ أربعَ سنينَ وكلَّمَهُ الذراعُ المسمومُ .

وأخبرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يومَ بدرٍ بمصارعِ صناديدِ قريشٍ ، ووقفَهُمْ علىٰ مصارعِهِمْ رجلاً رجلاً ، فلم يتعدَّ واحدٌ منهُمْ ذلكَ الموضعَ[1] .

وأنذرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بأنَّ طوائفَ مِنْ أمَّتِهِ يغزونَ في البحرِ ، فكانَ كذلكَ[2] .

وزُويَتْ لهُ الأرضُ فأُرِيَ مشارقَها ومغاربَها ، وأخبرَ بأنَّ ملكَ أمَّتِهِ سيبلغُ ما زُوِيَ لهُ منها ، فكانَ كذلكَ ، فقدْ بلغَ ملكُهُمْ مِنْ أوَّلِ المشرقِ ومِنْ بلادِ التركِ ، إلىٰ آخرِ المغربِ مِنْ بحرِ الأندلسِ وبلادِ البربرِ ، ولم يتَّسعوا في الجنوبِ ولا في الشمالِ ، كما أخبرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سواءً بسواءٍ[3] .

وأخبرَ فاطمةَ ابنتَهُ رضيَ اللهُ عنها بأنَّها أوَّلُ أهلِهِ لحاقاً بهِ ، فكانَ كذلكَ[4] .

وأخبرَ نساءَهُ بأنَّ أطولَهُنَّ يداً أسرعُهُنَّ لحاقاً بهِ ، فكانَتْ زينبُ بنتُ جحشٍ الأسديَّةُ أطولَهُنَّ يداً بالصدقةِ وأوَّلَهُنَّ لحوقاً بهِ رضيَ اللهُ عنها[5] .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣) .

(٢) رواه البخاري (٢٧٨٩) ، ومسلم (١٩١٢) ، وفيه خبر أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩) .

(٤) رواه البخاري (٣٦٢٤) ، ومسلم (٢٤٥٠) .

(٥) رواه مسلم (٢٤٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وفيه قولها : (فكنَّ يتطاولن =

ومسحَ ضرْعَ شاةٍ حائلٍ لا لبنَ لها فدرَّتْ ، فكانَ ذلكَ سببَ إسلامِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ[1] ، وفعلَ ذلكَ مرَّةً أخرىٰ في خيمةِ أمِّ معبدٍ الخزاعيَّةِ[2] .

وندرَتْ عينُ بعضِ أصحابِهِ فسقطَتْ ، فردَّها عليهِ الصلاةُ والسلامُ بيدِهِ ، فكانَتْ أصحَّ عينيهِ وأحسنَهُما[3] .

وتفلَ في عينِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ أرمدُ يومَ خيبرٍ ، فصحَّ مِنْ وقتِهِ ، وبعثَهُ بالرايةِ[4] .

وكانوا يسمعونَ تسبيحَ الطعامِ بينَ يديهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[5] .

= أيتهن أطول يداً ، قالت : فكانت أطولنا يداً زينب ؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدَّق) ، وعند البخاري (١٤٢٠) من حديثها : (فأخذوا قصبة يذرعونها ، فكانت سودة أطولهن يداً ، فعلمنا بعد أنما كانت طول يدها الصدقة) ، ففي هـٰذه الرواية تلفيق ، فكان طول يد سودة رضي الله عنها في الذَّرْع ، ولكن تبين أن المراد بالطول هنا لليد هو الإفضال والصدقة ، فآض الأمر إلىٰ زينب ؛ لأنها كانت كذلك ، كذا يُفاد من « مشارق الأنوار » (٢/ ٣٢١) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكان غلاماً .

(٢) تقدم حديث أم معبد قريباً .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٥٨) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٣/ ٢٥١) .

(٤) رواه البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٤) .

(٥) رواه البخاري (٣٥٧٩) .

وأُصيبَتْ رِجْلُ بعضِ أصحابِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فمسحَها بيدِهِ ، فبرأَتْ مِنْ حينِها[١] .

وقلَّ زادُ جيشٍ كانَ معَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فدعا بجميعِ ما بقيَ ، فاجتمعَ شيءٌ يسيرٌ جدّاً ، فدعا فيهِ بالبركةِ ، ثمَّ أمرَهُمْ فأخذوا ، فلمْ يبقَ وعاءٌ في العسكرِ إلا مُلِيءَ مِنْ ذلكَ[٢] .

وحكى الحكمُ بنُ أبي العاصِ مشيتَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مستهزئاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كذلكَ فكُنْ » ، فلمْ يزلْ يرتعشُ حتَّىٰ ماتَ[٣] .

وخطبَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ امرأةً ، فقالَ لهُ أبوها : إنَّ بها بَرَصاً ؛ امتناعاً مِنْ خطبتِهِ واعتذاراً ، ولمْ يكنْ بها برصٌ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فلتكنْ كذلكَ » ، فبرِصَتْ ، وهيَ أمُّ شبيبِ بنِ البرصاءِ ، الشاعرِ[٤] .

إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ آياتِهِ ومعجزاتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنَّما اقتصرنا على المستفيضِ .

---

(١) رواه البخاري (٤٠٣٩) في خبر قتل أبي رافع اليهودي ، والمقصود ببعض أصحابه : عبد الله بن عتيك رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٧) من حديث أبي هريرة أو أبي سعيد رضي الله عنهما ، كذا برواية الشك .

(٣) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ٢٣٩ـ ٢٤٠) ، ونحوه عند أبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٧١٢) ، ووقع في النسخ : (الحكم بن العاص) والتصحيح من الأصول المنقول عنها .

(٤) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣٢٤٢) .

ومَنْ يستريبُ في انخراقِ العادةِ علىٰ يدِهِ ، ويزعمُ أنَّ آحادَ هـٰذهِ الوقائعِ لمْ تُنقلْ تواتراً ، بلِ المتواترُ هوَ القرآنُ فقطْ . . فهوَ كمَنْ يستريبُ في شجاعةِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وسخاوةِ حاتمٍ الطائيِّ ، ومعلومٌ أنَّ آحادَ وقائعِهِمْ غيرُ متواترةٍ ، ولكنَّ مجموعَ الوقائعِ يورثُ علْماً ضرورياً .

ثمَّ لا يتمارىٰ في تواترِ القرآنِ ، وهيَ المعجزةُ الكبرى الباقيةُ بينَ الخلْقِ ، وليسَ لنبيٍّ معجزةٌ باقيةٌ سواهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ تحدَّىٰ بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بُلغاءَ الخلْقِ ، وفصحاءَ العربِ ، وجزيرةُ العربِ حينئذٍ مملوءةٌ بالآلافِ منهُمْ ، والفصاحةُ صنعتُهُمْ ، وبها منافستُهُمْ ومباهاتُهُمْ !

وكانَ ينادي بينَ أظهرِهِمْ أنْ يأتوا بمثلِهِ ، أوْ بعشْرِ سورٍ مثلِهِ ، أوْ بسورةٍ مِنْ مثلِهِ إنْ شكُّوا فيهِ ، وقالَ لهمُ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، وقالَ ذلكَ تعجيزاً لهُمْ ، فعجزوا عنْ ذلكَ ، وصرفوا عنهُ ، حتَّىٰ عرَّضوا أنفسَهُمْ للقتلِ ، ونساءَهُمْ وذراريَهُمْ للسبيِ ، وما استطاعوا أنْ يعارضوا ، ولا أنْ يقدحوا في جزالتِهِ وحسنِهِ .

ثمَّ انتشرَ ذلكَ بعدَهُ في أقطارِ العالمِ شرقاً وغرباً ، قرناً بعدَ قرنٍ ، وعصراً بعدَ عصرٍ ، وقدِ انقرضَ اليومَ قريبٌ مِنْ خمسِ مئةِ سنةٍ ولمْ يقدرْ أحدٌ علىٰ معارضتِهِ .

فأعظمْ بغباوةِ مَنْ ينظرُ في أحوالِهِ ، ثمَّ في أقوالِهِ ، ثمَّ في أفعالِهِ ، ثمَّ في أخلاقِهِ ، ثمَّ في معجزاتِهِ ، ثمَّ في استمرارِ شرعِهِ إلى الآنَ ، ثمَّ في انتشارِهِ

في أقطارِ العالمِ ، ثمَّ في إذعانِ ملوكِ الأرضِ لهُ في عصرِهِ وبعدَ عصرِهِ ، معَ ضعْفِهِ ويُتمِهِ . ثمَّ يتمارىٰ بعدَ ذلكَ في صدقِهِ !

وما أعظمَ توفيقَ مَنْ آمنَ بهِ ، وصدَّقَهُ ، واتبعَهُ في كلِّ وِرْدٍ وصدْرٍ !

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يوفِّقَنا للاقتداءِ بهِ في الأخلاقِ ، والأفعالِ ، والأحوالِ ، والأقوالِ ، بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ، إنَّهُ سميعٌ قريبٌ .

* * *

تمّ كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوّة

وهو آخر ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وحسن توفيقه

والصّلاة على خير خلقه محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليمًا

يتلوه ربع المهلكات

وهو الرّبع الثّالث من كتاب إحياء علوم الدّين (١)

---

(١) والحال كما قال الحافظ الزبيدي رحمه الله تعالىٰ في « إتحافه » (٧/ ١٩٩) :
تمَّ بحمد الله تعالىٰ وحسن توفيقه نصف الكتاب ـ وأنشد ـ :

حمدتُ اللهَ ربِّي إذْ هداني ... لما أبديتُ معْ عجزي وضعفي
ومَنْ لي بالخطا فأردُّ عنهُ ... ومَنْ لي بالقبولِ ولوْ بحرفِ

مُحْتَوى الكِتَاب
رُبعُ العَادَاتِ/ القِسمُ الثَّاني

كتاب آداب الصحبة والأخوة والمعاشرة مع أصناف الخلق ٧

الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها ١١
فضيلة الألفة والأخوة ١١
ـ مدار الألفة على حسن الخلق ١١
ـ البغض في الله من الإيمان، وآثار في ذلك ١٧
ـ هل تنفع المحبة وحدها دون عمل؟ ٢١
بيان معنىٰ الأخوة في الله وتمييزها عن الأخوة في الدنيا ٢٥
ـ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ٢٥
الغاية من حبك من تحب، وهي أربعة أقسام ٢٥
ـ شبه الشيء منجذب إليه بالطبع، وتعارف وتناكر الأرواح ٢٦
ـ ليس من شرط حب الله تعالى ألا يحب حظاً عاجلاً ٣٤
ـ حدُّ الحب في الله تعالى ٣٦
ـ حبُّ الموتى من العلماء والعبَّاد دليل على وجود حب لا حظَّ فيه من المحبوب ٤٠
ـ بيان البغض في الله ٤٣
الحب في الله والبغض في الله متلازمان ٤٣
ـ **تحريجة**: إسلام المسلم طاعة، فكيف أبغضه مع الإسلام ٤٤
ـ **تحريجة**: فبماذا يكون إظهار البغض؟ ٤٥
ـ أخبار في تشديدهم على العصاة والإنكار عليهم ٤٧
ـ **تحريجة**: هل يعصي العبد إن ترك إظهار البغض بالقول والفعل؟ ٤٩

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم ٥١
ـ **تحريجة**: فهل مراتب البغض تختلف باختلاف أحوال العصاة؟ ٥١
ـ أقسام الفساد في الاعتقاد ٥١
ـ صاحب البدعة سبب لغواية الخلق، فيجب التشديد عليه ٥٢
ـ حكم رد السلام على صاحب البدعة ٥٣
ـ حكم رد السلام على الفاسق في نفسه وحكم مخالطته ٥٦
بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته ٥٨
ـ فوائد الصحبة ٥٨
الباب الثاني: في حقوق الأخوة والصحبة ٦٩
الحق الأول: في المال ٦٩
الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات ٧٨
الحق الثالث: على اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرىٰ ٨٣
ـ ما يعين على ستر عيوب المسلم ٨٤
الحق الرابع: على اللسان بالنطق ٩٩
ـ مَلَكُ المنام وتمثيله للغيبة بأكل لحم الميتة ١٠٢
ـ من استثقل مثل هذه الأخلاق الحسنة.. فالعزلة أولى له ١٠٣
ـ **تحريجة**: ذكر العيوب يولِّد الإيحاش، وهو مخالف لحق الأخوة ١٠٦
الحق الخامس: العفو عن الزلاّت والهفوات ١١٠
ـ **تحريجة**: كيف تنعت طريق المواصلة باللطف والفقه ومثل هذا المقارف للذنوب تجب مقاطعته ولا تجوز مؤاخاته؟ ١١٣
الحق السادس: الدعاء للأخ في حياته ومماته ١٢١
الحق السابع: الوفاء والإخلاص ١٢٤
ـ إيثار الشافعي رضا الله تعالى على رضا الخلق في تخليف البويطي ١٢٧
الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف ١٣١

خاتمة لهذا الباب فيها جملة من آداب المعيشة والمجالسة مع أصناف الخلق . . ١٤٢
الباب الثالث: في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من يدلي بهذه الأسباب ١٤٦
ـ الحديث عن معنى الخلَّة ١٤٧
حقوق المسلم ١٥٠
ـ القيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام ١٨٦
ـ آداب عيادة المريض ٢٠٠
حقوق الجوار ٢١٢
ـ تلطُّف في الجمع بين الحقين ٢١٨
حقوق الأقارب والرحم ٢٢١
حقوق الوالدين والولد ٢٢٥
حقوق المملوك ٢٣٥

كتاب العزلة ٢٤٣
الباب الأول: في نقل المذاهب والأقاويل وذكر حجج الفريقين في ذلك . . . ٢٤٧
ـ الآثار الواردة في فضيلة العزلة ٢٤٨
ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها ٢٥٣
ذكر حجج المائلين إلىٰ تفضيل العزلة ٢٥٩
الباب الثاني: في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها ٢٦٤
ـ من جرب الأمر بالمعروف . . ندم عليه غالباً ٢٧٣
ـ سرُّ تنزُّل الرحمة عند ذكر الصالحين ٢٨١
ـ حرمة حكاية زلَّة العالم وعلة ذلك ٢٨٢
ـ الطبع اللئيم يميل إلى تتبع الهفوات والزلات ٢٨٣

ـ الإنكار على من أفطر في رمضان مع تركه على من ترك الصلاة يدل على هذا التأثر ٢٨٣
ـ مدحه سبحانه للتستُّر ٢٩٢
آفات العزلة ٢٩٩
ـ المعتزل المحتاج إلى التعلم عاص بالعزلة ٢٩٩
ـ من أكبر الكبائر الإعراض عن تعليم طالب علم لله تعالى ٣٠١
ـ من تعلم «إحياء علوم الدين» رغبة في الدنيا فيرخص له في ذلك رجاء الانزجار ٣٠٢
ـ غرور العلماء وعماهم ٣٠٥
ـ العبادة المتعدية خير من العبادة القاصرة إلا المعرفة ٣٠٦
ـ لا يستغني المعتزل عن خليل يستأنس به ٣١٠
ـ من تستحبُّ له العزلة ٣١٧
ـ على المرء أن يجرِّب أخلاقه ٣١٧
أوجه تفضيل العالم على العابد ٣١٩
ـ العلم الذي هو أفضل من العمل ٣١٩
ـ كلمة جامعة للإمام الشافعي في طلب الخلوة والجلوة ٣٢٠
ـ الفرق بين العالم والصوفي ٣٢١
ـ **تحريجة**: فما آداب العزلة لمن اختارها؟ ٣٢٣
ـ لا تقدِّر لنفسك أنك تعيش عمراً طويلاً ٣٢٥

كتاب آداب السفر ٣٢٧
ـ ذم التقليد ٣٢٩
ـ نعيم سفر الباطن ٣٣٠

الباب الأول: في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع، وفي نية السفر وفائدته ٣٣٢
الفصل الأول: في فوائد السفر وفضله ونيته ٣٣٢
أقسام الأسفار ٣٣٣
ـ الفهم عن الله جلَّت قدرته ٣٣٦
ـ خطر رحلة الباطن ٣٣٧
ـ جواز شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والأولياء ٣٣٩
ـ زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات ٣٤٠
ـ الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق ٣٤٢
ـ السياحة في الأرض وأحوال السائحين ٣٤٧
ـ العلم باق، ولكن التصوف قد ارتحل وغاب ٣٤٨
ـ حكم السياحة في الأرض ٣٤٩
ـ لا يُتصوَّر الفسق في الصوفية ٣٥٠
ـ الاحتراز عن الأكل بالدين ٣٥٠
الفصل الثاني: في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه ٣٥٣
ـ ضرورة التأمير في السفر ٣٥٥
ـ حمْل الهدية من آداب الرجوع من السفر ٣٦٩
ـ توجيه الهمة للعمل بالأدب، لا لحكايته والتباهي بلقيا الصالحين ٣٧٠
ـ ليس من غرض المسافر العشْرة ٣٧١
ـ ملازمة ذكر الله تعالى في السفر ٣٧١
الباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات ٣٧٣
ـ من له السفر بغير زاد ٣٧٣
القسم الأول: العلم برخص السفر ٣٧٥

شروط المسح على الخفين ٣٧٥
شروط القصر في الصلاة المفروضة ٣٨٠
ـ على المسافر ألا يهمل النوافل في سفره ٣٨٤
ـ الصوم أفضل من الفطر، والقصر أفضل من الإتمام ٣٨٧
ـ **تحريجة**: هل يجب العلم برخص السفر؟ ٣٨٨
ـ **تحريجة**: كيف يجب تعلُّم التيمم وهو مراد لصلاة لم تجب بعدُ؟ ٣٨٩
ـ **تحريجة**: كيف يجب تعلُّم كيفية التنفل راكباً وماشياً وغاية الأمر فساد الصلاة؟ ٣٩٠
القسم الثاني: ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر ٣٩١
أقسام أدلة القبلة ٣٩١
معنىٰ مقابلة عين الكعبة وجهتها مع التمثيل بالرسم ٣٩٤
ـ **تحريجة**: فلو خرج المسافر من غير تعلم.. هل يعصي؟ ٤٠٠
ـ حال الأعمى في توخي القبلة ٤٠١

كتاب السماع والوجد ٤٠٧
الباب الأول: في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه ٤١٢
بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه ٤١٢
ـ من نقل عنهم تحريم السماع ٤١٢
ـ من نقل عنهم إباحة السماع ٤١٤
ـ ملازمة أهل الحرمين للسماع في الأيام الفاضلة ٤١٥
ـ سماع الحارث المحاسبي مع زهده وتصاونه ٤١٦
ـ سماع ابن مجاهد وما نقل عنه في ذلك ٤١٦
ـ سماع أبي الخير العسقلاني وتصنيفه في ذلك ٤١٧
ـ ما نقل عن ممشاذ الدينوري ٤١٧

ـ ما نقل عن طاهر بن بلال الهمداني ٤١٧
ـ ما نقل عن الجنيد ٤١٨
ـ ترخيص ابن جريج فيه ٤١٨
ـ لا سبيل لفصل القول من الأخبار ٤١٩
بيان الدليل على إباحة السماع ٤٢٠
ـ النص والقياس يدلان على إباحة السماع ٤٢٠
ـ علة تحريم الملاهي أنها شعار أهل الشرب، لا للذتها ٤٢٤
ـ ثلاث علل لتحريم الملاهي ٤٢٤
ـ إذا صارت السنة شعاراً لأهل البدعة.. تركت ٤٢٥
ـ علة تحريم الضرب على الكوبة ٤٢٥
ـ كيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يديه ﷺ؟! ٤٢٨
ـ قصة الدقي مع الجمال الميتة ٤٣٣
ـ من لم يحركه السماع فهو مائل عن الاعتدال ٤٣٤
ـ اختلاف حكم السماع باختلاف تأثيره في القلوب ٤٣٤
المواضع التي يعتاد فيها الترنم بالكلمات المسجعة الموزونة ٤٣٤
ـ ضابط هام في قضية التشويق ٤٣٥
الرخص التي دلت عليها أحاديث السماع في أوقات السرور ٤٤٣
ـ إنما يحرم صوت النساء عند خوف الفتنة ٤٤٤
ـ لا يجوز للمرء أن يتمثل في نفسه صورة لا يحل له النظر إليها ٤٤٥
ـ بيان معنى الوجد ٤٤٦
ـ مناسبة النغمات للأرواح سرٌّ من عند الله تعالى ٤٤٧
ـ **تحريجة**: كيف يُتصوَّر عشق الله تعالى حتى يكون السماع محركاً له؟ ٤٤٨
ـ لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسنات البارئ سبحانه ٤٤٩

- محبة غير الله تعالى قصور وجهل ٤٥٠
- لا مثيل للمحبوب الأوحد سبحانه؛ لذا لم يقبل عشقُهُ الشركةَ ٤٥٠
- من لم يدرك من لفظ العشق إلا الوصال وقضاء شهوة الوقاع.. فهو حمار يجنَّب مثل هذه الألفاظ ٤٥١
- خبر الغلام الذي رمى نفسه طرباً لسماع عظمة الله تعالى وجلاله ٤٥١
- إنما أنزلت الكتب ليطرب الناس بذكر الله جلَّ جلاله ٤٥٢
- **تحريجة**: فهل للسماع حالة يحرم فيها؟ ٤٥٢
- **تحريجة**: هل يحرم غناء المرأة مطلقاً خوف الفتنة أم ثمَّ تفصيل؟ ٤٥٣
- صوت المرأة ليس بعورة ٤٥٣
- حكم النسيب والتشبيب ٤٥٦
- سبق المعاني الغالبة إلى الفهم وأخبار في ذلك ٤٥٦
- مواظبة العاميِّ على السماع سفاهة ٤٥٩
- **تحريجة**: إذا كان السماع مباحاً في بعض الأحوال دون بعض.. فلِمَ أطلقت القول أولاً بالإباحة؟ ٤٦٠
- ليس تحريم السماع من مذهب الإمام الشافعي أصلاً ٤٦١

بيان حجة القائلين بتحريم السماع والجواب عنها ٤٦٤

- التجويز في موضع واحد نصٌّ في الإباحة، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ٤٦٧
- معنى ينبت النفاق في حقِّ المغنِّي ٤٦٩
- الأولى ترك الغناء في أكثر الأحوال ٤٧١
- تحريك الأحوال الشريفة بالسماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ٤٧١
- أثر ترويح القلب في الإعانة على الجدِّ ٤٧٢

الباب الثاني: في آثار السماع وآدابه ٤٧٤
مقامات السماع ٤٧٤
المقام الأول: في الفهم والتنزيل ٤٧٤
ـ سماع الطبع ٤٧٤
ـ سماع أرباب الشهوات ٤٧٤
ـ سماع المريدين ٤٧٥
ـ ليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر ٤٧٦
ـ حكايات أهل السماع ٤٧٦
ـ إحكام قانون العلم قبل تقرير السماع ٤٧٧
ـ حال السكر المدهش ٤٧٨
ـ لا تجاوز حدَّ الأدب فإنه لا يسأل عما يفعل ٤٧٩
ـ سماع العارفين ٤٨٤
المقام الثاني: الوجد ٤٨٧
ـ الوجد أن تجد ما لم يكن موجوداً عندك ٤٨٩
ـ حدُّ الوجْدِ ٤٩١
أسباب حصول الكشف ٤٩٢
ـ السماع من أسباب الكشف ٤٩٢
ـ بيان المقصود من صوت الهاتف ٤٩٣
ـ تمثُّل الخضر لأهل القلوب ٤٩٤
ـ الفراسة عند أهل الصفاء ٤٩٥
ـ رفعة المعنى أحياناً عن أن تناله العبارة ٤٩٧
ـ لغة الأوتار والنغمات لها تأثير عجيب ٤٩٨
ـ لكلٍّ شوق ركنان ٤٩٩
ـ بيان معنى التواجد ٥٠٠

ـ العادة طبيعة خامسة ٥٠١
ـ طريق استجلاب الأحوال الشريفة ٥٠١
ـ **تحريجة**: وأين الوجدُ عند سماع كلامه سبحانه؟ ٥٠٢
ـ حكايات أهل الوجد عند سماع القرآن ٥٠٣
ـ لا يخلو سامع القرآن عن نوع وجد ٥٠٨
ـ **تحريجة**: فلِمَ لا نكتفي بسماع القراء عن سماع القوالين؟ ٥٠٨
ـ الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه ٥٠٨
ـ حضور الوجد مع أي مسموع قد يحصل أحياناً ٥٠٩
ـ شرطان لحضور ذلك الوجد ٥١٠
ـ رب ورقاء هتوف ٥١٠
ـ معنى كلمة الصديق رضي الله عنه: (ثم قست قلوبنا) ٥١١
ـ لا يجوز تنزيل كلامه سبحانه إلا على ما أراده ٥١٥
ـ قصة يوسف بن الحسين ووجده لسماعه بيتين من الشعر ٥١٦
المقام الثالث من السماع: آداب السماع ظاهراً وباطناً وما يحمد من آثار الوجد وما يذم ٥١٩
من هو المريد الذي يستضر بالسماع؟ ٥٢٠
ـ وظيفة من غلبه الوجد. ٥٢٢
ـ **تحريجة**: أيهما أفضل: من يظهر عليه أثر السماع أم الذي لا يظهر؟ ٥٢٣
ـ **تحريجة**: لِمَ يحضر الكامل السماع؟ ٥٢٦
ـ جواز التواجد بالرقص والتباكي ٥٢٦
ـ لا ينبغي الرقص للأكابر وأهل القدوة ٥٢٨
ـ حكم تمزيق الثياب ٥٢٨
ـ **تحريجة**: فما حكم تمزيق الثياب الجديدة بعد سكون الوجد (الخِرَق)؟ ٥٢٩
ـ مخالقة الناس بأخلاقهم من حسن العشرة ٥٣٠

- البدعة: هي ما راغم سنة مأثورة ٥٣٠
- من الأدب ترك القيام للرقص إن كان يستثقله ٥٣١
- **تحريجة**: فلِمَ تنفر الطباع عن الرقص؟ ٥٣١

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٣٥
- مكانة المتمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٣٨

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته، والمذمة في إهماله وإضاعته ٥٣٩
- لا يجوز مشاهدة المنكر مع الاعتذار بالعجز عن تغييره ٥٤٦

الباب الثاني: في أركان الأمر بالمعروف وشروطه ٥٥٥
- إنما شرط التكليف للوجوب لا لإمكان الفعل ٥٥٦
- للفاسق أن يحتسب ٥٥٧
- **تحريجة**: فلعل رجلاً لا يصوم ويتسحَّر، ولا يصلي ويتوضأ ٥٥٩
- **تحريجة**: فهل للزاني حين يزني أن يأمر المكرهةَ بستر وجهها؟! ٥٦٠
- سبب نفرة الطباع لهذا النوع من الحسبة ٥٦١
- متى تدفع الحسبة عن الفاسق ٥٦٢
- **تحريجة**: فهل للكافر الذمي أن يحتسب على المسلم؟ ٥٦٤
- فساد اشتراط الإمام المعصوم للحسبة ٥٦٥
- **تحريجة**: لأن الحسبة احتكامٌ لا بد فيها من تفويض من أولي الأمر ٥٦٥
- رتب الحسبة الخمس ٥٦٦
- **تحريجة**: فهل للولد أن يحتسب على والده، وكذا العبد والزوجة والتلميذ والرعية على المسؤول عنهم؟ ٥٧٣
- **تحريجة**: كيف استثنيتم هؤلاء والأمر بالمعروف قد ورد عامّاً؟ ٥٧٥
- سقوط الوجوب عند خوف المكروه يصيبه والعلم بعدم النفع ٥٧٨

- **تحريجة**: فما معنى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾؟ ٥٧٩
- **تحريجة**: لو ظنَّ المكروه أو عدم قبول الحسبة.. فما حكمه؟ ٥٨٢
- **تحريجة**: تجويز وقوع المكروه هل يمنع من الوجوب؟ ٥٨٣
- **تحريجة**: للجبن والشجاعة تباين في احتمال ذلك، فعلى ماذا التعويل؟ ٥٨٤
- **تحريجة**: فما هو حدُّ المكروه المسقط للوجوب؟ ٥٨٥
- المداراة والمداهنة ٥٨٩
- ترك الحسبة لحق من يليه من أهله وأقاربه ٥٩٢
- **تحريجة**: فهل له أن يقاتل ويقتل من أراد قطع طرف منه؟ ٥٩٣
- **تحريجة**: فلو أراد قطع طرف نفسه كان علينا قتله حسماً لباب المعصية! ٥٩٣
- للمعصية ثلاثة أحوال ٥٩٤
- سبب العدول عن لفظ المعصية إلى لفظ المنكر ٥٩٦
- لا تختص الحسبة بالكبائر بل تشمل الصغائر أيضاً ٥٩٦
- **تحريجة**: ما حدُّ الظهور والاستتار؟ ٥٩٨
- حسبة أهل المذهب الواحد على بعضهم ٦٠٠
- ليس له المنع مما هو منكر عند الفاعل لجهله وليس بمنكر عند الله تعالى ٦٠٢
- لا يجوز للمقلد أن يختار من المذاهب ما أراد ٦٠٣
- **تحريجة**: فلماذا ننكر على المعتزلي والحشوي والفلسفي اجتهاداتهم وهي كغيرها عند مجتهدي المذاهب؟ ٦٠٣
- **تحريجة**: الكلُّ يدعي أنه مصيب، فكيف يتم الاحتساب؟ ٦٠٤
- بيان الحسبة على أهل البدعة ٦٠٥
- الحسبة في البدع أهم من الحسبة في كل المنكرات ٦٠٦
- **تحريجة**: فلنكتفِ بكونه حيواناً لا إنساناً ٦٠٦
- **تحريجة**: هل يجب دفع الدابة المسترسلة في زرع إنسان، وحفظُ مال المسلم المشرف على الضياع؟ ٦٠٨

ـ الخلاف في مسألة اللقطة ٦١٠
درجات الاحتساب وآدابه ٦١٢
ـ الخطأ في غير أمر الدين لا ينبغي الرد عليه إلا على ندرة ٦١٤
ـ آفة الرياء عند النصح أقبح من المنكر الذي ينكره ٦١٥
ـ السبُّ والتعنيف مغاير للفحش في القول ٦١٧
ـ إن علم أن السبَّ لا ينفع . . فلا ينبغي أن يطلقه ٦١٨
ـ **تحريجة**: فهل له المبالغة بالكسر والجرِّ من الرِّجْل زجراً له؟ ٦٢٠
ـ **تحريجة**: فهل للسلطان إحراق الدور وإتلاف المال زجراً للعصاة؟ ٦٢١
ـ الخلف في الوعد والوعيد ٦٢٣
بيان آداب المحتسِب ٦٢٦
الباب الثالث: في المنكرات المألوفة في العادات ٦٣٤
منكرات المساجد ٦٣٤
ـ الإساءة في أفعال الصلاة ٦٣٤
ـ قراءة القرآن بالخطأ ٦٣٥
ـ تراسل المؤذنين وبدع الأذان ٦٣٦
ـ لبس الثوب الأسود الذي يغلب عليه الحرير ٦٣٧
ـ كلام القصاص والوعاظ الممزوج بالبدعة ٦٣٨
ـ تغليب الرجاء تحبباً لقلوب الناس ٦٣٨
ـ الواعظ الشاب وفي المجلس نساءٌ ٦٣٩
ـ منع النساء من حضور المساجد ومجالس الذكر عند خوف الفتنة ٦٣٩
ـ المطُّ في القرءة للقرآن مع التلحين المغيِّر للنظم ٦٤٠
ـ الحلق التي تجتمع لبيع الأدوية والأطعمة واجتماع السؤَّال ٦٤٠
ـ من المباحات ما يباح بشرط القلة ٦٤١
ـ دخول المجانين والصبيان والسكارى المسجد ٦٤١

ـ **تحريجة**: ينبغي أن يضرب السكران ويُخرج من المسجد زجراً ٦٤٣
منكرات الأسواق ٦٤٤
ـ الكذب في المرابحة وإخفاء العيب ٦٤٤
ـ مسألة المعاطاة ٦٤٤
ـ بيع المحرمات ٦٤٤
ـ بيع الثياب المبتذلة مع التلبيس بحقيقتها ٦٤٥
منكرات الشوارع ٦٤٦
ـ اتخاذ ما يضيِّق الطرق ٦٤٦
ـ تجنيب السوق ما يؤذي ٦٤٧
منكرات الحمامات ٦٤٩
ـ الصور المنكرة ٦٤٩
ـ كشف العورات ٦٤٩
ـ الانبطاع على الوجه ٦٤٩
ـ التقاء النجاسة بالمياه القليلة ٦٥٠
ـ وجود المؤذيات ٦٥٠
منكرات الضيافة ٦٥٢
ـ فرش الحرير واستخدام الأواني المحرمة ٦٥٢
ـ إسدال الستور المصورة ٦٥٢
ـ سماع الأوتار والقينات ٦٥٢
ـ اجتماع النساء على السطوح ٦٥٢
ـ الصور على النمارق والأطباق والقصاع لا يعد منكراً ٦٥٢
ـ لا يجوز حضور مجالس الشرب وإن تركه ٦٥٣
ـ لا رخصة في ثقب أذن الصبية ٦٥٤
ـ وجود أهل البدعة ٦٥٤

ـ ما لا يخفى أنه كذب ولا يقصد منه التلبيس فليس من جملة المنكرات ... ٦٥٥
الإسراف في الطعام والبناء ٦٥٥
المنكرات العامة ٦٥٨
ـ وجوب تعليم الجاهل من قبل من علم ٦٥٩
ـ حقٌّ على كل مسلم صلاح نفسه أولاً ثم الأقرب فالأقرب ٦٥٩
الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ٦٦١
حكايات تعرّف وجه الوعظ وكيفية الإنكار علىٰ السلاطين ٦٦٣

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة ٧٠٧
ـ أدب الظاهر عنوان أدب الباطن ٧٠٩
ـ رسول الله ﷺ يسأل ربه حسن الخلق ٧١١
ـ كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، ومعنى ذلك ٧١١
ـ من عظيم فضله سبحانه أنه أعطى ثم أثنى ٧١٣
ـ حكمه ﷺ في سفانة بنت حاتم ٧١٤
بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار ٧١٧
بيان جملة أخرىٰ من آدابه وأخلاقه ﷺ ٧٢٥
ـ رحمته ﷺ بالخلق أجمعين حتى حال الشتم واللعن ٧٢٥
ـ ما ضرب بيده ﷺ أحداً إلا في سبيل الله تعالى ٧٢٥
بيان كلامه وضحكه ﷺ ٧٣١
بيان أخلاقه وآدابه ﷺ في الطعام ٧٣٦
بيان آدابه وأخلاقه ﷺ في اللباس ٧٤٧
بيان عفوه ﷺ مع المقدرة ٧٥٤
بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه ٧٥٨
بيان سخاوته وجوده ﷺ ٧٦٠

بيان شجاعته ﷺ ٧٦٢
بيان تواضعه ﷺ ٧٦٤
بيان صورته وخلقته ﷺ ٧٦٧
بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه ﷺ ٧٧٢
ـ إنما هو رسول الله ﷺ ٧٧٢
ـ الرد على من يقول: ليس له ﷺ إلا معجزة القرآن ٧٨٣
ـ ليس لنبي معجزة باقية إلا له ﷺ ٧٨٣
محتوى الكتاب ٧٨٦

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف
الإمام المجدِّد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع المهلكات / القسم الأول

كتاب
عجائب القلب
رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب
كسر الشهوتين ـ آفات اللسان ـ آفة الغضب والحقد والحسد

المجلد الخامس

دار المنهاج

الطَّبعَة الأولىٰ
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كِتَابُ
عَجَائِبِ الْقَلْبِ

وهو الكتاب الأوّل من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب عجائب القلب [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي تتحيَّرُ دونَ إدراكِ جلالِهِ القلوبُ والخواطرُ [2] ، وتدهَشُ في مبادي إشراقِ أنوارِهِ الأحداقُ والنواظرُ ، المطَّلعِ علىٰ خفيَّاتِ السرائرِ ، العالمِ بمكنوناتِ الضمائرِ ، المستغني في تدبيرِ ملكِهِ عنِ المشاورِ والموازرِ ، مقلِّبِ القلوبِ ، وغفَّارِ الذنوبِ ، وستَّارِ العيوبِ ، ومفرِّجِ الكروبِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وجامعِ شملِ الدينِ ، وقاطعِ دابرِ الملحدينَ ، وعلىٰ آلِهِ الطيِّبينَ الطاهرينَ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فشرفُ الإنسانِ وفضيلتُهُ التي فاقَ بها جملةً مِنْ أصنافِ الخلقِ باستعدادِهِ

---

(١) فإن قال قائل : كيف يكون الحديث عن القلب وعجائبه في ربع المهلكات ؟ . . فالإجابة ستأتي للمصنف رحمه الله تعالىٰ ، وفيه بيان أن هـٰذا الكتاب والذي يليه ليس من لباب الحديث عن المهلكات أو المنجيات ، وإنما هما كالتوطئة والتمهيد .

(٢) والمعنىٰ : لا تطيق القلوب والخواطر الواردة عليها الإحاطة ؛ لعظم قدره وفخامة شأنه ، فتقف دونها وقوف المتحيِّر الذي لا يهتدي للصواب ؛ لإشكال الأمر عليه . « إتحاف » (٧/١٩٩) .

لمعرفةِ اللهِ سبحانَهُ ، التي هيَ في الدنيا جمالُهُ وكمالُهُ وفخرُهُ ، وفي الآخرةِ عُدَّتُهُ وذُخرُهُ .

وإنَّما استعدَّ للمعرفةِ بقلبِهِ ، لا بجارحةٍ مِنْ جوارحِهِ ، فالقلبُ هوَ العالِمُ باللهِ ، وهوَ المتقرِّبُ إلى اللهِ ، وهوَ العاملُ للهِ ، وهوَ الساعي إلى اللهِ ، وهوَ المكاشَفُ بما عندَ اللهِ ولديهِ ، وإنَّما الجوارحُ أتباعٌ وخدمٌ وآلاتٌ يستخدمُها القلبُ ، ويستعملُها استعمالَ المالكِ للعبيدِ ، واستخدامَ الراعي للرعيَّةِ ، والصانعِ للآلةِ .

فالقلبُ هوَ المقبولُ عندَ اللهِ إذا سلمَ مِنْ غيرِ اللهِ ، وهوَ المحجوبُ عنِ اللهِ إذا صارَ مستغرقاً بغيرِ اللهِ ، وهوَ المطالبُ وهوَ المخاطبُ ، وهوَ المعاتبُ والمعاقبُ ، وهوَ الذي يسعدُ بالقربِ مِنَ اللهِ فيفلحُ إذا زكَّاهُ ، وهوَ الذي يخيبُ ويشقىٰ إذا دنَّسَهُ ودسَّاهُ ، وهوَ المطيعُ بالحقيقةِ للهِ تعالىٰ ، وإنَّما الذي ينتشرُ على الجوارحِ مِنَ العباداتِ أنوارُهُ ، وهوَ العاصي المتمرِّدُ على اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما الساري إلى الأعضاءِ مِنَ الفواحشِ آثارُهُ .

وبإظلامِهِ واستنارتِهِ تظهَرُ محاسنُ الظاهرِ ومساويهِ ؛ إذْ كلُّ إناءٍ ينضحُ بما فيهِ .

وهوَ الذي إذا عرفَهُ الإنسانُ . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ .

وهوَ الذي إذا جهلَهُ الإنسانُ . . فقدْ جهلَ نفسَهُ ، وإذا جهلَ نفسَهُ . . فقدْ

جهلَ ربَّهُ ، ومَنْ جهلَ قلبَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ .

وأكثرُ الخلْقِ جاهلونَ بقلوبِهِمْ وأنفسِهِمْ ، وقدْ حيلَ بينَهُمْ وبينَ أنفسِهِمْ ، وإنَّ اللهَ يحولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ ، **وحيلولتُهُ** : بأنْ يمنعَه عنْ مشاهدتِهِ وقربِهِ ، ومراقبتِهِ ومعرفةِ صفاتِهِ ، وكيفيةِ تقلُّبِهِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، وأنَّهُ كيفَ يهوي مرَّةً إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، وينخفضُ إلىٰ أفقِ الشياطينِ ، وكيفَ يرتفعُ أخرىٰ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، ويرتقي إلىٰ عالمِ الملائكةِ المقرَّبينَ[1] .

ومَنْ لمْ يعرفْ قلبَهُ ليراقبَهُ ويراعيَهُ ، ويترصدَ ما يلوحُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ عليهِ وفيهِ . . فهوَ ممَّنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ فمعرفةُ القلبِ وحقيقةِ أوصافِهِ أصلُ الدينِ ، وأساسُ طريقِ السالكينَ .

وإذْ قدْ فرغنا مِنَ الشطرِ الأوَّلِ مِنْ هـٰذا الكتابِ مِنَ النظرِ فيما يجري على الجوارحِ مِنَ العباداتِ والعاداتِ ؛ **وهوَ العلمُ الظاهرُ** ، ووعدْنا أنْ نشرحَ في الشطرِ الثاني ما يجري على القلوبِ مِنَ الصفاتِ المهلكاتِ والمنجياتِ ؛ **وهوَ العلمُ الباطنُ** . . فلا بدَّ أنْ نقدِّمَ عليهِ كتابينِ :

---

(١) وانخفاضه وارتفاعه إنما هو بالاتصاف بما لكل من الدرجتين من الأوصاف الذميمة والحميدة ، فإذا استولىٰ عليه الشهوة والغضب . . التحق بأفق الشياطين ، وإن ملكهما حتىٰ صفا . . التحق بأفق الملائكة المقربين . « إتحاف » (٧/ ٢٠١) ، ولكل من الدرجتين منازلات وأحوال ، وللسامية منهما مشاهدات ومكاشفات .

كتابٌ في شرحِ عجائبِ صفاتِ القلبِ وأخلاقِهِ .

وكتابٌ في كيفيَّةِ رياضةِ القلبِ وتهذيبِ أخلاقِهِ .

ثمَّ نندفعُ بعدَ ذلكَ في تفصيلِ المهلكاتِ والمنجياتِ .

فلنذكرِ الآنَ مِنْ شرحِ عجائبِ القلبِ بطريقِ ضربِ الأمثالِ ما يقرِّبُ مِنَ الأفهامِ ؛ فإنَّ التصريحَ بعجائبِهِ وأسرارِهِ الداخلةِ في جملةِ عالمِ الملكوتِ ممَّا يكلُّ عنْ دركِهِ أكثرُ الأفهامِ .

❋ ❋ ❋

بيان معنى النفس والرّوح والقلب والعقل وماهو المراد بهذه الأسامي

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأسماءَ الأربعةَ تُستعملُ في هٰذهِ الأبوابِ ، ويقلُّ في فحولِ العلماءِ مَنْ يحيطُ بهٰذهِ الأسامي ، واختلافِ معانيها وحدودِها ومسمَّياتِها ، وأكثرُ الأغاليطِ منشؤُها الجهلُ بمعنىٰ هٰذهِ الأسامي ، وباشتراكِها بينَ مسمَّياتٍ مختلفةٍ ، ونحنُ نشرحُ مِنْ معاني هٰذهِ الأسامي ما يتعلَّق بغرضِنا .

❋ ❋ ❋

اللفظُ الأوَّلُ : لفظُ القلبِ .

وهوَ يُطلقُ لمعنيينِ :

أحدُهُما : اللحمُ الصنوبريُّ الشكلِ ، المودعُ في الجانبِ الأيسرِ مِنَ الصدرِ ، وهوَ لحمٌ مخصوصٌ ، وفي باطنِهِ تجويفٌ ، وفي ذلكَ التجويفِ دمٌ أسودُ ، وهو منبعُ الروحِ ومعدِنُهُ ، ولسنا نقصدُ الآنَ شرْحَ شكلِهِ وكيفيتِهِ ؛ إذْ لا تتعلَّقُ بهِ الأغراضُ الدينيةُ ، وإنَّما يتعلَّقُ بذلكَ غرضُ الأطباءِ .

وهٰذا القلبُ موجودٌ للبهائمِ ، بلْ هوَ موجودٌ للميِّتِ .

ونحنُ إذا أطلقْنا لفظَ القلبِ في هٰذا الكتابِ . . لمْ نعنِ بهِ ذلكَ ؛ فإنَّهُ

قطعةُ لحمٍ لا قدْرَ لهُ ، وهوَ مِنْ عالمِ المُلْكِ والشهادةِ ؛ إذْ تدركُهُ البهائمُ بحاسَّةِ البصرِ فضلاً عنِ الآدميينَ .

والمعنى الثاني : هوَ لطيفةٌ ربَّانيَّةٌ روحانيَّةٌ ، لها بهٰذا القلبِ الجسمانيِّ تعلُّقٌ ، وتلكَ اللطيفةُ هيَ حقيقةُ الإنسانِ ، وهوَ المدْرِكُ العالِمُ العارفُ مِنَ الإنسانِ ، وهوَ المخاطَبُ والمعاقَبُ ، والمعاتَبُ والمطالَبُ ، ولهُ علاقةٌ معَ القلبِ الجسمانيِّ ، وقدْ تحيَّرَتْ عقولُ أكثرِ الخلقِ في إدراكِ وجهِ علاقتِهِ ؛ فإنَّ تعلقَهُ بهِ يضاهي تعلُّقَ الأعراضِ بالأجسامِ ، والأوصافِ بالموصوفاتِ ، أوْ تعلُّقَ المستعملِ للآلةِ بالآلةِ ، أوْ تعلُّقَ المتمكِّنِ بالمكانِ .

وشرحُ ذلكَ ممَّا نتوقاهُ لمعنيينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ متعلِّقٌ بعلومِ المكاشفةِ ، وليسَ غرضُنا في هٰذا الكتابِ إلا علومَ المعاملةِ .

والثاني : أنَّ تحقيقَهُ يستدعي إفشاءَ سرِّ الروحِ ، وذلكَ ممّا لمْ يتكلَّمْ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فليسَ لغيرِهِ أنْ يتكلَّمَ فيهِ[1] .

والمقصودُ : أنَّا إذا أطلقْنا لفظَ القلبِ في هٰذا الكتابِ . . أردْنا بهِ هٰذهِ

---

(١) تقدم الأثر الوارد في ذلك ، وفي امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الكلام في الروح انظر « عوارف المعارف » (٢/ ٧٧١) ، ومن جملة كلام الإمام السهروردي فيه : (وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالىٰ ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة . . فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه ؟) .

اللطيفةَ ، وغرضُنا : ذكرُ أوصافِها وأحوالِها ، لا ذكرُ حقيقتِها في ذاتِها ، وعلمُ المعاملةِ يفتقرُ إلىٰ معرفةِ صفاتِها وأحوالِها ، ولا يفتقرُ إلىٰ ذكرِ حقيقتِها .

* * *

اللفظُ الثاني : الروحُ .

وهوَ أيضاً يُطلقُ فيما يتعلَّقُ بجنسِ غرضِنا لمعنيينِ :

أحدُهُما : جسمٌ لطيفٌ ، منبعُهُ تجويفُ القلبِ الجسمانيِّ ، وينتشرُ بواسطةِ العروقِ الضواربِ إلىٰ سائرِ أجزاءِ البدنِ ، وجريانُهُ في البدنِ وفيضانُ أنوارِ الحياةِ والحسِّ والبصرِ والسمعِ والشمِّ منهُ علىٰ أعضائِهِ . . يضاهي فيضانَ النورِ مِنَ السراجِ الذي يُدارُ في زوايا البيتِ ؛ فإنَّهُ لا ينتهي إلىٰ جزءٍ مِنَ البيتِ إلا ويستنيرُ بهِ .

فالحياةُ مثالُها النورُ الحاصلُ في الحيطانِ ، والروحُ مثالُهُ السراجُ ، وسريانُ الروحِ وحركتُهُ في الباطنِ مثالُهُ حركةُ السراجِ في جوانبِ البيتِ بتحريكِ محرِّكِهِ .

والأطباءُ إذا أطلقوا لفظَ الروحِ . . أرادوا بهِ هـٰذا المعنىٰ ، وهوَ بخارٌ لطيفٌ أنضجَتْهُ حرارةُ القلبِ ، وليسَ شرحُهُ مِنْ غرضِنا ؛ إذِ المتعلِّقُ بهِ غرضُ الأطباءِ الذينَ يعالجونَ الأبدانَ ، فأمَّا غرضُ أطباءِ الدينِ المعالجينَ للقلبِ حتَّىٰ ينساقَ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينَ . . فليسَ يتعلَّقُ بشرحِ هـٰذا الروحِ أصلاً .

المعنى الثاني : هوَ اللطيفةُ العالمةُ المدركةُ مِنَ الإنسانِ ، وهوَ الذي شرحناهُ في أحدِ معنيي القلبِ ، وهوَ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ، وهوَ أمرٌ عجيبٌ ربَّانيٌّ ، تعجزُ أكثرُ العقولِ والأفهامِ عنْ دركِ كُنْهِ حقيقتِهِ .

❊ ❊ ❊

اللفظُ الثالثُ : النفسُ .

وهوَ أيضاً مشتركٌ بينَ معانٍ ، ويتعلَّقُ بغرضِنا منهُ معنيانِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يُرادُ بهِ المعنى الجامعُ لقوَّةِ الغضبِ والشهوةِ في الإنسانِ ، علىٰ ما سيأتي شرحُهُ ، وهـٰذا الاستعمالُ هوَ الغالبُ على أهلِ التصوُّفِ ؛ لأنَّهُمْ يريدونَ بالنفْسِ الأصلَ الجامعَ للصفاتِ المذمومةِ مِنَ الإنسانِ ، فيقولونَ : (لا بدَّ مِنْ مجاهدةِ النفسِ وكسرِها) ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أعدىٰ عدوٍّ لكَ نفسُكُ التي بينَ جنبيكَ »(١) .

المعنى الثاني : هوَ اللطيفةُ التي ذكرناها ، التي هيَ الإنسانُ بالحقيقةِ ، وهيَ نفسُ الإنسانِ وذاتُهُ ، ولكنَّها تُوصفُ بأوصافٍ مختلفةٍ بحسبِ اختلافِ أحوالِها ، فإذا سكنَتْ تحتَ الأمرِ ، وزايلَها الاضطرابُ بسببِ معارضةِ

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٢) عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً ، والبيهقي في « الزهد » (٣٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/٢٠٦) تعقيباً علىٰ طريق البيهقي : (ووجدت بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : وللحديث طرق أخرىٰ غير هـٰذه من حديث أنس وغيره) .

الشهواتِ . . سُمِّيتِ النفسَ المطمئنةَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ في مثلِها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ ، والنفسُ بالمعنى الأوَّلِ لا يُتصوَّرُ رجوعُها إلى اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها مبعدةٌ عنِ اللهِ ، وهيَ مِنْ حزبِ الشيطانِ .

وإذا لمْ يتمَّ سكونُها ، ولكنَّها صارَتْ مدافعةً للنفسِ الشهوانيةِ ومعترضةً عليها . . سُمِّيتِ النفسَ اللوَّامةَ ؛ لأنَّها تلومُ صاحبَها عندَ تقصيرِهِ في عبادةِ مولاهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ .

وإنْ تركتِ الاعتراضَ ، وأذعَنتْ وأطاعَتْ لمقتضى الشهواتِ ودواعي الشيطانِ . . سُمِّيتِ النفسَ الأمَّارةَ بالسوءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ يوسفَ عليهِ السَّلامُ أوِ امرأةِ العزيزِ : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، وقدْ يجوزُ أنْ يُقالَ : المرادُ بالأمَّارةِ بالسوءِ : هيَ النفسُ بالمعنى الأوَّلِ .

فإذاً ؛ النفسُ بالمعنى الأوَّلِ مذمومةٌ غايةَ الذمِّ ، وبالمعنى الثاني : محمودةٌ ؛ لأنَّها نفسُ الإنسانِ ؛ أيْ : ذاتُهُ وحقيقتُهُ العالمةُ باللهِ تعالىٰ وسائرِ المعلوماتِ .

* * *

اللفظُ الرابعُ : العقلُ .

وهوَ أيضاً مشتركٌ لمعانٍ مختلفةٍ ذكرناها في كتابِ العلمِ ، والمتعلِّقُ بغرضِنا مِنْ جملتِها معنيانِ :

أحدُهُما : أنَّهُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ العلمُ بحقائقِ الأمورِ ، فيكونُ عبارةً عنْ صفةِ العلمِ الذي محلُّهُ القلبُ .

والثاني : أنَّهُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ المدرِكُ للعلومِ ، فيكونُ هوَ القلبَ ؛ أعني تلكَ اللطيفةَ .

ونحنُ نعلمُ أنَّ كلَّ عالمٍ فلَهُ في نفسِهِ وجودٌ هوَ أصلٌ قائمٌ بنفسِهِ ، والعلمُ صفةٌ حالَّةٌ فيهِ ، والصفةُ غيرُ الموصوفِ ، والعقلُ قدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ صفةُ العالمِ ، وقدْ يُطلقُ ويُرادُ بهِ محلُّ الإدراكِ ؛ أعني المدرِكَ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلُ »[1] ؛ فإنَّ العلمَ عرضٌ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ أوَّلَ مخلوقٍ ، بلْ لا بدَّ أنْ يكونَ المحلُّ مخلوقاً قبلَهُ أوْ معَهُ ، ولأنَّهُ لا يمكنُ الخطابُ معَهُ ، وفي الخبرِ : « أنَّهُ قالَ لهُ تعالىٰ : أقبلْ . . فأقبلَ ، ثمَّ قالَ لهُ : أدبرْ . . فأدبرَ . . . » الحديثَ[2] .

فإذاً ؛ قدِ انكشفَ لكَ أنَّ معانيَ هٰذهِ الأسامي موجودةٌ ، وهيَ القلبُ الجسمانيُّ ، والروحُ الجسمانيُّ ، والنفسُ الشهوانيَّةُ ، والعلومُ[3] .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣١٨) .

(٢) هو قطعة من حديث : « أول ما خلق الله العقل » المتقدم قبله .

(٣) في (ب ، ج ، ل) : (والعقل العلمي) بدل (والعلوم) .

فهٰذِهِ أربعةُ معانٍ يُطلقُ عليها الألفاظُ الأربعةُ ، ومعنىً خامسٌ ؛ وهيَ اللطيفةُ العالمةُ المدركةُ مِنَ الإنسانِ ، والألفاظُ الأربعةُ بجملتِها تتواردُ عليها ، فالمعاني خمسةٌ ، والألفاظُ أربعةٌ ، وكلُّ لفظٍ أُطلقَ لمعنيينِ ، وأكثرُ العلماءِ قدِ التبسَ عليهِمُ اختلافُ هٰذِهِ الألفاظِ وتواردُها ، فتراهُمْ يتكلَّمونَ في الخواطرِ ، ويقولونَ : هٰذا خاطرُ العقلِ ، وهٰذا خاطرُ الروحِ ، وهٰذا خاطرُ القلبِ ، وهٰذا خاطرُ النفسِ ، وليسَ يدري الناظرُ اختلافَ معاني هٰذِهِ الأسماءِ ، فلأجلِ كشفِ الغطاءِ عنْ ذٰلكَ . . قدَّمْنا شرحَ هٰذِهِ الأسامي .

وحيثُ وردَ في القرآنِ والسنَّةِ لفظُ القلبِ . . فالمرادُ بهِ المعنى الذي يفقَهُ مِنَ الإنسانِ ويعرفُ حقيقةَ الأشياءِ ، وقدْ يُكنىٰ عنهُ بالقلبِ الذي في الصدرِ ؛ لأنَّ بينَ تلكَ اللطيفةِ وبينَ جسمِ القلبِ علاقةً خاصةً ؛ فإنَّها وإنْ كانتْ متعلِّقةً بسائرِ البدنِ ومستعملةً لهُ ، ولكنَّها تتعلَّقُ بهِ بواسطةِ القلبِ ، فتعلُّقُها الأوَّلُ بالقلبِ ، وكأنَّهُ محلُّها ومملكتُها ، وعالمُها ومطيَّتُها .

ولذلكَ شبَّهَ سهلٌ التستريُّ القلبَ بالعرشِ ، والصدْرَ بالكرسيِّ ، فقالَ : (القلبُ هوَ العرشُ ، والصدرُ هوَ الكرسيُّ)(١) ، ولا تظنُّ بهِ أنَّهُ يرىٰ أنَّهُ عرشُ اللهِ وكرسيُّهُ ؛ فإنَّ ذلكَ محالٌ ، بلْ أرادَ بهِ أنَّهُ مملكتُهُ ، والمجرى

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣١) .

الأوَّلُ لتدبيرِهِ وتصرُّفِهِ ، فهما بالنسبةِ إليهِ كالعرشِ والكرسيِّ بالنسبةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا يستقيمُ هٰذا التشبيهُ أيضاً إلا مِنْ بعضِ الوجوهِ ، وشرحُ ذلكَ أيضاً لا يليقُ بغرضِنا ، فلنتجاوزْهُ .

* * *

بيان جنود القلب

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، فللَّه سبحانَهُ في القلوبِ والأرواحِ وغيرِها مِنَ العوالمِ جنودٌ مجنَّدةٌ ، لا يعرفُ حقيقتَها وتفصيلَ عددِها إلا هوَ ، ونحنُ الآنَ نشيرُ إلىٰ بعضِ جنودِ القلبِ ، فهوَ الذي يتعلَّقُ بغرضِنا .

ولهُ جندانِ :

جندٌ يُرىٰ بالأبصارِ .

وجندٌ لا يُرىٰ إلا بالبصائرِ .

وهوَ في حكمِ المَلِكِ ، والجنودُ في حكْمِ الخدمِ والأعوانِ ، فهـٰذا معنى الجندِ .

فأمَّا جندُهُ المشاهدُ بالعينِ : فهوَ اليدُ والرِّجْلُ ، والعينُ والأذنُ واللسانُ ، وسائرُ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ فإنَّ جميعَها خادمةٌ للقلبِ ، ومسخَّرةٌ لهُ ، فهوَ المتصرِّفُ فيها ، والمردِّدُ لها .

وقدْ خُلقَتْ مجبولةً علىٰ طاعةِ القلبِ ، لا تستطيعُ لهُ خلافاً ، ولا عليهِ تمرُّداً ، فإذا أمرَ العينَ بالانفتاحِ . . انفتحَتْ ، وإذا أمرَ الرجْلَ بالحركةِ . . تحرَّكَتْ ، وإذا أمرَ اللسانَ بالكلامِ وجزمَ الحكْمَ بهِ . . تكلَّمَ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ .

وتسخُّرُ الأعضاءِ والحواسِّ للقلبِ يشبهُ مِنْ وجهٍ تسخُّرَ الملائكةِ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُمْ مجبولونَ على الطاعةِ ، لا يستطيعونَ لهُ خلافاً ، بلْ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ، ويفعلونَ ما يُؤمرونَ ، وإنَّما يفترقانِ في شيءٍ ؛ وهوَ أنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ عالمةٌ بطاعتِها وامتثالِها ، والأجفانُ تطيعُ القلبَ في الانفتاحِ والانطباقِ علىٰ سبيلِ التسخيرِ ولا خبرَ لها مِنْ نفسِها ومِنْ طاعتِها للقلبِ .

وإنَّما افتقرَ القلبُ إلىٰ هـٰذهِ الجنودِ مِنْ حيثُ افتقارُهُ إلى المركَبِ والزادِ لسفرِهِ الذي لأجلِهِ خُلِقَ ، وهوَ السفرُ إلى اللهِ سبحانَهُ ، وقطعُ المنازلِ إلىٰ لقائِهِ ، فلأجلِهِ خُلقتِ القلوبُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وإنَّما مركبُهُ البدَنُ ، وزادُهُ العلْمُ ، وإنَّما الأسبابُ التي توصلُهُ إلى الزادِ وتمكِّنُهُ مِنَ التزوُّدِ منهُ . . هوَ العملُ الصالحُ ، وليسَ يمكنُ أن يصل العبدُ إلى اللهِ سبحانَهُ ما لمْ يسكنِ البدَنَ ، ولمْ يجاوزِ الدنيا ، فإنَّ المنزلَ الأدنىٰ لا بدَّ مِنْ قطعِهِ للوصولِ إلى المنزلِ الأقصىٰ ؛ والدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وهِيَ منزلٌ مِنْ منازلِ الهدىٰ ، وإنَّما سُمِّيَتْ دنيا لأنَّها أدنى المنزلتينِ ، فاضطرَّ إلىٰ أنْ يتزوَّدَ مِنْ هـٰذا العالَمِ ، والبدَنُ مركبُهُ الذي يصلُ بهِ إلىٰ هـٰذا العالمِ ، فافتقرَ إلىٰ تعهُّدِ البدَنِ وحفظِهِ ، وإنَّما يحفظُ البدَنَ بأنْ يجلبَ إليهِ ما يوافقُهُ مِنَ الغذاءِ وغيرِهِ ، وأنْ يدفعَ عنهُ ما ينافيهِ ويهلكُهُ مِنْ أسبابِ الهلاكِ ، فافتقرَ لأجلِ جلْبِ الغذاءِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهو الشهوةُ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ اليدُ والأعضاءُ الجالبةُ للغذاءِ .

فخُلقَ في القلبِ مِنَ الشهواتِ ما احتاجَ إليهِ ، وخُلقَتِ الأعضاءُ التي هيَ آلاتُ الشهواتِ ، فافتقرَ لأجلِ دفْعِ المهلكاتِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهوَ الغضبُ الذي بهِ يدفعُ المهلكاتِ ، وينتقمُ مِنَ الأعداءِ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ اليدُ والرِّجْلُ الذي بهما يعملُ بمقتضى الغضبِ .

وكمَّلَ ذلكَ بأمورٍ خارجةٍ عنِ البدنِ ؛ كالأسلحةِ وغيرِها .

ثمَّ المحتاجُ إلى الغذاءِ إذا لمْ يعرفِ الغذاءَ.. لمْ تنفعْهُ شهوةُ الغذاءِ وآلتُهُ ، فافتقرَ للمعرفةِ إلىٰ جندينِ :

باطنٌ ؛ وهوَ إدراكُ البصرِ والذوقِ والشمِّ والسمعِ واللمسِ .

وظاهرٌ ؛ وهوَ العينُ والأذنُ والأنفُ وغيرُها .

وتفصيلُ وجهِ الحاجةِ إليها ، ووجهِ الحكمةِ فيها يطولُ ، ولا تحويهِ مجلداتٌ كثيرةٌ ، وقدْ أشرنا إلىٰ طرفٍ يسيرٍ منها في كتابِ الشكرِ ، فليُقتنعْ بهِ .

فجملةُ جنودِ القلبِ تحصرُها ثلاثةُ أصنافٍ :

ـ صنفٌ باعثٌ ومستحثٌّ ؛ إمَّا إلىٰ جلبِ النافعِ الموافقِ كالشهوةِ ، وإمَّا إلىٰ دفعِ الضارِّ المنافي كالغضبِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنْ هٰذا الباعثِ بالإرادةِ .

ـ والثاني : هوَ المحرِّكُ للأعضاءِ إلىٰ تحصيلِ هٰذهِ المقاصدِ ، ويعبَّرُ عنْ هٰذا الثاني بالقدرةِ ، وهيَ جنودٌ مبثوثةٌ في سائرِ الأعضاءِ ، لا سيَّما العضلاتُ منها والأوتارُ .

ـ والثالثُ : هوَ المدرِكُ المتعرِّفُ للأشياءِ كالجواسيسِ ، وهيَ قوَّةُ البصرِ والسمعِ والشمِّ والذوقِ واللمسِ ، وهيَ مبثوثةٌ في أعضاءٍ معيَّنةٍ ، ويُعبَّرُ عنْ هٰذا بالعلمِ والإدراكِ ، ومعَ كلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الجنودِ الباطنةِ جنودٌ ظاهرةٌ ، وهيَ الأعضاءُ المركَّبةُ مِنَ الشحْمِ واللحمِ والعصبِ والدمِ والعظمِ ، التي أُعدَّتْ آلاتٍ لهٰذهِ الجنودِ ، فإنَّ قوَّةَ البطْشِ إنَّما هيَ بالأصابعِ ، وقوَّةَ البصرِ إنَّما هيَ بالعينِ ، وكذا سائرُ القوىٰ .

ولسنا نتكلَّمُ في الجنودِ الظاهرةِ ؛ أعني : الأعضاءَ ؛ فإنَّها مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وإنَّما نتكلَّمُ الآنَ فيما أُيِّدَ بهِ مِنْ جنودٍ لمْ تروها .

وهٰذا الصنفُ الثالثُ ـ وهوَ المدرِكُ مِنْ هٰذهِ الجملةِ ـ ينقسمُ :

إلىٰ ما قدْ أُسكنَ المنازلَ الظاهرةَ ؛ وهيَ الحواسُّ الخمسُ ؛ أعني : السمعَ والبصرَ والشمَّ والذوقَ واللمسَ .

وإلىٰ ما أُسكنَ منازلَ باطنةً ؛ وهيَ تجاويفُ الدماغِ ، وهيَ أيضاً خمسةٌ ؛ فإنَّ الإنسانَ بعدَ رؤيةِ الشيءِ يغمضُ عينيهِ ، فيدركُ صورتَهُ في نفسِهِ ، وهوَ الخيالُ ، ثمَّ تبقىٰ تلكَ الصورةُ معَهُ بسببِ شيءٍ يحفظُهُ ، وهوَ الجندُ الحافظُ ، ثمَّ يتفكَّرُ فيما حفظَهُ ، فيُركِّبُ بعضَ ذلكَ إلىٰ بعضٍ ، ثمَّ يتذكَّرُ ما قدْ نسيَهُ ، ويعودُ إليهِ ، ثمَّ يجمعُ جملةَ معاني المحسوساتِ في خيالِهِ بالحسِّ المشتركِ بينَ المحسوساتِ ، ففي الباطنِ حسٌّ مشتركٌ ، وتخيُّلٌ وتفكُّرٌ ، وتذكُّرٌ وحفْظٌ ، ولولا خلْقُ اللهِ قوَّةَ الحفظِ والفكرِ ، والذكْرِ

والتخيُّلِ . . لكانَ الدماغُ يخلو عنهُ كما تخلو اليدُ والرجْلُ عنهُ ، فتلكَ القوىٰ أيضاً جنودٌ باطنةٌ ، وأماكنُها أيضاً باطنةٌ .

فهٰذهِ هيَ أقسامُ جنودِ القلبِ ، وشرحُ ذلكَ بحيثُ يدركُهُ فهمُ الضعفاءِ بضربِ الأمثلةِ يطولُ ، ومقصودُ مثلِ هٰذا الكتابِ أنْ ينتفعَ بهِ **الأقوياءُ والفحولُ مِنَ العلماءِ** ، ولكنَّا نجتهدُ في تفهيمِ الضعفاءِ بضرْبِ الأمثلةِ ؛ ليقربَ ذلكَ مِنْ أفهامِهِمْ .

* * *

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلمْ : أنَّ جنديِ الغضبِ والشهوةِ قدْ ينقادانِ للقلبِ انقياداً تامّاً ، فيعينُهُ ذلكَ علىٰ طريقِهِ الذي يسلكُهُ ، وتحسنُ مرافقتُهُما في السفرِ الذي هوَ بصددِهِ ، وقدْ يستعصيانِ عليهِ استعصاءَ بغيٍ وتمرُّدٍ حتَّىٰ يملكاهُ ويستعبداهُ ، وفيهِ هلاكُهُ وانقطاعُهُ عنْ سفرِهِ الذي بهِ وصولُهُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ .

وللقلبِ جندٌ آخرُ ؛ وهوَ العلمُ والحكمةُ والتفكُّرُ كما سيأتي شرحُهُ ، وحقُّهُ أنْ يستعينَ بهٰذا الجندِ ؛ فإنَّهُ حزبُ اللهِ تعالىٰ على الجندينِ الآخرينِ ، فإنَّهُما قدْ يلتحقانِ بحزبِ الشيطانِ ، فإنْ تركَ الاستعانةَ وسلَّطَ علىٰ نفسِهِ جندَ الغضبِ والشهوةِ .. هلكَ يقيناً ، وخسرَ خسراناً مبيناً ، وذلكَ حالُ أكثرِ الخلقِ ، فإنَّ عقولَهُمْ صارَتْ مسخَّرةً لشهواتِهِمْ في استنباطِ الحيلِ لقضاءِ الشهوةِ ، وكانَ ينبغي أنْ تكونَ الشهوةُ مسخَّرةً لعقولِهِمْ فيما يفتقرُ العقلُ إليهِ .

ونحنُ نقرِّبُ ذلكَ إلىٰ فهمِكَ بثلاثةِ أمثلةٍ :

المثالُ الأوَّلُ :

أنْ نقولَ : مَثَلُ نفسِ الإنسانِ في بدنِهِ ـ أعني بالنفسِ : اللطيفةَ المذكورةَ ـ كمَثَلِ مَلِكٍ في مدينتِهِ ومملكتِهِ ، فإنَّ البدَنَ مملكةُ النفسِ وعالَمُها

ومستقرُّها ومدينتُها ، وجوارحُهُ وقواهُ بمنزلةِ الصنَّاعِ والعَمَلَةِ ، والقوَّةُ العقليَّةُ المفكِّرةُ لهُ كالمشيرِ الناصحِ والوزيرِ العاقلِ ، والشهوةُ لهُ كالعبدِ السوءِ يجلبُ الطعامَ والميرةَ إلى المدينةِ ، والغضبُ والحميَّةُ لهُ كصاحبِ الشرطةِ ، والعبدُ الجالبُ للميرةِ كذَّابٌ مكَّارٌ ، خدَّاعٌ خبيثٌ ، يتمثَّلُ بصورةِ الناصحِ ، وتحتَ نصحِهِ الشرُّ الهائلُ والسمُّ القاتلُ ، وديدنُهُ وعادتُهُ منازعةُ الوزيرِ الناصحِ في آرائِهِ وتدبيراتِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يخلو مِنْ منازعتِهِ ومعارضتِهِ ساعةً .

فكما أنَّ الواليَ في مملكتِهِ إذا كانَ مستغنياً في تدبيراتِهِ بوزيرِهِ ، ومستشيراً لهُ ومعرضاً عنْ إشارةِ هـٰذا العبدِ الخبيثِ ، مستدلاً بإشارتِهِ في أنَّ الصوابَ في نقيضِ رأيِهِ ، وأدَّبَ صاحبَ شرطتِهِ وأسلمَهُ لوزيرِهِ ، وجعلَهُ مؤتمراً لهُ ، ومسلطاً مِنْ جهتِهِ علىٰ هـٰذا العبدِ الخبيثِ وأتباعِهِ وأنصارِهِ ، حتَّىٰ يكونَ العبدُ مسوساً لا سائساً ، ومأموراً مدبَّراً لا أميراً مدبِّراً . . استقامَ أمرُ بلدِهِ ، وانتظمَ العدْلُ بسببِهِ . . فكذلكَ النفسُ ، متى استعانَتْ بالعقلِ ، وأدبَتِ الحميَّةَ الغضبيَّةَ ، وسلطَتْها على الشهوةِ ، واستعانَتْ بإحداهُما على الأخرىٰ ؛ تارةً بأنْ تقلِّلَ مرتبةَ الغضبِ وغلوائِهِ بمخالفةِ الشهوةِ واستدراجِها ، وتارةً بقمعِ الشهوةِ وقهرِها بتسليطِ الغضبِ والحميَّةِ عليها وتقبيحِ مقتضياتِها . . اعتدلَتْ قواها ، وحسنَتْ أخلاقُها .

ومَنْ عدلَ عنْ هـٰذهِ الطريقةِ . . كانَ كمَنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ فيمَنْ نهى النفسَ عنِ الهوىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وستأتي كيفيةُ مجاهدةِ هـٰذهِ الجنودِ وتسليطِ بعضِها علىٰ بعضٍ في كتابِ رياضةِ النفسِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

المثالُ الثاني :

اعلمْ : أنَّ البدنَ كالمدينةِ ، والعقلُ ـ أعني : المدركَ مِنَ الإنسانِ ـ كَمَلِكٍ مدبِّرٍ لها ، وقواهُ المدركةُ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ كجنودِهِ وأعوانِهِ ، وأعضاؤُهُ كرعيَّتِهِ ، والنفسُ الأمَّارةُ بالسوءِ التي هيَ الشهوةُ والغضبُ كعدوٍّ ينازعُهُ في مملكتِهِ ويسعىٰ في إهلاكِ رعيَّتِهِ ، فصارَ بدنُهُ كرباطٍ وثغرٍ ، ونفسُهُ كقيِّمٍ فيهِ مرابطٍ .

فإنْ هوَ جاهدَ عدوَّهُ وهزمَهُ ، وقهرَهُ علىٰ ما يحبُّ . . حُمِدَ أثرُهُ إذا عادَ إلى الحضرةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ .

وإنْ ضيَّعَ ثغرَهُ ، وأهملَ رعيَّتَهُ . . ذُمَّ أثرُهُ ، وانتُقِمَ منهُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فيُقالُ لهُ يومَ القيامةِ : (يا راعيَ السوءِ ؛ أكلتَ اللحمَ ، وشربتَ اللبنَ ،

ولمْ تؤْوِ الضالَّةَ ، ولمْ تجبرِ الكسيرَ ، اليومَ أنتقمُ منكَ) ، كما وردَ في الخبرِ[1] ، وإلىٰ هٰذهِ المجاهدةِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رجعْنا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ »[2] .

❋ ❋ ❋

المثالُ الثالثُ :

مَثَلُ العقلِ مَثَلُ فارسٍ متصيِّدٍ ، وشهوتُهُ كفرسِهِ ، وغضبُهُ ككلبِهِ ، فمتىٰ كانَ الفارسُ حاذقاً ، وفرسُهُ مروضاً ، وكلبُهُ مؤدَّباً معلماً . . كانَ جديراً بالنجاحِ .

ومتىٰ كانَ هوَ في نفسِهِ أخرقَ ، وكانَ الفرسُ جموحاً ، والكلبُ عقوراً . . فلا فرسُهُ ينبعثُ تحتَهُ منقاداً ، ولا كلبُهُ يسترسلُ بإشارتِهِ مطيعاً ، فهوَ خليقٌ بأنْ يعطبَ فضلاً عنْ أنْ ينالَ ما طلبَ .

وإنَّما خرْقُ الفارسِ مثلُ جهلِ الإنسانِ وقلَّةِ حكمتِهِ وكلالِ بصيرتِهِ ، وجماحُ الفرسِ مثلُ غلبةِ الشهوةِ ، خصوصاً شهوةَ البطنِ والفرجِ ، وعقْرُ الكلبِ مثالُ غلبةِ الغضبِ واستيلائِهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٩٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٨٧) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٤٩٨) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٨) .

بيان خاصيّة قلب الإنسان

اعلمْ : أنَّ جملةَ ما ذكرناهُ قدْ أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ سائرِ الحيواناتِ سوى الآدميِّ ؛ إذْ للحيواناتِ الشهوةُ والغضبُ والحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ أيضاً ، حتَّىٰ إنَّ الشاةَ ترى الذئبَ بعينِها ، فتعلمُ عداوتَهُ بقلبِها ، فتهربُ منهُ ، فذلكَ هوَ الإدراكُ الباطنُ .

فلنذكرْ ما يختصُّ بهِ قلبُ الإنسانِ ولأجلِهِ عَظُمَ شرفُهُ ، واستأهلَ القربَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ راجعٌ إلىٰ علمٍ وإرادةٍ .

❊ ❊ ❊

أمَّا العلمُ : فهوَ العلمُ بالأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ ، والحقائقِ العقليةِ ، فإنَّ هـٰذهِ أمورٌ وراءَ المحسوساتِ ، ولا يشاركُهُ فيها الحيواناتُ ، بلِ العلومُ الكليَّةُ الضروريَّةُ مِنْ خواصِّ العقلِ ؛ إذْ يحكمُ الإنسانُ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ ، وهـٰذا حكمٌ منهُ علىٰ كلِّ شخصٍ ، ومعلومٌ أنَّهُ لمْ يدرِكْ بالحسِّ إلا بعضَ الأشخاصِ ، فحكمُهُ علىٰ جميعِ الأشخاصِ زائدٌ علىٰ ما أدركَهُ الحسُّ .

وإذا فهمتَ هـٰذا في العلمِ الظاهرِ الضروريِّ . . فهوَ في سائرِ النظرياتِ أظهرُ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الإرادةُ : فإنَّهُ إذا أدركَ بالعقلِ عاقبةَ الأمرِ ، وطريقَ الصلاحِ فيهِ . .

انبعثَ مِنْ ذاتِهِ شوقٌ إلىٰ جهةِ المصلحةِ ، وإلىٰ تعاطي أسبابِها والإرادةِ لها ، وذلكَ غيرُ إرادةِ الشهوةِ وإرادةِ الحيواناتِ ، بلْ يكونُ علىٰ ضدِّ الشهوةِ ؛ فإنَّ الشهوةَ تنفرُ عنِ الفصْدِ والحجامةِ ، والعاقلُ يريدُها ويطلبُها ، ويبذلُ المالَ فيها ، والشهوةُ تميلُ إلىٰ لذائذِ الأطعمةِ في حينِ المرضِ ، والعاقلُ يجدُ في نفسِهِ زاجراً عنها ، وليسَ ذلكَ زاجرَ الشهوةِ .

ولوْ خلقَ اللهُ العقلَ المعرِّفَ بعواقبِ الأمورِ ولمْ يخلقْ هٰذا الباعثَ المحرِّكَ للأعضاءِ علىٰ مقتضىٰ حكمِ العقلِ . . لكانَ حكْمُ العقلِ ضائعاً على التحقيقِ .

❊ ❊ ❊

فإذاً ؛ قلبُ الإنسانِ اختُصَّ بعلمٍ وإرادةٍ ينفكُّ عنها سائرُ الحيوانِ ، بلْ ينفكُّ عنها الصبيُّ في أوَّلِ الفطرةِ ، وإنَّما يحدثُ ذلكَ فيهِ عندَ البلوغِ ، وأمَّا الشهوةُ والغضبُ والحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ . . فإنَّها موجودةٌ في حقِّ الصبيِّ ، ثمَّ للصبيِّ في حصولِ هٰذهِ العلومِ فيهِ درجتانِ :

إحداهُما : أنْ يشتملَ قلبُهُ علىٰ سائرِ العلومِ الضروريَّةِ الأوَّليَّةِ ؛ كالعلمِ باستحالةِ المستحيلاتِ ، وجوازِ الجائزاتِ الظاهرةِ ، فتكونُ العلومُ النظريَّةُ فيهِ غيرَ حاصلةٍ ، إلا أنَّها صارَتْ ممكنةً قريبةَ الإمكانِ والحصولِ ، ويكونُ حالُهُ بالإضافةِ إلى العلومِ كحالِ الكاتبِ الذي لا يعرفُ مِنَ الكتابةِ إلا الدوَاةَ والقلمَ والحروفَ المفردةَ دونَ المركبةِ ، فإنَّهُ قدْ قاربَ الكتابةَ ولمْ يبلغْها بعدُ .

الثانيةُ : أنْ تحصلَ لهُ العلومُ المكتسبةُ بالتجاربِ والفكرِ ، فتكونَ كالمخزونةِ عندَهُ ، فإذا شاءَ . . رجعَ إليها ، وحالُهُ حالُ الحاذقِ بالكتابةِ ؛ إذْ يُقالُ لهُ : (كاتبٌ) وإنْ لمْ يكنْ مباشراً للكتابةِ بقدرتِهِ عليها ، وهـٰذهِ هيَ غايةُ درجةِ الإنسانيةِ .

ولكنْ في هـٰذهِ الدرجةِ مراتبُ لا تُحصىٰ ، يتفاوتُ الخلقُ فيها بكثرةِ المعلوماتِ وقلتِها ، وبشرفِ المعلوماتِ وخسَّتِها ، وبطريقِ تحصيلِها ؛ إذْ تحصلُ لبعضِ القلوبِ بإلهامٍ إلـٰهيٍّ علىٰ سبيلِ المبادأةِ والمكاشفةِ ، ولبعضِها بتعلُّمٍ واكتسابٍ ، ثمَّ قدْ يكونُ سريعَ الحصولِ وقدْ يكونُ بطيءَ الحصولِ ، وفي هـٰذا المقامِ تتباينُ منازلُ العلماءِ والحكماءِ ، والأنبياءِ والأولياءِ ، فدرجاتُ الترقِّي فيهِ غيرُ محصورةٍ ؛ إذْ معلوماتُ اللهِ سبحانَهُ لا نهايةَ لها ، وأقصى الرتبِ رتبةُ النبيِّ الذي تنكشفُ لهُ كلُّ الحقائقِ أوْ أكثرُها مِنْ غيرِ اكتسابٍ وتكلُّفٍ ، بلْ بكشفٍ إلـٰهيٍّ في أسرعِ وقتٍ .

وبهـٰذهِ السعادةِ يقربُ العبدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ قرْباً بالمعنىٰ والحقيقةِ والصِّفةِ[1] ، لا بالمكانِ والمسافةِ ، ومراقي هـٰذهِ الدرجاتِ هيَ منازلُ السائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا حصرَ لتلكَ المنازلِ ، وإنَّما يعرفُ كلُّ سالكٍ منزلَهُ الذي بلغَهُ في سلوكِهِ ، فيعرفُهُ ويعرفُ ما خلفَهُ مِنَ المنازلِ ، فأمَّا

(١) وهو ما عقد له المصنف في « المقصد الأسنىٰ » (ص٢٩) فصلاً في التخلق بأخلاق الله تعالىٰ والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه .

ما بينَ يديهِ . . فلا يحيطُ بحقيقتِهِ علماً ، لكنْ قدْ يصدِّقُ بهِ إيماناً بالغيبِ ، كما أنَّا نؤمنُ بالنبوَّةِ والنبيِّ ونصدِّقُ بوجودِهِ ، ولكنْ لا يعرفُ حقيقةَ النبوَّةِ إلا النبيُّ ، وكما لا يعرفُ الجنينُ حالَ الطفلِ ، ولا الطفلُ حالَ المميِّزِ وما يُفتحُ لهُ منَ العلومِ الضروريةِ ، ولا المميِّزُ حالَ العاقلِ وما اكتسبَهُ مِنَ العلومِ النظريَّةِ . . فكذلكَ لا يعرفُ العاقلُ ما انفتحَ علىٰ أولياءِ اللهِ وأنبيائِهِ من مزايا لطفِهِ ورحمتِهِ ، ﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

وهـٰذهِ الرحمةُ مبذولةٌ بحكمِ الجودِ والكرمِ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، غيرُ مضنونٍ بها علىٰ أحدٍ ، ولكنْ إنَّما تظهرُ في القلوبِ المتعرِّضةِ لنفحاتِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيَّامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »[1] ، والتعرُّضُ لها بتطهيرِ القلبِ وتزكيتِهِ مِنَ الخبثِ والكدورةِ الحاصلةِ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ كما سيأتي بيانُهُ .

وإلىٰ هـٰذا الجودِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا فيقولُ : هلْ مِنْ داعٍ فأستجيبَ لهُ . . . » الحديثَ[2] .

وبقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حكايةً عنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ : (لقدْ طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وأنا إلىٰ لقائِهِمْ أشدُّ شوقاً)[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/٢٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/٣٣٩) بنحوه .
(٢) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٣) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً =

وبقولِهِ تعالىٰ : « مَنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً . . تقرَّبْتُ إليهِ ذراعاً »[1] .

كلُّ ذلكَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ أنوارَ العلومِ لمْ تحتجبْ عنِ القلوبِ لبخْلٍ ومنعٍ مِنْ جهةِ المنعمِ ، تعالىٰ عنِ البخلِ والمنعِ علوّاً كبيراً ، ولكنْ حُجبَتْ لخبْثٍ وكدورةٍ وشغْلٍ مِنْ جهةِ القلوبِ ؛ فإنَّ القلوبَ كالأواني ، فما دامَتْ ممتلئةً بالماءِ لا يدخلُها الهواءُ ، فالقلوبُ المشغولةُ بغيرِ اللهِ لا تدخلُها المعرفةُ بجلالِ اللهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »[2] .

ومِنْ هٰذهِ الجملةِ يتبيَّنُ أنَّ خاصِّيَّةَ الإنسانِ العلمُ والحكمةُ ، وأشرفُ أنواعِ العلمِ هوَ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فبِهِ كمالُ الإنسانِ ، وفي كمالِهِ سعادتُهُ وصلاحُهُ لجوارِ حضرةِ الكمالِ والجلالِ ، فالبدنُ مركبٌ للنفسِ ، والنفسُ محلٌّ للعلمِ ، والعلمُ هوَ مقصودُ الإنسانِ وخاصيَّتُهُ التي لأجلِهِ خُلِقَ .

= قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٢) هو عند أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً ، ومنه : « فلما نزلت إلى السماء الدنيا . . نظرت أسفل مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هٰذا يا جبريل ؟ قال : هٰذه الشياطين يحومون علىٰ أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك . . لرأَوُا العجائب » .

وكما أنَّ الفرسَ يشاركُ الحمارَ في قوَّةِ الحملِ ، ويختصُّ عنهُ بخاصيَّةِ الكرِّ والفرِّ وحسنِ الهيئةِ ؛ فيكونُ الفرسُ مخلوقاً لأجلِ تلكَ الخاصيَّةِ ، فإنْ تعطَّلَتْ منهُ.. نزلَ إلىٰ حضيضِ رتبةِ الحمارِ ؛ فكذلكَ الإنسانُ يشاركُ الفرسَ والحمارَ في أمورٍ ، ويفارقُهُما في أمورٍ هيَ خاصِّيَّتُهُ ، وتلكَ الخاصيَّةُ مِنْ صفاتِ الملائكةِ المقرَّبينَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والإنسانُ علىٰ رتبةٍ بينَ البهائمِ والملائكةِ ؛ فإنَّ الإنسانَ مِنْ حيثُ يتغذَّىٰ وينسلُ.. فنباتٌ ، ومِنْ حيثُ يحسُّ ويتحرَّكُ بالاختيارِ.. فحيوانٌ ، ومِنْ حيثُ صورتُهُ وقامتُهُ.. فكالصورةِ المنقوشةِ على الحائطِ ، وإنَّما خاصِّيَّتُهُ معرفةُ حقائقِ الأشياءِ .

فَمنِ استعملَ جميعَ أعضائِهِ وقواهُ علىٰ وجهِ الاستعانةِ بها على العلمِ والعملِ.. فقدْ تشبَّهَ بالملائكةِ ، فحقيقٌ بأنْ يلتحقَ بهِمْ ، وجديرٌ بأنْ يُسمَّىٰ مَلَكاً وربَّانياً ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنْ صواحباتِ يوسفَ : ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ومَنْ صرفَ همَّتَهُ إلى اتباعِ اللذّاتِ البدنيةِ ، يأكلُ كما تأكلُ الأنعامُ.. فقدِ انحطَّ إلىٰ حضيضِ أفقِ البهائمِ ، فيصيرُ إمَّا غُمْراً كثورٍ[1] ، وإمَّا شرِهاً كخنزيرٍ ، وإمَّا ضريّاً ككلبٍ أوْ سنَّورٍ ، أوْ حقوداً كجملٍ ، أوْ متكبراً كنمرٍ ، أوْ ذا روغانٍ كثعلبٍ ، أوْ يجمعُ ذلكَ كلَّهُ كشيطانٍ مَريدٍ .

وما مِنْ عضوٍ مِنَ الأعضاءِ ولا حاسَّةٍ مِنَ الحواسِّ إلا ويمكنُ الاستعانةُ بهِ

(١) الغُمر : الجاهل .

علىٰ طريقِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، كما سيأتي بيانُ طرفٍ منهُ في كتابِ الشكرِ ، فَمنِ استعملَهُ فيهِ . . فقدْ فازَ ، ومَنْ عدلَ عنهُ . . فقدْ خسرَ وخابَ .

وجملةُ السعادةِ في ذلكَ : أنْ يجعلَ لقاءَ اللهِ تعالىٰ مقصدَهُ ، والدارَ الآخرةَ مستقرَّهُ ، والدنيا منزلَهُ ، والبدنَ مركبَهُ ، والأعضاءَ خدمَهُ ، فيستقرَّ هوَ ـ أعني : المدركَ مِنَ الإنسانِ ـ في القلبِ الذي هوَ وسَطُ مملكتِهِ كالملكِ ، ويُجري القوَّةَ الخياليَّةَ المودعةَ في مقدَّمِ الدماغِ مُجرىٰ صاحبِ بريدِهِ ؛ إذْ تجتمعُ أخبارُ المحسوساتِ عندَهُ ، ويُجري القوَّةَ الحافظةَ التي مسكنُها مؤخَّرَ الدماغِ مُجرىٰ خازنِهِ ، ويُجري اللسانَ مُجرىٰ ترجمانِهِ ، ويُجري الأعضاءَ المتحرِّكةَ مُجرىٰ كتابِهِ ، ويُجري الحواسَّ الخمسَ مُجرىٰ جواسيسِهِ ، فيوكِلُ كلَّ واحدٍ منها بأخبارِ صِقْعٍ مِنَ الأصقاعِ ، فيوكلُ العينَ بعالَمِ الألوانِ ، والسمعَ بعالمِ الأصواتِ ، والشمَّ بعالمِ الأرائحِ ، وكذلكَ سائرُها ؛ فإنَّها أصحابُ أخبارٍ يلتقطونَها مِنْ هـٰذهِ العوالمِ ، ويؤدُّونَها إلى القوَّةِ الخياليَّةِ التي هيَ كصاحبِ البريدِ ، ويسلِّمُها صاحبُ البريدِ إلى الخازنِ ، وهيَ القوَّةُ الحافظةُ ، ويعرضُها الخازنُ على المَلِكِ ، فيقتبسُ الملكُ منها ما يحتاجُ إليهِ في تدبيرِ مملكتِهِ ، وإتمامِ سفرِهِ الذي هوَ بصددِهِ ، وقمعِ عدوِّهِ الذي هوَ مبتلىً بهِ ، ودفعِ قواطعِ الطريقِ عليهِ .

فإذا فعلَ ذلكَ . . كان مَوفَّقاً سعيداً ، شاكراً نعمةَ اللهِ تعالىٰ .

وإذا عطَّلَ هـٰذهِ الجملةَ ، أوِ استعملَها لكنْ في مراعاةِ أعدائِهِ ؛ وهيَ

الشهوةُ والغضبُ وسائرُ الحظوظِ العاجلةِ ، أوْ في عمارةِ طريقِهِ دونَ منزلِهِ ؛ إذِ الدنيا طريقُهُ التي عليها عبورُهُ ، ووطنُهُ ومستقرُّهُ الآخرةُ . . كانَ مخذولاً شقياً ، كافراً بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، مضيِّعاً لجنودِ اللهِ تعالىٰ ، ناصراً لأعداءِ اللهِ ، مخذِّلاً لحزبِ اللهِ ، فيستحقُّ المقتَ والإبعادَ في المنقلبِ والمعادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ .

وإلى المثالِ الذي ضربناهُ أشارَ كعبُ الأحبارِ حيثُ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقلتُ : الإنسانُ عيناهُ هادٍ ، وأذناهُ قمعٌ ، ولسانُهُ ترجمانٌ ، ويداهُ جناحانِ ، ورجلاهُ بريدٌ ، والقلبُ منهُ مَلِكٌ ، فإذا طابَ الملكُ . . طابَتْ جنودُهُ ، فقالَتْ : هٰكذا سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ(١) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في تمثيلِ القلوبِ : (إنَّ للهِ تعالىٰ في أرضِهِ آنيةً وهيَ القلوبُ ، فأحبُّها إليهِ تعالىٰ أرقُّها وأصفاها وأصلبُها)(٢) ، ثمَّ فسَّرَ ذلكَ فقالَ : (أصلبُها في الدينِ ، وأصفاها في اليقينِ ، وأرقُّها على الإخوانِ)(٣) ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، قالَ أبيُّ بنُ كعبٍ

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٧٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١١٧) ، ورواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٨٤٠) عن أبي عنبة الخولاني مرفوعاً .
(٣) قوت القلوب (١/ ١١٧) .

رضيَ اللهُ عنهُ : معناهُ : مثلُ نورِ المؤمنِ وقلبِهِ[١] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ مثلُ قلبِ المنافقِ[٢] .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ : هوَ قلبُ المؤمنِ[٣] .

وقالَ سهلٌ : (مثلُ القلبِ والصدرِ مثلُ العرشِ والكرسيِّ)[٤] .

فهٰذهِ أمثلةُ القلبِ .

* * *

(١) رواه عنه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٨/ ١٧٣) ، و« قوت القلوب » (١/ ١١٨) .

(٢) روى الطبري في « تفسيره » (١٠/١٨/ ١٩٢) عن أبي رضي الله عنه : (ضرب الله مثلاً للكافر فقال : ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ . . .﴾ الآية ، قال : فهو يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة ؛ إلى النار) ، و« قوت القلوب » (١/ ١١٨) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١١٨) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١١٨) .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلمْ : أنَّ الإنسانَ قدِ اصطحبَ في تركيبِهِ وخلقتِهِ أربعَ شوائبَ ، فلذلكَ اجتمعَتْ عليهِ أربعةُ أنواعٍ مِنَ الأوصافِ ، وهيَ الصفاتُ السبعيَّةُ ، والبهيميَّةُ ، والشيطانيَّةُ ، والربَّانيَّةُ .

فهوَ مِنْ حيثُ سُلِّطَ عليهِ الغضبُ يتعاطىٰ أفعالَ السباعِ ؛ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ ، والتهجُّمِ على الناسِ بالضربِ والشتمِ .

ومِنْ حيثُ سُلِّطَتْ عليهِ الشهوةُ يتعاطىٰ أفعالَ البهائمِ ؛ مِنَ الشرهِ والحرصِ والشبقِ وغيرِهِ .

ومِنْ حيثُ إنَّهُ في نفسِهِ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ فإنَّهُ يدَّعي لنفسِهِ الربوبيَّةَ ، ويحبُّ الاستيلاءَ والاستعلاءَ ، والتخصُّصَ والاستبدادَ بالأمورِ كلِّها ، والتفرُّدَ بالرئاسةِ ، والانسلالَ عنْ ربقةِ العبوديَّةِ والتواضعِ ، ويشتهي الاطلاعَ على العلومِ كلِّها ، بلْ يدَّعي لنفسِهِ العلمَ والمعرفةَ والإحاطةَ بحقائقِ الأمورِ ، ويفرحُ إذا نُسِبَ إلى العلمِ ويحزنُ إذا نُسبَ إلى الجهلِ ، والإحاطةُ بجميعِ الحقائقِ ، والاستيلاءُ بالقهرِ علىٰ جميعِ الخَلائقِ . مِنْ أوصافِ الربوبيّةِ ، وفي الإنسانِ حرصٌ علىٰ ذلكَ .

ومِنْ حيثُ يختصُّ عَنِ البهائمِ بالتمييزِ ، معَ مشاركتِهِ لها في الغضبِ

والشهوةِ حصلَتْ فيهِ شيطانيَّةٌ ، فصارَ شريراً ، يستعملُ التمييزَ في استنباطِ وجوهِ الشرِّ ، ويتوصَّلُ إلى الأغراضِ بالمكرِ والحيلةِ والخداعِ ، ويظهرُ الشرَّ في معرضِ الخيرِ ، وهـٰذهِ أخلاقُ الشياطينِ .

وكلُّ إنسانٍ فيهِ شَوْبٌ مِنْ هـٰذهِ الأصولِ الأربعةِ ؛ أعني : الربانيَّةَ ، والشيطانيَّةَ ، والسبعيَّةَ ، والبهيميَّةَ ، وكلُّ ذلكَ مجموعٌ في القلبِ ، فكأنَّ المجموعَ في إهابِ الإنسانِ : خنزيرٌ ، وكلبٌ ، وشيطانٌ ، وحكيمٌ .

فالخنزيرُ هوَ الشهوةُ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنِ الخنزيرُ مذموماً للونِهِ وشكلِهِ وصورتِهِ ، بلْ لجشعِهِ وكَلَبِهِ وحرْصِهِ .

والكلبُ هوَ الغضبُ ؛ فإنَّ السبعَ الضاريَ والكلبَ العقورَ ليسا كلباً وسبعاً باعتبارِ الصورةِ واللونِ والشكلِ ، بلْ روحُ معنى السبعيَّةِ الضراوةُ والعدوانُ والعَقْرُ ، وفي باطنِ الإنسانِ ضراوةُ السبعِ وغضبُهُ ، وحرْصُ الخنزيرِ وشبقُهُ ، فالخنزيرُ يدعو بالشرهِ إلى الفحشاءِ والمنكرِ ، والسبعُ يدعو بالغضبِ إلى الظلمِ والإيذاءِ .

والشيطانُ لا يزالُ يهيِّجُ شهوةَ الخنزيرِ وغيظَ السبعِ ، ويغري أحدَهُما بالآخرِ ، ويحسِّنُ لهما ما هما مجبولانِ عليهِ .

والحكيمُ الذي هوَ مثالُ العقلِ مأمورٌ بأنْ يدفعَ كيدَ الشيطانِ ومكرَهُ ؛ بأنْ يكشفَ عنْ تلبيسهِ ببصيرتِهِ النافذةِ، ونورِهِ المشرقِ الواضحِ ، وأنْ يكسرَ شرهَ هـٰذا الخنزيرِ بتسليطِ الكلبِ عليهِ ، إذْ بالغضبِ يكسرُ سورةَ الشهوةِ ، ويدفعُ

ضراوةَ الكلبِ بتسليطِ الخنزيرِ عليهِ ، ويجعلُ الكلَّ مقهوراً تحتَ سياستِهِ .

فإنْ فعلَ ذلكَ وقدرَ عليهِ . . اعتدلَ الأمرُ ، وظهرَ العدلُ في مملكةِ البدنِ ، وجرى الكلُّ على الصراطِ المستقيمِ .

وإنْ عجزَ عنْ قهرِهِمْ . . قهروهُ واستخدموهُ ، فلا يزالُ في استنباطِ الحيلِ وتدقيقِ الفكرِ ليشبعَ الخنزيرَ ، ويرضيَ الكلبَ ، فيكونَ دائماً في عبادةِ كلبٍ وخنزيرٍ ، وهاذا حالُ أكثرِ الناسِ مهما كانَ أكثرُ همَّتِهِمُ البطنَ والفرجَ ومنافسةَ الأعداءِ .

والعجبُ منهُ أنَّهُ ينكرُ علىٰ عبدةِ الأصنامِ عبادتَهُمْ للحجارةِ ، ولوْ كُشِفَ الغطاءُ عنهُ ، وكُوشفَ بحقيقةِ حالِهِ ، ومثّلَ لهُ حقيقةُ حالِهِ كما يمثَّلُ للمكاشفينَ ؛ إمَّا في النومِ ، أوْ في اليقظةِ . . لرأىٰ نفسَهُ ماثلاً بينَ يدي خنزيرٍ ، ساجداً لهُ مرَّةً ، وراكعاً أخرىٰ ، ومنتظراً لإشارتِهِ وأمرِهِ ، ومهما هاجَ الخنزيرُ لطلبِ شيءٍ مِنْ شهواتِهِ . . انبعثَ على الفورِ في خدمتِهِ وإحضارِ شهوتِهِ ، أوْ رأىٰ نفسَهُ ماثلاً بينَ يدي كلبٍ عقورٍ ، عابداً لهُ ، مطيعاً سامعاً لما يقتضيهِ ويلتمسُهُ ، مدققاً للفكرِ في حيلِ الوصولِ إلىٰ طاعتِهِ ، وهوَ بذلكَ ساعٍ في مسرَّةِ شيطانِهِ ؛ فإنَّهُ الذي يهيِّجُ الخنزيرَ ويثيرُ الكلبَ ، ويبعثُهُما على استخدامِهِ ، فهوَ مِنْ هاذا الوجهِ يعبدُ الشيطانَ بعبادتِهِما[1] .

---

(١) فكيف ينكر من هو مثل هاذا علىٰ عبدة الأصنام مع إقرارهم بأنهم إنما يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفىٰ ، وعابد الخنزير والكلب أسوأ حالاً منهم لفواتهم تلك النية ؟! « إتحاف » (٢٢٧/٧) .

فليراقبْ كلُّ عبدٍ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وسكوتَهُ ونطقَهُ ، وقيامَهُ وقعودَهُ ، ولينظرْ بعينِ البصيرةِ ؛ فإنَّهُ لا يرىٰ ـ إنْ أنصفَ ـ نفسَهُ إلا ساعياً طولَ النهارِ في عبادةِ هؤلاءِ ، وهـٰذا غايةُ الظلمِ ؛ إذ جعلَ المالكَ مملوكاً ، والربَّ مربوباً ، والسيِّدَ عبْداً ، والقاهرَ مقهوراً ؛ إذِ العقلُ هوَ المستحقُّ للسيادةِ والقهرِ والاستيلاءِ ، وقدْ سخَّرَهُ لخدمةِ هؤلاءِ الثلاثةِ ، فلا جرمَ ينتشرُ إلىٰ قلبِهِ مِنْ طاعةِ هؤلاءِ الثلاثةِ صفاتٌ تتراكمُ عليهِ ، حتَّىٰ يصيرَ طابعاً وريْناً مهلكاً للقلبِ ومميتاً لهُ .

أمَّا طاعةُ خنزيرِ الشهوةِ . . فيصدرُ منها صفةُ الوقاحةِ ، والخبْثِ ، والتبذيرِ والتقتيرِ ، والرياءِ ، والهتكةِ ، والمجانةِ ، والعبثِ ، والحرصِ والجشعِ ، والملقِ والحسدِ ، والحقدِ ، والشماتةِ ، وغيرِها .

وأمَّا طاعةُ كلبِ الغضبِ . . فتنتشرُ منها إلى القلبِ صفةُ التهوُّرِ ، والنذالةِ[1] ، والبذْخِ والصلفِ والاستشاطةِ ، والتكبُّرِ والعجْبِ ، والاستهزاءِ والاستخفافِ وتحقيرِ الخلقِ ، وإرادةِ الشرِّ وشهوةِ الظلْمِ ، وغيرِها .

وأمَّا طاعةُ الشيطانِ بطاعةِ الشهوةِ والغضبِ . . فيحصلُ منها صفةُ المكرِ والخداعِ ، والحيلةِ والدهاءِ ، والجَرْبَزَةِ[2] ، والتلبيسِ ، والتضريبِ ، والغشِّ ، والخِبِّ ، والخنا ، وأمثالِها .

---

(١) في (ب) : (البذاءة) بدل (النذالة) ، وعند الحافظ الزبيدي : (البذالة) . « إتحاف » (٧/ ٢٢٨) .

(٢) **الجربزة** : لفظة فارسية ، معناها المكر والاحتيال ، وتأتي بمعنى الجرأة كذلك .

ولوْ عكسَ الأمرَ ، وقهرَ الجميعَ تحتَ سياسةِ الصفةِ الربَّانيَّةِ . . لاستقرَّ في القلبِ مِنَ الصفاتِ الربانيَّةِ العلمُ والحكمةُ واليقينُ ، والإحاطةُ بحقائقِ الأشياءِ ، ومعرفةُ الأمورِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، والاستيلاءُ على الكلِّ بقوَّةِ العلمِ والبصيرةِ ، واستحقاقُ التقدُّمِ على الخلْقِ بكمالِ العلمِ وجلالِهِ ، ولاستغنىٰ عنْ عبادةِ الشهوةِ والغضبِ .

فينتشرُ إليهِ مِنْ ضبطِ خنزيرِ الشهوةِ وردِّهِ إلىٰ حدِّ الاعتدال صفاتٌ شريفةٌ ؛ مثلُ العفَّةِ ، والقناعةِ ، والهدوءِ ، والزهدِ ، والورعِ ، والتقوىٰ ، والانبساطِ ، وحسنِ الهيئةِ ، والحياءِ ، والظَّرْفِ ، والمساعدةِ ، وأمثالِها .

ويحصلُ فيهِ مِنْ ضبطِ قوَّةِ الغضبِ وقهرِها ، وردِّها إلىٰ حدِّ الواجبِ صفةُ الشجاعةِ ، والكرمِ ، والنجدةِ ، وضبطِ النفسِ ، والصبرِ ، والحلمِ والاحتمالِ ، والعفوِ ، والثباتِ ، والنبْلِ ، والشهامةِ ، والوقارِ ، وغيرِها .

والقلبُ في حكمِ مرآةٍ قدِ اكتنفَتْهُ هـٰذهِ الأمورُ المؤثِّرةُ فيهِ ، وهـٰذهِ الآثارُ على التوالي واصلةٌ إلى القلبِ .

* * *

أمَّا الآثارُ المحمودةُ التي ذكرناها . . فإنَّها تزيدُ مرآةَ القلبِ جلاءً وإشراقاً ، ونوراً وضياءً ، حتَّىٰ يتلألأَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ، وينكشفَ فيهِ حقيقةُ الأمرِ المطلوبِ في الدينِ .

وإلىٰ مثلِ هـٰذا القلبِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ

بعبدٍ خيراً . . جعلَ لهُ واعظاً مِنْ قلبِهِ »[١] .

وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ مِنْ قلبِهِ واعظٌ . . كانَ عليهِ مِنَ اللهِ حافظٌ »[٢] .

وهٰذا القلبُ هوَ الذي يستقرُّ فيهِ الذكرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[٣] .

* * *

وأمَّا الآثارُ المذمومةُ . . فإنَّها مثلُ دخانٍ مظلمٍ يتصاعدُ إلىٰ مرآةِ القلبِ ، ولا يزالُ يتراكَمُ عليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ إلىٰ أنْ يسودَّ ويظلمَ ، ويصيرَ بالكليَّةِ محجوباً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ الطبْعُ ، وهوَ الرَّيْنُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة ، وإسناده جيد) « إتحاف » (٧/ ٢٢٨) ، وزاد الحافظ الزبيدي : (رواه ابن لال في « مكارم الأخلاق » ، ومن طريقه أورده الديلمي ، ولفظه : « جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه » ، ولفظ « القوت » [١/ ١١٥] : وفي الخبر : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . جعل له زاجراً من نفسه وواعظاً من قلبه » ، قلت : وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » [٢/ ٢٦٤] من قول ابن سيرين بزيادة : « يأمره وينهاه ») .

(٢) كذا في « قوت القلوب » (١/ ١١٥) غير أنه قال : (وفي الخبر . . .) وذكره ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥٥) عن أبي الجلد قال : (قرأت في الحكمة : من كان له من نفسه واعظ . . كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه . . زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية) .

(٣) ولولا أن الذكر استقر فيه . . ما اطمأن إليه . « إتحاف » (٧/ ٢٢٨) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ، فربطَ عدمَ السماعِ بالطبعِ بالذنوبِ كما ربطَ السماعَ بالتقوىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

ومهما تراكمَتِ الذنوبُ . . طُبِعَ على القلبِ ، وعندَ ذلك يَعمى القلبُ عنْ إدراكِ الحقِّ وصلاحِ الدينِ ، ويستهينُ بأمرِ الآخرةِ ، ويستعظمُ أمرَ الدنيا ، ويصيرُ مقصورَ الهمِّ عليها .

وإذا قرعَ سمعَهُ أمرُ الآخرةِ وما فيها مِنَ الأخطارِ . . دخلَ مِنْ أذنٍ وخرجَ مِنْ أخرىٰ ، ولمْ يستقرَّ في القلبِ ، ولمْ يحرِّكْهُ إلى التوبةِ والتداركِ ، أولئكَ الذينَ يئسوا مِنَ الآخرةِ كما يئسَ الكفَّارُ مِنْ أصحابِ القبورِ ، وهاذا هوَ معنى اسودادِ القلبِ بالذنوبِ كما نطقَ بهِ القرآنُ والسنةُ .

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (إذا أذنبَ العبدُ ذنباً . . نُكِتَ في قلبهِ نكتةٌ سوداءُ ، فإنْ هوَ نزعَ وتابَ . . صُقِلَ ، وإنْ عادَ . . زيدَ فيها حتَّىٰ يعلوَ قلبَهُ ، فهوَ الرانُ)(١) .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ أجردُ ، فيهِ سراجٌ

---

(١) كذا رواه عنه أبو طالب في « القوت » (١/١١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٨٩) ، ورواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٩٣٠) .

يزهرُ ، وقلبُ الكافرِ أسودُ منكوسٌ »[1] ، فطاعةُ اللهِ تعالىٰ بمخالفةِ الشهواتِ مصقلةٌ للقلبِ ، ومعاصيهِ مسوِّداتٌ لهُ ، فمَنْ أقبلَ على المعاصي . . اسودَّ قلبُهُ ، ومَنْ أتبعَ السيئةَ الحسنةَ ، ومحا أثرَها . . لمْ يظلمْ قلبُهُ ، ولكنْ ينقصُ نورُهُ ؛ كالمرآةِ التي يُتنفَّسُ فيها ثمَّ تُمسحُ ، ويُتنفَّسُ ثمَّ تُمسحُ ؛ فإنَّها لا تخلو عنْ كدورةٍ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القلوبُ أربعةٌ : قلبٌ أجردُ فيهِ سراجٌ يزهرُ ، فذلكَ قلبُ المؤمنِ ، وقلبٌ أسودُ منكوسٌ ، فذلكَ قلبُ الكافرِ ، وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ علىٰ غلافِهِ ، فذلكَ قلبُ المنافقِ ، وقلبٌ مصفحٌ فيهِ إيمانٌ ونفاقٌ ، فمثلُ الإيمانِ فيهِ كمثلِ البقلةِ يمدُّها الماءُ الطَّيِّبُ ، ومثلُ النِّفاقِ فيهِ كمثلِ القرحةِ يمدُّها القيحُ والصديدُ ، فأيُّ المادَّتينِ غلبَتْ عليهِ . . حُكِمَ لهُ بها » ، وفي روايةٍ : « ذهبَتْ بهِ »[2] .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ ، فأخبرَ أنَّ جلاءَ القلبِ وإبصارَهُ يحصلُ بالذكرِ ، وأنَّهُ لا يتمكنُ منهُ إلا الذينَ اتقوا ، فالتقوىٰ بابُ الذكرِ ، والذكرُ بابُ الكشفِ ، والكشفُ بابُ الفوزِ الأكبرِ ، وهوَ الفوزُ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٧) ، والطبراني في « الصغير » (٢/ ١٠٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمامه في الحديث بعده .

(٢) هو تمام الحديث قبله ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٧٦) .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصّة

اعلمْ : أنَّ محلَّ العلمِ هوَ القلبُ ؛ أعني : اللطيفةَ المدبِّرةَ لجميعِ الجوارحِ ، المطاعةَ المخدومةَ مِنْ بينِ سائرِ الأعضاءِ ، وهيَ بالإضافةِ إلىٰ حقائقِ المعلوماتِ كالمرآةِ بالإضافةِ إلىٰ صورِ المتلوِّناتِ ، فكما أنَّ للمتلوِّنِ صورةً ، ومثالُ تلكَ الصورةِ ينطبعُ في المرآةِ ويحصلُ بها . . فكذلكَ لكلِّ معلومٍ حقيقةٌ ، ولتلكَ الحقيقةِ صورةٌ تنطبعُ في مرآةِ القلبِ وتتضحُ فيها ، وكما أنَّ المرآةَ غيرٌ ، وصورُ الأشخاصِ غيرٌ ، وحصولُ مثالِها في المرآةِ غيرٌ ، فهيَ ثلاثةُ أمورٍ . . فكذلكَ هٰهنا ثلاثةُ أمورٍ : القلبُ ، وحقائقُ الأشياءِ ، وحصولُ نفسِ الحقائقِ في القلبِ وحضورِها فيهِ .

فالعالمُ عبارةٌ عنِ القلبِ الذي فيهِ يحلُّ مثالُ حقائقِ الأشياءِ ، والمعلومُ عبارةٌ عنْ حقائقِ الأشياءِ ، والعلمُ عبارةٌ عنْ حصولِ المثالِ في المرآةِ .

وكما أنَّ القبضَ مثلاً يستدعي قابضاً كاليدِ ، ومقبوضاً كالسيفِ ، ووصولاً بينَ اليدِ والسيفِ بحصولِ السيفِ في اليدِ ويُسمَّىٰ قبضاً . . فكذلكَ وصولُ مثالِ المعلومِ إلى القلبِ يُسمَّىٰ علماً ، وقدْ كانَتِ الحقيقةُ موجودةً ، والقلبُ موجوداً ، ولمْ يكنِ العلمُ حاصلاً ؛ لأنَّ العلمَ عبارةٌ عنْ وصولِ الحقيقةِ إلى القلبِ ، كما أنَّ السيفَ موجودٌ ، واليدَ موجودةٌ ، ولمْ يكنِ اسمُ القبضِ والأخذِ حاصلاً ؛ لعدمِ وقوعِ السيفِ في اليدِ .

نعمِ ، القبضُ عبارةٌ عنْ حصولِ السيفِ بعينِهِ في اليدِ ، والمعلومُ بعينِهِ لا يحصلُ في القلبِ ، فمَنْ علمَ النارَ . . لمْ تحصلْ عينُ النارِ في قلبِهِ ، ولكنَّ الحاصلَ حدُّها وحقيقتُها المطابقةُ لصورتِها ، فتمثيلُهُ بالمرآةِ أولىٰ ؛ لأنَّ عينَ الإنسانِ لا تحصلُ في المرآةِ ، وإنَّما يحصلُ مثالٌ مطابقٌ لهُ ، فكذلكَ حصولُ مثالٍ مطابقٍ لحقيقةِ المعلومِ في القلبِ يُسمَّىٰ علماً .

* * *

وكما أنَّ المرآةَ لا تنكشفُ فيها الصورُ لخمسةِ أمورٍ :

أحدُها : نقصانُ صورتِها ؛ كجوهرِ الحديدِ قبلَ أنْ يُدوَّرَ ويُشكَّلَ ويُصقلَ .

والثاني : لخبثِهِ وصدئِهِ وكدورتِهِ وإنْ كانَ تامَّ الشكلِ .

والثالثُ : لكونِهِ معدولاً بِهِ عنْ جهةِ الصورةِ إلىٰ غيرِها ؛ كما إذا كانَتِ الصورةُ وراءَ المرآةِ .

والرابعُ : لحجابٍ مرسلٍ بينَ المرآةِ والصورةِ .

والخامسُ : للجهلِ بالجهةِ التي فيها الصورةُ المطلوبةُ ، حتَّىٰ يتعذَّرَ بسببِهِ أنْ يحاذيَ بها شطرَ الصورةِ وجهتَها .

فكذلكَ القلبُ مرآةٌ مستعدةٌ لأنْ ينجليَ فيها حقيقةُ الحقِّ في الأمورِ كلِّها .

وإنَّما خلَتِ القلوبُ عنِ العلومِ التي خلَتْ عنها لهٰذهِ الأسبابِ الخمسةِ :

أولُها : نقصانٌ في ذاتِ القلبِ :

كقلبِ الصبيِّ ؛ فإنَّهُ لا تتجلَّىٰ لهُ المعلوماتُ لنقصانِهِ .

والثاني : لكدورةِ المعاصي والخبَثِ الذي يتراكمُ علىٰ وجهِ القلبِ مِنْ كثرةِ الشهواتِ :

فإنَّ ذلكَ يمنعُ صفاءَ القلبِ وجلاءَهُ ، فيمنعُ ظهورَ الحقِّ فيهِ ؛ لظلمتِهِ وتراكمِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لمْ يعدْ إليهِ أبداً »(١) ؛ أيْ : حصلَ في قلبِهِ كدورةٌ لا يزولُ أثرُها أبداً ؛ إذْ غايتُهُ أنْ يتبعَهُ بحسنةٍ تمحوها ، فلوْ جاءَ بالحسنةِ ولمْ تتقدَّمِ السيئةُ . . لازدادَ ـ لا محالةَ ـ إشراقُ القلبِ ، فلمَّا تقدمَتِ السيئةُ . . سقطَتْ فائدةُ الحسنةِ ، لكنْ عادَ القلبُ بها إلىٰ ما كانَ قبلَ السيئةِ ، ولمْ يزددْ بها نوراً ، فهٰذا خسرانٌ مبينٌ ، ونقصانٌ لا حيلةَ لهُ ، فليسَتِ المرآةُ التي تتدنَّسُ ثمَّ تُمسحُ بالمصقلةِ كالتي تُمسحُ بالمصقلةِ لزيادةِ جلائِها مِنْ غيرِ دنسٍ سابقٍ .

فالإقبالُ علىٰ طاعةِ اللهِ والإعراضُ عنْ مقتضى الشهواتِ هوَ الذي يجلو القلبَ ويصفيهِ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٢٣١) ، وسيأتي للمصنف غير مرة .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لمْ يعلمْ »[١] .

الثالثُ : أنْ يكونَ معدولاً بهِ عنْ جهةِ الحقيقةِ المطلوبةِ :

فإنَّ قلبَ المطيعِ الصالحِ وإنْ كانَ صافياً فإنَّهُ ليسَ يتضحُ فيهِ جليَّةُ الحقِّ ؛ لأنَّهُ ليسَ يطلبُ الحقَّ ، وليسَ محاذياً بمرآتِهِ شطرَ المطلوبِ ، بلْ ربَّما يكونُ مستوعبَ الهمِّ بتفصيلِ الطاعاتِ البدنيَّةِ ، أوْ بتهيئةِ أسبابِ المعيشةِ ، ولا يصرفُ فكرَهُ إلى التأمُّلِ في حضرةِ الربوبيَّةِ ، والحقائقِ الخفيَّةِ الإلٰهيةِ ، فلا ينكشفُ لهُ إلا ما هوَ متفكرٌ فيهِ مِنْ دقائقِ آفاتِ الأعمالِ وخفايا عيوبِ النفسِ إنْ كانَ متفكِّراً فيها ، أوْ مصالحِ المعيشةِ إنْ كان متفكِّراً فيها .

وإذا كانَ تقييدُ الهمِّ بالأعمالِ وتفصيلِ الطاعاتِ مانعاً عنِ انكشافِ جليَّةِ الحقِّ . . فما ظنُّكَ فيمَنْ صرفَ الهمَّ إلىٰ شهواتِ الدنيا ولذَّاتِها وعلائقِها ؟! فكيفَ لا يُمنعُ عنِ الكشفِ الحقيقيِّ ؟!

الرابعُ : الحجابُ :

فإنَّ المطيعَ القاهرَ لشهواتِهِ ، المتجرِّدَ الفكرِ في حقيقةٍ مِنَ الحقائقِ قدْ لا ينكشفُ لهُ ذلكَ ؛ لكونِهِ محجوباً عنهُ باعتقادٍ سبقَ إليهِ منذُ الصبا علىٰ سبيلِ التقليدِ والقبولِ بحسنِ الظنِّ ؛ فإنَّ ذلكَ يحولُ بينَهُ وبينَ حقيقةِ الحقِّ ،

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤) .

ويمنعُ مِنْ أنْ ينكشفَ في قلبِهِ خلافُ ما تلقَّفَهُ مِنْ ظاهرِ التقليدِ .

وهـٰذا أيضاً حجابٌ عظيمٌ ، بهِ حُجِبَ أكثرُ المتكلِّمينَ والمتعصِّبينَ للمذاهبِ ، بلْ أكثرُ الصالحينَ المتفكِّرينَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّهُمْ محجوبونَ باعتقاداتٍ تقليديَّةٍ جمدَتْ في نفوسِهِمْ ، ورسخَتْ في قلوبِهِمْ ، وصارَتْ حجاباً بينَهُمْ وبينَ دركِ الحقائقِ .

الخامسُ : الجهلُ بالجهةِ التي يقعُ منها العثورُ على المطلوبِ :

فإنَّ طالبَ العلمِ ليسَ يمكنُهُ أنْ يحصِّلَ العلمَ بالمجهولِ إلا بالتذكُّرِ للعلومِ التي تناسبُ مطلوبَهُ ، حتىٰ إذا تذكَّرَها ورتَّبَها في نفسِهِ ترتيباً مخصوصاً يعرفُهُ العلماءُ بطرقِ الاعتبار . فعندَ ذلكَ يكونُ قدْ عثرَ علىٰ جهةِ المطلوبِ ، فتنجلي حقيقةُ المطلوبِ لقلبِهِ ، فإنَّ العلومَ المطلوبةَ التي ليسَتْ فطريَّةً(١) لا تُقتنصُ إلا بشبكةِ العلومِ الحاصلةِ ، بلْ كلُّ علمٍ لا يحصلُ إلا عنْ علمينِ سابقينِ يأتلفانِ ويزدوجانِ علىٰ وجهٍ مخصوصٍ ، فيحصلُ مِنِ ازدواجِهِما علمٌ ثالثٌ علىٰ مثالِ ما يحصلُ النِّتاجُ مِن ازدواجِ الذكر والأنثىٰ ، ثمَّ كما أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يستنتجَ رمكةً لمْ يمكنْهُ ذلكَ مِنْ حمارٍ وبعيرٍ وإنسانٍ(٢) ، بلْ مِنْ أصلٍ مخصوصٍ مِنَ الخيلِ الذكرِ والأنثىٰ ، وذلكَ إذا وقعَ بينهما ازدواجٌ مخصوصٌ . فكذلكَ كلُّ علمٍ فلَهُ أصلانِ مخصوصانِ ،

(١) في (أ) : (أولية) بدل (فطرية) .
(٢) الرَّمَكَة : الأنثىٰ من البراذين .

وبينَهُما طريقٌ في الازدواجِ يحصلُ مِنِ ازدواجِهِما العلمُ المستفادُ المطلوبُ .

فالجهلُ بتلكَ الأصولِ وبكيفيةِ الازدواجِ هوَ المانعُ مِنَ العلمِ ، ومثالُهُ : ما ذكرناهُ مِنَ الجهلِ بالجهةِ التي الصورةُ فيها ، بلْ مثالُهُ : أنْ يريدَ الإنسانُ أنْ يرىٰ قفاهُ مثلاً في المرآةِ ، فإنَّهُ إنْ رفعَ المرآةَ بإزاءِ وجهِهِ . . لمْ يكنْ قدْ حاذىٰ بها شطرَ القفا ، فلا يظهرُ فيها القفا ، وإنْ رفعَها وراءَ القفا وحاذاهُ . . كانَ قدْ عدلَ بالمرآةِ عنْ عينِهِ ، فلا يرى المرآةَ ولا صورةَ القفا فيها ، فيحتاجُ إلىٰ مرآةٍ أخرىٰ ينصبُها وراءَ القفا ، وهـٰذهِ في مقابلتِها بحيثُ يبصرُها ، ويرعىٰ مناسبةً بينَ وضعِ المرآتينِ حتَّىٰ تنطبعَ صورةُ القفا في المرآةِ المحاذيةِ للقفا ، ثمَّ تنطبعَ صورةُ هـٰذهِ المرآةِ في المرآةِ الأخرى التي في مقابلةِ العينِ ، ثمَّ تدركَ العينُ صورةَ القفا ؛ فكذلكَ في اقتناصِ العلومِ طرقٌ عجيبةٌ ، فيها ازوراراتٌ وتحريفاتٌ أعجبُ ممَّا ذكرناهُ في المرآةِ ، يعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يهتدي إلىٰ كيفيَّةِ الحيلةِ في تلكَ الازوراراتِ .

* * *

فهـٰذهِ هيَ الأسبابُ المانعةُ للقلوبِ مِنْ معرفةِ حقائقِ الأمورِ ، وإلا . . فكلُّ قلبٍ فهوَ بالفطرةِ صالحٌ لمعرفةِ الحقائقِ ؛ لأنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ شريفٌ ، فارقَ سائرَ الجواهرِ بهـٰذهِ الخاصِّيَّةِ والشرفِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ إشارةً إلىٰ أنَّ لهُ خاصيَّةً تميَّزَ بها عنِ السماواتِ والأرضِ والجبالِ ،

بها صارَ مطيقاً لحملِ أمانةِ اللهِ تعالىٰ ، وتلكَ الأمانةُ هيَ المعرفةُ والتوحيدُ .

وقلبُ كلِّ آدميٍّ مستعدٌّ لحملِ الأمانةِ ومطيقٌ لها في الأصلِ ، ولكنْ يثبِّطُهُ عنِ النهوضِ بأعبائِها والوصولِ إلىٰ تحقيقِها الأسبابُ التي ذكرناها ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، فأبواهُ يهوِّدانِهِ وينصِّرانِهِ ويمجِّسانِهِ »[1] .

وقولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »[2] إشارةٌ إلىٰ بعضِ هٰذهِ الأسبابِ التي هيَ الحجابُ بينَ القلبِ وبينَ الملكوتِ .

وإليهِ الإشارةُ بما رُويَ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قيلَ لرسولِ اللهِ : يا رسولَ اللهِ ؛ أينَ اللهُ ؛ في الأرضِ أوْ في السماءِ ؟ قال : « في قلوبِ عبادِهِ المؤمنينَ »[3] .

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، واللام في قوله : (الفطرة) للعهد ، والمعهود : فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ أي : الخلقة التي خلق الناس عليها من الاستعداد لقبول الدين والتهيؤ للتمييز بين الخطإ والصواب . « إتحاف » (٧/ ٢٣٣) ، وفي رواية عند مسلم لهٰذا الحديث تؤكد ما بيَّنه المصنف هنا أن المراد بالفطرة : الاستعداد لحمل الأمانة ، لا وجود معارف سابقة ، وهي : « كل إنسان تلده أمه على الفطرة ، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فإن كانا مسلمين . . فمسلم . . . » الرواية .

(٢) هو عند أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٣) ضمن قصة الإسراء .

(٣) قوت القلوب (١/ ١١٨) .

وفي الخبرِ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لمْ يسعْني أرضي ولا سمائي ، ووسعَني قلبُ عبديَ المؤمنِ اللينِ الوادعِ »[(١)] .

وفي الخبرِ : أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ خيرُ الناسِ ؟ فقالَ : « كلُّ مؤمنٍ مخمومِ القلبِ » ، فقيلَ : وما مخمومُ القلبِ ؟ فقالَ : « هوَ التقيُّ النقيُّ ، الذي لا غشَّ فيهِ ولا بغيَ ، ولا غدرَ ولا غلَّ ولا حسدَ »[(٢)] .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رأىٰ قلبي ربِّي) ، إذْ كانَ قدْ رفعَ الحجابَ بالتقوىٰ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ١١٨) ، وقد أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٦) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه ، ورواه أحمد في « الزهد » (٤٢٣) عن وهب بن منبه ، قال : إن الله عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتىٰ نظر إلى العرش أو كما قال ، فقال حزقيل : سبحانك ما أعظمك يا رب ! فقال الله : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملني ، وضقنَ من أن تسعني ، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين .
وفي « الرسالة القشيرية » (ص٣٨٥) : (وفي بعض الكتب : أن موسىٰ عليه السلام قال : يا رب ؛ أين تسكن ؟ فأوحى الله تعالىٰ إليه : في قلب عبدي المؤمن . ومعناه : سكون الذكر في القلب ؛ فإن الحق سبحانه وتعالىٰ منزه عن كل سكون وحلول ، وإنما هو إثبات ذكر وتحصيل) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٢٣٤) : (ويشهد لصحة معناه حديث أبي عنبة الخولاني المار ذكره قريباً عن الطبراني ، وهـٰذا القدر يكفي للصوفي ، ولا يعترض عليه إذا عزاه إلىٰ حضرة الرسالة ، والإنصاف من أوصاف المؤمنين) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢١٦) بنحوه ، **وأصل الخمِّ في المعنىٰ** : الكنْس والتنقية .

ومَنِ ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ ربِّهِ . . تجلَّىٰ صورةُ المُلْكِ والملكوتِ في قلبِهِ ، فيرىٰ جنَّةً عرضُ بعضِها السماواتُ والأرضُ ، أمَّا جملتُها . . فأكثرُ سَعةً مِنَ السماواتِ والأرضِ ؛ لأنَّ السماواتِ والأرضَ عبارةٌ عنْ عالمِ المُلْكِ والشهادةِ ، وهوَ وإنْ كانَ واسعَ الأطرافِ ، متباعدَ الأكنافِ . . فهوَ متناهٍ على الجملةِ ، وأمَّا عالمُ الملكوتِ ، وهوَ الأسرارُ الغائبةُ عنْ مشاهدةِ الأبصارِ ، المخصوصةُ بإدراكِ البصائرِ . . فلا نهايةَ لهُ(١) .

نعم ، الذي يلوحُ للقلبِ منهُ مقدارٌ متناهٍ ، ولكنَّهُ في نفسِهِ وبالإضافةِ إلىٰ علمِ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لهُ .

وجملةُ عَالمِ المُلْكِ والملكوتِ إذا أُخذَتْ دفعةً واحدةً تُسمَّى الحضرةَ الربوبيَّةَ ؛ لأنَّ الحضرةَ الربوبيَّةَ محيطةٌ بكلِّ الموجوداتِ ؛ إذْ ليسَ في الوجودِ شيءٌ سوى اللهِ تعالىٰ وأفعالِهِ ، ومملكتُهُ وعبيدُهُ مِنْ أفعالِهِ ، فما يتجلَّىٰ مِنْ ذلكَ للقلبِ هوَ الجنَّةُ بعينِها عندَ قومٍ ، وهوَ سببُ استحقاقِ الجنَّةِ عندَ أهلِ الحقِّ ، ويكونُ سعةُ ملكِهِ في الجنَّةِ بحسبِ سعةِ معرفتِهِ ، وبمقدارِ ما تجلَّىٰ لهُ مِنَ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وإنَّما مرادُ الطاعاتِ وأعمالِ الجوارحِ

---

(١) لسعته ، وعالم الشهادة بالنسبة إلىٰ عالم الملكوت كالقشرة بالنسبة إلى اللب ، وكالصورة والقالب بالنسبة للروح ، وكالظلمة بالنسبة إلى النور ، وكالسفل بالنسبة إلى العلو ، ولذلك يسمىٰ عالم الملكوت العالمَ العلوي ، والعالم الروحاني ، والعالم النوراني ، وفي مقابلته العالم السفلي والجسماني والظلماني . « إتحاف » (٧/ ٢٣٥) ، وأصله من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » .

كلِّها تصفيةُ القلبِ وتزكيتُهُ وجلاؤُهُ ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، ومرادُ تزكيتِهِ حصولُ أنوارِ الإيمانِ فيهِ ؛ أعني : إشراقَ نورِ المعرفةِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

نعمْ ، هـٰذا التجلي وهـٰذا الإيمانُ لهُ ثلاثُ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : إيمانُ العوامِّ : وهوَ إيمانُ التقليدِ المحضِ .

والثانيةُ : إيمانُ المتكلمينَ : وهوَ ممزوجٌ بنوعِ استدلالٍ ، ودرجتُهُ قريبةٌ من درجةِ إيمانِ العوامِّ .

والثالثةُ : إيمانُ العارفينَ : وهوَ المشاهدةُ بنورِ اليقينِ (١) .

❋ ❋ ❋

ونبيِّنُ لكَ هـٰذهِ المراتبَ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ تصديقَكَ بكونِ زيدٍ مثلاً في الدارِ لهُ ثلاثُ درجاتٍ :

الأولىٰ : أنْ يخبرَكَ بهِ مَنْ جرَّبتَهُ بالصدْقِ ، ولمْ تعرفْهُ بالكذبِ ، ولا اتهمتَهُ في القولِ ، فإنَّ قلبَكَ يسكنُ إليهِ ، ويطمئنُّ بخبرِهِ بمجرَّدِ السماعِ ، وهـٰذا هوَ الإيمانُ بمجرَّدِ التقليدِ ، وهوَ مثلُ إيمانِ العوامِّ ؛ فإنَّهُمْ

---

(١) ينظر في بيانها كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » مجملاً ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (١/ ٢١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليس الخبر كالمعاينة » .

لمَّا بلغوا سنَّ التمييز . . سمعوا مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ وجودَ اللهِ تعالىٰ ، وعلمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ وسائرِ صفاتِهِ ، وبعثةِ الرسلِ وصدقِهِمْ وما جاؤوا بهِ ، وكما سمعوا بهِ . . قبلوهُ ، وثبتوا عليهِ ، واطمأنوا إليهِ ، ولمْ يخطرْ ببالِهِمْ خلافُ ما قالوهُ لهُمْ ؛ لحسنِ ظنِّهِمْ بآبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ ومعلِّميهِمْ .

وهٰذا الإيمانُ سببُ النجاةِ في الآخرةِ ، وأهلُهُ مِنْ أوائلِ رتبِ أصحابِ اليمينِ ، وليسوا مِنَ المقرَّبينَ ؛ لأنَّهُ ليسَ فيهِ كشفٌ وبصيرةٌ وانشراحُ صدرٍ بنورِ اليقينِ ؛ إذِ الخطأُ ممكنٌ فيما سُمعَ مِنَ الآحادِ ـ بلْ مِنَ الأعدادِ ـ فيما يتعلَّقُ بالاعتقاداتِ ، فقلوبُ اليهودِ والنصارىٰ أيضاً مطمئنةٌ بما يسمعونَهُ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ إلا أنَّهُمْ اعتقدوا ما اعتقدوهُ خطأً لأنَّهُمْ أُلقيَ إليهِمُ الخطأُ ، والمسلمونَ اعتقدوا الحقَّ ، لا لاطلاعِهِمْ عليهِ ، ولكنْ أُلقيَ إليهِمْ كلمةُ الحقِّ (١) .

* * *

الرتبةُ الثانيةُ : أنْ تسمعَ كلامَ زيدٍ وصوتَهُ مِنْ داخلِ الدارِ ، ولكنْ مِنْ

---

(١) ولقائل أن يقول : فما بال مقلِّد غير المسلمين يرى المصنف أنه من أهل النار ومقلد المسلمين أنه من أهل الجنة وكل منهما مشترك في التقليد ليس إلا ؟
فلهٰذا جواب حكميٌّ يطول ، وعلىٰ طريقة أهل الكلام يمكن القول : بِمَ كُلِّفَ العبد : أبالبحث عن الإيمان أو بالإيمان ؟ ومعلوم أن التكليف متجه للإيمان ، فمن أصاب الإيمان بغير بحث ودليل . . فهو من أهله ، ومن لم يصبه . . كُلِّف بالبحث عنه ، فإن تراخىٰ عن ذلك . . لم يكن من أهله ، والإمام الغزالي هنا وفي غيره من كتبه يميل إلى القول بإيمان المقلد الجازم بتقليده ، وهو رأي عامة أهل السنة والجماعة .

وراءِ جدارٍ ، فتستدلَّ بهِ على كونِهِ في الدارِ ، فيكونَ إيمانُكُ وتصديقُكَ ويقينُكَ بكونِهِ في الدارِ أقوىٰ مِنْ تصديقِكَ بمجرَّدِ السماعِ ؛ فإنَّكَ إذا قيلَ لكَ : (إنَّهُ في الدارِ) ثمَّ سمعتَ صوتَهُ . . ازددتَ بهِ يقيناً ؛ لأنَّ الصوتَ يدلُّ على الشكلِ والصورةِ عندَ مَنْ يسمعُ الصوتَ في حالِ مشاهدةِ الصورةِ ، فيحكمُ قلبُهُ بأنَّ هـٰذا صوتُ ذلكَ الشخصِ .

وهـٰذا إيمانٌ ممزوجٌ بدليلٍ ، والخطأُ أيضاً ممكنٌ أنْ يتطرَّقَ إليهِ ؛ إذِ الصوتُ قدْ يشبهُ الصوتَ ، وقدْ يمكنُ التكلُّفُ بطريقِ المحاكاةِ ، إلا أنَّ ذلكَ قدْ لا يخطرُ ببالِ السامعِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يجعلُ للتهمةِ موضعاً ، ولا يقدرُ في هـٰذا التلبيسِ والمحاكاةِ غرضاً .

* * *

الرتبةُ الثالثةُ : أنْ تدخلَ الدارَ فتنظرَ إليهِ بعينِكَ وتشاهدَهُ ، وهـٰذهِ هيَ المعرفةُ الحقيقيَّةُ ، والمشاهدةُ اليقينيَّةُ ، وهيَ تشبهُ معرفةَ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ؛ لأنَّهُمْ يؤمنونَ عنْ مشاهدةٍ ، فينطوي في إيمانِهِمْ إيمانُ العوامِّ والمتكلمينَ ، ويتميَّزونَ بمزيَّةٍ بيِّنَةٍ يستحيلُ معها إمكانُ الخطأِ .

نعمْ ، وهمْ أيضاً يتفاوتونَ بمقاديرِ العلومِ ، وبدرجاتِ الكشفِ .

أما درجاتُ الكشفِ : فمثالُهُ : أنْ يبصرَ زيداً في الدارِ عنْ قربٍ ، وفي صحنِ الدارِ في وقتِ إشراقِ الشمسِ ، فيكملُ لهُ إدراكُهُ ، والآخرُ يدركُهُ في بيتٍ أوْ مِنْ بعدٍ ، أو في وقتِ عشيةٍ ، فيتمثلُ لهُ في صورتِهِ ما يستيقنُ معهُ أنَّهُ

هوَ ، ولكنْ لا تتمثلُ في نفسِهِ الدقائقُ والخفايا مِنْ صورتِهِ ، ومثلُ هـٰذا متصوَّرٌ في تفاوتِ المشاهدةِ للأمورِ الإلـٰهيةِ .

وأمَّا مقاديرُ العلومِ : فهو بأنْ يرىٰ في الدارِ زيداً وعمراً وبكراً وغيرَ ذلك ، وآخرُ لا يرىٰ إلا زيداً ، فمعرفةُ ذلكَ تزيدُ بكثرةِ المعلوماتِ لا محالةَ .

فهـٰذهِ حالُ القلبِ بالإضافةِ إلى العلومِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقليّة والدّينيّة والدّنيويّة والأخرويّة

اعلمْ : أنَّ القلبَ بغريزتِهِ مستعدٌّ لقبولِ حقائقِ المعلوماتِ كما سبقَ ، ولكنَّ العلومَ التي تحلُّ فيهِ تنقسمُ إلىٰ عقليَّةٍ ، وإلىٰ شرعيَّةٍ .

والعقليَّةُ تنقسمُ إلىٰ ضروريَّةٍ ، ومكتسبةٍ .

والمكتسبة إلىٰ دنيويَّةٍ ، وأخرويَّةٍ

* * *

أمَّا العقليَّةُ : فنعني بها : ما تقضي بها غريزةُ العقلِ ، ولا تُوجدُ بالتقليدِ والسماعِ .

وهيَ تنقسمُ :

إلىٰ ضروريةٍ لا يدري مِنْ أينَ حصلَتْ ، وكيفَ حصلَتْ ؛ كعلمِ الإنسانِ بأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ ، والشيءَ الواحدَ لا يكونُ حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً معاً ؛ فإنَّ هـٰذهِ علومٌ يجدُ الإنسانُ نفسَهُ منذُ الصبا مفطوراً عليها ، ولا يدري متىٰ حصلَ لهُ هـٰذا العلمُ ، ولا مِنْ أينَ حصلَ لهُ ؛ أعني أنَّهُ لا يدري لها سبباً قريباً ، وإلا . . فليسَ يخفىٰ عليهِ أنَّ اللهَ هوَ الذي خلقَهُ وهداهُ .

وإلىٰ علومٍ مكتسبةٍ ، وهيَ المستفادةُ بالتعلُّمِ والاستدلالِ .

وكلا القسمينِ قدْ يُسمَّىٰ عقلاً ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ[1] : [من الهزج]

رَأَيْـــتُ ٱلْعَقْـــلَ عَقْلَيْـــنِ فَمَطْبُـــوعٌ وَمَسْمُـــوعُ
وَلا يَنْفَـــعُ مَسْمُـــوعٌ إِذا لَـــمْ يَـــكُ مَطْبُـــوعُ
كَمـــا لا تَنْفَـــعُ ٱلشَّمْـــسُ وَضَـــوْءُ ٱلْعَيْـــنِ مَمْنُـــوعُ

والأوَّلُ : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ : « ما خلقَ اللهُ خلقاً أكرمَ عليهِ مِنَ العقلِ »[2] .

والثاني : هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إذا تقرَّبَ الناسُ إلى اللهِ تعالىٰ بأنواعِ البرِّ . . فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ »[3] ؛ إذْ لا يمكنُ التقرُّبُ بالغريزةِ الفطريَّةِ ولا بالعلومِ الضروريَّةِ ، بلْ بالمكتسبةِ ، ولكنْ مثلُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ هوَ الذي يقدرُ على التقرُّبِ باستعمالِ العقلِ في اقتناصِ العلومِ التي بها يُنالُ القرْبُ مِنْ ربِّ العالمينَ .

والقلبُ جارٍ مَجرى العينِ ، وغريزةُ العقلِ فيهِ جاريةٌ مجرىٰ قوَّةِ البصرِ

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٦١) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٨٣/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٨/٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) .
(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٨/١) مرفوعاً : « يا علي ؛ إذا تقرب الناس إلىٰ خالقهم في أبواب البر . . فتقرب إليه بأنواع العقل ، تسبقهم بالدرجات والزلفىٰ عند الناس في الدنيا ، وعند الله في الآخرة » .

في العينِ ، وقوَّةُ الإبصارِ لطيفةٌ تُفقدُ في العمىٰ ، وتُوجدُ في البصرِ وإنْ كانَ قدْ غمَّضَ العينَ أوْ جَنَّ عليهِ الليلُ ، والعلمُ الحاصلُ منهُ في القلبِ جارٍ مَجرىٰ قوَّةِ إدراكِ البصرِ في العينِ ، ورؤيتُهُ لأعيانِ الأشياءِ ، وتأخُّرُ العلومِ عنْ عينِ العقلِ في مدَّةِ الصبا إلىٰ أوانِ التمييزِ أوِ البلوغِ . . يضاهي تأخُّرَ الرؤيةِ عنِ البصرِ إلىٰ أوانِ إشراقِ الشمسِ وفيضانِ نورِها على المبصراتِ ، والقلمُ الذي بهِ سطرَ اللهُ العلومَ علىٰ صفحاتِ القلوبِ يجري مجرىٰ قرْصِ الشمسِ ، وإنَّما لمْ يحصلِ العلمُ في قلبِ الصبيِّ قبلَ التمييزِ لأنَّ لوحَ قلبِهِ لمْ يتهيَّأْ بعدُ لقبولِ نقشِ القلمِ ، والقلمُ عبارةٌ عنْ خلقٍ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، جعلَهُ سبباً لحصولِ نقْشِ العلومِ في قلوبِ البشرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وقلمُ اللهِ تعالىٰ لا يشبهُ قلمَ خلقِهِ ، كما أنَّ وصفَهُ سبحانَهُ لا يشبهُ وصفَ خلقِهِ ، فليسَ قلمُهُ مِنْ قصبٍ ولا خشبٍ ، كما أنَّهُ سبحانَهُ ليسَتْ ذاتُهُ مِنْ جوهرٍ ولا عرضٍ ، فالموازنةُ بينَ البصيرةِ الباطنةِ والبصرِ الظاهرِ صحيحةٌ مِنْ هـٰذهِ الوجوهِ ، إلا أنَّهُ لا مناسبةَ بينَهُما في الشرفِ ؛ فإنَّ البصيرةَ الباطنةَ هيَ عينُ النفسِ التي هيَ اللطيفةُ المدركةُ ، وهيَ كالفارسِ ، والبدنُ كالفرسِ ، وعمى الفارسِ أضرُّ على الفارسِ مِنْ عمى الفرسِ ، بلْ لا نسبةَ لأحدِ الضررينِ إلى الآخرِ .

ولموازنةِ البصيرةِ الباطنةِ للبصرِ الظاهرِ سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ باسمِهِ ، فقالَ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ، سمَّىٰ إدراكَ الفؤادِ رؤيةً .

وكذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

وما أرادَ بهِ الرؤيةَ الظاهرةَ ، فإنَّ ذلكَ غيرُ مخصوصٍ بإبراهيمَ عليهِ السلامُ حتَّىٰ يُذكرَ في معرضِ الامتنانِ .

ولذلكَ سمَّىٰ ضدَّ إدراكِهِ عمىً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

فهـٰذا بيانُ العلمِ العقليِّ .

* * *

أمَّا العلومُ الدينيَّةُ : فهيَ المأخوذةُ بطريقِ التقليدِ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وسلامُهُ ، وذلكَ يحصلُ بالتعلُّمِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفهْمِ معانيهما بعدَ السماعِ ، وبهِ كمالُ صفةِ القلبِ ، وبهِ سلامتُهُ عنِ الأدواءِ والأمراضِ ، فالعلومُ العقليَّةُ غيرُ كافيةٍ في سلامةِ القلبِ وإنْ كانَ محتاجاً إليها ، كما أنَّ العقلَ غيرُ كافٍ في استدامةِ أسبابِ صحةِ البدنِ ، بلْ يحتاجُ إلىٰ معرفةِ خواصِّ الأدويةِ والعقاقيرِ بطريقِ التعلُّمِ مِنَ الأطباءِ ، إذْ مجرَّدُ العقلِ لا يهدي إليهِ ، ولكنْ لا يمكنُ فهمُهُ بعدَ سماعِهِ إلا بالعقلِ ، فلا غنىً بالعقلِ عنِ السمعِ ، ولا بالسمعِ عنِ العقلِ ، فالداعي إلىٰ محضِ التقليدِ معَ عزلِ العقلِ بالكليَّةِ جاهلٌ ، والمكتفي بمجرَّدِ العقلِ عنْ أنوارِ القرآنِ والسنَّةِ مغرورٌ ، فإيَّاكَ أنْ تكونَ مِنْ أحدِ الفريقينِ ، وكُنْ جامعاً بينَ الأصلينِ ؛ فإنَّ العلومَ العقليَّةَ كالأغذيةِ ، والعلومَ الشرعيَّةَ

كالأدويةِ ، والشخصُ المريضُ يتضرَّرُ بالغذاءِ مهما فاتَهُ الدواءُ ، فكذلكَ أمراضُ القلوبِ لا يمكنُ علاجُها إلا بالأدويةِ المستفادةِ مِنَ الشريعةِ ، وهيَ وظائفُ العباداتِ والأعمالُ التي ركَّبَها الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ لإصلاحِ القلوبِ ، فمَنْ لا يداوي قلبَه المريضَ بمعالجاتِ العباداتِ الشرعيَّةِ ، واكتفىٰ بالعلومِ العقليَّةِ . . استضرَّ بها كما يستضرُّ المريضُ بالغذاءِ .

وظنُّ مَنْ يظنُّ أنَّ العلومَ العقليَّةَ مناقضةٌ للعلومِ الشرعيَّةِ ، وأنَّ الجمعَ بينَهُما غيرُ ممكنٍ . . هوَ ظنٌّ صادرٌ عنْ عمىً في عينِ البصيرةِ ، نعوذُ باللهِ منهُ ، بلْ هـٰذا القائلُ ربَّما يناقضُ عندَهُ بعضُ العلومِ الشرعيَّةِ لبعضٍ ، فيعجزُ عنِ الجمعِ بينَهُما ، فيظنُّ أنَّهُ تناقضٌ في الدينِ ، فيتحيَّرُ بهِ ، وينسلُّ مِنَ الدينِ انسلالَ الشعرةِ مِنَ العجينِ .

وإنَّما ذلكَ عجزٌ في نفسِهِ خيَّلَ إليهِ تناقضاً في الدينِ ، وهيهاتَ ! وإنَّما مثالُهُ مثالُ الأعمى الذي دخلَ دارَ قومٍ ، فتعثَّرَ فيها بأواني الدارِ ، فقالَ لهُمْ : ما بالُ هـٰذهِ الأواني تركَتْ على الطريقِ ؟ لِمَ لا تُردُّ إلىٰ مواضعِها ؟ ، فقالوا لهُ : تلكَ الأواني في مواضعِها ، وإنَّما أنتَ لستَ تهتدي إلى الطريقِ لعماكَ ، فالعجبُ منكَ أنَّكَ لا تحيلُ عثرتَكَ علىٰ عماكَ ، وإنَّما تحيلُها علىٰ تقصيرِ غيرِكِ !

فهـٰذهِ نسبةُ العلومِ الدينيَّةِ إلى العلومِ العقليَّةِ .

* * *

والعلومُ العقليّةُ تنقسمُ إلىٰ دنيويّةٍ وأخرويّةٍ :

فالدنيويّةُ : كعلمِ الطبِّ ، والحسابِ ، والهندسةِ ، والنجومِ ، وسائرِ الحرفِ والصناعاتِ .

والأخرويّةُ : كعلمِ أحوالِ القلبِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، والعلمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، كما فصلناهُ في كتابِ العلمِ .

وهما علمانِ متنافيانِ ؛ أعني أنَّ مَنْ صرفَ عنايتَهُ إلىٰ أحدِهما حتَّىٰ تعمقَ فيهِ . . قصرَتْ بصيرتُهُ عنِ الآخرِ على الأكثرِ ، ولذلكَ ضربَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ للدنيا والآخرةِ ثلاثةَ أمثلةٍ فقالَ : (هما ككفَّتي الميزانِ ، وكالمشرقِ والمغربِ ، وكالضرَّتينِ ، إذا أرضيتَ إحداهُما . . أسخطتَ الأخرىٰ)[1] .

ولذلكَ ترى الأكياسَ في أمورِ الدنيا وفي علمِ الطبِّ والحسابِ والهندسةِ والفلسفةِ جهالاً في أمورِ الآخرةِ ، والأكياسَ في دقائقِ علومِ الآخرةِ جهالاً في أكثرِ علومِ الدنيا ؛ لأنَّ قوَّةَ العقلِ لا تفي بالأمرينِ جميعاً في الغالبِ ، فيكونُ أحدُهُما مانعاً مِنَ الكمالِ في الثاني .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ »[2] أي : البلْهُ في أمورِ الدنيا .

---

(١) الذريعة (ص ١٣٦) .

(٢) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٧/ ٤٣١)، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣١٣)، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقالَ الحسنُ في بعضِ مواعظِهِ : (لقدْ أدركتُ أقواماً لوْ رأيتموهُمْ . . لقلتُمْ : مجانينُ ، ولوْ رأوكُمْ . . لقالوا : شياطينُ)[1] .

فمهما سمعتَ أمراً غريباً مِنْ أمورِ الدينِ جحدَهُ أهلُ الكياسةِ في سائرِ العلومِ . . فلا ينفِّرنَّكَ جحودُهُمْ عنْ قبولِهِ ؛ إذْ مِنَ المحالِ أنْ يظفرَ سالكُ طريقِ المشرقِ بما يُوجدُ في المغربِ ، فكذلكَ يجري أمرُ الدنيا والآخرةِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

فالجمعُ بينَ كمالِ الاستبصارِ في مصالحِ الدنيا والدينِ لا يكادُ يتيسَّرُ إلا لمَنْ رسَّخَهُ اللهُ لتدبيرِ عبادِهِ في معاشِهِمْ ومعادِهِمْ[2] ، وهمُ الأنبياءُ المؤيَّدونَ بروحِ القدسِ، المستمدُّونَ مِنَ القوَّةِ الإلـٰهيَّةِ التي تتسعُ لجميعِ الأمورِ ولا تضيقُ عنها .

فأمَّا قلوبُ سائرِ الخلقِ . . فإنَّها إذا اشتغلَتْ بأمرٍ . . انصرفَتْ عنِ الآخرِ ، وقصرَتْ عنِ الاستكمالِ فيهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧١) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٦٥) .
(٢) في (د ، ك ، ل) : (رشحه) بدل (رسخه) .

بيان الفرق بين الإلهام والتّعلّم والفرق بين طريق الصّوفيّة في استكشاف الحقّ وطريق النّظّار

اعلمْ : أنَّ العلومَ التي ليسَتْ ضروريَّةً ـ وإنَّما تحصلُ في القلبِ في بعضِ الأحوالِ ـ . تختلفُ الحالُ في حصولِها ، فتارةً تهجمُ على القلبِ كأنَّهُ أُلقيَ فيهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، وتارةً تُكتسبُ بطريقِ الاستدلالِ والتعلُّمِ ، فالذي يحصلُ لا بطريقِ الاكتسابِ وحيلةِ الدليلِ يُسمَّىٰ **إلهاماً** ، والذي يحصلُ بالاستدلالِ يُسمَّى **اعتباراً واستبصاراً** .

ثمَّ الواقعُ في القلبِ بغيرِ حيلةٍ وتعلُّمٍ واجتهادٍ مِنَ العبدِ ينقسمُ إلىٰ ما لا يدري العبدُ أنَّهُ كيفَ حصلَ لهُ ومِنْ أينَ حصلَ ، وإلىٰ ما يطلعُ معَهُ على السببِ الذي منهُ استُفيدَ ذلكَ العلمُ ، وهوَ مشاهدةُ المَلَكِ الملْقِي في القلبِ ، والأوَّلُ يُسمَّىٰ **إلهاماً ونفثاً في الرُّوعِ** ، والثاني يُسمَّىٰ **وحياً** ، وتختصُّ بهِ الأنبياءُ ، والأوَّلُ يختصُّ بهِ الأولياءُ والأصفياءُ ، والذي قبلَهُ ـ وهوَ المكتسبُ بطريقِ الاستدلالِ ـ يختصُّ بهِ العلماءُ .

وحقيقةُ القولِ فيهِ : أنَّ القلبَ مستعدٌّ لأنْ تنجليَ فيهِ حقيقةُ الحقِّ في الأشياءِ كلِّها ، وإنَّما حيلَ بينَهُ وبينَها بالأسبابِ الخمسةِ التي سبقَ ذكرُها ، فهيَ كالحجابِ المسدلِ الحائلِ بينَ مرآةِ القلبِ وبينَ اللوحِ المحفوظِ الذي هوَ منقوشٌ بجميعِ ما قضى اللهُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وتجلِّي حقائقِ العلومِ مِنْ

مرآةِ اللوحِ في مرآةِ القلبِ يضاهي انطباعَ صورةٍ مِنْ مرآةٍ في مرآةٍ تقابلُها ، والحجابُ بينَ المرآتينِ تارةً يُزالُ باليدِ ، وأخرىٰ يزولُ بهبوبِ ريحٍ تحرِّكُهُ ، وكذلكَ قدْ تهبُّ رياحُ الألطافِ ، فتنكشفُ الحجبُ عنْ أعينِ القلوبِ ، فينجلي فيها بعضُ ما هوَ مسطورٌ في اللوحِ المحفوظِ .

ويكونُ ذلكَ تارةً عندَ المنامِ ، فيعلمُ بهِ ما يكونُ في المستقبلِ ، وتمامُ ارتفاعِ الحجابِ بالموتِ ، فبهِ ينكشفُ الغطاءُ ، وينكشفُ أيضاً في اليقظةِ ، حتَّىٰ يرتفعَ الحجابُ بلطفٍ خفيٍّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيلمعُ في القلوبِ مِنْ وراءِ سترِ الغيبِ شيءٌ مِنْ غرائبِ العلمِ ، تارةً كالبرقِ الخاطفِ ، وأخرىٰ على التوالي إلىٰ حدٍّ ما ، ودوامُهُ في غايةِ الندورِ ، فلمْ يفارقِ الإلهامُ الاكتسابَ في نفسِ العلمِ ، ولا في محلِّهِ ، ولا في سببهِ ، ولكنْ يفارقُهُ في جهةِ زوالِ الحجابِ ؛ فإنَّ ذلكَ ليسَ باختيارِ العبدِ ، ولمْ يفارقِ الوحيُ الإلهامَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ ، بلْ في مشاهدةِ المَلَكِ المفيدِ للعلمِ ؛ فإنَّ العلومَ إنَّما تحصلُ في قلوبنا بواسطةِ الملائكةِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ .

* * *

فإذا عرفتَ هـٰذا . . فاعلمْ أنَّ ميلَ أهلِ التصوُّفِ إلى العلومِ الإلهاميَّةِ دونَ التعليميَّةِ ، فلذلكَ لمْ يحرصوا علىٰ دراسةِ العلمِ وتحصيلِ ما صنَّفَهُ المصنِّفونَ ، والبحثِ عنِ الأقاويلِ والأدلَّةِ المذكورةِ ، بلْ قالوا : الطريقُ

تقديمُ المجاهدةِ ومحوُ الصفاتِ المذمومةِ ، وقطعُ العلائقِ كلِّها ، والإقبالُ بكنْهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، ومهما حصلَ ذلكَ . . كانَ اللهُ هوَ المتولِّيَ لقلبِ عبدِهِ ، والمتكفِّلَ بتنويرِهِ بأنوارِ العلمِ ، وإذا تولَّى اللهُ أمرَ القلبِ . . فاضتْ عليهِ الرحمةُ ، وأشرقَ النورُ في القلبِ ، وانشرحَ الصدرُ ، وانكشفَ لهُ سرُّ الملكوتِ ، وانقشعَ عنْ وجهِ القلبِ حجابُ العزَّةِ[1] بلطفِ الرحمةِ ، وتلألأَتْ فيهِ حقائقُ الأمورِ الإلـٰهيَّةِ .

وليسَ على العبدِ إلا الاستعدادُ بالتصفيةِ المجرَّدةِ ، وإحضارُ الهمَّةِ معَ الإرادةِ الصادقةِ ، والتعطُّشُ التامُّ ، والترصُّدُ بدوامِ الانتظارِ لما يفتحُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ الرحمةِ ، فالأنبياءُ والأولياءُ انكشفَتْ لهُمُ الأمورُ وفاضَ علىٰ صدورِهِمُ النورُ لا بالتعلُّمِ والدراسةِ والكتابةِ للكتبِ ، بلْ بالزهدِ في الدنيا والتبرِّي مِنْ علائقِها ، وتفريغِ القلبِ مِنْ شواغلِها ، والإقبالِ بكنهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ كانَ للهِ . . كانَ اللهُ لهُ .

وزعموا أنَّ الطريقَ في ذلكَ أوَّلاً بقطعِ علائقِ الدنيا بالكليَّةِ ، وتفريغِ القلبِ منها ، وبقطعِ الهمَّةِ عنِ الأهلِ والمالِ والولدِ والوطنِ ، وعنِ العلمِ والولايةِ والجاهِ ، بلْ يصيرُ قلبُهُ إلىٰ حالةٍ يستوي فيها وجودُ كلِّ شيءٍ وعدمُهُ ، ثمَّ يخلو بنفسِهِ في زاويةٍ معَ الاقتصارِ على الفرائضِ والرواتبِ ، ويجلسُ فارغَ القلبِ ، مجموعَ الهمِّ ، ولا يفرِّقُ فكرَهُ بقراءةِ قرآنٍ ،

---

(١) في (ل) : (الغرَّة) .

ولا بالتأمُّلِ في تفسيرِهِ ، ولا بكتْبِ حديثٍ ولا غيرِهِ[1] ، بلْ يجتهدُ ألا يخطرَ ببالِهِ شيءٌ سوىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يزالُ بعدَ جلوسِهِ في الخلوةِ قائلاً بلسانِهِ : (الله ، الله ، الله) على الدوامِ ، معَ حضورِ القلبِ ، حتىٰ ينتهيَ إلىٰ حالةٍ يتركُ تحريكَ اللسانِ ويرىٰ كأنَّ الكلمةَ جاريةٌ علىٰ لسانِهِ ، ثمَّ يصبرُ عليهِ إلىٰ أنْ ينمحيَ أثرُهُ عنِ اللسانِ ، ويصادفَ قلبَهُ مواظباً على الذكرِ ، ثمَّ يواظبُ عليهِ إلىٰ أنْ ينمحيَ عنِ القلبِ صورةُ اللفظِ وحروفُهُ وهيئةُ الكلمةِ ، ويبقىٰ معنى الكلمةِ مجرَّداً في قلبِهِ ، حاضراً فيهِ ، كأنَّهُ لازمٌ لهُ لا يفارقُهُ ، ولهُ اختيارٌ إلىٰ أنْ ينتهيَ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، واختيارٌ في استدامةِ هـٰذهِ الحالةِ بدفعِ الوسواسِ ، وليسَ لهُ اختيارٌ في استجلابِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، بلْ هوَ بما فعلَهُ صارَ متعرِّضاً لنفحاتِ رحمةِ اللهِ ، فلا يبقىٰ إلا الانتظارُ لما يفتحُ اللهُ مِنَ الرحمةِ كما فتحَها على الأنبياءِ والأولياءِ بهـٰذهِ الطريقِ ، وعندَ ذلكَ إذا صدقَتْ إرادتُهُ ، وصفَتْ همَّتُهُ ، وحسُنَتْ مواظبتُهُ ، فلمْ تجاذبْهُ شهواتُهُ ، ولمْ يشغلْهُ حديثُ النفسِ بعلائقِ الدنيا . . تلمعُ لوامعُ الحقِّ في قلبِهِ ، ويكونُ في ابتدائِهِ كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ثمَّ يعودُ ، وقدْ يتأخَّرُ ، وإنْ عادَ . . فقدْ يثبتُ ، وقدْ يكونُ مختطفاً ، وإنْ ثبتَ . . قدْ يطولُ ثباتُهُ ، وقدْ لا يطولُ ، وقدْ يتظاهرُ أمثالُهُ على التلاحقِ ، وقدْ يقتصرُ علىٰ فَنٍّ واحدٍ ، ومنازلُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ فيهِ لا تُحصرُ ، كما لا يُحصىٰ تفاوتُ خلقِهِمْ وأخلاقِهِمْ .

---

(١) كالاشتغال بالأذكار والأوراد . « إتحاف » (٧/ ٢٤٧) .

وقدْ رجعَ هـٰذا الطريقُ إلىٰ تطهيرٍ محضٍ مِنْ جانبِكَ ، وتصفيةٍ وجلاءٍ ، ثمَّ استعدادٍ وانتظارٍ فقطْ(١) .

وأمَّا النظَّارُ وذوو الاعتبارِ . . فلم ينكروا وجودَ هـٰذا الطريقِ وإمكانَهُ ، وإفضاءَهُ إلى المقصدِ على الندورِ ، فإنَّهُ أكثرُ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ ، ولكنِ استوعروا هـٰذا الطريقَ ، واستبطؤوا ثمرتَهُ ، واستبعدوا استجماعَ شروطِهِ ، وزعموا أنَّ محوَ العلائقِ إلىٰ ذلكَ الحدِّ كالمتعذِّرِ ، وإنْ حصلَ في حالٍ . . فثباتُهُ أبعدُ منهُ ؛ إذْ أدنىٰ وسواسٍ وخاطرٍ يشوِّشُ القلبَ(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ أشدُّ تقلُّباً مِنَ القِدْرِ إذا استجمعَتْ غلْياً »(٣) .

---

(١) ذكر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٢٤٧) بأن هـٰذا هو طريق شيخ المصنف الإمام أبي علي الفارمذي الطوسي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) وهم قالوا : إن نفي الخواطر الثلاثة لازم للمريد ؛ أعني النفسية والشيطانية والملكية ، وإنه لا بد من إثبات الخاطر الحقاني ، ومعرفة الخواطر وتمييزها عسر ، ولا تتم معرفة ذلك وتمييزها إلا لمن تحلَّىٰ بالتقوىٰ والزهد وأكل الحلال الطيب دائماً ، وأنَّىٰ يتيسر ذلك لكل أحد في كل وقت ، وإنه يلزم المريد دائماً مراقبة خواطره ، ولا يترك خاطر الغير يمر بباله ، وكل ذلك صعب المنال قريب المحال . « إتحاف » (٧/ ٢٤٩) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٢٥٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٥) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، ولفظه : « لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً » .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ منْ أصابعِ الرحمـٰنِ »(١) .

وفي أثناءِ هـٰذهِ المجاهدةِ قدْ يفسدُ المزاجُ ، ويختلطُ العقلُ ، ويمرضُ البدنُ ، وإذا لمْ تتقدَّمْ رياضةُ النفسِ وتهذيبُها بحقائقِ العلومِ . . تشبَّثَتْ بالقلبِ خيالاتٌ فاسدةٌ تطمئنُّ النفسُ إليها مدَّةً طويلةً إلىٰ أن يزولَ وينقضيَ العمرُ قبلَ النجاحِ فيهِ .

فكمْ مِنْ صوفيٍّ سلكَ هـٰذا الطريقَ ثمَّ بقيَ في خيالٍ واحدٍ عشرينَ سنةً ، ولوْ كانَ قدْ أتقنَ العلمَ مِنْ قبلُ . . لانفتحَ لهُ وجهُ التباسِ ذلكَ الخيالِ في الحالِ ، فالاشتغالُ بطريقِ التعلُّمِ أوثقُ وأقربُ إلى الغرضِ(٢) .

وزعموا أنَّ ذلكَ يضاهي ما لوْ تركَ الإنسانُ تعلُّمَ الفقهِ ، وزعمَ أنَّ النبيَّ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه عنده : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمـٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ، مصرّف القلوب ؛ صرف قلوبنا علىٰ طاعتك » .

(٢) وقد أجاب الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/٢٤٩) عن هـٰذا الزعم فقال : (وقد يجاب عن ذلك بأن تلك الخيالات الفاسدة التي تتشبث بالقلب إنما منشؤها تلك العلوم التي تعلمها وظن في نفسه أنها معارف موصلة ، وفي الحقيقة هي القواطع عن الطريق ، وهي التي لا تفي الأعمار في تحصيلها ، وأما السالك الذي بصدد تصفية قلبه من الكدورات الوهمية ، فهو علىٰ هدي من ربه إن اعتل بدنه أو فسد مزاجه ، فحصل له بذلك تفرقة خاطر ، فهو معذور عند الله ، وإن مات . . فقد وقع أجره على الله ، وحقيق أن يقال : هو عاشق ، إن مات ليلة وصاله لا يلام) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يتعلَّمْ ذلكَ ، ولكنْ صارَ فقيهاً بالوحيِ والإلهامِ مِنْ غيرِ تكرارٍ وتعليقٍ ، ويقولُ : (أنا أيضاً ربَّما أنتهي بالرياضةِ والمواظبةِ إليهِ) ، ومَنْ ظنَّ ذلكَ . . فقدْ ظلمَ نفسَهُ ، وضيَّعَ عمرَهُ ، بلْ هوَ كمَنْ يتركُ طريقَ الكسبِ والحراثةِ رجاءَ العثورِ علىٰ كنزٍ مِنَ الكنوزِ ؛ فإنَّ ذلكَ ممكنٌ ، ولكنَّهُ بعيدٌ جداً ، فكذلكَ هٰذا .

وقالوا : لا بدَّ أوَّلاً مِنْ تحصيلِ ما حصَّلَهُ العلماءُ ، وفهمِ ما قالوهُ ، ثمَّ لا بأسَ بعدَ ذلكَ بالانتظارِ لما لمْ ينكشف لسائرِ العلماءِ ، فعساهُ ينكشفُ بالمجاهدةِ بعدَ ذلكَ .

* * *

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلمْ : أنَّ عجائبَ القلبِ خارجةٌ عنْ مدركاتِ الحواسِّ ؛ لأنَّ القلبَ أيضاً خارجٌ عنْ إدراكِ الحسِّ ، وما ليسَ مدركاً بالحواسِّ تضعفُ الأفهامُ عن درْكِهِ إلا بمثالٍ محسوسٍ ، ونحنُ نقرِّبُ ذلكَ إلى الأفهامِ الضعيفةِ بمثالينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ لوْ فرضْنا حوضاً محفوراً في الأرضِ ، احتملَ أنْ يُساقَ إليهِ الماءُ مِنْ فوقِهِ بأنهارٍ تُفتحُ فيهِ ، ويُحتملُ أنْ يُحفرَ أسفلَ الحوضِ ويُرفعَ منهُ الترابُ إلىٰ أنْ يقربَ مِنْ مستقرِّ الماءِ الصافي ، فينفجرَ الماءُ مِنْ أسفلِ الحوضِ ، ويكونُ ذلكَ الماءُ أصفىٰ وأدومَ ، وقدْ يكونُ أغزرَ وأكثرَ . فكذلكَ القلبُ مثلُ الحوضِ ، والعلمُ مثلُ الماءِ ، والحواسُّ الخمسُ مثلُ الأنهارِ ، وقدْ يمكنُ أنْ تُساقَ العلومُ إلى القلبِ بواسطةِ أنهارِ الحواسِّ ، والاعتبارِ بالمشاهداتِ حتَّىٰ يمتلىءَ علماً ، ويمكنُ أنْ تُسدَّ عنهُ هٰذهِ الأنهارُ بالخلوةِ والعزلةِ وغضِّ البصرِ ، ويعمدَ إلىٰ عمْقِ القلبِ بتطهيرِهِ ، ورفعِ طبقاتِ الحجُبِ عنهُ ، حتَّىٰ تتفجَّرَ ينابيعُ العلمِ مِنْ داخلِهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتفجرُ العلمُ مِنْ ذاتِ القلبِ وهوَ خالٍ عنهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا مِنْ عجائبِ أسرارِ القلبِ ، ولا يُسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ ، بلِ القدْرُ الذي يمكنُ ذكرُهُ أنَّ حقائقَ الأشياءِ مسطورةٌ في اللوحِ المحفوظِ ، بلْ في قلوبِ الملائكةِ المقرَّبينَ ، فكما أنَّ المهندسَ يسطرُ صورةَ أبنيةِ الدارِ في بياضٍ ، ثمَّ يخرجُها إلى الوجودِ علىٰ وَفْقِ تلكَ النسخةِ . . فكذلكَ فاطرُ السماواتِ والأرضِ كتبَ نسخةَ العالمِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ في اللوحِ المحفوظِ ، ثمَّ أخرجَهُ إلى الوجودِ علىٰ وَفْقِ تلكَ النسخةِ ، والعالمُ الذي خرجَ إلى الوجودِ بصورتِهِ تتأدَّىٰ منهُ صورةٌ أخرىٰ إلى الحسِّ والخيالِ ، فإنَّ مَنْ ينظرُ إلى السماءِ والأرضِ ثمَّ يغضُّ بصرَهُ . . يرىٰ صورةَ السماءِ والأرضِ في خيالِهِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ ينظرُ إليها ، ولوِ انعدمَتِ السماءُ والأرضُ وبقيَ هوَ في نفسِهِ . . لوجدَ صورةَ السماءِ والأرضِ في نفسِهِ كأنَّهُ يشاهدُهُما وينظرُ إليهما ، ثمَّ يتأدَّىٰ مِنْ خيالِهِ أثرٌ إلى القلبِ ، فيحصلُ فيهِ حقائقُ الأشياءِ التي دخلَتْ في الحسِّ والخيالِ .

والحاصلُ في القلبِ موافقٌ للعالمِ الحاصلِ في الخيالِ ، والحاصلُ في الخيالِ موافقٌ للعالمِ الموجودِ في نفسِهِ خارجاً مِنْ خيالِ الإنسانِ وقلبِهِ ، والعالمُ الموجودُ موافقٌ للنسخةِ الموجودةِ في اللوحِ المحفوظِ ، فكأنَّ للعالمِ أربعَ درجاتٍ في الوجودِ ؛ وجودٌ في اللوحِ المحفوظِ ، وهوَ سابقٌ علىٰ وجودِهِ الجسمانيِّ ، ويتبعُهُ وجودُهُ الحقيقيُّ ، ويتبعُ وجودَهُ الحقيقيَّ وجودُهُ الخياليُّ ؛ أعني : وجودَ صورتِهِ في الخيالِ ، ويتبعُ وجودَهُ الخياليَّ وجودُهُ العقليُّ ؛ أعني : وجودَ صورتِهِ في القلبِ .

وبعضُ هـٰذهِ الوجوداتِ روحانيَّةٌ وبعضُها جسمانيَّةٌ[1] ، والروحانيَّةُ بعضُها أشدُّ روحانيَّةً مِنْ بعضٍ ، وهـٰذا لطفٌ مِنَ الحكمةِ الإلـٰهيةِ ؛ إذْ جعلَ حدقتَكَ علىٰ صغرِ حجمِها بحيثُ تنطبعُ فيها صورةُ العالمِ والسماواتِ والأرضِ على اتساعِ أكنافِها ، ثمَّ يسري مِنْ وجودِها في الحسِّ وجودٌ إلى الخيالِ ، ثمَّ منهُ وجودٌ في القلبِ ؛ فإنَّكَ أبداً لا تدركُ إلا ما هوَ واصلٌ إليكَ ، فلوْ لمْ يجعلْ للعالمِ كلِّهِ مثالاً في ذاتِكَ . لما كانَ لكَ خبرٌ ممَّا يباينُ ذاتَكَ .

فسبحانَ مَنْ دبَّرَ هـٰذهِ العجائبَ في القلوبِ والأبصارِ ، ثمَّ أعمىٰ عنْ دركِها القلوبَ والأبصارَ ، حتَّىٰ صارَتْ قلوبُ أكثرِ الخلقِ جاهلةً بأنفسِها وبعجائبِها .

* * *

ولنرجعْ إلى الغرضِ المقصودِ ، فنقولُ :

القلبُ قدْ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ فيهِ حقيقةُ العالمِ وصورتُهُ ؛ تارةً مِنَ الحواسِّ ، وتارةً مِنَ اللوحِ المحفوظِ ، كما أنَّ العينَ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ فيها صورةُ الشمسِ ؛ تارةً مِنَ النظرِ إليها ، وتارةً مِنَ النظرِ إلى الماءِ الذي يقابلُ الشمسَ ويحكي صورتَها .

---

(١) فالوجود الأول والثاني : جسمانيان ، والثالث والرابع : روحانيان . « إتحاف » (٧/ ٢٥١) .

فمهما ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ اللوحِ المحفوظِ. . رأى الأشياءَ فيهِ ، وتفجَّرَ إليهِ العلمُ منهُ ، فاستغنىٰ عنِ الاقتباسِ مِنْ مداخلِ الحواسِّ ، فيكونُ ذلكَ كتفجُّرِ الماءِ مِنْ عمقِ الأرضِ .

ومهما أقبلَ على الخيالاتِ الحاصلةِ مِنَ المحسوساتِ. . كانَ ذلكَ حجاباً لهُ عنْ مطالعةِ اللوحِ المحفوظِ ، كما أنَّ الماءَ إذا اجتمعَ مِنَ الأنهارِ في الحوضِ منعَ ذلكَ مِنَ التفجُّرِ مِنَ الأرضِ ، وكما أنَّ مَنْ نظرَ إلى الماءِ الذي يحكي صورةَ الشمسِ لا يكونُ ناظراً إلىٰ نفسِ الشمسِ .

فإذاً ؛ للقلبِ بابانِ :

بابٌ مفتوحٌ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، وهوَ اللوحُ المحفوظُ وعالمُ الملائكةِ .

وبابٌ مفتوحٌ إلى الحواسِّ الخمسِ المتمسِّكةِ بعالمِ الشهادةِ والمُلْكِ ، وعالمُ الشهادةِ والملكِ أيضاً يحاكي عالمَ الملكوتِ نوعاً مِنَ المحاكاةِ .

فأمَّا انفتاحُ بابِ القلبِ إلى الاقتباسِ مِنَ الحواسِّ. . فلا يخفىٰ عليكَ .

وأمَّا انفتاحُ بابِهِ الداخلانيِّ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، ومطالعةُ اللوحِ المحفوظِ. . فتعلمُهُ علماً يقيناً بالتأمُّلِ في عجائبِ الرؤيا ، واطلاعِ القلبِ في النومِ علىٰ ما سيكونُ في المستقبلِ ، أوْ كانَ في الماضي ، مِنْ غيرِ اقتباسٍ مِنْ جهةِ الحواسِّ .

وإنَّما ينفتحُ ذلكَ البابُ لمَنِ أفردَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ

وسلَّمَ : « سبقَ المُفرِّدونَ » ، قيلَ : ومَنْ هم المُفْرِّدونَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « المستهتَرونَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وضعَ الذّكرُ عنهُمْ أوزارَهُمْ ، فوردُوا القيامةَ خفافاً » ، ثمَّ قالَ في وصفِهِمْ إخباراً عنِ اللهِ تعالىٰ : « ثمَّ أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، أترىٰ مَنْ واجهتُهُ بوجهي يعلمُ أحدٌ أيَّ شيءٍ أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟ » ثمَّ قالَ تعالىٰ : « أوّلُ ما أعطيهِمْ أنْ أقذفَ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ ، فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ »(١) ، ومدخلُ هـٰذهِ الأخبارِ هوَ البابُ الباطنُ .

فإذاً ؛ الفرقُ بينَ علومِ الأولياءِ والأنبياءِ وبينَ علومِ العلماءِ والحكماءِ هـٰذا ، وهوَ أنَّ علومَهُمْ تأتي مِنْ داخلِ القلبِ ، مِنَ البابِ المنفتحِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، وعلمُ الحكمةِ يأتي مِنْ أبوابِ الحواسِّ المفتوحةِ إلىٰ عالمِ المُلْكِ ، وعجائبُ عالمِ القلبِ وتردُّدُهُ بينَ عالمي الشهادةِ والغيبِ لا يمكنُ أنْ يُستقصىٰ في علمِ المعاملةِ ، فهـٰذا مثالٌ يعرِّفُكَ الفرقَ بينَ مدخلِ العلمينِ .

* * *

المثالُ الثاني : يعرِّفُكَ الفرقَ بينَ العملينِ ؛ أعني : عملَ العلماءِ وعملَ

---

(١) قوت القلوب (١/١١٩) ، وأصله عند مسلم (٤٨٣٤) وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله . قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً » .

الأولياءِ ، فإنَّ العلماءَ يعملونَ في اكتسابِ نفسِ العلومِ واجتلابِها إلى القلوبِ ، وأولياءُ الصوفيَّةِ يعملونَ في جِلاءِ القلوبِ وتطهيرِها وتصفيتِها وتصقيلِها فقطْ .

فقدْ حُكِيَ أنَّ أهلَ الصينِ وأهلَ الرومِ تباهَوا بينَ يدي بعضِ الملوكِ بحسْنِ صناعةِ النقْشِ والصورِ ، فاستقرَّ رأيُ الملكِ علىٰ أنْ يُسلَّمَ إليهِمْ صُفَّةٌ لينقشَ أهلُ الصينِ منها جانباً ، وأهلُ الرومِ جانباً ، ويُرخىٰ بينهما حجابٌ يمنعُ اطلاعَ كلِّ فريقٍ على الآخرِ ، ففُعِلَ ذلكَ ، فجمعَ أهلُ الرومِ مِنَ الأصباغِ الغريبةِ ما لا ينحصرُ ، ودخلَ أهلُ الصينِ مِنْ غيرِ صبغٍ ، وأقبلوا يَجلونَ جانبَهُمْ ويصقلونَهُ ، فلمَّا فرغَ أهلُ الرومِ . ادَّعىٰ أهلُ الصينِ أنَّهُمْ قدْ فرغوا أيضاً ، فعجبَ الملكُ مِنْ قولِهِمْ وأنَّهُمْ كيفَ فرغوا مِنَ النقشِ مِنْ غيرِ صبغٍ ، فقيلَ لهُمْ : وكيفَ فرغتُمْ مِنْ غيرِ صبغٍ ؟! فقالوا : ما عليكُمْ ، ارفعوا الحجابَ ، فرفعوا ، فإذا بجانبِهِمْ يتلألأُ منهُ عجائبُ الصنائعِ الروميَّةِ معَ زيادةِ إشراقٍ وبريقٍ ؛ إذْ كانَ قدْ صارَ كالمرآةِ المجلوَّةِ لكثرةِ التصقيلِ ، فازدادَ حسْنُ جانبِهِمْ بمزيدِ التصقيلِ .

فكذلكَ عنايةُ الأولياءِ بتطهيرِ القلبِ وجلائِهِ ، وتزكيتِهِ وصفائِهِ ، حتَّىٰ يتلألأَ فيهِ جليَّةُ الحقِّ بنهايةِ الإشراقِ ؛ كفعلِ أهلِ الصينِ ، وعنايةُ الحكماءِ والعلماءِ باكتسابِ ونقشِ العلومِ ، وتحصيلِ نقشِها في القلبِ ، كفعلِ أهلِ الرومِ .

وكيفما كانَ الأمرُ . فقلبُ المؤمنِ لا يموتُ ، وعلمُهُ عندَ الموتِ

لا ينمحي ، وصفاؤُهُ لا يتكدَّرُ ، وإليهِ أشارَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ بقولِهِ : (الترابُ لا يأكلُ محلَّ الإيمانِ)[1] ، بلْ يكونُ وسيلةً وقربةً إلى اللهِ تعالىٰ .

وأما ما حصَّلَهُ مِنْ نقشِ العلمِ ، أوْ ما حصَّلَهُ مِنَ الصفاءِ والاستعدادِ لقبولِ نقشِ العلمِ . . فلا غنىٰ بهِ عنهُ ، ولا سعادةَ لأحدٍ إلا بالعلمِ والمعرفةِ ، وبعضُ السعاداتِ أشرفُ مِنْ بعضٍ ، كما أنَّهُ لا غنىٰ إلا بالمالِ ، فصاحبُ الدرهمِ غنيٌّ ، وصاحبُ الخزائنِ المترعةِ غنيٌّ ، وتفاوتُ درجاتِ السعداءِ بحسبِ تفاوتِ المعرفةِ والإيمانِ ، كما تتفاوتُ درجاتُ الأغنياءِ بحسَبِ قلَّةِ المالِ وكثرتِهِ ، فالمعارفُ أنوارٌ ، ولا يسعى المؤمنونَ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ إلا بأنوارِهِمْ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ .

وقدْ رُوِيَ في الخبرِ : أنَّ بعضَهُمْ يُعطىٰ نوراً مثلَ الجبلِ ، وبعضَهُمْ أصغرَ ، حتىٰ يكونَ آخرُهُمْ رجلاً يُعطىٰ نوراً علىٰ إبهامِ قدميهِ ، فيضيءُ مرَّةً وينطفىءُ أخرىٰ ، فإذا أضاءَ . . قدَّمَ قدمَهُ فمشىٰ ، وإذا طَفِىءَ . . قامَ ، ومرورُهُمْ على الصّراطِ علىٰ قدْرِ نورِهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ يمرُّ كطرفِ العينِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كالبرقِ ، ومنهُمْ مَن يمرُّ كالسحابِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الكواكبِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كشدِّ الفرسِ ، والذي أُعطيَ نوراً علىٰ

---

(١) كما نقله صاحب « القوت » ، ومعلوم أن محل الإيمان والتقوى القلب ، كما ورد في الخبر : « ألا إن التقوىٰ هٰهنا » وأشار إلى القلب . « إتحاف » (٧/ ٢٥٥) ، وهٰذا المعنىٰ أشار إليه المصنف في « كيمياء السعادة » (ص ١٣٠) بمزيد تفصيل .

إبهامِ قدميهِ يحبو علىٰ وجهِهِ ويديهِ ورجليهِ ، يجرُّ يداً ويعلِّقُ أخرىٰ ، ويجرُّ رجلاً ويعلِّق أخرىٰ ، ويصيبُ جوانبَهُ النارُ ، فلا يزالُ كذلكَ حتَّىٰ يخلصَ » الحديثَ[1] .

فبهـٰذا يظهرُ تفاوتُ الناسِ في الإيمانِ ، ولوْ وُزنَ إيمانُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بإيمانِ العالمينَ سوى النبيِّينَ والمرسلينَ . . لرجحَ ، وهـٰذا أيضاً يضاهي قولَ القائلِ : (لوْ وُزنَ نورُ الشمسِ بنورِ السُّرُجِ كلِّها . . لرجحَ)، فإيمانُ آحادِ العوامِّ نورُهُ مثلُ نورِ السراجِ ، وبعضُهُمْ نورُهُ كنورِ الشمعِ ، وإيمانُ الصديقينَ نورُهُ كنورِ القمرِ والنجومِ ، وإيمانُ الأنبياءِ كنورِ الشمسِ .

وكما ينكشفُ في نورِ الشمسِ صورةُ الآفاقِ معَ اتساعِ أقطارِها ولا ينكشفُ في نورِ السراجِ إلا زاويةٌ ضيِّقةٌ مِنَ البيتِ . . فكذلكَ تفاوتُ انشراحِ الصدورِ بالمعارفِ ، وانكشافُ سعةِ الملكوتِ لقلوبِ العارفينَ ، ولذلكَ جاءَ في الخبرِ : أنَّهُ يُقالُ يومَ القيامةِ : « أخرجوا مِنَ النارِ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالٌ مِنَ الإيمانِ ، ونصفُ مثقالٍ ، وربعُ مثقالٍ ، وشعيرةٌ ، وذرَّةٌ »[2] ، كلُّ ذلكَ تنبيهٌ علىٰ تفاوتِ درجاتِ الإيمانِ ، وأنَّ هـٰذهِ المقاديرَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٣٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٨٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٧٤١٠) ، ومسلم (١٩٣) .

مِنَ الإيمانِ لا تمنعُ دخولَ النارِ ، وفي مفهومِهِ أنَّ مَنْ إيمانُهُ يزيدُ علىٰ مثقالٍ . . فإنَّهُ لا يدخلُ النارَ ؛ إذْ لوْ دخلَ . . لأمرَ بإخراجِهِ أوَّلاً ، وأنَّ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ لا يستحقُّ الخلودَ في النارِ وإنْ دخلَها .

وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ شيءٌ خيراً مِنْ أَلْفٍ مثلِهِ إلاّ الإنسانُ المؤمنُ »(١) ، إشارةً إلىٰ تفضيلِ قلبِ العارفِ باللهِ تعالىٰ الموقنِ ، فإنَّهُ خيرٌ مِنْ ألفِ قلبٍ مِنْ عوامِّ الخلقِ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تفضيلاً للمؤمنينَ على المسلمينَ ، والمرادُ بهِ المؤمنُ العارفُ دونَ المقلِّدِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ فأرادَ هٰهنا بالذينَ آمنوا : الذينَ صدَّقوا مِنْ غيرِ علمٍ ، وميَّزَهُمْ عنِ الذينَ أُوتوا العلمَ .

ويدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ اسمَ المؤمنِ يقعُ على المقلِّد وإنْ لمْ يكنْ تصديقُهُ عنْ بصيرةٍ وكشفٍ ، وفسَّرَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، فقالَ : (يرفعُ اللهُ العالمَ فوقَ المؤمنِ بسبعِ مئةِ درجةٍ ، بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ)(٢) .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٣٨) من حديث سلمان رضي الله عنه ، والقضاعي في « الشهاب » (١٢١٦) ، والطبراني في « الصغير » (١/ ١٤٧) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) قوت القلوب (١/ ١١٧) ، ورواه مرفوعاً أبو يعلىٰ في « المسند » (٨٥٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٩) بنحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ ، وعلِّيونَ لذوي الألبابِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[٢] ، وفي روايةٍ : « كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[٣] .

فبهٰذهِ الشواهدِ يتضحُ تفاوتُ درجاتِ أهلِ الجنةِ بحسَبِ تفاوتِ قلوبِهِمْ ومعارِفِهِمْ ، ولهٰذا كانَ يومُ القيامةِ يومَ التغابنِ ؛ إذِ المحرومُ مِنْ رحمةِ اللهِ عظيمُ الغبْنِ والخسرانِ ، والمحرومُ يرىٰ فوقَ درجتِهِ درجاتٍ عظيمةً ، فيكونُ نظرُهُ إليها كنظرِ الغنيِّ الذي يملكُ عشرةَ دراهمَ إلى الغنيِّ الذي يملكُ الأرضَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، وكلُّ واحدٍ منهما غنيٌّ ، ولكنْ ما أعظمَ الفرقَ بينَهُما ، وما أعظمَ الغبنَ علىٰ مَنْ بُخِسَ حظَّهُ مِنْ ذلكَ ، وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٧/ ٤٣١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣١٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) دون زيادة : (وعليون لذوي الألباب) ، وهي عند صاحب « القوت » (١/ ١١٧) ، وقد روىٰ نحو هٰذه الزيادة الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (٢٦/ ١١٧ـ ١١٨) عن أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

بيان شواهد الشّرع على صحّة طريق أهل التّصوف في اكتساب المعرفة لا من التّعلّم ، ولا من الطّريق المعتاد

اعلمْ : أنَّ مَنِ انكشفَ لهُ شيءٌ ولوِ الشيءَ اليسيرَ بطريقِ الإلهامِ والوقوعِ في القلبِ مِنْ حيثُ لا يدري . . فقدْ صارَ عارفاً بصحَّةِ الطريقِ ، ومَنْ لمْ يدركْ ذلكَ مِنْ نفسِهِ قطُّ . . فينبغي أنْ يؤمنَ بِهِ ؛ فإنَّ درجةَ المعرفةِ فيهِ عزيزةٌ جداً ، ويشهدُ لذلكَ شواهدُ الشرعِ والتجارِبُ والحكاياتُ .

* * *

أمَّا الشواهدُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ، فكلُّ حكمةٍ تظهرُ مِنَ القلبِ بالمواظبةِ على العبادةِ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ . . فهوَ بطريقِ الكشفِ والإلهامِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علِمَ . . ورَّثَهُ اللهُ علمَ ما لمْ يعلمْ ، ووفَّقَهُ فيما يعملُ حتَّىٰ يستوجبَ الجنَّةَ ، ومَنْ لمْ يعملْ بما يعلمُ . . تاهَ فيما يعلمُ ، ولمْ يوفَّقْ فيما يعملُ حتَّىٰ يستوجبَ النارَ »(١) .

---

(١) كذا هو بتمامه في « القوت » (١/١١٩) ، وقد تقدم صدره ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/٢٥٨) : (هٰذا نص « القوت » ، فهو من قول بعض التابعين ، وسياق المصنف يقتضي أنه بقية الحديث السابق ، ولذا قال العراقي : « صدر الحديث تقدم في العلم ، وهٰذه الزيادة لم أرها » ، والذي يظهر لي أنه سقط كلام من النساخ) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ : مِنَ الإشكالاتِ والشُّبَهِ ، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ : يعلِّمْهُ علماً مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ، ويفطِّنْهُ مِنْ غيرِ تجربةٍ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ ، قيلَ : نوراً يفرقُ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ ، ويخرجُ بهِ مِنَ الشبهاتِ ، ولذلكَ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ في دعائِهِ مِنْ سؤالِ النورِ ، فقالَ : « اللَّهمَّ ؛ أعطني نوراً ، وزدْني نوراً ، واجعلْ لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » حتَّىٰ قالَ : « في شعري ، وبشري ، ولحمي ، ودمي ، وعظامي »(١) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ما هٰذا الشرحُ ؟ فقالَ : « هوَ التَّوسعةُ ، إنَّ النورَ إذا قُذِفَ بهِ في القلبِ . . اتَّسعَ لهُ الصدرُ وانشرحَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : « اللَّهمَّ ؛ فَقِّهْهُ في الدينِ ، وعلِّمْهُ التأويلَ »(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما عندَنا شيءٌ أسرَّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .
(٣) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/ ٢٦٦) .

إلينا إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ تعالىٰ عبداً فهماً في كتابِهِ)[١] ، وليسَ هـٰذا بالتعلُّمِ .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ : إنَّهُ الفهمُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ[٢] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، خصَّ ما انكشفَ باسمِ الفهمِ[٣] .

وكانَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (المؤمنُ ينظرُ بنورِ اللهِ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ ، واللهِ ؛ إنَّهُ للحقُّ يقذفُهُ اللهُ في قلوبِهِمْ ، ويجريهِ علىٰ ألسنتِهِمْ)[٤] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ظنُّ المؤمنِ كهانةٌ)[٥] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فِراسةَ المؤمنِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالىٰ »[٦] ، وإليهِ يشيرُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

وروى الحسنُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « العلمُ علمانِ ، فعلمٌ باطنٌ في القلبِ فذلكَ هوَ العلمُ النّافعُ »[٧] .

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٣) بنحوه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١١٨) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١١٨) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١١٨) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١١٨) ، وقال : (أي : كأنه سحر في نفاذه وصحة وقوعه) .
(٦) رواه الترمذي (٣١٢٧) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٢) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥٠) .

وسُئِل بَعضُ العلماءِ عنِ العلمِ الباطنِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ يقذفُهُ في قلوبِ أحبابِهِ ، لمْ يُطلعْ عليهِ ملكاً ولا بشراً)[١] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أمَّتي محدَّثينَ ومكلَّمينَ ، وإنَّ عمرَ منهُمْ »[٢] .

وقرأَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : ﴿وما أرسلنا مِنْ قبلِكَ مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ ولا محدَّثٍ﴾ يعني : الصدِّيقينَ ، والمحدَّثُ هوَ الملهَمُ ، والملهَمُ هوَ الذي انكشفَ لهُ في باطنِ قلبِهِ مِنْ جهةِ الداخلِ[٣] ، لا مِنْ جهةِ المحسوساتِ الخارجةِ .

والقرآنُ مصرِّحٌ بأنَّ التقوىٰ مفتاحُ الهدايةِ والكشفِ ، وذلكَ علمٌ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصَّصَها بِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

وكانَ أبو يزيدَ وغيرُهُ يقولُ : (ليسَ العالمُ الذي يحفظُ مِنْ كتابٍ ، فإذا نسيَ ما حفظَهُ . . صارَ جاهلاً ، إنَّما العالمُ الذي يأخذُ علمَهُ مِنْ ربِّهِ أيَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٢٠) .
(٢) رواه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) ، واللفظ هنا عند صاحب « القوت » (١/ ١٢١) .
(٣) الذي هو قلب القلب ، وفيه باب إلى الملكوت الأعلىٰ . « إتحاف » (٧/ ٢٥٩) .

وقتٍ شاءَ ، بلا حفظٍ ولا درسٍ)[١] .

وهـٰذا هوَ العالمُ الربَّانيُّ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، معَ أنَّ كلَّ علمٍ مِنْ لدنْهُ عزَّ وجلَّ ، ولكنَّ بعضَها بوسائطِ تعليمِ الخلقِ ، فلا يُسمَّىٰ ذلكَ علماً لدنِّياً ، بلِ اللدنِّيُّ الذي ينفتحُ في سرِّ القلبِ مِنْ غيرِ سببٍ مألوفٍ مِنْ خارجٍ .

فهـٰذِهِ شواهدُ النقلِ ، ولوْ جُمِعَ كلُّ ما وردَ فيهِ مِنَ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ . . لخرجَ عنِ الحصرِ .

* * *

وأمَّا مشاهدةُ ذلكَ بالتجارِبِ : فذلكَ أيضاً خارجٌ عنِ الحصرِ ، وظهرَ ذلكَ على الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهُمْ .

قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها عندَ موتِهِ : (إنَّما هما أخواكِ وأختاكِ) ، وكانَتْ زوجتُهُ حاملاً ، فولدَتْ بنتاً ، فكانَ قدْ عرفَ قبلَ الولادةِ أنَّها بنتٌ[٢] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٢١) .

(٢) روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٥٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن أبا بكر الصديق كان نحلَها جادَّ ـ أي : مجدود بمعنىٰ مقطوع ـ عشرين وسقاً من ماله بالغابة ، فلما حضرته الوفاة . . قال : والله يا بنيَّة ؛ ما من الناس أحد أحب إلي غنىً بعدي منك ، ولا أعز علي فقراً بعدي منك ، وإني كنت نحلتك جادَّ عشرين وسقاً ، فلو كنت جددتيه واحتزتيه . . كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هما أخواك وأختاك ، فاقتسموه علىٰ كتاب الله ، قالت عائشة : فقلت : يا أبتِ ؛ والله لو كان كذا وكذا . . لتركته ، إنما =

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في أثناءِ خطبتِهِ : (يا ساريةُ ؛ الجبلَ الجبلَ) إذ انكشفَ لهُ أنَّ العدوَّ قدْ أشرفَ عليهِ ، فحذَّرَهُ بمعرفتِهِ ذلكَ[١] ، ثمَّ بلوغُ صوتِهِ إليهِ مِنْ جملةِ الكراماتِ العظيمةِ .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : دخلتُ علىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ وكنتُ قدْ لقيتُ امرأةً في طريقي ، فنظرتُ إليها شزراً ، وتأمَّلْتُ محاسنَها ، فقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لما دخلتُ : يدخلُ عليَّ أحدُكُمْ وآثارُ الزنا ظاهرةٌ علىٰ عينيهِ ؟! أما علمتَ علىٰ أنَّ زنا العينينِ النظرُ ؟ لتتوبنَّ أوْ لأعزِّرنَّكَ ، فقلتُ : أوحيٌ بعدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : لا ، ولكنْ تبصرةٌ وبرهانٌ وفراسةٌ صادقةٌ[٢] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخرّازِ قالَ : دخلتُ المسجدَ الحرامَ ، فرأيتُ فقيراً عليهِ خرقتانِ ، فقلتُ في نفسي : هٰذا وأشباهُهُ كَلٌّ على الناسِ ، فناداني وقالَ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ ، فاستغفرتُ اللهَ في سرِّي ، فناداني وقالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، ثمَّ غابَ عنِّي فلمْ أرَهُ[٣] .

= هي أسماء ، فمن الأخرى ؟ فقال أبو بكر : ذو بطن بنت خارجة ، أُراها جاريةً . فكانت كما قال رضي الله تعالىٰ عنه ، وولدت له أم كلثوم .

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٨) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (ص٤٣٠) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٢٦٠) : (وقد أفرد لطرقه القطب الحلبي الحافظ جزءاً) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٤٠٥) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٤٠٥) .

وقالَ زكريا بنُ دِلُّويهِ : دخلَ أبو العباسِ بنُ مسروقٍ علىٰ أبي الفضلِ الهاشميِّ وهوَ عليلٌ ، وكانَ ذا عيالٍ ، ولمْ يُعرفْ لهُ سببٌ يعيشُ بهِ ، قالَ : فلما قمتُ . . قلتُ في نفسي : مِنْ أينَ يأكلُ هـٰذا الرجلُ ؟ قالَ : فصاحَ بي : يا أبا العباسِ ؛ رُدَّ هـٰذهِ الهمَّةَ الدنيَّةَ ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ ألطافاً خفيَّةً(١) .

وقالَ أحمدُ النقيبُ : دخلتُ على الشبليِّ ، فقالَ مفتوناً : يا أحمدُ ؛ فقلتُ : ما الخبرُ ؟ قالَ : كنتُ جالساً ، فجرىٰ بخاطري : إنَّكَ بخيلٌ(٢) ، فقلتُ : ما أنا ببخيلٍ ، فقاومَني خاطري وقالَ : بلىٰ ، أنتَ بخيلٌ ، فقلتُ : ما فُتحَ اليومَ عليَّ بشيءٍ إلا دفعتُهُ إلىٰ أوَّلِ فقيرٍ يلقاني ، قالَ : فما استتمَّ الخاطرُ حتَّىٰ دخلَ عليَّ صاحبٌ لمؤنسٍ الخادمِ ومعَهُ خمسونَ ديناراً ، فقالَ : اجعلْها في مصالِحِكَ ، قالَ : فقمتُ فأخذتُها وخرجتُ ، وإذا بفقيرٍ مكفوفٍ بينَ يدي مزيِّنٍ يحلقُ رأسَهُ ، فتقدمتُ إليهِ وناولتُهُ الدنانيرَ ، فقالَ : أعطِها المزيِّنَ ، فقلتُ : إنَّها دنانيرُ ! ، فقالَ : أوَليسَ قدْ قلنا لكَ : إنَّكَ بخيلٌ ؟! قالَ : فناولتُها المزيِّنَ ، فقالَ المزيِّنُ : قدْ عقدْنا لما جلسَ هـٰذا الفقيرُ بينَ أيدينا ألا نأخذَ عليهِ أجراً ، قالَ : فرميتُ بها في دجلةَ ، وقلتُ : ما أعزَّكِ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ(٣) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٦٤) .
(٢) عنى الشبلي نفسه ، لا مخاطبه .
(٣) نقلها من بعد المصنف اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص١٠٩) ، وابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص٢٠٨) ، وعن حكم إتلاف المال أورد الإمام أبو النصر الطوسي في « اللمع » (ص٤٨٣) ، واليافعي في « الإرشاد » أجوبة عن ذلك .

وقالَ حمزةُ بنُ عبدِ اللهِ العلويُّ : دخلتُ علىٰ أبي الخيرِ التِّيناتيِّ ، واعتقدتُ في نفسي أنْ أسلِّمَ عليهِ ولا آكلَ في دارِهِ طعاماً ، فلمَّا خرجتُ مِنْ عندِهِ . . إذا بهِ قدْ لحقَني وقدْ حملَ طبقاً فيهِ طعامٌ وقالَ : يا فتىٰ ، كُلْ ؛ فقدْ خرجتَ الساعةَ منِ اعتقادِكَ . وكانَ أبو الخير التيناتيُّ هٰذا مشهوراً بالكراماتِ[1] .

وقالَ إبراهيمُ الرَّقِّيُّ : قصدتُهُ مسلِّماً عليهِ ، فحضرتُ صلاةَ المغربِ ، فلمْ يكدْ يقرأُ فاتحةَ الكتابِ مستوياً ، فقلتُ في نفسي : ضاعَتْ سفرتي ، فلمَّا سلَّمَ . . خرجتُ إلى الطهارةِ ، فقصدَني سبعٌ ، فعدتُ إلىٰ أبي الخيرِ وقلتُ : قصدني سبعٌ ، فخرجَ وصاحَ بهِ وقالَ : ألمْ أقلْ لكَ : لا تتعرَّضْ لضيفاني ؟! فتنحَّى الأسدُ ، فتطهَّرتُ ، فلمَّا رجعتُ . . قالَ لي : اشتغلتُمْ بتقويمِ الظواهرِ فخفتمُ الأسدَ ، واشتغلنا بتقويمِ البواطنِ فخافَنا الأسدُ[2] .

وما حُكِيَ عنْ تفرُّسِ المشايخِ وإخبارِهِمْ عنِ اعتقاداتِ الناسِ وضمائرِهِمْ يخرجُ عنِ الحصرِ .

بلْ ما حُكِيَ عنهُمْ منْ مشاهدةِ الخضرِ عليهِ السلامُ ، والسؤالِ منهُ ، ومِنْ سماعِ صوتِ الهاتفِ ، ومِنْ فنونِ الكراماتِ . . خارجٌ عنِ الحصرِ ،

---

(١) رواه أبو النصر السراج في « اللمع » (ص٣٩٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص٥٧٣) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٥٧٣) .

والحكايةُ لا تنفعُ الجاحدَ ما لمْ يشاهدْ ذلكَ مِنْ نفسِهِ ، ومَنْ أنكرَ الأصلَ . . أنكرَ التفصيلَ .

* * *

والدليلُ القاطعُ الذي لا يقدرُ أحدٌ علىٰ جحدِهِ أمرانِ :

أحدُهُما : عجائبُ الرؤيا الصادقةِ : فإنَّهُ ينكشفُ بها الغيبُ ، وإذا جازَ ذلكَ في النومِ . . فلا يستحيلُ أيضاً في اليقظةِ ، فلمْ يفارقِ النومُ اليقظةَ إلا في ركودِ الحواسِّ وعدمِ اشتغالِها بالمحسوساتِ ، فكمْ مِنْ مستيقظٍ غائصٍ لا يسمعُ ولا يبصرُ لاشتغالِهِ بنفسِهِ .

الثاني : إخبارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الغيبِ وأمورٍ في المستقبلِ : كما اشتملَ علىٰ ذلكَ القرآنُ ، وإذا جازَ ذلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . جازَ لغيرِهِ ؛ إذِ النبيُّ عبارةٌ عنْ شخصٍ كُوشِفَ بحقائقِ الأمورِ ، وشُغِلَ بإصلاحِ الخلقِ ، فلا يستحيلُ أنْ يكونَ في الوجودِ شخصٌ مكاشَفٌ بالحقائقِ ، ولا يشتغلُ بإصلاحِ الخلقِ ، وهـٰذا لا يسمَّىٰ نبيّاً ، بلْ يسمَّىٰ وليّاً ، فمَنْ آمنَ بالأنبياءِ ، وصدَّقَ بالرؤيا الصحيحةِ . . لزمَهُ ـ لا محالةَ ـ أنْ يقرَّ بأنَّ القلبَ لهُ بابانِ ؛ بابٌ إلىٰ خارجٍ ؛ وهوَ الحواسُّ ، وبابٌ إلى الملكوتِ مِنْ داخلِ القلبِ ؛ وهوَ بابُ الإلهامِ والنفثِ في الرُّوعِ والوحيِ ، فإذا أقرَّ بهما جميعاً . . لمْ يمكنْهُ أن يحصرَ العلومَ في التعلمِ ومباشرةِ الأسبابِ المألوفةِ ، بلْ يجوِّزُ أنْ تكونَ المجاهدةُ سبيلاً إليهِ .

فهٰذا ما ينبِّهُ علىٰ حقيقةِ ما ذكرناهُ مِنْ عجيبِ تردُّدِ القلبِ بينَ عالمِ الشهادةِ وعالمِ الملكوتِ .

وأمَّا السببُ في انكشافِ الأمورِ في المنامِ بالمثالِ المحوجِ إلى التعبيرِ ، وكذلكَ تمثُّلُ الملائكةِ للأنبياءِ والأولياءِ بصورٍ مختلفةٍ . . فذلكَ أيضاً مِنْ أسرارِ عجائبِ القلبِ ، ولا يليقُ ذلكَ إلا بعلمِ المكاشفةِ ، فلنقتصرْ علىٰ ما ذكرناهُ ، فإنَّهُ كافٍ للاستحثاثِ على المجاهدةِ وطلبِ الكَشْفِ منها .

وقدْ قالَ بعضُ المكاشفينَ : ظهرَ لي المَلَكُ ، فسألَني أنْ أمليَ عليهِ شيئاً مِنْ ذكري الخفيِّ عنْ مشاهدتي مِنَ التوحيدِ ، وقالَ : ما نكتبُ لكَ عملاً ، ونحنُ نحبُّ أنْ نصعدَ لكَ بعملٍ تتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقلتُ : ألستُما تكتبانِ الفرائضَ ؟ قالا : بلىٰ ، قلتُ : فيكفيكُما ذلكَ[١] .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الكرامَ الكاتبينَ لا يطلعونَ علىٰ أسرارِ القلبِ ، وإنما يطلعونَ على الأعمالِ الظاهرةِ[٢] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : سألتُ بعضَ الأبدالِ عنْ مسألةٍ مِنْ مشاهدةِ اليقينِ ، فالتفتَ إلىٰ شمالِهِ فقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ التفتَ إلىٰ يمينِهِ فقالَ : ما تقولُ رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ أطرقَ إلىٰ صدرِهِ وقالَ : ما تقولُ

---

(١) هٰكذا نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٧/ ٢٦٣) .

(٢) وقال بعض العارفين : بل يطلعون علىٰ بعض أعمال القلب بقرائن خارجة ، فإن المؤمن إذا ذكر الله في قلبه . . فاحت منه رائحة طيبة إلىٰ فمه ، فيشمونها الملائكة ، فيدركون بها إذا ذكر الله تعالىٰ ، فيكتبون ذلك في صحيفة حسناته . « إتحاف » (٧/ ٢٦٣) .

رحمَكَ اللهُ ؟ ثمَّ أجابَ بأغربِ جوابٍ سمعتُهُ ، فسألتُهُ عنِ التفاتِهِ ، فقالَ : لمْ يكنْ عندي في المسألةِ علمٌ عتيدٌ[(١)] ، فسألتُ صاحبَ الشمالِ ، فقالَ : لا أدري ، فسألتُ صاحبَ اليمينَ وهوَ أعلمُ منهُ ، فقالَ : لا أدري ، فنظرتُ إلىٰ قلبي وسألتُهُ ، فحدَّثني بما أجبتُكَ ، فإذا هوَ أعلمُ منهما[(٢)] .

وكأنَّ هـٰذا هوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ في أمَّتي محدَّثينَ ، وإنَّ عمرَ منهُمْ »[(٣)] .

وفي الأثرِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أيُّما عبدٍ اطلعتُ علىٰ قلبِهِ ، فرأيتُ الغالبَ عليهِ التمسُّكَ بذكري . . تولَّيتُ سياستَهُ ، وكنتُ جليسَهُ ، ومحادثَهُ وأنيسَهُ) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (القلبُ بمنزلةِ القبَّةِ المضروبةِ ، حولَها أبوابٌ مغلقةٌ ، فأيُّ بابٍ فُتِحَ لهُ عَملٌ فيهِ فقدْ ظهرَ انفتاحُ بابٍ مِنْ أبوابِ القلبِ إلىٰ جهةِ الملكوتِ والملأِ الأعلىٰ) .

وينفتحُ ذلكَ البابُ بالمجاهدةِ والورعِ ، والإعراضِ عنْ شهواتِ الدنيا ، ولذلكَ كتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ أمراءِ الأجنادِ : (احفظوا ما تسمعونَ مِنَ

---

(١) أي : جواب حاضر .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٢٠) .
(٣) رواه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) ، واللفظ عند صاحب « القوت » (١/ ١٢١) .

المطيعينَ ؛ فإنَّهُمْ تنجلي لهُمْ أمورٌ صادقةٌ)(١) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (يدُ اللهِ على أفواهِ الحكماءِ ، لا ينطقونَ إلا بما هيَّأَ اللهُ لهُمْ مِنَ الحقِّ)(٢) .

وقالَ آخرُ : (لوْ شئتُ.. لقلتُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يُطلِعُ الخاشعينَ علىٰ بعضِ سرِّهِ)(٣) .

❊ ❊ ❊

(١) قوت القلوب (١/١١٨) ، ونسب روايته السيوطي في « الدر المنثور » (٨/٣٢) لسعيد بن منصور في « سننه » .
(٢) قوت القلوب (١/١١٨) .
(٣) قوت القلوب (١/١١٨) .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلمْ : أنَّ القلبَ كما ذكرناهُ في مثالِ قبةٍ مضروبةٍ لها أبوابٌ ، تنصبُّ إليهِ الأحوالُ مِنْ كلِّ بابٍ .

ومثالُهُ أيضاً مثالُ هدفٍ تنصبُّ إليهِ السهامُ مِنَ الجوانبِ .

أوْ هوَ مثالُ مرآةٍ منصوبةٍ تجتازُ عليها أصنافُ الصورِ المختلفةِ ، فتتراءىٰ فيها صورةٌ بعدَ صورةٍ ، ولا تخلو عنها .

أوْ مثالُ حوضٍ تنصَبُّ فيهِ مياهٌ مختلفةٌ مِنْ أنهارٍ مفتوحةٍ إليهِ ، وإنَّما مداخلُ هـٰذهِ الآثارِ المتجدِّدةِ في القلبِ في كلِّ حالٍ إمَّا مِنَ الظاهرِ فالحواسُّ الخمسُ ، وإمَّا مِنَ الباطنِ فالخيالُ والشهوةُ والغضبُ والأخلاقُ المركَّبةُ في مزاجِ الإنسانِ ؛ فإنَّهُ إذا أدركَ بالحواسِّ شيئاً . . حصلَ منهُ أثرٌ في القلبِ ، وكذلكَ إذا هاجَتِ الشهوةُ مثلاً بسببِ كثرةِ الأكلِ ، أوْ بسببِ قوَّةٍ في المزاجِ . . حصلَ منها في القلبِ أثرٌ ، وإنْ كفَّ عنِ الإحساسِ . . فالخيالاتُ الحاصلةُ في النفسِ تبقىٰ ، وينتقلُ الخيالُ مِنْ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ، وبحسبِ انتقالِ الخيالِ ينتقلُ القلبُ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ آخر .

والمقصودُ : أنَّ القلبَ في التغيُّرِ والتأثُّرِ دائماً إنما هوَ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ .

وأخصُّ الآثارِ الحاصلةِ في القلبِ هيَ الخواطرُ ، وأعني بالخواطرِ : ما يعرضُ فيهِ مِنَ الأفكارِ والأذكارِ ، وأعني بهِ : إدراكاتِهِ علوماً إمَّا علىٰ سبيلِ التجدُّدِ ، وإمَّا علىٰ سبيلِ التذكُّرِ ؛ فإنَّها تُسمَّىٰ خواطرَ مِنْ حيثُ إنَّها تخطرُ بعدَ أنْ كانَ القلبُ غافلاً عنها .

والخواطرُ هيَ المحرِّكاتُ للإراداتِ ؛ فإنَّ النيَّةَ والعزمَ والإرادةَ إنَّما تكونُ بعدَ خُطورِ المنويِّ بالبالِ لا محالةَ ، فمبدأُ الأفعالِ الخواطرُ ، ثمَّ الخاطرُ يحرِّكُ الرغبةَ ، والرغبةُ تحرِّكُ العزمَ ، والعزمُ يحركُ النيَّةَ ، والنيَّةُ تحرِّكُ الأعضاءَ .

والخواطرُ المحرِّكةُ للرغبةِ تنقسمُ :

إلىٰ ما يدعو إلى الشرِّ ؛ أعني : إلىٰ ما يضرُّ في العاقبةِ .

وإلىٰ ما يدعو إلى الخيرِ ؛ أعني : إلىٰ ما ينفعُ في الدارِ الآخرةِ .

فهما خاطرانِ مختلفانِ ، فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطرُ المحمودُ يُسمَّىٰ **إلهاماً** ، والخاطرُ المذمومُ ـ أعني : الداعيَ إلى الشرِّ ـ يسمَّىٰ **وسواساً** .

ثمَّ إنَّكَ تعلمُ أنَّ هـٰذهِ الخواطرَ حادثةٌ ، ثمَّ كلُّ حادثٍ فلا بدَّ لهُ مِنْ محدثٍ ، ومهما اختلفتِ الحوادثُ . . دلَّ ذلكَ على اختلافِ الأسبابِ .

هـٰذا ما عُرِفَ مِنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في ترتيبِ المسبَّباتِ على الأسبابِ ، فمهما استنارَتْ حيطانُ البيتِ بنورِ النارِ ، وأظلمَ سقفهُ واسودَّ بالدخانِ . . علمتَ أنَّ سببَ السوادِ غيرُ سببِ الاستنارةِ ، وكذلكَ لأنوارِ القلبِ وظلمتِهِ

سببانِ مختلفانِ ، فسببُ الخاطرِ الداعي إلى الخيرِ يُسمَّىٰ **مَلَكاً** ، وسببُ الخاطرِ الداعي إلى الشرِّ يُسمَّىٰ **شيطاناً** ، واللطفُ الذي بهِ يتهيَّأُ القلبُ لقبولِ إلهامِ الخيرِ يُسمَّىٰ **توفيقاً** ، والذي بهِ يتهيَّأُ لقبولِ وسواسِ الشيطانِ يُسمَّىٰ **إغواءً وخِذلاناً** ؛ فإنَّ المعانيَ المختلفةَ تفتقرُ إلىٰ أسامٍ مختلفةٍ .

والملكُ : عبارةٌ عنْ خلْقٍ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، شأنُهُ إفاضةُ الخيرِ ، وإفادةُ العلمِ ، وكشفُ الحقِّ ، والوعدُ بالخيرِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، وقدْ خلقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وسخَّرَهُ لذلكَ .

والشيطانُ : عبارةٌ عنْ خلْقٍ شأنُهُ ضدُّ ذلكَ ، وهوَ الوعدُ بالشرِّ ، والأمرُ بالفحشاءِ ، والتخويفُ عندَ الهمِّ بالخيرِ بالفقرِ .

فالوسوسةُ في مقابلةِ الإلهامِ ، والشيطانُ في مقابلةِ الملكِ ، والتوفيقُ في مقابلةِ الخِذلانِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ، فإنَّ الموجوداتِ كلَّها متقابلةٌ مزدوجةٌ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ فردٌ لا مقابلَ لهُ ، بلْ هوَ الواحدُ الحقُّ ، الخالقُ للأزواجِ كلِّها .

فالقلبُ متجاذبٌ بينَ الشيطانِ والملكِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « في القلبِ لَمَّتانِ : لَمةٌ مِنَ الملكِ ، إيعادٌ بالخيرِ ، وتصديقٌ بالحقِّ ، فمَنْ وجدَ ذلكَ .. فليعلمْ أنَّهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فليحمدِ اللهَ ، ولَمّةٌ مِنَ العدوِّ ، إيعادٌ بالشرِّ ، وتكذيبٌ بالحقِّ ، ونهيٌ عنِ الخيرِ ، فمَنْ وجدَ ذلكَ .. فليستعذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ :

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ . . . ﴾ الآيةَ[١] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّما هما همَّانِ يجولانِ في القلبِ ، همٌّ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهمٌّ مِنَ العدوِّ ، فرحمَ اللهُ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ ، فما كانَ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . أمضاهُ ، وما كانَ مِنْ عدوِّهِ . . جاهدَهُ)[٢] .

ولتجاذبِ القلبِ بينَ هـٰذينِ المسلَّطينِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[٣] ، واللهُ يتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ إصبعٌ مركَّبةٌ مِنْ لحمٍ وعظمٍ ودمٍ وعصبٍ ، منقسمةٌ بالأناملِ ، ولكنْ روحُ الإصبعِ سرعةُ التقليبِ ، والقدرةُ على التحريكِ والتغييرِ ، فإنَّكَ لا تريدُ إصبعَكَ لشخصِهِ ، بلْ لفعلِهِ في التقليبِ والترديدِ ، كما أنَّكَ تتعاطى الأفعالَ بأصابعِكَ ، واللهُ تعالىٰ إنما يفعلُ ما يفعلُهُ باستسخارِ المَلَكِ والشيطانِ ، وهما مسخَّرانِ بقدرتِهِ في تقليبِ القلوبِ ، كما أنَّ أصابعَكَ مسخَّرةٌ لكَ في تقليبِ الأجسامِ مثلاً .

والقلبُ بأصلِ الفطرةِ صالحٌ لقبولِ آثارِ المَلَكِ ولقبولِ آثارِ الشيطانِ صلاحاً متساوياً ، ليسَ يترجَّحُ أحدُهُما على الآخرِ ، وإنَّما يترجَّحُ أحدُ الجانبينِ باتباعِ الهوىٰ ، والإكبابِ على الشهواتِ ، أوِ الإعراضِ عنها ومخالفتِها .

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٩٨٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١١٣) .
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) بنحوه .

فإنِ اتبعَ الإنسانُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ . . ظهرَ تسلُّطُ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ ، وصارَ القلبُ عُشَّ الشيطانِ ومعدنَهُ ؛ لأنَّ الهوىٰ هوَ مرعى الشيطانِ ومرتعُهُ ، وإنْ جاهدَ الشهواتِ ، ولمْ يسلِّطْها علىٰ نفسِهِ ، وتشبَّهَ بأخلاقِ الملائكةِ عليهِمُ السلامُ . . صارَ قلبُهُ مستقرَّ الملائكةِ ومهبطَهُمْ .

ولمَّا كانَ لا يخلو قلبٌ عنْ شهوةٍ وغضبٍ ، وحرصٍ وطمعٍ وطولِ أملٍ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ صفاتِ البشريَّةِ المتشعِّبةِ عنِ الهوىٰ . . لا جرمَ لمْ يخلُ قلبٌ عنْ أنْ يكونَ للشيطانِ فيهِ جولانٌ بالوسوسةِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ إلا ولهُ شيطانٌ » ، قالوا : وأنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وأنا ، إلا أنَّ اللهَ أعانَني عليهِ فأسلمُ ، فلا يأمرُ إلا بخيرٍ »(١) .

وإنَّما كانَ هـٰذا لأنَّ الشيطانَ لا يتصرَّفُ إلا بواسطةِ الشهوةِ ، فمَنْ أعانَهُ اللهُ علىٰ شهوتِهِ حتَّىٰ صارَتْ لا تنبسطُ إلا حيثُ ينبغي وإلى الحدِّ الذي ينبغي . . فشهوتُهُ لا تدعو إلى الشرِّ ، فالشيطانُ المتدرِّعُ بها لا يأمرُ إلا بالخيرِ .

ومهما غلبَ على القلبِ ذكرُ الدنيا بمقتضياتِ الهوىٰ . . وجدَ الشيطانُ مجالاً فوسوسَ ، ومهما انصرفَ القلبُ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ . . ارتحلَ الشيطانُ وضاقَ مجالُهُ ، وأقبلَ المَلَكُ وألهمَ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٤) .

والتطاردُ بينَ جندي الملائكةِ والشياطينِ في معركةِ القلبِ دائمٌ إلىٰ أنْ ينفتحَ القلبُ لأحدِهِما ، فيستوطنُ ويستمكنُ ، ويكونُ اجتيازُ الثاني اختلاساً .

وأكثرُ القلوبِ قدْ فتحتْها جنودُ الشيطانِ وتملَّكتْها ، فامتلأَتْ بالوساوسِ الداعيةِ إلىٰ إيثارِ العاجلةِ واطِّراحِ الآخرةِ ، ومبدأُ استيلائِها اتباعُ الشهواتِ والهوىٰ ، ولا يمكنُ فتحُها بعدَ ذلكَ إلا بتخليةِ القلبِ عنْ قوتِ الشيطانِ ، وهوَ الهوىٰ والشهواتُ ، وعمارتِهِ بذكرِ اللهِ تعالى الذي هوَ مطرحُ أثرِ الملائكةِ .

قالَ جريرُ بنُ عبيدةَ العدويُّ : شكوتُ إلى العلاءِ بنِ زيادٍ ما أجدُ في صدري مِنَ الوسوسةِ ، فقالَ : إنَّما مثلُ ذلكَ مثلُ البيتِ الذي يمرُّ بهِ اللصوصُ ، فإنْ كانَ فيهِ شيءٌ . . عالجوهُ ، وإلا . . مضوا وتركوهُ[1] .

يعني : أنَّ القلبَ الخاليَ عنِ الهوىٰ لا يدخلُهُ الشيطانُ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ ، فكلُّ مَنِ اتبعَ الهوىٰ فهوَ عبدُ الهوىٰ لا عبدُ اللهِ ، ولذلكَ سلَّطَ اللهُ عليهِ الشيطانَ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ إشارةً إلىٰ أنَّ مَنِ الهوىٰ إلـٰهُهُ ومعبودُهُ . . فهوَ عبدُ الهوىٰ لا عبدُ اللهِ .

وقالَ عثمانُ بنُ أبي العاصِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٥) .

حالَ الشيطانُ بيني وبينَ صلاتي وقراءتي ، فقالَ : « ذلكَ شيطانٌ يُقالُ لهُ : خَنْزَبٌ ، فإذا أحسسْتَهُ . . فتعوَّذْ باللهِ منهُ واتفلْ عنْ يسارِكَ ثلاثاً » ، قالَ : ففعلتُ ذلكَ ، فأذهبَهُ اللهُ عنِّي (١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ للوضوءِ شيطاناً يقالُ لهُ : الولهانُ ، فاستعيذوا باللهِ منهُ » (٢) .

ولا يمحو وسوسةَ الشيطانِ مِنَ القلبِ إلا ذكرُ ما سوىٰ ما يوسوسُ بهِ ؛ لأنَّهُ إذا حضرَ في القلبِ ذكرُ شيءٍ . . انعدمَ منهُ ما كانَ فيهِ مِنْ قبلُ ، ولكنْ كلُّ شيءٍ سوى اللهِ تعالىٰ وسوىٰ ما يتعلَّقُ بهِ فيجوزُ أيضاً أنْ يكونَ مجالاً للشيطانِ ، فذكرُ اللهِ هوَ الذي يُؤمنُ جانبُهُ ، ويُعلمُ أنَّهُ ليسَ للشيطانِ فيهِ مجالٌ ، فلا يعالجُ الشيءُ إلا بضدِّهِ ، وضدُّ جميعِ وساوسِ الشيطانِ ذكرُ اللهِ بالاستعاذةِ ، والتبرِّي عنِ الحولِ والقوَّةِ ، وهوَ معنىٰ قولِكَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ) .

وذلكَ لا يقدرُ عليهِ إلا المتقونَ ، الذينَ الغالبُ عليهِمْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما الشيطانُ يطوفُ عليهِمْ في أوقاتِ الفلتاتِ علىٰ سبيلِ الخلسةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٣) .
(٢) رواه الترمذي (٥٧) ، وابن ماجه (٤٢١) .

وقالَ مجاهدٌ في معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قالَ : (هوَ منبسطٌ على القلبِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ وانقبضَ ، وإذا غفلَ . . انبسطَ علىٰ قلبِهِ)(١) .

فالتطاردُ بينَ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ووسوسةِ الشيطانِ كالتطاردِ بينَ النورِ والظلامِ ، وبينَ الليلِ والنهارِ(٢) ، ولتضادِّهِما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ واضعٌ خطمَهُ علىٰ قلبِ ابنِ آدمَ ، فإنْ هوَ ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ ، وإنْ نسيَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ . . التقمَ قلبَهُ »(٣) .

وقالَ ابنُ وضَّاحٍ في حديثٍ ذكرَهُ : (إذا بلغَ الرجلُ أربعينَ سنةً ولمْ يتبْ . . مسحَ الشيطانُ وجهَهُ بيدِهِ وقالَ : بأبي وجهُ مَنْ لا يفلحُ)(٤) .

وكما أنَّ الشهواتِ ممتزجةٌ بلحْمِ ابنِ آدمَ ودمِهِ . . فسلطنةُ الشيطانِ أيضاً

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٤٥٥) ، والسياق في « القوت » (١/ ١١٣) .

(٢) فإذا جاء الليل . . ذهب النهار ، وبالعكس ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله ، وآخر ضده . « إتحاف » (٧/ ٢٦٩) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ١٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٨٦) .

(٤) كذا حكاه من حديث ابن وضاح ابنُ عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/ ١٨٥) ، وأنشد للبحتري :

فـإذا رأىٰ إبليسُ غـرَّةَ وجهِـهِ حيَّا وقالَ : فديتُ مَنْ لا يفلحُ

سارِيةٌ في لحمِهِ ودمِهِ ، ومحيطةٌ بالقلبِ مِنْ جوانبِهِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ »(١) .

وذلكَ لأنَّ الجوعَ يكسرُ الشهوةَ ، ومَجرى الشيطانِ الشهواتُ ، ولأجلِ اكتنافِ الشهواتِ للقلبِ مِنْ جوانبِهِ قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ إبليسَ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرقِهِ ، فقعدَ لهُ بطريقِ الإسلامِ فقالَ : أتسلمُ وتذرُ دينَكَ ودينَ آبائِكَ ؟! فعصاهُ وأسلمَ ، ثمَّ قعدَ لهُ بطريقِ الهجرةِ فقالَ : أتهاجرُ فتدعُ أرضَكَ وسماءَكَ ؟! فعصاهُ وهاجرَ ، ثمَّ قعدَ له بطريقِ الجهادِ فقالَ : أتجاهدُ وهوَ جَهْدُ النفسِ والمالِ فتقاتلُ فتقتلُ فتنكحُ نساؤُكَ ويقسمُ مالُكَ ؟! فعصاهُ

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) دون زيادة : « فضيقوا مجاريه بالجوع » ، قال الحافظ الزبيدي : (وأنا أظن أن هـٰذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) . « إتحاف » (٤/ ١٩٤) ، ومعنى الزيادة صحيح كما لا يخفىٰ ؛ إذ الشبع مسلك ومدخل من مداخل الشيطان ، روىٰ أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٨) عن ثابت البناني قال : (بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأىٰ عليه معاليق من كل شيء ، فقال له : ما هـٰذه المعاليق التي أراها عليك ؟ قال : هـٰذه الشهوات التي أصيب بها بني آدم ، فقال له يحيىٰ عليه السلام : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا ، قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر ، قال : هل غير ذا ؟ قال : لا ، قال : لا جرم ! والله لا أشبع أبداً) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم لقمة .

وجاهدَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فمَنْ فعلَ ذلكَ فماتَ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يدخلَهُ الجنَّةَ »(١) .

فذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معنى الوسوسةِ ، وهيَ هـٰذهِ الخواطرُ التي تخطرُ للمجاهدِ أنَّهُ يُقتلُ وتُنكحُ نساؤُهُ ، وغيرُ ذلكَ ممَّا يصرفُهُ عنِ الجهادِ ، وهـٰذهِ الخواطرُ معلومةٌ ، فإذاً ؛ الوسواسُ معلومٌ بالمشاهدةِ ، وكلُّ خاطرٍ فلهُ سببٌ ، ويفتقرُ إلى اسمٍ يعرِّفُهُ ، فاسمُ سببِهِ الشيطانُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنهُ آدميٌّ ، وإنَّما يختلفونَ بعصيانِهِ ومتابعتِهِ ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ أحدٍ إلا ولهُ شيطانٌ »(٢) .

فقدِ اتضحَ بهـٰذا النوعِ مِنَ الاستبصارِ معنى الوسوسةِ والإلهامِ ، والمَلَكِ والشيطانِ ، والتوفيقِ والخذلانِ .

* * *

فبعدَ هـٰذا ؛ نظرُ مَنْ ينظرُ في ذاتِ الشيطانِ ، وأنَّهُ جسمٌ لطيفٌ أوْ ليسَ بجسمٍ ، وإنْ كانَ جسماً فكيفَ يدخلُ بدنَ الإنسانِ ما هوَ جسمٌ . . فهـٰذا الآنَ غيرُ محتاجٍ إليهِ في علمِ المعاملةِ ، بلْ مثالُ هـٰذا الباحثِ عنْ هـٰذا كمثالِ مَنْ دخلَتْ في ثيابِهِ حيَّةٌ وهوَ محتاجٌ إلىٰ إزالتِها ودفعِ ضررِها ، فاشتغلَ بالبحثِ عنْ لونِها وشكلِها ، وطولِها وعرضِها ، وذلكَ عينُ الجهلِ .

---

(١) رواه النسائي (٦/ ٢١) من حديث سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه مرفوعاً .
(٢) رواه مسلم (٢٨١٤) .

فمصادمةُ الخواطرِ الباعثةِ على الشرِّ قدْ عُلمَتْ ، ودلَّ ذلكَ علىٰ أنَّهُ عنْ سببٍ لا محالةَ ، وعُلمَ أنَّ الداعيَ إلى الشرِّ المحذورِ في المستقبلِ عدوٌّ ، فقدْ عُرفَ العدوُّ لا محالةَ ، فينبغي أنْ يُشتغلَ بمجاهدتِهِ ، وقد عرَّفَ اللهُ سبحانَهُ عداوتَهُ في مواضعَ كثيرةٍ مِنْ كتابِهِ ؛ ليُؤمنَ بهِ ويُحترزَ عنهُ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

فينبغي للعبدِ أنْ يشتغلَ بدفعِ العدوِّ عنْ نفسِهِ ، لا بالسؤالِ عنْ أصلِهِ ونسبِهِ ومسكنِهِ .

نعمْ ، ينبغي أنْ يسألَ عنْ سلاحِهِ ليدفعَهُ عنْ نفسِهِ ، وسلاحُ الشيطانِ الهوىٰ والشهواتُ ، وذلكَ كافٍ للعالمينَ[1] ، فأمَّا معرفةُ ذاتِهِ وصفاتِهِ وحقيقتِهِ ـ نعوذُ باللهِ منهُ ـ وحقيقةِ الملائكةِ . . فذلكَ ميدانُ العارفينَ المتغلغلينَ في علومِ المكاشفاتِ ، فلا يحتاجُ في علمِ المعاملةِ إلىٰ معرفتِهِ .

نعمْ ، ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ الخواطرَ تنقسمُ إلىٰ ما يُعلمُ قطعاً أنَّهُ داعٍ إلى الشرِّ ، فلا يخفىٰ كونُهُ وسوسةً ، وإلىٰ ما يُعلمُ أنَّه داعٍ إلى الخيرِ ، فلا يشكُّ في كونِهِ إلهاماً ، وإلىٰ ما يتردَّدُ فيهِ ، فلا يدري أنَّهُ مِنْ لَمةِ المَلَكِ ، أوْ مِنْ لَمةِ الشيطانِ ؟ فإنَّ مِنْ مكايدِ الشيطانِ أنْ يعرضَ الشرَّ في معرضِ الخيرِ ،

(١) في غير (ج ، د) : (العاملين) .

والتمييزُ في ذلكَ غامضٌ ، وأكثرُ العبَّادِ بهِ يهلكونَ ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يقدرُ علىٰ دعائِهِمْ إلى الشرِّ الصريحِ ، فيصوِّرُ الشرَّ بصورةِ الخيرِ ؛ كما يقولُ للعالمِ بطريقِ الوعظِ : أما تنظرُ إلى الخلْقِ وهُمْ موتىٰ مِنَ الجهلِ ، هلكىٰ مِنَ الغفلةِ ، قدْ أشرفوا على النارِ ؟! أمالكَ رحمةٌ علىٰ عبادِ اللهِ تنقذُهُمْ مِنَ المعاطبِ بنصحِكَ ووعظِكَ وقدْ أنعمَ اللهُ عليكَ بقلبٍ بصيرٍ ، ولسانٍ ذلقٍ ، ولهجةٍ مقبولةٍ ؟! فكيفَ تكفرُ نعمةَ اللهِ تعالىٰ ، وتتعرَّضُ لسخطِهِ ، وتسكتُ عنْ إشاعةِ العلمِ ، ودعوةِ الخلقِ إلى الصراطِ المستقيمِ ؟!

ولا يزالُ يقرِّرُ ذلكَ في نفسِهِ ، ويستجرُّهُ بلطيفِ الحيلِ ، إلىٰ أنْ يشتغلَ بوعْظِ الناسِ ، ثمَّ يدعوهُ بعدَ ذلكَ إلىٰ أنْ يتزيَّنَ لهُمْ ويتصنَّعَ بتحسينِ اللفظِ وإظهارِ الخيرِ ، ويقولُ لهُ : إنْ لمْ تفعلْ ذلكَ .. سقطَ وقعُ كلامِكَ مِنْ قلوبِهِمْ ، ولمْ يهتدوا إلى الحقِّ ، ولا يزالُ يقرِّرُ ذلكَ عندَهُ ، وهوَ في أثنائِهِ يؤكِّدُ فيهِ شوائبَ الرياءِ ، وقبولَ الخلقِ ، ولذَّةَ الجاهِ ، والتعزُّزَ بكثرةِ الأتباعِ والعلمِ ، والنظرَ إلى الخلقِ بعينِ الاحتقارِ ، فيستدرجُ المسكينَ بالنصحِ إلى الهلاكِ ، فيتكلَّمُ وهوَ يظنُّ أنَّ قصدَهُ الخيرُ ، وإنَّما قصدُهُ الجاهُ والقبولُ ، فيهلكُ بسببِ ذلكَ ، وهوَ يظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وهوَ مِنَ الذينَ قالَ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »(١) ، و« إنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »(٢) .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

ولذلكَ رُوِيَ أنَّ إبليسَ لعنَهُ اللهُ تمثَّلَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : قُلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، فقالَ : (كلمةُ حقٍّ ولا أقولُها بقولِكَ) ؛ لأنَّ لهُ تحتَ الخيرِ أيضاً تلبيساتٍ ، وتلبيساتُ الشيطانِ مِنْ هـٰذا الجنسِ لا تتناهىٰ ، وبها يهلكُ العلماءُ ، والعبَّادُ والزهَّادُ ، والفقراءُ والأغنياءُ ، وأصنافُ الخلْقِ ممَّنْ يكرهونَ ظاهرَ الشرِّ ولا يرضونَ لأنفسِهِمُ الخوضَ في المعاصي المكشوفةِ .

* * *

وسنذكرُ جملةً مِنَ مكايدِ الشيطانِ في كتابِ الغرورِ في آخرِ هـٰذا الربعِ ، ولعلَّنا إنْ أمهلَ الزمانُ .. صنَّفنا فيهِ كتاباً على الخصوصِ ، نسمِّيهِ : « تلبيسَ إبليسَ »[1] ؛ فإنَّهُ قدِ انتشرَ الآنَ تلبيسُهُ في البلادِ والعبادِ ، لا سيَّما في

(١) وهل صنف الإمام هـٰذا الكتاب ؟ فقد ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية » (٦/ ٢٢٧) سرداً ، وكذا الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٤١) وغالب نقله عن ابن السبكي ، ولم يذكرا أنهما وقفا عليه أو حققا القول في نسبته له ، وفي كتاب « منهاج العابدين » (ص٨٧) المنسوب للمصنف : (وقد صنَّفنا كتاباً سميناه « تلبيس إبليس ») ، وهـٰذا نص في كونه رحمه الله تعالىٰ صنَّف هـٰذا الكتاب ، ولكن « منهاج العابدين » كتاب نسب إلىٰ غير المصنف ، ونقل الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٤٣) عن بعض العارفين أنه للشيخ علي بن خليل السبتي ، وإنما عزي للإمام الغزالي لما فيه من المحاكاة لأسلوبه ولكثير من كلامه واستشهاداته وطريقته في التصنيف ، ومع هـٰذا لا يمكن الجزم بنفي أو إثبات .
ولولا أن المصنف هنا ذكر كتاب الغرور الذي هو قطعة من « إحيائه » .. لاتجه القول بأن « التلبيس » هو كتاب الغرور نفسه ، هـٰذا وقد صنف ابن الجوزي مقتنصاً هـٰذا العنوان كتاباً بهـٰذا الاسم ردَّ فيه على المصنف وكتابه « الإحياء » .

المذاهبِ والاعتقاداتِ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ مِنَ الخيراتِ إلا رسمُها ، كلُّ ذلكَ إذعاناً لتلبيساتِ الشيطانِ ومكايدِهِ .

فحقٌّ على العبدِ أنْ يقفَ عندَ كلِّ همٍّ يخطرُ لهُ ؛ ليعلمَ أنَّهُ مِنْ لمَّةِ المَلَكِ أوْ لمَّةِ الشيطانِ ، وأنْ يمعنَ النظرَ فيهِ بعينِ البصيرةِ ، لا بهوىً مِنَ الطبعِ ، ولا يطلعُ عليهِ إلا بنورِ التقوىٰ والبصيرةِ وغزارةِ العلمِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ ﴾ أيْ : رجعوا إلىٰ نورِ العلمِ ، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ أيْ : ينكشف لهُمُ الإشكالُ ، فأمَّا مَنْ لمْ يرضْ نفسَهُ بالتقوىٰ . . فيميلُ طبعُهُ إلى الإذعانِ لتلبيسِهِ بمتابعةِ الهوىٰ ، فيكثرُ فيهِ غلطُهُ ، ويتعجَّلُ بهِ هلاكَهُ وهوَ لا يشعرُ ، وفي مثلِهِمْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، قيلَ : هيَ أعمالٌ ظنُّوها حسناتٍ ، فإذا هيَ سيِّئاتٌ[1] .

❊ ❊ ❊

وأغمضُ أنواعِ علومِ المعاملةِ الوقوفُ علىٰ خدعِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وذلكَ فرضُ عينٍ علىٰ كلِّ عبدٍ ، وقدْ أهملَهُ الخلْقُ ، واشتغلوا بعلومٍ تستجرُّ إليهِمُ الوسواسَ ، وتسلِّطُ عليهِمُ الشيطانَ ، وتنسيهِمْ عداوتَهُ وطريقَ الاحترازِ عنهُ .

ولا ينجي مِنْ كثرةِ الوسواسِ إلا سدُّ أبوابِ الخواطرِ ، وأبوابُها مِنْ خارجٍ

---

(١) روىٰ ذلك الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٦٢) عن الفضيل بن عياض .

الحواسُّ الخمسُ ، وأبوابُها مِنْ داخلِ الشهواتُ وعلائقُ الدنيا ، والخلوةُ في بيتٍ مظلمٍ تسدُّ بابَ الحواسِّ ، والتجرُّدُ عنِ الأهلِ والمالِ يقلِّلُ مداخلَ الوسواسِ مِنَ الباطنِ ، ويبقىٰ معَ ذلكَ مداخلُ باطنةٌ من التخيُّلاتِ الجاريةِ في القلبِ ، وذلكَ لا يُدفعُ إلا بشغْلِ القلبِ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ إنَّهُ لا يزالُ يجاذبُ القلبَ وينازعُهُ ، ويلهيهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فلا بدَّ مِنْ مجاهدتِهِ ، وهـٰذهِ مجاهدةٌ لا آخرَ لها إلا الموتُ ؛ إذْ لا يتخلَّصُ أحدٌ مِنَ الشيطانِ ما دامَ حيّاً[1] .

نعمْ ، قدْ يقوىٰ بحيثُ لا ينقادُ لهُ ، ويدفعُ عنْ نفسِهِ شرَّهُ بالجهادِ ، ولكنْ لا يستغني قطُّ عنِ الجهادِ والمدافعةِ ما دامَ الدمُ يجري في بدنِهِ ، فإنَّهُ ما دامَ حيّاً . فأبوابُ الشيطانِ مفتوحةٌ إلىٰ قلبِهِ لا تنغلقُ ، وهيَ الشهوةُ ، والغضبُ ، والحسدُ ، والطمعُ ، والشَّرَهُ وغيرُها كما سيأتي شرحُها ، ومهما كانَ البابُ مفتوحاً والعدوُّ غيرَ غافلٍ . . لمْ يُدفعْ إلا بالحراسةِ والمجاهدةِ .

قالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ أينامُ الشيطانُ ؟ فتبسَّمَ وقالَ : لوْ نامَ . . لوجدنا عنهُ راحةً[2] .

---

(١) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « قال إبليس : أي ربِّ ؛ لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال : فقال الربُّ عز وجل : لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٤٠) .

فإذاً ؛ لا خلاصَ للمؤمنِ منهُ .

نعمْ ، لهُ سبيلٌ إلىٰ دفعِهِ وتضعيفِ قوَّتِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المؤمنَ ينضي شيطانَهُ كما ينضي أحدُكُمْ بعيرَهُ في السفرِ »(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (شيطانُ المؤمنِ مهزولٌ)(٢) .

وقالَ قيسُ بنُ الحجَّاجِ : قالَ لي شيطاني : دخلتُ فيكَ وأنا مثلُ الجزورِ ، وأنا الآنَ مثلُ العصفورِ ، قلتُ : ولِمَ ذاك ؟ قالَ : تذيبُني بذكرِ اللهِ تعالىٰ(٣) .

فأهلُ التقوىٰ لا يتعذَّرُ عليهِمْ سدُّ أبوابِ الشيطانِ ، وحفظُها بالحراسةِ ؛ أعني : الأبوابَ الظاهرةَ ، والطرقَ الجليَّةَ التي تفضي إلى المعاصي الظاهرةِ ، وإنَّما يتعثَّرونَ في طرقِهِ الغامضةِ ، فإنَّهُمْ لا يهتدونَ إليها فيحرسونَها ؛ كما أشرنا إليهِ في غرورِ العلماءِ والوعَّاظِ .

والمشكلُ أنَّ الأبوابَ المفتوحةَ إلى القلبِ للشيطانِ كثيرةٌ ، وبابُ الملائكةِ بابٌ واحدٌ ، وقدِ التبسَ ذلكَ البابُ الواحدُ بهٰذهِ الأبوابِ الكثيرةِ ، فالعبدُ فيها مثالُ المسافرِ الذي يبقىٰ في باديةٍ كثيرةِ الطرقِ ، غامضةِ المسالكِ ، في ليلةٍ مظلمةٍ ، فلا يكادُ يعلمُ الطريقَ إلا بعينٍ بصيرةٍ وطلوعِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وينضي : يهزل ويضعف .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٦) بنحوه .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩/ ٢٧٦) .

شمسٍ مشرقةٍ ، والعينُ البصيرةُ هـٰهنا هي القلبُ المصفَّىٰ بالتقوىٰ ، والشمسُ المشرقةُ هي العلمُ الغزيرُ المستفادُ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبهما يهتدي إلىٰ غوامضِ طرقِهِ ، وإلا . . فطرقُهُ كثيرةٌ وغامضةٌ[1] .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : خطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً خطّاً فقالَ : « هـٰذا سبيلُ اللهِ » ، ثمَّ خطَّ خطوطاً عنْ يمينِ الخطِّ وعنْ شمالِهِ فقالَ : « هـٰذهِ سبلٌ ، علىٰ كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليهِ » ، ثمَّ تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ يعني : تلكَ الخطوطَ ، فبيَّنَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كثرةَ طرقِهِ[2] .

وقدْ ذكرنا مثالاً للطريقِ الغامضِ مِنْ طرقِهِ ، وهوَ الذي يخدعُ بهِ العلماءَ والعبَّادَ المالكينَ لشهواتِهِمْ ، الكافِّينَ عنِ المعاصي الظاهرةِ ، فلنذكرْ مثالاً لطريقِهِ الواضحِ الذي لا يخفىٰ إلا أنْ يُضطرَّ الآدميُّ إلىٰ سلوكِهِ ، وذلكَ كما رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « كانَ راهبٌ في بني إسرائيلَ ، فعمدَ الشيطانُ إلىٰ جاريةٍ فخنقَها ، وألقىٰ في قلوبِ أهلِها أنَّ دواءَها عندَ الراهبِ ، فأتوا بها إليهِ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها ، فلم يزالوا بهِ حتَّىٰ قبلَها ، فلمَّا كانَتْ عندَهُ ليعالجَها . أتاهُ الشيطانُ ، فزيَّنَ لهُ مقاربتَها ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ

---

(١) والمراد بالعلم هنا هو علم المعرفة المخصوص به المقربون . « إتحاف » (٧/ ٢٧٣) .
(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١١٠٩) .

واقعَها ، فحملَتْ منهُ ، فوسوسَ إليهِ وقالَ : الآنَ تفتضحُ ، يأتيكَ أهلُها ، فاقتلْها ، فإنْ سألوكَ .. فقلْ : ماتَتْ ، فقتلَها ودفنَها ، فأتى الشيطانُ أهلَها ، فوسوسَ إليهِمْ وألقىٰ في قلوبِهِمْ أنَّهُ أحبلَها ثمَّ قتلَها ودفنَها ، فأتاهُ أهلُها ، فسألوه عنها ، فقالَ : ماتَتْ ، فأخذوهُ ليقتلوهُ بها ، فأتاهُ الشيطانُ فقالَ : أنا الذي أخذتُها ، وأنا الذي ألقيتُ في قلوبِ أهلِها ، فأطعْني .. تنجُ وأخلِّصُكَ منهُمْ ، قالَ : بماذا ؟ قال : اسجدْ لي سجدتينِ ، فسجدَ لهُ سجدتينِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : إنِّي بريءٌ منكَ ، فهوَ الذي قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾(١) .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حيلِهِ واضطرارِهِ الراهبَ إلىٰ هٰذهِ الكبائرِ ، وكلُّ ذلكَ لطاعتِهِ لهُ في قبولِ الجاريةِ للمعالجةِ وهوَ أمرٌ هيِّنٌ ، وربما يظنُّ صاحبُهُ أنَّهُ خيرٌ وحسنةٌ ، فيحسنُ ذلكَ في قلبِهِ بخفيِّ الهوىٰ ، فيقدمُ عليهِ كالراغبِ في الخيرِ ، فيخرجُ الأمرُ بعدَ ذلكَ عنِ اختيارِهِ ، ويجرُّهُ البعضُ إلى البعضِ ، بحيثُ لا يجدُ محيصاً ، فنعوذُ باللهِ مِنْ تضييعِ أوائلِ الأمورِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حامَ حولَ الحمىٰ .. يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ »(٢) .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » ، والطبري في « تفسيره » (١٤/٢٨/٦٢ـ٦٤) عن علي وعبد الله بن مسعود وابن عباس وطاووس ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٨٤) عن علي رضي الله عنهم ، وأورد رواية مفصلة طويلة القرطبيُّ في « تفسيره » (١٨/ ٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (١٥٩٩) .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلمْ : أنَّ مثالَ القلبِ مثالُ حصنٍ ، والشيطانُ عدوٌّ يريدُ أنْ يدخلَ الحصنَ ويملكَهُ ويستوليَ عليهِ ، ولا يُقدرُ علىٰ حفظِ الحصنِ مِنَ العدوِّ إلا بحراسةِ أبوابِ الحصنِ ومداخلِهِ ومواضعِ ثُلَمِهِ ، ولا يقدرُ علىٰ حراسةِ أبوابِهِ مَنْ لا يعرفُ أبوابَهُ .

وحمايةُ القلبِ مِنْ وسواسِ الشيطانِ واجبةٌ ، وهوَ فرضُ عينٍ علىٰ كلِّ عبدٍ مكلَّفٍ ، وما لا يُتوصَّلُ إلى الواجبِ إلا بِهِ .. فهوَ أيضاً واجبٌ ، ولا يُتوصَّلُ إلىٰ دفعِ الشيطانِ إلا بمعرفةِ مداخلِهِ ، فصارَتْ معرفةُ مداخلِهِ واجبةً .

ومداخلُ الشيطانِ وأبوابُهُ صفاتُ العبدِ ، وهيَ كثيرةٌ ، ولكنَّا نشيرُ إلى الأبوابِ العظيمةِ الجاريةِ مَجرى الدروبِ التي لا تضيقُ عنْ كثرةِ جنودِ الشيطانِ .

* * *

فمِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الغضبُ والشهوةُ :

فإنَّ الغضبَ هوَ غولُ العقلِ ، فإذا ضعفَ جندُ العقلِ .. هجمَ جندُ الشيطانِ ، ومهما غضبَ الإنسانُ .. لعبَ الشيطانُ بهِ كما يلعبُ الصبيُّ بالكرةِ .

فقدْ رُوِيَ أنَّ إبليسَ لقيَ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : يا موسىٰ ؛ أنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ ، وكلَّمَك تكليماً ، وأنا خلقٌ مِنْ خلْقِ اللهِ أذنبتُ ، وأنا أريدُ أنْ أتوبَ ، فاشفعْ لي إلىٰ ربِّي أنْ يتوبَ عليَّ ، فقالَ لهُ موسىٰ : نعمْ ، فلمَّا صعدَ موسى الجبلَ وكلَّمَ ربَّه عزَّ وجلَّ وأرادَ النزولَ . . قالَ لهُ ربُّهُ : أدِّ الأمانةَ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ إبليسُ يريدُ أنْ تتوبَ عليهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ : يا موسىٰ ؛ قدْ قضيتُ حاجتَكَ ، مرْهُ أنْ يسجدَ لقبرِ آدمَ حتَّىٰ يُتابَ عليهِ ، فلقيَ موسىٰ إبليسَ ، فقالَ لهُ : قدْ قضيتُ حاجتَكَ ، أُمرتَ أنْ تسجدَ لقبرِ آدمَ حتَّىٰ يُتابَ عليكَ ، فغضبَ واستكبرَ ، وقالَ : لمْ أسجدْ لهُ حيّاً ، أأسجدُ لهُ ميتاً ؟! ثمَّ قالَ : يا موسىٰ ؛ إنَّ لكَ عليَّ حقّاً بما شفعتَ لي إلىٰ ربِّكَ ، فاذكرْني عندَ ثلاثٍ لا أهلكُكَ فيهنَّ : اذكرْني حينَ تغضبُ ؛ فإنَّ روحي في قلبِكَ ، وعيني في عينِكَ ، وأجري منكَ مَجرى الدمِ ، واذكرْني حينَ تلقى الزحفَ ؛ فإني آتي ابنَ آدمَ حينَ يلقى الزحفَ ، فأذكِّرُهُ زوجتَهُ وولدَهُ وأهلَهُ حتَّىٰ يولِّيَ ، وإيَّاكَ أنْ تجلسَ إلى امرأةٍ ليسَتْ بذاتِ محرمٍ ؛ فإنِّي رسولُها إليكَ ورسولُكَ إليها ، فلا أزالُ حتىٰ أفتنَكَ بها وأفتنَها بكَ(١) .

فقدْ أشارَ في هٰذا إلى الشهوةِ والغضبِ والحرْصِ ؛ فإنَّ الفرارَ مِنَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٤٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١ / ١٢٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بنحوه .

الزحفِ حرصٌ على الدنيا ، وامتناعُهُ منَ السجودِ لآدمَ ميتاً هوَ الحسدُ ، وهوَ مِنْ أعظمِ مداخلِهِ .

وقدْ ذُكرَ أنَّ بعضَ الأولياءِ قالَ لإبليسَ : أرني كيفَ تغلبُ ابنَ آدمَ ، فقالَ : آخذُهُ عندَ الغضبِ وعندَ الهوىٰ(١) .

وحُكِيَ أنَّ إبليسَ ظهرَ لراهبٍ ، فقالَ لهُ الراهبُ : أيُّ أخلاقِ بني آدمَ أعونُ لكَ ؟ قالَ : الحدَّةُ ، فإنَّ العبدَ إذا كانَ حديداً . . قلَّبناهُ كما يقلِّبُ الصبيانُ الكرةَ(٢) .

وقيلَ : إنَّ الشيطانَ يقولُ : كيفَ يغلبُني ابنُ آدمَ وإذا رضيَ . . جئتُ حتَّىٰ أكونَ في قلبِهِ ، وإذا غضبَ . . طرتُ حتَّىٰ أكونَ في رأسِهِ ؟!(٣) .

❊ ❊ ❊

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الحسدُ والحرْصُ :

فمهما كانَ العبدُ حريصاً علىٰ شيءٍ . . أعماهُ حرْصُهُ وأصمَّهُ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّكَ الشيءَ يعمي ويصمُّ »(٤) ، ونورُ البصيرةِ هوَ الذي يُعرِّفُ مداخلَ الشيطانِ ، فإذا غطَّاهُ الحسدُ والحرصُ . . لمْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧١) عن يزيد بن قسيط يحكيه عن بعض الأنبياء .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٣٨) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١١٧) .
(٤) رواه أبو داوود (٥١٣٠) .

يصرْ ، فحينئذٍ يجدُ الشيطانُ فرصةً ، فيحسِّنُ عندَ الحريصِ كلَّ ما يوصلُهُ إلىٰ شهوتِهِ ، وإنْ كانَ منكراً وفاحشاً .

فقدْ رُوِيَ أنَّ نوحاً عليهِ السلامُ لمَّا ركبَ السفينةَ . . حملَ فيها مِنْ كلِّ زوجينِ اثنينِ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ، فرأىٰ في السفينةِ شيخاً لمْ يعرفْهُ ، فقالَ لهُ نوحٌ : ما أدخلَكَ ؟ فقالَ : دخلتُ لأصيبَ قلوبَ أصحابِكَ ، فتكونَ قلوبُهُمْ معي وأبدانُهُمْ معكَ ، فقالَ لهُ نوحٌ : اخرجْ منها يا عدوَّ اللهِ ؛ فإنَّكَ رجيمٌ ، فقالَ لهُ إبليسُ : خمسٌ أهلكُ بهنَّ الناسَ ، وسأحدِّثُكَ منهنَّ بثلاثٍ ، ولا أحدِّثُكَ باثنتينِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نوحٍ أنَّهُ لا حاجةَ بكَ إلى الثلاثِ فليحدثْكَ بالاثنتينِ ، فقالَ لهُ نوحٌ : ما الاثنتانِ ؟ فقالَ : هما اللتانِ لا تكذباني ، هما اللتانِ لا تخلفاني ، بهما أهلكُ الناسَ ؛ الحرصُ والحسدُ ، فبالحسدِ لُعنتُ ، وجُعلتُ شيطاناً رجيماً ، وأمَّا الحرصُ . . فإنَّهُ أُبيحَ لآدمَ الجنَّةُ كلُّها إلا الشجرةَ ، فأصبتُ حاجتي منهُ بالحرْصِ (١) .

❊ ❊ ❊

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الشبعُ مِنَ الطعامِ وإنْ كانَ حلالاً صافياً :

فإنَّ الشبعَ يقوِّي الشهواتِ ، والشهواتُ أسلحةُ الشيطانِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٤٤) ، وهو من حديث ابن عمر المتقدم قريباً .

فقدْ رُوِيَ أنَّ إبليسَ ظهرَ ليحيىٰ بنِ زكريا عليهما السلامُ ، فرأىٰ عليهِ معاليقَ مِنْ كلِّ شيءٍ ، فقالَ لهُ : يا إبليسُ ؛ ما هـٰذهِ المعاليقُ ؟ قالَ : هـٰذهِ الشهواتُ التي أصيبُ بها ابنَ آدمَ ، فقالَ : فهلْ لي فيها مِنْ شيءٍ ؟ قالَ : ربَّما شبعتَ فثقلناكَ عنِ الصلاةِ وعنِ الذكرِ ، قالَ : فهلْ غيرُ ذلكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : للهِ عليَّ ألا أملأَ بطني مِنْ طعامٍ أبداً ، فقالَ لهُ إبليسُ : وللهِ عليَّ ألا أنصحَ مسلماً أبداً[1] .

ويقالُ : في كثرةِ الأكلِ ستُّ خصالٍ مذمومةٍ :

أولُها : أنْ يذهبَ خوفُ اللهِ منْ قلبهِ .

والثاني : أنْ يذهبَ رحمةُ الخلقِ منْ قلبهِ ؛ لأنَّهُ يظنُّ أنَّهمْ كلُّهُمْ شِباعٌ .

والثالثُ : أنَّهُ يثقلُ عنِ الطاعةِ .

والرابعُ : أنَّهُ إذا سمعَ كلامَ الحكمةِ . . لا يجدُ لهُ رقَّةً .

والخامسُ : أنَّهُ إذا تكلَّمَ بالموعظةِ والحكمةِ . . لا يقعُ في قلوبِ الناسِ .

والسادسُ : أنْ يهيجَ فيهِ الأمراضُ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٩) عن ثابت البناني .

ومِنْ أبوابِهِ : حبُّ التزيُّنِ بالأثاثِ والثيابِ والدارِ :

فإنَّ الشيطانَ إذا رأىٰ ذلكَ غالباً علىٰ قلبِ إنسانٍ . . باضَ فيهِ وفرَّخَ ، فلا يزالُ يدعوهُ إلىٰ عمارةِ الدارِ ، وتزيينِ سقوفِها وحيطانِها ، وتوسيعِ أبنيتِها ، ويدعوهُ إلى التزيُّنِ بالثيابِ والدوابِّ ، ويستسخرُهُ فيها طولَ عمرِهِ ، وإذا أوقعَهُ في ذلكَ . . فقدِ استغنىٰ أنْ يعودَ إليهِ ثانيةً ؛ فإنَّ بعضَ ذلكَ يجرُّهُ إلى البعضِ ، فلا يزالُ يؤدِّيهِ شيءٌ إلىٰ شيءٍ ، إلىٰ أنْ يُساقَ إليهِ أجلُهُ ، فيموتَ وهوَ في سبيلِ الشيطانِ واتباعِ الهوىٰ ، ويُخشىٰ مِنْ ذلكَ سوءُ العاقبةِ بالكفرِ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

* * *

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الطمعُ في الناسِ :

فإذا غلبَ الطمعُ على القلبِ . . لمْ يزلِ الشيطانُ يحبِّبُ إليهِ التصنُّعَ والتزيُّنَ لمَنْ طمعَ فيهِ بأنواعِ الرياءِ والتلبيسِ ، حتَّىٰ يصيرَ المطموعُ فيهِ كأنَّهُ معبودُهُ ، فلا يزالُ يتفكَّرُ في حيلةِ التودُّدِ والتحبُّبِ إليهِ ، ويدخلُ كلَّ مدخلٍ للوصولِ إلىٰ ذلكَ .

وأقلُّ أحوالِهِ الثناءُ عليهِ بما ليسَ فيهِ ، والمداهنةُ لهُ بتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فقدْ روىٰ صفوانُ بنُ سليمٍ : أنَّ إبليسَ تمثَّلَ لعبدِ اللهِ بنِ حنظلةَ ، فقالَ لهُ : يا بنَ حنظلةَ ؛ احفظْ عنِّي شيئاً أعلِّمُكهُ فقالَ : لا حاجةَ لي بهِ ، قالَ : انظرْ فإنْ كانَ خيراً . . أخذْتَ ، وإنْ كانَ

شرّاً . رددتَ ، يا بنَ حنظلةَ ؛ لا تسألْ أحداً غيرَ اللهِ سؤالَ رغبةٍ ، وانظرْ كيفَ تكونُ إذا غضبتَ ، فإنِّي أملكُكَ إذا غضبتَ[1] .

* * *

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : العجلةُ وتركُ التثبُّتِ في الأمورِ :

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العجلةُ مِنَ الشيطانِ ، والتأنِّي مِنَ اللهِ تعالىٰ »[2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ .

وقالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ .

وهٰذا لأنَّ الأعمالَ ينبغي أنْ تكونَ بعدَ التبصرةِ والمعرفةِ ، والتبصرةُ تحتاجُ إلىٰ تأمُّلٍ وتمهُّلٍ ، والعجلةُ تمنعُ مِنْ ذلكَ ، وعندَ الاستعجالِ يروِّجُ الشيطانُ شرَّهُ على الإنسانِ مِنْ حيثُ لا يدري .

فقدْ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا وُلِدَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ . أتتِ الشياطينُ إبليسَ ، فقالوا : أصبحتِ الأصنامُ قدْ نُكستْ رؤوسُها ، فقالَ : هٰذا حادثٌ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/ ٤٢٧) .
(٢) رواه الترمذي (٢٠١٢) ولفظه : « الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان » .

قدْ حدثَ ، مكانَكُمْ ، فطارَ حتَّىٰ أتىٰ خافقي الأرضِ ، فلمْ يجدْ شيئاً ، ثمَّ وجدَ عيسىٰ عليهِ السلامُ قدْ وُلدَ ، وإذا الملائكةُ حافِّينَ بهِ ، فرجعَ إليهِمْ فقالَ : إنَّ نبيّاً قدْ وُلدَ البارحةَ ، ما حملتْ أنثىٰ قطُّ ولا وضعَتْ إلا وأنا بحضرتِها إلا هـٰذا ، فأْيَسُوا مِنْ أنْ تُعبدَ الأصنامُ بعدَ هـٰذهِ الليلةِ ، ولكنِ ائتوا بني آدمَ مِنْ قبلِ العجلةِ والخفَّةِ(١) .

* * *

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : الدراهمُ والدنانيرُ وسائرُ أصنافِ الأموالِ مِنَ العروضِ والدوابِّ والعقارِ :

فإنَّ كلَّ ما يزيدُ علىٰ قدْرِ القوتِ والحاجةِ فهوَ مستقرُّ الشيطانِ ؛ فإنَّ مَنْ معَهُ قوتُهُ فهوَ فارغُ القلبِ ، فلوْ وجدَ مئةَ دينارٍ مثلاً علىٰ طريقٍ . . انبعثَ مِنْ قلبِهِ عشرُ شهواتٍ ، تحتاجُ كلُّ شهوةٍ منها إلىٰ مئةِ دينارٍ أخرىٰ ، فلا يكفيهِ ما وجدَهُ ، بلْ يحتاجُ إلىٰ تسع مئةٍ أخرىٰ ، وقدْ كانَ قبلَ وجودِ المئةِ مستغنياً ، فالآنَ لمَّا وجدَ مئةً . . ظنَّ أنَّهُ صارَ بها غنيّاً ، وقدْ صارَ محتاجاً إلىٰ تسعِ مئةٍ ليشتريَ داراً يعمرُها ، وليشتريَ جاريةً ، وليشتريَ أثاثَ البيتِ ،

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٣٥٦) عن وهب بن منبه ، وقد روى البخاري (٣٢٨٦) ، ومسلم (٢٣٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه » ، ثم قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

ويشتريَ الثيابَ الفاخرةَ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ ذلكَ يستدعي شيئاً آخرَ يليقُ بهِ ، وذلكَ لا آخرَ لهُ ، فيقعُ في هاويةٍ آخرُها عمْقُ جهنَّمَ ، فلا آخرَ لها سواهُ .

قالَ ثابتٌ البنانيُّ : لمَّا بُعِثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ إبليسُ لشياطينِهِ : لقدْ حدثَ أمرٌ ، فانظروا ما هوَ ، فانطلقوا حتىٰ أعيَوا ثم جاؤوا وقالوا : ما ندري ، قالَ : أنا آتيكُمْ بالخبرِ ، فذهبَ ثمَّ جاءَ وقالَ : قدْ بعثَ اللهُ محمداً ، قالَ : فجعلَ يرسلُ شياطينَهُ إلىٰ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فينصرفونَ خائبينَ ، ويقولونَ : ما صحبنا قوماً قطُّ مثلَ هؤلاءِ ، نصيبُ منهُمْ ، ثمَّ يقومونَ إلىٰ صلاتِهِمْ فيُمحىٰ ذلكَ ، فقالَ لهُمْ إبليسُ : رويداً بهِمْ ، عسى اللهُ أنْ يفتحَ لهمُ الدنيا ، فهناكَ تصيبونَ حاجتكم منهُم»[١] .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ توسَّدَ يوماً حجراً ، فمرَّ بهِ إبليسُ ، فقالَ : يا عيسىٰ ؛ رغبتَ في الدنيا ؟ فأخذَهُ عيسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرمىٰ بهِ مِنْ تحتِ رأسِهِ ، وقالَ : هـٰذا لكَ معَ الدنيا[٢] .

وعلى الحقيقةِ : مَنْ يملكُ حجراً يتوسَّدُ بهِ عندَ النومِ . . فقدْ مَلَكَ مِنَ الدنيا ما يمكنُ أنْ يكونَ عدَّةً للشيطانِ عليهِ ؛ فإنَّ القائمَ بالليلِ مثلاً للصلاةِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٣٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .

مهما كانَ بالقربِ منهُ حجرٌ يمكنُ أنْ يتوسَّدَهُ . . فلا يزالُ يدعوهُ إلى النومِ وإلىٰ أنْ يتوسَّدَهُ ، ولوْ لمْ يكنْ ذلكَ . . لكانَ لا يخطرُ ببالِهِ ذلكَ ، ولا تتحرَّكُ رغبتُهُ في النومِ ، هٰذا في حجرٍ ، فكيفَ بمَنْ يملكُ المخادَّ الوثيرة ، والفرشَ الوطيئةَ ، والمنتزهاتِ الطيِّبةَ ، فمتىٰ ينشطُ لعبادةِ اللهِ تعالى ؟!

* * *

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : البخلُ وخوفُ الفقرِ :

فإنَّ ذلكَ هوَ الذي يمنعُ مِنَ الإنفاقِ والتصدُّقِ ، ويدعو إلى الادخارِ والكنزِ والعذابِ الأليمِ ، الذي هوَ الموعودُ للمكاثرينَ كما نطقَ بهِ القرآنُ العزيزُ[1] .

قالَ خيثمةُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ : (إنَّ الشيطانَ يقولُ : ما غلبَني عليهِ ابنُ آدمَ فلنْ يغلبَني علىٰ ثلاثٍ : أنْ آمرَهُ أنْ يأخذَ المالَ مِنْ غيرِ حقِّهِ ، وينفقَهُ في غيرِ حقِّهِ ، ويمنعَهُ مِنْ حقِّهِ)[2] .

وقالَ سفيانُ : (ليسَ للشيطانِ سلاحٌ مثلَ خوفِ الفقرِ ، فإذا قبلَ ذلكَ

---

(١) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٧) .

منهُ . . أخذَ في الباطلِ ، ومنعَ مِنَ الحقِّ ، وتكلَّم بالهوىٰ ، وظنَّ بربِّهِ ظنَّ السوءِ) .

ومِنْ آفاتِ البخلِ : الحرصُ علىٰ ملازمةِ الأسواقِ لجمعِ المالِ ، والأسواقُ هيَ معشَّشُ الشياطينِ .

وروىٰ أبو أمامةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ إبليسَ لمَّا نزلَ إلى الأرضِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ أنزلتَني إلى الأرضِ ، وجعلتَني رجيماً ، فاجعلْ لي بيتاً ، قالَ : الحمَّامُ ، قالَ : اجعلْ لي مجلساً ، قالَ : الأسواقُ ومجامعُ الطرقِ ، قالَ : اجعلْ لي طعاماً ، قالَ : طعامُكَ ما لمْ يذكرِ اسمُ اللهِ عليهِ ، قالَ : اجعلْ لي شراباً ، قالَ : كلُّ مسكرٍ ، قالَ : اجعلْ لي مؤذِّناً ، قالَ : المزاميرُ ، قالَ : اجعلْ لي قرآناً ، قالَ : الشعرُ ، قالَ : اجعلْ لي كتاباً ، قالَ : الوشمُ ، قالَ : اجعلْ لي حديثاً ، قالَ : الكذبُ ، قالَ : اجعلْ لي مصايدَ ، قالَ : النساءُ »(١) .

❊ ❊ ❊

ومِنْ أبوابِهِ العظيمةِ : التعصُّبُ للمذاهبِ والأهواءِ ، والحقدُ على الخصومِ ، والنظرُ إليهِمْ بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ :

وذلكَ ممَّا يُهلكُ العبادَ والفسَّاقَ جميعاً ، فإنَّ الطعنَ في الناسِ والاشتغالَ بذكرِ نقصِهِمْ صفةٌ مجبولةٌ في الطبعِ مِنَ الصفاتِ السبعيَّةِ ، فإذا

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠٧) .

خيَّلَ إليهِ الشيطانُ أنَّ ذلكَ هوَ الحقُّ ، وكانَ موافقاً لطبعِهِ.. غلبَتْ حلاوتُهُ علىٰ قلبِهِ ، فاشتغلَ بهِ بكلِّ همَّتِهِ ، وهوَ بذلكَ فرحانُ مسرورٌ ، يظنُّ أنَّهُ يسعىٰ في الدينِ ، وهوَ ساعٍ في اتباعِ الشياطينِ ، فترى الواحدَ منهُمْ يتعصَّبُ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ آكلٌ الحرامَ ، ومطلقٌ اللسانَ بالفضولِ والكذبِ ، ومتعاطٍ لأنواعِ الفسادِ ، ولوْ رآهُ أبو بكرٍ.. لكانَ هوَ أوَّلَ عدوٍّ لهُ ؛ إذْ مُوالي أبي بكرٍ مَنْ أخذَ سبيلَهُ ، وسارَ بسيرتِهِ ، وحفظَ ما بينَ لحييهِ[1] ، وكانَ مِنْ سيرتِهِ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يضعَ حصاةً في فمِهِ ليكفَّ لسانَهُ عنِ الكلامِ فيما لا يعنيهِ[2] ، فأنَّىٰ لهـٰذا الفضوليِّ أنْ يدعيَ ولاءَهُ وحبَّهُ ولا يسيرَ بسيرتِهِ ؟!

وترىٰ فضوليّاً آخرَ يتعصَّبُ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانَ مِنْ زهدِ عليٍّ وسيرتِهِ أنَّهُ لبسَ في خلافتِهِ ثوباً اشتراهُ بثلاثةِ دراهمَ ، وقطعَ رأسَ الكمَّينِ إلى الرسغِ[3] ، فترى الفاسقَ لابساً لثيابِ الحريرِ ، ومتجمّلاً بأموالٍ اكتسبَها مِنْ

---

(١) في غير (أ) : (ما أحبه) بدل (ما بين لحييه) ، وجرى الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٢٨٠) على المثبت .

(٢) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٠٣١) : أن عمر دخل علىٰ أبي بكر وهو آخذ بلسانه هـٰكذا يقول : ها إن ذا أوردني الموارد .

(٣) رویٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٣) عن أبي سعيد الأزدي قال : رأيت علياً أتى السوق ، وقال : من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم ؟ فقال رجل : عندي ، فجاء به ، فأعجبه ، قال : لعله خير من ذلك ؟ قال : لا ، ذاك ثمنه ، قال : فرأيت علياً يقرض رباط الدراهم من ثوبه ، فأعطاه ، فلبسه ، فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه ، فأمر به فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه .

حرامٍ وهوَ يتعاطىٰ حبَّ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ويدعيهِ ، وهوَ أوَّلُ خصمائِهِ يومَ القيامةِ .

وليتَ شعري ؛ مَنْ أخذَ ولداً عزيزاً لإنسانٍ هوَ قرَّةُ عينِهِ وحياةُ قلبِهِ ، فأخذَ يضربُهُ ويمزِّقُهُ ، وينتفُ شعرَهُ ويقطعُهُ بالمقراضِ ، وهوَ معَ ذلكَ يدَّعي حبَّ أبيهِ وولاءَهُ ، فكيفَ تكونُ حالُهُ عندَهُ ؟!

ومعلومٌ أنَّ الدينَ والشرعَ كان أحبَّ إلىٰ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وسائرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنَ الأهلِ والولدِ ، بلْ مِنْ أنفسِهِمْ ، والمقتحمونَ لمعاصي الشرعِ همُ الذينَ يمزِّقونَ الشرعَ ، ويقطِّعونَهُ بمقاريضِ الشهواتِ ، ويتودَّدونَ بهِ إلىٰ عدوِّ اللهِ إبليسَ وعدوِّ أوليائِهِ ، فترىٰ كيفَ يكونُ حالُهمْ يومَ القيامةِ عندَ الصحابةِ وعندَ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ؟! بلْ لوْ كشفَ الغطاءُ ، وعرفَ هؤلاءِ ما تحبُّهُ الصحابةُ في أمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لاستحيَوا مِنْ أنْ يجروا على اللسانِ ذكرَهُمْ معَ قبحِ أفعالِهِمْ .

ثمَّ إنَّ الشيطانَ يخيِّلُ إليهِمْ أنَّ مَنْ ماتَ محبّاً لأبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما . . فالنارُ لا تحومُ حولَهُ ، ويخيِّلُ إلى الآخرِ أنَّهُ إذا ماتَ محبّاً لعليٍّ . . لمْ يكنْ عليهِ خوفٌ ، وهـٰذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لفاطمةَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ بَضعةٌ منهُ : « اعملي ؛ فإنِّي لا أغني عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً »(١) .

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) ولفظ : (اعملي) عند البزار في « مسنده » (٢٩١٩) .

وهٰذا مثالٌ أوردناهُ مِنْ جملةِ الأهواءِ .

وهكذا حكمُ المتعصِّبينَ للشافعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ وأحمدَ وغيرِهِمْ مِنَ الأئمَّةِ ، فكلُّ مَنِ ادعىٰ مذهبَ إمامٍ ، وهوَ ليسَ يسيرُ بسيرتِهِ . . فذلكَ الإمامُ هوَ خصمُهُ يومَ القيامةِ إذْ يقولُ لهُ : كانَ مذهبي العملَ دونَ الحديثِ باللسانِ ، وكانَ الحديثُ باللسانِ لأجلِ العملِ لا لأجلِ الهذيانِ ، فما بالُكَ خالفتَني في العملِ والسيرةِ التي هيَ مذهبي ومسلكي الذي سلكتُهُ وذهبتُ فيهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ ادعيتَ مذهبي كاذباً ؟!

وهٰذا مدخلٌ عظيمٌ مِنْ مداخلِ الشيطانِ ، قدْ أهلكَ بهِ أكثرَ العالمِ ، وقدْ سُلِّمَتِ المدارسُ لأقوامٍ قلَّ مِنَ اللهِ خوفُهُمْ[1] ، وضعفَتْ في الدينِ بصيرتُهُمْ ، وقويَتْ في الدنيا رغبتُهُمْ ، واشتدَّ على الاستتباعِ حرصُهمْ ، ولمْ يتمكَّنوا مِنَ الاستتباعِ وإقامةِ الجاهِ إلا بالتعصُّبِ ، فحسَّنوا ذلكَ في صدورِهِمْ ، ولمْ ينبِّهوهُمْ علىٰ مكايدِ الشيطانِ فيهِ ، بلْ نابوا عنِ الشيطانِ في تنفيذِ مكيدتِهِ ، فاستمرَّ الناسُ عليهِ ، ونسوا مهمَّاتِ دينِهِمْ ، فقدْ هلكوا وأهلكوا ، فاللهُ تعالىٰ يتوبُ علينا وعليهِمْ .

قالَ الحسنُ : (بلغَنا أنَّ إبليسَ قالَ : سوَّلتُ لأمَّةِ محمدٍ المعاصيَ ، فقطعوا ظهري بالاستغفارِ ، فسوَّلتُ لهُمْ ذنوباً لا يستغفرونَ اللهَ تعالىٰ منها ،

---

(١) في غير (أ) : (المنابر) بدل (المدارس) .

وهيَ الأهواءُ)[1] ، وقدْ صدقَ الملعونُ ؛ فإنَّهُمْ لا يعلمونَ أنَّ ذلكَ مِنَ الأسبابِ التي تجرُّ إلى المعاصي ، فكيفَ يستغفرونَ منها ؟!

* * *

ومِنْ عظيمِ حيلِ الشيطانِ : أنْ يشغلَ الإنسانَ عنْ نفسِهِ بالاختلافاتِ الواقعةِ بينَ الناسِ في المذاهبِ والخصوماتِ :

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (جلسَ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ ، فأتاهُمُ الشيطانُ ليقيمَهُمْ عنْ مجلسِهِمْ ويفرِّقَ بينَهُمْ ، فلم يستطعْ ، فأتىٰ رفقةً أخرىٰ يتحدَّثونَ بحديثِ الدنيا ، فأفسدَ بينَهُمْ ، فقاموا يقتتلونَ وليسَ إيَّاهُمْ يريدُ ، فقامَ الذينَ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ فاشتغلوا بهِمْ يفصلونَ بينَهُمْ ، فتفرَّقوا عنْ مجلسِهِمْ ، وذلكَ مرادُ الشيطانِ منهُمْ) .

* * *

ومِنْ أبوابِهِ : حمْلُ العوامِّ الذينَ لمْ يمارسوا العلمَ ولم يتبحَّروا فيهِ على التفكُّرِ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وفي أمورٍ لا يبلغُها حدُّ عقولِهِمْ :

حتَّىٰ يشكِّكَهُمْ في أصلِ الدينِ ، أوْ يخيِّلَ إليهِمْ في اللهِ تعالىٰ خيالاتٍ يتعالى اللهُ عنها ، يصيرُ بها كافراً أوْ مبتدعاً ، وهوَ بهِ فرحٌ مسرورٌ مبتهجٌ بما وقعَ في صدرِهِ ، يظنُّ أن ذلكَ هوَ المعرفةُ والبصيرةُ ، وأنَّهُ انكشفَ لهُ ذلكَ بذكائِهِ وزيادةِ عقلِهِ .

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٩٢٨) .

فأشدُّ الناسِ حماقةً أقواهمُ اعتقاداً في عقلِ نفسِهِ ، وأثبتُ الناسِ عقلاً أشدُّهُمُ اتهاماً لنفسِهِ ، وأكثرُهُمْ سؤالاً مِنَ العلماءِ .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ يأتي أحدَكُمْ فيقولُ : مَنْ خلقَكَ ؟ فيقولُ : اللهُ تباركَ وتعالىٰ ، فيقولُ : فمَنْ خلقَ اللهَ ؟ فإذا وجدَ أحدُكُمْ ذلكَ . . فليقلْ : آمنتُ باللهِ ورسلِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يذهبُ عنهُ »(١) .

فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يأمرْ بالبحثِ في علاجِ هٰذا الوسواسِ ؛ فإنَّ هٰذا وسواسٌ يجدُهُ عوامُّ الناسِ دونَ العلماءِ ، وإنَّما حقُّ العوامِّ أنْ يؤمنوا ويسلِّموا ويشتغلوا بعبادتِهِمْ ومعايشِهِمْ ، ويتركوا العلمَ للعلماءِ ، فالعامِّيُّ لوْ زنىٰ وسرق . . كانَ خيراً لهُ مِنْ أنْ يتكلَّمَ في العلمِ ؛ فإنَّهُ مَنْ تكلَّمَ في اللهِ وفي دينِهِ مِنْ غيرِ إتقانِ العلمِ . . وقعَ في الكفرِ مِنْ حيثُ لا يدري ؛ كمَنْ يركبُ لجَّةَ البحرِ وهوَ لا يعرفُ السباحةَ .

ومكايدُ الشيطانِ فيما يتعلَّقُ بالعقائدِ والمذاهبِ لا حصرَ لها ، وإنَّما أردنا بما أوردناهُ المثالَ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٢٥٧) ، وابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٢٨) ، وهو عند البخاري (٣٢٧٦) ، ومسلم (١٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومِنْ أبوابِهِ : سوءُ الظنِّ بالمسلمينَ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، فمَنْ يحكمْ بشرٍّ علىٰ غيرِهِ بالظنِّ . . بعثَهُ الشيطانُ علىٰ أنْ يطوِّلَ فيهِ اللسانَ بالغيبةِ فيهلِكَ ، أوْ يقصِّرَ في القيامِ بحقوقِهِ ، أوْ يتوانىٰ في إكرامِهِ ، أو ينظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ ويرىٰ نفسَهُ خيراً منهُ ، وكلُّ ذلكَ مِنَ المهلكاتِ .

ولأجلِ ذلكَ منعَ الشرعُ مِنَ التعرُّضِ للتهمِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا مواضعَ التُّهمِ »[1] .

حتَّى احترزَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ ذلكَ .

رُويَ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ : أنَّ صفيةَ بنتَ حييٍّ أخبرَتْهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ معتكفاً في المسجدِ ، قالَتْ : فأتيتُهُ فتحدثتُ عندَهُ ، فلمَّا أمسيتُ . . انصرفتُ ، فقامَ يمشي معي ، فمرَّ بهِ رجلانِ مِنَ الأنصارِ ، فسلَّما ثمَّ انصرفَا ، فناداهما وقالَ : « إنها صفيَّةُ بنتُ حييٍّ » ، فقالا : يا رسولُ اللهِ ؛ ما نظنُّ بكَ إلا خيراً ، فقالَ : « إنَّ الشيطانَ يجري

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٢٨٣) ، وروى ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٢) عن عمر رضي الله عنه أنه وضع للناس حِكماً ، منها : (ومن عرَّض نفسه للتهم . . فلا يلومن من أساء به الظن) ، وروى الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٧٧) عنه أيضاً : (من أقام نفسه مقام التهمة . . فلا يلومن من أساء به الظن) .

مِن ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، وإنِّي خشيتُ أنْ يدخِلَ عليكُما »[1] .

فانظرْ كيفَ أشفقَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ دينِهما فحرسَهُما ، وكيفَ أشفقَ علىٰ أمَّتِهِ فعلَّمَهُمْ طريقَ الاحترازِ مِنَ التهمةِ ؛ حتَّىٰ لا يتساهلَ العالمُ الورعُ المعروفُ بالدينِ في أحوالِهِ فيقولَ : مثلي لا يُظنُّ بهِ إلا الخيرُ إعجاباً منهُ بنفسِهِ ؛ فإنَّ أورعَ الناسِ وأتقاهم وأعلمَهُمْ لا ينظرُ الناسُ كلُّهُمْ إليهِ بعينٍ واحدةٍ ، بلْ بعينِ الرضا بعضُهُمْ ، وبعينِ السخطِ بعضُهُمْ ؛ ولذلكَ قالَ الشاعرُ[2] : [من الطويل]

وَعَيْنُ ٱلرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَـٰكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِي ٱلْمَساوِيا

فيجبُ الاحترازُ عنْ عينِ السوءِ ، وعنْ تهمةِ الأشرارِ ؛ فإنَّ الأشرارَ لا يظنُّونَ بالناسِ كلِّهِمْ إلا الشرَّ ، فمهما رأيتَ إنساناً يسيءُ الظنَّ بالناسِ طالباً للعيوبِ . . فاعلمْ أنَّهُ خبيثٌ في الباطنِ ، وأنَّ ذلكَ خبثُهُ يترشَّحُ منهُ ، وإنَّما يرىٰ غيرَهُ مِنْ حيثُ هوَ ، فإنَّ المؤمنَ يطلبُ المعاذيرَ ، والمنافقَ يطلبُ العيوبَ ، والمؤمنُ سليمُ الصدرِ في حقِّ كافَّةِ الخلقِ .

فهـٰذِهِ بعضُ مداخلِ الشيطانِ إلى القلبِ ، ولوْ أردتُ استقصاءَ جميعِها . . لمْ أقدرْ عليهِ ، وفي هـٰذا القدْرِ ما ينبِّهُ علىٰ غيرِهِ ، فليسَ في

---

(١) رواه مسلم (٢١٧٥) .

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٩٠) ، وفي نسبته إليه خلاف ، انظر « ديوانه » (ص ٩٠ـ ٩١) .

الآدميِّ صفةٌ مذمومةٌ إلا وهيَ سلاحُ الشيطانِ ، ومدخلٌ مِنْ مداخلِهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما العلاجُ في دفعِ الشيطانِ ؟ وهلْ يكفي في ذلك ذكْرُ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ الإنسانِ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علاجَ القلبِ في ذلكَ سدُّ هـٰذهِ المداخلِ بتطهيرِ القلبِ مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ المذمومةِ ، وذلكَ ممَّا يطولُ ذكرُهُ ، وغرضُنا في هـٰذا الربع مِنَ الكتابِ بيانُ علاجِ الصفاتِ المهلكاتِ ، وتحتاجُ كلُّ صفةٍ إلىٰ كتابٍ مفردٍ علىٰ ما سيأتي شرحُهُ .

نعمْ ، إذا قُطعتْ مِنَ القلبِ أصولُ هـٰذهِ الصفاتِ . . كانَ للشيطانِ بالقلبِ اجتيازاتٌ وخطراتٌ ، ولمْ يكنْ لهُ استقرارٌ ، ويمنعُهُ مِنَ الاجتيازِ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ حقيقةَ الذكرِ لا تتمكَّنُ مِنَ القلبِ إلا بعدَ عمارةِ القلبِ بالتقوىٰ ، وتطهيرِهِ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، وإلا . . فيكونُ الذكرُ حديثَ نفسٍ ، لا سلطانَ لهُ على القلبِ ، فلا يدفعُ سلطانَ الشيطانِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ ، خصَّصَ بذلكَ المتقيَ .

فمثلُ الشيطانِ كمثلِ كلبٍ جائعٍ يقربُ منكَ ، فإن لمْ يكنْ بينَ يديكَ لحمٌ أو خبزٌ . . فإنَّه ينزجرُ بأنْ تقولَ له : اخسأْ ، فمجردُ الصوتِ يدفعُهُ ، فإنْ كانَ بينَ يديكَ لحمٌ وهوَ جائعٌ ، فإنَّهُ يهجمُ على اللحم ولا يندفعُ بمجردِ

الكلامِ ، فالقلبُ الخالي عنْ قوتِ الشيطانِ ينزجرُ عنهُ بمجرَّدِ الذكرِ ، فأمَّا الشهوةُ إذا غلبَتْ على القلبِ . . دفعَتْ حقيقةَ الذكرِ إلىٰ حواشي القلبِ ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويدائِهِ ، فيستقرُّ الشيطانُ في سويداءِ القلبِ .

وأمَّا قلوبُ المتقينَ الخاليةُ منَ الهوىٰ والصفاتِ المذمومةِ . . فإنَّهُ يطرقُها الشيطانُ لا للشهواتِ ، بلْ لخلوِّها بالغفلةِ عنِ الذكرِ ، فإذا عادَ إلى الذكرِ . . خنسَ الشيطانُ ، ودليلُ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ، وسائرُ الأخبارِ والآياتِ الواردةِ في الذكرِ .

قالَ أبو هريرةَ : (التقىٰ شيطانُ المؤمنِ وشيطانُ الكافرِ ، فإذا شيطانُ الكافرِ سمينٌ دهينٌ كاسٍ ، وشيطانُ المؤمنِ مهزولٌ أشعثُ أغبرُ عارٍ ، فقالَ شيطانُ الكافرِ لشيطانِ المؤمنِ : ما لكَ مهزولاً ؟ قالَ : أنا معَ رجلٍ إذا أكلَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ جائعاً ، وإذا شربَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ عطشاناً ، وإذا لبسَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ عرياناً ، وإذا ادَّهنَ . . سمَّى اللهَ ، فأظلُّ شعثاً ، فقالَ شيطانُ الكافرِ : لكنِّي معَ رجلٍ لا يفعلُ شيئاً مِنْ ذلكَ ، فأنا أشاركُهُ في طعامِهِ وشرابِهِ ولباسِهِ)[1] .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يقولُ كلَّ يومٍ بعدَ صلاةِ الصبحِ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ سلَّطتَ علينا عدوّاً بصيراً بعيوبنا[2] ، يرانا هوَ وقبيلُهُ مِنْ حيثُ لا نراهُمْ ، اللهمَّ ؛ فآيسْهُ

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠/٤١٩) ، والطبراني في « الكبير » (٩/١٥٦) ولكن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) في (ب ، ج) زيادة : (مطلعاً علىٰ عوراتنا) .

منَّا كما آيستَهُ مِنْ رحمتِكَ، وقنطْهُ منَّا كما قنطتَهُ مِنْ عفوِكَ ، وباعدْ بينَنا وبينَهُ كما باعدتَ بينَهُ وبينَ جنَّتِكَ ، إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ) ، قالَ : فتمثَّلَ لهُ إبليسُ يوماً في طريقِ المسجدِ ، فقالَ لهُ : يا بنَ واسعٍ ؛ هلْ تعرفُني ؟ قالَ : ومَنْ أنتَ ؟ قالَ : أنا إبليسُ ، فقالَ : وما تريدُ ؟ قالَ : أريدُ ألا تعلِّمَ أحداً هـٰذهِ الاستعاذةَ ولا أتعرَّضُ لكَ ، قالَ : واللهِ ، لا منعتُها ممَّنْ أرادَها ، فاصنعْ ما شئتَ .

وعنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ أبي ليلىٰ قالَ : كانَ شيطانٌ يأتي النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيدِهِ شعلةٌ مِنْ نارٍ، فيقومُ بينَ يديهِ وهوَ يصلِّي ، فيقرأُ ويتعوَّذُ فلا يذهبُ، فأتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : قلْ : أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يجاوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما يلجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها ، وما ينزلُ مِنَ السماءِ وما يعرجُ فيها ، ومِنْ فتنِ الليلِ والنهارِ ومنْ طوارقِ الليلِ والنهارِ ، إلا طارقاً يطرقُ بخيرٍ يا رحمانُ، فقالَ ذلكَ، فطفئَتْ شعلتُهُ وخرَّ علىٰ وجهِهِ(١) .

وقالَ الحسنُ : (نُبئتُ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : إنَّ عفريتاً مِنَ الجنِّ يكيدُكَ ، فإذا أويتَ إلىٰ فراشِكَ . . فاقرأْ آيةَ الكرسيِّ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ أتاني شيطانٌ فنازعَني ، ثمَّ نازعَني ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٦٩) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٤٣) عن عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ كذلك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٦٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٨٤) .

فأخذتُ بحلْقِهِ ، فوالذي بعثَني بالحقِّ ما أرسلتُهُ حتَّىٰ وجدتُ بردَ لسانِهِ علىٰ يدي ، ولولا دعوةُ أخي سليمانَ عليهِ السلامُ . . لأصبحَ طريحاً في المسجدِ حتىٰ ينظرَ الناسُ إليهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما سلكَ عمرُ فجّاً إلا سلكَ الشيطانُ فجّاً غيرَ الذي سلكَهُ عمرُ »[2] ، وهـٰذا لأنَّ القلوبَ كانَتْ مطهَّرةً عنْ مرعى الشيطانِ وقوتِهِ ، وهيَ الشهواتُ .

فمهما طمعتَ في أن يندفعَ الشيطانُ عنكَ بمجرَّدِ الذكرِ كما اندفعَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ . . كانَ محالاً ، وكنتَ كمَنْ يطمعُ أنْ يشربَ دواءً قبلَ الاحتماءِ والمعدةُ مشحونةٌ بغليظِ الأطعمةِ ، ويطمعُ أنْ ينفعَهُ كما نفعَ الذي شربَهُ بعدَ الاحتماءِ وتخليةِ المعدةِ ، فالذكرُ الدواءُ ، والتقوى احتماءٌ ، وهيَ تخلِّي القلبِ عنِ الشهواتِ ، فإذا نزلَ الذكرُ قلباً فارغاً عنْ غيرِ الذكرِ . . اندفعَ الشيطانُ كما تندفعُ العلَّةُ بنزولِ الدواءِ في معدةٍ خاليةٍ عنِ الأطعمةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، ومَنْ ساعدَ الشيطانَ بعملِهِ . . فهوَ مُواليهِ وإنْ ذكرَ اللهَ بلسانِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا هـٰكذا في « مكايد الشيطان » (٦٨) عن الشعبي مرسلاً ، ورواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .
(٢) رواه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) بنحوه .

وإنْ كنتَ تقولُ : (الحديثُ قدْ وردَ مطلقاً بأنَّ الذكرَ يطردُ الشيطانَ) ، ولم تفهمْ أنَّ أكثرَ عموماتِ الشرعِ مخصوصةٌ بشروطٍ نقلَها علماءُ الدينِ . . **فانظرْ** إلىٰ نفسِكَ ، فليسَ الخبرُ كالعيانِ ، وتأمَّلْ أنَّ منتهىٰ ذكرِكَ وعبادتِكَ الصلاةُ ، فراقبْ قلبَكَ إذا كنتَ في صلواتِكَ : كيفَ يجاذبُهُ الشيطانُ إلى الأسواقِ ، وحسابِ المعاملينَ ، وجوابِ المعاندينَ ، وكيفَ يمرُّ بكَ في أوديةِ الدنيا ومهالكِها ، حتَّىٰ إنَّكَ لا تذكرُ ما قدْ نسيتَهُ مِنْ فضولِ الدنيا إلا في صلاتِكَ ، ولا يزدحمُ الشيطانُ علىٰ قلبِكَ إلا إذا صلَّيتَ ، فالصلاةُ محكُّ القلوبِ ، فيها يظهرُ محاسنُها ومساويها ، والصلاةُ لا تُقبلُ مِنَ القلوبِ المشحونةِ بشهواتِ الدنيا ، فلا جرمَ لا ينطردُ عنكَ الشيطانُ ، بلْ ربمَّا يزيدُ عليكَ الوسواسَ ، كما أنَّ الدواءَ قبلَ الاحتماءِ ربَّما يزيدُ عليكَ الضررَ .

فإنْ أردتَ الخلاصَ مِنَ الشيطانِ . . فقدِّمِ الاحتماءَ بالتقوىٰ ، ثمَّ أردفْهُ بدواءِ الذكرِ . . يفرُّ الشيطانُ منكَ كما فرَّ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ[(١)] .

ولذلكَ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (اتقِ اللهَ ، ولا تسبَّ الشيطانَ في العلانيةِ

---

(١) وهـٰذا حال من انتهىٰ به سلوكه ، وأشرقت عليه أنوار التوفيق ، فلبس لأمة الصدق ، وتحلىٰ بأسلحة العزل ، ودخل في حومة الحرب بين باعث الدين وداعي الهوىٰ ، فكانت الغلبة لداعي الدين ، وفرت جيوش الشياطين ، ولذا قال أبو حازم : ما الشيطان حتىٰ يهاب ؟! فوالله ؛ لقد أطيع فما نفع ، وعُصي فما ضرَّ ، وقال بعضهم : لولا أن الحق سبحانه أمرنا بالاستعاذة منه . . ما استعذت منه ؛ لحقارته ، وهـٰذا شأن المتقين . « إتحاف » (٧/ ٢٨٧) .

وأنتَ صديقُهُ في السرِّ)[1] أيْ : أنتَ مطيعٌ لهُ .

وقالَ بعضُهُمْ : (يا عجباً لمَنْ يعصي المحسنَ بعدَ معرفتِهِ بإحسانِهِ ، ويطيعُ اللعينَ بعدَ معرفتِهِ بطغيانِهِ) .

وكما أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فأنتَ تدعو ولا يستجيبُ لكَ .. فكذلكَ تذكرُ اللهَ ولا يهربُ الشيطانُ منكَ ؛ لفقدِ شروطِ الذكرِ والدعاءِ .

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : ما بالُنا ندعو فلا يُستجابُ لنا وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؟ قالَ : لأنَّ قلوبَكُمْ ميتةٌ ، قيلَ : وما الذي أماتَها ؟ قالَ : ثمانُ خصالٍ : عرفتُمُ اللهَ ولمْ تقوموا بحقِّهِ ، وقرأتُمُ القرآنَ ولمْ تعملوا بحدودِهِ ، وقلتُمْ : (نحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ولمْ تعملوا بسنَّتِهِ ، وقلتُمْ : (نخشى الموتَ) ولمْ تستعدُّوا لهُ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فواطأتموهُ على المعاصي ، وقلتُمْ : (نخافُ النارَ) وأرهقتُمْ أبدانَكُمْ فيها ، وقلتُمْ : (نحب الجنَّةَ) ولم تعملوا لها ، وإذا قمتُمْ مِنْ فرشِكُمْ رميتُمْ عيوبَكُمْ وراءَ ظهورِكُمْ ، وافترشتُمْ عيوبَ الناسِ أمامَكُمْ ، فأسخطتُمْ ربَّكُمْ ، فكيفَ يستجيبُ لكُمْ ؟![2] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥٤) عن وهيب بن الورد .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥) ، وزاد ثنتين : (أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم) .

فإنْ قلتَ : فالداعي إلى المعاصي المختلفةِ شيطانٌ واحدٌ أوْ شياطينُ مختلفونَ ؟

فاعلم : أنَّهُ لا حاجةَ لكَ إلىٰ معرفةِ ذلكَ في المعاملةِ ، فاشتغلْ بدفعِ العدوِّ ، ولا تسألْ عنْ صفتِهِ ، كُلِ البقلَ مِنْ حيثُ يُؤتىٰ بهِ ولا تسلْ عنِ المبقلةِ .

ولكنِ الذي يتضحُ بنورِ الاستبصارِ وشواهدِ الأخبارِ أنَّهُمْ جنودٌ مجنَّدةٌ ، وأنَّ لكلِّ نوعٍ مِنَ المعاصي شيطاناً يخصُّهُ ويدعو إليهِ ، فأمَّا طريقُ الاستبصارِ . . فذكرُهُ يطولُ ، ويكفيكَ القدْرُ الذي ذكرناهُ ، وهوَ أنَّ اختلافَ المسبباتِ يدلُّ على اختلافِ الأسبابِ كما ذكرناهُ في نورِ النارِ وسوادِ الدخان .

* * *

وأمَّا الأخبارُ : فقدْ قالَ مجاهدٌ : (لإبليسَ خمسةٌ مِنَ الأولادِ ، قدْ جعلَ كلَّ واحدٍ منهُمْ علىٰ شيءٍ مِنْ أمرِهِ : ثبرٌ ، والأعورُ ، ومِسْوَطٌ ، وداسمٌ ، وزلنبورٌ ؛ **فأمَّا ثبرٌ** . . فهوَ صاحبُ المصائبِ الذي يأمرُ بالثبورِ ، وشقِّ الجيوبِ ، ولطمِ الخدودِ ، ودعوى الجاهليةِ ، **وأمَّا الأعورُ** . . فإنَّهُ صاحبُ الزنا ، يأمرُ بهِ ويزيِّنُهُ ، **وأمَّا مِسوطٌ** . . فهوَ صاحبُ الكذبِ ، **وأمَّا داسمٌ** . . فإنَّهُ يدخلُ معَ الرجلِ إلىٰ أهلِهِ ، يرميهِمْ بالعيبِ عندَهُ ، ويغضبُهُ عليهِمْ ، **وأمَّا زلنبورٌ** . . فهوَ صاحبُ السوقِ ، فبسببِهِ لا يزالونَ ملتطمينَ) .

وشيطانُ الصلاةِ يسمَّىٰ خَنزبَ ، وشيطانُ الوضوءِ يسمَّى الولهانَ ، وقدْ وردَ في ذلكَ أخبارٌ كثيرةٌ .

وكما أنَّ الشياطينَ فيهِمْ كثرةٌ . . فكذلكَ في الملائكةِ كثرةٌ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الشكرِ السرَّ في كثرةِ الملائكةِ ، واختصاصِ كلِّ واحدٍ منهُمْ بعملٍ ينفردُ بهِ .

وقدْ قالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وُكِّلَ بالمؤمنِ مئةٌ وستونَ ملكاً يذبُّونَ عنهُ ما لمْ يُقَدَّرْ عليهِ ، مِنْ ذلكَ : للبصرِ سبعةُ أملاكٍ يذبُّونَ عنهُ كما يُذَبُّ الذبابُ عنْ قصعةِ العسلِ في اليومِ الصائفِ ، وما لوْ بدا لكُمْ . . لرأيتموهُ علىٰ كلِّ سهلٍ وجبلٍ ، كلُّهُمْ باسطٌ يدَهُ ، فاغرٌ فاهُ ، ولوْ وُكلَ العبدُ إلىٰ نفسهِ طرفةَ عينٍ . . لاختطفَتْهُ الشياطينُ »(١) .

وقالَ أيوبُ بنُ يزيدَ : (بلغَنا أنَّهُ يُولدُ معَ أبناءِ الإنسِ مِنْ أبناءِ الجنِّ ، ثمَّ ينشؤونَ معَهُمْ) .

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : إنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لمَّا أُهبطَ إلى الأرضِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ هٰذا العبدُ الذي جعلتَ بيني وبينَهُ عداوةً إنْ لمْ تُعنِّي عليهِ . . لا أقوىٰ عليهِ ، قالَ : لا يُولدُ لكَ ولدٌ إلا وُكِّلَ بهِ ملكٌ ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : أجزي بالسيئةِ سيئةً ، وبالحسنةِ عشراً إلىٰ ما أريدُ ، قالَ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٧٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧١١٧) .

يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : بابُ التوبةِ مفتوحٌ ما دامَ في الجسدِ الروحُ ، فقالَ إبليسُ : يا ربِّ ؛ هٰذا العبدُ الذي كرَّمتَهُ عليَّ إلا تعنِّي عليهِ . . لا أقوىٰ عليهِ ، قالَ : لا يولدُ لهُ ولدٌ إلا وُلِدَ لكَ ولدٌ ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : تجري منهُمْ مَجرى الدمِ ، وتتخذُ مِنْ صدورِهِمْ بيوتاً ، قالَ : يا ربِّ ؛ زدْني ، قالَ : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ غُرُورًا ﴾[١] .

وعنْ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خلقَ اللهُ الجنَّ ثلاثةَ أصنافٍ : صنفٌ حيَّاتٌ وعقاربُ وخشاشُ الأرضِ ، وصنفٌ كالريحِ في الهواءِ ، وصنفٌ عليهمُ الحسابُ والعقابُ ، وخلقَ اللهُ تعالى الإنسَ ثلاثةَ أصنافٍ : صنفٌ كالبهائمِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ، وصنفٌ أجسامُهُمْ أجسامُ بني آدمَ وأرواحُهُمْ أرواحُ الشياطينِ ، وصنفٌ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ »[٢] .

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : بلغَنا أنَّ إبليسَ تمثَّلَ ليحيىٰ بنِ زكريا عليهِما السلامُ ، وقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أنصحَكَ ، قالَ : لا حاجةَ بي إلىٰ نصحِكَ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٤٣٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » (١) مقتصراً على الجن ، ورواه بتمامه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠٨١) .

ولكنْ أخبرْني عنْ بني آدمَ ، قالَ : همْ عندَنا ثلاثةُ أصنافٍ ؛ أمَّا صنفٌ منهُمْ . . فهُمْ أشدُّ الأصنافِ علينا نقبلُ علىٰ أحدِهِمْ حتَّىٰ نفتنَهُ ونتمكَّنَ منهُ ، فيفزعَ إلى الاستغفارِ والتوبةِ ، فيفسدُ علينا كلَّ شيءٍ أدركنا منهُ ، ثمَّ نعودُ إليهِ ، فيعودُ ، فلا نحنُ نيئسُ منهُ ، ولا نحنُ ندركُ منهُ حاجتَنا ، فنحنُ منهُ في عناءٍ ، وأمَّا الصنفُ الآخرُ . . فهُمْ في أيدينا بمنزلةِ الكرةِ في أيدي صبيانِكُمْ ، نتلقفُهُمْ كيفَ شئنا ، قدْ كفونا أنفسَهُمْ ، وأمَّا الصنفُ الثالثُ . . فهُمْ مثلُكَ معصومونَ ، لا نقدرُ منهُمْ علىٰ شيءٍ(1) .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتمثَّلُ الشيطانُ لبعضِ الناسِ دونَ البعضِ ؟ وإذا رأىٰ صورتَهُ . . فهلْ هيَ صورتُهُ الحقيقيَّةُ أوْ هوَ مثالٌ تمثَّلَ لهُ بهِ ؟ فإنْ كانَ علىٰ صورتِهِ الحقيقيّةِ . . فكيفَ يُرىٰ بصورٍ مختلفةٍ ؟ وكيفَ يُرىٰ في وقتٍ واحدٍ في مكانينِ وعلىٰ صورتينِ ، حتَّىٰ يراهُ شخصانِ بصورتينِ مختلفتينِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المَلَكَ والشيطانَ لهما صورتانِ هيَ حقيقةُ صورتِهما ، ولا تُدركُ حقيقةُ صورتِهما بالمشاهدةِ إلا بأنوارِ النبوَّةِ ، فما رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جبريلَ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ في صورتِهِ إلا مرَّتينِ ، وذلكَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَهُ أنْ يريَهُ نفسَهُ علىٰ صورتِهِ ، فواعدَهُ بالبقيعِ ، وظهرَ لهُ بحراءَ ، فسدَّ الأفقَ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ،

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٤٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/٢٠٥) .

ورآهُ مرَّةً أخرىٰ علىٰ صورتِهِ ليلةَ المعراجِ عندَ سدرةِ المنتهىٰ[1] ، وإنَّما كانَ يراهُ في صورةِ الآدميِّ غالباً ، فكانَ يراهُ في صورةِ دِحْيَةَ الكلبيِّ ، وكانَ رجلاً حسنَ الوجهِ[2] .

والأكثرُ أنَّهُ يُكاشفُ أهلُ المكاشفةِ منْ أربابِ القلوبِ بمثالِ صورتِهِ ، فيتمثَّلُ الشيطانُ لهُ في اليقظةِ ، فيراهُ بعينِهِ ، ويسمعُ كلامَهُ بأذنِهِ ، فيقومُ ذلكَ مقامَ حقيقةِ صورتِهِ ، كما ينكشفُ في المنامِ لأكثرِ الصالحينَ .

وإنَّما المكاشَفُ في اليقظةِ هو الذي انتهىٰ إلىٰ رتبةٍ لا يمنعُهُ اشتغالُ الحواسِّ بالدنيا عَنِ المكاشفةِ التي تكونُ في المنامِ ، فيرىٰ في اليقظةِ ما يراهُ غيرُهُ في المنامِ ؛ كما رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ أنَّ رجلاً سألَ ربَّهُ عزَّوجلَّ أنْ يريَهُ موضعَ الشيطانِ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ، فرأىٰ في النومِ جسدَ رجلٍ شبهَ البلَّورِ ، يُرىٰ داخلُهُ مِنْ خارجِهِ ، ورأى الشيطانَ في صورةِ ضفدعٍ قاعدٍ علىٰ منكبِهِ الأيسرِ ، بينَ منكبِهِ وأذنِهِ ، لهُ خرطومٌ طويلٌ دقيقٌ ، قدْ أدخلَهُ مِنْ

---

(١) رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل مرتين علىٰ حقيقته لا في صورة بشر متمثل له عند البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (ولكنه رأىٰ جبريل عليه السلام في صورته مرتين) ، وعند الترمذي (٣٢٧٨) : (ولكنه رأىٰ جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين ؛ مرة عند سدرة المنتهىٰ ، ومرَّة في جياد له ست مئة جناح قد سد الأفق) .

(٢) أما إتيانه عليه السلام في صورة الرجل . . فعند البخاري (٣٢٣٥) ، ومسلم (١٧٧) ، وأما إتيانه علىٰ صورة دحية رضي الله عنه . . فعند البخاري (٣٦٣٤) ، ومسلم (٢٤٥١) .

منكبِهِ الأيسرِ إلىٰ قلبِهِ ، يوسوسُ إليهِ ، فإذا ذكرَ اللهَ تعالىٰ . . خنسَ[1] .

ومثلُ هٰذا قدْ يشاهدُ بعينِهِ في اليقظةِ ، فقدْ رآهُ بعضُ المكاشفينَ في صورةِ كلبٍ جاثمٍ علىٰ جيفةٍ يدعو الناسَ إليها ، وكانَتِ الجيفةُ مثالَ الدنيا ، وهٰذا يجري مَجرىٰ مشاهدةِ صورتِهِ الحقيقيَّةِ ؛ فإنَّ القلبَ لا بدَّ وأنْ تظهرَ فيهِ حقيقةٌ مِنَ الوجهِ الذي يقابلُ عالمَ الملكوتِ[2] ، وعندَ ذلكَ يُشرقُ أثرُهُ علىٰ وجهِهِ الذي يقابلُ عالمَ الملكِ والشهادةِ ؛ لأنَّ أحدَهُما متصلٌ بالآخرِ .

وقدْ بينَّا أنَّ القلبَ لهُ وجهانِ ؛ وجهٌ إلىٰ عالمِ الغيبِ ، وهوَ مدخلُ الإلهامِ والوحيِ ، ووجهٌ إلىٰ عالمِ الشهادةِ ، فالذي يظهرُ منهُ في الوجهِ الذي يلي جانبَ عالمِ الشهادةِ لا يكونُ إلا صورةً متخيَّلَةً ؛ لأنَّ عالمَ الشهادةِ كلَّهُ متخيلاتٌ ، إلا أنَّ الخيالَ تارةً يحصلُ مِنَ النظرِ إلىٰ ظاهرِ عالمِ الشهادةِ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٦/ ٥٦٣) : (وقد ورد في خبر مقطوع أن رجلاً سأل ربَّه أن يريه موضع الشيطان ، فرأى الشيطان في صورة ضفدع عند نغض كتفه الأيسر حذاء قلبه ، له خرطوم كالبعوضة ، أخرجه ابن عبد البر بسند قوي إلىٰ ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز ، فذكره ، وذكره أيضاً صاحب « الفائق » في مصنفه في « م ص ر » ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلىٰ وابن عدي ولفظه : « إن الشيطان واضع خطمه علىٰ قلب ابن آدم. . . » الحديث ، وأورد ابن أبي داوود في كتاب « الشريعة » من طريق عروة بن رويم : أن عيسىٰ عليه السلام سأل ربَّه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، قال : فإذا برأسه مثل الحية ، واضع رأسه علىٰ ثمرة القلب ، فإذا ذكر العبد ربَّه . . خنس ، وإذا غفل . . وسوس) .

(٢) وعالم الملكوت تنجلي فيه حقائق الأشياء ؛ لمقابلتها اللوح الذي رسمت فيه تلك الحقائق بقلم القدرة . « إتحاف » (٧/ ٢٩١) .

بالحسِّ ، فيجوزُ ألا تكونَ الصورةُ علىٰ وَفْقِ المعنىٰ ، حتَّىٰ يرىٰ شخصاً جميلَ الصورةِ وهوَ خبيثُ الباطنِ قبيحُ السرِّ ؛ لأنَّ عالمَ الشهادةِ عالمٌ كثيرُ التلبيسِ ، أمَّا الصورةُ التي تحصلُ في الخيالِ مِنْ إشراقِ عالمِ الملكوتِ علىٰ باطنِ سرِّ القلبِ . . فلا تكونُ إلا محاكيةً للصفةِ وموافقةً لها ؛ لأنَّ الصورةَ في عالمِ الملكوتِ تابعةٌ للصفةِ وموافقةٌ لها ، فلا جرمَ لا يرى المعنى القبيحَ إلا بصورةٍ قبيحةٍ ، فيرى الشيطانَ في صورةِ كلبٍ وضفدعٍ وخنزيرٍ وغيرِها ، ويرى المَلَكَ في صورةٍ جميلةٍ ، فتكونُ تلكَ الصورةُ عنوانَ المعاني ومحاكيةً لها بالصدقِ ، ولذلكَ يدلُّ القردُ والخنزيرُ في النومِ علىٰ إنسانٍ خبيثٍ ، وتدلُّ الشاةُ علىٰ إنسانٍ سليمِ الصدرِ ، وهٰكذا جميعُ أبوابِ الرؤيا والتعبيرِ ، وهٰذهِ أسرارٌ عجيبةٌ ، وهي مِنْ عجائبِ علومِ القلبِ ، ولا يليقُ ذكرُها بعلمِ المعاملةِ ، وإنَّما المقصودُ أنْ تصدِّقَ بأنَّ الشيطانَ ينكشفُ لأربابِ القلوبِ ، وكذلكَ الملكُ ، تارةً بطريقِ التمثيلِ والمحاكاةِ كما يكونُ ذلكَ في النومِ ، وتارةً بطريقِ الحقيقةِ ، والأكثرُ هوَ التمثيلُ بصورةٍ محاكيةٍ للمعنىٰ ، هوَ مثالُ المعنىٰ ، لا عينُ المعنىٰ ، إلا أنَّهُ يشاهَدُ بالعينِ مشاهدةً محقَّقَةً ، وينفردُ بمشاهدتِهِ المكاشَفُ دونَ مَنْ حولَهُ كالنائمِ .

❋ ❋ ❋

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلمْ : أنَّ هٰذا أمرٌ غامضٌ ، وقدْ وردَتْ فيهِ آياتٌ وأخبارٌ متعارضةٌ يلتبسُ طريقُ الجمعِ بينَها إلا علىٰ سماسرةِ العلماءِ بالشرعِ ، فقدْ رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عُفِيَ عنْ أمتي ما حدَّثَتْ بهِ نفوسُها ما لمْ تتكلَّمْ بهِ أوْ تعملْ بهِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للحفظةِ : إذا همَّ عبدي بسيئةٍ . . فلا تكتبوها عليهِ ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها سيئةً ، وإذا همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . فاكتبوها حسنةً ، فإنْ عملَها . . فاكتبوها عشراً » ، وقدْ خرَّجَهُ مسلمٌ والبخاريُّ في « الصحيحينِ »(٢) ، وهوَ دليلٌ على العفوِ عنْ عملِ القلبِ وهمِّهِ بالسيئةِ .

وفي لفظٍ آخرَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةٌ ، ومَنْ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) ، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بنحوه .

(٢) البخاري (٧٥٠١) ، ومسلم (١٢٨) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٢٩٣) : (وإنما قدم مسلماً في الذكر نظراً إلىٰ أن سياق اللفظ له ، وإلا . . فالبخاري مقدم في الذكر لتقدمه في الفضل وفي الزمان ، وربما من يجهل ما ذكرناه اعترض على المصنف في تقديمه مسلماً علىٰ صاحبه ، ونسبه لمخالفة الاصطلاح) .

همَّ بحسنةٍ فعملَها . . كُتبَتْ لهُ إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ، ومَنْ همَّ بسيئةٍ فلمْ يعملْها . . لم تُكتبْ عليهِ ، وإنْ عملَها . . كُتبَتْ »(١) .

وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا تحدَّثَ بأنْ يعملَ سيئةً . . فأنا أغفرُها لهُ ما لمْ يعملْها »(٢) ، وكلُّ ذلكَ يدلُّ على العفوِ .

فأمَّا ما يدلُّ على المؤاخذةِ : فقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ، فدلَّ علىٰ أنَّ عملَ الفؤادِ كعملِ السمعِ والبصرِ ، فلا يُعفىٰ عنهُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

والحقُّ عندَنا في هٰذهِ المسألةِ لا يُوقفُ عليهِ ما لمْ تقعِ الإحاطةُ بتفصيلِ أعمالِ القلوبِ ، مِنْ مبدأِ ظهورِها إلىٰ أنْ يظهرَ العملُ على الجوارحِ ، فنقولُ :

أوّلُ ما يردُ على القلبِ : الخاطرُ : كما لوْ خطرَ لهُ مثلاً صورةُ امرأةٍ ،

---

(١) البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) هي عند مسلم (١٢٩) .

وأنَّها وراءَ ظهرِهِ في الطريقِ ، لوِ التفتَ إليها . . لرآها

والثاني : هيجانُ الرغبةِ إلى النظرِ : وهوَ حركةُ الشهوةِ التي في الطبعِ ، وهٰذا يتولَّدُ مِنَ الخاطرِ الأوَّلِ ، ونسمِّيهِ : ميلَ الطبعِ ، ونُسمِّي الأوَّلَ : حديثَ النفسِ .

والثالثُ : حكمُ القلبِ بأنَّ هٰذا ينبغي أنْ يفعلَ : أيْ : ينبغي أنْ ينظرَ إليها ؛ فإنَّ الطبعَ إذا مالَ . . لمْ تنبعثِ الهمَّةُ والنيَّةُ ما لمْ تندفعِ الصوارفُ ؛ فإنَّهُ قدْ يمنعُهُ حياءٌ أوْ خوفٌ مِنَ الالتفاتِ ، وعدمُ هٰذهِ الصوارفِ ربَّما يكونُ بتأمُّلٍ ، وهوَ علىٰ كلِّ حالٍ حكمٌ مِنْ جهةِ العقلِ ، ونُسمِّي هٰذا : اعتقاداً ، وهوَ يتبعُ الخاطرَ والميلَ .

الرابعُ : تصميمُ العزمِ على الالتفاتِ وجزمُ النِّيةِ فيهِ : وهٰذا نسمِّيهِ : همّاً بالفعلِ ، ونيةً وقصداً ، وهٰذا الهمُّ قدْ يكونُ لهُ مبدأٌ ضعيفٌ ، ولكنْ إذا أصغى القلبُ إلى الخاطرِ الأوَّلِ حتَّىٰ طالَتْ مجاذبتُهُ للنفسِ . . تأكَّدَ هٰذا الهمُّ ، وصارَ إرادةً مجزومةً ، فإذا انجزمَتِ الإرادةُ . . فربَّما يندمُ بعدَ الجزمِ ، فيتركُ العملَ ، وربَّما يغفُلُ بعارضٍ ، فلا يعملُ بهِ ولا يلتفتُ إليهِ ، وربَّما يعوِّقُهُ عائقٌ ، فيتعذَّرُ عليهِ العملُ .

* * *

فهٰهنا أربعُ أحوالٍ للقلبِ قبلَ العملِ بالجارحةِ : الخاطرُ ؛ وهوَ حديثُ النفسِ ، ثمَّ الميلُ ، ثمَّ الاعتقادُ ، ثمَّ الهمُّ ، فنقولُ :

أما الخاطرُ : فلا يؤاخذُ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، وكذلكَ **الميلُ وهيجانُ الشهوةِ** ؛ لأنَّهما لا يدخلانِ أيضاً تحتَ الاختيارِ ، وهما المرادانِ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُفِيَ عنْ أمَّتي ما حدَّثَتْ بهِ نُفوسُها »(١) ، فحديثُ النفسِ عبارةٌ عنِ الخواطرِ التي تهجسُ في النفسِ ، ولا يتبعُها عزمٌ على الفعلِ ، فأمَّا العزمُ والهمُّ. . فلا يُسمَّىٰ حديثَ نفسٍ ، بلْ حديثُ النفسِ كما رُوِيَ عنْ عثمانَ بنِ مظعونٍ حيثُ قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ نفسي تحدِّثُني أنْ أطلِّقَ خولةَ ، قالَ : « مهلاً ، إنَّ مِنْ سنَّتي النكاحَ » ، قالَ : نفسي تحدِّثُني أنْ أجبَّ نفسي ، قالَ : « مهلاً ، خصاءُ أمَّتي دُؤوبُ الصيامِ » ، قالَ : نفسي تحدِّثُني أن أترهَّبَ ، قالَ : « مهلاً ، رهبانيةُ أمَّتي الجهادُ والحجُّ » ، قالَ : نفسي تحدِّثُني أنْ أتركَ اللحمَ ، قالَ : « مهلاً ، فإنِّي أحبُّهُ ، ولوْ أصبتُهُ. . لأكلتُهُ ، ولوْ سألتُ اللهَ. . لأطعمَنيهِ »(٢) .

---

(١) رواه البخاري (٥٢٦٩) بنحوه .

(٢) رواه الحكيم في « نوادر الأصول » (ص٣٤٦) ، وابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص١٩٥) عن سعيد بن المسيب مرسلاً ، وبعضه متناثر في أحاديث متفرقة ، فعند البخاري (٥٠٧٤) ، ومسلم (١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص : (رد رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له. . لاختصينا) ، وعند الدارمي (٢٢١٥) عنه كذلك قال : لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء. . بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عثمان ؛ إني لم أومر بالرهبانية ، أرغبت عن سنتي ؟! » قال : لا يا رسول الله ، قال : « إن من سنتي أن أصلي وأنام ، وأصوم وأطعم ، وأنكح وأطلق ، فمن رغب عن سنتي. . فليس مني » . =

فهٰذهِ الخواطرُ التي ليسَ معها عزمٌ على الفعلِ هيَ حديثُ النفسِ ، ولذلكَ شاورَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ لمْ يكنْ معَهُ عزمٌ وهمٌّ بالفعلِ .

وأمَّا الثالثُ وهوَ الاعتقادُ ، وحكْمُ القلبِ بأنَّهُ ينبغي أنْ يفعلَ : فهٰذا مردَّدٌ بينَ أنْ يكونَ اضطراراً أوِ اختياراً ، والأحوالُ تختلفُ فيهِ ، فالاختياريُّ منهُ يُؤاخذُ بهِ ، والاضطراريُّ لا يُؤاخذُ بهِ .

وأمَّا الرابعُ وهوَ الهمُّ بالفعلِ : فإنَّهُ مؤاخذٌ بهِ ، إلا أنَّهُ إنْ لمْ يفعلْ . . نُظِرَ؛ فإنْ كانَ قدْ تركَهُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وندماً علىٰ همِّهِ . . كُتبَتْ لهُ حسنةٌ؛ لأنَّ همَّهُ سيئةٌ، وامتناعَهُ ومجاهدتَهُ نفسَهُ حسنةٌ، والهمُّ علىٰ وَفْقِ الطبعِ ممَّا يدلُّ علىٰ تمامِ الغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والامتناعُ بالمجاهدةِ علىٰ خلافِ الطبعِ يحتاجُ إلىٰ قوَّةٍ عظيمةٍ ، فجدُّهُ في مخالفةِ الطبعِ ـ وهوَ العملُ للهِ تعالىٰ ـ أشدُّ مِنْ جدِّهِ في موافقةِ الشيطانِ بموافقةِ الطبعِ ، فكُتِبَ لهُ حسنةٌ ؛ لأنَّهُ رجحَ جهدُهُ في الامتناعِ وهمُّه بهِ علىٰ همِّهِ بالفعلِ ، وإنْ تعوَّقَ الفعلُ بعائقٍ ، أوْ تركَهُ لعذرٍ ، لا خوفاً

= ولابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٣٦٧) أن ابن مظعون رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ إني رجل تشق علي هٰذه العزبة في المغازي ، فتأذن لي ـ يا رسول الله ـ في الخصاء فأختصي ؟ قال : « لا ، ولكن عليك يا بن مظعون بالصيام ؛ فإنه مجفر » . ولأبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ١٩٥٧) عن أنس قال : مات ابن لعثمان بن مظعون ، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ مسجداً في داره يتعبد فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لم تكتب علينا الرهبانية يا عثمان ، إن رهبانية أمتي الجلوس في المساجد وانتظار الصلوات ، والحج والعمرة. . . » الحديث .

مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كتبَتْ عليهِ سيئةٌ ؛ فإنَّ همَّهُ فعلٌ مِنَ القلبِ اختياريٌّ .

والدليلُ علىٰ هـٰذا التفصيلِ : ما وردَ في « الصحيح » مفصَّلاً في لفظِ الحديثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَتِ الملائكةُ عليهِمُ السلامُ : ربِّ ؛ ذاكَ عبدُكَ يريدُ أنْ يعملَ سيئةً ـ وهوَ أبصرُ بهِ ـ فقالَ : ارقبوهُ ؛ فإنْ هوَ عملَها . . فاكتبوها لهُ بمثلِها ، وإنْ تركَها . . فاكتبوها لهُ حسنةً ، إنَّما تركَها مِنْ جرَّائي »[1] ، وحيثُ قالَ : (لمْ يعملْها) أرادَ بهِ : تركَها للهِ ، فأمَّا إذا عزمَ علىٰ فاحشةٍ ، فتعذَّرَتْ عليهِ بسببٍ أوْ بغفلةٍ . . فكيفَ تُكتبُ لهُ حسنةً ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنما يُحشرُ الناسُ علىٰ نيَّاتِهِمْ »[2] ، ونحنُ نعلمُ أنَّ مَنْ عزمَ ليلاً علىٰ أنْ يصبحَ ليقتلَ مسلماً ، أو يزنيَ بامرأةٍ ، فماتَ تلكَ الليلةَ . . ماتَ مصرّاً ، ويُحشرُ علىٰ نيَّتِهِ ، وقدْ همَّ بسيئةٍ ولمْ يعملْها .

والدليلُ القاطعُ فيهِ : ما رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهِما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[3] .

---

(١) رواه مسلم (١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن جرّائي : من أجلي .
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٩ ، ٤٢٣٠) من حديث أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .
(٣) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه .

وهـٰذا نصٌّ في أنَّهُ صارَ بمجرَّدِ الإرادةِ مِنْ أهلِ النارِ ، معَ أنَّهُ قُتِلَ مظلوماً ، فكيفَ يُظنُّ أنَّ اللهَ لا يؤاخذُ بالنيَّةِ والهمِّ ؟! بلْ كلُّ همٍّ دخلَ تحتَ اختيارِ العبدِ فهوَ مأخوذٌ بهِ ، إلا أنْ يكفِّرَهُ بحسنةٍ ، ونقضُ العزمِ بالندمِ حسنةٌ ، فلذلكَ كُتبَتْ لهُ حسنةً ، فأمَّا فوتُ المرادِ بعائقٍ . . فليسَ بحسنةٍ .

وأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ وهيجانُ الرغبةِ . . فكلُّ ذلكَ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فالمؤاخذةُ بهِ تكليفُ ما لا يطاقُ ، ولذلكَ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ . . جاءَ ناسٌ مِنَ الصحابةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالوا : كُلِّفنا ما لا نطيقُ ، إنَّ أحدَنا ليحدِّثُ نفسَهُ بما لا يحبُّ أنْ يثبتَ في قلبِهِ ، ثمَّ يُحاسبُ بذلكَ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لعلَّكُمْ تقولونَ كما قالتِ اليهودُ : سمعنا وعصينا ؟! قولوا : سمعنا وأطعنا » ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزلَ اللهُ الفرجَ بعدَ سنةٍ بقولِهِ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1] .

فظهرَ بهِ أنَّ كلَّ ما لا يدخلُ تحتَ الوسعِ مِنْ أعمالِ القلبِ فهوَ الذي لا يُؤاخذُ بهِ .

❊ ❊ ❊

فهـٰذا هوَ كشفُ الغطاءِ عنْ هـٰذا الالتباسِ ، وكلُّ مَنْ يظنُّ أنَّ كلَّ

---

(١) رواه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ما يجري على القلبِ يُسمَّىٰ حديثَ النفسِ ، ولمْ يفرِّقْ بينَ هـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ . . فلا بدَّ وأنْ يغلطَ .

وكيفَ لا يُؤاخذُ بأعمالِ القلبِ والكبرُ والعجبُ والرياءُ والنفاقُ والحسدُ وجملةُ الخبائثِ مِنْ أعمالِ القلبِ ؟! بلِ السمعُ والبصرُ والفؤادُ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسؤولاً ؛ أيْ : ما يدخلُ تحتَ الاختيارِ ؟!

فلوْ وقعَ البصرُ بغيرِ اختيارٍ علىٰ غيرِ ذي محرمٍ . . لمْ يؤاخذْ بهِ ، فإنْ أتبعَها نظرةً ثانيةً . . كانَ مؤاخذاً بها ؛ لأنَّهُ مختارٌ ، فكذا خواطرُ القلبِ تجري هـٰذا المجرىٰ ، بلِ القلبُ أولىٰ بمؤاخذتِهِ ؛ لأنَّهُ الأصلُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التقوىٰ هـٰهنا » وأشارَ إلى القلبِ[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإثمُ حوَازُّ القلوبِ »[2] .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه : (ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، **وحوازُّ القلوب** ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي لفقد الطمأنينة إليها . ورواه شمر « الإثم حوَّاز القلوب » بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروى « الإثم حزَّاز القلوب » بزايين ، الأولىٰ مشددة ، وهي فعّال من الحزّ .

وقالَ : « البرُّ ما اطمأنَّ إليهِ القلبُ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ »[1] .

حتَّىٰ إنَّا نقولُ : إذا حكمَ قلبُ المفتي بإيجابِ شيءٍ وكانَ مخطئاً فيهِ . . صارَ مثاباً عليهِ ، بلْ مَنْ قدْ ظنَّ أنَّهُ تطهَّرَ . . فعليهِ أنْ يصلِّيَ ، فإنْ صلَّىٰ ثمَّ تذكَّرَ أنَّهُ لمْ يتوضَّأْ . . كانَ لهُ ثوابٌ بفعلِهِ ، وإنْ تركَ ثمَّ تذكَّرَ[2] . . كانَ معاقباً عليهِ ، ومَنْ وجدَ علىٰ فراشِهِ امرأةً فظنَّ أنَّها زوجتُهُ . . لمْ يعصِ بوطئِها وإنْ كانَتْ أجنبيَّةً ، وإنْ ظنَّ أنَّها أجنبيةٌ ثمَّ وطئِها . . عصىٰ بوطئِها وإنْ كانَتْ زوجتَهُ .

كلُّ ذلكَ نظراً إلى القلبِ دونَ الجوارحِ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/٢٢٨) ، قال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ١١٥) بعد إيراده لهـٰذا الحديث : (فهـٰذا وصف قلب مكاشف بالذكر ، ونعت نفس ساكنة بمزيد السكينة والبر) ، فليس هو نعتاً لأي قلب .

(٢) في (أ) : (فإن تذكر ثم تركه) .

بيان أنّ الوسواس هل يتصوّر أن ينقطع بالكلّيّة عند الذّكر .. أم لا ؟

اعلمْ : أنَّ العلماءَ المراقبينَ للقلوبِ ، الناظرينَ في صفاتِها وعجائبِها . . اختلفوا في هٰذهِ المسألةِ علىٰ خمسِ فرقٍ :

فقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ تنقطعُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « فإذا ذكرَ اللهَ . . خنسَ »[1] ، والخنسُ هوَ السكوتُ ، فكأنَّهُ يسكتُ .

وقالتْ فرقةٌ : لا ينعدمُ أصلُهُ ، ولكنْ يجري في القلبِ ولا يكونُ لهُ أثرٌ ؛ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستوعباً بالذكرِ . . كانَ محجوباً عنِ التأثُّرِ بالوسوسةِ ؛ كالمشغولِ بهمِّهِ ؛ فإنَّهُ قدْ يكلَّمُ ولا يفهمُ وإنْ كانَ الصوتُ يمرُّ علىٰ سمعِهِ .

وقالتْ فرقةٌ : لا تسقطُ الوسوسةُ ولا أثرُها أيضاً ، ولكنْ تسقطُ غلبتُها للقلبِ ، فكأنَّهُ يوسوسُ مِنْ بعدٍ وعلىٰ ضعفٍ .

وقالتْ فرقةٌ : ينعدمُ عندَ الذكرِ في لحظةٍ ، وينعدمُ الذكرُ في لحظةٍ بها ، ويتعاقبانِ في أزمنةٍ متقاربةٍ ، يُظَنُّ لتقاربِها أنَّها متساوقةٌ ، وهيَ كالكرةِ التي

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٠١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/١٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٨٦) .

عليها نقطٌ متفرِّقةٌ ؛ فإنَّكَ إذا أدرتَها بسرعةٍ . . رأيتَ النقطَ دوائرَ ؛ لسرعةِ تواصلِها بالحركةِ .

واستدلَّ هؤلاءِ بأنَّ الخنسَ قدْ وردَ ، ونحنُ نشاهدُ الوسوسةَ معَ الذكرِ ، ولا وجهَ لهُ إلا هـٰذا .

وقالتْ فرقةٌ : الوسوسةُ والذكرُ يتساوقانِ في القلب على الدوامِ تساوقاً لا ينقطعُ ، وكما أنَّ الإنسانَ قدْ يرىٰ بعينيهِ شيئينِ في حالةٍ واحدةٍ ، فكذلكَ القلبُ قدْ يكونُ مَجرىً لشيئينِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ إلاَّ ولهُ أربعةُ أعْينٍ : عينانِ في رأسهِ يبصرُ بهما أمرَ دنياهُ ، وعينانِ في قلبهِ يبصرُ بهما أمرَ دينِهِ »[١] . وإلىٰ هـٰذا ذهبَ المحاسبيُّ[٢] .

* * *

والصحيحُ عندَنا : أنَّ كلَّ هـٰذهِ المذاهبِ صحيحةٌ ، ولكنْ كلُّها قاصرةٌ عنِ الإحاطةِ بأصنافِ الوسواسِ ، وإنَّما نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ صنفٍ واحدٍ مِنَ الوسواسِ ، فأخبرَ عنهُ .

والوسواسُ أصنافٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ مِنْ جهةِ التلبيسِ بالحقِّ :

فإنَّ الشيطانَ قدْ يلبِّسُ بالحقِّ ، فيقولُ للإنسانِ : (لا تتركِ التنعُّمَ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٠٤٠) بنحوه .
(٢) ذكر نحو هـٰذا بتفصيل في « الرعاية » (ص٢٠٢ـ٢٠٥) .

باللَّذاتِ ؛ فإنَّ العمرَ طويلٌ ، والصبرَ عنِ الشهواتِ طولَ العمرِ ألمُهُ عظيمٌ) ، فعندَ هـٰذا إذا ذكرَ العبدُ عظيمَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وعظيمَ ثوابِهِ وعقابِهِ ، وقالَ لنفسِهِ : (الصبرُ عنِ الشهواتِ شديدٌ ، ولكنَّ الصبرَ على النارِ أشدُّ منهُ ، ولا بدَّ مِنْ أحدِهِما) ، فإذا ذكرَ العبدُ وعدَ اللهِ تعالىٰ ووعيدَهُ ، وجدَّدَ إيمانَهُ ويقينَهُ . . خنسَ الشيطانُ وهربَ ؛ إذْ لا يستطيعُ أنْ يقولَ لهُ : (النارُ أيسرُ مِنَ الصبرِ على المعاصي) ، ولا يمكنُهُ أنْ يقولَ : (المعصيةُ لا تفضي إلى النارِ) فإنَّ إيمانَهُ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ يدفعُهُ عنْ ذلكَ ، فينقطعُ وسواسُهُ .

وكذلكَ يوسوسُ إليهِ بالعجْبِ بعملِهِ ، فيقولُ : (أيُّ عبدٍ يعرفُ اللهَ كما تعرفُهُ ، ويعبدُهُ كما تعبدُهُ ؟! فما أعظمَ مكانَكَ عندَ اللهِ تعالى !) ، فيتذكَّرُ العبدُ حينئذٍ أنَّ معرفتَهُ وقدرتَهُ وقلبَهُ وأعضاءَهُ التي بها علمُهُ وعملُهُ كلُّ ذلكَ مِنْ خلْقِ اللهِ تعالىٰ ، فمِنْ أينَ يُعجبُ بهِ ؟! فيخنسُ الشيطانُ ؛ إذْ لا يمكنُهُ أنْ يقولَ : (ليسَ هـٰذا مِنَ اللهِ) لأنَّ المعرفةَ والإيمانَ يدفعُهُ .

فهـٰذا نوعٌ مِنَ الوسواسِ ينقطعُ بالكليَّةِ عنِ العارفينَ المستبصرينَ بنورِ الإيمانِ والمعرفةِ .

* * *

الصنفُ الثاني : أنْ يكونَ وسواسُهُ بتحريكِ الشهوةِ وهيجانِها :

وهـٰذا ينقسمُ إلىٰ ما يعلمُ العبدُ يقيناً أنَّهُ معصيةٌ ، وإلىٰ ما يظنُّهُ بغالبِ الظنِّ .

فإنْ عَلِمَهُ يقيناً . . خنسَ الشيطانُ عنْ تهييجٍ يؤثِّرُ في تحريكِ الشهوةِ ، ولمْ يخنسْ عنِ التهييجِ ، وإنْ كانَ مظنوناً . . فربَّما يبقىٰ مؤثِّراً بحيثُ يحتاجُ إلىٰ مجاهدةٍ في دفعِهِ ، فتكونُ الوسوسةُ موجودةً ، ولكنَّها مدفوعةٌ غيرُ غالبةٍ .

* * *

الصنفُ الثالثُ : أنْ تكونَ وسوسةٌ بمجرَّدِ الخواطرِ :

وتذكُّرِ الأحوالِ الغائبةِ ، والتفكُّرِ في غيرِ الصلاةِ مثلاً[1] ، فإذا أقبلَ على الذكرِ . . تُصوِّرَ أنْ يندفعَ ساعةً ويعودَ ، ويندفعَ ويعودَ ، فيتعاقبُ الذكرُ والوسوسةُ ، ويُتصوَّرُ أنْ يتساوقا جميعاً ، حتَّىٰ يكونَ الفهمُ مشتملاً علىٰ فهمِ معنى القراءةِ ، وعلىٰ تلكَ الخواطرِ ، كأنَّهُما في موضعينِ مِنَ القلبِ .

وبعيدٌ جداً أنْ يندفعَ هـٰذا الخنسُ بالكليَّةِ بحيثُ لا يخطرُ ، ولكنَّهُ ليسَ محالاً ؛ إذْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ صلَّىٰ ركعتينِ لمْ يحدِّثْ فيهما نفسَهُ بشيءٍ مِنَ الدنيا . . غُفرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ »[2] ، فلولا أنَّهُ متصوَّرٌ . . لما ذكرَهُ .

إلا أنَّهُ لا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا في قلبٍ استولىٰ عليهِ الحبُّ ، حتَّىٰ صارَ كالمستهترِ ؛ فإنَّا قدْ نرى المستوعبَ القلبِ بعدوٍّ تأذَّىٰ بهِ قدْ يتفكَّرُ بمقدارِ

(١) أي : يتفكر في غير الصلاة وهو يصلي .
(٢) رواه البخاري (١٦٤) ، ومسلم (٢٢٦) بغير زيادة : (بشيء من الدنيا) ، وبها رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٧٧١٣) مرسلاً .

ركعتينِ وركعاتٍ في مجادلةِ عدوِّهِ ؛ بحيثُ لا يخطرُ ببالِهِ غيرُ حديثِ عدوِّهِ ، وكذلكَ المستغرقُ في الحبِّ قدْ يتفكَّرُ في محادثةِ محبوبِهِ بقلبِهِ ويغوصُ في فكرِهِ بحيثُ لا يخطرُ ببالِهِ غيرُ حديثِ محبوبِهِ ، ولوْ كلَّمَهُ غيرُهُ . . لمْ يسمعْ ، ولوِ اجتازَ بينَ يديهِ أحدٌ . . لكانَ كأنَّهُ لا يراهُ .

وإذا تُصوِّرَ هـٰذا في خوفٍ مِنْ عدوٍّ ، وعندَ الحرصِ علىٰ جاهٍ ومالٍ . . فكيفَ لا يُتصوَّرُ مِنْ خوفِ النارِ والحرصِ على الجنَّةِ ؟! ولكنْ ذلكَ عزيزٌ ؛ لضعفِ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ .

وإذا تأمَّلْتَ جملةَ هـٰذهِ الأقسامِ وأصنافِ الوسواسِ . . علمتَ أنَّ لكلِّ مذهبٍ مِنَ المذاهبِ وجهاً ، ولكنْ في محلٍّ مخصوصٍ .

❊ ❊ ❊

وبالجملةِ : فالخلاصُ مِنَ الشيطانِ في لحظةٍ أوْ ساعةٍ غيرُ بعيدٍ ، ولكنَّ الخلاصَ منه عمراً طويلاً بعيدٌ جدّاً ، وهوَ محالٌ في الوجودِ ، ولوْ تخلَّصَ أحدٌ مِنْ وساوسِ الشيطانِ بالخواطرِ وتهييجِ الرغبةِ . . لتخلَّصَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ نظرَ إلىٰ علمِ ثوبِهِ في الصلاةِ ، فلمَّا سلَّمَ . . رمىٰ بذلكَ الثوبِ وقالَ : « شغلَني عنِ الصلاةِ » وقالَ : « اذهبُوا بهِ إلىٰ أبي جهمٍ ، وأْتوني بأنبجانيَّتِهِ »(١) ، وكانَ في يدِهِ خاتمٌ مِنْ ذهبٍ ، فنظرَ إليهِ وهوَ على المنبرِ ، ثمَّ رمىٰ بهِ وقالَ : « نظرةٌ إليهِ ونظرةٌ إليكُمْ »(٢) ،

(١) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/ ٦٢) بنحوه .
(٢) رواه النسائي (٨/ ١٩٤) .

وكانَ ذلكَ لوسوسةِ الشيطانِ بتحريكِ لذَّةِ النظرِ إلىٰ خاتمِ الذهبِ وعلمِ الثوبِ ، وكانَ ذلكَ قبلَ تحريمِ الذهبِ ، فلذلكَ لبسَهُ ثمَّ رمىٰ بهِ .

فلا تنقطعُ وسوسةُ عروضِ الدنيا ونقدِها إلا بالرمي والمفارقةِ ، فما دامَ يملكُ شيئاً وراءَ حاجتِهِ ولوْ ديناراً واحداً . . لا يدعُهُ الشيطانُ في صلاتِهِ مِنَ الوسوسةِ في الفكرِ في دينارِهِ ، وأنَّهُ كيفَ يحفظُهُ ، وفيماذا ينفقُهُ ، وكيفَ يخفيهِ حتَّىٰ لا يعلمَ بهِ أحدٌ ، أوْ كيفَ يُظهرُهُ حتَّىٰ يتباهىٰ بهِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الوساوسِ .

فمَنْ أنشبَ مخالبَهُ في الدنيا ، وطمعَ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ . . كانَ كمَنِ انغمسَ في العسلِ ، وظنَّ أنَّ الذبابَ لا يقعُ عليهِ ، فهو محالٌ ؛ فالدنيا بابٌ عظيمٌ لوساوسِ الشيطانِ ، وليسَ لهُ بابٌ واحدٌ ، بلْ أبوابٌ كثيرةٌ .

قالَ حكيمٌ مِنَ الحكماءِ : (الشيطانُ يأتي ابنَ آدمَ مِنْ قبلِ المعاصي ، فإنِ امتنعَ . . أتاهُ مِنْ وجهِ النصيحةِ ، حتىٰ يلقيَهُ في بدعةٍ ، فإنْ أبىٰ . . أمرَهُ بالتحرُّجِ والشدَّةِ ، حتَّىٰ يحرِّمَ ما ليسَ بحرامٍ ، فإنْ أبىٰ . . شكَّكَهُ في وضوئِهِ وصلاتِهِ ، حتَّىٰ يخرجَهُ عنِ العلمِ ، فإنْ أبىٰ . . خفَّفَ عليهِ أعمالَ البرِّ ، حتَّىٰ يراهُ الناسُ صابراً عفيفاً ، فتميلُ قلوبُهُمْ إليهِ ، فيُعجبُ بنفسِهِ ، وبهِ يهلكُهُ ، وعندَ ذلكَ يشتدُّ لجاجُهُ ؛ فإنَّها آخرُ درجةٍ ، ويعلمُ أنَّهُ لوْ جاوزَها . . أفلتَ منهُ إلى الجنةِ) .

❊ ❊ ❊

بيان سرعة تقلّب القلب، وانقسام القلوب في التغيّر والثبات

اعلمْ : أنَّ القلبَ ـ كما ذكرناهُ ـ تكتنفُهُ الصفاتُ التي ذكرناها ، وتنصبُّ إليهِ الآثارُ والأحوالُ مِنَ الأبوابِ التي وصفناها ، فكأنَّهُ هدفٌ يُصابُ على الدوامِ مِنْ كلِّ جانبٍ ، فإذا أصابَهُ شيءٌ يتأثَّرُ بهِ . . أصابَهُ مِنْ جانبٍ آخرَ ما يضادُّهُ ، فتتغيَّرُ صفتُهُ ، فإنْ نزلَ بهِ الشيطانُ ، فدعاهُ إلى الهوىٰ . . نزلَ بهِ المَلَكُ وصرفَهُ عنهُ ، وإنْ جذبَهُ شيطانٌ إلىٰ شرٍّ . . جذبَهُ شيطانٌ آخرُ إلىٰ غيرِهِ ، وإنْ جذبَهُ ملكٌ إلىٰ خيرٍ . جذبَهُ آخرُ إلىٰ غيرِهِ ، فتارةً يكونُ متنازعاً بينَ ملكينِ ، وتارةً بينَ شيطانينِ ، وتارةً بينَ مَلَكٍ وشيطانٍ ، ولا يكونُ قطُّ مهملاً .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ .

ولاطلاعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ عجيبِ صنْعِ اللهِ تعالىٰ في عجائبِ القلبِ وتقلُّبِهِ . . كانَ يحلفُ بهِ فيقولُ : « لا ومقلِّبِ القلوبِ »(١) ، وكانَ كثيراً ما يقولُ : « يا مقلِّبَ القلوبِ ؛ ثبِّتْ قلبي علىٰ دينِكَ » ، قالوا : أوَتخافُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وما يؤمِّنُني والقلبُ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرَّحمـٰنِ يقلِّبُهُ كيفَ يشاءُ ؟! »(٢) ، وفي لفظٍ آخرَ : « إنْ شاءَ أنْ

---

(١) رواه البخاري (٦٦١٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، وعند مسلم (٢٦٥٤) من =

يقيمَهُ . . أقامَهُ ، وإنْ شاءَ أنْ يزيغَهُ . . أزاغهُ »[1] .

وضربَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثةَ أمثلةٍ فقالَ : « مثلُ القلبِ مثلُ العصفورِ ، يتقلَّبُ في كلِّ ساعةٍ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ القلبِ في تقلُّبِهِ كالقدْرِ إذا استجمعَتْ غلياناً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ القلبِ كمثلِ ريشةٍ في أرضٍ فلاةٍ تقلِّبُها الرياحُ ظهراً لبطنٍ »[4] .

وهـٰذهِ التقليباتُ وعجائبُ صنْعِ اللهِ تعالىٰ في تقليبِها مِنْ حيثُ

= حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه : « اللهم ، مصرِّف القلوب ؛ صرِّف قلوبنا علىٰ طاعتك » .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٦٩١) ، وابن ماجه (١٩٩) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١١٤٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٠) من حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : « يتقلب في اليوم سبع مرات » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٢٥٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٥) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، ولفظه : « لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً » .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٧ ، ٧٣٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وعنده (٧٣٦) من حديث أنس رضي الله عنه أيضاً .

لا تهتدي إليها المعرفةُ لا يعرفُها إلا المراقبونَ لقلوبِهِمْ ، والمراعونَ لأحوالِهِمْ معَ اللهِ تعالىٰ .

* * *

والقلوبُ في الثباتِ على الخيرِ والشرِّ والتردُّدِ بينَهُما ثلاثةٌ :

قلبٌ عُمِرَ بالتقوىٰ ، وزُكِّيَ بالرياضةِ ، وطُهِّرَ عنْ خبائثِ الأخلاقِ[1] ، تنقدحُ فيهِ خواطرُ الخيرِ مِنْ خزائنِ الغيبِ ومداخلِ الملكوتِ ، فينصرفُ العقلُ إلى التفكُّرِ فيما خطرَ لهُ ؛ ليعرفَ دقائقَ الخيرِ فيهِ ، ويطَّلعَ علىٰ أسرارِ فوائدِهِ ، فينكشفَ لهُ بنورِ البصيرةِ وجهُهُ ، فيحكمَ بأنَّهُ لا بدَّ مِنْ فعلِهِ ، فيستحثَّهُ عليهِ ، ويدعوَهُ إلى العملِ بهِ .

وينظرُ المَلَكُ إلى القلبِ فيجدُهُ طيِّباً في جوهرِهِ ، طاهراً بتقواهُ ، مستنيراً بضياءِ العقلِ ، معموراً بأنوارِ المعرفةِ ، فيراهُ صالحاً لأنْ يكونَ مستقراً لهُ ومهبطاً ، فعندَ ذلكَ يمدُّهُ بجنودٍ لا تُرىٰ ، ويهديهِ إلىٰ خيراتٍ أخرىٰ ، حتَّىٰ ينجرَّ الخيرُ إلى الخيرِ ، وكذلكَ على الدوامِ ، ولا يتناهىٰ إمدادُهُ بالترغيبِ في الخيرِ ، وتيسيرِ الأمرِ عليهِ .

---

(١) والترتيب في هـٰذا المقام غير مراعىٰ ؛ فإن التطهير عن الخبائث هو أول ما يكون ، ثم التزكية بالرياضة ثانياً ، فالذي ينتج عنهما عمارة القلب بالتقوىٰ ، فهو آخر المراتب جعله أولاً ، أو يكون المراد بعمارته بالتقوىٰ : الاتقاء من الشرك المضاد للتوحيد ، ثم التزكية بالرياضة هو أعمال الجوارح ، ثم التطهير عن الخبائث : هو انشراحه بنور اليقين حسبما قسم له . « إتحاف » (٧/ ٣٠٣) .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ .

وفي مثلِ هـٰذا القلبِ يشرقُ نورُ المصباحِ مِنْ مشكاةِ الربوبيّةِ ، حتَّىٰ لا يخفىٰ فيهِ الشرْكُ الخفيُّ الذي هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ[1] .

فلا يخفىٰ علىٰ هـٰذا النورِ خافيةٌ ، ولا يُروَّجُ عليهِ شيءٌ مِنْ مكايدِ الشيطانِ ، بلْ يقفُ الشيطانُ ويُوحي زخرفَ القولِ غروراً ، فلا يُلتفتُ إليهِ[2] .

وهـٰذا القلبُ بعدَ طهارتِهِ مِنَ المهلكاتِ يصيرُ على القرْبِ معموراً بالمنجياتِ التي سنذكرُها ؛ مِنَ الصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ ، والرجاءِ ،

---

(١) كما روىٰ ذلك مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣٩٩) ، وروىٰ نحوه البخاري في « الأدب المفرد » (٧١٦) ، وهـٰذا هو وصف قلوب الصديقين .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/ ٥٥٤) : (الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ، ولكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الجماعة) ، إلىٰ أن قال : (إذا أراد الله بعبده خيراً . . أمدَّه بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ، فلا يظلُّه غمام الريب ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهـٰذا معنىٰ قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾) .

والفقرِ ، والزهدِ ، والمحبةِ ، والرضا ، والشوقِ ، والتوكُّلِ ، والتفكُّرِ ، والمحاسبةِ ، وغيرِ ذلكَ .

وهوَ القلبُ الذي أقبلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ بوجهِهِ[1] ، وهوَ القلبُ المطمئنُّ ، المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

* * *

القلبُ الثاني : القلبُ المخذولُ المشحونُ بالهوىٰ ، المدنَّسُ بالأخلاقِ المذمومةِ والخبائثِ ، المفتوحُ فيهِ أبوابُ الشياطينِ ، المسدودُ عنهُ أبوابُ الملائكةِ .

ومبدأُ الشرِّ فيهِ : أنْ ينقدحَ فيهِ خاطرٌ مِنَ الهوىٰ ، ويهجِسَ فيهِ ، فينظرُ القلبُ إلىٰ حاكمِ العقلِ ليستفتيَ فيهِ ويستكشفَ وجهَ الصوابِ ، فيكونُ العقلُ قدْ ألفَ خدمةَ الهوىٰ وأنسَ بهِ ، واستمرَّ على استنباطِ الحيلِ لهُ وعلىٰ مساعدةِ الهوىٰ ، فتستولي النفسُ وتساعدُ عليهِ ، فينشرحُ الصدرُ بالهوىٰ ، وتنبسطُ فيهِ ظلماتُهُ ؛ لانخناسِ جنْدِ العقلِ عنْ مدافعتِهِ ، فيقوىٰ سلطانُ الشيطانِ ؛ لاتِّساعِ مكانِهِ بسببِ انتشارِ الهوىٰ ، فيُقبلُ عليهِ بالتزيينِ والغرورِ والأمانيِّ ، ويُوحي بذلكَ زخرفاً مِنَ القولِ غروراً ، فيضعفُ سلطانُ الإيمانِ

---

(١) فسلبه عن أن يكون فيه مستكن لغيره . « إتحاف » (٧/ ٣٠٤) .

بالوعْدِ والوعيدِ ، ويخبو نورُ اليقينِ بخوفِ الآخرةِ ؛ إذْ يتصاعدُ منَ الهوىٰ دخانٌ مظلمٌ إلى القلبِ يملأُ جوانبَهُ ، حتَّىٰ تنطفىءَ أنوارُهُ ، فيصيرُ العقلُ كالعينِ التي ملأَ الدخانُ أجفانَها ، فلا يقدرُ علىٰ أنْ ينظرَ .

وهكذا تفعلُ غلبةُ الشهوةِ بالقلبِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ للقلبِ إمكانُ التوقفِ والاستبصارِ ، ولوْ بصَّرَهُ واعظٌ وأسمعَهُ ما هوَ الحقُّ فيهِ . . عَمِيَ عنِ الفهمِ ، وصمَّ عنِ السمعِ ، وهاجَتِ الشهوةُ فيهِ ، وسطا الشيطانُ ، وتحرَّكَتِ الجوارحُ علىٰ وَفْقِ الهوىٰ ، فظهرَتِ المعصيةُ إلىٰ عالمِ الشهادةِ مِنْ عالمِ الغيبِ بقضاءٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وقدرٍ .

وإلىٰ مثلِ هـٰذا القلبِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وربَّ قلبٍ هـٰذا حالُهُ بالإضافةِ إلىٰ جميعِ الشهواتِ ، وربَّ قلبٍ هـٰذا حالُهُ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الشهواتِ ؛ كالذي يتورَّعُ عنْ بعضِ الأشياءِ ، ولكنَّه إذا رأىٰ وجهاً حسناً . . لمْ يملكْ عينَهُ وقلبَهُ ، وطاشَ عقلُهُ ، وسقطَ مِساكُ قلبِهِ .

أَوْ كالذي لا يملكُ نفسَهُ فيما فيهِ الجاهُ والرئاسةُ والكبْرُ ، ولا يبقىٰ معَهُ مُسْكَةٌ للتثبُّتِ عندَ ظهورِ أسبابِهِ .

أَوْ كالذي لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ مهما استُحقِرَ أَوْ ذُكِرَ عيبٌ مِنْ عيوبِهِ .

أَوْ كالذي لا يملكُ نفسَهُ عندَ القدرةِ علىٰ أخذِ درهمٍ أَوْ دينارٍ ، بلْ يتهالَكُ عليهِ تهالُكَ الوالِهِ المستهتَرِ ، فينسىٰ فيهِ المروءةَ والتقوىٰ ، وكلُّ ذلكَ لتصاعدِ دخانِ الهوىٰ إلى القلبِ حتَّىٰ يظلمَ وتنطفيءَ منهُ أنوارُهُ ، فينطفيءُ نورُ الحياءِ والمروءةِ والإيمانِ ، ويسعىٰ في تحصيلِ مرادِ الشيطانِ .

* * *

القلبُ الثالثُ : قلبٌ يبدو فيهِ خاطرُ الهوىٰ فيدعوهُ إلى الشرِّ ، فيلحقُهُ خاطرُ الإيمانِ فيدعوهُ إلى الخيرِ ، فتنبعثُ النفسُ بشهوتِها إلىٰ نصرةِ خاطرِ الشرِّ ، فتقوى الشهوةُ وتحسِّنُ التمتُّعَ والتنعُّمَ ، فينبعثُ العقلُ إلىٰ خاطرِ الخيرِ ، ويدفعُ في وجهِ الشهوةِ ، ويقبِّحُ فعلَها ، وينسبُها إلى الجهلِ ، ويشبهُها بالبهيمةِ والسبعِ في تهجُّمِها على الشرِّ ، وقلَّةِ اكتراثِها بالعواقبِ ، فتميلُ النفسُ إلىٰ نصْحِ العقلِ ، فيحملُ الشيطانُ حملةً على العقلِ ، فيقوِّي داعيَ الهوىٰ ، ويقولُ : ما هٰذا التحرُّجُ الباردُ ؟ ولِمَ تمتنعُ عنْ هواكَ فتؤذيَ نفسَكَ ؟

وهلْ ترىٰ أحداً مِنْ أهلِ عصرِكَ يخالفُ هواهُ ، أَوْ يتركُ غرضَهُ ؟ أفتتركُ

لهُمْ ملاذُّ الدنيا يتمتعونَ بها وتحجِّرُ علىٰ نفسِكَ حتَّىٰ تبقىٰ محروماً شقيّاً متعوباً[1] يضحكُ عليكَ أهلُ الزمانِ ؟!

أفتريدُ أنْ يزيدَ منصبُكَ علىٰ فلانٍ وفلانٍ وقدْ فعلوا مثلَ ما اشتهيتَ ولمْ يمتنعوا ؟!

أما ترى العالِمَ الفلانيَّ ليسَ يحترزُ مِنْ مثلِ ذلكَ ولوْ كانَ ذلكَ شرّاً.. لامتنعَ منهُ ؟

فتميلُ النفسُ إلى الشيطانِ ، وتنقلبُ إليهِ ، فيحملُ المَلَكُ حملةً على الشيطانِ ويقولُ : هلْ هلكَ إلا مَنِ اتبعَ لذَّةَ الحالِ ونسيَ العاقبةَ ؟ أفتقنعُ بلذَّةٍ يسيرةٍ وتتركُ لذَّةَ الجنةِ ونعيمَها أبدَ الآبادِ ؟

أَمْ تستثقلُ ألمَ الصبرِ عنْ شهوتِكِ ولا تستثقلُ ألمَ النارِ ؟

أتغترُّ بغفلةِ الناسِ عنْ أنفسِهِمْ واتباعِهِمْ هواهُمْ ومساعدتِهِمُ الشيطانَ معَ أنَّ عذابَ النارِ لا يخفِّفُهُ عنكَ معصيةُ غيرِكَ ؟

أرأيتَ لوْ كنتَ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ووقفَ الناسُ كلُّهُمْ في الشمسِ ، وكانَ لكَ بيتٌ باردٌ.. أكنتَ تساعدُ الناسَ أوْ تطلبُ لنفسِكَ الخلاصَ ؟ فكيفَ تخالفُ الناسَ خوفاً مِنْ حرِّ الشمسِ ولا تخالفُهُمْ خوفاً مِنْ حرِّ النارِ ؟!

---

(١) أي : متعباً ، ونصَّ الحافظ الزبيدي في « تاج العروس » (ت ع ب) علىٰ خطأ (متعوب) فقال : (ولا تقل : متعوب ؛ لمخالفة السماع والقياس ، وقيل : بل هو لحن ؛ لأن الثلاثي لازم ، واللازم لا يبنىٰ منه المفعول) .

فعندَ ذاكَ تمتثِلُ النفسُ إلىٰ قولِ المَلَكِ ، فلا يزالَ يتردَّدُ بينَ الجندينِ ، متجاذَباً بينَ الحزبينِ . . إلىٰ أنْ يغلبَ على القلبِ ما هوَ أولىٰ بهِ .

فإنْ كانَتِ الصفاتُ التي في القلبِ الغالبُ عليها الصفاتُ الشيطانيَّةُ التي ذكرناها . . غلبَ الشيطانُ ، ومالَ القلبُ إلىٰ جنسِهِ منْ أحزابِ الشيطانِ ، معرِضاً عنْ حزبِ اللهِ تعالىٰ وأوليائِهِ ، ومساعداً لحزبِ الشيطانِ وأعدائِهِ ، وجرىٰ علىٰ جوارحِهِ بسابقِ القدرِ ما هوَ سببُ بعدِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ كانَ الأغلبُ على القلبِ الصفاتِ الملكيَّةَ . . لمْ يصغِ القلبُ إلىٰ إغواءِ الشيطانِ وتحريضِهِ إيَّاهُ على العاجلةِ ، وتهوينِهِ أمرَ الآخرةِ ، بلْ مالَ إلىٰ حزبِ اللهِ تعالىٰ ، وظهرَتِ الطاعةُ بموجَبِ ما سبقَ مِنَ القضاءِ علىٰ جوارحِهِ .

فقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ؛ أيْ : بينَ تجاذبِ هـٰذينِ الجندينِ ، وهوَ الغالبُ ؛ أعني : التقلُّبَ والانتقالَ مِنْ حزبٍ إلىٰ حزبٍ ، أمَّا الثباتُ على الدوامِ معَ حزبِ الملائكةِ ، أوْ معَ حزبِ الشيطانِ . . فنادرٌ مِنَ الجانبينِ .

وهـٰذهِ الطاعاتُ والمعاصي تظهرُ مِنْ خزائنِ الغيبِ إلىٰ عالمِ الشهادةِ بواسطةِ خزانةِ القلبِ ؛ فإنَّهُ مِنْ خزائنِ الملكوتِ ، وهيَ أيضاً إذا ظهرَتْ . . كانَتْ علاماتٍ تعرِّفُ أربابَ القلوبِ سابقَ القضاءِ ، فمَنْ خُلِقَ للجنَّةِ . . يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الطاعاتِ ، ومَنْ خُلِقَ للنارِ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ المعاصي ،

وسُلِّطَ عليهِ أقرانُ السوءِ ، وأُلقيَ في قلبهِ حِكَمُ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ بأنواعِ الحكمِ يغرُّ الحمقىٰ بقولِهِ : (إنَّ اللهَ رحيمٌ ، فلا تبالِ ، وإنَّ الناسَ كلَّهُمْ ما يخافونَ اللهَ ، فلا تخالفْهُمْ ، وإنَّ العمرَ طويلٌ ، فاصبرْ حتَّىٰ تتوبَ غداً) ، يعدُهُمْ ويمنِّيهِمْ ، وما يعدُهُمُ الشيطانُ إلا غروراً ، يعدُهُمُ التوبةَ ، ويمنِّيهِمُ المغفرةَ ، فيهلكُهُمْ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بهٰذهِ الحيلِ وما يجرىٰ مَجراها ، فيوسِّعُ قلبَهُ لقبولِ الغرورِ ، ويضيِّقُهُ عنْ قبولِ الحقِّ .

وكلُّ ذلكَ بقضاءٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وقدرٍ ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ .

فهوَ الهادي والمضلُّ ، يفعلُ ما يشاءُ ، ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، خلقَ الجنَّةَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالطاعةِ ، وخلقَ النارَ ، وخلقَ لها أهلاً ، فاستعملَهُمْ بالمعاصي .

وعرَّفَ الخلقَ علامةَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النارِ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ فيما يروي عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النَّارِ ولا أبالي »(١) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٩) (٦/ ٤٤١) من حديث معاذ وأبي الدرداء رضي الله عنهما كذلك .

فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ جلَّ وعزَّ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ .

* * *

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ اليسيرِ مِنْ ذكرِ عجائبِ القلبِ ؛ فإنَّ استقصاءَهُ لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، وإنَّما ذكرنا منهُ ما يُحتاجُ إليهِ ؛ لمعرفةِ أغوارِ علومِ المعاملةِ وأسرارِها ؛ لينتفعَ بها مَنْ لا يقنعُ بالظواهرِ ، ولا يجتزىءَ بالقشرِ عنِ اللبابِ ، بلْ يتشوَّقُ إلىٰ معرفةِ دقائقِ حقائقِ الأسبابِ ، وفيما ذكرناهُ كفايةٌ لهُ ومقنعٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

* * *

تمّ كتاب عجائب القلب

وهو الكتاب الأوّل من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله وحده ، وصلواته على محمّد نبيّه وآله وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب رياضة النّفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

كتاب

رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي صرَّفَ الأمورَ بتدبيرِهِ ، وعدَّلَ تركيبَ الخلقِ فأحسنَ في تصويرِهِ ، وزيَّنَ صورةَ الإنسانِ بحسْنِ تقويمِهِ وتقديرِهِ ، وحرسَهُ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ في شكْلِهِ ومقاديرِهِ ، وفوَّضَ تحسينَ الأخلاقِ إلى اجتهادِ العبدِ وتشميرِهِ ، واستحثَّهُ علىٰ تهذيبِها بتخويفِهِ وتحذيرِهِ ، وسهَّلَ علىٰ خواصِّ عبادِهِ تهذيبَ الأخلاقِ بتوفيقِهِ وتيسيرِهِ، وامتنَّ عليهِمْ بتسهيلِ صعبِهِ وعسيرِهِ.

والصلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ عبدِ اللهِ ونبيِّهِ وحبيبِهِ وصفيِّهِ وبشيرِهِ ونذيرِهِ ، الذي كانَ يلوحُ نورُ النبوَّةِ مِنْ بينِ أساريرِهِ ، وتُستشفُّ حقيقةُ الحقِّ مِنْ مخايلِهِ وتباشيرِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ طهَّروا وجْهَ الإسلامِ منْ ظلمةِ الكفرِ ودياجيرِهِ ، وحسموا مادَّةَ الباطلِ فلمْ يتدنَّسوا بقليلِهِ ولا بكثيرِهِ .

أما بعد :

فالخُلُقُ الحسنُ صفةُ سيِّدِ المرسلينَ ، وأفضلُ أعمالِ الصِّدِّيقينَ ، وهوَ على التحقيقِ شطْرُ الدينِ(١) ، وثمرةُ مجاهدةِ المتقينَ ، ورياضةُ المتعبدينَ .

(١) وقد روى العقيلي في « الضعفاء » (٢/٣٦٦) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٧١٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « حسن الخلق نصف الدين » .

والأخلاقُ السيئةُ هيَ السمومُ القاتلةُ والمهلكاتُ الدامغةُ ، والمخازي الفاضحةُ ، والرذائلُ الواضحةُ ، والخبائثُ المبعدةُ عنْ جوارِ ربِّ العالمينَ ، المنخرطةُ بصاحبِها في سلْكِ الشياطينِ ، وهيَ الأبوابُ المفتوحةُ إلىٰ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، كما أنَّ الأخلاقَ الجميلةَ هيَ الأبوابُ المفتوحةُ مِنَ القلبِ إلىٰ نعيمِ الجنانِ وجوارِ الرحمـٰنِ .

والأخلاقُ الخبيثةُ أمراضُ القلوبِ ، وأسقامُ النفوسِ ، إلا أنَّهُ مرضٌ يفوِّتُ حياةَ الأبدِ ، وأينَ منهُ المرضُ الذي لا يفوِّتُ إلا حياةَ الجسدِ ؟!

ومهما اشتدَّتْ عنايةُ الأطباءِ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ الأبدانِ وليسَ في مرضِها إلا فوتُ الحياةِ الفانيةِ . . فالعنايةُ بضبطِ قوانينِ العلاجِ لأمراضِ القلوبِ وفي مرضِها فوتُ حياةٍ باقيةٍ أولىٰ ، وهـٰذا النوعُ مِنَ الطبِّ واجبٌ تعلُّمُهُ علىٰ كلِّ ذي لبٍّ(١) ؛ إذْ لا يخلو قلبٌ مِنَ القلوبِ عنْ أسقامٍ لوْ أُهملَتْ . . تراكمَتْ ، وترادفَتِ العللُ وتظاهرَتْ ، فيحتاجُ العبدُ إلىٰ تأنُّقٍ في معرفةِ عللِها وأسبابِها ، ثمَّ إلىٰ تشميرٍ في معالجتِها وإصلاحِها ، فمعالجتُها هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ وإهمالُها هوَ المرادُ بقولِهِ : ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ .

ونحنُ نشيرُ في هـٰذا الكتابِ إلىٰ جملٍ مِنْ أمراضِ القلوبِ ، وكيفيةِ

---

(١) وهـٰذا هو طب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أرسلهم الله تعالىٰ لتعليم الأمم كيف يجعلون القلب في كور المجاهدة ، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة ، وكيف يوردونه طريق الصفاء . « إتحاف » (٧/ ٣١٧) .

القولِ في معالجتِها على الجملةِ ، مِنْ غيرِ تفصيلٍ لعلاجِ خصوصِ الأمراضِ ؛ فإنَّ ذلكَ يأتي في بقيَّةِ الكتبِ مِنْ هـٰذا الربعِ ، وغرضُنا الآنَ النظرُ الكليُّ في تهذيبِ الأخلاقِ وتمهيدِ منهاجِها ، ونحنُ نذكرُ ذلكَ ، ونجعلُ علاجَ البدنِ مثالاً لهُ ، ليقربَ مِنَ الأفهامِ دركُهُ ، ويتضحُ ذلكَ ببيانِ فضيلةِ حسْنِ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ حقيقةِ حسْنِ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ قبولِ الأخلاقِ للتغييرِ بالرياضةِ ، ثمَّ بيانِ السببِ الذي بهِ يُنالُ حسنُ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ تفصيلِ الطرقِ إلىٰ تهذيبِ الأخلاقِ ورياضةِ النفوسِ ، ثمَّ بيانِ العلاماتِ التي بها يُعرفُ مرضُ القلبِ ، ثمَّ بيانِ الطرقِ التي بها يعرفُ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ، ثمَّ بيانِ شواهدِ النقلِ علىٰ أنَّ طريقَ المعالجةِ للقلوبِ بتركِ الشهواتِ لا غيرَ ، ثمَّ بيانِ علاماتِ حسْنِ الخلقِ ، ثمَّ بيانِ الطريقِ في رياضةِ الصبيانِ في أوَّلِ النشوءِ ، ثمَّ بيانِ شروطِ الإرادةِ ومقدماتِ المجاهدةِ .

فهيَ أحدَ عشرَ فصلاً تجمعُ مقاصدَ هـٰذا الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ وحبيبِهِ مثنياً عليهِ ومظهراً نعمتَهُ لديهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خلقُهُ القرآنَ)(١) .

وسألَ رجلٌ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حسنِ الخلقِ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ أنْ تصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ ، وتعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أثقلُ ما يُوضعُ في الميزانِ يومَ القيامةِ تقوى اللهِ وحسنُ الخلقِ »(٤) .

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم (٧٤٦) ، وأبو داوود (١٣٤٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٩١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ٢٣١٠) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أميِّ الصيرفي .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦١٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٢) .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ بينِ يديهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ يمينِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ قال : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ قبلِ شمالِهِ ، فقالَ يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فقالَ : « حسنُ الخلُقِ » ، ثمَّ أتاهُ مِنْ ورائِهِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الدينُ ؟ فالتفتَ إليهِ وقال : « أمَا تفقَهُ ؟! هوَ ألا تغضبَ »(١) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الشؤمُ ؟ قالَ : « سوءُ الخلُقِ »(٢) .

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها » ، قالَ : زدْني ، قالَ : « خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ »(٣) .

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « حسنُ الخلقِ »(٤) .

---

(١) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٥٢٥) ، والخرائطي أخصر منه في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٤) عن أبي العلاء بن الشخير مرسلاً .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، وعند أحمد في « المسند » (٦/ ٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الشؤم سوء الخلق » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) ، والمستوصي هو معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقريب منه عند الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه دون ذكر الاستيصاء .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٨٠) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حسَّنَ اللهُ خَلْقَ عبدٍ وخُلُقَهُ فيطعمَهُ النارَ »(١) .

وقالَ الفضيلُ : قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصومُ النهارَ وتقومُ الليلَ وهيَ سيئةُ الخلقِ ، تؤذي جيرانَها بلسانِها ، قالَ : « لا خيرَ فيها ، هيَ مِنْ أهلِ النارِ »(٢) .

وقالَ أبو الدرداءِ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أوَّلُ ما يُوضعُ في الميزانِ حسنُ الخلُقِ والسخاءُ ، ولمَّا خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ قوِّني ، فقوَّاهُ بحسْنِ الخلقِ والسخاءِ ، ولمَّا خلقَ اللهُ الكفرَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ قوِّني ، فقوَّاهُ بالبخلِ وسوءِ الخلقِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ استخلصَ هٰذا الدينَ لنفسِهِ ، ولا يصلحُ لدينِكُمْ إلا السخاءُ وحسنُ الخلقِ ، ألا فزيِّنوا دينَكُمْ بهما »(٤) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٧٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٤٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) .

(٣) هما خبران ، فقوله : « أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق » وليس فيه عطف السخاء . . فقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٤٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٥٢) من حديث أم الدرداء رضي الله عنها ، وتقدم أن أصله عند أبي داوود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) ، وباقي الحديث رواه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/ ٩٦) بسنده عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وبيَّن تلفه بمحمد بن تميم الفاريابي .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/ ١٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٩) من =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حسنُ الخلُقِ خلقُ اللهِ الأعظمُ »(١) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ المؤمنينَ أفضلُ إيماناً ؟ قالَ : « أحسنُهُمْ خُلُقاً »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكُمْ لنْ تسعوا الناسَ بأموالِكُمْ ، فسعوهُمْ ببسْطِ الوجهِ وحسْنِ الخُلُقِ »(٣) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سوءُ الخلقِ يفسدُ العملَ كما يفسدُ الخلُّ العسلَ »(٤) .

وعنْ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكَ امرؤٌ قدْ حسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فحسِّنْ خُلُقَكَ »(٥) .

= حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما ، وبنحوه عند الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه ، وقال الحافظ العراقي : (رواه الدارقطني في « المستجاد » ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين) . « إتحاف » (٧/ ٣٢٠) .

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٧٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه أبو داوود (٤٦٨٢) ، والترمذي (١١٦٢) ، وابن ماجه (٤٢٥٩) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٤٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٥٠) ، والبزار في « مسنده » (٨٥٤٤) .

(٤) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (٧٩٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٢٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٤٨) .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧) وكان جرير من أحسن الناس خلقاً ، وقد أعطي شطر الحسن في جسمه . « إتحاف » (٧/ ٣٢١) .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحسنَ الناسِ وجهاً ، وأحسنَهُمْ خلقاً)(١) .

وعنْ أبي مسعودٍ البدريِّ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ حسَّنْتَ خَلْقي فحسِّنْ خُلُقي »(٢) .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ الدعاءَ فيقولُ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الصحةَ والعافيةَ وحسنَ الخلقِ »(٣) .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كرمُ المرْءِ دينُهُ ، ومروءتُهُ عقلُهُ ، وحَسَبُهُ خلقُهُ »(٤) .

وعنْ أسامةَ بنِ شريكٍ قالَ : شهدتُ الأعاريبَ يسألونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : ما خيرُ ما أُعطيَ العبدُ ؟ قالَ : « خلُقٌ حسنٌ »(٥) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٩) ، قال الحافظ العراقي : (هكذا من رواية أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري ، وإنما هو ابن مسعود ، وهو عبد الله ، هكذا رواه ابن حبان في « صحيحه » ، ورواه أحمد من حديث عائشة) . « إتحاف » (٧/ ٣٢٢).

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٠) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٦٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٨٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ١٢٣) ، وفي (ب) : (كرم المؤمن دينه . . .) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٤٣٦) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إليَّ وأقربَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ أحاسنُكُمْ أخلاقاً »(١) .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ لمْ تكنْ فيهِ أوْ واحدةٌ منهُنَّ فلا تعتدَّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىً تحجزُهُ عَنْ معاصي اللهِ ، أوْ حِلمٌ يكُفُّ بهِ السّفيهَ ، أوْ خلقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »(٢) .

وكانَ مِنْ دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في افتتاحِ الصلاةِ : « اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ »(٣) .

وقالَ أنسٌ : « بينما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً إذْ قالَ : « إنَّ حسنَ الخلقِ ليذيبُ الخطيئةَ كما تذيبُ الشمسُ الجليدَ »(٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ سعادةِ المرءِ حسنُ الخلُقِ »(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨) ضمن خبر ، وكما أورده المصنف رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٣٠٧/٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم (٧٧١) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤١) ، وورواه البيهقي في « الشعب » (٧٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٧٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليُمْنُ حسْنُ الخلُقِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبي ذرٍّ : « يا أبا ذرٍّ ؛ لا عقلَ كالتدبيرِ ، ولا حسَبَ كحسنِ الخلقِ »[2] .

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَتْ أمُّ حبيبةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ المرأةَ منَّا يكونُ لها زوجانِ في الدنيا ، فتموتُ ويموتانِ ، ويدخلونَ الجنَّةَ ، لأيِّهما هيَ ؟ قالَ : « لأحسنِهما خُلُقاً كانَ عندَها في الدنيا ، يا أمَّ حبيبةَ ؛ ذهبَ حسْنُ الخلقِ بخيرِي الدنيا والآخرةِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المسلمَ المسدَّدَ ليدركُ درجةَ الصائمِ القائمِ بحسْنِ خلقِهِ وكرمِ ضريبتِهِ »[4] ، وفي روايةٍ : « درجةَ الظمآنِ في الهواجرِ »[5] .

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢١٨) .

(٣) رواه عبد بن حميد في « مسنده » (١٢١٣) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٢٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ٣٧١) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٣ ، ٦٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، **والضريبة** : الطبيعة .

(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ سمرةَ : كنَّا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « إنِّي رأيتُ البارحةَ عجباً ، رأيتُ رجلاً مِنْ أمَّتي جاثياً علىٰ ركبتيهِ ، وبينَهُ وبينَ اللهِ حجابٌ ، فجاءَ حسْنُ خلقِهِ فأدخلَهُ على اللهِ تعالىٰ »(١) .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليبلغُ بحسْنِ خلقِهِ عظيمَ درجاتِ الآخرةِ وشرفَ المنازلِ وإنَّهُ لضعيفٌ في العبادةِ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ استأذنَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ نساءٌ مِنْ نساءِ قريشٍ يكلمنَهُ ويستكثرنَهُ عاليةً أصواتُهُنَّ علىٰ صوتِهِ ، فلمَّا استأذنَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . تبادرنَ الحجابَ ، فدخلَ عمرُ ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكُ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أضحكَ اللهُ سنَّكَ ، بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « عجبتُ لهؤلاءِ اللاتي كُنَّ عندي ! لمَّا سمعنَ صوتَكَ . . تبادرنَ الحجابَ » ، فقالَ عمرُ : أنتَ كنتَ أحقَّ أنْ يهبنَكَ يا رسولَ اللهِ ، ثمَّ أقبلَ عليهِنَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : أيْ عدوَّاتِ أنفسِهِنَّ ؛ أتهبنَني ولا تهبنَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! قلنَ : نعمْ ، أنتَ أغلظُ وأفظُّ مِنْ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيهاً يا بنَ الخطابِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما لقيَكَ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٨١) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٦٠) .

الشيطانُ قطُّ سالكاً فجّاً إلاَّ سلكَ فجّاً غيرَ فجِّكَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سوءُ الخلُقِ ذنبٌ لا يُغفرُ ، وسوءُ الظَّنِّ خطيئةٌ تفوحُ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ العبدَ ليبلغُ مِنْ سوءِ خلقِهِ أسفلَ دَرَكِ جهنَّمَ »(٣) .

* * *

الآثارُ :

قالَ ابنُ لقمانَ الحكيمِ لأبيهِ : يا أبتِ ؛ أيُّ الخصالِ مِنَ الإنسانِ خيرٌ ؟ قالَ : الدينُ ، قالَ : فإذا كانَتِ اثنتينِ ؟ قالَ : الدينُ والمالُ ، قالَ : فإذا كانَتْ ثلاثاً ؟ قالَ : الدينُ والمالُ والحياءُ ، قالَ : فإذا كانَتْ أربعاً ؟ قالَ : الدينُ والمالُ والحياءُ وحسنُ الخلقِ ، قالَ : فإذا كانَتْ خمساً ؟ قالَ : الدينُ والمالُ والحياءُ وحسْنُ الخلقِ والسخاءُ ، قالَ : فإذا كانَتْ ستّاً ؟ قالَ :

---

(١) رواه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٧) ، ولفظ المصنف عند الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٦٦) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وتفوح : تنتج الشرور ، وهـٰذا المعنىٰ رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق ؛ فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه » .

(٣) هو بعض حديث : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه. . . » المتقدم .

يا بنيَّ ؛ إذا اجتمعَتْ فيهِ الخمسُ الخصالُ . . فهوَ تقيٌّ نقيٌّ ، للهِ وليٌّ ، ومِنَ الشيطانِ بريٌّ(١) .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ ساءَ خلقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)(٢) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (إنَّ العبدَ ليبلغُ بحسْنِ خلقِهِ أعلىٰ درجةٍ في الجنَّةِ وهوَ غيرُ عابدٍ ، ويبلغُ بسوءِ خلقِهِ أسفلَ دركٍ في جهنَّمَ وهوَ عابدٌ)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (في سعةِ الأخلاقِ كنوزُ الأرزاقِ)(٤) .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (مثلُ السيِّءِ الخلقِ كمثلِ الفخَّارةِ المكسورةِ ، لا تُرقعُ ، ولا تعادُ طيناً) .

وقالَ الفضيلُ : (لأنْ يصحبَني فاجرٌ حسنُ الخلقِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يصحبَني عابدٌ سيِّءُ الخلقِ)(٥) .

وصحبَ ابنَ المباركِ رجلٌ سيِّءُ الخلقِ في سفرٍ ، فكانَ يحتملُ منهُ ويداريهِ ، فلمَّا فارقَهُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : بكيتُهُ رحمةً لهُ ، فارقتُهُ وخلقُهُ معَهُ لمْ يفارقْهُ .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٨٣) .
(٣) تقدم قريباً من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) من غير نسبة .
(٥) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٦٤) .

وقالَ الجنيدُ : (أربعٌ ترفعُ العبدَ إلىٰ أعلى الدرجاتِ وإنْ قلَّ عملُهُ وعلمُهُ ؛ الحلمُ ، والتواضعُ ، والسخاءُ ، وحسْنُ الخلقِ ، وهوَ كمالُ الإيمانِ)(١) .

وقالَ الكتانيُّ : (التصوُّفُ خلقٌ ، فمَنْ زادَ عليكَ في الخلقِ .. زادَ عليكَ في التصوُّفِ)(٢) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (خالطوا الناسَ بالأخلاقِ ، وزايلوهُمْ بالأعمالِ)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (سوءُ الخلقِ سيئةٌ لا تنفعُ معها كثرةُ الحسناتِ ، وحسْنُ الخلقِ حسنةٌ لا تضرُّ معَها كثرةُ السيئاتِ)(٤) .

وسُئِلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : ما الكرمُ ؟ فقالَ : هوَ ما بيَّنَ اللهُ في كتابِهِ العزيزِ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، قيلَ : فما الحسبُ ؟ قالَ : أحسنُكُمْ خُلُقاً أفضلُكُمْ حسباً(٥) .

وقيلَ : (لكلِّ بنيانٍ أساسٌ ، وأساسُ الإسلامِ حسْنُ الخلقِ)(٦) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤٠) .
(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤١٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .
(٥) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٩٩) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٤٠) من كلام عكرمة رحمه الله تعالىٰ .

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (ما ارتفعَ مَنِ ارتفعَ إلا بالخُلقِ الحسنِ ، ولمْ ينلْ أحدٌ كمالَهُ إلا المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقربُ الخلْقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ السالكونَ آثارَهُ بحسْنِ الخلُقِ)[1] .

* * *

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤١) .

بيان حقيقة حسن الخُلق وسوء الخُلق

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدْ تكلَّموا في حقيقةِ حسْنِ الخلقِ ، وأنَّهُ ما هوَ ؟ وما تعرَّضوا لحقيقتِهِ ، وإنَّما تعرَّضوا لثمرتِهِ ، ثمَّ لمْ يستوعبوا جميعَ ثمراتِهِ ، بلْ ذكرَ كلُّ واحدٍ مِنْ ثمراتِهِ ما خطرَ لهُ ، وما كانَ حاضراً في ذهنِهِ ، ولمْ يصرفوا العنايةَ إلىٰ ذكرِ حدِّهِ ، وحقيقتِهِ المحيطةِ بجميعِ ثمراتِهِ على التفصيلِ والاستيعابِ ، وذلكَ كقولِ الحسنِ : (حسْنُ الخلقِ بسطُ الوجهِ ، وبذلُ الندىٰ ، وكفُّ الأذىٰ)(١) .

وقالَ الواسطيُّ : (هوَ ألا يخاصمَ ولا يُخاصمَ مِنْ شدَّةِ معرفتِهِ باللهِ تعالىٰ)(٢) .

وقالَ شاهُ الكرمانيُّ : (هوَ كفُّ الأذىٰ ، واحتمالُ المؤنِ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ أنْ يكونَ مِنَ الناسِ قريباً ، وفيما بينَهُمْ غريباً)(٤) .

وقالَ الواسطيُّ مرَّةً : (هوَ إرضاءُ الخلْقِ في السرَّاءِ والضرَّاءِ)(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٥) عن عبد الله بن المبارك .
(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٠) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١١) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٣) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) وفيه : (حسن الخلق أرضى الخلق في السراء والضراء) .

وقالَ أبو عثمانَ : (هوَ الرضا عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ)(١) .

وسُئِلَ سهلٌ التستريُّ عنْ حسْنِ الخلُقِ فقالَ : (أدناهُ الاحتمالُ ، وتركُ المكافأةِ ، والرحمةُ للظالمِ ، والاستغفارُ لهُ ، والشفقةُ عليه)(٢) .

وقالَ مرَّةً : (ألاَّ تتهمَ الحقَّ في الرزقِ ، وتثقَ بهِ ، وتَسكنَ إلى الوفاءِ بما ضمنَ ، فتطيعُهُ ولا تعصيهِ في جميعِ الأمورِ فيما بينَكَ وبينَهُ ، وفيما بينَكَ وبينَ الخلقِ)(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (حسْنُ الخلقِ في ثلاثِ خصالٍ : اجتنابُ المحارمِ ، وطلبُ الحلالِ ، والتوسعةُ على العيالِ)(٤) .

وقالَ الحسينُ بنُ منصورٍ : (هوَ ألا يؤثرَ فيكَ جفاءُ الخلْقِ بعدَ مطالعتِكَ للحقِّ)(٥) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : (هوَ ألا يكونَ لك همَّةٌ غيرَ اللهِ تعالىٰ)(٦) .

فهـٰذا وأمثالُهُ كثيرٌ ، وهو تعرُّضٌ لثمراتِ حسْنِ الخلقِ لا لنفسِهِ ، ثمَّ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٤٠) .
(٥) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٠) .
(٦) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٠) .

ليسَ هوَ محيطاً بجميعِ الثمراتِ أيضاً[1] ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الحقيقةِ أولىٰ مِنْ نقلِ الأقاويلِ المختلفةِ .

* * *

فنقولُ : الخلْقُ والخلُقُ عبارتانِ مستعملتانِ معاً ، يقالُ : (فلانٌ حسنُ الخلْقِ والخلُقِ) أيْ : حسنُ الظاهرِ والباطنِ ، فيُرادُ بالخلْقِ الصورةُ الظاهرةُ ، ويُرادُ بالخُلُقِ الصورةُ الباطنةُ ، وذلكَ لأنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جسدٍ مدرَكٍ بالبصرِ ، ومِنْ روحٍ ونفسٍ مدركَةٍ بالبصيرةِ ، ولكلٍّ واحدٍ منهُما هيئةٌ وصورةٌ ؛ إمَّا قبيحةٌ ، وإمَّا جميلةٌ .

والنفسُ المدركَةُ بالبصيرةِ أعظمُ قدراً مِنَ الجسدِ المدرَكِ بالبصرِ ، ولذلكَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَهُ بإضافتِهِ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ الجسدَ منسوبٌ إلى الطينِ ، والروحَ إلىٰ ربِّ العالمينَ ، والمرادُ بالروحِ والنفسِ في هٰذا المقامِ واحدٌ .

فالخُلُقُ : عبارةٌ عنْ هيئةٍ في النفسِ راسخةٍ ، عنها تصدُرُ الأفعالُ بسهولةٍ ويسرٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ فكرٍ ورويَّةٍ .

---

(١) والعذر لهم في ذلك : أن الأخلاق لها ثمرات كثيرة ، ومكارمها غير محصورة ، وإحاطتها في جملة واحدة متعسرة ، ولها مراتب عليا وسفلىٰ ، وبينهما أوساط ، وكل قد أشار إلىٰ مرتبة من مراتبها بحسب الاقتضاء . « إتحاف » (٧/ ٣٢٦) .

فإنْ كانَتِ الهيئةُ بحيثُ تصدرُ عنها الأفعالُ الجميلةُ المحمودةُ عقلاً وشرعاً. . سُمِّيَتْ تلكَ الهيئةُ خُلُقاً حسناً .

وإنْ كانَ الصادرُ عنها الأفعالَ القبيحةَ. . سُمِّيَتِ الهيئةُ التي هيَ المصدرُ خُلُقاً سيئاً .

وإنَّما قلنا : (إنَّها هيئةٌ راسخةٌ) لأنَّ مَنْ يصدرُ منهُ بذْلُ المالِ على الندورِ لحاجةٍ عارضةٍ. . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ) ما لمْ يثبتْ ذلكَ في نفسِهِ ثبوتَ رسوخٍ .

وإنَّما اشترطنا أنْ تصدرَ منهُ الأفعالُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ رويَّةٍ لأنَّ مَنْ تكلَّفَ بذْلَ المالِ أوِ السكوتَ عندَ الغضبِ بجهْدٍ ورويَّةٍ. . لا يُقالُ : (خلقُهُ السخاءُ والحِلْمُ) .

فهٰهنا أربعةُ أمورٍ :

أحدُها : فعلُ الجميلِ والقبيحِ .

والثاني : القدرةُ عليهما .

والثالثُ : المعرفةُ بهما .

والرابعُ : هيئةٌ للنفسِ بها تميلُ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، ويتيسَّرُ عليها أحدُ الأمرينِ ، إمَّا الحسنُ وإمَّا القبيحُ .

وليسَ الخُلُقُ عبارةً عنِ الفعلِ : فربَّ شخصٍ خلقُهُ السخاءُ ولا يبذُلُ ،

إمَّا لفقدِ المالِ أوْ لمانعٍ ، وربَّما يكونُ خلقُهُ البخلَ وهوَ يبذُلُ إمَّا لباعثٍ أوْ لرياءٍ .

وليسَ هوَ عبارةً عنِ القوَّةِ : لأنَّ نسبةَ القوَّةِ إلى الإمساكِ والإعطاءِ بلْ إلى الضدينِ واحدٌ ، وكلُّ إنسانٍ خُلِقَ بالفطرةِ قادراً على الإعطاءِ والإمساكِ ، وذلكَ لا يوجبُ خُلُقَ البخلِ ولا خُلُقَ السخاءِ .

وليسَ عبارةً عنِ المعرفةِ : فإنَّ المعرفةَ تتعلَّقُ بالجميلِ والقبيحِ جميعاً علىٰ وجهٍ واحدٍ .

بلْ هوَ عبارةٌ عنِ المعنى الرابعِ ، وهوَ الهيئةُ التي بها تستعدُّ النفسُ لأنْ يصدرَ منها الإمساكُ أوِ البذلُ ، فالخُلُقُ إذاً عبارةٌ عنْ هيئةِ النفسِ وصورتِها الباطنةِ .

وكما أنَّ حسْنَ الصورةِ الظاهرةِ مطلقاً لا يتمُّ بحسْنِ العينينِ دونَ الأنفِ والفمِ والخدِّ ، بلْ لا بدَّ مِنْ حسْنِ الجميعِ ليتمَّ حسنُ الظاهرِ . فكذلكَ في الباطنِ أربعةُ أركانٍ لا بدَّ مِنَ الحسنِ في جميعِها حتَّىٰ يتمَّ حسْنُ الخلقِ ، فإذا استوتِ الأركانُ الأربعةُ ، واعتدلَتْ وتناسبَتْ . حصلَ حسْنُ الخلقِ ، وهوَ قوَّةُ العلمِ ، وقوَّةُ الغضبِ ، وقوَّةُ الشهوةِ ، وقوَّةُ العدْلِ بينَ هـٰذهِ القوى الثلاثِ .

أمَّا قوَّةُ العلم : فحسنُها وصلاحُها في أنْ تصيرَ بحيثُ يسهلُ بها درْكُ الفرقِ بينَ الصدْقِ والكذبِ في الأقوالِ ، وبينَ الحقِّ والباطلِ في

الاعتقاداتِ ، وبينَ الجميلِ والقبيحِ في الأفعالِ ، فإذا صلحَتْ هٰذهِ القوَّةُ . . حصلَ منها ثمرةُ الحكمةِ ، والحكمةُ رأسُ الأخلاقِ الحسنةِ ، وهيَ التي قالَ اللهُ تعالىٰ فيها : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وأمَّا قوَّةُ الغضبِ : فحسنُها في أنْ يصيرَ انقباضُها وانبساطُها علىٰ حدِّ ما تقتضيهِ الحكمةُ .

وكذلكَ الشهوةُ : حسنُها وصلاحُها في أنْ تكونَ تحتَ إشارةِ الحكمةِ ؛ أعني : إشارةَ الدينِ والعقلِ .

وأمَّا قوَّةُ العدْلِ : فهوَ ضبْطُ الغضبِ والشهوةِ تحتَ إشارةِ العقلِ والشرعِ (١) .

فالعقلُ مثالُهُ مثالُ الناصحِ المشيرِ ، وقوَّةُ العدلِ هيَ القدرةُ ، ومثالُها مثالُ المنفذِ الممضي لإشارةِ العقلِ ، والغضبُ هوَ الذي تنفذُ فيهِ الإشارةُ ، ومثالُهُ مثالُ كلبِ الصيدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلىٰ أن يؤدَّبَ حتَّىٰ يكونَ استرسالُهُ وتوقفُهُ بحسَبِ الإشارةِ لا بحسَبِ هيجانِ شهوةِ النفسِ ، والشهوةُ مثالُها مثالُ الفرسِ الذي يُركبُ في طلبِ الصيدِ ؛ فإنَّهُ تارةً يكونُ مروضاً مؤدّباً ، وتارةً يكونُ جموحاً .

فمنِ استوَتْ فيهِ هٰذِهِ الخصالُ واعتدلَتْ . . فهوَ حسَنُ الخلقِ مطلقاً .

ومَنِ اعتدلَ فيهِ بعضُها دونَ بعضٍ . . فهوَ حسَنُ الخلقِ بالإضافةِ إلىٰ ذلكَ

---

(١) وعن العدل بين هٰذه القوىٰ وسَّع المصنف الكلام في « ميزان العمل » (ص٢٧٢) .

المعنىٰ خاصةً ؛ كالذي يحسُنُ بعضُ أجزاءِ وجهِهِ دونَ بعضٍ .

وحسْنُ القوّةِ الغضبيّةِ واعتدالُها يُعبَّرُ عنها بالشجاعةِ ، وحسْنُ قوّةِ الشهوةِ واعتدالُها يُعبَّرُ عنها بالعفَّةِ ، فإنْ مالَتْ قوّةُ الغضبِ عنِ الاعتدالِ إلىٰ طرفِ الزيادةِ تُسمَّىٰ تهوُّراً ، وإنْ مالَتْ إلى الضعفِ والنقصانِ تُسمَّىٰ جبناً وخَوَراً ، وإنْ مالَتْ قوّةُ الشهوةِ إلىٰ طرفِ الزيادةِ تُسمَّىٰ شَرَهاً ، وإنْ مالَتْ إلى النقصانِ تُسمَّىٰ جموداً ، والمحمودُ هوَ الوسطُ ، وهوَ الفضيلةُ ، والطرفانِ رذيلتانِ مذمومتانِ .

والعدلُ إذا فاتَ . . فليسَ لهُ طرفانِ ؛ زيادةٌ ونقصانٌ ، بلْ لهُ ضدٌّ واحدٌ ومقابلٌ ، وهوَ الجورُ .

وأمّا الحكمةُ . . فيُسمَّىٰ إفراطُها عندَ الاستعمالِ في الأغراضِ الفاسدةِ خِبّاً ودهاءً وجَرْبَزَةً[1] ، ويُسمَّىٰ تفريطُها بَلَهاً ، والوسطُ هوَ الذي يختصُّ باسمِ الحكمةِ .

❊ ❊ ❊

فإذاً ؛ أمهاتُ الأخلاقِ وأصولُها أربعةٌ : الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفَّةُ ، والعدْلُ .

ونعني **بالحكمةِ** : حالةً للنفسِ بها يُدرَكُ الصوابُ مِنَ الخطأِ في جميعِ الأفعالِ الاختياريةِ .

---

(١) **الجربزة** : الشطارة والخبث في المعاملة .

ونعني **بالعدْلِ** : حالةً للنفسِ وقوَّةً بها تسوسُ الغضبَ والشهوةَ ، وتحملُهُما علىٰ مقتضى الحكمةِ ، وتضبطُهُما في الاسترسالِ والانقباضِ علىٰ حسَبِ مقتضاها .

ونعني **بالشجاعةِ** : كونَ قوَّةِ الغضبِ منقادةً للعقلِ في إقدامِها وإحجامِها .

ونعني **بالعفَّةِ** : تأدُّبَ قوَّةِ الشهوةِ بتأديبِ العقلِ والشرعِ .

فمِنِ اعتدالِ هـٰذهِ الأصولِ الأربعةِ تصدرُ الأخلاقُ الجميلةُ كلُّها .

إذْ مِن اعتدالِ قوَّةِ العقلِ يصدُرُ حسنُ التدبيرِ ، وجودةُ الذهنِ ، وثقابةُ الرأيِ ، وإصابةُ الظنِّ ، والتفطُّنُ لدقائقِ الأعمالِ وخفايا آفاتِ النفوسِ ، ومِنْ إفراطِها تصدرُ الجربزةُ ، والمكرُ ، والخداعُ ، والدهاءُ ، ومِنْ تفريطِها يصدرُ البلهُ ، والغمارةُ ، والحمْقُ ، والجنونُ ، وأعني بالغمارةِ : قلَّةَ التجربةِ في الأمورِ معَ سلامةِ التخيُّلِ ، فقدْ يكونُ الإنسانُ غُمْراً في شيءٍ دونَ شيءٍ .

والفرقُ بينَ الحمقِ والجنونِ : أنَّ الأحمقَ مقصودُهُ صحيحٌ ، ولكنْ سلوكُهُ للطريقِ فاسدٌ ، فلا تكونُ له رويَّةٌ صحيحةٌ في سلوكِ الطريقِ الموصلِ إلى الغرضِ ، وأمَّا المجنونُ . . فإنَّهُ يختارُ ما لا ينبغي أنْ يختارَ ، فيكونُ أصلُ اختيارِهِ وإيثارِهِ فاسداً .

وأمَّا خلُقُ الشجاعةِ . . فيصدرُ منهُ الكرمُ ، والنجدةُ ، والشهامةُ ، وكِبْرُ

النفسِ[1] ، والاحتمالُ ، والحلمُ ، والثباتُ ، وكظمُ الغيظِ ، والوقارُ ، والتؤدةُ ، وأمثالُها ، وهيَ أخلاقٌ محمودةٌ .

وأمَّا إفراطُها وهوَ التهوُّرُ . . فيصدرُ منهُ الصلفُ ، والبذْخُ ، والاستشاطةُ ، والتكبُّرُ ، والعجْبُ .

وأمَّا تفريطُها . . فيصدرُ منهُ المهانةُ ، والذلَّةُ ، والجزعُ ، والخساسةُ ، وصغرُ النفسِ ، والانقباضُ عنْ تناولِ الحقِّ الواجبِ .

وأمَّا خلقُ العفَّةِ . . فيصدرُ منهُ السخاءُ ، والحياءُ ، والصبرُ ، والمسامحةُ ، والقناعةُ ، والورعُ ، والطلاقةُ ، والمساعدةُ ، والظَّرْفُ ، وقلَّةُ الطمعِ .

وأمَّا ميلُها إلى الإفراطِ أوِ التفريطِ . . فيصدرُ منهُ الحرْصُ ، والشَّرَهُ ، والوقاحةُ ، والخبْثُ ، والتبذيرُ ، والتقتيرُ ، والرياءُ ، والهتكةُ ، والمجانةُ ، والعبثُ ، والملَقُ ، والحسَدُ ، والشماتةُ ، والتذلُّلُ للأغنياءِ ، واستحقارُ الفقراءِ ، وغيرُ ذلكَ .

فأمَّهاتُ محاسنِ الأخلاقِ هٰذهِ الفضائلُ الأربعةُ ، وهيَ الحكمةُ ، والشجاعةُ ، والعفةُ ، والعدْلُ ، والباقي فروعُها .

ولمْ يبلغْ كمالَ الاعتدالِ في هٰذهِ الأربعِ إلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

(١) أي : كبر همتها ، والكبير الهمة هو الذي لا يرضىٰ بالهمم الحيوانية قدر وسعه . « إتحاف » (٧/ ٣٣٠) .

وسلَّمَ ، والناسُ بعدَهُ متفاوتونَ في القرْبِ والبعدِ منهُ ، فكلُّ مَنْ قربَ منهُ في هٰذهِ الأخلاقِ فهوَ قريبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قربِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وكلُّ مَنْ جمعَ كمالَ هٰذهِ الأخلاقِ . . استحقَّ أن يكون بينَ الخلقِ ملكاً مطاعاً يرجعُ الخلقُ كلُّهُمْ إليهِ ، ويقتدونَ بهِ في جميعِ الأفعالِ ، ومَنِ انفكَّ عنْ جملةِ هٰذهِ الأخلاقِ كلِّها ، واتصفَ بأضدادِها . . استحقَّ أنْ يخرجَ مِنْ بينِ العبادِ والبلادِ ؛ فإنَّهُ قدْ قربَ مِنَ الشيطانِ اللعينِ المبعَدِ ، فينبغي أنْ يُبعَدَ ، كما أنَّ الأوَّلَ قريبٌ مِنَ المَلَكِ المقرَّبِ ، فينبغي أنْ يُقتدىٰ بهِ ويُتقرَّبَ إليهِ ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يُبعثْ إلا ليتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ(١) .

وقد أشارَ القرآنُ إلىٰ هٰذهِ الأخلاقِ في أوصافِ المؤمنينَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

فالإيمانُ باللهِ ورسولِهِ مِنْ غيرِ ارتيابٍ هوَ قوَّةُ اليقينِ ، وهوَ ثمرةُ العقلِ ومنتهى الحكمةِ ، والمجاهدةُ بالمالِ هوَ السخاءُ الذي يرجعُ إلىٰ ضبْطِ قوَّةِ الشهوةِ ، والمجاهدةُ بالنفسِ هيَ الشجاعةُ التي ترجعُ إلى استعمالِ قوَّةِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦١٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٢) .

الغضبِ علىٰ شرْطِ العقلِ وحدِّ الاعتدالِ ، فقدْ وصفَ اللهُ تعالى الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ فقالَ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إشارةً إلىٰ أنَّ للشدَّةِ موضعاً وللرحمةِ موضعاً ، فليسَ الكمالُ في الشدَّةِ بكلِّ حالٍ ، ولا في الرحمةِ بكلِّ حالٍ .

فهـٰذا بيانُ معنى الخلُقِ وحسنِهِ وقبحِهِ ، وبيانُ أركانِهِ وثمراتِهِ وفروعِهِ .

❋ ❋ ❋

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلمْ : أنَّ بعضَ مَنْ غلبَتِ البطالةُ عليهِ . استثقلَ المجاهدةَ والرياضةَ ، والاشتغالَ بتزكيةِ النفسِ وتهذيبِ الأخلاقِ ، فلمْ تسمحْ نفسُهُ بأنْ يكونَ ذلكَ ؛ لقصورِهِ ونقصِهِ وخبْثِ دُخْلَتِهِ ، فزعمَ أنَّ الأخلاقَ لا يُتصوَّرُ تغييرُها ، وأنَّ الطباعَ لا تتغيَّرُ ، واستدلَّ فيهِ بأمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ الخلُقَ هوَ صورةُ الباطنِ ، كما أنَّ الخَلْقَ هوَ صورةُ الظاهرِ ، فالخلقةُ الظاهرةُ لا يُقدَرُ علىٰ تغييرِها ، فالطويلُ لا يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ قصيراً ، ولا القصيرُ يقدرُ أنْ يجعلَ نفسَهُ طويلاً ، ولا القبيحُ يقدرُ علىٰ تحسينِ صورتِهِ ؛ فكذلكَ القبحُ الباطنُ يجري هٰذا المجرىٰ .

والثاني : أنَّهُمْ قالوا : حسنُ الخلقِ إنَّما يحصلُ بقمعِ الشهوةِ والغضبِ ، وقدْ جرَّبنا ذلكَ بطولِ المجاهدةِ ، وعرفنا أنَّ ذلكَ مِن مقتضى المزاجِ والطبعِ ، وأنَّهُ قطُّ لا ينقطعُ عنِ الآدميِّ ، فاشتغالُهُ بهِ تضييعُ زمانٍ بغيرِ فائدةٍ ؛ فإنَّ المطلوبَ هوَ قطعُ التفاتِ القلبِ إلى الحظوظِ العاجلةِ ، وذلكَ محالٌ وجودُهُ .

* * *

فنقولُ : لوْ كانَتِ الأخلاقُ لا تقبلُ التغييرَ . لبطلَتِ الوصايا والمواعظُ

والتأديباتُ ، ولما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسِّنوا أخلاقَكُمْ »![1] .

وكيفَ يُنكرُ هٰذا في حقِّ الآدميِّ وتغييرُ خلُقِ البهيمةِ ممكنٌ ؛ إذْ يُنقلُ البازي مِنَ الاستيحاشِ إلى الأُنْسِ ، والكلبُ مِنْ شرَهِ الأكلِ مِنَ الصيدِ إلى التأدُّبِ والإمساكِ والتخليةِ ، والفرسُ مِنَ الجماحِ إلى السلاسةِ والانقيادِ ، وكلُّ ذلكَ تغييرٌ للأخلاقِ ؟!

والقولُ الكاشفُ للغطاءِ عنْ ذلكَ أنْ نقولَ : الموجوداتُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا مدخلَ لاختيارِ الآدميِّ في أصلِهِ وتفصيلِهِ ؛ كالسماءِ والكواكبِ ، بلْ أعضاءِ البدنِ داخلاً وخارجاً ، وسائرِ أجزاءِ الحيواناتِ ، وبالجملةِ : كلُّ ما هوَ حاصلٌ كاملٌ وقعَ الفراغُ مِنْ وجودِهِ وكمالِهِ .

وإلىٰ ما وُجِدَ وجوداً ناقصاً وجُعِلَ فيهِ قوَّةٌ لقبولِ الكمالِ بعدَ أنْ وُجِدَ شرطُهُ ، وشرطُهُ قدْ يرتبطُ باختيارِ العبدِ ؛ فإنَّ النواةَ ليسَتْ بتفاحٍ ولا نخلٍ ، إلا أنَّها خُلقَتْ خلقةً يمكنُ أنْ تصيرَ نخلةً إنِ انضافَتِ التربيةُ إليها ، ولا تصيرُ تفاحاً أصلاً ، ولا بالتربيةِ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث معاذ : « يا معاذ ؛ حسن خلقك للناس » ، منقطع ورجاله ثقات) . « إتحاف » (٧/ ٣٣٢) ، ولا يخفىٰ أن مراد المصنف مجمل الأخبار الآمرة بتحسين الخلق .
وروى الطبراني في « الأوسط » (٦٥٠٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٤٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله إلىٰ إبراهيم : يا خليلي ؛ حسِّنْ خلقك ولو مع الكفار . . تدخلْ مدخل الأبرار ، فإن كلمتي سبقت لمن حسَّنَ خلقه أن أظلَّه تحت عرشي . . . » الحديث .

فإذا صارَتِ النواةُ متأثرةً بالاختيارِ حتَّىٰ تقبلَ بعضَ الأحوالِ دونَ بعضٍ . . فكذلكَ الغضبُ والشهوةُ ، لوْ أردنا قمعَهما وقهرَهما بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لهما أثرٌ . . لمْ نقدرْ عليهِ أصلاً ، ولوْ أردنا سلاستَهما وقودَهُما بالرياضةِ والمجاهدةِ . . قدرنا عليهِ ، وقدْ أُمرنا بذلكَ ، وصارَ ذلكَ سببَ نجاتِنا ووصولِنا إلى اللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

نعم ، الجبلاتُ مختلفةٌ ، فبعضُها سريعةُ القبولِ ، وبعضُها بطيئةُ القبولِ ، **ولاختلافِها سببانِ** :

أحدُهُما : قوَّةُ الغريزةِ في أصْلِ الجبلَّةِ ، وامتدادُ مدَّةِ الوجودِ : فإنَّ قوَّةَ الشهوةِ والغضبِ والتكبُّرِ موجودةٌ في الإنسانِ ، ولكنْ أصعبُها أمراً وأعصاها على التغييرِ قوَّةُ الشهوةِ ؛ فإنَّها أقدمُ وجوداً ، إذِ الصبيُّ في مبدأِ الفطرةِ تُخلقُ لهُ الشهوةُ ، ثمَّ بعدَ سبعِ سنينَ ربَّما يُخلقُ لهُ الغضبُ ، وبعدَ ذلكَ يُخلقُ لهُ قوَّةُ التمييزِ .

والسببُ الثاني : أنَّ الخلُقَ قدْ يتأكَّدُ بكثرةِ العملِ بمقتضاهُ والطاعةِ لهُ ، وباعتقادِ كونِهِ حسناً ومرضياً ، والناسُ فيهِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

الأولىٰ : وهوَ الإنسانُ الغفْلُ ، الذي لا يميِّزُ بينَ الحقِّ والباطلِ ، والجميلِ والقبيحِ ، بل بقيَ كما فُطِرَ عليهِ ، خالياً عنْ جميعِ الاعتقاداتِ ، ولمْ تستتمَّ شهوتُهُ أيضاً باتباعِ اللذَّاتِ ، فهـٰذا سريعُ القبولِ للعلاجِ جداً ، فلا

يحتاجُ إلا إلىٰ معلِّمٍ ومرشدٍ ، وإلىٰ باعثٍ منْ نفسِهِ يحملُهُ على المجاهدةِ ، فيحسنُ خلقُهُ في أقربِ زمانٍ .

والثانيةُ : أنْ يكونَ قدْ عرفَ قبحَ القبيحِ ، ولكنَّهُ لمْ يتعوَّدِ العملَ الصالحَ ، بلْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عملِهِ ، فتعاطاهُ انقياداً لشهواتِهِ ، وإعراضاً عنْ صوابِ رأيِهِ ؛ لاستيلاءِ الشهوةِ عليهِ ، ولكنْ علمَ تقصيرَهُ في عملِهِ ، فأمرُهُ أصعبُ مِنَ الأوَّلِ ؛ إذْ قدْ تضاعفَتِ الوظيفةُ عليهِ ، إذْ عليهِ قلْعُ ما رسخَ في نفسِهِ أولاً مِنْ كثرةِ الاعتيادِ للفسادِ ، والآخرُ أنْ يغرسَ في نفسِهِ صفةَ الاعتيادِ للصلاحِ ، ولكنهُ بالجملةِ محلٌّ قابلٌ للرياضةِ إنِ انتهضَ لها بجدٍّ وتشميرٍ وحزمٍ .

والثالثةُ : أنْ يعتقدَ في الأخلاقِ القبيحةِ أنَّها الواجبةُ المستحسنةُ ، وأنَّها حقٌّ وجميلٌ ، وتربَّىٰ عليها ، فهـٰذا تكادُ تمتنعُ معالجتُهُ ، ولا يُرجىٰ صلاحُهُ إلا على الندورِ ، وذلكَ لتضاعفِ أسبابِ الضلالِ .

والرابعةُ : أنْ يكونَ معَ وقوعِ نشوئِهِ على الرأيِ الفاسدِ ، وتربيتِهِ على العملِ بهِ يرى الفضيلةَ في كثرةِ الشرِّ واستهلاكِ النفوسِ ، ويباهي بهِ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ يرفعُ مِنْ قدرِهِ ، وهـٰذا هوَ أصعبُ المراتبِ ، وفي مثلِهِ قيلَ : ومِنَ العناءِ رياضةُ الهرمِ ، ومِنَ التعذيبِ تهذيبُ الذيبِ .

والأوَّلُ مِنْ هؤلاءِ جاهلٌ فقطْ ، والثاني جاهلٌ وضالٌّ ، والثالثُ جاهلٌ وضالٌّ وفاسقٌ ، والرابعُ جاهلٌ وضالٌّ وفاسقٌ وشريرٌ .

* * *

وأمَّا الخيالُ الآخرُ الذي استدلُّوا بهِ ، وهوَ قولُهُمْ : (إنَّ الآدميَّ ما دامَ حيّاً فلا ينقطعُ عنهُ الغضبُ والشهوةُ وحبُّ الدنيا وسائرُ هٰذهِ الأخلاقِ) . . فهٰذا غلطٌ وقعَ لطائفةٍ ظنُّوا أنَّ المقصودَ مِنَ المجاهدَةِ قمعُ هٰذهِ الصفاتِ بالكليَّةِ ومحوُها ، وهيهاتَ ؛ فإنَّ الشهوةَ خلقَتْ لفائدةٍ ، وهيَ ضروريَّةٌ في الجبلَّةِ ، فلوِ انقطعَتْ شهوةُ الطعامِ . . لهلكَ الإنسانُ ، ولوِ انقطعَتْ شهوةُ الوقاعِ . . لانقطعَ النسلُ ، ولوِ انعدمَ الغضبُ بالكليَّةِ . . لمْ يدفعِ الإنسانُ عنْ نفسِهِ ما يهلكُهُ ولهلكَ .

ومهما بقيَ أصلُ الشهوةِ فيبقىٰ ـ لا محالةَ ـ حبُّ المالِ الذي يوصلُهُ إلى الشهوةِ ، حتَّىٰ يحملَهُ ذلكَ علىٰ إمساكِ المالِ ، وليسَ المطلوبُ إماطةَ ذلكَ بالكليَّةِ ، بلِ المطلوبُ ردُّها إلى الاعتدالِ الذي هوَ وسطٌ بينَ الإفراطِ والتفريطِ .

فالمطلوبُ في صفةِ الغضبِ حسنُ الحميَّةِ ، وذلكَ بأنْ يخلوَ عنِ التهوُّرِ وعنِ الجبنِ جميعاً .

وبالجملةِ : أنْ يكونَ في نفسِهِ قويّاً ، ومعَ قوَّتِهِ منقاداً للعقلِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وصفَهُمْ بالشدَّةِ ، وإنَّما تصدرُ الشدَّةُ عنِ الغضبِ ، ولوْ بطلَ الغضبُ . . لبطلَ الجهادُ ، وكيفَ يُقصدُ قلعُ الشهوةِ والغضبِ بالكليَّةِ والأنبياءُ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ لمْ ينفكُّوا عنْ ذلكَ ؟! إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا بشرٌ أغضبُ كما يغضبُ البشرُ »[1] .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠١) .

وكانَ إذا تُكلِّمَ بينَ يديهِ بما يكرهُهُ . . يغضبُ حتَّىٰ تحمرَّ وجنتاهُ ، ولكنْ لا يقولُ إلا حقّاً ، فكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لا يخرجُهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، ولمْ يقلْ : (والفاقدينَ الغيظَ) .

فردُّ الغضبِ والشهوةِ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، بحيثُ لا يقهرُ واحدٌ منهما العقلَ ولا يغلبُهُ ، بلْ يكونُ العقلُ هوَ الضابطَ لهما والغالبَ عليهما . . ممكنٌ ، وهوَ المرادُ بتغييرِ الخلُقِ ؛ فإنَّهُ ربَّما تستولي الشهوةُ على الإنسانِ بحيثُ لا يقوىٰ عقلُهُ علىٰ دفعِها عن الانبساطِ إلى الفواحشِ ، وبالرياضةِ تعودُ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ ، فدلَّ أنَّ ذلكَ ممكنٌ ، والتجربةُ والمشاهدةُ تدلُّ علىٰ ذلكَ دلالةً لا شكَّ فيها .

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ المطلوبَ هوَ الوسطُ في الأخلاقِ دونَ الطرفينِ أنَّ السخاءَ خلقٌ محمودٌ شرعاً ، وهوَ وسطٌ بينَ طرفي التبذيرِ والتقتيرِ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ .

وكذلكَ المطلوبُ في شهوةِ الطعامِ الاعتدالُ دونَ الشَّرَهِ والخمودِ ،

---

(١) فقد روى البخاري (٢٣٦٠) ، ومسلم (٢٣٥٧) في قصة تخاصم رجل مع الزبير رضي الله عنه في شراج الحرَّة ؛ إذ قال الرجل الأنصاري : أنْ كان ابن عمَّتك ؟ فتلوَّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقدم نحو هـٰذا .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

وقالَ في الغضبِ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »(١) .

وهٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وهوَ أنَّ السعادةَ منوطةٌ بسلامةِ القلبِ عنْ عوارضِ هٰذا العالمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، والبخلُ مِنْ عوارضِ الدنيا ، والتبذيرُ أيضاً مِنْ عوارضِ الدنيا ، وشرطُ القلبِ أنْ يكونَ سليماً منهما ؛ أيْ : لا يكونَ ملتفتاً إلى المالِ ، ولا يكونَ حريصاً علىٰ إمساكِهِ ولا علىٰ إنفاقِهِ ، فإنَّ الحريصَ على الإنفاقِ مصروفُ القلبِ إلى الإنفاقِ ، كما أنَّ الحريصَ على الإمساكِ مصروفُ القلبِ إلى الإمساكِ ، فكانَ كمالُ القلبِ أنْ يصفوَ عنِ الوصفينِ جميعاً ، وإذا لمْ يكنْ ذلكَ في الدنيا . طلبنا ما هوَ الأشبهُ بعدمِ الوصفينِ وأبعدُ عنِ الطرفينِ ، وهوَ الوسطُ ، فإنَّ الفاترَ لا حارٌّ ولا باردٌ ، بلْ هوَ وسطٌ بينَهُما ، فكأنَّهُ خالٍ عنِ الوصفينِ ؛ فكذلكَ السخاءُ بينَ التبذيرِ والتقتيرِ ، والشجاعةُ بينَ الجبنِ والتهورِ ، والعفَّةُ بينَ الشَّرَهِ والخمودِ ، وكذلكَ سائرُ الأخلاقِ ، فكلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميمٌ ، هٰذا هوَ المطلوبُ ، وهوَ ممكنٌ .

نعمْ ، يجبُ على الشيخِ المرشدِ للمريدِ أنْ يقبِّحَ عندَهُ الغضبَ رأساً ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣١٧٠) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

ويذمَّ إمساكَ المالِ رأساً ، ولا يرخِّصَ لهُ في شيءٍ منهُ ؛ لأنَّهُ لوْ رخَّصَ لهُ في أدنىٰ شيءٍ.. اتخذَ ذلكَ عذراً في استبقاءِ بخلِهِ وغضبِهِ ، وظنَّ أنَّهُ القدْرُ المرخَّصُ فيهِ ، فإذا قصدَ قطْعَ الأصلِ وبالغَ فيهِ.. لمْ يتيسَّرْ لهُ إلا كسْرُ سورتِهِ ، بحيثُ يعودُ إلى الاعتدالِ ، فالصوابُ لهُ أنْ يقصدَ قلْعَ الأصلِ حتَّىٰ يتيسَّرَ لهُ القدْرُ المقصودُ ، فلا يكشفُ هـٰذا السرَّ للمريدِ ؛ فإنَّهُ موضعُ غرورِ الحمقىٰ ، إذْ يظُنُّ بنفسِهِ أنَّ غضبَهُ بحقٍّ ، وأنَّ إمساكَهُ بحقٍّ .

* * *

بيان السبب الذي به يُنال حسن الخُلق على الجملة

قدْ عرفتَ أنَّ حسْنَ الخلقِ يرجعُ إلى اعتدالِ قوّةِ العقلِ ، وكمالِ الحكمةِ ، وإلى اعتدالِ قوّةِ الغضبِ والشهوةِ ، وكونِها مطيعةً للعقلِ والشرعِ أيضاً .

وهـٰذا الاعتدالُ يحصلُ علىٰ وجهينِ :

أحدُهُما : بجودٍ إلـٰهيٍّ وكمالٍ فطريٍّ : بحيثُ يُخلقُ الإنسانُ ويُولدُ كاملَ العقلِ ، حسنَ الخلقِ ، قد كُفِيَ سلطانَ الشهوةِ والغضبِ ، بلْ خُلقتا معتدلتينِ منقادتينِ للعقل والشرعِ ، فيصيرُ عالماً بغيرِ تعلُّمٍ ، ومؤدَّباً بغيرِ تأدُّبٍ ؛ كعيسى ابنِ مريمَ ، ويحيىٰ بنِ زكريَّا عليهما السلامُ ، وكذا سائرُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ في الطبعِ والفطرةِ ما قدْ يُنالُ بالاكتسابِ ، فربَّ صبيٍّ خُلِقَ صادقَ اللهجةِ ، سخيّاً جريئاً ، وربَّما يُخلقُ بخلافِهِ ، فيحصلُ ذلكَ فيهِ بالاعتيادِ ومخالطةِ المتخلِّقينَ بهـٰذهِ الأخلاقِ ، وربَّما يحصلُ بالتعلُّمِ .

والوجهُ الثاني لاكتسابِ هـٰذهِ الأخلاقِ : المجاهدةُ والرياضةُ : وأعني بها : حملَ النفسِ على الأعمالِ التي يقتضيها الخُلُقُ المطلوبُ .

فمَنْ أرادَ مثلاً أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ الجودِ . . فطريقُهُ أنْ يتكلَّفَ تعاطيَ فعلِ الجوادِ ، وهوَ بذلُ المالِ ، فلا يزالُ يطالبُ نفسَهُ ويواظبُ عليهِ تكلُّفاً ،

مجاهداً نفسَهُ فيهِ حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ طبعاً لهُ ، ويتيسَّرَ عليهِ ، فيصيرَ بهِ جواداً .

وكذا مَنْ أرادَ أنْ يحصِّلَ لنفسِهِ خلُقَ التواضعِ وقدْ غلبَ عليهِ الكِبْرُ . . فطريقُهُ أنْ يواظبَ علىٰ أفعالِ المتواضعينَ مدَّةً مديدةً ، وهوَ فيها مجاهدٌ نفسَهُ ومتكلِّفٌ إلىٰ أن يصيرَ ذلكَ لهُ خلقاً وطبعاً ، فيتيسَّرَ عليهِ .

وجميعُ الأخلاقِ المحمودةِ شرعاً تحصلُ بهٰذا الطريقِ .

وغايتُهُ : أنْ يصيرَ الفعلُ الصادرُ منهُ لذيذاً ، فالسخيُّ هوَ الذي يستلذُّ بذلَ المالِ دونَ الذي يبذلُهُ عنْ كراهةٍ ، والمتواضعُ هوَ الذي يستلذُّ التواضعَ ، ولنْ ترسخَ الأخلاقُ الدينيَّةُ في النفسِ ما لمْ تتعوَّدِ النفسُ جميعَ العاداتِ الحسنةِ ، وما لمْ تتركْ جميعَ العاداتِ السيئةِ ، وما لمْ تواظبْ عليها مواظبةَ مَنْ يشتاقُ إلى الأفعالِ الجميلةِ ويتنعَّمُ بها ، ويكرهُ الأفعالَ القبيحةَ ويتألَّمُ بها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجُعلَتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ »(١) .

ومهما كانَتِ العباداتُ وتركُ المحظوراتِ معَ كراهةٍ واستثقالٍ . . فهوَ لنقصانٍ ، ولا يُنالُ كمالُ السعادةِ بهِ .

نعم ، المواظبةُ عليها بالمجاهدةِ خيرٌ ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ تركِها ، لا بالإضافةِ إلىٰ فعلِها عنْ طوعٍ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ .

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبُدِ اللهَ بالرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »[1] .

ثمَّ لا يكفي في نيلِ السعادةِ الموعودةِ علىٰ حسْنِ الخلقِ استلذاذُ الطاعةِ واستكراهُ المعصيةِ في زمانٍ دونَ زمانٍ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ ذلكَ على الدوامِ ، وفي جملةِ العمرِ ، وكلَّما كانَ العمرُ أطولَ . . كانَتِ الفضيلةُ أرسخَ وأكملَ ، ولذلكَ لما سُئِل صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ السعادةِ . . قالَ : « طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ »[2] .

ولذلكَ كرهَ الأنبياءُ والأولياءُ الموتَ ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وكلَّما كانَتِ العباداتُ أكثرَ بطولِ العمرِ . . كانَ الثوابُ أجزلَ ، والنفسُ أزكىٰ وأطهرَ ، والأخلاقُ أقوىٰ وأرسخَ ، وإنَّما مقصودُ العباداتِ تأثيرُها في القلبِ ، وإنَّما تتأكَّدُ آثارُها بكثرةِ المواظبةِ على العباداتِ .

* * *

وغايةُ هـٰذهِ الأخلاقِ : أنْ ينقلعَ عنِ النفسِ حبُّ الدنيا ، ويرسخَ فيها

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٢٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الوصية المشهورة ، ولفظه : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين . . فافعل ، وإن لم تستطع . . فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيراً كثيراً . . . » الحديث .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٦/٦) ، وروى الترمذي (٢٣٢٩) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعاً وقد سئل صلى الله عليه وسلم من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

حبُّ اللهِ تعالىٰ ، فلا يكونُ شيءٌ أحبَّ إليهِ مِنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يستعملُ جميعَ ما لَهُ إلا على الوجهِ الذي يوصلُهُ إليهِ ، وغضبُهُ وشهوتُهُ مِنَ المسخراتِ لهُ ، فلا يستعملُهما إلا على الوجهِ الذي يوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ بأنْ يكونَ موزوناً بميزانِ الشرعِ والعقلِ ، ثمَّ يكونُ بعدَ ذلكَ فرِحاً بهِ ومستلذّاً لهُ .

ولا ينبغي أنْ يُستبعَدَ مصيرُ الصلاةِ إلىٰ حدٍّ تصيرُ هيَ قرَّةَ العينِ ، ومصيرُ العباداتِ لذيذةً ؛ فإنَّ العادةَ تقتضي في النفسِ عجائبَ أغربَ مِنْ ذلكَ ، فإنَّا قدْ نرى الملوكَ والمتنعمينَ في أحزانٍ دائمةٍ ، ونرى المقامرَ المفلسَ قدْ يغلبُ عليهِ مِنَ اللذَّةِ والفرحِ بقمارِهِ وما هوَ فيهِ ما يستنكرُ معَهُ فرحَ الناسِ بغيرِ القمارِ ، معَ أنَّ القمارَ ربَّما سلبَهُ مالَهُ ، وخرَّبَ بيتَهُ ، وتركَهُ مفلساً ، ومعَ هٰذا فهوَ يحبُّهُ ويلتذُّ بهِ ؛ وذلكَ لطولِ إلفِهِ لهُ وصرفِ نفسِهِ إليهِ مدَّةً مديدةً .

وكذلكَ اللاعبُ بالحمامِ قدْ يقفُ طولَ النهارِ في حرِّ الشمسِ قائماً علىٰ رجليهِ وهوَ لا يحسُّ بألمِها ؛ لفرحِهِ بالطيورِ وحركاتِها ، وطيرانِها وتحليقِها في جوِّ السماءِ .

بلْ نرى الفاجرَ العيَّارَ يفتخرُ بما يلقاهُ مِنَ الضرْبِ والقطْعِ والصبرِ على السياطِ[1] ، وعلىٰ تقديمِهِ إلى الصلْبِ ، وهوَ معَ ذلكَ متبجِّحٌ بنفسِهِ وبقوَّتِهِ في الصبرِ علىٰ ذلكَ ، حتَّىٰ يرىٰ ذلكَ فخراً لنفسِهِ ، ويقطَّعُ الواحدُ منهُمْ إرْباً

(١) **العيّار** : الشاطر الذي يختلس أموال الناس بلطف حيلة ومكر .

إرْباً علىٰ أنْ يقرَّ بما تعاطاهُ أوْ تعاطاهُ غيرُهُ فيصرُّ على الإنكارِ ، ولا يبالي بالعقوباتِ ؛ فرحاً بما يعتقدُهُ كمالاً وشجاعةً ورجوليَّةً ، فقدْ صارَتْ أحوالُهُ معَ ما فيها مِنَ النَّكالِ قرَّةَ عينِهِ وسببَ افتخارِهِ .

بلْ لا حالةَ أخسُّ وأقبحُ مِنْ حالِ المخنَّثِ في تشبُّهِهِ بالإناثِ ؛ في نتْفِ الشعرِ ، ووشمِ الوجهِ ، ومخالطةِ النساءِ ، فترى المخنَّثَ في فرحٍ بحالِهِ ، وافتخارٍ بكمالِهِ في تخنُّثِهِ يتباهىٰ بهِ معَ المخنَّثينَ .

حتَّىٰ يجري بينَ الحجَّامينَ والكنَّاسينَ التفاخرُ والمباهاةُ كما يجري بينَ الملوكِ والعلماءِ .

وكلُّ ذلكَ نتيجةُ العادةِ والمواظبةِ علىٰ نمطٍ واحدٍ على الدوامِ مدَّةً مديدةً ، ومشاهدةُ ذلكَ مِنَ المخالطينَ والمعارفِ .

فإذا كانَتِ النفسُ بالعادةِ تستلذُّ الباطلَ ، وتميلُ إليهِ وإلى القبائحِ . . فكيفَ لا تستلذُّ الحقَّ لو رُدَّتْ إليهِ مدَّةً ، وأُلزِمَتِ المواظبةَ عليهِ ؟!

بلْ ميلُ النفسِ إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ الشنيعةِ خارجٌ عنِ الطبعِ ، يضاهي الميلَ إلىٰ أكلِ الطينِ ، فقدْ يغلبُ علىٰ بعضِ الناسِ ذلكَ بالعادةِ ، فأمَّا ميلُهُ إلى الحكمةِ ، وحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفتِهِ ، وعبادتِهِ . . فهوَ كالميلِ إلى الطعامِ والشرابِ ؛ فإنهُ مقتضىٰ طبعِ القلبِ ؛ فإنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ .

وميلُهُ إلىٰ مقتضياتِ الشهوةِ غريبٌ مِنْ ذاتِهِ ، وعارضٌ علىٰ طبعِهِ ، وإنَّما غذاءُ القلبِ الحكمةُ والمعرفةُ وحبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولكنِ انصرفَ عنْ

مقتضىٰ طبعِهِ لمرضٍ قدْ حلَّ بهِ ؛ كما قدْ يحلُّ المرضُ بالمعدةِ ، فلا تشتهي الطعامَ والشرابَ وهما سببانِ لحياتِها ، فكلُّ قلبٍ مالَ إلىٰ حبِّ شيءٍ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ فلا ينفكُّ عنْ مرضٍ بقدْرِ ميلِهِ إلا إذا أحبَّ ذلكَ الشيءَ لكونِهِ معيناً لهُ علىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ دينِهِ ، فعندَ ذلكَ لا يدلُّ ذلكَ على المرضِ .

* * *

فإذاً ؛ قدْ عرفتَ بهـٰذا قطعاً أنَّ هـٰذهِ الأخلاقَ الجميلةَ يمكنُ اكتسابُها بالرياضةِ ، وهيَ تكلُّفُ الأفعالِ الصادرةِ عنها ابتداءً ؛ لتصيرَ طبعاً انتهاءً ، وهـٰذا مِنْ عجيبِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ؛ أعني : النفسَ والبدنَ ، فإنَّ كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلبِ يفيضُ أثرُها على الجوارحِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ إلا علىٰ وَفْقِها لا محالةَ ، وكلُّ فعلٍ يجري على الجوارحِ فإنَّهُ قدْ يرتفعُ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، والأمرُ فيهِ دورٌ ، ويُعرفُ ذلكَ بمثالٍ ؛ وهوَ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ الحذقُ في الكتابةِ لهُ صفةً نفسيةً حتَّىٰ يصيرَ كاتباً بالطبعِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ بجارحةِ اليدِ ما يتعاطاهُ الكاتبُ الحاذقُ ، ويواظبَ عليهِ مدَّةً طويلةً ، وهوَ حكايةُ الخطِّ الحسنِ ، فإنَّ فعلَ الكاتبِ هوَ الخطُّ الحسنُ ، فيتشبَّهُ بالكاتبِ تكلُّفاً ، ثمَّ لا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يصيرَ صفةً راسخةً في نفسِهِ ، فيصدرَ منهُ في الآخرِ الخطُّ الحسنُ طبعاً كما كانَ يصدرُ منهُ في الابتداءِ تكلُّفاً ، فكانَ الخطُّ الحسنُ هوَ الذي جعلَ خطَّهُ حسناً ، ولكنَّ الأوَّلَ متكلَّفٌ ، إلا أنَّهُ ارتفعَ منهُ أثرٌ إلى القلبِ ، ثمَّ انخفضَ مِنَ القلبِ إلى

الجارحةِ ، فصارَ يكتبُ الخطَّ الحسنَ بالطبعِ .

وكذلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ فقيهَ النفسِ . . فلا طريقَ لهُ إلا أنْ يتعاطىٰ أفعالَ الفقهاءِ ، وهوَ التكرارُ للفقهِ ، حتَّىٰ تنعطفَ منهُ علىٰ قلبهِ صفةُ الفقهِ ، فيصيرَ فقيهَ النفسِ .

وكذلكَ مَنْ أرادَ أنْ يصيرَ سخيّاً عفيفاً حليماً متواضعاً . . فيلزمُهُ أنْ يتعاطىٰ أفعالَ هؤلاءِ تكلُّفاً حتَّىٰ يصيرَ لهُ ذلكَ بالعادةِ طبعاً ، فلا علاجَ لهُ إلا ذلكَ .

وكما أنَّ طالبَ فقهِ النفسِ لا ييئسُ مِنْ نيلِ هـٰذهِ الرتبةِ بتعطيلِ ليلةٍ ولا ينالُها بتكرارِ ليلةٍ . . فكذلكَ طالبُ تزكيةِ النفسِ وتكميلِها وتحليتِها بالأخلاقِ الحسنةِ لا ينالُها بعبادةِ يومٍ ولا يحرمُ عنها بعصيانِ يومٍ ، وهوَ معنىٰ قولِنا : (إنَّ الكبيرةَ الواحدةَ لا توجبُ الشقاوةَ المؤبَّدةَ) ، ولكنَّ العُطلةَ في يومٍ واحدٍ تدعو إلىٰ مثلِها ، ثمَّ تتداعىٰ قليلاً قليلاً حتَّىٰ تأنسَ النفسُ بالكسلِ ، وتهجرَ التحصيلَ رأساً ، فيفوتَها فضيلةُ الفقهِ ، وكذلكَ صغائرُ المعاصي يجرُّ بعضُها إلىٰ بعضٍ حتَّىٰ تفوِّتَ أصلَ السعادةِ ، بهدمِ أصلِ الإيمانِ عندَ الخاتمةِ .

وكما أنَّ تكرارَ ليلةٍ لا يُحَسُّ تأثيرُهُ في تفقيهِ النفسِ ، بلْ يظهرُ فقهُ النفسِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ مثلَ نموِّ البدنِ وارتفاعِ القامةِ . . فكذلكَ الطاعةُ الواحدةُ لا يُحسُّ تأثيرُها في تزكيةِ النفسِ وتطهيرِها في الحالِ ، ولكنْ

لا ينبغي أنْ يُستهانَ بقليلِ الطاعةِ ؛ فإنَّ الجملةَ الكثيرةَ منها مؤثرةٌ ، وإنَّما اجتمعَتِ الجملةُ مِنَ الآحادِ ، فلكلِّ واحدٍ منها تأثيرٌ ، فما مِنْ طاعةٍ إلا ولها أثرٌ وإنْ خفيَ ، فلهُ ثوابٌ لا محالةَ ؛ لأنَّ الثوابَ بإزاءِ الأثرِ ، وكذلكَ المعصيةُ .

وكمْ مِنْ فقيهٍ يستهينُ بتعطيلِ يومٍ وليلةٍ ، وهٰكذا على التوالي ، يسوِّفُ نفسَهُ يوماً فيوماً ، إلىٰ أنْ يخرجَ طبعُهُ عنْ قبولِ الفقهِ ؛ فكذا مَنْ يستهينُ بصغائرِ المعاصي ويسوِّفُ نفسَهُ بالتوبةِ على التوالي ، إلىٰ أنْ يختطفَهُ الموتُ بغتةً ، أوْ تتراكمَ ظلمةُ الذنوبِ علىٰ قلبِهِ وتتعذَّرَ عليه التوبةُ ؛ إذِ القليلُ يدعو إلى الكثيرِ ، فيصيرُ القلبُ مقيَّداً بسلاسلِ الشهواتِ ، لا يمكنُ تخليصُهُ مِنْ مخالبِها ، وهوَ المعنيُّ بانسدادِ بابِ التوبةِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا . . . ﴾ الآيةَ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الإيمانَ ليبدو في القلبِ نكتةً بيضاءَ ، كلَّما ازدادَ الإيمانُ . . ازدادَ ذلكَ البياضُ ، فإذا استكملَ العبدُ الإيمانَ . . ابيضَّ القلبُ كلُّهُ ، وإنَّ النفاقَ ليبدو في القلبِ نكتةً سوداءَ ، كلَّما ازدادَ النفاقُ . . ازدادَ ذلكَ السوادُ ، فإذا استكملَ النفاقَ . . اسودَّ القلبُ كلُّهُ)[1] .

فإذاً ؛ قدْ عرفتَ أنَّ الأخلاقَ الحسنةَ تارةً تكونُ بالطبعِ والفطرةِ ، وتارةً

(1) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٧) .

تكونُ باعتيادِ الأفعالِ الجميلةِ ، وتارةً بمشاهدةِ أربابِ الأفعالِ الجميلةِ ومصاحبتِهِمْ ، وهمْ قرناءُ الخيرِ وإخوانُ الصلاحِ ؛ إذِ الطبعُ يسرقُ مِنَ الطبعِ الشرَّ والخيرَ جميعاً ، فمَنْ تظاهرَتْ في حقِّهِ الجهاتُ الثلاثُ حتَّىٰ صارَ ذا فضيلةٍ طبعاً واعتياداً وتعلُّماً . . فهوَ في غايةِ الفضيلةِ ، ومَنْ كانَ رذلاً بالطبعِ ، واتفقَ لهُ قرناءُ السوءِ ، فتعلَّمَ منهُمْ ، وتيسَّرَتْ لهُ أسبابُ الشرِّ حتَّى اعتادَها . . فهوَ في غايةِ البعدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وبينَ الرتبتينِ مَنِ اختلفَتْ فيهِ هٰذهِ الجهاتُ ، ولكلٍّ درجةٌ في القربِ والبعدِ بحسَبِ ما تقتضيهِ صفتُهُ وحالتُهُ ؛ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

* * *

بيان تفصيل الطّريق إلى تهذيب الأخلاق

قدْ عرفتَ مِنْ قبلُ أنَّ الاعتدالَ في الأخلاقِ هوَ صحَّةٌ في النفسِ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ سقمٌ ومرضٌ فيها ، كما أنَّ الاعتدالَ في مزاجِ البدنِ هوَ صحةٌ لهُ ، والميلَ عنِ الاعتدالِ مرضٌ فيهِ ، فلنتخذِ البدنَ مثالاً ، فنقولُ :

مثالُ النفسِ في علاجِها بمحوِ الرذائلِ والأخلاقِ الرديئةِ عنها ، وجلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الجميلةِ إليها . . مثالُ البدنِ في علاجِهِ بمحوِ العللِ عنهُ ، وكسبِ الصحَّةِ لهُ وجلبِها إليهِ ، وكما أنَّ الغالبَ علىٰ أصلِ المزاجِ الاعتدالُ ، وإنَّما تعتري العلَّةُ المضرَّةُ بعوارضِ الأغذيةِ والأهويةِ والأحوالِ . . فكذلكَ كلُّ مولودٍ يُولدُ معتدلاً صحيحاً على الفطرةِ ، وإنَّما أبواهُ يهودانِهِ أوْ ينصِّرانِهِ أوْ يمجِّسانِهِ ؛ أيْ : بالاعتيادِ والتعليمِ تُكتسبُ الرذائلُ ، وكما أنَّ البدنَ في الابتداءِ لا يُخلقُ كاملاً ، وإنَّما يكملُ ويقوىٰ بالنشوءِ والتربيةِ بالغذاءِ . . فكذلكَ النفسُ تُخلقُ ناقصةً قابلةً للكمالِ ، وإنَّما تكملُ بالتزكيةِ وتهذيبِ الأخلاقِ والتغذيةِ بالعلمِ .

وكما أنَّ البدنَ إنْ كانَ صحيحاً فشأنُ الطبيبِ تمهيدُ القانونِ الحافظِ للصحةِ ، وإنْ كانَ مريضاً فشأنُهُ جلبُ الصحَّةِ إليهِ . . فكذلكَ النفسُ منكَ ؛ إنْ كانَتْ زكيَّةً طاهرةً مهذَّبةً . . فينبغي أنْ تسعىٰ لحفظِها وحفظِ صفتِها ،

وجلبِ مزيدِ قوَّةٍ إليها ، واكتسابِ زيادةِ صفائِها ، وإنْ كانَتْ عديمةَ الكمالِ والصفاءِ.. فينبغي أن تَسعىٰ لجلبِ ذلكَ إليها .

وكما أنَّ العلَّةَ المغيِّرةَ لاعتدالِ البدنِ الموجبةَ للمرضِ لا تُعالجُ إلا بضدِّها ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ فبالبرودةِ ، وإنْ كانتْ مِنْ برودةٍ فبالحرارةِ.. فكذلكَ الرذيلةُ التي هيَ مرضُ القلبِ علاجُها بضدِّها ، فيُعالجُ مرضُ الجهلِ بالتعلُّمِ ، ومرضُ البخلِ بالتسخِّي ، ومرضُ الكبْرِ بالتواضعِ ، ومرضُ الشَّرَهِ بالكفِّ عنِ المشتهىٰ تكلُّفاً .

وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ الدواءِ ، وشدَّةِ الصبرِ عنِ المشتهياتِ لعلاجِ الأبدانِ المريضةِ.. فكذلكَ لا بدَّ مِنِ احتمالِ مرارةِ المجاهدةِ والصبرِ لمداواةِ مرضِ القلبِ ، بلْ هـٰذا أولىٰ ، فإنَّ مرضَ البدنِ يخلصُ منهُ بالموتِ ، ومرضُ القلبِ والعياذُ باللهِ مرضٌ يدومُ بعدَ الموتِ أبدَ الآبادِ .

وكما أنَّ كلَّ مبرِّدٍ لا يصلحُ لعلَّةٍ سببُها الحرارةُ إلا إذا كانَ علىٰ حدٍّ مخصوصٍ ، ويختلفُ ذلكَ بالشدَّةِ والضعفِ ، والدوامِ وعدمِهِ ، وبالكثرةِ والقلَّةِ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ معيارٍ يُعرفُ بهِ مقدارُ النافعِ منهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يُحفظْ معيارُهُ زادَ الفسادُ.. فكذلكَ النقائضُ التي تُعالجُ بها الأخلاقُ لا بدَّ لها مِنْ معيارٍ .

وكما أنَّ معيارَ الدواءِ مأخوذٌ مِنْ عيارِ العلَّةِ ، حتَّىٰ إنَّ الطبيبَ لا يعالجُ ما لمْ يعرفْ أنَّ العلَّةَ مِنْ حرارةٍ أوْ برودةٍ ؛ فإنْ كانَتْ مِنْ حرارةٍ.. فيعرفُ درجتَها أهيَ ضعيفةٌ أمْ قويَّةٌ ، فإذا عرفَ ذلكَ.. التفتَ إلىٰ أحوالِ البدنِ

وأحوالِ الزمانِ وصناعةِ المريضِ وسنِّهِ وسائرِ أحوالِهِ ، ثمَّ يعالجُ بحسَبِها . . فكذلكَ الشيخُ المتبوعُ الذي يطبُّ نفوسَ المريدينَ ، ويعالجُ قلوبَ المسترشدينَ ، ينبغي ألا يهجمَ عليهِمْ بالرياضةِ والتكاليفِ في فنٍّ مخصوصٍ وفي طريقٍ مخصوصٍ ما لمْ يعرفْ أخلاقَهُمْ وأمراضَهُمْ .

وكما أنَّ الطبيبَ لوْ عالجَ جميعَ المرضىٰ بعلاجٍ واحدٍ قتلَ أكثرَهُمْ . . فكذلكَ الشيخُ لوْ أشارَ على المريدينَ بنمطٍ واحدٍ مِنَ الرياضةِ . . أهلكَهُمْ ، وأماتَ قلوبَهُمْ ، بلْ ينبغي أنْ ينظرَ في مرضِ المريدِ ، وفي حالِهِ ، وسنِّهِ ، ومزاجِهِ ، وما تحتملُهُ بنيتُهُ مِنَ الرياضةِ ، ويبني علىٰ ذلكَ رياضتَهُ .

فإنْ كانَ المريدُ مبتدئاً ، جاهلاً بحدودِ الشرعِ . . فيعلمُهُ أوّلاً الطهارةَ ، والصلاةَ ، وظواهرَ العباداتِ .

وإنْ كانَ مشغولاً بمالٍ حرامٍ ، أوْ مقارفاً لمعصيةٍ . . فيأمرُهُ أوّلاً بتركِها ، فإذا تزيَّنَ ظاهرُهُ بالعباداتِ ، وطهَّرَ عنِ المعاصي الظاهرةِ جوارحَهُ . . نظرَ بقرائنِ الأحوالِ إلىٰ باطنِهِ ؛ ليتفطَّنَ لأخلاقِهِ ، وأمراضِ قلبِهِ ، فإنْ رأىٰ معَهُ مالاً فاضلاً عنْ قدْرِ ضرورتِهِ . . أخذَهُ منهُ ، وصرفَهُ إلى الخيراتِ ، وفرَّغَ قلبَهُ منهُ حتَّىٰ لا يلتفتَ إليه .

وإنْ رأى الرعونةَ والكبْرَ وعزَّةَ النفسِ غالبةً عليهِ . . فيأمرُهُ أنْ يخرجَ إلى الأسواقِ للكُدْيةِ والسؤالِ[1] ، فإنَّ عزَّةَ النفسِ والرئاسةَ لا تنكسرُ إلا بالذلِّ ،

---

(١) الكدية هنا : الإلحاح في السؤال والاستجداء .

ولا ذلَّ أعظمُ مِنْ ذلِّ السؤالِ ، فيكلِّفُهُ المواظبةَ علىٰ ذلكَ مدَّةً ، حتَّىٰ ينكسرَ كبرُهُ وعزَّةُ نفسِهِ ؛ فإنَّ الكبْرَ مِنَ الأمراضِ المهلكةِ ، وكذلكَ الرعونةُ .

وإنْ رأى الغالبَ عليهِ النظافةَ في البدنِ والثيابِ ، ورأىٰ قلبَهُ مائلاً إلىٰ ذلكَ ، فرحاً بهِ ، ملتفتاً إليهِ . . استخدمَهُ في تعهُّدِ بيتِ الماءِ وتنظيفِهِ ، وكنْسِ المواضعِ القذرةِ ، وملازمةِ المطبخِ ومواضعِ الدخانِ ، حتَّىٰ تتشوَّشَ عليهِ رعونتُهُ في النظافةِ ، فإنَّ الذينَ ينظِّفونَ ثيابَهُمْ ويزيِّنونَها ، ويطلبونَ المرقَّعاتِ النظيفةَ ، والسجاداتِ الملوَّنةَ . . لا فرقَ بينَهُمْ وبينَ العروسِ التي تزيِّنُ نفسَها طولَ النهارِ ، فلا فرقَ بينَ أنْ يعبدَ الإنسانُ نفسَهُ أوْ يعبدَ صنماً ، فمهما عبَدَ غيرَ اللهِ . . فقدْ حُجِبَ عنِ اللهِ ، ومَنْ راعىٰ في ثوبِهِ شيئاً سوىٰ كونِهِ حلالاً وطاهراً مراعاةً يلتفتُ إليها قلبُهُ . . فهوَ مشغولٌ بنفسِهِ .

ومِنْ لطائفِ الرياضةِ إذا كانَ المريدُ لا يسخو بتركِ الرعونةِ رأساً ، أوْ بتركِ صفةٍ أخرىٰ ، ولمْ يسمحْ بضدِّها دفعةً . . فينبغي أنْ ينقلَهُ مِنَ الخلُقِ المذمومِ إلىٰ خُلقٍ مذمومٍ آخرَ أخفَّ منهُ ؛ كالذي يغسلُ الدمَ بالبولِ ، ثمَّ يغسلُ البولَ بالماء ، إذا كانَ الماءُ لا يزيلُ الدمَ ، كما يُرغَّبُ الصبيُّ في المكتبِ باللعبِ بالكرةِ والصولجانِ وما أشبهَهُ ، ثمَّ يُنقلُ مِنَ اللعبِ إلى الزينةِ وفاخرِ الثيابِ ، ثمَّ يُنقلُ مِنْ ذلكَ بالترغيبِ في الرئاسةِ وطلبِ الجاهِ ، ثمَّ يُنقلُ مِنَ الجاهِ بالترغيبِ في الآخرةِ ؛ فكذلكَ مَنْ لمْ تسمحْ نفسُهُ بترْكِ الجاهِ دفعةً . . فليُنقلْ إلىٰ جاهٍ أخفَّ منهُ ، وكذلكَ سائرُ الصفاتِ .

وكذلكَ إنْ رأىٰ شَرَهَ الطعامِ غالباً عليهِ . . ألزمَهُ الصومَ وتقليلَ الطعامِ ، ثمَّ يكلِّفُهُ أنْ يهيِّئَ الأطعمةَ اللذيذةَ ويقدِّمَها إلىٰ غيرِهِ وهوَ لا يأكلُ منها ، حتَّىٰ يقوِّيَ بذلكَ نفسَهُ ، فيتعوَّدَ الصبرَ وينكسرَ شرَهُهُ .

وكذلكَ إذا رآهُ شابّاً متشوِّقاً إلى النكاحِ وهوَ عاجزٌ عنِ الطَّولِ ، فيأمرُهُ بالصومِ ، وربَّما لا تسكنُ شهوتُهُ بذلكَ ، فيأمرُهُ أنْ يفطرَ ليلةً على الماءِ دونَ الخبزِ ، وليلةً على الخبزِ دونَ الماءِ ، ويمنعُهُ اللحمَ والأدْمَ رأساً ، حتَّىٰ تذلَّ نفسُهُ ، وتنكسرَ شهوتُهُ ، فلا علاجَ في مبدأِ الإرادةِ أنفعُ مِنَ الجوعِ .

وإنْ رأى الغضبَ غالباً عليهِ . . ألزمَهُ الحِلْمَ والسكوتَ ، وسلَّطَ عليهِ مَنْ يصحبُهُ ممَّنْ فيهِ سوءُ خلقٍ ، ويلزمُهُ خدمةَ مَنْ ساءَ خلقُهُ ؛ حتَّىٰ يُمرِّنَ نفسَهُ على الاحتمالِ معَهُ ، كما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ يعوِّدُ نفسَهُ الحِلْمَ ، ويزيلُ عنْ نفسهِ شدَّةَ الغضبِ ، فكانَ يستأجرُ مَنْ يشتمُهُ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، ويكلِّفُ نفسَهُ الصبرَ ، ويكظمُ غيظَهُ ، حتَّىٰ صارَ الحِلْمُ عادةً لهُ ، بحيثُ كانَ يُضربُ بهِ المثلُ .

وبعضُهُمْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ الجبنَ وضعفَ القلبِ ، فأرادَ أنْ يحصلَ لنفسِهِ خلُقَ الشجاعةِ ، فكانَ يركبُ البحرَ في الشتاءِ عندَ اضطرابِ الأمواجِ .

وعبَّادُ الهندِ يعالجونَ الكسلَ عنِ العبادةِ بالقيامِ طَوالَ الليلِ علىٰ نصبةٍ واحدةٍ .

وبعضُ الشيوخِ في ابتداءِ إرادتِهِ كانَ يكسلُ عنِ القيامِ ، فألزمَ نفسَهُ القيامَ

علىٰ رأسِهِ طولَ الليلِ لتسمحَ بالقيامِ على الرجْلِ عنْ طوعٍ .

وعالجَ بعضُهُمْ حبَّ المالِ بأنْ باعَ جميعَ مالِهِ ورمىٰ بهِ في البحرِ ؛ إذْ خافَ مِنْ تفرقتِهِ على الناسِ رعونةَ الرياءِ بالبذلِ .

فهٰذهِ الأمثلةُ تعرِّفُكَ طريقَ معالجةِ القلوبِ ، وليسَ غرضُنا ذكرَ دواءِ كلِّ مرضٍ ، فإنَّ ذلكَ سيأتي في بقيَّةِ الكتبِ ، وإنَّما غرضُنا الآنَ التنبيهُ علىٰ أنَّ الطريقَ الكليَّ فيهِ سلوكُ مسلكِ المضادَّةِ لكلِّ ما تهواهُ النفسُ وتميلُ إليهِ ، وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ كلَّهُ في كتابِهِ العزيزِ في كلمةٍ واحدةٍ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

والأصلُ المهمُّ في المجاهدةِ : الوفاءُ بالعزمِ ، فإذا عزَم علىٰ تركِ شهوةٍ . . تيسَّرَتْ أسبابُها ، ويكونُ ذلكَ ابتلاءً مِنَ اللهِ تعالىٰ واختباراً ، فينبغي أن يصبرَ ويستمرَّ ، فإنَّهُ إنْ عوَّدَ نفسَهُ نكْثَ العزْمِ . . ألفَتْ ذلكَ ، ففسدَتْ ، وإذا اتفقَ منهُ نقضُ عزمٍ . . فينبغي أنْ يلزمَ نفسَهُ عقوبةً عليهِ كما ذكرناهُ في معاقبةِ النفسِ في كتابِ المحاسبةِ والمراقبةِ ، وإذا لمْ يخوِّفِ النفسَ بعقوبةٍ . . غلبَتْهُ ، وحسَّنَتْ عندَهُ تناولَ الشهوةِ ، فتفسدُ بها الرياضةُ بالكليَّةِ .

❊ ❊ ❊

بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده إلى الصحة

اعلمْ : أنَّ كلَّ عضوٍ مِنْ أعضاءِ البدنِ خُلِقَ لفعلٍ خاصٍّ بهِ ، وإنَّما مرضُهُ أنْ يتعذَّرَ عليهِ فعلُهُ الذي خُلِقَ لهُ ، حتَّىٰ لا يصدرَ منهُ أصلاً ، أوْ يصدرَ منهُ معَ نوعٍ مِنَ الاضطرابِ ، فمرضُ اليدِ أنْ يتعذَّرَ عليها البطشُ ، ومرضُ العينِ أنْ يتعذَّرَ عليها الإبصارُ ، فكذلكَ مرضُ القلبِ أنْ يتعذَّرَ عليهِ فعلُهُ الخاصُّ بهِ ، الذي خُلِقَ لأجلِهِ ، وهوَ العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ ، وحبُّ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وعبادتُهُ ، والتلذُّذُ بذكرِهِ ، وإيثارُ ذلكَ علىٰ كلِّ شهوةٍ سواهُ ، والاستعانةُ بجميعِ الشهواتِ والأعضاءِ عليهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

ففي كلِّ عضوٍ فائدةٌ ، وفائدةُ القلبِ الحكمةُ والمعرفةُ ، وخاصيَّةُ النفسِ التي للآدميِّ ما يتميَّزُ بها عنِ البهائمِ ، فإنَّهُ لمْ يتميَّزْ عنها بالقوةِ على الأكلِ والوقاعِ والإبصارِ أوْ غيرِها ، بلْ بمعرفةِ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ .

وأصلُ الأشياءِ وموجدُها ومخترعُها هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ الذي جعلَها أشياءَ ، فلوْ عرفَ كلَّ شيءٍ ولمْ يعرفِ اللهَ عزَّ وجلَّ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ شيئاً .

وعلامةُ المعرفةِ المحبةُ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . أحبَّهُ ، وعلامةُ المحبةِ ألا يؤثرَ عليهِ الدنيا ولا غيرَها مِنَ المحبوباتِ ، كما قالَ تعالىٰ :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ، فمَنْ عندَهُ شيءٌ أحبُّ إليهِ مِنَ اللهِ . . فقلبُهُ مريضٌ ، كما أنَّ كلَّ معدةٍ صارَ الطينُ أحبَّ إليها مِنَ الخبزِ والماءِ ، أوْ سقطَتْ شهوتُها عنِ الخبزِ والماءِ . . فهيَ مريضةٌ ، فهٰذهِ علاماتُ المرضِ .

وبهٰذا يُعرفُ أنَّ القلوبَ كلَّها مريضةٌ إلا ما شاءَ اللهُ ، إلا أنَّ مِنَ الأمراضِ ما لا يعرفُها صاحبُها ، ومرضُ القلبِ ممَّا لا يعرفُهُ صاحبُهُ ، فلذلكَ يغفُلُ عنهُ ، وإنْ عرفَهُ . . صعبَ عليهِ الصبرُ علىٰ مرارةِ دوائِهِ ؛ فإنَّ دواءَهُ مخالفةُ الشهواتِ ، وهوَ نزعُ الروحِ ، فإنْ وجدَ مِنْ نفسِهِ قوَّةَ الصبرِ عليهِ . . لمْ يجدْ طبيباً حاذقاً يعالجُهُ ؛ فإنَّ الأطباءَ همُ العلماءُ ، وقدِ استولىٰ عليهِمُ المرضُ ، فالطبيبُ المريضُ قلَّما يلتفتُ إلىٰ علاجِهِ ، فلهٰذا صارَ الداءُ عضالاً ، والمرضُ مزمناً ، واندرسَ هٰذا العلمُ ، وأُنكرَ بالكليَّةِ طبُّ القلوبِ ، وأُنكرَ مرضُها ، وأقبلَ الخلقُ علىٰ حبِّ الدنيا ، وعلىٰ أعمالٍ ظاهرُها عباداتٌ وباطنُها عاداتٌ ومراءياتٌ ، فهٰذهِ علاماتُ أصولِ الأمراضِ .

وأمَّا علامةُ عودِها إلى الصحَّةِ بعدَ المعالجةِ . . فهوَ أنْ ينظرَ في العلَّةِ التي يعالجُها ، فإنْ كانَ يعالجُ داءَ البخلِ وهو المهلكُ المبعدُ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فإنَّما علاجُهُ ببذلِ المالِ وإنفاقِهِ ، ولكنَّهُ قدْ يبذلُ المالَ إلىٰ حدٍّ يصيرُ بهِ

مبذِّراً ، فيكونُ التبذيرُ أيضاً داءً ، ويكونُ كمَنْ يعالجُ البرودةَ بالحرارةِ حتَّىٰ تغلبَ الحرارةُ ، وهوَ أيضاً داءٌ ، بلِ المطلوبُ الاعتدالُ بينَ الحرارةِ والبرودةِ ، وكذلكَ المطلوبُ الاعتدالُ بينَ التقتيرِ والتبذيرِ حتَّىٰ يكونَ على الوسطِ ، وفي غايةِ البعدِ عنِ الطرفينِ .

فإنْ أردتَ أنْ تعرفَ الوسطَ . . فانظرْ إلى الفعلِ الذي يوجبُهُ الخلُقُ المحذورُ ، فإنْ كانَ أسهلَ عليكَ وألذَّ مِنَ الذي يضادُّهُ ، فالغالبُ عليكَ ذلكَ الخلُقُ الموجبُ لهُ ، مثلُ أنْ يكونَ إمساكُ المالِ وجمعُهُ ألذَّ عندَكَ وأيسرَ عليكَ مِنْ بذلِهِ لمستحقِّهِ . . فاعلمْ أنَّ الغالبَ عليكَ خلقُ البخلِ ، فزدْ في المواظبةِ على البذلِ ، فإنْ صارَ البذلُ علىٰ غيرِ المستحقِّ ألذَّ عندَكَ وأخفَّ عليكَ مِنَ الإمساكِ بالحقِّ . . فقدْ غلبَ عليكَ التبذيرُ ، فارجعْ إلى المواظبةِ على الإمساكِ ، فلا تزالُ تراقبُ نفسَكَ وتستدلُّ علىٰ خلقِكَ بتيسيرِ الأفعالِ وتعسيرِها حتَّىٰ تنقطعَ علاقةُ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلى المالِ ، فلا تميلُ إلىٰ بذلِهِ ولا إلىٰ إمساكِهِ ، بلْ يصيرُ عندَكَ كالماءِ ، فلا تطلبُ فيهِ إلا إمساكَهُ لحاجةِ محتاجٍ أوْ بذلَهُ لحاجةِ محتاجٍ ، ولا يترجَّحُ عندَكَ البذلُ على الإمساكِ .

فكلُّ قلبٍ صارَ كذلكَ فقدْ أتى اللهَ سليماً عنْ هـٰذا المقامِ خاصَّةً ، ويجبُ أنْ يكونَ سليماً عنْ سائرِ الأخلاقِ ، حتَّىٰ لا يكونَ لهُ علاقةٌ بشيءٍ ممَّا يتعلَّقُ بالدنيا ، حتَّىٰ ترتحلَ النفسُ عنِ الدنيا منقطعةَ العلائقِ عنها ، غيرَ ملتفتةٍ إليها ، ولا متشوِّقةٍ إلىٰ أسبابِها ، فعندَ ذلكَ ترجعُ إلىٰ ربِّها رجوعَ

النفسِ المطمئنةِ راضيةً مرضيةً ، داخلةً في زمرةِ عبادِ اللهِ المقرَّبينَ ، مِنَ النبيِّينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، وحسنَ أولئكَ رفيقاً .

ولمَّا كانَ الوسطُ الحقيقيُّ بينَ الطرفينِ في غايةِ الغموضِ ، بلْ هوَ أدقُّ مِنَ الشعرِ وأحدُّ مِنَ السيفِ ؛ فلا جرمَ مَنِ استوىٰ علىٰ هـٰذا الصراطِ المستقيمِ في الدنيا . . جازَ علىٰ مثلِ هـٰذا الصراطِ في الآخرةِ ، وقلَّما ينفكُّ العبدُ عنْ ميلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ ـ أعني الوسطَ ـ حتَّىٰ لا يميلَ إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، فيكونُ قلبُهُ متعلِّقاً بالجانبِ الذي مالَ إليهِ ، ولذلكَ لا ينفكُّ عنْ عذابٍ ما واجتيازٍ على النارِ ، وإنْ كانَ مثلَ البرقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي : الذينَ كانَ قربُهُمْ إلى الصراطِ المستقيمِ أكثرَ مِنْ بعدِهِمْ عنهُ .

ولأجلِ عسْرِ الاستقامةِ وجبَ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يدعوَ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ سبعَ عشرةَ مرَّةً في قولِهِ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إذ وجبَتْ قراءةُ الفاتحةِ في كلِّ ركعةٍ .

فقدْ رُوِيَ أنَّ بعضَهم رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : قدْ قلتَ يا رسولَ اللهِ : « شيَّبَتْني هودٌ » فلِمَ قلتَ ذلكَ ؟ قالَ : لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[1] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢١٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٣٥٧) ، وأما حديث : « شيبتني هود » . . فقد تقدم .

فالاستقامةُ علىٰ سواءِ السبيلِ في غايةِ الغموضِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يجتهدَ الإنسانُ في القربِ مِنَ الاستقامةِ إنْ لمْ يقدرْ علىٰ حقيقتِها ، فكلُّ مَنْ أرادَ النجاةَ فلا نجاةَ لهُ إلا بالعملِ الصالحِ ، ولا تصدرُ الأعمالُ الصالحةُ إلا عنِ الأخلاقِ الحسنةِ ، فليتفقدْ كلُّ عبدٍ صفاتِهِ وأخلاقَهُ وليعدِّدْها ، وليشتغلْ بعلاجِ واحدٍ واحدٍ منها على الترتيبِ ، فنسألُ اللهَ الكريمَ أنْ يجعلَنا مِنَ المتقينَ .

* * *

بيان الطّريق الّذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه

اعلمْ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادَ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ ، فمَنْ كانَتْ بصيرتُهُ نافذةً . . لمْ تخفَ عليهِ عيوبُهُ ، فإذا عرفَ العيوبَ . . أمكنَهُ العلاجُ ، ولكنَّ أكثرَ الخلقِ جاهلونَ بعيوبِ أنفسِهِمْ ، يرىٰ أحدُهُمُ القذىٰ في عينِ أخيهِ ولا يرى الجِذْعَ في عينِ نفسِهِ .

* * *

فمَنْ أرادَ أنْ يقفَ علىٰ عيبِ نفسِهِ . . فلهُ أربعةُ طرقٍ :

الأوَّلُ : أنْ يجلسَ بينَ يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوبِ النفسِ ، مطلعٍ علىٰ خفايا الآفاتِ ، ويحكِّمَهُ في نفسِهِ ، ويتبعَ إشارتَهُ في مجاهدتِهِ ، وهاذا شأنُ المريدِ معَ شيخِهِ ، والتلميذِ معَ أستاذِهِ ، فيعرِّفُهُ أستاذُهُ وشيخُهُ عيوبَ نفسِهِ ، ويعرِّفُهُ طريقَ علاجِهِ ، وهاذا قدْ عزَّ في هاذا الزمانِ وجودُهُ .

* * *

الثاني : أنْ يطلبَ صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً ، فينصبَهُ رقيباً علىٰ نفسِهِ ليلاحظَ أحوالَهُ وأفعالَهُ ، فما كرهَهُ مِنْ أخلاقِهِ وأفعالِهِ ، وعيوبِهِ الباطنةِ والظاهرةِ . . ينبهُهُ عليهِ .

فهكذا كانَ يفعلُ الأكياسُ والأكابرُ مِنْ أئمةِ الدينِ ، كانَ عمرُ رضيَ اللهُ

عنهُ يقولُ : (رحمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إليَّ عيوبي)[١] .

وكانَ يسألُ سلمانَ عنْ عيوبِهِ لمَّا قدمَ عليهِ ، وقالَ لهُ : ما الذي بلغَكَ عنِّي ممَّا تكرهُهُ ؟ فاستعفىٰ ، فألحَّ عليهِ ، فقالَ : بلغَني أنَّكَ جمعتَ بينَ إدامينِ علىٰ مائدةٍ ، وأنَّ لكَ حُلَّتينِ ، حلَّةً بالنهارِ وحلَّةً بالليلِ ، قالَ : وهلْ بلغَكَ غيرُ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، قالَ : أمَّا هـٰذانِ . . فقدْ كفيتَهُما[٢] .

وكانَ يسألُ حذيفةَ ويقولُ لهُ : أنتَ صاحبُ سرِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنافقينَ ، فهلْ ترىٰ عليَّ شيئاً مِنْ آثارِ النفاقِ ؟[٣] .

فهوَ علىٰ جلالةِ قدْرِهِ وعلوِّ منصبِهِ هـٰكذا كانَتْ تُهَمَتُهُ لنفسِهِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فكلُّ مَنْ كانَ أوفرَ عقلاً وأعلىٰ منصباً . . كانَ أقلَّ إعجاباً ، وأعظمَ اتهاماً لنفسِهِ .

إلا أنَّ هـٰذا أيضاً قدْ عزَّ ، فقلَّ في الأصدقاءِ مَنْ يتركُ المداهنةَ ، فيخبرُ بالعيبِ ، أوْ يتركُ الحسدَ ، فلا يزيدُ علىٰ قدْرِ الواجبِ ، فلا تخلو في أصدقائِكَ عنْ حسودٍ ، أوْ صاحبِ غرضٍ يرىٰ ما ليسَ بعيبٍ عيباً ، أوْ عنْ مداهنٍ يُخفي عنكَ بعضَ عيوبِكَ .

---

(١) رواه الإسماعيلي والذهبي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٧/ ٣٤٩) ، وهو كذلك في « القوت » (٢/ ٢٢١) .
(٢) رواه الإسماعيلي والذهبي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٧/ ٣٤٩) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٠٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٩٨) .

ولهٰذا كانَ داوودُ الطائيُّ قدِ اعتزلَ الناسَ ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تخالطُ الناسَ ؟ فقالَ : وماذا أصنعُ بأقوامٍ يُخفونَ عنِّي عيوبي ؟!

فقدْ كانَتْ شهوةُ ذوي الدينِ أنْ يتنبهوا لعيوبِهِمْ بتنبيهِ غيرِهِمْ ، وقدْ آلَ الأمرُ في أمثالِنا إلىٰ أنَّ أبغضَ الخلْقِ إلينا مَنْ ينصحُنا ويعرِّفُنا عيوبَنا ، ويكادُ هٰذا يكونُ مفصحاً عنْ ضعفِ الإيمانِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ السيئةَ حيَّاتٌ وعقاربُ لداغةٌ ، فلو نبَّهَنا منبِّهٌ علىٰ أنَّ تحتَ ثوبِنا عقرباً . . لتقلَّدنا منهُ منَّةً ، وفرحنا بهِ ، واشتغلنا بإزالةِ العقربِ وإبعادِها وقتلِها ، وإنَّما نكايتُها على البدنِ ، ويدومُ ألمُها يوماً فما دونَهُ ، ونكايةُ الأخلاقِ الرديئةِ علىٰ صميمِ القلبِ ، ويُخشىٰ أنْ تدومَ بعدَ الموتِ أبداً ، أوْ آلافاً مِنَ السنينَ ، ثمَّ لا نفرحُ بمَنْ ينبهُنا عليها ، ولا نشتغلُ بإزالتِها ، بلْ نشتغلُ بمقابلةِ الناصحِ بمثلِ مقالتِهِ ، فنقولُ لهُ : (وأنتَ أيضاً تصنعُ كيتَ وكيتَ) ، وتشغلُنا العداوةُ معَهُ عنِ الانتفاعِ بنصحِهِ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ قساوةِ القلبِ التي أثمرَتْها كثرةُ الذنوبِ ، وأصلُ ذلكَ ضعفُ الإيمانِ ، فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يعرِّفَنا رشدَنا ، ويبصِّرَنا بعيوبِ أنفسِنا ، ويشغلَنا بمداواتِها ، ويوفقَنا للقيامِ بشكرِ مَنْ يطلعُنا علىٰ مساوئِنا بمنِّهِ وفضلِهِ .

❊ ❊ ❊

الطريقُ الثالثُ : أنْ يستفيدَ معرفةَ عيوبِ نفسِهِ مِنْ ألسنةِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ عينَ السخطِ تبدي المساوئَ ، ولعلَ انتفاعَ الإنسانِ بعدوٍّ مشاحنٍ يذكِّرُهُ عيوبَهُ أكثرُ مِنِ انتفاعِهِ بصديقٍ مداهنٍ يثني عليهِ ويمدحُهُ ، ويخفي عنهُ

عيوبَهُ ، إلا أنَّ الطبعَ مجبولٌ علىٰ تكذيبِ العدوِّ ، وحملِ ما يقولُهُ على الحسدِ ، ولكنَّ البصيرَ لا يخلو عنِ الانتفاعِ بقولِ أعدائِهِ ؛ فإنَّ مساوئَهُ لا بدَّ وأنْ تنتشرَ علىٰ ألسنتِهم .

※ ※ ※

الطريقُ الرابعُ : أنْ يخالطَ الناسَ ، فكلُّ ما رآهُ مذموماً فيما بينَ الخلقِ فليطالبْ نفسَهُ بهِ وينسبْها إليهِ ؛ فإنَّ المؤمنَ مرآةُ المؤمنِ ، فيرىٰ مِنْ عيوبِ غيرِهِ عيوبَ نفسِهِ ، ويعلمُ أنَّ الطباعَ متقاربةٌ في اتباعِ الهوىٰ ، فما يتصفُ بهِ واحدٌ مِنَ الأقرانِ لا ينفكُّ القرنُ الآخرُ عنْ أصلِهِ ، أوْ عنْ أعظمَ منهُ ، أوْ عنْ شيءٍ منهُ ، فليتفقَّدْ نفسَهُ ويطهرْها منْ كلِّ ما يذمُّهُ مِنْ غيرِهِ ، وناهيكَ بهـٰذا تأديباً ، فلوْ تركَ الناسُ كلُّهُمْ ما يكرهونَهُ مِنْ غيرِهِمْ . لاستغنوا عنِ المؤدِّبِ .

قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : مَنْ أدَّبَكَ ؟ قالَ : ما أدَّبَني أحدٌ ، رأيتُ جهلَ الجاهلِ شيناً فاجتنبتُهُ[1] .

وهـٰذا كلُّهُ حِيَلُ مَنْ فقدَ شيخاً عارفاً زكياً ، بصيراً بعيوبِ النفسِ ، مشفقاً ناصحاً في الدينِ ، فارغاً مِن تهذيبِ نفسِهِ ، مشتغلاً بتهذيبِ عبادِ اللهِ تعالىٰ ، ناصحاً لهُمْ ، فمَنْ وجدَ ذلكَ . فقدْ وجدَ الطبيبَ ، فليلازمْهُ ، فهوَ الذي يخلِّصُهُ مِنْ مرضِهِ ، وينجيهِ مِنَ الهلاكِ الذي هوَ بصددِهِ .

※ ※ ※

(١) كذا أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/٤٤٢) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٥٠) ولكن عن بعض الحكماء .

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ إنْ تأمَّلتَهُ بعينِ الاعتبارِ . . انفتحَتْ بصيرتُكَ ، وانكشفَتْ لكَ عللُ القلوبِ وأمراضُها وأدويتُها بنورِ العلمِ واليقينِ ، فإنْ عجزتَ عنْ ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ يفوتَكَ التصديقُ والإيمانُ علىٰ سبيلِ التلقي والتقليدِ لمَنْ يستحقُّ التقليدَ ؛ فإنَّ للإيمانِ درجةً كما أنَّ للعلمِ درجةً ، والعلمُ يحصلُ بعدَ الإيمانِ ، وهوَ وراءَهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

فمَنْ صدَّقَ بأنَّ مخالفةَ الشهواتِ هيَ الطريقُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ يطَّلعْ علىٰ سببِهِ وسرِّهِ . . فهوَ مِنَ الذينَ آمنوا ، وإذا اطلعَ علىٰ ما ذكرناهُ مِنْ أغوارِ الشهواتِ وأسرارِها . . فهوَ مِنَ الذينَ أُوتوا العلمَ ، وكُلاًّ وعدَ اللهُ الحسنىٰ .

والذي يقتضي الإيمانَ بهٰذا الأمرِ في القرآنِ والسنَّةِ وأقاويلِ العلماءِ أكثرُ مِنْ أنْ يُحصىٰ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ ، قيلَ : نزعَ منها محبّةَ الشهواتِ[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ بينَ خمسِ شدائدَ : مؤمنٌ يحسدُهُ ، ومنافقٌ يبغضُهُ ، وكافرٌ يقاتلُهُ ، وشيطانٌ يضلُّهُ ، ونفسٌ تنازعُهُ »[٢] ، فبيَّنَ أنَّ النفسَ عدوٌّ منازعٌ يجبُ مجاهدتُهُ .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ حذِّر وأنذرْ أصحابَكَ أكلَ الشهواتِ ؛ فإنَّ القلوبَ المتعلِّقَةَ بشهواتِ الدنيا عقولُها عنِّي محجوبةٌ)[٣] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لمَنْ تركَ شهوةً حاضرةً لموعودٍ غائبٍ لمْ يرَهُ)[٤] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لقومٍ قدموا مِنَ الجهادِ : « مرحباً بكُمْ ، قدمتُمْ مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٨) بنحوه عن عمر رضي الله عنه .
(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٥٤٨) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث أنس بسند ضعيف) . « إتحاف » (٧/ ٣٥١) .
(٣) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص١٠٩) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٣٢) .

وما الجهادُ الأكبرُ ؟ قالَ : « جهادُ النفسِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المجاهدُ مَنْ جاهدَ نفسَهُ في اللهِ عزَّ وجلَّ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُفَّ أذاكَ عنْ نفسِكَ ، ولا تتابعْ هواها في معصيةِ اللهِ تعالىٰ ، إذاً ؛ تخاصمْك يومَ القيامةِ ، فيلعنْ بعضُكَ بعضاً ، إلاَّ أنْ يغفرَ اللهُ تعالىٰ ويسترَ »[3] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ مِنْ نفسي ، مرَّةً لي ، ومرَّةً عليَّ)[4] .

وكانَ أبو العباسِ الموصليُّ يقولُ لنفسِهِ : (يا نفسُ ؛ لا في الدنيا معَ أبناءِ الملوكِ تتنعَّمينَ ، ولا في طلبِ الآخرةِ معَ العبَّادِ تجتهدينَ ، كأنِّي بكِ بينَ الجنةِ والنارِ تُحبسينَ ، يا نفسُ ؛ ألا تستحينَ ؟!) .

وقالَ الحسنُ : (ما الدابَّةُ الجموحُ بأحوجَ إلى اللجامِ الشديدِ مِنْ نفسِكَ) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : (جاهدْ نفسَكَ بأسيافِ الرياضةِ ،

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٤٩٨) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٨) بنحوه .

(٢) رواه الترمذي (١٦٢١) ضمن حديث عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا السياق) . « إتحاف » (٧/ ٣٥١) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٥) .

والرياضةُ علىٰ أربعةِ أوجهٍ : القوتُ مِنَ الطعامِ ، والغمضُ مِنَ المنامِ ، والحاجةُ مِنَ الكلامِ ، وحملُ الأذىٰ مِنْ جميعِ الأنامِ ، فيتولَّدُ مِنْ قلَّةِ الطعامِ موتُ الشهواتِ ، ومِنْ قلَّةِ المنامِ صفوُ الإراداتِ ، ومِنْ قلَّةِ الكلامِ السلامةُ مِنَ الآفاتِ ، ومنِ احتمالِ الأذى البلوغُ إلى الغاياتِ ، وليسَ على العبدِ شيءٌ أشدَّ مِنَ الحِلْمِ عندَ الجفا ، والصبرِ على الأذىٰ ، وإذا تحرَّكَتْ مِنَ النفسِ إرادةُ الشهواتِ والآثامِ ، وهاجَتْ منها حلاوةُ فضولِ الكلامِ . . جرَّدْتَ عليها سيوفَ قلَّةِ الطعامِ مِنْ غمدِ التهجُّدِ وقلَّةِ المنامِ ، وضربتَها بأيدي الخمولِ وقلَّةِ الكلامِ ، حتَّىٰ تنقطعَ عنِ الظلمِ والانتقامِ ، فتأمنَ بوائقَها في سائرِ الأيامِ ، وتصفِّيَها مِنْ ظلمةِ شهواتِها ، فتنجوَ مِنْ غوائلِ آفاتِها ، فتصيرَ عندَ ذلكَ روحانيَّةً لطيفةً ، ونوريَّةً خفيفةً ، فتجولَ في ميدانِ الخيراتِ ، وتسيرَ في مسالكِ الطاعاتِ ؛ كالفرسِ الفارهِ في الميدانِ ، وكالمَلِكِ المتنزِّهِ في البستانِ) .

وقالَ أيضاً : (أعداءُ الإنسانِ ثلاثةٌ : دنياهُ ، وشيطانُهُ ، ونفسُهُ ، فاحترسْ مِنَ الدنيا بالزهدِ فيها ، ومِنَ الشيطانِ بمخالفتِهِ ، ومِنَ النفسِ بتركِ الشهواتِ) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنِ استولَتْ عليهِ النفسُ . . صارَ أسيراً في جبِّ شهواتِها ، محصوراً في سجنِ هواها ، مقهوراً مغلولاً ، زمامُهُ في يدِها تجرُّهُ حيثُ شاءَتْ ، فتمنعُ قلبَهُ الفوائدَ)(١) .

---

(١) روى القشيري في « رسالته » (ص٩٦) نحوه عن أبي محمد الجريري .

وقالَ جعفرُ بنُ حميدٍ : (أجمعَتِ العلماءُ والحكماءُ على أنَّ النعيمَ لا يُدركُ إلا بتركِ النعيمِ) .

وقالَ أبو يحيى الورَّاقُ : (مَنْ أرضى الجوارحَ بالشهواتِ . . فقدْ غرسَ في قلبِهِ شجرَ الندامات)[١] .

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (ما زادَ على الخبزِ فهوَ شهوةٌ)[٢] .

وقالَ أيضاً : (مَنْ أحبَّ شهواتِ الدنيا . . فليتهيَّأْ للذلِّ)[٣] .

ويُروىٰ أنَّ امرأةَ العزيزِ قالَتْ ليوسفَ عليهِ السلامُ بعدَ أنْ ملكَ خزائنَ الأرضِ وقعدَتْ لهُ علىٰ رابيةِ الطريقِ في يومِ موكبِهِ وكانَ يركبُ في زهاءِ اثني عشرَ ألفاً مِنْ عظماءِ مملكتِهِ : سبحانَ مَنْ جعلَ الملوكَ عبيداً بالمعصيةِ ، وجعلَ العبيدَ ملوكاً بطاعتِهِمْ لهُ ، يا يوسفُ ؛ إنَّ الحرصَ والشهوةَ صيَّرا الملوكَ عبيداً وذلكَ جزاءُ المفسدينَ ، وإنَّ الصبرَ والتقوىٰ صيَّرا العبيدَ ملوكاً ، فقالَ يوسفُ : كما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٤] .

وقالَ الجنيدُ : أرقتُ ليلةً ، فقمتُ إلىٰ وردي ، فلمْ أجدِ الحلاوةَ التي

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٩٢) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٤٨) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٧١) .
(٤) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١١٧٢٤) مختصراً .

كنتُ أجدُها ، فأردتُ أنْ أنامَ فلمْ أقدرْ ، فجلستُ فلمْ أطقِ الجلوسَ ، فخرجتُ ، فإذا رجلٌ ملتفٌّ في عباءةٍ مطروحٌ على الطريقِ ، فلما أحسَّ بي . . قالَ : يا أبا القاسمِ ؛ إليَّ الساعةَ ، فقلتُ : يا سيدي ؛ مِنْ غيرِ موعدٍ ! فقالَ : بلىٰ ، سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يحرِّكَ لي قلبَكَ ، فقلتُ : قدْ فعلَ ، فما حاجتُكَ ؟ قالَ : متىٰ يصيرُ داءُ النفسِ دواءَها ؟ فقلتُ : إذا خالفَتِ النفسُ هواها ، فأقبلَ علىٰ نفسِهِ وقالَ : اسمعي ، قدْ أجبتُكِ بهٰذا سبعَ مرَّاتٍ ، فأبيتِ أنْ تسمعيهِ إلا مِنَ الجنيدِ ، ها قدْ سمعتيهِ[1] ، قالَ : فانصرفَ وما عرفتُهُ[2] .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : (السلامُ على الماءِ الباردِ في الدنيا ، لعلِّي لا أُحرمُهُ في الآخرةِ)[3] .

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : متىٰ أتكلَّمُ ؟ قالَ : إذا اشتهيتَ الصمتَ ، قالَ : متىٰ أصمتُ ؟ قالَ : إذا اشتهيتَ الكلامَ[4] .

---

(١) كذا بزيادة الياء علىٰ لغة (ضربتيه) ، والأصل أن يقال : (سمعته) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٢٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢٧٥) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٠) عن أشعث بن سوار قال : دخلت علىٰ يزيد الرقاشي في يوم شديد الحر ، فقال : يا أشعث ؛ تعال حتىٰ نبكي على الماء البارد في يوم الظمأ ، ثم قال : والهفاه ؛ سبقني العابدون وقطع بي ، قال : وكان قد صام ثنتين وأربعين سنة .

(٤) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/ ٤٧٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ اشتاقَ إلى الجنةِ . . سلا عنِ الشهواتِ في الدنيا)[١] .

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يطوفُ في السوقِ ، فإذا رأى الشيءَ يشتهيهِ . . قالَ لنفسهِ : اصبري ، فواللهِ ما أمنعُكِ إلا مِنْ كرامتِكِ عليَّ[٢] .

فإذاً ؛ قدِ اتفقَ العلماءُ والحكماءُ علىٰ أنْ لا طريقَ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ إلا بنهيِ النفسِ عنِ الهوىٰ ، ومخالفةِ الشهواتِ ، فالإيمانُ بهـٰذا واجبٌ ، وأمَّا علمُ تفصيلِ ما يُتركُ مِنَ الشهواتِ وما لا يُتركُ . . فينكشفُ بما قدَّمناهُ .

وحاصلُ الرياضةِ وسرُّها : ألا تتمتعَ النفسُ بشيءٍ ممَّا لا يوجدُ في القبرِ إلا بقدْرِ الضرورةِ ، فيكونُ مقتصراً مِنَ الأكلِ والنكاحِ واللباسِ والمسكنِ وكلِّ ما هوَ مضطرٌّ إليهِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ والضرورةِ ؛ فإنَّهُ لوْ تمتَّعَ بشيءٍ منهُ . . أنسَ بهِ وألِفَهُ ، فإذا ماتَ . . تمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا بسببِهِ ، ولا يتمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا إلا مَنْ لا حظَّ لهُ في الآخرةِ بحالٍ ، ولا خلاصَ منهُ إلا بأنْ يكونَ القلبُ مشغولاً بمعرفةِ اللهِ وحبِّهِ ، والتفكُّرِ فيهِ ، والانقطاعِ إليهِ ، ولا قوَّةَ علىٰ ذلكَ إلا باللهِ ، ويقتصرُ مِنَ الدنيا علىٰ ما يدفعُ عوائقَ الذكرِ والفكرِ فقطْ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٤) عنه مرفوعاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٦١/ ب) .

فمَنْ لمْ يقدرْ علىٰ حقيقةِ ذلكَ . . فليقربْ منهُ ، **والناسُ فيهِ أربعةٌ** :

أحدُهُمْ : رجلٌ استغرقَ ذكرُ اللهِ قلبَهُ ، فلا يلتفتُ إلى الدنيا إلا في ضروراتِ المعيشةِ ، فهوَ مِنَ الصديقينَ ، ولا ينتهي إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ إلا بالرياضةِ الطويلةِ ، والصبرِ عنِ الشهواتِ مدَّةً مديدةً .

والثاني : رجلٌ استغرقَتِ الدنيا قلبَهُ ، ولمْ يبقَ للهِ تعالىٰ ذكرٌ في قلبِهِ ، إلا مِنْ حيثُ حديثُ النفسِ حيثُ يذكرُهُ باللسانِ ، فهـٰذا مِنَ الهالكينَ .

والثالثُ : رجلٌ اشتغلَ بالدنيا والدينِ ، ولكنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ هوَ الدينُ ، فهـٰذا لا بدَّ لهُ مِنْ ورودِ النارِ ، إلا أنَّهُ ينجو منها سريعاً ، بقدْرِ غلبةِ ذكْرِ اللهِ علىٰ قلبِهِ .

والرابعُ : رجلٌ اشتغلَ بهما جميعاً ، لكنَّ الدنيا أغلبُ علىٰ قلبِهِ ، فهـٰذا يطولُ مُقامُهُ في النارِ ، لكنْ يخرجُ منها لا محالةَ ؛ لقوَّةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ في قلبِهِ ، وتمكُّنِهِ مِنْ صميمِ فؤادِهِ ، وإنْ كانَ ذكرُ الدنيا أغلبَ علىٰ قلبِهِ ، اللهمَّ ؛ إنا نعوذُ بكَ مِنْ خزيِكَ ؛ فإنكَ أنتَ المعاذُ .

❋ ❋ ❋

وربَّما يقولُ القائلُ : إنَّ التنعُّمَ بالمباحِ مباحٌ ، فكيفَ يكونُ التنعُّمُ سببَ البعدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

وهـٰذا خيالٌ ضعيفٌ ، بلْ حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وسببُ إحباطِ كلِّ حسنةٍ ، والمباحُ الخارجُ عنْ قدْرِ الحاجةِ أيضاً مِنَ الدنيا ، وهو

سببُ البعدِ ، وسيأتي ذلكَ في كتابِ ذمِّ الدنيا .

وقدْ قالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ : كنتُ مرةً في جبلِ اللُّكامِ ، فرأيتُ رُمَّاناً ، فاشتهيتُهُ ، فأخذتُ منهُ واحدةً ، فشققتُها ، فوجدتُها حامضةً ، فمضيتُ وتركتُها ، فرأيتُ رجلاً مطروحاً وقدِ اجتمعَتْ عليهِ الزنابيرُ ، فقلتُ : السلامُ عليكَ ، فقالَ : وعليكَ السلامُ يا إبراهيمُ ، فقلتُ : كيفَ عرفتني ؟! قالَ : مَنْ عرفَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . لمْ يخفَ عليهِ شيءٌ ، فقلتُ : أرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ هـٰذِهِ الزنابيرِ ! فقالَ : وأرىٰ لكَ حالاً معَ اللهِ تعالىٰ ، فلوْ سألتَهُ أنْ يحميَكَ مِنْ شهوةِ الرمَّانِ ، فإنَّ لدغَ الرمَّانِ يجدُ الإنسانُ ألمَهُ في الآخرةِ ، ولدغَ الزنابيرِ يجدُ ألمَهُ في الدنيا ، فتركتُهُ ومضيتُ(١) .

وقالَ السريُّ : (منذُ أربعينَ سنةً تطالبُني نفسي أنْ أغمسَ جزرةً في دبسٍ فما أطعمتُها)(٢) .

فإذاً ؛ لا يمكنُ إصلاحُ القلبِ لسلوكِ طريقِ الآخرةِ ما لمْ يمنعْ نفسَه مِنَ التنعُّمِ بالمباحِ ؛ فإنَّ النفسَ إذا لمْ تُمنعْ بعضَ المباحاتِ . . طمعَتْ في المحظوراتِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٧٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤١٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢٧٧) ، وفي (ج) : (أطعتها) .

فمَنْ أرادَ حفظَ لسانِهِ عنِ الغيبةِ والفضولِ . . فحقُّهُ أنْ يلزمَ السكوتَ إلا عنْ ذكرِ اللهِ ، وإلا عَنِ المهمَّاتِ في الدينِ ؛ حتَّىٰ تموتَ منهُ شهوةُ الكلامِ ، فلا يتكلَّمُ إلا بحقٍّ ، فيكونُ سكوتُهُ عبادةً ، وكلامُهُ عبادةً .

ومهما اعتادَتِ العينُ رميَ البصرِ إلىٰ كلِّ شيءٍ جميلٍ . . لمْ تتحفَّظْ عنِ النظرِ إلىٰ ما لا يحلُّ ، وكذلكَ سائرُ الشهواتِ ؛ لأنَّ الذي يُشتهىٰ بهِ الحلالُ هوَ بعينِهِ الذي يُشتهىٰ بهِ الحرامُ ، فالشهوةُ واحدةٌ ، وقدْ وجبَ على العبدِ منعُها مِنَ الحرامِ ، فإنْ لمْ يعوِّدْها الاقتصارَ علىٰ قدْرِ الضرورةِ مِنَ الشهواتِ . . غلبَتْهُ الشهوةُ .

فهٰذهِ إحدىٰ آفاتِ المباحاتِ ، ووراءَها آفةٌ عظيمةٌ أعظمُ مِنْ هٰذهِ ، وهوَ أنَّ النفسَ تفرحُ بالتنعُّمِ في الدنيا وتركنُ إليها ، وتطمئنُّ بها أشراً وبطراً حتَّىٰ تصيرَ ثملةً ، كالسكرانِ الذي لا يفيقُ مِنْ سكرِهِ ، وذلكَ الفرحُ بالدنيا سمٌّ قاتلٌ يسري في العروقِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ الخوفَ والحزنَ ، وذكرَ الموتِ وأهوالَ يومِ القيامةِ ، وهٰذا هوَ موتُ القلبِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ وكلُّ ذلكَ ذمٌّ لها ، فنسألُ اللهَ السلامةَ .

فأولو الحزمِ مِنْ أربابِ القلوبِ جرَّبوا قلوبَهُمْ في حالِ الفرحِ بمؤاتاةِ الدنيا ، فوجدوها قاسيةً بطرةً بعيدةً عنِ التأثُّرِ بذكرِ اللهِ واليومِ الآخرِ ،

وجرَّبوها في حالةِ الحزنِ ، فوجدوها ليّنةً رقيقةً صافيةً قابلةً لأثرِ الذكرِ ، فعلموا أنَّ النجاةَ في الحزنِ الدائمِ ، والتباعدِ مِنْ أسبابِ البطرِ والفرحِ ، ففطموها عنْ ملاذِّها ، وعوَّدوها الصبرَ عنْ شهواتِها ، حلالِها وحرامِها ، وعلموا أنَّ حلالَها حسابٌ ، وحرامَها عقابٌ ، ومتشابهَها عتابٌ ، وهوَ نوعُ عذابٍ ، فمَنْ نُوقشَ الحسابَ في عرصاتِ القيامةِ . . فقدْ عُذِّبَ[1] ، فخلَّصوا أنفسَهُمْ مِنْ عذابِها ، وتوصَّلُوا إلى الحريَّةِ والملْكِ الدائمِ في الدنيا والآخرةِ بالخلاصِ مِنْ أسرِ الشهواتِ ورقِّها ، والأنسِ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والاشتغالِ بطاعتِهِ ، وفعلوا بها ما يُفعلُ بالبازي إذا قُصِدَ تأديبُهُ ، ونقلُهُ مِنَ التوثُّبِ والاستيحاشِ إلى الانقيادِ والتأدُّبِ ، فإنَّهُ يُحبسُ أوَّلاً في بيتٍ مظلمٍ ، وتُخاطُ عيناهُ ، حتَّىٰ يحصلَ بهِ الفطامُ عنِ الطيرانِ في جوِّ الهواءِ ، وينسىٰ ما قدْ كانَ ألفَهُ مِنْ طبعِ الاسترسالِ ، ثمَّ يُرفقُ بهِ باللحمِ حتَّىٰ يأنسَ بصاحبِهِ ويألفَهُ إلفاً ، إذا دعاهُ . . أجابَهُ ، ومهما سمعَ صوتَهُ . . رجعَ إليهِ .

فكذلكَ النفسُ لا تألفُ ربَّها ولا تأنسُ بذكرِهِ إلا إذا فُطمَتْ عنْ عادتِها بالخلوةِ والعزلةِ أوَّلاً ؛ ليُحفظَ السمعُ والبصرُ عنِ المألوفاتِ ، ثمَّ عُودتِ الثناءَ والذكرَ والدعاءَ ثانياً في الخلوةِ ؛ حتَّىٰ يغلبَ عليها الأنسُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ عوضاً عنِ الأنسِ بالدنيا وسائرِ الشهواتِ .

وذلكَ يثقلُ على المريدِ في البدايةِ ، ثمَّ يتنعَّمُ بهِ في النهايةِ ، كالصبيِّ يُفطمُ عنِ الثدي وهوَ شديدٌ عليهِ ؛ إذْ كانَ لا يصبرُ عنهُ ساعةً ، فلذلكَ يشتدُّ

---

(١) كما جاء ذلك مرفوعاً عند البخاري (١٠٣) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

بكاؤُهُ وجزعُهُ عندَ الفطامِ ، ويشتدُّ نفورُهُ عنِ الطعامِ الذي يُقدَّمُ إليهِ بدلاً عنِ اللبنِ ، ولكنَّهُ إذا مُنعَ اللبنَ رأساً يوماً فيوماً ، وعظمَ تعبُهُ في الصبرِ وغلبَهُ الجوعُ .. تناولَ الطعامَ تكلُّفاً ، ثمَّ يصيرُ لهُ طبعاً ، فلوْ ردَّ بعدَ ذلكَ إلى الثديِ .. لمْ يرجعْ إليهِ ، فيهجرُ الثديَ ، ويعافُ اللبنَ ، ويألفُ الطعامَ .

وكذلكَ الدابَّةُ في الابتداءِ تنفرُ عنِ السرجِ واللجامِ والركوبِ ، فتُحملُ علىٰ ذلكَ قهراً ، بأنْ تُمنعَ عنِ الانسراحِ الذي ألفَتْهُ بالسلاسلِ والقيودِ أوَّلاً ، ثمَّ تأنسُ بهِ ، بحيثُ تُتركُ في موضعِها فتقفُ فيهِ مِنْ غيرِ قيدٍ .

فكذلكَ تُؤدَّبُ النفسُ كما يُؤدَّبُ الطيرُ والدوابُّ ، وتأديبُها بأنْ تُمنعَ مِنَ الأشَرِ والبطرِ والأنسِ والفرحِ بنعيمِ الدنيا ، بلْ بكلِّ ما يزايلُها بالموتِ ، إذْ قيلَ لهُ : أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ[1] ، فإذا علمَ أنَّهُ مَنْ أحبَّ شيئاً يلزمُهُ فراقُهُ ، ويشقىٰ لا محالةَ لفراقِهِ .. شغلَ قلبَهُ بحبِّ ما لا يفارقُهُ ، وهوَ ذكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ ذلكَ يصحبُهُ في القبرِ ولا يفارقُهُ .

وكلُّ ذلكَ يتمُّ بالصبرِ أولاً أياماً قلائلَ ؛ فإنَّ العمرَ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ مدَّةِ حياةِ الآخرةِ ، وما مِنْ عاقلٍ إلا وهوَ راضٍ باحتمالِ المشقَّةِ في سفرٍ وتعلُّمِ صناعةٍ وغيرِها شهراً ليتنعَّمَ بهِ سنةً أوْ دهراً ، وكلُّ العمرِ بالإضافةِ إلى الأبدِ أقلُّ مِنَ الشهرِ بالإضافةِ إلىٰ عمرِ الدنيا ، فلا بدَّ مِنَ الصبرِ والمجاهدةِ ، فعندَ

---

(١) فقد روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٤) عن سهل بن سعد قال : (جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ؛ عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به) الحديث .

الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[1] ، وتذهبُ عنهُمْ عماياتُ الكرىٰ ، كما قالهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وطريقُ المجاهدةِ والرياضةِ لكلِّ إنسانٍ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ أحوالِهِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ يتركَ كلُّ واحدٍ ما بهِ فرحُهُ مِنْ أسبابِ الدنيا ، فالذي يفرحُ بالمالِ ، أوْ بالجاهِ ، أوْ بالقبولِ في الوعظِ ، أوْ بالعزِّ في القضاءِ والولايةِ ، أوْ بكثرةِ الأتباعِ في التدريسِ والإفادةِ . . فينبغي أنْ يتركَ أوَّلاً ما بهِ فرحُهُ ، فإنَّهُ إنْ مُنِعَ عنْ شيءٍ مِنْ ذلكَ ، وقيلَ لهُ : (ثوابُكَ في الآخرةِ لا ينقصُ بالمنعِ) ، فكرهَ ذلكَ وتألَّمَ بهِ . . فهوَ ممَّنْ فرحَ بالحياةِ الدنيا واطمأنَّ بها ، وذلكَ مهلكٌ في حقِّهِ .

ثمَّ إذا تركَ أسبابَ الفرحِ . . فليعتزلِ الناسَ ، ولينفردْ بنفسِهِ ، وليراقبْ قلبَهُ ؛ حتَّىٰ لا يشتغلَ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ والفكرِ فيهِ ، وليترصَّدْ لما يبدو في نفسِهِ مِنْ شهوةٍ ووسواسٍ ؛ حتَّىٰ يقمعَ مادَّتَهُ مهما ظهرَ ، فإنَّ لكلِّ وسوسةٍ سبباً ، ولا تزولُ إلا بقطْعِ ذلكَ السببِ والعلاقةِ ، وليلازمْ ذلكَ بقيَّةَ العمرِ ، فليسَ للجهادِ آخرٌ إلا الموتَ .

* * *

---

(١) وهو سير الليل ، فمن أسهر ليله . . سار إلىٰ مقصوده ، فإذا أصبح ورأىٰ نفسه قد قطع مفاوز لم يكن يمكن قطعها في النهار . . يحمد نفسه علىٰ حسن اجتهاده لنيله مقصوده ، بخلاف من آثر الكسل واختار الراحة والنوم ، يندم إذا أصبح عليه النهار ، وهـٰذا مثل مشهور . « إتحاف » (٧/ ٣٥٦) .

بيان علامات حسن الخلق

اعلمْ : أنَّ كلَّ إنسانٍ جاهلٌ بعيوبِ نفسِهِ ، فإذا جاهدَ نفسَهُ أدنىٰ مجاهدةٍ ، حتَّىٰ تركَ فواحشَ المعاصي . . ربَّما ظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ قدْ هذَّبَ نفسَهُ ، وحسَّنَ خلقَهُ ، واستغنىٰ عنِ المجاهدةِ ، فلا بدَّ مِنْ إيضاحِ علامةِ حسْنِ الخلُقِ ؛ فإنَّ حسْنَ الخلُقِ هوَ الإيمانُ ، وسوءَ الخلُقِ هوَ النفاقُ ، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ صفاتِ المؤمنينَ والمنافقينَ في كتابِهِ ، وهيَ بجملتِها ثمرةُ حسْنِ الخلقِ وسوءِ الخلقِ ، فلنوردْ جملةً مِنْ ذلكَ لتُعلمَ بهِ آيةُ حسْنِ الخلقِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا . . . ﴾ إلىٰ آخرِ السورةِ .

فمَنْ أشكلَ عليهِ حالُهُ . . فليعرضْ نفسَهُ علىٰ هٰذهِ الآياتِ ، فوجودُ جميعِ هٰذهِ الصفاتِ علامةُ حسْنِ الخلُقِ ، وفقْدُ جميعِها علامةُ سوءِ الخلُقِ ، ووجودُ بعضِها دونَ بعضٍ يدلُّ على البعضِ دونَ البعضِ ، فليشتغلْ

بتحصيلِ ما فقدَهُ ، وحفْظِ ما وجدَهُ .

وقدْ وصفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المؤمنَ بصفاتٍ كثيرةٍ ، وأشارَ بجميعِها إلىٰ محاسنِ الأخلاقِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يحبُّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . فليكرمْ ضيفَهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ . فليكرمْ جارَهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . فليقلْ خيراً أوْ ليصمُتْ »(٤) .

وذكرَ أنَّ صفاتِ المؤمنينَ هيَ حسْنُ الخلقِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهُمْ أخلاقاً »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمُ المؤمنَ صموتاً وقوراً . فادنوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلقَّنُ الحكمةَ »(٦) .

---

(١) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .
(٢) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .
(٣) هو قطعة من الحديث السابق .
(٤) هو قطعة من الحديث السابق .
(٥) رواه الترمذي (٢٦١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٠٩) .
(٦) رواه ابن ماجه (٤١٠١) بنحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّتْهُ حسنتُهُ ، وساءَتْهُ سيئتُهُ . . فهوَ مؤمنٌ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يحلُّ لمؤمنٍ أنْ يشيرَ إلىٰ أخيهِ بنظرةٍ تؤذيهِ »(٢) .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يروِّعَ مسلماً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يتجالسُ المتجالسانِ بأمانةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا يحلُّ لأحدِهما أنْ يفشيَ علىٰ أخيهِ ما يكرهُهُ »(٤) .

وجمعَ بعضُهُمْ علاماتِ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (هوَ أنْ يكونَ كثيرَ الحياءِ ، قليلَ الأذىٰ ، كثيرَ الصلاحِ ، صدوقَ اللسانِ ، قليلَ الكلامِ ، كثيرَ العملِ ، قليلَ الزللِ ، قليلَ الفضولِ ، برّاً ، وصولاً ، وَقوراً ، صبوراً ، شكوراً ، رضيّاً ، حليماً ، رفيقاً ، عفيفاً ، شفيقاً ، لا لعَّاناً ، ولا سبَّاباً ،

(١) رواه الترمذي (٢١٦٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٧٥) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٩) عن حمزة بن عبدة مرسلاً ، وزاد الحافظ العراقي : (وفي « البر والصلة » له من زيادات الحسين المروزي : حمزة بن عبد الله بن أبي سمي ، وهو الصواب) . « إتحاف » (٦/ ٢٥٥) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٥/ ٥٠٤) : (عن حمزة بن عبيد مرسلاً ، هو ابن عبد الله بن عمر ، قال الذهبي : ثقة إمام) .
(٣) رواه أبو داوود (٥٠٠٤) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٦٧٧) عن أبي بكر بن حزم مرسلاً .

ولا نمَّاماً ، ولامغتاباً ، ولا عجولاً ، ولا حقوداً ، ولا بخيلاً ، ولا حسوداً ، هشَّاشاً بشَّاشاً ، يحبُّ في اللهِ ويبغضُ في اللهِ ، ويرضىٰ في اللهِ ويغضبُ في اللهِ ، فهٰذا هوَ حسنُ الخلقِ)(١) .

وسُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ علامةِ المؤمنِ والمنافقِ فقالَ : « إنَّ المؤمنَ همَّتُهُ في الصلاةِ والصيامِ والعبادةِ ، والمنافقَ همَّتُهُ في الطعامِ والشرابِ كالبهيمةِ »(٢) .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (المؤمنُ مشغولٌ بالفكرِ والعبرِ ، والمنافقُ مشغولٌ بالحرصِ والأملِ ، والمؤمنُ آيسٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ راجٍ كلَّ أحدٍ إلا منَ اللهِ ، والمؤمنُ آمنٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمنافقُ خائفٌ مِنْ كلِّ أحدٍ إلا مِنَ اللهِ ، والمؤمنُ يقدِّمُ مالَهُ دونَ دينِهِ ، والمنافقُ يقدِّمُ دينَهُ دونَ مالِهِ ، والمؤمنُ يحسِنُ ويبكي ، والمنافقُ يسيءُ ويضحكُ ، والمؤمنُ يحبُّ الخلوةَ والوحدةَ ، والمنافقُ يحبُّ الخلطةَ والملأَ ، والمؤمنُ يزرعُ ويخشى الفسادَ ، والمنافقُ يقلعُ ويرجو الحصادَ ، والمؤمنُ يأمرُ وينهىٰ للسياسةِ فيصلحُ ، والمنافقُ يأمرُ وينهىٰ للرئاسةِ فيفسدُ)(٣) .

---

(١) روىٰ هٰذا ضمن وصف طويل للمؤمن ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤١٩) عن ذي النون المصري .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٣٥٩) ، وقال : (ويشهد له قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾) .

(٣) روىٰ بعض ذلك متفرقاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٦٨ـ ٧١) عن حاتم الأصم وشقيق البلخي .

وأولىٰ ما يُمتحنُ بهِ حسْنُ الخلقِ الصبرُ على الأذىٰ ، واحتمالُ الجفاءِ ، ومَنْ شكا مِنْ سوءِ خلقِ غيرِهِ . . دلَّ ذلكَ علىٰ سوءِ خلقِهِ ؛ لأنَّ حسنَ الخلقِ احتمالُ الأذىٰ ، فقدْ رُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يوماً يمشي ومعَهُ أنسٌ ، فأدركَهُ أعرابيٌّ ، فجذبَهُ جذباً شديداً وكانَ عليهِ برْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ ، قالَ أنسٌ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ عنقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ أثَّرَتْ فيهِ حاشيةُ البرْدِ مِنْ شدَّةِ جذبِهِ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ هبْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عندَكَ ، فالتفتَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ ، ثمَّ أمرَ بإعطائِهِ(١) .

ولمَّا أكثرَتْ قريشٌ إيذاءَهُ وضرْبَهُ . . قالَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لقومي فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »(٢) ، قيلَ : إنَّ هـٰذا يومَ أحدٍ ، فلذلكَ أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقدْ حُكِيَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ خرجَ يوماً إلىٰ بعضِ البراري ، فاستقبلَهُ رجلٌ جنديٌّ ، فقالَ : أنتَ عبدٌ ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ لهُ : أينَ العمرانُ ؟ فأشارَ إلى المقبرةِ ، فقالَ الجنديُّ : إنَّما أردتُ العمرانَ ، فقالَ : هوَ المقبرةُ ، فغاظَهُ ذلكَ ، فضربَ رأسَهُ بالسوطِ فشجَّهُ ، وردَّهُ إلى البلدِ ، فاستقبلَهُ أصحابُهُ ، فقالوا : ما الخبرُ ؟ فأخبرَهُمُ الجنديُّ ما قالَ لهُ ، فقالوا : هـٰذا إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، فنزلَ الجنديُّ عنْ فرسِهِ ، وقبَّلَ يديهِ

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٩) ، ومسلم (١٠٥٧) .
(٢) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) ، يحكيه عن نبي من أنبياء الله تعالىٰ .

ورجليهِ ، وجعلَ يعتذرُ إليهِ ، فقيلَ بعدَ ذلكَ لهُ : لِمَ قلتَ لهُ : أنا عبدٌ ؟ فقالَ : إنَّهُ لمْ يسألْني عبدُ مَنْ أنتَ ، بلْ قالَ : أنتَ عبدٌ ؟ فقلتُ : نعمْ ؛ لأنِّي عبدُ اللهِ ، فلمَّا ضربَ رأسي.. سألتُ اللهَ لهُ الجنَّةَ ، قيلَ : كيفَ وقدْ ظلمَكَ ؟ فقالَ : علمتُ أنَّني أُوجرُ علىٰ ما نالَني منهُ ، فلمْ أردْ أنْ يكونَ نصيبي منهُ الخيرَ ، ونصيبُهُ منِّي الشرَّ[1] .

ودُعِيَ أبو عثمانَ الحيريُّ[2] إلىٰ دعوةٍ ، وكانَ الداعي يريدُ تجربتَهُ ، فلمَّا بلغَ منزلَهُ.. قالَ لهُ : ليسَ لي وجهٌ ، فرجعَ أبو عثمانَ ، فلمّا ذهبَ غيرَ بعيدٍ.. دعاهُ ثانياً فقالَ لهُ : يا أستاذُ ؛ ارجعْ ، فرجعَ أبو عثمانَ ، ثمَّ دعاهُ الثالثةَ وقالَ : ارجعْ علىٰ ما يوجبُ الوقتُ ، فرجعَ ، فلمَّا بلغَ البابَ.. قالَ لهُ مثلَ مقالتِهِ الأولىٰ ، فرجعَ أبو عثمانَ ، ثمَّ جاءَهُ الرابعةَ فردَّهُ ، حتَّىٰ عاملَهُ بذلكَ مرَّاتٍ وأبو عثمانَ لا يتغيَّرُ ، فقالَ[3] : إنَّما أردتُ أنْ أختبرَكَ ، فما أحسنَ خلقَكَ ! فقالَ : إنَّ الذي رأيتَ منِّي هوَ خلُقُ الكلبِ ؛ إنَّ الكلبَ إذا دُعِيَ.. أجابَ ، وإذا زُجرَ.. انزجرَ[4] .

ورويَ عنهُ أيضاً أنَّهُ اجتازَ يوماً في سكَّةٍ ، فطُرِحَتْ عليهِ إجَّانةُ رمادٍ ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤١٤) .
(٢) في (أ) : (وحكي أن بعض تلامذة أبي عثمان الحيري دعاه) .
(٣) في (أ) : (لا يتغيّر ، فأكب علىٰ رجليه وقال : يا أستاذ ؛ إنما . . .) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤١٤) .

فنزلَ عنْ دابتِهِ ، فسجدَ سجدةَ الشكرِ ، ثمَّ جعلَ ينفضُ الرمادَ عنْ ثيابِهِ ولمْ يقلْ شيئاً ، فقيلَ : ألا زبرتَهُمْ ؟ فقالَ : إنَّ مَنِ استحقَّ النارَ فصُولحَ على الرمادِ . . لمْ يجزْ لهُ أنْ يغضبَ(١) .

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بنَ موسى الرضا رحمةُ اللهِ عليهِ كانَ لونُهُ يميلُ إلى السوادِ ؛ إذْ كانَتْ أمُّهُ سوداءَ ، وكانَ لهُ بنيسابورَ حمَّامٌ علىٰ بابِ دارِهِ ، وكانَ إذا أرادَ دخولَ الحمَّامِ . . فرَّغَهُ لهُ الحمَّامِيُّ ، فدخلَ ذاتَ يومٍ ، فأغلقَ الحمَّاميُّ البابَ ، ومضىٰ في بعضِ حوائجِهِ ، فتقدَّمَ رجلٌ رُستاقيٌّ إلىٰ بابِ الحمَّامِ ، ففتحَهُ ودخلَ ، فنزعَ ثيابَهُ ودخلَ ، فرأىٰ عليَّ بنَ موسى الرضا ، فظنَّ أنَّهُ بعضُ خدَّامِ الحمَّامِ ، فقالَ لهُ : قمْ واحملْ إليَّ الماءَ ، فقامَ عليُّ بنُ موسىٰ وامتثلَ جميعَ ما كانَ يأمرُهُ بهِ ، فرجعَ الحماميُّ ، فرأىٰ ثيابَ الرُّستاقيِّ وسمعَ كلامَهُ معَ عليِّ بنِ موسى الرضا ، فخافَ وهربَ وخلاَّهما ، فلمَّا خرجَ عليُّ بنُ موسىٰ . . سألَ عنِ الحمَّاميِّ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ خافَ ممَّا جرىٰ فهربَ ، قالَ : لا ينبغي لهُ أنْ يهربَ ؛ إنَّما الذنبُ لمَنْ وضعَ ماءَهُ عندَ أمةٍ سوداءَ(٢) .

ورُوِيَ أنَّ أبا عبدِ اللهِ الخيَّاطَ كانَ يجلسُ علىٰ دكَّانِهِ ، وكانَ لهُ حَرِيفٌ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٤١٤) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٦) .

مجوسيٌّ يستعملُهُ في الخياطةِ[1] ، فكانَ إذا خاطَ لهُ شيئاً . . حملَ إليهِ دراهمَ زائفةً ، فكانَ أبو عبدِ اللهِ يأخذُها منهُ ولا يخبرُهُ بذلكَ ولا يردُّها عليهِ ، فاتفقَ يوماً أنَّ أبا عبدِ اللهِ قامَ لبعضِ حاجتِهِ ، فأتى المجوسيُّ فلمْ يجدْهُ ، فدفعَ إلىٰ تلميذِهِ الأجرةَ ، واسترجعَ ما قدْ خاطَهُ ، ودفعَ إليهِ درهماً زائفاً ، فلما نظرَ إليهِ التلميذُ . . عرفَ أنَّهُ زائفٌ ، فردَّهُ عليهِ ، فلما عادَ أبو عبدِ اللهِ . . أخبرَهُ بذلكَ ، فقالَ : بئسَ ما عملتَ ، هٰذا المجوسيُّ يعاملُني بهٰذهِ المعاملةِ منذُ سنةٍ وأنا أصبرُ عليهِ ، فآخذُ الدراهمَ منهُ وألقيها في البئرِ لئلا يغرَّ بها مسلماً[2] .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (علامةُ حسْنِ الخلُقِ عشرةُ أشياءَ : قلَّةُ الخلافِ ، وحسْنُ الإنصافِ ، وتركُ طلبِ العثراتِ ، وتحسينُ ما يبدو مِنَ السيئاتِ ، والتماسُ المعذرةِ ، واحتمالُ الأذىٰ ، والرجوعُ بالملامةِ على النفسِ ، والتفرُّدُ بمعرفةِ عيوبِ نفسِهِ دونَ عيوبِ غيرِهِ ، وطلاقةُ الوجهِ للصغيرِ والكبيرِ ، ولطفُ الكلامِ لمَنْ دونَهُ ولمَنْ فوقَهُ)[3] .

وسُئِلَ سهلٌ عنْ حسْنِ الخلقِ فقالَ : (أدناهُ احتمالُ الأذىٰ ، وتركُ المكافأةِ ، والرحمةُ للظالمِ ، والاستغفارُ لهُ ، والشفقةُ عليهِ)[4] .

---

(١) الحريف : المُعامل .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٧) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤١٥) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٣٣٩) .

وقيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ : ممَّنْ تعلمتَ الحِلْمَ ؟ فقالَ : مِنْ قيسِ بنِ عاصمٍ ، قيلَ : وما بلغَ مِنْ حلمِهِ ؟ قالَ : بينما هوَ جالسٌ في دارِهِ . . إذْ أتتْهُ جاريةٌ لهُ بسفُّودٍ عليهِ شواءٌ[١] ، فسقطَ مِنْ يدِها ، فوقعَ على ابنٍ لهُ صغيرٍ ، فماتَ ، فدهشَتِ الجاريةُ ، فقالَ لها : لا روعَ عليكِ ، أنتِ حرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ[٢] .

وقيلَ : كانَ أويسٌ القرنيُّ إذا رآهُ الصبيانُ . . يرمونَهُ بالحجارةِ ، فكانَ يقولُ لهُمْ : يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ . . فارموني بالصغارِ كي لا تُدموا ساقي فتمنعوني مِنَ الصلاةِ[٣] .

وشتمَ رجلٌ الأحنفَ بنَ قيسٍ وهوَ لا يجيبُهُ ، وكانَ يتبعُهُ ، فلمَّا قَرُبَ مِنَ الحيِّ . . وقفَ وقالَ : إنْ كانَ قدْ بقيَ في نفسِكَ شيءٌ فقلْهُ ؛ كي لا يسمعَكَ بعضُ سفهاءِ الحيِّ فيؤذوكَ[٤] .

ورُويَ أنَّ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ دعا غلاماً لهُ فلمْ يجبْهُ ، فدعاهُ ثانياً وثالثاً فلمْ يجبْهُ ، فقامَ إليهِ ، فرآهُ مضطجعاً ، فقالَ : أما تسمعُ يا غلامُ ؟! قالَ : بلىٰ ، قالَ : فما حملَكَ علىٰ تركِ جوابي ؟ قالَ : أمنتُ عقوبتَكَ

---

(١) سفُّود : كتنُّور ويضم ، حديدة ذات شعب معقفة ، يشوىٰ بها .
(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١١) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٢) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٢) .

فتكاسلتُ ، فقالَ : امضِ ، فأنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ تعالىٰ[1] .

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ رحمهُ اللهُ : يا مرائي ، فقالَ : يا هٰذهِ ؛ وجدتِ اسمي الذي أضلَّهُ أهلُ البصرةِ[2] .

وكانَ ليحيىٰ بنِ زيادٍ الحارثيِّ غلامُ سوءٍ ، فقيلَ لهُ : لِمَ تمسكُ هٰذا الغلامَ ؟ فقالَ : لأتعلَّمَ عليهِ الحلمَ[3] .

فهٰذهِ نفوسٌ قدْ ذُلِّلَتْ بالرياضةِ ، فاعتدلَتْ أخلاقُها ، ونُقِّيَتْ مِنَ الغشِّ والغلِّ والحقدِ بواطنُها ، فأثمرَتِ الرضا بكلِّ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ ، وهوَ منتهىٰ حسْنِ الخلقِ ، فإنَّ مَنْ يكرهُ فعلَ اللهِ تعالىٰ ولا يرضىٰ بهِ . . فهوَ غايةُ سوءِ خلقِهِ .

فهؤلاءِ ظهرَتِ العلاماتُ علىٰ ظواهرِهِمْ كما ذكرناهُ ، فمَنْ لمْ يصادفْ مِنْ نفسِهِ هٰذهِ العلاماتِ . . فلا ينبغي أنْ يغترَّ بنفسِهِ ، فيظنَّ بها حسنَ الخلقِ ، بلْ ينبغي أنْ يشتغلَ بالرياضةِ والمجاهدةِ إلىٰ أنْ يبلغَ درجةَ حسْنِ الخلقِ ، فإنَّها درجةٌ رفيعةٌ لا ينالُها إلا المقرَّبونَ والصدِّيقونَ .

* * *

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٢) .
(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٣) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤١٣) .

بيان الطريق في رياضة الصّبيان في أوّل النّشوء، ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلمْ : أنَّ الطريقَ في رياضةِ الصبيانِ مِنْ أهمِّ الأمورِ وآكدِها ، وأنَّ الصبيَّ أمانةٌ عندَ والديهِ ، وقلبُهُ الطاهرَ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ ، خاليةٌ عنْ كلِّ نقشٍ وصورةٍ ، وهوَ قابلٌ لكلِّ نقشٍ ، ومائلٌ إلىٰ كلِّ ما يُمالُ بهِ إليهِ .

فإنْ عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ . . نشأَ عليهِ ، وسعدَ في الدنيا والآخرةِ ، وشاركَهُ في ثوابِهِ أبواهُ وكلُّ معلِّمٍ لهُ ومؤدِّبٍ .

وإنْ عُوِّدَ الشرَّ وأُهملَ إهمالَ البهائمِ . . شَقِيَ وهلكَ ، وكانَ الوزرُ في رقبةِ القيِّمِ عليهِ والوالي لهُ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ .

ومهما كانَ الأبُ يصونُهُ عنْ نارِ الدنيا . . فبأنْ يصونَهُ عنْ نارِ الآخرةِ أولىٰ ، وصيانتُهُ بأنْ يؤدِّبَهُ ويهذِّبَهُ ، ويعلِّمَهُ محاسنَ الأخلاقِ ، ويحفظَهُ مِنَ القرناءِ السوءِ ، ولا يعوِّدَهُ التنعُّمَ ، ولا يحبِّبَ إليهِ الزينةَ وأسبابَ الرفاهيةِ ، فيضيِّعَ عمرَهُ في طلبِها إذا كبرَ ، فيهلكَ هلاكَ الأبدِ ، بلْ ينبغي أنْ يراقبَهُ مِنْ أوَّلِ أمرِهِ ، فلا يستعملُ في حضانتِهِ وإرضاعِهِ إلا امرأةً صالحةً متديِّنةً تأكلُ الحلالَ ؛ فإنَّ اللبنَ الحاصلَ مِنَ الحرامِ لا بركةَ فيهِ ، فإذا وقعَ عليهِ نشوءُ الصبيِّ . . انعجنَتْ طينتُهُ مِنَ الخبثِ ، فيميلُ طبعُهُ إلىٰ ما يناسبُ الخبائثَ .

ومهما رأىٰ فيهِ مخايلَ التمييزِ . . فينبغي أنْ يحسنَ مراقبتَهُ ، وأوَّلُ ذلكَ ظهورُ أوائلِ الحياءِ ؛ فإنَّهُ إذا كانَ يحتشمُ ويستحي ، ويتركُ بعضَ الأفعالِ . . فليسَ ذلكَ إلا لإشراقِ نورِ العقلِ عليهِ ، حتَّىٰ يرىٰ بعضَ الأشياءِ قبيحاً ومخالفاً للبعضِ ، فصارَ يستحي مِنْ شيءٍ دونَ شيءٍ ، وهـٰذهِ هديَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وبشارةٌ تدلُّ على اعتدالِ الأخلاقِ وصفاءِ القلبِ ، وهوَ مبشِّرٌ بكمالِ العقلِ عندَ البلوغِ ، فالصبيُّ المستحي لا ينبغي أنْ يُهملَ ، بلْ يُستعانُ علىٰ تأديبِهِ بحيائِهِ وتمييزِهِ .

وأوَّلُ ما يغلبُ عليهِ مِنَ الصفاتِ شرهُ الطعامِ ، فينبغي أنْ يؤدَّبَ فيهِ ، مثلُ ألا يأخذَ الطعامَ إلا بيمينِهِ ، وأنْ يقولَ عليهِ : (باسمِ اللهِ) عندَ أخذِهِ ، وأنْ يأكلَ ممَّا يليهِ ، وألا يبادرَ إلى الطعامِ قبلَ غيرِهِ ، وألا يحدقَ إلى الطعامِ ولا إلىٰ مَنْ يأكلُ ، وألا يسرعَ في الأكلِ ، وأنْ يجيدَ المضغَ ، وألا يواليَ بينَ اللقمِ ، ولا يلطِّخَ يدَهُ ولا ثوبَهُ ، وأنْ يعوَّدَ الخبزَ القَفارَ في بعضِ الأوقاتِ(١) ، حتىٰ لا يصيرَ بحيثُ يرى الأُدْمَ حتماً .

ويقبِّحُ عندَهُ كثرةَ الأكلِ ؛ بأنْ يشبِّهَ كلَّ مَنْ يكثرُ الأكلَ بالبهائمِ ، وبأنْ يذمَّ بينَ يديهِ الصبيَّ الذي يكثرُ الأكلَ ، ويمدحَ عندَهُ الصبيَّ المتأدِّبَ القليلَ الأكلِ ، وأنْ يحبِّبَ إليهِ الإيثارَ بالطعامِ ، وقلَّةَ المبالاةِ بهِ ، والقناعةَ بالطعامِ الخشنِ أيَّ طعامٍ كانَ .

---

(١) **الخبز القفار** : هو الذي لا أُدْم فيه ولا دسم ، وعند الحافظ الزبيدي (٧/ ٣٦٤) : اليابس وحده .

وأنْ يحبَّبَ إليهِ مِنَ الثيابِ البيضَ دونَ الملوَّنِ والإبريسمِ ، ويقرِّرَ عندَهُ أنَّ ذلكَ شأنُ النساءِ والمخنَّثينَ ، وأنَّ الرجالَ يستنكفونَ منهُ ، ويكرِّرُ ذلكَ عليهِ ، ومهما رأىٰ علىٰ صبيٍّ ثوباً مِنْ إبريسمٍ أوْ ملوَّنٍ . . فينبغي أنْ يستنكرَهُ ويذمَّهُ .

ويُحفظُ الصبيُّ عنِ الصبيانِ الذينَ عُوِّدوا التنعُّمَ والرفاهيةَ ، ولبسَ الثيابِ الفاخرةِ ، وعنْ مخالطةِ كلِّ مَنْ يسمِعُهُ ما يرغِّبُهُ فيهِ ؛ فإنَّ الصبيَّ مهما أُهملَ في ابتداءِ نشوئِهِ . . خرجَ في الأغلبِ رديءَ الأخلاقِ ، كذَّاباً ، حسوداً ، سروقاً ، نمَّاماً ، لجوجاً ، ذا فضولٍ وضحكٍ ، وكيادٍ ووقاحةٍ ومَجانةٍ ، وإنَّما يُحفظُ عنْ جميعِ ذلكَ بحسْنِ التأديبِ .

ثمَّ ينبغي أنْ يُشغلَ في المكتبِ ، فيتعلَّمُ القرآنَ[1] وأحاديثَ الأخبارِ ، وحكاياتِ الأبرارِ وأحوالَهُمْ ؛ لينغرسَ في نفسِهِ حبُّ الصالحينَ ، ويُحفظُ مِنَ الأشعارِ التي فيها ذكرُ العشقِ وأهلِهِ ، ويُحفظُ مِنْ مخالطةِ الأدباءِ الذينَ يزعمونَ أنَّ ذلكَ مِنَ الظَّرْفِ ورقَّةِ الطبعِ ؛ فإنَّ ذلكَ يغرسُ في قلوبِ الصبيانِ بذرَ الفسادِ .

ثمَّ مهما ظهرَ مِنَ الصبيِّ خلقٌ جميلٌ ، وفعلٌ محمودٌ . . فينبغي أنْ يُكرمَ عليهِ ، ويُجازىٰ عليهِ بما يفرحُ بهِ ، ويُمدحَ بينَ أظهرِ الناسِ ، فإنْ خالفَ

---

(١) أوّلاً بترتيبه المعهود في بلده ؛ من تقديم حروف الهجاء إفراداً ثم تركيباً . « إتحاف » (٧/ ٣٦٤) .

ذلكَ في بعضِ الأحوالِ مرَّةً واحدةً. . فينبغي أنْ يُتغافلَ عنهُ ، ولا يُهتكَ سترُهُ ولا يُكاشفَ ، ولا يُظهرَ لهُ أنَّهُ يُتصوَّرُ أنْ يتجاسرَ أحدٌ علىٰ مثلِهِ ، ولا سيما إذا سترَهُ الصبيُّ واجتهدَ في إخفائِهِ ؛ فإنَّ إظهارَ ذلكَ ربَّما يفيدُهُ جسارةً حتَّىٰ لا يباليَ بالمكاشفةِ ، فعندَ ذلكَ إنْ عادَ ثانياً. . فينبغي أنْ يُعاتبَ سرّاً ، ويُعظَّمَ الأمرُ فيهِ ، ويُقالَ لهُ : (إيَّاكَ أنْ تعودَ بعدَ ذلكَ لمثلِ هـٰذا ، وأنْ يُطلعَ عليكَ في مثلِ هـٰذا فتفتضحَ بينَ الناسِ) .

ولا تكثرِ القولَ عليهِ بالعتابِ في كلِّ حينٍ ؛ فإنَّهُ يهوِّنُ عليهِ سماعَ الملامةِ ، وركوبَ القبائحِ ، ويسقطُ وقعَ الكلامِ مِنْ قلبِهِ .

وليكنِ الأبُ حافظاً هيبةَ الكلامِ معَهُ ، فلا يوبِّخُهُ إلا أحياناً ، وينبغي للأمِّ أنْ تخوِّفَهُ بالأبِ وتزجرَهُ عنِ القبائحِ .

وينبغي أنْ يُمنعَ عنِ النومِ نهاراً ؛ فإنَّهُ يورثُ الكسلَ ، ولا يُمنعُ منهُ ليلاً ، ولكنْ يُمنعُ الفرشَ الوطيئةَ ؛ حتَّىٰ تتصلَّبَ أعضاؤُهُ ، ولا يسخفَ بدنُهُ[1] ، فلا يصبرُ عنِ التنعُّمِ ، بلْ يعوَّدُ الخشونةَ في المفرشِ والملبسِ والمطعمِ .

وينبغي أنْ يُمنعَ مِنْ كلِّ ما يفعلُهُ في خفيةٍ ؛ فإنَّهُ لا يخفيهِ إلا وهوَ يعتقدُ أنَّهُ قبيحٌ ، فإذا تُرِكَ. . تعوَّدَ فعلَ القبيحِ .

---

(١) أي : لا يرق . « إتحاف » (٧/ ٣٦٥) .

ويُعوَّدُ في بعضِ النهارِ المشيَ والحركةَ والرياضةَ ؛ حتَّىٰ لا يغلبَ عليهِ الكسلُ .

ويُعوَّدُ ألا يكشفَ أطرافَهُ ، ولا يسرعَ المشيَ ، ولا يرخيَ يديهِ ، بلْ يضمُّهُما إلىٰ صدرِهِ .

ويُمنعُ مِنْ أنْ يفتخرَ علىٰ أقرانِهِ بشيءٍ ممَّا يملكُهُ والداهُ ، أوْ بشيءٍ مِنْ مطاعمِهِ وملابسِهِ ، أوْ لوحِهِ ودواتِهِ ، بلْ يُعوَّدُ التواضعَ والإكرامَ لكلِّ مَنْ عاشرَهُ ، والتلطُّفَ معَهُمْ في الكلامِ .

ويُمنعُ مِنْ أنْ يأخذَ مِنَ الصبيانِ شيئاً بدالَّةِ حشمتِهِ إنْ كانَ مِنْ أولادِ المحتشمينَ ، بلْ يُعلَّمُ أنَّ الرفعةَ في الإعطاءِ لا في الأخذِ ، وأنَّ الأخذَ لؤمٌ وخسَّةٌ ودناءةٌ ، وإنْ كانَ مِنْ أولادِ الفقراءِ .. فيُعلَّمُ أنَّ الطمعَ والأخذَ مهانةٌ وذلَّةٌ ، وأنَّ ذلكَ مِنْ دأبِ الكلبِ ؛ فإنَّهُ يبصبصُ في انتظارِ لقمةٍ .

* * *

وبالجملةِ : يُقبَّحُ إلى الصبيانِ حبُّ الذهبِ والفضةِ ، والطمعُ فيهما ، ويُحذَّرُ منهما أكثرَ ممَّا يُحذَّرُ مِنَ الحيَّاتِ والعقاربِ ؛ فإنَّ آفةَ حبِّ الذهبِ والفضةِ والطمعِ فيهما أضرُّ مِنْ آفةِ السمومِ على الصبيانِ ، بلْ على الأكابرِ أيضاً .

وينبغي أنْ يُعوَّدَ ألا يبصقَ في مجلسِهِ ، ولا يتمخَّطَ ولا يتثاءبَ بحضرةِ

غيرِهِ ، ولا يستدبرَ غيرَهُ ، ولا يضعَ رِجْلاً علىٰ رِجْلٍ ، ولا يضعَ[1] كفَّهُ تحتَ ذَقَنِهِ ، ولا يعمدَ رأسَهُ بساعدِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ دليلُ الكسلِ .

ويُعلَّمُ كيفيةَ الجلوسِ ، ويُمنعُ كثرةَ الكلامِ ، ويُبيَّنُ لهُ أنَّ ذلكَ يدلُّ على الوقاحةِ ، وأنَّهُ عادةُ أبناءِ اللئامِ .

ويُمنعُ الأيمانَ رأساً ، صادقاً كانَ أوْ كاذباً ؛ حتَّىٰ لا يعتادَ ذلكَ في الصغرِ .

ويُمنعُ أنْ يبتدئَ الكلامَ ، ويُعوَّدُ ألا يتكلَّمَ إلا جواباً وبقْدرِ السؤالِ ، وأنْ يحسنَ الاستماعَ مهما تكلَّمَ غيرُهُ ممَّنْ هوَ أكبرُ منهُ سنّاً ، وأنْ يقومَ لِمَنْ فوقَهُ ، ويوسعَ لهُ المكانَ ، ويجلسَ بينَ يديهِ .

ويُمنعُ مِنْ لغوِ الكلامِ وفحشِهِ ، ومِنَ اللعنِ والسبِّ ، ومِنْ مخالطةِ مَنْ يجري علىٰ لسانِهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ ؛ فإنَّ ذلكَ يسري لا محالةَ مِنَ القرناءِ السوءِ ، وأصلُ تأديبِ الصبيانِ الحفظُ مِنْ قرناءِ السوءِ .

وينبغي إذا ضربَهُ المعلِّمُ ألا يُكثرَ الصراخَ والشغبَ ، ولا يستشفعَ بأحدٍ ، بلْ يصبرُ ، ويذكرُ لهُ أنَّ ذلكَ دأبُ الشجعانِ والرجالِ ، وأنَّ كثرةَ الصراخِ دأبُ المماليكِ والنسوانِ .

وينبغي أنْ يؤذنَ لهُ بعدَ الفراغِ منَ المكتبِ أنْ يلعبَ لعباً جميلاً ، يستريحُ إليهِ مِنْ تعبِ المكتبِ ، بحيثُ لا يتعبُ في اللعبِ ؛ فإنَّ منعَ الصبيِّ مِنَ

---

(١) في النسخ : (ولا يضرب) ، والمثبت من (ق) .

اللعبِ وإرهاقَهُ إلى التعلُّمِ دائماً يميتُ قلبَهُ ، ويبطلُ ذكاءَهُ ، وينغِّصُ عليهِ العيشَ ، حتَّىٰ يطلبَ الحيلةَ في الخلاصِ منهُ رأساً .

وينبغي أنْ يُعلَّمَ طاعةَ والديهِ ومعلِّمِهِ ومؤدِّبِهِ ، وكلِّ مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سناً ؛ مِنْ قريبٍ وأجنبيٍّ ، وأنْ ينظرَ إليهِمْ بعينِ الجلالةِ والتعظيمِ ، وأنْ يتركَ اللعبَ بينَ أيديهِمْ .

ومهما بلغَ سنَّ التمييزِ . . فينبغي ألا يُسامحَ في تركِ الطهارةِ والصلاةِ ، ويُؤمرُ بالصومِ في بعضِ أيَّامِ رمضانَ ، ويُجنَّبُ لبْسَ الديباجِ والحريرِ والذهبِ ، ويُعلَّمُ كلَّ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ حدودِ الشرعِ ويُخوَّفُ مِنَ السرقةِ وأكلِ الحرامِ ، ومِنَ الكذبِ والخيانةِ والفحْشِ ، وكلِّ ما يغلبُ على الصبيانِ .

فإذا وقعَ نشوءُهُ كذلكَ في الصبا ؛ فمهما قاربَ البلوغَ . . أمكنَ أنْ يعرفَ أسرارَ هـٰذهِ الأمورِ ، فيُذكرُ لهُ أنَّ الأطعمةَ أدويةٌ ، وإنَّما المقصودُ منها أنْ يقوى الإنسانُ بها علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ الدنيا كلَّها لا أصلَ لها ؛ إذْ لا بقاءَ لها ، وأنَّ الموتَ يقطعُ نعيمَها ، وأنَّها دارُ ممرٍّ لا دارُ مقرٍّ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ مقرٍّ لا دارُ ممرٍّ ، وأنَّ الموتَ منتظَرٌ في كلِّ ساعةٍ ، وأنَّ الكيِّسَ العاقلَ مَنْ تزوَّدَ مِنَ الدنيا للآخرةِ ، حتَّىٰ تعظمَ عندَ اللهِ درجتُهُ ، وتتسعَ في الجنانِ نعمتُهُ .

فإذا كانَ النشوءُ صالحاً . . كانَ هـٰذا الكلامُ عندَ البلوغِ واقعاً مؤثِّراً ناجعاً ، يثبتُ في قلبِهِ كما يثبتُ النقْشُ في الحجرِ .

وإنْ وقعَ النشوءُ بخلافِ ذلكَ ؛ حتَّىٰ ألفَ الصبيُّ اللعبَ والفحْشَ

والوقاحةَ وشرهَ الطعامِ واللباسِ والتزيُّنَ والتفاخرَ . . نبا قلبُهُ عنْ قبولِ الحقِّ نبوةَ الحائطِ عنِ الطينِ اليابسِ .

فأوائلُ الأمورِ هيَ التي ينبغي أنْ تُراعىٰ ؛ فإنَّ الصبيَّ بجوهرِهِ خُلِقَ قابلاً للخيرِ والشرِّ جميعاً ، وإنَّما أبواهُ يميلانِ به إلىٰ أحدِ الجانبينِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، وإنَّما أبواهُ يهوِّدانِهِ وينصِّرانِهِ ويمجِّسانِهِ »(١) .

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ : كنتُ وأنا ابنُ ثلاثِ سنينَ أقومُ بالليلِ ، فأنظرُ إلىٰ صلاةِ خالي محمدِ بنِ سوارٍ ، فقالَ لي يوماً : ألا تذكرُ اللهَ الذي خلقَكَ ؟ فقلتُ : كيفَ أذكرُهُ ؟ قالَ : قُلْ بقلبِكَ عندَ تقلُّبِكَ في ثيابِكَ ثلاثَ مرَّاتٍ مِنْ غيرِ أنْ تحرِّكَ بهِ لسانَكَ : (اللهُ معي ، اللهُ ناظرٌ إليَّ ، اللهُ شاهدي) ، فقلتُ ذلكَ لياليَ ، ثمَّ أعلمتُهُ ، فقالَ : قُلْ في كلِّ ليلةٍ سبعَ مرَّاتٍ ، فقلتُ ذلكَ ، ثمَّ أعلمتُهُ ، فقالَ : قُلْ ذلكَ كلَّ ليلةٍ إحدىٰ عشرةَ مرَّةً ، فقلتُهُ ، فوقعَ في قلبي حلاوتُهُ .

فلمَّا كانَ بعدَ سنةٍ . . قالَ لي خالي : احفظْ ما علَّمتُكَ ، ودُمْ عليهِ إلىٰ أنْ تدخلَ القبرَ ؛ فإنَّهُ ينفعُكَ في الدنيا والآخرةِ ، فلمْ أزلْ علىٰ ذلكَ سنينَ ، فوجدتُ لهُ حلاوةً في سرِّي ، ثمَّ قالَ لي خالي يوماً : يا سَهْلُ ؛ مَنْ كانَ اللهُ

(١) رواه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (٢٦٥٨) ، واللام في قوله : (الفطرة) للعهد ، والمعهود : فطرة الله التي فطر الناس عليها ؛ أي : الخلقة التي خلق الناس عليها من الاستعداد لقبول الدين والتهيؤ للتمييز بين الخطأ والصواب . « إتحاف » (٧/ ٢٣٣) .

معَهُ ، وهوَ ناظرٌ إليهِ ، وشاهدُهُ . . يعصيهِ ؟! إيّاكَ والمعصيةَ .

فكنتُ أخلو بنفسي ، فبعثوا بي إلى المكتبِ ، فقلتُ : إنِّي لأخشىٰ أنْ يتفرَّقَ عليَّ همِّي ، ولكنْ شارطوا المعلِّمَ أني أذهبُ إليهِ ساعةً فأتعلَّمُ ، ثمَّ أرجعُ ، فمضيتُ إلى الكتَّابِ ، وحفظتُ القرآنَ وأنا ابنُ ستِّ سنينَ أوْ سبعِ سنينَ ، وكنتُ أصومُ الدهرَ ، وقُوتي مِنْ خبزِ الشعيرِ اثنتي عشرةَ سنةً ، فوقعَتْ لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، فسألتُ أهلي أنْ يبعثوا بي إلى أهلِ البصرةِ لأسألَ عنها ، فأتيتُ البصرةَ ، فسألتُ علماءَها ، فلمْ يشفِ أحدٌ عنِّي شيئاً ، فخرجتُ إلىٰ عبَّادانَ إلىٰ رجلٍ يُعرفُ بأبي حبيبٍ حمزةَ ابنِ أبي عبدِ اللهِ العبَّادانيِّ ، فسألتُهُ عنها ، فأجابَني ، فأقمتُ عندَهُ مدَّةً أنتفعُ بكلامِهِ ، وأتأدَّبُ بآدابِهِ .

ثمَّ رجعتُ إلىٰ تُسْتَرَ ، فجعلتُ قُوتي اقتصاداً علىٰ أنْ يُشترىٰ لي بدرهمٍ مِنَ الشعيرِ الفرقَ ، فيُطحنَ ويُخبزَ لي ، فأفطرَ عندَ السحرِ علىٰ أوقيَّةٍ كلَّ ليلةٍ بحتاً بغيرِ ملحٍ ولا أُدْمٍ ، فكانَ يكفيني ذلكَ الدرهمُ سنةً ، ثمَّ عزمتُ علىٰ أنْ أطويَ ثلاثَ ليالٍ ثمَّ أفطرَ ليلةً ، ثمَّ خمساً ، ثمَّ سبعاً ، ثمَّ خمساً وعشرينَ ليلةً ، فكنتُ علىٰ ذلكَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ خرجتُ أسيحُ في الأرضِ سنينَ ، ثمَّ رجعتُ إلىٰ تُسْتَرَ ، وكنتُ أقومُ الليلَ كلَّهُ[1] .

❋ ❋ ❋

(١) أورد هـٰذا الخبر بتمامه القشيريُّ في « رسالته » (ص٦٥) .

بيان شروط الإرادة ومقدّمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرّياضة

اعلمْ : أنَّ مَنْ شاهدَ الآخرةَ بقلبِهِ مشاهدةَ يقينٍ . . أصبحَ بالضرورةِ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، مشتاقاً إليها ، سالكاً سُبُلَها ، مستهيناً بنعيمِ الدنيا ولذَّاتِها ؛ فإنَّ مَنْ كانَتْ معَهُ خرزةٌ فرأىٰ جوهرةً نفيسةً . . لمْ تبقَ لهُ رغبةٌ في الخرزةِ ، وقويَتْ إرادتُهُ في بيعِها بالجوهرةِ .

ومَنْ ليسَ مريداً حرْثَ الآخرةِ ، ولا طالباً للقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ لعدمِ إيمانِهِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ولستُ أعني بالإيمانِ حديثَ النفسِ وحركةَ اللسانِ بكلمتي الشهادةِ مِنْ غيرِ صدْقٍ وإخلاصٍ ؛ فإنَّ ذلكَ يضاهي قولَ مَنْ صدَّقَ بأنَّ الجوهرةَ خيرٌ مِنَ الخرزةِ إلا أنَّهُ لا يدري مِنَ الجوهرةِ إلا لفظَها ، وأمَّا حقيقتُها . . فلا ، ومثلُ هـٰذا المصدِّقِ إذا ألفَ الخرزةَ قدْ لا يتركُها ، ولا يعظُمُ اشتياقُهُ إلى الجوهرةِ .

* * *

فإذاً ؛ المانعُ مِنَ الوصولِ عدمُ السلوكِ ، والمانعُ مِنَ السلوكِ عدمُ الإرادةِ ، والمانعُ مِنَ الإرادةِ عدمُ الإيمانِ ، وسببُ عدمِ الإيمانِ عدمُ الهداةِ والمذكِّرينَ ، والعلماءِ باللهِ تعالىٰ الهادينَ إلىٰ طريقِهِ ، والمنبِّهينَ علىٰ حقارةِ الدنيا وانقراضِها ، وعظَمِ أمرِ الآخرةِ ودوامِها ، فالخلقُ غافلونَ قدِ انهمكوا

في شهواتِهِمْ ، وغاصوا في رقدتِهِمْ ، وليسَ في علماءِ الدينِ مَنْ ينبِّهُهُمْ ، فإنْ تنبَّهَ منهُمْ متنبِّهٌ . . عجزَ عنْ سلوكِ الطريقِ لجهلِهِ ، فإنْ طلبَ الطريقَ مِنَ العلماءِ . . وجدَهُمْ مائلينَ إلى الهوىٰ ، عادلينَ عنْ نهجِ الطريقِ ، فصارَ ضعفُ الإرادةِ والجهلُ بالطريقِ ونطقُ العلماءِ بالهوىٰ سبباً لخلوِّ طريقِ اللهِ تعالىٰ عنِ السالكينَ فيهِ .

ومهما كانَ المطلوبُ محجوباً ، والدليلُ مفقوداً ، والهوىٰ غالباً ، والطالبُ غافلاً . . امتنعَ الوصولُ ، وتعطَّلَتِ الطرقُ لا محالةَ .

فإنْ تنبَّهَ متنبِّهٌ مِنْ نفسِهِ ، أوْ مِنْ تنبيهِ غيرِهِ ، وانبعثَ لهُ إرادةٌ في حرْثِ الآخرةِ وتجارتِها . . فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لهُ شروطاً لا بدَّ مِنْ تقديمِها في بدايةِ الإرادةِ ، ولهُ معتصَمٌ لا بدَّ مِنَ التمسُّكِ بهِ ، ولهُ حصْنٌ لا بدَّ مِنَ التحصُّنِ بهِ ؛ ليأمنَ مِنَ الأعداءِ القطَّاعِ لطريقِهِ ، ولهُ وظائفُ لا بدَّ مِنْ ملازمتِها في وقتِ سلوكِ الطريقِ .

أمَّا الشروطُ التي لا بدَّ مِنْ تقديمِها في الإرادةِ : فهيَ رفعُ السدِّ والحجابِ الذي بينَهُ وبينَ الحقِّ ، فإنَّ حرمانَ الخلقِ عنِ الحقِّ سببُهُ تراكمُ الحجُبِ ، ووقوعُ السدِّ على الطريقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

والسدُّ بينَ المريدِ وبينَ الحقِّ أربعةٌ : المالُ ، والجاهُ ، والتقليدُ ، والمعصيةُ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **المالِ** بخروجِهِ عنْ ملكِهِ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ لهُ إلا قدْرُ الضرورةِ ، فما دامَ يبقىٰ لهُ درهمٌ يلتفتُ إليهِ قلبُهُ . . فهوَ مقيَّدٌ بهِ ، محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **الجاهِ** بالبعدِ عنْ موضعِ الجاهِ ، وبالتواضعِ وإيثارِ الخمولِ ، والهربِ مِنْ أسبابِ الذكرِ ، وتعاطي أعمالٍ تنفِّرُ قلوبَ الخلقِ عنهُ .

وإنَّما يرتفعُ حجابُ **التقليدِ** بأنْ يتركَ التعصُّبَ للمذاهبِ ، وأنْ يصدِّقَ بمعنىٰ قولِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ) تصديقَ إيمانٍ ، ويحرصَ في تحقيقِ صدقِهِ بأنْ يرفعَ كلَّ معبودٍ لهُ سوى اللهِ تعالىٰ ، وأعظمُ معبودٍ لهُ الهوىٰ ، حتَّىٰ إذا فعلَ ذلكَ . . انكشفَ لهُ حقيقةُ الأمرِ في معنى اعتقادِهِ الذي تلقَّفَهُ تقليداً ، فينبغي أنْ يطلبَ كشفَ ذلكَ مِنَ المجاهدةِ ، لا مِنَ المجادلةِ ، فإنْ غلبَ عليهِ التعصُّبُ لمعتقدِهِ ، ولمْ يبقَ في نفسِهِ متسعٌ لغيرِهِ . . صارَ ذلكَ قيداً لهُ وحجاباً ؛ إذْ ليسَ مِنْ شرطِ المريدِ الانتماءُ إلىٰ مذهبٍ معيَّنٍ أصلاً .

وأمَّا المعصيةُ . . فهيَ حجابٌ ، ولا يرفعُها إلا التوبةُ والخروجُ مِنَ المظالمِ ، وتصميمُ العزمِ علىٰ تركِ العَوْدِ ، وتحقيقُ الندمِ علىٰ ما مضىٰ ، وردُّ المظالمِ ، وإرضاءُ الخصومِ ؛ فإنَّ مَنْ لمْ يصححِ التوبةَ ، ولمْ يهجرِ المعاصيَ الظاهرةَ ، وأرادَ أنْ يقفَ علىٰ أسرارِ الدينِ بالمكاشفةِ . . كانَ كمَنْ

يريدُ أنْ يقفَ علىٰ أسرارِ القرآنِ وتفسيرِهِ وهوَ بعدُ لمْ يتعلَّمْ لغةَ العربِ ؛ فإنَّ ترجمةَ غريبِ القرآنِ لا بدَّ مِنْ تقديمِها أوَّلاً ، ثمَّ الترقِّي منها إلىٰ أسرارِ معانيهِ ، فكذلكَ لا بدَّ مِنْ تصحيحِ ظاهرِ الشريعةِ أوَّلاً وآخراً ، ثمَّ الترقِّي إلىٰ أغوارِها وأسرارِها .

* * *

فإذا قدَّمَ هٰذهِ الشروطَ الأربعةَ ، وتجرَّدَ عنِ المالِ والجاهِ . . كانَ كمَنْ تطهَّرَ وتوضَّأَ ورفعَ الحدثَ ، وصارَ صالحاً للصلاةِ ، فيحتاجُ إلىٰ إمامٍ يقتدي بهِ ، فكذلكَ المريدُ يحتاجُ إلىٰ شيخٍ وأستاذٍ يقتدي بهِ لا محالةَ ؛ ليهديَهُ إلىٰ سواءِ السبيلِ ؛ فإنَّ سبيلَ الدينِ غامضٌ ، وسبلَ الشيطانِ كثيرةٌ ظاهرةٌ ، فمَنْ لمْ يكنْ لهُ شيخٌ يهديهِ . . قادَهُ الشيطانُ إلىٰ طرقِهِ لا محالةَ ، فمَنْ سلكَ سبلَ البوادي المهلكةَ بغيرِ خفيرٍ . . فقدْ خاطرَ بنفسِهِ وأهلكَها .

ويكونُ المريدُ المستقلُّ بنفسِهِ كالشجرةِ التي تنبتُ بنفسِها ؛ فإنَّها تجفُّ على القرْبِ ، وإنْ بقيَتْ مدَّةً وأورقَتْ . . لمْ تثمرْ ، فمعتصَمُ المريدِ بعدَ تقديمِ الشروطِ المذكورةِ شيخُهُ ، فليتمسَّكْ بهِ تمسُّكَ الأعمىٰ علىٰ شاطئِ النهرِ بالقائدِ ، بحيثُ يفوِّضُ أمرَهُ إليهِ بالكليَّةِ ، ولا يخالفُهُ في وِرْدٍ ولا صدْرٍ ، ولا يبقي في متابعتِهِ شيئاً ولا يذرُ ، ويعلمُ أن نفعَهُ في خطأِ شيخِهِ لوْ أخطأَ أكثرُ مِنْ نفعِهِ في صوابِ نفسِهِ لوْ أصابَ[1] .

---

(١) وقد نقل الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/١) عن الزاهد قطب الدين بن محمد =

فإذا وجدَ مثلَ هـٰذا المعتصَمِ . . وجبَ علىٰ معتصَمِهِ أنْ يحميَهُ ويعصمَهُ بحصنٍ حصينٍ ، يدفعُ عنهُ قواطعَ الطريقِ ، وهيَ أربعةُ أمورٍ : الخلوةُ ، والصمتُ ، والجوعُ ، والسهرُ ، وهـٰذا تحصُّنٌ مِنَ القواطعِ ؛ فإنَّ مقصودَ المريدِ إصلاحُ قلبِهِ ؛ ليشاهدَ بهِ ربَّهُ ، ويصلحَ لقربِهِ .

أمَّا الجوعُ : فإنَّهُ ينقصُ دمَ القلبِ ويبيِّضُهُ ، وفي بياضِهِ نورُهُ ، ويذيبُ شحمَ الفؤادِ ، وفي ذوبانِهِ رقَّتُهُ ، ورقَّتُهُ مفتاحُ المكاشفةِ ، كما أنَّ قسوتَهُ سببُ الحجابِ ، ومهما نقصَ دمُ القلبِ . . ضاقَ مسلكُ العدوِّ ؛ فإنَّ مجاريَهُ العروقُ الممتلئةُ بالشهواتِ .

= الأردبيلي قال : (قال حجة الإسلام : كنت في بداية أمري منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتىٰ صحبت شيخي يوسف النساج بطوس ، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتىٰ حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام ، فقال لي : يا أبا حامد ؛ قلت : أوَالشيطان يكلمني ؟ قال : لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد ؛ ذر مساطرك ، واصحب أقواماً جعلتهم في أرضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبي ، فقلت : بعزتك إلا أذقتني برد حسن الظن بهم ، فقال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً ، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسي ، ففز ونل .
فاستيقظت فرحاً مسروراً ، وجئت إلىٰ شيخي يوسف النساج ، فقصصت عليه المنام ، فتبسم ، فقال : يا أبا حامد ؛ هـٰذه ألواحنا في البداية ، محوناها بأرجلنا ، بل إن صحبتني . . سيكحل بصر بصيرتك بإثمد التأييد حتىٰ ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضىٰ بذلك حتىٰ تشاهد ما لا تدركه الأبصار ، فتصفو من كدر طبيعتك ، وترقىٰ علىٰ طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالىٰ كموسىٰ : إني أنا الله رب العالمين) .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ جوِّعوا بطونَكُمْ ، لعلَّ قلوبَكُمْ ترىٰ ربَّكُمْ)[1] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بأربعِ خصالٍ : بإخماصِ البطونِ ، والسهرِ ، والصمتِ ، والاعتزالِ عنِ الناسِ)[2] .

ففائدةُ الجوعِ في تنويرِ القلبِ أمرٌ ظاهرٌ ، تشهدُ لهُ التجربةُ ، وسيأتي بيانُ وجهِ التدريجِ فيهِ في كتابِ كسرِ الشهوتينِ .

وأمَّا السهرُ : فإنَّهُ يجلو القلبَ ، ويصفيهِ وينوِّرُهُ ، فينضافُ ذلكَ إلى الصفاءِ الذي حصلَ منَ الجوعِ ، فيصيرُ القلبُ كالكوكبِ الدرِّيِّ ، والمرآةِ المجلوَّةِ ، فيلوحُ فيهِ جمالُ الحقِّ ، ويشاهدُ فيهِ رفيعَ الدرجاتِ في الآخرةِ ، وحقارةَ الدنيا وآفاتِها ، فتتمُّ بذلكَ رغبتُهُ عنِ الدنيا وإقبالُهُ على الآخرةِ .

والسهرُ أيضاً نتيجةُ الجوعِ ؛ فإنَّ السهرَ معَ الشبعِ غيرُ ممكنٍ ، والنومُ يقسِّي القلبَ ويميتُهُ ، إلا إذا كانَ بقدْرِ الضرورةِ ، فيكونُ سببَ المكاشفةِ لأسرارِ الغيبِ ، فقدْ قيلَ في صفةِ الأبدالِ : (إنَّ أكلَهُمْ فاقةٌ ، ونومَهُمْ غلبةٌ ، وكلامَهُمْ ضرورةٌ)[3] .

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/ ٩٥) ، وكذلك (٢/ ٦٧) وزاد : (وقد رواه عبد الرحمٰن بن يحيى الأسود عن طاووس رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩٥) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٤) .

وقالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ : (أجمعَ رأيُ سبعينَ صدِّيقاً علىٰ أنْ كثرةَ النومِ مِنْ كثرةِ شرْبِ الماءِ)[1] .

وأمَّا الصمتُ : فإنَّهُ تسهِّلُهُ العزلةُ ، ولكنِ المعتزلُ لا يخلو عنْ مشاهدةِ مَنْ يقومُ لهُ بطعامِهِ وشرابِهِ وتدبيرِ أمرِهِ ، فينبغي ألا يتكلَّمَ إلا بقدْرِ الضرورةِ ؛ فإنَّ الكلامَ يشغلُ القلبَ ، وشَرَهُ القلوبِ إلى الكلامِ عظيمٌ ؛ فإنَّهُ يستروحُ إليهِ ، ويستثقلُ التجرُّدَ للذكْرِ والفكرِ ، فيستريحُ إليهِ ، فالصمتُ يلقحُ العقلَ ، ويجلبُ الورعَ ، ويعلِّمُ التقوىٰ .

وأمَّا الخلوةُ : ففائدتُها دفعُ الشواغلِ ، وضبطُ السمعِ والبصرِ ؛ فإنَّهُما دهليزُ القلبِ ، والقلبُ في حكْمِ حوضٍ تنصبُّ إليهِ مياهٌ كريهةٌ كدرةٌ قذرةٌ مِنْ أنهارِ الحواسِّ ، ومقصودُ الرياضةِ تفريغُ الحوضِ مِنْ تلكَ المياهِ ، ومِنَ الطينِ الحاصلِ منها ؛ لينفجرَ أصلُ الحوضِ ، فيخرجُ منهُ الماءُ النظيفُ الطاهرُ .

وكيفَ يصحُّ لهُ أنْ ينزحَ الماءَ مِنَ الحوضِ والأنهارُ مفتوحةٌ إليهِ ، فيتجدَّدُ في كلِّ حالٍ أكثرَ ممَّا ينقصُ ؟!

فلا بدَّ مِنْ ضبطِ الحواسِّ إلا عنْ قدْرِ الضرورةِ ، وليسَ يتمُّ ذلكَ إلا بالخلوةِ في بيتٍ مظلمٍ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ مكانٌ مظلمٌ . فليلفَّ رأسَهُ في جيبِهِ ، أوْ يتدثَّرْ بكساءٍ أوْ إزارٍ ، ففي مثلِ هـٰذهِ الحالةِ يسمعُ نداءَ الحقِّ ، ويشاهدُ جلالَ الحضرةِ الربوبيةِ ، أما ترىٰ أنَّ نداءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٩) عن أبي إسحاق الموصلي .

وسلَّمَ بلغَهُ وهوَ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الصفةِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾(١) .

فهـٰذهِ الأربعةُ جُنَّةٌ وحصْنٌ ، بها تُدفعُ عنهُ القواطعُ ، وتُمنعُ العوارضُ القاطعةُ للطريقِ .

* * *

فإذا فعلَ ذلكَ . . اشتغلَ بعدَهُ بسلوكِ الطريقِ ، وإنَّما سلوكُهُ بقطْعِ العقباتِ ، ولا عقبةَ علىٰ طريقِ اللهِ تعالىٰ إلا صفاتُ القلبِ التي سببُها الالتفاتُ إلى الدنيا ، وبعضُ تلكَ العقباتِ أعظمُ مِنْ بعضٍ .

والترتيبُ في قطعِها : أنْ يشتغلَ بالأسهلِ فالأسهلِ ، وهيَ ـ أعني : تلكَ الصفاتِ ـ أسرارُ العلائقِ التي قطعَها في أولِ الإرادةِ وآثارُها ؛ أعني : آثارَ المالِ ، والجاهِ ، وحبِّ الدنيا ، والالتفاتِ إلى الخلقِ ، والتشوُّفِ إلى المعاصي ، فلا بدَّ أنْ يخليَ الباطنَ عنْ آثارِها كما أخلى الظاهرَ عنْ أسبابِها الظاهرةِ ، وفيهِ تطولُ المجاهدةُ ، ويختلفُ ذلكَ باختلافِ الأحوالِ ، فربَّ شخصٍ قدْ كُفِيَ أكثرَ الصفاتِ ، فلا تطولُ عليهِ المجاهدةُ ، وقدْ ذكرنا أنَّ طريقَ المجاهدةِ مضادَّةُ الشهواتِ ، ومخالفةُ الهوىٰ في كلِّ صفةٍ غالبةٍ علىٰ نفسِ المريدِ ، كما سبقَ ذكرُهُ .

---

(١) رواه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) ، وقوله : (بلغه وهو علىٰ هـٰذه الصفة) يؤكد هـٰذا النداءُ بالحال ؛ إذ ناداه بالمدثر والمزمل وهو ملابس لذلك ؛ ليستشعر الملاطفة منه سبحانه .

فإذا كُفِيَ ذلكَ ، أوْ ضعفَ بالمجاهدةِ ولمْ يبقَ في قلبِهِ علاقةٌ . . شغلَهُ بعدَ ذلكَ بذكرٍ يلزمُ قلبَهُ على الدوامِ ، ويمنعُهُ مِنْ تكثيرِ الأورادِ الظاهرةِ ، بلْ يقتصرُ على الفرائضِ والرواتبِ[1] ، ويكونُ وردُهُ ورداً واحداً ، وهوَ لبابُ الأورادِ وثمرتُها ؛ أعني : ملازمةَ القلبِ لذكرِ اللهِ تعالىٰ بعدَ الخلوِّ مِنْ ذكرِ غيرِهِ .

ولا يشغلُهُ بهِ ما دامَ قلبُهُ ملتفتاً إلىٰ علائقِهِ ، قالَ الشبليُّ للحصريِّ : (إنْ كانَ يخطرُ بقلبِكَ مِنَ الجمعةِ التي تأتيني فيها إلى الجمعةِ الأخرىٰ شيءٌ غيرُ اللهِ تعالىٰ . . فحرامٌ عليكَ أنْ تأتيَني)[2] .

وهٰذا التجرُّدُ لا يحصلُ إلا معَ صدْقِ الإرادةِ ، واستيلاءِ حبِّ اللهِ تعالىٰ على القلبِ ، حتَّىٰ يكونَ في صورةِ العاشقِ المستهترِ[3] ، الذي ليسَ لهُ إلا همٌّ واحدٌ .

※ ※ ※

فإذا كانَ كذلكَ . . ألزمَهُ الشيخُ زاويةً ينفردُ بها ، ويوكلُ بهِ مَنْ يقومُ لهُ

---

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص٦٢٥) : (وليس من آداب المريدين كثرة الأوراد في الظاهر ؛ فإن القوم في مكابدة إخلاء خواطرهم ، ومعالجة أخلاقهم ، ونفي الغفلة عن قلوبهم ، لا في تكثير أعمال البر ، والذي لا بد لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة ، فأما الزيادة من الصلوات النافلة . . فاستدامة الذكر بالقلب أتم لهم) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦٢١) .

(٣) **والمستهتَر** : المولع بالشيء المأخوذ به ، كأنه قد وَلِهَ ، مرَّ غير مرة ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٧١) وابن حبان في « صحيحه » (٨١٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أكثروا ذكر الله حتىٰ يقولوا : مجنون » .

بقدْرٍ يسيرٍ مِنَ القوتِ الحلالِ ؛ فإنَّ أصلَ طريقِ الدينِ القوتُ الحلالُ ، وعندَ ذلكَ يلقِّنُهُ ذكراً مِنَ الأذكارِ ، حتَّىٰ يشغلَ بهِ لسانَهُ وقلبَهُ ، فيجلسُ ويقولُ مثلاً : (الله ، الله ، الله)[1] ، أوْ (سبحانَ اللهِ ، سبحانَ اللهِ) ، أوْ ما يراهُ الشيخُ مِنَ الكلماتِ .

فلا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ تسقطَ حركةُ اللسانِ ، وتكونَ الكلمةُ كأنَّها جاريةٌ على اللسانِ مِنْ غيرِ تحريكٍ .

ثمَّ لا يزالُ يواظبُ عليهِ حتَّىٰ يسقطَ الأثرُ عنِ اللسانِ ، وتبقىٰ صورةُ اللفظِ في القلبِ .

ثمَّ لا يزالُ كذلكَ حتَّىٰ ينمحيَ عنِ القلبِ حروفُ اللفظِ وصورتُهُ ، وتبقىٰ حقيقةُ معناهُ لازمةً للقلبِ ، حاضرةً معَهُ ، غالبةً عليهِ ، قدْ فرغَ عنْ كلِّ ما سواهُ ؛ لأنَّ القلبَ إذا شُغِلَ بشيءٍ . . خلا عنْ غيرِهِ أيَّ شيءٍ كانَ ، فإذا اشتغلَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ وهوَ المقصودُ . . خلا ـ لا محالةَ ـ عنْ غيرِهِ .

وعندَ ذلكَ يلزمُهُ أنْ يراقبَ وساوسَ القلبِ ، والخواطرَ التي تتعلَّقُ بالدنيا ، وما يتذكَّرُ فيهِ ممَّا قدْ مضىٰ مِنْ أحوالِهِ وأحوالِ غيرِهِ ؛ فإنَّهُ مهما اشتغلَ بشيءٍ منهُ ولوْ في لحظةٍ . . خلا قلبُهُ عنِ الذكرِ في تلكَ اللحظةِ ، وكانَ ذلكَ نقصاناً ، فليجتهدْ في دفعِ ذلكَ .

ومهما دفعَ الوساوسَ كلَّها وردَّ النفسَ إلىٰ هـٰذهِ الكلمةِ . . جاءتهُ

---

(١) في (ب) : (ويقول مثلاً : لا إلـه إلا الله ، أو يقول مثلاً : الله ، الله ، الله) .

الوساوسُ مِنْ هـٰذهِ الكلمةِ ، وأنَّها ما هيَ ؟ وما معنىٰ قولِنا : (الله) ؟ ولأيِّ معنىً كانَ إلـٰهاً وكانَ معبوداً ؟ ويعتريهِ عندَ ذلكَ خواطرُ تفتحُ عليهِ بابَ الفكرِ ، وربَّما يردُ عليهِ مِنْ وساوسِ الشيطانِ ما هوَ كفرٌ أوْ بدعةٌ ، ومهما كانَ كارهاً لذلكَ ، ومتشمِّراً لإماطتِهِ عنِ القلبِ . . لمْ يضرُّهُ ذلكَ .

والخواطرُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما يُعلمُ قطعاً أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنهُ ، ولكنَّ الشيطانَ يلقي ذلكَ في قلبِهِ ، ويجريهِ علىٰ خاطرِهِ ، فشرطُهُ ألا يباليَ بهِ ، ويفزعَ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويبتهلَ إليهِ ليدفعَهُ عنهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ .

وإلىٰ ما يُشَكُّ فيهِ ، فينبغي أنْ يعرضَ ذلكَ علىٰ شيخِهِ ، بلْ كلُّ ما يجدُ في قلبِهِ مِنَ الأحوالِ مِنْ فترةٍ ، أوْ نشاطٍ ، أوِ التفاتٍ إلىٰ عُلْقَةٍ ، أوْ صدْقٍ في إرادةٍ . . فينبغي أنْ يظهرَ ذلكَ لشيخِهِ ، وأنْ يسترَهُ عنْ غيرِهِ ، فلا يطلعَ عليهِ أحداً .

ثمَّ إنَّ شيخَهُ ينظرُ في حالِهِ ، ويتأمَّلُ في ذكائِهِ وكياستِهِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لوْ تركَهُ وأمرَهُ بالفكْرِ تنبَّهَ مِنْ نفسِهِ لحقيقةِ الحقِّ . . فينبغي أنْ يحيلَهُ على الفكرِ ، ويأمرَهُ بملازمتِهِ ، حتَّىٰ يقذفَ في قلبِهِ مِنَ النورِ ما يكشفُ لهُ حقيقتَهُ .

وإنْ علمَ أنَّ ذلكَ ممَّا لا يقوىٰ عليهِ مثلُهُ . . ردَّهُ إلى الاعتقادِ القاطعِ بما يحتملُهُ قلبُهُ مِنْ وعظٍ وذكرٍ ودليلٍ قريبٍ مِنْ فهمِهِ(١) .

وينبغي أنْ يتأنَّقَ الشيخُ ويتلطَّفَ بهِ ، فإنَّ هـٰذهِ مهالكُ الطريقِ ومواضعُ أخطارِها ، فكمْ مِنْ مريدٍ اشتغلَ بالرياضةِ فغلبَ عليهِ خيالٌ فاسدٌ لمْ يقوَ علىٰ كشفِهِ ، فانقطعَ عليهِ طريقُهُ ، فاشتغلَ بالبطالةِ ، وسلكَ طريقَ الإباحةِ ، وذلكَ هوَ الهلاكُ العظيمُ .

ومَنْ تجرَّدَ للذكرِ ، ودفعَ العلائقَ الشاغلةَ عنْ قلبِهِ . . لمْ يخلُ عنْ أمثالِ هـٰذهِ الأفكارِ ، فإنَّهُ قدْ ركبَ سفينةَ الخطرِ ، فإنْ سلمَ . . كانَ مِنْ ملوكِ الدينِ ، وإنْ أخطأَ . . كانَ مِنَ الهالكينَ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بدينِ العجائزِ »(٢) ، وهوَ

---

(١) وعبارة الإمام القشيري في « رسالته » (ص٦٢٣) : (فالواجب علىٰ شيخه إن رأىٰ فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية ، فإن بالعلم يتخلص ـ لا محالة ـ المتعرف مما يعتريه من الوساوس ، وإن تفرس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة . . أمره بالصبر واستدامة الذكر ، حتىٰ تسطع في قلبه أنوار القبول ، وتطلع في سره شموس الوصول ، وعن قريب يكون ذلك ، ولكن لا يكون هـٰذا إلا لأفراد المريدين) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (قال ابن طاهر في كتاب « التذكرة » : هـٰذا اللفظ تداوله العامة ، ولم أقف له علىٰ أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة ، حتىٰ رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمـٰن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا كان في آخر الزمان ، واختلفت الأهواء . . فعليكم بدين أهل البادية والنساء » ، وابن البيلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها) . « إتحاف » (٧/ ٣٧٦) ، وهـٰذا اللفظ رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٢٧٤) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٩٦) .

تلقي أصلِ الإيمانِ وظاهرِ الاعتقادِ بطريقِ التقليدِ ، والاشتغالُ بأعمالِ الخيرِ ؛ فإنَّ الخطرَ في العدولِ عنْ ذلكَ كبيرٌ[1] .

ولذلكَ قيلَ : على الشيخِ أنْ يتفرَّسَ في المريدِ ، فإنْ لمْ يكنْ ذكيّاً فطناً متمكِّناً مِنِ اعتقادِ الظاهرِ .. لمْ يشغلْهُ بالذكرِ والفكرِ ، بلْ يردُّهُ إلى الأعمالِ الظاهرةِ والأورادِ المتواترةِ[2] ، أوْ يشغلُهُ بخدمةِ المتجرِّدينَ للفكرِ ؛ لتشملَهُ بركتُهُمْ ؛ فإنَّ العاجزَ عنِ الجهادِ في صفِّ القتالِ ينبغي أنْ يسقيَ القومَ ، ويتعهَّدَ دوابَّهُمْ ؛ ليُحشرَ يومَ القيامةِ في زمرتِهِمْ ، وتعمَّهُ بركتُهُمْ ، وإنْ كانَ لا يبلغُ درجتَهُمْ[3] .

ثمَّ المريدُ المتجرِّدُ للذكرِ والفكرِ قدْ تقطعُهُ قواطعُ كثيرةٌ ؛ مِنَ العجْبِ ،

---

(١) وهو ما قاله ابن الأثير في « جامع الأصول » (١/ ٢٩٣) ، قال : (دين الأعراب والغلمان والصبيان : الوقوف عند قبول ظاهر الشريعة ، واتباعها من غير تفتيش عن الشبه ، وتنقير عن أقوال أهل الزيغ والأهواء ، ومثله قوله : « عليكم بدين العجائز ») ، فليس دين العجائز رأياً ومذهباً تقول به فرقة من الفرق ، بل الوقوف على الظواهر ، والجد في العمل دون ميل لقول دون قول ، وانظر « فيض القدير » (١/ ٤٢٤) .

(٢) كصلاة الليل وصلاة الضحىٰ والإشراق والأوابين ، ومتابعة الصيام ، والأوراد المتواترة ، وأفضلها القرآن . « إتحاف » (٧/ ٣٧٦) .

(٣) فبخدمته لهم ، وحبِّه إياهم يبلغ درجتهم مع قصور حاله نسبةً إليهم ، كما روى البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) من قول أنس رضي الله عنه : (فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم ولم أعمل بمثل أعمالهم) .

والرياءِ ، والفرحِ بما ينكشفُ لهُ مِنَ الأحوالِ ، وما يبدو مِنْ أوائلِ الكراماتِ ، ومهما التفتَ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ وشغلَ بهِ نفسَهُ . . كانَ ذلكَ فتوراً في طريقِهِ أوْ وقوفاً[1] ، بلْ ينبغي أنْ يلازمَ حالَهُ جملةَ عمرِهِ ملازمةَ العطشانِ الذي لا ترويهِ البحارُ ولوْ أُفيضَتْ عليهِ ، ويدومُ علىٰ ذلكَ ، ورأسُ مالِهِ الانقطاعُ عنِ الخلقِ إلى الحقِّ والخلوةُ .

قالَ بعضُ السياحينَ : قلتُ لبعضِ الأبدالِ المنقطعينَ عنِ الخلقِ : كيفَ الطريقُ إلى التحقيقِ ؟ فقالَ : أنْ تكونَ في الدنيا كأنَّكَ عابرُ طريقٍ ، وقالَ مرَّةً : قلتُ لهُ : دلَّني علىٰ عملٍ أعملُهُ أجدُ فيهِ قلبي معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ ، فقالَ لي : لا تنظرْ إلى الخلْقِ ؛ فإنَّ النظرَ إليهِمْ ظلمةٌ ، قلتُ : لا بدَّ لي مِنْ ذلكَ ، قالَ : فلا تسمعْ كلامَهُمْ ؛ فإنَّ كلامَهُمْ قسوةٌ ، قلتُ : لا بدَّ لي مِنْ ذلكَ ، قالَ : فلا تعاملْهُمْ ؛ فإنَّ معاملتَهُمْ وحشةٌ ، قلتُ : أنا بينَ أظهرِهِمْ ، لا بدَّ لي مِنْ معاملتِهِمْ ، قالَ : فلا تسكنْ إليهِمْ ؛ فإنَّ السكونَ إليهِمْ هلكةٌ ، قلتُ : هـٰذهِ العلَّةُ ، فقالَ : يا هـٰذا ؛ أتنظرُ إلى الغافلينَ ، وتسمعُ كلامَ الجاهلينَ ، وتعاملُ البطَّالينَ ، وتريدُ أن تجدَ قلبَكَ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ على الدوامِ ؟! هـٰذا ما لا يكونُ أبداً[2] .

---

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص٦٢٢) : (والفرق بين الفترة والوقفة : أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته . . لا يجيء منه شيء) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩٩) .

فإذاً ؛ منتهى الرياضةِ أنْ يجدَ قلبَهُ معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ ، ولا يمكنُ ذلكَ إلا بأنْ يخلوَ عنْ غيرِهِ ، ولا يخلو عنْ غيرِهِ إلا بطولِ المجاهدةِ[1] .

فإذا حصلَ قلبُهُ معَ اللهِ تعالىٰ . . انكشفَ لهُ جلالُ الحضرةِ الربوبيةِ ، وتجلَّىٰ لهُ الحقُّ ، وظهرَ لهُ مِنْ لطائفِ اللهِ تعالىٰ ما لا يجوزُ أنْ يُوصفَ ، بلْ لا يحيطُ بهِ الوصفُ أصلاً[2] .

وإذا انكشفَ للمريدِ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فأعظمُ القواطعِ عليهِ أنْ يتكلَّمَ بهِ وعظاً ونصحاً ، ويتصدَّىٰ للتذكيرِ ، فتجدُ النفسُ فيهِ لذَّةً ليسَ وراءَها لذةٌ ، فتدعوهُ تلكَ اللذَّةُ إلىٰ أنْ يتفكَّرَ في كيفيَّةِ إيرادِ تلكَ المعاني ، وتحسينِ الألفاظِ المعبِّرةِ عنها ، وترتيبِ ذكرِها ، وتزيينِها بالحكاياتِ وشواهدِ القرآنِ والأخبارِ ، وتحسينِ صيغةِ الكلامِ ؛ لتميلَ إليهِ القلوبُ والأسماعُ .

والشيطانُ ربَّما يخيِّلُ إليه أنَّ هـٰذا إحياءٌ منكَ لقلوبِ الموتى الغافلينَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما أنتَ واسطةٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ وبينَ الخلقِ ، تدعو عبادَهُ إليهِ ، وما لكَ فيهِ نصيبٌ ، ولا لنفسِكَ فيهِ لذَّةٌ .

---

(١) فإذا تمت له الهداية . . ارتقىٰ إلىٰ مقام الإحسان الذي فسر في الحديث : أن تعبد ربك كأنك تراه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : بمعية الشهود والانكشاف . « إتحاف » (٧/ ٣٧٧) .

(٢) أصل التجلي هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب باعتبار تعدد أمور التجلي ؛ فإن لكل اسم إلـٰهي بحسب حيطته ووجوهه تجلياتٍ متنوعة . « إتحاف » (٧/ ٣٧٧) ، وانظر « التعريفات » للجرجاني (ص١١٣) .

ويتَّضحُ كيدُ الشيطانِ بأنْ يظهرَ في أقرانِه مَنْ يكونُ أحسنَ كلاماً منهُ ، وأجزلَ لفظاً ، وأقدرَ على استجلابِ قلوبِ العوامِّ ؛ فإنَّهُ يتحرَّكُ في باطنِهِ عقربُ الحسدِ ـ لا محالةَ ـ إنْ كانَ محرِّكُهُ لذَّةَ القبولِ ، وإنْ كانَ محرِّكُهُ هوَ الحقَّ حرصاً علىٰ دعوةِ عبادِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ صراطِهِ المستقيمِ . . فيعظمُ به فرحُهُ ، ويقولُ : (الحمدُ للهِ الذي عضدني وأيَّدني بمَنْ وازرَني علىٰ إصلاحِ عبادِهِ) ؛ كالذي وجبَ عليهِ مثلاً أنْ يحملَ ميّتاً ليدفنَهُ إذْ وجدَهُ ضائعاً ، وتعيَّنَ عليهِ ذلكَ شرعاً ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ عليهِ ، فإنَّهُ يفرحُ بهِ ، ولا يحسدُ معينَهُ ، والغافلونَ موتى القلوبِ ، والوعَّاظُ هُمُ المنبِّهونَ والمحيونَ لهُمْ ، ففي كثرتِهِمْ استرواحٌ وتناصرٌ ، فينبغي أنْ يعظمَ الفرحُ بذلكَ ، وهاذا عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فينبغي أنْ يكونَ المريدُ علىٰ حذرٍ منهُ ؛ فإنَّهُ أعظمُ حبائلِ الشيطانِ في قطعِ الطريقِ علىٰ مَنِ انفتحَتْ لهُ أوائلُ الطريقِ ، فإنَّ إيثارَ الحياةِ الدنيا طبعٌ غالبٌ على الإنسانِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الشرَّ قديمٌ في الطباعِ ، وأنَّ ذلكَ مذكورٌ في الكتبِ السالفةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

فهاذا منهاجُ رياضةِ المريدِ وتربيتِهِ في التدريجِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ .

---

(١) أي : يختارونها على الآخرة ، فلا يفعلون ما يسعدهم في الآخرة ، ولو علموا علماً يقيناً فناءها وبقاء الآخرة . . لما آثروها . « إتحاف » (٣٧٨/٧) .

فأمّا تفصيلُ الرياضةِ في كلِّ صفةٍ.. فسيأتي ؛ فإنَّ أغلبَ الصفاتِ على الإنسانِ بطنُهُ وفرجُهُ ولسانُهُ ؛ أعني بهِ الشهواتِ المتعلقةَ بها ، ثمَّ الغضبُ الذي هوَ كالجندِ لحمايةِ الشهواتِ ، ثمَّ مهما أحبَّ الإنسانُ شهوةَ البطنِ والفرجِ وأنسَ بهما.. أحبَّ الدنيا ، ولمْ يتمكَّنْ منها إلا بالمالِ والجاهِ ، وإذا طلبَ المالَ والجاهَ.. حدثَ فيهِ الكبْرُ والعجبُ والرئاسةُ ، وإذا ظهرَ ذلكَ.. لمْ تسمحْ نفسُهُ بتركِ الدنيا رأساً ، وتمسَّكَ مِنَ الدينِ بما فيهِ الرئاسةُ ، وغلبَ عليه الغرورُ .

❊ ❊ ❊

فلهـٰذا وجبَ علينا بعدَ تقديمِ هـٰذينِ الكتابينِ أنْ نستكملَ ربعَ المهلكاتِ بثمانيةِ كتبٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

كتابٌ في كسرِ شهوةِ البطنِ والفرجِ .

وكتابٌ في كسْرِ شَرَهِ الكلامِ .

وكتابٌ في كسرِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ .

وكتابٌ في ذمِّ الدنيا وتفصيلِ خدعِها .

وكتابٌ في كسرِ حبِّ المالِ وذمِّ البخلِ .

وكتابٌ في ذمِّ الرياءِ وحبِّ الجاهِ .

وكتابٌ في ذمِّ الكبْرِ والعجْبِ .

وكتابٌ في مواقعِ الغرورِ .

وبذكرِ هـٰذهِ المهلكاتِ وتعليمِ طرقِ المعالجةِ فيها يتمُّ غرضُنا مِنْ ربعِ المهلكاتِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّ ما ذكرناهُ في الكتابِ الأوَّلِ هوَ شرحٌ لصفاتِ القلبِ الذي هوَ معدنُ المهلكاتِ والمنجياتِ ، وما ذكرناهُ في الكتابِ الثاني هوَ إشارةٌ كليَّةٌ إلىٰ طريقِ تهذيبِ الأخلاقِ ومعالجةِ أمراضِ القلوبِ ، أمَّا تفصيلُها : فإنَّهُ يأتي في هـٰذه الكتبِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

تمّ كتاب رياضة النّفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثّاني من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلى الله على نبيّنا محمّدٍ وآله وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب كسر الشّهوتين

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب كسر الشّهوتين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المنفردِ بالجلالِ في كبريائِهِ وتعاليهِ ، المستحقِّ للتحميدِ والتقديسِ والتسبيحِ والتنزيهِ ، القائمِ بالعدْلِ فيما يبرمُهُ ويقضيهِ ، المتطوِّلِ بالفضْلِ فيما ينعمُ بهِ ويسديهِ ، المتكفِّلِ بحفْظِ عبدِهِ في جميعِ موارِدِهِ ومجاريهِ ، المنعمِ عليهِ بما يزيدُ علىٰ مهمَّاتِ مقاصدِهِ بلْ بما يفي بأمانيهِ ، فهوَ الذي يرشدُهُ ويهديهِ ، وهوَ الذي يميتُهُ ويحييهِ ، وإذا مرضَ . . فهوَ يشفيهِ ، وإذا ضعُفَ . . فهوَ يقوِّيهِ ، وهوَ الذي يوفِّقُهُ للطاعةِ ويرتضيهِ ، وهوَ الذي يطعمُهُ ويسقيهِ ، ويحفظُهُ مِنَ الهلاكِ ويحميهِ ، ويحرسُهُ بالطعامِ والشرابِ عمَّا يهلكُهُ ويرديهِ ، ويمكِّنُهُ مِنَ القناعةِ بقليلِ القوتِ ويقوِّيهِ ، حتَّىٰ تضيِّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ الذي يناويهِ[1] ، ويكسرُ بهِ سطوةَ النفسِ التي تعاديهِ ، فيدفعُ شرَّها ثمَّ يعبدُ ربَّهُ ويتَّقيهِ ، هـٰذا بعدَ أنْ يوسِّعَ عليهِ ما يلتذُّ بهِ ويشتهيهِ ، ويكثِّرَ عليهِ ما يهيِّجُ بواعثَهُ ويؤكِّدُ دواعيهِ[2] ، كلُّ ذلكَ يمتحنُهُ بهِ ويبتليهِ ، فينظرُ كيفَ يؤثرُهُ علىٰ ما يهواهُ وينتحيهِ ، وكيفَ يحفظُ أوامرَهُ

---

(١) أي : حتىٰ تضيق القناعة بقليل القوت مجاري الشيطان .
(٢) مراعاة للسجعة ، وهي لغة أيضاً ، والأصل : (دواعيَهُ) .

وينتهي عنْ نواهيهِ ، ويواظبُ علىٰ طاعتِهِ وينزجرُ عنْ معاصيهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ النبيهِ ، ورسولِهِ الوجيهِ ، صلاةً تزلفُهُ وتحظيهِ ، وترفعُ منزلتَهُ وتعليهِ ، وعلى الأبرارِ مِنْ عترتِهِ وأقربيهِ ، والأخيارِ مِنْ صحابتِهِ وتابعيهِ .

أما بعد :

فأعظمُ المهلكاتِ لابنِ آدمَ شهوةُ البطنِ ، فبها أُخرجَ آدمُ وحواءُ مِنْ دارِ القرارِ إلىٰ دارِ الذلِّ والافتقارِ ؛ إذْ نُهيا عنِ الشجرةِ ، فغلبَتْهُما شهواتُهما ، حتَّىٰ أكلا منها فبدَتْ لهما سوءَاتُهما .

والبطنُ على التحقيقِ ينبوعُ الشهواتِ ، ومنبتُ الأدواءِ والآفاتِ ؛ إذْ تتبعُها شهوةُ الفرجِ وشدَّةُ الشبقِ إلى المنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ شهوةَ الطعامِ والنكاحِ شدَّةُ الرغبةِ في المالِ والجاهِ اللذينِ هما الوسيلةُ إلى التوسُّعِ في المطعوماتِ والمنكوحاتِ ، ثمَّ يتبعُ استكثارَ المالِ والجاهِ أنواعُ الرعوناتِ ، وضروبُ المنافساتِ والمحاسداتِ ، ثمَّ يتولَّدُ بينَهُما آفةُ الرياءِ ، وغائلةُ التفاخرِ والتكاثرِ والكبرياءِ ، ثمَّ يتداعىٰ ذلكَ إلى الحسدِ والحقدِ ، والعداوةِ والبغضاءِ ، ثمَّ يفضي ذلكَ بصاحبِهِ إلى اقتحامِ البغيِ والمنكرِ والفحشاءِ ، وكلُّ ذلكَ ثمرةُ إهمالِ المعدةِ ، وما يتولَّدُ منها مِنْ بطرِ الشبعِ والامتلاءِ .

ولوْ ذلَّلَ العبدُ نفسَهُ بالجوعِ ، وضيَّقَ بهِ مجاريَ الشيطانِ . . لأذعنَتْ لطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تسلكْ سبيلَ البطرِ والطغيانِ ، ولمْ ينجرَّ بهِ ذلكَ

إلى الانهماكِ في الدنيا ، وإيثارِ العاجلةِ على العقبىٰ ، ولمْ يتكالبْ كلَّ هـٰذا التكالبِ على الدنيا .

وإذا عظمَتْ آفةُ شهوةِ البطنِ إلىٰ هـٰذا الحدِّ . . وجبَ شرحُ غوائلِها وآفاتِها ؛ تحذيراً منها ، ووجبَ إيضاحُ طريقِ المجاهدةِ لها ، والتنبيهُ علىٰ فضلِها ؛ ترغيباً فيها ، وكذلكَ شرحُ شهوةِ الفرجِ ؛ فإنَّها تابعةٌ لها .

* * *

ونحنُ نوضحُ ذلكَ بعونِ اللهِ تعالىٰ في فصولٍ ، يجمعُها بيانُ فضيلةِ الجوعِ ، ثمَّ فوائدِ الجوعِ ، ثمَّ طريقِ الرياضةِ في كسْرِ شهوةِ البطنِ بالتقليلِ مِنَ الطعامِ والتأخيرِ ، ثمَّ بيانُ اختلافِ حكمِ الجوعِ وفضيلتِهِ باختلافِ أحوالِ الناسِ ، ثمَّ بيانُ الرياءِ في تركِ الشهوةِ ، ثمَّ القولُ في شهوةِ الفرْجِ ، ثمَّ بيانُ ما على المريدِ في تركِ التزويجِ وفعلِهِ ، ثمَّ بيانُ فضيلةِ مَنْ يخالفُ شهوةَ البطنِ والفرْجِ والعينِ .

* * *

بيان فضيلة الجوع وذم الشّبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذلكَ كأجرِ المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، وإنَّهُ ليسَ مِنْ عملٍ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جوعٍ وعطشٍ »(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ ملكوتَ السماءِ مَنْ ملأَ بطنَهُ »(٢) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ أفضلُ ؟ قالَ : « مَنْ قلَّ مطعمُهُ وضحكُهُ ، ورضيَ بما يستُرُ بهِ عورتَهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيِّدُ الأعمالِ الجوعُ ، وذلُّ النَّفسِ لباسُ الصوفِ »(٤) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٣٨٦) . وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨١) عن مكحول قال : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (٢٣٥٠) عن الحسن مرسلاً ، وأورده عن ابن عباس مرفوعاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٦٤) .

(٣) كذا أورده عقب الحديث السابق الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .

(٤) أورده عن مكحول مرسلاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وفيه : « . . . وذل النفس ، ولباس الصوف » .

« البسوا وكلوا واشربوا في أنصافِ البطونِ ؛ فإنَّهُ جزءٌ مِنَ النبوَّةِ »(١) .

وقالَ الحسنُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفكرُ نصفُ العبادةِ ، وقلَّةُ الطعامِ هيَ العبادةُ »(٢) .

وقالَ الحسنُ أيضاً : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُكُمْ عندَ اللهِ منزلةً يومَ القيامةِ أطولُكُمْ جوعاً وتفكُّراً في اللهِ سبحانَهُ ، وأبغضُكُمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلُّ نؤُومٍ أكولٍ شروبٍ »(٣) .

وفي الخبرِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يجوعُ مِنْ غيرِ عوزٍ ؛ أيْ : مختاراً لذلكَ(٤) .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو عند صاحب « القوت » (٢/ ١٦٧) من حديث الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) عن الحسن مرسلاً .

(٤) ولفظ الخبر عند أبي طالب في « القوت » (١/ ٩٧) : (وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من غير إعواز ؛ أي : مختارين) ، وهو معنىٰ قولها رضي الله عنها كما رواه عنها البيهقي في « الشعب » (٥٢٥٢): (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يوثر علىٰ نفسه) .
وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٠٠) عن ابن سيرين : أن رجلاً قال لابن عمر : أجعل لك جوارش ؟ قال : وأي شيءٍ الجوارش ؟ قال : شيء إذا كظَّك الطعام فأصبت منه . . سهل عليك ، قال : فقال ابن عمر : ما شبعت من الطعام منذ أربعة أشهر ، وما ذاك ألا أكون له واجداً ، ولكني عهدت قوماً يشبعون مرة ويجوعون أخرىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي الملائكةَ بمَنْ قلَّ مطعمُهُ ومشربُهُ في الدنيا ، يقولُ اللهُ تعالىٰ : انظروا إلىٰ عبدي ، ابتليتُهُ بالطعامِ والشرابِ في الدنيا ، فصبرَ وتركَهُما ، اشهدوا يا ملائكتي ؛ ما مِنْ أكلةٍ يدعُها إلا أبدلتُهُ بها درجاتٍ في الجنةِ » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تميتوا القلوبَ بكثرةِ الطعامِ والشَّرابِ ؛ فإنَّ القلبَ كالزرعِ يموتُ إذا كثرَ عليهِ الماءُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرّاً مِنْ بطنِهِ ، حسبُ ابنِ آدمَ لقيماتٌ يقمْنَ صلبَهُ ، فإنْ كانَ لا بدَّ فاعلاً . . فثلثٌ لطعامِهِ ، وثلثٌ لشرابِهِ ، وثلثٌ لنَفَسِهِ »(٢) .

وفي حديثِ أسامةَ بنِ زيدٍ وحديثِ أبي هريرةَ الطويلِ ذكرُ فضيلةِ الجوعِ ، إذْ قالَ فيهِ : « إنَّ أقربَ النَّاسِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ مَنْ طالَ جوعُهُ وعطشُهُ وحزنُهُ في الدنيا ، الأحفياءُ الأتقياءُ ، الذينَ إنْ شَهدوا . . لمْ يُعرفوا ، وإنْ غابوا . . لمْ يُفتقدوا ، تعرفُهُمْ بقاعُ الأرضِ ، وتحفُّ بهِمْ ملائكةُ السماءِ ، نعمَ الناسُ بالدنيا ، ونَعموا بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، افترشَ الناسُ الفُرُشَ الوثيرةَ ، وافترشوا الجباهَ والرُّكَبَ ، ضيَّعَ الناسُ فعلَ النَّبيِّينَ وأخلاقَهُمْ ، وحفظُوها هُمْ ، تبكي الأرضُ إذا فقدَتْهُمْ ، ويسخطُ اللهُ تعالىٰ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٧/ ٣٨٧) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٣٤٩).

علىٰ كلِّ بلدةٍ ليسَ فيها منهُمْ أحدٌ ، لمْ يتكالبوا على الدنيا تكالبَ الكلابِ على الجيفِ ، أكلوا الفِلَقَ ولبسوا الخِرَقَ ، شعثاً غبراً ، يراهُمُ الناسُ فيظنونَ أنَّ بِهِمْ داءً وما بِهِمْ داءٌ ، ويُقالُ : قدْ خُولطوا وذهبَتْ عقولُهُمْ وما ذهبَتْ عقولُهُمْ ، ولكنْ نظرَ القومُ بقلوبِهِمْ إلىٰ أمرِ اللهِ الذي أذهبَ عنهُمُ الدنيا ، فهُمْ عندَ أهلِ الدنيا يمشونَ بلا عقولٍ ، عَقلوا حينَ ذهبَتْ عقولُ الناسِ ، لهُمُ الشرفُ في الآخرةِ .

يا أسامةُ ؛ إذا رأيتهُمْ في بلدةٍ .. فاعلمْ أنَّهُمْ أمانٌ لأهلِ تلكَ البلدةِ ، ولا يعذِّبُ اللهُ تعالىٰ قوماً هُمْ فيهِمْ ، الأرضُ بهِمْ فرحةٌ ، والجبَّارُ عنهُمْ راضٍ ، اتخذْهُمْ لنفسِكَ إخواناً ؛ عسىٰ أنْ تنجوَ بهِمْ ، وإنِ استطعتَ أنْ يأتيَكَ الموتُ وبطنُكَ جائعٌ وكبدُكَ ظمآنُ .. فافعلْ ؛ فإنَّكَ تدركُ بذلكَ شرفَ المنازلِ ، وتحلُّ معَ النبيِّينَ ، وتفرحُ بقدومِ روحِكَ الملائكةُ ، ويصلِّي عليكَ الجبَّارُ »[1] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٦٥) ، وفيه قال : (وروينا في حديث أسامة بن زيد وأبي يزيد الطويل ، اختصرته . . .) وذكر ما نقله المصنف عنه هنا ، والحديث رواه الحارث بن أسامة في « مسنده » (٣٤٧) ، والخطيب في « الزهد » (٩٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨/ ٧٥) من طريق الخطيب البغدادي ، وقال في آخره : (ورويت هـٰذه الوصية عن محمد بن علي مرسلة ، وعن ابن عباس من وجه أعلىٰ من هـٰذا) .

والفلق : جمع فلقة ، وهي كسرة الخبز ، وفي (ب) : (العلق) بدل (الفلق) ، وعليه مشى الحافظ الزبيدي (٧/٣٨٨) ، وهو جمع عُلْقة ؛ ما يتبلَّغ به من العيش ، وكلا المعنيين مناسب .

وروى الحسنُ عنْ أبي هريرةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « البسوا الصوفَ ، وشمِّروا ، وكلوا في أنصافِ البطونِ .. تدخلوا في ملكوتِ السماءِ »(١) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ أجيعوا أكبادَكُمْ ، وأعروا أجسادَكُمْ ؛ لعلَّ قلوبَكُمْ ترى اللهَ عزَّ وجلَّ)(٢) .

ورُوِيَ ذلكَ أيضاً عنْ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، رواهُ طاووسٌ(٣) .

وقيلَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليَبغضُ الحبْرَ السمينَ)(٤) ؛ لأنَّ السمنَ يدلُّ على الغفلةِ وكثرةِ الأكلِ ، وذلكَ قبيحٌ ، خصوصاً بالحبْرِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٧) ، والحديث عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٧٠) عن مالك بن دينار بلاغاً .

(٣) إذ قال صاحب « القوت » (٢/ ١٦٧) : (وقد رواه عبد الرحمـٰن بن يحيى الأسود عن طاووس ، رفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وكذا أورده مرفوعاً الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

(٤) روى ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٥/ ٧/ ٣٣٣) عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له : مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أنشدك بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ ؛ أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ » وكان حبراً سميناً ، فغضب فقال : والله ؛ ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء ... الخبر .

ولأجلِهِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ القارىءَ السمينَ مِنَ الشبعِ)[١] .

وفي خبرٍ مرسلٍ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدّمِ ، فضيّقوا مجاريَهُ بالجوعِ والعطشِ »[٢] .

وفي الخبرِ : (إنَّ الأكلَ على الشبعِ يورثُ البرصَ)[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يأكلُ في مِعىً واحدٍ ، والمنافقُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ »[٤] ، أيْ : يأكلُ سبعةَ أضعافِ ما يأكلُ المؤمنُ ، أوْ تكونُ شهوتُهُ سبعةَ أضعافِ شهوتِهِ ، وذكرُ المعاءِ كنايةٌ عنِ الشهوةِ ؛ لأنَّ الشهوةَ هيَ التي تقبلُ الطعامَ وتأخذُهُ كما يأخذُهُ المِعَىٰ ، وليسَ المعنىٰ زيادةَ عددِ مِعَى المنافقِ علىٰ مِعَى المؤمنِ .

وروى الحسنُ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنَّةِ .. يُفتحْ لكُمْ » ،

---

(١) قوت القلوب (٢/١٦٨) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٦٨) ، وهو من مرسلات الحسن كما هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٣) والشطر الأول منه رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (٢/١٦٨) ، وكل من المصنف وأبي طالب رحمهما الله تعالىٰ لم يرفعه .

(٤) رواه البخاري (٥٣٩٣) ، ومسلم (٢٠٦٠) .

قلتُ : وكيفَ نديمُ قرْعَ بابِ الجنةِ ؟ قالَ : « بالجوعِ والظمأِ »(١) .

ورُوِيَ أنَّ أبا جُحَيْفَةَ تجشَّأَ في مجلسِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ : « أقصرْ مِنْ جُشائِكَ ؛ فإنَّ أطولَ الناسِ جوعاً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ شبعاً في الدنيا »(٢) .

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلىءْ قطُّ شبعاً ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أرىٰ بهِ مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ، لوْ تبلَّغتَ مِن الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ؟ فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزْمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هٰذا ، فمضوا علىٰ حالِهِمْ ، فقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهْتُ في معيشتي أنْ يقصُرَ بي غداً دونَهُمْ ، فالصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بأصحابي وإخواني » ، قالَتْ عائشةُ : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ إليهِ »(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧١) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٧٨) ، وابن ماجه (٣٣٥٠) عن ابن عمر يذكر رجلاً ، ورواه عن أبي جحيفة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٥٤) .

(٣) كذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص ١٨٧) بنحوه ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٨٠٦) عنها قالت : =

وعنْ أنسٍ قالَ : جاءَتْ فاطمةُ رضوانُ اللهِ عليها بكسرةِ خبزٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « ما هـٰذهِ الكسرةُ ؟ » قالَتْ : قرصٌ خبزتُهُ ، ولمْ تطبْ نفسي حتَّىٰ أتيتُكَ منهُ بهـٰذهِ الكسرةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ أوَّلُ طعامٍ دخلَ فمَ أبيكِ منذُ ثلاثةِ أيامٍ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : (ما أشبعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهلَهُ ثلاثةَ أيامٍ تباعاً مِنْ خبزِ الحنطةِ حتَّىٰ فارقَ الدنيا)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجوعِ في الدنيا هُمْ أهلُ الشبعِ في الآخرةِ ، وإنَّ أبغضَ الناسِ إلى اللهِ المتخمونَ الملأىٰ ، وما تركَ عبدٌ أكلةً يشتهيها إلا كانَتْ لهُ درجةٌ في الجنةِ »(٣) .

* * *

= ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، قال : « يا عائشة ؛ إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ؛ إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر علىٰ مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا بالله » .

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣٤٤) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٢١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٤٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٧٦) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) عن عكرمة مرسلاً ، وهو إلىٰ قوله : (في الآخرة) قد رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٤٥) عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إيَّاكُمْ والبطنةَ ؛ فإنَّها ثقلٌ في الحياةِ نتنٌ في المماتِ)(١) .

وقالَ شقيقٌ البلخيُّ : (العبادةُ حرفةٌ ، حانوتُها الخلوةُ ، وآلتُها المجاعةُ)(٢) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إذا امتلأَتِ المعدةُ .. نامَتِ الفكرةُ ، وخرسَتِ الحكمةُ ، وقعدَتِ الأعضاءُ عنِ العبادةِ)(٣) .

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ لنفسِهِ : (أيَّ شيءٍ تخافينَ ؟ أتخافينَ أنْ تجوعي ؟ لا تخافي ذلكِ ، أنتِ أهونُ على اللهِ مِنْ ذلكِ ، إنَّما يجوعُ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ) .

وكانَ كَهْمَسُ يقولُ : (إلـٰهي ؛ أجعتَني وأعريتَني ، وفي ظلمِ الليالي بلا مصباحٍ أجلستَني ، فبأيِّ وسيلةٍ بلَّغتَني ما بلَّغتَني ؟!)(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٨١) بلفظ : (أيها الناس ؛ إياكم والبطنة من الطعام ؛ فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، وإن الله تبارك وتعالىٰ يبغض الحبر السمين . . .) .
(٢) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٩٩) .
(٣) أورده التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٨٨) .
(٤) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٣٩٢) لصاحب « القوت » .

وكانَ فتحٌ الموصليُّ إذا اشتدَّ مرضُهُ وجوعُهُ.. يقولُ : (إلـٰهي ؛ ابتليتَني بالمرضِ والجوعِ ، وكذلكَ تفعلُ بأوليائِكَ ، فبأيِّ عملٍ أؤدِّي شكرَ ما أنعمتَ بهِ عليَّ ؟!)(١) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : قلتُ لمحمدِ بنِ واسعٍ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ طوبىٰ لمَنْ كانَتْ لهُ غُلَيْلَةٌ تقوتُهُ وتغنيهِ عنِ الناسِ ، فقالَ لي : يا أبا يحيىٰ ؛ طوبىٰ لمَنْ أمسىٰ وأصبحَ جائعاً وهوَ عنِ اللهِ راضٍ(٢) .

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ : (إلـٰهي ؛ أجعتَني وأجعتَ عيالي ، وتركتَني في ظلمِ الليلِ بلا مصباحٍ ، وإنَّما تفعلُ هـٰذا بأوليائِكَ ، فبأيِّ منزلةٍ نلتُ هـٰذا منكَ ؟!)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (جوعُ الراغبينَ منبهةٌ ، وجوعُ التائبينَ تجربةٌ ، وجوعُ المجتهدينَ كرامةٌ ، وجوعُ الصابرينَ سياسةٌ ، وجوعُ الزاهدينَ حكمةٌ)(٤) .

وفي التوراةِ : (اتقِ اللهَ ، وإذا شبعتَ.. فاذكرِ الجياعَ) .

---

(١) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٣٩٢) لصاحب « القوت » .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) بنحوه .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٤) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٣) .
(٤) أورده الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) عنه بنحوه .

وقالَ أبو سليمانَ : (لأنْ أتركَ لقمةً مِنْ عشائي أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ إلى الصبحِ)[1] .

وقالَ أيضاً : (الجوعُ عندَ اللهِ في خزائنِه ، لا يعطيهِ إلا لمَنْ أحبَّهُ)[2] .

وكانَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ يطوي نيفاً وعشرينَ يوماً لا يأكلُ ، وكانَ يكفيهِ لطعامِهِ في السنةِ درهمٌ ، وكانَ يعظِّمُ الجوعَ ويبالغُ فيهِ ، حتَّىٰ قالَ : (لا يوافي القيامةَ عملُ برٍّ أفضلُ مِنْ تركِ فضولِ الطعامِ ، والاقتداءِ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أكلِهِ)[3] .

وقالَ : (لمْ يرَ الأكياسُ شيئاً أنفعَ مِنَ الجوعِ للدنيا والدينِ) .

وقالَ : (لا أعلمُ شيئاً أضرَّ علىٰ طلابِ الآخرةِ مِنَ الأكلِ) .

وقالَ : (وُضعَتِ الحكمةُ والعلمُ في الجوعِ ، ووُضعَتِ المعصيةُ والجهلُ في الشبعِ)[4] .

وقالَ : (ما عُبدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ مِنْ مخالفةِ الهوىٰ في تركِ الحلالِ ،

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢٩/٣٤) .
(٢) هو عند الطوسي في « اللمع » (ص ٢٦٩) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٨/٩) .
(٣) هو ضمن خبر أورده القشيري في « رسالته » (ص٦٥) .
(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٥٩) .

وقد جاءَ في الحديثِ : « ثلثٌ للطعامِ » ، فمَنْ زادَ عليهِ . . فإنَّما يأكلُ مِنْ حسناتِهِ) .

وسُئِلَ عنِ الزيادةِ ، فقالَ : (لا يجدُ الزيادةَ حتَّىٰ يكونَ التركُ أحبَّ إليهِ مِنَ الأكلِ ، ويكونَ إذا جاعَ ليلةً . . سألَ اللهَ أنْ يجعلَها ليلتينِ ، فإذا كانَ ذلكَ . . وجدَ الزيادةَ) .

وقالَ : (ما صارَ الأبدالُ أبدالاً إلا بإخماصِ البطونِ ، والصمتِ والسهرِ والخلوةِ)[1] .

وقالَ : (رأسُ كلِّ برٍّ مُنزلٍ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ الجوعُ ، ورأسُ كلِّ فجورٍ بينَهُما الشبعُ)[2] .

وقالَ : (مَنْ جوَّعَ نفسَهُ . . انقطعَتْ عنهُ الوساوسُ)[3] .

وقالَ : (إقبالُ اللهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالجوعِ والسقمِ والبلاءِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ)[4] .

وقالَ : (اعلموا أنَّ هـٰذا زمانٌ لا ينالُ أحدٌ فيهِ النجاةَ إلا بذبحِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٥) .
(٢) روىٰ بعضه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٩٣) عن يوسف بن أسباط ، وبعضه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) عن سهل رحمه الله تعالىٰ .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) بلفظ : (من جوع نفسه . . لم يقربه الشيطان بإذن الله عز وجل) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .

نفسِهِ وقتلِها بالجوعِ والصبرِ والجهدِ)(١) .

وقالَ : (ما مرَّ علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ شربَ مِنْ هـٰذا الماءِ حتَّىٰ رويَ فسلمَ مِنَ المعصيةِ وإنْ شكرَ اللهَ تعالىٰ ، فكيفَ الشبعُ مِنَ الطعامِ ؟!) .

وسُئلَ حكيمٌ : بأيِّ قيدٍ أقيِّدُ نفسي ؟ قالَ : (قيِّدْها بالجوعِ والعطشِ ، وذلِّلْها بإخمالِ الذكرِ وتركِ العزِّ ، وصغِّرْها بوضعِها تحتَ أرجلِ أبناءِ الآخرةِ ، واكسرْها بترْكِ زيِّ القرَّاءِ عنْ ظاهرِها ، وانجُ مِنْ آفاتِها بدوامِ سوءِ الظنِّ بها ، واصحبْها بخلافِ هواها) .

وكانَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ يقسمُ باللهِ تعالىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ ما صافىٰ أحداً إلا بالجوعِ ، ولا مشوا على الماءِ إلا بالجوعِ ، ولا طُويَتْ لهُمُ الأرضُ إلا بالجوعِ ، ولا والاهُمُ اللهُ تعالىٰ إلا بالجوعِ(٢) .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (مثلُ البطْنِ مثلُ المِزهرِ ، وهوَ العودُ المجوَّفُ ذو الأوتارِ ، إنَّما حسنَ صوتُهُ لخفَّتِهِ ورقَّتِهِ ، ولأنَّهُ أجوفُ غيرُ ممتلئٍ ، وكذلكَ الجوفُ إذا خلا .. كانَ أعذبَ للتلاوةِ ، وأدومَ للقيامِ ، وأقلَّ للمنامِ)(٣) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : (ثلاثةٌ يحبُّهُمُ اللهُ تعالىٰ : رجلٌ قليلُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٠١) .
(٢) رواه أبو طالب في « القوت » (٢/ ١٧١) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٤) بنحوه .

الأكلِ ، قليلُ النومِ ، قليلُ الراحةِ)[١] .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مكثَ يناجي ربَّهُ ستينَ صباحاً لمْ يأكلْ ، فخطرَ ببالِهِ الخبزُ ، فانقطعَ عنِ المناجاةِ ، فإذا رغيفٌ موضوعٌ بينَ يديهِ ، فجلسَ يبكي لفقدِ المناجاةِ ، وإذا شيخٌ قدْ أظلَّهُ ، فقالَ لهُ عيسىٰ : باركَ اللهُ فيكَ يا وليَّ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ تعالىٰ لي ، فإنِّي كنتُ في حالةٍ ، فخطرَ ببالي الخبزُ ، فانقطعَتْ عنِّي ، فقالَ الشيخُ : اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ الخبزَ خطرَ ببالي منذُ عرفتُكَ . . فلا تغفرْ لي ، بلْ كانَ إذا حضرَ لي شيءٌ . . أكلتُهُ مِنْ غيرِ فكرٍ وخاطرٍ[٢] .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا قرَّبَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ نجيّاً . . كانَ قدْ تركَ الأكلَ أربعينَ يوماً ، ثلاثينَ ثمَّ عشراً علىٰ ما وردَ بِهِ القرآنُ ؛ لأنهُ أمسكَ بغيرِ تبييتٍ يوماً ، فزيدَ عشرةً لأجلِ ذلكَ[٣] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٧) ، وصومه عليه الصلاة والسلام الأربعين وسر ذلك مبثوث بكتب التفسير ، وانظر « عوارف المعارف » (١/ ٣٥٦) ، وفيه قال العلامة السهروردي : (ولم يكن صوم موسىٰ عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل ، فدل علىٰ أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير في الباب ، حتى احتاج موسىٰ إلىٰ ذلك مستعداً به لمكالمة الله تعالىٰ) .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاهدُوا أنفسَكُمْ بالجوعِ والعطشِ ؛ فإنَّ الأجرَ في ذلكَ »(١) .

ولعلَّكَ تقولُ : هـٰذا الفضلُ العظيمُ للجوعِ مِنْ أينَ هوَ ؟ وما سببُهُ وليسَ فيهِ إلا إيلامُ المعدةِ ومقاساةُ الأذى ؟ فإنْ كانَ كذلكَ . . فينبغي أنْ يعظمَ الأجرُ في كلِّ ما يتأذَّىٰ بهِ الإنسانُ ؛ مِنْ ضربِهِ لنفسِهِ ، وقطعِهِ للحمِهِ ، وتناولِهِ الأشياءَ المكروهةَ ، وما يجري مجراهُ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا يضاهي قولَ مَنْ شربَ دواءً فانتفعَ بهِ فظنَّ أنَّ منفعتَهُ لمرارةِ الدواءِ وكراهيتِهِ ، فأخذَ يتناولُ كلَّ ما هوَ مكروهٌ مِنَ المذاقِ ، وهوَ غلطٌ ، بلْ نفعُهُ في خاصِّيَّةٍ مِنَ الدواءِ ، وليسَ لكونِهِ مرّاً ، وإنَّما يقفُ علىٰ تلكَ الخاصِّيَّةِ الأطباءُ ، فكذلكَ لا يقفُ علىٰ علَّةِ نفعِ الجوعِ إلا سماسرةُ العلماءِ .

ومَنْ جوَّعَ نفسَهُ مصدِّقاً لما جاءَ في الشرعِ مِنْ مدحِ الجوعِ . . انتفعَ بهِ وإنْ لمْ يعرفْ علَّةَ المنفعةِ ؛ كما أنَّ مَنْ شربَ الدواءَ . . انتفعَ وإنْ لمْ يعلمْ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٣٨٦) . وروى أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨١) عن مكحول : (أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ) .

وجهَ كونِهِ نافعاً ، ولكنَّا نشرحُ لكَ ذلكَ إنْ أردتَ أنْ ترتقيَ مِنْ درجةِ الإيمانِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ .

* * *

فنقولُ : في الجوعِ عشرُ فوائدَ :

الفائدةُ الأولىٰ : صفاءُ القلبِ ، وإيقادُ القريحةِ ، وإنفاذُ البصيرةِ :

فإنَّ الشبعَ يورثُ البلادةَ ، ويعمي القلبَ ، ويكثرُ البخارَ في الدماغِ شبهَ السكْرِ ، حتَّىٰ يحتوي علىٰ معادنِ الفكرِ ، فيثقلُ القلبُ بسببِهِ عنِ الجريانِ في الأفكارِ ، وعنْ سرعةِ الإدراكِ ، بلِ الصبيُّ إذا أكثرَ الأكلَ . . بطلَ حفظُهُ ، وفسدَ ذهنُهُ ، وصارَ بطيءَ الفهمِ والإدراكِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (عليكَ بالجوعِ ؛ فإنَّهُ مذلَّةٌ للنفسِ ، ورقَّةٌ للقلبِ ، وهوَ يورثُ العلمَ السماويَّ)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحيوا قلوبَكُمْ بقلَّةِ الضحكِ وقلَّةِ الشبعِ ، وطهِّروها بالجوعِ ؛ تصفو وترقُّ »(٢) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٠) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) دون قوله : (وقلة الشبع) ، أما بشأن الضحك . . فقد روى الترمذي (٢٣٠٥) ، وابن ماجه (٤١٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تكثروا الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

ويُقالُ : (مثلُ الجوعِ مثلُ الرعدِ ، والقناعةُ كالسحابِ ، والحكمةُ كالمطرِ)[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أجاعَ بطنَهُ . . عظمَتْ فكرتُهُ ، وفطنَ قلبُهُ »[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شبعَ ونامَ . . قسا قلبُهُ » ، ثمَّ قالَ : « لكلِّ شيءٍ زكاةٌ ، وزكاةُ البدنِ الجوعُ »[3] .

وقالَ الشبليُّ : (ما جعتُ للهِ يوماً إلا رأيتُ في قلبي باباً مفتوحاً مِنَ الحكمةِ والعبرةِ ما رأيتُهُ قطُّ)[4] .

وليسَ يخفىٰ أنَّ غايةَ المقصودِ مِنَ العباداتِ الفكرُ الموصلُ إلى المعرفةِ والاستبصارِ بحقائقِ الحقِّ ، والشبعُ يمنعُ منهُ ، والجوعُ يفتحُ بابَهُ ، والمعرفةُ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، فبالحريِّ أنْ تكونَ ملازمةُ الجوعِ قرعاً لبابِ الجنةِ .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٢) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٤) .
(٣) كذا أورده عن ابن عباس مرفوعاً الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٥) ، وقد روى ابن ماجه (١٧٤٥) عن أبي هريرة مرفوعاً : « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم » .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦٦) .

ولهٰذا قالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إذا امتلأَتِ المعدةُ . . نامَتِ الفكرةُ ، وخرسَتِ الحكمةُ ، وقعدَتِ الأعضاءُ عنِ العبادةِ)(١) .

وقالَ أبو يزيدَ البسطاميُّ : (الجوعُ سحابٌ ، فإذا جاعَ العبدُ . . أُمطِرَ القلبُ الحكمةَ)(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نورُ الحكمةِ الجوعُ ، والتَّباعدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ الشبعُ ، والقربةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حبُّ المساكينِ والدنوُّ منهُمْ ، لا تشبعوا فينطفىءَ نورُ الحكمةِ مِنْ قلوبِكُمْ ، ومَنْ باتَ في خفَّةٍ مِنَ الطعامِ . . باتَ الحورُ حولَهُ حتَّىٰ يصبحَ »(٣) .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ الثانيةُ : رقَّةُ القلبِ وصفاؤُهُ الذي بهِ يتهيَّأُ لإدراكِ لذَّةِ المناجاةِ والتأثُّرِ بالذكرِ :

فكمْ مِنْ ذكرٍ يجري على اللسانِ معَ حضورِ القلبِ ولكنَّ القلبَ لا يلتذُّ بهِ ولا يتأثَّرُ(٤) ، حتَّىٰ كأنَّ بينَهُ وبينَهُ حجاباً مِنْ قساوةِ القلبِ ، وقدْ يرقُّ في

---

(١) أورده أبو حيان التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٨٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٩) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٤٤٧) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٣٠) من حديث أبي هريرة مرفوعاً .
(٤) لفوات موجب الاستعداد الذي هو الرقة والصفاء الحاصلان من الجوع . « إتحاف » (٧/ ٣٩٥) .

بعضِ الأحوالِ فيعظمُ تأثُّرُهُ بالذكرِ ، وتلذذُّهُ بالمناجاةِ ، وخلوُّ المعدةِ هوَ السببُ الأظهرُ فيهِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (أحلىٰ ما تكونُ إليَّ العبادةُ إذا التصقَ ظهري ببطني)[1] .

وقالَ الجنيدُ : (يجعلُ أحدُهُمْ بينَهُ وبينَ صدرِهِ مخلاةً مِنَ الطعامِ ويريدُ أنْ يجدَ حلاوةَ المناجاةِ !)[2] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا جاعَ القلبُ وعطشَ .. صفا ورقَّ ، وإذا شبعَ .. عميَ وبارَ)[3] .

فإذاً ؛ تأثُّرُ القلبِ بلذَّةِ المناجاةِ أمرٌ وراءَ تيسيرِ الفكرِ واقتناصِ المعرفةِ ، فهيَ فائدةٌ ثانيةٌ .

* * *

الفائدةُ الثالثةُ : الانكسارُ والذلُّ ، وزوالُ البطَرِ والفرحِ والأشَرِ الذي هوَ مبدأُ الطغيانِ والغفلةِ عنِ اللهِ تعالىٰ :

فلا تنكسرُ النفسُ ولا تذلُّ بشيءٍ كما تذلُّ بالجوعِ ، فعندَهُ تسكنُ لربِّها ، وتخشعُ لهُ ، وتقفُ علىٰ عجزِها وذلِّها ؛ إذْ ضعفَتْ مُنَّتُها وضاقَتْ حيلتُها

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٣) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٣) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٦) .

بلقمةِ طعامٍ فاتَتْها[1] ، وأظلمَتْ عليها الدنيا لشربةِ ماءٍ تأخَّرَتْ عنها ، وما لمْ يشاهِدِ الإنسانُ ذلَّ نفسِهِ وعجزَهُ .. لا يرىٰ عزَّةَ مولاهُ ولا قهرَهُ ، وإنَّما سعادتُهُ في أنْ يكونَ دائماً مشاهداً نفسَهُ بعينِ الذلِّ والعجزِ ، ومولاهُ بعينِ العزِّ والقدرةِ والقهْرِ .

فليكنْ دائماً جائعاً ، مضطراً إلىٰ مولاهُ ، مشاهداً للاضطرارِ بالذوقِ .

ولأجلِ ذلكَ لمَّا عُرِضَتِ الدنيا وخزائنُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .. قالَ : « لا ، بلْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فإذا جعتُ .. صبرتُ وتضرَّعتُ ، وإذا شبعتُ .. شكرتُ » ، أوْ كما قالَ[2] .

فالبطنُ والفرْجُ بابٌ مِنْ أبوابِ النارِ ، وأصلُهُ الشبعُ ، والذلُّ والانكسارُ بابٌ مِنْ أبوابِ الجنةِ ، وأصلُهُ الجوعُ ، ومَنْ أغلقَ باباً مِنْ أبوابِ النارِ .. فقدْ فتحَ باباً مِنْ أبوابِ الجنةِ بالضرورةِ ؛ لأنَّهُما متقابلانِ ؛ كالمشرقِ والمغربِ ، فالقربُ مِنْ أحدِهِما بُعْدٌ مِنَ الآخرِ .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ الرابعةُ : ألا ينسىٰ بلاءَ اللهِ وعذابَهُ ، ولا ينسىٰ أهلَ البلاءِ :

فإنَّ الشبعانَ ينسى الجائعَ ، وينسى الجوعَ ، والعبدُ الفطِنُ لا يشاهدُ بلاءً مِنْ غيرِهِ إلا ويتذكَّرُ بلاءَ الآخرةِ ، فيذكرُ مِنْ عطشِهِ عطشَ الخلْقِ في عرصاتِ

---

(١) المُنَّةُ : القوَّة .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

القيامةِ ، ومِنْ جوعِهِ جوعَ أهلِ النارِ ، حتَّىٰ إنَّهُمْ ليجوعونَ فيُطعمونَ الزقُّومَ والضريعَ ، ويُسقونَ الغسَّاقَ والمُهْلَ .

فلا ينبغي أنْ يغيبَ عنِ العبدِ عذابُ الآخرةِ وآلامُها ، فإنَّهُ الذي يهيِّجُ الخوفَ ، فمَنْ لمْ يكنْ في ذلَّةٍ ولا قلةٍ ولا علَّةٍ ولا بلاءٍ.. نسيَ عذابَ الآخرةِ ، ولمْ يتمثَّلْ في نفسِهِ ، ولمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ في مقاساةِ بلاءٍ أوْ مشاهدةِ بلاءٍ ، وأولىٰ ما يقاسيهِ مِنَ البلاءِ الجوعُ ؛ فإنَّ فيهِ فوائدَ جمَّةً سوىٰ تذكُّرِ عذابِ الآخرةِ ، وهـٰذا أحدُ الأسبابِ الذي اقتضى اختصاصَ البلاءِ بالأنبياءِ والأولياءِ والأمثلِ فالأمثلِ .

ولذلكَ قيلَ ليوسفَ عليهِ السلامُ : لِمَ تجوعُ وفي يديكَ خزائنُ الأرضِ ؟ فقالَ : أخافُ أنْ أشبعَ فأنسى الجائعَ (١) .

فذكْرُ الجائعينَ والمحتاجينَ إحدىٰ فوائدِ الجوعِ ؛ فإنَّ ذلكَ يدعو إلى الرحمةِ والإطعامِ ، والشفقةِ علىٰ خلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والشبعانُ في غفلةٍ عنْ ألمِ الجائعِ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٣) عن الحسن ، وهو عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨) عن وهب بن منبه .

الفائدةُ الخامسةُ ـ وهيَ مِنْ أكبرِ الفوائدِ ـ : كسرُ شهواتِ المعاصي كلِّها ، والاستيلاءُ على النفسِ الأمَّارةِ بالسوءِ :

فإنَّ منشأَ المعاصي كلِّها الشهواتُ والقوىٰ ، ومادةُ الشهواتِ والقوىٰ ـ لا محالةَ ـ الأطعمةُ ، فتقليلُها يضعفُ كلَّ شهوةٍ وقوَّةٍ .

وإنَّما السعادةُ كلُّها في أنْ يملكَ الرجلُ نفسَهُ ، والشقاوةُ في أنْ تملكَهُ نفسُهُ ، وكما أنَّكَ لا تملكُ الدابَّةَ الجموحَ إلا بضعْفِ الجوعِ ، فإذا شبعَتْ قويَتْ وشردَتْ وجمحَتْ . . فكذلكَ النفسُ ؛ كما قيلَ لبعضِهِمْ : ما بالُكَ معَ كبرِكَ لا تتعهَّدُ بدنَكَ وقدِ انهدَّ ؟ فقالَ : لأنَّهُ سريعُ المرحِ ، فاحشُ الأشَرِ ، فأخافُ أنْ يجمحَ بي فيورِّطَني ، فلأنْ أحملَهُ على الشدائدِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يحملَنِي على الفواحشِ .

وقالَ ذو النونِ : (ما شبعتُ قطُّ إلا عصيتُ أوْ هممْتُ بمعصيةٍ)(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (أوَّلُ بدعةٍ حدثَتْ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الشبعُ ، إنَّ القومَ لمَّا شبعَتْ بطونُهُمْ . . جمحَتْ بهِمْ نفوسُهُمْ إلىٰ هـٰذهِ الدنيا)(٢) .

وهـٰذهِ ليسَتْ فائدةً واحدةً ، بلْ هيَ خزائنُ الفوائدِ ، ولذلكَ قيلَ : (الجوعُ خزانةٌ مِنْ خزائنِ اللهِ تعالىٰ)(٣) .

---

(١) رواه أبو موسى المديني في « نزهة الحفاظ » (ص ٨٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٢٢) .
(٣) تقدم قريباً .

وأوَّلُ ما يندفعُ بالجوعِ شهوةُ الفرْجِ وشهوةُ الكلامِ ؛ فإنَّ الجائعَ لا يتحرَّكُ عليهِ شهوةُ فضولِ الكلامِ ، فيتخلَّصُ بهِ مِنْ آفاتِ اللسانِ ؛ كالغيبةِ ، والفحشِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، وغيرِها ، فيمنعُهُ الجوعُ مِنْ كلِّ ذلكَ ، وإذا شبعَ . . افتقرَ إلىٰ فاكهةٍ ، فيتفكَّهُ ـ لا محالةَ ـ بأعراضِ الناسِ ، ولا يكُبُّ الناسَ علىٰ مناخرِهِمْ في النارِ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ .

وأمَّا شهوةُ الفرْجِ . . فلا تخفىٰ غائلتُها ، والجوعُ يكفي شرَّها ، وإذا شبعَ الرجلُ . . لمْ يملكْ فرْجَهُ ، وإنْ منعَتْهُ التقوىٰ . . فلا يملكُ عينَهُ ، فالعينُ تزني كما أنَّ الفرجَ يزني ، فإنْ ملكَ عينَهُ بغضِّ الطرفِ . . فلا يملكُ فكرَهُ ، فيخطرُ لهُ مِنَ الأفكارِ الرديئةِ وحديثِ النفسِ بأسبابِ الشهوةِ ما تتشوَّشُ بهِ مناجاتُهُ ، وربما عرضَ لهُ ذلكَ في أثناءِ الصلاةِ .

وإنَّما ذكرنا آفةَ اللسانِ والفرجِ مثالاً ، وإلا . . فجميعُ معاصي الأعضاءِ السبعةِ سببُها القوَّةُ الحاصلةُ بالشبعِ .

قالَ حكيمٌ : (كلُّ مريدٍ صبرَ على السياسةِ ، فصبرَ على الخبزِ البحْتِ سنةً لا يخلطُ بهِ شيئاً مِنَ الشهواتِ ويأكلُ في نصفِ بطنِهِ . . رفعَ اللهُ عنهُ مؤنةَ النساءِ) .

* * *

الفائدةُ السادسةُ : دفعُ النومِ ودوامُ السهرِ :

فإنَّ مَنْ شبعَ . . شربَ كثيراً ، ومَنْ كثرَ شربُهُ . . كثرَ نومُهُ ، ولأجلِ ذلكَ كانَ بعضُ الشيوخِ يقولُ عندَ حضورِ الطعامِ : (معاشرَ المريدينَ ؛ لا تأكلوا

كثيراً ، فتشربوا كثيراً ، فترقدوا كثيراً ، فتخسروا كثيراً)[١] .

وأجمعَ رأيُ سبعينَ صديقاً علىٰ أنَّ كثرةَ النومِ مِنْ كثرةِ الشرْبِ[٢] .

وفي كثرةِ النومِ ضياعُ العمرِ ، وفوتُ التهجُّدِ ، وبلادةُ الطبعِ ، وقساوةُ القلبِ ، والعمرُ أنفسُ الجواهرِ ، وهوَ رأسُ مالِ العبدِ ، فيهِ يتَّجرُ ، والنومُ موتٌ ، فتكثيرُهُ ينقصُ العمرَ .

ثمَّ فضيلةُ التهجُّدِ لا تخفىٰ ، وفي النومِ فواتُها ، ومهما غلبَ النومُ ؛ فإنْ تهجَّدَ . . لمْ يجدْ حلاوةَ العبادةِ ، ثمَّ المتعزبُ إذا نامَ على الشبعِ . . احتلمَ ، ويمنعُهُ ذلكَ أيضاً مِنَ التهجُّدِ ، ويحوجُهُ إلى الغسلِ ؛ إمَّا بالماءِ الباردِ فيتأذَّىٰ بهِ ، أوْ يحتاجُ إلى الحمَّامِ وربمَّا لا يقدرُ عليهِ بالليلِ ، فيفوتُهُ الوترُ إنْ كانَ قدْ أخَّرَهُ إلى التهجُّدِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ مؤنةِ الحمَّامِ ، وربما تقعُ عينُهُ علىٰ عورةٍ في دخول الحمامِ ؛ فإنَّ فيهِ أخطاراً ذكرناها في كتابِ الطهارةِ ، وكلُّ ذلكَ أثرُ الشبعِ .

وقدْ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[٣] ، وإنَّما قالَ ذلكَ لأنَّهُ يمنعُ مِنْ عباداتٍ كثيرةٍ ؛ لتعذُّرِ الغسلِ في كلِّ حالٍ ، فالنومُ منبعُ الآفاتِ ، والشبعُ مجلبةٌ لهُ ، والجوعُ مقطعةٌ لهُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٨) .

(٢) روىٰ ذلك البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٩) عن أبي إسحاق الموصلي .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٦) .

الفائدةُ السابعةُ : تيسيرُ المواظبةِ على العبادةِ :

فإنَّ الأكلَ يمنعُ مِنْ كثرةِ العباداتِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ إلىٰ زمانٍ يشتغلُ فيهِ بالأكلِ ، وربَّما احتاجَ إلىٰ زمانٍ في شراءِ الطعامِ وطبخِهِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ غسلِ اليدِ والخلالِ[1] ، ثمَّ يكثرُ تردادُهُ إلىٰ بيتِ الماءِ لكثرةِ شربِهِ ، والأوقاتُ المصروفةُ إلىٰ هـٰذا لوْ صرفَها إلى الذكرِ والمناجاةِ وسائرِ العباداتِ . . لكثرَ ربحُهُ .

قالَ السريُّ : رأيتُ معَ عليٍّ الجرجانيِّ سَويقاً يستفُّ منهُ ، فقلتُ : ما دعاكَ إلىٰ هـٰذا ؟ فقالَ : إنِّي حسبتُ ما بينَ المضْغِ إلى الاستفافِ سبعينَ تسبيحةً ، فما مضغتُ الخبزَ منذُ أربعينَ سنةً[2] .

فانظرْ كيفَ أشفقَ علىٰ وقتِهِ فلمْ يضيعْهُ في المضْغِ ، وكلُّ نَفَسٍ مِنَ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا قيمةَ لها ، فينبغي أنْ يستوفيَ منهُ خزانةً باقيةً في الآخرةِ لا آخرَ لها ، وذلكَ بصرفِهِ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّرُ بكثرةِ الأكلِ : الدوامُ على الطهارةِ وملازمةِ المسجدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى الخروجِ لكثرةِ شربِ الماءِ وإراقتِهِ .

ومِنْ جملةِ ما يتعذَّر عليهِ : الصومُ ؛ فإنَّهُ يتيسَّرُ لمَنْ تعوَّدَ الجوعَ ، فالصومُ ، ودوامُ الاعتكافِ ، ودوامُ الطهارةِ ، وصرفُ أوقاتِ شغلِهِ بالأكلِ

---

(١) في أسنانه ؛ ليخرج فضول الطعام منها . « إتحاف » (٧/ ٣٩٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٠) .

وأسبابِهِ إلى العبادةِ.. أرباحٌ كثيرةٌ ، وإنَّما يستحقرُها الغافلونَ الذينَ لمْ يعرفوا قدْرَ الدينِ ، لكنْ رضوا بالحياةِ الدنيا واطمأنوا بها ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ .

وقدْ أشارَ أبو سليمانَ الدارانيُّ إلىٰ ستِّ آفاتٍ في الشبعِ فقالَ : (مَنْ شبعَ.. دخلَ عليهِ ستُّ آفاتٍ : فقْدُ حلاوةِ المناجاةِ ، وتعذُّرُ حفْظِ الحكمةِ ، وحرمانُ الشفقةِ على الخلقِ ؛ لأنَّهُ إذا شبعَ.. ظنَّ أنَّ الخلقَ كلَّهُمْ شباعٌ ، وثقلُ العبادةِ ، وزيادةُ الشهواتِ ، وأنَّ سائرَ المؤمنينَ يدورونَ حولَ المساجدِ والشباعُ يدورونَ حولَ المزابلِ)[1] .

❁ ❁ ❁

الفائدةُ الثامنةُ : يستفيدُ مِنْ قلَّةِ الأكلِ صحَّةَ البدنِ ودفعَ الأمراضِ :

فإنَّ سببَها كثرةُ الأكلِ ، وحصولُ فضْلةِ الأخلاطِ في المعدةِ والعروقِ ، ثمَّ المرضُ يمنعُ مِنَ العباداتِ ، ويشوِّشُ القلبَ ، ويمنعُ مِنَ الذكرِ والفكرِ ، وينغِّصُ العيشَ ، ويحوجُ إلى الفصدِ والحجامةِ ، والدواءِ والطبيبِ ، وكلُّ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ مؤنٍ ونفقاتٍ ، لا يخلو الإنسانُ فيها بعدَ التعبِ عنْ أنواعٍ مِنَ المعاصي واقتحامِ الشبهاتِ ، وفي الجوعِ ما يدفعُ ذلكَ كلَّهُ .

حُكِيَ أنَّ الرشيدَ جمعَ أربعةَ أطباءَ ؛ هنديٌّ ، وروميٌّ ، وعراقيٌّ ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٢٦١) .

وسَوادِيٌّ[1] ، وقالَ : ليصفْ كلُّ واحدٍ منكُمُ الدواءَ الذي لا داءَ فيهِ ، فقالَ الهنديُّ : الدواءُ الذي لا داءَ فيهِ عندي هوَ الإهْلِيلَجُ الأسودُ ، وقالَ الروميُّ : هوَ حبُّ الرشادِ الأبيضِ ، وقالَ العراقيُّ : هوَ عندي الماءُ الحارُّ ، فقالَ السواديُّ وكانَ أعلمَهُمْ : الإهْلِيلَجُ يعفِصُ المعدةَ ، وهـٰذا داءٌ ، وحبُّ الرشادِ يزلِقُ المعدةَ ، وهـٰذا داءٌ ، والماءُ الحارُّ يرخي المعدةَ ، وهـٰذا داءٌ ، قالوا : فما عندَكَ ؟ قالَ : الدواءُ الذي لا داءَ فيهِ عندي ألا تأكلَ الطعامَ حتَّىٰ تشتهيَهُ ، وأنْ ترفعَ يدكَ عنهُ وأنتَ تشتهيهِ ، فقالوا : صدقتَ[2] .

وذُكِرَ لبعضِ الفلاسفةِ مِنْ أطباءِ أهلِ الكتابِ قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلثٌ للطعامِ ، وثلثٌ للشرابِ ، وثلثٌ للنَّفَسِ »[3] ، فتعجَّبَ منهُ وقالَ : ما سمعتُ كلاماً في قلَّةِ الأكلِ أحكمَ مِنْ هـٰذا ، وإنَّهُ لكلامُ حكيمٍ[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البطنةُ أصلُ الدَّاءِ ، والحميةُ أصلُ الدَّواءِ ، وعوِّدوا كلَّ جسمٍ ما اعتادَ »[5] ، وأظنُّ أنَّ تعجُّبَ الطبيبِ جرىٰ مِنْ هـٰذا الخبرِ ، لا من ذاكَ .

---

(١) أي : من سواد العراق .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٩) ، وقد رواه الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٨٧٦) عن الأصمعي حدَّث به .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٨٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٧٣٧) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٦٩) .
(٥) صدر الخبر رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٨٣) من حديث أنس رضي الله عنه =

وقالَ ابنُ سالمٍ : مَنْ أكلَ خبزَ الحنطةِ بحتاً بأدبٍ . . لمْ يعتلَّ إلا علَّةَ الموتِ ، قيلَ : وما الأدبُ ؟ قالَ : يأكلُ بعدَ الجوعِ ، ويرفعُ قبلَ الشبعِ(١) .

وقالَ بعضُ أفاضلِ الأطباءِ في ذمِّ الاستكثارِ : (إنَّ أنفعَ ما أدخلَ الرجلُ بطنَهُ الرُّمانُ ، وأضرَّ ما أدخلَ معدتَهُ المالحُ ، ولأنْ يقلِّلَ مِنَ المالحِ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يستكثرَ مِنَ الرُّمانِ)(٢) .

وفي الحديثِ : « صوموا تصحُّوا »(٣) ، ففي الصومِ والجوعِ وتقليلِ الطعامِ صحَّةُ الأجسامِ مِنَ الأسقامِ ، وصحةُ القلوبِ مِنْ سقمِ الطغيانِ والبطَرِ وغيرِهما .

* * *

الفائدةُ التاسعةُ : خفَّةُ المؤونةِ :

فإنَّ مَنْ تعوَّدَ قلَّةَ الأكلِ كفاهُ مِنَ المالِ قدْرٌ يسيرٌ ، والذي تعوَّدَ الشبَعَ صارَ بطنُهُ غريماً ملازماً لهُ ، آخذاً بمُخَنَّقِهِ في كلِّ يومٍ ، فيقولُ : ماذا تأكلُ

= مرفوعاً : « أصل كل داء البرد » ، وإنما هو « البَرَدة » وهي التخمة ، كما بيَّن ذلك بروايته العسكريُّ في « تصحيفات المحدثين » (١/ ١٥٥) ، وإلا . . فهو بتمامه من كلام طبيب العرب الحارث بن كلدة ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١٠٣٥) .

(١) وابن سالم هو شيخ أبي طالب المكي ، انظر « القوت » (١/ ١٦٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٣٠٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ٥٧) .

اليومَ ؟ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يدخلَ المداخلَ ، فيكتسبَ مِنَ الحرامِ فيعصيَ ، أوْ مِنَ الحلالِ فيذلَّ ويتعبَ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يمدَّ عينَ الطمعِ إلى الناسِ ، وهوَ غايةُ الذلِّ والقماءةِ ، والمؤمنُ خفيفُ المؤونةِ .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لأقضي عامَّةَ حوائجي بالتركِ ، فيكونُ ذلكَ أروحَ لقلبي)(١) .

وقالَ آخرُ : (إذا أردتُ أنْ أستقرضَ مِنْ غيري لشهوةٍ أوْ زيادةٍ . . استقرضتُ مِنْ نفسي ، فتركتُ الشهوةَ ، فهيَ خيرُ غريمٍ لي)(٢) .

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ يسألُ أصحابَهُ عنْ سعرِ المأكولاتِ ، فيُقالُ : إنَّها غاليةٌ ، فيقولُ : أرخصوهُ بالتركِ(٣) .

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (الأكولُ مذمومٌ في ثلاثةِ أحوالٍ : إنْ كانَ مِنْ أهلِ العبادةِ . . فيكسلُ ، وإنْ كانَ مكتسباً . . فلا يسلمُ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ كانَ ممَّنْ يدخلُ عليهِ شيءٌ(٤) . . فلا ينصفُ اللهَ تعالىٰ مِنْ نفسِهِ) .

وبالجملةِ : سببُ هلاكِ الناسِ حرصُهُمْ على الدنيا ، وسببُ حرصِهِمْ على الدنيا البطنُ والفرجُ ، وسببُ شهوةِ الفرجِ شهوةُ البطنِ ، وفي تقليلِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٣) ، **والمعنىٰ** : فإذا تركتها . . فكأني قضيتها . « إتحاف » (٧/ ٤٠١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٣) .
(٤) أي : من الفيض من غير كسب .

الأكلِ ما يحسمُ هٰذهِ الأبوابَ كلَّها ، وهيَ أبوابُ النارِ ، وفي حسمِها فتحُ أبوابِ الجنةِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أديموا قرْعَ بابِ الجنةِ بالجوعِ »(١) .

فمَنْ قنعَ برغيفٍ في كلِّ يومٍ . . قنعَ في سائرِ الشهواتِ أيضاً ، وصارَ حرّاً ، واستغنىٰ عنِ الناسِ ، واستراحَ مِنَ التعبِ ، وتخلَّىٰ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتجارةِ الآخرةِ ، فيكونُ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ ، وإنَّما لا تلهيهِمْ لاستغنائِهِمْ عنها بالقناعةِ ، فأمَّا المحتاجُ . . فتلهيهِ لا محالةَ .

❊ ❊ ❊

الفائدةُ العاشرةُ : أنْ يتمكَّنَ مِنَ الإيثارِ والتصدُّقِ بما فضَلَ مِنَ الأطعمةِ على اليتامىٰ والمساكينِ :

فيكونَ يومَ القيامةِ في ظلِّ صدقتِهِ كما وردَ بِهِ الخبرُ(٢) ، فما يأكلُهُ كانَ خزانتُهُ الكنيفَ ، وما يتصدَّقُ بِهِ كانَ خزانتُهُ فضْلَ اللهِ ، فليسَ للعبدِ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ فأبقىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ ، أوْ لبسَ فأبلىٰ(٣) ، فالتصدُّقُ بفضلاتِ الطعامِ أولىٰ مِنَ التخمةِ والشبعِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧١) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤١٦) .
(٣) كما روىٰ ذلك مسلم (٢٩٥٩) .

وكانَ الحسنُ رحمةُ اللهِ عليهِ إذا تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . . قالَ : (عرضَها على السماواتِ السبعِ الطباقِ الطرائقِ اللاتي زينَها بالنجومِ ، وحملةِ العرشِ العظيمِ ، فقالَ لها : هلْ تحملينَ الأمانةَ بما فيها ؟ قالَتْ : وما فيها ؟ قالَ : إنْ أحسنتِ . . جُوزيتِ ، وإنْ أسأتِ . . عُوقبتِ ، فقالَتْ : لا ، ثمَّ عرضَها على الأرضِ كذلكَ ، فأبتْ ، ثمَّ عرضَها على الجبالِ الصمِّ الشوامخِ البواذخِ الصعابِ الصلابِ ، فقالَ لها : هلْ تحملينَ الأمانةَ بما فيها ؟ قالَتْ : وما فيها ، فذكرَ الجزاءَ والعقوبةَ ، فقالَتْ : لا ، ثمَّ عرضَها على الإنسانِ ، فحملَها ؛ إنَّهُ كانَ ظلوماً لنفسِهِ ، جهولاً بأمرِ ربِّهِ ، فقدْ رأيناهُمْ واللهِ اشترَوُا الأمانةَ بأموالِهِمْ فأصابوا آلافاً ، فماذا صنعوا فيها ؟ وسَّعُوا بها دورَهُمْ ، وضيَّقوا بها قبورَهُمْ ، وأسمنوا براذينَهُمْ ، وأهزلوا دينَهُمْ ، وأتعبوا أنفسَهُمْ بالغدوِّ والرواحِ إلىٰ بابِ هٰذا السلطانِ ، يتعرَّضونَ للبلاءِ وهُمْ مِنَ اللهِ في عافيةٍ ، يقولُ أحدُهُمْ : تبيعُني أرضَ كذا وكذا وأزيدُكَ كذا وكذا ، يتكىءُ علىٰ شمالِهِ ، ويأكلُ مِنْ غيرِ مالِهِ ، خدمَتُهُ سُخرةٌ ، ومالُهُ حرامٌ ، حتىٰ إذا أخذَتْهُ الكِظَّةُ[1] ، ونزلَتْ بهِ البطنةُ . . قالَ : يا غلامُ ؛ ائتني بشيءٍ يهضمُ طعامي ، يا لكعُ ؛ أطعامَكَ تهضمُ ؟! إنَّما دينَكَ تهضمُ ، أينَ الفقيرُ ؟! أينَ الأرملةُ ؟! أينَ اليتيمُ ؟!

---

(١) **الكظة** : غمُّ المرء من امتلاء الطعام .

أينَ المسكينُ الذي أمركَ اللهُ تعالىٰ بهِ ؟!)[1] .

فهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ هٰذهِ الفائدةِ ، وهوَ صرْفُ فاضلِ الطعامِ إلى الفقيرِ ؛ ليدَّخرَ بهِ الأجرَ ، فذلكَ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يأكلَهُ حتَّىٰ يتضاعفَ الوزرُ عليهِ .

ونظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ رجلٍ سمينِ البطنِ ، فأومأَ إلىٰ بطنِهِ بإصبعِهِ وقالَ : « لوْ كانَ هٰذا في غيرِ هٰذا.. لكانَ خيراً لكَ »[2] ؛ أي : لوْ قدَّمْتَهُ لآخرتِكَ ، وآثرتَ بهِ غيرَكَ .

وعنِ الحسنِ قالَ : (واللهِ ؛ لقدْ أدركتُ أقواماً إنْ كانَ الرجلُ منهُمْ ليُمسي وعندَهُ مِنَ الطعامِ ما يكفيهِ ، ولوْ شاءَ لأكلَهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ لا أجعلُ هٰذا كلَّهُ لبطني حتَّىٰ أجعلَ بعضَهُ للهِ)[3] .

فهٰذهِ عشرُ فوائدَ للجوعِ ، يتشعَّبُ عنْ كلِّ واحدةٍ فوائدُ لا ينحصرُ عددُها ، ولا تتناهىٰ فوائدُها ، فالجوعُ خزانةٌ عظيمةٌ لفوائدِ الآخرةِ ، ولأجلِ هٰذا قالَ بعضُ السلفِ : (الجوعُ مفتاحُ الآخرةِ ، وبابُ الزهدِ ، والشبعُ مفتاحُ الدنيا ، وبابُ الرغبةِ)[4] ، بلْ ذلكَ صريحٌ في الأخبارِ التي رويناها ،

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٦٢) بنحوه .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٧١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢١) من حديث جعدة الجشمي رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٧١) .

وبالوقوفِ علىٰ تفصيلِ هـٰذهِ الفوائدِ تدركُ معانيَ تلكَ الأخبارِ إدراكَ علمٍ وبصيرةٍ ، فإذا لمْ تعرفْ هـٰذا وصدَّقتَ بفضْلِ الجوعِ . . كانَتْ لكَ رتبةُ المقلِّدينَ في الإيمانِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

❋ ❋ ❋

بيان طريق الرّياضة في كسر شهوة البطن

اعلمْ : أنَّ على المريدِ في بطنِهِ ومأكولِهِ أربعَ وظائفَ :

الأولىٰ : ألا يأكلَ إلا حلالاً :

فالعبادةُ معَ أكلِ الحرامِ كالبناءِ علىٰ أمواجِ البحرِ ، وقدْ ذكرنا ما تجبُ مراعاتُهُ مِنْ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وتبقىٰ ثلاثُ وظائفَ خاصَّةٍ بالأكلِ ؛ وهوَ تقديرُ قدْرِ الطعامِ في القلَّةِ والكثرةِ ، وتقديرُ وقتِهِ في الإبطاءِ والسرعةِ ، وتعيينُ الجنسِ المأكولِ في تناولِ المشتهياتِ وتركِها .

* * *

أمَّا الوظيفةُ الأولىٰ في تقليلِ الطعامِ :

فسبيلُ الرياضةِ فيهِ التدريجُ ، فمَنِ اعتادَ الأكلَ الكثيرَ وانتقلَ دفعةً واحدةً إلى القليلِ.. لمْ يحتملْهُ مزاجُهُ ، وضعفَ ، وعظمَتْ مشقَّتُهُ ، فينبغي أنْ يتدرَّجَ إليهِ قليلاً قليلاً ، وذلكَ بأنْ ينقصَ قليلاً قليلاً مِن طعامِهِ المعتادِ .

فإنْ كانَ يأكلُ رغيفينِ مثلاً وأرادَ أنْ يردَّ نفسهُ إلىٰ رغيفٍ واحدٍ.. فينقصُ كلَّ يومٍ ربعَ سبعِ رغيفٍ ، وهوَ أنْ ينقصَ جزءاً مِنْ ثمانيةٍ وعشرينَ جزءاً ، أوْ جزءاً مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، فيرجعُ إلىٰ رغيفٍ في شهرٍ ، ولا يستضرُّ بهِ ،

ولا يظهرُ أثرُهُ ، فإنْ شاءَ . . فعلَ ذلكَ بالوزنِ ، وإنْ شاءَ . . بالمشاهدةِ ، فيتركُ كلَّ يومٍ مقدارَ لقمةٍ ، وينقصُهُ عمَّا أكلَهُ بالأمسِ .

ثمَّ هٰذا فيهِ أربعُ درجاتٍ :

أقصاها : أنْ يردَّ نفسَهُ إلىٰ قدْرِ القوامِ الذي لا يبقىٰ دونَهُ ، وهوَ عادةُ الصديقينَ ، وهوَ اختيارُ سهْلٍ التستريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ ؛ إذْ قالَ : إنَّ اللهَ استعبدَ الخلقَ بثلاثٍ : بالحياةِ ، والعقلِ ، والقوَّةِ ، فإنْ خافَ العبدُ على اثنتينِ منها وهيَ الحياةُ والعقلُ . . أكلَ ، وأفطرَ إنْ كانَ صائماً ، وتكلَّفَ الطلبَ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ لمْ يخفْ عليهما بلْ على القوَّةِ . . قالَ : فينبغي ألا يباليَ ولوْ ضعفَ حتَّىٰ صلَّىٰ قاعداً ، ورأىٰ أنَّ صلاتَهُ قاعداً معَ ضعْفِ الجوعِ أفضلُ مِنْ صلاتِهِ قائماً معَ قوةِ الأكلِ (١) .

وسئلَ سهلٌ عنْ بدايتِهِ وما كانَ يقتاتُ بهِ ؟ فقالَ : كانَ قُوتي في كلِّ سنةٍ ثلاثةَ دراهمَ ، كنتُ آخذُ بدرهمٍ دِبْساً ، وبدرهمٍ سمناً ، وبدرهمٍ دقيقَ الأرزِّ ، وأخلطُ الجميعَ وأسوِّي منهُ بنادقَ ، ثلاثَ مئةٍ وستينَ أُكْرَةً (٢) ، آخذُ

---

(١) فعلم من هٰذا أن المحافظة على العقل مقدمة علىٰ محافظة القوة ، فإن لم يصلح عقل المريد بالخبز البحت . . فلا بأس أن يأتدم ببعض الأدهان ، وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول للمتقللين من أهل عبادان ـ كما في « القوت » (٢/ ١٧٢) ـ : احفظوا عقولكم ، وتعاهدوا بالأدهان والدسم ؛ فإنه ما كان ولي لله ناقص العقل . « إتحاف » (٧/ ٤٠٤) .

(٢) **الأُكْرَة** : لغة في الكرة ؛ أي : يجعل من هٰذا الخليط كالكرات ، يأخذ كل فطور واحدة .

في كلِّ ليلةٍ أُكْرَةً أفطرُ عليها ، فقيلَ لهُ : فالساعةَ كيفَ تأكلُ ؟ قالَ : آكلُ بغيرِ حدٍّ ولا توقيتٍ[١] .

ويُحكىٰ عن بعضِ الرهابينِ أنَّهُمْ قدْ يردُّونَ أنفسَهُمْ إلىٰ مقدارِ درهمٍ مِنَ الطعامِ[٢] .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يردَّ نفسَهُ بالرياضةِ في اليومِ والليلةِ إلىٰ نصْفِ مُدٍّ ، وهوَ رغيفٌ وشيءٌ ممَّا يكونُ الأربعةُ منهُ مناً[٣] ، ويشبهُ أنْ يكونَ هـٰذا مقدارَ ثلثِ البطنِ في حقِّ الأكثرينَ ، كما ذكرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ فوقَ اللقيماتِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ الصيغةَ في الجمعِ للقلَّةِ[٤] ، فهوَ لما دونَ العشرةِ .

وقدْ كانَ ذلكَ عادةَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ كانَ يأكلُ سبعَ لقمٍ ، أوْ تسعَ لقمٍ[٥] .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يردَّها إلىٰ مقدارِ المُدِّ ، وهوَ رغيفانِ ونصفٌ ، وهـٰذا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧١) .

(٢) **الدرهم** : يساوي (٢,٩٧غ) .

(٣) وهو ما يوزن به رطلان ، لكن يزيد ثلثين ونصف ثلث ، إذ نصف المد هو نصف رطل ونصف الثلث ، فتأمل . والمن يساوي (٢,٢٨٥١غ) تقريباً ، والمد يساوي (٧٥٠غ) تقريباً . « إتحاف » (٧/ ٤٠٤) .

(٤) وفيه أيضاً مع التقليل ـ المفاد من جمع الألف والتاء ـ التصغير ؛ لأن لقيمة تصغير لقمة . « إتحاف » (٧/ ٤٠٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٦٩) .

يزيدُ علىٰ ثلثِ البطنِ في حقِّ الأكثرينَ ، ويكادُ ينتهي إلىٰ ثلثي البطنِ ، ويبقىٰ ثلثٌ للشرابِ ، ولا يبقىٰ شيءٌ للذكرِ ، وفي بعضِ الألفاظِ : « ثلثٌ للذكرِ » بدلَ قولِهِ « للنَّفَسِ »(١) .

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يزيدَ على المُدِّ إلى المنِّ ، ويشبهُ أنْ يكونَ ما وراءَ المنِّ إسرافاً ، مخالفاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أعني : في حقِّ الأكثرينَ ، فإنَّ مقدارَ الحاجةِ إلى الطعامِ يختلفُ بالسنِّ والشخصِ والعملِ الذي يشتغلُ بهِ .

وهٰهنا طريقٌ خامسٌ لا تقديرَ فيهِ ، ولكنَّهُ موضعُ غلطٍ : وهوَ أنْ يأكلَ إذا صدقَ جوعُهُ ، ويقبضَ يدَهُ وهوَ علىٰ شهوةٍ صادقةٍ بعدُ ، ولكنَّ الأغلبَ أنَّ مَنْ لمْ يقدِّرْ لنفسِهِ رغيفاً أوْ رغيفينِ . . فلا يتبيَّنُ لهُ حدُّ الجوعِ الصادقِ ، ويشتبهُ عليهِ ذلكَ بالشهوةِ الكاذبةِ(٢) .

وقدْ ذُكرَ للجوعِ الصادقِ علاماتٌ :

إحداها : ألا تطلبَ النفسُ الأُدْمَ ، بلْ تأكلُ الخبزَ وحدَهُ بشهوةٍ ؛ أيَّ خبزٍ كانَ ، فمهما طلبَتْ نفسُهُ خبزاً بعينِهِ ، أوْ طلبَتْ أُدْماً . . فليسَ ذلكَ بالجوعِ الصادقِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٩) .

(٢) **والفرق بين الصادقة منها والكاذبة** : أن الصادقة ما يختل البدن بدونه ، والكاذبة ما لا يختل بدونه . « إتحاف » (٧/ ٤٠٥) .

وقدْ قيلَ : مِنْ علامتِهِ : أنْ يبصقَ فلا يقعَ الذبابُ عليهِ ؛ أيْ : لا تبقىٰ فيهِ دهنيَّةٌ ولا دسومةٌ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ خلوِّ المعدةِ[1] .

ومعرفةُ ذلكَ غامضٌ ، فالصوابُ للمريدِ أنْ يقدِّرَ معَ نفسِهِ القدْرَ الذي لا يضعفُهُ عنِ العبادةِ التي هوَ بصددِها ، فإذا انتهىٰ إليهِ.. وقفَ وإنْ بقيَتْ شهوتُهُ .

وعلى الجملةِ : فتقديرُ الطعامِ لا يمكنُ ؛ لأنَّهُ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ .

نعمْ ، قدْ كانَ قوتُ جماعةٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم صاعاً مِنْ حنطةٍ في كلِّ جمعةٍ ، فإذا أكلوا التمرَ.. اقتاتوا منهُ صاعاً ونصفاً ، وصاعُ الحنطةِ أربعةُ أمدادٍ ، فيكونُ كلُّ يومٍ قريباً مِنْ نصفِ مدٍّ ، وهوَ ما ذكرنا أنَّهُ قدْرُ ثلثِ البطنِ ، واحتيجَ في التمرِ إلىٰ زيادةٍ لسقوطِ النوىٰ منهُ .

وقدْ كانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : طعامي في كلِّ جمعةٍ صاعٌ مِنْ شعيرٍ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واللهِ ؛ لا أزيدُ عليهِ شيئاً حتَّىٰ ألقاهُ ؛ فإنِّي سمعتُهُ يقولُ : « أقربُكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ وأحبُّكُمْ إليَّ مَنْ ماتَ علىٰ ما هوَ عليهِ اليومَ »[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٥) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦١) ، وكلام أبي ذر رضي الله عنه صدر الخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٢) ، وهو كما ساقه المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٢/ ١٦٧) .

وكانَ يقولُ في إنكارِهِ علىٰ بعضِ الصحابةِ : (قد غيَّرْتُمْ ، يُنخلُ لكُمُ الشعيرُ ولمْ يكنْ يُنخلُ ، وخبزتُمُ المرقَّقَ ، وجمعتُمْ بينَ إدامينِ ، واختلفَ عليكُمْ بألوانِ الطعامِ ، وغدا أحدُكُمْ في ثوبٍ وراحَ في آخرَ ، ولمْ تكونوا هٰكذا علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[١] .

وقدْ كانَ قوتُ أهلِ الصُّفَّةِ مُدّاً مِنْ تمرٍ بينَ اثنينِ في كلِّ يومٍ[٢] ، والمدُّ رطلٌ وثلثٌ ، ويسقطُ منهُ النوىٰ .

وكانَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (المؤمنُ مثلُ العنيزةِ ، يكفيهِ الكفُّ مِنَ الحشفِ ، والقبضةُ مِنَ السويقِ ، والجرعةُ مِنَ الماءِ ، والمنافقُ مثلُ السبعِ الضاري ، بلعاً بلعاً ، وسرطاً سرطاً ، لا يطوي بطنَهُ لجارِهِ ، ولا يؤثرُ أخاهُ بفضْلِهِ ، وجِّهوا هٰذهِ الفضولَ أمامَكُمْ)[٣] .

وقالَ سهلٌ : (لوْ كانَتِ الدنيا دماً عبيطاً . . لكانَ قوتُ المؤمنِ منها حلالاً ؛ لأنَّ أكلَ المؤمنِ عندَ الضرورةِ بقدْرِ القوامِ فقطْ)[٤] .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٧) .
(٢) كما روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٧) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٦٧) ، **والدم العبيط** : الخالص الطري ، ومعلوم أن المضطر يحل له أكل الميتة ، والمؤمن في أكله عند أبي عبد الله التستري مضطر علىٰ كل حال .

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأكلِ ومقدارِ تأخيرِهِ :

وفيه أيضاً أربعُ درجاتٍ :

الدرجة العليا : أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ فما فوقَها ، وفي المريدينَ مَنْ ردَّ الرياضةَ إلى الطيِّ ، لا إلى المقدارِ ، حتَّى انتهىٰ بعضُهُمْ إلىٰ ثلاثينَ يوماً ، وأربعينَ يوماً ، وانتهىٰ إليهِ جماعةٌ مِنَ العلماءِ يكثرُ عددُهُمْ ، منهُمْ محمدُ بنُ عمرٍو القرنيُّ[1] ، وعبدُ الرحمـٰنِ بنُ إبراهيمَ دُحَيمٌ ، وإبراهيمُ التيميُّ ، وحجَّاجُ بنُ فرافصةَ ، وحفَصٌ العابدُ المصِّيصيُّ ، والمسلمُ بنُ سعيدٍ ، وزهيرٌ ، وسليمانُ الخوَّاصُ ، وسهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ ، وإبراهيمُ بنُ أحمدَ الخوَّاصُ[2] .

وقدْ كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يطوي ستةَ أيامٍ ، وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ يطوي سبعةَ أيامٍ ، وكانَ أبو الجوزاءِ صاحبُ ابنِ عباسٍ يطوي سبعاً ، ورُوِيَ أنَّ الثوريَّ وإبراهيمَ بنَ أدهمَ كانا يطويانِ ثلاثاً ثلاثاً[3] ، كلُّ ذلكَ كانوا يستعينونَ بالجوعِ علىٰ طريقِ الآخرةِ .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ طوىٰ للهِ أربعينَ يوماً . . ظهرَتْ لهُ قدرةٌ مِنَ الملكوتِ)[4] أيْ : كُوشفَ ببعضِ الأسرارِ الإلـٰهيةِ .

---

(١) في (أ) : (العرني) ، وفي (ب) : (المغربي) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٦) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٦٦) .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ أهلِ هـٰذهِ الطائفةِ مرَّ براهبٍ ، فذاكرَهُ بحالِهِ ، وطمعَ في إسلامِهِ ، وتركِ ما هوَ عليهِ مِنَ الغرورِ ، فكلَّمَهُ في ذلكَ بكلامٍ كثيرٍ ، إلىٰ أنْ قالَ لهُ الراهبُ : إنَّ المسيحَ كانَ يطوي أربعينَ يوماً ، وإنَّ ذلكَ معجزةٌ لا تكونُ إلا لنبيٍّ أو صدِّيقٍ[1] ، فقالَ لهُ الصوفيُّ : فإنْ طويتُ خمسينَ يوماً . . تتركُ ما أنتَ عليهِ وتدخلُ في دينِ الإسلامِ ، وتعلمُ أنَّهُ حقٌّ وأنَّكَ علىٰ باطلٍ ؟ قالَ : نعمْ ، فجلسَ لا يبرحُ إلا حيثُ يراهُ حتَّىٰ طوىٰ خمسينَ يوماً ، ثمَّ قالَ : وأزيدُكَ أيضاً ، فطوىٰ إلىٰ تمامِ الستينَ ، فتعجَّبَ الراهبُ منهُ ، وقالَ : ما كنتُ أظنُّ أنَّ أحداً يجاوزُ المسيحَ ، فكانَ ذلكَ سببَ إسلامِهِ[2] .

وهـٰذهِ درجةٌ عظيمةٌ ، قلَّ مَنْ يبلغُها إلا مكاشفٌ محمولٌ شُغِلَ بمشاهدةِ ما قطعَهُ عنْ طبعِهِ وعادتِهِ ، واستوفىٰ نفسَهُ في لذَّتِهِ ، وأنساهُ جوعَهُ وحاجتَهُ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يطويَ يومينِ إلىٰ ثلاثةٍ ، وليسَ ذلكَ خارجاً عنِ العادةِ ، بلْ هوَ قريبٌ يمكنُ الوصولُ إليهِ بالجدِّ والمجاهدةِ .

الدرجةُ الثالثةُ : وهيَ أدناها : أنْ يقتصرَ في اليومِ والليلةِ علىٰ أكلةٍ واحدةٍ ، وهـٰذا هوَ الأقلُّ ، وما جاوزَ ذلكَ إسرافٌ ومداومةٌ للشبعِ ، حتَّىٰ لا يكونَ لهُ حالةُ جوعٍ ، وذلكَ فعلُ المترفينَ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ السنةِ .

---

(١) في النسخ : (لنبي صادق) ، وفي « القوت » : (لنبيّ) ، والمثبت من (ق) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٦) .

فقدْ روىٰ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا تغدَّىٰ . . لمْ يتعشَّ ، وإذا تعشَّىٰ . . لمْ يتغدَّ(١) .

وكانَ السلفُ يأكلونَ في كلِّ يومٍ أكلةً(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إيَّاكِ والسرفَ ؛ فإنَّ أكلتينِ في يومٍ مِنَ السرفِ ، وأكلةً واحدةً في كلِّ يومينِ إقتارٌ ، وأكلةً في كلِّ يومٍ قوامٌ بينَ ذلكَ ، وهوَ المحمودُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ »(٣) .

ومنِ اقتصرَ في اليومِ علىٰ أكلةٍ واحدةٍ . . فيُستحبُّ لهُ أنْ يأكلَها سحراً قبلَ طلوعِ الفجرِ ، فيكونُ أكلُهُ بعدَ التهجُّدِ وقبلَ الصبحِ ، فيحصلُ لهُ جوعُ النهارِ للصيامِ ، وجوعُ الليلِ للقيامِ ، وخلوُّ القلبِ لفراغِ المعدةِ ، ورقَّةُ الفكرِ ، واجتماعُ الهمِّ ، وسكونُ النفسِ إلى المعلومِ ، فلا تنازعُهُ قبلَ وقتِهِ .

وفي حديثِ عاصمِ بنِ كليبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ أبي هريرةَ قالَ : (ما قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قيامَكُمْ هـٰذا قطُّ ، وإنْ كانَ ليقومُ حتَّىٰ تزلعَ قدماهُ، وما واصلَ وصالَكُمْ هـٰذا قطُّ ، غيرَ أنَّهُ قدْ أخَّرَ الفطرَ إلى السحرِ)(٤) .

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٦٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٢٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٤٢٣) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٨) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٢٧٧) بنحوه .
(٤) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٣٨٤) ، **وتزلع** : تتورم وتتشقق .

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يواصلُ إلى السحرِ)[1] .

فإنْ كانَ يلتفتُ قلبُ الصائمِ بعدَ المغربِ إلى الطعامِ ، وكانَ يشغلُهُ ذلكَ عنْ حضورِ القلبِ في التهجُّدِ . . فالأولىٰ أنْ يقسمَ طعامَهُ نصفينِ ، فإنْ كانَ رغيفينِ مثلاً . . أكلَ رغيفاً عندَ الفطرِ ، ورغيفاً عندَ السحرِ ؛ لتسكنَ نفسُهُ ، ويخفَّ عندَ التهجُّدِ بدنُهُ ، ولا يشغلَهُ جوعُهُ بالنهارِ لأجلِ تسحُّرِهِ ، فيستعينُ بالرغيفِ الأوَّلِ على التهجُّدِ ، وبالثاني على الصومِ .

ومَنْ كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً . . فلا بأسَ أنْ يأكلَ يومَ فطرِهِ وقتَ الظهرِ ، ويومَ صومِهِ وقتَ السحرِ .

فهٰذهِ هيَ الطرقُ في مواقيتِ الأكلِ وتقاربِهِ وتباعدِهِ .

* * *

الوظيفةُ الثالثةُ : في نوعِ الطعامِ وتركِ الإدامِ :

وأعلى الطعامِ مخُّ البرِّ ، فإنْ نُخلَ . . فهوَ غايةُ الترفُّهِ ، وأوسطُهُ شعيرٌ منخولٌ ، وأدناهُ شعيرٌ لمْ يُنخلْ ، وأعلى الأُدْمِ اللحمُ والحلاوةُ ، وأدناهُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٦٦) ، ورواه أحمد في « مسنده » (١/٩١) من حديث علي رضي الله عنه ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٠٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « لا تواصلوا ، فأيكم إذا أراد أن يواصل . . فليواصل حتى السحر » .

الملحُ والخلُّ ، وأوسطُهُ المزوَّراتُ بالأدهانِ مِنْ غيرِ لحمٍ .

وعادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ الامتناعُ مِنَ الإدامِ على الدوامِ ، بلِ الامتناعُ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ كلَّ لذيذٍ يشتهيهِ الإنسانُ وأكلَهُ . . اقتضىٰ ذلكَ بطراً في نفسِهِ ، وقسوةً في قلبِهِ ، وأُنْساً لهُ بلذَّاتِ الدنيا ، حتَّىٰ يألفَها ويكرهَ الموتَ ولقاءَ اللهِ تعالىٰ ، وتصيرَ الدنيا جنَّةً في حقِّهِ ، ويكونَ الموتُ سجناً لهُ ، وإذا منعَ نفسَهُ عنْ شهواتِها ، وضيَّقَ عليها ، وحرمَها لذَّاتِها . . صارَتِ الدنيا سجناً عليهِ ، ومضيقاً لهُ ، فاشتهَتْ نفسُهُ الإفلاتَ منها ، فيكونُ الموتُ إطلاقَها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ يحيىٰ بنِ معاذٍ حيثُ قالَ : (معاشرَ الصادقينَ ؛ جوِّعوا أنفسَكُمْ لوليمةِ الفردوسِ ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ علىٰ قدْرِ تجويعِ النفسِ)(١) .

فكلُّ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ الشبعِ فإنَّهُ يجري في أكلِ الشهواتِ ، وتناولِ اللذَّاتِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ ، فلذلكَ يعظمُ الثوابُ في تركِ الشهواتِ مِنَ المباحاتِ ، ويعظمُ الخطرُ في تناولِها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ يأكلونَ مخَّ الحنطةِ »(٢) ، وهـٰذا ليسَ بتحريمٍ ، بلْ هوَ مباحٌ علىٰ معنىٰ أنَّ مَنْ أكلَهُ مرَّةً أوْ مرَّتينِ . . لمْ يعصِ ، ومَنْ داومَ عليهِ أيضاً . . فلا يعصي بتناولِهِ ، ولكنْ تتربَّىٰ نفسُهُ بالنعيمِ ، فتأنسُ بالدنيا ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٦٦) .
(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٤١٢) .

وتألفُ اللذاتِ ، وتسعىٰ في طلبِها ، فيجرُّها ذلكَ إلى المعاصي ، فهمْ شرارُ الأمَّةِ ؛ لأنَّ مخَّ الحنطةِ يقودُهُمْ إلى اقتحامِ أمورٍ ، تلكَ الأمورُ معاصٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذوا بالنعيمِ ، ونبتَتْ عليهِ أجسامُهُمْ ، وإنَّما همَّتُهُمْ ألوانُ الطعامِ وأنواعُ اللباسِ ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ »(١) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (اذكرْ أنَّكَ ساكنُ القبرَ ؛ فإنَّ ذلكَ يمنعُكَ عنْ كثيرٍ مِنَ الشهواتِ) .

وقدِ اشتدَّ خوفُ السلفِ مِنْ تناولِ لذيذِ الأطعمةِ ، وتمرينِ النفسِ عليها ، ورأَوا أنَّ ذلكَ علامةُ الشقاوةِ ، ورأَوا منْعَ اللهِ تعالىٰ منهُ غايةَ السعادةِ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ وهْبَ بنَ منبِّهٍ قالَ : (التقىٰ ملكانِ في السماءِ الرابعةِ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : مِنْ أينَ ؟ قالَ : أُمرتُ بسَوْقِ حوتٍ مِنَ البحرِ اشتهاهُ فلانٌ اليهوديُّ لعنَهُ اللهُ ، وقالَ الآخرُ : أُمرتُ بإهراقِ زيتٍ اشتهاهُ فلانٌ العابدُ) .

فهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ تيسيرَ أسبابِ الشهواتِ ليسَ مِنْ علاماتِ الخيرِ .

ولهـٰذا امتنعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ شربةِ ماءٍ باردٍ بعسلٍ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٣١٨) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

وقالَ : (اعزلوا عنِّي حسابَها)(١) .

فلا عبادةَ للهِ تعالىٰ أعظمُ مِنْ مخالفةِ النفسِ في الشهواتِ وتركِ اللذَّاتِ ، كما أوردناهُ في كتابِ رياضةِ النفسِ .

وقدْ روىٰ نافعٌ : أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما كانَ مريضاً ، فاشتهىٰ سمكةً طريَّةً ، فالتُمسَتْ لهُ بالمدينةِ ، فلمْ تُوجدْ ، ثمَّ وُجدَتْ بعدَ كذا وكذا ، فاشتُريَتْ لهُ بدرهمٍ ونصفٍ ، فشُويَتْ وحُملَتْ إليهِ علىٰ رغيفٍ ، فقامَ سائلٌ على البابِ ، فقالَ للغلامِ : لفَّها برغيفِها وادفعْها إليهِ ، فقالَ لهُ الغلامُ : أصلحَكَ اللهُ ! قدِ اشتهيتَها منذُ كذا وكذا فلمْ نجدْها ، فلمَّا وجدناها . . اشتريناها بدرهمٍ ونصفٍ ، فنحنُ نعطيهِ ثمنَها ، فقالَ : لفَّها وادفعْها إليهِ ، ثمَّ قالَ الغلامُ للسائلِ : هلْ لكَ أنْ تأخذَ درهماً وتتركَها ؟ قالَ : نعمْ ، فأعطاهُ درهماً وأخذَها . وأتىٰ بها ، فوضعَها بينَ يديهِ وقالَ : قدْ أعطيتُهُ درهماً وأخذتُها منهُ ، فقالَ : لفَّها وادفعْها إليهِ ، ولا تأخذْ منهُ الدرهمَ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « أيُّما امرئٍ اشتهىٰ شهوةً ، فردَّ شهوتَهُ وآثرَ بها علىٰ نفسِهِ . . غفرَ اللهُ لهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سددْتَ كَلَبَ الجوعِ برغيفٍ وكوزٍ مِنَ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) .

(٢) رواه مع أصل القصة ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١/ ١٤٢) ، ورواه دون ذكر القصة ابنُ عدي في « الكامل » (٥/ ١٢٧) .

الماءِ القَراحِ . . فعلى الدنيا وأهلِها الدمارُ »[١] ، أشارَ إلىٰ أنَّ المقصودَ ردُّ ألمِ الجوعِ والعطشِ ودفعُ ضررِهما دونَ التنعُّمِ بلذَّاتِ الدنيا .

وبلغَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ يزيدَ بنَ أبي سفيانَ يأكلُ أنواعَ الطعامِ ، فقالَ عمرُ لمولىً لهُ : إذا علمتَ أنَّهُ قدْ حضرَ عشاؤُهُ . . فأعلمْني ، فأعلمَهُ ، فدخلَ عليهِ ، فقُرِّبَ عشاؤُهُ ، فأتوهُ بثريدٍ ولحمٍ ، فأكلَ معَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ قُرِّبَ الشواءُ ، وبسطَ يزيدُ يدَهُ ، وكفَّ عمرُ يدَهُ ، وقالَ : اللهَ اللهَ يا يزيدَ بنَ أبي سفيانَ ، أطعامٌ بعدَ طعامٍ ؟! والذي نفسُ عمرَ بيدِهِ ؛ لئِنْ خالفتُمْ عنْ سنتِهِمْ . . ليُخالفَنَّ بكُمْ عنْ طريقِهِمْ[٢] .

وعنْ يسارِ بنِ نميرٍ قالَ : (ما نخلتُ لعمرَ دقيقاً قطُّ إلا وأنا لهُ عاصٍ)[٣] .

ورُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ كانَ يعجنُ دقيقَهُ ويجفِّفُهُ في الشمسِ ، ثمَّ يأكلُهُ ويقولُ : (كسرةٌ وملحٌ حتَّىٰ يتهيَّأَ في الدارِ الآخرةِ الشواءُ والطعامُ الطيِّبُ)[٤] .

وكانَ يأخذُ الكوزَ ، فيغرفُ بهِ مِنْ حبٍّ كانَ في الشمسِ نهارَهُ ، فتقولُ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٨٨١) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٣٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وكَلَب **الجوع** : شدته وضراوته .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٨) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٨٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٩٤) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٩) .

مولاةٌ لهُ : يا عتبةُ ؛ لوْ أعطيتَني دقيقَكَ فخبزتُهُ لكَ وبرَّدْتُ لكَ الماءَ ؟! فيقولُ لها : يا أمَّ فلانٍ ؛ قدْ سددتُ عني كَلَبَ الجوعِ[1] .

وعنْ شقيقِ بنِ إبراهيمَ قالَ : لقيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ بمكَّةَ في سوقِ الليلِ عندَ مولدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ جالسٌ بناحيةٍ مِنَ الطريقِ يبكي ، فأتيتُ إليهِ وجلستُ عندَهُ ، فقلتُ : أيشٍ هـٰذا البكاءُ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : خيرٌ ، فعاودتُهُ مرتينِ وثلاثاً ، فلمَّا أكثرتُ عليه.. قالَ : يا شقيقُ ؛ أتسترُ عليَّ ؟ فقلتُ : يا أخي ؛ قلْ ما شئتَ ، فقالَ لي : اشتهتْ نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً سِكْباجاً ، فمنعتُها جهدي ، فلمَّا كانَ البارحةَ.. كنتُ جالساً وقدْ غلبَني النعاسُ ، إذا أنا بفتىً شابٍّ بيدِهِ قدحٌ أخضرُ يعلو منهُ بخارٌ ورائحةُ سِكْباجٍ ، قالَ : فجمعتُ نهمتي عنهُ ، فقرَّبَهُ وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ كُلْ ، فقلتُ : ما آكلُ شيئاً قدْ تركتُهُ للهِ تعالىٰ ، فقالَ لي : لئِنْ أطعمَكَ اللهُ.. تأكلُ ؟ فما كانَ لي جوابٌ إلا أنِّي بكيتُ ، فقالَ لي : كُلْ رحمَكَ اللهُ ، فقلتُ : قدْ أُمرنا ألا نطرحَ في وعائِنا إلا مِنْ حيثُ نعلمُ ، فقالَ لي : كُلْ عافاكَ اللهُ ، فإنَّما أعطيتُ ، فقيلَ لي : يا خضرُ ؛ اذهبْ بهـٰذا وأطعمْ نفسَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فقدْ رحمَها اللهُ مِنْ طولِ صبرِها علىٰ ما يحملُها مِنْ منعِها ، اعلمْ يا إبراهيمُ أنِّي سمعتُ الملائكةَ يقولونَ : مَنْ أعطيَ فلمْ يأخذْ.. طلبَ فلمْ يُعطَ ، فقلتُ : إنْ كانَ كذلكَ.. فهـٰأنا بينَ يديكَ لأجلِ

---

(١) هو ضمن الخبر السابق .

العقدِ معَ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ التفتُّ فإذا أنا بفتىً آخرَ ناولَهُ شيئاً وقالَ : يا خضرُ ؛ لقِّمْهُ أنتَ ، فلمْ يزلْ يلقِّمُني حتَّىٰ شبعتُ ، فانتبهتُ وحلاوتُهُ في فمي .

قالَ شقيقٌ : فقلتُ : أرني كفَّكَ ، فأخذتُ بكفِّي كفَّهُ فقبَّلتُها ، وقلتُ : يا مَنْ يطعمُ الجياعَ الشهواتِ إذا صحَّحوا المنعَ ، يا مَنْ يقدحُ في الضميرِ اليقينَ ، يا مَنْ سقىٰ قلوبَهُمْ مِنْ محبَّتِهِ ؛ أترىٰ لشقيقٍ عندَكَ حالاً ؟ ثمَّ رفعتُ يدَ إبراهيمَ بنِ أدهمَ إلى السماءِ وقلتُ : بقدْرِ هـٰذا الكفِّ عندَكَ ، وبقدْرِ صاحبِهِ ، وبالجودِ الذي وُجدَ منكَ . . جُدْ علىٰ عبدِكَ الفقيرِ إلىٰ فضلِكَ وإحسانِكَ ورحمتِكَ وإنْ لمْ يستحقَّ ذلكَ ، قالَ : فقامَ إبراهيمُ ومشىٰ حتَّىٰ دخلنا المسجدَ الحرامَ(١) .

ورُوِيَ عَنْ مالكِ بنِ دينارٍ : أنَّهُ بقيَ أربعينَ سنةً يشتهي لبناً ، فلمْ يأكلْهُ(٢) .

وأُهديَ إليهِ يوماً رطبٌ ، فقالَ لأصحابِهِ : كلوا ، فما ذقتُهُ منذُ أربعينَ سنةً(٣) .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : اشتهىٰ أبو سليمانَ الدارانيُّ رغيفاً حارّاً بملحٍ ، فجئتُ بهِ إليهِ ، فعضَّ منهُ عضَّةً ، ثمَّ طرحَهُ وأقبلَ يبكي ، وقالَ : عَجِلتُ إلىٰ شهوتي بعدَ إطالةِ جهدي ، واشقوتي ، قدْ عزمتُ على التوبةِ ،

---

(١) رواه ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣٢٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٦) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٧/ ٤١٤) .

فأقلني ، قالَ أحمدُ : فما رأيتُهُ أكلَ الملحَ حتَّىٰ لقِيَ اللهَ تعالىٰ(١) .

وقالَ مالكُ بنُ ضيغمٍ : مررتُ علىٰ سوقِ البصرةِ ، فنظرتُ إلى البقْلِ ، فقالَتْ لي نفسي : لوْ أطعمتَني الليلةَ مِنْ هٰذا ، فأقسمتُ ألا أطعمَها إيَّاهُ أربعينَ ليلةً .

ومكثَ مالكُ بنُ دينارٍ بالبصرةِ خمسينَ سنةً ما أكلَ رطبةً لأهلِ البصرةِ ولا بُسرةً قطُّ ، وقالَ : (يا أهلَ البصرةِ ؛ عشتُ فيكُمْ خمسينَ سنةً ، فما أكلتُ لكُمْ رطبةً ولا بُسرةً ، فما زادَ فيكُمْ ما نقصَ منِّي ، ولا نقص منِّي ما زادَ فيكُمْ) ، وقالَ : (طلقتُ الدنيا منذُ خمسينَ سنةً ، اشتهَتْ نفسي لبناً منذُ أربعينَ سنةً ، فواللهِ ؛ لا أطعمُها حتىٰ ألحقَ باللهِ تعالىٰ)(٢) .

وقالَ حمَّادُ بنُ أبي حنيفةَ : أتيتُ داوودَ الطائيَّ والبابُ مغلقٌ عليهِ ، فسمعتُهُ يقولُ : اشتهيتِ جزراً فأطعمتُكِ جزراً ، ثمَّ اشتهيتِ تمراً . فآليتُ ألا تأكليهِ أبداً ، فسلَّمْتُ ودخلتُ ، فإذا هوَ وحدَهُ(٣) .

ومرَّ أبو حازمٍ يوماً في السوقِ ، فرأى الفاكهةَ ، فاشتهاها ، فقالَ لابنِهِ : اشترِ لنا مِنْ هٰذهِ الفاكهةِ المقطوعةِ الممنوعةِ ، لعلَّنا نذهبُ إلى الفاكهةِ التي

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١٣٠) .
(٢) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦) ، وذكر (ثلاثين) بدل (خمسين) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٠) .

لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ ، فلمَّا اشتراها وأتىٰ بها إليهِ . . قالَ لنفسهِ : قدْ خدعتِيني حتَّىٰ نظرتُ واشتهيتُ ، وغلبتِيني حتَّى اشتريتُ ، واللهِ ؛ لا ذقتيهِ ، فبعثَ بها إلىٰ يتامىٰ مِنَ الفقراءِ .

وعنْ موسى الأشجِّ أنَّهُ قالَ : (نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذُ عشرينَ سنةً) .

وعنْ أحمدَ بنِ خليفةَ قالَ : (نفسي تشتهي منذُ عشرينَ سنةً ، ما تطلبُ منِّي إلا الماءَ حتَّىٰ ترْوَىٰ ، فما أرويتُها) .

ورُوِيَ أنَّ عتبةَ الغلامَ اشتهىٰ لحماً سبعَ سنينَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ . . قالَ : قدِ استحييتُ مِنْ نفسي أنْ أدافعَها منذُ سبعِ سنينَ سنةً بعدَ سنةٍ ، فاشترىٰ قطعةَ لحمٍ علىٰ خبزٍ وشواها ، وتركَها على الرغيفِ ، فلقيَ صبيّاً ، فقالَ لهُ : ألستَ أنتَ ابنَ فلانٍ وقدْ ماتَ أبوكَ ؟ قالَ : بلىٰ ، فناولَهُ إيَّاهُ ، قالوا : وأقبلَ يبكي يقرأ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ، ثمَّ لمْ يذقْهُ بعدَ ذلكَ[1] .

ومكثَ يشتهي تمراً سنينَ ، فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ . . اشترىٰ تمراً بقيراطٍ ورفعَهُ إلى الليلِ ليفطرَ عليهِ ، قالَ : فهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ حتَّىٰ أظلمَتِ الدنيا ، ففزعَ الناسُ ، فأقبلَ عتبةُ علىٰ نفسهِ يقولُ : هٰذا لجراءتي عليكَ وشرائي

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٠) .

التمرَ بالقيراطِ ، ثمَّ قالَ لنفسِهِ : ما أظنُّ أُخِذَ الناسُ إلا بذنبِكِ ، عليَّ ألا تذوقيهِ(١) .

واشترىٰ داوودُ الطائيُّ بنصفِ فَلْسٍ بقْلاً ، وبفلسٍ خلاً ، وأقبلَ ليلتَهُ كلَّها يقولُ لنفسِهِ : ويلكَ يا داوودُ ؛ ما أطولَ حسابَكَ يومَ القيامةِ ! ثمَّ لمْ يأكلْ بعدَهُ إلا قَفاراً(٢) .

وقالَ عتبةُ الغلامُ يوماً لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : إنَّ فلاناً يصفُ مِنْ نفسِهِ منزلةً ما أعرفُها مِنْ نفسي ، فقالَ : لأنَّكَ تأكلُ معَ خبزِكَ تمراً ، وهو لا يزيدُ على الخبزِ شيئاً ، قالَ : فإنْ أنا تركتُ أكلَ التمرِ . عرفَتُ تلكَ المنزلةَ ؟ قالَ : نعمْ ، وغيرَها ، فأخذَ يبكي ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : أبكى اللهُ عينَكَ ، أعلى التمرِ تبكي ؟! فقالَ : عبدُ الواحدِ : دعْهُ ؛ فإنَّ نفسَهُ قدْ عرفَتْ صدقَ عزمِهِ في التركِ ، وهوَ إذا تركَ شيئاً . . لم يعاودْهُ أبداً(٣) .

وقالَ جعفرُ بنُ نصيرٍ : أمرَني الجنيدُ أنْ أشتريَ لهُ التينَ الوزيريَّ ، فاشتريتُهُ ، فلما أفطرَ . . أخذَ واحدةً فوضعَها في فمِهِ ، ثمَّ ألقاها وجعلَ يبكي ، ثمَّ قالَ : احملْهُ ، فقلتُ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : هتفَ في قلبي هاتفٌ : أما تستحي ؟! تركتَهُ مِنْ أجلي ثمَّ تعودُ إليهِ ؟!(٤) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) .
(٢) أي : خبزاً يابساً وحده .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٤) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص٢٧٨) .

وقالَ صالحٌ المرِّيُّ : قلتُ لعطاءٍ السلميِّ : إنِّي متكلِّفٌ لكَ شيئاً ، فلا تردَّ عليَّ كرامتي ، فقالَ : افعلْ ما تريدُ ، قالَ : فبعثتُ إليهِ معَ ابني شربةً مِنْ سويقٍ قدْ لتتُّهُ بسمْنٍ وعسلٍ ، وقلتُ : لا تبرحْ حتَّىٰ يشربَها ، فشربَها ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . جعلتُ لهُ نحوَها ، فردَّها ولمْ يشربْها ، فأتيتُهُ ولمتُهُ علىٰ ذلكَ ، وقلتُ : سبحانَ اللهِ ! رددتَ عليَّ كرامتي ، فلمَّا رأىٰ وجدي لذلكَ . . قالَ : لا يسوءُكَ هـٰذا ، إنِّي قدْ شربتُها أوَّلَ مَرَّةٍ ، وقدْ راودتُ نفسي في المرَّةِ الثانيةِ علىٰ شربِها فلمْ أقدرْ علىٰ ذلكَ ، كلَّما أردتُ ذلكَ . . ذكرتُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ ، قالَ صالحٌ : فبكيتُ وقلتُ في نفسي : أنا في وادٍ وأنتَ في وادٍ آخرَ[1] .

وقالَ السريُّ السقطيُّ : (نفسي منذُ ثلاثينَ سنةً تطالبُني أنْ أغمسَ جزرةً في دِبسٍ فما أطعمتُها)[2] .

وقالَ أبو بكرٍ الجلاءُ : أعرفُ إنساناً تقولُ لهُ نفسُهُ : أنا أصبرُ لكَ علىٰ طيِّ عشرةِ أيامٍ وأطعمْني بعدَ ذلكَ شهوةً أشتهيها ، فيقولُ لها : لا أريدُ أن تطوي عشرةَ أيامٍ ، ولكنِ اتركي هـٰذهِ الشهوةَ .

ورُوِيَ أنَّ عابداً دعا بعضَ إخوانِهِ ، فقرَّبَ إليهِ رُغفاناً ، فجعلَ أخوهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢١٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٢٧٧) .

يقلِّبُ الأرغفةَ ليختارَ أجودَها ، فقالَ لهُ العابدُ : مَهْ ، أيَّ شيءٍ تصنعُ ؟ أما علمتَ أنَّ في الرغيفِ الذي رغبتَ عنهُ كذا وكذا حكمةً ، وعملَ فيهِ كذا وكذا صانعاً ، حتَّى استدارَ مِنَ السحابِ الذي يحملُ الماءَ ، والماءِ الذي يسقي الأرضَ ، والرياحِ ، والأرضِ ، والبهائمِ ، وبني آدمَ ، حتَّىٰ صارَ إليكَ ، ثمَّ أنتَ بعدَ هـٰذا تقلبُهُ ولا ترضىٰ بهِ !!(١) .

وفي الخبرِ : لا يستديرُ الرغيفُ ويُوضعُ بينَ يديكَ حتَّىٰ يعملَ فيهِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ صانعاً ، أوَّلُهُمْ ميكائيلُ عليهِ السلامُ الذي يكيلُ الماءَ مِنْ خزائنِ الرحمةِ ، ثمَّ الملائكةُ التي تزجي السحابَ ، والشمسُ والقمرُ ، والأفلاكُ ، وملائكةُ الهواءِ ، ودوابُّ الأرضِ ، وآخرُ ذلكَ الخبَّازُ ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : أتيتُ قاسماً الجوعيَّ ، فسألتُهُ عنِ الزهدِ أيُّ شيءٍ هوَ ؟ فقالَ : أيَّ شيءٍ سمعتَ فيهِ ؟ فعددتُ أقوالاً ، فسكتَ ، فقلتُ : وأيَّ شيءٍ تقولُ أنتَ ؟ فقالَ : اعلمْ أنَّ البطنَ دنيا العبدِ ، فبقدْرِ ما يملكُ مِنْ بطنِهِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٩) ، وقول المصنف : (وفي الخبر) المقصود : وفي الأخبار الإسرائيليات ، وهو زيادة على الخبر السابق الذي رواه وهب بن منبه كما هو مبيَّن في « القوت » ، وقد تقدم مرفوعاً ما رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨١) : « أكرموا الخبز ؛ فإن الله سخر له بركات السماوات والأرض » ، وهو معنىٰ هـٰذا الكلام .

يملكُ مِنَ الزهدِ ، وبقدْرِ ما يملكُهُ بطنُهُ . . تملكُهُ الدنيا[1] .

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ قدِ اعتلَّ مرةً ، فسألَ عبدَ الرحمـٰنِ المتطبِّبَ عنْ شيءٍ يوافقُهُ مِنَ المأكولاتِ ، فقالَ : تسألُني ، فإذا وصفتُ لكَ . . لمْ تقبلْ منِّي ! قالَ بشرٌ : فصِفْ لي حتَّىٰ أسمعَ ، قالَ : تشربُ سَكَنْجبيناً ، وتمصُّ سفرجلاً ، وتأكلُ بعدَ ذلكَ إسفيذباجاً ، فقالَ لهُ بشرٌ : هلْ تعلمُ شيئاً أقلَّ مِنَ السكنجبينِ ثمناً يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أنا أعرفُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : الهندبا بالخلِّ ، ثمَّ قالَ : أتعرفُ شيئاً أقلَّ ثمناً مِنَ السفرجلِ يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قال : أنا أعرفُ ، قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : الخرنوبُ الشاميُّ ، قالَ : فتعرفُ شيئاً أقلَّ ثمناً مِنَ الإسفيذباجِ يقومُ مقامَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أنا أعرفُ ، ماءُ الحمصِ بسمْنِ البقرِ في معناهُ ، فقالَ لهُ عبدُ الرحمـٰنِ : أنتَ أعلمُ منِّي بالطبِّ ، فلِمَ تسألُني ؟[2] .

* * *

فقدْ عرفتَ بهـٰذا أنَّ هؤلاءِ كيفَ امتنعوا منْ أكلِ الشهواتِ ، ومِنَ الشبعِ مِنَ الأقواتِ ، وكانَ امتناعُهُمْ للفوائدِ التي ذكرناها ، وفي بعضِ الأوقاتِ لأنَّهُمْ كانوا لا يصفو لهُمْ الحلالُ ، فلمْ يرخِّصوا لأنفسِهِمْ إلا في قدْرِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٢) ، والسكنجبين : المعمول بالخل والعسل ، والإسفيذباج : أصله بالفارسية : اسپيدبا ، وهو نوع من الحساء ، وهو الشورباج ، ويعرف بالمسلوقة كذلك .

الضرورةِ ، والشهواتُ ليسَتْ مِنَ الضروراتِ ، حتَّىٰ قالَ أبو سليمانَ : (الملحُ شهوةٌ)[١] ؛ لأنَّهُ زيادةٌ على الخبزِ ، وما زادَ على الخبزِ شهوةٌ ، وهـٰذا هوَ النهايةُ .

فمَنْ لمْ يقدرْ علىٰ ذلكَ . . فينبغي ألا يغفُلَ عنْ نفسِهِ ، ولا ينهمكَ في الشهواتِ ، فكفىٰ بالمرءِ إسرافاً أنْ يأكلَ كلَّ ما يشتهيهِ ، ويفعلَ كلَّ ما يهواهُ ، فينبغي ألا يواظبَ علىٰ أكلِ اللحمِ ، وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ تركَ اللحمَ أربعينَ يوماً . . ساءَ خلقُهُ ، ومَنْ داومَ عليهِ أربعينَ يوماً . . قسا قلبُهُ)[٢] .

وقيلَ : (إنَّ للمداومةِ على اللحمِ ضراوةً كضراوةِ الخمرِ)[٣] .

ومهما كانَ جائعاً ، وتاقَتْ نفسُهُ إلى الجماعِ . . فلا ينبغي أنْ يأكلَ ويجامعَ ، فيعطيَ نفسَهُ شهوتينِ ، فتقوىٰ عليهِ ، وربما طلبتِ النفسُ الأكلَ لتنبسطَ في الجماعِ .

ويُستحبُّ ألا ينامَ على الشبعِ ، فيجمعَ بينَ غفلتينِ ، فيعتادَ الفتورَ ، ويقسوَ قلبُهُ لذلكَ ، ولكنْ ليصلِّ ، أوْ ليجلسْ فيذكرَ اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ أقربُ إلى الشكرِ .

---

(١) روى القول ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٢٥٦) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٧٢) ، وبنحوه رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥٠٩) ، ورواه عن حفص بن عمرو ابنُ أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٩٠) .
(٣) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٣٥) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وفي الحديثِ : « أذيبوا طعامَكُمْ بالصلاةِ والذكرِ ، ولا تناموا عليهِ فتقسوَ قلوبُكُمْ »[(١)] .

وأقلُّ ذلكَ أنْ يصلِّيَ أربعَ ركعاتٍ ، أوْ يسبِّحَ مئةَ تسبيحةٍ ، أوْ يقرأَ جزءاً مِنَ القرآنِ عَقيبَ كلِّ أكلةٍ[(٢)] .

وقدْ كانَ سفيانُ الثوريُّ إذا شبعَ ليلةً . . أحياها ، وإذا شبعَ في يومٍ . . واصلَهُ بالصلاةِ والذكرِ ، وكانَ يقولُ : (أشبعِ الزنجيَّ وكُدَّهُ) ، ومرَّةً يقولُ : (أشبعِ الحمارَ وكُدَّهُ)[(٣)] .

ومهما اشتهىٰ شيئاً مِنَ الطعامِ وطيباتِ الفواكهِ . . فينبغي أنْ يتركَ الخبزَ ويأكلَها بدلاً منهُ ؛ لتكونَ قوتاً ، ولا تكونَ تفكُّهاً ؛ لئلا يجمعَ للنفسِ بينَ عادةٍ وشهوةٍ .

نظرَ سهلٌ إلى ابنِ سالمٍ وفي يدهِ خبزٌ وتمرٌ ، فقالَ لهُ : (ابتدىءْ بالتمرِ ، فإنْ قامَتْ كفايتُكَ بهِ ، وإلا . . أخذتَ مِنَ الخبزِ بعدَهُ بقدْرِ حاجتِكَ)[(٤)] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (١/ ٤٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٢) ، فإن وجد نشاطاً . . أطال في صلاته ؛ إما بإطالة القراءة في الركعات ، أو زاد علىٰ عدد الركعات ، فإن لحركة الأعضاء قياماً وقعوداً سرّاً بليغاً في إذابة الطعام . « إتحاف » (٧/ ٤١٩) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٢) ، وهو عند أبي نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٧٢) ، وابن سالم هو شيخ أبي طالب المكي .

ومهما وجدَ طعاماً لطيفاً وغليظاً.. فليقدِّمِ اللطيفَ ؛ فإنَّهُ لا يشتهي الغليظَ بعدَهُ ، ولوْ قدَّمَ الغليظَ.. لأكلَ اللطيفَ أيضاً للطافتِهِ .

وكانَ بعضُهُمْ يقولُ لأصحابِهِ : (لا تأكلوا الشهواتِ ، فإنْ أكلتموها.. فلا تطلبوها ، فإنْ طلبتموها.. فلا تحبُّوها)(١) .

وطلبُ بعضِ أنواعِ الخبزِ شهوةٌ ؛ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رحمةُ اللهِ عليهما : (ما تأتينا مِنَ العراقِ فاكهةٌ أحبُّ إلينا مِنَ الخبزِ)(٢) ، فرأىٰ ذلكَ الخبزَ فاكهةً .

وعلى الجملةِ : لا سبيلَ إلىٰ إهمالِ النفسِ في الشهواتِ في المباحاتِ واتباعِها بكلِّ حالٍ ، فبقدْرِ ما يستوفي العبدُ مِنْ شهوتِهِ يخشىٰ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ ، وبقدْرِ ما يجاهدُ نفسَهُ ويتركُ شهوتَهُ يتمتَّعُ في الدارِ الآخرةِ بشهواتِهِ .

قالَ بعضُ أهلِ البصرةِ : نازعَتْني نفسي خبزَ أرزٍّ وسمكاً ، فمنعتُها ، فقويَتْ مطالبتُها ، واشتدَّتْ مجاهدتي لها عشرينَ سنةً ، فلمَّا ماتَ.. قالَ بعضُهُمْ : رأيتُهُ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ماذا فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : لا أحسنُ أنْ أصفَ ما تلقَّاني بهِ ربِّي مِنَ النعيمِ والكرامةِ ، وكانَ أوَّلُ شيءٍ استقبلَني بهِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٤) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٤) .

خبزَ أرزٍّ وسمكاً ، وقالَ : كُلْ شهوتَكَ اليومَ هنيئاً بغيرِ حسابٍ[1] .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ ، وكانوا قدْ أسلفوا تركَ الشهواتِ ، ولهٰذا قالَ أبو سليمانَ : (تركُ شهوةٍ من شهواتِ النفسِ أنفعُ للقلبِ مِنْ صيامِ سنةٍ وقيامِها)[2] ، وفَّقَنا اللهُ لما يرضيهِ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٣) .

بيان اختلاف حكم الجوع، وفضيلته، واختلاف أحوال الناس فيه

اعلمْ : أنَّ المطلوبَ الأقصىٰ في جميعِ الأمورِ والأخلاقِ الوسطُ ؛ إذْ خيرُ الأمورِ أوساطُها ، وكلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميمٌ .

وما أوردناهُ في فضائلِ الجوعِ ربَّما يومىءُ إلىٰ أنَّ الإفراطَ فيهِ مطلوبٌ ، وهيهاتَ ، ولكنْ مِنْ أسرارِ حكمةِ الشريعةِ : أنَّ كلَّ ما يطلبُ الطبعُ فيهِ الطرفَ الأقصىٰ وكانَ فيهِ فسادٌ . . جاءَ الشرعُ بالمبالغةِ في المنْعِ منهُ علىٰ وجهٍ يُومىءُ عندَ الجاهلِ إلىٰ أنَّ المطلوبَ مضادَّةُ ما يقتضيهِ الطبعُ بغايةِ الإمكانِ ، والعالمُ يدركُ أنَّ المقصودَ الوسطُ ؛ لأنَّ الطبعَ إذا طلبَ غايةَ الشبعِ . . فالشرعُ ينبغي أنْ يمدحَ غايةَ الجوعِ ؛ حتَّىٰ يكونَ الطبعُ باعثاً والشرعُ مانعاً ، فيتقاومانِ ، ويحصلُ الاعتدالُ ، فإنَّ مَنْ يقدرُ علىٰ قمْعِ الطبعِ بالكليَّةِ بعيدٌ ، فيُعلمُ أنَّهُ لا ينتهي إلى الغايةِ .

فإنْ أسرفَ مسرفٌ في مضادَّةِ الطبْعِ . . كانَ في الشرعِ أيضاً ما يدلُّ علىٰ إساءتِهِ ، كما أنَّ الشرعَ بالغَ في الثناءِ علىٰ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ثمَّ لمَّا علمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حالِ بعضِهِمْ أنَّهُ يصومُ الدهرَ كلَّهُ ويقومُ الليلَ كلَّهُ . . نهىٰ عنهُ[1] .

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، والنسائي (٤/ ٢١٠) .

فإذا عرفتَ هـٰذا . . فاعلمْ أنَّ الأفضلَ بالإضافةِ إلى الطبعِ المعتدلِ أنْ يأكلَ بحيثُ لا يحسُّ بثقلِ المعدةِ ، ولا يحسُّ بألمِ الجوعِ ، بلْ ينسىٰ بطنَهُ ، ولا يؤثِّرُ فيهِ الجوعُ أصلاً ، فإنَّ مقصودَ الأكلِ بقاءُ الحياةِ وقوَّةُ العبادةِ ، وثقلُ المعدةِ يمنعُ مِنَ العبادةِ ، وألمُ الجوعِ أيضاً يشغلُ القلبَ ويمنعُ منها .

فالمقصودُ : أنْ يأكلَ أكلاً لا يبقىٰ للمأكولِ فيهِ أثرٌ ؛ ليكونَ متشبِّهاً بالملائكةِ ، فإنَّهُمْ مقدَّسونَ عنْ ثقلِ الطعامِ وألمِ الجوعِ ، وغايةُ الإنسانِ الاقتداءُ بهِمْ ، وإذْ لمْ يكنْ للإنسانِ خلاصٌ مِنَ الشبعِ والجوعِ . . فأبعدُ الأحوالِ عنِ الطرفينِ الوسطُ ، وهوَ الاعتدالُ .

ومثالُ طلبِ الآدميِّ البعدَ عنْ هـٰذهِ الأطرافِ المتقابلةِ بالرجوعِ إلى الوسطِ مثالُ نملةٍ أُلقيَتْ في وسطِ حلقةٍ محمَّاةٍ على النارِ ، مطروحةٍ على الأرضِ ، فإنَّ النملةَ تهربُ مِنْ حرارةِ الحلقةِ وهيَ محيطةٌ بها لا تقدرُ على الخروجِ منها ، فلا تزالُ تهربُ حتَّىٰ تستقرَّ على المركزِ الذي هوَ الوسطُ ، فلوْ ماتَتْ . . ماتَتْ على الوسطِ ؛ لأنَّ الوسطَ هوَ أبعدُ المواضعِ عنِ الحرارةِ التي في الحلقةِ المحيطةِ ؛ فكذلكَ الشهواتُ محيطةٌ بالإنسانِ إحاطةَ تلكَ الحلقةِ بالنملةِ ، والملائكةُ خارجونَ عنْ تلكَ الحلقةِ ، ولا مطمعَ للإنسانِ في الخروجِ ، وهوَ يريدُ أنْ يتشبَّهَ بالملائكةِ في الخلاصِ ، فأشبهُ أحوالِهِ بهِمُ البعدُ ، وأبعدُ المواضعِ عنِ الأطرافِ الوسطُ ، فصارَ الوسطُ مطلوباً في

جميعِ هٰذهِ الأحوالِ[1] المتقابلةِ ، وعنهُ عُبِّرَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »[2] .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾ .

ومهما لمْ يحسَّ الإنسانُ بجوعٍ ولا شبعٍ . . تيسَّرَتْ لهُ العبادةُ والفكْرُ ، وخفَّ في نفسِهِ وقويَ على العملِ معَ خفَّتِهِ ، ولكنَّ هٰذا بعدَ اعتدالِ الطبعِ .

أمَّا في بدايةِ الأمرِ ، إذا كانَتِ النفسُ جموحاً ، متشوِّقةً إلى الشهواتِ ، مائلةً إلى الإفراطِ . . فالاعتدالُ لا ينفعُها ، بلْ لا بدَّ من المبالغةِ في إيلامِها بالجوعِ ، كما يُبالغُ في إيلامِ الدابَّةِ التي ليسَتْ مروضةً بالجوعِ والضربِ وغيرِهِ إلىٰ أنْ تعتدلَ ، فإذا ارتاضَتْ واستوتْ ، ورجعَتْ إلى الاعتدالِ . . تركَ تعذيبَها وإيلامَها .

ولأجلِ هٰذا السرِّ يأمرُ الشيخُ مريدَهُ بما لا يتعاطاهُ هوَ في نفسِهِ ، فيأمرُهُ بالجوعِ وهوَ لا يجوعُ ، ويمنعُهُ الفواكهَ والشهواتِ وقدْ لا يمتنعُ هوَ منها ؛ لأنَّهُ قدْ فرغَ مِنْ تأديبِ نفسِهِ ، فاستغنىٰ عنِ التعذيبِ .

ولمَّا كانَ أغلبُ أحوالِ النفسِ الشرهَ والشهوةَ والجماحَ والامتناعَ عنِ العبادةِ . . كانَ الأصلحُ لها الجوعَ الذي تحسُّ بألمِهِ في أكثرِ الأحوالِ ؛

---

(١) في غير (ج) : (الأخلاق) بدل (الأحوال) .
(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣١٧٠) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

لتنكسرَ نفسُهُ، والمقصودُ: أنْ تنكسرَ حتَّىٰ تعتدلَ ، فترُدَّ بعدَ ذلكَ في الغذاءِ أيضاً إلى الاعتدالِ .

وإنَّما يمتنعُ مِنْ ملازمةِ الجوعِ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ إمَّا صدِّيقٌ ، وإمَّا مغرورٌ أحمقُ .

أمَّا الصدِّيقُ : فلاستقامةِ نفسِهِ على الصراطِ المستقيمِ ، واستغنائِهِ عنْ أنْ يُساقَ بسياطِ الجوعِ إلى الحقِّ .

وأمَّا المغرورُ : فلظنِّهِ بنفسِهِ أنَّهُ الصدِّيقُ المستغني عنْ تأديبِ نفسِهِ ، الظانُّ بها خيراً .

وهٰذا غرورٌ عظيمٌ ، وهوَ الأغلبُ ؛ فإنَّ النفسَ قلَّما تتأدَّبُ تأدُّباً كاملاً ، وكثيراً ما تغترُّ فتنظرُ إلى الصدِّيقِ ومسامحتِهِ نفسَهُ في ذلكَ ، فيسامحُ نفسَهُ ، كالمريضِ ينظرُ إلىٰ مَنْ قدْ صحَّ مِنْ مرضِهِ ، فيتناولُ ما يتناولُهُ ، ويظنُّ بنفسِهِ الصحَّةَ فيهلكُ .

والذي يدلُّ علىٰ أنَّ تقديرَ الطعامِ بمقدارٍ يسيرٍ في وقتٍ مخصوصٍ ونوعٍ مخصوصٍ ليسَ مقصوداً في نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مجاهدةُ نفسٍ متنائيةٍ عنِ الحقِّ ، غيرِ بالغةٍ رتبةَ الكمالِ. . أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يكنْ لهُ تقديرٌ وتوقيتٌ لطعامِهِ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يصومُ حتَّىٰ نقولَ : لا يفطرُ ، ويفطرُ حتَّىٰ نقولَ : لا يصومُ)(١) .

(١) رواه البخاري (١٩٦٩) ، ومسلم (١١٥٦) .

وكانَ يدخلُ علىٰ أهلِهِ فيقولُ : « هلْ عندَكُمْ مِنْ شيءٍ ؟ فإنْ قالوا : نعمْ . . أكلَ ، وإنْ قالوا : لا . . قالَ : « إنِّي إذاً صائمٌ »[١] .

وكانَ يُقدَّمُ إليهِ الشيءُ فيقولُ : « أما إنِّي قدْ كنتُ أردتُ الصومَ » ، ثمَّ يأكلُ[٢] .

وخرجَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً وقالَ : « إنِّي صائمٌ » ، فقالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قدْ أُهديَ إلينا حَيْسٌ ، فقالَ : « كنتُ أردتُ الصومَ ، ولكنْ قرِّبيهِ »[٣] .

ولذلكَ حُكِيَ أنَّ سهلاً قيلَ لهُ : كيفَ كنتَ في بدايتِكَ ؟ فأخبرَ بضروبٍ مِنَ الرياضاتِ ؛ منها أنَّهُ كانَ يقتاتُ ورقَ النَّبْقِ مدَّةً ، ومنها أنَّهُ أكلَ دقاقَ التبْنِ[٤] مدَّةَ ثلاثِ سنينَ ، ثمَّ ذكرَ أنَّهُ اقتاتَ بثلاثةِ دراهمَ في ثلاثِ سنينَ ، فقيلَ لهُ : فكيفَ أنتَ في وقتِكَ هـٰذا ؟ فقالَ : آكلُ بلا حدٍّ ولا توقيتٍ[٥] .

وليسَ المرادُ بقولِهِ : (بلا حدٍّ ولا توقيتٍ) أنِّي آكلُ كثيراً ، بلْ : لا أقدِّرُ بمقدارٍ واحدٍ ما آكلُهُ .

---

(١) رواه مسلم (١١٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٢) هو ضمن الخبر قبله الذي رواه مسلم (١١٥٤) ولفظه عنده : « قد كنت أصبحت صائماً » ، كما سيبينه في الخبر بعده .
(٣) هو ضمن الخبر قبله كذلك ، ولفظ المصنف في تجزيئه الخبر تبع لصاحب « القوت » (٢/ ١٧٦) .
(٤) في (ب) : (دقاق شجرة التين) ، وفي (ك ، ق) : (دقاق التين) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٧٧) .

وقدْ كانَ معروفُ الكرخيُّ يُهدىٰ إليهِ طيباتُ الطعامِ ، فيأكلُ ، فقيلَ لهُ : إنَّ أخاكَ بشراً لا يأكلُ مثلَ هـٰذا ، فقالَ : إنَّ أخي بشراً قبضَهُ الورعُ ، وأنا بسطَتْني المعرفةُ ، ثمَّ قالَ : إنَّما أنا ضيفٌ في دارِ مولايَ ، فإذا أطعمَني . . أكلتُ ، وإذا جوَّعَني . . صبرتُ ، ما لي وللاعتراضِ والتمييزِ؟![1] .

ودفعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ دراهمَ وقالَ : خذْ لنا بهـٰذهِ الدراهمِ زُبْداً وعسلاً وخبزاً حوارياً ، فقالَ : يا أبا إسحاقَ ؛ بهـٰذا كلِّهِ ؟! قالَ : ويحَكَ ، إذا وجدْنا . . أكلْنا أكلَ الرجالِ ، وإذا عدمْنا . . صبرْنا صبرَ الرجالِ[2] .

وأصلحَ ذاتَ يومٍ طعاماً فأكثرَ ، ودعا نفراً يسيراً ، فيهمُ الأوزاعيُّ والثوريُّ ، فقالَ لهُ الثوريُّ : يا أبا إسحاقَ ؛ أما تخافُ أنْ يكونَ هـٰذا إسرافاً ؟ فقالَ : ليسَ في الطعامِ إسرافٌ ، إنَّما الإسرافُ في اللباسِ والأثاثِ[3] .

فالذي أخذَ العلمَ مِنَ السماعِ والنقْلِ تقليداً يرىٰ هـٰذا مِنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ ، ويسمعُ عنْ مالكِ بنِ دينارٍ أنَّهُ قالَ : (ما دخلَ الملحُ بيتي منذُ عشرينَ سنةً) ، وعنْ سريٍّ السقطيِّ أنَّهُ منذُ أربعينَ سنةً يشتهي أنْ يغمسَ جزرةً في دِبْسٍ فما فعلَ[4] . . فيراهُ متناقضاً ، فيتحَيرُ ، أوْ يقطعُ بأنَّ أحدَهُما مخطئٌ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٧٧) ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧١٣٧) عن الحسن قوله : (ليس في الطعام إسراف) .
(٤) تقدم قريباً .

والبصيرُ بأسرارِ العلمِ يعلمُ أنَّ كلَّ ذلكَ حقٌّ ، ولكنْ بالإضافةِ إلى اختلافِ الأحوالِ .

ثمَّ هـٰذهِ الأحوالُ المختلفةُ يسمعُها فطِنٌ محتاطٌ ، أوْ غبيٌّ مغرورٌ :

فيقولُ المحتاطُ : (ما أنا مِنْ جملةِ العارفينَ حتَّىٰ أسامحَ نفسي ، فليسَ نفسي أطوعَ مِنْ نفسِ سريٍّ السقطيِّ ومالكِ بنِ دينارٍ ، وهؤلاءِ مِنَ الممتنعينَ عنِ الشهواتِ) ، فيقتدي بهِمْ .

والمغرورُ يقولُ : (وما نفسي بأعصىٰ عليَّ مِنْ نفسِ معروفٍ الكرخيِّ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ، فأقتدي بهما ، وأرفعُ التقديرَ في مأكولي ، فأنا أيضاً ضيفٌ في دارِ مولايَ ، فما لي وللاعتراضِ) ، ثمَّ إنَّهُ لوْ قصَّرَ أحدٌ في حقِّهِ وتوقيرِهِ ، أو في مالِهِ وجاهِهِ بطرفةِ عينٍ واحدةٍ.. قامَتِ القيامةُ عليهِ ، واشتغلَ بالاعتراضِ !

وهـٰذا مجالٌ رحْبٌ للشيطانِ معَ الحمقىٰ ، بلْ رفعُ التقديرِ في الطعامِ والصيامِ وأكلِ الشهواتِ لا يسلمُ إلا لمَنْ ينظرُ مِنْ مشكاةِ الولايةِ أوِ النبوَّةِ ، فيكونُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ علامةٌ في استرسالِهِ وانقباضِهِ ، ولا يكونُ ذلكَ إلا بعدَ خروجِ النفسِ عنْ طاعةِ الهوىٰ والعادةِ بالكلِّيَّةِ ، حتَّىٰ يكونَ أكلُهُ إذا أكلَ علىٰ نيَّةٍ كما يكونُ إمساكُهُ علىٰ نيَّةٍ ، فيكونُ عاملاً للهِ في أكلِهِ وإفطارِهِ .

فينبغي أنْ يتعلَّمَ الحزمَ مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ فإنَّهُ كانَ يرىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ العسلَ ويأكلُهُ ، ثمَّ لمْ يقسْ نفسَهُ عليهِ ، بلْ لمَّا

عرضَتْ عليهِ شربةٌ باردةٌ ممزوجةٌ بعسلٍ . . جعلَ يديرُ الإناءَ في يدِهِ ويقولُ : (أشربُها وتذهبُ حلاوتُها وتبقىٰ تبعتُها ؟! اعزلوا عنِّي حسابَها) ، وتركَها[1] .

وهٰذهِ الأسرارُ لا يجوزُ لشيخٍ أنْ يكاشفَ بها مريدَهُ ، بلْ يقتصرُ علىٰ مدْحِ الجوعِ فقطْ ، ولا يدعوهُ إلى الاعتدالِ ، فإنَّهُ يقصرُ ـ لا محالةَ ـ عمَّا يدعوهُ إليهِ ، فينبغي أنْ يدعوَهُ إلىٰ غايةِ الجوعِ ، حتَّىٰ يتيسَّرَ لهُ الاعتدالُ ، ولا يذكرَ لهُ أنَّ العارفَ الكاملَ يستغني عنِ الرياضةِ ؛ فإنَّ الشيطانَ يجدُ متعلَّقاً مِنْ قلبِهِ ، فيلقي إليهِ كلَّ ساعةٍ : إنَّكَ عارفٌ كاملٌ ، وما الذي فاتَكَ مِنَ المعرفةِ والكمالِ ؟

بلْ كانَ مِنْ عادةِ إبراهيمَ الخوَّاصِ أنْ يخوضَ معَ المريدِ في كلِّ رياضةٍ كانَ يأمرُهُ بها ؛ كي لا يخطرَ ببالِهِ أنَّ الشيخَ لمْ يأمرْهُ بما لمْ يفعلْهُ ، فينفرَهُ ذلكَ في رياضتِهِ .

والقويُّ إذا اشتغلَ بالرياضةِ وإصلاحِ الغيرِ . . لزمَهُ النزولُ إلىٰ حدِّ الضعفاءِ تشبُّهاً بهِمْ ، وتلطُّفاً في سياقتِهِمْ إلى السعادةِ ، وهٰذا ابتلاءٌ عظيمٌ للأنبياءِ والأولياءِ .

وإذا كانَ حدُّ الاعتدالِ خفيّاً في حقِّ كلِّ شخصٍ . . فالحزمُ والاحتياطُ ينبغي ألا يتركَ في كلِّ حالٍ .

---

(١) تقدم قريباً .

ولذلكَ أدَّبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ولدَهُ عبدَ اللهِ ؛ إذْ دخلَ عليهِ فوجدَهُ يأكل لحماً مأدوماً بسمنٍ ، فعلاهُ بالدِّرَةِ وقالَ : (لا أمَّ لكَ ، كُلْ يوماً خبزاً ولحماً ، ويوماً خبزاً ولبناً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وزيتاً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً قَفاراً) .

وهٰذا هوَ الاعتدالُ ، فأمَّا المواظبةُ على اللحمِ والشهواتِ . . فإفراطٌ وإسرافٌ ، ومهاجرةُ اللحمِ بالكلِّيَّةِ إقتارٌ ، وهٰذا قَوامٌ بينَ ذلكَ .

* * *

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات أو قلل الطعام

اعلمْ : أنَّهُ يدخلُ علىٰ تاركِ الشهواتِ آفتانِ عظيمتانِ ، هما أعظمُ مِنْ أكلِ الشهواتِ :

إحداهُما : ألا تقدرَ النفسُ علىٰ ترْكِ بعضِ الشهواتِ فيشتهيَها ، ولكن لا يريدُ أنْ يُعرفَ بأنَّهُ يشتهيها ، فيخفي الشهوةَ ، ويأكلُ في الخلوةِ ما لا يأكلُهُ معَ الجماعةِ ، وهـٰذا هوَ الشرْكُ الخفيُّ .

سُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ بعضِ الزهادِ ، فسكتَ عنهُ ، فقيلَ لهُ : هلْ تعلمُ بهِ بأساً ، قالَ : يأكلُ في الخلوةِ ما لا يأكلُ في الجماعةِ[1] .

وهـٰذهِ آفةٌ عظيمةٌ ، بلْ حقُّ العبدِ إذا ابتليَ بالشهواتِ وحبِّها أنْ يظهرَها ؛ فإنَّ هـٰذا صدقُ الحالِ ، وهوَ يدلُّ علىٰ فواتِ المجاهداتِ بالأعمالِ ؛ فإنَّ إخفاءَ النقصِ وإظهارَ ضدِّهِ من الكمالِ هوَ نقصانانِ متضاعفانِ ، والكذبَ معَ الإخفاءِ كذبانِ ، فيكونُ مستحقّاً لمقتينِ ، ولا يُرضىٰ منهُ إلا بتوبتينِ صادقتينِ ، ولذلكَ شدَّدَ اللهُ أمرَ المنافقينَ[2] ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٥) .

(٢) فغضب عليهم ، ومقتهم مقتين ، ثم لم يرض منهم إلا بتوبتين ، واشترط عليهم شرطين . « إتحاف » (٧/ ٤٢٦) ، وقد جاء البيان الإلهي بتعذيب المنافقين مرتين إذ قال سبحانه : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنَّ الكافرَ كفرَ وأظهرَ ، وهـٰذا كفرَ وسترَ ، فكانَ سترُهُ لكفرِهِ كفراً آخرَ ؛ لأنَّهُ استخفَّ بنظرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ قلبِهِ ، وعظَّمَ نظرَ المخلوقينَ ، فمحا الكفرَ عنْ ظاهرِهِ[١] .

والعارفونَ يُبتلَوْنَ بالشهواتِ بلْ بالمعاصي ، ولا يُبتلوْنَ بالرياءِ والغشِّ والإخفاءِ ، بلْ كمالُ العارفِ أنْ يتركَ الشهواتِ للهِ تعالىٰ ، ويظهرَ مِنْ نفسِهِ الشهوةَ ؛ إسقاطاً لمنزلتِهِ مِنْ قلوبِ الخلقِ .

وكانَ بعضُهُمْ يشتري الشهواتِ ويعلِّقُها في البيتِ وهوَ فيها مِنَ الزاهدينَ ، وإنَّما يقصدُ بهِ تلبيسَ حالِهِ ؛ ليصرفَ عنْ نفسِهِ قلوبَ الغافلينَ ، حتَّىٰ لا يتشوَّشَ حالُهُ[٢] .

فنهايةُ الزهدِ الزهدُ في الزهدِ بإظهارِ ضدِّهِ ، وهـٰذا عملُ الصدِّيقينَ ، فإنَّهُ جمْعٌ بينَ صدقينِ ، كما أنَّ الأوَّلَ جمعٌ بينَ كذبينِ ، وهـٰذا قدْ حملَ على النفسِ ثقلينِ ، وجرَّعَها كأسَ الصبرِ مرَّتينِ ؛ مرَّةً بشربِهِ ، ومرَّةً برميِهِ ، فلا جرمَ أولئكَ يُؤتونَ أجرَهُمْ مرَّتينِ بما صبروا .

وهـٰذا يضاهي طريقَ مَنْ يُعطىٰ جهراً فيأخذُ ، ويردُّ سرّاً ؛ ليكسرَ نفسَهُ

---

(١) فزاد الله في هوانه ، وشدد في توبته بما وكده في شرطه ، فقال : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ ، وهـٰذا مما لا يمتحن به عالم بالله تعالىٰ ولا غافل عن الله تعالىٰ ولله الحمد . « إتحاف » (٧/ ٤٢٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٥) .

بالذلِّ جهراً ، وبالفقرِ سرّاً ؛ فمَنْ فاتَهُ هـٰذا . . فلا ينبغي أنْ يفوتَهُ إظهارُ شهوتِهِ ونقصانِهِ والصدقُ فيهِ ، ولا ينبغي أنْ يغرَّهُ قولُ الشيطانِ : (إنَّكَ إذا أظهرتَ . . اقتدىٰ بكَ غيرُكَ ، فاسترْهُ إصلاحاً لغيرِكَ) ؛ فإنَّهُ لوْ قصدَ إصلاحَ غيرِهِ . . لكانَ إصلاحُ نفسِهِ أهمَّ عليهِ مِنْ غيرِهِ ، فهـٰذا إنَّما يقصدُ الرياءَ المجرَّدَ ، ويروِّجُهُ عليهِ الشيطانُ في معرضِ إصلاحِ غيرِهِ ، فلذلكَ يثقلُ عليهِ ظهورُ ذلكَ منهُ وإنْ علمَ أنَّ مَنِ اطلعَ عليهِ ليسَ يقتدي بهِ في الفعلِ ، أو لا ينزجرُ باعتقادِهِ أنَّهُ تاركٌ للشهواتِ .

* * *

الآفةُ الثانيةُ : أنْ يقدرَ علىٰ تركِ الشهواتِ ، لكنَّهُ يفرحُ أنْ يُعرفَ بهِ ، فيشتهرَ بالتعفُّفِ عنِ الشهواتِ ، فقدْ خالفَ شهوةً ضعيفةً ، وهيَ شهوةُ الأكلِ ، وأطاعَ شهوةً هيَ شرٌّ منها ، وهيَ شهوةُ الجاهِ ، وتلكَ هيَ الشهوةُ الخفيَّةُ ، فمهما أحسَّ بذلكَ مِنْ نفسِهِ . . فكسْرُ هـٰذهِ الشهوةِ آكدُ مِنْ كسْرِ شهوةِ الطعامِ ، فليأكلْ ؛ فهوَ أولىٰ لهُ .

قالَ أبو سليمانَ : (إذا قُدمَتْ إليكَ شهوةٌ وقدْ كنتَ تاركاً لها . . فأصبْ منها شيئاً يسيراً ، ولا تعطِ نفسَكَ مُناها ، فتكونَ قدْ أسقطتَ عنْ نفسِكَ الشهوةَ ، وتكونَ قدْ نغَّصتَ عليها إذْ لمْ تعطِها شهوتَها)[1] .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ : (إذا قُدِّمَتْ إليَّ شهوةٌ . . نظرتُ إلىٰ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٧٦) .

نفسي ، فإنْ هيَ أظهرَتْ شهوتَها . . أطعمتُها منها ، وكانَ ذلكَ أفضلَ مِنْ منعِها ، وإنْ أخفتْ شهوتَها ، وأظهرَتِ العزوفَ عنها . . عاقبتُها بالتركِ ، ولمْ أنلْها منها شيئاً) .

وهـٰذا طريقٌ في عقوبةِ النفسِ علىٰ هـٰذهِ الشهوةِ الخفيَّةِ .

وبالجملةِ : مَنْ تركَ شهوةَ الطعامِ ووقعَ في شهوةِ الرياءِ . . كانَ كمَنْ هربَ مِنْ عقربٍ وفزعَ إلىٰ حيَّةٍ ؛ لأنَّ شهوةَ الرياءِ أضرُّ كثيراً مِنْ شهوةِ الطعامِ ، واللهُ وليُّ التوفيقِ .

❋ ❋ ❋

القول في شهوة الفرج

اعلمْ : أنَّ شهوةَ الوقاعِ سُلِّطَتْ على الإنسانِ لفائدتينِ :

إحداهُما : أنْ يدركَ لذَّتَهُ ، فيقيسَ بهِ لذَّاتِ الآخرةِ ، فإنَّ لذَّةَ الوقاعِ لوْ دامَتْ. . لكانَتْ أقوىٰ لذَّاتِ الأجسادِ ، كما أنَّ النارَ وآلامَها أعظمُ آلامِ الجسدِ ، والترغيبُ والترهيبُ يسوقُ الناسَ إلىٰ سعادتِهِمْ ، وليسَ ذلكَ إلاَّ بألمٍ محسوسٍ ولذَّةٍ مدركَةٍ ؛ فإنَّ ما لا يدركُ بالذوقِ لا يعظمُ إليهِ الشوقُ .

الفائدةُ الثانيةُ : بقاءُ النسلِ ، ودوامُ الوجودِ .

فهٰذهِ فائدتُها ، ولكنْ فيها مِنَ الآفاتِ ما يهلكُ الدينَ والدنيا إنْ لمْ تُضبطْ ولمْ تُقهرْ ولمْ تُردَّ إلىٰ حدِّ الاعتدالِ .

وقدْ قيلَ في تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ، معناهُ : الغلمةُ(١) .

وعنِ ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ هوَ قيامُ الذَّكَرِ ، وقدْ أسندَهُ بعضُ الرواةِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إلاَّ أنَّهُ

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢٠٣) عن مكحول ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣١١) عن مجاهد .

قالَ في تفسيرِهِ : الذَّكَرُ إذا دخلَ[1] .

وقدْ قيلَ : (إذا قامَ ذكرُ الرجلِ . . ذهبَ ثلثا عقلِهِ)[2] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري وقلبي ومَنِيِّي »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « النساءُ حبائلُ الشيطانِ »[4] .

ولولا هـٰذهِ الشهوةُ . . لما كانَ للنساءِ سلطنةٌ على الرجالِ .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ كانَ جالساً في بعضِ مجالسِهِ ، إذْ أقبلَ إليهِ إبليسُ وعليهِ برنسٌ يتلوَّنُ فيهِ ألواناً ، فلمَّا دنا منهُ . . خلعَ البرنسَ فوضعَهُ ، ثمَّ أتاهُ ، فقالَ : السلامُ عليكَ يا موسىٰ ، فقالَ لهُ موسىٰ : مَنْ أنتَ ، فقالَ : أنا إبليسُ ، فقال : لا حيَّاكَ اللهُ ، ما جاءَ بكَ ؟ قالَ : جئتُ لأسلِّمَ عليكَ لمنزلتِكَ مِنَ اللهِ ومكانتِكَ منهُ ، قالَ : فما الذي رأيتُ عليكَ ؟ قالَ : برنسٌ أختطفُ بهِ قلوبَ بني آدمَ ، قالَ : فما الذي إذا صنعَهُ الإنسانُ . . استحوذتَ عليهِ ؟ قال : إذا أعجبَتْهُ نفسُهُ ، واستكثرَ عملَهُ ، ونسيَ ذنوبَهُ ،

---

(١) تقدم الكلام عن هـٰذا الخبر وشاهده .

(٢) رواه ابن المقرىء في « معجمه » (٨٠٥) عن تمام بن نجيح .

(٣) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) .

(٤) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٥٥) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥/ ٢٤٢) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ١٨٥) من حديث خالد بن زيد الجهني رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خطبة طويلة .

وأحذِّرُكَ ثلاثاً : لا تخلُ بامرأةٍ لا تحلُّ لكَ ؛ فإنَّهُ ما خلا رجلٌ بامرأةٍ لا تحلُّ لهُ إلا كنتُ صاحبَهُ دونَ أصحابي حتَّىٰ أفتنَهُ بها وأفتنَها بهِ ، ولا تعاهدِ اللهَ عهداً إلا وفَّيتَ بهِ ، ولا تخرجَنَّ صدقةً إلا أمضيتَها ، فإنَّهُ ما أخرجَ رجلٌ صدقةً فلمْ يمضِها إلا كنتُ صاحبَهُ دونَ أصحابي حتَّىٰ أحولَ بينَهُ وبينَ الوفاءِ بها ، ثمَّ ولَّىٰ وهوَ يقولُ : يا ويلتاهُ ، علمَ موسىٰ ما يحذِّرُ بهِ بني آدمَ(١) .

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ قالَ : (ما بعثَ اللهُ نبياً فيما خلا إلا لمْ ييئسْ إبليسُ أنْ يهلكَهُ بالنساءِ ، ولا شيءَ أخوفُ عندي منهنَّ ، وما بالمدينةِ بيتٌ أدخلُهُ إلا بيتي وبيتُ ابنتي ، أغتسلُ فيهِ يومَ الجمعةِ ، ثمَّ أروحُ)(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّ الشيطانَ يقولُ للمرأةِ : أنتِ نصفُ جندي ، وأنتِ سهمي الذي أرمي بهِ فلا أخطىءُ ، وأنتِ موضعُ سرِّي ، وأنتِ رسولي في حاجتي)(٣) .

فنصفُ جندِهِ الشهوةُ ، ونصفُ جندِهِ الغضبُ ، وأعظمُ الشهواتِ شهوةُ النساءِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣١٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١٢٥) عن عبد الرحمـٰن بن زياد بن أنعم .
(٢) روى الشطر الأول من القول بدرُ الدين الشبلي في « آكام المرجان » (٤٢٦) .
(٣) رواه بدر الدين الشبلي في « آكام المرجان » (٤٢٣) .

وهٰذهِ الشهوةُ أيضاً لها إفراطٌ وتفريطٌ واعتدالٌ :

فالإفراطُ : ما يقهرُ العقلَ حتَّىٰ يصرفَ هِمَّةَ الرجالِ إلى الاستمتاعِ بالنساءِ والجواري ، فيُحرمَ عنْ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، أوْ يقهرُ الدينَ حتَّىٰ يجرَّ إلى اقتحامِ الفواحشِ ، وقدْ ينتهي إفراطُها بطائفةٍ إلىٰ أمرينِ شنيعينِ :

أحدُهُما : أنْ يتناولوا ما يقوِّي شهواتِهِمْ على الاستكثارِ مِنَ الوقاعِ ؛ كما قدْ يتناولُ بعضُ الناسِ أدويةً تقوِّي المعدةَ لتعظمَ شهوةُ الطعامِ .

وما مثالُ ذلكَ إلا كمَنِ ابتليَ بسباعٍ ضاريةٍ وبهائمَ عاديةٍ فتنامُ عنهُ في بعضِ الأوقاتِ ، فيحتالُ لإثارتِها وتهييجِها ، ثمَّ يشتغلُ بإصلاحِها وعلاجِها ؛ فإنَّ شهوةَ الطعامِ والوقاعِ على التحقيقِ آلامٌ يريدُ الإنسانُ الخلاصَ منها ، فيدركُ لذَّةً بسببِ الخلاصِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ رُوِيَ في غريبِ الحديثِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « شكوتُ إلىٰ جبريلَ ضعفَ الوقاعِ ، فأمرَني بأكْلِ الهريسةِ »(١) .

فاعلمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ تحتَهُ تسعُ نسوةٍ ، ووجبَ عليهِ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ١٤٤) ، وتمام في « فوائده » (٩٨٨) ، وقد قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١/ ١٧٥) : (ألف الحافظ ابن ناصر الدين فيه جزءاً سماه : « رفع الدسيسة عن أخبار الهريسة ») ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٣٠٩) ، ولم يسلم المصنف ثبوت هٰذا الخبر فضلاً عن أن يكون حجة ؛ إذ قال هناك : (هٰذا إن صح .. لا محمل له إلا الاستعداد للاستراحة . . .) ، ولكن المصنف علىٰ عادته يجيب عن مثل هٰذه التحريجات تنزُّلاً .

تحصينُهُنَّ بالإمتاعِ ، وحرمَ علىٰ غيرِهِ نكاحُهُنَّ وإنْ طلَّقَهُنَّ ، فكانَ طلبُهُ القوَّةَ لهـٰذا ، لا للتنعُّمِ .

والأمرُ الثاني : أنَّهُ قدْ تنتهي هـٰذهِ الشهوةُ ببعضِ الضلاَّلِ إلى العشْقِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ بما وُضِعَ لهُ الوقاعُ ، وهوَ مجاوزةٌ في البهيميَّةِ لحدِّ البهائمِ ؛ لأنَّ العاشقَ ليسَ يقنعُ بإراقةِ شهوةِ الوقاعِ ـ وهيَ أقبحُ الشهواتِ ، وأجدرُها بأنْ يُستحيا منهُ ـ حتَّى اعتقدَ أنَّ الشهوةَ لا تنقضي إلا مِنْ محلٍّ واحدٍ ، والبهيمةُ تقضي الشهوةَ أينَ اتفقَ ، فتكتفي بهِ ، وهـٰذا لا يكتفي إلا بشخصٍ واحدٍ معيَّنٍ ، حتَّىٰ يزدادَ بهِ ذلاًّ إلىٰ ذلٍّ ، وعبوديةً إلىٰ عبوديةٍ ، وحتَّىٰ يستسخرَ العقلَ لخدمةِ الشهوةِ ، وقدْ خُلِقَ ليكونَ مطاعاً ، لا ليكونَ خادماً للشهوةِ ومحتالاً لأجلِها .

وما العشقُ إلا منبعُ إفراطِ الشهوةِ ، وهوَ مرضُ قلبٍ فارغٍ لا همَّ لهُ ، وإنَّما يجبُ الاحترازُ مِنْ أوائلِهِ بترْكِ معاودةِ النظرِ والفكْرِ ، وإلا فإذا استحكمَ . . عسرَ دفعُهُ .

وكذلكَ عشقُ الجاهِ والمالِ والعقارِ والأولادِ ، حتَّىٰ حبُّ اللعبِ بالطيورِ والنردِ والشطرنجِ ، فإنَّ هـٰذهِ الأمورَ قدْ تستولي علىٰ طائفةٍ بحيثُ تنغِّصُ عليهِمُ الدينَ والدنيا ، ولا يصبرونَ عنها ألبتةَ[1] .

---

(١) أما نقص الدين عليهم . . فمن جهات متعددة ، وأما نقصان الدنيا ؛ فإنه إن كان محترفاً . . يشتغل بها عن حرفته ، ويضيع عياله ، وإن كان ذا مال . . فإنه يضيعه فيما يتعلق بتلك الأشياء ، وهلم جرّاً إلىٰ أن ينفد ، وأما عدم صبرهم عنها . . فذلك مشاهد=

ومثالُ مَنْ يكسرُ سَوْرَةَ العشقِ في أوَّلِ انبعاثِهِ مثالُ مَنْ يصرفُ عِنانَ الدابّةِ عندَ توجُّهِها إلىٰ بابٍ لتدخلَهُ ، وما أهونَ منعَها بصرْفِ عِنانِها ، ومثالُ مَنْ يعالجُها بعدَ استحكامِها مثالُ مَنْ يتركُ الدابّةَ حتَّىٰ تدخلَ وتجاوزَ البابَ ، ثمَّ يأخذُ بذنبِها ويجرُّها إلىٰ ورائِها ، وما أعظمَ التفاوتَ بينَ الأمرينِ في اليسرِ والعسرِ .

فليكنِ الاحتياطُ في بداياتِ الأمورِ ، فأمَّا في أواخرِها . . فلا تقبلُ العلاجَ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، يكادُ يؤدِّي إلىٰ نزعِ الروحِ .

فإذاً ؛ إفراطُ الشهوةِ أنْ يغلبَ العقلَ إلىٰ هـٰذا الحدِّ ، وهوَ مذمومٌ جدّاً .

وتفريطُها : بالعنَّةِ ، أوْ بالضعفِ عنْ إمتاعِ المنكوحةِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ .

وإنَّما المحمودُ أنْ تكونَ معتدلةً ، ومطيعةً للعقلِ والشرعِ في انقباضِها وانبساطِها ، ومهما أفرطَتْ . . فكسْرُها بالجوعِ وبالنكاحِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « معاشرَ الشبابِ ؛ عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّهُ لهُ وجاءٌ »[1] .

* * *

= كادت أن تحول بينهم وبين أكلهم . « إتحاف » (٧/ ٤٣١) .

(١) رواه البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

اعلمْ : أنَّ المريدَ في ابتداءِ أمرِهِ ينبغي ألا يشغلَ قلبَهُ ونفسَهُ بالتزويجِ ؛ فإنَّ ذلكَ شغلٌ شاغلٌ يمنعُهُ عنِ السلوكِ ، ويستجرُّهُ إلى الأنْسِ بالزوجةِ ، ومَنْ أنسَ بغيرِ اللهِ تعالىٰ . . شُغِلَ عنِ اللهِ .

ولا يغرَّنَّهُ كثرةُ نكاحِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ كانَ لا يشغلُ قلبَهُ جميعُ ما في الدنيا عنِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تُقاسُ الملائكةُ بالحدَّادينَ .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ تزوَّجَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)(١) .

وقالَ : (ما رأيتُ مريداً تزوَّجَ فثبتَ علىٰ ما كانَ عليهِ) .

وقيلَ لهُ مرَّةً : ما أحوجَكَ إلى امرأةٍ تأنسُ بها ، فقالَ : لا آنسَني اللهُ بها ؛ أيْ : إنَّ الأنسَ بها يمنعُ الأنسَ باللهِ تعالىٰ .

وقالَ أيضاً : (كلُّ ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهوَ عليكَ مشؤومٌ)(٢) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٥) ، وإنما قال ذلك لأن هـٰذه الأمور مما توجب الركون إلى الدنيا لا محالة . « إتحاف » (٧/ ٤٣٢) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٣٦٢) .

وكيفَ يُقاسُ غيرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهِ وقدْ كانَ استغراقُهُ بحبِّ اللهِ تعالىٰ بحيثُ كانَ يخافُ احتراقَهُ فيهِ إلىٰ حدٍّ كانَ يخشىٰ منهُ في بعضِ الأحوالِ أنْ يسريَ ذلكَ إلىٰ قالبِهِ فيهدمَهُ ؛ فلذلكَ كانَ يضربُ بيدِهِ علىٰ فخذِ عائشةَ أحياناً ويقولُ : « كلِّميني يا عائشةُ »[1] ؛ لتشغلَهُ بكلامِها عنْ عظيمِ ما هوَ فيهِ ، لقصورِ طاقةِ قالبِهِ عنهُ ، فقدْ كانَ طبعُهُ الأنسَ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وكانَ أنسُهُ بالخلْقِ عارضاً رفقاً ببدنِهِ .

ثمَّ إنَّهُ كانَ لا يطيقُ الصبرَ معَ الخلقِ إذا جالسَهُمْ ، فإذا ضاقَ صدرُهُ . . قالَ : « أرحْنا بها يا بلالُ »[2] ؛ حتَّىٰ يعودَ إلىٰ ما هوَ قرَّةُ عينِهِ[3] .

فالضعيفُ إذا لاحظَ أحوالَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مثلِ هـٰذهِ الأمورِ . . فهوَ مغرورٌ ؛ لأنَّ الأفهامَ تقصرُ عنِ الوقوفِ علىٰ أسرارِ أفعالِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فشرطُ المريدِ العُزْبَةُ في الابتداءِ ، إلىٰ أنْ يقوىٰ في المعرفةِ ، هـٰذا إذا لـمْ تغلبْهُ الشهوةُ .

فإنْ غلبتْهُ الشهوةُ . . فليكسرْها بالجوعِ الطويلِ ، والصومِ الدائمِ ، فإنْ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٤٣٣) ، وعند البخاري (١١٦١) ، ومسلم (٧٤٣) من حديث عائشة رضي الله عنها : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ ؛ فإن كنت مستيقظة . . حدثني ، وإلا . . اضطجع حتىٰ يؤذن بالصلاة) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٨٥) .

(٣) فقد روى النسائي (٧/ ٦١) : « حبب إلي من الدنيا النساء والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة » .

لمْ تنقمعِ الشهوةُ بذلكَ ، وكانَ بحيثُ لا يقدرُ علىٰ حفظِ العينِ مثلاً وإنْ قدرَ علىٰ حفظِ الفرجِ . . فالنكاحُ لهُ أولىٰ ؛ لتسكنَ الشهوةُ ، وإلا فمهما لمْ يحفظْ عينَهُ . . لمْ يحفظْ فكرَهُ ، ويتفرَّقُ عليهِ همُّهُ ، وربما وقعَ في بليَّةٍ لا يطيقُها ، وزنا العينِ مِنْ كبارِ الصغائرِ ، وهوَ يؤدِّي على القرْبِ إلى الكبيرةِ الفاحشةِ ، وهيَ زنا الفرجِ ، ومَنْ لمْ يقدرْ علىٰ غضِّ بصرِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ حفظِ دينِهِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إيَّاكُمْ والنظرةَ ؛ فإنَّها تزرعُ في القلبِ شهوةً ، وكفىٰ بها فتنةً)(١) .

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (إنَّما جاءَتِ الفتنةُ لداوودَ عليهِ السلامُ مِنْ قبلِ النظرةِ)(٢) .

ولذلكَ قالَ لابنِهِ سليمانَ عليهما السلامُ : (يا بنيَّ ؛ امشِ خلفَ الأسدِ والأسودِ(٣) ، ولا تمشِ خلفَ المرأةِ)(٤) .

وقيلَ ليحيىٰ عليهِ السلامُ : ما بدْءُ الزنا ؟ قالَ : النظرُ والتمنِّي(٥) .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٣٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٤٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٣) .

(٣) أي : من الحيات .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٩) عن سليمان بن داوود علىٰ نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

(٥) الخبر عن الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٧٧) .

وقالَ الفضيلُ : يقولُ إبليسُ : هيَ قوسي القديمةُ ، وسهمي الذي لا أخطىءُ بهِ ؛ يعني : النظرةَ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ ، فمَنْ تركَها خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ .. أعطاهُ اللهُ تعالىٰ إيماناً يجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ مِنَ النِّساءِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا فتنةَ الدنيا وفتنةَ النساءِ ، فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانَتْ مِنْ قِبَلِ النساءِ »[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لكلِّ ابنِ آدمَ حظٌّ مِنَ الزنا ؛ فالعينانِ تزنيانِ وزناهُما النظرُ ، واليدانِ تزنيانِ وزناهُما البطشُ ، والرجلانِ تزنيانِ وزناهُما المشيُ ، والفمُ يزني وزناهُ القُبَلُ ، والقلبُ يهُمُّ أوْ يتمنَّىٰ ، ويصدِّقُ ذلكَ الفرجُ أوْ يكذِّبُهُ »[5] .

---

(١) كما هو مبين في الحديث الآتي .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٠١) .
(٣) رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠) .
(٤) رواه مسلم (٢٧٤٢) .
(٥) رواه البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٨٩) واللفظ له .

وقالَتْ أمُّ سلمةَ : استأذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ الأعمىٰ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا وميمونةُ جالستانِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « احتجبا » ، فقلنا : أوَليسَ بأعمىٰ لا يبصرُنا ؟ فقالَ : « وأنتما لا تبصرانِهِ ؟! »(١) .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يجوزُ للنساءِ مجالسةُ العميانِ كما جرَتْ بهِ العادةُ في المآتمِ والولائمِ ، فيحرمُ على الأعمى الخلوةُ بالنساءِ ، ويحرمُ على المرأةِ مجالسةُ الأعمىٰ وتحديقُ النظرِ إليهِ لغيرِ حاجةٍ ، وإنَّما جُوِّزَ للنساءِ محادثةُ الرجالِ والنظرُ إليهِمْ لأجلِ عمومِ الحاجةِ .

وإنْ قدرَ علىٰ حفظِ عينِهِ عنِ النساءِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ حفظِها عنِ الصبيانِ . . فالنكاحُ أولىٰ بهِ ، فإنَّ الشرَّ في الصبيانِ أكثرُ ، فإنَّهُ لوْ مالَ قلبُهُ إلى امرأةٍ . . أمكنَهُ الوصولُ إلى استباحتِها بالنكاحِ ، والنظرُ إلىٰ وجهِ الصبيِّ بالشهوةِ حرامٌ ، بلْ كلُّ مَنْ يتأثَّرُ قلبُهُ بجمالِ صورةِ الأمردِ بحيثُ يدركُ التفرقةَ بينَهُ وبينَ الملتحي . . لمْ يحلَّ لهُ النظرُ إليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : كلُّ ذي حسٍّ يدركُ التفرقةَ بينَ الجميلِ والقبيحِ لا محالةَ ، ولمْ تزلْ وجوهُ الصبيانِ مكشوفةً ؟

فأقولُ : لستُ أعني تفرقةَ العينِ فقطْ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ إدراكُهُ التفرقةَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤١١٢) ، والترمذي (٢٧٧٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٩٨) .

كإدراكِهِ التفرقةَ بينَ شجرةٍ خضراءَ وأخرىٰ يابسةٍ ، وبينَ ماءٍ صافٍ وماءٍ كدِرٍ ، وبينَ شجرةٍ عليها أزهارُها وأنوارُها وشجرةٍ تساقطَتْ أوراقُها ، فإنَّهُ يميلُ إلىٰ إحداهُما بعينِهِ وطبعِهِ ، ولكنْ ميلاً خالياً عنِ الشهوةِ ، ولأجلِ ذلكَ لا يشتهي ملامسةَ الأزهارِ والأنوارِ وتقبيلَها ، ولا تقبيلَ الماءِ الصافي ، وكذلكَ الشيبةُ الحسنةُ قدْ تميلُ العينُ إليها ، وتدركُ التفرقةَ بينَها وبينَ الوجهِ القبيحِ ، ولكنَّها تفرقةٌ لا شهوةَ فيها ، ويُعرَفُ ذلكَ بميلِ النفسِ إلى القرْبِ والملامسةِ ، فمهما وجدَ ذلكَ الميلَ في قلبِهِ ، وأدركَ تفرقةً بينَ الوجهِ الجميلِ ، وبينَ النباتِ الحسنِ ، والأثوابِ المنقَّشةِ ، والسقوفِ المذهبةِ . . فنظرُهُ نظرُ شهوةٍ ، فهوَ حرامٌ ، وهـٰذا ممَّا يتهاونُ بهِ الناسُ ، ويجرُّهُمْ ذلكَ إلى المعاطبِ وهمْ لا يشعرونَ .

وقالَ بعضُ التابعينَ : (ما أنا بأخوفَ مِنَ السبعِ الضاري على الشابِّ الناسكِ مِنْ غلامٍ أمردَ يجلسُ إليهِ)(١) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (لوْ أنَّ رجلاً عبثَ بغلامٍ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ رجْلِهِ يريدُ الشهوةَ . . لكانَ لواطاً)(٢) .

وعنْ بعضِ السلفِ قالَ : (سيكونُ في هـٰذهِ الأمَّةِ ثلاثةُ أصنافٍ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٣) ، كذا عن بعض التابعين .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٣٧) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٤٤٠) .

لوطيونَ : صنفٌ ينظرونَ ، وصنفٌ يصافحونَ ، وصنفٌ يعملونَ)[1] .

فإذاً ؛ آفةُ النظرِ إلى الأحداثِ عظيمةٌ ، فمهما عجزَ المريدُ عنْ غضِّ بصرِهِ ، وضبطِ فكرِهِ . . فالصوابُ لهُ أنْ يكسرَ شهوتَهُ بالنكاحِ ، فربَّ نفسٍ لا يسكنُ توقانُها بالجوعِ .

* * *

وقالَ بعضُهُمْ : غلبَتْ عليَّ شهوتي في بدْءِ إرادتي بما لمْ أطقْ ، فأكثرتُ الضجيجَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فرأيتُ شخصاً في المنامِ ، فقالَ : ما لكَ ، فشكوتُ إليهِ ، فقالَ : تقدَّمْ إليَّ ، فتقدمتُ إليهِ ، فوضعَ يدَهُ علىٰ صدري ، فوجدتُ بردَها في فؤادي وجميعِ جسدي ، فأصبحتُ وقدْ زالَ ما بي ، فبقيتُ معافىً سنةً ، ثمَّ عاودَني ذلكَ ، فأكثرتُ الاستغاثةَ ، فجاءَني شخصٌ في المنامِ فقالَ لي : أتحبُّ أنْ يذهبَ ما تجدُ وأضربَ عنقَكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، فقالَ : مُدَّ رقبتَكَ ، فمددتُها ، فجرَّدَ سيفاً مِنْ نورٍ ، فضربَ بهِ عنقي ، فأصبحتُ وقدْ زالَ ما بي ، فبقيتُ معافىً سنةً ، ثمَّ عاودَني ذلكَ أوْ أشدُّ منهُ ، فرأيتُ كأنَّ شخصاً يخاطبُني فيما بينَ جنبي وصدري ويقولُ : ويحَكَ ، كمْ تسألُ اللهَ تعالىٰ رفْعَ ما لا يحبُّ رفعَهُ ! قالَ : فتزوجتُ ، فانقطعَ ذلكَ عنِّي ووُلِدَ لي[2] .

---

(١) رواه ابن الجوزي في « ذم الهوى » (٣٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠١٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧٠) .

ومهما احتاجَ المريدُ إلى النكاحِ . . فلا ينبغي أنْ يتركَ شرطَ الإرادةِ في ابتداءِ النكاحِ ودوامِهِ ؛ أمَّا في ابتدائِهِ . . فبالنيَّةِ الحسنةِ ، وفي دوامِهِ . . بحسنِ الخلقِ ، وسدادِ السيرةِ ، والقيامِ بالحقوقِ الواجبةِ ، كما فصَّلْنا جميعَ ذلكَ في كتابِ آدابِ النكاحِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ .

وأمارةُ صدْقِ إرادتِهِ أنْ ينكحَ فقيرةً متديِّنةً ، ولا يطلبَ الغنيَّةَ .

قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ تزوَّجَ غنيَّةً . . كانَ لهُ منها خمسُ خصالٍ : مغالاةُ الصداقِ ، وتسويفُ الزفافِ ، وفوتُ الخدمةِ ، وكثرةُ النفقةِ ، وإذا أرادَ طلاقَها . . لمْ يقدرْ ؛ خوفاً مِنْ ذهابِ مالِها ، والفقيرةُ بخلافِ ذلكِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ينبغي أنْ تكونَ المرأةُ دونَ الرجلِ بأربعٍ ، وإلا . . استحقرَتْهُ : بالسنِّ ، والطولِ ، والمالِ ، والحسبِ ، وأنْ تكونَ فوقَهُ بأربعٍ : بالجمالِ ، والأدبِ ، والخُلُقِ ، والورعِ)[2] .

وعلامةُ صدْقِ الإرادةِ في دوامِ النكاحِ الخُلُقُ .

تزوَّجَ بعضُ المريدينَ بامرأةٍ ، فلمْ يزلْ يخدمُها حتَّى استحيتِ المرأةُ ، وشكَتْ ذلكَ إلىٰ أبيها ، وقالَتْ : قدْ تحيَّرتُ في هـٰذا الرجلِ ، أنا في منزلِهِ منذُ سنينَ ما ذهبتُ إلى الخلاءِ قطُّ إلا وحملَ الماءَ قبلي إليهِ ![3] .

---

(١) القول لمعاذ بن يعقوب النسفي ، كما أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٥) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

وتزوَّجَ بعضُهُمْ امرأةً ذاتَ جمالٍ ، فلمَّا قربَ زفافُها . . أصابَها الجُدَريُّ ، فاشتدَّ حزْنُ أهلِها لذلكَ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يستقبحَها ، فأراهُمُ الرجلُ أنَّ بهِ رمداً ، ثمَّ أراهُمْ أنَّ بصرَهُ قدْ ذهبَ ، حتَّىٰ زُفَّتْ إليهِ المرأةُ ، فزالَ عنهُمُ الحزنُ ، فبقيَتْ عندَهُ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تُوفيَتْ ، ففتحَ عينيهِ حينَ ذلكَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : تعمدتُهُ لأجلِ أهلِها حتَّىٰ لا يحزنوا ، فقيلَ لهُ : قدْ سبقتَ إخوانَكَ بهٰذا الخلقِ(١) .

وتزوَّجَ بعضُ الصوفيَّةِ امرأةً سيِّئةَ الخلقِ ، فكانَ يصبرُ عليها ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تطلقُها ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يتزوَّجَها مَنْ لا يصبرُ علىٰ خلقِها فيتأذَّىٰ بها(٢) .

فإنْ نكحَ المريدُ . . فهكذا ينبغي أنْ يكونَ ، وإنْ قدرَ على التركِ . . فهوَ لهُ أولىٰ إذا لمْ يمكنْهُ الجمعُ بينَ فضْلِ النكاحِ وسلوكِ الطريقِ ، وعلمَ أنَّ ذلكَ يشغلُهُ عنْ حالِهِ .

كما رُوِيَ أنَّ محمدَ بنَ سليمانَ الهاشميَّ كانَ يملكُ منْ غلةِ الدنيا ثمانينَ ألفَ درهمٍ في كلِّ يومٍ ، فكتبَ إلىٰ أهلِ البصرةِ وعلمائِها في امرأةٍ يتزوَّجُها ، فأجمعوا كلُّهُمْ علىٰ رابعةَ العدويَّةِ رحمها اللهُ تعالىٰ ، فكتبَ إليها :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٣٧) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ : فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ ملَّكَني مِنْ غلَّةِ الدنيا في كلِّ يومٍ ثمانينَ ألفَ درهمٍ ، وليسَ تمضي الليالي والأيامُ حتَّىٰ أتمَّها مئةَ ألفٍ ، وأنا أصيِّرُ لكِ مثلَها ومثلَها ، فأجيبيني .

فكتبَتْ إليهِ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمَّا بعدُ : فإنَّ الزهدَ في الدنيا راحةُ القلبِ والبدنِ ، والرغبةَ فيها تورثُ الهمَّ والحزَنَ ، فإذا أتاكَ كتابي هـٰذا . . فهيِّىء زادَكَ ، وقدِّمْ لمعادِكَ ، وكُنْ وصيَّ نفسِكَ ، ولا تجعلِ الرجالَ أوصياءَكَ ، فيقتسموا تراثَكَ ، وصمِ الدهرَ ، واجعلْ فطرَكَ الموتَ ، وأمَّا أنا . . فلوْ أنَّ اللهَ تعالىٰ خوَّلَني أمثالَ الذي خوَّلَكَ وأضعافَهُ . . ما سرَّني أنْ أشتغلَ عنِ اللهِ طرفةَ عينٍ(١) .

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما شغلَ عنِ اللهِ تعالىٰ فهوَ نقصانٌ .

فلينظرِ المريدُ إلىٰ حالِهِ وقلبِهِ ، فإنْ وجدَهُ في العزوبةِ . . فهوَ الأقربُ ، وإنْ عجزَ عنْ ذلكَ . . فالنكاحُ أولىٰ بهِ .

ودواءُ هـٰذهِ العلَّةِ ثلاثٌ : الجوعُ ، وغضُّ البصرِ ، والاشتغالُ بشغلٍ يستوفي القلبَ ، فإنْ لمْ تنفعْ هـٰذهِ الثلاثةُ . . فالنكاحُ هوَ الذي يستأصلُ مادَّتَها فقطْ ، ولهـٰذا كانَ السلفُ يبادرونَ إلى النكاحِ وإلىٰ تزويجِ البناتِ .

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٤١) .

قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (ما أيسَ الشيطانُ مِنْ أحدٍ إلا وأتاهُ مِنْ قبلِ النساءِ)[1] .

وقالَ سعيدٌ وهوُ ابنُ أربعٍ وثمانينَ سنةً[2] ، وقدْ ذهبَتْ إحدىٰ عينيهِ وهوَ يعشو بالأخرىٰ : (ما شيءٌ أخوفَ عندي مِنَ النساءِ)[3] .

وعنْ ابنِ أبي وداعةَ قالَ : كنتُ أجالسُ سعيدَ بنَ المسيَّبِ ، ففقدَني أياماً ، فلمَّا جئتُهُ . قالَ : أينَ كنتَ ؟ قلتُ : تُوفيَتْ أهلي ، فاشتغلتُ بها ، فقالَ : هلاَّ أخبرتَنا فشهدناها ، قالَ : ثمَّ أردتُ أنْ أقومَ ، فقالَ : هلِ استحدثتَ امرأةً ؟ فقلتُ : يرحمُكَ اللهُ تعالىٰ ، ومَنْ يزوِّجُني وما أملكُ إلا درهمينِ أوْ ثلاثةً ؟! فقالَ : أنا ، فقلتُ : وتفعلُ ؟! قالَ : نعمْ ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ ، وصلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وزوَّجَني علىٰ درهمينِ أوْ قالَ : ثلاثةٍ .

قالَ : فقمتُ وما أدري ما أصنعُ مِنَ الفرحِ ، فصرتُ إلىٰ منزلي ، وجعلتُ أفكِّرُ ممَّنْ آخذُ ، وممنْ أستدينُ ، فصلَّيتُ المغربَ ، وانصرفتُ إلىٰ منزلي ، فأسرجْتُ وكنتُ وحدي صائماً ، فقدمتُ عشائي لأفطرَ ، وكانَ خبزاً وزيتاً ، وإذا بابي يُقرعُ ، فقلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَ سعيدٌ : قالَ : فأفكرتُ في كلِّ إنسانٍ اسمُهُ سعيدٌ إلا سعيدَ بنَ المسيَّبِ ، وذلكَ أنَّهُ لمْ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٦٦) .
(٢) وثمَّ خلاف في سنة وفاته ، وكأن الراجح أنه عاش أربعاً وسبعين سنة .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٦٦) .

يُرَ أربعينَ سنةً إلا بينَ دارِهِ والمسجدِ ، فقمتُ فخرجتُ إليهِ ، فإذا به سعيدُ بنُ المسيَّبِ ، فظننتُ أنَّهُ قدْ بدا لهُ ، فقلتُ : يا أبا محمدٍ ؛ لوْ أرسلتَ إليَّ . . لأتيتُكَ ، فقالَ : لا ، أنتَ أحقُّ أنْ تُؤتىٰ ، قلتُ : فما تأمرُ ؟ قالَ : إنَّكَ كنتَ رجلاً عزباً ، فتزوجتَ ، فكرهتُ أنْ أبيتَكَ الليلةَ وحدَكَ ، وهٰذهِ امرأتُكَ ، فإذا هيَ قائمةٌ خلفَهُ في طولِهِ ، ثمَّ أخذَ بيدِها ، فدفعَها في البابِ وردَّهُ ، فسقطَتِ المرأةُ مِنَ الحياءِ ، فاستوثقتُ مِنَ البابِ ، ثمَّ تقدمتُ إلى القصعةِ التي فيها الزيتُ والخبزُ ، فوضعتُها في ظلِّ السراجِ لكيلا تراهُ ، ثمَّ صعدتُ السطحَ ، فرميتُ الجيرانَ ، فجاؤوني ، وقالوا : ما شأنُكَ ؟ قلتُ : ويحَكم ! زوَّجَني سعيدُ بنُ المسيَّبِ بنتَهُ اليومَ ، وقدْ جاءَ بها الليلةَ علىٰ غفلةٍ ، فقالوا : سعيدٌ زوَّجَكَ ؟! قلتُ : نعمْ ، وهٰهيَ في الدارِ ، فنزلوا إليها ، وبلغَ ذلكَ أمِّي ، فجاءَتْ وقالَتَ : وجهي مِنْ وجهِكَ حرامٌ إنْ مسستَها قبلَ أنْ أصلحَها إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، قالَ : فأقمتُ ثلاثاً ، ثمَّ دخلتُ بها ، فإذا هي مِنْ أجملِ النساءِ ، وأحفظِ الناسِ لكتابِ اللهِ تعالىٰ ، وأعلمِهِمْ بسنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأعرفِهِمْ بحقِّ الزوجِ .

قالَ : فمكثتُ شهراً لا يأتيني سعيدٌ ولا آتيهِ ، فلمَّا كانَ قُرْبَ الشهرِ . . أتيتُهُ وهوَ في حلقتِهِ ، فسلَّمْتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ولمْ يكلِّمْني حتَّىٰ تفرَّقَ الناسُ مِنَ المجلسِ ، فقالَ : ما حالُ ذلكَ الإنسانِ ؟ قلتُ : خيراً يا أبا محمدٍ ، علىٰ ما يحبُّ الصديقُ ويكرهُ العدوُّ ، قالَ : إنْ رابَكَ شيءٌ . . فالعصا ، فانصرفتُ إلىٰ منزلي ، فوجَّهَ إليَّ بعشرينَ ألفَ درهمٍ .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ سليمانَ : وكانَتْ بنتُ سعيدِ بنِ المسيَّبِ خطبَها عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لابنهِ الوليدِ حينَ ولاَّهُ العهدَ ، فأبىٰ سعيدٌ أنْ يزوِّجَهُ ، فلمْ يزلْ عبدُ الملكِ يحتالُ علىٰ سعيدٍ حتَّىٰ ضربَهُ مئةَ سوطٍ في يومٍ باردٍ ، وصبَّ عليهِ جرَّةَ ماءٍ ، وألبسَهُ جبَّةَ صوفٍ(١) .

فاستعجالُ سعيدٍ في الزفافِ تلكَ الليلةَ يعرِّفُكَ غائلةَ الشهوةِ ، ووجوبَ المبادرةِ إلىٰ تطفئةِ نارِها بالنكاحِ ، رضيَ اللهُ عنهُ ورحمهُ .

* * *

---

(١) الخبر بطوله رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٦٧) ، وابن أبي وداعة هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي القرشي .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ الشهوةَ هيَ أغلبُ الشهواتِ على الإنسانِ ، وأعصاها عندَ الهيجانِ على العقلِ ، إلا أنَّ مقتضاها قبيحٌ يُستحيا منهُ ، ويُخشىٰ مِنِ اقتحامِهِ .

وامتناعُ أكثرِ الناسِ عنْ مقتضاها إمَّا لعجزٍ ، أوْ لخوفٍ ، أوْ لحياءٍ ، أوِ لمحافظةٍ علىٰ حشمةٍ ، وليسَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ ثوابٌ ؛ فإنَّهُ إيثارُ حظٍّ مِنْ حظوظِ النفسِ علىٰ حظٍّ آخرَ .

نعمْ ، مِنَ العصمةِ ألا يقدرَ[1] ، ففي هٰذهِ العوائقِ فائدةٌ ، وهيَ دفعُ الإثمِ ، فإنَّ مَنْ تركَ الزنا . . اندفعَ عنهُ إثمُهُ بأيِّ سببٍ كانَ تركُهُ ، وإنَّما الفضْلُ والثوابُ الجزيلُ في تركِهِ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ القدرةِ وارتفاعِ الموانعِ وتيسُّرِ الأسبابِ ، لا سيما عندَ صدْقِ الشهوةِ ، وهٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عشقَ فعفَّ فكتمَ فماتَ . . فهوَ شهيدٌ »[2] .

---

(١) والمشهور على الألسنة : ومن العصمة ألا تجد ، والمراد بالعصمة هنا : الحفظ ؛ أي : فإذا أراد الله حفظ عبده . . لم يجعله قادراً على الإتيان بشيء من المخالفات . « إتحاف » (٧/ ٤٣٩) .

(٢) رواه الأصفهاني في « الزهرة » (١/ ١١٧) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٦) ، والسراج القاري في « مصارع العشاق » (١/ ١٤) من حديث ابن عباس =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » ، وعدَّ منهُمْ : « رجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسبٍ وجمالٍ إلىٰ نفسِها ، فقالَ : إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ »(١) .

وقصَّةُ يوسفَ عليهِ السلامُ وامتناعُهُ مِنْ زليخا معَ القدرةِ ومعَ رغبتِها معروفةٌ ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ بذلكَ في كتابِهِ العزيزِ ، وهوَ إمامٌ لكلِّ مَنْ وُفِّقَ لمجاهدةِ الشيطانِ في هـٰذهِ الشهوةِ العظيمةِ .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ يسارٍ كانَ مِنْ أحسنِ الناسِ وجهاً ، فدخلَتْ عليهِ امرأةٌ ، فسألَتْهُ نفسَهُ ، فامتنعَ عليها ، وخرجَ هارباً مِنْ منزلِهِ وتركَها فيهِ ، قالَ سليمانُ : فرأيتُ تلكَ الليلةَ في المنامِ يوسفَ عليهِ السلامُ وكأنِّي أقولُ لهُ : أنتَ يوسفُ ؟ قالَ : نعمْ ، أنا يوسفُ الذي هممتُ ، وأنتَ سليمانُ الذي لمْ تهمَّ(٢) .

أشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ .

وعنهُ أيضاً ما هوَ أعجبُ مِنْ هـٰذا ، وذلكَ أنَّهُ خرجَ مِنَ المدينةِ حاجّاً

= رضي الله عنهما مرفوعاً ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/ ٤٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً كذلك بنحوه ، ووسع القول فيه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٧/ ٤٣٩) .

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٠٩) .

ومعَهُ رفيقٌ لهُ ، حتَّىٰ نزلا بالأبواءِ ، فقامَ رفيقُهُ وأخذَ السفرةَ ، وانطلقَ إلى السوقِ ليبتاعَ شيئاً ، وجلسَ سليمانُ في الخيمةِ ، وكانَ مِنْ أجملِ الناسِ وجهاً وأورعِ الناسِ ، فبصرَتْ بهِ أعرابيَّةٌ مِنْ قلَّةِ الجبلِ ، فلمَّا رأتْ جمالَهُ وحسنَهُ. . انحدرَتْ إليهِ حتىٰ وقفَتْ بينَ يديهِ وعليها البرقعُ والقفازانِ ، فأسفرَتْ عنْ وجهٍ لها كأنَّهُ فلقةُ قمرٍ ، وقالَتْ : أهنئْني ، فظنَّ أنَّها تريدُ طعاماً فقامَ إلىٰ فضلِ السفرةِ ليعطيَها ، فقالَتْ : لستُ أريدُ هـٰذا ، إنَّما أريدُ ما يكونُ مِنَ الرجلِ إلىٰ أهلِهِ ، فقالَ : جهَّزَكِ إليَّ إبليسُ ، ثمَّ وضعَ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ وأخذَ في النحيبِ ، فلمْ يزلْ يبكي ، فلمَّا رأتْ منهُ ذلكَ. . سدلَتِ البرقعَ علىٰ وجهِها ، وانصرفَتْ راجعةً حتَّىٰ بلغَتْ أهلَها .

وجاءَ رفيقُهُ ، فرآهُ وقدِ انتفخَتْ عيناهُ مِنَ البكاءِ وانقطعَ حلقُهُ ، فقالَ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : خيرٌ ، ذكرتُ صبيتي ، قالَ : لا واللهِ ، إلا أنَّ لكَ قصَّةً ، إنَّما عهدُكَ بصبيتِكَ منذُ ثلاثٍ أوْ نحوِها ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ أخبرَهُ خبرَ الأعرابيَّةِ ، فوضعَ رفيقُهُ السفرةَ وجعلَ يبكي بكاءً شديداً ، فقالَ لهُ سليمانُ : وأنتَ ما يبكيكَ ؟ قالَ : أنا أحقُّ بالبكاءِ منكَ ، لأنِّي أخشىٰ أنْ لوْ كنتُ مكانَكَ. . لما صبرتُ عنها ، فلمْ يزالا يبكيانِ .

فلمَّا انتهىٰ سليمانُ إلىٰ مكَّةَ ، وطافَ وسعىٰ. . أتى الحجرَ ، فاحتبىٰ بثوبِهِ ، فنعسَ فإذا رجلٌ وسيمٌ جميلٌ طوالٌ لهُ شارةٌ حسنةٌ ، ورائحةٌ طيبةٌ ، فقالَ لهُ سليمانُ : مَنْ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : أنا يوسفُ ، قالَ : يوسفُ الصدِّيقُ ؟! قالَ : نعمْ ، قالَ : إنَّ في شأنِكَ وشأنِ امرأةِ العزيزِ لعجباً ،

فقالَ لهُ يوسفُ : شأنُكَ وشأنُ صاحبةِ الأبواءِ أعجبُ[1] .

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ ممَّنْ كانَ قبلَكُمْ ، حتَّىٰ آواهُمُ المبيتُ إلىٰ غارٍ ، فدخلوهُ ، فانحدرَتْ صخرةٌ مِنَ الجبلِ ، فسدَّتْ عليهِمُ الغارَ ، فقالوا : إنَّهُ لا ينجيكُمْ مِنْ هـٰذهِ الصخرةِ إلا أنْ تدعوا اللهَ تعالىٰ بصالحِ أعمالِكُمْ ، فقالَ رجلٌ منهُمْ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّهُ كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ ، وكنتُ لا أغبقُ قبلَهُما أهلاً ولا مالاً[2] ، فنأىٰ بي طلبُ الشجرِ يوماً ، فلمْ أُرِحْ عليهِما حتَّىٰ ناما ، فحلبتُ لهما غَبُوقَهُما ، فوجدتُهما نائمينِ ، فكرهتُ أنْ أَغبِقَ قبلَهُما أهلاً أوْ مالاً ، فلبثتُ والقدحُ في يدي أنتظرُ استيقاظَهُما حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، والصبيةُ يتضاغَونَ حولَ قدمي ، فاستيقظا ، فشربا غَبُوقَهُما ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ . . ففرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ مِنْ هـٰذهِ الصخرةِ ، فانفرجَتْ شيئاً لا يستطيعونَ الخروجَ منهُ .

وقالَ الآخرُ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّهُ كانَتْ لي ابنةُ عمٍّ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، فراودتُها عنْ نفسِها ، فامتنعَتْ منِّي ، حتَّىٰ ألمَّتْ بها سنةٌ مِنَ السنينَ ، فجاءَتْني ، فأعطيتُها مئةً وعشرينَ ديناراً علىٰ أنْ تخلِّيَ بيني وبينَ نفسِها ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩١) .

(٢) أي : لا أقدم في الغبوق عليهما أحداً من الأهل ولا من المال ، والمراد **بالأهل** : زوجته وصبيته ، **والمراد بالمال** : الناطق . « إتحاف » (٧/ ٤٤٢) ، **والغبوق** : ما يشرب عشاءً .

ففعلَتْ ، حتَّىٰ إذا قدرتُ عليها . . قالَتْ : اتقِ اللهَ ولا تفضَّ الخاتمَ إلا بحقِّهِ ، فتحرَّجتُ مِنَ الوقوعِ عليها ، فانصرفتُ عنها وهيَ مِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، وتركتُ الذَّهبَ الذي أعطيتُها ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ . . ففرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ ، فانفرجَتِ الصخرةُ عنهُمْ ، غيرَ أنَّهُمْ لا يستطيعونَ الخروجَ منها .

وقالَ الثَّالثُ : اللهمَّ ؛ إنِّي استأجرتُ أجراءَ ، وأعطيتُهُمْ أجرَهُمْ غيرَ رجلٍ واحدٍ ، فإنَّهُ تركَ الأجرَ الذي لهُ وذهبَ ، فثمَّرتُ أجرَهُ حتَّىٰ كثرَتْ منهُ الأموالُ ، فجاءَني بعدَ حينٍ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ أعطني أجري ، فقلتُ : كلُّ ما ترىٰ مِنْ أجرِكَ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ، لا تستهزِئْ بي ، فقلتُ : لا أستهزِئُ بكَ ، فخذْهُ ، فاستاقَهُ وأخذَهُ كلَّهُ ولمْ يتركْ منهُ شيئاً ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافرجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ ، فانفرجَتِ الصخرةُ ، فخرجوا يمشونَ »(١) .

فهٰذا فضْلُ مَنْ تمكَّنَ مِنْ قضاءِ هٰذهِ الشهوةِ فعفَّ ، ويقربُ منهُ مَنْ تمكَّنَ مِنْ قضاءِ شهوةِ العينِ ؛ فإنَّ النظرَ مبدأُ الزنا ، فحفظُه مهمٌّ ، وهوَ عسيرٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ قدْ يُستهانُ بهِ ، ولا يعظمُ الخوفُ فيهِ ، والآفاتُ كلُّها تنشأُ منهُ .

والنظرةُ الأولىٰ إذا لمْ تُقصدْ . . لا يُؤاخذُ بها ، والمعاودةُ يُؤاخذُ بها ،

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢) واللفظ له ، ومسلم (٢٧٤٣) .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكَ الأولىٰ ، وعليكَ الثانيةُ »(١) أيِ : النظرةُ .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (لا تتبعْ بصرَكَ رداءَ المرأةِ ؛ فإنَّ النظرَ يزرعُ في القلبِ شهوةً)(٢) .

وقلَّما يخلو الإنسانُ في تردداتِهِ عنْ وقوعِ البصرِ على النساءِ والصبيانِ ، فمهما تخايلَ إليهِ الحسنُ . . تقاضى الطبعُ المعاودةَ ، وعندَهُ ينبغي أنْ يقرِّرَ في نفسِهِ أنَّ هـٰذهِ المعاودةَ عينُ الجهلِ ؛ لأنَّهُ إنْ حقَّقَ النظرَ فاستحسنَ . . ثارَتِ الشهوةُ ، وعجزَ عنِ الوصولِ ، فلا يحصلُ لهُ إلا التحسُّرُ ، وإنِ استقبحَ . . لمْ يلتذَّ ، وتألَّم لأنَّهُ قصدَ الالتذاذَ ، فقدْ فعلَ ما آلمَهُ ، فلا يخلو في كلتا حالتيهِ عنْ معصيةٍ وعنْ تألُّمٍ وتحسُّرٍ .

ومهما حفظَ العينَ بهـٰذا الطريقِ . . اندفعَ عنْ قلبِهِ كثيرٌ مِنَ الآفاتِ ، وإنْ أخطأَتْ عينُهُ وحفظَ الفرجَ معَ التمكُّنِ . . فذلكَ يستدعي غايةَ القوَّةِ ونهايةَ التوفيقِ(٣) .

رُوِيَ عنْ بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ أنَّ قصَّاباً أُولعَ بجاريةٍ لبعضِ جيرانِهِ ، فأرسلَها أهلُها في حاجةٍ لهُمْ إلىٰ قريةٍ أخرىٰ ، فتبعَها ، وراودَها عنْ نفسِها ،

---

(١) رواه أبو داوود (٢١٤٩) ، والترمذي (٢٧٧٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٤) .
(٣) في (أ) : (فإن حفظ عينه وفرجه مع التمكن . . .) .

فقالَتْ لهُ : لا تفعلْ ، لأنا أشدُّ حبّاً لكَ منكَ لي ، ولكنِّي أخافُ اللهَ .

قالَ : فأنتِ تخافينَهُ وأنا لا أخافُهُ !! فرجعَ تائباً ، فأصابَهُ العطشُ حتَّىٰ كادَ ينقطعُ عنقُهُ ، فإذا هوَ برسولٍ لبعضِ أنبياءِ بني إسرائيلَ ، فسألَهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : العطشُ ، قالَ : تعالَ حتَّىٰ ندعوَ حتَّىٰ تظلَّنا سحابةٌ حتَّىٰ ندخلَ القريةَ ، قالَ : ما لي مِنْ عملٍ فأدعوَ ، قالَ : فأنا أدعو وأمِّنْ أنتَ علىٰ دعائي ، فدعا الرسولُ ، وأمَّنَ هوَ ، فأظلَّتْهُما سحابةٌ حتَّى انتهيا إلى القريةِ ، فأخذَ القصَّابُ إلىٰ مكانِهِ ، فمالَتِ السحابةُ معَهُ ، فقالَ لهُ الرسولُ : زعمتَ أنْ ليسَ لكَ عملٌ ، وأنا الذي دعوتُ وأنتَ الذي أمَّنتَ ، فأظلَّتنا سحابةٌ ، ثمَّ تبعَتْكَ ، لتخبرْني بأمرِكَ ، فأخبرَهُ ، فقالَ الرسولُ : إنَّ التائبَ عندَ اللهِ تعالىٰ بمكانٍ ليسَ أحدٌ مِنَ الناسِ بمكانِهِ(1) .

وعنْ أحمدَ بنِ سعيدٍ العابدِ ، عنْ أبيهِ قالَ : كانَ عندنا بالكوفةِ شابٌّ متعبِّدٌ ، لازمَ المسجدَ الجامعَ ، لا يكادُ يفارقُهُ ، وكانَ حسنَ الوجهِ ، حسنَ القامةِ ، حسنَ السمتِ ، فنظرَتْ إليهِ امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وعقلٍ ، فشُغفَتْ بهِ ، وطالَ ذلكَ عليها ، فلمَّا كانَ ذاتَ يومٍ . . وقفَتْ لهُ علىٰ طريقِهِ وهوَ يريدُ المسجدَ ، فقالَتْ لهُ : يا فتى ؛ اسمعْ منِّي كلماتٍ أكلِّمُكَ بها ثمَّ اعملْ ما شئتَ ، فمضىٰ ولمْ يكلِّمْها .

ثمَّ وقفَتْ لهُ بعدَ ذلكَ علىٰ طريقِهِ وهوَ يريدُ منزلَهُ ، فقالَتْ لهُ : يا فتى ؛

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٣٠) .

اسمعْ منِّي كلماتٍ أكلِّمُكَ بها ، فأطرقَ مليّاً وقالَ لها : هـٰذا موقفُ تهمةٍ ، وأنا أكرهُ أنْ أكونَ للتهمةِ موضعاً .

فقالَتْ لهُ : واللهِ ؛ ما وقفتُ موقفي هـٰذا جهالةً منِّي بأمرِكَ ، ولكنْ معاذَ اللهِ أنْ يتشوَّفَ العبادُ إلىٰ مثلِ هـٰذا منِّي ، والذي حملَني علىٰ أنْ لقيتُكَ في مثلِ هـٰذا الأمرِ بنفسي لمعرفتي أنَّ القليلَ مِنْ هـٰذا عندَ الناسِ كثيرٌ ، وأنتمْ معاشرَ العبَّادِ في مثالِ القواريرِ ، أدنىٰ شيءٍ يعيبُها ، وجملةُ ما أكلِّمُكَ بهِ أنَّ جوارحي كلَّها مشغولةٌ بكَ ، فاللهَ اللهَ في أمري وأمرِكَ .

قالَ : فمضى الشابُّ إلىٰ منزلِهِ ، وأرادَ أنْ يصلِّيَ ، فلمْ يعقلْ كيفَ يصلِّي ، فأخذَ قرطاساً وكتبَ كتاباً ، ثمَّ خرجَ مِنْ منزلِهِ ، فإذا بالمرأةِ واقفةٌ في وضعِها ، فألقى الكتابَ إليها ورجعَ إلىٰ منزلِهِ .

وكانَ فيهِ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلمي أيَّتُها المرأةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا عصاهُ العبدُ . . حلمَ ، فإذا عادَ إلى المعصيةِ مرَّةً أخرىٰ . . سترَهُ ، فإذا لبسَ لها ملابسَها . . غضبَ اللهُ تعالىٰ لنفسِهِ غضبةً تضيقُ منها السماواتُ والأرضُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ .

فمَنْ ذا يطيقُ غضبَهُ .

فإنْ كانَ ما ذكرتِ باطلاً . . فإنِّي أذكِّرُكِ يوماً تكونُ السماءُ فيهِ كالمُهْلِ ، وتصيرُ الجبالُ كالعهْنِ ، وتجثو الأممُ لصولةِ الجبَّارِ العظيمِ ، وإنِّي واللهِ قدْ ضعفتُ عنْ إصلاحِ نفسي ، فكيفَ بإصلاحِ غيري .

وإنْ كانَ ما ذكرتِ حقّاً . . فإنّي أدلُّكِ علىٰ طبيبٍ يداوي الكلومَ الممرضةَ ، والأوجاعَ المُرْمِضةَ ، ذلكَ اللهُ ربُّ العالمينَ ، فاقصديهِ علىٰ صدْقِ المسألةِ ؛ فإنّي مشغولٌ عنكِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۞ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .

فأينَ المهربُ مِنْ هـٰذهِ الآيةِ ؟!

ثمَّ جاءَتْ بعدَ ذلكَ بأيامٍ ، فوقفَتْ لهُ علىٰ طريقِهِ ، فلمَّا رآها مِنْ بعيدٍ . . أرادَ الرجوعَ إلىٰ منزلِهِ لئلا يراها ، فقالَتْ : يا فتىٰ ؛ لا ترجعْ ، فلا كانَ الملتقىٰ بعدَ هـٰذا اليوم أبداً إلا غداً بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بكَتْ بكاءً شديداً ، وقالَتْ : أسألُ اللهَ تعالى الذي بيدِهِ مفاتيحُ قلبِكَ أنْ يسهِّلَ ما قدْ عَسُرَ مِنْ أمرِكَ .

ثمَّ إنَّها تبعَتْهُ ، فقالَتِ : امننْ عليَّ بموعظةٍ أحملُها عنكَ ، وأوصني بوصيَّةٍ أعملُ عليها .

فقالَ لها : أوصيكِ بحفْظِ نفسِكِ مِنْ نفسِكِ ، وأذكِّرُكِ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ .

قالَ : فأطرقَتْ وبكَتْ بكاءً شديداً أشدَّ مِنْ بكائِها الأوَّلِ ، ثمَّ إنها أفاقَتْ ولزمَتْ بيتَها ، وأخذَتْ في العبادةِ ، فلمْ تزلْ علىٰ ذلكَ حتَّىٰ ماتَتْ كمداً .

فكانَ الفتىٰ يذكرُها بعدَ موتِها ثمَّ يبكي فيُقالُ لهُ : ممَّ بكاؤُكَ وأنتَ قدْ آيسْتَها منْ نفسِكَ ؟

فيقولُ : إنِّي قدْ ذبحتُ طمعَها في أوَّلِ أمرِها ، وجعلتُ قطيْعَتَها ذخيرةً لي عندَ اللهِ تعالىٰ ، فأنا أستحيي مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ أستردَّ ذخيرةً ادخرتُها عندَهُ[1] .

* * *

تم كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

ولله الحمد والمنّة ، وصلواته على أشرف خلقه سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليمًا

يتلوه كتاب آفات اللسان

(١) رواها السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/ ٤٩) .

كتاب
آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آفات اللّسان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أحسنَ خلقَ الإنسانِ وعدَّلَهُ ، وألهمَهُ نورَ الإيمانِ فزيَّنَهُ بهِ وجمَّلَهُ ، وعلَّمَهُ البيانَ فقدَّمَهُ بهِ وفضَّلَهُ ، وأفاضَ علىٰ قلبِهِ خزائنَ العلومِ فأكملَهُ ، ثمَّ أرسلَ عليهِ ستراً مِنْ رحمتِهِ وأسبلَهُ ، ثمَّ أمدَّهُ بلسانٍ يترجمُ بهِ عمَّا حواهُ القلبُ وعقلَهُ ، ويكشفُ عنهُ سترَهُ الذي أرسلَهُ ، فأطلقَ بالحمدِ مِقْوَلَهُ[1] ، وأفصحَ بالشكرِ عمَّا أولاهُ وخوَّلَهُ ؛ مِنْ علمٍ حصَّلَهُ ، ونطقٍ سهَّلَهُ .

وأشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي أكرمَهُ وبجَّلَهُ ، ونبيُّهُ الذي أرسلَهُ بكتابٍ أنزلَهُ ، وآيٍ فصَّلَهُ ، ودينٍ سبَّلَهُ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ومَنْ قبلَهُ ، ما كبَّرَ اللهَ عبدٌ وهلَّلَهُ .

أمّا بعـد :

فإنَّ اللسانَ مِن نعمِ اللهِ العظيمةِ ، ولطائفِ صنعِهِ الغريبةِ ، فإنَّهُ صغيرٌ

---

(١) **المِقْول** بالكسر : اسم للسان باعتبار أنه آلة للقول ، **وإطلاقه** : تمكينُهُ من النطق به ، **وأراد بالحمد** : اللغويَّ ، وهو الوصف بفضيلة علىٰ فضيلة علىٰ جهة التعظيم ، وهو باللسان فقط . « إتحاف » (٧/ ٤٤٧) .

جِرْمُهُ ، عظيمٌ طاعتُهُ وجُرْمُهُ ؛ إذْ لا يتبيَّنُ الكفرُ والإيمانُ إلا بشهادةِ اللسانِ ، وهما غايةُ الطاعةِ والعصيانِ ، ثمَّ إنَّهُ ما مِنْ موجودٍ أوْ معدومٍ ، خالقٍ أوْ مخلوقٍ ، متخيَّلٍ أوْ معلومٍ ، مظنونٍ أوْ موهومٍ . . إلا واللسانُ يتناولُهُ ويتعرَّضُ لهُ بإثباتٍ أوْ نفيٍ ؛ فإنَّ كلَّ ما يتناولُهُ العلمُ يعربُ عنهُ اللسانُ إمَّا بحقٍّ أوْ باطلٍ ، ولا شيءَ إلا والعلمُ متناوِلٌ لهُ ، وهٰذهِ خاصيَّةٌ لا تُوجدُ في سائرِ الأعضاءِ ، فإنَّ العينَ لا تصلُ إلىٰ غيرِ الألوانِ والصُّورِ ، والأذنَ لا تصِلُ إلىٰ غيرِ الأصواتِ ، واليدَ لا تصِلُ إلىٰ غيرِ الأجسامِ ، وكذا سائرُ الأعضاءِ .

واللسانُ رَحْبُ الميدانِ ، ليسَ لهُ مردٌّ ، ولا لمجالِهِ منتهىً وحدٌّ ، لهُ في الخيرِ مجالٌ رحْبٌ ، ولهُ في الشرِّ ذيلٌ سَحْبٌ ، فمَنْ أطلقَ عَذَبةَ اللسانِ[1] ، وأهملَهُ مُرخَى العِنانِ . . سلكَ بهِ الشيطانُ في كلِّ ميدانٍ ، وساقَهُ إلىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ ، إلىٰ أن يضطرَّهُ إلى البوارِ ، ولا يكبُّ الناسَ في النارِ علىٰ مناخرِهِمْ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ ، ولا ينجو مِنْ شرِّ اللسانِ إلا مَنْ قيدَهُ بلجامِ الشَّرعِ ، فلا يطلقُهُ إلا فيما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ ، ويكفُّهُ عنْ كلِّ ما يُخشىٰ غائلتُهُ في عاجلِهِ وآجلِهِ .

وعلمُ ما يُحمدُ فيهِ إطلاقُ اللسانِ أوْ يُذمُّ غامضٌ عزيزٌ ، والعملُ بمقتضاهُ علىٰ مَنْ عرفَهُ ثقيلٌ عسيرٌ ، وأعصى الأعضاءِ على الإنسانِ اللسانُ ؛ فإنَّهُ لا تعبَ في إطلاقِهِ ، ولا مؤنةَ في تحريكِهِ ، وقدْ تساهلَ الخلقُ في الاحترازِ

---

(١) عذبة اللسان : طرفه الدقيق .

عَنْ آفاتِهِ وغوائلِهِ ، والحذرِ مِنْ مصايدِهِ وحبائلِهِ ، وأنهُ أعظمُ آلةٍ للشيطانِ في استغواءِ الإنسانِ .

ونحنُ بتوفيقِ اللهِ وحُسْنِ تيسيرِهِ نفصِّلُ مجامعَ آفاتِ اللسانِ ، ونذكرُها واحدةً واحدةً ، بحدودِها وأسبابِها وغوائِلِها ، ونعرِّفُ طريقَ الاحترازِ عنها ، ونوردُ ما وردَ مِنَ الأخبارِ والآثارِ في ذمِّها ، فنذكرُ أوّلاً فضلَ الصَّمتِ ، ونردفُهُ بذكرِ آفةِ الكلامِ فيما لا يعنيكَ ، ثمَّ آفةِ فضولِ الكلامِ ، ثمَّ آفةِ الخوضِ في الباطلِ ، ثمَّ آفةِ المراءِ والجدالِ ، ثمَّ آفةِ الخصومةِ ، ثمَّ آفةِ التقعُّرِ في الكلامِ ؛ بالتشدُّقِ ، وتكلُّفِ السَّجْعِ والفصاحةِ والتصنُّعِ فيهِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا جرَتْ بهِ عادةُ المتفاصحينَ المدَّعينَ للخطابةِ ، ثمَّ آفةِ الفُحْشِ والسَّبِّ وبذاءةِ اللسانِ ، ثمَّ آفةِ اللَّعنِ ؛ إمَّا لحيوانٍ ، أوْ جمادٍ ، أوْ إنسانٍ ، ثمَّ آفةِ الغناءِ وَالشِّعرِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ السماعِ ما يحرمُ مِنَ الغناءِ وما يحلُّ فلا نعيدُهُ ، ثمَّ آفةِ المِزاحِ ، ثمَّ آفةِ السُّخريةِ والاستهزاءِ ، ثمَّ آفةِ إفشاءِ السِّرِّ ، ثمَّ آفةِ الوعدِ الكاذبِ ، ثمَّ آفةِ الكذبِ في القولِ واليمينِ ، ثمَّ آفةِ الغيبةِ ، ثمَّ آفةِ النميمةِ ، ثمَّ آفةِ ذي اللسانينِ الذي يتردَّدُ بينَ المتعاديينِ فيكلِّمُ كلَّ واحدٍ بكلامٍ يوافقُهُ ، ثمَّ آفةِ المدحِ ، ثمَّ آفةِ الغفلةِ عن دقائقِ الخطأِ في فحوى الكلامِ ، ولا سيما فيما يتعلَّقُ باللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ، ويرتبطُ بأمورِ الدينِ ، ثمَّ آفةِ سؤالِ العوامِّ عنْ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعنْ كلامِهِ ، وعنِ الحروفِ : أهيَ قديمةٌ أوْ محدثةٌ ، وهيَ آخرُ الآفاتِ ، وما يتعلقُ بذلكَ ، وجملتُها عشرونَ آفةً ، ونسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

بيان عظم خطر اللسان ، وفضيلة الصمت

اعلمْ : أنَّ خطرَ اللسانِ عظيمٌ ، ولا نجاةَ مِنْ خطرِهِ إلا بالصمتِ ؛ فلذلكَ مدحَ الشرعُ الصمتَ وحثَّ عليهِ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صمتَ .. نجا »[(١)] .

وقالَ : « الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُهُ »[(٢)] أيْ : هوَ حكمةٌ وحزمٌ .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ سفيانَ عنْ أبيهِ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبرْني عنِ الإسلامِ بأمرٍ لا أسألُ عنهُ أحداً بعدَكَ ، قالَ : « قلْ : آمنتُ باللهِ ، ثمَّ استقمْ » ، قالَ : قلتُ : فما أتقي ؟ فأومأَ بيدِهِ إلىٰ لسانِهِ[(٣)] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما النجاةُ ؟ قالَ : « أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ »[(٤)] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٦٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٤١) عن أنس من قول لقمان الحكيم عليه السلام .

(٣) رواه الترمذي (٢٤١٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٢٥) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وهو عند مسلم (٣٨) دون ذكر اللسان .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

وقالَ سهلُ بنُ سعدٍ الساعديُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يتكفَّلْ لي ما بينَ لَحييْهِ ورجليهِ . . أتكفَّلْ لهُ بالجنَّةِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وُقِيَ شرَّ قَبْقَبِهِ وذَبْذَبِهِ ولَقْلَقِهِ . . فقدْ وُقِيَ الشَّرَّ كلَّهُ »[٢] ، والقَبْقَبُ : البطنُ ، والذَّبذَبُ : الفرجُ ، واللَّقْلَقُ : اللسانُ[٣] ، فهٰذهِ الشهواتُ الثلاثُ بها يهلِكُ أكثرُ الخلقِ ؛ ولذلكَ اشتغلنا بذكرِ آفاتِ اللسانِ لما فرغنا مِنْ ذكرِ آفةِ الشهوتينِ البطنِ والفرجِ .

وقدْ سُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أكثرِ ما يدخلُ الناسَ الجنةَ ، فقالَ : « تقوى اللهِ وحسنُ الخُلُقِ » ، وسُئلَ عنْ أكثرِ ما يدخلُ النارَ ، فقالَ : « الأجوفانِ ؛ الفمُ والفرجُ »[٤] .

ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالفمِ آفاتِ اللسانِ ؛ لأنَّهُ محلُّهُ ، ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ البطنَ ؛ لأنهُ منفذُهُ ، فقدْ قالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنؤاخذُ بما نقولُ ؟ فقالَ : « ثكلَتْكَ أمُّكَ يا بنَ جبلٍ ! وهلْ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤ ، ٦٨٠٧) ، والترمذي (٢٤٠٨) واللفظ له .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٠٢٦) بلفظه هنا ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩٧٨) وفيه : « . . فقد وجب له الجنة » .

(٣) وعند البيهقي في تمام الخبر : (أما لقلقه . . فاللسان ، وقبقبه . . فالفم ، وذبذبه . . فالفرج) ، وبنحو ما ساقه المصنف عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٥١) والخبر عنده عن أبي رجاء العطاردي .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) .

يكبُّ النَّاسَ في النَّارِ علىٰ مناخرِهِمْ إلا حصائدُ ألسنتِهِمْ ؟! »[١] .

وقالَ عبدُ اللهِ الثقفيُّ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ حدِّثْني بأمرٍ أعتصمُ بهِ ، فقالَ : « قلْ : ربِّيَ اللهُ ، ثمَّ استقمْ » ، قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ ؟ فأخذَ بلسانِهِ ثمَّ قالَ : « هٰذا »[٢] .

ورُوِيَ أنَّ معاذاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فأخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لسانَهُ ، ثمَّ وضعَ عليهِ إصبعيهِ[٣] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستقيمُ إيمانُ العبدِ حتَّىٰ يستقيمَ قلبُهُ ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتَّىٰ يستقيمَ لسانُهُ ، ولا يدخُلُ الجنةَ رجلٌ لا يأْمَنُ جارُهُ بوائقَهُ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يَسْلَمَ . فليلزمِ الصَّمتَ »[٥] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، ولفظه عند ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه النسائي ، قال ابن عساكر : وهو خطأ ، والصواب : سفيان بن عبد الله الثقفي كما رواه الترمذي وصححه وابن ماجه ، وقد تقدم قبل هٰذا بخمسة أحاديث) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٦٤) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣/١٩٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١) ، والطبراني في « الأوسط » (١٩٥٥) .

وعنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ مرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنه قالَ : « إذا أصبحَ ابنُ آدمَ . . أصبحَتِ الأعضاءُ كلُّها تكفِّرُ اللِّسانَ تقولُ : اتَّقِ اللهَ فينا ؛ فإنَّكَ إنِ استقمتَ . . استقمنا ، وإنِ اعوججتَ . . اعوججنا »(1) .

ورويَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ اطلعَ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما وهوَ يمدُّ لسانَهُ ، فقالَ : ما تصنعُ يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؟ قال : إنَّ هـٰذا أوردَني الموارِدَ ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الجسدِ إلا يشكو إلى اللهِ اللسانَ علىٰ حدَّتِهِ »(2) .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنهُ كانَ على الصَّفا يلبِّي ويقولُ : يا لسانُ ؛ قلْ خيراً . . تغنمْ ، أوْ أنصتْ . . تسلمْ ، مِنْ قبلِ أنْ تندمَ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ هـٰذا شيءٌ تقولُهُ أوْ شيءٌ سمعتَهُ ؟ فقالَ : لا ، بلْ

---

(1) رواه الترمذي (٢٤٠٧) عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس في النسخ إثبات أبي سعيد في الرواية .
قال الطيبي في « شرحه علىٰ مشكاة المصابيح » (٩/ ١٣٢) : (قوله : « تكفر » ؛ أي : تذل وتخضع ، والتكفير : هو أن ينحني الإنسان ويطأطىء رأسه قريباً من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه . . . ، فإن قلت : كيف التوفيق بين هـٰذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » ؟ قلت : اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن ، فإذا أسند إليه الأمر . . يكون علىٰ سبيل المجاز في الحكم ؛ كما في قولك : شفى الطبيب المريض) .
(2) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣) ، وفي « الورع » (٩١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٥) .

سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ أكثرَ خطايا ابنِ آدمَ في لسانِهِ »[١] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ لسانَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ ملكَ غضبَهُ . . وقاهُ اللهُ عذابَهُ ، ومَنِ اعتذرَ إلى اللهِ . . قَبِلَ اللهُ عذرَهُ »[٢] .

ورُوِيَ أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، قالَ : « اعبدِ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، واعددْ نفسَكَ في الموتَىٰ ، وإنْ شئتَ . . أنبأتُكَ بما هوَ أملكُ لكَ مِنْ هٰذا كلِّهِ » ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ لسانِهِ[٣] .

وعنْ صفوانَ بنِ سُليمٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكمْ بأيسرِ العبادةِ وأهونِها على البدنِ ؟ الصَّمتُ وحسنُ الخُلُقِ »[٤] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ . . فليقلْ خيراً أوْ ليسكتْ »[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٨٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧) عن صفوان بن سليم مرسلاً ، ونحوه رواه مرفوعاً من حديث أبي ذر رضي الله عنه أبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (١٠٦٣) .
(٥) رواه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) ، وكذا ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠) .

وقالَ الحسنُ : ذُكِرَ لنا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « رحمَ اللهُ عبداً تكلَّمَ فغنمَ ، أوْ سكتَ فسلمَ »(١) .

وقالَ سفيانُ : قالوا لعيسىٰ عليهِ السلامُ : دلَّنا علىٰ عملٍ ندخلُ بهِ الجنةَ ، قالَ : لا تنطقوا أبداً ، قالوا : لا نستطيعُ ذلكَ ، فقالَ : فلا تنطقوا إلا بخيرٍ(٢) .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ : (إنْ كانَ الكلامُ مِنْ فضَّةٍ . . فالصمتُ مِنْ ذهبٍ)(٣) .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ : جاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « أطعمِ الجائعَ ، واسقِ الظمآنَ ، وأْمُرْ بالمعروفِ ، وانهَ عنِ المنكرِ ، فإنْ لمْ تطقْ . . فكفَّ لسانَكَ إلا مِنْ خيرٍ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اخْزُنْ لسانَكَ إلا مِنْ خيرٍ ، فإنَّكَ بذلكَ تغلبُ الشَّيطانَ »(٥) .

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (١١٠٦)، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧) عن الأوزاعي عنه عليه السلام .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧) .
(٥) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (٦٨) ضمن خبر ، وكذا الطبراني في « الصغير » (٢/٦٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ ، فليتَّقِ اللهَ امرؤٌ عَلِمَ ما يقولُ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا رأيتُمُ المؤمنَ صَمُوتاً وقوراً . . فادنوا منهُ ؛ فإنَّهُ يلقَّنُ الحكمةَ »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ ثلاثةٌ : غانمٌ وسالمٌ وشاجبٌ ؛ فالغانمُ الذي يذكرُ اللهَ تعالىٰ ، والسالمُ السَّاكتُ ، والشّاجبُ الذي يخوضُ في الباطلِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ لسانَ المؤمنِ مِنْ وراءِ قلبِهِ ، فإذا أرادَ أنْ يتكلَّمَ بشيءٍ . . تدبَّرَهُ بقلبِهِ ثمَّ أمضاهُ بلسانِهِ ، وإنَّ لسانَ المنافقِ أمامَ قلبِهِ ، فإذا همَّ بشيءٍ أمضاهُ بلسانِهِ ولمْ يتدبَّرْهُ بقلبِهِ »(٤) .

---

(١) رواه ابن وهب في « جامعه » (٣٣٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٦٠) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠١) ولفظه : « إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق . . فاقتربوا منه ؛ فإنه يلقَّى الحكمة » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٧٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٦٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، ولكن دون تفسير الكلمات الثلاث ، ورواه هناد في « الزهد » (١٢٣١) بنحو ما ساقه المصنف عن الحسن مرسلاً ، وهو عند البيهقي في « الشعب » (١٠٣٢٣) من قول أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه كذلك ، ووقع في غير (ك) نسبة الحديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٢٥) ولكن عن الحسن يقول : (كانوا يقولون : لسان الحكيم . . .) بنحوه .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (العبادةُ عشرةُ أجزاءٍ ، تسعةٌ منها في الصمتِ ، وجزءٌ في الفرارِ منَ الناسِ)(١) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كثُرَ كلامُهُ . . كثُرَ سَقَطُهُ ، ومَنْ كثُرَ سَقَطُهُ . . كثُرَتْ ذنوبُهُ ، ومَنْ كثُرَتْ ذنوبُهُ . . كانَتْ النارُ أولىٰ بهِ »(٢) .

* * *

الآثارُ :

كانَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ يضعُ حصاةً في فيهِ يمنعُ بها نفسَهُ مِنَ الكلامِ ، وكانَ أبداً يشيرُ إلىٰ لسانِهِ ويقولُ : (هٰذا أوردَني المواردَ) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (واللهِ الذي لا إلٰهَ إلا هوَ ؛ ما شيءٌ أحوجَ إلىٰ طولِ سجنٍ مِنْ لسانٍ)(٣) .

وقالَ طاووسٌ : (لساني سَبُعٌ ، إنْ أَرسلتُهُ . . أكلَني)(٤) .

---

(١) كذا رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٤٢) عن وهيب بن الورد عن حكيم من الحكماء ، كما رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٤٤٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (١٢٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٣٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٠٣٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وأداب اللسان » (٣٩) عن سفيان عن بعض الماضين ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٩٢) عن حذيفة رضي الله عنه .

وقالَ وهْبُ بنُ منبِّهٍ : في حكمةِ آلِ داوودَ : (حقٌّ على العاقلِ أنْ يكونَ عارفاً بزمانِهِ ، حافظاً للسانِهِ ، مقبلاً علىٰ شأنِهِ)(١) .

وقالَ الحسنُ : (ما عَقَلَ دينَهُ مَنْ لمْ يحفظْ لسانَهُ)(٢) .

وقالَ الأوزاعيُّ : كتبَ إلينا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (أما بعدُ : فإنَّهُ مَنْ أكثرَ ذكرَ الموتِ . . رضيَ مِنَ الدنيا باليسيرِ ، ومَنْ عدَّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ . . قلَّ كلامُهُ فيما لا ينفعُهُ)(٣) .

وقالَ بعضُهم : (الصمتُ يجمعُ للرجلِ خصلتينِ : السلامةُ في دينِهِ ، والفهمُ عنْ صاحبِهِ)(٤) .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ لمالكِ بنِ دينارٍ : (يا أبا يحيىٰ ؛ حفظُ اللسانِ أشدُّ على الناسِ مِنْ حفظِ الدنانيرِ والدراهمِ)(٥) .

وقالَ يونسُ بنُ عُبيدٍ : (ما مِنَ الناسِ أحدٌ يكونُ لسانُهُ منهُ علىٰ بالٍ إلا رأيتَ صلاحَ ذلكَ في سائرِ عملِهِ)(٦) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٥) عن محمد بن عبد الوهاب الكوفي .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٧) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠) .

وقالَ الحسنُ : كانوا يتكلمونَ عندَ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ والأحنفُ بنُ قيسٍ ساكتٌ ، فقالوا : ما لكَ لا تتكلمُ يا أبا بحرٍ ؟! قالَ : أخشى اللهَ إنْ كذبْتُ ، وأخشاكُمْ إنْ صدقْتُ[1] .

وقالَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ : (اجتمعَ أربعةُ ملوكٍ ؛ ملكُ الهندِ ، وملكُ الصينِ ، وكسرىٰ ، وقيصرُ ، فقالَ أحدُهم : أنا أندمُ علىٰ ما قلتُ ولا أندمُ علىٰ ما لمْ أقلْ ، وقالَ الآخرُ : إنِّي إذا تكلمتُ بكلمةٍ . . ملكَتْني ولمْ أملكْها ، وإذا لمْ أتكلمْ بها . . ملكْتُها ولم تملكْني ، وقالَ الثالثُ : عجبتُ للمتكلمِ ! إن رجعَتْ عليهِ كلمتُهُ . . ضرَّتْهُ ، وإنْ لمْ ترجِعْ . . لمْ تنفعْهُ ، وقالَ الرابعُ : أنا علىٰ ردِّ ما لمْ أقلْ أقدَرُ منِّي علىٰ ردِّ ما قلتُ)[2] .

وقيلَ : إنَّ المنصورَ بنَ المعتمرِ لمْ يتكلَّمْ بكلمةٍ بعدَ عشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنةً[3] .

وقيلَ : ما تكلمَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ بكلامِ الدُّنيا عشرينَ سنةً ، وكانَ إذا أصبحَ . . وضعَ دواةً وقرطاساً نقياً وقلماً ، فكلُّ ما تكلَّمَ بهِ كتبَهُ ، ثمَّ يحاسبُ نفسَهُ عندَ المساءِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٥) .
(٣) رواه الجرجاني في « تاريخ جرجان » (ص ٥٠١) وفيه : (ثلاثين) بدل (أربعين) .

فإنْ قلتَ : فهٰذا الفضلُ الكبيرُ للصمتِ ما سببُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ سببَهُ كثرةُ آفاتِ اللسانِ ؛ مِنَ الخطأِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، والغيبةِ ، والرياءِ ، والنفاقِ ، والفُحْشِ ، والمِراءِ ، وتزكيةِ النفسِ ، والخصومةِ ، والفضولِ ، والخوضِ في الباطلِ ، والتحريفِ ، والزيادةِ والنقصانِ ، وإيذاءِ الخلقِ ، وهتْكِ العوراتِ .

فهٰذهِ آفاتٌ كثيرةٌ ، وهيَ سبَّاقةٌ إلى اللسانِ ، لا تثقلُ عليهِ ، ولها حلاوةٌ في القلبِ ، وعليها بواعثُ مِنَ الطبعِ ومِنَ الشيطانِ ، فالخائضُ فيها قلَّما يقدِرُ علىٰ أنْ يزمَّ لسانَهُ ، فيطلقُهُ بما يحبُّ ، ويمسكُهُ ويكفُّهُ عمَّا لا يحبُّ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ غوامضِ العلمِ كما سيأتي تفصيلُهُ ، ففي الخوضِ خطرٌ ، وفي الصمتِ سلامةٌ ، فلذلكَ عظُمَ فضلُهُ .

هٰذا معَ ما فيهِ مِنْ جمعِ الهمِّ ، ودوامِ الوقارِ ، والفراغِ للفكرِ والعبادةِ والذكرِ ، والسلامةِ مِنْ تَبِعاتِ القولِ في الدنيا ومِنْ حسابِهِ في الآخرةِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

* * *

ويدلُّكَ علىٰ فضلِ لزومِ الصَّمتِ أمرٌ ؛ وهوَ أنَّ الكلامَ أربعةُ أقسامٍ : قسمٌ هوَ ضررٌ محضٌ ، وقسمٌ هوَ نفعٌ محضٌ ، وقسمٌ فيهِ ضررٌ ومنفعةٌ ، وقسمٌ ليسَ فيهِ ضررٌ ولا منفعةٌ .

أمَّا الذي هوَ ضررٌ محضٌ : فلا بدَّ مِنَ السكوتِ عنهُ ، وكذلكَ ما فيهِ

ضررٌ ومنفعةٌ لا تفي بالضررِ ، وأمَّا ما لا منفعةَ فيهِ ولا ضررَ . . فهوَ فضولٌ ، والاشتغالُ بهِ تضييعُ زمانٍ ، وهوَ عينُ الخسرانِ .

فلا يبقىٰ إلا القسمُ الرابعُ ، فقدْ سقطَ ثلاثةُ أرباعِ الكلامِ ، وبقيَ الربعُ ، وهـٰذا الربعُ فيهِ خطرٌ ؛ إذْ يمتزجُ بهِ ما فيهِ إثمٌ مِنْ دقائقِ الرياءِ والتصنُّعِ والغيبةِ وتزكيةِ النفسِ ، وفضولِ الكلامِ امتزاجاً يخفىٰ مدركُهُ ، فيكونُ الإنسانُ بهِ مخاطراً .

ومَنْ عرفَ دقائقَ آفاتِ اللسانِ علىٰ ما سنذكرُهُ . . علمَ قطعاً أنَّ ما ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هوَ فصلُ الخطابِ ؛ حيثُ قالَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »(١) ، فلقدْ أُوتيَ ـ واللهِ ـ جواهرَ الحِكَمِ قطعاً وجوامعَ الكَلِمِ(٢) ، ولا يعرفُ ما تحتَ آحادِ كلماتِهِ مِنْ بحارِ المعاني إلا خواصُّ العلماءِ ، وفيما سنذكرُهُ مِنَ الآفاتِ وعسْرِ الاحترازِ عنها ما يعرِّفُكَ حقيقةَ ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

ونحنُ الآنَ نعدُّ آفاتِ اللسانِ ، ونبتدىءُ بأخفِّها ، ونترقَّىٰ إلى الأغلظِ قليلاً قليلاً ، ونؤخِّرُ الكلامَ في الغيبةِ والنميمةِ والكَذِبِ ؛ فإنَّ النظرَ فيها أطولُ ، وهيَ عشرونَ آفةً :

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

(٢) روى البخاري (٧٠١٣) ، ومسلم (٦/٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي » .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنيك

اعلمْ : أنَّ أحسنَ أحوالِكَ أنْ تحفظَ ألفاظَكَ عَنْ جميعِ الآفاتِ التي ذكرْناها ؛ مِنَ الغيبةِ ، والنميمةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والنفاقِ وغيرِهِ ، وتتكلمَ بما هوَ مباحٌ لا ضررَ عليكَ فيه ولا علىٰ مسلمٍ أصلاً ، إلا أنَّكَ تتكلمُ بما أنتَ مستغنٍ عنهُ ، ولا حاجةَ بكَ إليهِ ، فإنَّكَ مضيِّعٌ بهِ زمانَكَ ، ومحاسَبٌ علىٰ عملِ لسانِكَ ، ومستبدِلٌ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ ؛ لأنَّكَ لوْ صرفتَ زمانَ الكلامِ إلى الفكرِ . . ربما كانَ ينفتحُ لكَ منْ نفحاتِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ الفكرِ ما يعظمُ جدواهُ ، ولوْ هللتَ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وسبحتَهُ وذكرتَهُ . . لكانَ خيراً لكَ .

فكمْ مِنْ كلمةٍ يُبنىٰ بها قصرٌ في الجنةِ ، ومَنْ قدرَ علىٰ أنْ يأخذَ كنزاً مِنَ الكنوزِ فأخذَ بدلَهُ مَدَرَةً لا ينتفعُ بها . . كانَ خاسراً خسراناً مبيناً .

وهٰذا مثالُ مَنْ تركَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ واشتغلَ بمباحٍ لا يعنيهِ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يأثمْ فقدْ خسرَ حيثُ فاتَهُ الرِّبحُ العظيمُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ المؤمنَ لا يكونُ صمتُهُ إلا فكراً ، ونظرُهُ إلا عِبرةً ، ونطقُهُ إلا ذِكراً ، هٰكذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

---

(١) إذ روى القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٥٩) عن ابن عائشة ، عن أبيه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : « إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبرة » .

بلْ رأسُ مالِ العبدِ أوقاتُهُ ، ومهما صرفَها إلىٰ ما لا يعنيهِ ولمْ يدخرْ بها ثواباً في الآخرةِ . . فقدْ ضيَّعَ رأسَ مالِهِ ، ولهـٰذا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »(١) .

بلْ وردَ ما هوَ أشدُّ مِنْ هـٰذا ، قالَ أنسٌ : استُشهدَ غلامٌ منَّا يومَ أحدٍ ، فوُجِدَ علىٰ بطنِهِ صخرةٌ مربوطةٌ مِنَ الجوعِ ، فمسحَتْ أمُّهُ الترابَ عنْ وجهِهِ وقالَتْ : هنيئاً لكَ الجنةُ يا بنيَّ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما يدريكِ ؟ لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ فيما لا يعنيهِ ، ويمنعُ ما لا يضرُّهُ »(٢) .

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقدَ كعباً ، فسألَ عنهُ ، فقالوا : مريضٌ ، فخرجَ يمشي حتَّىٰ أتاهُ ، فلمَّا دخلَ عليهِ . قالَ : « أبشرْ يا كعبُ » ، فقالَتْ أمُّهُ : هنيئاً لكَ الجنةُ يا كعبُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هـٰذهِ المتألِّيةُ على اللهِ ؟ » ، قالَ : هيَ أمِّي يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « وما يدريكِ يا أمَّ كعبٍ ؟ لعلَّ كعباً قالَ ما لا يعنيهِ ، أوْ منعَ ما لا يغنيهِ »(٣) ، ومعناهُ : أنَّهُ إنَّما تتهيَّأُ الجنةُ لمَنْ لا يُحاسَبُ ، ومَنْ تكلَّمَ فيما

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٠٣) مرسلاً عن زين العابدين علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) ، وهو عند الترمذي (٢٣١٦) مختصراً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٠) .

لا يعنيهِ ، حُوسبَ عليهِ وإنْ كانَ كلامُهُ مباحاً ، فلا تتهيَّأُ الجنةُ لهُ معَ المناقشةِ في الحسابِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ مِنَ العذابِ .

وعنْ محمدِ بنِ كعبٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ مَنْ يدخلُ مِنْ هـٰذا البابِ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ » ، فدخلَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ ، فقامَ إليهِ ناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرُوهُ بذلكَ ، وقالُوا : أخبرْنا بأوثقِ عملِكَ في نفسِكَ ترجو بهِ ، فقالَ : إنِّي لضعيفٌ ، وإنَّ أوثقَ ما أرجو بهِ اللهَ سلامةُ الصدرِ ، وتركُ ما لا يعنيني[١] .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أعلِّمُكَ بعملٍ خفيفٍ على البدنِ ، ثقيلٍ في الميزانِ ؟ » قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « هوَ الصَّمتُ ، وحسنُ الخُلُقِ ، وتركُ ما لا يعنيكَ »[٢] .

وقالَ مجاهدٌ : سمعتُ ابنَ عباسٍ يقولُ : (خمسٌ لهنَّ أحسنُ مِنَ الدُّهْمِ الموقَفَةِ : لا تتكلمْ فيما لا يعنيكَ ؛ فإنَّهُ فضْلٌ ، ولا آمنُ عليكَ الوزْرَ ، ولا تتكلمْ فيما يعنيكَ حتَّىٰ تجدَ لهُ موضعاً ؛ فإنَّهُ ربَّ متكلمٍ في أمرٍ يعنيهِ قدْ وضعَهُ في غيرِ موضعِهِ فعَنِتَ ، ولا تمارِ حليماً ولا سفيهاً ؛ فإنَّ الحليمَ يقليكَ ، وإنَّ السفيهَ يؤذيكَ ، واذكرْ أخاكَ إذا تغيَّبَ عنكَ بما تحبُّ أنْ

---

(١) كذا رواه مرسلاً ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وأداب اللسان » (١١٢) عن وهيب بن الورد بلاغاً ، وتقدم نحوه قريباً عن صفوان بن سليم .

يذكرَكَ بهِ ، وأعفِهِ ممَّا تحبُّ أنْ يعفيَكَ منهُ ، وعاملْ أخاكَ بما تحبُّ أنْ يعاملَكَ بهِ ، واعملْ عملَ رجلٍ يرىٰ أنَّهُ مجازىً بالإحسانِ مأخوذٌ بالاجترامِ)(١) .

وقيلَ للقمانَ الحكيمِ : ما حكمتُكَ ؟ قالَ : لا أسأَلُ عمَّا كُفيتُ ، ولا أتكلَّفُ ما لا يعنيني(٢) .

وقالَ مُورِّقٌ العجليُّ : أمرٌ أنا في طلبِهِ منذُ عشرينَ سنةً لم أقدرْ عليهِ ، ولستُ بتاركٍ طلبَهُ ، قالوا : وما هوَ ؟ قالَ : الصمتُ عمَّا لا يعنيني(٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تتعرَّضْ لما لا يعنيكَ ، واعتزلْ عدوَّكَ ، واحذرْ صديقَكَ مِنَ القومِ إلا الأمينَ ، ولا أمينَ إلا مَنْ خشيَ اللهَ تعالىٰ ، ولا تصحبِ الفاجرَ فتتعلَّمَ مِنْ فجورِهِ ، ولا تطلعْهُ علىٰ سرِّكَ ، واستشرْ في أمرِكَ الذينَ يخشونَ اللهَ تعالىٰ)(٤) .

وحدُّ ما لا يعنيكَ(٥) : أنْ تتكلمَ بكلِّ ما لوْ سكتَّ عنهُ .. لمْ تأثمْ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٤) ، **والدهم الموقفة** : الخيل السوداء المعدَّة للركوب .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٥) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٨) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٤١) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٠) .

(٥) أي : لا تتعلق به عنايتك ، ولا يكون من مقصدك ومطلوبك ؛ لأن العناية شدة الاهتمام بالشيء ، يقال : عناه يعنيه ؛ إذا اهتم به وطلبه . « إتحاف » (٧/ ٤٦٢) .

ولمْ تتضرَّرْ في حالٍ ولا مآلٍ .

مثالُهُ : أنْ تجلِسَ معَ قومٍ فتذكرَ لهمْ أسفارَكَ ، وما رأيتَ فيها مِنْ جبالٍ وأنهارٍ ، وما وقعَ لكَ منَ الوقائعِ ، وما استحسنتَهُ مِنَ الأطعمَةِ والثيابِ ، وما تعجبتَ منهُ مِنْ مشايخِ البلادِ ووقائعِهِمْ ، فهٰذهِ أمورٌ لوْ سكتَّ عنها.. لمْ تأثمْ ولمْ تتضرَّرْ ، وإذا بالغتَ في الاجتهادِ حتَّىٰ لمْ يمتزجْ بحكايتِكَ زيادةٌ ولا نقصانٌ ، ولا تزكيةُ نفسٍ مِنْ حيثُ التفاخرُ بمشاهدةِ الأحوالِ العظيمةِ ، ولا اغتيابٌ لشخصٍ ، ولا مذمةٌ لشيءٍ ممَّا خلقَهُ اللهُ تعالىٰ.. فأنتَ معَ ذلكَ كلِّهِ مضيِّعٌ زمانَكَ ، وأنَّىٰ تسلمُ مِنَ الآفاتِ التي ذكرْناها ؟!

ومِنْ جملتِهِ : أنْ تسألَ غيرَكَ عمَّا لا يعنيكَ ، فأنتَ بالسؤالِ مضيِّعٌ وقتَكَ ، وقدْ ألجأتَ صاحبَكَ أيضاً بالجوابِ إلى التضييعِ ، هٰذا إذا كانَ الشيءُ ممَّا لا يتطرَّقُ إلى السؤالِ عنهُ آفةٌ ، وأكثرُ الأسئلةِ فيها آفاتٌ ، فإنَّكَ تسألُ غيرَكَ مثلاً عنْ عبادتِهِ ، فتقولُ : هلْ أنتَ صائمٌ ؟ فإنْ قالَ : نعمْ.. كانَ مُظهراً لعبادتِهِ ، فيدخُلُ عليهِ الرياءُ ، وإنْ لمْ يدخُلْ.. سقطَتْ عبادتُهُ مِنْ ديوانِ السرِّ ، وعبادةُ السرِّ تفضلُ عبادةَ الجهرِ بدرجاتٍ ، وإنْ قالَ : لا.. كانَ كاذباً ، وإنْ سكتَ.. كانَ مستحقراً لكَ وتأذيتَ بهِ ، وإنِ احتالَ لمدافعةِ الجوابِ.. افتقرَ إلىٰ جهدٍ وتعبٍ فيهِ ، فقدْ عرَّضتَهُ بالسؤالِ إمَّا للرياءِ ، أوْ للكذبِ ، أوْ للاستحقارِ ، أوْ للتعبِ في حيلةِ الدفعِ .

وكذلكَ سؤالُكَ عنْ سائرِ عباداتِهِ .

وكذلكَ سؤالُكَ عنِ المعاصي ، وعنْ كلِّ ما يخفيهِ ويستحيي منهُ ، وسؤالُكَ عمَّا تحدَّثَ بهِ غيرُكَ ، فتقولُ لهَ : ماذا تقولُ ؟ وفيمَ أنتمْ ؟

وكذلكَ ترىٰ إنساناً في الطريقِ ، فتقولُ : مِنْ أينَ ؟ فربَّما يمنعُهُ مانعٌ مِنْ ذكرِهِ ، فإنْ ذكرَهُ . . تأذَّىٰ بهِ واستحيا ، وإنْ لمْ يصدُقْ . . وقعَ في الكذبِ وكنتَ أنتَ السببَ فيهِ .

وكذلكَ تسألُ عنْ مسألةٍ لا حاجةَ بكَ إليها ، والمسؤولُ ربما لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يقولَ : لا أدري ، فيجيبُ عنْ غيرِ بصيرةٍ .

ولستُ أعني بالتكلُّمِ بما لا يعني هـٰذهِ الأجناسَ ، فإنَّ هـٰذا يتطرَّقُ إليهِ إثمٌ أوْ ضررٌ ، وإنَّما مثالُ ما لا يعني : ما رُوِيَ أنَّ لقمانَ الحكيمَ دخلَ علىٰ داوودَ عليهِ السلامُ وهوَ يسردُ الدرعَ[1] ، ولمْ يكنْ رآها قبلَ ذلكَ اليومِ ، فجعلَ يتعجَّبُ ممَّا يرىٰ ، فأرادَ أنْ يسألَهُ ، فمنعَتْهُ حكمتُهُ ، فأمسكَ نفسَهُ ولمْ يسألْهُ ، فلمَّا فرغَ . . قامَ داوودُ ولبسَهُ ثمَّ قالَ : نعمَ الدرْعُ للحربِ ، فقالَ لقمانُ : الصَّمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُهُ ، أردتُ أنْ أسألَكَ ، فكفيتَني ، وقيلَ : إنَّهُ كانَ يتردَّدُ إليهِ سنةً وهوَ يريدُ أنْ يعلمَ ذلك ، فلمْ يسألْ حتىٰ حصلَ عليهِ مِنْ غيرِ سؤالٍ[2] .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسئلةِ إذا لمْ يكنْ فيهِ ضررٌ ، وهتْكُ سترٍ ، وتوريطٌ في

---

(1) سرد الدرع : نسجه وصناعته .
(2) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٧١) ، وتقدم بعضه مرفوعاً .

رياءٍ وكذبٍ . . فهوَ ممَّا لا يعني ، وتركُهُ مِنْ حُسْنِ الإسلامِ ، فهـٰذا حدُّهُ[1] .

وأمَّا سببُهُ الباعثُ عليهِ : فالحرصُ علىٰ معرفةِ ما لا حاجةَ بهِ إليهِ ، أوِ المباسطةُ بالكلامِ علىٰ سبيلِ التودُّدِ ، أوْ تزجيةُ الوقتِ بحكاياتِ أحوالٍ لا فائدةَ فيها ؟

وعلاجُ ذلكَ كلِّهِ : أنْ يعلمَ أنَّ الموتَ بينَ يديهِ ، وأنَّهُ مسؤولٌ عنْ كلِّ كلمةٍ ، وأنَّ أنفاسَهُ رأسُ مالِهِ ، وأنَّ لسانَهُ شبكةٌ يقدِرُ علىٰ أنْ يقتنصَ بها الحورَ العينَ ، فإهمالُهُ ذلكَ وتضييعُهُ خسرانٌ مبينٌ ، هـٰذا علاجُهُ من حيثُ العلمُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ العملُ . . فالعزلةُ ، أوْ أنْ يضعَ حصاةً في فيهِ[2] ، وأنْ يلزِمَ نفسَهُ السكوتَ عَنْ بعضِ ما يعنيهِ ليتعوَّدَ اللسانُ تركَ ما لا يعنيهِ ، وضبطُ اللسانِ في هـٰذا علىٰ غيرِ المعتزلِ شديدٌ جداً .

❋ ❋ ❋

---

(١) فمَنْ عبدَ اللهَ على استحضار قربه ومشاهدته بقلبه ، وعلى استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه . . فقد حسن إسلامه ، ولزمه من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه ؛ فإنه يتولد من هـٰذين المقامين الاستحياء من الله تعالىٰ . « إتحاف » (٧/ ٤٦٤) .

(٢) وقد روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٣٨) عن أرطاة بن المنذر قال : (تعلم رجل الصمت أربعين سنة بحصاة يضعها في فيه ، لا ينزعها إلا عند طعام أو شراب أو نوم) .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهوَ أيضاً مذمومٌ ، وهـٰذا يتناولُ الخوضَ فيما لا يعني ، والزيادةَ فيما يعني علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، فإنَّ مَنْ يعنيهِ أمرٌ.. يمكنُهُ أنْ يذكرَهُ بكلامٍ مختصرٍ ، ويمكنُهُ أنْ يجنحَهُ ويكررَهُ(١) .

ومهما تأدَّىٰ مقصودُهُ بكلمةٍ واحدةٍ فذكرَ كلمتينِ.. فالثانيةُ فضولٌ ؛ أيْ : فضلٌ عنِ الحاجةِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ لما سبقَ ، وإنْ لمْ يكنْ فيهِ إثمٌ ولا ضررٌ .

قالَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ : (إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ كانوا يكرهُونَ فضولَ الكلامِ ، وكانوا يعدُّونَ فضولَ الكلامِ ما عدا كتابَ اللهِ تعالىٰ ، أوْ سنةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوْ أمراً بمعروفٍ ، أوْ نهياً عنْ منكرٍ ، أوْ تنطقَ بحاجتِكَ في معيشتِكَ التي لا بدَّ لكَ منها ، أتنكرونَ أنَّ عليكمْ حافظينَ ، كراماً كاتبينَ ، عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قعيدٌ ، ما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ؟! أما يستحي أحدُكمْ إذا نُشرَتْ صحيفتُهُ التي أملاها صدرَ نهارِهِ كانَ أكثرُ ما فيها ليسَ مِنْ أمرِ دينِهِ ولا دنياهُ ؟!)(٢) .

وعنْ بعضِ الصحابةِ قالَ : (إنَّ الرجلَ ليكلمُني بالكلامِ لجَوابُهُ أشهىٰ

---

(١) **يجنحه** : يطوله فيجعل له جناحاً . « إتحاف » (٧/ ٤٦٤) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦١٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣١٤) .

إليَّ مِنَ الماءِ الباردِ إلى الظمآنِ ، فأتركُ جوابَهُ ؛ خيفةَ أنْ يكونَ فضلاً)[١] .

وقالَ مُطرِّفٌ : (ليعظمَ جلالُ اللهِ في قلوبِكمْ ؛ فلا تذكروهُ عندَ مثلِ قولِ أحدِكمْ للكلبِ وللحمارِ : اللهمَّ ؛ أخزِه ، وما أشبهَ ذلكَ)[٢] .

واعلمْ أنَّ فضولَ الكلامِ لا ينحصرُ ، بلِ المهمُّ محصورٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ أمسكَ الفضلَ مِنْ لسانِهِ ، وأنفقَ الفضلَ مِنْ مالِهِ »[٤] .

فانظرْ كيفَ قلبَ الناسُ الأمرَ في ذلكَ ، فأمسكوا فضلَ المالِ ، وأطلقوا فضلَ اللسانِ .

وعنْ مُطرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنْ أبيهِ قالَ : قدمتُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رهْطٍ مِنْ بني عامرٍ ، فقالوا : أنتَ والدُنا ، وأنتَ سيِّدُنا ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٢٨) عن سعد بن مسعود عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٤) .
(٣) كما روىٰ معنىٰ هـٰذا عن سفيان ابنُ أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤) .
(٤) رواه ابن أبي عاصم في « الزهد » (١٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٥/ ٧١) من حديث ركب المصري وهو مختلف في صحبته ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ٣٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

وأنتَ أفضلُنا علينا فضلاً ، وأنتَ أطولُنا علينا طولاً ، وأنتَ الجفنةُ الغراءُ ، وأنتَ وأنتَ ، فقالَ : « قولوا بقولِكمْ ولا يستهوينَّكُمُ الشيطانُ »[1] ، إشارةً إلىٰ أنَّ اللسانَ إذا أُطلِقَ بالثناءِ ولوْ بالصدقِ . . فيُخشىٰ أنْ يستهويَهُ الشيطانُ إلى الزيادةِ المستغنىٰ عنها .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (أنذرُكمْ فضولَ الكلامِ ، بحسبِ امرئٍ ما بلغَ بهِ حاجتَهُ)[2] .

وعنْ مجاهدٍ قالَ : (إنَّ الكلامَ ليُكتبُ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليَسكِتُ ابنَهُ فيقولُ : أبتاعُ لكَ كذا وكذا ، فيُكتبُ كذيبةً)[3] .

وقالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ بُسطَتْ لكَ صحيفةٌ ، ووُكِّلَ بها ملَكانِ كريمانِ يكتبانِ عملَكَ ، فأمْلِ ما شئتَ ، وأكثرْ أوْ أقلِلْ)[4] .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ بعثَ بعضَ عفاريتِهِ ، وبعثَ نفراً ينظرونَ ما يقولُ ويخبرونَهُ ، فأخبروهُ أنَّهُ مرَّ على السُّوقِ ، فرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ، ثمَّ نظرَ إلى الناسِ وهزَّ رأسَهُ ، فسألَهُ سليمانُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : عجبْتُ مِنَ الملائكةِ علىٰ رؤوسِ الناسِ ما أسرعَ ما يكتبونَ ! ومِنَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٣) ، وهو بنحوه رواه أبو داوود (٤٨٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٠٠٤) .
(٢) رواه ابن وهب في « جامعه » (٤٦٢) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٩٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٥٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٥) .

الذينَ أسفلَ منهُمْ ما أسرعَ ما يُمْلونَ ![1] .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (المؤمنُ إذا أرادَ أنْ يتكلمَ . . نظرَ ؛ فإنْ كانَ لهُ . . تكلَّمَ ، وإلاَّ . . أمسكَ ، والفاجرُ إنَّما لسانُهُ رَسَلاً رَسَلاً)[2] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ كثرَ كلامُهُ . . كثرَ كذبُهُ ، ومَنْ كثرَ مالُهُ . . كثرَتْ ذنوبُهُ ، ومَنْ ساءَ خلُقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)[3] .

وقالَ عمرُو بنُ دينارٍ : تكلَّمَ رجلٌ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأكثرَ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ دونَ لسانِكَ مِنْ بابٍ ؟ » ، فقالَ : شفتايَ وأسناني ، قالَ : « أما كانَ لكَ في ذلك ما يردُّ كلامَكَ ؟ » ، وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ ذلكَ في رجلٍ أثنىٰ عليهِ فاستحفزَ في الكلامِ ، ثمَّ قال : « ما أُوتي رجلٌ شرّاً مِنْ فضْلٍ في لسانٍ »[4] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إنَّهُ ليمنعُني مِنْ كثيرٍ مِنَ الكلامِ مخافةُ المباهاةِ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٨٨) ، قاله وقد ذكر عنده الحسن ، ورسلاً رسلاً : متتابعاً .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٠) .
(٤) رواهما ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٣ ، ٩٤) مرسلاً وبلاغاً ، واستحفز : بالغ وأطال .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٦) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا كانَ المرءُ في مجلسٍ فأعجبَهُ الحديثُ . . فليسكتْ ، وإنْ كانَ ساكتاً فأعجبَهُ السكوتُ . . فليتحدَّثْ)[١] .

وقالَ يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ : (مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ منَ الاستماعِ وإنْ وجدَ مَنْ يكفيهِ ، فإنَّ في الاستماعِ سلامةً ، وفي الكلامِ تزيُّنٌ وزيادةٌ ونقصانٌ)[٢] .

وقالَ ابنُ عمرَ : (إنَّ أحقَّ ما طهَّرَ الرجلُ لسانُهُ)[٣] .

ورأىٰ أبو الدرداءِ ٱمرأةً سليطةً ، فقالَ : (لوْ كانَتْ هـٰذهِ خرساءَ . . كانَ خيراً لها)[٤] .

وقالَ إبراهيمُ : (يَهلِكُ الناسُ في خَلَّتينِ : فضولُ المالِ ، وفضولُ الكلامِ)[٥] .

فهـٰذهِ مذمَّةُ فضولِ الكلامِ وكثرتِهِ ، وسببُهُ الباعثُ عليهِ ، **وعلاجُهُ** : ما سبقَ في الكلامِ فيما لا يعني .

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٣) .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهوَ الكلامُ في المعاصي ؛ كحكايةِ أحوالِ النساءِ[1] ، ومجالسِ الخمرِ ، ومقاماتِ الفسَّاقِ ، وتنعُّمِ الأغنياءِ ، وتجبُّرِ الملوكِ ، ومراسمِهِمُ المذمومةِ ، وأحوالِهِمُ المكروهةِ ، فإنَّ كلَّ ذلكَ ممَّا لا يحلُّ الخوضُ فيهِ ، فهٰذا حرامٌ .

وأمَّا الكلامُ فيما لا يعني ، أوْ أكثرَ ممَّا يعني.. فهوَ تركُ الأولىٰ ، ولا تحريمَ فيهِ .

نعمْ ، مَنْ يكثرُ الكلامَ فيما لا يعني لا يُؤمنُ عليهِ الخوضُ في الباطلِ ، وأكثرُ الناسِ يتجالسونَ للتفرُّجِ بالحديثِ ، ولا يعدو كلامُهُمُ التفكُّهَ بأعراضِ الناسِ ، أوِ الخوضَ في الباطلِ .

وأنواعُ الباطلِ لا يمكنُ أنْ تُحصىٰ ؛ لكثرتِها وتفنُّنِها ، فلذلكَ لا مخلصَ منها إلا بالاقتصارِ علىٰ ما يعني مِنْ مهماتِ الدينِ والدنيا ، وفي هٰذا الجنسِ تقعُ كلماتٌ يهلَكُ بها صاحبُها وهوَ مستحقرٌ لها ، فقدْ قالَ بلالُ بنُ الحارثِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رِضوانِ اللهِ ما يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغَتْ ، يكتبُ اللهُ لهُ بها رِضوانَهُ إلىٰ يومِ

---

(١) مما يتعلق بهن ؛ كأن يقول : قالت لي كذا ، وقلت لها كذا ، وفعلتْ كذا ، وما أشبه ذلك . « إتحاف » (٧/ ٤٦٧) .

يلقاهُ ، وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ما يَظنُّ أنْ تبلغَ بهِ ما بلغَتْ ، يكتبُ اللهُ عليهِ بها سَخَطَهُ إلىٰ يومِ القيامَةِ »(١) .

قالَ : فكانَ علقمةُ يقولُ : (كمْ مِنْ كلامٍ قدْ منعَنيهِ حديثُ بلالِ بنِ الحارثِ)(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جلساءَهُ يهوي بها أبعدَ مِنَ الثُّريَّا »(٣) .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنمَ ، وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يلقي لها بالاً يرفعُهُ اللهُ بها في الجنَّةِ)(٤) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعظمُ النَّاسِ خطايا يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ خوضاً في الباطلِ »(٥) ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ ، وبقولهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٩) ، وابن ماجه (٣٩٦٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا هـٰكذا متابعاً للحديث السابق في « الصمت وآداب اللسان » (٧٠) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

(٤) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٨٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٢) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٤) .

وقالَ سلمانُ : (أكثرُ الناسِ ذنوباً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ كلاماً في معصيةِ اللهِ)[1] .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (كانَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ يمرُّ بمجلسٍ لهمْ فيقولُ : توضَّؤوا ؛ فإنَّ بعضَ ما تقولونَ شرٌّ مِنَ الحدثِ)[2] .

فهٰذا هوَ الخوضُ في الباطلِ ، وهوَ وراءَ ما سيأتي مِنَ الغيبةِ والنميمةِ والفُحْشِ وغيرِهِ ، بلْ هوَ الخوضُ في ذكرِ محظوراتٍ سبقَ وجودُها ، أوْ تُدبِّرَ للتوصُّلِ إليها مِنْ غيرِ حاجةٍ دينيَّةٍ إلىٰ ذكرِها[3] ، ويدخلُ فيهِ أيضاً الخوضُ في حكايةِ البدعِ والمذاهبِ الفاسدةِ ، وحكايةِ ما جرىٰ مِنْ قتالِ الصحابةِ علىٰ وجهٍ يوهمُ الطَّعنَ في بعضِهِمْ ، وكلُّ ذلكَ باطلٌ ، والخوضُ فيهِ خوضٌ في الباطلِ ، نسألُ اللهَ حسنَ العونِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٠٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٥) .
(٢) رواه ابن وهب في « جامعه » (٤٦٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٥) .
(٣) في (ب ، ج) : (دعته) بدل (دينية) .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمارِ أخاكَ ولا تمازحْهُ ولا تعِدْهُ موعداً فتُخْلفَهُ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ذَرُوا المراءَ ؛ فإنَّهُ لا تُفهمُ حكمتُهُ ، ولا تُؤمنُ فتنتُهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تَركَ المِراءَ ، وهوَ محقٌّ.. بُنِيَ لهُ بيتٌ في أعلى الجنَّةِ، ومَنْ تَركَ المراءَ وهوَ مُبْطِلٌ.. بُنِيَ له بيتٌ في رَبَضِ الجنَّةِ»(٣) .

وعنْ أمِّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ ما عهِدَ إليَّ ربِّي ونهاني عنهُ بعدَ عبادةِ الأوثانِ وشربِ الخمرِ ملاحاةُ الرِّجالِ »(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٥٢) ، وليس فيه قوله : (لا تفهم حكمته) ، وقد روى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (المراء لا تعقل حكمته ، ولا تؤمن فتنته) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) ، **وربض الشيء** : نواحيه ، أو أدناه وأسفله .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٨٢) ، ورواه ابن أبي شيبة في =

وقالَ أيضاً : « ما ضلَّ قومٌ بعدَ أنْ هداهُمُ اللهُ إلاَّ أُوتُوا الجدَلَ »[١] .

وقالَ أيضاً : « لا يستكمِلُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يدعَ المراءَ وإنْ كانَ محقاً »[٢] .

وقالَ أيضاً : « ستٌّ مَنْ كُنَّ فيهِ . . بلغَ حقيقةَ الإيمانِ : الصومُ في الصَّيفِ ، وضرْبُ أعداءِ اللهِ بالسَّيفِ ، وتعجيلُ الصلاة في يومِ الدَّجْنِ ، والصَّبرُ على المصيباتِ ، وإسباغُ الوضوءِ على المكارهِ ، وتركُ المراءِ وهوَ صادقٌ »[٣] .

وقالَ الزبيرُ لابنِهِ : (لا تجادلِ الناسَ بالقرآنِ ؛ فإنَّكَ لا تستطيعُهُمْ ، ولكنْ عليكَ بالسُّنَّةِ)[٤] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مَنْ جعلَ دينَهُ عُرْضةً للخصوماتِ . . أكثرَ التنقُّلَ)[٥] .

= « المصنف » (٢٤٥٤١) عن عروة بن رويم مرسلاً ، **والملاحاة** : الملامة مع الاستقصاء والمباغضة .

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٥) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٩) .

(٣) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٨٤) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، **ويوم الدجن** : يوم الغيم المطبق ، ويطلق الدجن على المطر الكثير .

(٤) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦١٠) .

(٥) رواه الدارمي في «سننه» (٣١٢)، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦١).

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : (إياكُمْ والمراءَ ؛ فإنَّهُ ساعةُ جهلِ العالِمِ ، وعندَها يبتغي الشيطانُ زلَّتَهُ)(١) .

وقيلَ : ما ضلَّ قومٌ بعدَ إذْ هداهُمُ اللهُ إلا بالجدالِ .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليه : (ليسَ هٰذا الجدالُ مِنَ الدينِ في شيءٍ)(٢) .

وقالَ أيضاً : (المراءُ يقسِّي القلوبَ ، ويورِثُ الضغائنَ)(٣) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تجادِلِ العلماءَ فيمقتوكَ)(٤) .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إذا رأيتَ الرجلَ لَجوجاً ممارياً معجباً برأيِهِ . . فقدْ تمَّتْ خسارتُهُ)(٥) .

وقالَ سفيانُ : (لوْ خالفتُ أخي في رمانةٍ ، فقالَ : حلوةٌ ، وقلْتُ : حامضةٌ . . لسعىٰ بي إلى السلطانِ)(٦) .

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٤١٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٥) .
(٢) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٢٣٨) بنحوه ، وأورده ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٧٠) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٢٠٥) .
(٤) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني عنه ضمن خبر تقدم بعضه .
(٥) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٢٨).
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٢٢) .

وقالَ أيضاً : (صافِ مَنْ شئْتَ ، ثمَّ أغضبْهُ بالمِراءِ ، فليرمينَّكَ بداهيةٍ تمنعُكَ العيشَ) .

وقالَ ابنُ أبي ليلىٰ : (لا أماري صاحبي ؛ فإمَّا أنْ أكذبَهُ ، وإمَّا أنْ أغضبَهُ)(١) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (كفىٰ بكَ إثماً ألاَّ تزالَ ممارياً)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكفيرُ كلِّ لحاءٍ ركعتانِ »(٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تتعلمِ العلمَ لثلاثٍ ، ولا تتركْهُ لثلاثٍ ؛ لا تتعلمْ لتُماريَ بهِ ، ولا لتباهيَ بهِ ، ولا لترائيَ بهِ ، ولا تتركْهُ حياءً مِنْ طلبِهِ ، ولا زهادةً فيهِ ، ولا رضاً بالجهلِ منهُ)(٤) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ كثُرَ كذبُهُ . . ذهبَ جمالُهُ ، ومَنْ لاحى الرِّجالَ . . سقطَتْ مروءتُهُ ، ومَنْ كَثُرَ همُّهُ . . سقمَ جسمُهُ ، ومَنْ ساءَ خلُقُهُ . . عذَّبَ نفسَهُ)(٥) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٢٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/١٤٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/٢٦٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً ، وأوقفه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧٧٣١) علىٰ أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣١) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٣) عن العزيز بن حصين بلاغاً عنه عليه السلام .

وقيلَ لميمونِ بنِ مهرانَ : ما لكَ لا يفارقُكَ أخٌ لكَ عنْ قلىً ؟! قالَ : لأنِّي لا أشاريهِ ولا أماريهِ[1] .

وما وردَ في ذمِّ المراءِ والجدالِ كثيرٌ .

وحدُّ المراءِ : هوَ كلُّ اعتراضٍ على كلامِ الغيرِ ، بإظهارِ خللٍ فيهِ ؛ إمَّا في اللفظِ ، وإمَّا في المعنىٰ ، وإمَّا في قصدِ المتكلمِ .

وتركُ المراءِ : بتركِ الإنكارِ والاعتراضِ ، فكلُّ كلامٍ سمعتَهُ ؛ فإنْ كانَ حقّاً . . فصدِّقْ بهِ ، وإنْ كان باطلاً أوْ كذباً ولمْ يكنْ متعلقاً بأمورِ الدينِ . . فاسكتْ عنهُ .

* * *

والطعنُ في كلامِ الغيرِ تارةً يكونُ في لفظِهِ : بإظهارِ خللٍ فيهِ مِنْ جهةِ النحوِ ، أوْ مِنْ جهةِ اللغةِ ، أوْ مِنْ جهةِ العربيَّةِ ، أوْ مِنْ جهةِ النظمِ والترتيبِ بسوءِ تقديمٍ وتأخيرٍ ، وذلكَ تارةً يكونُ مِنْ قصورِ المعرفةِ ، وتارةً يكونُ بطغيانِ اللسانِ ، وكيفما كانَ . . فلا وجهَ لإظهارِ خللِهِ .

وأمَّا في المعنىٰ . . فبأنْ يقولَ : ليسَ كما تقولُ ، وقدْ أخطأتَ فيهِ مِنْ وجهِ كذا وكذا .

وأمَّا في قصدِهِ . . فمثلُ أنْ يقولَ : هـٰذا الكلامُ حقٌّ ، ولكنْ ليسَ قصدُكَ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤٦) ، والمشاراة : المخاصمة .

منهُ الحقَّ ، وإنَّما أنتَ فيهِ صاحبُ غرضٍ ، وما يجري مَجراهُ ، وهٰذا الجنسُ إنْ جرىٰ في مسألةٍ علميَّةٍ . . فربَّما خُصَّ باسمِ الجدلِ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ ، بلِ الواجبُ السكوتُ ، أوِ السؤالُ في مَعْرِضِ الاستفادةِ ، لا علىٰ وجهِ العنادِ والنكادةِ ، أوِ التلطفُ في التعريفِ لا في مَعْرِضِ الطعنِ .

وأمَّا المجادلةُ : فعبارةٌ عنْ قصدِ إفحامِ الغيرِ ، وتعجيزِهِ وتنقيصِهِ بالقدحِ في كلامِهِ ، ونسبتِهِ إلى القصورِ والجهلِ فيهِ .

وآيةُ ذلكَ : أن يكونَ تنبيهُهُ للحقِّ منْ جهةٍ أخرىٰ مكروهاً عندَ المجادَلِ ، بلْ يحبُّ أنْ يكونَ هوَ المظهِرَ لهُ خطأَهُ ؛ ليبيِّنَ بهِ فضلَ نفسِهِ ونقصَ صاحبِهِ ، ولا نجاةَ مِنْ هٰذا إلا بالسكوتِ عنْ كلِّ ما لا يأثمُ بهِ لوْ سكتَ عنهُ .

وأمَّا الباعثُ علىٰ هٰذا : فهوَ الترفُّعُ بإظهارِ العلمِ والفضْلِ ، والتهجُّمُ على الغيرِ بإظهارِ نقصِهِ ، وهما شهوتانِ باطنتانِ للنفسِ قويَّتانِ .

أمَّا إظهارُ الفضلِ . . فهوَ منْ قبيلِ تزكيةِ النفسِ ، وهيَ مِنْ مقتضىٰ ما في العبدِ مِنْ طغيانِ دعوى العلوِّ والكبرياءِ ، وهيَ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ .

وأمَّا تنقيصُ الآخرِ . . فهوَ مِنْ مقتضىٰ طبعِ السبعيَّةِ ؛ فإنَّهُ يقتضي أنْ يمزِّقَ غيرَهُ ، ويقصِمَهُ ويصدِمَهُ ويؤذيَهُ .

وهاتانِ صفتانِ مذمومتانِ مهلكتانِ ، وإنَّما قُوَّتُهما المراءُ والجدالُ ، فالمواظبُ على المراءِ والجدالِ مقوٍّ لهٰذهِ الصفاتِ المهلكةِ ، وهٰذا مجاوزٌ

حدَّ الكراهةِ ، بلْ هوَ معصيةٌ مهما حصَلَ فيهِ إيذاءُ الغيرِ .

ولا تنفكُّ المماراةُ عنِ الإيذاءِ وتهييجِ الغضبِ ، وحملِ المعترَضِ عليهِ علىٰ أنْ يعودَ فينصرَ كلامَهُ بما يمكنُهُ مِنْ حقٍّ أوْ باطلٍ ، ويقدحَ في قائلِهِ بكلِّ ما يُتصوَّرُ لهُ ، فيثورُ الشجارُ بينَ المتماريينِ كما يثورُ الهِراشُ بينَ الكلبينِ ، يقصدُ كلُّ واحدٍ منهما أنْ يعضَّ صاحبَهُ بما هوَ أعظمُ نكايةً ، وأقوىٰ في إفحامِهِ وإثخانِهِ .

* * *

وأمَّا علاجُهُ : فهوَ بأنْ يكسِرَ الكبرَ الباعثَ لهُ علىٰ إظهارِ فضلِهِ ، والسبعيَّةَ الباعثةَ لهُ علىٰ تنقيصِ غيرِهِ ، كما سيأتي ذلكَ في كتابِ ذمِّ الكبرِ والعُجْبِ ، وكتابِ ذمِّ الغضبِ ؛ فإنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ بإماطةِ سببِها ، وسببُ المراءِ والجدالِ ما ذكرناهُ ، ثمَّ المواظبةُ عليهِ تجعلُهُ عادةً وطبعاً ، حتَّىٰ يتمكَّنَ مِنَ النفسِ ، ويعسرَ الصبرُ عنهُ .

رُوِيَ أنَّ أبا حنيفةَ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ لداوودَ الطائيِّ : لمَ آثرْتَ الانزواءَ ؟ قالَ : لأجاهدَ نفسي بتركِ الجدالِ ، فقالَ : احضرِ المجالسَ واسمعْ ما يُقالُ ولا تتكلَّمْ ، قال : ففعلتُ ذلكَ ، فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها[1] .

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤١) عن أحمد بن أبي الحواري قال : حدثني بعض أصحابنا قال : إنما كان سبب [زهد] داوود الطائي أنه كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له =

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ مَنْ سمعَ الخطأَ منْ غيرِهِ وهوَ قادرٌ علىٰ كشفِهِ . . تعسَّرَ عليهِ الصبرُ عندَ ذلكَ جداً ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المراءَ وهوَ محقٌّ . . بنى اللهُ لهُ بيتاً في أعلى الجنَّةِ » ؛ لشدَّةِ ذلكَ على النَّفسِ .

وأكثرُ ما يغلبُ ذلكَ في المذاهبِ والعقائدِ ؛ فإنَّ المراءَ طبعٌ ، فإذا ظنَّ أنَّ لهُ عليهِ ثواباً . . اشتدَّ عليهِ حرصُهُ ، وتعاونَ الطبعُ والشرعُ عليهِ ، وذلكَ خطأٌ محضٌ ، بلْ ينبغي للإنسانِ أن يكفَّ لسانَهُ عنْ أهلِ القبلةِ ، وإذا رأىٰ مبتدعاً . . تلطَّفَ في نصحِهِ في خلوةٍ ، لا بطريقِ الجدالِ ؛ فإنَّ الجدالَ يخيِّلُ إليهِ أنَّها حيلةٌ منهُ في التلبيسِ ، وأنَّ ذلكَ صنعةٌ يقدرُ المجادلونَ منْ أهلِ مذهبِهِ علىٰ أمثالِها لوْ أرادوا ، فتستمرُّ البدعةُ في قلبِهِ بالجدلِ وتتأكدُ .

فإذا عرفَ أنَّ النصحَ لا ينفعُ . . اشتغلَ بنفسِهِ وتركَهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ مَنْ كفَّ لسانَهُ عنْ أهلِ القبلةِ إلاَّ بأحسنِ ما يقدرُ عليهِ » ، قالَ هشامُ بنُ عروةَ : كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يردِّدُ قولَه هـٰذا سبعَ مراتٍ(١) .

= أبو حنيفة : يا أبا سليمان ؛ أما الأداة . . فقد أحكمناها ، فقال داوود : فأي شيء بقي ؟ قال : بقي العمل به ، قال : فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة ، فقلت لها : حتىٰ تجلسي معهم فلا تجيبي في مسألة ، قال : فكان يجالسهم سنة قبل أن يعتزل ، قال : فكانت المسألة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء ، فلا أجيب فيها ، قال : فاعتزلهم بعد .

(١) كذا رواه مرسلاً عن هشام بن عروة مع حكاية قوله ابنُ أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٣٧) .

وكلُّ مَنِ اعتادَ المجادلةَ مدَّةً ، وأثنى الناسُ عليهِ ، ووجدَ لنفسِهِ بسببِهِ عزّاً وقبولاً . . قويَتْ فيهِ هٰذهِ المهلكاتُ ، فلا يستطيعُ عنها نزوعاً إذا اجتمعَ عليهِ سلطانُ الكبرِ والغضبِ ، والرياءِ ، وحبِّ الجاهِ ، والتعزُّزِ بالفضلِ ، وآحادُ هٰذهِ الصفاتِ يشقُّ مجاهدتُها ، فكيفَ بمجموعِها ؟!

* * *

الآفة الخامسة : الخصومة

وهيَ أيضاً مذمومةٌ ، وهيَ وراءَ المراءِ والجدالِ .

فالمراءُ : طعنٌ في كلامِ الغيرِ ، بإظهارِ خللٍ فيهِ مِنْ غيرِ أنْ يرتبطَ بهِ غرضٌ سوىٰ تحقيرِ الغيرِ ، وإظهارِ مزيَّةِ الكياسةِ .

والجدالُ : عبارةٌ عنْ أمرٍ يتعلَّقُ بإظهارِ المذاهبِ وتقريرِها .

والخصومةُ : لجاجٌ في الكلامِ ؛ ليُستوفىٰ بهِ مالٌ أوْ حقٌّ مقصودٌ ، وذلك تارةً يكونُ ابتداءً ، وتارةً يكونُ اعتراضاً ، والمراءُ لا يكونُ إلا بالاعتراضِ علىٰ كلامٍ سبقَ .

فقدْ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخصِمُ »[١] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جادلَ في خصومةٍ بغيرِ علمٍ . لمْ يزلْ في سخطِ اللهِ حتَّىٰ ينزعَ »[٢] .

وقالَ بعضُهمْ : (إيَّاكُمْ والخصومةَ ؛ فإنَّها تمحقُ الدِّينَ)[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ، ومسلم (٢٦٦٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٤) عن جعفر بن محمد .

ويُقالُ : (ما خاصمَ قطُّ وَرِعٌ في الدينِ)(١) .

وقالَ ابنُ قتيبةَ : مرَّ بي بشيرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ أبي بكرةَ فقالَ : ما يجلسُكَ ؟ قلتُ : خصومةٌ بيني وبينَ ابنِ عمٍّ لي ، فقالَ : إنَّ لأبيكَ عندي يداً ، وإنِّي أريدُ أنْ أجزيَكَ بها ، وإنِّي ـ واللهِ ـ ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدينِ ، ولا أنقصَ للمروءةِ ، ولا أضيعَ للَّذةِ ، ولا أشغلَ للقلبِ . . مِنَ الخصومةِ ، قالَ : فقمتُ لأرجعَ ، فقالَ لي خصمي : ما لكَ ؟ قلتُ : لا أخاصمُكَ : قالَ : إنَّكَ عرفتَ أنَّهُ حقِّي ؟ قلتُ : لا ، ولكنِّي أُكرِمُ نفسي عنْ هـٰذا ، قالَ : فإنِّي لا أطلبُ منهُ شيئاً ، هوَ لكَ(٢) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فإذا كانَ للإنسانِ حقٌّ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ الخصومةِ في طلبهِ أوْ في حفظِهِ مهما ظلمَهُ ظالمٌ ، فكيفَ يكونُ حكمُـهُ ؟ وكيفَ تُذَمُّ خصومتُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الذمَّ يتناولُ الذي يخاصمُ بالباطلِ ، والذي يخاصمُ بغيرِ علمٍ ؛ مثلُ وكيلِ القاضي ، فإنَّهُ قبلَ أنْ يتعرَّفَ أنَّ الحقَّ في أيِّ جانبٍ هوَ يتوكَّلُ في الخصومةِ مِنْ أيِّ جانبٍ يكونُ ، فيخاصمُ بغيرِ علمٍ .

ويتناولُ الذي يطلبُ حقَّهُ ، ولكنَّهُ لا يقتصرُ علىٰ قدْرِ الحاجةِ ، بلْ يُظهِرُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٥) عن عبد الكريم بن أمية .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٨) .

اللَّدَدَ في الخصومةِ علىٰ قصدِ التَّسلُّطِ ، أوْ علىٰ قصدِ الإيذاءِ .

ويتناولُ الذي يمزِجُ بالخصومةِ كلماتٍ مؤذيةً ليسَ يحتاجُ إليها في نصرةِ الحجَّةِ وإظهارِ الحقِّ .

ويتناولُ الذي يحملُهُ على الخصومةِ محضُ العنادِ لقهرِ الخصمِ وكسرِهِ ، معَ أنَّهُ قدْ يستحقِرُ ذلكَ القدْرَ مِنَ المالِ ، وفي الناسِ مَنْ يصرِّحُ بهِ ويقولُ : إنَّما قصدي عنادُهُ وكسرُ غرضِهِ ، وإنِّي إنْ أخذتُ منهُ هٰذا المالَ . . ربَّما رميتُ بهِ في بئرٍ ولا أبالي ، فهٰذا مقصودُهُ اللَّدَدُ والخصومةُ واللَّجاجُ ، وهوَ مذمومٌ جداً .

أمّا المظلومُ الذي ينصرُ حجَّتَهُ بطريقِ الشرعِ مِنْ غيرِ لَدَدٍ وإسرافٍ وزيادةِ لَجاجٍ على قدرِ الحاجةِ ، ومِنْ غيرِ قصدِ عنادٍ وإيذاءٍ . . ففعْلُهُ ليسَ بحرامٍ ، ولكنِ الأولىٰ تركُهُ ما وجدَ إليهِ سبيلاً ؛ فإنَّ ضبطَ اللسانِ في الخصومةِ علىٰ حدِّ الاعتدالِ متعذِّرٌ ، والخصومةُ توغِرُ الصدرَ ، وتهيِّجُ الغضبَ ، وإذا هاجَ الغضبُ . . نُسِيَ المتنازَعُ فيهِ ، وبقيَ الحقدُ بينَ المتخاصِمَينِ ، حتَّىٰ يفرحُ كلُّ واحدٍ بمساءةِ صاحبِهِ ، ويحزنُ بمسرَّتِهِ ، ويطلقُ اللِّسانَ في عرضِهِ ، فمَنْ بدأَ بالخصومةِ . . فقدْ تعرَّضَ لهٰذهِ المحذوراتِ ، وأقلُّ ما فيهِ تشويشُ خاطرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ في صلاتِهِ يشتغلُ بمحاجَّةِ خصمِهِ ، فلا يبقى الأمرُ علىٰ حدِّ الواجبِ .

فالخصومةُ مبدأُ كلِّ شرٍّ ، وكذا الجدالُ والمراءُ ، فينبغي ألاَّ يُفتحَ بابُهُ إلاَّ

لضرورةٍ ، وعندَ الضرورةِ ينبغي أنْ يُحفظَ اللِّسانُ والقلبُ عَنْ تبعاتِ الخصومةِ ، وذلكَ متعذِّرٌ جداً .

فمنِ اقتصرَ على الواجبِ في خصومتِهِ . . سلمَ مِنَ الإثمِ ، ولا تُذمُّ خصومتُهُ ، إلا أنَّهُ إنْ كانَ مستغنياً عنِ الخصومةِ فيما خاصمَ فيهِ لأنَّ معَهُ ما يكفيهِ . . فيكونُ تاركاً للأولىٰ ، ولا يكونُ آثماً .

نعمْ ، أقلُّ ما يفوتُهُ في الخصومَةِ والمراءِ والجدلِ طيبُ الكلامِ ، وما وردَ فيهِ مِنَ الثوابِ ؛ إذْ أقلُّ درجاتِ طيبِ الكلامِ إظهارُ الموافقةِ ، ولا خشونةَ في الكلامِ أعظمُ مِنَ الطَّعنِ والاعتراضِ ، الذي حاصلُهُ إمَّا تجهيلٌ ، وإمَّا تكذيبٌ ؛ فإنَّ مَنْ جادلَ غيرَهُ أوْ ماراهُ أوْ خاصمَهُ . . فقدْ جهَّلَهُ أوْ كذَّبَهُ ، فيفوتُ بهِ طيبُ الكلامِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يمكِّنُكُمْ مِنَ الجنَّةِ طيبُ الكلامِ وإطعامُ الطَّعامِ »(١) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مَنْ سلَّمَ عليكَ مِنْ خلقِ اللهِ . . فارددْ عليهِ وإنْ كانَ مجوسيّاً ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ﴾)(٢) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٥٤٧) من حديث جابر رضي الله عنه ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٤) عن محمد بن المنكدر .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٩) .

وقالَ ابنُ عباسٍ أيضاً : (لوْ قالَ لي فرعونُ خيراً . . لرددتُ عليهِ)[1] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ غُرفاً ، يُرىٰ ظاهرُها مِنْ باطنِها ، وباطنُها مِنْ ظاهرِها ، أعدَّها اللهُ تعالىٰ لمَنْ أطعمَ الطعامَ وألانَ الكلامَ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ بهِ خنزيرٌ ، فقالَ : مُرَّ بسلامٍ ، فقيلَ : يا روحَ اللهِ ؛ أتقولُ هٰذا لخنزيرٍ ؟! فقالَ : أكرهُ أنْ أعوِّدَ لساني الشرَّ[3] .

وقالَ نبيُّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الكلمةُ الطَّيِّبةُ صدقةٌ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ يكنْ . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[5] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (البِرُّ شيءٌ هيِّنٌ ؛ وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ)[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١١) .
(٢) رواه الترمذي (١٩٨٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٨) عن أنس رضي الله عنه عنه عليه السلام .
(٤) قطعة من حديث رواه مسلم (١٠٠٩) .
(٥) رواه البخاري (٦٠٢٣) ، ومسلم (٦٨/١٠١٦) .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٧٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٠٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الكلامُ الليِّنُ يغسلُ الضغائنَ المستكنَّةَ في الجوارحِ)(١) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (كلُّ كلامٍ لا يسخطُ ربَّكَ إلا أنَّكَ ترضي بهِ جليسَكَ . . فلا تكنْ بهِ عليهِ بخيلاً ؛ فلعلَّهُ يعوِّضُكَ منهُ ثوابَ المحسنينَ)(٢) .

فهٰذا كلُّهُ في فضْلِ الكلامِ الطيِّبِ ، وتضادُّهُ الخصومةُ والمراءُ واللَّجاجُ والجدالُ ؛ فإنَّهُ الكلامُ المستكرهُ الموحشُ المؤذي للقلبِ ، المنغِّصُ للعيشِ ، المهيِّجُ للغضبِ ، الموغِرُ للصدرِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٢) ، وفيه : (الجوانح) بدل (الجوارح) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٣) .

الآفة السادسة : التقعر في الكلام

بالتشدُّقِ ، وتكلُّفِ السجْعِ والفصاحةِ ، والتصنُّعِ فيهِ بالتشبيباتِ والمقدِّماتِ ، وما جرَتْ بهِ عادةُ المتفاصحينَ المدَّعينَ للخطابةِ.

فكلُّ ذلكَ مِنَ التَّصنُّعِ المذمومِ ، ومِنَ التكلُّفِ الممقوتِ ، الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وأتقياءُ أمَّتي برآءُ مِنَ التَّكلُّفِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أبغضَكُمْ إليَّ ، وأبعدَكُمْ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ المتفيهِقونَ المتشدِّقونَ في الكلامِ »(٢) .

وقالَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذُوا بالنَّعيمِ ، يأكلونَ ألوانَ الطعامِ ، ويلبسونَ ألوانَ الثيابِ ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ »(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٢٢٩) ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٢٨) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه مرفوعاً : « إني بريءٌ من التكلف وصالحو أمتي » .

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه ، وتمامه : قالوا : يا رسول الله ؛ قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » ، قال الترمذي : (**والثرثار** : هو الكثير الكلام ، **والمتشدق** : الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/٣١٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا هلكَ المتنطِّعونَ » ثلاثَ مراتٍ[١] ، والتَّنطُّعُ : هوَ التعمُّقُ والاستقصاءُ .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ شقاشِقَ الكلامِ مِنْ شقاشِقِ الشيطانِ)[٢] .

وجاءَ عمرُ بنُ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ إلىٰ أبيهِ سعدٍ يسألُهُ حاجةً ، فتكلَّمَ بينَ يدي حاجتِهِ بكلامٍ ، فقالَ لهُ سعدٌ : ما كنتَ مِنْ حاجتِكَ أبعدَ منكَ اليومَ ، إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يأتي على النَّاسِ زمانٌ يتخلَّلونَ الكلامَ بألسنتِهِمْ كما تتخلَّلُ البقرُ الكلأَ بألسنتِها »[٣] .

وكأنَّهُ أنكرَ عليهِ ما قدَّمَ على الكلامِ مِنَ التشبيبِ والمقدِّمةِ المصنوعةِ المتكلَّفةِ .

وهٰذا أيضاً مِنْ آفاتِ اللسانِ ، ويدخلُ فيهِ كلُّ سجْعٍ متكلَّفٍ ، وكذلكَ التفاصحُ الخارجُ عنْ حدِّ العادةِ ، وكذلكَ تكلُّفُ السجْعِ في المحاوراتِ ؛ إذْ قضىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بغرَّةٍ في الجنينِ ، فقالَ بعضُ قومِ الجاني : كيفَ ندي مَنْ لا شربَ ولا أكلَ ، ولا صاحَ ولا استهلَّ ، ومثلُ ذلكَ يطلُّ ؟! فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسجْعاً كسجْعِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٢) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٤٩) واللفظ له ، ورواه مختصراً أبو داوود (٥٠٠٥) ، والترمذي (٢٨٥٣) .

الأعرابِ ؟! »[١] ، وأنكرَ ذلكَ ؛ لأنَّ أثرَ التكلُّفِ والتصنُّعِ بيِّنٌ عليهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقتصرَ في كلِّ شيءٍ علىٰ مقصودِهِ ، ومقصودُ الكلامِ التفهيمُ للغرضِ ، وما وراءَ ذلك تصنُّعٌ مذمومٌ .

ولا يدخلُ في هٰذا تحسينُ ألفاظِ الخطابةِ ، والتذكيرُ مِنْ غيرِ إفراطٍ وإغرابٍ ؛ فإنَّ المقصودَ منها تحريكُ القلوبِ وتشويقُها ، وقبضُها وبسطُها ، فلرشاقةِ اللفظِ تأثيرٌ فيهِ ، فهوَ لائقٌ بهِ .

فأمّا المحاوراتُ التي تجري في قضاءِ الحاجاتِ . . فلا يليقُ بها السجْعُ والتشدُّقُ ؛ فالاشتغالُ بهِ مِنَ التكلُّفِ المذمومِ ، ولا باعثَ عليهِ إلا الرياءُ وإظهارُ الفصاحةِ ، والتميُّزُ بالبراعةِ ، وكلُّ ذلكَ مذمومٌ يكرهُهُ الشَّرعُ ويزجرُ عنهُ .

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٦٨٢) .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهوَ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ، ومصدرُهُ : الخبثُ واللؤمُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والفحشَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يحبُّ الفحشَ ولا التَّفَحُّشَ »(١) .

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ أنْ تُسبَّ قتلىٰ بدرٍ مِنَ المشركينَ ، فقالَ : « لاَ تسبُّوا هؤلاءِ ؛ فإنَّهُ لا يخلُصُ إليهِمْ شيءٌ ممَّا تقولونَ ، وتؤذونَ الأحياءَ ، ألا إنَّ البَذاءَ لؤمٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ ، ولا الفاحشِ ولا البذيءِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجنَّةُ حرامٌ علىٰ كلِّ فاحشٍ أنْ يدخلَها »(٤) .

---

(١) كذا رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣١٩) ، وهو ضمن حديث طويل رواه أحمد في « المسند » (٢/١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥١٧٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٣) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٦٨) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٧٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٨٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعةٌ يؤذونَ أهلَ النَّارِ في النارِ علىٰ ما بهمْ مِنَ الأذىٰ ، يسعونَ بينَ الحميمِ والجحيمِ يدْعونَ بالويلِ والثُّبورِ ، رجلٌ يسيلُ فوهُ قيحاً ودماً ، فيُقالُ لهُ : ما بالُ الأبعدِ قدْ آذانا علىٰ ما بنا مِنَ الأذى ؟ فيقولُ : إنَّ الأبعدَ كانَ ينظرُ إلىٰ كلِّ كلمةٍ قذعةٍ خبيثةٍ فيستلذُّها كما يستلِذُّ الرَّفثَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ : « يا عائشةُ ؛ لوْ كانَ الفحْشُ رجلاً . . لكانَ رجلَ سَوْءٍ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البَذاءُ والبيانُ شعبتانِ مِنْ شُعبِ النِّفاقِ »[3] .

ويُحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالبيانِ كشفَ ما لا يجوزُ كشفُهُ ، ويُحتملُ أيضاً : المبالغةَ في الإيضاحِ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ حدِّ التكلُّفِ ، ويُحتملُ أيضاً : البيانَ في أمورِ الدينِ ، وفي صفاتِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ إلقاءَ ذلكَ مجملاً إلىٰ أسماعِ العوامِّ أولىٰ مِنَ المبالغةِ في بيانِهِ ؛ إذْ قدْ يثورُ مِنْ غايةِ البيانِ فيهِ شكوكٌ ووساوسُ ، فإذا أُجملَتْ . . بادرَتِ القلوبُ إلى القبولِ ولمْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٦) من حديث شفي بن ماتع ، وهو مختلف في صحبته .
(٢) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٤٩٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٣١) .
(٣) رواه الترمذي (٢٠٢٧) .

تضطربْ ، ولكنْ ذكرُهُ مقروناً بالبَذاءِ يشبهُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ المجاهرةَ بما يستحيي الإنسانُ مِنْ بيانِهِ ، فإنَّ الأولىٰ في مثلِهِ الإغماضُ والتغافلُ ، دونَ الكشفِ والبيانِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا يحبُّ الفاحشَ المتفَحِّشَ الصَّيَّاحَ في الأسواقِ »[١] .

وقالَ جابرُ بنُ سَمُرةَ : كنتُ جالساً عندَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأبي أمامي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الفُحشَ والتفحُّشَ ليسا مِنَ الإسلامِ في شيءٍ ، وإنَّ أحسنَ الناسِ إسلاماً أحاسنُهُمْ أخلاقاً »[٢] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ ميسرةَ : (يُقالُ : الفاحشُ المتفحِّشُ يومَ القيامةِ في صورةِ كلبٍ ، أوْ في جوفِ كلبٍ)[٣] .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : (ألا أخبرُكُمْ بأدْوَأِ الداءِ ؟ اللسانُ البذيءُ ، والخلقُ الدنيءُ)[٤] .

فهـٰذهِ مذمَّةُ الفُحْشِ .

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣١٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤١) .

فأمّا حدُّهُ وحقيقتُهُ : فهوَ التعبيرُ عنِ الأمورِ المستقبحةِ[1] بالعباراتِ الصريحةِ .

ويجري أكثرُ ذلكَ في ألفاظِ الوِقاعِ وما يتعلَّقُ بهِ ، فإنَّ لأهلِ الفسادِ عباراتٍ صريحةً فاحشةً يستعملونَها فيهِ ، وأهلُ الصَّلاحِ يتحاشَوْنَ عنِ التعرُّضِ لها ، بلْ يكنونَ عنها ، ويدلُّونَ عليها بالرُّموزِ وبذكرِ ما يقاربُها ويتعلَّقُ بها .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ اللهَ حييٌّ كريمٌ ، يعفُّ ويكني ، كنىٰ باللمسِ عنِ الجماعِ)[2] .

فالمسيسُ واللمسُ ، والدخولُ ، والصحبةُ.. كناياتٌ عَنِ الوقاعِ ، وليسَتْ بفاحشةٍ ، وهناكَ عباراتٌ فاحشةٌ يُستقبحُ ذكرُها ، ويستعملُ أكثرُها في الشتمِ والتعييرِ ، وهـٰذهِ العباراتُ متفاوتةٌ في الفُحْشِ ، وبعضُها أفحشُ مِنْ بعضٍ ، وربَّما اختلفَ ذلكَ بعادةِ البلادِ ، وأوائلُها مكروهةٌ ، وأواخرُها محظورةٌ ، وبينَهُما درجاتٌ يُتردَّدُ فيها .

وليسَ يختصُّ هـٰذا بالوِقاعِ ، بلِ الكنايةُ بقضاءِ الحاجةِ عنِ البولِ والغائطِ أولىٰ مِنْ لفظِ التغوُّطِ والخِراءَةِ وغيرِها ؛ فإنَّ هـٰذا أيضاً ممَّا يُخفىٰ ، وكلُّ

---

(١) شرعاً وعقلاً وطبعاً ، بحيث يكرهه الطبع ، كما ينكره العقل ، ويستخبثه الشرع . « إتحاف » (٧/ ٤٨١) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١/ ١٣٤) ، والطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ١٣٧) .

ما يُخفىٰ ويُستحيا منهُ . . فلا ينبغي أن تُذكرَ ألفاظُهُ الصريحةُ ؛ فإنَّهُ فحشٌ .

وكذلكَ يُستحسنُ في العادةِ الكنايةُ عنِ النساءِ ، فلا يُقالُ : قالَتْ زوجُكَ كذا ، بلْ يُقالُ : قِيلَ في الحُجْرةِ ، أوْ قِيلَ مِنْ وراءِ السترِ ، أوْ قالَتْ أمُّ الأولادِ كذا ، والتلطفُ في هـٰذهِ الألفاظِ محمودٌ ، والتصريحُ فيها يفضي إلى الفحْشِ .

وكذلكَ مَنْ بهِ عيوبٌ يستحيي منها ، فلا ينبغي أنْ يُعبَّرَ عنها بصريحِ لفظِها ؛ كالبَرَصِ والقَرَعِ والبواسيرِ ، بلْ يُقالُ : العارضُ الذي يشكوهُ ، وما يجري مَجراهُ ، فالتصريحُ بذلكَ داخلٌ في الفحْشِ ، وجميعُ ذلكَ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ .

قالَ العلاءُ بنُ هارونَ : كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يتحفَّظُ في منطقِهِ ، فخرجَ خُرَاجٌ في إبطِهِ ، فقلنا : نسألُهُ ماذا يقولُ ؟ فقلنا : أينَ خرجَ ؟ فقالَ : في باطنِ اليدِ[1] .

والباعثُ على الفُحْشِ : إمَّا قصدُ الإيذاءِ ، وإمَّا الاعتيادُ الحاصلُ مِنْ مخالطةِ الفُسَّاقِ وأهلِ الخبثِ واللؤمِ ، ومِنْ عادتِهمُ السَّبُّ .

وقالَ أعرابيٌّ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : « عليكَ بتقوى اللهِ ، وإنِ امرُؤٌ عيَّرَكَ بشيءٍ يعلمُهُ فيكَ . . فلا تعيِّرْهُ بشيءٍ تعلَمُهُ فيهِ ، يكنْ وَبالُهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٩٠) .

عليهِ وأجرُهُ لكَ ، ولا تسبَّنَّ شيئاً » ، قالَ : فما سببتُ شيئاً بعدَهُ[1] .

وقالَ عياضُ بنُ حمارٍ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ مِنْ قومي يسبُّني وهوَ دوني ، هلْ عليَّ مِنْ بأسٍ أنْ أنتصرَ منهُ ، فقالَ : « المتسابَّانِ شيطانانِ يتكاذبانِ ويتهاتَرانِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ ما قالا فعلى البادىءِ منهُما حتَّىٰ يعتديَ المظلومُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبابُ المؤمنِ فسُوقٌ ، وقتالُهُ كفْرٌ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ملعونٌ مَنْ سبَّ والدَيهِ »[5] ، وفي روايةٍ : « مِنْ أكبرِ الكبائرِ أنْ يسبَّ الرَّجلُ والديهِ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ يسبُّ الرجلُ والديهِ ؟ قالَ : « يسبُّ أبا الرَّجلِ ، فيسبُّ الآخرُ أباهُ »[6] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٦٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٨٢) عن جابر بن سليم ـ وقيل : سليم بن جابر ـ رضي الله عنه .

(٢) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٠٨٠) ، وروى اللفظ المرفوع أحمد في « المسند » (٤/ ١٦٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) بنحوه .

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٧) ، وفيه : « ما لم يعتدِ المظلوم » .

(٤) رواه البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٢١٧) .

(٦) رواه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) ، دون قوله : (الآخر) .

الآفة الثامنة : اللعن

إمَّا لحيوانٍ ، أوْ لجمادٍ ، أوْ لإنسانٍ ، وذلكَ مذمومٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بلعَّانٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تَلاعَنُوا بلعنةِ اللهِ ولا بغضبِهِ ولا بجهنَّمَ »(٢) .

وقالَ حذيفةُ : (ما تلاعنَ قومٌ قطُّ إلاَّ حقَّ عليهمُ القولُ)(٣) .

وقالَ عِمرانُ بنُ الحصينِ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ أسفارِهِ ؛ إذا امرأةٌ مِنَ الأنصارِ علىٰ ناقةٍ لها ، فضجِرَتْ منها ، فلعنَتْها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خذُوا ما عليها وأعْرُوها ، فإنَّها ملعونةٌ » ، قالَ : فكأنِّي أنظرُ إلىٰ تلكَ الناقةِ تمشي في الناسِ لا يعرِضُ لها أحدٌ(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا يكون المؤمن لعاناً » .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٦) ، والترمذي (١٩٧٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠/٤١٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٤٩٦) .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٥) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما لعنَ الأرضَ أحدٌ إلا قالَتْ : لعنَ اللهُ أعصانا للهِ)[1] .

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يلعنُ بعضَ رقيقِهِ ، فالتفتَ إليهِ فقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ أَلَعَّانينَ وصدِّيقينَ ؟! كلاَّ وربِّ الكعبةِ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، فأعتقَ أبو بكرٍ يومئذٍ بعضَ رقيقِهِ ، وجاءَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : لا أعودُ[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللَّعَّانينَ لا يكونونَ شفعاءَ ولا شهداءَ يومَ القيامةِ »[3] .

وقالَ أنسٌ : كانَ رجلٌ يسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على بعيرٍ ، فلعنَ بعيرَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ ؛ لا تسرْ معَنا على بعيرٍ ملعونٍ » ، وقالَ ذلكَ إنكاراً عليهِ[4] .

واللَّعنُ : عبارةٌ عنِ الطَّرْدِ والإبعادِ مِنَ اللهِ تعالى ، وذلكَ غيرُ جائزٍ إلا على مَنْ يتصفُ بصفةٍ تبعدُهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ الكفرُ والظلمُ ، بأنْ يقولَ : لعنةُ اللهِ على الظالمينَ وعلى الكافرينَ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٩١) .
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٠) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٣٦٢٢) .

وينبغي أنْ يُتبعَ فيهِ لفظُ الشرعِ ؛ فإنَّ في اللعنةِ خطراً ، لأنَّهُ حكمٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنَّهُ قدْ أبعدَ الملعونَ ، وذلكَ غيبٌ لا يطلعُ عليهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ ، ويطَّلعُ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أطلعَهُ اللهُ عليهِ .

والصفاتُ المقتضيةُ للَّعنِ ثلاثةٌ : الكفرُ ، والبدعةُ ، والفسقُ ، وللَّعنِ في كلِّ واحدةٍ ثلاثةُ مراتبَ :

الأولىٰ : اللَّعنُ بالوصفِ الأعمِّ ؛ كقولِكَ : لعنةُ اللهِ على الكافرينَ والمبتدعةِ والفسقةِ .

والثانيةُ : اللَّعنُ بأوصافٍ أخصَّ منهُ ؛ كقولِكَ : لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنَّصارىٰ والمجوسِ ، وعلى القدريةِ والخوارجِ والروافضِ ، وعلى الزناةِ والظَّلمةِ وآكلي الرِّبا .

وكلُّ ذلكَ جائزٌ ، ولكنْ في لعنِ أصنافِ المبتدعةِ خطرٌ ؛ لأنَّ معرفةَ البدعةِ غامضٌ ، فما لمْ يردْ فيهِ لفظٌ مأثورٌ[1] ، فينبغي أنْ يُمنعَ منهُ العوامُّ ؛ لأنَّ ذلكَ يستدعي المعارضةَ بمثلِهِ ، ويثيرُ نزاعاً بينَ الناسِ وفساداً .

والثالثةُ : اللَّعنُ للشَّخصِ المعيَّنِ ، وهٰذا فيهِ نظرٌ[2] ؛ كقولِكَ : زيدٌ لعنهُ اللهُ ، وهوَ كافرٌ ، أوْ فاسقٌ ، أوْ مبتدعٌ .

---

(١) في (أ) : (ولم يرد فيه . . .) ، وفي بقية النسخ : (فيما لم يرد فيه . . .) ، والمثبت من (ل) .

(٢) في (أ) وحدها : (خطر) بدل (نظر) .

والتفصيلُ فيهِ : أنَّ كلَّ شخصٍ ثبتَتْ لعنتُهُ شرعاً فتجوزُ لعنتُهُ .

كقولِكَ : فرعونُ لعنَهُ اللهُ ، وأبو جهلٍ لعنَهُ اللهُ ؛ لأنَّهُ قدْ ثبتَ أنَّ هؤلاءِ ماتوا على الكفرِ ، وعُرِفَ ذلكَ شرعاً .

وأمَّا شخصٌ بعينِهِ في زمانِنا ؛ كقولِكَ : زيدٌ لعنَهُ اللهُ ، وهوَ يهوديٌّ مثلاً .. فهـٰذا فيهِ خطرٌ ؛ فإنَّهُ ربَّما يسلِمُ ، فيموتُ مقرَّباً عندَ اللهِ ، فكيفَ يُحكمُ بكونِهِ ملعوناً ؟!

❊ ❊ ❊

فإنْ قلْتَ : يُلعنُ لكونِهِ كافراً في الحالِ ، كما يُقالُ للمسلمِ : (رحمَهُ اللهُ) لكونِهِ مسلماً في الحالِ ، وإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ يرتدَّ .

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ قولِنا : (رحمَهُ اللهُ) ؛ أيْ : ثبَّتَهُ اللهُ على الإسلامِ الذي هوَ سببُ الرحمةِ ، وعلى الطاعةِ ، ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : ثبَّتَ اللهُ الكافرَ علىٰ ما هوَ سببُ اللَّعنةِ ، فإنَّ هـٰذا سؤالُ الكفرِ ، وهوَ في نفسِهِ كفرٌ ، **بلِ الجائزُ أنْ يُقالَ** : لعنَهُ اللهُ إنْ ماتَ على الكفرِ ، ولا لعنَهُ اللهُ إنْ ماتَ على الإسلامِ ، وذلكَ غيبٌ لا يُدرَىٰ ، والمطلَقُ مردَّدٌ بينَ الجهتينِ ؛ ففيهِ خطرٌ ، وليسَ في تركِ اللَّعنِ خطرٌ .

وإذا عرفتَ هـٰذا في الكافرِ .. فهوَ في زيدٍ الفاسقِ أوْ زيدٍ المبتدعِ أولىٰ ، فلعنُ الأعيانِ فيهِ خطرٌ ؛ لأنَّ الأحوالَ تتقلبُ على الأعيانِ إلا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ يجوزُ أنْ يعلمَ مَنْ يموتُ على الكفرِ ، ولذلكَ

عيَّنَ قوماً باللَّعنِ ، فكانَ يقولُ في دعائِهِ علىٰ قريشٍ : « اللَّهمَّ ؛ عليكَ بأبي جهلِ بنِ هشامٍ ، وعتبةَ بنِ ربيعةَ » ، وذكرَ جماعةً قُتلوا على الكفرِ ببدرٍ[1] ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ لمْ يَعلَمْ عاقبتَهُ كانَ يلعنُهُ ، فنُهِيَ عنْ ذلكَ ؛ إذْ رُوِيَ أنَّهُ كانَ يلعنُ الذينَ قَتلوا أصحابَ بئرِ معونةَ في قنوتِهِ شهراً ، فنزلَ قولُهُ تعالَىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2] يعني : أنَّهمْ ربَّما يتوبونَ ، فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّهمْ ملعونونَ ؟!

وكذلكَ مَنْ بانَ لنا موتُهُ على الكفرِ . . جازَ لعنُهُ وجازَ ذمُّهُ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ أذىً علىٰ مسلمٍ ، فإنْ كانَ . . لمْ يجزْ ، كما رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ قبرٍ مرَّ بهِ وهوَ يريدُ الطائفَ ، فقالَ : هٰذا قبرُ رجلٍ كانَ عاتياً على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ ـ وهوَ سعيدُ بنُ العاصِ ـ فغضبَ ابنُهُ عمرُو بنُ سعيدٍ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا قبرُ رجلٍ كانَ أطعمَ للطعامِ وأضربَ للهامِ مِنْ أبي قحافةَ ، فقالَ أبو بكرٍ : يكلِّمُني هٰذا يا رسولَ اللهِ بمثلِ هٰذا الكلامِ ! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اكففْ عنْ أبي بكرٍ » فانصرفَ ، ثمَّ أقبلَ النبيُّ علىٰ أبي بكرٍ فقالَ : « يا أبا بكرٍ ؛ إذا ذكرتُمُ الكفَّارَ . . فعمِّموا ؛ فإنَّكُمْ إذا خصَّصتُمْ . . غضبَ الأبناءُ للآباءِ » ، فكفَّ الناسُ عنْ ذلكَ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠) ، ومسلم (١٧٩٤) .
(٢) رواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) .
(٣) رواه بنحوه هناد في « الزهد » (١١٦٨) ، وأبو داوود في « المراسيل » (٥٠٢) ، =

وشربَ نُعيمانُ الخمرَ ، فحُدَّ مراتٍ في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ بعضُ الصحابةِ : لعنَهُ اللهُ ؛ ما أكثرَ ما يُؤتىٰ بهِ ! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تكنْ عوناً للشَّيطانِ علىٰ أخيكَ » ، وفي روايةٍ : « لا تقلْ هٰذا ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ »(١) ، فنهاهُ عنْ ذلكَ ، فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ لعنةَ فاسقٍ بعينِهِ غيرُ جائزةٍ .

وعلى الجملةِ : ففي لعنةِ الأشخاصِ خطرٌ ، فليُجتنَبْ ، ولا خطرَ في السكوتِ عنْ لعنةِ إبليسَ ، فضلاً عنْ غيرِهِ .

* * *

فإنْ قيلَ : هلْ يجوزُ لعنةُ يزيدَ ؛ لأنَّهُ قاتلُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، أو آمرٌ بهِ ؟

قلنا : هٰذا لمْ يثبتْ أصلاً ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ : إنَّه قتلَهُ أوْ أمرَ بقتلِهِ ما لمْ يثبتْ ذلكَ فضلاً عنِ اللَّعنةِ ؛ لأنَّهُ لا تجوزُ نسبةُ مسلمٍ إلىٰ كبيرةٍ منْ غيرِ تحقيقٍ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يُقالَ : قتلَ ابنُ مُلجمٍ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ ، وقتلَ

= كلاهما من حديث علي بن ربيعة مرسلاً ، وفيه : « إن سب الأموات يغضب الأحياء ، وإذا سببتم المشركين . . فسبوهم جميعاً » .

(١) روى البخاري (٦٣١٦) عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال : (جيء بالنعيمان أو ابن النعيمان شارباً ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت أنا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد) .

أبو لؤلؤةَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فإنَّ ذلكَ ثبتَ متواتراً .

فلا يجوزُ أنْ يُرمىٰ مسلمٌ بفسقٍ أوْ كفرٍ مِنْ غيرِ تحقيقٍ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يرمي رجلٌ رجلاً بالكفرِ ، ولا يرميهِ بالفسقِ إلاَّ ارتدَّتْ عليهِ إنْ لمْ يكنْ صاحبُهُ كذلكَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما شهدَ رجلٌ علىٰ رجلٍ بكفرٍ إلاَّ باءَ بهِ أحدُهُما ، إنْ كانَ كافراً . . فهوَ كما قالَ ، وإنْ لمْ يكنْ كافراً . . فقدْ كفرَ بتكفيرِهِ إيَّاهُ »(٢) ، وهـٰذا معناهُ : أنْ يكفِّرَهُ وهوَ يعلمُ أنَّهُ مسلمٌ ، فإنْ ظنَّ أنَّهُ كافرٌ ببدعةٍ أوْ غيرِها . . كانَ مخطئاً لا كافراً .

وقالَ معاذٌ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنهاكَ أنْ تشتمَ مسلماً ، أوْ تعصيَ إماماً عادلاً »(٣) .

والتعرُّضُ للأمواتِ أشدُّ ، قالَ مسروقٌ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقالَتْ : ما فعلَ فلانٌ لعنَهُ اللهُ ؟ قلتُ : تُوفيَ ، قالَتْ : رحمَهُ اللهُ ، قلتُ : وكيفَ هـٰذا ؟! قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٥) ، ومسلم (٦١) بنحوه ، وبلفظ المصنف رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٣) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٨) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٣٣٧) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٠) مفرداً ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٠) ضمن حديث طويل .

تسبُّوا الأمواتَ ؛ فإنَّهُمْ قدْ أفضَوا إلىٰ ما قدَّموا »[1] .

وقالَ أيضاً : « لا تسبُّوا الأمواتَ فتؤذوا الأحياءَ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أيُّها الناسُ ؛ احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبُّوهُمْ ، أيُّها الناسُ ؛ إذا ماتَ الميِّتُ . . فاذكروا منهُ خيراً »[3] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قيلَ : فهلْ يجوزُ أنْ يُقالَ : قاتلُ الحسينِ لعنَهُ اللهُ ، أوِ الآمرُ بقتلِهِ لعنَهُ اللهُ ؟

قلنا : الصوابُ أنْ يُقالَ : قاتلُ الحسينِ إنْ ماتَ قبلَ التَّوبةِ . . لعنَهُ اللهُ ؛ لأنَّهُ يُحتملُ أنْ يموتَ بعدَ التوبةِ ، فإنَّ وحشيّاً قاتِلَ حمزةَ عمِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قتلَهُ وهوَ كافرٌ ، ثمَّ تابَ عنِ الكفرِ والقتلِ جميعاً ، فلا يجوزُ أنْ يُلعنَ ، والقتلُ كبيرةٌ ، ولا تنتهي إلىٰ رتبةِ الكفرِ ، فإذا لمْ يُقيَّدْ بالتوبةِ وأُطلِقَ . . كانَ فيهِ خطرٌ ، وليسَ في السكوتِ خطرٌ ، فهوَ أولىٰ .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٩٣) ، والمرفوع وحده دون القصة رواه البخاري (٦٥١٦) من حديثها رضي الله عنها .
(٢) رواه الترمذي (١٩٨٢) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦/١٠٤) .

وإنَّما أوردنا هـٰذا لتهاونِ الناسِ باللَّعنةِ وإطلاقِ اللسانِ بها ، والمؤمنُ ليسَ بلعَّانٍ ، فلا ينبغي أنْ يُطلَقَ اللِّسانُ باللَّعنةِ إلا علىٰ مَنْ ماتَ على الكفرِ ، أوْ على الأجناسِ المعروفينَ بأوصافِهِمْ دونَ الأشخاصِ المعيَّنينَ ، فالاشتغالُ بذكرِ اللهِ أولىٰ ، فإنْ لمْ يكُنْ . . ففي السكوتِ سلامةٌ .

قالَ مكيُّ بنُ إبراهيمَ : كنَّا عندَ ابنِ عونٍ ، فذكروا بلالَ بنَ أبي بردةَ ، فجعلوا يلعنونَهُ ويقعونَ فيهِ ، وابنُ عونٍ ساكتٌ ، فقالوا : يا بنَ عونٍ ؛ إنَّما نذكرُهُ لما ارتكبَ منكَ ، فقالَ ابنُ عونٍ : إنَّما هما كلمتانِ تخرجانِ مِنْ صحيفتي يومَ القيامةِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ولعنَ اللهُ فلاناً ، فلأنْ يخرجَ مِنْ صحيفتي لا إلـٰهَ إلا اللهُ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يخرجَ منها لعنَ اللهُ فلاناً(١) .

وقالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، قالَ : « أوصيكَ ألا تكونَ لعَّاناً »(٢) .

وقالَ ابنُ عمرَ : (إنَّ أبغضَ عبادِ اللهِ إلى اللهِ كلُّ طعَّانٍ لعَّانٍ)(٣) .

وقالَ بعضُهمْ : (لعنُ المؤمنِ كعدْلِ قتلِهِ) ، وقالَ حمادُ بنُ زيدٍ بعدَ أنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٧٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٠) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧١) .

رویٰ هـٰذا الحديثَ : (لوْ قلتُ : إنَّهُ مرفوعٌ . . لمْ أبالِ)[1] .

وعنْ أبي قتادةَ قالَ : (كانَ يُقالُ : مَنْ لعنَ مؤمناً . . فهوَ مثلُ أنْ يقتلَهُ)[2] .

وقدْ نُقلَ ذلكَ حديثاً مرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3] .

ويقربُ مِنَ اللَّعنِ الدعاءُ على الإنسانِ بالشرِّ ، حتَّى الدعاءُ على الظالمِ ؛ كقولِ الإنسانِ : (لا صحَّحَ اللهُ جسمَهُ ، ولا سلَّمَهُ اللهُ) ، وما يجري مجراهُ ، فكلُّ ذلكَ مذمومٌ .

وفي الخبرِ : « إنَّ المظلومَ ليدعو على الظالمِ حتَّىٰ يكافئَهُ ، ثمَّ يبقىٰ للظَّالمِ عندَهُ فضلةٌ يومَ القيامةِ »[4] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٧٣) .

(٣) وهو ما رواه البخاري (٦٠٤٧) ، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك مرفوعاً : « ولعن المؤمن كقتله » .

(٤) ومعناه فيما رواه الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من دعا علىٰ مَن ظلمه فقد انتصر » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقدْ ذكرنا في كتابِ السَّماعِ ما يحرُمُ مِنَ الغِناءِ وما يحلُّ ، فلا نُعيدُهُ .

وأمَّا الشِّعرُ : فكلامٌ حسنُهُ حسنٌ ، وقبيحُهُ قبيحٌ[1] ، إلاَّ أنَّ التجرُّدَ لهُ مذمومٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ يمتلىءَ جوفُ أحدِكُمْ قيحاً حتَّىٰ يَرِيَهُ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يمتلىءَ شعراً »[2] .

وعنْ مسروقٍ أنَّهُ سُئلَ عنْ بيتٍ مِنَ الشِّعرِ ، فكرهَهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أنا أكرَهُ أنْ يُوجدَ في صحيفتي شعرٌ[3] .

وسُئلَ بعضُهمْ عنْ شيءٍ مِنَ الشعرِ ، فقالَ : اجعلْ مكانَ هٰذا ذكراً ؛ فإنَّ ذكرَ اللهِ خيرٌ مِنَ الشِّعرِ[4] .

---

(١) وقد روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام » .

(٢) رواه البخاري (٦١٥٥) ، ومسلم (٢٢٥٧) ، ويريه : هو من الوَرْي ، وهو داء يفسد الجوف ؛ أي : يأكل جوفه ويفسده .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٣٧) ، والمسؤول هو طلحة بن مصرف .

وعلى الجملةِ : فإنشادُ الشعرِ ونظمُهُ ليسَ بحرامٍ إذا لَمْ يكنْ فيهِ كلامٌ يكرَهُ[1] ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ الشِّعرِ لحكمةً »[2] .

نعمْ ، مقصودُ الشِّعرِ : المدحُ ، والذَّمُ ، والتَّشبيبُ ، وقد يدخلُهُ الكذبُ ، وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حسَّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ بهجاءِ الكفارِ[3] .

والتوسُّعُ في المدحِ وإنْ كان كذباً فإنَّهُ لا يلتحقُ في التحريمِ بالكذبِ ؛ كقولِ الشَّاعرِ[4] : [من الطويل]

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ   لَجادَ بِها فَلْيَتَّقِ ٱللهَ سائِلُهْ

فإنَّ هـٰذا عبارةٌ عنِ الوصفِ بنهايةِ السَّخاءِ ، فإنْ لمْ يكُنْ صاحبُهُ سخيّاً . .

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٨٥٠) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، فربما تبسم معهم) .

(٢) رواه البخاري (٦١٤٥) .

(٣) رواه البخاري (٣٢١٣) ، ومسلم (٢٤٨٦) ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : « اهْجُهُمْ ـ أو هاجمهم ـ وجبريل معك » .

(٤) البيت متنازع في نسبته ، وهو في « الزهرة » (٢/ ١٣٤) لزياد الأعجم ، والبيت في « ديوانه » (ص١١١) ، و« الأغاني » (١٤/ ٥٠٩٤) لعبد الله بن الزبير الأسدي ، والبيت في « ديوانه » (ص١٢٢) ، و« التحف والأنواء » (ص١٧٢) لدعبل الخزاعي ، والبيت في « ديوانه » (ص٤٥٧) ، و« خاص الخاص » (ص٩٦) لأبي تمام ، والبيت في « ديوانه » (٣/ ٢٩) ، و« وفيات الأعيان » لزينب بنت الطثرية ، وانظر « ديوان زهير » (ص١١٣) في الهامش ينسب له ، و« شعر بكر بن النطاح » (ص٣٤) .

كانَ كاذباً ، وإنْ كانَ سخيّاً . . فالمبالغةُ مِنْ صنعةِ الشعرِ ، ولا يُقصَدُ منهُ أنْ تُعتقدَ صورتُهُ ، وقدْ أُنشدَتْ أشعارٌ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لوْ تُتبِّعَتْ . . لوُجدَ فيها مثلُ ذلكَ ، ولمْ يمنعْ منهُ[1] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخصِفُ نعلَهُ ، وكنتُ جالسةً أغزِلُ ، قالَتْ : فنظرتُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجعلَ جبينُهُ يعرَقُ ، وجعلَ عَرَقُهُ يتولَّدُ نوراً ، قالَتْ : فبُهِتُّ ، فنظرَ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ما لَكِ بُهِتِّ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ نظرتُ إليكَ ، فجعلَ جبينُكَ يعرَقُ ، وجعلَ عرقُكَ يتولَّدُ نوراً ، فلوْ رآكَ أبو كبيرٍ الهذليُّ . . لعلمَ أنَّكَ أحقُّ بشعرِهِ ، قالَ : « وما يقولُ يا عائشةُ أبو كبيرٍ الهذليُّ ؟ » قلتُ : يقولُ هذينِ البيتينِ[2] : [من الكامل]

وَمُبَـرّأً مِـنْ كـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ		وَفَسـادِ مُـرْضِعَـةٍ وَدَاءٍ مُغْيِـلِ
وَإِذا نَظَـرْتَ إِلَـىٰ أَسِـرَّةِ وَجْهِـهِ		بَرَقَتْ كَبَرْقِ ٱلْعارِضِ ٱلْمُتَهَلِّلِ[3]

---

(١) فمن ذلك إنشاد كعب بن زهير بين يديه قصيدته اللامية وفيها من التشبيب والمبالغات ما لا يخفىٰ ، ولم ينكر عليه ذلك . « إتحاف » (٧/ ٤٩٤) .
(٢) ديوان الهذليين (٢/ ٩٣) .
(٣) **الغُبَّر** : البقية ، **والمُغْيِل** : هو من الغيل ؛ اسم للبن الذي ترضعه المرأة وهي حامل ، فهو ينفي عنه أن تكون أمه قد حملته آخر الحيض أو وهي ترضع ، ولم ترضعه وهي حامل ، **والعارض** : السحاب ، **والمتهلل** : المترقرق .

قالَتْ : فوضعَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما كانَ في يدِهِ وقامَ إليَّ ، فقبَّلَ ما بينَ عينيَّ وقالَ : « جزاكِ اللهُ يا عائشةُ خيراً ، ما سُرِرْتِ منِّي كسُروري منكِ »(١) .

ولمَّا قسَّمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ الغنائمَ يومَ حُنينٍ . . أمرَ للعباسِ بنِ مرداسٍ بأربعِ قلائصَ، فاندفعَ يشكو في شعرٍ لَهُ ، وفي آخرِهِ(٢) : [من المتقارب]

وَمـا كـانَ بَـدْرٌ وَلاَ حـابِـسٌ   يَسُـودانِ مِـرْداسَ فـي ٱلْمَجْمَـعِ
وَمـا كُنْـتُ دُونَ ٱمْـرِىءٍ مِنْهُمـا   وَمَـنْ تَضَـعِ ٱلْيَـوْمَ لا يُـرْفَـعِ

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقطعُوا عنِّي لسانَهُ » ، فذهبَ بهِ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ حتَّى اختارَ مئةً مِنَ الإبلِ ، ثمَّ رجعَ وهوَ مِنْ أرضى الناسِ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتقولُ فيَّ الشعرَ ؟ » ، فجعلَ يعتذرُ إليهِ ويقولُ : بأبي أنتَ وأمي ؛ إنِّي لأجدُ للشعرِ دبيباً علىٰ لساني مثلَ دبيبِ النملِ ، ثمَّ يقرُصُني كما يقرُصُ النملُ ، فلا أجدُ بدّاً مِنْ قولِ الشعرِ ، فتبسَّمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تدعُ العربُ الشِّعرَ حتَّىٰ تدعَ الإبلُ الحنينَ »(٣) .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٤٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ٣٠٧) .
(٢) ديوانه (ص١١٢) .
(٣) رواه مسلم (١٠٦٠) ، وانظر « الإتحاف » (٧/ ٤٩٥) .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصلُهُ مذمومٌ منهيٌّ عنهُ ، إلا قدراً يسيراً يُستثنىٰ منهُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تمارِ أخاكَ ولا تمازِحْهُ »(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : المماراةُ فيها إيذاءٌ ؛ لأنَّ فيها تكذيباً للأخِ والصديقِ ، أوْ تجهيلاً لهُ ، أمَّا المِزاحُ . . فمطايبةٌ ، وفيهِ انبساطٌ وطيبةُ قلبٍ ، فلِمَ يُنهىٰ عنهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ المنهيَّ عنهُ الإفراطُ فيهِ ، أوِ المداومةُ عليهِ .

أمَّا المداومةُ . . فلأنَّهُ اشتغالٌ باللعبِ والهزلِ ، واللعبُ مباحٌ ، ولكنَّ المواظبةَ عليهِ مذمومةٌ .

وأمَّا الإفراطُ فيهِ . . فإنَّهُ يورثُ كثرةَ الضحكِ ، وكثرةُ الضحكِ تميتُ القلبَ(٢) ، وتورثُ الضغينةَ في بعضِ الأحوالِ ، وتسقطُ المهابةَ والوقارَ ،

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٥) .

(٢) إذ روى الترمذي (٢٣٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يأخذ عني هـٰؤلاء الكلمات فيعمل بهنَّ أو يعلِّم من يعمل بهنَّ ؟ » فقال أبو هريرة : فقلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدي فعدَّ خمساً وقال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلىٰ جارك تكن مؤمناً ، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر =

فما يخلو عنْ هـٰذهِ الأمورِ . . فلا يذمُّ ، كما رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنِّي لأمزحُ ، ولا أقولُ إلاَّ حقاً »[1] ، إلاَّ أنَّ مثلَهُ يقدرُ علىٰ أن يمزحَ ولا يقولَ إلا حقّاً ، وأمَّا غيرُهُ إذا فُتحَ بابُ المِزاحِ . . كانَ غرضُهُ أنْ يضحكَ الناسَ كيفما كانَ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحِكُ بها جلساءَهُ يهوي بها في النارِ أبعدَ منَ الثُّريَّا »[2] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ كثُرَ ضحكُهُ . . قلَّتْ هيبتُهُ ، ومَنْ مَزَحَ . . استُخِفَّ بهِ ، ومَنْ أكثرَ مِنْ شيءٍ . . عُرِفَ بهِ ، ومَنْ كثُرَ كلامُهُ . . كثُرَ سَقَطُهُ ، ومَنْ كثُرَ سَقَطُهُ . . قلَّ حياؤُهُ ، ومَنْ قلَّ حياؤُهُ . . قلَّ ورعُهُ ، ومَنْ قَلَّ ورَعُهُ . . ماتَ قلبُهُ)[3] .

ولأنَّ الضحكَ يدلُّ على الغفلةِ عنِ الآخرةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكْتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »[4] .

= الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٠) ، ورواه الترمذي (١٩٩٠) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٣٤٠) بنحوه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٢٨٠) .

(٤) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) .

وقالَ رجلٌ لأخيهِ : يا أخي ؛ هلْ أتاكَ أنَّكَ واردُ النارَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فهلْ أتاكَ أنَّكَ خارجٌ منها ؟ قالَ : لا ، قالَ : ففيمَ الضحكُ ؟! قيلَ : فما رُئِيَ ضاحكاً حتَّىٰ ماتَ[1] .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (أقامَ الحسنُ ثلاثينَ سنةً لمْ يضحكْ)[2] .

وقيلَ : أقامَ عطاءٌ السَّلِيميُّ لمْ يضحكْ أربعينَ سنةً[3] .

ونظرَ وهيبُ بنُ الوردِ إلىٰ قومٍ يضحكونَ في عيدِ فطرٍ ، فقالَ : إنْ كانَ هؤلاءِ قدْ غُفرَ لهمْ . . فما هـٰذا فعلَ الشاكرينَ ، وإنْ كانَ لمْ يُغفرْ لهمْ . . فما هـٰذا فعلَ الخائفينَ[4] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبي يعلىٰ يقولُ : (أتضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قدْ خرجَتْ مِنْ عندِ القصَّارِ ؟!)[5] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (مَنْ أذنبَ ذنباً وهوَ يضحكُ . . دخلَ النارَ وهوَ يبكي)[6] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١١) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (ص١٥) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٨٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤٦) ، كلهم عن عبد الله بن ثعلبة الحنفي ، واتفقت النسخ علىٰ ما أثبت .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٦) من حديثه مرفوعاً .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : إذا رأيتَ في الجنةِ رجلاً يبكي . . ألسْتَ تعجبُ مِنْ بكائِهِ ؟ قيلَ : بلىٰ ، قالَ : فالذي يضحكُ في الدنيا ولا يدري إلىٰ ماذا يصيرُ هوَ أعجبُ منهُ(١) .

فهٰذهِ آفةُ الضحكِ ، **والمذمومُ منهُ** : أنْ يستغرقَ ضحكاً ، **والمحمودُ منهُ** : التبسُّمُ الذي ينكشفُ فيه السِّنُ ، ولا يُسمَعُ لهُ صوتٌ ، وكذلكَ كانَ ضحكُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

وقالَ القاسمُ مولىٰ معاويةَ : أقبلَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ قَلُوصٍ لهُ صعبٍ ، فسلَّمَ ، فجعلَ كلَّما دنا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليسأَلَهُ . . يفرُّ بهِ ، فجعلَ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكونَ منهُ ، ففعلَ ذلكَ ثلاثَ مراتٍ ، ثم وَقَصَهُ فقتلَهُ ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الأعرابيَّ قدْ صرعَهُ قلوصُهُ ، فهلكَ ، فقالَ : « نعمْ ، وأفواهُكُمْ ملأىٰ مِنْ دمِهِ »(٣) .

وأمَّا أداءُ المِزاحِ إلىٰ سُقوطِ الوقارِ . . فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ مَزَحَ . . استُخفَّ بهِ)(٤) .

---

(١) كذا حكاه عن محمد بن واسع ابنُ الجوزي في « المدهش » (١/ ٣٥٦) .
(٢) روىٰ ذلك البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩/ ١٦) .
(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن المبارك في « الزهد والرقائق » وهو مرسل) . « إتحاف » (٧/ ٤٩٨) .
(٤) هو جزء من خبر رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٢٨٠) .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : قالَتْ لي أمِّي : (يا بنيَّ ؛ لا تمازحِ الصبيانَ فتهونَ عليهِمْ)[1] .

وقالَ سعيدُ بنُ العاصِ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تمازحِ الشريفَ فيحقِدَ عليكَ ، ولا الدنيءَ فيجترىءَ عليكَ)[2] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (اتقوا اللهَ ، وإياكُمْ والمِزاحةَ ؛ فإنَّها تُورثُ الضغينةَ ، وتجرُّ إلى القبيحِ ، تحدَّثوا بالقرآنِ ، وتجالسُوا بهِ ، فإنْ ثَقُلَ عليكُمْ . . فحديثٌ حسنٌ مِنْ حديثِ الرجالِ)[3] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : أتدرونَ لِمَ سُمِّيَ المِزاحُ مزاحاً ؟ قالُوا : لا ، قالَ : لأنَّهُ زاحَ عنِ الحقِّ[4] .

وقيلَ : لكلِّ شيءٍ بذْرٌ ، وبذْرُ العداوةِ المِزاحُ[5] .

ويُقالُ : المِزاحُ مَسْلَبَةٌ للنُّهىٰ ، مَقْطَعَةٌ للأصدقاءِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ نُقلَ المِزاحُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، فكيفَ يُنهىٰ عنهُ ؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٩٩) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠١) ، نقله خالد بن صفوان .

فأقولُ : إنْ قدرتَ على ما قَدَرَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ ، وهوَ أنْ تمزحَ ولا تقولَ إلا حقّاً ، ولا تؤذيَ قلباً ، ولا تفْرِطَ فيهِ ، وتقتصرَ على ذلكَ أحياناً وعلى الندورِ . فلا حرجَ عليكَ فيهِ ، ولكنْ مِنَ الغلطِ العظيمِ أنْ يتَّخِذَ الإنسانُ المِزاحَ حرفةً ، ويواظبَ عليهِ ، ويفرِطَ فيهِ ، ثمَّ يتمسَّكُ بفعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهوَ كمَنْ يدورُ نهارَهُ أبداً معَ الزنوجِ ينظرُ إليهمْ وإلى رقصِهِمْ ويتمسَّكُ بأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أذِنَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها في النظرِ إلى رقصِ الزنوجِ في يومِ عيدٍ(١) ، وهوَ خطأٌ ؛ إذْ مِنَ الصغائرِ ما يصيرُ كبيرةً بالإصرارِ ، ومِنَ المباحاتِ ما يصيرُ صغيرةً بالإصرارِ ، فلا ينبغي أنْ تغْفُلَ عنْ هـٰذا .

نعمْ ، روى أبو هريرةَ أنَّهمْ قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّكَ تداعبُنا ، قالَ : « إنِّي وإنْ داعبتُكُمْ فلا أقولُ إلا حقّاً »(٢) .

وقالَ عطاءٌ : إنَّ رجلاً سألَ ابنَ عباسٍ : أكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يمزحُ ؟ فقالَ ابنُ عباسٍ : نعمْ ، فقالَ الرجلُ : فما كانَ مِزاحُهُ ؟ فقالَ ابنُ عباسٍ : إنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كسا ذاتَ يومٍ امرأةً مِنْ نسائِهِ ثوباً واسعاً، فقالَ لها : « البسيهِ واحمدِي، وجرِّي منهُ ذيلاً كذيلِ العروسِ»(٣) .

---

(١) إذنه للسيدة عائشة رضي الله عنها بالنظر إلى رقص الزنوج رواه البخاري (٩٥٠) ، ومسلم (٨٩٢) .

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٠) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٤١) .

وقالَ أنسٌ : (إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ مِنْ أفكَهِ النَّاسِ معَ نسائِهِ)(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ كثيرَ التَّبسُّمِ(٢) .

وعنِ الحسنِ قالَ : أتتْ عجوزٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لها صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ » ، فبكَتْ ، فقالَ : « إنَّكِ لسْتِ بعجوزٍ يومئذٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ »(٣) .

وروىٰ زيدُ بنُ أسلمَ : أنَّ امرأةً يُقالُ لها : أمُّ أيمنَ جاءَتْ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : إنَّ زوجي يدعوكَ ، قالَ : « ومَنْ هوَ ؟ أهوَ الذي بعينِهِ بياضٌ ؟ » فقالَتْ : واللهِ ؛ ما بعينِهِ بياضٌ ! فقالَ : « بلىٰ ، إنَّ بعينِهِ بياضاً » ، فقالَتْ : لا واللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ إلاَّ وبعينِهِ بياضٌ »(٤) ، وأرادَ بهِ : البياضَ المحيطَ بالحدقةِ .

وجاءَتْهُ امرأةٌ أخرىٰ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ احملْني علىٰ بعيرٍ ، فقالَ : « بلْ نحملُكِ على ابنِ البعيرِ » ، فقالَتْ : ما أصنعُ بهِ ؟ إنَّهُ لا يحملُني ، فقالَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٣٧) .

(٢) فقد روى الترمذي (٣٦٤١) عن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه قال : (ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٣) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن سهم الفهري مع اختلاف) . « إتحاف » (٧/ ٥٠٠) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ بعيرٍ إلا وهوَ ابنُ بعيرٍ »[١] ، فكانَ يمزحُ بهِ .

وقالَ أنسٌ : كانَ لأبي طلحةَ ابنٌ يُقالُ لهُ : أبو عُميرٍ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأتيهِمْ فيقولُ : « يا أبا عُميرٍ ؛ ما فعلَ النُّغيرُ ؟ » لنُغيرٍ كانَ يلعبُ بهِ[٢] ، وهوَ فرخُ العصفورِ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : خرجْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ بدرٍ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعالَي حتَّىٰ أسابقَكِ » ، فشدَدتُ دِرعي علىٰ بطني ، ثمَّ خططنا خطاً ، فقُمنا عليهِ فاستبقنا فسبقَني ، فقالَ : « هـٰذهِ مكانَ ذي المجازِ » ، وذلكَ أنَّهُ جاءَ يوماً ونحنُ بذي المجازِ وأنا جاريةٌ قدْ بعثَني أبي بشيءٍ ، فقالَ : « أعطِينِيهِ » ، فأبيتُ وسعيتُ ، فسعىٰ علىٰ أثري ، فلمْ يدركْني[٣] .

وقالَتْ أيضاً : سابقَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسبقتُهُ ، فلمَّا حملتُ اللحمَ . . سابقَني فسبقَني وقالَ : « هـٰذهِ بتلكِ »[٤] .

وقالَتْ أيضاً رضيَ اللهُ عنها : كانَ عندِي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩٩٨) ، والترمذي (١٩٩١) ، وفيه : « إنا حاملوك علىٰ ولد ناقة » .
(٢) رواه البخاري (٦١٢٩) ، ومسلم (٢١٥٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٦٠) ، و« مداراة الناس » (١٥٦) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (١٨٨١) .
(٤) رواه أبو داوود (٢٥٧٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٩٤) ، وابن ماجه (١٩٧٩) .

وسودةُ بنتُ زمعةَ ، فصنعْتُ حريرةً وجئتُ بهِ ، فقلْتُ لسودةَ : كُلي ، فقالَتْ : لا أحبُّهُ ، فقلْتُ : واللهِ لتأكلِنَّ أوْ لألطِّخَنَّ بهِ وجهَكِ ، فقالَتْ : ما أنا بذائقتِهِ ، فأخذْتُ بيدي مِنَ الصَّحْفةِ شيئاً فلطَّخْتُ بهِ وجهَها ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ بيني وبينَها ، فخفضَ لها رسولُ اللهِ ركبتيهِ لتستقيدَ منِّي ، فتناولَتْ مِنَ الصَّحفَةِ شيئاً فمسحَتْ بهِ وجهي ، وجعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضحكُ(1) .

ورُويَ أنَّ الضحاكَ بنَ سفيانَ الكلابيَّ كانَ رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما بايعَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قالَ : إنَّ عندي امرأتينِ أحسنُ مِنْ هـٰذهِ الحميراءِ ، أفلا أنزلُ لكَ عنْ إحداهما فتتزوَّجَها ؟ وعائشةُ جالسةٌ تسمعُ قبلَ أنْ يُضربَ الحجابُ ، فقالَتْ : أهيَ أحسنُ أمْ أنتَ ؟ فقالَ : بلْ أنا أحسنُ منها وأكرمُ ، فضحكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سؤالِها إيَّاهُ ؛ لأنَّهُ كانَ دَميماً(2) .

وروىٰ علقمةُ عنْ أبي سلمةَ أنَّه كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُدلِعُ لسانَهُ للحسينِ بنِ عليٍّ فيرى الصبيُّ لسانَهُ ، فيهشُّ لهُ ، فقالَ لهُ عيينةُ بنُ بدرٍ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٦٨) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح » من رواية عبد الله بن حسن بن حسن مرسلاً أو معضلاً ، وللدارقطني نحو هـٰذه القصة مع عيينة بن حصن الفزاري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) . « إتحاف » (٧/ ٥٠١) ، وحديث عيينة قد رواه البزار في « مسنده » (٨٧٦١) .

الفزاريُّ : واللهِ ؛ ليكونُ ليَ الابنُ قدْ خرجَ وجهُهُ وما قَبَّلْتُهُ قطُّ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مَنْ لا يَرْحمُ لا يُرحَمُ »[1] .

فأكثرُ هـٰذهِ المطايباتِ منقولةٌ معَ النِّساءِ والصِّبيانِ ، وكانَ ذلكَ منهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معالجةً لضعفِ قلوبِهِمْ ، مِنْ غيرِ ميلٍ إلىٰ هزْلٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً لصُهيبٍ وبهِ رمدٌ وهوَ يأكلُ تمراً : « أتأكلُ التَّمرَ وأنتَ رَمِدٌ ؟! » فقالَ : إنَّما آكلُ بالشِّقِّ الآخرِ يا رسولَ اللهِ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ بعضُ الرُّواةِ : حتَّىٰ نظرتُ إلىٰ نواجِذِهِ[2] .

ورُوِيَ أنَّ خوَّاتَ بنَ جبيرٍ الأنصاريَّ كانَ جالساً إلىٰ نسوةٍ مِنْ بني كعبٍ بطريقِ مكَّةَ[3] ، فطلعَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما لكَ معَ النِّسوةِ ؟! » فقالَ : يفْتِلْنَ ضفيراً لجملٍ لي شَرُودٍ ، قالَ : فمضَىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحاجتِهِ ، ثمَّ عادَ فقالَ لهُ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » قالَ : فسكتُّ واستحييتُ ، وكنتُ بعدَ ذلكَ أنفردُ منهُ كلَّما رأيتُهُ حياءً منهُ ، حتَّىٰ قدمتُ

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (١٣٣٠) من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمـٰن بن عوف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٥٩٦) من حديثه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، **ويدلع لسانه** : يخرجه له ، **وخرج وجهه** : نبتت لحيته .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٣) في (أ) : (قريش) بدل (بني كعب) .

المدينةَ ، وبعدَما قدِمتُ المدينةَ قالَ : فرآني في المسجدِ يوماً أُصلي ، فجلسَ إليَّ ، فطوَّلْتُ ، فقالَ : « لا تطوِّلْ ؛ فإنِّي أنتظرُكَ » ، فلمَّا سلَّمتُ.. قالَ : « يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » ، قالَ : فسكتُّ واستحييتُ ، فقامَ وكنتُ بعدَ ذلكَ أنفردُ منهُ ، حتَّىٰ لحقَني يوماً وهوَ علىٰ حمارٍ ، وقدْ جعلَ رجليهِ مِنْ شقٍّ واحدٍ ، فقالَ : « أبا عبدِ اللهِ ؛ أما تركَ ذلكَ الجملُ الشِّرادَ بعدُ ؟ » ، فقلتُ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ ما شرَدَ منذُ أسلمْتُ ، فقالَ : « اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ؛ اهدِ أبا عبدِ اللهِ » ، قالَ : فحسُنَ إسلامُهُ وهداهُ اللهُ تعالىٰ(١) .

وكانَ نعيمانُ الأنصاريُّ رجلاً مَزَّاحاً ، وكانَ يشربُ ، فيُؤتىٰ بهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيضربُهُ بنعلِهِ ويأمرُ أصحابَهُ فيضربونَهُ بنعالِهِمْ ، فلمَّا كثُرَ ذلكَ منهُ.. قالَ لهُ رجلٌ مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : لعنكَ اللهُ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفعلْ ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ »(٢) ، وكانَ لا يدخلُ المدينةَ رَسَلٌ ولا طُرْفةٌ إلا اشترىٰ منها ، ثمَّ جاءَ بهِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا قدِ اشتريتُهُ وأهديتُهُ لكَ ، فإذا جاءَ صاحبُهُ يطلبُ نعيمانَ بثمنِهِ.. جاءَ بهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أعطِهِ ثمنَ متاعِهِ ، فيقولُ لهُ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٤/٢٠٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/٩٧٧) بنحوه ، وفي جميع النسخ عدا (ج) : (أتقزز) بدل (أنفرد) ، والقزازة : الحياء .
(٢) رواه البخاري (٢٣١٦) .

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَلَمْ تهدِهِ لنا ؟ » فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهُ واللهِ لمْ يكُنْ عندِي ثمنُهُ وأحببتُ أنْ تأكُلَهُ ، فيضحكُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويأمرُ لصاحبِهِ بثمنِهِ(١) .

فهٰذِهِ مطايباتٌ يباحُ مثلُها على الندورِ ، لا على الدوامِ ، والمواظبةُ عليها هزْلٌ مذمومٌ ، وسببٌ للضحكِ المُميتِ للقلبِ .

* * *

(١) هو تتمة الخبر السابق ، والرَّسَل : ذوات اللبن .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهـٰذا محرَّمٌ مهما كانَ مؤذياً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ .

ومعنى **السخريةِ** : الاستحقارُ والاستهانةُ والتنبيهُ على العيوبِ والنقائصِ علىٰ وجهٍ يُضْحكُ منهُ ، وقدْ يكونُ ذلكَ بالمحاكاةِ في الفعلِ والقولِ ، وقدْ يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ .

وإذا كانَ بحضرةِ المستهزأِ بهِ . . لمْ يُسمَّ ذلكَ غيبةً ، وفيهِ معنى الغيبةِ .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : حكيتُ إنساناً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحبُّ أنِّي حكيتُ إنساناً وأنَّ لي كذا وكذا »(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ : (الصغيرةُ : التبسُّمُ بالاستهزاءِ بالمؤمنِ ، والكبيرةُ : القهقهةُ بذلكَ)(٢) ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الضَّحكَ على الناسِ مِنْ جملةِ الذنوبِ والكبائرِ .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ زمعةَ : أنَّهُ سمعَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٢) .

يخطبُ ، فوعظَهُمْ في ضحكِهِمْ مِنَ الضَّرطةِ ، وقالَ : « علامَ يضحكُ أحدُكُمْ ممَّا يفعلُ ؟! »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المستهزئينَ بالنَّاسِ يُفتحُ لأحدِهِمْ بابٌ مِنَ الجنَّةِ ، فيُقالُ : هلمَّ هلمَّ ، فيجيءُ بكرْبِهِ وغمِّهِ ، فإذا جاءَ.. أُغلقَ دونَهُ ، ثمَّ يُفتحُ لهُ بابٌ آخرُ ، فيُقالُ لهُ : هلمَّ هلمَّ ، فيجيءُ بكرْبِهِ وغمِّهِ ، فإذا أتاهُ.. أُغلقَ دونَهُ ، فما يزالُ كذلكَ حتَّىٰ إنَّ الرَّجلَ لَيُفتحُ لهُ البابُ فيُقالُ لهُ : هلمَّ هلمَّ فما يأتيهِ »[2] .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عيَّرَ أخاهُ بذنبٍ قدْ تابَ منهُ.. لمْ يمُتْ حتَّىٰ يعملَهُ »[3] .

وكلُّ هٰذا يرجعُ إلى استحقارِ الغيرِ والضحكِ عليهِ استهانةً بهِ واستصغاراً لهُ ، وعليهِ نبَّهَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أيْ : لِمَ تسخرُ بهِ استصغاراً ولعلَّهُ خيرٌ منكَ ؟!

وهٰذا إنَّما يحرمُ في حقِّ مَنْ يتأذَّىٰ بهِ .

فأمَّا مَنْ جعلَ نفسَهُ مَسْخَرةً ، وربَّما فَرِحَ بأنْ يُسخَرَ بهِ.. كانَتِ السخريةُ في حقِّهِ مِنْ جملةِ المزحِ ، وقد سبقَ ما يذمُّ منهُ وما يمدحُ .

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٢) ، ومسلم (٢٨٥٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٨٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٣٣) من حديث الحسن مرسلاً .
(٣) رواه الترمذي (٢٥٠٥) ، وزيادة : (قد تاب منه) نقلها شيخه أحمد بن منيع .

وإنَّما المحرَّمُ : استصغارٌ يتأذَّىٰ بهِ المستهزَأُ بهِ ؛ لما فيهِ مِنَ التحقيرِ والتهاونِ ، وذلكَ تارةً يجري بأَنْ يضحكَ علىٰ كلامِهِ إذا تخبَّطَ فيهِ ولمْ ينتظِمْ ، أوْ علىٰ أفعالِهِ إذا كانَتْ مشوَّشةً ؛ كالضَّحكِ علىٰ خطِّهِ ، وعلىٰ صنعتِهِ ، أوْ علىٰ صورتِهِ وخِلْقتِهِ إذا كانَ قصيراً أوْ ناقصاً لعيبٍ منَ العيوبِ ، فالضحكُ منْ جميعِ ذلكَ داخلٌ في السخريةِ المنهيِّ عنها .

* * *

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهوَ منهيٌّ عنهُ ؛ لما فيهِ منَ الإيذاءِ ، والتهاونِ بحقِّ المعارفِ والأصدقاءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا حدَّثَ الرَّجلُ الحديثَ ثمَّ ٱلْتفتَ . . فهيَ أمانةٌ »(١) .

وقالَ مطلقاً : « الحديثُ بينَكُمْ أمانةٌ »(٢) .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ الخيانةِ أنْ تحدِّثَ بسرِّ أخيكَ)(٣) .

ويُروىٰ أنَّ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ أسرَّ إلى الوليدِ بنِ عُتبةَ حديثاً ، فقالَ لأبيهِ : يا أبتِ ؛ إنَّ أميرَ المؤمنينَ أسرَّ إليَّ حديثاً ، وما أراهُ يطوي عنكَ ما بسطَهُ إلىٰ غيرِكَ .

قالَ : فلا تحدِّثْني بهِ ؛ فإنَّ مَنْ كتمَ سرَّهُ . . كانَ الخيارُ لهُ ، ومَنْ أفشاهُ . . كانَ الخيارُ عليهِ ، قالَ : فقلتُ : يا أبتِ ؛ وإنَّ هٰذا ليدخلُ بينَ الرجلِ وبينَ أبيهِ ؟ فقالَ : لا واللهِ يا بنيَّ ، ولكنْ أحبُّ ألاَّ تذلِّلَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٦٨) ، والترمذي (١٩٥٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٠٤) .

لسانَكَ بأحاديثِ السِّرِّ ، قالَ : فأتيتُ معاويةَ فحدَّثتُهُ ، فقالَ : يا وليدُ ؛ أعتقَكَ أخي مِنْ رقِّ الخطأِ[1] .

فإفشاءُ السِّرِّ خيانةٌ ، وهوَ حرامٌ إذا كانَ فيهِ إضرارٌ ، ولؤمٌ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ إضرارٌ ، وقدْ ذكرنا ما يتعلَّقُ بكتمانِ السِّرِّ في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فلا نعيدُهُ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٠) .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإنَّ اللِّسانَ سبَّاقٌ إلى الوعدِ ، ثمَّ النفسُ ربَّما لا تسمحُ بالوفاءِ ، فيصيرُ الوعدُ خُلْفاً ، وذلكَ مِنْ أماراتِ النِّفاقِ .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العِدةُ عطيَّةٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الوَأْيُ مثلُ الدَّينِ أوْ أفضلُ »(٢) ، **والوَأْيُ** : الوعدُ .

وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ نبيِّهِ إسماعيلَ عليهِ السَّلامُ في كتابهِ العزيزِ فقالَ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ .

فيُقالُ : إنَّهُ واعدَ إنساناً في موضعٍ فلمْ يرجعْ إليهِ ذلكَ الإنسانُ بلْ نسيَ ، فبقيَ إسماعيلُ اثنينِ وعشرينَ يوماً في انتظارِهِ(٣) .

ولمَّا حضرَتْ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو الوفاةُ . . قالَ : (إنَّهُ كانَ خطبَ إليَّ ابنتي رجلٌ مِنْ قريشٍ ، وقد كانَ منِّي إليهِ شبهُ الوعدِ ، فواللهِ ؛ لا ألقى اللهَ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٧٧٣) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٦) عن الحسن مرسلاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٧) عن ابن لهيعة مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦١) عن يزيد الرقاشي قاله .

بثُلُثِ النفاقِ ، اشهدُوا أني قدْ زوَّجتُهُ ابنتي)[١] .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ أبي الحَمْساءِ قالَ : بايعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يبعثَ ، فبقيَتْ لهُ بقيةٌ ، فوعدتُهُ أنْ آتيَهُ بها في مكانِهِ ذلكَ ، فنسيتُ يومي والغدَ ، فأتيتُهُ في اليومِ الثالثِ وهوَ في مكانِهِ ، فقالَ : « يا فتىٰ ؛ قدْ شقَقتَ عليَّ ، أنا هـٰهُنا منذ ثلاثٍ أنتظرُكَ »[٢] .

وقيلَ لإبراهيمَ : الرجلُ يواعدُ الرجلَ الميعادَ فلا يجيءُ ، قالَ : ينتظرُهُ ما بينَهُ وبينَ أنْ يدخلَ وقتُ الصلاةِ التي تجيءُ[٣] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا وعدَ وعداً . . قالَ : «عسىٰ»[٤] .

وكانَ ابنُ مسعودٍ لا يعِدُ وعداً إلاَّ ويقولُ : (إنْ شاءَ اللهُ)[٥] ، وهوَ الأولىٰ .

ثمَّ إذا فُهِمَ معَ ذلكَ الجزمُ في الوعدِ . . فلا بدَّ مِنَ الوفاءِ ، إلا أنْ يتعذَّرَ ، فإنْ كانَ عندَ الوعدِ عازماً علىٰ ألاَّ يفيَ بهِ . . فهـٰذا هوَ النفاقُ ، قالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ كنَّ فيهِ . . فهوَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٥٩) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٩٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٣) .
(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٥٠٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٧) عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب عبد الله رضي الله عنه يقولون : إذا وعد فقال : (إن شاء الله) . . لم يخلف .

منافقٌ وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مسلمٌ ؛ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا اؤتُمِنَ . . خانَ »(١) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ . . كانَ منافقاً ، ومَنْ كانَتْ فيهِ خلةٌ منهنَّ . . كانَتْ فيهِ خلةٌ مِنَ النِّفاقِ حتَّىٰ يدعَها ؛ إذا حدَّثَ . . كذَبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، وإذا عاهَدَ . . غدرَ ، وإذا خاصَمَ . . فجَرَ »(٢) .

وهـٰذا ينزَّلُ علىٰ مَنْ وَعَدَ وهوَ علىٰ عزمِ الخُلْفِ ، أوْ تركَ الوفاءَ مِنْ غيرِ عذرٍ ، فأما مَنْ عزَمَ على الوفاءِ . . فعَنَّ لهُ عذرٌ منعَهُ مِنَ الوفاءِ . . لمْ يكنْ منافقاً ، وإنْ جرىٰ عليهِ ما هوَ صورةُ النِّفاقِ .

ولكنْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ صورةِ النِّفاقِ أيضاً كما يحترزُ مِنْ حقيقتِهِ ، ولا ينبغي أنْ يجعلَ نفسَهُ معذوراً مِنْ غيرِ ضرورةٍ حافزةٍ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ وعدَ أبا الهيثمِ بنَ التَّيِّهانِ خادماً ، فأُتِيَ بثلاثةٍ مِنَ السبيِ ، فأعطى اثنينِ وبقيَ واحدٌ ، فجاءَتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تطلُبُ منهُ خادماً وهيَ تقولُ : ألا ترىٰ أثرَ الرَّحىٰ يا رسولَ اللهِ في يدي ، فذكَرَ موعدَهُ لأبي الهيثمِ ، فجعلَ يقولُ : « كيفَ بموعدي لأبي الهيثمِ ؟ » فآثَرَهُ بهِ علىٰ فاطمةَ ؛ لما سبقَ مِنْ موعدِهِ لهُ ، معَ

(١) رواه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) بنحوه .
(٢) رواه البخاري (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .

أنَّها كانَتْ تديرُ الرحىٰ بيدِها الضعيفةِ[١] .

ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالساً يقسِمُ غنائمَ هوازنَ بحُنينٍ، فوقفَ عليهِ رجلٌ مِنَ الناسِ ، فقالَ : إنَّ لي عندكَ موعداً يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « صَدَقتَ فاحْتكِمْ ما شئتَ » ، فقالَ : أحتكمُ ثمانينَ ضائنةً وراعيَها ، فقالَ : « هيَ لكَ ، ولقد احتكَمتَ يسيراً ، ولَصاحبةُ موسَىٰ عليهِ السَّلامُ التي دلَّتهُ علىٰ عظامِ يوسفَ كانَتْ أحزمَ وأجزلَ حكماً منكَ حينَ حكَّمَها موسىٰ عليهِ السلامُ فقالَتْ : حكمي أنْ تردَّني شابَّةً ، وأدخلَ معكَ الجنَّةَ »[٢] .

قيلَ : فكانَ الناسُ يضعِّفونَ ما احتكمَ بهِ ، حتَّىٰ جُعِلَ مثلاً ، يقولونَ : (أشحُّ[٣] مِنْ صاحبِ الثمانينَ والراعي) .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الخلْفُ أنْ يعدَ الرَّجلُ الرَّجلَ ومِنْ نيَّتِهِ أنْ يفيَ »[٤] .

وفي لفظٍ آخرَ : « إذا وعدَ الرَّجلُ أخاهُ وفي نيَّتِهِ أنْ يفيَ فلمْ يجدْ . . فلا إثمَ عليهِ »[٥] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (١/ ٣٦٠) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٢٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٠٤) بنحوه .
(٣) في (ب) : (أقنع) ، وفي (ج) : (أسمح) بدل (أشح) .
(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٣٦٣) .
(٥) رواه أبو داوود (٤٩٩٥)، والترمذي (٢٦٣٣)، وفيهما : (فلم يفِ) بدل (فلم يجد) .

الآفة الرّابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهوَ مِنْ قبائحِ الذنوبِ وفواحشِ العيوبِ .

قالَ إسماعيلُ بنُ أوسطَ[١] : سمعتُ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ يخطبُ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مقامي هٰذا عامَ أوَّلَ ، ثمَّ بكىٰ فقالَ : « إيَّاكُمْ والكذبَ ؛ فإنَّهُ معَ الفجورِ ، وهما في النَّارِ »[٢] .

وقالَ أبو أمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الكذبَ بابٌ مِنْ أبوابِ النِّفاقِ »[٣] .

وقالَ الحسنُ : (كانَ يُقالُ : إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ السِّرِّ والعلانيةِ ، والقولِ والعملِ ، والمدخلِ والمخرجِ .

وإنَّ الأصلَ الذي يُبنىٰ عليهِ النفاقُ الكذبُ)[٤] .

---

(١) كذا في جميع النسخ ، والصواب ـ كما نبَّه عليه الحافظ العراقي ـ أوسط بن إسماعيل بن أوسط البجلي ، انظر « الإتحاف » (٧/ ٥١٠) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٩) واللفظ له .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٢١) ، ومعناه في حديث : « آية المنافق . . . » .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كَبُرَتْ خيانةً أنْ تحدِّثَ أخاكَ حديثاً هوَ لكَ بهِ مصدِّقٌ وأنتَ لهُ بهِ كاذبٌ »(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزالُ العبدُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتَّىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً »(٢) .

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلينِ يتبايعانِ شاةً ويتحالفانِ ، يقولُ أحدُهما : واللهِ ؛ لا أنقصُكَ مِنْ كذا وكذا ، ويقولُ الآخرُ : واللهِ ؛ لا أزيدُكَ علىٰ كذا وكذا ، فمرَّ بالشاةِ وقدِ اشتراها أحدُهُما ، فقالَ : « أوجبَ أحدُهُما بالإثمِ والكفَّارةِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكذبُ ينقصُ الرِّزقَ »(٤) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ التُّجَّارَ همُ الفُجَّارُ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ، أليسَ قدْ أحلَّ اللهُ البيعَ ؟ قالَ : « نعمْ ، ولكنَّهُمْ يحلفونَ فيأثمونَ ، ويحدِّثونَ فيكذبونَ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةُ نفرٍ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٩٧١) من حديث سفيان بن أُسيد رضي الله عنه ، وهو عند أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٣) من حديث نواس بن سمعان رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٩٧١) واللفظ له .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١١٦) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١١٧) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٢٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٦) ، وفيهما : (بلىٰ) بدل (نعم) .

ولا ينظرُ إليهِمْ : المنَّانُ بعطيَّتِهِ ، والمنفقُ سلعتَهُ بالحلِفِ الفاجرِ ، والمسبلُ إزارَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حلفَ حالفٌ باللهِ فأدخلَ فيها مثلَ جناحِ بعوضةٍ إلاَّ كانَتْ نكتةً في قلبِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »(٢) .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يحبُّهُمُ اللهُ : رجلٌ كانَ في فئةٍ فنَصبَ نحْرَهُ حتَّىٰ يُقتَلَ أوْ يفتحَ اللهُ عليهِ أوْ علىٰ أصحابِهِ ، ورجلٌ كانَ لهُ جارُ سُوءٍ يؤذيهِ فيصبرُ علىٰ أذاهُ حتَّىٰ يفرِّقَ بينَهُما موتٌ أو ظَعنٌ ، ورجلٌ كانَ معَهُ قومٌ في سفرٍ أوْ سريَّةٍ فأطالوا السُّرىٰ حتَّىٰ أعجبهُمْ أنْ يمسُّوا الأرضَ فنزلُوا ، فتنحَّىٰ يصلِّي حتَّىٰ يوقظَ أصحابَهُ للرَّحيلِ ، وثلاثةٌ يشْنَؤُهُمُ اللهُ : التَّاجرُ ـ أوِ البيَّاعُ ـ الحلاَّفُ ، والفقيرُ المختالُ ، والبخيلُ المنَّانُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ للذي يحدِّثُ فيكذبُ ليضحكَ بهِ القومَ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (١٠٦) .
(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٠) ضمن حديث ، ومفرداً رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٢٤) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٥١) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٢٦) بلفظه .
(٤) رواه أبو داوود (٤٩٩٠) ، والترمذي (٢٣١٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ كأنَّ رجلاً جاءَني فقالَ لي : قُمْ ، فقمتُ معَهُ ؛ فإذا أنا برجلينِ أحدُهُما قائمٌ والآخرُ جالسٌ ، بيدِ القائمِ كلُّوبٌ مِنْ حديدٍ يلقمُهُ في شدقِ الجالسِ فيجذِبُهُ حتَّىٰ يبْلُغَ كاهلَهُ ، ثمَّ يجذِبُهُ فيلقمُهُ الجانبَ الآخرَ ، فيمدُّهُ ، فإذا مدَّهُ.. رجعَ الآخرُ كما كانَ ، فقلتُ للذي أقامَني : ما هـٰذا ؟ قالَ : هـٰذا رجلٌ كذَّابٌ يُعذَّبُ في قبرِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »(١) .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ جرادٍ أنَّهُ سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يزني المؤمنُ ؟ قالَ : « قدْ يكونُ منهُ ذلكَ » ، قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ هلْ يكذِبُ المؤمنُ ؟ قالَ : « لا » ، ثمَّ أتبعَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدعو فيقولُ في دعائِهِ : « الَّلهمَّ ؛ طهِّرْ قلبي مِنَ النِّفاقِ ، وفرجي مِنَ الزِّنا ، ولساني مِنَ الكذِبِ »(٣) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٣١) بلفظه هنا ، وهو عند البخاري (١٣٨٦) ضمن حديث طويل .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٣٢) ، وفيه زيادة : يا رسول الله ؛ هل يسرق المؤمن ؟ قال : « قد يكون من ذلك » ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٧) وفيه السؤال عن الكذب فقط والسائل أبو الدرداء رضي الله عنه .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٣٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ ولا ينظرُ إليهِمْ ولا يزكِّيهِمْ ولهُمْ عذابٌ أليمٌ : شيخٌ زانٍ ، وملِكٌ كذَّابٌ ، وعائلٌ مستكبرٌ »(١) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ : جاءَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ بيتِنا وأنا صبيٌّ صغيرٌ ، فذهبتُ لألعَبَ ، فقالَتْ أمِّي : يا عبدَ اللهِ ؛ تعالَ لأُعطيَكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما أردتِ أنْ تعطيهِ ؟ » فقالَتْ : تمراً ، فقالَ : « أما إنَّكِ لوْ لمْ تفعلي . . كُتبَتْ عليكِ كذْبةٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أفاءَ اللهُ عليَّ نَعماً عددَ هٰذهِ العِضاهِ . . لقسمتُها بينَكُمْ ثمَّ لا تجدُوني بخيلاً ولا كذَّاباً ولا جباناً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَ متكئاً : « ألا أنبِّئُكُمْ بأكبرِ الكبائرِ ؟ الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ » ، ثمَّ قعدَ فقالَ : « ألا وقولُ الزُّورِ »(٤) .

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليكذِبُ الكذْبةَ فيتباعدُ الملَكُ منهُ مسيرةَ ميلٍ مِنْ نَتْنِ ما جاءَ بهِ »(٥) .

وقالَ أنسٌ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تقبَّلُوا لي بستٍّ . . أتقبَّلْ

---

(١) رواه مسلم (١٠٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٩١) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٤٠) .
(٣) رواه البخاري (٢٨٢١) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٤٤) .
(٤) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .
(٥) رواه الترمذي (١٩٧٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٥٥) .

لكمْ بالجنَّةِ » ، قالوا : وما هيَ ؟ قالَ : « إذا حدَّثَ أحدُكمْ . . فلا يكذبْ ، وإذا وعدَ . . فلا يخلفْ ، وإذا اؤتمنَ . . فلا يخنْ ، وغضُّوا أبصارَكمْ ، وكفُّوا أيديَكُمْ ، واحفظُوا فروجَكمْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للشَّيطانِ كحلاً ولَعُوقاً ونُشُوقاً ، فأمَّا لَعُوقُهُ . . فالكذبُ ، وأمَّا نُشُوقُهُ . . فالغَضبُ ، وأمَّا كحْلُهُ . . فالنومُ »(٢) .

وخطبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ بالجابيةِ فقالَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كمَقامِي فيكُمْ ، فقالَ : « أحسنُوا إلىٰ أصحابِي ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ثمَّ يفشُو الكذِبُ حتَّىٰ يحلِفُ الرَّجلُ على اليمينِ ولمْ يُحلَّفْ ، ويَشْهدُ ولمْ يُستشهَدْ »(٣) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حدَّثَ بحديثٍ وهوَ يرىٰ أنَّهُ كذبٌ . . فهوَ أحدُ الكاذبينَ »(٤) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٥٩/٤) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠٦/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣٧٤) بنحوه .
(٣) رواه الترمذي (٢١٦٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩١٨١) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٥٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٦٦) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حدَّثَ عنِّي حديثاً يُرىٰ أنَّهُ كذبٌ . . فهوَ أحدُ الكاذبينَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حَلَفَ علىٰ يمينٍ بإثمٍ ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهوَ عليهِ غضبانُ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ردَّ شهادةَ رجلٍ في كذبةٍ كذَبَها(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ كلِّ خَصْلةٍ يُطبَعُ ، أو يُطوىٰ عليها المؤمنُ إلا الخيانةَ والكذبَ »(٤) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما كانَ مِنْ خُلُقٍ أشدَّ عندَ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكذبِ ، ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يطَّلِعُ على الرَّجلِ مِنْ أصحابِهِ على الكذبةِ ، فما ينجلي مِنْ صدرِهِ حتَّىٰ يعلمَ أنَّهُ قدْ أحدثَ للهِ عزَّ وجلَّ منها توبةً)(٥) .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ أيُّ عبادِكَ خيرٌ لكَ عملاً ؟ قالَ :

---

(١) رواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/ ٩) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٦٨) .

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٧) ، ومسلم (١٣٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٩٠) عن موسى بن شيبة مرسلاً .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٥) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٥٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٧٦) .

مَنْ لا يكذبُ لسانُهُ ، ولا يفجرُ قلبُهُ ، ولا يزني فرجُهُ[١] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إيَّاكَ والكذبَ ؛ فإنَّهُ شهيٌّ كلحمِ العصفورِ ، عمَّا قليلٍ يقْلاهُ صاحبُهُ)[٢] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في مدحِ الصدقِ : « أربعٌ إذا كنَّ فيكَ . . فلا يضرُّكَ ما فاتَكَ مِنَ الدُّنيا : صدقُ حديثٍ ، وحفظُ أمانةٍ ، وحسنُ خليقةٍ ، وعفَّةُ طُعمةٍ »[٣] .

وقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في خُطبتِهِ بعدَ وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قامَ فينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلَ مقامي هٰذا عامَ أوَّلَ ثمَّ بكىٰ فقالَ : « عليكُمْ بالصِّدقِ ؛ فإنَّهُ معَ البرِّ ، وهما في الجنَّةِ »[٤] .

وقالَ معاذٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لي : « أوصيكَ بتقوى اللهِ ، وصدقِ الحديثِ ، وأداءِ الأمانةِ ، ووفاءٍ بالعهدِ ، وبذلِ السَّلامِ ، وخفضِ الجناحِ »[٥] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٨) عن هزيل بن شرحبيل .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٢) عن الحسن .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٧٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٤٦٣) .
(٤) هو بعض حديث رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٦٩) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٠) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٤٣٤) .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أعظمُ الخطايا عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ اللسانُ الكذوبُ ، وشرُّ الندامةِ ندامةُ يومِ القيامةِ)(١) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ : (ما كذبتُ كذبةً منذُ شددْتُ عليَّ إزاري)(٢) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ : (أحبُّكُمْ إلينا ما لمْ نرَكُمْ أحسنُكُمُ اسماً ، فإذا رأيناكُمْ . . فأحبُّكُمْ إلينا أحسنُكُم خُلُقاً ، فإذا اختبرْناكُمْ . . فأحبُّكُمْ إلينا أصدقُكُمْ حديثاً ، وأعظمُكُمْ أمانةً)(٣) .

وعنْ ميمونِ بنِ أبي شبيبٍ قالَ : (قعدْتُ أكتبُ كتاباً ، فمررتُ بحرفٍ إنْ أنا كتبتُهُ . . زيَّنتُ الكتابَ وكنتُ قدْ كذبْتُ ، فعزمْتُ علىٰ تركِهِ ، فناداني منادٍ مِنْ جانبِ البيتِ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾)(٤) .

وقالَ الشَّعبيُّ : ما أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في النارِ ، الكذبُ أوِ البخلُ)(٥) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤٨٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٣٩) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٣) .

وقالَ ابنُ السَّمَّاكِ : (ما أُراني أوجَرُ علىٰ تركِ الكذبِ ؛ لأنِّي إنَّما أدعُهُ أنفةً)[1] .

وقيلَ لخالدِ بنِ صُبيحٍ : مَنْ يكذبُ كذبةً واحدةً هل يُسمىٰ فاسقاً ؟ قالَ : نعمْ[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : ما مِنْ خطيبٍ إلا عُرِضَتْ خطبتُهُ علىٰ عملِهِ ؛ فإنْ كانَ صادقاً . . صُدِّقَ ، وإنْ كانَ كاذباً . . قُرِضَتْ شفتاهُ بمقراضَيْنِ مِنْ نارٍ ، كلَّما قُرِضَتا . . نَبَتَتا)[3] .

وقال مالكُ بنُ دينارٍ أيضاً : (الصدقُ والكذبُ يعتركانِ في القلبِ حتَّىٰ يخرجَ أحدُهما صاحبَهُ)[4] .

وكلَّم عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ في شيءٍ ، فقالَ لهُ : كذبْتَ ، فقالَ عمرُ : واللهِ ؛ ما كذبْتُ منذُ علمْتُ أنَّ الكذبَ يشينُ صاحبَهُ[5] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٥٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٧٨/٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٠/٢) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٢٩) .

بيان ما رُخِّص فيه من الكذب

اعلمْ : أنَّ الكذبَ ليسَ حراماً لعينِهِ ، بلْ لما فيهِ مِنَ الضررِ على المخاطبِ أوْ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّ أقلَّ درجاتِهِ أنْ يعتقدَ المُخبَرُ الشيءَ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ فيكونَ جاهلاً ، وقدْ يتعلَّقُ بهِ ضررُ غيرِهِ .

وربَّ جهلٍ فيهِ منفعةٌ ومصلحةٌ وَالكذبُ محصِّلٌ لذلكَ الجهلِ ؛ فيكونُ مأذوناً فيهِ ، وربَّما كانَ واجباً .

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (إنَّ الكذبَ في بعضِ المواطنِ خيرٌ مِنَ الصِّدقِ ، أرأيتَ لوْ أنَّ رجلاً يسعَىٰ وآخرُ وراءَهُ بالسيفِ ، فدخلَ داراً ، فانتهىٰ إليكَ فقالَ : أرأيتَ فلاناً ؟ ما كنْتَ قائلاً : ألسْتَ تقولُ : لمْ أرَهُ ، وما تصدقُ بهِ ؟)(١) ، فهٰذا الكذبُ واجبٌ .

فنقولُ : الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصدِ ؛ فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يمكنُ التَّوصُّلُ إليهِ بالصدقِ والكذبِ جميعاً . . فالكذبُ فيهِ حرامٌ ، وإن أمكنَ التوصُّلُ إليهِ بالكذبِ دونَ الصدقِ . . فالكذبُ فيهِ مباحٌ إنْ كانَ تحصيلُ ذلكَ المقصودِ مباحاً ، وواجبٌ إنْ كانَ المقصودُ واجباً ، كما أنَّ عصمةَ دمِ المسلمِ واجبةٌ ، فمهما كانَ في الصدقِ سفكُ دمِ امرئٍ مسلمٍ قدِ اختفىٰ مِنْ ظالمٍ . . فالكذبُ فيهِ واجبٌ ، ومهما كانَ لا يتمُّ مقصودُ الحربِ ، أوْ إصلاحُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٦) بنحوه .

ذاتِ البينِ ، أوِ استمالةُ قلبِ المجنيِّ عليهِ إلا بكذبٍ . . فالكذبُ مباحٌ ، إلاَّ أنَّهُ ينبغي أنْ يحترزَ عنهُ ما أمكنَ ؛ لأنَّهُ إذا فتحَ بابَ الكذبِ علىٰ نفسِهِ . . فيُخشىٰ أنْ يتداعَىٰ إلىٰ ما يستغني عنْهُ ، وإلىٰ ما لا يقتصرُ علىٰ حدِّ الضرورةِ ؛ فكانَ الكذبُ حراماً في الأصلِ إلا لضرورةٍ .

والذي يدلُّ على الاستثناءِ : ما رُوِيَ عنْ أمِّ كُلثومٍ قالَتْ : (ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرخِّصُ في شيءٍ مِنَ الكذبِ إلاَّ في ثلاثٍ : الرجلُ يقولُ القولَ يريدُ بهِ الإصلاحَ ، والرجلُ يقولُ القولَ في الحربِ ، والرجلُ يحدِّثُ امرأتَهُ ، والمرأةُ تحدِّثُ زوجَها)(١) .

وقالَتْ أيضاً : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابٍ مَنْ أصلَحَ بينَ اثنينِ ، فقالَ خيراً أوْ نمىٰ خيراً »(٢) .

وقالَتْ أسماءُ بنتُ يزيدَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ الكذبِ يُكتبُ على ابنِ آدمَ إلا رجلٌ كَذَبَ بينَ رجلينِ ليصلحَ بينَهما »(٣) .

ورُوِيَ عنْ أبي كاهلٍ قالَ : وقعَ بينَ رجلينِ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلامٌ حتَّىٰ تصارما ، فلقيتُ أحدَهُما فقلتُ : ما لكَ ولفلانٍ ؟ فقدْ سمعتُهُ يحسِنُ عليكَ الثناءَ ، ثمَّ لقيتُ الآخرَ فقلتُ لهُ مثلَ ذلكَ ، حتَّى اصطلحا ، ثمَّ قلْتُ : أهلكْتُ نفسي وأصلحْتُ بينَ هـٰذينِ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٥) ، وأم كلثوم هي بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها .
(٢) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .
(٣) رواه الترمذي (١٩٣٩) بزيادة فيه .

فأخبرْتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا كاهلٍ ، أصلحْ بينَ الناسِ ولو . . . » يعني : بالكذبِ[١] .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : قالَ رجلٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أكذبُ أهلي ؟ فقالَ : « لا خيرَ في الكذبِ » ، قالَ : أعِدُها وأقولُ لها ؟ قالَ : « لا جناحَ عليكَ »[٢] .

ويُروىٰ أنَّ ابنَ أبي عزرةَ الدُّؤليَّ ـ وكانَ في خلافةِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ـ يخلعُ النساءَ اللاَّتي يتزوجُهُنَّ ، فطارَ لهُ في الناسِ مِنْ ذلكَ أُحدوثةٌ يكرهُها ، فلمَّا علمَ بذلكَ . . قامَ بعبدِ اللهِ بنِ الأرقمِ حتَّىٰ أدخلَهُ بيتَهُ ، فقالَ لامرأتِهِ : أنشُدُكِ باللهِ ؛ هلْ تبغضيني ؟ قالَتْ : لا تنشُدْني ، قالَ : فإنِّي أنشدُكِ باللهِ ، قالَتْ : نعمْ ، فقالَ لابنِ الأرقمِ : أتسمعُ ؟! ثمَّ انطلقا حتَّىٰ أتيا عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : إنَّكمْ لتُحدِّثونَ أنِّي أظلِمُ النساءَ وأخلعُهُنَّ ، فاسألِ ابنَ الأرقمِ ، فسألَهُ ، فأخبرَهُ ، فأرسلَ إلى امرأةِ ابنِ أبي عزرةَ ، فجاءَتْ هيَ وعمَّتُها ، فقالَ : أنتِ التي تحدثينَ لزوجِكِ أنَّكِ تبغضينَهُ ؟ فقالَتْ : إنِّي أوَّلُ مَنْ تابَ وراجعَ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّهُ ناشدَني اللهَ ، فتحرَّجْتُ أنْ أكذِبَ ، أفأكذِبُ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، فاكذبي ؛ فإنْ كانَتْ إحداكُنَّ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/ ٣٦١) ، وفيه : « يا أبا كاهل ؛ أصلح بين الناس ولو بكذا وكذا » .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٨٩) عن صفوان بن سليم معضلاً ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٦/ ٢٤٧) عنه عن عطاء بن يسار مرسلاً .

لا تحبُّ أحدَنا.. فلا تحدِّثْهُ بذلِكَ ؛ فإنَّ أقلَّ البيوتِ الذي يُبنىٰ على الحُبِّ ، ولكنَّ الناسَ يتعاشرونَ بالإسلامِ والإحسانِ(١) .

وعنِ النواسِ بنِ سمعانَ الكلابيِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي أراكمْ تتهافتونَ في الكذبِ تهافُتَ الفَراشِ في النَّارِ ؟! كلُّ الكذبِ مكتوبٌ كذباً لا محالةَ ، إلا أنْ يكذِبَ الرَّجلُ في الحربِ ؛ فإنَّ الحَرْبَ خُدْعةٌ ، أوْ يكونَ بينَ رجلينِ شحْناءُ فيُصلحَ بينَهما ، أوْ يحدِّثَ امرأتَهُ يرضيها »(٢) .

وقالَ ثوبانُ : (الكذِبُ كلُّهُ إثمٌ إلاَّ ما نُفِعَ بهِ مسلمٌ ، أوْ دُفِعَ بهِ عنهُ ضررٌ)(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا حدَّثْتُكُمْ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.. فلأَنْ أخِرَّ مِنَ السَّماءِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أكذِبَ عليهِ ، وإذا حدَّثْتُكمْ فيما بيني وبينَكُمْ.. فالحربُ خُدْعةٌ)(٤) .

فهٰذهِ الثلاثُ وردَ فيها صريحُ الاستثناءِ ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبطَ بهِ غرضٌ مقصودٌ صحيحٌ لهُ أوْ لغيرِهِ .

أمَّا ما لَهُ.. فمثلُ أنْ يأخذَهُ ظالمٌ ويسألَهُ عنْ مالِهِ ، فلَهُ أنْ ينكرَ ، أوْ

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٨٦) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٦٢) .
(٣) رواه البزار في « مسنده » (٤١٦٢) ، وتظنن في رفعه .
(٤) رواه البخاري (٣٦١١) ، ومسلم (١٠٦٦) .

يأخذَهُ السلطانُ فيسأَلَهُ عنْ فاحشةٍ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالى ارتكبَها ؛ فلهُ أنْ ينكرَ ذلكَ ويقولَ : ما زنيتُ ، وما سرقتُ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ارتكبَ شيئاً مِنْ هٰذهِ القاذوراتِ . . فليستترْ بسترِ اللهِ »(١) ، وذلكَ أنَّ إظهارَ الفاحشةِ فاحشةٌ أخرىٰ ؛ فللرَّجلِ أنْ يحفظَ دمَهُ ومالَهُ الذي يُؤخذُ ظلماً وعرضَهُ بلسانِهِ وإنْ كانَ كاذباً .

وأمَّا غَرَضُ غيرِهِ . . فبأنْ يُسألَ عنْ سرِّ أخيهِ ، فلهُ أنْ ينكرَهُ ، وأنْ يصلحَ بينَ اثنينِ ، وأنْ يصلحَ بينَ الضَّرَّاتِ مِنْ نسائِهِ ، بأنْ يظهِرَ لكلِّ واحدةٍ أنَّها أحبُّ إليهِ ، أوْ كانَتِ امرأتُهُ لا تطيعُهُ إلاَّ بوعدٍ لا يقدِرُ عليهِ ، فيعدُها في الحالِ تطييباً لقلبِها ، أوْ يعتذرَ إلىٰ إنسانٍ وكانَ لا يطيبُ قلبُهُ إلاَّ بإنكارِ ذنبٍ وزيادةِ تودُّدٍ ؛ فلا بأسَ بهِ .

ولكنِ الحدُّ فيهِ : أنَّ الكذبَ محذورٌ ، ولوْ صدقَ في هٰذهِ المواضعِ . . تولَّدَ منهُ محذورٌ ؛ فينبغي أنْ يقابلَ أحدَهُما بالآخرِ ، ويزنَ بالميزانِ القسطِ ، فإذا علمَ أنَّ المحذورَ الذي يحصلُ بالصِّدقِ أشدُّ وقعاً في الشرعِ مِنَ الكذبِ . . فلهُ الكذبُ ، وإنْ كانَ ذلكَ المقصودُ أهونَ مِنْ مقصودِ الصِّدقِ . . فيجبُ الصِّدقُ ، وقدْ يتقابلُ الأمرانِ بحيثُ يتردَّدُ فيهما ، وعندَ ذلكَ الميلُ إلى الصِّدقِ أولىٰ ؛ لأنَّ الكذبَ يُباحُ لضرورةٍ أوْ حاجةٍ مهمةٍ ، فإنْ شكَّ في كونِ الحاجةِ مهمةً . . فالأصلُ التحريمُ ، فيُرجعُ إليهِ .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٨٢٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

ولأجلِ غموضِ إدراكِ مراتبِ المقاصدِ ينبغي أنْ يحترزَ الإنسانُ مِنَ الكذبِ ما أمكنَهُ ، ولذلكَ مهما كانتِ الحاجةُ لهُ.. فيُستحبُّ لهُ أن يتركَ أغراضَهُ ويهجرَ الكذبَ .

فأمَّا إذا تعلَّقَ بغرضِ غيرِه.. فلا تجوزُ المسامحةُ لحقِّ الغيرِ والإضرارِ بهِ .

وأكثرُ كذبِ الناسِ إنَّما هوَ لحظوظِ أنفسِهِمْ ، ثمَّ هوَ لزياداتِ المالِ والجاهِ ، ولأمورٍ ليسَ فواتُها محذوراً ، حتَّىٰ إنَّ المرأةَ لتحكي عَنْ زوجِها ما تتفاخرُ بهِ وتكذبُ لأجلِ مُراغمةِ الضَّرَّاتِ ، وذلكَ حرامٌ .

وقالَتْ أسماءُ رضيَ اللهُ عنها : سمعْتُ امرأةً تسألُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَتْ : إنَّ لي ضَرَّةً ، وإنِّي أتكثَّرُ مِنْ زوجي بما لا يفعلُ أضارُّها بذلكَ ، فهلْ عليَّ فيهِ شيءٌ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المُتشبِّعُ بما لمْ يُعطَ كلابسِ ثوبي زُورٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تطعَّمَ بما لا يطعَمُ ، وقالَ : لي وليسَ لهُ ، وأُعطِيتُ ولمْ يُعطَ.. كانَ كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ يومَ القيامةِ »(٢) .

ويدخلُ في هٰذا فتوى العالمِ بما لا يتحقَّقُهُ ، وروايتُهُ الحديثَ الذي ليسَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٢٩) ، وأسماء هي بنت الصديق رضي الله عنهما .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٧/ ٥٢٦) ، وقد روى ابن حبان في « صحيحه » (٣٤١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٤٧) من حديث جابر رضي الله عنه : « ومن تحلىٰ بباطل.. فهو كلابس ثوبي زور » .

بثَبْتٍ فيهِ ؛ إذ غرضُهُ أنْ يُظهِرَ فضلَ نفسِهِ ، فهوَ لذلكَ يستنكفُ مِنْ أنْ يقولَ : لا أدري ، وهـٰذا حرامٌ[١] .

ومما يلتحقُ بالنساءِ الصبيانُ ؛ فإنَّ الصبيَّ إذا كانَ لا يرغبُ في المكتبِ إلاَّ بوعدٍ أوْ وعيدٍ أوْ تخويفٍ كاذبٍ . . كانَ ذلكَ مباحاً .

نعمْ ، روينا في الأخبارِ أنَّ ذلكَ يُكتبُ كذباً ، ولكنَّ الكذبَ المباحَ أيضاً يُكتبُ ويُحاسبُ عليهِ ، ويُطالبُ بتصحيحِ قصدِهِ فيهِ ، ثمَّ يُعفىٰ عنهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما أُبيحَ بقصدِ الإصلاحِ ، ويتطرَّقُ إليهِ غرورٌ كبيرٌ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ الباعثُ لهُ حظَّهُ وغرضَهُ الذي هوَ مستغنىً عنهُ ، وإنَّما يتعلَّلُ ظاهراً بالإصلاحِ ؛ فلهـٰذا يُكتبُ .

وكلُّ مَنْ أتىٰ بكذبةٍ . . فقدْ وقعَ في خطرِ الاجتهادِ ؛ ليعلمَ أنَّ المقصودَ الذي كذبَ لأجلِهِ هلْ هوَ أهمُّ في الشرعِ مِنَ الصدقِ أمْ لا ، وذلكَ غامضٌ جداً ، فالحزمُ في تركِهِ إلاَّ أنْ يصيرَ واجباً بحيثُ لا يجوزُ تركُهُ ؛ كما لوْ أدىٰ إلىٰ سفكِ دمٍ ، أوِ ارتكابِ معصيةٍ كيفَ كانَ .

---

(١) ويلتحق به : الانتصاب للتدريس والإفادة في العلوم الظاهرة أو الباطنة من غير تمكنه من الأهلية ؛ فإنه لعب في الدين وإزراء به ، وروى البيهقي في « الشعب » (٦٥٤٧) عن الحسن قال : (من تزيَّن للناس بغير ما يعلم الله منه . . شانه) ، وحكىٰ عن أبي الطيب الصعلوكي (٧٩١٥) : (من تصدر قبل أوانه . . فقد تصدىٰ لهوانه) ، ومثله المشهور على الألسنة : (من استعجل الشيء قبل أوانه . . عوقب بحرمانه) . انظر « فيض القدير » (٦/ ٢٦٠) ، و« الإتحاف » (٧/ ٥٢٦) .

وقدْ ظنَّ ظانُّونَ أنَّهُ يجوزُ وضعُ الأحاديثِ في فضائلِ الأعمالِ ، وفي التَّشديدِ في المعاصي ، وزعموا أنَّ القصدَ منه صحيحٌ ، وهوَ خطأٌ محضٌ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كذبَ عليَّ متعمِّداً . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النَّارِ »(١) ، وهـٰذا لا يرتكبُ إلاَّ لضرورةٍ(٢) ، ولا ضرورةَ ؛ إذْ في الصِّدقِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ ، ففيما وردَ مِنَ الآياتِ والأخبارِ كفايةٌ عنْ غيرِها .

وقولُ القائلِ : (إنَّ ذلكَ تكرَّرَ على الأسماعِ وسقطَ وقعُهُ ، وما هوَ جديدٌ فوقعُهُ أعظمُ) . . فهـٰذا هوسٌ ؛ إذْ ليسَ هـٰذا مِنْ الأغراضِ التي تُقاومُ محذورَ الكذبِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلى اللهِ تعالىٰ ، ويؤدي فتحُ بابِهِ إلىٰ أمورٍ تشوِّشُ الشريعةَ ، فلا يقاوِمُ خيرُ هـٰذا شرَّهُ أصلاً ، فالكذبُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ التي لا يقاومُها شيءٌ ، نسألُ اللهَ العفوَ عنّا وعنْ جميعِ المسلمينَ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .
(٢) في النسخ : (لا يترك إلا ضرورة) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قدْ نُقِلَ عنِ السَّلفِ أنَّ في المعاريضِ مندوحةً عنِ الكذبِ(١) .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أمَا في المعاريضِ ما يكفي الرَّجلَ منَ الكذبِ) ، ورُويَ ذلكَ عنِ ابنِ عباسٍ وغيرِهِ(٢) .

وإنَّما أرادوا بذلكَ إذا اضطُرَّ الإنسانُ إلى الكذبِ ، فأمَّا إذا لمْ تكنْ حاجةٌ وضرورةٌ.. فلا يجوزُ التعريضُ ولا التصريحُ جميعاً ، ولكنَّ التعريضَ أهونُ .

ومثالُ التَّعريضِ : ما رُوِيَ أنَّ مطرِّفاً دخلَ علىٰ زيادٍ ، فاستبطأَهُ ، فتعلَّلَ بمرضٍ وقالَ : ما رفعْتُ جنبي مذْ فارقْتُ الأميرَ إلاَّ ما رفعَني اللهُ(٣) .

وقالَ إبراهيمُ : إذا بلغَ الرَّجلَ عنكَ شيءٌ فكرهْتَ أنْ تكذِبَ.. فقُلْ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ليعلَمُ ما قلْتُ مِنْ ذلكَ مِنْ شيءٍ ، فيكونُ قولُهُ : (ما)

---

(١) **والمعاريض** : جمع معراض ، والمراد به التعريض ، وهو ذكر لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريده المتكلم ، ومندوحة : سعة وغنية وفسحة . انظر « الإتحاف » (٥٢٨/٧) .

(٢) هو من قول عمر رضي الله عنه رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٩٩/١٠) ، وعنده كذلك عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

(٣) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٤٤/٩) ، وعنه روىٰ أيضاً القول السابق في المعاريض ، ومعلوم أن الرفع يشمل الاختياري والاضطراري .

حرفَ نفيٍ عندَ المستمعِ ، وعندَهُ للإبهامِ(١) .

وكانَ معاذُ بنُ جبلٍ عاملاً لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا رجعَ . . قالَتِ امرأتُهُ : ما جئتَ بهِ ممَّا يأتي بهِ العمَّالُ مِنْ عُراضةِ أهليهِمْ ؟(٢) وما كانَ قدْ أتاها بشيءٍ ، فقالَ : كانَ معي ضاغطٌ ، فقالَتْ : كنْتَ أميناً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فبعث عمرُ معكَ ضاغطاً ! فقامَتْ بذلكَ في نسائِها ، واشتكَتْ عمرَ ، فلمَّا سمعَ عمرُ ذلكَ . . دعا معاذاً فقالَ : بعثتُ معكَ ضاغطاً ؟ فقالَ : لمْ أجدْ ما أعتذرُ بهِ إليها إلاَّ ذلكَ ، فضحكَ عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ ، وأعطاه شيئاً ، وقالَ : أرضِها بهِ .

وقولُهُ : (ضاغطاً) يعني : رقيباً ، يريدُ بهِ ربَّهُ عزَّ وجلَّ(٣) .

وكانَ النخعيُّ لا يقولُ لابنتِهِ : أشتري لكِ سكَّراً ، بلْ يقولُ : أرأيتِ لوِ اشتريتُ لكِ سكَّراً ؟ فإنَّهُ ربَّما لا يتَّفقُ لهُ ذلكَ .

وكانَ إبراهيمُ إذا طلبَهُ مَنْ يكرَهُ أنْ يخرجَ إليهِ وهوَ في الدارِ . . قالَ

---

(١) رواه ابن الجوزي في « الأذكياء » (ص٧١) ، و(ما) عند المتكلم إما موصولة أو استفهامية ، وفي كل منهما الإبهام ، وكذا لو قال : (الله يعلم ما قلته) ، وهو أخصر من الأول . « إتحاف » (٧/ ٥٢٩) .

(٢) **العُراضة** : الهدية والتحفة تحمل إلى الأهلين وتعرض عليهم .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٧٨) ، مع تفسير قوله (ضاغطاً) ، وقد نقله عن ابن جريج .

للجاريةِ : قولي لهُ : (اطلبْهُ في المسجدِ) ، ولا تقولي : (ليسَ هـٰهنا) ؛ كي لا يكونَ كذباً .

وكانَ الشَّعبيُّ إذا طُلِبَ في البيتِ وهوَ يكرهُهُ.. يخطُّ دائرةً ويقولُ للجاريةِ : ضَعي إصبعَكِ فيها ، وقولي : (ليسَ هـٰهنا) .

وهـٰذا كلُّهُ في موضعِ الحاجةِ ، وأمَّا في غيرِ موضعِ الحاجةِ.. فلا ؛ لأنَّ هـٰذا تفهيمٌ للكذبِ .

فإنْ لمْ يكنْ اللَّفظُ كذباً.. فهوَ مكروهٌ على الجملةِ ، كما رُويَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ قالَ : دخلْتُ معَ أبي علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فخرجْتُ وعليَّ ثوبٌ ، فجعلَ الناسُ يقولونَ : هـٰذا كساكَهُ أميرُ المؤمنينَ ؟ فكنْتُ أقولُ : جزى اللهُ أميرَ المؤمنينَ خيراً ، فقالَ لي : يا بنيَّ ؛ اتقِ الكذبَ ، إياكَ والكذبَ ، وما أشبهَهُ ، فنهاهُ عنْ ذلكَ[1] ؛ لأنَّ فيهِ تقريراً لهمْ علىٰ ظنٍّ كاذبٍ ؛ لأجلِ غرضِ المفاخرةِ ، وهوَ غرضٌ باطلٌ لا فائدةَ فيهِ .

نعم ، المعاريضُ تُباحُ لغرضٍ خفيفٍ ؛ كتطييبِ قلبِ الغيرِ بالمِزاحِ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الجنَّةَ عجوزٌ »[2] ، وقولِهِ للأخرىٰ : « في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٤٠) عن عون بن عبد الله بن عتبة ، وانظر « الإتحاف » (٧/ ٥٢٩) .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٤٠) .

عينِ زوجِكِ بياضٌ »(١)، وللآخرِ: « نحملُكِ علىٰ ولدِ البعيرِ »(٢)، وما أشبهَهُ.

فأمّا الكذبُ الصريحُ.. فكما فعلَهُ نُعيمانُ الأنصاريُّ معَ عثمانَ في قصَّةِ الضَّريرِ إذْ قالَ لهُ: (إنَّهُ نُعيمانُ)(٣)، وكما يعتادُهُ الناسُ مِنْ ملاعبةِ الحمقىٰ؛ بتغريرِهِمْ بأنَّ امرأةً قدْ رغبَتْ في تزويجِكَ، فإنْ كانَ فيهِ ضررٌ يؤدي إلىٰ إيذاءِ قلبٍ.. فهوَ حرامٌ، وإنْ لمْ يكنْ إلا مطايبةً.. فلا يُوصفُ صاحبُها بالفسقِ، ولكنْ ينقصُ ذلكَ مِنْ درجةِ إيمانِهِ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ

---

(١) قال الحافظ العراقي: (رواه الزبير بن بكار في كتاب « الفكاهة والمزاح »). « إتحاف » (٧/ ٥٠٠).

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١) بنحوه.

(٣) وهو ما رواه ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص٧٣٤)، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢/ ١٤٧) عن عبد الله بن مصعب قال: كان مخرمة بن نوفل بن وهيب الزهري شيخاً كبيراً بالمدينة أعمىٰ، وكان قد بلغ مئة وخمس عشرة سنة، فقام يوماً في المسجد يريد أن يبول، فصاح به الناس، فأتاه نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث بن سواد النجاري، فتنحَّىٰ به ناحية من المسجد ثم قال: اجلس ههنا، فأجلسه يبول وتركه، فبال، وصاح به الناس، فلما فرغ.. قال: من جاء بي ويحكم في هـٰذا الموضع؟ قالوا له: النعيمان بن عمرو، قال: فعل الله به وفعل، أما إن لله علي إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هـٰذه ضربة تبلغ منه ما بلغت، فمكث ما شاء الله حتىٰ نسي ذلك مخرمة، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد، وكان عثمان إذا صلىٰ لم يلتفت، فقال له: هل لك في نعيمان؟ قال: نعم، أين هو؟ دلني عليه، فأتىٰ به حتىٰ أوقفه علىٰ عثمان، فقال: دونك، هـٰذا هو، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجَّه، فقيل له: إنما ضربت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه... الخبر.

لنفسِهِ ، وحتَّىٰ يجتنبَ الكذبَ في مزاحِهِ »[1] .

وأمَّا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ يضحكُ بها النَّاسَ يهوي بها في النارِ أبعدَ مِنَ الثُّريَّا »[2] . . أرادَ بهِ ما فيهِ غيبةُ مسلمٍ ، أوْ إيذاءُ قلبٍ ، دونَ محضِ المِزاحِ .

ومِنَ الكذبِ الذي لا يوجبُ الفسقَ : ما جرَتْ بهِ العادةُ في المبالغةِ ؛ كقولِهِ : (طلبتُكَ كذا وكذا مرةً) ، و(قلتُ لكَ كذا مئةَ مرةٍ) ؛ فإنَّهُ لا يريدُ بهِ تفهيمَ المرَّاتِ بعددِها ، بلْ تفهيمَ المبالغةِ ، فإنْ لمْ يكنْ طلبَهُ إلاَّ مرةً واحدةً . . كانَ كاذباً ، وإنْ كانَ طلبَهُ مرَّاتٍ لا يُعتادُ مثلُها في الكثرةِ . . فلا يأثمُ ، وإنْ لمْ تبلغْ مئةً ، وبينَهُما درجاتٌ يتعرَّضُ مطلقُ اللسانِ بالمبالغةِ فيها لخطرِ الكذبِ .

وممَّا يُعتادُ الكذبُ فيهِ ويُتساهلُ بهِ : أنْ يُقالَ : (كُلِ الطعامَ) ، فيقولَ : (لا أشتهيهِ) ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وهوَ حرامٌ إنْ لمْ يكُنْ فيهِ غرضٌ صحيحٌ ، قالَ مجاهدٌ : قالَتْ أسماءُ بنتُ عُميسٍ : كنتُ صاحبةَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها

---

(١) قوله : (لا يستكمل العبد الإيمان حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أورده ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص ٨٥٩) ، وروىٰ نحوه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه ، وعند أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « لا يؤمن العبد الإيمان كله حتىٰ يترك الكذب في المزاحة ، ويترك المراء وإن كان صادقاً » .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧١) ، وعند البخاري (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

في الليلةِ التي هيَّأتُها وأدخلتُها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعي نسوةٌ ، قالَتْ : فواللهِ ؛ ما وجدْنا عندَهُ قِرىً إلاَّ قدحاً مِنْ لبنٍ ، فشربَ ثمَّ ناولَهُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، قالَتْ : فاستحيَتِ الجاريةُ ، قالَتْ فقلْتُ : لا تردِّي يدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، خذي منهُ ، قالَتْ : فأخذَتْهُ علىٰ حياءٍ فشربَتْ منهُ ، ثمَّ قالَ : « ناولي صواحبَكِ » ، فقلْنَ : لا نشتهيهِ ، فقالَ : « لا تجمعْنَ جوعاً وكذباً » ، قالَتْ : فقلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنْ قالَتْ إحدانا لشيءٍ تشتهيهِ : لا أشتهيهِ . . أيُعدُّ ذلكَ كذباً ؟ قالَ : « إنَّ الكذبَ ليُكتَبُ كذباً حتَّى الكُذَيبةُ كُذيبةً »(١) .

وقدْ كانَ أهلُ الورعِ يحترِزونَ عنِ التَّسامحِ بمثلِ هـٰذا الكذبِ ، قالَ اللَّيثُ بنُ سعدٍ : كانَتْ ترمَصُ عينا سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، حتَّىٰ يبلغَ الرَّمصُ خارجَ عينيهِ ، فيُقالُ لهُ : لوْ مسحْتَ هـٰذا الرَّمصَ ، فيقولُ : فأينَ قولُ الطبيبِ وهوَ يقولُ لي : لا تمسَّ عينيكَ ، فأقولُ : لا أفعلُ ؟!(٢) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٤٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٢٤) ، كلاهما عن أسماء بنت عميس ، قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/٥٤) : (رواه أحمد والطبراني في « الكبير » ، وفيه شداد عن مجاهد ، روىٰ عنه ابن جريج ويونس بن يزيد ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، إلا أن أسماء بنت عميس كانت بأرض الحبشة مع زوجها جعفر حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة ، والصواب حديث أسماء بنت يزيد والله أعلم) ، وهو عن أسماء بنت يزيد عند ابن ماجه (٣٢٩٨) بلفظ المرفوع دون ذكر القصة مفصلة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١١) .

وهٰذهِ مراقبةُ أهلِ الورعِ ، ومَنْ تركَهُ . . انسلَّ لسانُهُ في الكذبِ عنِ حدِّ اختيارِهِ ، فيكذبُ ولا يشعرُ .

وعن جوَّابٍ التيميِّ قالَ : جاءَتْ أختُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ عائدةً إلىٰ بُنيٍّ لهُ ، فانكبَّتْ عليهِ ، فقالَتْ : كيفَ أنتَ يا بُنيَّ ؟ فجلسَ الربيعُ فقالَ : أرضعتيهِ ؟ قالَتْ : لا ، قالَ : ما عليكِ لوْ قلتِ : يا بنَ أخي فصدقْت ؟![1] .

ومِنَ العادةِ أنْ يقولَ : يعلمُ اللهُ فيما لا يعلمُهُ[2] ، قالَ عيسىَ عليهِ السلامُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ عندَ اللهِ أنْ يقولَ العبدُ : إنَّ اللهَ يعلمُ لما لا يعلمُ)[3] .

وربَّما يكذبُ في حكايةِ المنامِ ، والإثمُ فيهِ عظيمٌ ؛ قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ مِنْ أَعْظَمِ الفِرَىٰ أنْ يَدَّعيَ الرَّجلُ إلىٰ غيرِ أبيهِ ، أوْ يُرِيَ عينَهُ في المنامِ ما لمْ ترَ ، أوْ يقولَ عليَّ ما لمْ أقُلْ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ كذبَ في حُلْمِهِ . . كُلِّفَ يومَ القيامةِ أنْ يعقِدَ بينَ شعيرتينِ ، وليسَ بعاقدٍ بينَهما أبداً »[5] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٣٣) ، ووقع في النسخ : (خوات) بدل (جواب) .
(٢) أي : القائل .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٧٢٧) عن سعيد بن عبد العزيز .
(٤) رواه البخاري (٣٥٠٩) .
(٥) رواه البخاري (٧٠٤٢) ، وأبو داوود (٥٠٢٤) .

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

والنظرُ فيها طويلٌ ، فلنذكرْ أوّلاً مذمَّةَ الغيبةِ ، وما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ .

وقدْ نصَّ اللهُ سبحانَهُ علىٰ ذمِّها في كتابِهِ ، وشبَّهَ صاحبَها بآكلِ لحمِ الميتةِ .

فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ ؛ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ »(١) ، والغيبةُ تناولُ العِرضِ ، وقدْ جمعَ اللهُ بينَهُ وبينَ الدمِ والمالِ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحاسدُوا ، ولا تباغضُوا ، ولا تناجَشُوا ، ولا تدابَرُوا ، ولا يغتبْ بعضُكمْ بعضاً ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً »(٢) .

وعنْ جابرٍ وأبي سعيدٍ قالا : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والغيبةَ ، فإنَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزنا ، إنَّ الرَّجلَ قدْ يزني ويتوبُ فيتوبُ اللهُ سبحانَهُ عليهِ ، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفرُ لهُ حتَّىٰ يغفرَ لهُ صاحبُهُ »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ضمن حديث .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٣) ، وأصله في « الصحيحين » وقد تقدم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررْتُ ليلةَ أُسريَ بي علىٰ قومٍ يخمِشُونَ وجوهَهُم بأظافيرِهِمْ ، فقلْتُ : يا جبريلُ ؛ مَنْ هؤلاءِ ؟ قالَ : هؤلاءِ الذينَ يغتابونَ الناسَ ويقعونَ في أعراضِهِمْ »(١) .

وقالَ سليمُ بنُ جابرٍ : أتيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلْتُ : علِّمني خيراً ينفعُني اللهُ بهِ ، فقالَ : « لا تحقرَنَّ مِنَ المعروفِ شيئاً ولوْ أنْ تصبَّ مِنْ دلوكَ في إناءِ المستسقي ، وأنْ تلقىٰ أخاكَ ببشرٍ حسنٍ ، وإذا أدبرَ . . فلا تغتابُهُ »(٢) .

وقالَ البراءُ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أسمعَ العواتقَ في بيوتِها ، فقالَ : « يا معشرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ ولمْ يؤمنْ بقلبِهِ ؛ لا تغتابُوا المسلمينَ ، ولا تتَّبعُوا عوراتِهِمْ ؛ فإنَّهُ مَنْ يتَّبعْ عورةَ أخيهِ . . يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ ، ومَنْ يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ . . يفضحْهُ في جوفِ بيتِهِ »(٣) .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : (مَنْ ماتَ تائباً مِنَ الغيبةِ . . فهوَ آخرُ مَنْ يدخلُ الجنةَ ، ومَنْ ماتَ مصرّاً عليها . . فهوَ أوَّلُ مَنْ يدخلُ النارَ)(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٧) ، ورواه أبو داوود (٤٨٨٠) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٨٤) .

وقالَ أنسٌ : أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الناسَ بصومِ يومٍ وقالَ : « لا يفطرَنَّ أحدٌ حتَّىٰ آذنَ لهُ » ، فصامَ الناسُ ، حتَّىٰ إذا أمسَوا . . جعلَ الرجلُ يجيءُ فيقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ظللْتُ صائماً ، فأذنْ لي لأفطرَ ، فيأذنُ لهُ ، والرجلُ والرجلُ ، حتَّىٰ جاءَ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فتاتانِ مِنْ أهلكَ ظلَّتا صائمتينِ ، وإنَّهما يستحيانِ أنْ يأتياكَ ، فأذنْ لهما أنْ يفطرا ، فأعرضَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ عاودَهُ فأعرضَ عنهُ ، ثمَّ عاودَهُ ، فقالَ : « إنَّهما لمْ يصوما ، وكيفَ صامَ منْ ظلَّ هـٰذا اليومَ يأكلُ لحومَ النَّاسِ ، اذهبْ فمرْهُما إنْ كانتا صائمتَينِ أنْ تستقْيِئا » ، فرجعَ إليهما فأخبرَهُما ، فاستقاءَتا ، فقاءَتْ كلُّ واحدةٍ منهمَا علقةً مِنْ دمٍ ، فرجعَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ: « والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ؛ لوْ بقيَتا في بطونِهما . . لأكلَتْهُما النَّارُ »[1] .

وفي روايةٍ : أنَّهُ لمَّا أعرضَ عنهُ . . جاءَهُ بعدَ ذلكَ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّهما واللهِ لقدْ ماتَتَا أوْ كادَتا أنْ تموتا ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ائتوني بهِما » ، فجاءَتا ، فدعا بعُسٍّ ، فقالَ لإحداهما : « قيئي » ، فقاءَتْ مِنْ قيحٍ ودمٍ وصديدٍ حتَّىٰ ملأتِ القدحَ ، وقالَ للأخرىٰ : « قيئي » ، فقاءَتْ كذلكَ ، فقالَ : « إنَّ هاتينِ صامتَا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما ، وأفطرتا علىٰ ما حرَّمَ اللهُ عليهما، جلسَتْ إحداهُما إلى الأخرىٰ ، فجعلَتا تأكلانِ لحومَ الناسِ »[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٠) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٣١) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧١) ، وقد تقدمت هـٰذه الرواية .

وقالَ أنسٌ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فذكرَ الرِّبا وعظَّمَ شأنَهُ ، فقالَ : « إنَّ الدرهَمَ يصيبُهُ الرَّجلُ من الرِّبا أعظمُ عندَ اللهِ في الخطيئةِ مِنْ ستٍّ وثلاثينَ زنيةً يزنيها الرَّجلُ ، وإنَّ أربى الربا عِرْضُ الرَّجلِ المسلمِ »(١) .

وقالَ جابرٌ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مسيرٍ ، فأتىٰ علىٰ قبرينِ يُعذَّبُ صاحباهُما ، فقالَ : « إنَّهما يُعذَّبانِ ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ ، أمَّا أحدُهُما . . فكانَ يغتابُ النَّاسَ ، وأمَّا الآخرُ . . فكانَ لا يستنزهُ مِنْ بَولِهِ » ، ودعا بجريدةٍ رطبةٍ أوْ جريدتينِ ، فكسرَهُما ، ثمَّ أمرَ بكلِّ كسرةٍ فغرِسَتْ علىٰ قبرٍ ، فقالَ : « أمَا إنَّه سيُهَوَّنُ مِنْ عذابِهِما ما كانَتا رطبتيْنِ » ، أوْ « ما لمْ يَيْبَسا »(٢) .

ولمَّا رجَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ماعزاً في الزنا . . قالَ رجلٌ لصاحبِهِ : هـٰذا أُقعِصَ كما يُقْعَصُ الكلبُ ، فمرَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهما معَهُ بجيفةٍ ، فقالَ : « انهَشا منها » ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ ننهشُ جيفةً ؟! فقالَ : « ما أصبتُما مِنْ أخيكُما أنتنُ مِنْ هـٰذهِ »(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٥) ، وإنما شبهه بالربا للاستطالة وتناول الزيادة مما لا يجوز في حقه .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٣٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٦) ، وعند البخاري (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) وفيهما ذكر النميمة بدل الغيبة .

(٣) رواه الطيالسي في « مسنده » (٢٤٧٣) ، وفيه : (انهسا) بدل (انهشا) ، والنهش =

وكانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم يتلاقونَ بالبِشْرِ ، ولا يغتابونَ عندَ الغَيْبةِ ، ويرونَ ذلكَ أفضلَ الأعمالِ ، ويرونَ خلافَهُ عادةَ المنافقينَ .

وقالَ أبو هريرةَ : (مَنْ أكلَ لحمَ أخيهِ في الدُّنيا . . قُرِّبَ إليهِ لحمُهُ في الآخرةِ ، فقيلَ له : كُلْهُ ميتاً كما أكلْتَهُ حيّاً ، فيأكلُهُ ويضِجُّ ويكلَحُ) ، ورُوِيَ مرفوعاً كذلكَ[1] .

ورُوِي أنَّ رجلينِ كانا قاعدينِ عندَ بابٍ مِنْ أبوابِ المسجدِ ، فمرَّ بهما رجلٌ كانَ مخنَّثاً فتركَ ذلكَ ، فقالا : لقدْ بقيَ فيهِ منهُ شيءٌ ، فأُقيمَتِ الصلاةُ ، فدخلا فصلَّيا معَ الناسِ ، فحاكَ في أنفسِهما ممَّا قالا ، فأتيا عطاءً فسألاهُ ، فأمرَهُما أنْ يُعيدا الوضوءَ والصلاةَ ، وأمرَهما إنْ كانا صائمينِ أنْ يقضيا صيامَ ذلكَ اليومِ[2] .

وعنْ مجاهدٍ قالَ : (﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ الهُمَزةُ : الطَّعَّانُ في الناسِ ، واللُّمزَةُ : الذي يأكلُ لحومَ الناسِ)[3] .

وقالَ قتادةُ : (ذُكِرَ لنا أنَّ عذابَ القبرِ ثلاثةُ أثلاثٍ : ثلثٌ مِنَ الغيبةِ ،

= والنهس بمعنىً ، وبنحوه رواه أبو داوود (٤٤٢٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧١٢٧) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٧٨) ، ورواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٩٣) عنه مرفوعاً ، **ويضجُّ** : يصيح ويتململ ، **ويكلح** : يعبس وجهه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٨٥) .

وثلثٌ مِنَ البولِ ، وثلثٌ مِنَ النميمةِ)[١] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لَلْغيبةُ أسرعُ في دينِ المؤمنِ مِنَ الأَكَلَةِ في جسدِهِ)[٢] .

وقالَ بعضُهُم : (أدركْنا السَّلفَ وهمْ لا يرونَ العبادةَ في الصَّومِ ولا في الصَّلاةِ ، ولكنْ في الكفِّ عنْ أعراضِ الناسِ)[٣] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (إذا أردْتَ أنْ تذكرَ عيوبَ صاحبِكَ .. فاذكرْ عيوبَكَ)[٤] .

وقالَ أبو هريرةَ : (يبصرُ أحدُكمُ القَذَىٰ في عينِ أخيهِ ويدعُ الجذْعَ في عينِ نفسِهِ)[٥] .

وكانَ الحسنُ يقولُ : (ابنَ آدمَ ؛ إنَّكَ لنْ تصيبَ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ لا تعيبَ الناسَ بعيبٍ هوَ فيكَ ، وحتَّىٰ تبدأَ بصلاحِ ذلكَ العيبِ فتصلحَهُ مِنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٣) عن خصاف وخصيف وعبد الكريم بن مالك .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٤) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٥) وفيه (الجذل) بدل (الجذع) ، ورواه عنه مرفوعاً بلفظ المصنف القضاعي في « مسند الشهاب » (٦١٠) ، وقد تقدم .

نفسِكَ ، فإذا فعلْتَ ذلكَ . . كانَ شغْلُكَ في خاصَّةِ نفسِكَ ، وأحبُّ العبادِ إلى اللهِ مَنْ كانَ هٰكذا)[١] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : مرَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ ومعَهُ الحواريونَ علىٰ جيفةِ كلبٍ ، فقالَ الحواريُّونَ : ما أنتنَ ريحَ هٰذا الكلبِ ! فقالَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ما أشدَّ بياضَ أسنانِهِ[٢] . كأنَّهُ عليهِ السلامُ نهاهُمْ عنْ غيبةِ الكلبِ ، ونبَّهَهُمْ علىٰ أنَّهُ لا يُذكرُ شيءٌ مِنْ خلقِ اللهِ إلاَّ أحسنُهُ .

وسمعَ عليُّ بنُ الحسينِ رجلاً يغتابُ آخرَ ، فقالَ لهُ : (إيَّاكَ والغيبةَ ؛ فإنَّها إدامُ كلابِ الناسِ)[٣] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (عليكُمْ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ شفاءٌ ، وإيَّاكُمْ وذكرَ النَّاسِ ؛ فإنَّهُ داءٌ)[٤] .

نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لطاعتِهِ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٩) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٤) ، وغالب ما رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » بما يخص الغيبة قد رواه في « ذم الغيبة والنميمة » كذلك .

بيان معنى الغيبة وحدّها

اعلمْ : أنَّ حدَّ الغيبةِ : أنْ تذكُرَ أخاكَ بما يكرهُهُ لوْ بلغَهُ ، سواءٌ ذكرْتَ نقصاً في بدنِهِ ، أوْ في نسبِهِ ، أوْ في خُلُقِهِ ، أوْ في فعلِهِ ، أوْ في قولِهِ ، أوْ في دينِهِ ، أوْ في دنياهُ ، وحتَّىٰ في ثوبِهِ ، وفي دارِهِ ودابتِهِ .

أمَّا البدنُ : فكذكرِكَ العمشَ والحوَلَ ، والقَرَعَ ، والقِصَرَ والطولَ ، والسَّوادَ والصفرةَ ، وجميعَ ما يتصوَّرُ أنْ يُوصفَ بهِ ممَّا يكرهُهُ كيفما كانَ .

وأمَّا النسبُ : فأنْ تقولَ : أبوهُ نَبَطيٌّ ، أوْ هنديٌّ ، أوْ فاسقٌ ، أوْ خسيسٌ ، أوْ إسكافٌ ، أوْ زبّالٌ ، أوْ شيءٌ ممَّا يكرهُهُ كيفما كانَ .

وأمَّا الخُلُقُ : فأنْ تقولَ : هوَ سيِّءُ الخلقِ ، بخيلٌ ، متكبِّرٌ ، مُراءٍ ، شديدُ الغضبِ ، جبانٌ ، عاجزٌ ، ضعيفُ القلبِ ، متهوِّرٌ ، وما يجري مجراهُ .

وأمَّا في أفعالِهِ المتعلقةِ بالدِّينِ : فكقولِكَ : سارقٌ ، وكذابٌ ، وشاربُ خمرٍ ، وخائنٌ ، وظالمٌ ، ومتهاونٌ بالصلاةِ والزكاةِ ، ولا يحسنُ الركوعَ والسجودَ ، ولا يحترزُ عنِ النجاساتِ ، وليسَ باراً بوالديهِ ، ولا يضعُ الزكاةَ موضعَها ، ولا يحسنُ قسمتَها ، ولا يحرُسُ صومَهُ مَنَ الرفثِ والغيبةِ والتعرُّضِ لأعراضِ الناسِ .

وأمَّا فعلُهُ المتعلِّقُ بالدنيا : فكقولِكَ : إنَّهُ قليلُ الأدبِ ، متهاونٌ

بالناسِ ، ولا يرىٰ علىٰ نفسِهِ لأحدٍ حقّاً ويرىٰ لنفسِهِ حقّاً ، وإنَّهُ كثيرُ الكلامِ ، كثيرُ الأكلِ ، وإنَّهُ نؤومٌ ، وينامُ في غيرِ وقتِ النومِ ، ويجلسُ في غيرِ موضعِهِ .

وأمَّا في ثوبِهِ : فكقولِكَ : إنَّهُ واسعُ الكُمِّ ، طويلُ الذَّيلِ ، وسخُ الثيابِ .

وقالَ قومٌ : لا غيبةَ في الدِّينِ ؛ لأنَّهُ ذمُّ ما ذمَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فذكرُهُ بالمعاصي وذمُّهُ بها يجوزُ ، بدليلِ ما رُوِيَ : أنَّهُ ذُكِرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةٌ وكثرةُ صلاحِها وصومِها وصلاتِها ، ولكنَّها تُؤذي جيرانَها بلسانِها ، فقالَ : « هيَ في النَّارِ »(١) ، وذكرَتْ عندَه امرأةٌ أخرىٰ بأنَّها بخيلةٌ ، فقالَ : « فما خيرُها إذاً ؟! »(٢) .

وهـٰذا فاسدٌ ؛ لأنَّهم كانُوا يذكرونَ ذلكَ لحاجتِهِمْ إلىٰ تعرُّفِ الأحكامِ بالسؤالِ ، ولمْ يكنْ غرضُهمُ التنقُّصَ ، ولا يُحتاجُ إليهِ في غيرِ مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والدليلُ عليهِ : إجماعُ الأمةِ أنَّ مَنْ ذكرَ غيرَهُ بما يكرهُهُ . . فهوَ مغتابٌ ؛ لأنَّهُ داخلٌ فيما ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حدِّ الغيبةِ ، وكلُّ هـٰذا وإنْ كانَ صادقاً فيهِ . . فهوَ بِهِ مغتابٌ ، عاصٍ لربِّهِ ، وآكلٌ لحمَ أخيهِ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « هلْ تدرونَ ما الغيبةُ ؟ »

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٤٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٧٦٤) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٤٣) عن أبي جعفر محمد بن علي مرسلاً .

قالُوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ » ، قيلَ : أرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقولُ ؟ قالَ : « إنْ كانَ فيهِ ما تقولُ . . فقدِ اغتبتَهُ ، وإنْ لمْ يكُنْ فيهِ . . فقدْ بَهَتَّهُ »(١) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ : ذُكِرَ رجلٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : ما أعجزَهُ ! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اغتبْتُمْ أخاكُمْ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ قلنا ما فيهِ ، قالَ : « إنْ قلتُم ما ليسَ فيهِ . . فقدْ بهتُّموهُ »(٢) .

وعنْ أبي حذيفةَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها ذكرَتْ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ امرأةً فقالَتْ : إنَّها قصيرةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اغتبْتِيها »(٣) .

وقالَ الحسنُ : (ذِكرُ الغيرِ ثلاثةٌ : الغيبةُ ، والبُهتانُ ، والإفكُ ، والكلُّ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ؛ الغيبةُ : أنْ تقولَ ما فيهِ ، والبُهتانُ : أنْ تقولَ ما ليسَ فيهِ ، والإفكُ : أنْ تقولَ ما بلغَكَ) .

وذكرَ ابنُ سيرينَ رجلاً فقالَ : ذلكَ الرجلُ الأسودُ ، ثمَّ قالَ : أستغفرُ اللهَ ، إنِّي أُراني قدِ اغتبتُهُ(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٨) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٧) واللفظ له ، والجميع رواه عن أبي حذيفة عن عائشة ، وفي النسخ : (حذيفة) بدل (أبي حذيفة) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١٤) .

وذكرَ ابنُ سيرينَ إبراهيمَ النخعيَّ فوضعَ يدَهُ علىٰ عينِهِ ، ولمْ يقلِ : الأعورَ .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : لا يغتابنَّ منكمْ أحدٌ أحداً ؛ فإنِّي قلْتُ لامرأةٍ مرّةً وأنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ هٰذهِ لطويلةُ الذَّيلِ ، فقالَ : « ٱلفظي ٱلفظي » ، فلفظتُ بضْعةً مِنْ لحمٍ[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢١٦) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٠١) .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلمْ : أنَّ الذكرَ باللِّسانِ إنَّما حرُمَ لأنَّ فيهِ تفهيمَ الغيرِ نقصانَ أخيكَ وتعريفَهُ بما يكرهُهُ ، فالتعريضُ بهِ كالتصريحِ ، والفعلُ فيهِ كالقولِ ، والإشارةُ والإيماءُ والغمْزُ والرَّمزُ والكتابةُ والحركةُ وكلُّ ما يُفهِمُ المقصودَ . . فهوَ داخلٌ في الغيبةِ ، وهوَ حرامٌ .

ومِنْ ذلكَ : قولُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : دخلَتْ علينا امرأةٌ ، فلمَّا ولَّتْ . . أومأْتُ بيدي ؛ أيْ : أنَّها قصيرةٌ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « اغتبْتِيها »(١) .

ومِنْ ذلكَ : المحاكاةُ ؛ بأنْ يمشيَ متعارجاً ، أوْ كما يمشي ؛ فهوَ غيبةٌ ، بلْ هوَ أشدُّ مِنَ الغيبةِ ؛ لأنَّهُ أعظمُ في التصويرِ والتفهيمِ .

ولمَّا رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عائشةَ حكَتِ امرأةً . . فقالَ : « ما يسرُّني أنِّي حكيتُ إنساناً ولي كذا وكذا »(٢) .

وكذلكَ الغيبةُ بالكتابةِ ؛ فإنَّ القلمَ أحدُ اللسانينِ ، وذكرُ المصنِّفِ شخصاً معيَّناً ، وتهجينُ كلامِهِ في الكتابِ غيبةٌ ، إلاَّ أنْ يقترنَ بهِ شيءٌ مِنَ الأعذارِ المُحوجةِ إلىٰ ذكرِهِ ، كما سيأتي بيانُهُ .

---

(١) تقدم قريباً .
(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) .

وأمَّا قولُه : قالَ قومٌ : كذا . . فليسَ ذلكَ بغيبةٍ ، إنَّما الغيبةُ التعرُّضُ لشخصٍ معيَّنٍ ، إمَّا حيٍّ وإمَّا ميْتٍ .

ومِنَ الغيبةِ : أنْ تقولَ : بعضُ مَنْ مرَّ بنا اليومَ ، أوْ بعضُ مَنْ رأيناهُ ، إذا كانَ المخاطبُ يفهمُ منهُ شخصاً معيّناً ؛ لأنَّ المحذورَ تفهيمُهُ ، دونَ ما بِهِ التَّفهيمُ ، فأمَّا إذا لمْ يفهمْ عينَهُ . . جازَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إذا كرِهَ مِنْ إنسانٍ شيئاً . . قالَ : « ما بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا وكذا » ، وكانَ لا يعيِّنُ(١) .

وقولُكَ : بعضُ مَنْ قدِمَ مِنَ السفرِ ، أوْ بعضُ مَنْ يدَّعي العلمَ ، إذا كانَ معَهُ قرينةٌ تُفهِمُ عينَ الشَّخصِ . . فهوَ غيبةٌ .

وأخبثُ أنواعِ الغيبةِ : غيبةُ القرَّاءِ المرائينَ ، فإنَّهمْ يُفهِمونَ المقصودَ علىٰ صيغةِ أهلِ الصَّلاحِ ؛ ليظهروا مِنْ أنفسِهمْ التَّعفُّفَ عنِ الغيبةِ ، ويُفهمونَ المقصودَ ، ولا يدرونَ بجهلِهِمْ أنَّهمْ جمعوا بينَ فاحشتَينِ الرياءِ والغيبةِ ، وذلكَ مثلُ أنْ يُذكرَ عندَهُ إنسانٌ ، فيقولُ : (الحمدُ للهِ الذي لمْ يبتلِنا بالدُّخولِ على السلطانِ ، والتبذُّلِ في طلبِ الحطامِ) ، أوْ يقولُ : (نعوذُ باللهِ مِنْ قلَّةِ الحياءِ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يعصمَنا منها) ، وإنَّما قصدُهُ أنْ يفهِمَ عيبَ الغيرِ ، فيذكرَهُ بصيغةِ الدعاءِ .

---

(١) فقد روىٰ أبو داوود (٤٧٨٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء . . لم يقل : ما بال فلان ، ولكن يقول : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ») .

وكذلكَ قدْ يقدِّمُ مدحَ مَن يريدُ غيبتَهُ ، فيقولُ : (ما أحسنَ أحوالَ فلانٍ ، ما كانَ يقصِّرُ في العباداتِ ، ولكنْ قدِ اعتراهُ فتورٌ ، وابتليَ بما يُبتلىٰ بهِ كلُّنا ، وهوَ قلَّةُ الصبرِ) ، فيذكرُ نفسَهُ ومقصودُهُ أنْ يذمَّ غيرَهُ في ضمنِ ذلكَ ، وأنْ يمدحَ نفسَهُ بالتَّشبُّهِ بالصالحينَ في ذمِّ أنفسِهِمْ ، فيكونُ مغتاباً ومرائياً ومزكِّياً نفسَهُ ، فيجمَعَ بينَ ثلاثِ فواحشَ وهوَ يظنُّ بجهلِهِ أنَّهُ مِنَ الصالحينَ المتعففينَ عَنِ الغيبةِ .

وكذلكَ يلعبُ الشيطانُ بأهلِ الجهلِ إذا اشتغلوا بالعبادةِ مِنْ غيرِ علمٍ ، فإنَّهُ يتعبُهمْ ، ويُحبِطُ بمكايدِهِ عملَهُمْ ، ويضحَكُ عليهِمْ ، ويسخرُ منهمْ .

ومِنْ ذلكَ : أنْ يُذكرَ عيبُ إنسانٍ فلا يتنبهُ لهُ بعضُ الحاضرينَ ، فيقولُ : سبحانَ اللهِ ! ما أعجبَ هـٰذا ! حتَّىٰ يُصغىٰ إلى المغتابِ ويُعلمَ ما يقولُهُ ، فيذكرُ اللهَ تعالىٰ ، ويستعملُ اسمهَ آلةً لهُ في تحقيقِ خبثِهِ ، وهو يمنُّ على اللهِ عزَّ وجلَّ بذكرِهِ جهلاً منهُ وغروراً .

وكذلكَ يقولُ : لقدْ ساءَني ما جرىٰ علىٰ صديقِنا مِنَ الاستخفافِ بهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يروِّحَ نفسَه ، ويكونُ كاذباً في دعوى الاغتمامِ ، وفي إظهارِ الدعاءِ لهُ ، بلْ لوْ قصدَ الدعاءَ . . لأخفاهُ في خلوتِهِ عَقيبَ صلاتِهِ ، ولوْ كانَ يغتمُّ بهِ . . لاغتمَّ أيضاً بإظهارِ ما يكرهُهُ .

وكذلكَ يقولُ : ذلكَ المسكينُ قدْ بُلِيَ بآفةٍ عظيمةٍ تابَ اللهُ علينا وعليهِ ، فهوَ في كلِّ ذلكَ يظهرُ الدعاءَ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ خُبْثِ ضميرِهِ وخفيِّ قصدِهِ ،

وهوَ لجهلِهِ لا يدري أنَّهُ قدْ تعرَّضَ لمقتٍ أعظمَ ممَّا يتعرَّضُ لهُ الجهَّالُ إذا جاهرُوا .

ومِنْ ذلكَ : الإصغاءُ إلى الغيبةِ علىٰ سبيلِ التعجُّبِ ؛ فإنَّهُ إنَّما يُظهِرُ التعجُّبَ ليزيدَ نشاطَ المغتابِ في الغيبةِ ، فيندفعَ فيها ، فكأنَّه يستخرجُ الغيبةَ منهُ بهٰذا الطريقِ ، فيقولُ : عجبٌ ! ما علمتُ أنَّه كذلكَ ! ما عرفْتُهُ إلى الآنَ إلاَّ بالخيرِ ! وكنْتُ أحسبُ فيهِ غيرَ هٰذا ! عافانا اللهُ مِنْ بلائِهِ ، فإنَّ كلَّ ذلكَ تصديقٌ للمغتابِ ، والتصديقُ بالغيبةِ غيبةٌ ، بلِ الساكتُ شريكُ المغتابِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستمِعُ أحدُ المغتابَيْنِ »(١) .

وقد رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّ أحدَهُما قالَ لصاحبِهِ : إنَّ فلاناً لنؤومٌ ، ثمَّ إنَّهما طلبا أُدْماً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليأكلا بهِ الخبزَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدِ ائتدَمْتُما » ، فقالا : ما نعلمُهُ ، فقالَ : « بلىٰ ، إنَّكما أكلْتُما مِنْ لحمِ أخيكُما »(٢) ، فانظرْ كيفَ جمعَهما ، وكانَ القائلُ أحدَهُما والآخرُ مستمعٌ ، وقالَ للرجلينِ اللذينِ قالَ أحدُهُما :

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣١٢٢) عن الحسن قال : (حدثني سبعة رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهىٰ عن النياحة وعن سماع إلى النياحة ، ونهىٰ عن الغيبة والاستماع إلى الغيبة . . .) الخبر .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

أُقعِصَ الرجلُ كما يُقعَصُ الكلبُ : « اِنهشا مِنْ هـٰذِهِ الجيفةِ »[١] ، فجمعَ بينهُما .

فالمستمعُ لا يخرجُ مِنْ إثمِ الغيبةِ إلاَّ بأنْ ينكرَ بلسانِهِ .

فإنْ خافَ . . فبقلبِهِ ، وإنْ قدرَ على القيامِ أوْ قطعِ الكلامِ بكلامٍ آخرَ فلمْ يفعلْهُ . . لزمَهُ .

وإنْ قالَ بلسانِهِ : (اسكُتْ) وهوَ مشتهٍ لذلكَ بقلبِهِ . . فذلكَ نفاقٌ ، ولا يخرجُهُ مِنَ الإثمِ ما لم يكرهْهُ بقلبِهِ .

ولا يكفي في ذلكَ أنْ يشيرَ باليدِ ؛ أي : اسكتْ ، أوْ يشيرَ بحاجبِهِ وجبينِهِ ، فإنْ ذلكَ استحقارٌ للمذكورِ ، بلْ ينبغي أنْ يعظِّمَهُ فيذبَّ عنهُ صريحاً .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُذِلَّ عندَهُ مؤمِنٌ فلمْ ينصرْهُ وهوَ قادرٌ علىٰ أن ينصرَهُ . . أذلَّهُ اللهُ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ »[٢] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ردَّ عنْ عرضِ أخيهِ بالغيبِ . . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يردَّ عنْ عرضِهِ يومَ القيامةِ »[٣] .

---

(١) تقدم قريباً .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٨٧) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ٧٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الغيبة والنميمة » (١٠٣) ، ورواه الترمذي (١٩٣١) بلفظ : « من رد عن عرض أخيه . . رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » .

وقالَ أيضاً : « من ذبَّ عنْ عرْضِ أخيهِ بالغيبِ . كانَ حقّاً على اللهِ أنْ يعتقَهُ مِنَ النَّارِ »[1] .

وقدْ وردَ في نصرةِ المسلمِ في الغَيْبةِ وفي فضلِ ذلكَ أخبارٌ كثيرةٌ ، أوردْناها في كتابِ آدابِ الصُّحبةِ وحقوقِ المسلمينَ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِها .

※ ※ ※

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٦١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ١٧٦) .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلمْ : أنَّ البواعثَ على الغيبةِ كثيرةٌ ، ولكنْ يجمعُها أحدَ عشرَ سبباً ، ثمانيةٌ منها تطَّردُ في حقِّ العامَّةِ ، وثلاثةٌ تختصُّ بأهلِ الدينِ والخاصَّةِ .

أما الثمانيةُ :

فالأوَّلُ : أنْ يشفيَ الغيظَ ، وذلكَ إذا جرىٰ سببٌ غضِبَ بهِ عليهِ ، فإنَّهُ إذا هاجَ غضبُهُ . . تشفَّىٰ بذكرِ مساوئِهِ ، فيسبقُ اللِّسانُ إليهِ بالطَّبعِ إنْ لمْ يكُنْ ثَمَّ دينٌ وازعٌ ، وقدْ يمتنعُ تشفِّي الغيظِ عندَ الغضبِ ، فيحتقِنُ الغضبُ في الباطنِ ، فيصيرُ حقداً ثابتاً ، فيكونُ سبباً دائماً لذكرِ المساوىء ، فالحقدُ والغضبُ مِنَ البواعثِ العظيمةِ على الغيبةِ .

❀ ❀ ❀

الثاني : موافقةُ الأقرانِ ، ومجاملَةُ الرفقاءِ ، ومساعدتُهُمْ على الكلامِ ؛ فإنَّهُمْ إذا كانُوا يتفكَّهونَ بذكرِ الأعراضِ ، فيرىٰ أنَّهُ لوْ أنكرَ عليهِمْ أوْ قطعَ المجلسَ . . استثقلُوهُ ونفرُوا عنهُ ، فيساعدُهُمْ ويرىٰ ذلكَ مِنْ حُسْنِ المعاشرةِ ، ويظنُّ أنَّهُ مجاملةٌ في الصحبةِ ، وقدْ يغضبُ رفقاؤُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يغضبَ لغضبِهِمْ ؛ إظهاراً للمساهمةِ في السراءِ والضَّراءِ ، فيخوضُ معهم في ذكرِ العيوبِ والمساوىءِ .

❀ ❀ ❀

الثالثُ : أنْ يستشعرَ مِنْ إنسانٍ أنَّهُ سيقصدُهُ ويطوِّلُ لسانَهُ فيهِ ، أوْ يقبِّحُ حالَهُ عندَ محتشمٍ ، أوْ يشهدُ عليهِ بشهادةٍ ، فيبادرُهُ قبلَ أنْ يقبِّحَ هوَ حالَهُ ويطعنُ فيهِ ليُسقِطَ أثرَ شهادتِهِ ، أوْ يبتدىءُ بذكرِ ما فيهِ صادقاً ليكذبَ عليهِ بعدَهُ ، فيروِّجُ كذبَهُ بالصدقِ الأوَّلِ ، ويستشهدُ بهِ ويقولُ ما مِنْ عادتي الكذبُ ؛ فإنِّي أخبرتُكُمْ بكذا وكذا مِنْ أحوالِهِ ، فكانَ كما قلتُ .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : أنْ يُنسبَ إلىٰ شيءٍ ، فيريدُ أنْ يتبرّأَ منهُ ، فيذكرُ الذي فعلَهُ ، وكانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يبرِّىءَ نفسَهُ ، ولا يذكرَ الذي فعلَهُ ، فلا ينسبُ غيرَهُ إليهِ ، أوْ يذكرَ غيرَهُ بأنَّهُ كانَ مشاركاً لهُ في الفعلِ ؛ ليمهِّدَ بذلكَ عذرَ نفسِهِ في فعلِهِ .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : إرادةُ التصنُّعِ والمباهاةِ ، وهوَ أنْ يرفَعَ نفسَهُ بتنقيصِ غيرِهِ ، فيقولُ : فلانٌ جاهلٌ ، وفهمُهُ ركيكٌ ، وكلامُهُ ضعيفٌ ، وغرضُهُ : أنْ يثبتَ في ضمنِ ذلكَ فضلَ نفسِهِ ، ويريَهُمْ أنَّهُ أفضلُ منهُ ، أوْ يحذَرَ أنْ يُعظَّمَ مثلَ تعظيمِهِ ؛ فيقدحُ فيهِ لذلكَ .

❊ ❊ ❊

السادسُ : الحسدُ ، وهوَ أنَّهُ ربَّما يحسدُ مَنْ يثني الناسُ عليهِ ، ويحبُّونَهُ ويكرمونَهُ ، فيريدُ زوالَ تلكَ النعمةِ عنهُ ، فلا يجدُ سبيلاً إليهِ إلاَّ بالقدْحِ فيهِ ، فيريدُ أنْ يسقطَ ماءَ وجههِ عندَ الناسِ ؛ حتَّىٰ يكفُّوا عنْ إكرامِهِ والثناءِ

عليهِ ؛ لأنَّهُ يثقلُ عليهِ أنْ يسمعَ ثناءَ الناسِ عليهِ ، وإكرامَهُمْ لهُ ، وهٰذا هوَ عينُ الحسَدِ ، وهوَ غيرُ الغضبِ والحقدِ ، فإنَّ ذلكَ يستدعي جنايةً مِنَ المغضوبِ عليهِ، والحسدُ قدْ يكونُ معَ الصديقِ المحسنِ والقريبِ الموافقِ .

❊ ❊ ❊

السابعُ : اللعبُ ، والهزلُ ، والمطايبةُ ، وتزجيةُ الوقتِ بالضَّحكِ ، فيذكرُ غيرَهُ بما يضحِكُ الناسَ علىٰ سبيلِ المحاكاةِ والتَّعجُّبِ والتَّعجيبِ .

❊ ❊ ❊

الثامنُ : السخريةُ والاستهزاءُ استحقاراً لهُ ، فإنَّ ذلكَ قدْ يجري في الحضورِ ويجري أيضاً في الغَيْبَةِ ، ومنشؤُهُ التكبُّرُ واستصغارُ المستهزَأِ بهِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الأسبابُ الثلاثةُ التي هيَ في الخاصَّةِ . . فهيَ أغمضُها وأدقُّها ؛ لأنَّها شرورٌ خبأَها الشيطانُ في معرِضِ الخيراتِ ، وفيها خيرٌ ، ولكنْ شابَ الشيطانُ بها الشَّرَّ .

الأولُ : أنْ تنبعثَ مِنَ الدينِ داعيةُ التَّعجُّبِ مِنْ إنكارِ المنكرِ والخطأِ في الدينِ ، فيقولَ : ما أعجبَ ما رأيتُ مِنْ فلانٍ ؛ فإنَّهُ قدْ يكونُ بهِ صادقاً ، ويكونُ تعجبُهُ مِنَ المنكرِ ، ولكنْ كانَ حقُّهُ أنْ يتعجَّبَ ولا يذكرَ اسمَهُ ، فيسهِّلُ الشيطانُ عليهِ ذكرَ اسمِهِ في إظهارِ تعجُّبِهِ ، فصارَ بهِ مغتاباً وآثماً مِنْ حيثُ لا يدري .

ومِنْ ذلكَ قولُ الرجلِ : تعجَّبتُ مِنْ فلانٍ كيفَ يحبُّ جاريتَهُ وهيَ قبيحةٌ ، وكيفَ يجلسُ بينَ يديْ فلانٍ وهوَ جاهلٌ .

الثاني : الرَّحمةُ ، وهوَ أنْ يغتمَّ بسببِ ما يُبتلىٰ بهِ ، فيقولَ : مسكينٌ فلانٌ قدْ غمَّني أمرُهُ وما ابتُلِيَ بهِ ، فيكونُ صادقاً في دعوى الاغتمامِ ، ويلهيهِ الغمُّ عنِ الحذرِ عنْ ذكرِ اسمِهِ ، فيذكرُهُ ، فيصيرُ بهِ مغتاباً ، فيكونُ غمُّهُ ورحمتُهُ خيراً ، وكذا تعجُّبُهُ ، ولكنْ ساقَهُ الشيطانُ إلىٰ شرٍّ مِنْ حيثُ لا يدري ، والتَّرحُّمُ والاغتمامُ ممكنٌ دونَ ذكرِ اسمِهِ ، فيهيِّجُهُ الشَّيطانُ علىٰ ذكرِ اسمِهِ ؛ ليبطلَ بهِ ثوابَ اغتمامِهِ وترحُّمِهِ .

الثالثُ : الغضبُ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ قدْ يغضبُ علىٰ منكرٍ قارفَهُ إنسانٌ إذا رآهُ أوْ سمعَهُ ، فيُظهِرُ غضبَهُ ويذكرُ اسمَهُ ، وكانَ الواجبُ أنْ يُظهِرَ غضبَهُ عليهِ بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ولا يُظهِرَهُ علىٰ غيرِهِ ، أوْ يسترَ اسمَهُ ولا يذكرَهُ بالسُّوءِ .

فهٰذِهِ الثلاثةُ مما يغمضُ دَرْكُها على العلماءِ فضلاً عنِ العوامِّ ؛ فإنَّهمْ يظنُّونَ أنَّ التعجُّبَ والرحمةَ والغضبَ إذا كانَ للهِ تعالىٰ . . كانَ عذراً في ذكرِ الاسمِ ، وهوَ خطأٌ ، بلِ المرخَّصُ في الغيبةِ حاجاتٌ مخصوصةٌ لا مندوحةَ فيها عنْ ذكرِ الاسمِ كما سيأتي ذكرُهُ .

رُوِيَ عنْ عامرِ بنِ واثلةَ : أنَّ رجلاً مرَّ علىٰ قومٍ في حياةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسلَّمَ عليهمْ ، فردُّوا عليهِ السَّلامَ ، فلمَّا جاوزَهُم . .

قالَ رجلٌ منهُمْ : إنِّي لأبغضُ هـٰذا للهِ تعالىٰ ، فقالَ أهلُ المجلسِ : لبئسَ ما قلْتَ ، واللهِ ؛ لننبئَنَّهُ ، ثمَّ قالُوا : قمْ يا فلانٌ ـ لرجلٍ منهُمْ ـ فأدركْهُ فأخبرْهُ بما قالَ : فأدرَكَهُ رسولُهُمْ فأخبرَهُ بما قالَ ، فأتى الرجلُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحكىٰ لهُ ما قالَهُ ، وسألَهُ أنْ يدعوَهُ ، فدعاهُ وسألَهُ ، فقالَ : قدْ قلْتُ ذلكَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِمَ تبغضُهُ ؟ » ، قالَ : أنا جارُهُ ، وأنا بهِ خابرٌ ، واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يصلي صلاةً قطُّ إلاَّ هـٰذهِ المكتوبةَ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ رآني قطُّ أخرْتُها عنْ وقتِها ، أوْ أسأتُ الوضوءَ لها ، أوِ الركوعَ والسجودَ فيها ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، فقالَ : واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يصومُ شهراً قطُّ إلاَّ هـٰذا الشَّهرَ الذي يصومُهُ البَرُّ والفاجرُ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ : هلْ رآني قطُّ أفطرْتُ فيهِ ، أوْ نقصْتُ مِنْ حقِّهِ شيئاً ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، قالَ : واللهِ ؛ ما رأيتُهُ يُعطي سائلاً ولا مسكيناً قطُّ ، ولا رأيتُهُ ينفقُ مِنْ مالِهِ شيئاً في سبيلِ اللهِ إلاَّ هـٰذهِ الزكاةَ التي يؤدِّيها البَرُّ والفاجرُ ، قالَ : فاسألْهُ يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ رآني نقصْتُ منها شيئاً ، أوْ ماكَسْتُ فيها طالبَها الذي يسألُها ؟ فسألَهُ ، فقالَ : لا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرَّجلِ : « قمْ فلعلَّهُ خيرٌ منكَ »(١) .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٥٥) .

بيان العلاج الذي به يُمنَع اللِّسان من الغيبة

اعلمْ : أنَّ مساوئَ الأخلاقِ كلَّها إنَّما تُعالجُ بمعجونِ العلمِ والعملِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علةٍ بمضادَّةِ سببِها ، فلنفحصْ عنْ سببِها .

وعلاجُ كفِّ اللسانِ عنِ الغيبةِ علىٰ وجهينِ ؛ أحدُهما على الجملةِ ، والآخرُ على التَّفصيلِ .

أمَّا على الجملةِ: فهوَ أنْ يعلمَ تعرُّضَهُ لسخطِ اللهِ تعالىٰ بغيبتِهِ بهٰذهِ الأخبارِ التي رويناها ، وأنْ يعلمَ أنَّها تحبطُ حسناتِهِ يومَ القيامةِ ؛ فإنَّها تنقلُ يومَ القيامةِ حسناتِهِ إلىٰ مَنِ اغتابَهُ بدلاً عمَّا اجتاحَهُ مِنْ عرضِهِ ، فإنْ لمْ تكُنْ لهُ حسناتٌ . . نُقلَ إليهِ مِنْ سيئاتِ خصمِهِ ، وهوَ معَ ذلكَ متعرِّضٌ لمقتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومشبَّهٌ عندَهُ بآكلِ الميتةِ ، بلِ العبدُ يدخلُ النارَ بأنْ تترجَّحَ كِفَّةُ سيئاتِهِ علىٰ كِفَّةِ حسناتِهِ ، وربَّما تُنقلُ إليهِ سيئةٌ واحدةٌ ممَّنِ اغتابَهُ فيحصلُ بها الرجحانُ ويدخلُ بها النارَ ، وإنَّما أقلُّ الدرجاتِ أنْ تنقصَ مِنْ ثوابِ أعمالِهِ ، وذلكَ بعدَ المخاصمةِ والمطالبةِ ، والسؤالِ والجوابِ والحسابِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما النَّارُ في اليبسِ بأسرعَ مِنَ الغيبةِ في حسناتِ العبدِ »(١) .

---

(١) ما رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٠٢) عن الحسن قوله : (إياكم والغيبة ، والذي نفسي بيده ؛ لهي أسرع في الحسنات من النار في الحطب) ، أما مرفوعاً . فقد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٥٤٨) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ للحسنِ : بلغَني أنَّكَ تغتابُني ، فقالَ : ما بلغَ مِنْ قدرِكَ عندي أنْ أحكِّمَكَ في حسناتِي .

فمهما آمنَ العبدُ بما وردَ مِنَ الأخبارِ في الغيبةِ . . لمْ يطلقْ لسانَهُ بها خوفاً مِنْ ذلكَ .

وينفعُهُ أيضاً : أنْ يتدبَّرَ في نفسِهِ ، فإنْ وجدَ فيها عيباً . . اشتغلَ بعيبِ نفسِهِ ، وذكرَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ النَّاسِ »(١) .

ومهما وجدَ عيباً . . فينبغي أنْ يستحييَ مِنْ أنْ يتركَ ذمَّ نفسِهِ ويذمَّ غيرَهُ ، بلْ ينبغي أنْ يتحقَّقَ أنَّ عجزَ غيرِهِ عنْ نفسِهِ في التنزُّهِ عنْ ذلكَ العيبِ كعجزِهِ ، وهٰذا إنْ كانَ ذلكَ عيباً يتعلَّقُ بفعلِهِ واختيارِهِ .

وإنْ كانَ أمراً خلْقيّاً . . فالذمُّ لهُ ذمٌّ للخالقِ ، فإنَّ مَنْ ذمَّ صنعةً . . فقدْ ذمَّ صانعَها ، قالَ رجلٌ لحكيمٍ : يا قبيحَ الوجهِ ، قالَ : ما كانَ خلقُ وجهي إليَّ فأحسنَهُ .

وإنْ لمْ يجدِ العبدُ عيباً في نفسِهِ . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ ، ولا يلوِّثنَّ نفسَهُ بأعظمِ العيوبِ ، فإنَّ ثلبَ الناسِ وأكلَ لحمِ الميتةِ مِنْ أعظمِ العيوبِ ، بلْ لوْ أنصفَ . . لعلمَ أنَّ ظنَّهُ بنفسِهِ أنَّهُ بريءٌ مِنْ كلِّ عيبٍ جهلٌ بنفسِهِ ، وهوَ مِنْ أعظمِ العيوبِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .

وينفعُهُ أنْ يعلمَ أنَّ تألُّمَ غيرِه بغيبتِهِ كتألُّمِهِ بغيبةِ غيرِه لهُ ، فإذا كانَ لا يرضىٰ لنفسهِ أنْ يُغتابَ . . فينبغي ألاَّ يرضىٰ لغيرِه ما لا يرضاهُ لنفسِهِ .

فهٰذهِ معالجاتٌ جمليَّةٌ .

أمَّا التفصيلُ : فهوَ أنْ ينظرَ في السببِ الباعثِ لهُ على الغيبةِ ، فإنَّ علاجَ العلةِ بقطعِ سببِها ، وقدْ قدَّمنا الأسبابَ .

أمَّا الغضبُ . . فيعالجُهُ بما سيأتي في كتابِ آفاتِ الغضبِ ، وهوَ أنْ يقولَ : إنِّي إنْ أمضيتُ غضبي عليهِ . . فلعلَّ اللهَ يمضي غضبَهُ عليَّ بسببِ الغيبةِ ؛ إذْ نهاني عنها فاجترأتُ علىٰ نهيِهِ واستخففْتُ بزجرِهِ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لجهنمَ باباً لا يدخلُ منهُ إلاَّ مَنْ شفىٰ غيظَهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منِ اتَّقىٰ ربَّهُ . . كلَّ لسانُهُ ، ولمْ يشفِ غيظَهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منْ كظمَ غيظاً وهوَ يقدرُ علىٰ أنْ يمضيَهُ . . دعاهُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ حتَّىٰ يخيِّرَهُ في أيِّ الحورِ شاءَ »(٣) .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٥١٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الورع » (١٠٤) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٢/ ٧٣٤) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٣) ، وابن ماجه (٤١٨٦) .

وفي بعضِ الكتبِ المنزلةِ علىٰ بعضِ النبيينَ : (يا بنَ آدمَ ؛ اذكرْني حينَ تغضبُ . . أذكرْكَ حينَ أغضبُ ، فلا أمحقُكَ فيمَنْ أمحقُ)[1] .

وأمَّا الموافقةُ[2] . . فبأنْ تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ عليكَ إذا طلبتَ سخطَهُ في رضا المخلوقينَ ، فكيفَ ترضىٰ لنفسِكَ أنْ توقِّرَ غيرَكَ وتحقِّرَ مولاكَ ، فتتركَ رضاهُ لرضاهُمْ ؟! إلاَّ أنْ يكونَ غضبُكَ للهِ تعالىٰ ، وذلكَ لا يوجبُ أنْ تذكرَ المغضوبَ عليهِ بسوءٍ ، بلْ ينبغي أنْ تغضبَ للهِ أيضاً علىٰ رفقائِكَ إذا ذكروهُ بالسُّوءِ ؛ فإنَّهمْ عصَوا ربَّكَ بأفحشِ الذنوبِ ، وهيَ الغيبةُ .

وأمَّا تنزيهُ النفسِ بنسبةِ الغيرِ إلى الجنايةِ ؛ حيثُ يُستغنىٰ عنْ ذكرِ الغيرِ . . فتعالجُهُ بأنْ تعرفَ أنَّ التعرُّضَ لمقتِ الخالقِ أشدُّ مِنَ التعرُّضِ لمقتِ المخلوقينَ ، وأنتَ بالغيبةِ متعرِّضٌ لسخطِ اللهِ يقيناً ، ولا تدري أنَّكَ تتخلَّصُ مِنْ سخطِ الناسِ أمْ لا ، فتخلِّصُ نفسَكَ في الدنيا بالتوهُّمِ ، وتهلَكُ في الآخرةِ وتخسرُ حسناتِكَ بالحقيقةِ ، ويحصلُ لكَ ذمُّ اللهِ عزَّ وجلَّ نقداً وتنتظرُ دفعَ ذمِّ الخلقِ نسيئةً ، وهـٰذا غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

وأمَّا عذرُكَ ؛ كقولِكَ : إنِّي إنْ أكلْتُ الحرامَ ففلانٌ يأكلُهُ ، وإنْ قبلْتُ مالَ السلطانِ ففلانٌ يقبلُهُ . . فهـٰذا جهلٌ ؛ لأنَّكَ تعتذرُ بالاقتداءِ بمَنْ لا يجوزُ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (ص٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٥٠) عن وهيب بن الورد المكي .
(٢) أي : مع الرفقاء .

الاقتداءُ بهِ ، فإنَّ مَنْ خالفَ أمرَ اللهِ تعالىٰ لا يُقتدىٰ بهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولوْ دخلَ غيرُكَ النارَ وأنتَ تقدرُ علىٰ ألا تدخلَها.. لمْ توافقْهُ ، ولوْ وافقتَهُ.. لسُفِّهَ عقلُكَ ، فما ذكرتَهُ غيبةٌ وزيادةُ معصيةٍ أضفتَها إلىٰ ما اعتذرْتَ عنهُ ، وسَجَّلْتَ معَ الجمعِ بينَ المعصيتينِ علىٰ جهلِك وغباوتِكَ ، وكنتَ كالشاةِ تنظرُ إلى العنزِ تردِّي نفسَها من قُلَّةِ الجبلِ ، فهيَ أيضاً تردِّي نفسَها ولوْ كانَ لها لسانٌ ناطقٌ وصرَّحْت بالعذرِ وقالَتْ : العنزُ أكيسُ منِّي وقدْ أهلكَتْ نفسَها ، فكذلكَ أفعلُ.. لكنتَ تضحكُ من جهلِها ، وحالُكَ مثلُ حالِها ، ثمَّ لا تعجبُ ولا تضحكُ مِنْ نفسكَ !!

وأمَّا قصدُكَ المباهاةَ وتزكيةَ النفسِ بزيادةِ الفضلِ بأنْ تقدحَ في غيرِكَ.. فينبغي أنْ تعلمَ أنَّكَ بما ذكرتَهُ بهِ أبطلْتَ فضلَكَ عندَ اللهِ ، وأنتَ مِنِ اعتقادِ الناسِ فضلَكَ علىٰ خطرٍ ، وربَّما نقصَ اعتقادُهُمْ فيكَ إذا عرفوكَ بثلْبِ الناسِ ، فتكونُ قدْ بعتَ ما عندَ الخالقِ يقيناً بما عندَ المخلوقينَ وهْماً ، ولوْ حصلَ لكَ مِنَ المخلوقينَ اعتقادُ الفضلِ.. لكانُوا لا يغنونَ عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً .

وأمَّا الغيبةُ لأجلِ الحسدِ.. فهوَ جمعٌ بينَ عذابينِ ؛ لأنَّكَ حسدْتَهُ علىٰ نعمةِ الدنيا ، وكنتَ في الدنيا معذَّباً بالحسدِ ، فما قنعْتَ بذلكَ حتَّىٰ أضفْتَ إليهِ عذابَ الآخرةِ لتجمعَ بينَ النَّكالينِ ، فكنتَ خاسراً في الدنيا ، فصرْتَ أيضاً خاسراً في الآخرةِ ، فقدْ قصدتَ محسودَكَ فأصبتَ نفسَكَ ، وأهديتَ إليهِ حسناتِكَ ، فإذا أنتَ صديقُهُ وعدوُّ نفسِكَ ، إذْ لا تضرُّهُ غيبتُكَ وتضرُّكَ ،

وتنفعُهُ إذْ تنقلُ إليهِ حسناتِكَ أوْ تنقلُ إليكَ سيئاتِهِ ولا تنفعُكَ ، وقدْ جمعْتَ إلىٰ خبثِ الحسدِ جهلَ الحماقةِ ، وربَّما يكونُ حسدُكَ وقدحُكَ سببَ انتشارِ فضلِ محسودِكَ ، فقدْ قيلَ(1) : [من الكامل]

وَإِذا أَرادَ ٱللهُ نَشْــرَ فَضِيلَــةٍ طُوِيَتْ أَتاحَ لَها لِسانَ حَسُودِ

وأمَّا الاستهزاءُ . . فمقصودُكَ منهُ إخزاءُ غيرِكَ عندَ الناسِ بإخزاءِ نفسِكَ عندَ اللهِ تعالىٰ وعندَ الملائكةِ والنبيِّينَ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ ، فلوْ تفكَّرتَ في حسرتِكَ وجنايتِكَ وخجلتِكَ وخزيِكَ يومَ القيامةِ ، يومَ تحملُ سيئاتِ مَنِ استهزأْتَ بهِ وتُساقُ إلى النارِ . . لأدهشَكَ ذلكَ عنْ إخزاءِ صاحبِكَ ، ولوْ عرفْتَ حالَكَ . . لكنتَ أولىٰ أنْ يُضحَكَ منكَ ، فإنَّكَ سخرْتَ بهِ عندَ نفرٍ قليلٍ ، وعرَّضتَ نفسَكَ لأَنْ يأخذَ يومَ القيامةِ بيدكَ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ويسوقُكَ تحتَ سيئاتِهِ كما يُساقُ الحمارُ إلى النارِ ، مستهزِئاً بكَ ، وفَرِحاً بخزيِكَ ، ومسروراً بنصرةِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ عليكَ ، وتسلُّطِهِ على الانتقامِ منكَ .

وأمَّا الرحمةُ لهُ علىٰ إثمِهِ . . فهوَ حسنٌ ، ولكنْ حسدَكَ إبليسُ فأضلَّكَ ، واستنطقَكَ بما ينقلُ مِنْ حسناتِكَ إليهِ ما هوَ أكثرُ مِنْ رحمتِكَ ، فيكونُ جبراً لإثمِ المرحومِ ، فيخرجُ عنْ كونِهِ مرحوماً ، وتنقلبُ أنتَ مستحقاً لأَنْ تكونَ مرحوماً ؛ إذْ حبطَ أجرُكَ ، ونقَّصتَ مِنْ حسناتِكَ .

---

(1) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (١/ ٣٩٧) .

وكذلكَ **الغضبُ للهِ عزَّ وجلَّ** لا يوجبُ الغيبةَ ، وإنَّما الشيطانُ حبَّب إليكَ الغيبةَ ليحبطَ أجرَ غضبِكَ ، وتصيرَ مُعرَّضاً لغضبِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغيبةِ .

وأمَّا التعجُّبُ إذا أخرجَكَ إلى الغيبةِ.. فتعجَّبْ مِنْ نفسِكَ أنَّكَ كيفَ أهلكْتَ نفسَكَ ودينَكَ بدينِ غيرِكَ أوْ بدنياهُ وأنتَ معَ ذلكَ لا تأمنُ عقوبةَ الدنيا ، وهوَ أنْ يهتِكَ اللهُ سترَكَ كما هتكتَ بالتعجُّبِ سترَ أخيكَ .

فإذاً ؛ علاجُ جميعِ ذلكَ : المعرفةُ فقطْ ، والتحقُّقُ بهاذهِ الأمورِ التي هيَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، فمَنْ قويَ إيمانُهُ بجميعِ ذلكَ.. انكفَّ لسانُهُ عنِ الغيبةِ لا محالةَ .

* * *

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلمْ : أنَّ سوءَ الظنِّ حرامٌ مثلَ سوءِ القولِ ، فكما يحرمُ عليكَ أنْ تحدِّثَ غيرَكَ بلسانِكَ بمساوىءِ الغيرِ .. فليسَ لكَ أنْ تحدِّثَ نفسَكَ وتسيءَ الظنَّ بأخيكَ ، ولستُ أعني بهِ إلاَّ عقدَ القلبِ وحكمَهُ علىٰ غيرِهِ بالسوءِ ، فأمَّا الخواطرُ وحديثُ النفسِ .. فهوَ معفوٌّ عنهُ ، بلْ الشكُّ أيضاً معفوٌّ عنهُ ، ولكنَّ المنهيَّ عنهُ أنْ يظنَّ ، والظنُّ : عبارةٌ عمَّا تركُنُ إليهِ النفسُ ، ويميلُ إليهِ القلبُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

وسببُ تحريمِهِ : أنَّ أسرارَ القلوبِ لا يعلمُها إلاَّ علاَّمُ الغيوبِ ، فليسَ لكَ أنْ تعتقدَ في غيرِكَ سوءاً إلا إذا انكشفَ لكَ بعِيانٍ لا يحتملُ التأويلَ ، فعندَ ذلكَ لا يمكنُكَ ألا تعتقدَ ما علمتَهُ وشاهدتَهُ ، وما لمْ تشاهدْهُ بعينِكَ ، ولمْ تسمعْهُ بأذنِكَ ، ثمَّ وقعَ في قلبِكَ .. فإنَّما الشيطانُ يلقيهِ إليكَ ، فينبغي أنْ تكذِّبَهُ ؛ فإنَّهُ أفسقُ الفسَّاقِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ فلا يجوزُ تصديقُ إبليسَ .

وإنْ كانَ ثَمَّ مَخْيَلَةٌ تدلُّ علىٰ فسادٍ واحتُمِلَ خلافُهُ .. لمْ يجزْ أنْ تصدِّقَ بهِ ؛ لأنَّ الفاسقَ يُتصوَّرُ أنْ يصدقَ في خبرِهِ ، ولكنْ لا يجوزُ لكَ أنْ تصدِّقَ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ منِ استُنكِهَ فوُجِدَ منهُ رائحةُ الخمرِ لا يجوزُ أنْ يُحَدَّ ؛ إذْ يُقالُ : يمكنُ أنْ يكونَ قدْ تمضمضَ بالخمرِ ومجَّها وما شربَها ، أوْ حُمِلَ عليهِ

قهراً ، فكلُّ ذلكَ لا محالةَ دلالةٌ محتملةٌ ، فلا يجوزُ تصديقُها بالقلبِ وإساءةُ الظنِّ بالمسلمِ بها .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ حرَّمَ مِنَ المسلمِ دمَهُ ومالَهُ ، وأنْ يُظنَّ بهِ ظنُّ السوءِ »[1] .

فلا يُستباحُ ظنُّ السوءِ إلاَّ بما يُستباحُ بهِ المالُ ، وهوَ يقينُ مشاهدتِهِ ، أوْ بيّنةٌ عادلةٌ ، فإذا لمْ يكنْ ذلكَ ، وخطرَ لكَ سوءُ الظَّنِّ . . فينبغي أنْ تدفعَهُ عنْ نفسِكَ ، وتقرِّرَ عليها أنَّ حالَهُ عندَكَ مستورٌ كما كانَ ، وأنَّ ما رأيتَهُ منهُ يحتملُ الخيرَ والشَّرَّ .

* * *

فإنْ قلْتَ : فبماذا يُعرفُ عقدُ الظَّنِّ والشكوكُ تختلجُ والنفسُ تحدِّثُ ؟

فأقولُ : أمارةُ عقدِ الظَّنِّ : أنْ يتغيَّرَ القلبُ معَهُ عمَّا كانَ ، فينفرَ عنهُ نفوراً ما ، ويستثقلَهُ ، ويفترَ عنْ مراعاتِهِ وتفقُّدِهِ وإكرامِهِ والاغتمامِ بسببِهِ ، فهٰذهِ أماراتُ عقدِ الظنِّ وتحقيقِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ في المؤمنِ ولهُ منهنَّ مخرجٌ ، فمخرجُهُ مِنْ سوءِ الظَّنِّ ألاَّ يحقِّقَهُ »[2]

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٨٠) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٢٨) من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه ، ولفظه مرفوعاً : « ثلاث لازمات لأمتي ؛ الطيرة والحسد وسوء الظن » ، فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه ؟ قال : « إذا حسدت . . فاستغفر الله ، وإذا ظننت . . فلا تحقّق ، وإذا تطيّرت . . فامضِ » .

أيْ : لا يحقِّقَهُ في نفسِهِ بعقدٍ ولا فعلٍ ، لا في القلبِ ولا في الجوارحِ ، أمَّا في القلبِ . . فبتغيُّرِهِ إلى النفرةِ والكراهةِ ، وأمَّا في الجوارحِ . . فبالعملِ بموجَبِهِ ، والشيطانُ قدْ يقرِّرُ على القلبِ بأدنىٰ مَخْيلةٍ مساءةَ الناسِ ، ويلقي إليهِ أنَّ هـٰذا مِنْ فطنتِكَ وسرعةِ تنبُّهِكَ وذكائِكَ ، وأنَّ المؤمنَ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ على التحقيقِ ناظرٌ بغرورِ الشيطانِ وظُلمتِهِ .

فأمَّا إذا أخبرَكَ بهِ عدْلٌ ، فمالَ ظنُّكَ إلىٰ تصديقِهِ . . كنتَ معذوراً ؛ لأنَّكَ لوْ كذَّبْتَهُ . . لكنتَ جانياً علىٰ هـٰذا العدْلِ ؛ إذْ ظننْتَ بهِ الكذبَ ، وذلكَ أيضاً مِنْ سوءِ الظَّنِّ ، فلا ينبغي أنْ تحسنَ الظَّنَّ بواحدٍ وتسيءَ بالآخرِ .

نعمْ ، ينبغي أنْ تبحثَ هلْ بينَهُما عداوةٌ ومحاسدةٌ وتعنُّتٌ ، فتتطرَّقَ التهمةُ بسببِهِ ؟ فقدْ ردَّ الشرعُ شهادةَ الأبِ العدلِ للولدِ للتهمةِ ، وردَّ شهادةَ العدوِّ[1] ، فلكَ عندَ ذلكَ أنْ تتوقَّفَ وإنْ كانَ عدلاً ؛ فلا تصدقَهُ ولا تكذبَهُ ، ولكنْ تقولُ في نفسِكَ : المذكورُ حالُهُ كانَ في سترِ اللهِ تعالىٰ عندي ، وكانَ أمرُهُ محجوباً عنِّي ، وقد بقيَ كما كانَ ، لمْ ينكشفْ لي شيءٌ مِنْ أمرِهِ .

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٢٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ، ولا مجلود حداً ولا مجلودة ، ولا ذي غمر لأخيه ، ولا مجرَّب شهادة ، ولا القانع أهل البيت لهم ، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة » ، والقانع هنا : التابع .

وقدْ يكونُ الرجلُ ظاهِرُهُ العدالةُ ولا محاسدةَ بينَهُ وبينَ المذكورِ ، ولكنْ يكونُ مِنْ عادتِهِ التعرُّضُ للناسِ ، وذكرُ مساوئِهِمْ ، فهٰذا قدْ يُظنُّ أنَّهُ عدلٌ وليسَ بعدلٍ ؛ فإنَّ المغتابَ فاسقٌ ، وإنْ كانَ ذلكَ مِنْ عادتِهِ .. رُدَّتْ شهادتُهُ ، إلاَّ أنَّ الناسَ لكثرةِ الاعتيادِ تساهلُوا في أمرِ الغيبةِ ، ولمْ يكترثوا بتناولِ أعراضِ الخلقِ .

ومهما خطرَ لكَ خاطرُ سوءٍ علىٰ مسلمٍ .. فينبغي أنْ تزيدَ في مراعاتِهِ ، وتدعوَ لهُ بالخيرِ ؛ فإنَّ ذلكَ يغيظُ الشيطانَ ، ويدفعُهُ عنكَ ، فلا يلقي إليكَ الخاطرَ السوءَ ؛ خيفةً مِنِ اشتغالِكَ بالدعاءِ والمراعاةِ .

ومهما عرفتَ هفوةَ مسلمٍ بحجَّةٍ .. فانصحْهُ في السِّرِّ ، ولا يخدعنَّكَ الشيطانُ فيدعوَكَ إلى اغتيابِهِ ، وإذا وعظتَهُ .. فلا تعظْهُ وأنتَ مسرورٌ باطلاعِكَ علىٰ نقصِهِ لينظرَ إليكَ بعينِ التعظيمِ ، وتنظرَ إليهِ بعينِ الاستحقارِ ، وتترفَّعَ عليهِ بدالَّةِ الوعظِ ، وليكنْ قصدُكَ تخليصَهُ مِنَ الإثمِ وأنتَ حزينٌ ؛ كما تحزنُ علىٰ نفسِكَ إذا دخلَ عليكَ نقصانٌ في دينِكَ .

وينبغي أنْ يكونَ تركُهُ لذلكَ مِنْ غيرِ نصحِكَ أحبَّ إليكَ مِنْ تركِهِ بالنصيحةِ ، فإذا أنتَ فعلتَ ذلكَ .. كنتَ قدْ جمعتَ بينَ أجرِ الوعظِ وأجرِ الغمِّ بمصيبتِهِ وأجرِ الإعانةِ لهُ علىٰ دينِهِ .

ومِنْ ثمراتِ سوءِ الظنِّ : التجسُّسُ ، فإنَّ القلبَ لا يقنعُ بالظنِّ ، ويطلبُ التحقيقَ ، فيشتغلُ بالتجسُّسِ ، وهوَ أيضاً منهيٌّ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، فالغيبةُ وسوءُ الظنِّ والتجسُّسُ منهيٌّ عنهُ في آيةٍ واحدةٍ .

ومعنى التجسُّسِ : ألاَّ تتركَ عبادَ اللهِ تحتَ سترِ اللهِ ، فتتوصلَ إلى الاطلاعِ وهتكِ السترِ حتَّىٰ ينكشفَ لكَ ما لوْ كانَ مستوراً عنكَ . كانَ أسلمَ لقلبِكَ ودينِكَ ، وقدْ ذكرْنا في كتابِ الأمرِ بالمعروفِ حكمَ التجسُّسِ وحقيقتَهُ .

❋ ❋ ❋

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلمْ : أنَّ المرخِّصَ في الغيبةِ وذكرِ مساوئِ الغيرِ هوَ غرضٌ صحيحٌ في الشرعِ لا يمكنُ التوصُّلُ إليهِ إلا بهِ ، فيدفعُ ذلكَ إثمَ الغيبةَ .

وهيَ ستةُ أمورٍ :

الأولُ : التظلُّمُ :

فإنَّ مَنْ ذكرَ قاضياً بالظُّلمِ والخيانةِ وأخذِ الرشوةِ . . كانَ مغتاباً عاصياً إنْ لمْ يكنْ مظلوماً .

أمَّا المظلومُ مِنْ جهةِ القاضي . . فلهُ أنْ يتظلَّمَ إلى السلطانِ وينسبَهُ إلى الظُّلمِ ؛ إذْ لا يمكنُهُ استيفاءُ حقِّهِ إلا بهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَطْلُ الغنيِّ ظلْمٌ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لَيُّ الواجدِ يُحِلُّ عرضَهُ وعقوبتَهُ »(٣) .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه البخاري (٢٣٠٦) ، ومسلم (١٦٠١) .

(٢) رواه البخاري (٢٢٨٧) ، ومسلم (١٥٦٤) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٢٨) ، والنسائي (٧/٣١٦) ، وابن ماجه (٢٤٢٧) ، واللَّيُّ : المطل .

الثاني : الاستعانةُ علىٰ تغييرِ المنكرِ وردِّ العاصي إلىٰ منهجِ الصلاحِ :

كما رُوِيَ أنَّ عمرَ مرَّ علىٰ عثمانَ ـ وقيلَ : علىٰ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهمْ أجمعينَ ـ فسلَّمَ عليهِ فلم يردَّ السلامَ ، فذهبَ إلىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فذكرَ لهُ ذلكَ ، فجاءَ أبو بكرٍ إليهِ ليصلحَ ذلكَ ، ولمْ يكنْ ذلكَ غيبةً عندَهُمْ(1) .

وكذلكَ لمَّا بلغَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ أبا جندلٍ قدْ عاقرَ الخمرَ بالشامِ . . كتبَ إليهِ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ . . . ﴾ الآيةَ ، فتابَ(2) ، ولمْ يرَ عمرُ ذلكَ ممَّنْ أبلغَهُ غيبةً ؛ إذْ كانَ قصدُهُ أنْ ينكرَ عليهِ عمرُ فينفعُهُ نصحُهُ ما لا ينفعُهُ نصحُ غيرِهِ .

وإنَّما إباحةُ هـٰذا بالقصدِ الصحيحِ ، فإنْ لمْ يكنْ ذلكَ هوَ المقصودَ . . كانَ حراماً .

* * *

الثالثُ : الاستفتاءُ :

كما يقولُ للمفتي : قدْ ظلمَني أبي أوْ أخي أوْ زوجتي ، فكيفَ طريقي

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (١/٦) ، وسبب عدم ردِّ عثمان رضي الله عنه لذهوله بوفاة سيد الوجود عليه الصلاة والسلام .

(2) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٩/٢٤٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/١٠٥) .

في الخلاصِ ، والأسلمُ التعريضُ ، بأنْ يقولَ : ما قولُكَ في رجلٍ ظلمَهُ أبوهُ أوْ أخوهُ أوْ زوجتُهُ ؟ ولكنَّ التعيينَ مباحٌ بهـٰذا العذرِ ؛ لما رُوِيَ عنْ هندَ بنتِ عتبةَ أنَّها قالَتْ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، أفآخذُ مِنْ غيرِ علمِهِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خُذي ما يكفيكِ وولدَكِ بالمعروفِ »(١) ، فذكرَتِ الشُّحَّ ، والظلمَ لها ولولدِها ، ولمْ يزجرْها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ كانَ قصدُها الاستفتاءَ .

* * *

الرابعُ : تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الشَّرِّ :

فإذا رأيتَ متفقِّهاً يتردَّدُ إلىٰ مبتدعٍ أوْ فاسقٍ ، وخفتَ أنْ تتعدَّىٰ إليهِ بدعتُهُ أو فسقُهُ . . فلكَ أنْ تكشفَ لهُ بدعتَهُ وفسقَهُ ، مهما كانَ الباعثُ لكَ الخوفَ عليهِ مِنْ سرايةِ البدعةِ والفسقِ لا غيرُ ، وذلكَ موضعُ الغرورِ ؛ إذْ قدْ يكونُ الحسدُ هوَ الباعثَ ، ويلبِّسُ الشيطانُ ذلكَ بإظهارِ الشفقةِ على الخلقِ .

وكذلكَ مَنِ اشترىٰ مملوكاً وقدْ عرفْتَ المملوكَ بالسرقةِ أوْ بالفسقِ أوْ بعيبٍ آخرَ ، فلكَ أنْ تذكرَ ذلكَ ؛ فإنَّ في سكوتِكَ ضررَ المشتري ، وفي ذكرِكَ ضررَ العبدِ ، والمشتري أولىٰ بمراعاةِ جانبِهِ .

وكذلكَ المزكِّي إذا سُئلَ عنِ الشاهدِ ، فلهُ الطعنُ فيهِ إنْ علمَ مَطعناً .

---

(١) رواه البخاري (٢٢١١) ، ومسلم (١٧١٤) .

وكذلكَ المستشارُ في التزويجِ وإيداعِ الأمانةِ لهُ أنْ يذكرَ ما يعرفُهُ علىٰ قصدِ النصحِ للمستشيرِ ، لا علىٰ قصدِ الوقيعةِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يتركُ التزويجَ بمجردِ قولِهِ : (لا يصلحُ لكَ). . فهوَ الواجبُ ، وفيهِ الكفايةُ ، وإنْ علمَ أنَّهُ لا ينزجرُ إلاَّ بالتصريحِ بعيبِهِ . . فلهُ أنْ يصرِّحَ بهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَتَرِعونَ عنْ ذكرِ الفاجرِ ؟ هتِّكُوهُ حتَّىٰ يعرفَهُ الناسُ ، اذكرُوهُ بما فيهِ حتَّىٰ يحذرَهُ النَّاسُ »[1] .

وكانُوا يقولونَ : (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهمْ : الإمامُ الجائرُ ، والمبتدعُ ، والمجاهرُ بفسقِهِ)[2] .

* * *

الخامسُ : أنْ يكونَ الإنسانُ معروفاً بلقبٍ يعربُ عنْ عيبِهِ :

كالأعرجِ والأعمشِ ، فلا إثمَ علىٰ مَنْ يقولُ : روىٰ أبو الزِّنادِ عن الأعرجِ ، وسليمانُ عنِ الأعمشِ ، وما يجري مجراهُ ، فقدْ فعلَ العلماءُ ذلكَ لضرورةِ التعريفِ ، ولأنَّ ذلكَ قدْ صارَ بحيثُ لا يكرهُهُ صاحبُهُ لوْ علمَهُ بعدَ أنْ صارَ مشهوراً بهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢١) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٣٦٩) ، و**أترِعون** : أتتحرَّجون وتمتنعون ؛ من ورع يرع كوعد يعد ، و**هتّكوه** : اكشفوا حاله وارفعوا ستره . « إتحاف » (٧/ ٥٥٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٧) بنحوه .

نعمْ ، لوْ وجدَ عنهُ معدلاً ، وأمكنَهُ التعريفُ بعبارةٍ أخرىٰ . . فهوَ أولىٰ ، ولذلكَ يُقالَ للأعمىٰ : البصيرُ ؛ عدولاً عنِ اسمِ النقصِ .

* * *

السادسُ : أنْ يكونَ مجاهراً بالفسقِ :

كالمخنَّثِ ، وصاحبِ الماخورِ ، والمجاهرِ بشربِ الخمرِ ، ومصادرةِ الناسِ ، وكانَ ممنْ يتظاهرُ بالفسقِ ؛ بحيثُ لا يستنكفُ مِنْ أنْ يُذكرَ لهُ ، ولا يكرهُ أنْ يُذكرَ بهِ ، فإذا ذُكرَ منهُ ما يتظاهرُ بهِ . . فلا إثمَ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألقىٰ جلبابَ الحياءِ عنْ وجهِهِ . . فلا غيبةَ لهُ »(١) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ لفاجرٍ حرمةٌ)(٢) ، وأرادَ بهِ المجاهرَ بفسقِهِ دونَ المستترِ ؛ إذِ المستترُ لا بدَّ مِنْ مراعاةِ حرمتِهِ .

وقالَ الصَّلتُ بنُ طريفٍ : قلتُ للحسنِ : الرجلُ الفاجرُ المعلنُ بفجورِهِ ذكري لهُ بما فيهِ غيبةٌ ؟ قالَ : لا ، ولا كرامةَ(٣) .

وقالَ الحسنُ : (ثلاثةٌ لا غيبةَ لهمْ : صاحبُ الهوىٰ ، والفاسقُ المعلنُ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/٣٨٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٢١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٢) .

بفسقِهِ ، والإمامُ الجائرُ)[1] ، وهؤلاءِ الثلاثةُ يجمعُهُمْ أنَّهمْ يتظاهرونَ بهِ ، وربَّما يتفاخرونَ بهِ ، فكيفَ يكرهونَ ذلكَ وهمْ يقصدُونَ إظهارَهُ ؟!

نعمْ ؛ لوْ ذكرَهُ بغيرِ ما يتظاهرُ بهِ . . أثمَ .

وقالَ عوفٌ : دخلْتُ على ابنِ سيرينَ ، فتناولْتُ عندَهُ الحجَّاجَ ، فقالَ : إنَّ اللهَ حكمٌ عدْلٌ ينتقمُ للحجاجِ ممَّنِ اغتابَهُ ، كما ينتقمُ مِنَ الحجاجِ لمَنْ ظلمَهُ ، وإنَّكَ إذا لقيتَ اللهَ تعالىٰ غداً . . كانَ أصغرُ ذنبٍ أصبتَهُ أشدَّ عليكَ مِنْ أعظمِ ذنبٍ أصابَهُ الحجَّاجُ[2] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣٥) ، وروىٰ عنه أيضاً (٢٣٧) قال : (إذا ظهر فجوره . . فلا غيبة له ، قال : نحو المخنث ونحو الحرورية) ، والحرورية فرقة من الخوارج .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٨٤) ، وبنحوه رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٧٠) .

بيان كفارة الغيبة

اعلمْ : أنَّ الواجبَ على المغتابِ[1] أنْ يندمَ ويتوبَ ، ويتأسَّفَ على ما فعلَهُ ؛ ليخرجَ بهِ مِنْ حقِّ اللهِ سبحانَهُ ، ثمَّ يستحلَّ المغتابَ ليُحِلَّهُ فيخرجَ مِنْ مظلمتِهِ ، وينبغي أنْ يستحلَّهُ وهوَ حزينٌ متأسِّفٌ نادمٌ علىٰ فعلِهِ ، إذِ المرائي قدْ يستحلُّ ليظهرَ مِنْ نفسِهِ الورعَ ، وفي الباطنِ لا يكونُ نادماً ، فيكونُ قدْ قارفَ معصيةً أخرىٰ .

وقالَ الحسنُ : (يكفيهِ الاستغفارُ دونَ الاستحلالِ) ، وربَّما احتجَّ في ذلكَ بما روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفَّارةُ مَنِ اغتبْتَ أنْ تستغفرَ لهُ »[2] .

وقالَ مجاهدٌ : (كفارةُ أكلِكَ لحمَ أخيكَ أنْ تثنيَ عليهِ ، وتدعوَ لهُ بخيرٍ)[3] .

وسئلَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ عنِ التوبةِ مِن الفريةِ ، قالَ : أنْ تمشيَ إلىٰ

---

(١) أي : الذي اغتاب ، فهي صيغة اسم فاعل ، وقوله بُعيدهُ : (**يستحل المغتاب**) أي : الذي اغتيب ، فهي صيغة اسم مفعول ، والتفرقة تكون بالقرائن .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٣) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٦٨) ، و« الدعوات الكبير » (٥٠٧) ، وروي هـٰذا الرأي عن عبد الله بن المبارك ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٦٧) عنه قال : (إذا اغتاب رجل رجلاً . . فلا يخبره به ، ولكن يستغفر الله) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٤) .

صاحبِكَ فتقولَ : كذبْتُ فيما قلْتُ ، وظلمْتُ ، وأسأْتُ ، فإنْ شئْتَ . . أخذْتَ بحقِّكَ ، وإنْ شئتَ . . عفوتَ[1] .

وهٰذا هوَ الأصح .

وقولُ القائلِ : العِرْضُ لا عوضَ لهُ ؛ فلا يجبُ الاستحلالُ منهُ ؛ بخلافِ المالِ . . كلامٌ ضعيفٌ ؛ إذْ قدْ وجبَ في العرضِ حدُّ القذفِ ، وتثبتُ المطالبةُ بهِ .

بلْ في الحديثِ الصحيحِ : ما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كانَتْ لأخيهِ عندَهُ مظْلَمَةٌ في عرضٍ أوْ مالٍ . . فليتحللْهُ منهُ مِنْ قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ ليسَ هناكَ دينارٌ ولا درهمٌ ، إنَّما يؤخذُ مِنْ حسناتِهِ ، فإنْ لمْ يكُنْ لهُ حسناتٌ . . أخذَ مِنْ سيئاتِ صاحبِهِ فزيدَتْ علىٰ سيِّئاتِهِ »[2] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لامرأةٍ قالَتْ لأخرىٰ : إنَّها طويلةُ الذيلِ : (قدِ اغتبتيها ، فاستحلِّيها)[3] .

فإذاً ؛ لا بدَّ مِنَ الاستحلالِ إنْ قدرَ عليهِ ، فإنْ كانَ غائباً أوْ ميتاً . . فينبغي أنْ يكثرَ لهُ الاستغفارَ والدعاءَ ، ويكثرَ مِنَ الحسناتِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٩٥) .
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٩) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٠٠) .

فإنْ قلْتَ : فالتحليلُ هل يجبُ ؟

فأقولُ : لا ؛ لأنَّهُ تبرُّعٌ ، والتبرُّعُ فضلٌ وليسَ بواجبٍ ، ولكنَّهُ مستحسنٌ ، وسبيلُ المعتذِرِ : أنْ يبالغَ في الثناءِ عليهِ ، والتَّودُّدِ إليهِ ، ويلازمَ ذلكَ حتَّىٰ يطيبَ قلبُهُ ، فإنْ لمْ يطِبْ قلبُهُ . . كانَ اعتذارُهُ وتودُّدُهُ حسنةً محسوبةً لهُ ، يقابلُ بها سيئةَ الغيبةِ في القيامةِ .

❊ ❊ ❊

وكانَ بعضُ السلفِ لا يحللُ ، قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (لا أحللُ مَنْ ظلمَني)[1] .

وقالَ ابنُ سيرينَ : (إني لمْ أحرِّمْها عليهِ فأحلِّلَها لهُ ، إنَّ اللهَ حرَّمَ الغيبةَ عليهِ ، وما كنتُ لأحلِّلَ ما حرَّمَهُ اللهُ أبداً)[2] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلْتَ : فما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينبغي أنْ يستحلَّها » وتحليلُ ما حرَّمَهُ اللهُ تعالىٰ غيرُ ممكنٍ ؟

فنقولُ : المرادُ بهِ العفوُ عنِ المظلمةِ ، لا أنْ ينقلبَ الحرامُ حلالاً ،

---

(١) إذ لم يسامح من آذاه وضربه على البيعة لعبد الملك بن مروان كما في « طبقات بن سعد » (٧/ ١٢٧) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٦٣) .

وما ذكرَهُ ابنُ سيرينَ حسنٌ في التحليلِ قبلَ الغيبةِ ، فإنَّهُ لا يجوزُ لهُ أنْ يحلِّلَ لغيرِهِ الغيبةَ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلْتَ : فما معنىٰ قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكونَ كأبي ضمضمٍ ؛ كانَ إذا خرجَ مِنْ بيتِهِ . . قالَ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي تصدَّقتُ بعرضي على الناسِ »(١) ، فكيفَ يتصدَّقُ بالعرْضِ ؟ ومنْ تصدَّقَ بهِ فهلْ يُباحُ تناولُهُ ؟ فإنْ كانَ لا تنفذُ صدقتُهُ . . فما معنى الحثِّ عليهِ ؟

فنقولُ : معناهُ : أنِّي لا أطلبُ مظلمةً في القيامَةِ منهُ ، ولا أخاصمُهُ ، وإلاَّ . . فلا تصيرُ الغيبةُ حلالاً بهِ ، ولا تسقطُ المظلمةُ عنهُ ؛ لأنَّهُ عفوٌ قبلَ الوجوبِ ، إلاَّ أنَّهُ وعدٌ ، ولهُ العزمُ على الوفاءِ بألا يخاصمَ ، فإنْ رجعَ وخاصمَ . . كانَ القياسُ كسائرِ الحقوقِ أنَّ لهُ ذلكَ ، بلْ صرَّحَ الفقهاءُ بأنَّ مَنْ أباحَ القذفَ . . لمْ يسقطْ حقُّهُ مِنْ حدِّ القذفِ ، ومظلمةُ الآخرةِ مثلُ مظلمةِ الدنيا .

❊ ❊ ❊

وعلى الجملةِ : فالعفوُ أفضلُ ، قالَ الحسنُ : (إذا جثَتِ الأممُ بينَ

---

(١) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٥٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) .

يديِ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ . . نُودُوا : ليقُمْ مَنْ كانَ أجرُهُ على اللهِ ، فلا يقومُ إلاَّ العافونَ عنِ الناسِ في الدنيا)[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ . . . ﴾ الآيَةَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا جبريلُ ؛ ما هـٰذا ؟ فقالَ : إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تعفوَ عمَّنْ ظلمَكَ ، وتصلَ مَنْ قطعَكَ ، وتعطيَ مَنْ حرمَكَ »[2] .

ورُوِيَ عنِ الحسنِ : أنَّ رجلاً قالَ لهُ : إنَّ فلاناً قدِ اغتابَكَ ، فبعثَ إليهِ رُطباً علىٰ طبقٍ وقالَ : قدْ بلغَني أنَّكَ أهديتَ إليَّ منْ حسناتِكَ ، فأردْتُ أنْ أكافِئَكَ عليها ، فاعذرْني ؛ فإنِّي لا أقدِرُ أنْ أكافئَكَ على التمامِ[3] .

* * *

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٧٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٦٠) مرفوعاً .

(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ٢٣١٠) من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، ورواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) عن أميِّ الصيرفي .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٨٥) .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴾ ، ثم قَالَ : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : الزنيمُ : ولدُ الزنا الذي لا يكتمُ الحديثَ .

وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ كلَّ مَنْ لمْ يكتمِ الحديثَ ومشىٰ بالنميمةِ . . دلَّ علىٰ أنَّهُ ولدُ زناً ؛ استنباطاً مِنْ قولهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ، والزنيمُ : هوَ الدَّعيُّ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ ، قيلَ : الهُمزَةُ : النَّمامُ[١] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ ، قيلَ : إنَّها كانَتْ نمَّامةً ، حمَّالةً للحديثِ[٢] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ، قيلَ : كانتِ امرأةُ لوطٍ تخبرُ بالضيفانِ ، وامرأةُ نوحٍ كانَتْ تخبرُ أنَّهُ مجنونٌ[٣] .

---

(١) رویٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رویٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٥) عن مجاهد .

(٣) رویٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ نمَّامٌ »[١] .

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يدخلُ الجنةَ قتَّاتٌ »[٢] ، والقتَّاتُ : هوَ النمَّـامُ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّكمْ إلى اللهِ أحاسنُكمْ أخلاقاً ، الموطؤونَ أكنافاً ، الذينَ يَألفونَ ويُؤلفونَ ، وإنَّ أبغضَكمْ إلى اللهِ المشاؤونَ بالنميمةِ ، المفرِّقونَ بينَ الإخوانِ ، الملْتمسونَ للبرآءِ العثراتِ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ألا أخبرُكمْ بشرارِكمْ ؟ » قالُوا : بلىٰ ، قالَ : «المشاؤونَ بالنميمةِ، المفسدونَ بينَ الأحبَّةِ، الباغونَ للبُرآءِ العنتَ»[٤] .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أشادَ علىٰ مسلمٍ كلمةً ليشينَهُ بها بغيرِ حقٍّ . . شانَهُ اللهُ بها في النارِ يومَ القيامةِ »[٥] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما رجلٍ أشاعَ علىٰ رجلٍ كلمةً وهوَ منها بريءٌ ليشينَهُ بها في الدنيا . . كانَ حقّاً على اللهِ

---

(١) رواه مسلم (١٠٥) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥/ ١٦٩) .
(٣) رواه الطبراني في « الصغير » (٢/ ٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٤٦) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ١٦٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٥٨) .

أنْ يذيبَهُ بها يومَ القيامةِ في النارِ »[١] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ شهدَ علىٰ مسلمٍ شهادةً ليسَ لها بأهلٍ . . فليتبوَّأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[٢] .

ويقالُ : إنَّ ثلثَ عذابِ القبرِ منَ النميمةِ[٣] .

وعنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلَقَ الجنَّةَ . . قالَ لها : تكلَّمي ، فقالَتْ : سَعِدَ مَنْ دخلَني ، فقالَ الجبَّارُ جلَّ جلالُهُ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا يسكنُ فيكِ ثمانيةُ نفرٍ مِنَ الناسِ ، لا يسكنُ فيكِ مدمنُ خمرٍ ، ولا مصرٌّ على الزِّنا ، ولا قتَّاتٌ ـ وهوَ النَّمامُ ـ ولا ديوثٌ ، ولا شُرَطيٌّ ، ولا مخنثٌ ، ولا قاطعُ رحمٍ ، ولا الذي يقولُ : عليَّ عهدُ اللهِ إنْ لمْ أفعلْ كذا وكذا ثمَّ لمْ يفِ بهِ »[٤] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٥٩) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال الحافظ العراقي : (ورواه الطبراني بلفظ آخر من حديثه مرفوعاً) . « إتحاف » (٧/ ٥٦٣) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٠٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٩٠) عن قتادة يذكره .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا بتمامه ، ولأحمد : « لا يدخل الجنة عاق لوالديه والديوث » ، وفيه من لم يسم ، وللنسائي من حديث ابن عمر : « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » ، وفيه انقطاع واضطراب ، وللشيخين من حديث حذيفة : « لا يدخل الجنة قتات » ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : « لا يدخل الجنة قاطع » ، وذكر صاحب « الفردوس » من حديث ابن عباس : « لما خلق الله الجنة فقال =

وروىٰ كعبُ الأحبارِ : (أنَّ بني إسرائيلَ أصابَهمْ قحطٌ ، فاستسقىٰ موسىٰ عليهِ السَّلام مراتٍ فما سُقوا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنِّي لا أستجيبُ لكَ ولمنْ معكَ وفيكمْ نمامٌ قدْ أصرَّ على النميمةِ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ منْ هوَ ؟ دلَّني عليهِ حتَّىٰ نخرجَهُ مِنْ بينِنا ، قالَ : يا موسىٰ ؛ أنهاكُمْ عنِ النميمةِ وأكونُ نماماً ؟! فتابوا جميعاً ؛ فسُقُوا) .

ويُقالُ : اتبعَ رجلٌ حكيماً سبعَ مئةِ فرسخٍ في سبعِ كلماتٍ ، فلمَّا قدمَ عليهِ . قالَ : إنِّي جئتُكَ للذي آتاكَ اللهُ تعالىٰ مِنَ العلمِ ، أخبرني عنِ السماءِ وما أثقلُ منها ، وعنِ الأرضِ وما أوسعُ منها ، وعنِ الحجرِ وما أقسىٰ منهُ ، وعنِ النارِ وما أحرُّ منها ، وعنِ الزمهريرِ وما أبردُ منهُ ، وعنِ البحرِ وما أغنىٰ منهُ ، وعنِ اليتيمِ وما أذلُّ منهُ ؟ فقالَ لهُ الحكيمُ : البهتانُ على البريءِ أثقلُ مِن السماواتِ ، والحقُّ أوسعُ مِنَ الأرضِ ، والقلبُ القانعُ أغنىٰ مِنَ البحرِ ، والحرصُ والحسدُ أحرُّ مِنَ النارِ ، والحاجةُ إلى القريبِ إذا لمْ تنجحْ أبردُ مِنَ الزمهريرِ ، وقلبُ الكافرِ أقسىٰ مِنَ الحجرِ ، والنَّمامُ إذا بانَ أمرُهُ . أذلُّ مِنَ اليتيمِ[1] .

* * *

= لها تكلمي تزيني ، فتزينت ، فقالت : طوبىٰ لمن دخلني ورضي عنه إلـٰهي ، فقال الله عز وجل : لا يسكنك مخنث ولا نائحة » ، ولم يخرجه ولده في « مسنده ») . « إتحاف » (٧/ ٥٦٣) .

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٧٠) .

بيان حدّ النّميمة وما يجب في ردّها

اعلمْ : أنَّ اسمَ النميمةِ إنَّما يُطلقُ في الأكثرِ علىٰ مَنْ ينُمُّ قولَ الغيرِ إلى المقولِ فيهِ ؛ كما تقولُ : فلانٌ كانَ يتكلَّمُ فيكَ بكذا وكذا ، وليستِ النميمةُ مخصوصةً بهِ ، بلْ **حدُّها** : كشفُ ما يُكرَهُ كشفُهُ ، سواءٌ كرهَهُ المنقولُ عنهُ ، أوِ المنقولُ إليهِ ، أوْ كرهَهُ ثالثٌ ، وسواءٌ كانَ الكشفُ بالقولِ أوْ بالكِتبةِ أوْ بالرمزِ أوْ بالإيماءِ ، وسواءٌ كانَ المنقولُ مِنَ الأعمالِ أوْ مِنَ الأقوالِ ، وسواءٌ كانَ ذلكَ عيباً ونقصاً في المنقولِ عنهُ أوْ لمْ يكُنْ ، بلْ **حقيقةُ النميمةِ** : إفشاءُ السِّرِّ ، وهتكُ السترِ عمَّا يُكرهُ كشفُهُ ، بلْ كلُّ ما رآهُ الإنسانُ مِنْ أحوالِ الناسِ ممَّا يُكرَهُ .. فينبغي أنْ يسكتَ عنهُ ، إلاَّ ما في حكايتِهِ فائدةٌ لمسلمٍ ، أوْ دفعٌ لمعصيةٍ ؛ كما إذا رأىٰ مَنْ يتناولُ مالَ غيرِهِ ، فعليهِ أنْ يشهدَ بهِ ؛ مراعاةً لحقِّ المشهودِ لهُ ، فأمَّا إذا رآهُ يخفي مالاً لنفسِهِ فذكرَهُ .. فهوَ نميمةٌ ، وإفشاءٌ للسِّرِّ .

فإنْ كانَ ما ينُمُّ بهِ نقصاً وعيباً في المحكيِّ عنهُ .. كانَ قدْ جمعَ بينَ الغيبةِ والنميمةِ .

والباعثُ على النميمةِ : إمَّا إرادةُ السوءِ بالمحكيِّ عنهُ ، أوْ إظهارُ الحبِّ للمحكيِّ لهُ ، أوِ التفرُّجُ بالحديثِ ، أوِ الخوضُ في الفضولِ والباطلِ .

وكلُّ مَنْ حُملَتْ إليهِ النميمةُ وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً قالَ فيكَ كذا وكذا ، أوْ

فعلَ في حقِّكَ كذا وكذا ، أوْ هوَ يدبِّرُ في إفسادِ أمرِكَ ، أوْ في ممالأةِ عدوِّكَ ، أوْ تقبيحِ حالِكَ ، أوْ ما يجري مجراهُ . . فعليهِ ستةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : ألاَّ يصدِّقَهُ ؛ لأنَّ النمامَ فاسقٌ ، وهوَ مردودُ الشهادةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ .

الثاني : أنْ ينهاهُ عنْ ذلكَ وينصحَهُ ، ويقبِّحَ لهُ فعلَهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ .

الثالثُ : أنْ يبغضَهُ في اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ بغيضٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويجبُ بغضُ مَنْ يبغضُهُ اللهُ تعالىٰ .

الرابعُ : ألاَّ تظنَّ بأخيكَ الغائبِ السوءَ ؛ لقولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

الخامسُ : ألاَّ يحملَكَ ما حُكِيَ لكَ على التجسُّسِ والبحثِ لتتحقَّقَ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ .

السادسُ : ألاَّ ترضىٰ لنفسِكَ ما نهيتَ النَّمامَ عنهُ ، فلا تحكي نميمتَهُ فتقولَ : فلانٌ قدْ حكىٰ لي كذا وكذا ، فتكونَ بهِ نمَّاماً ومغتاباً ، وتكونَ قدْ أتيتَ ما عنهُ نَهيتَ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهَ أنَّهُ دخلَ عليهِ رجلٌ ، فذكرَ عندَهُ عنْ رجلٍ شيئاً ، فقالَ عمرُ : إنْ شئتَ . . نظرنا في أمرِكَ ؛ فإنْ كنتَ كاذباً . . فأنتَ منْ أهلِ هـٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، وإنْ

كنتَ صادقاً.. فأنتَ مِنْ أهلِ هـٰذهِ الآيةِ : ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ ، وإنْ شئتَ.. عفونا عنكَ ، فقالَ : العفوَ يا أميرَ المؤمنينَ ، لا أعودُ إليهِ أبداً .

وذكرَ أنَّ حكيماً مِنَ الحكماءِ زارَهُ بعضُ إخوانِهِ ، فأخبرَهُ بخبرٍ عنْ بعضِ أصدقائِهِ ، فقالَ لهُ الحكيمُ : قدْ أبطأتَ في الزيارةِ وأتيتني بثلاثِ جناياتٍ : بغَّضْتَ أخي إليَّ ، وشغلتَ قلبي الفارغَ ، واتهمْتَ نفسَكَ الأمينةَ .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ كانَ جالساً وعندَهُ الزهريُّ ، فجاءَهُ رجلٌ ، فقالَ لهُ سليمانُ : بلغَني أنَّكَ وقعتَ فيَّ وقلتَ كذا وكذا ، فقالَ الرجلُ : ما فعلتُ ولا قلْتُ ، فقالَ سليمانُ : إنَّ الذي أخبرني صادقٌ ، فقالَ لهُ الزهريُّ : لا يكونُ النمامُ صادقاً ، فقالَ سليمانُ : صدقْتَ ، ثمَّ قالَ للرجلِ : اذهبْ بسلامٍ .

وقالَ الحسنُ : (منْ نمَّ إليكَ.. نمَّ عليكَ)(١) .

وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ النَّمامَ ينبغي أنْ يُبغضَ ولا يُوثقَ بقولِهِ ولا بصداقتِهِ ، وكيفَ لا يُبغضُ وهوَ لا ينفكُّ عنِ الكذبِ والغيبةِ ، والغدرِ والخيانةِ ، والغلِّ والحسدِ والنفاقِ ، والإفسادِ بينَ الناسِ والخديعةِ ، وهوَ ممَّنْ يسعىٰ في قطعِ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يوصلَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؟!

---

(١) تقدم عن الخليل بن أحمد .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، والنمَّامُ منهُمْ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ شرِّ الناسِ مَنِ اتقاهُ الناسُ لشرِّهِ »(١) ، والنمَّامُ منهُمْ .

وقالَ : « لا يدخلُ الجنةَ قاطعٌ »(٢) ، قيلَ : قاطعٌ بينَ الناسِ ، وهوَ النمَّامُ ، وقيلَ : قاطعُ الرحمِ .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رجلاً سعىٰ إليهِ برجلٍ ، فقالَ : يا هـٰذا ؛ نحنُ نسألُ عمَّا قلْتَ ؛ فإنْ كنتَ صادقاً . . مقتناكَ ، وإنْ كنتَ كاذباً . . عاقبناكَ ، وإنْ شئتَ أنْ نقيلَكَ . . أقلْناكَ ، فقالَ : أقلْني يا أميرَ المؤمنينَ .

وقيلَ لمحمدِ بنِ كعبٍ القُرظيِّ : أيُّ خصالِ المؤمنِ أوضعُ لهُ ؟ فقالَ : كثرةُ الكلامِ ، وإفشاءُ السِّرِّ ، وقبولُ قولِ كلِّ أحدٍ(٣) .

وقالَ رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ عامرٍ وكانَ أميراً : بلغَني أنَّ فلاناً أعلمَ الأميرَ أنِّي ذكرتُهُ بسوءٍ ، قالَ : قدْ كانَ ذلكَ ، قالَ : فأخبِرْني بما قالَ لكَ حتَّىٰ أظهرَ كذبَهُ عندكَ ، قالَ : ما أحبُّ أنْ أشتمَ نفسي بلساني ، وحسبي أنِّي لمْ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢) ، ومسلم (٢٥٩١) .
(٢) رواه البخاري (٥٩٨٤) ، ومسلم (٢٥٥٦) .
(٣) رواه الخطابي في « العزلة » (ص٧١) .

أصدِّقْهُ فيما قالَ ، ولا أقطعُ عنكَ الوصالَ .

وذُكرتِ السعايةُ عندَ بعضِ الصالحينَ ، فقالَ : ما ظنُّكُمْ بقومٍ يُحمدُ الصدقُ مِنْ كلِّ طبقةٍ مِنَ الناسِ إلا منهُمْ ؟!

وقالَ مصعبُ بنُ الزبيرِ : (نحنُ نرىٰ أنَّ قبولَ السِّعايةِ شرٌّ مِنَ السعايةِ ؛ لأنَّ السعايةَ دلالةٌ ، والقبولُ إجازةٌ ، وليسَ مَنْ دلَّ علىٰ شيءٍ فأخبرَ بِهِ كمَنْ قبلَهُ وأجازَهُ ، فاتقوا السَّاعيَ ، فلوْ كانَ صادقاً في قولِهِ .. لكانَ لئيماً في صدقِهِ ؛ حيثُ لمْ يحفظِ الحرمةَ ، ولمْ يسترِ العورةَ)(١) .

والسعايةُ هيَ النميمةُ ، إلاَّ أنَّها إذا كانَتْ إلىٰ مَنْ يُخافُ جانبُهُ .. سُميَّتْ سعايةً ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السَّاعي بالناسِ إلى الناسِ لغيرِ رِشْدَةٍ »(٢) ؛ يعني : ليسَ بولدِ حلالٍ .

ودخلَ رجلٌ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فاستأذنَهُ في الكلامِ ، وقالَ : إنِّي مكلِّمُكَ يا أميرَ المؤمنينَ بكلامٍ فاحتملْهُ وإنْ كرهتَهُ ، فإنَّ وراءَهُ ما تحبُّ إنْ قبلْتَهُ ، فقالَ : قلْ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ قدِ اكتنفَكَ رجالٌ ابتاعوا دنياكَ بدينِهِمْ ، ورضاكَ بسخَطِ ربِّهِمْ ، خافوكَ في اللهِ ولمْ يخافوا اللهَ فيكَ ، فلا تأمنْهُمْ علىٰ ما ائتمنَكَ اللهُ عليهِ ، ولا تصغِ إليهِمْ فيما استحفظَكَ اللهُ إيَّاهُ ، فإنَّهمْ لنْ يألوا في الأمةِ خسفاً ، وفي الأمانةِ تضييعاً ،

---

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٢٢) عن الإمام الشافعي .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٠٣) ولم يصححه .

والأعراضِ قطعاً وانتهاكاً ، أعلىٰ قُرَبِهِمُ البغيُ والنميمةُ ، وأجلُّ وسائِلِهِمُ الغيبةُ والوقيعةُ ، وأنتَ مسؤولٌ عمَّا اجترحُوا ، وليسوا بمسؤولينَ عمَّا اجترحتَ ، فلا تصلحْ دنياهمْ بفسادِ آخرتِكَ ، فإنَّ أعظمَ الناسِ غَبناً مَنْ باعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ[1] .

وسعىٰ رجلٌ بزيادٍ الأعجمِ إلىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فجمعَ بينَهُما للموافقةِ ، فأقبلَ زيادٌ على الرجلِ وقالَ[2] : [من الطويل]

فَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ إِمَّا ائْتَمَنْتُكَ خَالِياً ... فَخُنْتَ وَإِمَّا قُلْتَ قَوْلاً بِلا عِلْمِ
فَأَنْتَ مِنَ ٱلأَمْرِ ٱلَّذِي كانَ بَيْنَنا ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ ٱلْخِيانَةِ وَٱلإِثْمِ

وقالَ رجلٌ لعمرِو بنِ عبيدٍ : إنَّ الأُسواريَّ ما يزالَ يذكرُكَ في قَصصِهِ بشرٍّ ، فقالَ لهُ عمرٌو : يا هـٰذا ؛ ما رعيتَ حقَّ مجالسةِ الرجلِ حيثُ نقلْتَ إلينا حديثَهُ ، ولا أدَّيتَ حقِّي حينَ أبلغتَني عنْ أخي ما أكرَهُ ، ولكنْ أبلغْهُ أنَّ الموتَ يعمُّنا ، والقبرَ يضمُّنا ، والقيامةَ تجمعُنا ، واللهُ تعالىٰ يحكمُ بينَنا وهوَ خيرُ الحاكمينَ[3] .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٠٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٧٤) .

(٢) الخبر ورد بسياقات مختلفة في المصادر . انظر « عيون الأخبار » (١/ ٤١) ، و« روضة العقلاء » (ص١٧٧) ، و« الأمالي » (٢/ ٤٦) ، و« الجليس الصالح » (١/ ٣٠٢) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٥٧٧) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٦١) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ١٥٧) .

(٣) رواه أبو هلال العسكري في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٢٦٩) .

ورفعَ بعضُ السعاةِ إلى الصاحبِ بنِ عبادٍ رقعةً نبَّهَ فيها علىٰ مالِ يتيمٍ يحملُهُ علىٰ أخذِهِ لكثرتِهِ ، فوقَّعَ علىٰ ظهرِها : السعايةُ قبيحةٌ وإنْ كانَتْ صحيحةً ، فإنْ كنتَ أجريتَها مَجرى النصحِ . . فخسرانُكَ فيها أفضلُ مِنَ الربحِ ، ومعاذَ اللهِ أنْ نقبلَ مهتوكاً في مستورٍ ، ولولا أنَّكَ في خفارةِ شيبتِكَ . . لقابلناكَ بما يقتضيهِ فعلُكَ في مثلِكَ ، فتوقَّ يا ملعونُ العيبَ ؛ فإنَّ اللهَ أعلمُ بالغيبِ ، الميتُ رحمهُ اللهُ ، واليتيمُ جبرَهُ اللهُ ، والمالُ ثمَّرَهُ اللهُ ، والسَّاعي لعنَهُ اللهُ .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنِّي موصيكَ بخلالٍ ، إنْ تمسَّكتَ بهنَّ . . لمْ تزلْ سيِّداً : ابسطْ خلُقَكَ للقريبِ والبعيدِ ، وأمسكْ جهلَكَ عنِ الكريمِ واللئيمِ ، واحفظْ إخوانَكَ ، وصلْ أقاربَكَ ، وآمنهُمْ مِنْ قبولِ قولِ ساعٍ ، أوْ سماعِ باغٍ يريدُ فسادَكَ ويرومُ خداعَكَ ، وليكنْ إخوانُكَ مَنْ إذا فارقتَهمْ وفارقوكَ . . لمْ تعبْهُمْ ولمْ يعيبوكَ)[1] .

وقالَ بعضُهمْ : (النميمةُ مبنيَّةٌ على الكذبِ والحسدِ والنفاقِ ، وهيَ أثافي الذُّلِّ) .

وقالَ بعضُهمْ : (لوْ صحَّ ما نقلَهُ النَّمامُ إليكَ . . لكانَ هوَ المجترئَ بالشتمِ عليكَ ، والمنقولُ عنهُ أولىٰ بحلمِكَ ؛ لأنَّهُ لمْ يقابلْكَ بشتمِكَ) .

وعلى الجملةِ : فشرُّ النمامِ عظيمٌ ينبغي أنْ يُتوقَّىٰ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٠) عن محمد بن أبي الفضل .

قالَ حمادُ بنُ سلمةَ : باعَ رجلٌ عبداً وقالَ للمشتري : ما فيهِ عيبٌ إلاَّ النميمةُ ، قالَ : قدْ رضيتُ ، فاشتراهُ فمكثَ الغلامُ أياماً ، ثمَّ قالَ لزوجةِ مولاهُ : إنَّ زوجَكِ لا يحبُّكِ ، وهوَ يريدُ أنْ يتسرَّىٰ عليكِ ، فخذي الموسىٰ واحلقي مِنْ شعرِ قفاهُ عندَ نومِهِ شعراتٍ حتَّىٰ أسحرَهُ عليها ، فيحبَّكِ ، ثم قالَ للزوجِ : إنَّ امرأتَكَ اتخذَتْ خليلاً ، وتريدُ أنْ تقتلَكَ ، فتناوَمْ لها حتَّىٰ تعرفَ ذلكَ ، قالَ : فتناومَ لها ، فجاءَتِ المرأةُ بالموسىٰ ، فظنَّ أنَّها تريدُ قتلَهُ ، فقامَ إليها فقتلَها ، فجاءَ أهلُ المرأةِ فقتلُوا الزوجَ ، فوقعَ القتالُ بينَ القبيلتينِ ، وطالَ الأمرُ[1] ، فنسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧٠) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٧٩) .

الآفة السابعة عشرة : كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلّم كلّ واحدٍ بكلامٍ يوافقه

وقلَّما يخلو عنهُ مَنْ يشاهدُ متعاديينِ ، وذلكَ عينُ النفاقِ .

قالَ عمارُ بنُ ياسرٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كانَ لهُ وجهانِ في الدنيا . كانَ لهُ لسانانِ مِنْ نارٍ يومَ القيامةِ »[(١)] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجدونَ مِنْ شرِّ عبادِ اللهِ يومَ القيامةِ ذا الوجهينِ ، الذي يأتي هؤلاءِ بحديثِ هؤلاءِ ، وهؤلاءِ بحديثِ هؤلاءِ » .

وفي لفظٍ آخرَ : « الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ »[(٢)] .

وقالَ أبو هريرةَ : (لا ينبغي لذي الوجهينِ أنْ يكونَ أميناً عندَ اللهِ)[(٣)] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (قرأتُ في التوراةِ : بطلَتِ الأمانةُ والرجلُ معَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٣) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٩٢) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٩٤ ، ٦٠٥٨) ، ومسلم (٢٥٢٦) بنحوه ، وبلفظ المصنف رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٧٧ ، ٢٧٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٨٣) من حديثه مرفوعاً .

صاحبِهِ بشفتينِ مختلفتينِ ، يهلكُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ كلَّ شفتينِ مختلفتينِ)[١] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ خليقةِ اللهِ إلى اللهِ يومَ القيامةِ الكذَّابونَ والمستكبرونَ ، والذينَ يكثرونَ البغضاءَ لإخوانِهِمْ في صدورِهِمْ ، فإذا لقوهُمْ . . تملَّقوا لهمْ ، والذينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ . . كانُوا بطآءَ ، وإذا دُعوا إلى الشيطانِ وأمرِهِ . . كانوا سِراعاً »[٢] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : لا يكونَنَّ أحدُكمْ إمَّعةً ، قالُوا : وما الإمَّعةُ ؟ قالَ : يجري معَ كلِّ ريحٍ[٣] .

واتَّفقُوا علىٰ أنَّ ملاقاةَ الاثنينِ بوجهينِ نفاقٌ ، وللنِّفاقِ علاماتٌ كثيرةٌ ، وهـٰذهِ مِنْ جملتِها .

وقدْ رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ماتَ ، فلمْ يصلِّ عليهِ حذيفةُ ، فقالَ عمرُ : أيموتُ رجلٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا تصلي عليهِ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّهُ منهمْ ، قالَ : فنشدْتُكَ اللهَ ؛ أنا منهُمْ أمْ لا ؟ قالَ : اللهمَّ لا ، ولا أؤمِّنُ منها أحداً بعدَكَ[٤] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٩١) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٩٩) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٠١) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣١١) ، وتقدم سؤال الفاروق هـٰذا .

فإنْ قلْتَ : بماذا يصيرُ الرجلُ ذا لسانينِ ، وما حدُّ ذلكَ ؟

فأقولُ : إذا دخلَ علىٰ متعاديينِ ، وجاملَ كلَّ واحدٍ منهما ، وكانَ صادقاً فيهِ . . لمْ يكنْ منافقاً ولا ذا لسانينِ ، فإنَّ الواحدَ قدْ يصادقُ متعاديينِ ، ولكنْ صداقةً ضعيفةً لا تنتهي إلىٰ حدِّ الأخوَّةِ ؛ إذْ لوْ تحقَّقَتِ الصداقةُ . . لاقتضَتْ معاداةَ الأعداءِ ، كما ذكرْناهُ في كتابِ آدابِ الصحبةِ والأخوةِ .

نعمْ ، لوْ نقلَ كلامَ كلِّ واحدٍ منهما إلى الآخرِ . . فهوَ ذو لسانينِ ، وذلكَ شرٌّ مِنَ النميمةِ ؛ إذْ يصيرُ نمَّاماً بأنْ ينقلَ مِنْ أحدِ الجانبينِ فقطْ ، فإذا نقلَ مِنَ الجانبينِ . . فهوَ شرٌّ مِنَ النمامِ .

وإنْ لمْ ينقلْ كلاماً ، ولكنْ حسَّنَ لكلِ واحدٍ منهما ما هوَ عليهِ مِنَ المعاداةِ معَ صاحبِهِ . . فهٰذا ذو لسانينِ .

وكذلكَ إذا وعدَ كلَّ واحدٍ منهما بأنْ ينصرَهُ ، وكذلكَ إذا أثنىٰ علىٰ كلِّ واحدٍ منهما في معاداتِهِ ، وكذلكَ إذا أثنىٰ علىٰ أحدِهما ، وكانَ إذا خرجَ مِنْ عندِهِ يذمُّهُ . . فهوَ ذو لسانينِ .

بلْ ينبغي أن يسكتَ ، أوْ يثنيَ على المحقِّ مِنَ المتعاديينِ ، ويثني عليهِ في حضورِهِ وفي غيبتِهِ وبينَ يدي عدوِّهِ .

قيلَ لابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّا ندخلُ علىٰ أمرائِنا فنقولُ القولَ ، فإذا خرجْنا . . قلْنا غيرَهُ ، فقالَ : كنَّا نعدُّ ذلكَ نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٠٢) .

وهـٰذا نفاقٌ مهما كانَ مستغنياً عنِ الدخولِ على الأميرِ ، وعنِ الثناءِ عليهِ ، فلوِ استغنىٰ عنِ الدخولِ ولكنْ إذا دخلَ يخافُ إنْ لمْ يثنِ . . فهوَ نفاقٌ ؛ لأنَّهُ الذي أحوجَ نفسَهُ إلىٰ ذلكَ ، وإنْ كانَ مستغنياً عنِ الدخولِ لوْ قنعَ بالقليلِ وتركَ المالَ والجاهَ ، فدخلَ لضرورةِ الجاهِ والغنىٰ وأثنىٰ . . فهوَ منافقٌ .

وهـٰذا معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والجاهِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ » ؛ لأنَّهُ يحوجُ إلى الأمراءِ وإلىٰ مراعاتِهِمْ ومراءاتِهِمْ .

فأمَّا إذا ابتليَ بهِ لضرورةٍ ، وخافَ إنْ لم يُثنِ . . فهوَ معذورٌ ؛ فإنَّ اتقاءَ الشرِّ جائزٌ ، قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّا لنكشُرُ في وجوهِ أقوامٍ وإنَّ قلوبَنا لتبغضُهمْ)(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : استأذنَ رجلٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ائذنُوا لهُ فبئسَ رجلُ العشيرةِ » ، فلمَّا دخلَ عليهِ . . ألانَ لهُ القولَ ، فلمَّا خرجَ . . قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ قلتَ فيهِ ما قلتَ ، ثمَّ ألنتَ لهُ القولَ !! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ شرَّ الناسِ الذي يُكرمُ اتقاءَ فحشِهِ »(٢) .

---

(١) رواه البخاري تعليقاً قبل الحديث (٦١٣١) ، ووصله البيهقي في « الشعب » (٧٧٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٢) ، وفي (ل) : (قلوبنا تلعنهم) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٥٤) ، ومسلم (٢٥٩١) بنحوه .

ولكنَّ هـٰذا وردَ في الإقبالِ وفي الكشرِ والتبسُّمِ ، فأمَّا الثناءُ . . فهوَ كذبٌ صريحٌ ، ولا يجوزُ إلا لضرورةٍ ، أوْ إكراهٍ يُباحُ الكذبُ بمثلِهِ ، كما ذكرناهُ في آفةِ الكذبِ ، بلْ لا يجوزُ الثناءُ ، ولا التصديقُ ، ولا تحريكُ الرأسِ في معرضِ التقريرِ علىٰ كلِّ كلامٍ باطلٍ ، فإنْ فعَلَ ذلكَ . . فهوَ منافقٌ ، بلْ ينبغي أنْ ينكرَ ، فإنْ لمْ يقدِرْ . . فيسكُتُ بلسانِهِ وينكرُ بقلبِهِ .

* * *

الآفة الثّامنة عشرة : المدح

وهوَ منهيٌّ عنهُ في بعضِ المواضعِ ، أمّا الذمُّ . . فهوَ الغيبةُ والوقيعَةُ ، وقدْ ذكرنا حكمَها .

والمدحُ يدخلُهُ ستُّ آفاتٍ ، أربعٌ في المادحِ ، واثنتانِ في الممدوحِ .

* * *

فأمَّا المادحُ :

فالأولى : أنَّهُ قدْ يُفرِطُ ، فينتهي بهِ الإفراطُ إلى الكذبِ .

قالَ خالدُ بن معدانَ : (مَنْ مدحَ إماماً أوْ أحداً بما ليسَ فيهِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ . . بعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ يتعثَّرُ بلسانِهِ)[1] .

الثانيةُ : أنَّهُ قدْ يدخلُهُ الرياءُ ، فإنَّهُ بالمدحِ مظهرٌ للحبِّ ، وقدْ لا يكونُ مضمراً لهُ ، ولا معتقداً لجميعِ ما يقولُهُ ؛ فيصيرُ بهِ مرائياً منافقاً .

الثالثةُ : أنَّهُ قدْ يقولُ ما لا يتحقَّقُهُ ولا سبيلَ لهُ إلى الاطلاعِ عليهِ ، رُوي أنَّ رجلاً مدحَ رجلاً عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : «ويحَكَ ! قطعتَ عُنقَ صاحبِكَ ، لو سمعَها . . ما أفلحَ» ، ثمَّ قالَ : « إنْ كانَ أحدُكمْ لا بدَّ مادحاً أخاهُ . . فليقلْ : أحسبُ فلاناً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٣) .

ولا أزكِّي على اللهِ أحداً ، حسيبُهُ اللهُ ، إن كانَ يرىٰ أنَّهُ كذلكَ »[١] .

وهـٰذهِ الآفةُ تتطرَّقُ إلى المدحِ بالأوصافِ المطلقةِ التي تُعرفُ بالأدلَّةِ ؛ كقولِهِ : إنَّهُ متَّقٍ ، وورعٌ ، وزاهدٌ ، وخيِّرٌ ، وما يجري مَجراهُ .

فأمَّا إذا قالَ : رأيتُهُ يصلِّي بالليلِ ، ويتصدَّقُ ، ويحجُّ.. فهـٰذهِ أمورٌ مستيقنةٌ .

ومِنْ ذلكَ قولُهُ : إنَّهُ عدلٌ رضاً ؛ فإنَّ ذلكَ خفيٌّ ، فلا ينبغي أنْ يجزمَ القولَ بهِ إلاَّ بعدَ خبرةٍ باطنةٍ ، سمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً يُثني علىٰ رجلٍ ، فقالَ : أسافرتَ معهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : أخالطْتَهُ في المبايعةِ والمعاملةِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فأنتَ جارُهُ صباحَهُ ومساءَهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : واللهِ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ ؛ لا أراكَ تعرفُهُ[٢] .

الرابعةُ : أنَّهُ قدْ يفرحُ الممدوحَ وهوَ ظالمٌ أوْ فاسقٌ ، وذلكَ غيرُ جائزٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يغضبُ إذا مُدحَ الفاسقُ »[٣] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦١) ، ومسلم (٣٠٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٩٧) واللفظ له ، وفي (ك) وحدها زيادة : (لو سمعها.. ما أفلح) ، وقد رواها أحمد في المسند (٥/ ٥١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٧) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٣) .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ دعا لظالمٍ بالبقاءِ . . فقدْ أحبَّ أنْ يُعصى اللهُ تعالىٰ في أرضِهِ)[1] .

والظالمُ الفاسقُ ينبغي أنْ يُذمَّ ليغتمَّ ، ولا يمدحَ ليفرحَ .

* * *

وأمّا الممدوحُ . . فيضرُّهُ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ يحدِثُ فيهِ كبراً وإعجاباً ، وهما مهلكانِ ، قالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قاعداً ومعهُ الدِّرَّةُ والناسُ حولَهُ ؛ إذْ أقبلَ الجارودُ بنُ المنذرِ ، فقالَ رجلٌ : هـٰذا سيدُ ربيعةَ ، فسمعَها عمرُ ومَنْ حولَهُ ، وسمعَها الجارودُ ، فلمَّا دنا منهُ . . خفقَهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : ما لي ولكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ : ما لي ولكَ ! أمَا لقدْ سمعتَها ؟ قالَ : سمعتُها فمَهْ ؟ قالَ : خشيتُ أنْ يخالطَ قلبكَ منها شيءٌ ، فأحببْتُ أنْ أطأطِئَ منكَ[2] .

الثاني : هوَ أنَّهُ إذا أثنىٰ عليهِ بالخيرِ . . فرحَ بهِ وفترَ ، ورضيَ عنْ نفسِهِ ، ومَنْ أُعجبَ بنفسِهِ . . قلَّ تشمرُهُ ، وإنَّما يتشمَّرُ للعملِ مَنْ يرىٰ نفسَهُ مقصِّراً ، فأمَّا إذا انطلقَتِ الألسنةُ بالثناءِ عليهِ . . ظنَّ أنَّهُ قدْ أدركَ ، ولهـٰذا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩٨٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٥) .

قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قطعْتَ عُنقَ صاحبِكَ ، لوْ سمعَها . . ما أفلحَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مَدحْتَ أخاكَ في وجهِهِ . . فكأنَّما أمرَرْتَ علىٰ حلْقِهِ موسىً رميضاً »[2] .

وقالَ أيضاً لمَنْ مدحَ رجلاً : « عقرْتَ الرجلَ عقرَكَ اللهُ »[3] .

وقالَ مطرِّفٌ : (ما سمعتُ قطُّ ثناءً أوْ مدحةً إلاَّ تصاغرَتْ إليَّ نفسي) ، وقالَ يزيدُ بنُ أبي مسلمٍ : (ليسَ أحدٌ يسمعُ ثناءً عليهِ أوْ مدحةً إلا تراءىٰ لهُ الشيطانُ ، ولكنَّ المؤمنَ يراجعُ)[4] ، فقالَ ابنُ المباركِ : لقد صدقَ كلاهما ؛ أمَّا ما ذكرَهُ يزيدُ . . فذلكَ قلبُ العوامِّ ، وأمَّا ما ذكرَهُ مطرِّفٌ . . فذلكَ قلبُ الخواصِّ[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ مشىٰ رجلٌ إلىٰ رجلٍ بسكينٍ مرهفٍ . .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٥١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، ورواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) دون زيادة : « لو سمعها . . ما أفلح » .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢) من زيادات نعيم بن حماد ، **والرميض** : الحادُّ .
(٣) هو موقوف من قول الفاروق عمر رضي الله عنه كما رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٣٥) .
(٤) رواهما ابن المبارك في « الزهد » (٢١٣) من زيادات نعيم بن حماد .
(٥) حكاه عنه المحاسبي في « آداب النفوس » (ص ٧٣) ، وله كلام مفصل في المدح في « الوصايا » (ص١٧٣) .

كان خيراً لهُ مِنْ أنْ يثنيَ عليهِ في وجهِهِ »(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (المدحُ هوَ الذبحُ)(٢) ، وذلكَ لأنَّ المذبوحَ هوَ الذي يفترُ عنِ العملِ ، والمدحُ يوجبُ الفتورَ ، ولأنَّ المدحَ يورثُ الكبرَ والعجبَ ، وهما مهلكانِ كالذبحِ ، فلذلكَ شبَّهَهُ بهِ .

فإنْ سلمَ المدحُ عنْ هٰذِهِ الآفاتِ في حقِّ المادحِ والممدوحِ . . لمْ يكنْ بهِ بأسٌ ، بلْ ربَّما كان مندوباً إليهِ ، ولذلكَ أثنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الصحابةِ ، فقالَ : « لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمانِ العالمينَ . . لرجحَ »(٣) ، وقالَ لعمرَ : « لوْ لمْ أُبعثْ . . لبُعثْتَ يا عمرُ »(٤) ، وأيُّ ثناءٍ يزيدُ علىٰ هٰذا ؟ ولكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ عنْ صدقٍ وبصيرةٍ ، وكانُوا رضيَ اللهُ عنهُم أجلَّ رتبةً مِنْ أنْ يورثَهُمْ ذلكَ كبراً أوْ عجباً أوْ فتوراً .

بلْ مدحُ الرجلِ نفسَهُ قبيحٌ ؛ لما فيهِ مِنَ الكبرِ والتفاخرِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، وقد تبع المصنف في إيراده مرفوعاً الحارث المحاسبي في « آداب النفوس » (ص١٠٠) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٨٨) .

(٣) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٢٠١) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .

(٤) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٦٧٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ١٥٥) بلفظ : « لو لم أبعث فيكم نبياً . . لبعث عمر بن الخطاب » ، ورواه الترمذي (٣٦٨٦) بلفظ : « لو كان بعدي نبي . . لكان عمر بن الخطاب » .

عليهِ وسلَّمَ : « أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ »(١) أيْ : لستُ أقولُ هـٰذا تفاخراً كما يقصدُهُ الناسُ بالثناءِ علىٰ أنفسِهِمْ ، وذلكَ لأنَّ افتخارَهُ كانَ باللهِ ، وبقربِهِ مِنَ اللهِ ، لا بكونِهِ مقدَّماً علىٰ ولدِ آدمَ ، كما أنَّ المقبولَ عندَ الملكِ قبولاً عظيماً إنَّما يفتخرُ بقبولِهِ إيَّاهُ ، وبهِ يفرحُ ، لا بتقدُّمِهِ علىٰ بعضِ رعاياهُ .

وبتفصيلِ هـٰذِهِ الآفاتِ تقدرُ على الجمعِ بينَ ذمِّ المدحِ وبين الحثِّ عليهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجبَتْ » لمَّا أثنَوا علىٰ بعضِ الموتىٰ(٢) .

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ لبني آدمَ جلساءَ مِنَ الملائكةِ ، فإذا ذكرَ الرجلُ أخاهُ المسلمَ بخيرٍ . . قالَتِ الملائكةُ : ولكَ مثلُهُ ، وإذا ذكرَهُ بسوءٍ . . قالَتِ الملائكةُ : يا بنَ آدمَ المستورَ عورتُهُ ؛ اربَعْ علىٰ نفسِكَ ، واحمدِ اللهَ الذي سترَ عورتَكَ)(٣) .

فهـٰذِهِ آفاتُ المدحِ .

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٢٧٨) : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .
(٢) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١٥) ، **واربع علىٰ نفسك** : ارفق بها .

بيان ما على الممدوح

اعلمْ : أنَّ على الممدوحِ أنْ يكونَ شديدَ الاحترازِ عنْ آفةِ الكبرِ والعُجبِ ، وآفةِ الفتورِ ، ولا ينجو منهُ إلاَّ بأنْ يعرفَ نفسَهُ ، ويتأمَّلَ في خطرِ الخاتمةِ ، ودقائقِ الرياءِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، فإنَّهُ يعرفُ مِنْ نفسِهِ ما لا يعرفُهُ المادحُ ، ولوِ انكشفَ لهُ جميعُ أسرارِهِ وما يجري علىٰ خواطرِهِ.. لكفَّ المادحُ عنْ مدحِهِ .

وعليهِ أنْ يُظهرَ كراهةَ المدحِ بإذلالِ المادحِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « احثُوا في وجوهِ المدَّاحينَ الترابَ »(١) .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (لا يضرُّ المدحُ مَنْ عرفَ نفسَهُ)(٢) .

وأُثنيَ علىٰ رجلٍ مِنَ الصالحينَ ، فقالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هؤلاءِ لا يعرفوني ، وأنتَ تعرفُني)(٣) .

وقالَ آخرُ لمَّا أُثنيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ هـٰذا تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، وأنا أشهدُكَ علىٰ مقتِهِ)(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا أُثنيَ عليهِ : (اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي ما لا يعلمونَ ، ولا تؤاخذْني بما يقولونَ ، واجعلْني خيراً ممَّا يظنُّونَ)[1] .

وأثنىٰ رجلٌ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : (أتهلكُني وتهلكُ نفسكَ ؟!)[2] .

وأثنىٰ رجلٌ علىٰ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ في وجهِهِ ، وكانَ بلغَهُ أنَّهُ يقعُ فيهِ ، فقالَ عليٌّ : (أنا دونَ ما قلتَ ، وفوقَ ما في نفسِكَ)[3] .

* * *

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٣٢) عن الأصمعي يحكيه عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦١١) .

الآفة التاسعة عشرة : في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام

لا سيَّما فيما يتعلَّقُ باللهِ وصفاتِهِ ، ويرتبطُ بأمورِ الدينِ ، فلا يقدرُ علىٰ تقويمِ اللفظِ في أمورِ الدينِ إلاَّ العلماءُ الفصحاءُ .

فمَنْ قصَّرَ في علمٍ أوْ فصاحةٍ . لمْ يخلُ كلامُهُ عنِ الزَّللِ ، لكنَّ اللهَ تعالىٰ يعفو عنهُ لجهلِهِ .

مثالُهُ : ما قالَ حذيفةُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقلْ أحدُكُمْ : ما شاءَ اللهُ وشئْتَ ، ولكنْ ليقُلْ : ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شئْتَ »(١) .

وذلكَ لأنَّ في العطفِ المطلقِ تشريكاً وتسويةً ، وهوَ علىٰ خلافِ الاحترامِ .

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكلَّمَهُ في بعضِ الأمورِ ، فقالَ : ما شاءَ اللهُ وشئتَ ، فقالَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٤) ، ورواه أبو داوود (٤٩٨٠) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٥٥) بلفظ : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » ، وبلفظ المصنف رواه ابن ماجه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى النسائي (٧/٦) من حديث قتيلة رضي الله عنها : أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تندِّدون ، وإنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئتَ ، وتقولون : والكعبةِ ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، ويقولون : ما شاء الله ثم شئتَ .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أجعلتَني للهِ عديلاً ؟! بلْ ما شاءَ اللهُ وحدَهُ »(١) .

وخطبَ رجلٌ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : مَنْ يطعِ اللهَ ورسولَهُ . . فقدْ رَشَدَ ، ومَنْ يعصِهِمَا . . فقدْ غوىٰ ، فقالَ : « قُلْ : ومَنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ . . فقدْ غَوىٰ »(٢) ، فكرِهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ : « ومَنْ يعصِهِما » ؛ لأنَّهُ تسويةٌ وجمعٌ(٣) .

وكانَ إبراهيمُ يكرَهُ أنْ يقولَ الرجلُ : أعوذُ باللهِ وبكَ ، ويجوِّزُ أنْ يقولَ : أعوذُ باللهِ ثمَّ بكَ ، وأنْ يقولَ : لولا اللهُ ثمَّ فلانٌ ، ولا يقولُ : لولا اللهُ وفلانٌ(٤) .

وكرِهَ بعضُهمْ أنْ يُقالَ : اللَّهمَّ ؛ أعتقْنا مِنَ النارِ ، ويقولُ : العتقُ يكونُ بعدَ الورودِ ، وكانوا يستجيرونَ مِنَ النارِ ، ويتعوَّذونَ مِنَ النارِ(٥) .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٧٥٩) .
(٢) رواه مسلم (٨٧٠) .
(٣) أي : ذكرهما في حيز واحد ، هٰذا هو المشهور ، واختلف في ذلك ؛ فقيل : كان ذلك في أول الإسلام ، ثم لما شاع وانتشر وكمل نور الإيمان . . أبيح ذلك كما ذكره شرَّاح « الشفاء » ، وقال بعضهم : ولعل الأوجه أن يقال : العدول عن الاسمين الكريمين غير لائق وإن كان المقام يقتضي الضمير اختصاراً ، ولهٰذا ورد في كثير من القرآن : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، ولله در القائل :
أعِـدْ ذكـرَ نَعمـانَ لنـا إنَّ ذكـرَهُ		هـوَ المسـكُ مـا كـرَّرْتَـهُ يتضـوَّعُ
« إتحاف » (٧/ ٥٧٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٧) ، وإبراهيم هو النخعي .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٨) .

وقالَ رجلٌ : اللَّهمَّ ؛ اجعلْني ممَّنْ تصيبُهُ شفاعةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ حذيفةُ : (إنَّ اللهَ يُغني المؤمنينَ عنْ شفاعةِ محمدٍ ، وتكونُ شفاعتُهُ للمذنبينَ مِنَ المسلمينَ)(١) .

وقالَ إبراهيمُ : (إذا قالَ الرجلُ للرجلِ : يا حمارُ ، يا خنزيرُ . . قيلَ لهُ يومَ القيامةِ : حماراً رأيتَني خلقتُهُ ؟ خنزيراً رأيتَني خلقتُهُ ؟)(٢) .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ أحدَكمْ ليشركُ حتَّىٰ يشركَ بكلبِهِ ، يقولُ : لولاهُ . . لسُرِقْنا الليلةَ)(٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ ينهاكُمْ أنْ تحلفُوا بآبائِكُم ، مَنْ كانَ حالفاً . . فلْيحلِفْ باللهِ أوْ لِيَصْمُتْ » ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما حلفْتُ بها منذُ سمعتُها(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسمُّوا العنبَ الكرمَ ، إنَّما الكرمُ الرجلُ المسلمُ »(٥) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقولنَّ أحدُكُمْ : عبدي وأمتي ، كلُّكمْ عبيدُ اللهِ ، وكلُّ نسائِكُمْ إماءُ اللهِ ، ولكنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٠) .
(٤) رواه البخاري (٦٦٤٧) ، ومسلم (٣/١٦٤٦) واللفظ له .
(٥) رواه البخاري (٦١٨٣) ، ومسلم (٢٢٤٧) واللفظ له .

ليقُلْ : غلامي وجاريتي ، وفتايَ وفتاتي ، ولا يقُلِ المملوكُ : ربِّي ، ولا ربَّتي، ولكنْ ليقلْ: سيدي وسيدتي، فكلُّكمْ عبيدُ اللهِ، والربُّ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقولُوا للمنافقِ : سيدُنا ؛ فإنَّهُ إنْ يكنْ سيدَكُمْ . . فقدْ أسخطْتُمْ ربَّكمْ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : أنا بريءٌ مِنَ الإسلامِ ؛ فإنْ كانَ صادقاً . . فهوَ كما قالَ ، وإنْ كانَ كاذباً . . فلنْ يرجعَ إلى الإسلامِ سالماً »(٣) .

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا يدخلُ في الكلامِ ، ولا يمكنُ حصرُهُ .

ومَنْ تأمَّلَ جميعَ ما أوردناهُ مِنْ آفاتِ اللسانِ . . علمَ أنَّهُ إذا أطلقَ لسانَهُ . . لمْ يسلمْ ، وعندَ ذلكَ يعرفُ سرَّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صمتَ . . نجا »(٤) ، لأنَّ هٰذهِ الآفاتِ كلَّها مهالكُ ومعاطبُ ، وهيَ على طريقِ المتكلِّمِ .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٥) واللفظ له .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٧٧) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٦٧) واللفظ له .
(٣) رواه أبو داوود (٣٢٥٨) ، والنسائي (٦/٧) ، وابن ماجه (٢١٠٠) .
(٤) رواه الترمذي (٢٥٠١) .

فإنْ سكتَ . . سلمَ مِنْ الكلِّ ، وإنْ نطقَ وتكلَّمَ . . خاطرَ بنفسِهِ ، إلاَّ أنْ يوافقَهُ لسانٌ فصيحٌ ، وعلمٌ غزيرٌ ، وورعٌ حافظٌ ، ومراقبةٌ لازمةٌ ، ويقلِّلَ مِنَ الكلامِ ، فعساهُ يسلمُ عندَ ذلكَ ، وهوَ معَ جميعِ ذلكَ لا ينفكُّ عنِ الخطرِ ، فإنْ كنتَ لا تقدرُ علىٰ أنْ تكونَ ممَّن تكلَّمَ فغنمَ . . فكنْ ممَّنْ سكَتَ فسلِمَ ؛ فالسلامةُ إحدى الغنيمتَينِ .

* * *

الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالىٰ وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة

ومِنْ حقِّهِمُ الاشتغالُ بالعملِ بما في القرآنِ(١) ، إلاَّ أنَّ ذلك ثقيلٌ على النفوسِ ، والفضولَ خفيفٌ على القلبِ ، والعاميُّ يفرحُ بالخوضِ في العلمِ ؛ إذِ الشيطانُ يخيِّلُ إليهِ : إنَّكَ مِنَ العلماءِ وأهلِ الفضلِ .

ولا يزالُ يحبِّبُ إليهِ ذلكَ حتَّىٰ يتكلَّمَ في العلمِ بما هوَ كفرٌ وهوَ لا يدري .

وكلُّ كبيرةٍ يرتكبُها العاميُّ فهيَ أسلمُ لهُ مِنْ أنْ يتكلَّمَ في العلمِ ، لا سيَّما فيما يتعلَّقُ باللهِ وصفاتِهِ، وإنَّما شأنُ العوامِّ الاشتغالُ بالعباداتِ، والإيمانُ بما

---

(١) أي : من الأوامر والنواهي . « إتحاف » (٧/ ٥٧٩) ، ثم ما المراد بالعاميِّ في هٰذا الباب ؟ يقول الحافظ الزبيدي موضحاً ومبيناً في « إتحافه » (٧/ ٥٨١) : (وليس المراد بالعوام السوقية والأجلاف من أهل السواد فقط ، بل في معنى العوام الأديب والنحوي والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم ، بل كل عالم سوى المتجردين لعلم السباحة في بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه ، الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات ، المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات ، المخلصين لله تعالىٰ في العلوم والأعمال ، القائمين بجميع حدود الشريعةِ وآدابها في القيام بالطاعات وترك المنكرات ، المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله لله ، المستحقرين للدنيا بل للآخرة في جنب محبة الله تعالىٰ ، فهٰؤلاء هم أهل الغوص في بحر المعرفة ، وهم مع ذلك كله علىٰ خطر عظيم ، يهلك في العشرة تسعة إلىٰ أن يسعد واحد منهم بالدر المكنون والسر المخزون) .

وردَ بهِ القرآنُ ، والتسليمُ لما جاءَتْ بهِ الرسلُ مِنْ غيرِ بحثٍ .

وسؤالُهُمْ عنْ غيرِ ما يتعلقُ بالعباداتِ سوءُ أدبٍ منهُمْ ، يستحقُّونَ بهِ المقتَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويتعرَّضونَ لخطرِ الكفرِ ، وهوَ كسؤالِ ساسةِ الدوابِّ عنْ أسرارِ الملوكِ ، وهوَ موجبٌ للعقوبةِ ، وكلُّ منْ سألَ عنْ علمٍ غامضٍ ولمْ يبلغْ فهمُهُ تلكَ الدرجةَ فهوَ مذمومٌ ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إليهِ عاميٌّ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذروني ما تركتُكُمْ ، فإنَّما هلكَ مَنْ كانَ قبلَكُم بكثرةِ سؤالِهِمْ ، واختلافِهِمْ علىٰ أنبيائِهِمْ ، ما نهيتُكُمْ عنهُ فاجتنبُوهُ ، وما أمرتُكُمْ بهِ فأتوا منهُ ما استطعتُمْ »(١) .

وقالَ أنسٌ : سألَ الناسُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً حتَّىٰ أكثرُوا عليهِ وأغضبُوهُ ، فصعدَ المنبرَ وقالَ : « سلوني ، فلا تسألُوني عنْ شيءٍ إلا أنبأتُكُمْ بهِ » ، فقامَ إليهِ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبي ؟ فقالَ : « أبوكَ حذافةُ » ، فقامَ إليهِ شابَّانِ أخوانِ ، فقالا : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أبونا ؟ فقالَ : « أبوكُما الذي تدعيانِ إليهِ » فقامَ إليهِ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أفي الجنةِ أنا أمْ في النارِ ؟ فقالَ : لا ، بلْ في النارِ » ، فلمَّا رأى الناسُ غضبَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . أمسكُوا ، فقامَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : رضينا باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً ، فقالَ : « اجلسْ يا عمرُ ؛ يرحمُكَ اللهُ ، إنَّكَ ما علمتَ لموفقٌ »(٢) .

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٢٧) .

(٢) رواه البخاري (٩٣) ، ومسلم (٢٣٥٩) وليس فيهما ذكر الشابين والسائل عن =

وفي الحديثِ : (نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ القيلِ والقالِ ، وإضاعةِ المالِ ، وكثرةِ السؤالِ)(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يوشكُ الناسُ يتساءلونَ بينهُمْ حتَّىٰ يقولوا هـٰذا : خَلقَ اللهُ الخلقَ ، فمَنْ خلقَ اللهَ ؟ فإذا قالُوا ذلكَ . . فقولوا : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . . . ﴾ حتَّىٰ تختموا السورةَ ، ثمَّ ليتفُلْ أحدُكمْ عنْ يسارِهِ ثلاثاً ، وليستعذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ »(٢) .

وقالَ جابرٌ : (ما نزلَتْ آيةُ التلاعنِ إلا لكثرةِ السؤالِ)(٣) .

وفي قصةِ موسىٰ والخضرِ عليهما السلامُ تنبيهٌ على المنع مِنَ السؤالِ قبلَ أوانِ استحقاقِهِ ؛ إذْ قالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، فلمَّا سألَ عنِ السفينةِ . . أنكرَ عليهِ حتَّى اعتذرَ ، وقالَ : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ، فلمَّا لم يصبرْ حتَّىٰ سألَ ثلاثاً . . قالَ : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ وفارقَهُ .

فسؤالُ العوامِّ عنْ غوامضِ الدينِ مِنْ أعظمِ الآفاتِ ، وهوَ مِنَ المثيراتِ

= عاقبته ، ورواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٦٢) وليس فيه ذكر الشابين .

(١) رواه البخاري (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) (كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٧٢٢) ، وبنحوه رواه البخاري (٧٢٩٦) ، ومسلم (١٣٤) .

(٣) رواه الخطيب في « الأسماء المبهمة » (ص٤٨١) .

للفتنِ ، فيجبُ ذمُّهمْ ومنعهُمْ مِنْ ذلكَ ، وخوضُهُمْ في حروفِ القرآنِ يضاهي حالَ مَنْ كتبَ إليهِ الملكُ كتاباً، ورسمَ لهُ فيهِ أموراً ، فلمْ يشتغلْ بشيءٍ منها، وضيَّعَ زمانهُ في السؤالِ : أنَّ قرطاسَ الكتابِ عتيقٌ أمْ حديثٌ ؟ فاستحقَّ بذلكَ العقوبةَ لا محالةَ ، فكذلكَ تضييعُ العاميِّ حدودَ القرآنِ واشتغالُهُ بحروفهِ أهيَ قديمةٌ أمْ محدثةٌ ، وكذلكَ سائرُ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

تمّ كتاب آفات اللّسان

وهو الكتاب الرّابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، حمدًا دائمًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه

وصلى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ العربيّ المصطفى

خيرة الله من خلقه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا

يتلوه كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

كتاب
آفة الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آفة الغضب والحقد والحسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لا يتكلُ إلا علىٰ عفوهِ ورحمتهِ الراجونَ ، ولا يحذرُ سوىٰ غضبهِ وسطوتهِ الخائفونَ ، الذي استدرجَ عبادَهُ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وسلَّطَ عليهمُ الشهواتِ وأمرَهُمْ بتركِ ما يشتهونَ ، وابتلاهُمْ بالغضبِ وكلَّفَهُمْ كظمَ الغيظِ فيما يغضبونَ ، ثمَّ حفَّهُمْ بالمكارهِ واللذَّاتِ وأملىٰ لهُمْ لينظرَ كيفَ يعملونَ ، وامتحنَ بهِ حبَّهُمْ ليعلمَ صدقَهُمْ فيما يدَّعونَ ، وعرَّفَهُمْ أنَّهُ لا يخفىٰ عليهِ شيءٌ مما يسرُّونَ وما يعلنونَ ، وحذَّرهُمْ أنْ يأخذَهُمْ بغتةً وهُمْ لا يشعرونَ ؛ فقالَ : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

والصَّلاةُ علىٰ محمدٍ رسولِهِ الذي يسيرُ تحتَ لوائِهِ النبيونَ والمرسلونَ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ الأئمةِ المهديِّينَ والسادةِ المرضيِّينَ ، صلاةً يوازي عددُها عددَ ما كانَ مِنْ خلقِ اللهِ وما سيكونُ ، ويحظىٰ ببركتِها الأولونَ والآخرونَ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الغضبَ شعلةُ نارٍ اقتُبِسَتْ مِنْ نارِ اللهِ الموقدةِ ، التي تطلعُ على

الأفئدةِ ، وإنَّها لمستكنَّةٌ في طيِّ الفؤادِ استكنانَ الجمرِ تحتَ الرمادِ ، ويستخرجُها الكِبْرُ الدفينُ فِي قلبِ كلِّ جبارٍ عنيدٍ ؛ كما يستخرجُ الحجرُ النارَ مِنَ الحديدِ ، وقدِ انكشفَ للناظرينَ بنورِ اليقينِ : أنَّ الإنسانَ ينزِعُ منهُ عرقٌ إلى الشيطانِ اللعينِ ، فمَنِ استفزَّتْهُ نارُ الغضبِ.. فقدْ قويَتْ فيهِ قرابةُ الشيطانِ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، فإنَّ شأنَ الطينِ السكونُ والوقارُ ، وشأنَ النارِ التلظِّي والاستعارُ ، والحركةُ والاضطرابُ .

ومِنْ نتائجِ الغضبِ الحقدُ والحسدُ ، وبهما هلكَ مَنْ هلكَ ، وفسدَ مَنْ فسدَ ، ومفيضُهما مضغةٌ إذا صلَحَتْ.. صلُحَ سائرُ الجسدِ ، وإذا كانَ الحقدُ والحسدُ والغضبُ ممَّا يسوقُ العبدَ إلىٰ مواطنِ العطَبِ.. فما أحوجَهُ إلىٰ معرفةِ معاطبِهِ ومساويهِ ؛ ليحذرَ ذلكَ ويتقيهِ ، ويميطَهُ عنِ القلبِ إن كانَ وينقِّيهِ[1] ، ويعالجَهُ إنْ رسَخَ في قلبِهِ ويداويهِ ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ.. يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، ومَنْ عرفَهُ.. فالمعرفةُ لا تكفيهِ ، ما لمْ يعرفِ الطريقَ الذي بهِ يدفعُ الشرَّ ويُقصيهِ .

ونحنُ نذكرُ ذمَّ الغضبِ وآفاتِ الحقدِ والحسدِ في هـٰذا الكتابِ ، ويجمعُها بيانُ ذمِّ الغضبِ ، ثمَّ بيانُ حقيقةِ الغضبِ ، ثمَّ بيانُ أنَّ الغضبَ هلْ يمكنُ إزالةُ أصلِهِ بالرياضةِ أمْ لا ، ثمَّ بيانُ الأسبابِ المهيِّجةِ للغضبِ ، ثمَّ بيانُ علاجِ الغضبِ بعدَ هيجانِهِ ، ثمَّ بيانُ فضيلةِ كظْمِ الغيظِ ، ثمَّ بيانُ فضيلةِ

(١) وحقها ظهور علامة النصب ، وسكنت مراعاة للسجعة ، وكذا القول فيما سيأتي .

الحلمِ ، ثمَّ بيانُ القدرِ الذي بهِ يجوزُ الانتصارُ والتشفِّي مِنَ الكلامِ ، ثمَّ بيانُ القولِ في معنى الحقدِ ونتائجِهِ ، وفضيلةِ العفوِ والرفقِ ، ثمَّ بيانُ القولِ في ذمِّ الحسدِ ، وفي حقيقتِهِ وأسبابِهِ ومعالجتِهِ ، وغايةِ الواجبِ في إزالتِهِ ، ثمَّ بيانُ السببِ في كثرةِ الحسدِ بينَ الأمثالِ والأقرانِ والإخوةِ وبني العمِّ والأقاربِ وتأكُّدِهِ ، وقلَّتِهِ وضعفِهِ في غيرِهِمْ ، ثمَّ بيانُ الدواءِ الذي بهِ يُنفىٰ مرضُ الحسدِ عنِ القلبِ ، ثمَّ بيانُ القدرِ الواجبِ في نفيِ الحسدِ عنِ القلبِ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

بيان ذمّ الغضب

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ الآيةَ ، ذمَّ الكفارَ بما تظاهرُوا بهِ مِنَ الحميّةِ الصادرةِ عنِ الغضبِ بالباطلِ ، ومدحَ المؤمنينَ بما أنزلَ اللهُ عليهمْ مِنَ السكينةِ .

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مُرْني بعملٍ وأقللْ ، قالَ : « لا تغضبْ » ، ثمَّ أعادَ عليهِ ، قالَ : « لا تغضبْ »(١) .

وقالَ ابنُ عمرَ : قلتُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قلْ لي قولاً وأقللْ لعلِّي أعقلُهُ ، فقالَ : « لا تغضبْ » ، فأعدْتُ عليهِ مرّتينِ ، كلُّ ذلكَ يرجعُ إليَّ « لا تغضبْ »(٢) .

وعنْ عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ أنَّهُ سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ماذا يبعدُني مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : « لا تغضبْ »(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما تعدُّونَ الصُّرَعةَ

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٦٨٥) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٢/ ١٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٢٩) .

فيكُمْ ؟ » قلْنا : الذي لا يصرعُهُ الرجالُ ، قالَ : « ليسَ ذلكَ ، ولكنِ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »(٢) .

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ غضبَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ »(٣) .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ : (يا بُنيَّ ؛ إياكَ وكثرةَ الغضبِ ؛ فإنَّ كثرةَ الغضبِ تستخفُّ فؤادَ الرجلِ الحليمِ)(٤) .

وعنْ عكرمةَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ . قال : (السيدُ الذيْ لا يغلبُهُ الغضبُ)(٥) .

وقالَ أبو الدرداءِ : قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « لا تغضبْ »(٦) .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٨) .
(٢) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٣٤٦ـ ٣٤٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٤٨) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٢٨٤) .
(٥) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ٣٢٨) .
(٦) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٢١) ، وفي « الأوسط » (٢٣٧٤) .

وقالَ يحيىٰ لعيسىٰ عليهِما السلامُ : لا تغضبْ ، قالَ : لا أستطيعُ ألاَّ أغضبَ ، إنَّما أنا بشرٌ ، قالَ : لا تقتنِ مالاً ، قالَ : هـٰذا عسىٰ[1] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغضبُ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصَّبِرُ العسلَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما غضبَ أحدٌ إلا أشفىٰ علىٰ جهنَّمَ »[3] .

وقالَ لهُ رجلٌ : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : « غضبُ اللهِ » ، قالَ : فما يبعدُني مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : « لا تغضبْ »[4] .

* * *

الآثارُ :

قالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ كلمَّا غضبتَ . . وثبتَ ؟! يوشكُ أنْ تثِبَ وثبةً فتقعَ في النارِ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٨٦) عن عبد الله بن أبي الهذيل .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٤١٧/١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤١) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه .
(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس : « للنار باب لا يدخله إلا من شفىٰ غيظه بمعصية الله » وإسناده ضعيف) .
(٤) تقدم قريباً .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٦) .

وعنْ ذي القرنينِ أنَّهُ لقيَ مَلَكاً منَ الملائكةِ ، فقالَ : علِّمْني علماً أزدادُ بهِ إيماناً ويقيناً ، قالَ : لا تغضبْ ؛ فإنَّ الشيطانَ أقدرُ ما يكونُ على ابنِ آدمَ حينَ يغضبُ ، فرُدَّ الغضبَ بالكظمِ ، وسكِّنْهُ بالتؤدةِ ، وإياكَ والعجلةَ ؛ فإنَّكَ إذا عجلتَ . . أخطأتَ حظَّكَ ، وكنْ سهلاً ليناً للقريبِ والبعيدِ ، ولا تكنْ جباراً عنيداً(١) .

وعنْ وهبِ بنِ منبِّهٍ : أنَّ راهباً كانَ في صومعتِهِ ، فأرادَ الشيطانُ أنْ يضلَّهُ ، فلمْ يستطعْ ، فجاءَهُ حتَّىٰ ناداهُ ، فقالَ لهُ : افتحْ ، فلمْ يجبْهُ ، فقالَ : افتحْ ؛ فإنِّي إنْ ذهبتُ . . ندمتَ ، فلمْ يلتفتْ إليهِ ، فقالَ : إنِّي أنا المسيحُ ، قالَ الراهبُ : وإنْ كنتَ المسيحَ ، فما أصنعُ بكَ ؟ أليسَ قدْ أمرْتَنا بالعبادةِ والاجتهادِ ، ووعدْتَنا القيامةَ ؟ فلوْ جئْتَنا اليومَ بغيرِ ذلكَ . . لمْ نقبلْهُ منكَ ، قالَ : فقالَ : فإنِّي أنا الشيطانُ وقدْ أردْتُ أنْ أضلَّكَ ، فلمْ أستطعْ ، فجئتُكَ لتسألَني عمَّا شئتَ فأخبرَكَ ، قالَ : ما أريدُ أنْ أسألَكَ عنْ شيءٍ ، قالَ : فولَّىٰ مدبراً ، فقالَ الراهبُ : ألا تسمعُ ؟ قال : بلىٰ ، قالَ : أخبرْني أيُّ أخلاقِ بني آدمَ أعونُ لكَ عليهِمْ ؟ قالَ : الحِدَّةُ ، إنَّ الرجلَ إذا كانَ حديداً . . قلَّبناهُ كما يقلِّبُ الصبيانُ الكرةَ(٢) .

وقالَ خيثمةُ : (الشيطانُ يقولُ : كيفَ يغلبُني ابنُ آدمَ ، وإذا رضيَ . .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٥٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٣٢) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٥٢) .

جئتُ حتَّىٰ أكونَ في قلبِهِ ، وإذا غضبَ.. طرتُ حتَّىٰ أكونَ في رأسِهِ ؟!)[1] .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : (الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ)[2] .

وقالَ بعضُ الأنصارِ : (رأسُ الحمقِ الحِدَّةُ ، وقائدُهُ الغضبُ ، ومَنْ رضيَ بالجهلِ.. استغنىٰ عنِ الحلمِ ، والحلمُ زينٌ ومنفعةٌ ، والجهلُ شينٌ ومضرَّةٌ ، والسكوتُ عنْ جوابِ الأحمقِ جوابُهُ)[3] .

وقالَ مجاهدٌ : (قالَ إبليسُ : ما أعجزَني بنو آدمَ فلنْ يعجزوني في ثلاثٍ ؛ إذا سكِرَ أحدُهُم.. أخذنا بخزامتِهِ ، فقدْناهُ حيثُ شئْنا ، وعملَ لنا بما أحببْنا ، وإذا غضبَ.. قالَ بما لا يعلمُ ، وعملَ بما يندمُ ، ونبخِّلُهُ بما في يديهِ ، ونمنِّيهِ بما لا يقدرُ عليهِ)[4] .

وقيلَ لحكيمٍ : ما أملكَ فلاناً لنفسِهِ ! قالَ : إذاً لا تذلُّهُ الشهوةُ ، ولا يصرعَهُ الهوىٰ ، ولا يغلبَهُ الغضبُ[5] .

وقالَ بعضُهمْ : (إيَّاكَ والغضبَ ؛ فإنَّهُ يصيِّرُكَ إلىٰ ذلةِ الاعتذارِ)[6] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١١٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/ ٧) .
(٣) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧١٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم المسكر » (٣٨) .
(٥) عزاه أبو حيان التوحيدي في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٢٦٤) لفيثاغورس ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٧) : (رواه ابن أبي الدنيا) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/ ٧) .

وقيلَ : (اتقوا الغضبَ ، فإنَّهُ يفسدُ الإيمانَ كما يفسدُ الصبرُ العسلَ)[١] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (انظروُا إلىٰ حلْمِ الرجلِ عندَ غضبِهِ ، وأمانتِهِ عندَ طمعِهِ ، وما علمُكَ بحلمِهِ إذا لمْ يغضبْ ؟! وما علمُكَ بأمانتِهِ إذا لمْ يطمعْ ؟!)[٢] .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ إلىٰ عاملِهِ : (ألا تعاقبَ عندَ غضبِكَ ، وإذا غضبْتَ علىٰ رجلٍ . . فاحبسْهُ ، فإذا سكنَ غضبُكَ . . فأخرجْهُ فعاقبْهُ علىٰ قدْرِ ذنبِهِ ، ولا تجاوزْ بهِ خمسةَ عشرَ سوطاً)[٣] .

وقالَ عليُّ بنُ زيدٍ : أغلظَ رجلٌ مِنْ قريشٍ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ القولَ ، فأطرقَ عمرُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : أردْتَ أنْ يستفزَّني الشيطانُ بعزِّ السلطانِ ، فأنالَ منكَ اليومَ ما تنالُهُ منِّي غداً[٤] .

وقالَ بعضُهمْ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يثبتُ العقلُ عندَ الغضبِ ، كما لا تثبتُ روحُ الحيِّ في التنانيرِ المسجورةِ ، فأقلُّ الناسِ غضباً أعقلُهُمْ ، فإنْ كانَ للدنيا . . كانَ دهاءً ومكراً ، وإنْ كانَ للآخرةِ . . كانَ علماً وحلماً)[٥] .

---

(١) تقدم مرفوعاً قريباً .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ١٧٨) .
(٣) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٠٤) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٧١) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٨) .

وقدْ قيلَ : (الغضبُ عدوُّ العقلِ ، والغضبُ غولُ العقلِ)[١] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا خطبَ . . قَالَ في خطبتِهِ : (أفلحَ منكُمْ مَنْ حُفِظَ مِنَ الهوىٰ والطمعِ والغضبِ)[٢] .

وقالَ بعضُهمْ : (مَنْ أطاعَ شهوتَهُ وغضبَهُ . . قاداهُ إلى النارِ)[٣] .

وقالَ الحسنُ : (مِنْ علاماتِ المسلمِ : قوةٌ في دينٍ ، وحزمٌ في لينٍ ، وإيمانٌ في يقينٍ ، وعلمٌ في حلمٍ ، وكيسٌ في رفقٍ ، وإعطاءٌ في حقٍّ ، وقصدٌ في غنىً ، وتجمُّلٌ في فاقةٍ ، وإحسانٌ في قدرةٍ ، وتحمُّلٌ في رفاقةٍ ، وصبرٌ في شدَّةٍ ، لا يغلبُهُ الغضبُ ، ولا تجمحُ بهِ الحميَّةُ ، ولا تغلبُهُ شهوتُهُ ، ولا يفضحُهُ بطنُهُ ، ولا يستخفُّهُ حرصُهُ ، ولا تقصرُ بهِ نيتُهُ ، ينصُرُ المظلومَ ، ويرحمُ الضعيفَ ، ولا يبخلُ ولا يبذِّرُ ، ولا يسرِفُ ولا يقتِّرُ ، يغفرُ إذا ظُلِمَ ، ويعفو عنِ الجاهلِ ، نفسُهُ منهُ في عناءٍ ، والناسُ منهُ في رخاءٍ)[٤] .

وقيلَ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ : أجمِلْ لنا حسنَ الخلقِ في كلمةٍ ، فقالَ : تركُ الغضبِ[٥] .

وقالَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ لمَنْ معَهُ : مَنْ يتكفَّلُ لي ألاَّ يغضبَ ويكونَ معي في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/٨) .
(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٢١٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف (٨/٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٨/٨) .

درجتي ، ويكونَ بعدي خليفتي ؟ فقالَ شابٌّ مِنَ القومِ : أنا ، ثمَّ أعادَ عليهِ ، فقالَ : الشابُّ : أنا أُوفِّي بهِ ، فلما ماتَ . . كانَ في منزلتِهِ بعدَهُ ، وهوَ ذو الكِفْلِ ، سُمِّيَ بهِ ؛ لأنَّهُ كفَلَ بالغضبِ ووفَّىٰ بهِ[1] .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (للكفرِ أربعةُ أركانٍ : الغضبُ ، والشهوةُ ، والخُرْقُ ، والطمعُ)[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٨) ، وفي (أ) : (كفل بترك الغضب) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٧٠) ، وفي (أ) : (الحرص) بدل (الخرق) .

بيان حقيقة الغضب

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا خلقَ الحيوانَ معرَّضاً للفسادِ والمُوتانِ بأسبابٍ في داخلِ بدنِهِ وأسبابٍ خارجةٍ عنهُ . . أنعمَ عليهِ بما يحميهِ عنِ الفسادِ ، ويدفعُ عنهُ الهلاكَ إلىٰ أجلٍ معلومٍ سمَّاهُ في كتابِهِ .

أما السببُ الداخلُ : فهوَ أنَّهُ ركَّبَهُ منَ الحرارةِ والرطوبةِ ، وجعلَ بينَ الحرارةِ والرطوبةِ عداوةً ومضادَّةً ؛ فلا تزالُ الحرارةُ تحلِّلُ الرطوبةَ وتجفِّفُها وتبخِّرُها حتىٰ تتفشَّىٰ أجزاؤُها بخاراً يتصاعدُ منها ، فلوْ لمْ يتصلْ بالرطوبةِ مددٌ مِنَ الغذاءِ يَجبرُ ما انحلَّ وتبخَّرَ منْ أجزائِها . لفسدَ الحيوانُ ، فخلقَ اللهُ الغذاءَ الموافقَ لبدنِ الحيوانِ ، وخلقَ في الحيوانِ شهوةً تبعثُهُ علىٰ تناولِ الغذاءِ ؛ كالموكلِ بهِ في جبْرِ ما انكسرَ وسدِّ ما انثلمَ ؛ ليكونَ ذلكَ حافظاً لهُ مِنَ الهلاكِ بهٰذا السببِ .

وأمَّا الأسبابُ الخارجةُ التي يتعرَّضُ لها الإنسانُ : فكالسيفِ والسِّنانِ وسائرِ المهلكاتِ التي يقصدُ بها ، فافتقرَ إلىٰ قوَّةٍ وحميَّةٍ تثورُ مِنْ باطنِهِ فتدفعُ المهلكاتِ عنهُ ، فخلقَ اللهُ الغضبَ مِنَ النارِ ، وغرزَهُ في الإنسانِ ، وعجنَهُ بطينتِهِ ، فمهما قُصِدَ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِ ، ومقصودٍ مِنْ مقاصدِهِ . . اشتعلَتْ نارُ الغضبِ ، وثارَتْ ثوراناً يغلي منها دمُ القلبِ ، وينتشرُ في العروقِ ، ويرتفعُ إلىٰ أعالي البدنِ كما ترتفعُ النارُ ، وكما يرتفعُ الماءُ الذيْ

يغلي في القِدْرِ ؛ فلذلكَ ينصبُّ إلى الوجهِ ، فيحمرُّ الوجهُ والعينُ ، والبشرةُ لصفائِها تحكي لونَ ما وراءَها مِنْ حمرةِ الدمِ ؛ كما تحكي الزجاجةُ لونَ ما فيها ، وإنَّما ينبسطُ الدمُ إذا غضبَ علىٰ مَنْ دونَهُ واستشعرَ القدرةَ عليهِ ، فإنْ صدرَ الغضبُ علىٰ مَنْ فوقَهُ ، وكانَ معَهُ يأسٌ مِنَ الانتقامِ . . تولَّدَ منهُ انقباضُ الدمِ مِنْ ظاهرِ الجلدِ إلىٰ جوفِ القلبِ ، وصارَ حزناً ، ولذلكَ يصفرُّ اللونُ ، وإنْ كانَ الغضبُ علىٰ نظيرٍ يشكُّ فيهِ . . تولَّدَ منهُ تردُّدُ الدمِ بينَ انقباضٍ وانبساطٍ ؛ فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطربُ .

وبالجملةِ : فقوَّةُ الغضبِ محلُّها القلبُ ، ومعناها : غليانُ دمِ القلبِ لطلبِ الانتقامِ ، وإنَّما تتوجَّهُ هـٰذهِ القوَّةُ عندَ ثورانِها إلىٰ دفعِ المؤذياتِ قبلَ وقوعِها ، وإلى التشفِّي والانتقامِ بعدَ وقوعِها ، والانتقامُ قوتُ هـٰذهِ القوَّةِ وشهوتُها ، وفيه لذَّتُها ، ولا تسكنُ إلا بهِ .

ثمَّ الناسُ في هـٰذهِ القوَّةِ علىٰ درجاتٍ ثلاثٍ في أوَّلِ الفطرةِ : مِنَ التفريطِ ، والإفراطِ ، والاعتدالِ .

أمَّا التفريطُ : فبفقدِ هـٰذهِ القوَّةِ أوْ ضعفِها ، وذلكَ مذمومٌ ، وهوَ الذيْ يُقالُ فيهِ : (إنَّهُ لا حميَّةَ لهُ) ، ولذلكَ قالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (منِ استُغضِبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ)[1] .

فمَنْ فَقَدَ قوَّةَ الحميَّةِ والغضبِ أصلاً . . فهوَ ناقصٌ جدّاً ، وقدْ وصفَ اللهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٤٣) .

سبحانَهُ أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشدَّةِ والحميَّةِ ، فقالَ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وإنَّما الغِلْظةُ والشدَّةُ مِنْ آثارِ قوَّةِ الحميَّةِ ، وهوَ الغضبُ .

وأمَّا الإفراطُ : فهوَ أنْ تغلبَ هٰذهِ الصفةُ حتَّىٰ تخرجَ عنْ سياسةِ العقلِ والدينِ وطاعتِهِ ، ولا يبقىٰ للمرءِ معها بصيرةٌ ولا نظرٌ ولا فكرٌ ولا اختيارٌ ، بلْ يصيرُ في صورةِ المضطرِّ .

وسببُ غلبتِهِ : أمورٌ غريزيَّةٌ ، وأمورٌ اعتياديَّةٌ ، فربَّ إنسانٍ هوَ بالفطرةِ مستعدٌّ لسرعةِ الغضبِ ، حتَّىٰ كأنَّ صورتَهُ في الفطرةِ صورةُ غضبانَ ، ويعينُ علىٰ ذلكَ حرارةُ مزاجِ القلبِ ؛ لأنَّ الغضبَ مِنَ النارِ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) ، وإنَّما برودةُ المزاجِ تطفئُهُ وتكسرُ سَوْرتَهُ .

وأمَّا الأسبابُ الاعتياديةُ : فهوَ أنْ يخالطَ قوماً يتبجَّحونَ بتشفِّي الغيظِ وطاعةِ الغضبِ ، ويسمُّونَ ذلكَ شجاعةً ورجوليَّةً ، فيقولُ الواحدُ منهمْ : (أنا الذي لا أصبرُ على المكرِ والمحالِ ، ولا أحتملُ مِنْ أحدٍ أمراً) ،

---

(١) إذ روى الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلىٰ حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه . . . » الحديث .
وروىٰ أبو داوود (٤٧٨٤) من حديث عطية السعدي رضي الله عنه مرفوعاً : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار . . . » الحديث .

ومعناهُ : لا عقلَ لي ولا حلمَ ، ثمَّ يذكرُهُ في معرِضِ الفخرِ لجهلِهِ ، فمَنْ سمعَهُ .. رسَخ في نفسِهِ حسنُ الغضبِ ، وحبُّ التشبُّهِ بالقومِ ، فيقوىٰ بِهِ الغضبُ .

ومهما اشتعلَتْ نارُ الغضبِ وقويَ اضطرامُها .. أعمَتْ صاحبَها ، وأصمَّتْهُ عنْ كلِّ موعظةٍ ، فإذا وُعِظَ .. لمْ يسمعْ ، بلْ زادَهُ ذلكَ غضباً ، فإنِ استضاءَ بنورِ عقلِهِ ، وراجعَ نفسَهُ .. لمْ يقدرْ ؛ إذْ ينطفِىءُ نورُ العقلِ ، وينمحي في الحالِ بدخانِ الغضبِ ، فإنَّ معدِنَ الفكرِ الدماغُ ، ويتصاعدُ عندَ شدَّةِ الغضبِ منْ غليانِ دمِ القلبِ دخانٌ إلى الدماغِ مظلمٌ يستولي علىٰ معادنِ الفكرِ ، وربَّما يتعدَّىٰ إلىٰ معادنِ الحسِّ ، فتظلمُ عينُهُ حتَّىٰ لا يرىٰ بعينِهِ ، وتسودُّ عليهِ الدنيا بأسرِها ، ويكونُ دماغُهُ علىٰ مثالِ كهفٍ اضطرمَتْ فيهِ نارٌ فاسودَّ جوُّهُ ، وحميَ مستقرُّهُ ، وامتلأَ بالدخانِ جوانبُهُ ، وكانَ فيهِ سراجٌ ضعيفٌ فانطفأَ وانمحىٰ نورُهُ ، فلا تثبُتُ فيهِ قدمٌ ، ولا يُسمَعُ فيهِ كلمٌ ، ولا ترُىٰ فيهِ صورةٌ ، ولا يقدرُ علىٰ إطفائِهِ لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارجٍ ، بلْ ينبغي أنْ يصبرَ إلىٰ أنْ يحترقَ جميعُ ما يقبلُ الاحتراقَ ، فكذلكَ يفعلُ الغضبُ بالقلبِ والدماغِ .

وربما تقوىٰ نارُ الغضبِ فتفنى الرطوبةُ التي بها حياةُ القلبِ ، فيموتُ صاحبُهُ غيظاً ؛ كما تقوى النارُ في الكهفِ فيتشقَّقُ وتنهدُّ أعاليهِ علىٰ أسافلِهِ ، وذلكَ لإبطالِ النارِ ما في جوانبِهِ منَ القوَّةِ الممسكةِ الجامعةِ لأجزائِهِ ، فهكذا حالُ القلبِ معَ الغضبِ .

وبالحقيقةِ فالسفينةُ في ملتطمِ الأمواجِ عندَ اضطرابِ الرياحِ في لجَّةِ البحرِ أحسنُ حالاً وأرجىٰ سلامةً منَ النفسِ المضطربةِ غيظاً ؛ إذْ في السفينةِ مَنْ يحتالُ لتسكينِها وتدبيرِها ، وينظرُ لها ويسوسُها ، وأمَّا القلبُ.. فهوَ صاحبُ السفينةِ ، وقدْ سقطَتْ حيلتُهُ ؛ إذْ أعماهُ الغضبُ وأصمَّهُ .

ومِنْ آثارِ هـٰذا الغضبِ في الظاهرِ : تغيُّرُ اللَّونِ ، وشدَّةُ الرِّعدةِ في الأطرافِ ، وخروجُ الأفعالِ عنِ الترتيبِ والنظامِ ، واضطرابُ الحركةِ والكلامِ ، حتَّىٰ يظهرُ الزبدُ على الأشداقِ ، وتحمرُّ الأحداقُ ، وتنقلبُ المناخرُ ، وتستحيلُ الخِلْقةُ ، ولَوْ رأى الغضبانُ في حالِ غضبِهِ قبحَ صورتِهِ.. لسكنَ غضبُهُ حياءً مِنْ قبحِ صورتِهِ واستحالةِ خِلْقتِهِ ، وقبحُ باطنِهِ أعظمُ مِنْ قبحِ ظاهرِهِ ؛ فإنَّ الظاهرَ عنوانُ الباطنِ ، وإنَّما قبُحَتْ صورةُ الباطنِ أوَّلاً ثمَّ انتشرَ قبحُها إلى الظاهرِ ثانياً ، فتغيُّرُ الظاهرِ ثمرةُ تغيُّرِ الباطنِ ، فقسِ المثمَرَ بالثمرةِ ، فهـٰذا أثرُهُ في الجسدِ .

وأمَّا أثرُهُ في اللسانِ : فانطلاقُهُ بالشتمِ والفُحشِ وقبائحِ الكلامِ الذي يستحيي منهُ ذوو العقولِ ، ويستحيي منهُ قائلُهُ عندَ فتورِ الغضبِ ، وذلكَ معَ تخبُّطِ النظمِ ، واضطرابِ اللفظِ .

وأمَّا أثرُهُ على الأعضاءِ : فالضربُ ، والتهجُّمُ ، والتمزيقُ ، والقتلُ ، والجرحُ عندَ التمكُّنِ مِنْ غيرِ مبالاةٍ ، فإنْ هربَ منهُ المغضوبُ عليهِ ، أوْ فاتَهُ بسببٍ وعجزَ عنِ التشفِّي.. رجعَ الغضبُ علىٰ صاحبِهِ ، فيمزِّقُ ثوبَ

نفسِهِ ، ويلطِمُ نفسَهُ ، وقدْ يضرِبُ بيدِهِ على الأرضِ ، ويعدو عدْوَ الوالِهِ السكرانِ والمدهوشِ المتحيِّرِ ، وربَّما يسقطُ صريعاً ، لا يطيقُ العدْوَ والنهوضَ لشدَّةِ الغضبِ ، ويعتريهِ مثلُ الغشيةِ ، وربَّما يضربُ الجماداتِ والحيواناتِ ، فيضربُ القصعةَ مثلاً على الأرضِ ، وقدْ يكسرُ المائدةَ إذا غضبَ عليها ، ويتعاطىٰ أفعالَ المجانينِ ، فيشتمُ البهيمةَ والجمادَ ويخاطبُها ويقولُ : إلىٰ متىٰ هـٰذا منكِ يا كيتَ وكيتَ ؟! كأنَّهُ يخاطبُ عاقلاً ! حتَّىٰ ربَّما رفستْهُ دابةٌ فيرفسُ الدابَّةَ ويقابلُها بذلكَ .

وأمَّا أثرُهُ في القلبِ معَ المغضوبِ عليهِ : فالحقدُ ، والحسدُ ، وإضمارُ السوءِ ، والشماتةُ بالمساءاتِ ، والحزنُ بالسرورِ ، والعزمُ علىٰ إفشاءِ السرِّ وهتكِ السترِ ، والاستهزاءُ ، وغيرُ ذلكَ مِنَ القبائحِ .

فهـٰذهِ ثمرةُ الغضبِ المفرطِ .

وأمَّا ثمرةُ الحميَّةِ الضعيفةِ : فقلَّةُ الأنفةِ ممَّا يُؤنفُ منهُ ؛ مِنَ التعرضِ للحُرَمِ ، والزوجةِ ، والأمِّ ، واحتمالُ الذلِّ من الأخسَّاءِ ، وصغرُ النفسِ ، والقماءةُ ، وهوَ أيضاً مذمومٌ ؛ إذْ مِنْ ثمراتِهِ عدمُ الغَيرةِ على الحُرَمِ ، وهوَ خنوثةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ سعداً لغيورٌ ، وأنا أغيرُ منْ سعدٍ ، وإنَّ اللهَ أغيرُ منِّي »(١) .

وإنَّما خلقَتِ الغَيرةُ لحفظِ الأنسابِ ، ولو تسامحَ الناسُ بذلكَ . .

---

(١) رواه البخاري (٦٨٤٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

لاختلطتِ الأنسابُ ، ولذلكَ قيلَ : (كلُّ أمَّةٍ وُضعَتِ الغيرةُ في رجالِها . . وُضعَتِ الصيانةُ في نسائِها) .

ومنْ ضعفِ الغضبِ الخَوَرُ ، والسكوتُ عندَ مشاهدةِ المنكراتِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيارُ أمتِي أحدَّاؤُها »(١) يعني : في الدينِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ .

بلْ مَنْ فقدَ الغضبَ . . عجزَ عنْ رياضةِ نفسِهِ ؛ إذْ لا تتمُّ الرياضةُ إلا بتسليطِ الغضبِ على الشهوةِ حتَّىٰ يغضبَ علىٰ نفسِهِ عندَ الميلِ إلى الشهواتِ الخسيسةِ .

ففقدُ الغضبِ مذمومٌ ، وإنَّما المحمودُ غضبٌ ينتظرُ إشارةَ العقلِ والدينِ ، فينبعثُ حيثُ تجبُ الحميَّةُ ، وينطفىءُ حيثُ يحسُنُ الحلمُ ، وحفظُهُ علىٰ حدِّ الاعتدالِ هوَ الاستقامةُ التي كلَّفَ اللهُ بها عبادَهُ ، وهوَ الوسطُ الذي وصفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « خيرُ الأمورِ أوساطُها »(٢) ، فمَنْ مالَ غضبُهُ إلى الفتورِ حتَّىٰ أحسَّ مِنْ نفسِهِ بضعفِ الغَيرةِ

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٤٨ ، ٧٩٤٩) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : « الذين إذا غضبوا . . رجعوا » ، **وأحداء** : جمع حديد ، والمعنىٰ كما أشار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٣) : (أنشطها وأسرعها إلى الخير) ، أو أن الحدة الصلابة في الدين كما في « النهاية » (١/ ٣٥٣) .

(٢) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣١٧٠) عن معبد الجهني عن بعض الصحابة مرفوعاً .

وخسَّةِ النفسِ في احتمالِ الذلِّ والضيمِ في غيرِ محلِّهِ . . فينبغي أنْ يعالجَ نفسَهُ حتَّىٰ يقوِّيَ غضبَهُ ، ومَنْ مالَ غضبُهُ إلى الإفراطِ حتَّىٰ جرَّهُ إلى التهوُّرِ واقتحامِ الفواحشِ . . فينبغي أنْ يعالجَ نفسَهُ ليغضَّ مِنْ سَوْرةِ الغضبِ ، ويقفَ على الوسطِ الحقِّ بينَ الطرفينِ ، فهوَ الصراطُ المستقيمُ ، وهوَ أرقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ ، وأحدُّ مِنَ السيفِ ، فإنْ عجزَ عنهُ . . فليطلبِ القربَ منهُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ ، فليسَ كلُّ مَنْ عجزَ عنِ الإتيانِ بالخيرِ كلِّهِ ينبغي أنْ يأتيَ بالشرِّ كلِّهِ ، ولكنْ بعضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بعضٍ ، وبعضُ الخيرِ أرفعُ مِنْ بعضٍ .

فهٰذهِ حقيقةُ الغضبِ ودرجاتُهُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضيهِ ؛ إنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .

* * *

بيان أنّ الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرّياضة أم لا ؟

اعلم : أنَّهُ ظنَّ ظانُّونَ أنَّهُ يُتصوَّرُ محوُ الغضبِ بالكلِّيَّةِ ، وزعموا أنَّ الرياضةَ إليهِ تتوجَّهُ ، وإيَّاهُ تقصدُ ، وظنَّ آخرونَ أنَّهُ لا يقبلُ العلاجَ أصلاً ، وهٰذا رأيُ مَنْ يظنُّ أنَّ الخُلُقَ كالخَلْقِ ، وكلاهما لا يقبلُ التغييرَ .

وكلا الرأيينِ ضعيفٌ ، بلِ الحقُّ فيهِ ما نذكرُهُ ؛ وهوَ أنَّهُ ما دامَ الإنسانُ يحبُّ شيئاً ويكرهُ شيئاً . . فلا يخلو عَنِ الغيظِ والغضبِ ، وما دامَ يوافقُهُ شيءٌ ويخالفُهُ آخرُ . . فلابدَّ وأنْ يحبَّ ما يوافقُهُ ويكرهَ ما يخالفُهُ ، والغضبُ يتبعُ ذلكَ ، فإنَّهُ مهما أُخِذَ منهُ محبوبُهُ . . غضبَ لا محالةَ ، وإذا قُصِدَ بمكروهٍ . . غضبَ لا محالةَ ، **إلا أنَّ ما يحبُّهُ الإنسانُ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ** :

الأوَّلُ : ما هوَ ضروريٌّ في حقِّ الكافَّةِ :

وهوَ كالقوتِ ، والمسكنِ ، والملبسِ ، وصحةِ البدنِ ، فمنْ قُصِدَ بدنُهُ بالضربِ والجرحِ . . فلا بدَّ وأنْ يغضبَ ، وكذلكَ إذا أُخِذَ منهُ ثوبُهُ الذي يسترُ عورتَهُ ، وكذلكَ إذا أُخرِجَ مِنْ دارِهِ التي هيَ مسكنُهُ ، أوْ أُريقَ ماؤُهُ الذي هوَ لعطشِهِ ، فهٰذهِ ضروراتٌ لا يخلو الإنسانُ مِنْ كراهةِ زوالِها ، ومِنْ غيظٍ علىٰ مَنْ يتعرَّضُ لها .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني : ما ليسَ ضرورياً لأحدٍ مِنَ الخلقِ :

كالجاهِ ، والمالِ الكثيرِ ، والغلمانِ ، والدوابِّ ، فإنَّ هـٰذهِ الأمورَ صارَتْ محبوبةً بالعادةِ والجهلِ بمقاصدِ الأمورِ ، حتَّىٰ صارَ الذهبُ والفضةُ محبوبينِ في أنفسِهما فيُكنزانِ ، ويغضبُ علىٰ مَنْ يسرقُهُما وإنْ كانَ مستغنياً عنهُما في القوتِ ، فهـٰذا الجنسُ ممَّا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ الإنسانُ عنْ أصلِ الغيظِ عليهِ ، فإذا كانَتْ لهُ دارٌ زائدةٌ علىٰ مسكنِهِ ، فهدمَها ظالمٌ . . فيجوزُ ألاَّ يغضبَ ؛ إذْ يجوزُ أنْ يكونَ بصيراً بأمرِ الدنيا ، فيزهدَ في الزيادةِ على الحاجةِ ، فلا يغضبَ بأخذِها ، فإنَّهُ لا يحبُّ وجودَها ، ولوْ أحبَّ وجودَها . . لغضبَ على الضرورةِ بأخذِها .

وأكثرُ غضبِ الناسِ علىٰ ما هوَ غيرُ ضروريٍّ ، كالجاهِ ، والصِّيتِ ، والتصدُّرِ في المجالسِ ، والمباهاةِ بالعلمِ ، فمنْ غلبَ هـٰذا الحبُّ عليهِ . . فلا محالةَ يغضبُ إذا زاحمَهُ مزاحمٌ على الصدرِ في المحافلِ ، ومنْ لا يحبُّ ذلكَ . . فلا يبالي ولوْ جلسَ في صفِّ النعالِ ، فلا يغضبُ إذا جلسَ غيرُهُ فوقَهُ .

وهـٰذهِ العاداتُ الرديئةُ هيَ التي أكثرَتْ محابَّ الإنسانِ ومكارهَهُ ، فأكثرَتْ غضبَهُ ، وكلَّما كانَتِ الإراداتُ والشهواتُ أكثرَ . . كانَ صاحبُها أحطَّ رتبةً وأنقصَ ؛ لأنَّ الحاجةَ صفةُ نقصٍ ، فمهما كثرَتْ . . كثرَ النقصُ ، والجاهلُ أبداً جهدُهُ في أنْ يزيدَ في حاجاتِهِ وفي شهواتِهِ ، وهوَ لا يدري أنَّهُ

مستكثرٌ مِنْ أسبابِ الغمِّ والحزنِ ، حتَّىٰ ينتهيَ بعضُ الجهَّالِ بالعاداتِ الرديئةِ ومخالطةِ قرناءِ السوءِ إلىٰ أنْ يغضبَ لوْ قيلَ لهُ : إنَّهُ لا يُحسِنُ اللعبَ بالطيورِ ، واللعبَ بالشطرنجِ ، ولا يقدرُ علىٰ شربِ الخمرِ الكثيرِ ، وتناولِ الطعامِ الكثيرِ ، وما يجري مجراهُ مِنَ الرذائلِ ، فالغضبُ علىٰ هـٰذا الجنسِ ليسَ بضروريٍّ ؛ لأنَّ حبَّهُ ليسَ بضروريٍّ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ : ما يكونُ ضروريّاً في حقِّ بعضِ الناسِ دونَ البعضِ :

كالكتابِ للعالِمِ ؛ لأنهُ مضطرٌّ إليهِ ، فيحبُّهُ ، فيغضبُ علىٰ مَنْ يخرِقُهُ ويمزِقُهُ ، وكذلكَ أدواتُ الصناعاتِ في حقِّ المكتسبِ الذي لا يمكنُهُ التوصُّلُ إلى القوتِ إلاَّ بها ، فإنَّ ما هوَ وسيلةٌ إلى الضروريِّ والمحبوبِ يصيرُ ضرورياً ومحبوباً ، وهـٰذا يختلفُ بالأشخاصِ .

وإنَّما الحبُّ الضروريُّ ما أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « مَنْ أصبحَ آمناً في سربِهِ ، معافىً في بدنِهِ ، وعندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدُّنيا بحذافيرِها »[1] ، ومَنْ كانَ بصيراً بحقائقِ الأمورِ وسلمَتْ لهُ هـٰذهِ الثلاثُ . . يُتصوَّرُ ألاَّ يغضبَ في غيرِها .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

فهٰذهِ ثلاثةُ أقسامٍ ، فلنذكُرْ غايةَ الرياضةِ في كلِّ واحدٍ منها .

أمَّا القسمُ الأوَّلُ . . فليسَتِ الرياضةُ فيهِ لينعدمَ غيظُ القلبِ ، ولكنْ لكي يقدرَ علىٰ ألاَّ يطيعَ الغضبَ ، ولا يستعملَهُ في الظاهرِ إلاَّ علىٰ حدٍّ يستحبُّهُ الشرعُ ، ويستحسنُهُ العقلُ ، وذلكَ ممكنٌ بالمجاهدةِ ، وتكلُّفِ الحلمِ والاحتمالِ مدَّةً ، حتَّىٰ يصيرَ الحِلْمُ والاحتمالُ خُلُقاً راسخاً .

فأمَّا قمعُ أصلِ الغيظِ مِنَ القلبِ . . فليسَ مقتضى الطبعِ ، وهوَ غيرُ ممكنٍ .

نعمْ ، يمكنُ كسرُ سَوْرتِهِ وتضعيفُهُ ، حتىٰ لا يشتدَّ هيجانُ الغيظِ في الباطنِ ، وينتهيَ ضعفُهُ إلىٰ ألاَّ يظهرَ أثرُهُ في الوجهِ ، ولكنَّ ذلكَ شديدٌ جدّاً ، **وهٰذا حكمُ القسمِ الثالثِ أيضاً** ؛ لأنَّ ما صارَ ضروريّاً في حقِّ شخصٍ فلا يمنعُهُ مِنَ الغيظِ استغناءُ غيرِهِ عنهُ ، فالرياضةُ فيهِ تمنعُ العملَ بهِ ، وتضعفُ هيجانَهُ في الباطنِ ، حتَّىٰ لا يشتدَّ التألُّمُ بالصبرِ عليهِ .

وأمَّا القسمُ الثاني . . فيمكنُ التوصُّلُ بالرياضةِ إلى الانفكاكِ عنِ الغضبِ عليهِ ؛ إذْ يمكنُ إخراجُ حُبِّهِ مِنَ القلبِ ، وذلكَ بأنْ يعلمَ الإنسانُ أنَّ وطنَهُ القبرُ ، ومستقرَّهُ الآخرةُ ، وأنَّ الدنيا معبرٌ يعبرُ عليها ، ويتزوَّدُ منها قدرَ الضرورةِ ، وما وراءَ ذلكَ عليهِ وبالٌ في وطنِهِ ومستقرِّهِ ، فيزهدُ في الدنيا ، وينمحي حبُّها عَنْ قلبِهِ ، ولوْ كانَ للإنسانِ كلبٌ لا يحبُّهُ . . لمْ يغضبْ إذا ضربَهُ غيرُهُ ، فالغضبُ تبعٌ للحُبِّ ، فالرياضةُ في هٰذا قدْ تنتهي إلىٰ قمعِ

أصلِ الغضبِ ، وهوَ نادرٌ جداً ، وقدْ تنتهي إلى المنعِ مِنِ استعمالِ الغضبِ والعملِ بموجَبِهِ ، وهوَ أهونُ .

* * *

فإنْ قلتَ : الضروريُّ مِنَ القسمِ الأولِ التألُّمُ بفواتِ المحتاجِ إليهِ دونَ الغضبِ ، فمَنْ لهُ شاةٌ مثلاً وهيَ قوتُهُ ، فماتَتْ .. لا يغضبُ علىٰ أحدٍ ، وإنْ كانَ يحصلُ فيهِ كراهةٌ ، وليسَ مِنْ ضرورةِ كلِّ كراهةٍ غضبٌ ، فالإنسانُ يتألمُ بالفصْدِ والحجامةِ ولا يغضبُ على الفصَّادِ والحجَّامِ ، فمَنْ غلبَ عليهِ التوحيدُ حتَّىٰ يرى الأشياءَ كلَّها بيدِ اللهِ ومنهُ .. فلا يغضبُ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ ؛ إذْ يراهُمْ مسخَّرينَ في قبضةِ قدرتِهِ ؛ كالقلمِ في يدِ الكاتبِ ، ومَنْ وقَّعَ ملكٌ بضربِ رقبتِهِ .. لمْ يغضبْ على القلمِ ، فلا يغضبُ علىٰ مَنْ يذبحُ شاتَهُ التي هيَ قوتُهُ كما لا يغضبُ علىٰ موتِها ؛ إذْ يرى الموتَ والذبحَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فيندفعُ الغضبُ بغلبةِ التوحيدِ ، ويندفعُ أيضاً بحسنِ الظنِّ باللهِ ، وهوَ أنْ يرىٰ أنَّ الكلَّ مِنَ اللهِ ، وأنَّ اللهَ لا يقدرُ لهُ إلا ما فيهِ الخِيرَةُ ، وربَّما تكونُ الخِيرَةُ في جوعِهِ ومرضِهِ ، وجرحِهِ وقتلِهِ ، فلا يغضبُ ، كما لا يغضبُ على الفصَّادِ والحجَّامِ ؛ لأنَّهُ يرىٰ أنَّ الخِيرَةَ فيهِ .

فنقولُ : هٰذا علىٰ هٰذا الوجهِ غيرُ محالٍ ، ولكنَّ غلبةَ التوحيدِ إلىٰ هٰذا الحدِّ إنَّما تكونُ كالبرقِ الخاطفِ ، تغلبُ في أحوالٍ مختطفةٍ ولا تدومُ ، ويرجعُ القلبُ إلى الالتفاتِ إلى الوسائطِ رجوعاً طبْعِيّاً لا يندفعُ عنهُ ، ولوْ

تُصوِّرَ ذلكَ على الدوامِ لبشرٍ . . لتُصوِّرَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنهُ كانَ يغضبُ حتَّىٰ تحمرَّ وجنتاهُ[1] ، حتَّىٰ قالَ : « اللهمَّ ؛ إنَّما أنا بشرٌ ، أغضبُ كما يغضبُ البشرُ ، فأيُّما مسلمٍ سببتُهُ أوْ لعنتُهُ أوْ ضربتُهُ . . فاجعلْها منِّي صلاةً عليهِ وزكاةً وقربةً تقرِّبُهُ بها إليكَ يومَ القيامةِ »[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمروِ بنِ العاصِ : يا رسولَ اللهِ ؛ أكتبُ عنكَ كلَّ ما قلْتَ في الغضبِ والرضا ؟ فقالَ : « اكتبْ ، فوالذي بعثَني بالحقِّ نبيّاً ؛ ما يخرجُ منهُ إلاَّ حقٌّ » ، وأشارَ إلىٰ لسانِهِ[3] ، فلمْ يقلْ : إنِّي لا أغضبُ ، ولكنْ قالَ : إنَّ الغضبَ لا يخرجُني عنِ الحقِّ ؛ أيْ : لا أعملُ بموجَبِ الغضبِ .

وغضبَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها مرةً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لكِ جاءَكِ شيطانُكِ ؟ » ، فقالَتْ : وما لكَ شيطانٌ ؟ فقالَ : « بلىٰ ، ولكنْ دعوتُ اللهَ فأعانني عليهِ فأسلمُ ، فلا يأمرُ إلاَّ بخيرٍ »[4] ، فلمْ يقلْ : لا شيطانَ لي ، وأرادَ شيطانَ الغضبِ ، لكنْ قالَ : لا يحملُني على الشرِّ .

---

(١) رواه ذلك البخاري (٩١) ، ومسلم (٢/١٧٢٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠١) بلفظ : « اللهم ؛ إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب البشر ، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه ، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته . . فاجعلها له كفارة ، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة » ، وذكر الضرب عند أبي يعلىٰ في « مسنده » (١٢٦٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤٦) .

(٤) رواه مسلم (٢٨١٥) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يغضبُ للدنيا ، فإذا أغضبَهُ الحقُّ.. لمْ يعرفْهُ أحدٌ ، ولمْ يقمْ لغضبِهِ شيءٌ ، حتَّىٰ ينتصرَ لهُ)[١] .

فكانَ يغضبُ على الحقِّ ، وإنْ كانَ غضبُهُ للهِ.. فهوَ التفاتٌ إلى الوسائطِ على الجملةِ ، بلْ كلُّ مَنْ يغضبُ علىٰ مَنْ يأخذُ ضرورةَ قوتِهِ وحاجتِهِ التي لا بدَّ لهُ في دينِهِ منها.. فإنَّما غضبَ للهِ ، فلا يمكنُ الانفكاكُ عنهُ .

نعمْ ، قدْ يُفْقَدُ أصلُ الغضبِ فيما هوَ ضروريٌّ إذا كانَ القلبُ مشغولاً بضروريٍّ أهمَّ منهُ ، فلا يكونُ في القلبِ متسعٌ للغضبِ ؛ لاشتغالِهِ بغيرِهِ ، فإنَّ استغراقَ القلبِ ببعضِ المهمَّاتِ يمنعُ الإحساسَ بما عداهُ ، وهٰذا كما أنَّ سلمانَ لمَّا شُتِمَ قالَ : (إنْ خفَّتْ موازيني.. فأنا شرٌّ ممَّا تقولُ ، وإنْ ثقلَتْ موازيني.. لمْ يضرَّني ما تقولُ)[٢] ، فقدْ كانَ همُّهُ مصروفاً إلى الآخرةِ ، فلمْ يتأثرْ قلبُهُ بالشتمِ .

وكذلكَ شُتِمَ الربيعُ بنُ خثيمٍ فقالَ : (يا هٰذا ؛ قدْ سمعَ اللهُ كلامَكَ ، وإنَّ دونَ الجنةِ عقَبَةً ، إنْ قطعْتُها.. لمْ يضرَّني ما تقولُ ، وإنْ لمْ أقطعْها.. فأنا شرٌّ ممَّا تقولُ)[٣] .

---

(١) رواه الترمذي في « الشمائل » (٢٢٥) .
(٢) روىٰ قوله البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٦٣) ، وليس فيه ذكر الشتم .
(٣) عزاه الحافظ الزبيدي لأبي نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ١٨) .

وسبَّ رجلٌ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ : (ما سترَ اللهُ عنكَ أكثرُ)[١] ، فكأنَّهُ كانَ مشغولاً بالنظرِ في تقصيرِ نفسهِ عنْ أنْ يتقيَ اللهَ حقَّ تقاتِهِ ، ويعرفَهُ حقَّ معرفتِهِ ، فلمْ يغضبْهُ نسبةُ غيرِهِ إياهُ إلىٰ نقصانٍ ؛ إذْ كانَ ينظرُ إلىٰ نفسِهِ بعينِ النقصانِ ، وذلكَ لجلالةِ قدرِهِ .

وقالَتِ امرأةٌ لمالكِ بنِ دينارٍ : يا مُرائي ، فقالَ : ما عرفَني غيرُكِ[٢] ، فكأنَّهُ كانَ مشغولاً بأنْ ينفيَ عنْ نفسِهِ آفةَ الرياءِ ، ومنكراً علىٰ نفسِهِ ما يلقيهِ الشيطانُ إليهِ ، فلمْ يغضبْ لما نُسبَ إليهِ .

وسبَّ رجلٌ الشعبيَّ فقالَ : (إن كنتَ صادقاً . . فغفرَ اللهُ لي ، وإنْ كنتَ كاذباً . . فغفرَ اللهُ لكَ)[٣] .

فهٰذهِ الأقاويلُ دالةٌ في الظاهرِ علىٰ أنَّهمْ لمْ يغضبُوا لاشتغالِ قلوبِهِمْ بمهماتِ دينِهِمْ ، ويحتملُ أنْ يكونَ قدْ أثَّرَ ذلكَ في قلوبِهِمْ ، ولكنَّهمْ لمْ يشتغلُوا بهِ ، واشتغلُوا بما كانَ هوَ الأغلبَ علىٰ قلوبِهِمْ .

فإذاً ؛ اشتغالُ القلبِ ببعضِ المهماتِ لا يبعدُ أنْ يمنعَ هيجانَ الغضبِ عندَ فواتِ بعضِ المحابِّ ، فإذاً ؛ يُتصوَّرُ فقْدُ الغيظِ ؛ إمَّا باشتغالِ القلبِ بمهمٍّ ، أوْ بغلبةِ نظرِ التوحيدِ ، أوْ بسببٍ ثالثٍ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ

---

(١) سيأتي قريباً خبر شتمه وصبره ثم ردّه رضي الله عنه .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٩) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٧) .

يحبُّ منهُ ألاَّ يغتاظَ ، فتطفىءُ شدَّةُ حبِّهِ للهِ غيظَهُ ، وذلكَ غيرُ محالٍ في أحوالٍ نادرةٍ .

وقدْ عرفْتَ بهٰذا أنَّ طريقَ الخلاصِ مِنْ نارِ الغضبِ محوُ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، وذلكَ بمعرفةِ آفاتِ الدنيا وغوائِلِها ، كما سيأتي في كتابِ ذمِّ الدنيا ، ومَنْ أخرجَ حُبَّ المزايا عنِ القلبِ . . تخلَّصَ مِنْ أكثرِ أسبابِ الغضبِ ، وما لا يمكنُ محوُهُ . . فيمكنُ كسرُهُ وتضعيفُهُ ، فيضعفُ الغضبُ بسببِهِ ، ويهونُ دفعُهُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ ؛ إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، والحمدُ للهِ وحدَهُ .

❋ ❋ ❋

بيان الأسباب المهيّجة للغضب

قدْ عرفتَ أنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ بحسمِ مادَّتِها ، وإزالةِ أسبابِها ، فلا بدَّ مِنْ معرفةِ أسبابِ الغضبِ .

وقدْ قالَ يحيىٰ لعيسىٰ عليهِما السلامُ : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قالَ : غضبُ اللهِ ، قالَ : فما يقرِّبُ مِنْ غضبِ اللهِ ؟ قالَ : أنْ تغضبَ ، قالَ : فما يبدي الغضبَ وما ينبتُهُ ، قالَ عيسىٰ : الكِبرُ ، والفخرُ ، والتعزُّزُ ، والحميَّةُ[1] .

فالأسبابُ المهيجةُ للغضبِ هيَ : الزهو ، والعجبُ ، والمِزاحُ ، والهزلُ ، والهزءُ ، والتعييرُ ، والمماراةُ ، والمضادَّةُ ، والغدرُ ، وشدَّةُ الحرصِ علىٰ فضولِ المالِ والجاهِ ، وهيَ بأجمعِها أخلاقٌ رديئةٌ مذمومةٌ شرعاً ، ولا خلاصَ عنِ الغضبِ معَ بقاءِ هـٰذهِ الأسبابِ ، فلا بدَّ مِنْ إزالةِ هـٰذهِ الأسبابِ بأضدادِها .

فينبغي أنْ تميتَ الزهوَ بالتواضعِ ، وتميتَ العجبَ بمعرفتِكَ بنفسِكَ ، كما سيأتي بيانُهُ في كتابِ الكبرِ والعجبِ ، وتزيلَ الفخرَ بأنَّكَ مِنْ جنسِ عبدِكَ ؛ إذِ الناسُ يجمعُهُمْ في الانتسابِ أبٌ واحدٌ ، وإنَّما اختلفُوا في الفضلِ أشتاتاً ، فبنو آدمَ جنسٌ واحدٌ ، وإنَّما الفخرُ بالفضائلِ ، والفخرُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ١٨) .

والعجبُ والكِبرُ أكبرُ الرذائلِ ، وهيَ رأسُها وأصلُها ، فإذا لم تخلُ عنها . . فلا فضلَ لكَ علىٰ غيرِكَ ، فلِمَ تفتخرُ وأنتَ مِنْ جنسِ عبدِكَ مِنْ حيثُ البنيةُ والنسبُ والأعضاءُ الظاهرةُ والباطنةُ ؟!

وأما المزاحُ . . فتزيلُهُ بالتشاغلِ بالمهمَّاتِ الدينيَّةِ التي تستوعبُ العمرَ وتفضلُ عنهُ إذا عرفْتَها .

وأمَّا الهزلُ . . فتزيلُهُ بالجدِّ في طلبِ الفضائلِ والأخلاقِ الحسنةِ ، والعلومِ الدينيَّةِ التي تبلِّغُكَ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ .

وأمَّا الهزءُ . . فتزيلُهُ بالتكرُّمِ عنْ إيذاءِ الناسِ ، وبصيانةِ النفسِ عنْ أنْ يُستهزأَ بكَ .

وأمَّا التعييرُ . . فبالحذرِ عنِ القولِ القبيحِ ، وصيانةِ النفسِ عنْ مُرِّ الجوابِ .

وأمَّا شدَّةُ الحرصِ علىٰ مزايا العيشِ . . فتزالُ بالقناعةِ بقدْرِ الضرورةِ ؛ طلباً لعزِّ الاستغناءِ ، وترفُّعاً عنْ ذلِّ الحاجةِ .

وكلُّ خُلُقٍ مِنْ هـٰذهِ الأخلاقِ وصفةٍ مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ يَفتقرُ في علاجِهِ إلىٰ رياضةٍ وتحمُّلِ مشقَّةٍ ، وحاصلُ رياضتِها يرجعُ إلىٰ معرفةِ غوائلِها ؛ لترغبَ النفسُ عنها ، وتنفرَ عنْ قبحِها ، ثمَّ المواظبةِ علىٰ مباشرةِ أضدادِها مدَّةً مديدةً ، حتَّىٰ تصيرَ بالعادةِ مألوفةً هيِّنةً على النفسِ ، فإذا انمحَتْ عنِ النفسِ . . فقدْ زكَتْ وطهُرَتْ عنْ هـٰذهِ الرذائلِ ، وتخلَّصَتْ أيضاً مِنَ الغضبِ الذي يتولَّدُ منها .

ومِنْ أشدِّ البواعثِ على الغضبِ عندَ أكثرِ الجهالِ : تسميتُهُمُ الغضبَ شجاعةً ، ورجوليةً ، وعزَّةَ نفسٍ ، وكبرَ همةٍ ، وتلقيبُهُ بالألقابِ المحمودةِ غباوةً وجهلاً ، حتَّىٰ تميلَ النفسُ إليهِ وتستحسنَهُ ، وقدْ يتأكَّدُ ذلكَ بحكايةِ شدَّةِ الغضبِ عنِ الأكابرِ في معْرِضِ المدحِ بالشجاعةِ ، والنفوسُ مائلةٌ إلى التشبُّهِ بالأكابرِ ، فيهيجُ الغضبُ في القلبِ بسببِهِ ، وتسميةُ هـٰذا عزَّةَ نفسٍ وشجاعةً جهلٌ ، بلْ هوَ مرضُ قلبٍ ، ونقصانُ عقلٍ ، وهوَ لضعفِ النفسِ ونقصانِها ، وآيةُ أنَّهُ لضعفِ النفسِ : أنَّ المريضَ أسرعُ غضباً مِنَ الصحيحِ ، والمرأةُ أسرعُ غضباً مِنَ الرجلِ ، والصبيُّ أسرعُ غضباً من الرجلِ الكبيرِ ، والشيخُ الضعيفُ أسرعُ غضباً مِنَ الكهلِ ، وذو الخُلُقِ السيِّءِ والرذائلِ القبيحةِ أسرعُ غضباً مِنْ صاحبِ الفضائلِ ؛ فالرَّذْلُ يغضبُ لشهوتِهِ إذا فاتَتْهُ اللُّقمةُ ، ولبخلِهِ إذا فاتَتْهُ الحبَّةُ ، حتَّىٰ إنَّهُ يغضبُ علىٰ أهلِهِ وولدِهِ وأصحابِهِ ، بلِ القويُّ مَنْ يملِكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ »(١) ، بلْ ينبغي أنْ يُعالَجَ هـٰذا الجاهلُ بأنْ تُتلىٰ عليهِ حكاياتُ أهلِ الحلمِ والعفوِ ، وما استُحْسِنَ منهمْ مِنْ كظمِ الغيظِ ، فإنَّ ذلكَ منقولٌ عنِ الأنبياءِ والأولياءِ والحكماءِ والعلماءِ ، وأكابرِ الملوكِ الفضلاءِ ، وضدُّ ذلكَ منقولٌ عنِ الأتراكِ والأكرادِ ، والجهلةِ والأغبياءِ ، الذين لا عقلَ لهمْ ولا فضلَ .

* * *

(١) رواه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ هوَ حسمٌ لموادِّ الغضبِ ، وقطعٌ لأسبابِهِ حتَّىٰ لا يهيجَ ، فإذا جرىٰ سببٌ هيَّجَهُ . . فعندَهُ يجبُ التثبُّتُ ؛ حتَّىٰ لا يضطرَّ صاحبُهُ إلى العملِ بهِ على الوجهِ المذمومِ ، وإنَّما يعالجُ الغضبَ عندَ هيجانِهِ بمعجونِ العلمِ والعملِ .

❊ ❊ ❊

أمَّا العلمُ . . فهوَ ستةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يتفكَّرَ في الأخبارِ التي سنوردُها في فضلِ كظمِ الغيظِ والعفوِ والحلمِ والاحتمالِ ، فيرغبَ في ثوابِهِ ، فتمنعَهُ شدَّةُ الحرصِ علىٰ ثوابِ الكظمِ عنِ التشفِّي والانتقامِ ، وينطفىءَ غيظُهُ .

قالَ مالكُ بنُ أوسِ بنِ الحَدَثانِ : غضبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ رجلٍ وأمرَ بضربِهِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فكانَ عمرُ يقولُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فكانَ يتأملُ في الآيةِ ، وكانَ وقَّافاً عندَ كتابِ اللهِ مهما تُلِيَ عليهِ ، كثيرَ التدبُّرِ فيهِ ، فتدبَّرَ فيهِ ، وخلَّى الرجلَ[1] .

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يذكره بنحوه ، والناصح فيه لأمير المؤمنين هو الحرُّ بن قيس رضي الله عنه .

وأمرَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بضربِ رجلٍ ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، وقالَ لغلامِهِ : خَلِّ عنهُ[1] .

❊ ❊ ❊

الثاني : أنْ يخوِّفَ نفسَهُ بعقابِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ أنْ يقولَ : قدرةُ اللهِ عليَّ أعظمُ مِنْ قدرتي علىٰ هـٰذا الإنسانِ ، فلوْ أمضيتُ غضبي عليهِ.. لمْ آمنْ أنْ يمضيَ اللهُ غضبَهُ عليَّ يومَ القيامةِ أحوجَ ما أكونُ إلى العفوِ ، فقدْ قالَ تعالىٰ في بعضِ الكتبِ القديمةِ : (يا بنَ آدمَ ؛ اذكرْني حينَ تغضبُ.. أذكرْكَ حينَ أغضبُ ، فلا أمحقُكَ فيمَنْ أمحقُ)[2] .

وبعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصيفاً إلىٰ حاجةٍ ، فأبطأَ عليهِ ، فلمَّا جاءَ.. قالَ: « لولا القصاصُ.. لأوجعْتُكِ »[3] ؛ أي : القصاصُ في القيامةِ .

وقيلَ : ما كانَ في بني إسرائيلَ ملكٌ إلا ومعهُ حكيمٌ ، إذا غضبَ.. أعطاهُ صحيفةً فيها : ارحمِ المسكينَ ، واخشَ الموتَ ، واذكرِ الآخرةَ ، فكانَ يقرؤُها حتَّىٰ يسكنَ غضبُهُ[4] .

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٨/ ١٤٨) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (ص٤٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٥٠) عن وهيب بن الورد المكي .
(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٩٠١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٣٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٧٨) ، **والوصيف** : الخادم ، غلاماً كان أو جارية كما هو الحال هنا .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢١) .

الثالثُ : أنْ يحذِّرَ نفسَهُ عاقبةَ العداوةِ والانتقامِ ، وتَشمُّرَ العدوِّ لمقابلتِهِ ، والسعيَ في هدمِ أغراضِهِ ، والشماتةَ بمصائبِهِ ، وهوَ لا يخلو عنِ المصائبِ ، فيخوِّفَ نفسَهُ بعواقبِ الغضبِ في الدنيا إنْ كانَ لا يخافُ مِنَ الآخرةِ .

وهٰذا يرجعُ إلىٰ تسليطِ شهوةٍ علىٰ غضبٍ ، وليسَ هٰذا مِن أعمالِ الآخرةِ ، ولا ثوابَ عليهِ ؛ لأنَّهُ مترددٌ علىٰ حظوظِهِ العاجلةِ ، يقدِّمُ بعضَها علىٰ بعضٍ ، إلاَّ أنْ يكونَ محذورُهُ أنْ يتشوَّشَ عليهِ في الدنيا فراغُهُ للعلمِ والعملِ ، وما يعينُهُ على الآخرةِ ؛ فيكونُ مثاباً عليهِ .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : أنْ يتفكَّرَ في قبحِ صورتِهِ عندَ غضبِهِ ؛ بأنْ يتذكَّرَ صورةَ غيرِهِ في حالةِ الغضبِ ويتفكَّرَ في قبحِ الغضبِ في نفسِهِ ، ومشابهةِ صاحبِهِ للكلبِ الضاري والسبعِ العادي ، ومشابهةِ الحليمِ الهادئِ التاركِ للغضبِ الأنبياءَ والأولياءَ والعلماءَ والحكماءَ ، ويخيِّرُ نفسَهُ بينَ أنْ يتشبَّهَ بالكلابِ والسباعِ وأراذلِ الناسِ ، وبينَ أنْ يتشبَّهَ بالأنبياءِ والعلماءِ في عادتِهم ؛ لتميلَ نفسُهُ إلىٰ حبِّ الاقتداءِ بهؤلاءِ إن كانَ قدْ بقيَ معَهُ مُسْكةٌ مِنْ عقلٍ .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : أنْ يتفكَّرَ في السببِ الذي يدعوهُ إلى الانتقامِ ، ويمنعُهُ مِنْ كظمِ الغيظِ ، ولا بدَّ وأنْ يكونَ لهُ سببٌ ؛ مثلَ قولِ الشيطانِ لهُ : إنَّ هٰذا

يُحمَلُ منكَ على العجزِ ، وصغَرِ النفسِ ، والذلَّةِ ، والمهانةِ ، وتصيرُ حقيراً في أعينِ الناسِ ، فليقلْ لنفسِهِ : ما أعجبَكِ يا نفسُ ! تأنفينَ مِنَ الاحتمالِ الآنَ ، ولا تأنفينَ مِنْ خزيِ يومِ القيامةِ والافتضاحِ إذا أخذَ هـٰذا بيدِكِ وانتقمَ منكِ ، وتحذرينَ مِنْ أنْ تَصغُري في أعينِ الناسِ ، ولا تحذرينَ مِنْ أنْ تصغُري عندَ اللهِ والملائكةِ والنبيِّينَ ؟!

فمهما كظمَ الغيظَ . . فينبغي أنْ يكظمَهُ للهِ تعالىٰ ، وذلكَ يعظِّمُهُ عندَ اللهِ ، فما لهُ وللناسِ ؟! وذلُّ مَنْ ظلمَهُ يومَ القيامةِ أشدُّ مِنْ ذلِّه لَوِ انتقمَ الآنَ ، أفلا يحبُّ أنْ يكونَ هوَ القائمَ إذا نوديَ يومَ القيامةِ : ليقمْ مَنْ أجرُهُ على اللهِ ، فلا يقومُ إلا مَنْ عفا(١) .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنْ معارفِ الإيمانِ ينبغي أنْ يقرِّرَه علىٰ قلبِهِ .

* * *

السادسُ : أنْ يعلمَ أنَّ غضبَهُ مِنْ تعجُّبِهِ مِنْ جريانِ الشيءِ علىٰ وفقِ مرادِ اللهِ لا علىٰ وَفقِ مرادِهِ ، فكيفَ يقولُ : مرادي أولىٰ مِنْ مرادِ اللهِ ؟! ويوشكُ أنْ يكونَ غضبُ اللهِ عليهِ أعظمَ مِنْ غضبِهِ .

* * *

وأمَّا العملُ :

فأنْ تقولَ بلسانِكَ : (أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) ، هـٰكذا أمرَ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٠٤) عن الحسن .

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُقالَ عندَ الغيظِ[1] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غضبَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها . . أخذَ بأنفِها وقالَ : « يا عويشُ ؛ قولي : اللهمَّ ، ربَّ النَّبيِّ محمدٍ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، وأذهبْ غيظَ قلبي ، وأَجِرْني مِنْ مضلاَّتِ الفِتنِ »[2] ، فيُستحبُّ أنْ تقولَ ذلكَ .

فإِنْ لمْ يزُلْ بذلكَ . . فاجلس إِنْ كنتَ قائماً ، واضطجعْ إنْ كنتَ جالساً ، واقربْ مِنَ الأرضِ التي منها خلقتَ ؛ لتعرفَ بذلكَ ذلَّ نفسِكَ ، واطلبْ بالجلوسِ والاضطجاعِ السكونَ ؛ فإنَّ سببَ الغضبِ الحرارةُ ، وسببَ الحرارةِ الحركةُ ، فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الغضبَ جمرةٌ تُوقَدُ في القلبِ ، ألمْ تروا إلى انتفاخِ أوداجِهِ وحُمرةِ عينيهِ ؟! فإذا وجدَ أحدُكمْ مِنْ ذلكَ شيئاً ؛ فإنْ كانَ قائماً . . فليجلسْ ، وإنْ كانَ جالساً . . فلينمْ »[3] .

فإِنْ لمْ يزُلْ ذلكَ . . فليتوضَّأْ بالماءِ الباردِ أوْ يغتسلْ ؛ فإنَّ النارَ لا يطفئُها إلا الماءُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا غضبَ أحدُكمْ . . فليتوضَّأْ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢) ، ومسلم (٢٦١٠) .
(٢) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٨١) .
(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) بنحوه ، وقد تقدم بعضه ، وذكر الجلوس والاضطجاع أيضاً جاء عند أبي داوود (٤٧٨٢) .

بالماءِ ؛ فإنَّ الغضبَ مِنَ النارِ » ، وفي روايةٍ : « إنَّ الغضبَ مِنَ الشيطانِ ، وإنَّ الشيطانَ خُلقَ مِنَ النارِ ، وإنَّما تُطفأُ النارُ بالماءِ ، فإذا غضبَ أحدُكُمْ . . فليتوضأْ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا غضبتَ . . فاسكُتْ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا غضبَ وهوَ قائمٌ . . جلسَ ، وإذا غضبَ وهوَ جالسٌ . . اضطجعَ ، فيذهبُ غضبُهُ)[3] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا إنَّ الغضبَ جمرةٌ في قلبِ ابنِ آدمَ ، ألا ترونَ إلىٰ حُمرةِ عينيهِ وانتفاخِ أوداجِه ؟! فمَنْ وجدَ مِنْ ذلكَ شيئاً . . فليُلصِقْ خدَّهُ بالأرضِ »[4] ، وكأنَّ هـٰذا إشارةٌ إلى السجودِ ، وتمكينِ أعزِّ الأعضاءِ مِنْ أذلِّ المواضعِ ، وهوَ الترابُ ؛ لتستشعرَ بهِ النفسُ الذلَّ ، وتزايلَ بهِ العزَّةَ والزهوَ الذي هوَ سببُ الغضبِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٨٤) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ٢٢٦) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (١/ ٢٨٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٣٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم) . « إتحاف » (٨/ ٢٣) ، وتقدم نحو هـٰذا المعنىٰ ، ولابن حبان في « صحيحه » (٥٦٨٨) عن أبي ذر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم . . فليجلس ، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا . . فليضطجع » .
(٤) هو جزء من حديث رواه الترمذي (٢١٩١) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ غضبَ يوماً ، فدعا بماءٍ فاستنشقَ وقالَ : (إنَّ الغضبَ مِنَ الشيطانِ ، وهـٰذا يذهبُ الغضبَ)[1] .

وقالَ عروةُ بنُ محمدٍ : لمَّا استُعمِلتُ على اليمنِ.. قالَ لي أبي : أَوَلِيتَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإذا غضبتَ.. فانظرْ إلى السماءِ فوقَكَ ، وإلى الأرضِ تحتَكَ ، ثمَّ أعظمْ خالقَهُما[2] .

ورُوِيَ أنَّ أبا ذرٍّ قالَ لرجلٍ : يا بنَ الحمراءِ ، في خصومةٍ بينهُما ، فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ بلغَني أنَّكَ اليومَ عيَّرْتَ رجلاً بأمِّهِ ! » فقالَ : نعمْ ، فانطلقَ أبو ذرٍّ ليرضيَ صاحبَهُ ، فسبقَهُ الرجلُ فسلَّمَ عليهِ ، فذُكِرَ ذلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ فانظرْ ، ثمَّ اعلمْ أنَّكَ لستَ بأفضلَ مِن أحمرَ فيها ولا أسودَ إلاَّ أنْ تفضلَهُ بعملٍ » ، ثمَّ قالَ : « إذا غضبتَ ؛ فإنْ كنتَ قائماً.. فاقعدْ ، وإنْ كنتَ قاعداً.. فاتَّكِئْ ، وإنْ كنتَ متَّكئاً.. فاضطجعْ »[3] .

وقالَ المعتمرُ بنُ سليمانَ : كانَ رجلٌ ممَّنْ كانَ قبلَكُمْ يغضبُ فيشتدُّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٣) .

(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢١٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٢١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » بإسناد صحيح) . « إتحاف » (٨/ ٢٤) ، وأصل الخبر عند البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) ، وعند أحمد في « المسند » (٥/ ١٥٨) من حديثه مرفوعاً : « انظر ، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بالتقوىٰ » .

غضبُهُ ، فكتبَ ثلاثَ صحائفَ ، فأعطىٰ كلَّ صحيفةٍ رجلاً ، وقالَ للأوَّلِ : إذا غضبتُ . . فأعطني هـٰذهِ ، وقالَ للثاني : إذا سكنَ بعضُ غضبي . . فأعطني هـٰذهِ ، وقالَ للثالثِ : إذا ذهبَ غضبي . . فأعطني هـٰذهِ ، فاشتدَّ غضبُهُ يوماً ، فأُعطيَ الصحيفةَ الأولىٰ ، فإذا فيها : (ما أنتَ وهـٰذا الغضبُ ؟! إنَّكَ لستَ بإلـٰهٍ ، إنَّما أنتَ بشرٌ يوشكُ أنْ يأكلَ بعضُكَ بعضاً) ، فسكنَ بعضُ غضبهِ ، فأُعطيَ الثانيةَ ، فإذا فيها : (ارحمْ مَنْ في الأرضِ . . يرحمْكَ مَنْ فِي السماءِ) ، فأُعطيَ الثالثةَ ، فإذا فيها : (خذِ الناسَ بحقِّ اللهِ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُهُمْ إلاَّ ذلكَ) أيْ : لا تعطلِ الحدودَ[1] .

وغضبَ المهديُّ علىٰ رجلٍ ، فقالَ شبيبٌ : لا تغضبنَّ للهِ بأشدَّ مِنَ غضبهِ لنفسِهِ ، فقالَ : خلُّوا سبيلَهُ[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٤) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٤) .

فضيلة كظم الغيظ

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ، وذكرَ ذلكَ في معرِضِ المدحِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كفَّ غضبَهُ . . كفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ ، ومَنِ اعتذرَ إلى اللهِ . . قبِلَ اللهُ عذرَهُ ، ومَنْ خزَنَ لسانَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّكُمْ مَنْ غلَبَ نفسَهُ عندَ الغضبِ ، وأحلمُكُمْ مَنْ عفا بعدَ القدرةِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كظمَ غيظاً ولوْ شاءَ أنْ يمضيَهُ أمضاهُ . . ملأَ اللهُ قلبَهُ يومَ القيامةِ رضاً »[3] .

وفي روايةٍ : « ملأَ اللهُ قلبَهُ أمناً وإيماناً »[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٨٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٥) ، وكذا رواه العسكري في « تصحيفات المحدثين » (١/ ٣٤٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) .

وقالَ ابنُ عمرَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جرعَ عبدٌ جُرعةً أعظمَ أجراً مِنْ جُرعةِ غيظٍ كظَمَها ابتغاءَ وجهِ اللهِ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لجهنَّمَ باباً لا يدخلُهُ إلاَّ مَنْ شفىٰ غيظَهُ بمعصيةِ اللهِ تعالىٰ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ جُرعةٍ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ جرعةِ غيظٍ يكظمُها عبدٌ ، وما كظمَها عبدٌ إلاَّ ملأَ اللهُ قلبَهُ إيماناً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كظمَ غيظاً وهوَ يقدرُ علىٰ أنْ يُنْفذَهُ . . دعاهُ اللهُ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ ويخيِّرُهُ مِنْ أيِّ الْحورِ شاءَ »[4] .

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ اتقى اللهَ . . لمْ يشفِ غيظَهُ ، ومَنْ خافَ اللهَ . . لمْ يفعلْ ما يريدُ ، ولولا يومُ القيامةِ . . لكانَ غيرُ ما ترونَ)[5] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٨٩) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٥١٨٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٧٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث ابن عباس . « إتحاف » (٨/ ٢٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٣) ، وابن ماجه (٤١٨٦) .

(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تذهبْ ماءَ وجهِكَ بالمسألةِ ، ولا تشفِ غيظَكَ بفضيحتِكَ ، واعرفْ قدرَكَ . . تنفعْكَ معيشتُكَ)(١) .

وقالَ أيوبُ : (حلمُ ساعةٍ يدفعُ شرّاً كثيراً)(٢) .

واجتمعَ سفيانُ الثوريُّ وأبو خزيمةَ اليربوعيُّ والفضيلُ بنُ عياضٍ ، فتذاكرُوا الزهدَ ، فأجمعُوا علىٰ أنَّ أفضلَ الأعمالِ الحلمُ عندَ الغضبِ ، والصبرُ عندَ الطمعِ(٣) .

وقالَ رجلٌ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما تقضي بالعدلِ ، ولا تعطي الجزلَ ، فغضبَ عمرُ حتَّىٰ عُرِفَ ذلكَ في وجهِهِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ألمْ تسمعْ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فهـٰذا مِنَ الجاهلينَ ، فقالَ عمرُ : صدقتَ ، فكأنَّما كانَتْ ناراً فأُطفِئَتْ(٤) .

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ : (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ استكملَ الإيمانَ باللهِ ؛ إذا رضيَ . . لمْ يُدخِلْهُ رضاهُ في الباطلِ ، وإذا غضبَ . . لمْ يخرجْهُ غضبُهُ عنِ الحقِّ ، وإذا قدرَ . . لمْ يتناولْ ما ليسَ لهُ)(٥) .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٦) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٠٦٨) ، وأيوب هو السختياني .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٦) .
(٤) رواه البخاري (٤٦٤٢) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣١٢) ضمن خبر طويل .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ سلمانَ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : لا تغضبْ ، قالَ : لا أقدرُ ، قالَ : فإنْ غضبتَ . . فأمسِكْ لسانَكَ ويدَكَ[1] .

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٢٦) .

بيان فضيلة الحلم

اعلمْ : أنَّ الحلمَ أفضلُ مِنْ كظمِ الغيظِ ؛ لأنَّ كظمَ الغيظِ عبارةٌ عنِ التحلُّمِ ؛ أيْ : تكلُّفِ الحلمِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ كظمِ الغيظِ إلاَّ مَنْ هاجَ غيظُهُ ، ويحتاجُ فيهِ إلىٰ مجاهدةٍ شديدةٍ ، ولكنْ إذا تعوَّدَ ذلكَ مدَّةً . . صارَ ذلكَ اعتياداً ، فلا يهيجُ الغيظُ ، وإنْ هاجَ . . فلا يكونُ في كظمِهِ تعبٌ ، وهوَ الحلمُ الطبيعيُّ ، وهوَ دلالةُ كمالِ العقلِ واستيلائِهِ ، وانكسارِ قوةِ الغضبِ وخضوعِها للعقلِ ، ولكنِ ابتداؤُهُ التحلُّمُ وكظمُ الغيظِ تكلُّفاً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما العلمُ بالتعلُّمِ ، والحلمُ بالتحلُّمِ ، ومَنْ يتحرَّ الخيرَ . . يعطَهُ ، ومَنْ يتوقَّ الشَّرَّ . . يوقَهُ »(١) ، أشارَ بهٰذا إلىٰ أنَّ اكتسابَ الحلمِ طريقُهُ التحلُّمُ أولاً وتكلُّفُهُ ؛ كما أنَّ اكتسابَ العلمِ طريقُهُ التعلُّمُ .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبُوا العلمَ ، واطلبُوا معَ العلمِ السكينةَ والحلمَ ، لينُوا لمَنْ تُعلِّمونَ ولمَنْ تعلَّمونَ منهُ ، ولا تكونُوا مِن جبابرةِ العلماءِ ؛ فيغلبَ جهلُكُمْ حلمَكُمْ »(٢) ، أشارَ بهٰذا

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٦٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٧٤) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٣٣٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) .

إلىٰ أنَّ التجبُّرَ والتكبُّرَ هوَ الذي يهيِّجُ الغضبَ ويمنعُ مِنَ الحلمِ واللِّينِ .

وكانَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ أغنني بالعلمِ ، وزيِّنِّي بالحلمِ ، وأكرمْني بالتقوىٰ ، وجمِّلْني بالعافيةِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ابتغُوا الرِّفعةَ عندَ اللهِ » ، قالُوا : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعطي مَنْ حرَمَك ، وتحلُمُ عمَّنَ جهِلَ عليكَ »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خمسٌ مِنْ سننِ المرسلينَ : الحياءُ ، والحِلْمُ ، والحجامَةُ ، والسِّواكُ ، والتَّعطُّرُ »(٣) .

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ المسلمَ ليُدْرِكُ بالحلْمِ درجةَ الصائمِ القائمِ ، وإنَّهُ ليُكْتَبُ جباراً عنيداً وما يملكُ إلاَّ أهلَ بيتِهِ »(٤) .

وقالَ أبو هريرةَ : إنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ لي قرابةً أصِلُهُمْ ويقطعُوني ، وأحسنُ إليهِمْ ويسيئونَ إليَّ ، ويجهلونَ عليَّ وأحلُمُ عنهُمْ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣) عن سفيان بن عيينة معضلاً ، ووصله الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٢/ ٣٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤) بلفظ المصنف هنا .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٦) من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٩) .

فقالَ : « لئِنْ كانَ كما تقولُ . . فكأنَّما تُسِفُّهُمُ الملَّ ، ولا يزالُ معكَ مِنَ اللهِ ظهيرٌ ما دُمتَ علىٰ ذلكَ »[١] ، الملُّ ؛ يعني : الرملَ .

وقالَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ : اللهمَّ ؛ ليسَ عندي صدقةٌ أتصدَّقُ بها ، فأيُّما رجلٍ أصابَ مِنْ عرضي شيئاً . . فهوَ عليهِ صدقةٌ ، فأَوحى اللهُ تعالىٰ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنِّي قدْ غفرتُ لهُ[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيعجزُ أحدُكُمْ أنْ يكونَ كأبي ضمضمٍ ؟ » قالُوا : وما أبو ضمضمٍ ؟ قالَ : « رجلٌ فيمَنْ كانَ قبلَكُمْ ، كانَ إذا أصبحَ يقولُ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي تصدَّقْتُ اليومَ بعرضي علىٰ مَنْ ظلمَني »[٣] .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أيْ : حلماءَ علماءَ[٤] .

وعنِ الحسنِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ قالَ : (حلماءُ ، إن جُهِلَ عليهِمْ . . لمْ يجهلُوا)[٥] .

وقالَ عطاءُ بنُ أبي رباحٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أيْ : حلماً[٦] .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٩) ، والقائل هو عبلة بن زيد رضي الله عنه .
(٣) رواه الطبراني في « مكارم الأخلاق » (٥٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٩) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٠) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١١) .

وقالَ ابنُ أبي حبيبٍ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ قالَ : الكهْلُ : منتهى الحلمِ[1] .

وقالَ مجاهدٌ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أيْ : إذا أُوذُوا . . صفحُوا[2] .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ مسعودٍ مرَّ بلغوٍ معرضاً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصبحَ ابنُ مسعودٍ وأمسىٰ كريماً » ، ثمَّ تلا إبراهيمُ بنُ ميسرةَ ـ وهوَ الرَّاوي ـ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾[3] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ لا يُدْركُني ولا أدركُهُ زمانٌ لا يتَّبعُونَ فِيهِ العليمَ ، ولا يستحْيونَ فيهِ مِنَ الحليمِ ، قلوبُهُم قلوبُ العجمِ ، وألسنتُهمْ ألسنةُ العربِ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليلِني منكُمْ ذوُو الأحلامِ والنُّهىٰ ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ثمَّ الذينَ يلونَهُمْ ، ولا تختلفُوا فتختلفَ قلوبُكُمْ ، وإيَّاكُمْ وهَيْشاتِ الأسواقِ »[5] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٥٢٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢٥) .
(٣) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٥٤٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ١٢٨) عن إبراهيم بن ميسرة بلاغاً .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٥/ ٣٤٠) .
(٥) رواه مسلم (٤٣٢) مختصراً ، وهو عند أبي داوود (٢٢٨) ، **والهيشة** : الفتنة .

ورُوِيَ أنَّهُ وفدَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأشجُّ ، فأناخَ راحلتَهُ ثمَّ عقلَها ، ثمَّ طرحَ عنهُ ثوبينِ كانا عليهِ ، وأخرجَ مِنَ العَيبةِ ثوبينِ حسنينِ فلبسَهُما ، وذلكَ بعينِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرىٰ ما يصنعُ ، ثمَّ أقبلَ يمشي إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أشجُّ ؛ إنَّ فيكَ لخُلقينِ يحبُّهمَا اللهُ ورسولُهُ » ، قالَ : وما هما بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الحلمُ والأناةُ » ، فقالَ : خُلُقانِ تخلَّقْتُهما أوْ خُلُقانِ جُبلتُهما ؟ فقالَ : « بلْ خُلُقانِ جبَلَكَ اللهُ عليهِما » ، فقالَ : الحمدُ للهِ الذي جبلَني علىٰ خُلُقينِ يحبُّهُما اللهُ ورسولُهُ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الحليمَ الحييَّ ، الغنيَّ المتعفِّفَ أبا العيالِ التقيَّ ، ويبغضُ الفاحشَ البذيءَ ، السائلَ الملحِفَ الغبيَّ »[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ لمْ تكنْ فيهِ واحدةٌ منهنَّ . . فلا يُعتدَّنَّ بشيءٍ مِنْ عملِهِ : تقوىٰ تحجزُهُ عنْ معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحِلْمٌ يكفُّ بهِ السَّفيهَ ، وخُلُقٌ يعيشُ بهِ في الناسِ »[3] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا جمعَ اللهُ الخلائقَ يومَ

---

(١) رواه أبو داوود (٥٢٢٥) ، وأصله عند مسلم (١٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مرسلاً من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٥) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٣٠٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

القيامةِ.. نادىٰ منادٍ : أينَ أهلُ الفضلِ ؟ فيقومُ ناسٌ وهمْ يسيرٌ ، فينطلقُونَ سراعاً إلى الجنَّةِ ، فتتلقاهُمُ الملائكةُ ، فيقولُونَ لهُمْ : إنَّا نراكُمْ سراعاً إلى الجنَّةِ ، فيقولُونَ : نحنُ أهلُ الفضلِ ، فيقولُونَ لهُمْ : ما كانَ فضلُكُمْ ؟ فيقولُونَ : كنَّا إذا ظُلِمْنا.. صبرْنا ، وإذا أُسِيءَ إلينا.. غفرْنا ، وإذا جُهِلَ علينا.. حَلُمْنا ، فيُقالُ لهمُ : ادخلُوا الجنَّةَ ؛ فنعمَ أجرُ العاملينَ »[1] .

❋ ❋ ❋

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّمُوا للعلمِ السكينةَ والحلمَ)[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ الخيرُ أنْ يكثرَ مالُكَ وولدُكَ ، ولكنَّ الخيرَ أنْ يكثرَ علمُكَ ، ويعظمَ حلمُكَ ، وأن تباهيَ الناسَ بعبادةِ ربِّكَ ، فإذا أحسنتَ.. حمدتَ الله ، وإذا أسأتَ.. استغفرتَ اللهَ)[3] .

وقالَ الحسنُ : (اطلبُوا العلمَ ، وزيِّنوهُ بالوقارِ والحلْمِ)[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٣١) .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) ، وروىٰ مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٣٣٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٦٠) ولكن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٢) ، وقد روىٰ بنحوه =

وقالَ أكثمُ بنُ صيفيٍّ : (دعامةُ العقلِ الحلمُ ، وجماعُ الأمرِ الصبرُ)[١] .

وقالَ أبو الدرداءِ : أدركْتُ الناسَ ورقاً لا شوكَ فيهِ ، فأصبحُوا شوكاً لا ورقَ فيه ، إنْ نقدْتَهمْ . . نقدُوكَ ، وإنْ تركتَهُمْ . . لمْ يتركوكَ ، قالُوا : كيفَ نصنعُ ؟ قالَ : تقرضُهُمْ مِنْ عرضِكَ ليومِ فقرِكَ[٢] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أوّلَ عوضِ الحليمِ من حلمِهِ أنَّ الناسَ كلَّهُمْ أعوانُهُ على الجاهلِ)[٣] .

وقالَ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا يبلغُ الرجلُ مبلغَ الرأيِ حتَّىٰ يغلبَ حلمُهُ جهلَهُ ، وصبرُهُ شهوتَهُ ، ولا يبلغُ ذلكَ إلا بقوَّةِ العلمِ)[٤] .

وقالَ معاويةُ لعمرِو بنِ الأهتمِ : أيُّ الرجالِ أشجعُ ؟ قالَ : مَنْ ردَّ جهلَهُ بحلمِهِ ، قالَ : أيُّ الرجالِ أسخىٰ ؟ قالَ : مَنْ بذلَ دنياهُ لصلاحِ دينِهِ[٥] .

= مرفوعاً عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٣٣٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٨) ولفظه : « اطلبوا العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم . . . » الحديث .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٣) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٢٢) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ : (هوَ الرجلُ يشتمُهُ أخوهُ ، فيقولُ : إنْ كنتَ كاذباً . . فغفرَ اللهُ لكَ ، وإنْ كنتَ صادقاً . . فغفرَ اللهُ لي)(١) .

وعنْ بعضِهِمْ قالَ : شتمتُ فلاناً مِنْ أهلِ البصرةِ ، فحلمَ عنِّي ، فاستعبدَني بها زماناً(٢) .

وقالَ معاويةُ لعَرابةَ بنِ أوسٍ : بمَ سدتَ قومَكَ ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ كنتُ أحلُمُ عنْ جاهلِهِمْ ، وأعطي سائلَهُمْ ، وأسعىٰ في حوائجِهِمْ ، فمَنْ فعلَ فعلي . . فهوَ مثلي ، ومَنْ جاوزَني . . فهوَ أفضلُ مني ، ومَنْ قصُرَ عنِّي . . فأنا خيرٌ منهُ(٣) .

وسبَّ رجلٌ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمَّا فرغَ . . قالَ : يا عكرمةُ ؛ هلْ للرجلِ حاجةٌ فنقضيَها ؟ فنكَّسَ الرجلُ رأسَهُ واستحيا(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٤٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٣٩) إلىٰ قوله : (وأسعىٰ في حوائجهم) ، وأشار إلىٰ روايته بتمامه الحافظ الزبيدي عنده في « ذم الغضب » . انظر « الإتحاف » (٨/ ٣٣) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٣) .

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : أشهدُ أنَّكَ مِنَ الفاسقينَ ، فقالَ : ليسَ تُقبلُ شهادتُكَ[1] .

وعنْ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : أنَّهُ سبَّهُ رجلٌ ، فرمىٰ إليهِ خميصةً كانَتْ عليهِ ، وأمرَ لهُ بألفِ درهمٍ[2] ، فقالَ بعضُهمْ : جَمعَ فيهِ خمسَ خصالٍ محمودةٍ : الحلمُ ، وإسقاطُ الأذىٰ ، وتخليصُ الرجلِ ممَّا يبعدهُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحملُهُ على الندمِ والتوبةِ ، ورجوعُهُ إلى المدحِ بعدَ الذمِّ ، اشترىٰ جميعَ ذلكَ بشيءٍ مِنَ الدنيا يسيرٍ[3] .

وقالَ رجلٌ لجعفرِ بنِ محمدٍ : إنهُ قدْ وقعَ بيني وبينَ قومٍ منازعةٌ في أمرٍ ، وإنِّي أريدُ أنْ أتركَهُ فأخشىٰ أنْ يقالَ لي : إنَّ تركَكَ لهُ ذلٌّ ، فقالَ جعفرٌ : إنَّما الذليلُ الظالمُ[4] .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (كانَ يُقالُ : مَنْ أساءَ فأُحسِنَ إليهِ . . فقدْ جُعلَ لهُ حاجزٌ مِنْ قلبِهِ يردعُهُ عنْ مثلِ إساءَتِهِ)[5] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٣) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٣٩٤) ، وفيه أنه قال له بعد أن سبَّه الرجل : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ورجع إلىٰ نفسه ، فألقىٰ إليه خميصة . . . الخبر .
(٣) كذا الخبر بتمامه عند ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٦) .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : (لستُ بحليمٍ ، ولكنِّي أتحلَّمُ)(١) .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (مَنْ يَرحَمْ . . يُرحمْ ، ومَنْ يصمُتْ . . يسلمْ ، ومَنْ يجهلْ . . يُغلَبْ ، ومَنْ يعجلْ . . يخطئْ ، ومَنْ يحرصْ على الشرِّ . . لا يسلمْ ، ومَنْ لا يدعِ المراءَ . . يُشْتَمْ ، ومَنْ لا يكرهِ الشتمَ . . يأثمْ ، ومَنْ يكرهِ الشرَّ . . يُعصَمْ ، ومَنْ يتبعْ وصيةَ اللهِ . . يُحفَظْ ، ومَنْ يحذرِ اللهَ . . يأمنْ ، ومَنْ يتولَّ اللهَ . . يُمنعْ ، ومَنْ لا يسألِ اللهَ . . يفتقرْ ، ومَنْ لا يكنْ معَ اللهِ . . يُخذلْ ، ومَنْ يستعنْ باللهِ . . يظفرْ)(٢) .

وقالَ رجلٌ لمالكِ بنِ دينارٍ : بلغَني أنَّكَ ذكرتَني بسوءٍ ، قالَ : أنتَ إذاً أكرمُ عليَّ مِنْ نفسي ؛ إنِّي إذا فعلتُ ذلكَ . . أهديتُ إليكَ حسناتِي(٣) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (الحلمُ أرفعُ مِنَ العقلِ ؛ لأنَ اللهَ تعالىٰ تسمَّىٰ بهِ)(٤) .

وقالَ رجلٌ لبعضِ الحكماءِ : واللهِ ؛ لأسبَّنَّكَ سبّاً يدخلُ معكَ في قبرِكَ ، فقالَ : معكَ يدخلُ لا معي(٥) .

ومرَّ المسيحُ ابنُ مريمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقومٍ مِنَ اليهودِ ، فقالُوا لهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥١) مختصراً .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٥) عن رجاء بن أبي سلمة .
(٥) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٢/ ٣٢٣) ، والحكيم فيه هو الأحنف .

شراً ، فقالَ لهمْ خيراً ، فقيلَ لهُ : إنَّهمْ يقولونَ شراً وأنتَ تقولُ خيراً !! فقالَ : كلُّ واحدٍ ينفقُ ممَّا عندَهُ[١] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (ثلاثةٌ لا يُعرَفُونَ إلا عندَ ثلاثةٍ : لا يُعرفُ الحليمُ إلا عندَ الغضبِ ، ولا الشجاعُ إلا عندَ الحربِ ، ولا الأخُ إلاَّ عندَ حاجتِكَ إليهِ)[٢] .

ودخلَ علىٰ بعضِ الحكماءِ صديقٌ لهُ ، فقدَّمَ إليهِ طعاماً ، فخرجَتِ امرأةُ الحكيمِ وكانَتْ سيِّئةَ الخلُقِ ، فرفعَتِ المائدةَ ، وأقبلَتْ علىٰ شتمِ الحكيمِ ، فخرجَ الصديقُ مغضباً ، فتبعَهُ الحكيمُ وقالَ لهُ : تذكرُ يومَ كنَّا في منزلِكَ نَطعَمُ فسقطَتْ دجاجةٌ على المائدةِ فأفسدَتْ ما عليها فلمْ يغضبْ أحدٌ منَّا ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فاحسُبْ أنَّ هٰذهِ مثلُ تلكَ الدجاجةِ ، فسُرِّيَ عنِ الرجلِ غضبُهُ وانصرفَ ، وقالَ : صدقَ الحكيمُ ، الحلمُ شفاءٌ مِنْ كلِّ ألمٍ[٣] .

وضربَ رجلٌ قدمَ حكيمٍ فأوجعَهُ ، فلمْ يغضبْ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أقمتُهُ مقامَ حجرٍ تعثَّرتُ بهِ ، وذبحتُ الغضبَ .

وقالَ محمودٌ الوراقُ[٤] : [من الطويل]

سَأُلْزِمُ نَفْسِي ٱلصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ عَلَيَّ ٱلْجَرائِمُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٤) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٨٩) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . (٨/ ٣٤) .
(٤) ديوانه (ص٢٣٤ـ ٢٣٥) .

وَما ٱلنَّاسُ إِلاَّ واحِدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقاوِمُ
فَأَمَّا ٱلَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ وَأَتْبَعُ فِيهِ ٱلْحَقَّ وَٱلْحَقُّ لازِمُ
وَأَمَّا ٱلَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنتُ عَنْ إِجابَتِهِ عِرْضِي وَإِنْ لامَ لائِمُ
وَأَمَّا ٱلَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفا تَفَضَّلْتُ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِٱلْخَيْرِ حاكِمُ

* * *

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلمْ : أنَّ كلَّ ظلمٍ صَدَرَ مِنْ شخصٍ فلا يجوزُ مقابلتُهُ بمثلِهِ ؛ فلا تجوزُ مقابلةُ الغيبةِ بالغيبةِ ، ولا مقابلةُ التجسُّسِ بالتجسُّسِ ، ولا مقابلةُ السَّبِّ بالسَّبِّ ، وكذا سائرُ المعاصي ، وإنَّما القصاصُ والغرامةُ علىٰ قدرِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ فصَّلناهُ في الفقهِ .

وأمَّا السَّبُّ . . فلا يقابلُ بمثلِهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِ امرؤٌ عيَّرَكَ بما فيكَ . . فلا تعيِّرْهُ بما فيهِ »[١] .

وقالَ : « المستبّانِ ما قالا ، فهو على البادئِ ما لم يعتدِ المظلومُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ شيطانانِ يتهاترانِ »[٣] .

وشتمَ رجلٌ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ ساكتٌ ، فلمَّا ابتدأَ ينتصرُ منْهُ . . قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ أبو بكرٍ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّكَ كنتَ ساكتاً لما شتمَني ، فلمَّا تكلَّمتُ . . قمتَ ؟ قالَ : « لأَنَّ المَلكَ كانَ يجيبُ عنكَ ، فلمَّا تكلَّمتَ . . ذهبَ الملَكُ وجاءَ الشَّيطانُ ، فلمْ أكُنْ لأجلسَ في مجلسٍ فيهِ الشَّيطانُ »[٤] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٦٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١١٨٢) .
(٢) رواه مسلم (٢٤٤٢) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٦٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٩٦) موصولاً ومرسلاً بنحوه .

وقالَ قومٌ : تجوزُ المقابلةُ بما لا كذبَ فيهِ ، ونهيُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ مقابلةِ التعييرِ بمثلِهِ نهيُ تنزيهٍ ، والأفضلُ تركُهُ ، ولكنَّهُ لا يعصي بهِ .

والذي يُرخَّصُ فيهِ أنْ تقولَ : مَنْ أنتَ ؟ وهلْ أنتَ إلاَّ مِنْ بني فلانٍ[1] ؛ كما قالَ سعدٌ لابنِ مسعودٍ : وهلْ أنتَ إلاَّ مِنْ بني هذيلٍ ؟ فقالَ ابنُ مسعودٍ : وهلْ أنتَ إلاَّ مِنْ بني أميَّةَ ؟

ومثلُ قولِهِ : يا أحمقُ ، قالَ مطرفٌ : (كلُّ الناسِ أحمقُ فيما بينَهُ وبينَ ربِّه ، إلاَّ أنَّ بعضَ الناسِ أقلُّ حماقةً مِنْ بعضٍ)[2] .

وقالَ ابنُ عمرَ في حديثٍ طويلٍ : (حتَّىٰ ترى الناسَ كلَّهمْ حمقىٰ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وكذلكَ قولُهُ : يا جاهلُ ؛ إذْ ما مِنْ أحدٍ إلاَّ وفيهِ جهلٌ ؛ فقدْ آذاهُ بما ليسَ بكذبٍ .

وكذلكَ قولُهُ : يا سيِّءَ الخلُقِ ، يا صفيقَ الوجهِ ، يا ثلاَّبَ الأعراضِ ، وكانَ ذلكَ فيهِ .

وكذلكَ قولُهُ : لوْ كانَ فيكَ حياءٌ.. لما تكلَّمْتَ ، وما أحقرَكَ في

---

(١) ينسبه لقبيلته التي هو منها ، إلا إن كانت القبيلة مما ينبز باللؤم ؛ كباهلة وسلول وهيثم . « إتحاف » (٨/ ٣٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٣٥) .

(٣) رواه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٥) ، وفيه : « لا يفقه العبد كل الفقه حتىٰ يمقت الناس في ذات الله . . . » .

عيني بما فعلْتَ ، وأخزاكَ اللهُ ، وانتقمَ منكَ .

فأمَّا النميمةُ ، والغيبةُ ، والكذبُ ، وسبُّ الوالدينِ . . فحرامٌ بالاتفاقِ ؛ لما رُوِيَ أنَّهُ كانَ بينَ خالدِ بنِ الوليدِ وسعدٍ كلامٌ ، فذكرَ رجلٌ خالداً عندَ سعدٍ ، فقالَ سعدٌ : (مَهْ ؛ إنَّ ما بينَنا لمْ يبلغْ دينَنا)(١) ؛ يعني : أنْ يأثمَ بعضُنا في بعضٍ ، فلمْ يسمعِ السوءَ ، فكيفَ يجوزُ أنْ يقولَهُ .

والدليلُ علىٰ جوازِ ما ليسَ بكذبٍ ولا حرامٍ ؛ كالنسبةِ إلى الزِّنا والسَّبِّ والفحشِ . . ما روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أزواجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرسلْنَ إليهِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فجاءَتْ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرسلَني إليكَ أزواجُكَ يسألْنَكَ العدلَ في ابنةِ أبي قحافةَ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نائمٌ ، فقالَ : « يا بنيَّةُ ؛ أتحبينَ ما أحبُّ ؟ » ، قالَتْ : نعمْ ، قالَ : « فأحبِّي هٰذهِ » ، فرجعَتْ إليهنَّ ، فأخبرتْهُنَّ بذلكَ ، فقلنَ : ما أغنيتِ عنَّا شيئاً ، فأرسلنَ زينبَ بنتَ جحشٍ ، قالَتْ : وهيَ التي كانَتْ تساميني في الحبِّ ، فجاءَتْ ، فقالَتْ : بنتُ أبي بكرٍ ، وبنتُ أبي بكرٍ ، فما زالَتْ تذكرُني وأنا ساكتةٌ أنتظرُ أنْ يأذنَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الجوابِ ، فأذنَ لي ، فسببتُها حتَّىٰ جفَّ لساني ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلاَّ ، إنَّها ابنةُ أبي بكرٍ »(٢) ، يعني : أنَّكِ لا تقاومينَها في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٠٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/١٠٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٨١) ، ومسلم (٢٤٤٢) واللفظ له .

الكلامِ قطُّ ، وقولُها : (سببتُها) ليسَ المرادُ بهِ الفحشَ ، بلْ هوَ الجوابُ عنْ كلامِها بالحقِّ ، ومقابلتُها بالصدقِ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المستبَّانِ ما قالا ، فعلى البادئِ منهما حتَّىٰ يعتديَ المظلومُ »[1] ، فأثبتَ للمظلومِ انتصاراً إلىٰ أنْ يعتديَ ، فهٰذا القدرُ هوَ الذي أباحَهُ هؤلاءِ ، وهوَ رخصةٌ في الإيذاءِ جزاءً علىٰ إيذائِهِ السابقِ .

ولا تبعدُ الرخصةُ في هٰذا القدْرِ ، ولكنَّ الأفضلَ تركُهُ ؛ فإنَّهُ يجرُّ إلىٰ ما وراءَهُ ، ولا يمكنُهُ الاقتصارُ علىٰ مقدارِ الحقِّ فيهِ ، والسكوتُ عنْ أصلِ الجوابِ لعلَّهُ أيسرُ مِنَ الشروعِ في الجوابِ والوقوفِ علىٰ حدِّ الشرعِ فيهِ ، ولكنْ مِنَ الناسِ مَنْ لا يقدرُ علىٰ ضبطِ نفسِهِ في فورةِ الغضبِ ، ولكنْ يعودُ سريعاً ، ومنهمْ مَنْ يكفُّ نفسَهُ في الابتداءِ ولكنْ يحقِدُ على الدوامِ .

والناسُ في الغضبِ أربعةٌ : فبعضُهُمْ كالحَلْفاءِ ، سريعُ الوقودِ سريعُ الخمودِ ، وبعضُهُم كالغضا ، بطيءُ الوقودِ بطيءُ الخمودِ ، وبعضُهُمْ بطيءُ الوقودِ سريعُ الخمودِ ، وهوَ الأحمدُ ، ما لمْ ينتهِ إلىٰ فتورِ الحميَّةِ والغَيْرةِ ، وبعضُهُمْ سريعُ الوقودِ بطيءُ الخمودِ ، وهٰذا هوَ شرُّهمْ .

---

(١) رواه مسلم (٢٤٤٢) ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٦/ ١٤٠) : (معناه : أن إثم السباب الواقع من اثنين مختص بالبادىء منهما كله ؛ إلا أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار ، فيقول للبادىء أكثر مما قال له ، وفي هٰذا جواز الانتصار ، ولا خلاف في جوازه) .

وفي الخبرِ : « المؤمنُ سريعُ الغضبِ سريعُ الرِّضا ، فهٰذِهِ بتلكَ »[1] .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (منِ استُغضِبَ فلمْ يغضبْ . . فهوَ حمارٌ ، ومَنِ استُرضيَ فلمْ يرضَ . . فهوَ شيطانٌ)[2] .

وقدْ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا إنَّ بني آدمَ خُلقُوا علىٰ طبقاتٍ شتَّىٰ ، فمنهُمْ بطيءُ الغضبِ سريعُ الفيءِ ، ومنهُمْ سريعُ الغضبِ سريعُ الفيءِ ، فتلكَ بتلكَ ، ومنهُمْ سريعُ الغضبِ بطيءُ الفيءِ ، ألا وإنَّ خيرَهُمُ البطيءُ الغضبِ السَّريعُ الفيءِ ، وشرَّهُمُ السَّريعُ الغضبِ البطيءُ الفيءِ »[3] .

ولمَّا كانَ الغضبُ في الحالِ يهيِّجُ ويؤثِّرُ في كلِّ إنسانٍ . . وجبَ على السلطانِ ألاَّ يعاقبَ أحداً في حالِ غضبِهِ ؛ لأنَّهُ ربَّما يتعدَّى الواجبَ ، ولأنَّهُ ربَّما يكونُ مُشْفياً غيظَهُ ، ومريحاً نفسَهُ منْ ألمِ الغيظِ ؛ فيكونُ صاحبَ حظٍّ فيهِ ؛ فينبغي أنْ يكونَ انتقامُهُ وانتصارُهُ للهِ تعالىٰ لا لنفسِهِ .

ورأىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سكرانَ ، فأرادَ أنْ يأخذَهُ ويعزِّرَهُ ، فشتمَهُ السكرانُ ، فرجعَ عمرُ ، فقيلَ له : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لمَّا شتمَكَ . . تركتَهُ !

---

(١) نسب الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٦/ ٢٣٢) لفظه لصاحب « القوت » وزاد : (فهٰذه بهٰذه) ، وروىٰ نحوه الترمذي (٢١٩١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما سيأتي قريباً .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٤٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) .

قالَ : لأنَّهُ أغضبَني ، ولوْ عزَّرتُهُ . . لكانَ ذلكَ لغضبِي لنفسِي ، ولمْ أحبَّ أنْ أضربَ مسلماً حميَّةً لنفسِي (١) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ لرجلٍ أغضبَهُ : (لولا أنَّكَ أَغضبتَني . . لعاقَبتُكَ)(٢) .

* * *

(١) أخرجه الإسماعيلي في « مناقب عمر » . « إتحاف » (٨/ ٣٧) ، وتقدم قوله رضي الله عنه : (من اتقى الله . . لم يشف غيظه) .
(٢) نسبه الحافظ الزبيدي لأبي نعيم في « الحلية » . انظر « الإتحاف » (٨/ ٣٧) .

القول في معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرّفق

اعلمْ : أنَّ الغضبَ إذا لزمَ كظمُهُ لعجزٍ عنِ التشفِّي في الحالِ . . رجعَ إلى الباطنِ واحتقنَ فيهِ ، فصارَ حقداً .

ومعنى الحقدِ : أنْ يلزمَ قلبَهُ استثقالُهُ والبغضةُ لهُ والنفارُ منهُ ، وأنْ يدومَ ذلكَ ويبقىٰ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بحقودٍ »(١) ، فالحقدُ ثمرةُ الغضب .

* * *

والحقدُ يثمرُ ثمانيةَ أمورٍ :

الأولُ : الحسدُ ، وهوَ أن يحملَكَ الحقدُ علىٰ أنْ تتمنَّىٰ زوالَ النعمةِ عنهُ ، فتغتمَّ بنعمةٍ إنْ أصابَها ، وتُسرَّ بمصيبةٍ إنْ نزلَتْ بهِ ، وهٰذا مِنْ فعلِ المنافقينَ ؛ أعني : الحسدَ ، وسيأتي ذمُّهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

الثاني : أنْ تزيدَ علىٰ إضمارِ الحسدِ في الباطنِ ، فتشمَتَ بما يصيبُهُ مِن البلاءِ .

---

(١) وقد روى النسائي (٦/ ١١) : « ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمانُ والحسدُ » ، وقوله : « يجتمعان » علىٰ لغةٍ أو حذفٍ ، وأما الحديث بلفظ المؤلف « المؤمن ليس بحقود » . . فانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٢٩٣) .

الثالثُ : أنْ تهجرَهُ وتصارِمَهُ وتنقطعَ عنهُ وإنْ طلبَكَ وأقبلَ عليكَ .

الرابعُ : ـ وهوَ دونَهُ ـ : أنْ تعرِضَ عنهُ استصغاراً لهُ .

الخامسُ : أنْ تتكلَّمَ فيهِ بما لا يحلُّ ؛ مِنْ كذبٍ ، وغيبةٍ ، وإفشاءِ سرٍّ ، وهتكِ سترٍ ، وغيرِهِ .

السادسُ : أنْ تحاكيَهُ استهزاءً بهِ وسخريةً منهُ .

السابعُ : إيذاؤُهُ بالضربِ وما يؤلمُ بدنَهُ .

الثامنُ : أنْ تمنعَهُ حقَّهُ ؛ مِنْ صلةِ رحمٍ ، أوْ قضاءِ دَينٍ ، أوْ ردِّ مظلمةٍ ، وكلُّ ذلكَ حرامٌ .

* * *

وأقلُّ درجاتِ الحقدِ :

أنْ تحترزَ مِنَ الآفاتِ الثمانيةِ المذكورةِ ، ولا تخرجَ بسببِ الحقدِ إلىٰ ما تعصي اللهَ بهِ ، ولكنْ تستثقلُهُ في الباطنِ ، ولا تنهىٰ قلبَكَ عنْ بغضِهِ ، حتَّىٰ تمتنعَ عمَّا كنتَ تتطوعُ بهِ مِنَ البشاشةِ ، والرفقِ ، والعنايةِ ، والقيامِ بحاجاتِهِ ، والمجالسةِ معَهُ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والمعاونةِ على المنفعةِ لهُ ، أوْ تتركَ الدعاءَ لهُ ، والثناءَ عليهِ ، أوِ التحريضَ علىٰ برِّهِ ومواساتِهِ ، فهٰذا كلُّهُ ممَّا ينقصُ درجتَكَ في الدينِ ، ويحولُ بينَكَ وبينَ فضلٍ عظيمٍ وثوابٍ جزيلٍ ، وإنْ كانَ لا يعرِّضُكَ لعقابِ اللهِ .

ولمَّا حلفَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ألاَّ ينفقَ علىٰ مِسْطحٍ ـ وكانَ قريبَهُ ـ لما

تكلَّمَ في واقعةِ الإفكِ . . نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقالَ أبو بكرٍ : بلىٰ ، نحبُّ ذلكَ ، وعادَ إلى الإنفاقِ عليهِ[1] .

والأولىٰ أنْ يبقىٰ علىٰ ما كانَ عليهِ ، فإنْ أمكنَهُ أنْ يزيدَ في الإحسانِ مجاهدةً للنفسِ وإرغاماً للشيطانِ . . فذلكَ هوَ مقامُ الصدِّيقينَ ، وهوَ مِنْ فضائلِ أعمالِ المقرَّبينَ .

فللمحقودِ ثلاثةُ أحوالٍ عندَ القدرةِ :

أحدُها : أنْ يستوفيَ حقَّهُ الذي يستحقُّهُ مِنْ غيرِ زيادةٍ ونقصانٍ ، وهوَ العدلُ .

والثاني : أنْ يحسنَ إليهِ بالعفوِ والصلةِ ، وذلكَ هوَ الفضلُ .

والثالثُ : أنْ يظلمَهُ بما لا يستحقُّهُ ، وذلكَ هوَ الجورُ ، وهوَ اختيارُ الأراذلِ ، والثاني هوَ اختيارُ الصدِّيقينَ ، والأولُ هوَ منتهىٰ درجاتِ الصالحينَ ، ولنذكرِ الآنَ فضيلةَ العفوِ والإحسانِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ضمن حديث البراءة المشهور .

فضيلة العفو والإحسان

اعلمْ : أنَّ معنى العفوِ أنْ تستحقَّ حقّاً ، فتسقطَهُ وتبرىءَ عنهُ ؛ مِنْ قصاصٍ أوْ غرامةٍ ، وهوَ غيرُ الحلمِ وكظمِ الغيظِ ؛ فلذلكَ أفردناهُ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ ـ والَّذي نفسي بيدِهِ ـ إنْ كنتُ لحالفاً عليهنَّ : ما نقصَتْ صدقةٌ مِنْ مالٍ ؛ فتصدَّقُوا ، ولا عفا رجلٌ عنْ مظلمةٍ يبتغي بها وجهَ اللهِ إلاَّ زادَهُ اللهُ بها عزّاً يومَ القيامة ، ولا فتحَ رجلٌ علىٰ نفسِهِ بابَ مسألةٍ إلاَّ فتحَ اللهُ عليهِ بابَ فقرٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التَّواضعُ لا يزيدُ العبدَ إلا رفعةً ، فتواضعُوا . . يرفعْكُمُ اللهُ ، والعفوُ لا يزيدُ العبدَ إلاَّ عزّاً ، فاعفُوا . . يعزَّكمُ اللهُ ، والصَّدقةُ لا تزيدُ المالَ إلاَّ كثرةً ، فتصدَّقوا . . يرحمْكُمُ اللهُ »(٢) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١٩٣/١) من حديث عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه ، والترمذي (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه ، وبنحوه هو عند مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث محمد بن عمير العبدي ، وقال العراقي : رواه أبو الشيخ الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » ، والديلمي في « مسند =

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منتصراً مِنْ مظلمةٍ ظُلِمَها قطُّ ما لمْ تُنتهَكْ حرمةٌ مِنْ محارمِ اللهِ ، فإذا انتُهِكَ مِنْ محارمِ اللهِ شيءٌ . . كانَ أشدَّهُمْ في ذلكَ غضباً ، وما خُيِّرَ بينَ أمرينِ إلاَّ اختارَ أيسرَهُما ما لمْ يكنْ مأثماً)[1] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : لقيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً ، فبدرتُهُ فأخذتُ بيدِهِ ، أوْ بدرَني فأخذَ بيدي ، فقالَ : « يا عقبةُ ؛ ألا أخبرُكَ بأفضلِ أخلاقِ أهلِ الدُّنيا والآخرةِ ؟ تصلُ مَنْ قطعَكَ ، وتعطي مَنْ حرمَكَ ، وتعفو عمَّنْ ظلمَكَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : يا ربِّ ؛ أيُّ عبادِكَ أعزُّ عليكَ ؟ قالَ : الذي إذا قدرَ . . عفا »[3] .

وكذلكَ سُئلَ أبو الدرداءِ : مَنْ أعزُّ الناسِ ؟ قالَ : الذي يعفو إذا قدرَ ؛ فاعفُوا . . يعزَّكمُ اللهُ[4] .

= الفردوس » من حديث أنس بسند ضعيف . « إتحاف » (٨/ ٣٩) .

(١) رواه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٣٤٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ٢٦٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٦١) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١٣٤) .

(٤) تقدم قريباً في المرفوع .

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يشكو مظلمةً ، فأمرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يجلسَ ، وأرادَ أن يأخذَ لهُ بمظلمتِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المظلومينَ همُ المفلحونَ يومَ القيامةِ » ، فأبىٰ أن يأخذَها حينَ سمعَ الحديثَ(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ . . فقدَ انتصرَ »(٢) .

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا بعثَ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ . . نادىٰ منادٍ مِنْ تحتِ العرشِ ثلاثةَ أصواتٍ : يا معشرَ الموحِّدينَ ؛ إنَّ اللهَ قدْ عفا عنكُمْ ، فليعْفُ بعضُكُمْ عنْ بعضٍ »(٣) .

وعنْ أبي هريرةَ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا فتحَ مكةَ . . طافَ بالبيتِ ، وصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ أتى الكعبةَ ، فأخذَ بعضادتيِ البابِ فقالَ : « ما تقُولونَ ؟ وما تظنُّونَ ؟ » فقالُوا : نقولُ : أخٌ وابنُ عمٍّ حليمٌ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » عن أبي صالح الحنفي مرسلاً) . « إتحاف » (٨/ ٤٠) ، وزاد : أن ابن أبي الدنيا رواه أيضاً في « ذم الغضب » ، وكذا أرسله سفيان الثوري كما في « الحلية » (٧/ ٦٩) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

(٣) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٢٤٢) ، والطبراني في « الأوسط » (١٣٥٨) عن أم هانىء أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ٤٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأشار المتقي الهندي في « كنز العمال » (٢٩٢) إلىٰ روايته عن ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » بلفظ المصنف .

رحيمٌ ، قالُوا ذلكَ ثلاثاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقولُ كما قالَ يوسفُ : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾ » ، قالَ : فخرجُوا كأنَّما نُشرُوا مِنَ القبورِ ، فدخلُوا في الإِسلامِ(١) .

وعنْ سهيلِ بنِ عمرٍو قالَ : لمَّا قدِمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مكَّةَ . . وضعَ يديهِ على بابي الكعبةِ والناسُ حولَهُ ، فقالَ : « لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَهُ » ، ثمَّ قالَ : « يا معشرَ قريشٍ ؛ ما تقولُونَ ؟ وما تظنُّونَ ؟ » قالَ : قلْتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ نقولُ خيراً ، ونظنُّ خيراً ؛ أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ ، وقدْ قدَرْتَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقولُ كما قالَ أخي يوسفُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ »(٢) .

وعنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا وقفَ العبادُ . . نادىٰ منادٍ : ليقمْ مَنْ أجرُهُ على اللهِ فليدخلِ الجنةَ ، قيلَ : ومَنْ ذا الذي أجرُهُ على اللهِ ؟ قالَ : العافُونَ عنِ النَّاسِ ، فقامَ كذا وكذا ألفاً ، فدَخلُوها بغيرِ حسابٍ »(٣) .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٢٣٤) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥/ ٥٧) واللفظ له .

(٢) رواه الواقدي في « مغازيه » (٢/ ٨٣٥) ، ورواه مرسلاً القاسم بن سلام في « الأموال » (٣٢٢) ، ورواه ابن زنجويه في « الأموال » (٤٥٦) موصولاً ، وعنده ذكر سهيل بن عمرو رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠١٩)، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ١٨٧).

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي لوالي أمرٍ أنْ يُؤتىٰ بحدٍّ إلا أقامَهُ ، واللهُ عفوٌّ يحبُّ العفوَ » ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ جاءَ بهنَّ معَ إيمانٍ . . دخلَ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنةِ شاءَ ، وزُوِّجَ مِنَ الحورِ العينِ حيثُ شاءَ ؛ مَنْ أدَّىٰ ديْناً خفيّاً ، وقرأَ في دُبرِ كلِّ صلاةٍ (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) عشرَ مراتٍ ، وعفا عنْ قاتِلِهِ » ، فقالَ أبو بكرٍ : أوْ إحداهُنَّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أوْ إحداهنَّ »[2] .

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

قالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إنَّ الرجلَ ليظلمُني فأرحمُهُ)[3] .

وهٰذا إحسانٌ وراءَ العفوِ ؛ لأنَّهُ يشتغلُ قلبُهُ بتعرُّضِهِ لمعصيةِ اللهِ تعالىٰ بالظُّلمِ ، وأنَّهُ يطالَبُ يومَ القيامةِ فلا يكونُ لهُ جوابٌ .

---

(١) هو جزء من خبر رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ٣٧٠) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٩) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٧٩٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٥) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٥٥٢) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢١٣) .

وقالَ بعضُهمْ : (إذا أرادَ اللهُ أنْ يتحِفَ عبداً . . قيضَ لهُ مَنْ يظلِمُهُ)[1] .

ودخلَ رجلٌ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فجعلَ يشكُو إليهِ رجلاً ظلمَهُ ويقعُ فيهِ ، فقالَ لهُ عمرُ : (إنَّكَ إنْ تلقى اللهَ ومظلمتُكَ كما هيَ خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تلقاهُ وقدْ انتقصْتَها)[2] .

وقالَ يزيدُ بنُ ميسرةَ : (إنْ ظَلِلتَ تدعُو علىٰ مَنْ ظلمَكَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ آخرَ يدعُو عليكَ بأنَّكَ ظلمتَهُ ، فإنْ شئتَ . . استجبنا لكَ واستجبنا عليكَ ، وإنْ شئتَ . . أخرتُكما إلىٰ يومِ القيامةِ ، فيسعُكُما عفوي)[3] .

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ لرجلٍ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ : (كِلِ الظالمَ إلىٰ ظلمِهِ ، فإنَّهُ أَسرعُ إليهِ مِنْ دعائِكَ عليهِ ، إلاَّ أنْ يتداركَهُ بعملٍ ، وقمِنٌ ألاَّ يفعلَ)[4] .

وعنِ ابنِ عمرَ عنْ أبي بكرٍ أنَّهُ قالَ : (بلغَنا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمرُ منادياً يومَ القيامةِ فينادي : مَنْ كانَ لهُ عندَ اللهِ شيءٌ . . فليقُمْ ، فيقومُ أهلُ العفوِ ، فيكافئُهُمُ اللهُ بما كانَ مِنْ عفوِهِمْ عنِ الناسِ)[5] .

وقالَ هشامُ بنُ محمدٍ : أُتِيَ النعمانُ بنُ المنذرِ برجلينِ ، أحدُهُما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإشراف في منازل الأشراف » (٧٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٨٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٢٩) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٧٧) .
(٥) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٧٠٠) .

قدْ أذنبَ ذنباً عظيماً فعفا عنهُ ، والآخرُ أذنبَ ذنباً صغيراً فعاقبَهُ ، وقالَ[١] : [من مجزوء الكامل]

تَعْفُو ٱلْمُلُوكُ عَنِ ٱلْعَظِيـ ـمِ مِنَ ٱلذُّنُوبِ بِفَضْلِها
وَلَقَدْ تُعاقِبُ فِي ٱلْيَسِيـ ـرِ وَلَيْسَ ذاكَ لِجَهْلِها
إلاَّ لِيُعْرَفَ حِلْمُها وَتُخافَ شِدَّةُ نَكْلِها

وعنْ مباركِ بنِ فضالةَ قالَ : وفدَ سوارُ بنُ عبدِ اللهِ في وفدٍ مِنْ أهلِ البصرةِ إلىٰ أبي جعفرٍ ، فكنْتُ عندَهُ ؛ إذْ أُتِيَ برجلٍ فأمرَ بقتلِهِ ، فقلتُ : يُقتَلُ رجلٌ مِنَ المسلمينَ وأنا حاضرٌ ؟! فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ألا أحدِّثُكَ حديثاً سمعتُهُ مِنَ الحسنِ ؟ قالَ : وما هُوَ ؟ قلتُ : سمعتُهُ يقولُ : إذا كانَ يومُ القيامةِ . . جمعَ اللهُ عزَّ وجلَّ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ ؛ حيثُ يسمعُهُمُ الداعي ، وينفذُهُمُ البصرُ ، فيقومُ منادٍ فيقولُ : مَنْ لهُ عندَ اللهِ يدٌ . . فليقُمْ ، فلا يقومُ إلاَّ مَنْ عفا ، فقالَ : واللهِ ؛ لسمعتَهُ مِنَ الحسنِ ؟ فقلتُ : واللهِ ؛ لسمعتُهُ منهُ ، فقالَ : خلَّينا عنهُ[٢] .

وقالَ معاويةُ : (عليكُمْ بالحلمِ والاحتمالِ حتَّىٰ تمكنكُمُ الفرصةُ ، فإذا أمكنَتْكُمْ . . فعليكُمْ بالصفحِ والإفضالِ)[٣] .

---

(١) انظر « عيون الأخبار » (١/ ١٠٠) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص١٣٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣١٢) .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢١٣) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٣) .

ورُويَ أنَّ راهباً دخلَ علىٰ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فقالَ للراهبِ : أرأيتَ ذا القرنينِ أكانَ نبياً ؟ قالَ : لا ، ولكنَّهُ إنَّما أُعطيَ ما أُعطيَ بأربعِ خصالٍ كنَّ فيهِ ؛ كانَ إذا قدرَ . . عفا ، وإذا وعدَ . . وفَّىٰ ، وإذا حدَّثَ . . صدقَ ، ولا يجمعُ شغلَ اليومِ لغدٍ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ليسَ الحليمُ مَنْ ظُلِمَ فحلمَ ، حتَّىٰ إذا قدَرَ . . انتقمَ ، ولكنَّ الحليمَ مَنْ ظُلِمَ فحلمَ ، ثم قدَرَ فعفا)[2] .

وقالَ زيادٌ : (القدرةُ تذهِبُ الحفيظةَ)[3] يعني : الحقدَ والغضبَ .

وأُتيَ هشامٌ برجلٍ بلغَهُ عنهُ أمرٌ ، فلما أُقيمَ بينَ يديهِ . . جعلَ يتكلَّم بحجتِهِ ، فقالَ لهُ هشامٌ : وتتكلَّمُ أيضاً ؟! فقالَ الرجلُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أفنجادلُ اللهَ تعالىٰ ولا نتكلَّمُ بينَ يديكَ كلاماً ؟! قالَ هشامٌ : بلىٰ ويحكَ ، فتكلَّمْ[4] .

ورُويَ أنَّ سارقاً دخلَ خباءَ عمارِ بنِ ياسرٍ بصفينَ ، فقيلَ لهُ : اقطعْهُ فإنَّهُ مِنْ أعدائِنا ، فقالَ : بلْ أسترُ عليهِ ، لعلَّ اللهَ أنْ يسترَ عليَّ يومَ القيامةِ .

وجلسَ ابنُ مسعودٍ في السوقِ يبتاعُ متاعاً ، فابتاعَ ، ثمَّ طلبَ الدراهمَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٣) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٣) .
(٣) أورده البلاذري في « أنساب الأشراف » (٥/ ٢٠٥) لزياد بن أبيه .
(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٢١٢) .

وكانَتْ في عمامتِهِ ، فوجدَها قدْ حُلَّتْ ، فقالَ : لقَدْ جلستُ وإنَّها لمعي ، فجعلوا يدعونَ علىٰ مَنْ أخذَها : اللهمَّ ؛ اقطعْ يدَ السارقِ الذي أخذَها ، اللهمَّ ؛ افعلْ بهِ كذا ، فقالَ عبدُ اللهِ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ حملَهُ علىٰ أخذِها حاجةٌ . . فبارِكْ لهُ فيها ، وإنْ كانَ حملَهُ جراءةٌ على الذنبِ . . فاجعلْهُ آخرَ ذنوبِهِ(١) .

وقالَ الفضيلُ : ما رأيتُ أزهدَ مِنْ رجلٍ مِنْ أهلِ خراسانَ ، جلسَ إليَّ في المسجدِ الحرامِ ، ثمَّ قامَ ليطوفَ ، فسُرِقَتْ دنانيرُ كانَتْ معَهُ ، فجعلَ يبكي ، فقلتُ : أعلى الدنانيرِ تبكي ؟ قالَ : لا ، ولكنْ مثَّلْتُني وإيَّاهُ بينَ يدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فأشرفَ عقلي علىٰ إدحاضِ حجتِهِ ، فبكائي رحمةٌ لهُ(٢) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أتينا منزلَ الحكمِ بنِ أيوبَ ليلاً وهوَ على البصرةِ أميرٌ ، وجاءَ الحسنُ وهوَ خائفٌ ، فدخلنا عليهِ ومعنا الحسنُ ، فما كنَّا معه إلا بمنزلةِ الفراريجِ .

فذكرَ الحسنُ قصةَ يوسفَ عليهِ السلامُ ، وما صنعَ بهِ إخوتُهُ مِنْ بيعِهِمْ إيَّاهُ ، وطرحِهِمْ لهُ في الجبِّ ، فقالَ : باعُوا أخاهُمْ وأحزنُوا أباهُمْ ، وذكرَ ما لقيَ مِنْ كيدِ النساءِ ، ومِنَ الحبسِ ، ثمَّ قالَ : أيُّها الأميرُ ؛ ماذا صنعَ اللهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٣) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٤) .

بهِ ؟ أدالَهُ منهُمْ ، ورفعَ ذكرَهُ ، وأعلىٰ كعبَهُ ، وجعلَهُ علىٰ خزائنِ الأرضِ ، فماذا صنعَ حينَ أكملَ لهُ أمرَهُ ، وجمعَ لهُ أهلَهُ ؟ قالَ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، يعرِّضُ للحَكَمِ بالعفوِ عنْ أصحابِهِ .

فقالَ الحكمُ : فأنا أقولُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، ولوْ لمْ أجِدْ إلا ثوبي . . لواريتُكُمْ تحتَهُ[1] .

وكتبَ ابنُ المقفَّعِ إلىٰ صديقٍ لهُ يسألُهُ العفوَ عَنْ بعضِ إخوانِهِ : (فلانٌ هاربٌ مِنْ زلَّتِهِ إلىٰ عفوِكَ ، لائذٌ منكَ بكَ ، واعلمْ أنَّهُ لنْ يزدادَ الذنبُ عظماً إلاَّ ازدادَ العفوُ فضلاً)[2] .

وأُتِيَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ بأسارى ابنِ الأشعثِ ، فقالَ لرجاءِ بنِ حيوةَ : ما ترى ؟ قال : إنَّ اللهَ قدْ أعطاكَ ما تحبُّ مِنَ الظفرِ ، فأعطِ اللهَ ما يحبُّ مِنَ العفوِ ، فعفا عنهُمْ[3] .

ورُوِيَ أنَّ زياداً أخذَ رجلاً مِنَ الخوارجِ فأفلَتَ منْهُ ، فأخذَ أخاً لهُ ، فقالَ : إنْ جئتَ بأخيكَ وإلاَّ . . ضربتُ عنقَكَ .

فقالَ : أرأيتَ إنْ جئتُكَ بكتابٍ مِنْ أميرِ المؤمنينَ . . تخلِّي سبيلي ؟

قالَ : نعمْ ، قالَ : فأنا آتيكَ بكتابٍ مِنَ العزيزِ الحكيمِ ، وأقيمُ عليهِ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٤) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٤) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٥) .

شاهدينِ إبراهيمَ وموسىٰ ، ثمَّ تلا : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ فقالَ زيادٌ : خلوا سبيلَهُ ، هـٰذا رجلٌ قدْ لُقِّنَ حجَّتَهُ[١] .

وقيلَ : مكتوبٌ في الإنجيلِ : (مَنِ استغفرَ لمنْ ظلمَهُ .. فقدْ هزمَ الشيطانَ)[٢] .

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « العفو » . « إتحاف » (٨/ ٤٥) .

فضيلة الرِّفق

اعلمْ : أنَّ الرفقَ محمودٌ ، ويضادُّهُ العنفُ والحدَّةُ ، والعنفُ نتيجةُ الغضبِ والفظاظةِ ، والرفقُ واللينُ نتيجةُ حسنِ الخُلُقِ والسلامةِ ، وقدْ يكونُ سببُ الحِدَّةِ الغضبَ ، وقدْ يكونُ سببُها شدةَ الحرصِ واستيلاءَهُ ، بحيثُ يدهشُ عنِ التفكرِ ، ويمنعُ مِنَ التثبُّتِ .

فالرفقُ في الأمورِ ثمرةٌ لا يثمرُها إلا حسنُ الخلُقِ ، ولا يحْسُنُ الخلُقُ إلا بضبطِ قوَّةِ الغضبِ وقوَّةِ الشهوةِ ، وحفظِهما علىٰ حدِّ الاعتدالِ ؛ ولأجلِ هـٰذا أثنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الرفقِ وبالغَ فيهِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّهُ مَنْ أُعْطيَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ .. فقدْ أُعطيَ حظَّهُ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ، ومَنْ حُرِمَ حظَّهُ مِنَ الرِّفقِ .. فقدْ حُرِمَ حظَّهُ مِنْ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ أهلَ بيتٍ .. أدخلَ عليهمُ الرِّفقَ »(٢) .

---

(١) رواه بتمامه أبو نعيم في « الحلية » (٩/١٥٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٤٤٤) ، وأشار إليه الترمذي (٢٠١٣) وقد رواه عن أم الدرداء رضي الله عنها ، وعند البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) من حديثها رضي الله عنها : « مهلاً يا عائشة ؛ إن الله يحب الرفق في الأمر كله » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٤٠) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليُعطِي على الرفْقِ ما لا يُعطي على الخُرْقِ ، وإذا أحبَّ اللهُ عبداً . . أعطاهُ الرِّفقَ ، وما مِنْ أهلِ بيتٍ يُحرمونَ الرِّفقَ إلاَّ قدْ حُرِمُوا »(١) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ ، ويُعطِي عليه ما لا يُعطِي على العُنفِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ ارفقي ، فإنَّ اللهَ إذا أرادَ بأهلِ بيتٍ كرامةً . . دلَّهمْ على بابِ الرِّفقِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُحرَمِ الرِّفقَ . . يُحرَمِ الخيرَ كلَّهُ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما والٍ وليَ فَلانَ ورفقَ . . رفقَ اللهُ تعالىٰ بهِ يومَ القيامةِ »(٥) .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٠٦) ، والخرق ـ بضمة وبضمتين ـ : ضد الرفق ، وبفتحتين هو الدهش من الخوف والحياء ، وفي « الإتحاف » (٨/ ٤٦) : (الخرق بالضم : اسم من خرق كتعب ؛ إذا عمل شيئاً فلم يرفق فيه ، فهو أخرق وهي خرقاء) ، وفي (ب) : (إلا حرموا محبة الله تعالىٰ) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٦/ ١٠٤) ، وهو بنحوه عند أبي داوود (٤٨٠٨) ولفظه : « يا عائشة ؛ ارفقي ، فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه ، ولا نزع من شيء قط إلا شانه » .

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٢) ، وقوله : (كله) عند أبي داوود (٤٨٠٩) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » من حديث عائشة رضي الله عنها . « إتحاف » =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تدرونَ مَنْ يُحرَّمُ على النارِ يومَ القيامةِ ؟ كلُّ هيِّنٍ ليِّنٍ سهلٍ قريبٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرِّفقُ يُمنٌ والخُرْقُ شؤْمٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التأنِّي مِنَ اللهِ ، والعجلةُ مِنَ الشيطانِ »(٣) .

ورُوِي أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتاهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ اللهَ قدْ باركَ لجميعِ المسلمينَ فيكَ ، فاخصصْني منكَ بخيرٍ ، فقالَ : « الحمدُ للهِ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، ثمَّ أقبلَ عليهِ فقالَ : « هلْ أنتَ مستوصٍ ؟ » مرتينِ أوْ ثلاثاً ، قالَ : نعمْ ، قالَ : « إذا أردتَ أمراً.. فتدبَّرْ عاقبتَهُ ، فإنْ كانَ رشداً.. فأمْضِهِ ، وإنْ كانَ سوىٰ ذلكَ.. فانْتهِ عنْهُ »(٤) .

= (٨/ ٤٧) ، وعند مسلم (١٨٢٨) من دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم.. فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم.. فارفق به » .

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٨) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٤١٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٥٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣٢٦) .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٥٨) ، وتقدم بلفظ : « الأناة من الله... » .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٣٥٩) عن أبي جعفر عن عبد الله بن مسعود قال : =

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّها كانَتْ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سفرٍ علىٰ بعيرٍ صعبٍ ، فجعلَتْ تصرفُهُ يميناً وشمالاً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشةُ ؛ عليكِ بالرِّفقِ ؛ فإنَّهُ لا يدخلُ في شيءٍ إلاَّ زانهُ ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلاَّ شانَهُ »[1] .

* * *

الآثارُ :

بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ جماعةً منْ رعيَّتِهِ اشتكَوا مِنْ عمَّالِهِ ، فأمرَهُمْ أنْ يوافُوهُ ، فلما أتَوْهُ . . قامَ فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، ثمَّ قالَ : (أيَّتُها الرَّعيَّةُ ؛ إنَّ لنا عليكُمْ حقاً ، النصيحةُ بالغيبِ ، والمعاونةُ على الخيرِ ، أيَّتُها الرُّعاةُ ؛ إنَّ للرعيَّةِ عليكُمْ حقّاً ، واعلموا أنَّه لا حلمَ أحبُّ إلى اللهِ ولا أعمُّ مِنْ حلمِ إمامٍ ورفقِهِ ، وليسَ جهلٌ أبغضَ إلى اللهِ ولا أغمَّ مِنْ جهلِ إمامٍ وخُرْقِهِ ، واعلمُوا أنَّهُ من يأخذْ بالعافيةِ فيمَنْ بينَ ظهريهِ . . يرزقِ العافيةَ ممَّنْ هوَ دونَهُ)[2] .

= قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوص إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غياً . . فانته » .

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (١٢٨١) بنحوه ، وابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/٤٨) .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (الرفقُ بُنَيُّ الحلمِ)[1] .

وفي الخبرِ موقوفاً ومرفوعاً : « العلمُ خليلُ المؤمنِ ، والحلمُ وزيرُهُ ، والعقلُ دليلُهُ ، والعملُ قيِّمُهُ ، والرِّفقُ والدُهُ ، واللِّينُ أخوهُ ، والصبرُ أميرُ جنودِهِ »[2] .

وقالَ بعضُهمْ : (ما أحسنَ الإيمانَ يزينُهُ العلمُ ، وما أحسنَ العلمَ يزينُهُ العملُ ، وما أحسنَ العملَ يزينُهُ الرفقُ ، وما أضيفَ شيءٌ إلىٰ شيءٍ مثلَ حلمٍ إلىٰ علمٍ)[3] .

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ لابنِهِ عبدِ اللهِ : ما الرِّفقُ ؟ قالَ : أن تكونَ ذا أناةٍ وتلاينَ الولاةَ ، قالَ : فما الخُرْقُ ؟ قالَ : معاداةُ إمامِكَ ، ومناوأةُ مَنْ يقدِرُ علىٰ ضررِكَ[4] .

وقالَ سفيانُ لأصحابِهِ : أتدرونَ ما الرفقُ ؟ قالوا : قلْ يا أبا محمدٍ ؛ قالَ : أنْ تضعَ الأمورَ مواضعَها ، الشدَّةَ في موضعِها ، واللينَ في موضعِهِ ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٤٨) ، وبُنَيُّ : تصغير ابن ؛ أي : ثمرته ونتيجته ، كذا في « الإتحاف » ، وعنده في « تاج العروس » (ب ن ي) : (الرفق بنيُّ الحلم ؛ أي : مثله) أي : يحاكيه في البناء .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٥٢ ، ١٥٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤١٩٥) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٣٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٤٩) .

والسيفَ في موضعِهِ ، والسوطَ في موضعِهِ[1] .

وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ لا بدَّ مِنْ مزجِ الغلظةِ باللينِ ، والفظاظةِ بالرِّفقِ ؛ كما قيلَ[2] : [من الطويل]

وَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِي مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلْعُلا ... مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِي مَوْضِعِ ٱلنَّدَى

فالمحمودُ وسطٌ بينَ اللينِ والعنفِ ؛ كما في سائرِ الأخلاقِ ، ولكنْ لمَّا كانَتِ الطِّباعُ إلى الحدَّةِ والعنفِ أميلَ . . كانَتِ الحاجةُ إلىٰ ترغيبِهِمْ في جانبِ الرفقِ أكثرَ ، فلذلكَ كثُرَ ثناءُ الشرعِ علىٰ جانبِ الرفقِ دونَ العنفِ ، وإنْ كانَ العنفُ في محلِّهِ حسناً ، كما أنَّ الرفقَ في محلِّه حسنٌ ، فإذا كانَ الواجبُ هوَ العنفَ . . فقدْ وافقَ الحقُّ الهوىٰ ، وهوَ ألذُّ مِنَ الزُّبْدِ بالشهدِ ، هٰكذا قالَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ[3] .

رُوِيَ أنَّ عمرَو بنَ العاصِ كتبَ إلىٰ معاويةَ يعاتبُهُ في التأنِّي ، فكتبَ إليهِ معاويةُ :

(أمَّا بعدُ : فإنَّ التفهُّمَ في الخيرِ زيادةٌ ورشَدٌ ، وإنَّ الرشيدَ مَنْ رشدَ عنِ العجلةِ ، وإنَّ الخائبَ مَنْ خابَ عنِ الأناةِ ، وإنَّ المتثبِّتَ مصيبٌ ، أوْ كادَ أنْ يكونَ مصيباً ، وإنَّ المعجِّلَ مخطِئٌ ، أوْ كادَ أنْ يكونَ مخطئاً ، وإنَّ مَنْ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » ، وسفيان هو ابن عيينة . « إتحاف » (٨/ ٤٩).
(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١/ ٢٨٨) .
(٣) تقدم ، ولفظه : (إذا وافق الحق الهوىٰ . . فهو الزبد بالنّرسيان) ، وقال الحافظ الزبيدي : (كما أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب ») . « إتحاف » (٨/ ٤٩) .

لا ينفعُهُ الرفقُ.. يضرُّهُ الخُرْقُ ؛ ومَنْ لا تنفعُهُ التجاربُ.. لا يدركُ المعاليَ)[١] .

وعنْ أبي عونٍ الأنصاريِّ قالَ : (ما تكلَّمَ الناسُ بكلمةٍ صعبةٍ إلاَّ وإلىٰ جانبِها كلمةٌ ألينُ منها تجري مجراها)[٢] .

وقالَ أبو حمزةَ الكوفيُّ : (لا تتخذْ مِنَ الخدمِ إلاَّ ما لا بدَّ منهُ ، فإنَّ معَ كلِّ إنسانٍ شيطاناً ، واعلمْ أنَّهم لا يعطونَكَ بالشدَّةِ شيئاً إلاَّ أعطوكَ باللِّينِ ما هوَ أفضلُ منهُ)[٣] .

وقالَ الحسنُ : (المؤمنُ وقَّافٌ متأنٍّ ، وليسَ كحاطبِ ليلٍ)[٤] .

فهٰذا ثناءُ أهلِ العلمِ على الرفقِ ؛ وذلكَ لأنَّهُ محمودٌ ومفيدٌ في أكثرِ الأحوالِ وأغلبِ الأمورِ ، والحاجةُ إلى العنفِ قَدْ تقعُ ، ولكنْ على الندورِ ، وإنَّما الكاملُ مَنْ يميِّزُ مواقعَ الرفقِ مِنْ مواقعِ العنفِ ، فيعطي كلَّ أمرٍ حقَّهُ ، فإنْ كانَ قاصرَ البصيرةِ ، أوْ أشكلَ عليهِ حكمُ واقعةٍ مِنَ الوقائعِ.. فليكنْ ميلُهُ إلى الرفقِ ؛ فإنَّ النُّجْحَ معهُ في الأكثرِ .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٦٥) .
(٢) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧١٦) ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٥١) ، وفي النسخ : (ابن عون) بدل (أبي عون) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٥٠) .
(٤) إذ لا يخوض فيما لا يعنيه ، فإن الذي يجمع الحطب بالليل يوشك أن يلم ما يؤذيه من حية وغيرها يظنه حطباً ، أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٥٠) ، ونحوه عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٣٠) .

القول في ذمّ الحسد ، وفي حقيقته ، وأسبابه ، ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذمّ الحسد

اعلمْ : أنَّ الحسدَ أيضاً مِنْ نتائجِ الحقدِ ، والحقدُ مِنْ نتائجِ الغضبِ ، فهوَ فرعُ فرعِ الغضبِ ، والغضبُ أصلُ أصلِهِ .

ثمَّ إنَّ للحسدِ مِنَ الفروعِ الذميمةِ ما لا يكادُ يُحصىٰ ، وقدْ وردَ في ذمِّ الحسدِ خاصةً أخبارٌ كثيرةٌ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النهيِ عنِ الحسدِ وأسبابِهِ وثمراتِهِ : « لا تحاسدُوا ، ولا تقاطعُوا ، ولا تباغضُوا ، ولا تدابرُوا ، وكونُوا عبادَ اللهِ إخواناً »(٢) .

وقالَ أنسٌ : كنَّا يوماً جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يطلُعُ عليكُمُ الآنَ مِنْ هٰذا الفجِّ رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ » ، قالَ : فطلعَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ تنطفُ لحيتُهُ مِنْ وضوئِهِ ، قدْ علَّقَ نعليهِ في يدِهِ

(١) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩) .

الشمالِ فسلَّمَ ، فلمَّا كانَ الغدُ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلَ ذلكَ ، فطلعَ ذلكَ الرجلُ ، وقالَهُ في اليومِ الثالثِ ، فطلعَ ذلكَ الرجلُ ، فلمَّا قامَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . تبعَهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ فقالَ : إنِّي لاحيتُ أبي ، فأقسمْتُ ألاَّ أدْخلَ عليهِ ثلاثاً ، فإنْ رأيتَ أنْ تؤوِيَني إليكَ حتَّىٰ تمضيَ الثلاثُ . . فعلتُ ، قالَ : نعمْ ، فباتَ عندَهُ ثلاثَ ليالٍ ، فلمْ يرَهُ يقومُ مِنَ الليلِ شيئاً ، غيرَ أنَّهُ إذا تقلَّبَ علىٰ فراشِهِ . . ذكرَ اللهَ تعالىٰ ، ولمْ يقمْ حتَّىٰ يقومَ لصلاةِ الفجرِ ، قالَ : غيرَ أنِّي لمْ أسمعْهُ يقولُ إلا خيراً ، فلمَّا مضتِ الثلاثُ ، وكدتُ أنْ أحتقرَ عملَهُ . . قلتُ : يا عبدَ اللهِ ؛ لمْ يكنْ بيني وبينَ والدي غضبٌ ولا هجرةٌ ، ولكنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ كذا وكذا ، فأردتُ أنْ أعرفَ عملَكَ ، فلمْ أركَ تعملُ عملاً كثيراً ، فما الذي بلغَ بكَ ذاكَ ؟ قالَ : ما هو إلاَّ ما رأيتَ ، فلمَّا ولَّيتُ . . دعاني ، فقالَ : ما هوَ إلاَّ ما رأيتَ ، غيرَ أنِّي لا أجدُ علىٰ أحدٍ منَ المسلمينَ في نفسِي غشّاً ولا حسداً علىٰ خيرٍ أعطاهُ اللهُ إيَّاهُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : فقلتُ لهُ : هيَ التي بلغَتْ بكَ ، وهيَ التي لا نطيقُ[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا ينجو منهنَّ أحدٌ : الظَّنُّ والطِّيرةُ والحسدُ ، وسأحدِّثُكمْ بالمخرجِ مِنْ ذلكَ ، إذا ظننتَ . . فلا تحقِّقْ ، وإذا تطيَّرتَ . . فامضِ ، وإذا حسدتَ . . فلا تبغِ »[٢] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩٤) ، وأحمد في « المسند » (٣/١٦٦) .
(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/٨) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي =

وفي روايةٍ : « ثلاثٌ لا ينجُو منهنَّ أحدٌ ، وقلَّ مَنْ ينجُو منهنَّ »[1] ، فأثبتَ في هـٰذهِ الروايةِ إمكانَ النجاةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دبَّ إليكمْ داءُ الأممِ قبلَكُمْ : الحسدُ ، والبغضاءُ ، والبغضةُ هيَ الحالقةُ ، لا أقولُ : حالقةُ الشَّعرِ ، ولكنْ حالقةُ الدِّينِ ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ لا تدخلونَ الجنةَ حتَّىٰ تؤمنُوا ، ولنْ تؤمنُوا حتَّىٰ تحابُّوا ، ألاَ أنبِّئُكُمْ بما يثْبتُ ذلكَ لكم ؟ أفشُوا السَّلامَ بينَكُمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً ، وكادَ الحسدُ أنْ يغلبَ القدَرَ »[3] .

= « الإتحاف » (٨/ ٥١) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة، وفيه يعقوب بن محمد الزهري، وموسى بن يعقوب ، ضعفهما الجمهور).

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٥١) : (رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمـٰن بن معاوية ، وهو مرسل ضعيف ، وتقدم في آفات اللسان حديث حارثة بن النعمان : « ثلاث لازمات لأمتي : سوء الظن والحسد والطيرة ، فإذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فاستغفر الله تعالىٰ ، وإذا تطيرت . . فامض » ، رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » [٧٧] ، والطبراني في « الكبير » [٣/ ٢٢٨] ، وروىٰ رستة في كتاب « الإيمان » له من مرسل الحسن بلفظ : « ثلاث لم تسلم منها هـٰذه الأمة ، الحسد والظن والطيرة ، ألا أنبئكم بالمخرج منها ؟ إذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فلا تبغ ، وإذا تطيرت . . فامض ») .

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٠) .

(٣) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ سيصيبُ أمَّتي داءُ الأممِ » ، قالُوا : وما داءُ الأممِ ؟ قالَ : « الأشرُ ، والبطرُ ، والتَّكاثرُ ، والتَّنافسُ في الدُّنيا ، والتَّباعدُ ، والتَّحاسدُ ، حتَّىٰ يكونَ البغيُ ، ثمَّ الهرْجُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تظهرِ الشماتةَ لأخيكَ ، فيعافيَهُ اللهُ ويبتليَكَ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا تعجَّلَ إلىٰ ربِّهِ تعالىٰ . . رأىٰ في ظلِّ العرشِ رجلاً ، فغبطَهُ بمكانِهِ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا لكريمٌ علىٰ ربِّهِ ، فسألَ ربَّهُ أنْ يخبرَهُ باسمِهِ ، فلمْ يخبرْهُ باسمِهِ ، وقالَ : أحدثُكَ مِنْ عملِهِ بثلاثٍ ، كانَ لا يحسدُ الناسَ علىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ ، وكانَ لا يعقُّ والديهِ ، ولا يمشي بالنميمةِ(٣) .

وقالَ زكريا عليهِ السلامُ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : الحاسدُ عدوٌّ لنعمتي ، متسخِّطٌ لقضائي ، غيرُ راضٍ بقسمتي التي قسمتُ بينَ عبادي)(٤) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٠١٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/١٦٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٠٦) ، وفيه : (فيرحمه الله) بدل (فيعافيه الله) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/١٨٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٦٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١٤٩) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١٣) عن الأصمعي قال : (إن الله عز وجل يقول : الحاسد . . .) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ علىٰ أمَّتي أن يكثرَ لهمُ المالُ ، فيتحاسدونَ ويقتتلونَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استعينوا علىٰ قضاءِ الحوائجِ بالكتمانِ ، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لنعمِ اللهِ أعداءً » ، فقيلَ : ومَنْ أولئكَ ؟ قالَ : « الذينَ يحسدونَ الناسَ علىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ستَّةٌ يدخلونَ النَّارَ قبلَ الحسابِ بستةٍ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ هُمْ ؟ قالَ : الأمراءُ بالجورِ ، والعربُ بالعصبيَّةِ ، والدَّهاقينُ بالكبرِ ، والتُّجّارُ بالخيانة ، وأهلُ الرُّستاقِ بالجهالةِ ، والعلماءُ بالحسدِ »(٤) .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١١١٥) من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه، وعند البخاري (١٤٦٥) ، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه : « إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » الحديث .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٦٨١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٢٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٢٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم » .

(٤) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٩١) من حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٥٦٥) من حديث عثمان رضي الله عنه .

الآثارُ :

قالَ بعضُ السلفِ : (أوّلُ خطيئةٍ كانَتْ هيَ الحسدُ ، حسدَ إبليسُ آدمَ عليهِ السلامُ علىٰ رتبتِهِ فأبىٰ أنْ يسجدَ لهُ، فحملَهُ الحسدُ على المعصيةِ)(١) .

وحُكيَ أنَّ عونَ بنَ عبدِ اللهِ دخلَ على المفضَّلِ بنِ المهلَّبِ وكانَ يومئذٍ علىٰ واسطٍ ، فقالَ : إنِّي أريدُ أنْ أعظَكَ بشيءٍ ، فقالَ : وما ذاكَ ؟

قالَ : إيَّاكَ والكبرَ ؛ فإنَّهُ أولُ ذنبٍ عُصِيَ اللهُ بهِ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ. . . ﴾ الآيةَ .

وإيَّاكَ والحرصَ ؛ فإنَّهُ أخرجَ آدمَ مِنَ الجنةِ ، أمكنَهُ اللهُ مِنْ جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ يأكلُ منها إلا شجرةً واحدةً نهاهُ اللهُ عنها ، فأكلَ منها ، فأخرجَهُ اللهُ تعالىٰ منها ، ثمَّ قرأَ : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ إلىٰ آخرِ الآيةِ .

وإيَّاكَ والحسدَ ، فإنَّهُ قتلَ ابنُ آدم أخاهُ حينَ حسَدَهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ . . . ﴾ الآياتِ ، وإذا ذُكِرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فاسكتْ ، وإذا ذُكرَ القدرُ . . فاسكتْ ، وإذا ذُكرَتِ النجومُ . . فاسكتْ(٢) .

---

(١) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٦٩) عن جنادة بن أبي أمية بنحوه .
(٢) قطعة من الخبر عند البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٢٣٠) ، وروىٰ نحوه عن عبد الملك بن مروان ورجل من المهاجرين يعظه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٦٨) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : كانَ رجلٌ يغشىٰ بعضَ الملوكِ فيقومُ بحذاءِ الملكِ ، فيقولُ :

أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِهِ ؛ فإنَّ المسيءَ سيكفيكَهُ إساءتُهُ ، قالَ : فحسدَهُ رجلٌ علىٰ ذلكَ المقامِ والكلامِ ، فسعىٰ بهِ إلى الملكِ ، فقالَ :

إنَّ هـٰذا الذي يقومُ بحذائِكَ ويقولُ ما يقولُ زعمَ أنَّ الملكَ أبخرُ ، فقالَ لهُ الملكُ : وكيفَ يصحُّ ذلكَ عندي ؟

قالَ : تدعو بهِ إليكَ ، فإنَّهُ إذا دنا منكَ وضعَ يدَهُ علىٰ أنفِهِ ؛ لئلا يشمَّ ريحَ البخَرِ .

فقالَ لهُ : انصرفْ حتَّىٰ أنظرَ ، فخرجَ مِنْ عندِ الملكِ ، فدعا الرجلَ إلىٰ منزلِهِ ، فأطعمَهُ طعاماً فيهِ ثومٌ ، فخرجَ الرجلُ مِنْ عندِهِ ، وقامَ بحذاءِ الملكِ ، فقالَ :

أحسنْ إلى المحسنِ بإحسانِهِ ، فإنَّ المسيءَ ستكفيكَهُ إساءتُهُ ، فقالَ لهَ الملكُ :

ادْنُ منِّي ، فدنا منهُ ، فوضعَ يدَهُ علىٰ فيهِ مخافةَ أنْ يشَمَّ الملكُ منهُ ريحَ الثومِ ، فقالَ الملكُ في نفسِهِ : ما أرىٰ فلاناً إلاَّ قدْ صدقَ .

قالَ : وكانَ الملكُ لا يكتبُ بخطِّهِ إلا بجائزةٍ أوْ صلةٍ ، فكتبَ لهُ كتاباً بخطِّهِ إلىٰ عاملٍ مِنْ عمالِهِ :

إذا أتاكَ حاملُ كتابي . . فاذبحْهُ واسلخْهُ ، واحشُ جلدَهُ تبناً ، وابعثْ بهِ إليَّ .

فأخذَ الكتابَ وخرجَ ، فلقيَهُ الرجلُ الذي سعىٰ بهِ ، فقالَ : ما هـٰذا الكتابُ ؟

فقالَ : خطَّ الملكُ لي بصلةٍ ، فقالَ : هبْهُ لي ، فقالَ : هوَ لكَ .

فأخذَهُ ومضىٰ إلى العاملِ ، فقالَ العاملُ :

في كتابِكَ أنْ أذبحَكَ وأسلخَكَ ، قالَ : إنَّ الكتابَ ليسَ هوَ لي ، فاللهَ اللهَ في أمري حتَّىٰ أراجعَ الملكَ .

قالَ : ليسَ لكتابِ الملكِ مراجعةٌ ، فذبحَهُ وسلخَهُ ، وحشا جلدَهُ تبناً ، وبعثَ بهِ .

ثمَّ عادَ الرجلُ إلى الملكِ كعادتِهِ ، وقالَ مثلَ قولِهِ ، فتعجبَ الملكُ ، وقالَ : ما فعلَ الكتابُ ؟

فقالَ : لقيَني فلانٌ واستوهبَهُ منِّي فوهبتُهُ لهُ ، قالَ الملكُ : إنَّهُ ذكرَ لي أنَّكَ تزعمُ أنِّي أبخرُ ، قالَ : ما فعلْتُ ، قالَ : فلمَ وضعْتَ يدكَ علىٰ أنفِكَ ؟ قالَ : كانَ أطعمَني طعاماً فيه ثومٌ ، فكرهتُ أن تشمَّهُ ، قالَ : صدقتَ ، ارجعْ إلىٰ مكانِكَ ، فقدْ كفاكَ المسيءَ إساءتُهُ(١) .

وقالَ ابنُ سيرينَ رحمهُ اللهُ : (ما حسدتُ أحداً علىٰ شيءٍ مِنَ الدنيا ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ مِنَ أهلِ الجنةِ . . فكيفَ أحسدُهُ على الدنيا وهيَ حقيرةٌ في

(١) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٢٨) .

الجنةِ ؟! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . فكيفَ أحسدُهُ علىٰ أمرِ الدنيا ، وهوَ يصيرُ إلى النارِ ؟!)[١] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : هلْ يَحسدُ المؤمنُ ؟

قالَ : ما أنساكَ بني يعقوبَ ! نعمْ ، ولكنْ غمَّةٌ في صدرِكَ ، وإنَّهُ لا يضرُّكَ ما لمْ تعدُ بهِ يداً ولا لساناً[٢] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما أكثرَ عبدٌ ذكرَ الموتِ إلا قلَّ فرحُهُ ، وقلَّ حسدُهُ)[٣] .

وقالَ معاويةُ : (كلُّ الناسِ أقدرُ علىٰ رضاهُ إلا حاسدَ نعمةٍ ؛ فإنَّه لا يرضيهِ إلا زوالُها)[٤] .

ولذلك قيلَ[٥] : [من البسيط]

كُلُّ ٱلْعَداوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إِماتَتُها إِلاَّ عَداوَةَ مَنْ عاداكَ مِنْ حَسَدِ

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الحسدُ جرحٌ لا يبرأُ ، وحسْبُ الحسودِ ما يلقىٰ)[٦] .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٣٤) .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٣٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٠) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١١٣) .
(٥) البيت للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص٥٤) .
(٦) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٢٤) عن ذي النون المصري .

وقالَ أعرابيٌّ : (ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلوم مِنْ حاسدٍ ، إنَّهُ يرى النعمةَ عليكَ نقمةً عليهِ)(١) .

وقالَ الحسنُ : (يا بنَ آدمَ ؛ لمَ تحسدُ أخاكَ ؟ فإنْ كانَ الذي أعطاهُ اللهُ لكرامتِهِ عليهِ . . فلِمَ تحسدُ مَنْ أكرمَهُ اللهُ ؟! وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ . . فلمَ تحسدُ مَنْ مصيرُهُ إلى النارِ ؟!)(٢) .

وقالَ بعضُهمْ : (الحاسدُ لا ينالُ مِنَ المجالسِ إلا مذمَّةً وذُلاًّ ، ولا ينالُ مِنَ الملائكةِ إلا لعنةً وبغضاً ، ولا ينالُ مِنَ الخلقِ إلاَّ جزعاً وغمّاً ، ولا ينالُ عندَ النزعِ إلا شدّةً وهولاً ، ولا ينالُ عندَ الموقفِ إلا فضيحةً ونكالاً)(٣) .

* * *

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢١١) عن الخليل بن أحمد .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » . « إتحاف » (٨/ ٥٧) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » . « إتحاف » (٨/ ٥٧) .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلمْ : أنَّهُ لا حسدَ إلا علىٰ نعمةٍ ، فإذا أنعمَ اللهُ علىٰ أخيكَ بنعمةٍ . . فلكَ فيها حالتانِ :

إحداهُما : أنْ تكرهَ تلكَ النعمةَ وتحبَّ زوالَها ، وهٰذهِ الحالةُ تُسمَّىٰ حسداً ، **فالحسدُ حدُّهُ** : كراهةُ النعمةِ ، وحبُّ زوالِها عنِ المنعَمِ عليهِ .

الحالةُ الثانيةُ : ألاَّ تحبَّ زوالَها ولا تكرَهَ وجودَها ودوامَها ، ولكنْ تشتهي لنفسِكَ مثلَها ، وهٰذهِ تُسمَّىٰ **غبطةً** ، وقدْ تُخصُّ باسمِ المنافسةِ ، وقدْ تُسمَّى المنافسةُ حسداً ، والحسدُ منافسةً ، ويُوضعُ أحدُ اللفظينِ موضعَ الآخرِ ، ولا حجرَ في الأسامي بعدَ فهمِ المعاني .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ يغبطُ ، والمنافقُ يحسُدُ »(١) .

فأمَّا الأوَّلُ . . فهوَ حرامٌ بكلِّ حالٍ إلا نعمةً أصابَها فاجرٌ أوْ كافرٌ ، وهوَ يستعينُ بها علىٰ تهييجِ الفتنةِ ، وإفسادِ ذاتِ البينِ ، وإيذاءِ الخلقِ ، فلا

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً مرفوعاً ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد ») . « إتحاف » (٨/ ٥٨) ، ورواه أبو نعيم عنه في « الحلية » (٨/ ٩٥) .

يضرُّكَ كراهتُكَ لها ، ومحبتُكَ لزوالِها ؛ فإنَّكَ لا تحبُّ زوالَها مِنْ حيثُ إنَّها نعمةٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّها آلةُ الفسادِ ، ولوْ أمنْتَ فسادَهُ.. لمْ يغمَّكَ تنعُّمُهُ .

ويدلُّ علىٰ تحريمِ الحسدِ الأخبارُ التي نقلناها ، وأنَّ هـٰذهِ الكراهةَ تسخُّطٌ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ في تفضيلِ بعضِ عبادِهِ علىٰ بعضٍ ، وذلكَ لا عذرَ فيهِ ولا رخصةَ ، وأيُّ معصيةٍ تزيدُ علىٰ كراهتِكَ لراحةِ مسلمٍ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لكَ فيهِ مضرةٌ !

وإلىٰ هـٰذا أشارَ القرآنُ بقولِهِ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ ، وهـٰذا الفرحُ شماتةٌ ، والحسدُ والشماتةُ يتلازمانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴾ ، فأخبرَ تعالىٰ أنَّ حبَّهمْ زوالَ نعمةِ الإيمانِ حسدٌ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ .

وذكرَ اللهُ تعالىٰ حسدَ إخوةِ يوسفَ ، وعبَّرَ عمَّا في قلوبِهِمْ بقولِهِ : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ ، فلمَّا كرهُوا حبَّ أبيهِمْ لهُ.. ساءَهُمْ ذلكَ ، وأحبُّوا زوالَهُ عنهُ ، فغيبُوهُ عنهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أيْ : لا تضيقُ بِهِ صدورُهُمْ ولا يغتمُّونَ ، فأثنىٰ عليهِمْ بعدمِ الحسدِ .

وقالَ تعالىٰ في معرضِ الإنكارِ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ قيلَ في التفسيرِ : حسداً[1] .

وقالَ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ ، فأنزلَ اللهُ العلمَ ليجمعَهُمْ ويؤلِّفَ بينهُمْ علىٰ طاعتِهِ ، فأمرَهُمْ أنْ يتألَّفوا بالعلمِ ، فتحاسدُوا واختلفُوا ؛ إذ أرادَ كلٌّ واحدٍ أنْ ينفردَ بالرئاسةِ وقبولِ القولِ ، فردَّ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ .

قالَ ابنُ عباسٍ : كانَتِ اليهودُ قبلَ أنْ يُبعثَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قاتلوا قوماً . . قالوا :

نسألُكَ بالنبيِّ الذي وعدتَنا أن ترسلَهُ ، وبالكتابِ الذي تنزلُهُ إلا ما نصرتَنا ، فكانُوا يُنصَرونَ .

فلمَّا جاء النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ ولدِ إسماعيلَ . . عرفُوهُ ، وكفرُوا بهِ بعدَ معرفتِهِمْ إيَّاهُ ، فقالَ تعالَىٰ : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا ﴾ أيْ : حسداً[2] .

---

(١) أي : فسروا البغي بالحسد ؛ فإنه تجاوز من الحق إلى الباطل . « إتحاف » (٨/ ٦٠) .
(٢) رواه الآجري في « الشريعة » (٩٧٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٦٣) ، =

وقالَتْ صفيَّةُ بنتُ حييٍّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جاءَ أبي وعمِّي مِنْ عندِكَ يوماً ، فقالَ أبي لعمي : ما تقولُ فيهِ ؟

قالَ : أقولُ : إنَّهُ النبيُّ الذي بشَّرَ بهِ موسىٰ ، قالَ : فما ترى ؟ قالَ : أرىٰ معاداتَهُ أيامَ الحياةِ[1] .

فهٰذا حكمُ الحسدِ في التحريمِ .

وأمَّا المنافسةُ . . فليسَتْ بحرامٍ ، بلْ هيَ إمَّا واجبةٌ ، وإمَّا مندوبةٌ ، وإمَّا مباحةٌ ، وقدْ يُستعملُ لفظُ المنافسةِ بدلَ الحسدِ ، والحسدِ بدلَ المنافسةِ .

قالَ قثمُ بنُ العباسِ : لمَّا أرادَ هوَ والفضلُ أنْ يأتيا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيسألانِهِ أنْ يؤمِّرَهُما على الصدقةِ .

قالا لعليٍّ حينَ قالَ لهُما :

لا تذهبا إليهِ ؛ فإنَّهُ لا يؤمِّرُكما عليها ، فقالا لهُ : ما هٰذا منكَ إلا نفاسةٌ ، واللهِ ؛ لقدْ زوَّجَكَ ابنتَهُ فما نفِسْنا ذلكَ عليكَ ؛ أيْ : هٰذا منكَ

= والبيهقي في « دلائل النبوة » (٢/ ٧٦) ، ومجمل روايات الاستنصار به صلى الله عليه وسلم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام عند الطبري في « تفسيره » (١/١/ ٥٣٩ـ ٥٤٢) .

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن إسحاق في « السيرة » ، قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : حدثت صفية ، فذكره نحوه ، وهو منقطع) . « إتحاف » (٨/ ٦٠) .

حسدٌ ، وما حسدناكَ علىٰ تزويجهِ إياكَ فاطمةَ[1] .

والمنافسةُ مشتقةٌ في اللغةِ مِنَ النفاسةِ ، والذي يدلُّ علىٰ إباحةِ المنافسةِ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

وإنَّما المسابقةُ عندَ خوفِ الفوتِ ، وهوَ كالعبدينِ يتسابقانِ إلىٰ خدمةِ مولاهما ؛ إذْ يجزعُ كلُّ واحدٍ أن يسبقَهُ صاحبُهُ فيحظىٰ عندَ مولاهُ بمنزلةٍ لا يحظىٰ هوَ بها .

وكيفَ وقدْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ فقالَ :

« لاحسدَ إلاَّ في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فسلَّطَهُ علىٰ هلكتِهِ في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فهوَ يعملُ بهِ ويعلِّمُهُ النَّاسَ »[2] .

ثمَّ فسَّرَ ذلكَ في حديثِ أبي كبشةَ الأنماريِّ فقالَ : « مثلُ هـٰذهِ الأمَّةِ مثلُ أربعةِ رجالٍ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً وعلماً ، فهو يعملُ بعلمِهِ في مالِهِ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ولمْ يؤتِهِ مالاً ، فيقولُ ربُّ العلمِ : لوْ أنَّ لي مالاً مثلَ مالِ فلانٍ . لكنتُ أعملُ فيهِ بمثلِ عملِهِ ؛ فهما في الأجرِ سواءٌ » .

---

(١) رواه مسلم (١٠٧٢) بنحوه .

(٢) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

وهـٰذا منهُ حبٌّ لأنْ يكونَ لهُ مثلُ مالِهِ فيعملَ مثلَ ما يعملُ مِنْ غيرِ حبِّ زوالِ النعمةِ عنهُ .

قالَ : « ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ولم يؤتِهِ علماً ، فهوَ يُنفقُهُ في معاصِي اللهِ .

ورجلٌ لمْ يؤتِهِ اللهُ علماً ولمْ يؤتِهِ مالاً ، فيقولُ : لوْ أنَّ لي مثلَ مالِ فلانٍ . . لكنْتُ أنفقُهُ في مثلِ ما أنفقَهُ فيهِ مِنَ المعاصي ؛ فهما في الوزْرِ سواءٌ »(١) .

فذمَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ جهةِ تمنِّيهِ للمعصيةِ ، لا مِنْ جهةِ حبِّهِ أنْ يكونَ لَهُ مِنَ النعمةِ مثلُ مالِهِ .

فإذاً ؛ لا حرجَ علىٰ مَنْ يغبطُ غيرَهُ في نعمةٍ ويشتهي لنفسِهِ مثلَها ؛ مهما لمْ يحبَّ زوالَها عنهُ ، ولمْ يكرَهْ دوامَها لهُ .

نعمْ ، إنْ كانَتْ تلكَ النعمةُ نعمةً دينيَّةً واجبةً ؛ كالإيمانِ ، والصلاةِ ، والزكاةِ . . فهـٰذِهِ المنافسةُ واجبةٌ ، وهوَ أنْ يحبَّ أنْ يكونَ مثلَهُ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يحبَّ ذلكَ . . فيكونُ راضياً بالمعصيةِ ، وذلكَ حرامٌ .

وإنْ كانَتِ النعمةُ مِنَ الفضائلِ ؛ كإنفاقِ الأموالِ في المكارمِ والصدقاتِ . . فالمنافسةُ فيها مندوبٌ إليها ، وإنْ كانَتْ نعمةً يُتنعَّمُ بها علىٰ وجهٍ مباحٍ . . فالمنافسةُ فيها مباحةٌ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

وكلُّ ذلكَ يرجعُ إلىٰ إرادتِه مساواتَهُ واللحوقَ بهِ في النعمةِ ، وليسَ فيها كراهةُ النعمةِ ، وكانَ تحتَ هـٰذهِ النعمةِ أمرانِ :

أحدُهُما : راحةُ المنعَمِ عليهِ .

والآخرُ : ظهورُ نقصانِ غيرِه وتخلُّفِه عنهُ .

وهوَ يكرَهُ أحدَ الوجهينِ ، وهوَ تخلُّفُ نفسِهِ ، ويحبُّ مساواتَهُ لهُ ، ولا حرجَ علىٰ مَنْ يكرهُ تخلُّفَ نفسِهِ ونقصانَها في المباحاتِ .

نعمْ ، ذلكَ ينقصُ مِنَ الفضلِ ، ويناقضُ الزهدَ والتوكلَ والرضا ، ويحجبُ عنِ المقاماتِ الرفيعةِ ، ولكنَّهُ لا يوجبُ العصيانَ .

❀ ❀ ❀

وهـٰهنا دقيقةٌ غامضةٌ : وهيَ أنَّهُ إذا أيسَ مِنْ أنْ ينالَ مثلَ تلكَ النعمةِ وهوَ يكرهُ تخلُّفَهُ ونقصانَهُ . . فلا محالَةَ يحبُّ زوالَ النقصانِ ، وإنَّما يزولُ نقصانُهُ إمَّا بأنْ ينالَ مثلَ ذلكَ ، أوْ بأنْ تزولَ نعمةُ المحسودِ .

فإذا انسدَّ أحدُ الطريقينِ . . فيكادُ القلبُ لا ينفكُّ عنْ شهوةِ الطريقِ الآخرِ ، حتَّىٰ إذا زالَتِ النعمةُ عنِ المحسودِ . . كانَ ذلكَ أشهىٰ عندَهُ مِنْ دوامِها ؛ إذ بزوالِها يزولُ تخلُّفُهُ وتقدُّمُ غيرِهِ ، وهـٰذا لا يكادُ ينفكُّ القلبُ عنهُ .

فإنْ كانَ بحيثُ لوْ أُلقيَ الأمرُ إليهِ ورُدَّ إلى اختيارِهِ لسعىٰ في إزالةِ النعمةِ

عنهُ. . فهوَ حسودٌ حسداً مذموماً ، وإنْ كانَ تردعُهُ التقوىٰ عنْ إزالةِ ذلكَ. . فيُعفىٰ عنهُ فيما يجدُهُ في طبعِهِ مِنِ ارتياحٍ إلىٰ زوالِ النعمةِ عنْ محسودِهِ مهما كَانَ كارهاً لذلكَ مِنْ نفسِهِ بعقلِهِ ودينِهِ ، ولعلَّهُ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا ينفكُّ المؤمنُ عنهنَّ : الحسدُ والظنُّ والطِّيَرةُ » .

ثمَّ قالَ : « ولهُ منهنَّ مخرجٌ ، إذا حسدتَ. . فلا تبغِ »[1] ؛ أيْ : إنْ وجدتَ في قلبِكَ شيئاً. . فلا تعملْ بهِ ، وبعيدٌ أنْ يكونَ الإنسانُ مريداً للحاقِ بأخيهِ في النعمةِ فيعجزُ عنها ، ثمَّ ينفكُّ عنْ ميلٍ إلىٰ زوالِ النعمةِ ؛ إذْ يجدُ ـ لا محالةَ ـ لهُ ترجيحاً علىٰ داومِها .

فهٰذا الحدُّ مِنَ المنافسةِ يزاحمُ الحسدَ الحرامَ ، فينبغي أنْ يُحتاطَ منهُ ، فإنَّهُ موضعُ الخطرِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلاَّ وهوَ يرىٰ فوقَ نفسِهِ مِنْ معارفِهِ وأقرانِهِ مَنْ يحبُّ أن يساويَهُ ، ويكادُ يجرُّهُ ذلكَ إلى الحسدِ المحظورِ إنْ لمْ يكنْ قويَّ الإيمانِ رزينَ التقوىٰ .

ومهما كانَ محرِّكُهُ خوفَ التفاوتِ وظهورَ نقصانِهِ عنْ غيرِهِ. . جرَّهُ ذلكَ إلى الحسدِ المذمومِ ، وإلىٰ ميلِ الطبعِ إلىٰ زوالِ النعمةِ عنْ أخيهِ ، حتَّىٰ ينزلَ هوَ إلىٰ مساواتِهِ إذْ لمْ يقدِرْ هوَ أنْ يرتقيَ إلىٰ مساواتِهِ بإدراكِ النعمةِ ؛ وذلكَ

---

(١) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/٨) عن إسماعيل بن أمية معضلاً ، وفي « الإتحاف » (٨/ ٥١) : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الحسد » من حديث أبي هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزهري ، وموسى بن يعقوب ، ضعفهما الجمهور) .

لا رخصةَ فيهِ أصلاً ، بلْ هوَ حرامٌ ، سواءٌ كانَ في مقاصدِ الدينِ أوْ مقاصدِ الدنيا ، ولكنْ يُعفىٰ عنهُ في ذلكَ ما لمْ يعملْ بهِ إنْ شاءَ اللهُ ، وتكونُ كراهتُهُ لذلكَ مِنْ نفسِهِ كفارةً لهُ .

فهاذِهِ حقيقةُ الحسدِ وأحكامُهُ .

* * *

وأمَّا مراتبُهُ . . فأربعٌ :

الأُولىٰ : أنْ يحبَّ زوالَ النعمةِ عنهُ وإنْ كانَتْ لا تنتقلُ إليهِ ، وهاذا غايةُ الخبثِ .

الثانيةُ : أنْ يحبَّ زوالَ النعمةِ إليهِ ؛ لرغبتِهِ في تلكَ النعمةِ ، مثلُ رغبتِهِ في دارٍ حسنةٍ ، أوِ امرأةٍ جميلةٍ ، أوْ ولايةٍ نافذةٍ واسعةٍ نالَها غيرُهُ ، وهوَ يحبُّ أنْ تكونَ لهُ ، ومطلوبُهُ تلكَ النعمةُ لا زوالُها عنهُ ، ومكروهُهُ فقدُ النعمةِ لا تنعُّمُ غيرِهِ بها .

الثالثةُ : ألاَّ يشتهيَ عينَها ، بلْ يشتهي لنفسِهِ مثلَها ، فإنْ عجزَ عنْ مثلِها . . أحبَّ زوالَها ؛ كي لا يظهرَ التفاوتُ بينهُما .

الرابعةُ : أنْ يشتهيَ لنفسِهِ مثلَها ، فإنْ لمْ يحصلْ . . فلا يحبُّ زوالَها عنهُ .

وهاذا الأخيرُ هوَ المعفوُّ عنهُ إنْ كانَ في الدنيا ، والمندوبُ إليهِ إنْ كانَ

في الدينِ ، والثالثةُ فيها مذمومٌ وغيرُ مذمومٍ ، والثانيةُ أخفُّ مِنَ الثالثةِ ، والأولىٰ مذمومٌ محضٌ .

وتسميةُ الثانيةِ حسداً فيهِ تجوُّزٌ وتوسُّعٌ ، ولكنَّهُ مذمومٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، فتمنِّيهِ لمثلِ ذلكَ غيرُ مذمومٍ ، وأمَّا تمنِّيهِ عينَ ذلكَ . . فهوَ مذمومٌ .

* * *

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أمّا المنافسةُ . . فسببُها حبُّ ما فيهِ المنافسةُ ، فإنْ كانَ ذلكَ أمراً دينيّاً . . فسببُهُ حبُّ اللهِ تعالىٰ وحبُّ طاعتِهِ ، وإنْ كانَ دنيوياً . . فسببُهُ حبُّ مباحاتِ الدنيا والتنعُّمِ بها ، وإنَّما نظرُنا الآنَ في الحسدِ المذمومِ ، ومداخلُهُ كثيرةٌ جدّاً ، **ولكنْ يحصُرُ جملتَها سبعةُ أسبابٍ** : العداوةُ ، والتعزُّزُ ، والكبرُ ، والتعجُّبُ ، والخوفُ مِنْ فوتِ المقاصدِ المحبوبةِ ، وحبُّ الرئاسةِ ، وخبثُ النفْسِ وبخلُها .

فإنَّهُ إنَّما يكرَهُ النعمةَ علىٰ غيرِهِ إمَّا لأنَّهُ عدوُّهُ ، فلا يريدُ لهُ الخيرَ ، وهـٰذا لا يختصُّ بالأمثالِ ، بلْ يحسُدُ الخسيسُ الملِكَ ؛ بمعنىٰ : أنَّهُ يحبُّ زوالَ نعمتِهِ ؛ لكونِهِ مبغضاً لهُ بسببِ إساءتِهِ إليهِ أوْ إلىٰ مَنْ يحبُّهُ .

وإمَّا أنْ يكونَ مِنْ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يستكبرُ بالنعمةِ عليهِ وهوَ لا يطيقُ احتمالَ كبرِهِ وتفاخرِهِ لعزَّةِ نفسِهِ ، وهوَ المرادُ بالتعزُّزِ .

وإمَّا أنْ يكونَ في طبعِهِ أنْ يتكبَّرَ على المحسودِ ، ويمتنعُ ذلكَ عليهِ لنعمتِه ، وهوَ المرادُ بالتكبُّرِ .

وإمَّا أنْ تكونَ النعمةُ عظيمةً والمنصبُ كبيراً ، فيتعجَّبُ مِنْ فوزِ مثلِهِ بمثلِ تلكَ النعمةِ ، وهوَ المرادُ بالتعجُّبِ .

وإمَّا أنْ يخافَ مِنْ فواتِ مقاصدِهِ بسببِ نعمتِهِ ؛ بأنْ يتوصَّلَ بها إلىٰ مزاحمتِهِ في أغراضِهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ يحبُّ الرئاسةَ التي تنبني على الاختصاصِ بنعمةٍ لا يُساوىٰ فيها .

وإمَّا ألا يكونَ بسببٍ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ ، بلْ لخبثِ النفسِ وشحِّها بالخيرِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ .

ولا بدَّ مِنْ شرحِ هـٰذهِ الأسبابِ .

* * *

السببُ الأولُ : العداوةُ والبغضاءُ :

وهـٰذا أشدُّ أسبابِ الحسدِ ، فإنَّ مَنْ آذاهُ إنسانٌ بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، وخالفَهُ في غرضِهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ . . أبغضَهُ قلبُهُ ، وغضبَ عليهِ ، ورسخَ في نفسِهِ الحقدُ ، والحقدُ يقتضي التشفِّيَ والانتقامَ .

فإنْ عجزَ المبغضُ عنْ أنْ يتشفَّىٰ بنفسِهِ . . أحبَّ أنْ يتشفَّىٰ منهُ الزمانُ ، وربَّما يحيلُ ذلكَ علىٰ كرامةِ نفسِهِ عندَ اللهِ ، فمهما أصابَتْ عدوَّهُ بليَّةٌ . . فرحَ بها ، وظنَّ أنَّها مكافأةٌ لهُ مِنْ جهةِ اللهِ علىٰ بغضِهِ ، وأنَّها أصابَتْهُ لأجلِهِ ، ومهما أصابَتْهُ نعمةٌ . . ساءَهُ ذلكَ ؛ لأنَّهُ ضدُّ مرادِهِ ، وربَّما يخطرُ لهُ أنَّهُ لا منزلةَ لهُ عندَ اللهِ ؛ حيثُ لمْ ينتقمْ لهُ مِنْ عدوِّهِ الذي آذاهُ ، بلْ أنعمَ عليهِ .

وبالجملةِ : فالحسدُ يلزمُ البغضَ والعداوةَ ولا يفارقُهُما ، وإنَّما غايةُ التقيِّ ألاَّ يبغيَ ، وأنْ يكرهَ ذلكَ مِنْ نفسِهِ ، فأمَّا أنْ يبغضَ إنساناً ثمَّ يستويَ عندَهُ مسرَّتُهُ ومساءتُهُ . . فهـٰذا غيرُ ممكنٍ .

وهـٰذا ما وصفَ اللهُ تعالى الكفارَ بهِ ؛ أعني : الحسدَ بالعداوةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وكذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ .

والحسدُ بسببِ البغضِ ربَّما يفضي إلى التنازعِ والتقاتلِ ، واستغراقِ العمرِ في إزالةِ النعمةِ بالحيلِ ، وبالسعايةِ ، وهتكِ السترِ ، وما يجري مجراهُ .

❊ ❊ ❊

السببُ الثاني : التعزُّزُ :

وهوَ أن يثقُلَ عليهِ أنْ يترفَّعَ عليهِ غيرُهُ ، فإذا أصابَ بعضُ أمثالِهِ ولايةً أوْ علماً أوْ مالاً . . خافَ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ، وهوَ لا يطيقُ تكبُّرَهُ ، ولا تسمحُ نفسُهُ باحتمالِ صَلفِهِ وتفاخرِهِ عليهِ ، وليسَ مِنْ غرضِهِ أنْ يتكبَّرَ ، بلْ غرضُهُ أنْ يدفَعَ كبرَهُ ، فإنَّهُ قدْ رضيَ بمساواتِهِ مثلاً ، ولكنْ لا يرضىٰ بترفُّعِهِ عليهِ .

❊ ❊ ❊

السببُ الثالثُ : الكبرُ :

وهوَ أنْ يكونَ في طبعِهِ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ، ويستصغرَهُ ويستخدمَهُ ، ويتوقَّعَ منهُ الانقيادَ لهُ ، والمتابعةَ في أغراضِهِ ، فإذا نالَ نعمةً . . خافَ ألا يحتملَ تكبُّرَهُ ، ويترفعَ عنْ متابعتِهِ ، أوْ ربَّما يتشوَّفُ إلىٰ مساواتِهِ ، أوْ إلىٰ أنْ يرتفعَ عليهِ ، فيعودَ متكبراً بعدَ أنْ كانَ متكبَّراً عليهِ .

وَمِنَ التعزُّزِ والتكبُّرِ كانَ حسدُ أكثرِ الكفارِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالُوا : كيفَ يتقدَّمُ علينا غلامٌ يتيمٌ ؟![1] .

وكيفَ نطأطىءُ لهُ رؤوسَنا ؟! فقالُوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أيْ : كانَ لا يثقلُ علينا أنْ نتواضعَ لهُ ونتَّبعَهُ إذا كانَ عظيماً[2] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ يصفُ قولَ قريشٍ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾

---

(١) إذ روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما إلىٰ يهود يثرب وقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا : أتيناكم لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم حقير يقول قولاً عظيماً ، يزعم أنه رسول الرحمـٰن ، ولا نعرف الرحمـٰن إلا رحمان اليمامة ، قالوا : صفوا لنا صفته ، فوصفوا لهم ، قالوا : فمن تبعه منكم ؟ قالوا : سفلتنا ، فضحك حبرٌ منهم وقال : هـٰذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة .

(٢) والمراد بالقريتين : مكة والطائف ، واختلفوا في تعيين المراد بالرجل في الآية . انظر « تفسير الطبري » (١٣/ ٢٥/ ٧٩) .

كالاستحقارِ لهمْ والأنفةِ منهُمْ[1] .

❊ ❊ ❊

السببُ الرابعُ : التعجُّبُ :

كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنِ الأممِ السالفةِ ؛ إذْ قالُوا : ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ .

وقالُوا : ﴿ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾ ، ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ ، فتعجَّبُوا مِنْ أنْ يفوزَ برتبةِ الرسالةِ والوحيِ والقربِ مِنَ اللهِ بشرٌ مثلُهُمْ ، فحسدُوهُمْ ، وأحبُّوا زوالَ النبوَّةِ عنهُمْ ؛ جزعاً أنْ يفضلَ عليهِمْ مَنْ هوَ مثلُهُمْ في الخلقةِ ، لا عنْ قصدِ تكبُّرٍ ، وطلبِ رئاسةٍ ، وتقدُّمِ عداوةٍ ، أوْ سببٍ آخرَ مِنْ سائرِ الأسبابِ .

وقالُوا متعجِّبينَ : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ ، وقالُوا : ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ . . . ﴾ الآيةَ .

❊ ❊ ❊

السببُ الخامسُ : الخوفُ مِن فوتِ المقاصدِ :

وذلكَ يختصُّ بمتزاحمينَ علىٰ مقصودٍ واحدٍ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يحسُدُ

---

(١) يشيرون إلىٰ من اتبعه صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، حملهم علىٰ ذلك التعزز والكبر والجبروت . « إتحاف » (٨/ ٦٥) .

صاحبَه علىٰ كلِّ نعمةٍ تكونُ عوناً لَهُ في الانفرادِ بمقصودِهِ ، ومِنْ هـٰذا الجنسِ تحاسدُ الضَّرَّاتِ في التزاحمِ علىٰ مقاصدِ الزوجيَّةِ ، وتحاسدُ الإخوةِ في التزاحمِ علىٰ نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأبوينِ ؛ للتوصُّلِ بهِ إلىٰ مقاصدِ الكرامةِ والمالِ .

وكذلكَ تحاسدُ التلميذينِ لأستاذٍ واحدٍ في نيلِ المنزلةِ في قلبِ الأستاذِ ، وتحاسدُ ندماءِ الملكِ وخواصِّهِ علىٰ نيلِ المنزلةِ مِنْ قلبِهِ ؛ للتوصُّلِ بهِ إلى الجاهِ والمالِ .

وكذلكَ تحاسدُ الواعظِينِ المتزاحمينِ علىٰ أهلِ بلدةٍ واحدةٍ ، إذا كانَ غرضُهما نيلَ المالِ منَ القبولِ عندَهُمْ ، وكذلكَ تحاسدُ العالمينِ المتزاحمينِ علىٰ طائفةٍ مِنَ المتفقِّهةِ محصورينَ ؛ إذْ يطلبُ كلُّ واحدٍ منزلةً في قلوبِهِمْ ؛ للتوصُّلِ بهِمْ إلىٰ أغراضٍ لهُ .

* * *

السببُ السادسُ : حبُّ الرئاسةِ ، وطلبُ الجاهِ لنفسِهِ مِنْ غيرِ توصُّلٍ بهِ إلىٰ مقصودٍ :

وذلكَ كالرجلِ الذي يريدُ أنْ يكونَ عديمَ النظيرِ في فنٍّ مِنَ الفنونِ ، إذا غلبَ عليهِ حبُّ الثناءِ ، واستفزَّهُ الفرحُ بما يُمدحُ بهِ مِنْ أنَّهُ واحدُ الدهرِ وفريدُ العصرِ في فنِّهِ ، وأنَّهُ لا نظيرَ لهُ ، فإنَّهُ لوْ سمعَ بنظيرٍ لهُ في أقصى العالمِ . . ساءَهُ ذلكَ ، وأحبَّ موتَهُ ، أوْ زوالَ النعمةِ التي بها يشاركُهُ في المنزلةِ ؛ مِنْ

شجاعةٍ ، أوْ علمٍ ، أوْ عبادةٍ ، أوْ صناعةٍ ، أوْ جمالٍ ، أوْ ثروةٍ ، أوْ غيرِ ذلكَ ممَّا يتفرَّدُ هوَ بهِ ، ويفرحُ بسببِ تفرُّدِهِ .

وليسَ السببُ في هـٰذا عداوةً ، ولا تعزُّزاً ، ولا تكبراً على المحسودِ ، ولا خوفاً مِنْ فواتِ مقصودٍ ، سوىٰ محضِ الرئاسةِ بدعوى الانفرادِ ، وهـٰذا وراءَ ما بينَ آحادِ العلماءِ مِنْ طلبِ الجاهِ والمنزلةِ في قلوبِ الناسِ للتوصُّلِ إلىٰ مقاصدَ سوى الرئاسةِ .

وقدْ كانَ علماءُ اليهودِ ينكرونَ معرفةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا يؤمنونَ بهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ تبطلَ رئاستُهُمْ واستتباعُهُمْ مهما نُسِخَ علمُهُمْ .

* * *

السببُ السابعُ : خبثُ النفسِ وشحُّها بالخيرِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ :

فإنَّكَ تجدُ مَنْ لا يشتغلُ برئاسةٍ ولا تكبرٍ ولا طلبِ مالٍ ، إذا وصِفَ عندَهُ حسنُ حالِ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ فيما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ . . شقَّ عليهِ ذلكَ .

وإذا وُصِفَ لهُ اضطرابُ أمورِ الناسِ ، وإدبارُهُمْ ، وفواتُ مقاصدِهِمْ ، وتنغُّصُ عيشِهِمْ . . فرحَ بهِ ، فهوَ أبداً يحبُّ الإدبارَ لغيرِهِ ، ويبخلُ بنعمةِ اللهِ علىٰ عبادِهِ ، كأنَّهُم يأخذونَ ذلكَ مِنْ ملكِهِ وخزانتِهِ .

ويُقالُ : البخيلُ : مَنْ يبخلُ بمالِ نفسِهِ ، والشحيحُ : هوَ الذي يبخلُ بمالِ غيرِهِ ، فهـٰذا يبخلُ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ الذينَ ليسَ بينَهُ وبينهُمْ عداوةٌ ولا رابطةٌ ، وهـٰذا ليسَ لهُ سببٌ ظاهرٌ إلا خبثٌ في النفسِ ، ورذالةٌ في الطبعِ ،

عليهِ وقعَتِ الجبلَّةُ ، ومعالجتُهُ شديدةٌ ؛ لأنَّ الحسدَ الثابتَ بسائرِ الأسبابِ أسبابُهُ عارضةٌ يُتصوَّرُ زوالُها ، فيطمعُ في إزالتِها ، وهـٰذا خبثٌ في الجبلَّةِ ، لا عنْ سببٍ عارضٍ ؛ فتعسرُ إزالتُهُ ؛ إذْ يستحيلُ في العادةِ إزالتُهُ .

﴿ ﴿ ﴿

فهـٰذهِ هيَ أسبابُ الحسدِ ، وقدْ يجتمعُ بعضُ هـٰذهِ الأسبابِ أوْ أكثرُها أوْ جميعُها في شخصٍ واحدٍ فيعظمُ فيهِ الحسدُ بذلكَ ، ويقوىٰ قوَّةً لا يقدرُ معها على الإخفاءِ والمجاملةِ ، بلْ يهتكُ حجابَ المجاملةِ ، ويظهرُ العداوةَ بالمكاشفةِ ، وأكثرُ المحاسداتِ تجتمعُ فيها جملةٌ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ ، وقلَّما يتجرَّدُ سببٌ واحدٌ منها .

❋ ❋ ❋

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

اعلمْ : أنَّ الحسدَ إنَّما يكثرُ بينَ قومٍ تكثرُ بينهُمُ الأسبابُ التي ذكرْناها ، وإنَّما يقوىٰ بينَ قومٍ تجتمعُ فيهِمْ جملةٌ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ وتتظاهرُ ؛ إذِ الشخصُ الواحدُ يجوزُ أنْ يحسدَ ؛ لأنَّهُ يمتنعُ عنْ قبولِ التكبُّرِ ، ولأنَّهُ يتكبَّرُ ، ولأنَّهُ عدوٌّ ، ولغيرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ .

وهـٰذهِ الأسبابُ إنَّما تكثرُ بينَ أقوامٍ تجمعُهُمْ روابطُ يجتمعونَ بسببِها في مجالسِ المخاطباتِ ، ويتواردونَ على الأغراضِ .

فإذا خالفَ واحدٌ صاحبَهُ في غرضٍ مِنْ أغراضِهِ.. نفرَ عنهُ طبعُهُ ، وأبغضَهُ ، وثبتَ الحقدُ في قلبِهِ ، فعندَ ذلكَ يريدُ أنْ يستحقرَهُ ويتكبَّرَ عليهِ ، ويكافئَهُ علىٰ مخالفتِهِ لغرضِهِ ، ويكرهُ تمكُّنَهُ مِنَ النعمةِ التي توصلُهُ إلىٰ أغراضِهِ ، وتترادفُ جملةٌ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ ؛ إذْ لا رابطةَ بينَ شخصينِ في بلدتينِ متنائيتينِ ؛ فلا يكونُ بينَهما محاسدةٌ ، وكذلكَ في محلَّتينِ .

نعمْ ، إذا تجاورا في مسكنٍ ، أوْ سوقٍ ، أوْ مسجدٍ ، أوْ مدرسةٍ.. تواردا علىٰ مقاصدَ تتناقضُ فيها أغراضُهُما ، فيثورُ مِنَ التناقضِ التنافرُ والتباغضُ ، ومنهُ تثورُ بقيَّةُ أسبابِ الحسدِ ، فلذلكَ ترى العالمَ يحسدُ العالمَ

دونَ العابدِ ، والعابدُ يحسدُ العابدَ دونَ العالمِ ، والتاجرُ يحسدُ التاجرَ ، بلِ الإسكافُ يحسدُ الإسكافَ ، ولا يحسدُ البزّازَ إلاَّ بسببٍ آخرَ سوى الاجتماعِ في الحرفةِ ، ويحسدُ الرجلُ أخاهُ وابنَ عمِّهِ أكثرَ ممَّا يحسدُ الأجانبَ ، والمرأةُ تحسُدُ ضرَّتَها وسُرِّيَّةَ زوجِها أكثرَ مما تحسُدُ أمَّ الزوجِ وابنتَهُ ؛ لأنَّ مقصدَ البزّازِ غيرُ مقصدِ الإسكافِ ؛ فلا يتزاحمونَ على المقاصدِ ؛ إذْ مقصدُ البزّازِ الثروةُ ، ولا يحصِّلُها إلا بكثرةِ الزبونِ ، وإنَّما ينازعُهُ فيهِ بزّازٌ آخرُ ؛ إذْ حَريفُ البزّازِ لا يطلبُهُ الإسكافُ[1] ، بلِ البزّازُ ، ثمَّ مزاحمةُ البزّازِ المجاورِ لهُ أكثرُ مِنْ مزاحمةِ البعيدِ عنهُ إلىٰ طرفِ السوقِ ؛ فلا جرمَ يكونُ حسدُهُ للجارِ أكثرَ .

وكذلكَ الشجاعُ يحسدُ الشجاعَ ، ولا يحسدُ العالمَ ؛ لأنَّ مقصدَهُ أنْ يُذكرَ بالشجاعةِ ، ويُشتهرَ بها ، وينفردَ بهٰذهِ الخصلةِ ، ولا يزاحمُهُ العالمُ علىٰ هٰذا الغرضِ ، وكذلكَ يحسُدُ العالمُ العالمَ ، ولا يحسدُ الشجاعَ ، ثمَّ حسدُ الواعظِ للواعظِ أكثرُ مِنْ حسدِهِ للفقيهِ والطبيبِ ؛ لأنَّ التزاحمَ بينَهُما علىٰ مقصودٍ واحدٍ أخصَّ .

فأصلُ هٰذهِ المحاسداتِ العداوةُ ، وأصلُ العداوةِ التزاحمُ بينهُما علىٰ غرضٍ واحدٍ ، والغرضُ الواحدُ لا يجمعُ متباعدينِ بلْ متناسبينِ ؛ فلذلكَ يكثرُ الحسدُ بينهُما .

---

(١) **الحريف** : المعامل ، والجمع حرفاء ؛ كشريف وشرفاء . « إتحاف » (٨/ ٦٧) .

نعمْ ، مَنِ اشتدَّ حرصُهُ على الجاهِ ، وأحبَّ الصيتَ في جميعِ أطرافِ العالمِ بما هوَ فيهِ . . فإنَّهُ يحسُدُ كلَّ مَنْ هوَ في العالمِ ـ وإنْ بعدَ ـ ممَّنْ يساهمُهُ في الخصلةِ التي يتفاخرُ بها .

ومنشأُ جميعِ ذلكَ حبُّ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا هيَ التي تضيقُ على المتزاحمينَ ، أمَّا الآخرةُ . . فلا ضيقَ فيها ، وإنَّما مثالُ الآخرةِ نعمةُ العلمِ ، فلا جرمَ مَنْ يحبُّ معرفةَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةَ صفاتِهِ ، وملائكتِهِ ، وأنبيائِهِ ، وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ . . لمْ يحسُدْ غيرَهُ إذا عرفَ ذلكَ أيضاً ؛ لأنَّ المعرفةَ لا تضيقُ عنِ العارفينَ ، بلِ المعلومُ الواحدُ يعرفُهُ ألفُ ألفِ عالمٍ ، ويفرحُ بمعرفتِهِ ، ويلْتَذُّ بهِ ، ولا تنقصُ لذَّةُ واحدٍ بسببِ غيرِهِ ، بلْ يحصُلُ بكثرةِ العارفينَ زيادةُ الأنسِ ، وثمرةُ الإفادةِ والاستفادةِ ؛ فلذلكَ لا يكونُ بينَ علماءِ الدينِ محاسدةٌ ؛ لأنَّ مقصودَهُمْ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بحرٌ واسعٌ لا ضيقَ فيهِ ، وغرضُهُمُ المنزلةُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا ضيقَ أيضاً فيما عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ أجملَ ما عندَ اللهِ مِنَ النعيمِ لذَّةُ لقائِهِ ، وليسَ فيهِ ممانعةٌ ومزاحمةٌ ، ولا يضيِّقُ بعضُ الناظرينَ علىٰ بعضٍ ، بلْ يزيدُ الأنسُ بكثرتِهِمْ .

نعمْ ، إذا قصدَ العلماءُ بالعلمِ المالَ والجاهَ . . تحاسدوا ؛ لأنَّ المالَ هوَ أعيانٌ وأجسامٌ ، إذا وقعَتْ في يدِ واحدٍ . . خلَتْ عنها يدُ الآخرِ ، ومعنى الجاهِ : ملكُ القلوبِ ، ومهما امتلأَ قلبُ شخصٍ بتعظيمِ عالمٍ . . انصرفَ

عنْ تعظيمِ الآخرِ أوْ نقصَ عنهُ لا محالةَ ، فيكونُ ذلكَ سبباً للمحاسدةِ ، وإذا امتلأَ قلبٌ بالفرحِ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ . . لمْ يمنعْ ذلكَ أنْ يمتلىءَ قلبُ غيرِهِ بها ، وأنْ يفرحَ بذلكَ .

فالفرقُ بينَ العلمِ والمالِ : أنَّ المالَ لا يحُلُّ في يدٍ ما لمْ يرتحلْ عنِ اليدِ الأخرىٰ ، والعلمُ في قلبِ العالمِ مستقرٌّ ، ويحلُّ في قلبِ غيرِهِ بتعليمِهِ مِنْ غيرِ أنْ يرتحلَ عنْ قلبِهِ ، وأنَّ المالَ أجسامٌ وأعيانٌ ولها نهايةٌ ، فلوْ ملكَ الإنسانُ جميعَ ما في الأرضِ . . لمْ يبقَ بعدَهُ مالٌ يتملَّكُهُ غيرُهُ ، والعلمُ لا نهايةَ لهُ ، ولا يُتصوَّرُ استيعابُهُ ، فمَنْ عوَّدَ نفسَهُ الفكرَ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ . . صارَ ذلكَ ألذَّ عندَهُ مِنْ كلِّ نعيمٍ ، ولمْ يكنْ ممنوعاً منهُ ، ولا مُزاحَماً فيه ، فلا يكونُ في قلبِهِ حسدٌ لأحدٍ مِنَ الخلقِ ؛ لأنَّ غيرَهُ أيضاً لوْ عرفَ مثلَ معرفتِهِ . . لمْ ينقصْ مِنْ لذَّتِهِ ، بلْ زادَتْ لذَّتُهُ بمؤانستِهِ ، فتكونُ لذَّةُ هؤلاءِ في مطالعةِ عجائبِ الملكوتِ على الدوامِ أعظمَ مِنْ لذةِ مَنْ ينظرُ إلىٰ أشجارِ الجنَّةِ وبساتينِها بالعينِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ نعيمَ العارفِ وجنَّتَهُ معرفتُهُ التي هيَ صفةُ ذاتِهِ ، يأمنُ زوالَها ، وهوَ أبداً يجني ثمارَها ، فهوَ بروحِهِ وقلبِهِ متغذٍّ بفاكهةِ علمِهِ ، وهيَ فاكهةٌ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ، بلْ قطوفُها دانيةٌ ، فهوَ وإنْ غمضَ العينَ الظاهرةَ . . فروحُهُ أبداً ترتعُ في جنةٍ عاليةٍ ، ورياضٍ زاهرةٍ ، فإنْ فُرِضَ كثرةٌ في العارفينَ . . لمْ يكونُوا متحاسدينَ ، بلْ كانُوا كما قالَ فيهمْ ربُّ العالمينَ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ ، فهـٰذا حالُهُمْ وهُمْ

بعدُ في الدنيا ، فماذا يُظَنُّ بِهِمْ عندَ انكشافِ الغطاءِ ومشاهدةِ المحبوبِ في العُقبى ؟!

* * *

فإذاً ؛ لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ في الجنةِ محاسدةٌ ، ولا أنْ يكونَ بينَ أهلِ الجنةِ في الدنيا محاسدةٌ ؛ لأنَّ الجنَّةَ لا مضايقةَ ولا مزاحمةَ فيها ، ولا تُنالُ إلا بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ، التي لا مزاحمةَ فيها في الدنيا أيضاً ، فأهلُ الجنةِ بالضَّرورةِ براءٌ مِنَ الحسدِ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ، بلِ الحسدُ مِنْ صفاتِ المبعدينَ عنْ سعةِ علِّيِّينَ إلىٰ مضيقِ سجينٍ ، ولذلكَ وُسِمَ بهِ الشيطانُ اللعينُ ، وذُكرَ مِنْ صفاتِهِ أنَّهُ حسدَ آدمَ علىٰ ما خُصَّ بهِ مِنَ الاجتباءِ ، ولمَّا دُعِيَ إلى السجودِ . . استكبرَ وأبىٰ ، وتمردَّ وعصىٰ .

فقدْ عرفتَ أنَّهُ لا حسدَ إلا للتواردِ علىٰ مقصودٍ يضيقُ عنِ الوفاءِ بالكلِّ ، ولهٰذا لا ترى الناسَ يتحاسدُونَ على النظرِ إلىٰ زينةِ السماءِ ، ويتحاسدونَ على البساتينِ التي هيَ جزءٌ يسيرٌ مِنْ جملةِ الأرضِ ، وكلُّ الأرضِ لا وزنَ لها بالإضافةِ إلى السماءِ ، ولكنَّ السماءَ لسعةِ الأقطارِ وافيةٌ بجميعِ الأبصارِ ، فلمْ يكنْ فيها تزاحمٌ ولا تحاسدٌ أصلاً .

فعليكَ ـ إنْ كنتَ بصيراً وعلىٰ نفسكَ مشفقاً ـ أنْ تطلبَ نعيماً لا زحمةَ فيهِ ، ولذةً لا مكدِّرَ لها ، ولا يُوجدُ ذلكَ في الدنيا إلا في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وعجائبِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ولا يُنالُ

ذلكَ في الآخرةِ إلا بهٰذهِ المعرفةِ أيضاً ، فإنْ كنتَ لا تشتاقُ إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ تجدْ لذَّتَها ، وفترَ عنكَ رأيُكَ ، وضعفَتْ فيها رغبتُكَ . . فأنتَ في ذلكَ معذورٌ ؛ إذِ العنِّينُ لا يشتاقُ إلىٰ لذَّةِ الوقاعِ ، والصبيُّ لا يشتاقُ إلىٰ لذةِ الملكِ ، فإنَّ هٰذهِ لذاتٌ يختصُّ بإدراكِها الرجالُ دونَ الصبيانِ والمخنثينَ ، فكذلكَ لذةُ المعرفةِ يختصُّ بإدراكِها الرجالُ ، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ، ولا يشتاقُ إلىٰ هٰذهِ اللذَّةِ غيرُهُمْ ؛ لأنَّ الشوقَ بعدَ الذوقِ ، ومَنْ لمْ يذقْ . . لمْ يعرفْ ، ومَنْ لمْ يعرفْ . . لمْ يشتَقْ ، ومَنْ لمْ يشتَقْ . . لمْ يطلُبْ ، ومَنْ لمْ يطلُبْ . . لمْ يدرِكْ ، ومَنْ لمْ يدرِكْ . . بقيَ معَ المحرومينَ في أسفلِ السافلينَ ، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ .

* * *

بيان الدواء الذي به ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلمْ : أنَّ الحسدَ مِنَ الأمراضِ العظيمةِ للقلوبِ ، ولا تُداوىٰ أمراضُ القلوبِ إلاَّ بالعلمِ والعملِ .

❁ ❁ ❁

والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ : هوَ أنْ تعرفَ تحقيقاً أنَّ الحسدَ ضررٌ عليكَ في الدنيا والدينِ ، وأنَّهُ لا ضررَ فيهِ على المحسودِ في الدنيا والدينِ ، بلْ ينتفعُ بهِ في الدنيا والدينِ ، ومهما عرفتَ هـٰذا عنْ بصيرةٍ ، ولمْ تكنْ عدوَّ نفسِكَ وصديقَ عدوِّكَ . . فارقتَ الحسدَ لا محالةَ .

أمَّا كونُهُ ضرراً عليكَ في الدين : فهوَ أنَّكَ بالحسدِ سخطتَ قضاءَ اللهِ تعالىٰ ، وكرهتَ نعمتَهُ التي قسمَها لعبادِهِ ، وعدلَهُ الذي أقامَهُ في ملكِهِ بخفيِّ حكمتِهِ ، فاستنكرتَ ذلكَ واستبشعتَهُ ، وهـٰذهِ جنايةٌ علىٰ حدقةِ التوحيدِ ، وقذىً في عينِ الإيمانِ ، وناهيكَ بهِما جنايةً على الدينِ ، وقدِ انضافَ إلىٰ ذلكَ أنَّكَ غششتَ رجلاً مِنَ المؤمنينَ ، وتركتَ نصيحتَهُ ، وفارقتَ أولياءَ اللهِ وأنبياءَهُ في حبِّهِمُ الخيرَ لعبادِ اللهِ تعالىٰ ، وشاركتَ إبليسَ وسائرَ الكفارِ في محبَّتِهِمْ للمؤمنينَ البلايا وزوالَ النعمِ ، وهـٰذهِ خبائثُ في القلبِ ، تأكلُ حسناتِ القلبِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ ، وتمحوها كما يمحو الليلُ النهارَ .

وأمَّا كونُهُ ضرراً عليكَ في الدنيا : فهوَ أنَّكَ تتألَّمُ بحسدِكَ في الدنيا أوْ

تتعذَّبُ بهِ ولا تزالُ في كمدٍ وغمٍّ ؛ إذْ أعداؤُكَ لا يخليهِمُ اللهُ عنْ نعمٍ يفيضُها عليهِمْ ، فلا تزالُ تتعذَّبُ بكلِّ نعمةٍ تراها ، وتتألَّمُ بكلِّ بليَّةٍ تنصرفُ عنهُمْ ، فتبقىٰ مغموماً محروماً متشعِّبَ القلبِ ، ضيِّقَ الصدرِ قدْ نزلَ بكَ ما يشتهيهِ الأعداءُ لكَ وتشتهيهِ لأعدائِكَ ، فقدْ كنتَ تريدُ المحنةَ لعدوِّكَ ، فتنجَّزَتْ في الحالِ محنتُكَ وغمُّكَ نقداً ، ومعَ هٰذا فلا تزولُ النعمةُ عنِ المحسودِ بحسدِكَ ، ولوْ لمْ تكنْ تؤمنُ بالبعثِ والحسابِ.. لكانَ مقتضى الفطنةِ ـ إنْ كنتَ عاقلاً ـ أنْ تحذرَ مِنَ الحسدِ ؛ لما فيهِ مِنْ ألمِ القلبِ ومساءتِهِ ، معَ عدمِ النفعِ ، فكيفَ وأنتَ عالمٌ بما في الحسدِ مِنَ العذابِ الشديدِ في الآخرةِ ، فما أعجبَ مِنَ العاقلِ أنْ يتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ نفعٍ ينالُهُ ، بلْ معَ ضررٍ يحتملُهُ ، وألمٍ يقاسيهِ ، فيهلكُ دينَهُ ودنياهُ مِنْ غيرِ جدوىٰ ولا فائدةٍ !!

وأمَّا أنَّهُ لا ضررَ فيهِ على المحسودِ في دينِهِ ودنياهُ : فواضحٌ ؛ لأنَّ النعمةَ لا تزولُ عنهُ بحسدِكَ ، بلْ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ إقبالٍ ونعمةٍ فلا بدَّ أنْ يدومَ إلىٰ أجلٍ معلومٍ قدَّرَهُ اللهُ سبحانَهُ ، فلا حيلةَ في دفعِهِ ، بلْ كلُّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ ، ولذلكَ شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ مِنِ امرأةٍ ظالمةٍ مستوليةٍ على الخلقِ ، فأوحى اللهُ إليهِ : (فرَّ مِنْ قُدَّامِها حتَّىٰ تنقضيَ أيامُها) ؛ أيْ : ما قدرناهُ في الأزلِ لا سبيلَ إلىٰ تغييرِهِ ، فاصبرْ حتَّىٰ تنقضيَ المدَّةُ التي سبقَ القضاءُ بدوامِ إقبالِها فيها ، ومهما لمْ تزلِ النعمةُ بالحسدِ.. لمْ يكنْ على المحسودِ ضررٌ في الدنيا ، ولا يكونُ عليهِ إثمٌ في الآخرةِ .

ولعلكَ تقولُ : ليتَ النعمةَ كانَتْ تزولُ عنِ المحسودِ بحسدِي ، **وهٰذا غايةُ الجهلِ** ؛ فإنَّهُ بلاءٌ تشتهيهِ أوَّلاً لنفسِكَ ، فإنَّكَ أيضاً لا تخلو عنْ عدوٍّ يحسدُكَ ، فلوْ كانَتِ النعمةُ تزولُ بالحسدِ .. لم تبقَ للهِ تعالىٰ عليكَ نعمةٌ ، ولا على الخلقِ ، ولا نعمةُ الإيمانِ أيضاً ؛ لأنَّ الكفارَ يحسدونَ المؤمنينَ على الإيمانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ مخبراً عنْ حسدِهِمْ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ .

إذْ ما يريدُهُ الحسودُ لا يكونُ .

نعمْ ، هوَ يضلُّ بإرادتِهِ الضلالَ لغيرِهِ ، فإنَّ إرادةَ الكفرِ كفرٌ ، فمَنِ اشتهىٰ أنْ تزولَ النعمةُ عنِ المحسودِ بالحسَدِ .. فكأنَّهُ يريدُ أنْ يُسلبَ نعمةَ الإيمانِ بحسدِ الكفارِ ، وكذلكَ سائرُ النعمِ .

وإنِ اشتهيتَ أنْ تزولَ النعمةُ عنِ الخلقِ بحسدِكَ ولا تزولَ عنكَ بحسدِ غيرِكَ .. فهٰذا غايةُ الجهلِ والغباوةِ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ حمقى الحسَّادِ أيضاً يشتهي أنْ يُخصَّ بهٰذهِ الخاصيَّةِ ، ولستَ بأولىٰ مِنْ غيرِكَ ، فنعمةُ اللهِ عليكَ في أنْ لمْ تزُلِ النعمةُ بالحسدِ ممَّا يجبُ عليكَ شكرُها ، وأنتَ بجهلِكَ تكرهُها .

❁ ❁ ❁

وأمَّا أنَّ المحسودَ ينتفعُ بهِ في الدينِ والدنيا .. فواضحٌ :

أمَّا منفعتُهُ في الدينِ : فهوَ أنَّهُ مظلومٌ مِنْ جهتِكَ ، لا سيَّما إذا أخرجَكَ

الحسدُ إلى القولِ والفعلِ ؛ بالغيبةِ ، والقدحِ فيهِ ، وهتكِ سترِهِ ، وذكرِ مساوئِهِ ، فهٰذهِ هدايا تهديها إليهِ ؛ أعني : أنَّكَ بذلكَ تُهدي إليهِ حسناتِكَ ، حتَّىٰ تلقاهُ يومَ القيامةِ مفلساً محروماً عنِ النعمةِ ، كما حرمتَ في الدنيا مِنَ النعمةِ ، فكأنَّكَ أردتَ زوالَ النعمةِ عنهُ فلمْ تزُلْ .

نعمْ ، كانَ للهِ عليهِ نعمةٌ ؛ إذْ وفقَكَ للحسناتِ ، فنقلتَها إليهِ ، فأضفتَ لهُ نعمةً إلىٰ نعمةٍ ، وأضفتَ لنفسِكَ شقاوةً إلىٰ شقاوةٍ .

وأمَّا منفعتُهُ في الدنيا : فهوَ أنَّ أهمَّ أغراضِ الخلقِ مساءةُ الأعداءِ ، وغمُّهُمْ ، وشقاوتُهُمْ ، وكونُهُمْ معذَّبينَ مغمومينَ ، ولا عذابَ أعظمُ ممَّا أنتَ فيهِ مِنْ ألمِ الحسدِ ، وغايةُ أماني أعدائِكَ : أنْ يكونُوا في نعمةٍ ، وأنْ تكونَ في غمٍّ وحسرةٍ بسببِهِمْ ، وقدْ فعلتَ بنفسِكَ ما هوَ مرادُهُمْ ؛ ولذلكَ لا يشتهي عدوُّكَ موتَكَ ، بلْ يشتهي أنْ تطولَ حياتُكَ ، ولكنْ في عذابِ الحسَدِ ؛ لتنظرَ إلىٰ نعمةِ اللهِ عليهِ فينقطعَ قلبُكَ حسداً ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من السريع]

لا ماتَ أَعْداؤُكَ بَلْ خَلَدُوا حَتَّىٰ يَرَوا فِيكَ ٱلَّذي يُكْمِدُ
لا زِلْتَ مَحْسُوداً عَلَىٰ نِعْمَةٍ فَإِنَّما ٱلْكامِلُ مَنْ يُحْسَدُ

ففرحُ عدوِّكَ بغمِّكَ وحسدِكَ أعظمُ مِنْ فرحِهِ بنعمتِهِ ، ولوْ علمَ خلاصَكَ مِنْ ألمِ الحسدِ وعذابِهِ . لكانَ ذلكَ أعظمَ مصيبةً وبليّةً عندَهُ ، فما أنتَ فيما

---

(١) انظر « حماسة الظرفاء » (٢/ ١٩٧) .

تلازمُهُ مِن غمِّ الحسدِ إلاَّ كما يشتهيهِ عدوُّكَ .

❁ ❁ ❁

فإذا تأمَّلتَ هـٰذا . . عرفتَ أنَّكَ عدوُّ نفسِكَ ، وصديقُ عدوِّكَ ؛ إذْ تعاطيتَ ما تضررتَ بهِ في الدنيا والآخرةِ ، وانتفعَ بهِ عدوُّكَ في الدنيا والآخرةِ ، وصرتَ مذموماً عندَ الخلقِ والخالقِ ، شقيّاً في الحالِ والمآلِ ، ونعمةُ المحسودِ دائمةٌ ، شئتَ أمْ أبيتَ باقيةٌ .

ثمَّ لمْ تقتصرْ علىٰ تحصيلِ مرادِ عدوِّكَ ، حتَّىٰ توصَّلتَ إلىٰ إدخالِ أعظمِ سرورٍ علىٰ إبليسَ الذي هوَ أعدىٰ أعدائِكَ ؛ لأنَّهُ لمَّا رآكَ محروماً مِنْ نعمةِ العلمِ والورعِ والجاهِ والمالِ الذي اختُصَّ بهِ عدوُّكَ عنكَ . . خافَ أنْ تحبَّ ذلكَ لهُ ، فتشاركَهُ في الثوابِ بسببِ المحبَّةِ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ الخيرَ للمسلمينَ . . كانَ شريكاً في الخيرِ ، ومَنْ فاتَهُ اللحاقُ بدرجةِ الأكابرِ في الدينِ . . لمْ يفتْهُ ثوابُ الحُبِّ لهمْ مهما أحبَّ ذلكَ ، فخافَ إبليسُ أنْ تحبَّ ما أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ عبدِهِ في دينِهِ ودنياهُ ، فتفوزَ بثوابِ الحبِّ ، فبغَّضَهُ إليكَ حتَّىٰ لا تلحقَهُ بحبِّكَ ، كما لمْ تلحقْهُ بعمَلِكَ .

وقدْ قالَ أعرابيٌّ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يحبُّ القومَ ولمَّا يلحقْ بهمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقامَ أعرابيٌّ ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يخطبُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فقالَ : « ما أعددْتَ لها ؟ » قالَ : ما أعددْتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ، إلا أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ معَ مَنْ أحببتَ » ، قالَ أنسٌ : فما فرحَ المسلمونَ بعدَ إسلامِهِمْ كفرحِهِم يومئذٍ ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ أكثرَ ثقتِهِمْ كانَ بحبِّ اللهِ ورسولِهِ ، قالَ أنسٌ : فنحنُ نحبُّ رسولَ اللهِ وأبا بكرٍ وعمرَ ولا نعملُ بمثلِ عملِهِمْ ، ونرجُو أنْ نكونَ معَهُمْ[1] .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يحبُّ المصلِّينَ ولا يصلِّي ، ويحبُّ الصُّوَّامَ ولا يصومُ ، حتىٰ عدَّ أشياءَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ معَ مَنْ أحبَّ »[2] .

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : إنَّهُ كانَ يُقالُ : إنِ استطعتَ أنْ تكونَ عالماً . . فكنْ عالماً ، فإنْ لمْ تستطعْ أنْ تكونَ عالماً . . فكُنْ متعلِّماً ؛ فإنْ لمْ تستطعْ أنْ تكونَ متعلِّماً . . فأحبَّهُمْ ، فإنْ لم تستطِعْ . . فلا تبغضْهُمْ ، فقالَ : سبحانَ اللهِ ؛ لقدْ جعلَ اللهُ لنا مخرجاً[3] .

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .
(٢) رواه هناد في « الزهد » (٤٨١) بلفظ المصنف هنا عن عبيد بن عمير مرسلاً ، وهو عند البخاري (٦١٧٠) ، ومسلم (٢٦٤١) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه وقد سئل صلى الله عليه وسلم : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال : « المرء مع من أحب » .
(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٣) .

فانظرِ الآنَ كيفَ حسدَكَ إبليسُ ، ففوَّتَ عليكَ ثوابَ الحبِّ ، ثمَّ لمْ يقنعْ بذلكَ حتَّىٰ بغَّضَ إليكَ أخاكَ ، وحملَكَ على الكراهةِ حتَّىٰ أثمتَ .

وكيفَ لا وعساكَ تحسدُ رجلاً مِنْ أهلِ العلمِ ، وتحبُّ أنْ يخطىءَ في دينِ اللهِ وينكشفَ خطؤُهُ ليُفتضحَ ، وتحبُّ أنْ يخرسَ لسانُهُ حتَّىٰ لا يتكلَّمَ ، أوْ يمرضَ حتَّىٰ لا يعلِّمَ ولا يتعلَّمَ ، وأيُّ إثمٍ يزيدُ علىٰ ذلكَ ؟! فليتكَ إذْ فاتَكَ اللحاقُ بهِ ثمَّ اغتمَمْتَ بسببِهِ . . سلمتَ مِنَ الإثمِ وعذابِ الآخرةِ ؛ فقدْ جاءَ في الحديثِ : « أهلُ الجنَّةِ ثلاثةٌ : المحسنُ ، والمحبُّ لهُ ، والكافُّ عنهُ »[1] أيْ : مَنْ يكفُّ عنهُ الأذىٰ ، والحسدَ ، والبغضَ ، والكراهةَ .

فانظرْ كيفَ أبعدَكَ إبليسُ عنْ جميعِ المداخلِ الثلاثةِ ، حتَّىٰ لا تدورَ بها ألبتةَ ، فقدْ نفذَ فيكَ حسدُ إبليسَ وما نفذَ حسدُكَ في عدوِّكَ ، بلْ علىٰ نفسِكَ .

بلْ لوْ كُوشفتَ بحالِكَ في يقظةٍ أوْ منامٍ . . لرأيتَ نفسَكَ ـ أيُّها الحاسدُ ـ في صورةِ مَنْ يرمي حجراً إلىٰ عدوِّهِ ليصيبَ بهِ مقتلَهُ ، فلا يصيبُهُ ، بلْ يرجعُ علىٰ حدقتِهِ اليُمنىٰ فيقلعُها ، فيزيدُ غضبُهُ فيعودُ ثانيةً فيرميهِ أشدَّ مِنَ الأولىٰ فيرجعُ علىٰ عينِهِ الأخرىٰ فيعميها ، فيزدادُ غيظُهُ ، فيعودُ ثالثةً ، فيعودُ علىٰ رأسِهِ فيشجُّهُ ، وعدوُّهُ سالمٌ في كلِّ حالٍ ، وهوَ راجعٌ إليهِ مرةً بعدَ أخرىٰ ،

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٧٣) ، وتقدم حديث : « من ذب عن عرض أخيه بالغيب . . كان حقاً على الله أن يعتقه من النار » .

وأعداؤُهُ حولَهُ يفرحونَ بهِ ، ويضحكونَ عليهِ ، وهـٰذا حالُ الحسودِ وسخريةِ الشيطانِ منهُ .

لا بلْ حالُك في الحسدِ أقبحُ مِنْ هـٰذا ؛ لأنَّ الحجرَ العائدَ لمْ يُفوِّتْ إلا العينَ ، ولوْ بقيَتْ .. لفاتَتْ بالموتِ لا محالةَ ، والحسدُ يعودُ بالإثمِ ، والإثمُ لا يفوتُ بالموتِ ، ولعلَّهُ يسوقُهُ إلىٰ غضبِ اللهِ تعالىٰ وإلى النارِ ، فلأَنْ تذهبَ عينُهُ في الدنيا خيرٌ لهُ مِنْ أنْ تبقىٰ لهُ عينٌ يدخلُ بها النارَ فيقلعُها لهيبُ النارِ .

فانظرْ كيفَ انتقمَ اللهُ مِنَ الحاسدِ ؛ إذْ أرادَ زوالَ النعمةِ عنِ المحسودِ ، فلمْ يزلْهَا اللهُ عنْهُ ، ثمَّ أزالَها عنِ الحاسدِ ؛ إذِ السلامةُ مِنَ الإثمِ نعمةٌ ، والسلامةُ مِنَ الغمِّ والكمدِ نعمةٌ ، وقدْ زالَتا عنهُ ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، وربَّما يُبتلىٰ بعينِ ما يشتهيهِ لعدوِّهِ ، وقلَّما يشمتُ شامتٌ بمساءَةٍ إلاَّ ويُبتلىٰ بمثلِها ، حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما تمنيتُ لعثمانَ شيئاً إلاَّ نزلَ بي ، حتَّىٰ لوْ تمنَّيتُ لهُ القتلَ .. لقتلتُ)[1] .

فهـٰذا إثمُ الحسدِ نفسِهِ ، فكيفَ ما يجرُّ إليهِ الحسدُ مِنَ الاختلافِ ، وجحودِ الحقِّ ، وإطلاقِ اللسانِ واليدِ بالفواحشِ في التشفِّي مِنَ

---

(١) رواه ابن شبة في « تاريخ المدينة المنورة » (٤/ ١٢٣٥) ، وكان سبب كلامها فيه لكثرة ما كان يبلغها من الشكاية في حقه من قبل جور عماله وإبقائهم علىٰ أعمالهم ، فكانت كغيرها من الصحابة يغضبون بذلك منه . « إتحاف » (٨/ ٧٤) .

الأعداءِ ، وهوَ الداءُ الذي فيهِ هلَكَتِ الأممُ السالفةُ ؟!

فهٰذهِ هيَ الأدويةُ العلميَّةُ ، فمهما تفكَّرَ الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ ، وقلبٍ حاضرٍ . انطفأَتْ مِنْ قلبِهِ نارُ الحسدِ ، وعلمَ أنَّهُ مهلكٌ نفسَهُ ، ومفرحٌ عدوَّهُ ، ومسخطٌ ربَّهُ ، ومنغِّصٌ عيشَهُ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا العملُ النافعُ فيهِ :

فهوَ أنْ يحكِّمَ الحسدَ ، فكلُّ ما يتقاضاهُ الحسدُ مِنْ قولٍ وفعلٍ فينبغي أنْ يكلِّفَ نفسَهُ نقيضَهُ ، فإنْ بعثَهُ الحسدُ على القدحِ في محسودِهِ . . كلَّفَ لسانَهُ المدحَ لهُ والثناءَ عليهِ ، وإنْ حملَهُ على التكبُّرِ عليهِ . . ألزمَ نفسَهُ التواضعَ لهُ والاعتذارَ إليهِ ، وإنْ بعثَهُ علىٰ كفِّ الإنعامِ عنهُ . . ألزمَ نفسَهُ الزيادةَ في الإنعامِ عليهِ ، فمهما فعلَ ذلكَ عنْ تكلُّفٍ وعرفَهُ المحسودُ . . طابَ قلبُهُ وأحبَّهُ ، ومهما ظهرَ حبُّهُ . . عادَ الحاسدُ وأحبَّهُ ، وتولَّدَتْ بينَهُما الموافقةُ التي تقطعُ مادَّةَ الحسدِ ؛ لأنَّ التواضعَ والثناءَ والمدحَ وإظهارَ السرورِ بالنعمةِ يستميلُ قلبَ المنعَمِ عليهِ ، ويسترقُّهُ ويستعطفُهُ ، ويحملُهُ علىٰ مقابلةِ ذلكَ بالإحسانِ ، ثمَّ ذلكَ الإحسانُ يعودُ إلى الأوَّلِ ، فيطيبُ قلبُهُ ، فيصيرُ ما تكلَّفَهُ أوَّلاً طبعاً آخراً .

ولا يصدَّنَّهُ عنْ ذلكَ قولُ الشيطانِ لهُ : لوْ تواضعتَ وأثنيتَ عليهِ . . حملَهُ العدوُّ على العجزِ ، أوْ على النفاقِ أوِ الخوفِ ، وأنَّ ذلكَ مذلةٌ

ومهانةٌ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ خدعِ الشيطانِ ومكايدِهِ ، بلِ المجاملةُ ـ تكلُّفاً كانَتْ أوْ طبعاً ـ تكسرُ سَوْرةَ العداوةِ مِنَ الجانبينِ ، وتفلُّ مِنْ غَرْبِها ، وتقودُ القلوبَ إلى التآلفِ والتحابِّ ، وبذلكَ تستريحُ القلوبُ مِنْ ألمِ الحسدِ وغمِّ التباغضِ .

فهٰذهِ هيَ أدويةُ الحسدِ ، وهيَ نافعةٌ جدّاً ، إلا أنَّها مُرَّةٌ على القلوبِ جدّاً ، ولكنَّ النفعَ في الدواءِ المرِّ ، فمَنْ لمْ يصبرْ علىٰ مرارةِ الدواءِ . . لمْ ينلْ حلاوةَ الشفاءِ ، وإنَّما تهونُ مرارةُ هٰذا الدواءِ ـ أعني : التواضعَ للأعداءِ ، والتقرُّبَ إليهمْ بالمدحِ والثناءِ ـ بقوَّةِ العلمِ بالمعاني التي ذكرْناها ، وقوَّةِ الرغبةِ في ثوابِ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وحبِّ ما أحبَّهُ اللهُ ، وعزَّةِ النفسِ وترفُّعِها عنْ أنْ يكونَ في العالمِ شيءٌ علىٰ خلافِ مرادِهِ ، وعندَ ذلكَ يريدُ ما يكونُ ؛ إذْ لا مطمعَ في أنْ يكونَ ما يريدُ ، وفواتُ المرادِ ذلٌّ وخِسَّةٌ ، ولا طريقَ إلى الخلاصِ مِنْ هٰذا الذلِّ إلا بأحدِ أمرينِ : إمَّا بأنْ يكونَ ما تريدُ ، أوْ بأنْ تريدَ ما يكونُ ، والأولُ ليسَ إليكَ ، ولا مدخلَ للتكلُّفِ والمجاهدةِ فيهِ ، وأمَّا الثاني . . فللمجاهدةِ فيهِ مدخلٌ ، وتحصيلُهُ بالرياضةِ ممكنٌ ، فيجبُ تحصيلُهُ علىٰ كلِّ عاقلٍ .

هٰذا هوَ الدواءُ الكلِّيُّ .

فأمَّا الدواءُ المفصلُ . . فهوَ تتبُّعُ أسبابِ الحسدِ ؛ مِنَ الكبرِ ، وعزَّةِ النفسِ ، وشدَّةِ الحرصِ علىٰ ما لا يُغني ، وسيأتي تفصيلُ مداواةِ هٰذهِ

الأسبابِ في مواضعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّها موادُّ هـٰذا المرضِ ، ولا ينقمعُ المرضُ إلا بقمعِ المادةِ ، فإنْ لمْ تُقمَعِ المادةُ . . لمْ يحصلْ بما ذكرْناهُ إلا تسكينٌ وتطفئةٌ ، ولا يزالُ يعودُ مرّةً بعدَ أخرىٰ ، ويطولُ الجهدُ في تسكينِهِ معَ بقاءِ موادِّهِ ، فإنَّه ما دامَ محبّاً للجاهِ فلا بدَّ وأنْ يحسدَ مَنِ استأثرَ بالجاهِ والمنزلةِ في قلوبِ الناسِ دونَهُ ، ويغمَّهُ ذلكَ لا محالةَ ، وإنَّما غايتُهُ : أنْ يهوِّنَ الغمَّ علىٰ نفسِهِ ، ولا يظهرَ بلسانِهِ ويدِهِ ، فأمَّا الخلوُّ عنهُ رأساً . . فلا يمكنُهُ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلمْ : أنَّ المؤذيَ ممقوتٌ بالطبعِ ، ومَنْ آذاكَ . . فلا يمكنُكَ ألاَّ تبغضَهُ غالباً ، فإذا تيسَّرَتْ لهُ نعمةٌ . . فلا يمكنُكَ ألا تكرهَها حتَّىٰ يستويَ عندَكَ حسنُ حالِ عدوِّكَ وسوءُ حالِهِ ، بلْ لا تزالُ تدركُ في النفسِ بينَهما تفرقةً ، ولا يزالُ الشيطانُ ينازعُكَ إلى الحسدِ لهُ .

ولكنْ إنْ قويَ ذلكَ فيكَ حتَّىٰ بعثَك علىٰ إظهارِ الحسدِ بقولٍ أوْ فعلٍ، بحيثُ يُعرَفُ ذلكَ مِنْ ظاهرِكَ بأفعالِكَ الاختياريةِ . . فأنتَ حسودٌ عاصٍ بحسدِكَ .

وإنْ كففتَ ظاهرَكَ بالكلِّيَّةِ ، إلا أنَّكَ بباطنِكَ تحبُّ زوالَ النعمةِ ، وليسَ في نفسِكَ كراهةٌ لهـٰذهِ الحالةِ . . فأنتَ أيضاً حسودٌ عاصٍ ؛ لأنَّ الحسدَ صفةُ القلبِ لا صفةُ الفعلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ .

أمَّا الفعلُ . . فهوَ غيبةٌ وكذبٌ ، وهوَ عملٌ صادرٌ عنِ الحسدِ ، وليسَ هوَ عينَ الحسدِ ، بلْ محلُّ الحسدِ القلبُ دونَ الجوارحِ .

نعمْ ، هـٰذا الحسدُ ليسَ مظلمةً يجبُ الاستحلالُ منها ، بلْ هوَ معصيةٌ بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما يجبُ الاستحلالُ مِنَ الأسبابِ الظاهرةِ على الجوارحِ .

فأمَّا إذا كففتَ ظاهرَكَ ، وألزمتَ معَ ذلكَ قلبَكَ كراهةَ ما يترشَّحُ منهُ بالطبعِ ؛ مِنْ حبِّ زوالِ النعمةِ حتَّىٰ كأنَّكَ تمقتُ نفسَكَ علىٰ ما في طبعِها ، فتكونُ تلكَ الكراهةُ مِنْ جهةِ العقلِ في مقابلةِ الميلِ مِنْ جهةِ الطبعِ . . فقدْ أدَّيتَ الواجبَ عليكَ ، ولا يدخلُ تحتَ اختيارِكَ في أغلبِ الأحوالِ أكثرُ مِنْ هٰذا .

فأمَّا تغييرُ الطبعِ ليستويَ عندَهُ المؤذي والمحسنُ ، ويكونَ فرحُهُ أوْ غمُّهُ بما يتيسَّرُ لهما مِنْ نعمةٍ ، أوْ ينصبُّ عليهما مِنْ بليةٍ سواءً . . فهٰذا ممَّا لا يطاوعُ الطبعُ عليهِ ما دامَ ملتفتاً إلىٰ حظوظِ الدنيا ، إلاَّ أنْ يصيرَ مستغرقاً بحبِّ اللهِ تعالىٰ ؛ مثلَ السكرانِ الوالِهِ ، فقدْ ينتهي أمرُهُ إلىٰ ألاَّ يلتفتَ قلبُهُ إلىٰ تفاصيلِ أحوالِ العبادِ ، بلْ ينظرُ إلى الكلِّ بعينٍ واحدةٍ ، وهيَ عينُ الرحمةِ ، ويرى الكلَّ عباداً للهِ ، وأفعالَهُمْ أفعالاً للهِ ، ويراهُمْ مسخَّرينَ ، وذلكَ إنْ كانَ . . فهوَ كالبرقِ الخاطفِ لا يدومُ ، ويرجعُ القلبُ بعدَ ذلكَ إلىٰ طبعِهِ ، ويعودُ العدوُّ إلىٰ منازعتِهِ ؛ أعني : الشيطانَ ؛ فإنَّهُ ينازعُ بالوسوسةِ ، فمهما قابلَ ذلكَ بكراهةٍ وألزمَ قلبَهُ هٰذهِ الحالةَ . . فقدْ أدَّىٰ ما كُلِّفَهُ .

وذهبَ ذاهبونَ إلىٰ أنَّه لا يأثمُ إذا لمْ يظهرِ الحسدُ علىٰ جوارحِهِ ؛ لما رويَ عنِ الحسنِ : أنَّهُ سئلَ عنِ الحسدِ فقالَ : (غمَّةٌ ؛ فإنَّهُ لا يضرُّكَ ما لمْ تبدِهِ)(١) .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص١٣٦) .

ورُوِيَ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ثلاثٌ لا يخلو منهنَّ مؤمنٌ ، ولهُ منهنَّ مخرجٌ . . . ، ومخرجُهُ مِنَ الحسدِ ألا يبغيَ »[1] .

والأولىٰ أنْ يُحملَ هـٰذا علىٰ ما ذكرناهُ ؛ مِنْ أنْ يكونَ فيهِ كراهةٌ مِنْ جهةِ الدينِ والعقلِ في مقابلةِ حبِّ الطبعِ لزوالِ نعمةِ العدوِّ ، وتلكَ الكراهةُ تمنعُهُ مِنَ البغيِ والإيذاءِ ؛ فإنَّ جميعَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ في ذمِّ الحسدِ يدلُّ ظاهرُهُ علىٰ أنَّ كلَّ حاسدٍ آثمٌ ، والحسدُ عبارةٌ عنْ صفةِ القلبِ لا عنِ الأفعالِ ، فكلُّ محبٍّ مساءَةَ المسلمينَ . . فهوَ حاسدٌ .

❊ ❊ ❊

فإذاً ؛ كونُهُ آثماً بمجرَّدِ حسدِ القلبِ مِنْ غيرِ فعلٍ هوَ في محلِّ الاجتهادِ ، والأظهرُ ما ذكرناهُ مِن حيثُ ظواهرُ الآياتِ والأخبارِ ، ومِنْ حيثُ المعنىٰ ؛ إذْ بعيدٌ أنْ يُعفىٰ عنِ العبدِ في إرادتِهِ مساءَةَ المسلمينَ واشتمالِهِ بالقلبِ علىٰ ذلكَ مِن غيرِ كراهةٍ .

---

(١) أما الموقوف . . فرواه ابن أبي الدنيا في « ذم الحسد » ، ورستة في كتاب « الإيمان » له بلفظ : (ثلاث لم تسلم منها هـٰذه الأمة : الحسد والظن والطيرة ، ألا أنبئكم بالمخرج منها ؟ إذا ظننت . . فلا تحقق ، وإذا حسدت . . فلا تبغ ، وإذا تطيرت . . فامض) . « إتحاف » (٨/ ٧٦) .
وأما المرفوع . . فرواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٢٨) ، وأبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (١٥٢ ، ٢٣٧) .

وقدْ عرفتَ مِنْ هـٰذا أنَّ لكَ في أعدائِكَ ثلاثةَ أحوالٍ :

إحداها : أنْ تحبَّ مساءَتَهمْ بطبعِكَ ، وتكرَهَ حبَّكَ لذلكَ ، وميلَ قلبكَ إليهِ بعقلِكَ ، وتمقتَ نفسَكَ عليهِ ، وتودَّ لوْ كانَتْ لكَ حيلةٌ في إزالةِ ذلكَ الميلِ منكَ ، وهـٰذا معفوٌّ عنهُ قطعاً ؛ لأنَّهُ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ أكثرُ منهُ .

الثانيةُ : أنْ تحبَّ ذلكَ ، وتظهرَ الفرحَ بمساءتِهِ ؛ إمَّا بلسانِكَ أوْ بجوارحِكَ ، فهـٰذا هو الحسدُ المحظورُ قطعاً .

الثالثةُ : وهو بينَ الطرفينِ ، أنْ تحسدَ بالقلبِ مِنْ غيرِ مقتٍ لنفسِكَ علىٰ حسدِكَ ، ومِنْ غيرِ إنكارٍ منكَ علىٰ قلبِكَ ، ولكنْ تحفظُ جوارحَكَ عنْ طاعةِ الحسدِ في مقتضاها ، وهـٰذا محلُّ الخلافِ ، **والظاهرُ** : أنَّهُ لا يخلو عنْ إثمٍ بقدْرِ قوَّةِ ذلكَ الحبِّ وضعفِهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وحسبنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

❋ ❋ ❋

تمَّ كتابُ آفةِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ

وهو الكتابُ الخامسُ من ربعِ المهلكاتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدِّين

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين

والصّلاةُ والسّلامُ على رسولهِ محمّدٍ وآلهِ الطّيّبينَ الطّاهرينَ وصحبهِ أجمعين

يتلوه كتابُ ذمِّ الدّنيا

مُحتوى الكِتاب
رُبعُ المُهلِكَاتِ / القِسمُ الأوّل

كتاب عجائب القلب ٧

ـ شرف الإنسان في استعداده لمعرفة الله تعالى ٩

ـ شرف القلب أنه آلة المعرفة ١٠

بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي ... ١٣

ـ إنما ترك الحديث عن علاقة القلب الروحاني بالقلب الجسماني لمعنيين ١٤

بيان جنود القلب ٢١

ـ لِمَ احتاج القلب إلى الجنود؟ ٢٢

ـ أصناف جنود القلب ٢٣

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة ٢٦

بيان خاصية قلب الإنسان ٣٠

ـ درجتا تحصيل العلوم عند الصبي ٣١

ـ معنى القرب من الله جل جلاله ٣٢

ـ أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ٣٤

ـ خاصية الإنسان في العلم والحكمة ٣٤

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته ٣٩

ـ عبادة الكلب والخنزير والشيطان ٤١

- إشراق مرآة القلب ٤٣
- أثر الطاعات والمعاصي في القلب ٤٥
بيان مثل القلب بالإضافة إلىٰ العلوم خاصة ٤٧
- بهذا الحجاب حجب المتكلمون والمتعصبون بل وأكثر الصالحين ٥١
- كل علم لا يحصل إلا من ازدواج علمين سابقين ٥١
- لا نهاية لعالم الملكوت ٥٥
- الجنة ومقدارها ٥٥
- مراتب الإيمان ومثال ذلك ٥٦
- مثال التفاوت في درجات الكشف ٥٨
- بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية ٦٠
- لا غنى للعقل عن السمع ولا للسمع عن العقل ٦٣
- لا تضادَّ بين العقل والنقل ٦٤
- تنافر العلوم الدنيوية والأخروية ٦٥
بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار ٦٧
- اختيار الصوفية العلوم الإلهامية على التعليمية ٦٨
- طريق اكتساب العلوم عند الصوفية ٦٩
- لا اختيار للعبد في استجلاب رحمة الله تعالى ٧٠
- استوعار النظار وذوي الاعتبار لطريق الصوفية ٧١

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس ٧٤
ـ تحريجة: كيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟ ٧٤
ـ معنى إفراد الذكر في قوله ﷺ: «المفردون» ٧٧
ـ الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء ٧٨
ـ بين أهل الصين وأهل الروم ٧٩
ـ قلب المؤمن لا يموت ٧٩
ـ لا سعادة إلا بالعلم والمعرفة ٨٠
ـ تفاوت الناس في المعرفة وشواهد ذلك ٨١
بيان شواهد الشرع علىٰ صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة
لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد ٨٤
ـ المراد بالعلم اللدني هو هذا العلم ٨٨
بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ٩٦
ـ بيان معنى الخاطر وأنواعه وأسبابه ٩٧
ـ معركة القلب بين جندي الملائكة والشياطين ١٠١
ـ تخلية القلب عن قوت الشيطان ١٠١
ـ لا يعالج الشيء إلا بضده ١٠٢
ـ لا فائدة مرجوة في البحث عن ماهية الشيطان ١٠٥
ـ معرفة حقائق الملائكة والشيطان ميدان العارفين ١٠٦
ـ مثال لطيف لطرق استدراج الشيطان ١٠٧
ـ تلبيس إبليس ١٠٨

ـ تعلُّم خدع النفس ومكايد الشيطان فرض عين ١٠٩
ـ لا نهاية للمجاهدات ١١٠
ـ باب الملائكة واحد وأبواب الشيطان كثيرة ١١١
بيان تفصيل مداخل الشيطان إلىٰ القلب ١١٤
ـ المحافظة على سلامة القلب فرض عين ١١٤
ـ الشيطان يريد أن يتوب ١١٥
ـ من ملك شيئاً من الدنيا فعنده بعض قوت الشيطان ١٢٢
ـ لا تنفع محبة أولياء الله مع طاعة أعداء الله ١٢٦
ـ الأئمة يَخْصِمون أتباعهم الكذبة ١٢٧
ـ العوام يتركون العلم للعلماء ١٢٩
ـ ترك التعرض لمواطن التهم ١٣٠
ـ **تحريجة**: فما العلاج في دفع الشيطان؟ وهل يكفي الذكر؟ ١٣٢
ـ **تحريجة**: الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان ١٣٦
ـ **تحريجة**: فهل لكل معصية شيطان مختص بها؟ ١٣٨
ـ **تحريجة**: فكيف يُرى الشيطان ١٤١
بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها
وما يعفىٰ عنه ولا يؤاخذ به ١٤٥
بيان الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ١٥٤
أصناف الوسواس ١٥٥
بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات ١٦٠

ـ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ١٦٩

كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب ١٧١

ـ أهمية البحث في أمراض القلوب وعلاجها ١٧٤

ـ حدُّ الخُلُق وتفصيل القول فيه ١٩٠

ـ لا يتم حسن الخلق إلا باستواء أركان أربعة ١٩٢

ـ أمهات الأخلاق: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ١٩٤

ـ الفرق بين الحمق والجنون ١٩٥

ـ رسول الله ﷺ وحده بلغ الكمال في الأخلاق الحسنة ١٩٦

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة ١٩٩

ـ مزاعم من يرى أن الأخلاق لا يمكن تغييرها ١٩٩

ـ اختلاف الجبلات في سرعة وبطء تغيير الخلق ٢٠١

ـ مراتب الناس في اعتقاد الأخلاق وممارستها ٢٠١

ـ ليس المراد بالرياضة قمع الصفات بالكلية ٢٠٣

ـ تقبيح الغضب رأساً من شأن الشيخ المرشد ٢٠٥

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة ٢٠٧

ـ سبب كراهة الأنبياء والأولياء للموت ٢٠٩

ـ غاية الأخلاق ترسيخ حب الله تعالى في القلب ٢٠٩

ـ قوت القلوب الحكمة والمعرفة وحب الله تعالى ٢١١

ـ أثر التواني والكسل في هجر التحصيل ٢١٣

بيان تفصيل الطريق إلىٰ تهذيب الأخلاق ٢١٦
ـ العلاج بالأضداد ٢١٧
ـ معرفة العلاج فرع عن تصور العلة ٢١٧
ـ صور من رياضة المريد ٢١٨
بيان علامات مرض القلب وعلامات عوده إلى الصحة ٢٢٢
ـ عمل القلب المعرفة، وعلامتها المحبة ٢٢٢
ـ عزَّة أطباء القلوب وغفلة الناس عن أمراضها ٢٢٣
ـ كيفية التعرف على الوسط في الأخلاق ٢٢٤
ـ سلامة القلب في بعض المقامات دون بعض ٢٢٤
ـ الحكمة من سؤال العبد لاستقامة على الصراط المستقيم ٢٢٥
بيان الطريق الذي به يعرف الإنسان عيوب نفسه ٢٢٧
ـ التحكيم للمرشد وعزَّة وجوده ٢٢٧
ـ آل الأمر إلى بعض من يقدم لنا النصيحة ويعرفنا العيوب ٢٢٩
بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع علىٰ أن الطريق في معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات ٢٣١
حاصل الرياضة وسرها ٢٣٧
ـ أحوال قلوب الناس في المعرفة والذكر ٢٣٨
ـ تحريجة: التنعم بالمباح مباح، فكيف يكون سبب البعد عن الله تعالىٰ؟ ٢٣٨
ـ الشهوة واحدة للحلال والحرام ٢٤٠

ـ طلب النجاة من الدنيا بفطام النفس ٢٤٠

ـ اختلاف طرق الرياضة باختلاف الأحوال ٢٤٣

بيان علامات حسن الخلق ٢٤٤

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم ٢٥٤

ـ أثر اللبن في نشوء الطفل ٢٥٤

ـ الحياء دليل على إشراق نور العقل ٢٥٥

ـ تهذيب أموره في الطعام ٢٥٥

ـ تهذيب أموره في اللباس ٢٥٦

ـ حفظه عن أترابه الفاسدين ونحوهم ٢٥٦

ـ تعليمه القرآن والأخبار وحكايات الأبرار لينغرس فيه حب الصالحين .. ٢٥٦

ـ إكرامه على الفعل الحسن وكيفية عتابه على الخطأ ٢٥٦

ـ تعويده الاخشيشان ٢٥٧

ـ منعه من عمل الخفاء ٢٥٧

ـ جملة مما عليه التأدب به ٢٥٨

ـ أدبه في الكلام ٢٥٩

ـ تعويده التصبُّر والتحمُّل ٢٥٩

ـ أدب تربيته في المكتب ومع والديه ٢٥٩

ـ سن التمييز وأحكام العبادات وأصول الأخلاق ٢٦٠

ـ نشأة سهل بن عبد الله التستري ٢٦١

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة ٢٦٣
ـ تحقيق معنى الإرادة ٢٦٣
ـ سبب خلو طريق الله عن السالكين فيه ٢٦٣
ـ البحث عن المرشد الذي يأخذ به إلى سواء السبيل ٢٦٦
ـ همة الشيخ في حفظ مريده ٢٦٧
ـ ترتيب ورد لإصلاح وتنوير القلب ٢٧١
ـ الكلام على الخلوة في طريق الرياضة ٢٧١
ـ أقسام الخواطر ٢٧٣
ـ الوصول إلى الكشف أو ما يناسب الحال ٢٧٣
ـ دين العجائز ٢٧٤
ـ منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى أبداً ٢٧٧
ـ زلة الحديث عن مكاشفات المريد ٢٧٧

كتاب كسر الشهوتين ٢٨١
ـ البطن ينبوع الشهوات ومنبت الآفات ٢٨٤
بيان فضيلة الجوع وذم الشبع ٢٨٦
بيان فوائد الجوع وآفات الشبع ٣٠٠
ـ **تحريجة**: هل فضل الجوع لأن فيه أذية وألماً؟ ٣٠٠
ـ فوائد الجوع ٣٠١

ـ المقصود من العبادة هو معرفة الله عز وجل ٣٠٢
ـ ذكر عذاب الله يهيج الخوف من الله تعالى في القلب ٣٠٦
ـ قصة الرشيد مع الأطباء الأربعة ٣١١
ـ الحكمة في قضاء الحوائج بالترك ٣١٤
ـ تجار الآخرة يرضون برغيف في كل يوم ٣١٥
بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن ٣١٩
ـ أربع وظائف على المريد في بطنه ومأكوله ٣١٩
ـ علامات الجوع الصادق ٣٢٢
ـ من اختار أكله في كل يوم . . فليجعلها سحراً ٣٢٧
ـ طلاب الآخرة لا يأتدمون فضلاً عن أن يتوسعوا ٣٢٩
ـ حوت اليهودي وزيت العابد ٣٣٠
ـ ابن عمر والسمكة المشوية ٣٣١
ـ أخبار السلف في ترك ما زاد عن الحاجة ٣٣٢
ـ شقيق يتوسل إلى الله بإبراهيم بن أدهم ٣٣٣
ـ أخبارهم في صدق العزيمة على الترك لله تعالى ٣٣٤
ـ منٌّ مخبوءة في الرغيف ٣٣٨
ـ البطن دنيا العبد ٣٣٩
ـ بشر بن الحارث يبذُّ الأطباء ٣٤٠
ـ كفى بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما يشتهيه ٣٤١
ـ إياك أن تجمع لنفسك بين شهوتين ٣٤١

ـ ليجعل مع كل أكلة طاعة ٣٤٢
ـ طلب أنواع الخبز شهوة ٣٤٣
ـ المستقبَلُ بخبز الأرز والسمك ٣٤٣
بيان اختلاف حكم الجوع، وفضيلته، واختلاف أحوال الناس فيه ٣٤٥
ـ حكمةُ الشرع في المبالغة أحياناً طلبُ الاعتدال ٣٤٥
ـ مثال يبيِّن الوسط والاعتدال ٣٤٦
ـ عدم نفع الاعتدال ابتداءً ٣٤٧
ـ سرُّ أمر الشيخ المريدَ بشيء لا يتعاطاه في نفسه ٣٤٧
ـ اثنان لا يلازمان الجوع: صدِّيق أو أحمق ٣٤٨
ـ أحوالهم في البدايات والنهايات والمقامات ٣٤٩
ـ موقف المحتاط والمغرور من هذه الأخبار ٣٥١
ـ رأى عمر رسول الله ﷺ: «وهو يحب الحلواء والعسل ولم يقس نفسه
عليه» ٣٥١
ـ تنزُّل الخوَّاص في خوض الرياضات مع المريدين ٣٥٢
بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات أو قلل الطعام ٣٥٤
ـ إظهار الشهوة بين الناس خير من كتمانها ٣٥٤
ـ لا يبتلى العارف بالرياء ٣٥٥
ـ نهاية الزهد الزهدُ في الزهد ٣٥٥
القول في شهوة الفرج ٣٥٨
ـ فائدتا هذه الشهوة ٣٥٨

ـ مثال من يتناول ما يقوي به شهوة النكاح أو الطعام ٣٦١
ـ **تحريجة**: فما القول في خبر: «شكوت إلى جبريل ضعف الوقاع؟» .. ٣٦١
ـ العشق مرض قلب فارغ، وكيفية اجتنابه ٣٦٢
بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله ٣٦٤
ـ لا يقاس على كثرة نكاح رسول الله ﷺ ٣٦٤
ـ أخبار في أثر النظرة الحرام ٣٦٦
ـ حفظ العين عن النظر إلى النساء والمردان ٣٦٨
ـ **تحريجة**: لا بد من وجود فرق بين الجميل والقبيح ٣٦٨
ـ أخبارهم في زواج الفقيرات وتركهم التنعم ٣٧١
ـ خبر ابن أبي وداعة مع سعيد بن المسيب ٣٧٤
بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين ٣٧٧
ـ أخبار أهل العفاف ٣٧٧

كتاب آفات اللسان ٣٨٧

ـ رحابة ميدان اللسان ٣٩٠
بيان عظم خطر اللسان، وفضيلة الصمت ٣٩٢
ـ الأحاديث الواردة في الحذر من اللسان ٣٩٢
ـ **تحريجة**: ما سبب هذا الفضل الكبير للصمت؟ ٤٠٢
ـ ما يدلُّ على فضل لزوم الصمت ٤٠٢
الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك ٤٠٤

- أمثلة الكلام فيما لا يعني ٤٠٧
- علاج هذه الآفة ٤١٠
الآفة الثانية: فضول الكلام ٤١١
الآفة الثالثة: الخوض في الباطل ٤١٦
الآفة الرابعة: المراء والجدال ٤١٩
- جهات الطعن في الكلام ٤٢٣
- علاج هذه الآفة ٤٢٥
- إذا علم أن النصح لا ينفع.. فليشتغل بنفسه ٤٢٦
الآفة الخامسة: الخصومة ٤٢٨
- **تحريجة**: فصاحب الحق ماذا يفعل؟ ٤٢٩
- شغل الخصومة لفكر الإنسان حتى في صلاته ٤٣٠
الآفة السادسة: التقعر في الكلام ٤٣٤
- لا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير ٤٣٦
الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان ٤٣٧
- معنى «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق» ٤٣٨
- أمثلة مما يعفُّ عن ذكره ٤٤٠
الآفة الثامنة: اللعن ٤٤٣
- الصفات الموجبة للعن ٤٤٥
- في لعن المبتدعة خطر ٤٤٥
- حكم لعن كافر أو فاسق أو مبتدع بعينه ٤٤٦

- تحريجة: لعنُهُ كقولنا لمسلم: رحمه الله، والمسلم يتصور أن يرتد . . . ٤٤٦
- يجوز لرسول الله ﷺ ما لا يجوز لغيره ٤٤٦
- جاز لعن الكافر الميت شريطة ألا يتأذى مسلم ٤٤٧
- تحريجة: فهل يجوز لعن يزيد قاتل الحسين بن علي رضي الله عنهما أو الآخر به؟ ٤٤٨
- سبة الأموات أشد من سبة الأحياء ٤٤٩
- تحريجة: فهل يجوز أن يقال: قاتلُ الحسين لعنه الله أو الآمرُ بقتله لعنه الله؟ ٤٥٠
الآفة التاسعة: الغناء والشعر ٤٥٣
- التوسع بالمدح وإن كان كذباً لا يلحق في التحريم بالكذب ٤٥٤
- سروره ﷺ بشعر أبي كبير الهذلي ٤٥٥
- «اقطعوا عني لسانه» ٤٥٦
الآفة العاشرة: المزاح ٤٥٧
- تحريجة: المزاح للمطايبة، فلِمَ ينهى عنه؟ ٤٥٧
- كثرة الضحك تميت القلب ٤٥٧
- الضحك دليل الغفلة ٤٥٨
- أداء المزاح إلى سقوط الوقار ٤٦٠
- تحريجة: كيف ينهى عن المزاح وقد فعله رسول الله ﷺ ٤٦١
- صور من مزاحه ﷺ ٤٦٢
الآفة الحادية عشر: السخرية والاستهزاء ٤٦٩

ـ حكم ما إذا جعل الرجل نفسه مسخرة ٤٧٠
الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر ٤٧٢
الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب ٤٧٤
ـ إذا فهم الجزم بالوعد.. فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر ٤٧٥
الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين ٤٧٨
بيان ما رخص فيه من الكذب ٤٨٨
ـ قد يكون في الجهل منفعة ومصلحة ٤٨٨
ـ التأصيل لمسألة الترخيص في الكذب ٤٨٨
ـ أقل البيوت الذي يبنى على الحب ٤٩٠
ـ الترخيص بالكذب لأجل الستر ٤٩١
ـ تقابل المحذورين وإمضاء الأخف ٤٩٢
ـ الفتوى من غير تحقيق حرام ٤٩٣
ـ الكذب على الصبيان لمصلحة معتبرة مباح ٤٩٤
ـ حكم وضع الأحاديث في فضائل الأعمال ٤٩٥
بيان الحذر من الكذب بالمعاريض ٤٩٦
ـ الإثم في الكذب في المنام ٥٠٢
الآفة الخامسة عشرة: الغيبة ٥٠٣
ـ الأخبار الواردة في التشديد في الغيبة ٥٠٣
ـ بيان معنى الغيبة وحدها ٥١٠
ـ فساد قول من قال: لا غيبة في الدين ٥١١

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان ٥١٤
ـ أخبث أنواع الغيبة ٥١٥
ـ المستمع إلى الغيبة شريك المغتاب في الإثم ٥١٧
بيان الأسباب الباعثة على الغيبة ٥٢٠
بيان العلاج الذي به يمنع اللسان من الغيبة ٥٢٥
بيان تحريم الغيبة بالقلب ٥٣٢
ـ **تحريجة**: بِمَ يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ ... ٥٣٣
بيان الأعذار المرخصة في الغيبة ٥٣٧
بيان كفارة الغيبة ٥٤٣
ـ **تحريجة**: هل يجب التحليل؟ ٥٤٥
ـ ذكر من كان لا يحلل بشأن الغيبة ٥٤٥
ـ **تحريجة**: فما معنى قوله ﷺ: «ينبغي أن يستحلها؟» ٥٤٥
ـ **تحريجة**: قد ثبت فعل من يجعل عرضه صدقة على المسلمين، فما معناه؟ ٥٤٦
الآفة السادسة عشرة: النميمة ٥٤٨
بيان حد النميمة وما يجب في ردها ٥٥٢
ـ واجبات من حملت إليه النميمة ٥٥٢
ـ وجوب بغض النمام ٥٥٤
ـ متى تسمَّى النميمة سعايةً ٥٥٦
ـ قصة الغلام النمام ٥٥٩

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد بكلام يوافقه ٥٦٠
ـ تحريجة: كيف يصير الرجل ذا لسانين؟ ٥٦٢
الآفة الثامنة عشرة: المدح ٥٦٥
ـ متى يندب المدح ٥٦٩
بيان ما على الممدوح ٥٧١
الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام ٥٧٣
الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وعن الحروف، وأنها قديمة أو محدثة ٥٧٨
بيان معنى العاميِّ ٥٧٩

كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ٥٨٣
ـ علاقة الغضب بالشيطان ٥٨٥
بيان ذم الغضب ٥٨٨
ـ الآيات والأحاديث في ذم الغضب ٥٨٨
بيان حقيقة الغضب ٥٩٦
ـ أثر صحبة من لا عقل له ولا حلم في تأجيج الغضب ٥٩٨
ـ كيفية اشتعال نار الغضب ٥٩٩
ـ متى يحمد الغضب ٦٠٢
بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ٦٠٤

محبوبات الإنسان على ثلاثة أقسام ٦٠٤
ـ أكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري ٦٠٥
ـ الحاجة صفة نقص ٦٠٥
ـ بيان رسول الله ﷺ للحب الضروري للأشياء ٦٠٦
ـ **تحريجة**: من غلب عليه توحيد الشهود.. فلعله لا يغضب أبداً ٦٠٨
ـ أحوال السلف في عدم المبالاة بشأن أنفسهم ٦١٠
ـ ثلاثة أسباب تمنع الغيظ ٦١١
بيان الأسباب المهيجة للغضب ٦١٣
ـ جهل من يسمي الغضب شجاعة ورجولية ٦١٥
بيان علاج الغضب بعد هيجانه ٦١٦
فضيلة كظم الغيظ ٦٢٤
ـ الآيات والأخبار في فضل كظم الغيظ ٦٢٤
بيان فضيلة الحلم ٦٢٨
ـ الأخبار في فضل الحلم ٦٢٨
بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ٦٤٠
ـ الدليل على جواز الانتصار بالسبِّ الصدقُ والحق ٦٤٢
ـ أحوال الناس في الغضب ٦٤٣
ـ ليس للسلطان أن يعاقب حال غضبه ٦٤٤
القول في معنى الحقد ونتائجه، وفضيلة العفو والرفق ٦٤٦
ـ ثمانية أمور يثمرها الحقد ٦٤٦

ـ سعادة القلب في طلب نعيم لا زحمة فيه ٦٩٩
بيان الدواء الذي يُنفىٰ مرض الحسد عن القلب ٧٠١
ـ زوال الحسد مقتضٍ لزوال النعم عن المحسود ٧٠٣
ـ الحسد يحمل على تفويت الدرجات بترك المحبة ٧٠٥
ـ ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ٧٠٨
ـ المداواة بالضدِّ ٧٠٩
بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب ٧١٢
ـ فرقٌ بين الحسد والأعمال الصادرة عنه ٧١٢
ـ الاستغراق بحبِّ الله منجاة من كل آفة ٧١٣
محتوى الكتاب ٧١٧

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع المهلكات / القسم الثاني

كتاب

ذم الدنيا ـ ذم المال والبخل ـ ذم الجاه والرياء

ذم الكبر والعجب ـ ذم الغرور

المجلد السادس

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كتاب ذمّ الدّنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ الدّنيا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي عرَّفَ أولياءَهُ غوائلَ الدُّنيا وآفاتِها ، وكشفَ لهُمْ عنْ عيوبِها وعوراتِها ، حتَّىٰ نظرُوا في شواهدِها وآياتِها ، ووَزَنُوا بحسناتِها سيِّئاتِها ، فعلمُوا أنَّهُ يزيدُ مُنكَرُها علىٰ معروفِها ، ولا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا يسلمُ طلوعُها مِنْ كسوفِها ، ولكنَّها في صورةِ امرأةٍ مليحةٍ تستميلُ الناسَ بجمالِها ، ولها أسرارُ سوءٍ قبائحُ تهلكُ الراغبينَ في وصالِها .

ثمَّ هيَ فرَّارةٌ عنْ طلاَّبِها ، شحيحةٌ بإقبالِها ، وإذا أقبلَتْ . . لمْ يُؤمَنْ شرُّها ووبالُها ، إنْ أحسنَتْ ساعةً . . أساءَتْ سنةً ، وإن أساءَتْ مرَّةً . . جعلَتْها سُنَّةً ، فدوائرُ إقبالِها على التقاربِ دائرةٌ ، وتجارةُ بنيها خاسرةٌ بائرةٌ ، وآفاتُها على التَّوالي لصدورِ طلاَّبِها راشقةٌ ، ومجاري أحوالِها بذلِّ طالبِيها ناطقةٌ ؛ فكلُّ متعزِّزٍ بها إلى الذُّلِّ مصيرُهُ ، وكلُّ متكبِّرٍ بها إلى التحسُّرِ مسيرُهُ .

شأنُها الهربُ مِنْ طالبِها ، والطلبُ لهارِبِها ، مَنْ خدمَها . . فاتَتْهُ ، ومَنْ أعرضَ عنها . . واتَتْهُ ، لا يخلُو صفوُها عَنْ شوائبِ الكُدوراتِ ، ولا ينفكُّ سرورُها عنِ المنغِّصاتِ ، سلامتُها تعقبُ السَّقَمَ ، وشبابُها يسوقُ إلى

الهرمِ ، ونعيمُها لا يثمرُ إلا الحسرةَ والندمَ .

فهيَ خدَّاعةٌ مكَّارةٌ ، طيَّارةٌ فرَّارةٌ ، لا تزالُ تتزيَّنُ لطلاَّبِها ، حتَّىٰ إذا صاروا مِنْ أحبابِها . . كشرَتْ لهُمْ عن أنيابِها ، وشوَّشَتْ عليهِمْ مناظمَ أسبابِها ، وكشفَتْ لهَمْ عنْ مكنونِ عجابِها ، فأذاقتْهُمْ قواتلَ سِمامِها[1] ، ورشقَتْهُمْ بصوائبِ سِهامِها .

بينَما أصحابُها مِنْها في سرورٍ وإنعامٍ . . إذْ ولَّتْ عنهُمْ كأنَّها أضغاثُ أحلامٍ ، ثمَّ كرَّتْ عليهِمْ بدواهِيها ، فطحنَتْهُمْ طحنَ الحصيدِ ، ووارَتْهُمْ في أكفانِهِمْ تحت الصعيدِ ، إنْ ملَّكَتْ واحداً منهُمْ جميعَ ما طلعَتْ عليهِ الشمسُ . . جعلَتْهُ حصيداً كأنْ لمْ يغنَ بالأمسِ ، تُمنِّي أصحابَها سروراً ، وتعدُهُمْ غروراً ، حتَّىٰ يأملونَ كثيراً ، ويبنونَ قصوراً ، فتصبحُ قصورُهُمْ قبوراً ، وجمعُهُمْ بوراً ، وسعيُهُمْ هباءً منثوراً ، ودعاؤُهُمْ ثبوراً ، هـٰذهِ صفتُها ، وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ المرسلِ إلى العالمينَ بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً ، وعلىٰ مَنْ كانَ مِنْ أهلِهِ وأصحابِهِ لهُ في الدينِ ظهيراً ، وعلى الظالمينَ نصيراً ، وسلِّمْ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ للهِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ اللهِ ، وعدوَّةٌ لأعداءِ اللهِ .

---

(١) السِّمام : جمع سمٍّ . « إتحاف » (٨/ ٧٨) .

أمَّا عداوتُها للهِ . . فإنَّها قطعَتِ الطريقَ علىٰ عبادِ اللهِ ، ولذلكَ لمْ ينظرِ اللهُ إليها منذُ خلقَها .

وأمَّا عداوتُها لأولياءِ اللهِ . . فإنَّها تزيَّنَتْ لهمْ بزينتِها ، وعمَّتْهُمْ بزهرتِها ونضارتِها ، حتَّىٰ تجرَّعُوا مرارةَ الصبرِ في مقاطعتِها .

وأمَّا عداوتُها لأعداءِ اللهِ . . فإنَّها استدرجَتْهُمْ بمكرِها ومكيدتِها ، واقتنصَتْهُمْ بشبكتِها ، حتَّىٰ وثِقُوا بها ، وعوَّلُوا عليها ، فخذلَتْهُمْ أحوجَ ما كانُوا إليها ، فاجتنَوا مِنها حسرةً تتقطَّعُ دونَها الأكبادُ ، ثمَّ حرمَتْهُمُ السعادةَ أبدَ الآبادِ ؛ فهُمْ علىٰ فراقِها يتحسَّرونَ ، ومِنْ مكايدِها يستغيثُونَ فلا يُغاثونَ ، بلْ يُقالُ لهُمْ : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

وإذا عظمَتْ غوائلُ الدُّنيا وشرورُها . . فلا بدَّ أوَّلاً مِنْ معرفةِ حقيقةِ الدُّنيا ، وما هيَ ، وما الحكمةُ في خلْقِها معَ عداوتِها ، وما مداخلُ غرورِها وشرورِها ؛ فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشَّرَّ . . لا يتقيهِ ، ويوشكُ أنْ يقعَ فيهِ .

ونحنُ نذكرُ ذمَّ الدنيا ، وأمثلتَها ، وحقيقتَها ، وتفصيلَ معانيها ، وأصنافَ الأشغالِ المتعلِّقةِ بها ، ووجهَ الحاجةِ إلىٰ أصولِها ، وسببَ انصرافِ الخلقِ عنِ اللهِ بسببِ التشاغلِ بفضولِها ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهوَ المعينُ علىٰ ما يرتضيهِ .

❋ ❋ ❋

بيان ذمّ الدنيا

الآياتُ الواردةُ في ذمِّ الدُّنيا وأمثلتِها كثيرةٌ ، وأكثرُ القرآنِ مشتملٌ علىٰ ذمِّ الدُّنيا ، وصرفِ الخلقِ عنها ، ودعوتِهِمْ إلى الآخرةِ ، بلْ هوَ مقصودُ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ، ولمْ يُبعثُوا إلا لذلكَ .

فلا حاجةَ إلى الاستشهادِ بآياتِ القرآنِ لظهورِها ، وإنَّما نوردُ بعضَ الأخبارِ الواردةِ فيها .

فقدْ رُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ شاةٍ ميتةٍ فقالَ : « أترونَ هٰذهِ الشَّاةَ هيّنةً علىٰ أهلِها ؟ » قالُوا : مِنْ هوانِها ألقَوْها ، قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ للدنيا أهونُ على اللهِ تعالىٰ مِنْ هٰذهِ الشاةِ علىٰ أهلِها ، ولو كانَتِ الدُّنيا تعدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ .. ما سقىٰ كافراً مِنْها شربةَ ماءٍ »(1) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ »(2) .

---

(1) رواه الترمذي (٢٣٢١) ، وابن ماجه (٤١١١) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه بنحوه ، ورواه ابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وأفرد الجملة الأخيرة منه الترمذي (٢٣٢٠) من حديثه .

(2) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا ملعونَةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ما كان للهِ مِنْها »[١] .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ دنياهُ . . أضرَّ بآخرتِهِ ، ومَنْ أحبَّ آخرتَهُ . . أضرَّ بدنياهُ ، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »[٣] .

وقالَ زيدُ بنُ أرقمَ : كنَّا معَ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فدعا بشرابٍ ، فأُتيَ بماءٍ وعسلٍ ، فلمَّا أدناهُ مِنْ فيهِ . . بكىٰ وبكىٰ حتَّىٰ أبكىٰ أصحابَهُ ، فسكتُوا وما سكتَ ، ثمَّ عادَ وبكىٰ حتَّىٰ ظنُّوا أنَّهُمْ لا يقدرونَ علىٰ مسألتِهِ ، قالَ : ثمَّ مسحَ عينيهِ ، فقالُوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ ما أبكاكَ ؟ قالَ : كنتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرأيتُهُ يدفعُ عنْ نفسِهِ شيئاً ولمْ أرَ معَهُ أحداً ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الذي تدفعُ عنْ نفسِكَ ؟ قال : « هٰذِهِ الدُّنيا مثُلَتْ لي ، فقلتُ لها : إليكِ عنِّي ، ثمَّ رجعَتْ فقالَتْ : إنَّكَ إنْ أفلتَّ منِّي . . لمْ يفلِتْ منِّي مَنْ بعدَكَ »[٤] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، وفيه : « إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/٤١٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٠٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عجباً كلَّ العجبِ للمصدِّقِ بدارِ الخلودِ وهوَ يسعىٰ لدارِ الغرورِ ! »(١) .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقفَ علىٰ مزبلةٍ ، فقالَ : « هلمُّوا إلى الدُّنيا » ، وأخذ خرقاً قدْ بليَتْ علىٰ تلكَ المزبلةِ ، وعظاماً قد نخِرَتْ فقالَ : « هـٰذهِ الدنيا »(٢) ، وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ زينةَ الدنيا ستخلُقُ مثلَ تلكَ الخرقِ ، وأنَّ الأجسامَ التي تُرىٰ بها ستصيرُ عظاماً باليةً .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الدُّنيا حلوةٌ خَضِرةٌ ، وإنَّ اللهَ مستخلفُكُمْ فيها فناظرٌ كيفَ تعملونَ ، إنَّ بني إسرائيلَ لمَّا بُسِطَتْ لهمُ الدُّنيا ومُهِّدَتْ . تاهُوا في الحليةِ والنِّساءِ والطِّيبِ والثِّيابِ »(٣) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تتخذُوا الدُّنيا ربّاً فتتخذَكُمُ الدُّنيا عبيداً ، اكنزُوا كنزَكُمْ عندَ مَنْ لا يضيِّعُهُ ؛ فإنَّ صاحبَ كنزِ الدُّنيا يخافُ عليهِ الآفةَ ، وصاحبَ كنزِ اللهِ لا يخافُ عليهِ الآفةَ)(٤) .

= في « المستدرك » (٤/٣٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) عن أبي جعفر عبد الله بن مسور مرسلاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٨٨) عن أبي ميمون اللخمي مرسلاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٠) عن الحسن مرسلاً ، وروٰه بنحوه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١) .

وقالَ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريِّينَ ، إنِّي قدْ كببتُ لكُمُ الدُّنيا علىٰ وجهِها ، فلا تنعشُوها بعدي ؛ فإنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنيا أنْ عُصيَ اللهُ فيها ، وإنَّ مِنْ خُبْثِ الدُّنيا أنَّ الآخرةَ لا تُدرَكُ إلاَّ بتركِها ، ألاَ فاعبرُوا الدُّنيا ولا تعمرُوها ، واعلمُوا أنَّ أصلَ كلِّ خطيئةٍ حبُّ الدُّنيا ، وربَّ شهوةٍ أورثَتْ أهلَها حزناً طويلاً)[1] .

وقالَ عليهِ السلامُ أيضاً : (بطحتُ لكُمُ الدُّنيا وجلستُمْ علىٰ ظهرِها ، فلا ينازعُكُمْ فيها إلاَّ الملوكُ والنساءُ ، فأمَّا الملوكُ . . فلا تنازعوهُمُ الدُّنيا ؛ فإنَّهُمْ لنْ يَعرِضُوا لكُمْ ما تركتُموهُمْ ودنياهُمْ ، وأمَّا النساءُ . . فاتقوهنَّ بالصومِ والصلاةِ)[2] .

وقالَ عليهِ السلامُ أيضاً : (الدُّنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ ، فطالبُ الآخرةِ تطلبُه الدُّنيا ، حتَّىٰ يستكملَ فيها رزْقَهُ ، وطالبُ الدُّنيا تطلبُهُ الآخرةُ حتَّىٰ يجيءَ الموتُ فيأخذَهُ بعنقِهِ)[3] .

وقالَ موسىٰ بنُ يسارٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جلَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٤٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٧٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) ، ونحوه رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٦٢) مرفوعاً من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ثناؤُهُ لمْ يَخلُقْ خلقاً أبغضَ إليهِ مِنَ الدُّنيا ، وإنَّهُ منذُ خلقَها لمْ ينظرْ إليها »[1] .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ مرَّ في موكبِهِ والطيرُ تظلُّهُ ، والجنُّ والإنسُ عنْ يمينِهِ ويسارِهِ ، قالَ : فمرَّ بعابدٍ مِنْ بني إسرائيلَ ، فقالَ : واللهِ يا بنَ داوودَ ؛ لقدْ آتاكَ اللهُ ملكاً عظيماً ، قالَ : فسمعَ سليمانُ فقالَ : لتسبيحةٌ في صحيفةِ مؤمنٍ خيرٌ ممَّا أُعطيَ ابنُ داوودَ ؛ فإنَّ ما أُعطيَ ابنُ داوودَ يذهبُ ، والتسبيحةُ تبقى[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألهاكُمُ التَّكاثرُ ، يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ ، أوْ لبستَ فأبليتَ ، أوْ تصدَّقتَ فأمضَيتَ ؟ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالُ مَنْ لا مالَ لهُ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ ، وعليها يعادي مَنْ لا علمَ عندَهُ ، وعليْها يحسدُ مَنْ لا فقْهَ لهُ ، ولها يسعىٰ مَنْ لا يقينَ لهُ »[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٠) من حديث ابن يسار بلاغاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣١٣) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ والدُّنيا أكبرُ همِّهِ . . فليسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ ، وألزمَ اللهُ قلبَهُ أربعَ خصالٍ : همّاً لا ينقطعُ عنهُ أبداً ، وشغلاً لا يتفرَّغُ مِنْهُ أبداً ، وفقراً لا يبلغُ غناهُ أبداً ، وأملاً لا يبلغُ منتهاهُ أبداً »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ ألاَ أريكَ الدُّنيا جميعاً بما فيها ؟ » فقلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، فأخذَ بيدي ، وأتىٰ بي وادياً مِنْ أوديةِ المدينةِ ، فإذا مزبلةٌ فيها رؤوسُ أناسٍ ، وعذراتٌ ، وخرقٌ ، وعظامٌ ، ثمَّ قالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ هـٰذهِ الرؤوسُ كانَتْ تحرصُ كحرصِكُمْ ، وتأملُ آمالَكُمْ ، ثمَّ هيَ اليومَ عظامٌ بلا جلدٍ ، ثمَّ هيَ صائرةٌ رماداً ، وهـٰذهِ العذراتُ هيَ ألوانُ أطعمتِهِمْ ، اكتسبُوها مِنْ حيثُ اكتسبُوها ، ثمَّ قذفوها مِنْ بطونِهِمْ ، فأصبحَتْ والنَّاسُ يتحامونَها ، وهـٰذهِ الخِرَقُ الباليةُ كانَتْ رياشَهُمْ ولباسَهُمْ ، فأصبحَتْ والرِّياحُ تصفِقُها ، وهـٰذهِ العظامُ عظامُ دوابِّهِمُ التي كانُوا ينتجعُونَ عليها أطرافَ البلادِ ، فمنْ كانَ باكياً على الدُّنيا . . فليبكِ » ، قالَ : فما برحنا حتَّى اشتدَّ بكاؤُنا(٢) .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٥) عن شعيب بن صالح قال : (قال عيسى ابن مريم عليه السلام : ما سكنت الدنيا قلب عبد إلا وأليط قلبه منها بثلاث . . .) ، فذكرها ، ولم يذكر الأولىٰ من المثبت .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٨٤) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً ، قلت : لكن أورده صاحب « القوت » عن الحسن مرسلاً) ، وأورده الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (٥٠) .

ويُروىٰ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا أهبطَ آدمَ إلى الأرضِ . . قالَ لهُ : ابنِ للخرابِ ، ولِدْ للفناءِ[1] .

وقالَ داوودُ بنُ هلالٍ : (مكتوبٌ في صحفِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا دنيا ؛ ما أهونَكِ على الأبرارِ الذينَ تصنَّعتِ لهُمْ وتزيَّنتِ لهُمْ ، إنِّي قذفتُ في قلوبِهِمْ بغضَكِ والصدودَ عنكَ ، وما خلقتُ خلقاً أهونَ عليَّ منكِ ، كلُّ شأنِكِ صغيرٌ ، وإلى الفناءِ تصيرينَ ، قضيتُ عليكِ يومَ خلقتُكِ ألاَّ تدومي لأحدٍ ، ولا يدومَ لكِ أحدٌ ، وإنْ بخلَ بكِ صاحبُكِ وشحَّ عليكِ ، طوبىٰ للأبرارِ الذين أطلعُوني مِنْ قلوبِهِمْ على الرضا ، ومِنْ ضميرِهِمْ على الصِّدقِ والاستقامةِ ، طوبىٰ لهُمْ ما لهُمْ عندي مِنَ الجزاءِ إذا وفدُوا إليَّ مِنْ قبورِهِمُ ، النورُ يسعىٰ أمامَهُمْ ، والملائكةُ حافُّونَ بهِمْ ، حتَّىٰ أبلِّغَهُمْ ما يرجونَ مِنْ رحمتي)[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا موقُوفةٌ بينَ السَّماءِ والأرضِ منذُ خلقَها اللهُ تعالىٰ لا ينظرُ إليها ، وتقولُ يومَ القيامةِ : يا ربِّ ؛ اجعلْنِي لأدنىٰ أوليائِكَ نصيباً اليومَ ، فيقولُ : اسكتي يا لا شيءَ ، إنِّي لمْ أرضَكِ لهُمْ في الدُّنيا ، أأرضاكِ لهُمُ اليومَ ؟! »[3] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٨٦) عن مجاهد أو غيره .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٥٨) .
(٣) كذا في « القوت » (١/٢٤٤) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٧) عن =

ورُوِيَ في أخبارِ آدمَ عليهِ السلامُ : أنَّهُ لمَّا أكلَ مِنَ الشجرةِ . . تحركَتْ معدتُهُ لخروجِ الثُّفْلِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ مجعولاً في شيءٍ مِنْ أطعمةِ الجنةِ إلا في هٰذهِ الشجرةِ ، فلذلكَ نُهيا عنْ أكلِها ، قالَ : فجعلَ يدورُ في الجنَّةِ ، فأمرَ اللهُ تعالىٰ ملَكاً يخاطبُهُ ، فقالَ لهُ : قلْ لهُ : أيَّ شيءٍ تريدُ ؟ قالَ آدمُ : أريدُ أنْ أضعَ ما في بطني مِنَ الأذىٰ ، فقيلَ للملكِ : قلْ لهُ : في أيِّ مكانٍ تضعُهُ ؟! على الفُرُشِ ؟! أمْ على السُّرُرِ ؟! أمْ على الأنهارِ ؟! أمْ تحتَ ظلالِ الأشجارِ ؟! هلْ ترىٰ هٰهنا موضعاً يصلحُ لذلكَ؟! ولكنِ اهبطْ إلى الدُّنيا[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليجيئَنَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ وأعمالُهمْ كجبالِ تهامةَ ، فيُؤمرُ بِهِمْ إلى النَّارِ » ، قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ مصلينَ ؟ قالَ : « نعمْ ، كانُوا يصلُّونَ ويصومُونَ ، ويأخذونَ هنةً مِنَ الليلِ ، فإذا عرضَ لهُمْ شيءٌ مِنَ الدُّنيا . . وثبُوا عليهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ خطبِهِ : « المؤمنُ بينَ مخافتينِ ؛

= علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وروى ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه : (الدنيا موقوفة ما بين السماء والأرض ، كالشنِّ البالي ، تنادي ربها منذ يوم خلقها إلىٰ يوم يفنيها : يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ يا رب ، يا رب ؛ لم تبغضني ؟ فيقول لها : اسكتي يا لا شيء ، اسكتي يا لا شيء) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٤) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في « معجمه » (١٨٦٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٨٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٧) عن سالم مولىٰ أبي حذيفة رضي الله عنه ، والهنة هنا : القليل .

بينَ أجلٍ قدْ مضىٰ لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيهِ ، وبينَ أجلٍ قدْ بقيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فليتزوَّدِ العبدُ مِنْ نفسِهِ لنفسِهِ ، ومِنْ دنياهُ لآخرتِهِ ، ومِنْ حياتِهِ لموتِهِ ، ومِنْ شبابِهِ لهرمِهِ ؛ فإنَّ الدُّنيا خُلِقَتْ لكُمْ ، وأنتُمْ خُلقتُمْ للآخرةِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما بعدَ الموتِ مِنْ مستعتبٍ ، ولا بعدَ الدُّنيا مِنْ دارٍ إلا الجنَّةُ أوِ النَّارُ »[١] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا يستقيمُ حبُّ الدُّنيا والآخرةِ في قلبِ مؤمنٍ ، كما لا يستقيمُ الماءُ والنارُ في إناءٍ واحدٍ)[٢] .

ويُروىٰ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ لنوحٍ عليهِ السَّلامُ : يا أطولَ الأنبياءِ عمراً ؛ كيفَ وجدتَ الدُّنيا ؟ قالَ : كدارٍ لها بابانِ ، دخلتُ مِنْ أحدِهما ، وخرجتُ مِنَ الآخرِ[٣] .

وقيلَ لعيسىٰ عليهِ السَّلامُ : لوِ اتخذتَ بيتاً يكُنُّكَ ، قالَ : يكفينا خُلْقانُ مَنْ كان قبلَنا[٤] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٦) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٠٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢/٢٥٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٩) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « احذرُوا الدُّنيا ؛ فإنَّها أسحرُ مِنْ هاروتَ وماروتَ »(١) .

وعنِ الحسنِ قالَ : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ علىٰ أصحابِهِ فقالَ : « هلْ منكُمْ مَنْ يريدُ أنْ يذهبَ اللهُ عنهُ العمىٰ ويجعلَهُ بصيراً ؟ ألاَ إنَّهُ مَنْ رغِبَ في الدُّنيا وطالَ أملُهُ فيها . . أعمى اللهُ قلبَهُ علىٰ قدْرِ ذلكَ ، ومَنْ زهدَ في الدُّنيا وقصُرَ أملُهُ فيها . . أعطاهُ اللهُ علماً بغيرِ تعلُّمٍ ، وهدىً بغيرِ هدايةٍ ، ألا إنَّهُ سيكونُ بعدَكُمْ قومٌ لا يستقيمُ لهُمُ الملكُ إلاَّ بالقتلِ والتَّجبُّرِ ، ولا الغنىٰ إلاَّ بالفخرِ والبُخْلِ ، ولا المحبَّةُ إلاَّ باتِّباعِ الهوىٰ ، ألاَ فمَنْ أدركَ ذلكَ الزَّمانَ منكُمْ فصبرَ للفقرِ وهوَ يقدِرُ على الغنىٰ ، وصبرَ للبغضاءِ وهوَ يقدِرُ على المحبَّةِ ، وصبرَ على الذُّلِّ وهوَ يقدِرُ على العزِّ ، لا يريدُ بذلكَ إلا وجهَ اللهِ تعالىٰ . . أعطاهُ اللهُ عزَّ وجلَ ثوابَ خمسينَ صديقاً »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ اشتدَّ بهِ المطرُ والرعدُ والبرقُ يوماً ، فجعلَ يطلبُ شيئاً يلجأُ إليهِ فرُفعَتْ لهُ خيمةٌ مِنْ بعيدٍ فأتاها ؛ فإذا فيها امرأةٌ ، فحادَ عنها ؛ فإذا هوَ بكهفٍ في جبلٍ ، فأتاهُ ؛ فإذا فيهِ أسدٌ ، فوضعَ يدَهُ عليهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٢) عن أبي الدرداء الرهاوي .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٣١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) .

وقالَ : إلٰهي ؛ جعلتَ لكلِّ شيءٍ مأوىً ، ولم تجعلْ لي مأوىً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : مأواكَ في مستقرٍّ مِنْ رحمتي ، لأزوِّجنَّكَ يومَ القيامةِ مئةَ حوراءَ خلقتُها بيدي ، ولأطعمنَّ في عُرْسِكَ أربعةَ آلافِ عامٍ ، يومٌ منها كعمرِ الدُّنيا ، ولآمرنَّ منادياً ينادي : أينَ الزهادُ في الدُّنيا ؟ زورُوا عرسَ الزاهدِ عيسى ابنِ مريمَ(١) .

وقالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ : (ويلٌ لصاحبِ الدُّنيا ، كيفَ يموتُ ويتركُها وما فيها ، ويأمنُها وتغرُّهُ ، ويثقُ بها وتخذُلُهُ ، ويلٌ للمغترِّينَ ، كيفَ أرتْهُمْ ما يكرهونَ ، وفارقَهُمْ ما يحبُّونَ ، وجاءَهُمْ ما يُوعدُونَ ، وويلٌ لمَنِ الدُّنيا همُّهُ ، والخطايا عملُهُ ، كيفَ يُفتضَحُ غداً بذنبِهِ)(٢) .

وقيلَ : (أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ ما لكَ ولدارِ الظالمينَ ؟! إنَّها ليسَتْ لكَ بدارٍ ، أخرِجْ منها همَّكَ ، وفارقْها بعقلِكَ ، فبئسَتِ الدارُ هيَ ، إلا لعاملٍ يعملُ فيها فنعمَتِ الدارُ هيَ ، يا موسىٰ ؛ إنِّي مرصدٌ للظالمِ حتَّىٰ آخذَ منهُ للمظلومِ)(٣) .

ورُويَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ ، فجاءَهُ بمالٍ مِنَ البحرينِ ، فسمعَتِ الأنصارُ بقدومِ أبي عبيدةَ ، فوافَوا صلاةَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٢١) عن محمد بن سباع النميري .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٢) عن عبيد الله بن مسلم .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨٣) عن عبادة أبي مروان .

الفجرِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . انصرفَ ، فتعرَّضُوا لهُ ، فتبسَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ رآهُمْ ، ثمَّ قالَ : « أظنُّكُمْ سمعتُمْ أنَّ أبا عبيدةَ قدِمَ بشيءٍ ؟ » قالُوا : أجلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فأبشرُوا وأمِّلُوا ما يسُرُّكُمْ ، فواللهِ ؛ ما الفقْرَ أخشىٰ عليكُمْ ، ولكنِّي أخشىٰ عليكُمْ أن تُبسطَ عليكُمُ الدُّنيا كما بُسطَتْ علىٰ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، فتنافسُوها كما تنافسُوها ، فتُهلكَكُمْ كما أهلكَتْهُمْ »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ ما أخافُ عليكمْ ما يخرجُ اللهُ لكمْ مِنْ بركاتِ الأرضِ » ، فقيلَ : ما بركاتُ الأرضِ ؟ قالَ : « زهرةُ الدُّنيا »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشغلُوا قلوبَكُمْ بذكرِ الدُّنيا »(٣) ، فنهىٰ عنْ ذكرِها فضلاً عَنْ إصابةِ عينِها .

وقالَ عمارُ بنُ سعيدٍ : مرَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ بقريةٍ ؛ فإذا أهلُها موتىٰ في الأفنيةِ والطرقِ ، فقالَ لهمْ : يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ إنَّ هؤلاءِ ماتُوا عنْ

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٩٦١) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٢) ، ومسلم (١٠٥٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٠) عن محمد بن النضر الحارثي مرسلاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٨٧) : (لأن الله يغار علىٰ قلب عبده أن يشتغل بغيره) .

سخطةٍ ، ولوْ ماتُوا عنْ غيرِ ذلكَ . . لتدافنُوا ، فقالُوا : يا روحَ اللهِ ؛ وددنا أنَّا علمنا خبرَهُم ، فسألَ ربَّهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إذا كانَ الليلُ . . فنادِهِمْ يجيبوكَ ، فلمَّا كانَ الليلُ . . أشرفَ علىٰ نشْزٍ ،ثمَّ نادىٰ : يا أهلَ القريةِ ؛ فأجابَهُ مجيبٌ : لبَّيكَ يا روحَ اللهِ ؛ فقالَ : ما حالُكُمْ ؟ وما قصَّتُكُمْ ؟ قالوا : بتنا في عافيةٍ ، وأصبحنا في الهاويةِ ، قالَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : بحبِّنا الدُّنيا ، وطاعتِنا أهلَ المعاصي ، قالَ : وكيفَ كانَ حبُّكُمْ للدُّنيا ؟ قالَ : حبُّ الصبيِّ لأمِّهِ ؛ إذا أقبلَتْ . . فرحنا ، وإذا أدبرَتْ . . حزنَّا وبكينا عليها ، قالَ : فما بالُ أصحابِكَ لمْ يجيبوني ؟ قالَ : لأنَّهُمْ ملجمونَ بلُجُمٍ مِنْ نارٍ بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ ، قالَ : فكيفَ أجبتَني أنتَ مِنْ بينِهِمْ ؟ قالَ : لأنِّي كنتُ فيهِمْ ولمْ أكنْ منهُمْ ، فلمَّا نزلَ بهِمُ العذابُ . . أصابَني معَهُمْ ، فأنا معلَّقٌ علىٰ شفيرِ جهنَّمَ ، لا أدري أنجو مِنْها أمْ أُكبكبُ فيها ، فقالَ المسيحُ للحواريِّينَ : لأكلُ خبزِ الشعيرِ بالملحِ الجريشِ ، ولبسُ المسوحِ ، والنومُ على المزابلِ . . كثيرٌ معَ عافيةِ الدُّنيا والآخرةِ[1] .

وقالَ أنسٌ : كانَتْ ناقةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العضباءُ لا تُسبَقُ ، فجاءَ أعرابيٌّ علىٰ قَعُودٍ فسبقَها ، فشقَّ ذلكَ على المسلمينَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّه حقٌّ على اللهِ ألاَّ يرفعَ شيئاً مِنَ الدُّنيا إلاَّ وضعَهُ »[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٢) ، وفي « الزهد » (٢٩٨) .
(٢) رواه البخاري (٢٨٧٢) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/٨٨) : (ووجد =

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ ذا الذي يبني علىٰ موجِ البحرِ داراً ؟! تلكُمُ الدنيا ، فلا تتَّخذُوها قراراً)[1] .

وقيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : علِّمْنا عملاً واحداً يحبُّنا اللهُ عليهِ ، قالَ : أبغضُوا الدُّنيا . . يحبَّكُمُ اللهُ تعالىٰ[2] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً ، ولهانَتْ عليكُمُ الدُّنيا ، ولآثرتُمُ الآخرةَ » ، ثمَّ قالَ أبو الدرداءِ مِنْ قبَلِ نفسِهِ : (لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لخرجتُمْ إلى الصُّعُداتِ تجأرونَ وتبكونَ علىٰ أنفسِكُمْ ، ولتركتُمْ أموالَكُمْ لا حارسَ لها ، ولا راجعَ إليها إلا ما لا بدَّ لكُمْ مِنْهُ ، ولكنْ يغيبُ عنْ قلوبِكُمْ ذكرُ الآخرةِ ، وحضرَها الأملُ ، فصارَتِ الدُّنيا أملكَ بأعمالِكُمْ ، وصرتُمْ كالذينَ لا يعلمونَ ، فبعضُكُمْ شرٌّ مِنَ البهائمِ التي لا تدعُ هواها مخافةً ممَّا في عاقبتِهِ .

ما لكُمْ لا تحابُّونَ ولا تناصحونَ وأنتم إخوانٌ علىٰ دينِ اللهِ ؟! ما فرَّقَ بينَ أهوائِكُمْ إلاَّ خبثُ سرائرِكُمْ ، ولوِ اجتمعتُمْ على البرِّ . . لتحاببتُمْ .

= بخط الكمال الدميري قال : أفادني بعض طلبة العلم أنه سمع بعض الحفاظ يقول : الأعرابي الذي جاء علىٰ قعود فسبق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٧٠) عن سعيد بن عبد العزيز ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٣٠) عن مجاهد .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٥) عن سلم بن بشير .

ما لكُمْ تناصحونَ في أمرِ الدُّنيا ولا تناصحونَ في أمرِ الآخرةِ ؟! ولا يملكُ أحدُكُمُ النصيحةَ لمَنْ يحبُّهُ ويعينُهُ علىٰ أمرِ آخرتِهِ ، ما هـٰذا إلاَّ مِنْ قلَّةِ الإيمانِ في قلوبِكُمْ ، لوْ كنتُمْ توقنونَ بخيرِ الآخرةِ وشرِّها كما توقنونَ بالدُّنيا . . لآثرتُمْ طلبَ الآخرةِ ؛ لأنَّها أملكُ بأمورِكُمْ .

فإنْ قلتُمْ : حبُّ العاجلةِ غالبٌ . . فإنَّا نراكُمْ تدَعونَ العاجلةَ مِنَ الدُّنيا للآجلِ مِنْها ، تكُدُّونَ أنفسَكُمْ بالمشقَّةِ والاحترافِ في طلبِ أمرٍ لعلَّكُمْ لا تدركونَهُ ، فبئسَ القومُ أنتُمْ ، ما حقَّقتُمْ إيمانَكُمْ بما يُعرَفُ بهِ الإيمانُ البالغُ فيكُمْ ، فإنْ كنتُمْ في شكٍّ ممَّا جاءَ بهِ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فأْتونا فلنبيِّنْ لكُمْ ، ولنريكُمْ مِنَ النورِ ما تطمئنُّ إليهِ قلوبُكُمْ ، واللهِ ؛ ما أنتُمْ بالمنقوصةِ عقولُكُمْ فنعذرَكُمْ ، إنَّكُم لتبيِّنُونَ صوابَ الرأيِ في دنياكُمْ ، وتأخذونَ بالحزمِ في أمرِكُمْ .

ما لكُمْ تفرحونَ باليسيرِ مِنَ الدُّنيا تصيبونَهُ ، وتحزنونَ على اليسيرِ مِنْها يفوتُكُمْ ؟! حتَّىٰ يتبيَّنَ ذلكَ في وجوهِكُمْ ، ويظهرَ علىٰ ألسنتِكُمْ ، وتسمُّونَها المصائبَ ، وتقيمونَ فيها المآتمَ ، وعامَّتُكُمْ قدْ تركوا كثيراً من دينِهِمْ ، ثمَّ لا يتبيَّنُ ذلكَ في وجوهِكُمْ ، ولا يتغيَّرُ حالٌ بكُمْ ، إنِّي لأرى اللهَ قدْ تبرَّأَ منكُمْ .

يلقىٰ بعضُكُمْ بعضاً بالسرورِ ، وكلُّكُمْ يكرَهُ أنْ يستقبلَ صاحبَهُ بما يكرَهُ مخافةَ أن يستقبلَهُ صاحبُهُ بمثلِهِ ، فأصبحتُمْ على الغلِّ ، ونبتَتْ مراعيكُمْ على

الدِّمنِ ، وتصافيتُمْ علىٰ رفضِ الأجلِ ، ولوددتُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أراحَني منكُمْ ، وألحقَني بمَنْ أحبُّ رؤيتَهُ ، ولو كانَ حياً لمْ يصابرْكُمْ ، فإن كانَ فيكُمْ خيرٌ . فقدْ أسمعتُكُمْ ، وإنْ تطلبوا ما عندَ اللهِ . . تجدُوهُ يسيراً ، وباللهِ أستعينُ علىٰ نفسي وعليكُمْ)(١) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ ارضَوا بدنيءِ الدُّنيا معَ سلامةِ الدِّينِ ؛ كما رضيَ أهلُ الدُّنيا بدنيءِ الدِّينِ معَ سلامةِ الدُّنيا)(٢) .

وفي معناهُ قيلَ(٣) : [من البسيط]

أَرَىٰ رِجالاً بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا ... وَما أَراهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ
فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيا ٱلْمُلُوكِ كَما ٱسْـ ... ـتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْياهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا طالبَ الدُّنيا لِتَبَرَّ ، تركُكَ للدُّنيا أبرُّ)(٤) .

---

(١) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٢٧) ، وروىٰ المرفوع منه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه ، **والصعدات** : البراري والقفار . « إتحاف » (٨/ ٨٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٤٩) عن زكريا بن عدي .

(٣) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما مما نسب لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٦٩) ، ولأبي العتاهية في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٧٣) وليسا في « ديوانه » ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٨١) ، ولإبراهيم بن أدهم في « مختصر تاريخ دمشق » (٤/ ٣٢) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) ، **والمعنىٰ** : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من برِّك بها .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتأتينَّكُمْ بعدي دنيا تأكلُ إيمانَكُمْ ؛ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ »(١) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (يا موسىٰ ؛ لا تركنَنَّ إلىٰ حبِّ الدُّنيا ؛ فإنَّكَ لنْ تأتيَني بكبيرةٍ هيَ أشدُّ عليكَ مِنْها)(٢) .

ومرَّ موسىٰ عليهِ السلامُ برجلٍ وهوَ يبكي ، ورجعَ وهوَ يبكي ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ يبكي مِنْ مخافتِكَ ، فقالَ : يا بنَ عمرانَ ؛ لوْ نزلَ دماغُهُ معَ دموعِ عينَيهِ ، ورفعَ يديهِ حتَّىٰ تسقطا . . لمْ أغفرْ لهُ وهوَ يحبُّ الدُّنيا(٣) .

❊ ❊ ❊

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ جمعَ ستَّ خصالٍ . . لمْ يدعْ للجنةِ مطلباً ، ولا عنِ النارِ مهرباً : مَنْ عرفَ اللهَ فأطاعَهُ ، وعرفَ الشيطانَ فعصاهُ ، وعرفَ الحقَّ فاتبعَهُ ، وعرفَ الباطلَ فاتقاهُ ، وعرفَ الدُّنيا فرفضَها ، وعرفَ الآخرةَ فطلبَها)(٤) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٩٠) ، وروىٰ نعيم بن حماد في « الفتن » (١٢١) : عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه : (أبشروا بدنيا عريضة تأكل إيمانكم) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) بنحوه .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) .

وقالَ الحسنُ : (رحمَ اللهُ أقواماً كانَتِ الدُّنيا عندَهُم وديعةً ، فأدَّوها إلىٰ مَنِ ائتمنَهُمْ عليها ، ثمَّ راحوا خِفافاً)(١) .

وقالَ أيضاً رحمهُ اللهُ : (مَنْ نافسَكَ في دينِكَ . . فنافسْهُ ، ومَنْ نافسَكَ في دنياكَ . . فألقِها في نحرِهِ)(٢) .

وقالَ لقمانُ عليهِ السلامُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الدُّنيا بحرٌ عميقٌ ، قدْ غرِقَ فيهِ ناسٌ كثيرٌ ، فلتكُنْ سفينتُكَ فيها تقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحشوُها الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وشراعُها التوكُّلُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ لعلَّكَ تنجو ، وما أراكَ ناجياً)(٣) .

وقالَ الفضيلُ : (طالَتْ فكرتي في هٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّكَ لنْ تصبحَ في شيءٍ مِنَ الدُّنيا إلاَّ وقدْ كانَ لهُ أهلٌ قبلَكَ ، ويكونُ لهُ أهلٌ بعدَكَ ، وليسَ لكَ مِنَ الدُّنيا إلاَّ عشاءُ ليلةٍ وغداءُ يومٍ ، فلا تهلكْ في أكلةٍ ، وصمْ عنِ الدُّنيا ، وأفطرْ على الآخرةِ ، وإنَّ رأسَ مالِ الدُّنيا الهوىٰ ، وربحَها النارُ)(٤) .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) .
(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٩١) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥١) عنه : (إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا . . فنافسه في الآخرة) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣٧) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩١) .

وقيلَ لبعضِ الرهبانِ : كيفَ ترى الدَّهرَ ؟ قالَ : يخلقُ الأبدانَ ، ويجدِّدُ الآمالَ ، ويقرِّبُ المنيَّةَ ، ويبعدُ الأُمنيَّةَ ، قيلَ : فما حالُ أهلِهِ ؟ قالَ : مَنْ ظفرَ بهِ . . تعبَ ، ومَنْ فاتَهُ . . نصبَ(١) .

وفي ذلكَ قيلَ(٢) : [من الطويل]

وَمَنْ يَحْمَدِ ٱلدُّنْيا لِعَيْشٍ يَسُرُّهُ فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُها
إِذَا أَدْبَرَتْ كانَتْ عَلَى ٱلْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلَتْ كانَتْ كَثِيراً هُمُومُها

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (كانَتِ الدُّنيا ولمْ أكنْ فيها ، وتذهبُ الدُّنيا ولا أكونُ فيها ، فلا أسكنُ إليها ؛ فإنَّ عيشَها نكدٌ ، وصفوَها كدرٌ ، وأهلَها مِنْها علىٰ وجَلٍ ؛ إمَّا بنعمةٍ زائلةٍ ، أوْ بليَّةٍ نازلةٍ ، أو منيَّةٍ قاضيةٍ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (مِنْ عيبِ الدُّنيا أنَّها لا تُعطي أحداً ما يستحقُّ ، لكنَّها إمَّا أنْ تزيدَهُ ، وإمَّا أنْ تنقصَهُ)(٤) .

وقالَ سفيانُ : (أما ترى النِّعمَ كأنَّها مغضوبٌ عليها ، قدْ وُضِعتْ في غيرِ أهلِها ؟!)(٥) .

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٩٠) دون السؤال عن حال أهله ، ونضب : غار وذهب ، وفي بعض النسخ : (نصب) ولا يبعد .
(٢) البيتان لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٢٢٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٤) عن الحسن ضمن رسالة بعثها لعمر بن عبد العزيز .
(٤) أورده الآبي في « نثر الدر » (٧/ ٦٧) لبزرجمهر .
(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٣٧٥) ، وسفيان هو ابن عيينة .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ طلبَ الدُّنيا على المحبَّة لها . . لم يُعْطَ مِنْها شيئاً إلاَّ أرادَ أكثرَ ، ومَنْ طلبَ الآخرةَ على المحبَّةِ لها . . لمْ يُعْطَ مِنها شيئاً إلاَّ أرادَ أكثرَ ، وليسَ لهـٰذا غايةٌ ولا لهـٰذا غايةٌ)[1] .

وقالَ رجلٌ لأبي حازمٍ : أشكُو إليكَ حبَّ الدُّنيا وليسَتْ لي بدارٍ ، فقالَ : انظرْ ما آتاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْها ؛ فلا تأخذْهُ إلا مِنْ حِلِّهِ ، ولا تضعْهُ إلا في حقِّهِ ، ولا يضرُّكَ حبُّ الدُّنيا[2] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّهُ لوْ آخذَ نفسَهُ بذلكَ . . لأتعبَهُ ، حتَّىٰ يتبرَّمَ بالدُّنيا ، ويطلبَ الخروجَ مِنْها .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (الدُّنيا حانوتُ الشيطانِ ، فلا تسرِقْ مِنْ حانوتِهِ شيئاً فيجيءَ في طلبِهِ فيأخذَكَ)[3] .

وقالَ الفضيلُ : (لوْ كانَتِ الدُّنيا مِنْ ذهبٍ يفنىٰ والآخرةُ مِنْ خزفٍ يبقىٰ . . لكانَ ينبغي لنا أنْ نختارَ خزفاً يبقىٰ علىٰ ذهبٍ يفنىٰ ، فكيفَ وقدِ اخترنا خزفاً يفنىٰ علىٰ ذهبٍ يبقى ؟!)[4] .

وقالَ أبو حازمٍ : (إيَّاكُمْ والدُّنيا ؛ فإنَّهُ بلغَني أنَّهُ يُوقفُ العبدُ يومَ القيامةِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٩١) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٢١) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) .

إذا كانَ معظِّماً للدُّنيا ، فيُقالُ : هـٰذا عظَّمَ ما حقَّرَهُ اللهُ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (ما أصبحَ أحدٌ مِنَ النَّاسِ إلا وهوَ ضيفٌ ، ومالُهُ عاريةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ ، والعاريةُ مردودةٌ)[2] .

وفي ذلكَ قيلَ[3] : [من الطويل]

وَما ٱلْمالُ وَٱلأَهْلُونَ إِلاَّ وَدِيعَةٌ ... وَلا بُـدَّ يَـوْمـاً أَنْ تُـرَدَّ ٱلْـوَدائِـعُ

وزارَ رابعةَ أصحابُها ، فذكرُوا الدُّنيا ، فأقبلُوا علىٰ ذمِّها ، فقالَتِ : اسكتُوا عنْ ذكرِها ، فلولا موقعُها مِنْ قلوبِكُمْ . . ما أكثرتُمْ مِنْ ذكرِها ، ألا مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ[4] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : كيفَ أنتَ ؟ فقالَ[5] : [من الطويل]

نُـرَقِّـعُ دُنْيـانـا بِتَمْـزِيـقِ دِينِنـا ... فَـلا دِينُنـا يَبْقَـىٰ وَلا مـا نُـرَقِّـعُ

فَطُـوبَـىٰ لِعَبْـدٍ آثَـرَ ٱللهَ رَبَّـهُ ... وَجـادَ بِـدُنْيـاهُ لِمـا يَتَـوَقَّـعُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » ، وأبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٤) .

(٣) البيت للبيد في « ديوانه » (ص ١٧٠) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٦٤) .

(٥) البيت الأول ينسب إلىٰ عدي بن زيد وهو في « ديوانه » (ص ٢٠٠) ، وإلىٰ عبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٨٤) ، وانظر « بهجة المجالس » (٣/ ٢٨٩) .

وَقِيلَ[1] : [من الطويل]

أَرَىٰ طالِبَ ٱلدُّنْيا وَإِنْ طالَ عُمْرُهُ ... وَنالَ مِنَ ٱلدُّنْيا سُرُوراً وَأَنْعُما
كَبـانٍ بَنَـىٰ بُنْيـانَـهُ فَـأَقـامَـهُ ... فَلَمَّا ٱسْتَوَىٰ ما قَدْ بَناهُ تَهَدَّما

وقيلَ[2] : [من الوافر]

هَـبِ ٱلـدُّنْيـا تُسـاقُ إِلَيْـكَ عَفْـواً ... أَلَيْـسَ مَصِيـرُ ذاكَ إِلَـى ٱنْتِقـالِ
وَمـا دُنْيـاكَ إِلاَّ مِثْـلُ فَـيْءٍ ... أَظَلَّـكَ ثُـمَّ آذَنَ بِـٱلـزَّوالِ

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ بعْ دُنياكَ بآخرتِكَ تربحْهُما جميعاً ، ولا تبعْ آخرتَكَ بدنياكَ فتخسرَهُما جميعاً)[3] .

وقالَ مطرِّف بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ : (لا تنظرْ إلىٰ خفضِ عيشِ الملوكِ ولينِ رياشِهِمْ ، ولكنِ انظرْ إلىٰ سرعةِ ظعنِهِمْ وسوءِ منقلبِهِمْ)[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الدُّنيا ثلاثةَ أجزاءٍ ؛ جزءٌ للمؤمنِ ، وجزءٌ للمنافقِ ، وجزءٌ للكافرِ ؛ فالمؤمنُ يتزوَّدُ ، والمنافقُ يتزيَّنُ ، والكافرُ يتمتَّعُ)[5] .

---

(١) شرح نهج البلاغة (١٩/ ٢٩١) .
(٢) البيتان لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ٢٩٧)، و«شرح نهج البلاغة» (١٩/ ٢٩١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٣) من قول الحسن .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٩٤) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (الدُّنيا جيفةٌ ، فمَنْ أرادَ منْها شيئاً . . فليصبرْ علىٰ معاشرةِ الكلابِ)[1] .

وفي ذلكَ قيلَ[2] : [من السريع]

يا خاطِبَ ٱلدُّنْيا إِلَىٰ نَفْسِها تَنَحَّ عَنْ خِطْبَتِها تَسْلَمِ
إِنَّ ٱلَّتِي تَخْطُبُ غَدَّارَةٌ قَرِيبَةُ ٱلْعُرْسِ مِنَ ٱلْمَأْتَمِ

وقالَ أبو الدرداءِ : (مِنْ هوانِ الدُّنيا على اللهِ أنَّهُ لا يُعصىٰ إلاَّ فيها ، ولا يُنالُ ما عندَهُ إلاَّ بتركِها)[3] .

وفي ذلكَ قيلَ[4] : [من الطويل]

إذا ٱمْتَحَنَ ٱلدُّنْيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيابِ صَدِيقِ

وقيلَ أيضاً[5] : [من البسيط]

يا راقِدَ ٱللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ إِنَّ ٱلْحَوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحارا
أَفْنَى ٱلْقُرُونَ ٱلَّتِي كانَتْ مُنَعَّمَةً كَرُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ إِقْبالاً وَإِدْبارا
كَمْ قَدْ أَبادَتْ صُروفُ ٱلدَّهْرِ مِنْ مَلِكٍ قَدْ كانَ فِي ٱلدَّهْرِ نَفَّاعاً وَضَرّارا
يا مَنْ يُعانِقُ دُنْيا لا بَقاءَ لَها يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي دُنْياهُ سَفَّارا

---

(١) كذا في « الحلية » (٨/ ٢٣٨) عن علي كرم الله وجهه .
(٢) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٤٤) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٠٩) عن بعض الحكماء .
(٤) البيت لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٧١٤) .
(٥) الأبيات لمحمد بن حازم الباهلي في « ديوانه » (ص ٥٦) .

هَلاَّ تَرَكْتَ مِنَ ٱلدُّنْيا مُعانَقَةً ... حَتَّىٰ تُعانِقَ فِي ٱلْفِرْدَوسِ أَبْكارا
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جِنانَ ٱلْخُلْدِ تَسْكُنُها ... فَيَنْبَغِي لَكَ أَلاَّ تَأْمَنَ ٱلنَّارا

وقالَ أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : لمَّا بُعِثَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . أتَتْ إبليسَ جنودُهُ ، فقالُوا : قدْ بُعِثَ نبيٌّ وأُخرجَتْ أمَّةٌ ، قالَ : يحبُّونَ الدُّنيا ؟ قالُوا : نعمْ ، قالَ : لئنْ كانُوا يحبُّونَها . . ما أبالي ألاَّ يعبدُوا الأوثانَ ، وأنا أغدو عليهِمْ وأَروحُ بثلاثٍ : أخذُ المالِ مِنْ غيرِ حقِّه ، وإنفاقُهُ في غيرِ حقِّهِ ، وإمساكُهُ عنْ حقِّهِ ، والشرُّ كلُّهُ لهـٰذا تبعٌ(١) .

وقالَ رجلٌ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ صفْ لنا الدُّنيا ، قالَ : وما أصفُ لكَ مِنْ دارٍ مَنْ صحَّ فيها . . ما أمِنَ ، ومنْ سقمَ فيها . . ندِمَ ، ومَنِ افتقرَ فيها . . حزِنَ ، ومَنِ استغنىٰ فيها . . افتُتِنَ ، في حلالِها الحسابُ ، وفي حرامِها العقابُ ، ومتشابهِها العتابُ(٢) .

وقيلَ لهُ ذلكَ مرةً أخرىٰ ، فقالَ : أطوِّلُ أمْ أقصِّرُ ؟ فقيلَ قصِّرْ ، فقالَ : حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ(٣) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (اتقُوا السَّحَّارةَ ؛ فإنَّها تسحرُ قلوبَ العلماءِ)(٤) ؛ يعني : الدُّنيا .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨) ، وفيه : (من صح فيها . . أمن) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٩) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا كانَتِ الآخرةُ في القلبِ. . جاءَتِ الدُّنيا تزحمُها ، وإذا كانَتِ الدُّنيا في القلبِ. . لمْ تزحمْها الآخرةُ ؛ لأنَّ الآخرةَ كريمةٌ ، والدُّنيا لئيمةٌ)(١) ، وهٰذا تشديدٌ عظيمٌ ، ونرجو أنْ يكونَ ما ذكرَهُ سيارُ بنُ الحكَمِ أصحَّ ؛ إذْ قالَ : (الدُّنيا والآخرةُ يجتمعانِ في القلبِ ، فأيُّهما غلبَ. . كانَ الآخرُ تبعاً لهُ)(٢) .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (بقدْرِ ما تحزنُ للدُّنيا يخرجُ همُّ الآخرةِ مِنْ قلبِكَ ، وبقدْرِ ما تحزنُ للآخرةِ يخرجُ همُّ الدُّنيا مِنْ قلبِكَ)(٣) ، وهٰذا اقتباسٌ ممَّا قالَهُ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (الدُّنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، فبقدْرِ ما تُرضِي إحداهُما تسخطُ الأخرىٰ)(٤) .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لقدْ أدركتُ أقواماً كانَتِ الدُّنيا أهونَ عليهِمْ مِنَ الترابِ الذي يمشونَ عليهِ ، ما يبالونَ أشرَّقَتِ الدُّنيا أمْ غرَّبَتْ ، ذهبَتْ إلىٰ ذا أمْ ذهبَتْ إلىٰ ذا)(٥) .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : ما تقولُ في رجلٍ آتاهُ اللهُ مالاً ؛ فهوَ يتصدَّقُ منهُ ، ويصلُ منهُ ، ويحسنُ فيهِ ، ألَهُ أنْ يتعيَّشَ فيهِ ؟ يعني : التَّنعُّمَ ، فقالَ : لا ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٩) عن وهب بن منبه .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٢) .

لوْ كانَتْ لهُ الدُّنيا كُلُّها.. ما كانَ لهُ منْها إلاَّ الكفافُ ، ويقدِّمُ ذلكَ ليومِ فقرِهِ[1] .

وقالَ الفضيلُ : (لوْ أنَّ الدُّنيا بحذافيرِها عُرِضَتْ عليَّ حلالاً ، لا أُحاسبُ بها في الآخرةِ.. لكنتُ أتقذَّرُها ، كما يتقذَّرُ أحدُكُمُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أنْ تصيبَ ثوبَهُ)[2] .

وقيلَ : قدِمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ الشامَ ، فاستقبلَهُ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ علىٰ ناقةٍ مخطومةٍ بحبلٍ ، فسلَّم عليهِ وسألَهُ ، ثمَّ أتىٰ منزلَهُ ، فلمْ يرَ فيهِ إلاَّ سيفَهُ وترسَهُ ورحلَهُ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : لوِ اتخذتَ متاعاً ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ هـٰذا يبلِّغُنا المقيلَ[3] .

وقالَ سفيانُ : (خذْ مِنَ الدُّنيا لبدنِكَ ، ومِنَ الآخرةِ لقلبِكَ)[4] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ لقدْ عبدَتْ بنو إسرائيلَ الأصنامَ بعدَ عبادتِهِمُ الرحمـٰنَ بحبِّهِمُ الدُّنيا)[5] .

وقالَ وهبٌ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ : الدُّنيا غنيمةُ الأكياسِ ، وغفلةُ الجهَّالِ ، لمْ يعرفُوها حتَّىٰ خرجُوا منْها ، فسألُوا الرَّجعةَ فلمْ يُرجعوا)[6] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٨٩) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٨٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٢٠) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٩٨) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٦٥) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّكَ استدبرتَ الدُّنيا مِنْ يومَ نزلتَها واستقبلتَ الآخرةَ ؛ فأنْتَ إلىٰ دارٍ تقربُ مِنها أقربُ مِنْ دارٍ تباعدُ عنْها)(١) .

وقالَ سعدُ بنُ مسعودٍ : (إذا رأيتَ العبدَ تزدادُ دنياهُ وتنقصُ آخرتُهُ وهوَ بهِ راضٍ . . فذلكَ المغبونُ الذي يلعبُ بوجهِهِ وهوَ لا يشعرُ)(٢) .

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ على المنبرِ : (واللهِ ؛ ما رأيتُ قوماً قطُّ أرغبَ فيما كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزهدُ فيهِ منْكُمْ ، واللهِ ؛ ما مرَّ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثٌ إلاَّ والذي عليهِ أكثرُ مِنَ الذي لهُ)(٣) .

وقالَ الحسنُ بعدَ أنْ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ : مَنْ قالَ ذا ؟ مَنْ خلقَها ومَنْ هوَ أعلمُ بها ، إيَّاكُمْ وما شغلَ مِنَ الدُّنيا ؛ فإنَّ الدُّنيا كثيرةُ الأشغالِ ، لا يفتحُ رجلٌ علىٰ نفسِهِ بابَ شغلٍ إلاَّ أوشكَ ذلكَ البابُ أنْ يفتحَ عليهِ عشرةَ أبوابٍ(٤) .

وقالَ أيضاً : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ؛ رضيَ بدارٍ حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ ، إنْ أخذَهُ مِنْ حلِّهِ . . حُوسبَ بنعمتِهِ ، وإنْ أخذَهُ مِنْ حرامٍ . . عُذِّبَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٠٦) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١٠) .

بِهِ ، ابنُ آدمَ يستقلُّ مالَهُ ولا يستقلُّ عملَهُ ، يفرحُ بمصيبتِهِ في دينِهِ ، ويجزعُ مِنْ مصيبتِهِ في دنياهُ)(١) .

وكتبَ الحسنُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِما : سلامٌ عليكَ ، أمَّا بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتِبَ عليهِ الموتُ قدْ ماتَ ، فأجابَهُ عمرُ : سلامٌ عليكَ ، كأنَّكَ بالدُّنيا لمْ تكنْ ، وبالآخرةِ لمْ تزَلْ(٢) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (الدُّخولُ في الدُّنيا هيِّنٌ ، لكنَّ التخلُّصَ مِنْها شديدٌ)(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (عجباً لمَنْ يعرفُ أنَّ الموتَ حقٌّ كيفَ يفرحُ ؟! وعجباً لمَنْ يعلمُ أنَّ النارَ حقٌّ كيفَ يضحكُ ؟! وعجباً لمَنْ يرىٰ تقلُّبَ الدُّنيا بأهلِها كيفَ يطمئنُّ إليها ؟! وعجباً لمَنْ يعلمُ أنَّ القدَرَ حقٌّ كيفَ ينصبُ ؟!)(٤) .

وقدمَ علىٰ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ رجلٌ مِنْ نجرانَ عمرُهُ مئتا سنةٍ ، فسألَهُ عنِ الدُّنيا كيفَ وجدَها ؟ فقالَ : سُنيَّاتُ بلاءٍ ، وسُنيَّاتُ رخاءٍ ، يومٌ فيومٌ ، وليلةٌ فليلةٌ ، يُولدُ مولودٌ ، ويهلكُ هالكٌ ، فلولا المولودُ . . بادَ الخلقُ ، ولولا الهالكُ . . ضاقتِ الدُّنيا بمَنْ فيها ، فقالَ له : سلْ ما شئتَ ، قالَ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢١١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٩٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢٧) ضمن خبر عن مسعر بن كدام .

عمرٌ مضىٰ فتردُّهُ ، أوْ أجلٌ حضرَ فتدفعُهُ ؟ قالَ : لا أملكُ ذلكَ ، قالَ : لا حاجةَ لي إليكَ[1] .

وقالَ داوودُ الطائيُّ رحمهُ اللهُ : (يا بنَ آدمَ ؛ فرحتَ ببلوغِ أملِكَ ، وإنَّما بلغتَهُ بانقضاءِ أجلِكَ ، ثمَّ سوَّفتَ بعملِكَ ؛ كأنَّ منفعتَهُ لغيرِكَ)[2] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ سألَ اللهَ الدُّنيا .. فإنَّما يسألُهُ طولَ الوقوفِ بينَ يديهِ)[3] .

وقالَ أبو حازمٍ : (ما في الدُّنيا شيءٌ يسرُّكَ ، إلا وقدْ أُلْصِقَ بهِ شيءٌ يسوءُكَ)[4] .

وقالَ الحسنُ : (لا تخرجُ نفسُ ابنِ آدمَ مِنَ الدُّنيا إلا بحسراتٍ ثلاثٍ : أنَّهُ لمْ يشبعْ ممَّا جمعَ ، ولمْ يدرِكْ ما أمَّلَ ، ولمْ يحسنِ الزادَ لما قدمَ عليهِ)[5] .

وقيلَ لبعضِ العبَّادِ : قدْ نلتَ الغنىٰ ، قالَ : إنَّما نالَ الغنىٰ مَنْ عتقَ مِنْ رقِّ الدُّنيا[6] .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٤٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٦٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٥) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٦) .

وقالَ أبو سليمانَ : (لا يصبرُ عنْ شهواتِ الدُّنيا إلا مَنْ كانَ في قلبِهِ ما يشغلُهُ بالآخرةِ)[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (اصطلحنا علىٰ حبِّ الدُّنيا ، فلا يأمرُ بعضُنا بعضاً ، ولا ينهىٰ بعضُنا بعضاً ، ولا يدعُنا اللهُ علىٰ هـٰذا ، فليتَ شعري ؛ أيُّ عذابِ اللهِ ينزلُ بنا ؟!)[2] .

وقالَ أبو حازمٍ : (يسيرُ الدُّنيا يشغلُ عنْ كثيرِ الآخرةِ)[3] .

وقالَ الحسنُ : (أهينُوا الدُّنيا ، فواللهِ ؛ ما هيَ لأحدٍ بأهنأَ مِنْها لمَنْ أهانَها)[4] .

وقالَ أيضاً : (إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . أعطاهُ مِنَ الدُّنيا عطيةً ، ثمَّ يمسكُ ، فإذا نفِدَ . . أعادَ عليهِ ، وإذا هانَ عليهِ عبدٌ . . بسطَ لهُ الدُّنيا بسطاً)[5] .

وكانَ بعضُهُمْ يدعو : (يا ممسكَ السماءِ أنْ تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِكَ ؛ أمسكْ عنِّي الدُّنيا)[6] .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : (أرأيتَ لوْ أنَّ رجلاً صامَ الدَّهرَ لا يفطرُ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨٤) بلاغاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٩٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٤) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٥) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣١٧) .

وقامَ الليلَ لا يفترُ ، وتصدَّقَ بمالِهِ ، وجاهدَ في سبيلِ اللهِ ، واجتنبَ محارمَ اللهِ ، غيرَ أنَّهُ يُؤتىٰ بهِ يومَ القيامةِ فيُقالُ : ها إنَّ هـٰذا عظمَ في عينِهِ ما صغَّرَهُ اللهُ ، وصغرَ في عينِهِ ما عظَّمَهُ اللهُ . كيفَ ترىٰ يكونُ حالُهُ ؟ فمَنْ منَّا ليسَ هـٰكذا الدُّنيا عظيمةٌ عندَهُ معَ ما اقترفنا مِنَ الذنوبِ والخطايا ؟!)[1] .

وقالَ أبو حازم : (اشتدَّتْ مؤونةُ الدُّنيا والآخرةِ ، فأمَّا مؤونةُ الآخرةِ . . فإنَّكَ لا تجدُ عليها أعواناً ، وأمَّا مؤونةُ الدُّنيا . . فإنَّكَ لا تضربُ بيدِكَ إلىٰ شيءٍ مِنْها إلا وجدتَ فاجراً قدْ سبقَكَ إليهِ)[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : (الدُّنيا موقوفةٌ بينَ السماءِ والأرضِ كالشَّنِّ البالي ، تنادي ربَّها منذُ خلقَها إلىٰ يومِ يفنيها : يا ربِّ ، يا ربِّ ؛ لمَ تبغضُني ؟ فيقولُ لها : اسكتي يا لا شيءَ ، اسكتي يا لا شيءَ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : (حبُّ الدُّنيا في القلبِ والذنوبُ قدِ احتوشَتْهُ ، فمتىٰ يصلُ الخيرُ إليهِ ؟!)[4] .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (مَنْ فرحَ قلبُهُ بشيءٍ مِنَ الدُّنيا . . فقدْ أخطأَ الحكمةَ ، ومَنْ جعلَ شهوتَهُ تحتَ قدميهِ . . فَرِقَ الشيطانُ مِنْ ظلِّهِ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٦٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٣٧) .

ومَنْ غلبَ علمُهُ هواهُ . . فهوَ الغالبُ)(١) .

وقيلَ لبشرٍ : ماتَ فلانٌ ، فقالَ : جمعَ الدُّنيا وذهبَ إلى الآخرةِ ، ضيَّعَ نفسَهُ ، قيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ يفعلُ ويفعلُ ، وذكرُوا أبواباً مِنَ البرِّ ، فقالَ : وما ينفعُ هـٰذا وهوَ يجمعُ الدُّنيا ؟!(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : (الدُّنيا تُبغِّضُ إلينا نفسَها ، ونحنُ نحبُّها ! فكيفَ لوْ تحبَّبَتْ إلينا ؟!)(٣) .

وقيلَ لحكيمٍ : الدُّنيا لمَنْ هيَ ؟ قالَ : لمَنْ تركَها ، فقيلَ : الآخرةُ لمَنْ هيَ ؟ قالَ : لمَنْ طلبَها(٤) .

وقالَ حكيمٌ : (الدُّنيا دارُ خرابٍ ، وأخربُ مِنْها قلبُ مَنْ يعمرُها ، والجنةُ دارُ عمرانٍ ، وأعمرُ مِنْها قلبُ مَنْ يطلبُها)(٥) .

وقالَ الجنيدُ : كانَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ مِنَ المريدينَ الناطقينَ بلسانِ الحقِّ في الدُّنيا ، وعظَ أخاً لهُ في اللهِ ، وخوَّفَهُ باللهِ ، فقالَ : يا أخي ؛ إنَّ الدُّنيا دَحْضُ مزلَّةٍ ، ودارُ مذلَّةٍ ، عمرانُها إلى الخرابِ صائرٌ ، وساكنُها إلى القبورِ زائرٌ ، شملُها على الفرقةِ موقوفٌ ، وغناها إلى الفقرِ مصروفٌ ، الإكثارُ فيها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٥٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٧) .

إعسارٌ ، والإعسارُ فيها يسارٌ ، فافزعْ إلى اللهِ ، وارضَ برزقِ اللهِ ، ولا تتسلَّفْ مِنْ دارِ بقائِكَ في دارِ فنائِكَ ؛ فإنَّ عيشَكَ فيءٌ زائلٌ ، وجدارٌ مائلٌ ، أكثرْ مِنْ عملِكَ ، وقصِّرْ مِنْ أملِكَ .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ لرجلٍ : أدرهمٌ في المنامِ أحبُّ إليكَ أمْ دينارٌ في اليقظةِ ؟ فقالَ : دينارٌ في اليقظةِ ، فقالَ : كذبتَ ؛ لأنَّ الذي تحبُّهُ في الدُّنيا كأنَّكَ تحبُّهُ في المنامِ ، والذي لا تحبُّهُ في الآخرةِ كأنَّكَ لا تحبُّهُ في اليقظةِ .

وعنْ إسماعيلَ بنِ عياشٍ قالَ : (كانَ أصحابُنا يسمُّونَ الدُّنيا خنزيرةً ، فيقولونَ : إليكِ عنَّا يا خنزيرةُ ، فلوْ وجدُوا لَهَا اسماً أقبحَ مِنْ هـٰذا . . لسمَّوها بهِ)(١) .

وقالَ كعبٌ : (لتُحبَّبَنَّ إليكمُ الدُّنيا حتَّىٰ تعبدُوها وأهلَها)(٢) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ : (العقلاءُ ثلاثةٌ : مَنْ تركَ الدُّنيا قبلَ أنْ تتركَهُ ، وبنىٰ قبرَهُ قبلَ أنْ يدخلَهُ ، وأرضىٰ خالقَهُ قبلَ أنْ يلقاهُ)(٣) .

وقالَ أيضاً : (الدُّنيا بلغَ مِنْ شؤْمِها أنَّ تمنِّيَكَ لها يلهيكَ عَنْ طاعةِ اللهِ ، فكيفَ الوقوعُ فيها ؟!) .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ أرادَ أنْ يستغنيَ بالدُّنيا عنِ الدُّنيا . .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٧) عن إسماعيل بن عياش ، عن أبي راشد التنوخي ، عن يزيد بن ميسرة .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٤٠) .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٨٨) .

كانَ كمطفئِ النَّارِ بالتِّبنِ)[1] .

وقالَ بندارٌ : (إذا رأيتَ أبناءَ الدُّنيا يتكلَّمونَ في الزهدِ . . فاعلمْ أنَّهُمْ في سخرةِ الشيطانِ)[2] .

وقالَ أيضاً : (مَنْ أقبلَ على الدُّنيا . . أحرقَتْهُ نيرانُها ـ يعني : الحرصَ ـ حتَّىٰ يصيرَ رماداً ، ومَنْ أقبلَ على الآخرةِ . . صفَّتْهُ نيرانُها ، فصارَ سبيكةَ ذهبٍ يُنتفعُ بهِ ، ومَنْ أقبلَ على اللهِ عزَّ وجلَّ . . أحرقَتْهُ نيرانُ التوحيدِ ، فصارَ جوهراً لا حدَّ لقيمتِهِ) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّما الدُّنيا ستَّةُ أشياءَ : مطعومٌ ، ومشروبٌ ، وملبوسٌ ، ومركوبٌ ، ومنكوحٌ ، ومشمومٌ ، فأشرفُ المطعوماتِ العسلُ ، وهوَ مذقةُ ذبابٍ ، وأشرفُ المشروباتِ الماءُ ، يستوي فيهِ البرُّ والفاجرُ ، وأشرفُ الملبوساتِ الحريرُ ، وهوَ نسجُ دودةٍ ، وأشرفُ المركوباتِ الفرسُ ، وعليهِ يُقتلُ الرِّجالُ ، وأشرفُ المنكوحاتِ المرأةُ ، وهيَ مبالٌ في مبالٍ ، واللهِ ؛ إنَّ المرأَةَ لتزيِّنُ أحسنَ شيءٍ مِنْها ، ويُرادُ أقبحُ شيءٍ مِنْها ، وأشرفُ المشموماتِ المسكُ ، وهوَ دمُ حيوانٍ)[3] .

* * *

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٩٢) .
(٢) يعني : لا يتكلم في الزهد إلا من كان زاهداً ؛ حتىٰ يكون لكلامه التأثير . « إتحاف » (٩٨/٨) .
(٣) أورده الراغب في « الذريعة » (ص ٢١٨) .

بيان المواعظ في ذمّ الدّنيا وصفتها

قالَ بعضُهُمْ : (يا أيُّها الناسُ ؛ اعملُوا علىٰ مهلٍ ، وكونُوا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ وَجَلٍ ، ولا تغترُّوا بالأملِ ونسيانِ الأجلِ ، ولا تركنُوا إلى الدُّنيا ؛ فإنَّها غدَّارةٌ خدَّاعةٌ ، قدْ تزخرفَتْ لكُمْ بغرورِها ، وفتنَتْكُمْ بأمانيها ، وتزيَّنَتْ لخطَّابِها ، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها عاكفةٌ ، والنفوسُ لها عاشقةٌ ، فكمْ مِنْ عاشقٍ لها قتلَتْ ، ومطمئنٍّ إليها خذلَتْ .

فانظرُوا إليها بعينِ الحقيقةِ ؛ فإنَّها دارٌ كثُرَتْ بوائقُها ، وذمَّها خالقُها ، جديدُها يبلىٰ ، ومُلْكُها يفنىٰ ، وعزيزُها يذلُّ ، وكثيرُها يقلُّ ، وحيُّها يموتُ ، وخيرُها يفوتُ ، فاستيقظُوا رحمَكمُ اللهُ مِنْ غفلتِكُمْ ، وانتبهُوا مِنْ رقدتِكُمْ ، قبلَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عليلٌ ، أوْ مدنفٌ ثقيلٌ ، فهلْ على الدواءِ مِن دليلٍ ؟ وهلْ إلى الطبيبِ مِنْ سبيلٍ ؟ فيُدعىٰ لكَ الأطباءُ ، ولا يُرجىٰ لكَ الشفاءُ ، ثمُ يُقالُ : فلانٌ أوصىٰ ، ومالَهُ أحصىٰ ، ثمَّ يُقالُ : قدْ ثقُلَ لسانُهُ ، فما يكلِّمُ إخوانَهُ ، ولا يعرفُ جيرانَهُ ، وعرقَ عندَ ذلكَ جبينُكَ ، وتتابعَ أنينُكَ ، وثبتَ يقينُكَ ، وطمحَتْ جفونُكَ ، وصدقَتْ ظنونُكَ ، وتلجْلَجَ لسانُكَ ، وبكىٰ إخوانُكَ ، وقيلَ لكَ : هـٰذا ابنُكَ فلانٌ ، وهـٰذا أخوكَ فلانٌ ، ومُنعتَ الكلامَ فلا تنطقُ ، وخُتمَ علىٰ لسانِكَ فلا ينطلقُ ، ثمَّ حلَّ بكَ القضاءُ ، وانتُزعَتْ نفسُكَ مِنَ الأعضاءِ ، ثمَّ عُرِجَ بها إلى السماءِ ، فاجتمعَ

عندَ ذلكَ إخوانُكَ ، وأُحضرَتْ أكفانُكَ ، فغسَّلوكَ وكفَّنوكَ ، فانقطعَ عوَّادُكَ ، واستراحَ حسَّادُكَ ، وانصرفَ أهلكَ إلىٰ مالكَ ، وبقيتَ مرتهناً بأعمالِكَ) .

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ الملوكِ : (إنَّ أحقَّ الناسِ بذمِّ الدُّنيا وقِلاها مَنْ بُسطَ لهُ فيها ، وأُعطيَ حاجتَهُ مِنْها ؛ لأنَّهُ يتوقَّعُ آفةً تعدو علىٰ مالِهِ فتجتاحُهُ ، أوْ علىٰ جمعِهِ فتفرِّقُهُ ، أوْ تأتي سلطانَهُ فتهدمُهُ مِنَ القواعدِ ، أوْ تدبُّ إلىٰ جسمِهِ فتسقمُهُ ، أوْ تفجعُهُ بشيءٍ هوَ ضنينٌ بهِ مِنْ أحبابِهِ ، فالدُّنيا أحقُّ بالذَّمِّ ، هيَ الآخذةُ ما تعطي ، الراجعةُ فيما تهبُ ، بينا هيَ تضحِكُ صاحبَها إذْ أضحكَتْ منْهُ غيرَهُ ، وبينا هيَ تبكي لهُ إذْ أبكَتْ عليهِ ، وبينا هيَ تبسطُ كفَّها بالإعطاءِ إذْ بسطَتْها بالاستردادِ ، تعقدُ التاجَ علىٰ رأسِ صاحبِها اليومَ ، وتعفِّرُهُ في الترابِ غداً ، سواءٌ عليها ذهابُ ما ذهبَ وبقاءُ ما بقيَ ، تجدُ في الباقي مِنَ الذاهبِ خلفاً ، وترضىٰ بكلٍّ مِنْ كلٍّ بدلاً)(١) .

وكتبَ الحسنُ البصريُّ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدُّنيا دارُ ظعنٍ ليسَتْ بدارِ إقامةٍ ، وإنَّما أُنزلَ آدمُ عليهِ السلامُ مِنَ الجنةِ إليها عقوبةً ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنَّ الزادَ مِنْها تركُها ، والغنىٰ مِنْها فقرُها ، لها في كلِّ حينٍ قتيلٌ ، تذلُّ مَنْ أعزَّها ، وتفقِرُ مَنْ جمعَها ، هيَ كالسُّمِّ يأكلُهُ مَنْ لا يعرفُهُ وهوَ حتفُهُ ، فكنْ فيها كالمداوي جراحتَهُ ، يحتمي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧) .

قليلاً مخافةَ ما يكرهُ طويلاً ، ويصبرُ علىٰ شدَّةِ الدواءِ مخافةَ طولِ البلاءِ .

فاحذرْ هـٰذهِ الدارَ الغدَّارةَ ، الختَّالةَ الخدَّاعةَ ، التي قدْ زيَّنَتْ بخدعِها ، وفتنَتْ بغرورِها ، وتحلَّتْ بآمالِها ، وتشوَّقَتْ لخطَّابِها ، فأصبحَتْ كالعروسِ المجلوَّةِ ، العيونُ إليها ناظرةٌ ، والقلوبُ عليها والهةٌ ، والنفوسُ لها عاشقةٌ ، وهيَ لأزواجِها كلِّهِمْ قاتلةٌ ، فلا الباقي بالماضي معتبِرٌ ، ولا الآخرُ بالأوَّلِ مزدجرٌ ، ولا العارفُ باللهِ عزَّ وجلَّ حينَ أخبرَهُ عنها مدَّكرٌ ، فعاشقٌ لها قدْ ظفرَ مِنْها بحاجتِهِ ، فاغترَّ وطغىٰ ، ونسيَ المعادَ ، فشغلَ فيها لُبَّهُ ، حتَّىٰ زلَّتْ عنْها قدَمُهُ ، فعظُمَتْ ندامتُهُ ، وكثُرَتْ حسرتُهُ ، واجتمعَتْ عليهِ سكراتُ الموتِ بألمِهِ ، وحسراتُ الفوتِ بغصَّتِهِ ، وراغبٌ فيها لمْ يدركْ مِنْها ما طلبَ ، ولمْ يروِّحْ نفسَهُ مِنَ التَّعبِ ، فخرجَ بغيرِ زادٍ ، وقدِمَ علىٰ غيرِ مهادٍ ، فاحذرْها يا أميرَ المؤمنينَ .

وكنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَ الدُّنيا كلَّما اطمأنَّ مِنْها إلىٰ سرورٍ . أشخصَتْهُ إلىٰ مكروهٍ ، السارُّ فيها لأهلِها غارٌّ ، والنافعُ مِنْها غداً ضارٌّ ، وقدْ وُصِلَ الرَّخاءُ مِنْها بالبلاءِ ، وجُعِلَ البقاءُ فيها إلىٰ فناءٍ ، فسرورُها مشوبٌ بالأحزانِ ، لا يرجعُ مِنْها ما ولَّىٰ وأدبرَ ، ولا يُدرىٰ ما هوَ آتٍ فينتظرَ .

أمانيها كاذبةٌ ، وآمالُها باطلةٌ ، وصفوُها كدرٌ ، وعيشُها نكدٌ ، وابنُ آدمَ فيها علىٰ خطرٍ ، إنْ عقَلَ ونظَرَ . فهوَ مِنَ النَّعماءِ علىٰ خطرٍ ، ومِنَ البلاءِ علىٰ حذرٍ ، فلوْ كانَ الخالقُ لمْ يُخبِرْ عنها خبراً ، ولمْ يضربْ لها مثلاً . .

لكانَتِ الدُّنيا قدْ أيقظَتِ النائمَ ، ونبَّهَتِ الغافلَ ، فكيفَ وقدْ جاءَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عنها زاجرٌ ، وفيها واعظٌ ، فما لَها عندَ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ قدرٌ ، وما نظرَ إليها منذُ خلقَها .

ولقدْ عُرِضَتْ علىٰ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمفاتيحِها وخزائنِها لا ينقصُهُ ذلكَ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها ؛ إذْ كرِهَ أنْ يخالفَ على اللهِ أمرَهُ ، أوْ يحبَّ ما أبغضَ خالقُهُ ، أوْ يرفعَ ما وضعَ مليكُهُ ، فزواها عنِ الصالحينَ اختباراً ، وبسطَها لأعدائِهِ اغتراراً .

فيظنُّ المغرورُ بها المقتدرُ عليها أنَّهُ أُكرِمَ بها ، ونسيَ ما صنعَ اللهُ عزَّ وجلَّ بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ شدَّ الحجرَ علىٰ بطنِهِ ، ولقدْ جاءَتِ الرِّوايةُ عنهُ عنْ ربِّهِ تباركَ وتعالىٰ : أنَّهُ قالَ لموسىٰ عليهِ السَّلامُ : إذا رأيتَ الغِنىٰ مقبلاً . . فقلْ : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ ، وإذا رأيتَ الفقرَ مُقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإنْ شئتَ . . اقتديتَ بصاحبِ الروحِ والكلمةِ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ ؛ فإنَّهُ كانَ يقولُ : إدامي الجوعُ ، وشعاري الخوفُ ، ولباسي الصوفُ ، وصِلائي في الشتاءِ مشارقُ الشمسِ ، وسراجي القمرُ ، ودابَّتي رجلايَ ، وطعامي وفاكهتي ما أنبتَتِ الأرضُ ، أبيتُ وليسَ لي شيءٌ، وأصبحُ وليسَ لي شيءٌ ، وليسَ على الأرضِ أحدٌ أغنىٰ منِّي)[1] .

(١) كذا رواه بطوله ومرفوعه ابنُ أبي الدنيا في « الزهد » (٥٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣١٣) عن الحسن ، فالمرفوع فيه مرسل ، وخبر إعراضه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقد عرضت عليه رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة مرفوعاً : « عرض علي =

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (لمَّا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ موسىٰ وهارونَ عليهِما السلامُ إلىٰ فرعونَ . . قالَ : لا يَرُوعنَّكُما لباسُهُ الذي لبسَ مِنَ الدُّنيا ؛ فإنَّ ناصيتَهُ بيدي ، ليسَ ينطِقُ ولا يطرِفُ ولا يتنفَّسُ إلا بإذني ، ولا يعجبنَّكُما ما تمتَّعَ بهِ مِنْها ؛ فإنَّما هيَ زهرةُ الحياةِ الدُّنيا وزينةُ المترفينَ ، فلوْ شئتُ أنْ أزيِّنَكُما بزينةٍ مِنَ الدُّنيا ، يعرفُ فرعونُ حينَ يراها أن مقدرتَهُ تعجزُ عمَّا أُوتيتُما . . لفعلتُ ، ولكنِّي أرغبُ بكُما عنْ ذلكَ ، فأزوي ذلكَ عنْكُما ، وكذلِكَ أفعلُ بأوليائي ، إنِّي لأذودُهُمْ عنْ نعيمِها ، كما يذودُ الرَّاعي الشفيقُ غنمَهُ عنْ مراتعِ الهَلَكَةِ ، وإنِّي لأجنِّبُهُمْ سلوتَها كما يجنِّبُ الراعي الشفيقُ إبلَهُ عنْ مباركِ العُرَّةِ[1] ، وما ذاكَ لهوانِهِمْ عليَّ ، ولكنْ ليستكملُوا نصيبَهُمْ مِنْ كرامتِي سالماً موفراً ، إنَّما يتزيَّنُ لي أوليائي بالذُّلِّ والخشوعِ ، والخوفِ والخضوعِ ، والتقوىٰ تثبتُ في قلوبِهِمْ ، فتظهرُ علىٰ أجسادِهِمْ ؛ فهيَ ثيابُهُمُ التي يلبسونَ ، ودثارُهُمُ الذي يظهرونَ ، وضميرُهُمُ الذي يستشعرونَ ، ونجاتُهُمُ التي بها يفوزونَ ، ورجاؤُهُمُ الذي إيَّاهُ يأملونَ ، ومجدُهُمُ الذي بهِ يفخرونَ ، وسيماهُمُ التي بها يُعرفُونَ ، فإذا لقيتَهُمْ . . فاخفضْ لهُمْ جناحَكَ ، وذلِّلْ لهُمْ قلبَكَ ولسانَكَ ، واعلمْ أنَّهُ مَنْ أخافَ لي

= ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً » ، وخبر موسىٰ عليه السلام رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(١) العُرَّة : الجرب .

وليّاً . فقدْ بارزَني بالمحاربةِ ، ثمَّ أنا الثائرُ لهُ يومَ القيامةِ)[١] .

وخطبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ يوماً فقالَ : (اعلمُوا أنَّكُمْ ميِّتُونَ ، ومبعوثونَ مِنْ بعدِ الموتِ ، وموقوفونَ علىٰ أعمالِكُمْ ، ومجزيُّونَ بها ، فلا تغرنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا ؛ فإنَّها بالبلاءِ محفوفةٌ ، وبالفناءِ معروفةٌ ، وبالغدْرِ موصوفةٌ ، وكلُّ ما فيها إلىٰ زوالٍ ، وهيَ بينَ أهلِها دولٌ وسجالٌ ، لا تدومُ أحوالُها ، ولا يسلمُ مِنْ شرِّها نُزَّالُها ، بينا أهلُها مِنْها في رخاءٍ وسرورٍ ؛ إذا هُمْ مِنْها في بلاءٍ وغرورٍ ، أحوالٌ مختلفةٌ ، وتاراتٌ متصرِّفةٌ ، العيشُ فيها مذمومٌ ، والرخاءُ فيها لا يدومُ ، وإنَّما أهلُها فيها أغراضٌ مستهدفةٌ ، ترميهِمْ بسهامِها ، وتقصمُهُمْ بحِمامِها ، وكلٌّ حتفُهُ فيها مقدورٌ ، وحظُّهُ فيها موفورٌ .

واعلمُوا عبادَ اللهِ أنَّكُمْ وما أنتمْ فيهِ مِنْ هـٰذهِ الدُّنيا علىٰ سبيلِ مَنْ قَدْ مضىٰ ممَّنْ كانَ أطولَ منكُمْ أعماراً ، وأشدَّ منكُمْ بطشاً ، وأعمرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، فأصبحَتْ أصواتُهُمْ هامدةً خامدةً مِنْ بعدِ طولِ تقلُّبِها ، وأجسادُهُمْ باليةً ، وديارُهُمْ علىٰ عروشِها خاليةً ، وآثارُهُمْ عافيةً .

واستبدلُوا بالقصورِ المشيدةِ والسررِ والنمارقِ الممهَّدةِ الصخورَ والأحجارَ المسندةَ في القبورِ اللاطئةِ الملحدةِ ، فمحلُّها مقتربٌ ، وساكنُها مغتربٌ بينَ أهلِ عمارةٍ موحشينَ ، وأهلِ محلَّةٍ متشاغلينَ ، لا يستأنسونَ بالعمرانِ ، ولا يتواصلونَ تواصلَ الجيرانِ والإخوانِ ، علىٰ ما بينَهُمْ مِنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١١) .

قربِ المكانِ والجوارِ ودنوِّ الدارِ ، وكيفَ يكونُ بينَهُمْ تواصلٌ ، وقدْ طحنَهُمْ بكَلْكَلِهِ البلىٰ ، وأكلَتْهُمُ الجنادلُ والثرىٰ ، فأصبحُوا بعدَ الحياةِ أمواتاً ، وبعدَ غضارةِ العيشِ رُفاتاً .

فُجعَ بهِمُ الأحبابُ ، وسكنُوا تحتَ الترابِ ، وظعنُوا فليسَ لهُمْ إيابٌ ، هيهاتَ هيهاتَ ، ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، فكأنْ قدْ صرتُمْ إلىٰ ما صارُوا إليهِ مِنَ البلىٰ ، والوحدةِ في دارِ المثوىٰ ، وارتهنتُمْ في ذلكَ المضجعِ ، وضمَّكُمْ ذلكَ المستودعُ .

فكيفَ بكُمْ لوْ عاينتُمُ الأمورَ ، وبُعثِرَتِ القبورُ ، وحُصِّلَ ما في الصدورِ ، وأُوقِفتُمْ للتحصيلِ بينَ يدي الملكِ الجليلِ ، فطارَتِ القلوبُ لإشفاقِها مِنْ سالفِ الذنوبِ ، وهُتِكَتْ عنكُمُ الحجُبُ والأستارُ ، وظهرَتْ منكُمُ العيوبُ والأسرارُ ، هنالكَ تُجزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبَتْ ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . ﴾ الآيةَ ، جعلَنا اللهُ وإيَّاكُمْ عاملينَ بكتابِهِ ، ومتبعينَ لأوليائِهِ ؛ حتَّىٰ يُحِلَّنا وإيَّاكُمْ دارَ المُقامةِ مِنْ فضلِهِ ، إنَّهُ حميدٌ مجيدٌ)(١) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (الأيامُ سهامٌ ، والناسُ أغراضٌ ، والدهرُ يرميكَ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢١٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٦٤) .

كلَّ يوم بسهامِهِ ، ويخترمُكَ بلياليهِ وأيامِهِ ، حتَّىٰ يستغرقَ جميعَ أجزائِكَ ، فكمْ بقاءُ سلامتِكَ معَ وقوعِ الأيامِ بكَ ، وسرعةِ الليالي في بدنِكَ ؟ لوْ كُشفَ لكَ عمَّا أحدثَتِ الأيامُ فيكَ مِنَ النقصِ . . لاستوحشْتَ مِنْ كلِّ يومٍ يأتي عليكَ ، واستثقَلتَ ممرَّ الساعاتِ بكَ ، ولكنْ تدبيرُ اللهِ سبحانَهُ فوقَ تدبيرِ الاعتبارِ ، وبالسلوِّ عنْ غوائلِ الدُّنيا وُجِدَ طعمُ لذاتِها ، وإنَّها لأَمَرُّ مِنَ العلقمِ إذا عجمَها الحكيمُ[1] ، وقدْ أعيتِ الواصفَ لعيوبِها بظاهرِ أفعالِها ، وما تأتي بهِ مِنَ العجائبِ أكثرُ ممَّا يحيطُ بهِ الواعظُ ، فنستوهبُ اللهَ رشداً إلى الصوابِ)[2] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ وقدِ استُوصفَ الدُّنيا وقدْرَ بقائِها : (الدُّنيا وقتُكَ الذي يرجعُ إليكَ فيهِ طرفُكَ ؛ لأنَّ ما مضىٰ عنكَ . . فقدْ فاتَكَ إدراكُهُ ، وما لمْ يأتِ . . فلا علمَ لكَ بهِ ، والدَّهرُ يومٌ مقبلٌ تنعاهُ ليلتُهُ ، وتطويهِ ساعتُهُ ، وأحداثُهُ تتوالىٰ على الإنسانِ بالتغييرِ والنقصانِ ، والدهرُ موكَّلٌ بتشتيتِ الجماعاتِ ، وانخرامِ الشَّملِ ، وتنقُّلِ الدُّولِ ، والأملُ طويلٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، وإلى اللهِ تصيرُ الأمورُ)[3] .

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ فقالَ : (أيُّها الناسُ ؛ إنَّكُمْ

---

(١) عجمها ؛ يقال : عجمَ الشيء يعجمه عجماً ؛ عضَّه ليعلم صلابته من خوره ، وكذا العين تعجم إذا نظرت فاحصة مختبرة .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ١٥٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٩٧) .

خُلِقتُمْ لأمرٍ إنْ كنتُمْ تصدِّقُونَ بهِ . . إنَّكُمْ حمقىٰ ، وإنْ كنتُمْ تكذِّبونَ بهِ . . إنَّكُمْ لهلكىٰ ، إنَّما خُلِقتُمْ للأبدِ ، ولكنَّكُمْ مِنْ دارٍ إلىٰ دارٍ تُنقلونَ ، عبادَ اللهِ ؛ إنَّكُمْ في دارٍ لكُمْ فيها مِنْ طعامِكُمْ غصصٌ ، ومِنْ شرابِكُمْ شَرَقٌ ، لا تصفُو لكُمْ نعمةٌ تُسرُّونَ بها إلاَّ بفراقِ أخرىٰ تكرهونَ فراقَها ، فاعملُوا لما أنتُمْ صائرونَ إليهِ ، وخالدونَ فيهِ) ، ثمَّ غلبَهُ البكاءُ فنزلَ[1] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ في خطبتِهِ : (أوصيكُمْ بتقوى اللهِ ، والتركِ للدُّنيا التاركةِ لكُمْ وإنْ كنتُمْ لا تحبونَ تركَها ، المبليةِ أجسامَكُمْ وإنْ كنتُمْ تريدونَ تجديدَها ، فإنَّما مثلُكُمْ ومثلُها كمَثَلِ سَفْرٍ سلكُوا طريقاً وكأنَّهُمْ قدْ قطعُوهُ ، وأفضَوا إلىٰ عَلَمٍ فكأنَّهُمْ بلغُوهُ ، وكمْ عسىٰ أنْ يجريَ المجرىٰ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الغايةِ ؟ وكمْ عسىٰ أنْ يبقىٰ مَنْ لَهُ يومٌ في الدُّنيا وطالبٌ حثيثٌ يطلبُهُ حتَّىٰ يفارقَها ؟ فلا تجزعُوا لبؤسِها وضرَّائِها ؛ فإنَّهُ إلى انقطاعٍ ، ولا تفرحُوا بنعيمِها ؛ فإنَّهُ إلىٰ زوالٍ ، عجبتُ لطالبِ الدُّنيا والموتُ يطلبُهُ ، وغافلٍ وليسَ بمغفولٍ عنْهُ)[2] .

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ[3] : (لمَّا علمَ أهلُ العقلِ والعلمِ والمعرفةِ والأدبِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أهانَ الدُّنيا ، وأنَّهُ لمْ يرضَها لأوليائِهِ ، وأنَّها عندَهُ حقيرةٌ قليلةٌ ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ زهدَ فيها ، وحذَّرَ أصحابَهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤١٤) .
(٣) في (ب) : (الحسن) بدل (الحسين) .

مِنْ فتنتِها. . أكلُوا منها قصداً ، وقدَّمُوا فضلاً ، وأخذُوا مِنْها ما يكفي ، وتركُوا ما يُلهِي ، لبسوا مِنَ الثيابِ ما سترَ العورةَ ، وأكلُوا مِنَ الطعامِ أدناهُ ممَّا سدَّ الجوعةَ ، نظرُوا إلى الدُّنيا بعينِ أنَّها فانيةٌ ، وإلى الآخرةِ أنَّها باقيةٌ ، فتزوَّدُوا مِنَ الدُّنيا كزادِ الراكبِ ، فخرَّبُوا الدُّنيا ، وعمرُوا بها الآخرةَ ، ونظرُوا إلى الآخرةِ بقلوبِهِمْ ، فعلمُوا أنَّهُمْ سينظرونَ إليها بأعينِهِمْ ، فارتحلُوا إليها بقلوبِهِمْ لمَّا علمُوا أنَّهُمْ سيرتحلُونَ إليها بأبدانِهِمْ ، صبروا قليلاً وتنعَّموا طويلاً ، كلُّ ذلكَ بتوفيقِ مولاهُمُ الكريمِ ، أحبُّوا ما أحبَّ لهُمْ ، وكرهُوا ما كرهَ لهُمْ) .

❋ ❋ ❋

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا سريعةُ الفناءِ ، قريبةُ الانقضاءِ ، تعِدُ بالبقاءِ ، ثمَّ تُخلِفُ بالوفاءِ ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرَّةً ، وهيَ سائرةٌ سيراً عنيفاً ، ومرتحلةٌ ارتحالاً سريعاً ، ولكنَّ الناظرَ إليها قدْ لا يحسُّ بحركتِها ، فيطمئنُّ إليها ، وإنَّما يحسُّ عندَ انقضائِها .

❁ ❁ ❁

ومثالُها : الظِّلُّ ، فإنَّهُ متحركٌ ساكنٌ ، متحركٌ في الحقيقةِ ، ساكنٌ في الظاهرِ ، لا تُدركُ حركتُهُ بالبصرِ الظاهرِ ، بلْ بالبصيرةِ الباطنةِ .

ولمَّا ذكرتِ الدُّنيا عندَ الحسنِ البصريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ . . أنشدَ(١) : [من الكامل]

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائِلٍ   إِنَّ ٱللَّبِيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ

وكانَ الحسنُ بنُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُما يتمثلُ ويقولُ(٢) : [من البسيط]

يا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيا لا بَقاءَ لَها   إِنَّ ٱغْتِراراً بِظِلٍّ زائِلٍ حُمْقُ

وقيلَ : إنَّ هاذا مِنْ قولِهِ .

---

(١) البيت منسوب إلىٰ عمران بن حطان ، انظر « شعر الخوارج » (ص ١٥٥) ، وإلى ابن أبي حصينة في « ديوانه » (١/ ٣٧٦) .

(٢) انظر « ربيع الأبرار » (١/ ٧٠) ، و« المدهش » (١/ ٣٩٥) .

ويُقالُ : نزلَ أعرابيٌّ بقومٍ ، فقدَّموا إليهِ طعاماً ، فأكلَ ، ثمَّ قامَ إلىٰ ظلِّ خيمةٍ لهُمْ ، فنامَ هناكَ ، فاقتلعُوا الخيمةَ ، فأصابَتْهُ الشمسُ ، فانتبَهَ وقامَ وهوَ يقولُ : [من الطويل]

أَلا إِنَّمـا ٱلـدُّنيا كَظِـلٍّ بَنَيْتَـهُ ... وَلا بُـدَّ يَـوْمـاً أَنَّ ظِلَّـكَ زائِـلُ(١)

وكذلكَ قيلَ(٢) : [من الطويل]

وَإِنَّ ٱمْـرَأً دُنْيـاهُ أَكْبَـرُ هَمِّـهِ ... لَمُسْتَمْسِـكٌ مِنْهـا بِحَبْلِ غُـرُورِ

مثالٌ آخرُ :

الدُّنيا مِنْ حيثُ التغريرُ بخيالاتِها ، ثمَّ الإفلاسُ مِنْها بعدَ إفلاتِها . . تشبهُ خيالاتِ المنامِ ، وأضغاثَ الأحلامِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدُّنيا حلمٌ ، وأهلُها عليها مجازونَ ومعاقبونَ »(٣) .

وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ : (ما شبَّهتُ نفسي في الدُّنيا إلاَّ كرجلٍ نامَ ، فرأىٰ في منامِهِ ما يكرَهُ وما يحبُّ ، فبينَما هوَ كذلكَ إذِ انتبهَ)(٤) ، فكذلكَ الناسُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٥) .
(٢) انظر « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٦٩) ، و« ربيع الأبرار » (١/ ٤٦) .
(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ١٠٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٢) .

نيامٌ ، فإذا ماتُوا . انتبهُوا[١] ، فإذا ليسَ بأيديهِمْ شيءٌ ممَّا ركنُوا إليهِ وفرحُوا بهِ .

وقيلَ لحكيمٍ : أيُّ شيءٍ أشبهُ بالدُّنيا ؟ قالَ : أحلامُ النائمِ[٢] .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في عداوتِها لأهلِها ، وإهلاكِها بنِيها :

اعلمْ : أنَّ طبعَ الدُّنيا التلطُّفُ في الاستدراجِ أوَّلاً ، والتوصُّلُ إلى الإهلاكِ آخراً ، وهيَ كامرأةٍ تتزيَّنُ للخطَّابِ ، حتَّىٰ إذا نكحَتْهُمْ . . ذبحَتْهُمْ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ كُوشفَ بالدُّنيا ، فرآها في صورةِ عجوزٍ هتماءَ ، عليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقالَ لها : كمْ تزوجتِ ؟ قالَتْ : لا أحصيهِمْ ، قالَ : فكلُّهُمْ ماتَ عنكِ أوْ كلُّهُمْ طلقَكِ ؟ قالَتْ : بلْ كلَّهُمْ قتلتُ ، فقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : بؤساً لأزواجِكِ الباقينَ كيفَ لا يعتبرونَ بأزواجِكِ الماضينَ ؟! كيفَ تهلكينَهُمْ واحداً بعدَ واحدٍ ولا يكونونَ منكِ علىٰ حذرٍ ؟![٣] .

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم أنه من قول سفيان الثوري .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧) .

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في مخالفةِ باطنِها لظاهرِها :

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا مزيَّنةُ الظَّواهرِ ، قبيحةُ السرائرِ ، وهيَ تشبهُ عجوزاً متزيِّنةً تخدعُ الناسَ بظاهرِها ، فإذا وقفوا علىٰ باطنِها ، وكشفوا القناعَ عنْ وجهِها . . تمثلَتْ لهُمْ قبائحُها ، فندموا على اتباعِها ، وخجلوا مِنْ ضعفِ عقولِهِمْ في الاغترارِ بظاهرِها .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (رأيتُ في المنامِ عجوزاً كبيرةً مُتغضِّنةَ الجلدِ ، عليها مِنْ كلِّ زينةِ الدُّنيا ، والناسُ عُكُوفٌ عليها متعجِّبونَ ينظرونَ إليها ، فجئتُ ونظرتُ وتعجَّبتُ مِنْ نظرِهِمْ إليها ، وإقبالِهِمْ عليها ، فقلتُ لها : ويلَكِ ! مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أوَما تعرفُني ؟! قلتُ : لا ، ما أدري مَنْ أنتِ ، قالَتْ : فإنِّي أنَا الدُّنيا ، قلتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، قالَتْ : فإنْ أحببتَ أنْ تُعاذَ مِنْ شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ)(١) .

وقالَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ : (رأيتُ الدُّنيا في النومِ عجوزاً مشوَّهةً شمطاءَ ، تصفِّقُ بيديها ، وخلفَها خلقٌ يتبعونَها يصفِّقونَ ويرقصُونَ ، فلمَّا كانَتْ بحذائِي . . أقبلَتْ عليَّ ، فقالَتْ : لوْ ظفرتُ بكَ . . لصنعتُ بكَ ما صنعتُ بهؤلاءِ) ، ثمَّ بكىٰ أبو بكرٍ ، وقالَ : (رأيتُ هـٰذا قبلَ أنْ أقدمَ إلىٰ بغدادَ)(٢) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٠) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يُؤتىٰ بالدُّنيا يومَ القيامةِ في صورةِ عجوزٍ شمطاءَ زرقاءَ ، أنيابُها باديةٌ ، مشوَّهٌ خَلْقُها ، فتشرفُ على الخلائقِ ، فيُقالُ : أتعرفونَ هـٰذهِ ؟ فيقولونَ : نعوذُ باللهِ مِنْ معرفةِ هـٰذهِ ، فيُقالُ : هـٰذهِ الدُّنيا التي تناحرتُمْ عليها ، بها تقاطعتُمُ الأرحامَ ، وبها تحاسدتُمْ وتباغضتُمْ واغتررتُمْ ، ثمَّ تُقذفُ في جهنَّمَ ، فتنادي : أيْ ربِّ ؛ أينَ أتباعي وأشياعي ؟ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ألحقُوا بها أتباعَها وأشياعَها)[1] .

وقالَ الفضيلُ : (بلغَني أنَّ رجلاً عُرِجَ بروحِهِ ؛ فإذا امرأةٌ علىٰ قارعةِ الطريقِ ، عليها مِنْ كلِّ زينةٍ مِنَ الحليِّ والثيابِ ، وإذا لا يمرُّ بها أحدٌ إلاَّ جرحَتْهُ ، وإذا هيَ أدبرَتْ . . كانَتْ أحسنَ شيءٍ رآهُ الناسُ ، وإذا أقبلَتْ . . كانَتْ أقبحَ شيءٍ رآهُ الناسُ ، عجوزٌ شمطاءُ ، زرقاءُ عمشاءُ ، قالَ : فقلتُ : أعوذُ باللهِ منكِ ، قالَتْ : لا واللهِ ؛ لا يعيذُكَ اللهُ منِّي حتَّىٰ تبغضَ الدرهمَ ، قلتُ : مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أنا الدُّنيا)[2] .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ للدُّنيا وعبورِ الإنسانِ بها :

اعلمْ : أنَّ الأحوالَ ثلاثةٌ : حالةٌ لمْ تكنْ فيها شيئاً ، وهيَ ما قبلَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٢٤) .

وجودِكَ إلى الأزلِ ، وحالةٌ لا تكونُ فيها مشاهداً للدُّنيا ، وهيَ ما بعدَ موتِكَ إلى الأبدِ ، وحالةٌ متوسطةٌ بينَ الأبدِ والأزلِ ، وهيَ أيامُ حياتِكَ في الدُّنيا ، فانظرْ إلىٰ مقدارِ طولِها وانسبْهُ إلىٰ طرفَيِ الأزلِ والأبدِ ؛ حتَّىٰ تعلمَ أنَّهُ أقلُّ مِنْ منزلٍ قصيرٍ في سفرٍ طويلٍ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما لي وللدُّنيا ، إنَّما مَثلي ومَثلُ الدُّنيا كمثَلِ راكبٍ سارَ في يومٍ صائفٍ ، فرُفعَتْ لهُ شجرةٌ ، فقالَ تحتَ ظلِّها ساعةً ، ثمَّ راحَ وتركَها »(١) .

ومَنْ رأى الدُّنيا بهٰذهِ العينِ . . لمْ يركُنْ إليها ، ولمْ يبالِ كيفَ انقضَتْ أيامُهُ ؛ في ضرٍّ وضيقٍ ، أوْ في سعةٍ ورفاهيةٍ ، بلْ لا يبني لبنةً علىٰ لبنةٍ ، تُوفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما وضعَ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ(٢) .

ورأىٰ بعضَ الصحابةِ يبني بيتاً مِنَ خُصٍّ ، فقالَ : « ما أرى الأمرَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧) ، وابن ماجه (٤١٠٩) .

(٢) فقد روى الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من سأل عني أو سرَّه أن ينظر إلي . . فلينظر إلىٰ أشعث شاحب مشمِّر ، لم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة ، رفع إليه عَلَم فشمَّر إليه ، اليوم المضمار وغداً السباق ، والغاية الجنة والنار » .
وروى ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣٩) عن عمر بن عبد العزيز وكان لا يبني بنياناً : (سنة رسول الله خير من الدنيا وما فيها ، لم يبن بنياناً ، ولم يضع لبنة علىٰ لبنة ، ولا قصبة علىٰ قصبة) .

إلا أعجلَ مِنْ ذلكَ » ، وأنكرَ ذلكَ[1] .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ عيسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : (الدُّنيا قنطرةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها)[2] .

وهوَ مثالٌ واضحٌ ؛ فإنَّ الحياةَ الدُّنيا معبرٌ إلى الآخرةِ ، والمهدُ هوَ الميلُ الأولُ علىٰ رأسِ القنطرةِ ، واللَّحدُ هوَ الميلُ الثاني ، وبينَهُما مسافةٌ محدودةٌ ، فمِنَ الناسِ مَنْ قطعَ نصفَ القنطرةِ ، ومنهُمْ مَنْ قطعَ ثلثَها ، ومنهُمْ مَنْ قطعَ ثلثيها ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يبقَ لهُ إلا خطوةٌ واحدةٌ وهوَ غافلٌ عنها ، وكيفمَا كانَ . . فلا بدَّ لهُ مِنَ العبورِ ، فالبناءُ على القنطرةِ وتزيينُها بأصنافِ الزينةِ وأنتَ عابرٌ عليها . . غايةُ الجهلِ والخذلانِ .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في لينِ موردِها وخشونةِ مصدرِها :

اعلمْ : أنَّ أوائلَ أمورِ الدنيا تبدو هيِّنةً ليِّنةً ، يظنُّ الخائضُ فيها أنَّ حلاوةَ خفضِها كحلاوةِ الخوضِ فيها ، وهيهاتَ ! فإنَّ الخوضَ في الدُّنيا سهلٌ ، والخروجَ مِنْها معَ السلامةِ شديدٌ .

وقدْ كتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ بمثالِها ،

---

(١) رواه أبو داوود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وكان قد مرَّ صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن عمرو وهو يطيِّن مع أمه حائطاً له .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٣) .

فقالَ : (مثلُ الدُّنيا مثلُ الحيَّةِ ليِّنٌ مسُّها ، ويقتلُ سمُّها ، فأعرضْ عمَّا يعجبُكَ مِنْها لقلةِ ما يصحبُكَ مِنْها ، وضعْ عنكَ همومَها لما أيقنتَ مِنْ فراقِها ، وكنْ أسرَّ ما تكونُ فيها أحذرَ ما تكونُ لها ؛ فإنَّ صاحبَها كلَّما اطمأنَّ مِنْها إلىٰ سرورٍ . . أشخصَهُ عنهُ مكروهٌ ، والسلامُ)[1] .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ للدُّنيا في تعذُّرِ الخلاصِ مِنْ تبعاتِها بعدَ الخوضِ فيها :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما مَثَلُ صاحبِ الدُّنيا كمثَلِ الماشي في الماءِ ، هلْ يستطيعُ الذي يمشي في الماءِ ألاَّ تبتلَّ قدماهُ ؟! »[2] .

وهٰذا يعرِّفُكَ جهالةَ قومٍ ظنُّوا أنَّهُمْ يخوضُونَ في نعيمِ الدُّنيا بأبدانِهِمْ وقلوبُهُمْ عنها مطهَّرةٌ ، وعلائقُها عَنْ بواطنِهِمْ منقطعةٌ ، وذلكَ مكيدَةٌ مِنَ الشيطانِ ، بلْ لوْ أُخرِجُوا ممَّا همْ فيهِ . . لكانوا أعظمَ المتفجِّعينَ بفراقِها ، فكما أنَّ المشيَ على الماءِ يقتضي بللاً لا محالةَ يلتصقُ بالقدمِ ، فكذلكَ ملابسةُ الدُّنيا تقتضي علاقةً وظلمةً في القلبِ ، بلْ علاقةُ القلبِ معَ الدُّنيا تمنعُ حلاوةَ العبادةِ .

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بحقٍّ أقولُ لكُمْ : كما ينظرُ المريضُ إلى

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٧٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٩) عن الحسن بلاغاً ، ووصله في « الشعب » (٩١٤١) ، وفي « الزهد الكبير » (٢٥٧) عن الحسن عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

الطعامِ فلا يلتذُّ بهِ مِنْ شدَّةِ الوجعِ ؛ كذلكَ صاحبُ الدُّنيا لا يلتذُّ بالعبادةِ ولا يجدُ حلاوتَها معَ ما يجدُ مِنْ حبِّ الدُّنيا ، وبحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ الدابَّةَ إذا لمْ تُركبْ وتُمتهَنْ . . تصعَّبَتْ وتغيَّرَ خُلُقُها ؛ كذلكَ القلوبُ إذا لمْ تُرقَّقْ بذكرِ الموتِ وبنصَبِ العبادةِ . . تقسو وتغلظُ ، بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ الزِّقَّ ما لمْ يتَخرَّقْ أوْ يقحَلْ[1] يوشكُ أنْ يكونَ وعاءً للعسلِ ؛ كذلكَ القلوبُ ما لمْ تخرقْها الشهواتُ أوْ يدنِّسْها الطمعُ أوْ يقسِّها النعيمُ فسوفَ تكونُ أوعيةً للحكمةِ)[2] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما بقيَ مِنَ الدُّنيا بلاءٌ وفتنةٌ ، وإنَّما مثلُ عملِ أحدِكُمْ كمثَلِ الوعاءِ إذا طابَ أعلاهُ . . طابَ أسفلُهُ ، وإذا خبُثَ أعلاهُ . . خبُثَ أسفلُهُ »[3] .

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ لما بقيَ مِنَ الدُّنيا وقلَّتِهِ بالإضافةِ إلىٰ ما سبقَ :

قالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ هـٰذهِ الدُّنيا مثَلُ ثوبٍ شُقَّ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، فبقيَ متعلِّقاً بخيطٍ في آخرِهِ ، فيوشكُ ذلكَ الخيطُ أنْ ينقطعَ »[4] .

❁ ❁ ❁

---

(١) أي : ييبس .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩٠) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) ولم يذكر صدره، وهو بتمامه عند أحمد في « المسند » (٤/ ٩٤).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

مثالٌ آخرُ لتأديةِ علائقِ الدُّنيا بعضِها إلىٰ بعضٍ حتَّى الهلاكِ :

قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثَلُ طالبِ الدُّنيا مثَلُ شاربِ ماءِ البحرِ ، كلَّما ازدادَ شرباً . . ازدادَ عطشاً حتَّىٰ يقتلَهُ)(١) .

❊ ❊ ❊

مثالٌ آخرُ لمخالفةِ آخرِ الدُّنيا أولَها ، ولنضارةِ أوائلِها وخبثِ عواقبِها :

اعلمْ : أنَّ شهواتِ الدُّنيا في القلبِ لذيذةٌ ؛ كشهواتِ الأطعمةِ في المعدةِ ، وسيجدُ العبدُ عندَ الموتِ لشهواتِ الدُّنيا في قلبِهِ مِنَ الكراهةِ والنتنِ والقبحِ ما يجدُهُ للأطعمةِ اللذيذةِ إذا بلغَتْ في المعدةِ غايتَها ، وكما أنَّ الطعامَ كلَّما كانَ ألذَّ طعماً ، وأكثرَ دسماً ، وأظهرَ حلاوةً . . كانَ رجيعُهُ أقذرَ وأشدَّ نتناً ؛ فكذلكَ كلُّ شهوةٍ في القلبِ هيَ أشهىٰ وألذُّ وأقوىٰ فنَتْنُها وكراهتُها والتأذِّي بها عندَ الموتِ أشدُّ ، بلْ هيَ في الدُّنيا مشاهدةٌ ؛ فإنَّ مَنْ نُهبَتْ دارُهُ وأُخِذَ أهلُهُ وولدُهُ ومالُهُ . . فتكونُ مصيبتُهُ وألمُهُ وتفجُّعُهُ فِي كلِّ ما فقدَهُ بقدْرِ لذَّتِهِ بهِ ، وحبِّهِ لهُ وحرصِهِ عليهِ ، فكلُّ ما كانَ عندَ الوجودِ أشهىٰ عندَهُ وألذَّ . . فهوَ عندَ الفقدِ أدهىٰ وأمرُّ ، وما للموتِ معنىً إلا فقدُ ما في الدُّنيا .

وقدْ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للضحَّاكِ بنِ سفيانَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٢) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٤٦) .

الكلابيِّ : « ألستَ تُؤتَىٰ بطعامِكَ وقَدْ مُلِّحَ وقُزِّحَ ثمَّ تشربُ عليهِ اللَّبنَ والماءَ ؟ » قالَ : بلىٰ ، قالَ : « فإلامَ يصيرُ ؟ » قالَ : إلىٰ ما قدْ علمتَ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضربَ مثلَ الدُّنيا لما يصيرُ إليهِ طعامُ ابنِ آدمَ »(١) .

وقالَ أبيُّ بنُ كعبٍ : قالَ رسولُ اللهَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الدُّنيا ضُربَتْ مثلاً لابنِ آدمَ ، فانظرْ إلىٰ ما يخرُجُ مِن ابنِ آدمَ وإنْ قزَّحَهُ وملَّحَهُ إلامَ يصيرُ ؟ »(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ضربَ الدُّنيا لمطعمِ ابنِ آدمَ مثلاً ، وضربَ مطعمَ ابنِ آدمَ للدُّنيا مثلاً وإنْ قزَّحَهُ وملَّحَهُ » ، وقالَ الحسنُ : (قدْ رأيتُهُمْ يطيبونَهُ بالأفاويهِ والطيبِ ، ثمَّ يرمونَ بهِ حيثُ رأيتُمْ)(٣) .

وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ : (إلىٰ رجيعِهِ)(٤) .

وقالَ رجلٌ لابنِ عمرَ : إنِّي أريدُ أنْ أسألَكَ وأستحيي ، قالَ : فلا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٤٥٢) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢٩٩) ، وليس فيه ذكر الملح والقزح ، والقِزْح : الأبزار التي يستصلح بها الطعام .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٩٤) .
(٣) كذا روى المرفوع مع قول الحسن ابنُ المبارك في « الزهد » (٤٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٢٦٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٣) .

تستحيِ وسلْ ، قالَ : إذا قضىٰ أحدُنا حاجتَهُ فقامَ ينظرُ إلىٰ ذلكَ منهُ ؟! قالَ : نعمْ ، إنَّ الملكَ يقولُ لهُ : انظرْ ، هـٰذا ما بخلتَ بهِ ، انظرْ إلىٰ ماذا صارَ[1] .

وكانَ بُشيرُ بنُ كعبٍ يقولُ : انطلقُوا حتَّىٰ أريَكُمُ الدُّنيا ، فيذهبُ بهِمْ إلىٰ مزبلةٍ ، فيقولُ : انظرُوا إلىٰ ثمارِهِمْ ، ودجاجِهِمْ ، وعسلِهِمْ ، وسمنِهِمْ[2] .

※ ※ ※

مثالٌ آخرُ في نسبةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الدُّنيا في الآخرةِ إلا مثلُ ما يجعلُ أحدُكُمْ إصبَعَهُ في اليمِّ ، فلينظُرْ بمَ يرجعُ إليهِ »[3] .

※ ※ ※

مثالٌ آخرُ للدُّنيا وأهلِها في اشتغالِهِمْ بنعيمِ الدُّنيا وغفلتِهِمْ عنِ الآخرةِ وحسراتِهِمُ العظيمةِ بسببِها :

اعلمْ : أنَّ أهلَ الدُّنيا في غفلتِهِمْ مثلُهُمْ مثلُ قومٍ ركبوا سفينةً ، فانتهَتْ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١١٢) ، وفي « القوت » (١/ ٢٤٤) : (وكذلك روينا في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، قيل : مواضع الغائط والبول) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١١٣) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨) .

بِهِمْ إلىٰ جزيرةٍ ، فأمرَهُمُ الملاَّحُ بالخروجِ لقضاءِ الحاجةِ ، وحذَّرَهُمُ المقامَ وخوفَهُمْ مرورَ السفينةِ واستعجالَها ، فتفرَّقُوا في نواحي الجزيرةِ ، فقضىٰ بعضُهُمْ حاجتَهُ ، وبادرَ إلى السفينةِ ، فصادفَ المكانَ خالياً ، فأخذَ أوسعَ الأماكنِ وألينَها وأوفقَها لمرادِهِ .

وبعضُهُمْ توقَّفَ في الجزيرةِ ينظرُ إلىٰ أنوارِها وأزهارِها العجيبةِ ، وغياضِها الملتفَّةِ ، ونغماتِ طيورِها الطيبةِ ، وألحانِها الموزونةِ الغريبةِ ، وصارَ يلحظُ مِنْ تربتِها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفةَ الألوانِ والأشكالِ ، الحسنةَ المنظرِ ، العجيبةَ النقوشِ ، السالبةَ أعينَ الناظرينَ بحسنِ زِبْرِجِها وعجائبِ صورِها ، ثمَّ تنبَّهَ لخطرِ فواتِ السفينةِ ، فرجعَ إليها ، فلمْ يصادفْ إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقرَّ فيهِ .

وبعضُهُمْ أكبَّ علىٰ تلكَ الأصدافِ والأحجارِ ، وأعجبَهُ حسنُها ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بإهمالِها ، فاستصحَبَ منها جملةً ، فلمْ يجدْ في السفينةِ إلا مكاناً ضيقاً ، وزادَهُ ما حملَهُ مِنَ الحجارةِ ضيقاً ، وصارَ ثقلاً عليهِ ووبالاً ، فندمَ علىٰ أخذِهِ ولم يقدرْ علىٰ رميِهِ ، ولمْ يجدْ مكاناً لوضعِهِ فحملَهُ في السفينةِ علىٰ عنقِهِ ، وهوَ متأسِّفٌ علىٰ أخذِهِ ، وليسَ ينفعُهُ التأسُّفُ .

وبعضُهُمْ تولَّجَ الغياضَ ، ونسيَ المركبَ ، وبعُدَ في متفرَّجِهِ ومتنزَّهِهِ ، حتَّىٰ لمْ يبلغْهُ نداءُ الملاَّحِ ؛ لاشتغالِهِ بأكلِ تلكَ الثمارِ ، واشتمامِ تلكَ الأنوارِ ، والتفرُّجِ بينَ تلكَ الأشجارِ ، وهوَ معَ ذلكَ خائفٌ علىٰ نفسِهِ مِنَ

السباعِ ، وغيرُ خالٍ مِنَ السقطاتِ والنكباتِ ، ولا ينفكُّ عنْ شوكٍ يتشبَّثُ بثيابِهِ ، وغصنٍ يجرحُ بدنَهُ ، وشوكةٍ تدخلُ في رِجْلِهِ ، وصوتٍ هائلٍ يفزعُ مِنْهُ ، وعوسَجٍ يخرِقُ ثيابَهُ ويهتِكُ عورتَهُ ، ويمنعُهُ عنِ الانصرافِ لوْ أرادَهُ ، فلمَّا بلغَهُ نداءُ أهلِ السفينةِ . . انصرفَ بعضُهُمْ مثقلاً بما معَهُ ولمْ يجدْ في المركبِ موضعاً ، فبقيَ على الشطِّ حتَّىٰ ماتَ جوعاً ، وبعضُهُمْ لمْ يبلغْهُ النداءُ ، وسارَتِ السفينةُ ، فمنهُمْ مَنِ افترسَتْهُ السباعُ ، ومنهُمْ مَنْ تاهَ فهامَ علىٰ وجهِهِ حتَّىٰ هلَكَ ، ومنهُمْ مَنْ ماتَ في الأوحالِ ، ومنهُمْ مَنْ نهشَتْهُ الحيَّاتُ ، وتفرقُوا كالجيفِ المنتنةِ .

وأما مَنْ وصلَ إلى المركبِ بثقلِ ما أخذَهُ مِنَ الأزهارِ والأحجارِ المزبرجةِ . . فقدِ استرقَّتْهُ ، وشغلَهُ الحزنُ بحفظِها ، والخوفُ مِنْ فوتِها ، وقدْ ضيَّقَتْ عليهِ مكانَهُ ، فلمْ يلبثْ أنْ ذبلَتْ تلكَ الأزهارُ ، وكمدَتْ ألوانُ الأحجارِ ، وظهرَ نتْنُ رائحتِها ، فصارَتْ معَ كونِها مضيِّقةً عليهِ مؤذيةً لهُ بنتْنِها ووحشتِها ، فلمْ يجدْ حيلةً إلاَّ أنْ ألقاها في البحرِ هرباً مِنْها ، وقدْ أثَّرَ فيهِ ما أكلَ مِنْها ، فلمْ ينتهِ إلى الوطنِ إلاَّ بعدَ أنْ ظهرَتْ عليهِ الأسقامُ بتلكَ الروائحِ ، فبلغَ سقيماً مدبراً .

ومَنْ رجعَ قريباً . . فما فاتَهُ إلا سعةُ المحلِّ ، فتأذَّىٰ بضيقِ المكانِ مدّةً ، ولكنْ لمَّا وصلَ إلى الوطنِ . . استراحَ .

ومَنْ رجعَ أوَّلاً . . وجدَ المكانَ الأوسعَ ووصلَ إلى الوطنِ سالماً .

فهٰذا مثالُ أصنافِ أهلِ الدُّنيا في اشتغالِهِمْ بحظوظِهِمُ العاجلةِ ، ونسيانِهِمْ موردَهُمْ ومصدرَهُمْ ، وغفلتِهِمْ عنْ عاقبةِ أمرِهِمْ ، وما أقبحَ مَنْ يزعُمُ أنَّهُ بصيرٌ عاقلٌ أنْ تغرَّهُ أحجارُ الأرضِ وهيَ الذهبُ والفضةُ ، وهشيمُ النبتِ ، وهيَ زينةُ الدُّنيا ، وشيءٌ مِنْ ذلكَ لا يصحَبُهُ عندَ الموتِ ! بلْ يصيرُ كلاًّ ووبالاً عليهِ ، وهوَ في الحالِ شاغلٌ لهُ بالحزنِ والخوفِ عليهِ ، وهٰذهِ حالُ الخلقِ كلِّهِمْ ، إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

مثالٌ آخرُ لاغترارِ الخلقِ بالدُّنيا وضعفِ إيمانِهِمْ بقولِ اللهِ تعالىٰ في تحذيرِهِ إياهُمْ غوائلَ الدُّنيا :

قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « إنَّما مثَلي ومثلُكُمْ ومثَلُ الدُّنيا كمثلِ قومٍ سلكُوا مفازةً غبراءَ ، حتَّىٰ إذا لمْ يدروا ما سلكوا مِنْها أكثرَ ، أو ما بقيَ . . أنفدُوا الزَّادَ ، وحسروا الظَّهرَ[1] ، وبقوا بينَ ظهرانيِ المفازةِ لا زادَ ولا حمولةَ ، فأيقنُوا بالهَلَكَةِ ، فبينا هُمْ كذلكَ إذْ خرجَ عليهِمْ رجلٌ في حُلَّةٍ يقطرُ رأسُهُ ، فقالُوا : هٰذا قريبُ عهدٍ بريفٍ ، وما جاءَكُمْ هٰذا إلا مِنْ قريبٍ ، فلمَّا انتهىٰ إليهِمْ . . قالَ : يا هؤلاءِ ؛ قالوا : يا هٰذا ؛ قالَ : علامَ أنتُمْ ؟ قالوا : علىٰ ما ترىٰ ؛ قالَ : أرأيتُكُمْ إنْ هديتُكُمْ إلىٰ ماءٍ رُواءٍ ورياضٍ خُضْرٍ ما تعملُونَ ؟

---

(١) أي : أعروه ، وهو كناية عن هلاك ما يركبونه . « إتحاف » (٨/ ١١٤) .

قالوا : لا نعصيكَ شيئاً ، قالَ : عهودكُمْ ومواثيقَكُمْ باللهِ ، فأعطَوهُ عهودَهُمْ ومواثيقَهُمْ باللهِ لا يعصونَهُ شيئاً ، قالَ : فأوردَهُمْ ماءً رُواءً ورياضاً خضراً ، فمكثَ فيهِمْ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ قالَ : يا هؤلاءِ ؛ قالُوا : يا هـٰذا ؛ قالَ : الرَّحيلَ ، قالُوا : إلىٰ أينَ ؟ قالَ : إلىٰ ماءٍ ليسَ كمائِكُمْ ، وإلىٰ رياضٍ ليسَتْ كرياضِكُمْ ، فقالَ أكثرُهُمْ : واللهِ ؛ ما وجدنا هـٰذا حتَّىٰ ظننَّا أنَّا لنْ نجدَهُ ، وما نصنعُ بعيشٍ خيرٍ مِنْ هـٰذا ؟ قالَ : وقالَتْ طائفةٌ وهُمْ أقلُّهُمْ : ألَمْ تعطوا هـٰذا الرَّجلَ عُهُودكُمْ ومواثيقَكُمْ باللهِ ألا تعصُوهُ شيئاً وقدْ صدقَكُمْ في أوَّلِ حديثِهِ ؟! فواللهِ ؛ ليصدقَنَّكُمْ في آخرِهِ ، فراحَ فيمَنِ اتَّبعَهُ وتخلَّفَ بقيَّتُهُمْ ، فبدَرَ بِهِمْ عدوٌّ ، فأصبحوا مِن بينِ أسيرٍ وقتيلٍ »(١) .

***

مثالٌ آخرُ لتنعُّمِ الناسِ بالدُّنيا ثمَّ تفجُّعِهِمْ علىٰ فراقِها :

اعلمْ : أنَّ مثلَ الناسِ فيما أُعطوا مِنَ الدُّنيا مثَلُ رجلٍ هيَّأَ داراً وزيَّنَها ، وهوَ يدعُو إلىٰ دارِهِ على الترتيبِ قوماً واحداً بعدَ واحدٍ ، فدخلَ واحدٌ دارَهُ ، فقُدِّمَ إليهِ طبقُ ذهبٍ عليهِ بخورٌ ورياحينُ ليشَمَّهُ ويتركَهُ لمَنْ يلحقُهُ ، لا ليتملَّكَهُ ويأخذَهُ ، فجهلَ رسمَهُ ، فظنَّ أنَّهُ قدْ وُهِبَ ذلكَ لَهُ ، فتعلَّقَ بهِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٨٨) عن الحسن بلاغاً ، وروىٰ نحوه أحمد في « مسنده » (١/ ٢٦٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا أريها النبي صلى الله عليه وسلم وحدَّث بها أصحابه ، وأنه صلى الله عليه وسلم مثل الرجل الهادي للقوم .

قلبُهُ لما ظنَّ أنَّهُ لهُ ، فلمَّا استُرجِعَ منهُ . . ضجِرَ وتفجَّعَ ، ومَنْ كانَ عالماً برسمِهِ . . انتفعَ بهِ وشكرَهُ ، وردَّهُ بطيبةِ قلبٍ وانشراحِ صدرٍ .

فكذلكَ مَنْ عرفَ سُنَّةَ اللهِ في الدُّنيا . . علمَ أنَّها دارُ ضيافةٍ ، سُبِّلَتْ على المجتازينَ لا على المقيمينَ ؛ ليتزوَّدُوا مِنْها وينتفعُوا بما فيها كما ينتفعُ المسافرونَ بالعواري ، ولا يصرفُونَ إليها كلَّ قلوبِهِمْ حتىٰ تعظُمَ مصيبتُهُمْ عندَ فراقِها .

فهٰذهِ أمثلةُ الدُّنيا وآفاتِها وغوائِلِها ، نسألُ اللهَ تعالى اللطيفَ الخبيرَ حسْنَ العونِ بكرمِهِ وحلمِهِ .

* * *

بيان حقيقة الدّنيا وماهيتها في حقّ العبد

اعلمْ : أنَّ معرفةَ ذمِّ الدُّنيا لا تكفيكَ ما لمْ تعرفِ الدُّنيا المذمومةَ ما هيَ ، وما الذي ينبغي أنْ يُجتنبَ مِنْها ، وما الذي لا يُجتنبُ ، فلا بدَّ وأنْ نبيِّنَ الدُّنيا المذمومةَ المأمورَ باجتنابِها ؛ لكونِها عدوةً قاطعةً لطريقِ اللهِ تعالىٰ ما هيَ ؟

فنقولُ : دنياكَ وآخرتُكَ عبارةٌ عنْ حالتينِ مِنْ أحوالِ قلبِكَ ، فالقريبُ الداني مِنْها يُسمَّىٰ دنيا ، وهوَ كلُّ ما قبلَ الموتِ ، والمتراخي المتأخِّرُ يُسمَّىٰ آخرةً ، وهوَ ما بعدَ الموتِ ، فكلُّ ما لكَ فيهِ حظٌّ وغرضٌ ونصيبٌ وشهوةٌ ولذَّةٌ في عاجلِ الحالِ قبلَ الوفاةِ . . فهوَ الدُّنيا في حقِّك .

إلا أنَّ جميعَ ما لكَ إليهِ ميلٌ وفيهِ نصيبٌ وحظٌّ . . فليسَ بمذمومٍ ، بلْ هوَ ثلاثةُ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : ما يصحبُكَ في الآخرةِ ، وتبقىٰ معَكَ ثمرتُهُ بعدَ الموتِ ، وهوَ شيئانِ : العلمُ والعملُ فقطْ .

وأعني بالعلمِ : العلمَ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وملائكتِهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ، وملكوتِ أرضِهِ وسمائِهِ ، والعلمِ بشريعةِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وأعني بالعملِ : العبادةَ الخالصةَ لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ يأنسُ العالمُ بالعلمِ ، حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ ألذَّ الأشياءِ عندَهُ ، فيهجرَ النومَ والمنكحَ والمطعمَ في لذَّتِهِ ؛ لأنَّهُ أشهىٰ عندَهُ مِنْ جميعِ ذلكَ ، فقدْ صارَ حظّاً عاجلاً في الدُّنيا ، ولكنَّا إذا ذكرنا الدُّنيا المذمومةَ . . لمْ نعدَّ هـٰذا مِنَ الدُّنيا أصلاً ، بلْ قلنا : إنَّهُ مِنَ الآخرةِ .

وكذلكَ العابدُ قدْ يأنسُ بعبادتِهِ فيستلذُّها ؛ بحيثُ لوْ مُنِعَ عنها . . لكانَ ذلكَ أعظمَ العقوباتِ عليهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (ما أخافُ مِنَ الموتِ إلا مِنْ حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ)(١) .

وكانَ آخرُ يقولُ : (اللَّهمَّ ؛ ارزقْني قوَّةَ الصلاةِ والركوعِ والسجودِ في القبرِ)(٢) ، فهـٰذا قدْ صارَتِ الصلاةُ مِنْ حظوظِهِ العاجلةِ ، وكلُّ حظٍّ عاجلٍ فاسمُ الدُّنيا ينطلقُ عليهِ مِنْ حيثُ الاشتقاقُ مِنَ الدنوِّ ، ولكنَّا لسنا نعني بالدُّنيا المذمومةِ ذلكَ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكُمْ ثلاثٌ : الطِّيبُ والنِّساءُ وقرَّةُ عيني في الصَّلاةِ »(٣) ، فجعلَ الصلاةَ مِنْ جملةِ ملاذِّ الدُّنيا ؛

---

(١) فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٥) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمِّ ألذ من أهل اللهو بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٢) وهو ثابت البناني ، روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣١٩) دعاءه : (اللهم ؛ إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره . . فأذن لثابت أن يصلي في قبره) .

(٣) رواه النسائي (٧/ ٦١) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨) ، وليس لفظ (ثلاث) منه ، وتبع المصنف هنا في لفظه صاحب « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٥/ ٢١٥٥) : (وقد اشتهر على الألسنة بزيادة =

وذلكَ لأنَّ كلَّ ما يدخلُ في الحسِّ والمشاهدةِ فهوَ مِنْ عالمِ الشهادةِ ، وهوَ مِنَ الدُّنيا ، والتلذُّذُ بتحريكِ الجوارحِ بالركوعِ والسجودِ إنَّما يكونُ في الدُّنيا ؛ فلذلكَ أضافَها إلى الدُّنيا ، إلاَّ أنَّا في هٰذا الكتابِ لسنا نتعرَّضُ إلاَّ للدُّنيا المذمومةِ ، فنقولُ : هٰذهِ ليسَتْ مِنَ الدُّنيا .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني ـ وهوَ المقابلُ لهُ على الطرفِ الأقصىٰ ـ : كلُّ ما فيهِ حظٌّ عاجلٌ ، ولا ثمرةَ لهُ في الآخرةِ أصلاً ؛ كالتلذذِ بالمعاصي كلِّها ، والتنعُّمِ بالمباحاتِ الزائدةِ علىٰ قدرِ الضروراتِ والحاجاتِ ، الداخلةِ في جملةِ الرفاهيةِ والرعوناتِ ؛ كالتنعُّمِ بالقناطيرِ المقنطرةِ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، والخيلِ المسوَّمةِ ، والأنعامِ ، والحرثِ ، والغلمانِ ، والجواري ، والخيولِ ، والمواشي ، والقصورِ ، والدورِ ، ورفيعِ الثيابِ ، ولذائذِ الأطعمةِ ؛ فحظُّ العبدِ مِنْ هٰذهِ كلِّها هيَ الدُّنيا المذمومةُ ، وفيما يُعدُّ فضولاً أوْ في محلِّ الحاجةِ نظرٌ طويلٌ ؛ إذْ رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ استعملَ أبا الدرداءِ علىٰ حمصَ ، فاتخذَ كنيفاً أنفقَ عليهِ درهمينِ ، فكتبَ إليهِ عمرُ : (مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ أميرِ المؤمنينَ إلىٰ عويمرٍ ، قدْ كانَ لكَ في

= « ثلاث » ، وشرحه الإمام أبو بكر بن فورك في جزء مفرد علىٰ ذلك ، وكذلك ذكره الغزالي في « الإحياء » ، ولم نجد لفظ « ثلاث » في شيء من طرقه المسندة) ، وعلىٰ فرض عدمها لا يمنع ما ذكره المصنف هنا ؛ لنفي قطعية كون الصلاة من الآخرة بالنص .

بناءِ فارسَ والرومِ ما تكتفي بهِ عنْ عمرانِ الدُّنيا حينَ أذنَ اللهُ بخرابِها ، فإذا أتاكَ كتابي هـٰذا . . فقدْ سيَّرتُكَ وأهلَكَ إلىٰ دمشقَ)(١) ، فلمْ يزلْ بها حتَّىٰ ماتَ ، فهـٰذا رآهُ فضولاً مِنَ الدُّنيا ، فتأملْ فيهِ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثالثُ ـ وهوَ متوسِّطٌ بينَ الطرفينِ ـ : كلُّ حظٍّ في العاجلِ مُعِينٍ علىٰ أعمالِ الآخرةِ ؛ كقدْرِ القوتِ مِنَ الطعامِ ، والقميصِ الواحدِ الخشنِ ، وكلِّ ما لا بدَّ منْهُ ليتأتَّىٰ للإنسانِ البقاءُ والصحةُ التي بها يتوصلُ إلى العلمِ والعملِ ، وهـٰذا ليسَ مِنَ الدُّنيا كالقسمِ الأولِ ؛ لأنَّهُ مُعِينٌ على القسمِ الأوَّلِ ووسيلةٌ إليهِ ، فمهما تناولَهُ العبدُ علىٰ قصدِ الاستعانةِ بهِ على العلمِ والعملِ . . لمْ يكنْ بهِ متناولاً للدُّنيا ، ولمْ يصِرْ بهِ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وإنْ كانَ باعثُهُ الحظَّ العاجلَ دونَ الاستعانةِ على التقوىٰ . . التحقَ بالقسمِ الثاني ، وصارَ مِنْ جملةِ الدُّنيا .

❁ ❁ ❁

ولا يبقىٰ معَ العبدِ عندَ الموتِ إلا ثلاثُ صفاتٍ : صفاءُ القلبِ ـ أعني : طهارتَهُ عنْ أدناسِ الدُّنيا ـ وأنسُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وحبُّهُ للهِ تعالىٰ ، وصفاءُ القلبِ وطهارتُهُ لا يحصلانِ إلاَّ بالكفِّ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، والأنسُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٥١) .

لا يحصلُ إلا بكثرةِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ والمواظبةِ عليهِ ، والحبُّ لا يحصلُ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصلُ معرفةُ اللهِ إلا بدوامِ الفكرِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ الثلاثُ هيَ المنجياتُ المسعداتُ بعدَ الموتِ ، وهيَ الباقياتُ الصالحاتُ .

أمَّا طهارةُ القلبِ عنْ شهواتِ الدُّنيا . . فهيَ مِنَ المنجياتِ ؛ إذْ تكونُ جُنَّةً بينَ العبدِ وبينَ عذابِ اللهِ ؛ كما وردَ في الأخبارِ : « أنَّ أعمالَ العبدِ تناضلُ عنهُ ، فإذا جاءَ العذابُ مِنْ قبَلِ رجليهِ . . جاءَ قيامُ الليلِ يدفعُ عنهُ ، وإذا جاءَ مِنْ قبَلِ يديهِ . . جاءتِ الصَّدقةُ تدفعُ عنهُ . . . » الحديثَ(١) .

وأمَّا الأنسُ والحبُّ . . فهما مِنَ المسعداتِ ، وهما موصلانِ العبدَ إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ والمشاهدةِ ، وهـٰذهِ السعادةُ تتعجَّلُ عقيبَ الموتِ إلىٰ أنْ يدخلَ أوانُ الرؤيةِ في الجنةِ ، فيصيرُ القبرُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، وكيفَ لا يكونُ القبرُ عليهِ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ولمْ يكنْ لهُ إلا محبوبٌ واحدٌ ، وكانَتِ العوائقُ تعوقُهُ عنِ الأنسِ بدوامِ ذكرِهِ ومطالعةِ جمالِهِ ، فارتفعَتِ العوائقُ ، وأفلَتَ مِنَ السجنِ ، وخُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، فقدمَ عليهِ مسروراً سليماً مِنَ الموانعِ ، آمناً مِنَ الفراقِ ؟!

---

(١) رواه بنحوه وبطوله الطبراني في « الأحاديث الطوال » (٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠٦/٣٤) ، وروىٰ أحمد في « مسنده » (٣٥٢/٦) من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوعاً : « إذا دخل الإنسان قبره ؛ فإن كان مؤمناً . . أحف به عمله ؛ الصلاة والصيام ، قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة ، فترده ، ومن نحو الصيام فيرده . . . » الحديث .

وكيفَ لا يكونُ محبُّ الدُّنيا عندَ الموتِ معذَّباً ولمْ يكنْ لهُ محبوبٌ إلا في الدُّنيا ، وقد غُصِبَ منهُ ، وحيلَ بينَهُ وبينَهُ ، وسُدَّتْ عليهِ طرُقُ الحيلةِ في الرجوعِ إليهِ ؟! [من السريع]

مـا حـالُ مَـنْ كـانَ لَـهُ واحِـدٌ غُيِّـبَ عَنْـهُ ذَلِـكَ ٱلْـواحِـدُ[1]

وليسَ الموتُ عدماً ، إنَّما هوَ فراقٌ لمحابِّ الدُّنيا ، وقدومٌ على اللهِ تعالىٰ .

فإذاً ؛ سالكُ طريقِ الآخرةِ هوَ المواظبُ علىٰ أسبابِ هـٰذهِ الصفاتِ الثلاثِ ؛ وهيَ الذكرُ ، والفكرُ ، والعملُ الذي يفطِمُهُ عنْ شهواتِ الدُّنيا ، ويبغِّضُ إليهِ ملاذَّها ، ويقطعُهُ عنها ، وكلُّ ذلكَ لا يمكنُ إلا بصحَّةِ البدنِ ، وصحةُ البدنِ لا تُنالُ إلا بقوتٍ وملبسٍ ومسكنٍ ، ويحتاجُ كلُّ واحدٍ إلىٰ أسبابٍ ، فالقدْرُ الذي لا بدَّ منهُ مِنْ هـٰذهِ الثلاثةِ إذا أخذَهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا للآخرةِ . . لمْ يكنْ مِنْ أبناءِ الدُّنيا ، وكانَتِ الدُّنيا في حقِّه مزرعةً للآخرةِ ، وإنْ أخذَ ذلكَ لحظِّ النفسِ وعلىٰ قصدِ التَّنعُّمِ . . صارَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا والراغبينَ في حظوظِها .

إلا أنَّ الرغبةَ في حظوظِ الدُّنيا تنقسمُ إلىٰ ما يعرِّضُ صاحبَهُ لعذابِ الآخرةِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ **حراماً** ، وإلىٰ ما يحولُ بينَهُ وبينَ الدرجاتِ العُلا ، ويعرِّضُهُ لطولِ الحسابِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ **حلالاً** ، والبصيرُ يعلمُ أنَّ طولَ

---

(1) انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

الموقفِ في عَرصاتِ القيامةِ لأجلِ المحاسبةِ أيضاً عذابٌ ؛ فمنْ نُوقِشَ الحسابَ . . عُذِّبَ[1] ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ »[2] ، وقدْ قالَ أيضاً : « حلالُها عذابٌ » ، إلا أنَّهُ عذابٌ أخفُّ مِنْ عذابِ الحرامِ ، بلْ لوْ لمْ يكنِ الحسابُ . . لكانَ ما يفوِّتُ مِنَ الدرجاتِ العُلا في الجنةِ ، وما يردُ على القلبِ مِنَ التحسُّرِ علىٰ تفويتِها بحظوظٍ حقيرةٍ خسيسةٍ لا بقاءَ لها هوَ أيضاً عذابٌ ، وقسْ بهِ حالَكَ في الدُّنيا إذا نظرتَ إلىٰ أقرانِكَ وقدْ سبقوكَ بسعاداتٍ دنيويَّةٍ كيفَ يتقطَّعُ قلبُكَ عليها حسرةً ، معَ علمِكَ بأنَّها سعاداتٌ منصرمةٌ لا بقاءَ لها ، ومنغصةٌ بكدوراتٍ لا صفاءَ لها ، فما حالُكَ في فواتِ سعادةٍ لا يحيطُ الوصفُ بعظمتِها ، وتنقطعُ الدُّهورُ دونَ غايتِها ؟!

فكلُّ مَنْ تنعَّمَ في الدُّنيا ولوْ بسماعِ صوتٍ مِنْ طائرٍ ، أوْ بالنظرِ إلىٰ خُضْرةٍ ، أوْ بشربةِ ماءٍ باردٍ . . فإنَّهُ ينقصُ مِنْ حظِّهِ في الآخرةِ أضعافُهُ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : « هـٰذا مِنَ النَّعيمِ الذي تُسألُ عنهُ »[3] ، أشارَ بهِ إلى الماءِ الباردِ ، والتعرُّضُ لجوابِ السؤالِ

---

(١) كما رویٰ ذلك مرفوعاً البخاري (١٠٣ ، ٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .
(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٣) رواه النسائي (٦/٢٤٦) ، وأحمد في « المسند » (٣/٣٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٢٧٩) .

فيهِ ذلٌّ ، وخوفٌ ، وخطرٌ ، ومشقةٌ ، وانتظارٌ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ نقصانِ الحظِّ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اعزلُوا عنِّي حسابَها) حيثُ كانَ بهِ عطشٌ ، فعُرِضَ عليهِ ماءٌ باردٌ بعسلٍ ، فأدارَهُ في كفِّهِ ، ثمَّ امتنعَ عنْ شربِهِ[١] .

فالدُّنيا قليلُها وكثيرُها ، حلالُها وحرامُها ملعونةٌ ، إلا ما أعانَ علىٰ تقوى اللهِ ؛ فإنَّ ذلكَ القدْرَ ليسَ مِنَ الدُّنيا ، وكلُّ مَنْ كانَتْ معرفتُهُ أقوىٰ وأتقنَ . . كانَ حذرُهُ مِنْ نعيمِ الدُّنيا أشدَّ ، حتَّىٰ إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ وضعَ رأسَهُ علىٰ حجرٍ لمَّا نامَ ، ثمَّ رمىٰ بهِ ؛ إذْ تمثَّلَ لهُ إبليسُ وقالَ لهُ : رغبتَ في الدُّنيا[٢] .

وحتَّىٰ إنَّ سليمانَ عليهِ السلامُ في ملكِهِ كانَ يطعمُ الناسَ لذائذَ الأطعمةِ وهوَ يأكلُ خبزَ الشعيرِ ، فجعلَ المُلْكَ علىٰ نفسِهِ بهٰذا الطريقِ امتحاناً وشدةً ؛ فإنَّ الصبرَ عنْ لذائذِ الأطعمةِ معَ القدرةِ عليها ووجودِها أشدُّ[٣] .

ولهٰذا زوى اللهُ تعالى الدُّنيا عنْ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكانَ يطوي

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٤٩٢) عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح ، فشربها ثم قال : والله ؛ لأسألنَّ عن هٰذا ، فقلت : لمَهْ ؟ فقال : شربته وأنا أستلذُّه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٦/٤٧) .

(٣) رواه بنحوه أحمد في « الزهد » (٤٦٦) .

أياماً[1] ، وكانَ يشدُّ الحجرَ علىٰ بطنِهِ مِنَ الجوعِ[2] .

ولهٰذا سلَّطَ اللهُ البلاءَ والمحنَ على الأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ ، كلُّ ذلكَ نظراً لهُمْ ، وامتناناً عليهِمْ ؛ ليتوفَّرَ مِنَ الآخرةِ حظُّهُمْ ؛ كما يمنعُ الوالدُ الشفيقُ ولدَهُ لذَّةَ الفواكهِ ، ويلزمُهُ ألَمَ الفصدِ والحجامةِ ؛ شفقةً عليهِ ، وحبّاً لهُ ، لا بخلاً عليهِ .

وقد عرفتَ بهٰذا أنَّ كلَّ ما ليسَ للهِ . . فهوَ مِنَ الدُّنيا ، وما هوَ للهِ عزَّ وجلَّ . . فذلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .

* * *

فإنْ قلتَ : فما الذي هوَ للهِ سبحانَهُ ؟

فأقولُ : الأشياءُ ثلاثةُ أقسامٍ :

مِنْها : ما لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالمعاصي

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٦٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير) ، وأما أنه سبحانه زوى الدنيا عنه صلى الله عليه وسلم . . فتقدم في غير خبر ، منها ما رواه البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) عن عمر رضي الله عنه وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : هٰذا الحصير قد أثَّر في جنبك ، وهٰذه خزانتك لا أرىٰ فيها إلا ما أرىٰ ، وذاك قيصر وكسرىٰ في الثمار والأنهار وأنت رسول الله وصفوته وهٰذه خزانتك ؟ فقال : « يا بن الخطاب ؛ ألا ترضىٰ أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟! » .

(٢) رواه ذلك البخاري في قصة الخندق (٤١٠١) .

والمحظوراتِ ، وأنواعُ التنعُّماتِ في المباحاتِ ، وهيَ الدُّنيا المحضُ المذمومةُ ، فهيَ الدُّنيا صورةً ومعنىً .

ومِنْها : ما صورتُهُ للهِ ، ويمكنُ أنْ يُجعلَ لغيرِ اللهِ ، وهيَ ثلاثةٌ : الفكرُ ، والذكرُ ، والكفُّ عنِ الشهواتِ ؛ فإنَّ هٰذهِ الثلاثةَ إذا جرَتْ سرّاً ولمْ يكنْ عليها باعثٌ سوىٰ أمرِ اللهِ واليومِ الآخرِ . . فهيَ للهِ وليسَتْ مِنَ الدُّنيا ، وإنْ كانَ الغرضُ مِنَ الفكرِ طلبَ العلمِ للتشوُّفِ بهِ ، وطلبِ القبولِ بينَ الخلقِ بإظهارِ المعرفةِ ، أوْ كانَ الغرضُ مِنْ تركِ الشهوةِ حفظَ المالِ ، أوِ الحميةَ لصحَّةِ البدنِ ، أوِ الاشتهارَ بالزهدِ . . فقدْ صارَ هٰذا مِنَ الدُّنيا بالمعنىٰ وإنْ كانَ يُظنُّ بصورتِهِ أنَّهُ للهِ تعالىٰ .

ومِنْها : ما صورتُهُ لحظِّ النفسِ ، ويمكنُ أنْ يُجعلَ معناهُ للهِ سبحانَهُ ، وذلكَ كالأكلِ ، والنكاحِ ، وكلِّ ما يرتبطُ بهِ بقاؤُهُ وبقاءُ ولدِهِ ، فإنْ كانَ القصدُ حظَّ النفسِ . . فهوَ مِنَ الدُّنيا ، وإنْ كانَ القصدُ الاستعانةَ بهِ على التقوىٰ . . فهوَ للهِ بمعناهُ وإنْ كانَتْ صورتُهُ صورةَ الدُّنيا ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ الدُّنيا حلالاً مُفاخِراً مُكاثِراً . . لقيَ اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ ، ومَنْ طلبَها استعفافاً عنِ المسألةِ وصيانةً لنفسِهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ »(١) ، فانظرْ كيفَ اختلفَ ذلكَ بالقصدِ .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

فإذاً ؛ الدُّنيا حظُّ نفسِكَ العاجلُ ، الذي لا حاجةَ إليهِ لأمرِ الآخرةِ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالهوىٰ ، وإليهِ أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ .

ومجامعُ الهوىٰ خمسةُ أمورٍ ، وهيَ ما جمعَهُ اللهُ تعالَىٰ في قولِهِ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ ، والأعيانُ التي تحصلُ مِنْها هٰذهِ الخمسةُ سبعةٌ ، يجمعُها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

فقدْ عرفتَ أنَّ كلَّ ما هوَ للهِ فليسَ مِنَ الدُّنيا ، وقدْرُ ضرورةِ القُوتِ ، وما لا بدَّ منهُ مِنْ مسكنٍ وملبسٍ . . فهوَ للهِ إنْ قُصِدَ بهِ وجهُ اللهِ ، والاستكثارُ مِنْهُ تنعمٌ ، وهوَ لغيرِ اللهِ ، وبينَ التنعُّمِ والضرورةِ درجةٌ يُعبَّرُ عنها بالحاجةِ ، ولها طرفانِ وواسطةٌ ، طرفٌ يقربُ مِنْ حدِّ الضرورةِ ، فلا يضرُّ ؛ فإنَّ الاقتصارَ علىٰ حدِّ الضرورةِ غيرُ ممكنٍ ، وطرفٌ يزاحمُ جانبَ التنعُّمِ ويقربُ مِنْهُ ، وينبغي أنْ يُحْذرَ منهُ ، وبينَهُما وسائطُ متشابهةٌ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، والحزمُ في الحذرِ والتقوىٰ ، والتقريبِ مِنْ حدِّ الضرورةِ ما أمكنَ ؛ اقتداءً بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ والأولياءِ ؛ إذْ كانُوا يردُّونَ أنفسَهُمْ إلىٰ حدِّ الضرورةِ .

حتَّىٰ إنَّ أويساً القَرَنيَّ كانَ يظنُّ أهلُهُ أنَّهُ مجنونٌ ؛ لشدَّةِ تضييقِهِ علىٰ

نفسِهِ ، فبنَوا لهُ بيتاً علىٰ بابِ دارِهِمْ ، فكانَ يأتي عليهمُ السنةُ والسنتانِ والثلاثُ لا يرونَ لهُ وجهاً ، وكانَ يخرجُ أولَ الأذانِ ، ويأتي إلىٰ منزلِهِ بعدَ العشاءِ الآخرةِ ، وكانَ طعامُهُ أنْ يلتقطَ النوىٰ ، فكلَّما أصابَ مِنَ الحشفِ.. خبَّأَهُ لإفطارِهِ ، وإنْ لمْ يصبْ ما يقوتُهُ مِنَ الحشفِ.. باعَ النوىٰ ، واشترىٰ بهِ ما يقوتُهُ ، وكانَ لباسُهُ ما يلتقطُ مِنَ المزابلِ ، فيلتقطُ قطعَ الأكسيةِ ، فيغسلُها في الفراتِ ، ويلفِّقُ بعضَها إلىٰ بعضٍ ، ثمَّ يلبسُها ، فكانَ ذلكَ لباسَهُ[1] ، وكانَ ربَّما مرَّ بالصبيانِ فيرجمونَهُ ، ويظنونَ أنَّهُ مجنونٌ ، فيقولُ لهُمْ : (يا إخوتاهُ ؛ إنْ كانَ ولا بدَّ أنْ ترمُوني.. فارمُوني بأحجارٍ صغارٍ ، فإنِّي أخافُ أنْ تُدمو عقبي فيحضرَ وقتُ الصلاةِ ولا أصيبَ الماءَ)[2] ، فهكذا كانَتْ سيرتُهُ ، ولهـٰذا عظَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَهُ ، فقالَ : « إنِّي لأجدُ نفَسَ الرَّحمـٰنِ مِنَ جانبِ اليمنِ » إشارةً إليهِ رحمهُ اللهُ[3] .

ولمَّا وليَ الخلافةَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ.. قالَ : أيُّها الناسُ ؛ مَنْ كانَ منكُمْ مِنْ أهلِ العراقِ.. فليقمْ ؛ قالَ : فقاموا ، فقالَ : اجلسُوا إلاَّ مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الكوفةِ فجلسُوا ، فقالَ : اجلسوا إلا مَنْ كانَ مِنْ مرادٍ ، فجلسوا ، فقالَ : اجلسوا إلا مَنْ كانَ مِنْ قرنٍ ، فجلسوا كلُّهُمْ إلا رجلاً

---

(١) خبر أويس إلىٰ هنا رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٤١٢) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٥٢) ، وعند أحمد في « المسند » (٢/ ٥٤٠) : « نفَس ربكم » بدل « نفس الرحمـٰن » .

واحداً ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أقرنيٌّ أنتَ ؟ فقالَ : نعمْ ، فقالَ : أتعرفُ أويسَ بنَ عامرٍ القرنيَّ ؟ فوصفَهُ لهُ ، فقالَ : نعمْ ، وما تسألُ عنْ ذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! فواللهِ ؛ ما فينا أحمقُ منهُ ، ولا أجنُّ منهُ ، ولا أحوجُ منهُ ، ولا أدنىٰ منهُ ، فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ قالَ : ما قلتُ ما قلتُ إلا أنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يدخلُ في شفاعتِهِ مثلُ ربيعةَ ومضرَ » .

فقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ : فلمَّا سمعتُ هٰذا القولَ مِنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ . قدمتُ الكوفةَ ، فلمْ يكنْ لي همٌّ إلا أنْ أطلبَ أويساً القرنيَّ وأسألَ عنهُ ، حتَّىٰ سقطتُ عليهِ جالساً علىٰ شاطئِ الفراتِ نصفَ النهارِ يتوضَّأُ ويغسلُ ثوبَهُ ، قالَ : فعرفتُهُ بالنعتِ الذي نُعِتَ لي ؛ فإذا رجلٌ لحيمٌ شديدُ الأدمةِ ، محلوقُ الرأسِ ، كثُّ اللحيةِ ، متغيرٌ جداً ، كريهُ الوجهِ ، مهيبُ المنظرِ .

قالَ : فسلَّمتُ عليهِ ، فردَّ عليَّ السلامَ ونظرَ إليَّ ، فقلتُ : حيَّاكَ اللهُ مِنْ رجلٍ ، ومددتُ يدي لأصافحَهُ ، فأبىٰ أنْ يصافحَني ، فقلتُ : رحمَكَ اللهُ يا أويسُ وغفرَ لكَ ، كيفَ أنتَ رحمَكَ اللهُ ؟ وخنقَتْني العبرةُ مِنْ حُبِّي إيَّاهُ ورقَّتي عليهِ ؛ إذْ رأيتُ مِنْ حالِهِ ما رأيتُ ، حتىٰ بكيتُ وبكىٰ ، قالَ : وأنتَ فحيَّاكَ اللهُ يا هَرِمَ بنَ حيانَ ، كيفَ أنتَ يا أخي ، ومَنْ دلَّكَ عليَّ ؟ قالَ : قلتُ : اللهُ ، فقالَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، سبحانَ اللهِ ، ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ .

قالَ فعجبتُ حينَ عرفَني ، ولا واللهِ ؛ ما رأيتُهُ قبلَ ذلكَ ولا رآني ، فقلتُ : مِنْ أينَ عرفتَ اسمي واسمَ أبي ، وما رأيتُكَ قبلَ اليومِ ولا رأيتَني ؟ قالَ ﴿ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، وعرفَتْ روحي روحَكَ حينَ كلَّمَتْ نفسي نفسَكَ ، إنَّ الأرواحَ لها أنفسٌ كأنفسِ الأجسادِ ، وإنَّ المؤمنينَ ليعرفُ بعضُهُمْ بعضاً ، ويتحابُّونَ بروحِ اللهِ وإنْ لمْ يلتقوا ، يتعارفونَ ويتكلمونَ وإنْ نأتْ بهِمُ الدارُ وتفرقَتْ بهِمُ المنازلُ .

قالَ : قلتُ : حدِّثْني رحمَكَ اللهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحديثٍ أسمعُهُ منكَ ، قالَ : إنِّي لمْ أدركْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولمْ يكنْ لي معَهُ صحبةٌ بأبي وأمِّي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولكنِّي رأيتُ رجالاً قدْ رأَوهُ ، وبلغَني مِنْ حديثِهِ نحوٌ ممَّا بلغَكَ ، ولستُ أحبُّ أنْ أفتحَ هـٰذا البابَ علىٰ نفسِي أنْ أكونَ محدِّثاً ، أو مفتياً ، أو قاصّاً ، في نفسي شغلٌ عَنِ الناسِ يا هرمَ بنَ حيانَ .

فقلتُ : يا أخي ؛ اقرأْ عليَّ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ أسمعُها منكَ ، وادعُ لي بدعواتٍ ، وأوصني بوصيةٍ أحفظُها عنكَ ؛ فإنِّي أحبُّكَ في اللهِ حبّاً شديداً .

قالَ : فقامَ وأخذَ بيدي علىٰ شاطىءِ الفراتِ ، ثمَّ قالَ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ثم بكىٰ ، ثمَّ قالَ : قالَ ربِّي ، وأحقُّ القولِ قولُهُ ، وأصدقُ الحديثِ حديثُهُ ، وأصدقُ الكلامِ كلامُهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حتَّى

انتهىٰ إلىٰ قولِهِ : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، فشهقَ شهقةً ظننتُ أنَّهُ قدْ غُشِيَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا بنَ حيَّانَ ؛ ماتَ أبوكَ حيَّانُ ، ويوشكُ أنْ تموتَ أنتَ ، فإمَّا إلىٰ جنَّةٍ وإمَّا إلىٰ نارٍ ، وماتَ أبوكَ آدمُ ، وماتَتْ أمُّكَ حواءُ ، وماتَ نوحٌ ، وماتَ إبراهيمُ خليلُ الرحمـٰنِ ، وماتَ موسىٰ نجيُّ الرحمـٰنِ ، وماتَ داوودُ خليفةُ الرحمـٰنِ ، وماتَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالمينَ ، وماتَ أبو بكرٍ خليفةُ المسلمينَ ، وماتَ أخي وصفيِّي عمرُ بنُ الخطابِ .

ثمَّ قالَ : يا عمراهُ يا عمراهُ، قالَ : فقلتُ : رحمَكَ اللهُ ؛ إنَّ عمرَ لمْ يمتْ ، قالَ : قدْ نعاهُ إليَّ ربِّي ، ونعىٰ إليَّ نفسِي ، ثمَّ قالَ : وأنا وأنتَ في الموتىٰ كأنَّهُ قدْ كانَ ، ثمَّ صلَّىٰ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ دعا بدعواتٍ خفيَّاتٍ .

ثمَّ قالَ : هـٰذهِ وصيَّتي إيَّاكَ يا هرمَ بنَ حيَّانَ ؛ كتابَ اللهِ ، ونعيَ الصالحينَ المؤمنينَ[1] ، فقدْ نُعيتْ إليَّ نفسِي ونفسُكَ ، عليكَ بذكرِ الموتِ لا يفارقُ قلبَكَ طرفةَ عينٍ ما بقيتَ ، وأنذرْ قومَكَ إذا رجعتَ إليهِمْ ، وانصحْ للأمةِ جميعاً ، وإيَّاكَ أنْ تفارقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ فتفارقَ دينَكَ وأنتَ لا تعلمُ ، فتدخلَ النارَ يومَ القيامةِ ، ادعُ لي ولنفسِكَ .

ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا يزعمُ أنَّهُ يحبُّنِي فيكَ ، وزارَني مِنْ أجلِكَ ،

---

(١) في (أ) : (وصيتي إياك ذكر الله تعالىٰ ، والصلاة على النبي عليه السلام ، ونعي المسلمين وغيرهم من الصالحين) ، وفي (ب) : (وسير نعي الصالحين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ١٢٦) : (ونهج الصالحين) بدل (ونعي الصالحين) .

فعرِّفْني وجهَهُ في الجنةِ ، وأدخلْهُ عليَّ في دارِكَ دارِ السلامِ ، واحفظْهُ ما دامَ في الدُّنيا حيّاً ، وضمَّ عليهِ ضيعتَهُ ، وأرضِهِ مِنَ الدُّنيا باليسيرِ ، وما أعطيتَهُ مِنَ الدُّنيا فيسِّرْهُ لهُ تيسيراً ، واجعلْهُ لما أعطيتَهُ مِنْ نعمائِكَ مِنَ الشاكرينَ ، واجزِهِ عنِّي خيرَ الجزاءِ .

ثمَّ قالَ : أستودعُكَ اللهَ يا هرمَ بنَ حيَّانَ ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ ، لا أراكَ بعدَ اليومِ ـ رحمَكَ اللهُ ـ تطلبُني ، فإنِّي أكرهُ الشهرةَ ، والوحدةُ أعجبُ إليَّ ؛ لأنِّي كثيرُ الهمِّ ، شديدُ الغمِّ معَ هؤلاءِ الناسِ ما دمتُ حيّاً ، فلا تسألْ عنِّي ولا تطلبْني ، واعلمْ أنَّكَ منِّي علىٰ بالٍ وإنْ لم أركَ ولمْ ترني؛ فاذكرْني ، وادعُ لي ؛ فإنِّي سأذكُرُكَ وأدعو لكَ إنْ شاءَ اللهُ ، انطلقْ أنتَ هٰهنا حتَّىٰ أنطلقَ أنا هٰهنا، فحرصتُ أنْ أمشيَ معَهُ ساعةً فأبىٰ عليَّ ، ففارقتُهُ ، فبكىٰ وأبكاني ، وجعلتُ أنظرُ في قفاهُ حتَّىٰ دخلَ بعضَ السككِ ، ثمَّ سألتُ عنْهُ بعدَ ذلكَ ، فما وجدتُ أحداً يخبرُني عنهُ بشيءٍ ، رحمَهُ اللهُ وغفرَ لهُ[1] .

فهكذا كانَتْ سيرةُ أبناءِ الآخرةِ المعرضينَ عنِ الدُّنيا ، وقدْ عرفتَ ممَّا

---

(١) روىٰ أجزاء الخبر ابن سعد في « طبقاته » (٨/ ٢٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٤) ، وهو بطوله ومرفوعه عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٣١ـ ٤٣٤) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٩٩) عن الحسن مرسلاً : « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر » ، قال الحسن : أويس القرني . وروى الترمذي (٢٤٣٩) عنه أيضاً مرسلاً : « يشفع عثمان بن عفان يوم القيامة بمثل ربيعة ومضر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً: «من المؤمنين من يدخل بشفاعته الجنة مثل ربيعة ومضر » ، ولم يسم رجلاً .

سبقَ في بيانِ الدُّنيا ، ومِنْ سيرةِ الأنبياءِ والأولياءِ : أنَّ حدَّ الدُّنيا كلُّ ما أظلَّتْهُ الخضراءُ ، وأقلَّتْهُ الغبراءُ ، إلا ما كانَ للهِ عزَّ وجلَّ مِنْ ذلكَ ، وضدُّ الدُّنيا الآخرةُ ، وهوَ كلُّ ما أُريدَ بهِ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ممَّا يُؤخذُ بقدْرِ الضرورةِ مِنَ الدُّنيا ؛ لأجلِ قوَّةِ طاعةِ اللهِ ، وذلكَ ليسَ مِنَ الدُّنيا .

❋ ❋ ❋

ونبيِّنُ هـٰذا بمثالٍ : وهوَ أنَّ الحاجَّ إذا حلفَ أنَّهُ في طريقِ الحجِّ لا يشتغلُ بغيرِ الحجِّ ، بلْ يتجرَّدُ لهُ ، ثمَّ اشتغلَ بحفظِ الزادِ ، وعلفِ الجملِ ، وخرزِ الراويةِ ، وكلِّ ما لا بدَّ للحجِّ منهُ . . لمْ يحنثْ في يمينِهِ ، ولمْ يكنْ مشغولاً بغيرِ الحجِّ ؛ فكذلكَ البدنُ مركَبُ النفسِ ، تُقطعُ بهِ مسافةُ العمرِ ، فتعهُّدُ البدنِ بما تبقىٰ بهِ قوَّتُهُ علىٰ سلوكِ الطريقِ بالعلمِ والعملِ هوَ مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا .

نعمْ ، إذا قصدَ تلذُّذَ البدنِ وتنعُّمَهُ بشيءٍ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ . . كانَ منحرفاً عنِ الآخرةِ ، ويُخشىٰ علىٰ قلبِهِ القسوةُ .

قالَ الطنافسيُّ : (كنتُ علىٰ بابِ بني شيبةَ في المسجدِ الحرامِ سبعةَ أيامٍ طاوياً ، فسمعتُ في الليلةِ الثامنةِ منادياً وأنا بينَ اليقظةِ والنومِ : ألا مَنْ أخذَ مِنَ الدُّنيا أكثرَ ممَّا يحتاجُ إليهِ أعمى اللهُ عينَ قلبِهِ)(١) .

فهـٰذا بيانُ حقيقةِ الدُّنيا في حقِّكَ ، فاعلمْ ذلكَ . . ترشدْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ٢٣٤) ولكن عن سمنون المحب .

بيان ماهية الدّنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتّى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلمْ : أنَّ الدُّنيا عبارةٌ عنْ أعيانٍ موجودةٍ ، وللإنسانِ فيها حظٌّ ، ولهُ في إصلاحِها شغلٌ ، فهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ قدْ يُظَنُّ أنَّ الدُّنيا عبارةٌ عنْ آحادِها ، وليسَ كذلكَ .

أمَّا الأعيانُ الموجودةُ التي الدُّنيا عبارةٌ عنها . . فهيَ الأرضُ وما عليها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، فالأرضُ فراشٌ للآدميِّينَ ومهادٌ ومسكنٌ ومستقرٌّ ، وما عليها لهُمْ ملبسٌ ومطعمٌ ومشربٌ ومنكحٌ .

ويجمعُ ما على الأرضِ ثلاثةُ أقسامٍ : المعادنُ ، والنباتُ ، والحيوانُ .

أمَّا النباتُ . . فيطلبُهُ الآدميُّ للاقتياتِ وللتداوي .

وأمَّا المعادنُ . . فيطلبُها الآدميُّ للآلاتِ والأواني ، كالنحاسِ والرصاصِ ، وللنقدِ ؛ كالذهبِ والفضةِ ، ولغيرِ ذلكَ مِنَ المقاصدِ .

وأمَّا الحيوانُ . . فينقسمُ إلى الإنسانِ والبهائمِ ، أمَّا البهائمُ . . فيطلبُ لحومَها للمآكلِ ، وظهورَها للمراكبِ والزينةِ ، وأمَّا الإنسانُ . . فقدْ يطلبُ الآدميُّ أنْ يملكَ أبدانَ الناسِ ليستخدمَهُمْ ويستسخرَهُمْ ؛ كالغلمانِ ، أو

ليتمتَّعَ بهِمْ ؛ كالجواري والنسوانِ ، ويطلبُ قلوبَ الناسِ ليملكَها ، بأنْ يغرسَ فيها التعظيمَ والإكرامَ ، وهوَ الذي يُعبَّرُ عنهُ بالجاهِ ؛ إذْ معنى الجاهِ : مِلْكُ قلوبِ الآدميِّينَ .

فهـٰذهِ هيَ الأعيانُ التي يُعبَّرُ عنها بالدُّنيا ، وقدْ جمعَها اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ وهـٰذا مِنَ الإنسِ ، ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ وهـٰذا مِنَ الجواهرِ والمعادنِ ، وفيهُ تنبيهٌ علىٰ غيرِها مِنَ اللآلىءِ واليواقيتِ وغيرِها ، ﴿ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهيَ البهائمُ والحيواناتُ ، ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ وهوَ النباتُ والزرعُ .

فهـٰذهِ هيَ أعيانُ الدُّنيا ، **إلا أنَّ لها معَ العبدِ علاقتينِ** :

علاقةٌ معَ القلبِ : وهوَ حبُّهُ لها ، وحظُّهُ مِنْها ، وانصرافُ همِّهِ إليها ، حتَّىٰ يصيرَ قلبُهُ كالعبدِ ، أوِ المحبِّ المستهترِ بالدُّنيا ، ويدخلُ في هـٰذهِ العلاقةِ جميعُ صفاتِ القلبِ المتعلِّقةِ بالدُّنيا ؛ كالكبرِ ، والغلِّ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والسمعةِ ، وسوءِ الظَّنِّ ، والمداهنةِ ، وحبِّ الثناءِ ، وحبِّ التكاثرِ والتفاخرِ ، وهـٰذهِ هيَ الدُّنيا الباطنةُ ، وأمَّا الظاهرةُ . . فهيَ الأعيانُ التي ذكرناها .

العلاقةُ الثانيةُ : **معَ البدنِ** : وهوَ اشتغالُهُ بإصلاحِ هـٰذهِ الأعيانِ لتصلحَ لحظوظِهِ وحظوظِ غيرِهِ ، وهيَ جملةُ الصناعاتِ والحرفِ التي الخلقُ مشغولونَ بها .

والخلقُ إنَّما نسوا أنفسَهُمْ ومآبَهُمْ ومنقلبَهُمْ بالدُّنيا لهاتينِ العلاقتينِ ؛ علاقةِ القلبِ بالحبِّ ، وعلاقةِ البدنِ بالشغلِ ، ولوْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، وعرفَ حكمةَ الدُّنيا وسرَّها . . علمَ أنَّ هٰذهِ الأعيانَ التي سمَّيناها دنيا لمْ تُخلق إلا لعلفِ الدابّةِ التي يسيرُ بها إلى اللهِ تعالىٰ ، وأعني بالدابةِ : البدنَ ؛ فإنَّهُ لا يبقىٰ إلا بمطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ ؛ كما لا يبقى الإبلُ في طريقِ الحجِّ إلاَّ بعلفٍ وماءٍ وجِلالٍ(١) .

ومثالُ العبدِ في الدُّنيا في نسيانِهِ نفسَهُ ومقصدَهُ مثالُ الحاجِّ الذي يقفُ في منازلِ الطريقِ ولا يزالُ يعلفُ الناقةَ ، ويتعهَّدُها وينظِّفُها ، ويكسوها ألوانَ الثيابِ ، ويحملُ إليها أنواعَ الحشيشِ ، ويبرِّدُ لها الماءَ بالثلجِ ، حتَّىٰ تفوتَهُ القافلةُ ، وهوَ غافلٌ عنِ الحجِّ وعنْ مرورِ القافلةِ ، وعنْ بقائِهِ في الباديةِ فريسةً للسباعِ هوَ وناقتُهُ ، والحاجُّ البصيرُ لا يهمُّهُ مِنْ أمرِ الجملِ إلاَّ القدْرُ الذي يقوىٰ بهِ على المشيِ ، فيتعهَّدُهُ وقلبُهُ إلى الكعبةِ والحجِّ ، وإنَّما يلتفتُ إلى الناقةِ بقدْرِ الضرورةِ ؛ فكذلكَ البصيرُ في سفرِ الآخرةِ لا يشتغلُ بتعهُّدِ البدنِ إلا بالضرورةِ ، كما لا يدخلُ بيتَ الماءِ إلا لضرورةٍ ، ولا فرقَ بينَ إدخالِ الطعامِ في البطنِ وبينَ إخراجِهِ مِنَ البطنِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ضرورةُ البدنِ ، ومَنْ همَّتُهُ ما يدخلُ بطنَهُ . . فقيمتُهُ ما يخرجُ منهُ ، وأكثرُ ما شغلَ الناسَ عنِ اللهِ هوَ البطنُ ؛ فإنَّ القوتَ ضروريٌّ ، وأمرُ المسكنِ

---

(١) جِلال : جمع جُل ، وهو ما يقي ظهره لئلا ينقبه الرحل . « إتحاف » (٨/ ١٢٨) .

والملبسِ أهونُ ، ولوْ عرفُوا سببَ الحاجةِ إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ واقتصروا عليها . . لمْ تستغرقْهُمْ أشغالُ الدُّنيا ، وإنَّما استغرقَتْهُمْ لجهلِهِمْ بالدُّنيا وحكمتِها وحظوظِهِمْ منها ، ولكنَّهُمْ جهلُوا وغفلوا ، وتتابعَتْ أشغالُ الدُّنيا عليهِمْ ، واتصلَ بعضُها ببعضٍ ، وتداعَتْ إلىٰ غيرِ نهايةٍ محدودةٍ ، فتاهوا في كثرةِ الأشغالِ ، ونسُوا مقصودَها .

* * *

ونحنُ نذكرُ **تفاصيلَ أشغالِ الدُّنيا** ، وكيفيةَ حدوثِ الحاجةِ إليها ، وكيفيةَ غلطِ الناسِ في مقاصدِها ؛ حتَّىٰ تتضحَ لكَ أشغالُ الدُّنيا كيفَ صرفَتِ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وكيفَ أنستْهُمْ عاقبةَ أمورِهِمْ ، فنقولُ :

الأشغالُ الدُّنيويَّةُ : هي الحِرَفُ ، والصناعاتُ ، والأعمالُ التي ترى الخلقَ منكبِّينَ عليها ، وسببُ كثرةِ الأشغالِ : هوَ أنَّ الإنسانَ مضطرٌّ إلىٰ ثلاثٍ : القوتِ ، والمسكنِ ، والملبسِ ، فالقوتُ للغذاءِ والبقاءِ ، والملبسُ لدفعِ الحرِّ والبردِ ، والمسكنُ لدفعِ الحرِّ والبردِ ولدفعِ أسبابِ الهلاكِ عنِ الأهلِ والمالِ ، ولمْ يخلقِ اللهُ القوتَ والمسكنَ والملبسَ مُصْلَحاً بحيثُ يُستغنىٰ عنْ صنعةِ الإنسانِ فيهِ ، نعمْ ، خلقَ اللهُ ذلكَ للبهائمِ ؛ فإنَّ النباتَ يغذِّي الحيوانَ مِنْ غيرِ طبخٍ ، والحرُّ والبردُ لا يؤثِّرُ في بدنِهِ ، فيستغني عنِ البناءِ ، ويقنعُ بالصحراءِ ، ولباسُها شعورُها وجلودُها ، فيستغني عنِ اللباسِ ، والإنسانُ ليسَ كذلكَ ، فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ خمسِ

صناعاتٍ، هيَ أصولُ الصناعاتِ، وأوائلُ الأشغالِ الدنيويّةِ ؛ وهيَ الفلاحةُ، والرعايةُ ، والاقتناصُ ، والحياكةُ ، والبناءُ .

أمَّا البناءُ.. فللمسكنِ ، والحياكةُ وما يكتنفُها مِنَ الغزلِ والخياطةِ.. فللملبسِ ، والفلاحةُ للمطعمِ ، والرعايةُ للمواشي والخيلِ أيضاً للمطعمِ والمركبِ ، والاقتناصُ نعني بهِ : تحصيلَ ما خلقَهُ اللهُ مِنْ صيدٍ ، أوْ معدنٍ ، أوْ حشيشٍ ، أوْ حطبٍ ، فالفلاحُ يحصِّلُ النباتَ ، والرَّاعي يحفظُ الحيواناتِ ويستنتجُها ، والمقتنصُ يحصِّلُ ما نبتَ ونتجَ بنفسِهِ مِنْ غيرِ صنعِ آدميٍّ ، وكذلكَ يأخذُ مِنْ معادنِ الأرضِ ما خُلِقَ فيها مِنْ غيرِ صنعةِ آدميٍّ ، ونعني بالاقتناصِ ذلكَ ، ويدخلُ تحتَهُ صناعاتٌ وأشغالٌ عدَّةٌ .

ثمَّ هٰذهِ الصناعاتُ تفتقرُ إلىٰ أدواتٍ وآلاتٍ ؛ كالحياكةِ ، والفلاحةِ ، والبناءِ ، والاقتناصِ ، والآلاتُ إنَّما تُؤخذُ إمَّا مِنَ النباتِ وهيَ الأخشابُ ، أوْ مِنَ المعادنِ كالحديدِ والرصاصِ وغيرِهِ ، أوْ مِنْ جلودِ الحيواناتِ ؛ فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ ثلاثةِ أنواعٍ أُخَرَ مِنَ الصناعاتِ ؛ وهيَ النِّجارةُ ، والحدادةُ ، والخَرْزُ ، وهؤلاءِ همْ عمَّالُ الآلاتِ ، ونعني بالنجَّارِ : كلَّ عاملٍ في الخشبِ كيفما كانَ ، وبالحدَّادِ : كلَّ مَنْ عمِلَ في جواهرِ المعادنِ حتَّى النَّحَّاسِ والإبْرِيِّ وغيرِهما ، وغرضُنا ذكرُ الأجناسِ ، فأمَّا آحادُ الحرفِ.. فكثيرةٌ ، وأمَّا الخرَّازُ.. فنعني بهِ : كلَّ عاملٍ في جلودِ الحيواناتِ وأجزائِها ، فهٰذهِ أمهاتُ الصناعاتِ .

ثمَّ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ بحيثُ لا يعيشُ وحدَهُ ، بلْ يُضطرُّ إلى الاجتماعِ معَ غيرِهِ مِنْ جنسِهِ ؛ وذلكَ لسببينِ :

أحدُهُما : حاجتُهُ إلى النسلِ لبقاءِ جنسِ الإنسانِ ، ولا يكونُ ذلكَ إلا باجتماعِ الذكرِ والأنثىٰ وعشرتِهِما .

والثاني : التعاونُ علىٰ تهيئةِ أسبابِ المطعمِ والملبسِ وتربيةِ الولدِ ، فإنَّ الاجتماعَ يفضي إلى الولدِ لا محالةَ ، والواحدُ لا يستقلُّ بحفظِ الولدِ وتهيئةِ أسبابِ القوتِ ، ثمَّ ليسَ يكفيهِ الاجتماعُ معَ الأهلِ والولدِ في المنزلِ ، بلْ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ كذلكَ ما لمْ تجتمعْ طائفةٌ كثيرةٌ ؛ ليتكفَّلَ كلُّ واحدٍ بصناعتِهِ ؛ فإنَّ الشخصَ الواحدَ كيفَ يتولَّى الفلاحةَ وحدَهُ وهوَ يحتاجُ إلىٰ آلاتِها ، وتحتاجُ الآلةُ إلىٰ حدادٍ ونجارٍ ، ويحتاجُ الطعامُ إلىٰ طحَّانٍ وخبَّازٍ ؟! وكذلكَ كيفَ ينفردُ بتحصيلِ الملبسِ وهوَ يفتقرُ إلىٰ حراثةِ القطنِ ، وآلاتِ الحياكةِ والخياطةِ ، وأعمالٍ كثيرةٍ ؟! فلذلكَ امتنعَ عيشُ الإنسانِ وحدَهُ ، وحدثَتِ الحاجةُ إلى الاجتماعِ .

ثمَّ لوِ اجتمعُوا في صحراءَ مكشوفةٍ . . لتأذَّوا بالحرِّ والبردِ والمطرِ واللصوصِ ؛ فافتقرُوا إلىٰ أبنيةٍ محكمةٍ ، ومنازلَ ينفردُ كلُّ أهلِ بيتٍ بهِ ، وبما معَهُ مِنَ الآلاتِ والأثاثِ ، والمنازلُ لدفعِ الحرِّ والبردِ والمطرِ ، ولدفعِ أذى الجيرانِ مِنَ اللصوصيَّةِ وغيرِها ، لكنَّ المنازلَ قدْ تقصِدُها جماعةٌ مِنَ اللصوصِ مِنْ خارجِ المنازلِ ، فافتقرَ أهلُ المنازلِ إلى التناصرِ والتعاونِ

والتحصُّنِ بسورٍ يحيطُ بجميعِ المنازلِ ، فحدثتِ البلادُ لهـٰذهِ الضرورةِ .

ثمَّ مهما اجتمعَ النَّاسُ في المنازلِ والبلادِ وتعاملُوا .. تولَّدَتْ بينَهُمْ خصوماتٌ ؛ إذْ تحدثُ رئاسةٌ وولايةٌ للزوجِ على الزوجةِ ، وولايةٌ للأبوينِ على الولدِ لأنَّهُ ضعيفٌ محتاجٌ إلىٰ قوَّامٍ بهِ ، ومهما حصلتِ الولايةُ علىٰ عاقلٍ .. أفضىٰ إلى الخصومةِ ، بخلافِ الولايةِ على البهائمِ ؛ إذْ ليسَ لها قوَّةُ المخاصمةِ وإنْ ظُلِمَتْ ، فأمَّا المرأةُ .. فتخاصمُ الزوجَ ، والولدُ يخاصمُ الأبوينِ ، هـٰذا في المنزلِ .

وأمَّا أهلُ البلدِ أيضاً .. فيتعاملُونَ في الحاجاتِ ، ويتنازعونَ فيها ، ولو تُركوا كذلكَ .. لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلكَ الرعاةُ وأربابُ الفلاحةِ يتواردونَ على المراعي والأراضي والمياهِ ، وهيَ لا تفي بكلِّ أغراضِهِمْ ، فيتنازعونَ لا محالةَ ، ثمَّ قدْ يعجزُ بعضُهُمْ عنِ الفلاحةِ والصناعةِ بعمىً أوْ مرضٍ أوْ هرمٍ ، وتعرضُ عوارضُ مختلفةٌ ، ولوْ تُرِكَ ضائعاً .. لهلكَ ، ولوْ وُكِّلَ تفقُّدُهُ إلى الجميعِ .. لتخاذلوا ، ولو خُصَّ واحدٌ مِنْ غيرِ سببٍ يخصُّهُ .. لكانَ لا يذعَنُ لهُ ؛ فحدثَ بالضرورةِ مِنْ هـٰذهِ العوارضِ الحاصلةِ بالاجتماعِ صناعاتٌ أخرىٰ ، فمِنْها صناعةُ المِساحةِ التي بها تُعرَفُ مقاديرُ الأرضِ ؛ لتمكنَ القسمةُ بينَهُمْ بالعدلِ ، ومِنْها صناعةُ الجنديَّةِ ؛ لحراسةِ البلدِ بالسيفِ ، ودفعِ اللصوصِ عنهُمْ ، ومِنْها صناعةُ الحُكمِ ، والتوصُّلِ لفصلِ الخصومةِ ، ومِنْها الحاجةُ إلى الفقهِ ، وهوَ معرفةُ القانونِ الذي ينبغي أنْ يُضبطَ بهِ الخلقُ ، ويُلْزموا الوقوفَ علىٰ حدودِهِ ، حتَّىٰ لا يكثرَ النزاعُ ، وهوَ

معرفةُ حدودِ اللهِ تعالىٰ في المعاملاتِ وشروطِها .

فهٰذهِ أمورٌ سياسيَّةٌ لا بدَّ مِنْها ، ولا يشتغلُ بها إلا مخصوصونَ بصفاتٍ مخصوصةٍ مِنَ العلمِ والتمييزِ والهدايةِ ، وإذا اشتغلوا بها . . لمْ يتفرَّغُوا لصناعةٍ أخرىٰ ، ويحتاجونَ إلى المعاشِ ، ويحتاجُ أهلُ البلدِ إليهِمْ ؛ إذْ لوِ اشتغلَ أهلُ البلدِ بالحربِ معَ الأعداءِ مثلاً . . تعطَّلَتِ الصناعاتُ ، ولوِ اشتغلَ أهلُ الحربِ والسلاحِ بالصناعاتِ لطلبِ القوتِ . . تعطَّلَتِ البلادُ عنِ الحرَّاسِ ، واستضرَّ الناسُ ؛ فمسَّتِ الحاجةُ إلىٰ أنْ يُصرفَ إلىٰ معايشِهِمْ وأرزاقِهِمُ الأموالُ الضائعةُ التي لا مالكَ لها إنْ كانَتْ ، أو تُصرفَ إليهِمُ الغنائمُ إنْ كانَتِ العداوةُ معَ الكفارِ ، فإنْ كانُوا أهلَ ديانةٍ وورعٍ . . قنعوا بالقليلِ مِنْ أموالِ المصالحِ ، وإنْ أرادوا التَّوسُّعَ . . فتمسُّ الحاجةُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ أنْ يمدَّهُمْ أهلُ البلدِ بأموالِهِمْ ؛ ليمدُّوهُمْ بالحراسةِ ، فتحدثُ الحاجةُ إلى الخراجِ .

ثمَّ يتولَّدُ بسببِ الحاجةِ إلى الخراجِ الحاجةُ إلىٰ صناعاتٍ أخرَ ؛ إذْ يُحتاجُ إلىٰ مَنْ يوظِّفُ الخراجَ بالعدلِ على الفلاحينَ وأربابِ الأموالِ ، وهمُ العمالُ ، وإلىٰ مَنْ يستوفي مِنْهُمْ بالرفقِ ، وهمُ الجباةُ والمستخرجونَ ، وإلىٰ مَنْ يُجمَعُ عندَهُ ليحفظَهُ إلىٰ وقتِ التفرقةِ ، وهمُ الخُزَّانُ ، وإلىٰ مَنْ يفرِّقُ عليهِمْ بالعدلِ ، وهوَ الفارضُ للعساكرِ .

وهٰذهِ الأعمالُ لوْ تولاها عددٌ لا تجمعُهُمْ رابطةٌ . . انخرمَ النِّظامُ ،

فحدثَتْ منهُ الحاجةُ إلىٰ مَلِكٍ يدبِّرُهُمْ ، وأميرٍ مطاعٍ يعيِّنُ لكلِّ عملٍ شخصاً ، ويختارُ لكلِّ واحدٍ ما يليقُ بهِ ، ويراعي النصَفَةَ في أخذِ الخراجِ وإعطائِهِ ، واستعمالِ الجندِ في الحربِ ، وتوزيعِ أسلحتِهِمْ ، وتعيينِ جهاتِ الحربِ ، ونصبِ الأميرِ والقائدِ علىٰ كلِّ طائفةٍ منهُمْ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ صناعاتِ الملكِ ، فيحدثُ مِنْ ذلكَ ـ بعدَ الجندِ الذينَ هُمْ أهلُ السلاحِ ، وبعدَ الملكِ الذي يراقبُهُمْ بالعينِ الكالئةِ ويدبِّرُهُمْ ـ الحاجةُ إلى الكُتَّابِ ، والخزَّانِ ، والحسَّابِ ، والجباةِ ، والعمَّالِ .

ثمَّ هؤلاءِ أيضاً يحتاجونَ إلىٰ معيشةٍ ، ولا يمكنُهُمُ الاشتغالُ بالحرَفِ ، فتحدُثُ الحاجةُ إلىٰ مالِ الفرعِ معَ مالِ الأصلِ ، وهوَ المسمَّىٰ فرعَ الخراجِ .

وعندَ هـٰذا يكونُ النَّاسُ في الصناعاتِ ثلاثَ طوائفَ :

الأولىٰ : الفلاحونَ ، والرعاةُ ، والمحترفونَ .

والثانيةُ : الجنديَّةُ الحماةُ لهُمْ بالسيوفِ .

والثالثةُ : المتردِّدونَ بينَ الطائفتينِ في الأخذِ والعطاءِ ، وهمُ العمَّالُ ، والجباةُ ، وأمثالُهُمْ .

فانظرْ كيفَ ابتدأَ الأمرُ مِنْ حاجةِ القوتِ والمسكنِ والملبسِ ، وإلىٰ ماذا انتهىٰ ، وهـٰكذا أمورُ الدُّنيا لا يُفتحُ منها بابٌ إلا وينفتحُ بسببِهِ عشرةُ أبوابٍ أخرَ ، وهـٰكذا تتناهىٰ إلىٰ غيرِ حدٍّ محصورٍ ، وكأنَّها هاويةٌ لا نهايةَ لعمقِها ، مَنْ وقعَ في مهواةٍ منها . سقطَ منها إلىٰ أُخرىٰ ، وهـٰكذا على التَّوالي .

فهٰذهِ هيَ الحرفُ والصناعاتُ ، إلا أنَّها لا تتمُّ إلا بالأموالِ والآلاتِ ، والمالُ عبارةٌ عنْ أعيانِ الأرضِ وما عليها ممَّا يُنتفعُ بهِ ، وأعلاها الأغذيةُ ، ثمَّ الأمكنةُ التي يأوي الإنسانُ إليها ، وهيَ الدورُ ، ثمَّ الأمكنةُ التي يسعىٰ فيها للتعيُّشِ ؛ كالحوانيتِ ، والأسواقِ ، والمزارعِ ، ثمَّ الكسوةُ ، ثمَّ أثاثُ البيتِ وآلاتُهُ ، ثم آلاتُ الآلاتِ ، وقدْ يكونُ في الآلاتِ ما هوَ حيوانٌ ؛ كالكلبِ آلةِ الصيدِ ، والبقرِ آلةِ الحراثةِ ، والفرسِ آلةِ الحربِ ، ثمَّ يحدثُ مِنْ ذلكَ حاجةُ البيعِ ، فإنَّ الفلاَّحَ رُبَّما يسكنُ قريةً ليسَ فيها آلةُ الفلاحةِ ، والحدَّادُ والنَّجارُ يسكنانِ قريةً لا يمكنُ فيها الزراعةُ ؛ فبالضرورةِ يحتاجُ الفلاحُ إليهما ، ويحتاجانِ إلى الفلاَّحِ ، فيحتاجُ أحدُهُما أنْ يبذلَ ما عندَهُ للآخرِ حتَّىٰ يأخذَ منهُ غرضَهُ ، وذلكَ بطريقِ المعاوضةِ .

إلا أنَّ النَّجارَ مثلاً إذا طلبَ مِنَ الفلاَّحِ الغذاءَ بآلتِهِ ربَّما لا يحتاجُ الفلاحُ في ذلكَ الوقتِ إلى الآلةِ ؛ فلا يبيعُهُ ، والفلاحُ إذا طلبَ الآلةَ مِنَ النَّجارِ بالطعامِ ربَّما كانَ عندَهُ طعامٌ في ذلكَ الوقتِ ؛ فلا يحتاجُ إليهِ ، فتتعوَّقُ الأغراضُ ، فاضطُرُّوا إلىٰ حانوتٍ يجمعُ آلةَ كلِّ صناعةٍ يترصَّدُ بها صاحبُها أربابَ الحاجاتِ ، وإلىٰ أنبارٍ يُجمَعُ إليها ما يحملُهُ الفلاحونَ ، فيشتريهِ منهُمْ صاحبُ الأنبارِ[1] يترصَّدُ بهِ أربابَ الحاجاتِ ، فظهرَ لذلكَ الأسواقُ والمخازنُ ، فيحملُ الفلاحُ الحبوبَ ، فإذا لمْ يصادفْ محتاجاً . . باعَها

---

(١) في (ب) : (أبيات) و(الأبيات) بدل (أنبار) و(الأنبار) .

بثمنٍ رخيصٍ مِنَ الباعةِ ، فيخزِّنونَها في انتظارِ أربابِ الحاجاتِ ؛ طمعاً في الربحِ ، وكذلكَ في جميعِ الأمتعةِ والأموالِ .

ثمَّ يحدثُ ـ لا محالةَ ـ بينَ البلادِ والقرىٰ تردُّدٌ ، فيتردَّدُ الناسُ يشترونَ مِنَ القرى الأطعمةَ ، ومِنَ البلادِ الآلاتِ ، وينقلونَها ويتعيَّشونَ بهَا ؛ لتنتظمَ أمورُ الناسِ في البلادِ بسبَبِهِمْ ؛ إذْ كلُّ بلدٍ ربما لا تُوجدُ فيهِ كلُّ آلةٍ ، وكلُّ قريةٍ لا يُوجدُ فيها كلُّ طعامٍ ، والبعضُ يحتاجُ إلى البعضِ ، فيحوجُ إلى النَّقلِ ، فيَحدُثُ التجَّارُ المتكلِّفونَ بالنقلِ ، وباعثُهُمْ عليهِ حرصُ جمعِ المالِ لا محالةَ ، فيتعبونَ طولَ الليلِ والنهارِ في الأسفارِ لأغراضِ غيرِهِمْ ، ونصيبُهُمْ منها جمعُ المالِ الذي يأكلُهُ ـ لا محالةَ ـ غيرُهُمْ ، إمَّا قاطعُ طريقٍ ، وإمَّا سلطانٌ ظالمٌ ، ولكنْ جعلَ اللهُ تعالىٰ في غفلتِهِمْ وجهلِهِمْ نظاماً للبلادِ ، ومصلحةً للعبادِ ، بلْ جميعُ أمورِ الدُّنيا انتظمَتْ بالغفلةِ وخسَّةِ الهمَّةِ ، ولوْ عقلَ الناسُ وارتفعَتْ هممُهُمْ . . لزهدوا في الدُّنيا ، ولوْ فعلوا ذلكَ . . لبطلتِ المعايشُ ، ولوْ بطلَتْ . . لهلكوا ، ولهلكَ الزُّهادُ أيضاً .

ثمَّ هـٰذهِ الأموالُ التي تُنقلُ لا يقدرُ الإنسانُ علىٰ حملِها ؛ فتحتاجُ إلىٰ دوابَّ تحملُها ، وصاحبُ المالِ قدْ لا يملكُ دابةً ، فتحدثُ معاملةٌ بينَهُ وبينَ مالكِ الدابَّةِ تُسمَّى الإجارةَ ، ويصيرُ الكراءُ نوعاً مِنَ الاكتسابِ أيضاً .

ثمَّ تحدثُ بسببِ البِياعاتِ الحاجةُ إلى النقدينِ[1] ؛ فإنَّ مَنْ يريدُ أنْ

---

(١) البياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة .

يشتريَ طعاماً بثوبٍ . فمِنْ أينَ يدري أنَّ المقدارَ الذي يساويهِ مِنَ الطعامِ كمْ هوَ ؟ والمعاملةُ تجري في أجناسٍ مختلفةٍ ؛ كما يُباعُ ثوبٌ بطعامٍ ، وحيوانٌ بثوبٍ ، وهٰذهِ أمورٌ لا تتناسبُ ؛ فلا بدَّ مِنْ حاكمٍ عدلٍ يتوسَّطُ بينَ المتاعينِ ، يعدِّلُ أحدَهُما بالآخرِ ، فيُطلَبُ ذلكَ العدْلُ مِنْ أعيانِ الأموالِ .

ثمَّ يُحتاجُ إلىٰ مالٍ يطولُ بقاؤُهُ ؛ لأنَّ الحاجةَ إليهِ تدومُ ، وأبقى الأموالِ المعادنُ ؛ فاتخذَتِ النقودُ مِنَ الذهبِ والفضةِ والنحاسِ .

ثمَّ مسَّتِ الحاجةُ إلى الضربِ والنَّقشِ والتقديرِ ؛ فحدثَتِ الحاجةُ إلىٰ دارِ الضرْبِ وإلى الصيارفةِ .

وهكذا تتداعى الأشغالُ والأعمالُ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، حتَّى انتهَتْ إلىٰ ما تراهُ .

فهٰذهِ أشغالُ الخلقِ ، وهيَ معايشُهُمْ .

وشيءٌ مِنْ هٰذهِ الحِرَفِ لا يمكنُ مباشرتُهُ إلا بنوعِ تعلُّمٍ وتعبٍ في الابتداءِ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يغفُلُ عنْ ذلكَ في الصِّبا فلا يشتغلُ بهِ ، أوْ يمنعُهُ عنهُ مانعٌ ، فيبقىٰ عاجزاً عنِ الاكتسابِ ؛ لعجزِهِ عنِ الحرفِ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يأكلَ ممَّا يسعىٰ فيهِ غيرُهُ ، فتحدثُ منهُ حرفتانِ خسيستانِ : اللصوصيَّةُ ، والكِديةُ[1] ؛ إذْ يجمعُهُما أنَّهما يأكلانِ مِنْ سعيِ غيرِهِما .

ثم إنَّ الناسَ يحترزونَ مِنَ اللصوصِ والمكدينَ ، ويحفظونَ عنهُمْ

---

(١) الكِدية : هي الشحاذة ؛ أي : التكفف من الناس . « إتحاف » (٨/ ١٣٥) .

أموالَهُمْ ، فافتقرُوا إلىٰ صرفِ عقولِهِمْ في استنباطِ الحيلِ والتدابيرِ ، أمَّا اللصوصُ . . فمنهُمْ مَنْ يطلبُ أعواناً ، ويكونُ في يديهِ شوكةٌ وقوَّةٌ ، فيجتمعونَ ويتكاثرونَ ويقطعونَ الطرقَ ؛ كالأعرابِ والأكرادِ ، وأمَّا الضعفاءُ منهُمْ . . فيفزعونَ إلى الحيَلِ ؛ إمَّا بالنقبِ والتسلُّقِ عندَ انتهازِ فرصةِ الغفلةِ ، وإمَّا بأنْ يكونَ طرَّاراً أو سلاَّلاً[1] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ التلصُّصِ الحادثةِ بحسبِ ما أنتجَتْهُ الأفكارُ المصروفةُ إلى استنباطِها .

وأمَّا المُكدي : فإنَّهُ إذا طلبَ ما سعىٰ فيهِ غيرُهُ . . قيلَ لهُ : اتعبْ واعملْ كما عملَ غيرُكَ ، فما لكَ وللبطالةِ ؟! فلا يُعطىٰ شيئاً ، فافتقرَ إلىٰ حيلةٍ في استخراجِ الأموالِ وتمهيدِ العذرِ لأنفسِهِمْ في البطالةِ ، فاحتالُوا للتعلُّلِ بالعجْزِ ؛ إمَّا بالحقيقةِ ؛ كجماعةٍ يعمونَ أولادَهُمْ وأنفسَهُمْ بالحيلةِ ليُعذروا بالعمىٰ فيُعطَونَ ، وإمَّا بالتعامي ، والتفالجِ ، والتجانُنِ ، والتمارضِ وإظهارِ ذلكَ بأنواعٍ مِنَ الحيَلِ معَ بيانِ أنَّ تلكَ محنةٌ أصابَتْ مِنَ غيرِ استحقاقٍ ، ليكونَ ذلكَ سببَ الرحمةِ .

وجماعةٌ يلتمسونَ أقوالاً وأفعالاً يتعجَّبُ الناسُ مِنْها حتَّىٰ تنبسطَ قلوبُهُمْ عندَ مشاهدَتِها ، فيسخوا برفعِ اليدِ عنْ قليلٍ مِنَ المالِ في حالِ التعجُّبِ ، ثمَّ قدْ يندمُ بعدَ زوالِ التعجُّبِ ، ولا ينفعُ الندمُ ، وذلكَ قدْ يكونُ بالتمسخرِ ،

---

(١) الطرار : هو الذي يقطع النفقات ويأخذها علىٰ غفلة من أهلها ، والسلال : المختلس . « إتحاف » (٨/ ١٣٥) .

والمحاكاةِ ، والشعبذةِ ، والأفعالِ المضحكةِ ، وقدْ يكونُ بالأشعارِ الغريبةِ ، والكلامِ المنثورِ المسجعِ معَ حسنِ الصوتِ ، والشعرُ الموزونُ أشدُّ تأثيراً في النفسِ ، لا سيَّما إذا كانَ فيهِ تعصُّبٌ يتعلَّقُ بالمذاهبِ ؛ كأشعارِ مناقبِ الصحابةِ ، وفضائلِ أهلِ البيتِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، أوِ الذي يحرِّكُ داعيةَ العشقِ مِنْ أهلِ المجانةِ ؛ كصنعةِ الطبَّالينَ في الأسواقِ ، أوْ تسليمِ ما يشبهُ العوضَ وليسَ بعوضٍ ؛ كبيعِ التعويذاتِ والحشائشِ التي يخيِّلُ بائعُها أنَّها أدويةٌ ، فيخدعُ بذلكَ الصبيانَ والجهَّالَ ، وكأصحابِ القرعةِ والفألِ مِنَ المنجِّمينَ ، ويدخلُ في هاذا الجنسِ الوعَّاظُ المكدونَ علىٰ رؤوسِ المنابرِ ، إذا لمْ يكنْ وراءَهُمْ طائلٌ علميٌّ ، وكانَ غرضُهُمْ استمالةَ قلوبِ العوامِّ وأخذَ أموالِهِمْ ، وأنواعُ الكديةِ تزيدُ على ألفِ نوعٍ وألفينِ ، وكلُّ ذلكَ استنبطَ بدقيقِ الفكرِ لأجلِ المعيشةِ .

فهاذهِ هيَ أشغالُ الخلقِ وأعمالُهُمُ التي أكبُّوا عليها ، وجرَّهُمْ إلىٰ ذلكَ كلِّهِ الحاجةُ إلى القوتِ والكسوةِ ، ولكنْ نسوا في أثناءِ ذلكَ أنفسَهُمْ ومقصودَهُمْ ومنقلبَهُمْ ومآبَهُمْ ، فضلُّوا وتاهُوا ، وسبقَ إلىٰ عقولِهِمُ الضعيفةِ بعدَ أنْ كدَّرَتْها زحمةُ أشغالِ الدُّنيا خيالاتٌ فاسدةٌ ، فانقسمَتْ مذاهبُهُمْ ، واختلفَتْ آراؤُهُمْ علىٰ عدَّةِ أوجهٍ :

فطائفةٌ غلبَهُمُ الجهلُ والغفلةُ ، فلمْ تنفتحْ أعينُهُمْ للنظرِ إلىٰ عاقبةِ أمرِهِمْ ، فقالوا : المقصودُ أنْ نعيشَ أياماً في الدُّنيا ، فنجتهدَ حتَّىٰ نكتسبَ القوتَ ، ثمَّ نأكلَ حتَّىٰ نقوىٰ على الكسبِ ، ثمَّ نكتسبَ حتَّىٰ نأكلَ ،

فيأكلونَ ليكسِبوا ، ثمَّ يكسِبونَ ليأكلُوا ، وهٰذا مذهبُ الفلاحينَ والمحترفينَ ، ومَنْ ليسَ لهُ تنعُّمٌ في الدُّنيا ، ولا قدمٌ في الدِّينِ ؛ فإنَّهُ يتعبُ نهاراً ليأكلَ ليلاً ، ويأكلُ ليلاً ليتعبَ نهاراً ، وذلكَ كسيرِ السَّواني[1] ؛ فهوَ سفرٌ لا ينقطعُ إلا بالموتِ .

وطائفةٌ أخرىٰ زعمُوا أنَّهُم تفطَّنُوا للأمرِ ، وهوَ أنَّهُ ليسَ المقصودُ أنْ يشقى الإنسانُ بالعملِ ولا يتنعمَ في الدُّنيا ، بلِ السعادةُ في أنْ يقضيَ وطرَهُ مِنْ شهواتِ الدُّنيا ، وهيَ شهوةُ البطنِ والفرجِ ؛ فهؤلاءِ نسوا أنفسَهُمْ ، وصرفوا هممَهُمْ إلى اتباعِ النسوانِ ، وجمعِ لذائذِ الأطعمةِ ، فيأكلونَ كما تأكلُ الأنعامُ ، ويظنونَ أنَّهُمْ إذا نالوا ذلكَ . . فقدْ أدركُوا غايةَ السعاداتِ ، فشغلَهُمْ ذلكَ عنِ اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في كثرةِ المالِ ، والاستغناءِ بكثرةِ الكنوزِ ، فأسهرُوا ليلَهُمْ ، وأتعبُوا نهارَهمْ في الجمعِ ، فهُمْ يتعبونَ في الأسفارِ طولَ الليلِ والنهارِ ، ويتردَّدونَ في الأعمالِ الشاقةِ ، ويكتسبونَ ويجمعونَ ، ولا يأكلونَ إلا قدْرَ الضرورةِ ؛ شحّاً وبخلاً عليها أنْ تنقصَ ، وهٰذهِ لذَّتهُمْ ، وفي ذلكَ دأبُهُمْ وحركتُهُمْ إلىٰ أنْ يدركَهُمُ الموتُ ، فيبقىٰ تحتَ الأرضِ ، أوْ يظفرُ بهِ مَنْ يأكلُهُ في الشهواتِ واللذَّاتِ ، فيكونُ للجامعِ

(١) **السواني** : جمع سانية ، الناقة تدور ويستسقىٰ عليها الماء ، وفي المثل : سير السواني سفر لا ينقطع .

تعبُها ووبالُها ، وللآكل لذتُها ، ثمَّ الذينَ يجمعونَ ينظرونَ إلىٰ أمثالِ ذلكَ ولا يعتبرونَ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في حُسنِ الاسمِ ، وانطلاقِ الألسنةِ بالثناءِ ، والمدحِ بالتجمُّلِ والمروءةِ ، فهؤلاءِ يتعبونَ في كسبِ المعاشِ ، ويضيِّقونَ علىٰ أنفسِهِمْ في المطعمِ والمشربِ ، ويصرفونَ جميعَ أموالِهِمْ إلى الملابسِ الحسنةِ ، والدوابِّ النفيسةِ ، ويزخرفونَ أبوابَ الدورِ ، وما يقعُ عليهِ أبصارُ الناسِ ؛ حتَّىٰ يُقالَ : إنَّهُ غنيٌّ ، وإنَّهُ ذو ثروةٍ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ هوَ السعادةُ ، فهمَّتُهُمْ ليلَهُمْ ونهارَهُمْ في تعهُّدِ موقعِ نظرِ الناسِ .

وطائفةٌ أخرىٰ ظنُّوا أنَّ السعادةَ في الجاهِ والكرامةِ بينَ الناسِ وانقيادِ الخلقِ بالتواضعِ والتوقيرِ ؛ فصرفُوا هممَهُمْ إلى استجرارِ الناسِ إلى الطاعةِ بطلبِ الولاياتِ ، وتقلُّدِ الأعمالِ السلطانيةِ ؛ لينفذَ أمرُهُمْ بها علىٰ طائفةٍ مِنَ الناسِ ، ويرونَ أنَّهُمْ إذا اتسعَتْ ولايتُهُمْ ، وانقادَتْ لهُمْ رعاياهُمْ . فقدْ سعدوا سعادةً عظيمةً ، وأنَّ ذلكَ غايةُ المطلبِ ، وهـٰذهِ أغلبُ الشهواتِ علىٰ قلوبِ المتعاقلينَ مِنَ الناسِ(١) ، فهؤلاءِ شغلَهُمْ حبُّ تواضعِ الناسِ لهُمْ عنِ التواضعِ للهِ ، وعنْ عبادتِهِ ، وعنِ التفكرِ في آخرتِهِمْ ومعادِهِمْ .

ووراءَ هؤلاءِ طوائفُ يطولُ حصرُها ، تزيدُ علىٰ نيفٍ وسبعينَ فرقةً ،

---

(١) في (د) : (المتغافلين) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ١٣٦) : (الغافلين) بدل (المتعاقلين) .

كلُّهُمْ قدْ ضَلُّوا وأضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ ، وإنَّما جرَّهُم إلىٰ جميعِ ذلكَ حاجةُ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ ، ونسوا ما تُرادُ لهُ هـٰذهِ الأمورُ الثلاثةُ ، والقدْرَ الذي يكفي منها ، وانجرَّتْ بهِمْ أوائلُ أسبابِها إلىٰ أواخرِها ، وتداعىٰ بهِمْ ذلكَ إلىٰ مهاوٍ لمْ يمكنْهُمُ التَّرقِّي منها .

فمَنْ عرفَ وجهَ الحاجةِ إلىٰ هـٰذهِ الأسبابِ والأشغالِ ، وعرفَ غايةَ المقصودِ منها . . فلا يخوضُ في شغلٍ وحرفةٍ وعملٍ إلا وهوَ عالمٌ بمقصودِهِ ، وعالمٌ بحظِّهِ ونصيبِهِ منهُ ، وأنَّ غايةَ مقصودِهِ تعهُّدُ بدنِهِ بالقوتِ والكسوةِ حتَّىٰ لا يهلكَ .

وذلكَ إنْ سلكَ فيهِ سبيلَ التقليلِ . . اندفعَتِ الأشغالُ عنهُ ، وفرغَ القلبُ ، وغلبَ عليهِ ذكرُ الآخرةِ ، وانصرفَتِ الهمَّةُ إلى الاستعدادِ لهُ ، وإنْ تعدَّىٰ بهِ قدْرَ الضرورةِ . . كثرَتِ الأشغالُ ، وتداعى البعضُ إلى البعضِ ، وتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، فتشعَّبَتْ بهِ الهمومُ ، ومَنْ تشعَّبَتْ بهِ الهمومُ في أوديةِ الدُّنيا . . فلا يبالي اللهُ تعالىٰ في أيِّ وادٍ أهلكَهُ(١) .

فهـٰذا شأنُ المنهمكينَ فِي أشغالِ الدُّنيا .

وتنبَّهَ لذلكَ طائفةٌ ، فأعرضُوا عنِ الدُّنيا ، فحسدَهُمُ الشيطانُ ، ولمْ يتركْهُمْ ، وأضلَّهُمْ في الإعراضِ أيضاً ، حتَّى انقسمُوا إلىٰ طوائفَ :

---

(١) فقد روى ابن ماجه (٢٥٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من جعل الهموم هماً واحداً همَّ الآخرة . . كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعَّبت به الهموم في أحوال الدنيا . . لم يبال الله في أي أوديتها هلك » .

فظنَّتْ طائفةٌ أنَّ الدُّنيا دارُ بلاءٍ ومحنةٍ ، وأنَّ الآخرةَ دارُ سعادةٍ لكلِّ مَنْ وصلَ إليها ، سواءٌ تعبَّدَ في الدُّنيا أوْ لمْ يتعبَّدْ ؛ فرأَوا أنَّ الصوابَ في أنْ يقتلوا أنفسَهُمْ ؛ للخلاصِ مِنْ محنةِ الدُّنيا .

وإليهِ ذهبَ طائفةٌ منَ العبَّادِ مِنْ أهلِ الهندِ بلْ طوائفُ[1] ، فهُمْ يتهجَّمُونَ على النارِ ويقتلونَ أنفسَهُمْ بالإحراقِ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ خلاصٌ لهُمْ مِنْ محنِ الدُّنيا .

وظنَّتْ طائفةٌ أخرىٰ أنَّ القتلَ لا يخلِّصُ ، بلْ لا بدَّ أوَّلاً مِنْ إماتةِ الصفاتِ البشريةِ ، وقطعِها عنِ النفسِ بالكلِّيَّةِ ، وأنَّ السعادةَ في قطعِ الشهوةِ والغضبِ .

ثمَّ أقبلوا على المجاهدةِ ، وشدَّدُوا علىٰ أنفسِهِمْ ، حتَّىٰ هلَكَ بعضُهُمْ بشدَّةِ الرياضةِ ، وبعضُهُمْ فسدَ عقلُهُ وجُنَّ ، وبعضُهُمْ مرضَ وانسدَّ عليهِ طريقُ العبادةِ ، وبعضُهُمْ عجزَ عنْ قمعِ الصفاتِ بالكلِّيَّةِ ، فظنَّ أنَّ ما كلَّفَهُ الشرعُ محالٌ ، وأنَّ الشرعَ تلبيسٌ لا أصلَ لهُ ، فوقعَ في الإلحادِ .

وظهرَ لبعضِهِمْ أنَّ هـٰذا التعبَ كلَّهُ للهِ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ مستغنٍ عنْ عبادةِ العبادِ ، لا ينقصُهُ عصيانُ عاصٍ ، ولا تزيدُهُ عبادةُ عابدٍ ، فعادُوا إلى الشهواتِ ، وسلكُوا مسلكَ الإباحةِ ، وطوَوا بساطَ الشرعِ والأحكامِ .

---

(١) هم البراهمة المعروفة بالجركية . « إتحاف » (٨/ ١٣٨) .

وزعمُوا أنَّ ذلكَ مِنْ صفاءِ توحيدِهِمْ ، حيثُ اعتقدُوا أنَّ اللهَ مستغنٍ عنْ عبادةِ العبادِ .

وظنَّتْ طائفةٌ أخرىٰ أنَّ المقصودَ مِنَ العباداتِ المجاهدةُ حتَّىٰ يصلَ العبدُ بها إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإذا حصلَتِ المعرفةُ . . فقدْ وصلَ ، وبعدَ الوصولِ يستغني عنِ الوسيلةِ والحيلةِ .

فتركُوا السعيَ والعبادةَ ، وزعمُوا أنَّهُ ارتفعَ محلُّهُمْ في معرفةِ اللهِ سبحانَهُ عنْ أنْ يُمتهَنوا بالتكاليفِ ، وإنَّما التكاليفُ علىٰ عوامِّ الخلقِ .

ووراءَ هـٰذا مذاهبُ باطلةٌ ، وضلالاتٌ هائلةٌ يطولُ إحصاؤُها ، إلىٰ أنْ تبلغَ نيفاً وسبعينَ فرقةً .

وإنَّما الناجي مِنْها فرقةٌ واحدةٌ ، وهيَ السالكةُ ما كانَ عليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ .

وهوَ ألاَّ يتركَ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ ، ولا يقمعَ الشهواتِ بالكلِّيَّةِ .

أمَّا الدُّنيا . . فيأخذُ مِنها قدْرَ الزادِ .

وأمَّا الشهواتُ . . فيقمعُ مِنْها ما يخرجُ عنْ طاعةِ الشرعِ والعقلِ ؛ فلا يتبعُ كلَّ شهوةٍ ، ولا يتركُ كلَّ شهوةٍ ، بلْ يتبعُ العدلَ ، ولا يتركُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنيا ، ولا يطلبُ كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنيا .

بلْ يعلمُ مقصودَ كلِّ ما خلقَ اللهُ مِنَ الدُّنيا ، ويحفظُهُ علىٰ حدِّ مقصودِهِ ، فيأخذُ مِنَ القوتِ ما يقوِّي بهِ البدنَ على العبادةِ ، ومِنَ المسكنِ ما يحفظُهُ مِنَ

اللصوصِ والحرِّ والبردِ ، ومِنَ الكسوةِ كذلكَ ، حتَّىٰ إذا فرغَ القلبُ مِنْ شغلِ البدنِ . . أقبلَ على اللهِ تعالىٰ بكُنْهِ همَّتِهِ ، واشتغلَ بالذكرِ والفكرِ طولَ العمرِ ، وبقيَ ملازماً لسياسةِ الشهواتِ ، ومراقباً لها حتَّىٰ لا يجاوزَ حدودَ الورعِ والتقوىٰ .

ولا يعلمُ تفصيلَ ذلكَ إلا بالاقتداءِ بالفرقةِ الناجيةِ .

والفرقةُ الناجيةُ : هُمُ الصحابةُ ؛ فإنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قالَ : « النَّاجي منها واحدةٌ » . . قالُوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : « أهلُ السنَّة والجماعةِ » ، فقيلَ : ومَنْ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ ؟ قالَ : « ما أنا عليهِ وأصحابِي »[١] .

وقدْ كانُوا على المنهجِ القصْدِ ، وعلى السبيلِ الواضحِ الذي فصَّلناهُ مِنْ قبلُ .

فإنَّهُمْ ما كانوا يأخذونَ الدُّنيا للدُّنيا ، بلْ للدِّينِ .

---

(١) وهو الحديث الذي رواه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أمه علانية . . لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة » ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .
وعند أبي داوود (٤٥٩٧) من حديث معاوية رضي الله عنه بنحوه ، وفيه : « وهي الجماعة » ، والكلام علىٰ هـٰذا الحديث طويل الذيل عند المحدثين وعلماء الكلام ، وانظر « الإتحاف » (٨/ ١٤٠) .

وما كانوا يترهَّبونَ ويهجرونَ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ .

وما كانَ لهُمْ في الأمورِ تفريطٌ ولا إفراطٌ ، بلْ كانَ أمرُهُمْ بينَ ذلكَ قَواماً ، وذلكَ هوَ العدْلُ والوسطُ بينَ الطرفينِ ، وهو أحبُّ الأمورِ إلى اللهِ تعالىٰ كما سبقَ ذكرُهُ في مواضعَ ، واللهُ أعلمُ .

والحمدُ للهِ أولاً وآخراً ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

* * *

تمّ كتاب ذمّ الدنيا

وهو الكتاب السّادس من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

وصلّى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ العربيّ المصطفى وعلى آله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذمّ المال والبخل

كتاب

ذم المال والبخل

وهو الكتاب السّابع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب ذمّ المال والبخل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ مستوجبِ الحمدِ برزقِهِ المبسوطِ ، وكاشفِ الضُّرِّ بعدَ القنوطِ ، الذي خلقَ الخلقَ ووسَّعَ الرزقَ ، وأفاضَ على العالمينَ أصنافَ الأموالِ ، وابتلاهُمْ فيها بتقلُّبِ الأحوالِ ، وردَّدَهُمْ فيها بينَ العُسرِ واليُسرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والطمعِ واليأسِ ، والثروةِ والإفلاسِ ، والعجزِ والاستطاعةِ ، والحرصِ والقناعةِ ، والبخلِ والجودِ ، والفرحِ بالموجودِ ، والأسفِ على المفقودِ ، والإيثارِ والإنفاقِ ، والتوسُّعِ والإملاقِ ، والتبذيرِ والتقتيرِ ، والرضا بالقليلِ ، واستحقارِ الكثيرِ ، كلُّ ذلكَ ليبلوَهُمْ أيُّهُمْ أحسنُ عملاً ، وينظرَ أيُّهُمْ آثرَ الدنيا على الآخرةِ بدلاً ، وابتغىٰ عنِ الآخرةِ عُدولاً وحِوَلاً ، واتخذَ الدنيا ذخيرةً وخَوَلاً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الذي نسخَ بملَّتِهِ مِللاً ، وطوىٰ بشريعتِهِ أدياناً ونِحَلاً ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ سلكوا سبيلَ ربِّهِمْ ذُلُلاً ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فإنَّ فتنَ الدنيا كثيرةُ الشُّعَبِ والأطرافِ ، واسعةُ الأرجاءِ والأكنافِ ،

ولكنَّ الأموالَ أعظمُ فتنِها ، وأطمُّ محنِها ، وأعظمُ فتنةٍ فيها أنَّهُ لا غنىٰ لأحدٍ عنها ، ثمَّ إذا وُجِدَتْ . . فلا سلامةَ مِنْها ، فإنْ فُقِدَ المالُ . . حصلَ مِنْهُ الفقرُ الذي يكادُ أنْ يكونَ كفراً ، وإنْ وُجِدَ . . حصلَ منه الطُّغيانُ الذي لا يكونُ عاقبةُ أمرِهِ إلا خُسْراً .

وبالجملةِ : فهي لا تخلو مِنَ الفوائدِ والآفاتِ ، وفوائدُها مِنَ المنجياتِ ، وآفاتُها مِنَ المهلكاتِ ، وتمييزُ خيرِها مِنْ شرِّها مِنَ المعوصاتِ ، التي لا يقوىٰ عليها إلا ذوُو البصائرِ في الدينِ ، مِنَ العلماءِ الراسخينَ دونَ المترسمينَ المغترينَ .

وشرحُ ذلكَ مهمٌّ على الانفرادِ ، فإنَّ ما ذكرْناهُ في كتاب ذمِّ الدُّنيا لمْ يكنْ نظراً في المالِ خاصةً ، بلْ في الدنيا عامةً ؛ إذِ الدنيا تتناولُ كلَّ حظٍّ عاجلٍ ، والمالُ بعضُ أجزاءِ الدنيا ، والجاهُ بعضُها ، واتباعُ شهوةِ البطنِ والفرجِ بعضُها ، وتشفِّي الغيظِ بحُكْمِ الغضبِ والحسدِ بعضُها ، والكِبْرُ وطلبُ العلوِّ بعضُها ، ولها أبعاضٌ كثيرةٌ ، ويجمعُها كلُّ ما للإنسانِ فيهِ حظٌّ عاجلٌ .

ونظرُنا الآنَ في هٰذا الكتابِ في المال وحدَهُ ؛ إذْ فيهِ آفاتٌ وغوائلُ ، وللإنسانِ مِنْ فقدِهِ صفةُ الفقرِ ، ومِنْ وجودِهِ صفةُ الغنىٰ ، وهما حالتانِ يحصلُ بهما الاختبارُ والامتحانُ .

ثمَّ للفاقدِ حالتانِ : القناعةُ والحرصُ ، وإحداهُما مذمومةٌ والأخرىٰ محمودةٌ .

وللحريصِ حالتانِ : طمعٌ فيما في أيدي الناسِ ، أوْ تشمُّرٌ للحرفِ والصناعاتِ معَ اليأسِ عنِ الخلقِ ، والطمعُ شرُّ الحالتينِ .

وللواجدِ حالتانِ : إمساكٌ بحكمِ البخلِ والشحِّ وإنفاقٌ ، وإحداهما مذمومةٌ والأخرىٰ محمودةٌ .

وللمنفقِ حالتانِ : تبذيرٌ واقتصادٌ ، والمحمودُ هوَ الاقتصادُ .

وهٰذهِ أمورٌ متشابهةٌ ، وكشفُ الغطاءِ عنِ الغموضِ فيها مهمٌّ ، ونحنُ نشرحُ ذلكَ في أربعةَ عشرَ فصلاً إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وهيَ : بيانُ ذمِّ المالِ ، ثمَّ مدحِهِ ، ثمَّ تفصيلِ فوائدِ المالِ وآفاتِهِ ، ثمَّ ذمِّ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ علاجِ الحرصِ والطمعِ ، ثمَّ فضيلةِ السخاءِ ، ثمَّ حكاياتِ الأسخياءِ ، ثمَّ ذمِّ البخلِ ، ثمَّ حكاياتِ البخلاءِ ، ثمَّ الإيثارِ وفضلِهِ ، ثمَّ حدِّ السخاءِ والبخلِ ، ثمَّ علاجِ البخلِ ، ثمَّ مجموعِ الوظائفِ في المالِ ، ثمَّ ذمِّ الغنىٰ ومدحِ الفقرِ .

* * *

بيان ذمّ المال وكراهة حبّه

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ .

فمَنِ اختارَ مالَهُ وولدَهُ علىٰ ما عندَ اللهِ . . فقدْ خسرَ وغبنَ خسراناً عظيماً .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والشرفِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً فيها مِنْ حُبِّ الشرفِ والمالِ والجاهِ في دينِ الرجلِ المسلمِ »(٢) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وذكره بعد هـٰذا بلفظ الجاه بدل الشرف) . « إتحاف » (٨/ ١٤٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلكَ الأكثرونَ إلاَّ مَنْ قالَ بهِ في عبادِ اللهِ هٰكذا وهٰكذا ، وقليلٌ ما هُمْ »(١) .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ أمَّتِكَ شرٌّ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الأغنياءُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيأتي بعدَكُمْ قومٌ يأكلونَ أطايبَ الدنيا وألوانَها ، ويركبونَ فُرْهَ الخيلِ وألوانَها ، وينكحونَ أجملَ النساءِ وألوانَها ، ويلبسونَ ألينَ الثيابِ وألوانَها ، لهُمْ بطُونٌ مِنَ القليلِ لا تشبعُ ، وأنفسٌ بالكثيرِ لا تقنعُ ، عاكفونَ على الدنيا يغدونَ ويروحونَ إليها ، اتَّخذوها آلهةً مِنْ دونِ إلٰهِهِمْ ، وربّاً دونَ ربِّهِمْ ، إلىٰ أمرِها ينتهونَ ، وهواهُمْ يتَّبعونَ ، فعزيمةٌ مِنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ لمَنْ أدركَ ذلكَ الزمانَ مِنْ عقبِ عقبِكُمْ وخلفِ خلفِكُمْ ألا يسلِّمَ عليهِمْ ، ولا يعودَ مرضاهُمْ ، ولا يتَّبعَ جنائزَهُمْ ، ولا يوقِّرَ كبيرَهُمْ ، فمَنْ فعلَ ذلكَ . . فقدْ أعانَ علىٰ هدمِ الإسلامِ »(٣) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٥٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث « هم الأخسرون . . . » الذي رواه البخاري (٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

(٢) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص٧٠) ، وروى ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) من حديث السيدة فاطمة عليها السلام مرفوعاً : « شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ، الذين يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدقون في الكلام » .

(٣) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص٩٦) وبتمامه ، وروىٰ بعضه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٠) من حديث أبي أمامة مرفوعاً ، ولفظه : « سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ، ويشربون ألوان الشراب ، ويلبسون ألوان اللباس ، ويتشدقون في الكلام ، أولـٰئك شرار أمتي » ، =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعُوا الدنيا لأهلِها ، مَنْ أخذَ مِنَ الدنيا فوقَ ما يكفيهِ . . أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعرُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، وهلْ لكَ مِنْ مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أوْ لبستَ فأبليتَ ، أوْ تصدَّقتَ فأمضيتَ ؟!»[2] .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لي لا أحبُّ الموتَ ؟ فقالَ : « هل معَكَ مِنْ مالٍ ؟ » ، قالَ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قدِّمْ مالَكَ ؛ فإنَّ قلْبَ المؤمنِ معَ مالِهِ ، إنْ قدَّمَهُ . . أحبَّ أنْ يلحقَهُ ، وإنْ خلَّفَهُ . . أحبَّ أنْ يتخلَّفَ معَهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخلاَّءُ ابنِ آدمَ ثلاثةٌ : واحدٌ يتبعُهُ إلىٰ قبضِ روحِهِ ، والثاني إلىٰ قبرِهِ ، والثالثُ إلىٰ محشرِهِ ؛ فالذي يتبعُهُ إلىٰ قبضِ روحِهِ فمالُهُ ، والذي يتبعُهُ إلىٰ قبرِهِ فأهلُهُ ، والذي يتبعُهُ إلىٰ محشرِهِ فعملُهُ »[4] .

= **وفُرْه** : جمع فاره ، النشيط المليح القوي .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه : (جيفة) بدل (حتفه) ، وبلفظ المصنف رواه تمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/ ١٩١) ، **والحتف** : الهلاك .

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٤) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٨٣٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) من حديث =

وقالَ الحواريونَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : ما لكَ تمشي على الماءِ ولا نقدرُ علىٰ ذلكَ ؟ فقالَ لهُمْ : ما منزلةُ الدينارِ والدرهمِ عندَكُمْ ؟ قالُوا : حسنةٌ ، قالَ : لكنَّهُما عندي والمدرَ سواءٌ[1] .

وكتبَ سلمانُ الفارسيُّ إلىٰ أبي الدرداءِ[2] : يا أخي ؛ إيَّاكَ أنْ تجمعَ مِنَ الدنيا ما لا تؤدِّي شكرَهُ ؛ فإنِّي سمعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُجاءُ بصاحبِ الدنيا الذي أطاعَ اللهَ فيها ومالُهُ بينَ يديهِ ، كلَّما تكفَّأَ بهِ الصِّراطُ . . قالَ لهُ مالُهُ : امضِ ؛ فقدْ أدَّيتَ حقَّ اللهِ فيَّ ، ثمَّ يُجاءُ بصاحبِ الدنيا الذي لمْ يطعِ اللهَ فيها ومالُهُ بينَ كتفيهِ ، كلَّما تكفَّأَ بهِ الصِّراطُ . . قالَ لهُ مالُهُ : ويلَكَ ؛ ألا أدَّيتَ حقَّ اللهِ فيَّ ، فما يزالُ كذلكَ حتَّىٰ يدعوَ بالويلِ والثبورِ »[3] .

وكلُّ ما أوردناهُ في كتابِ الفقرِ والزهدِ في ذمِّ الغنىٰ ومدحِ الفقرِ يرجعُ جميعُهُ إلىٰ ذمِّ المالِ ؛ فلا نطوِّلُ بتكريرِهِ ، وكذا كلُّ ما ذكرناهُ في ذمِّ الدنيا

= أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقىٰ معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقىٰ عمله » .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٤٠) عن الفضيل بن عياض .

(٢) كذا في النسخ ، وإنما هو كتاب من أبي الدرداء إلىٰ سلمان رضي الله تعالىٰ عنهما كما هو مثبت في مصادر تخريج الخبر ، ونص عليه الحافظ العراقي . انظر « الإتحاف » (١٤٦/٨) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٩٦/١١) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢١٤/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٧٤).

فيتناولُ ذمَّ المالِ بحكمِ العمومِ ؛ لأنَّ المالَ أعظمُ أركانِ الدنيا ، وإنَّما نذكرُ الآنَ ما وردَ في المالِ خاصةً .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ العبدُ . . قالَتِ الملائكةُ : ما قدَّمَ ؟ وقالَ النّاسُ : ما خلَّفَ ؟ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتَّخذُوا الضَّيعَةَ فتحبُّوا الدُّنيا »(٢) .

＊ ＊ ＊

الآثارُ :

رُوِيَ أنَّ رجلاً نالَ مِنْ أبي الدرداءِ وأراهُ سوءاً ، فقالَ : (اللهمَّ ؛ مَنْ فعلَ بي سوءاً . . فأصحَّ جسمَهُ ، وأطلْ عمرَهُ ، وأكثرْ مالَهُ)(٣) ، فانظرْ كيفَ رأىٰ كثرةَ المالِ غايةَ البلاءِ معَ صحةِ الجسمِ وطولِ العمرِ ؛ لأنَّهُ لا بدَّ وأن يفضيَ إلى الطغيانِ .

ووضعَ عليٌّ رضي الله عنه درهماً علىٰ كفِّهِ وقالَ : (أما إنَّكَ ما لَمْ تخرجْ عنِّي لا تنفعُني)(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٨٥١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٨) ، وفيه : (فترغبوا) بدل (فتحبوا) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩١) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس أنه دعا بهـٰذا ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٤٧) : (نقله صاحب « القوت ») .
(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٤٧) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أرسلَ إلىٰ زينبَ بنتِ جحشٍ بعطائِها ، فقالَتْ : ما هـٰذا ؟ قالوا : أرسلَهُ إليكِ عمرُ بنُ الخطابِ ، فقالَتْ : غفرَ اللهُ لهُ ، ثمَّ حلَّتْ ستراً كانَ لها ، فقطعَتْهُ وجعلَتْهُ صرراً ، وقسَّمَتْها في أهلِ بيتِها ورحمِها وأيتامِها ، ثمَّ رفعَتْ يديها وقالَتْ : اللهمَّ ؛ لا يدركَنِّي عطاءُ عمرَ بعدَ عامي هـٰذا ، فكانَتْ أولَ نساءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحوقاً بهِ(١) .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أعزَّ الدرهمَ أحدٌ إلا أذلَّهُ اللهُ تعالىٰ)(٢) .

وقيلَ : إنَّ أوَّلَ ما ضُربَ الدينارُ والدرهمُ . . رفعَهُما إبليسُ ، ثمَّ وضعَهُما علىٰ جبهتِهِ ، ثمَّ قبَّلَهُما وقالَ : مَنْ أحبَّكُما . . فهوَ عبدي حقّاً(٣) .

وقالَ شُمَيطُ بنُ عجلانَ : (إنَّ الدينارَ والدرهمَ أزمَّةُ المنافقينَ ، يُقادُونَ بها إلى النارِ)(٤) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : إنَّ الدرهمَ عقربٌ ؛ فإنْ لمْ تحسنْ رُقيتَهُ . . فلا تأخذْهُ ؛ فإنَّهُ إنْ لدغَكَ . . قتلَكَ سمُّهُ ، قيلَ : وما رقيتُهُ ؟ قالَ : أخذُهُ مِنْ حلِّهِ ، ووضعُهُ في حقِّهِ(٥) .

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/ ١٠٦) .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٢٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٢٨) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٦٠) دون الاستفهام .

وقالَ العلاءُ بنُ زيادٍ : (تمثَّلَتْ ليَ الدنيا وعليها مِنْ كلِّ زينةٍ ، فقلْتُ : أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ ، فقالَتْ : إنْ سرَّكَ أنْ يعيذَكَ اللهُ مِنْ شرِّي . . فأبغضِ الدرهمَ)(١) .

وذلكَ لأنَّ الدينارَ والدرهمَ هُما الدنيا كلُّها ؛ إذْ يُتوصَّلُ بهِما إلىٰ جميعِ أصنافِها ، فمَنْ صبرَ عنهُما . . صبرَ عنِ الدنيا ، وفي ذلكَ قيلَ(٢) : [من الكامل]

إنِّـي وَجَـدْتُ فَـلا تَظُنُّـوا غَيْـرَهُ ... هَـٰذَا ٱلتَّوَرُّعَ عِنْدَ هَـٰذا ٱلدِّرْهَمِ
فَـإِذا قَـدَرْتَ عَلَيْـهِ ثُـمَّ تَـرَكْتَـهُ ... فَٱعْلَمْ بَأَنَّ تُقاكَ تقْوَى ٱلْمُسْلِمِ

وفي ذلكَ قيلَ(٣) : [من مجزوء الرمل]

لا يَغُـرَّنْـكَ مِـنَ ٱلْمَـرْ ... ءِ قَميـصٌ رَقَعَـهْ
أَوْ إِزارٌ فَـوْقَ كَعْـبِ ٱلسَّـ ... ـاقِ مِنْـهُ رَفعَـهْ
أَوْ جَبيـنٌ لاحَ فِيـهِ ... أَثَـرٌ قَـدْ قَلَعَـهْ(٤)
وَلَـدَى ٱلـدِّرْهَـمِ فـٱنْظُـرْ ... غيَّـهُ أَوْ وَرَعَـهْ

ويُروىٰ عنْ مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ أنَّهُ دخلَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ عندَ موتِهِ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ صنعْتَ صنيعاً لمْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١١٥٨) .
(٢) البيتان لسفيان الثوري ، انظر « معجم الأدباء » (١/ ١٠٠) .
(٣) الأبيات في « المدهش » (١/ ٢١١) من غير نسبة .
(٤) أثر قد قلعه : تشبيه كثرة السجود وأثرها على الجبين بركبة العنز كيف فيها أثر القلع ، وقد يكون هـٰذا مصطنعاً بمعالجة . انظر « الإتحاف » (٥/ ٥٠٥) .

يصنعْهُ أحدٌ قبلَكَ ، تركْتَ ولدَكَ ليسَ لهُمْ دينارٌ ولا درهمٌ ـ وكانَ عندَهُ ثلاثةَ عشرَ مِنَ الولدِ ـ فقالَ عمرُ : أقعدوني ، فأقعدوهُ ، فقالَ : أمَّا قولُكَ : لمْ أدعْ لهُمْ ديناراً ولا درهماً . . فإنِّي لمْ أمنعْهُمْ حقّاً لهُمْ ، ولمْ أعطِهِمْ حقّاً لغيرِهِمْ ، وإنَّما ولدي أحدُ رجلينِ ؛ إمَّا مطيعٌ للهِ ، فاللهُ كافيهِ واللهُ يتولَّى الصالحينَ ، وإمَّا عاصٍ للهِ ، فلا أبالي علىٰ ما وقعَ[١] .

ورُوِيَ أنَّ محمدَ بنَ كعبٍ القرظيَّ أصابَ مالاً كثيراً ، فقيلَ لهُ : لوِ ادَّخرْتَهُ لولدِكَ مِنْ بعدِكَ ، قالَ : لا ، ولكنِّي أدخرُهُ لنفسِي عندَ ربِّي ، وأدَّخرُ ربِّي لولدِي[٢] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً قالَ لأبي عبدِ ربٍّ : يا أخي ؛ لا تذهبْ بشرٍّ وتتركَ أولادَكَ بخيرٍ ، فخرجَ أبو عبدِ ربٍّ مِنْ مئةِ ألفِ درهمٍ[٣] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : مصيبتانِ لمْ يسمعِ الأولونَ والآخرونَ بمثلِهِما للعبدِ في مالِهِ عندَ موتِهِ ، قيلَ : وما هما ؟ قالَ : يُؤخذُ منهُ كلُّهُ ، ويُسألُ عنهُ كلِّهِ[٤] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٣) بنحوه .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٣٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٦٠) بنحوه ، وأبو عبد ربّ هو عبيدة بن مهاجر .
(٤) رواه الخطيب في « الزهد » (١١) .

بيان مدح المال، والجمع بينه وبين الذمّ

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ سمَّى المالَ خيراً في مواضعَ مِنَ القرآنِ ، فقالَ جلَّ وعزَّ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمَ المالُ الصالحُ للرَّجلِ الصالحِ »(١) .

وكلُّ ما جاءَ في ثوابِ الصدقةِ والحجِّ . . فهوَ ثناءٌ على المالِ ؛ إذْ لا يمكنُ الوصولُ إليهما إلا بهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ ممتناً علىٰ عبادِهِ : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »(٢) ، وهوَ ثناءٌ على المالِ .

ولا تَقِفُ علىٰ وجهِ الجمعِ بينَ المدحِ والذمِّ إلا بأنْ تعرفَ حكمةَ المالِ ، ومقصودَهُ ، وآفاتِهِ ، وغوائلَهُ ؛ حتَّىٰ ينكشفَ لكَ أنَّهُ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

مِنْ وجهٍ ، وأنَّهُ محمودٌ مِنْ حيثُ هوَ خيرٌ ، ومذمومٌ مِنْ حيثُ هوَ شرٌّ ؛ فإنَّهُ ليسَ بخيرٍ محضٍ ، ولا هوَ بشرٍّ محضٍ ، بلْ هوَ سببٌ للأمرينِ جميعاً ، وما هٰذا وصفُهُ فيُمدحُ ـ لا محالةَ ـ تارةً ويُذمُّ أخرىٰ ، ولكنَّ البصيرَ المميِّزَ يدركُ أنَّ المحمودَ منهُ غيرُ المذمومِ .

وبيانُهُ بالاستمدادِ ممَّا ذكرْناهُ في كتابِ الشكرِ مِنْ بيانِ الخيراتِ ، وتفصيلِ درجاتِ النعمِ .

والقدْرُ المقنعُ فيهِ : هوَ أنَّ مقصدَ الأكياسِ وأربابِ البصائرِ سعادةُ الآخرةِ التي هيَ النعيمُ الدائمُ والملكُ المقيمُ ، والقصدُ إلىٰ هٰذا دأبُ الكرامِ والأكياسِ ؛ إذْ قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ وأكيسُهُمْ ؟ فقالَ : « أكثرُهُمْ للموتِ ذكراً ، وأشدُّهُمْ لهُ استعداداً »(١) .

وهٰذه السعادةُ لا تُنالُ إلا بثلاثِ وسائلَ في الدنيا ، وهيَ :

الفضائلُ النفسيةُ : كالعلمِ ، وحسنِ الخلُقِ .

والفضائلُ البدنيةُ : كالصحةِ ، والسلامةِ .

والفضائلُ الخارجةُ عنِ البدنِ : كالمالِ ، وسائرِ الأسبابِ .

وأعلاها النفسيةُ ، ثمَّ البدنيةُ ، ثمَّ الخارجةُ ، فالخارجةُ أخسُّها ، والمالُ مِنْ جملةِ الخارجاتِ ، وأدناها الدراهمُ والدنانيرُ ؛ فإنَّهُما خادمانِ ، ولا خادمَ لهُما ، ومرادانِ لغيرِهما ، ولا يُرادانِ لذاتِهما ؛ إذِ النفسُ هيَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) .

الجوهرُ الشريفُ المطلوبُ سعادتُها ؛ فإنَّها تخدمُ العلمَ والمعرفةَ ومكارمَ الأخلاقِ ؛ لتحصِّلَها صفةً في ذاتِها ، والبدنُ يخدمُ النفسَ بواسطةِ الحواسِّ والأعضاءِ ، والمطاعمُ والملابسُ تخدُمُ البدنَ ، وقدْ سبقَ أنَّ المقصودَ مِنَ المطاعمِ إبقاءُ البدنِ ، ومِنَ المناكحِ إبقاءُ النسلِ ، ومِنَ البدنِ تكميلُ النفسِ وتزكيتُها وتزيينُها بالعلمِ والخُلُقِ .

ومَنْ عرفَ هـٰذا الترتيبَ . . فقدْ عرفَ قدْرَ المالِ ووجهَ شرفِهِ ، وأنَّهُ مِنْ حيثُ هوَ ضرورةُ المطاعمِ والملابسِ التي هيَ ضرورةُ بقاءِ البدنِ الذي هوَ ضرورةُ كمالِ النفسِ . . هوَ خيرٌ ، ومَنْ عرفَ فائدةَ الشيءِ وغايتَهُ ومقصدَهُ ، واستعملَهُ لتلكَ الغايةِ ملتفتاً إليها غيرَ ناسٍ لها . . فقدْ أحسنَ وانتفعَ ، وكانَ ما حصلَ لهُ الغرضُ محموداً في حقِّهِ .

فإذاً ؛ المالُ آلةٌ ووسيلةٌ إلىٰ مقصودٍ صحيحٍ ، ويصلحُ أنْ يُتَّخذَ آلةً ووسيلةً إلىٰ مقاصدَ فاسدةٍ ، وهيَ المقاصدُ الصادَّةُ عنْ سعادةِ الآخرةِ ، وتسدُّ سبيلَ العلمِ والعملِ ، فهوَ إذاً محمودٌ مذمومٌ ؛ محمودٌ بالإضافةِ إلى المقصودِ المحمودِ ، ومذمومٌ بالإضافةِ إلى المقصودِ المذمومِ ، فمَنْ أخذَ مِنَ الدنيا أكثرَ ممَّا يكفيهِ . . فقدْ أخذَ حتفَهُ وهوَ لا يشعرُ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ[1] .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٤٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وتمام في « فوائده » (١٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/١٩١) .

ولمَّا كانَتِ الطباعُ مائلةً إلى اتباعِ الشهواتِ القاطعةِ لسبيلِ اللهِ ، وكانَ المالُ مسهِّلاً لها وآلةً إليها .. عظُمَ الخطرُ فيما يزيدُ علىٰ قدْرِ الكفايةِ ، فاستعاذَ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ مِنْ شرِّهِ ، حتَّىٰ قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كَفافاً »[1] .

فلمْ يطلبْ مِنَ الدنيا إلا ما يتمحَّضُ خيرُهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « اللهمَّ ؛ أحيني مسكيناً وأمتْني مسكيناً ، واحشرْني في زمرةِ المساكينِ »[2] .

واستعاذَ إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، وعنىٰ بها هـٰذينِ الحجرينِ الذهبَ والفضةَ ؛ إذْ رتبةُ النبوَّةِ أجلُّ مِنَ أنْ يُخشىٰ عليها أنْ تعتقدَ الإلـٰهيةَ في شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الحجارةِ ؛ إذْ قدْ كُفيَ قبلَ النبوّةِ عبادتَها معَ الصغَرِ .

وإنَّما معنىٰ عبادتِها حبُّها ، والاغترارُ بها ، والركونُ إليها .

قال نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعِسَ عبدُ الدينارِ ، وتعسَ عبدُ الدرهمِ ، تعسَ ولا انتعشَ ، وإذا شِيكَ .. فلا انتقشَ »[3] ، بيَّنَ عليهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) ، وفيهما : (قوتاً) بدل (كفافاً) ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) ، والمسكنة هنا : الإخبات والخمول لا القلة .

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٧) ، وابن ماجه (٤١٣٦) ، وليس فيهما : (تعس =

الصلاةُ والسلامُ أنَّ محبَّهُما عبدٌ لهُما ، ومَنْ عبدَ حجراً . . فهوَ عابدُ صنمٍ ؛ بلْ كلُّ مَنْ كانَ عبداً لغيرِ اللهِ فهوَ عابدُ صنمٍ ؛ أي : مَنْ قطعَهُ ذلكَ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ أداءِ حقِّهِ . . فهوَ كعابدِ صنمٍ ، وهوَ شرْكٌ ، إلا أنَّ الشركَ شركانِ ؛ شركٌ خفيٌّ لا يوجبُ الخلودَ في النارِ ، وقلَّما ينفكُّ عنهُ المؤمنونَ ؛ فإنَّهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وشركٌ جليٌّ يوجبُ الخلودَ في النارِ ، نعوذُ باللهِ منَ الجميعِ .

* * *

= ولا انتعش) ، بل : (تعس وانتكس) ، وأورد (انتعش) العسكري في « تصحيفات المحدثين » (١/ ٢٩٩) وعدَّها تصحيفاً لـ (انتقش) ، ويقال : (انتعش العاثر ؛ نهض من عثرته) .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلمْ : أنَّ المالَ مثلُ حيَّةٍ فيها سُمٌّ وترياقٌ ، ففوائدُها ترياقُهَا ، وغوائلُها سمومُها .

فمَنْ عرفَ غوائلَها وفوائدَها . . أمكنَهُ أن يحترزَ من شرِّها ، ويستدرَّ مِنْها خيرَها .

❀ ❀ ❀

أمَّا الفوائدُ : فهيَ تنقسمُ إلىٰ دنيويةٍ ودينيةٍ :

أمَّا الدُّنيويةُ : فلا حاجةَ إلىٰ ذكرِها ؛ فإنَّ معرفتَها مشتركةٌ بينَ أصنافِ الخلقِ ، ولولا ذلكَ . . لمْ يتهالكوا علىٰ طلبِها .

وأمَّا الدِّينيةُ : فتنحصرُ جميعُها في ثلاثةِ أنواعٍ :

النوعُ الأولُ : أنْ ينفقَهُ علىٰ نفسِهِ :

إمَّا في عبادةٍ ، أوْ في الاستعانةِ علىٰ عبادةٍ .

أمَّا في العبادةِ . . فهوَ كالاستعانةِ بهِ على الحجِّ والجهادِ ؛ فإنَّهُ لا يتوصَّلُ إليهِما إلا بالمالِ ، وهُما مِنْ أمهاتِ القرباتِ ، والفقيرُ محرومٌ منْ فضلِهِما .

وأمَّا فيما يقوِّيهِ على العبادةِ . . فذلكَ هو المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، والمنكحُ ، وضروراتُ المعيشةِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ الحاجاتِ إذا لمْ

تتيسَّرْ . . كانَ القلبُ منصرفاً إلىٰ تدبيرِها ، فلا يتفرَّغُ للدِّينِ ، وما لا يُتوصَّلُ إلى العبادةِ إلا بهِ . . فهوَ عبادةٌ ، فأَخْذُ الكفايةِ مِنَ الدنيا لأجلِ الاستعانةِ على الدِّينِ مِنَ الفوائدِ الدينيَّةِ ، ولا يدخلُ في هـٰذا التنعُّمُ والزيادةُ على الحاجةِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ حظوظِ الدنيا فقطْ .

* * *

النوعُ الثاني : ما يصرفُهُ إلى الناسِ :

وهوَ أربعةُ أقسامٍ : الصدقةُ ، والمروءةُ ، ووقايةُ العرضِ ، وأجرةُ الاستخدامِ .

أمَّا الصدقةُ . . فلا يخفىٰ ثوابُها ، وإنَّها لتطفىءُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ ، وقدْ ذكرْنا فضائلَها فيما تقدَّمَ .

وأمَّا المروءةُ . . فنعني بها : صرفَ المالِ إلى الأغنياءِ والأشرافِ في ضيافةٍ وهديةٍ وإعانةٍ وما يجري مجراها ، فإنَّ هـٰذهِ لا تُسمىٰ صدقةً ، بلِ الصدقةُ ما يُسلَّمُ إلىٰ محتاجٍ ، إلا أنَّ هـٰذا أيضاً مِنَ الفوائدِ الدينيَّةِ ؛ إذْ بِهِ يكتسبُ العبدُ الإخوانَ والأصدقاءَ ، وبهِ يكتسبُ صفةَ السخاءِ ، ويلتحقُ بزمرةِ الأسخياءِ ؛ فلا يُوصفُ بالجودِ إلا مَنْ يصطنعُ المعروفَ ويسلكُ سبيلَ الفتوةِ والمروءةِ ، وهـٰذا أيضاً ممَّا يعظمُ الثوابُ فيهِ ، فقدْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في الهدايا ، والضيافاتِ ، وإطعامِ الطعامِ مِنْ غيرِ اشتراطِ الفقرِ والفاقةِ في مصارفِها .

وأمَّا وقايةُ العِرضِ. . فنعني بهِ بذلَ المالِ لدفعِ هجوِ الشعراءِ وثلبِ السفهاءِ ، وقطعِ ألسنتِهِمْ ودفعِ شرِّهِمْ ، وهوَ أيضاً معَ تنجُّزِ فائدتِهِ في العاجلةِ مِنَ الحظوظِ الدينيَّةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما وقىٰ بهِ المرءُ عرضَهُ . . كُتبَ لهُ بهِ صدقةٌ »[1] ، وكيفَ لا وفيهِ منعُ المغتابِ عنْ معصيةِ الغيبةِ ، واحترازٌ عمَّا يثورُ مِنْ كلامِهِ مِنَ العداوةِ التي تحملُ في المكافأةِ والانتقامِ علىٰ مجاوزةِ حدودِ الشريعةِ ؟!

وأمَّا الاستخدامُ. . فهوَ أنَّ الأعمالَ التي يحتاجُ إليها الإنسانُ لتهيئةِ أسبابِهِ كثيرةٌ ، ولوْ تولاَّها بنفسِهِ . . ضاعَتْ أوقاتُهُ ، وتعذَّرَ عليهِ سلوكُ سبيلِ الآخرةِ بالفكرِ والذكرِ اللذينِ هُما أعلىٰ مقاماتِ السالكينَ ، ومَنْ لا مالَ لهُ . . فيفتقرُ إلىٰ أنْ يتولَّىٰ بنفسِهِ خدمةَ نفسِهِ مِنْ شراءِ الطعامِ ، وطبخِهِ ، وكنسِ البيتِ ، حتَّىٰ نسخِ الكتابِ الذي يحتاجُ إليهِ ، وكلُّ ما يُتصوَّرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُكَ ، ويحصلَ بهِ غرضُكَ . . فأنتَ مغبونٌ إذا اشتغلتَ بهِ ؛ إذْ عليكَ مِنَ العلمِ والعملِ والفكرِ والذكرِ ما لا يُتصوَّرُ أنْ يقومَ بهِ غيرُكَ ، فتضييعُ الوقتِ في غيرِهِ خسرانٌ .

❀ ❀ ❀

النوعُ الثالثُ : ما لا يصرفُهُ إلىٰ إنسانٍ معيَّنٍ ، ولكنْ يحصلُ بهِ خيرٌ عامٌّ :

كبناءِ المساجدِ ، والقناطرِ ، والرباطاتِ ، ودورِ المرضىٰ ، ونصبِ

(١) رواه الدارقطني في « سننه » (٣/ ٢٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٠) .

الحِبابِ في الطرُقِ(١) ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأوقافِ المرصدةِ للخيراتِ ، وهيَ مِنَ الخيراتِ المؤبَّدةِ ، الدَّارَّةِ بعدَ الموتِ ، المستجلبةِ بركةَ أدعيةِ الصالحينَ إلىٰ أوقاتٍ متماديَةٍ ، وناهيكَ بها خيراً .

فهٰذهِ جملةُ فوائدِ المالِ في الدينِ سوىٰ ما يتعلَّقُ بالحظوظِ العاجلةِ ؛ مِنَ الخلاصِ مِنْ ذلِّ السؤالِ ، وحقارةِ الفقرِ ، والوصولِ إلى العزِّ والمجدِ بينَ الخلقِ ، وكثرةِ الإخوانِ والأعوانِ والأصدقاءِ ، والوقارِ والكرامةِ في القلوبِ ، فكلُّ ذلكَ ممَّا يقتضيهِ المالُ مِنَ الحظوظِ الدُّنيويةِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآفاتُ : فدينيَّةٌ ، ودنيويَّةٌ :

أمَّا الدينيَّةُ . . فثلاثٌ :

الأولىٰ : أنَّهُ يجرُّ إلى المعاصي :

فإنَّ الشهواتِ متقاضيةٌ(٢) ، والعجزُ قدْ يحولُ بينَ المرءِ وبينَ المعصيةِ ، ومِنَ العصمةِ ألا يقدرَ ، ومهما كانَ الإنسانُ آيساً عنْ نوعٍ مِنَ المعصيةِ . . لمْ تتحرَّكْ داعيتُهُ ، فإذا استشعرَ القدرةَ عليها . . انبعثَتْ داعيتُهُ ، والمالُ نوعٌ مِنَ القدرةِ يحرِّكُ داعيةَ المعاصي وارتكابِ الفجورِ ، فإنِ اقتحمَ ما اشتهاهُ . .

---

(١) حباب : جمع حُبّ ، لفظة فارسية معربة ، وهي الخابية ، والمراد بالتي على الطريق مخازن المياه .

(٢) إذ بعضها يقتضي وجود بعض ويدعو إليه .

هلكَ ، وإنْ صبرَ . . وقعَ في شدَّةٍ ؛ إذِ الصبرُ معَ القدرةِ أشدُّ ، وفتنةُ السرَّاءِ أعظمُ مِنْ فتنةِ الضرَّاءِ .

الثانيةُ : أنَّهُ يجرُّ إلى التَّنعُّمِ في المباحاتِ :

وهٰذا أقلُّ الدرجاتِ ، فمتىٰ يقدرُ صاحبُ المالِ علىٰ أنْ يتناولَ خبزَ الشعيرِ ، ويلبسَ الثوبَ الخشنَ ، ويتركَ لذائذَ الأطعمةِ ؛ كما كانَ يقدرُ عليهِ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما الصلاةُ والسلامُ في ملكِهِ ؟! فأحسنُ أحوالِهِ أنْ يتنعَّمَ بالدنيا ، ويمرِّنَ علىٰ ذلكَ نفسَهُ ؛ فيصيرُ التنعُّمُ مألوفاً عندَهُ ، ومحبوباً لا يصبرُ عنهُ ، ويجرُّهُ البعضُ مِنْهُ إلى البعضِ .

فإذا اشتدَّ أنسُهُ بهِ . . ربَّما لا يقدرُ على التوصُّلِ إليهِ بالكسبِ الحلالِ ؛ فيقتحمُ الشبهاتِ ، ويخوضُ في المراءاةِ ، والمداهنةِ ، والكذبِ ، والنفاقِ ، وسائرِ الأخلاقِ الرديئةِ ؛ لينتظمَ لهُ أمرُ دنياهُ ، ويتيسَّرَ لهُ تنعُّمُهُ ؛ فإنَّ مَنْ كثُرَ مالُهُ . . كثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، ومَنِ احتاجَ إلى الناسِ . . فلابدَّ وأنْ ينافقَهُمْ ، ويعصيَ اللهَ تعالىٰ في طلبِ رضاهُمْ ؛ فإنْ سلِمَ الإنسانُ مِنَ الآفةِ الأولىٰ ـ وهيَ مباشرةُ المحظوراتِ ـ فلا يسلمُ عنْ هٰذهِ أصلاً ، ومِنَ الحاجةِ إلى الخلقِ تثورُ العداوةُ والصداقةُ ، وينبني عليهِ الحسدُ ، والحقدُ ، والرياءُ ، والكبرُ ، والكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، وسائرُ المعاصي التي تخصُّ القلبَ واللسانَ ، ولا تخلو عنِ التعدي أيضاً إلىٰ سائرِ الجوارحِ ، وكلُّ ذلكَ يلزمُ مِنْ شؤمِ المالِ ، والحاجةِ إلىٰ حفظِهِ وإصلاحِهِ .

الثالثةُ ـ وهيَ التي لا ينفكُّ عنها أحدٌ ـ : **وهيَ أَنَّهُ يلهيهِ إصلاحُ مالِهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ** :

وكلُّ ما شغلَ العبدَ عنِ اللهِ . . فهوَ خسرانٌ ، ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : في المالِ ثلاثُ آفاتٍ : أنْ يأخذَهُ مِنْ غيرِ حلِّهِ ، فقيلَ : إنْ أَخَذَهُ مِنْ حلِّهِ ؟ فقالَ : يضعُهُ في غيرِ حقِّهِ ، فقيلَ : إنْ وضعَهُ في حقِّهِ ؟ فقالَ : يشغلُهُ إصلاحُهُ عنِ اللهِ تعالىٰ(١) .

وهٰذا هوَ الداءُ العضالُ ، فإنَّ أصلَ العباداتِ ومخَّها وسرَّها ذكرُ اللهِ تعالىٰ والفكرُ في جلالِهِ ، وذلكَ يستدعي قلباً فارغاً ، وصاحبُ الضَّيعةِ يمسي ويصبحُ متفكِّراً في خصومةِ الفلاحِ ومحاسبتِهِ ، وفي خصومةِ الشركاءِ ومنازعتِهِمْ في الماءِ والحدودِ ، وخصومةِ أعوانِ السلطانِ في الخراجِ ، وخصومةِ الأُجَراءِ في التقصيرِ في العمارةِ ، وخصومةِ الفلاحينَ في خيانتِهِمْ وسرقتِهِمْ ، وصاحبُ التجارةِ يكونُ متفكراً في خيانةِ شريكِهِ ، وانفرادِهِ بالربحِ ، وتقصيرِهِ في العملِ ، وتضييعِهِ للمالِ ، وكذلكَ صاحبُ المواشي ، وهٰكذا سائرُ أصنافِ الأموالِ ، وأبعدُها عنْ كثرةِ الشغلِ النقدُ المكنوزُ تحتَ الأرضِ ، ولا يزالُ الفكرُ متردِّداً فيما يُصرفُ إليهِ ، وفي كيفيةِ حفظِهِ ، وفي الخوفِ ممَّنْ يعثرُ عليهِ ، وفي دفعِ أطماعِ الناسِ عنهُ ، وأوديةُ أفكارِ الدنيا لا نهايةَ لها ، والذي معَهُ قوتُ يومِهِ في سلامةٍ عنْ جميعِ ذلكَ .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٤٨) عن سفيان بن سعيد يحكيه .

فهٰذهِ جملةُ الآفاتِ الدُّنيويةِ سوىٰ ما يقاسيهِ أربابُ الأموالِ في الدنيا ؛ مِنَ الخوفِ ، والحزنِ ، والغمِّ ، والهمِّ ، والتعبِ في دفعِ الحسَّادِ ، وتجشُّمِ المصاعبِ في حفظِ الأموالِ وكسبِها .

فإذاً ؛ ترياقُ المالِ أخذُ القوتِ منهُ ، وصرفُ الباقي إلى الخيراتِ ، وما عداهُ سمومٌ وآفاتٌ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ السلامةَ وحسنَ العونِ بلطفِهِ وكرمِهِ ، إنَّهُ علىٰ ذلكَ قديرٌ .

* * *

بيان ذمّ الحرص والطّمع ، ومدح القناعة واليأس ممّا في أيدي النّاس

اعلمْ : أنَّ الفقرَ محمودٌ ؛ كما أوردناهُ في كتابِ الفقرِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ الفقيرُ قانعاً منقطعَ الطمعِ عنِ الخلقِ ، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما في أيديهِمْ ، ولا حريصاً على اكتسابِ المالِ كيفَ كانَ ، ولا يمكنُهُ ذلكَ إلا بأنْ يقنعَ بقدْرِ الضرورةِ مِنَ المطعمِ والملبسِ والمسكنِ ، ويقتصرَ علىٰ أقلِّهِ قدراً وأخسِّهِ نوعاً ، ويردَّ أملَهُ إلىٰ يومِهِ أوْ إلىٰ شهرِهِ ، ولا يشغلَ قلبَهُ بما بعدَ شهرٍ .

فإنْ تشوَّفَ إلى الكثيرِ أوْ طوَّلَ أملَهُ . . فاتَهُ عزُّ القناعةِ ، وتدنَّسَ ـ لا محالةَ ـ بالطمعِ وذلِّ الحرصِ ، وجرَّهُ الحرصُ والطمعُ إلىٰ مساوىءِ الأخلاقِ وارتكابِ المنكراتِ الخارقةِ للمروءاتِ ، وقدْ جُبِلَ الآدميُّ على الحرصِ والطمعِ وقلَّةِ القناعةِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ لابنِ آدمَ واديانِ مِنْ ذهبٍ . . لابتغىٰ إليهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلاَّ الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ »[1] .

وعنْ أبي واقدٍ الليثيِّ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أُوحِيَ إليهِ . . أتيناهُ يعلِّمُنا ممَّا أُوحيَ إليهِ ، فجئتُهُ ذاتَ يومٍ فقالَ : « إنَّ اللهَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦ ، ٦٤٣٩) ، ومسلم (١٠٤٨ ، ١٠٤٩) .

عزَّ وجلَّ يقولُ : إنَّا أنزلْنا المالَ لإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، ولوْ أنَّ لابنِ آدمَ وادياً مِنْ ذهبٍ . . لأحبَّ أنْ يكونَ إليهِ الثاني ، ولوْ كانَ لهُ الثاني . . لأحبَّ أنْ يكونَ إليهِما الثالثُ ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ »(1) .

وقالَ أبو موسى الأشعريُّ : نزلَتْ سورةٌ نحوُ (براءةٌ) ، ثمَّ رُفعَتْ ، وحُفظَ مِنْها : (إنَّ اللهَ يؤيدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ ، ولوْ أنَّ لابنِ آدمَ واديينِ مِنْ مالٍ . . لتمنَّىٰ وادياً ثالثاً ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ، ويتوبُ اللهُ علىٰ مَنْ تابَ)(2) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ »(3) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدمَ ويشبُّ منهُ اثنتانِ ؛ الأملُ ، وحبُّ المالِ »(4) ، أوْ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ولمَّا كانَتْ هـٰذهِ جبلَّةً للآدميِّ مضلةً ، وغريزةً مهلكةً . . أثنى اللهُ تعالىٰ

---

(1) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٢) ، وأحمد في « المسند » (٥/ ٢١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٠٠) .

(2) رواه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ٣٢٣) واللفظ له ، وأصله عند مسلم (١٠٥٠) .

(3) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان ؛ منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

(4) رواه البخاري (٦٤٢١) ، ومسلم (١٠٤٧) .

ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على القناعةِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ هُديَ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافاً وقنعَ بهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّهُ كانَ أُوتيَ قوتاً في الدنيا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الغنىٰ عنْ كثرةِ العَرَضِ ، إنَّما الغنىٰ غنى النَّفسِ »(٣) .

ونهىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ شدَّةِ الحرصِ والمبالغةِ في الطلبِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أيُّها النَّاسُ ؛ أجملوا في الطَّلبِ ؛ فإنَّهُ ليسَ لعبدٍ إلا ما كُتِبَ لهُ ، ولَنْ يذهبَ عبدٌ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يأتيَهُ ما كُتِبَ لهُ مِنَ الدنيا وهيَ راغمةٌ »(٤) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ سألَ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : أيُّ عبادِكَ أغنى ؟ قالَ : أقنعُهُمْ بما أعطيتُهُ ، قالَ : فأيُّهُمْ أعدلُ ؟ قالَ : مَنْ أنصفَ مِنْ نفسِهِ(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه » .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

(٤) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤) نحوه .

(٥) رواه هناد في « الزهد » (٤٨٩) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نَفَثَ في روعي أنَّ نفساً لَنْ تموتَ حتَّىٰ تستكملَ رزقَها ، فاتَّقوا اللهَ وأجملوا في الطَّلبِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ إذا اشتدَّ بكَ الجوعُ . . فعليكَ برغيفٍ وكوزٍ مِنْ ماءٍ وعلى الدنيا الدَّمارُ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كنْ ورعاً . . تكنْ أعبدَ الناسِ ، وكنْ قَنِعاً . . تكنْ أشكرَ الناسِ ، وأَحِبَّ للناسِ ما تُحبُّ لنفسِكَ . . تكنْ مؤمناً »(٣) .

ونهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الطمعِ فيما رواهُ أبو أيوبَ الأنصاريُّ : أنَّ أعرابياً أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ عِظْني وأوجزْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا صلَّيتَ . . فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، ولا تحدِّثَنَّ بحديثٍ تعتذرُ منهُ غداً ، وأَجْمِعِ اليأسَ ممَّا في أيدي الناسِ »(٤) .

وقالَ عوفُ بنُ مالكٍ الأشجعيُّ : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسعةً أوْ ثمانيةً أوْ سبعةً ، فقالَ : « ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ؟ » قلْنا : أوَليسَ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٢) ، وابن ماجه (٢١٤٤) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٨٨١) .
(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٣٦٦) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

قدْ بايعناكَ يا رسولَ اللهِ ؟ ثمَّ قالَ : « ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ؟ » فبسطنا أيديَنا فبايعْناهُ ، فقالَ قائلٌ منَّا : قدْ بايعناكَ يا رسولَ اللهِ ، فعلىٰ ماذا نبايعُكَ ؟ قالَ : « علىٰ أنْ تعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئاً ، والصلواتِ الخمسِ ، وتسمعوا وتطيعوا ـ وأسرَّ كلمةً خفيَّةً ـ ولا تسألوا الناسَ شيئاً » ، قالَ : فلقدْ كانَ بعضُ أولئكَ النفرِ يسقطُ سوطُهُ فلا يسألُ أحداً أنْ يناولَهُ إيَّاهُ[1] .

❀ ❀ ❀

الآثارُ :

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الطمعَ فقرٌ ، وإنَّ اليأسَ غنىً ، وإنَّهُ مَنْ أيسَ ممَّا عندَ الناسِ . . استغنىٰ عنهُمْ)[2] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما الغنى ؟ قالَ : قلَّةُ تمنِّيكَ ، ورضاكَ بما يكفيكَ[3] .

وفي ذلكَ قيلَ[4] : [مجزوء الكامل]

اَلْعَيْشُ ساعاتٌ تَمُرُّ … وَخُطُوبُ أَيَّامٍ تَكُرُّ
اِقْنَعْ بِعَيْشِكَ تَرْضَهُ … وَٱتْرُكْ هَواكَ وَأَنْتَ حُرٌّ[5]
فَلَرُبَّ حَتْفٍ ساقَهُ … ذَهَبٌ وَياقُوتٌ وَدُرٌّ

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣) ، وأبو داوود (١٦٤٢) ، والنسائي (١/ ٢٢٩) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣١) .
(٣) رواه أبو بكر الشاشي في « فوائده » (٦) .
(٤) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٩/ ١٦٣) .
(٥) في (أ) : (تعيش) بدل (وأنت) .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يبلُّ الخبزَ اليابسَ بالماءِ ويأكلُهُ ويقولُ : مَنْ قنعَ بهٰذا . . لمْ يحتجْ إلىٰ أحدٍ(١) .

وقالَ سفيانُ : (خيرُ دنياكُمْ ما لمْ تُبتلَوا بهِ ، وخيرُ ما ابتليتُمْ بهِ ما خرجَ مِنْ أيديكُمْ)(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِن يومٍ إلا وملكٌ ينادي : يا بنَ آدمَ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يطغيكَ)(٣) .

وقالَ شُمَيطُ بنُ عجلانَ : (إنَّما بطنُكَ يا بنَ آدمَ شبرٌ في شبرٍ ؛ فلِمَ يدخلُكَ النارَ ؟)(٤) .

وقيلَ لحكيمٍ : ما مالُكَ ؟ قالَ : التَّجمُّلُ في الظاهرِ ، والقصدُ في الباطنِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ لوْ كانتِ الدنيا كلُّها لكَ . . لمْ يكنْ لكَ مِنْها إلا القوتُ ، فإذا أنا أعطيتُكَ مِنْها القوتَ ، وجعلتُ حسابَها علىٰ غيرِكَ . . فأنا إليكَ محسنٌ .

---

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣٥٣) أن محمد بن واسع أريد على القضاء فأبىٰ ، فعاتبته امرأته فقالت : لك عيال وأنت محتاج ، قال : ما دمت تريني أصبر على الخل والبقل . . فلا تطمعي في هٰذا مني .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢١) بنحوه .

(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٦١) .

(٤) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٦١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا طلبَ أحدُكُمُ الحاجةَ . . فليطلبْها طلباً يسيراً ، ولا يأتي الرجلَ فيقولَ : إنَّكَ وإنَّكَ فيقطعُ ظهرَهُ ، فإنَّما يأتيهِ ما قُسِمَ لهُ أوْ ما رُزِقَ)[1] .

وكتبَ بعضُ بني أميةَ إلىٰ أبي حازمٍ يعزمُ عليهِ إلا رفعَ إليهِ حوائجَهُ ، فكتَبَ إليهِ : قدْ رفعتُ حوائجي إلىٰ مولايَ ، فما أعطاني مِنْها . . قبلتُ ، وما أمسكَ عنِّي . . قنعتُ[2] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : أيُّ شيءٍ أسرُّ للعاقلِ ؟ وأيُّما شيءٍ أعونُ علىٰ دفعِ الحزنِ ؟ فقالَ : أسرُّها إليهِ ما قدَّمَ مِنْ صالحِ العملِ ، وأعونُها لهُ علىٰ دفعِ الحزنِ الرضا بمحتومِ القضاءِ[3] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (وجدتُ أطولَ الناسِ غمّاً الحسودَ ، وأهنأَهُمْ عيشاً القنوعَ ، وأصبرَهُمْ على الأذى الحريصَ إذا طمعَ ، وأخفضَهُمْ عيشاً أرفضَهُمْ للدنيا ، وأعظمَهُمْ ندامةً العالمَ المفرِّطَ) .

وفي ذلكَ قيلَ[4] : [من البسيط]

أَرْفَهْ بِبالِ فَتىً يُمْسِي عَلَىٰ ثِقَةٍ   أَنَّ ٱلَّذِي قَسَّمَ ٱلأَرْزاقَ يَـرْزُقُـهُ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٧٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٣٧) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ١٦٢) .
(٤) الأبيات للعطوي في « ديوانه » (ص ٨٤) (ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول ١٣٩١ـ ١٩٧١ ـ العددان ١+٢) ، والثالث في « بهجة المجالس » (٣/ ٣٠٩) .

فَٱلْعِرْضُ مِنْهُ مَصُونٌ لا يُدَنِّسُهُ   وَٱلْوَجْهُ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
إِنَّ ٱلْقَناعَةَ مَنْ يَحْلُلْ بِساحَتِها   لَمْ يَلْقَ فِي دَهْرِهِ شَيْئاً يُؤَرِّقُهُ

وقدْ قيلَ أيضاً[1] :   [من البسيط]

حَتَّىٰ مَتَىٰ أَنا فِي حِلٍّ وَتَرْحالِ   وَطُولِ سَعْيٍ وَإِدْبارٍ وَإِقْبالِ
وَنازِحُ ٱلدَّارِ لا أَنْفَكُّ مُغْتَرِباً   عَنِ ٱلأَحِبَّةِ لا يَدْرُونَ ما حالِي
بِمَشْرِقِ ٱلأَرْضِ طَوْراً ثُمَّ مَغْرِبِها   لا يَخْطُرُ ٱلْمَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَىٰ بالِ
وَلَوْ قَنِعْتُ أَتانِي ٱلرِّزْقُ فِي دَعَةٍ   إِنَّ ٱلْقُنُوعَ ٱلْغِنَىٰ لا كَثْرَةُ ٱلْمالِ[2]

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ألا أخبرُكُمْ بما أستحلُّ مِنْ مالِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ حُلَّتانِ لشتائي وقيظي ، وما يسعُني مِنَ ٱلظَّهْرِ لحجِّي وعُمرتي ، وقوتي بعدَ ذلكَ كقوتِ رجلٍ مِنْ قريشٍ ، لسْتُ بأرفعِهِمْ ولا بأوضعِهِمْ ، فواللهِ ؛ ما أدري أيحلُّ ذلكَ أمْ لا ؟)[3] ، كأنَّهُ شكَّ في أنَّ هٰذا القدْرَ هلْ هوَ زيادةٌ على الكفايةِ التي تجبُ القناعةُ بها ؟

وعاتبَ أعرابيٌّ أخاهُ على الحرصِ فقالَ : (يا أخي ؛ أنتَ طالبٌ

---

(١) الأبيات مما نسب إلىٰ أبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٢٨) ، وإلىٰ كلثوم العتابي . انظر « العقد الفريد » (٣/ ٢٠٨ـ٢٠٩) .
(٢) رواها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٧١) للمأمون وهو قافل إلىٰ طرسوس .
(٣) رواه ابن زنجويه في « الأموال » (٩٨٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٧٠) .

ومطلوبٌ ، يطلبُكَ مَنْ لا تفوتهُ ، وتطلبُ أنتَ ما قدْ كُفيتَهُ ، وكأنَّ ما غابَ عنكَ قدْ كُشِفَ لكَ ، وما أنتَ فيهِ قدْ نُقلْتَ عنهُ ؛ كأنَّكَ ـ يا أخي ـ لمْ ترَ حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً)[1] .

وقيلَ في ذلكَ[2] : [من الوافر]

أَراكَ يَزِيدُكَ ٱلإِثْراءُ حِرْصاً عَلَى ٱلدُّنيا كَأَنَّكَ لا تَمُوتُ
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْماً إِلَيْها قُلْتَ حَسْبِي قَدْ رَضِيتُ

وحكى الشَّعبيُّ : أنَّ رجلاً صادَ قُنْبَرةً ، فقالَتْ : ما تريدُ أنْ تصنعَ بي ؟ قالَ : أذبحُكِ وآكُلُكِ ، قالَتْ : واللهِ ؛ ما أشفي مِنْ قرَمٍ ، ولا أشبِعُ مِنْ جوعٍ ، ولكنْ أعلِّمُكَ ثلاثَ خصالٍ هيَ خيرٌ لكَ مِنْ أكلي ؛ أمَّا واحدةٌ . . فأعلِّمُكَ وأنا في يدِكَ ، وأمَّا الثانيةُ . . فإذا صرتُ على الشجرةِ ، وأمَّا الثالثةُ . . فإذا صرْتُ على الجبلِ ، فقالَ : هاتِ الأولىٰ ، قالَتْ : لا تلهفَنَّ علىٰ ما فاتَكَ ، فخلَّاها ، فلمَّا صارَتْ على الشجرةِ . . قالَ : هاتِ الثانيةَ ، قالَتْ : لا تصدِّقَنَّ بما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ، ثمَّ طارَتْ فصارَتْ على الجبلِ ، قالَتْ : يا شقيُّ ؛ لوْ ذبحتَني . . لأخرجتَ مِنْ حوصلتي دُرَّتينِ زِنةُ كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، قالَ : فعضَّ علىٰ شفتيهِ وتلهَّفَ ، وقالَ : هاتِ الثالثةَ ، قالَتْ : قدْ نسيتَ اثنتينِ ؛ فكيفَ أخبرُكَ بالثالثةِ ؟! ألَمْ أقلْ لكَ : لا تلهفَنَّ علىٰ ما فاتَكَ ، ولا تصدِّقَنَّ بما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ ؟! أنا ولحمي

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٣١٤) .
(٢) البيتان لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٨٩) .

ودمي وريشي لا يكونُ عشرينَ مثقالاً ، فكيفَ يكونُ في حوصلتي درَّتانِ في كلِّ واحدةٍ عشرونَ مثقالاً ، ثمَّ طارَتْ فذهبَتْ[1] .

وهـٰذا مثالٌ لفرطِ طمعِ الآدميِّ ؛ فإنَّهُ يُعميهِ عنْ دركِ الحقِّ حتَّىٰ يقدِّرَ ما لا يكونُ أنَّهُ يكونُ .

وقالَ ابنُ السمَّاكِ : (إنَّ الرجاءَ حبلٌ في قلبِكَ ، وقيدٌ في رِجْلِكَ ، فأخرجِ الرجاءَ مِنْ قلبِكَ . . يخرجِ القيدُ مِنْ رجلِكَ)[2] .

وقالَ أبو محمدٍ اليزيديُّ : دخلتُ على الرشيدِ ، فوجدتُهُ ينظرُ في ورقةٍ مكتوبٍ فيها بالذهبِ ، فلمَّا رآني . . تبسَّمَ ، فقلْتُ : فائدةٌ أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، وجدتُ هـٰذينِ البيتينِ في بعضِ خزائنِ بني أميَّةَ فاستحسنتُهُما ، وقدْ أضفْتُ إليهما ثالثاً ، وأنشدَني[3] : [من الطويل]

إِذا سُدَّ بابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حاجَةٍ فَدَعْهُ لأُخْرَىٰ يَنْفَتِحْ لَكَ بابُها
فَإِنَّ قُرابَ ٱلْبَطْنِ يَكْفِيكَ مِلْؤُهُ وَيَكْفِيكَ سَوْءاتِ ٱلأُمُورِ ٱجْتِنابُها
وَلا تَكُ مِبْذالاً لِعِرْضِكَ وَٱجْتَنِبْ رُكُوبَ ٱلْمَعاصِي يَجْتَنِبْكَ عِقابُها

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لكعبٍ : ما يُذهبُ العلمَ مِنْ قلوبِ العلماءِ بعدَ إذْ وعَوْهُ وعقلوهُ ؟ قالَ : الطمعُ ، وشرَهُ النفسِ ، وطلبُ الحوائجِ[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣١٦) .
(٢) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٤٣) .
(٣) انظر « بهجة المجالس » (٣/ ٣١٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٧/ ٢٥) .
(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٧١) .

وقالَ رجلٌ للفضيلِ : فسِّرْ لي قولَ كعبٍ ، قالَ : يطمعُ الرجلُ في الشيءِ فيطلبُهُ ، فيُذهِبُ عليهِ دينَهُ ، وأمَّا الشَّرهُ . . فشرهُ النفسِ في هـٰذا وفي هـٰذا ، حتَّىٰ لا تحبَّ أنْ يفوتَها شيءٌ ، ويكونُ لكَ إلىٰ هـٰذا حاجةٌ وإلىٰ هـٰذا حاجةٌ ، فإذا قضاها لكَ . . خزمَ أنفَكَ ، وقادَكَ حيثُ شاءَ ، واستمكنَ منكَ ، وخضعتَ لهُ ، فمِنْ حبِّكَ للدنيا سلَّمتَ عليهِ إذا مررتَ بهِ ، وعدتَهُ إذا مرضَ ، لمْ تسلِّمْ عليهِ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولمْ تعدْهُ للهِ عزَّ وجلَّ ، فلوْ لمْ يكنْ لكَ إليهِ حاجةٌ . . كانَ خيراً لكَ ، ثمَّ قالَ : هـٰذا خيرٌ لكَ مِنْ مئةِ حديثٍ عنْ فلانٍ وفلانٍ(١) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مِنْ عجيبِ أمرِ الإنسانِ أنَّه لوْ نُوديَ بدوامِ البقاءِ في أيامِ الدنيا . . لمْ يكنْ في قوىٰ خلقتِهِ مِنَ الحرصِ على الجمعِ أكثرُ ممَّا قدْ استعملَهُ معَ قصرِ مدَّةِ التمتُّعِ وتوقُّعِ الزوالِ)(٢) .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ براهبٍ ، فقلتُ لهُ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ قالَ : مِنْ بيدرِ اللطيفِ الخبيرِ ، الذي خلقَ الرَّحىٰ هوَ يأتيها بالطحينِ ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ رحىٰ أضراسِهِ(٣) ، فسبحانَ القديرِ الخبيرِ .

* * *

---

(١) رواه ـ وفيه الخبر السابق ـ القاضي عياض في « الإلماع » (ص ١٩٤) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٩/ ١٦٤) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (٩/ ١٦٤) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ١١) ضمن خبر طويل ولكن عن السليط بن سبيع .

بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلمْ : أنَّ هـٰذا الدواءَ مركَّبٌ مِنْ ثلاثةِ أركانٍ : الصبرِ ، والعلمِ ، والعملِ .

ومجموعُ ذلكَ خمسةُ أمورٍ :

الأولُ ـ وهوَ العملُ ـ : الاقتصادُ في المعيشةِ ، والرفقُ في الإنفاقِ : فمَنْ أرادَ عزَّ القناعةِ . . فينبغي أنْ يسدَّ عنْ نفسِهِ أبوابَ الخرْجِ ما أمكنَهُ ، ويردَّ نفسَهُ إلىٰ ما لا بدَّ منهُ ؛ فمَنْ كثرَ خرجُهُ ، واتسعَ إنفاقُهُ . . لمْ تمكنْهُ القناعةُ ، بلْ إنْ كانَ وحدَهُ . . فينبغي أنْ يقنعَ بثوبٍ واحدٍ خشنٍ ، ويقنعَ بأيِّ طعامٍ كانَ ، ويقلِّلَ مِنَ الإدامِ ما أمكنَهُ ، ويوطِّنَ نفسَهُ علىٰ ذلكَ ، وإنْ كانَ لهُ عيالٌ . . فيردُّ كلَّ واحدٍ إلىٰ هـٰذا القدْرِ ، فإنَّ هـٰذا القدْرَ يتيسَّرُ بأدنىٰ جهدٍ ، ويمكنُ معَهُ الإجمالُ في الطلبِ .

فالاقتصادُ في المعيشةِ هوَ الأصلُ في القناعةِ ، ونعني بهِ : الرفقَ في الإنفاقِ ، وتركَ الخُرقِ فيهِ[1] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّهِ »[2] .

---

(١) **الخُرق** : ضد الرفق ، وهو أيضاً ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .
(٢) رواه البخاري (٦٠٢٤) ، ومسلم (٢١٦٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما عالَ مَنِ اقتصَدَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ منجياتٌ ؛ خشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانيةِ ، والقصدُ في الغنىٰ والفقرِ ، والعدلُ في الرضا والغضبِ »(٢) .

ورُوِيَ أَنَّ رجلاً أبصرَ أبا الدرداءِ يلتقطُ حبّاً مِنَ الأرضِ وهوَ يقولُ : (إنَّ مِنْ فقهِكَ رفقَكَ في معيشتِكَ)(٣) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الاقتصادُ ، وحسنُ السَّمتِ ، والهدْيُ الصالحُ . . جزءٌ مِنْ بضعٍ وعشرينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »(٤) .

وفي الخبرِ : « التدبيرُ نصفُ العيشِ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اقتصدَ . . أغناهُ اللهُ ، ومَنْ بذَّرَ . .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٤٧) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٠٨) ، **وما عال** : ما افتقر ، **من اقتصد** : من أنفق قصداً ولم يجاوزه إلى الإسراف . « إتحاف » (٨/ ١٦٤) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٦١٤٤) ، ورواه من حديثه أيضاً مرفوعاً (٦١٤٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٧٦) مع تقديم وتأخير ، والترمذي (٢٠١٠) وفيه : (التؤدة) بدل (الهدي الصالح) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٢١) ، **والتدبير هنا** : النظر في عواقب الإنفاق ؛ إذ به يحترز عن الإسراف والتقتير . « إتحاف » (٨/ ١٦٥) .

أفقَرَهُ اللهُ ، ومَنْ ذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ اللهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أردْتَ أمراً . . فعليكَ بالتُّؤدَةِ حتَّىٰ يجعلَ اللهُ لكَ فرجاً ومخرجاً »(٢) ، والتؤدةُ في الإنفاقِ مِنْ أهمِّ الأمورِ .

❀ ❀ ❀

الثاني : أنَّهُ إذا تيسَّرَ لهُ في الحالِ ما يكفيهِ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ شديدَ الاضطرابِ لأجلِ المستقبلِ : ويعينُهُ علىٰ ذلكَ قصرُ الأملِ ، والتحققُ بأنَّ الرزقَ الذي قُدِّرَ لهُ لا بدَّ وأَنْ يأتيَهُ وإنْ لمْ يشتدَّ حرصُهُ ، وأنَّ شدةَ الحرصِ ليسَ هيَ السببَ لوصولِ الأرزاقِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ واثقاً بوعدِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وذلكَ لأنَّ الشيطانَ يعدُهُ الفقرَ ويأمرُهُ بالفحشاءِ ، ويقولُ : إنْ لمْ تحرصْ على الجمعِ والادخارِ . . فربَّما تمرضُ وتعجزُ ، وتحتاجُ إلى احتمالِ الذلِّ في السؤالِ ، فلا يزالُ طولَ العمرِ يتعبُهُ في الطلبِ خوفاً مِنَ التعبِ ، ويضحكُ عليهِ في احتمالِهِ التعبَ نقداً معَ الغفلةِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ لتوهُّمِ تعبٍ في ثاني الحالِ ، وربَّما لا يكونُ .

وفي مثلِهِ قيلَ(٣) : [من الطويل]

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعاتِ فِي جَمْعِ مالِهِ ... مَخافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذِي فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٨) بتمامه .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٢١)، والبخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٨).
(٣) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٢/ ١٥٠) .

وقدْ دخلَ ابنا خالدٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ لهُما : « لا تيئسا مِنَ ٱلرزقِ ما تهزهزَتْ رؤوسُكُما ؛ فإنَّ الإنسانَ تلدُهُ أُمُّهُ أحمرَ ليسَ عليهِ قشرٌ ، ثمَّ يرزقُهُ اللهُ تعالىٰ »[١] .

ومرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بابنِ مسعودٍ وهوَ حزينٌ ، فقالَ لهُ : « لا تكثِرْ همَّكَ ، ما يقدَّرْ . . يكنْ ، وما تُرزقْ . . يأتِكَ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أيُّها الناسُ ؛ أجملوا في الطلبِ ؛ فإنَّهُ ليسَ لعبدٍ إلا ما كُتبَ لهُ ، ولنْ يذهبَ عبدٌ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يأتيَهُ ما كتبَ لهُ مِنَ الدنيا وهيَ راغمةٌ »[٣] .

ولا ينفكُّ الإنسانُ عنِ الحرصِ إلا بحسنِ ثقتِهِ بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ في تقديرِ أرزاقِ العبادِ ، وأنَّ ذلكَ يصلُ ـ لا محالةَ ـ معَ الإجمالِ في الطلبِ ، بلْ ينبغي أنْ يعلمَ أنَّ رزقَ العبدِ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ أكثرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ ، فإذا انسدَّ عليهِ بابٌ كانَ ينتظرُ الرزقَ منهُ . . فلا ينبغي أنْ يضطربَ قلبُهُ لأجلِهِ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٦٥) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ٧) ، وابنا خالد هما حبة وسواء رضي الله عنهما ، وتهزهزت ـ وعند ابن ماجه (تهزَّزت) ـ : تحركت .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٩٤٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٤) .

(٣) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤) نحوه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبى اللهُ أنْ يرزقَ عبدَهُ المؤمنَ إلا مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »(١) .

وقالَ سفيانُ : (اتقِ اللهَ ؛ فما رأيتُ تقيّاً محتاجاً)(٢) أيْ : لا يتركُ التقيَّ فاقداً لضرورتِهِ ، بلْ يُلقي اللهُ في قلوبِ المسلمينَ أنْ يوصلوا إليهِ رزقَهُ(٣) .

وقالَ المفضَّلُ الضبيُّ : قلتُ لأعرابيٍّ : مِنْ أينَ معاشُكَ ، قالَ : بورودِ الحاجِّ ، قلتُ : فإذا صدَروا ؟ فبكىٰ وقالَ : لوْ لمْ نعشْ إلا مِنْ حيثُ ندري . . لمْ نعشْ(٤) .

وقالَ أبو حازمٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدتُ الدنيا شيئينِ ؛ شيئاً منهُما هوَ لي ؛ فلنْ أعجلَهُ قبلَ أجلِهِ ولوْ طلبتُهُ بقوّةِ السماواتِ والأرضِ ، وشيئاً منهُما هوَ لغيري ؛ فذلكَ لمْ أنلْهُ فيما مضىٰ ، فلا أرجوهُ فيما بقيَ ، يُمنَعُ الذي لغيري منِّي كما يُمنَعُ الذي لي مِنْ غيري ؛ ففي أيِّ هـٰذين أُفني عمري ؟!)(٥) .

---

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١/ ١٦١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٨٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٥٢) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٦٨) : (أخرجه صاحب « الحلية » ، وكأنه استنبط ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ . . . ﴾ الآية ؛ أي : فلا يتصور الاحتياج مع التقوىٰ) .

(٣) من غير إشراف نفس منه ولا مسألة . « إتحاف » (٨/ ١٦٨) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٢٤٨) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٣٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٤٠) .

فهٰذا دواءٌ مِنْ جهةِ المعرفةِ لا بدَّ منهُ لدفعِ تخويفِ الشيطانِ وإنذارِهِ بالفقرِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يعرفَ ما في القناعةِ مِنْ عزِّ الاستغناءِ ، وما في الطمعِ والحرصِ مِنَ الذلِّ : فإذا تحقَّقَ عندَهُ ذلكَ . . انبعثَتْ رغبتُهُ إلى القناعةِ ؛ لأنَّهُ في الحرصِ لا يخلو مِنْ تعبٍ ، وفي الطمعِ لا يخلو مِنْ ذلٍّ ، وليسَ في القناعةِ إلا ألمُ الصبرِ عنِ الشهواتِ والفضولِ ، وهٰذا ألمٌ لا يطلعُ عليهِ أحدٌ إلا اللهُ ، وفيهِ ثوابُ الآخرةِ ، وذلكَ ممَّا يُضافُ إليهِ نظرُ الناسِ ، وفيهِ الوبالُ والمأثمُ ، ثمَّ يفوتُهُ عزُّ النفسِ ، والقدرةُ علىٰ متابعةِ الحقِّ ؛ فإنَّ مَنْ كثُرَ طمعُهُ وحرصُهُ . . كثُرَتْ حاجتُهُ إلى الناسِ ، فلا يمكنُهُ دعوتُهُمْ إلى الحقِّ ، بلْ تلزمُهُ المداهنةُ ، وذلكَ يهلكُ دينَهُ ، ومَنْ لا يؤْثِرُ عزَّ النفسِ علىٰ شهوةِ البطنِ . . فهوَ ركيكُ العقلِ ، ناقصُ الإيمانِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عزُّ المؤمنِ استغناؤُهُ عنِ الناسِ »(١) .

ففي القناعةِ الحريةُ والعزُّ ، ولذلكَ قيلَ : (استغنِ عمَّنْ شئتَ . . فأنتَ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٥٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا محمد ؛ عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزَّه استغناؤه عن الناس) .

نظيرُهُ ، واحتجْ إلىٰ مَنْ شئتَ . . فأنتَ أسيرُهُ ، وأحسنْ إلىٰ مَنْ شئتَ . . فأنتَ أميرُهُ)[1] .

* * *

الرابعُ : أنْ يكثِرَ تأمُّلَهُ في تنعُّمِ اليهودِ والنصارىٰ ، وأراذلِ الناسِ ، والحمقىٰ مِنَ الأكرادِ والأعرابِ الأجلافِ ، ومَنْ لا دينَ لهمْ ولا عقلَ ، **ثمَّ ينظرَ إلىٰ أحوالِ الأنبياءِ** والأولياءِ ، وإلىٰ سمتِ الخلفاءِ الراشدينَ ، وسائرِ الصحابةِ والتابعينَ ، ويستمعَ أحاديثَهُمْ ، ويطالعَ أحوالَهُمْ ، ويخيِّرَ عقلَهُ بينَ أنْ يكونَ علىٰ مشابهةِ أراذلِ الناسِ ، أوْ على الاقتداءِ بمَنْ هوَ أعزُّ أصنافِ الخلقِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ يهونَ عليهِ بذلكَ الصبرُ على القليلِ ، والقناعةُ باليسيرِ ؛ فإنَّهُ إنْ تنعَّمَ في البطنِ . . فالحمارُ أكثرُ أكلاً منهُ ، وإنْ تنعَّمَ في الوقاعِ . . فالخنزيرُ أعلىٰ رتبةً منهُ ، وإنْ تزيَّنَ في الملبسِ والخيلِ . . ففي اليهودِ مَنْ هوَ أعلىٰ رتبةً منهُ ، وإنْ قنعَ بالقليلِ ورضيَ بهِ . . لمْ يساهمْهُ في رتبتِهِ إلا الأنبياءُ والأولياءُ .

* * *

الخامسُ : أنْ يفهمَ ما في جمعِ المالِ مِنَ الخطرِ : كما ذكرناه في آفاتِ المالِ ، وما فيهِ مِنْ خوفِ السرقةِ والنهبِ والضياعِ ، وما في خلوِّ اليدِ مِنَ الأمنِ والفراغِ ، ويتأملَ ما ذكرناهُ مِنْ آفاتِ المالِ ، معَ ما يفوتُهُ مِنَ المدافعةِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ١٨٤) عن أبي محمد الأنصاري أنه قرأه علىٰ حجر ببيت المقدس .

عنْ بابِ الجنةِ إلىٰ خمسِ مئةِ عامٍ ، فإنَّهُ إذا لمْ يقنعْ بما يكفيهِ . . التحقَ بزمرةِ الأغنياءِ ، وأُخرِجَ مِنْ جريدةِ الفقراءِ ، ويتمُّ ذلكَ بأنْ ينظرَ أبداً إلىٰ مَنْ دونَهُ في الدنيا ، لا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ، فإنَّ الشيطانَ أبداً يصرفُ نظرَهُ في الدنيا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ، فيقولُ : لِمَ تفترُ عنِ الطلبِ وأربابُ الأموالِ يتنعَّمونَ في المطاعمِ والملابسِ ؟ ويصرفُ نظرَهُ في الدِّينِ إلىٰ مَنْ دونَهُ ، فيقولُ : لِمَ تضيِّقُ علىٰ نفسِكَ وتخافُ اللهَ وفلانٌ أعلمُ منكَ وهوَ لا يخافُ اللهَ ، والناسُ كلُّهُمْ مشغولونَ بالتنعُّمِ ؟ فلمَ تريدُ أنْ تتميَّزَ عنهُمْ ؟!

قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنْ أنظرَ إلىٰ مَنْ هوَ دوني ، ولا أنظرَ إلىٰ مَنْ هوَ فوقي)[1] أيْ : في الدنيا .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا نظرَ أحدُكُمْ إلىٰ مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ والخَلْقِ . . فلينظُرْ إلىٰ مَنْ هوَ أسفلَ منهُ ممَّنْ فُضِّلَ عليهِ »[2] .

فبهٰذهِ الأمورِ يقدرُ على اكتسابِ خُلُقِ القناعةِ ، وعمادُ الأمرِ الصبرُ وقصرُ الأملِ ، وأنْ يعلمَ أنَّ غايةَ صبرِهِ في الدنيا أيامٌ قلائلُ ليتمتَّعَ دهراً طويلاً ، فيكونَ كالمريضِ الذي يصبرُ علىٰ مرارةِ الدواءِ لشدةِ طمعِهِ في انتظارِ الشفاءِ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٥٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٤٤٩) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠) ، ومسلم (٢٩٦٣) .

بيان فضيلة السخاء

اعلمْ : أنَّ المالَ إنْ كانَ مفقوداً . . فينبغي أنْ يكونَ حالُ العبدِ القناعةَ وقلَّةَ الحرصِ ، وإنْ كانَ موجوداً . . فينبغي أنْ يكونَ حالُهُ الإيثارَ والسخاءَ ، واصطناعَ المعروفِ ، والتباعدَ عنِ الشحِّ والبخلِ ؛ فإنَّ السخاءَ مِنْ أخلاقِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، وهوَ أصلٌ مِنْ أصولِ النجاةِ ، وعنهُ عبَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « السَّخاءُ شجرةٌ منْ شجرِ الجنَّةِ ، أغصانُها متدلِّيةٌ إلى الأرضِ ، فمَنْ أخذَ بغصْنٍ مِنْها . . قادَهُ ذلكَ الغصْنُ إلى الجنَّةِ »[١] .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : قالَ اللهُ تعالىٰ : إنَّ هٰذا دينٌ ارتضيتُهُ لنفسِي ، ولنْ يصلحَهُ إلا السَّخاءُ وحسْنُ الخُلْقِ ، فأكرموهُ بهِما ما استطعتُمْ » ، وفي روايةٍ : « فأكرموهُ بهِما ما صحبتُموهُ »[٢] .

وعنْ عائشةَ الصدِّيقةِ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ٢٣٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٩٢) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢١) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٣٩ ، ٥٥٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٩١٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٦) ، ولفظه بروايتيه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) .

وسلَّمَ : « ما جَبَلَ اللهُ تعالىٰ وليّاً لهُ إلا على السَّخاءِ وحُسْنِ الخُلُقِ »[1] .

وعنْ جابرٍ قالَ : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « الصبرُ والسماحةُ »[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خُلُقانِ يحبُّهما اللهُ عزَّ وجلَّ ، وخُلُقانِ يبغضُهما اللهُ عزَّ وجلَّ ، فأمَّا اللذانِ يحبُّهما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فحسنُ الخُلُقِ والسخاءُ ، وأمَّا اللذانِ يبغضُهما اللهُ عزَّ وجلَّ . . فسوءُ الخُلُقِ والبخلُ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . استعملَهُ في قضاءِ حوائجِ الناسِ »[3] .

وروى المقدامُ بنُ شريحٍ عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ دلَّني علىٰ عملٍ يدخلُني الجنةَ ، قالَ : « إنَّ مِنْ موجباتِ المغفرةِ بذلَ الطعامِ ، وإفشاءَ السلامِ ، وحسنَ الكلامِ »[4] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخاءُ شجرةٌ في الجنَّةِ ؛ فمَنْ كانَ سخيّاً . . أخذَ بغصْنٍ مِنْها ، فلمْ يترُكْهُ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٠٥) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٢٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٣٨٥) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٨٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٨٠) بروايتين ، جمع هنا بينهما ، وهو كما أورده المصنف عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٣) .

ذلكَ الغصْنُ حتَّىٰ يدخلَهُ الجنَّةَ ، والشُّحُّ شجرةٌ في النارِ ؛ فمَنْ كانَ شحيحاً . أخذَ بغصْنٍ مِنْها ، فلمْ يتركْهُ ذلكَ الغصْنُ حتَّىٰ يدخلَهُ النارَ »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : اطلبوا الفضلَ عندَ الرحماءِ مِنْ عبادي . . تعيشوا في أكنافِهِمْ ؛ فإنِّي جعلتُ فيهِمْ رحمتي ، ولا تطلبوهُ مِنَ القاسيةِ قلوبُهُمْ ؛ فإنِّي جعلتُ فيهِمْ سخَطِي »(٢) .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تجافَوا عنْ ذنبِ السخيِّ ؛ فإنَّ اللهَ آخذٌ بيدِهِ كلَّما عثرَ »(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرزقُ إلىٰ مُطعمِ الطعامِ أسرعُ مِنَ السكِّينِ إلىٰ ذُروةِ البعيرِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ليُباهي بمُطعمِ الطعامِ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ »(٤) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٧٧) .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٦٨) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٢٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧١٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٠٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٩٧) ، ورواه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (٤/ ١٠٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٦٩) .

(٤) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٤) ، وقد روى ابن ماجه (٣٣٥٦ ، ٣٣٥٧) من حديث أنس وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعاً : « الخير أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه ـ أو يُغشىٰ ـ من الشفرة إلىٰ سنام البعير » ، ورواه بنحوه هنا الرافعي في « تاريخ قزوين » (٤/ ١٢٠) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جوادٌ يحبُّ الجودَ ، ويحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، ويكرهُ سَفْسافَها »[1] .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يُسأَلْ على الإسلامِ شيئاً إلا أعطاهُ ، فأتاهُ رجلٌ فسألَهُ ، فأمرَ لهُ بشاءٍ كثيرٍ بينَ جبلينِ مِنْ شاءِ الصدقةِ ، فرجعَ إلىٰ قومِهِ فقالَ : يا قومِ ؛ أسلموا ، فإنَّ محمداً يعطي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفاقةَ[2] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عباداً يخصُّهُمْ بالنِّعمِ لمنافعِ العبادِ ، فمنْ بخلَ بتلكَ المنافعِ عنِ العبادِ .. نقلَها اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُ ، وحوَّلَها إلىٰ غيرِهِ »[3] .

وعنِ الهلاليِّ قالَ : أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأسرىٰ مِنْ بني العنبرِ ، فأمرَ بقتلِهِمْ ، وأفردَ منهُمْ رجلاً ، فقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ الربُّ واحدٌ ، والدينُ واحدٌ ، والذنبُ واحدٌ ؛ فما بالُ هـٰذا مِنْ بينِهِمْ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نزلَ عليَّ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٧٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٦) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٨١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد تقدم بعضه .

(٢) رواه مسلم (٢٣١٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٥١٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١١٥) و(١٠/ ٢١٥) .

جبريلُ فقالَ : اقتلْ هؤلاءِ واتركْ هـٰذا ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ شكرَ لهُ سخاءً فيهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ شيءٍ ثمرةً ، وثمرةُ المعروفِ تعجيلُ السَّراحِ »[2] .

وعنْ نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طعامُ الجوادِ دواءٌ ، وطعامُ البخيلِ داءٌ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عظُمَتْ نعمةُ اللهِ عندَهُ . . عظُمَتْ مؤنةُ الناسِ عليهِ ، فمَنْ لمْ يحتملْ تلكَ المؤنةَ . . عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ »[4] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٥) ، وفيه : (الهذلي) بدل (الهلالي) ، وزاد : فقال الأسير : لِمَ لم ألحق بأصحابي ؟ فقال : « إن الله تعالىٰ شكر سخاء فيك » ، فأسلم وحسن إسلامه ببركة سخاوته .
وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحافه » (٨/ ١٧٥) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٧٥) : (قال العراقي : لم أقف له علىٰ أصل . قلت : ولكن المعنىٰ صحيح ، ومنه قولهم : إما نعم صريحة وإلا مريحة) ، وقد سقط الخبر من مطبوع « تهذيب الأسرار » للخركوشي مع أن السياق عنده .

(٣) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٩٥٤) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن عدي والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو علي الصوفي في « عواليه » وقال : رجاله ثقات أئمة ، قال ابن القطان : وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داوود ؛ فإن أهل مصر تكلموا فيه) . « إتحاف » (٨/ ١٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ١٧٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٩٨) ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : استكثروا مِنْ شيءٍ لا تأكلُهُ النارُ ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : المعروفُ[1] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجنةُ دارُ الأسخياءِ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ السخيَّ قريبٌ مِنَ اللهِ ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنَّةِ ، بعيدٌ مِنَ النارِ ، وإنَّ البخيلَ بعيدٌ مِنَ اللهِ ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، بعيدٌ مِنَ الجنَّةِ ، قريبٌ مِنَ النارِ ، وجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ عابدٍ بخيلٍ ، وأدوأُ الداءِ البخلُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اصنعِ المعروفَ إلىٰ مَنْ هوَ أهلُهُ وإلىٰ مَنْ ليسَ بأهلِهِ ؛ فإنْ أصبتَ أهلَهُ . . فقدْ أصبتَ أهلَهُ ، وإنْ لمْ تصِبْ أهلَهُ . . فأنتَ مِنْ أهلِهِ »[4] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٧١) عن الزهري .

(٢) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٩٧) ، وابن حبان في « الثقات » (٥/ ٢٣) ، وابن عدي في « الكامل » (١/ ١٨٧) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٦١) دون الجملة الأخيرة ، ورواها الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٤) .

(٤) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (٧٨) ، والجصاص في « أحكام القرآن » (٣/ ٢٦٧) ، والسلمي في « آداب الصحبة » (١٣٨) ، وهو عند الدارقطني في « العلل » (٣/ ١٠٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ بدلاءَ أمَّتي لمْ يدخلوا الجنَّةَ بصلاةٍ ولا صيامٍ ، ولكنْ دخلوها بسخاءِ الأنفسِ ، وسلامةِ الصدورِ ، والنصحِ للمسلمينَ »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ للمعروفِ وجوهاً مِنْ خلقِهِ ، حبَّبَ إليهمُ المعروفَ ، وحبَّبَ إليهمْ فعالَهُ ، ووجَّه طلاَّبَ المعروفِ إليهمْ ، ويسَّر عليهمْ إعطاءَهُ ؛ كما يسَّرَ الغيثَ إلى البلدةِ الجدبةِ فيحييها ويحيي بها أهلَها »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، وكلُّ ما أنفقَ الرجلُ علىٰ نفسِهِ وأهلِهِ كُتبَ لهُ صدقةً ، وما وقىٰ بهِ المرءُ عرضَهُ.. فهوَ لهُ صدقةٌ ، وما أنفقَ الرَّجلُ مِنْ نفقةٍ.. فعلى اللهِ خلفُها »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، والدالُّ على الخيرِ كفاعلِهِ ، واللهُ يحبُّ إغاثةَ اللَّهفانِ »(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٩٣ ، ١٠٣٩٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢١) من حديث أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بنحوه .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٤٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٩) ، والجملة الأولىٰ منه رواها البخاري (٦٠٢١) ، ومسلم (١٠٠٥) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٢٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ معروفٍ فعلتَهُ إلىٰ غنيٍّ أوْ فقيرٍ صدقةٌ »(١) .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : لا تقتلِ السامريَّ ؛ فإنَّهُ سخيٌّ(٢) .

وقالَ جابرٌ : بَعَثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثاً عليهمْ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ ، فجهدوا ، فنحرَ لهمْ قيسٌ تسعَ ركائبَ ، فحدَّثوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ؛ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الجودَ لمِنْ شيمةِ أهلِ ذلكَ البيتِ »(٣) .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : إذا أقبلَتِ الدنيا عليكَ . . فأنفقْ منها ؛ فإنَّها لا تفنىٰ ، وإذا أدبرَتْ عنكَ . . فأنفقْ منها ؛ فإنَّها لا تبقىٰ ، وأنشدَ(٤) : [من البسيط]

لا تبْخَلَنَّ بِدُنْيا وَهْيَ مُقْبِلَةٌ   فَلَيْسَ يَنْقُصُها ٱلتَّبْذِيرُ وَٱلسَّرَفُ

---

(١) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧٢) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (١١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، والثعلبي في « تفسيره » (٦/ ٢٥٨) .

(٣) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩/ ٤١١) .

(٤) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٠) .

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ تَجُودَ بِها   فَٱلْحَمْدُ مِنْها إذا ما أَدْبَرَتْ خَلَفُ

وسألَ معاويةُ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ عنِ المروءةِ والنجدةِ والكرمِ ، فقالَ :

أمَّا المروءةُ . . فحفظُ الرجلِ دينَهُ ، وحذرُهُ نفسَهُ ، وحسنُ قيامِهِ بضيفِهِ ، وحسنُ المنازعةِ ، والإقدامُ في الكراهيةِ .

وأمَّا النجدةُ . . فالذبُّ عنِ الجارِ ، والصبرُ في المواطنِ .

وأمَّا الكرمُ . . فالتبرُّعُ بالمعروفِ قبلَ السؤالِ ، والإطعامُ في المحْلِ ، والرأفةُ بالسائلِ معَ بذلِ النائلِ (١) .

ورفعَ رجلٌ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما رقعةً ، فقالَ : حاجتُكَ مقضيَّةٌ ، فقيلَ لهُ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ لوْ نظرتَ في رقعتِهِ ثمَّ رددتَ الجوابَ علىٰ قدْرِ ذلكَ! فقالَ : يسألُني اللهُ عزَّ وجلَّ عنْ ذلِّ مقامِهِ بينَ يديَّ حتَّىٰ أقرأَ رقعتَهُ (٢) .

وقالَ ابنُ السماكِ : (عجبتُ لمَنْ يشتري المماليكَ بمالِهِ ولا يشتري الأحرارَ بمعروفِهِ) (٣) .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٢٥٧) بنحوه ، وبلفظه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٢٩) .
(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٠) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤٢١) .

وسُئِلَ بعضُ الأعرابِ : مَنْ سيدُكُمْ ؟ فقالَ : مَنِ احتملَ شتْمَنا ، وأعطىٰ سائلَنا ، وأغضىٰ عنْ جاهِلِنا[1] .

وقالَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَن وُصِفَ ببذلِ مالِهِ لطلابِهِ . . لمْ يكنْ سخيّاً ، وإنَّما السخيُّ مَنْ يبتدِئُ بحقوقِ اللهِ تعالىٰ في أهلِ طاعتِهِ ، ولا تنازعُهُ نفسُهُ إلىٰ حبِّ الشكرِ لهُ إذا كانَ يقينُهُ بثوابِ اللهِ تامّاً)[2] .

وقيلَ للحسنِ البصريِّ : ما السخاءُ ؟ فقالَ : أنْ تجودَ بمالِكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، قيلَ : فما الحزمُ ؟ قالَ : أنْ تمنعَ مالكَ فيهِ ، قيلَ : فما الإسرافُ ؟ قالَ : الإنفاقُ لحبِّ الرئاسةِ[3] .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (لا مالَ أعودُ مِنَ العقلِ[4] ، ولا مصيبةَ أعظمُ مِنَ الجهلِ ، ولا مظاهرةَ كالمشاورةِ ، ألا وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : إنِّي جوادٌ كريمٌ لا يجاورُني لئيمٌ ، واللؤمُ مِنَ الكفرِ ، وأهلُ الكفرِ في النارِ ، والجودُ والكرمُ مِنَ الإيمانِ ، وأهلُ الإيمانِ في الجنةِ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٤٠) عن معاوية رضي الله عنه يسأل أحد أعراب طيء ، وقصدوا به خريم بن أوس .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٢) .
(٤) أي : أكثر عائدة منه .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٣) .

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (رُبَّ فاجرٍ في دينِهِ ، أخرقُ في معيشتِهِ ، يدخلُ الجنةَ بسماحتِهِ)(١) .

ورأى الأحنفُ بنُ قيسٍ رجلاً في يدِهِ درهمٌ ، فقالَ : لمَنْ هـٰذا الدرهمُ ، فقالَ : لي ، فقالَ : أما إنَّهُ ليسَ لكَ حتَّىٰ يخرجَ مِنْ يدِكَ(٢) .

وفي معناهُ قيلَ(٣) : [من الرمل]

أَنْتَ لِلْمالِ إذا أَمْسَكْتَهُ ... فَإذا أَنْفَقْتَهُ فَالْمالُ لَكْ

وسُمِّي واصلُ بنُ عطاءٍ الغزَّالَ ؛ لأنهُ كانَ يجلسُ إلى الغزَّالينَ ، فإذا رأى امرأةً ضعيفةً . . أعطاها شيئاً(٤) .

وقالَ الأصمعيُّ : كتبَ الحسنُ بنُ عليٍّ إلى الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهمْ يعتبُ عليهِ في إعطاءِ الشعراءِ ، فكتبَ إليهِ : خيرُ المالِ ما وُقِيَ بهِ العرضُ(٥) .

وقيلَ لسفيانَ بنِ عيينةَ : ما السخاءُ ؟ قالَ : السخاءُ البرُّ بالإخوانِ ، والجودُ بالمالِ(٦) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٥) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٤٣) ، وأنه تمثَّل بالبيت بعده عندهما .
(٣) انظر « عيون الأخبار » (٣/ ١٨١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٣٩) .
(٦) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) .

قالَ : وورثَ أبي خمسينَ ألفَ درهمٍ ، فبعثَ بها إلىٰ إخوانِهِ صرراً ، وقالَ : قدْ كنتُ أسألُ اللهَ تعالىٰ لإخواني الجنَّةَ في صلاتي ، أفأبخلُ عليهمْ بالمالِ ؟!(١) .

وقالَ الحسنُ : (بذلُ المجهودِ في بذلِ الموجودِ منتهى الجودِ)(٢) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : مَنْ أحبُّ الناسِ إليكَ ؟ قالَ : مَنْ كثُرَتْ أياديهِ عندي ، قيلَ : فإنْ لمْ يكنْ ؟ قالَ : مَنْ كثُرَتْ أياديَّ عندَهُ(٣) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ : (إذا الرجلُ أمكنَني مِنْ نفسِهِ حتَّىٰ أضعَ معروفي عندَهُ . . فيدُهُ عندي مثلُ يدي عندَهُ)(٤) .

وقالَ المهديُّ لشَبيبِ بنِ شيبةَ : كيفَ رأيتَ الناسَ في داري ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ الرجلَ منهمْ ليدخلُ راجياً ويخرجُ راضياً(٥) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٨) ، وعنده : (وورث الحسن) بدل (قال : وورث أبي) ، وبنحوه حكاه الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/ ٣٧٣) عن عبد الملك بن بحر ، وفي (ب) : (وورث عبد الرحمـٰن بن الحارث) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) عن الحماني .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) ، وقريب منه عند الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٨٤) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٤٠) .

(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٧٦) .

وتمثلَ متمثلٌ عندَ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ فقالَ[1] : [من الكامل]

إِنَّ ٱلصَّنِيعَـةَ لا تَكُـونُ صَنِيعَـةً ... حَتَّىٰ يُصابَ بِها طَرِيقُ ٱلْمَصْنَعِ

فَإِذا ٱصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فَٱعْمَدْ بِها ... للهِ أَوْ لِـذَوِي ٱلْقَـرابَـةِ أَوْ دَعِ

فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ : إنَّ هـٰذينِ البيتينِ ليبخلانِ الناسَ ، ولكنْ أمطرِ المعروفَ مطراً ؛ فإنْ أصابَ الكرامَ . . كانُوا لهُ أهلاً ، وإنْ أصابَ اللئامَ . . كنتَ لهُ أهلاً[2] .

* * *

---

(١) البيتان لسيدنا حسان في « ديوانه » (١/ ٤٩٣) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٤٣٦) ، ورواه بنحوه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٥٤) .

حكايات الأسخياء

عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ ، عنْ أمِّ درَّةَ[1] ـ وكانَتْ تخدمُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ـ قالَتْ : إنَّ ابنَ الزبيرِ بعثَ إليها[2] بمالٍ في غِرارتينِ ثمانينَ ومئةِ ألفِ درهمٍ ، فدعَتْ بطبقٍ ، فجعلَتْ تقسمُهُ بينَ الناسِ ، فلما أمسَتْ ، قالَتْ : يا جاريةُ ؛ هلمِّي فُطُوري ، فَجَاءَتْها بخبزٍ وزيتٍ ، فقالَتْ لها أمُّ درة : ما استطعتِ فيما قسمتِ اليومَ أنْ تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطرُ عليهِ ؟ فقالَتْ : لوْ كنتِ ذكرتيني . . لفعلتُ[3] .

وعنْ أبانَ بنِ عثمانَ قالَ : أرادَ رجلٌ أنْ يضارَّ عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ ، فأتىٰ وجوهَ قريشٍ فقالَ : يقولُ لكمْ عبدُ اللهِ : تغدَّوا عندي اليومَ ، فأتوهُ حتَّىٰ ملؤوا عليهِ الدارَ ، فقالَ : ما هٰذا ، فأُخبرَ الخبرَ ، فأمرَ عبدُ اللهِ بشراءِ فاكهةٍ ، وأمرَ قوماً فطبخوا ، وخبزوا ، وقُدِّمَتِ الفاكهةُ إليهِمْ ، فلمْ يفرغوا منها حتَّىٰ وُضعَتِ الموائدُ ، فأكلوا حتَّىٰ صدروا ، فقالَ عبدُ اللهُ لوكلائِهِ : أموجودٌ كلَّما أردتُ في السوقِ مثلُ هٰذا ؟ قالوا : نعمْ ،

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في «الإتحاف» (٨/ ١٨١) : (هٰكذا ضبطه غير واحد بضم الدال المهملة)، وضبطه الحافظ ابن حجر في «تبصير المنتبه» (٢/ ٥٦٠) : ذَرَّة، بفتح الذال المعجمة.

(٢) أي : لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها .

(٣) رواه هناد في « الزهد » (٦١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٧) ، ولفظه عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٧) .

قالَ : فليتغدَّ عندَنا هؤلاءِ في كلِّ يومٍ[1] .

وقالَ مصعبُ بنُ الزبيرِ : حجَّ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فلمَّا انصرفَ . . مرَّ بالمدينةِ ، فقالَ الحسينُ بنُ عليٍّ لأخيهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهمْ : لا تلقَهُ ولا تسلِّمْ عليهِ ، فلمَّا خرجَ معاويةُ . . قالَ الحسنُ : إنَّ علينا دَيناً ولا بدَّ لنا مِنْ إتيانِهِ ، فركبَ في أثرِهِ فلحقَهُ ، فسلَّمَ عليهِ وأخبرَهُ بدَينِهِ ، فمرُّوا عليهِ ببُخْتيٍّ عليهِ ثمانونَ ألفَ دينارٍ وقدْ أعيا وتخلَّفَ عنِ الإبلِ وقومٌ يسوقونَهُ ، فقالَ معاويةُ : ما هٰذا ؟ فذُكِرَ لهُ ، فقالَ : اصرفوهُ بما عليهِ إلىٰ أبي محمدٍ[2] .

وعنْ واقدِ بنِ محمدٍ الواقديِّ قالَ : حدثَنا أبي أنَّهُ رفعَ رقعةً إلى المأمونِ يذكرُ فيها كثرةَ الدينِ وقلَّةَ صبرِهِ عليهِ ، فوقَّعَ المأمونُ علىٰ ظهرِ رقعتِهِ : إنَّكَ رجلٌ اجتمعَ فيكَ خصلتانِ : سخاءٌ ، وحياءٌ ، فأمَّا السخاءُ . . فهوَ الذي أطلقَ ما في يديكَ ، وأمَّا الحياءُ . . فهوَ الذي يمنعُكَ مِنْ تبليغِنا ما أنتَ عليهِ ، وقدْ أمرتُ لكَ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فإنْ كنتُ قدْ أصبتُ . . فازدَدْ في بسطِ يدِكَ ، وإنْ لمْ أكنْ قدْ أصبتُ . . فجنايتُكَ علىٰ نفسِكَ ، وأنتَ حدَّثتَني وكنتَ علىٰ قضاءِ الرشيدِ : عنْ محمدِ بنِ إسحاقَ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ للزبيرِ بنِ العوَّامِ :

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤٢٢) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) .

« يا زبيرُ ؛ اعلمْ أنَّ مفاتيحَ أرزاقِ العبادِ بإزاءِ العرشِ ، يبعثُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ كلِّ عبدٍ بقدْرِ نفقتِهِ ؛ فمَنْ كثَّرَ . . كثَّرَ لهُ ، ومَنْ قلَّلَ . . قلَّلَ لَهُ » ، وأنتَ أعلمُ . قالَ الواقديُّ : فواللهِ ؛ لَمذاكرةُ المأمونِ إيَّايَ الحديثَ أحبُّ إليَّ مِنَ الجائزةِ وهيَ مئةُ ألفِ درهمٍ(١) .

وسألَ رجلٌ الحسنَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما حاجةً فقالَ لهُ : يا هـٰذا ؛ حقُّ سؤالِكَ إيايَ يعظمُ لديَّ ، ومعرفتي بما يجبُ لكَ تكبرُ عليَّ ، ويدي تعجزُ عنْ نيلِكَ بما أنتَ أهلُهُ ، والكثيرُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ قليلٌ ، وما في ملكي وفاءٌ لشكرِكَ ، فإنْ قبلتَ الميسورَ ، ورفعتَ عنِّي مؤنَةَ الاحتمالِ والاهتمامِ لما أتكلَّفُهُ مِنْ واجبِكَ . . فعلتُ ، فقالَ : يا بنَ رسولِ اللهِ ؛ أقبلُ وأشكرُ العطيَّةَ ، وأعذرُ على المنعِ ، فدعا الحسنُ بوكيلِهِ ، وجعلَ يحاسبُهُ علىٰ نفقاتِهِ حتَّى استقصاها ، فقالَ : هاتِ الفاضلَ مِنَ الثلاثِ مئةِ ألفِ درهمٍ ، فأحضرَ خمسينَ ألفاً ، قالَ : فما فعلتَ بالخمسِ مئةِ دينارٍ ؟ قالَ : هيَ عندي ، قالَ : أحضرْها ، فأحضرَها ، فدفعَ الدنانيرَ والدراهمَ إلى الرجلِ ، وقالَ : هاتِ مَنْ يحملُها لكَ ، فأتاهُ بحمالينَ ، فدفعَ إليهِ الحسنُ رداءَهُ لكراءِ الحملِ ، فقالَ لهُ مواليهِ : واللهِ ؛ ما عندَنا درهمٌ ، فقالَ :

---

(١) رواه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/٢٢٨) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) ، وروى المرفوع وحده أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢١٦) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٥٤) بنحوه .

ولكنِّي أرجو أنْ يكونَ لي عندَ اللهِ أجرٌ عظيمٌ[١] .

واجتمعَ قرّاءُ البصرةِ إلى ابنِ عباسٍ وهوَ عاملُ البصرةِ ، فقالوا : لنا جارٌ صوَّامٌ قوَّامٌ يتمنَّىٰ كلُّ واحدٍ منّا أنْ يكونَ مثلَهُ ، وقدْ زوَّجَ بنيَّةً لهُ مِنِ ابنِ أخيهِ وهوَ فقيرٌ وليسَ عندَهُ ما يجهِّزُها بهِ ، فقامَ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ ، فأخذَ بأيديهِمْ ، وأدخلَهُمْ دارَهُ ، وفتحَ صندوقاً فأخرجَ منهُ ستَّ بُدَرٍ ، فقالَ : احملوا ، فحملوا ، فقالَ ابنُ عباسٍ : ما أنصفْناهُ ، أعطيناهُ ما يشغلُهُ عنْ قيامِهِ وصيامِهِ ، ارجعُوا بنا . . نكنْ أعوانَهُ علىٰ تجهيزِها ، فليسَ للدنيا مِنَ القدْرِ ما يشغلُ مؤمناً عنْ عبادةِ ربِّهِ تعالىٰ ، وما بنا مِنَ التكبُّرِ ما لا نخدمُ أولياءَ اللهِ تعالىٰ ، ففعلَ وفعلوا[٢] .

وحُكيَ أنَّهُ لمَّا أجدبَ الناسُ بمصرَ وعبدُ الحميدِ بنُ سعدٍ أميرُهُمْ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأُعْلِمَنَّ الشيطانَ أنِّي عدوُّهُ ، فعالَ محاويجَهُمْ إلىٰ أنْ رخُصَتِ الأسعارُ ، ثمَّ عُزِلَ عنهُمْ ، فرحلَ وللتجارِ عليهِ ألفُ ألفِ درهمٍ ، فرهنَهُمْ بها حليَّ نسائِهِ ، وقيمتُهُ خمسةُ آلافِ ألفِ درهمٍ[٣] ، فلمَّا تعذَّرَ عليهِ ارتجاعُها . . كتبَ إليهِمْ ببيعِها ، ودفعِ الفاضلِ مِنْها عنْ حقوقِهِمْ إلىٰ مَنْ لمْ تنلْهُ صِلاتُهُ[٤] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣١) ، وأورده مختصراً القشيري في « رسالته » (ص٤٢٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣١) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/ ٤٩٢ـ٤٩٣) .
(٣) في غير (ج) : (وقيمته خمس مئة ألف ألف درهم) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢) .

وكانَ أبو طالبِ بنُ كثيرٍ شيعياً ، فقالَ لهُ رجلٌ : بحقِّ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ؛ لمَّا وهبتَ لي نِحلتَكَ بموضعِ كذا ، قالَ : قدْ فعلتُ ، وحقِّهِ ؛ لأعطينَّكَ ما يليها ، وكانَ ذلكَ أضعافَ ما طلبَ الرجلُ(١) .

وكانَ أبو مرثدٍ أحدَ الكرماءِ ، فمدحَهُ بعضُ الشعراءِ ، فقالَ للشاعرِ : واللهِ ؛ ما عندي ما أعطيكَ ، ولكنْ قدِّمْني إلى القاضي وادَّعِ عليَّ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، حتَّىٰ أقرَّ لكَ بها ، ثمَّ احبسْني ، فإنَّ أهلي لا يتركوني محبوساً ، ففعلَ ذلكَ ، فلمْ يُمسِ حتَّىٰ دُفعَ إليهِ عشرةُ آلافِ درهمٍ ، وأُخرِجَ أبو مرثدٍ مِنَ الحبسِ(٢) .

وكانَ معنُ بنُ زائدةَ عاملاً على العراقينِ بالبصرةِ ، فحضرَ بابَهُ شاعرٌ ، فأقامَ مدَّةً ، وأرادَ الدخولَ علىٰ معنٍ ، فلمْ يتهيَّأْ لهُ ، فقالَ يوماً لبعضِ خدمِ معنٍ : إذا دخلَ الأميرُ البستانَ . . فعرِّفْني ، فلمَّا دخلَ . . أعلمَهُ ، فكتبَ الشاعرُ بيتاً علىٰ خشبةٍ وألقاها في الماءِ الذي يدخلُ بستانَ معنٍ ، وكانَ معنٌ علىٰ رأسِ الماءِ ، فلمَّا بصرَ بالخشبةِ . . أخذَها وقرأَها ؛ فإذا فيها مكتوبٌ : [من الطويل]

أَيا جُودَ مَعْنٍ ناجِ مَعْناً بَحاجَتِي فَما لِي إِلَىٰ مَعْنٍ سِواكَ شَفِيعُ

فقالَ : مَنْ صاحبُ هـٰذهِ ؟ فدُعيَ بالرجلِ ، فقالَ لهُ : كيفَ قلتَ ؟

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢)، والقشيري في « رسالته » (ص٤٢٣).

فقالَهُ ، فأمرَ لهُ بعشرِ بُدَرٍ ، فأخذَها ، ووضعَ الأميرُ الخشبةَ تحتَ بساطِهِ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثاني . . أخرجَها مِنْ تحتِ البساطِ وقرأَ ما فيها ، ودعا بالرجلِ فدفعَ إليهِ مئةَ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا أخذَها الرجلُ . . تفكَّرَ وخافَ أنْ يأخذَ منهُ ما أعطاهُ ، فخرجَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الثالثُ . . قرأَ ما فيها ودعا بالرجلِ ، فطُلبَ فلمْ يُوجدْ ، فقالَ معنٌ : حقٌّ عليَّ أنْ أعطيَهُ حتَّىٰ لا يبقىٰ في بيتِ مالي درهمٌ ولا دينارٌ(١) .

وقالَ أبو الحسنِ المدائنيُّ : خرجَ الحسنُ والحسينُ وعبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ حُجاجاً ، ففاتَهُمْ أثقالُهُمْ ، فجاعوا وعطشوا ، فمرُّوا بعجوزٍ في خباءٍ لها ، فقالوا : هلْ مِنْ شرابٍ ؟ فقالَتْ : نعمْ ، فأناخوا إليها وليسَ لها إلا شُويهةٌ في كسرِ الخيمةِ ، فقالَتِ : احلبوها وامتذقوا لبنَها ، ففعلوا ذلكَ ، ثمَّ قالوا لها : هلْ مِنْ طعامٍ ؟ قالَتْ : لا إلا هـٰذهِ الشاةُ ، فليذبحْها أحدُكُمْ حتَّىٰ أهيِّءَ لكمْ ما تأكلونَ ، فقامَ إليها أحدُهُمْ فذبحَها وكشطَها ، ثمَّ هيأَتْ لهُمْ طعاماً ، فأكلُوا وأقاموا حتَّىٰ أبردوا ، فلمَّا ارتحلوا . . قالوا لها : نحنُ نفرٌ مِنْ قريشٍ نريدُ هـٰذا الوجهَ ، فإذا رجعنا سالمينَ . . فألمِّي بنا ؛ فإنَّا صانعونَ بكِ خيراً ، ثمَّ ارتحلوا ، وأقبلَ زوجُها فأخبرَتْهُ بخبرِ القومِ والشاةِ ، فغضبَ الرجلُ ، وقالَ : ويلَكِ ؛ تذبحينَ شاتي لقومٍ لا تعرفينَهُمْ ، ثمَّ تقولينَ : نفرٌ مِنْ قريشٍ ، قالَ : ثمَّ بعدَ مدةٍ ألجأتْهُما الحاجةُ إلىٰ دخولِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٢) ، وانظر « ثمرات الأوراق » (ص٤٤٠) ، و« المستطرف » (١/ ٤٩٢ـ٤٩٣) .

المدينةِ ، فدخلاها وجعلا ينقلانِ البعرَ إليها ويبيعانِهِ ، ويتعيَّشانِ بثمنِهِ ، فمرَّتِ العجوزُ في بعضِ سككِ المدينةِ ؛ فإذا الحسنُ بنُ عليٍّ جالسٌ علىٰ بابِ دارِهِ ، فعرفَ العجوزَ وهيَ لهُ منكرةٌ ، فبعَثَ غلامَهُ ودعا العجوزَ ، فقالَ لها : يا أمةَ اللهِ ؛ أتعرفيني ؟ قالَتْ : لا ، قالَ : أنا ضيفُكِ يومَ كذا وكذا ، قالتِ العجوزُ : بأبي أنتَ وأمِّي ، أنتَ هوَ ؟ قالَ : نعمْ ، ثمَّ أمرَ الحسنُ فاشترَوا لها مِنْ شاءِ الصدقةِ ألفَ شاةٍ ، وأمرَ لها معَها بألفِ دينارٍ ، وبعثَ بها معَ غلامِهِ إلى الحسينِ ، فقالَ لها الحسينُ : بكمْ وصَلَكِ أخي ؟ قالَتْ : بألفِ شاةٍ وألفِ دينارٍ ، فأمرَ لها الحسينُ أيضاً بمثلِ ذلكَ ، ثمَّ بعثَ بها معَ غلامِهِ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ ، فقالَ لها : بكمْ وصلكِ الحسنُ والحسينُ ؟ قالَتْ : بألفي شاةٍ وألفي دينارٍ ، فأمرَ لها عبدُ اللهِ بألفي شاةٍ وألفي دينارٍ ، وقالَ لها : لوْ بدأتِ بي . . لأتعبتُهُما ، فرجعَتِ العجوزُ إلىٰ زوجِها بأربعةِ آلافِ شاةٍ ، وأربعةِ آلافِ دينارٍ(١) .

وخرجَ عبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ كريزٍ مِنَ المسجدِ يريدُ منزلَهُ ، وهوَ وحدَهُ ، فقامَ إليهِ غلامٌ مِنْ ثقيفٍ ، فمشىٰ إلىٰ جانبِهِ ، فقالَ لهُ عبدُ اللهِ : ألكَ حاجةٌ يا غلامُ ؟ قالَ : صلاحُكَ وفلاحُكَ ، رأيتُكَ تمشي وحدَكَ ، فقلتُ : أقيكَ بنفسي ، وأعوذُ باللهِ إنْ طارَ بجنابِكَ مكروهٌ ، فأخذَ عبدُ اللهِ بيدِهِ ومشىٰ معَهُ إلىٰ منزلِهِ ، ثمَّ دعا بألفِ دينارٍ ، فدفعَها إلى الغلامِ ، وقالَ :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٨٥) : (هكذا أخرجه المدائني بأسانيده) .

استنفقْ هـٰذهِ ، فنعمَ ما أدَّبَكَ أهلُكَ[1] .

وحُكِيَ أنَّ قوماً مِنَ العربِ جاؤوا إلىٰ قبرِ بعضِ أسخيائِهِمْ للزيارةِ ، فنزلوا عندَ قبرِهِ ، وباتوا عندَهُ وقدْ كانوا جاؤوا مِنْ سفرٍ بعيدٍ ، فرأىٰ رجلٌ منهمْ في النومِ صاحبَ القبرِ وهوَ يقولُ لَهُ : هلْ لكَ أنْ تبادلَ بعيرَكَ بنجيبي ؟ وكانَ السخيُّ الميتُ قدْ خلَّفَ نجيباً معروفاً بهِ ، ولهـٰذا الرجلِ بعيرٌ سمينٌ ، فقالَ لهُ في النومِ : نعمْ ، وباعَ في النومِ بعيرَهُ بنجيبِهِ ، فلمَّا وقعَ بينهُما العقدُ . . عمدَ هـٰذا الرجلُ إلىٰ بعيرِهِ فنحرَهُ في النومِ ، فانتبَهَ الرجلُ مِنْ نومِهِ ؛ فإذا الدمُ يثجُّ مِنْ نحرِ بعيرِهِ ، فقامَ الرجلُ منَ النومِ فنحرَهُ ، وقسَّمَ لحمَهُ ، فطبخوهُ وقضَوا حاجتهُمْ منهُ ، ثمَّ رحلوا وساروا ، فلما كانَ اليومُ الثاني وهمْ في الطريقِ . . استقبلَهُمْ ركبٌ ، فقالَ رجلٌ منهُمْ : مَنْ فلانُ بنُ فلانٍ منكمْ ؟ باسمِ ذلكَ الرجلِ ، فقالَ : أنا ، فقالَ : هلْ بعتَ مِنْ فلانٍ شيئاً ؟ وذكرَ الميتَ صاحبَ القبرِ ، قالَ : نعمْ ، بعتُ منهُ بعيري بنجيبِهِ في النومِ ، فقالَ : خذْ ، هـٰذا نجيبُهُ ، ثمَ قالَ : هوَ أبي ، وقدْ رأيتُهُ في النومِ وهوَ يقولُ : إنْ كنتَ ابني . . فادفعْ نجيبي إلىٰ فلانٍ وسمَّاهُ[2] .

وقدمَ رجلٌ مِنْ قريشٍ مِنَ السفرِ ، فمرَّ برجلٍ مِنَ الأعرابِ علىٰ قارعةِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٤) ، وفيه : (صار) بدل (طار) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ١٨٥) : (هكذا أخرجه أبو الحسن المدائني في « أخبار الأسخياء ») .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٦) .

الطريقِ قدْ أقعدَهُ الدهرُ ، وأضرَّ بهِ المرضُ ، فقالَ : يا هٰذا ؛ أعِنَّا على الدهرِ ، فقالَ الرجلُ لغلامِهِ : ما بقيَ معكَ مِنَ النفقةِ . . فادفعْهُ إليهِ ، فصبَّ الغلامُ في حجرِ الأعرابيِّ أربعةَ آلافِ درهمٍ ، فذهبَ لينهضَ ، فلمْ يقدرْ مِنَ الضعفِ فبكىٰ ، فقالَ لهُ الرجلُ : ما يبكيكَ ؟ لعلَّكَ استقللتَ ما أعطيناكَ ؟ قالَ : لا ، ولكنْ ذكرتُ ما تأكلُ الأرضُ مِنْ كرمِكَ فأبكاني(١) .

واشترىٰ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ مِنْ خالدِ بنِ عقبةَ بنِ أبي معيطٍ دارَهُ التي في السوقِ بتسعينَ ألفَ درهمٍ ، فلمَّا كانَ الليلُ . . سمعَ بكاءَ أهلِ خالدٍ ، فقالَ لأهلِهِ : ما لهؤلاءِ ؟ قالوا : يبكونَ لدارِهِمْ ، قالَ : يا غلامُ ؛ ائتهِمْ فأعلمْهُمْ أنَّ الدارَ والمالَ لهُمْ جميعاً(٢) .

وقيلَ : أنفذَ هارونُ الرشيدُ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُما خمسَ مئةِ دينارٍ ، فبلغَ ذلكَ الليثَ بنَ سعدٍ ، فأنفذَ إليهِ ألفَ دينارٍ ، فغضبَ هارونُ وقالَ : أعطيتُهُ خمسَ مئةٍ وتعطيهِ ألفاً وأنتَ مِنْ رعيَّتي ؟! فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ لي مِنْ غلَّتي كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ ، فاستحييتُ أنْ أعطيَ مثلَهُ أقلَّ مِنْ دخلِ يومٍ(٣) .

وحُكِيَ أنَّهُ لمْ تجبْ عليهِ الزكاةُ معَ أنَّ دخلَهُ كلَّ يومٍ ألفُ دينارٍ(٤) .

---

(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٤٨) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٨٨) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .

وروِيَ أنَّ امرأةً سألَتِ الليثَ بنَ سعدٍ رحمةُ اللهِ عليهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فأمرَ لها بزقٍّ مِنْ عسلٍ ، فقيلَ لهُ : إنَّها كانَتْ تقنعُ بدونِ هٰذا ، فقالَ : إنَّها سألَتْ علىٰ قدرِها ، ونعطيها علىٰ قدْرِ النعمةِ علينا(١) .

وكانَ الليثُ بنُ سعدٍ لا يتكلَّمُ كلَّ يومٍ حتَّىٰ يتصدَّقَ علىٰ ثلاثِ مئةٍ وستينَ مسكيناً(٢) .

وقالَ الأعمشُ : اشتكتْ شاةٌ عندي ، فكَانَ خيثمةُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ يعودُها بالغداةِ والعشيِّ ، ويسألُني : هلِ استوفَتْ علفَها ؟ وكيفَ صبرُ الصبيانِ منذُ فقدوا لبنَها ؟ وكانَ تحتي لَبَدٌ أجلسُ عليهِ ؛ فإذا خرجَ . . قال : خذْ ما تحتَ اللَّبدِ ، حتَّىٰ وصلَ إليَّ في علَّةِ الشاةِ أكثرُ مِنْ ثلاثِ مئةِ دينارٍ مِنْ برِّهِ ، حتَّىٰ تمنيتُ أنَّ الشاةَ لمْ تبرأْ(٣) .

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لأسماءَ بنِ خارجةَ : بلغَني عنكَ خصالٌ ، فحدِّثْني بها ، فقالَ : هي مِنْ غيري أحسنُ منها مِنِّي ، قالَ : عزمتُ عليكَ إلا حدثتَني بها ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ما مددتُ رجلي بينَ يدي جليسٍ لي قطُّ ، ولا صنعتُ طعاماً قطُّ فدعوتُ إليهِ قوماً إلا كانوا أمنَّ عليَّ منِّي عليهِمْ ، ولا نصبَ لي رجلٌ وجهَهُ قطُّ ليسألَني شيئاً فاستكثرتُ شيئاً أعطيتُهُ إيَّاهُ(٤) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩)، والقشيري في « رسالته » (ص٤٢٣).
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٠) .

ودخلَ سعيدُ بنُ خالدٍ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، وكانَ سعيدٌ رجلاً جواداً ، فإذا لمْ يجدْ شيئاً . . كتبَ لمَنْ سألَهُ صكّاً علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يخرجَ عطاؤُهُ ، فلمَّا نظرَ إليهِ سليمانُ . . تمثَّلَ بهـٰذا البيتِ فقالَ : [من الكامل]

إنِّي سَمِعْتُ مَعَ ٱلصَّباحِ مُنادِياً   يا مَنْ يُعِينُ عَلَى ٱلْفَتَى ٱلْمِعْوانِ

ثمَّ قالَ : حاجتُكَ ؟ قالَ : دَيني ، قالَ : وكمْ هوَ ؟ قالَ : ثلاثونَ ألفَ دينارٍ ، قالَ : دينُكَ ومثلُهُ(١) .

وقيلَ : مرضَ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ ، فاستبطأَ إخوانَهُ ، فقيلَ : إنَّهُمْ يستحيونَ ممَّا لكَ عليهِمْ مِنَ الدَّينِ ، فقالَ : أخزى اللهُ مالاً يمنعُ الإخوانَ مِنَ الزيارةِ ، ثمَّ أمرَ منادياً فنادىٰ : مَنْ كانَ عليهِ لقيسٍ حقٌّ . . فهوَ منهُ في حِلٍّ ، قالَ : فكُسِرَتْ درجتُهُ بالعشيِّ ؛ لكثرةِ مَنْ عادَهُ(٢) .

وعنْ أبي إسحاقَ قالَ : صلَّيتُ الفجرَ في مسجدِ الأشعثِ بالكوفةِ أطلبُ غريماً لي ، فلمَّا صليتُ . . وُضِعَ بينَ يديَّ حلةٌ ونعلانِ ، فقلتُ : لستُ مِنْ أهلِ هـٰذا المسجدِ ، فقيلَ : إنَّ الأشعثَ بنَ قيسٍ الكنديَّ قدمَ البارحةَ مِنْ مكةَ فأمرَ لكلِّ مَنْ صلَّىٰ في المسجدِ بحلَّةٍ ونعلينِ(٣) .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٠) ، و« ربيع الأبرار » (١/ ٥٩٥ـ٥٩٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٠) .
(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٢٢٢) دون ذكر أبي إسحاق السبيعي .

وقالَ الشيخُ أبو سعدٍ الخَرْكُوشيُّ النيسابوريُّ رحمهُ اللهُ : سمعتُ محمدَ بنَ محمدٍ الحافظَ يقولُ : سمعتُ الشافعيَّ المجاورَ بمكةَ يقولُ : كانَ بمصرَ رجلٌ عُرفَ بأنَّهُ يجمعُ للفقراءِ شيئاً ، فوُلِدَ لبعضِهِمْ ولدٌ ، قالَ : فجئتُ إليهِ ، فقلتُ لهُ : وُلِدَ لي مولودٌ ، وليسَ معي شيءٌ ، فقامَ معي ، ودخلَ علىٰ جماعةٍ ، فلمْ يُفتحْ بشيءٍ ، فجاءَ إلىٰ قبرِ رجلٍ ، وجلسَ عندَهُ ، وقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ كنتَ تفعلُ وتصنعُ ، وإنِّي دُرتُ اليومَ وكلَّفتُ جماعةً دفعَ شيءٍ لمولودٍ ، فلمْ يتفقْ لي شيءٌ ، قالَ : ثمَّ قامَ ، وأخرجَ ديناراً وكسرَهُ نصفينِ ، وناولَني نصفَهُ ، وقالَ : هـٰذا دينٌ عليكَ إلىٰ أنْ يُفتحَ لكَ بشيءٍ ، قالَ : فأخذتُهُ وانصرفتُ ، فأصلحتُ ما اتفقَ لي بهِ ، فرأىٰ ذلكَ المحتسبُ تلكَ الليلةَ ذلكَ الشخصَ في منامِهِ ، فقالَ : سمعتُ جميعَ ما قلتَ ، وليسَ لنا إذنٌ بالجوابِ ، ولكنِ احضرْ منزلي ، وقلْ لأولادي يحفرُوا مكانَ الكانونِ ، ويخرجوا قرابةً فيها خمسُ مئةِ دينارٍ ، واحملْها إلىٰ هـٰذا الرجلِ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . تقدَّمَ إلىٰ منزلِ الميتِ ، وقصَّ عليهِمُ القصةَ ، فقالوا لهُ : اجلسْ ، وحفروا الموضعَ ، فأخرجوا الدنانيرَ ، وجاؤوا بها فوضعوها بينَ يديهِ ، فقالَ : هـٰذا مالُكُمْ ، وليسَ لرؤيايَ حكمٌ ، فقالوا : هوَ يتسخَّىٰ ميتاً ، ولا نتسخَّىٰ نحنُ أحياءً ! فلما ألحُّوا عليهِ . . حملَ الدنانيرَ إلى الرجلِ صاحبِ المولودِ ، وذكرَ لهُ القصةَ ، قالَ : فأخذَ مِنْها ديناراً وكسرَهُ نصفينِ ، فأعطاهُ النصفَ الذي أقرضَهُ ، وحملَ النصفَ الآخرَ ، وقالَ : يكفيني هـٰذا ، وتصدَّقْ بها على

الفقراءِ ، فقالَ أبو سعدٍ : فلا أدري أيُّ هؤلاءِ أسخىٰ[1] .

ورُوِيَ أنَّ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ لما مرضَ مرضَ موتِهِ . . قالَ : مروا فلاناً يغسلُني[2] ، فلمَّا تُوفيَ . . بلغَه خبرُ وفاتِهِ ، فحضرَ وقالَ : ائتوني بتذكرتِهِ ، فأُتيَ بها ، فنظرَ فيها ؛ فإذا على الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ سبعونَ ألفَ درهمٍ دينٌ ، فكتبَها علىٰ نفسِهِ ، وقضاها عنهُ ، وقالَ : هـٰذا غسلي إيَّاهُ ؛ أيْ : أرادَ بهِ هـٰذا .

وقالَ أبو سعدٍ الواعظُ الخركوشيُّ رحمَهُ اللهُ : لمَّا قدمتُ مصرَ . . طلبتُ منزلَ ذلكَ الرجلِ ، فدلُّوني عليهِ ، فرأيتُ جماعةً مِنْ أحفادِهِ وزرتُهُمْ ، فرأيتُ فيهمْ سيما الخيرِ وآثارَ الفضلِ ، فقلتُ : بلغَ أثرُهُ في الخيرِ إليهمْ ، وظهرَتْ بركتُهُ فيهمْ ؛ مستدلاً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾[3] .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : لا أزالُ أحبُّ حمادَ بنَ أبي سليمانَ لشيءٍ بلغَني عنهُ ؛ أنَّهُ كانَ ذاتَ يومٍ راكباً حمارَهُ ، فحرَّكَهُ فانقطعَ زرُّهُ ، فمرَّ علىٰ خياطٍ ، فأرادَ أنْ ينزلَ إليهِ ليسوِّيَ زرَّهُ ، فقالَ الخياطُ : واللهِ ؛ لا نزلتَ ، فقامَ الخياطُ إليهِ ، فسوَّىٰ زرَّهُ ، فأخرجَ إليهِ صرَّةً فيها عشرةُ دنانيرَ ، فسلَّمَها إلى الخياطِ ، واعتذرَ إليهِ مِنْ قلَّتِها[4] .

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤١) .
(٢) وعنىٰ به : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . « إتحاف » (٨/ ١٨٩) .
(٣) تهذيب الأسرار (ص٤٤٢) .
(٤) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٢) ، ورواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٣٢) .

وأنشدَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ لنفسِهِ[1] : [من البسيط]

يا لَهْفَ قَلْبي عَلَىٰ مالٍ أُفَرِّقُهُ   عَلَى الْمُقِلِّينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمُرُوءاتِ
إِنَّ ٱعْتِذارِي إِلَىٰ مَنْ جاءَ يَسْأَلُني   مَا لَيْسَ عِنْدِي لَمِنْ إِحْدَى ٱلْمُصِيباتِ

وعنِ الربيعِ بنِ سليمانَ قالَ : أخذَ رجلٌ بركابِ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، فقالَ : يا ربيعُ ؛ أعطِهِ أربعةَ دنانيرَ واعتذرْ إليهِ عنِّي[2] .

وقالَ الربيعُ : سمعتُ الحميديَّ يقولُ : قدمَ الشافعيُّ مِنْ صنعاءَ إلىٰ مكةَ بعشرةِ آلافِ دينارٍ ، فضربَ خباءَهُ في موضعٍ خارجاً مِنْ مكةَ ، فنثرَها علىٰ ثوبٍ ، ثمَّ أقبلَ علىٰ كلِّ مَنْ دخلَ عليهِ يقبضُ قبضةً ويعطيهِ حتَّىٰ صلَّى الظهرَ ، ونفضَ الثوبَ وليسَ عليهِ شيءٌ[3] .

وعنْ أبي ثورٍ قالَ : أرادَ الشافعيُّ الخروجَ إلىٰ مكةَ ومعَهُ مالٌ ، وكانَ قلَّما يمسكُ شيئاً مِنْ سماحتِهِ ، فقلتُ لهُ : ينبغي أنْ تشتريَ بهـٰذا المالِ ضيعةً تكونُ لكَ ولولدِكَ ، قالَ : فخرجَ ، ثمَّ قدمَ علينا ، فسألتُهُ عنْ ذلكَ المالِ ، فقالَ : ما وجدتُ بمكةَ ضيعةً يمكنُني أنْ أشتريَها ؛ لمعرفتي بأصلِها ، وقدْ وُقِفَ أكثرُها ، ولكنِّي بنيتُ بمنىً مضرباً

(١) ديوان الإمام الشافعي (ص ٤٣) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٠) .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٠) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٣) .

يكونُ لأصحابِنا إذا حجُّوا أنْ ينزلوا فيهِ[1] .

وأنشدَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ[2] : [من الوافر]

أَرَىٰ نَفْسِي تَتُوقُ إِلَىٰ أُمُورٍ ... يُقَصِّرُ دُونَ مَبْلَغِهِنَّ مَالِي
فَنَفْسِي لا تُطَاوِعُنِي بِبُخْلٍ ... وَمَالِي لا يُبَلِّغُنِي فِعَالِي

وقالَ محمدُ بنُ عبادٍ المهلبيُّ : دخلَ أبي على المأمونِ ، فوصلَهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فلمَّا قامَ مِنْ عندِهِ . . تصدَّقَ بها ، فأُخبِرَ بذلكَ المأمونُ ، فلمَّا عادَ إليهِ . . عاتبَهُ المأمونُ في ذلكَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ منعُ الموجودِ سوء ظنٍّ بالمعبودِ ، فوصلَهُ بمئةِ ألفٍ أخرىٰ[3] .

وقامَ رجلٌ إلىٰ سعيدِ بنِ العاصِ فسألَهُ ، فأمرَ لهُ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، فبكىٰ ، فقالَ لهُ سعيدٌ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : أبكي على الأرضِ أنْ تأكلَ مثلَكَ ، فأمرَ لهُ بمئةِ ألفٍ أخرىٰ[4] .

ودخلَ أبو تمامٍ علىٰ إبراهيمَ بنِ شكلةَ بأبياتٍ امتدحَهُ بها ، فوجدَهُ عليلاً ، فقبِلَ منهُ المِدْحَةَ ، وأمرَ حاجبَهُ بنيلِهِ ما يصلحُهُ ؛ وقالَ : عسىٰ أنْ

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٣) .
(٢) البيتان مما نسب إلى الإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ١١٤) ، ولعبد الله بن معاوية في « ديوانه » (ص ٦٧) .
(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٤) ، ورواه بنحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ١٧٦) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ١٣٢) .

أقومَ مِنْ مرضي فأكافئَهُ ، فأقامَ شهرينِ ، فأوحشَهُ طولُ المقامِ ، فكتبَ إليهِ يقولُ[1] : [من المنسرح]

إنَّ حَـرامـاً قَبُـولُ مِـدْحَتِنـا ... وَتَـرْكُ مـا نَـرْتَجِي مِـنَ ٱلصَّفَـدِ
كَما ٱلدَّنانِيرُ وَٱلدَّراهِمُ فِي الـ ... ـبَيْـعِ حَـرامٌ إلاَّ يَـداً بِيَـدِ

فلمَّا وصلَ البيتانِ إلىٰ إبراهيمَ . . قالَ لحاجبِهِ : كمْ أقامَ بالبابِ ؟ قالَ : شهرينِ ، قالَ : أعطِهِ ثلاثينَ ألفاً ، وجئني بدَواةٍ ، فكتبَ إليهِ[2] : [من الكامل]

أَعْجَلْتَنَا فَـأَتـاكَ عـاجِـلُ بِـرِّنـا ... قُـلاًّ وَلَـوْ أَمْهَلْتَنـا لَـمْ نُقْلِـلِ
فَخُذِ ٱلْقَلِيلَ وَكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَقُلْ ... وَنَكُـونُ نَحْـنُ كَـأَنَّنـا لَـمْ نَفْعَـلِ

ويُروىٰ أنَّهُ كانَ لعثمانَ علىٰ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُما خمسونَ ألفَ درهمٍ ، فخرجَ عثمانُ يوماً إلى المسجدِ ، فقالَ لهُ طلحةُ : قدْ تهيأَ مالُكَ فاقبضْهُ ، فقالَ : هوَ لكَ يا أبا محمدٍ معونةً لكَ علىٰ مروءَتِكَ[3] .

وقالَتْ سُعدىٰ بنتُ عوفٍ : دخلتُ علىٰ طلحةَ ، فرأيتُ منهُ ثقلاً ، فقلتُ : ما لكَ ؟ فقالَ : اجتمعَ عندي مالٌ وقدْ غمَّني ، فقلتُ : وما يغمُّكَ ؟! ادعُ قومَكَ ، فقالَ : يا غلامُ ؛ عليَّ بقومي ، فقسَّمَهُ فيهم ،

---

(١) البيتان ليسا في « ديوان أبي تمام » انظر « المحاسن والمساوىء » (ص ٢٤٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٩) .
(٢) البيتان منسوبان إلىٰ غير واحد ، وهما في « المنصف » لابن وكيع (١/١٠٨) ، وانظر تخريجها ثمة .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/١٠٣) .

فسألتُ الخادمَ : كمْ كانَ ؟ قالَ : أربعَ مئةِ ألفٍ[١] .

وجاءَ أعرابيٌّ إلىٰ طلحةَ ، فسألَهُ وتقرَّبَ إليهِ برحمٍ ، فقالَ : إنَّ هـٰذهِ الرَّحمَ ما سألَني بها أحدٌ قبلَكَ ، إنَّ لي أرضاً قدْ أعطاني بها عثمانُ ثلاثَ مئةِ ألفٍ ، فإنْ شئتَ . . فاقبضْها ، وإنْ شئتَ . . بعتُها مِنْ عثمانَ ، ودفعتُ إليكَ الثمنَ ، فقالَ : الثمنُ ، فباعَها مِنْ عثمانَ ، ودفعَ إليهِ الثمنَ[٢] .

وقيلَ : بكىٰ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : لمْ يأتني ضيفٌ منذُ سبعةِ أيامٍ ، أخافُ أنْ يكونَ اللهُ قدْ أهانَني[٣] .

وأتىٰ رجلٌ صديقاً لهُ ، فدقَّ عليهِ البابَ ، فقالَ : مَا جاءَ بكَ ؟ قالَ : عليَّ أربعُ مئةِ درهمٍ دينٌ ، فوزنَ أربعَ مئةِ درهمٍ وأخرجَها إليهِ ، وعادَ يبكي ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : لمَ أعطيتَهُ إذْ شقَّ عليكَ ؟ فقالَ : إنَّما أبكي لأنِّي لمْ أتفقدْ حالَهُ حتَّى احتاجَ إلىٰ مفاتحَتي بهِ[٤] ، فرحمَ اللهُ مَنْ هـٰذهِ صفاتُهُمْ ، وغفرَ لهُمْ أجمعينَ .

* * *

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ٢٠١) .
(٢) رواه أبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » (١٠٨٣) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص٢٢٤) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص٤٢١) .

بيان ذمّ البخل

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّهُ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمْ ، حملَهُمْ علىٰ أنْ يسفكوا دماءَهُمْ ، واستحلُّوا محارمَهُمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّهُ دعا مَنْ كانَ قبلَكُمْ فسفكوا دماءَهُمْ ، ودعاهُمْ فاستحلُّوا محارمَهُمْ ، ودعاهُمْ فقطعوا أرحامَهُمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ بخيلٌ ، ولا خَبٌّ ، ولا خائنٌ ، ولا سيِّءُ المَلَكَةِ » .

وفي روايةٍ : « ولا جبارٌ » ، وفي روايةٍ : « ولا منَّانٌ »[3] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٣٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٥٥٦) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٦) .
(٣) كذا رواه بروايته هنا الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦١ـ ٣٦٢) ، ونحوه عند الترمذي (١٩٦٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يبغضُ ثلاثةً : الشَّيخَ الزَّانيَ ، والبخيلَ المنَّانَ ، والمعيلَ المختالَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ المنفقِ والبخيلِ كمثلِ رجلينِ عليهِما جُبَّتانِ مِنْ حديدٍ مِنْ لدنْ ثُدِيِّهما إلىٰ تراقِيهما ، فأمَّا المنفقُ . . فلا ينفقُ شيئاً إلا سبَغَتْ أو وَفرَتْ علىٰ جلدِهِ حتَّىٰ تُخفِيَ بنانَهُ ، وأمَّا البخيلُ . . فلا يريدُ أنْ ينفقَ شيئاً إلا قلصَتْ ولزمَتْ كلُّ حَلقةٍ مكانَها حتَّىٰ أخذَتْ بتراقيهِ ، فهوَ يوسِّعُها ولا تتَّسعُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خصلتانِ لا تجتمعانِ في مؤمنٍ : البخلُ ، وسوءُ الخلقِ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ البُخلِ ، وأعوذُ

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٣) .

(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٥) .

(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٦) ، وأصله عند البخاري (١٤٤٤) ، ومسلم (١٠٢١) .

(٤) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٧) .

بكَ مِنَ الجبْنِ ، وأعوذُ بكَ أنْ أُردَّ إلىٰ أرذلِ العُمُر »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ والظُّلمَ ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ ، وإيَّاكُمْ والفُحْشَ ؛ فإنَّ اللهَ لا يحبُّ الفاحشَ ولا المتفحِّشَ ، وإيَّاكُمْ والشُّحَّ ؛ فإنَّما أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكُمُ الشُّحُّ ، أمرَهُمْ بالكذبِ فكذبوا ، وأمرَهُمْ بالظُّلمِ فظلموا ، وأمرَهُمْ بالقطيعةِ فقطعوا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ ما في الرَّجلِ شحٌّ هالعٌ ، وجبنٌ خالعٌ »(٣) .

وقُتِلَ شَهيدٌ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبكتْهُ باكيةٌ ، فقالَتْ : واشهيداهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما يدريكِ أنَّهُ شهيدٌ ؟! فلعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ فيما لا يعنيهِ ، أوْ يبخلُ بما لا ينقصُهُ »(٤) .

وقالَ جبيرُ بنُ مطعمٍ : بينا نحنُ نسيرُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ الناسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنينٍ . . علقَتْ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأعرابُ يسألونَهُ ، حتَّى اضطرُّوه إلىٰ سَمُرةٍ ، فخطفَتْ رداءَهُ ، فوقفَ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٥) ، وهو عند الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٨١) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٥٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٢٥١١) ، وهالع : جازع ؛ يعني : شحاً يحمل على الحرص على المال ، والجزع علىٰ ذهابه ، وقيل : هو ألا يشبع ، كلما وجد شيئاً . . بلعه ، ولا قرار له ، وخالع : شديد ؛ كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق . انظر « الإتحاف » (٨/ ١٩٤) .

(٤) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٤٦) ، وقريب منه عند الترمذي (٢٣١٦) .

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « أعطوني ردائي ، فوالَّذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ كانَ لي عددُ هٰذهِ العِضاهِ نَعماً . . لقسمتُهُ بينَكُمْ ، ثمَّ لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً »(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَسْماً ، فقلتُ : غيرُ هؤلاءِ كانوا أحقَّ بهِ منهُمْ ، فقالَ : « إنَّهُمْ يخيِّروني بينَ أن يسألوني بالفحشِ ، أو يبخِّلوني ولستُ بباخلٍ »(٢) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلَ رجلانِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألاهُ ثمنَ بعيرٍ ، فأعطاهُما دينارينِ ، فخرجا مِنْ عندِهِ ، فلقيَهُما عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأثنيا وقالا معروفاً ، وشكرا ما صنعَ بهما ، فدخلَ عمرُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأخبرَهُ بما قالا ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكنْ فلانٌ أعطيتُهُ ما بينَ عشرةٍ إلىٰ مئةٍ ولمْ يقلْ ذلكَ ، إنَّ أحدَكُمْ ليسألُني فينطلقُ في مسألتِهِ متأبِّطَها وهيَ نارٌ » ، فقالَ عمرُ : فلِمَ تعطيهمْ ما هوَ نارٌ ؟ فقالَ : « يأبونَ إلا أنْ يسألوني ، ويأبى اللهُ لي البخلَ »(٣) .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجودُ مِنْ جُودِ اللهِ تعالىٰ ، فجودوا . . يجُدِ اللهُ عليكُمْ ، ألا إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ

(١) رواه البخاري (٢٨٢١) .
(٢) رواه مسلم (١٠٥٦) .
(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٢٧) ، وبنحوه عند أحمد في « المسند » (٣/ ٤) .

الجُودَ فجعلَهُ في صورةِ رجلٍ ، وجعلَ أُسَّهُ راسخاً في أصلِ شجرةِ طُوبىٰ ، وشدَّ أغصانَها بأغصانِ سِدرةِ المُنتهىٰ ، ودلَّىٰ بعضَ أغصانِها إلى الدنيا ، فمَنْ تعلَّقَ بغصنٍ منها. . أدخلَهُ الجنَّةَ ، ألا إنَّ السَّخاءَ مِنَ الإيمانِ ، والإيمانُ في الجنَّةِ ، وخلقَ البخلَ مِنْ مقتِهِ ، وجعلَ أصلَهُ راسخاً في أصلِ شجرةِ الزَّقُّومِ ، ودلَّىٰ بعضَ أغصانِها إلى الدنيا ؛ فمَنْ تعلَّقَ بغصْنٍ منها. . أدخلَهُ النَّارَ ، ألا إنَّ البخلَ من الكفرِ ، والكفرُ في النارِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخاءُ شجرةٌ تنبتُ في الجنَّةِ ؛ فلا يلجُ الجنَّةَ إلا سخيٌّ ، والبخلُ شجرةٌ تنبتُ في النارِ ؛ فلا يلجُ النار إلا بخيلٌ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوفدِ بني لِحيانَ : « مَنْ سيِّدُكُمْ يا بني لِحيانَ ؟ » قالوا : سيدُنا جَدُّ بنُ قيسٍ ، إلا أنَّهُ رجلٌ فيهِ بخلٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البخلِ ، ولكنْ سيِّدُكُمْ عمرُو بنُ الجموحِ »(٣) ، وفي روايةٍ : أنَّهُمْ قالوا : سيدُنا جَدُّ بنُ قيسٍ ، فقالَ : « بمَ تسوِّدونَهُ ؟ » ، قالوا : إنَّهُ أكثرُنا مالاً ، وإنَّا علىٰ ذلكَ

---

(١) قال المتقي الهندي في « كنز العمال » (١٦٢١٧) : (رواه الخطيب في كتاب « البخلاء » عن ابن عباس ، وفي سنده أبو بكر النقاش ، صاحب مناكير) .

(٢) كذا هو عند صاحب « مسند الفردوس » (٣٥٤٣) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٨) ، ورواه من حديث جابر رضي الله عنه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٦) بنحوه .

لنزُنُّهُ بالبُخلِ ، فقالَ : صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ البخلِ ، ليسَ ذلكَ سيِّدَكُمْ » ، قالوا : فمَنْ سيِّدُنا يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « سيِّدُكُمْ بِشرُ بنُ البراءِ »(١) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يبغضُ البخيلَ في حياتِهِ ، السَّخيَّ عندَ موتِهِ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « السخيُّ الجهولُ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ العابدِ البخيلِ »(٣) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يجتمعُ الشحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ »(٤) .

وقالَ أيضاً : « خصلتانِ لا يجتمعانِ في مؤمنٍ ؛ البخلُ ، وسوءُ الخُلُقِ »(٥) .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٥٩) ، ولنَزُنُّه : لنتَّهِمُه .

(٢) كذا هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٧) ، وأشار السيوطي كما في « فيض القدير » (٢/ ٢٨٥) إلىٰ رواية الخطيب له في كتاب « البخلاء » ، وقال العلامة المناوي : (وهو مما بيَّض له الديلمي لعدم وقوفه له علىٰ سنده) .

(٣) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(٤) رواه النسائي (٦/ ١٣) .

(٥) رواه الترمذي (١٩٦٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي للمؤمنِ أنْ يكونَ بخيلاً ولا جباناً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ قائلُكُمْ : الشحيحُ أعذرُ مِنَ الظالمِ ، وأيُّ ظلمٍ أظلمُ عندَ اللهِ مِنَ الشحِّ ؟! حلفَ اللهُ تعالىٰ بعزَّتِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ ؛ لا يدخلُ الجنَّةَ شحيحٌ ولا بخيلٌ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يطوفُ بالبيتِ ؛ فإذا رجلٌ متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ ، وهوَ يقولُ : بحرمةِ هـٰذا البيتِ إلا غفرتَ لي ذنبي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما ذنبُكَ ؟ صفْهُ لي » قالَ : هوَ أعظمُ مِنْ أنْ أصفَهُ لكَ ، قالَ : « ويحَكَ ! ذنبُكَ أعظمُ أمِ الأرَضُونَ ؟ » ، قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « ويحَكَ ! ذنبُكَ أعظمُ أمِ الجبالُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ البحارُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قال : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ السماواتُ ؟ » قالَ : بلْ ذنبي يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ العرشُ ؟ » قال : بلْ ذنبي أعظمُ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذنبُكَ أعظمُ أمِ اللهُ ؟ » قالَ : بلِ اللهُ أعظمُ وأعلىٰ ،

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٦١٦) عن أبي جعفر الباقر مرسلاً ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/١٩٧) : (ورواه الخطيب من حديث أبي عبد الرحمـٰن السلمي موقوفاً) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٧٨) عن نافع قال : سمع ابن عمر رجلاً يقول : الشحيح أعذر من الظالم ، فقال ابن عمر : كذبت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشحيح لا يدخل الجنة » ، فليسَ أوله مرفوعاً .

قالَ : « ويحَكَ ! فصفْ لي ذنبَكَ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي رجلٌ ذو ثروةٍ مِنَ المالِ ، وإنَّ السائلَ ليأتيني ليسألَني ، فكأنَّما يستقبلُني بشعلةٍ مِنْ نارٍ .

فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إليكَ عنِّي لا تحرقُني بنارِكَ ، فوالَّذي بعثَني بالهدايةِ والكرامةِ ؛ لوْ قمتَ بينَ الرُّكنِ والمقامِ ثمَّ صلَّيتَ ألفي ألفِ عامٍ ، وبكيتَ حتَّىٰ تجريَ مِنْ دمُوعِكَ الأنهارُ ، وتُسقىٰ بها الأشجارُ ، ثمَّ متَّ وأنتَ لئيمٌ . . لأكبَّكَ اللهُ في النارِ ، ويحَكَ ! أما علمتَ أنَّ البخلَ كفرٌ ، وأنَّ الكفرَ في النارِ ، ويحَكَ ! أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ »[1] .

* * *

الآثارُ :

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : لمَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ جنةَ عدنٍ . . قالَ لها : تزيني ، فتزينَتْ ، ثمَّ قالَ لها : أظهري أنهارَكِ ، فأظهرَتْ عينَ السلسبيلِ ، وعينَ الكافورِ ، وعينَ التسنيمِ ، فتفجرَ منها في الجنانِ أنهارُ الخمرِ ، وأنهارُ العسلِ واللبنِ ، ثمَّ قالَ لها : أظهري سُررَكِ ، وحِجالَكِ ،

(١) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٢/ ٢٧٨) من حديث الهيكل بن جابر رضي الله عنه ، وأورده الحارث المحاسبي في « الوصايا » (ص١٠٢) بلاغاً ، وقال الحافظ العراقي كما في « الإتحاف » (٨/ ١٩٧) : (الحديث بطوله باطل لا أصل له) ، وانظر « أسد الغابة » (٥/ ٤٢٤) ، و« الإصابة » (٣/ ٥٨١) .

وكراسيَّكِ ، وحُليّكِ ، وحُلَلَكِ ، وحورَ عِينِكِ ، فأظهرَتْ ، فنظرَ إليها ، فقالَ : تكلَّمي ، فقالَتْ : طوبىٰ لمَنْ دخلَنِي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : وعزتي وجلالِي لا أسكنتُكِ بخيلاً[1] .

وقالَتْ أمُّ البنينَ أختُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (أفٍّ للبخيلِ ، لوْ كانَ البخلُ قميصاً . . ما لبستُهُ ، ولوْ كانَ طريقاً . . ما سلكْتُهُ)[2] .

وقالَ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّا لنجدُ بأموالِنا ما يجدُ البخلاءُ ، ولكنَّا نتصبَّرُ)[3] .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : (كانَ يُقالُ : إذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرّاً . . أمَّرَ عليهِمْ شرارَهُمْ ، وجعلَ أرزاقَهُمْ بأيدي بخلائِهِمْ)[4] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (إنَّهُ سيأتي على الناسِ زمانٌ عضوضٌ ، يعضُّ المؤمنُ علىٰ ما في يدِهِ ولمْ يُؤمرْ بذلكَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾)[5] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٢/ ١٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « لما خلق الله عز وجل جنة عدن . . خلق فيها ما لا عين رأت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » ، وزاد أحد رواته : « ثم قالت : أنا حرام علىٰ كل بخيل ومراءٍ » ، وقريب منه ولكن عن شعيب الجبائي عند الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٢) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٣٨) .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٧) .

(٥) رواه أبو داوود (٣٣٨٢) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٨) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : (الشحُّ أشدُّ مِنَ البخلِ ؛ لأنَّ الشحيحَ هوَ الذي يشحُّ علىٰ ما في يدِ غيرِهِ حتَّىٰ يأخذَهُ ، ويشحُّ بما في يديهِ فيحبسُهُ ، والبخيلُ هوَ الذي يبخلُ بما في يديهِ)(١) .

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري أيُّهما أبعدُ غوراً في نارِ جهنمَ : البخلُ أوِ الكذبُ ؟!)(٢) .

وقيلَ : وردَ علىٰ أنوشُروانَ حكيمُ الهندِ وفيلسوفُ الرومِ ، فقالَ للهنديِّ : تكلَّمْ ، فقالَ : خيرُ الناسِ مَنْ أُلفيَ سخياً ، وعندَ الغضبِ وقوراً ، وفي القولِ متأنِّياً ، وفي الرِّفعةِ متواضعاً ، وعلىٰ كلِّ ذي رحمٍ مشفقاً ، فقالَ للروميِّ : تكلَّمْ ، فقالَ : مَنْ كانَ بخيلاً . . ورثَ عدوُّهُ مالَهُ ، ومَنْ قلَّ شكرُهُ . . لمْ ينلِ النجحَ ، وأهلُ الكذبِ مذمومونَ ، وأهلُ النميمةِ يموتونَ فقراءَ ، ومَنْ لمْ يَرحَمْ . . سُلِّطَ عليهِ مَنْ لا يرحمُهُ(٣) .

وقالَ الضحاكُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا ﴾ قالَ : (البخلُ ، أمسكَ اللهُ تعالىٰ أيديَهُمْ عنِ النفقةِ في سبيلِ اللهِ ؛ فهُمْ لا يبصرونَ الهدىٰ)(٤) .

وقالَ كعبٌ : (ما مِنْ صباحٍ إلا وقدْ وُكِّلَ بهِ ملَكانِ ينادِيانِ : اللهمَّ ؛

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٥٩) .
(٢) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦٠) .
(٣) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٦٤) .
(٤) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٧٠) .

عجِّلْ لممسكٍ تلفاً ، ولمنفقٍ خلفاً)(١) .

وقالَ الأصمعيُّ : سمعتُ أعرابياً وقدْ وصَفَ رجلاً فقالَ : (لقد صَغُرَ فلانٌ في عيني ؛ لعظمِ الدنيا في عينِهِ ، وكأنَّما السائلُ إذا رآهُ . . ملكُ الموتِ إذا أتاهُ)(٢) .

وقالَ أبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ : (لا أرىٰ أنْ أعدِّلَ بخيلاً ؛ لأنَّهُ يحملُهُ البخلُ على الاستقصاءِ ، فيأخذُ فوقَ حقِّهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُغبَنَ ، فمَنْ كان هٰكذا . . لا يكونُ مأمونَ الأمانةِ)(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما استقصىٰ كريمٌ قطُّ حقَّهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾)(٤) .

وقالَ الجاحظُ : (ما بقيَ مِنَ اللذاتِ إلا ثلاثٌ : ذمُّ البخلاءِ ، وأكلُ القديدِ ، وحكُّ الجربِ) .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (البخيلُ لا غيبةَ لهُ ؛ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٨٤) ، وليس فيه : (ولمنفق خلفاً) ، ورواه مرفوعاً البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٦٢٤) عن أبي الحسن القرشي عن رجل من الأنصار بنحوه .

(٣) بنحوه أورده صاحب « القوت » (٢/ ٢٦٤) ، ونقله ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/ ٣٥٥) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦٤) ، ومختصراً عند ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢٧/ ٣٥٥) ورواه الدينوري ضمن خبر عن سفيان (ص٩) .

وسلَّمَ : « إنَّكَ لبخيلٌ » ، ومُدِحَتِ امرأةٌ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالوا : صوَّامةٌ قوَّامةٌ ، إلا أنَّ فيها بخلاً ، قالَ : « فما خيرُها إذاً ؟! »)[1] .

وقالَ بشرٌ أيضاً : (النظرُ إلى البخيلِ يقسِّي القلبَ) ، و(بقاءُ البخلاءِ كربٌ علىٰ قلوبِ المؤمنينَ)[2] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (يأبى القلبُ للأسخياءِ إلا حبّاً ولوْ كانوا فجّاراً ، وللبخلاءِ إلا بغضاً وإنْ كانوا أبراراً)[3] .

وقالَ ابنُ المعتزِّ : (أبخلُ الناسِ بمالِهِ أجودُهُمْ بعرضِهِ)[4] .

ولقيَ يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ إبليسَ في صورتِهِ ، فقالَ لهُ : يا إبليسُ ؛ أخبرْني بأحبِّ الناسِ إليكَ وأبغضِ الناسِ إليكَ ، قالَ : أحبُّ الناسِ إليَّ المؤمنُ البخيلُ ، وأبغضُ الناسِ إليَّ الفاسقُ السخيُّ ، قالَ لهُ : لمَ ؟ قالَ : لأنَّ البخيلَ قدْ كفاني بخلُهُ ، والفاسقُ السخيُّ أتخوَّفُ أنْ يطَّلعَ اللهُ عليهِ في سخائِهِ فيقبلَهُ ، ثمَّ ولَّىٰ وهوَ يقولُ : لولا أنَّكَ يحيىٰ . . لما أخبرتُكَ[5] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٤١٠) .
(٢) رواهما أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤١٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٦٦) .
(٤) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٠) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/ ٢٠٤) .

حكايات البخلاء

قيلَ : كانَ بالبصرةِ رجلٌ موسرٌ بخيلٌ ، فدعاهُ بعضُ جيرانِهِ وقدَّمَ إليهِ طَباهِجةً ببيضٍ[1] ، فأكلَ منهُ فأكثرَ ، وجعلَ يشربُ الماءَ ، فانتفخَ بطنُهُ ، ونزلَ بهِ الكربُ والموتُ ، فجعلَ يتلوَّىٰ ، فلمَّا أجهدَهُ الأمرُ . وصفَ حالَهُ للطبيبِ ، فقالَ : لا بأسَ عليكَ ، تقيأْ ما أكلتَ ، فقالَ : هاهِ ، أتقيأُ طباهجةً ببيضٍ ؟! الموتُ ـ واللهِ ـ ولا أتقيَّأُ طباهجةً ببيضٍ .

وقيلَ : أقبلَ أعرابيٌّ يطلبُ رجلاً وبينَ يديهِ تينٌ ، فغطَّى التينَ بكسائِهِ ، فجلسَ الأعرابيُّ ، فقالَ لهُ الرجلُ : هلْ تحسنُ مِنَ القرآنِ شيئاً ؟ قالَ : نعمْ ، فقرأَ : ﴿ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ، فقالَ : وأينَ التينُ ؟ قالَ : هوَ تحتَ كسائِكَ .

ودعا بعضُهُمْ أخاً لهُ ، ولمْ يطعمْهُ شيئاً إلى العصرِ ، حتَّى اشتدَّ جوعُهُ ، وأخذَهُ مثلُ الجنونِ ، فأخذَ صاحبُ البيتِ العودَ وقالَ لهُ : بحياتي ؛ أيَّ صوتٍ تشتهي أن أسمعَكَ ؟ قالَ : صوتَ المِقْلَىٰ .

ويُحكىٰ أنَّ محمدَ بنَ يحيىٰ بنِ خالدِ بنِ برمكَ كانَ بخيلاً قبيحَ البخلِ ، فسُئِلَ نسيبٌ لهُ كانَ يعرفُهُ عنهُ ، فقيلَ لهُ : صفْ لي مائدتَهُ ، فقالَ : هيَ فِتْرٌ

---

(١) **طباهجة** : معرَّب تباهجه ، لفظة فارسية ، وهو الكباب ، اللحم المدقوق دقّاً ناعماً ، ويطلق أيضاً على العجَّة .

في فترٍ ، وصحافُهُ منقورةٌ مِنْ حبِّ الخشخاشِ ، قيلَ : فمَنْ يحضرُها ؟ قالَ : الكرامُ الكاتبونَ ، قيلَ : فما يأكلُ معَهُ أحدٌ ؟ قالَ : بلىٰ ، الذبابُ ، فقيلَ : سوءةٌ لهُ ، أنتَ خاصٌّ بهِ وثوبُكَ مخرَّقٌ ؟! فقالَ : إنِّي ـ واللهِ ـ ما أقدرُ علىٰ إبرةٍ أخيطُهُ بها ، ولوْ ملكَ محمدٌ بيتاً مِنْ بغدادَ إلى النَّوْبةِ مملوءاً إبراً ، ثمَّ جاءَهُ جبريلُ وميكائيلُ ، ومعَهُما يعقوبُ النبيُّ عليهِ السَّلامُ يضمنانِ عنهُ إبرةً ، ويسألونَهُ إعارتَهُمْ إيَّاها ليخيطَ بها قميصَ يوسفَ الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ . . ما فعلَ .

ويُقالَ : كانَ مروانُ بنُ أبي حفصةَ لايأكلُ اللحمَ بخلاً حتىٰ يقرمَ إليهِ ، فإذا قَرِمَ إليه . . أرسلَ غلامَهُ فاشترىٰ لهُ رأساً ، فأكلَهُ ، فقيلَ لهُ : نراكَ لا تأكلُ إلا الرؤوسَ في الصيفِ والشتاءِ ، فلِمَ تختارُ ذلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، الرأسُ أعرِفُ سعرَهُ ، فآمنُ خيانةَ الغلامِ ، ولا يستطيعُ أن يغبنَني فيه وليسَ بلحمٍ يطبخُهُ الغلامُ ، فيقدرَ أنْ يأكلَ منهُ ، إنْ مسَّ عيناً أوْ أذناً أوْ خدّاً . . وقفتُ علىٰ ذلكَ ، وآكلُ مِنْهُ ألواناً ، فآكلُ عينَهُ لوناً ، وأذنَهُ لوناً ، ولسانَهُ لوناً ، وغَلْصَمَتَهُ لوناً ، ودماغَهُ لوناً ، وأُكفىٰ مؤنَةَ طبخِهِ ، فقدِ اجتمعَتْ لي فيهِ مرافقُ[1] .

وخرجَ يوماً يريدُ الخليفةَ المهديَّ ، فقالَتْ لهُ امرأةٌ مِنْ أهلِهِ : ما لي عليكَ إنْ رجعتَ بالجائزةِ ؟ قالَ : إنْ أُعطيتُ مئةَ ألفٍ . . أعطيتُكِ درهماً ،

---

(١) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٢٩٥) .

فأُعطيَ ستينَ ألفاً ، فأعطاها أربعةَ دوانيقَ[(١)] .

واشترىٰ مرةً لحماً بدرهمٍ ، فدعاهُ صديقٌ لهُ ، فردَّ اللحمَ إلى القصابِ بنقصانِ دانقٍ وقالَ : أكرهُ الإسرافَ[(٢)] .

وكانَ للأعمشِ جارٌ لا يزالُ يعرضُ عليهِ المنزلَ فيقولُ : لو دخلتَ فأكلتَ كِسْرةً وملحاً ، فيأبىٰ عليهِ الأعمشُ ، فعرضَ عليهِ ذاتَ يومٍ ، فوافقَ جوعَ الأعمشِ ، فقالَ : مُرَّ بنا ، فدخلَ منزلَهُ ، فقرَّبَ إليهِ كِسْرةً وملحاً ، إذْ سألَ سائلٌ ، فقالَ لهُ ربُّ المنزلِ : بُورِكَ فيكَ ، فأعادَ عليهِ المسألةَ ، فقالَ لهُ : بُورِكَ فيكَ ، فلما سألَ الثالثةَ . . قالَ لهُ : اذهبْ وإلا واللهِ . . خرجتُ إليكَ بالعصا ، فناداهُ الأعمشُ وقالَ : اذهبْ ويحَكَ ! فلا واللهِ ؛ ما رأيتُ أحداً أصدقَ مواعيدَ منهُ ، هوَ منذُ مدةٍ يعدُني بكِسرَةٍ وملحٍ ، فلا واللهِ ؛ ما زادَني عليهِما .

❋ ❋ ❋

(١) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٢٩٦) .
(٢) رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٢٩٦) .

بيان الإيثار وفضله

اعلمْ : أنَّ السخاءَ والبخلَ كلُّ واحدٍ منهُما ينقسمُ إلىٰ درجاتٍ ، فأرفعُ درجاتِ السخاءِ الإيثارُ ، وهو أنْ يجودَ بالمالِ معَ الحاجةِ إليهِ ، وإنَّما السخاءُ عبارةٌ عنْ بذلِ ما لا يحتاجُ إليهِ لمحتاجٍ أوْ لغيرِ محتاجٍ ، والبذلُ معَ الحاجةِ أشدُّ .

وكما أنَّ السخاوةَ قدْ تنتهي إلىٰ أنْ يسخوَ الإنسانُ علىٰ غيرِهِ معَ الاحتياجِ . . فالبخلُ قدْ ينتهي إلىٰ أنْ يبخلَ علىٰ نفسِهِ معَ الحاجةِ ، فكمْ مِنْ بخيلٍ يمسكُ المالَ ويمرضُ فلا يتداوىٰ ، ويشتهي الشهوةَ فلا يمنعُهُ منها إلا البخلُ بالثمنِ ، ولوْ وجدَها مجاناً . . لأكلَها ، فهٰذا يبخلُ علىٰ نفسِهِ معَ الحاجةِ ، وذلكَ يؤثرُ علىٰ نفسِهِ غيرَهُ معَ أنَّهُ محتاجٌ إليهِ ، فانظرْ ما بينَ الرجلينِ ؛ فإنَّ الأخلاقَ عطايا يضعُها اللهُ تعالىٰ حيثُ يشاءُ ؟

وليسَ بعدَ الإيثارِ درجةٌ في السخاءِ ، وقدْ أثنى اللهُ على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ بهِ فقالَ تعالىٰ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما امرىءٍ اشتهىٰ شهوةً فردَّ شهوتَهُ وآثرَ علىٰ نفسِهِ . . غُفِرَ لَهُ »[1] .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/١٢٧) ، ورواه أيضاً ضمن قصة ابن عمر رضي الله =

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما شبعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثةَ أيامٍ متواليةٍ حتَّىٰ فارقَ الدنيا ، ولوْ شئنا . . لشبعنا ، ولكنَّا كُنَّا نؤثرُ علىٰ أنفسِنا)[1] .

ونزلَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فلمْ يجدْ عندَ أهلِهِ شيئاً ، فدخلَ عليهِ رجلٌ مِنَ الأنصارِ ، فذهبَ بهِ إلىٰ أهلِهِ فوضعَ بينَ يديهِ طعاماً ، وأمرَ امرأتَهُ بإطفاءِ السراجِ ، وجعلَ يمدُّ يدَهُ إلى الطعامِ كأنَّهُ يأكلُ ولا يأكلُ ، حتَّىٰ أكلَ الضيفُ الطعامَ ، فلمَّا أصبحَ . . قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ عجبَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ صنيعِكُمُ الليلةَ إلىٰ ضيفِكُمْ » ، ونزلَتْ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2] .

فالسخاءُ خُلقٌ مِنْ أخلاقِ اللهِ تعالىٰ[3] ، والإيثارُ أعلىٰ درجاتِ السخاءِ ،

= عنهما المتقدمة في اشتهائه السمكة الخركوشيُّ في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١/ ١٤٢) ، وسياق المصنف عنده .

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٩) ، وعند البخاري (٥٣٧٤) ، ومسلم (٥٤١٦) من حديثها رضي الله عنها : (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليال تباعاً حتىٰ قبض) ، وللبيهقي في « الشعب » (١٣٩٦) بسنده عن بشر عنها : (لو شئنا أن نشبع . . شبعنا ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يؤثر علىٰ نفسه) ، وتقدم بعضه .

(٢) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٩) ، ورواه البخاري (٣٧٩٨) ، ومسلم (٢٠٥٤) .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١٧٨) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعاً : « السخاء خلق الله الأعظم » .

وكانَ ذلكَ منْ دأْبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ سمَّاه اللهُ تعالىٰ عظيماً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[(١)] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ أرني بعضَ درجاتِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأمتِهِ ، وقالَ : يا موسىٰ ؛ إنَّكَ لن تطيقَ ذلكَ ، ولكنْ أريكَ منزلةً مِنْ منازلِهِ جليلةً عظيمةً ، فضَّلتُهُ بها عليكَ وعلىٰ جميعِ خلقي ، قالَ : فكشفَ لهُ عنْ ملكوتِ السماءِ ، فنظرَ إلىٰ منزلةٍ كادَتْ تتلفُ نفسُهُ مِنْ أنوارِها وقربِها مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ بماذا بلغتَ بهِ إلىٰ هٰذه الكرامةِ ؟ قالَ : بخُلُقٍ اختصصتُهُ بهِ مِنْ بينِهِمْ ، وهوَ الإيثارُ ، يا موسىٰ ؛ لايأتيني أحدٌ مِنْهُمْ قدْ عملَ بهِ وقتاً مِنْ عمُرِهِ إلا استحييتُ مِنْ محاسبتِهِ ، وبوَّأتُهُ مِنْ جنَّتي حيثُ يشاءُ[(٢)] .

وقيلَ : خرجَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ إلىٰ ضيعةٍ لهُ ، فنزلَ علىٰ نخيلِ قومٍ وفيها غلامٌ أسودُ يعملُ فيها ؛ إذْ أتى الغلامُ بقوتِهِ ، ودخلَ الحائطَ كلبٌ ودنا مِنَ الغلامِ ، فرمىٰ إليهِ الغلامُ بقرصٍ فأكلَهُ ، ثمَّ رمىٰ إليهِ بالثاني والثالثِ فأكلَهُ ، وعبدُ اللهِ ينظرُ إليهِ ، فقالَ : يا غلامُ ؛ كمْ قوتُكَ كلَّ يومٍ ؟ قالَ : ما رأيتَ ، قالَ : فلِمَ آثرتَ بهِ هٰذا الكلبَ ؟ قالَ : ما هيَ بأرضِ كلابٍ ، إنَّهُ جاءَ مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ جائعاً ، فكرهتُ ردَّهُ ، قالَ : فما أنتَ صانعٌ اليومَ ؟ قالَ : أطوي يومي هٰذا ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ : ألامُ على السخاءِ ؟! إنَّ

---

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٢) نقلاً عن الجنيد .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٤) .

هـٰذا لأسخىٰ منِّي ، فاشترى الحائطَ والغلامَ وما فيهِ مِنَ الآلاتِ ، فأعتقَ الغلامَ ، ووهبَهُ منهُ[(١)] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أُهديَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأسُ شاةٍ ، فقالَ : إنَّ أخي فلاناً أحوجُ منِّي إليهِ ، فبعثَ بهِ إليهِ ، فلمْ يزلْ يبعثُ بهِ الواحدُ إلىٰ آخرَ حتَّىٰ تداولَهُ سبعةُ أبياتٍ ، حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[(٢)] .

وباتَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ فراشِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبريلَ وميكائيلَ عليهِما السلامُ : إنِّي آخيتُ بينَكُما ، وجعلتُ عمرَ أحدِكما أطولَ مِنَ عمرِ الآخرِ ، فأيُّكُما يؤثرُ صاحبَهُ بالحياةِ ، فاختارا كلاهما الحياةَ ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِما : أفلا كنتُما مثلَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ؟! آخيتُ بينَهُ وبينَ نبيِّي محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فباتَ علىٰ فراشِهِ يفديهِ بنفسِهِ ، ويؤثرُهُ بالحياةِ ، اهبطا إلى الأرضِ فاحفظاهُ مِنْ عدوِّهِ ، فكانَ جبريلُ عليهِ السلامُ عندَ رأسِهِ وميكائيلُ عندَ رجليهِ ، وجبريلُ عليهِ السلامُ يقولُ : بخٍ بخٍ ، مَنْ مِثلُكَ يا بنَ أبي طالبٍ يباهي اللهُ بكَ الملائكةَ ؟! فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[(٣)] .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٤٢١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٤) .

(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٠) ، والثعلبي في « تفسيره » (٢/ ١٢٥) .

وعنْ أبي الحسنِ الأنطاكيِّ أنَّهُ اجتمعَ عندَهُ نيّفٌ وثلاثونَ نفساً ، وكانوا في قريةٍ بقربِ الرَّيِّ ، ولهُمْ أرغفةٌ معدودةٌ لم تشبعْ جميعَهُمْ ، فكسروا الرُّغفانَ وأطفؤوا السراجَ ، وجلسوا للطعامِ ، فلمَّا رُفِعَ.. فإذا الطعامُ بحالِهِ ، ولمْ يأكلْ واحدٌ منهُمْ شيئاً ؛ إيثاراً لصاحبِهِ علىٰ نفسِهِ(١) .

ورُوِيَ أنَّ شعبةَ جاءَهُ سائلٌ ولمْ يكنْ عندَهُ شيءٌ ، فنزعَ خشبةً منْ سقفِ بيتِهِ فأعطاهُ ، ثمَّ اعتذرَ إليهِ(٢) .

وقالَ حذيفةُ العدويُّ : انطلقتُ يومَ اليرموكِ أطلبُ ابنَ عمٍّ لي ، ومعي شيءٌ مِنْ ماءٍ ، وأنا أقولُ : إنْ كانَ بهِ رمقٌ.. سقيتُهُ ، ومسحتُ بهِ وجهَهُ ، فإذا أنا بهِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فأشارَ أيْ : نعمْ ، فإذا رجلٌ يقولُ : آهْ ، فأشارَ ابنُ عمِّي أنِ انطلقْ بهِ إليهِ ، قالَ : فأتيتُهُ ؛ فإذا هوَ هشامُ بنُ العاصِ ، فقلتُ : أسقيكَ ؟ فسمعَ آخرَ يقولُ : آهْ ، فأشارَ هشامٌ أنِ انطلقْ بهِ إليهِ ، فجئتُهُ ؛ فإذا هوَ قدْ ماتَ ، فرجعتُ إلىٰ هشامٍ ؛ فإذا هو قدْ ماتَ ، فرجعتُ إلى ابنِ عمِّي ؛ فإذا هوَ قدْ ماتَ ، رحمةُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ(٣) .

وقالَ عباسُ بنُ دهقانَ : ما خرجَ أحدٌ مِنَ الدنيا كما دخلَها إلا بشرُ بنُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٨) .
(٣) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٤٨) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٢٠٨) .

الحارثِ ، فإنَّهُ أتاهُ رجلٌ في مرضِهِ فشكا إليهِ الحاجةَ ، فنزعَ قميصَهُ فأعطاهُ إيَّاهُ ، واستعارَ ثوباً فماتَ فيهِ[١] .

وعنْ بعضِ الصوفيةِ قالَ : كنَّا بطرسوسَ ، فاجتمعنا جماعةً ، وخرجنا إلىٰ بابِ الجهادِ ، فتبعَنا كلبٌ مِنَ البلدِ ، فلمَّا بلغنا بابَ الجهادِ . . إذا نحنُ بدابةٍ ميتةٍ فصعدنا إلىٰ موضعٍ خالٍ وقعدنا ، فلمَّا نظرَ الكلبُ إلى الميتةِ . . رجعَ إلى البلدِ ، ثمَّ عاد بعدَ ساعةٍ ومعَهُ مقدارُ عشرينَ كلباً ، فجاءَ إلىٰ تلكَ الميتةِ وقعدَ ناحيةً ووقعَتِ الكلابُ في الميتةِ ، فما زالَتْ تأكلُها ، وذلكَ الكلبُ قاعدٌ ينظرُ إليها حتَّىٰ أكلَتِ الميتةَ وبقيَتِ العظامُ ، ورجعَتِ الكلابُ إلى البلدِ ، فقامَ ذلكَ الكلبُ وجاءَ إلىٰ تلكَ العظامِ فأكلَ ما بقيَ عليها قليلاً ، ثمَّ انصرفَ[٢] .

وقد ذكرنا جملةً مِنْ أخبارِ الإيثارِ وأحوالِ الأولياءِ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ هٰهنا ، وباللهِ التوفيقُ ، وعليهِ التوكُّلُ فيما يرضيهِ عزَّ وجلَّ .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥١) وفيه : (عياش) بدل (عباس) وهو موافق لما في (ب) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٥٤) .

بيان حدّ السّخاء والبخل وحقيقتهما

لعلكَ تقولُ : قدْ عُرفَ بشواهدِ الشرعِ أنَّ البخلَ مِنَ المهلكاتِ ، ولكنْ ما حدُّ البخلِ ؟ وبماذا يصيرُ الإنسانُ بخيلاً ؟

وما مِنْ إنسانٍ إلا وهوَ يرىٰ نفسَهُ سخياً ، وربَّما يراهُ غيرُهُ بخيلاً ، وقدْ يصدرُ فعلٌ مِنْ إنسانٍ ، فيختلفُ فيهِ الناسُ ؛ فيقولُ قومٌ : هٰذا بخلٌ ، ويقولُ آخرونَ : ليسَ هٰذا مِنَ البخلِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ويجدُ في نفسِهِ حبّاً للمالِ ، ولأجلِهِ يحفظُ المالَ ويمسكُهُ ، فإنْ كانَ يصيرُ بإمساكِ المالِ بخيلاً . . فإذاً لا ينفكُّ أحدٌ عنِ البخلِ ، وإذا كانَ الإمساكُ مطلقاً لا يوجبُ البخلَ ولا معنىً للبخلِ إلا الإمساكُ . . فما البخلُ الذي يوجبُ الهلاكَ ؟

وما حدُّ السخاءِ الذي يستحقُّ بهِ العبدُ صفةَ السخاوةِ وثوابَها ؟

فنقولُ : قدْ قالَ قائلونَ : حدُّ البخلِ : منعُ الواجبِ ؛ فكلُّ مَنْ أدَّىٰ ما يجبُ عليهِ . . فليسَ ببخيلٍ ، وهٰذا غيرُ كافٍ ، فإنَّ مَنْ يردُّ اللحمَ مثلاً إلى القصابِ والخبزَ إلى الخبازِ بنقصانِ حبةٍ أوْ نصفِ حبةٍ . . فإنَّهُ يُعدُّ بخيلاً بالاتفاقِ ، وكذلكَ مَنْ يسلِّمُ إلىٰ عيالِهِ القدْرَ الذي يفرضُهُ القاضي ، ثمَّ يضايقُهُمْ في لقمةٍ زادوا عليهِ أوْ تمرةٍ أكلوها مِنْ مالِهِ . . يُعدُّ بخيلاً ، ومَنْ كانَ بينَ يديهِ رغيفٌ ، فحضرَ مَنْ يظنُّ أنَّهُ يأكلُ معَهُ ، فأخفاهُ . . عُدَّ بخيلاً .

وقالَ قائلونَ : البخيلُ هوَ الذي يستصعبُ العطيةَ ، وهوَ أيضاً قاصرٌ ، فإنَّهُ إنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ يستصعبُ كلَّ عطيةٍ . . فكمْ مِنْ بخيلٍ لا يستصعبُ العطيةَ القليلةَ ؛ كالحبةِ وما يقربُ منها ، ويستصعبُ ما فوقَ ذلكَ ، وإنْ أُريدَ بهِ أنَّهُ يستصعبُ بعضَ العطايا . . فما مِنْ جوادٍ إلا وقدْ يستصعبُ بعضَ العطايا ، وهوَ ما يستغرقُ جميعَ مالِهِ ، أوِ المالَ العظيمَ ، وهٰذا لا يوجبُ الحكمَ بالبخلِ .

وكذلكَ تكلَّموا في الجودِ ، فقيلَ : الجودُ عطاءٌ بلا مَنٍّ ، وإسعافٌ مِنْ غيرِ رويَّةٍ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ مِنْ غيرِ مسألةٍ علىٰ رؤيةِ التقليلِ .

وقيلَ : الجودُ السرورُ بالسائلِ ، والفرحُ بالعطاءِ لما أمكنَ .

وقيلَ : الجودُ عطاءٌ علىٰ رؤيةِ أنَّ المالَ للهِ تعالىٰ والعبدَ للهِ تعالىٰ ، فيعطي عبدَ اللهِ مالَ اللهِ علىٰ غيرِ رؤيةِ الفقرِ .

وقيلَ : مَنْ أعطى البعضَ وأبقى البعضَ . . فهوَ صاحبُ سخاءٍ ، ومَنْ بذلَ الأكثرَ وأبقىٰ لنفسِهِ شيئاً . . فهوَ صاحبُ جودٍ ، ومن قاسى الضرَّ وآثرَ غيرَهُ بالبلغةِ . . فهو صاحبُ إيثارٍ ، ومَنْ لمْ يبذلْ شيئاً . . فهوَ صاحبُ بخلٍ .

❊ ❊ ❊

وجملةُ هٰذهِ الكلماتِ غيرُ محيطةٍ بحقيقةِ البخلِ والجودِ ، بلْ نقولُ :

المالُ خُلِقَ لحكمةٍ ومقصودٍ ، وهوَ صلاحُهُ لحاجاتِ الخلقِ ، ويمكنُ إمساكُهُ عنِ الصرفِ إلىٰ ما خُلِقَ للصرفِ إليهِ ، ويمكنُ بذلُهُ بالصرفِ إلىٰ ما لا يحسنُ الصرفُ إليهِ ، ويمكنُ التصرفُ فيهِ بالعدلِ ، وهوَ أنْ يُحفظَ حيثُ يجبُ الحفظُ ، ويُبذلَ حيثُ يجبُ البذلُ ، فالإمساكُ حيثُ يجبُ البذلُ بخلٌ ، والبذلُ حيثُ يجبُ الإمساكُ تبذيرٌ ، وبينَهُما وسطٌ هوَ المحمودُ ، وينبغي أنْ يكونَ السخاءُ والجودُ عبارةً عنهُ ؛ إذْ لمْ يُؤمَرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا بالسخاءِ ، وقدْ قيلَ لهُ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ .

فالجودُ وسطٌ بينَ الإسرافِ والإقتارِ ، وبين البسطِ والقبضِ ، وهوَ أنْ يُقدِّرَ بذلَهُ وإمساكَهُ بقدْرِ الواجبِ ، ولا يكفي أنْ يفعلَ ذلكَ بجوارحِهِ ما لَمْ يكنْ قلبُهُ طيباً بهِ غيرَ منازعٍ لهُ فيهِ ، فإنْ بذلَ في محلِّ وجوبِ البذلِ ونفسُهُ تنازعُهُ وهوَ يصابرُها . . فهوَ متسخٍّ وليس بسخيٍّ ، بلْ ينبغي ألا يكونَ لقلبِهِ علاقةٌ معَ المالِ إلا مِنْ حيثُ يُرادُ المالُ لهُ ، وهوَ صرفُهُ إلىٰ ما يجبُ صرفُهُ إليهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ صارَ هٰذا موقوفاً علىٰ معرفةِ الواجبِ ، فما الذي يجبُ بذلُهُ ؟

فأقولُ : إنَّ الواجبَ قسمانِ ؛ واجبٌ بالشرعِ ، وواجبٌ بالمروءةِ والعادةِ ، والسخيُّ هوَ الذي لا يمنعُ واجبَ الشرعِ ولا واجبَ المروءةِ ، فإن منعَ

واحداً منهما . . فهوَ بخيلٌ ، ولكنَّ الذي يمنعُ واجبَ الشرعِ أبخلُ ؛ كالذي يمنعُ أداءَ الزكاةِ ، ويمنعُ عيالَهُ وأهلَهُ النفقةَ ، أوْ يؤدِّيها ولكنْ يشقُّ عليهِ ، فإنَّهُ بخيلٌ بالطبعِ ، وإنَّما يتسخَّىٰ بالتكلُّفِ ، أوْ كالذي يتيمَّمُ الخبيثَ مِنْ مالِهِ ولا يطيبُ لهُ أنْ يعطيَ مِنْ أطيبِ مالِهِ ، أوْ مِنْ وسطِهِ ؛ فهٰذا كلُّهُ بخلٌ .

وأمَّا واجبُ المروءةِ . . فهوَ تركُ المضايقةِ والاستقصاءِ في المحقَّراتِ ، فإنَّ ذلكَ مستقبحٌ ، واستقباحُ ذلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فمَنْ كَثُرَ مالُهُ . . يُستقبحُ منهُ ما لا يُستقبحُ مِنَ الفقيرِ مِنَ المضايقةِ ، ويُستقبحُ مِنَ الرجلِ المضايقةُ معَ أهلِهِ وأقاربِهِ ومماليكِهِ ما لا يُستقبحُ معَ الأجانبِ ، ويُستقبحُ معَ الجارِ ما لا يُستقبحُ معَ البعيدِ ، ويُستقبحُ في الضيافةِ مِنَ المضايقةِ ما لا يُستقبحُ أكثرُ منهُ[1] في المبايعةِ والمعاملةِ ، فيختلفُ ذلكَ بما فيهِ مِنَ المضايقةِ في ضيافةٍ أوْ معاملةٍ ، وبما بهِ المضايقةُ مِنْ طعامٍ أوْ ثوبٍ ؛ إذْ يُستقبحُ في الأطعمةِ ما لا يُستقبحُ في غيرِها ، ويُستقبحُ في شراءِ الكفنِ مثلاً أوْ شراءِ الأضحيةِ أوْ شراءِ خبزِ الصدقةِ ما لا يُستقبحُ في غيرِهِ مِنَ المضايقةِ ، وكذلكَ يختلفُ بمَنْ معَهُ المضايقةُ ؛ مِنْ صديقٍ ، أوْ أخٍ ، أوْ قريبٍ ، أوْ زوجةٍ ، أو ولدٍ ، أوْ أجنبيٍّ ، وكذلكَ يختلفُ بمَنْ منهُ المضايقةُ ؛ مِنْ صبيٍّ وامرأةٍ ، وشيخٍ وشابٍّ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وموسرٍ وفقيرٍ .

فالبخيلُ : هوَ الذي يمنعُ حيثُ ينبغي ألاَّ يمنعَ ؛ إمَّا بحكمِ الشرعِ ، وإمَّا

---

(١) في (أ ، ب ، د) : (أقل منه) بدل (أكثر منه) .

بحكمِ المروءةِ ، وذلكَ لا يمكنُ التنصيصُ علىٰ مقدارِهِ .

ولعلَّ حدَّ البخلِ : هوَ إمساكُ المالِ عنْ غرضٍ ، ذلكَ الغرضُ هوَ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ؛ فإنَّ صيانةَ الدينِ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ، فمانعُ الزكاةِ والنفقةِ بخيلٌ ، وصيانةُ المروءةِ أهمُّ مِنْ حفظِ المالِ ، والمضايقُ في الدقائقِ معَ مَنْ لا تحسنُ المضايقةُ معَهُ هاتكٌ سترَ المروءةِ لحبِّ المالِ ؛ فهوَ بخيلٌ .

وتبقىٰ درجةٌ أخرىٰ ، وهوَ أنْ يكونَ الرجلُ ممَّنْ يؤدي الواجبَ ، ويحفظُ المروءةَ ، ولكنْ معَهُ مالٌ كثيرٌ قدْ جمعَهُ ليسَ يصرفُهُ إلى الصدقاتِ وإلى المحتاجينَ ، فقدْ تقابلَ غرضُ حفظِ المالِ ليكونَ لهُ عُدَّةً علىٰ نوائبِ الزمانِ وغرضُ الثوابِ ليكونَ رافعاً لدرجاتِهِ في الآخرةِ ، فإمساكُ المالِ عنْ هٰذا الغرضِ بخلٌ عندَ الأكياسِ ، وليسَ ببخلٍ عندَ عوامِّ الخلقِ ؛ وذلكَ لأنَّ نظرَ العوامِّ كالمقصورِ علىٰ حظوظِ الدنيا ، فيرونَ إمساكَهُ لدفعِ نوائبِ الزمانِ مهمّاً ، وربَّما يظهرُ عندَ العوامِّ أيضاً سمةُ البخلِ عليهِ إنْ كانَ في جوارِهِ محتاجٌ ، فمنعَهُ وقالَ : (قدْ أديتُ الزكاةَ الواجبةَ ، وليسَ عليَّ غيرُها) ، ويختلفُ استقباحُ ذلكَ باختلافِ مقدارِ مالِهِ ، وباختلافِ شدَّةِ حاجةِ المحتاجِ وصلاحِهِ ودينِهِ واستحقاقِهِ ، فمَنْ أدَّىٰ واجبَ الشرعِ وواجبَ المروءةِ اللائقةِ بهِ . . فقدْ تبرَّأَ مِنَ البخلِ .

نعمْ ، لا يتصفُ بصفةِ الجودِ والسخاءِ ما لمْ يبذلْ زيادةً علىٰ ذلكَ لطلبِ الفضيلةِ ونيلِ الدرجاتِ ، فإذا اتسعَتْ نفسُهُ لبذلِ المالِ حيثُ لا يوجبُهُ الشرعُ

ولا تتوجَّهُ إليهِ الملامةُ في العادةِ . . فهوَ جوادٌ بقدْرِ ما تتسعُ لهُ نفسُهُ مِنْ قليلٍ أوْ كثيرٍ ، ودرجاتُ ذلكَ لا تنحصرُ ، وبعضُ الناسِ أجودُ مِنْ بعضٍ .

واصطناعُ المعروفِ وراءَ ما توجبُهُ العادةُ والمروءةُ هوَ الجودُ ، ولكنْ بشرطِ أنْ يكونَ عنْ طيبِ نفسٍ ، ولا يكونَ عنْ طمعٍ ، ورجاءِ خدمةٍ أوْ مكافأةٍ ، أوْ شكرٍ أوْ ثناءٍ ، فإنَّ مَنْ طمعَ في الشكرِ والثناءِ . . فهوَ بياعٌ وليسَ بجوادٍ ، فإنَّهُ يشتري المدحَ بمالِهِ ، والمدحُ لذيذٌ ، وهوَ مقصودٌ في نفسِهِ ، والجودُ هوَ بذلُ الشيءِ مِنْ غيرِ عوضٍ ، هـٰذا هوَ الحقيقةُ[1] ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا الآدميُّ . . فاسمُ الجودِ عليهِ مجازٌ ؛ إذْ لا يبذلُ الشيءَ إلا لغرضٍ ، ولكنَّهُ إذا لمْ يكنْ غرضُهُ إلا الثوابَ في الآخرةِ أوِ اكتسابَ فضيلةِ الجودِ ، وتطهيرَ النفسِ عنْ رذالةِ البخلِ . . فيُسمَّىٰ جواداً ، فإنْ كانَ الباعثُ عليهِ الخوفَ مِنَ الهجاءِ مثلاً ، أوْ مِنْ ملامةِ الخَلْقِ ، أوْ ما يتوقَّعُهُ مِنْ نفعٍ ينالُهُ مِنَ المنعَمِ عليهِ . . فكلُّ ذلكَ ليسَ مِنَ الجودِ ؛ لأنَّهُ مضطرٌّ إليهِ بهـٰذهِ البواعثِ ، وهيَ أعواضٌ معجَّلةٌ لهُ عليهِ ، فهوَ معتاضٌ لا جوادٌ ، كما رُوِيَ عنْ بعضِ المتعبِّداتِ أنَّها وقفَتْ علىٰ حبَّانَ بنِ هلالٍ وهوَ جالسٌ معَ أصحابِهِ ، فقالَتْ : هلْ فيكُمْ مَنْ أسألُهُ عنْ مسألةٍ ؟ فقالوا لها : سلي عمَّا شئتِ ، وأشاروا إلىٰ حبَّانَ بنِ هلالٍ ، فقالَتْ : ما السخاءُ عندَكُمْ ؟ قالوا : العطاءُ ،

---

(١) أي : الحقيقة اللغوية . « إتحاف » (٨/٢٠٦) .

والبذلُ ، والإيثارُ ، قالَتْ : هـٰذا السخاءُ في الدنيا ، فما السخاءُ في الدينِ ؟ قالوا : أنْ نعبدَ اللهَ سبحانَهُ سخيةً بها أنفسُنا غيرَ مكرهةٍ ، قالَتْ : فتريدونَ علىٰ ذلكَ أجراً ؟ قالوا : نعمْ ، قالَتْ : ولِمَ ؟ قالوا : لأنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَنا بالحسنةِ عشرَ أمثالِها ، قالَتْ : سبحانَ اللهِ ! فإذا أعطيتُمْ واحدةً وأخذتُمْ عشرةً . . فبأيِّ شيءٍ تسخيتُمْ عليهِ ؟!

قالوا لها : فما السخاءُ عندَكِ يرحمُكِ اللهُ ؟ قالَتِ : السخاءُ عندي : أن تعبدوا اللهَ تعالىٰ متنعِّمينَ متلذِّذينَ بطاعتِهِ ، غيرَ كارهينَ ، لا تريدونَ علىٰ ذلكَ أجراً حتَّىٰ يكونَ مولاكُمْ يفعلُ بكُمْ ما يشاءُ ، ألا تستحيونَ مِنَ اللهِ أَنْ يطَّلعَ علىٰ قلوبِكُمْ فيعلمَ مِنْها أنَّكُمْ تريدونَ شيئاً بشيءٍ ؟! إنَّ هـٰذا في الدنيا لقبيحٌ .

وقالَتْ بعضُ المتعبِّداتِ : أتحسبونَ أنَّ السخاءَ في الدرهمِ والدينارِ فقطْ ؟ قيلَ : ففيمَ ؟ قالَتِ : السخاءُ عندي في المهَجِ .

وقالَ المحاسبيُّ : (السخاءُ في الدينِ : أن تسخوَ نفسُكَ بتلفِهَا للهِ عزَّ وجلَّ ، ويسخوَ قلبُكَ ببذلِ مهجتِكَ وإهراقِ دمِكَ للهِ تعالىٰ بسماحةٍ مِنْ غيرِ إكراهٍ ، لا تريدُ بذلكَ ثواباً عاجلاً ولا آجلاً ، وإنْ كنتَ غيرَ مستغنٍ عنِ الثوابِ ، ولكنْ يغلبُ علىٰ قلبِكَ حسنُ كمالِ السخاءِ ، بتركِ الاختيارِ على اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ يكونَ مولاكَ هوَ الذي يفعلُ بكَ ما لا تحسنُ اختيارَهُ لنفسِكَ) .

❋ ❋ ❋

بيان علاج البخل

اعلمْ : أنَّ البخلَ سببُهُ حبُّ المالِ .

ولحبِّ المالِ سببانِ :

أحدُهُما : حبُّ الشهواتِ التي لا وصولَ إليها إلا بالمالِ معَ طولِ الأملِ ، فإنَّ الإنسانَ لوْ علمَ أنَّهُ يموتُ بعدَ يومٍ . . ربَّما كانَ لا يبخلُ بمالِهِ ؛ إذِ القدْرُ الذي يحتاجُ إليهِ في يومٍ أو في شهرٍ أوْ في سنةٍ قريبٌ ، وإنْ كانَ قصيرَ الأملِ ولكنْ كانَ لهُ أولادٌ . . قامَ الولدُ مقامَ طولِ الأملِ ، فإنَّهُ يقدِّرُ بقاءَهُمْ كبقاءِ نفسِهِ ، فيمسكُ لأجلِهِمْ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ مجهلةٌ »(١) ، فإذا انضافَ إلىٰ ذلكَ خوفُ الفقرِ وقلَّةُ الثقةِ بمجيءِ الرزقِ . . قويَ البخلُ لا محالةَ .

السببُ الثاني : أنْ يحبَّ عينَ المالِ ، فمِنَ الناسِ مَنْ معَهُ ما يكفيهِ لبقيةِ عمرِهِ إذا اقتصرَ علىٰ ما جرتْ بهِ عادتُهُ بنفقتِهِ وتفضلُ آلافٌ ، وهوَ شيخٌ لا ولدَ لهُ ، ومعَهُ أموالٌ كثيرةٌ ، ولا تسمحُ نفسُهُ بإخراجِ الزكاةِ ، ولا بمداواةِ نفسِهِ عندَ المرضِ ، بل صارَ محبّاً للدنانيرِ عاشقاً لها ، يلتذُّ بوجودِها في يدِهِ وبقدرتِهِ عليها ، فيكنزُها تحتَ الأرضِ ، وهوَ يعلمُ أنَّهُ

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦) وليس فيه : (مجهلة) ، وهي عند عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٤٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٩٦) .

يموتُ فتضيعُ أوْ يأخذُها أعداؤُهُ ، ومعَ هـٰذا فلا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يأكلَ أوْ يتصدَّقَ مِنْها بحبةٍ واحدةٍ !

وهـٰذا مرضٌ للقلبِ عظيمٌ عسيرُ العلاجِ ، لا سيما في كبرِ السنِّ ، وهوَ مرضٌ مزمنٌ لا يُرجىٰ علاجُهُ ، ومثالُ صاحبِهِ مثالُ رجلٍ عشقَ شخصاً ، فأحبَّ رسولَهُ لنفسِهِ ، ثمَّ نسيَ محبوبَهُ واشتغلَ برسولِهِ ، فإنَّ الدنانيرَ رسولٌ مبلِّغٌ إلى الحاجاتِ ، فصارَتْ محبوبةً لذلكَ ؛ لأنَّ الموصلَ إلى اللذيذِ لذيذٌ ، ثمَّ قدْ ينسى الحاجاتِ ، ويصيرُ الذهبُ عندَهُ كأنَّهُ محبوبٌ في نفسِهِ ، وهوَ غايةُ الضلالِ ، بلْ مَنْ رأىٰ بينَهُ وبينَ الحجرِ فرقاً . . فهوَ لجهلِهِ ، إلا مِنْ حيثُ قضاءُ حاجتِهِ بهِ ، فالفاضلُ عنْ قدْرِ حاجتِهِ والحجرُ بمثابةٍ واحدةٍ .

* * *

فهـٰذهِ أسبابُ حبِّ المالِ ، وإنَّما علاجُ كلِّ علَّةٍ بمضادَّةِ سببِها ، فيعالجُ حبَّ الشهواتِ بالقناعةِ باليسيرِ ، وبالصبرِ ، ويعالجُ طولَ الأملِ بكثرةِ ذكرِ الموتِ ، والنظرِ في موتِ الأقرانِ ، وطولِ تعبِهِمْ في جمعِ المالِ ، وضياعِهِ بعدَهُمْ ، ويعالجُ التفاتَ القلبِ إلى الولدِ بأنَّ الذي خلقَهُ خلقَ معَهُ رزقَهُ ، وكمْ مِنْ ولدٍ لمْ يرثْ مِنْ أبيهِ شيئاً وحالُهُ أحسنُ ممَّنْ ورثَ ، وبأنْ يعلمَ أنَّهُ بجمعِ المالِ لولدِهِ يريدُ أن يتركَ ولدَهُ بخيرٍ وينقلبَ هوَ إلىٰ شرٍّ ، وأنَّ ولدَهُ إن كانَ تقياً صالحاً . . فيكفيهِ اللهُ ، وإنْ كانَ فاسقاً . . فيستعينُ بمالِهِ على المعصيةِ ، وترجعُ مظلمتُهُ إليهِ .

ويعالجُ أيضاً قلبَهُ بكثرةِ التأمُّلِ في الأخبارِ الواردةِ في ذمِّ البخلِ ومدحِ السخاءِ ، وما توعَّدَ اللهُ بهِ على البخلِ مِنَ العقابِ العظيمِ .

ومِنَ الأدويةِ النافعةِ : كثرةُ التأمُّلِ في أحوالِ البخلاءِ ، ونفرةِ الطبعِ عنهُمْ ، واستقباحِهِ لهمْ ، فإنَّهُ ما مِنْ بخيلٍ إلا ويستقبحُ البخلَ مِنْ غيرِهِ ، ويستثقلُ كلَّ بخيلٍ مِنْ أصحابِهِ ، فيعلمُ أنَّهُ مستثقلٌ ومستقذرٌ في قلوبِ الناسِ مثلُ سائرِ البخلاءِ في قلبِهِ .

ويعالجُ أيضاً قلبَهُ بأنْ يتفكَّرَ في مقاصدِ المالِ ؛ وأنَّهُ لماذا خُلقَ ، فلا يحفظُ مِنَ المالِ إلا قدْرَ حاجتِهِ ، والباقي يدخرُهُ لنفسِهِ ؛ بأنْ يحصلَ لهُ ثوابُ بذلِهِ .

فهٰذهِ الأدويةُ مِنْ جهةِ المعرفةِ والعلمِ ، فإذا عرفَ بنورِ البصيرةِ أنَّ البذلَ خيرٌ لهُ مِنَ الإمساكِ في الدنيا والآخرةِ . . هاجَتْ رغبتُهُ في البذلِ إنْ كانَ عاقلاً ، فإذا تحرَّكَتِ الداعيةُ . . فينبغي أن يجيبَ الخاطرَ الأولَ ولا يتوقفَ ؛ فإنَّ الشيطانَ يعدُهُ الفقرَ ويخوِّفُهُ ويصدُّهُ عنهُ .

وكانَ أبو الحسنِ البُوشَنْجيُّ ذاتَ يومٍ في الخلاءِ ، فدعا تلميذاً لهُ ، وقالَ : انزعْ عنِّي القميصَ وادفعْهُ إلىٰ فلانٍ ، فقالَ : هلاَّ صبرتَ حتَّىٰ تخرجَ ؟ قالَ : لمْ آمنْ علىٰ نفسِي أن تتغيَّرَ ، وكانَ قدْ خطرَ لي بذلُهُ[1] .

ولا تزولُ صفةُ البخلِ إلا بالبذلِ تكلُّفاً ؛ كما لا يزولُ العشقُ إلا بمفارقةِ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٤٢٠) .

المعشوقِ بالسفرِ عنْ مستقرِّهِ حتىٰ إذا سافرَ وفارقَ تكلفاً ، وصبرَ عنهُ مدَّةً . . تسلَّىٰ عنْهُ قلبُهُ ، فكذلكَ الذي يريدُ علاجَ البخلِ ينبغي أنْ يفارقَ المالَ تكلُّفاً بأنْ يبذلَهُ .

بلْ لوْ رماهُ في الماءِ . . كانَ أولىٰ بهِ مِنْ إمساكِهِ إيَّاهُ معَ الحبِّ لهُ[1] .

ومِنْ لطائفِ الحيلِ فيهِ : أنْ يخدعَ نفسَهُ بحسنِ الاسمِ والاشتهارِ بالسخاءِ ، فيبذلَ علىٰ قصدِ الرياءِ ، حتَّىٰ تسمحَ نفسُهُ بالبذلِ طمعاً في حشمةِ الجودِ ، فيكونَ قدْ أزالَ عنْ نفسِهِ خبثَ البخلِ واكتسبَ لها خبثَ الرياءِ ولكنْ ينعطفُ بعدَ ذلكَ على الرياءِ ويزيلُهُ بعلاجِهِ ، ويكونُ طلبُ الاسمِ كالتسليةِ للنفسِ عندَ فطامِها عنِ المالِ ؛ كما يُسلَّى الصبيُّ عندَ الفطامِ عنِ الثديِ باللعبِ بالعصافيرِ وغيرِها لا ليخلَّىٰ واللعبَ ، ولكنْ ليُنقلَ عنِ الثديِ إليهِ ، ثمَّ يُنقلَ عنهُ إلىٰ غيرِهِ ، فكذلكَ هـٰذهِ الصفاتُ الخبيثةُ ينبغي أنْ يُسلَّط بعضُها علىٰ بعضٍ ؛ كما تُسلَّطُ الشهوةُ على الغضبِ وتُكسرُ سورتُهُ بها ، ويُسلَّطُ الغضبُ على الشهوةِ وتُكسرُ رعونتُها بهِ ، إلا أنَّ هـٰذا مفيدٌ في حقِّ مَنْ كانَ البخلُ أغلبَ عليهِ مِنْ حبِّ الجاهِ والرياءِ ؛ فيبدلُ الأقوىٰ بالأضعفِ ، فإن

---

(١) وقد تعجب ابن القيم من هـٰذا الكلام ، وقال : إن الفقهاء كلَّهم يقولون : إن رمي المال في البحر لا يجوز .
والجواب : أن أهل الطريق مجتهدون في أحوالها ، وأن من قواعد أهل الشريعة ارتكاب أخف الضررين إذا تعارض معنا مفسدتان ، وقد تعارض هنا أمران : أحدهما مفسدة الدين ، فقدموه على المفسد للدنيا ، فافهم والله أعلم . « إتحاف » (١/ ٣٨) .

كانَ الجاهُ محبوباً عندَهُ كالمالِ . . فلا فائدةَ فيهِ ؛ فإنَّهُ يقطعُ علةً ويزيدُ في أخرىٰ مثلِها ، إلا أنَّ علامةَ ذلكَ ألا يثقلَ عليهِ البذلُ لأجلِ الرياءِ ، فبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ الرياءَ أغلبُ عليهِ ، فإنْ كانَ البذلُ يشقُّ عليهِ معَ الرياءِ . . فينبغي أنْ يبذلَ ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ مرضَ البخلِ أغلبُ علىٰ قلبِهِ .

ومثالُ دفعِ هٰذهِ الصفاتِ بعضِها ببعضٍ : ما يُقالُ : إنَّ الميتَ تستحيلُ جميعُ أجزائِهِ دوداً ، ثمَّ يأكلُ بعضُ الديدانِ البعضَ حتَّىٰ يقلَّ عددُها ويكبرونَ ، ثمَّ يأكلُ بعضُها بعضاً حتَّىٰ ترجعَ إلى اثنتينِ قويَّتينِ عظيمتينِ ، ثمَّ لا تزالانِ تتقاتلانِ إلىٰ أنْ تغلبَ إحداهُما الأخرىٰ فتأكلَها وتسمنَ بها ، ثمَّ لا تزالُ وحدَها تبقىٰ جائعةً إلىٰ أنْ تموتَ ؛ فكذلكَ هٰذهِ الصفاتُ الخبيثةُ يمكنُ أنْ يُسلَّطَ بعضُها علىٰ بعضٍ حتَّىٰ يقمعَها فيجعلَ الأضعفَ قوتاً للأقوىٰ ، إلىٰ ألا يبقىٰ إلا واحدةٌ ، ثمَّ تقعُ العنايةُ بمحوِها وإذابتِها بالمجاهدةِ ، وذلكَ بمنعِ القوتِ عنها .

ومنعُ القوتِ عنِ الصفاتِ ألا يُعملَ بمقتضاها ؛ فإنَّها تقتضي ـ لا محالةَ ـ أعمالاً ، فإذا خُولفَتْ . . خمدَتِ الصفاتُ وماتَتْ مثلَ البخلِ ؛ فإنَّهُ يقتضي إمساكَ المالِ ، فإذا مُنِعَ مقتضاهُ ، وبُذلَ المالُ معَ الجهدِ مرةً بعدَ أخرىٰ . . ماتَتْ صفةُ البخلِ ، وصارَ البذلُ طبعاً ، وسقطَ التعبُ فيهِ .

فإذاً ؛ علاجُ البخلِ بعلمٍ وعملٍ ؛ فالعلمُ يرجعُ إلىٰ معرفةِ آفةِ البخلِ وفائدةِ الجودِ ، والعملُ يرجعُ إلى البذلِ علىٰ سبيلِ التكلُّفِ ، ولكنْ قدْ

يقوى البخلُ ، بحيثُ يعمي ويصمُّ ، فيمنعُ تحقُّقَ المعرفةِ بآفاتِهِ ، وإذا لمْ تتحققِ المعرفةُ . . لمْ تتحرَّكِ الرغبةُ ، فلمْ يتيسَّرِ العملُ ، فتبقى العلةُ مزمنةً ؛ كالمرضِ الذي يمنعُ معرفةَ الدواءِ وإمكانَ استعمالِهِ ؛ فإنَّهُ لا حيلةَ فيهِ إلا الصبرُ إلى الموتِ .

وكانَ مِنْ عادةِ بعضِ شيوخِ الصوفيةِ في معالجةِ علَّةِ البخلِ في المريدينَ أنْ يمنعَهُمْ مِنَ الاختصاصِ بزواياهُمْ ، فكانَ إذا توسَّمَ في مريدٍ فرحَهُ بزاويتِهِ وما فيها . . نقلَهُ إلىٰ زاويةِ غيرِهِ ، ونقلَ زاويةَ غيرِهِ إليهِ ، وأخرجَهُ مِنْ جميعِ ما ملكَهُ ، وإذا رآهُ يلتفتُ إلىٰ ثوبٍ جديدٍ يلبسُهُ ، أوْ سجادةٍ يفرحُ بها . . يأمرُهُ بتسليمِها إلىٰ غيرِهِ ، ويلبسُهُ ثوباً خَلَقاً لا يميلُ إليهِ قلبُهُ ، فبهـٰذا يتجافى القلبُ عنْ متاعِ الدنيا ، فمَنْ لمْ يسلُكْ هـٰذا السبيلَ . . أنسَ بالدنيا وأحبَّها ، فإنْ كانَ لهُ ألفُ متاعٍ . . كانَ لهُ ألفُ محبوبٍ ، ولذلكَ إذا سُرِقَ كلُّ واحدٍ منهُ . . ألمَّتْ بهِ مصيبةٌ بقدْرِ حبِّهِ لهُ ، فإذا ماتَ . . نزلَتْ بهِ ألفُ مصيبةٍ دُفعةً واحدةً ؛ لأنَّهُ كانَ يحبُّ الكلَّ ، وقدْ سُلِبَ مِنهُ ، بلْ هوَ في حياتِهِ علىٰ خطرِ المصيبةِ بالفقرِ والهلاكِ .

حُمِلَ إلىٰ بعضِ الملوكِ قدحٌ مِنْ فيروزجٍ مرصَّعٍ بالجواهرِ لمْ يُرَ لهُ نظيرٌ ، ففرحَ الملكُ بهِ فرحاً شديداً ، فقالَ لبعضِ الحكماءِ عندَهُ : كيفَ ترىٰ هـٰذا ؟ قالَ : أراهُ مصيبةً أوْ فقراً ، قالَ : كيفَ ؟ قالَ : إنْ كُسِرَ . . كانَ مصيبةً لا جبرَ لها ، وإنْ سُرِقَ . . صرتَ فقيراً إليهِ ولمْ تجدْ مثلَهُ ، وقدْ كنتَ قبلَ أنْ يُحمَلَ إليكَ في أمنٍ مِنَ المصيبةِ والفقرِ ، ثمَّ اتفقَ أنِ انكسرَ يوماً ،

فعظمَتْ مصيبةُ الملكِ عليهِ ، فقالَ : صدقَ الحكيمُ ، ليتهُ لمْ يُحمَلْ إلينا .

وهٰذا شأنُ جميعِ أسبابِ الدنيا ، فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ لأعداءِ اللهِ ؛ إذْ تسوقُهُمْ إلى النارِ ، وعدوَّةٌ لأولياءِ اللهِ ؛ إذْ تغمُّهُمْ بالصبرِ عنها ، وعدوَّةُ اللهِ ؛ إذْ تقطعُ طريقَهُ علىٰ عبادِهِ ، وعدوَّةُ نفسِها ؛ فإنَّها تأكلُ نفسَها ؛ فإنَّ المالَ لا يُحفظُ إلا بالخزائنِ والحراسِ ، والخزائنُ والحراسُ لا يمكنُ تحصيلُها إلا بالمالِ ، وهوَ بذلُ الدراهمِ والدنانيرِ ، فالمالُ يأكلُ نفسَهُ ويضادُّ ذاتَهُ حتَّىٰ يفنىٰ ، ومَنْ عرفَ آفةَ المالِ . . لمْ يأنسْ بهِ ، ولمْ يفرحْ بهِ ، ولمْ يأخذْ منهُ إلا قدْرَ حاجتِهِ ، ومَنْ قنعَ بقدْرِ الحاجةِ . . لمْ يبخلْ ؛ لأنَّ ما أمسكَهُ لحاجتِهِ فليسَ ببخلٍ ، وما لا يحتاجُ إليهِ فلا يُتعِبُ نفسَهُ بحفظِهِ ، فيبذلُهُ ، بلْ هوَ كالماءِ علىٰ شاطىءِ الدجلةِ ؛ إذْ لا يبخلُ بهِ أحدٌ ؛ لقناعةِ الناسِ منهُ بمقدارِ الحاجةِ .

* * *

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلمْ : أنَّ المالَ كما وصفناهُ ؛ خيرٌ مِنْ وجهٍ ، وشرٌّ مِنْ وجهٍ ، ومثالُهُ مثالُ حيَّةٍ يأخذُها الراقي ويستخرجُ مِنْها الترياقَ ، ويأخذُها الغافلُ فيقتلُهُ سمُّها مِن حيثُ لا يدري .

ولا يخلو أحدٌ عنْ سُمِّ المالِ إلا بالمحافظةِ علىٰ خمسِ وظائفَ :

الأولىٰ : أنْ يعرفَ مقصودَ المالِ ، وأنَّهُ لماذا خُلقَ ، وأنَّهُ لِمَ يحتاجُ إليهِ ؛ حتَّىٰ لا يكتسبَ ولا يحفظَ منهُ إلا قدْرَ الحاجةِ ، ولا يعطيَهُ مِنْ همَّتِهِ فوقَ ما يستحقُّهُ .

* * *

الثانيةُ : أنْ يراعيَ جهةَ دخلِ المالِ ، فيجتنبَ الحرامَ المحضَ ، وما الغالبُ عليهِ الحرامُ ؛ كمالِ السلاطينِ ، ويجتنبَ الجهاتِ المكروهةَ القادحةَ في المروءةِ ؛ كالهدايا التي فيها شوائبُ الرشوةِ ، وكالسؤالِ الذي فيهِ الذلُّ وهتكُ المروءةِ ، وما يجري مجراهُ .

* * *

الثالثةُ : في المقدارِ الذي يكتسبُهُ ، فلا يستكثرُ منهُ ولا يستقلُّ ، بلِ القدْرُ الواجبُ ، ومعيارُهُ الحاجةُ ، والحاجةُ ملبسٌ ومسكنٌ ومطعمٌ ، ولكلٍّ

واحدٍ ثلاثُ درجاتٍ ، أدنىٰ وأوسطُ وأعلىٰ ، وما دامَ مائلاً إلىٰ جانبِ القلَّةِ ومتقرِّباً مِنْ حدِّ الضرورةِ . . كانَ مخفَّاً ، ويجيءُ مِنْ جملةِ المخفِّينَ ، وإنْ جاوزَ ذلكَ . . وقعَ في هاويةٍ لا آخرَ لعمقِها ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ هٰذهِ الدرجاتِ في كتابِ الزهدِ .

* * *

الرابعةُ : أنْ يراعيَ جهةَ المخرجِ ، ويقتصدَ في الإنفاقِ ؛ غيرَ مبذِّرٍ ولا مقتِّرٍ ؛ كما ذكرناهُ ، فيضعُ ما اكتسبَهُ مِنْ حِلِّهِ في حقِّهِ ، ولا يضعُهُ في غيرِ حقِّهِ ، فإنَّ الإثمَ في الأخذِ مِنْ غيرِ حقِّهِ والوضعِ في غيرِ حقِّهِ سواءٌ .

* * *

الخامسةُ : أنْ يصلحَ نيَّتَهُ في الأخذِ والتركِ ، والإنفاقِ والإمساكِ ، فيأخذَ ما يأخذُ ليستعينَ بهِ على العبادةِ ، ويتركَ ما يتركُ زهداً فيهِ واستحقاراً لهُ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . لمْ يضرَّهُ وجودُ المالِ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ رجلاً أخذَ جميعَ ما في الأرضِ وأرادَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ زاهدٌ ، ولوْ أنَّهُ تركَ الجميعَ ولمْ يردْ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ . . فليسَ بزاهدٍ) .

* * *

فلتكنْ جميعُ حركاتِكَ وسكناتِكَ للهِ تعالىٰ مقصورةً علىٰ عبادةٍ ، أوْ ما يعينُ على العبادةِ ؛ فإنَّ أبعدَ الحركاتِ عنِ العبادةِ الأكلُ وقضاءُ الحاجةِ ،

وهما معينانِ على العبادةِ ، فإذا كانَ ذلكَ قصدَكَ بهما . . صارَ ذلكَ عبادةً في حقِّكَ ، وكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ نيَّتُكَ في كلِّ ما تحفظُ ؛ مِنْ قميصٍ وإزارٍ وفراشٍ وآنيةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ ممَّا قدْ يُحتاجُ إليهِ في الدِّينِ ، وما فضلَ مِنَ الحاجةِ . . ينبغي أنْ يُقصدَ بهِ أنْ ينتفعَ بهِ عبدٌ مِنْ عبادِ اللهِ ، فلا يمنعُهُ منهُ عندَ حاجتِهِ ، فمَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ الذي أخذَ مِنْ حيَّةِ المالِ جوهرَها وترياقَها واتقىٰ سمَّها ، فلا تضرُّهُ كثرةُ المالِ ، ولكنْ لا يتأتىٰ ذلكَ إلا لمَنْ رسخَ في الدينِ قدمُهُ ، وعظمَ فيه علمُهُ ، والعاميُّ إذا تشبَّهَ بالعالمِ في الاستكثارِ مِنَ المالِ ، وزعمَ أنَّهُ يشبهُ أغنياءَ الصحابةِ . . شابهَ الصبيَّ الذي يرى المعزِّمَ الحاذقَ يأخذُ الحيةَ ويتصرَّفُ فيها فيُخرِجُ ترياقَها ، فيقتدي بهِ ، ويظنُّ أنَّهُ أخذَها مستحسناً صورتَها وشكلَها ، ومستليناً جلدَها ، فيأخذُها اقتداءً بهِ ، فتقتلُهُ في الحالِ ، إلا أنَّ قتيلَ الحيةِ يدري أنَّهُ قتيلٌ ، وقتيلُ المالِ قدْ لا يعرفُ ، وقدْ شُبِّهتِ الدُّنيا بالحيَّةِ ، فقيلَ[1] : [من الخفيف]

هِيَ دُنْيا كَحَيَّةٍ تَنْفِثُ ٱلسُّمَّ　وَإِنْ كانَتِ ٱلْمَجَسَّةُ لانَتْ

وكما يستحيلُ أنْ يتشبَّهَ الأعمىٰ بالبصيرِ في تخطِّي قُلَلِ الجبالِ ، وأطرافِ البحارِ ، والطرقِ المشوكةِ ؛ فمحالٌ أنْ يتشبَّهَ العاميُّ بالعالمِ الكاملِ في تناولِ المالِ .

❋ ❋ ❋

(١) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٧٥) .

بيان ذمّ الغنىٰ ومدح الفقر

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في تفضيلِ الغنيِّ الشاكرِ على الفقيرِ الصابرِ ، وقدْ أوردنا ذلكَ في كتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكشفنا عنْ تحقيقِ الحقِّ فيهِ .

ولكنَّا في هـٰذا الكتابِ ندلُّ علىٰ أنَّ الفقرَ أفضلُ وأعلىٰ مِنَ الغنىٰ على الجملةِ ، مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ تفصيلِ الأحوالِ .

ونقتصرُ فيهِ علىٰ حكايةِ فصلٍ ذكرَهُ الحارثُ المحاسبيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في بعضِ كتبِهِ في « الردِّ علىٰ بعضِ العلماءِ مِنَ الأغنياءِ ، حيثُ احتجَّ بأغنياءِ الصحابةِ ، وبكثرةِ مالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ » ، وشبَّهَ نفسَهُ بِهِمْ ، والمحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ حَبْرُ الأمةِ في علمِ المعاملةِ(١) ، ولهُ السبقُ علىٰ جميعِ الباحثينَ عنْ عيوبِ النفسِ ، وآفاتِ الأعمالِ ، وأغوارِ العباداتِ ، وكلامُهُ جديرٌ بأنْ يُحكىٰ علىٰ وجهِهِ .

❁ ❁ ❁

وقدْ قالَ بعدَ كلامٍ لهُ في الردِّ علىٰ علماءِ السوءِ :

بلغَنا أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ ، وتصلُّونَ ، وتصدَّقونَ ، ولا تفعلونَ ما تُؤمرونَ ، وتدرِّسونَ ما لا تعملونَ ،

---

(١) في (ج) : (خير) بدل (حبر) .

فيا سوءَ ما تحكمونَ ، تتوبونَ بالقولِ والأمانيِّ ، وتعملونَ بالهوىٰ ، وما يغني عنكمْ أنْ تنقُّوا جلودَكُمْ وقلوبُكُمْ دنسةٌ .

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تكونوا كالمنخلِ ، يخرجُ منهُ الدقيقُ الطيِّبُ ، وتبقىٰ فيهِ النخالةُ ، كذلكَ أنتمْ تخرجونَ الحكمَ مِنْ أفواهِكُمْ ، ويبقى الغلُّ في صدورِكُمْ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ كيفَ يدركُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدنيا شهوتُهُ ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّ قلوبَكُمْ تبكي مِنْ أعمالِكُمْ ، جعلتُمُ الدنيا تحتَ ألسنتِكُمْ ، والأعمالَ تحتَ أقدامِكُمْ .

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : أفسدتُمْ آخرتَكُمْ ، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكُمْ مِنْ صلاحِ الآخرةِ ، فأيُّ الناسِ أخسرُ منكُمْ لوْ تعلمونَ ؟!

ويلَكُمْ ! حتىٰ متىٰ تصفونَ الطريقَ للمدْلِجينَ وتقيمونَ في محلِّ المتحيرينَ[1] ؛ كأنَّكُمْ تدعونَ أهلَ الدنيا ليتركوها لكُمْ ؟ مهلاً مهلاً .

ويلَكُمْ ! ماذا يغني عنِ البيتِ المظلمِ أنْ يُوضعَ السراجُ فوقَ ظهرِهِ وجوفُهُ وحِشٌ مظلمٌ ؟ كذلكَ لا يغني عنكُمْ أنْ يكونَ نورُ العلمِ بأفواهِكُمْ وأجوافُكُمْ منهُ وحشةٌ معطَّلةٌ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ لا كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا كأحرارٍ كرامٍ ، توشكُ الدنيا أنْ

---

(١) في « الوصايا » (٧٥) : (المتحبِّرين) بدل (المتحيِّرين) .

تقلعَكُمْ عنْ أُصولِكُمْ فتلقيَكُمْ علىٰ وجوهِكُمْ ، ثمَّ تكبَّكُمْ علىٰ مناخرِكُمْ ، ثمَّ تأخذَ خطاياكُمْ بنواصيكُمْ ، ثمَّ يدفعَكُمُ العلمُ مِنْ خلفِكُمْ حتَّىٰ يسلمَكُمْ إلى الملكِ الديانِ عُراةً فُرادىٰ ، فيوقفَكُمْ علىٰ سَوْءاتِكُمْ ثمَّ يجزيَكُمْ بسوءِ أعمالِكُمْ)[1] .

* * *

ثمَّ قالَ الحارثُ رحمَهُ اللهُ :

إخواني ؛ فهؤلاءِ علماءُ السوءِ ، شياطينُ الإنسِ ، وفتنةٌ على الناسِ ، رغبوا في عَرَضِ الدنيا ورفعتِها ، وآثروها على الآخرةِ ، وأذلُّوا الدينَ للدنيا ، فهُمْ في العاجلِ عارٌ وشَينٌ ، وفي الآخرةِ همُ الخاسرونَ أوْ يعفوَ الكريمُ بفضلِهِ .

وبعدُ : فإنِّي رأيتُ الهالكَ المؤثرَ للدنيا سرورُهُ ممزوجٌ بالتنغيصِ ، فيتفجَّرُ عنهُ أنواعُ الهمومِ وفنونُ المعاصي ، وإلى التلفِ والبوارِ مصيرُهُ ، فيعودُ فرحُ الهالكِ ترحاً ، فلمْ تبقَ لهُ دنياهُ ، ولمْ يسلَمْ لهُ دينُهُ ، خسرَ الدنيا والآخرةَ ، ذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

فيا لها مِنْ مصيبةٍ ما أفظعَها ! ورزيَّةٍ ما أجلَّها ! ألا فراقبوا اللهَ إخواني ، ولا يغرَّنكُمُ الشيطانُ وأولياؤُهُ من الأنسِ بالحججِ الداحضةِ عندَ اللهِ ؛ فإنَّهُمْ

---

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٥٩) ، (٤٧/ ٤٦٠) .

يتكالبونَ على الدنيا ، ثمَّ يطلبونَ لأنفسِهِمُ المعاذيرَ والحججَ ، ويزعمونَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَتْ لهُمْ أموالٌ ، فيتزيَّنُ المغرورونَ بذكرِ الصحابةِ ؛ ليعذرَهُمُ الناسُ علىٰ جمعِ المالِ ، ولقدْ دهاهُمُ الشيطانُ وما يشعرونَ .

ويحَكَ أيُّها المفتونُ ! إنَّ احتجاجَكَ بمالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ ينطقُ بها علىٰ لسانِكَ لتهلكَ ؛ لأنَّكَ متىٰ زعمتَ أنَّ أخيارَ الصحابةِ أرادوا المالَ للتكاثرِ والشرفِ والزينةِ . . فقدِ اغتبتَ السادةَ ، ونسبتَهُمْ إلىٰ أمرٍ عظيمٍ !

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ الحلالِ أعلىٰ وأفضلُ مِنْ تركِهِ . . فقَدْ أزريتَ بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والمرسلينَ ، ونسبتَهُمْ إلىٰ قلَّةِ الرغبةِ والزهدِ في هـٰذا الخيرِ الذي رغبتَ فيهِ أنتَ وأصحابُكَ مِنْ جمعِ المالِ ، ونسبتَهُمْ إلى الجهلِ ؛ إذْ لمْ يجمعوا المالَ كما جمعتَ !

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ الحلالِ أعلىٰ مِنْ تركِهِ . . فقدْ زعمتَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ ينصحِ الأمَّةَ ؛ إذْ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ ، وقدْ علمَ أنَّ جمعَ المالِ خيرٌ للأمةِ ؛ فقدْ غشَّهُمْ بزعمِكَ حينَ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ ، كذبتَ وربِّ السماءِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لقدْ كانَ للأمَّةِ ناصحاً ، وعليهِمْ مشفقاً ، وبهِمْ رؤوفاً .

ومتىٰ زعمتَ أنَّ جمعَ المالِ أفضلُ . . فقدْ زعمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ ينظرْ

لعبادِهِ حينَ نهاهُمْ عنْ جمعِ المالِ وقدْ علمَ أنَّ جمعَ المالِ خيرٌ لهُمْ ، أوْ زعمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يعلمْ أنَّ الفضلَ في الجمعِ ؛ فلذلكَ نهاهُمْ عنهُ ، وأنتَ عليمٌ بما في المالِ مِنَ الخيرِ والفضلِ ، فلذلكَ رغبتَ في الاستكثارِ ؛ كأنَّكَ أعلمُ بموضعِ الخيرِ والفضلِ مِنْ ربِّكَ ، تعالى اللهُ عنْ جهلِكَ .

أيُّها المفتونُ ؛ تدبَّرْ ما دهاكَ بهِ الشيطانُ حينَ زيَّنَ لكَ الاحتجاجَ بمالِ الصحابةِ ، ويحَكَ ! ما ينفعُكَ الاحتجاجُ بمالِ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ وقدْ ودَّ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ في القيامةِ أنَّهُ لمْ يُؤتَ مِنَ الدنيا إلا قوتاً ؟! ولقدْ بلغَني أنَّهُ لما تُوفيَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ أناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّا نخافُ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ فيما تركَ ، فقالَ كعبٌ : سبحانَ اللهِ ! وما تخافونَ علىٰ عبدِ الرحمـٰنِ ؟ كسبَ طيباً ، وأنفقَ طيباً ، وتركَ طيباً ، فبلغَ ذلكَ أبا ذرٍّ ، فخرجَ مُغضَباً يريدُ كعباً ، فمرَّ بعظمِ لحيِ بعيرٍ ، فأخذَهُ بيدِهِ ، ثمَّ انطلقَ يطلبُ كعباً ، فقيلَ لكعبٍ : إنَّ أبا ذرٍّ يطلبُكَ ، فخرجَ هارباً ، حتَّىٰ دخلَ علىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ يستغيثُ بهِ ، وأخبرَهُ الخبرَ ، وأقبلَ أبو ذرٍّ يقتصُّ الأثرَ في طلبِ كعبٍ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ دارِ عثمانَ ، فلمَّا دخلَ . . قامَ كعبٌ فجلسَ خلفَ عثمانَ هارباً مِنْ أبي ذرٍّ ، فقالَ لَهُ أبو ذرٍّ : هيهِ يا بنَ اليهوديةِ ؛ تزعمُ أنْ لا بأسَ بما تركَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؟! لقدْ خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً نحوَ أُحُدٍ وأنا معَهُ ، فقالَ : « يا أبا ذرٍّ » ؛ قلتُ : لبيكَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « الأكثرونَ همُ الأقلُّونَ يومَ القيامةِ ، إلا مَنْ قالَ هـٰكذا وهـٰكذا عَنْ

يمينِهِ وشمالِهِ وقدّامِهِ وخلفِهِ ، وقليلٌ ما هُمْ » ، ثمَّ قالَ : « يا أبا ذرٍّ » ؛ قلتُ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ؛ بأبي أنتَ وأمي ، قالَ : « ما يسرُّني أنَّ لي مثلَ أُحدٍ ذهباً أنفقُهُ في سبيلِ اللهِ ، أموتُ يومَ أموتُ وأتركُ منهُ قيراطينِ » ، قلتُ : أوْ قنطارينِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « بلْ قيراطانِ » ، ثمَّ قالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ أنتَ تريدُ الأكثرَ وأنا أريدُ الأقلَّ ؟! » ، فرسولُ اللهِ يريدُ هـٰذا وأنتَ تقولُ يا بنَ اليهوديةِ : لا بأسَ بما تركَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؟! كذبتَ وكذَبَ مَنْ قالَ ، فلمْ يردَّ عليهِ حرفاً حتَّىٰ خرجَ(١) .

وبلغَنا أنَّ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ قدمَتْ عليهِ عيرٌ مِنَ اليمنِ ، فضجَّتِ المدينةُ ضجةً واحدةً ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : ما هـٰذا ؟ فقيلَ : عيرٌ قدمَتْ لعبدِ الرحمـٰنِ ، قالَتْ : صدقَ اللهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبلغَ ذلكَ عبدَ الرحمـٰنِ ، فسألَها ، فقالَتْ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنِّي رأيتُ الجنَّةَ ، فرأيتُ فقراءَ المهاجرينَ والمسلمينَ

---

(١) الحديث المرفوع الذي ورد ضمن بلاغ الحارث رحمه الله تعالىٰ رواه البخاري (٦٤٤٤) ، ومسلم (٩٤) ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة ، ولقاء أبي ذر بعثمان رضي الله عنهما وحديثهما عن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه رواه أحمد في « المسند » (١/ ٦٣) وفيه : أن أبا ذر جاء يستأذن علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأذن له وبيده عصاه ، فقال عثمان رضي الله عنه : يا كعب ؛ إن عبد الرحمـٰن توفي وترك مالاً ، فما ترىٰ فيه ؟ فقال : إن كان يصل فهي حق الله . . فلا بأس عليه ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب لو أن لي هـٰذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني أذر خلفي منه ست أواق » ، أنشدك الله يا عثمان ؛ أسمعته ؟ ثلاث مرات ، قال : نعم .

يدخلونَ سعياً ولمْ أرَ أحداً مِنَ الأغنياءِ يدخُلُها معَهُمْ إلا عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ، رأيتُهُ يدخلُها معَهُمْ حبواً » ، فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : « إنَّ العيرَ وما عليها في سبيلِ اللهِ ، وإنَّ أرقَّاءَها أحرارٌ ، لعلِّي أدخلُها معَهُمْ سعياً »[1] .

وبلغَنا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ : « أمَا إنَّكَ أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ مِن أغنياءِ أمَّتي وما كدتَ أنْ تدخلَها إلا حبواً »[2] .

ويحَكَ أيُّها المفتونُ ! فما احتجاجُكَ بالمالِ وهـٰذا عبدُ الرحمـٰنِ بن عوفٍ في فضلِهِ وتقواهُ ، وصنائعِهِ المعروفةِ ، وبذلِهِ الأموالَ في سبيلِ اللهِ ، معَ صُحبتِهِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبشراهُ بالجنةِ[3] . . يُوقَفُ في عرْصَةِ القيامةِ وأهوالِها بسببِ مالٍ كسبهُ مِنْ حلالٍ للتعفُّفِ ، ولصنائعِ المعروفِ ، وأنفقَ منهُ قصداً ، وأعطىٰ في سبيلِ اللهِ سحّاً ، مُنِعَ مِنَ السعيِ إلى الجنةِ معَ فقراءِ المهاجرينَ ، وصارَ يحبو في آثارِهِمْ حبواً ! فما ظنُّكُمْ بأَمثالِنا الغرقىٰ في فتنِ الدنيا ؟!

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١١٥) دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » ، وروىٰ أبو نعيم في « فضائل الخلفاء الراشدين » (١١٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « أول من يدخل علينا من أغنياء الجنة عبد الرحمـٰن بن عوف » .

(٣) بشراه صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه بالجنة مع بقية العشرة رواه أبو داوود (٤٦٤٩) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، فضلاً عن الأحاديث التي أوردها المصنف رحمه الله تعالىٰ .

وبعدُ : فالعجبُ كلُّ العجبِ لكلِّ مفتونٍ تمرَّغَ في تخاليطِ الشبهاتِ والسحتِ ، وتكالبَ علىٰ أوساخِ الناسِ ، وهوَ يتقلَّبُ في الشهواتِ والزينةِ والمباهاةِ ، ويتقلبُ في فتنِ الدنيا ، ثم يحتجُّ بعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ ، وتزعمُ أنَّكَ إنْ جمعتَ المالَ . . فقدْ جمعَهُ الصحابةُ ؟! كأنَّكَ أشبهتَ السلفَ وفعلَهُمْ ، ويحَكَ ! إنَّ هـٰذا مِنْ قياسِ إبليسَ ، ومِن فُتياهُ لأوليائِهِ .

وسأصفُ لكَ أحوالَكَ وأحوالَ السلفِ؛ لتعرفَ فضائحَكَ وفضلَ الصحابةِ .

ولعمري ؛ لقدْ كانَ لبعضِ الصحابةِ أموالٌ أرادوها للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، فكسبوا حلالاً ، وأكلوا طيباً ، وأنفقوا قصداً ، وقدَّموا فضلاً ، ولمْ يمنعوا منها حقّاً ، ولمْ يبخلوا بها ، لكنَّهُمْ جادوا للهِ بأكثرِها ، وجادَ بعضُهُمْ بجميعِها ، وفي الشدَّةِ آثروا اللهَ علىٰ أنفسِهِمْ كثيراً ، فيا للهِ ! أكذلكَ أنتَ ؟! واللهِ ؛ إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وبعدُ : فإنَّ أخيارَ الصحابةِ كانوا للمسكنةِ محبِّينَ ، ومِنْ خوفِ الفقرِ آمنينَ ، وباللهِ في أرزاقِهِمْ واثقينَ ، وبمقاديرِ اللهِ مسرورينَ ، وفي البلاءِ راضينَ ، وفي الرخاءِ شاكرينَ ، وفي الضرَّاءِ صابرينَ ، وفي السرَّاءِ حامدينَ ، وكانوا للهِ متواضعينَ ، وعنْ حبِّ العلوِّ والتكاثرِ ورعينَ ، لمْ ينالوا مِنَ الدنيا إلا المباحَ لهُمْ ، ورضوا بالبُلْغةِ منها ، ورفضوا الدنيا ، وصبروا علىٰ مكارهِها ، وتجرَّعوا مرارتَها ، وزهدوا في نعيمِها وزهرتِها ، فيا للهِ ! أكذلكَ أنتَ ؟!

ولقدْ بلغَنا أنَّهُمْ كانوا إذا أقبلَتِ الدنيا عليهِمْ . . حزنوا ، وقالوا : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإذا رأَوُا الفقرَ مقبلاً . . قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحينَ[(١)] .

وبلغَنا أنَّ بعضَهُمْ كانَ إذا أصبحَ وعندَ عيالِهِ شيءٌ . . أصبحَ كئيباً حزيناً ، وإذا لمْ يكنْ عندَهُمْ شيءٌ . . أصبحَ فرحاً مسروراً ، فقيلَ لهُ : إنَّ الناسَ إذا لمْ يكنْ عندَهُمْ شيءٌ . . حزنوا ، وإذا كانَ عندَهُمْ شيءٌ . . فرحوا ، وأنتَ لستَ كذلكَ ، فقالَ : إنِّي إذا أصبحتُ وليسَ عندَ عيالي شيءٌ . . فرحتُ ؛ إذْ كانَ لي بمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةٌ ، وإذا كانَ عندَ عيالي شيءٌ . . اغتممتُ ؛ إذْ لمْ يكنْ لي بآلِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةٌ .

وبلغَنا أنَّهُمْ كانوا إذا سُلكَ بهِم سبيلُ الرخاءِ . . حزنوا وأشفقوا ، وقالوا : ما لنا وللدنيا وما يُراد بها ؟ فكأنَّهُمْ علىٰ جناحِ خوفٍ ، وإذا سُلكَ بهِمْ سبيلُ البلاءِ . . فرحوا واستبشروا ، وقالوا : الآنَ تعاهدَنا ربُّنا .

فهٰذهِ أحوالُ السلفِ ونعتُهُمْ ، وفيهِمْ مِنَ الفضلِ أكثرُ ممَّا وصفنا ، فيا للهِ ! أكذلكَ أنتَ ؟! إنَّكَ لبعيدُ الشبهِ بالقومِ .

وسأصفُ لكَ أحوالَكَ ـ أيُّها المفتونُ ـ ضدّاً لأحوالِهِمْ ، وذلكَ أنَّكَ تطغىٰ عندَ الغنىٰ ، وتبطَرُ في الرخاءِ ، وتمرحُ عندَ السرَّاءِ ، وتغفُلُ عنْ شكرِ

---

(١) كما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) عن كعب قال : (إن الرب تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) ، وقد تقدم .

ذي النعماءِ، وتقنطُ عندَ الضرَّاءِ ، وتسخطُ عندَ البلاءِ ، ولا ترضىٰ بالقضاءِ، نعمْ ، وتبغضُ الفقرَ ، وتأنفُ مِنَ المسكنةِ ، وذلكَ فخرُ المرسلينَ ، وأنتَ تأنفُ مِنْ فخرِهِمْ ، وتدخرُ المالَ وتجمعُهُ ؛ خوفاً مِنَ الفقرِ ، وذلكَ مِنْ سوءِ الظنِّ باللهِ عزَّ وجلَّ وقلَّةِ اليقينِ بضمانِهِ ، وكفىٰ بهِ إثماً .

وعساكَ تجمعُ المالَ لنعيمِ الدنيا وزهرتِها ، وشهواتِها ولذاتِها ، ولقد بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « شرارُ أمَّتي الذينَ غُذوا بالنعيمِ ونبتَتْ عليهِ أجسامُهُمْ »[1] .

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ليجيئنَّ يومَ القيامةِ قومٌ يطلبونَ حسناتٍ لهُمْ ، فيُقالُ لهُمْ : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ ، وأنتَ في غفلةٍ قدْ حُرِمتَ نعيمَ الآخرةِ بسببِ نعيمِ الدنيا ، فيا لَها حسرةً ومصيبةً !

نعمْ ، وعساكَ تجمعُ المالَ للتكاثرِ والعلوِّ والفخرِ والزينةِ في الدنيا ، وقدْ بلغَنا أنَّ مَنْ طلبَ الدنيا للتكاثرِ أوْ للتفاخرِ . لقيَ اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ[2] ، وأنتَ غيرُ مكترثٍ بما حلَّ بكَ مِنْ غضبِ اللهِ حينَ أردتَ التكاثرَ والعلوَّ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٥٠) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/٣١٨) من حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٨/١٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٩٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٦٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « العيال » (٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

نعمْ ، وعساكَ المكثُ في الدنيا أحبُّ إليكَ مِنَ النُّقلةِ إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ ؟! وأنتَ تكرهُ لقاءَ اللهِ ، واللهُ للقائِكَ أكرَهُ ، وأنتَ في غفلةٍ .

وعساكَ تأسفُ علىٰ ما فاتَكَ مِنْ عرضِ الدنيا ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَن أَسِفَ علىٰ دُنيا فاتَتْهُ . . اقترَبَ مِنَ النارِ مسيرةَ شهرٍ ، وقيلَ : سنةٍ »(١) ، وأنتَ تأسفُ علىٰ ما فاتَكَ غيرَ مكترثٍ بقربِكَ مِنْ عذابِ اللهِ .

نعمْ ، ولعلَّكَ تخرجُ مِنْ دينِكَ أحياناً لتوفيرِ دنياكَ ، وتفرحُ بإقبالِ الدنيا عليكَ ، وترتاحُ لذلكَ سروراً بها ، وقدْ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ أحبَّ الدنيا وسُرَّ بها . . ذهبَ خوفُ الآخرةِ مِنْ قلبِهِ »(٢) .

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : إنَّكَ مُحاسبٌ على التحزُّنِ علىٰ ما فاتَكَ مِنَ الدنيا ، ومُحاسبٌ بفرحِكَ في الدنيا إذا قدَرتَ عليها ، وأنت فرحٌ بدنياكَ وقدْ سُلبتَ الخوفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رويناه في كتاب « القربة » لأبي حفص العتكي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : « مسيرة ألف سنة » ، وإسناده ضعيف ، ورويناه في الجزء الثاني عشر من « فوائد الخلعي » من هـٰذا الوجه) . « إتحاف » (٨/٢١٩) ، وذكره المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦١٤٧) وعزاه للرازي في مشيخته عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) قد رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٩) عن الحسن ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/٧٩) عن سفيان الثوري ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده إلا بلاغاً للحارث بن أسد كما ذكره المصنف عنه) . « إتحاف » (٨/٢١٩) .

وعساكَ تُعنىٰ بأمورِ دُنياكَ أضعافَ ما تُعنىٰ بأمورِ آخرتِكَ .

وعساكَ ترىٰ أنَّ مصيبتَكَ في معاصيكَ أهونُ مِنْ مصيبتِكَ في انتقاصِ دُنياكَ ، نعمْ ، وخوفَكَ مِنْ ذهابِ مالِكَ أكثرُ مِنْ خوفِكَ مِنَ الذنوبِ .

وعساكَ تبذلُ للناسِ ما جمعتَ مِنَ الأوساخِ كلِّها للعلوِّ والرفعةِ في الدنيا ، وعساكَ تُرضي المخلوقينَ بمساخطِ اللهِ تعالىٰ كيما تُكرَّمَ وتُعظَّمَ ؛ ويحَكَ ! فكأنَّ احتقارَ اللهِ تعالىٰ لكَ في القيامةِ أهونُ عليكَ مِنِ احتقارِ الناسِ إيَّاكَ .

وعساكَ تخفي مِنَ المخلوقينَ مساوئَكَ ولا تكترثُ باطلاعِ اللهِ عليكَ فيها ، فكأنَّ الفضيحةَ عندَ اللهِ تعالىٰ أهونُ عليكَ مِنَ الفضيحةِ عندَ الناسِ ، فكأنَّ العبيدَ أعلىٰ عندَكَ قدراً مِنَ اللهِ ، تعالى اللهُ عنْ جهلِكَ !

فكيفَ تنطقُ عندَ ذوي الألبابِ وهـٰذهِ المثالبُ فيكَ ؟! أفٍّ لكَ ، متلوِّثٌ بالأقذارِ وتحتجُّ بمالِ الأبرارِ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ ! ما أبعدَكَ مِنَ السلفِ الأخيارِ ! واللهِ ؛ لقدْ بلغَني أنَّهُمْ كانوا فيما أُحلَّ لهُمْ أزهدَ منكُمْ فيما حُرِّمَ عليكُمْ ، إنَّ الذي لا بأسَ بهِ عندَكُمْ كانَ مِنَ الموبقاتِ عندَهُمْ[1] ، وكانوا للزَّلَّةِ الصغيرةِ أشدَّ استعظاماً منكُمْ لكبائرِ المعاصي ، فليتَ أطيبَ مالِكَ وأحلَّهُ مثلُ شبهاتِ أموالِهِمْ ، وليتَكَ أشفقتَ

---

(١) ففي « القوت » (١/ ٢٥٥) عن الحسن : (رأيت سبعين بدرياً كانوا ـ والله ـ فيما أحل الله تعالىٰ لهم أزهد منكم فيما حرم الله تعالىٰ عليكم) .

مِن سيئاتِكَ كما أشفقوا مِنْ حسناتِهِمْ ألا تُقبلَ منهُمْ ، وليتَ صومَكَ علىٰ مثلِ إفطارِهِمْ ، وليتَ اجتهادَكَ في العبادةِ مثلُ فتورِهِمْ ونومِهِمْ ، وليتَ جميعَ حسناتِكَ مثلُ واحدةٍ مِنْ حسناتِهِمْ ، وقدْ بلغَني عنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : (غنيمةُ الصدِّيقينَ ما فاتَهُمْ مِنَ الدنيا ، ونهمتُهُمْ ما زُوِيَ عنهُمْ مِنْها ، فمَنْ لمْ يكنْ كذلكَ . . فليسَ معَهُمْ في الدنيا ، ولا معَهُمْ في الآخرةِ) .

فسبحانَ اللهِ ! كمْ بينَ الفريقينِ مِنَ التفاوتِ ، فريقُ خيارِ الصحابةِ في العلوِّ عندَ اللهِ ، وفريقُ أمثالِكُمْ في السفالةِ[1] أوْ يعفوَ اللهُ الكريمُ بفضلِهِ .

وبعدُ : فإنَّكَ إنْ زعمتَ أنَّكَ متأسٍّ بالصحابةِ بجمعِ المالِ للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ . . فتدبرْ أمرَكَ ، ويحَكَ ! هلْ تجدُ مِنَ الحلالِ في دهرِكَ كما وجدوا في دهرِهِمْ ؟ أوَتحسبُ أنَّكَ محتاطٌ في طلبِ الحلالِ كما احتاطوا ؟!

لقدْ بلغَني أنَّ بعضَ الصحابةِ قالَ : (كنَّا ندعُ سبعينَ باباً مِنَ الحلالِ مخافةَ أنْ نقعَ في بابٍ مِنَ الحرامِ)[2] ، أفتطمعُ مِنْ نفسِكَ في مثلِ هٰذا الاحتياطِ ؟! لا وربِّ الكعبةِ ؛ ما أحسبُكَ كذلكَ .

ويحَكَ ! كنْ علىٰ يقينٍ أنَّ جمعَ المالِ لأعمالِ البرِّ مكرٌ مِنَ الشيطانِ ليوقعَكَ بسببِ البرِّ في كتسابِ الشبهاتِ الممزوجةِ بالسحتِ والحرامِ ، وقدْ

---

(١) وعبارة الإمام المحاسبي : (فريق مع خيار الصحابة . . . ، وفريق مع أمثالهم في الأسفلين) .
(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢١٠) عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنِ اجترأَ على الشبهاتِ . . أوشكَ أنْ يقعَ في الحرامِ »[1] .

أيُّها المغرورُ ؛ أما علمتَ أنَّ خوفَكَ مِنِ اقتحامِ الشبهاتِ أعلىٰ وأفضلُ وأعظمُ لقدْرِكَ عندَ اللهِ مِنِ اكتسابِ الشبهاتِ وبذلِها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ وسبيلِ البرِّ ؟ بلغَنا ذلكَ عنْ بعضِ أهلِ العلمِ ، قالَ : (لأَنْ تدعَ درهماً واحداً مخافةَ ألا يكونَ حلالاً خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تتصدَّقَ بألفِ دينارٍ مِنْ شبهةٍ لا تدري أيحلُّ لكَ أمْ لا) .

فإنْ زعمتَ أنَّكَ أتقىٰ وأورعُ مِنْ أنْ تتلبَّسَ بالشبهاتِ ، وإنَّما تجمعُ المالَ بزعمِكَ مِنَ الحلالِ للبذلِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، ويحَكَ ! إنْ كنتَ كما زعمتَ بالغاً في الورعِ . . فلا تتعرضْ للحسابِ ؛ فإنَّ خيارَ الصحابةِ خافوا المسألةَ ، وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ قالَ : (ما سرَّني أنْ أكتسبَ كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ مِنْ حلالٍ وأنفقَها في طاعةِ اللهِ ولمْ يشغلْني الكسبُ عنْ صلاةِ الجماعةِ ، قالوا : ولِمَ ذلكَ رَحِمَكَ اللهُ ؟ قالَ : لأنِّي غنيٌّ عنْ مقامِ يومَ القيامةِ ، فيقولُ : عبدي ؛ مِنْ أينَ اكتسبتَ ؟ وفي أيِّ شيءٍ أنفقتَ ؟)[2] .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٥١) ولفظه عنده : (ومن اجترأ علىٰ ما يشك فيه من الإثم . . أوشك أن يواقع ما استبان) ، ومسلم (١٥٩٩) بنحوه ، وقد تقدم .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٠٩) عن عمرو بن مرة قال : قال أبو الدرداء : بعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنا تاجر ، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ؛ ما أحب أن لي اليوم حانوتاً علىٰ باب المسجد لا يخطئني فيه صلاة ، أربح فيه كل يوم =

فهؤلاءِ المتقونَ كانوا في جدَّةِ الإسلامِ[1] ، والحلالُ موجودٌ لديهِمْ . . تركوا المالَ وجلاً مِنَ الحسابِ ؛ مخافةَ ألا يقومَ خيرُ المالِ بشرِّهِ ، وأنتَ مِنْ نفايةِ الأمةِ ، والحلالُ في دهرِكَ مفقودٌ . . تتكالبُ على الأوساخِ ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ تجمعُ المالَ مِنَ الحلالِ ، ويحَكَ ! وأينَ الحلالُ فتجمعَهُ ؟!

وبعدُ : فلوْ كانَ الحلالُ موجوداً لديكَ . . أما تخافُ أنْ يتغيرَ عندَ الغنىٰ قلبُكَ ؟ وقدْ بلغَنا أنْ بعضَ الصحابةِ كانَ يرثُ المالَ الحلالَ فيتركُهُ ؛ مخافةَ أنْ يفسِدَ قلبَهُ ، أفتطمعُ أنْ يكونَ قلبُكَ أتقىٰ مِنْ قلوبِ الصحابةِ ، فلا يزولَ عن شيءٍ مِنَ الحقِّ في أمرِكَ وأحوالِكَ ؟! لئنْ ظَننتَ ذلكَ . . لقدْ أحسنتَ الظنَّ بنفسِكَ الأمارةِ بالسوءِ .

ويحَكَ ! إنِّي لكَ ناصحٌ ، أرىٰ لكَ أنْ تقنعَ بالبُلْغةِ ، ولا تجمعَ المالَ لأعمالِ البرِّ ، ولا تتعرَّضَ للحسابِ ، فإنَّهُ بلغَنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ »[2] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ برجلٍ يومَ القيامةِ وقدْ جمعَ مالاً مِنْ حرامٍ ، فأنفقَهُ في حرامٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ، ويُؤتىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حلالٍ وأنفقَهُ في حرامٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ، ويُؤتَىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً

= أربعين ديناراً وأتصدق بها كلها في سبيل الله ، قيل له : يا أبا الدرداء ؛ وما تكره من ذلك ؟ قال : شدة الحساب .

(١) أي : في أوَّله ونشاطه . « إتحاف » (٨/ ٢٢١) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) .

مِنْ حرامٍ وأنفقَهُ في حلالٍ ، فيُقالُ : اذهبوا بهِ إلى النارِ ؛ ويُؤتىٰ برجلٍ قدْ جمعَ مالاً مِنْ حلالٍ وأنفقَهُ في حلالٍ ؛ فيُقالُ لهُ : قفْ ؛ لعلَّكَ أضررتَ في طلبِ هٰذا بشيءٍ ممَّا فرضتُ عليكَ ؛ مِنْ صلاةٍ لمْ تصلِّها لوقتِها ، أوْ فرَّطتَ في شيءٍ مِنْ ركوعِها وسجودِها ووضوئِها ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ كسبتُ مِنْ حلالٍ وأنفقتُ في حلالٍ ، ولمْ أضيِّعْ شيئاً ممَّا فرضتَ عليَّ ، فيُقالُ : لعلَّكَ اختلتَ في هٰذا المالِ في شيءٍ مِنْ مركبٍ أوْ ثوبٍ باهيتَ بهِ ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ لمْ أختلْ ، ولمْ أباهِ في شيءٍ ، فيُقالُ : لعلَّكَ منعتَ حقَّ أحدٍ أمرتُكَ أنْ تعطيَهُ مِنْ ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينِ وابنِ السبيلِ ، فيقولُ : لا يا ربِّ ؛ كسبتُ مِنْ حلالٍ ، وأنفقتُ في حلالٍ ، ولمْ أضيِّعْ شيئاً ممَّا فرضتَ عليَّ ، ولمْ أختلْ ، ولمْ أباهِ ، ولمْ أمنعْ حقَّ أحدٍ أمرتَني أنْ أعطيَهُ ، قالَ : فيجيءُ أولئكَ فيخاصمونَهُ ، فيقولونَ : يا ربِّ ؛ أعطيتَهُ وأغنيتَهُ ، وجعلتَهُ بينَ أظهرِنا ، وأمرتَهُ أنْ يعطيَنا ، فإنْ كانَ أعطاهُمْ ، وما ضيَّعَ معَ ذلكَ شيئاً مِنَ الفرائضِ ، ولمْ يختلْ في شيءٍ . . فيُقالُ : قفِ الآنَ ، هاتِ شكرَ كلِّ نعمةٍ أنعمتُها عليكَ مِنْ أكلةٍ أوْ شربةٍ أوْ لذَّةٍ ، فلا يزالُ يُسألُ »(١) .

ويحَكَ ! فمَنِ الذي يتعرَّضُ لهٰذهِ المساءلةِ التي كانَتْ لهٰذا الرجلِ الذي تقلَّبَ في الحلالِ ، وقامَ بالحقوقِ كلِّها ، وأدَّى الفرائضَ بحدودِها ؛ حُوسِبَ هٰذهِ المحاسبةَ ؟! فكيفَ تراهُ يكونُ حالُ أمثالِنا ؛ الغرقىٰ في فتنِ

---

(١) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٦) ، قال الحافظ العراقي : (الحديث بطوله لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٨/ ٢٢١) .

الدنيا وتخاليطِها وشبهاتِها وشهواتِها وزينتِها ؟!

ويحَكَ ! لأجلِ هـٰذه المساءلةِ يخافُ المتقونَ أنْ يتلبَّسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفافِ منها ، وعملوا بأنواعِ البرِّ مِنْ كسبِ المالِ ، فلكَ ـ ويحَكَ ـ بهؤلاءِ الأخيارِ أسوةٌ ، فإنْ أبيتَ ذلكَ ، وزعمتَ أنَّكَ بالغٌ في الورعِ والتقوىٰ ، ولمْ تجمعِ المالَ إلا مِنْ حلالٍ ـ بزعمِكَ ـ للتعفُّفِ والبذلِ في سبيلِ اللهِ ، ولمْ تنفقْ شيئاً مِنَ الحلالِ إلا بحقٍّ ، ولمْ يتغيَّرْ بسببِ المالِ قلبُكَ عمَّا يحبُّ اللهُ ، ولمْ تسخِطِ اللهَ في شيءٍ مِنْ سرائرِكَ وعلانيتِكَ ، ويحَكَ ! فإنْ كنتَ كذلكَ ـ ولستَ كذلكَ ـ فقَدْ ينبغي لكَ أنْ ترضىٰ بالبُلغةِ ، وتعتزلَ ذوي الأموالِ إذا وُقفوا للسؤالِ ، وتسبقَ معَ الرعيلِ الأوَّلِ في زمرةِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا حبسَ عليكَ للمساءلةِ والحسابِ ، فإمَّا سلامةٌ وإمَّا عطبٌ ، فإنَّهُ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يدخلُ صعاليكُ المهاجرينَ قبلَ أغنيائِهِمُ الجنَّةَ بخمسِ مئةِ عامٍ »(١) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدخلُ فقراءُ المؤمنينَ الجنَّةَ قبلَ أغنيائِهِمْ ، فيتمتعونَ ويأكلونَ والآخرونَ جثاةٌ علىٰ ركبِهِمْ ، فيقولُ اللهُ : قبلكُمْ طُلْبتي ، أنتُمْ حكَّامُ النَّاسِ وملوكُهُمْ ، فأروني ماذا صنعتُمْ فيما أعطيتُكُمْ ؟ »(٢) .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٦) ولفظه : « أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذاك خمس مئة سنة » .

(٢) الحديث بهـٰذا اللفظ وتمامه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٨٨) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٢٢٢) ، وصدره وهو قوله صلى الله =

وبلغَنا أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ قالَ : ما يسرُّني أنَّ لي حمرَ النَّعمِ ولا أكونُ في الرعيلِ الأوَّلِ معَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحزبِهِ[1] .

يا قومِ ؛ فاستبقوا السباقَ معَ المخفِّينَ في زمرةِ المرسلينَ ، وكونوا وجلينَ مِنَ التخلُّفِ والانقطاعِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما وجِلَ المتقونَ .

وقدْ بلغَنا أنَّ بعضَ الصحابةِ عطشَ فاستسقىٰ ، فأُتيَ بشربةٍ مِنْ ماءٍ وعسلٍ ، فلمَّا ذاقَهُ . . خنقَتْهُ العَبرةُ ، ثمَّ بكىٰ وأبكىٰ ، ثمَّ مسحَ الدموعَ عنْ وجهِهِ ، وذهبَ ليتكلَّمَ ، فعادَ في البكاءِ ، فلمَّا أكثرَ البكاءَ . . قيلَ لهُ : أكلُّ هـٰذا مِنْ أجلِ هـٰذهِ الشربةِ ؟ قالَ : نعمْ ، بينا أنا يوماً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما معَهُ في البيتِ أحدٌ غيرِي ، فجعلَ يدفعُ عنْ نفسِهِ ويقولُ : « إليكِ عنِّي » ، فقلتُ لهُ : فداكَ أبي وأمِّي ؛ ما أرىٰ بينَ يديكَ أحداً ، فمَنْ تخاطبُ ؟ فقالَ : « هـٰذهِ الدنيا تطاولَتْ إليَّ بعنُقِها ورأسِها ، فقالَتْ لي : يا محمَّدُ ؛ خذْني ، فقلتُ : إليكِ عنِّي ، فقالَتْ : إنْ تنجُ منِّي يا محمدُ . . فإنَّهُ لا ينجو منِّي مَنْ بعدَكَ » ، فأخافُ أنْ تكونَ هـٰذهِ قدْ لحقَتْني

= عليه وسلم : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم » رواه الترمذي (٢٣٥٤) وزاد : « بنصف يوم ، وهو خمس مئة عام » ، وروىٰ أحمد في « الزهد » (١٦٤٨) عن الحسن قوله : (يحشر الأمراء والأغنياء ، فيقول لهم : إنكم كنتم حكام المسلمين ، وأهل الغنىٰ قبلكم طلبتي) ، وفي (ج) : (مثلكم) بدل (قبلكم) .

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/٢٢٢) : (رواه صاحب « القوت » عن سعيد بن عامر ، عن جذيم رضي الله عنه نحوه) .

تقطعُني عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

يا قوم ؛ فهؤلاءِ الأخيارُ بكَوا وجلاً أنْ تقطعَهُمْ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربةٌ مِنْ حلالٍ .

ويحَكَ ! أنتَ في أنواعِ النعمِ والشهواتِ مِنْ مكاسبِ السُّحتِ والشبهاتِ لا تخشى الانقطاعَ ، أفٍّ لكَ ما أعظمَ جهلَكَ !

ويحَكَ ! فإنْ تخلفتَ في القيامةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمدٍ المصطفىٰ . . لتنظرَنَّ إلىٰ أهوالٍ جزعَتْ مِنْها الملائكةُ والأنبياءُ ، ولئنْ قصَّرتَ عنِ السباقِ . . فليطولَنَّ عليكَ اللَّحاقُ ، ولئنْ أردتَ الكثيرَ . . لتصيرَنَّ إلىٰ حسابٍ عسيرٍ ، ولئنْ لمْ تقنعْ بالقليلِ . . لتصيرَنَّ إلىٰ وقوفٍ طويلٍ ، وصراخٍ وعويلٍ ، ولئنْ رضيتَ بأحوالِ المتخلفينَ . . لتنقطعَنَّ عنْ أصحابِ اليمينِ ، وعنْ رسولِ ربِّ العالمينَ ، ولتبطئَنَّ عنْ نعيمِ المتنعِّمينَ ، ولئنْ خالفتَ أحوالَ المتقينَ . . لتكونَنَّ مِنَ المحتبسينَ في أهوالِ يومِ الدينِ ، فتدبَّرْ ـ ويحَكَ ـ ما سمعتَ .

وبعدُ : فإنْ زعمتَ أنَّكَ في مثلِ خيارِ السلفِ ؛ قَنِعٌ بالقليلِ ، زاهدٌ في الحلالِ ، بذولٌ لمالِكَ ، مؤثرٌ علىٰ نفسِكَ ، لا تخشى الفقرَ ، ولا تدَّخرُ شيئاً لغدِكَ ، مبغضٌ للتكاثرِ والغنىٰ ، راضٍ بالفقرِ والبلا ، فرحٌ بالقلَّةِ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) ، وصاحب الخبر هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه .

والمسكنةِ ، مسرورٌ بالذُّلِّ والضَّعةِ ، كارهٌ للعلوِّ والرفعةِ ، قويٌّ في أمرِكَ ، لا يتغيَّرُ عنِ الرشدِ قلبُكَ ، قدْ حاسبتَ نفسَكَ في اللهِ ، وأحكمتَ أمورَكَ كلَّها علىٰ ما وافقَ رضوانَ اللهِ ، ولنْ تُوقفَ في المسألةِ ولا يُحاسبُ مثلُكَ مِنَ المتقينَ ، وإنَّما تجمعُ المالَ الحلالَ للبذلِ في سبيلِ اللهِ . . ويحَكَ أيُّها المغرورُ ! فتدبَّرِ الأمرَ ، وأحسنِ النظرَ ، أما علمتَ أنَّ تركَ الاشتغالِ بالمالِ ، وفراغَ القلبِ للذكرِ والتذكُّرِ والتذكارِ والفكرِ والاعتبارِ . . أسلمُ للدِّينِ ، وأيسرُ للحسابِ ، وأخفُّ للمساءلةِ ، وآمنُ منْ روعاتِ القيامةِ ، وأجزلُ للثوابِ ، وأعلىٰ لقدْرِكَ عندَ اللهِ تعالىٰ أضعافاً ؟!

بلغَنا عن بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : (لوْ أنَّ رجلاً في حجرِهِ دنانيرُ يعطيها والآخرُ يذكرُ اللهَ تعالىٰ . . لكانَ الذاكرُ أفضلَ)(١) .

وسُئلَ بعضُ أهلِ العلمِ عنِ الرجلِ يجمعُ المالَ لأعمالِ البرِّ ، قالَ : تركُهُ أبرُّ بهِ(٢) .

وبلغَنا أنَّ بعضَ خيارِ التابعينَ سُئلَ عنْ رجلينِ ، أحدُهُما طلبَ الدنيا حلالاً فأصابَها ، فوصلَ بها رحمَهُ ، وقدَّمَ لنفسِهِ ، وأمَّا الآخرُ . . فإنَّهُ جانبَها ، فلمْ يطلبْها ولمْ يبذُلْها ، فأيُّهما أفضلُ ؟ فقالَ : بعيدٌ واللهِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٣) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .
(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٢٢٤) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

ما بينَهُما ، الذي جانبَها أفضلُ ؛ كما بينَ مشارقِ الأرضِ ومغاربِها[1] .

ويحَكَ ! فهـٰذا الفضلُ لكَ بتركِ الدنيا علىٰ مَنْ طلبَها ، ولكَ في العاجلِ إنْ تركتَ الاشتغالَ بالمالِ أنَّ ذلكَ أروحُ لبدنِكَ ، وأقلُّ لتعبِكَ ، وأنعمُ لعيشِكَ ، وأرضىٰ لبالِكَ ، وأقلُّ لهمومِكَ ، فما عذرُكَ في جمعِ المالِ وأنتَ بتركِ المالِ أفضلُ ممَّنْ طلبَ المالَ لأعمالِ البرِّ ؟!

نعمْ ، وشغلُكَ بذكرِ اللهِ أفضلُ مِنْ بذلِ المالِ في سبيلِ اللهِ ، فاجتمعَ لكَ راحةُ العاجلِ معَ السلامةِ والفضلِ في الآجلِ .

وبعدُ : فلوْ كانَ في جمعِ المالِ فضلٌ عظيمٌ . . لوجبَ عليكَ في مكارمِ الأخلاقِ أنْ تتأسَّىٰ بنبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ هداكَ اللهُ بهِ ، وترضىٰ ما اختارَهُ لنفسِهِ مِنْ مجانبةِ الدنيا .

ويحَكَ ! تدبَّرْ ما سمعتَ ، وكنْ علىٰ يقينٍ أنَّ السعادةَ والفوزَ في مجانبةِ الدنيا ، فسرْ معَ لواءِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سابقاً إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ ؛ فإنَّهُ بلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ساداتُ المؤمنينَ في الجنَّةِ مَنْ إذا تغدَّىٰ . . لمْ يجدْ عشاءً ، وإذا استقرضَ . . لمْ يجدْ قرضاً ، وليسَ لهُ فضلُ كسوةٍ إلا ما يواريهِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ أنْ يكتسبَ ما يغنيهِ ، يمسي معَ ذلكَ ويصبحُ راضياً عنْ ربِّهِ ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

---

(1) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٢٢٤) : (رواه صاحب « القوت » عن الحسن) .

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1] .

ألا يا أخي ؛ متىٰ جمعتَ هـٰذا المالَ مِنْ بعدِ هـٰذا البيانِ . . فإنَّكَ مبطلٌ فيما ادعيتَ أنَّكَ للبرِّ والفضلِ تجمعُهُ ، لا ، ولكنَّكَ خوفاً مِنَ الفقرِ تجمعُهُ ، وللتنعُّمِ والزينةِ والتكاثرِ والفخرِ والعلوِّ والرياءِ والسمعةِ والتعظُّمِ والتكرُّمِ تجمعُهُ ، ثمَّ تزعمُ أنَّكَ لأعمالِ البرِّ تجمعُ المالَ !

ويحَكَ ! راقبِ اللهَ واستحيِ مِنْ دعواكَ أيُّها المغرورُ .

ويحَكَ ! إنْ كنتَ مفتوناً بحبِّ المالِ والدنيا . . فكنْ مقرّاً أنَّ الخيرَ والفضلَ في الرِّضا بالبُلغةِ ومجانبةِ الفضولِ .

نعمْ ، وكنْ عندَ جمعِ المالِ مزرياً علىٰ نفسِكَ ، معترفاً بإساءتِكَ ، وجلاً مِنَ الحسابِ ، فذلكَ أنجىٰ لكَ ، وأقربُ إلى الفضلِ مِنْ طلبِ الحججِ لجمعِ المالِ .

إخواني ؛ اعلموا أنَّ دهرَ الصحابةِ كانَ الحلالُ فيهِ موجوداً ، وكانوا معَ ذلكَ مِنْ أورعِ الناسِ وأزهدِهِمْ في المباحِ ، ونحنُ في دهرٍ الحلالُ فيه مفقودٌ ، فكيفَ لنا مِنَ الحلالِ بمبلغِ القوتِ وسترِ العورةِ ؟! فأمَّا جمعُ المالِ في دهرِنا . . فأعاذَنا اللهُ وإيَّاكُمْ مِنْ ذلكَ .

وبعدُ : فأينَ لنا بمثلِ تقوى الصحابةِ وورعِهِمْ ، ومثلِ زهدِهِمْ واحتياطِهِمْ ؟! وأينَ لنا مثلُ ضمائرِهِمْ وحسنِ نياتِهِمْ ؟! دُهينا ـ وربِّ السماءِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٩٩) ضمن حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ـ بأدواءِ النفوسِ وأهوائِها ، وعنْ قريبٍ يكونُ الورودُ ، فيا لسعادةِ المخفِّينَ يومَ النشورِ ، وحزنٌ طويلٌ لأهلِ التكاثرِ والتخاليطِ ، وقدْ نصحتُ لكُمْ إنْ قبلتُمْ ، والقابلونَ لهـٰذا قليلٌ ، وفَّقَنا اللهُ وإياكُمْ لكلِّ خيرٍ برحمتِهِ .

هـٰذا آخرُ كلامِهِ ، وفيهِ كفايةٌ في إظهارِ فضلِ الفقرِ على الغنىٰ ، ولا مزيدَ عليهِ ، ويشهدُ لذلكَ جميعُ الأخبارِ التي أوردناها في كتابِ ذمِّ الدنيا ، وفي كتابِ الفقرِ والزهدِ .

ويشهدُ لهُ أيضاً ما رُويَ عنْ أبي أمامةَ الباهليِّ : أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ قليلٌ تؤدِّي شكرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تطيقُهُ » ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً ، قالَ : « يا ثعلبةُ ؛ أما لكَ فيَّ أسوةٌ ؟ أما ترضىٰ أنْ تكونَ مثلَ نبيِّ اللهِ ؟ أما والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ شئتُ أنْ تسيرَ معيَ الجبالُ ذهباً وفضةً . . لسارَتْ » ، قالَ : والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ لئنْ دعوتَ اللهَ أنْ يرزقَني مالاً . . لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولأفعلَنَّ ولأفعلَنَّ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللَّهمَّ ؛ ارزقْ ثعلبةَ مالاً » .

فاتخذَ غنماً ، فنمَتْ كما ينمو الدودُ ، فضاقَتْ عليهِ المدينةُ ، فتنحَّىٰ عنها ، ونزلَ وادياً مِنْ أوديتِها ، حتَّىٰ جعلَ يصلِّي الظهرَ والعصرَ في الجماعةِ ، ويدعُ ما سواهُما ، ثمَّ نمَتْ وكثرَتْ ، فتنحَّىٰ وتركَ الصلاةَ في الجماعةِ إلا الجمعةَ وهيَ تنمو كما ينمو الدودُ ، حتَّىٰ تركَ الجمعةَ ، وطفقَ

م

يلقى الركبانَ يومَ الجمعةِ يسألُهُمْ عنِ الأخبارِ في المدينةِ .

وسألَ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ما فعلَ ثعلبةُ بنُ حاطبٍ ؟ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ اتخذَ غنماً ، فضاقَتْ عليهِ المدينةُ ، وأُخبرَ بأمرِهِ كلِّهِ ، فقالَ : « يا ويحَ ثعلبةَ ، يا ويحَ ثعلبةَ ، يا ويحَ ثعلبةَ » .

قالَ : وأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ ، وأنزلَ اللهُ تعالىٰ فرائضَ الصدقةِ ، فبعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً مِنْ جهينةَ ورجلاً مِنْ بني سليمٍ على الصدقةِ ، وكتبَ لهُما كتاباً بأخذِ الصدقةِ[1] ، وأمرَهُما أنْ يخرجا فيأخذا الصدقةَ مِنَ المسلمينَ ، وقالَ : « مرَّا بثعلبةَ بنِ حاطبٍ وبفلانٍ ـ رجلٍ مِنْ بني سليمٍ ـ وخُذا صدقاتِهِما » .

فخرجا حتَّىٰ أتيا ثعلبةَ ، فسألاهُ الصدقةَ ، وأقرأاهُ كتابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : ما هٰذهِ إلا جزيةٌ ، ما هٰذهِ إلا أختُ الجزيةِ ، انطلقا حتَّىٰ تفرغا ثمَّ تعودا إليَّ ، فانطلقا نحوَ السليميِّ ، فسمعَ بهِما ، فقامَ إلىٰ خيارِ أسنانِ إبلِهِ ، فعزلَها للصدقةِ ، ثمَّ استقبلَهُما بها ، فلمَّا رأياهُ.. قالا : لا يجبُ عليكَ هٰذا ، وما نريدُ أنْ نأخذَ هٰذا منكَ ، قالَ : بلىٰ ، خُذاها ، نفسي بها طيِّبةٌ ، وإنَّما هيَ لتأخذاها .

فلمَّا فرغا مِنْ صدقاتِهِما.. رجعا حتَّىٰ مرَّا بثعلبةَ ، فسألاهُ الصدقةَ ،

---

(١) بيَّن فيه أسنان الإبل والغنم . « إتحاف » (٨/ ٢٢٥) .

فقالَ : أرياني كتابَكُما ، فنظرَ فيهِ فقالَ : هـٰذهِ أختُ الجزيةِ ، انطلقا حتَّىٰ أرىٰ رأيي ، فانطلقا حتَّىٰ أتيا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا رآهُما . . قالَ : « يا ويحَ ثعلبةَ » قبلَ أنْ يكلِّماهُ ، ودعا للسليميِّ ، فأخبراهُ بالذي صنعَ ثعلبةُ ، وبالذي صنعَ السليميُّ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ في ثعلبةَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وعندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ مِنْ أقاربِ ثعلبةَ ، فسمعَ ما أنزلَ اللهُ فيهِ ، فخرجَ حتَّىٰ أتىٰ ثعلبةَ ، فقالَ : لا أمَّ لكَ يا ثعلبةُ ، قدْ أنزلَ اللهُ فيكَ كذا وكذا .

فخرجَ ثعلبةُ حتَّىٰ أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ أنْ يقبلَ منهُ صدقتَهُ ، فقالَ : « إنَّ اللهَ منعَني أنْ أقبلَ منْكَ صدقتَكَ » ، فجعلَ يحثو الترابَ علىٰ رأسِهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هـٰذا عملُكَ ، أمرتُكَ فلمْ تطعْني » ، فلمَّا أبىٰ أنْ يقبلَ منهُ شيئاً . . رجعَ إلىٰ منزلِهِ .

فلمَّا قُبضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . جاءَ بها إلىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها منهُ ، وجاءَ بها إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ ، فأبىٰ أنْ يقبلَها منهُ ، وتُوفِّي ثعلبةُ بعدَ خلافةِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ[1] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/١٠/٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢١٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/٤٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٤٨) ، =

فهـٰذا طغيانُ المالِ وشؤمُهُ ، وقدْ عرفتهُ مِنْ هـٰذا الحديثِ .

ولأجلِ بركةِ الفقرِ وشؤمِ الغنىٰ آثرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الفقرَ لنفسِهِ ولأهلِ بيتِهِ ، حتَّىٰ رُوِيَ عنْ عمرانَ بنِ حصينٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : كانَتْ لي مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منزلةٌ وجاهٌ ، فقالَ : « يا عمرانُ ؛ إنَّ لكَ عندَنا منزلةً وجاهاً ، فهلْ لكَ في عيادةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ » فقلتُ : نعمْ بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فقامَ وقمتُ معَهُ ، حتَّىٰ وقفَ ببابِ منزلِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فقرعَ البابَ وقالَ : « السلامُ عليكُمْ ، أأدخلُ ؟ » فقالَتِ : ادخلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أنا ومَنْ معي ؟ » قالَتْ : ومَنْ معَكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « عمرانُ بنُ حُصينٍ » ، قالَتْ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبياً ؛ ما عليَّ إلا عباءةٌ ، قالَ : « اصنعي بها هـٰكذا وهـٰكذا » وأشارَ بيدِهِ ، فقالَتْ : هـٰذا جسدِي قدْ واريتُهُ ، فكيفَ برأسِي ؟ فألقىٰ إليها ملاءةً كانَتْ عليهِ خَلَقةً ، فقالَ : « شدِّي بها علىٰ رأسِكِ » .

ثمَّ أذنَتْ لهُ فدخلَ ، فقالَ : « السلامُ عليكِ يا بنتاهُ ، كيفَ أصبحتِ ؟ » فقالَتْ : أصبحتُ واللهِ وَجِعَةً ، وزادَني وجعاً علىٰ ما بي أنِّي لستُ أقدرُ علىٰ طعامٍ آكلُهُ ، فقدْ أجهدَني الجوعُ ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

= وقوله : (وتوفي ثعلبة بعد خلافة عمر) أي : في خلافة عثمان رضي الله عنه كما هو مصرح به عندهم .

وقالَ : « لا تجزعي يا بنتاهُ ، فواللهِ ؛ ما ذقتُ طعاماً منذُ ثلاثٍ ، وإنِّي لأكرمُ على اللهِ منكِ ، ولوْ سألتُ ربِّي . . لأطعمَني ، ولكنْ آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيدِهِ علىٰ مَنْكِبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيِّدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، فقالَتْ : فأينَ آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ فقالَ : « آسيةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وخديجةُ سيِّدةُ نساءِ عالمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ لا أذىٰ فيها ولا صخبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقدْ زوَّجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »(١) .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حالِ فاطمةَ وهيَ بَضْعةٌ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كيفَ آثرَتِ الفقرَ ، وتركَتِ المالَ .

ومَنْ راقبَ أحوالَ الأنبياءِ والأولياءِ وأقوالَهُمْ ، وما وردَ مِنْ أخبارِهِمْ وآثارِهِمْ . . لمْ يشكَّ في أنَّ فقدَ المالِ أفضلُ مِنْ وجودِهِ وإنْ صُرِفَ إلى الخيراتِ ؛ إذْ أقلُّ ما فيهِ معَ أداءِ الحقوقِ ، والتوقِّي مِنَ الشبهاتِ ، والصرفِ إلى الخيراتِ . . اشتغالُ الهمِّ بإصلاحِهِ ، وانصرافُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ؛ إذْ لا ذكرَ إلا معَ الفراغِ ، ولا فراغَ معَ شغلِ المالِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ جَريرٍ ، عنْ ليثٍ قالَ : صحبَ رجلٌ عيسىٰ بنَ مريمَ عليهِ

---

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمدُ في « المسند » (٥/٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/١٢٦) .

السلامُ ، فقالَ : أكونُ معَكَ وأصحبُكَ ، فانطلقا ، فانتهيا إلىٰ شطِّ نهرٍ ، فجلسا يتغدَّيانِ ومعَهُمَا ثلاثةُ أرغفةٍ ، فأكلا رغيفينِ ، وبقيَ رغيفٌ ، فقامَ عيسىٰ عليهِ السلامُ إلى النهرِ فشربَ ، ثمَّ رجعَ فلمْ يجدِ الرغيفَ ، فقالَ للرَّجلِ : مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ قالَ : لا أدري .

قالَ : فانطلَقَ ومعَهُ صاحبُهُ ، فرأىٰ ظبيةً ومعَها خِشْفانِ لها ، قالَ : فدعا أحدَهُما فأتاهُ ، فذبحَهُ واشتوىٰ منهُ ، فأكل هوَ وذلكَ الرجلُ ، ثمَّ قالَ للخِشْفِ : قمْ بإذنِ اللهِ ، فقامَ فذهبَ ، فقالَ : للرجلِ : أسألُكَ بالذي أراكَ هـٰذهِ الآيةَ ؛ مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ قالَ : لا أدري ، ثمْ انتهيا إلىٰ وادي ماءٍ ، فأخذَ عيسىٰ بيدِ الرجلِ فمشيَا على الماءِ ، فلمَّا جَاوزا .. قالَ : أسألكَ بالذي أراكَ هـٰذهِ الآيةَ ، مَنْ أخذَ الرغيفَ ؟ فقالَ : لا أدري .

قالَ : فانتهيا إلىٰ مفازةٍ ، فجلسا ، فأخذَ عيسىٰ عليهِ السلامُ فجمعَ تراباً أوْ كثيباً ، ثمَّ قالَ : كنْ ذهباً بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، فصارَ ذهباً ، فقسمَهُ ثلاثةَ أثلاثٍ ، فقالَ : ثلثٌ لي ، وثلثٌ لكَ ، وثلثٌ لمَنْ أخذَ الرغيفَ ، قالَ : أنا الذي أخذتُ الرغيفَ ، قالَ : فكلُّهُ لكَ ، وفارقَهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ .

فانتهىٰ إليهِ رجلانِ في المفازةِ ومعَهُ المالُ ، فأرادا أنْ يأخذاهُ منهُ ويقتلاهُ ، فقالَ : هوَ بينَنا أثلاثاً ، فابعثوا أحدَكُمْ إلى القريةِ حتَّىٰ يشتريَ لنا طعاماً نأكلُهُ ، فبعثوا أحدَهُمْ ، فقالَ الذي بُعِثَ : لأيِّ شيءٍ أقاسمُ هؤلاءِ هـٰذا المالَ ، لكنِّي أضعُ في الطعامِ سمّاً فأقتلُهُما وآخذُ المالَ وحدي ،

قالَ : ففعلَ ، وقالَ ذانِكَ الرجلانِ : لأيِّ شيءٍ نجعلُ لهـٰذا ثلثَ المالِ ، ولكنْ إذا رجَعَ . . قتلناهُ واقتسمنا المالَ بينَنا .

قالَ : فلما رجعَ إليهِما . . قتلاهُ وأكلا الطعامَ فماتا ، فبقيَ ذلكَ المالُ في المفازةِ وأولئكَ الثلاثةُ قتلىٰ عندَهُ ، فمرَّ بهِمْ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ تلكَ الحالةِ ، فقالَ لأصحابِهِ : هـٰذهِ الدُّنيا فاحذروها(١) .

وحُكيَ أنَّ ذا القرنينِ أتىٰ علىٰ أمةٍ مِنَ الأممِ ليسَ في أيديهِمْ شيءٌ ممَّا يستمتعُ بهِ الناسُ مِنْ دنياهُمْ قدِ احتفروا قبوراً ، فإذا أصبحوا . . تعهَّدوا تلكَ القبورَ وكنسوها ، وصلَّوا عندَها ، ورعَوُا البقلَ كما ترعى البهائمُ ، وقدْ قُيِّضَ لهُمْ في ذلكَ معايشُ مِنْ نباتِ الأرضِ ، فأرسلَ ذو القرنينِ إلىٰ ملكِهِمْ ، فقالَ لهُ : أجبْ ذا القرنينِ ، فقالَ : ما لي إليهِ حاجةٌ ، فإنْ كانَ لهُ حاجةٌ . . فليأتني ، فقالَ ذو القرنينِ : صدقَ ، فأقبلَ إليهِ ذو القرنينِ وقالَ : أرسلتُ إليكَ لتأتيَني فأبيتَ ، فهـٰأنا قدْ جئتُ ، فقالَ : لوْ كانَ لي إليكَ حاجةٌ . . لأتيتُكَ ، فقالَ لهُ ذو القرنينِ : ما لي أراكُمْ على الحالِ التي لمْ أرَ أحداً مِنَ الأممِ عليها ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : ليسَ لكُمْ دنيا ولا شيءٌ ، أفلا اتخذتُمُ الذهبَ والفضةَ فاستمتعتُمْ بهِما ؟ قالوا : إنَّما كرهناهُما لأنَّ أحداً لمْ يُعطَ منهما شيئاً إلا تاقَتْ نفسُهُ ودعَتْهُ إلىٰ ما هوَ أفضلُ منهُ ، فقالَ : ما بالُكُمْ قدِ احتفرتُمْ قبوراً ، فإذا أصبحتُمْ تعهَّدتُموها ، فكنستموها وصلَّيتُمْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩٤/٤٧) .

عندَها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا . . منعَتْنا قبورُنا مِنَ الأملِ ، قالَ : وأراكُمْ لا طعامَ لكُمْ إلا البقلُ مِنَ الأرضِ ، أفلا اتخذتُمُ البهائمَ مِنَ الأنعامِ فاحتلبتُموها وركبتُموها فاستمتعتُمْ بها ؟ فقالوا : كرهنا أنْ نجعلَ بطونَنا قبوراً لها ، ورأينا في نباتِ الأرضِ بلاغاً ، وإنَّما يكفي ابنَ آدمَ أدنى العيشِ مِنَ الطعامِ ، وإنَّ ما جاوزَ الحنكَ مِنَ الطعامِ . . لمْ نجدْ لهُ طعماً كائناً ما كانَ مِنَ الطعامِ ، ثمَّ بسطَ ملكُ تلكَ الأرضِ يدَهُ خلفَ ذي القرنينِ فتناولَ جُمجُمةً فقالَ : يا ذا القرنينِ ؛ أتدري مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، ومَنْ هوَ ؟ قالَ : ملكٌ مِنْ ملوكِ الأرضِ ، أعطاهُ اللهُ سلطاناً علىٰ أهلِ الأرضِ ، فغشمَ وظلمَ وعتا ، فلمَّا رأى اللهُ تعالىٰ ذلكَ منهُ . . حسمَهُ بالموتِ ، فصارَ كالحجرِ الملقىٰ ، وقدْ أحصى اللهُ عليهِ عملَهُ حتَّىٰ يجزيَهُ بهِ في آخرتِهِ ، ثمَّ تناولَ جُمجُمةً أخرىٰ باليةً فقالَ : يا ذا القرنينِ ، هلْ تدري مَنْ هـٰذا ؟ قالَ : لا ، ومَنْ هوَ ؟ قالَ : هـٰذا ملكٌ ملَّكَهُ اللهُ بعدَهُ ، قدْ كانَ يرىٰ ما يصنعُ الذي قبلَهُ بالناسِ مِنَ الغَشْمِ والظلمِ والتجبُّرِ ، فتواضعَ وخشعَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وأمرَ بالعدلِ في أهلِ مملكتِهِ ، فصارَ كما ترىٰ ، قدْ أحصى اللهُ عليهِ عملَهُ حتَّىٰ يجزيَهُ بهِ في آخرتِهِ ، ثمَّ أهوىٰ إلىٰ جمجمةِ ذي القرنينِ فقال : وهـٰذهِ الجمجمةُ كأنْ قدْ صارَتْ كهاتينِ ، فانظرْ يا ذا القرنينِ ما أنتَ صانعٌ ، فقالَ لهُ ذو القرنينِ : هلْ لكَ في صحبتي فأتخذَكَ أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني اللهُ مِنْ هـٰذا المالِ ؟ قالَ : ما أصلحُ أنا وأنتَ في مكانٍ ، ولا أنْ نكونَ جميعاً ، قالَ ذو القرنينِ : ولِمَ ؟ قالَ : مِنْ أجلِ أنَّ الناسَ كلَّهُمْ لكَ عدوٌّ

ولي صديقٌ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : يعادونَكَ لما في يديكَ مِنَ الملكِ والمالِ والدنيا ، ولا أجدُ أحداً يعاديني لرفضي لذلكَ ، ولما عندي مِنَ الحاجةِ وقلَّةِ الشيءِ ، قالَ : فانصرفَ عنهُ ذو القرنينِ متعجباً منهُ ومتَّعظاً به(١) .

❊ ❊ ❊

فهٰذهِ الحكاياتُ تدلُّكَ علىٰ آفاتِ الغنىٰ معَ ما قدَّمناهُ مِنْ قبلُ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .

❊ ❊ ❊

تمّ كتاب ذمّ المال والبخل

وهو الكتاب السّابع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وسلّم

يتلوه كتاب ذمّ الجاه والرّياء

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٨) ، وابن الجوزي من طريق ابن أبي الدنيا في « المنتظم » (١/ ١٨٥) .

كتاب

ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ الجاه والرّياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ علاَّمِ الغيوبِ ، المطَّلعِ علىٰ سرائرِ القلوبِ ، المتجاوزِ عنْ كبائرِ الذنوبِ ، العالمِ بما تُجِنُّهُ الضمائرُ مِنْ خفايا العيوبِ ، البصيرِ بسرائرِ النياتِ وخفايا الطوياتِ ، الذي لا يقبلُ مِنَ الأعمالِ إلا ما كمُلَ ووفىٰ ، وخلُصَ مِنْ شوائبِ الرِّياءِ والشركِ وصفا ، فإنَّهُ المنفردُ بالملكوتِ والملكِ ، وهوَ أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ ، والصلاةُ علىٰ محمدٍ وآلِهِ وأصحابِهِ المبرَّئينَ مِنَ الخيانةِ والإفكِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ أمَّتي الرياءُ والشهوةُ الخفيةُ »(١) .

والرياءُ مِنَ الشهوةِ الخفيةِ التي هيَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصمَّاءِ في الليلةِ الظلماءِ ، ولذلكَ عجزَ عنِ الوقوفِ علىٰ غوائلِها

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الإشراك بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

سماسرةُ العلماءِ ، فضلاً عنْ عامَّة العبَّادِ والأتقياءِ ، وهوَ مِنْ أواخرِ غوائلِ النفسِ ، وبواطنِ مكايدِها ، وإنَّما يُبتلىٰ بهِ العلماءُ والعبَّادُ المشمِّرونَ عنْ ساقِ الجدِّ لسلوكِ سبيل الآخرةِ ؛ فإنَّهُمْ مهما قهروا أنفسَهُمْ وجاهدوها وفطموها عنِ الشهواتِ ، وصانوها عنِ الشبهاتِ ، وحملوها بالقهرِ علىٰ أصنافِ العباداتِ . . عجزَتْ نفوسُهُمْ عنِ الطمعِ في المعاصي الظاهرةِ الواقعةِ على الجوارحِ ، فطلبَتِ الاستراحةَ إلى التظاهرِ بالخيرِ ، وإظهارِ العملِ والعلمِ ، فوجدَتْ مخلصاً مِنْ مشقَّةِ المجاهدةِ إلىٰ لذَّةِ القبولِ عندَ الخلقِ ، ونظرِهِمْ إليها بعينِ الوقارِ والتعظيمِ ، فنازعَتْ إلىٰ إظهارِ الطاعةِ[1] ، وتوصَّلَتْ إلى اطِّلاعِ الخلقِ ، ولمْ تقنَعْ باطِّلاعِ الخالقِ ، وفرحَتْ بحمدِ الناسِ ، ولمْ تقنعْ بحمدِ اللهِ وحدَهُ ، وعلمَتْ أنَّهُمْ إذا عرفوا تركَها للشهواتِ ، وتوقِّيَها للشبهاتِ ، وتحمُّلَها لمشاقِّ العباداتِ . . أطلقوا ألسنتَهُمْ بالمدحِ والثناءِ ، وبالغوا في التقريظِ والإطراءِ ، ونظروا إليها بعينِ التوقيرِ والاحترامِ ، وتبرَّكوا بمشاهدتِها ولقائِها ، ورغبوا في بركةِ دعائِها ، وحرصوا على اتباعِ رأيِها ، وفاتحوها بالخدمةِ والسلامِ ، وأكرموها في المحافلِ غايةَ الإكرامِ ، وسامحوها في البيعِ والمعاملاتِ ، وقدَّموها في المجالسِ ، وآثروها بالمطاعمِ والملابسِ ، وتصاغروا لها متواضعينَ ، وانقادوا لها في أغراضِها موقِّرينَ ، فأصابَتِ النفسُ في ذلكَ لذَّةً هيَ أعظمُ

(١) نازعت : اشتاقت ، وفي (أ) : (سارعت) بدل (نازعت) .

اللذَّاتِ ، وشهوةً هيَ أغلبُ الشهواتِ ، فاستحقرَتْ فيها تركَ المعاصي والهفواتِ ، واستلانَتْ خشونةَ المواظبةِ على العباداتِ ؛ لإدراكِها في الباطنِ لذَّةَ اللذاتِ ، وشهوةَ الشهواتِ .

فهو يظنُّ أنَّ حياتَهُ باللهِ وبعبادتِهِ المرضيَّةِ ، وإنَّما حياتُهُ بهٰذِهِ الشهوةِ الخفيةِ ، التي تعمىٰ عنْ دركِها العقولُ النافذةُ القويةُ ، ويرىٰ أنَّهُ مخلصٌ في طاعةِ اللهِ ، ومجتنبٌ لمحارمِ اللهِ ، والنفسُ قدْ أبطنَتْ هٰذهِ الشهوةَ ؛ تزيُّناً للعبادِ ، وتصنُّعاً للخلقِ ، وفرحاً بما نالَتْ مِنَ المنزلةِ والوقارِ ، وأحبطَتْ بذلكَ ثوابَ الطاعاتِ وأجورَ الأعمالِ ، وقدْ أثبتَتْ اسمَهُ في جريدةِ المنافقينَ ، وهوَ يظنُّ أنهُ عندَ اللهِ مِنَ المقربينَ .

وهٰذهِ مكيدةٌ للنفسِ لا يسلمُ مِنْها إلا الصديقونَ ، ومهواةٌ لا يرقىٰ عنها إلا المقربونَ ، ولذلكَ قيلَ : (آخرُ ما يخرجُ مِن رؤوسِ الصدِّيقينَ حبُّ الرئاسةِ)[١] .

وإذا كانَ الرياءُ هوَ الداءَ الدفينَ ، الذي هوَ أعظمُ شبكةٍ للشياطينِ . . وجبَ شرحُ القولِ في سببِهِ ، وحقيقتِهِ ، ودرجاتِهِ ، وأقسامِهِ ، وطرقِ معالجتِهِ ، والحذرِ مِنْهُ ، ويتضحُ الغرضُ مِنْهُ في ترتيبِ الكتابِ علىٰ شطرينِ .

* * *

(١) كما نقله القشيري وصاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٢٣٢) .

الشَّطْرُ الأوَّلُ
في حبّ الجاه والشّهرة

وفيهِ بيانُ ذمِّ الشهرةِ ، وبيانُ فضيلةِ الخمولِ ، وبيانُ ذمِّ الجاهِ ، وبيانُ معنى الجاهِ وحقيقتِهِ ، وبيانُ السببِ في كونِهِ محبوباً حبّاً أشدَّ مِنْ حُبِّ المالِ ، وبيانُ أنَّ الجاهَ كمالٌ وهميٌّ وليسَ بكمالٍ حقيقيٍّ ، وبيانُ ما يُحمدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ وما يُذمُّ ، وبيانُ السببِ في حبِّ المدحِ والثناءِ وكراهةِ الذمِّ ، وبيانُ العلاجِ في حُبِّ الجاهِ ، وبيانُ علاجِ حبِّ المدحِ ، وبيانُ علاجِ كراهةِ الذمِّ ، وبيانُ اختلافِ أحوالِ الناسِ في المدحِ والذمِّ .

فهيَ اثنا عشرَ فصلاً ، منها تنشأُ معاني الرياءِ ، فلا بدَّ مِنْ تقديمِها ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ بلطفِهِ ومنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

بيان ذمّ الشّهرة وانتشار الصّيت

اعلمْ : أنَّ أصلَ الجاهِ هوَ انتشارُ الصِّيتِ والاشتهارُ ، وهوَ مذمومٌ ، بلِ المحمودُ الخمولُ ، إلا مَنْ شهرَهُ اللهُ تعالىٰ لنشرِ دينِهِ مِنْ غيرِ تكلُّفِ طلبِ الشهرةِ مِنْهُ .

قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حسبُ

امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يشيرَ الناسُ إليهِ بالأصابعِ في دينِهِ ودنياهُ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ »[1] .

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسبِ المرءِ مِنَ الشرِّ ـ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ مِنَ السوءِ ـ أنْ يشيرَ الناسُ إليهِ بالأصابعِ في دينِهِ ودنياهُ ، إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ ، ولكنْ ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وإلىٰ أعمالِكُمْ »[2] .

ولقدْ ذكرَ الحسنُ رحمهُ اللهُ للحديثِ تأويلاً لا بأسَ بهِ؛ إذْ روىٰ هـٰذا الحديثَ، فقيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ؛ إنَّ الناسَ إذا رأَوكَ . . أشاروا إليكَ بالأصابعِ ، قالَ : إنَّهُ لمْ يعنِ هـٰذا ، إنَّما عنىٰ بهِ المبتدعَ في دينِهِ ، والفاسقَ في دنياهُ[3] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (تبذَّلْ ، لا تشتهرْ ، ولا ترفعْ شخصَكَ لتُذكرَ وتُعلَمَ ، واكتُمْ واصمُتْ . . تسلمْ ، تسرُّ الأبرارَ وتغيظُ الفجارَ)[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٨٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم . . . » رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٢) عن الحسن مرسلاً : « حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دينه ودنياه » ، وروىٰ قوله هنا عقبه (٣٣) ، قال الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٢٠) بعد رواية حديث الحسن : (إنما يشار إليه في دين لأنه أحدث بدعة ومنكراً ، وفي دنيا أحدث منكراً من الكبائر) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٤) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أحبَّ الشهرةَ)[1] .

وقالَ أيوبُ السختيانيُّ : (واللهِ ؛ ما صدقَ اللهَ عبدٌ إلا سرَّهُ ألا يُشعرَ بمكانِهِ)[2] .

وعنْ خالدِ بنِ معدانَ أنَّهُ كانَ إذا كثُرَتْ حلقتُهُ.. قامَ مخافةَ الشهرةِ[3] .

وعنْ أبي العاليةِ أنَّهُ كانَ إذا جلسَ إليهِ أكثرُ مِنْ ثلاثةٍ.. قامَ[4] .

ورأىٰ طلحةُ قوماً يمشونَ معَهُ أكثرَ مِنْ عشرةٍ ، فقالَ : ذبابُ طمعٍ ، وفَراشُ نارٍ[5] .

وقالَ سُليمُ بنُ حنظلةَ : بينا نحنُ حولَ أُبيِّ بنِ كعبٍ نمشي خلفَهُ ؛ إذْ رآهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ ، فقالَ : انظرْ يا أميرَ المؤمنينَ ما تصنعُ ، فقالَ : إنَّ هٰذهِ ذلةٌ للتابعِ ، وفتنةٌ للمتبوعِ[6] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٦) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٤٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٠) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥١) ، وقد أورد نصر بن مزاحم في « وقعة صفين » (٥٣٢) ، وروى الطبري في « تاريخه » (٥/ ٦٢) أن حرب بن شرحبيل ـ وكان ذا شأن في قومه ـ أقبل يمشي مع سيدنا علي رضي الله عنه وهو راكب ، فقال له علي : ارجع ، فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن .

وعنِ الحسنِ قالَ : خرجَ ابنُ مسعودٍ يوماً مِنْ منزلِهِ ، فاتَّبعَهُ أناسٌ ، فالتفتَ إليهِمْ فقالَ : علامَ تتبعوني ؟ فواللهِ ؛ لوْ تعلمونَ ما أُغلقَ عليهِ بابي . . ما اتَّبعَني منكُمْ رجلانِ[1] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ خفقَ النعالِ حولَ الرجالِ قلَّما تثبتُ معَهُ قلوبُ الحمقىٰ)[2] .

وخرجَ الحسنُ ذاتَ يومٍ فاتبعَهُ قومٌ ، فقالَ : هلْ لكُمْ مِنْ حاجةٍ ؟ وإلا . . فما عسىٰ أنْ يبقيَ هـٰذا مِنْ قلبِ المؤمنِ ؟[3] .

ورُويَ أنَّ رجلاً صحبَ ابنَ محيريزٍ في سفرٍ ، فلمَّا فارقَهُ . . قالَ : أوصني ، قالَ : إنِ استطعتَ أنْ تَعْرِفَ ولا تُعْرفَ ، وتمشيَ ولا يُمشىٰ إليكَ ، وتسألَ ولا تُسألَ . . فافعلْ[4] .

وخرجَ أيوبُ في سفرٍ ، فتبعَهُ ناسٌ كثيرٌ ، فقالَ : لولا أنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ يعلمُ مِنْ قلبي أنِّي لهـٰذا كارهٌ . . لخشيتُ المقتَ مِنَ اللهِ تعالىٰ[5] .

وقالَ معمرٌ : عاتبتُ أيوبَ علىٰ طولِ قميصِهِ ، فقالَ : إنَّ الشهرةَ فيما مضىٰ كانَتْ في طولِهِ ، وهيَ اليومَ في تشميرِهِ[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٥) ، وفيه وفي (ب) : (ألا تعرف) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٥٩) ، وأيوب هو السختياني .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦١) .

وقالَ بعضُهُمْ : كنَّا معَ أبي قلابةَ ؛ إذْ دخلَ عليهِ رجلٌ عليهِ أكسيةٌ ، فقالَ : إيَّاكمْ وهـٰذا الحمارَ النهَّاقَ . . يشيرُ بهِ إلىٰ طلبِ الشهرةِ[1] .

وقالَ الثوريُّ : (كانوا يكرهونَ الشهرتينِ ؛ الثيابَ الجيِّدةَ ، والثيابَ الرديئةَ ؛ إذِ الأبصارُ تمتدُّ إليهِما جميعاً)[2] .

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ : أوصني ، فقالَ : أَخمِلْ ذكرَكَ ، وطيِّبْ مطعمَكَ[3] .

وكانَ حوشبٌ يبكي ويقولُ : بلغَ اسمي مسجدَ الجامعِ[4] .

وقالَ بشرٌ : (ما أعرفُ رجلاً أحبَّ أنْ يُعرفَ إلا ذهبَ دينُهُ وافتَضَحَ)[5] .

وقالَ أيضاً : (لا يجدُ حلاوةَ الآخرةِ رجلٌ يحبُّ أنْ يعرفَهُ الناسُ)[6] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٤) ، وجاء النهي عن الشهرتين مرفوعاً كما رواه البيهقي في « الشعب » (٥٨٢١) وقد سئل صلى الله عليه وسلم : ما الشهرتان ؟ فقال : « رقة الثياب وغلظها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سداد فيما ذلك واقتصاد » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٠) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٢) .

بيان فضيلة الخمول

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ ، لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، مِنهُمُ البراءُ بنُ مالكٍ »(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ ذي طمرينِ ، لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسَمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، لوْ قالَ : اللَّهمَّ ؛ أسألُكَ الجنَّةَ . . لأعطاهُ الجنَّةَ ، ولمْ يعطِهِ مِنَ الدنيا شيئاً »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألاَ أدلُّكُمْ علىٰ أهلِ الْجنَّةِ ؟ كلُّ ضعيفٍ متضعِّفٍ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ ، وأهلُ النَّارِ كلُّ مستكبرٍ جوَّاظٍ »(٣) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ كلُّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، الذينَ إذا استأذنوا على الأمراءِ . . لمْ يُؤذَنْ لهُمْ ، وإذا خطبوا النساءَ . . لمْ يُنكحوا ، وإذا قالوا . . لمْ يُنصَتْ لقولِهِمْ ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

(٢) رواه تمام في « فوائده » (١٦٦٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا ، ومن طريقه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٨/ ٢٣٥) .

(٣) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) .

حوائجُ أحدِهِمْ تتجلجلُ في صدرِهِ ، لوْ قُسِّمَ نورُهُ يومَ القيامةِ على الناسِ . . لوسعَهُمْ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنْ أمَّتي مَنْ لوْ أتىٰ أحدَكُمْ فسألَهُ ديناراً . . لمْ يعطهِ إيَّاهُ ، ولو سألَهُ درهماً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولوْ سألَهُ فَلساً . . لمْ يعطِهِ إيَّاهُ ، ولوْ سألَ اللهَ تعالىٰ الجنَّةَ . . أعطاهُ إيَّاها ، ولوْ سألَهُ الدنيا . . لمْ يعطِهِ إيَّاها ، وما منعَها إيَّاهُ لهوانِهِ عليهِ ، ذو طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ المسجدَ ، فإذا هوَ بمعاذِ بنِ جبلٍ يبكي عندَ قبرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ اليسيرَ مِنَ الرياءِ شركٌ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الأتقياءَ الأخفياءَ ، الذينَ إنْ غابوا . . لمْ يُفقدوا ، وإنْ حضروا . . لمْ يُعرفوا ، قلوبُهُمْ مصابيحُ الهدىٰ ، ينجونَ مِنْ كلِّ غبراءَ مظلمةٍ »(٣) .

وقالَ محمدُ بنُ سويدٍ : قُحِطَ أهلُ المدينةِ ، وكانَ بها رجلٌ صالحٌ لا يُؤبَهُ لهُ ، لازمٌ لمسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبينَما هُمْ في دعائِهِمْ ؛ إذْ جاءَهُمْ رجلٌ عليهِ طِمرانِ خَلَقانِ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، وأوجزَ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤ ، ١٠٠٠٥) ، وصدره : « إن ملوك أهل الجنة . . . » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١) عن سالم بن أبي الجعد مرسلاً .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨) واللفظ له .

فيهما ، ثمَّ بسطَ يديهِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أقسمتُ عليكَ إلا أمطرتَ علينا الساعةَ ، فلمْ يردَّ يديهِ ، ولمْ يقطَعْ دعاءَهُ حتَّىٰ تغشَّتِ السماءُ بالغيمِ وأُمطروا ، حتَّىٰ صاحَ أهلُ المدينةِ مِنْ مخافةِ الغرقِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّهُمْ قدْ اكتفَوا . . فارفعْ عنهُمْ ، فسكنَ ، وتبعَ الرجلُ صاحبَ المطرِ حتَّىٰ عرفَ منزلَهُ ، ثمَّ بكَّرَ إليهِ ، فخرجَ إليهِ ، فقالَ : إنِّي أتيتُكَ في حاجةٍ ، قالَ : وما هيَ ؟ قالَ : تخصُّني بدعوةٍ ، قالَ : سبحانَ اللهِ ؛ أنتَ أنتَ وتسألُني أنْ أخصَّكَ بدعوةٍ ! قالَ : ما الذي بلَّغَكَ ما رأيتُ ؟ قالَ : أطعتُ اللهَ فيما أمرَني ونهاني ، فسألتُهُ فأعطاني[(١)] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كونوا ينابيعَ العلمِ ، مصابيحَ الهدىٰ ، أحلاسَ البيوتِ ، سُرُجَ الليلِ ، جُدُدَ القلوبِ ، خُلْقانَ الثيابِ ، تُعرفونَ في أهلِ السماءِ وتُخفَونَ في أهلِ الأرضِ)[(٢)] .

وقالَ أبو أمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ أغبطَ أوليائي عندي مؤمنٌ خفيفُ الحاذِ ، ذو حظٍّ مِنْ صلاةٍ ، أحسنَ عبادةَ ربِّهِ وأطاعَهُ في السِّرِّ ، وكانَ غامضاً في الناسِ لا يُشارُ إليهِ بالأصابعِ ، فمَنْ صبرَ علىٰ ذلكَ » قالَ : ثمَّ نقرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيدِهِ وقالَ : « . . عُجِّلَتْ منيَّتُهُ ، وقلَّ تراثُهُ ، وقلَّتْ بواكيهِ »[(٣)] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١) .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) ، وابن ماجه (٤١١٧) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الغرباءُ ، قيلَ : ومَنِ الغرباءُ ؟ قالَ : الفارُّونَ بدينِهِمْ ، يجتمعونَ يومَ القيامةِ إلىٰ عيسىٰ بنِ مريمَ عليهِ السلامُ[1] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : بلغَني أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ في بعضِ ما يمُنُّ بهِ علىٰ عبدِهِ : (ألَمْ أُنعمْ عليكَ ؟ ألَمْ أسترْكَ ؟ ألَمْ أخمِلْ ذكرَكَ ؟)[2] .

وكانَ الخليلُ بنُ أحمدَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْني عندَكَ مِنْ أرفعِ خلقِكَ ، واجعلْني عندَ نفسِي مِنْ أوضعِ خلقِكَ ، واجعلْني عندَ الناسِ مِنْ أوسطِ خلقِكَ)[3] .

وقالَ الثوريُّ : (وجدتُ قلبي يصلحُ بمكةَ والمدينةِ مع قومٍ غرباءَ ، أصحابِ بُتوتٍ وعَباءٍ)[4] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : ما قرَّتْ عيني في الدنيا قطُّ إلا مرَّةً ، بتُّ ليلةً في بعضِ مساجدِ قرى الشامِ ، وكانَ بي البطنُ ، فجرَّني المؤذنُ برجلِي حتَّىٰ أخرجَني مِنَ المسجدِ[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٦) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢) ، وبتوت : جمع بتٌّ ، الطيلسان من خزٍّ ونحوه ، وهو كساء غليظ مهلهل مربع أخضر ، وقيل : هو من وبر وصوف ، وعباء ـ بفتح العين ـ : جمع عباءة .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٨) ، وهو ضمن خبر طويل ساقه اليافعي في « الإرشاد والتطريز » (ص ٣٠٣) .

وقالَ الفضيلُ : (إنْ قدرتَ ألا تُعرفَ . . فافعلْ ، وما عليكَ ألا تُعرفَ ؟ وما عليكَ ألا يُثنىٰ عليكَ ؟ وما عليكَ أنْ تكونَ مذموماً عندَ الناسِ إذا كنتَ محموداً عندَ اللهِ تعالىٰ ؟)[1] .

فهٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تعرِّفُكَ مذمَّةَ الشهرةِ وفضيلةَ الخمولِ ، وإنَّما المطلوبُ بالشهرةِ وانتشارِ الصِّيتِ هوَ الجاهُ والمنزلةُ في القلوبِ ، وحبُّ الجاهِ هوَ منشأُ كلِّ فسادٍ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فأيُّ شهرةٍ تزيدُ علىٰ شهرةِ الأنبياءِ والخلفاءِ الراشدينَ وأئمةِ العلماءِ ؟! فكيفَ فاتَهُمْ فضيلةُ الخمولِ ؟

فاعلمْ : أَنَّ المذمومَ طلبُ الشهرةِ ، فأمَّا وجودُها مِنْ جهةِ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ مِنَ العبدِ . . فليسَ بمذمومٍ .

نعمْ ، فيهِ فتنةٌ على الضعفاءِ دونَ الأقوياءِ ، وذلكَ كالغريقِ الضعيفِ إذا كانَ معَهُ جماعةٌ مِنَ الغرقىٰ ، فالأولىٰ بهِ ألا يعرفَهُ أحدٌ منهُمْ ؛ فإنَّهُمْ يتعلَّقونَ بهِ فيضعفُ عنهُمْ ، فيهلكُ معَهُمْ ، وأمَّا القويُّ . . فالأولىٰ أنْ يعرفَهُ الغرقىٰ ليتعلَّقوا بهِ ، فينجيَهُمْ ويُثابَ علىٰ ذلكَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٧) .

بيان ذمّ حبّ الجاه

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ ، جمعَ بينَ إرادةِ الفسادِ والعلوِّ ، وبيَّنَ أنَّ الدارَ الآخرةَ للخالي عنِ الإرادتينِ جميعاً .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وهٰذا أيضاً متناولٌ بعمومِهِ لحبِّ الجاهِ ؛ فإنَّهُ أعظمُ لذةٍ مِنْ لذاتِ الحياةِ الدنيا ، وأكثرُ زينةٍ مِنْ زينتِها .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ المالِ والجاهِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما يُنبتُ الماءُ البقلَ » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً مِنْ حبِّ الشرفِ والمالِ في دينِ الرجلِ المسلمِ »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه بلفظ : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » ، وبنحو لفظ المصنف مروي عند الطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « إنَّما هلاكُ الناسِ باتِّباعِ الهوىٰ وحبِّ الثناءِ »(١) .

نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) تقدم معناه ، وهو حديث : « ثلاث مهلكات : شحٌّ مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء برأيه » .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلمْ : أنَّ الجاهَ والمالَ هما ركنا الدنيا .

ومعنى المالِ : ملكُ الأعيانِ المنتفعِ بها .

ومعنى الجاه : ملكُ القلوبِ المطلوبِ تعظيمُها وطاعتُها .

وكما أنَّ الغَنيَّ هوَ الذي يملكُ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ أيْ : يقدرُ عليهما ؛ ليتوصَّلَ بهما إلى الأغراضِ والمقاصدِ وقضاءِ الشهواتِ وسائرِ حظوظِ النفسِ . . فكذلكَ ذو الجاهِ ، هوَ الذي يملكُ قلوبَ الناسِ ؛ أيْ : يقدرُ على أنْ يتصرَّفَ فيها ؛ ليستعملَ بواسطتِها أربابَها في أغراضِهِ ومآربِهِ ، وكما أنَّه يكتسبُ الأموالَ بأنواعٍ مِنَ الحرفِ والصناعاتِ . . فكذلكَ يكتسبُ قلوبَ الخلقِ بأنواعٍ مِنَ المعاملاتِ ، ولا تصيرُ القلوبُ مسخَّرةً إلا بالمعارفِ والاعتقاداتِ ، فكلُّ مَنِ اعتقدَ القلبُ فيهِ وصفاً مِنْ أوصافِ الكمالِ . . انقادَ لهُ ، وتسخَّرَ لهُ بحسبِ قوَّةِ اعتقادِهِ ، وبحسبِ درجةِ ذلكَ الكمالِ عندَهُ ، وليسَ يُشترطُ أنْ يكونَ الوصفُ كمالاً في نفسِهِ ، بلْ يكفي أنْ يكونَ كمالاً عندَهُ وفي اعتقادِهِ .

وقدْ يعتقدُ ما ليسَ كمالاً كمالاً ، ويذعنُ قلبُهُ للموصوفِ بهِ انقياداً ضرورياً بحسبِ اعتقادِهِ ؛ فإنَّ انقيادَ القلبِ حالٌ للقلبِ ، وأحوالُ القلوبِ تابعةٌ لاعتقاداتِ القلوبِ وعلومِها وتخيلاتِها ، وكما أنَّ محبَّ المالِ يطلبُ

ملكَ الأرقاءِ والعبيدِ . . فطالبُ الجاهِ يطلبُ أنْ يسترقَّ الأحرارَ ويستعبدَهُمْ ، ويملكَ رقابَهُمْ بملكِ قلوبِهِمْ ، بلِ الرِّقُّ الذي يطلبُهُ صاحبُ الجاهِ أعظمُ ؛ لأنَّ المالكَ يملكُ العبدَ قهراً والعبدُ متأبٍّ بطبعِهِ ، ولوْ خُلِّيَ ورأيَهُ . . انسلَّ عنِ الطاعةِ ، وصاحبُ الجاهِ يطلبُ الطاعةَ طوعاً ، ويبغي أنْ يكونَ لهُ الأحرارُ عبيداً بالطبعِ والطوعِ معَ الفرحِ بالعبوديةِ والطاعةِ لهُ ، فما يطلبُهُ فوقَ ما يطلبُهُ مالكُ الرِّقِّ بكثيرٍ .

فإذاً ؛ معنى الجاهِ : قيامُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ ؛ أيِ : اعتقادُ القلوبِ لنعتٍ مِنْ نعوتِ الكمالِ فيهِ ، فبقدْرِ ما يعتقدونَ مِنْ كمالِهِ تذعنُ لهُ قلوبُهُمْ ، وبقدْرِ إذعانِ القلوبِ تكون قدرتُهُ على القلوبِ ، وبقدْرِ قدرتِهِ على القلوبِ يكونُ فرحُهُ وحبُّهُ للجاهِ .

فهـٰذا هوَ معنى الجاهِ وحقيقتُهُ ، ولهُ ثمراتٌ ؛ كالمدحِ والإطراءِ ، فإنَّ المعتقدَ للكمالِ لا يسكتُ عنْ ذكرِ ما يعتقدُهُ ، فيثني عليهِ ، وكالخدمةِ والإعانةِ ؛ فإنَّهُ لا يبخلُ ببذْلِ نفسِهِ في طاعتِهِ بقدْرِ اعتقادِهِ ، فيكونُ سخرةً لهُ مثلَ العبدِ في أغراضِهِ ، وكالإيثارِ ، وتركِ المنازعةِ ، والتعظيمِ والتوقيرِ ؛ بالمفاتحةِ بالسلامِ ، وتسليمِ الصدرِ في المحافلِ ، والتقديمِ في جميعِ المقاصدِ .

فهـٰذهِ آثارٌ تصدرُ عنْ قيامِ الجاهِ في القلبِ ، ومعنىٰ قيامِ الجاهِ في القلبِ : اشتمالُ القلوبِ على اعتقادِ صفاتِ الكمالِ في الشخصِ ؛ إمَّا

بعلمٍ ، أوْ عبادةٍ ، أوْ حسنِ خلقٍ ، أو نسبٍ ، أو ولايةٍ ، أو جمالٍ في صورةٍ ، أوْ قوةٍ في بدنٍ ، أوْ شيءٍ ممَّا يعتقدُهُ الناسُ كمالاً ، فإنَّ هـٰذهِ الأوصافَ كلَّها تعظِّمُ محلَّهُ في القلوبِ ، فتكونُ سبباً لقيامِ الجاهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلمْ : أنَّ السببَ الذي يقتضي كونَ الذهبِ والفضةِ وسائرِ أنواعِ الأموالِ محبوباً . . هوَ بعينِهِ يقتضي كونَ الجاهِ محبوباً .

بلْ يقتضي أنْ يكونَ أحبَّ مِنَ المالِ ، كما يقتضي أنْ يكونَ الذهبُ أحبَّ مِنَ الفضةِ مهما تساويا في المقدارِ ، وهوَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ الدراهمَ والدنانيرَ لا غرضَ في أعيانِها ؛ إذْ لا تصلحُ لمطعمٍ ولا مشربٍ ولا منكحٍ ولا ملبسٍ ، وإنَّما هيَ والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ولكنَّها محبوبةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلىٰ جميعِ المحابِّ ، وذريعةٌ إلىٰ قضاءِ الشهواتِ ، فكذلكَ الجاهُ ؛ لأنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وكما أنَّ ملكَ الذهبِ والفضةِ يفيدُ قدرةً يتوصَّلُ الإنسانُ بها إلىٰ سائرِ أغراضِهِ . . فكذلكَ ملكُ قلوبِ الأحرارِ والقدرةُ على استسخارِها يفيدُ قدرةً على التوصُّلِ إلىٰ جميعِ الأغراضِ .

فالاشتراكُ في السببِ اقتضى الاشتراكَ في المحبةِ ، وترجيحُ الجاهِ على المالِ اقتضىٰ أنْ يكونَ الجاهُ أحبَّ مِنَ المالِ .

❊ ❊ ❊

ولملكِ القلوبِ ترجيحٌ علىٰ ملكِ المالِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : أنَّ التَّوصُّلَ بالجاهِ إلى المالِ أيسرُ مِنَ التوصُّلِ بالمالِ إلى

الجاهِ ، فالعالمُ أوِ الزاهدُ الذي تقرَّرَ لهُ جاهٌ في القلوبِ لوْ قصدَ اكتسابَ المالِ . . تيسَّرَ لهُ ؛ فإنَّ أموالَ أربابِ القلوبِ مسخرةٌ للقلوبِ ، ومبذولةٌ لمَنِ اعتقدَ فيهِ الكمالَ ، وأمَّا الرجلُ الخسيسُ الذي لا يتَّصفُ بصفةِ كمالٍ إذا وجدَ كنزاً ، ولمْ يكنْ لهُ جاهٌ يحفظُ مالَهُ ، وأرادَ أنْ يتوصَّلَ بالمالِ إلى الجاهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ .

فإذاً ؛ الجاهُ آلةٌ ووسيلةٌ إلى المالِ ، فمَنْ ملكَ الجاهَ . . فقدْ ملكَ المالَ أيضاً ، ومَنْ ملكَ المالَ . . لمْ يملكِ الجاهَ بكلِّ حالٍ ، فلذلكَ صارَ الجاهُ أحبَّ .

❁ ❁ ❁

الثاني : هوَ أنَّ المالَ معرَّضٌ للبلوىٰ والتلفِ ؛ بأنْ يُسرقَ ويُغصبَ ، ويَطمعَ فيهِ الملوكُ والظلمةُ ، ويحتاجُ فيهِ إلى الحفظةِ والحرَّاسِ والخزائنِ ، وتتطرَّقُ إليهِ أخطارٌ كثيرةٌ ، وأمَّا القلوبُ إذا مُلكَتْ . . لمْ تتعرَّضْ لهٰذهِ الآفاتِ ، فهيَ على التحقيقِ خزائنُ عتيدةٌ لا يقدرُ عليها السرَّاقُ ، ولا تتناولُها أيدي النُّهابِ والغُصَّابِ ، وأثبتُ الأموالِ العقارُ ، ولا يُؤمنُ فيهِ الغصبُ والظلمُ ، ولا يستغني عنِ المراقبةِ والحفظِ ، وأمَّا خزائنُ القلوبِ . . فهيَ محفوظةٌ محروسةٌ بأنفسِها ، وذو الجاهِ في أمنٍ وأمانٍ منَ الغصبِ والسرقةِ فيها .

نعمْ ، إنَّما تُغصبُ القلوبُ بالتضريبِ[1] ، وتقبيحِ الحالِ ، وتغييرِ

---

(١) التضريب بين القوم : الإغراء .

الاعتقادِ فيما صدقَ بهِ مِنْ أوصافِ الكمالِ ، وذلكَ ممَّا يهونُ دفعُهُ ، ولا يتيسَّرُ علىٰ محاولِهِ فعلُهُ .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : أنَّ ملكَ القلوبِ يسري ويُنمَّىٰ ويتزايدُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ تعبٍ ومقاساةٍ ؛ فإنَّ القلوبَ إذا أذعنَتْ لشخصٍ واعتقدَتْ كمالَهُ بعلمٍ أوْ عملٍ أو غيرِهِ . . أفصحَتِ الألسنةُ ـ لا محالةَ ـ بما فيها ، فيصفُ ما يعتقدُهُ لغيرِهِ ، ويقتنصُ ذلكَ القلبَ أيضاً لهُ ، ولهـٰذا المعنىٰ يحبُّ الطبعُ الصيتَ وانتشارَ الذكرِ ؛ لأنَّ ذلكَ إذا استطارَ في الأقطارِ . . اقتنصَ القلوبَ ، ودعاها إلى الإذعانِ والتعظيمِ ، فلا يزالُ يسري مِنْ واحدٍ إلىٰ واحدٍ ويتزايدُ ، وليسَ لهُ مردٌّ معينٌ .

وأمَّا المالُ : فمَنْ ملكَ منهُ شيئاً . . فهوَ مالكُهُ ، ولا يقدرُ على استنمائِهِ إلا بتعبٍ ومقاساةٍ ، والجاهُ أبداً في النماءِ بنفسِهِ ، ولا مردَّ لموقعِهِ ، والمالُ واقفٌ ؛ ولهـٰذا إذا عظُمَ الجاهُ وانتشرَ الصيتُ وانطلقَتِ الألسنةُ بالثناءِ . . استُحقرَتِ الأموالُ في مقابلةِ ذلكَ .

فهـٰذِهِ مجامعُ ترجيحاتِ الجاهِ على المالِ ، وإذا فُصِّلَتْ . . كثُرَتْ وجوهُ الترجيحِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فالإشكالُ قائمٌ في المالِ والجاهِ جميعاً ، فلمَ ينبغي أنْ يحبَّ الإنسانُ المالَ والجاهَ ؟

نعمِ ، القدرُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ جلبِ الملاذِّ ودفعِ المضارِّ معلومٌ ؛ كالمحتاجِ إلى الملبسِ والمسكنِ والمطعمِ ، أوْ كالمبتلىٰ بمرضٍ أوْ بعقوبةٍ إذا كان لا يتوصَّلُ إلىٰ دفعِ العقوبةِ عنْ نفسِهِ إلا بمالٍ أوْ جاهٍ . فحبُّهُ للمالِ وَالجاهِ معلومٌ ؛ إذْ كلُّ ما لا يُتوصَّلُ إلى المحبوبِ إلا بهِ فهوَ محبوبٌ ، وَفي الطباعِ أمرٌ عجيبٌ وراءَ هـٰذا ، وهوَ حبُّ جمعِ الأموالِ ، وكنزِ الكنوزِ ، وادخارِ الذخائرِ ، واستكثارِ الخزائنِ وراءَ جميعِ الحاجاتِ ، حتَّىٰ لوْ كانَ للعبدِ وادِيانِ مِنْ ذهبٍ . لابتغىٰ إليهما ثالثاً ، وكذلكَ يحبُّ الإنسانُ اتساعَ الجاهِ ، وانتشارَ الصِّيتِ إلىٰ أقاصي البلادِ التي يعلمُ قطعاً أنَّهُ لا يطؤُها ولا يشاهدُ أصحابَها ؛ ليعظِّموهُ ، أوْ ليبرُّوهُ بمالٍ ، أوْ ليعينوهُ علىٰ غرضٍ مِنْ أغراضِهِ ، ومعَ اليأسِ مِنْ ذلكَ فإنَّهُ يلتذُّ بهِ غايةَ الالتذاذِ ، وحبُّ ذلكَ ثابتٌ في الطبعِ ، ويكادُ يُظنُّ أنَّ ذلكَ جهلٌ ؛ فإنَّهُ حبٌّ لما لا فائدةَ فيهِ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ .

فنقولُ : نعمْ ، هـٰذا الحبُّ لا تنفكُّ عنهُ القلوبُ ، ولهُ سببانِ : أحدُهُما جليٌّ تدركُهُ الكافةُ ، والآخرُ خفيٌّ ، وهوَ أعظمُ السببينِ ، ولكنَّهُ أدقُّهُما وأخفاهُما وأبعدُهُما عنْ أفهامِ الأذكياءِ فضلاً عنِ الأغبياءِ ؛ وذلكَ لاستمدادِهِ مِنْ عِرْقٍ خفيٍّ في النفسِ ، وطبيعةٍ مستكنَّةٍ في الطبعِ ، لا يكادُ يقفُ عليها إلا الغوَّاصونَ .

فأمَّا السببُ الأوَّلُ : فهوَ دفعُ ألمِ الخوفِ ؛ لأنَّ الشفيقَ[1] بسوءِ الظنِّ مولعٌ ، والإنسانُ وإنْ كانَ مكفياً في الحالِ فإنَّهُ طويلُ الأملِ ، ويخطرُ ببالِهِ أنَّ المالَ الذي فيهِ كفايتُهُ ربَّما يتلفُ ، فيحتاجُ إلىٰ غيرِهِ ، فإذا خطرَ ذلكَ ببالِهِ . . هاجَ الخوفُ مِنْ قلبِهِ ، ولا يدفعُ ألمَ الخوفِ إلا الأمنُ الحاصلُ بوجودِ مالٍ آخرَ يفزعُ إليهِ إنْ أصابَتْ هـٰذا المالَ جائحةٌ ، فهوَ أبداً لشفقتِهِ علىٰ نفسِهِ وحبِّهِ للجاهِ يقدِّرُ طولَ الحياةِ ، ويقدِّرُ هجومَ الحاجاتِ ، ويقدِّرُ إمكانَ تطرُّقِ الآفاتِ إلى الأموالِ ، ويستشعرُ الخوفَ مِنْ ذلكَ ، فيطلبُ ما يدفعُ خوفَهُ ، وهوَ كثرةُ المالِ ، حتَّىٰ إنْ أُصيبَ بطائفةٍ مِنْ مالِهِ . . استغنىٰ بالآخرِ .

وهـٰذا خوفٌ لا موقفَ لهُ عندَ مقدارٍ مخصوصٍ مِنَ المالِ ، فلذلكَ لمْ يكنْ لمثلِهِ مُوقِفٌ إلىٰ أنْ يملكَ جميعَ ما في الدنيا ؛ ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ ؛ منهومُ العلمِ ، ومنهومُ المالِ »[2] .

ومثلُ هـٰذهِ العلةِ تطردُ في حبِّهِ قيامَ المنزلةِ والجاهِ في قلوبِ الأباعدِ عنْ وطنِهِ وبلدِهِ ؛ فإنَّهُ لا يخلو عنْ تقديرِ سببٍ يزعجُهُ عنِ الوطنِ ، أوْ يُزعجُ أولئكَ عنْ أوطانِهِمْ إلىٰ وطنِهِ ويحتاجُ إلى الاستعانةِ بِهِمْ ، ومهما كانَ ذلكَ ممكناً ، ولمْ يكنِ احتياجُهُ إليهِمْ مستحيلاً إحالةً ظاهرةً . . كانَ للنفسِ فرحٌ

---

(١) أي : الخائف علىٰ نفسه . « إتحاف » (٨/ ٢٤١) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢) من حديث أنس مرفوعاً ، ولفظه : « منهومان لا يشبعان : منهوم في علم لا يشبع ، ومنهوم في دنيا لا يشبع » .

ولذةٌ بقيامِ الجاهِ في قلوبِهِمْ ؛ لما فيهِ مِنَ الأمنِ مِنْ هـٰذا الخوفِ .

وأما السببُ الثاني ـ وهوَ الأقوىٰ ـ : أنَّ الروحَ أمرٌ ربانيٌّ ، بهِ وصفَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ إذ قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ربانياً : أنَّهُ مِنْ أسرارِ علومِ المكاشفةِ ، ولا رخصةَ في إظهارِهِ ؛ إذْ لمْ يظهرْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١] ، ولكنَّكَ قبلَ معرفةِ ذلكَ تعلمُ أنَّ للقلبِ ميلاً إلىٰ صفاتٍ بهيميَّةٍ ؛ كالأكلِ والوقاعِ ، وإلىٰ صفاتٍ سبعيَّةٍ ؛ كالقتلِ والضربِ والإيذاءِ ، وإلىٰ صفاتٍ شيطانيَّةٍ ؛ كالمكرِ والخديعةِ والإغواءِ ، وإلىٰ صفاتٍ ربوبيَّةٍ ؛ كالكبرِ والعزِّ والتجبُّرِ وطلبِ الاستعلاءِ ؛ وذلكَ لأنَّهُ مركَّبٌ مِنْ أصولٍ مختلفةٍ يطولُ شرحُ تفصيلِها ، فهوَ لما فيهِ مِنَ الأمرِ الربانيِّ يحبُّ الرُّبوبيَّةَ بالطَّبعِ ، ومعنى الربوبيَّةِ : التوحُّدُ بالكمالِ ، والتفرُّدُ بالوجودِ علىٰ سبيلِ الاستقلالِ ، فصارَ الكمالُ مِنْ نعوتِ الإلـٰهيَّةِ ، فصارَ محبوباً بالطَّبعِ للإنسانِ ، والكمالُ بالتفرُّدِ بالوجودِ ؛ فإنَّ المشاركةَ في الوجودِ نقصٌ لا محالةَ ، فكمالُ الشمسِ في أنَّها موجودةٌ وحدَها ، فلوْ كانَ معها شمسٌ أخرىٰ . . لكانَ ذلكَ نقصاناً في حقِّها ؛ إذْ لمْ تكنْ منفردةً بكمالِ معنى الشمسيَّةِ .

والمنفردُ بالوجودِ هوَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ ليسَ معَهُ موجودٌ سواهُ ، فإنَّ ما سواهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، لا قوامَ لهُ بذاتِهِ ، بلْ هوَ قائمٌ بهِ ، فلمْ يكنْ

---

(١) كما في « البخاري » (١٢٥) ، و« مسلم » (٢٧٩٤) .

موجوداً معَهُ ؛ لأنَّ المعيَّةَ توجبُ المساواةَ في الرتبةِ ، والمساواةُ في الرتبةِ نقصانٌ في الكمالِ ، بلِ الكاملُ مَنْ لا نظيرَ لهُ في رتبتِهِ ، فكما أنَّ إشراقَ نورِ الشمسِ في أقطارِ الآفاقِ ليسَ نقصاناً في الشمسِ ، بلْ هوَ مِنْ جملةِ كمالِها ، وإنَّما نقصانُ الشمسِ بوجودِ شمسٍ أخرىٰ تساويها في الرُّتبةِ معَ الاستغناءِ عنها . . فكذلكَ وجودُ كلِّ ما في العالمِ يرجعُ إلىٰ إشراقِ أنوارِ القدرةِ ، فيكونُ تابعاً ولا يكونُ معاً .

فإذاً ؛ معنى الرُّبوبيَّةِ : التفردُ بالوجودِ ، وهوَ الكمالُ ، وكلُّ إنسانٍ فإنَّهُ بطبعِهِ محبٌّ لأنْ يكونَ هوَ المنفردَ بالكمالِ ؛ ولذلكَ قالَ بعضُ مشايخِ الصوفيةِ : (ما مِنْ إنسانٍ إلا وفي باطنِهِ ما صرَّحَ بهِ فرعونُ مِنْ قولِهِ : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ، ولكنَّهُ ليسَ يجدُ لهُ مجالاً) ، وهوَ كما قالَ ؛ فإنَّ العبوديَّةَ قهرٌ على النفسِ ، والربوبيةُ محبوبةٌ بالطَّبعِ ، وذلكَ للنسبةِ الرَّبانيَّةِ التي أومأَ إليها قولُهُ تعالىٰ : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ .

ولكنْ لما عجزَتِ النفسُ عنْ دركِ منتهى الكمالِ . . لمْ تسقطْ شهوتُها للكمالِ ، فهيَ محبَّةٌ للكمالِ ، ومشتهيةٌ لهُ ، وملتذَّةٌ بهِ لذاتِهِ ، لا لمعنىً آخرَ وراءَ الكمالِ ، فكلُّ موجودٍ فهوَ محبٌّ لذاتِهِ ، ولكمالِ ذاتِهِ ، ومبغضٌ الهلاكَ الذي هوَ عدمُ ذاتِهِ ، أو عدمُ صفاتِ الكمالِ مِنْ ذاتِهِ ، وإنَّما الكمالُ بعدَ أنْ يَسْلَمَ لهُ التفرُّدُ بالوجودِ في الاستيلاءِ علىٰ كلِّ الموجوداتِ ، فإنَّ أكملَ الكمالِ أنْ يكونَ وجودُ غيرِكَ منكَ ، فإنْ لم يكنْ منكَ . . فأنْ تكونَ مستولياً عليهِ ، فصارَ الاستيلاءُ على الكلِّ محبوباً بالطبعِ ؛ لأنَّهُ نوعُ كمالٍ ،

وكلُّ موجودٍ يعرفُ ذاتَهُ فإنَّهُ يحبُّ ذاتَهُ ، ويحبُّ كمالَ ذاتِهِ ويلتذُّ بهِ ، إلا أنَّ الاستيلاءَ على الشيءِ . . بالقدرةِ على التأثيرِ فيهِ ، وعلىٰ تغييرِهِ بحسبِ الإرادةِ ، وكونِهِ مسخراً لكَ ترددُهُ كيفَ تشاءُ ، فأحبَّ الإنسانُ أنْ يكونَ لهُ الاستيلاءُ علىٰ كلِّ الأشياءِ الموجودةِ معَهُ ، إلا أنَّ الموجوداتِ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا يقبلُ التغييرَ في نفسِهِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ .

وإلىٰ ما يقبلُ التغييرَ ولكنْ لا تستولي عليهِ قدرةُ الخلقِ ؛ كالأفلاكِ ، والكواكبِ ، وملكوتِ السماواتِ ، ونفوسِ الملائكةِ والجنِّ والشياطينِ ، وكالجبالِ ، والبحارِ ، وما تحتَ الجبالِ والبحارِ .

وإلىٰ ما يقبلُ التغييرَ بقدرةِ العبدِ ؛ كالأرضِ وأجزائِها ، وما عليها مِنَ المعادنِ والنباتِ والحيوانِ ، ومِنْ جملتِها قلوبُ الناسِ ؛ فإنَّها قابلةٌ للتأثيرِ والتغييرِ مثلُ أجسادِهِمْ وأجسادِ الحيواناتِ .

فإذاً ؛ انقسمَتِ الموجوداتُ إلىٰ ما يقدرُ الإنسانُ على التصرفِ فيهِ ؛ كالأرضياتِ ، وإلىٰ ما لا يقدرُ على التصرفِ فيهِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ ، والملائكةِ ، والسماواتِ ، فأحبَّ الإنسانُ أنْ يستوليَ على السماواتِ بالعلمِ والإحاطةِ والاطلاعِ علىٰ أسرارِها ، فإنَّ ذلكَ نوعُ استيلاءٍ ؛ إذِ المعلومُ المحاطُ بهِ كالداخلِ تحتَ العلمِ ، والعالِمُ كالمستولي عليهِ ؛ فلذلكَ أحبَّ أن يعرفَ اللهَ تعالىٰ ، والملائكةَ ، والأفلاكَ والكواكبَ ، وجميعَ عجائبِ السماواتِ ، وعجائبِ البحارِ والجبالِ وغيرِها ؛ لأنَّ ذلكَ نوعُ استيلاءٍ

عليها ، والاستيلاءُ نوعُ كمالٍ ، وهٰذا يضاهي اشتياقَ مَنْ عجزَ عنْ صنعةٍ عجيبةٍ إلىٰ معرفةِ طريقِ الصنعةِ فيها ؛ كمَنْ يعجزُ عنْ وضعِ الشطرنجِ ، فإنَّهُ قدْ يشتهي أنْ يعرفَ اللعبَ بهِ ، وأنَّهُ كيفَ وُضعَ ، وكمَنْ يرىٰ صنعةً عجيبةً في الهندسةِ ، أوِ الشعبذةِ ، أوْ جرِّ الثقيلِ أوْ غيرِهِ ، وهوَ مستشعرٌ في نفسِهِ نقصَ العجزِ والقصورَ عنهُ ، ولكنَّهُ يشتاقُ إلىٰ معرفةِ كيفيتِهِ ، فهوَ متألِّمٌ بنقصِ العجزِ ، متلذِّذٌ بكمالِ العلمِ إنْ علمَهُ .

وأمَّا القسمُ الثاني : وهوَ الأرضياتُ التي يقدرُ الإنسانُ عليها . . فإنَّهُ يحبُّ بالطَّبعِ أنْ يستوليَ عليها بالقدرةِ على التصرفِ فيها كيفَ يريدُ ، وهيَ قسمانِ : أجسادٌ ، وأرواحٌ .

أمَّا الأجسادُ : فهيَ الدراهمُ ، والدنانيرُ ، والأمتعةُ ، فيحبُّ أنْ يكونَ قادراً عليها ، يفعلُ فيها ما شاءَ مِنَ الرفعِ والوضعِ ، والتسليمِ والمنعِ ، فإنَّ ذلكَ قدرةٌ ، والقدرةُ كمالٌ ، والكمالُ من صفاتِ الربوبيةِ ، والربوبيةُ محبوبةٌ بالطَّبعِ ، فلذلكَ أحبَّ الأموالَ وإنْ كانَ لا يحتاجُ إليها في ملبسِهِ ومطعمِهِ وفي شهواتِ نفسِهِ ، وكذلكَ طلبُ استرقاقِ العبيدِ واستعبادِ أشخاصِ الأحرارِ ولوْ بالقهرِ والغلبةِ ، حتَّىٰ يتصرَّفَ في أجسادِهِمْ وأشخاصِهِمْ بالاستسخارِ وإنْ لمْ يملكْ قلوبَهُمْ ؛ فإنَّها ربَّما لمْ تعتقدْ كمالَهُ حتَّىٰ يصيرَ محبوباً لها وتقومَ منزلتُهُ فيها ، فإنَّ الحشمةَ القهريَّةَ أيضاً لذيذةٌ ؛ لما فيها مِنَ القدرةِ .

القسمُ الثاني : نفوسُ الآدميينَ وقلوبُهُمْ ، وهيَ أنفسُ ما علىٰ وجهِ

الأرضِ ، فهوَ يحبُّ أنْ يكونَ لهُ استيلاءٌ وقدرةٌ عليها ؛ لتكونَ مسخَّرةً لهُ ، متصرِّفةً تحتَ إشارتِهِ وإرادتِهِ ؛ لما في ذلكَ مِنْ كمالِ الاستيلاءِ والتشبُّهِ بالصفاتِ الربَّانيةِ ، والقلوبُ إنَّما تتسخَّرُ بالحبِّ ، ولا تحبُّ إلا باعتقادِ الكمالِ، فإنَّ كلَّ كمالٍ محبوبٌ ؛ لأنَّ الكمالَ مِنَ الصفاتِ الإلـٰهيةِ ، والصفاتُ الإلـٰهيةُ كلُّها محبوبةٌ بالطَّبعِ ؛ للمعنى الربانيِّ مِنْ جملةِ معاني الإنسانِ ، وهوَ الذي لا يبليهِ الموتُ فيعدمَهُ ، ولا يتسلطُ عليهِ الترابُ فيأكلَهُ ، فإنَّهُ محلُّ الإيمانِ والمعرفةِ ، وهوَ الواصلُ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والساعي إليهِ .

فإذاً ؛ معنى الجاهِ : تسخيرُ القلوبِ ، ومَنْ تسخَّرَتْ لهُ القلوبُ . كانَتْ لهُ قدرةٌ واستيلاءٌ عليها ، والقدرةُ والاستيلاءُ كمالٌ ، وهوَ مِنْ أوصافِ الربوبيةِ .

فإذاً ؛ محبوبُ القلبِ بطبعِهِ الكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، والمالُ والجاهُ مِنْ أسبابِ القدرةِ ، ولا نهايةَ للمعلوماتِ ، ولا نهايةَ للمقدوراتِ ، وما دامَ يبقىٰ معلومٌ أوْ مقدورٌ فالشوقُ لا يسكنُ ، والنقصانُ لا يزولُ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « منهومانِ لا يشبعانِ »[1] .

فإذاً ؛ مطلوبُ القلوبِ الكمالُ ، والكمالُ بالعلمِ والقدرةِ ، وتفاوتُ الدرجاتِ فيهِ غيرُ محصورٍ ، فسرورُ كلِّ إنسانٍ ولذَّتُهُ بقدْرِ ما يدركُهُ مِنَ الكمالِ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢) .

فهـٰذا هوَ السببُ في كونِ العلمِ والمالِ والجاهِ محبوباً ، وهوَ أمرٌ ـ وراءَ كونِهِ محبوباً ـ لأجلِ التوصلِ إلىٰ قضاءِ الشهواتِ ، فإنَّ هـٰذهِ العلَّةَ قدْ تبقىٰ معَ سقوطِ الشهواتِ ، بلْ يحبُّ الإنسانُ مِنَ العلومِ ما لا يصلحُ للتوصُّلِ بهِ إلى الأغراضِ ، بلْ ربَّما يفوِّتُ عليهِ جملةً مِنَ الأغراضِ والشهواتِ ، ولكنَّ الطبعَ يتقاضىٰ طلبَ العلمِ في جميعِ العجائبِ والمشكلاتِ ؛ لأنَّ في العلمِ استيلاءً على المعلومِ ، وهوَ نوعٌ مِنَ الكمالِ الذي هوَ مِنْ صفاتِ الربوبيةِ ؛ فكانَ محبوباً بالطبعِ ، إلا أنَّ في حبِّ كمالِ العلمِ والقدرةِ أغاليطَ لا بدَّ مِنْ بيانِها ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

بيان الكمال الحقيقيّ والكمال الوهميّ الّذي لا حقيقة له

قدْ عرفتَ أنَّهُ لا كمالَ بعدَ فواتِ التفرُّدِ بالوجودِ إلا فِي العلمِ والقدرةِ ، ولكنَّ الكمالَ الحقيقيَّ فيهِ ملتبسٌ بالكمالِ الوهميِّ .

❊ ❊ ❊

وبيانُهُ : أنَّ كمالَ العلمِ للهِ تعالىٰ ، وذلكَ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : مِنْ حيثُ كثرةُ المعلوماتِ وسعتُها ؛ فإنَّهُ محيطٌ بجميعِ المعلوماتِ ؛ فكذلكَ كلَّما كانَتْ علومُ العبدِ أكثرَ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

والثاني : مِنْ حيثُ تعلُّقُ العلمِ بالمعلومِ علىٰ ما هوَ بهِ ، وكونُ المعلومِ مكشوفاً بهِ كشفاً تاماً ، فإنَّ المعلوماتِ مكشوفةٌ للهِ تعالىٰ بأتمِّ أنواعِ الكشفِ علىٰ ما هيَ عليهِ ؛ فكذلكَ مهما كانَ علمُ العبدِ أوضحَ ، وأيقنَ وأصدقَ ، وأوفقَ للمعلومِ في تفاصيلِ صفاتِ المعلومِ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

والثالثُ : مِنْ حيثُ بقاءُ العلمِ أبدَ الآبادِ ، بحيثُ لا يتغيرُ ولا يزولُ ، فإنَّ علمَ اللهِ تعالىٰ باقٍ لا يُتصوَّرُ أنْ يتغيَّرَ .

فكذلكَ مهما كانَ علمُ العبدِ بمعلوماتٍ لا يقبلُ التغيُّرَ والانقلابَ . . كانَ أقربَ إلى اللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

والمعلوماتُ قسمانِ : متغيراتٌ وأزلياتٌ :

أمَّا المتغيراتُ : فمثالُها : العلمُ بكونِ زيدٍ في الدارِ ، فإنَّهُ علمٌ لهُ معلومٌ ، ولكنْ يُتصوَّرُ أنْ يخرجَ زيدٌ مِنَ الدارِ ، ويبقى اعتقادُ كونِهِ في الدارِ كما كانَ ، فينقلبُ جهلاً ، فيكونُ نقصاناً لا كمالاً ، فكلُّ ما اعتقدتَهُ اعتقاداً موافقاً لهُ وتُصوِّرَ أنْ ينقلبَ المعتقدُ فيهِ عمَّا اعتقدتَهُ . . كنتَ بصددِ أنْ ينقلبَ كمالُكَ نقصاً ، ويعودَ علمُكَ جهلاً .

ويلتحقُ بهٰذا المثالِ جميعُ متغيراتِ العالمِ ؛ كعلمِكَ مثلاً بارتفاعِ جبلٍ ، ومساحةِ أرضٍ ، وبعددِ البلادِ ، وتباعدِ ما بينَها مِنَ الأميالِ والفراسخِ ، وسائرِ ما يُذكرُ في المسالِكِ والممالِكِ ، وكذلِكَ العلمُ باللغاتِ التي هيَ اصطلاحاتٌ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الأعصارِ والأممِ والعاداتِ ، فهٰذهِ علومٌ معلوماتُها مثلُ الزئبقِ ، تتغيَّرُ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ ، فليسَ فيها كمالٌ إلا في الحالِ ، ولا يبقىٰ كمالاً في القلبِ .

والقسمُ الثاني : **هيَ المعلوماتُ الأزليَّةُ** : وهيَ جوازُ الجائزاتِ ، ووجوبُ الواجباتِ ، واستحالةُ المستحيلاتِ ، فإنَّ هٰذهِ معلوماتٌ أزليةٌ أبديةٌ ؛ إذْ لا يستحيلُ الواجبُ قطُّ جائزاً ، ولا الجائزُ محالاً ، ولا المحالُ واجباً ، وكلُّ هٰذهِ الأقسامِ داخلةٌ في معرفةِ اللهِ ، وما يجبُ لهُ ، وما يستحيلُ في صفاتِهِ ، ويجوزُ في أفعالِهِ ، فالعلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وحكمتِهِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وترتيبِ الدنيا

والآخرةِ ، وما يتعلَّقُ بهِ . . هوَ الكمالُ الحقيقيُّ الذي يقرِّبُ مَنْ يتَّصفُ بهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويبقىٰ كمالاً للنفسِ بعدَ الموتِ ، فتكونُ هـٰذهِ المعرفةُ نوراً للعارفينَ بعدَ الموتِ يسعىٰ بينَ أيديهِمْ وبأيمانِهِمْ ، يقولونَ : ربَّنا أتممْ لنا نورَنا ؛ أَيْ : تكونُ هـٰذهِ المعرفةُ رأسَ مالٍ يوصلُ إلىٰ كشفِ ما لمْ ينكشفْ في الدنيا ، كما أنَّ مَنْ معَهُ سراجٌ خفيٌّ . . فإنَّهُ يجوزُ أنْ يصيرَ ذلكَ سبباً لزيادةِ النورِ بسراجٍ آخرَ يقتبسُ منهُ ، فيكملُ النورُ بذلكَ النورِ الخفيِّ علىٰ سبيلِ الاستتمامِ ، ومَنْ ليسَ معَهُ أصلُ السراجِ . . فلا مطمعَ لهُ في ذلكَ ، فمَنْ ليسَ معَهُ أصلُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ . . لمْ يكنْ لهُ مطمعٌ في هـٰذا النورِ ، فيبقىٰ كمَنْ مثلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخارجٍ مِنْها ، بلْ كظلماتٍ في بحرٍ لجِّيٍّ ، يغشاهُ موجٌ مِنْ فوقِهِ موجٌ مِنْ فوقِهِ سحابٌ ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ .

* * *

فإذاً ؛ لا سعادةَ إلا في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا ما عدا ذلكَ مِنَ المعارفِ . . فمنها ما لا فائدةَ لها أصلاً ؛ كمعرفةِ الشِّعرِ وأنسابِ العربِ وغيرِ ذلكَ ، ومِنْها ما لها فائدةٌ في الإعانةِ علىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كمعرفةِ لغةِ العربِ ، والتفسيرِ ، والفقهِ ، والأخبارِ ، فإنَّ معرفةَ لغةِ العربِ تعينُ علىٰ معرفةِ تفسيرِ القرآنِ ، ومعرفةَ التفسيرِ تعينُ علىٰ معرفةِ ما في القرآنِ مِنْ كيفيةِ العباداتِ والأعمالِ التي تفيدُ تزكيةَ النفسِ ، ومعرفةَ طريقِ تزكيةِ النفسِ تفيدُ استعدادَ النفسِ لقبولِ الهدايةِ إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ،

فتكونُ جملةُ هٰذهِ المعارفِ كالوسائلِ إلىٰ تحقيقِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما الكمالُ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وينطوي فيهِ جميعُ المعارفِ المحيطةِ بالموجوداتِ ؛ إذِ الموجوداتُ كلُّها مِنْ أفعالِهِ ، فمَنْ عرفَها مِنْ حيثُ هيَ فعلُ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ حيثُ ارتباطُها بالقدرةِ والإرادةِ والحكمةِ . . فهيَ مِنْ تكملةِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ .

هٰذا حكمُ كمالِ العلمِ ذكرناهُ وإنْ لمْ يكنْ لائقاً بأحكامِ الجاهِ والرياءِ ، ولكنْ أوردناهُ لاستيفاءِ أقسامِ الكمالِ .

* * *

وأمَّا القدرةُ :

فليسَ فيها كمالٌ حقيقيٌّ للعبدِ ، بلْ للعبدِ علمٌ حقيقيٌّ ، وليسَ لهُ قدرةٌ حقيقيةٌ ، وإنَّما القدرةُ الحقيقيةُ للهِ تعالىٰ(١) ، وما يحدثُ مِنَ الأشياءِ عقيبَ إرادةِ العبدِ وقدرتِهِ وحركتِهِ . . فهيَ حادثةٌ بإحداثِ اللهِ ؛ كما قررناهُ في كتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ التوكلِ ، وفي مواضعَ شتَّىٰ مِنْ ربعِ المنجياتِ ،

---

(١) ولقائل أن يقول : والعلم كالقدرة أيضاً ؛ إذ العلم الحقيقي لله وحده ، وعلم العبد حادث بخلق الله سبحانه ، قال عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ ، وللعبد علم يناسب حاله كما أن له قدرة تناسب حاله وتصحح تكليفه ، فالمرادُ بقول المصنف : (للعبد علم حقيقي) المعرفةُ التي هي أسُّ كمالات العبد ، وعلة تكليفه الأصيلة ، فحقيقته بصلاحه لطلب غايات الكمال ، وتصوُّر ديمومته للعبد أبد الآباد ، بخلاف القدرة التي هي وسيلة من جهة ، ومن أخرىٰ غير متصوَّرة الاستصحاب .

فكمالُ العلمِ يبقىٰ معَهُ بعدَ الموتِ ، ويوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا كمالُ القدرةِ . . فلا .

نعمْ ؛ لهُ كمالٌ مِنْ جهةِ القدرةِ بالإضافةِ إلى الحالِ ، وهيَ وسيلةٌ لهُ إلىٰ كمالِ العلمِ ؛ كسلامةِ أطرافِهِ ، وقوَّةِ يديهِ للبطشِ ، ورجليهِ للمشيِ ، وحواسِّهِ للإدراكِ ؛ فإنَّ هـٰذهِ القوىٰ آلاتٌ للوصولِ بها إلىٰ حقيقةِ كمالِ العلمِ ، وقدْ يحتاجُ في استيفاءِ هـٰذهِ القوىٰ إلى القدرةِ بالمالِ والجاهِ للتوصُّلِ بهِ إلى المطعمِ والمشربِ والملبسِ والمسكنِ ، وذلكَ إلىٰ قدْرٍ معلومٍ ، فإنْ لمْ يستعملْهُ للوصولِ بهِ إلىٰ معرفةِ جلالِ اللهِ تعالىٰ . . فلا خيرَ فيهِ ألبتةَ إلا مِنْ حيثُ اللَّذةُ الحاليةُ التي تنقضي على القربِ ، ومَنْ ظنَّ ذلكَ كمالاً . . فقدْ جهلَ .

فالخلقُ أكثرهُمْ هالكونَ في غمرةِ هـٰذا الجهلِ ، فإنَّهُمْ يظنُّونَ أنَّ القدرةَ على الأجسادِ بقهرِ الحشمةِ ، وعلىٰ أعيانِ الأموالِ بسعةِ الغنىٰ ، وعلىٰ تعظيمِ القلوبِ بسعةِ الجاهِ . . كمالٌ ، فلمَّا اعتقدوا ذلكَ . . أحبُّوهُ ، ولمَّا أحبُّوهُ . . طلبوهُ ، ولمَّا طلبوهُ . . شُغلوا بهِ ، وتهالكوا عليهِ ، فنسوا الكمالَ الحقيقيَّ الذي يوجبُ القربَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ومِنْ ملائكتِهِ ، وهوَ العلمُ والحريَّةُ ، أمَّا العلمُ . . فما ذكرناهُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الحريةُ . . فالخلاصُ مِنْ أسرِ الشهواتِ وغمومِ الدنيا ، والاستيلاءُ عليها بالقهرِ ؛ تشبهاً بالملائكةِ الذينَ لا تستفزُّهُمُ الشهوةُ ، ولا يستهويهِمُ الغضبُ ، فإنَّ دفعَ آثارِ الغضبِ والشهواتِ عنِ النفسِ مِنَ الكمالِ الذي هوَ مِنْ صفاتِ الملائكةِ .

ومِنْ صفاتِ الكمالِ للهِ تعالى استحالةُ التغيُّرِ والتأثُّرِ عليهِ ، فمَنْ كانَ عنِ

التغيُّرِ والتأثُّرِ بالعوارضِ أبعدَ . . كانَ إلى اللهِ تعالىٰ أقربَ ، وبالملائكةِ أشبهَ ، ومنزلتُهُ عندَ اللهِ أعظمَ ، وهٰذا كمالٌ ثالثٌ سوىٰ كمالِ العلمِ والقدرةِ ، وإنَّما لمْ نوردْهُ في أقسامِ الكمالِ ؛ لأنَّ حقيقتَهُ ترجعُ إلىٰ عدمٍ ونقصانٍ ، فإنَّ التغيُّرَ نقصانٌ ؛ إذْ هوَ عبارةٌ عنْ عدمِ صفةٍ كائنةٍ وهلاكِها ، والهلاكُ نقصٌ في الذاتِ وفي صفاتِ الكمالِ للذاتِ .

فإذاً ؛ الكمالاتُ ثلاثةٌ ـ إنْ عددنا عدمَ التغيُّرِ بالشهواتِ وعدمَ الانقيادِ لها كمالاً ـ : كمالُ العلمِ ، وكمالُ القدرةِ ، وكمالُ الحريةِ ؛ وأعني بهِ : عدمَ العبوديةِ للشهواتِ وإراداتِ الأسبابِ الدُّنيويةِ ، وكمالُ القدرةِ للعبدِ طريقٌ إلى اكتسابِ كمالِ العلمِ وكمالِ الحريةِ ، ولا طريقَ لهُ إلى اكتسابِ كمالِ القدرةِ الباقيةِ بعدَ موتِهِ ؛ إذْ قدرتُهُ علىٰ أعيانِ الأموالِ وعلى استسخارِ القلوبِ والأبدانِ تنقطعُ بالموتِ ، ومعرفتُهُ وحرِّيَّتُهُ لا ينعدمانِ بالموتِ ، بلْ يبقيانِ كمالاً فيهِ ، ووسيلةً إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

فانظرْ كيفَ انقلبَ الجاهلونَ وانكبُّوا علىٰ وجوهِهِمُ انكبابَ العميانِ ، فأقبلوا علىٰ طلبِ كمالِ القدرةِ بالجاهِ والمالِ ، وهوَ الكمالُ الذي لا يسلمُ ، وإن سلمَ . . فلا بقاءَ لهُ ، وأعرضوا عنْ كمالِ الحريَّةِ والعلمِ الذي إذا حصلَ . . كانَ أبديّاً لا انقطاعَ لهُ ، وهؤلاءِ همُ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فلا جرَم لا يُخفَّفُ عنهُمُ العذابُ ولا هُمْ يُنظرونَ ، وهمُ الذينَ لم يفهموا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ ، فالعلمُ والحريةُ هيَ الباقياتُ الصالحاتُ التي تبقىٰ

كمالاً في النفسِ ، والمالُ والجاهُ هوَ الذي ينقضي على القربِ ، وهوَ كما مثَّلَهُ اللهُ تعالىٰ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ ، وكلُّ ما تذروهُ رياحُ الموتِ فهوَ زهرةُ الحياةِ الدنيا ، وكلُّ ما لا يقطعُهُ الموتُ فهوَ الباقياتُ الصالحاتُ .

فقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاهِ كمالٌ ظنيٌّ لا أصلَ لهُ ، وأنَّ مَنْ قَصَرَ الوقتَ علىٰ طلبِهِ وظنَّهُ مقصوداً فهوَ جاهلٌ .

وإليهِ أشارَ أبو الطيِّبِ بقولِهِ[1] :

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مَخافَةَ فَقْرٍ فَٱلَّذي فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

إلا قدْرَ البُلْغةِ منهما إلى الكمالِ الحقيقيِّ ، اللهمَّ ؛ اجعلْنا ممَّنْ وفقتَهُ للخيرِ وهديتَهُ بلطفِكَ .

* * *

(١) البيت في « ديوانه بشرح العكبري » (٢/ ١٥٠) .

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفتَ أنَّ معنى الجاهِ ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها . . فحكمُهُ حكمُ ملكِ الأموالِ ، فإنَّهُ عرَضٌ مِنْ أعراضِ الحياةِ الدنيا ، وينقطعُ بالموتِ كالمالِ ، والدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، فكلُّ ما خُلقَ في الدنيا فيمكنُ أنْ يُتزوَّدَ مِنْهُ للآخرةِ ، وكما أنَّهُ لا بدَّ مِنْ أدنىٰ مالٍ لضرورةِ المطعمِ والمشربِ والملبسِ . . فلا بدَّ مِنْ أدنىٰ جاهٍ لضرورةِ المعيشةِ معَ الخلقِ ، والإنسانُ كما لا يستغني عنْ طعامٍ يتناولُهُ فيجوزُ أن يحبَّ الطعامَ أوِ المالَ الذي يبتاعُ بهِ الطعامَ . . فكذلكَ لا يخلو عنِ الحاجةِ إلىٰ خادمٍ يخدمُهُ ، ورفيقٍ يعينُهُ ، وأستاذٍ يرشدُهُ ، وسلطانٍ يحرسُهُ ويدفعُ عنهُ ظلمَ الأشرارِ ، فحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ خادمِهِ مِنَ المحلِّ ما يدعوهُ إلى الخدمةِ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ رفيقِهِ مِنَ المحلِّ ما يحسِنُ بهِ مرافقتَهُ ومعاونتَهُ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لهُ في قلبِ أستاذِهِ مِنَ المحلِّ ما يحسِنُ بهِ إرشادَهُ وتعليمَهُ والعنايةَ بهِ ليسَ بمذمومٍ ، وحبُّهُ لأنْ يكونَ لَهُ مِنَ المحلِّ في قلبِ سلطانِهِ ما يحثُّهُ ذلكَ علىٰ دفعِ الشرِّ عنْهُ ليسَ بمذمومٍ ؛ فإنَّ الجاهَ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كالمالِ ، فلا فرقَ بينَهُما .

إلا أنَّ التحقيقَ في هٰذا يفضي إلىٰ ألا يكونَ المالُ والجاهُ في أعيانِهما محبوبينِ ، بلْ ينزلُ ذلكَ منزلةَ حبِّ الإنسانِ أنْ يكونَ في دارِهِ بيتُ ماءٍ ؛ لأنَّهُ مضطرٌّ إليهِ لقضاءِ حاجتِهِ ، وكانَ يودُّ لوِ استغنىٰ عنْ قضاءِ الحاجةِ حتَّىٰ

يستغنيَ عنْ بيتِ الماءِ ، وهٰذا على التحقيقِ ليسَ بحبٍّ لبيتِ الماءِ ، فكلُّ ما يُرادُ للتوصُّلِ بهِ إلىٰ محبوبٍ . . فالمحبوبُ هوَ المقصودُ المتوصَّلُ إليهِ .

وتُدركُ التفرقةُ بمثالٍ آخرَ ؛ وهوَ أنَّ الرجلَ قدْ يحبُّ زوجتَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ يدفعُ بها فضلةَ الشهوةِ كما يدفعُ ببيتِ الماءِ فضلةَ الطعامِ ، ولوْ كُفيَ مؤنةَ الشهوةِ . . لكانَ يهجرُ زوجتَهُ ، كما أنَّهُ لوْ كُفِيَ قضاءَ الحاجةِ . . لكانَ لا يدخلُ بيتَ الماءِ ولا يدورُ بهِ ، وقدْ يحبُّ زوجتَهُ لذاتِها حبَّ العشَّاقِ ، ولوْ كُفِيَ الشهوةَ . . لبقيَ مستصحباً لنكاحِها ، فهٰذا هوَ الحبُّ دونَ الأولِ ، وكذلكَ الجاهُ والمالُ قدْ يحبُّ كلَّ واحدٍ منهُما علىٰ هٰذينِ الوجهينِ ، فحبُّهُما لأجلِ التوصُّلِ بهِما إلىٰ مهمَّاتِ البدنِ غيرُ مذمومٍ ، وحبُّهُما لأعيانِهِما فيما يجاوزُ ضرورةَ البدنِ وحاجتَهُ مذمومٌ ، ولكنَّهُ لا يُوصفُ صاحبُهُ بالفسقِ والعصيانِ ما لمْ يحملْهُ الحبُّ علىٰ مباشرةِ معصيةٍ ، وما لمْ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بكذبٍ وخداعٍ وارتكابِ محظورٍ ، وما لمْ يتوصَّلْ إلى اكتسابِهِ بعبادةٍ ؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى الجاهِ والمالِ بالعبادةِ جنايةٌ على الدينِ ، وهوَ حرامٌ ، وإليهِ يرجعُ معنى الرِّياءِ المحظورِ كما سيأتي .

* * *

فإنْ قلتَ : طلبُهُ المنزلةَ والجاهَ في قلبِ أستاذِهِ وخادمِهِ ورفيقِهِ وسلطانِهِ ومَنْ يرتبطُ بهِ أمرُهُ . . مباحٌ على الإطلاقِ كيفما كانَ ، أوْ يُباحُ إلىٰ حدٍّ مخصوصٍ وعلىٰ وجهٍ مخصوصٍ ؟

فأقولُ : يُطلبُ ذلكَ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ : وجهانِ منها مباحانِ ، ووجهٌ محظورٌ .

أمَّا الوجهُ المحظورُ : فهوَ أنْ يطلبَ قيامَ المنزلةِ في قلوبِهِمْ باعتقادِهِمْ فيهِ صفةً هوَ منفكٌّ عنها ؛ مثلَ العلمِ والورعِ والنسبِ ، فيظهرُ لهُمْ أنَّهُ علويٌّ أوْ عالمٌ أوْ ورِعٌ ولا يكونُ كذلكَ ، فهـٰذا حرامٌ ؛ لأنَّهُ كذبٌ وتلبيسٌ ؛ إمَّا بالقولِ وإمَّا بالمعاملةِ .

وأمَّا أحدُ المباحينِ : فهوَ أنْ يطلبَ المنزلةَ بصفةٍ هوَ متصفٌ بها ؛ كقولِ يوسفَ عليهِ السلامُ فيما أخبرَ عنهُ الربُّ تعالى : ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ فإنَّهُ طلبَ المنزلةَ في قلبِهِ بكونِهِ حفيظاً عليماً ، وكانَ محتاجاً إليهِ ، وكانَ صادقاً فيهِ .

والثاني : أنْ يطلبَ إخفاءَ عيبٍ مِنْ عيوبِهِ ومعصيةٍ مِنْ معاصيهِ حتَّىٰ لا يُعلَمَ ، فلا تزولَ منزلتُهُ بهِ ، فهـٰذا أيضاً مباحٌ ؛ لأنَّ حفظَ السترِ على القبائحِ جائزٌ ، ولا يجوزُ هتكُ السترِ وإظهارُ القبيحِ ، وهـٰذا ليسَ فيهِ تلبيسٌ ، بلْ هوَ سدٌّ لطريقِ العلمِ بما لا فائدةَ في العلمِ بهِ ؛ كالذي يُخفي عنِ السلطانِ أنَّهُ يشربُ الخمرَ ، ولا يلقي إليهِ أنَّهُ ورعٌ ؛ فإنَّ قولَهُ : إنِّي ورعٌ تلبيسٌ ، وعدمُ إقرارِهِ بالشربِ لا يوجبُ اعتقادَ الورعِ ، بلْ يمنعُ العلمَ بالشربِ .

ومِنْ جملةِ المحظوراتِ : تحسينُ الصلاةِ بينَ يديهِ ؛ ليحسُنَ فيهِ

اعتقادُهُ ، فإنَّ ذلكَ رياءٌ ، وهوَ ملبِّسٌ ؛ إذْ يخيِّلُ إليهِ أنَّهُ مِنَ المخلصينَ الخاشعينَ للهِ تعالىٰ ، وهوَ مراءٍ بما يفعلُهُ ، فكيفَ يكونُ مخلصاً ؟! فطلبُ الجاهِ بهٰذا الطريقِ حرامٌ ، وكذا بكلِّ معصيةٍ ، وذلكَ يجري مجرى اكتسابِ المالِ مِنْ غيرِ فرقٍ ، وكما لا يجوزُ أنْ يتملَّكَ مالَ غيرِهِ بتلبيسٍ في عوضٍ أوْ في غيرِهِ . . فلا يجوزُ لهُ أن يتملَّكَ قلبَهُ بتزويرٍ وخداعٍ ؛ فإنَّ ملكَ القلوبِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأموالِ .

* * *

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس له، وميل الطباع إليه، وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلمْ : أنَّ لحبِّ المدحِ والتذاذِ القلبِ بهِ أربعةَ أسبابٍ :

السببُ الأولُ ـ وهوَ الأقوىٰ ـ : شعورُ النفسِ بالكمالِ ، فإنَّا بيَّنا أنَّ الكمالَ محبوبٌ ، وكلُّ محبوبٍ فإدراكُهُ لذيذٌ ، فمهما شعرَتِ النفسُ بكمالِها . . ارتاحَتْ ، واهتزَّتْ وتلذَّذَتْ ، والمدحُ يشعرُ نفسَ الممدوحِ بكمالِها ، فإنَّ الوصفَ الذي بهِ مدحٌ لا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ جليّاً ظاهراً ، أوْ يكونَ مشكوكاً فيهِ .

فإنْ كانَ جليّاً ظاهراً محسوساً . . كانَتِ اللَّذَّةُ فيهِ أقلَّ ، ولكنَّهُ لا يخلو عنْ لذَّةٍ ؛ كثنائِهِ عليهِ بأنَّهُ طويلُ القامةِ ، أبيضُ اللونِ ، فإنَّ هٰذا نوعُ كمالٍ ، ولكنَّ النفسَ تغفُلُ عنهُ ، فتخلو عنْ لذَّتِهِ ، فإذا أُشعرَ بهِ . . لمْ يخلُ حدوثُ الشعورِ عنْ حدوثِ لذَّةٍ .

وإنْ كانَ ذلكَ الوصفُ ممَّا يتطرَّقُ إليهِ الشَّكُّ . . فاللذَّةُ فيهِ أعظمُ ؛ كالثناءِ عليهِ بكمالِ العلمِ ، وكمالِ الورعِ ، وبالحسنِ المطلقِ ، فإنَّ الإنسانَ ربَّما يكونُ شاكّاً في كمالِ حسنِهِ ، وكمالِ علمِهِ ، وكمالِ ورعِهِ ، ويكونُ مشتاقاً إلىٰ زوالِ هٰذا الشكِّ ؛ بأنْ يصيرَ مستيقناً لكونِهِ عديمَ النظيرِ في هٰذهِ الأمورِ ؛ إذْ تطمئنُّ نفسُهُ إليهِ ، فإذا ذكرَهُ غيرُهُ . . أورثَ ذلكَ طمأنينةً وثقةً

باستشعارِ ذلكَ الكمالِ ، فتعظمُ لذَّتُهُ ، وإنَّما تعظمُ اللذَّةُ بهٰذهِ العلَّةِ مهما صدرَ الثناءُ مِنْ بصيرٍ بهٰذهِ الصفاتِ ، خبيرٍ بها ، لا يجازفُ في القولِ إلا عنْ تحقيقٍ ، وذلكَ كفرحِ التلميذِ بثناءِ أستاذِهِ عليهِ بالكياسةِ والذكاءِ وغزارةِ الفضلِ ، فإنَّهُ في غايةِ اللذَّةِ ، وإنْ صدرَ ممَّنْ يجازفُ في الكلامِ أوْ لا يكونُ بصيراً بذلكَ الوصفِ . . ضعُفَتِ اللذَّةُ .

وبهٰذهِ العلَّةِ يبغضُ الذَّمَّ أيضاً ويكرهُهُ ؛ لأنَّهُ يشعرُهُ بنقصانِ نفسِهِ ، والنقصانُ ضدُّ الكمالِ المحبوبِ ، فهوَ ممقوتٌ ، والشعورُ بهِ مؤلمٌ ، ولذلكَ يعظمُ الألمُ إذا صدرَ الذَّمُّ مِنْ بصيرٍ موثوقٍ بهِ ، كما ذكرناهُ في المدحِ .

* * *

السببُ الثاني : أنَّ المدحَ يدلُّ علىٰ أنَّ قلبَ المادحِ مملوكٌ للممدوحِ ، وأنَّهُ مريدٌ لهُ ، ومعتقدٌ فيهِ ، ومسخَّرٌ تحتَ مشيئتِهِ ، وملكُ القلوبِ محبوبٌ ، والشعورُ بحصولِهِ لذيذٌ ، وبهٰذهِ العلَّةِ تعظمُ اللَّذةُ مهما صدرَ الثناءُ ممَّنْ تتَّسعُ قدرتُهُ ، وينتفعُ باقتناصِ قلبِهِ ؛ كالملوكِ والأكابرِ ، ويضعفُ مهما كانَ المُثني ممَّنْ لا يُؤبَهُ لهُ ، ولا يقدرُ علىٰ شيءٍ ، فإنَّ القدرةَ عليهِ بملكِ قلبِهِ قدرةٌ علىٰ أمرٍ حقيرٍ ، فلا يدلُّ المدحُ إلا علىٰ قدرةٍ قاصرةٍ ، وبهٰذهِ العلَّةِ أيضاً يُكرهُ الذَّمُّ ، ويتألَّمُ بهِ القلبُ ، وإذا كانَ مِنَ الأكابرِ . . كانَتْ نكايتُهُ أعظمَ ؛ لأنَّ الفائتَ بهِ أعظمُ .

* * *

السببُ الثالثُ : أنَّ ثناءَ المُثني ومدحَ المادحِ سببٌ لاصطيادِ قلبِ كلِّ مَنْ يسمعُهُ ، لا سيَّما إذا كانَ ممَّنْ يُلتفتُ إلىٰ قولِهِ ، ويُعتدُّ بثنائِهِ ، وهـٰذا يختصُّ بثناءٍ يقعُ على الملأِ ، فلا جرمَ كلَّما كانَ الجمعُ أكثرَ والمُثني أجدرَ بأنْ يُلتفتَ إلىٰ قولِهِ . كانَ المدحُ ألذَّ ، والذمُّ أشدَّ على النفسِ .

* * *

السببُ الرابعُ : أنَّ المدحَ يدلُّ علىٰ حشمةِ الممدوحِ ، واضطرارِ المادحِ إلىٰ إطلاقِ اللسانِ بالثناءِ عليهِ ؛ إمَّا عنْ طوعٍ ، وإمَّا عنْ قهرٍ ، فإنَّ الحشمةَ أيضاً لذيذةٌ ؛ لما فيها مِنَ القهرِ والقدرةِ ، وهـٰذهِ اللذَّةُ تحصلُ وإنْ كانَ المادحُ لا يعتقدُ في الباطنِ ما مدحَ بهِ ، ولكنْ كونُهُ مضطراً إلىٰ ذكرِهِ نوعُ قهرٍ واستيلاءٍ عليهِ ، فلا جرمَ تكونُ لذَّتُهُ بقدْرِ تمنُّعِ المادحِ وقوَّتِهِ ، فتكونُ لذَّةُ ثناءِ القويِّ الممتنعِ عنِ التواضعِ بالثناءِ أشدَّ .

فهـٰذهِ الأسبابُ الأربعةُ قدْ تجتمعُ في مدحِ مادحٍ واحدٍ فيعظُمُ بها الالتذاذُ ، وقد تفترقُ فتنقصُ اللَّذَّةُ بها .

* * *

أمَّا العلةُ الأولىٰ وهيَ استشعارُ الكمالِ . . فتندفعُ بأنْ يعلمَ الممدوحُ أنَّهُ غيرُ صادقٍ في مدحِهِ؛ كما إذا مُدِحَ بأنَّهُ نسيبٌ ، أو سخيٌّ ، أو عالمٌ بعلمٍ ، أو متورِّعٌ عنِ المحظوراتِ ، وهوَ يعلمُ مِنْ نفسِهِ ضدَّ ذلكَ ، فتزولُ اللَّذَّةُ التي سببُها استشعارُ الكمالِ ، وتبقىٰ لذَّةُ الاستيلاءِ علىٰ قلبِهِ وعلىٰ لسانِهِ وبقيةُ اللَّذَّاتِ .

فإنْ كانَ يعلمُ أنَّ المادحَ ليسَ يعتقدُ ما يقولُهُ ويعلمُ خلوَّهُ عنْ هٰذهِ الصفةِ.. بطلَتِ اللذَّةُ الثانيةُ ، وهوَ استيلاؤُهُ علىٰ قلبِهِ ، وتبقىٰ لذَّةُ الاستيلاءِ بالحشمةِ على اضطرارِ لسانِهِ إلى النطقِ بالثناءِ .

فإنْ لمْ يكنْ ذلكَ عنْ خوفٍ ، بلْ كانَ بطريقِ اللَّعِبِ.. بطلَتِ اللَّذاتُ كلُّها ، فلمْ يكنْ في المدحِ أصلاً لذةٌ ؛ لفواتِ الأسبابِ الثلاثةِ .

فهٰذا ما يكشفُ الغطاءَ عنْ علَّةِ التذاذِ النفسِ بالمدحِ ، وتألُّمِها بسببِ الذَّمِّ ، وإنَّما ذكرناهُ ليُعرفَ طريقُ العلاجِ لحبِّ الجاهِ ، وحبِّ المحمدةِ ، وخوفِ المذمَّةِ ، فإنَّ ما لا يُعرفُ سببُهُ لا يمكنُ معالجتُهُ ؛ إذِ العلاجُ عبارةٌ عنْ حلِّ أسبابِ المرضِ ، واللهُ الموفقُ بكرمِهِ ولطفِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

بيان علاج حب الجاه

اعلمْ : أنَّ مَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ حبُّ الجاهِ . . صارَ مقصورَ الهمِّ علىٰ مراعاةِ الخلقِ ، مشغوفاً بالتودُّدِ إليهِمْ والمراءاةِ لأجلِهِمْ ، ولا يزالُ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأعمالِهِ ملتفتاً إلىٰ ما يعظِّمُ منزلتَهُ عندَهُمْ ، وذلكَ بذرُ النفاقِ وأصلُ الفسادِ ، ويجرُّ ذلكَ ـ لا محالةَ ـ إلى التساهلِ في العباداتِ والمراءاةِ بها ، وإلى اقتحامِ المحظوراتِ للتوصُّلِ إلى اقتناصِ القلوبِ .

ولذلكَ شبَّهَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبَّ الشرفِ والمالِ وإفسادَهُما للدِّينِ بذئبينِ ضاريينِ ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّهُ ينبتُ النِّفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »[1] إذِ النفاقُ هوَ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ بالقولِ أوِ الفعلِ ، وكلُّ مَنْ طلبَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ فيُضطرُّ إلى النفاقِ معَهُمْ ، وإلى التَّظاهرِ بخصالٍ حميدةٍ هوَ خالٍ عنها ، وذلكَ هوَ عينُ النفاقِ .

* * *

فحبُّ الجاهِ إذاً مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ علاجُهُ وإزالتُهُ عنِ القلبِ ، فإنَّهُ طبعٌ جُبِلَ القلبُ عليهِ كما جُبِلَ علىٰ حبِّ المالِ ، وعلاجُهُ مركَّبٌ مِنْ علمٍ وعملٍ :

---

(١) رواه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ : (حبُّ الغنىٰ ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب) « إتحاف » (٦/ ٢٥٢) .

أمَّا العلمُ : فهوَ أنْ يعلمَ السببَ الذي لأجلِهِ أحبَّ الجاهَ ، وهوَ كمالُ القدرةِ علىٰ أشخاصِ الناسِ وعلىٰ قلوبِهِمْ ، وقدْ بيَّنا أنَّ ذلكَ إنْ صفا وسلمَ . . فآخرُهُ الموتُ ، فليسَ مِنَ الباقياتِ الصالحاتِ ، بلْ لوْ سجدَ لكَ كلُّ مَنْ علىٰ بسيطِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ فإلىٰ خمسينَ سنةً . . لا يبقى الساجدُ ولا المسجودُ لهُ ، ويكونُ حالُكَ كحالِ مَنْ ماتَ قبلَكَ مِنْ ذوي الجاهِ معَ المتواضعينَ لهُ ، فهـٰذا لا ينبغي أنْ يُتركَ بهِ الدينُ الذي هوَ الحياةُ الأبديَّةُ التي لا انقطاعَ لها .

ومَنْ فهِمَ الكمالَ الحقيقيَّ والكمالَ الوهميَّ كما سبقَ . . صغُرَ الجاهُ في عينِهِ ، إلا أنَّ ذلكَ إنَّما يصغرُ في عينِ مَنْ ينظرُ إلى الآخرةِ كأنَّهُ يشاهدُها ، ويستحقرُ العاجلةَ ، ويكونُ الموتُ كالحاصلِ عندَهُ ، ويكونُ حالُهُ كحالِ الحسنِ البصريِّ إذْ كتبَ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِما : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بآخرِ مَنْ كُتبَ عليهِ الموتُ قدْ ماتَ ، فانظرْ كيفَ مدَّ نظرَهُ نحوَ المستقبلِ وقدَّرَهُ كائناً) ، وكذلكَ حالُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حينَ كتبَ في جوابِهِ : (أما بعدُ : فكأنَّكَ بالدنيا لمْ تكنْ ، وكأنَّكَ بالآخرةِ لمْ تزلْ)[1] .

فهؤلاءِ كانَ التفاتُهُمْ إلى العاقبةِ ، فكانَ عملُهُمْ لها بالتقوىٰ ؛ إذْ علموا أنَّ العاقبةَ للمتقينَ ، فاستحقروا الجاهَ والمالَ في الدنيا ، وأبصارُ أكثرِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢٦) .

الخلقِ ضعيفةٌ مقصورةٌ على العاجلةِ لا يمتدُّ نورُها إلىٰ مشاهدةِ العواقبِ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ، وقالَ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

فمَنْ هـٰذا حدُّهُ فينبغي أنْ يعالجَ قلبَهُ في حبِّ الجاهِ بالعلمِ بالآفاتِ العاجلةِ ، وهوَ أنْ يتفكَّرَ في الأخطارِ التي يستهدفُ لها أربابُ الجاهِ في الدنيا ، فإنَّ كلَّ ذي جاهٍ محسودٌ ومقصودٌ بالإيذاءِ ، وخائفٌ على الدوامِ علىٰ جاهِهِ ، ومحترزٌ مِنْ أنْ تتغيَّرَ منزلتُهُ في القلوبِ ، والقلوبُ أشدُّ تغيراً مِنَ القِدْرِ في غليانِها ، وهيَ متردِّدةٌ بينَ الإقبالِ والإعراضِ ، فكلُّ ما يُبنىٰ علىٰ قلوبِ الخلقِ يضاهي ما يُبنىٰ علىٰ أمواجِ البحرِ ، فإنَّهُ لا ثباتَ لهُ ، والاشتغالُ بمراعاةِ القلوبِ ، وحفظِ الجاهِ ، ودفعِ كيدِ الحسادِ ، ومنعِ أذى الأعداءِ . . كلُّ ذلكَ غمومٌ عاجلةٌ ، ومكدِّرةٌ للذَّةِ الجاهِ ، فلا يفي في الدنيا مرجوُّها بمَخُوفِها ، فضلاً عمَّا يفوتُ في الآخرةِ ، فبهـٰذا ينبغي أنْ تُعالجَ البصيرةُ الضعيفةُ .

وأمَّا مَنْ نفذَتْ بصيرتُهُ ، وقويَ إيمانُهُ . . لمْ يلتفتْ إلى الدنيا ، فهـٰذا هوَ العلاجُ مِنْ حيثُ العلمُ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا مِنْ حيثُ العملُ : فإسقاطُ الجاهِ عنْ قلوبِ الخلقِ بمباشرةِ أفعالٍ يُلامُ عليها ؛ حتَّىٰ يسقطَ مِنْ أعينِ الخلقِ ، وتفارقَهُ لذَّةُ القبولِ ، ويأنسَ

بالخمولِ ، ويردَّ الخلقَ ، ويقنعَ بالقبولِ مِنَ الخالقِ .

وهاذا هوَ منهجُ المَلامَتِيَّةِ[1] ؛ إذِ اقتحموا الفواحشَ في صورتِها ؛ ليسقطوا أنفسَهم عنْ أعينِ الناسِ ، فيسلموا مِنْ آفةِ الجاهِ ، وهاذا غيرُ جائزٍ لِمَنْ يُقتدىٰ بهِ ، فإنَّهُ يوهنُ الدينَ في قلوبِ المسلمينَ ، وأمَّا الذي لا يُقتدىٰ بهِ . . فلا يجوزُ لهُ أنْ يقدمَ علىٰ محظورٍ لأجلِ ذلكَ ، بلْ لهُ أنْ يفعلَ مِنَ المباحاتِ ما يسقطُ قدرَهُ عند الناسِ ؛ كما رُويَ أنَّ بعضَ الملوكِ قصدَ بعضَ الزُّهَّادِ ، فلمَّا علمَ بقربِهِ منهُ . . استدعىٰ طعاماً وبقلاً وأخذَ يأكلُ بشَرَهٍ ، ويعظمُ اللُّقمَ ، فلمَّا نظرَ إليهِ الملكُ . . سقطَ مِنْ عينِهِ وانصرفَ ، فقالَ الزاهدُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي[2] .

ومنهُمْ مَنْ شربَ شراباً حلالاً في قدحٍ لونُهُ لونُ الخمرِ ، حتَّىٰ يُظنَّ بهِ أنَّهُ يشربُ الخمرَ فيسقطَ مِنَ الأعينِ ، وهاذا في جوازِهِ نظرٌ مِنْ حيثُ الفقهُ ، إلا أنَّ أربابَ الأحوالِ ربَّما يعالجونَ أنفسَهُمْ بما لا يفتي بهِ الفقيهُ مهما رأَوا صلاحَ قلوبِهِمْ فيهِ ، ثمَّ يتداركونَ ما فرطَ منهُمْ فيهِ مِنْ صورةِ التقصيرِ ؛ كما فعلَ بعضُهُمْ ، فإنَّهُ عُرِفَ بالزهدِ ، وأقبلَ الناسُ عليهِ ، فدخلَ حماماً ،

---

(١) نسبة إلى الملامة ؛ إذ لا ينفكون عن لوم أنفسهم ، والأصل أن يقال لهم : المَلاميَّة ، وهو مستعمل ، وقد يقال لهم : الأمناء ، وهم ـ كما سيبين المصنف ـ قوم يعمرون بواطنهم ويخربون ظواهرهم ، من أعظم أئمتهم الشيخ عبد الله بن منازل والشيخ حمدون القصار رضي الله عنهما ، انظر طرفاً من بيان صفات الملامية للعلامة الحافظ عبد الملك الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٨) بنحوه .

ولبسَ ثيابَ غيرِهِ وخرجَ ، ووقفَ في الطريقِ حتَّىٰ عرفوهُ ، فأخذوهُ وضربوهُ ، واستردُّوا منهُ الثيابَ ، وقالوا : إنَّهُ طرَّارٌ وهجرُوهُ[1] .

وأقوى الطرقِ في قطعِ الجاهِ : الاعتزالُ عنِ الناسِ ، والهجرةُ إلىٰ موضعِ الخمولِ ، فإنَّ المعتزلَ في بيتِهِ في البلدةِ التي هوَ بها مشهورٌ ، لا يخلو عنْ حبِّ المنزلةِ التي تترسَّخُ لهُ في القلوبِ بسببِ عزلتِهِ ، وربَّما يظنُّ أنَّهُ ليسَ محبّاً لذلكَ الجاهِ ، وهوَ مغرورٌ ، وإنَّما سكنَتْ نفسُهُ لأنَّها قدْ ظفرَتْ بمقصودِها ، ولوْ تغيَّرَ الناسُ عمَّا اعتقدوهُ فيهِ ؛ فذمُّوهُ أوْ نسبوهُ إلىٰ أمرٍ غيرِ لائقٍ بهِ . . جزعَتْ نفسُهُ وتألَّمَتْ ، وربَّما توصَّلَتْ إلى الاعتذارِ عنْ ذلكَ ، وإماطةِ ذلكَ الغبارِ عنْ قلوبِهِمْ ، وربَّما يحتاجُ في إزالةِ ذلكَ عنْ قلوبِهِمْ إلىٰ كذبٍ وتلبيسٍ ، ولا يبالي بهِ ، وبهِ يتبيَّنُ أنَّهُ محبٌّ للجاهِ والمنزلةِ ، ومَنْ أحبَّ الجاهَ والمنزلةَ . . فهوَ كمَنْ أحبَّ المالَ ، بلْ هوَ شرٌّ منهُ ، فإنَّ فتنةَ الجاهِ أعظمُ ، ولا يمكنُهُ ألا يحبَّ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ ما دامَ يطمعُ في الناسِ ، فإذا أحرزَ قوتَهُ مِنْ كسبِهِ أوْ مِنْ جهةٍ أخرىٰ ، وقطعَ طمعَهُ عنِ الناسِ رأساً . . أصبحَ الناسُ كلُّهُمْ عندَهُ كالأرذالِ[2] ، فلا يبالي أكانَتْ لهُ منزلةٌ في قلوبِهِمْ أمْ لمْ تكنْ ؛ كما لا يبالي بذلكَ في قلوبِ الذينَ هُمْ منهُ في أقصى

(١) وهو إبراهيم الخواص رضي الله عنه ، ونُعت بعد هـٰذه الحادثة بـ(لص الحمام) ، فقال لنفسه : هـٰهنا طاب المقام ، وانظر القصة ومثيلاتها وأجوبة الفقهاء في بيان جوازها عند اليافعي في « نشر المحاسن الغالية » (ص ٣٠٣) .

(٢) في (ب) : (كالجمادات) .

الشرقِ ؛ لأنَّهُ لا يراهُمْ ولا يطمعُ فيهِمْ .

ولا يُقطعُ الطمعُ عنِ الناسِ إلا بالقناعةِ ، فمَنْ قنعَ . . استغنىٰ عنِ الناسِ ، وإذا استغنىٰ . . لمْ يشتغلْ قلبُهُ بالناسِ ، ولمْ يكنْ لقيامِ منزلتِهِ في القلوبِ عندَهُ وزنٌ ، ولا يتمُّ تركُ الجاهِ إلا بالقناعةِ وقطعِ الطمعِ ؛ ويستعينُ علىٰ جميعِ ذلكَ بالأخبارِ الواردةِ في ذمِّ الجاهِ ومدحِ الخمولِ والذلِّ ، مثلَ قولِهِمْ : (المؤمنُ لا يخلو مِنْ ذلَّةٍ ، أوْ قلَّةٍ ، أوْ علَّةٍ)[1] ، وينظرُ في أحوالِ السلفِ وإيثارِهِمْ للذلِّ على العزِّ ، ورغبتِهِم في ثوابِ الآخرةِ ، رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ .

* * *

(١) وهو قول مشهور علىٰ ألسنة الناس . « إتحاف » (٨/ ٢٥٥) ، ومعناه في الحديث الآتي .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلمْ : أنَّ أكثرَ الناسِ إنَّما هلكوا بخوفِ مذمَّةِ الناسِ وحبِّ مدحِهِمْ ، فصارَتْ حركاتُهُمْ كلُّها موقوفةً علىٰ ما يوافقُ رضا الناسِ ؛ رجاءً للمدحِ وخوفاً مِنَ الذمِّ ، وذلكَ مِنَ المهلكاتِ ، فيجبُ معالجتُهُ .

وطريقُهُ : ملاحظةُ الأسبابِ التي لأَجلِها يُحبُّ المدحُ ويُكرهُ الذمُّ .

* * *

أمَّا السببُ الأوَّلُ وهوَ استشعارُ الكمالِ بسببِ قولِ المادحِ : فطريقُكَ فيهِ أنْ ترجعَ إلىٰ عقلِكَ وتقولَ لنفسِكَ : هٰذهِ الصفةُ التي يمدحُكَ بها أنتَ متصفٌ بها أمْ لا ؟

فإنْ كنتَ متصفاً بها . . فهيَ إمَّا صفةٌ تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالعلمِ والورعِ ، وإمَّا صفةٌ لا تستحقُّ بها المدحَ ؛ كالثروةِ والجاهِ والأغراضِ الدنيويَّةِ .

فإنْ كانَتْ مِنَ الأغراضِ الدنيويَّةِ . . فالفرحُ بها كالفرحِ بنباتِ الأرضِ الذي يصيرُ على القربِ هشيماً تذروهُ الرياحُ ، وهٰذا مِنْ قلَّةِ العقلِ ، بلِ العاقلُ يقولُ كما قالَ المتنبي(١) :		[من الوافر]

أَشَـدُّ ٱلْغَـمِّ عِنْـدِي فِـي سُـرُورٍ		تَيَقَّـنَ عَنْـهُ صـاحِبُـهُ ٱنْتِقـالا

---

(١) انظر « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٤) .

فلا ينبغي أنْ يفرحَ الإنسانُ بعروضِ الدنيا ، وإنْ فرحَ . . فلا ينبغي أنْ يفرحَ بمدحِ المادحِ بها ، بلْ بوجودِها ، والمدحُ ليسَ هوَ سببَ وجودِها .

وإنْ كانَتِ الصفةُ ممَّا يستحقُّ الفرحَ بها ؛ كالعلمِ والورعِ . . فينبغي ألا يفرحَ بها ؛ لأنَّ الخاتمةَ غيرُ معلومةٍ ، وهٰذا إنَّما يقتضي الفرحَ لأنَّهُ يقرِّبُ عندَ اللهِ زُلفىٰ ، وخطرُ الخاتمةِ باقٍ ، ففي الخوفِ مِنْ سوءِ الخاتمةِ شغلٌ عنِ الفرحِ بكلِّ ما في الدنيا ، بلِ الدنيا دارُ أحزانٍ وغمومٍ ، لا دارُ فرحٍ وسرورٍ .

ثمَّ إنْ كنتَ تفرحُ بها علىٰ رجاءِ حسنِ الخاتمةِ . . فينبغي أنْ يكونَ فرحُكَ بفضْلِ اللهِ تعالىٰ عليكَ بالعلمِ والتقوىٰ ، لا بمدحِ المادحِ ، فإنَّ اللذَّةَ في استشعارِ الكمالِ ، والكمالُ موجودٌ مِنْ فضْلِ اللهِ لا مِنَ المدحِ ، والمدحُ تابعٌ لهُ ، فلِمَ ينبغي أنْ تفرحَ بالمدحِ والمدحُ لا يزيدُكَ فضلاً ؟

وإنْ كانَتِ الصفةُ التي مُدحتَ بها أنتَ خالٍ عنها . . ففرحُكَ بالمدحِ غايةُ الجنونِ ، ومثالُكَ مثالُ مَنْ يهزأُ بهِ إنسانٌ ويقولُ لهُ : سبحانَ اللهِ ! ما أكثرَ العطرَ الذي في أحشائِهِ ! وما أطيبَ الروائحَ التي تفوحُ منهُ إذا قضىٰ حاجتَهُ ! وهوَ يعلمُ ما تشتملُ عليهِ أمعاؤُهُ مِنَ الأقذارِ والأنتانِ ، ثمَّ يفرحُ بذلكَ ، فكذلكَ إذا أثنَوا عليكَ بالصلاحِ والورعِ ، ففرحتَ بهِ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ خبائثِ باطنِكَ ، وغوائلِ سريرتِكَ ، وأقذارِ صفاتِكِ . . كانَ ذلكَ مِنْ غايةِ الجهلِ .

فإذاً ؛ المادحُ إنْ صدقَ . . فليكُنْ فرحُكَ بصفتِكَ التي هيَ مِنَ فضْلِ اللهِ

عليكَ ؛ وإنْ كذبَ . . فينبغي أنْ يغمَّكَ ذلكَ ولا تفرحَ بهِ .

* * *

وأمَّا السببُ الثاني وهوَ دلالةُ المدحِ علىٰ تسخيرِ قلبِ المادحِ ، وكونِهِ سبباً لتسخيرِ قلبٍ آخرَ : فهـٰذا يرجعُ إلىٰ حبِّ الجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ ، وقدْ سبقَ وجهُ معالجتِهِ ، وذلكَ بقطعِ الطمعِ عنِ الناسِ ، وطلبِ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وبأنْ تعلمَ أنَّ طلبَكَ المنزلةَ في قلوبِ الناسِ وفرحَكَ بها يسقطُ منزلتَكَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ تفرحُ بهِ ؟!

* * *

وأمَّا السببُ الثالثُ وهوَ الحشمةُ التي اضطرَّتِ المادحَ إلى المدحِ : فهوَ أيضاً يرجعُ إلىٰ قدرةٍ عارضةٍ لا ثباتَ لها ولا تستحقُّ الفرحَ ، بلْ ينبغي أنْ يغمَّكَ مدحُ المادحِ وتكرهَهُ وتغضبَ بهِ ، كما نُقلَ ذلكَ عنِ السلفِ ؛ لأنَّ آفةَ المدحِ على الممدوحِ عظيمةٌ ، كما ذكرناها في كتابِ آفاتِ اللسانِ .

وقالَ بعضُ السلفِ : (مَنْ فرحَ بمدحٍ . . فقدْ مكَّنَ الشيطانَ مِنْ أنْ يدخلَ في بطنِهِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا قيلَ لكَ : نعمَ الرجلُ أنتَ ، فكانَ أحبَّ إليكَ مِنْ أنْ يُقالَ لكَ : بئسَ الرجلُ أنتَ . . فأنتَ واللهِ بئسَ الرجلُ)[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) عن مالك بن دينار .
(٢) أورده صاحب « القوت » (١/ ١٧٣) عن سفيان الثوري بنحوه .

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ ـ فإنْ صحَّ . . فهوَ قاصمٌ للظهورِ ـ : أنَّ رجلاً أثنىٰ علىٰ رجلٍ خيراً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ صاحبُكَ حاضراً فرضيَ الذي قلتَ فماتَ علىٰ ذلكَ . . دخلَ النارَ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرةً للمادحِ : « ويحَكَ ! قطعتَ ظهرَهُ ، لوْ سمعَكَ . . ما أفلحَ إلىٰ يومِ القيامةِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « ألا لا تمادحوا ، وإذا رأيتُمُ المدَّاحينَ . . فاحثوا في وجوهِهِمُ الترابَ »(٣) .

فلهـٰذا كانَ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ علىٰ وَجَلٍ عظيمٍ مِنَ المدحِ وفتنتِهِ ، وما يدخلُ على القلبِ مِنَ السُّرورِ العظيمِ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَ الخلفاءِ الراشدينَ سألَ رجلاً عنْ شيءٍ فقالَ : أنتَ يا أميرَ المؤمنينَ خيرٌ منِّي وأعلمُ ، فغضبَ وقالَ : إنِّي لمْ آمرْكَ أنْ تزكِّيَني !(٤) .

وقيلَ لبعضِ الصحابةِ : لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما أبقاكَ اللهُ ، فغضبَ وقالَ : إنِّي لأحسبُكَ عراقياً(٥) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٢٥٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) بنحوه .

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٢/ ٦٩) دون قوله : (ألا لا تمادحوا) .

(٤) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٨٢) قاله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأربد وقد مدحه بهـٰذا .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٤) من زيادات نعيم بن حماد ، والصحابي =

وقالَ بعضُهُمْ لمَّا مُدِحَ : (اللَّهُمَّ ؛ إنَّ عبدَكَ تقرَّبَ إليَّ بمقتِكَ ، فأشهدُكَ علىٰ مقتِهِ)[1] .

وإنَّما كرهوا المدحَ خيفةَ أنْ يفرحوا بمدحِ الخلقِ وهمْ ممقوتونَ عندَ الخالقِ ، فكانَ اشتغالُ قلوبِهِمْ بحالِهِمْ عندَ اللهِ يُبغِّضُ إليهِمْ مدحَ الخلقِ ؛ لأنَّ الممدوحَ على الحقيقةِ هوَ المقرَّبُ إلى اللهِ ، والمذمومَ على الحقيقةِ هوَ المبعَدُ مِنَ اللهِ الملقَىٰ في النارِ معَ الأشرارِ ، فهٰذا الممدوحُ إنْ كانَ عندَ اللهِ مِنْ أهلِ النَّارِ . . فما أعظمَ جهلَهُ إذا فرحَ بمدحِ غيرِهِ ! وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ . . فلا ينبغي أنْ يفرحَ إلا بفضْلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وثنائِهِ عليهِ ؛ إذْ ليسَ أمرُهُ بيدِ الخلقِ ، ومهما علمَ أنَّ الآجالَ والأرزاقَ بيدِ اللهِ تعالىٰ . . قلَّ التفاتُهُ إلىٰ مدحِ الخلقِ وذمِّهِمْ ، وسقطَ مِنْ قلبِهِ حبُّ المدحِ ، واشتغلَ بما يهمُّهُ مِنْ أمرِ دينِهِ ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ برحمتِهِ .

❋ ❋ ❋

= هو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٢) .

بيان علاج كراهة الذّم

قد سبقَ أنَّ العلةَ في كراهةِ الذمِّ هيَ ضدُّ العلةِ في حبِّ المدحِ ، فعلاجُهُ أيضاً يُفهمُ منهُ .

والقولُ الوجيزُ فيهِ : أنَّ مَنْ ذمَّكَ لا يخلو مِنْ ثلاثةِ أحوالٍ : إمَّا أنْ يكونَ قدْ صدقَ فيما قالَ وقصدَ بهِ النصحَ والشفقةَ ، وإمَّا أنْ يكونَ صادقاً ولكنْ قصدُهُ الإيذاءُ والتعنُّتُ ، وإمَّا أنْ يكونَ كاذباً .

＊ ＊ ＊

فإنْ كانَ صادقاً وقصدُهُ النصحُ . . فلا ينبغي أنْ تذمَّهُ وتغضبَ عليهِ وتحقدَ بسببِهِ ، بلْ ينبغي أنْ تتقلَّدَ منَّتَهُ ؛ فإنَّ مَنْ أهدىٰ إليكَ عيوبَكَ . . فقدْ أرشدَكَ إلى المهلِكِ لكَ حتَّىٰ تتقيَهُ ، فينبغي أنْ تفرحَ بهِ ، وتشتغلَ بإزالةِ الصفةِ المذمومةِ عنْ نفسِكَ إنْ قدرتَ عليها ، فأمَّا اغتمامُكَ بسببِهِ وكراهتُكَ لهُ وذمُّكَ إيَّاهُ . . فإنَّهُ غايةُ الجهلِ .

＊ ＊ ＊

وإنْ كانَ قصدُهُ التعنُّتَ . . فأنتَ قدِ انتفعتَ بقولِهِ ؛ إذْ أرشدَكَ إلىٰ عيبِكَ إنْ كنتَ جاهلاً بهِ ، أوْ ذكَّرَكَ عيبَكَ إنْ كنتَ غافلاً عنهُ ، أو قبَّحَهُ في عينِكَ لينبعثَ حرصُكَ علىٰ إزالتِهِ إنْ كنتَ قدِ استحسنتَهُ ، وكلُّ ذلكَ أسبابُ سعادتِكَ ، وقدِ استفدتَهُ منهُ ، فاشتغلْ بطلبِ السعادةِ ، فقدْ

أُتيحَ لكَ أسبابُها بسببِ ما سمعتَهُ مِنَ المذمَّةِ .

فمهما قصدتَ الدخولَ علىٰ ملكٍ وثوبُكَ ملوثٌ بالعَذِرَةِ وأنتَ لا تدري ، ولوْ دخلتَ عليهِ كذلكَ لخفتَ أنْ يحزَّ رقبتَكَ لتلويثِكَ مجلسَهُ بالعذرةِ ، فقالَ لكَ قائلٌ : أيُّها الملوَّثُ بالعذرةِ ؛ طهِّرْ نفسَكَ . . فينبغي أنْ تفرَحَ بهِ ؛ لأنَّ تنبُّهَكَ بقولِهِ غنيمةٌ ، وجميعُ مساوِىءِ الأخلاقِ مهلكةٌ في الآخرةِ ، والإنسانُ إنَّما يعرفُها مِنْ قولِ أعدائِهِ ، فينبغي أنْ تغتنمَهُ .

وأمَّا قصدُ العدوِّ التعنُّتَ . . فجنايةٌ منهُ علىٰ دينِ نفسِهِ ، وهوَ نعمةٌ منهُ عليكَ ، فلِمَ تغضبُ عليهِ بفعلٍ انتفعتَ بهِ أنتَ وتضرَّرَ هوَ بهِ ؟!

* * *

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يفتريَ عليكَ بما أنتَ بريءٌ منهُ عندَ اللهِ تعالىٰ : فينبغي ألا تكرهَ ذلكَ ، ولا تشتغلَ بذمِّهِ ، بلْ تتفكَّرَ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنَّكَ إنْ خلوتَ مِنْ ذلكَ العيبِ . . فلا تخلو مِنْ أمثالِهِ وأشباهِهِ ، وما سترَ اللهُ مِنْ عيوبِكَ أكثرُ ، فاشكرِ اللهَ تعالىٰ إذْ لمْ يطلعْهُ علىٰ عيوبِكَ ، ودفعَهُ عنكَ بذكرِ ما أنتَ بريءٌ منهُ .

والثاني : أنَّ ذلكَ كفاراتٌ لبقيةِ مساوِئِكَ وذنوبِكَ ، فكأنَّهُ رماكَ بعيبٍ أنتَ بريءٌ منهُ ، وطهَّرَكَ عنْ ذنوبٍ أنتَ ملوثٌ بها ، وكلُّ مَنِ اغتابَكَ فقدْ أهدىٰ إليكَ حسناتِهِ ، وكلُّ مَنْ مدحَكَ فقدْ قطعَ ظهرَكَ ، فما بالُكَ تفرحُ

بقطعِ الظهرِ ، وتحزنُ بهدايا الحسناتِ التي تقرِّبُكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأنتَ تزعمُ أنَّكَ تحبُّ القرْبَ مِنَ اللهِ ؟

وأمَّا الثالثُ: فهوَ أنَّ المسكينَ قدْ جنىٰ علىٰ دينِهِ حتَّىٰ سقطَ مِنْ عينِ اللهِ تعالىٰ، وأهلَكَ نفسَهُ بافترائِهِ ، وتعرَّضَ لعقابِهِ الأليمِ ، فلا ينبغي أنْ تغضبَ عليهِ معَ غضبِ اللهِ عليهِ ، فتشمِتَ الشيطانَ بهِ ، وتقولَ : اللهمَّ ؛ أهلكْهُ ، بلْ ينبغي أنْ تقولَ : اللهمَّ ؛ أصلحْهُ ، اللهمَّ ؛ تبْ عليهِ ، اللهمَّ ؛ ارحمْهُ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « اللهمَّ؛ اغفرْ لقومي ، اللهمَّ ؛ اهدِ قومي ، فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »[1] لمّا أنْ كسروا ثنيّتَهُ ، وشجُّوا وجهَهُ ، وقتلُوا عمَّهُ حمزةَ يومَ أحدٍ .

ودعا إبراهيمُ بنُ أدهمَ لمَنْ شجَّ رأسَهُ بالمغفرةِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أعلمُ أنِّي مأجورٌ بسببِهِ ، وما نالَني منهُ إلا خيرٌ ، فلا أرضىٰ أن يكونَ هو معاقباً بسببي[2] .

* * *

وممَّا يهوِّنُ عليكَ كراهةَ المذمَّةِ : قطعُ الطمعِ ؛ فإنَّ مَنِ استغنيتَ عنهُ مهما ذمَّكَ . . لمْ يعظُمْ أثرُ ذلكَ في قلبِكَ ، وأصلُ الدينِ القناعةُ ، وبها

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٣٣٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤١٤).

ينقطعُ الطمعُ عنِ الجاهِ والمالِ ، وما دامَ الطمعُ قائماً كانَ حبُّ الجاهِ والمدحِ في قلبِ مَنْ طمعتَ فيهِ غالباً ، وكانَتْ همتُكَ إلىٰ تحصيلِ المنزلةِ في قلبِهِ مصروفةً ، ولا يُنالُ ذلكَ إلا بهدمِ الدينِ ، فلا ينبغي أنْ يطمعَ طالبُ المالِ والجاهِ ومحبُّ المدحِ ومبغضُ الذمِّ في سلامةِ دينِهِ ، فإنَّ ذلكَ بعيدٌ جداً .

* * *

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم

اعلمْ : أنَّ للناسِ أربعةَ أحوالٍ بالإضافةِ إلى الذَّامِّ والمادحِ :

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يفرحَ بالمدحِ ويشكرَ المادحَ ، ويغضبَ مِن الذَّمِّ ويحقدَ على الذَّامِّ ، ويكافئَهُ أوْ يحبَّ مكافأتَهُ ، وهـٰذا حالُ أكثرِ الخلقِ ، وهوَ غايةُ درجاتِ المعصيةِ في هـٰذا البابِ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يمتعضَ في الباطنِ على الذَّامِّ ، ولكنْ يمسكُ لسانَهُ وجوارحَهُ عنْ مكافأتِهِ ، ويفرحَ باطنُهُ ويرتاحَ للمادحِ ، ولكنْ يحفظُ ظاهرَهُ عنْ إظهارِ السرورِ ، وهـٰذا مِنَ النقصانِ ، إلا أنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ ما قبلَهُ كمالٌ .

* * *

الحالةُ الثالثةُ ـ وهيَ أوَّلُ درجاتِ الكمالِ ـ : أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ، فلا تغمُّهُ المذمَّةُ ، ولا تسرُّهُ المِدْحَةُ ، وهـٰذا قدْ يظنُّهُ بعضُ العبَّادِ بنفسِهِ ، ويكونُ مغروراً إنْ لمْ يمتحنْ نفسَهُ بعلاماتِهِ ، **وعلاماتُهُ** : ألا يجدَ في نفسِهِ استثقالاً للذَّامِّ عندَ تطويلِهِ الجلوسَ عندَهُ أكثرَ ممَّا يجدُهُ في المادحِ ، وألا يجدَ في نفسِهِ زيادةَ هِزَّةٍ ونشاطٍ في قضاءِ حوائجِ المادحِ فوقَ ما يجدُهُ في قضاءِ حوائجِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ انقطاعُ الذَّامِّ عنْ مجلسِهِ أهونَ عليهِ مِنَ

انقطاعِ المادحِ ، وألا يكونَ موتُ المادحِ المطري لهُ أشدَّ نكايةً في قلبهِ مِنْ موتِ الذَّامِّ ، وألا يكونَ غمُّهُ بمصيبةِ المادحِ وما ينالُهُ مِنْ أعدائِهِ أكثرَ ممَّا يكونُ بمصيبةِ الذَّامِّ ، وألا تكونَ زلَّةُ المادحِ أخفَّ علىٰ قلبهِ وفي عينِهِ مِنْ زلَّةِ الذَّامِّ ، فمهما خفَّ الذَّامُّ علىٰ قلبهِ كما خفَّ المادحُ ، واستويا مِنْ كلِّ وجهٍ . . فقدْ نالَ هٰذهِ الرتبةَ ، وما أبعدَ ذلكَ وما أشدَّهُ على القلوبِ !

وأكثرُ العبَّادِ فرحُهُمْ بمدحِ الناسِ لهُمْ مستبطنٌ في قلوبِهِمْ وهمْ لا يشعرونَ ؛ حيثُ لا يمتحنونَ أنفسَهُمْ بهٰذهِ العلاماتِ ، وربَّما يشعرُ العابدُ بميلِ قلبهِ إلى المادحِ دونَ الذَّامِّ ، والشيطانُ يحسِّنُ لهُ ذلكَ ويقولُ : الذَّامُّ قدْ عصى اللهَ بمذمَّتِكَ ، والمادحُ قدْ أطاعَ اللهَ بمدحِكَ ، فكيفَ تسوِّي بينَهُما ؟! وإنَّما استثقالُكَ للذَّامِّ مِنَ الدِّينِ المحضِ .

وهٰذا محضُ التَّلبيسِ ؛ فإنَّ العابدَ لوْ تفكَّرَ . . علمَ أنَّ في الناسِ مَنِ ارتكبَ مِنْ كبائرِ المعاصي أكثرَ ممَّا ارتكبَهُ الذَّامُّ في مذمَّتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ لا يستثقلُهُمْ ولا ينفرُ عنهُمْ ، ويعلمُ أنَّ المادحَ الذي مدحَهُ لا يخلو عنْ مذمَّةِ غيرِهِ ، ولا يجدُ في نفسِهِ نفرةً عنهُ لمذمَّةِ غيرِهِ ؛ كما يجدُ لمذمَّةِ نفسِهِ ، والمذمَّةُ مِنْ حيثُ إنَّها معصيةٌ لا تختلفُ بأنْ يكونَ هوَ المذمومَ أو غيرَهُ .

فإذاً ؛ العابدُ المغرورُ لنفسِهِ يغضبُ ، ولهواهُ يمتعضُ ، ثمَّ الشيطانُ يخيِّلُ إليهِ أنَّهُ مِنَ الدينِ حتَّىٰ يعتدَّ على اللهِ بهواهُ ، فيزيدُهُ ذلكَ بُعداً مِنَ اللهِ ،

ومَنْ لمْ يطَّلعْ علىٰ مكايدِ الشيطانِ وآفاتِ النفوسِ . . فأكثرُ عباداتِهِ تعبٌ ضائعٌ ، يفوِّتُ عليهِ الدنيا ، ويخسرُ في الآخرةِ ، وفيهِمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

❁ ❁ ❁

الحالةُ الرابعةُ ـ وهيَ الصدقُ في العبادةِ ـ : أنْ يكرهَ المدحَ ويمقتَ المادحَ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ فتنةٌ عليهِ قاصمةٌ للظهرِ ، مضرةٌ لهُ في الدِّينِ ، وأنْ يحبَّ الذَّامَّ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ مهدٍ إليهِ عيوبَهُ ، ومرشدٌ لهُ إلىٰ مهمِّهِ ، ومهدٍ إليهِ حسناتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأسُ التَّواضُعِ أنْ تكرهَ أنْ تُذكرَ بالبرِّ والتقوىٰ »(١) .

وقدْ رُويَ في بعضِ الأخبارِ ما هوَ قاصمٌ لظهورِ أمثالِنا إنْ صحَّ ؛ إذْ رُويَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ويلٌ للصائمِ ، وويلٌ للقائمِ ، وويلٌ لصاحبِ الصوفِ إلا »(٢) ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إلا مَنْ ؟ فقالَ : « إلا مَنْ

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٨٠٧) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه : (إن من رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام ، وأن ترضىٰ بالدون من شرف المجلس ، وتكره المدحة والسمعة والرياء بالبرِّ) ، وأورده مرفوعاً من حديث علي رضي الله عنه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٨٥٠٦) ونسب روايته للعسكري ، أما بلفظ المصنف . . فقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٨/ ٢٥٩) .

(٢) في (ج) : (إلا من) بدل (إلا) وحدها .

تنزَّهَتْ نفسُهُ عنِ الدنيا ، وأبغضَ المِدْحةَ ، واستحبَّ المذمَّةَ »[١] ، وهٰذا شديدٌ جداً .

وغايةُ أمثالِنا الطمعُ في الحالةِ الثانيةِ ، وهوَ أنْ يضمِرَ الفرحَ والكراهةَ للذَّامِّ والمادحِ ولا يظهرَ ذلكَ بالقولِ والعملِ ، وأمَّا الحالةُ الثالثةُ ، وهيَ التسويةُ بينَ المادحِ والذامِّ . . فلسنا نطمعُ فيها ، ثمَّ إنْ طالبنا أنفسَنا بعلاماتِ الحالةِ الثانيةِ . . فإنَّها لا تفي بها ؛ فإنَّها لا بدَّ وأنْ تتسارعَ إلىٰ إكرامِ المادحِ وقضاءِ حاجاتِهِ ، وتتثاقلَ عنْ إكرامِ الذَّامِّ والثناءِ عليهِ وقضاءِ حوائجِهِ ، ولا نقدرُ علىٰ أنْ نسوِّيَ بينَهُما في الفعلِ الظاهرِ ، كما لا نقدرُ عليهِ في سريرةِ القلبِ ، ومَنْ قدرَ على التسويةِ بينَ الذَّامِّ والمادحِ في ظاهرِ الفعلِ . . فهوَ جديرٌ بأنْ يُتخذَ قدوةً في هٰذا الزمانِ إنْ وُجدَ ، فإنَّهُ الكبريتُ الأحمرُ يُتحدَّثُ بهِ ولا يُرىٰ ، فكيفَ بما بعدَهُ مِنَ المرتبتينِ ؟!

وكلُّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الرُّتبِ أيضاً فيها درجاتٌ ، أمَّا الدرجاتُ في المدحِ . . فهيَ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يتمنَّى المِدْحةَ والثناءَ وانتشارَ الصِّيتِ ، فيتوصلُ إلىٰ نيلِ ذلكَ بكلِّ ممكنٍ ، حتىٰ يرائي بالعباداتِ ، ولا يبالي بمقارفةِ المحظوراتِ ؛ لاستمالةِ قلوبِ الناسِ ، واستنطاقِ ألسنتِهِمْ بالمدحِ ، وهٰذا مِنَ الهالكينَ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هٰكذا ، وذكر صاحب « الفردوس » من حديث أنس : « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » ، ولم يخرجه ولده في مسنده) . « إتحاف » (٨/ ٢٥٩) .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ ذلكَ ويطلبُهُ بالمباحاتِ ، ولا يطلبُهُ بالعباداتِ ، ولا يباشرُ المحظوراتِ ، وهٰذا علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ ، فإنَّ حدودَ الكلامِ الذي يستميلُ بهِ القلوبَ وحدودَ الأعمالِ لا يمكنُهُ أنْ يضبطَها ، فيوشكُ أنْ يقعَ فيما لا يحلُّ لنيلِ الحمدِ ، فهوَ قريبٌ مِنَ الهالكينَ جداً .

ومنهُمْ مَنْ لا يريدُ المِدْحةَ ولا يسعىٰ لطلبِها ، ولكنْ إذا مُدِحَ . . سبقَ السرورُ إلىٰ قلبِهِ ، فإنْ لمْ يقابلْ ذلكَ بالمجاهدةِ ، ولمْ يتكلَّفِ الكراهةَ . . فهوَ قريبٌ مِنْ أنْ يستجرَّهُ فرطُ السرورِ إلى الرتبةِ التي قبلَها ، وإنْ جاهدَ نفسَهُ في ذلكَ ، وكلَّفَ قلبَهُ الكراهةَ ، وبغَّضَ السرورَ إليهِ بالتفكُّرِ في آفاتِ المدحِ . . فهوَ في خطرِ المجاهدةِ ، فتارةً تكونُ اليدُ لهُ ، وتارةً تكونُ عليهِ .

ومنهُمْ مَنْ إذا سمعَ المدحَ . . لمْ يُسرَّ ولمْ يغتمَّ ، ولكنْ لمْ يؤثرْ فيهِ ، وهٰذا علىٰ خيرٍ ، وإنْ كانَ قدْ بقيَ عليهِ بقيةٌ مِنَ الإخلاصِ[1] .

ومنهُمْ مَنْ يكرهُ المدحَ إذا سمعَهُ ، ولكنْ لا ينتهي بهِ إلىٰ أنْ يغضبَ على المادحِ وينكرَ عليهِ .

وأقصىٰ درجاتِهِ أنْ يكرَهَ ويغضبَ ، ويُظهِرَ الغضبَ وهوَ صادقٌ فيهِ ، لا أنْ يُظهِرَ الغضبَ وقلبُهُ محبٌّ للمدحِ ، فإنَّ ذلكَ عينُ النفاقِ ؛ لأنَّهُ يريدُ أنْ يظهِرَ مِنْ نفسِهِ الإخلاصَ والصدقَ ، وهوَ مفلسٌ منهُ .

وكذلكَ بالضِّدِّ مِنْ هٰذا تتفاوتُ الأحوالُ في حقِّ الذَّامِّ ، وأولُ درجاتِهِ

---

(١) بسبب عدم اغتمامه . « إتحاف » (٨/ ٢٦٠) .

إظهارُ الغضبِ ، وآخرُها إظهارُ الفرحِ ، ولا يكونُ الفرحُ وإظهارُهُ إلا ممَّنْ في قلبِهِ حَنَقٌ وحقدٌ علىٰ نفسِهِ ؛ لتمرُّدِها عليهِ ولكثرةِ عيوبِها ومواعيدِها الكاذبةِ وتلبيساتِها الخبيثةِ ، فيبغضُها بغضَ العدوِّ ، والإنسانُ يفرحُ بمَنْ يذمُّ عدوَّهُ ، وهـٰذا شخصٌ عدوُّهُ نفسُهُ ، فيفرحُ إذا سمعَ ذمَّها ، ويشكرُ الذَّامَّ علىٰ ذلكَ ، ويعتقدُ فطنتَهُ وذكاءَهُ ؛ لما وقفَ عليهِ مِنْ عيوبِ نفسِهِ ، فيكونُ ذلكَ كالتَّشفِّي لهُ مِنْ نفسِهِ ، ويكونُ غنيمةً عندَهُ ؛ إذْ صارَ بالمذمَّةِ أوضعَ في أعينِ الناسِ ، حتَّىٰ لا يُبتلىٰ بفتنةِ الجاهِ ، وإذا سيقَتْ إليهِ حسناتٌ لمْ ينصبْ فيها ، فعساهُ يكونُ جبراً لعيوبِهِ التي هوَ عاجزٌ عنْ إماطتِها ، ولوْ جاهدَ المريدُ نفسَهُ طولَ عمرِهِ في هـٰذه الخصلةِ الواحدةِ ، وهيَ أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ . . لكانَ لهُ شغلٌ شاغلٌ فيهِ لا يتفرَّغُ معَهُ لغيرِهِ ، وبينَهُ وبينَ السعادةِ عقباتٌ كثيرةٌ ، هـٰذهِ إحداها ، ولا يقطعُ شيئاً منها إلا بالمجاهدةِ الشديدةِ في العمرِ الطويلِ .

* * *

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات
وهو الرِّياء

وفيهِ بيانُ ذمِّ الرياءِ ، وبيانُ حقيقةِ الرياءِ وما يُراءىٰ بهِ ، وبيانُ درجاتِ الرياءِ ، وبيانُ الرياءِ الخفيِّ ، وبيانُ ما يحبطُ العملَ مِنَ الرياءِ وما لا يحبطُ ، وبيانُ دواءِ الرياءِ وعلاجِهِ ، وبيانُ الرخصةِ في إظهارِ الطاعاتِ ، وبيانُ الرخصةِ في كتمانِ الذنوبِ ، وبيانُ تركِ الطاعاتِ خوفاً مِنَ الرياءِ والآفاتِ ، وبيانُ ما يصحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ للعبادةِ بسببِ رؤيةِ الخلقِ وما لا يصحُّ ، وبيانُ ما يجبُ على المريدِ أنْ يُلزِمَهُ قلبَهُ قبلَ الطاعةِ وبعدَها ، وهيَ أحدَ عشرَ فصلاً .

بيان ذمّ الرِّياء

اعلمْ : أنَّ الرياءَ حرامٌ ، والمرائيَ عندَ اللهِ ممقوتٌ ، وقدْ شهدَتْ لذلكَ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ .

أمّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، قالَ مجاهدٌ : (همْ أهلُ الرياءِ)(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ ، فمدحَ المخلصينَ بنفيِ كلِّ إرادةٍ سوىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، والرياءُ هوَ ضدُّهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ، نزلَتْ فيمَنْ يطلبُ الأجرَ والحمدَ بعباداتِهِ وأعمالِهِ(٢) .

* * *

وأمّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ سألَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فيمَ النجاةُ ؟ فقالَ : « ألا يعملَ العبدُ بطاعةِ اللهِ يريدُ بها الناسَ »(٣) .

وروىٰ أبو هريرةَ في حديثِ الثلاثةِ ، المقتولِ في سبيلِ اللهِ ، والمتصدِّقِ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص١٦١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١) من زيادات نعيم بن حماد ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٢/ ١٤٧) عن شهر بن حوشب .

(٢) كما روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١١١) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص١٦١) ، وعند السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ٧٤) : (أخرج أحمد بن منيع في « مسنده » بسند ضعيف عن رجل من الصحابة : أن قائلاً من المسلمين قال : يا رسول الله ؛ ما النجاة غداً ؟ قال : « لا تخادع الله » ، قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : « أن تعمل بما أمرك به تريد به غيره ، فاتقوا الله فإنه الشرك بالله . . . ») ، وسيأتي بتمامه .

بمالِهِ ، والقارئِ لكتابِ اللهِ ؛ كما أوردناهُ في كتابِ الإخلاصِ ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ : « كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ شجاعٌ ، كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ قارئٌ » ، فأخبرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُمْ لمْ يُثابوا ، وأنَّ رياءَهُمْ هوَ الذي أحبطَ أعمالَهُمْ[1] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ راءىٰ . . راءى اللهُ بهِ ، ومَنْ سمَّعَ . . سمَّعَ اللهُ بهِ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ طويلٍ : « أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : إنَّ هـٰذا لمْ يردْني بعملِهِ ، فاجعلوهُ في سجِّينٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُمُ الشركُ الأصغرُ » ، قالوا : وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « الرياءُ ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إذا جازى العبادَ بأعمالِهِمْ : اذهبوا إلى الذينَ

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، وسيأتي بتمامه .

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه ، ورواه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كما أورده المصنف ابن المبارك في « الزهد » (١٤١) بلفظ : « من سمع الناس . . سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » ، قال : فذرفت عينا ابن عمر رضي الله عنهما ، وبلفظ المصنف عن عبد الله بن عمرو بن العاص هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص١٦١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥٢٠) من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً .

كنتُمْ تراؤُونَ في الدنيا فانظروا هلْ تجدونَ عندَهُمُ الجزاءَ ؟ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استعيذوا باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ جُبِّ الحَزَنِ » ، قيلَ : وما هوَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وادٍ في جهنَّمَ أُعدَّ للقُرَّاءِ المرائينَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ عَمِلَ لي عملاً أشركَ فيهِ غيري . . فهوَ لهُ كلُّهُ ، وأنا منهُ بريءٌ ، وأنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ »[3].

وقالَ عيسى المسيحُ عليهِ السلامُ : (إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُمْ . . فليدهنْ رأسَهُ ولحيتَهُ ويمسحْ شفتيهِ ؛ لئلا يرى الناسُ أنَّهُ صائمٌ ، وإذا أعطىٰ بيمينِهِ . . فليُخفِ عنْ شمالِهِ ، وإذا صلَّىٰ . . فليرخِ سترَ بابِهِ ؛ فإنَّ اللهَ يقسمُ الثناءَ كما يقسمُ الرزقَ)[4] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عملاً فيهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ رياءٍ »[5] .

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٥/٤٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بتقديم وتأخير .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٤٠) من كلام يوسف بن أسباط ، أما مرفوعاً . . فقد قال الحافظ العراقي : (لم أجده هكذا) . « إتحاف » (٨/٢٦٣) .

وقالَ عمرُ لمعاذِ بنِ جبلٍ حين رآهُ يبكي : ما يُبكيكَ ؟ قالَ حديثٌ سمعتُهُ مِنْ صاحبِ هـٰذا القبرِ ـ يعني : النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ يقولُ : « إنَّ أدنى الرياءِ شركٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخوفُ ما أخافُ عليكُمُ الرياءُ والشهوَةُ الخفيَّةُ »(٢) ، وهيَ : أيضاً ترجعُ إلىٰ خفايا الرياءِ ودقائقِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في ظلِّ العرشِ يومَ لاظلَّ إلا ظلُّهُ رجلاً تصدَّقَ بيمينِهِ فكادَ أنْ يخفيَها عنْ شمالِهِ »(٣) .

ولذلكَ وردَ أنَّ فضلَ عملِ السِّرِّ علىٰ عملِ الجهرِ سبعونَ ضعفاً(٤) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المرائيَ يُنادىٰ يومَ القيامةِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ ضلَّ عملُكَ ، وحبِطَ أجرُكَ ، اذهبْ فخُذْ أجركَ ممَّنْ كنتَ تعملُ لهُ »(٥) .

---

(١) كذا رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٦) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣١٦) ، وروى ابن ماجه (٤٢٠٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الإشراك بالله ؛ أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » .

(٣) هو جزء من حديث رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) بنحوه .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .

(٥) رواه أبو الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٣) ، وليس فيه لفظ : (يا مرائي) .

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي ، فقلتُ : ما يُبكيكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « إنِّي تخوَّفتُ علىٰ أمَّتي الشركَ ، أما إنَّهُمْ لا يعبدونَ صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ، ولكنَّهُمْ يراؤونَ بأعمالِهِمْ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ . . مادَتْ بأهلِها ، فخلَقَ الجبالَ فصيَّرها أوتاداً للأرضِ ، فقالَتِ الملائكةُ : ما خلقَ ربُّنا خلقاً هوَ أشدُّ مِنَ الجبالِ ، فخلقَ اللهُ الحديدَ فقطعَ الجبالَ ، ثمَّ خلقَ النارَ فأذابتِ الحديدَ ، ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى الماءَ فأطفأَ النارَ ، وأمرَ الريحَ فكدَّرتِ الماءَ ، فاختلفَتِ الملائكةُ ، فقالَتْ : نسألُ اللهَ تعالىٰ ، فقالَتْ : يا ربُّ ؛ ما أشدُّ ما خلقتَ مِنْ خلقِكَ ؟ فقالَ اللهُ تعالىٰ : لمْ أخلقْ خلقاً هوَ أشدُّ مِنِ ابنِ آدمَ حينَ يتصدَّقُ بصدقةٍ بيمينِهِ فيخفيها عنْ شمالِهِ ، فهوَ أشدُّ خلقٍ خلقتُهُ »[٢] .

وروىٰ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ بإسنادِهِ عنْ رجلٍ أنَّهُ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : حدِّثْني حديثاً سمعتَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : قالَ : فبكىٰ معاذٌ حتَّىٰ ظننتُ أنَّهُ لا يسكتُ ، ثمَّ سكتَ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لي : « يا معاذُ » ؛ قلتُ : لبَّيكَ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ، قالَ : « إنِّي محدِّثُكَ حديثاً إنْ أنتَ حفظتَهُ . . نفعَكَ ، وإنْ أنتَ

---

(١) كذا في « الرعاية » (١٦٤) ، وقد تقدم قريباً .
(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٩) بألفاظ مقاربة .

ضيَّعتَهُ ولمْ تحفظْهُ . . انقطعَتْ حجَّتُكَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ ، يا معاذُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ خلَقَ سبعةَ أملاكٍ قبلَ أنْ يخلقَ السماواتِ والأرضَ ، ثمَّ خلقَ السماواتِ ، فجعلَ لكلِّ سماءٍ مِنَ السَّبعةِ ملكاً بوَّاباً عليها قدْ جلَّلَها عظماً ، فتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ مِنْ حينَ أصبحَ إلىٰ أنْ يمسيَ ، لهُ نورٌ كنورِ الشمسِ ، حتَّىٰ إذا صعدَتْ بهِ إلى السماءِ الدنيا . . زكَّتْهُ فكثَّرتْهُ ، فيقولُ الملَكُ للحفظَةِ : اضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، أنا صاحبُ الغيبةِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَ مَنِ اغتابَ الناسَ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : ثمَّ تأتي الحفظةُ بعملٍ صالحٍ مِنْ أعمالِ العبدِ فتمرُّ فتزكِّيهِ وتكثِّرُهُ ، حتَّىٰ تبلغَ بهِ إلى السماءِ الثانيةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بالسماءِ الثانيةِ : قفوا واضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ؛ إنَّهُ أرادَ بعملِهِ هـٰذا عرضَ الدنيا ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّه كانَ يفتخرُ على الناسِ في مجالسِهِمْ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يبتهجُ نوراً ؛ مِنْ صدقةٍ وصيامٍ وصلاةٍ قدْ أعجبَ الحفظةَ ، فيجاوزونَ بهِ إلى السماءِ الثالثةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، أنا ملَكُ الكِبْرِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّهُ كانَ يتكبَّرُ على الناسِ في مجالسِهِمْ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يزهرُ كما يزهرُ الكوكبُ الدرِّيُّ ، لهُ

دويٌّ مِنْ تسبيحٍ وصلاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ حتَّىٰ يجاوزوا بهِ إلى السماءِ الرابعةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، اضربوا بهِ ظهرَهُ وبطنَهُ ، أنا صاحبُ العُجْبِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّهُ كانَ إذا عملَ عملاً . . أدخلَ العُجْبَ في عملِهِ .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ حتَّىٰ يجاوزوا بهِ إلى السماءِ الخامسةِ ؛ كأنَّهُ العروسُ المزفوفةُ إلىٰ أهلِها ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، واحملوهُ علىٰ عاتقِهِ ، أنا ملَكُ الحسدِ ؛ إنَّهُ كانَ يحسدُ الناسَ مَنْ يتعلَّمُ ويعملُ بمثلِ عملِهِ ، وكلَّ مَنْ كانَ يأخذُ فضلاً مِنَ العبادةِ يحسدُهُمْ ويقعُ فيهِمْ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وصيامٍ ، فيجاوزونَ بها إلى السماءِ السادسةِ ، فيقولُ لهمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ؛ إنَّهُ كانَ لا يرحمُ إنساناً قطُّ مِنْ عبادِ اللهِ أصابَهُ بلاءٌ أوْ ضُرٌّ أضرَّ بهِ ، بلْ كانَ يشمتُ بهِ ، أنا ملَكُ الرحمةِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ إلى السماءِ السابعةِ ؛ مِنْ صومٍ وصلاةٍ ونفقةٍ وزكاةٍ واجتهادٍ وورعٍ ، لهُ دويٌّ كدويِّ الرعدِ ، وضوءٌ كضوءِ الشمسِ ، معَهُ ثلاثةُ آلافِ ملَكٍ ، فيجاوزونَ بهِ إلى السماءِ السابعةِ ، فيقولُ لهُمُ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ ، واضربوا

بِهِ جوارحَهُ ، اقفلوا علىٰ قلبِهِ ؛ إنِّي أحجُبُ عنْ ربِّي كلَّ عملٍ لمْ يُرَدْ بهِ وجهُ ربِّي ؛ إنَّهُ أرادَ بعملِهِ غيرَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّهُ أرادَ رفعةً عندَ الفقهاءِ ، وذكراً عندَ العلماءِ ، وصيتاً[1] في المدائنِ ، أمرَني ربِّي ألا أدعَ عملَهُ يجاوزُني إلىٰ غيري ، وكلُّ عملٍ لمْ يكنْ للهِ تعالىٰ خالصاً فهوَ رياءٌ ، ولا يقبلُ اللهُ تعالىٰ عملَ المرائي .

قالَ : وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ مِنْ صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ ، وعمرةٍ وخُلُقٍ حسنٍ وصمتٍ وذكرٍ للهِ تعالىٰ ، وتشيِّعُهُ ملائكةُ السماواتِ حتَّىٰ يقطعوا بهِ الحجُبَ كلَّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيقفونَ بينَ يديهِ ويشهدونَ لهُ بالعملِ الصَّالحِ المخلصِ للهِ تعالىٰ ، قالَ : فيقولُ اللهُ لهُمْ : أنتُمُ الحفظةُ علىٰ عملِ عبدي وأنا الرقيبُ علىٰ نفسِهِ ؛ إنَّهُ لمْ يردْني بهـٰذا العملِ ، وأرادَ بهِ غيري ، فعليهِ لعنتي ، فتقولُ الملائكةُ كلُّها : عليهِ لعنتُكَ ولعنتُنا ، وتقولُ السماواتُ كلُّها : عليهِ لعنةُ اللهِ ولعنتُنا ، وتَلعنُهُ السماواتُ السبعُ ومَنْ فيهنَّ » ، قالَ معاذٌ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وأنا معاذٌ ، قالَ : « اقتدِ بي وإنْ كانَ في عمرِكَ نقصٌ[2] ، يا معاذُ ؛ حافظْ علىٰ لسانِكَ مِنَ الوقيعةِ في إخوانِكَ مِنْ حملةِ القرآنِ ، واحملْ ذنوبَكَ عليكَ ، ولا تحملْها عليهِمْ ، ولا تزكِّ نفسَكَ بذمِّهِمْ ، ولا ترفعْ نفسَكَ عليهِمْ ، ولا تُدخِلْ عملَ الدنيا في عملِ الآخرةِ ، ولا تتكبَّرْ في مجلسِكَ لكي يحذرَ

---

(١) في (ب) : (وصوتاً) .

(٢) في غير (ك) : (تقصير) بدل (نقص) ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٢٦٦) : (عملك) بدل (عمرك) .

الناسُ مِنْ سوءِ خُلُقِكَ ، ولا تناجِ رجلاً وعندكَ آخرُ ، ولا تتعظَّمْ على الناسِ فينقطعَ عنكَ خيرُ الدنيا ، ولا تمزِّقِ الناسَ فتمزِّقَكَ كلابُ النارِ يومَ القيامةِ في النارِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴾ ، أتدري ما هيَ يا معاذُ ؟ » قلتُ : ما هيَ بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كلابٌ في النارِ تنشُطُ اللحمَ والعظمَ » ، قلتُ : بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فمَنْ يطيقُ هـٰذهِ الخصالَ ؟ ومَنْ ينجو مِنْها ؟ قالَ : « يا معاذُ ؛ إنَّهُ ليسيرٌ علىٰ مَنْ يسَّرَهُ اللهُ عليهِ » ، قالَ : فما رأيتُ أكثرَ تلاوةً للقرآنِ مِنْ معاذٍ ؛ للحذرِ ممَّا في هـٰذا الحديثِ[1] .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الآثارُ :

فيُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ رأىٰ رجلاً يطأطئُ رقبتَهُ ، فقالَ : (يا صاحبَ الرقبةِ ؛ ارفعْ رقبتَكَ ، ليسَ الخشوعُ في الرِّقابِ ، وإنَّما الخشوعُ في القلوبِ)[2] .

ورأىٰ أبو أمامةَ الباهليُّ رجلاً في المسجدِ يبكي في سجودِهِ ، فقالَ : (أنتَ أنتَ ؛ لوْ كانَ هـٰذا في بيتِكَ)[3] .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (هو كما قال المصنف ، رواه ابن المبارك بطوله في الزهد له ، وفي إسناده ـ كما ذكر ـ رجل ، ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » [٢/ ٣٣٩]) . « إتحاف » (٨/ ٢٦٦) وزاد : (وبخط الكمال الدميري : قال الشيخ تقي الدين القشيري : الرجل المذكور هو خالد بن معدان) .

(٢) أورده الإسماعيلي في « مناقبه » . « إتحاف » (٨/ ٢٦٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (للمُرائي أربعُ علاماتٍ : يكسلُ إذا كانَ وحدَهُ ، وينشطُ إذا كانَ في الناسِ ، ويزيدُ في العملِ إذا أُثنيَ عليهِ ، وينقصُ إذا ذُمَّ)(١) .

وقالَ رجلٌ لعبادةَ بنِ الصامتِ : أقاتلُ بسيفي في سبيلِ اللهِ أريدُ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ ومحمدةَ الناسِ ؟ قالَ : لا شيءَ لكَ ، فسألَهُ ثلاثَ مراتٍ ، كلَّ ذلكَ يقولُ : لا شيءَ لكَ ، ثمَّ قالَ في الثالثةِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ . . . » الحديثَ(٢) .

وسألَ رجلٌ سعيدَ بنَ المسيَّبِ فقالَ : أحدُنا يصطنعُ المعروفَ يحبُّ أنْ يُحمدَ ويُؤجرَ ، فقالَ لهُ : أتحبُّ أنْ تُمقتَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإذا عملتَ للهِ عملاً . . فأخلصْهُ(٣) .

وقالَ الضحاكُ : (لا يقولَنَّ أحدُكُمْ : هـٰذا لوجهِ اللهِ ولوجهِكَ ، ولا يقلْ : هـٰذا للهِ وللرحمِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا شريكَ لهُ)(٤) .

---

(١) كذا أورده الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٠) ، ورواه بنحوه عن أبي سليمان الداراني الثعلبيُّ في « تفسيره » (٢/٧) وفيه لفظ (ثلاث علامات) ولم يذكر الأخيرة .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص١٦٦) ، وروى الحديث مرفوعاً مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٥) ، والسائل هو ابن أبي مغيث .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٧) ، ورواه عنه الدارقطني في « سننه » (١/ ٥١) مرفوعاً .

وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رجلاً بالدِّرَّةِ ، ثمَّ قالَ لهُ : اقتصَّها منِّي ، فقالَ : لا ، بلْ أدعُها للهِ ولكَ ، فقالَ لهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ما صنعتَ شيئاً ، إمَّا أنْ تدعَها لي فأعرفَ ذلكَ لكَ ، أوْ تدعَها للهِ وحدَهُ ، فقالَ : ودعتُها للهِ وحدَهُ ، فقالَ : فنعمْ إذاً[1] .

وقالَ الحسنُ : (لقدْ صحبتُ أقواماً إنْ كانَ أحدُهُمْ لتعرضُ لهُ الحكمةُ ، لوْ نطقَ بها . لنفعَتْهُ ونفعَتْ أصحابَهُ ، وما يمنعُهُ منها إلا مخافةُ الشهرةِ ، وإنْ كانَ أحدُهُمْ ليمرُّ فيرى الأذىٰ على الطريقِ ، فما يمنعُهُ أنْ ينحيَهِ إلا مخافةُ الشهرةِ)[2] .

ويُقالُ : (إنَّ المرائيَ يُنادىٰ يومَ القيامةِ بأربعةِ أسماءٍ : يا مرائي ، يا غادرُ ، يا فاجرُ ، يا خاسرُ ؛ اذهبْ فخذْ أجركَ ممَّنْ عملتَ لهُ ، فلا أجرَ لكَ عندَنا)[3] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (كانوا يراؤونَ بما يعملونَ ، وصاروا اليومَ يراؤونَ بما لا يعملونَ)[4] .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٦٦) ، وقد رواه ضمن خبر طويل ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٩١) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص١٦٣) ، ورواه الليث السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص٣٣) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/ ٢٦٨) .

وقالَ عكرمةُ : (إنَّ اللهَ يعطي العبدَ علىٰ نيَّتِهِ ما لا يعطيهِ علىٰ عملِهِ ؛ لأنَّ النيةَ لا رياءَ فيها)[١] .

وقالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ : (المُرائي يريدُ أنْ يغلبَ قدرَ اللهِ تعالىٰ ، هوَ رجلُ سوءٍ يريدُ أنْ يقولَ الناسُ : هوَ رجلٌ صالحٌ ، وكيفَ يقولونَ وقدْ حلَّ مِنْ ربِّهِ محلَّ الأردياءِ ، فلا بدَّ لقلوبِ المؤمنينَ أنْ تعرفَهُ ؟!)[٢] .

وقالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ : انظروا إلىٰ عبدي يستهزئُ بي)[٣] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (القراءُ ثلاثةٌ : قراءُ الرحمـٰنِ ، وقراءُ الدنيا ، وقراءُ الملوكِ ، وإنَّ محمدَ بنَ واسعٍ مِنْ قراءِ الرحمـٰنِ)[٤] .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ مُراءٍ . . فلينظرْ إليَّ) .

وقالَ محمدُ بنُ المباركِ الصوريُّ : (أظهرِ السمتَ بالليلِ ؛ فإنَّهُ أشرفُ مِنْ سمتِكَ بالنهارِ ؛ لأنَّ السمتَ بالنهارِ للمخلوقينَ ، وسمتُ الليلِ لربِّ العالمينَ) .

---

(١) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٤٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٨/٢٦٨) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٩٣) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٥) .

وقالَ أبو سليمانَ : (التوقِّي عنِ العملِ أشدُّ مِنَ العملِ)[1] .

وقالَ ابنُ المباركِ : إنْ كانَ الرجلُ ليطوفُ بالبيتِ وهوَ بخراسانَ ، قيلَ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : يحبُّ أنْ يُذكرَ أنَّهُ مجاورٌ بمكةَ .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (ما صدقَ اللهَ مَنْ أرادَ أنْ يشتهرَ)[2] .

* * *

---

(١) روي مرفوعاً بنحوه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) من حديث أبي الدرداء : « إن الاتقاء على العمل أشد من العمل . . . » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٧٦) .

بيان حقيقة الرياء وما يُراءى به

اعلمْ : أنَّ الرياءَ مشتقٌّ مِنَ الرؤيةِ ، والسمعةَ مشتقَّةٌ مِنَ السماعِ ، وإنَّما الرياءُ أصلُهُ طلبُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ بإيرائِهِمْ خصالَ الخيرِ ، إلا أنَّ الجاهَ والمنزلةَ تُطلبُ في القلبِ بأعمالِ سوى العباداتِ ، وتُطلبُ بالعباداتِ .

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها .

فحدُّ الرياءِ : هوَ إرادةُ العبادِ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فالمُرائِي هوَ العابدُ ، والمُراءَىٰ لهُ هُمُ الناسُ المطلوبُ رؤيتُهُمْ بطلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، والمُراءىٰ بهِ هيَ الخصالُ التي قصدَ المُرائي إظهارَها ، والرياءُ هوَ قصدُهُ إظهارَ ذلكَ .

والمُراءىٰ بهِ كثيرٌ ، تجمعُهُ خمسةُ أقسامٍ ، هيَ مجامعُ ما يتزيَّنُ العبدُ بهِ للناسِ ، وهوَ البدنُ ، والزيُّ ، والقولُ ، والعملُ ، والأتباعُ والأشياءُ الخارجةُ ، وكذلكَ أهلُ الدنيا يراؤونَ بهٰذهِ الأسبابِ الخمسةِ ، إلا أنَّ طلبَ الجاهِ وقصدَ الرياءِ بأعمالٍ ليسَتْ مِنْ جملةِ الطاعاتِ أهونُ مِنَ الرياءِ بالطاعاتِ .

الأولُ : الرياءُ في الدينِ مِنْ جهةِ البدنِ :

وذلكَ بإظهارِ النحولِ والاصفرارِ ؛ ليوهمَ بذلكَ شدَّةَ الاجتهادِ ، وعظمَ الحزنِ علىٰ أمرِ الدينِ ، وغلبةَ خوفِ الآخرةِ ، وليدلَّ بالنحولِ علىٰ قلَّةِ الأكلِ ، وبالاصفرارِ علىٰ سهرِ الليلِ ، وكثرةِ الاجتهادِ ، وعظمِ الحزنِ في الدينِ .

وكذلكَ يرائي بتشعيثِ الشعرِ ؛ ليدلَّ بهِ على استغراقِ الهمِّ بالدينِ ، وعدمِ التفرُّغِ لتسريحِ الشعرِ .

وهـٰذِه أسبابٌ مهما ظهرَتْ . . استدلَّ الناسُ بها علىٰ هـٰذهِ الأمورِ ، فارتاحَتِ النَّفسُ لمعرفتِهِمْ ؛ فلذلكَ تدعو النفسُ إلىٰ إظهارِها ؛ لنيلِ تلكَ الراحةِ .

ويقربُ مِنْ هـٰذا خفضُ الصوتِ ، وغورُ العينينِ ، وذبولُ الشفتينِ ؛ ليُستدلَّ بذلكَ علىٰ أنَّهُ مواظبٌ على الصومِ ، وأنَّ وقارَ الشرعِ هوَ الذي خفضَ مِنْ صوتِهِ ، أوْ ضعْفَ الجوعِ هوَ الذي أضعفَ قوَّتَهُ .

وعنْ هـٰذا قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا صامَ أحدُكُمْ . . فليدهنْ رأسَهُ ، ويرجِّلْ شعرَهُ ، ويكحلْ عينيهِ)(١) .

وكذلكَ رُويَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ(٢) ، وذلكَ كلُّه لما يُخافُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠) بنحوه .

(٢) كما أشار إلىٰ ذلك في « الرعاية » (ص١٧٩) .

عليهِ مِنْ نزغِ الشيطانِ بالرياءِ ، ولذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (أصبحوا صياماً مدَّهنينَ)[(١)] .

فهٰذهِ مراءاةُ أهلِ الدينِ بالبدنِ ، فأمَّا أهلُ الدنيا . . فيراؤونَ بإظهارِ السمنِ ، وصفاءِ اللونِ ، واعتدالِ القامةِ ، وحسنِ الوجهِ ، ونظافةِ البدنِ ، وقوةِ الأعضاءِ وتناسبِها[(٢)] .

❊ ❊ ❊

الثاني : الرياءُ بالزِّيِّ والهيئةِ :

أمَّا الهيئةُ . . فتشعيثُ شعرِ الرأسِ ، وحلقُ الشاربِ ، وإطراقُ الرأسِ في المشيِ ، والهدوءُ في الحركةِ ، وإبقاءُ أثرِ السجودِ على الوجهِ ، وغلظُ الثيابِ ، ولبسُ الصوفِ ، وتشميرُها إلىٰ قريبٍ مِنْ نصفِ السَّاقِ ، وتقصيرُ الأكمامِ ، وتركُ تنظيفِ الثوبِ ، وتركُهُ مخرقاً ، كلُّ ذلكَ يُرائي بهِ ؛ ليظهرَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ متَّبعٌ للسنَّةِ فيهِ ، ومقتدٍ فيهِ بعبادِ اللهِ الصالحينَ .

ومنهُ : لبسُ المرقَّعِ ، والصلاةُ على السجادةِ ، ولبسُ الثيابِ الزرْقِ تشبُّهاً بالصوفيَّةِ معَ الإفلاسِ مِنْ حقائقِ التصوُّفِ في الباطنِ .

ومنهُ : التقنُّعُ بالإزارِ فوقَ العمامةِ ، وإسبالُ الرداءِ على العينينِ ؛ ليُرىٰ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٧٩) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٦) .
(٢) الرعاية (ص١٨٠) .

بِهِ أَنَّهُ انتهىٰ تقشُّفُهُ إلى الحذرِ مِنْ غبارِ الطريقِ ، ولتنصرفَ إليهِ الأعينُ بسببِ تميُّزِهِ بتلكَ العلامةِ .

ومنهُ الدُّرَّاعةُ والطَّيلسانُ يلبسُهُ مَنْ هوَ خالٍ عنِ العلمِ ؛ ليوهمَ أَنَّهُ مِنْ أهلِ العلمِ .

والمراؤونَ بالزِّيِّ علىٰ طبقاتٍ ؛ فمِنهُمْ مَنْ يطلبُ المنزلةَ عندَ أهلِ الصلاحِ بإظهارِ الزهدِ ، فيلبسُ الثيابَ المخرَّقةَ الوسخةَ القصيرةَ الغليظةَ ؛ ليرائيَ بغلظِها ووسخِها وقصرِها وتخرُّقِها أَنَّهُ غيرُ مكترثٍ بالدنيا ، ولوْ كُلِّفَ أنْ يلبسَ ثوباً وسطاً نظيفاً ممَّا كانَ السلفُ يلبسُهُ . . لكانَ ذلكَ عندَهُ بمنزلةِ الذبحِ ؛ وذلكَ لخوفِهِ أنْ يقولَ الناسُ : قدْ بدا لهُ مِنَ الزهدِ ، ورجعَ عنْ تلكَ الطريقةِ ، ورغبَ في الدنيا .

وطبقةٌ أخرىٰ يطلبونَ القبولَ عندَ أهلِ الصلاحِ ، وعندَ أهلِ الدنيا مِنَ الملوكِ والوزراءِ والتجارِ ، ولوْ لبسوا الثيابَ الفاخرةَ . . ردَّهُمُ القرَّاءُ ، ولوْ لبسوا الثيابَ المخرَّقةَ الخلَقَةَ . . ازدرتْهُمْ أعينُ الملوكِ والأغنياءِ ، فهُمْ يريدونَ الجمعَ بينَ قبولِ أهلِ الدينِ والدنيا ، فلذلكَ يطلبونَ الأصوافَ الرقيقةَ ، والأكسيةَ الرفيعةَ ، والمرقعاتِ المصبوغةَ ، والفوطَ الرفيعةَ فيلبسونَها ، ولعلَّ قيمةَ ثوبِ أحدِهِمْ قيمةُ ثوبِ الأغنياءِ ، ولونُهُ وهيئتُهُ لونُ ثيابِ الصلحاءِ ، فيلتمسونَ القبولَ عندَ الفريقينِ ، وهؤلاءِ لوْ كُلِّفوا لبسَ ثوبٍ خشنٍ أوْ وسخٍ . . لكانَ عندَهُمْ كالذبحِ ؛ خوفاً مِنَ السقوطِ مِنْ أعينِ

الملوكِ والأغنياءِ ، ولوْ كُلِّفوا لبسَ الدَّيْبَقيِّ والكتَّانِ الرقيقِ الأبيضِ[1] ، والقصبِ المعلَّمِ ، وإنْ كانَتْ قيمتُهُ دونَ قيمةِ ثيابِهِمْ . . لعَظُمَ ذلكَ عليهِمْ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يقولَ أهلُ الصلاحِ : قدْ رغبوا في زيِّ أهلِ الدنيا ، وكلُّ طبقةٍ منهُمْ رأىٰ منزلتَهُ في زيٍّ مخصوصٍ ، فيثقلُ عليهِ الانتقالُ إلىٰ ما دونَهُ ، أوْ إلىٰ ما فوقَهُ وإنْ كانَ مباحاً ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالثيابِ النفيسةِ ، والمراكبِ الرفيعةِ ، وأنواعِ التوسعِ والتجمُّلِ في الملبسِ والمسكنِ وأثاثِ البيتِ وفرهِ الخيولِ ، وبالثيابِ المصبغةِ والطيالسةِ النفيسةِ ، وذلكَ ظاهرٌ بينَ الناسِ ، فإنَّهُمْ يلبسونَ في بيوتِهِمُ الثيابَ الخشنةَ ، ويشتدُّ عليهِمْ لوْ برزوا للناسِ علىٰ تلكَ الهيئةِ ما لمْ يبالغوا في الزينةِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : الرياءُ بالقولِ :

ورياءُ أهلِ الدينِ بالوعظِ ، والتذكيرِ ، والنطقِ بالحكمةِ ، وحفظِ الأخبارِ والآثارِ لأجلِ الاستعمالِ في المحاورةِ ؛ إظهاراً لغزارةِ العلمِ ، ودلالةً علىٰ شدَّةِ العنايةِ بأحوالِ السلفِ الصالحينَ ، وتحريكِ الشفتينِ بالذكرِ في محضرِ الناسِ ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ بمشهدِ الخلقِ ، وإظهارِ

---

(١) **الديبقي** : منسوب إلىٰ ديبق ، وهي من قرىٰ دمياط ، قد خربت منذ زمان ، كان يعمل فيها هـٰذه الثياب المنسوجة بالحرير . « إتحاف » (٨/ ٢٧٠) .

الغضبِ للمنكراتِ ، وإظهارِ الأسفِ علىٰ مقارفةِ الناسِ للمعاصي ، وتضعيفِ الصوتِ في الكلامِ ، وترقيقِ الصوتِ بقراءةِ القرآنِ ؛ ليدلَّ بذلكَ على الحزنِ والخوفِ ، وادعاءِ حفظِ الحديثِ ، ولقاءِ الشيوخِ ، والردِّ علىٰ مَنْ يروي الحديثَ ببيانِ خللٍ في لفظِهِ ؛ ليُعرفَ أنَّهُ بصيرٌ بالأحاديثِ ، والمبادرةِ إلىٰ أنَّ الحديثَ صحيحٌ أوْ غيرُ صحيحٍ ؛ لإظهارِ الفضلِ فيهِ ، والمجادلةِ علىٰ قصدِ إفحامِ الخصمِ ؛ ليظهرَ للناسِ قوَّتَهُ في علمِ الدينِ .

والرِّياءُ بالقولِ كثيرٌ وأبوابُهُ لا تنحصرُ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالقولِ بحفظِ الأشعارِ والأمثالِ ، والتفاصحِ في العباراتِ ، وحفظِ النحوِ الغريبِ ؛ للإغرابِ علىٰ أهلِ الفضلِ ، وإظهارِ التودُّدِ إلى الناسِ لاستمالةِ القلوبِ .

❊ ❊ ❊

الرابعُ : الرياءُ بالعملِ :

كمراءاةِ المصلِّي بطولِ القيامِ ومدِّ الظهرِ ، وتطويلِ السجودِ والركوعِ ، وإطراقِ الرأسِ ، وتركِ الالتفاتِ ، وإظهارِ الهدوءِ والسكونِ ، وتسويةِ القدمينِ واليدينِ ، وكذلكَ بالصومِ ، والغزوِ ، والحجِّ ، وبالصدقةِ ، وبإطعامِ الطعامِ ، وبالإخباتِ في المشيِ عندَ اللقاءِ ؛ كإرخاءِ الجفونِ ، وتنكيسِ الرأسِ ، والوقارِ في الكلامِ ، حتَّىٰ إنَّ المرائيَ قدْ يسرعُ في المشيِ

إلىٰ حاجتِهِ ، فإذا اطلعَ عليهِ واحدٌ مِنْ أهلِ الدينِ . . رجعَ إلى الوقارِ وإطراقِ الرأسِ ؛ خوفاً مِنْ أن ينسبَهُ إلى العجلةِ وقلَّةِ الوقارِ ، فإنْ غابَ الرجلُ . . عادَ إلىٰ عجلتِهِ ، فإذا رآهُ . . عادَ إلىٰ خشوعِهِ ، ولمْ يحضرْهُ ذكرُ اللهِ حتَّىٰ يكونَ يجددُ الخشوعَ لهُ ، بلْ هوَ لاطلاعِ إنسانٍ عليهِ يخشَىٰ ألا يعتقدَ فيهِ أنَّهُ مِنَ العُبَّادِ والصلحاءِ .

ومنهُمْ مَنْ إذا سمعَ هـٰذا . . استحيا مِنْ أنْ تخالفَ مِشْيتُهُ في الخلوةِ مِشْيتَهُ بمرأىً مِنَ الناسِ ، فيكلِّفُ نفسَهُ المِشْيةَ الحسنةَ في الخلوةِ ، حتَّىٰ إذا رآهُ الناسُ . . لمْ يفتقرْ إلى التغييرِ ، ويظنُّ أنَّهُ يتخلَّصُ بهِ عنِ الرياءِ ، وقدْ تضاعفَ بهِ رياؤُهُ ، فإنَّهُ صارَ في خلوتِهِ أيضاً مرائياً ، فإنَّهُ إنَّما يحسِّنُ مشيتَهُ في الخلوةِ ؛ ليكونَ كذلكَ في الملأِ ، لا لخوفٍ مِنَ اللهِ وحياءٍ مِنهُ .

وأمَّا أهلُ الدنيا . . فمراءاتُهُمْ بالتبخترِ والاختيالِ ، وتحريكِ اليدينِ وتقريبِ الخُطا ، والأخذِ بأطرافِ الذيلِ ، وإدارةِ العطفينِ ؛ ليدلُّوا بذلكَ على الجاهِ والحشمةِ .

* * *

الخامسُ : المراءاةُ بالأصحابِ والزائرينَ والمخالطينَ :

كالذي يتكلَّفُ أنْ يستزيرَ عالماً مِنَ العلماءِ ؛ ليُقالَ : إنَّ فلاناً قدْ زارَ فلاناً ، أوْ عابداً مِنَ العبَّادِ ؛ ليُقالَ : إنَّ أهلَ الدينِ يتبرَّكونَ بزيارتِهِ ، ويتردَّدونَ إليهِ ، أوْ ملكاً مِنَ الملوكِ ، أوْ عاملاً مِنْ عمَّالِ السلطانِ ؛ ليُقالَ :

إِنَّهُمْ يتبرَّكونَ بهِ ؛ لعظمِ رتبتِهِ في الدينِ ، وكالذي يكثرُ ذكرَ الشيوخِ ؛ ليُرىٰ أَنَّهُ لقيَ شيوخاً كثيرةً واستفادَ منهُمْ ، فيباهي بشيوخِهِ ، ومباهاتُهُ ومراءاتُهُ تترشَّحُ منهُ عندَ مخاصمتِهِ ، فيقولُ لغيرِهِ : ومَنْ لقيتَ مِنَ الشيوخِ ؟ وأنا قدْ لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ودرتُ البلادَ ، وخدمتُ الشيوخَ ، وما يجري مجراهُ .

فهٰذهِ مجامعُ ما يرائي بهِ المراؤونَ ، وكلُّهُمْ يطلبونَ بهِ الجاهَ والمنزلةَ في قلوبِ العبادِ .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ مَنْ يقنعُ بحسنِ الاعتقاداتِ فيهِ ، فكمْ مِنْ راهبٍ انزوىٰ إلىٰ ديرِهِ سنينَ كثيرةً ، وكمْ مِنْ عابدٍ اعتزلَ إلىٰ قُلَّةِ جبلٍ مدةً مديدةً ، وإنَّما حياتُهُ مِنْ حيثُ علمُهُ بقيامِ جاهِهِ في قلوبِ الخلقِ ، ولوْ عرفَ أنَّهُمْ نسبوهُ إلىٰ جريمةٍ في ديرِهِ أوْ صومعتِهِ . لتشوَّشَ قلبُهُ ، ولمْ يقنعْ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ببراءةِ ساحتِهِ ، بلْ يشتدُّ لذلكَ غمُّهُ ، ويسعىٰ بكلِّ حيلةٍ في إزالةِ ذلكَ مِنْ قلوبِهِمْ ، معَ أنَّهُ قطعَ طمَعَهُ عنْ أموالِهِمْ ، ولكنَّهُ يحبُّ مجرَّدَ الجاهِ ، فإنَّهُ لذيذٌ كما ذكرناهُ في أسبابِهِ ، فإنَّهُ نوعُ قدرةٍ وكمالٍ في الحالِ ، وإن كانَ سريعَ الزوالِ ، لا يغترُّ بهِ إلا الجهَّالُ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ جهَّالٌ .

ومِنَ المرائينَ مَنْ لا يقنعُ بقيامِ منزلتِهِ ، بلْ يلتمسُ معَ ذلكَ إطلاقَ اللسانِ بالثناءِ والحمدِ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ انتشارَ الصِّيتِ في البلادِ ؛ لتكثرَ الرحلةُ إليهِ .

ومنهُمْ مَنْ يريدُ الاشتهارَ عندَ الملوكِ ؛ لتُقبلَ شفاعتُهُ ، وتنجزَ الحوائجُ علىٰ يديهِ فيقومَ لهُ بهِ جاهٌ عندَ العامَّةِ .

ومنهُمْ مَنْ يقصدُ التوصُّلَ بذلكَ إلىٰ جمعِ حطامٍ ، وكسبِ مالٍ ولوْ مِنَ الأوقافِ وأموالِ اليتامىٰ وغيرِ ذلكَ مِنَ الحرامِ ، وهؤلاءِ شرُّ طبقاتِ المرائينَ الذينَ يراؤونَ بالأسبابِ التي ذكرناها .

فهٰذهِ حقيقةُ الرِّياءِ وما بهِ يقعُ الرياءُ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فالرياءُ حرامٌ ، أوْ مكروهٌ ، أوْ مباحٌ ، أوْ فيهِ تفصيلٌ ؟

فأقولُ : فيهِ تفصيلٌ ؛ فإنَّ الرياءَ هوَ طلبُ الجاهِ ، وهوَ إمَّا أنْ يكونَ بالعباداتِ أوْ بغيرِ العباداتِ ، فإنْ كانَ بغير العباداتِ . . فهوَ كطلبِ المالِ ؛ فلا يحرمُ مِنْ حيثُ إنَّهُ طلبُ منزلةٍ في قلوبِ العبادِ ، ولكنْ كما يمكنُ كسبُ المالِ بتلبيساتٍ وأسبابٍ محظورةٍ . . فكذلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كسبَ قليلٍ مِنَ المالِ وهوَ ما يحتاجُ إليهِ الإنسانُ محمودٌ . . فكسبُ قليلٍ مِنَ الجاهِ وهوَ ما يسلمُ بهِ عنِ الآفاتِ أيضاً محمودٌ ، وهوَ الذي طلبَهُ يوسفُ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وكما أنَّ المالَ فيهِ سمٌّ ناقعٌ ودرياقٌ نافعٌ[1] . . فكذلكَ الجاهُ ، وكما أنَّ كثيرَ المالِ يُلهي ويُطغي ، ويُنسي

---

(١) الدرياق والترياق بمعنىً .

ذكرَ اللهِ تعالىٰ والدارَ الآخرةِ . . فكذلكَ كثرةُ الجاهِ ، بلْ إنَّ فتنةَ الجاهِ أعظمُ مِنْ فتنةِ المالِ ، وكما أنَّا لا نقولُ : تملُّكُ المالِ الكثيرِ حرامٌ ، فلا نقولُ أيضاً : تملُّكُ القلوبِ الكثيرةِ حرامٌ ، إلا إذا حملَتْهُ كثرةُ المالِ وكثرةُ الجاهِ علىٰ مباشرةِ ما لا يجوزُ .

نعم ، انصرافُ الهمِّ إلىٰ سعةِ الجاهِ مبدأُ الشرورِ ؛ كانصرافِ الهمِّ إلىٰ كثرةِ المالِ ، ولا يقدرُ محبُّ الجاهِ والمالِ علىٰ تركِ معاصي القلبِ واللسانِ وغيرِها .

وأمَّا سعةُ الجاهِ مِنْ غيرِ حرصٍ منكَ علىٰ طلبهِ ، ومِنْ غيرِ اغتمامٍ بزوالِهِ إن زالَ . . فلا ضررَ فيهِ ؛ فلا جاهَ أوسعُ مِنْ جاهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجاهِ الخلفاءِ الراشدينَ ، ومَنْ بعدَهُمْ مِنْ علماءِ الدينِ ، ولكنَّ انصرافَ الهمِّ إلىٰ طلبِ الجاهِ نقصانٌ في الدينِ ، ولا يُوصفُ بالتحريمِ .

فعلىٰ هٰذا نقولُ : تحسينُ الثوبِ الذي يلبسُهُ الإنسانُ عندَ الخروجِ إلى الناسِ مراءاةٌ ، وهوَ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّهُ ليسَ رياءً بالعبادةِ ، بلْ بالدنيا ، وقسْ علىٰ هٰذا كلَّ تجمُّلٍ للناسِ وتزيُّنٍ لهُمْ .

والدليلُ عليهِ : ما رُويَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنْها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرادَ أن يخرجَ يوماً على الصحابةِ ، فكانَ ينظرُ في حُبِّ الماءِ ، ويسوِّي عِمامتَهُ وشعرَهُ ، فقالَتْ : أوَتفعلُ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ :

« نعمْ ، إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ مِنَ العبدِ أنْ يتزيَّنَ لإخوانِهِ إذا خرجَ إليهِمْ »[1] .

نعمْ ، هـٰذا كانَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عبادةً ؛ لأنَّهُ كانَ مأموراً بدعوةِ الخلقِ ، وترغيبِهِمْ في الاتباعِ ، واستمالةِ قلوبِهِمْ ، ولوْ سقطَ مِنْ أعينِهِمْ . . لمْ يرغبوا في اتباعِهِ ، فكانَ يجبُ عليهِ أنْ يُظهِرَ لهُمْ محاسنَ أحوالِهِ ؛ لكيلا تزدريَهُ أعينُهُمْ ، فإنَّ أعينَ عوامِّ الخلقِ تمتدُّ إلى الظواهرِ دونَ السرائرِ ، فكانَ ذلكَ قصدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ولكنْ لوْ قصدَ قاصدٌ أنْ يحسِّنَ نفسَهُ في أعينِهِمْ ؛ حذراً مِنْ ذمِّهِمْ ولومِهِمْ ، واسترواحاً إلىٰ توقيرِهِمْ واحترامِهِمْ . . كانَ قدْ قصدَ أمراً مباحاً ؛ إذْ للإنسانِ أن يحذرَ من ألمِ المذمَّةِ ، ويطلبَ راحةَ الأُنسِ بالإخوانِ ، ومهما استثقلوهُ واستقذروهُ . . لمْ يأنسْ بهِمْ .

فإذاً ؛ المراءاةُ بما ليسَ مِنَ العباداتِ قدْ تكونُ مباحةً ، وقدْ تكونُ طاعةً ، وقدْ تكونُ مذمومةً ، وذلكَ بحسبِ الغرضِ المطلوبِ بها ، ولذلكَ نقولُ : الرجلُ إذا أنفقَ مالَهُ علىٰ جماعةٍ مِنَ الأغنياءِ ، لا في معرضِ العبادةِ والصدقةِ ، ولكنْ ليعتقدَ الناسُ أنَّهُ سخيٌّ . . فهـٰذِهِ مراءاةٌ وليسَتْ بحرامٍ ، وكذلكَ أمثالُهُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) قال العراقي : (أخرجه ابن عدي في « الكامل ») . « إتحاف » (٢/٣٩٦) ، والحُبُّ : الخابية ، لفظة فارسية معربة .

أمَّا العباداتُ ؛ كالصدقةِ ، والصلاةِ ، والصيامِ ، والغزوِ ، والحجِّ . . فللمرائي فيهِ حالتانِ :

إحداهُما[1] : ألا يكونَ لهُ قصدٌ إلا الرياءُ المحضُ دونَ الأجرِ ، وهـٰذا يبطلُ عبادتَهُ ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وهـٰذا ليسَ يقصدُ العبادةَ ، ثمَّ لا يقتصرُ علىٰ إحباطِ عبادتِهِ حتَّىٰ نقولَ : صارَ كما كانَ قبلَ العبادةِ ، بلْ يعصي بذلكَ ويأثمُ ، كما دلَّتْ عليهِ الأخبارُ والآياتُ ، **والمعنيُّ فيهِ أمرانِ** :

أحدُهُما : يتعلَّقُ بالعبادِ ، وهوَ التلبيسُ والمكرُ ؛ لأنَّهُ خَيَّلَ إليهِمْ أنَّهُ مخلصٌ مطيعٌ للهِ ، وأنَّهُ مِنْ أهلِ الدينِ ، وليسَ كذلكَ ، والتلبيسُ أيضاً في أمرِ الدنيا حرامٌ ، حتَّىٰ لوْ قضىٰ دينَ جماعةٍ وخيَّلَ للناسِ أنَّهُ متبرِّعٌ عليهِمْ ؛ ليعتقدوا سخاوتَهُ . . أثمَ بهِ ؛ لما فيهِ مِنَ التلبيسِ وتملُّكِ القلوبِ بالخداعِ والمكرِ .

والثاني : يتعلقُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أنَّهُ مهما قصدَ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ خلقَ اللهِ . . فهوَ مستهزىءٌ باللهِ ، ولذلكَ قالَ قتادةُ : (إذا راءى العبدُ . . قالَ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : انظروا إلىٰ عبدي كيفَ يستهزىءُ بي)[2] ، ومثالُهُ : أنْ يمْثُلَ بينَ يدي ملكٍ مِنَ الملوكِ طولَ النهارِ ؛ كما جرَتْ عادةُ الخدمةِ ، وإنَّما وقوفُهُ لملاحظةِ جاريةٍ مِنْ جواري الملكِ ، أوْ غلامٍ مِنْ

---

(١) والحالة الثانية ستأتي آخر هـٰذا البيان عند قوله : (فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً . . .) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٩٣) .

غلمانِهِ ، فإنَّ هٰذا استهزاءٌ بالملكِ ؛ إذْ لمْ يقصدِ التقرُّبَ إلى الملكِ بخدمتِهِ ، بلْ قصدَ بهِ عبداً مِنْ عبيدِهِ ، فأيُّ استحقارٍ يزيدُ علىٰ أن يقصدَ العبدُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ مراءاةَ عبدٍ ضعيفٍ لا يملكُ لهُ ضرّاً ولا نفعاً ؟! وهلْ ذلكَ إلا لأنَّهُ ظنَّ أنَّ ذلكَ العبدَ أقدرُ علىٰ تحصيلِ أغراضِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ أولىٰ بالتقرُّبِ إليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ آثرَهُ علىٰ ملكِ الملوكِ ، فجعلَهُ مقصودَ عبادتِهِ ؟! وأيُّ استهزاءٍ يزيدُ علىٰ رفعِ العبدِ فوقَ المولى ؟!

فهٰذا مِنْ كبائرِ المهلكاتِ ، ولهٰذا سماهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : الشركَ الأصغرَ(١) .

نعمْ ، بعضُ درجاتِ الرياءِ أشدُّ من بعضٍ كما سيأتي بيانُهُ في درجاتِ الرياءِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ، ولا يخلو شيءٌ منهُ عنْ إثمٍ غليظٍ أوْ خفيفٍ ، بحسبِ ما بهِ المراءاةُ ، ولوْ لمْ يكنْ في الرياءِ إلا أنَّهُ يسجدُ ويركعُ لغيرِ اللهِ . . لكانَ فيهِ كفايةٌ ؛ فإنَّهُ وإنْ لمْ يقصدِ التقرُّبَ إلى اللهِ . . فقدْ قصدَ غيرَ اللهِ ، ولعمري ؛ لوْ عظَّمَ غيرَ اللهِ بالسجودِ . . لكفرَ كفراً جليّاً ، إلا أنَّ الرياءَ هوَ الكفرُ الخفيُّ ؛ لأنَّ المرائيَ عظَّمَ في قلبِهِ الناسَ ، فاقتضَتْ تلكَ العظمةُ أنْ يسجدَ ويركعَ لهُمْ ، فكانَ الناسُ همُ المعظمونَ بالسجودِ مِنْ وجهٍ ، ومهما زالَ قصدُ تعظيمِ اللهِ بالسجودِ وبقيَ تعظيمُ الخلقِ . . كانَ ذلكَ قريباً مِنَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٢٨) ، والطبراني في « الكبير » (٤/٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤١٢) .

الشركِ ، إلا أنَّهُ إنْ قصدَ تعظيمَ نفسِهِ في قلبِ مَنْ عظمَ عندَهُ بإظهارِهِ مِنْ نفسِهِ صورةَ التعظيمِ للهِ . . فمِنْ هٰذا كانَ شركاً خفيّاً لا شركاً جليّاً ، وذلكَ غايةُ الجهلِ ، ولا يقدِمُ عليهِ إلا مَنْ خدعَهُ الشيطانُ ، وأوهمَ عندَهُ أنَّ العبادَ يملكونَ مِنْ نفعِهِ وضرِّهِ ورزقِهِ وأجلِهِ ومصالحِ حالِهِ ومآلِهِ أكثرَ ممَّا يملكُهُ اللهُ تعالىٰ ، فلذلكَ عدلَ بوجهِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ إليهِمْ ، وأقبلَ بقلبِهِ عليهِمْ ؛ ليستميلَ بذلكَ قلوبَهُمْ ، ولوْ وكَلَهُ اللهُ تعالىٰ إليهِمْ في الدنيا والآخرةِ . . لكانَ ذلكَ أقلَّ مكافأةٍ لهُ علىٰ صنيعِهِ ؛ فإنَّ العبادَ كلَّهُمْ عاجزونَ عنْ أنفسِهِمْ ، لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، فكيفَ يملكونَ لغيرِهِمْ ؟! هٰذا في الدنيا ، فكيفَ في يومٍ لا يجزي والدٌ عنْ ولدِهِ ، ولا مولودٌ هوَ جازٍ عنْ والدِهِ شيئاً ، بلْ تقولُ الأنبياءُ فيهِ : نفسِي نفسِي ؟! فكيفَ يستبدلُ الجاهلُ عنْ ثوابِ الآخرةِ ونيلِ القربِ عندَ اللهِ تعالىٰ ما يرتقبُهُ بطمعِهِ الكاذبِ في الدنيا مِنَ الناسِ ؟! فلا ينبغي أنْ نشكَّ في أنَّ المرائيَ بطاعةِ اللهِ في سخطِ اللهِ مِنْ حيثُ النقلُ والقياسُ جميعاً ، هٰذا إذا لمْ يقصدِ الأجرَ .

فأمَّا إذا قصدَ الأجرَ والحمدَ جميعاً في صدقتِهِ أوْ صلاتِهِ . . فهٰذا الشركُ الذي يناقضُ الإخلاصَ ، وقدْ ذكرنا حكمَهُ في كتابِ الإخلاصِ ، ويدلُّ ما نقلناهُ في الآثارِ مِنْ قولِ سعيدِ بنِ المسيبِ وعبادةَ بنِ الصامتِ أنَّهُ لا أجرَ لهُ فيهِ أصلاً .

❋ ❋ ❋

بيان درجات الرياء

اعلمْ : أنَّ بعضَ أبوابِ الرياءِ أشدُّ وأغلظُ مِنْ بعضٍ ، واختلافُهُ باختلافِ أركانِهِ وتفاوتِ الدرجاتِ فيهِ .

وأركانُهُ ثلاثةٌ : المراءىٰ بهِ ، والمراءىٰ لأجلِهِ ، ونفسُ قصدِ الرياءِ .

* * *

الركنُ الأوَّلُ : نفسُ قصدِ الرياءِ :

وذلكَ لا يخلو إمَّا أنْ يكونَ مجرَّداً دونَ إرادةِ عبادةِ اللهِ تعالىٰ والثوابِ ، وإمَّا أنْ يكونَ معَ إرادةِ الثوابِ ، فإنْ كانَ كذلكَ . . فلا يخلو إمَّا أنْ تكونَ إرادةُ الثوابِ أقوىٰ وأغلبَ ، أوْ أضعفَ ، أوْ مساويةً لإرادةِ العبادةِ ، فتكونُ الدرجاتُ أربعاً :

الدرجةُ الأولىٰ : ـ وهيَ أغلظُها ـ : ألا يكونَ مرادُهُ الثوابَ أصلاً ؛ كالذي يصلِّي بينَ أظْهُرِ الناسِ ، ولوِ انفردَ . . لكانَ لا يصلِّي ، بلْ ربَّما يصلِّي مِنْ غيرِ طهارةٍ معَ الناسِ ، فهٰذا جرَّدَ قصدَهُ إلى الرياءِ ؛ فهوَ الممقوتُ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وكذلكَ مَنْ يخرجُ الصدقةَ خوفاً مِنْ مذمَّةِ الناسِ وهوَ لا يقصدُ الثوابَ ، ولو خلا بنفسِهِ . . لما أدَّاها ، فهٰذهِ الدرجةُ العُليا مِنَ الرياءِ .

الدرجةُ الثانيةُ : أن يكونَ لهُ قصدُ الثوابِ أيضاً ، ولكنْ قصداً ضعيفاً ؛ بحيثُ لوْ كانَ في الخلوةِ . . لكانَ لا يفعلُهُ ، ولا يحملُهُ ذلكَ القصدُ على

العملِ ، ولوْ لمْ يكنْ قصدَ الثوابَ . . لكانَ قصدُ الرِّياءِ يحملُهُ على العملِ ، فهٰذا قريبٌ ممَّا قبلَهُ ، وما فيهِ مِنْ شائبةِ قصدِ ثوابٍ لا يستقلُّ بحملِهِ على العملِ . . لا ينفي عنهُ المقتَ والإثمَ .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ قصدُ الثوابِ وقصدُ الرياءِ متساويينِ ، بحيثُ لوْ كانَ كلُّ واحدٍ منهُما خالياً عنِ الآخرِ . . لمْ يبعثْهُ على العملِ ، فلمَّا اجتمعا . . انبعثَتِ الرَّغبةُ ، أوْ كانَ كلُّ واحدٍ منهُما لوِ انفردَ . . لاستقلَّ بحملِهِ على العملِ ، فهٰذا قدْ أفسدَ مثلَ ما أصلحَ ، فنرجو أنْ يسلمَ رأساً برأسٍ ، لا لهُ ولا عليهِ ، أوْ يكونَ لهُ مِنَ الثوابِ مثلُ ما عليهِ مِنَ العقابِ ، وظواهرُ الأخبارِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يسلمُ ، وقدْ تكلَّمنا عليهِ في كتابِ الإخلاصِ .

الدرجةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ اطلاعُ الناسِ مرجِّحاً ومقوياً لنشاطِهِ ، ولوْ لمْ يكنْ . . لكانَ لا يتركُ العبادةَ ، ولوْ كانَ قصدَ الرياءَ وحدَهُ . . لما أقدمَ عليهِ ، فالذي نظنُّهُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ أنَّهُ لا يحبطُ أصلَ الثوابِ ، ولكنَّهُ ينقصُ منهُ ، أوْ يُعاقبُ علىٰ مقدارِ قصدِ الرياءِ ، ويُثابُ علىٰ مقدارِ قصدِ الثوابِ .

وأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : « أنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشركِ »[1] . . فهوَ محمولٌ علىٰ ما إذا تساوى القصدانِ ، أوْ كانَ قصدُ الرياءِ أرجحَ .

❁ ❁ ❁

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه (٤٢٠٢) بنحوه .

الركنُ الثاني : المراءىٰ بهِ :

وهوَ الطاعاتُ ، وذلكَ ينقسمُ إلى الرياءِ بأصولِ العباداتِ ، وإلى الرياءِ بأوصافِها :

القسمُ الأولُ ـ وهوَ الأغلظُ ـ : الرياءُ بالأصولِ ، وهوَ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الأولىٰ : الرياءُ بأصلِ الإيمانِ : وهـٰذا أغلظُ أبوابِ الرياءِ ، وصاحبُهُ مخلَّدٌ في النارِ ، وهوَ الذي يظهرُ كلمتيِ الشهادةِ وباطنُهُ مشحونٌ بالتكذيبِ ، ولكنَّهُ يرائي بظاهرِ الإسلامِ ، وهوَ الذي ذكرَهُ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ في مواضعَ شتَّىٰ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أيْ : في دلالتِهِمْ بقولِهِمْ علىٰ ضمائرِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ .

والآياتُ فيهِمْ كثيرةٌ ، وكانَ النفاقُ يكثرُ في ابتداءِ الإسلامِ ممَّنْ يدخلُ في ظاهرِ الإسلامِ ابتداءً لغرضٍ(١) ، وذلكَ ممَّا يقلُّ في زمانِنا ، ولكنْ يكثرُ نفاقُ

---

(١) كحماية النفس والمال والعرض وكالطمع في الدنيا وغير ذلك . « إتحاف » (٨/ ٢٧٦) .

مَنْ ينسلُّ عنِ الدينِ باطناً ، فيجحدُ الجنةَ والنارَ والدارَ الآخرةَ ؛ ميلاً إلىٰ قولِ الملحدةِ[١] ، أوْ يعتقدُ طيَّ بساطِ الشرعِ والأحكامِ ، ميلاً إلىٰ أهلِ الإباحةِ[٢] ، أوْ يعتقدُ كفراً أوْ بدعةً وهوَ يظهرُ خلافَهُ ، فهؤلاءِ مِنَ المنافقينَ المرائينَ المخلَّدينَ في النارِ ، وليسَ وراءَ هـٰذا الرياءِ رياءٌ ، وحالُ هؤلاءِ أشدُّ من حالِ الكفارِ المجاهرينَ ؛ لأنَّهُمْ جمعوا بينَ كفرِ الباطنِ ونفاقِ الظاهرِ .

الدرجةُ الثانيةُ : الرياءُ بأصولِ العباداتِ معَ التصديقِ بأصلِ الدينِ : وهـٰذا أيضاً عظيمٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّهُ دونَ الأولِ بكثيرٍ ، **ومثالُهُ** : أنْ يكونَ مالُ الرجلِ في يدِ غيرِهِ ، فيأمرُهُ بإخراجِ الزكاةِ ؛ خوفاً مِنْ ذمِّهِ ، واللهُ يعلمُ مِنهُ أنَّهُ لوْ كانَ في يدِهِ . . لما أخرجَها ، أوْ يدخلُ وقتُ الصلاةِ وهوَ في جمعٍ ، فيصلي معَهُمْ ، وعادتُهُ تركُ الصلاةِ في الخلوةِ ، وكذلكَ يصومُ رمضانَ وهوَ يشتهي خلوةً مِنَ الخلقِ ليفطرَ ، وكذلكَ يحضرُ الجمعةَ ولولا خوفُ المذمَّةِ . . لكانَ لا يحضرُها ، أو يصلُ رحمَهُ ويبرُّ والديهِ لا عنْ رغبةٍ ، ولكنْ خوفاً مِنَ الناسِ ، أوْ يغزو أوْ يحجُّ كذلكَ .

فهـٰذا مراءٍ معَهُ أصلُ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ ، يعتقدُ أنَّهُ لا معبودَ سواهُ ، ولو

---

(١) وهم في زمن المصنف عرفوا بالباطنية ، يدعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأنه مخالف الظاهر ، وأنهم يعلمون الباطن ، فأحالوا بذلك الشريعة ؛ لأنهم تأوّلوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن . « إتحاف » (٨/ ٢٧٦) .

(٢) القائلين بسقوط التكليف عن العبد إذا بلغ مقام اليقين . « إتحاف » (٨/ ٢٧٦) .

كُلِّفَ أنْ يعبدَ غيرَ اللهِ أوْ يسجدَ لغيرِ اللهِ . . لمْ يفعلْ ، ولكنَّهُ يتركُ العباداتِ للكسلِ ، وينشطُ عندَ اطلاعِ الناسِ ، فتكونُ منزلتُهُ عندَ الخلقِ أحبَّ إليهِ مِنْ منزلتِهِ عندَ الخالقِ ، وخوفُهُ مِنْ مذمَّةِ الناسِ أعظمَ مِنْ خوفِهِ مِنْ عقابِ اللهِ ، ورغبتُهُ في محمدتِهِمْ أشدَّ مِنْ رغبتِهِ في ثوابِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا غايةُ الجهلِ ، وما أجدرَ صاحبَهُ بالمقتِ وإنْ كانَ غيرَ منسلٍّ عنْ أصلِ الإيمانِ مِنْ حيثُ الاعتقادُ !

الدرجةُ الثالثةُ : ألا يرائيَ بالإيمانِ ولا بالفرائضِ ، ولكنَّهُ يرائي بالنوافلِ والسننِ التي لوْ تركَها لا يعصي ، ولكنَّهُ يكسلُ عنها في الخلوةِ ؛ لفتورِ رغبتِهِ في ثوابِها ، ولإيثارِ لذَّةِ الكسلِ علىٰ ما يرجِّي مِنَ الثوابِ ، ثمَّ يبعثُهُ الرياءُ علىٰ فعلِها ، وذلكَ كحضورِ الجماعةِ في الصلاةِ ، وعيادةِ المرضىٰ ، واتباعِ الجنائزِ ، وغسلِ الموتىٰ ، وكالتهجدِ بالليلِ ، وصيامِ يومِ عرفةَ وعاشوراءَ ، ويومِ الاثنينِ والخميسِ ، فقدْ يفعلُ المرائي جملةَ ذلكَ ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ ، أوْ طلباً للمحمدةِ ، ويعلمُ اللهُ تعالىٰ منهُ أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ . . لما زادَ علىٰ أداءِ الفرائضِ .

فهـٰذا أيضاً عظيمٌ ، ولكنَّهُ دونَ ما قبلَهُ ، فإنَّ الذي قبلَهُ آثرَ حمدَ الخلقِ علىٰ حمدِ الخالقِ ، وهـٰذا أيضاً قدْ فعلَ ذلكَ ، واتَّقىٰ ذمَّ الخلقِ دونَ ذمِّ الخالقِ ، فكانَ ذمُّ الخلقِ أعظمَ عندَهُ مِنْ عقابِ اللهِ ، وأمَّا هـٰذا . . فلمْ يفعلْ ذلكَ ؛ لأنَّهُ لمْ يخفْ عقاباً علىٰ تركِ النافلةِ لوْ تركَها ، وكأنَّهُ على الشطرِ من الأوَّلِ ، وعقابُهُ نصفُ عقابِهِ .

فهـٰذا هوَ الرياءُ بأصولِ العباداتِ .

القسمُ الثاني : الرياءُ بأوصافِ العباداتِ لا بأصولِها ، وهوَ أيضاً علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ : أنْ يرائيَ بفعلِ ما في تركِهِ نقصانُ العبادةِ ؛ كالذي عزمُهُ أنْ يخفِّفَ الركوعَ والسجودَ ، ولا يطوِّلَ القراءةَ ، فإذا رآهُ الناسُ . . أحسنَ الركوعَ والسجودَ ، وتركَ الالتفاتَ ، وتمَّمَ القعودَ بينَ السجدتينِ ، وقدْ قالَ ابنُ مسعودٍ : (مَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ استهانةٌ يستهينُ بها ربَّهُ عزَّ وجلَّ)[1] أيْ : أنَّهُ ليسَ يبالي باطلاعِ اللهِ عليهِ في الخلوةِ ، فإذا اطلعَ آدميٌّ عليهِ . . أحسنَ الصلاةَ ، ومَنْ جلسَ بينَ يدي إنسانٍ متربِّعاً أوْ متَّكئاً ، فدخلَ غلامُهُ ، فاستوىٰ وأحسنَ الجِلسةَ . . كانَ ذلكَ منهُ تقديماً للغلامِ على السيدِ ، واستهانةً بالسيدِ لا محالةَ ، وهـٰذا حالُ المرائي بتحسينِ الصلاةِ في الملأِ دونَ الخلوةِ .

وكذلكَ الذي يعتادُ إخراجَ الزكاةِ مِنَ الدنانيرِ الرديئةِ ، أوْ مِنَ الحبِّ الرديءِ ، فإذا اطَّلعَ عليهِ غيرُهُ . . أخرجَها مِنَ الجيِّدِ ؛ خوفاً مِنْ مذمَّتِهِ .

وكذلكَ الصائمُ يصونُ صومَهُ عنِ الغيبةِ والرفثِ ؛ لأجلِ الخلقِ ، لا إكمالاً لعبادةِ الصومِ ؛ خوفاً مِنَ المذمَّةِ ، فهـٰذا أيضاً مِنَ الرياءِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٤٩٠) ولفظه : (من صلىٰ صلاة والناس يرونه . . فليصلِّ إذا خلا مثلها ، وإلا . . فإنما هي استهانة يستهين بها ربه) .

المحظورِ ؛ لأنَّ فيهِ تقديماً للمخلوقِ على الخالقِ ، ولكنَّهُ دونَ الرياءِ بأصولِ التطوعاتِ .

فإنْ قالَ المرائي : إنَّما فعلْتُ ذلكَ صيانةً لألسنتِهِمْ عنِ الغيبةِ ؛ فإنَّهُمْ إذا رأَوا تخفيفَ الركوعِ والسجودِ وكثرةَ الالتفاتِ.. أطلقوا اللسانَ بالذمِّ والغيبةِ ، وإنَّما قصدتُ صيانتَهُمْ عنْ هٰذهِ المعصيةِ . **فيُقالُ لهُ** : هٰذهِ مكيدةٌ مِنَ الشيطانِ وتلبيسٌ ، وليسَ الأمرُ كذلكَ ؛ فإنَّ ضررَكَ مِنْ نقصانِ صلاتِكَ ـ وهيَ خدمةٌ مِنكَ لمولاكَ ـ أعظمُ مِنْ ضررِكَ مِنْ غيبةِ غيرِكَ ، فلوْ كانَ باعثُكَ الدينَ.. لكانَتْ شفقتُكَ علىٰ نفسِكَ أكثرَ ، وما أنتَ في هٰذا إلا كمَنْ يهدِي وصيفةً إلىٰ ملكٍ لينالَ مِنهُ فضلاً وولايةً يتقلَّدُها ، فيهديها إليهِ وهيَ عوراءُ قبيحةٌ مقطوعةُ الأطرافِ ، ولا يبالي بهِ إذا كانَ الملكُ وحدَهُ ، وإذا كانَ عندَهُ بعضُ غلمانِهِ.. امتنعَ ؛ خوفاً مِنْ مذمَّةِ غلمانِهِ ، وذلكَ محالٌ ، بلْ مَنْ يراعي جانبَ غلامِ الملكِ.. ينبغي أنْ تكونَ مراقبتُهُ للملكِ أكثرَ .

نعمْ ، للمرائي فيهِ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يطلبَ بذلكَ المنزلةَ والمحمدةَ عندَ الناسِ ، وذلكَ حرامٌ قطعاً .

والثانيةُ : أنْ يقولَ : ليسَ يحضرُني الإخلاصُ في تحسينِ الركوعِ والسجودِ ، ولوْ خففتُ.. كانَتْ صلاتي عندَ اللهِ ناقصةً ، وآذاني الناسُ بذمِّهِمْ وغيبتِهِمْ ، فأستفيدُ بتحسينِ الهيئةِ دفعَ مذمَّتِهِمْ ، ولا أرجو عليهِ

ثواباً ، فهوَ خيرٌ مِنْ أنْ أتركَ تحسينَ الصلاةِ ، فيفوتَ الثوابُ وتحصلَ المذمَّةُ ، فهـٰذا فيهِ أدنىٰ نظرٍ ، **والصحيحُ** : أنَّ الواجبَ عليهِ أنْ يحسنَ ويخلصَ ، فإنْ لمْ تحضرْهُ النيةُ . . فينبغي أنْ يستمرَّ علىٰ عادتِهِ في الخلوةِ ، فليسَ لهُ أنْ يدفعَ الذمَّ بالمراءاةِ بطاعةِ اللهِ ؛ فإنَّ ذلكَ استهزاءٌ كما سبقَ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يرائيَ بفعلٍ ما لا نقصانَ في تركِهِ ، ولكنْ فعلُهُ في حكمِ التكملةِ والتتمةِ لعبادتِهِ ؛ كالتطويلِ في الركوعِ والسجودِ ، ومدِّ القيامِ ، وتحسينِ الهيئةِ في رفعِ اليدينِ ، والمبادرةِ إلى التكبيرةِ الأولىٰ ، وتحسينِ الاعتدالِ ، والزيادةِ في القراءةِ على السورةِ المعتادةِ ، وكذلكَ كثرةُ الخلوةِ في صومِ رمضانَ ، وطولِ الصمتِ ، وكاختيارِ الأجودِ على الجيدِ في الزكاةِ ، وإعتاقِ الرقبةِ الغاليةِ في الكفارةِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا لوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يقدِمُ عليهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يرائيَ بزياداتٍ خارجةٍ عنْ نفسِ النوافلِ أيضاً ؛ كحضورِ الجماعةِ قبلَ القومِ ، وقصدِهِ للصفِّ الأوَّلِ ، وتوجُّهِهِ إلىٰ يمينِ الإمامِ ، وما يجري مجراهُ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يعلمُ اللهُ منهُ أنَّهُ لوْ خلا بنفسِهِ . . لكانَ لا يبالي أينَ وقفَ ، ومتىٰ أحرمَ بالصلاةِ .

فهـٰذهِ درجاتُ الرياءِ بالإضافةِ إلىٰ ما يُراءىٰ بهِ ، وبعضُهُ أشدُّ مِنْ بعضٍ ، والكلُّ مذمومٌ .

الركنُ الثالثُ : المراءىٰ لأجلِهِ :

فإنَّ للمرائي مقصوداً لا محالةَ ، وإنَّما يرائي لإدراكِ مالٍ أوْ جاهٍ أوْ غرضٍ مِنَ الأغراضِ لا محالةَ ، ولهُ أيضاً ثلاثُ درجاتٍ :

الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ أشدُّها وأعظمُها ـ : أنْ يكونَ مقصدُهُ التمكُّنَ مِنْ معصيةِ اللهِ ؛ كالذي يرائي بعباداتِهِ ، ويظهرُ التقوىٰ والورعَ بكثرةِ النوافلِ والامتناعِ عنْ أكلِ الشبهاتِ ، وغرضُهُ أنْ يُعرفَ بالأمانةِ ، فيُولَّى القضاءَ ، أوِ الأوقافَ ، أوِ الوصايا ، أوْ مالَ الأيتامِ ؛ فيأخذَها ، أوْ يُسلَّمَ إليهِ تفرقةُ الزكواتِ أوِ الصدقاتِ ؛ ليستأثرَ بما يقدرُ عليهِ منها ، أوْ يُودعَ الودائعَ فيأخذَها ويجحدَها ، أوْ تُسلَّمَ إليهِ الأموالُ التي تُنفقُ في طريقِ الحجِّ ، فيختزلَ بعضَها أوْ كلَّها ، أوْ يتوصَّلَ بها إلى استتباعِ الحجيجِ ، ويتوصَّلَ بقوَّتِهِمْ إلىٰ مقاصدِهِ الفاسدةِ في المعاصي .

وقدْ يظهرُ بعضُهُمْ زيَّ التصوفِ ، وهيئةَ الخشوعِ ، وكلامَ الحكمةِ علىٰ سبيلِ الوعظِ والتذكيرِ ، وإنَّما قصدُهُ التحبُّبُ إلى امرأةٍ أوْ غلامٍ لأجلِ الفجورِ ، وقدْ يحضرونَ مجالسَ العلمِ والتذكيرِ ، وحِلقَ القرآنِ ، يظهرونَ الرغبةَ في سماعِ العلمِ والقرآنِ ، وغرضُهُمْ ملاحظةُ النسوانِ والصبيانِ ، أوْ يخرجُ إلى الحجِّ ومقصودُهُ الظفرُ بمَنْ في الرفقةِ مِنِ امرأةٍ أوْ غلامٍ ، وهؤلاءِ أبغضُ المرائينَ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّهُمْ جعلوا طاعةَ ربِّهِمْ سلَّماً إلىٰ معصيتِهِ ، واتخذوها آلةً ومتجراً وبضاعةً لهُمْ في فسقِهِمْ .

ويقربُ مِنْ هؤلاءِ وإنْ كانَ دونَهُمْ مَنْ هوَ مقترفٌ جريمةً اتُّهِمَ بها ، وهوَ مصرٌّ عليها ويريدُ أن ينفيَ التهمةَ عنْ نفسِهِ ، فيظهرُ التقوىٰ ؛ لينفيَ التهمةَ ؛ كالذي جحدَ وديعةً واتَّهمَهُ الناسُ بها ، فيتصدَّقُ بالمالِ ؛ ليُقالَ : إنَّهُ يتصدقُ بمالِ نفسِهِ ، فكيفَ يستحلُّ مالَ غيرِهِ ؟! وكذلكَ مَنْ يُنسبُ إلىٰ فجورٍ بامرأةٍ أوْ غلامٍ ، فيدفعُ التهمةَ عنْ نفسِهِ بالخشوعِ وإظهارِ التقوىٰ .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ غرضُهُ نيلَ حظٍّ مباحٍ مِنْ حظوظِ الدنيا ؛ مِنْ مالٍ ، أوْ نكاحِ امرأةٍ جميلةٍ أوْ شريفةٍ ؛ كالذي يظهرُ الحزنَ والبكاءَ ، ويشتغلُ بالوعظِ والتذكيرِ ؛ لتُبذلَ لهُ الأموالُ ، وترغبَ في نكاحِهِ النساءُ ، فيقصدُ إمَّا امرأةً بعينِها لينكحَها ، أوِ امرأةً شريفةً على الجملةِ ، وكالذي يرغبُ في أنْ يتزوَّجَ بنتَ عالمٍ عابدٍ ، فيظهرُ لهُ العلمَ والعبادةَ ؛ ليرغبَ في تزويجِهِ ابنتَهُ ، فهٰذا رياءٌ محظورٌ ؛ لأنَّهُ طلبَ بطاعةِ اللهِ متاعَ الحياةِ الدنيا ، ولكنَّهُ دونَ الأوَّلِ ، فإنَّ المطلوبَ بهٰذا مباحٌ في نفسِهِ .

الدرجةُ الثالثةُ : ألا يقصدَ نيلَ حظٍّ وإدراكَ مالٍ أوْ نكاحٍ ، ولكنْ يظهرُ عبادتَهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ النقصِ ، فلا يُعدَّ مِنَ الخاصَّةِ والزهَّادِ ، ويُعتقدَ أنَّهُ مِنْ جملةِ العامَّةِ ؛ كالذي يمشي مستعجلاً فيطلعُ عليهِ الناسُ ، فيحسنُ المشيَ ويتركُ العجلةَ ؛ كي لا يُقالَ : إنَّهُ مِنْ أهلِ اللَّهوِ والسَّهوِ ، لا مِنْ أهلِ الوقارِ ، وكذلكَ يسبقُ إلى الضحكِ ، أوْ يبدرُ منهُ المزاحُ ، فيخافُ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ ، فيتبعُ ذلكَ بالاستغفارِ ، وتنفُّسِ الصعداءِ ، وإظهارِ

الحزنِ ، ويقولُ : ما أعظمَ غفلةَ الآدميِّ عنْ نفسِهِ ! واللهُ يعلمُ منهُ أنَّهُ لوْ كانَ في خلوةٍ.. لما كانَ يثقلُ عليهِ ذلكَ ، وإنَّما يخافُ أنْ يُنظرَ إليهِ بعينِ الاحتقارِ لا بعينِ التوقيرِ .

وكالذي يرىٰ جماعةً يصلونَ التراويحَ ، أو يتهجَّدونَ ، أوْ يصومونَ الاثنينَ والخميسَ ، أو يتصدَّقونَ ، فيوافقُهُمْ خيفةَ أنْ يُنسبَ إلى الكسلِ ويُلحقَ بالعوامِّ ، ولوْ خلا بنفسِهِ.. لكانَ لا يفعلُ شيئاً مِنْ ذلكَ ، وكالذي يعطشُ يومَ عرفةَ أوْ عاشوراءَ ، أوْ في الأشهرِ الحرمِ.. فلا يشربُ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يعلمَ الناسُ أنَّهُ غيرُ صائمٍ ، فإذا ظنُّوا بهِ الصومَ.. امتنعَ عنِ الأكلِ لأجلِهِمْ ، أوْ يُدْعىٰ إلىٰ طعامٍ فيمتنعُ ؛ ليُظنَّ أنَّهُ صائمٌ ، وقدْ لا يصرِّحُ بأنَّهُ صائمٌ ، ولكنْ يقولُ : لي عذرٌ ، وهوَ جمعٌ بينَ خبيثينِ ؛ فإنَّه يُري أنَّهُ صائمٌ ، ثمَّ يُري أنَّهُ مخلصٌ ليسَ بمراءٍ ، وأنَّهُ يحترزُ مِنْ أنْ يذكرَ عبادتَهُ للناسِ فيكونَ مرائياً ، فيريدُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ ساترٌ لعبادتِهِ ، ثمَّ إنِ اضطرَّ إلىٰ شربٍ.. لمْ يصبرْ عنْ أنْ يذكرَ لنفسِهِ فيهِ عذراً ، تصريحاً أوْ تعريضاً ؛ بأنْ يتعلَّلَ بمرضٍ يقتضي فرطَ العطشِ ، ويمنعُ مِنَ الصومِ ، أوْ يقولَ : أفطرتُ تطييباً لقلبِ فلانٍ ، ثمَّ قدْ لا يذكرُ ذلكَ متصلاً بشربِهِ ؛ كي لا يُظنَّ بهِ أنَّهُ يعتذرُ رياءً ، ولكنَّهُ يصبرُ ، ثمَّ يذكرُ عذرَهُ في معْرِضِ حكايةٍ عرضاً ، مثلَ أنْ يقولَ : إنَّ فلاناً محبٌّ للإخوانِ ، شديدُ الرغبةِ في أنْ يأكلَ الإنسانُ مِنْ طعامِهِ ، وقدْ ألحَّ عليَّ اليومَ ولمْ أجدْ بدّاً مِنْ تطييبِ قلبِهِ ، ومثلَ أنْ يقولَ : إنَّ أمِّي ضعيفةُ القلبِ ، مشفقةٌ عليَّ ، تظنُّ أنِّي لوْ صمتُ يوماً.. مرضتُ ، فلا تدعُني أصومُ .

فهٰذا وما يجري مجراهُ علاماتُ الرياءِ ، فلا يسبقُ إلى اللسانِ إلا لرسوخِ عرقِ الرياءِ في الباطنِ ، وأمَّا المخلصُ . . فإنَّهُ لا يبالي كيفَ نظرَ الخلقُ إليهِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ رغبةٌ في الصومِ وقدْ علمَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ منهُ . . فلا يريدُ أنْ يعتقدَ غيرُهُ ما يخالفُ علمَ اللهِ ، فيكونَ ملبِّساً ، وإنْ كانَ لهُ رغبةٌ في الصومِ للهِ . . قنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يشرِكْ فيهِ غيرَهُ .

وقدْ يخطرُ لهُ أنَّ في إظهارِهِ اقتداءَ غيرِهِ بهِ ، وتحريكَ رغبةِ الناسِ فيهِ ، وفيهِ مكيدةٌ وغرورٌ ، وسيأتي شرحُ ذلكَ وشروطُهُ .

فهٰذهِ درجاتُ الرياءِ ، ومراتبُ أصنافِ المرائينَ ، وجميعُهُمْ تحتَ مقتِ اللهِ تعالىٰ وغضبِهِ ، وهوَ مِنْ أشدِّ المهلكاتِ ، وإنَّ مِنْ شدَّتِهِ أنَّ فيهِ شوائبَ هيَ أخفىٰ مِن دبيبِ النملةِ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ ، تزلُّ فيهِ فحولُ العلماءِ ، فضلاً عنِ العبَّادِ الجهلاءِ بآفاتِ النفوسِ وغوائلِ القلوبِ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

بيان الرياء الخفيّ الذي هو أخفى من دبيب النّمل

اعلمْ : أنَّ الرياءَ جليٌّ وخفيٌّ .

فالجليُّ : هوَ الذي يبعثُ على العملِ ويحمِلُ عليهِ أولاً دونَ قصدِ الثوابِ ، وهوَ أجلاهُ .

❋ ❋ ❋

وأخفىٰ مِنهُ قليلاً : هوَ ما لا يحمِلُ على العملِ بمجردِهِ ، إلا أنَّهُ يخفِّفُ العملَ الذي أُريدَ بهِ وجهُ اللهِ ؛ كالذي يعتادُ التهجدَ كلَّ ليلةٍ ويثقلُ عليهِ ، فإذا دخل عليهِ الضيفانُ . . نشطَ لهُ ، وخفَّ عليهِ ، وعلمَ أنَّهُ لولا رجاءُ الثوابِ . . لكانَ لا يصلِّي لمجرَّدِ رياءِ الضيفانِ .

❋ ❋ ❋

وأخفىٰ مِنْ ذلكَ : ما لا يؤثِّرُ في العملِ ، ولا بالتسهيلِ والتخفيفِ أيضاً ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ مستبطنٌ في القلبِ ، ومهما لمْ يؤثِّرْ في الدعاءِ إلى العملِ . . لمْ يمكنْ أنْ يُعرفَ إلا بالعلاماتِ ، **وأجلىٰ علاماتِهِ** : أنْ يُسرَّ باطلاعِ الناسِ علىٰ طاعتِهِ ، فربَّ عبدٍ يخلصُ في عملِهِ ولا يعتقدُ الرياءَ ، بلْ يكرهُهُ ويردُّهُ ، ويتمِّمُ العملَ كذلكَ ، ولكنْ إذا اطَّلعَ عليهِ الناسُ . . سرَّهُ ذلكَ وارتاحَ لهُ ، وروَّحَ ذلكَ عنْ قلبِهِ شدةَ العبادةِ ، وهٰذا السرورُ يدلُّ علىٰ رياءٍ خفيٍّ ، مِنهُ يترشَّحُ السرورُ ، ولولا التفاتُ القلبِ إلى الناسِ . . لما ظهرَ سرورُهُ عندَ اطلاعِ

الناسِ ، فلقَدْ كانَ الرياءُ مستكناً في القلبِ استكنانَ النارِ في الحجرِ ، فأظهرَ منهُ اطلاعُ الخلقِ أثرَ الفرحِ والسرورِ ، ثمَّ إذا استشعرَ لذَّةَ السرورِ بالاطلاعِ ، ولمْ يقابلْ ذلكَ بكراهيةٍ . . صارَ ذلكَ قوتاً وغذاءً للعِرقِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، حتَّىٰ يتحرَّكَ علىٰ نفسِهِ حركةً خفيَّةً ، فيتقاضىٰ تقاضياً خفيّاً أنْ يتكلَّفَ سبباً يُطَّلعُ عليهِ بالتعريضِ وإلقاءِ الكلامِ عرضاً ، وإنْ كانَ لا يدعو إلى التصريحِ ، وقدْ يخفىٰ فلا يدعو إلى الإظهارِ بالنطقِ تعريضاً وتصريحاً ولكنْ بالشمائلِ ؛ كإظهارِ النحولِ ، والاصفرارِ ، وخفضِ الصوتِ ، ويبسِ الشفتينِ ، وجفافِ الريقِ ، وآثارِ الدموعِ ، وغلبةِ النعاسِ الدالِّ علىٰ طولِ التهجُّدِ .

* * *

وأخفىٰ من ذلكَ : أنْ يختفيَ بحيثُ لا يريدُ الاطلاعَ ، ولا يُسرُّ بظهورِ طاعتِهِ ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ إذا رأى الناسَ . . أحبَّ أنْ يبدؤوهُ بالسلامِ ، وأنْ يقابلوهُ بالبشاشةِ والتوقيرِ ، وأنْ يثنوا عليهِ ، وأنْ ينشطوا في قضاءِ حوائجِهِ ، وأنْ يسامحوهُ في البيعِ والشراءِ ، وأنْ يوسِّعوا لهُ في المكانِ ، فإنْ قصَّرَ في ذلكَ مقصِّرٌ . . ثقُلَ علىٰ قلبِهِ ، ووجدَ لذلكَ استبعاداً في نفسِهِ ؛ كأنَّ نفسَهُ تتقاضى الاحترامَ على الطاعةِ التي أخفاها معَ أنَّهُ لمْ يُطَّلَعْ عليهِ ، ولوْ لمْ يكنْ قدْ سبقَتْ منهُ تلكَ الطاعةُ . . لما كانَ يستبعدُ تقصيرَ الناسِ في حقِّهِ ، ومهما لمْ يكنْ وجودُ العبادةِ كعدمِها في كلِّ ما يتعلَّقُ بالخلقِ . . لمْ يكنْ قدْ قنعَ بعلمِ اللهِ تعالىٰ ، ولمْ يكنْ خالياً عنْ شوبٍ خفيٍّ مِنَ الرياءِ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وكلُّ ذلكَ يوشكُ أنْ يحبطَ الأجرَ ، ولا يسلمُ مِنهُ إلا الصديقونَ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ للقرَّاءِ يومَ القيامةِ : ألمْ يكنْ يُرخَّصُ عليكمُ السِّعرُ ؟! ألمْ تكونوا تُبتدؤونَ بالسلامِ ؟! ألمْ تكنْ تُقضىٰ لكمُ الحوائجُ ؟!) .

وفي الحديث : « لا أجرَ لكمْ ، قدِ استوفيتُمْ أجورَكُمْ » .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : رُوِيَ عنْ وهبِ بنِ منبِّهٍ أنَّهُ قالَ : (إنَّ رجلاً مِنَ السُّيَّاحِ قالَ لأصحابِهِ : إنَّا قدْ فارقْنا الأموالَ والأولادَ مخافةَ الطغيانِ ، فنخافُ أنْ نكونَ قدْ دخلَ علينا في أمرِنا هـٰذا مِنَ الطغيانِ أكثرُ ممَّا دخلَ علىٰ أهلِ الأموالِ في أموالِهِمْ ، إنَّ أحدَنا إذا لُقِيَ . . أحبَّ أنْ يُعظَّمَ لمكانِ دينِهِ ، وإنْ سألَ حاجةً . . أحبَّ أنْ تُقضىٰ لهُ لمكانِ دينِهِ ، وإنِ اشترىٰ شيئاً . . أحبَّ أنْ يُرخَّصَ عليهِ لمكانِ دينِهِ .

فبلغَ ذلكَ ملِكَهُمْ ، فركبَ في موكبٍ مِنَ الناسِ ؛ فإذا السهلُ والجبلُ قدِ امتلأَ بالناسِ ، فقالَ السائحُ : ما هـٰذا ؟ قيلَ : هـٰذا الملكُ قدْ أظلَّكَ ، فقالَ للغلامِ : ائتني بطعامٍ ، فأتاهُ ببقلٍ وزيتٍ وقلوبِ الشجرِ ، فجعلَ يحشو شدقيهِ ويأكلُ أكلاً عنيفاً ، فقالَ الملكُ : أينَ صاحبُكُمْ ؟ قالوا : هـٰذا ، قالَ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : كالناسِ ـ وفي حديثٍ آخرَ : بخيرٍ ـ فقالَ الملكُ : ما عندَ هـٰذا مِنْ خيرٍ ، فانصرفَ عنهُ ، فقالَ السائحُ : الحمدُ للهِ الذي صرفَكَ عنِّي وأنتَ لي ذامٌّ)[1] .

---

(١) تقدم بنحوه مختصراً ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٦٤) .

فلمْ يزلِ المخلصونَ خائفينَ مِنَ الرياءِ الخفيِّ ، يجتهدونَ لذلكَ في مخادعةِ الناسِ عنْ أعمالِهِمُ الصالحةِ ، يحرصونَ علىٰ إخفائِها أعظمَ ممَّا يحرصُ الناسُ علىٰ إخفاءِ فواحشِهِمْ ، كلُّ ذلكَ رجاءَ أنْ تخلُصَ أعمالُهُمُ الصالحةُ ، فيجازيَهُمُ اللهُ تعالىٰ في القيامةِ بإخلاصِهِمْ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ؛ إذْ علموا أنَّ اللهَ لا يقبلُ يومَ القيامةِ إلا الخالصَ ، وعلموا شدَّةَ حاجتِهِمْ وفاقتِهِمْ في القيامةِ ، وأنَّهُ يومٌ لا ينفعُ فيهِ مالٌ ولا بنونَ ، ولا يجزي والدٌ عنْ ولدِهِ ، ويشتغلُ الصدِّيقونَ بأنفسِهِمْ ، فيقولُ كلُّ واحدٍ : نفسي نفسي ، فضلاً عنْ غيرِهِمْ ، فكانوا كزوارِ بيتِ اللهِ تعالىٰ إذا توجهوا إلىٰ مكةَ ؛ فإنَّهُمْ يستصحبونَ معَ أنفسِهِمُ الذهبَ المغربيَّ الخالصَ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ أربابَ البوادي لا يروجُ عندَهُمْ الزيفُ والبهرجُ ، والحاجةُ تشتدُّ في الباديةِ ، ولا وطنَ يُفزعُ إليهِ ، ولا حميمَ يُتمسَّكُ بهِ ؛ فلا يُنجي إلا الخالصُ مِنَ النَّقدِ ، فهكذا يشاهدُ أربابُ القلوبِ يومَ القيامةِ ، والزادُ الذي يتزودونَهُ لهُ مِنَ التقوىٰ .

❊ ❊ ❊

فإذاً ؛ شوائبُ الرياءِ الخفيِّ كثيرةٌ لا تنحصرُ ، ومهما أدركَ مِنْ نفسِهِ تفرقةً بينَ أنْ يطلعَ علىٰ عبادتِهِ إنسانٌ أوْ بهيمةٌ . . ففيهِ شعبةٌ مِنَ الرياءِ ؛ فإنَّهُ لما قطعَ طمعَهُ عنِ البهائمِ . . لمْ يبالِ حضرَتِ البهائمُ أوِ الصبيانُ الرضعُ أمْ غابوا ، اطلعوا علىٰ حركتِهِ أمْ لمْ يطلعوا ، فلوْ كانَ مخلصاً قانعاً بعلمِ اللهِ . .

لاستحقرَ عقلاءَ العبادِ كما استحقرَ صبيانَهُمْ ومجانينَهُمْ ، وعلمَ أنَّ العقلاءَ لا يقدرونَ لهُ علىٰ رزقٍ ، ولا أجلٍ ، ولا زيادةِ ثوابٍ ونقصانِ عقابٍ ، كما لا يقدرُ عليهِ البهائمُ والصبيانُ والمجانينُ ، فإذا لَمْ يجدْ ذلكَ . . ففيهِ شَوبٌ خفيٌّ ، ولكنْ ليسَ كلُّ شوبٍ محبطاً للأجرِ مفسداً للعملِ ، بلْ فيهِ تفصيلٌ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما نرىٰ أحداً ينفكُّ عنِ السرورِ إذا عُرفَتْ طاعاتُهُ ، فالسرورُ مذمومٌ كلُّهُ ؟ أوْ بعضُهُ محمودٌ وبعضُهُ مذمومٌ ؟

فنقولُ أولاً : كلُّ سرورٍ فليسَ بمذمومٍ ، بلِ السرورُ منقسمٌ إلىٰ محمودٍ ، وإلىٰ مذمومٍ ، **فأمَّا المحمودُ . . فأربعةُ أقسامٍ** :

الأولُ : أنْ يكونَ قصدُهُ إخفاءَ الطاعةِ والإخلاصَ للهِ ، ولكنْ لمَّا اطلعَ عليهِ الخلقُ . . علمَ أنَّ اللهَ أطلعَهُمْ ، وأظهرَ الجميلَ مِنْ أحوالِهِ ، فيستدلُّ بذلكَ علىٰ حُسنِ صنعِ اللهِ بهِ ، ونظرِهِ إليهِ ، وإلطافِهِ بهِ ؛ فإنَّهُ يسترُ الطاعةَ والمعصيةَ ، ثمَّ اللهُ يسترُ عليهِ المعصيةَ ويظهرُ الطاعةَ ؛ فلا لطفَ أعظمُ مِنْ سترِ القبيحِ عليهِ وإظهارِ الجميلِ ، فيكونُ فرحُهُ بجميلِ نظرِ اللهِ لهُ ، لا بحمدِ الناسِ وقيامِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ ، فكأنَّهُ ظهرَ لهُ أنَّهُ عندَ اللهِ مقبولٌ ففرحَ بهِ .

الثاني : أنْ يستدلَّ بإظهارِ اللهِ الجميلَ وسترِهِ القبيحَ عليهِ في الدنيا أنَّهُ كذلكَ يفعلُ في الآخرةِ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

« ما سترَ اللهُ علىٰ عبدٍ ذنباً في الدنيا إلا سترَهُ عليهِ في الآخرةِ »[1] .

فيكونُ الأولُ فرحاً بالقبولِ في الحالِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ المستقبلِ ، وهـٰذا التفاتٌ إلى المستقبلِ .

الثالثُ : أنْ يظنَّ رغبةَ المطلعينَ على الاقتداءِ بهِ في الطاعةِ ، فيتضاعفُ بذلكَ أجرُهُ ، فيكونُ لهُ أجرُ العلانيةِ بما أظهرَ آخراً ، وأجرُ السرِّ بما قصدَهُ أوَّلاً ، ومَنِ اقتُدِيَ بهِ في طاعةٍ . . فلهُ مثلُ أجرِ أعمالِ المقتدينَ بهِ مِنْ غيرِ أنْ ينقصَ مِنْ أجورِهِمْ شيءٌ ، وتوقُّعُ ذلكَ جديرٌ بأنْ يكونَ سببَ السرورِ ، فإنَّ ظهورَ مخايلِ الربحِ لذيذٌ ، وموجبٌ للسرورِ لا محالةَ .

الرابعُ : أنْ يحمدَهُ المطلعونَ علىٰ طاعتِهِ ، فيفرحُ بطاعتِهِمْ للهِ تعالىٰ في مدحِهِمْ ، وبحبِّهِمْ للمطيعِ ، وبميلِ قلوبِهِمْ إلى الطاعةِ ؛ إذْ مِنْ أهلِ الإيمانِ مَنْ يرىٰ أهلَ الطاعةِ فيمقتُهُ ويحسدُهُ ، أوْ يذمُّهُ ويهزأُ بهِ ، أوْ ينسبُهُ إلى الرياءِ ولا يحمدُهُ عليهِ ، فهـٰذا فرحٌ بحسنِ إيمانِ عبادِ اللهِ ، **وعلامةُ الإخلاصِ في هـٰذا النوعِ** : أنْ يكونَ فرحُهُ بحمدِهِمْ غيرَهُ مثلَ فرحِهِ بحمدِهِمْ إيَّاهُ .

وأمَّا المذمومُ . . فهوَ الخامسُ : وهوَ أنْ يكونَ فرحُهُ لقيامِ منزلتِهِ في قلوبِ الناسِ ؛ حتَّىٰ يمدحوهُ ويعظِّموهُ ، ويقوموا بقضاءِ حوائجِهِ ، ويقابلوهُ بالإكرامِ في مصادرِهِ ومواردِهِ ، فهـٰذا مكروهٌ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه

فنقولُ فيهِ : إذا عقدَ العبدُ العبادةَ على الإخلاصِ ، ثمَّ وردَ عليهِ واردُ الرياءِ . . فلا يخلو :

إمَّا أنْ يردَ عليهِ بعدَ فراغِهِ مِنَ العملِ ، أوْ قبلَ الفراغِ .

فإنْ وردَ بعدَ الفراغِ سرورٌ مجرَّدٌ بالظهورِ مِنْ غيرِ إظهارٍ . . فهذا لا يحبطُ العملَ ؛ إذِ العملُ قدْ تمَّ علىٰ نعتِ الإخلاصِ ، سالماً مِنَ الرياءِ ، فما يطرأُ عليهِ بعدَهُ . . فنرجو ألا ينعطفَ عليهِ أثرُهُ ، لا سيما إذا لمْ يتكلَّفْ هوَ إظهارَهُ والتحدُّثَ بهِ ، ولمْ يتمنَّ ذكرَهُ وإظهارَهُ ، ولكنِ اتفقَ ظهورُهُ بإظهارِ اللهِ ، ولمْ يكنْ منهُ إلا ما دخلَ مِنَ السرورِ والارتياحِ علىٰ قلبِهِ .

نعمْ ، لوْ تمَّ العملُ على الإخلاصِ مِنْ غيرِ عقدِ رياءٍ ، ولكنْ ظهرَتْ لهُ بعدَهُ رغبةٌ في الإظهارِ ، فتحدَّثَ بهِ وأظهرَهُ ، فهذا مَخُوفٌ ، وفي الآثارِ والأخبارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّهُ محبطٌ ؛ فقدْ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ : قرأتُ البارحةَ (سورةَ البقرَةِ) ، قالَ : ذلكَ حظُّكَ منها[1] .

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ لرجلٍ قالَ لهُ : صمتُ الدهرَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ لهُ : « ما صمتَ ولا أفطرتَ » ، فقالَ بعضُهُمْ :

---

(١) الرعاية (ص ٢١٠) .

إنَّما قالَ ذلَك لأنَّهُ أظهرَهُ[1] ، وقيلَ : هوَ إشارةٌ إلىٰ كراهةِ صومِ الدهرِ[2] .

وكيفَما كانَ . . فيحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِنِ ابنِ مسعودٍ استدلالاً علىٰ أنَّ قلبَهُ عندَ العبادةِ لَمْ يخلُ عنْ عقدِ الرياءِ وقصدِهِ لهُ ، لمَّا أنْ ظهرَ مِنهُ التحدُّثُ بهِ ؛ إذْ يبعدُ أنْ يكونَ ما يطرأُ على العملِ مبطلاً لثوابِ العملِ ، **بلِ الأقيسُ أنْ يُقالَ** : إنَّهُ مثابٌ علىٰ عملِهِ الذي مضىٰ ، ومعاقبٌ علىٰ مراءاتِهِ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ بعدَ الفراغِ منهُ ، بخلافِ ما لو تغيَّرَ عقدُهُ إلى الرياءِ قبلَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذلكَ قدْ يبطلُ الصلاةَ ، ويحبطُ العملَ .

وأمَّا إذا وردَ واردُ الرياءِ قبلَ الفراغِ مِنَ الصلاةِ مثلاً وكانَ قدْ عقدَ على الإخلاصِ ، ولكنْ وردَ في أثنائِها واردُ الرياءِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ مجردَ سرورٍ لا يؤثِّرُ في العملِ ، وإمَّا أنْ يكونَ رياءً باعثاً على العملِ .

فإنْ كانَ باعثاً على العملِ وختمَ العبادةَ بهِ . . حبطَ أجرُهُ ، **ومثالُهُ** : أنْ يكونَ في تطوُّعٍ ، فتجدَّدَتْ لهُ نظَّارةٌ[3] أوْ حضرَ ملكٌ مِنَ الملوكِ وهوَ يشتهي

---

(١) القائل هو ابن حيويه أحد الرواة ، ولفظه : (لأنه تحدَّث به) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٢١٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٣) ، وعند مسلم (١١٦٢) أن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يصوم الدهر ، فقال : « لا صام ولا أفطر » .

(٣) **النظارة** : القوم ينظرون إليه .

أنْ ينظرَ إليهِ ، أوْ يذكرَ شيئاً نسيَهُ مِنْ مالِهِ وهوَ يريدُ أنْ يطلبَهُ ، ولولا الناسُ . . لقطعَ الصلاةَ ، فاستتمَّها خوفاً مِنْ مذمَّةِ الناسِ ، فقدْ حبطَ أجرُهُ ، وعليهِ الإعادةُ إنْ كانَ في فريضةٍ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العملُ كالوعاءِ ، إذا طابَ آخرُهُ . . طابَ أَوَّلُهُ »(١) أي : النظرُ إلىٰ خاتمتِهِ .

ورُوِيَ أنَّ مَنْ راءىٰ بعملِهِ ساعةً . . حبطَ عملُهُ الذي كانَ قبلَهُ(٢) ، وهوَ منزَّلٌ على الصلاةِ في هـٰذهِ الصورةِ ، لا على الصدقةِ ولا على القراءةِ ؛ فإنَّ كلَّ جزءٍ منها منفردٌ ، فما يطرأُ يفسدُ الباقيَ دونَ الماضي ، والصومُ والحجُّ مِنْ قبيلِ الصلاةِ .

وأمَّا إذا كانَ واردُ الرياءِ بحيثُ لا يمنعُهُ مِنْ قصدِ الاستتمامِ لأجلِ الثوابِ ؛ كما لوْ حضرَ جماعةٌ في أثناءِ صلاتِهِ ، ففرحَ بحضورِهِمْ واعتقدَ الرياءَ ، وقصدَ تحسينَ الصلاةِ لأجلِ نظرِهِمْ ، وكانَ لولا حضورُهُمْ . . لكانَ يتمُّها أيضاً ، فهـٰذا رياءٌ قدْ أثَّرَ في العملِ ، وانتهضَ باعثاً على الحركاتِ ، فإنْ غلبَ حتَّى انمحقَ معهُ الإحساسُ بقصدِ العبادةِ والثوابِ ، وصارَ قصدُ العبادةِ مغموراً . . فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ يفسدَ العبادةَ مهما مضىٰ ركنٌ مِنْ أركانِها علىٰ هـٰذا الوجهِ ؛ لأنَّا نكتفي بالنيةِ السابقةِ عندَ الإحرامِ بشرطِ ألا يطرأَ ما يغلبُها ويغمرُها ، **ويحتملُ أنْ يُقالَ** : لا يفسدُ العبادةَ نظراً إلىٰ حالةِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٩) .

(٢) إذ روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٥٠) عن ابن أبي زكريا يحدث : « من راءىٰ بعمله . . حبط ما كان قبله » .

العقدِ ، وإلىٰ بقاءِ أصلِ قصدِ الثوابِ وإنْ ضعفَ بهجومِ قصدٍ هوَ أغلبُ منهُ .

ولقدْ ذهبَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ إلى الإحباطِ في أمرٍ هوَ أهونُ منْ هـٰذا ، وقالَ : إذا لمْ يُردْ إلا مجردَ السرورِ باطلاعِ الناسِ ؛ يعني : سروراً هوَ كحبِّ المنزلةِ والجاهِ ، قالَ : قدِ اختلفَ الناسُ في هـٰذا ، فصارَتْ فرقةٌ إلىٰ أنَّهُ يحبطُ ؛ لأنَّهُ قدْ نقضَ العزمَ الأوَّلَ ، وركنَ إلىٰ حمدِ المخلوقينَ ، ولمْ يختمْ عملَهُ بالإخلاصِ ، وإنَّما يتمُّ العملُ بخاتمتِهِ[1] .

ثمَّ قالَ : ولا أقطعُ عليهِ بالحبطِ وإنْ لمْ يتزيَّدْ في العملِ ، ولا آمنُ عليهِ ، وقدْ كنتُ أقفُ فيهِ لاختلافِ الناسِ ، والأغلبُ علىٰ قلبي أنَّهُ يحبطُ إذا ختمَ عملَهُ بالرياءِ[2] .

ثمَّ قالَ : فإنْ قيلَ : قدْ قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : إنَّهما سَوْرتانِ ، فإذا كانَتِ الأولىٰ للهِ.. لمْ تضرَّهُ الثانيةُ[3] ، وقدْ رُويَ أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أُسِرُّ العملَ لا أحبُّ أنْ يُطلعَ عليهِ ، فيُطلعُ عليهِ ، فيسرُّني ، قالَ : « لكَ أجرانِ ؛ أجرُ السرِّ وأجرُ العلانيةِ »[4] ، ثمَّ تكلمَ على الأثرِ والخبرِ فقالَ : أمَّا الحسنُ.. فأرادَ بقولِهِ : لا تضرُّهُ ؛ أيْ : لا يدعُ العملَ ، ولا تضرُّهُ الخطرةُ وهوَ يريدُ اللهَ عزَّ

---

(١) الرعاية (ص ٢٣٣) .

(٢) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٣) الرعاية (ص ٢٣٣) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٨٤) ، وابن ماجه (٤٢٢٦) .

وجلَّ ، ولمْ يقلْ : إذا اعتقدَ الرياءَ بعدَ عقدِ الإخلاصِ . . لمْ يضرُّهُ[1] ، وأمَّا الحديثُ . . فتكلَّمَ عليهِ بكلامٍ طويلٍ يرجعُ حاصلُهُ إلىٰ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ يحتملُ أنَّهُ أرادَ ظهورَ عملِهِ بعدَ الفراغِ ، وليسَ في الحديثِ أنَّهُ قبلَ الفراغِ .

والثاني : أنَّهُ أرادَ أنْ يُسرَّ بهِ لاقتداءِ الناسِ بهِ ، أوْ لسرورٍ آخرَ محمودٍ ممَّا ذكرناهُ مِنْ قبلُ ، لا سروراً بسببِ حبِّ المحمدةِ والمنزلةِ ، بدليلِ أنَّهُ جعلَ لهُ بهِ أجرينِ ، ولا ذاهبَ مِنَ الأمةِ إلىٰ أنَّ للسرورِ بالمحمدةِ أجراً ، وغايتُهُ أنْ يُعفىٰ عنهُ ، فكيفَ يكونُ للمخلصِ أجرٌ وللمرائي أجرانِ ؟!

والثالثُ : أنَّهُ قالَ : أكثرُ مَنْ يروي الحديثَ يرويهِ غيرَ متصلٍ إلىٰ أبي هريرةَ ، بلْ أكثرُهُمْ يوقفُهُ علىٰ أبي صالحٍ ، ومنهُمْ مَنْ يرفعُهُ ؛ فالحكمُ بالعموماتِ الواردةِ في الرياءِ أولىٰ[2] .

هـٰذا ما ذكرَهُ ولمْ يقطعْ بهِ ، بلْ أظهرَ ميلاً إلى الإحباطِ .

والأقيسُ عندَنا : أنَّ هـٰذا القدْرَ إذا لمْ يظهرْ أثرُهُ في العملِ ، بلْ بقيَ العملُ صادراً عنْ باعثِ الدينِ ، وإنَّما انضافَ إليهِ السرورُ بالاطلاعِ . . فلا يفسدُ العملَ ؛ لأنَّهُ لمْ ينعدمْ بهِ أصلُ نيَّتِهِ ، وبقيَتْ تلكَ النيةُ باعثةً على العملِ ، وحاملةً على الإتمامِ .

---

(١) الرعاية (ص ٢٣٤) .

(٢) الرعاية (ص ٢٣٥) وما بعدها .

وأمَّا الأخبارُ التي وردَتْ في الرياءِ . . فهيَ محمولةٌ علىٰ ما إذا لمْ يردْ بهِ إلا الخلقَ .

وأمَّا ما وردَ في الشركةِ . . فهوَ محمولٌ علىٰ ما إذا كانَ قصدُ الرياءِ مساوياً لقصدِ الثوابِ ، أوْ أغلبَ منهُ ، أمَّا إذا كانَ ضعيفاً بالإضافةِ إليهِ . . فلا يحبطُ بالكليةِ ثوابَ الصدقةِ وسائرِ الأعمالِ ، ولا ينبغي أنْ يفسدَ الصلاةَ .

ولا يبعدُ أيضاً أنْ يُقالَ : إنَّ الذي أُوجِبَ عليهِ صلاةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، والخالصُ ما لا يشوبُهُ شيءٌ ، فلا يكونُ مؤدياً للواجبِ معَ هـٰذا الشوبِ ، والعلمُ عندَ اللهِ فيهِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الإخلاصِ كلاماً أوفىٰ ممَّا أوردناهُ الآنَ ، فليُرجعْ إليهِ .

فهـٰذا حكمُ الرياءِ الطارئِ بعدَ عقدِ العبادةِ ، إمَّا قبلَ الفراغِ ، أوْ بعدَ الفراغِ .

القسمُ الثالثُ : الذي يقارنُ حالَ العقدِ ؛ بأنْ يبتدئَ الصلاةَ علىٰ قصدِ الرياءِ ، فإنْ تمَّ عليهِ حتَّىٰ سلَّمَ . . فلا خلافَ في أنَّهُ يقضي ، ولا يعتدُّ بصلاتِهِ ، وإنْ ندمَ عليهِ في أثناءِ ذلكَ واستغفرَ ورجعَ قبلَ التمامِ . . ففيما يلزمهُ ثلاثةُ أوجهٍ :

قالَتْ فرقةٌ : لمْ تنعقدْ صلاتُهُ معَ قصدِ الرياءِ ، فليستأنفْ .

وقالَتْ فرقةٌ : تلزمُهُ إعادةُ الأفعالِ ؛ كالركوعِ والسجودِ ، وتفسدُ

أفعالُهُ دونَ تحريمةِ الصلاةِ ؛ لأنَّ التحريمَ عقدٌ ، والرياءُ خاطرٌ في قلبِهِ لا يُخرِجُ التحريمَ عنْ كونِهِ عقداً .

وقالَتْ فرقةٌ : لا يلزمُهُ إعادةُ شيءٍ ، بلْ يستغفرُ اللهَ بقلبِهِ ، ويتمُّ العبادةَ على الإخلاصِ ، والنظرُ إلىٰ خاتمةِ العبادةِ ؛ كما لو ابتدأَ بالإخلاصِ وختمَ بالرياءِ . . لكانَ يفسُدُ عملُهُ ، وشبَّهوا ذلكَ بثوبٍ أبيضَ لُطِّخَ بنجاسةٍ عارضةٍ ، فإذا أُزيلَ العارضُ . . عادَ إلى الأصلِ ، فقالوا : إنَّ الصلاةَ والركوعَ والسجودَ لا تكونُ إلا للهِ ، ولوْ سجدَ لغيرِ اللهِ . . لكانَ كافراً ، ولكنِ اقترنَ بهِ عارضُ الرياءِ ، ثمَّ زالَ بالندمِ والتوبةِ ، وصارَ إلىٰ حالةٍ لا يبالي بحمدِ الناسِ وذمِّهِمْ ، فتصحُّ صلاتُهُ .

ومذهبُ الفريقينِ الآخرينِ خارجٌ عنْ قياسِ الفقهِ جدّاً ، خصوصاً مَنْ قالَ : يلزمُهُ إعادةُ الركوعِ والسجودِ دونَ الافتتاحِ ؛ لأنَّ الركوعَ والسجودَ إنْ لمْ يصحَّ . . صارَتْ أفعالاً زائدةً في الصلاةِ فتفسدُ الصلاةُ ، وكذلكَ قولُ مَنْ يقولُ : لوْ خُتمَ بالإخلاصِ . . صحَّ ؛ نظراً إلى الآخرِ ، فهوَ أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنَّ الرياءَ يقدحُ في النيةِ ، وأولى الأوقاتِ بمراعاةِ أحكامِ النيةِ حالةُ الافتتاحِ ، **فالذي يستقيمُ علىٰ قياسِ الفقهِ هوَ أنْ يُقالَ** : إنْ كانَ باعثُهُ مجردَ الرياءِ في ابتداءِ العقدِ دونَ طلبِ الثوابِ وامتثالِ الأمرِ . . لمْ ينعقدْ افتتاحُهُ ، ولمْ يصحَّ ما بعدَهُ ، وذلكَ فيمَنْ إذا خلا بنفسِهِ . . لمْ يصلِّ ، ولمَّا رأى الناسَ . . تحرَّمَ بالصلاةِ ، وكانَ بحيثُ لوْ كانَ ثوبُهُ نجساً أيضاً . . كانَ يصلِّي لأجلِ الناسِ ، فهٰذهِ صلاةٌ لا نيةَ فيها ؛ إذِ النيةُ عبارةٌ عنْ

إجابةِ باعثِ الدينِ ، وهاهنا لا باعثَ ولا إجابةَ .

فأمَّا إذا كانَ بحيثُ لولا الناسُ أيضاً.. لكانَ يصلِّي إلا أنَّهُ ظهرَتْ لهُ الرغبةُ في المحمدةِ أيضاً ، فاجتمعَ الباعثانِ ، فهاذا إمَّا أنْ يكونَ في صدقةٍ وقراءةٍ وما ليسَ فيهِ تحليلٌ وتحريمٌ ، أوْ في عقدِ صلاةٍ وحجٍّ ، فإنْ كانَ في صدقةٍ.. فقدْ عصىٰ بإجابةِ باعثِ الرياءِ ، وأطاعَ بإجابةِ باعثِ الثوابِ ، ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ ، فلهُ ثوابٌ بقدْرِ قصدِهِ الصحيحِ ، وعقابٌ بقدْرِ قصدِهِ الفاسدِ ، ولا يحبطُ أحدُهما الآخرَ .

وإنْ كانَ في صلاةٍ تقبلُ الفسادَ بتطرُّقِ خللٍ إلى النيةِ.. فلا يخلو : إمَّا أنْ تكونَ نفلاً أوْ فرضاً ؛ فإنْ كانَتْ نفلاً.. فحكمُها أيضاً حكمُ الصدقةِ ، فقدْ عصىٰ مِنْ وجهٍ وأطاعَ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ اجتمعَ في قلبِهِ الباعثانِ ، ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : صلاتُهُ فاسدةٌ والاقتداءُ بِهِ باطلٌ ، حتَّىٰ إنَّ من يصلِّي التراويحَ ، وتبيَّنَ مِنْ قرائنِ حالِهِ أنَّ قصدَهُ الرياءُ بإظهارِ حسنِ القراءةِ ؛ ولولا اجتماعُ الناسِ خلفَهُ وخلا في البيتِ وحدَهُ لما صلَّىٰ.. لا يصحُّ الاقتداءُ بهِ ؛ فإنَّ المصيرَ إلىٰ هاذا بعيدٌ جدّاً ، بلْ يُظنُّ بالمسلمِ أنَّهُ يقصدُ الثوابَ أيضاً بتطوعِهِ ، فتصحُّ باعتبارِ ذلكَ القصدِ صلاتُهُ ، ويصحُّ الاقتداءُ بهِ وإنِ اقترنَ بهِ قصدٌ آخرُ هوَ بهِ عاصٍ .

فأمَّا إذا كانَ في فرضٍ واجتمعَ الباعثانِ وكانَ كلُّ واحدٍ لا يستقلُّ ، وإنَّما

يحصلُ الانبعاثُ بمجموعِهما . . فهٰذا لا يسقطُ الواجبَ عنهُ ؛ لأنَّ الإيجابَ لمْ ينتهضْ باعثاً في حقِّهِ بمجردِهِ واستقلالِهِ .

وإنْ كانَ كلُّ باعثٍ مستقلاً ، حتَّىٰ لوْ لمْ يكنْ باعثُ الرياءِ . . لأدَّى الفرضَ ، ولوْ لمْ يكنْ باعثُ الفرضِ . . لأنشأَ صلاةً تطوعاً لأجلِ الرياءِ ، فهٰذا في محلِّ النظرِ ، وهوَ محتملٌ جدّاً ، فيحتملُ أنْ يُقالَ : إنَّ الواجبَ صلاةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ ولمْ يؤدِّ الواجبَ الخالصَ ، ويحتملُ أنْ يُقالَ : الواجبُ امتثالُ الأمرِ بباعثٍ مستقلٍّ بنفسِهِ ، وقدْ وُجدَ ، فاقترانُ غيرِهِ بهِ لا يمنعُ سقوطَ الفرضِ عنهُ ، كما لوْ صلَّىٰ في دارٍ مغصوبةٍ ؛ فإنَّهُ وإنْ كانَ عاصياً بإيقاعِ الصلاةِ في الدارِ المغصوبةِ فإنَّهُ مطيعٌ بأصلِ الصلاةِ ، ومسقطٌ للفرضِ عنْ نفسِهِ ، وتعارضَ الاحتمالُ في تعارضِ البواعثِ في أصلِ الصلاةِ .

أمَّا إذا كانَ الرياءُ في المبادرةِ مثلاً دونَ أصلِ الصلاةِ ؛ مثلُ مَنْ بادرَ إلى الصلاةِ في أوَّلِ الوقتِ لحضورِ جماعةٍ ولوْ خلا . . لأخَّرَ إلىٰ وسطِ الوقتِ ، ولولا الفرضُ . . لكانَ لا يبتدىءُ صلاةً لأجلِ الرياءِ ، فهٰذا ممَّا يقطعُ بصحَّةِ صلاتِهِ وسقوطِ الفرضِ بهِ ؛ لأنَّ باعثَ أصلِ الصلاةِ مِنْ حيثُ إنَّها صلاةٌ لمْ يعارِضْهُ غيرُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ تعيينُ الوقتِ ، فهٰذا أبعدُ عنِ القدحِ في النيةِ .

هٰذا في رياءٍ يكونُ باعثاً على العملِ وحاملاً عليهِ ، وأما مجردُ السرورِ باطلاعِ الناسِ عليهِ إذا لمْ يبلغْ أثرُهُ إلىٰ حيثُ يؤثرُ في العملِ . . فبعيدٌ أنْ يفسدَ الصلاةَ .

فهـٰذا ما نراهُ لائقاً بقانونِ الفقهِ ، والمسألةُ غامضةٌ مِنْ حيثُ إنَّ الفقهاءَ لمْ يتعرَّضوا لها في فنِّ الفقهِ ، والذينَ خاضوا فيها وتصرَّفوا لمْ يلاحظوا قوانينَ الفقهِ ومقتضىٰ فتاوى الفقهاءِ في صحةِ الصلاةِ وفسادِها ، بلْ حملَهُمُ الحرصُ علىٰ تصفيةِ القلوبِ وطلبِ الإخلاصِ علىٰ إفسادِ العباداتِ بأدنى الخواطرِ ، وما ذكرناهُ هوَ الأقصدُ فيما نراهُ ، والعلمُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيهِ ، وهوَ عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، وهوَ الرحمـٰنُ الرحيمُ .

❋ ❋ ❋

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قدْ عرفتَ ممَّا سبقَ أنَّ الرياءَ محبطٌ للأعمالِ ، وسببٌ للمقتِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُ مِنْ كبائرِ المهلكاتِ .

وما هٰذا وصفُهُ فجديرٌ بالتشميرِ عنْ ساقِ الجدِّ في إزالتِهِ ولوْ بالمجاهدةِ وتحمُّلِ المشاقِّ ، فلا شفاءَ إلا في شربِ الأدويةِ المرَّةِ البشعةِ ، وهٰذهِ مجاهدةٌ يُضطرُّ إليها العبادُ كلُّهُمْ ؛ إذِ الصبيُّ يُخلقُ ضعيفَ العقلِ والتمييزِ ، ممتدَّ العينِ إلى الخلقِ ، كثيرَ الطمعِ فيهِمْ ، فيرى الناسَ يتصنَّعُ بعضُهُمْ لبعضٍ ، فيغلبُ عليهِ حبُّ التصنُّعِ بالضرورةِ ، ويترسَّخُ ذلكَ في نفسِهِ ، وإنَّما يشعرُ بكونِ ذلكَ مهلكاً بعدَ كمالِ عقلِهِ ، وقدِ انغرسَ الرياءُ في قلبِهِ وترسَّخَ فيهِ ، فلا يقدرُ علىٰ قمعِهِ إلا بمجاهدةٍ شديدةٍ ، ومكابدةٍ لقوَّةِ الشهواتِ ، فلا ينفكُّ أحدٌ عنِ الحاجةِ إلىٰ هٰذهِ المجاهدةِ ، ولكنَّها تشقُّ أوَّلاً وتخفُّ آخراً ، وفي علاجِهِ مقامانِ :

أحدُهُما : قطع عروقِهِ وأصولِهِ التي منها انشعابُهُ .

والثاني : دفعُ ما يخطرُ منهُ في الحالِ .

* * *

المقامُ الأولُ : في قطعِ عروقِهِ واستئصالِ أصولِهِ :

وأصلُهُ حبُّ المنزلةِ والجاهِ ، وإذا فُصِّلَ . . رجعَ إلىٰ ثلاثةِ أصولٍ ، وهيَ

حبُّ لذةِ المحمدةِ ، والفرارُ مِنْ ألمِ المذمَّةِ ، والطمعُ فيما في أيدي الناسِ .

ويشهدُ للرياءِ بهـٰذهِ الأسبابِ وأنَّها الباعثةُ للمرائي ما روىٰ أبو موسىٰ : أنَّ أعرابياً سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يقاتلُ حميةً ؛ ومعناهُ : أنَّهُ يأنفُ أنْ يُقهرَ أوْ يُذمَّ بأنَّهُ مقهورٌ مغلوبٌ ، والرجلُ يقاتلُ ليُرىٰ مكانُهُ ؛ وهـٰذا هوَ طلبُ لذَّةِ الجاهِ والقدْرِ في القلوبِ ، والرجلُ يقاتلُ للذِّكرِ ؛ وهـٰذا هوَ الحمدُ باللسانِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا التقى الصفانِ . . نزلَتِ الملائكةُ ، فكتبوا الناسَ علىٰ مراتبِهِمْ ، فلانٌ يقاتل للذِّكرِ ، وفلانٌ يقاتلُ للملكِ)[2] ، والقتالُ للملكِ إشارةٌ إلى الطمعِ في الدنيا .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (يقولونَ : فلانٌ شهيدٌ ، ولعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ ملأَ دُفتي راحلتِهِ ورِقاً !)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غزا لا يبغي إلا عِقالاً . . فلهُ ما نوىٰ »[4] ، فهـٰذا إشارةٌ إلى الطمعِ .

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) بألفاظ مقاربة .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) ، وقد ذُكر عند ابن مسعود رضي الله عنه قوم قتلوا في سبيل الله عز وجل ، فذكره .
(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٣٢) .
(٤) رواه النسائي (٦/ ٢٤) .

وقدْ لا يشتهي الحمدَ ولا يطمعُ فيهِ ، ولكنْ يحذرُ مِنْ ألمِ الذمِّ ؛ كالبخيلِ بينَ الأسخياءِ وهمْ يتصدَّقونَ بالمالِ الكثيرِ ، فإنَّهُ يتصدَّقُ بالقليلِ كي لا يُبخَّلَ ، وهوَ ليسَ يطمعُ في الحمدِ وقدْ سبقَهُ غيرُهُ ، وكالجبانِ بينَ الشُّجعانِ ، لا يفرُّ مِنَ الزحفِ خوفاً مِنَ الذمِّ ، وهوَ لا يطمعُ في الحمدِ وقدْ هجمَ غيرُهُ علىٰ صفِّ القتالِ ، ولكنْ إذا أيسَ مِنَ الحمدِ . . كرهَ الذمَّ ، وكالرجلِ بينَ قومٍ يصلُّونَ جميعَ الليلِ ، فيصلِّي ركعاتٍ معدودةً كيْ لا يُذمَّ بالكسلِ ، وهوَ لا يطمعُ في الحمدِ .

وقدْ يقدرُ الإنسانُ على الصبرِ عنْ لذَّةِ الحمدِ ، ولا يقدرُ على الصبرِ علىٰ ألمِ الذمِّ ، ولذلكَ قدْ يتركُ السؤالَ عنْ علمٍ هوَ محتاجٌ إليهِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُذمَّ بالجهلِ ، ويفتي بغيرِ علمٍ ، ويدَّعي العلمَ بالحديثِ وهوَ بهِ جاهلٌ ، كلُّ ذلكَ حذراً مِنَ الذمِّ .

فهٰذهِ الأمورُ الثلاثةُ هيَ التي تحرِّكُ المرائيَ إلى الرياءِ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الشطرِ الأولِ مِنَ الكتابِ على الجملةِ ، ولكنَّا نذكرُ الآنَ ما يخصُّ الرياءَ ، وليسَ بخفيٍّ أنَّ الإنسانَ إنَّما يقصدُ الشيءَ ويرغبُ فيهِ لظنِّهِ أنَّهُ خيرٌ لهُ ونافعٌ ولذيذٌ ، إمَّا في الحالِ وإمَّا في المآلِ ، فإنْ علمَ أنَّهُ لذيذٌ في الحالِ ولكنَّهُ ضارٌّ في المآلِ . . سَهُلَ عليهِ قطعُ الرَّغبةِ عنهُ ، كمَنْ يعلمُ أنَّ العسلَ لذيذٌ ، ولكنْ إذا بانَ لهُ أنَّ فيهِ سمّاً . . أعرضَ عنهُ ؛ فكذلكَ طريقُ قطعِ هٰذهِ الرغبةِ أنْ يعلمَ ما فيها مِنَ المضرَّةِ .

ومهما عرفَ العبدُ مضرَّةَ الرياءِ ، وما يفوتهُ مِنْ صلاحِ قلبِهِ ، وما يُحرمُ عنهُ في الحالِ مِنَ التوفيقِ ، وفي الآخرةِ مِنَ المنزلةِ عندَ اللهِ ، وما يتعرَّضُ لهُ مِنَ العقابِ العظيمِ ، والمقتِ الشديدِ ، والخزيِ الظاهرِ ؛ حيثُ يُنادىٰ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ : يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا مرائي ؛ أما استحييتَ إذِ اشتريتَ بطاعةِ اللهِ عرَضَ الدنيا ، وراقبتَ قلوبَ العبادِ ، واستهزأتَ بطاعةِ اللهِ ، وتحببتَ إلى العبادِ بالتبغُّضِ إلى اللهِ ، وتزيَّنتَ لهُمْ بالشَّينِ عندَ اللهِ ، وتقرَّبتَ إليهِمْ بالبعدِ مِنَ اللهِ ، وتحمَّدتَ إليهِمْ بالتذمُّمِ عندَ اللهِ ، وطلبتَ رضاهُمْ بالتعرُّضِ لسخَطِ اللهِ ؟! أما كانَ أحدٌ أهونَ عليكَ مِنَ اللهِ ؟!

فمهما تفكَّرَ العبدُ في هـٰذا الخزيِ ، وقابلَ ما يحصلُ لهُ مِنَ العبادِ والتزيُّنِ لهُمْ في الدنيا بما يفوتهُ في الآخرةِ ، وبما يحبطُ عليهِ مِنْ ثوابِ الأعمالِ ، معَ أنَّ العملَ الواحدَ ربَّما كانَ يترجَّحُ بهِ ميزانُ حسناتِهِ لوْ خلصَ ، فإذا فسدَ بالرياءِ . . حُوِّلَ إلىٰ كِفَّةِ السيئاتِ فترجَّحَتْ بهِ ، ويهوي إلى النارِ ، فلوْ لمْ يكنْ في الرياءِ إلا إحباطُ عبادةٍ واحدةٍ . . لكانَ ذلك كافياً في معرفةِ ضررِهِ ، وإنْ كانَ معَ ذلكَ سائرُ حسناتِهِ راجحةً ، فقدْ كانَ ينالُ بهـٰذهِ الحسنةِ علوَّ الرتبةِ عندَ اللهِ تعالىٰ في زمرةِ النبيِّينَ والصديقينَ ، وقدْ حُطَّ عنهُمْ بسببِ الرياءِ ، وردَّ إلىٰ صفِّ النعالِ مِنْ مراتبِ الأولياءِ ، هـٰذا معَ ما يتعرَّضُ لهُ في الدنيا مِنْ تشتُّتِ الهمِّ بسببِ ملاحظةِ قلوبِ الخلقِ ، فإنَّ رضا الناسِ غايةٌ لا تُدركُ ، فكلُّ ما يرضىٰ بهِ فريقٌ يسخطُ بهِ فريقٌ ، ورضا بعضِهِمْ في سخطِ بعضِهِمْ ، ومَنْ طلبَ رضاهُمْ في سخطِ اللهِ . . سخطَ اللهُ عليهِ ، وأسخطَهُمْ

أيضاً عليهِ ، ثمَّ أيُّ غرضٍ لهُ في مدحِهِمْ وإيثارِ ذمِّ اللهِ لأجلِ حمدِهِمْ ، ولا يزيدُهُ مدحُهُمْ رزقاً ولا أجلاً ، ولا ينفعُهُ يومَ فقرِهِ وفاقتِهِ وهوَ يومُ القيامةِ ؟!

وأمَّا الطمعُ فيما في أيديهِمْ . . فبأنْ يعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المسخِّرُ للقلوبِ بالمنعِ والإعطاءِ ، وأنَّ الخلقَ مضطرونَ فيهِ ، ولا رازقَ إلا اللهُ ، ومَنْ طمعَ في الخلقِ . . لمْ يخلُ مِنَ الذلِّ والخيبةِ ، وإنْ وصلَ إلى المرادِ . . لمْ يخلُ عنِ المنَّةِ والمهانةِ ، فكيفَ يتركُ ما عندَ اللهِ لرجاءٍ كاذبٍ ووهمٍ فاسدٍ قدْ يصيبُ وقدْ يخطئُ ، وإذا أصابَ . . فلا تفي لذَّتُهُ بألمِ منَّتِهِ ومذلَّتِهِ ؟!

وأمَّا ذمُّهُمْ . . فلِمَ يحذرُ منهُ ولا يزيدُهُ ذمُّهُمْ شيئاً ممَّا لمْ يكتبْهُ اللهُ عليهِ ، ولا يعجِّلُ أجلَهُ ولا يؤخِّرُ رزقَهُ ، ولا يجعلُهُ مِنْ أهلِ النارِ إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، ولا يبغِّضُهُ إلى اللهِ إنْ كانَ محموداً عندَ اللهِ ، ولا يزيدُهُ مقتاً إنْ كانَ ممقوتاً عندَ اللهِ ؟! فالعبادُ كلُّهُمْ عجزةٌ لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكونَ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً .

فإذا قرَّرَ في قلبِهِ آفةَ هٰذهِ الأسبابِ وضررَها . . فترَتْ رغبتُهُ ، وأقبلَ على اللهِ قلبُهُ ، فإنَّ العاقلَ لا يرغبُ فيما يكثرُ ضررُهُ ويقلُّ نفعُهُ .

ويكفيهِ أنَّ الناسَ لوْ علموا ما في باطنِهِ مِنْ قصدِ الرياءِ وإظهارِ الإخلاصِ . . لمقتوهُ ، وسيكشفُ اللهُ عنْ سرِّهِ حتَّىٰ يبغِّضَهُ إلى الناسِ ، ويعرِّفَهُمْ أنَّهُ مراءٍ وممقوتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولوْ أخلصَ للهِ . . لكشفَ اللهُ لهُمْ

إخلاصَهُ ، وحبَّبَهُ إليهِمْ ، وسخَّرهُمْ لهُ ، وأطلقَ ألسنتَهُمْ بحمدِهِ والثناءِ عليهِ ، معَ أنَّهُ لا كمالَ في مدحِهِمْ ، ولا نقصانَ في ذمِّهِمْ ، كما قالَ شاعرٌ مِنْ بني تميمٍ : إنَّ مدحي زينٌ ، وإنَّ ذمِّي شينٌ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كذبتَ ، ذاكَ اللهُ الذي لا إلـهَ إلاَّ هوَ »[1] ، إذْ لا زينَ إلا في مدحِهِ ، ولا شينَ إلا في ذمِّهِ ، فأيُّ خيرٍ لكَ في مدحِ الناسِ وأنتَ عندَ اللهِ مذمومٌ ومِنْ أهلِ النارِ ؟! وأيُّ شرٍّ لكَ في ذمِّ الناسِ وأنتَ عندَ اللهِ محمودٌ في زمرةِ المقرَّبينَ ؟!

فمَنْ أحضرَ في قلبِهِ الآخرةَ ونعيمَها المؤبَّدَ ، والمنازلَ الرفيعةَ عندَ اللهِ . . استحقرَ ما يتعلَّقُ بالخلقِ أيامَ الحياةِ ، معَ ما فيهِ مِنَ الكدوراتِ والمنغِّصاتِ ، واجتمعَ همُّهُ ، وانصرفَ إلى اللهِ قلبُهُ ، وتخلَّصَ مِنْ مذمَّةِ الرياءِ ومقاساةِ قلوبِ الخلقِ ، وانعطفَ مِنْ إخلاصِهِ أنوارٌ علىٰ قلبِهِ ينشرحُ بها صدرُهُ ، وينفتحُ بها لهُ مِنْ لطائفِ المكاشفاتِ ما يزيدُ بهِ أنسُهُ باللهِ واستيحاشُهُ مِنَ الخلقِ ، واستحقارُهُ للدنيا ، واستعظامُهُ للآخرةِ ، وسقطَ محلُّ الخلقِ مِنْ قلبِهِ ، وانحلَّتْ عنهُ داعيةُ الرياءِ ، وتذلَّلَ لهُ منهجُ الإخلاصِ .

فهـٰذا وما قدَّمناهُ في الشطرِ الأولِ هيَ الأدويةُ العلميَّةُ القالعةُ مغارسَ الرياءِ .

---

(١) والقائل هو الأقرع بن حابس ، كما رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٣٩٣) دون زيادة : (كذبت) ، وهي عند الروياني في « مسنده » (٣٠٧) .

وأمّا الدواءُ العمليُّ . . فهوَ أنْ يعوِّدَ نفسَهُ إخفاءَ العباداتِ ، وإغلاقَ الأبوابِ دونَها ، كما تُغلقُ الأبوابُ دونَ الفواحشِ ، حتَّىٰ يقنعَ قلبُهُ بعلمِ اللهِ واطلاعِهِ علىٰ عبادتِهِ ، ولا تنازعَهُ النفسُ إلىٰ طلبِ علمِ غيرِ اللهِ بهِ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ بعضَ أصحابِ أبي حفصٍ الحدادِ ذمَّ الدنيا وأهلَها ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : (أظهرتَ ما كانَ سبيلُكَ أنْ تخفيَهُ ، لا تجالسْنا بعدَ هٰذا) ، فلمْ يرخِّصْ في إظهارِ هٰذا القدْرِ ؛ لأنَّ في ضمنِ ذمِّ الدنيا دعوى الزهدِ فيها ، فلا دواءَ للرياءِ مثلُ الإخفاءِ ، وذلكَ يشقُّ في بدايةِ المجاهدةِ ، وإذا صبرَ عليهِ مدَّةً بالتكلُّفِ . . سقطَ عنهُ ثقلُهُ ، وهانَ عليهِ ذلكَ بتواصلِ ألطافِ اللهِ وما يمدُّ بهِ عبادَهُ مِنْ حسنِ التوفيقِ والتأييدِ ، ولكنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتَّىٰ يغيِّروا ما بأنفسِهِمْ ، فمِنَ العبدِ المجاهدةُ ومِنَ اللهِ الهدايةُ ، ومِنَ العبدِ قرعُ البابِ ومِنَ اللهِ فتحُ البابِ ، واللهُ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ ، وإنْ تكُ حسنةً . . يضاعفْها ، ويؤتِ مِنْ لدنْهُ أجراً عظيماً .

❊ ❊ ❊

المقامُ الثاني : في دفعِ العارضِ منهُ في أثناءِ العبادةِ :

وذلكَ لا بدَّ مِنْ تعلُّمِهِ أيضاً ، فإنَّ مَنْ جاهدَ نفسَهُ ، وقلعَ مغارسَ الرياءِ مِنْ قلبِهِ بالقناعةِ ، وقطعِ الطمعِ ، وإسقاطِ نفسِهِ مِنْ أعينِ المخلوقينَ ، واستحقارِ مدحِ المخلوقينَ وذمِّهِمْ . . فالشيطانُ لا يتركُهُ في أثناءِ العبادةِ ، بلْ يعارضُهُ بخطراتِ الرياءِ ولا تنقطعُ عنهُ نزغاتُهُ ، وهوى النفسِ وميلُها

لا ينمحي بالكليّةِ ، فلا بدَّ وأنْ يتشمَّرَ لدفعِ ما يعرضُ مِنْ خاطرِ الرياءِ .

وخواطرُ الرياءِ ثلاثةٌ ، قدْ تخطرُ دفعةً واحدةً كالخاطرِ الواحدِ ، وقدْ تترادفُ على التدريجِ .

فالأولُ : العلمُ باطلاعِ الخلقِ ورجاءُ اطلاعِهِمْ ، ثمَّ يتلوهُ هيجانُ الرغبةِ مِنَ النفسِ في حمدِهِمْ وحصولِ المنزلةِ عندَهمْ ، ثمَّ يتلوهُ قبولُ النفسِ لهُ والركونُ إليهِ ، وعقدُ الضميرِ علىٰ تحقيقِهِ ، **فالأوَّلُ** : معرفةٌ ، **والثاني** : حالةٌ تُسمَّى الشهوةَ والرغبةَ ، **والثالثُ** : فعلٌ يُسمَّى العزمَ وتصميمَ العقدِ .

وإنَّما كمالُ القوةِ في دفعِ الخاطرِ الأوَّلِ وردِّه قبلَ أنْ يتلوَهُ الثاني ، فإذا خطرَ لهُ معرفةُ اطلاعِ الخلقِ أوْ رجاءُ اطلاعِهِمْ . دفعَ ذلكَ بأنْ قالَ : ما لكَ وللخلقِ ، علموا أوْ لمْ يعلموا واللهُ عالمٌ بحالِكَ ؟! فأيُّ فائدةٍ في علمِ غيرِهِ ؟!

فإنْ هاجَتِ الرغبةُ إلىٰ لذَّةِ الحمدِ . تذكَّرَ ما رسخَ في قلبِهِ مِنْ قبلُ مِنْ آفةِ الرياءِ ، وتعرضِهِ للمقتِ عندَ اللهِ في القيامةِ ، وخيبتِهِ في أحوجِ أوقاتِهِ إلىٰ أعمالِهِ ، فكما أنَّ معرفةَ اطلاعِ الناسِ تثيرُ شهوةً ورغبةً في الرياءِ . فمعرفةُ آفةِ الرياءِ تثيرُ كراهةً لهُ تقابلُ تلكَ الشهوةَ ؛ إذْ يتفكرُ في تعرُّضِهِ لمقتِ اللهِ وعقابِهِ الأليمِ ، والشهوةُ تدعوهُ إلى القبولِ ، والكراهةُ تدعوهُ إلى الإباءِ ، والنفسُ تطاوعُ ـ لا محالةَ ـ أقواهُما وأغلبَهُما .

فإذاً ؛ لا بدَّ في ردِّ الرياءِ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : المعرفةِ ، والكراهةِ ، والإباءِ .

وقدْ يشرعُ العبدُ في العبادةِ علىٰ عزمِ الإخلاصِ ، ثمَّ يرِدُ خاطرُ الرياءِ فيقبلُهُ ، ولا تحضرُهُ المعرفةُ ولا الكراهةُ التي كانَ الضميرُ منطوياً عليها ، وإنَّما سببُ ذلكَ امتلاءُ القلبِ بخوفِ الذمِّ وحبِّ الحمدِ ، واستيلاءُ الحرصِ عليهِ ؛ بحيثُ لا يبقىٰ في القلبِ متَّسعٌ لغيرِهِ ، فتعزبُ عنِ القلبِ المعرفةُ السابقةُ بآفاتِ الرياءِ وشؤمِ عاقبتِهِ ؛ إذْ لمْ يبقَ موضعٌ في القلبِ خالٍ عنْ شهوةِ الحمدِ أوْ خوفِ الذمِّ ، وهوَ كالذي يحدِّثُ نفسَهُ بالحلمِ وذمِّ الغضبِ ، ويعزمُ على التحلُّمِ عندَ جريانِ سببِ الغضبِ ، ثمَّ يجري مِنَ الأسبابِ ما يشتدُّ بهِ غضبُهُ ، فينسىٰ سابقَ عزمِهِ ، ويمتلىءُ قلبُهُ غيظاً يمنعُ مِنْ تذكُّرِ آفةِ الغضبِ ، ويشتغلُ عنهُ ، فكذلكَ حلاوةُ الشهوةِ تملأُ القلبَ وتدفعُ نورَ المعرفةِ مثلَ مرارةِ الغضبِ ، وإليهِ أشارَ جابرٌ بقولِهِ : بايعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تحتَ الشجرةِ علىٰ ألا نفرَّ ، ولمْ نبايعْهُ على الموتِ ، فأُنسيناها يومَ حنينٍ ، حتَّىٰ نُوديَ : يا أصحابَ الشجرةِ ؛ فرجعوا[1] ، وذلكَ لأنَّ القلوبَ امتلأَتْ بالخوفِ فنسيَتِ العهدَ السابقَ ، حتىٰ ذُكِّروا ، وأكثرُ الشهواتِ التي تهجمُ فجأةً هـٰكذا تكونُ ؛ إذْ تنسي معرفةَ مضرتِهِ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٦) ، وهو مجموع حديثين رواهما مسلم (١٨٥٦ ، ١٧٧٥) ، فالأول من حديث جابر رضي الله عنه قال : (كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة ، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة ، وقال : بايعناه علىٰ ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت) ، والثاني من حديث العباس رضي الله عنه ، وفيه ذكر إدبار المسلمين يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أمر العباس أن ينادي أصحاب السمرة ، فلما ناداهم . . عادوا كحنين البقر إلىٰ أولادها .

الداخلةِ في عقدِ الإيمانِ ، ومهما نسيَ المعرفةَ .. لمْ تظهرِ الكراهةُ ، فإنَّ الكراهةَ ثمرةُ المعرفةِ .

وقدْ يتذكَّرُ الإنسانُ فيعلمُ أنَّ الخاطرَ الذي خطرَ لهُ هوَ خاطرُ الرياءِ الذي يعرِّضُهُ لسخطِ اللهِ ، ولكنْ يستمرُّ عليهِ لشدَّةِ شهوتِهِ ، فيغلبُ هواهُ عقلَهُ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ لذَّةِ الحالِ ، فيسوِّفُ بالتوبةِ ، أوْ يتشاغلُ عنِ التفكُّرِ في ذلكَ لشدَّةِ الشهوةِ ، فكمْ مِنْ عالمٍ يحضرُهُ كلامٌ لا يدعوهُ إلى النطقِ بهِ إلا رياءُ الخلقِ ، وهوَ يعلمُ ذلكَ ، ولكنَّهُ يستمرُّ عليهِ ، فتكونُ الحجةُ عليهِ أوكدَ ؛ إذْ قبلَ داعيَ الرياءِ معَ علمِهِ بغائلتِهِ وكونِهِ مذموماً عندَ اللهِ ، ولا تنفعُهُ معرفتُهُ إذا خلَتِ المعرفةُ عنِ الكراهةِ .

وقدْ تحضرُ المعرفةُ والكراهةُ ، ولكنْ معَ ذلكَ يقبلُ داعيَ الرياءِ ويعملُ بهِ ؛ لكونِ الكراهةِ ضعيفةً بالإضافةِ إلىٰ قوةِ الشهوةِ ، وهٰذا أيضاً لا ينتفعُ بكراهتِهِ ؛ إذِ الغرضُ مِنَ الكراهةِ أنْ تصرفَ عنِ الفعلِ .

فإذاً ؛ لا فائدةَ إلا في اجتماعِ الثلاثِ ، وهيَ : المعرفةُ ، والكراهةُ ، والإباءُ ، فالإباءُ ثمرةُ الكراهةِ ، والكراهةُ ثمرةُ المعرفةِ ، وقوةُ المعرفةِ بحسبِ قوةِ الإيمانِ ونورِ العلمِ ، وضعفُ المعرفةِ بحسبِ الغفلةِ ، وحبِّ الدنيا ونسيانِ الآخرةِ ، وقلةِ التفكرِ فيما عندَ اللهِ ، وقلةِ التأملِ في آفاتِ الحياةِ الدنيا وعظمِ نعيمِ الآخرةِ ، وبعضُ ذلكَ ينتجُ بعضاً ويثمرُهُ ، وأصلُ ذلكَ كلِّهِ حبُّ الدنيا وغلبةُ الشهواتِ ، فهوَ رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، ومنبعُ كلِّ ذنبٍ ؛ لأنَّ حلاوةَ حبِّ الجاهِ والمنزلةِ ونعيمِ الدنيا هيَ التي تغمرُ القلبَ

وتسلبُهُ ، وتحولُ بينَهُ وبينَ التفكُّرِ في العاقبةِ ، والاستضاءةِ بنورِ الكتابِ والسنةِ وأنوارِ العلومِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فمَنْ صادفَ مِنْ نفسِهِ كراهةَ الرياءِ ، وحملَتْهُ الكراهةُ على الإباءِ ، ولكنَّهُ معَ ذلكَ غيرُ خالٍ عنْ ميلِ الطبعِ إليهِ وحبِّهِ لهُ ومنازعتِهِ إيَّاهُ ، إلا أنَّهُ كارهٌ لحبِّهِ ولميلِهِ وغيرُ محببٍ إليهِ . . فهلْ يكونُ في زمرةِ المرائينَ ؟

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يكلِّفِ العبدَ إلا ما يطيقُ ، وليسَ في طاقةِ العبدِ منعُ الشيطانِ عنْ نزغاتِهِ ، ولا قمعُ الطبعِ حتَّىٰ لا يميلَ إلى الشهواتِ ولا ينزعَ إليها ، وإنَّما غايتُهُ أنْ يقابلَ شهوتَهُ بكراهةٍ استثارَها مِنْ معرفةِ العواقبِ وعلمِ الدينِ ، وأصولِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . فهوَ الغايةُ في أداءِ ما كُلِّفَهُ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ مِنَ الأخبارِ ما رُوِيَ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شكَوا إليهِ وقالوا : تعرضُ لقلوبِنا أشياءُ لأَنْ نخرَّ مِنَ السماءِ فتخطفَنا الطيرُ أوْ تهويَ بنا الريحُ في مكانٍ سحيقٍ . . أحبُّ إلينا مِن أنْ نتكلَّمَ بها ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوَقدْ وجدتُموهُ ؟ » قالوا : نعمْ ، قال : « ذلكَ صريحُ الإيمانِ »[1] ، ولمْ يجدوا إلا الوسواسَ والكراهةَ لهُ .

---

(١) رواه مسلم (١٣٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٤٩) ، وهو الحديث المنعوت بحديث الوسوسة .

ولا يمكنُ أنْ يُقالَ : أرادَ بـ(صريحُ الإيمانِ) : الوسوسةَ ؛ فلمْ يبقَ إلا حملُهُ على الكراهةِ المساوقةِ للوسوسةِ ، والرياءُ وإنْ كانَ عظيماً . . فهوَ دونَ الوسوسةِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فإذا اندفعَ ضررُ الأعظمِ بالكراهةِ . . فبأنْ يندفعَ بها ضررُ الأصغرِ أولىٰ .

وكذلك يُروىٰ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّهُ قالَ : « الحمدُ للهِ الذي ردَّ كيدَ الشيطانِ إلى الوسوسةِ »(١) .

وقالَ أبو حازمٍ : (ما كانَ مِنْ نفسِكَ فكرِهَتْهُ نفسُكَ لنفسِكَ . . فلا يضرُّكَ ما هوَ مِنْ عدوِّكَ ، وما كانَ مِنْ نفسِكَ فرضيَتْهُ نفسُكَ لنفسِكَ . . فعاتِبْها عليهِ)(٢) .

❊ ❊ ❊

فإذاً ؛ وسوسةُ الشيطانِ ومنازعةُ النفسِ لا تضرُّكَ مهما رددتَ مرادَهُما بالإباءِ والكراهةِ ، والخواطرُ التي هيَ العلومُ والتذكراتُ والتخيلاتُ للأسبابِ المهيجةِ للرياءِ هيَ مِنَ الشيطانِ ، والرغبةُ والميلُ بعدَ تلكَ الخواطرِ مِنَ النفسِ ، والكراهةُ مِنَ الإيمانِ ومِنْ آثارِ العقلِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥١١٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٤٣٤) ، وكان جواباً عن شكواهم تلك .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ١٨٨) ، وقال : (وقال زيد بن أسلم مثل ذلك) ، وهو عن زيد بن أسلم رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٢١) .

إلا أنَّ للشيطانِ هٰهنا مكيدةً ؛ وذلكَ أنَّهُ إذا عجزَ عنْ حملِهِ علىٰ قبولِ الرياءِ . . خيَّلَ إليهِ أنَّ صلاحَ قلبِهِ في الاشتغالِ بمجادلةِ الشيطانِ ، ومطاولتِهِ في الردِّ والجدالِ ، حتَّىٰ يسلبَهُ ثوابَ الإخلاصِ وحضورَ القلبِ ؛ لأنَّ الاشتغالَ بمجادلةِ الشيطانِ ومدافعتِهِ انصرافٌ عنْ سرِّ المناجاةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، فيوجبُ ذلكَ نقصاناً في منزلتِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

والمتخلصونَ عنِ الرياءِ في دفعِ خواطرِ الرياءِ علىٰ أربعِ مراتبَ :

الرتبةُ الأولىٰ : أنْ يردَّ على الشيطانِ مكيدتَهُ فيكذبَهُ ، ولا يقتصرُ عليهِ ، بلْ يشتغلُ بمجادلتِهِ ، ويطيلُ الجدالَ معَهُ ؛ لظنِّهِ أنَّ ذلكَ أسلمُ لقلبِهِ ، وهوَ على التحقيقِ نقصانٌ ؛ لأنَّهُ اشتغلَ عنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ وعنِ الخيرِ الذي هوَ بصددِهِ ، وانصرفَ إلىٰ قتالِ قطَّاعِ الطريقِ ، والتعريجُ علىٰ قتالِ قطَّاعِ الطريقِ نقصانٌ في السلوكِ .

الرتبةُ الثانيةُ : أنْ يعرفَ أنَّ الجدالَ والقتالَ نقصانٌ في السلوكِ ، فيقتصرُ علىٰ تكذيبِهِ ودفعِهِ ، ولا يشتغلُ بمجادلتِهِ .

الرتبةُ الثالثةُ : ألاَّ يشتغلَ بتكذيبِهِ أيضاً ؛ لأنَّ ذلكَ وقفةٌ وإنْ قلَّتْ ، بلْ يكونُ قدْ قرَّرَ في عقدِ ضميرِهِ كراهةَ الرياءِ وكذبَ الشيطانِ ، فيستمرُّ علىٰ ما كانَ عليهِ مستصحباً للكراهةِ غيرَ مشتغلٍ بالتكذيبِ ولا بالمخاصمةِ .

الرتبةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ قدْ علمَ أنَّ الشيطانَ سيحسدُهُ عندَ جريانِ أسبابِ

الرياءِ ، فيكونَ قدْ عزمَ علىٰ أنَّهُ مهما نزغَ الشيطانُ . . زادَ فيما هوَ فيهِ مِنَ الإخلاصِ والاشتغالِ باللهِ تعالىٰ ، وإخفاءِ الصدقةِ والعبادةِ ؛ غيظاً للشيطانِ ، وذلكَ هوَ الذي يغيظُ الشيطانَ ويقمعُهُ ، ويوجبُ يأسَهُ وقنوطَهُ حتَّىٰ لا يرجعَ .

يُروىٰ عنِ الفضيلِ بنِ غَزْوانَ أنَّهُ قيلَ لهُ : إنَّ فلاناً ذكرَكَ ، فقالَ : واللهِ ؛ لأغيظنَّ مَنْ أمرَهُ ، قيلَ : ومَنْ أمرَهُ ؟ قالَ : الشيطانُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لهُ ؛ أي : لأغيظَنَّهُ بأنْ أطيعَ اللهَ فيهِ[1] .

ومهما عرفَ الشيطانُ مِنْ عبدٍ هٰذهِ العادةَ . . كفَّ عنهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يزيدَ في حسناتِهِ .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إنَّ الشيطانَ ليدعو العبدَ إلى البابِ مِنَ الإثمِ ، فلا يطيعُهُ ويحدثُ عندَ ذلكَ خيراً ، فإذا رآهُ كذلكَ . . تركَهُ)[2] .

وقالَ أيضاً : (إذا رآكَ الشيطانُ متردداً . . طمعَ فيكَ ، وإذا رآكَ مداوماً . . ملَّكَ وقلاكَ)[3] .

وضربَ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ لهٰذهِ الأربعةِ مثالاً أحسنَ فيهِ فقالَ : مثالُهُمْ كأربعةٍ قصدوا مجلساً مِنَ العلمِ والحديثِ ؛ لينالوا بهِ فائدةً

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ١٩٥) ، وبنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٧٠) .
(٢) الرعاية (ص ١٩٥) ، وزاد : (ثم يدعوه إلى الباب من الإثم ، فلا يطيعه ، ويحدث عند ذلك خيراً ، فإذا رآه كذلك . . تركه) .
(٣) الرعاية (ص ١٩٥) .

وفضلاً ، وهدايةً ورشداً ، فحسدَهُمْ علىٰ ذلك ضالٌّ مبتدعٌ ، وخافَ أنْ يعرفوا الحقَّ ، فتقدَّمَ إلىٰ واحدٍ منهُمْ ليمنعَهُ ويصرفَهُ عنهُ ، ودعاهُ إلىٰ مجلسِ ضلالٍ فأبىٰ ، فلمَّا عرفَ إباءَهُ . . شغلَهُ بالمجادلةِ ، فاشتغلَ معَهُ ليردَّ ضلالَهُ وهوَ يظنُّ أنَّ ذلكَ مصلحةٌ ، وهوَ غرضُ الضالِّ ليفوتَ عليهِ بقدْرِ تأخرِهِ .

فلمَّا مرَّ الثاني عليهِ . . نهاهُ واستوقفَهُ فوقفَ ، فدفعَ في نحرِ الضالِّ ولمْ يشتغلْ بالقتالِ واستعجلَ ، ففرحَ منهُ الضالُّ بقدْرِ توقُّفِهِ للدَّفعِ فيهِ .

ومرَّ بهِ الثالثُ ، فلمْ يلتفتْ إليهِ ، ولمْ يشتغلْ بدفعِهِ ولا بقتالِهِ ، بلِ استمرَّ علىٰ ما كانَ ، فخابَ منهُ رجاؤُهُ بالكليَّةِ .

فمرَّ الرابعُ فلمْ يتوقَّفْ لهُ ، وأرادَ أنْ يغيظَهُ فزادَ في عجلتِهِ وتركَ التأنِّيَ في المشيِ .

فيوشكُ إنْ عادوا ومرُّوا عليهِ مرةً أخرىٰ أنْ يعاودَ الجميعَ إلا هـٰذا الأخيرَ ، فإنَّهُ لا يعاودُهُ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يزدادَ فائدةً باستعجالِهِ(١) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : الشيطانُ إذا كانَ لا تُؤمنُ نزغاتُهُ . . فهلْ يجبُ الترصدُ لهُ قبلَ حضورِهِ للحذرِ منهُ ؛ انتظاراً لورودِهِ ، أمْ يجبُ التوكلُ على اللهِ ليكونَ هوَ الدافعَ لهُ ، أوْ يجبُ الاشتغالُ بالعبادةِ والغفلةُ عنهُ ؟(٢) .

---

(١) الرعاية (ص ١٩٥) .
(٢) الرعاية (ص ١٩٦) .

قلنا : اختلفَ الناسُ فيهِ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ :

فذهبَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ البصرةِ إلىٰ أنَّ الأقوياءَ قدِ استغنَوا عنِ الحذرِ مِنَ الشيطانِ ؛ لأنَّهُمُ انقطعوا إلى اللهِ تعالىٰ ، واشتغلوا بحبِّهِ ، فاعتزلَهُمُ الشيطانُ وأيسَ منهُمْ وخنسَ عنهُمْ ؛ كما أيسَ مِنْ ضعفاءِ العبادِ في الدعوةِ إلى الخمرِ والزنا ، فصارَتْ ملاذُّ الدنيا عندَهُمْ ـ وإنْ كانَتْ مباحةً ـ كالخمرِ والخنزيرِ ، وإذْ خلَوا مِنْ حبِّها بالكليَّةِ . . لمْ يبقَ للشيطانِ إليهِمْ سبيلٌ ، فلا حاجةَ بهِمْ إلى الحذرِ .

وذهبَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ الشامِ إلىٰ أنَّ الترصدَ للحذرِ منهُ إنَّما يحتاجُ إليهِ مَنْ قلَّ يقينُهُ ، ونقصَ توكُّلُهُ ، فمَنْ أيقنَ بأنْ لا شريكَ للهِ في تدبيرِهِ . . فلا يحذرُ غيرَهُ ، ويعلمُ أنَّ الشيطانَ ذليلٌ مخلوقٌ ليسَ إليهِ أمرٌ ، ولا يكونُ إلا ما أرادَهُ اللهُ تعالىٰ ، فهو الضارُّ والنافعُ ، والعارفُ يستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يحذرَ غيرَهُ ، فاليقينُ بالوحدانيَّةِ يغنيهِ عنِ الحذرِ .

وقالَتْ فرقةٌ مِنْ أهلِ العلمِ : لا بدَّ مِنَ الحذرِ مِنَ الشيطانِ .

وما ذكرَهُ البصريونَ مِنْ أنَّ الأقوياءَ قدِ استغنَوا عنِ الحذرِ ، وخلَتْ قلوبُهُمْ عنْ حبِّ الدنيا بالكلِّيَّةِ وهيَ وسيلةُ الشيطانِ . . يكادُ يكونُ غروراً ؛ إذِ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ لمْ يتخلَّصوا مِنْ وساوسِ الشيطانِ ونزغاتِهِ ، فكيفَ يتخلَّصُ غيرُهُمْ؟!

وليسَ كلُّ وسواسِ الشيطانِ مِنَ الشهواتِ وحبِّ الدنيا ، بلْ في

صفاتِ اللهِ تعالىٰ وأسمائِهِ ، وفي تحسينِ البدعِ والضلالِ وغيرِ ذلكَ ، ولا ينجو أحدٌ مِنَ الخطرِ فيهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي »[(١)] ، معَ أنَّ شيطانَهُ قدْ أسلمَ ولا يأمرُهُ إلا بخيرٍ ، فمَنْ ظنَّ أنَّ اشتغالَهُ بحبِّ اللهِ أكثرُ مِنِ اشتغالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ . . فهوَ مغرورٌ ، ولمْ يؤمِّنْهُمْ ذلكَ مِنْ كيدِ الشيطانِ ؛ ولذلكَ لمْ يسلمْ منهُ آدمُ وحواءُ في الجنَّةِ التي هيَ دارُ الأمنِ والسرورِ بعدَ أنْ قالَ اللهُ تعالىٰ لهُما : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾ معَ أنَّهُ لمْ يُنهَ إلا عنْ شجرةٍ واحدةٍ ، وأُطلقَ لهُ وراءَ ذلكَ ما أرادَ ، فإذا لمْ يأمنْ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ وهوَ في الجنةِ دارِ الأمنِ والسعادةِ مِنْ كيدِ الشيطانِ . . فكيفَ يجوزُ لغيرِهِ أنْ يأمنَ في دارِ الدنيا وهيَ منبعُ الفتنِ والمحنِ ومعدِنُ الملاذِّ والشهواتِ المنهيِّ عنها ؟!

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ فيما أخبرَ عنهُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ .

ولذلكَ حذَّرَ اللهُ منهُ جميعَ الخلقِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) .

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ ، والقرآنُ مِنْ أولِهِ إلىٰ آخرِهِ تحذيرٌ مِنَ الشيطانِ ؛ فكيفَ يُدَّعى الأمنُ منهُ ؟!

وأخذُ الحذرِ مِنْ حيثُ أمرَ اللهُ تعالىٰ بهِ لا ينافي الاشتغالَ بحبِّ اللهِ ؛ فإنَّ مِنَ الحبِّ لهُ امتثالَ أمرِهِ ، وقدْ أمرَ بالحذرِ مِنَ العدوِّ ، كما أمرَ بالحذرِ مِنَ الكفارِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ فإذا لزمَكَ بأمرِ اللهِ الحذرُ مِنَ العدوِّ الكافرِ وأنتَ تراهُ . . فبأنْ يلزمَكَ الحذرُ مِنْ عدوٍّ يراكَ ولا تراهُ أولىٰ ؛ ولذلكَ قالَ ابنُ محيريزٍ : (صيدٌ تراهُ ولا يراكَ يوشكُ أنْ تظفرَ بهِ ، وصيدٌ يراكَ ولا تراهُ يوشكُ أنْ يظفرَ بكَ)(١) ، فأشارَ إلى الشيطانِ ، فكيفَ وليسَ في الغفلةِ عنْ عداوةِ الكافرِ إلا قتلٌ هوَ شهادةٌ ، وفي إهمالِ الحذرِ مِنَ الشيطانِ التعرضُ للنارِ والعقابُ الأليمُ ؟!

فليسَ مِنَ الاشتغالِ باللهِ الإعراضُ عمَّا حذَّرَ اللهُ ، وبهِ يبطلُ مذهبُ الفرقةِ الثانيةِ في ظنِّهِمْ أنَّ ذلكَ قادحٌ في التوكلِ ؛ فإنَّ أخذَ الترسِ والسلاحِ ، وجمعَ الجنودِ ، وحفرَ الخندقِ . . لمْ يقدحْ في توكُّلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكيفَ يقدحُ في التوكُّلِ الخوفُ ممَّا خوَّفَ اللهُ بهِ ، والحذرُ ممَّا أمرَ اللهُ بالحذرِ منهُ ؟!

---

(١) الرعاية (ص ٢٠٠) بنحوه .

وقدْ ذكرنا في كتابِ التوكُّلِ ما يبيِّنُ غلطَ مَنْ ظنَّ أنَّ معنى التوكُّلِ النزوعُ عنِ الأسبابِ بالكليَّةِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ لا يناقضُ امتثالَ التوكُّلِ مهما اعتقدَ القلبُ أنَّ الضارَّ والنافعَ والمحييَ والمميتَ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فكذلكَ يحذرُ الشيطانَ ويعتقدُ أنَّ المضلَّ والهاديَ هوَ اللهُ ؛ ويرى الأسبابَ وسائطَ مسخرةً كما ذكرناهُ في كتابِ التوكُّلِ ، وهٰذا ما اختارَهُ الحارثُ المحاسبيُّ رحمَهُ اللهُ[1] ، وهوَ الصحيحُ الذي يشهدُ لهُ نورُ العلمِ ، وما قبلَهُ يشبهُ أنْ يكونَ مِنْ كلامِ العبَّادِ الذينَ لمْ يغزُرْ علمُهُمْ ، ويظنُّونَ أنَّ ما يهجمُ عليهِمْ مِنَ الأحوالِ في بعضِ الأوقاتِ مِنَ الاستغراقِ باللهِ يستمرُّ على الدوامِ ، وهوَ بعيدٌ .

ثمَّ اختلفَتْ هٰذهِ الفرقةُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ في كيفيةِ الحذرِ :

فقالَ قومٌ : إذا حذَّرَنا اللهُ تعالى العدوَّ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ شيءٌ أغلبَ علىٰ قلوبِنا مِنْ ذكرِهِ والحذرِ منهُ والترصدِ لهُ ؛ فإنَّا إنْ غفلنا عنهُ لحظةً . . فيوشكُ أنْ يهلكَنا .

وقالَ قومٌ : إنَّ ذلكَ يؤدي إلىٰ خلوِّ القلبِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، واشتغالِ الهمِّ كلِّهِ بالشيطانِ ، وذلكَ مرادُ الشيطانِ منَّا ، بلْ نشتغلُ بالعبادةِ وبذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولا ننسى الشيطانَ وعداوتَهُ ، والحاجةَ إلى الحذرِ منهُ ؛ فنجمعُ بينَ

---

(١) كما في « الرعاية » (ص ١٩٦ـ ٢٠٢) .

الأمرين فإنَّا إنْ نسيناهُ.. ربَّما عرضَ مِنْ حيثُ لا نحتسبُ ، وإنْ تجردنا لذكرِهِ.. كنَّا قدْ أهملنا ذكرَ اللهِ ، فالجمعُ أولىٰ .

وقالَ العلماءُ المحققونَ : غلطَ الفريقانِ ، أمَّا الأولُ.. فقدْ تجرَّدَ لذكرِ الشيطانِ ونسيَ ذكرَ اللهِ ، فلا يخفىٰ غلطُهُ ، وإنَّما أُمرنا بالحذرِ مِنَ الشيطانِ ؛ كي لا يصدَّنا عنِ الذكرِ ، فكيفَ نجعلُ ذكرَهُ أغلبَ الأشياءِ علىٰ قلوبنا وهوَ منتهىٰ غرضِ العدوِّ ؟! ثمَّ يؤدي ذلكَ إلىٰ خلوِّ القلبِ عنْ نورِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فإذا قصدَ الشيطانُ مثلَ هـٰذا القلبِ وليسَ فيهِ نورُ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وقوةُ الاشتغالِ بهِ.. فيوشكُ أنْ يظفرَ بهِ ، ولا يقوىٰ علىٰ دفعِهِ ، فلمْ نُؤمرْ بانتظارِ الشيطانِ ولا بإدمانِ ذكرِهِ .

وأمَّا الفرقةُ الثانيةُ : فقدْ شاركَتِ الأولىٰ ؛ إذْ جمعَتْ في القلبِ بينَ ذكرِ اللهِ والشيطانِ ، وبقدْرِ ما يشتغلُ القلبُ بذكرِ الشيطانِ ينقصُ مِنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ أمرَ اللهُ الخلقَ بذكرِهِ ونسيانِ ما عداهُ ؛ إبليسَ وغيرَهُ .

فالحقُّ : أنْ يلزمَ العبدُ قلبَهُ الحذرَ مِنَ الشيطانِ ، ويقرِّرَ علىٰ نفسِهِ عداوتَهُ ، فإذا اعتقدَ ذلكَ وصدقَ بهِ ، وسكنَ الحذرُ فيهِ.. فليشتغلْ بذكرِ اللهِ ، ويكبَّ عليهِ بكلِّ الهمةِ ، ولا يخطِرْ ببالِهِ أمرَ الشيطانِ ؛ فإنَّهُ إذا اشتغلَ بذلكَ بعدَ معرفةِ عداوتِهِ ثمَّ خطرَ الشيطانُ لهُ.. تنبهَ لهُ ، وعندَ التنبُّهِ يشتغلُ بدفعِهِ ، والاشتغالُ بذكرِ اللهِ لا يمنعُ مِنَ التيقُّظِ عندَ نزغةِ الشيطانِ ، بلِ الرجلُ ينامُ وهوَ خائفٌ مِنْ أنْ يفوتَهُ مهمٌّ عندَ طلوعِ الصبحِ ، فيلزِمُ نفسَهُ

الحذرَ ، وينامُ علىٰ أنْ يتنبَّهَ في ذلكَ الوقتِ ، فينتبهُ في الليلِ مراتٍ قبلَ أوانِهِ ؛ لما استكنَّ في قلبهِ مِنَ الحذرِ ، معَ أنَّهُ بالنومِ غافلٌ عنهُ ، فاشتغالُهُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ كيفَ يمنعُ تنبُّهَهُ ؟! ومثلُ هٰذا القلبِ هوَ الذي يقوىٰ علىٰ دفعِ العدوِّ إذا كانَ اشتغالُهُ بمجرَّدِ ذكرِ اللهِ تعالىٰ قدْ أماتَ منهُ الهوىٰ ، وأحيا فيهِ نورَ العقلِ والعلمِ ، وأماطَ عنهُ ظلمةَ الشهواتِ .

فأهلُ البصيرةِ أشعروا قلوبَهُمْ عداوةَ الشيطانِ وترصُّدَهُ ، وألزموها الحذرَ ، ثمَّ لمْ يشتغلوا بذكرِهِ ، بلْ بذكرِ اللهِ ، ودفعوا بالذكرِ شرَّ العدوِّ واستضاؤوا بنورِ الذكرِ حتَّىٰ أبصروا خواطرَ العدوِّ ، فمثالُ القلبِ مثالُ بئرٍ أُريدَ تطهيرُها مِنَ الماءِ القذرِ ؛ ليتفجَّرَ منها الماءُ الصافي ، فالمشتغلُ بذكرِ الشيطانِ قدْ تركَ فيها الماءَ القذرَ ، والذي جمعَ بينَ ذكرِ الشيطانِ وذكرِ اللهِ قدْ نزحَ الماءَ القذرَ مِنْ جانبٍ ، ولكنَّهُ تركَهُ جارياً إليها مِنْ جانبٍ آخرَ ، فيطولُ تعبُهُ ، ولا تجفُّ البئرُ منَ الماءِ القذرِ ، والبصيرُ هوَ الذي جعلَ لمجرى الماءِ القذرِ سدّاً ، وملأَهُ بالماءِ الصافي ، فإذا جاءَ الماءُ القذرُ . . دفعَهُ بالسكرِ والسَّدِّ مِنْ غيرِ كلفةٍ ومؤنةٍ وزيادةِ تعبٍ .

❋ ❋ ❋

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلمْ : أنَّ في الإسرارِ للأعمالِ فائدةَ الإخلاصِ والنجاةِ مِنَ الرياءِ ، وفي الإظهارِ فائدةَ الاقتداءِ وترغيبِ الناسِ في الخيرِ ، ولكنْ فيهِ آفةُ الرياءِ ، قالَ الحسنُ : (قدْ علمَ المسلمونَ أنَّ السرَّ أحرزُ العملينِ)[1] .

ولكنْ في الإظهارِ أيضاً فائدةٌ ، ولذلكَ أثنى اللهُ تعالىٰ على السرِّ والعلانيةِ ، فقالَ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

والإظهارُ قسمانِ :

أحدُهُما : في نفسِ العملِ ، **والآخرُ** : بالتحدُّثِ بما عملَ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الأوَّلُ : إظهارُ نفسِ العملِ :

كالصدقةِ في الملأِ لترغيبِ الناسِ في ذلكَ ؛ كما رُويَ عنِ الأنصاريِّ الذي جاءَ بالصُّرَّةِ ، فتتابعَ الناسُ بالعطيةِ لمَّا رأَوهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سنَّ سنَّةً حسنةً فعُمِلَ بها .. كانَ لهُ أجرُها وأجرُ مَنِ اتَّبعَهُ »[2] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٦٤) ، وبنحوه رواه أحمد في « الزهد » (ص ٢١٢) .
(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

وتجري سائرُ الأعمالِ هٰذا المجرىٰ مِنَ الصلاةِ والصيامِ والحجِّ والغزوِ وغيرِها ، ولكنَّ الاقتداءَ على الطباعِ في الصدقةِ أغلبُ .

نعمِ ، الغازي إذا همَّ بالخروجِ ، فاستعدَّ وشدَّ الرَّحلَ قبلَ القومِ تحريضاً لهُمْ على الحركةِ . . فذلكَ أفضلُ لهُ ؛ لأنَّ الغزوَ في أصلِهِ مِنْ أعمالِ العلانيةِ لا يمكنُ إسرارُهُ ، فالمبادرةُ إليهِ ليسَ مِنَ الإعلانِ ، بلْ هوَ تحريضٌ مجردٌ ، وكذلكَ الرجلُ قدْ يرفعُ صوتَهُ في صلاةِ الليلِ ؛ لينبِّهَ جيرانَهُ وأهلَهُ فيُقتدىٰ بهِ .

فكلُّ عملٍ لا يمكنُ إسرارُهُ ؛ كالحجِّ والجهادِ والجمعةِ . . فالأفضلُ المبادرةُ إليهِ وإظهارُ الرغبةِ فيهِ للتحريضِ ، بشرطِ ألا يكونَ فيهِ شوائبُ الرياءِ .

وأمَّا ما يمكنُ إسرارُهُ ؛ كالصدقةِ والصلاةِ ؛ فإنْ كانَ إظهارُ الصدقةِ يؤذي المتصدَّقَ عليهِ ويرغِّبُ الناسَ في الصدقةِ . . فالسرُّ أفضلُ ؛ لأنَّ الإيذاءَ حرامٌ ، فإنْ لمْ يكنْ فيهِ إيذاءٌ . . فقدِ اختلفَ الناسُ في الأفضلِ ، فقالَ قومٌ : السرُّ أفضلُ مِنَ العلانيةِ وإنْ كانَ في العلانيةِ قدوةٌ ، وقالَ قومٌ : السرُّ أفضلُ مِنْ علانيةٍ لا قدوةَ فيها ، أمَّا العلانيةُ للقدوةِ . . فأفضلُ مِنَ السرِّ ، ويدلُّ علىٰ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ أنبياءَهُ بإظهارِ العملِ للاقتداءِ ، وخصَّهُمْ بمنصبِ النبوَّةِ ، ولا يجوزُ أنْ يُظنَّ بهِمْ أنَّهُمْ حُرموا أفضلَ العملينِ ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لهُ أجرُها وأجرُ مَنْ عملَ بها » .

وقدْ رُوِيَ في بعضِ الحديثِ : أنَّ عملَ السرِّ يُضاعفُ علىٰ عملِ العلانيةِ سبعينَ ضعفاً ، ويُضاعفُ عملُ العلانيةِ إذا استنَّ بعاملِهِ علىٰ عملِ السرِّ سبعينَ ضعفاً(١) .

وهـٰذا لا وجهَ للخلافِ فيهِ ؛ فإنَّهُ مهما انفكَّ القلبُ عنْ شوائبِ الرياءِ ، وتمَّ الإخلاصُ علىٰ وجهٍ واحدٍ في الحالتينِ.. فما يُقتدىٰ بهِ أفضلُ لا محالةَ ، وإنَّما يُخافُ مِنَ الظهورِ الرياءُ ، ومهما حصلَتْ شائبةُ الرياءِ.. لمْ ينفعْهُ اقتداءُ غيرِهِ ، وهلكَ بهِ ، فلا خلافَ في أنَّ السرَّ أفضلُ منهُ .

ولكنْ علىٰ مَنْ يظهرُ العملَ وظيفتانِ :

إحداهُما : أنْ يظهرَهُ حيثُ يعلمُ أنَّهُ يُقتدىٰ بهِ ، أوْ يظنُّ ذلكَ ظناً ، ورُبَّ رجلٍ يقتدي بهِ أهلُهُ دونَ جيرانِهِ ، وربَّما يقتدي بهِ جيرانُهُ دونَ أهلِ السوقِ ، وربَّما يقتدي بهِ أهلُ محلَّتِهِ ، وإنَّما العالمُ المعروفُ هوَ الذي يقتدي بهِ الناسُ كافَّةً ، فغيرُ العالمِ إذا أظهرَ بعضَ الطاعاتِ.. ربَّما نُسبَ إلى الرياءِ والنفاقِ ، وذمُّوهُ ولمْ يقتدوا بهِ ، فليسَ لهُ الإظهارُ مِنْ غيرِ فائدةٍ ، فإنَّما يصحُّ الإظهارُ بنيةِ القدوةِ ممَّنْ هوَ في محلِّ القدوةِ علىٰ مَنْ هوَ في محلِّ الاقتداءِ بهِ .

---

(١) الشطر الأول منه رواه البيهقي في « الشعب » (٦٣٩٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وروىٰ أيضاً في « الشعب » (٦٦١٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « عمل السر أفضل من عمل العلانية ، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به » .

والثانيةُ : أنْ يراقبَ قلبَهُ ، فإنَّهُ ربَّما يكونُ فيهِ حبُّ الرياءِ الخفيِّ ، فيدعوهُ إلى الإظهارِ بعذرِ الاقتداءِ ، وإنَّما شهوتُهُ التجمُّلُ بالعملِ ، وبكونِهِ مقتدىً بهِ ، وهـٰذا حالُ كلِّ مَنْ يظهرُ أعمالَهُ إلا الأقوياءَ المخلصينَ ، وقليلٌ ما هُمْ ، فلا ينبغي أنْ يخدعَ الضعيفُ نفسَهُ بذلكَ فيهلكَ وهوَ لا يشعرُ ، فإنَّ الضعيفَ مثالُهُ مثالُ الغريقِ الذي يحسنُ سباحةً ضعيفةً ، فنظرَ إلىٰ جماعةٍ مِنَ الغرقىٰ فرحمَهُمْ ، فأقبلَ عليهِمْ حتىٰ تشبَّثوا بهِ ، فهلكوا وهلكَ ، والغرقُ بالماءِ في الدنيا ألمُهُ ساعةٌ ، وليتَ كانَ الهلاكُ بالرياءِ مثلَهُ ، لا بلْ عذابُهُ دائمٌ مدةً مديدةً ، وهـٰذهِ مزلَّةُ أقدامِ العبَّادِ والعلماءِ ، فإنَّهُمْ يتشبَّهونَ بالأقوياءِ في الإظهارِ ، ولا تقوىٰ قلوبُهُمْ على الإخلاصِ ، فتحبطُ أجورُهُمْ بالرياءِ .

والتفطُّنُ لذلكَ غامضٌ ، ومحكُّ ذلكَ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ قيلَ لهُ : أخفِ العملَ حتَّىٰ يقتديَ الناسُ بعابدٍ آخرَ مِنْ أقرانِكَ ، ويكونَ لكَ في السرِّ مثلُ أجرِ الإعلانِ ؛ فإنْ مالَ قلبُهُ إلىٰ أنْ يكونَ هوَ المقتدىٰ بهِ ، وهوَ المظهرَ للعملِ . . فباعثُهُ الرياءُ دونَ طلبِ الأجرِ واقتداءِ الناسِ بهِ ورغبتِهِمْ في الخيرِ ، فإنَّهُمْ قدْ رغبوا في الخيرِ بالنظرِ إلىٰ غيرِهِ ، وأجرُهُ قدْ توفَّرَ عليهِ معَ إسرارِهِ ، فما بالُ قلبِهِ يميلُ إلى الإظهارِ لولا ملاحظتُهُ لأعينِ الخلقِ ومراءاتِهِمْ ؟!

فليحذرِ العبدُ خِدعَ النفسِ ؛ فإنَّ النفسَ خدوعٌ ، والشيطانُ مترصِّدٌ ، وحبُّ الجاهِ على القلبِ غالبٌ ، وقلَّما تسلمُ الأعمالُ الظاهرةُ عنِ الآفاتِ ، فلا ينبغي أنْ يعدلَ بالسلامةِ شيئاً ، والسلامةُ في الإخفاءِ ، وفي الإظهارِ مِنَ

الأخطارِ ما لا يقوىٰ عليهِ أمثالُنا ، فالحذرُ مِنَ الإظهارِ أولىٰ بنا وبجميعِ الضعفاءِ .

* * *

القسمُ الثاني : أنْ يتحدَّثَ بما فعلَهُ بعدَ الفراغِ :

وحكمُهُ حكمُ إظهارِ العملِ نفسِهِ ، والخطرُ في هٰذا أشدُّ ؛ لأنَّ مؤنةَ النطقِ خفيفةٌ على اللسانِ ، وقدْ تجري في الحكايةِ زيادةٌ ومبالغةٌ ، وللنفسِ لذَّةٌ في إظهارِ الدعاوىٰ عظيمةٌ ، إلا أنَّهُ لوْ تطرَّقَ إليهِ الرياءُ . . لمْ يؤثِّرْ في إفسادِ العبادةِ الماضيةِ بعدَ الفراغِ منها ، فهوَ مِنْ هٰذا الوجهِ أهونُ .

والحكمُ فيهِ : أنَّ مَنْ قوِيَ قلبُهُ ، وتمَّ إخلاصُهُ ، وصغرَ الناسُ في عينِهِ ، واستوىٰ عندَهُ مدحُهُمْ وذمُّهُمْ ، وذكرَ ذلكَ عندَ مَنْ يرجو الاقتداءَ بهِ والرغبةَ في الخيرِ بسببِهِ . . فهوَ جائزٌ ، بلْ هوَ مندوبٌ إليهِ إنْ صفَتِ النيةُ ، وسلمَتْ عنْ جميعِ الآفاتِ ؛ لأنَّهُ ترغيبٌ في الخيرِ ، والترغيبُ في الخيرِ خيرٌ .

وقدْ نُقلَ مثلُ ذلكَ عنْ جماعةٍ مِنَ السلفِ الأقوياءِ ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ : (ما صلَّيتُ صلاةً منذُ أسلمتُ فحدثتُ نفسي بغيرِها ، ولا تبعتُ جنازةً فحدَّثتُ نفسي بغيرِ ما هيَ قائلةٌ وما هوَ مقولٌ لها ، وما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قولاً قطُّ إلا علمتُ أنَّهُ حقٌّ)[1] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٢٤٩٨) بنحوه .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي أصبحتُ علىٰ عسرٍ أوْ علىٰ يسرٍ ؛ لأنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أصبحتُ علىٰ حالٍ فتمنَّيتُ أنْ أكونَ علىٰ غيرِها)(٢) .

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما تغنَّيتُ ، ولا تمنَّيتُ ، ولا مسستُ ذكرِي بيميني منذُ بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(٣) .

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : (ما تكلَّمتُ بكلمةٍ منذُ أسلمتُ حتَّىٰ أزمَّها وأخطمَها غيرَ هٰذهِ) ، وكانَ قدْ قالَ لغلامِهِ : (ائتنا بالسُّفرةِ لنعبثَ بها حتَّىٰ ندركَ الغداءَ)(٤) .

وقالَ أبو سفيانَ لأهلِهِ حينَ حضرَهُ الموتُ : (لا تبكوا عليَّ ؛ فإنِّي ما أحدثتُ ذنباً منذُ أسلمتُ)(٥) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (ما قضى اللهُ لي بقضاءٍ قطُّ فسرَّني أنْ يكونَ قضىٰ لي بغيرِهِ ، وما أصبحَ لي هوىً إلا في مواقعِ قدرِ اللهِ)(٦) .

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٠٤) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥) من زيادات نعيم بن حماد .
(٣) رواه ابن ماجه (٣١١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٤١٤) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٣٤) .
(٦) الرعاية (ص ٢٦٢)، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٤٦) .

فهـٰذا كلُّهُ إظهارٌ لأحوالٍ شريفةٍ ، وفيها غايةُ المراءاةِ إذا صدرَتْ ممَّنْ يرائي بها ، وفيها غايةُ الترغيبِ إذا صدرَتْ ممَّنْ يُقتدىٰ بهِ ، فذلكَ علىٰ قصدِ الاقتداءِ جائزٌ للأقوياءِ بالشروطِ التي ذكرناها ، فلا ينبغي أنْ يُسدَّ بابُ إظهارِ الأعمالِ والطباعُ مجبولةٌ على حبِّ التشبُّهِ والاقتداءِ ، بلْ إظهارُ المرائي للعبادةِ إذا لمْ يعلمِ الناسُ أنَّهُ رياءٌ فيهِ خيرٌ كثيرٌ للناسِ ، ولكنَّهُ شرٌّ للمرائي ، فكمْ مِنْ مخلصٍ كانَ سببُ إخلاصِهِ الاقتداءَ بمَنْ هوَ مراءٍ عندَ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ كانَ يجتازُ الإنسانُ في سككِ البصرةِ عندَ الصبحِ ، فيسمعُ أصواتَ المصلينَ بالقرآنِ مِنَ البيوتِ ، فصنَّفَ بعضُهُمْ كتاباً في دقائقِ الرياءِ ، فتركوا ذلكَ ، وتركَ الناسُ الرغبةَ فيهِ ، فكانوا يقولونَ : ليتَ ذلكَ الكتابَ لمْ يُصنَّفْ(١) .

فإظهارُ المرائي فيهِ خيرٌ كثيرٌ لغيرِهِ إذا لمْ يُعرفْ رياؤُهُ ، فإنَّ اللهَ يؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ وبأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ كما وردَ في الأخبارِ(٢) ، وبعضُ المرائينَ ممَّن يُقتدىٰ بهِ منهُمْ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٣٠٥) .

(٢) تقدم حديث : « إن الله يؤيد هـٰذا الدين . . . » الذي رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتقدم حديث : « إن الله ليؤيد الدين بأقوام . . . » الذي رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٨٨٣٤) .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

اعلمْ : أنَّ الأصلَ في الإخلاصِ استواءُ السريرةِ والعلانيةِ ، كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ : عليكَ بعملِ العلانيةِ ، قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ وما عملُ العلانيةِ ؟ قالَ : ما إذا اطُّلعَ عليكَ . . لمْ تستحيِ مِنهُ[1] .

وقالَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ : (ما عملتُ عملاً أبالي أنْ يطَّلعَ الناسُ عليهِ إلا إتياني أهلي ، والبولَ ، والغائطَ)[2] .

إلا أنَّ هـٰذهِ درجةٌ عظيمةٌ لا ينالُها كلُّ أحدٍ ، ولا يخلو الإنسانُ عنْ ذنوبٍ بقلبِهِ أوْ بجوارحِهِ وهوَ يخفيها ويكرهُ اطلاعَ الناسِ عليها ، لا سيَّما ما تختلجُ بهِ الخواطرُ في الشهواتِ والأمانيِّ ، واللهُ مطَّلعٌ علىٰ جميعِ ذلكَ ، فإرادةُ العبدِ لإخفائِها عن العبيدِ ربَّما يُظنُّ أنَّهُ رياءٌ محظورٌ ، وليسَ كذلكَ ، بلِ المحظورُ أنْ يسترَ ذلكَ ليرى الناسُ أنَّهُ ورِعٌ وأنَّهُ خائفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ أنَّهُ ليسَ كذلكَ .

فهـٰذا هوَ سترُ المرائي .

---

(١) الرعاية (ص ٢٧٩) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٣٠٦/٨) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

(٢) بنحوه رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢) من زيادات نعيم بن حماد ، وبلفظه هو في « الرعاية » (ص ٢٧٩) .

وأمَّا الصادقُ الذي لا يرائي. . فلهُ سترُ المعاصي ، ويصحُّ قصدُهُ فيهِ ، ويصحُّ اغتمامُهُ باطلاعِ الناسِ عليهِ مِنْ ثمانيةِ أوجهٍ :

الأوَّلُ : هوَ أنْ يفرحَ بسترِ اللهِ عليهِ ، وإذا افتضحَ . . اغتمَّ بهتكِ اللهِ سترَهُ ، وخافَ أنْ يهتكَ سترَهُ في القيامةِ ؛ إذْ وردَ في الخبرِ : أنَّ مَنْ سترَ اللهُ عليهِ في الدنيا ذنباً . . سترَ عليهِ في الآخرةِ[1] ، وهـٰذا غمٌّ ينشأُ مِنْ قوَّةِ الإيمانِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنَّهُ قدْ علمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يكرهُ ظهورَ المعاصي ، ويحبُّ سترَها ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ارتكبَ مِنْ هـٰذهِ القاذوراتِ شيئاً . . فليستترْ بسترِ اللهِ »[2] ، فهوَ وإنْ عصى اللهَ بالذنبِ فلمْ يخلُ قلبُهُ عنْ محبةِ ما أحبَّهُ اللهُ ، وهـٰذا ينشأُ مِنْ قوَّةِ الإيمانِ بكراهةِ اللهِ ظهورَ المعاصي ، وأثرُ الصدقِ فيهِ أنْ يكرهَ ظهورَ الذنبِ مِنْ غيرِهِ أيضاً ، ويغتمَّ بسببِهِ .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يكرهَ ذمَّ الناسِ لهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّ ذلكَ يغمُّهُ ويشغلُ قلبَهُ وعقلَهُ عنْ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ الطبعَ يتأذَّىٰ بالذمِّ ، وينازعُ العقلَ ، ويشغلُ عنِ الطاعةِ، وبهـٰذهِ العلةِ أيضاً ينبغي أنْ يكرهَ الحمدَ الذي يشغلُهُ عنِ ذكرِ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٨٢٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

تعالىٰ ، ويستغرقُ قلبَهُ ويصرفُهُ عنِ الذكرِ ، وهـٰذا أيضاً مِنْ قوّةِ الإيمانِ ؛ إذْ صدقُ الرغبةِ في فراغِ القلبِ لأجلِ الطاعةِ مِنَ الإيمانِ .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : أنْ يكونَ سترُهُ ورغبتُهُ فيهِ لكراهتِهِ لذمِّ الناسِ مِنْ حيثُ يتأذىٰ طبعُهُ ، فإنَّ الذمَّ مؤلمٌ للقلبِ ، كما أنَّ الضربَ مؤلمٌ للبدنِ ، وخوفُ تألُّمِ القلبِ بالذمِّ ليسَ بحرامٍ ، ولا الإنسانُ بهِ عاصٍ ، وإنَّما يعصي إذا جزِعَتْ نفسُهُ مِنْ ذمِّ الناسِ ودعَتْهُ إلىٰ ما لا يجوزُ حذراً مِنْ ذمِّهِمْ ، وليسَ يجبُ على الإنسانِ ألا يغتمَّ بذمِّ الخلقِ ولا يتألَّمَ بهِ .

نعمْ ، كمالُ الصدقِ في أنْ تزولَ رؤيتُهُ للخلقِ ، فيستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ؛ لعلمِهِ أنَّ الضارَّ والنافعَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ ، وأنَّ العبادَ كلَّهُمْ عاجزونَ ، وذلكَ قليلٌ جداً ، وأكثرُ الطباعِ تتألَّمُ بالذمِّ ؛ لما فيهِ مِنَ الشعورِ بالنقصانِ ، ورُبَّ تألُّمٍ بالذمِّ محمودٌ إذا كانَ الذامُّ مِنْ أهلِ البصيرةِ في الدينِ ، فإنَّهُمْ شهداءُ اللهِ ، وذمُّهُمْ يدلُّ علىٰ ذمِّ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ نقصانٍ في الدينِ ، فكيفَ لا يغتمُّ بهِ ؟!

نعم ، الغمُّ المذمومُ هوَ أنْ يغتمَّ لفواتِ الحمدِ بالورعِ ؛ كأنَّهُ يحبُّ أنْ يُحمدَ بالورعِ ، ولا يجوزُ أنْ يحبَّ أنْ يُحمدَ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فيكونُ قدْ طلبَ بطاعةِ اللهِ ثواباً مِنْ غيرِهِ ، فإنْ وجدَ ذلكَ في نفسِهِ .. وجبَ عليهِ أنْ يقابلَهُ بالكراهةِ والردِّ ، وأمَّا كراهتُهُ الذمَّ بالمعصيةِ مِنْ حيثُ الطبعُ ..

فليسَ بمذمومٍ ، فلهُ السترُ حذراً مِنْ ذلكَ .

ويُتصوَّرُ أنْ يكونَ العبدُ بحيثُ لا يحبُّ الحمدَ ، ولكنْ يكرهُ الذمَّ ، وإنَّما مرادُهُ أنْ يتركَهُ الناسُ حمداً وذمّاً ، فكمْ مِنْ صابرٍ عنْ لذَّةِ الحمدِ لا يصبرُ علىٰ ألمِ الذمِّ ؛ إذِ الحمدُ يُطلبُ للذَّةِ ، وعدمُ اللذَّةِ لا يؤلمُ ، وأمَّا الذمُّ . . فإنَّهُ مؤلمٌ ، فحبُّ الحمدِ على الطاعةِ طلبُ ثوابٍ على الطاعةِ في الحالِ ، وأما كراهةُ الذمِّ على المعصيةِ . . فلا محذورَ فيهِ إلا أمرٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنْ يشغلَهُ غمُّهُ باطلاعِ الناسِ علىٰ ذنبِهِ عنِ اطلاعِ اللهِ ، فإنَّ ذلكَ غايةُ النقصانِ في الدينِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ غمُّهُ باطلاعِ اللهِ وذمِّهِ لهُ أكثرَ[1] .

❁ ❁ ❁

الخامسُ : أن يكرهَ الذمَّ مِنْ حيثُ إنَّ الذامَّ قدْ عصى اللهَ تعالىٰ بهِ ، وهٰذا مِنَ الإيمانِ ، وعلامتُهُ : أنْ يكرهَ ذمَّهُ لغيرِهِ أيضاً ، فهٰذا التوجُّعُ لا يُفرَّقُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، بخلافِ التوجُّعِ مِنْ جهةِ الطبعِ .

❁ ❁ ❁

السادسُ : أنْ يسترَ ذلكَ كي لا يُقصدَ بشرٍّ إذا عُرِفَ ذنبُهُ ، وهٰذا وراءَ ألمِ الذمِّ ، فإنَّ الذمَّ مؤلمٌ مِنْ حيثُ يشعرُ القلبُ بنقصانِهِ وخستِهِ ، وإنْ كانَ

---

(١) لأن شغله باطلاع الخلق لا يزيده إلا غماً ، بخلاف شغله باطلاع الله ، فإنه يزيده رهبة ويجره إلى التوبة . « إتحاف » (٨/ ٣٠٧) .

ممَّنْ يُؤمنُ شرُّهُ ، وقدْ يخافُ شرَّ مَنْ يطلعُ علىٰ ذنبِهِ بسببٍ مِنَ الأسبابِ ، فلهُ أنْ يسترَ ذلكَ حذراً مِنهُ .

❁ ❁ ❁

السابعُ : مجردُ الحياءِ ؛ فإنَّهُ نوعُ ألمٍ وراءَ ألمِ الذمِّ والقصدِ بالشرِّ ، وهو خُلُقٌ كريمٌ يحدثُ في أوَّلِ الصِّبا مهما أشرقَ عليهِ نورُ العقلِ ، فيستحيي مِنَ القبائحِ إذا شُوهدَتْ منهُ ، وهوَ وصفٌ محمودٌ ؛ إذ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ خيرٌ كلُّهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الحييَّ الحليمَ »[4] .

فالذي يفسقُ ولا يبالي أنْ يظهرَ فسقُهُ للناسِ . . جمعَ إلى الفسقِ التهتُّكَ والوقاحةَ وفقدَ الحياءِ ، فهوَ أشدُّ حالاً ممَّنْ يستترُ ويستحيي .

إلا أنَّ الحياءَ ممتزجٌ بالرياءِ ، ومشتبهٌ بهِ اشتباهاً عظيماً قلَّ مَنْ يتفطَّنُ لهُ ،

---

(١) رواه مسلم (٣٧/ ٦١) .
(٢) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (٥٤) مرسلاً من حديث عمرو بن دينار ، وعند مسلم (٢٩٦٥) مرفوعاً : « إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .
(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً سأل فاطمة رضي الله عنها فحدثته به .

ويدَّعي كلُّ مراءٍ أنَّهُ مستحيٍ ، وأن سببَ تحسينِهِ العباداتِ هوَ الحياءُ مِنَ الناسِ ، وذلكَ كذبٌ ، بلِ الحياءُ خُلُقٌ ينبعثُ مِنَ الطبعِ الكريمِ ، وتهيجُ عقيبَهُ داعيةُ الرياءِ وداعيةُ الإخلاصِ ، ويُتصوَّرُ أنْ يُخلَصَ معَهُ ، ويُتصوَّرُ أنْ يُراءىٰ معَهُ .

وبيانُهُ : أنَّ الرجلَ يطلبُ مِنْ صديقٍ لهُ قرضاً ونفسُهُ لا تسخو بإقراضِهِ ، إلا أنَّهُ يستحيي مِنْ ردِّهِ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ راسلَهُ علىٰ لسانِ غيرِهِ .. لكانَ لا يستحيي ، ولا يقرضُ رياءً ولا لطلبِ الثوابِ ، فلهُ عندَ ذلكَ أحوالٌ ، أحدُها : أنْ يشافهَ بالردِّ الصريحِ ولا يبالي ، فيُنسبَ إلىٰ قلَّةِ الحياءِ ، وهٰذا فعلُ مَنْ لا حياءَ لهُ ، فإنَّ المستحييَ إمَّا أنْ يتعلَّلَ أوْ يقرضَ ، فإنْ أعطىٰ .. فيُتصوَّرُ لهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يُمزجَ الرياءُ بالحياءِ ، بأنْ يهيجَ الحياءُ ، فيقبحَ عندَهُ الردُّ ، فيهيجَ خاطرُ الرياءِ ، ويقولَ : ينبغي أنْ تُعطيَ حتَّىٰ يُثنيَ عليكَ ويحمدَكَ ، وينشرَ اسمَكَ بالسخاءِ ، أوْ ينبغي أنْ تعطيَ حتَّىٰ لا يذمَّكَ ولا ينسبَكَ إلى البخلِ ، فإذا أعطىٰ .. فقدْ أعطىٰ بالرياءِ ، وكانَ المحرِّكُ للرياءِ هوَ هيجانَ الحياءِ .

الثاني : أن يتعذَّرَ عليهِ الردُّ بالحياءِ ويبقىٰ في نفسِهِ البخلُ ، فيتعذَّرُ الإعطاءُ ، فيهيجُ باعثُ الإخلاصِ ويقولُ لهُ : إنَّ الصدقةَ بواحدةٍ والقرضَ بثمانيةَ عشرَ ، ففيهِ أجرٌ عظيمٌ ، وإدخالُ سرورٍ علىٰ قلبِ صديقٍ ، وذلكَ

محمودٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فتسخو النفسُ بالإعطاءِ لذلكَ ، فهٰذا مخلصٌ هيَّجَ الحياءُ إخلاصَهُ .

الثالثُ : ألا يكونَ لهُ رغبةٌ في الثوابِ ، ولا خوفٌ مِنْ مذمَّتِهِ ، ولا حبٌّ لمحمدتِهِ ؛ لأنَّهُ لوْ طلبَهُ مراسلةً . . لكانَ لا يعطيهِ ، فأعطاهُ بمحضِ الحياءِ ، وهو ما يجدُهُ في قلبِهِ مِنْ ألمِ الحياءِ ، ولولا الحياءُ . . لردَّهُ ، ولوْ جاءَهُ مَنْ لا يستحي منهُ مِنَ الأجانبِ أوِ الأراذلِ . . لكانَ يردُّهُ وإنْ كثُرَ الحمدُ والثوابُ فيهِ ، فهٰذا مجردُ الحياءِ ، ولا يكونُ هٰذا إلا في القبائحِ ؛ كالبخلِ ومقارفةِ الذنوبِ ، والمرائي يستحي مِنَ المباحاتِ أيضاً ، حتَّىٰ إنَّهُ يُرىٰ مستعجلاً في المشي فيعودُ إلى الهدوءِ ، أوْ ضاحكاً فيرجعُ إلى الانقباضِ ، ويزعمُ أنَّ ذلكَ حياءٌ ، وهوَ عينُ الرياءِ .

وقدْ قيلَ : إنَّ بعضَ الحياءِ ضعفٌ ، وهوَ صحيحٌ ، والمرادُ بهِ الحياءُ ممَّا ليسَ بقبيحٍ ؛ كالحياءِ مِنْ وعظِ الناسِ ، وإمامةِ الناسِ في الصلاةِ ، وهوَ في النساءِ والصبيانِ محمودٌ ، وفي العقلاءِ غيرُ محمودٍ ، وقدْ تشاهدُ معصيةً مِنْ شيخٍ فتستحيي مِنْ شيبتِهِ أنْ تنكرَ عليهِ ؛ لأنَّ مِنْ إجلالِ اللهِ إجلالَ ذي الشيبةِ المسلمِ ، وهٰذا الحياءُ حسنٌ ، وأحسنُ مِنهُ أنْ تستحييَ مِنَ اللهِ فلاَ تضيِّعَ الأمرَ بالمعروفِ ، فالقويُّ يؤثرُ الحياءَ مِنَ اللهِ على الحياءِ مِنَ الناسِ ، والضعيفُ قدْ لا يقدرُ عليهِ[1] .

---

(١) الرعاية (ص ٢٨٣) .

فهـٰذهِ هيَ الأسبابُ التي يجوزُ لأجلِها سترُ القبائحِ والذنوبِ .

❊ ❊ ❊

الثامنُ : أنْ يخافَ مِنْ ظهورِ ذنبِهِ أنْ يستجرىءَ عليهِ غيرُهُ ويقتديَ بهِ ، وهـٰذهِ العلةُ الواحدةُ فقطْ هيَ الجاريةُ في إظهارِ الطاعةِ ، وهوَ القدوةُ ، ويختصُّ ذلكَ بالأئمةِ أو بمَنْ يُقتدىٰ بهِ ، وبهـٰذهِ العلَّةِ ينبغي أنْ يخفيَ العاصي أيضاً معصيتَهُ عنْ أهلِهِ وولدِهِ ؛ لأنَّهُمْ يتعلَّمونَ منهُ .

ففي سترِ الذنبِ هـٰذهِ الأعذارُ الثمانيةُ ، وليسَ في إظهارِ الطاعةِ عذرٌ إلا هـٰذا العذرُ الواحدُ ، ومهما قصدَ بسترِ المعصيةِ أنْ يخيِّلَ إلى الناسِ أنَّهُ ورعٌ . . كانَ مرائياً ؛ كما إذا قصدَ ذلكَ بإظهارِ الطاعةِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فهلْ يجوزُ للعبدِ أنْ يحبَّ حمدَ الناسِ لهُ بالصلاحِ وحبَّهُمْ إيَّاهُ بسببِهِ ، وقدْ قالَ رجلٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : دلَّني علىٰ عملٍ يحبُّني اللهُ عليهِ ويحبُّني الناسُ ، قالَ : « ازهدْ في الدنيا يُحبَّكَ اللهُ ، وانبذْ إليهِمْ هـٰذا الحطامَ يحبُّوكَ »؟[1] .

فنقولُ : حبُّكَ لحبِّ الناسِ لكَ قدْ يكونُ مباحاً ، وقدْ يكونُ محموداً ، وقدْ يكونُ مذموماً ، فالمحمودُ : أنْ تحبَّ ذلكَ لتعرفَ بهِ حبَّ اللهِ لكَ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٣) .

فإنَّهُ تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . . حبَّبَهُ في قلوبِ عبادِهِ ، والمذمومُ : أنْ تحبَّ حبَّهُمْ وحمدَهُمْ علىٰ حجِّكَ وغزوِكَ وصلاتِكَ وعلىٰ طاعةٍ بعينِها ، فإنَّ ذلكَ طلبُ عوضٍ علىٰ طاعةِ اللهِ عاجلاً سوىٰ ثوابِ اللهِ ، والمباحُ : أنْ تحبَّ أنْ يحبُّوكَ لصفاتٍ محمودةٍ سوى الطاعاتِ المحمودةِ المعينةِ ، فحبُّكَ ذلكَ كحبِّكَ المالَ ؛ لأنَّ ملكَ القلوبِ وسيلةٌ إلى الأغراضِ كملكِ الأموالِ ، فلا فرقَ بينَهُما .

❋ ❋ ❋

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ، ودخول الآفات

اعلمْ : أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يتركُ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يكونَ مرائياً بهِ ، وذلكَ غلطٌ وموافقةٌ للشيطانِ ، بلِ الحقُّ فيما يُتركُ مِنَ الأعمالِ وما لا يُتركُ لخوفِ الآفاتِ ما نذكرُهُ .

وهوَ أنَّ الطاعاتِ تنقسمُ :

إلىٰ ما لا لذَّةَ في عينِهِ : كالصلاةِ والصومِ والحجِّ والغزوِ ، فإنَّها مقاساةٌ ومجاهداتٌ إنَّما تصيرُ لذيذةً مِنْ حيثُ إنَّها توصلُ إلىٰ حمدِ الناسِ ، وحمدُ الناسِ لذيذٌ ، وذلكَ عندَ اطلاعِ الناسِ عليها .

وإلىٰ ما هوَ لذيذٌ : وهوَ أكثرُ ما لا يقتصرُ على البدنِ ، بلْ يتعلَّقُ بالخلقِ ؛ كالخلافةِ ، والقضاءِ ، والولاياتِ ، والحسبةِ ، وإمامةِ الصلاةِ ، والتذكيرِ ، والتدريسِ ، وإنفاقِ المالِ على الخلقِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا تعظمُ الآفةُ فيهِ ؛ لتعلُّقِهِ بالخلقِ ، ولما فيهِ مِنَ اللذَّةِ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الأولُ : الطاعاتُ اللازمةُ للبدنِ التي لا تتعلَّقُ بالغيرِ ولا لذَّةَ في عينِها :

كالصومِ ، والصلاةِ ، والحجِّ ، فخطراتُ الرياءِ فيها ثلاثٌ :

إحداها : ما يدخلُ قبلَ العملِ ، فيبعثُ على الابتداءِ لرؤيةِ الناسِ ، وليسَ معَهُ باعثُ الدينِ ، فهـٰذا ممّا ينبغي أنْ يُتركَ ؛ لأنَّهُ معصيةٌ لا طاعةَ

فيهِ ، فإنَّهُ تدرُّعٌ بصورةِ الطاعةِ إلىٰ طلبِ المنزلةِ ، فإنْ قدرَ الإنسانُ علىٰ أنْ يدفعَ عنْ نفسهِ باعثَ الرياءِ ، ويقولَ لها : ألا تستحيينَ مِنْ مولاكِ ؟! لا تسخينَ بالعملِ لأجلِهِ وتسخينَ بالعملِ لأجلِ عبادِهِ ؟! حتَّىٰ يندفعَ باعثُ الرياءِ وتسخوَ النفسُ بالعملِ للهِ ؛ عقوبةً للنفسِ علىٰ خاطرِ الرياءِ ، وكفارةً لهُ ، فليشتغلْ بالعملِ .

الثانيةُ : أنْ ينبعثَ لأجلِ اللهِ ولكنْ يعترضُ الرياءُ معَ عقدِ العبادةِ وأوَّلِها ، فلا ينبغي أنْ يتركَ العملَ ؛ لأنَّهُ وجدَ باعثاً دينياً ، فليشرعْ في العملِ ، وليجاهدْ نفسَهُ في دفعِ الرياءِ وتحصيلِ الإخلاصِ بالمعالجةِ التي ذكرناها ؛ مِنْ إلزامِ النفسِ كراهةَ الرياءِ والإباءِ عنِ القبولِ .

الثالثةُ : أنْ يعقدَ على الإخلاصِ ، ثمَّ يطرأَ الرياءُ ودواعيهِ ، فينبغي أنْ يجاهدَ في الدفعِ ولا يتركَ العملَ ، لكنْ يرجعُ إلىٰ عقدِ الإخلاصِ ، ويردُّ نفسَهُ إليهِ قهراً حتَّىٰ يتمَّ العملَ ؛ لأنَّ الشيطانَ يدعوكَ أوَّلاً إلىٰ تركِ العملِ ، فإذا لمْ تجبْ واشتغلتَ . . فيدعوكَ إلى الرياءِ ، فإذا لمْ تجبْ ودفعتَهُ . . يقولُ لكَ : هـٰذا العملُ ليسَ بخالصٍ ، وأنتَ مُراءٍ ، وتعبُكَ ضائعٌ ، فأيُّ فائدةٍ لكَ في عملٍ لا إخلاصَ فيهِ ؛ حتَّىٰ يحملَكَ بذلكَ علىٰ تركِ العملِ ، فإذا تركتَهُ . . فقد حصلَ غرضُهُ .

ومثالُ مَنْ يتركُ العملَ لخوفِهِ أنْ يكونَ مرائياً ؛ كمَنْ سلَّمَ إليهِ مولاهُ حنطةً فيها زُوانٌ[1] وقالَ : خلِّصْها مِنَ الزوانِ ونقِّها منهُ تنقيةً بالغةً ، فيتركُ أصلَ

---

(١) وهو حبٌّ يخالط البُر فيكسبه الرداءة . « إتحاف » (٨/ ٣١١) .

العملِ ويقولُ : أخافُ إنِ اشتغلتُ بهِ . . لمْ تخلصْ خلاصاً صافياً نقيّاً ، فيتركُ العملَ مِنْ أصلِهِ ، وهوَ تركٌ للإخلاصِ معَ أصلِ العملِ ، فلا معنىٰ لهُ .

ومِنْ هٰذا القبيلِ أنْ يتركَ العملَ خوفاً مِنَ الناسِ أنْ يقولوا : (إنَّهُ مراءٍ) فيعصونَ اللهَ بهِ ، فهٰذا مِنْ مكايدِ الشيطانِ ؛ لأنَّهُ أوّلاً أساءَ الظنَّ بالمسلمينَ ، وما كانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يظنَّ بهِمْ ذلكَ ، ثمَّ إنْ كانَ . . فلا يضرُّهُ قولُهُمْ ، ويفوتُهُ ثوابُ العبادةِ ، وتركُ العملِ خوفاً مِنْ قولِهِمْ : (إنَّهُ مراءٍ) هوَ عينُ الرياءِ ، فلولا حبُّهُ لمحمدتِهِمْ وخوفُهُ مِنْ ذمِّهِمْ . . فما لهُ ولقولِهِمْ[1] ، قالوا : (إنَّهُ مراءٍ) أوْ قالوا : (إنَّهُ مخلصٌ) ؟ فأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يتركَ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (إنَّهُ مُراءٍ) ، وبينَ أنْ يحسنَ العملَ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : (إنَّهُ غافلٌ مقصِّرٌ) ؟! بلْ تركُ العملِ أشدُّ مِنْ ذلكَ .

فهٰذهِ كلُّها مكايدُ الشيطانِ على العبادِ الجهَّالِ .

ثمَّ كيفَ يطمعُ في أنْ يتخلَّصَ مِنَ الشيطانِ بأنْ يتركَ العملَ ، والشيطانُ لا يخليهِ ، بلْ يقولُ لهُ : (الآنَ يقولُ الناسُ : إنَّكَ تركتَ العملَ ليُقالَ : إنَّكَ مخلصٌ لا تشتهي الشهرةَ) ، فيضطرُّكَ بذلكَ إلىٰ أنْ تهربَ ، فإنْ هربتَ ودخلتَ سرباً تحتَ الأرضِ . . ألقىٰ في قلبِكَ حلاوةَ معرفةِ الناسِ

---

(١) في هامش (ب) : (نسخة : لما سأل عنهم ، فما له ولقولهم) .

بتزهُّدِكَ وهربِكَ منهُمْ ، وتعظيمِهِمْ لكَ بقلوبِهِمْ علىٰ ذلكَ ، فكيفَ تتخلَّصُ ؟ بلْ لا نجاةَ منهُ إلا بأنْ تلزِمَ قلبَكَ معرفةَ آفةِ الرياءِ ، وهوَ أنَّهُ ضررٌ في الآخرةِ ولا نفعَ فيهِ في الدنيا ؛ لتلزمَ الكراهةَ والإباءَ قلبَكَ ، وتستمرَّ معَ ذلكَ على العملِ ولا تبالي وإنْ نزغَ العدوُّ ونازعَ الطبعُ ؛ فإنَّ ذلكَ لا ينقطعُ ، وتركُ العملِ لأجلِ ذلكَ يجرُّ إلى البطالةِ وتركِ الخيراتِ .

فما دمتَ تجدُ باعثاً دينياً على العملِ فلا تتركِ العملَ ، وجاهدْ خاطرَ الرياءِ ، وألزمْ قلبَكَ الحياءَ مِنَ اللهِ تعالىٰ إذا دعتْكَ نفسُكَ إلىٰ أنْ تستبدلَ بحمدِهِ حمدَ المخلوقينَ وهوَ مطلعٌ علىٰ قلبِكَ ، ولوِ اطلعَ الخلقُ علىٰ قلبِكَ وأنتَ تريدُ حمدَهُمْ . . لمقتوكَ ، بلْ إنْ قدرتَ علىٰ أنْ تزيدَ في العملِ حياءً مِنْ ربِّكَ وعقوبةً لنفسِكَ . . فافعلْ ، فإنْ قالَ لكَ الشيطانُ : أنتَ مراءٍ . . فاعلمْ كذبَهُ وخدعَهُ بما تصادفُ في قلبِكَ مِنْ كراهةِ الرياءِ وإبائِهِ ، وخوفِكَ منهُ وحيائِكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وإنْ لمْ تجدْ في قلبِكَ لهُ كراهيةً ومنهُ خوفاً ولمْ يبقَ باعثٌ دينيٌّ ، بلْ تجرَّدَ باعثُ الرياءِ . . فاتركِ العملَ عندَ ذلكَ ، وهوَ بعيدٌ ممَّنْ شرعَ في العملِ للهِ ، فإنَّهُ لا بدَّ أنْ يبقىٰ معَهُ أصلُ قصدِ الثوابِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ نُقلَ عنْ أقوامٍ تركُ العملِ مخافةَ الشهرةِ ، رُوِيَ أنَّ إبراهيمَ النخعيَّ دخلَ عليهِ إنسانٌ وهوَ يقرأُ ، فأطبقَ المصحفَ وتركَ القراءةَ

وقالَ : (لا يرىٰ هـٰذا أنَّا نقرأُ كلَّ ساعةٍ)[١] .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (إذا أعجبَكَ الكلامُ . . فاسكتْ ، وإذا أعجبَكَ السكوتُ . . فتكلَّمْ)[٢] .

وقالَ الحسنُ : (إنْ كانَ أحدُهُمْ ليمرُّ بالأذىٰ على الطريقِ ما يمنعُهُ مِنْ رفعِهِ إلا كراهةُ الشهرةِ ، وكانَ أحدُهُمْ يأتيهِ البكاءُ فيصرفُهُ إلى الضحكِ مخافةَ الشُّهرةِ)[٣] .

وقدْ وردَ في ذلكَ آثارٌ كثيرةٌ .

قلنا : هـٰذا يعارضُهُ ما وردَ في إظهارِ الطاعاتِ ممَّا لا يُحصىٰ ، وإظهارُ الحسنِ البصريِّ هـٰذا الكلامَ في معرضِ الوعظِ أقربُ إلىٰ خوفِ الشهرةِ مِنَ البكاءِ ، وإماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ نفلٌ ، ثمَّ لمْ يتركْهُ[٤] .

وبالجملةِ : تركُ النوافلِ جائزٌ ، والكلامُ في الأفضلِ ، والأفضلُ إنَّما يقدرُ عليهِ الأقوياءُ دونَ الضعفاءِ ، فالأفضلُ أنْ يتمَّ العملَ ويجتهدَ في الإخلاصِ ، ولا يتركَهُ ، وأربابُ الأعمالِ قدْ يعالجونَ أنفسَهُمْ بخلافِ الأفضلِ ؛ لشدَّةِ الخوفِ ، والاقتداءُ ينبغي أنْ يكونَ بالأقوياءِ .

---

(١) الرعاية (ص٢٦٦) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٦٩٨) عن بشر بن الحارث الحافي .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨) .
(٤) أي : لم يثبت عنه الترك ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٣١٢) : (يقل) بدل (نفل) .

وأمَّا إطباقُ إبراهيمَ النخعيِّ المصحفَ. . فيمكنُ أنْ يكونَ لعلمِهِ بأنَّهُ سيحتاجُ إلىٰ تركِ القراءةِ عندَ دخولِهِ واستئنافِها بعدَ خروجِهِ ؛ للاشتغالِ بمكالمتِهِ ، فرأىٰ ألا يراهُ في القراءةِ أبعدَ عنِ الرياءِ ، وهوَ عازمٌ على التركِ للاشتغالِ بهِ حتَّىٰ يعودَ إليهِ بعدَ ذلكَ .

وأمَّا تركُ رفعِ الأذىٰ عنِ الطريقِ. . فذلكَ ممَّنْ يخافُ علىٰ نفسِهِ آفةَ الشهرةِ ، وإقبالَ الناسِ عليهِ ، وشغلَهَمْ إيَّاهُ عنْ عباداتٍ هيَ أكبرُ مِنْ رفعِ خشبةٍ مِنَ الطريقَ ، فيكونُ تركُهُ للمحافظةِ علىٰ عباداتٍ هيَ أعظمُ منهُ ، لا لمجرَّدِ خوفِ الرياءِ .

وأمَّا قولُ التيميِّ : (إذا أعجبكَ الكلامُ. . فاسكتْ) فيجوزُ أنْ يكونَ قدْ أرادَ بهِ مباحاتِ الكلامِ ؛ كالفصاحةِ في الحكاياتِ وغيرِها ، فإنَّ ذلكَ يورثُ العجبَ ، وكذلكَ العجبُ بالسكوتِ المباحِ محذورٌ ، فهوَ عدولٌ مِنْ مباحٍ إلىٰ مباحٍ ؛ حذراً مِنَ العجبِ ، فأمَّا الكلامُ الحقُّ المندوبُ إليهِ. . فلمْ ينصَّ عليهِ علىٰ أنَّ الآفةَ ممَّا تعظمُ في الكلامِ ؛ فهوَ واقعٌ في القسمِ الثاني ، وإنَّما كلامُنا في العباداتِ الخاصَّةِ ببدنِ العبدِ ممَّا لا يتعلَّقُ بالناسِ ، ولا تعظمُ فيهِ الآفاتُ ، ثمَّ كلامُ الحسنِ في تركِهِمُ البكاءَ وإماطةَ الأذىٰ ؛ لخوفِ الشهرةِ ربَّما كانَ حكايةَ أحوالِ الضعفاءِ الذينَ لا يعرفونَ الأفضلَ ، ولا يدركونَ هـٰذهِ الدقائقَ ، وإنَّما ذكرَهُ تخويفاً للناسِ مِنْ آفةِ الشهرةِ ، وزجراً عنْ طلبِها .

❁ ❁ ❁

القسمُ الثاني : ما يتعلَّقُ بالخلقِ ، وتعظمُ فيهِ الآفاتُ والأخطارُ :

وأعظمُها الخلافةُ ، ثمَّ القضاءُ ، ثمَّ التذكيرُ والتدريسُ والفتوىٰ ، ثمَّ إنفاقُ المالِ .

أمَّا الخلافةُ والإمارةُ .. فهيَ مِنْ أفضلِ العباداتِ إذا كانَتْ معَ العدلِ والإخلاصِ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيومٌ مِنْ إمامٍ عادلٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ الرجلِ وحدَهُ ستينَ عاماً »(١) ، فأعظمْ بعبادةٍ يوازي يومٌ منها عبادةَ ستينَ سنةً !

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ثلاثةٌ » ، الإمامُ المقسطُ أحدُهُم(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتهُمْ » الإمامُ العادلُ أحدُهُم(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ الناسِ منِّي مجلساً يومَ القيامةِ إمامٌ عادلٌ » ، رواهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ(٤) .

فالإمارةُ والخلافةُ مِنْ أعظمِ العباداتِ ، ولمْ يزلِ المتقونَ يحترزونَ منها

---

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) ، وليس فيه ذكر الأولية ، بل هي عند الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص٢٧٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٢٦) ، وابن ماجه (١٧٥٢) .

(٤) رواه الترمذي (١٣٢٩) .

ويتركونَها ويهربونَ مِنْ تقلُّدِها ؛ وذلكَ لما فيهِ مِنْ عظمِ الخطرِ ؛ إذْ تتحرَّكُ بها الصفاتُ الباطنةُ ، ويغلبُ على النفسِ حبُّ الجاهِ ولذَّةُ الاستيلاءِ ونفاذُ الأمرِ ، وهوَ أعظمُ ملاذِّ الدنيا ، فإذا صارَتِ الولايةُ محبوبةً . . كانَ الوالي ساعياً في حظِّ نفسِهِ ، ويوشكُ أنْ يتَّبعَ هواهُ ، فيمتنعَ مِن كلِّ ما يقدحُ في جاهِهِ وولايتِهِ وإنْ كانَ حقّاً ، ويقدمُ علىٰ ما يزيدُ في مكانتِهِ وإنْ كانَ باطلاً ، وعندَ ذلكَ يهلكُ ، ويكونُ يومٌ مِنْ سلطانٍ جائرٍ شرّاً مِنْ فسقِ ستِّينَ سنةً ؛ بمفهومِ الحديثِ الذي ذكرناهُ !

ولهٰذا الخطرِ العظيمِ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (مَنْ يأخذُها بما فيها ؟!)[1] .

وكيفَ لا وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ والي عشرةٍ إلا جاءَ يومَ القيامةِ مغلولةً يداهُ إلىٰ عنقِهِ ، أطلقَهُ عدلُهُ أوْ أوبقَهُ جورُهُ » ، رواهُ معقلُ بنُ يسارٍ[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٠) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢٢٢) عن معقل بن يسار رضي الله عنه بلفظ : « ليس من وال يلي أمة قلَّت أو كثرت لا يعدل فيها . . إلا أكبَّهُ الله علىٰ وجهه في النار » ، وأصله عند البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) ، ولفظه : « ما من عبد استرعاه الله رعية ، فلم يحطها بنصيحة . . إلا لم يجد رائحة الجنة » . والحديث بلفظ المصنف رواه أحمد في « مسنده » (٢/ ٤٣١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١١٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « مسنده » (٥/ ٢٨٤) من حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه .

وولاَّهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ولايةً[1] ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أشِرْ عليَّ ، قالَ : اجلسْ واكتمْ عليَّ[2] .

وروى الحسنُ أنَّ رجلاً ولاَّهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : خِرْ لي ، قالَ : « اجلسْ »[3] .

وكذلكَ حديثُ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ سمرةَ ؛ إذْ قالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ الرحمـٰنِ ؛ لا تسألِ الإمارةَ ، فإنَّكَ إنْ أُوتيتَها مِنْ غيرِ مسألةٍ . . أُعنتَ عليها ، وإنْ أُوتيتَها عنْ مسألةٍ . . وُكلتَ إليها »[4] .

وقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لرافعِ بنِ عمرَ : (لا تأمَّرْ على اثنينِ) ، ثمَّ وليَ هوَ الخلافةَ ، فقامَ بها ، فقالَ لهُ رافعٌ : ألمْ تقلْ لي : (لا تأمَّرْ على اثنينِ) وأنتَ قدْ وليتَ أمرَ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! فقالَ : بلىٰ ، وأنا أقولُ لكَ ذلكَ ؛ فمَنْ لمْ يعدلْ فيها . . فعليهِ بهلةُ اللهِ ؛ يعني : لعنةَ اللهِ[5] .

ولعلَّ القليلَ البصيرةِ يرىٰ ما وردَ في فضلِ الإمارةِ معَ ما وردَ مِنَ النهيِ

---

(١) أي : معقل بن يسار رضي الله عنه ، وفي « الرعاية » (ص٢٧٢) : (وولىٰ عمر رجلاً) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٦) ولم يصرح باسم المؤمَّر .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١٧) .

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٥/٢١) .

عنها متناقضاً ، وليسَ كذلكَ ، **بلِ الحقُّ فيهِ** : أنَّ الخواصَّ الأقوياءَ في الدينِ لا ينبغي أنْ يمتنعوا مِنْ تقلُّدِ الولاياتِ ، وأنَّ الضعفاءَ لا ينبغي أنْ يدوروا بها فيهلكوا ، وأعني بالقويِّ : الذي لا تميلُهُ الدنيا ، ولا يستفزُّهُ الطمعُ ، ولا تأخذُهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ ، وهمُ الذينَ سقطَ الخلقُ مِنْ أعينِهِمْ ، وزهدوا في الدنيا وتبرَّموا بها وبمخالطةِ الخلقِ ، وقهروا أنفسَهُمْ وملكوها ، وقمعوا الشيطانَ فأيسَ منهُمْ ، فهؤلاءِ لا يحركُهُمْ إلا الحقُّ ، ولا يسكنُهُمْ إلا الحقُّ ، ولوْ زهقَتْ فيهِ أرواحُهُمْ ، فهُمْ أهلُ نيلِ الفضلِ في الإمارةِ والخلافةِ ، ومَنْ علمَ أنَّهُ ليسَ بهـٰذهِ الصفةِ . . فيحرمُ عليهِ الخوضُ في الولاياتِ .

ومَنْ جرَّبَ نفسَهُ فرآها صابرةً على الحقِّ ، كافَّةً عنِ الشهواتِ في غيرِ الولايةِ ، ولكنْ خافَ عليها أنْ تتغيَّرَ إذا ذاقَتْ لذَّةَ الولايةِ ، وأنْ تستحليَ الجاهَ وتستلذَّ نفاذَ الأمرِ فتكرهَ العزلَ ، فيداهنَ خيفةً مِنَ العزلِ . . فهـٰذا قدِ اختلفَ العلماءُ في أنَّهُ هلْ يلزمُهُ الهربُ مِنْ تقلُّدِ الولايةِ ؟

فقالَ قائلونَ : لا يجبُ ؛ لأنَّ هـٰذا خوفُ أمرٍ في المستقبلِ ، وهوَ في الحالِ لمْ يعهدْ نفسَهُ إلا قويّاً في ملازمةِ الحقِّ وتركِ لذاتِ النفسِ .

والصحيحُ : أنَّ عليهِ الاحترازَ ؛ لأنَّ النفسَ خدَّاعةٌ ، مدَّعيةٌ للحقِّ ، واعدةٌ بالخيرِ ، فلوْ وعدَتْ بالخيرِ جزماً . . لكانَ يُخافُ عليها أنْ تتغيَّرَ عندَ الولايةِ ، فكيفَ إذا أظهرَتِ التردُّدَ ؟ والامتناعُ عنْ قبولِ الولايةِ أهونُ مِنَ العزلِ بعدَ الشروعِ ، فالعزلُ مؤلمٌ ، وهوَ كما قيلَ : طلاقُ الرجالِ ، فإذا

شرعَ.. لا تسمحُ نفسُهُ بالعزلِ ، وتميلُ نفسُهُ إلى المداهنةِ وإهمالِ الحقِّ ، وتهوي به في قعرِ جهنَّمَ ، ولا يستطيعُ النزوعَ منها إلى الموتِ ، إلا أنْ يُعزلَ قهراً ، وكانَ فيهِ عذابٌ عاجلٌ علىٰ كلِّ مَنْ يحبُّ الولايةَ ، ومهما مالَتِ النفسُ إلىٰ طلبِ الولايةِ ، وحملَتْ على السؤالِ والطلبِ.. فهوَ أمارةُ الشرِّ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّا لا نولِّي أمرَنا مَنْ سألَنا »(١) .

فإذا فهمتَ اختلافَ حكمِ القويِّ والضعيفِ.. عرفتَ أنَّ نهيَ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لرافعٍ عنِ الولايةِ ثمَّ تقلُّدَهُ لها ليسَ بمتناقضٍ .

وأمَّا القضاءُ.. فهوَ وإنْ كانَ دونَ الخلافةِ والإمارةِ فهوَ في معناهُما ، فإنَّ كلَّ ذي ولايةٍ أميرٌ ؛ أيْ : لهُ أمرٌ نافذٌ ، والإمارةُ محبوبةٌ بالطبعِ ، والثوابُ في القضاءِ عظيمٌ معَ اتباعِ الحقِّ ، والعقابُ فيهِ أيضاً عظيمٌ معَ العدولِ عنِ الحقِّ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ ، واحدٌ في الجنةِ ، واثنانِ في النارِ »(٢) .

وقالَ : « مَنِ استُقضيَ.. فقدْ ذُبحَ بغيرِ سكينٍ »(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٩) ، ومسلم (١٧٣٣) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢/م) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٥٨٩١) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص٢٧٣) ، وبلفظه رواه محمد بن خلف في « أخبار القضاة » (١٣/١) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٨٩٢) ، وابن ماجه (٢٣٠٨) .

فحكمُهُ حكمُ الإمارةِ ، ينبغي أنْ يتركَهُ الضعفاءُ وكلُّ مَنْ للدنيا ولذاتِها وزنٌ في عينِهِ ، وليتقلدْهُ الأقوياءُ الذينَ لا تأخذُهُمْ في اللهِ لومةُ لائمٍ .

ومهما كانَ السلاطينُ ظلمةً ولمْ يقدرِ القاضي على القضاءِ إلا بمداهنتِهِمْ وإهمالِ بعضِ الحقوقِ لأجلِهِمْ ولأجلِ المتعلِّقينَ بهِمْ ؛ إذْ يعلمُ أنَّهُ لوْ حكمَ عليهِمْ بالحقِّ لعزلوهُ ، أوْ لمْ يطيعوهُ . . فليسَ لهُ أنْ يتقلَّدَ القضاءَ ، وإنْ تقلَّدَهُ . . فعليهِ أنْ يطالبَهُمْ بالحقوقِ ، ولا يكونُ خوفُ العزلِ عذراً مرخِّصاً لهُ في الإهمالِ أصلاً ، بلْ إذا عُزِلَ . . سقطَتِ العُهدةُ عنهُ ، فينبغي أنْ يفرحَ بالعزلِ إنْ كانَ يقضي للهِ ، فإنْ لمْ تسمحْ نفسُهُ بذلكَ . . فهوَ إذاً يقضي لاتباعِ الهوىٰ والشيطانِ ، فكيفَ يرتقبُ عليهِ ثواباً وهوَ معَ الظلمةِ في الدركِ الأسفلِ مِنَ النارِ ؟!

وأمَّا الوعظُ ، والفتوىٰ ، والتدريسُ ، وروايةُ الحديثِ ، وجمعُ الأسانيدِ العاليةِ ، وكلُّ ما يتسعُ بسببِهِ الجاهُ ، ويعظمُ بهِ القدرُ . . فآفتُهُ أيضاً عظيمةٌ مثلُ آفةِ الولاياتِ .

وقدْ كانَ الخائفونَ مِنَ السلفِ يتدافعونَ الفتوىٰ ما وجدوا إليهِ سبيلاً .

وكانوا يقولونَ : (« حدثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، ومَنْ قالَ : « حدثَنا » . . فقدْ قالَ : أوسعوا لي)(١) .

ودفنَ بشرٌ كذا وكذا قمطرةً مِنَ الحديثِ ، وقالَ : (يمنعُني مِنَ الحديثِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٥) ، والقائل هو بشر بن الحارث .

أنِّي أشتهي أنْ أحدِّثَ ، ولوِ اشتهيتُ ألا أحدثَ . . لحدثتُ)[1] .

والواعظُ يجدُ في وعظِهِ وتأثُّرِ قلوبِ الناسِ بهِ وتلاحقِ بكائِهِمْ وزَعَقاتِهِمْ وإقبالِهِمْ عليهِ لذةً لا توازيها لذةٌ ، فإذا غلبَ ذلكَ علىٰ قلبهِ . . مالَ قلبُهُ إلىٰ كلِّ كلامٍ مزخرفٍ يروجُ عندَ العوامِّ وإنْ كانَ باطلاً ، ويفرُّ عنْ كلِّ كلامٍ يستثقلُهُ العوامُّ وإنْ كانَ حقّاً ، ويصيرُ مصروفَ الهمةِ بالكليَّةِ إلىٰ ما يحرِّكُ قلوبَ العوامِّ ، ويعظمُ منزلتَهُ في قلوبِهِمْ ، فلا يسمعُ حديثاً وحكمةً إلا ويكونُ فرحُهُ بها مِنْ حيثُ إنَّهُ يصلحُ لأنْ يذكرَهُ علىٰ رأسِ المنبرِ ، وكانَ ينبغي أنْ يكونَ فرحُهُ بها مِنْ حيثُ إنَّهُ عرفَ طريقَ السعادةِ ، وطريقَ سلوكِ سبيلِ الدينِ ؛ ليعملَ بهِ أوَّلاً ، ثمَّ يقولَ : إذا أنعمَ اللهُ عليَّ بهـٰذهِ النعمةِ ، ونفعَني بهـٰذهِ الحكمةِ . . فأقصُّها ؛ ليشاركَني في نفعِها إخواني المسلمونَ .

فهـٰذا أيضاً ممَّا يعظمُ فيهِ الخوفُ والفتنةُ ، فحكمُهُ حكمُ الولاياتِ ؛ فمَنْ لا باعثَ له إلا طلبُ الجاهِ والمنزلةِ والأكلُ بالدينِ والتفاخرُ والتكاثرُ بهِ . . فينبغي أنْ يتركَهُ ويخالفَ الهوىٰ فيهِ إلىٰ أنْ ترتاضَ نفسُهُ ، وتقوىٰ في الدين مُنَّتُهُ ، ويأمنَ علىٰ نفسِهِ الفتنةَ ، فعندَ ذلكَ يعودُ إليهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : مهما حُكمَ بذلكَ علىٰ أهلِ العلمِ . . تعطلَتِ العلومُ واندرسَتْ ، وعمَّ الجهلُ كافةَ الخلقِ .

---

(١) قوت القلوب (١/١٥٦) .

فنقولُ : قدْ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ طلبِ الإمارةِ وتوعَّدَ عليها ، حتَّىٰ قالَ : « إنَّكمْ تحرصونَ على الإمارةِ ، وإنَّها حسرةٌ يومَ القيامةِ وندامةٌ ، إلا مَنْ أخذَها بحقِّها »[1] ، وقالَ : « نعمَتِ المرضعةُ وبئسَتِ الفاطمةُ »[2] ، ومعلومٌ أنَّ السلطنةَ والإمارةَ لوْ تعطلَتْ .. لبطلَ الدينُ والدنيا جميعاً ، وثارَ القتالُ بينَ الخلقِ ، وزالَ الأمنُ وخربَتِ البلادُ ، وبطلَتِ المعايشُ ، فلِمَ نُهِيَ عنها معَ ذلكَ ؟ وضربَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أبيَّ بنَ كعبٍ حينَ رأىٰ قوماً يتبعونَهُ وهوَ في ذلكَ يقولُ : (أبيٌّ سيدُ المسلمينَ)[3] ، وكانَ يقرأُ عليهِ القرآنَ ، فمنعَ مِنْ أنْ يتبعوهُ ، وقالَ : (ذلكَ فتنةٌ على المتبوعِ ومذلَّةٌ على التابعِ)[4] ، وعمرُ كانَ بنفسِهِ يخطبُ ويعظُ ولا يمتنعُ منهُ .

واستأذنَ رجلٌ عمرَ أنْ يعظَ الناسَ إذا فرغَ مِنْ صلاةِ الصبحِ فمنعَهُ ، فقالَ : أتمنعُني مِنْ نصحِ الناسِ ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا[5] ؛ إذْ رأىٰ فيهِ مخايلَ الرغبةِ في جاهِ الوعظِ وقبولِ الخلقِ .

---

(١) رواه البخاري (٧١٤٨) ، وليس فيه : « إلا من أخذها بحقها » ، وهي عند مسلم (١٨٢٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .
(٢) هو قطعة من الحديث المتقدم عند البخاري (٧١٤٨) ، وفصلهما المصنف تبعاً لصاحب « الرعاية » (ص٢٧١) .
(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٦) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) برواية نعيم بن حماد ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٠٣) .
(٥) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١/ ١٨) بنحوه .

والقضاءُ والخلافةُ ممَّا يحتاجُ الناسُ إليهِ في دينِهِمْ ؛ كالوعظِ والتدريسِ والفتوىٰ ، وفي كلِّ واحدٍ منهُما فتنةٌ ولذةٌ ، فلا فرقَ بينَهُما .

فأمَّا قولُ القائلِ : نهيُكَ عنْ ذلكَ يؤدي إلى اندراسِ العلمِ . . فهوَ غلطٌ ؛ إذْ نهيُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ القضاءِ لمْ يؤدِّ إلىٰ تعطيلِ القضاءِ[1] ، بلِ الرئاسةُ وحبُّها يضطرُّ الخلقَ إلىٰ طلبِها ، وكذلكَ حبُّ الرئاسةِ لا يتركُ العلومَ تندرسُ ، بلْ لوْ حُبسَ الناسُ وقُيِّدوا بالسلاسلِ والأغلالِ عنْ طلبِ العلومِ التي فيها القبولُ والرئاسةُ . . لأفلتوا مِنَ الحبسِ وقطعوا السلاسلَ وطلبوها ، وقدْ وعدَ اللهُ أنْ يؤيِّدَ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاقَ لهُمْ ، فلا تشغلْ قلبَكَ بأمرِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ لا يضيِّعُهُمْ ، وانظرْ لنفسِكَ .

ثمَّ إني أقولُ معَ هـٰذا : إذا كانَ في البلدِ جماعةٌ يقومونَ بالوعظِ مثلاً . . فليسَ في النهيِ عنهُ إلا امتناعُ بعضِهِمْ ، وإلا . . فيُعلمُ أنَّ كلَّهَمْ لا يمتنعونَ ، ولا يتركونَ لذَّةَ الرئاسةِ ، فإنْ لمْ يكنْ في البلدِ إلا واحدٌ ، وكانَ وعظُهُ نافعاً للناسِ مِنْ حيثُ حسنُ كلامِهِ ، وحسنُ سمتِهِ في الظاهرِ ، وتخييلُهُ إلى العوامِّ أنَّهُ إنَّما يريدُ اللهَ بوعظِهِ ، وأنَّهُ تاركٌ للدنيا ومعرضٌ عنها . . فلا نمنعُهُ منهُ ، ونقولُ لهُ : اشتغلْ وجاهدْ نفسَكَ ، فإنْ قالَ : لستُ أقدرُ علىٰ نفسي ، فنقولُ لهُ : اشتغلْ وجاهدْ ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّهُ لوْ تركَ ذلكَ . . لهلكَ الناسُ

(١) إذ روىٰ مسلم (١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً : « لا تأمرن على اثنين ، ولا تولينَّ مال يتيم » .

كلُّهُمْ ؛ إذْ لا قائمَ بهِ غيرُهُ ، ولوْ واظبَ وغرضُهُ الجاهُ.. فهوَ الهالكُ وحدَهُ ، وسلامةُ دينِ الجميعِ أحبُّ عندَنا مِنْ سلامةِ دينِهِ وحدَهُ ، فنجعلُهُ فداءً للقومِ ، ونقولُ : لعلَّ هـٰذا هوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[(١)] .

ثمَّ الواعظُ هوَ الذي يرغِّبُ في الآخرةِ ، ويزهِّدُ في الدنيا بكلامِهِ وبظاهرِ سيرتِهِ ، فأمَّا ما أحدثَهُ الوعَّاظُ في هـٰذهِ الأعصارِ ؛ مِنَ الكلماتِ المزخرفةِ ، والألفاظِ المسجعةِ المقرونةِ بالأشعارِ ، ممَّا ليسَ فيهِ تعظيمٌ لأمرِ الدينِ وتخويفٌ للمسلمينَ ، بلْ فيهِ الترجيةُ والتجرئةُ على المعاصي بطيَّاراتِ النُّكتِ[(٢)] .. فيجبُ إخلاءُ البلادِ منهُمْ ؛ فإنَّهُمْ نوَّابُ الدجالِ وخلفاءُ الشيطانِ ، وإنَّما كلامُنا في واعظٍ حسنِ الوعظِ ، جميلِ الظاهرِ ، يبطنُ في نفسِهِ حبَّ القبولِ ولا يقصدُ غيرَهُ .

وفيما أوردناهُ في كتابِ العلمِ مِنَ الوعيدِ الواردِ في حقِّ علماءِ السوءِ ما يبيِّنُ لزومَ الحذرِ مِنْ فتنِ العلمِ وغوائلِهِ ، ولقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا علماءَ السوءِ ؛ تصومونَ وتصلونَ وتتصدقونَ ، ولا تفعلونَ ما تأمرونَ ، وتدرِّسونَ ما لا تعملونَ ، فيا سوءَ ما تحكمونَ ، تتوبونَ بالقولِ والأمانيِّ ،

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٨٨٣٤) .
(٢) طيارات النكت : النكت النوادر الغريبة المهيجة للأوصاف المستكنة في الضمائر ، مما يكون باعثاً علىٰ آفاته غرض شيطاني . « إتحاف » (٨/٣١٨) .

وتعملونَ بالهوىٰ ، وما يغني عنكمْ أنْ تنقُّوا جلودكُمْ وقلوبُكُمْ دنسةٌ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تكونوا كالمُنْخُلِ ؛ يخرجُ منهُ الدقيقُ الطيبُ ويبقىٰ فيهِ النُّخالةُ ، كذلكَ أنتُمْ تخرجونَ الحكمَ مِنْ أفواهِكُمْ ويبقى الغلُّ في صدورِكُمْ .

يا عبيدَ الدنيا ، كيفَ يدركُ الآخرةَ مَنْ لا تنقضي مِنَ الدنيا شهوتُهُ ، ولا تنقطعُ منها رغبتُهُ ؟!

بحقٍّ أقولُ لكمْ : إنَّ قلوبَكُمْ تبكي مِنْ أعمالِكُمْ ، جعلتُمُ الدنيا تحتَ ألسنتِكُمْ ، والعملَ تحتَ أقدامِكُمْ .

بحقٍّ أقولُ لكمْ : أفسدتُمْ آخرتَكُمْ بصلاحِ دنياكُمْ ، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكُمْ مِنْ صلاحِ الآخرةِ ، فأيُّ ناسٍ أخسُّ منكُمْ ؟! لوْ تعلمونَ ، ويلَكُمْ ، حتَّىٰ متىٰ تصفونَ الطريقَ للمدلجينَ وتقيمونَ في محلَّةِ المتجبِّرينَ ؛ كأنَّكُمْ تدعونَ أهلَ الدنيا ليتركوها لكُمْ ، مهلاً مهلاً ويلَكُمْ ، ماذا يُغني عنِ البيتِ المظلمِ أنْ يُوضعَ السراجُ فوقَ ظهرِهِ وجوفُهُ وحِشٌ مظلمٌ ؟! كذلكَ لا يغني عنكُمْ أنْ يكونَ نورُ العلمِ بأفواهِكُمْ وأجوافُكُمْ مِنهُ وَحِشةٌ معطلةٌ .

يا عبيدَ الدنيا ؛ لا كعبيدٍ أتقياءَ ، ولا كأحرارٍ كرامٍ ، توشكُ الدنيا أنْ تقلعَكُمْ عنْ أصولِكُمْ فتلقيَكُمْ علىٰ وجوهِكُمْ ، ثمَّ تكبَّكُمْ علىٰ مناخرِكُمْ ، ثمَّ تأخذُ خطاياكُمْ بنواصيكُمْ ؛ ثمَّ يدفعُكُمُ العلمُ مِنْ خلفِكُمْ ، ثم يسلمُكُمْ إلى

الملكِ الديانِ حفاةً عراةً فرادىٰ ، فيوقفُكُمْ علىٰ سوءاتِكُمْ ، ثمَّ يجزيكُمْ بسوءِ أعمالِكُمْ)(١) .

وقدْ روى الحارثُ المحاسبيُّ هـٰذا الحديثَ في بعضِ كتبهِ ، ثمَّ قالَ : (هؤلاءِ علماءُ السوءِ ، شياطينُ الإنسِ ، وفتنةٌ على الناسِ ، رغبوا في عرضِ الدنيا ورفعتِها ، وآثروها على الآخرةِ ، وأذلُّوا الدينَ للدنيا ، فهُمْ في العاجلِ عارٌ وشَينٌ ، وفي الآخرةِ همُ الخاسرونَ) .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الآفاتُ ظاهرةٌ ، ولكنْ وردَ في العلمِ والوعظِ رغائبُ كثيرةٌ ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً خيرٌ لكَ مِنَ الدنيا وما فيها »(٢) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أيُّما داعٍ دعا إلىٰ هدىً واتُّبعَ عليهِ . . كانَ لهُ أجرُهُ وأجرُ مَنْ اتَّبعَهُ »(٣) ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ فضائلِ العلمِ ، فينبغي أنْ يُقالَ للعالمِ : اشتغلْ بالعلمِ واتركْ مراءاةَ الخلقِ ، كما يُقالُ لمَنْ خالجَهُ الرياءُ في الصلاةِ : لا تتركِ العملَ ، ولكنْ أتممِ العملَ وجاهدْ نفسَكَ .

---

(١) مجمل أقوال سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٦٨) ، (٤٦٠/٤٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٥) .

فاعلمْ : أنَّ فضلَ العلمِ كثيرٌ ، وخطرَهُ عظيمٌ ؛ كفضلِ الخلافةِ والإمارةِ ، ولا نقولُ لأحدٍ مِنْ عبادِ اللهِ : اتركِ العلمَ ؛ إذْ ليسَ في نفسِ العلمِ آفةٌ ، وإنَّما الآفةُ في إظهارِهِ بالتصدِّي للوعظِ والتدريسِ وروايةِ الأحاديثِ ، ولا نقولُ لهُ أيضاً : اتركْهُ ما دامَ يجدُ في نفسِهِ باعثاً دينياً ممزوجاً بباعثِ الرياءِ .

فأمَّا إذا لمْ يحرِّكْهُ إلا الرياءُ . . فتركُ الإظهارِ أنفعُ لهُ وأسلمُ ، وكذلكَ نوافلُ الصلواتِ إذا تجرَّدَ فيها باعثُ الرياءِ . . وجبَ تركُها ، أمَّا إذا خطرَتْ لهُ وساوسُ الرياءِ في أثناءِ الصلاةِ وهوَ لها كارهٌ . . فلا يتركُ الصلاةَ ؛ لأنَّ آفةَ الرياءِ في العباداتِ ضعيفةٌ ، وإنَّما تعظمُ في الولاياتِ ، وفي التصدي للمناصبِ الكبيرةِ في العلمِ .

❁ ❁ ❁

وبالجملةِ : فالمراتبُ ثلاثٌ :

الأولىٰ : الولاياتُ ، والآفاتُ فيها عظيمةٌ ، وقدْ تركَها جماعةٌ مِنَ السلفِ خوفاً مِنَ الآفةِ .

الثانيةُ : الصومُ ، والصلاةُ ، والحجُّ ، والغزوُ ، وقدْ تعرَّضَ لها أقوياءُ السلفِ وضعفاؤُهُمْ ، ولمْ يُؤثرْ عنهُمُ التركُ لخوفِ الآفةِ ، وذلكَ لضعفِ الآفاتِ الداخلةِ فيها ، والقدرةِ علىٰ نفيها معَ إتمامِ العملِ للهِ بأدنىٰ قوةٍ .

الثالثةُ : وهيَ متوسطةٌ بينَ الرتبتينِ ، وهيَ التصدي لمنصبِ الوعظِ

والفتوىٰ والروايةِ والتدريسِ ، والآفاتُ فيها أقلُّ ممَّا في الولاياتِ وأكثرُ ممَّا في الصلواتِ ؛ فالصلاةُ ينبغي ألا يتركَها الضعيفُ والقويُّ ، ولكنْ يدفعُ خاطرَ الرياءِ ، والولاياتُ ينبغي أنْ يتركَها الضعفاءُ رأساً دونَ الأقوياءِ ، ومناصبُ العلمِ بينَهُما ، ومَنْ جرَّبَ آفاتِ منصبِ العلمِ . . علمَ أنَّهُ بالولاياتِ أشبهُ ، وأنْ الحذرَ منهُ في حقِّ الضعيفِ أسلمُ ، واللهُ أعلمُ .

وهاهنا رتبةٌ رابعةٌ : وهيَ جمعُ المالِ وأخذُهُ للتفرقةِ على المستحقينَ ، فإنَّ في الإنفاقِ وإظهارِ السخاءِ استجلاباً للثناءِ ، وفي إدخالِ السرورِ علىٰ قلوبِ الناسِ لذةً للنفسِ ، والآفاتُ فيها أيضاً كثيرةٌ ، ولذلكَ سُئلَ الحسنُ عنْ رجلٍ طلبَ القوتَ ثمَّ أمسكَ ، وآخرَ طلبَ فوقَ قوتِهِ ثمَّ تصدَّقَ بهِ ، فقالَ : (القاعدُ أفضلُ)[1] ؛ لما يعرفونَ مِنْ قلَّةِ السلامةِ في الدنيا ، وأنَّ مِنَ الزُّهدِ تركَها قربةً إلى اللهِ تعالىٰ .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ما يسرُّني أنِّي أقمتُ علىٰ درجِ مسجدِ دمشقَ أصيبُ كلَّ يومٍ خمسينَ ديناراً أتصدقُ بها ، أما إنِّي لا أحرِّمُ البيعَ والشراءَ ، ولكنِّي أريدُ أنْ أكونَ مِنَ الذينَ لا تلهيهِمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ)[2] .

وقدِ اختلفَ العلماءُ[3] ؛ فقالَ قومٌ : إذا طلبَ الدنيا مِنَ الحلالِ وسلمَ منها وتصدَّقَ بها . . فهوَ أفضلُ مِنْ أنْ يشتغلَ بالعباداتِ والنوافلِ ، وقالَ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٢٧٣) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٧) .
(٣) أورد الخلاف الإمام المحاسبي في « الرعاية » (ص٢٧٥) .

قومٌ : الجلوسُ في دوامِ ذكرِ اللهِ أفضلُ ، والأخذُ والعطاءُ يشغلُ عَنْ ذكرِ اللهِ ، وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا طالبَ الدنيا لتبرَّ بها ؛ تركُكَ لها أبرُّ)[1] ، وقالَ : أقلُّ ما فيهِ أنَّهُ يشغلُهُ إصلاحُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ، وذكرُ اللهِ أفضلُ وأكبرُ ، وهٰذا فيمَنْ سلمَ مِنَ الآفاتِ .

فأمَّا مَنْ يتعرَّضُ لآفةِ الرياءِ .. فتركُهُ لها أبرُّ ، والاشتغالُ بالذكرِ لا خلافَ في أنَّهُ أفضلُ .

وبالجملةِ : ما يتعلَّقُ بالخلقِ وللنفسِ فيهِ لذَّةٌ .. فهوَ مثارُ الآفاتِ ، والأحبُّ أنْ يعملَ ويدفعَ الآفةَ ، فإنْ عجزَ .. فلينظرْ وليجتهدْ ، وليستفتِ قلبَهُ ، وليزنْ ما فيهِ مِنَ الخيرِ بما فيهِ مِنَ الشرِّ ، وليفعلْ ما يدلُّ عليهِ نورُ العلمِ دونَ ما يميلُ إليهِ الطبعُ .

وبالجملةِ : ما يجدُهُ أخفَّ علىٰ قلبِهِ فهوَ في الأكثرِ أضرُّ عليهِ ؛ لأنَّ النفسَ لا تشيرُ إلا بالشرِّ ، وقلَّما تستلذُّ الخيرَ وتميلُ إليهِ ، وإنْ كانَ لا يبعدُ ذلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، وهٰذهِ أمورٌ لا يمكنُ الحكمُ علىٰ تفاصيلِها بنفيٍ وإثباتٍ ، فهوَ موكولٌ إلى اجتهادِ القلبِ لينظرَ فيهِ لدينِهِ ، ويدعَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ .

ثمَّ قدْ يقعُ ممّا ذكرناهُ غرورٌ للجاهلِ ، فيمسكُ المالَ ولا ينفقُهُ خيفةً مِنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . « إتحاف » (٨/ ٩٠) ، والمعنىٰ : يا من يطلب الدنيا ليكون باراً ببذلها ، فهو لا يطلبها لذاتها ؛ إن تركك لها أبرُّ من برِّك بها .

الآفةِ ، وهوَ عينُ البخلِ ، ولا خلافَ في أنَّ تفرقةَ المالِ في المباحاتِ فضلاً عنِ الصدقاتِ أفضلُ مِنْ إمساكِهِ ، وإنَّما الخلافُ فيمَنْ يحتاجُ إلى الكسبِ أنَّ الأفضلَ الكسبُ[1] والإنفاقُ أوِ التجردُ للذِّكرِ ، وذلكَ لما في الكسبِ مِنَ الآفاتِ ، فأمَّا المالُ الحاصلُ مِنَ الحلالِ . . فتفرقتُهُ أفضلُ مِنْ إمساكِهِ بكلِّ حالٍ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فبأيِّ علامةٍ تعرفُ العالمَ والواعظَ أنَّهُ صادقٌ مخلصٌ في وعظِهِ غيرُ مريدٍ رياءَ الناسِ ؟

فاعلمْ : أنَّ لذلكَ علاماتٍ :

إحداها : أنَّهُ لوْ ظهرَ مَنْ هو أحسنُ منهُ وعظاً أوْ أغزرُ منهُ علماً والناسُ لهُ أشدُّ قبولاً . . فرحَ بهِ ولمْ يحسدْهُ ، نعمْ ، لا بأسَ بالغبطةِ ، وهوَ أنْ يتمنَّىٰ لنفسِهِ مثلَ علمِهِ .

والأخرىٰ : أنَّ الأكابرَ إذا حضروا مجلسَهُ . . لمْ يتغيرْ كلامُهُ .

بلْ بقيَ كما كانَ عليهِ ، فينظرُ إلى الخلقِ بعينٍ واحدةٍ .

والأخرىٰ : ألا يحبَّ اتباعَ الناسِ لهُ في الطريقِ والمشيَ خلفَهُ في الأسواقِ .

ولذلكَ علاماتٌ كثيرةٌ يطولُ إحصاؤُها .

---

(١) في غير (د) : (الأفضل ترك الكسب) .

وقدْ رُويَ عنْ سعيدِ بنِ أبي مروانَ أنَّهُ قالَ : كنتُ جالساً إلىٰ جنبِ الحسنِ ، إذْ دخلَ علينا الحجاجُ مِنْ بعضِ أبوابِ المسجدِ ومعَهُ الحرسُ وهوَ علىٰ برذونٍ أصفرَ ، فدخلَ المسجدَ علىٰ برذونِهِ ، فجعلَ يلتفتُ في المسجدِ ، فلمْ يرَ حلقةً أحفلَ مِنْ حلقةِ الحسنِ ، فتوجَّهَ نحوَها حتَّىٰ بلغَ قريباً منها ، ثمَّ ثنىٰ وركَهُ ، فنزلَ ومشىٰ نحوَ الحسنِ ، فلمَّا رآهُ الحسنُ متوجهاً إليهِ . . تجافىٰ لهُ عنْ ناحيةِ مجلسِهِ ، قالَ سعيدٌ : وتجافيتُ لهُ أيضاً عنْ ناحيةِ مجلسي ، حتَّىٰ صارَ بيني وبينَ الحسنِ فرجةٌ ومجلسٌ للحجاجِ ، فجاءَ الحجاجُ حتَّىٰ جلسَ بيني وبينَهُ ، والحسنُ يتكلَّمُ بكلامٍ لهُ يتكلَّمُ بهِ في كلِّ يومٍ ، فما قطعَ الحسنُ كلامَهُ .

قالَ سعيدٌ : فقلتُ في نفسي : لأبلونَّ الحسنَ اليومَ ، ولأنظرَنَّ هلْ يحملُ الحسنَ جلوسُ الحجاجِ إليهِ أنْ يزيدَ في كلامِهِ يتقرَّبُ إليهِ ، أوْ تحملُهُ هيبةُ الحجاجِ أنْ ينقصَ مِنْ كلامِهِ ؟ فتكلَّمَ الحسنُ كلاماً واحداً نحواً ممَّا كانَ يتكلَّمُ بهِ في كلِّ يومٍ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ آخرِ كلامِهِ ، فلمَّا فرغَ الحسنُ مِنْ كلامِهِ وهوَ غيرُ مكترثٍ بهِ . . رفعَ الحجاجُ يدَهُ فضربَ بها علىٰ مَنْكِبِ الحسنِ ، ثمَّ قالَ : صدقَ الشيخُ وبرَّ ، فعليكمْ بهٰذهِ المجالسِ وأشباهِها فاتخذوها خُلقاً وعادةً ؛ فإنَّهُ بلغَني عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّ مجالسَ الذكرِ رياضُ الجنةِ[1] ، ولولا ما حُمِّلناهُ مِنْ أمرِ الناسِ . . ما غلبتُمونا علىٰ هٰذهِ المجالسِ ؛ لمعرفتِنا بفضلِها ، قالَ : ثمَّ افترَّ الحجاجُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

فتكلَّمَ حتَّىٰ عجبَ الحسنُ ومَنْ حضرَ مِنْ بلاغتِهِ ، فلمَّا فرغَ . . طفقَ فقامَ .

فجاءَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ إلىٰ مجلسِ الحسنِ حينَ قامَ الحجاجُ ، فقالَ : عبادَ اللهِ المسلمينَ ؛ ألا تعجبوا أنِّي رجلٌ شيخٌ كبيرٌ ، وأنِّي أُغزَّىٰ ، فأُكلَّفُ فرساً وبغلاً ، وأُكلَّفُ فسطاطاً ، وأنِّي لي ثلاثُ مئةِ درهمٍ مِنَ العطاءِ ، وأنَّ لي سبعَ بناتٍ مِنَ العيالِ ! فشكا مِنْ حالِهِ حتَّىٰ رقَّ لهُ الحسنُ وأصحابُهُ ، والحسنُ مكبٌّ ، فلمَّا فرغَ الرجلُ مِنْ كلامِهِ . . رفعَ الحسنُ رأسَهُ فقالَ : ما لهُمْ قاتلَهُمُ اللهُ ! اتخذوا عبادَ اللهِ خولاً ، ومالَ اللهِ دولاً ، وقتلوا الناسَ على الدينارِ والدرهمِ ، فإذا غزا عدوُّ اللهِ . . غزا في الفساطيطِ الهيَّابةِ ، وعلى البغالِ السبَّاقةِ ، وإذا أغزىٰ أخاهُ . . أغزاهُ طاوياً راجلاً ، فما فترَ الحسنُ حتَّىٰ ذكرَهُمْ بأقبحِ العيبِ وأشدِّهِ .

فقامَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ كانَ جالساً إلى الحسنِ ، فسعىٰ بهِ إلى الحجاجِ ، وحكىٰ لهُ كلامَهُ ، فلمْ يلبثِ الحسنُ أنْ أتتْهُ رسلُ الحجاجِ ، فقالوا : أجبِ الأميرَ ، فقامَ الحسنُ ، وأشفقنا عليهِ مِنْ شدةِ كلامِهِ الذي تكلَّمَ بهِ ، فلمْ يلبثِ الحسنُ أنْ رجعَ إلىٰ مجلسِهِ وهوَ يتبسَّمُ ، وقلَّما رأيتُهُ فاغراً فاهُ يضحكُ ، إنَّما كانَ يتبسَّمُ ، فأقبلَ حتَّىٰ قعدَ في مجلسِهِ ، فعظَّمَ الأمانةَ ، وقالَ : إنَّما تجالسونَ بالأمانةِ ؛ كأنَّكُمْ تظنُّونَ أنَّ الخيانةَ ليسَتْ إلا في الدينارِ والدرهمِ ، إنَّ الخيانةَ أشدَّ الخيانةِ أنْ يجالسَنا الرجلُ ، فنطمئنَّ إلىٰ ناحيتِهِ ، ثمَّ ينطلقُ فيسعىٰ بنا إلىٰ شرارةٍ مِنْ نارٍ ، إنِّي أتيتُ هـٰذا الرجلَ ، فقالَ : أقصرْ عليكَ مِنْ لسانِكَ وقولِكَ : إذا غزا عدوُّ اللهِ . . غزا

كذا ، وإذا أغزىٰ أخاهُ . . أغزاهُ كذا ، لا أبا لكَ ؛ تحرِّضُ علينا الناسَ ؟! أما إنَّا علىٰ ذلكَ لا نتهمُ لنصيحتِكَ ، فأقصرْ عليكَ مِنْ لسانِكَ ، قالَ : فدفعَهُ اللهُ عنِّي .

وركبَ الحسنُ حماراً يريدُ المنزلَ ، فبينَما هوَ يسيرُ إذِ التفتَ فرأىٰ قوماً يتبعونَهُ ، فوقفَ فقالَ : هلْ لكمْ مِنْ حاجةٍ أوْ تسألونَ عنْ شيءٍ ؟ وإلا . . فارجعوا ، فما يبقي هـٰذا مِنْ قلبِ العبدِ ؟!

فبهـٰذهِ العلاماتِ وأمثالِها تتبيَّنُ سريرةُ الباطنِ ، ومهما رأيتَ العلماءَ يتغايرونَ ويتحاسدونَ ، ولا يتوانسونَ ولا يتعاونونَ . . فاعلمْ أنَّهُمْ قدِ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فهُمُ الخاسرونَ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بلطفِكَ يا أرحمَ الراحمينَ .

* * *

بيان ما يصحّ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصحّ

اعلمْ : أنَّ الرجلَ قدْ يبيتُ معَ القومِ في موضعٍ ، فيقومونَ للتهجُّدِ أوْ يقومُ بعضُهُمْ فيصلُّونَ الليلَ كلَّهُ أوْ بعضَهُ ، وهوَ ممَّنْ يقومُ في بيتِهِ ساعةً قريبةً ، فإذا رآهُمْ . . انبعثَ نشاطُهُ للموافقةِ ، حتَّىٰ يزيدُ علىٰ ما كانَ يعتادُهُ أوْ يصلِّي معَ أنَّهُ كانَ لا يعتادُ الصلاةَ بالليلِ أصلاً .

وكذلكَ قدْ يقعُ في موضعٍ يصومُ فيهِ أهلُ الموضعِ ، فينبعثُ لهُ نشاطٌ في الصومِ ، ولولاهُمْ . . لما انبعثَ هٰذا النشاطُ .

فهٰذا ربَّما يُظنُّ أنَّهُ رياءٌ ، وأنَّ الواجبَ تركُ الموافقةِ .

وليسَ كذلكَ على الإطلاقِ ، بلْ لهُ تفصيلٌ ؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ راغبٌ في عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، وفي قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولكنْ قدْ تعوقُهُ العوائقُ ، ويمنعُهُ الاشتغالُ ، ويغلبُهُ التمكنُ مِنَ الشهواتِ ، أوْ تستهويهِ الغفلةُ ، فربَّما تكونُ مشاهدةُ الغيرِ سببَ زوالِ الغفلةِ ، أوْ تندفعُ العوائقُ والأشغالُ في بعضِ المواضعِ ، فينبعثُ النشاطُ ، فقدْ يكونُ الرجلُ في منزلِهِ ، فتقطعُهُ الأسبابُ عنِ التهجُّدِ ؛ مثلَ تمكنِهِ مِنَ النومِ علىٰ فراشٍ وثيرٍ ، أو تمكنِهِ مِن التمتُّعِ بزوجتِهِ ، أوِ المحادثةِ معَ أهلِهِ وأقاربِهِ ، أوِ الاشتغالِ بأولادِهِ ، أوْ مطالعةِ حسابٍ لهُ معَ معامليهِ ، فإذا وقعَ في منزلٍ غريبٍ . . اندفعَتْ عنهُ هٰذهِ الشواغلُ التي تفترُ رغبتَهُ عنِ الخيرِ ، وحصلَتْ لهُ أسبابٌ باعثةٌ على الخيرِ ؛

كمشاهدتِهِ إيَّاهُمْ وقدْ أقبلوا على اللهِ وأعرضوا عنِ الدنيا ؛ فإنَّهُ ينظرُ إليهِمْ فينافسُهُمْ ، ويشقُّ عليهِ أنْ يسبقوهُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فتتحرَّكُ داعيتُهُ للدِّينِ لا للرياءِ .

أوْ ربَّما يفارقُهُ النومُ لاستنكارِهِ الموضعَ ، أوْ بسببٍ آخرَ ، فيغتنمُ زوالَ النومِ ، وفي منزلِهِ ربَّما يغلبُهُ النومُ ، وربَّما ينضافُ إليهِ أنَّهُ في منزلِهِ على الدوامِ ، والنفسُ لا تسمحُ بالتهجُّدِ دائماً ، وتسمحُ بالتهجُّدِ وقتاً قليلاً ، فيكونُ ذلكَ سببَ هـٰذا النشاطِ معَ اندفاعِ سائرِ العوائقِ .

وقدْ يعسرُ عليهِ الصومُ في منزلِهِ ومعَهُ أطايبُ الأطعمةِ ، ويشقُّ عليهِ الصبرُ عنها ، فإذا أعوزَتْهُ تلكَ الأطعمةُ . . لمْ يشقَّ عليهِ ، فتنبعثُ داعيةُ الدينِ للصومِ ، فإنَّ الشهواتِ الحاضرةَ عوائقُ ودوافعُ تغلبُ باعثَ الدينِ ، فإذا سلمَ منها . . قويَ الباعثُ .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسبابِ يُتصوَّرُ وقوعُهُ ، ويكونُ السببُ فيهِ مشاهدةَ الناسِ وكونَهُ معَهُمْ ، والشيطانُ معَ ذلكَ ربَّما يصدُّ عنِ العملِ ويقولُ : لا تعملْ ؛ فإنَّكَ تكونُ مرائياً ؛ إذْ كنتَ لا تعملُ في بيتِكَ ، ولا تزدْ على صلاتِكَ المعتادةِ .

وقدْ تكونُ رغبتُهُ في الزيادةِ لأجلِ رؤيتِهِمْ ، وخوفاً مِنْ ذمِّهِمْ ونسبتِهِمْ إيَّاهُ إلى الكسلِ ، لا سيَّما إذا كانوا يظنُّونَ بهِ أنَّهُ يقومُ الليلَ ، فإنَّ نفسَهُ لا تسمحُ بأَنْ يسقطَ مِنْ أعينِهِمْ ، فيريدُ أنْ يحفظَ منزلتَهُ ، وعندَ ذلكَ قدْ يقولُ

الشيطانُ : صلِّ ؛ فإنَّكَ مخلصٌ ، ولستَ تصلِّي لأجلِهِمْ ، بلْ للهِ ، وإنَّما كنتَ لا تصلي كلَّ ليلةٍ لكثرةِ العوائقِ ، وإنَّما داعيتُكَ لزوالِ العوائقِ لا لاطلاعِهِمْ .

وهٰذا أمرٌ مشتبهٌ إلا علىٰ ذوي البصائرِ ؛ فإذا عرفَ أنَّ المحركَ هوَ الرياءُ . . فلا ينبغي أنْ يزيدَ علىٰ ما كانَ يعتادُهُ ولا ركعةً واحدةً ؛ لأنَّهُ يعصي اللهَ تعالىٰ بطلبِ محمدةِ الناسِ بطاعةِ اللهِ ، وإنْ كانَ انبعاثُهُ لدفعِ العوائقِ وتحرُّكِ الغبطةِ والمنافسةِ بسببِ عبادتِهِمْ . . فليوافقْ .

وعلامةُ ذلكَ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ رأىٰ هؤلاءِ يصلونَ مِنْ حيثُ لا يرونَهُ ، بلْ مِنْ وراءِ حجابٍ وهوَ في ذلكَ الموضعِ بعينِهِ . . هلْ كانَتْ تسخو نفسُهُ بالصلاةِ وهمْ لا يرونَهُ ؟ فإنْ سختْ نفسُهُ بهِ . . فليصلِّ ؛ فإنَّ باعثَهُ الحقُّ ، وإنْ كانَ ذلكَ يثقلُ علىٰ نفسِهِ لوْ غابَ عنْ أعينِهِمْ . . فليتركْ ؛ فإنَّ باعثَهُ الرياءُ .

وكذلكَ قدْ يحضرُ الإنسانُ يومَ الجمعةِ في الجامعِ مِنْ نشاطِ الصلاةِ ما لا يحضرُهُ كلَّ يومٍ ، ويمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ لحبِّ حمدِهِمْ ، ويمكنُ أنْ يكونَ تحرُّكُ نشاطِهِ بسببِ نشاطِهِمْ وزوالُ غفلتِهِ بسببِ إقبالِهِمْ على اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يتحرَّكُ بذلكَ باعثُ الدينِ ويقارنُهُ نزوعٌ في النفسِ إلىٰ حبِّ الحمدِ ، فمهما علمَ أنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ إرادةُ الدينِ . . فلا ينبغي أنْ يتركَ العملَ بما يجدُهُ مِنْ حبِّ الحمدِ ، بلْ ينبغي أنْ يردَّ ذلكَ علىٰ نفسِهِ بالكراهةِ ، ويشتغلَ بالعبادةِ .

وكذلكَ قدْ يبكي جماعةٌ ، فينظرُ إليهِمْ ، فيحضرُهُ البكاءُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ لا مِنَ الرياءِ ، ولوْ سمعَ ذلكَ الكلامَ وحدَهُ . . لما كانَ يبكي ، ولكنَّ بكاءَ الناسِ يؤثِّرُ في ترقيقِ القلبِ ، وقدْ لا يحضرُهُ البكاءُ ، فيتباكىٰ تارةً رياءً وتارةً معَ الصدقِ ؛ إذْ يخشىٰ علىٰ نفسِهِ قساوةَ القلبِ حينَ يبكونَ ولا تدمعُ عينُهُ ، فيتباكىٰ تكلفاً ، وذلكَ محمودٌ .

وعلامةُ الصدقِ فيهِ : أنْ يعرضَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لوْ سمعَ بكاءَهُمْ مِنْ حيثُ لا يرونَهُ . . هلْ كانَ يخافُ علىٰ نفسِهِ القساوةَ فيتباكىٰ أمْ لا ؟ فإنْ لمْ يجدْ ذلكَ عندَ تقديرِ الاختفاءِ عنْ أعينِهِمْ . . فإنَّما خوفُهُ مِنْ أنْ يُقالَ : إنَّهُ قاسي القلبِ ، فينبغي أنْ يتركَ التباكيَ ، قالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تُرِي الناسَ أنَّكَ تخشى اللهَ ليكرموكَ وقلبُكَ فاجرٌ)(١) .

وكذلكَ الصيحةُ والتنفسُ والأنينُ عندَ القرآنِ أوِ الذكرِ أوْ بعضِ مجاري الأحوالِ ؛ تارةً تكونُ مِنَ الصدقِ والحزنِ والخوفِ والندمِ والتأسفِ ، وتارةً تكونُ لمشاهدةِ حزنِ غيرِهِ وقساوةِ قلبِهِ ، فيتكلَّفُ التنفُّسَ والأنينَ ويتحازَنُ ، وذلكَ محمودٌ ، وقدْ تقترنُ بِهِ الرَّغبةُ فيهِ لدلالتِهِ علىٰ أنَّهُ كثيرُ الحزنِ ؛ ليُعرفَ بذلكَ ، فإنْ تجرَّدَتْ هٰذهِ الداعيةُ . . فهيَ الرياءُ ، وإنِ اقترنَتْ بداعيةِ الحزنِ ؛ فإنْ أباها ولمْ يقبلْها وكرهَها . . سلمَ بكاؤُهُ وتباكيهِ ، وإنْ قبلَ ذلكَ وركنَ إليهِ بقلبِهِ . . حبطَ أجرُهُ ، وضاعَ سعيُهُ ، وتعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ بهِ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩٢) .

وقدْ يكونُ أصلُ الأنينِ عنِ الحزنِ ، ولكنْ يمدُّهُ ويزيدُ في رفعِ الصوتِ ، فتلكَ الزيادةُ رياءٌ ، وهوَ محظورٌ ؛ لأنَّها في حكمِ الابتداءِ لمجردِ الرياءِ ، فقدْ يهيجُ مِنَ الخوفِ ما لا يملكُ العبدُ معَهُ نفسَهُ ، ولكنْ يسبقُ خاطرُ الرياءِ فيقبلُهُ ، فيدعو إلىٰ زيادةِ تحزينِ الصوتِ ، أوْ رفعٍ لهُ ، أوْ حفظِ الدمعةِ على الوجهِ حتَّىٰ تُبصرَ بعدَ أنِ استرسلَتْ لخشيةِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ يحفظُ أثرَها على الوجهِ لأجلِ الرياءِ .

وكذلكَ قدْ يسمعُ الذكرَ فتضعفُ قواهُ مِنَ الخوفِ فيسقطُ ، ثمَّ يستحي أنْ يُقالَ : إنَّهُ سقطَ مِنْ غيرِ زوالِ عقلٍ وحالةٍ شديدةٍ ، فيزعقُ ويتواجدُ تكلُّفاً ؛ ليُرىٰ أنَّهُ سقطَ لكونِهِ مغشياً عليهِ ، وقدْ كانَ ابتداءُ السقطةِ عنْ صدقٍ ، وقدْ يزولُ عقلُهُ فيسقطُ ، ولكنْ يفيقُ سريعاً ، فتجزعُ نفسُهُ أنْ يُقالَ : حالتُهُ غيرُ ثابتةٍ ، وإنَّما هيَ كبرقٍ خاطفٍ ، فيستديمُ الزعقةَ والرقصَ ؛ ليُريَ دوامَ حالِهِ ، وكذلكَ قدْ يفيقُ بعدَ الضعفِ ، ولكنْ يزولُ ضعفُهُ سريعاً ، فيجزعُ أنْ يُقالَ : لمْ تكنْ غشيتُهُ صحيحةً ، ولوْ كانَ . . لدامَ ضعفُهُ ، فيستديمُ إظهارَ الضعفِ والأنينِ ، فيتكىءُ علىٰ غيرِهِ ؛ ليُرىٰ أنَّهُ يضعفُ عنِ القيامِ ، ويتمايلُ في المشيِ ، ويقرِّبُ الخُطا ؛ ليظهِرَ أنَّهُ ضعيفٌ عنْ سرعةِ المشيِ .

فهٰذهِ كلُّها مكايدُ الشيطانِ ونزغاتُ النفسِ ، فإذا خطرَتْ . . فعلاجُها : أنْ يتذكَّرَ أنَّ الناسَ لوْ عرفوا نفاقَهُ في الباطنِ ، واطلعوا علىٰ ضميرِهِ . . لمقتوهُ ، وأنَّ اللهَ مطلعٌ علىٰ ضميرِهِ وهوَ لهُ أشدُّ مقتاً ، كما رُويَ عنْ ذي

النونِ أنَّهُ قامَ وزعقَ ، فقامَ معَهُ شيخٌ آخرُ رأىٰ فيهِ أثرَ التكلُّفِ فقالَ : يا شيخُ ؛ ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ، فجلسَ الشيخُ[1] .

وكلُّ ذلكَ مِنْ أعمالِ المنافقينَ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : (تعوَّذوا باللهِ مِنْ خشوعِ النفاقِ)[2] ، وإنَّما خشوعُ النفاقِ أنْ تخشعَ الجوارحُ والقلبُ غيرُ خاشعٍ[3] .

ومِنْ ذلكَ الاستغفارُ والاستعاذةُ باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ عذابِهِ وغضبِهِ ، فإنَّ ذلكَ قدْ يكونُ لخاطرِ خوفٍ وتذكرِ ذنبٍ وتندمٍ عليهِ ، وقدْ يكونُ للمراءاةِ .

فهٰذهِ خواطرُ تردُ على القلبِ متضادّةً مترادفةً متقاربةً ، وهيَ معَ تقاربِها متشابهةٌ ، فراقبْ قلبَكَ في كلِّ ما يخطرُ لكَ ، وانظرْ ما هوَ ؟ ومِنْ أينَ هوَ ؟ فإنْ كانَ للهِ . . فأمضِهِ ، واحذرْ معَ ذلكَ أنْ يكونَ قدْ خفيَ عليكَ شيءٌ مِنَ الرياءِ الذي هوَ كدبيبِ النملِ ، وكنْ علىٰ وجلٍ مِنْ عبادتِكَ أهيَ مقبولةٌ أمْ لا ؛ لخوفِكَ على الإخلاصِ فيها ، واحذرْ أنْ يتجددَ لكَ خاطرُ الركونِ إلىٰ حمدِهِمْ بعدَ الشروعِ بالإخلاصِ ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يكثرُ جداً ، فإذا خطرَ لكَ . . فتفكَّرْ في اطلاعِ اللهِ تعالىٰ عليكَ ومقتِهِ لكَ ، وتذكَّرْ ما قالَهُ أحدُ النفرِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٥٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٣) موقوفاً علىٰ أبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٦٨) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعاً ، وفيه زيادة : قالوا : يا رسول الله ؛ وما خشوع النفاق ؟ قال : « خشوع البدن ونفاق القلب » .

(٣) الرعاية (ص ٣٠٢) .

الثلاثةِ الذينَ حاجُّوا أيوبَ عليهِ السلامُ ؛ إذْ قالَ : (يا أيوبُ ؛ أما علمتَ أنَّ العبدَ تضلُّ عنهُ علانيتُهُ التي كانَ يخادعُ بها عنْ نفسِهِ ، ويُجزىٰ بسريرتِهِ ؟!)[1] ، وقولَ بعضِهِمْ : (أعوذُ بكَ أنْ يرى الناسُ أنِّي أخشاكَ وأنتَ لي ماقتٌ)[2] ، وكانَ مِنْ دعاءِ عليِّ بنِ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ تحسُنَ في لامعةِ العيونِ علانيتي ، وتقبُحَ لكَ فيما أخلو سريرتي ، محافظاً علىٰ رياءِ الناسِ مِنْ نفسي ، ومضيعاً لما أنتَ مطلعٌ عليهِ منِّي ، أُبدي للناسِ أحسنَ أمري ، وأفضي إليكَ بأسوأِ عملي ؛ تقرباً إلى الناسِ بحسناتي ، وفراراً منهُم إليكَ بسيئاتي ، فيحلُّ بي مقتُكَ ، ويجبُ عليَّ غضبُكَ ، أعذْني مِنْ ذلكَ يا ربَّ العالمينَ)[3] .

وقدْ قالَ أحدُ الثلاثةِ نفرٍ لأيوبَ عليهِ السلامُ : (يا أيوبُ ؛ ألمْ تعلمْ أنَّ الذينَ حفظوا علانيتَهُمْ وأضاعوا سرائرَهُمْ عندَ طلبِ الحاجاتِ إلى الرحمـٰنِ تسودُّ وجوهُهُمْ ؟)[4] .

فهـٰذهِ جملُ آفاتِ الرياءِ ، فليراقبِ العبدُ قلبَهُ ليقفَ عليها ، ففي الخبرِ : « إنَّ الرياءَ سبعونَ باباً »[5] ، وقدْ عرفتَ أنَّ بعضَهُ أغمضُ مِنْ بعضٍ ، حتَّىٰ

---

(١) الرعاية (ص ٣٠٣) ، وذكر روايته عن وهب بن منبه .
(٢) الرعاية (ص ٣٠٣) .
(٣) الرعاية (ص ٣٠٣) .
(٤) الرعاية (ص ٣٠٣) .
(٥) نص الحافظ العراقي علىٰ تصحيف كلمة (الربا) إلى (الرياء) في الحديث ، انظر « الإتحاف » (٨/ ٣٢٧) ، ويحتمل عكس هـٰذا في الحديث الذي رواه ابن عدي في =

إنَّ بعضَهُ مثلُ دبيبِ النملِ ، وبعضَهُ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ ، وكيفَ يُدركُ ما هوَ أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ إلا بشدَّةِ التفقُّدِ والمراقبةِ ؟! وليتَهُ أُدركَ بعدَ بذلِ المجهودِ ، فكيفَ يُطمعُ في إدراكِهِ مِنْ غيرِ تفقُّدٍ للقلبِ ، وامتحانٍ للنفسِ ، وتفتيشٍ عنْ خدَعِها ؟! ، نسألُ اللهَ تعالىٰ العافيةَ بمنِّهِ وكرمِهِ وإحسانِهِ .

* * *

= « الكامل » (٦/ ٣٩١) مرفوعاً : « الربا اثنان وسبعون باباً ، أيسر باب فيها أخفىٰ من دبيب الذر على الصفا » ؛ للحديث المتقدم : « للشرك فيكم أخفىٰ من دبيب النمل » الذي رواه الضياء في « المختارة » (٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٢) ، ولحديث ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٢٤٤٤) : « الربا بضع وسبعون باباً ، والشرك مثل ذلك » ، والله أعلم .

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلمْ : أنَّ أولىٰ ما يلزمُ المريدُ قلبَهُ في سائرِ أوقاتِهِ القناعةُ بعلمِ اللهِ في جميعِ طاعاتِهِ ، ولا يقنعُ بعلمِ اللهِ إلا مَنْ لا يخافُ إلا اللهَ ، ولا يرجو إلا اللهَ ، فأمَّا مَنْ خافَ غيرَهُ وارتجاهُ.. اشتهى اطلاعَهُ علىٰ محاسنِ أحوالِهِ .

فإنْ كانَ في هـٰذهِ الرتبةِ.. فليلزمْ قلبَهُ كراهةَ ذلكَ مِنْ جهةِ العقلِ والإيمانِ ؛ لما فيهِ مِنْ خطرِ التعرضِ للمقتِ ، وليراقبْ نفسَهُ عندَ الطاعاتِ العظيمةِ الشاقَّةِ التي لا يقدرُ عليها غيرُهُ ، فإنَّ النفسَ عندَ ذلكَ تكادُ تغلي حرصاً على الإفشاءِ ، وتقولُ : مثلُ هـٰذا العملِ العظيمِ ، أوِ الخوفِ العظيمِ ، أوِ البكاءِ العظيمِ ، لوْ عرفَهُ الخلقُ منكَ.. لسجدوا لكَ ، فما في الخلقِ مَنْ يقدرُ علىٰ مثلِهِ ، فكيفَ ترضىٰ بإخفائِهِ فيجهلَ الناسُ محلَّكَ ، وينكرونَ قدرَكَ ، ويُحرمونَ الاقتداءَ بكَ ؟

ففي مثلِ هـٰذا الأمرِ ينبغي أنْ يثبتَ قدمَهُ ويتذكَّرَ في مقابلةِ عظمِ عملِهِ عظمَ ملكِ الآخرةِ ونعيمِ الجنةِ ، ودوامَها أبدَ الآبادِ ، وعظمَ غضبِ اللهِ ومقتِهِ علىٰ مَنْ طلبَ بطاعتِهِ ثواباً مِنْ عبادِهِ ، ويعلمَ أنَّ إظهارَهُ لغيرِهِ تحبُّبٌ إليهِ وسقوطٌ عندَ اللهِ ، وإحباطٌ للعملِ العظيمِ ، فيقولُ : وكيفَ أبيعُ مثلَ هـٰذا العملِ بحمدِ الخلقِ وهمْ عاجزونَ لا يقدرونَ لي علىٰ رزقٍ ولا أجلٍ ؟!
فيلزِمُ ذلكَ قلبَهُ .

ولا ينبغي أنْ ييئسَ عنهُ فيقولَ : إنَّما يقدرُ على الإخلاصِ الأقوياءُ ، فأمَّا المخلِّطونَ . . فليسَ ذلكَ مِنْ شأنِهِمْ ، فيتركَ المجاهدَةَ في الإخلاصِ ؛ لأنَّ المخلِّطَ إلىٰ ذلك أحوجُ مِنَ المتقي ؛ لأنَّ المتقيَ إنْ فسدَتْ نوافلُهُ . . بقيَتْ فرائضُهُ كاملةً تامَّةً ، والمخلِّطُ لا تخلو فرائضُهُ عنِ النقصانِ والحاجةِ إلى الجبرانِ بالنوافلِ ، فإنْ لمْ تسلمْ . . صارَ مأخوذاً بالفرائضِ وهلكَ بهِ ، فالمخلِّطُ إلى الإخلاصِ أحوجُ .

وقدْ روىٰ تميمٌ الداريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُحاسبُ العبدُ يومَ القيامةِ ، فإنْ نقصَ فرضُهُ . . قيلَ : انظروا هلْ لهُ مِنْ تطوُّعٍ ، فإنْ كانَ لهُ تطوُّعٌ . . أُكملَ بهِ فرضُهُ ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ تطوُّعٌ . . أُخذَ بطرفيهِ فأُلقيَ في النارِ »(١) .

فيأتي المخلِّطُ يومَ القيامةِ وفرضُهُ ناقصٌ ، وعليهِ ذنوبٌ كثيرةٌ ، فاجتهادُهُ في جبرِ الفرائضِ وتكفيرِ السيئاتِ ، ولا يمكنُ ذلكَ إلا بخلوصِ النوافلِ ، وأمَّا المتقي . . فجهدُهُ في زيادةِ الدرجاتِ ، فإنْ حبطَ تطوُّعُهُ . . بقيَ مِنْ حسناتِهِ ما يترجَّحُ على السيئاتِ ؛ فيدخلُ الجنةَ .

فإذاً ؛ ينبغي أنْ يلزمَ قلبَهُ خوفَ اطلاعِ غيرِ اللهِ عليهِ لتصحَّ نوافلُهُ ، ثمَّ يلزمَ قلبَهُ ذلكَ بعدَ الفراغِ ؛ حتَّىٰ لا يتحدثَ بهِ ولا يظهرَهُ ، فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فينبغي أنْ يكونَ وجِلاً مِنْ عملِهِ ، خائفاً أنَّهُ ربَّما دخلَهُ مِنَ الرياءِ

---

(١) رواه أبو داوود (٨٦٦) ، وابن ماجه (١٤٢٦) .

الخفيِّ ما لمْ يقفْ عليهِ ، فيكونَ شاكّاً في قبولِهِ وردِّهِ ، مجوِّزاً أنْ يكونَ اللهُ قدْ أحصىٰ عليهِ مِنْ نيَّتِهِ الخفيَّةِ ما مقتَهُ بها ، وردَّ عملَهُ بسببِها .

ويكونُ هـٰذا الشكُّ والخوفُ في دوامِ عملِهِ وبعدَهُ ، لا في ابتداءِ العقدِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ متيقِّناً في الابتداءِ أنَّهُ مخلصٌ ، ما يريدُ بعملِهِ إلا اللهَ ؛ حتَّىٰ يصحَّ عملُهُ ، فإذا شرعَ ومضَتْ لحظةٌ يمكنُ فيها الغفلةُ والنسيانُ . . كانَ الخوفُ مِنَ الغفلةِ عنْ شائبةٍ خفيةٍ أحبطَتْ عملَهُ مِنْ رياءٍ أوْ عُجبٍ أولىٰ بهِ ، ولكنْ يكونُ رجاؤُهُ أغلبَ مِنْ خوفِهِ ؛ لأنَّهُ استيقنَ أنَّهُ دخلَ بالإخلاصِ وشكَّ في أنَّهُ هلْ أفسدَهُ برياءٍ ، فيكونُ رجاءُ القبولِ أغلبَ ، وبذلكَ تعظمُ لذَّتُهُ في المناجاةِ والطاعاتِ ، فالإخلاصُ يقينٌ والرياءُ شكٌّ ، وخوفُهُ لأجلِ ذلكَ الشكِّ جديرٌ بأنْ يكفِّرَ خاطرَ الرياءِ إنْ كانَ قدْ سبقَ وهوَ غافلٌ عنهُ .

والذي يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بالسعيِ في حوائجِ الناسِ وإفادةِ العلمِ ينبغي أنْ يلزِمَ نفسَهُ رجاءَ الثوابِ علىٰ دخولِ السرورِ علىٰ قلبِ مَنْ قضىٰ حاجتَهُ فقطْ ، ورجاءَ الثوابِ علىٰ عملِ المتعلِّمِ بعلمِهِ فقطْ ، دونَ شكرٍ ومكافأةٍ وحمدٍ وثناءٍ مِنَ المتعلِّمِ والمنعَمِ عليهِ ، فإنَّ ذلكَ يحبطُ الأجرَ ، فمهما توقَّعَ مِنَ المتعلِّمِ مساعدةً في شغلٍ وخدمةٍ ، أوْ مرافقةً في المشيِ في الطريقِ ليستكثرَ باستتباعِهِ ، أوْ تردداً منهُ في حاجةٍ . . فقدْ أخذَ أجرَهُ ؛ فلا ثوابَ لهُ غيرُهُ .

نعمْ ، إنْ لمْ يتوقَّعْ هوَ ولمْ يقصِدْ إلا الثوابَ علىٰ عملِهِ بعلمِهِ ليكونَ لهُ

مثلُ أجرِهِ ، ولكنْ خدمَهُ التلميذُ بنفسِهِ فقبلَ خدمتَهُ . . فنرجو ألا يُحبطَ ذلكَ أجرَهُ إذا كانَ لا ينتظرُهُ ولا يريدُهُ منهُ ، ولا يستبعدُهُ منهُ لوْ قطعَهُ ، ومعَ هـٰذا فقدْ كانَ العلماءُ يحذرونَ ذلكَ ، حتَّىٰ إنَّ بعضَهُمْ وقعَ في بئرٍ ، فجاءَ قومٌ وأدلَوا حبلاً ليرفعوهُ ، فحلفَ عليهِمْ ألا يقفَ معَهُمْ مَنْ قرأَ عليهِ آيةً مِنَ القرآنِ ، أوْ سمعَ منهُ حديثاً ؛ خيفةً مِنْ أنْ يحبطَ أجرُهُ .

وقالَ شقيقٌ البلخيُّ : أهديتُ لسفيانَ الثوريِّ ثوباً ، فردَّهُ عليَّ ، فقلتُ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لستُ أنا ممَّنْ يسمعُ الحديثَ حتَّىٰ تردَّهُ عليَّ ، قالَ : علمتُ ذاكَ ، ولكنْ أخوكَ يسمعُ منِّي الحديثَ ، فأخافُ أنْ يلينَ قلبي لأخيكَ أكثرَ ممَّا يلينُ لغيرِهِ[١] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ سفيانَ ببدرةٍ أو بدرتينِ وكانَ أبوهُ صديقاً لسفيانَ ، وكانَ سفيانُ يأتيهِ كثيراً ، فقالَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ في نفسِكَ مِنْ أبي شيءٌ ؟ فقالَ : يرحمُ اللهُ أباكَ ، كانَ وكانَ ، فأثنىٰ عليهِ ، فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ قدْ عرفتَ كيفَ صارَ إليَّ هـٰذا المالُ ، فأحبُّ أنْ تأخذَ هـٰذهِ تستعينُ بها علىٰ عيالِكَ ، قالَ : فقبلَ سفيانُ ذلكَ ، قالَ : فلمَّا خرجَ . . قالَ لولدِهِ : يا مباركُ[٢] ؛ الحقْهُ فردَّهُ عليَّ ، فرجعَ ، فقالَ : أحبُّ أنْ تأخذَ مالَكَ ، فلمْ يزلْ بهِ حتَّىٰ ردَّهُ عليهِ ، وكأنَّهُ كانَتْ أخوَّتُهُ معَ أبيهِ في اللهِ تعالىٰ ، فكرهَ أنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣) .

(٢) مبارك هـٰذا هو مبارك بن سعيد الثوري أخو سفيان ، وليس هو ولده كما أورده المصنف ، بل هو راوي الخبر كما في « الحلية » (٧/٣) .

يأخذَ ذلكَ ، قالَ ولدُهُ : فلمَّا خرجَ . . لمْ أملكْ نفسي أنْ جئتُ إليهِ فقلتُ : ويلَكَ ؛ أيُّ شيءٍ قلبُكَ هـٰذا ؟ حجارةٌ ؟ عُدَّ أنَّهُ ليسَ لكَ عيالٌ ، أما ترحمُني ؟ أما ترحمُ إخوتَكَ ؟ أما ترحمُ عيالَنا ؟ فأكثرتُ عليهِ ، فقالَ : اللهَ يا مباركُ ، تأكلُها أنتَ هنيئاً مريئاً وأُسألُ عنها أنا ؟ ![1] .

فإذاً ؛ يجبُ على العالمِ أنْ يلزِمَ قلبَهُ طلبَ الثوابِ مِنَ اللهِ تعالىٰ في اهتداءِ الناسِ بهِ فقطْ ، ويجبُ على المتعلِّمِ أنْ يلزِمَ قلبَهُ طلبَ حمدِ اللهِ وثوابِهِ ، ونيلَ المنزلةِ عندَهُ لا عندَ المعلِّمِ وعندَ الخلقِ ، وربَّما يظنُّ أنَّ لهُ أنْ يرائيَ بطاعتِهِ لينالَ عندَ المعلِّمِ رتبةً فيتعلَّمَ منهُ ، وهوَ خطأٌ ؛ لأنَّ إرادتَهُ غيرَ اللهِ بطاعتِهِ خسرانٌ في الحالِ ، والعلمُ ربَّما يفيدُ وربَّما لا يفيدُ ، فكيفَ يخسرُ في الحالِ عملاً نقداً علىٰ توهُّمِ علمٍ ؟! وذلكَ غيرُ جائزٍ ، بلْ ينبغي أنْ يتعلمَ للهِ ؛ ويعبدَ للهِ ، ويخدمَ المعلِّمَ للهِ ؛ لا ليكونَ لهُ في قلبِهِ منزلةٌ وإنْ كانَ يريدُ أنْ يكونَ تعلُّمُهُ طاعةً ؛ فإنَّ العبادَ أُمروا ألا يعبدوا إلا اللهَ ، ولا يريدوا بطاعتِهِمْ غيرَهُ .

وكذلكَ مَنْ يخدمُ أبويهِ لا ينبغي أنْ يخدمَهُما لطلبِ المنزلةِ عندَهُما ، إلا مِنْ حيثُ إنَّ رضا اللهِ في رضا الوالدينِ ، ولا يجوزُ لهُ أنْ يُرائيَ بطاعتِهِ لينالَ بها منزلةً عندَ الوالدينِ ، فإنَّ ذلكَ معصيةٌ في الحالِ ، وسيكشفُ اللهُ عنْ ريائِهِ ، وتسقطُ منزلتُهُ مِنْ قلبِ الوالدينِ أيضاً .

---

(١) الخبر ـ كما أشير ـ رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣) .

وأما الزاهدُ المعتزلُ عنِ الناسِ . . فينبغي لهُ أنْ يلزِمَ قلبَهُ ذكرَ اللهِ والقناعةَ بعلمِهِ ، ولا يخطِرَ بقلبِهِ معرفةَ الناسِ زهدَهُ واستعظامَهُمْ محلَّهُ ؛ فإنَّ ذلكَ يغرسُ الرياءَ في صدرِهِ حتَّىٰ تتيسَّرَ عليهِ العباداتُ في خلوتِهِ ؛ وإنَّما سكونُهُ لمعرفةِ الناسِ باعتزالِهِ واستعظامِهِمْ لمحلِّهِ وهوَ لا يدري أنَّهُ المخفِّفُ للعملِ عليهِ .

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَهُ اللهُ : تعلَّمتُ المعرفةَ مِنْ راهبٍ يُقالُ لهُ : سمعانُ ، دخلتُ عليهِ في صومعتِهِ ، فقلتُ : يا سمعانُ ؛ منذُ كَمْ أنتَ في صومعتِكَ ؟ قالَ : منذُ سبعينَ سنةً ، قلتُ : فما طعامُكَ ؟ قالَ : يا حنيفيُّ ؛ وما دعاكَ إلىٰ هٰذا ؟ قلتُ : أحببتُ أنْ أعلمَ ، قالَ : في كلِّ ليلةٍ حمِّصةٌ ، قلتُ : فما الذي يهيجُ مِنْ قلبِكَ حتَّىٰ تكفيكَ هٰذهِ الحمِّصةُ ؟ قالَ : ترى الديرَ الذي بحذائِكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : إنَّهمْ يأتوني في كلِّ سنةٍ يوماً واحداً فيزيِّنونَ صومعتي ، ويطوفونَ حولَها ويعظمونني ، فكلَّما تثاقلَتْ نفسي عنِ العبادةِ . . ذكَّرتُها عِزَّ تلكَ الساعةِ ، فأنَا أحتملُ جهدَ سنةٍ لعزِّ ساعةٍ ، فاحتملْ يا حنيفيُّ جهدَ ساعةٍ لعزِّ الأبدِ ، فوقرَ في قلبي المعرفةُ ، فقالَ : حسبُكَ أوْ أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَ : انزلْ عنِ الصومعةِ ، فنزلتُ ، فأدلىٰ لي ركوةً فيها عشرونَ حمِّصةً ، فقالَ لي : ادخلِ الديرَ فقدْ رأَوا ما أدليتُ إليكَ ، فلمَّا دخلتُ الديرَ . . اجتمعَتْ عليَّ النصارىٰ ، فقالوا : يا حنيفيُّ ؛ ما الذي أدلىٰ إليكَ الشيخُ ؟ قلتُ : مِنْ قوتِهِ ، قالوا : وما تصنعُ بهِ ؟ نحنُ أحقُّ بهِ ، ثمَّ قالوا : ساومْ ، قلتُ :

عشرونَ ديناراً ، فأعطَوني عشرينَ ديناراً ، فرجعتُ إلى الشيخِ ، فقالَ : يا حنيفيُّ ؛ ما الذي صنعتَ ؟ قلتُ : بعتُهُ منهُمْ ، قالَ : بكمْ ؟ قلتُ : بعشرينَ ديناراً ، قالَ : أخطأتَ ، لوْ ساومتَهُمْ بعشرينَ ألفَ دينارٍ . . لأعطَوكَ ، هـٰذا عزُّ مَنْ لا تعبدُهُ ، فانظرْ كيفَ يكونُ عزُّ مَنْ تعبدُهُ ، يا حنيفيُّ أقبلْ علىٰ ربِّكَ ، ودعِ الذهابَ والجيئةَ[1] .

والمقصودُ : أنَّ استشعارَ النفسِ عزَّ العظمةِ في القلوبِ يكونُ باعثاً في الخلوةِ وقدْ لا يشعرُ العبدُ بهِ ، فينبغي أنْ يلزِمَ نفسَهُ الحذرَ مِنهُ ، **وعلامةُ سلامتِهِ** : أنْ يكونَ الخلقُ عندَهُ والبهائمُ بمثابةٍ واحدةٍ ، فلوْ تغيَّروا عنِ اعتقادِهِمْ لهُ . . لمْ يجزعْ ، ولمْ يضقْ بهِ ذرعاً إلا كراهةً ضعيفةً إنْ وجدَها في قلبِهِ فيردُّها في الحالِ بعقلِهِ وإيمانِهِ ، وأنَّهُ لوْ كانَ في عبادةٍ فاطلعَ الناسُ كلُّهُمْ عليهِ . . لمْ يزدْهُ ذلكَ خشوعاً ، ولمْ يدخلْهُ سرورٌ بسببِ اطلاعِهِمْ عليهِ ، فإنْ دخلَ سرورٌ يسيرٌ . . فهوَ دليلُ ضعفِهِ ، ولكنْ إذا قدرَ علىٰ ردِّهِ بكراهةِ العقلِ والإيمانِ ، وبادرَ إلىٰ ذلكَ ، ولمْ يقبلِ السرورَ بالركونِ إليهِ . . فيُرجىٰ لهُ ألا يخيبَ سعيُهُ إلا أنْ يزيدَ عندَ مشاهدتِهِمْ في الخشوعِ والانقباضِ ؛ كي لا ينبسطوا إليهِ ، فذلكَ لا بأسَ بهِ ، ولكنْ فيهِ غرورٌ ؛ إذِ النفسُ قدْ تكونُ شهوتُها الخفيةُ إظهارَ الخشوعِ ، وتتعلَّلُ بطلبِ الانقباضِ ، فليطالبْها في دعواها قصدَ الانقباضِ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، وهوَ أنَّهُ لوْ علمَ أنَّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩) ، واسم الراهب عنده أبو سمعان .

انقباضَهُمْ عنهُ إنَّما يحصلُ بأنْ يعدوَ سريعاً أوْ يأكلَ أوْ يضحكَ كثيراً . . فتسمحُ نفسُهُ بذلكَ ؟ فإذا لمْ تسمحْ بهِ وسمحَتْ بالعبادةِ . . فيشبهُ أنْ يكونَ مرادُها المنزلةَ عندَهُمْ .

ولا ينجو مِن ذلكَ إلا مَنْ تقرَّرَ في قلبِهِ أنَّهُ ليسَ في الوجودِ أحدٌ سوى اللهِ ، فيعملُ عملَ مَنْ لوْ كانَ علىٰ وجهِ الأرضِ وحدَهُ . . لكانَ يعملُهُ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الخلقِ إلا خطراتٍ ضعيفةً لا يشقُّ عليهِ إزالتُها ، فإذا كانَ كذلكَ . . لمْ يتغيَّرْ بمشاهدةِ الخلقِ ، **ومِنْ علامةِ الصدقِ فيهِ** : أنَّهُ لوْ كانَ لهُ صاحبانِ ؛ أحدُهما غنيٌّ والآخرُ فقيرٌ . . فلا يجدُ عندَ إقبالِ الغنيِّ زيادةَ هِزَّةٍ في نفسِهِ لإكرامِهِ إلا إذا كانَ في الغنيِّ زيادةُ علمٍ أوْ زيادةُ ورعٍ ، فيكونُ مكرِماً لهُ بذلكَ الوصفِ لا بالغنىٰ ، فمَنْ كانَ استرواحُهُ إلىٰ مشاهدةِ الأغنياءِ أكثرَ . . فهوَ مراءٍ أوْ طمَّاعٌ ، وإلا . . فالنظرُ إلى الفقراءِ يزيدُ في الرغبةِ إلى الآخرةِ ، ويحبِّبُ إلى القلبِ المسكنةَ ، والنظرُ إلى الأغنياءِ بخلافِهِ ، فكيفَ يستروحُ إلى الغنيِّ أكثرَ ممَّا يستروحُ إلى الفقيرِ ؟!

وقدْ حُكيَ أنَّهُ لمْ يُرَ الأغنياءُ في مجلسٍ أذلَّ منهُمْ في مجلسِ سفيانَ الثوريِّ ، كانَ يجلسُهُمْ وراءَ الصفِّ ويقدِّمُ الفقراءَ ، حتَّىٰ كانوا يتمنَّونَ أنَّهُمْ فقراءُ في مجلسِهِ(١) .

نعمْ ، لكَ زيادةُ إكرامٍ للغنيِّ إذا كانَ أقربَ إليكَ أوْ كانَ بينكَ وبينَهُ حقٌّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٥) .

وصداقةٌ سابقةٌ ، ولكنْ يكونُ بحيثُ لوْ وُجدَتْ تلكَ العلاقةُ في فقيرٍ . . لكنتَ لا تقدِّمُ الغنيَّ عليهِ في إكرامٍ وتوقيرٍ ألبتةَ ؛ فإنَّ الفقيرَ أكرمُ على اللهِ مِنَ الغنيِّ ، فإيثارُكَ لهُ لا يكونُ إلا طمعاً في غناهُ ورياءً لهُ .

ثمَّ إذا سوَّيتَ بينَهُما في المجالسةِ . . فيُخشىٰ عليكَ أنْ تظهرَ الحكمةَ والخشوعَ للغنيِّ أكثرَ ممَّا تظهرُهُ للفقيرِ ، وإنَّما ذلكَ لرياءٍ خفيٍّ أوْ طمعٍ خفيٍّ ؛ كما قالَ ابنُ السمَّاكِ لجاريةٍ لهُ : ما لي إذا أتيتُ بغدادَ فُتِحَتْ ليَ الحكمةُ ؟ قالَتْ : الطمعُ يشحذُ لسانَكَ[1] ، وقدْ صدقَتْ ؛ فإنَّ اللسانَ ينطلقُ عندَ الغنيِّ بما لا ينطلقُ بهِ عندَ الفقيرِ ، وكذلكَ يحضرُ مِنَ الخشوعِ عندَهُ ما لا يحضرُ عندَ الفقيرِ .

ومكائدُ النفسِ وخفاياها في هٰذا الفنِّ لا تنحصرُ ، ولا ينجيكَ منها إلا أنْ تخرجَ ما سوى اللهِ مِنْ قلبِكَ ، وتتجرَّدَ بالشفقةِ علىٰ نفسِكَ بقيةَ عمرِكَ ، ولا ترضىٰ لها بالنارِ بسببِ شهواتٍ منغصةٍ في أيامٍ متقاربةٍ منقضيةٍ ، وتكونَ في الدنيا كملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا قدْ أمكنَتْهُ الشهواتُ وساعدَتْهُ اللذاتُ ، ولكنْ في بدنِهِ سقمٌ ، وهوَ يخافُ الهلاكَ علىٰ نفسِهِ في كلِّ ساعةٍ لوِ اتسعَ في الشهواتِ ، وعلمَ أنَّهُ لوِ احتمىٰ وجاهدَ نفسَهُ . . عاشَ ودامَ ملكُهُ ، فلمَّا عرفَ ذلكَ . . جالسَ الأطباءَ ، وحارفَ الصيادلةَ[2] ، وعوَّدَ نفسَهُ شربَ

---

(١) الرعاية (ص ٣٠٦) .

(٢) حارف : مال ونادم .

الأدويةِ المرَّةِ ، فصبرَ على بشاعتِها ، وهجرَ جميعَ اللذاتِ ، وصبرَ على مفارقتِها ، فبدنُهُ كلَّ يومٍ يزدادُ نحولاً لقلَّةِ أكلِهِ ، ولكنَّ سقمَهُ كلَّ يومٍ يزدادُ نقصاناً ؛ لشدَّةِ احتمائِهِ ، فمهما نازعَتْهُ نفسُهُ إلى شهوةٍ . . تفكَّرَ في توالي الآلامِ والأوجاعِ عليهِ ، وأداءِ ذلكَ إلى الموتِ المفرِّقِ بينَهُ وبينَ مملكتِهِ ، الموجبِ لشماتةِ أعدائِهِ بهِ ، ومهما اشتدَّ عليهِ شربُ دواءٍ . . تفكَّرَ فيما يستفيدُهُ منهُ مِنَ الشفاءِ الذي هوَ سببُ التمتُّعِ بملكِهِ ونعيمِهِ ، في عيشٍ هنيءٍ ، وبدنٍ صحيحٍ ، وقلبٍ رخيٍّ ، وأمرٍ نافذٍ ، فتخفُّ عليهِ مهاجرةُ اللذاتِ ، ومصابرةُ المكروهاتِ .

فكذلكَ المؤمنُ المريدُ لملكِ الآخرةِ احتمى عنْ كلِّ مهلكٍ لهُ في آخرتِهِ ، وهيَ لذاتُ الدنيا وزهرتُها ، فاجتزأَ منها بالقليلِ ، واختارَ النحولَ والذبولَ والوحشةَ والحزنَ والخوفَ ، وتركَ المؤانسةِ بالخلقِ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يحلَّ عليهِ غضبُ اللهِ فيهلكَ ، ورجاءَ أنْ ينجوَ مِنْ عذابِهِ ، فخفَّ ذلكَ كلُّهُ عليهِ عندَ شدَّةِ يقينِهِ وإيمانِهِ بعاقبةِ أمرِهِ ، وبما أُعدَّ لهُ مِنَ النعيمِ المقيمِ في رضوانِ اللهِ أبدَ الآبادِ ، ثمَّ علمَ أنَّ اللهَ كريمٌ رحيمٌ ، لمْ يزلْ لعبادِهِ المريدينَ لمرضاتِهِ عوناً ، وبهِمْ رؤوفاً ، وعليهِمْ عطوفاً ، ولوْ شاءَ . . لأغناهُمْ عنِ التعبِ والنصبِ ، ولكنْ أرادَ أنْ يبلوَهُمْ ، ويعرفَ صدقَ إرادتِهِمْ ؛ حكمةً منهُ وعدلاً .

ثمَّ إذا تحمَّلَ التعبَ في بدايتِهِ . . أقبلَ اللهُ عليهِ بالمعونةِ والتيسيرِ ، وحطَّ عنهُ الأعباءَ ، وسهَّلَ عليهِ الصبرَ ، وحبَّبَ إليهِ الطاعةَ ، ورزقَهُ فيها مِنْ لذَّةِ

المناجاةِ ما يلهيهِ عنْ سائرِ اللذاتِ ، ويقوِّيهِ علىٰ إماتةِ الشهواتِ ، ووليَ سياستَهُ وتقويتَهُ ، وأمدَّهُ بمعونتِهِ ، فإنَّ الكريمَ لا يضيِّعُ سعيَ الراجي ، ولا يخيِّبُ أملَ المحبِّ ، وهوَ الذي يقولُ : « مَنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً . . تقرَّبتُ إليهِ ذراعاً »(١) ، ويقولُ تعالىٰ : « لقدْ طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وإنِّي إلىٰ لقائِهِمْ أشدُّ شوقاً »(٢) .

فليظهرِ العبدُ في البدايةِ جدَّهُ وصدقَهُ وإخلاصَهُ ، فلا يعوزُهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ على القربِ ما هوَ اللائقُ بجودِهِ وكرمِهِ ، ورأفتِهِ ورحمتِهِ .

* * *

تمّ كتاب ذمّ الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله ربّ العالمين

والصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

يتلوه كتاب ذمّ الكبر والعجب

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٣) من كلام سهل بن عبد الله يحكيه حديثاً قدسياً ، والمقدسي في « الترغيب في الدعاء » (ص٥٣) من كلام أحمد بن مخلد الخراساني مثله ، وقد ذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

كتاب
ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذمّ الكبر والعجب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الخالقِ البارئِ المصوِّرِ ، العزيزِ الجبَّارِ المتكبِّرِ ، العليِّ الذي لا يضعُهُ عنْ مجدِهِ واضعٌ ، الجبَّارِ الذي كلُّ جبَّارٍ لهُ ذليلٌ خاضعٌ ، وكلُّ متكبِّرٍ في جنابِ عزِّهِ مستكينٌ متواضعٌ ؛ فهوَ القهَّارُ الذي لا يدفعُهُ عنْ مرادِهِ دافعٌ ، الغنيُّ الذي ليسَ لهُ في ملكِهِ شريكٌ ولا منازعٌ ، القادرُ الذي بهرَ أبصارَ الخلائقِ جلالُهُ وبهاؤُهُ ، وقهرَ العرشَ المجيدَ استواؤُهُ واستعلاؤُهُ واستيلاؤُهُ ، وحصرَ ألسنَ الأنبياءِ وصفُهُ وثناؤُهُ[1] ، وارتفعَ عنْ حدِّ قدرتِهِمْ إحصاؤُهُ واستقصاؤُهُ ، فاعترفَ بالعجزِ عنْ وصفِ كُنْهِ جلالِهِ ملائكتُهُ وأنبياؤُهُ ، وكسرَ ظهورَ الأكاسرةِ عزُّهُ وعلاؤُهُ ، وقصرَ أيديَ القياصرةِ عظمتُهُ وكبرياؤُهُ ، فالعظمةُ إزارُهُ ، والكبرياءُ رداؤُهُ ، ومَنْ نازعَهُ فيهِما . قصمَهُ بداءِ الموتِ فأعجزَهُ دواؤُهُ ، جلَّ جلالُهُ وتقدَّسَتْ أسماؤُهُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ الذي أُنزلَ معَهُ النورُ المنتشرُ ضياؤُهُ ، حتَّىٰ أشرقَتْ بنورِهِ أكنافُ العالمِ وأرجاؤُهُ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ هُمْ أحبَّاءُ اللهِ وأولياؤُهُ ، وخيرتُهُ وأصفياؤُهُ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

---

(١) حصر هنا : من الحَصَر ، والمراد عجز العبارة عن الإحاطة بكنه الثناء عليه سبحانه .

أما بعد :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ؛ فمَنْ نازعَني فيهِما . . قصمتُهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[2] . فالكبرُ والعجبُ داءانِ مهلكانِ ، والمتكبِّرُ والمعجبُ سقيمانِ مريضانِ ، وهما عندَ اللهِ ممقوتانِ بغيضانِ .

وإذا كانَ القصدُ في هـٰذا الربعِ مِنْ كتابِ « إحياءِ علومِ الدينِ » شرحَ المهلكاتِ . . وجبَ إيضاحُ الكبْرِ والعجْبِ ؛ فإنَّهُما مِنْ قبائحِ المردياتِ ، ونحنُ نستقصي بيانَهُما مِنَ الكتابِ في شطرينِ : شطرٌ في الكبرِ ، وشطرٌ في العجبِ .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

الشَّطرُ الأوّلُ مِنَ الكِتَاب
في الكبر

وفيهِ بيانُ ذمِّ الكبرِ ، وبيانُ ذمِّ الاختيالِ ، وبيانُ فضيلةِ التواضعِ ، وبيانُ حقيقةِ الكبْرِ وآفتِهِ ، وبيانُ مَنْ يُتكبَّرُ عليهِ ، ودرجاتُ الكبْرِ ، وبيانُ ما بهِ التكبرُ ، وبيانُ البواعثِ على التكبُّرِ ، وبيانُ أخلاقِ المتواضعينَ وما فيهِ يظهرُ الكبرُ ، وبيانُ علاجِ الكبرِ ، وبيانُ امتحانِ النفسِ في خُلُقِ الكبرِ ، وبيانُ المحمودِ مِنْ خُلُقِ التواضعِ والمذمومِ مِنهُ .

بيان ذمّ الكبر

قدْ ذمَّ اللهُ تعالى الكبرَ في مواضعَ مِنْ كتابِهِ ، وذمَّ كلَّ جبَّارٍ متكبِّرٍ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ . **وذمُّ الكبْرِ في القرآنِ كثيرٌ .**

❁ ❁ ❁

وأمّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبْرٍ ، ولا يدخلُ النارَ رجلٌ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ إيمانٍ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ؛ فمَنْ نازعَني واحداً منهُما . . ألقيتُهُ في جهنَّمَ ولا أبالي »(٢) .

وعنْ أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ قالَ : التقىٰ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وعبدُ اللهِ بنُ عمرٍو على المروةِ فتواقفا ، فمضى ابنُ عمرٍو وأقامَ ابنُ عمرَ يبكي ، فقالوا : ما يبكيكَ يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؟ قالَ : هـٰذا ـ يعني :

---

(١) رواه مسلم (٩١/١٤٨) ، والترمذي (١٩٩٨) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) .

عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو ـ زعَمَ أنَّهُ سمعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ مِنْ كبرٍ . . أكبَّهُ اللهُ في النارِ علىٰ وجهِهِ »[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يزالُ الرجلُ يذهبُ بنفسِهِ حتَّىٰ يُكتبَ في الجبَّارينَ ، فيصيبَهُ ما أصابَهُمْ مِنَ العذابِ »[2] .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ يوماً للطيرِ والإنسِ والجنِّ والبهائمِ : اخرجوا ، فخرجوا في مئتي ألفٍ مِنَ الإنسِ ، ومئتي ألفٍ مِنَ الجنِّ ، فرُفِعَ حتَّىٰ سمعَ زَجَلَ الملائكةِ بالتسبيحِ في السماواتِ ، ثمَّ خُفِضَ حتَّىٰ مسَّتْ قدماهُ البحرَ ، فسمعَ صوتاً : لوْ كانَ في قلبِ صاحبِكُمْ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبرٍ . . لخسفتُ بهِ أبعدَ ممَّا رفعتُهُ[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يخرجُ مِنَ النارِ عُنُقٌ لهُ عينانِ تبصرانِ ، وأذنانِ تسمعانِ ، ولسانٌ ينطقُ ، يقولُ : وُكِّلتُ بثلاثةٍ ؛ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ ، وبكلِّ مَنْ دعا معَ اللهِ إلـٰهاً آخرَ ، وبالمصوِّرينَ »[4] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢١٥) .
(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٨) بتمامه .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٩٩) .
(٤) رواه الترمذي (٢٥٧٤) ، **والعنق هنا** : طائفة وجانب من النار ، فهو وصف لنار جهنم كما ذكره الإمام ابن العربي في « عارضة الأحوذي » (١٠/ ٤٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنَّةَ بخيلٌ ولا جبارٌ ولا سيِّءُ الملكَةِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحاجَّتِ الجنَّةُ والنارُ ؛ فقالَتِ النارُ : أُوثِرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ ، وقالَتِ الجنَّةُ : ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ الناسِ وسقَّاطُهُمْ وعجزتُهُمْ ؟ فقالَ اللهُ تعالىٰ للجنَّةِ : إنَّما أنتِ رحمتي ، أرحمُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي ، وقالَ للنَّارِ : إنَّما أنتِ عذابي ، أعذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عبادي ، ولكلِّ واحدةٍ منكُما ملؤُها »[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واعتدىٰ ونسيَ الجبَّارَ الأعلىٰ ، بئسَ العبدُ عبدٌ تجبَّرَ واختالَ ونسيَ الكبيرَ المتعالِ ، بئسَ العبدُ عبدٌ غفلَ وسها ولها ونسيَ المقابرَ والبلىٰ ، بئسَ العبدُ عبدٌ عتا وبغىٰ ونسيَ المُبتدأَ والمُنتهىٰ »[٣] .

وعنْ ثابتٍ أنَّهُ قالَ : بلغَنا أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أعظمَ كبْرَ فلانٍ ! فقالَ : « أليسَ بعدَهُ الموتُ ؟! »[٤] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١) ، والخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٣٦١-٣٦٢) ، وفيه : (خائن) بدل (جبار) .
(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٨) بتقديم وتأخير وزيادة .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٥) كما أورده المصنف مرسلاً .

نوحاً عليهِ السلامُ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ. . دعا ابنيهِ وقالَ : إنِّي آمرُكُما باثنتينِ وأنهاكُما عنِ اثنتينِ ؛ أنهاكُما عنِ الشركِ والكبرِ ، وآمرُكُما بلا إلـهَ إلاَّ اللهُ ؛ فإنَّ السماواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ لوْ وُضِعَتْ في كِفَّةِ الميزانِ ووُضِعَتْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ في الكِفَّةِ الأخرىٰ. . كانَتْ أرجحَ منهُما ، ولوْ أنَّ السماواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ كانتا حلقةً فوُضِعَتْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ عليها. . لقصمَتْها ، وآمرُكُما بسبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ؛ فإنَّها صلاةُ كلِّ شيءٍ ، وبها يُرزقُ كلُّ شيءٍ »[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لمَنْ علَّمَهُ اللهُ كتابَهُ ثمَّ لمْ يمُتْ جبَّاراً)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ النارِ كلُّ جَعْظَرِيٍّ جوَّاظٍ مستكبرٍ جمَّاعٍ منَّاعٍ ، وأهلُ الجنةِ الضعفاءُ المغلَّبونَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّكُمْ إلينا وأقربَكُمْ منَّا في الآخرةِ. . أحاسنُكُمْ أخلاقاً ، وإنَّ أبغضَكُمْ إلينا وأبعدَكُمْ منَّا. . الثرثارونَ المتشدِّقونَ المتفيهقونَ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ علمنا الثرثارونَ والمتشدِّقونَ ، فما المتفيهقونَ ؟ قال : « المتكبِّرونَ »[4] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٦) واللفظ له .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٠٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢١٤) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٠) ، **والمغلبون** : الذين يُغلبون كثيراً .
(٤) رواه الترمذي (٢٠١٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ المتكبِّرونَ يومَ القيامةِ ذرّاً في مثلِ صورِ الرِّجالِ ، يعلوهُمْ كلُّ شيءٍ مِنَ الصَّغارِ ، ثمَّ يُساقونَ إلىٰ سجنٍ في جهنَّمَ يُقالُ لهُ : بُولَسُ ، تعلوهُمْ نارُ الأنيارِ ، يُسقونَ مِنْ طينِ الخبالِ عصارةِ أهلِ النارِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الجبَّارونَ والمتكبِّرونَ يومَ القيامةِ في صُوَرِ الذَّرِّ يطؤُهُمُ الناسُ لهوانِهِمْ على اللهِ تعالىٰ »[2] .

وعنْ محمدِ بنِ واسعٍ قالَ : دخلتُ علىٰ بلالِ بنِ أبي بُردةَ ، فقلتُ لهُ : يا بلالُ ؛ إنَّ أباكَ حدَّثني عنْ أبيهِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ في جهنَّمَ وادياً يُقالُ لهُ : هَبْهَبُ ، حقٌّ على اللهِ أنْ يسكنَهُ كلَّ جبَّارٍ » فإيَّاكَ يا بلالُ أنْ تكونَ ممَّنْ يسكنُهُ[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في النارِ قصراً يُجعلُ فيهِ المتكبرونَ ويُطبقُ عليهِمْ »[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٣) ، **والأنيار** : جمع نار ؛ أي : نار النيران .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٤) .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٢٨٥٨) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٧٢٤٩) .

(٤) كذا رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٧) من قول محمد بن المنكدر ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « إن =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهُمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ نفخةِ الكبرياءِ »[(١)] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ فارقَ روحُهُ جسدَهُ وهوَ بريءٌ مِن ثلاثةٍ . . دخلَ الجنةَ ؛ الكبرُ والغلولُ والدَّينُ »[(٢)] .

❁ ❁ ❁

الآثارُ :

قالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تحقرنَّ أحداً مِنَ المسلمينَ ؛ فإنَّ صغيرَ المسلمينَ عندَ اللهِ كبيرٌ)[(٣)] .

وقالَ وهبٌ : (لمَّا خلقَ اللهُ تعالىٰ جنةَ عدنٍ . . نظرَ إليها فقالَ : أنتِ حرامٌ علىٰ كلِّ متكبِّرٍ) .

= المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توابيت من نار فيقفل عليهم » ، ورواه بنحوه (٧٨٣٨) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١) رواه أبو داوود (٧٦٤) ، ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » ، قال ـ عمرو بن مرة ، أحد الرواة ـ : ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه المُوْتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٠٧) : « ونفخه الكبرياء » .

(٢) رواه الترمذي (١٥٧٢) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٧١١) ، وابن ماجه (٢٤١٢) .

(٣) كذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٨١٣) من حديثه رضي الله عنه .

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يجلسُ معَ مصعبِ بنِ الزبيرِ علىٰ سريرِهِ ، فجاءَ يوماً ومصعبٌ مادٌّ رجليهِ ، فلمْ يقبضْهُما وقعدَ الأحنفُ فزحمَهُ بعضَ الزحمةِ ، فرأىٰ أثرَ ذلكَ في وجهِهِ ، فقالَ : عجباً لابنِ آدمَ يتكبَّرُ وقدْ خرجَ مِنْ مجرى البولِ مرّتينِ[1] .

وقالَ الحسنُ : (العجبُ مِنِ ابنِ آدمَ ! يغسلُ الخُرْءَ بيدِهِ كلَّ يومٍ مرةً أَوْ مرّتينِ ثمَّ يتكبَّرُ يعارضُ جبَّارَ السماواتِ)[2] .

وقدْ قيلَ في ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ : هوَ سبيلُ الغائطِ والبولِ[3] .

وقالَ محمدُ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُمْ : (ما دخلَ قلبَ امرىءٍ شيءٌ مِنَ الكبْرِ قطُّ إلا نقصَ مِنْ عقلِهِ بقدْرِ ما دخلَ مِنْ ذلكَ ، قلَّ أو كثُرَ)[4] .

وسُئِلَ سلمانُ عنِ السيئةِ التي لا تنفعُ معها حسنةٌ ، فقالَ : الكبرُ[5] .

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ على المنبرِ : (إنَّ للشيطانِ مصاليَ وفخوخاً ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢١٢) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٢٩) .

وإنَّ مِنْ مصالي الشيطانِ وفخوخِهِ البطرَ بأنعمِ اللهِ ، والفخرَ بإعطاءِ اللهِ ، والكبرَ علىٰ عبادِ اللهِ ، واتباعَ الهوىٰ في غيرِ ذاتِ اللهِ)[1] ، نسألُ اللهَ تعالىٰ العفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرةِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٣) .

بيان ذمّ الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجرّ الثياب

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ رجلٍ يجرُّ إزارَهُ بطراً »[(١)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَما رجلٌ يتبخترُ في برْديهِ قدْ أعجبَتْهُ نفسُهُ . . إذْ خسفَ اللهُ بهِ الأرضَ ، فهوَ يتجلجلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »[(٢)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جرَّ ثوبَهُ خيلاءَ . . لا ينظرُ اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ »[(٣)] .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : دخلتُ على ابنِ عمرَ ، فمرَّ بهِ عبدُ اللهِ بنُ واقدٍ وعليهِ ثوبٌ جديدٌ ، فسمعتُهُ يقولُ : أيْ بُنيَّ ؛ ارفعْ إزارَكَ ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « لا ينظرُ اللهُ إلىٰ مَنْ جرَّ إزارَهُ خيلاءَ »[(٤)] .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصقَ يوماً في كفِّهِ ، ووضعَ إصبعَهُ عليهِ وقالَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : ابنَ آدمَ ؛ أتعجزُني وقدْ خلقتُكَ مِنْ

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٨) ، ومسلم (٢٠٨٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٢) واللفظ له .

(٢) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥) ، ومسلم (٢٠٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٩) .

مثلِ هٰذهِ ؟! حتَّىٰ إذا سوَّيتُكَ وعدَلتُكَ . . مشيتَ بينَ بُردَينِ وللأرضِ منكَ وئيدٌ ! جمعتَ ومنعتَ ، حتَّىٰ إذا بلغَتِ التَّراقيَ . . قلتَ : أتصدَّقُ ! وأنَّىٰ أَوانُ الصدقةِ ؟! »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مشتْ أمَّتي المُطَيطاءَ ، وخدمَتْهُمْ فارسُ والرومُ . . سلَّطَ اللهُ بعضَهُمْ علىٰ بعضٍ »[2] ، قالَ ابنُ الأعرابيِّ : (هيَ مِشيَةٌ فيها اختيالٌ) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تعظَّمَ في نفسِهِ واختالَ في مِشيتِهِ . . لقيَ اللهَ تعالىٰ وهو عليهِ غضبانُ »[3] .

***

الآثارُ :

عنْ أبي بكرٍ الهذليِّ قالَ : بينَما نحنُ معَ الحسنِ إذْ مرَّ علينا ابنُ الأهتمِ يريدُ المقصورةَ ، وعليهِ جِبابُ خَزٍّ قدْ نضَّدَ بعضَها فوقَ بعضٍ علىٰ ساقِهِ ، وانفرجَ عنها قباؤُهُ ، وهوَ يمشي يتبخترُ ؛ إذْ نظرَ إليهِ الحسنُ نظرةً فقالَ : أفٍّ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٠٧) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٥) واللفظ له ، **والوئيد** : شدة الوطء على الأرض ، يسمع كالدوي من بعد .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٦١) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٩) مع قول ابن الأعرابي الآتي .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١١٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٩) .

أفٍّ ؛ شامخٌ بأنفِهِ ، ثاني عطفِهِ ، مصعِّرٌ خدَّهُ ، ينظرُ في عطفيهِ ! أيْ حُميِّقُ ؛ أينَ تنظرُ في عطفيكَ ؟ في نعمٍ غيرِ مشكورةٍ ولا مذكورةٍ ، غيرِ المأخوذِ بأمرِ اللهِ فيها ، ولا المؤدَّىٰ حقُّ اللهِ منها ؟ واللهِ ؛ أنْ يمشيَ أحدُهُمْ طبيعتَهُ أنْ يتخلَّجَ تخلُّجَ المجنونِ ، في كلِّ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ للهِ نعمةٌ وللشيطانِ بهِ لعنةٌ ، فسمعَ ابنُ الأهتمِ ، فرجعَ يعتذرُ إليهِ ، فقالَ : لا تعتذرْ إليَّ ، وتبْ إلىٰ ربِّكَ ، أما سمعتَ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ ؟!(١) .

ومرَّ بالحسنِ شابٌّ عليهِ بزَّةٌ لهُ حسنةٌ ، فدعاهُ فقالَ : (ابنُ آدمَ معجبٌ بشبابِهِ ، معجبٌ بجمالِهِ ؛ كأنَّ القبرَ قدْ وارىٰ بدنَكَ ، وكأنَّكَ قدْ لاقيتَ عملَكَ ، ويحَكَ ! داوِ قلبَكَ ؛ فإنَّ حاجةَ اللهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهِمْ)(٢) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ حجَّ قبلَ أنْ يُستخلَفَ ، فنظرَ إليهِ طاووسٌ وهوَ يختالُ في مشيتِهِ فغمزَ جنبَهُ بإصبعِهِ وقالَ : ليسَتْ هـٰذهِ مشيةَ مَنْ في بطنِهِ خُرْءٌ ، فقالَ عمرُ كالمعتذرِ : يا عمُّ ؛ لقدْ ضُرِبَ كلُّ عضوٍ منِّي علىٰ هـٰذهِ المِشيةِ حتَّىٰ تعلَّمتُها(٣) .

ورأىٰ محمدُ بنُ واسعٍ ولدَهُ يختالُ ، فدعاهُ وقالَ : (أتدري مَنْ أنتَ ؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٣٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .

أمَّا أمُّكَ . . فاشتريتُها بمئتي درهمٍ ، وأمَّا أبوكَ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلَهُ)[1] .

ورأى ابنُ عمرَ رجلاً يجرُّ إزارَهُ فقالَ : (إنَّ للشيطانِ إخواناً) ، كرَّرَها مرتينِ أوْ ثلاثاً[2] .

ويُروىٰ أنَّ مطرِّفَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ رأى المهلَّبَ وهوَ يتبختَرُ في جُبَّةِ خزٍّ ، فقالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ هـٰذهِ مشيةٌ يبغضُها اللهُ ورسولُهُ ، فقالَ لهُ المهلبُ : أمَا تعرفُني ؟ فقالَ : بلىٰ أعرفُكَ ، أوَّلُكَ نطفةٌ مذِرةٌ ، وآخرُكَ جيفةٌ قذرةٌ ، وأنتَ بينَ ذلكَ تحملُ العَذِرَةَ ، فمضى المهلبُ وتركَ مشيتَهُ تلكَ[3] .

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ أيْ : يتبخترُ[4] .

وإذْ ذكرنا ذمَّ الكبرِ والاختيالِ . . فلنذكرْ فضيلةَ التواضعِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٤) ، وصاحب الوعظ هو مالك بن دينار فيه لا مطرف .

(٤) رواه الخرائطي في « مساوئ الأخلاق » (٥٧٩) .

بيان فضيلة التّواضع

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزّاً ، وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعَهُ اللهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ إلا ومعَهُ ملكانِ وعليهِ حَكَمَةٌ يمسكانِهِ بها(٢) ، فإنْ هوَ رفعَ نفسَهُ.. جبذاها ، ثمَّ قالا : اللهُمَّ ؛ ضعْهُ ، وإنْ وضعَ نفسَهُ.. قالا : اللهُمَّ ؛ ارفعْهُ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ تواضَعَ في غيرِ مسكنةٍ ، وأنفقَ مالاً جمعَهُ في غيرِ معصيةٍ ، ورحمَ أهلَ الذلِّ والمسكنةِ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ »(٤) .

وعنْ أبي سلمةَ المدينيِّ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ قالَ : صلَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَنا بقُباءَ وكانَ صائماً ، فأتيناهُ عندَ إفطارِهِ بقدَحٍ مِنْ لبنٍ ، وجعلنا فيهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فلما رفعَهُ وذاقَهُ.. وجدَ حلاوةَ العسلِ :

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨) .

(٢) الحَكَمَة : نحو لجام الدابة ، سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتىٰ يمنعها من الجماح ونحوه ، ومنه اشتقاق الحكمة بالكسر ؛ لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل . « إتحاف » (٨/ ٣٥٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٦) .

فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ جعلنا فيهِ شيئاً مِنْ عسلٍ ، فوضعَهُ وقالَ : « أما إنِّي لا أحرِّمُهُ ، ومَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ ، ومَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنِ اقتصدَ . . أغناهُ اللهُ ، ومَنْ بذَّرَ . . أفقرَهُ اللهُ ، ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ . . أحبَّهُ اللهُ »(١) .

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في نفرٍ مِنْ أصحابِهِ في بيتِهِ يأكلونَ ، فقامَ سائلٌ على البابِ وبهِ زمانةٌ يُتكرَّهُ منها ، فأذنَ لهُ ، فلمَّا دخلَ . . أجلسَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فخذِهِ ، ثمَّ قالَ لهُ : « اطعمْ » ، فكأنَّ رجلاً مِنْ قريشٍ اشمأزَّ منهُ وتكرَّهَهُ ، فما ماتَ ذلكَ الرجلُ حتَّىٰ كانَتْ بهِ زمانةٌ مثلُها(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيَّرَني ربِّي بينَ أمرينِ : أنْ أكونَ عبداً رسولاً ، أوْ مِلكاً نبياً ، فلمْ أدرِ أيَّهما أختارُ ، وكانَ صفيِّي مِنَ الملائكةِ جبريلَ ، فرفعتُ رأسي إليهِ فقالَ : تواضعْ لربِّكَ ، فقلتُ : عبداً رسولاً »(٣) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّما أقبلُ صلاةَ مَنْ تواضعَ لعظمتي ، ولمْ يتعظَّمْ علىٰ خلقي ، وألزمَ قلبَهُ خوفي ، وقطعَ نهارَهُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨٥) ، وفي (ب) : (بين أمرين : بين أن أكون عبداً رسولاً . . .) .

وقالَ المغيرةُ : كنَّا نهابُ إبراهيمَ النخعيَّ هيبةَ الأميرِ ، وكانَ يقولُ : إنَّ زماناً صرتُ فيهِ فقيهَ الكوفةِ لزمانُ سوءٍ[1] .

وكانَ عطاءٌ السَّلَميُّ إذا سمعَ صوتَ الرعدِ . . قامَ وقعدَ ، وأخذَ ببطنِهِ كأنَّهُ امرأةٌ ماخضٌ ، وقالَ : هٰذا مِنْ أجلي يصيبُكُمْ ، لوْ ماتَ عطاءٌ . . لاستراحَ الناسُ[2] .

وكانَ بشرٌ الحافي يقولُ : (سلِّموا علىٰ أبناءِ الدنيا بتركِ السلامِ عليهِمْ)[3] .

ودعا رجلٌ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ فقالَ : أعطاكَ اللهُ ما ترجوهُ ! فقالَ : إنَّ الرجاءَ يكونُ بعدَ المعرفةِ ، فأينَ المعرفةُ ؟!

وتفاخرَتْ قريشٌ عندَ سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً ، فقالَ سلمانُ : لكنِّي خُلقتُ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ ، ثمَّ أعودُ جيفةً منتنةً ، ثم آتي الميزانَ ؛ فإنْ ثقُلَ . . فأنا كريمٌ ، وإنْ خفَّ . . فأنا لئيمٌ[4] .

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وجدنا الكرمَ في التقوىٰ ، والغنىٰ في اليقينِ ، والشرفَ في التواضعِ)[5] ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ التوفيقِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) قول النخعي رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٢٣) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١ ، ٢٢٥) مفرقاً .
(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٦٩) .
(٤) الخبر عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢٣٧) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١١٥) عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلمْ : أنَّ الكبرَ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ وباطنٍ ، فالباطنُ هوَ خُلُقٌ في النفسِ ، والظاهرُ هوَ أعمالٌ تصدرُ عنِ الجوارحِ .

واسمُ الكبرِ بالخلقِ الباطنِ أحقُّ ، وأمَّا الأعمالُ . . فإنَّها ثمراتٌ لذلكَ الخُلُقِ ، وخُلُقُ الكبرِ موجبٌ للأعمالِ ، ولذلكَ إذا ظهرَ على الجوارحِ . . يُقالُ : تكبَّرَ ، وإذا لمْ يظهرْ . . يُقالُ : في نفسِهِ كبرٌ ، فالأصلُ هوَ الخلُقُ الذي في النفسِ ، **وهوَ الاسترواحُ والركونُ إلىٰ رؤيةِ النفسِ فوقَ المتكبَّرِ عليهِ** ، فإنَّ الكبرَ يستدعي متكبَّراً عليهِ ، ومتكبَّراً بهِ ، وبهِ ينفصلُ الكبرُ عنِ العجبِ كما سيأتي ، فإنَّ العجبَ لا يستدعي غيرَ المعجبِ ، بلْ لوْ لمْ يُخلقِ الإنسانُ إلا وحدَهُ . . تُصوِّرَ أنْ يكونَ معجباً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ متكبِّراً ، إلا أنْ يكونَ معَ غيرِهِ ، وهوَ يرىٰ نفسَهُ فوقَ ذلكَ الغيرِ في صفاتِ الكمالِ ، فعندَ ذلكَ يكونُ متكبِّراً .

ولا يكفي أنْ يستعظمَ نفسَهُ ليكونَ متكبِّراً ، فإنَّهُ قدْ يستعظمُ نفسَهُ ولكنْ يرىٰ غيرَهُ أعظمَ مِنْ نفسِهِ أوْ مثلَ نفسِهِ فلا يتكبَّرُ عليهِ .

ولا يكفي أنْ يستحقرَ غيرَهُ فإنَّهُ معَ ذلكَ لوْ رأىٰ نفسَهُ أحقرَ . . لمْ يتكبرْ ، ولوْ رأىٰ غيرَهُ مثلَ نفسِهِ . . لمْ يتكبرْ ، بلْ ينبغي أنْ يرىٰ لنفسِهِ مرتبةً ولغيرِهِ مرتبةً ، ثمَّ يرىٰ مرتبةَ نفسِهِ فوقَ مرتبةِ غيرِه .

فعندَ هٰذهِ الاعتقاداتِ الثلاثةِ يحصلُ فيهِ خُلُقُ الكبرِ ، لا أنَّ هٰذهِ الرؤيةَ هيَ الكبرُ ، بلْ هٰذهِ الرؤيةُ وهٰذهِ العقيدةُ تنفخُ فيهِ ، فيحصلُ في قلبهِ اعتدادٌ ، وهزَّةٌ ، وفرحٌ ، وركونٌ إلىٰ ما اعتقدَهُ ، وعزٌّ في نفسِهِ بسببِ ذلكَ ، فتلكَ العِزَّةُ والهِزَّةُ والركونُ إلى العقيدةِ هوَ خُلُقُ الكبْرِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بكَ مِنْ نفخةِ الكبرياءِ »[1] ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أخشىٰ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا) للذي استأذنَهُ أنْ يعظَ بعدَ صلاةِ الصبحِ[2] .

فكأنَّ الإنسانَ مهما رأىٰ نفسَهُ بهٰذهِ العينِ ، وهو الاستعظامُ . . كبرَ وانتفخَ وتعزَّزَ ، فالكبْرُ عبارةٌ عنِ الحالةِ الحاصلةِ في النفسِ مِنْ هٰذهِ الاعتقاداتِ ، وتُسمَّىٰ أيضاً عزَّةً وتعظماً ؛ ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ .

قالَ عظمةٌ لمْ يبلغوها ، ففسَّرَ الكبرَ بتلكَ العظمةِ[3] .

ثمَّ هٰذهِ العزَّةُ تقتضي أعمالاً في الظاهرِ والباطنِ هيَ ثمرتُها ، ويُسمَّىٰ

---

(١) رواه أبو داوود (٧٦٤) ولفظه : « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » ، قال ـ عمرو بن مرة ، أحد الرواة ـ : ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه المُوْتَة ، والموتة : الصرع أو الجنون ، وعند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٢٠٧) : « ونفخه الكبرياء » .

(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١/ ١٨) بنحوه .

(٣) وقد رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٤/ ٩٤) عن مجاهد .

ذلكَ تكبُّراً ، فإنَّهُ مهما عظُمَ عندَهُ قدرُهُ بالإضافةِ إلىٰ غيرِه . . حقرَ مَنْ دُونَهُ وازدراهُ ، وأقصاهُ عنْ نفسِهِ وأبعدَهُ ، وترفَّعَ عنْ مجالستِهِ ومؤاكلتِهِ ، ورأىٰ أنَّ حقّهُ أنْ يقومَ ماثلاً بينَ يديهِ إنِ اشتدَّ كبْرُهُ ، فإنْ كانَ أشدَّ مِنْ ذلكَ . . استنكفَ عنِ استخدامِهِ ولمْ يجعلْهُ أهلاً للقيامِ بينَ يديهِ ، ولا لخدمةِ عتبتِهِ ، وإنْ كانَ دونَ ذلكَ . . فيأنفُ عنْ مساواتِهِ ، وتقدَّمَ عليهِ في مضايقِ الطرقِ ، وارتفعَ عليهِ في المحافلِ ، وانتظرَ أنْ يبدأهُ بالسلامِ ، واستبعدَ تقصيرَهُ في قضاءِ حوائجِهِ ، وتعجَّبَ منهُ ، وإنْ حاجَّ أَوْ ناظرَ . أنفَ أنْ يردَّ عليهِ ، وإنْ وُعِظَ . . استنكفَ مِنَ القبولِ ، وإنْ وَعَظَ . . عنَّفَ في النصحِ ، وإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ قولِهِ . . غضبَ ، وإنْ علَّمَ . . لمْ يرفُقْ بالمتعلمينَ ، واستذلَّهُمْ وانتهرَهُمْ ، وامتنَّ عليهِمْ واستخدمَهُمْ ، وينظرُ إلى العامَّةِ كأنهُ ينظرُ إلى الحميرِ ؛ استجهالاً لهُمْ واستحقاراً .

والأعمالُ الصادرةُ عنْ خُلُقِ الكبرِ كثيرةٌ ، وهيَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فلا حاجةَ إلىٰ تعدادِها ، فإنَّها مشهورةٌ فهـٰذا هوَ الكبرُ ، وآفتُهُ عظيمةٌ ، وغائلتُهُ هائلةٌ ، وفيهِ يهلكُ الخواصُّ مِنَ الخلقِ ، وقلَّما ينفكُّ عنهُ العبَّادُ والزهَّادُ والعلماءُ ، فضلاً عنْ عوامِّ الناسِ .

وكيفَ لا تعظمُ آفتُهُ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ مِنْ كبرٍ »[1] ؟! وإنَّما صارَ حجاباً دونَ الجنةِ ؛ لأنَّهُ يحولُ

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

بينَ العبدِ وبينَ أخلاقِ المؤمنينَ كلِّها ، وتلكَ الأخلاقُ هيَ أبوابُ الجنةِ ، والكبرُ وعزَّةُ النفسِ يغلقُ تلكَ الأبوابَ كلَّها ؛ لأنَّهُ لا يقدرُ علىٰ أنْ يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ وفيهِ شيءٌ مِنَ العزِّ ، ولا يقدرُ على التواضعِ ـ وهوَ رأسُ أخلاقِ المتقينَ ـ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الحقدِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ أنْ يدومَ على الصدقِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الغضبِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ كظمِ الغيظِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ تركِ الحسدِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ على النصحِ اللطيفِ وفيهِ العزُّ ، ولا يقدرُ علىٰ قبولِ النصحِ وفيهِ العزُّ ، ولا يسلمُ مِنَ الإزراءِ بالناسِ ومِنَ اغتيابِهِمْ وفيهِ العزُّ ، ولا معنىٰ للتطويلِ ؛ فما مِنْ خلقٍ ذميمٍ إلا وصاحبُ العزِّ والكبْرِ مضطرٌّ إليهِ ؛ ليحفظَ بهِ عزَّهُ ، وما مِنْ خُلُقٍ محمودٍ إلا وهوَ عاجزٌ عنهُ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يفوتَهُ عزُّهُ .

فعلىٰ هـٰذا ؛ لمْ يدخلِ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ حبةٍ منهُ ، والأخلاقُ الذميمةُ متلازمةٌ ، والبعضُ منها داعٍ إلى البعضِ لا محالَ .

وشرُّ أنواعِ الكبرِ ما يمنعُ مِنِ استفادةِ العلمِ وقبولِ الحقِ والانقيادِ لهُ ، وفيهِ وردَتِ الآياتُ التي فيها ذمُّ الكبرِ والمتكبِّرينَ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

ثمَّ قالَ : ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

ثمَّ أخبرَ أنَّ أشدَّ أهلِ النارِ عذاباً أشدُّهُمْ عتياً على اللهِ تعالىٰ فقالَ : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : (سأرفعُ فهمَ القرآنِ مِنْ قلوبِهِمْ)(١) ، وفي بعضِ التفاسيرِ : (سأحجبُ قلوبَهُمْ عنِ الملكوتِ) .

وقالَ ابنُ جريجٍ : (سأصرفُهُمْ عنْ أنْ يتفكَّروا فيها ويعتبروا بها)(٢) .

ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إنَّ الزرعَ ينبتُ في السهلِ ولا ينبتُ على الصفا ، كذلكَ الحكمةُ تعملُ في قلبِ المتواضعِ ولا تعملُ في قلبِ المتكبرِ ، ألا ترونَ أنَّ مَنْ شمخَ برأسِهِ إلى السقفِ . . شجَّهُ ، ومَنْ تطأطأَ . . أظلَّهُ وأكنَّهُ ؟)(٣) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ٩/ ٧٦) عن ابن عيينة .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ٩/ ٧٧) .
(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٧٦) .

فهٰذا مثلٌ ضربَهُ للمتكبِّرينَ ، وأنَّهُمْ كيفَ يُحرمونَ الحكمةَ .

ولذلكَ ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جحودَ الحقِّ في حدِّ الكبْرِ والكشفِ عنْ حقيقتِهِ وقالَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغمَصَ الناسَ »[1] .

* * *

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

بيان المتكبَّر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلمْ : أنَّ المتكبَّرَ عليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، أوْ رسلُهُ ، أوْ سائرُ الخلقِ ، وقدْ خُلِقَ الإنسانُ ظلُوماً جهولاً ؛ فتارةً يتكبَّرُ على الخلقِ ، وتارةً يتكبَّرُ على الخالقِ .

فإذاً ؛ التكبرُ باعتبارِ المتكبَّرِ عليهِ ثلاثةُ أقسامٍ :

الأوَّلُ : التكبُّرُ على اللهِ :

وذلكَ هوَ أفحشُ أنواعِ الكبرِ ، ولا مثارَ لهُ إلا الجهلُ المحضُ والطغيانُ ؛ مثلَ ما كانَ مِنْ نمروذَ ، فإنَّهُ كانَ يحدِّثُ نفسَهُ بأنْ يقاتلَ ربَّ السماءِ ، وكما يُحكىٰ عنْ جماعةٍ مِنَ الجهلةِ ، بلْ ما يُحكىٰ عنْ كلِّ مَنِ ادَّعى الربوبيَّةَ ؛ مثلَ فرعونَ وغيرِهِ ، فإنَّهُ لتكبُّرِهِ قالَ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، إذِ استنكفَ أنْ يكونَ عبداً للهِ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ .

القسمُ الثاني : التكبُّرُ على الرسلِ :

مِنْ حيثُ تعزُّزُ النفسِ وترفُّعُها عنِ الانقيادِ لبشرٍ مثلِ سائرِ الناسِ ، وذلكَ تارةً يصرفُ عنِ الفكرِ والاستبصارِ ، فيبقىٰ في ظلمةِ الجهلِ بكبرِهِ ، فيمتنعُ عنِ الانقيادِ وهوَ ظانٌّ أنَّهُ محقٌّ فيهِ ، وتارةً يمتنعُ معَ المعرفةِ ، ولكنْ لا تطاوعُهُ نفسُهُ للانقيادِ للحقِّ والتواضعِ للرسلِ ؛ كما حكى اللهُ تعالىٰ عنْ قولِهِمْ : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ، وقولِهِمْ : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، وقولِهِمْ : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ ، وقالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ .

وقالَ فرعونُ فيما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فتكبرَ هوَ على اللهِ وعلىٰ رسولِهِ جميعاً ، قالَ وهبٌ : قالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : آمنْ ولكَ ملكُكَ ، قالَ : حتَّىٰ أشاورَ هامانَ ، فشاورَ هامانَ ، فقالَ هامانُ : بينَما أنتَ ربٌّ تُعبَدُ إذْ صرْتَ عبداً تعبُدُ ! فاستنكفَ عنْ عبوديَّةِ اللهِ وعنِ اتباعِ موسىٰ عليهِ السلامُ(١) .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٩) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩١٢٠) عن السدي ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَتْ قريشٌ فيما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهُمْ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، قالَ قتادةُ : عظيمُ القريتينِ هوَ الوليدُ بنُ المغيرةِ وأبو مسعودٍ الثقفيُّ ، طلبوا مَنْ هو أعظمُ رئاسةً مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالُوا : غلامٌ يتيمٌ كيفَ بعثَهُ اللهُ إلينا ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ أي : استحقاراً لهُمْ واستبعاداً لتقدُّمِهِمْ .

وقالَتْ قريشٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : كيفَ نجلسُ إليكَ وعندَكَ هؤلاءِ ؟! أشاروا إلىٰ فقراءِ المسلمينَ ، وازدرَوهُمْ بأعينِهِمْ لفقرِهِمْ ، وتكبَّروا عنْ مجالستِهِمْ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[2] ، وقولَهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ثمَّ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنْ تعجُّبِهِمْ حينَ دخلوا جهنَّمَ ؛ إذْ لمْ يرَوُا الذينَ استرذلوهُمْ ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ قيلَ : يعنونَ : عماراً وبلالاً وصهيباً والمقدادَ رضيَ اللهُ عنهُمْ[3] .

---

(١) انظر مجمل الروايات عند الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٥/ ٧٩) وما بعدها ، وسياق المصنف عند صاحب « الرعاية » (ص ٣٨٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه : (وكان المشركون قالوا له : تدني هؤلاء ؟!) ، وابن ماجه (٤١٢٨) ، وفيه : (قالت قريش) .

(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨١) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٣/ ٢٢٠) .

ثم كانَ منهُم مَنْ منعَهُ الكبرُ عنِ الفكرِ والمعرفةِ فجهلَ كونَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محقّاً ، ومنهُم مَنْ عرفَ ومنعَهُ الكبرُ عنِ الاعترافِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ مخبراً عنهُمْ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ، وهـٰذا الكبرُ قريبٌ مِنَ التكبُّرِ على اللهِ تعالىٰ ، وإنْ كانَ دونَهُ ، ولكنَّهُ تكبُّرٌ عنْ قبولِ أمرِ اللهِ والتواضعِ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثالثُ : التكبُّرُ على العبادِ :

وذلكَ بأنْ يستعظمَ نفسَهُ ويستحقرَ غيرَهُ ؛ فتأبىٰ نفسُهُ عنِ الانقيادِ لهُمْ ، وتدعوَهُ إلى الترفُّعِ عليهِمْ ؛ فيزدريَهُمْ ويستصغرَهُمْ ، ويأنفَ مِنْ مساواتِهِمْ ، وهـٰذا وإنْ كانَ دونَ الأولِ والثاني . . فهوَ أيضاً عظيمٌ مِنْ وجهينِ :

ـ **أحدُهُما** : أنَّ الكبرَ والعزَّ والعظمةَ والعلاءَ لا يليقُ إلا بالملكِ القادرِ ، فأمَّا العبدُ المملوكُ الضعيفُ العاجزُ الذي لا يقدرُ علىٰ شيءٍ . . فمِنْ أينَ يليقُ بهِ الكبرُ ؟! فمهما تكبَّرَ العبدُ . . فقدْ نازعَ اللهَ تعالىٰ في صفةٍ لا تليقُ إلا بجلالِهِ .

ومثالُهُ : أنْ يأخذَ الغلامُ قَلَنْسُوةَ الملكِ ، فيضعَها علىٰ رأسِهِ ، ويجلسَ علىٰ سريرِهِ ، فما أعظمَ استحقاقَهُ للمقتِ ! وما أعظمَ تهدُّفَهُ للخزيِ والنكالِ ! وما أشدَّ استجراءَهُ علىٰ مولاهُ ! وما أقبحَ ما تعاطاهُ ! وإلىٰ هـٰذا

المعنى الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : « العظمةُ إزاري ، والكبرياءُ ردائي ؛ فمَنْ نازعَني فيهما . . قصمتُهُ »[1] أيْ : إنَّهُ خاصٌ صفتي ، ولا يليقُ إلا بي ، والمنازعُ فيهِ منازعٌ في صفةٍ مِنْ صفاتي ، وإذا كانَ الكبرُ علىٰ عبادِهِ لا يليقُ إلا بهِ . . فمَنْ تكبَّرَ علىٰ عبادِهِ . . فقدْ جنىٰ عليهِ ؛ إذِ الذي يسترذلُ خواصَّ غلمانِ الملكِ ، ويستخدمُهُمْ ويترفَّعُ عليهِمْ ، ويستأثرُ بما حقُّ الملكِ أنْ يستأثرَ بهِ منهُمْ . . فهوَ منازعٌ لهُ في بعضِ أمرِهِ ، وإنْ لمْ تبلغْ درجتُهُ درجةَ مَنْ أرادَ الجلوسَ علىٰ سريرِهِ والاستبدادَ بملكِهِ ، فالخلقُ كلُّهُمْ عبادُ اللهِ ، ولهُ العظمةُ والكبرياءُ عليهِمْ ؛ فمَنْ تكبَّرَ علىٰ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . فقَدْ نازعَ اللهَ في حقِّهِ .

نعم ؛ الفرقُ بينَ هٰذهِ المنازعةِ وبينَ منازعةِ نمروذَ وفرعونَ ما هوَ الفرقُ بينَ منازعةِ الملكِ في استصغارِ بعضِ عبيدِهِ واستخدامِهِمْ ، وبينَ منازعتِهِ في أصلِ الملكِ .

ـ الوجهُ الثاني الذي تعظمُ بهِ رذيلةُ الكبرِ : أنَّهُ يدعو إلىٰ مخالفةِ اللهِ تعالىٰ في أوامرِهِ ؛ لأنَّ المتكبِّرَ إذا سمعَ الحقَّ مِنْ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . استنكفَ عنْ قبولِهِ ، وتشمَّرَ لجحدِهِ ، ولذلكَ ترى المناظرينَ في مسائلِ الدينِ يزعمونَ أنَّهُمْ يتباحثونَ عنْ أسرارِ الدينِ ، ثمَّ إنَّهُمْ يتجاحدونَ تجاحدَ المتكبِّرينَ ، ومهما اتَّضحَ الحقُّ علىٰ لسانِ واحدٍ منهُمْ . . أنفَ الآخرُ مِنْ قبولِهِ ، وتشمَّرَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

لجحدِهِ ، واحتالَ لدفعِهِ بما يقدرُ عليهِ مِنَ التلبيسِ ، وذلكَ مِنْ أخلاقِ الكافرينَ والمنافقينَ ، إذْ وصفَهُمُ اللهُ تعالىٰ فقالَ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ، فكلُّ مَنْ يناظرُ للغلبةِ والإفحامِ ، لا ليغتنمَ الحقَّ إذا ظفرَ بهِ . . فقدْ شاركَهُمْ في هٰذا الخُلُقِ .

وكذلكَ يحملُ ذلكَ على الأنفةِ مِنْ قبولِ الوعظِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ ، ورُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قرأَها فقالَ : إنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ ، قامَ رجلٌ يأمرُ بالمعروفِ فقُتلَ ، فقامَ آخرُ فقالَ : أتقتلونَ الذينَ يأمرونَ بالقسطِ مِنَ الناسِ ؟! فقتلَ المتكبِّرُ الذي خالفَهُ والذي أمرَهُ كِبراً[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفىٰ بالرجلِ إثماً إذا قيلَ لهُ : اتقِ اللهَ . . قالَ : عليكَ نفسَكَ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « كلْ بيمينِكَ » ، قالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا استطعتَ ! » ، فما منعَهُ إلا الكبرُ ، قالَ : فما رفعَها بعدَ ذلكَ ؛ أيِ : اعتلَّتْ يدُهُ[3] .

---

(١) بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٢/٢/٤٢٨) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٨٢) ، وروى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦١٩) من حديثه رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . وإن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل : اتق الله ، فيقول : عليك نفسك » .
(٣) رواه مسلم (٢٠٢١) ، وقول : (فما منعه إلا الكبر) زيادة من الراوي لبيان موجب دعائه عليه الصلاة والسلام .

فإذاً ؛ تكبرُهُ على الخلقِ عظيمٌ ؛ لأنَّهُ سيدعوهُ إلى التكبُّرِ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما ضُرِبَ إبليسُ مثلاً لهـٰذا ، وما حُكيَ مِنْ أحوالِهِ . . إلا ليُعتبَرَ بهِ ؛ فإنَّهُ قالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ وهـٰذا الكبرُ بالنسبِ ؛ لأنَّهُ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ ، فحملَهُ ذلكَ علىٰ أنْ يمتنعَ مِنَ السجودِ الذي أمرَهُ اللهُ تعالىٰ بهِ ، فكانَ مبدؤُهُ التكبُّرَ علىٰ آدمَ والحسدَ لهُ ، فجرَّهُ ذلكَ إلى التكبُّرِ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، فكانَ ذلكَ سببَ هلاكِهِ أبدَ الآبادِ .

فهـٰذهِ آفةٌ مِنْ آفاتِ الكبرِ على العبادِ عظيمةٌ ، ولذلكَ شرحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الكبرَ بهاتينِ الآفتينِ ؛ إذْ سألَهُ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شماسٍ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي امرؤٌ قدْ حُبِّبَ إليَّ مِنَ الجمالِ ما ترىٰ ؛ أفمِنَ الكبرِ هوَ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ، ولكنَّ الكبرَ مَنْ بَطَرَ الحقَّ ، وغمصَ الناسَ »[1] ، وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سَفِهَ الحقَّ »[2] ، وقولُهُ : (غمَصَ الناسَ) أيْ : ازدراهُمْ واستحقرَهُمْ ، وهمْ عبادُ اللهِ أمثالُهُ ، أوْ خيرٌ منهُ ، وهـٰذهِ الآفةُ الأولىٰ ، و(سَفَهُ الحقِّ) : هوَ ردُّهُ ، وهيَ الآفةُ الثانيةُ .

---

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٩) ولفظ المرفوع له ، وليس فيه ذكر ثابت رضي الله عنه ، وإنما تبع فيه المصنف صاحب « الرعاية » (ص ٢٨٣) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

فكلُّ مَنْ رأىٰ أنَّهُ خيرٌ مِنْ أخيهِ ، واحتقرَ أخاهُ وازدراهُ ، ونظرَ إليهِ بعينِ الاستصغارِ ، أوْ ردَّ الحقَّ وهوَ يعرفُهُ . . فقدْ تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ الخلقِ ، ومَنْ أنِفَ أنْ يخضعَ للهِ تعالىٰ ويتواضعَ لهُ بطاعتِهِ واتباعِ رُسلِهِ . . فقدْ تكبَّرَ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ورسلِهِ .

* * *

بيان ما به التكبّر

اعلمْ : أنَّهُ لا يتكبَّرُ إلا مَنِ استعظمَ نفسَهُ ، ولا يستعظمُها إلا وهوَ يعتقدُ لها صفةً مِنْ صفاتِ الكمالِ .

ومجامعُ ذلكَ يرجعُ إلىٰ كمالٍ دينيٍّ أوْ دنيويٍّ ، **فالدينيُّ** : هوَ العلمُ ، والعملُ ، **والدنيويُّ** : هوَ النسبُ ، والجمالُ ، والقوةُ ، والمالُ ، وكثرةُ الأنصارِ ، فهـٰذهِ سبعةُ أسبابٍ .

* * *

الأولُ : العلمُ :

وما أسرعَ الكبرَ إلى العلماءِ ؛ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آفةُ العلمِ الخيلاءُ »[(١)] ، فلا يلبثُ العالمُ أنْ يتعزَّزَ بعزِّ العلمِ ، ويستشعرَ في نفسِهِ جمالَ العلمِ وكمالَهُ ، فيستعظمَ نفسَهُ ويستحقرَ الناسَ ، وينظرَ إليهِمْ نظرَهُ إلى البهائِمِ ، ويستجهلَهُمْ ، ويتوقَّعَ أنْ يبدؤوهُ بالسلامِ ؛ فإنْ بدأَ أحداً منهُمْ بالسلامِ ، أوْ ردَّ عليهِ ببشْرٍ ، أوْ قامَ لهُ ، أو أجابَ لهُ دعوةً . . رأىٰ ذلكَ صنيعةً عندَهُ ويداً عليهِ يلزمُهُ شكرُها ، واعتقدَ أنَّهُ أكرمَهُمْ ، وفعلَ بهِمْ ما لا يستحقُّونَ مِنْ مثلِهِ ، وأنَّهُ ينبغي أنْ يرقُّوا لهُ ويخدموهُ ؛ شكراً لهُ علىٰ صنيعِهِ .

---

(١) المعروف ـ كما قال الحافظ العراقي ـ هو حديث : « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » ، وهو قطعة من حديث رواه البيهقي في « الشعب » (٤٣٢٦) ، وانظر « الإتحاف » (٦/ ٣٦٤) .

بلِ الغالبُ أنَّهُمْ يبرُّونهُ فلا يبرُّهُمْ ، ويزورونَهُ فلا يزورُهُمْ ، ويعودونَهُ فلا يعودُهُمْ ، ويستخدمُ مَنْ خالطَهُ منهُمْ ويستسخرُهُ في حوائجِهِ ، فإنْ قصَّرَ فيهِ . . استنكرَهُ ؛ كأنَّهُمْ عبيدُهُ أوْ أجراؤُهُ ، وكأنَّ تعليمَهُ العلمَ صنيعةٌ منهُ لديهِمْ ، ومعروفٌ إليهِمْ ، واستحقاقُ حقٍّ عليهِمْ ، هٰذا فيما يتعلقُ بالدنيا .

أمَّا في أمرِ الآخرةِ . . فتكبُّرُهُ عليهِمْ بأنْ يرىٰ نفسَهُ عندَ اللهِ تعالىٰ أعلىٰ وأفضلَ منهُمْ ، فيخافُ عليهِمْ أكثرَ ممَّا يخافُ علىٰ نفسِهِ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممَّا يرجو لهُمْ .

وهٰذا بأنْ يُسمَّىٰ جاهلاً أولىٰ مِنْ أنْ يُسمَّىٰ عالماً ، بلِ العلمُ الحقيقيُّ هوَ الذي يعرفُ الإنسانُ بهِ نفسَهُ وربَّهُ ، وخطرَ الخاتمةِ ، وحجةَ اللهِ على العلماءِ ، وعظمَ خطرِ العلمِ فيهِ ؛ كما سيأتي في طريقِ معالجةِ الكبرِ بالعلمِ .

وهٰذهِ العلومُ تزيدُ العبدَ خوفاً وتواضعاً وتخشُّعاً ، وتقتضي أنْ يرىٰ أنَّ كلَّ الناسِ خيرٌ منهُ ؛ لعظمِ حجةِ اللهِ عليهِ بالعلمِ ، وتقصيرِهِ في القيامِ بشكرِ نعمةِ العلمِ .

ولهٰذا قالَ أبو الدرداءِ : (مَنِ ازدادَ علماً . . ازدادَ وجعاً)[1] ، وهوَ كما قالَ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٣) عن سفيان الثوري .

فإنْ قلتَ : فما بالُ بعضِ الناسِ يزدادُ بالعلمِ كِبْراً وأمناً ؟

فاعلمْ : أنَّ لذلكَ سببينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ اشتغالُهُ بما يُسمَّىٰ علماً وليسَ بعلمٍ حقيقيٍّ ، وإنَّما العلمُ الحقيقيُّ ما يعرفُ العبدُ بهِ نفسَهُ وربَّهُ ، وخطرَ أمرِهِ في لقاءِ اللهِ والحجابِ منهُ ، وهـٰذا يورثُ الخشيةَ والتواضعَ دونَ الكبرِ والأمنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، فأمَّا ما وراءَ ذلكَ ؛ كعلمِ الطبِّ ، والحسابِ ، واللغةِ ، والشعرِ ، والنحوِ ، وفصلِ الخصوماتِ ، وطرقِ المجادلاتِ ؛ فإذا تجرَّدَ الإنسانُ لها حتَّى امتلأَ منها . . امتلأَ بها كبراً ونفاقاً ، وهـٰذهِ بأنْ تُسمَّىٰ صناعاتٍ أولىٰ مِنْ أنْ تُسمَّىٰ علوماً ، بلِ العلمُ هوَ معرفةُ العبوديَّةِ والربوبيَّةِ وطريقِ العبادةِ ، وهـٰذا يورثُ التواضعَ غالباً .

السببُ الثاني : أنْ يخوضَ العبدُ في العلمِ وهوَ خبيثُ الدُّخْلَةِ ، رديءُ النفسِ ، سيِّئُ الأخلاقِ ، فإنَّهُ لمْ يشتغلْ أولاً بتهذيبِ نفسِهِ وتزكيةِ قلبِهِ بأنواعِ المجاهداتِ ، ولمْ يرضْ نفسَهُ في عبادةِ ربِّهِ ؛ فبقيَ خبيثَ الجوهرِ ، فإذا خاضَ في العلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . صادفَ العلمُ مِنْ قلبِهِ منزلاً خبيثاً ، فلمْ يطبْ ثمرُهُ ، ولمْ يظهرْ في الخيرِ أثرُهُ .

❊ ❊ ❊

وقدْ ضربَ وهبٌ لهـٰذا مثلاً فقالَ : (العلمُ كالغيثِ ينزلُ مِنَ السماءِ حلواً صافياً ، فتشربُهُ الأشجارُ بعروقِها ، فتحولُهُ علىٰ قدْرِ طعومِها ، فيزدادُ المرُّ

مرارةً ، والحلوُ حلاوةً ، وكذلكَ العلمُ يحفظُهُ الرجالُ ، فتحولُهُ علىٰ قدْرِ همِمِها وأهوائِها ، فيزيدُ المتكبِّرَ كبراً ، والمتواضعَ تواضعاً)[1] ، وهـٰذا لأنَّ مَنْ كانَتْ همَّتُهُ الكبرَ وهوَ جاهلٌ ، فإذا حفظَ العلمَ . . وجدَ ما يتكبَّرُ بهِ ، فازدادَ كبراً ، وإذا كانَ الرجلُ خائفاً معَ جهلِهِ ، فإذا ازدادَ علماً . . علمَ أنَّ الحجةَ قدْ تأكدَتْ عليهِ ، فيزدادُ خوفاً وإشفاقاً وذلاًّ وتواضعاً .

فالعلمُ مِنْ أعظمِ ما يُتكبَّرُ بهِ ؛ ولأجلِ ذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ .

ووصفَ أولياءَهُ فقالَ تعالىٰ : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : « يكونُ قومٌ يقرؤونَ القرآنَ لا يجاوزُ حناجرَهُمْ ، يقولونَ : قدْ قرأنا القرآنَ ، فمَنْ أقرأُ منَّا ؟! ومَنْ أعلمُ منَّا ؟! » ، ثمَّ التفَتَ إلىٰ أصحابِهِ فقالَ : « أولئكَ منكُمْ أيُّها الأمةُ ، أولئكَ همْ وقودُ النارِ »[2] .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا تكونوا جبابرةَ العلماءِ ، فلا يفي علمُكُمْ بجهلِكُمْ)[3] .

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٥) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٩٠) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٠) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٤٠) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٠) .

ولذلكَ استأذنَ تميمٌ الداريُّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ في القصصِ ، فأبىٰ أنْ يأذنَ لهُ ، وقالَ لهُ : (إِنَّهُ الذبحُ)[1] .

واستأذنَهُ رجلٌ كانَ إمامَ قومٍ أنَّهُ إذا سلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . ذكَّرَهُمْ ، فقالَ : (إنِّي أخافُ أنْ تنتفخَ حتَّىٰ تبلغَ الثريا)[2] .

وصلَّىٰ حذيفةُ بقومٍ ، فلمَّا سلَّمَ مِنْ صلاتِهِ . . قالَ : (لتلتمسُنَّ إماماً غيري أوْ لتصلُّنَّ وُحْداناً ؛ إنِّي رأيتُ في نفسي أنهُ ليسَ في القومِ أفضلُ منِّي)[3] .

فإذا كانَ مثلُ حذيفةَ لا يسلمُ . . فكيفَ يسلمُ الضعفاءُ مِنْ متأخري هـٰذهِ الأمةِ ؟!

فما أعزَّ علىٰ بسيطِ الأرضِ عالماً يستحقُّ أنْ يُقالَ : إنَّهُ عالمٌ ، ثمَّ لا يحركُهُ عزُّ العلمِ وخيلاؤُهُ !

فإنْ وُجِدَ ذلكَ . . فهو صِدِّيقُ زمانِهِ ؛ فلا ينبغي أنْ يُفارقَ ، بلْ يكونُ النظرُ إليهِ عبادةً ، فضلاً عنِ الاستفادةِ مِنْ أنفاسِهِ وأحوالِهِ ، ولوْ عرفنا ذلكَ ولوْ في أقصى الصينِ . . لسعينا إليهِ ؛ رجاءَ أنْ تشملَنا بركتُهُ ، وتسريَ إلينا سيرتُهُ وسجيَّتُهُ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٤٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٤٩) .
(٢) رواه الضياء في « المختارة » (١٠٦) ، وأحمد في « المسند » (١/ ١٨) بنحوه ، وهو في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤١٣٧) ، وبتمامه في « الرعاية » (ص ٣٩٢) .

وهيهاتَ ! فأنَّىٰ يسمحُ آخرُ الزمانِ بمثلِهِمْ ؟!

فهُمْ أربابُ الإقبالِ وأصحابُ الدولِ ، قدِ انقرضوا في القرنِ الأولِ ومَنْ يليهِمْ ، بلْ يعزُّ في زمانِنا عالمٌ يختلجُ في نفسِهِ الأسفُ والحزنُ علىٰ فواتِ هٰذهِ الخصلةِ ، فذلكَ أيضاً إمَّا معدومٌ وإمَّا عزيزٌ ، ولولا بشارةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « سيأتي على الناسِ زمانٌ مَنْ تمسَّكَ فيهِ بعُشْرِ ما أنتُمْ عليهِ . . نجا »[1] . . لكانَ جديراً بنا أنْ نقتحمَ ـ والعياذُ باللهِ تعالىٰ ـ ورطةَ اليأسِ والقنوطِ ، معَ ما نحنُ عليهِ مِنْ سوءِ أعمالِنا ، ومَنْ لنا أيضاً بالتمسُّكِ بعشرِ ما كانوا عليهِ ؟! وليتَنا تمسَّكنَا بعُشْرِ عَشِيرِهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يعاملَنا بما هوَ أهلُهُ ، وأنْ يسترَ علينا قبائحَ أعمالِنا كما يقتضيهِ كرمُهُ وفضلُهُ .

* * *

الثاني : العملُ والعبادةُ :

وليس يخلو عنْ رذيلةِ العزِّ والكبرِ ، واستمالةِ قلوبِ الناسِ الزهَّادُ والعبَّادُ ، ويترشَّحُ الكبرُ منهُمْ في الدينِ والدنيا .

أمَّا في الدنيا . . فهوَ أنَّهُمْ يرونَ غيرَهُمْ بزيارتِهِمْ أولىٰ منهمْ بزيارةِ غيرِهِمْ ، ويتوقَّعونَ قيامَ الناسِ بقضاءِ حوائجِهِمْ ، وتوقيرِهِمْ ، والتوسيعِ لهُمْ في المجالسِ ، وذكرِهِمْ بالورعِ والتقوىٰ ، وتقديمِهِمْ علىٰ سائرِ الناسِ في

(١) رواه الترمذي (٢٢٦٧) .

الحظوظِ ، إلىٰ جميعِ ما ذكرناهُ في حقِّ العلماءِ ، وكأنَّهُمْ يرونَ عبادتَهُمْ منَّةً علىٰ الخلقِ .

وأمَّا في الدينِ . . فهوَ أنْ يرى الناسَ هالكينَ ، ويرىٰ نفسَهُ ناجياً ، وهوَ الهالكُ تحقيقاً مهما رأىٰ ذلكَ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سمعتُمُ الرجلَ يقولُ : هلكَ الناسُ . . فهوَ أهلكُهُمْ »[1] ، فإنما قالَ ذلكَ لأنَّ هـٰذا القولَ منهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ مزدرٍ بخلقِ اللهِ ، مغترٌّ باللهِ ، آمنٌ مِنْ مكرِهِ ، غيرُ خائفٍ مِنْ سطوتِهِ .

وكيفَ لا يخافُ ويكفيهِ شرّاً احتقارُهُ لغيرِهِ ؟! قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالمرءِ شرّاً أنْ يحقرَ أخاهُ المسلمَ »[2] ، وكمْ مِنَ الفرقِ بينَهُ وبينَ مَنْ يحبُّهُ للهِ ، ويعظمُهُ لعبادتِهِ ، ويستعظمُهُ ويرجو لهُ ما لا يرجو لنفسِهِ ؟ فالخلقُ يدركونَ النجاةَ بتعظيمِهِمْ إيَّاهُ للهِ تعالىٰ ؛ فهُمْ يتقرَّبونَ إلى اللهِ تعالىٰ بالدنوِّ منهُ ، وهوَ يتمقَّتُ إلى اللهِ بالتنزُّهِ والتباعدِ منهُمْ ؛ كأنَّهُ مُترفِّعٌ عنْ مجالستِهِمْ ، فما أجدرَهُمْ إذا أحبُّوهُ لصلاحِهِ أنْ ينقلَهُمُ اللهُ إلىٰ درجتِهِ في العملِ ! وما أجدرَهُ إذا ازدراهُمْ بعينِهِ أنْ ينقلَهُ اللهُ إلىٰ حدِّ الإهمالِ ! كما رُويَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ كانَ يُقالُ لهُ : خليعُ بني إسرائيلَ ؛ لكثرةِ فسادِهِ ، مرَّ برجلٍ آخرَ يُقالُ لهُ : عابدُ بني إسرائيلَ ، وكانَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٣) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، ولفظه : « بحسب امرىء من الشر . . . » ، ولفظ المصنف في « الرعاية » (ص٣٨٧) .

علىٰ رأسِ العابدِ غمامةٌ تظلُّهُ لمَّا مرَّ الخليعُ بهِ ، فقالَ الخليعُ في نفسِهِ : أنا خليعُ بني إسرائيلَ ، وهـٰذا عابدُ بني إسرائيلَ ؛ فلوْ جلستُ إليهِ لعلَّ اللهَ يرحمُني ، فجلسَ إليهِ ، فقالَ العابدُ : أنا عابدُ بني إسرائيلَ ، وهـٰذا خليعُ بني إسرائيلَ ، فكيفَ يجلسُ إليَّ ؟! فأنفَ مِنهُ ، وقالَ لهُ : قمْ عنِّي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذلكَ الزمانِ : مُرْهما فليستأنفا العملَ ؛ فقدْ غفرتُ للخليعِ وأحبطتُ عملَ العابدِ ، وفي روايةٍ أخرىٰ : فتحوَّلتِ الغمامةُ إلىٰ رأسِ الخليعِ(١) .

وهـٰذا يعرِّفُكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ إنَّما يريدُ مِنَ العبيدِ قلوبَهُمْ ، فالجاهلُ العاصي إذا تواضعَ وذلَّ هيبةً للهِ ، وخوفاً منهُ . . فقدْ أطاعَ اللهَ بقلبِه ، فهوَ أطوعُ للهِ مِنَ العالمِ المتكبِّرِ والعابدِ المعجبِ .

وكذلكَ رُوِيَ أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ أتىٰ عابداً مِنْ بني إسرائيلَ ، فوطِئَ علىٰ رقبتِهِ وهوَ ساجدٌ ، فقالَ : ارفعْ(٢) ، فواللهِ لا يغفرُ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ إليهِ : أيُّها المتألِّي عليَّ ؛ بلْ أنتَ لا يغفرُ اللهُ لكَ(٣) .

وكذلكَ قالَ الحسنُ : (وحتَّىٰ إنَّ صاحبَ الصوفِ أشدُّ كبراً مِنْ صاحبِ

---

(١) الرعاية (ص٣٨٨) ، ومختصراً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٢٦) .
(٢) أي : فقال العابد : ارفع رجلك عن رقبتي . « إتحاف » (٨/ ٣٧١) .
(٣) الرعاية (ص٣٨٨) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٨) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٤٩٠١) .

المطرَفِ الخزِّ)[1] أيْ : إنَّ صاحبَ الخزِّ يذلُّ لصاحبِ الصوفِ ويرى الفضلَ لهُ ، وصاحبَ الصوفِ يرى الفضلَ لنفسِهِ .

وهٰذهِ الآفةُ أيضاً قلَّما ينفكُّ عنها كثيرٌ مِنَ العبادِ ، وهوَ أنَّهُ لوِ استخفَّ بهِ مستخفٌّ أوْ آذاهُ مؤذٍ . . استبعدَ أنْ يغفرَ اللهُ لهُ ، ولا يشكُّ في أنَّهُ صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ ، ولوْ آذىٰ مسلماً آخرَ . . لمْ يستنكرْ ذلكَ الاستنكارَ ، وذلكَ لعظمِ قدْرِ نفسهِ عندَهُ ، وهوَ جهلٌ ، وجمعٌ بينَ الكبرِ والعُجبِ والاغترارِ باللهِ .

وقدْ ينتهي الحمقُ والغباوةُ ببعضِهِمْ إلىٰ أنْ يتحدَّىٰ ويقولَ : سترونَ ما يجري عليهِ ، فإذا أُصيبَ بنكبةٍ . . زعمَ أنَّ ذلكَ مِنْ كراماتِهِ ، وأنَّ اللهَ ما أرادَ بذلكَ إلا شفاءَ غليلِهِ والانتقامَ لهُ ، معَ أنَّهُ يرىٰ طبقاتٍ مِنَ الكفارِ يسبُّونَ اللهَ ورسولَهُ ، وعرفَ جماعةً آذَوا الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ ضربَهُمْ ، ومنهُمْ مَنْ قتلَهُمْ ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أمهلَ أكثرَهُمْ ولمْ يعاقبْهُمْ في الدنيا ، بلْ ربَّما أسلمَ بعضُهُمْ فلمْ يصبْهُ مكروهٌ في الدنيا ولا في الآخرةِ .

ثمَّ الجاهلُ المغرورُ يظنُّ أنَّهُ أكرمُ على اللهِ تعالىٰ مِنْ أنبيائِهِ ، وأنَّهُ قدِ انتقمَ لهُ بما لمْ ينتقمْ لأنبيائِهِ بهِ ، ولعلَّهُ في مقتِ اللهِ بإعجابِهِ وكبرِهِ وهوَ غافلٌ عنْ هلاكِ نفسِهِ ، فهٰذهِ عقيدةُ المغترِّينَ .

وأمَّا الأكياسُ مِنَ العبَّادِ . . فيقولونَ ما كانَ يقولُهُ عطاءٌ السَّلميُّ حينَ كانَ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٣٩٢) .

تهبُّ ريحٌ أوْ تقعُ صاعقةٌ : (ما يصيبُ الناسَ ما يصيبُهُمْ إلا بسببي ، ولوْ ماتَ عطاءٌ . . لتخلَّصوا)[1] ، وما قالَهُ الآخرُ بعدَ انصرافِهِ مِنْ عرفاتٍ : (كنتُ أرجو الرحمةَ لجميعِهِمْ لولا كوني فيهِمْ)[2] .

فانظرْ إلى الفرقِ بينَ الرجلينِ ؛ هٰذا يتَّقي اللهَ ظاهراً وباطناً وهوَ وَجِلٌ علىٰ نفسِهِ ، مزدرٍ لعملِهِ وسعيِهِ ، وذاكَ ربَّما يضمرُ مِنَ الرياءِ والكبرِ والحسدِ والغلِّ ما هوَ ضُحْكَةٌ للشيطانِ بهِ ، ثمَّ إنَّهُ يمنُّ على اللهِ بعملِهِ .

ومَنِ اعتقدَ جزماً أنَّهُ فوقَ أحدٍ مِنْ عبادِ اللهِ . . فقدْ أحبطَ بجهلِهِ جميعَ عملِهِ ؛ فإنَّ الجهلَ أفحشُ المعاصي ، وأعظمُ شيءٍ يبعدُ العبدَ عنِ اللهِ ، وحكمُهُ لنفسِهِ بأنَّهُ خيرٌ مِنْ غيرِهِ جهلٌ محضٌ ، وأمنٌ مِنْ مكرِ اللهِ ، ولا يأمنُ مكرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرونَ ؛ ولذلكَ رُوِيَ أنَّ رجلاً ذُكِرَ بخيرٍ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأقبلَ ذاتَ يومٍ ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ هٰذا الذي ذكرناهُ لكَ ، فقالَ : « إنِّي أرىٰ في وجهِهِ سُفْعَةً مِنَ الشيطانِ » ، فسلَّمَ ووقفَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ باللهِ ؛ حدثَتْكَ نفسُكَ أنْ ليسَ في القومِ أفضلُ منكَ ؟ » قالَ : اللهمَّ نعمْ[3] . فرأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنورِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١ ، ٢٢٥) مفرقاً .

(٢) روى البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٣) نحوه .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٢) ، وهو ذو الثدية الذي قتله سيدنا علي رضي الله عنه .

النبوَّةِ ما استكنَّ في قلبِهِ سفعةٌ في وجهِهِ ، وهٰذهِ آفةٌ لا ينفكُّ عنها أحدٌ مِنَ العبَّادِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ .

لكنَّ العلماءَ والعبَّادَ في آفةِ الكبرِ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الأولىٰ : أنْ يكونَ الكبرُ مستقراً في قلبِهِ ، يرىٰ نفسَهُ خيراً مِنْ غيرِهِ ، إلا أنَّهُ يجتهدُ ويتواضعُ ، ويفعلُ فعلَ مَنْ يرىٰ غيرَهُ خيراً مِنْ نفسِهِ ، وهٰذا قدْ رسخَ في قلبِهِ شجرةُ الكبرِ ، ولكنَّهُ قطعَ أغصانَها بالكليَّةِ .

الثانيةُ : أنْ يظهرَ ذلكَ علىٰ أفعالِهِ ؛ بالترفُّعِ في المجالسِ ، والتقدُّمِ على الأقرانِ ، وإظهارِ الإنكارِ علىٰ مَنْ يقصِّرُ في حقِّهِ ، وأدنىٰ ذلكَ في العالِمِ أنْ يصعِّرَ خدَّهَ للناسِ ؛ كأنَّهُ معرضٌ عنهُمْ ، وفي العابدِ أنْ يُعبِّسَ وجهَهُ ، ويقطِّبَ جبينَهُ ؛ كأنَّهُ متنزِّهٌ عنِ الناسِ ، مستقذرٌ لهُمْ ، أوْ غضبانُ عليهِمْ ، وليسَ يعلمُ المسكينُ أنَّ الورعَ ليسَ في الجبهةِ حتىٰ تُقطَّبَ ، ولا في الوجهِ حتَّىٰ يُعبَّسَ ، ولا في الخدِّ حتَّىٰ يُصعَّرَ ، ولا في الرقبةِ حتَّىٰ تُطأطأَ ، ولا في الذيلِ حتَّىٰ يُضمَّ ، إنَّما الورعُ في القلوبِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التقوىٰ هٰهنا » وأشارَ إلىٰ صدرِهِ[1] ، فقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكرمَ الخلقِ وأتقاهُمْ ، وكانَ أوسعَهُمْ خُلُقاً ، وأكثرَهُمْ بشراً وتبسُّماً وانبساطاً .

ولذلكَ قالَ الحارثُ بنُ جَزْءٍ الزبيديُّ صاحبُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه : (ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات) .

وسلَّمَ : (يعجبُني مِنَ القُرَّاءِ كلُّ طلْقٍ مِضْحاكٍ ، فأمَّا الذي تلقاهُ ببشرٍ ويلقاكَ بعبوسٍ ، يمنُّ عليكَ بعملِهِ . . فلا أكثرَ اللهُ في المسلمينَ مثلَهُ !)(١) .

ولوْ كانَ اللهُ تعالىٰ يرضىٰ ذلكَ . . لما قالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهؤلاءِ الذينَ يظهرُ أثرُ الكبرِ علىٰ شمائلِهِمْ أحوالُهُمْ أخفُّ مِنْ أحوالِ مَنْ هوَ في الرتبةِ الثالثةِ ، وهوَ الذي يظهِرُ الكبرَ علىٰ لسانِهِ ، حتَّىٰ يدعوهُ إلى الدعوىٰ والمفاخرةِ ، والمباهاةِ وتزكيةِ النفسِ ، وحكايةِ الأحوالِ والمقاماتِ ، والتشمُّرِ لغلبةِ الغيرِ في العلمِ والعملِ .

أما العابدُ . . فإنَّهُ يقولُ في معرضِ التفاخرِ لغيرِهِ مِنَ العُبَّادِ : مَنْ هوَ ؟ وما عملُهُ ؟ ومِنْ أينَ زهدُه ؟ فيطوِّلُ اللسانَ فيهِمْ بالتنقُّصِ ، ثمَّ يثني علىٰ نفسِهِ ويقولُ : إني لمْ أفطرْ منذُ كذا وكذا ، ولا أنامُ بالليلِ ، وأختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ ، وفلانٌ ينامُ سحراً ، ولا يكثرُ القراءةَ ، وما يجري مجراهُ ، وقدْ يزكِّي نفسَهُ ضمناً فيقولُ : قصدَني فلانٌ بسوءٍ فهلكَ ولدُهُ ، أوْ أُخِذَ مالُهُ ، أوْ مرضَ ، أوْ ما يجري مجراهُ ، ويدَّعي الكرامةَ لنفسِهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٤١) ، وهو عن سعيد بن عبد الرحمـٰن بن عبد الله الزبيدي ، وبيَّن الحافظ الزبيدي هـٰذا الخطأ في « إتحافه » (٨/ ٣٧٣) حيث قال : (هكذا في سائر نسخ الكتاب ، وهو خطأ ، والصواب عبد الله بن الحارث بن جزء ، وهو الذي له صحبة) ، ولكن الرواية لحفيده لا له .

وأمَّا مباهاتُهُ . . فهوَ أنَّهُ لوْ وقعَ معَ قومٍ يصلونَ بالليلِ . . قامَ وصلَّىٰ أكثرَ ممَّا كانَ يصلِّي ، وإنْ كانوا يصبرونَ على الجوعِ . . فيكلِّفُ نفسَهُ الصبرَ ليغلبَهُمْ ، ويظهرَ لهُمْ قوَّتَهُ وعجزَهُمْ ، وكذلكَ يشتدُّ في العبادةِ ؛ خوفاً مِنْ أنْ يُقالَ : غيرُهُ أعبدُ منهُ ، أوْ أقوىٰ منهُ في دينِ اللهِ .

وأمَّا العالمُ . . فإنَّهُ يتفاخرُ ويقولُ : أنا متفنِّنٌ في العلومِ ، ومطَّلعٌ على الحقائقِ ، ورأيتُ مِنَ الشيوخِ فلاناً وفلاناً ، ومَنْ أنتَ ؟ وما فضلُكَ ؟ ومَنْ لقيتَ ؟ وما الذي سمعتَ مِنَ الحديثِ ؟ كلُّ ذلكَ ليصغِّرَهُ ويعظِّمَ نفسَهُ .

وأمَّا مباهاتُهُ . . فهوَ أنَّهُ يجتهدُ في المناظرةِ أنْ يَغلبَ ولا يُغلبَ ، ويسهرُ طولَ الليلِ والنهارِ في تحصيلِ علومٍ يتجمَّلُ بها في المحافلِ ؛ كالمناظرةِ ، والجدلِ ، وتحسينِ العبارةِ ، وتسجيعِ الألفاظِ ، وحفظِ العلومِ الغريبةِ ؛ ليُغْربَ بها على الأقرانِ ويتعظَّمَ عليهِمْ ، ويحفظُ الأحاديثَ ألفاظَها وأسانيدَها ؛ حتَّىٰ يردَّ علىٰ مَنْ أخطأَ فيها ، فيظهرَ فضلُهُ ونقصانُ أقرانِهِ ، ويفرحُ مهما أخطأَ واحدٌ منهُمْ ؛ ليردَّ عليهِ ، ويسوءُهُ إذا أصابَ وأحسنَ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يُرىٰ أنَّهُ أعظمُ منهُ .

فهٰذهِ كلُّها أخلاقُ الكبرِ وآثارُهُ التي يثمرُها التعزُّزُ بالعلمِ والعملِ ، وأينَ مَنْ يخلو عنْ جميعِ ذلكَ أوْ عنْ بعضِهِ ؟

فليتَ شِعري منِ الذي عرفَ هٰذهِ الأخلاقَ مِنْ نفسِهِ ، وسمعَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبهِ مثقالُ حبةٍ مِنْ

خردلٍ مِنْ كبرٍ »(١) . . كيفَ يستعظمُ نفسَهُ ويتكبَّرُ علىٰ غيرِهِ وهوَ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أهلِ النارِ ؟!

وإنَّما العظيمُ مَنْ خلا عنْ هـٰذا ، ومَنْ خلا عنهُ لمْ يكنْ فيهِ تعظُّمٌ وتكبُّرٌ ، والعالمُ هوَ الذي فهمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لهُ : إنَّ لكَ عندَنا قدْراً ما لمْ ترَ لنفسِكَ قدْراً ، فإنْ رأيتَ لها قدراً . . فلا قدْرَ لكَ عندَنا ، ومَنْ لمْ يعلمْ هـٰذا مِنَ الدينِ . . فاسمُ العالمِ عليهِ كذبٌ ، ومَنْ علمَهُ . . لزمَهُ ألاَّ يتكبرَ ولا يرىٰ لنفسِهِ قدراً ، فهـٰذا هوَ الكِبْرُ بالعلمِ والعملِ .

* * *

الثالثُ : التكبُّرُ بالحسَبِ والنسبِ :

فالذي لهُ نسبٌ شريفٌ يستحقرُ مَنْ ليسَ لهُ ذلكَ النسبُ وإنْ كانَ أرفعَ مِنهُ عملاً وعلماً ، وقدْ يتكبَّرُ بعضُهُمْ فيرىٰ أنَّ الناسَ لهُ موالٍ وعبيدٌ ، ويأنفُ مِنْ مخالطتِهِمْ ومجالستِهِمْ .

وثمرتُهُ على اللسانِ التفاخرُ بهِ ؛ فيقولُ لغيرِهِ : يا نَبَطيُّ ، ويا هنديُّ ، ويا أرمنيُّ ؛ مَنْ أنتَ ؟ ومَنْ أبوكَ فأنا فلانُ بنُ فلانٍ ؟ وأنَّىٰ لمثلِكَ أنْ يكلِّمَني أوْ ينظرَ إليَّ ؟ ومعَ مثلي تتكلَّمُ ؟ وما يجري مجراهُ .

وذلكَ عِرْقٌ دفينٌ في النفسِ لاينفكُّ عنهُ نسيبٌ وإنْ كانَ صالحاً وعاقلاً ، إلا أنَّهُ قدْ لا يترشَّحُ منهُ ذلكَ عندَ اعتدالِ الأحوالِ ، فإنْ غلبَهُ غضبٌ . . أطفأَ

(١) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .

ذلكَ نورَ بصيرتِهِ ، وترشَّحَ منهُ ؛ كما رُويَ عنْ أبي ذرٍّ أنَّهُ قالَ : قاولتُ رجلاً عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ لهُ : يا بنَ السوداءِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ طفُّ الصاعِ طفُّ الصاعِ ، ليسَ لابنِ البيضاءِ على ابنِ السوداءِ فضلٌ » ، فقالَ أبو ذرٍّ : فاضطجعتُ وقلتُ للرجلِ : قُمْ فطأْ علىٰ خدِّي[1] .

فانظرْ كيفَ نبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ رأىٰ لنفسِهِ فضلاً بكونِهِ ابنَ بيضاءَ ، وأنَّ ذلكَ خطأٌ وجهلٌ ، وانظرْ كيفَ تابَ وقلعَ مِنْ نفسِهِ شجرةَ الكبرِ بأخمصِ قدمِ مَنْ تكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ عرفَ أنَّ العزَّ لا يقمعُهُ إلا الذُّلُّ .

ومِنْ ذلكَ ما رُويَ أنَّ رجلينِ تفاخرا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : أنا فلانُ بنُ فلانٍ ، فمَنْ أنتَ لا أمَّ لكَ ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « افتخرَ رجلانِ عندَ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ أحدُهُما : أنا فلانُ بنُ فلانٍ حتَّىٰ عدَّ تسعةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : قلْ للذي افتخرَ : بلِ التسعةُ مِنْ أهلِ النارِ وأنتَ عاشرُهُمْ »[2] .

(١) كذا في « الرعاية » (ص٣٩٣) ، ورواه بنحوه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٤٥٧) وفيه نعته بابن الأمة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « طفُّ الصاعِ » ـ كذا بالإضافة ـ كناية عن قرب البعض من البعض ؛ إذ طفُّ المكيال مقاربة امتلائه ، وانظر « مرقاة المفاتيح » (٩/ ١٣١) في بيان تمام معناه .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص٣٩٤) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٧٧١) ، ورواه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٤١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليدَعَنَّ قومٌ الفخرَ بآبائِهِمْ وقدْ صاروا فحماً في جهنَّمَ أوْ ليكونُنَّ أهونَ على اللهِ مِنَ الجِعْلانِ التي تدوفُ بآنافِها القذَرَ »[1] .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : التفاخرُ بالجمالِ :

وذلكَ أكثرُ ما يجري بينَ النساءِ ، ويدعو ذلكَ إلى التنقُّصِ والثلبِ ، والغيبةِ ، وذكرِ عيوبِ الناسِ .

ومِنْ ذلكَ : ما رُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : دخلَتِ امرأةٌ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ بيدي هٰكذا ؛ أيْ : إنَّها قصيرةٌ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قدِ اغتبتِها »[2] .

وهٰذا منشؤُهُ خفيُّ الكبرِ ؛ لأنَّها لوْ كانَتْ أيضاً قصيرةً .. لما ذكرَتْها بالقصرِ ؛ فكأنَّها أُعجبَتْ بقامتِها ، واستقصرَتِ المرأةَ في جنبِ نفسِها ، فقالَتْ ما قالَتْ .

❁ ❁ ❁

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٣٩٤) ، وبنحوه رواه أبو داوود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) ، وتدوف : تخلط ، حتىٰ تجعله كراتٍ تدخرها .

(٢) رواه أبو داوود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٢٠٨) واللفظ له .

الخامسُ : الكبرُ بالمالِ :

وذلكَ يجري بينَ الملوكِ في خزائنِهم ، وبينَ التجَّارِ في بضائعِهِمْ ، وبينَ الدَّهَّاقينَ في أراضيهِمْ ، وبينَ المتجمِّلينَ في لباسِهِمْ ، وخيولِهِمْ ومراكبِهِمْ ، فيستحقرُ الغنيُّ الفقيرَ ، ويتكبَّرُ عليهِ ويقولُ لهُ : أنتَ مُكْدٍ ومسكينٌ ، وأنا لوْ أردتُ . . لاشتريتُ مثلَكَ ، واستخدمتُ مَنْ هوَ فوقَكَ ، ومَنْ أنتَ ؟ وما معَكَ ؟ وأساسُ بيتي يساوي أكثرَ مِنْ جميعِ مالِكَ ، وأنا أنفقُ في اليوم ما لا تأكلُهُ في السنةِ ، وكلُّ ذلكَ لاستعظامِهِ للغنىٰ واستحقارِهِ للفقرِ ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ منهُ بآفةِ الغنىٰ وفضيلةِ الفقرِ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ ، حتَّىٰ أجابَهُ فقالَ : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾ وكانَ ذلكَ تكبراً منهُ بالمالِ والولدِ ، ثمَّ بيَّنَ اللهُ تعالىٰ عاقبةَ أمرِهِ بقولِهِ : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾ .

ومِنْ ذلكَ : تكبُّرُ قارونَ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ إخباراً عن تكبُّرِهِ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾ حتَّىٰ قالَ قومٌ : ﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ .

❊ ❊ ❊

السادسُ : الكبرُ بالقوةِ وشدةِ البطشِ ، والتكبُّرُ بهِ علىٰ أهلِ الضعفِ .

❊ ❊ ❊

السابعُ : التكبُّرُ بالأتباعِ والأنصارِ ، والتلامذةِ والغلمانِ ، وبالعشيرةِ والأقاربِ والبنينَ :

ويجري ذلكَ بينَ الملوكِ في المكاثرةِ بالجنودِ ، وبينَ العلماءِ في المكاثرةِ بالمستفيدينَ .

وبالجملةِ : فكلُّ ما هوَ نعمةٌ ، وأمكنَ أنْ يُعتقدَ كمالاً وإنْ لمْ يكنْ في نفسِهِ كمالاً . . أمكنَ أنْ يُتكبَّرَ بهِ ، حتَّىٰ إنَّ المخنَّثَ ليتكبَّرُ علىٰ أقرانِهِ بزيادةِ معرفتِهِ وقدرتِهِ في صنعةِ المخنَّثينَ ؛ لأنَّهُ يرىٰ ذلكَ كمالاً ، فيفتخرُ بهِ وإنْ لمْ يكنْ فعلُهُ إلا نكالاً ، وكذلكَ الفاسقُ قدْ يفتخرُ بكثرةِ الشربِ وكثرةِ الفجورِ بالنسوانِ والغلمانِ ويتكبَّرُ بهِ ؛ لظنِّهِ أنْ ذلكَ كمالٌ وإنْ كانَ مخطئاً فيهِ .

فهٰذهِ مجامعُ ما يتكبَّرُ بهِ العبادُ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، فيتكبَّرُ مَنْ يُدلي بشيءٍ منهُ علىٰ مَنْ لا يُدلي بهِ ، أوْ علىٰ مَنْ يُدلي بما هوَ دونَهُ في اعتقادِهِ ، وربَّما كانَ مثلَهُ أوْ فوقَهُ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ كالعالمِ الذي يتكبَّرُ بعلمِهِ علىٰ مَنْ هوَ أعلمُ منهُ ؛ لظنِّهِ أنَّهُ هوَ الأعلمُ ، ولحسنِ اعتقادِهِ في نفسِهِ ، نسألُ اللهُ العونَ بلطفِهِ ورحمتهِ ، إنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

❋ ❋ ❋

بيان البواعث على الكبر وأسبابه المهيّجة له

اعلمْ : أنَّ الكبْرَ خُلُقٌ باطنٌ ، وأمَّا ما يظهرُ مِنَ الأخلاقِ والأفعالِ . . فهيَ ثمرتُهُ ونتيجتُهُ ، وينبغي أنْ تُسمَّىٰ تكبُّراً ، ويُخصُّ اسمُ الكبرِ بالمعنى الباطنِ الذي هوَ استعظامُ النفسِ ورؤيةُ قدرِها فوقَ قدْرِ الغيرِ .

وهٰذا الباطنُ لهُ موجبٌ واحدٌ ، وهوَ العُجْبُ الذي يتعلَّقُ بالمتكبِّرِ كما سيأتي معناهُ ، فإنَّهُ إذا أُعجِبَ بنفسِهِ ، وبعلمِهِ وعملِهِ ، أوْ بشيءٍ من أسبابِهِ . . استعظمَ نفسَهُ وتكبَّرَ .

وأمَّا التكبُّرُ الظاهرُ . . فأسبابُهُ ثلاثةٌ : سببٌ في المتكبِّرِ ، وسببٌ في المتكبَّرِ عليهِ ، وسببٌ فيما يتعلَّقُ بغيرِهِما .

أمَّا السببُ الذي في المتكبِّرِ . . فهوَ العجْبُ ، والذي يتعلَّقُ بالمتكبَّرِ عليهِ هوَ الحقدُ والحسدُ ، والذي يتعلَّقُ بغيرِهِما هوَ الرياءُ ؛ **فتصيرُ الأسبابُ بهٰذا الاعتبارِ أربعةً : العجبُ ، والحقدُ ، والحسدُ ، والرياءُ .**

أمَّا العُجْبُ . . فقد ذكرنا أنَّهُ يورثُ الكبْرَ الباطنَ ، والكبرُ الباطنُ يثمرُ التكبُّرَ الظاهرَ في الأعمالِ والأقوالِ والأحوالِ .

وأمَّا الحقدُ . . فإنَّهُ قدْ يحملُ على التكبُّرِ مِنْ غيرِ عجبٍ ؛ كالذي يتكبَّرُ علىٰ مَنْ يرىٰ أنَّهُ مثلُهُ أوْ فوقَهُ ، ولكنْ قدْ غضبَ عليهِ بسببٍ سبقَ منهُ ، فأورثَهُ الغضبُ حقداً ، ورسخَ في قلبِهِ بغضُهُ ؛ فهوَ لذلكَ لا تطاوعُهُ نفسُهُ أنْ

يتواضعَ لهُ وإنْ كانَ عندَهُ مستحقاً للتواضعِ ، فكمْ مِنْ رَذْلٍ لا تطاوعُهُ نفسُهُ على التواضعِ لواحدٍ مِنَ الأكابرِ لحقدِهِ عليهِ ، أو بغضِهِ لهُ ، ويحملُهُ ذلكَ علىٰ ردِّ الحقِّ إذا جاءَ مِنْ جهتِهِ ، وعلى الأنفةِ مِنْ قبولِ نصحِهِ ، وعلىٰ أنْ يجتهدَ في التقدُّمِ عليهِ وإنْ علمَ أنَّهُ لا يستحقُّ ذلكَ ، وعلىٰ ألاَّ يستحلَّهُ وإنْ ظلمَهُ ، ولا يعتذرَ إليهِ وإنْ جنىٰ عليهِ ، ولا يسألَهُ عمَّا هوَ جاهلٌ بهِ .

وأمَّا الحسدُ . . فإنَّهُ أيضاً يوجبُ البغضَ للمحسودِ وإنْ لمْ يكنْ مِنْ جهتِهِ إيذاءٌ وسببٌ يقتضي الغضبَ والحقدَ ، ويدعو الحسدُ أيضاً إلىٰ جحدِ الحقِّ ، حتَّىٰ يمتنعُ مِنْ قبولِ النصحِ وتعلُّمِ العلمِ ، فكمْ مِنْ جاهلٍ يشتاقُ إلى العلمِ وقدْ بقيَ في رذيلةِ الجهلِ ؛ لاستنكافِهِ أنْ يستفيدَ مِنْ واحدٍ مِنْ أهلِ بلدِهِ أوْ أقاربِهِ ؛ حسداً وبغياً عليهِ ، فهوَ يعرضُ عنهُ ويتكبَّرُ عليهِ معَ معرفتِهِ بأنَّهُ يستحقُّ التواضعَ بفضلِ علمِهِ ، ولكنَّ الحسدَ يبعثُهُ علىٰ أنْ يعاملَهُ بأخلاقِ المتكبِّرينَ وإنْ كانَ في باطنِهِ ليسَ يرىٰ نفسَهُ فوقَهُ .

وأمَّا الرياءُ . . فهوَ أيضاً يدعو إلىٰ أخلاقِ المتكبِّرينَ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ ليناظرُ مَنْ يعلمُ أنَّهُ أفضلُ منهُ ، وليسَ بينَهُ وبينَهُ معرفةٌ ولا محاسدةٌ ولا حقدٌ ، ولكنْ يمتنعُ مِنْ قبولِ الحقِّ منهُ ، ولا يتواضعُ لهُ في الاستفادةِ ؛ خيفةً مِنْ أنْ يقولَ الناسُ : إنَّهُ أفضلُ منهُ ، فيكونُ باعثُهُ على التكبُّرِ عليهِ الرياءَ المجرَّدَ ، ولوْ خلا معَهُ بنفسِهِ . . لكانَ لا يتكبَّرُ عليهِ ، وأمَّا الذي يتكبَّرُ بالعجبِ أوِ الحسدِ أوِ الحقدِ . . فإنَّهُ يتكبَّرُ أيضاً عندَ الخلوةِ بهِ مهما لمْ يكنْ معهُما ثالثٌ ، وكذلكَ قدْ ينتمي إلىٰ نسبٍ شريفٍ كاذباً وهوَ يعلمُ أنَّهُ كاذبٌ

ثمَّ يتكبَّرُ بهِ علىٰ مَنْ ليسَ ينتسبُ إلىٰ ذلكَ النسبِ ، ويترفَّعُ عليهِ في المجالسِ ، ويتقدَّمُ عليهِ في الطرقِ ، ولا يرضىٰ بمساواتِهِ في الكرامةِ والتوقيرِ ، وهوَ عالمٌ باطناً بأنَّهُ لا يستحقُّ ذلكَ ، ولا كبْرَ في باطنِهِ ؛ لمعرفتِهِ بأنَّهُ كاذبٌ في دعوى النسبِ ، ولكنْ يحملُهُ الرياءُ علىٰ أفعالِ المتكبِّرينَ .

وكأنَّ اسمَ المتكبِّرِ إنَّما يُطلقُ في الأكثرِ علىٰ مَنْ يفعلُ هـٰذهِ الأفعالَ عنْ كبْرٍ في الباطنِ صادرٍ عَنِ العُجْبِ والنظرِ إلى الغيرِ بعينِ الاستحقارِ ، وهوَ إنْ سُمِّيَ متكبِّراً فلأجلِ التشبُّهِ بأفعالِ المتكبِّرينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التّواضع والتّكبّر

اعلمْ : أنَّ التكبُّرَ يظهرُ في شمائلِ الرجلِ ؛ كصَعَرٍ في وجهِهِ ، ونظرِهِ شَزْراً ، وإطراقِهِ رأسَهُ ، وجلوسِهِ متربِّعاً أو متكئاً ، وفي أقوالِهِ حتَّىٰ في صوتِهِ ونغمتِهِ ، وصيغتِهِ في الإيرادِ ، ويظهرُ في مِشْيتِهِ وتبخترِهِ ، وقيامِهِ وجلوسِهِ ، وفي حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وفي تعاطيهِ لأفعالِهِ ، وفي سائرِ تقلُّباتِهِ في أحوالِهِ وأقوالِهِ وأعمالِهِ .

فمِنَ المتكبرينَ مَنْ يجمعُ ذلكَ كلَّهُ ، ومنهُمْ مَنْ يتكبَّرُ في بعضٍ ويتواضعُ في بعضٍ .

❊ ❊ ❊

فمنها : التكبُّرُ بأنْ يحبَّ قيامَ الناسِ لهُ أوْ بينَ يديهِ ، وقدْ قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ . . فلينظرْ إلىٰ رجلٍ قاعدٍ وبينَ يديهِ قومٌ قيامٌ) .

وقالَ أنسٌ : لمْ يكنْ شخصٌ أحبَّ إليهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكانوا إذا رأَوهُ . . لمْ يقوموا لهُ ؛ لما يعلمونَ مِنْ كراهتِهِ لذلكَ)[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٥٤) .

ومنها : ألاَّ يمشيَ إلا ومعَهُ غيرُهُ يمشي خلفَهُ ، قالَ أبو الدرداءِ : (لا يزالُ العبدُ يزدادُ مِنَ اللهِ بُعداً ما مُشِيَ خلفَهُ)[1] .

وكانَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ لا يُعرفُ مِنْ عبيدِهِ ؛ إذْ كانَ لا يتميَّزُ عنهُمْ في صورةٍ ظاهرةٍ .

ومشىٰ قومٌ خلفَ الحسنِ البصريِّ ، فمنعَهُمْ وقالَ : (ما يُبقي هـٰذا مِنْ قلبِ العبدِ ؟) .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأوقاتِ يمشي معَ بعضِ الأصحابِ ، فيأمرُهُمْ بالتقدُّمِ ، ويمشي في غمارِهِمْ[2] ؛ إمَّا لتعليمِ غيرِهِ ، أوْ لينفيَ عنْ نفسِهِ وساوسَ الشيطانِ بالكبْرِ والعجبِ ، كما خلعَ الثوبَ الجديدَ في الصلاةِ وأبدلَهُ بالخليعِ[3] ؛ لأحدِ هـٰذينِ المعنيينِ .

❊ ❊ ❊

ومنها : ألاَّ يزورَ غيرَهُ وإنْ كانَ يحصلُ مِنْ زيارتِهِ خيرٌ لغيرِهِ في الدينِ ، وهوَ ضدُّ التواضعِ ، رُوِيَ أنَّ سفيانَ الثوريَّ قدمَ الرملةَ ، فبعثَ إليهِ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : أنْ تعالَ فحدِّثْنا ، فجاءَهُمْ سفيانُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٤) .
(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٥) .
(٣) قال الحافظ العراقي : (المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق ، أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية) . « إتحاف » (٨/ ٣٧٨ـ ٣٧٩) . **قلت** : أما الأول.. فرواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) ، وأما الثاني.. فرواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/ ٦٢) .

إسحاقَ ؛ تبعثُ إليهِ بمثلِ هـٰذا ؟! فقالَ : أردتُ أنْ أنظرَ كيفَ تواضعُهُ[(١)] .

❊ ❊ ❊

ومنها : أن يستنكفَ مِنْ جلوسِ غيرِهِ بالقربِ منهُ إلاَّ أنْ يجلسَ بينَ يديهِ ، والتواضعُ خلافُهُ ، قالَ ابنُ وهبٍ : جلستُ إلىٰ عبدِ العزيزِ بنِ أبي رَوَّادٍ ، فمسَّ فخذي فخذَهُ ، فنحَّيتُ نفسي عنهُ ، فأخذ بثيابي فجرَّني إلىٰ نفسِهِ وقالَ لي : لِمَ تفعلونَ بي ما تفعلونَ بالجبابرةِ ، وإنِّي لا أعرفُ رجلاً منكُمْ شرّاً منِّي ؟!

وقالَ أنسٌ : كانَتِ الوليدةُ مِنْ ولائدِ المدينةِ تأخذُ بيدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلا ينزعُ يدَهُ مِنْ يدِها حتَّىٰ تذهبَ بهِ حيثُ شاءَتْ[(٢)] .

❊ ❊ ❊

ومنها : أنْ يتوقَّىٰ مجالسةَ المرضىٰ والمعلولينَ ، ويتحاشىٰ عنهُمْ ، وهوَ مِنَ الكبرِ ؛ دخلَ رجلٌ عليهِ جدريٌّ قدْ تقشَّرَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ ناسٌ منْ أصحابِهِ يأكلونَ ، فما جلسَ إلىٰ أحدٍ إلاَّ قامَ مِنْ جنبِهِ ، فأجلسَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بجنبِهِ[(٣)] .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لا يحبسُ عنْ طعامِهِ مجذوماً

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٦٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٢) معلقاً ، ورواه ابن ماجه (٤١٧٧) موصولاً ، ولفظه هنا رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٠٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٨١) .

ولا أبرصَ ولا مبتلىً إلا أقعدَهُمْ علىٰ مائدتِهِ(١) .

＊　＊　＊

ومنها : ألاَّ يتعاطىٰ بيدِهِ شغلاً في بيتِهِ ، والتواضعُ خلافُهُ ؛ رُويَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أتاهُ ليلةً ضيفٌ وكانَ يكتبُ ، فكادَ السراجُ يطفأُ ، فقالَ الضيفُ : أقومُ إلى المصباحِ فأصلحَهُ ؟ فقالَ : ليسَ مِنْ كرمِ الرجلِ أنْ يستخدمَ ضيفَهُ ، قالَ : أفأُنبِّهُ الغلامَ؟ قالَ : هيَ أوَّلُ نومةٍ نامَها ، فقامَ وأخذَ البطَّةَ وملأَ المصباحَ زيتاً(٢)، فقالَ الضيفُ : قمتَ أنتَ بنفسِكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! فقالَ : ذهبتُ وأنا عمرُ ، ورجعتُ وأنا عمرُ ، ما نقصَ منِّي شيءٌ ، وخيرُ الناسِ مَنْ كانَ عندَ اللهِ متواضعاً(٣) .

＊　＊　＊

ومنها : ألاَّ يأخذَ متاعَهُ ويحملَهُ إلىٰ بيتِهِ ، وهوَ خلافُ عادةِ المتواضعينَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُ ذلكَ(٤) ، وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ :　　[من الرجز]

لا يَنْقُصُ ٱلْكامِلَ مِنْ كمالِهِ　　ما جَرَّ مِنْ نَفْعٍ إلىٰ عيالِهِ(٥)

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) .
(٢) البطة : إناء كالقارورة .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٩١٩٤) .
(٤) روىٰ ذلك أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٦٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٩٠) .
(٥) وسياق الخبر في « القوت » (٢/ ٢٣٣) : (وعلي رضي الله عنه كان يحمل التمر =

وكانَ أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ وهوَ أميرٌ يحملُ سطلاً لهُ مِنْ خشبٍ إلى الحمامِ[1] .

وقالَ ثابتُ بنُ أبي مالكٍ : رأيتُ أبا هريرةَ أقبلَ مِنَ السوقِ يحملُ حزمةَ حطبٍ وهوَ يومئذٍ خليفةٌ لمروانَ ، فقالَ : أوسعِ الطريقَ للأميرِ يا بنَ أبي مالكٍ[2] .

وعنِ الأصبغِ بنِ نباتةَ قالَ : (كأنّي أنظرُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ معلّقاً لحماً في يدِهِ اليسرىٰ ، وفي يدِهِ اليمنى الدِّرَّةُ يدورُ في الأسواقِ حتّىٰ دخلَ رحلَهُ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ علياً رضيَ اللهُ عنهُ اشترىٰ لحماً بدرهمٍ فحملَهُ في ملحفتِهِ ، فقلتُ لهُ : أحملُ عنكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : لا ؛ أبو العيالِ أحقُّ أنْ يحملَ[4] .

* * *

= والملح في ثوبه ويده ويقول . . .) وذكر البيت ، وانظر « ديوان سيدنا علي » (ص٢١٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٣١) عن محمد بن أبي محمد بن كناسة ، وانظر « الأغاني » (١٣/ ٤٨٥١) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٨٤) ، ونبّه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٨٠) إلىٰ أن ابن أبي مالك هو ثعلبة ، وليس ثابتاً .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٢) ، وفيه : (تمراً) بدل (لحماً).

ومنها : اللباسُ ؛ إذْ يظهرُ بهِ التكبُّرُ والتواضعُ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البذاذةُ مِنَ الإيمانِ »[١] .

قالَ هارونُ : سألتُ مَعْناً عنِ البذاذةِ فقالَ : هوَ الدونُ مِنَ اللباسِ[٢] .

وقالَ زيدُ بنُ وهبٍ : (رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ خرجَ إلى السوقِ وبيدِهِ الدرَّةُ وعليهِ إزارٌ فيهِ أربعَ عشرةَ رقعةً بعضُها مِنْ أدمٍ)[٣] .

وعُوتبَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في إزارٍ مرقوعٍ فقالَ : (يقتدي بهِ المؤمنُ ، ويخشعُ لهُ القلبُ)[٤] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (جودةُ الثيابِ خيلاءُ القلبِ)[٥] .

وقالَ طاووسٌ : (إنِّي لأغسلُ ثوبيَّ هٰذينِ ، فأنكرُ قلبي ما داما نقيَّينِ)[٦] .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ كانَ قبلَ أنْ يُستخلَفَ تُشترىٰ لهُ الحلَّةُ بألفِ دينارٍ فيقولُ : ما أجودَها ! لولا خشونةٌ فيها ، فلمَّا استُخلِفَ . .

---

(١) رواه أبو داوود (٤١٦١) ، وابن ماجه (٤١١٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٢٩) عقب روايته للحديث .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٣٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٥) .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٦) .

كان يُشترىٰ لهُ الثوبُ بخمسةِ دراهمَ فيقولُ : ما أجودَهُ ! لولا لينُهُ ، فقيلَ لهُ : أينَ لباسُكَ ومركبُكَ وعطرُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ فقالَ : إنَّ لي نفساً ذوَّاقةً تواقةً ، وإنَّها لمْ تذقْ مِنَ الدنيا طبقةً إلا تاقَتْ إلى الطبقةِ التي فوقَها ، حتَّىٰ إذا ذاقَتِ الخلافةَ وهيَ أرفعُ الطبقاتِ . . تاقَتْ إلىٰ ما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وقالَ سعيدُ بنُ سويدٍ : صلَّىٰ بنا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الجمعةَ ، ثمَّ جلسَ وعليهِ قميصٌ مرقوعُ الجيبِ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ ، فقالَ لهُ رجلٌ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أعطاكَ فلوْ لبستَ ، فنكسَ رأسَهُ مليّاً ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فقالَ : إنَّ أفضلَ القصدِ عندَ الجدَةِ ، وإنَّ أفضلَ العفوِ عندَ القدرةِ[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ زينةَ الدنيا ووضعَ ثياباً حسنةً تواضعاً للهِ وابتغاءَ وجهِهِ . . كانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يدَّخرَ لهُ مِنْ عبقريِّ الجنَّةِ »[3] .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (جودةُ الثيابِ خيلاءُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٢٣ ، ٣٣٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٤٤) .

القلبِ)[١] ، وقدْ سُئلَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الجمالِ في الثيابِ هلْ هوَ مِنَ الكبرِ ؟ فقالَ : « لا ، ولكنْ مَنْ سَفِهَ الحقَّ وغَمَصَ الناسَ »[٢] ، فكيفَ طريقُ الجمعِ بينَهُما ؟

فاعلمْ : أنَّ الثوبَ الجيِّدَ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ أنْ يكونَ مِنَ التكبُّرِ في حقِّ كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ ، وهوَ الذي أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ الذي عرفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حالِ ثابتِ بنِ قيسٍ ؛ إذْ قالَ : إنِّي امرؤٌ حُبِّبَ إليَّ مِنَ الجمالِ ما ترىٰ[٣] ، فعرفَ أنَّ ميلَهُ إلى النظافةِ وجودةِ الثيابِ ، لا ليتكبَّرَ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّهُ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ أنْ يكونَ مِنَ الكبْرِ ، وقدْ يكونُ ذلكَ مِنَ الكبرِ ؛ كما أنَّ الرضا بالثوبِ الدونِ قدْ يكونُ مِنَ التواضعِ .

وعلامةُ المتكبِّرِ : أنْ يطلبَ التجمُّلَ إذا رآهُ الناسُ ، ولا يباليَ إذا انفردَ بنفسِهِ كيفَ كانَ ، وعلامةُ طلبِ الجمالِ : أنْ يحبَّ الجمالَ في كلِّ شيءٍ ولوْ في خلوتِهِ ، وحتَّىٰ في سُتُورِ دارِهِ ، فذلكَ ليسَ مِنَ التكبُّرِ .

فإذا انقسمَتِ الأحوالُ.. نُزِّلَ قولُ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ بعضِ

---

(١) تقدم قريباً .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٣٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٤٦٧) ، وهو عند مسلم (٩١) بلفظ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

(٣) هو الحديث المذكور قبله .

الأحوالِ ؛ على أنَّ قولَهُ : (هوَ خيلاءُ القلبِ) يعني : قدْ تورثُ خيلاءَ في القلبِ ، وقولَ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليسَ مِنَ الكبرِ » يعني : أنَّ الكبرَ لا يوجبُهُ ، ويجوزُ ألاَّ يوجبَهُ الكبرُ ، ثمَّ يكونُ هوَ مورثاً للكبرِ .

وبالجملةِ : فالأحوالُ تختلفُ في مثلِ هٰذا ، والمحبوبُ الوسطُ مِنَ اللباسِ ، الذي لا يوجبُ شهرةً بالجودةِ ولابالرداءةِ ، وقد قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلوا واشربوا والْبَسوا وتصدَّقوا في غيرِ سَرَفٍ ولا مَخِيلَةٍ ، إنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يرىٰ أثرَ نعمتِهِ علىٰ عبدِهِ »[١] .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : (الْبَسوا ثيابَ الملوكِ ، وأميتوا قلوبَكُمْ بالخشيةِ)[٢] ، وإنَّما خاطبَ بهٰذا قوماً يطلبونَ التكبُّرَ بثيابِ أهلِ الصلاحِ ، وقدْ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (ما لكم تأتوني وعليكُمْ ثيابُ الرهبانِ وقلوبُكُمْ قلوبُ الذئابِ الضواري ؟! الْبَسوا ثيابَ الملوكِ ، وألينوا قلوبَكُمْ بالخشيةِ)[٣] .

* * *

ومنها[٤] : أنْ يتواضعَ بالاحتمالِ إذا سُبَّ وأُوذيَ وأُخِذَ حقُّهُ ، فذلكَ هوَ

---

(١) رواه بتمامه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٣٥) ، وصدره رواه النسائي (٥/ ٧٩) ، وابن ماجه (٣٦٠٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٥٣) .
(٤) أي : من أخلاق المتواضعين . « إتحاف » (٨/ ٣٨٣) .

الأصلُ وقدْ أوردنا ما نُقِلَ عنِ السلفِ مِنِ احتمالِ الأذىٰ في كتابِ الغضبِ والحسدِ .

وبالجملةِ : فمجامعُ حسنِ الأخلاقِ والتواضعِ سيرةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبهِ ينبغي أنْ يُقتدىٰ ، ومنهُ ينبغي أنْ يُتعلَّمَ .

وقدْ قالَ أبو سلمةَ[1] : قلتُ لأبي سعيدٍ الخدريِّ : ما ترىٰ فيما أحدثَ الناسُ مِنَ الملبسِ والمشربِ والمركبِ والمطعمِ ؟

فقالَ : يا بنَ أخي ؛ كُلْ للهِ ، واشربْ للهِ ، والبَسْ للهِ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ ذلكَ دخلَهُ زهوٌ أوْ مباهاةٌ أوْ رياءٌ أو سمعةٌ . . فهوَ معصيةٌ وسرَفٌ ، وعالجْ في بيتِكَ مِنَ الخدمةِ ما كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعالجُ في بيتِهِ ، كانَ يعلفُ الناضحَ ، ويعقلُ البعيرَ ، ويقمُّ البيتَ ، ويحلبُ الشاةَ ، ويخصِفُ النعلَ ، ويرقعُ الثوبَ ، ويأكلُ معَ خادمِهِ ، ويطحنُ عنهُ إذا أعيا ، ويشتري الشيءَ مِنَ السوقِ ، ولا يمنعُهُ الحياءُ أنْ يعلِّقَهُ بيدِهِ ، أوْ يجعلَهُ في طرفِ ثوبِهِ ، وينقلبُ إلىٰ أهلِهِ ، يصافحُ الغنيَّ والفقيرَ ، والصغيرَ والكبيرَ ، ويسلِّمُ مبتدئاً علىٰ كلِّ مَنِ استقبلَهُ ؛ مِنْ صغيرٍ أوْ كبيرٍ ، أسودَ أوْ أحمرَ ، حرٍّ أوْ عبدٍ مِنْ أهلِ الصلاةِ ، ليسَتْ لهُ حُلَّةٌ لمدخلِهِ وحلةٌ لمخرجِهِ ، لا يستحيي مِنْ أنْ يجيبَ إذا دُعيَ وإنْ كانَ أشعثَ أغبرَ ، ولا يحقرُ ما دُعِيَ إليهِ وإنْ لمْ يجدْ إلا

---

(١) في النسخ : (ابن أبي سلمة) ، وأبو سلمة هو ابن عبد الرحمـٰن بن عوف كما سيأتي .

حَشَفَ الدَّقَلِ ، لا يرفعُ غداءً لعشاءٍ ، ولا عشاءً لغداءٍ ، هيِّنُ المؤنةِ ، ليِّنُ الخُلُقِ ، كريمُ الطبيعةِ ، جميلُ المعاشرةِ ، طليقُ الوجهِ ، بسَّامٌ مِنْ غيرِ ضحكٍ ، محزونٌ مِنْ غيرِ عبوسٍ ، شديدٌ مِنْ غيرِ عنفٍ ، متواضعٌ مِنْ غيرِ مذلَّةٍ ، جوادٌ مِنْ غيرِ سَرَفٍ ، رحيمٌ لكلِّ ذي قربىٰ ومسلمٍ ، رقيقُ القلبِ ، دائمُ الإطراقِ ، لم يبشَمْ[1] قطُّ مِنْ شبعٍ ، ولمْ يمدَّ يدَهُ إلىٰ طمعٍ .

قالَ أبو سلمةَ : فدخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فحدَّثتُها بما قالَ أبو سعيدٍ في زهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَتْ : ما أخطأَ منهُ حرفاً ، ولقدْ قصَّرَ ؛ إذْ ما أخبركَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يمتلئْ قطُّ شبعاً ، ولمْ يبثَّ إلىٰ أحدٍ شكوىٰ ، وإنْ كانَتِ الفاقةُ لأحبَّ إليهِ مِنَ اليسارِ والغنىٰ ، وإنْ كانَ ليظلُّ جائعاً يلتوي ليلتَهُ حتَّىٰ يصبحَ ، فما يمنعُهُ ذلكَ عنْ صيامِ يومِهِ ، ولوْ شاءَ أنْ يسألَ ربَّهُ فيُؤتىٰ بكنوزِ الأرضِ وثمارِها ورغدِ عيشِها مِنْ مشارقِها ومغاربِها . . لفعلَ ، وربَّما بكيتُ رحمةً لهُ ممَّا أُوتي مِنَ الجوعِ ، فأمسحُ بطنَهُ بيدي ، وأقولُ : نفسي لكَ الفداءُ ؛ لوْ تبلَّغتَ مِنَ الدنيا بقدْرِ ما يقوتُكَ ويمنعُكَ مِنَ الجوعِ ، فيقولُ : « يا عائشةُ ؛ إخواني مِنْ أولي العزمِ مِنَ الرسلِ قدْ صبروا علىٰ ما هوَ أشدُّ مِنْ هـٰذا ، فمضَوا علىٰ حالِهِمْ ، وقدموا علىٰ ربِّهِمْ ، فأكرمَ مآبَهُمْ ، وأجزلَ ثوابَهُمْ ، فأجدُني أستحيي إنْ ترفَّهتُ في معيشتي أنْ يقصرَ بي دونَهُمْ ، فأصبرُ أياماً يسيرةً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ ينقصَ حظِّي

(١) في (د ، ك) : (لم يتجشأ) بدل (لم يبشم) .

غداً في الآخرةِ ، وما مِنْ شيءٍ أحبَّ إليَّ مِنَ اللحوقِ بإخواني وأخلائي » ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فواللهِ ؛ ما استكملَ بعدَ ذلكَ جمعةً حتَّىٰ قبضَهُ اللهُ عز وجلّ[1] .

فمَا نُقلَ مِنْ أحوالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجمعُ جملةَ أخلاقِ المتواضعينَ ، فمَنْ طلَبَ التواضعَ . . فليقتدِ بهِ ، ومَنْ رأىٰ نفسَهُ فوقَ محلِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولَمْ يرضَ لنفسِهِ بما رضيَ هوَ بهِ . . فما أشدَّ جهلَهُ !! فلقَدْ كانَ أعظمَ خلقِ اللهِ منصباً في الدنيا والدينِ ، فلا عزَّ ولا رفعةَ إلا في الاقتداءِ بهِ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ، فلا نطلبُ العزَّ في غيرِهِ) لمَّا عُوتبَ في بذاذةِ هيئتِهِ عندَ دخولِهِ الشامَ[2] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (اعلمْ أنَّ للهِ عباداً يُقالُ لهُمُ الأبدالُ ، خلفٌ مِنَ الأنبياءِ ، همْ أوتادُ الأرضِ ، فلمَّا انقضَتِ النبوةُ . . أبدلَ اللهُ مكانَهُمْ قوماً مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لمْ يفضلوا الناسَ بكثرةِ صومٍ ولا صلاةٍ ولا حسنِ حليةٍ ، ولكنْ بصدقِ الورعِ ، وحسنِ النيةِ ، وسلامةِ الصدرِ لجميعِ المسلمينَ ، والنصيحةِ لهُمْ ؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، بصبرٍ حسنٍ[3] ،

---

(١) ساق الخبر بتمامه ومرفوعه الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٧/ ٦٧) عن أبي الحسن بن الضحاك ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمـٰن بن عوف ، وقال : (في سنده ميسرة بن عبد ربه) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦١) .

(٣) في (ب) : (بغير تجبر) ، وفي (ب ، ك ، م) : (بصبر ثخين) بدل (بصبر حسن) .

وتواضعٍ في غيرِ مذلَّةٍ ، وهمْ قومٌ اصطفاهُمُ اللهُ واستخلصَهُمْ لنفسِهِ ، وهمْ أربعونَ صدِّيقاً ، أوْ ثلاثونَ رجلاً ، قلوبُهُمْ علىٰ مِثْلِ يقينِ إبراهيمَ خليلِ الرحمـٰنِ عليهِ السلامُ ، لا يموتُ الرجلُ منهُمْ حتَّىٰ يكونَ اللهُ قدْ أنشأَ مَنْ يخلفُهُ .

واعلمْ يا بنَ أخي أنَّهُمْ لا يلعنونَ شيئاً ، ولا يؤذونَهُ ، ولا يحقرونهُ ، ولا يتطاولونَ عليهِ ، ولا يحسدونَ أحداً ، ولا يحرصونَ على الدنيا ، همْ أطيبُ الناسِ خُبْراً ، وألينُهُمْ عريكةً ، وأسخاهُمْ نفساً ، علامتُهُمُ السخاءُ ، وسجيتهُمُ البشاشةُ ، وصفتُهُمُ السلامةُ ، ليسوا اليومَ في خشيةٍ وغداً في غفلةٍ ، ولكنْ دائمونَ علىٰ حالِهِمُ الظاهرِ ، وهمْ فيما بينَهُمْ وبينَ ربِّهِمْ لا تدركُهُمُ الرياحُ العواصفُ ، ولا الخيلُ المجراةُ ، قلوبُهُمْ تصعدُ ارتياحاً إلى اللهِ ، واشتياقاً إليهِ ، وقدماً في استباقِ الخيراتِ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

قالَ الراوي : فقلتُ : يا أبا الدرداءِ ؛ ما سمعتُ بصفةٍ أشدَّ عليَّ مِنْ هـٰذهِ الصفةِ ، فكيفَ لي أنْ أبلغَها ؟ فقالَ : ما بينَكَ وبينَ أنْ تكونَ في أوسعِها إلا أنْ تبغضَ الدنيا ؛ فإنَّكَ إذا أبغضتَ الدنيا . . أقبلتَ علىٰ حبِّ الآخرةِ ، وبقدْرِ حبِّكَ للآخرةِ تزهدُ في الدنيا ، وبقدْرِ ذلكَ تبصرُ ما ينفعُكَ ، وإذا علمَ اللهُ مِنْ عبدٍ حسنَ الطلبِ . . أفرغَ عليهِ السدادَ ، واكتنفَهُ بالعصمةِ ، واعلمْ يا بنَ أخي أنَّ ذلكَ في كتابِ اللهِ المنزَّلِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ .

قالَ يحيىٰ بنُ كثيرٍ : فنظرنا في ذلكَ ، فما تلذَّذَ المتلذذونَ بمثلِ حبِّ اللهِ وطلبِ مرضاتِهِ[1] .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا منْ محبّي المحبِّينَ لكَ يا ربَّ العالمينَ ؛ فإنَّهُ لا يصلحُ لحبِّكَ إلا مَنِ ارتضيتَهُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيدِنا محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ .

* * *

(١) الخبر عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٦٩) بتمامه ، وأما حديث الأبدال .. فقد أورد تخريجه وطرقه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٨٥) .

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلمْ : أنَّ الكبْرَ مِنَ المهلكاتِ ، ولا يخلو أحدٌ مِنَ الخلْقِ عنْ شيءٍ منهُ ، وإزالتُهُ فرضُ عينٍ ، ولا يزولُ بمجرّدِ التمنّي ، بلْ بالمعالجةِ واستعمالِ الأدويةِ القامعةِ لهُ .

وفي معالجتِهِ مقامانِ :

أحدُهُما : استئصالُ أصلِهِ مِنْ سِنْخِهِ ، وقلعُ شجرتِهِ مِنْ مغرسِها في القلبِ .

والثاني : دفعُ العارضِ منهُ بالأسبابِ الخاصةِ التي بها يتكبّرُ الإنسانُ علىٰ غيرِهِ .

المقامُ الأولُ : في استئصالِ أصلِهِ :

وعلاجُهُ : علميٌّ وعمليٌّ ، ولا يتمُّ الشفاءُ إلا بمجموعِهِما .

أمّا العلميُّ : فهوَ أنْ يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ ربَّهُ تعالىٰ ، ويكفيهِ ذلكَ في إزالةِ الكبرِ ، فإنَّهُ مهما عرفَ نفسَهُ حقَّ المعرفةِ . علمَ أنَّهُ أذلُّ مِنْ كلِّ ذليلٍ ، وأقلُّ مِنْ كلِّ قليلٍ ، وأنَّهُ لا يليقُ بهِ إلا التواضعُ والذلَّةُ والمهانةُ ، وإذا عرفَ ربَّهُ . علمَ أنَّهُ لا تليقُ العظمةُ والكبرياءُ إلا باللهِ .

أما معرفتُهُ ربَّهُ وعظمتَهُ ومجدَهُ . . فالقولُ فيهِ يطولُ ، وهو منتهىٰ علمِ المكاشفةِ .

وأمَّا معرفتُهُ نفسَهُ . . فهوَ أيضاً يطولُ ، ولكنَّا نذكرُ مِنْ ذلكَ ما ينفعُ في إثارةِ التواضعِ والمذلَّةِ ، ويكفيهِ أنْ يعرفَ معنىٰ آيةٍ واحدةٍ في كتابِ اللهِ ، فإنَّ في القرآنِ علمَ الأولينَ والآخرينَ لمَنْ فُتحَتْ بصيرتُهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

فقدْ أشارَتِ الآيةُ إلىٰ أوَّلِ خلقِ الإنسانِ ، وإلىٰ آخرِ أمرِهِ ، وإلىٰ وسطِهِ ، فلينظرِ الإنسانُ ذلكَ ليفهمَ معنىٰ هٰذهِ الآيةِ .

أمَّا أوَّلُ الإنسانِ . . فهوَ أنَّهُ لمْ يكنْ شيئاً مذكوراً ، وقدْ كانَ في حيِّزِ العدمِ دهوراً ، بلْ لمْ يكنْ لعدمِهِ أوَّلٌ ، وأيُّ شيءٍ أخسُّ وأقلُّ مِنَ المحوِ والعدمِ ؟! وقدْ كانَ كذلكَ في القدمِ ، ثمَّ خلقَهُ اللهُ مِنْ أذلِّ الأشياءِ ، ثمَّ مِنْ أقذرِها ؛ إذ قدْ خلقَهُ مِنْ ترابٍ ، ثمَّ مِنْ نطفةٍ ، ثمَّ مِنْ علقةٍ ، ثمَّ مِنْ مضغةٍ ، ثمَّ جعلَهُ عظماً ، ثمَّ كسا العظمَ لحماً ، فقدْ كانَ هٰذا بدايةَ وجودِهِ ، حيثُ صارَ شيئاً مذكوراً ، فما صارَ شيئاً مذكوراً إلا وهوَ علىٰ أخسِّ الأوصافِ والنعوتِ ؛ إذْ لمْ يُخلقْ في ابتدائِهِ كاملاً ، بلْ خلقَهُ جماداً ميتاً لا يسمعُ ولا يبصرُ ، ولا يحسُّ ولا يتحركُ ، ولا ينطقُ ولا يبطشُ ، ولا يدركُ ولا يعلمُ ، فبدأ بموتِهِ قبلَ حياتِهِ ، وبضعفِهِ قبلَ قوتِهِ ، وبجهلِهِ

قبلَ علمِهِ ، وبعماهُ قبلَ بصرِهِ ، وبصممِهِ قبلَ سمعِهِ ، وببكمِهِ قبلَ نطْقِهِ ، وبضلالتِهِ قبلَ هداهُ ، وبفقرِهِ قبلَ غناهُ ، وبعجزِهِ قبلَ قدرتِهِ .

فهٰذا معنىٰ قولِهِ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ، ومعنىٰ قوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ ، كذلك خلقه أوّلاً ، ثمَّ امتنَّ عليهِ فقالَ : ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ ما تيسَّرَ لهُ في مدَّةِ حياتِهِ إلى الموتِ .

وكذلكَ قالَ : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ ، ومعناهُ : أنَّهُ أحياهُ بعدَ أنْ كانَ جماداً ميتاً ؛ تراباً أوّلاً ، ونطفةً ثانياً ، وأسمعَهُ بعدَما كانَ أصمَّ ، وبصَّرَهُ بعدَما كانَ فاقداً للبصرِ ، وقوّاهُ بعدَ الضعفِ ، وعلَّمَهُ بعدَ الجهلِ ، وخلقَ لهُ الأعضاءَ بما فيها مِنَ العجائبِ والآياتِ بعدَ الفقدِ لها ، وأغناهُ بعدَ الفقرِ وأشبعَهُ بعدَ الجوعِ ، وكساهُ بعدَ العرْيِ ، وهداهُ بعدَ الضلالِ .

فانظرْ كيفَ دبَّرَهُ وصوَّرَهُ ، وإلى السبيلِ كيفَ يسَّرَهُ ، وإلىٰ طغيانِ الإنسانِ ما أكفرَهُ ، وإلىٰ جهلِ الإنسانِ كيفَ أظهرَهُ ، فقالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

فانظرْ إلىٰ نعمةِ اللهِ عليهِ كيفَ نقلَهُ مِنْ تلكَ الذلَّةِ والقلَّةِ والخسَّةِ والقذارةِ إلىٰ هٰذهِ الرفعةِ والكرامةِ ، فصارَ موجوداً بعدَ العدمِ ، وحيّاً بعدَ الموتِ ،

وناطقاً بعد البكمِ ، وبصيراً بعدَ العمىٰ ، وقوياً بعدَ الضعفِ ، وعالماً بعدَ الجهلِ ، ومهتدياً بعدَ الضلالِ ، وقادراً بعدَ العجزِ ، وغنياً بعدَ الفقرِ ، فكانَ في ذاتِهِ لا شيءَ ، وأيُّ شيءٍ أخسُّ مِنْ لا شيءَ ؟! وأيُّ قلَّةٍ أقلُّ مِنَ العدمِ المحضِ ؟! ثمَ صارَ باللهِ شيئاً .

وإنَّما خلقَهُ مِنَ الترابِ الذليلِ الذي يوطأُ بالأقدامِ ، والنطفةِ القذرةِ بعدَ العدمِ المحضِ ؛ ليعرِّفَهُ خسَّةَ ذاتِهِ ، فيعرفَ بهِ نفسَهُ ، وإنَّما أكملَ النعمةَ عليهِ ؛ ليعرفَ بها ربَّهُ ، ويعلمَ بها عظمتَهُ وجلالَهُ ، وأنَّهُ لا يليقُ الكبرياءُ إلا بهِ جلَّ وعلا ، ولذلكَ امتنَّ عليهِ فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ وعرفَّهُ خسَّتَهُ أولاً فقالَ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ ، ثمَّ ذكرَ منَّتَهُ عليهِ فقالَ : ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ ليدومَ وجودُهُ بالتناسلِ كما حصلَ وجودُهُ ابتداءً بالاختراعِ .

فمَنْ كانَ هـٰذا بدأَهُ وهـٰذِهِ أحوالَهُ . . فمِنْ أينَ لهُ البطَرُ والكبرياءُ ، والفخرُ والخيلاءُ ، وهوَ على التحقيقِ أخسُّ الأخساءِ ، وأضعفُ الضعفاءِ ؟! .

ولكنْ هـٰذِهِ عادةُ الخسيسِ إذا رُفعَ منْ خسَّتِهِ . . شمخَ بأنفِهِ وتعظَّمَ ؛ وذلكَ لدلالةِ خسَّةِ أوَّلِهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

نعمْ ، لوْ أكملَهُ وفوَّضَ إليهِ أمرَهُ ، وأدامَ لهُ الوجودَ باختيارِهِ . . لجازَ أنْ يطغىٰ ، وينسى المبتدأَ والمنتهىٰ ، ولكنَّهُ سلَّطَ عليهِ في دوامِ وجودِهِ

الأمراضَ الهائلةَ ، والأسقامَ العظيمةَ ، والآفاتِ المختلفةَ ، والطبائعَ المتضادَّةَ ؛ مِنَ المِرَّةِ ، والبلغمِ ، والريحِ ، والدمِ ، يهدمُ البعضُ مِنْ أجزائِهِ البعضَ ، شاءَ أمْ أبىٰ ، رضيَ أم سَخِطَ ، فيجوعُ كرهاً ، ويعطشُ كرهاً ، ويمرضُ كرهاً ، ويموتُ كرهاً ، لا يملكُ لنفسِهِ نفعاً ولا ضراً ، ولا خيراً ولا شرّاً ، يريدُ أنْ يعلمَ الشيءَ فيجهلُهُ ، ويريدُ أنْ يذكرَ الشيءَ فينساهُ ، ويريدُ أنْ ينسى الشيءَ ويغفُلَ عنهُ فلا يغفُلُ عنهُ ، ويريدُ أن يصرفَ قلبَهُ إلىٰ ما يهمُّهُ فيجولُ في أوديةِ الوسواسِ والأفكارِ بالاضطرارِ ، فلا يملكُ قلبُهُ قلبَهُ ، ولا نفسُهُ نفسَهُ ، يشتهي الشيءَ وربَّما يكونُ هلاكُهُ فيهِ ، ويكرهُ الشيءَ وربَّما تكونُ حياتُهُ فيهِ ، يستلذُّ الأطعمةَ وهيَ تهلكُهُ وتُرْديهِ ، ويستبشعُ الأدويةَ وهيَ تنفعُهُ وتحييهِ ، ولا يأمنُ في لحظةٍ مِنْ ليلِهِ أوْ نهارِهِ أنْ يُسلبَ سمعُهُ وبصرُهُ ، وتُفلجَ أعضاؤُهُ ، ويُختلسَ عقلُهُ ، ويُختطفَ روحُهُ ، ويُسلبَ جميعُ ما يهواهُ في دنياهُ ، فهوُ مضطرٌّ ذليلٌ ، إنْ تركَ . . بقيَ ، وإنِ اختطفَ . . فنيَ ، عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ مِنْ نفسِهِ ، ولا مِنْ غيرِهِ ، فأيُّ شيءٍ أذلُّ منهُ لوْ عرفَ نفسَهُ ؟! وأنَّىٰ يليقُ الكبْرُ بهِ لولا جهلُهُ ؟!

فهـٰذا أوسطُ أحوالِهِ ، فليتأملْهُ .

وأمَّا آخرُهُ وموردُهُ . . فهوَ الموتُ المشارُ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ ومعناهُ : أنَّهُ يسلبُ روحَهُ ، وسمعَهُ وبصرَهُ ، وعلمَهُ وقدرتَهُ ، وحسَّهُ ، وإدراكَهُ وحركتَهُ ، فيعودُ جماداً كما كانَ أوَّلَ مرةٍ ، لا يبقىٰ إلا شكلُ أعضائِهِ وصورتُهُ ، لا حسَّ فيهِ ولا حركةَ ، ثمَّ يُوضعُ في

الترابِ فيصيرُ جيفةً منتنةً قذرةً ؛ كما كانَ في الأوَّلِ نطفةً مذرةً ، ثمَّ تبلىٰ أعضاؤُهُ ، وتتفتَّتُ أجزاؤُهُ ، وتنخرُ عظامُهُ فتصيرُ رميماً ورفاتاً ، ويأكلُ الدودُ أجزاءَهُ ، فيبتدىءُ بحدقتيهِ فيقلعُهُما ، وبخدَّيهِ فيقطعُهُما ، وبسائرِ أجزائِهِ فيصيرُ روثاً في أجوافِ الديدانِ ، ويكونُ جيفةً يهربُ منهُ الحيوانُ ، ويستقذرُهُ كلُّ إنسانٍ ويهربُ منهُ لشدَّةِ الإنتانِ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يعودَ إلىٰ ما كانَ ، فيصيرَ تراباً يُعملُ منهُ الكيزانُ ، ويعمرُ بِهِ البنيانُ ، ويصيرُ مفقوداً بعدَما كانَ موجوداً ، وصارَ كأنْ لمْ يغنَ بالأمسِ حصيداً ؛ كما كانَ في أوَّلِ أمرِهِ أمداً مديداً .

وليتَهُ بقيَ كذلكَ، فما أحسنَهُ لوْ تُركَ تراباً ! لا بلْ يحييهِ بعدَ طولِ البلىٰ ؛ ليقاسيَ شدائدَ البلاءِ ، فيخرجُ مِنْ قبرِهِ بعدَ جمعِ أجزائِهِ المتفرقةِ ، ويُخرجُ إلىٰ أهوالِ القيامةِ ، فينظرُ إلىٰ قيامةٍ قائمةٍ ، وسماءٍ ممزقةٍ مشققةٍ ، وأرضٍ مبدَّلةٍ ، وجبالٍ مسيرةٍ ، ونجومٍ منكدرةٍ ، وشمسٍ منكسفةٍ ، وأحوالٍ مظلمةٍ ، وملائكةٍ غلاظٍ شدادٍ وجحيمٍ تزفرُ ، وجنةٍ ينظرُ إليها المجرمُ فيتحسَّرُ ، ويرىٰ صحائفَ منشورةً ، فيُقالُ لهُ : اقرأْ كتابَكَ ، فيقولُ وما هوَ ؟ فيُقالُ : كانَ قدْ وُكِّلَ بكَ في حياتِكَ التي كنتَ تفرحُ بها وتتكبَّرُ بنعيمِها وتفتخرُ بأسبابِها ملكانِ رقيبانِ ، يكتبانِ عليكَ ما كنتَ تنطقُ بهِ أوْ تعملُهُ ؛ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، ونقيرٍ وقطميرٍ ، وأكلٍ وشربٍ ، وقيامٍ وقعودٍ، قدْ نسيتَ ذلكَ وأحصاهُ اللهُ تعالىٰ عليكَ ، فهلمَّ إلى الحسابِ ، واستعدَّ للجوابِ، أوْ تُساقَ إلىٰ دارِ العذابِ ، فينقطعُ قلبُهُ فزعاً

مِنْ هولِ هـٰذا الخطابِ ، قبلَ أنْ تُنشرَ الصحيفةُ ويشاهدَ ما فيها مِنْ مخازيهِ ، فإذا شاهدَهُ . . قالَ : ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ ، فهـٰذا آخرُ أمرِهِ وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

فما لِمَنْ هـٰذا حالُهُ وللتكبُّرِ ؟! بلْ ما لَهُ وللفرحِ في لحظةٍ واحدةٍ فضلاً عنِ البطرِ والتجبرِ ؟! فقدْ ظهرَ لهُ أوَّلُ حالِهِ ووسطُهُ ، ولوْ ظهرَ آخرُهُ والعياذُ باللهِ تعالىٰ . . ربَّما اختارَ أنْ يكونَ كلباً أوْ خنزيراً ؛ ليصيرَ مع البهائمِ تراباً ، ولا يكونَ إنساناً يسمعُ خطاباً ويلقىٰ عذاباً ، وإنْ كانَ عند اللهِ مستحقاً للنارِ . . فالخنزيرُ أشرفُ منهُ وأطيبُ وأرفعُ ؛ إذْ أوَّلُهُ الترابُ ، وآخرُهُ الترابُ ، وهوَ بمعزلٍ عنِ الحسابِ والعذابِ ، والكلبُ والخنزيرُ لا يهربُ منهُ الخلقُ ، ولوْ رأىٰ أهلُ الدنيا العبدَ المذنبَ في النارِ . . لصعقوا من وحشةِ خلقتِهِ وقبحِ صورتِهِ ، ولوْ وجدوا ريحَهُ . . لماتوا مِنْ نتنِهِ ، ولوْ وقعَتْ قطرةٌ مِنْ شرابِهِ الذي يُسقىٰ منهُ في بحارِ الدنيا . . لصارَتْ أنتنَ مِنَ الجيفةِ ، فمَنْ هـٰذا حالُهُ في العاقبةِ ـ إلا أن يعفوَ عنهُ مولاهُ وهوَ علىٰ شكٍّ مِنَ العفوِ ـ كيفَ يفرحُ ويبطرُ ، وكيفَ يتكبَّرُ ويتجبَّرُ ؟! وكيفَ يرىٰ نفسَهُ شيئاً حتىٰ يعتقدَ لهُ فضلاً ؟! وأيُّ عبدٍ لمْ يذنبْ ذنباً استحقَّ بهِ العقوبةَ إلا أنْ يعفوَ الكريمُ بفضلِهِ ، ويجبرَ الكسرَ بمنِّهِ ؟! والرجاءُ منهُ ذلكَ ؛ لكرمِهِ وحسنِ الظنِّ بهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ .

أرأيتَ مَنْ جنىٰ علىٰ بعضِ الملوكِ فاستحقَّ بجنايتِهِ ضربَ ألفِ سوطٍ ، فحُبسَ في السجنِ وهوَ ينتظرُ أنْ يُخرجَ إلى العرضِ ، وتُقامَ عليهِ العقوبةُ علىٰ

ملأٍ مِنَ الخلقِ ، وليسَ يدري أيُعفىٰ عنهُ أمْ لا .. كيفَ يكونُ ذلُّهُ في السجنِ ؟ أفترىٰ أنَّهُ يتكبَّرُ علىٰ مَنْ في السجنِ ؟ وما مِنْ عبدٍ مذنبٍ إلا والدنيا سجنُهُ ، وقدِ استحقَّ العقوبةَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري كيفَ يكونُ آخرُ أمرِهِ ؟ فيكفيهِ ذلكَ حزناً ، وخوفاً وإشفاقاً ، ومهانةً وذلاًّ .

فهـٰذا هوَ العلاجُ العلميُّ القامعُ لأصلِ الكبرِ .

وأمَّا العلاجُ العمليُّ : فهوَ التواضعُ بالفعلِ للهِ ولسائرِ الخلقِ ؛ بالمواظبةِ علىٰ أخلاقِ المتواضعينَ ، كما وصفناهُ وحكيناهُ مِنْ أحوالِ الصالحينَ ، ومِنْ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ إنَّهُ كانَ يأكلُ على الأرضِ ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبدُ »[1] .

وقيلَ لسلمانَ : لِمَ لا تلبسُ ثوباً جديداً ؟ فقالَ : إنَّما أنا عبدٌ ، فإذا أُعتقتُ يوماً .. لبستُ جديداً[2] ، أشارَ بهِ إلى العتقِ في الآخرةِ ، ولا يتمُّ التواضعُ بعدَ المعرفةِ إلا بالعملِ .

ولذلكَ أُمِرَ العربُ الذينَ تكبَّروا على اللهِ ورسولِهِ بالإيمانِ وبالصلاةِ جميعاً ، وقيلَ : الصلاةُ عمادُ الدينِ[3] ، وفي الصلاةِ أسرارٌ لأجلِها كانَتْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٣) من زيادات نعيم بن حماد ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٠/ ٤١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٤٨) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٥٥٠) .

عماداً ، ومِنْ جملتِها : ما فيها مِنَ التواضعِ بالمثولِ قائماً ، وبالركوعِ والسجودِ ، وقدْ كانَتِ العربُ قديماً يأنفونَ مِنَ الانحناءِ ، فكانَ يسقطُ مِنْ يدِ الواحدِ سَوطُهُ فلا ينحني لأخذِهِ ، وينقطعُ شراكُ نعلِهِ فلا ينكِّسُ رأسَهُ لإصلاحِهِ ، حتَّىٰ قالَ حكيمُ بنُ حزامٍ : بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ ألاَّ أَخِرَّ إلا قائماً[1] ، فبايعَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ فقهَ وكملَ إيمانُهُ بعدَ ذلكَ ، فلمَّا كانَ السجودُ عندَهُمْ هوَ منتهى المذلَّةِ والضَعَةِ . . أُمروا بهِ ؛ لينكسرَ بذلكَ خيلاؤُهُمْ ، ويزولَ كِبْرُهُمْ ، ويستقرَّ التواضعُ في قلوبِهِمْ ، وبهِ أُمرَ سائرُ الخلقِ ؛ فإنَّ الركوعَ والسجودَ والمثولَ قائماً هو العملُ الذي يقتضيهِ التواضعُ .

فكذلكَ مَنْ عرفَ نفسَهُ . . فلينظرْ كلَّ ما يتقاضاهُ الكبرُ مِنَ الأفعالِ فليواظبْ علىٰ نقيضِهِ ، حتَّىٰ يصيرَ التواضعُ لهُ خُلُقاً ، فإنَّ القلوبَ لا تتخلَّقُ بالأخلاقِ المحمودةِ إلا بالعلمِ والعملِ جميعاً ؛ وذلكَ لخفاءِ العلاقةِ بينَ القلبِ والجوارحِ ، وسرِّ الارتباطِ الذي بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ، والقلبُ مِنْ عالمِ الملكوتِ .

❁ ❁ ❁

المقامُ الثاني : فيما يعرضُ مِنَ التكبرِ بالأسبابِ السبعةِ المذكورةِ :

وقدْ ذكرنا في كتابِ ذمِّ الجاهِ أنَّ الكمالَ الحقيقيَّ هوَ العلمُ والعملُ ، فأمَّا

---

(١) رواه النسائي (٢/ ٢٠٥) .

ما عداهُ ممَّا يفنىٰ بالموتِ . . فكمالٌ وهميٌّ ، فمِنْ هـٰذا يعسرُ على العالمِ ألاَّ يتكبَّرَ ، ولكنَّا نذكرُ طريقَ العلاجِ مِنَ العلمِ والعملِ في جميعِ الأسبابِ السبعةِ .

❀ ❀ ❀

الأولُ : النسبُ :

فمَنْ يعتريهِ الكبْرُ مِنْ جهةِ النسب . . فليداوِ قلبَهُ بمعرفةِ أمرينِ :

أحدُهما : أنَّ هـٰذا جهلٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ تعزُّزٌ بكمالِ غيرِه ؛ ولذلكَ قيلَ(١) : [من البسيط]

لَئِنْ فَخَرْتَ بِـآبـاءٍ ذَوِي شَـرَفٍ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَـٰكِنْ بِئْسَ ما وَلَدُوا

فالمتكبِّرُ بالنسبِ إنْ كانَ خسيساً في صفاتِ ذاتِهِ . . فمِنْ أينَ يجبرُ خسَّتَهُ بكمالِ غيرِهِ ؟ بلْ لوْ كانَ الذي ينتسبُ إليهِ حيّاً . . لكانَ لهُ أنْ يقولَ : الفضلُ لي ، ومَنْ أنتَ ؟ وإنَّما أنتَ دودةٌ خُلقَتْ مِنْ بولي ، أفترىٰ أنَّ الدودةَ التي خُلِقَتْ مِنْ بولِ الإنسانِ أشرفُ مِنَ الدودةِ التي مِنْ بولِ فرسٍ ؟ هيهاتَ ! فهُما متساويتانِ ، والشرفُ للإنسانِ لا للدودةِ .

الثاني : هوَ أنْ يعرفَ نسبَهُ الحقيقيَّ ، فيعرفَ أباهُ وجدَّهُ ، فإنَّ أباهُ القريبَ نطفةٌ قذرةٌ ، وجدَّهُ البعيدَ ترابٌ ذليلٌ ، وقدْ عرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ نسبَهُ

---

(١) البيت لابن الرومي في « ديوانه » (٢/٨٠٨) .

فقال : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ، فمَنْ أصلُهُ مِنَ الترابِ المهينِ الذي يُداسُ بالأقدامِ ، ثمَّ خُمِّرَ طينُهُ حتَّىٰ صارَ حمأً مسنوناً . . كيفَ يتكبَّرُ وأخسُّ الأشياءِ ما إليهِ انتسابُهُ ؛ إذ يُقالُ : يا أذلَّ مِنَ الترابِ ، ويا أنتنَ مِنَ الحمأةِ ، ويا أقذرَ مِنَ المضغةِ ؟!

فإنْ كانَ كونُهُ مِنْ أبيهِ أقربَ مِنْ كونِهِ مِنَ الترابِ . . فنقولُ : افتخرْ بالقريبِ دونَ البعيدِ ، فالنطفةُ والمضغةُ أقربُ إليهِ مِنَ الأبِ ، فليحقرْ نفسَهُ بذلكَ ، ثمَّ إنْ كانَ ذلكَ يوجبُ رفعةً لقربهِ . . فالأبُ الأعلىٰ مِنَ الترابِ ؛ فمِنْ أينَ رفعتُهُ ؟! وإذا لمْ يكنْ لهُ رفعةٌ . . فمِنْ أينَ جاءَتِ الرفعةُ لولدِهِ ؟! .

فإذاً ؛ أصلُهُ مِنَ الترابِ ، وفصلُهُ مِنَ النطفةِ ، فلا أصلَ لهُ ولا فصلَ ، وهـٰذا غايةُ خسَّةِ النسبِ ، فالأصلُ يُوطأُ بالأقدامِ ، والفصلُ تُغسلُ منهُ الأبدانُ ، فهـٰذا هوَ النسبُ الحقيقيُّ للإنسانِ ، ومَنْ عرفهُ . . لمْ يتكبَّرْ بالنسبِ ، ويكونُ مثالُهُ بعدَ هـٰذهِ المعرفةِ وانكشافِ الغطاءِ لهُ عنْ حقيقةِ أصلِهِ كرجلٍ لمْ يزلْ عندَ نفسِهِ مِنْ بني هاشمٍ وقدْ أخبرَهُ بذلكَ والداهُ ، فلمْ تزلْ فيهِ نخوةُ الشرفِ ، فبينَما هوَ كذلكَ إذْ أخبرَهُ عدولٌ لا يشكُّ في قولِهِمْ أنَّهُ ابنُ هنديٍّ حجَّامٍ يتعاطى القاذوراتِ ، وكشفوا لهُ وجهَ التلبيسِ عليهِ ، فلمْ يبقَ لهُ شكٌّ في صدقِهِمْ ، أفترىٰ أنَّ ذلكَ يُبقي شيئاً مِنْ كبرِهِ ؟ لا بلْ يصيرُ

عندَ نفسِهِ أحقرَ الناسِ وأذلَّهُمْ ، فهوَ مِنِ استشعارِ الخزيِ لخسَّتِهِ في شغلٍ عنْ أنْ يتكبَّرَ علىٰ غيرِهِ .

فهٰذا حالُ البصيرِ إذا تفكَّرَ في أصلِهِ ، وعلمَ أنَّهُ مِنَ النطفةِ والمضغةِ والترابِ ؛ إذْ لوْ كانَ أبوهُ ممَّنْ يتعاطىٰ نقلَ الترابِ ، أَوْ يتعاطى الدمَ بالحجامةِ أوْ غيرِها . . لكانَ يعلمُ بهِ خسَّةَ نفسِهِ ؛ لمماسَّةِ أعضاءِ أبيهِ للترابِ والدمِ ، فكيفَ إذا عرفَ أنَّهُ في نفسِهِ مِنَ الترابِ والدمِ والأشياءِ القذرةِ التي يتنزَّهُ منها هوَ في نفسِهِ ؟!

❁ ❁ ❁

السببُ الثاني : التكبُّرُ بالجمالِ :

ودواؤُهُ : أنْ ينظرَ إلىٰ باطنِهِ نظرَ العقلاءِ ، ولا ينظرَ إلى الظاهرِ نظرَ البهائمِ ، ومهما نظرَ إلىٰ باطنِهِ . . رأىٰ مِنَ القبائحِ ما يكدِّرُ عليهِ تعزُّزَهُ بجمالِهِ ؛ فإنَّهُ وُكلَ بهِ الأقذارُ في جميعِ أجزائِهِ ، الرجيعُ في أمعائِهِ ، والبولُ في مثانتِهِ ، والمخاطُ في أنفِهِ ، والبزاقُ في فيهِ ، والوسخُ في أذنيهِ ، والدمُ في عروقِهِ ، والصديدُ تحتَ بشرتِهِ ، والصُّنانُ تحتَ إبطيهِ ، يغسلُ الغائطَ بيدِهِ كلَّ يومٍ دفعةً أوْ دفعتينِ ، ويتردَّدُ إلى الخلاءِ كلَّ يومٍ مرةً أوْ مرتينِ ؛ ليخرجَ مِنْ باطنِهِ ما لوْ رآهُ بعينِهِ . . لاستقذَرَهُ ، فضلاً عن أنْ يمسَّهُ أوْ يشَمَّهُ ، كلُّ ذلكَ ليعرفَ قذارتَهُ وذلَّهُ ، هٰذا في حالِ توسُّطِهِ .

وفي أولِ أمرِهِ خُلقَ مِنَ الأقذارِ الشنيعةِ الصورِ ؛ مِنَ النطفةِ ودمِ الحيضِ ،

وأُخرجَ مِنْ مجرى الأقذارِ ؛ إذْ خرجَ مِنَ الصُّلبِ ثمَّ مِنَ الذكَرِ مجرى البولِ ، ثمَّ مِنَ الرحمِ مُفيضِ دمِ الحيضِ ، ثمَّ خرجَ مِنْ مجرى القذرِ .

قالَ أنسٌ رحمهُ اللهُ : كانَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ يخطبُنا ، فيقذِّرُ إلينا أنفسَنا ويقولُ : (خرجَ أحدُكُمْ مِنْ مجرى البولِ مرتينِ)[1] .

وكذلكَ قالَ طاووسٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : ما هٰذهِ مشيةُ مَنْ في بطنِهِ خرءٌ ؛ إذْ رآهُ يتبخترُ ، وكانَ ذلكَ قبلَ خلافتِهِ[2] .

هٰذا أولُهُ ووسطُهُ ، ولو تركَ نفسَهُ في حياتِهِ يوماً لَمْ يتعهدْها بالتنظيفِ والغسلِ . . لثارَتْ منهُ الأنتانُ والأقذارُ ، وصارَ أقذرَ وأنتنَ مِنَ الدوابِّ المهملةِ التي لا تتعهدُ نفسَها قطُّ .

فإذا نظرَ أنَّهُ خُلِقَ مِنْ أقذارٍ ، وأُسكنَ في أقذارٍ ، وسيموتُ فيصيرُ جيفةً أقذرَ مِنْ سائرِ الأقذارِ . . لمْ يفتخرْ بجمالِهِ الذي هوَ كخضراءِ الدمنِ ، وكلَونِ الأزهارِ في البوادي ، بينَما هوَ كذلكَ إذْ صارَ هشيماً تذروهُ الرياحُ ، كيفَ ولوْ كانَ جمالُهُ باقياً وعنْ هٰذهِ القبائحِ خالياً . . لكانَ يجبُ ألاَّ يتكبَّرَ بهِ على القبيحِ ؛ إذْ لمْ يكنْ قبحُ القبيحِ إليهِ فينفيَهُ ، ولا كانَ جمالُ الجميلِ إليهِ حتَّىٰ يُحمدَ عليهِ ، كيفَ ولا بقاءَ لهُ ؟! بلْ هوَ في كلِّ حالةٍ يُتصوَّرُ أنْ يزولَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٠٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٢٤١) .

بمرضٍ ، أوْ جدريٍّ ، أوْ قرحةٍ ، أوْ سببٍ مِنَ الأسبابِ ، فكمْ مِنْ وجوهٍ جميلةٍ قدْ سمِجَتْ بهـٰذهِ الأسبابِ .

فمعرفةُ هـٰذهِ الأمورِ تنزعُ مِنَ القلبِ داءَ الكبرِ بالجمالِ لمَنْ أكثرَ تأمُّلَها .

❊ ❊ ❊

السببُ الثالثُ : التكبرُ بالقوَّةِ والأيْدِ[1] :

ويمنعُهُ مِنْ ذلكَ أنْ يعلمَ ما سُلِّطَ عليهِ مِنَ العللِ والأمراضِ ، وأنَّهُ لوْ توجَّعَ عِرْقٌ واحدٌ في بدنِهِ . . لصارَ أعجزَ مِنْ كلِّ عاجزٍ ، وأذلَّ مِنْ كلِّ ذليلٍ ، وأنَّهُ لوْ سلبَهُ الذبابُ شيئاً . . لم يستنقذْهُ منهُ ، وأنَّ بقَّةً لوْ دخلَتْ أنفَهُ ، أوْ نملةً دخلَتْ أذنَهُ . . لقتلَتْهُ ، وأنَّ شوكةً لوْ دخلَتْ رجلَهُ . . لأعجزَتْهُ ، وأنَّ حمَّىٰ يومٍ تحللُ مِنْ قوَّتِهِ ما لا ينجبرُ في مدةٍ ، فمَنْ لا يطيقُ شوكةً ، ولا يقاومُ بقَّةً ، ولا يقدرُ علىٰ أنْ يدفعَ عنْ نفسِهِ ذبابةً . . فلا ينبغي أنْ يفتخرَ بقوَّتِهِ .

ثمَّ إنَّ أقوىٰ إنسانٍ لا يكونُ أقوىٰ مِنْ حمارٍ أوْ بقرةٍ أو فيلٍ أو جملٍ ، وأيُّ افتخارٍ في صفةٍ تسبقُكَ البهائمُ فيها ؟!

❊ ❊ ❊

---

(١) الأيد : القوة ، قال سبحانه : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ .

السببُ الرابعُ والخامسُ : الغنىٰ وكثرةُ المالِ :

وفي معناهُ كثرةُ الأتباعِ والأنصارِ ، والتكبُّرُ بولايةِ السلاطينِ ، والتمكنُ مِنْ جهتِهِمْ ، وكلُّ ذلكَ تكبُّرٌ بمعنىً خارجٍ عنْ ذاتِ الإنسانِ ، لا كالجمالِ والقوَّةِ والعلمِ ، وهـٰذا أقبحُ أنواعِ التكبُّرِ ، فإنَّ المتكبِّرَ بمالِهِ كأنَّهُ متكبِّرٌ بفرسِهِ ودارِهِ ، ولوْ ماتَ فرسُهُ وانهدمَتْ دارُهُ . . لعادَ ذليلاً ، والمتكبِّرُ بتمكينِ السلطانِ وولايتِهِ لا بصفةٍ في نفسِهِ . . بنىٰ أمرَهُ علىٰ قلبٍ هوَ أشدُّ غلياناً مِنَ القدْرِ ، فإنْ تغيَّرَ عليهِ . . كانَ أذلَّ الخلقِ ، وكلُّ متكبِّرٍ بأمرٍ خارجٍ عنْ ذاتِهِ . . فهوَ ظاهرُ الجهلِ .

كيفَ والمتكبِّرُ بالغنىٰ لوْ تأمَّلَ . . لرأىٰ في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليهِ في الغنىٰ والثروةِ والتجمُّلِ ؟! فأفٍّ لشرفٍ يسبقُكَ بهِ اليهودُ ، وأفٍّ لشرفٍ يأخذُهُ السارقُ في لحظةٍ واحدةٍ فيعودُ صاحبُهُ ذليلاً مفلساً .

فهـٰذهِ أسبابٌ ليسَتْ في ذاتِهِ ، وما هوَ في ذاتِهِ ليسَ إليهِ دوامُ وجودِهِ ، وهوَ في الآخرةِ وبالٌ ونكالٌ ، فالتفاخرُ بهِ غايةُ الجهلِ ، وكلُّ ما ليسَ إليكَ فليسَ لكَ ، وشيءٌ مِنْ هـٰذهِ الأمورِ ليسَ إليكَ ، بلْ إلىٰ واهبِهِ ؛ إنْ أبقاهُ . . بقيَ لكَ ، وإنْ استرجعَهُ . . زالَ عنكَ ، وما أنتَ إلا عبدٌ مملوكٌ لا تقدرُ علىٰ شيءٍ ، فمَنْ عرفَ ذلكَ . . لا بدَّ وأنْ يزولَ كبرُهُ .

ومثالُهُ : أنْ يفتخرَ الغافلُ بقوَّتِهِ ، وجمالِهِ ، ومالِهِ ، وحريَّتِهِ ، واستقلالِهِ ، وسعةِ منازلِهِ ، وكثرةِ خيولِهِ وغلمانِهِ ؛ إذْ شهدَ عليهِ شاهدانِ

عدلانِ عندَ حاكمٍ منصفٍ بأنَّهُ رقيقٌ لفلانٍ ، وأنَّ أبويهِ كانا مملوكينِ لهُ ، فعلِمَ ذلكَ وحكمَ بِهِ الحاكمُ ، فجاءَ مالكُهُ فأخذَهُ وأخذَ جميعَ ما في يدِهِ ، وهوَ يخشىٰ معَ ذلكَ أنْ يعاقبَهُ وينكِّلَ بِهِ لتفريطِهِ في أموالِهِ ، وتقصيرِهِ في طلبِ مالكِهِ ليعرفَ أنَّ لهُ مالكاً ، ثمَّ نظرَ العبدُ فرأىٰ نفسَهُ محبوساً في منزلٍ ، قدْ أحدقَتْ بهِ الحياتُ والعقاربُ والهوامُّ ، وهوَ في كلِّ حالٍ علىٰ وَجَلٍ مِنْ كلِّ واحدةٍ منها ، وقدْ بقيَ لا يملكُ نفسَهُ ولا مالَهُ ، ولا يعرفُ طريقاً إلى الخلاصِ ألبتةَ ، أفترىٰ أنَّ مَنْ هـٰذا حالُهُ هلْ يفتخرُ بقدرتِهِ وثروتِهِ وقوتِهِ وكمالِهِ ، أمْ يذلُّ في نفسِهِ ويخضعُ ؟

وهـٰذا حالُ كلِّ عاقلٍ بصيرٍ ، فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ كذلكَ ، فإنَّهُ لا يملكُ رقبتَهُ وبدنَهُ ومالَهُ وأعضاءَهُ ، وهوَ معَ ذلكَ بينَ آفاتٍ ، وشهواتٍ وأمراضٍ وأسقامٍ هيَ كالعقاربِ والحياتِ يخافُ منها الهلاكَ ، فمَنْ هـٰذا حالُهُ لا يتكبَّرُ بقدرتِهِ وقوتِهِ ؛ إذْ يعلم أنَّهُ لا قدرةَ لهُ ولا قوَّةَ .

فهـٰذا طريقُ علاجِ التكبُّرِ بالأسبابِ الخارجةِ ، وهوَ أهونُ مِنْ علاجِ التكبُّرِ بالعلمِ والعملِ ؛ فإنَّهما كمالانِ في النفسِ ، جديرانِ بأنْ يُفرحَ بهِما ، ولكنْ في التكبُّرِ بهِما أيضاً نوعٌ مِنَ الجهلِ خفيٌّ كما سنذكرُهُ .

❁ ❁ ❁

السببُ السادسُ : الكبرُ بالعلمِ :

وهوَ أعظمُ الآفاتِ ، وأغلبُ الأدواءِ ، وأبعدُها عنْ قبولِ العلاجِ إلا بشدَّةٍ

شديدةٍ وجهدٍ جهيدٍ ؛ وذلكَ لأنَّ قدْرَ العلمِ عظيمٌ عندَ اللهِ ، عظيمٌ عندَ الناسِ ، وهوَ أعظمُ مِنْ قدرِ المالِ والجمالِ وغيرِهِما ، بلْ لا قدْرَ لهُما أصلاً إلا إذا كانَ معَهُما علمٌ وعملٌ .

ولذلكَ قالَ كعبُ الأحبارِ : (إنَّ للعلمِ طغياناً كطغيانِ المالِ)[١] .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (العالِمُ إذا زلَّ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ)[٢] ، فيعجزُ العالمُ عنْ ألاَّ يستعظمَ نفسَهُ بالإضافةِ إلى الجاهلِ ؛ لكثرةِ ما نطقَ الشرعُ بفضائلِ العلمِ .

ولنْ يقدرَ العالمُ علىٰ دفعِ الكبرِ إلا بمعرفةِ أمرينِ :

أحدُهما : أنْ يعلمَ أنَّ حجةَ اللهِ علىٰ أهلِ العلمِ آكدُ ، وأنَّهُ يحتملُ مِنَ الجاهلِ ما لا يُحتملُ عشرُهُ مِنَ العالِمِ ، وأنَّ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ عنْ معرفةٍ وعلمٍ . . فجنايتُهُ أفحشُ ؛ إذْ لمْ يقضِ حقَّ نعمةِ اللهِ عليهِ في العلمِ .

ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالعالمِ يومَ القيامةِ فيُلقىٰ في النارِ ، فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرحىٰ ، فيطيفُ بهِ أهلَ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٤٠٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٥٥) عن وهب بن منبه .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص٤٠٦) قاله لتميم الداري رضي الله عنهما ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) من قول سيدنا عيسىٰ عليه السلام .

بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[1] .

وقدْ مثَّلَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ مَنْ يعلمُ ولا يعملُ بالحمارِ والكلبِ ، فقالَ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ أرادَ بهِ علماءَ اليهودِ ، وقالَ في بَلْعَمَ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أُوتيَ بلعمُ كتاباً فأخلدَ إلىٰ شهواتِ الأرضِ)[2] أي : سكنَ حبُّهُ إليها ، فمثَّلَهُ بالكلبِ ، ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ أيْ : سواءٌ آتيتُهُ الحكمةَ أوْ لمْ أوتِهِ فلا يدعُ شهوتَهُ .

ويكفي العالمَ هٰذا الخطرُ ، فأيُّ عالمٍ لمْ يتبعْ شهوتَهُ ؟ وأيُّ عالمٍ لمْ يأمرْ بالخيرِ الذي لا يأتيهِ ؟ فمهما خطرَ للعالمِ عظمُ قدرِهِ بالإضافةِ إلى الجاهلِ . . فليتفكَّرْ في الخطرِ العظيمِ الذي هوَ بصددِهِ ، فإنَّ خطرَهُ أعظمُ مِنْ خطرِ غيرِهِ ؛ كما أنَّ قدرَهُ أعظمُ مِنْ قدرِ غيرِهِ ، فهٰذا بذاكَ ، وهوَ كالملكِ المخاطرِ بروحِهِ في ملكِهِ لكثرةِ أعدائِهِ ، فإنَّهُ إذا أُخِذَ وقُهِرَ . . اشتهىٰ أنْ يكونَ قدْ كانَ فقيراً ، فكمْ مِنْ عالمٍ يشتهي في الآخرةِ سلامةَ الجهَّالِ والعياذُ باللهِ منهُ .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، والأقتاب : الأمعاء .

(٢) الرعاية (ص٤٠٨) ، وانظر مجمل الأقوال عند الطبري في « تفسيره » (٦/٩/١٥٤) .

فهٰذا الخطرُ يمنعُ منَ التكبُّرِ ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فالخنزيرُ أفضلُ منهُ ، فكيفَ يتكبَّرُ مَنْ هٰذا حالُهُ ؟

فلا ينبغي أنْ يكونَ العالمُ عندَ نفسِهِ أكبرَ مِنَ الصحابةِ وقدْ كانَ بعضُهُمْ يقولُ : (يا ليتَني لمْ تلدْني أمِّي)[1] .

ويأخذُ الآخرُ تبنةً مِنَ الأرضِ ويقولُ : (يا ليتَني كنتُ هٰذهِ التبنةَ)[2] .

ويقولُ الآخرُ : (يا ليتَني كنتُ طيراً أُوكَلُ)[3] .

ويقولُ الآخرُ : (ليتَني لمْ أكُ شيئاً مذكوراً)[4] .

كلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ خطرِ العاقبةِ ، فكانوا يرونَ أنفسَهُمْ أسوأَ حالاً مِنَ الطيرِ ومِنَ الترابِ .

ومهما أطالَ فكرَهُ في الخطرِ الذي هوَ بصددِهِ . . زالَ بالكليَّةِ كبرُهُ ، ورأىٰ نفسَهُ كأنَّهُ شرُّ الخلقِ .

ومثالُهُ مثالُ عبدٍ أمرَهُ سيِّدُهُ بأمورٍ فشرعَ فيها ، فتركَ بعضَها وأدخلَ

---

(١) روىٰ ذلك عن سيدنا عمر رضي الله عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣١٣).

(٢) هو الخبر المروي عن سيدنا عمر رضي الله عنه المذكور آنفاً .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٧٣) ، وهناد في « الزهد » (٤٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٨) عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٢٨) عن عبد العزيز بن مروان .

النقصانَ في بعضِها ، وشكَّ في بعضِها أنَّهُ هلْ أدَّاها كما يرتضيهِ مولاهُ أمْ لا ؟ فأخبرَهُ مخبرٌ أنَّ مولاهُ مرسلٌ إليهِ رسولاً يخرجُهُ مِنْ كلِّ ما هوَ فيهِ عرياناً ذليلاً ، ويلقيهِ علىٰ بابِهِ في الشمسِ والحرِّ زماناً طويلاً ، حتَّىٰ إذا ضاقَ عليهِ الأمرُ ، وبلغَ بهِ الجهدُ . . أمرَ برفعِ حسابِهِ وفتشَ عنْ جميعِ أعمالِهِ قليلِها وكثيرِها ، ثمَّ أمرَ بهِ إلىٰ سجنٍ ضيِّقٍ وعذابٍ دائمٍ لا يُروَّحُ عنهُ ساعةً ، وقدْ علم أنَّ سيِّدَهُ قدْ فعلَ بطوائفَ مِنْ عبيدِهِ مثلَ ذلكَ وعفا عنْ بعضِهِمْ ، وهوَ لا يدري أنَّه مِنْ أيِّ الفريقينِ يكونُ ، فإذا تفكَّرَ في ذلكَ . . انكسرَتْ نفسُهُ وذلَّ ، وبطلَ عزُّهُ وكبْرُهُ ، وظهرَ حزنُهُ وخوفُهُ ، ولمْ يتكبَّرْ علىٰ أحدٍ مِنَ الخلقِ ، بلْ تواضعَ رجاءَ أنْ يكونَ هوَ مِنْ شفعائِهِ عندَ نزولِ العذابِ بهِ ، فكذلكَ العالمُ إذا تفكَّرَ فيما ضيَّعَهُ مِنْ أوامرِ ربِّهِ بجناياتٍ علىٰ جوارحِهِ ، وبذنوبٍ في باطنِهِ مِنَ الرياءِ ، والحسدِ والحقدِ والعُجْبِ ، والنفاقِ ، وغيرِهِ ، وعلمَ ما هوَ بصددِهِ مِنَ الخطرِ العظيمِ . . فارقَهُ كبرُهُ لا محالةَ .

الأمرُ الثاني : أنَّ العالِمَ يعرفُ أنَّ الكبرَ لا يليقُ إلا باللهِ عزَّ وجلَّ وحدَهُ ، وأنَّهُ إذا تكبَّرَ . . صارَ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالىٰ بغيضاً ، وقدْ أحبَّ اللهُ منهُ أنْ يتواضعَ ، وقالَ لهُ : إنَّ لكَ عندي قدراً ما لمْ ترَ لنفسِكَ قدراً ، فإنْ رأيتَ لنفسِكَ قدراً . . فلا قدرَ لكَ عندي ، فلا بدَّ وأنْ يكلِّفَ نفسَهُ ما يحبُّهُ مولاهُ ، وهـٰذا يزيلُ التكبُّرَ عنْ قلبِهِ وإنْ كانَ يستيقنُ أنَّهُ لا ذنبَ لهُ مثلاً إنْ تُصُوِّرَ ذلكَ ، وبهـٰذا زالَ التكبُّرُ عنِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إذْ علموا أنَّ مَنْ نازعَ اللهَ تعالىٰ في رداءِ الكبرياءِ . . قصمَهُ ، وقدْ أمرَهُمُ اللهُ بأنْ يستصغروا

أنفسَهُمْ حتَّىٰ يعظُمَ عندَ اللهِ محلُّهُمْ ، فهـٰذا أيضاً ممَّا يبعثُهُ على التواضعِ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ يتواضعُ للفاسقِ الظاهرِ الفسقِ وللمبتدعِ ؟ وكيفَ يرىٰ نفسَهُ دونَهُمْ وهوَ عالمٌ عابدٌ ؟ وكيفَ يَجهلُ فضلَ العلمِ والعبادةِ عندَ اللهِ تعالى ؟ وكيفَ يعنيهِ أنْ يخطرَ ببالِهِ خطرُ العلمِ وهوَ يعلمُ أنَّ خطرَ الفاسقِ والمبتدعِ أكثرُ ؟

فاعلم : أنَّ ذلكَ إنَّما يمكنُ بالتفكُّرِ في خطرِ الخاتمةِ ، بلْ لوْ نظرَ إلىٰ كافرٍ . . لمْ يمكنْهُ أنْ يتكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ أنْ يسلمَ الكافرُ فيُختمَ لهُ بالإيمانِ ، ويضلَّ هـٰذا العالمُ ويُختمَ لهُ بالكفرِ .

والكبيرُ مَنْ هوَ كبيرٌ عندَ اللهِ في الآخرةِ ، والكلبُ والخنزيرُ أعلىٰ رتبةً ممَّنْ هوَ عندَ اللهِ مِنْ أهلِ النارِ وهوَ لا يدري ذلكَ ، فكمْ مِنْ مسلمٍ نظرَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قبلَ إسلامِهِ فاستحقرَهُ وازدراهُ لكفرِهِ ، وقدْ رزقَهُ اللهُ الإسلامَ ، وفاقَ جميعَ المسلمينَ إلا أبا بكرٍ وحدَهُ !

فالعواقبُ مطويةٌ عنِ العبادِ ، ولا ينظرُ العاقلُ إلا إلى العاقبةِ ، وجميعُ الفضائلِ في الدنيا تُرادُ للعاقبةِ .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ حقُّ العبدِ ألاَّ يتكبَّرَ علىٰ أحدٍ ، بلْ إنْ نظرَ إلىٰ جاهلٍ . . قالَ :

هـٰذا عصى اللهَ بجهلٍ وأنا عصيتُهُ بعلمٍ ، فهوَ أعذرُ منِّي ، وإنْ نظرَ إلىٰ عالمٍ . . قالَ : هـٰذا قدْ علمَ ما لمْ أعلمْ ، فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ كبيرٍ هوَ أكبرُ منهُ سناً . . قالَ : إنَّهُ أطاعَ اللهَ قبلي فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ صغيرٍ . . قالَ : إنِّي عصيتُ اللهَ قبلَهُ ، فكيفَ أكونُ مثلَهُ ؟ وإنْ نظرَ إلىٰ مبتدعٍ أوْ كافرٍ قالَ : ما يدريني لعلَّهُ يُختمُ لهُ بالإسلامِ ، ويُختمُ لي بما هوَ عليهِ الآنَ ، فليسَ دوامُ الهدايةِ إليَّ ؛ كما لمْ يكنِ ابتداؤُها إليَّ .

فبملاحظةِ الخاتمةِ يقدرُ علىٰ أنْ ينفيَ الكبرَ عنْ نفسِهِ ، وكلُّ ذلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ الكمالَ في سعادةِ الآخرةِ والقربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لا فيما يظهرُ في الدنيا ممَّا لا بقاءَ لهُ ، ولعمري ؛ هـٰذا الخطرُ مشتركٌ بينَ المتكبِّرِ والمتكبَّرِ عليهِ ، ولكنْ حقٌّ علىٰ كلِّ واحدٍ أنْ يكونَ مصروفَ الهمِّ إلىٰ نفسِهِ ، مشغولَ القلبِ بخوفِهِ لعاقبتِهِ ، لا أنْ يشتغلَ بخوفِ غيرِهِ ، فإنَّ الشفيقَ بسوءِ الظنِّ مولعٌ ، وشفقةُ كلِّ إنسانٍ علىٰ نفسِهِ ، فإذا حُبسَ جماعةٌ في جنايةٍ ووُعدوا بأنْ تُضربَ رقابُهُمْ . . لمْ يتفرَّغوا للتكبُّرِ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ وإنْ عمَّهُمُ الخطرُ ؛ إذْ شغلَ كلَّ واحدٍ منهُمْ همُّ نفسِهِ عنِ الالتفاتِ إلىٰ همِّ غيرِهِ ، حتَّىٰ كأنَّ كلَّ واحدٍ هوَ وحدَهُ في مصيبتِهِ وخطرِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فكيفَ أبغضُ المبتدعَ في اللهِ وأبغضُ الفاسقَ وقدْ أُمرتُ ببغضِهِما ، ثمَّ معَ ذلكَ أتواضعُ لهُما ، والجمعُ بينَهُما متناقضٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا أمرٌ مشتبهٌ يلتبسُ علىٰ أكثرِ الخلقِ ؛ إذْ يمتزجُ غضبُكَ للهِ

في إنكارِ البدعةِ والفسقِ بكبْرِ النفسِ والإدلالِ بالعلمِ والورعِ ، فكمْ مِنْ عابدٍ جاهلٍ وعالمٍ مغرورٍ إذا رأىٰ فاسقاً جلسَ بجنبِهِ . . أزعجَهُ مِنْ عندِهِ ، وتنزَّهَ منهُ بكبْرٍ باطنٍ في نفسِهِ ، وهوَ ظانٌّ أنَّهُ قدْ غضبَ للهِ ؛ كما وقعَ لعابدِ بني إسرائيلَ معَ خليعِهِمْ[1] ، وذلكَ لأنَّ الكبْرَ على المطيعِ ظاهرٌ كونُهُ شرّاً ، والحذرُ منهُ ممكنٌ ، والكبْرُ على الفاسقِ والمبتدعِ يشبهُ الغضبَ للهِ وهوَ خيرٌ ؛ فإنَّ الغضبانَ أيضاً يتكبَّرُ علىٰ مَنْ غضبَ عليهِ ، والمتكبِّرُ يغضبُ ، وأحدُهُما يثمرُ الآخرَ ويوجبُهُ ، وهما ممتزجانِ ملتبسانِ لا يميِّزُ بينَهُما إلا الموفَّقونَ .

❊ ❊ ❊

والذي يخلصُكَ عنْ هـٰذا : أنْ يكونَ الحاضرُ علىٰ قلبِكَ عندَ مشاهدةِ المبتدعِ أوِ الفاسقِ أوْ عندَ أمرِهِما بالمعروفِ ونهيِهِما عنِ المنكرِ ثلاثةَ أمورٍ :

أحدُها : التفاتُكَ إلىٰ ما سبقَ مِنْ ذنوبِكَ وخطاياكَ ؛ ليصغرَ عندَ ذلكَ قدرُكَ في عينِكَ .

والثاني : أنْ تكونَ ملاحظتُكَ لما أنتَ متميِّزٌ بهِ مِنَ العلمِ واعتقادِ الحقِّ والعملِ الصالحِ مِنْ حيثُ إنَّها نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ ، فلهُ المنَّةُ فيهِ لا لكَ ، فترىٰ ذلكَ منهُ ؛ حتَّىٰ لا تعجبَ بنفسِكَ ، وإذا لمْ تعجبْ . . لمْ تتكبَّرْ .

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٨٨)، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٢٦).

والثالثُ : ملاحظةُ إبهامِ عاقبتِكَ وعاقبتِهِ ؛ وأنَّهُ ربَّما يُختمُ لكَ بالسوءِ ويُختمُ لهُ بالحسنىٰ ، حتَّىٰ يشغلَكَ الخوفُ عنِ التكبُّرِ عليهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فكيفَ أغضبُ معَ هـٰذهِ الأحوالِ ؟

فأقولُ : تغضبُ لمولاكَ وسيِّدِكَ ؛ إذْ أمرَكَ أنْ تغضبَ لهُ لا لنفسِكَ ، وأنتَ في غضبِكَ لا ترىٰ نفسَكَ ناجياً وصاحبَكَ هالكاً ، بلْ يكونُ خوفُكَ علىٰ نفسِكَ بما علمَ اللهُ مِنْ خفايا ذنوبِكَ أكثرَ مِنْ خوفِكَ عليهِ معَ الجهلِ بالخاتمةِ ، وأعرِّفُكَ ذلكَ بمثالٍ ؛ لتعلمَ أنَّهُ ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ للهِ أنْ تتكبَّرَ على المغضوبِ عليهِ وترىٰ قدرَكَ فوقَ قدرِهِ ، فأقولُ :

إذا كانَ للملكِ غلامٌ وولدٌ هوَ قرَّةُ عينِهِ ، وقدْ وَكلَ الغلامَ بالولدِ ليراقبَهُ ، وأمرَهُ أنْ يضربَهُ مهما أساءَ أدبَهُ واشتغلَ بما لا يليقُ بهِ ويغضبَ عليهِ ، فإنْ كانَ الغلامُ مطيعاً محبّاً لمولاهُ . . فلا يجدُ بدّاً مِنْ أنْ يغضبَ مهما رأىٰ ولدَهُ قدْ أساءَ الأدبَ وإنَّما يغضبُ عليهِ لمولاهُ ؛ لأنَّهُ أمرَهُ بهِ ، ولأنَّهُ يريدُ التقرُّبَ بامتثالِ أمرِهِ إليهِ ، ولأنَّهُ جرىٰ مِنْ ولدِهِ ما يكرَهُ مولاهُ ؛ فيضربُ ولدَهُ ويغضبُ عليهِ مِنْ غيرِ تكبُّرٍ عليهِ ، بلْ هوَ متواضعٌ لهُ ، يرىٰ قدرَهُ عندَ مولاهُ فوقَ قدْرِ نفسِهِ ؛ لأنَّ الولدَ أعزُّ لا محالةَ مِنَ الغلامِ .

❀ ❀ ❀

فإذاً ؛ ليسَ مِنْ ضرورةِ الغضبِ التكبُّرُ وعدمُ التواضعِ ، فكذلكَ يمكنُكَ أنْ تنظرَ إلى المبتدعِ والفاسقِ ، وتظنَّ أنَّهُ ربَّما كانَ قدرُهُما عندَ اللهِ أعظمَ في الآخرةِ ؛ لما سبقَ لهُما مِنَ الحسنىٰ في الأزلِ ، ولما سبقَ لكَ مِنْ سوءِ القضاءِ في الأزلِ ، وأنتَ غافلٌ عنهُ ، ومعَ ذلكَ فتغضبُ بحكمِ الأمرِ محبةً لمولاكَ ؛ إذْ جرىٰ ما يكرهُهُ ، معَ التواضعِ لمَنْ يجوزُ أنْ يكونَ عندَهُ أقربَ منكَ في الآخرةِ .

فهكذا يكونُ بغضُ العلماءِ الأكياسِ ، فينضمُّ إليهِ الخوفُ والتواضعُ ، وأمَّا المغرورُ . فإنَّهُ يتكبَّرُ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ ممَّا يرجوهُ لغيرِهِ معَ جهلِهِ بالعاقبةِ ، وذلكَ غايةُ الغرورِ .

فهٰذا سبيلُ التواضعِ لمَنْ عصى اللهَ تعالىٰ أوِ اعتقدَ البدعةَ معَ الغضبِ عليهِ ومجانبتِهِ بحكمِ الأمرِ .

❁ ❁ ❁

السبَبُ السابعُ : التكبرُ بالورعِ والعبادةِ :

وذلكَ أيضاً فتنةٌ عظيمةٌ على العبادِ ، وسبيلُهُ : أنْ يلزمَ قلبَهُ التواضعَ لسائرِ العبادِ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ مَنْ يتقدَّمُ عليهِ بالعلمِ لا ينبغي أنْ يتكبَّرَ عليهِ كيفَما كانَ ؛ لما عرفَهُ مِنْ فضيلةِ العلمِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ

كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي »[1] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في فضلِ العلمِ .

فإنْ قالَ العابدُ : ذلكَ لعالمٍ عاملٍ بعلمِهِ ، وهٰذا عالمٌ فاجرٌ . . **فيُقالُ لهُ** : أما علمتَ أنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ ، وكما أنَّ العلمَ يمكنُ أنْ يكونَ حجَّةً على العالمِ فكذلكَ يمكنُ أنْ يكونَ وسيلةً لهُ وكفارةً لذنوبِهِ ، وكلُّ واحدٍ منهُما ممكنٌ ، وقدْ وردَتِ الأخبارُ بما يشهدُ لذلكَ ، وإذا كانَ هٰذا أمراً غائباً عنهُ . . لمْ يجزْ لهُ أنْ يحتقرَ عالماً ، بلْ يجبُ عليهِ أن يتواضعَ لهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإنْ صحَّ هٰذا . . فينبغي أنْ يكونَ للعالمِ أنْ يرىٰ نفسَهُ فوقَ العابدِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ مِنْ أصحابي » .

فاعلم : أنَّ ذلكَ كانَ ممكناً لوْ علمَ العالمُ عاقبةَ أمرِهِ ، وخاتمةُ الأمرِ مشكوكٌ فيها ، فيحتملُ أنْ يموتَ بحيثُ يكونُ حالُهُ عندَ اللهِ أشدَّ مِنْ حالِ الجاهلِ الفاسقِ ؛ لذنبٍ واحدٍ كانَ يحسبُهُ هيناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ ، وقدْ مقتَهُ بهِ ، وإذا كانَ هٰذا ممكناً . . كانَ علىٰ نفسِهِ خائفاً .

❁ ❁ ❁

فإذاً ؛ كانَ كلُّ واحدٍ مِنَ العالمِ والعابدِ خائفاً علىٰ نفسِهِ ، وقدْ كُلِّفَ أمرَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

نفسهِ لا أمرَ غيرِهِ ، فينبغي أنْ يكونَ الغالبُ عليهِ في حقِّ نفسهِ الخوفَ ، وفي حقِّ غيرِهِ الرجاءَ ، وذلكَ يمنعُهُ مِنَ الكبْرِ بكلِّ حالٍ ، فهـٰذا حالُ العابدِ معَ العالمِ .

فأمَّا معَ غيرِ العالمِ.. فهُمْ منقسمونَ في حقِّه إلىٰ مستورينَ وإلىٰ مكشوفينَ ، فينبغي ألاَّ يتكبَّرَ على المستورِ فلعلَّهُ أقلُّ منهُ ذنوباً ، وأكثرُ منهُ عبادةً ، وأشدُّ منهُ حبّاً للهِ تعالىٰ ، وأمَّا المكشوفُ حالُهُ إنْ لمْ يظهرْ لكَ مِنَ الذنوبِ إلا ما تزيدُ عليهِ ذنوبُكَ في طولِ عمرِكَ.. فلا ينبغي أنْ تتكبَّرَ عليهِ ، ولا يمكنُ أنْ تقولَ : هوَ أكثرُ منِّي ذنباً ؛ لأنَّ عددَ ذنوبِكَ وذنوبِ غيرِكَ في طولِ العمرِ لا تقدرُ علىٰ إحصائِها حتىٰ تعلمَ الكثرةَ .

نعمْ ، يمكنُ أنْ تعلمَ أنَّ ذنوبَهُ أشدُّ ؛ كما لو رأيتَ منهُ القتلَ والشربَ والزنا ، ومعَ ذلكَ فلا ينبغي أنْ تتكبَّرَ عليهِ ؛ إذْ ذنوبُ القلوبِ مِنَ الكبرِ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والغلِّ ، واعتقادِ الباطلِ ، والوسوسةِ في صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وتخيُّلِ الخطأِ في ذلكَ.. كلُّ ذلكَ شديدٌ عندَ اللهِ ، فربَّما جرىٰ عليكَ في باطنِكَ مِنْ خفايا الذنوبِ ما صرتَ بهِ عندَ اللهِ ممقوتاً ، وقدْ جرىٰ للفاسقِ الظاهرِ الفسقِ مِنْ طاعاتِ القلوبِ ؛ مِنْ حبٍّ للهِ ، وإخلاصٍ ، وخوفٍ ، وتعظيمِ ما أنتَ خالٍ عنهُ ، وقدْ كفَّرَ اللهُ بذلكَ عنهُ سيئاتِهِ ، فينكشفُ الغطاءُ يومَ القيامةِ ، فتراهُ فوقَ نَفسِكَ بدرجاتٍ ، فهـٰذا ممكنٌ ، والإمكانُ البعيدُ فيما عليكَ ينبغي أنْ يكونَ قريباً عندَكَ إنْ كنتَ مشفقاً علىٰ نفسِكَ ، فلا تتفكرْ فيما هوَ ممكنٌ لغيرِكَ ، بلْ فيما هوَ مَخُوفٌ في حقِّكَ ؛

فإنَّهُ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ ، وعذابُ غيرِكَ لا يخفِّفُ شيئاً مِنْ عذابِكَ .

فإذا تفكرتَ في هـٰذا الخطرِ . . كانَ عندَكَ شغلٌ شاغلٌ عنِ التكبُّرِ ، وعنْ أنْ ترىٰ نفسَكَ فوقَ غيرِكَ ، وقدْ قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : (ما تمَّ عقلُ عبدٍ حتَّىٰ يكونَ فيهِ عشرُ خصالٍ ، فعدَّ تسعةً حتَّىٰ بلغَ العاشرةَ ، فقالَ : العاشرةُ وما العاشرةُ ؟ بها سادَ مجدُهُ وعلا ذكرُهُ ؛ أنْ يرى الناسَ كلَّهُمْ خيراً منهُ ، وإنَّما الناسُ عندَهُ فرقتانِ ؛ فرقةٌ هيَ أفضلُ منهُ وأرفعُ ، وفرقةٌ هيَ شرٌّ منهُ وأدنىٰ ، فهوَ يتواضعُ للفرقتينِ جميعاً بقلبِهِ ، فإنْ رأىٰ مَنْ هوَ خيرٌ منهُ . . سرَّهُ ذلكَ ، وتمنَّىٰ أنْ يلحقَ بهِ ، وإنْ رأىٰ مَنْ هوَ شرٌّ منهُ . . قالَ : لعلَّ هـٰذا ينجو وأهلِكُ أنا ، فلا تراهُ إلا خائفاً مِنَ العاقبةِ ، ويقولُ : لعلَّ برَّ هـٰذا باطنٌ فذلكَ خيرٌ لهُ ، ولا أدري ، ولعلَّ فيهِ خُلُقاً كريماً بينَهُ وبينَ اللهِ فيرحمَهُ اللهُ ويتوبَ عليهِ ويختمَ لهُ بأحسنِ الأعمالِ ، وبرِّي ظاهرٌ فذلكَ شرٌّ لي ، فلا يأمنُ فيما أظهرَهُ مِنَ الطاعةِ أنْ يكونَ دَخَلَها الآفاتُ فأحبطَتْها ، ثمَّ قالَ : فحينَئذٍ كملَ عقلُهُ ، وسادَ أهلَ زمانِهِ)(١) ، فهـٰذا كلامُهُ .

وبالجملةِ : فمَنْ جُوِّزَ أنْ يكونَ عندَ اللهِ شقياً وقدْ سبقَ القضاءُ الأزليُّ بشقوتِهِ . . فما لهُ سبيلٌ أنْ يتكبَّرَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ .

نعمْ ، إذا غلبَ عليهِ الخوفُ . . رأىٰ كلَّ أحَدٍ خيراً مِنْ نفسِهِ ، وذلكَ هوَ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٢١) ، ورواه عنه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٧) في ذكر الخصال المتبقية .

الفضيلةُ ؛ كما رُويَ أنَّ عابداً أوىٰ إلىٰ جبلٍ ، فقيلَ لهُ في النومِ : ائتِ فلاناً الإسكافَ فسلْهُ أنْ يدعوَ لكَ ، فأتاهُ فسألَهُ عنْ عملِهِ ، فأخبرَهُ أنَّهُ يصومُ النهارَ ويكتسِبُ فيتصدَّقُ ببعضِهِ ، ويطعمُ عيالَهُ بعضَهُ ، فرجعَ وهوَ يقولُ : إنَّ هـٰذا لحسنٌ ، ولكنْ ليسَ هـٰذا كالتفرُّغِ لطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فأُتيَ في النومِ ثانياً فقيلَ لهُ : ائتِ فلاناً الإسكافَ فقلْ لهُ : ما هـٰذا الصفارُ الذي بوجهِكَ ، فأتاهُ فسألَهُ ، فقالَ لهُ : ما رأيتُ أحداً مِنَ الناسِ إلا وقعَ لي أنَّهُ سينجو وأهلِكُ أنا ، فقالَ العابدُ : بهـٰذِهِ(١) .

والذي يدلُّ علىٰ فضيلةِ هـٰذهِ الخصلةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أيْ : يُؤتونَ الطاعاتِ وهمْ علىٰ وَجَلٍ عظيمٍ مِنْ قبولِها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى الملائكةَ عليهمُ السلامُ معَ تقدُّسِهِمْ عنِ الذنوبِ ومواظبتِهِمْ على العبادةِ على الدؤوبِ بالإشفاقِ ، فقالَ تعالىٰ مخبراً عنهُمْ : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ وقالَ : ﴿ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ .

فمتىٰ زالَ الإشفاقُ والحذرُ ممَّا سبقَ بهِ القضاءُ في الأزلِ ، وينكشفُ عندَ خاتمةِ الأجلِ . غلبَ الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، وذلكَ يوجبُ الكبْرَ ، وهوَ سببُ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٢٢) .

الهلاكِ ، فالكبْرُ دليلُ الأمنِ ، والأمنُ مُهلكٌ ، والتواضعُ دليلُ الخوفِ ، وهو مسعدٌ .

فإذاً ؛ ما يفسدُهُ العابدُ بإضمارِ الكبْرِ ، واحتقارِ الخلقِ ، والنظرِ إليهِمْ بعينِ الاستصغارِ . . أكثرُ ممَّا يصلحُهُ بظاهرِ الأعمالِ .

❊ ❊ ❊

فهـٰذهِ معارفُ بها يُزالُ داءُ الكبْرِ عنِ القلبِ لا غيرُ ، إلا أنَّ النفسَ بعدَ هـٰذهِ المعرفةِ قدْ تضمرُ التواضعَ وتدَّعي البراءةَ مِنَ الكبرِ وهيَ كاذبةٌ ، فإذا وقعَتِ الواقعةُ . . عادَتْ إلىٰ طبعِها ، ونسيَتْ وعدَها ، فعَنْ هـٰذا ؛ لا ينبغي أنْ يكتفيَ في المداواةِ بمجردِ المعرفةِ ، بلْ ينبغي أنْ تُكمَّلَ بالعملِ ، وتُجرَّبَ بأفعالِ المتواضعينَ في مواقعِ هيجانِ الكبْرِ مِنَ النفسِ .

وبيانُهُ : أنْ يمتحنَ النفسَ بخمسِ امتحاناتٍ هيَ أدلةٌ على استخراجِ ما في الباطنِ وإنْ كانتِ الامتحاناتُ كثيرةً .

الامتحانُ الأولُ : أنْ يناظرَ في مسألةٍ معَ واحدٍ مِنْ أقرانِهِ ، فإنْ ظهرَ شيءٌ مِنَ الحقِّ علىٰ لسانِ صاحبِهِ ، فثقُلَ عليهِ قبولُهُ ، والانقيادُ لهُ ، والاعترافُ بهِ ، والشكرُ لهُ علىٰ تنبيهِهِ وتعريفِهِ وإخراجِهِ الحقَّ . . فذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ فيهِ كبراً دفيناً ، فليتَّقِ اللهَ فيهِ ، وليشتغلْ بعلاجِهِ .

أمَّا مِنْ حيثُ العلمُ . . فبأنْ يذكِّرَ نفسَهُ خسَّةَ نفسِهِ ، وخطرَ عاقبتِهِ ، وأنَّ الكبْرَ لا يليقُ إلا باللهِ تعالىٰ .

وأمَّا العملُ . . فبأنْ يكلِّفَ نفسَهُ ما ثَقُلَ عليهِ مِنَ الاعترافِ بالحقِّ ، وأنْ يطلقَ اللسانَ بالحمدِ والثناءِ ، ويقرُّ علىٰ نفسِهِ بالعجزِ ، ويشكرُهُ على الاستفادةِ ، ويقولُ : ما أحسنَ ما فطنتَ لهُ وقدْ كنتُ غافلاً عنهُ ، فجزاكَ اللهُ خيراً كما نبَّهتَني لهُ ، فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ؛ فإذا وجدَها . . ينبغي أنْ يشكرَ مَنْ دلَّهُ عليها ، فإذا واظبَ علىٰ ذلكَ مرَّاتٍ متواليةً . . صارَ ذلكَ لهُ طبعاً ، وسقطَ ثقَلُ الحقِّ عنْ قلبِهِ ، وطابَ لهُ قبولُهُ .

ومهما ثقُلَ عليهِ الثناءُ علىٰ أقرانِهِ بما فيهِمْ . . ففيهِ كبرٌ ، فإنْ كانَ ذلكَ لا يثقلُ عليهِ في الخلوةِ ، ويثقلُ عليهِ في الملأِ . . فليسَ فيهِ كبرٌ ، وإنَّما فيهِ رياءٌ ، فليعالجِ الرياءَ بما ذكرناهُ مِنْ قطعِ الطمعِ عنِ الناسِ ، ويذكِّرِ القلبَ بأنَّ منفعتَهُ في كمالِهِ في ذاتِهِ ، وعندَ اللهِ لا عندَ الخلقِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أدويةِ الرياءِ ، وإنْ ثقُلَ عليهِ في الخلوةِ والملأِ جميعاً . . ففيهِ الكبرُ والرياءُ جميعاً ، ولا ينفعُهُ الخلاصُ مِنْ أحدِهِما ما لمْ يتخلَّصْ مِنَ الثاني ، فليعالجْ كلا الداءينِ ؛ فإنَّهُما جميعاً مهلكانِ .

❁ ❁ ❁

الامتحانُ الثاني : أنْ يجتمعَ معَ الأقرانِ والأمثالِ في المحافلِ ويقدِّمَهُمْ علىٰ نفسِهِ ، ويمشيَ خلفَهُمْ ، ويجلسَ في الصدورِ تحتَهُمْ ، فإنْ ثقُلَ ذلكَ عليهِ . . فهوَ متكبِّرٌ ، فليواظبْ عليهِ تكلُّفاً حتَّىٰ يسقطَ عنهُ ثقلُهُ ، فبذلكَ يزايلُهُ الكبرُ .

وهٰهنا للشيطانِ مكيدةٌ ، وهوَ أنْ يجلسَ في صفِّ النعالِ ، أوْ يجعلَ بينَهُ وبينَ الأقرانِ بعضَ الأرذالِ ، فيظنُّ أنَّ ذلكَ تواضعٌ وهوَ عينُ الكبْرِ ؛ فإنَّ ذلكَ يخفُّ علىٰ نفوسِ المتكبرينَ ؛ إذْ يوهمونَ أنَّهُمْ تركوا مكانَهُمْ بالاستحقاقِ والتفضُّلِ ، فيكونُ قدْ تكبَّرَ ، وتكبَّرَ بإظهارِ التواضعِ أيضاً ، بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ أقرانَهُ ويجلسَ بجنبِهِمْ ، ولا ينحطُّ عنهُمْ إلىٰ صفِّ النعالِ ، فذلكَ هوَ الذي يُخرجُ خبثَ الكبْرِ مِنَ الباطنِ .

* * *

الامتحانُ الثالثُ : أنْ يجيبَ دعوةَ الفقيرِ ، ويمرَّ إلى السوقِ في حاجةِ الرفقاءِ والأقاربِ ، فإنْ ثقُلَ ذلكَ عليهِ . . فهوَ كبْرٌ ؛ فإنَّ هٰذهِ الأفعالَ مِنْ مكارمِ الأخلاقِ ، والثوابُ عليها جزيلٌ ، فنفورُ النفسِ عنها ليسَ إلا لخبثٍ في الباطنِ ، فليشتغلْ بإزالتِهِ بالمواظبةِ عليهِ ، معَ تذكُّرِ جميعِ ما ذكرناهُ مِنَ المعارفِ التي تزيلُ داءَ الكبرِ .

* * *

الامتحانُ الرابعُ : أنْ يحملَ حاجةَ نفسِهِ وحاجةَ أهلِهِ ورفقائِهِ مِنَ السوقِ إلى البيتِ ، فإنْ أبتْ نفسُهُ ذلكَ . . فهوَ كبْرٌ أوْ رياءٌ ، فإنْ كانَ يثقلُ ذلكَ عليهِ معَ خلوِّ الطريقِ . . فهوَ كبْرٌ ، وإنْ كانَ لا يثقُلُ عليهِ إلا عندَ مشاهدةِ الناسِ . . فهوَ رياءٌ .

وكلُّ ذلكَ مِنْ أمراضِ القلبِ وعللِهِ المهلكةِ لهُ إنْ لم تتداركْ ، وقدْ أهملَ

الناسُ طبَّ القلوبِ ، واشتغلوا بطبِّ الأجسادِ ، معَ أنَّ الأجسادَ قدْ كُتبَ عليها الموتُ لا محالةَ ، والقلوبُ لا تُدرَكُ السعادةُ إلا بسلامتِها ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

ويُروىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ أنَّهُ حملَ حزمةَ حطبٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قدْ كانَ في غلمانِكَ وبنيكَ ما يكفونَكَ ، قالَ : أجلْ ، ولكنْ أردتُ أنْ أجرِّبَ نفسي هلْ تنكرُ ذلكَ[1] .

فلمْ يقنعْ منها بما أعطتْهُ مِنَ العزمِ علىٰ تركِ الأنفةِ حتَّىٰ جرَّبَها أهيَ صادقةٌ أمْ كاذبةٌ .

وفي الخبرِ : « مَنْ حملَ الفاكهةَ أوِ الشيءَ . . فقدْ برِئَ مِنَ الكبْرِ »[2] .

❁ ❁ ❁

الامتحانُ الخامسُ : أنْ يلبسَ ثياباً بذلةً ؛ فإنَّ نفورَ النفسِ عنْ ذلكَ في الملأِ رياءٌ ، وفي الخلوةِ كبْرٌ .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ لهُ مِسْحٌ يلبسُهُ بالليلِ[3] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٤١٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩/١٣٣) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص٤١٣) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٨٥٣) ، وفيه : « من حمل بضاعته » بدل « من حمل الفاكهة أو الشيء » ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٢٠٢) بلفظ : « من حمل سلعته . . . » .

(٣) **المِسْح** : كساء من صوف أسود . « إتحاف » (٨/٤٠٥) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اعتقلَ البعيرَ ولبسَ الصوفَ . . فقدْ برىءَ مِنَ الكبرِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا عبدٌ آكلُ بالأرضِ وألبسُ الصوفَ وأعقِلُ البعيرَ ، وألعقُ أصابعي ، وأجيبُ دعوةَ المملوكِ ، فمَنْ رغبَ عنْ سنَّتي . . فليسَ منِّي »(٢) .

ورُويَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ قيلَ لهُ : إنَّ أقواماً يتخلَّفونَ عنِ الجمعةِ بسببِ ثيابِهِمْ ، فلبسَ عباءةً فصلَّىٰ فيها بالناسِ .

وهـٰذهِ مواضعُ يجتمعُ فيها الرياءُ والكبرُ ، فما يختصُّ بالملأِ . . فهوَ الرياءُ ، وما يكونُ في الخلوةِ . . فهوَ الكبرُ ، فليُعرفْ ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يتقيهِ ، ومَنْ لا يدركُ المرضَ لا يداويهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص٤١٢) ، وفيه : « من اعتقل العنز . . . » ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٦٥٠) من حديث جحدم وكانت له صحبة : « من حلب شاته ، ورقع قميصه ، وخصف نعله ، وواكل خادمه ، وحمل من سوقه . . فقد برىء من الكبر » .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص٤١٢) ، وهـٰذا الحديث مشتمل علىٰ عدة أحاديث تقدم بعض منها ، وانظر « الإتحاف » (٨/ ٤٠٥ـ٤٠٦) .

بيان غاية الرّياضة في خلق التّواضع

اعلمْ : أنَّ هـٰذا الخلُقَ كسائرِ الأخلاقِ ، لهُ طرفانِ وواسطةٌ ، فطرفُهُ الذي يميلُ إلى الزيادةِ يُسمَّىٰ **تكبُّراً** ، وطرفُهُ الذي يميلُ إلى النقصانِ يُسمَّىٰ **تخاسساً ومذلة**[١] ، والوسطُ يُسمَّىٰ **تواضعاً** .

والمحمودُ أنْ يتواضعَ في غيرِ مذلَّةٍ ومِنْ غيرِ تخاسسٍ ؛ فإنَّ كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمٌ ، وأحبُّ الأمورِ إلى اللهِ تعالىٰ أوساطُها .

فمَنْ يتقدَّمُ علىٰ أمثالِهِ . . فهوَ متكبِّرٌ ، ومَنْ يتأخَّرُ عنهُمْ . . فهو متواضعٌ ، أيْ : وضعَ شيئاً مِنْ قدْرِهِ الذي يستحقُّهُ ، والعالمُ إذا دخلَ عليهِ إسكافٌ فتنحَّىٰ لهُ عنْ مجلسِهِ وأجلسَهُ فيهِ ، ثمَّ تقدَّمَ وسوَّىٰ لهُ نعلَهُ وغدا إلىٰ بابِ الدارِ خلفَهُ . . فقدْ تخاسسَ وتذلَّلَ ، وهـٰذا أيضاً غيرُ محمودٍ ، بلِ المحمودُ عندَ اللهِ تعالى العدلُ ، وهوَ أنْ يعطيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، فينبغي أن يتواضعَ بمثلِ هـٰذا لأمثالِهِ ، ولمَنْ تقربُ منهُ درجتُهُ ، فأمَّا تواضعُهُ للسوقيِّ . . فبالقيامِ ، والبشرِ في الكلامِ ، والرفقِ في السؤالِ ، وإجابةِ دعوتِهِ ، والسعيِ في حاجتِهِ ، وأمثالِ ذلكَ ، وألاَّ يرىٰ نفسَهُ خيراً منهُ ، بلْ يكونُ علىٰ نفسِهِ أخوفَ منهُ علىٰ غيرِهِ ؛ فلا يحقرُهُ ولا يستصغرُهُ وهوَ لا يعرفُ خاتمةَ أمرِهِ وخاتمتَهُ .

---

(١) قوله : **تخاسساً** : هو تفاعل من الخسة ، وهـٰذا هو التفريط ، والتكبر هو الإفراط . « إتحاف » (٨/ ٤٠٦) .

فإذاً ؛ سبيلُهُ في اكتسابِ التواضعِ : أنْ يتواضعَ للأقرانِ ولمَنْ دونَهُمْ ، حتَّىٰ يخفَّ عليهِ التواضعُ المحمودُ في محاسنِ العاداتِ ؛ ليزولَ بهِ الكبْرُ عنهُ .

فإنْ خفَّ عليهِ ذلكَ . . فقدْ حصلَ لهُ خُلُقُ التواضعِ ، وإنْ كانَ يثقلُ عليهِ وهوَ يفعلُ ذلكَ . . فهوَ متكلِّفٌ لا متواضعٌ ، بلِ الخلقُ ما يصدرُ عنهُ الفعلُ بسهولةٍ مِنْ غيرِ ثقلٍ ومِنْ غيرِ رويَّةٍ .

فإنْ خفَّ ذلكَ وصارَ بحيثُ يثقلُ عليهِ رعايةُ قدْرِهِ حتَّىٰ أحبَّ التملُّقَ والتخاسُسَ . . فقدْ خرجَ إلىٰ طرفِ النقصانِ ، فليرفَعْ نفسَهُ ؛ إذْ ليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نَفسَهُ ، إلىٰ أنْ يعودَ إلى الوسطِ الذي هوَ الصراطُ المستقيمُ ، وذلكَ غامضٌ في هـٰذا الخُلُقِ وفي سائرِ الأخلاقِ ، والميلُ عنِ الوسطِ إلىٰ طرفِ النقصانِ وهوَ التملُّقُ أهونُ مِنَ الميلِ إلىٰ طرفِ الزيادةِ وهوَ الكبْرُ ؛ كما أنَّ الميلَ إلىٰ طرفِ التبذيرِ في المالِ أحمدُ عندَ الناسِ مِنَ الميلِ إلىٰ طرفِ البخلِ ، فنهايةُ التبذيرِ ونهايةُ البخلِ مذمومانِ ، وأحدُهُما أفحشُ ، وكذلكَ نهايةُ التكبُّرِ ونهايةُ التبَصْبُصِ والتذلُّلِ مذمومانِ[1] ، وأحدُهُما أقبحُ مِنَ الآخرِ ، والمحمودُ المطلقُ هوَ العدلُ ، ووضعُ الأمورِ مواضعَها كما يجبُ ، وعلىٰ ما يجبُ ، علىٰ ما يُعرفُ ذلكَ بالشرعِ والعادةِ ، ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ مِنْ بيانِ أخلاقِ الكبْرِ والتواضعِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) **التبصبص** : التملُّق .

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في العُجب

وفيهِ بيانُ ذمِّ العجْبِ وآفتِهِ ، وبيانُ حقيقةِ العجْبِ والإدلالِ وحدِّهما ، وبيانُ علاجِ العجْبِ على الجملةِ ، وبيانُ أقسامِ ما بهِ العجْبُ ، وتفصيلُ علاجِهِ .

بيان ذمّ العُجب وآفته

اعلمْ : أنَّ العجبَ مذمومٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ ، ذكرَ ذلكَ في معرضِ الإنكارِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ، فردَّ على الكفارِ في إعجابِهِمْ بحصونِهِمْ وشوكتِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، وهٰذا أيضاً يرجعُ إلى العجْبِ بالعملِ ، وقدْ يعجبُ الإنسانُ بعملٍ هوَ مخطئٌ فيهِ ؛ كما يعجبُ بعملٍ هوَ فيهِ مصيبٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »(١) .

وقالَ لأبي ثعلبةَ حيثُ ذكرَ آخِرَ هـٰذهِ الأمةِ فقالَ : « إذا رأيتَ شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ نفسَكَ »(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (الهلاكُ في اثنتينِ : القنوطِ ، والعجبِ)(٣) ، وإنَّما جمعَ بينَهُما لأنَّ السعادةَ لا تُنالُ إلا بالسعيِ والطلبِ والجدِّ والتشميرِ ، والقانطُ لا يسعىٰ ولا يطلبُ ، والمعجبُ يعتقدُ أنَّهُ قدْ سُعِدَ ، وقدْ ظفرَ بمرادِهِ ؛ فلا يسعىٰ ، فالموجودُ لا يُطلبُ ، والمحالُ لا يُطلبُ ، والسعادةُ موجودةٌ في اعتقادِ المعجَبِ حاصلةٌ لهُ ، ومستحيلةٌ في اعتقادِ القانطِ ، فمِنْ هنا جمعَ بينَهُما .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ، قالَ ابنُ جُريجٍ : معناهُ : إذا عملتَ خيراً . . فلا تقلْ : عملتُ ، وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : لا تبرُّوها ؛ أيْ : لا تعتقدوا أنَّها بارَّةٌ ، وهوَ معنى العجْبِ(٤) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .
(٣) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٦) ، والسياق عنده .
(٤) كذا في « الرعاية » (ص ٣٣٧) ، وقول زيد رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/٢٧/٨٧) .

ووقىٰ طلحةُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ أحدٍ بنفسِهِ ، فأكبَّ عليهِ حتَّىٰ أُصيبَتْ كفُّهُ[1] ، فكأنَّهُ أعجبَهُ فعلُهُ العظيمُ ؛ إذْ فداهُ بروحِهِ حتَّىٰ جُرحَ ، فتفرَّسَ فيهِ ذلكَ عمرُ ، فقالَ : ما زالَ يُعرفُ في طلحةَ بأْوٌ منذُ أُصيبَتْ إصبعُهُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

والبأْوُ هوَ العجْبُ في اللغةِ ، إلا أنَّهُ لمْ يُنقلْ فيهِ أنَّهُ أظهرَهُ واحتقرَ مسلماً ، ولمَّا كانَ وقتُ الشورىٰ . . قالَ لهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أينَ أنتَ مِنْ طلحةَ ، قالَ : ذلكَ رجلٌ فيهِ نخوةٌ[3] .

فإذا كانَ لا يتخلَّصُ مِنَ العجبِ أمثالُهُمْ . . فكيفَ يتخلَّصُ الضعفاءُ إنْ لمْ يأخذوا حذرَهُمْ ؟!

وقالَ مطرفٌ : (لأَنْ أبيتَ نائماً وأصبحَ نادماً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أبيتَ قائماً وأصبحَ معجباً)[4] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخشيتُ عليكُمْ ما هوَ أكبرُ مِنْ ذلكَ ؛ العجبَ العجبَ »[5] ، فجعلَ العجْبَ أكبرَ مِنَ الذنوبِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٧٢٤) ، وقد شَلَّت يده بهٰذا رضي الله عنه .
(٢) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٠/ ٣٤٤) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٤٣٨) بنحوه .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٠) .
(٥) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٥٩٤) .

وكانَ بشرُ بنُ منصورٍ مِنَ الذينَ إذا رُؤوا.. ذُكرَ اللهُ تعالىٰ والدارُ الآخرةُ ؛ لمواظبتِهِ على العبادةِ ، فأطالَ الصلاةَ يوماً ورجلٌ خلفَهُ ينظرُ إليهِ ، ففطنَ لهُ بشرٌ ، فلمَّا انصرفَ مِنَ الصلاةِ.. قالَ لهُ : لا يعجبَنَّكَ ما رأيتَ منِّي ؛ فإنَّ إبليسَ لعنَهُ اللهُ قدْ عبدَ اللهَ تعالىٰ معَ الملائكةِ مدَّةً طويلةً ، ثمَّ صارَ إلىٰ ما صارَ إليهِ[1] .

وقيلَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : متىٰ يكونُ الرجلُ مسيئاً ؟ قالَتْ : إذا ظنَّ أنَّهُ محسنٌ[2] .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، والمنُّ نتيجةُ استعظامِ الصدقةِ ، واستعظامُ العملِ هوَ العجبُ ، فظهرَ بهٰذا أنَّ العجبَ مذمومٌ جدّاً .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤١) .
(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٣٧) .

بيان آفة العُجْب

اعلمْ : أنَّ آفاتِ العجبِ كثيرةٌ ، فإنَّ العجْبَ يدعو إلى الكبْرِ ؛ لأنَّهُ أحدُ أسبابِهِ كما ذكرناهُ ، فيتولَّدُ مِنَ العجبِ الكبْرُ ، ومِنَ الكبرِ الآفاتُ الكثيرةُ التي لا تخفىٰ ، هـٰذا معَ العبادِ .

وأمَّا معَ اللهِ تعالىٰ . . فالعجبُ يدعو إلىٰ نسيانِ الذنوبِ وإهمالِها ، فبعضُ ذنوبِهِ لا يذكرُها ولا يتفقدُها ؛ لظَنِّهِ أنَّهُ مستغنٍ عنْ تفقُّدِها ، فينساها ، وما يتذكَّرُهُ منها فيستصغرُهُ ولا يستعظمُهُ ؛ فلا يجتهدُ في تداركِهِ وتلافيهِ ، بلْ يظنُّ أنَّهُ يُغفرُ لهُ ، وأمَّا العباداتُ والأعمالُ . . فإنَّهُ يستعظمُها ، ويتبجَّحُ بها ويمنُّ على اللهِ تعالىٰ بفعلِها ، وينسىٰ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالتوفيقِ والتمكينِ منها ، ثمَّ إذا أُعجبَ بها . . عميَ عنْ آفاتِها ، ومَنْ لمْ يتفقَّدْ آفاتِ الأعمالِ . . كانَ أكثرُ سعيهِ ضائعاً ؛ فإنَّ الأعمالَ الظاهرةَ إذا لمْ تكنْ خالصةً نقيّةً عنِ الشوائبِ . . قلمَّا تنفعُ ، وإنَّما يتفقَّدُ مَنْ يغلبُ عليهِ الإشفاقُ والخوفُ دونَ العجْبِ .

والمعجبُ يغترُّ بنفسهِ وبربِّهِ عزَّ وجلَّ ، ويأمنُ مكرَ اللهِ تعالىٰ وعذابَهُ ، ويظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وأنَّ لهُ عندَ اللهِ منّةً وحقّاً بأعمالِهِ التي هيَ نعمةٌ مِنْ نعمِهِ ، وعطيّةٌ مِنْ عطاياهُ ، ويخرجُهُ العجبُ إلىٰ أنْ يثنيَ علىٰ نفسِهِ ويحمدَها ويزكيَها ، وإنْ أُعجبَ برأيِهِ وعقلِهِ وعلمِهِ . . منعَ ذلكَ مِنَ الاستفادةِ ، ومِنَ الاستشارةِ والسؤالِ ؛ فيستبدُّ بنفسِهِ ورأيِهِ ويستنكفُ مِنْ

سؤالِ مَنْ هوَ أعلمُ منهُ ، وربَّما يعجبُ بالرأيِ الخطأِ الذي خطرَ لهُ ، فيفرحُ بكونِهِ مِنْ خواطرِهِ ، ولا يفرحُ بخاطرِ غيرِهِ ، فيصرُّ عليهِ ، ولا يسمعُ نصحَ ناصحٍ ، ولا وعظَ واعظٍ ، بلْ ينظرُ إلىٰ غيرِهِ بعينِ الاستجهالِ ، ويصرُّ علىٰ خطئِهِ ، فإنْ كانَ رأيُهُ في أمرٍ دنيويٍّ . . فيخفقُ فيهِ ، وإنْ كانَ في أمرٍ دينيٍّ لا سيما فيما يتعلَّقُ بأصولِ العقائدِ . . فيهلكُ بهِ ، ولوِ اتَّهمَ نفسَهُ ، ولمْ يثقْ برأيِهِ ، واستضاءَ بنورِ القرآنِ ، واستعانَ بعلماءِ الدينِ ، وواظبَ علىٰ مدارسةِ العلمِ ، وتابعَ سؤالَ أهلِ البصيرةِ . . لكانَ ذلكَ يوصلُهُ إلى الحقِّ .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنْ آفاتِ العُجبِ ؛ فلذلكَ كانَ مِنَ المهلكاتِ ، ومِنْ أعظمِ آفاتِهِ أنْ يفترَ في السَّعيِ لظنِّهِ أنَّهُ قدْ فازَ وأنَّهُ قدِ استغنىٰ ، وهوَ الهلاكُ الصريحُ الذي لا شبهةَ فيهِ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ العظيمَ حسنَ التوفيقِ لطاعتِهِ .

* * *

بيان حقيقة العُجب والإدلال وحدّهما

اعلمْ : أنَّ العجبَ إنَّما يكونُ بوصفٍ هوَ كمالٌ لا محالةَ ، وللعالِمِ بكمالِ نفسِهِ في علمٍ وعملٍ ومالٍ وغيرِهِ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يكونَ خائفاً علىٰ زوالِهِ ، مشفقاً علىٰ تكدُّرِهِ أوْ سلبِهِ مِنْ أصلِهِ ؛ فهٰذا ليسَ بمعجبٍ .

والأخرىٰ : ألاَّ يكونَ خائفاً مِنْ زوالِهِ ، لكنْ يكونُ فرحاً بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، لا مِنْ حيثُ إضافتُهُ إلىٰ نفسِهِ ، وهٰذا أيضاً ليسَ بمعجبٍ .

ولهُ حالةٌ ثالثةٌ : هيَ العجبُ ، وهيَ أنْ يكونَ غيرَ خائفٍ عليهِ ، بلْ يكونُ فرِحاً بهِ مطمئناً إليهِ ، ويكونُ فرحُهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ كمالٌ ونعمةٌ ورفعةٌ وخيرٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ عطيَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ونعمةٌ منهُ ، فيكونُ فرحُهُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ صفتُهُ ، ومنسوبٌ إليهِ بأنَّهُ لهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ منسوبٌ إلى اللهِ تعالىٰ بأنَّهُ منهُ ، فمهما غلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ ، مهما شاءَ سلبَها عنهُ . . زالَ العجبُ بذلكَ عنْ نفسِهِ .

فإذاً ؛ العجبُ : هوَ استعظامُ النعمةِ والركونُ إليها معَ نسيانِ إضافتِها إلى المنعمِ .

فإنِ انضافَ إلىٰ ذلكَ أنْ غلبَ علىٰ نفسِهِ أنَّ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ حقّاً ، وأنَّهُ منهُ بمكانٍ ، حتَّىٰ توقَّعَ بعملِهِ كرامةً في الدنيا ، واستبعدَ أنْ يجريَ عليهِ

مكروهٌ استبعاداً يزيدُ على استبعادِهِ ما يجري على الفُسَّاقِ. . سُمِّيَ هـٰذا **إدلالاً بالعملِ** ، فكأنَّهُ يرىٰ لنفسِهِ على اللهِ عزَّ وجلَّ دالَّةً .

وكذلكَ قدْ يُعطي غيرَهُ شيئاً فيستعظمُهُ ويمنُّ عليهِ فيكونُ معجباً ، فإنِ استخدمَهُ أوِ اقترحَ عليهِ الاقتراحاتِ ، أوِ استبعدَ تخلُّفَهُ عنْ قضاءِ حقوقِهِ. . كان مُدِلاً عليهِ .

قالَ قتادةُ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أيْ : لا تدلَّ بعملِكَ[1] .

وفي الخبرِ : (إنَّ صلاةَ المدلِّ لا تُرفَعُ فوقَ رأسِهِ ، ولأَنْ تضحَكَ وأنتَ معترفٌ بذنبِكَ. . خيرٌ مِنْ أنْ تبكيَ وأنتَ مُدِلٌّ بعملِكَ)[2] .

والإدلالُ وراءَ العجْبِ ، فلا مُدِلَّ إلا وهوَ معجبٌ ، وربَّ معجبٍ لا يدِلُّ ؛ إذِ العجبُ يحصلُ بالاستعظامِ ونسيانِ النعمةِ ، دونَ توقُّعِ جزاءٍ عليهِ ، والإدلالُ لا يتمُّ إلا معَ توقُّعِ جزاءٍ ، فإنْ توقَّعَ إجابةَ دعوتِهِ واستنكرَ ردَّها بباطنِهِ وتعجَّبَ منهُ. . كانَ مدلاً بعملِهِ ؛ فإنَّهُ لا يتعجَّبُ مِنْ ردِّ دعاءِ الفاسقِ ، ويتعجَّبُ مِنْ ردِّ دعاءِ نفسِهِ لذلكَ ، فهـٰذا هوَ العجْبُ والإدلالُ ، وهوَ مِنْ مقدِّماتِ الكبرِ وأسبابِهِ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

---

(١) الرعاية (ص ٣٤٦) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص ٣٤٦) عن أيوب وداوود عليهما السلام ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٥٦) عن سفيان عن راهب متعبد .

بيان علاج العُجب على الجملة

اعلمْ : أنَّ علاجَ كلِّ علَّةٍ هوَ مقابَلةُ سببِها بضدِّهِ ، وعلَّةُ العجْبِ الجهلُ المحضُ ، فعلاجُهُ المعرفةُ المضادَّةُ لذلكَ الجهلِ فقطْ .

فلنفرضِ العجْبَ بفعلٍ داخلٍ تحتَ اختيارِ العبدِ ؛ كالعبادةِ والصدقةِ والغزوِ وسياسةِ الخلْقِ وإصلاحِهِمْ ؛ فإنَّ العجْبَ بهـٰذا أغلبُ مِنَ العجْبِ بالجمالِ والقوَّةِ والنسبِ وما لا يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ولا يراهُ مِنْ نفسِهِ ، فنقولُ : الورعُ والتقوىٰ والعبادةُ والعملُ الذي بِهِ يعجبُ إنَّما يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فيهِ ، فهوَ محلُّهُ ومجراهُ ، أوْ مِنْ حيثُ إنَّهُ منهُ وبسببِهِ ، وبقدرتِهِ وقوَّتِهِ .

فإنْ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فيهِ وهوَ محلُّهُ ومجراهُ ، يجري فيهِ وعليهِ مِنْ جهةِ غيرِهِ . . فهـٰذا جهلٌ ؛ لأنَّ المحلَّ مسخَّرٌ ومجرىً لا مدخلَ لهُ في الإيجادِ والتحصيلِ ، فكيفَ يعجبُ بما ليسَ إليهِ ؟!

وإنْ كانَ يعجبُ بهِ مِنْ حيثُ هوَ منهُ وإليهِ ، وباختيارِهِ حصلَ ، وبقدرتِهِ وقوتِهِ تمَّ . . فينبغي أنْ يتأمَّلَ في قدرتِهِ وإرادتِهِ وأعضائِهِ وسائرِ الأسبابِ التي بها يتمُّ عملُهُ أنَّها مِنْ أينَ كانَتْ لهُ ؟ فإنْ كانَ جميعُ ذلكَ نعمةً مِنَ اللهِ سبحانَهُ عليهِ مِنْ غيرِ حقٍّ سبقَ لهُ ، ومِنْ غيرِ وسيلةٍ يدلي بها . . فينبغي أنْ يكونَ إعجابُهُ بجودِ اللهِ تعالىٰ وكرمِهِ وفضلِهِ ؛ إذْ أفاضَ عليهِ ما لا يستحقُّهُ ، وآثرَهُ

بهِ علىٰ غيرِهِ مِنْ غيرِ سابقةٍ ووسيلةٍ ، فمهما برزَ الملكُ لغلمانِهِ ، ونظرَ إليهِمْ ، فخلعَ مِنْ جملتِهِمْ علىٰ واحدٍ منهُمْ ، لا لصفةٍ فيهِ ولا لوسيلةٍ ، ولا لجمالٍ ولا لخدمةٍ . . فينبغي أنْ يتعجَّبَ المنعَمُ عليهِ مِنْ فضلِ الملكِ وحكمِهِ وإيثارِهِ مِن غيرِ استحقاقٍ ؛ فإعجابُهُ بنفسِهِ مِنْ أينَ ؟ وما سببُهُ ؟ ولا ينبغي أنْ يعجبَ هوَ بنفسِهِ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يعجبَ العبدُ فيقولُ : الملكُ حكمٌ عدْلٌ لا يظلمُ ، ولا يقدِّمُ ولا يؤخِّرُ إلا لسببٍ ، فلولا أنَّهُ تفطَّنَ فيَّ صفةً مِنَ الصفاتِ المحمودةِ الباطنةِ ما اقتضى الإيثارَ بالخلعةِ . . لما آثرَني بها ، فيُقالُ : وتلكَ الصفةُ هيَ أيضاً مِنْ خلعةِ الملكِ وعطيتِهِ التي خصَّكَ بها مِنْ غيرِكَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ أوْ هيَ عطيةُ غيرِهِ ؟ فإنْ كانَتْ مِنْ عطيةِ الملكِ أيضاً . . لمْ يكنْ لكَ أنْ تعجبَ بها ، بلْ كانَ كما لوْ أعطاكَ فرساً فلمْ تعجبْ بهِ ، فأعطاكَ غلاماً فصرتَ تعجبُ بهِ وتقولُ : إنَّما أعطاني غلاماً لأنِّي صاحبُ فرسٍ ، وأمَّا غيري . . فلا فرسَ لهُ ، فيُقالُ : وهوَ الذي أعطاكَ الفرسَ ، فلا فرقَ بينَ أنْ يعطيَكَ الفرسَ والغلامَ معاً أوْ يعطيَكَ أحدَهُما بعدَ الآخرِ ، فإذا كانَ الكلُّ منهُ . . فينبغي أنْ يعجبَكَ جودُهُ وفضلُهُ ، لا نفسُكَ .

وأمَّا إنْ كانَتْ تلكَ الصفةُ مِنْ غيرِهِ . . فلا يبعدُ أنْ تعجبَ بتلكَ الصفةِ ، وهٰذا يُتصوَّرُ في حقِّ الملوكِ ، ولا يُتصوَّرُ في حقِّ الجبارِ القاهرِ ملكِ الملوكِ ، المتفرِّدِ باختراعِ الجميعِ المنفردِ بإيجادِ الموصوفِ والصفةِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ فإنَّكَ إنْ أُعجبتَ بعبادتِكَ وقلتَ : وفَّقَني للعبادةِ لحبِّي لهُ . .

فيُقالُ : ومَنْ خلقَ الحبَّ في قلبِكَ ؟ فستقولُ : هوَ ، فيُقالُ : فالحبُّ والعبادةُ كلاهُما نعمتانِ مِنْ عندِهِ ابتدأَكَ بهِما مِنْ غيرِ استحقاقٍ مِنْ جهتِكَ ؛ إذ لا وسيلةَ لكَ ولا علاقةَ ، فيكونُ الإعجابُ بجودِهِ ؛ إذْ أنعمَ بوجودِكَ ووجودِ صفاتِكَ ، وبوجودِ أعمالِكَ وأسبابِ أعمالِكَ .

فإذاً ؛ لا معنىٰ لعجبِ العابدِ بعبادتِهِ ، وعجبِ العالمِ بعلمِهِ ، وعجبِ الجميلِ بجمالِهِ ، وعجبِ الغنيِّ بغناهُ ؛ لأنَّ كلَّ ذلكَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما هوَ محلٌّ لفيضانِ فضلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ، والمحلُّ أيضاً مِنْ جودِهِ وفضلِهِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : لا يمكنُني أنْ أجهلَ أعمالي ، فإنِّي أنا عملتُها ، فإنِّي أنتظرُ عليها ثواباً ، ولولا أنَّها عملي . . لما انتظرتُ الثوابَ ، فإنْ كانَتِ الأعمالُ مخلوقةً للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ سبيلِ الاختراعِ . . فمِنْ أينَ لي الثوابُ ؟ وإنْ كانَتِ الأعمالُ منِّي وبقدرتي . . فكيفَ لا أعجبُ بها ؟

فاعلمْ أنَّ جوابَكَ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : هوَ صريحُ الحقِّ ، والآخرُ : فيه مسامحةٌ .

أمَّا صريحُ الحقّ . . فهوَ أنَّكَ وقدرتَكَ وإرادتَكَ وحركتَكَ جميعُ ذلكَ مِنْ خلقِ اللهِ واختراعِهِ ، فما عملتَ إذْ عملتَ ، وما صلَّيتَ إذْ صلَّيتَ ، وما رميتَ إذْ رميتَ ، ولكنَّ اللهَ رمىٰ ، فهـٰذا هوَ الحقُّ الذي انكشفَ لأربابِ

القلوبِ بمشاهدةٍ أوضحَ مِنْ إبصارِ العينِ ، بلْ خلقَكَ ، وخلقَ أعضاءَكَ ، وخلقَ فيها القوَّةَ والقدرةَ والصحَّةَ ، وخلقَ لكَ العقلَ والعلمَ ، وخلقَ لكَ الإرادةَ ، ولوْ أردتَ أنْ تنفيَ شيئاً مِنْ هـٰذا عنْ نفسِكَ . . لم تقدرْ عليهِ ، ثمَّ خلقَ الحركاتِ في أعضائِكَ مستبدّاً باختراعِها مِنْ غيرِ مشاركةٍ مِنْ جهتِكَ معَهُ في الاختراعِ ، إلا أنَّهُ خلقَهُ علىٰ ترتيبٍ ، فلمْ يخلقِ الحركةَ ما لمْ يخلقْ في العضوِ قوَّةً ، وفي القلبِ إرادةً ، ولمْ يخلقْ إرادةً ما لمْ يخلقْ علماً بالمرادِ ، ولمْ يخلقْ علماً ما لمْ يخلقِ القلبَ الذي هوَ محلُّ العلمِ ، فتدريجُهُ في الخلقِ شيئاً بعدَ شيءٍ هوَ الذي خيَّلَ إليكَ أنَّكَ أوجدتَ عملَكَ ، وقدْ غلطتَ ، وإيضاحُ ذلكَ وكيفيةِ الثوابِ علىٰ عملٍ هوَ مِنْ خلقِ اللهِ سبحانَهُ سيأتي تقريرُهُ في كتابِ الشكرِ ؛ فإنَّهُ أليقُ بهِ ، فارجعْ إليهِ .

ونحنُ الآنَ نزيلُ إشكالَكَ بالجوابِ الثاني الذي فيهِ مسامحةٌ ما ، وهوَ أنْ تحسبَ أنَّ العملَ حصلَ بقدرتِكَ ، فمِنْ أينَ قدرتُكَ ؟ ولا يُتصوَّرُ العملُ إلا بوجودِكَ وبوجودِ علمِكَ وإرادتِكَ وقدرتِكَ وسائرِ أسبابِ عملِكَ ، وكلُّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا منكَ ، فإنْ كانَ العملُ بالقدرةِ . . فالقدرةُ مفتاحُهُ ، وهـٰذا المفتاحُ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومهما لمْ يعطِكَ المفتاحَ . . فلا يمكنُكَ العملُ ، فالعباداتُ خزائنُ بها يُتوصَّلُ إلى السعاداتِ ، ومفاتيحُها القدرةُ والإرادةُ والعلمُ ، وهيَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا محالةَ ، أرأيتَ لوْ رأيتَ خزائنَ الدنيا مجموعةً في قلعةٍ حصينةٍ ومفاتيحُها بيدِ خازنٍ ، ولوْ جلستَ علىٰ بابِها وحولَ حيطانِها ألفَ سنةٍ . . لمْ يمكنْكَ أنْ تنظرَ إلىٰ دينارٍ ممَّا فيها ، ولوْ

أعطاكَ المفتاحَ . . لأخذتَهُ مِنْ قربٍ ، بأنْ تبسُطَ يدَكَ إليهِ فتأخذَهُ فقطْ ، فإذا أعطاكَ الخازنُ المفاتيحَ ، وسلَّطَكَ عليها ، ومكَّنَكَ منها ، فمددتَ يدَكَ وأخذتَها . . أكانَ إعجابُكَ بإعطاءِ الخازنِ المفاتيحَ أوْ بما إليكَ مِنْ مدِّ اليدِ وأخذِها ؟ فلا شكَّ في أنَّكَ ترىٰ ذلكَ نعمةً مِنَ الخازنِ ؛ لأنَّ المؤنةَ في تحريكِ اليدِ بأخذِ المالِ قريبةٌ ، وإنَّما الشأنُ كلُّهُ في تسليمِ المفاتيحِ .

فكذلكَ مهما خُلقَتِ القدرةُ ، وسُلِّطَتِ الإرادةُ الجازمةُ ، وحُرِّكَتِ الدواعي والبواعثُ ، وصُرِفَ عنكَ الموانعُ والصوارفُ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ صارفٌ إلا دُفِعَ ، ولا باعثٌ إلا وُكِّلَ بكَ . . فالعملُ هيِّنٌ عليكَ ، وتحريكُ البواعثِ ، وصرفُ العوائقِ ، وتهيئةُ الأسبابِ كلُّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ليسَ شيءٌ منها إليكَ ، فمِنَ العجائبِ أنْ تعجبَ بنفسِكَ ولا تعجبَ بمَنْ إليهِ الأمرُ كلُّهُ ، ولا تعجبَ بجودِهِ وفضلِهِ وكرمِهِ في إيثارِهِ إيَّاكَ على الفسَّاقِ مِنْ عبادِهِ ؛ إذْ سلَّطَ دواعيَ الفسادِ على الفسَّاقِ وصرفَها عنكَ ، وسلَّطَ أخدانَ السوءِ ودعاةَ الشرِّ عليهِمْ وصرفَهُمْ عنكَ ، ومكَّنَهُمْ مِنَ أسبابِ الشهواتِ واللَّذاتِ وزواها عنكَ ، وصرفَ عنهُمْ بواعثَ الخيرِ ودواعيَهِ وسلَّطَها عليكَ ، حتَّىٰ تيسَّرَ لكَ الخيرُ ، وتيسَّرَ لهُمُ الشرُّ ، فعلَ ذلكَ كلَّهُ بكَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ منكَ ، ولا جريمةٍ سابقةٍ مِنَ الفاسقِ العاصي ، بلْ آثرَكَ ، وقدَّمَكَ واصطفاكَ بفضلِهِ ، وأبعدَ العاصيَ وأشقاهُ بعدلِهِ ، فما أعجبَ إعجابَكَ بنفسِكَ إذا عرفتَ ذلكَ ! !

فإذاً ؛ لا تنصرفُ قدرتُكَ إلى المقدورِ إلا بتسليطِ اللهِ عليكَ داعيةً لا تجدُ سبيلاً إلىٰ مخالفتِها ، فكأنَّهُ الذي اضطرَّكَ إلى الفعلِ إنْ كنتَ فاعلاً تحقيقاً ، فلهُ الشكرُ والمنَّةُ لا لكَ ، وسيأتي في كتابِ التوحيدِ والتوكُّلِ مِنْ بيانِ تسلسلِ الأسبابِ والمسبباتِ ما تستبينُ بهِ أنَّهُ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا خالقَ سواهُ .

والعجبُ ممَّنْ يتعجَّبُ إذا رزقَهُ اللهُ عقلاً وأفقرَهُ ممَّنْ أفاضَ اللهُ عليهِ المالَ مِنْ غيرِ علمٍ ، فيقولُ : كيفَ منعَني قوتَ يومي وأنا العاقلُ الفاضلُ ، وأفاضَ علىٰ هـٰذا نعيمَ الدنيا وهوَ الغافلُ الجاهلُ ؟! حتَّىٰ يكادُ يرىٰ هـٰذا ظلماً ، ولا يدري المغرورُ أنَّهُ لوْ جمعَ لهُ بينَ العقلِ والمالِ جميعاً . . لكانَ ذلكَ بالظلمِ أشبهَ في ظاهرِ الحالِ ؛ إذْ يقولُ الجاهلُ الفقيرُ : يا ربِّ ؛ لِمَ جمعتَ لهُ بينَ العقلِ والغنىٰ وحرمتَني منهُما ؟ فهلاَّ جمعتَهُما لي ، أوْ هلاَّ رزقتَني أحدَهُما .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قيلَ لهُ : ما بالُ العقلاءِ فقراءَ ؟ فقالَ : إنَّ عقلَ الرجلِ محسوبٌ عليهِ مِنْ رزقِهِ .

والعجبُ أنَّ العاقلَ الفقيرَ ربَّما يرى الجاهلَ الغنيَّ أحسنَ حالاً مِنْ نفسِهِ ، ولوْ قيلَ لهُ : هلْ تؤثرُ جهلَهُ وغناهُ عوضاً عنْ عقلِكَ وفقرِكَ . . لامتنعَ عنهُ ، فإذاً ذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّ نعمةَ اللهِ عليهِ أكثرُ ؛ فلِمَ يتعجَّبُ مِنَ ذلكَ ؟

والمرأةُ الحسناءُ الفقيرةُ ترى الحليَّ والجواهرَ على الذميمةِ القبيحةِ ،

فتتعجَّبُ وتقولُ : كيف يُحرمُ مثلُ هـٰذا الجمالِ مِنَ الزينةِ ويُخصُّ بهِ مثلُ ذلكَ القبحِ ؟! ولا تدري المغرورةُ أنَّ الجمالَ محسوبٌ عليها مِنْ رزقِها ، وأنَّها لوْ خُيِّرَتْ بينَ الجمالِ وبينَ القبحِ معَ الغنىٰ . . لآثرَتِ الجمالَ ، فإذاً نعمةُ اللهِ عليها أكثرُ .

وقولُ الحكيمِ العاقلِ الفقيرِ بقلبِهِ : يا ربِّ ؛ لمَ حرمتَني الدنيا وأعطيتَ الجهَّالَ ؛ كقولِ مَنْ أعطاهُ الملكُ فرساً فيقولُ : أيُّها الملكُ ؛ لِمَ لا تعطيني الغلامَ وأنا صاحبُ فرسٍ ؟ فيقولُ لهُ : كنتَ لا تتعجبُ مِنَ هـٰذا لوْ لمْ أعطِكَ الفرسَ ، فهَبْ أنِّي ما أعطيتُكَ فرساً . . أصارَتْ نعمتي عليكَ وسيلةً لكَ وحجّةً تطلبُ بها نعمةً أخرى ؟!

فهـٰذهِ أوهامٌ لا تخلو الجهَّالُ عنها ، ومنشأُ جميعِ ذلكَ الجهلُ ، ويُزالُ ذلكَ بالعلمِ المحقَّقِ بأنَّ العبدَ وعملَهُ وأوصافَهُ كلُّ ذلكَ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ نعمةٌ ابتدأَهُ بها قبلَ الاستحقاقِ ، وهـٰذا ينفي العجبَ والإدلالَ ، ويورثُ الخضوعَ والشكرَ والخوفَ مِنْ زوالِ النعمةِ ، ومَنْ عرفَ هـٰذا . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يعجبَ بعلمِهِ وعملِهِ ؛ إذْ يعلمُ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولذلكَ قالَ داوودُ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ما تأتي ليلةٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ قائمٌ ، ولا يأتي يومٌ إلا وإنسانٌ مِنْ آلِ داوودَ صائمٌ ، وفي روايةٍ : ما تمرُّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ إلا وعابدٌ مِنْ آلِ داوودَ يعبدُكَ ؛ إمَّا يصلِّي ، وإمَّا يصومُ ، وإمَّا يذكرُكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ ومِنْ أينَ لهُمْ

ذلكَ ؟ إنَّ ذلكَ لمْ يكنْ إلا بي ، ولولا عوني إيَّاكَ . . ما قويتَ ، وسأكِلُكَ إلىٰ نفسِكَ ، قالَ ابنُ عباسٍ : إنَّما أصابَ داوودَ ما أصابَ مِنَ الذنبِ ؛ لعجبهِ بعملِهِ ؛ إذْ أضافَ ذلكَ إلىٰ آلِ داوودَ مدلاً بهِ ، حتَّىٰ وكلَ إلىٰ نفسهِ فأذنبَ ذنباً أورثَهُ الحزنَ والندمَ[1] .

وقالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ إنَّ بني إسرائيلَ يسألونكَ بإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ ، فقالَ : إنِّي ابتليتُهُمْ فصبروا ، فقالَ : يا ربِّ ، وأنا إنِ ابتليتَني . . صبرتُ ، فأدلَّ بالعملِ قبلَ وقتِهِ ، فقالَ تعالىٰ : أما إنِّي لمْ أخبرْهُمْ بأيِّ شيءٍ أبتليهِمْ ، ولا في أيِّ شهرٍ ، ولا في أيِّ يومٍ ، وأنا مخبرُكَ أنِّي أبتليكَ في سنتِكَ هٰذهِ وشهرِكَ هٰذا ، أبتليكَ غداً بامرأةٍ ، فاحذرْ نفسَكَ ، فوقعَ فيما وقعَ فيهِ[2] .

وكذلكَ لمَّا اتكلَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ حنينٍ علىٰ قوَّتِهِمْ وكثرتِهِمْ ، ونسوا فضلَ اللهِ عليهِمْ ، وقالوا : لا نُغلبُ اليومَ مِنْ قلَّةٍ[3] . . وُكلوا إلىٰ أنفسِهِمْ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ .

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤١) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٣) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٥ ، ٣٢٥٥٦) .
(٣) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ١٢٨) عن السدي .

وروى ابنُ عيينةَ أنَّ أيوبَ عليهِ السلامُ قالَ : إلـٰهي ؛ إنَّكَ ابتليتَني بهـٰذا البلاءِ ، وما وردَ عليَّ أمرٌ قطُّ إلا آثرتُ هواكَ علىٰ هوايَ ، فنُودِيَ مِنْ غمامةٍ بعشرةِ آلافِ صوتٍ يا أيوبُ ؛ أنَّىٰ لكَ ذلك ؟ أيْ : مِنْ أينَ لكَ ذلكَ ؟ قالَ : فأخذَ رماداً فوضعَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : منكَ يا ربِّ ، فرجعَ عنْ نسيانِهِ إضافةَ ذلكَ إلى اللهِ تعالىٰ[1] .

ولهـٰذا قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ وهمْ خيرُ الناسِ : « ما منكُمْ مِنْ أحدٍ ينجيهِ عملُهُ » ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أَنْ يتغمَّدَني اللهُ برحمتِهِ »[2] .

ولقدْ كانَ أصحابُهُ مِنْ بعدِهِ يتمنَّونَ أنْ يكونوا تراباً وتبناً وطيراً ، معَ صفاءِ أعمالِهِمْ وقلوبِهِمْ ، فكيفَ يكونُ لذي بصيرةٍ أنْ يعجبَ بعملِهِ أوْ يُدِلَّ بهِ ولا يخافَ علىٰ نفسِهِ ؟!

فإذاً ؛ هـٰذا هوَ العلاجُ القامعُ لمادةِ العجبِ مِنَ القلبِ ، ومهما غلبَ ذلكَ على القلبِ . . شغلَهُ خوفُ سلبِ هـٰذهِ النعمةِ عنِ الإعجابِ بها ، بلْ هوَ ينظرُ إلى الكفَّارِ والفسَّاقِ وقدْ سُلبوا نعمةَ الإيمانِ والطاعةِ بغيرِ ذنبٍ أذنبوهُ

---

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٨٦) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

مِنْ قبلُ ، فيخافُ مِنَ ذلكَ فيقولُ : إنَّ مَنْ لا يبالي أنْ يحرمَ مِنْ غيرِ جنايةٍ ، ويعطيَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ . . لا يبالي أنْ يعودَ ويسترجعَ ما وهبَ ، فكمْ مِنْ مؤمنٍ قدِ ارتدَّ ، ومطيعٍ قدْ فسقَ وخُتمَ لهُ بالسوءِ ، وهٰذا لا يبقىٰ معَهُ عجْبٌ بحالٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان أقسام ما به العُجب ، وتفصيل علاجه

اعلمْ : أنَّ العجبَ بالأسبابِ التي بها يُتكبَّرُ كما ذكرناهُ ، وقدْ يعجبُ بما لا يُتكبَّرُ بهِ ؛ كعجبِهِ بالرأيِ الخطأِ الذي تزيَّنَ لهُ بجهلِهِ .

فما بِهِ العجبُ ثمانيةُ أقسام :

الأوَّلُ : أنْ يعجبَ ببدنِهِ في جمالِهِ ، وهيئتِهِ ، وصحتِهِ ، وقوَّتِهِ ، وتناسبِ أشكالِهِ ، وحسنِ صورتِهِ ، وحسنِ صوتِهِ ، وبالجملةِ : تفصيلُ خلقتِهِ ، فيلتفتُ إلىٰ جمالِ نفسِهِ ، وينسىٰ أنَّهُ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بعرضةِ الزوالِ في كلِّ حالٍ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الكبرِ بالجمالِ ، وهوَ التفكُّرُ في أقذارِ باطنِه ، وفي أوَّلِ أمرِهِ وفي آخرِهِ ، وفي الوجوهِ الجميلةِ والأبدانِ الناعمةِ أنَّها كيفَ تمزَّقَتْ في الترابِ ، وأنتنَتْ في القبورِ بحيثُ استقذرَتْها الطباعُ .

* * *

الثاني : القوَّةُ والبطشُ ؛ كما حُكيَ عنْ قومِ عادٍ حينَ قالوا فيما أخبرَ اللهُ عنهُمْ : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

وكما اتَّكلَ عُوجٌ علىٰ قوَّتِهِ وأُعجبَ بها ، فاقتلعَ جبلاً ليطبقَهُ علىٰ عسكرِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فثقبَ اللهُ تعالىٰ تلكَ القطعةَ مِنَ الجبلِ بنقرِ

هدهدٍ ضعيفِ المنقارِ حتَّىٰ صارَتْ في عنقِهِ[1] .

وقدْ يتّكلُ المؤمنُ أيضاً علىٰ قوّتِهِ ؛ كما رُوِيَ عنْ سليمانَ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : لأطوفَنَّ الليلةَ علىٰ مئةِ امرأةٍ ولمْ يقلْ : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، فحُرِمَ ما أرادَ مِنَ الولدِ[2] .

وكذلك قولُ داوودَ عليهِ السلامُ : (إنِ ابتليتَني .. صبرتُ) إعجاباً بالقوّةِ[3] ، فلما ابتُلِيَ بالمرأةِ .. لم يصبرْ .

ويورثُ العجبُ بالقوّةِ الهجومَ في الحروبِ ، وإلقاءَ النفسِ في التهلكةِ ، والمبادرةَ إلى الضربِ والقتلِ لكلِّ مَنْ قصدَهُ بالسوءِ .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ ، وهوَ أنْ يعلمَ أنَّ حُمَّىٰ يومٍ تضعفُ قوّتَهُ ، وأنَّهُ إذا أُعجبَ بها .. ربَّما سلبَها اللهُ تعالىٰ بأدنىٰ آفةٍ يسلِّطُها عليهِ .

* * *

الثالثُ : العجبُ بالعقلِ والكياسةِ ، والتفطنِ لدقائقِ الأمورِ مِنْ مصالحِ الدينِ والدنيا ، وثمرتُهُ : الاستبدادُ بالرأيِ ، وتركُ المشورةِ ، واستجهالُ الناسِ المخالفينَ لهُ ولرأيِهِ ، ويخرجُ إلىٰ قلّةِ الإصغاءِ إلىٰ أهلِ العلمِ ؛

---

(١) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٥/١٥١٩) ، وانظر « الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢/٢٤١) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٤٢) ، ومسلم (١٦٥٤) ، وذكر المئة عند البخاري .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٥٦) .

إعراضاً عنهُمْ بالاستغناءِ بالرأيِ والعقلِ ، واستحقاراً لهُمْ وإهانةً .

وعلاجُهُ : أنْ يشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما رُزقَ مِنَ العقلِ ، ويتفكرَ أنَّهُ بأدنىٰ مرضٍ يصيبُ دماغَهُ كيفَ يوسوسُ ويُجنُّ بحيثُ يُضحكُ منهُ ، فلا يأمنُ أنْ يُسلبَ عقلُهُ إنْ أُعجبَ بهِ ولمْ يقُمْ بشكرِهِ ، وليستصغرْ عقلَهُ وعلمَهُ ، وليعلمْ أنَّهُ ما أُوتيَ مِنَ العلمِ إلا قليلاً وإنِ اتسعَ علمُهُ ، وأنَّ ما جهلَهُ ممَّا عرفَهُ الناسُ أكثرُ ممَّا علمَهُ ؛ فكيفَ بما لمْ يعرفْهُ الناسُ مِنْ علمِ اللهِ تعالى ؟! وأَنْ يتَّهمَ عقلَهُ ، وينظرَ إلى الحمقىٰ كيفَ يعجبونَ بعقولِهِمْ ويضحكُ الناسُ منهُمْ ، فيحذرَ أنْ يكونَ منهُمْ وهوَ لا يدري ، فإنَّ القاصرَ في العقلِ قطُّ لا يعلمُ قصورَ عقلِهِ ؛ فينبغي أنْ يعرفَ مقدارَ عقلِهِ مِنْ غيرِهِ لا مِنْ نفسِهِ ، ومِنْ أعدائِهِ لا مِنْ أصدقائِهِ ؛ فإنَّ مَنْ يداهنُهُ يثني عليهِ فيزيدُهُ عجباً ، وهوَ لا يظنُّ بنفسِهِ إلا الخيرَ ، ولا يفطنُ لجهلِ نفسِهِ فيزدادُ بهِ عجباً .

* * *

الرابعُ : العجبُ بالنسبِ الشريفِ ؛ كعجبِ الهاشميةِ(١) ، حتَّىٰ يظنُّ بعضُهُمْ أنَّهُ ينجو بسببِ شرفِ نسبِهِ ونجاةِ آبائِهِ ، وأنَّهُ مغفورٌ لهُ ، ويتخيَّلُ بعضُهُمْ أنَّ جميعَ الخلقِ لهُ مَوَالٍ وعبيدٌ .

وعلاجُهُ : أنْ يعلمَ أنَّهُ مهما خالفَ آباءَهُ في أفعالِهِمْ وأخلاقِهِمْ ، وظنَّ أنَّهُ ملحقٌ بهِمْ . فقدْ جهلَ ، وإنِ اقتدىٰ بآبائِهِ . فما كانَ مِنْ أخلاقِهِمْ

---

(١) هم بنو هاشم ، فيشمل العلويين والطالبيين والجعفريين . « إتحاف » (٨/ ٤١٨) .

العجْبُ ، بلِ الخوفُ ، والإزراءُ على النفسِ ، واستعظامُ الخلقِ ، ومذمَّةُ النفسِ ، ولقدْ شَرُفوا بالطاعةِ والعلمِ والخصالِ الحميدةِ ، لا بالنسبِ ، فليشرفْ بما شرفوا بهِ ، وقدْ ساواهُمْ في النسبِ وشاركَهُمْ في القبائلِ مَنْ لمْ يؤمنْ باللهِ واليومِ الآخرِ ، فكانوا عندَ اللهِ شرّاً مِنَ الكلابِ ، وأخسَّ مِنَ الخنازيرِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ أيْ : لا تفاوتَ في أنسابِكُمْ لاجتماعِكُمْ في أصلٍ واحدٍ ، ثمَّ ذكرَ فائدةَ النسبِ فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ ، ثمَّ بينَ أنَّ الشرفَ بالتقوىٰ لا بالنسبِ فقالَ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

ولمَّا قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : مَنْ أكرمُ الناسِ ؟ مَنْ أكيسُ الناسِ ؟ لمْ يقلْ : مَنْ ينتمي إلىٰ نسبي ، ولكنْ قالَ : « أكثرُهُمْ للموتِ ذِكراً ، وأشدُّهُمْ لهُ استعداداً »(١) .

وإنما أُنزلَتْ هـٰذهِ الآيةُ حينَ أذَّنَ بلالٌ يومَ الفتحِ على الكعبةِ ، فقالَ الحارثُ بنُ هشامٍ وسهيلُ بنُ عمرٍو وخالدُ بنُ أسيدٍ : هـٰذا العبدُ الأسودُ يؤذِّنُ ؟! فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ أذهبَ عنكُمْ عُبِّيَّةَ الجاهليةِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣١٣) .
(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٦٣) ، وهو عند ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٦٢٠) عن ابن أبي مليكة بنحوه .

ـ أيْ : كبرَها ـ كلُّكُمْ بنو آدمَ ، وآدمُ مِنْ ترابٍ »[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ قريشٍ ؛ لا تأتي الناسُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ وتأتونَ بالدنيا تحملونَها علىٰ رقابِكُمْ ، تقولونَ : يا محمدُ يا محمدُ ، فأقولُ هٰكذا »[2] ؛ أيْ : أعرضُ عنكمْ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ إنْ مالوا إلى الدنيا . . لمْ ينفعْهُمْ نسبُ قريشٍ .

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . . ناداهُمْ بطناً بعدَ بطنٍ حتَّىٰ قالَ : « يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ؛ يا صفيةُ بنتَ عبدِ المطلبِ عمَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ اعملا لأنفسِكُما ؛ فإنِّي لا أغني عنكُما مِنَ اللهِ شيئاً »[3] .

فمَنْ عرفَ هٰذهِ الأمورَ ، وعلمَ أنَّ شرفَهُ بقدْرِ تقواهُ ، وقدْ كانَ مِنْ عادةِ آبائِهِ التواضعُ . . اقتدىٰ بهِمْ في التقوىٰ والتواضعِ ، وإلا . . كانَ طاعناً في نسبِ نفسِهِ بلسانِ حالِهِ مهما انتمىٰ إليهِمْ ولمْ يشبهْهُمْ في التواضعِ والتقوىٰ والخوفِ والإشفاقِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ قولِهِ لفاطمةَ وصفيةَ : « إنِّي لا أُغني عنكُما مِنَ اللهِ شيئاً ، إلا أنَّ لكما رحماً سأبُلُّها

---

(1) رواه أبو داوود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) .
(2) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٧٩) .
(3) رواه البخاري (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٦) .

ببَلالِها »[1] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أترجو سُلَيمٌ شفاعتي ولا يرجوها بنو عبدِ المطلبِ ؟! »[2] ، فذلكَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ سيخصُّ قرابتَهُ بالشفاعةِ .

فاعلمْ : أنَّ كلَّ مسلمٍ فهوَ منتظرٌ شفاعةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والنسيبُ أيضاً جديرٌ بأنْ يرجوَها ، لكنْ بشرطِ أنْ يتَّقيَ اللهَ أنْ يغضبَ عليهِ ؛ فإنَّهُ إنْ يغضبْ عليهِ . فلا يأذنْ لأحدٍ في أنْ يشفعَ لهُ ؛ لأنَّ الذنوبَ منقسمةٌ إلىٰ ما يوجبُ المقتَ فلا يؤذنُ في الشفاعةِ فيهِ ، وإلىٰ ما يُعفىٰ عنهُ بسببِ الشفاعةِ ؛ كالذنوبِ عندَ ملوكِ الدنيا ، فإنَّ كلَّ ذي مكانةٍ عندَ الملكِ لا يقدرُ على الشفاعةِ فيما اشتدَّ عليهِ غضبُ الملكِ ، فمِنَ الذنوبِ ما لا تُنجي منهُ الشفاعةُ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ ، وبقولِهِ : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ .

---

(1) تتمة الحديث السابق من رواية مسلم (٢٠٤) ولفظه : « غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » ، قال الإمام النووي في « شرحه لمسلم » (٣/ ٨٠) : (والبلال : الماء ، ومعنى الحديث : سأصلها ، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة ، ومنه : « بلُّوا أرحامكم » ؛ أي : صلوها) .

(2) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢٠٨١) ، وفي (ك) : (سلهم) بدل (سليم) ، ورواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٧٥٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٤١٣) ، وفي (م) : (سهم) .

وإذا انقسمَتِ الذنوبُ إلىٰ ما يُشفَعُ فيهِ وإلىٰ ما لا يُشفَعُ فيهِ. . وجبَ الخوفُ والإشفاقُ لا محالةَ ، ولوْ كانَ كلُّ ذنبٍ تُقبلُ فيهِ الشفاعةُ. . لما أمرَ قريشاً بالطاعةِ ، ولما نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها عنِ المعصيةِ ، ولكانَ يأذنُ لها في اتباعِ الشهواتِ ؛ لتكملَ لذَّتُها في الدنيا ، ثمَّ يشفعُ لها في الآخرةِ لتكملَ لذَّتُها في الآخرةِ ، فالانهماكُ في الذنوبِ وتركُ التقوى اعتماداً علىٰ رجاءِ الشفاعةِ يضاهي انهماكَ المريضِ في شهواتِهِ اعتماداً علىٰ طبيبٍ حاذقٍ قريبٍ مشفقٍ مِنْ أبٍ أوْ أخٍ أوْ غيرِهِ ، وذلكَ جهلٌ ؛ لأنَّ سعيَ الطبيبِ وهِمَّتَهُ وحذقَهُ ينفعُ في إزالةِ بعضِ الأمراضِ لا في كلِّها ، فلا يجوزُ تركُ الحميةِ مطلقاً اعتماداً علىٰ مجرَّدِ الطبِّ ، بلِ للطِّبِّ أثرٌ على الجملةِ ، ولكنْ في الأمراضِ الخفيفةِ ، وعندَ غلبةِ اعتدالِ المزاجِ .

فهكذا ينبغي أنْ تُفهمَ عنايةُ الشفعاءِ مِنَ الأنبياءِ والصلحاءِ للأقاربِ والأجانبِ ، فإنَّهُ كذلكَ قطعاً ، وذلكَ لا يزيلُ الخوفَ والحذرَ .

وكيفَ يزيلُ وخيرُ الخلقِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أصحابُهُ ، وقدْ كانوا يتمنَّونَ أنْ يكونوا بهائمَ مِنْ خوفِ الآخرةِ ، معَ كمالِ تقواهُمْ ، وحسنِ أعمالِهِمْ ، وصفاءِ قلوبِهِمْ ، وما سمعوهُ مِنْ وَعْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيَّاهُمْ بالجنَّةِ خاصةً ، وسائرَ المسلمينَ بالشفاعةِ عامةً ، ولمْ يتَّكلوا عليهِ ، ولمْ يفارقِ الخشوعُ والخوفُ قلوبَهُمْ ؟! فكيفَ يعجبُ بنفسِهِ ويتَّكلُ على الشفاعةِ مَنْ ليسَ لهُ مثلُ صحبتِهِمْ وسابقتِهِمْ ؟!

* * *

الخامسُ : العجبُ بنسبِ السلاطينِ الظلمةِ وأعوانِهِمْ ، دونَ نسبِ الدينِ والعلمِ ، وهـٰذا غايةُ الجهلِ .

وعلاجُهُ : أنْ يتفكَّرَ في مخازيهِمْ ، وما جرىٰ لهُمْ مِنَ الظلمِ علىٰ عبادِ اللهِ ، والفسادِ في دينِ اللهِ ؛ فإنَّهُمْ ممقوتونَ عندَ اللهِ تعالىٰ .

ولوْ نظرَ إلىٰ صورِهِمْ في النارِ وأنتانِهِمْ وأقذارِهِمْ . . لاستنكفَ عنهُمْ ، ولتبرَّأَ مِنَ الانتسابِ إليهِمْ ، ولأنكرَ علىٰ مَنْ نَسبَهُ إليهِمْ ؛ استحقاراً لهُمْ واستقذاراً .

ولوِ انكشفَ لهُ ذلُّهُمْ في القيامةِ ، وقدْ تعلَّقَ الخصماءُ بهِمْ ، والملائكةُ آخذونَ بنواصيهِمْ ، يجرونَهُمْ علىٰ وجوهِهِمْ إلىٰ جهنَّمَ في مظالمِ العبادِ . . لتبرَّأَ إلى اللهِ منهُمْ ، ولكانَ انتسابُهُ إلى الكلبِ والخنزيرِ أحبَّ إليهِ مِنَ الانتسابِ إليهِمْ ، فحقُّ أولادِ الظلمةِ إنْ عصمَهُمُ اللهُ تعالىٰ مِنْ ظلمِهِمْ أنْ يشكروا اللهَ تعالىٰ علىٰ سلامةِ دينِهِمْ ، ويستغفروا لآبائِهِمْ إنْ كانوا مسلمينَ ، فأمَّا العجبُ بنسبِهِمْ . . فجهلٌ محضٌ .

* * *

السادسُ : العجبُ بكثرةِ العددِ مِنَ الأولادِ والخدمِ والغلمانِ والعشيرةِ والأقاربِ والأنصارِ والأتباعِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنِ الكفَّارِ : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا ﴾ ، وكما قالَ المؤمنونَ يومَ حنينٍ : (لا نُغلبُ اليومَ منْ قلةٍ)(١) .

(١) كذا في « الرعاية » (ص ٣٤٣)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ١٠/ ١٢٨) عن السدي .

وعلاجُهُ : ما ذكرناهُ في الكبْرِ ، وهوَ أنْ يتفكَّرَ في ضعفِهِ وضعفِهِمْ ، وأنَّ كلَّهُمْ عبيدٌ عجَزَةٌ ، لا يملكونَ لأنفسِهِمْ ضراً ولا نفعاً ، وكمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ .

ثمَّ كيفَ يعجبُ بهِمْ وإنَّهُمْ سيفترقونَ عنهُ إذا ماتَ ، فيُدفنُ في قبرِهِ ذليلاً مَهيناً وحدَهُ ، لا يرافقُهُ ولدٌ ، ولا أهلٌ ، ولا قريبٌ ولا حميمٌ ولا عشيرٌ ، فيسلمونَهُ إلى البِلىٰ والحياتِ والعقاربِ والديدانِ ، ولا يغنونَ عنهُ شيئاً وهوَ في أحوجِ أوقاتِهِ إليهِمْ ، وكذلكَ يهربونَ منهُ يومَ القيامةِ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ . . . ﴾ الآيةَ ، فأيُّ خيرٍ فيمَنْ يفارقُكَ في أشدِّ أحوالِكَ ويهربُ منكَ ؟! وكيفَ تعجبُ بهِ ولا ينفعُكَ في القبرِ والقيامةِ وعلى الصراطِ إلا عملُكَ وفضلُ اللهِ تعالى ؟! فكيفَ تتَّكلُ علىٰ مَنْ لا ينفعُكَ وتنسىٰ نِعَمَ مَنْ يملكُ ضرَّكَ ونفعَكَ ، وموتَكَ وحياتَكَ ؟!

❊ ❊ ❊

السابعُ : العجبُ بالمالِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنْ صاحبِ الجنَّتينِ إذْ قالَ : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً غنيّاً جلسَ بجنبِهِ فقيرٌ فانقبضَ عنهُ وجمعَ ثيابَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخشيتَ أنْ يعدوَ إليكَ فقرُهُ ؟! »[1] ، وذلكَ للعجبِ بالغنىٰ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٧) .

وعلاجُهُ : أنْ يتفكَّرَ في آفاتِ المالِ ، وكثرةِ حقوقِهِ ، وعظمِ غوائلِهِ ، وينظرَ إلىٰ فضيلةِ الفقراءِ ، وسبقِهِمْ إلى الجنةِ في القيامةِ ، وإلىٰ أنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ، ولا أصلَ لهُ ، وإلىٰ أنَّ في اليهودِ مَنْ يزيدُ عليهِ في المالِ ، وإلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَما رجلٌ يتبخترُ في حُلَّةٍ لهُ قدْ أعجبَتْهُ نفسُهُ . . إذْ أمرَ اللهُ الأرضَ فأخذَتْهُ ، فهوَ يتجَلْجَلُ فيها إلىٰ يومِ القيامةِ »(١) ، أشارَ بهِ إلىٰ عقوبةِ إعجابِهِ بمالِهِ ونفسِهِ .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدخلَ المسجدَ فقالَ لي : « يا أبا ذرٍّ ؛ ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا رجلٌ عليهِ ثيابٌ جيادٌ ، ثمَّ قالَ : « ارفعْ رأسَكَ » ، فرفعتُ رأسي ، فإذا رجلٌ عليهِ خُلْقانٌ ، فقالَ لي : يا أبا ذرٍّ ؛ هٰذا عندَ اللهِ خيرٌ مِنْ قُرابِ الأرضِ مثلِ هٰذا »(٢) .

وجميعُ ما ذكرناهُ في كتابِ الزهدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ . . يبيِّنُ حقارةَ الأغنياءِ وشرفَ الفقراءِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ يُتصوَّرُ مِنَ المؤمنِ أنْ يعجبَ بثروتِهِ ؟ بلْ لا يخلو المؤمنُ عنِ الخوفِ مِنْ تقصيرِهِ في القيامِ بحقوقِ المالِ ، في أخذِهِ مِنْ حِلِّهِ ، ووضعِهِ في حقِّهِ ، ومَنْ لا يفعلْ ذلكَ . . فمصيرُهُ إلى الخزيِ والبوارِ ، فكيفَ يعجبُ بمالِهِ ؟!

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٢) كذا في « الرعاية » (ص ٣٧٠) ، ورواه بألفاظ مقاربة أحمد في « المسند » (٥/١٥٧).

الثامنُ : العجبُ بالرأيِ الخطأِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وقدْ أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ ذلكَ يغلبُ علىٰ آخرِ هـٰذهِ الأمةِ[1] ، وبذلكَ هلكَتِ الأممُ السالفةُ ؛ إذِ افترقَتْ فرقاً ، فكلٌّ معجبٌ برأيِهِ ، وكلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، وجميعُ أهلِ البدعِ والضلالِ إنَّما أصرُّوا عليها لعجبِهِمْ بآرائِهِمْ ، والعجبُ بالبدعةِ هوَ استحسانُ ما يسوقُ إليهِ الهوىٰ والشهوةُ معَ ظنِّ كونِهِ حقّاً .

وعلاجُ هـٰذا العجبِ أشدُّ مِنْ علاجِ غيرِهِ ؛ لأنَّ صاحبَ الرأيِ الخطأِ جاهلٌ بخطئِهِ ، ولوْ عرفَهُ .. لتركَهُ ، ولا يُعالجُ الداءُ الذي لا يُعرفُ ، والجهلُ داءٌ لا يُعرفُ ، فتعسَّرَ مداواتُهُ جدّاً ، إلا أنَّ العارفَ يقدرُ علىٰ أنْ يبيِّنَ للجاهلِ جهلَهُ ، ويزيلَهُ عنهُ ، إلا إذا كانَ معجباً برأيِهِ وجهلِهِ ؛ فإنَّهُ لا يُصغي إلى العارفِ ويتَّهمُهُ ، فقدْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ بليَّةً تهلكُهُ ، وهوَ يظنُّها نعمةً ، فكيفَ يمكنُ علاجُهُ ؟

وكيفَ يطلبُ الهربَ ممَّا هوَ سببُ سعادتِهِ في اعتقادِهِ ؟

(١) تقدم ، ولفظه : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه .. فعليك بخاصة نفسك » .

وإنَّما علاجُهُ على الجملةِ : أنْ يكونَ متَّهِماً لرأيِهِ أبداً ، لا يغترُّ بهِ إلا أنْ يشهدَ لهُ قاطعٌ مِنْ كتابٍ ، أوْ سنَّةٍ ، أوْ دليلٍ عقليٍّ صحيحٍ جامعٍ لشروطِ الأدلَّةِ ، ولنْ يعرفَ الإنسانُ أدلةَ الشرعِ والعقلِ وشروطَها ومكامنَ الغلطِ فيها إلا بقريحةٍ تامَّةٍ ، وعقلٍ ثاقبٍ ، وجدٍّ وتشميرٍ في الطلبِ ، وممارسةٍ للكتابِ والسنةِ ، ومجالسةٍ لأهلِ العلمِ طولَ العمرِ ، ومدارسةٍ للعلومِ ، ومعَ ذلكَ فلا يُؤمنُ عليهِ الغلطُ في بعضِ الأمورِ .

والصوابُ لمَنْ لمْ يتفرَّغْ لاستغراقِ عمرِهِ في العلمِ : ألاَّ يخوضَ في المذاهبِ ، ولا يصغيَ إليها ولا يسمعَها ، ولكنْ يعتقدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، وأنَّهُ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ ، وأنَّ رسولَهُ صادقٌ فيما أخبرَ بهِ ، ويتبعُ سنةَ السلفِ ، ويؤمنُ بجملةِ ما جاءَ بهِ الكتابُ والسنةُ مِنْ غيرِ بحثٍ وتنقيرٍ وسؤالٍ عنْ تفصيلٍ ، بلْ يقولُ : آمنَّا وصدَّقنا ، ويشتغلُ بالتقوىٰ ، واجتنابِ المعاصي ، وأداءِ الطاعاتِ ، والشفقةِ على المسلمينَ ، وسائرِ الأعمالِ ، فإنْ خاضَ في المذاهبِ والبدعِ والتعصبِ في العقائدِ . . هلكَ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، هٰذا حقُّ كلِّ مَنْ عزمَ علىٰ أنْ يشتغلَ في عمرِهِ بشيءٍ غيرِ العلمِ .

فأمَّا الذي عزمَ على التجرُّدِ للعلمِ . . فأوَّلُ مهمٍّ لهُ معرفةُ الدليلِ وشروطِهِ ، وذلكَ ممَّا يطولُ الأمرُ فيهِ ، والوصولُ إلى اليقينِ والمعرفةِ في أكثرِ المطالبِ شديدٌ ، لا يقدرُ عليهِ إلا الأقوياءُ المؤيدونَ بنورِ اللهِ تعالىٰ ،

وهوَ عزيزُ الوجودِ جدّاً ، فنسألُ اللهَ تعالى العصمةَ مِنَ الضلالِ ، ونعوذُ بهِ مِنَ الاغترارِ بخيالاتِ الجهَّالِ .

* * *

تمَّ كتابُ ذمِّ الكبرِ والعجب

وهو الكتابُ التّاسع من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ العربيّ المصطفى وعلى آله وصحبه وسلّم

يتلوه كتابُ ذمِّ الغرور

كتاب
ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب ذمّ الغرور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي بيدِهِ مقاليدُ الأمورِ ، وبقدرتِهِ مفاتيحُ الخيراتِ والشرورِ ، مخرجِ أوليائِهِ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ ، ومورِدِ أعدائِهِ وَرَطاتِ الغرورِ .

والصلاةُ على محمدٍ مخرجِ الخلائقِ مِنَ الديجورِ ، وعلى آلهِ وأصحابِهِ الذينَ لمْ تغرَّهُمُ الحياةُ الدنيا ولمْ يغرَّهُمْ باللهِ الغَرورُ ، صلاةً تتوالى على ممرِّ الدهورِ ، ومكرِّ الساعاتِ والشهورِ .

أما بعد :

فمفتاحُ السعادةِ التيقُّظُ والفطنةُ ، ومنبعُ الشقاوةِ الغرورُ والغفلةُ ، فلا نعمةَ للهِ على عبادِهِ أعظمُ مِنَ الإيمانِ والمعرفةِ ، ولا وسيلةَ إليهِ سوى انشراحِ الصدرِ بنورِ البصيرةِ ، ولا نقمةَ أعظمُ مِنَ الكفرِ والمعصيةِ ، ولا داعيَ إليهما سوى عمى القلبِ بظلمةِ الجهالةِ ، فالأكياسُ وأربابُ البصائرِ قلوبُهُمْ ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ، والمغترونَ قلوبُهُمْ ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن

فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ .

فالأكياسُ همُ الذينَ أرادَ اللهُ أنْ يهديَهُمْ ، فشرحَ صدورَهُمْ للإسلامِ والهدىٰ ، والمغترُّونَ هُمُ الذينَ أرادَ اللهُ أنْ يضلَّهُمْ ، فجعلَ صدرَهُمْ ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعَّدُ في السماءِ ، والمغرورُ هوَ الذي لمْ تنفتحْ بصيرتُهُ ليكونَ بهدايةِ نفسهِ كفيلاً ، وبقيَ في العمىٰ فاتخذَ الهوىٰ قائداً والشيطانَ دليلاً ، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ .

وإذا عُرِفَ أنَّ الغرورَ هوَ أمُّ الشقاواتِ ، ومنبعُ المهلكاتِ . . فلا بدَّ مِنْ شرحِ مداخلِهِ ومجاريهِ ، وتفصيلِ ما يكثرُ وقوعُ الغرورِ فيهِ ؛ ليحذرَهُ المريدُ بعدَ معرفتِهِ فيتقيهُ ، فالموفَّقُ مِنَ العبادِ مَنْ عرفَ مداخلَ الآفاتِ والفسادِ فأخذَ منها حذرَهُ ، وبنىٰ على الحزمِ والبصيرةِ أمرَهُ .

ونحنُ نشرحُ أجناسَ مجاري الغرورِ ، وأصنافَ المغترِّينَ مِنَ العصاةِ والعلماءِ والصالحينَ ، الذينَ اغترُّوا بمبادي الأمورِ الجميلةِ ظواهرُها ، القبيحةِ سرائرُها ، ونشيرُ إلىٰ وجهِ اغترارِهِمْ بها وغفلتِهِمْ عنها ؛ فإنَّ ذلكَ وإنْ كانَ أكثرَ ممَّا يُحصىٰ ، ولكنْ يمكنُ التنبيهُ علىٰ أمثلةٍ تُغني عنِ الاستقصا .

وفِرَقُ المغترينَ كثيرةٌ ، ولكنْ يجمعُهُمْ أربعةُ أصنافٍ :

الصنفُ الأولُ : مِنَ العلماءِ ، الصنفُ الثاني : مِنَ العبّادِ ، الصنفُ

الثالثُ : مِنَ المتصوِّفَةِ ، الصنفُ الرابعُ : مِنْ أربابِ الأموالِ .

والمغترُّ مِنْ كلِّ صنفٍ فرقٌ كثيرةٌ ، وجهاتُ غرورِهِمْ مختلفةٌ ؛ فمنهُمْ مَن رأى المنكرَ معروفاً ؛ كالذي يتَّخذُ المساجدَ ويزخرفُها مِنَ المالِ الحرامِ ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يميِّزْ بينَ ما يسعىٰ فيهِ لنفسِهِ وبينَ ما يسعىٰ فيهِ للهِ تعالىٰ ؛ كالواعظِ الذي غرضُهُ القبولُ والجاهُ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ الأهمَّ ويشتغلُ بغيرِهِ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ الفرضَ ويشتغلُ بالنافلةِ ، ومنهُمْ مَنْ يتركُ اللُّبابَ ويشتغلُ بالقشرِ ؛ كالذي يكونُ همُّهُ في الصلاةِ مقصوراً علىٰ تصحيحِ مخارجِ الحروفِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مداخلَ لا تتضحُ إلا بتفصيلِ الفِرَقِ وضربِ الأمثلةِ .

ولنبدأْ أوَّلاً بذكرِ غرورِ العلماءِ ، ولكنْ بعدَ بيانِ ذمِّ الغرورِ ، وبيانِ حقيقتِهِ وحدِّهِ .

* * *

بيان ذمّ الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلمْ : أنَّ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ . . . ﴾ الآيةَ . . كافٍ في ذمِّ الغرورِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبَّذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُمْ ، كيفَ يغبنونَ سهرَ الحمقىٰ واجتهادَهُمْ ولمثقالُ ذرَّةٍ مِنْ صاحبِ تقوىٰ ويقينٍ أفضلُ مِنْ ملءِ الأرضِ مِنَ المغترِّينَ ؟! »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[2] .

وكلُّ ما وردَ في فضلِ العلمِ وذمِّ الجهلِ . . فهوَ دليلٌ علىٰ ذمِّ الغرورِ ؛ لأنَّ الغرورَ عبارةٌ عنْ بعضِ أنواعِ الجهلِ ؛ إذِ الجهلُ هوَ أنْ يعتقدَ الشيءَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « اليقين » (٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، قال الحافظ العراقي : (ولم أجده مرفوعاً) . « إتحاف » (٨/ ٤٢٨) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلاَّم في « غريب الحديث » (٣/ ١٣٤) ، دان نفسه : جعلها منقادة مطيعة لربِّها تعالىٰ ، **وتمنّىٰ على الله** : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٧/ ٤٤) .

ويراهُ علىٰ خلافِ ما هوَ بهِ ، والغرورُ هوَ جهلٌ ، إلا أنَّ كلَّ جهلٍ ليسَ بغرورٍ ، بلْ يستدعي الغرورُ مغروراً فيهِ مخصوصاً ، ومغروراً بهِ وهوَ الذي يغرُّهُ ، فمهما كانَ المجهولُ المعتقَدُ شيئاً يوافقُ الهوىٰ ، وكانَ السببُ الموجبُ للجهلِ شبهةً ومَخِيلةً فاسدةً يظنُّ أنَّها دليلٌ ولا تكونُ دليلاً . . سُميَ الجهلُ الحاصلُ بهِ غروراً .

فالغرورُ : هوَ سكونُ النفسِ إلىٰ ما يوافقُ الهوىٰ ويميلُ إليهِ الطبعُ عنْ شبهةٍ وخدعةٍ مِنَ الشيطانِ ؛ فمَنِ اعتقدَ أنَّهُ علىٰ خيرٍ إمَّا في العاجلِ أوْ في الآجلِ عنْ شبهةٍ فاسدةٍ . . فهوَ مغرورٌ ، وأكثرُ الناسِ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الخيرَ وهمْ مخطئونَ فيهِ ، فأكثرُ الناسِ إذاً مغرورونَ وإنْ اختلفَتْ أصنافُ غرورِهِمْ واختلفَتْ درجاتُهُمْ ، حتَّىٰ كانَ غرورُ بعضِهِمْ أظهرَ وأشدَّ مِنْ بعضٍ ، وأظهرُها وأشدُّها غرورانِ ؛ غرورُ الكفارِ ، وغرورُ العصاةِ والفسَّاقِ ، فلنوردْ أمثلةً لحقيقةِ الغرورِ :

المثالُ الأولُ : غرورُ الكفارِ :

فمنهُمْ مَنْ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا ، ومنهُمْ مَنْ غرَّهُ باللهِ الغَرورُ .

أمَّا الذينَ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا . . فهمُ الذينَ قالوا : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، والدنيا نقدٌ والآخرةُ نسيئةٌ ، فإذاً هيَ خيرٌ ، فلا بدَّ مِنْ إيثارِها ، وقالوا : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، ولذَّاتُ الدنيا يقينٌ ، ولذَّاتُ الآخرةِ شكٌّ ؛ فلا نتركُ اليقينَ بالشكِّ .

وهٰذهِ أقيسةٌ فاسدةٌ ؛ تشبهُ قياسَ إبليسَ حيثُ قالَ : ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ ، وإلىٰ هؤلاءِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ .

وعلاجُ هٰذا الغرورِ : إمَّا بتصديقِ الإيمانِ ، وإمَّا بالبرهانِ .

أمَّا التصديقُ بمجرَّدِ الإيمانِ . . فهوَ أنْ يصدِّقَ اللهَ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ .

وقدْ أخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ طوائفَ مِنَ الكفارِ ، فقلَّدوهُ وصدَّقوهُ وآمنوا بهِ ، ولمْ يطالبوهُ بالبرهانِ(١) ، ومنهُمْ مَنْ قالَ : نشدتُكَ اللهَ ؛ أبعثَكَ اللهُ رسولاً ؟ فكانَ يقولُ : « نعمْ »(٢) ، فيصدِّقُ ، وهٰذا إيمانُ العامَّةِ ، وهوَ مخرجٌ مِنَ الغرورِ ، ويُنزَّلُ هٰذا منزلةَ تصديقِ الصبيِّ والدَهُ في أنَّ حضورَ المكتبِ خيرٌ مِنْ حضورِ الملعبِ ، معَ أنَّهُ لا يدري وجهَ كونِهِ خيراً .

---

(١) كإيمان كثير من الأنصار ، وقد روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه يحكي خبرهم : (فيخرج الرجل منَّا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلىٰ أهله فيسلمون بإسلامه . . .) .

(٢) وكان ذلك في قصة إيمان ضِمَام بن ثعلبة رضي الله عنه ، وهي عند البخاري (٦٣) .

وأمَّا المعرفةُ بالبيانِ والبرهانِ . . فهوَ أنْ يعرفَ وجهَ فسادِ هـٰذا القياسِ الذي نظمَهُ في قلبِهِ الشيطانُ ، فإنَّ كلَّ مغرورٍ فلغرورِهِ سببٌ ، وذلكَ السببُ هوَ دليلٌ ، وكلُّ دليلٍ فهوَ نوعُ قياسٍ يقعُ في النفسِ ، ويورثُ السكونَ إليهِ وإنْ كانَ صاحبُهُ لا يشعرُ بهِ ولا يقدرُ علىٰ نظمِهِ بألفاظِ العلماءِ ، فالقياسُ الذي نظمَهُ الشيطانُ فيهِ أصلانِ : أحدُهُما : أنَّ الدنيا نقدٌ والآخرةُ نسيئةٌ ، وهـٰذا صحيحٌ ، والآخرُ : قولُهُ : إنَّ النقدَ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، وهـٰذا محلُّ التلبيسِ ؛ فليسَ الأمرُ كذلكَ ، بلْ إنْ كانَ النقدُ مثلَ النسيئةِ في المقدارِ والمقصودِ . . فهوَ خيرٌ ، وإنْ كانَ أقلَّ منهُ . . فالنسيئةُ خيرٌ ، فإنَّ هـٰذا الكافرَ المغرورَ يبذلُ في تجارتِهِ درهماً ليأخذَ عشرةً نسيئةً ولا يقولُ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ فلا أتركُهُ ، وإذا حذَّرَهُ الطبيبُ الفواكهَ ولذائذَ الأطعمةِ . . تركَ ذلكَ في الحالِ ؛ خوفاً مِنْ ألمِ المرضِ في المستقبلِ ، فقدْ تركَ النقدَ ورضيَ بالنسيئةِ ، والتجارُ كلُّهُمْ يركبونَ البحارَ ويتعبونَ في الأسفارِ نقداً لأجلِ الراحةِ والربحِ نسيئةً ، فإنْ كانَ عشرةٌ في ثاني الحالِ خيراً مِنْ واحدٍ في الحالِ . . فانسبْ لذَّةَ الدنيا مِنْ حيثُ مدَّتُها إلىٰ مدَّةِ الآخرةِ ؛ فإنَّ أقصىٰ عمرِ الإنسانِ مئةُ سنةٍ ، وليسَ هوَ عُشرَ عَشيرٍ مِنْ جزءٍ مِنْ ألفِ ألفِ جزءٍ مِنَ الآخرةِ ، فكأنَّهُ قدْ تركَ واحداً ليأخذَ ألفَ ألفٍ ، بلْ ليأخذَ ما لا نهايةَ لهُ ولا حدَّ ، وإنْ نظرَ مِنْ حيثُ النوعُ . . رأىٰ لذَّاتِ الدنيا مكدَّرةً مشوبةً بأنواعِ المنغِّصاتِ ، ولذاتِ الآخرةِ صافيةً غيرَ مكدَّرةٍ .

فإذاً ؛ قدْ غلطَ في قولِهِ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ ، وهـٰذا غرورٌ منشؤُهُ

قبولُ لفظٍ عامٍّ مشهورٍ أُطلقَ وأريدَ بهِ خاصٌّ ، فغفلَ المغرورُ عنْ خصوصِ معناهُ ، فإنَّ مَنْ قالَ : النقدُ خيرٌ مِنَ النسيئةِ . . أرادَ بهِ خيراً مِنْ نسيئةٍ هيَ مثلُهُ وإنْ لم يصرِّح بهِ .

وعندَ هـٰذا يفزعُ الشيطانُ إلى القياسِ الآخرِ ، وهوَ قولُهُ : اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ ، والآخرةُ شكٌّ ، وهـٰذا القياسُ أكثرُ فساداً مِنَ الأولِ ؛ لأنَّ كِلا أصليهِ باطلٌ ؛ إذِ اليقينُ خيرٌ مِنَ الشكِّ إذا كانَ مثلَهُ ، وإلا . . فالتاجرُ في تعبهِ علىٰ يقينٍ وفي ربحهِ علىٰ شكٍّ ، والمتفقِّهُ في اجتهادِهِ علىٰ يقينٍ وفي إدراكِهِ رتبةَ العلمِ علىٰ شكٍّ ، والصيَّادُ في تردُّدِهِ في المقتنصِ علىٰ يقينٍ وفي الظَّفَرِ بالصيدِ علىٰ شكٍّ ، وكذا الحزمُ دأبُ العقلاءِ بالاتفاقِ ، وكلُّ ذلكَ تركٌ لليقينِ بالشكِّ ، ولكنَّ التاجرَ يقولُ : إنْ لمْ أتَّجرْ . . بقيتُ جائعاً وعَظُمَ ضرري ، وإنِ اتَّجرتُ . . كانَ تعبي قليلاً وربحي كثيراً ، وكذلكَ المريضُ يشربُ الدواءَ البشعَ الكريهَ وهوَ مِنَ الشفاءِ علىٰ شكٍّ ومِنْ مرارةِ الدواءِ علىٰ يقينٍ ، ولكنْ يقولُ : ضررُ مرارةِ الدواءِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ ما أخافُهُ مِنَ المرضِ والموتِ ؛ فكذلكَ مَنْ شكَّ في الآخرةِ فواجبٌ عليهِ بحكمِ الحزمِ أنْ يقولَ : الصبرُ أياماً قلائلَ وهوَ منتهى العمرِ قريبٌ بالإضافةِ إلىٰ ما يُقالُ مِنْ أمرِ الآخرةِ ، فإنْ كانَ ما قيلَ فيهِ كذباً . . فما يفوتُني إلا التنعُّمُ أيامَ حياتي ، وقدْ كنتُ في العدمِ مِنَ الأزلِ إلى الآنَ لا أتنعَّمُ ، فأحسِبُ أنِّي بقيتُ في العدمِ ، وإنْ كانَ ما قيلَ صدقاً . . فأبقىٰ في النارِ أبدَ الآبادِ ، وهـٰذا لا يُطاقُ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ لبعضِ الملحدينَ : (إنْ كانَ ما قلتَهُ حقّاً . . فقدْ تخلَّصتَ وتخلَّصنا ، وإنْ كانَ ما قلناهُ حقّاً . . فقدْ تخلَّصنا وهلكتَ)[١] ، وما قالَ هـٰذا عن شكٍّ منهُ في الآخرةِ ، ولكنْ كلَّمَ الملحدَ علىٰ قدْرِ عقلِهِ ، وبيَّنَ لهُ أنَّهُ وإنْ لمْ يكنْ متيقناً . . فهوَ مغرورٌ .

وأمَّا الأصلُ الثاني مِنْ كلامِهِ وهوَ أنَّ الآخرةَ شكٌّ . . فهوَ أيضاً خطأٌ ، بلْ ذلكَ يقينٌ عندَ المؤمنينَ ، وليقينِهِ مدركانِ :

أحدُهُمَا : الإيمانُ والتصديقُ ؛ تقليداً للأنبياءِ والعلماءِ ، وذلكَ أيضاً يزيلُ الغرورَ ، وهوَ مدركُ يقينِ العوامِّ وأكثرِ الخواصِّ ، ومثالُهُمْ مثالُ مريضٍ لا يُعرَفُ دواءُ علَّتِهِ ، وقدِ اتفقَ الأطباءُ وأهلُ الصناعةِ مِنْ عندِ آخرِهِمْ علىٰ أنَّ دواءَهُ النبتُ الفلانيُّ ؛ فإنَّهُ تطمئنُّ نفسُ المريضِ إلىٰ تصديقِهِمْ ، ولا يطالبُهُمْ بتصحيحِ ذلكَ بالبراهينِ الطبيَّةِ ، بلْ يثقُ بقولِهِمْ ويعملُ بهِ ، ولوْ بقيَ سواديٌّ أوْ معتوهٌ يكذِّبُهُمْ في ذلكَ وهوَ يعلمُ بالتواترِ وقرائنِ الأحوالِ أنَّهُمْ أكثرُ منهُ عدداً ، وأغزرُ منهُ فضلاً ، وأعلمُ بالطبِّ منهُ ، بلْ لا علمَ لهُ بالطبِّ . . فيعلمُ كذبَهُ بقولِهِمْ ، ولا يعتقدُ كذبَهُمْ بقولِهِ ، ولا يفتُرُ في عملِهِ بسببِهِ[٢] ، ولوِ اعتمدَ قولَهُ وتركَ قولَ الأطباءِ . . كانَ معتوهاً مغروراً .

فكذلكَ مَنْ نظرَ إلى المقرِّينَ بالآخرةِ والمخبرينَ عنها ، والقائلينَ بأنَّ

---

(١) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٨/ ٤٣٢) وسيأتي .
(٢) وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٤٣٢) : (ولا يغتر في عمله) .

التقوىٰ هوَ الدواءُ النافعُ في الوصولِ إلىٰ سعادتِها . . وجدَهُمْ خيرَ خلقِ اللهِ ، وأعلاهُمْ رتبةً في البصيرةِ والمعرفةِ والعقلِ ، وهمُ الأنبياءُ والأولياءُ والحكماءُ والعلماءُ ، واتَّبعَهُمْ عليهِ الخلقُ علىٰ أصنافِهِمْ ، وشذَّ منهُمْ آحادٌ مِنَ البطَّالينَ غلبَتْ عليهِمُ الشهوةُ ، ومالَتْ نفوسُهُمْ إلى التمتُّعِ ، فعظُمَ عليهِمْ تركُ الشهواتِ ، وعظُمَ عليهِمُ الاعترافُ بأنَّهُمْ مِنْ أهلِ النارِ ، فجحدوا الآخرةَ وكذَّبوا الأنبياءَ ، فكما أنَّ قولَ الصبيِّ وقولَ السواديِّ لا يزيلُ طمأنينةَ القلبِ إلىٰ ما اتفقَ عليهِ الأطباءُ . . فكذلكَ قولُ هٰذا الغبيِّ الذي استرقَّتْهُ الشهواتُ لا يشكِّكُ في صحةِ أقوالِ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ .

وهٰذا القدْرُ مِنَ الإيمانِ كافٍ لجملةِ الخلقِ ، وهوَ يقينٌ جازمٌ يستحثُّ على العملِ لا محالةَ ، والغرورُ يزولُ بهِ .

وأمَّا المدركُ الثاني لمعرفةِ الآخرةِ . . فهوَ الوحيُ والإلهامُ ، والوحيُ للأنبياءِ ، والإلهامُ للأولياءِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ معرفةَ النبيِّ لأمرِ الآخرةِ ولأمورِ الدينِ تقليدٌ لجبريلَ عليهِ السلامُ بالسماعِ منهُ ؛ كما أنَّ معرفتَكَ تقليدٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ تكونَ معرفتُكَ كمعرفتِهِ ، وإنَّما يختلفُ المقلَّدُ فقطْ ، هيهاتَ ! فإنَّ التقليدَ ليسَ بمعرفةٍ ، بلْ هوَ اعتقادٌ صحيحٌ ، والأنبياءُ عارفونَ ، ومعنىٰ معرفتِهِمْ أنَّهُ كُشِفَ لهُمْ حقيقةُ الأشياءِ كما هيَ عليها ، فشاهدوها بالبصيرةِ الباطنةِ كما تشاهدُ أنتَ المحسوساتِ بالبصرِ الظاهرِ ، فيخبرونَ عنْ مشاهدةٍ لا عنْ سماعٍ وتقليدٍ ، وذلكَ بأنْ يُكشفَ لهُمْ عنْ حقيقةِ الروحِ ، وأنَّهُ مِنْ أمرِ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ المرادُ بكونِهِ مِنْ أمرِ اللهِ

الأمرَ الذي يقابلُ النهيَ ؛ لأنَّ ذلكَ الأمرَ كلامٌ ، والروحُ ليسَ بكلامٍ ، وليسَ المرادُ بالأمرِ الشأنَ حتَّىٰ يكونَ المرادُ بهِ أنَّهُ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، لأنَّ ذلكَ عامٌّ في جميعِ المخلوقاتِ ، بلِ العالَمُ عالمانِ : عالمُ الأمرِ ، وعالمُ الخلقِ ، وللهِ الخلقُ والأمرُ ، فالأجسامُ ذواتُ الكميةِ والمقاديرِ مِنْ عالمِ الخلقِ ؛ إذِ الخلقُ عبارةٌ عنِ التقديرِ في وضعِ اللسانِ ، وكلُّ موجودٍ منزَّهٌ عنِ الكميةِ والمقدارِ فإنَّهُ مِنْ عالمِ الأمرِ ، وشرحُ ذلكَ سرُّ الروحِ ، ولا رخصةَ في ذكرِهِ ؛ لاستضرارِ أكثرِ الخلقِ بسماعِهِ ؛ كسرِّ القدرِ الذي منعَ مِنْ إفشائِهِ ، فمَنْ عرفَ سرَّ الروحِ . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ ، وإذا عرفَ نفسَهُ وربَّهُ . . عرفَ أنَّهُ أمرٌ ربانيٌّ بطبعِهِ وفطرتِهِ ، وأنَّهُ في العالمِ الجسمانيِّ غريبٌ ، وأنَّ هبوطَهُ إليهِ لمْ يكنْ بمقتضىٰ طبعِهِ في ذاتِهِ ، بلْ بأمرٍ عارضٍ غريبٍ مِنْ ذاتِهِ ، وذلكَ العارضُ الغريبُ وردَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ وعُبِّرَ عنهُ بالمعصيةِ ، وهيَ التي حطَّتْهُ عنِ الجنةِ التي هيَ أليقُ بهِ بمقتضىٰ ذاتِهِ ؛ فإنَّها في جوارِ الربِّ تعالىٰ ، وأنَّهُ أمرٌ ربانيٌّ ، وحنينُهُ إلىٰ جوارِ الربِّ تعالىٰ لهُ طبعيٌّ ذاتيٌّ إلا أنْ يصرفَهُ عنْ مقتضىٰ طبعِهِ عوارضُ العالمِ الغريبِ مِنْ ذاتِهِ ، فينسىٰ عندَ ذلكَ نفسَهُ وربَّهُ ، ومهما فعلَ ذلكَ . . فقدْ ظلمَ نفسَهُ ؛ إذْ قيل له : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[1] أي :

---

(١) أي : تركوا معرفة الله تعالىٰ ولم يذكروه ، فجعلهم ناسين لأنفسهم فلم يعرفوها ، ففيه أن نسيان النفس من ثمرات نسيان الرب ، كما أن نسيان النفس يورث نسيان الرب ، =

الخارجونَ عنْ مقتضىٰ طبعِهِمْ وَمظِنَّةِ استحقاقِهِمْ ، يُقالُ : فسقَتِ الرطبةُ عنْ كِمامِها ؛ إذا خرجَتْ عنْ معدنِها الفطريِّ .

وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ أسرارٍ يهتزُّ لاستنشاقِ روائِحها العارفونَ ، وتشمئزُّ منْ سماعِ ألفاظِها القاصرونَ ، فإنَّها تضرُّ بهِمْ كما تضرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ ، وتبهرُ أعينَهُمُ الضعيفةَ كما تبهرُ الشمسُ أبصارَ الخفافيشِ ، وانفتاحُ هـٰذا البابِ مِنْ سرِّ القلبِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ يُسمَّىٰ معرفةً وولايةً ، ويُسمَّىٰ صاحبُهُ وليّاً وعارفاً ، وهيَ مبادي مقاماتِ الأنبياءِ ، وآخرُ مقاماتِ الأولياءِ أوَّلُ مقاماتِ الأنبياءِ .

ولنرجعْ إلى الغرضِ المطلوبِ ؛ فالمقصودُ أنَّ غرورَ الشيطانِ بأنَّ الآخرةَ شكٌّ يُدفَعُ إمَّا بيقينٍ تقليديٍّ ، وإمَّا ببصيرةٍ ومشاهدةٍ مِنْ جهةِ الباطنِ ، والمؤمنونَ بألسنتِهِمْ وبعقائدِهِمْ إذا ضيَّعوا أوامرَ اللهِ تعالىٰ ، وهجروا الأعمالَ الصالحةَ ، ولابسوا الشهواتِ والمعاصيَ . . فهُمْ مشاركونَ للكفَّارِ في هـٰذا الغرورِ ؛ لأنَّهُمْ آثروا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ .

نعمْ ، أمرُهُمْ أخفُّ ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ يعصمُهُمْ عنْ عقابِ الأبدِ ، فيخرجونَ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ حينٍ ، ولكنَّهُمْ أيضاً مِنَ المغرورينَ ، فإنَّهُمُ اعترفوا بأنَّ الآخرةَ خيرٌ مِنَ الدنيا ، ولكنَّهُمْ مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرَّدُ الإيمانِ لا يكفي للفوزِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ

= والمطلوب : معرفتهما جميعاً ، فتضمحل النفس ويبقى الرب . « إتحاف » (٨/ ٤٣٤) .

وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ثمَّ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ »(١) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ، فوعدُ المغفرةِ في جميعِ كتابِ اللهِ تعالىٰ منوطٌ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ جميعاً ، لا بالإيمانِ وحدَهُ ، فهؤلاءِ أيضاً مغرورونَ ؛ أعني : المطمئنينَ إلى الدنيا ، الفرحينَ بها ، المترفينَ بنعيمِها ، المحبِّينَ لها ، الكارهينَ للموتِ خيفةَ فواتِ لذاتِ الدنيا ، دونَ الكارهينَ لهُ خيفةَ لما بعدَهُ .

فهـٰذا مثالُ الغرورِ بالدنيا مِنَ الكفارِ والمؤمنينَ جميعاً .

ولنذكرْ للغرورِ باللهِ تعالىٰ مثالينِ مِنْ غرورِ الكافرينَ والعاصينَ :

فأمَّا غرورُ الكفارِ باللهِ . . فمثالُهُ : قولُ بعضِهِمْ في أنفسِهِمْ وبألسنتِهِمْ : إنَّهُ إنْ كانَ للهِ مِن معادٍ . . فنحنُ أحقُّ بهِ مِنْ غيرِنا ، ونحنُ أوفرُ حظّاً فيهِ وأسعدُ حالاً ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِ الرجلينِ المتحاورينِ ؛ إذْ قالَ : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ، وجملةُ أمرِهما كما نُقِلَ في التفسيرِ : أنَّ الكافرَ منهُما بنىٰ قصراً بألفِ دينارٍ ، واشترىٰ بستاناً بألفِ دينارٍ ، وخدماً بألفِ دينارٍ ، وتزوَّجَ امرأةً علىٰ ألفِ دينارٍ ، وفي ذلك كلِّهِ يعظُهُ المؤمنُ ويقولُ : اشتريتَ قصراً يخربُ ويفنىٰ ،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) ، ومسلم (٩) .

ألا اشتريتَ قصراً في الجنةِ لا يفنىٰ ، واشتريتَ بستاناً يخربُ ويفنىٰ ، ألا اشتريتَ بستاناً في الجنةِ لا يفنىٰ ، وخدماً لا يفنونَ ولا يموتونَ ، وزوجةً مِنَ الحورِ العينِ لا تموتُ ، وفي كلِّ ذلكَ يردُّ عليهِ الكافرُ ويقولُ : ما هناكَ شيءٌ ، وما قيلَ مِنْ ذلكَ . . فهوَ أكاذيبُ ، وإنْ كانَ . . فليكونَنَّ لي في الآخرةِ خيرٌ مِنْ هـٰذا(١) .

وكذلكَ وصفَ اللهُ تعالىٰ قولَ العاصِ بنِ وائلٍ إذْ يقولُ : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ ردّاً عليهِ : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ ، ورُوِيَ عنْ خبابِ بنِ الأرتِّ أنَّهُ قالَ : كانَ لي على العاصِ بنِ وائلٍ دينٌ ، فجئتُ أتقاضاهُ ، فلمْ يقضني ، فقلتُ : إنِّي آخذُهُ في الآخرةِ ، فقالَ لي : إذا صرتُ إلى الآخرةِ . . فإنَّ لي هناكَ مالاً وولداً فأقضيكَ منهُ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ قولَهُ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾(٢) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وهـٰذا كلُّهُ مِنَ الغرورِ باللهِ ، وسببُهُ قياسٌ مِنْ أقيسةِ إبليسَ ، وذلكَ لأنَّهُمْ ينظرونَ مرَّةً إلىٰ نعمِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ في الدنيا ، فيقيسونَ عليها نعمةَ الآخرةِ ، وينظرونَ مرَّةً إلىٰ تأخيرِ العذابِ عنهُمْ ، فيقيسونَ عليهِ عذابَ

(١) انظر « تفسير البغوي » (٣/ ١٦١) .
(٢) رواه البخاري (٢٠٩١) ، ومسلم (٢٧٩٥) .

الآخرةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ومرَّةً ينظرونَ إلى المؤمنينَ وهمْ فقراءُ شعثٌ غبرٌ ؛ فيزدرونَ بِهِمْ ويستحقرونَهُمْ فيقولونَ : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ ، ويقولونَ : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ .

وترتيبُ القياسِ الذي نظمَهُ الشيطانُ في قلوبِهِمْ أنَّهُمْ يقولونَ : قدْ أحسنَ اللهُ إلينا بنعيمِ الدنيا ، وكلُّ محسنٍ فهوَ محبٌّ ، وكلُّ محبٍّ فإنَّهُ يحسنُ في المستقبلِ أيضاً ؛ كما قال الشاعرُ[1] : [من المتقارب]

لَقَـدْ أَحْسَـنَ اللهُ فِيمـا مَضَـى ... كَـذَلِـكَ يُحْسِـنُ فِيمـا بَقِـي

وإنَّما يقيسُ المستقبلَ على الماضي بواسطةِ الكرامةِ والحبِّ ؛ إذْ يقولُ : لولا أنِّي كريمٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ومحبوبٌ . . لما أحسنَ إليَّ ، والتلبيسُ تحتَ ظنِّهِ أنَّ كلَّ محسنٍ محبٌّ ، لا بلْ تحتَ ظنِّهِ أنَّ إنعامَهُ عليهِ في الدنيا إحسانٌ ، فقدِ اغترَّ باللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ظنَّ أنَّهُ كريمٌ عندَهُ بدليلٍ لا يدلُّ على الكرامةِ ، بلْ عندَ ذوي البصائرِ يدلُّ على الهوانِ .

ومثالُهُ أنْ يكونَ للرجلِ عبدانِ صغيرانِ يبغضُ أحدَهُما ويحبُّ الآخرَ ، فالذي يحبُّهُ يمنعُهُ مِنَ اللعبِ ويلزمُهُ المكتبَ ، ويحبسُهُ فيهِ ليعلِّمَهُ الأدبَ ، ويمنعُهُ مِنَ الفواكهِ وملاذِّ الأطعمةِ التي تضرُّهُ ، ويسقيهِ الأدويةَ التي تنفعُهُ ،

---

(١) البيت مما نسب إلىٰ سيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ١٨٢) ، ولشهاب الدين التلعفري في « ديوانه » (ص ٥٨٨) ، ولمنصور بن إسماعيل الفقيه . انظر « زهر الآداب » (٢/ ٨٢٧) .

والذي يبغضُهُ يهملُهُ ليعيشَ كيفَ يريدُ ، فيلعبُ ، ولا يدخلُ المكتبَ ، ويأكلُ كلَّ ما يشتهي ، فيظنُّ هـٰذا الصبيُّ المهملُ أنَّهُ عندَ سيِّدِهِ محبوبٌ كريمٌ ؛ لأنَّهُ مكَّنَهُ مِنْ شهواتِهِ ولذاتِهِ ، وساعدَهُ علىٰ جميعِ أغراضِهِ ، فلمْ يمنعْهُ ولم يحجُرْ عليهِ ، وذلكَ محضُ الغرورِ ، وهـٰكذا نعيمُ الدنيا ولذاتُها ؛ فإنَّها مهلكاتٌ ومبعداتٌ مِنَ اللهِ ، وإنَّ اللهَ يحمي عبدَهُ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما يحمي أحدُكُمْ مريضَهُ مِنَ الطعامِ والشرابِ وهوَ يحبُّهُ ، هـٰكذا وردَ في الخبرِ عنْ سيِّدِ البشرِ (١) .

وكانَ أربابُ البصائرِ إذا أقبلَتْ عليهِمُ الدنيا . . حزنوا وقالوا : ذنبٌ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ ، ورأَوا ذلكَ أمارةَ المقتِ والإهمالِ ، وإذا أقبلَ عليهِمُ الفقرُ . . قالوا : مرحباً بشعارِ الصالحينَ (٢) .

والمغرورُ إذا أقبلَتْ عليهِ الدنيا . . ظنَّ أنَّها كرامةٌ مِنَ اللهِ ، وإذا صُرفَتْ عنهُ . . ظنَّ أنَّهُ هوانٌ ؛ كما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إذْ قالَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ أي : ليسَ كما قالَ ، إنَّما هوَ ابتلاءٌ ، نعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ البلاءِ ، ونسألُ اللهَ التثبيتَ ، فبيَّنَ أنَّ ذلكَ غرورٌ ، قالَ الحسنُ : كذَّبَهُما

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .

(٢) كما روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) عن كعب قال : (إن الرب تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : يا موسىٰ ؛ إذا رأيت الغنىٰ مقبلاً . . فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً . . فقل : مرحباً بشعار الصالحين) .

جميعاً بقولِهِ : ﴿ كَلَّا ﴾ يقولُ : ليسَ هٰذا بكرامتي ، ولا هٰذا بهواني ، ولكنَّ الكريمَ مَنْ أكرمتُهُ بطاعتي ، غنياً كانَ أوْ فقيراً ، والمهانُ مَنْ أهنتُهُ بمعصيتي ، غنياً كانَ أو فقيراً(١) .

وهٰذا الغرورُ علاجُهُ : معرفةُ دلائلِ الكرامةِ والهوانِ ، إمَّا بالبصيرةِ وإمَّا بالتقليدِ .

أمَّا البصيرةُ . . فبأنْ يعرفَ وجهَ كونِ الالتفاتِ إلىٰ شهواتِ الدنيا مبعداً عنِ اللهِ ، ووجْهَ كونِ التباعدِ عنها مقرباً إلى اللهِ ، ويُدرَكُ ذلكَ بالإلهامِ في منازلِ العارفينَ والأولياءِ ، وشرحُهُ مِنْ جملةِ علومِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ .

وأمَّا معرفتُهُ بطريقِ التقليدِ والتصديقِ . . فهوَ أنْ يؤمنَ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، ويصدِّقَ رسولَهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

وفي تفسيرِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : أنَّهُمْ كلَّما

---

(١) بنحوه رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ، كما في « الدر المنثور » (٥٠٩/٨) .

أحدثوا ذنباً.. أحدثنا لهُمْ نعمةً[1] ؛ ليزيدَ غرورُهُمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في كتابِ اللهِ سبحانَهُ وسنةِ رسولِهِ ، فمَنْ آمنَ بهِ.. تخلَّصَ مِنْ هٰذا الغرورِ ؛ فإنَّ منشأَ هٰذا الغرورِ الجهلُ باللهِ وبصفاتِهِ ، فإنَّ مَنْ عرفَهُ سبحانَهُ.. لا يأمنُ مكرَهُ ، ولا يغترُّ بأمثالِ هٰذهِ الخيالاتِ الفاسدةِ ، وينظرُ إلىٰ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وإلىٰ ملوكِ الأرضِ وما جرىٰ لهُمْ كيفَ أحسنَ اللهُ إليهِمْ ابتداءً ثمَّ دمَّرَهُمْ تدميراً فقالَ تعالىٰ : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ... ﴾ الآيةَ .

وقدْ حذَّرَ اللهُ تعالىٰ مكرَهُ واستدراجَهُ فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ .

فكما لا يجوزُ للعبدِ المهملِ أنْ يستدلَّ بإهمالِ السيدِ إيَّاه وتمكينِهِ مِنَ النعمِ علىٰ حبِّ السيدِ ، بلْ ينبغي أنْ يحذرَ أنْ يكونَ ذلكَ مكراً منهُ وكيداً معَ

(١) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٤٥١) .

أنَّ السيدَ لمْ يحذِّرْهُ مكرَ نفسِهِ . . فبأنْ يجبَ ذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ معَ تحذيرِه استدراجَهُ أولىٰ .

فإذاً ؛ مَنْ أمِنَ مكرَ الله تعالىٰ . . فهوَ مغترٌّ ، ومنشأُ هـٰذا الغرورِ أنَّهُ استدلَّ بنعمِ الدنيا علىٰ أنَّهُ كريمٌ عندَ ذلكَ المنعمِ ، واحتملَ أنْ يكونَ ذلكَ دليلَ الهوانِ ، ولكنَّ ذلكَ الاحتمالَ لا يوافقُ الهوىٰ ، فالشيطانُ بواسطةِ الهوىٰ يميلُ بالقلبِ إلىٰ ما يوافقُهُ ، وهوَ التصديقُ بدلالتِهِ على الكرامةِ ، وهـٰذا هوَ حدُّ الغرورِ .

* * *

المثالُ الثاني : غرورُ العصاةِ مِنَ المؤمنينَ :

بقولِهِمْ : إنَّ اللهَ كريمٌ ، وإنَّا نرجو عفوَهُ ، واتكالُهُمْ علىٰ ذلكَ ، وإهمالُهُمُ الأعمالَ ، وتحسينُ ذلكَ بتسميةِ تمنِّيهِمْ واغترارِهِمْ رجاءً ، وظنُّهُمْ أنَّ الرجاءَ مقامٌ محمودٌ في الدينِ ، وأنَّ نعمةَ اللهِ واسعةٌ ، ورحمتُهُ شاملةٌ وكرمُهُ عميمٌ ، وأينَ معاصي العبادِ في بحارِ رحمتِهِ ؟ وإنَّا موحِّدونَ ومؤمنونَ ؛ فنرجوهُ بوسيلةِ الإيمانِ ، وربَّما كانَ مستندُ رجائِهِمُ التمسكَ بصلاحِ الآباءِ وعلوِّ رتبتِهِمْ ؛ كاغترارِ العلويَّةِ بنسبِهِمْ ومخالفتِهِمْ سيرةَ آبائِهِمْ في الخوفِ والتقوىٰ والورعِ ، وظنِّهِمْ أنَّهُمْ أكرمُ على اللهِ مِنْ آبائِهِمْ ؛ إذْ آباؤُهُمْ معَ غايةِ الورعِ والتقوىٰ كانوا خائفينَ ، وهُمْ معَ غايةِ الفجورِ والفسوقِ آمنونَ ، وذلكَ نهايةُ الاغترارِ باللهِ تعالىٰ .

فقياسُ الشيطانِ للعلويّةِ أنَّ مَنْ أحبَّ إنساناً أحبَّ أولادَهُ ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أحبَّ آباءَكُمْ فيحبُّكُمْ ، فلا تحتاجونَ إلى الطاعةِ ، وينسى المغرورُ أنَّ نوحاً صلواتُ اللهِ عليهِ أرادَ أنْ يستصحبَ ولدَهُ معَهُ في السفينةِ ، ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ ، وأنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ استغفرَ لأبيهِ فلمْ ينفعْهُ ، وأنَّ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استأذنَ ربَّهُ في أنْ يزورَ قبرَ أمِّهِ ويستغفرَ لها ، فأُذِنَ لهُ في الزيارةِ ولمْ يُؤذَنْ لهُ في الاستغفارِ ، فجلسَ يبكي علىٰ قبرِ أمِّهِ لرقَّتِهِ لها بسببِ القرابةِ ، حتىٰ أبكىٰ مَنْ حولَهُ(١) .

فهـٰذا أيضاً اغترارٌ باللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا لأنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ المطيعَ ويبغضُ العاصيَ ، فكما أنَّهُ لا يبغضُ الأبَ المطيعَ ببغضِهِ للولدِ العاصي . . فكذلكَ لا يحبُّ الولدَ العاصيَ بحبِّه للأبِ المطيعِ ، ولوْ كانَ الحبُّ يسري مِنَ الأبِ إلى الولدِ . . لأوشكَ أنْ يسريَ البغضُ أيضاً ، بلِ الحقُّ أنْ لا تزرَ وازرةٌ وزرَ أخرىٰ(٢) .

ومَنْ ظنَّ أنَّهُ ينجو بتقوىٰ أبيهِ كمَنْ ظنَّ أنَّهُ يشبعُ بأكلِ أبيهِ ، ويَروىٰ بشربِ أبيهِ ، ويصيرُ عالماً بعلمِ أبيهِ ، ويصلُ إلى الكعبةِ ويراها بمشيِ أبيهِ ،

---

(١) رواه مسلم (٩٧٦) .

(٢) وله سبحانه وتعالىٰ أن يتفضل على الفرع إكراماً لأصله ؛ لأمور خفية لا ينبغي أن يعوّل الإنسان علىٰ توقعها ، بل يتمسك بالأسباب المنجيات التي أومأ الحق له فيأخذ بها ، وإن كانت هـٰذه أيضاً فضلاً من الله ورحمة ، وإلىٰ هـٰذا أشار عز شأنه وعلا : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ ، وقال جل من قائل : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ .

فالتقوىٰ فرضُ عينٍ ؛ فلا يجزي والدٌ فيهِ عنْ ولدِهِ شيئاً ، وكذا العكسُ ، وعندَ اللهِ جزاءُ التقوىٰ ، يومَ يفرُّ المرءُ من أخيهِ وأمِّهِ وأبيهِ ، إلا علىٰ سبيلِ الشفاعةِ لمَنْ لمْ يشتدَّ غضبُ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فيأذنَ لهُ في الشفاعةِ ؛ كما سبقَ في كتابِ الكبرِ والعجبِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فأينَ الغلطُ في قولِ العصاةِ والفجارِ : إنَّ اللهَ كريمٌ ، وإنَّا نرجو مغفرتَهُ ورحمتَهُ ، وقدْ قالَ : « أنا عندَ ظنِّ عبدِي بي ، فليظنَّ بي خيراً »[(١)] ، فما هـٰذا إلا كلامٌ صحيحٌ مقبولُ الظاهرِ في القلوبِ .

فاعلمْ : أنَّ الشيطانَ لا يغوي الإنسانَ إلا بكلامٍ مقبولُ الظاهرِ مردودِ الباطنِ ، ولولا حسنُ ظاهرِهِ.. لما انخدعَتْ بهِ القلوبُ ، ولكنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كشفَ عنْ ذلكَ فقالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ ، وعمِلَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها ، وتمنَّىٰ على اللهِ »[(٢)] ، وهـٰذا هوَ التَّمنِّي على اللهِ تعالىٰ ، غيَّرَ الشيطانُ اسمَهُ فسمَّاهُ رجاءً ، حتىٰ خدعَ بهِ الجهَّالَ ، وقدْ شرحَ اللهُ تعالى الرجاءَ فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني : أنَّ الرجاءَ بهِمْ أليقُ ، وهـٰذا لأنَّهُ ذكرَ أنَّ ثوابَ الآخرةِ أجرٌ وجزاءٌ على الأعمالِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وقالَ عزَّ وجلَّ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٣) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ، أفترىٰ أنَّ مَنِ استؤجرَ علىٰ إصلاحِ أوانٍ وشُرِطَ لهُ أجرةٌ عليها ، وكانَ الشارطُ كريماً يفي بالوعدِ مهما وعدَ ولا يخلفُ ، بلْ يزيدُ ، فجاءَ الأجيرُ وكسرَ الأوانيَ وأفسدَ جميعَها ، ثمَّ جلسَ ينتظرُ الأجرَ ، ويزعمُ أنَّ المستأجِرَ كريمٌ لا يخلفُ الوعدَ ، أفيراهُ العقلاءُ في انتظارِهِ متمنِّياً مغروراً أوْ راجياً ؟ وهـٰذا للجهلِ بالفرقِ بينَ الرجاءِ وبينَ الغِرَّةِ .

❁ ❁ ❁

قيلَ للحسنِ : قومٌ يقولونَ : نرجو اللهَ ويضيِّعونَ العملَ ، فقالَ : هيهاتَ ، هيهاتَ ! تلكَ أمانيُّهُمْ يترجحونَ فيها ، مَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خاف شيئاً . . هربَ منهُ[1] .

وقالَ مسلمُ بنُ يسارٍ : لقدْ سجدتُ البارحةَ حتَّىٰ سقطَتْ ثنيَّتايَ ، فقالَ لهُ رجلٌ : إنَّا لنرجو اللهَ ، فقالَ مسلمٌ : هيهاتَ ، هيهاتَ ! مَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، ومَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ[2] .

وكما أنَّ الذي يرجو في الدنيا ولداً وهوَ بعدُ لمْ ينكحْ ، أوْ نكحَ ولمْ يجامعْ ، أوْ جامعَ ولمْ ينزلْ . . فهوَ معتوهٌ ؛ فكذلكَ مَنْ رجا رحمةَ اللهِ وهوَ لمْ يؤمنْ ، أوْ آمنَ ولمْ يعملْ صالحاً ، أوْ عملَ ولمْ يتركِ المعاصيَ . . فهوَ

---

(١) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٣٥) .

(٢) أورده المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٣٥) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٥) .

مغرورٌ ، وكما أنَّهُ إذا نكحَ ووطىءَ وأنزلَ . . بقيَ متردداً في حصولِ الولدِ ، يخافُ ويرجو فضلَ اللهِ في خلقِ الولدِ ودفعِ الآفاتِ عنِ الرحمِ وعنِ الأمِّ إلىٰ أنْ يتمَّ . . فهوَ كيِّسٌ ؛ فكذلكَ إذا آمنَ وعملَ الصالحاتِ وتركَ السيئاتِ ، وبقي متردِّداً بينَ الخوفِ والرجاءِ ، يخافُ ألاَّ يُقبلَ منهُ ، وألاَّ يدومَ عليهِ إلى الموتِ ، وأنْ يُختمَ لهُ بالسوءِ ، ويرجو مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يثبِّتَهُ بالقولِ الثابتِ ، ويحفظَ دينَهُ مِنْ صواعقِ سكراتِ الموتِ حتَّىٰ يموتَ على التوحيدِ ، ويحرسَ قلبَهُ عنِ الميلِ إلى الشهواتِ بقيَّةَ عمرِهِ حتَّىٰ لا يميلَ إلى المعاصي . . فهوَ كيِّسٌ ، ومَنْ عدا هؤلاءِ فهُمُ المغرورونَ باللهِ ، وسوفَ يعلمونَ حينَ يرونَ العذابَ مَنْ أضلُّ سبيلاً ، ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ ، وعندَ ذلكَ يقولونَ ما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أيْ : علمنا أنَّهُ كما لا يُولدُ ولدٌ إلا بوقاعٍ ونكاحٍ ، ولا ينبتُ زرعٌ إلا بحراثةٍ وبثِّ بذرٍ . . فكذلكَ لا يحصلُ في الآخرةِ ثوابٌ وأجرٌ إلا بعملٍ صالحٍ ، فارجعْنا نعملْ صالحاً ، فقدْ علمنا الآنَ صدقَكَ في قولِكَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ ، و﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ألمْ يسمعْكُمْ سنَّةَ اللهِ في عبادِهِ ، وأنَّهُ توفَّىٰ كلُّ نفسٍ ما كسبَتْ ، وأنَّ كلَّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ؟ فما الذي غرَّكُمْ باللهِ بعدَ أنْ سمعتُمْ وعقلتُمْ ؟ ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فأينَ مَظِنَّةُ الرجاءِ وموضعُهُ المحمودُ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ محمودٌ في موضعينِ :

أحدُهُما : في حقِّ العاصي المنهمكِ إذا خطرَتْ لهُ التوبةُ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : وأنَّىٰ تُقبَلُ توبتُكَ ؟ فيقنِّطُهُ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، فيجبُ عندَ هـٰذا أنْ يقمعَ القنوطَ بالرجاءِ ، ويتذكَّرَ أنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، وأنَّ اللهَ كريمٌ يقبلُ التوبةَ عنْ عبادِهِ ، وأنَّ التوبةَ طاعةٌ تكفِّرُ الذنوبَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ، أمرَهُمْ بالإنابةِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، فإذا توقَّعَ المغفرةَ معَ التوبةِ . . فهوَ راجٍ ، وإنْ توقَّعَ المغفرةَ معَ الإصرارِ . . فهوَ مغرورٌ ؛ كما أنَّ مَنْ ضاقَ عليهِ وقتُ الجمعةِ وهوَ في السوقِ ، فخطَرَ لهُ أنْ يسعىٰ إلى الجمعةِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : إنكَ لا تدركُ الجمعةَ ، فأقِمْ علىٰ موضعِكَ ، فكذَّبَ الشيطانَ وقامَ يعدو وهوَ يرجو أنْ يدركَ الجمعةَ . . فهوَ راجٍ ، وإنِ استمرَّ على التجارةِ ، وأخذَ يرجو تأخيرَ الإمامِ الصلاةَ لأجلِهِ إلىٰ وسطِ الوقتِ ، أوْ لأجلِ غيرِهِ ، أوْ لسببٍ مِنَ الأسبابِ التي لا يعرفُها . . فهوَ مغرورٌ .

والثاني : أنْ تفترَ نفسُهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وتقتصرَ على الفرائضِ ، فيرجِّي نفسَهُ نعيمَ اللهِ تعالىٰ ، وما وعدَ بهِ الصالحينَ ، حتَّىٰ ينبعثَ مِنَ الرجاءِ نشاطُ العبادةِ ، فيقبلَ على الفضائلِ ، ويتذكَّرَ قولَهُ تعالىٰ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

❁ ❁ ❁

فالرجاءُ الأولُ يقمعُ القنوطَ المانعَ مِنَ التوبةِ ، والرجاءُ الثاني يقمعُ الفتورَ المانعَ مِنَ النشاطِ والتشمُّرِ ، فكلُّ توقُّعٍ حثَّ علىٰ توبةٍ وعلىٰ تشمرٍ في العبادةِ . . فهوَ رجاءٌ ، وكلُّ توقُّعٍ أوجبَ فتوراً في العبادةِ وركوناً إلى البطالةِ . . فهو غِرَّةٌ ؛ كما إذا خطرَ لهُ أنْ يتركَ الذنبَ ويشتغلَ بالعملِ ، فيقولُ لهُ الشيطانُ : ما لكَ وإيذاءَ نفسِكَ وتعذيبَها ولكَ ربٌّ كريمٌ ، غفورٌ رحيمٌ ، فيفترُ بذلكَ عنِ التوبةِ والعبادةِ . . فهوَ غِرَّةٌ ، وعندَ هٰذا واجبٌ على العبدِ أنْ يستعملَ الخوفَ ، فيخوِّفَ نفسَهُ بغضبِ اللهِ وعظيمِ عقابِهِ ، ويقولَ لها : إنَّهُ معَ أنَّهُ غافرُ الذنبِ وقابلُ التوبِ شديدُ العقابِ ، وإنَّهُ معَ أنَّهُ كريمٌ خَلَّدَ الكفارَ في النارِ أبدَ الآبادِ معَ أنَّهُ لمْ يضرُّهُ كفرُهُمْ ، بلْ سلَّطَ العذابَ والمحنَ والأمراضَ والعللَ والفقرَ والجوعَ علىٰ جملةٍ مِنْ عبادِهِ في الدنيا وهوَ قادرٌ علىٰ إزالتِها ، فمَنْ هٰذهِ سنَّتُهُ في عبادِهِ وقدْ خوَّفني عقابَهُ . . فكيفَ لا أخافُهُ ، وكيفَ أغترُّ بهِ ؟

والخوفُ والرجاءُ قائدانِ وسائقانِ يبعثانِ الناسَ على العملِ ، فما لا يبعثُ على العملِ . . فهوَ تمنٍّ وغرورٌ ، ورجاءُ كافَّةِ الخلقِ هوَ سببُ فتورِهِمْ وسببُ إقبالِهِمْ على الدنيا وسببُ إعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ وإهمالِهِمُ

السعيَ للآخرةِ ، وذلكَ غرورٌ ، فقدْ أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وذكرَ أنَّ الغرورَ سيغلبُ علىٰ قلوبِ آخرِ هـٰذهِ الأمَّةِ[1] ، وقدْ كانَ ما وعدَ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقدْ كانَ الناسُ في الأعصارِ الأُوَلِ يواظبونَ على العباداتِ ، ويؤتونَ ما آتوا وقلوبُهُمْ وجلةٌ أنهُمْ إلىٰ ربهِمْ راجعونَ ، يخافونَ علىٰ أنفسِهِمْ وهُمْ طولَ الليلِ والنهارِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، يبالغونَ في التقوىٰ والحذرِ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ ، ويبكونَ علىٰ أنفسِهِمْ في الخلواتِ ، وأمَّا الآنَ . . فترى الخلقَ آمنينَ مسرورينَ ، مطمئنينَ غيرَ خائفينَ ، معَ إكبابِهِمْ على المعاصي ، وانهماكِهِمْ في الدنيا ، وإعراضِهِمْ عنِ اللهِ تعالىٰ ، زاعمينَ أنهُمْ واثقونَ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ، راجونَ لعفوِهِ ومغفرتِهِ ؛ كأنَّهُمْ يزعمونَ أنَّهُمْ عرفوا مِنْ كرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ما لمْ يعرفْهُ الأنبياءُ والصحابةُ والسلفُ الصالحونَ ، فإنْ كانَ هـٰذا الأمرُ يُدركُ بالمنىٰ ويُنال بالهوينىٰ . فعلىٰ ماذا كانَ بكاءُ أولئكَ وخوفُهُمْ وحزنُهُمْ ؟! وقدْ ذكرنا تحقيقَ هـٰذهِ الأمورِ في كتابِ الخوفِ والرجاءِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ معقلُ بنُ يسارٍ : « يأتي على الناسِ زمانٌ يَخْلَقُ فيهِ القرآنُ في قلوبِ الرجالِ كما تَخْلَقُ الثيابُ على الأبدانِ ، يكونُ أمرُهُمْ كُلُّهُ طمعاً لا خوفَ معَهُ ، إنْ أحسنَ أحدُهُمْ . .

---

(١) تقدم ، وهو حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، وفيه : « وإعجاب كل ذي رأي برأيه » الذي رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

قالَ : يُتقبَّلُ منِّي ، وإنْ أساءَ . . قالَ : يُغفرُ لي »[1] ، فأخبرَ أنَّهُمْ يضعونَ الطمعَ موضعَ الخوفِ ؛ لجهلِهِمْ بتخويفاتِ القرآنِ وما فيهِ .

وبمثلِهِ أخبرَ عنِ النصارىٰ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ ، ومعناهُ : أنَّهُمْ ورثوا الكتابَ ؛ أيْ : هُمْ علماءُ ويأخذونَ عَرضَ هـٰذا الأدنىٰ ؛ أيْ : شهواتِهِمْ مِنَ الدنيا حلالاً كانَ أوْ حراماً ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ تحذيرٌ وتخويفٌ ، لا يتفكَّرُ فيهِ متفكِّرٌ إلا ويطولُ حزنُهُ ويعظمُ خوفُهُ إنْ كانَ مؤمناً بما فيهِ ، وترى الناسَ الآنَ يهذُّونَهُ هذّاً ، يخرجونَ الحروفَ مِنْ مخارجِها ، ويتناظرونَ علىٰ رفعِها وخفضِها ونصبِها ؛ كأنَّهُمْ يقرؤونَ شعراً مِنْ أشعارِ العربِ ، لا يهمُّهُمُ الالتفاتُ إلىٰ معانيهِ ، والعملُ بما فيهِ فهلْ في العالمِ غرورٌ يزيدُ علىٰ هـٰذا ؟!

فهـٰذهِ أمثلةُ الغرورِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبيانُ الفرقِ بينَ الرجاءِ والغرورِ .

ويقربُ منهُ غرورُ طوائفَ لهُمْ طاعاتٌ ومعاصٍ ، إلا أنَّ معاصيَهُمْ أكثرُ وهُمْ يتوقَّعونَ المغفرةَ ، ويظنونَ أنَّهُمْ تترجَّحُ كِفَّةُ حسناتِهِمْ معَ أنَّ ما في كِفَّةِ السيئاتِ أكثرُ ! وهـٰذا غايةُ الجهلِ . فترى الواحدَ يتصدَّقُ بدراهمَ معدودةٍ مِنَ الحلالِ والحرامِ ويكونُ ما يتناولُ مِنْ أموالِ المسلمينَ والشبهاتِ أضعافَهُ ،

---

(١) رواه الحارث بن أسامة في « مسنده » (٧٦٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥٩) .

ولعلَّ ما تصدَّقَ بهِ هوَ مِنْ مالِ المسلمينَ ، وهوَ يتكلُ عليهِ ويظنُّ أنَّ أكلَ ألفِ درهمٍ حرامٍ يقاومُهُ التصدُّقُ بعشرةٍ مِنَ الحلالِ أوِ الحرامِ ، وما هوَ إلا كمَنْ وضعَ عشرةَ دراهمَ في كِفَّةِ ميزانٍ وفي الكِفَّةِ الأخرىٰ ألفاً ، وأرادَ أنْ تشيلَ الكِفَّةُ الثقيلةُ بالكِفَّةِ الخفيفةِ ! وذلكَ غايةُ الجهلِ .

نعمْ ، ومنهُمْ مَنْ يظنُّ أنَّ طاعاتِهِ أكثرُ مِنْ معاصيهِ ؛ لأنَّهُ لا يحاسبُ نفسَهُ ولا يتفقَّدُ معاصيَهُ ، وإذا عملَ طاعةً . . حفظَها واعتدَّ بها ؛ كالذي يستغفرُ اللهَ بلسانِهِ أوْ يسبِّحُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ ثمَّ يغتابُ المسلمينَ ، ويمزِّقُ أعراضَهُمْ ، ويتكلَّمُ بما لا يرضاهُ اللهُ طولَ النهارِ مِنْ غيرِ حصرٍ وعددٍ ، ويكونُ نظرُهُ إلىٰ عددِ سبحتِهِ أنَّهُ استغفرَ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ، وغفلَ عنْ هذيانِهِ طولَ نهارِهِ الذي لوْ كتبَهُ . . لكانَ مثلَ تسبيحِهِ مئةَ مرَّةٍ أوْ ألفَ مرَّةٍ ، وقدْ كتبَها الكرامُ الكاتبونَ ، وقدْ أوعدَهُ اللهُ تعالىٰ بالعقابِ علىٰ كلِّ كلمةٍ فقالَ جلَّ جلالُهُ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، فهوَ أبداً يتأمَّلُ في فضائلِ التسبيحاتِ والتهليلاتِ ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما وردَ في عقوبةِ المغتابينَ والكذابينَ ، والنمَّامينَ والمنافقينَ بذكرِ ما لا يضمرونَهُ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ آفاتِ اللسانِ ، وذلكَ محضُ الغرورِ .

ولعمْري ؛ لوْ كانَ الكرامُ الكاتبونَ يطلبونَ منهُ أجرةَ النسخِ لما يكتبونَهُ مِنْ هذيانِهِ الذي زادَ علىٰ تسبيحِهِ . . لكانَ عندَ ذلكَ يكفُّ لسانَهُ حتَّىٰ عنْ جملةٍ مِنْ مهماتِهِ ، وما نطقَ بهِ في فتراتِهِ كانَ يعدُّهُ ويحسبُهُ ويوازنُهُ بتسبيحاتِهِ ؛ حتَّىٰ لا يفضلَ عليهِ أجرةُ نسخِهِ ، فيا عجباً لمَنْ يحاسبُ نفسَهُ

ويحتاطُ خوفاً علىٰ قيراطٍ يفوتهُ في الأجرةِ على النسخِ ، ولا يحتاطُ خوفاً مِنْ فوتِ الفردوسِ الأعلىٰ ونعيمِها ! ما هـٰذهِ إلا مصيبةٌ عظيمةٌ لمَنْ تفكَّرَ فيها ؛ فقدْ دُفعنا إلىٰ أمرٍ إنْ شككنا فيهِ . . كنَّا مِنَ الكفرةِ الجاحدينَ وإنْ صدَّقنا بهِ . . كنَّا مِنَ الحمقى المغرورينَ ، فما هـٰذهِ أعمالُ مَنْ يصدِّقُ بما جاءَ بهِ القرآنُ ، وإنَّا نبرأُ إلى اللهِ تعالىٰ أنْ نكونَ مِنْ أهلِ الكفرانِ ، فسبحانَ مَنْ صدَّنا عنِ التنبُّهِ والتبيُّنِ معَ هـٰذا البيانِ ! وما أجدرَ مَنْ يقدرُ علىٰ تسليطِ مثلِ هـٰذهِ الغفلةِ والغرورِ على القلوبِ أنْ يخشىٰ ويُتَّقىٰ ، ولا يُغترَّ بهِ اتكالاً علىٰ أباطيلِ المنىٰ ، وتعاليلِ الشيطانِ والهوىٰ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

بيان أصناف المغترّين، وأقسام فِرَق كلّ صنف

وهمْ أربعةُ أصنافٍ :

الصّنف الأوّل : أهل العلم

والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ :

ففرقةٌ منهُمْ أحكموا العلومَ الشرعيَّةَ والعقليةَ ، وتعمَّقوا فيها ، واشتغلوا بهـا ، وأهملـوا تفقُّـدَ الجـوارحِ ، وحفْظَهـا عـنِ المعـاصـي ، وإلـزامَهـا الطاعاتِ ، واغترُّوا بعلمِهِمْ ، وظنُّوا أنَّهُمْ عندَ اللهِ بمكانٍ ، وأنَّهُمْ قدْ بلغوا مِنَ العلمِ مبلغاً لا يعذِّبُ اللهُ مثلَهُمْ ، بلْ يقبلُ في الخلقِ شفاعتَهُمْ ، وأنَّهُ لا يطالبُهُمْ بذنوبِهِمْ وخطاياهُمْ لكرامتِهِمْ على اللهِ .

وهمْ مغرورونَ ؛ فإنَّهُمْ لوْ نظروا بعينِ البصيرةِ.. علموا أنَّ العلمَ علمانِ :

علمُ معاملةٍ ، وعلمُ مكاشفةٍ ؛ وهوَ العلمُ باللهِ وصفاتِهِ ، المسمَّىٰ بالعادةِ علمَ المعرفةِ .

فأمَّا العلمُ بالمعاملةِ ؛ كمعرفةِ الحلالِ والحرامِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ المذمومةِ والمحمودةِ ، وكيفيَّةِ علاجِها والفرارِ منها.. فهيَ علومٌ لا تُرادُ إلا للعملِ ، ولولا الحاجةُ إلى العملِ.. لمْ يكنْ لهٰذهِ العلومِ قيمةٌ ؛ فكلُّ علمٍ يُرادُ للعملِ فلا قيمةَ لهُ دونَ العملِ .

فمثالُ هٰذا : كمريضٍ بهِ علَّةٌ لا يزيلُها إلا دواءٌ مركَّبٌ مِنْ أخلاطٍ كثيرةٍ ، لا يعرفُها إلا حذَّاقُ الأطباءِ .

فيسعىٰ في طلبِ الطبيبِ بعدَ أنْ هاجرَ عنْ وطنِهِ حتَّىٰ عثرَ علىٰ طبيبٍ حاذقٍ ، فعلَّمَهُ الدواءَ ، وفصَّلَ لهُ الأخلاطَ وأنواعَها ومقاديرَها ، ومعادنَها التي منها تُجلبُ ، وعلَّمَهُ كيفيَّةَ دقِّ كلِّ واحدٍ منها ، وكيفيَّةَ الخلطِ والعجنِ ، فتعلَّمَ ذلكَ منهُ ، وكتبَ منهُ نسخةً حسنةً بخطٍّ حسنٍ ، ورجعَ إلىٰ بيتِهِ وهوَ يكرِّرُها ويقرؤُها ويعلِّمُها المرضىٰ ، ولمْ يشتغلْ بشربِها واستعمالِها ، أفترىٰ أنَّ ذلكَ يغني عنهُ مِنْ مرضِهِ شيئاً ؟

هيهاتَ هيهاتَ ! لوْ كتبَ منهُ ألفَ نسخةٍ ، وعلمَهُ ألفَ مريضٍ حتَّىٰ شُفيَ جميعُهُمْ وكرَّرَهُ كلَّ ليلةٍ ألفَ مرَّةٍ . . لم يغنهِ ذلكَ مِنْ مرضِهِ شيئاً ، إلا أنْ يزنَ الذهبَ ، ويشتريَ الدواءَ ، ويخلطَهُ كما تعلَّمَ ، ويشربَهُ ويصبرَ علىٰ مرارتِهِ ، ويكونَ شربُهُ في وقتِهِ ، وبعدَ تقديمِ الاحتماءِ وجميعِ شروطِهِ ، فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فهوَ علىٰ خطرٍ مِنْ شفائِهِ ، فكيفَ إذا لم يشربْهُ أصلاً ؟! فمهما ظنَّ أنَّ ذلكَ يكفيهِ ويشفيهِ . . فقدْ ظهرَ غرورُهُ .

وهكذا الفقيهُ الذي أحكمَ علمَ الطاعاتِ ولمْ يعملْها ، وأحكمَ علمَ المعاصي ولمْ يجتنبْها ، وأحكمَ علمَ الأخلاقِ المذمومةِ وما زكَّىٰ نفسَهُ منها ، وأحكمَ علمَ الأخلاقِ المحمودةِ ولمْ يتَّصفْ بها ، فهوَ مغرورٌ ، إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ، ولمْ يقلْ : قدْ أفلحَ مَنْ تعلَّمَ كيفيَّةَ تزكيتِها وكتبَ علمَ ذلكَ وعلَّمَهُ الناسَ .

وعندَ هٰذا يقولُ له الشيطانُ : لا يغرنَّكَ هٰذا المثالُ ؛ فإنَّ العلمَ بالدواءِ لا يزيلُ المرضَ ، وإنَّما مطلبُكَ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ وثوابُهُ ، والعلمُ يجلبُ الثوابَ ، ويتلو عليهِ الأخبارَ الواردةَ في فضائلِ العلمِ .

فإنْ كانَ المسكينُ معتوهاً مغروراً . . وافقَ ذلكَ مرادَهُ وهواهُ ، فاطمأنَّ إليهِ وأهملَ العملَ .

وإنْ كانَ كيِّساً . . فيقولُ للشيطانِ : أتذكِّرُني فضائلَ العلمِ وتنسيني ما وردَ في العالمِ الفاجرِ الذي لا يعملُ بعلمِهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ ؟

فأيُّ خزيٍ أعظمُ مِنَ التمثيلِ بالكلبِ والحمارِ ؟!

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ازدادَ علماً ولمْ يزددْ هدىً . . لمْ يزددْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعداً »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « يُلقى العالمُ في النارِ فتندلقُ أقتابُهُ ، فيدورُ بها في النارِ كما يدورُ الحمارُ في الرحىٰ »(٢) .

وكقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرُّ الناسِ العلماءُ السوءُ »(٣) .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ العراقي : (والمشهور أن هٰذا الحديث من قول الحسن البصري) . « إتحاف » (١/ ٣٥١) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، **والأقتاب** : الأمعاء .

(٣) روىٰ بنحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

وقولِ أبي الدرداءِ : (ويلٌ للذي لا يعلمُ مرَّةً ولوْ شاءَ اللهُ . . لعلَّمَهُ ، وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعملُ سبعَ مراتٍ)[1] أيْ : إنَّ العلمَ حجَّةٌ عليهِ ؛ إذْ يُقالُ لهُ : ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟ وكيفَ قضيتَ شكرَ اللهِ ؟

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »[2] .

فهٰذا وأمثالُهُ ممَّا أوردناهُ في كتابِ العلمِ في بابِ علامةِ علماءِ الآخرةِ أكثرُ مِنْ أنْ يُحصىٰ ، إلا أنَّ هٰذا لا يُوافقُ هوى العالِمِ الفاجرِ ، وما وردَ في فضلِ العلمِ يوافقُهُ ، فيُميلُ الشيطانُ قلبَهُ إلىٰ ما يهواهُ ، وذلكَ عينُ الغرورِ ؛ فإنَّهُ إنْ نظرَ بالبصيرةِ . . فمثالُهُ ما ذكرناهُ ، وإنْ نظرَ بعينِ الإيمانِ ، فالذي أخبرَهُ بفضيلةِ العلمِ هوَ الذي أخبرَهُ بذمِّ العلماءِ السوءِ ، وأنَّ حالَهُمْ عندَ اللهِ أشدُّ مِنْ حالِ الجهَّالِ ، فبعدَ ذلكَ اعتقادُهُ أنَّهُ علىٰ خيرٍ معَ تأكُّدِ حجةِ اللهِ عليهِ غايةُ الغرورِ .

وأمَّا الذي يدَّعي علومَ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ ، وهوَ معَ ذلكَ يهملُ العملَ ، ويضيِّعُ أمرَ اللهِ تعالىٰ وحدودَهُ . . فغرورُهُ أشدُّ .

ومثالُهُ : مثالُ مَنْ أرادَ خدمةَ مَلِكٍ ، فعرفَ الملكَ ، وعرفَ أخلاقَهُ وأوصافَهُ ، ولونَهُ وشكلَهُ ، وطولَهُ وعرضَهُ ، وعادتَهُ ومجلسَهُ ، ولمْ يتعرَّفْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١) .

(٢) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

ما يحبُّهُ ويكرهُهُ ، وما يغضبُ مِنْ أجلِهِ وما يرضىٰ بهِ ، أوْ عرفَ ذلكَ إلا أنَّهُ قصدَ خدمتَهُ وهوَ ملابسٌ لجميعِ ما يغضبُ بهِ ، وعاطلٌ عنْ جميعِ ما يحبُّهُ ؛ مِنْ زيٍّ وهيئةٍ وكلامٍ ، وحركةٍ وسكونٍ ، فوردَ على الملكِ وهوَ يريدُ التقرُّبَ منهُ والاختصاصَ بهِ متلطِّخاً بجميعِ ما يكرهُهُ الملكُ ، عاطلاً عنْ جميعِ ما يحبُّهُ ، متوسِّلاً إليهِ بمعرفتِهِ لهُ ولنسبِهِ واسمِهِ ، وبلدِهِ وشكلِهِ وصورتِهِ ، وعادتِهِ في سياسةِ غلمانِهِ ومعاملةِ رعيتِهِ ، فهٰذا مغرورٌ جدّاً ؛ إذْ لوْ تركَ جميعَ ما عرفَهُ ، واشتغلَ بمعرفتِهِ فقطْ ومعرفةِ ما يحبُّهُ ويكرهُهُ . . لكانَ ذلكَ أقربَ إلىٰ نيلِهِ المرادَ مِنْ قربِهِ والاختصاصِ بهِ .

بلْ تقصيرُهُ في التقوىٰ واتباعُهُ للشهواتِ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لمْ ينكشفْ لهُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ إلا الأسامي دونَ المعاني ؛ إذْ لوْ عرفَ اللهَ حقَّ معرفتِهِ . . لخشيَهُ واتَّقاهُ ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يعرفَ الأسدَ عاقلٌ ثمَّ لا يتقيهِ ولا يخافُهُ ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (خفْني كما تخافُ السبُعَ الضاريَ)(١) .

نعمْ ، مَنْ يعرفُ مِنَ الأسدِ لونَهُ وشكلَهُ واسمَهُ ولمْ يعرفْ سطوتَهُ قدْ لا يخافُهُ ، وكأنَّهُ ما عرفَ الأسدَ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . عرفَ مِنْ صفاتِهِ أنَّهُ يهلِكُ العالمينَ ولا يبالي ، ويعلمُ أنَّهُ مسخَّرٌ في قدرةِ مَنْ لوْ أهلكَ مثلَهُ آلافاً مؤلفةً وأبَّدَ عليهِمُ العذابَ أبدَ الآبادِ . . لمْ يؤثِّرْ ذلكَ فيهِ أثراً ، ولمْ

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤١) .

تأخذُهُ عليهِ رقّةٌ ، ولا اعتراهُ جزعٌ ، ولهٰذا قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وفاتحةُ الزبورِ : (رأسُ الحكمةِ خشيةُ اللهِ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (كفىٰ بخشيةِ اللهِ علماً ، وكفىٰ بالاغترارِ باللهِ جهلاً)[2] .

واستُفتيَ الحسنُ عنْ مسألةٍ ، فأجابَ عنها ، فقيلَ لهُ : إنَّ فقهاءَنا لا يقولونَ ذلكَ ، فقالَ للسائلِ : وهلْ رأيتَ فقيهاً قطُّ ؟ إنَّما الفقيهُ القائمُ ليلَهُ ، الصائمُ نهارَهُ ، الزاهدُ في الدنيا[3] .

وقالَ مرَّةً : (الفقيهُ يداري ولا يماري ، ينشرُ حكمةَ اللهِ ، فإنْ قُبلَتْ منهُ . . حمدَ اللهَ ، وإنْ رُدَّتْ عليهِ . . حمدَ اللهَ)[4] .

فإذاً ؛ الفقيهُ مَنْ فقِهَ عنِ اللهِ أمرَهُ ونهيَهُ ، وعلمَ مِنْ صفاتِهِ ما أحبَّهُ وما كرهَهُ ، وهوَ العالمُ ، ومَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يفقهْهُ في الدينِ ، فإذا لمْ يكنْ بهٰذهِ الصفةِ . . فهوَ مِنَ المغرورينَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) عن خالد الربعي .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٣) ، وهو بلفظه هنا عند المحاسبي في « الرعاية » (ص٤٤٧) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) ومعه القول قبله .

وفرقةٌ أخرىٰ أحكموا العلمَ والعملَ ، فواظبوا على الطاعاتِ الظاهرةِ ، وتركوا المعاصيَ ، إلا أنَّهُمْ لمْ يتفقَّدوا قلوبَهُمْ ليمحوا عنها الصفاتِ المذمومةَ عندَ اللهِ ؛ مِنَ الكبرِ والحسدِ والرياءِ ، وطلبِ الرئاسةِ والعلاءِ ، وإرادةِ السوءِ للأقرانِ والشركاءِ ، وطلبِ الشهرةِ في البلادِ والعبادِ ، وربَّما لمْ يعرفْ بعضُهُمْ أنَّ ذلكَ مذمومٌ ، فهوَ مكبٌّ عليها ، غيرُ محترزٍ منها .

ولا يلتفتُ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدنى الرياءِ شركٌ »[1] ، وإلىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يدخلُ الجنةَ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ كبْرٍ »[2] ، وإلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[3] ، وإلىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حبُّ المالِ والشرفِ ينبتانِ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ » ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الأخبارِ التي أوردناها في جميعِ ربعِ المهلكاتِ في الأخلاقِ المذمومةِ .

فهؤلاءِ زيَّنوا ظواهرَهُمْ وأهملوا بواطنَهُمْ ، ونسوا قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ ولا إلىٰ أموالِكُمْ ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ »[4] ، فتعهَّدوا الأعمالَ وما تعهَّدوا القلوبَ ، والقلبُ هوَ الأصلُ ؛ إذْ لا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٦) ، وبنحوه رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) .
(٢) رواه مسلم (٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) .
(٣) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤) .

ومثالُ هؤلاءِ كبئرِ الحُشِّ[1] ؛ ظاهرُها جصٌّ وباطنُها نَتْنٌ ، أوْ كقبورِ الموتىٰ ؛ ظاهرُها مزيَّنٌ وباطنُها جيفةٌ ، أوْ كبيتٍ مظلمٍ باطنُهُ ؛ وُضِعَ السراجُ علىٰ سطحِهِ فاستنارَ ظاهرُهُ وباطنُهُ مظلمٌ ، أوْ كرجلٍ قصدَ ضيافةَ الملكِ ، فدعاهُ إلىٰ دارِه ، فجصَّصَ بابَ دارِه ، وتركَ المزابلَ في صدرِ دارِه ! ولا يخفىٰ أنَّ ذلكَ غرورٌ .

بلْ أقربُ مثالٍ إليهِ رجلٌ زرعَ زرعاً ، فنبتَ ونبتَ معَهُ حشيشٌ يفسدُهُ ، فأمرَ بتنقيةِ الزرعِ عنِ الحشيشِ بقلعِهِ مِنْ أصلِهِ ، فأخذَ يجزُّ رؤوسَهُ وأطرافَهُ ، فلا تزالُ تقوىٰ أصولُهُ وتنبتُ ؛ لأنَّ مغارسَ المعاصي هيَ الأخلاقُ الذميمةُ في القلبِ ، فمَنْ لا يطهِّرُ القلبَ منها . . لا تتمُّ لهُ الطاعاتُ الظاهرةُ إلا معَ الآفاتِ الكثيرةِ .

بلْ هوَ كمريضٍ ظهرَ بهِ الجربُ وقدْ أُمِرَ بالطِّلاءِ وشربِ الدواءِ ، فالطِّلاءُ ليزيلَ ما علىٰ ظاهرِهِ ، والدواءُ ليقطعَ مادَّتَهُ مِنْ باطنِهِ ، فقنعَ بالطِّلاءِ وتركَ الدواءَ ، وبقيَ يتناولُ ما يزيدُ في المادةِ ، فلا يزالُ يطلي الظاهرَ والجربُ دائمٌ بهِ ، يتفجَّرُ مِنَ المادةِ التي في الباطنِ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ علموا هٰذهِ الأخلاقَ الباطنةَ ، وعلموا أنَّها مذمومةٌ مِنْ جهةِ

---

(١) الحشُّ ـ بضم الحاء المهملة ويفتح ـ : مكان قضاء الحاجة هنا ، وفي الأصل يطلق على البستان ، وبئره يحفر في الدار ضيق الرأس ، يتعهَّد بالتفريغ كلما امتلأ .

الشرعِ ، إلا أنَّهُمْ لعجْبِهِمْ بأنفسِهِمْ يظنُّونَ أنَّهُمْ منفكُّونَ عنها ، وأنَّهُمْ أرفعُ عندَ اللهِ مِنْ أنْ يبتليَهُمْ بذلكَ ، وإنَّما يُبتلىٰ بهِ العوامُّ دونَ مَنْ بلغَ مبلغَهُمْ في العلمِ ، فأمَّا هوَ . . فأعظمُ عندَ اللهِ مِنْ أنْ يبتليَهُ ، ثمَّ إذا ظهرَ عليهِ مخايلُ الكبْرِ[1] والرئاسةِ وطلبِ العلوِّ والشرفِ . . قالَ : ما هـٰذا كبْرٌ ، وإنما هوَ طلبُ عزِّ الدينِ ، وإظهارُ شرفِ العلمِ ، ونصرةُ دينِ اللهِ ، وإرغامُ أنفِ المخالفينَ مِنَ المبتدعينَ ، فإنِّي لوْ لبستُ الدونَ مِنَ الثيابِ ، وجلستُ في الدونِ مِنَ المجالسِ . . لشَمِتَ بي أعداءُ الدينِ وفرحوا بذلكَ ، وكانَ ذلِّي ذلاًّ على الإسلامِ !

ونسيَ المغرورُ أنَّ عدوَّهُ الذي حذَّرَهُ منهُ مولاهُ هوَ الشيطانُ ، وأنَّهُ يفرحُ بما يفعلُهُ ويسخرُ منهُ ، وينسىٰ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بماذا نصرَ الدينَ ، وبماذا أرغمَ الكافرينَ ، وينسىٰ ما رُوِيَ عَنِ الصحابةِ مِنَ التواضعِ والتبذُّلِ ، والقناعةِ بالفقرِ والمسكنةِ ، حتَّىٰ عُوتبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في بذاذةِ زِيِّهِ عندَ قدومِهِ إلى الشامِ ، فقالَ : (إنَّا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ؛ فلا نطلبُ العزَّ في غيرِهِ)[2] .

ثمَّ هـٰذا المغرورُ يطلبُ عزَّ الدينِ بالثيابِ الرقيقةِ مِنَ القصبِ والدَّيْبَقيِّ والإبريسمِ المحرَّمِ والخيولِ والمراكبِ ، ويزعمُ أنَّهُ يطلبُ بهِ عزَّ العلمِ وشرفَ الدينِ .

---

(١) في (ب) : (فأما هم . . فأعظم عند الله من أن يبتليهم بمثل ذلك ثم إذا ظهر علىٰ أحدهم مخايل الكبر . . .) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦١) .

وكذلكَ مهما أطلقَ اللسانَ بالحسدِ في أقرانِهِ ، أوْ فيمَنْ ردَّ عليهِ شيئاً مِنْ كلامِهِ . . لمْ يظنَّ بنفسِهِ أنَّ ذلكَ حسدٌ ، ولكنْ قالَ : إنَّما هـٰذا غضبٌ للحقِّ ، وردٌّ على المبطلِ في عدوانِهِ وظلمِهِ ، ولمْ يظنَّ بنفسِهِ الحسدَ ، حتَّىٰ يعتقدُ أنَّهُ لوْ طُعِنَ في غيرِهِ مِنْ أهلِ العلمِ أوْ مُنِعَ غيرُهُ مِنْ رئاسةٍ وزُوحِمَ فيها . . هلْ كانَ غضبُهُ وعداوتُهُ مثلَ غضبِه الآنَ فيكونَ غضبُهُ للهِ ؟ أمْ لا يغضبُ مهما طُعِنَ في عالمٍ آخرَ ومُنِعَ ، بلْ ربَّما يفرحُ بهِ فيكونَ غضبُهُ لنفسِهِ ، وحسدُهُ لأقرانِهِ مِنْ خبثِ باطنِهِ ؟

وهكذا يرائي بأعمالِهِ وعلومِهِ، وإذا خطرَ لهُ خاطرُ الرياءِ . . قالَ : هيهاتَ ! إنَّما غرضي مِنْ إظهارِ العلمِ والعملِ اقتداءُ الخلقِ بي ؛ ليهتدوا إلىٰ دينِ اللهِ تعالىٰ ، ويتخلَّصوا مِنْ عقابِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يتأملُ المغرورُ أنَّهُ ليسَ يفرحُ باقتداءِ الناسِ بغيرِهِ كما يفرحُ باقتدائِهِمْ بهِ ، فلوْ كانَ غرضُهُ صلاحَ الخلقِ . . لفرحَ بصلاحِهِمْ علىٰ يدِ مَنْ كانَ ؛ كمَنْ لهُ عبيدٌ مرضىٰ يريدُ معالجتَهُمْ؛ فإنَّهُ لا يفرِّقُ بينَ أنْ يحصلَ شفاؤُهُمْ علىٰ يدِهِ أوْ علىٰ يدِ طبيبٍ آخرَ .

وربَّما يُذكرُ لهُ هـٰذا ، فلا يخلِّيهِ الشيطانُ أيضاً ، ويقولُ : إنَّما ذلكَ لأنَّهُمْ إذا اهتدَوا بي . . كانَ الأجرُ لي والثوابُ لي ، وإنَّما فرحي بثوابِ اللهِ ، لا بقبولِ الخلقِ قولي ، هـٰذا ما يظنُّه بنفسِهِ ، واللهُ مطَّلعٌ مِنْ ضميرِهِ علىٰ أنَّهُ لوْ أخبرَهُ نبيٌّ بأنَّ ثوابَهُ في الخمولِ وإخفاءِ العلمِ أكثرُ مِنْ ثوابِهِ في الإظهارِ ، وحُبِسَ معَ ذلكَ في سجنٍ ، وقُيِّدَ بالسلاسلِ . . لاحتالَ في هدمِ السجنِ وحلِّ

السلاسلِ ؛ حتَّىٰ يرجعَ إلىٰ موضعِهِ الذي به تظهرُ رئاستُهُ ، مِنْ تدريسٍ أوْ وعظٍ أوْ غيرِهِ .

وكذلكَ يدخلُ على السلطانِ ويتودَّدُ إليهِ ، ويثني عليهِ ويتواضعُ لهُ ، وإذا خطرَ لهُ أنَّ التواضعَ للسلاطينِ الظلمةِ حرامٌ . . قالَ لهُ الشيطانُ : هيهاتَ ! إنَّما ذلكَ عندَ الطمعِ في مالِهِمْ ، فأمَّا أنتَ . . فغرضُكَ أنْ تشفعَ للمسلمينَ ، وتدفعَ الضررَ عنهُمْ ، وتدفعَ شرَّ أعدائِكَ عنْ نفسِكَ ، واللهُ يعلمُ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لوْ ظهرَ لبعضِ أقرانِهِ قبولٌ عندَ ذلكَ السلطانِ ، فصارَ يشفِّعُهُ في كلِّ مسلمٍ ، حتَّىٰ دفعَ الضررَ عنْ جميعِ المسلمينَ . . ثقلَ ذلكَ عليهِ ، ولوْ قدرَ علىٰ أنْ يقبِّحَ حالَهُ عندَ السلطانِ بالطعنِ فيهِ والكذبِ عليهِ . . لفعلَ .

وكذلكَ قدْ ينتهي غرورُ بعضِهِمْ إلىٰ أنْ يأخذَ مِنْ مالِهِمْ ، فإذا خطرَ لهُ أنَّهُ حرامٌ . . قالَ لهُ الشيطانُ : هٰذا مالٌ لا مالكَ لهُ ، وهوَ لمصالحِ المسلمينَ ، وأنتَ إمامُ المسلمينَ وعالمُهُمْ ، وبكَ قوامُ الدينِ ، أفلا يحلُّ لكَ أنْ تأخذَ منهُ بقدْرِ حاجتِكَ ، فيغترُّ بهٰذا التلبيسِ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : في أنَّهُ مالٌ لا مالكَ لهُ ؛ فإنَّهُ يعرفُ أنَّهُ يأخذُ الخراجَ مِنَ المسلمينَ وأهلِ السوادِ ، والذينَ أخذَ منهُمْ أحياءٌ قيامٌ ، وأولادُهُمْ وورثتُهُمْ أحياءٌ ، وغايةُ الأمرِ وقوعُ الخلطِ في أموالِهِمْ ، ومَنْ غصبَ مئةَ دينارٍ مِنْ عشرةِ أنفسٍ وخلطَها بمالِ نفسِهِ . . فلا خلافَ في أنَّهُ مالٌ حرامٌ ، ولا يُقالُ : هوَ مالٌ لا مالكَ لهُ ، ويجبُ أنْ يقسمَهُ بينَ العشرةِ ويردَّ إلىٰ كلِّ واحدٍ عُشرَهُ

وإنْ كانَ مالُ كلِّ واحدٍ قدِ اختلطَ بالآخرِ .

الثاني : في قولِهِ : إنَّهُ مِن مصالحِ المسلمينَ ، وبكَ قوامُ الدينِ ، ولعلَّ الذينَ فسدَ دينُهُمْ واستحلُّوا أموالَ السلاطينِ ، ورغبوا في طلبِ الدنيا ، والإقبالِ على الرئاسةِ ، والإعراضِ عنِ الآخرةِ بسببِهِ . أكثرُ مِنَ الذينَ زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على اللهِ ، فهوَ على التحقيقِ دجَّالُ الدينِ ، وقوامُ مذهبِ الشياطينِ ، لا إمامُ الدينِ ؛ إذِ الإمامُ هوَ الذي يُقتدىٰ بهِ في الإعراضِ عنِ الدنيا والإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ؛ كالأنبياءِ عليهِمُ السلامُ والصحابةِ وعلماءِ السلفِ ، والدجَّالُ هوَ الذي يُقتدىٰ بهِ في الإعراضِ عنِ اللهِ والإقبالِ على الدنيا ، فلعلَّ موتَ هٰذا أنفعُ للمسلمينَ مِنْ حياتِهِ ، وهوَ يزعمُ أنَّهُ قوامُ الدينِ ، ومثلُهُ كما قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (العالمُ السوءُ كصخرةٍ وقعَتْ في فمِ الوادي ، فلا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ)[1] .

وأصنافُ غرورِ أهلِ العلمِ في هٰذهِ الأعصارِ المتأخرةِ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، وفيما ذكرناهُ تنبيهٌ بالقليلِ على الكثيرِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ أحكموا العلومَ ، وطهَّروا الجوارحَ ، وزيَّنوها بالطاعاتِ ، واجتنبوا ظاهرَ المعاصي ، وتفقَّدوا أخلاقَ النفسِ وصفاتِ القلبِ ؛ مِنَ الرياءِ والحسدِ والحقدِ والكبرِ وطلبِ العلوِّ ، وجاهدوا أنفسَهُمْ في التبرِّي

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

منها ، وقلعوا مِنَ القلوبِ منابتَها الجليّةَ القويَّةَ ، ولكنَّهُمْ بعدُ مغرورونَ ؛ إذْ بقيَتْ في زوايا القلبِ مِنْ خفايا مكايدِ الشيطانِ وخبايا خداعِ النفسِ ما دَقَّ وغمُضَ مدركُهُ ، فلمْ يفطنوا لها وأهملوها .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ مَنْ يريدُ تنقيةَ الزرعِ مِنَ الحشيشِ ، فدارَ عليهِ ، وفتَّشَ عنْ كلِّ حشيشٍ رآهُ فقلعَهُ ، إلا أنَّهُ لمْ يفتِّشْ عمَّا لمْ يخرجْ رأسُهُ بعدُ مِنْ تحتِ الأرضِ ، وظنَّ أنَّ الكلَّ قدْ ظهرَ وبرزَ ، وكانَ قدْ نبتَ مِنْ أصولِ الحشيشِ شُعَبٌ لِطافٌ ، فانبسطَتْ تحتَ الترابِ ، فأهملَها وهوَ يظنُّ أنَّهُ قدْ قلعَها وطهَّرَها ، فإذا هوَ بها في غفلتِهِ وقدْ نبتَتْ وقويَتْ ، وأفسدَتْ أصولَ الزرعِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فكذلكَ العالمُ قدْ يفعلُ جميعَ ذلكَ ، ويذهلُ عنِ المراقبةِ للخفايا ، والتفقُّدِ للدقائقِ ، فتراهُ يسهرُ ليلَهُ ويتعبُ نهارَهُ في جمعِ العلومِ وترتيبِها ، وتحسينِ ألفاظِها وجمعِ التصانيفِ فيها ، وهوَ يرىٰ أنَّ باعثَهُ الحرصُ علىٰ إظهارِ دينِ اللهِ ونشرِ شريعتِهِ ، ولعلَّ باعثَهُ الخفيَّ هوَ طلبُ الذكرِ ، وانتشارُ الصيتِ في الأطرافِ ، وكثرةُ الرحلةِ إليهِ مِنَ الآفاقِ ، وانطلاقُ الألسنةِ عليهِ بالثناءِ والمدحِ بالزهدِ والورعِ والعلمِ ، والتقديمُ لهُ في المهمَّاتِ ، وإيثارُهُ في الأغراضِ ، والاجتماعُ حولَهُ للاستفادةِ ، والتلذُّذُ بحسنِ الإصغاءِ عندَ حسنِ اللفظِ والإيرادِ ، والتمتعُ بتحريكِ الرؤوسِ إلىٰ كلامِهِ ، والبكاءُ عليهِ ، والتعجبُ منهُ ، والفرحُ بكثرةِ الأصحابِ والأتباعِ والمستفيدينَ ، والسرورُ بالتخصُّصِ بهٰذهِ الخاصيَّةِ مِنْ بينِ سائرِ الأقرانِ والأشكالِ ، للجمعِ بينَ العلمِ والورعِ وظاهرِ الزهدِ ، والتمكنِ بهِ مِنْ إطلاقِ

لسانِ الطعنِ في الكافَّةِ المقبلينَ على الدنيا ، لا عنْ تفجُّعٍ بمصيبةِ الدينِ ، ولكنْ عنْ إدلالٍ بالتميزِ ، واعتدادٍ بالتخصيصِ .

ولعلَّ هٰذا المسكينَ المغرورَ حياتُهُ في الباطنِ بما انتظمَ لهُ مِنْ أمرٍ وإمارةٍ ، وعزٍّ وانقيادٍ ، وتوقيرٍ وحسنِ ثناءٍ ، فلوْ تغيَّرَتْ عليهِ القلوبُ ، واعتقدوا فيهِ خلافَ الزهدِ بما يظهرُ مِنْ أعمالِهِ . . فعساهُ يتشوَّشُ عليهِ قلبُهُ ، وتختلطُ عليهِ أورادُهُ ووظائفُهُ .

وعساهُ يعتذرُ بكلِّ حيلةٍ لنفسِهِ ، وربَّما يحتاجُ إلىٰ أنْ يكذبَ في تغطيةِ عيبِهِ ، وعساهُ يؤثرُ بالكرامةِ والمراعاةِ مَنِ اعتقدَ فيهِ الزهدَ والورعَ وإنْ كانَ قدِ اعتقدَ فيهِ فوقَ قدرِهِ ، وينبو قلبُهُ عمَّنْ عرفَ حدَّ فضلِهِ وورعِهِ وإنْ كانَ ذلكَ علىٰ وَفْقِ حالِهِ .

وعساهُ يؤثرُ بعضَ أصحابِهِ علىٰ بعضٍ وهوَ يرىٰ أنَّهُ يؤثرُهُ لتقدُّمِهِ في الفضلِ والورعِ ، وإنَّما ذلكَ لأنَّهُ أطوعُ لهُ وأتبعُ لمرادِهِ ، وأكثرُ ثناءً عليهِ وأشدُّ إصغاءً إليهِ ، وأحرصُ علىٰ خدمتِهِ ، ولعلَّهُمْ يستفيدونَ منهُ ، ويرغبونَ في العملِ ، وهوَ يظنُّ أنَّ قبولَهُمْ لهُ لإخلاصِهِ وصدقِهِ ، وقيامِهِ بحقِّ علمِهِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما يسَّرَ علىٰ لسانِهِ مِنْ منافعِ خلقِهِ ، ويرىٰ أنَّ ذلكَ مكفِّرٌ لذنوبِهِ ، ولمْ يتفقَّدْ معَ نفسِهِ تصحيحَ النيةِ فيهِ .

وعساهُ لوْ وُعِدَ بمثلِ ذلكَ الثوابِ في إيثارِ الخمولِ والعزلةِ وإخفاءِ العلمِ . . لمْ يرغبْ فيهِ ؛ لفقدِهِ في العزلةِ ، ولاختفاءِ لذةِ القبولِ وعزِّ

الرئاسةِ ، ولعلَّ مثلَ هـٰذا هوَ المرادُ بقولِ الشيطانِ : مَنْ زعمَ مِنْ بني آدمَ أنَّهُ بعلمِهِ امتنعَ منِّي . . فبجهلِهِ وقعَ في حبائلي[1] .

وعساهُ يصنِّفُ ويجتهدُ فيهِ[2] ، ظاناً أنَّهُ يجمعُ علمَ اللهِ ليُنتفعَ بهِ ، وإنَّما يريدُ بهِ استطارةَ اسمِهِ بحسنِ التصنيفِ ، فلوِ ادَّعىٰ مُدَّعٍ تصنيفَهُ ، ومحا عنهُ اسمَهُ ، ونسبَهُ إلىٰ نفسِهِ . . ثقُلَ ذلكَ عليهِ ، معَ علمِهِ بأنَّ ثوابَ الاستفادةِ مِنَ التصنيفِ إنَّما يرجعُ إلى المصنِّفِ ، واللهُ عالمٌ بأنَّهُ هوَ المصنِّفُ لا مَنِ ادَّعاهُ .

ولعلَّهُ في تصنيفِهِ لا يخلو مِنَ الثناءِ علىٰ نفسِهِ ، إمَّا صريحاً بالدعاوى الطويلةِ العريضةِ ، وإمَّا ضمناً بالطعنِ في غيرِهِ ؛ ليستبينَ مِنْ طعنِهِ في غيرِهِ أنَّهُ أفضلُ ممَّنْ طعنَ فيهِ وأعظمُ منهُ علماً ، ولقدْ كانَ في غُنيةٍ عنِ الطعنِ فيهِ ، ولعلَّهُ يحكي مِنَ الكلامِ المزيفِ ما يزيدُ تزييفَهُ فيعزوهُ إلىٰ قائلِهِ ، وما يستحسنُهُ لعلَّهُ لا يعزوهُ إليهِ ؛ ليظنَّ أنَّهُ مِنْ كلامِهِ ، فينقلُهُ بعينِهِ كالسارقِ لهُ ، أوْ يغيِّرُهُ أدنىٰ تغييرٍ ؛ كالذي يسرقُ قميصاً مِنْ غيرِهِ فيتخذُهُ قَباءً حتَّىٰ لا يُعرفَ أنَّهُ مسروقٌ ، ولعلَّهُ يجتهدُ في تزيينِ ألفاظِهِ ، وتسجيعِهِ وتحسينِ نظمِهِ ؛ كيْ لا ينسبَ إلى الركاكةِ ، ويرىٰ أنَّ غرضَهُ ترويجُ الحكمةِ وتحسينُها وتزيينُها ؛ ليكونَ أقربَ إلىٰ نفعِ الناسِ ، وعساهُ غافلٌ عما رُويَ أنَّ بعضَ الحكماءِ وضعَ ثلاثَ مئةِ مصحفٍ في الحكمةِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣١٧) عن أبي عبد الله الساجي .
(٢) أي : في تصنيفه . « إتحاف » (٨/ ٤٥٣) .

نبيِّ زمانِهِ : قلْ لهُ : قدْ ملأتَ الأرضَ نفاقاً ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً[١] .

ولعلَّ جماعةً مِنْ هـٰذا الصنفِ مِنَ المغترينَ إذا اجتمعوا . . ظنَّ كلُّ واحدٍ بنفسِهِ السلامةَ عنْ عيوبِ القلبِ وخفاياهُ ، فلوِ افترقوا واتَّبَعَ كلَّ واحدٍ منهُمْ فرقةٌ مِنْ أصحابِهِ . . نظرَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ كثرةِ مَنْ يتبعُهُ ، وأنَّهُ أكثرُ تبعاً أَمْ غيرُهُ ، فيفرحُ إنْ كانَ أتباعُهُ أكثرَ وإنْ علمَ أنَّ غيرَهُ أحقُّ بكثرةِ الأتباعِ منهُ ، ثمَّ إذا تفرَّقوا واشتغلوا بالإفادةِ . . تغايروا وتحاسدوا .

ولعلَّ مَنْ يختلفُ إلىٰ واحدٍ منهُمْ إذا انقطعَ عنهُ إلىٰ غيرِهِ . . ثقُلَ علىٰ قلبِهِ ووجدَ في نفسِهِ نفرةً منهُ ، فبعدَ ذلكَ لا يهتزُّ باطنُهُ لإكرامِهِ ، ولا يتشمَّرُ لقضاءِ حوائجِهِ كما كانَ يتشمَّرُ مِنْ قبلُ ، ولا يحرصُ على الثناءِ عليهِ كما كانَ يثني ، معَ علمِهِ بأنَّهُ مشغولٌ بالاستفادةِ ، ولعلَّ التحيُّزَ منهُ إلىٰ فئةٍ أخرىٰ كانَ أنفعَ لهُ في دينِهِ ؛ لآفةٍ مِنَ الآفاتِ كانَتْ تلحقُهُ في هـٰذهِ الفئةِ ، وسلامتِهِ منها في تلكَ الفئةِ ، ومعَ ذلكَ لا تزولُ النفرةُ عنْ قلبِهِ .

ولعلَّ واحداً منهُمْ إذا تحرَّكَتْ فيهِ مبادي الحسدِ . . لمْ يقدرْ علىٰ إظهارِهِ ، فيتعلَّلُ بالطعنِ في دينِهِ وفي ورعِهِ ؛ ليحملَ غضبَهُ علىٰ ذلكَ ، ويقولُ : إنَّما غضبتُ لدينِ اللهِ لا لنفسي ، ومهما ذُكِرَتْ عيوبُهُ بينَ يديهِ . . ربَّما فرحَ بهِ ، وإنْ أُثنيَ عليهِ . . ربَّما ساءَهُ وكرهَهُ ، وربَّما قطَّبَ وجهَهُ إذا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٣) .

ذُكِرَتْ عيوبُهُ[1] ، يظهرُ أنَّهُ كارهٌ لغيبةِ المسلمينَ وسرُّ قلبِهِ راضٍ بهِ ومريدٌ لهُ ، والله مُطَّلِعٌ عليهِ في كلِّ ذلكَ .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنْ خفايا العيوبِ لا يفطنُ لهُ إلا الأكياسُ ، ولا يتنزَّهُ منهُ إلا الأقوياءُ ، ولا مطمعَ فيهِ لأمثالِنا مِنَ الضعفاءِ ، إلا أنَّ أقلَّ الدرجاتِ أنْ يعرفَ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ، ويسوءَهُ ذلكَ ويكرهَهُ ، ويحرصَ علىٰ إصلاحِهِ ، فإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ ، ومَنْ سرَّتْهُ حسنتُهُ وساءَتْهُ سيئتُهُ . . فهوَ مرجوُّ الحالِ ، وأمرُهُ أقربُ مِنَ المغرورِ المزكِّي لنفسِهِ ، الممتنِّ على اللهِ بعملِهِ وعلمِهِ ، الظانِّ أنَّهُ مِنْ خيارِ خلقِهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الغفلةِ والاغترارِ ، ومِنَ المعرفةِ بخفايا العيوبِ معَ الإهمالِ .

هـٰذا غرورُ الذينَ حصَّلوا العلومَ المهمَّةَ ، ولكنْ قصَّروا في العملِ بالعلمِ .

❁ ❁ ❁

ولنذكرِ الآنَ غرورَ الذينَ قنعوا مِنَ العلومِ بما لمْ يهمَّهُمْ ، وتركوا المهمَّ وهمْ بهِ مغترُّونَ ؛ إما لاستغنائِهِمْ عنْ أصلِ ذلكَ العلمِ ، وإمَّا لاقتصارِهِمْ عليهِ .

فمنهُمْ فرقةٌ اقتصروا علىٰ علمِ الفتاوىٰ في الحكوماتِ والخصوماتِ ، وتفاصيلِ المعاملاتِ الدنيويةِ الجاريةِ بينَ الخلقِ لمصالحِ المعاشِ ،

---

(١) أي : عيوب المحسود .

وخصَّصوا اسمَ الفقهِ بها ، وسمَّوهُ الفقهَ وعلمَ المذهبِ ، وربَّما ضيعوا معَ ذلكَ الأعمالَ الظاهرةَ والباطنةَ ؛ فلمْ يتفقَّدوا الجوارحَ ، ولمْ يحرسوا اللسانَ عنِ الغيبةِ ، ولا البطنَ عنِ الحرامِ ، ولا الرجلَ عن المشيِ إلى السلاطينِ ، وكذا سائرُ الجوارحِ ، ولمْ يحرسوا قلوبَهُمْ عنِ الكبرِ والحسدِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ ، **فهؤلاءِ مغرورونَ مِنْ وجهينِ** : أحدُهُما مِنْ حيثُ العملُ ، والآخرُ مِنْ حيثُ العلمُ .

أمَّا العملُ . . فقدْ ذكرنا وجهَ الغرورِ فيهِ ، وأنَّ مثالَهُمْ مثالُ المريضِ إذا تعلَّمَ نسخةَ الدواءِ ، واشتغلَ بتكرارِهِ وحفظِهِ وتعليمِهِ ، لا بلْ مثالُهُمْ مثالُ مَنْ بهِ علَّةُ البواسيرِ والبرسامِ وهوَ مشرفٌ على الهلاكِ ، ومحتاجٌ إلىٰ تعلُّمِ الدواءِ واستعمالِهِ ، فاشتغلَ بتعلُّمِ دواءِ الاستحاضةِ ، وتكرارِ ذلكَ ليلاً ونهاراً ، معَ علمِهِ بأنَّهُ رجلٌ لا يحيضُ ولا يُستحاضُ ، ولكنْ يقولُ : ربَّما تقعُ علَّةُ الاستحاضةِ لامرأةٍ وتسألُني عنهُ ، وذلكَ غايةُ الغرورِ ، فكذلكَ المتفقِّهُ المسكينُ قدْ تسلَّطَ عليهِ حبُّ الدنيا ، واتباعُ الهوىٰ والشهواتِ والحسدِ والكبرِ والرياءِ وسائرِ المهلكاتِ الباطنةِ ، وربَّما يختطفُهُ الموتُ قبلَ التوبةِ والتلافي ، فيلقى اللهَ وهوَ عليهِ غضبانُ ، فتركَ ذلكَ كلَّهُ واشتغلَ بعلمِ السلَمِ والإجارةِ ، والظهارِ واللعانِ ، والجراحاتِ والدياتِ ، والدعاوىٰ والبيناتِ ، وبكتابِ الحيضِ ، ولا يحتاجُ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ قطُّ في عمرِهِ لنفسِهِ ، وإذا احتاجَ غيرُهُ . . كانَ في المفتينَ كثرةٌ ، فيشتغلُ بذلكَ ويحرصُ عليهِ ؛ لما فيهِ مِنَ الجاهِ والمالِ والرئاسةِ ، وقدْ دهاهُ الشيطانُ وما يشعرُ ؛ إذْ

يظنُّ المسكينُ المغرورُ بنفسِهِ أنَّهُ مشغولٌ بفرضِ دينِهِ ، وليسَ يدري أنَّ الاشتغالَ بفرضِ الكفايةِ قبلَ الفراغِ مِنْ فرضِ العينِ معصيةٌ ، هٰذا لوْ كانَتْ نيَّتُهُ صحيحةً كما قالَ ، وكانَ قدْ قصدَ بالفقهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّهُ وإنْ قصدَ وجهَ اللهِ . . فهوَ باشتغالِهِ بهِ معرضٌ عنْ فروضِ عينِهِ في جوارحِهِ وقلبِهِ ، فهٰذا غرورُهُ مِنْ حيثُ العملُ .

وأمَّا غرورُهُ مِنْ حيثُ العلمُ . . فحيثُ اقتصرَ علىٰ علمِ الفتاوىٰ ، وظنَّ أنَّهُ علمُ الدينِ ، وتركَ علمَ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وربَّما طعنَ على المحدِّثينَ ، وقالَ : إنَّهُمْ نَقَلَةُ أخبارٍ ، وحَمَلةُ أسفارٍ لا يفقهونَ ما فيها ، وتركَ أيضاً علمَ تهذيبِ الأخلاقِ ، وتركَ الفقهَ عنِ اللهِ تعالىٰ بإدراكِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، وهوَ العلمُ الذي يورثُ الخوفَ والهيبةَ والخشوعَ ، ويحملُ على التقوىٰ ، فتراهُ آمناً مِنَ اللهِ ، مغترّاً بهِ ، متَّكلاً علىٰ أنَّهُ لا بدَّ وأنْ يرحمَهُ ، فإنَّهُ قوامُ دينِهِ ، وإنَّهُ لوْ لمْ يشتغلْ بالفتاوىٰ . . لتعطَّلَ الحلالُ والحرامُ ، فقدْ تركَ العلومَ التي هيَ أهمُّ وهوَ غافلٌ مغرورٌ ، وسببُ غرورِهِ ما سمعَ في الشرعِ مِنْ تعظيمِ الفقهِ ، ولمْ يدرِ أنَّ ذلكَ الفقهَ هوَ الفقهُ عنِ اللهِ ، ومعرفةُ صفاتِهِ المَخُوفَةِ والمرجوةِ ؛ ليستشعرَ القلبُ الخوفَ ويلازمَ التقوىٰ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، والذي يحصلُ بهِ الإنذارُ غيرُ هٰذا العلمِ ؛ فإنَّ مقصودَ هٰذا العلمِ حفظُ الأموالِ بشروطِ المعاملاتِ ، وحفظُ الأبدانِ بالأموالِ وبدفعِ القتلِ والجراحاتِ ، والمالُ في

طريقِ اللهِ آلةٌ ، والبدنُ مركبٌ ، وإنَّما العلمُ المهمُّ هوَ معرفةُ سلوكِ الطريقِ ، وقطعُ عقباتِ القلبِ التي هيَ الصفاتُ المذمومةُ ، فهيَ الحجابُ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإذا ماتَ ملوَّثاً بتلكَ الصفاتِ . . كانَ محجوباً عنِ اللهِ ، فمثالُهُ في الاقتصارِ علىٰ علمِ الفقهِ مثالُ مَنِ اقتصرَ مِنْ سلوكِ طريقِ الحجِّ علىٰ علمِ خرزِ الراويةِ والخفِّ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ . . . لتعطَّلَ الحجُّ ، ولكنَّ المقتصرَ عليهِ ليسَ مِنَ الحجِّ في شيءٍ ، وقدْ ذكرنا شرحَ ذلكَ في كتابِ العلمِ .

ومِنْ هؤلاءِ مَنِ اقتصرَ مِنْ علمِ الفقهِ على الخلافياتِ ، ولمْ يهمَّهُ إلا تعلُّمُ طريقِ المجادلةِ والإلزامِ وإفحامِ الخصومِ ودفعِ الحقِّ ؛ لأجلِ الغلبةِ والمباهاةِ ؛ فهوَ طولَ الليلِ والنهارِ في التفتيشِ عنْ مناقضاتِ أربابِ المذاهبِ ، والتفقُّدِ لعيوبِ الأقرانِ ، والتلقفِ لأنواعِ التسبيباتِ المؤذيةِ ، وهؤلاءِ همْ سباعُ الإنسِ ، طبعُهُمُ الإيذاءُ ، وهمُّهُمُ السفَهُ ، ولا يقصدونَ العلمَ إلا لضرورةِ ما يلزمُهُمْ لمباهاةِ الأقرانِ ، فكلُّ علمٍ لا يحتاجونَ إليهِ في المباهاةِ ؛ كعلمِ القلبِ ، وعلمِ سلوكِ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، بمحوِ الصفاتِ المذمومةِ ، وتبديلِها بالمحمودةِ . . فإنَّهُمْ يستحقرونَهُ ، ويسمُّونَهُ التزويقَ وكلامَ الوعَّاظِ ، وإنَّما التحقيقُ عندَهُمْ معرفةُ تفاصيلِ العربدةِ التي تجري بينَ المتصارعينَ في الجدلِ ، وهؤلاءِ قدْ جمعوا ما جمعَهُ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ في علمِ الفتاوىٰ ، لكنْ زادوا إذِ اشتغلوا بما ليسَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ أيضاً ، بلْ جميعُ دقائقِ الجدلِ في الفقهِ بدعةٌ لمْ يعرفْها السلفُ .

وأمَّا أدلةُ الأحكامِ . . فيشتملُ عليها علمُ المذهبِ ، وهوَ كتابُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفهمُ معانيهِما ، وأمَّا حِيَلُ الجدلِ ؛ مِنَ الكسرِ والقلبِ وفسادِ الوضعِ والتركيبِ والتعديةِ . . فإنَّما أُبدِعَتْ لإظهارِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإقامةِ سوقِ الجدلِ بها ، فغرورُ هؤلاءِ أشدُّ كثيراً وأقبحُ مِنْ غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بعلمِ الكلامِ والمجادلةِ في الأهواءِ ، والردِّ على المخالفينَ ، وتتبُّعِ مناقضاتِهِمْ ، واستكثروا مِنْ معرفةِ المقالاتِ المختلفةِ ، واشتغلوا بتعلُّمِ الطرقِ في مناظرةِ أولئكَ وإفحامِهِمْ ، وافترقوا في ذلكَ فرقاً كثيرةً ، واعتقدوا أنَّهُ لا يكونُ لعبدٍ عملٌ إلا بإيمانٍ ، ولا يصحُّ إيمانٌ إلا بتعلُّمِ جدلِهِمْ وما قدْ سمَّوهُ أدلةَ عقائدِهِمْ ، وظنُّوا أنَّهُ لا أحدَ أعرفُ باللهِ وبصفاتِهِ منهُمْ ، وأنَّهُ لا إيمانَ لمَنْ لمْ يعتقدْ مذهبَهُمْ ولمْ يتعلَّمْ علمَهُمْ ، ودعتْ كلُّ فرقةٍ منهُمْ إلىٰ نفسِها .

ثمَّ همْ فرقتانِ : ضالَّةٌ ومحقَّةٌ ، فالضالَّةُ هيَ التي تدعو إلىٰ غيرِ السنةِ ، والمحقَّةُ هيَ التي تدعو إلى السنةِ ، والغرورُ شاملٌ لجميعِهِمْ :

أمَّا الضالةُ . . فلغفلتِها عنْ ضلالتِها ، وظنِّها بنفسِها النجاةَ ، وهمْ فرقٌ كثيرةٌ يكفِّرُ بعضُهُمْ بعضاً ، وإنَّما أُتِيَتْ مِنْ حيثُ إنَّها لمْ تتهمْ رأيَها ، ولمْ تُحْكِمْ أوَّلاً شروطَ الأدلَّةِ ومنهاجَها ، فرأَتِ الشبهةَ دليلاً ، والدليلَ شبهةً .

وأمَّا الفرقةُ المحقَّةُ . . فإنَّما اغترارُها مِنْ حيثُ إنَّها ظنَّتْ بالجدلِ أنَّهُ أهمُّ

الأمورِ ، وأفضلُ القرباتِ في دينِ اللهِ ، وزعمَتْ أنَّهُ لا يتمُّ لأحدٍ دينُهُ ما لمْ يفحصْ ولمْ يبحثْ ، وأنَّ مَنْ صدَّقَ اللهَ ورسولَهُ مِنْ غيرِ بحثٍ وتحريرِ دليلٍ . . فليسَ بمؤمنٍ ، أوْ ليسَ بكاملِ الإيمانِ ولا مقربٍ عندَ اللهِ ، فلهٰذا الظنِّ الفاسدِ قطعَتْ أعمارَها في تعلُّمِ الجدلِ ، والبحثِ عنِ المقالاتِ وهذياناتِ المبتدعةِ ومناقضاتِهِمْ ، وأهملَتْ أنفسَها وقلوبَها ، حتَّىٰ عميَتْ عليها ذنوبُها وخطاياها الظاهرةُ والباطنةُ ، وهيَ تظنُّ أن اشتغالَها بالجدلِ أولىٰ وأقربُ عندَ اللهِ تعالىٰ وأفضلُ ، ولكنَّها لالتذاذِها بالغلبةِ والإفحامِ ولذَّةِ الرئاسةِ وعزِّ الانتماءِ إلى الذَّبِّ عنْ دينِ اللهِ . . عميَتْ بصيرتُها ، فلمْ تلتفتْ إلى القرنِ الأولِ ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شهدَ لهُمْ بأنَّهُمْ خيرُ الخلقِ ، وأنَّهُمْ قدْ أدركوا كثيراً مِنْ أهلِ البدعِ والأهواءِ ، فما جعلوا أعمارَهُمْ ودينَهُمْ غرضاً للخصوماتِ والمجادلاتِ ، وما اشتغلوا بذلكَ عنْ تفقُّدِ قلوبِهِمْ وجوارحِهِمْ وأحوالِهِمْ ، بلْ لمْ يتكلَّموا فيهِ إلا مِنْ حيثُ رأَوا حاجةً ، وتوسَّموا مخايلَ قبولٍ ، فذكروا بقدْرِ الحاجةِ ما يدلُّ الضالَّ علىٰ ضلالتِهِ ، وإذا رأَوا مصرّاً علىٰ ضلالةٍ . . هجروهُ وأعرضوا عنهُ ، وأبغضوهُ في اللهِ ، ولمْ يلزموا الملاحَّةَ معَهُ طولَ العمرِ ، بلْ قالوا : إنَّ الحقَّ هوَ الدعوةُ إلى السنةِ ، ومِنَ السنةِ تركُ الجدلِ في الدعوةِ إلى السنةِ ؛ إذْ روىٰ أبو أمامةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ما ضلَّ قومٌ قطُّ بعدَ هدىً كانوا عليهِ إلا أُوتوا الجدلَ »[1] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً علىٰ أصحابِهِ وهمْ يتجادلونَ ويختصمونَ ، فغضبَ عليهِمْ حتَّىٰ كأنَّهُ فُقِئَ في وجهِهِ حبُّ الرمانِ حمرةً مِنَ الغضبِ ، فقالَ : « ألِهـٰذا بُعثتُمْ أمْ بهـٰذا أُمرتُمْ أنْ تضربوا كتابَ اللهِ بعضَهُ ببعضٍ ؟! انظروا إلىٰ ما أُمرتُمْ بهِ فاعملوا ، وما نُهيتُمْ عنهُ فانتهوا »(١) .

فقدْ زجرَهُمْ عنْ ذلكَ ، وكانوا أولىٰ خلقِ اللهِ بالحجاجِ والجدالِ .

ثمَّ إنَّهُمْ رأَوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقدْ بُعثَ إلىٰ كافَّةِ أهلِ المللِ ، فلمْ يقعدْ معَهُمْ في مجلسِ مجادلةٍ لإلزامٍ وإفحامٍ وتحقيقِ حجَّةٍ ودفعِ سؤالٍ وإيرادِ إلزامٍ فما جادلَهُمْ إلا بتلاوةِ القرآنِ المنزلِ عليهِمْ ، ولمْ يزدْ في المجادلةِ عليهِ ؛ لأنَّ ذلكَ يشوشُ القلوبَ ، ويستخرجُ منها الإشكالاتِ والشبهَ ، ثمَّ لا يَقدرُ علىٰ محوِها مِنْ قلوبِهِمْ ، وما كانَ يعجزُ عنْ مجادلتِهِمْ بالتقسيماتِ ودقائقِ الأقيسةِ ، وأنْ يعلِّمَ أصحابَهُ كيفيةَ الجدلِ والإلزامِ ، ولكنَّ الأكياسَ وأهلَ الحزمِ لمْ يغترُّوا بهـٰذا ، وقالوا : لوْ نجا أهلُ الأرضِ وهلكنا . . لمْ تنفعْنا نجاتُهُمْ ، ولوْ نجونا وهلكوا . . لمْ يضرَّنا هلاكُهُمْ ، وليسَ علينا في المجادلةِ أكثرُ ممَّا كانَ على الصحابةِ معَ اليهودِ والنصارىٰ وأهلِ المللِ ، وما ضيَّعوا العمرَ بتحريرِ مجادلاتِهِمْ ، فما لنا نضيِّعُ العمرَ ولا نصرفُهُ إلىٰ ما ينفعُنا في يومِ فقرِنا وفاقتِنا ؟ ولِمَ نخوضُ فيما لا نأمنُ علىٰ أنفسِنا الخطأَ في تفاصيلِهِ ؟ ثمَّ نرىٰ أنَّ المبتدعَ ليسَ يتركُ بدعتَهُ

(١) رواه ابن ماجه (٨٥) .

بجدالِهِ ، بلْ يزيدُهُ التعصبُ والخصومةُ تشدُّداً في بدعتِهِ ، فاشتغالي بمخاصمةِ نفسي ومجادلتِها ، ومجاهدتِها لتتركَ الدنيا للآخرة أولىٰ ، هـٰذا لوْ كنتُ لمْ أُنهَ عنِ الجدلِ والخصومةِ ، فكيفَ وقدْ نُهيتُ عنهُ ؟! فكيفَ أدعو إلى السنةِ بتركِ السنةِ ؟ فالأولىٰ أنْ أتفقَّدَ نفسي ، وأنظرَ مِنْ صفاتِها ما يبغضُهُ اللهُ تعالىٰ وما يحبُّهُ ؛ لأتنزَّهَ عمَّا يبغضُهُ وأتمسَّكَ بما يحبُّهُ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بالوعظِ والتذكيرِ ، وأعلاهُمْ رتبةً مَنْ يتكلَّمُ في أخلاقِ النفسِ وصفاتِ القلبِ ؛ مِنَ الخوفِ ، والرجاءِ ، والصبرِ ، والشكرِ ، والتوكلِ ، والزهدِ ، واليقينِ ، والإخلاصِ ، والصدقِ ، ونظائرِها ، وهمُ مغرورونَ يظنُّونَ بأنفسِهِمْ أنَّهُمْ إذا تكلَّموا بهـٰذهِ الصفاتِ ودعَوُا الخلقَ إليها . . فقدْ صاروا موصوفينَ بهـٰذهِ الصفاتِ ، وهمْ منفكونَ عنها عندَ اللهِ تعالىٰ ، إلا عنْ قدْرٍ يسيرٍ لا ينفكُّ عنهُ عوامُّ المسلمينَ .

وغرورُ هؤلاءِ أشدُّ الغرورِ ؛ لأنَّهُمْ يُعجبونَ بأنفسِهِمْ غايةَ الإعجابِ ، ويظنُّونَ أنَّهُمْ ما تبحَّروا في علمِ المحبةِ إلا وهمْ محبُّونَ للهِ ، وما قدروا علىٰ تحقيقِ دقائقِ الإخلاصِ إلا وهمْ مخلصونَ ، وما وقفوا علىٰ خفايا عيوبِ النفسِ إلا وهمْ عنها منزَّهونَ ، ولولا أنَّهُ مقرَّبٌ عندَ اللهِ . . لما عرفَ معنى القربِ والبعدِ ، وعلمَ السلوكِ إلى اللهِ ، وكيفيةَ قطعِ المنازلِ في طريقِ اللهِ ، فالمسكينُ بهـٰذهِ الظنونِ يرىٰ أنَّهُ مِنَ الخائفينَ وهوَ آمنٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويرىٰ

أنَّهُ مِنَ الراجينَ وهوَ مِنَ المغترِّينَ المضيِّعينَ ، ويرىٰ أنَّهُ من الراضينَ بقضاءِ اللهِ وهوَ مِنَ الساخطينَ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ المتوكلينَ على اللهِ وهوَ مِنَ المتَّكلينَ على العزِّ والجاهِ والمالِ والأسبابِ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ المخلصينَ وهوَ مِنَ المرائينَ ، بلْ يصفُ الإخلاصَ فيتركُ الإخلاصَ في الوصفِ ، ويصفُ الرياءَ ويذكرُهُ وهوَ يرائي بذكرِهِ ؛ ليعتقدَ فيهِ أنَّهُ لولا أنَّهُ مخلصٌ . . لما اهتدىٰ إلىٰ دقائقِ الرياءِ ، ويصفُ الزهدَ في الدنيا لشدَّةِ حرصِهِ على الدنيا وقوةِ رغبتِهِ فيها ، فهوَ يظهرُ الدعاءَ إلى اللهِ وهوَ منهُ فارٌّ ، ويخوِّفُ باللهِ تعالىٰ وهوَ منهُ آمنٌ ، ويذكِّرُ باللهِ تعالىٰ وهوَ لهُ ناسٍ ، ويقرِّبُ إلى اللهِ وهوَ منهُ متباعدٌ ، ويحثُّ على الإخلاصِ وهوَ غيرُ مخلصٍ ، ويذمُّ الصفاتِ المذمومةَ وهوَ بها متصفٌ ، ويصرفُ الناسَ عنِ الخلقِ وهوَ على الخلقِ أشدُّهُمْ حرصاً ، لوْ مُنِعَ أحدُهُمْ عنْ مجلسِهِ الذي يدعو فيهِ الناسَ إلى اللهِ . . لضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رحُبَتْ ، ويزعُمُ أنَّ غرضَهُ إصلاحُ الخلقِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ أقبلَ الخلقُ عليهِ ، وصلحوا علىٰ يديهِ . . لماتَ غمّاً وحسداً ، ولوْ أثنىٰ أحدٌ مِنَ المتردِّدينَ إليهِ علىٰ بعضِ أقرانِهِ . . لكانَ أبغضَ خلقِ اللهِ إليهِ !

فهؤلاءِ أعظمُ الناسِ غِرَّةً ، وأبعدُهُمْ عنِ التنبُّهِ والرجوعِ إلى السدادِ ؛ لأنَّ المرغبَ في الأخلاقِ المحمودةِ والمنفرَ عنِ المذمومةِ هوَ العلمُ بغوائلِها وفوائدِها ، وهٰذا قدْ علمَ ذلكَ ولمْ ينفعْهُ ، وشغلَهُ حبُّ دعوةِ الخلقِ عنِ العملِ بهِ ، فبعدَ ذلكَ بماذا يُعالَجُ ؟! وكيفَ سبيلُ تخويفِهِ وإنما المخوفُ ما يتلوهُ علىٰ عبادِ اللهِ فيخافونَ وهوَ ليسَ بخائفٍ ؟!

نعمْ ، إنْ ظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ موصوفٌ بهٰذهِ الصفاتِ المحمودةِ يمكنُ أنْ يُدلَّ علىٰ طريقِ الامتحانِ والتجربةِ ، وذلكَ أنَّهُ إنْ كانَ يدَّعي مثلاً حبَّ اللهِ[1] . . فما الذي تركَهُ مِنْ محابِّ الدنيا لأجلِهِ ؟ وإنْ كانَ يدَّعي الخوفَ . . فما الذي امتنعَ منهُ بالخوفِ ، وإنْ كانَ يدَّعي الزهدَ . . فما الذي تركَهُ معَ القدرةِ عليهِ لوجهِ اللهِ تعالى ؟ وإنْ كانَ يدَّعي الأنسَ باللهِ . . فمتىٰ طابَتْ لهُ الخلوةُ ؟ ومتى استوحشَ مِنْ مشاهدةِ الخلقِ ؟ لا بلْ يرىٰ قلبَهُ يمتلئُ بالحلاوةِ إذا أحدقَ بهِ المريدونَ ، وتراهُ يستوحشُ إذا خلا باللهِ تعالىٰ ، فهلْ رأيتَ محبّاً آنساً يستوحشُ مِنْ محبوبِهِ ، ويستروحُ منهُ إلىٰ غيرِهِ ؟!

فالأكياسُ يمتحنونَ أنفسَهُمْ في هٰذهِ الصفاتِ ، ويطالبونَها بالحقيقةِ ، ولا يقنعونَ منها بالتزويقِ ، بلْ بموثقٍ مِنَ اللهِ غليظٍ ، والمغترُّونَ يحسنونَ بأنفسِهِمُ الظنونَ ، فإذا كُشفَ الغطاءُ عنهُمْ في الآخرةِ . . يفتضحونَ ، بلْ يُطرحونَ في النارِ فتندلقُ أقتابُهُمْ ، فيدورُ بها أحدُهُمْ كما يدورُ الحمارُ بالرحىٰ ، كما وردَ بهِ الخبرُ[2] ؛ لأنَّهُمْ يأمرونَ بالخيرِ ولا يأتونَهُ ، وينهونَ عنِ الشرِّ ويأتونَهُ .

وإنَّما وقعَ الغرورُ لهؤلاءِ مِنْ حيثُ إنَّهُمْ يصادفونَ في قلوبِهِمْ شيئاً ضعيفاً مِنْ أصولِ هٰذهِ المعاني ، وهوَ حبُّ اللهِ ، والخوفُ منهُ ، والرضا بفعلِهِ ،

---

(١) كذا في (ب) ، وفي بقية النسخ : (وهو أنه يدَّعي مثلاً حب الله عز وجل) .
(٢) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، **والأقتاب** : الأمعاء .

ثمَّ قدروا معَ ذلكَ علىٰ وصفِ المنازلِ العاليةِ في هٰذهِ المعاني ، فظنُّوا أنَّهُمْ ما قدروا علىٰ وصفِ ذلكَ ، وما رزقَهُمُ اللهُ علمَهُ ، وما نفعَ الناسُ بكلامِهِمْ فيها إلا لاتصافِهِمْ بها ، وذهبَ عليهِمْ أنَّ القبولَ للكلامِ ، والكلامَ للمعرفةِ وجريانِ اللسانِ ، والمعرفةَ للتعلمِ ، وأنَّ كلَّ ذلكَ غيرُ الاتصافِ بالصفةِ ، فلمْ يفارقْ آحادَ المسلمينَ في الاتصافِ بصفةِ الحبِّ والخوفِ ، بلْ في القدرةِ على الوصفِ ، بلْ ربَّما زادَ أمنُهُ وقلَّ خوفُهُ ، وظهرَ إلى الخلقِ ميلُهُ ، وضَعُفَ في قلبِهِ حبُّ اللهِ تعالىٰ .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ مريضٍ يصفُ المرضَ ، ويصفُ دواءَهُ بفصاحتِهِ ، ويصفُ الصحةَ والشفاءَ ، وغيرُهُ مِنَ المرضىٰ لا يقدرُ علىٰ وصفِ الصحةِ والشفاءِ وأسبابِهِ ودرجاتِهِ وأصنافِهِ ؛ فهوَ لا يفارقُهُمْ في صفةِ المرضِ والاتصافِ بهِ ، وإنَّما يفارقُهُمْ في الوصفِ والعلمِ بالطبِّ ، فظنُّهُ عندَ علمِهِ بحقيقةِ الصحةِ أنَّهُ صحيحٌ . . غايةُ الجهلِ ، فكذلكَ العلمُ بالخوفِ والحبِّ والتوكلِ والزهدِ وسائرِ هٰذهِ الصفاتِ . . غيرُ الاتصافِ بحقائِقِها ، ومَنِ التبسَ عليهِ وصفُ الحقائقِ بالاتصافِ بالحقائقِ . . فهوَ مغرورٌ ، فهٰذهِ حالةُ الوعَّاظِ الذينَ لا عيبَ في كلامِهِمْ ، بلْ منهاجُ وعظِهِمْ منهاجُ وعظِ القرآنِ والأخبارِ ، ووعظِ الحسنِ البصريِّ وأمثالِهِ رحمةُ اللهِ عليهِمْ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ عدلوا عنِ المنهاجِ الواجبِ في الوعظِ ، وهمْ وعَّاظُ

أهلِ هٰذا الزمانِ كافةً إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على الندورِ في بعضِ أطرافِ البلادِ إنْ كانَ ولسنا نعرفُهُ ، فاشتغلوا بالطامَّاتِ والشطحِ ، وتلفيقِ كلماتٍ خارجةٍ عنْ قانونِ الشرعِ والعقلِ ؛ طلباً للإغرابِ .

وطائفةٌ شُغفوا بطيّاراتِ النُّكَتِ[1] ، وتسجيعِ الألفاظِ وتلفيقِها ، فأكثرُ همَّتِهِمْ في الإسجاعِ ، والاستشهادِ بأشعارِ الوصالِ والفراقِ ، وغرضُهُمْ أنْ تكثرَ في مجالسِهِمْ الزعقاتُ والتواجدُ ، ولوْ علىٰ أغراضٍ فاسدةٍ ، فهؤلاءِ شياطينُ الإنسِ ضلُّوا وأضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ ، فإنَّ الأوَّلينَ وإنْ لمْ يصلِحوا أنفسَهُمْ فقدْ أصلحوا غيرَهُمْ ، وصحَّحوا كلامَهُمْ ووعظَهُمْ ، وأمَّا هؤلاءِ . . فإنَّهُمْ يصدونَ عنْ سبيلِ اللهِ ويجرُّونَ الخلقَ إلى الغرورِ باللهِ بلفظِ الرجاءِ ، فيزيدُهُمْ كلامُهُمْ جراءةً على المعاصي ، ورغبةً في الدنيا ، لا سيما إذا كانَ الواعظُ متزيِّناً بالثيابِ والخيلِ والمراكبِ ، فإنَّهُ يشهدُ مِنْ فَرْقِهِ إلىٰ قدمِهِ بشدَّةِ حرصِهِ على الدنيا ، فما يفسدُهُ هٰذا المغرورُ أكثرُ ممَّا يصلحُهُ ، بلْ لا يصلحُ أصلاً ، ويضلُّ خلقاً كثيراً ، فلا يخفىٰ وجهُ كونِهِ مغروراً .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ قنعوا بحفظِ كلامِ الزهَّادِ وأحاديثِهِمْ في ذمِّ الدنيا ، فهمْ يحفظونَ الكلماتِ علىٰ وجهِها ، ويؤدُّونَها مِنْ غيرِ إحاطةٍ بمعانيها ، فبعضُهُمْ يفعلُ ذلكَ على المنابرِ ، وبعضُهُمْ في المحاريبِ ، وبعضُهُمْ في

---

(١) وهي المسائل الدقيقة التي تتعب الخواطر في استنباطها من مكانها . «إتحاف» (٨/ ٤٦٠) .

الأسواقِ معَ الجلساءِ ، وكلٌّ منهُمْ يظنُّ أنَّهُ إذا تميَّزَ بهـٰذا القدْرِ عنِ السوقةِ والجنديَّةِ ؛ إذْ حفظَ كلامَ الزهَّادِ وأهلِ الدينِ دونَهُمْ . . فقدْ أفلحَ ونالَ الغرضَ ، وصارَ مغفوراً لهُ ، وأمنَ مِنْ عقابِ اللهِ مِنْ غيرِ أنْ يحفظَ ظاهرَهُ وباطنَهُ عنِ الآثامِ ، ولكنَّهُ يظنُّ أنَّ حفظَهُ لكلامِ الزهادِ أهلِ الدينِ يكفيهِ ، وغرورُ هؤلاءِ أظهرُ مِنْ غرورِ مَنْ قبلَهُمْ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ استغرقوا أوقاتَهُمْ في علمِ الحديثِ ؛ أعني في سماعِهِ ، وجمعِ الرواياتِ الكثيرةِ منهُ ، وطلبِ الأسانيدِ الغريبةِ العاليةِ ، فهمَّةُ أحدِهِمْ أنْ يدورَ في البلادِ ويرى الشيوخَ ليقولَ : أنا أروي عنْ فلانٍ وفلانٍ ، ولقدْ لقيتُ فلاناً وفلاناً ، ومعي من الأسانيدِ ما ليسَ معَ غيري .

وغرورُهُمْ مِنْ وجوهٍ :

منها : أنَّهُمْ كحملةِ أسفارٍ ؛ فإنَّهُمْ لا يصرفونَ العنايةَ إلىٰ فهمِ معاني السنةِ ، فعلمُهُمْ قاصرٌ ، وليسَ معَهُمْ إلا النقلُ ، ويظنُّونَ أنَّ ذلكَ يكفيهِمْ .

ومنها : أنَّهُمْ إذا لمْ يفهموا معانيَها . . لا يعملونَ بها ، وقدْ يفهمونَ بعضَها أيضاً ولا يعملونَ بهِ .

ومنها : أنَّهُمْ يتركونَ العلمَ الذي هوَ فرضُ عينِهِمْ ـ وهوَ معرفةُ معالجةِ القلبِ ـ ويشتغلونَ بتكثيرِ الأسانيدِ وطلبِ العالي منها ، ولا حاجةَ بهِمْ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ .

ومنها ـ وهوَ الذي أكبَّ عليهِ أهلُ الزمانِ ـ : أنَّهُمْ أيضاً لا يقومونَ بشرط السماعِ ، فإنَّ السماعَ بمجردِهِ وإنْ لَمْ يكنْ لهُ فائدةٌ ، ولكنَّهُ مهمٌّ في نفسِهِ للوصولِ إلىٰ إثباتِ الحديثِ ؛ إذِ التفهُّمُ بعدَ الإثباتِ ، والعملُ بعدَ التفهُّمِ ، فالأوَّلُ السماعُ ، ثمَّ التفهُّمُ ، ثمَّ الحفظُ ، ثمَّ العملُ ، ثمَّ النشرُ ، وهؤلاءِ اقتصروا مِنَ الجملةِ على السماعِ ، ثمَّ تركوا حقيقةَ السماعِ ، فترى الصبيَّ يحضرُ في مجلس الشيخِ والحديثُ يُقرأُ ، والشيخُ ينامُ والصبيُّ يلعبُ ، ثمَّ يُكتبُ اسمُ الصبيِّ في السماعِ[١] ، فإذا كبِرَ . . تصدَّىٰ ليُسمَعَ منهُ ، والبالغُ الذي يحضرُ ربَّما يغفُلُ ولا يسمعُ ، ولا يصغي ولا يضبطُ ، وربَّما يشتغلُ بحديثٍ أوْ نسخٍ ، والشيخُ الذي يُقرأُ عليهِ لوْ صُحِّفَ وغُيِّرَ ما يُقرأُ عليهِ . . لمْ يشعرْ بهِ ولمْ يعرفْهُ[٢] ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ وغرورٌ ؛ إذِ الأصلُ في الحديثِ أنْ تسمعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتحفظَه كما سمعتَهُ ، وترويَهُ كما حفظتَهُ ، فتكونُ الروايةُ عنِ الحفظِ ، والحفظُ عنِ السماعِ ، فإنْ عجزتَ عنْ سماعِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . سمعتَهُ مِنَ الصحابةِ أوِ التابعينَ ، وصارَ سماعُكَ عنِ الراوي كسماعِ مَنْ سمعَ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ أنْ تصغيَ لتسمعَ فتحفظَ وترويَ كما حفظتَ ، وتحفظَ كما سمعتَ ؛ بحيثُ لا تغيِّرُ منهُ حرفاً ، ولوْ غيَّرَ غيرُكَ منهُ حرفاً وأخطأَ . . علمتَ خطأَهُ .

---

(١) أي : يكتبه المستملي أو كاتب السماع في الطباق .
(٢) إما لثقل في سمعه ، أو لكثرة ازدحام ، أو لأمر آخر شغله . « إتحاف » (٨/ ٤٦١) .

ولحفظِكَ طريقانِ :

أحدُهُما : أنْ تحفظَ بالقلبِ ، وتستديمَهُ بالذكرِ والتكرارِ ؛ كما تحفظُ ما جرىٰ علىٰ سمعِكَ في مجاري الأحوالِ .

والثاني : أنْ تكتبَ كما تسمعُ ، وتصححَ المكتوبَ وتحفظَهُ حتَّىٰ لا تصلَ إليهِ يدُ مَنْ يغيِّرُهُ ، ويكونَ حفظُكَ للكتابِ معَكَ وفي خزانتِكَ ، فإنَّهُ لوِ امتدَّتْ إليهِ يدُ غيرِكَ . . ربَّما غيَّرَهُ ، فإذا لمْ تحفظْهُ . . لمْ تشعُرْ بتغييرِهِ ، فيكونُ محفوظاً بقلبِكَ أوْ بكتابِكَ ، فيكونُ كتابُكَ مذكِّراً لما سمعْتَهُ ، وتأمنُ فيهِ مِنَ التغييرِ والتحريفِ .

فإذا لمْ تحفظْ لا بالقلبِ ولا بالكتابِ وجرىٰ علىٰ سمعِكَ صوتٌ غُفْلٌ وفارقتَ المجلسَ ، ثمَّ رأيتَ نسخةً لذلكَ الشيخِ ، وجوَّزتَ أنْ يكونَ ما فيهِ مغيَّراً ، أوْ يفارقَ حرفٌ منهُ النسخةَ التي سمعتَها . . لمْ يجزْ لكَ أنْ تقولَ : سمعتُ هـٰذا الكتابَ ؛ فإنَّكَ لا تدري لعلَّكَ لمْ تسمعْ ما فيهِ ، بلْ سمعتَ شيئاً يخالفُ ما فيهِ ولوْ في كلمةٍ .

فإذا لمْ يكنْ معَكَ حفظٌ بقلبِكَ ولا نسخةٌ صحيحةٌ استوثقتَ عليها لتقابلَ بها . . فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّكَ سمعتَ ذلكَ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؟! وقولُ الشيوخِ كلِّهِمْ في هـٰذا الزمانِ : إنا سمعْنا ما في هـٰذا الكتابِ إذا لمْ يُوجدِ الشرطُ الذي ذكرناهُ . . فهوَ كذبٌ صريحٌ .

وأقلُّ شروطِ السماعِ : أنْ يجريَ الجميعُ على السمعِ معَ نوعٍ مِنَ الحفظِ

يشعرُ معَهُ بالتغييرِ ، ولوْ جازَ أنْ يُكتبَ سماعُ الصبيِّ والغافلِ والنائمِ والذي ينسخُ . . لجازَ أنْ يُكتبَ سماعُ الصبيِّ في المهدِ وسماعُ المجنونِ ، ثمَّ إذا بلغَ الصبيُّ وأفاقَ المجنونُ . . سمعَ عليهِ ، ولا خلافَ في عدمِ جوازِهِ ، ولوْ جازَ ذلكَ . . لجازَ أنْ يُكتبَ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنْ كانَ لا يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ لأنَّهُ لا يفهمُ ولا يحفظُ . . فالصبيُّ الذي يلعبُ والغافلُ والمشغولُ بالنسخِ عنِ السماعِ ليسَ يفهمُ ولا يحفظُ ، فإنِ استجرأَ جاهلٌ فقالَ : يُكتبُ سماعُ الصبيِّ في المهدِ . . فليُكتبْ سماعُ الجنينِ في البطنِ ، فإنْ فرَّقَ بينَهُما بأنَّ الجنينَ لا يسمعُ الصوتَ وهٰذا يسمعُ الصوتَ . . فماذا ينفعُ هٰذا وهوَ إنَّما ينقلُ الحديثَ دونَ الصوتِ ؟!

فليقتصرْ إذْ صارَ شيخاً علىٰ أنْ يقولَ : سمعتُ بعدَ بلوغي أنِّي في صبايَ حضرتُ مجلساً يُروىٰ فيهِ حديثٌ كانَ يقرعُ سمعي صوتُهُ ، ولا أدري ما هوَ ، ولا خلافَ في أنَّ الروايةَ كذلكَ لا تصحُّ ، وما زادَ عليهِ فهوَ كذبٌ صريحٌ ، ولوْ جازَ إثباتُ سماعِ التركيِّ الذي لا يفهمُ العربيةَ ؛ لأنَّهُ سمعَ صوتاً غُفْلاً . . لجازَ إثباتُ سماعِ صبيٍّ في المهدِ ، وذلكَ غايةُ الجهلِ ، ومِنْ أينَ يُؤخذُ هٰذا ؟ وهلْ للسماعِ مستندٌ إلا قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعَها »[1] ، وكيفَ يؤدِّي كما سمعَ مَنْ لا يدري ما سمعَهُ ؟!

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

فهٰذا أفحشُ أنواعِ الغرورِ ، وقدْ بُلِيَ بهٰذا أهلُ الزمانِ ، ولوِ احتاطَ أهلُ الزمانِ . . لمْ يجدوا شيوخاً إلا الذي سمعوهُ في الصِّبا علىٰ هٰذا الوجهِ معَ الغفلةِ ، إلا أنَّ للمحدثينَ في ذلكَ جاهاً وقبولاً ، فخافَ المساكينُ أنْ يشترطوا ذلكَ ، فيقلَّ مَنْ يجتمعُ لذلكَ في حِلَقِهِمْ ، فينقصَ جاهُهُمْ ، وتقلَّ أيضاً أحاديثُهُمْ التي قدْ سمعوها بهٰذا الشرطِ ، بلْ ربَّما عدموا ذلكَ وافتضحوا ، فاصطلحوا علىٰ أنَّهُ ليسَ يُشترطُ إلا أنْ يقرعَ سمعَهُ دمدمةٌ وإنْ كانَ لا يدري ما يجري .

وصحةُ السماعِ لا تُعرفُ مِنْ قولِ المحدثينَ ؛ لأنَّهُ ليسَ مِنْ علمِهِمْ ، بلْ مِنْ علمِ علماءِ أصولِ الفقهِ ، وما ذكرناهُ مقطوعٌ بهِ في قوانينِ أصولِ الفقهِ[1] .

فهٰذا غرورُ هؤلاءِ ، ولوْ سمعوا على الشرط . . لكانوا أيضاً مغرورينَ في اقتصارِهِمْ على النقلِ ، وفي إفناءِ أعمارِهِمْ في جمعِ الرواياتِ والأسانيدِ ، وإعراضِهِمْ عنْ مهمَّاتِ الدينِ ، ومعرفةِ معاني الأخبارِ ، بلِ الذي يقصِدُ مِنَ الحديثِ سلوكَ طريقِ الآخرةِ ربَّما يكفيهِ الحديثُ الواحدُ عمراً ؛ كما رُوِيَ عنْ بعضِ الشيوخِ أنَّهُ حضرَ مجلسَ السماعِ ، فكانَ أوَّلَ حديثٍ رُوِيَ قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »[2] ، فقامَ

---

(١) إلا أن المحدثين شاركوهم في الكلام علىٰ هٰذه المسألة استطراداً ؛ لشدة احتياجهم إلىٰ معرفتها . « إتحاف » (٨/ ٤٦٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) .

وقالَ : يكفيني هـٰذا حتَّىٰ أفرغَ منهُ ، ثمَّ أسمعُ غيرَهُ[1] .

فهكذا يكونُ سماعُ الأكياسِ الذينَ يحذَرونَ الغرورَ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ اشتغلوا بعلمِ النحوِ واللغةِ ، والشعرِ وغريبِ اللغةِ ، واغترُّوا بهِ ، وزعموا أنَّهُمْ قدْ غُفرَ لهُمْ ، وأنَّهُمْ مِنْ علماءِ الأمَّةِ ؛ إذْ قوامُ الدينِ بالكتابِ والسنةِ ، وقوامُ الكتابِ والسنةِ بعلمِ اللغةِ والنحوِ ، فأفنىٰ هؤلاءِ أعمارَهُمْ في دقائقِ النحوِ ، وفي صناعةِ الشعرِ ، وفي غرائبِ اللغةِ .

ومثالُهُمْ كمَنْ يفني جميعَ العمرِ في تعلُّمِ الخطِّ وتصحيحِ الحروفِ وتحسينِها ، ويزعمُ أنَّ العلومَ لا يمكنُ حفظُها إلا بالكتابةِ ، فلا بدَّ مِنْ تعلُّمِها وتصحيحِها ، ولوْ عقلَ . . لعلمَ أنَّهُ يكفيهِ أنْ يتعلَّمَ أصلَ الخطِّ ؛ بحيثُ يمكنُ أنْ يُقرأَ كيفما كانَ ، والباقي زيادةٌ على الكفايةِ ، وكذلكَ الأديبُ لوْ عقلَ . . لعرفَ أنَّ لغةَ العربِ كلغةِ التركِ ، والمضيِّعُ عمرَهُ في لغةِ العربِ كالمضيِّعِ عمرَهُ في لغةِ التركِ والهندِ ، وإنَّما فارقَتْها لغةُ العربِ لأجلِ ورودِ الشريعةِ بها ، فيكفي مِنَ اللغةِ علمُ الغريبينِ في الأحاديثِ والكتابِ ، ومِنَ النحوِ ما يتعلَّقُ بالحديثِ والكتابِ ، فأمَّا التعمُّقُ فيهِ إلىٰ درجاتٍ

---

(١) وهو شيخ شيخ المصنف ، أبو القاسم الكركاني رحمه الله تعالىٰ ، وسيأتي ذكره ، وخبره رواه ابن الصلاح في « طبقات الشافعية » (١/٣٩٩) .

لا تتناهىٰ . . فهوَ فضولٌ مستغنىً عنهُ ، ثمَّ لوِ اقتصرَ عليهِ وأَعرضَ عنْ معرفةِ المعاني الشرعية والعملِ بها . . فهـٰذا أيضاً مغرورٌ .

بلْ مثالُهُ مثالُ مَنْ ضيَّعَ عمرَهُ في تصحيحِ مخارجِ الحروفِ في القرآنِ واقتصرَ عليهِ ، وهوَ غرورٌ ؛ إذِ المقصودُ مِنَ الحروفِ المعاني ، وإنَّما الحروفُ ظروفٌ وأدواتٌ ، ومَنِ احتاجَ إلىٰ أنْ يشربَ السكنجبينَ ليزولَ ما بهِ مِنَ الصفراءِ ، فضيَّعَ أوقاتَهُ في تحسينِ القدحِ الذي يشربُ فيهِ السكنجبينَ . . فهوَ مِنَ الجهَّالِ المغرورينَ ؛ فكذلكَ غرورُ أهلِ النحوِ واللغةِ والأدبِ والقراءاتِ والتدقيقِ في مخارجِ الحروفِ مهما تعمَّقوا فيها ، وتجرَّدوا لها وعرَّجوا عليها أكثرَ ممَّا يُحتاجُ إليهِ في تعلُّمِ العلومِ التي هيَ فرضُ عينٍ ، فاللُّبُّ الأقصىٰ هوَ العملُ ، والذي فوقَهُ هوَ معرفةُ العملِ ، وهوَ كالقشرِ للعملِ ، وكاللُّبِّ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ، وما فوقَهُ هوَ سماعُ الألفاظِ وحفظُها بطريقِ الروايةِ ، وهوَ قشرٌ بالإضافةِ إلى المعرفةِ ، ولبٌّ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ، وما فوقَهُ هوَ العلمُ باللغةِ والنحوِ ، وفوقَ ذلكَ وهوَ القشرُ الأعلى العلمُ بمخارجِ الحروفِ ، والقانعونَ بهـٰذهِ الدرجاتِ كلُّهُمْ مغترُّونَ ، إلا مَنِ اتخذَ هـٰذهِ الدرجاتِ منازلَ ، فلمْ يعرِّجْ عليها إلا بقدْرِ حاجتِهِ ، فتجاوزَ إلىٰ ما وراءَهُ حتَّىٰ وصلَ إلىٰ لبابِ العملِ ، وطالبَ بحقيقةِ العملِ قلبَهُ وجوارحَهُ ، وزجَّىٰ عمرَهُ في حملِ النفسِ عليهِ ، وتصحيحِ الأعمالِ وتصفيتِها عنِ الشوائبِ والآفاتِ ، فهـٰذا هوَ المقصودُ المخدومُ مِنْ جملةِ علومِ الشرعِ ، وسائرُ العلومِ خدمٌ لهُ ووسائلُ إليه وقشورٌ لهُ ومنازلُ بالإضافةِ

إليهِ ، وكلُّ مَنْ لمْ يبلغِ المقصدَ . . فقدْ خابَ ، سواءٌ كانَ في المنزلِ القريبِ أوْ في المنزلِ البعيدِ .

وهـٰذهِ العلومُ لمَّا كانَتْ متعلِّقةً بعلومِ الشرعِ . . اغترَّ بها أربابُها ، فأمَّا علمُ الطبِّ والحسابِ والصناعاتِ وما يُعلمُ أنَّهُ ليسَ مِنْ علومِ الشرعِ . . فلا يعتقدُ أصحابُها أنَّهُمْ ينالونَ المغفرةَ بها مِنْ حيثُ إنَّها علومٌ ؛ فكانَ الغرورُ بها أقلَّ مِنَ الغرورِ بعلومِ الشرعِ ؛ لأنَّ العلومَ الشرعيَّةَ مشتركةٌ في أنَّها محمودةٌ ؛ كما يشاركُ القشرُ اللُّبَّ في كونِهِ محموداً ، ولكنَّ المحمودَ منهُ لعينِهِ هوَ المنتهىٰ ، والثاني محمودٌ للوصولِ بهِ إلى المقصودِ الأقصىٰ ، فمَنِ اتخذَ القشرَ مقصوداً وعرَّجَ عليهِ . . فقدِ اغترَّ بهِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ عَظُمَ غرورُهُمْ في فنِّ الفقهِ ، فظنُّوا أنَّ حكمَ العبدِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ يتبعُ حكمَهُ في مجلسِ القضاءِ ، فوضعوا الحيلَ في دفعِ الحقوقِ ، وأساؤوا تأويلَ الألفاظِ المبهمةِ ، واغترُّوا بالظواهرِ وأخطؤوا فيها ، وهـٰذا مِنْ قبيلِ الخطأِ في الفتوىٰ والغرورِ فيهِ ، والخطأُ في الفتاوىٰ ممَّا يكثرُ ، ولكنْ هـٰذا نوعٌ عمَّ الكافةَ إلا الأكياسَ منهُمْ ، فنشيرُ إلىٰ أمثلةٍ لهُ :

فمِنْ ذلكَ : فتواهُمْ بأنَّ المرأةَ مهما أبرأَتِ الزوجَ مِنَ الصداقِ . . بريءَ الزوجُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ خطأٌ ، بلِ الزوجُ قدْ يسيءُ إلى الزوجةِ

بحيثُ يضيِّقُ عليها الأمورَ بسوءِ الخُلُقِ ، فتُضطرُّ إلىٰ طلبِ الخلاصِ ، فتبرىءُ الزوجَ لتتخلَّصَ منهُ ، فهوَ إبراءٌ لا عنْ طيبةِ نفسٍ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ وطيبةُ النفسِ غيرُ طيبةِ القلبِ ، فالقلبُ قدْ يريدُ ما لا تطيبُ بهِ النفسُ ؛ فالإنسانُ يريدُ الحجامةَ بقلبِهِ ، ولكنْ تكرهُها نفسُهُ ، وإنَّما طيبةُ النفسِ أنْ تسمحَ نفسُها بالإبراءِ لا عنْ ضرورةٍ تقابلُهُ ، حتَّىٰ إذا رُدِّدَتْ بينَ ضررينِ . . اختارَتْ أهونَهُما ، فهـٰذهِ مصادرةٌ على التحقيقِ بإكراهِ الباطنِ .

نعمِ ، القاضي في الدنيا لا يطلعُ على القلوبِ والأغراضِ ، فينظرُ إلى الإبراءِ الظاهرِ ، وأنَّها لمْ تُكرَهْ بسببٍ ظاهرٍ ، والإكراهُ الباطنُ ليسَ يطَّلعُ الخلقُ عليهِ ، ولكنْ مهما تصدَّى القاضي الأكبرُ في صعيدِ القيامةِ للقضاءِ . . لمْ يكنْ هـٰذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيلِ الإبراءِ .

وكذلكَ : لا يحلُّ أنْ يُؤخذَ مالُ الإنسانِ إلا بطيبةِ نفسٍ منهُ ، فلوْ طلبَ مِنْ إنسانٍ مالاً علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فاستحيا مِنَ الناسِ ألاَّ يعطيَهُ ، وكانَ يودُّ أنْ يكونَ سؤالُهُ في خلوةٍ حتَّىٰ لا يعطيَهُ ، ولكنْ خافَ ألمَ مذمَّةِ الناسِ ، وخافَ ألمَ تسليمِ المالِ ، وردَّدَ نفسَهُ بينَهُما ، فاختارَ أهونَ الألمينِ وهوَ ألمُ التسليمِ فسلَّمَهُ . . فلا فرقَ بينَ هـٰذا وبينَ المصادرةِ ؛ إذْ معنى المصادرةِ إيلامُ البدنِ بالسوطِ ، حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ أقوىٰ مِنْ ألمِ القلبِ ببذلِ المالِ ، فيختارُ أهونَ الألمينِ ، والسؤالُ في مَظِنَّةِ الحياءِ والرياءِ ضربٌ للقلبِ بالسوطِ ، ولا فرقَ بينَ ضربِ الباطنِ وضربِ الظاهرِ عندَ اللهِ ، فإنَّ الباطنَ

عندَ اللهِ ظاهرٌ ، وإنَّما حاكمُ الدنيا هوَ الذي يحكمُ بالملكِ بظاهرِ قولِه : وهبتُ ؛ لأنَّهُ لا يمكنُهُ الوقوفُ علىٰ ما في القلبِ .

وكذلكَ : مَنْ يُعطى اتقاءَ لشرِّ لسانِهِ ، أوْ لشرِّ سعايتِهِ ؛ فهوَ حرامٌ عليهِ .

وكذلكَ كلُّ مالٍ يُؤخَذُ علىٰ هٰذا الوجهِ فهوَ حرامٌ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما جاءَ في قصةِ داوودَ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ بعدَ أنْ غُفِرَ لهُ : يا ربِّ ؛ كيفَ لي بخصمي فأُمِرَ بالاستحلالِ منهُ وكانَ خصمُهُ ميتاً ، فأُمِرَ بندائِهِ في صخرةِ بيتِ المقدسِ ، فنادىٰ يا أوريا ؛ فأجابَهُ : لبيكَ يا نبيَّ اللهِ ، أخرجتَني مِنَ الجنةِ فماذا تريدُ ؟ قالَ : إنِّي أسأتُ إليكَ في أمرٍ فهبْهُ لي ، قالَ : قدْ فعلتُ ذلكَ يا نبيَّ اللهِ ، فانصرفَ وقدْ ركنَ إلىٰ ذلكَ ، فقالَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ : هلْ ذكرتَ لهُ ما فعلتَ : قالَ : لا ، قالَ : فارجعْ إليهِ فبيِّنْ لهُ ، فرجعَ فناداهُ ، فقالَ لهُ : لبيكَ يا نبيَّ اللهِ ، فقالَ : إنِّي أذنبتُ إليكَ ذنباً ، فقالَ : ألمْ أهبْهُ لكَ ؟ قالَ أوَلا تسألُني ما ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : ما هوَ يا نبيَّ اللهِ ؟ قالَ : كذا وكذا ، وذكرَ شأنَ المرأةِ ، فانقطعَ الجوابُ ، فقالَ : يا أوريا ؛ ألا تجيبُني ؟ قالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ ما هٰكذا يفعلُ الأنبياءُ ، حتَّىٰ أقفَ معَكَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فاستقبلَ داوودُ البكاءَ والصراخَ مِنَ الرأسِ حتَّىٰ وعدَهُ اللهُ أنْ يستوهبَهُ منهُ في القيامةِ[1] .

---

(١) الخبر بنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٣/ ١٧٩) ، وفيه : فأوحى الله إليه : إذا كان ذلك . . دعوت أهريا ، فأستوهبك منه ، فيهبك لي ، فأثيبه بذلك الجنة .

فهٰذا ينبِّهُكَ أنَّ الهبةَ مِنْ غيرِ طيبةِ قلبٍ لا تفيدُ ، وأنَّ طيبةَ القلبِ لا تحصلُ إلا بالمعرفةِ ، فكذلكَ طيبةُ القلبِ لا تكونُ في الإبراءِ والهبةِ وغيرِهِ ، إلا إذا خُلِّيَ الإنسانُ واختيارَهُ حتَّىٰ تنبعثَ الدواعي مِنْ ذاتِ نفسِهِ ، لا أنْ تُضطرَّ دواعيهِ إلى الحركةِ بالحيلِ والإلزامِ .

ومِنْ ذلكَ : هبةُ الرجلِ مالَ الزكاةِ في آخرِ الحولِ مِنْ زوجتِهِ واتِّهابُهُ مالَها ؛ لإسقاطِ الزكاةِ ، فالفقيهُ يقولُ : سقطَتِ الزكاةُ ، فإنْ أرادَ بهِ أنَّ مطالبةَ السلطانِ والساعي قدْ سقطَتْ عنهُ . . فقدْ صدقَ ، فإن مطمحَ نظرِهِمْ إلىٰ ظاهرِ المُلْكِ وقدْ زالَ ، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يسلمُ في القيامةِ ويكونُ كمَنْ لمْ يملكِ المالَ ، أوْ كمَنْ باعَ لحاجتِهِ إلى البيعِ لا علىٰ هٰذا القصدِ . . فما أعظمَ جهلَهُ بفقهِ الدينِ وسرِّ الزكاةِ ، فإنَّ سرَّ الزكاةِ تطهيرُ القلبِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، فإنَّ البخلَ مهلكٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ شحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[1] ، وإنَّما صارَ شحُّهُ مُطاعاً بما فعلَهُ ، وقبْلَهُ لمْ يكنْ مُطاعاً ، فقدْ تمَّ هلاكُهُ بما يظنُّ أنَّ فيهِ خلاصَهُ ، فإنَّ اللهَ مطلعٌ علىٰ قلبِهِ وحبِّهِ للمالِ وحرصِهِ عليهِ ، وأنَّهُ قدْ بلغَ مِنْ حرصِهِ على المالِ أنِ استنبطَ الحيلَ حتَّىٰ يسدَّ علىٰ نفسِهِ طريقَ الخلاصِ مِنَ البخلِ بالجهلِ والغرورِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

ومِنْ ذلكَ : إباحةُ اللهِ مالَ المصالحِ للفقيهِ وغيرِه بقدْرِ الحاجةِ ، والفقهاءُ المغرورونَ لا يميِّزونَ بينَ الأمانيِّ والفضولِ والشهواتِ وبينَ الحاجاتِ ، بلْ كلُّ ما لا تتمُّ رعونتُهُمْ إلا بهِ يرونَهُ حاجةً ، وهوَ محضُ الغرورِ ، بلِ الدنيا خُلقَتْ لحاجةِ العبادِ إليها في العبادةِ ، وسلوكِ طريقِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ ما تناولَهُ العبدُ للاستعانةِ بهِ على الدينِ والعبادةِ فهوَ حاجتُهُ ، وما عدا ذلكَ فهوَ فضولُهُ وشهوتُهُ ، ولوْ ذهبنا نَصِفُ غرورَ الفقهاءِ في أمثالِ هـٰذا . لملأنا فيهِ مجلداتٍ ، والغرضُ التنبيهُ علىٰ أمثلةٍ تعرِّفُ الأجناسَ دونَ الاستيعابِ ؛ فإنَّ ذلكَ يطولُ .

❋ ❋ ❋

الصّنف الثاني : أرباب العبادة والعمل

والمغرورونَ منهمْ فرقٌ كثيرةٌ : فمنهُمْ مَنْ غرورُهُ في الصلاةِ ، ومنهُمْ مَنْ غرورُهُ في تلاوةِ القرآنِ ، ومنهُمْ في الحجِّ ، ومنهُمْ في الغزوِ ، ومنهُمْ في الزهدِ .

وكذلكَ كلُّ مشغولٍ بمنهجٍ مِنْ مناهجِ العملِ فليسَ خالياً عنْ غرورٍ إلا الأكياسَ وقليلٌ ما همْ .

❊ ❊ ❊

فمنهُمْ فرقةٌ أهملوا الفرائضَ ، واشتغلوا بالفضائلِ والنوافلِ ، وربَّما تعمَّقوا في الفضائلِ ، حتَّىٰ خرجوا إلى العدوانِ والسرفِ ؛ كالذي تغلِبُ عليهِ الوسوسةُ في الوضوءِ ، فيبالغُ فيهِ ، ولا يرتضي الماءَ المحكومَ بطهارتِهِ في فتوى الشرعِ ، ويقدِّرُ الاحتمالاتِ البعيدةَ قريبةً في النجاسةِ ، وإذا آلَ الأمرُ إلىٰ أكلِ الحلالِ . . قدَّرَ الاحتمالاتِ القريبةَ بعيدةً ، وربَّما أكلَ الحرامَ المحضَ ، ولوِ انقلبَ هٰذا الاحتياطُ مِنَ الماءِ إلى الطعامِ . . لكانَ أشبهَ بسيرةِ الصحابةِ ؛ إذْ توضَّأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بماءٍ في جرَّةِ نصرانيةٍ معَ ظهورِ احتمالِ النجاسةِ[1] ، وكان مَعَ هٰذا يدعُ أبواباً مِنَ الحلالِ خوفاً مِنَ الوقوعِ في الحرامِ .

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٣٢) ، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣) إذ قال : (باب وضوء الرجل مع امرأته وفضلِ وضوء المرأة ، وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية) .

ثمَّ في هؤلاءِ مَنْ يخرجُ إلى الإسرافِ في صبِّ الماءِ ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وقدْ يطولُ الأمرُ حتَّىٰ يضيِّعَ الصلاةَ ويخرجَها عنْ وقتِها ، وإنْ لمْ يخرجْها أيضاً عنْ وقتِها . . فهوَ مغرورٌ ؛ لما فاتَهُ مِنْ فضيلةِ أوَّلِ الوقتِ ، وإنْ لمْ يفتْهُ . . فهوَ مغرورٌ لإسرافِهِ في الماءِ ، وإنْ لمْ يسرفْ . . فهوَ مغرورٌ لتضييعِهِ العمرَ الذي هوَ أعزُّ الأشياءِ فيما لهُ مندوحةٌ عنهُ ، إلا أنَّ الشيطانَ يصدُّ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ بطرقٍ شتَّىٰ ، ولا يقدرُ علىٰ صدِّ العبَّادِ إلا بما يخيِّلُ إليهِمْ أنَّهُ عبادةٌ ، فيبعدُهُمْ عنِ اللهِ بمثلِ ذلكَ .

❋ ❋ ❋

وفرقةٌ أخرىٰ غلبَتْ عليها الوسوسةُ في نيَّةِ الصلاةِ ، فلا يدعُهُ الشيطانُ حتَّىٰ يعتقدَ نيَّةً صحيحةً ، بلْ يشوِّشُ عليهِ حتَّىٰ تفوتَهُ الجماعةُ وتخرجَ الصلاةُ عنِ الوقتِ ، وإنْ تمَّ تكبيرُهُ فيكونُ في قلبِهِ بعدُ تردُّدٌ في صحةِ نيَّتِهِ ، وقدْ يوسوسونَ في التكبيرِ حتَّىٰ يغيِّروا صيغةَ التكبيرِ لشدةِ الاحتياطِ فيهِ ، يفعلونَ ذلكَ في أوَّلِ الصلاةِ ، ثمَّ يغفُلونَ في جميعِ الصلاةِ ، ولا يحضرونَ قلوبَهُمْ ويغترُّونَ بذلكَ ، ويظنُّونَ أنَّهُمْ إذا أتعبوا أنفسَهُمْ في تصحيحِ النيةِ في أوَّلِ الصلاةِ ، وتميَّزوا عنِ العامَّةِ بهـٰذا الجهدِ والاحتياطِ . . فهُمْ علىٰ خيرٍ عندَ ربِّهِمْ !

❋ ❋ ❋

وفرقةٌ أخرىٰ تغلبُ عليها الوسوسةُ في إخراجِ حروفِ الفاتحةِ وسائرِ

الأذكارِ مِنْ مخارجِها ، فلا يزالُ أحدُهُمْ يحتاطُ في التشديداتِ ، والفرقِ بينَ الضادِ والظاءِ ، وتصحيحِ مخارجِ الحروفِ في جميعِ صلاتِهِ ، لا يهمُّهُ غيرُهُ ، ولا يتفكَّرُ فيما سواهُ ، ذاهلاً عنْ معنى القرآنِ والاتعاظِ بهِ ، وصرفِ الفهمِ إلىٰ أسرارِهِ .

وهـٰذا مِنْ أقبحِ أنواعِ الغرورِ ؛ فإنَّهُ لمْ يُكلَّفِ الخلقُ في تلاوةِ القرآنِ مِنْ تحقيقِ مخارجِ الحروفِ إلا بما جرتْ بهِ عادتُهُمْ في الكلامِ .

ومثالُ هؤلاءِ مثالُ مَنْ حملَ رسالةً إلىٰ مجلسِ سلطانٍ ، وأمرَ أنْ يؤدِّيَها علىٰ وجهِها ، فأخذَ يؤدي الرسالةَ ويتأنَّقُ في مخارجِ الحروفِ ، ويكرِّرُها ويعيدُها مرّةً بعدَ أخرىٰ ، وهوَ في ذلكَ غافلٌ عنْ مقصودِ الرسالةِ ، ومراعاةِ حرمةِ المجلسِ ، فما أحراهُ بأنْ تُقامَ عليهِ السياسةُ ، ويُردَّ إلىٰ دارِ المجانينِ ، ويُحكمَ عليهِ بفقدِ العقلِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اغترُّوا بقراءةِ القرآنِ ، فيهذُّونَهُ هذّاً ، وربَّما يختمونَهُ في اليومِ والليلةِ مرّةً ، وربَّما يزيدُ أحدُهُمْ علىٰ ذلكَ ، ولسانُ أحدِهِمْ يجري بهِ ، وقلبُهُ يتردَّدُ في أوديةِ الأمانيِّ ؛ إذْ لا يتفكَّرُ في معاني القرآنِ لينزجرَ بزواجرِهِ ، ويتعظَ بمواعظِهِ ، ويقفَ عندَ أوامرِهِ ونواهيهِ ، ويعتبرَ بمواضعِ الاعتبارِ فيهِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا ذكرناهُ في كتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ مِنْ مقاصدِ التلاوةِ ، فهوَ مغرورٌ يظنُّ أنَّ المقصودَ مِنْ إنزالِ القرآنِ الهمهمةُ بهِ معَ الغفلةِ عنهُ .

ومثالُهُ مثالُ عبدٍ كتبَ إليهِ مولاهُ ومالكُهُ كتاباً ، وأشارَ عليهِ فيهِ بالأَوامرِ والنواهي ، فلمْ يصرِفْ عنايتَهُ إلىٰ فهمِهِ والعملِ بهِ ، ولكنِ اقتصرَ علىٰ حفظِهِ ، فهوَ مستمرٌّ علىٰ خلافِ ما أمرَهُ بهِ مولاهُ ، إلا أنَّهُ مكرِّرٌ للكتابِ بنغمتِهِ وصوتِهِ كلَّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ ، فهوَ مستحقٌّ للعقوبةِ ، ومهما ظنَّ أنَّ ذلكَ هوَ المرادُ منهُ . . فهوَ مغرورٌ .

نعمْ ، تلاوتُهُ إنَّما تُرادُ لكيلا يُنسىٰ ، بلْ لحفظِهِ ، وحفظُهُ يُرادُ لمعناهُ ، ومعناه يُرادُ للعملِ بهِ والانتفاعِ بمعانيهِ ، وقدْ يكونُ لهُ صوتٌ طيِّبٌ ، فهوَ يقرؤُهُ ويلتذُّ بهِ ، ويغترُّ باستلذاذِهِ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ لذَّةُ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ وسماعِ كلامِهِ ، وإنَّما هيَ لذَّتُهُ بحُسْنِ صوتِهِ ونغمَتِهِ ، ولوْ ردَّدَ ألحانَهُ بشعرٍ أوْ كلامٍ آخرَ . . لالتذَّ بهِ ذلكَ الالتذاذَ ، فهوَ مغرورٌ إذا لمْ يتفقَّدْ قلبَهُ ليعرفَ أنَّ لذَّتَهُ بكلامِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ حسنُ نظمِهِ ومعانيهِ أوْ بصوتِهِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ اغترُّوا بالصومِ ، وربَّما صاموا الدهرَ ، أوْ صاموا الأيامَ الشريفةَ ، وهمْ فيها لا يحفظونَ ألسنتَهُمْ عنِ الغيبةِ ، وخواطرَهُمْ عنِ الرياءِ ، وبطونَهُمْ عنِ الحرامِ عندَ الإفطارِ ، وألسنتَهُمْ عنِ الهذيانِ بأنواعِ الفضولِ طولَ النهارِ ، وهوَ معَ ذلكَ يظنُّ بنفسِهِ الخيرَ ، فيهملُ الفرائضَ ويطلبُ النفلَ ، ثمَّ لا يقومُ بحقِّهِ ، وذلكَ غايةُ الغرورِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ اغتروا بالحجِّ ، فيخرجونَ إلى الحجِّ مِنْ غيرِ خروجٍ عنِ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، واسترضاءِ الوالدينِ ، وطلبِ الزادِ الحلالِ ، وقدْ يفعلونَ ذلكَ بعدَ سقوطِ حجَّةِ الإسلامِ ، ويضيِّعونَ في الطريقِ الصلاةَ والفرائضَ ، ويعجزونَ عنْ طهارةِ الثوبِ والبدنِ ، ويتعرَّضونَ لمكسِ الظلمةِ حتَّىٰ يُؤخذَ منهُمْ(١) ، ولا يحذرونَ في الطريقِ مِنَ الرفثِ والخصامِ ، وربَّما جمعَ بعضُهُمُ الحرامَ وأنفقَهُ على الرفقاءِ في الطريقِ ، وهوَ يطلبُ بهِ السمعةَ والرياءَ ، فيعصي اللهَ تعالىٰ في كسبِ الحرامِ أوَّلاً ، وفي إنفاقِهِ بالرياءِ ثانياً ، فلا هوَ أخذَهُ مِنْ حِلِّهِ ، ولا هوَ وضعَهُ في حقِّهِ ، ثمَّ يحضرُ البيتَ بقلبٍ ملوَّثٍ برذائلِ الأخلاقِ وذميمِ الصفاتِ ، لمْ يقدِّمْ تطهيرَهُ علىٰ حضورِهِ ، وهوَ معَ ذلكَ يظنُّ أنَّهُ علىٰ خيرٍ مِنْ ربِّهِ ، فهوَ مغرورٌ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ أخذَتْ في طريقِ الحسْبةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، ينكرُ على الناسِ ويأمرُهُمْ بالخيرِ وينسىٰ نفسَهُ ، فإذا أمرَهُمْ بالخيرِ . . عنَّفَ ، وطلبَ الرئاسةَ والعزَّةَ ، وإذا باشرَ مُنكراً فرُدَّ عليهِ . . غضبَ وقالَ : أنا المحتسبُ ، فكيف يُنكرُ عليَّ ؟! وقدْ يجمعُ الناسَ إلىٰ مسجدِهِ ، ومَنْ تأخَّرَ عنهُ . . أغلظَ القولَ عليهِ ، وإنَّما غرضُهُ الرياءُ

---

(١) ولا يرجعون عن الطريق ، والمراد بالظلمة أمراء البلاد الذين يمرون عليهم ، وفي معناهم الأعراب الصادُّون عن الطريق إلا بدفع شيء من المال علىٰ كل إنسان ، فحكمه حكم المكس . « إتحاف » (٨/ ٤٧٥) .

والرئاسةُ ، ولوْ قامَ بتعهُّدِ المسجدِ غيرُهُ . . لحردَ عليهِ ، بلْ منهُمْ مَنْ يؤذِّنُ ويظنُّ أنَّهُ يؤذِّنُ للهِ ، ولوْ جاءَ غيرُهُ وأذَّنَ في وقتِ غيبتِهِ . . قامَتْ عليهِ القيامةُ ، وقالَ : لمْ آخذْ حقِّي ، وزُوحمتُ علىٰ مرتبتي ، وكذلكَ قدْ يتقلَّدُ إمامةَ مسجدٍ ويظنُّ أنَّهُ علىٰ خيرٍ ، وإنَّما غرضُهُ أنْ يُقالَ : إنَّهُ إمامُ المسجدِ ، فلوْ تقدَّمَ غيرُهُ وإنْ كانَ أورعَ وأعلمَ منهُ . . ثقُلَ عليهِ .

❋ ❋ ❋

وفرقةٌ أخرىٰ جاوروا بمكةَ أوِ المدينةِ واغترُّوا بذلكَ ، ولمْ يراقبوا قلوبَهُمْ ، ولمْ يطهِّروا ظاهرَهُمْ وباطنَهُمْ ، فقلوبُهُمْ معلَّقةٌ ببلادِهِمْ ، ملتفتةٌ إلىٰ قولِ الناسِ : إنَّ فلاناً مجاورٌ بمكةَ ! وتراهُ يتحدَّىٰ ويقولُ : قدْ جاورتُ بمكةَ كذا وكذا سنةً ، وإذا سمعَ أنَّ ذلكَ قبيحٌ . . تركَ صريحَ التحدِّي وأحبَّ أنْ يعرفَهُ الناسُ بذلكَ .

ثمَّ إنَّهُ قدْ يجاورُ ويمدُّ عينَ الطمعِ إلىٰ أوساخِ أموالِ الناسِ ، فإذا جمعَ منْ ذلكَ شيئاً . . شحَّ بهِ وأمسكَهُ ، ولمْ تسمحْ نفسُهُ بلقمةٍ يتصدَّقُ بها علىٰ فقيرٍ ، فيظهرُ فيهِ الرياءُ والبخلُ والطمعُ ، وجملةٌ مِنَ المهلكاتِ كانَ عنها بمعزلٍ لوْ تركَ المجاورةَ ، ولكنَّ حبَّ المحمدةِ ، وأنْ يُقالَ : إنَّهُ مِنَ المجاورينَ . . ألزمَهُ المجاورةَ معَ التضمُّخِ بهـٰذهِ الرذائلِ ، فهوَ أيضاً مغرورٌ .

وما مِنْ عملٍ مِنَ الأعمالِ أو عبادةٍ مِنَ العباداتِ إلا وفيها آفاتٌ ، فمَنْ لمْ يعرفْ مداخلَ آفاتِها واعتمدَ عليها . . فهوَ مغرورٌ ، ولا يُعرفُ شرحُ ذلكَ إلا مِنْ جملةِ كتبِ « إحياءِ علومِ الدينِ » ؛ فيعرفُ مداخلَ الغرورِ في الصلاةِ

مِنْ كتابِ الصلاةِ ، وفي الحجِّ مِنْ كتابِ الحجِّ ، والزكاةِ والتلاوةِ وسائرِ القرباتِ مِنَ الكتبِ التي رتَّبناها فيها ، وإنَّما الغرضُ الآنَ الإشارةُ إلىٰ مجامعِ ما سبقَ في الكتبِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ زهدَتْ في المالِ ، وقنعَتْ مِنَ اللباسِ والطعامِ بالدونِ ، ومِنَ المسكنِ بالمساجدِ ، وظنَّتْ أنَّها أدركَتْ رتبةَ الزهَّادِ ، وهوَ معَ ذلكَ راغبٌ في الرئاسةِ والجاهِ ؛ إمَّا بالعلمِ أوْ بالوعظِ أوْ بمجرَّدِ الزهدِ ، فقدْ تركَ أهونَ الأمرينِ ، وباءَ بأعظمِ المهلكينِ ؛ فإنَّ الجاهَ أطمُّ مِنَ المالِ ، ولوْ تركَ الجاهَ وأخذَ المالَ . . كانَ إلى السلامةِ أقربَ .

فهٰذا مغرورٌ ؛ إذْ ظنَّ أنَّهُ مِنَ الزهَّادِ في الدنيا وهوَ لمْ يفهمْ معنى الدنيا ، ولمْ يدركْ أنَّ منتهىٰ لذَّاتِها الرئاسةُ ، وأنَّ الراغبَ فيها لا بدَّ وأنْ يكونَ منافقاً ، وحسوداً ، ومتكبِّراً ، ومرائياً ، ومتَّصفاً بجميعِ خبائثِ الأخلاقِ .

نعمْ ، وقدْ يتركُ الرئاسةَ ، ويؤثرُ الخلوةَ والعزلَةَ ، وهوَ معَ ذلكَ مغرورٌ ؛ إذْ يتطاولُ بذلكَ على الأغنياءِ ، ويخشنُ معَهُمُ الكلامَ ، وينظرُ إليهِمْ بعينِ الاستحقارِ ، ويرجو لنفسِهِ أكثرَ مما يرجو لهُمْ ، ويعجبُ بعملِهِ ، ويتَّصفُ بجملةٍ مِنْ خبائثِ القلوبِ وهوَ لا يدري ، وربَّما يُعطى المالَ فلا يأخذُهُ ، خيفةً مِنْ أنْ يُقالَ : بطلَ زهدُهُ ، ولوْ قيلَ لهُ : إنَّهُ حلالٌ فخذْهُ في الظاهرِ وردُّهُ في الخفيةِ . . لمْ تسمحْ بهِ نفسُهُ ؛ خوفاً مِنْ ذمِّ الناسِ ، فهوَ

راغبٌ في حمدِ الناسِ ، وهوَ مِنْ ألذِّ أبوابِ الدنيا ، ويرىٰ نفسَهُ أنَّهُ زاهدٌ في الدنيا ، وهوَ مغرورٌ ، ومعَ ذلكَ فربَّما لا يخلو عنْ توقيرِ الأغنياءِ وتقديمِهِمْ على الفقراءِ ، والميلِ إلى المريدينَ لهُ والمثنينَ عليهِ ، والنفرةِ عنِ المائلينَ إلىٰ غيرِهِ مِنَ الزهَّادِ ، وكلُّ ذلكَ خدعةٌ وغرورٌ مِنَ الشيطانِ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وفي العبَّادِ مَنْ يشدِّدُ علىٰ نفسِهِ في أعمالِ الجوارحِ ، حتَّىٰ ربَّما يصلِّي في اليومِ والليلةِ مثلاً ألفَ ركعةٍ ، ويختمُ القرآنَ ، وهوَ في جميعِ ذلكَ لا يخطرُ لهُ مراعاةُ القلبِ وتفقُّدُهُ وتطهيرُهُ مِنَ الرياءِ والكبرِ والعجبِ وسائرِ المهلكاتِ ، فلا يدري أنَّ ذلكَ مهلكٌ ، وإنْ علمَ ذلكَ . . فلا يظنُّ بنفسِهِ ذلكَ ، وإنْ ظنَّ بنفسِهِ ذلكَ . . توهَّمَ أنَّهُ مغفورٌ لهُ لعملِهِ الظاهرِ ، وأنَّهُ غيرُ مؤاخذٍ بأحوالِ القلبِ ، وإنْ توهَّمَ ذلكَ فيظنُّ أنَّ العباداتِ الظاهرةَ تترجَّحُ بها كِفَّةُ حسناتِهِ ، وهيهاتَ ! وذرةٌ مِنْ ذي تقوىٰ ، وخُلُقٌ واحدٌ مِنْ أخلاقِ الأكياسِ . . أفضلُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عملاً بالجوارحِ .

ثمَّ لا يخلو هـٰذا المغرورُ معَ سوءِ خُلُقِهِ معَ الناسِ وخشونتِهِ وتلوُّثِ باطنِهِ عنِ الرياءِ وحبِّ الثناءِ ، فإذا قيلَ لهُ : أنتَ مِنْ أوتادِ الأرضِ ، وأولياءِ اللهِ وأحبابِهِ . . فرحَ المغرورُ بذلكَ ، وصدَّقَ بهِ ، وزادَهُ ذلكَ غروراً ، وظنَّ أنَّ تزكيةَ الناسِ لهُ دليلٌ علىٰ كونِهِ مرضيّاً عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يدري أنَّ ذلكَ لجهلِ الناسِ بخبائثِ باطنِهِ .

❀ ❀ ❀

وفرقةٌ أخرىٰ حرصَتْ على النوافلِ ولمْ يعظمِ اعتدادُها بالفرائضِ ، ترىٰ أحدَهُمْ يفرحُ بصلاةِ الضحىٰ وصلاةِ الليلِ وأمثالِ هـٰذهِ النوافلِ ولا يجدُ للفريضةِ لذّةً ، ولا يشتدُّ حرصُهُ على المبادرةِ بها في أوّلِ الوقتِ ، وينسىٰ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ : « ما تقرَّبَ المتقربونَ إليَّ بمثلِ أداءِ ما افترضتُ عليهِمْ »(١) .

وتركُ الترتيبِ بينَ الخيراتِ مِنْ جملةِ الغرورِ ، بلْ قدْ يتعيَّنُ على الإنسانِ فرضانِ : أحدُهُما يفوتُ ، والآخرُ لا يفوتُ ، أوْ فضلانِ أحدُهُما يضيقُ وقتُهُ ، والآخرُ يتَّسعُ وقتُهُ ، فإنْ لمْ يحفظِ الترتيبَ فيهِ . . كانَ مغروراً .

ونظائرُ ذلكَ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فإنَّ المعصيةَ ظاهرةٌ والطاعةَ ظاهرةٌ ، وإنَّما الغامضُ تقديمُ بعضِ الطاعاتِ علىٰ بعضٍ ؛ كتقديمِ الفرائضِ كلِّها على النوافلِ ، وتقديمِ فروضِ الأعيانِ علىٰ فروضِ الكفاياتِ ، وتقديمِ فرضِ كفايةٍ لا قائمَ بهِ علىٰ ما قامَ بهِ غيرُهُ ، وتقديمِ الأهمِّ مِنْ فروضِ الأعيانِ علىٰ ما دونَهُ ، وتقديمِ ما يفوتُ علىٰ ما لا يفوتُ ، وهـٰذا كما يجبُ أنْ يقدِّمَ حاجةَ الوالدةِ علىٰ حاجةِ الوالدِ ؛ إذْ سُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقيلَ لهُ : مَنْ أبرُّ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ : قال : « أمَّكَ » ، قالَ : ثمَّ منْ ؟ قالَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) بلفظ : « . . . وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه » .

« أباكَ » ، قالَ : ثمَّ مَنْ ؟ قالَ : « أدناكَ فأدناكَ »(١) ، فينبغي أنْ يبدأَ في الصلةِ بالأقربِ ؛ فإنِ استويا.. فبالأحوجِ ، فإنِ استويا.. فبالأتقىٰ والأورعِ .

وكذلكَ مَنْ لا يفي مالُهُ بنفقةِ الوالدينِ والحجِّ فربَّما يحجُّ وهوَ مغرورٌ ، بلْ ينبغي أنْ يقدِّمَ حقَّهُما على الحجِّ ، وهـٰذا مِنْ تقديمِ فرضٍ أهمَّ علىٰ فرضٍ هوَ دونَهُ .

وكذلكَ إذا كانَ على العبدِ ميعادٌ ودخلَ وقتُ الجمعةِ.. فالجمعةُ تفوتُ ، والاشتغالُ بالوفاءِ بالوعدِ معصيةٌ وإنْ كانَ هوَ طاعةً في نفسِهِ .

وكذلكَ قدْ تصيبُ ثوبَهُ النجاسةُ ، فيغلظُ القولَ علىٰ أبويهِ وأهلِهِ بسببِ ذلكَ ، فالنجاسةُ محذورةٌ ، وإيذاؤهُما محذورٌ ، والحذرُ مِنَ الإيذاءِ أهمُّ مِنَ الحذرِ مِنَ النجاسةِ(٢) .

وأمثلةُ تقابلِ المحذوراتِ والطاعاتِ لاتنحصرُ ، ومَنْ تَرَكَ الترتيبَ في جميعِ ذلكَ.. فهوَ مغرورٌ ، وهـٰذا غرورٌ في غايةِ الغموضِ ؛ لأنَّ المغرورَ فيهِ في طاعةٍ ، إلا أنَّهُ لا يفطنُ لصيرورةِ الطاعةِ معصيةً ، حيثُ تركَ بها طاعةً واجبةً هيَ أهمُّ منها .

---

(١) رواه الترمذي (١٨٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٥٠) .
(٢) لأن زوال الأذىٰ عن قلوبهم عسرٌ ، بخلاف إزالة النجاسة من الثوب . « إتحاف » (٨/ ٤٧٨) .

ومِنْ جملتِهِ : الاشتغالُ بالمذهبِ والخلافِ مِنَ الفقهِ في حقِّ مَنْ بقيَ عليهِ شغلٌ مِنَ الطاعاتِ والمعاصي الظاهرةِ والباطنةِ المتعلقةِ بالجوارحِ والمتعلقةِ بالقلبِ ؛ لأنَّ مقصودَ الفقهِ معرفةُ ما يحتاجُ إليهِ غيرُهُ في جوارحِهِمْ ، فمعرفةُ ما يحتاجُ هوَ إليهِ في قلبهِ أولىٰ بهِ ، إلا أنَّ حبَّ الرئاسةِ والجاهِ ، ولذةَ المباهاةِ وقهرِ الأقرانِ والتقدُّمِ عليهِمْ يعمِي عليهِ ، حتَّىٰ يغترَّ بهِ معَ نفسِهِ ، ويظنَّ أنَّهُ مشغولٌ بمهمِّ دينِهِ .

* * *

الصّنف الثالث : المتصوفة

وما أغلبَ الغرورَ عليهِمْ ! والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ كثيرةٌ :

ففرقةٌ منهُمْ ـ وهُمْ متصوفةُ أهلِ الزمانِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ ـ اغترُّوا بالزِّيِّ والمنطقِ والهيئةِ ، فساعدوا الصادقينَ مِنَ الصوفيةِ في زِيِّهِمْ وهيئتِهِمْ ، وفي ألفاظِهِمْ وفي آدابِهِمْ ، ومراسمِهِمْ واصطلاحاتِهِمْ ، وفي أحوالِهِمْ الظاهرةِ في السماعِ والرقصِ ، والطهارةِ والصلاةِ ، والجلوسِ على السجاداتِ معَ إطراقِ الرأسِ ، وإدخالِهِ في الجيبِ كالمتفكِّرِ ، وفي تنفسِ الصعداءِ ، وفي خفضِ الصوتِ في الحديثِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الشمائلِ والهيئاتِ .

فلمَّا تكلَّفوا هـٰذهِ الأمورَ ، وتشبَّهوا بهِمْ فيها . . ظنُّوا أنَّهُمْ أيضاً صوفيةٌ ، ولمْ يتعِبوا أنفسَهُمْ قطُّ في المجاهدةِ والرياضةِ ومراقبةِ القلبِ ، وتطهيرِ الباطنِ والظاهرِ مِنَ الآثامِ الخفيَّةِ والجليَّةِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ أوائلِ منازلِ التصوُّفِ ، ولوْ فرغوا مِنْ جميعِها . . لما جازَ لهُمْ أنْ يعدوا أنفسَهُمْ مِنَ الصوفيةِ .

كيفَ ولمْ يحوموا قطُّ حولَها ، ولمْ يسوموا أنفسَهُمْ شيئاً منها ؟!

بلْ يتكالبونَ على الحرامِ والشبهاتِ وأموالِ السلاطينِ ، ويتنافسونَ في الرغيفِ والفَلْسِ والحبَّةِ ، ويتحاسدونَ على النقيرِ والقطميرِ ، ويمزِّقُ بعضُهُمْ أعراضَ بعضٍ مهما خالفَهُ في شيءٍ مِنْ غرضِهِ !

وهؤلاءِ غرورُهُمْ ظاهرٌ ، ومثالُهُمْ مثالُ امرأةٍ عجوزٍ ، سمعَتْ أنَّ الشجعانَ والأبطالَ مِنَ المقاتلينَ ثبتَتْ أسماؤُهُمْ في الديوانِ ، ويُقطَعُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ قطرٌ مِنْ أقطارِ المملكةِ[1] .

فتاقَتْ نفسُها إلىٰ أنْ تُقطَعَ لها مملكةٌ ، فلبسَتْ درعاً ، ووضعَتْ علىٰ رأسِها مِغْفراً ، وتعلَّمَتْ مِنْ رَجْزِ الأبطالِ أبياتاً ، وتعوَّدَتْ إيرادَ تلكَ الأبياتِ بنغماتِهِمْ حتَّىٰ تيسَّرَتْ عليها ، وتعلَّمَتْ كيفيةَ تبخترِهِمْ في الميدانِ ، وكيفَ تحريكُهُمْ الأيديَ ، وتلقَّفَتْ جميعَ شمائِلِهِمْ في الزِّيِّ والمنطقِ والحركاتِ والسكناتِ .

ثمَّ توجَّهَتْ إلى المعسكرِ ليثبتَ اسمُها في ديوانِ الشجعانِ ، فلمَّا وصلَتْ إلى المعسكرِ . . أُنفذَتْ إلىٰ ديوانِ العرضِ ، وأُمرَ بأنْ تُجرَّدَ عنِ المغفرِ والدرعِ ويُنظرَ ما تحتَهُ ، وتُمتحنَ بالمبارزةِ معَ بعضِ الشجعانِ ؛ ليُعرفَ قدْرُ عنائِها في الشجاعةِ ، فلمَّا جُرِّدَتْ عنِ المِغْفَرِ والدرعِ . . فإذا هيَ عجوزةٌ ضعيفةٌ زمنةٌ ، لا تطيقُ حملَ الدرعِ والمِغْفَرِ .

فقيلَ لها : أجئتِ للاستهزاءِ بالملكِ وللاستخفافِ بأهلِ حضرتِهِ والتلبيسِ عليهِمْ ؟! خذوها فألقوها قدَّامَ الفيلِ ليثخنَها[2] ، فأُلقيَتْ إلى الفيلِ .

---

(١) أي : يكتب له إقطاعات في البلاد تحت شجاعته . « إتحاف » (٨/ ٤٧٩) .
(٢) أي : يهلكها وطئاً بأقدامه . « إتحاف » (٨/ ٤٧٩) .

وهكذا يكونُ حالُ المدَّعينَ للتصوُّفِ في القيامةِ إذا كُشِفَ عنهُمُ الغطاءُ ، وعُرضوا على القاضي الأكبرِ الذي لا ينظرُ إلى الزِّيِّ والمرقَّعِ ، بلْ إلىٰ سرِّ القلبِ .

وفرقةٌ أخرىٰ : زادَتْ علىٰ هؤلاءِ في الغرورِ ، إذْ شقَّ عليها الاقتداءُ بهِمْ في بذاذةِ الثيابِ والرضا بالدونِ ، وأرادَتْ أنْ تتظاهرَ بالتصوُّفِ ولمْ تجدْ بُدّاً مِنَ التزيُّنِ بزِيِّهِمْ ، فتركوا الخزَّ والإبريسمَ وطلبوا المرقَّعاتِ النفيسةَ والفوطَ الرفيعةَ والسجاداتِ المصبوغةَ ، ولبسوا مِنَ الثيابِ ما هوَ أرفعُ قيمةً مِنَ الخزِّ والإبريسمِ .

وظنَّ أحدُهُمْ معَ ذلكَ أنَّهُ متصوِّفٌ بمجرَّدِ لونِ الثوبِ وكونِهِ مرقَّعاً ، ونسيَ أنَّهُمْ إنَّما لوَّنوا الثيابَ لئلا يطولَ عليهِمْ غسلُها كلَّ ساعةٍ ؛ لإزالةِ الوسخِ ، وإنَّما لبسوا المرقَّعاتِ إذْ كانَتْ ثيابُهُمْ مخرَّقةً ، فكانوا يرقِّعونَها ولا يلبسونَ الجديدَ ، فأمَّا تقطيعُ الفوطِ الرفيعةِ قطعةً قطعةً وخياطةُ المرقعاتِ منها . . فمنْ أينَ يشبهُ ما اعتادَهُ أولئكَ ؟!

فهؤلاءِ أظهرُ حماقةً مِنْ كافَّةِ المغرورينَ ؛ فإنَّهُمْ يتنعَّمونَ بنفيسِ الثيابِ ولذيذِ الأطعمةِ ، ويطلبونَ رغدَ العيشِ ، ويأكلونَ أموالَ السلاطينِ ، ولا يجتنبونَ المعاصيَ الظاهرةَ فضلاً عنِ الباطنةِ ، وهمْ معَ ذلكَ يظنُّونَ بأنفسِهِمُ الخيرَ ، وشرُّ هؤلاءِ ممّا يتعدّىٰ إلى الخلقِ ، إذْ يهلكُ مَنْ يقتدي بهِمْ ، ومَنْ لا يقتدي بهِمْ تفسدُ عقيدتُهُ في أهلِ التصوُّفِ كافَّةً ، ويظنُّ أنَّ

جميعَهُمْ كانوا مِنْ جنسِهِ ، فيطوِّلُ اللسانَ في الصادقينَ منهُمْ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ شؤمِ المتشبهينَ وشرِّهِمْ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ ادَّعتْ علمَ المعرفةِ ، ومشاهدةَ الحقِّ ، ومجاوزةَ المقاماتِ والأحوالِ ، والملازمةَ في عينِ الشهودِ ، والوصولَ إلى القربِ ، ولا يعرفُ هٰذهِ الأمورَ إلا بالأسامي والألفاظِ ، إلاَّ أنَّهُ تلقَّفَ مِنْ ألفاظِ الطَّامَّاتِ كلماتٍ فهوَ يردِّدُها ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ أعلىٰ مِنْ علمِ الأوَّلينَ والآخرينَ ، فهوَ ينظرُ إلى الفقهاءِ والمفسِّرينَ والمحدِّثينَ وأصنافِ العلماءِ بعينِ الإزراءِ فضلاً عنِ العوامِّ ، حتَّىٰ إنَّ الفلاحَ ليتركُ فلاحتَهُ ، والحائكَ يتركُ حياكتَهُ ويلازمُهُمْ أياماً معدودةً ، ويتلقَّفُ منهُمْ تلكَ الكلماتِ المزيَّفةَ ، فيردِّدُها كأنَّهُ يتكلَّمُ عنِ الوحيِ ، ويخبرُ عنْ سرِّ الإسرارِ ، ويستحقرُ بذلكَ جميعَ العبَّادِ والعلماءِ .

فيقولُ في العبَّادِ : إنَّهُمْ أجراءُ متعبونَ .

ويقولُ في العلماءِ : إنَّهُمْ بالحديثِ عنِ اللهِ محجوبونَ .

ويدَّعي لنفسِهِ أنَّهُ الواصلُ إلى الحقِّ ، وأنَّهُ مِنَ المقرَّبينَ ، وهوَ عندَ اللهِ مِنَ الفجَّارِ المنافقينَ ، وعندَ أربابِ القلوبِ مِنَ الحمقى الجاهلينَ ، لمْ يُحْكِمْ قطُّ عِلماً ، ولمْ يهذِّبْ خُلُقاً ، ولمْ يرتِّبْ عملاً ، ولمْ يراقبْ قلباً ، سوى اتباعِ الهوىٰ ، وتلقُّفِ الهذيانِ وحفظِهِ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ وقعَتْ في الإباحةِ ، فطوَوا بساطَ الشرعِ ، ورفضوا الأحكامَ ، وسوَّوا بينَ الحلالِ والحرامِ .

فبعضُهُمْ يزعمُ أنَّ اللهَ مستغنٍ عنْ عملي ، فلِمَ أُتعِبُ نفسي ؟

وبعضُهُمْ يقولُ : قدْ كُلِّفَ الناسُ تطهيرَ القلبِ عنِ الشهواتِ وعنْ حبِّ الدنيا ، وذلكَ محالٌ ؛ فقدْ كُلِّفوا ما لا يمكنُ ، وإنَّما يغترُّ بهِ مَنْ لمْ يجرِّبْ ، وأمَّا نحنُ . . فقدْ جرَّبنا وأدركنا أنَّ ذلكَ محالٌ ، ولا يعلمُ الأحمقُ أنَّ الناسَ لمْ يُكلَّفوا قلعَ الشهوةِ والغضبِ مِنْ أصلِهِما ، بلْ إنَّما كُلِّفوا قلعَ مادَّتِهِما ، بحيثُ ينقادُ كلُّ واحدٍ منهُما لحكمِ العقلِ والشرعِ .

وبعضُهُمْ يقولُ : الأعمالُ بالجوارحِ لا وزنَ لها ، وإنَّما النظرُ إلى القلوبِ ، وقلوبُنا والهةٌ بحبِّ اللهِ ، وواصلةٌ إلىٰ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنَّما نخوضُ في الدنيا بأبدانِنا وقلوبُنا عاكفةٌ في الحضرةِ الربوبيَّةِ ، فنحنُ معَ الشهواتِ بالظواهرِ لا بالقلوبِ .

ويزعمونَ أنَّهُمْ قدْ ترقَّوا عَنْ رتبةِ العوامِّ ، واستغنَوا عن تهذيبِ النفسِ بالأعمالِ البدنيَّةِ ، وأنَّ الشهواتِ لا تصدُّهُمْ عنْ طريقِ اللهِ تعالىٰ لقوتِهِمْ فيها .

ويرفعونَ درجةَ أنفسِهِمْ عنْ درجةِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ؛ إذْ كانَتْ تصدُّهُمْ عنْ طريقِ اللهِ خطيئةٌ واحدةٌ ، حتَّىٰ كانوا يبكونَ عليها ، وينوحونَ سنينَ متواليةً .

وأصنافُ غرورِ أهلِ الإباحةِ مِنَ المتشبِّهينَ بالصوفيةِ لا تُحصىٰ ، وكلُّ ذلكَ بناءً علىٰ أغاليطَ ووساوسَ خدعَهُمُ الشيطانُ بها ؛ لاشتغالِهِمْ بالمجاهدةِ قبلَ إحكامِ العلمِ ، ومِنْ غيرِ اقتداءٍ بشيخٍ متقنٍ في الدينِ والعلمِ ، صالحٍ للاقتداءِ بهِ ، وإحصاءُ أصنافِهِمْ يطولُ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزَتْ حدَّ هؤلاءِ ، وأحسنَتِ الأعمالَ[1] ، وطلبتِ الحلالَ ، واشتغلَتْ بتفقُّدِ القلبِ ، وصارَتْ تدَّعي المقاماتِ مِنَ الزهدِ والتوكُّلِ والرضا والحبِّ مِنْ غيرِ وقوفٍ علىٰ حقيقةِ هٰذهِ المقاماتِ ، وشروطِها وعلاماتِها وآفاتِها .

فمنهُمْ مَنْ يدَّعي الوجدَ والحبَّ للهِ تعالىٰ ، ويزعمُ أنَّهُ والهٌ باللهِ ، ولعلَّهُ قدْ تخيَّلَ في اللهِ خيالاتٍ هيَ بدعةٌ أوْ كفرٌ ، فيدَّعي حبَّ اللهِ قبلَ معرفتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ لا يخلو مِنْ مقارفةِ ما يكرهُ اللهُ تعالىٰ ، وعنْ إيثارِ هوىٰ نفسِهِ علىٰ أمرِ اللهِ ، وعنْ تركِ بعضِ الأمورِ حياءً مِنَ الخلقِ ، ولوْ خلا . . لما تركَهُ حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ يدري أنَّ كلَّ ذلكَ يناقضُ الحبَّ .

وبعضُهُمْ ربَّما يميلُ إلى القناعةِ والتوكُّلِ ، فيخوضُ البواديَ مِنْ غيرِ زادٍ ؛ ليصحِّحَ دعوى التوكُّلِ ، وليسَ يدري أنَّ ذلكَ بدعةٌ لمْ تُنقلْ عنِ السلفِ والصحابةِ ، وقدْ كانوا أعرفَ بالتوكُّلِ منهُ ، فما فهموا أنَّ التوكُّلَ

---

(١) في (ق) : (واجتنبت الأعمال) بدل (وأحسنت الأعمال) .

المخاطرةُ بالروحِ وتركِ الزادِ ، بلْ كانوا يأخذونَ الزادَ وهمْ متوكِّلونَ على اللهِ تعالىٰ لا على الزادِ ، وهـٰذا ربَّما يتركُ الزادَ وهوَ متوكِّلٌ علىٰ سببٍ مِنَ الأسبابِ واثقٌ بهِ .

وما مِنْ مقامٍ مِنَ المقاماتِ المنجياتِ إلا وفيهِ غرورٌ وقدِ اغترَّ بهِ قومٌ ، وقدْ ذكرنا مداخلَ الآفاتِ في ربعِ المنجياتِ مِنَ الكتابِ ؛ فلا يمكنُ إعادتُها .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ ضيَّقَتْ علىٰ نفسِها في أمرِ القوتِ ، حتَّىٰ طلبَتْ منهُ الحلالَ الخالصَ وأهملَتْ تفقُّدَ القلبِ والجوارحِ في غيرِ هـٰذهِ الخصلةِ الواحدةِ .

ومنهُمْ مَنْ أهملَ الحلالَ في مطعمِهِ وملبسِهِ ومسكنِهِ وأخذَ يتعمَّقُ في غيرِ ذلكَ ، وليسَ يدري المسكينُ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يرضَ مِنْ عبدِهِ بطلبِ الحلالِ فقطْ ، ولا يرضىٰ بسائرِ الأعمالِ دونَ طلب الحلالِ ، بلْ لا يرضيهِ إلا تفقُّدُ جميعِ الطاعاتِ والمعاصي ، فمَنْ ظنَّ أنَّ بعضَ هـٰذهِ الأمورِ يكفيهِ وينجيهِ . . فهوَ مغرورٌ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمْ ادعَوا حُسنَ الخُلقِ والتواضعَ والسماحةَ ، فتصدَّوا لخدمةِ الصوفيَّةِ ، فجمعوا قوماً وتكلَّفوا بخدمتِهِمْ ، واتخذوا ذلكَ شبكةً للرئاسةِ وجمعِ المالِ ، وإنَّما غرضُهُمُ التكبُّرُ وهُمْ يظهرونَ الخدمةَ والتواضعَ ،

وغرضُهُمُ الارتفاقُ وهمْ يظهرونَ أنَّ غرضَهُمُ الإرفاقُ ، وغرضُهُمُ الاستتباعُ وهمْ يظهرونَ أنَّ غرضَهُمُ الخدمةُ والتبعيَّةُ .

ثم إنَّهُمْ يجمعونَ مِنَ الحرامِ والشبهاتِ وينفقونَ عليهِمْ لتكثرَ أتباعُهُمْ ، وينتشرَ بالخدمةِ اسمُهُمْ .

وبعضُهُمْ يأخذُ أموالَ السلاطينِ وينفقُ عليهِمْ .

وبعضُهُمْ يأخذُها لينفقَ في طريقِ الحجِّ على الصوفيَّةِ ويزعمُ أنَّ غرضَهُ البرُّ والإرفاقُ ، وباعثُ جميعِهِمُ الرياءُ والسمعةُ ، وآيةُ ذلكَ إهمالُهُمْ لجميعِ أوامرِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ ظاهراً وباطناً ، ورضاهُمْ بأخذِ الحرامِ والإنفاقِ منهُ .

ومثالُ مَنْ ينفقُ الحرامَ في طريقِ الحجِّ لإرادةِ الخيرِ كمَنْ يعمُرُ مساجدَ اللهِ فيطيِّنُها بالعذِرَةِ ، ويزعمُ أنَّ قصدَهُ العمارةُ !

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ منهُمُ اشتغلوا بالمجاهدةِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وتطهيرِ النفسِ مِنْ عيوبِها ، وصاروا يتعمَّقونَ فيها ، فاتخذوا البحثَ عنْ عيوبِ النفسِ ومعرفةِ خدعِها علماً وحرفةً ؛ فهمْ في جميعِ أحوالِهِمْ مشغولونَ بالفحصِ عنْ عيوبِ النفسِ ، وباستنباطِ دقيقِ الكلامِ في آفاتِها ، فيقولونَ : هـٰذا في النفسِ عيبٌ ، والغفلةُ عنْ كونِهِ عيباً عيبٌ ، والالتفاتُ إلىٰ كونِهِ عيباً عيبٌ ، ويشغفونَ فيهِ بكلماتٍ مسلسلةٍ تضيعُ الأوقاتُ في تلفيقِها ، ومَنْ جعلَ طولَ عمرِهِ في التفتيشِ عنِ العيوبِ وتحريرِ علمِ علاجِها . كانَ كمَنِ اشتغلَ بالتفتيشِ عنْ عوائقِ الحجِّ وآفاتِهِ ولمْ يسلكْ طريقَ الحجِّ ، فذلكَ لا يغنيهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزوا هـٰذهِ الرتبةَ ، وابتدؤوا سلوكَ الطريقِ ، وانفتحَ لهُمْ أبوابُ المعرفةِ ، فكلَّما تشمَّموا مِنَ مبادي المعرفةِ رائحةً . . تعجَّبوا منها ، وفرحوا بها ، وأعجبتهُمْ غرائبُها ، فتقيَّدَتْ قلوبُهُمْ بالالتفاتِ إليها والتفكُّرِ فيها ، وفي كيفيةِ انفتاحِ بابِها عليهِمْ ، وانسدادِها علىٰ غيرِهِمْ .

وكلُّ ذلكَ غرورٌ ؛ لأنَّ عجائبَ طريقِ اللهِ ليسَ لها نهايةٌ ، فلوْ وقفَ السالكُ معَ كلِّ أعجوبةٍ وتقيَّدَ بها . . قصرَتْ خُطاهُ ، وحُرِمَ الوصولَ إلى المقصدِ ، وكانَ مثالُهُ مثالَ مَنْ قصدَ ملكاً ، فرأىٰ علىٰ بابِ ميدانِهِ روضةً فيها أزهارٌ وأنوارٌ لمْ يكنْ قدْ رأىٰ قبلَ ذلكَ مثلَها ، فوقفَ ينظرُ إليها ويتعجَّبُ حتَّىٰ فاتَهُ الوقتُ الذي يمكنُ فيهِ لقاءُ الملكِ .

❊ ❊ ❊

وفرقةٌ أخرىٰ جاوزوا هؤلاءِ ، ولم يلتفتوا إلىٰ ما يفيضُ عليهِمْ مِنَ الأنوارِ في الطريقِ ، ولا إلىٰ ما تيسَّرَ لهُمْ مِنَ العطايا الجزيلةِ ، ولمْ يعرِّجوا على الفرحِ بها والالتفاتِ إليها ، جادِّينَ في السيرِ حتَّىٰ قاربوا ، فوصلوا إلىٰ حدِّ القربةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، فظنُّوا أنَّهُمْ قدْ وصلوا إلى اللهِ ، فوقفوا وغلطوا ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، ولا يصلُ السالكُ إلىٰ حجابٍ مِنْ تلكَ الحجبِ في الطريقِ إلا ويظنُّ أنَّهُ قدْ وصلَ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ إخباراً عنهُ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، وليسَ المعنيُّ بهِ هـٰذهِ الأجسامَ المضيئةَ ، فإنَّهُ كانَ يراها في الصِّغرِ ويعلمُ أنَّها ليسَتْ آلهةً ، وهيَ كثيرةٌ وليسَتْ

واحدةً ، والجهَّالُ يعلمونَ أنَّ الكوكبَ ليسَ بإلـٰهٍ .

فمثلُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لا يغرُّهُ الكوكبُ الذي لا يغرُّ السواديَّةَ ، ولكنَّ المرادَ بهِ أنَّهُ نورٌ مِنَ الأنوارِ التي هيَ مِنْ حُجُبِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ علىٰ طريقِ السالكينَ ، ولا يُتصوَّرُ الوصولُ إلى اللهِ تعالىٰ إلاَّ بالوصولِ إلىٰ هـٰذهِ الحجبِ ، وهيَ حجبٌ مِنَ النورِ ، بعضُها أعظمُ مِنْ بعضٍ ، وأصغرُ النَّيِّراتِ الكوكبُ ، فاستُعيرَ لهُ لفظُهُ ، وأعظمُها الشمسُ ، وبينَهُما رتبةُ القمرِ .

فلمْ يزلْ إبراهيمُ عليهِ السلامُ لمَّا أُريَ ملكوتَ السماواتِ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ يصلُ إلىٰ نورٍ بعدَ نورٍ ، ويُتخيَّلُ إليهِ في أوَّلِ ما كانَ يلقاهُ أنَّهُ قدْ وصلَ ، ثمَّ كانَ يُكشَفُ لهُ أنَّ وراءَهُ أمراً ، فيترقَّىٰ إليهِ ويقولُ : قدْ وصلتُ ، فيُكشفُ لهُ ما وراءَهُ ، حتَّىٰ وصلَ إلى الحجابِ الأقربِ الذي لا وصولَ إلا بعدَهُ ، فقالَ : هـٰذا أكبرُ ، فلمَّا ظهرَ لهُ أنَّهُ معَ عِظَمِهِ غيرُ خالٍ عنِ الهُويِّ في حضيضِ النقصِ والانحطاطِ عنْ ذروةِ الكمالِ . . قالَ : لا أحبُّ الآفلينَ ؛ إنِّي وجَّهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ(١) .

وسالكُ هـٰذهِ الطريقِ قدْ يغترُّ في الوقوفِ علىٰ بعضِ هـٰذهِ الحجبِ ، وقدْ يغترُّ بالحجابِ الأوَّلِ ، وأوَّلُ الحجبِ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ هوَ نفسُهُ ؛ فإنَّهُ أيضاً أمرٌ ربَّانيٌّ ، وهوَ نورٌ مِنْ أنوارِ اللهِ تعالىٰ ؛ أعني : سرَّ القلبِ الذي

---

(١) مشكاة الأنوار (ص٥٥) .

تتجلَّىٰ فيهِ حقيقةُ الحقِّ كلِّهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليتسعُ لجملةِ العالمِ ويحيطُ بهِ ، ويتجلىٰ فيه صورةُ الكلِّ .

وعندَ ذلكَ يشرقُ نورُهُ إشراقاً عظيماً ؛ إذ يظهرُ فيهِ الوجودُ كلُّهُ علىٰ ما هوَ عليهِ ، وهوَ في أوَّلِ الأمرِ محجوبٌ بمشكاةٍ هيَ كالساترِ لهُ ، فإذا تجلَّىٰ نورُهُ ، وانكشفَ جمالُ القلبِ بعدَ إشراقِ نورِ اللهِ عليهِ.. ربَّما التفتَ صاحبُ القلبِ إلى القلبِ ، فيرىٰ مِنْ جمالِهِ الفائقِ ما يدهشُهُ ، فربَّما يسبقُ لسانُهُ في هـٰذهِ الدهشةِ فيقولُ : أنا الحقُّ ، فإنْ لمْ يتضحْ لهُ ما وراءَ ذلكَ.. اغترَّ بهِ ، ووقفَ عليهِ وهلكَ ، وكانَ قدِ اغترَّ بكوكبٍ صغيرٍ مِنْ أنوارِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، ولمْ يصلْ بعدُ إلى القمرِ فضلاً عنِ الشمسِ ؛ فهوَ مغرورٌ .

وهـٰذا محلُّ الالتباسِ ؛ إذِ المتجلِّي يلتبسُ بالمتجلَّىٰ فيهِ كما يلتبسُ لونُ ما يتراءىٰ في المرآةِ بالمرآةِ ، فيظنُّ أنَّهُ لونُ المرآةِ ، وكما يلتبسُ ما في الزجاجِ بالزجاجِ ؛ كما قيلَ[1] : [من الكامل]

رَقَّ ٱلزُّجَاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ ٱلأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلا قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلا خَمْرُ

وبهـٰذهِ العينِ نظرَ النصارىٰ إلى المسيحِ عليهِ السلامُ ، فرأَوا إشراقَ نورِ اللهِ قدْ تلألأَ فيهِ ، فغلطوا فيهِ ؛ كمَنْ يرىٰ كوكباً في مرآةٍ أوْ في ماءٍ فيظنُّ

(١) البيتان للصاحب بن عباد في « ديوانه » (ص ١٧٦) .

أنَّ الكوكبَ في المرآةِ أوْ في الماءِ ، فيمدُّ يدَهُ إليهِ ليأخذَهُ وهوَ مغرورٌ .

وأنواعُ الغرورِ في طريقِ السلوكِ إلى اللهِ تعالىٰ لا تُحصىٰ في مجلداتٍ ، ولا تُستقصىٰ إلا بعدَ شرحِ جميعِ علومِ المكاشفةِ ، وذلكَ ممّا لا رخصةَ في ذكرِهِ .

ولعلَّ القدرَ الذي ذكرناهُ أيضاً كانَ الأولىٰ بنا تركَهُ ؛ إذِ السالكُ لهٰذا الطريقِ لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يسمعَهُ مِنْ غيرِهِ ، والذي لَمْ يسلكْهُ لا ينتفعُ بسماعِهِ ، بلْ ربَّما يستضرُّ بهِ ؛ إذْ يورثُهُ ذلكَ دهشةً مِنْ حيثُ يسمعُ ما لا يفهمُ .

ولكنْ فيهِ فائدةٌ ؛ وهوَ إخراجُهُ مِنَ الغرورِ الذي هوَ فيهِ ؛ إذْ ربَّما يصدِّقُ بأنَّ الأمرَ أعظمُ ممَّا يظنُّهُ ، وممَّا يتخيَّلُهُ بذهنِهِ المختصرِ وخيالِهِ القاصرِ وجدلِهِ المزخرفِ ، ويصدِّقُ أيضاً بما يُحكىٰ مِنَ المكاشفاتِ التي أخبرَ عنها أولياءُ اللهِ ، ومِنْ عِظَمِ غرورِهِ ربَّما أصرَّ مكذِّباً بما يسمعُهُ الآنَ كما يكذِّبُ بما سمعَهُ مِنْ قبلُ !

* * *

الصّنف الرّابع : أرباب الأموال

والمغترُّونَ منهُمْ فرقٌ :

ففرقةٌ منهُمْ يحرصونَ علىٰ بناءِ المساجدِ والمدارسِ والرباطاتِ والقناطرِ وما يظهرُ للناسِ كافَّةً ، ويكتبونَ أساميَهُمْ عليها بالآجرِّ[1] ؛ ليتخلَّدَ ذكرُهُمْ ، ويبقىٰ بعدَ الموتِ أثرُهُمْ ، وهمْ يظنُّونَ أنَّهُمْ قدِ استحقُّوا المغفرةَ بذلكَ .

وقدِ اغترُّوا فيهِ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُمْ يبنونَها مِنْ أموالٍ اكتسبوها مِنَ الظلمِ والنهبِ والرِّشا والجهاتِ المحظورةِ ، فهمْ قدْ تعرَّضوا لسخطِ اللهِ في كسبِها ، وتعرَّضوا لسخطِهِ في إنفاقِها ، وكانَ الواجبُ عليهِمُ الامتناعَ عنْ كسبِها .

فإذا قدْ عصَوُا اللهَ بكسبِها . . كانَ الواجبُ عليهِمُ التوبةَ والرجوعَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وردَّها إلىٰ مُلاَّكِها ؛ إمَّا بأعيانِها أوْ بردِّ بدلِها عندَ العجزِ .

فإنْ عجزوا عنِ المُلاَّكِ . . كانَ الواجبُ ردَّها إلى الورثةِ ، فإنْ لمْ يبقَ للمظلومِ وارثٌ . . فالواجبُ صرفُها إلىٰ أهمِّ المصالحِ .

---

(١) وتارة على الرخام حفراً ، مع ذكر تاريخ عمارتها ، وتارة يكتبون ما صرف عليها من الأموال . « إتحاف » (٨/ ٤٨٥) .

وربَّما يكونُ الأهمُّ التفرقةَ على المساكينِ ، وهمْ لا يفعلونَ ذلكَ ؛ خيفةً مِنْ ألا يظهرَ ذلكَ للناسِ ، فيبنونَ الأبنيةَ بالآجرِّ وغرضُهُمْ مِنْ بنائِها الرياءُ وجلبُ الثناءِ ، وحرصُهُمْ علىٰ بقائِها لبقاءِ أسمائِهمُ المكتوبةِ فيها ، لا لبقاءِ الخيرِ .

والوجهُ الثاني : أنَّهُمْ يظنُّونَ بأنفسِهمُ الإخلاصَ وقصدَ الخيرِ في الإنفاقِ على الأبنيةِ ولوْ كُلِّفَ واحدٌ منهُمْ أنْ ينفقَ ديناراً ولا يُكتبَ اسمُهُ على الموضعِ الذي أنفقَ عليهِ . . لشقَّ ذلكَ عليهِ ولمْ تسمحْ بهِ نفسُهُ .

واللهُ مُطلعٌ عليهِ ، كتبَ اسمَهُ أوْ لمْ يكتبْ ، فلولا أنَّهُ يريدُ بهِ وجهَ الناسِ لا وجهَ اللهِ . . لما افتقرَ إلىٰ ذلكَ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ ربَّما اكتسبَتِ المالَ مِنَ الحلالِ ، وأنفقَتْ على المساجدِ ، وهيَ أيضاً مغرورةٌ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : الرياءُ وطلبُ الثناءِ ؛ فإنَّهُ ربَّما يكونُ في جوارِهِ أوْ في بلدِهِ فقراءُ وصرفُ المالِ إليهِمْ أهمُّ وأفضلُ وأولىٰ مِنَ الصرفِ إلى بناءِ المساجدِ وزينتِها ، وإنَّما يخفُّ عليهِمُ الصرفُ إلى المساجدِ ليَظهرَ ذلكَ بينَ الناسِ .

والثاني : أنَّهُ يُصرفُ إلىٰ زخرفةِ المسجدِ وتزيينِهِ بالنقوشِ التي هيَ منهيٌّ عنها(1) ، وشاغلةٌ قلوبَ المصلينَ ، ومختطفةٌ أبصارَهُمْ ، والمقصودُ مِنَ

---

(1) فقد روى البخاري معلقاً (كتاب الصلاة/ باب بنيان المسجد) ، قبل (٤٤٦) : (وأمر =

الصلاةِ الخشوعُ وحضورُ القلبِ ، وذلكَ يفسدُ قلوبَ المصلينَ ، ويحبطُ ثوابَهُمْ بذلكَ .

ووبالُ ذلكَ كلِّهِ يرجعُ إليهِ ، وهوَ معَ ذلكَ يغترُّ بهِ ، ويرىٰ أنَّهُ مِنَ الخيراتِ ويعدُّ ذلكَ وسيلةً إلى اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بذلكَ قدْ تعرَّضَ لسخطِ اللهِ تعالىٰ وهوَ يظنُّ أنَّهُ مطيعٌ للهِ تعالىٰ وممتثلٌ لأمرِهِ ، وقدْ شوشَ قلوبَ عبادِ اللهِ بما زخرفَهَ مِنَ المسجدِ .

وربَّما شوَّقَهُمْ بهِ إلىٰ زخارفِ الدنيا ، فيشتهونَ مثلَ ذلكَ في بيوتِهِمْ ، ويشتغلونَ بطلبِهِ ، ووبالُ ذلكَ كلِّهِ في رقبتِهِ ؛ إذِ المسجدُ للتواضعِ ولحضورِ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ .

قالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أتىٰ رجلانِ مسجداً ، فدخلَ أحدُهُما ، ووقفَ الآخرُ على البابِ .

فقالَ لهُ صاحبُهُ : ألا تدخلُ ؟

قالَ : مثلي يدخلُ بيتَ اللهِ وقدْ عصيتُهُ !! فكُتِبَ على المكانِ عندَ اللهِ صديقاً(١) .

= عمر ببناء المسجد وقال : (أكِنَّ الناسَ ، وإياكَ أن تحمِّر أو تصفِّر فتفتن الناس) ، قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١/ ٥٣٩) : (هو طرف من قصة في ذكر تجديد المسجد النبوي) ، وروى ابن ماجه (٧٤١) من حديث الفاروق رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٨) .

فهكذا ينبغي أنْ تعظَّمَ المساجدُ ، وهوَ أنْ يرىٰ تلويثَ المسجدِ بنفسهِ جنايةً على المسجدِ ، لا أنْ يرىٰ تلويثَ المسجدِ بالحرامِ أو بزخرفِ الدنيا منَّةً على اللهِ تعالىٰ .

وقال الحواريونَ للمسيحِ عليهِ السلامُ :

انظرْ إلىٰ هـٰذا المسجدِ ما أحسنَهُ !

فقالَ : أمَّتي أمَّتي ؛ بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا يتركُ اللهُ مِنْ هـٰذا المسجدِ حجراً قائماً علىٰ حجرٍ إلا أهلكَهُ بذنوبِ أهلِهِ .

إنَّ اللهَ لا يعبأُ بالذهبِ والفضةِ ، ولا بهـٰذهِ الحجارةِ التي تعجبُكُمْ شيئاً ، وإنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى القلوبُ الصالحةُ ، بها يعمرُ اللهُ الأرضَ ، وبها يخربُ إذا كانَتْ علىٰ غيرِ ذلكَ(١) .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا زخرفتُمْ مساجدَكُمْ وحلَّيتُمْ مصاحفَكُمْ . . فالدَّمارُ عليكُمْ »(٢) .

وقالَ الحسنُ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا أرادَ أن يبنيَ مسجدَ المدينةِ . . أتاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ لهُ : ابنِهِ سبعةَ أذرعٍ طولاً في

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٤٨٨) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٧) ، وابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٧٥) ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً عليه ، ورفعه من حديثه الحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣٣٤) .

السماءِ ولا تزخرفُهُ ولا تنقشْهُ(١) .

فغرورُ هـٰذا مِنْ حيثُ إنَّهُ رأى المنكرَ معروفاً واتَّكلَ عليهِ .

❁ ❁ ❁

وفرقةٌ أخرىٰ ينفقونَ الأموالَ في الصدقاتِ على الفقراءِ والمساكينِ ، ويطلبونَ بهِ المحافلَ الجامعةَ ، ومِنَ الفقراءِ مَنْ عادتُهُ الشكرُ والإفشاءُ للمعروفِ ، ويكرهونَ التصدُّقَ في السِّرِّ ، ويرونَ إخفاءَ الفقيرِ لما يأخذُهُ منهُمْ جنايةً عليهِمْ وكفراناً .

وربَّما يحرصونَ علىٰ إنفاقِ المالِ في الحجِّ ، فيحجُّونَ مرّةً بعدَ أخرىٰ ، وربَّما تركوا جيرانَهُمْ جياعاً .

ولذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ : (في آخرِ الزمانِ يكثرُ الحاجُّ بلا سببٍ ؛ يهونُ عليهِمُ السفرُ ، ويُبسطُ لهُمْ في الرزقِ ، ويرجعونَ محرومينَ مسلوبينَ ، يهوي بأحدِهِمْ بعيرُهُ بينَ القفارِ والرمالِ وجارُهُ مأسورٌ إلىٰ جنبِهِ لا يواسيهِ) .

ورویٰ أبو نصرٍ التمَّارُ : أنَّ رجلاً جاءَ يودِّعُ بشرَ بنَ الحارثِ وقالَ :

قدْ عزمتُ على الحجِّ ، فتأمرُني بشيءٍ ؟

فقالَ لهُ : كمْ أعددتَ للنفقةِ ؟

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا ، وفي « قصر الأمل » [٢٨٦] لابن أبي الدنيا : « ابنوه كعريش موسىٰ » ، وليس فيه مجيء جبريل) .

فقالَ ألفي درهمٍ ، فقالَ بشرٌ :

فأيُّ شيءٍ تبتغي بحجِّكَ تزهُّداً أوِ اشتياقاً إلى البيتِ ، أوِ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ؟

قالَ : ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، قالَ : فإنْ أصبتَ مرضاةَ اللهِ تعالىٰ وأنتَ في منزلِكَ ، وتنفقُ ألفي درهمٍ ، وتكونُ علىٰ يقينٍ مِنْ مرضاةِ اللهِ تعالىٰ ، أتفعلُ ذلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ :

اذهبْ فأعطها عشرةَ أنفسٍ ؛ مديونٌ يقضي دينَهُ ، وفقيرٌ يَرُمُّ شعثَهُ ، ومعيلٌ يحيي عيالَهُ ، ومربِّي يتيمٍ يفرحُهُ ، وإنْ قويَ قلبُكَ أنْ تعطيَها واحداً . . فافعلْ ؛ فإنَّ إدخالَكَ السرورَ علىٰ قلبِ المسلمِ وإغاثةَ اللهفانِ وكشفَ الضُّرِّ ، وإعانةَ الضعيفِ . . أفضلُ مِنْ مئةِ حجةٍ بعدَ حجةِ الإسلامِ ، قمْ فأخرجْها كما أمرناكَ ، وإلا . . فقلْ لنا ما في قلبِكَ ، فقالَ :

يا أبا نصرٍ[1] ؛ سفري أقوىٰ في قلبي ، فتبسَّمَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ وأقبلَ عليهِ فقالَ لهُ :

المالُ إذا جُمعَ مِنْ وسخِ التجاراتِ والشبهاتِ . . اقتضتِ النفسُ أنْ تقضيَ بهِ وطراً ، فأظهرَتِ الأعمالَ الصالحاتِ ، وقدْ آلى اللهُ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ ألاَّ يقبلَ إلا عملَ المتقينَ[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) هي كنية بشر . « إتحاف » (٨/ ٤٨٧) ، وليس الخطاب لأبي نصر التمار .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩٢) .

وفرقةٌ أخرىٰ مِنْ أربابِ الأموالِ يحفظونَ الأموالَ ويمسكونَها بحكمِ البخلِ ، ثمَّ يشتغلونَ بالعباداتِ البدنيَّةِ التي لا يُحتاجُ فيها إلىٰ نفقةٍ ؛ كصيامِ النهارِ ، وقيامِ الليلِ ، وختمِ القرآنِ .

وهمْ مغرورونَ ؛ لأنَّ البخلَ المهلكَ قدِ استولىٰ علىٰ بواطنِهِمْ ، فهوَ يحتاجُ إلىٰ قمعِهِ بإخراجِ المالِ ، فقدِ اشتغلَ بطلبِ فضائلَ هوَ مستغنٍ عنها .

ومثالُهُ مثالُ مَنْ دخلَ في ثوبِهِ حيَّةٌ وقدْ أشرفَ على الهلاكِ ، وهوَ مشغولٌ بطبخِ السَّكنجبينِ ليسكِّنَ بهِ الصفراءَ ، ومَنْ قتلَتْهُ الحيةُ متىٰ يحتاجُ إلى السكنجبينِ ؟!

ولذلكَ قيلَ لبشرٍ : إنَّ فلاناً الغنيَّ كثيرُ الصومِ والصلاةِ .

فقالَ : المسكينُ تركَ حالَهُ ودخلَ في حالِ غيرِهِ .

إنَّما حالُ هـٰذا إطعامُ الطعامِ للجياعِ ، والإنفاقُ على المساكينِ ، فهـٰذا أفضلُ لهُ مِنْ تجويعِهِ نفسَهُ ، ومِنْ صلاتِهِ لنفسِهِ معَ جمعِهِ للدنيا ومنعِهِ للفقراءِ[1] .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ غلبَهُمُ البخلُ ، فلا تسمحُ نفوسُهُمْ إلا بأداءِ الزكاةِ فقطْ .

ثمَّ إنَّهُمْ يُخرجونَ مِنَ المالِ الخبيثَ الرديءَ الذي يرغبونَ عنهُ ، ويطلبونَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٣) .

مِنَ الفقراءِ مَنْ يخدمُهُمْ ويتردَّدُ في حاجاتِهِمْ ، أوْ مَنْ يحتاجونَ إليهِ في المستقبلِ للاستسخارِ في خدمةٍ ، أوْ مَنْ لهُمْ فيهِ على الجملةِ غرضٌ ، أوْ يسلِّمونَ ذلكَ إلىٰ مَنْ يعينُهُ واحدٌ مِنَ الأكابرِ ممَّنْ يستظهرُ بحشمِهِ ؛ لينالَ بذلكَ عندَهُ منزلةً ، فيقومَ بحاجاتِهِ .

وكلُّ ذلكَ مفسداتٌ للنيَّةِ ، ومحبطاتٌ للعملِ ، وصاحبُهُ مغرورٌ ، ويظنُّ أنَّهُ مطيعٌ للهِ تعالىٰ وهوَ فاجرٌ ؛ إذْ طلبَ بعبادةِ اللهِ عوضاً مِنْ غيرِهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنْ غرورِ أربابِ الأموالِ أيضاً لا يُحصىٰ ، وإنَّما ذكرنا هٰذا القدْرَ ؛ للتنبيهِ علىٰ أجناسِ الغرورِ .

* * *

وفرقةٌ أخرىٰ مِنْ عوامِّ الخلقِ وأربابِ الأموالِ أوِ الفقراءِ اغترُّوا بحضورِ مجالسِ الذكرِ ، واعتقدوا أنَّ ذلكَ يغنيهِمْ ويكفيهِمْ ، واتخذوا ذلكَ عادةً ، ويظنُّونَ أنَّ لهُمْ علىٰ مجردِ سماعِ الوعظِ دونَ العملِ ودونَ الاتعاظِ أجراً ، وهمْ مغرورونَ ؛ لأنَّ فضلَ مجلسِ الذكرِ لكونِهِ مرغِّباً في الخيرِ ، فإنْ لمْ يهيِّجِ الرغبةَ . . فلا خيرَ فيهِ .

والرغبةُ محمودةٌ ؛ لأنَّها تبعثُ على العملِ ، فإنْ ضعُفَتْ عنِ الحملِ على العملِ ، فلا خيرَ فيها .

وما يُرادُ لغيرِهِ فإذا قصَّرَ عنِ الأداءِ إلىٰ ذلكَ الغيرِ . . فلا قيمةَ لهُ .

وربَّما يغترُّ بما يسمعُهُ مِنَ الواعظِ مِنْ فضلِ حضورِ المجلسِ ، وفضلِ

البكاءِ ، وربَّما تدخلُهُ رقَّةٌ كرقَّةِ النساءِ فيبكي ، وربَّما يسمعُ كلاماً مخوِّفاً فلا يزيدُ علىٰ أنْ يصفقَ بيديهِ ويقولَ : يا سلامُ ؛ سلِّمْ[1] ، أوْ نعوذُ باللهِ ، أوْ سبحانَ اللهِ ، ويظنُّ أنَّهُ قدْ أتىٰ بالخيرِ كلِّهِ ، وهوَ مغرورٌ .

وإنَّما مثالُهُ مثالُ المريضِ الذي يحضرُ مجالسَ الأطباءِ فيسمعُ ما يجري ، أوِ الجائعِ الذي يحضرُ عندَ مَنْ يصفُ لهُ الأطعمةَ اللذيذةَ الشهيَّةَ ثمَّ ينصرفُ ، وذلكَ لا يُغني عنهُ مِنْ مرضِهِ وجوعِهِ شيئاً .

فكذلكَ سماعُ وصفِ الطاعاتِ دونَ العملِ بها لا يغني مِنَ اللهِ شيئاً .

فكلُّ وعظٍ لمْ يغيِّرْ منكَ صفةً تغييراً يغيِّرُ أفعالَكَ حتَّىٰ تقبلَ على اللهِ تعالىٰ إقبالاً قوياً أوْ ضعيفاً وتعرضَ عنِ الدنيا . . فذلكَ الوعظُ زيادةُ حجَّةٍ عليكَ ، فإذا رأيتَهُ وسيلةً لكَ . . كنتَ مغروراً .

* * *

فإنْ قلتَ : فما ذكرتَهُ مِنْ مداخلِ الغرورِ أمرٌ لا يتخلَّصُ منهُ أحدٌ ، ولا يمكنُ الاحترازُ عنهُ ، وهـٰذا يوجبُ اليأسَ ؛ إذْ لا يقوىٰ أحدٌ مِنَ البشرِ على الحذرِ مِنْ خفايا هـٰذهِ الآفاتِ .

فأقولُ : الإنسانُ إذا فترَتْ همَّتُهُ في شيءٍ . . أظهرَ اليأسَ منهُ ، واستعظمَ الأمرَ ، واستوعَرَ الطريقَ ، وإذا صحَّ منهُ الهوىٰ . . اهتدىٰ إلى الحيلِ ،

---

(١) في (أ) : (يا سلام ؛ سلِّم سلِّم) ، وفي (ج) : (يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ) .

واستنبطَ بدقيقِ النظرِ خفايا الطرقِ في الوصولِ إلى الغرضِ .

حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ إذا أرادَ أنْ يستنزلَ الطيرَ المحلِّقَ في جوِّ السماءِ معَ بُعدِهِ منهُ . . استنزلَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يُخرِجَ الحوتَ مِنْ أعماقِ البحارِ . . استخرجَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يستخرجَ الذهبَ أوِ الفضةَ من تحتِ الجبالِ . . استخرجَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يقتنصَ الوحوشَ المطلقةَ في البراري والصحاري . . اقتنصَها .

وإذا أرادَ أنْ يستسخرَ السباعَ والفيلةَ وعظيمَ الحيواناتِ . . استسخرَها ، وإذا أرادَ أنْ يأخذَ الأفاعيَ والحيَّاتِ ويعبثَ بها . . أخذَها ، واستخرجَ الترياقَ مِنْ أجوافِها .

وإذا أرادَ أنْ يتَّخِذَ الديباجَ الملوَّنَ المنقَّشَ مِنْ ورقِ التوتِ . . اتخذَهُ .

وإذا أرادَ أنْ يعرفَ مقاديرَ الكواكبِ وطولَها وعرْضَها . . استخرجَ بدقيقِ الهندسةِ ذلكَ وهوَ مستقرٌّ على الأرضِ .

وكلُّ ذلكَ باستنباطِ الحيلِ ، وإعدادِ الآلاتِ ، فسخَّرَ الفرسَ للركوبِ ، والكلبَ للصيدِ ، وسخَّرَ البازيَ لاقتناصِ الطيورِ ، وهيَّأَ الشبكةَ لاصطيادِ السمكِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ دقائقِ حيلِ الآدميِّ .

وكلُّ ذلكَ لأنَّ همَّهُ أمرُ دنياهُ ، وذلكَ معينٌ لهُ علىٰ دنياهُ .

فلوْ أهمَّهُ أمرُ آخرتِهِ . . فليسَ عليهِ إلا شغلٌ واحدٌ ؛ وهوَ تقويمُ قلبِهِ[1] ، فعجزَ عنْ تقويمِ قلبِهِ وتخاذلَ وقالَ : هـٰذا محالٌ ، ومَنِ الذي يقدرُ عليهِ ؟

وليسَ ذلكَ بمحالٍ لوْ أصبحَ وهمُّهُ هـٰذا الهمُّ الواحدُ ، بلْ هوَ كما يُقالُ : (لوْ صَحَّ مِنْكَ ٱلْهَوَىٰ أُرْشِدتَ لِلْحِيَلِ).

فهـٰذا شيءٌ لمْ يعجزْ عنهُ السلفُ الصالحونَ ومَنِ اتبعَهُمْ بإحسانٍ ، فلا يعجزُ عنهُ أيضاً مَنْ صدقَتْ إرادتُهُ ، وقويَتْ همَّتُهُ ، بلْ لا يحتاجُ إلىٰ عُشرِ تعبِ الخلقِ في استنباطِ حيلِ الدنيا ونظمِ أسبابِها .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قرَّبتَ الأمرَ فيهِ بعدَ أنْ أكثرتَ في ذكرِ مداخلِ الغرورِ ، فبمَ ينجو العبدُ مِنَ الغرورِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ ينجو منهُ بثلاثةِ أمورٍ : بالعقلِ ، والعلمِ ، والمعرفةِ ، فهـٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ لا بدَّ منها .

أمَّا العقلُ : فأعني بهِ الفطرةَ الغريزيَّةَ ، والنورَ الأصليَّ الذي بهِ يدركُ الإنسانُ حقائقَ الأشياءِ ، فالفطنةُ والكيْسُ فطرةٌ ، والحمقُ والبلادةُ فطرةٌ ، والبليدُ لا يقدرُ على التحفُّظِ مِنَ الغرورِ .

---

(١) فقط ، وهو تسويته وتعديله وتنظيفه عن الخواطر الرديئة ؛ حتىٰ يكون مهبطاً لأنوار الله تعالىٰ . « إتحاف » (٨/ ٤٨٩) .

فصفاءُ العقلِ وذكاءُ الفهمِ لا بدَّ منهُ في أصلِ الفطرةِ ، وهـٰذا إنْ لمْ يُفطَرْ عليهِ الإنسانُ . . فاكتسابُهُ غيرُ ممكنٍ .

نعمْ ، إذا حصلَ أصلُهُ . . أمكنَ تقويتُهُ بالممارسة ، فأساسُ السعاداتِ كلِّها العقلُ والكياسةُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تباركَ اللهُ الذي قسَّمَ العقلَ بينَ عبادِهِ أشتاتاً ، إنَّ الرجلينِ ليستوي عملُهُما وبرُّهُما وصومُهُما وصلاتُهُما ، ولكنَّهُما يتفاوتانِ في العقلِ كالذَّرَّةِ في جنبِ أُحُدٍ ، وما قسمَ اللهُ لخلقِهِ حظّاً هوَ أفضلَ مِنَ العقلِ واليقينِ »(١) .

وعنْ أبي الدرداءِ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أرأيتَ الرجلَ يصومُ النهارَ ، ويقومُ الليلَ ، ويحجُّ ، ويعتمرُ ، ويتصدَّقُ ، ويغزو في سبيلِ اللهِ ، ويعودُ المريضَ ، ويشيِّعُ الجنائزَ ، ويعينُ الضعيفَ ، ولا يعلمُ منزلتَهُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ .

فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما يُجزىٰ علىٰ قدْرِ عقلِهِ »(٢) .

---

(١) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٤١) بروايتين ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٦١) .

(٢) رواه الحارث في « مسنده » (٨٢٧) ، وهو من أحاديث داوود بن المحبر ، ورواه عن ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (٤٣١٥) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : أُثنيَ علىٰ رجلٍ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا خيراً .

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ »

قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ نقولُ مِنْ عبادتِهِ وفضلِهِ وخلقِهِ .

فقالَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ فإنَّ الأحمقَ يصيبُ بحمقِهِ أعظمَ مِنْ فجورِ الفاجرِ ، وإنَّما يُقرَّبُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »(١) .

وقالَ أبو الدرداءِ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا بلغَهُ عنْ رجلٍ شدَّةُ عبادةٍ . . سألَ عنْ عقلِهِ ، فإذا قالوا : حسنٌ . . قالَ : « أرجوهُ » ، وإنْ قالوا غيرَ ذلكَ . . قالَ : « لنْ يبلغَ » .

قالَ : وذُكرَ لهُ شدَّةُ عبادةِ رجلٍ ، فقالَ : « كيفَ عقلُهُ ؟ »

قالوا : ليسَ بشيءٍ ، قالَ : « لنْ يبلغَ صاحبُكُمْ حيثُ تظنُّونَ »(٢) .

فالذكاءُ وصحةُ غريزةِ العقلِ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في أصلِ الفطرةِ ، فإنْ فاتَتْ ببلادةٍ وحماقةٍ . . فلا تَدارُكَ لها .

الثاني المعرفةُ : وأعني بالمعرفةِ : أنْ يعرفَ أربعةَ أمورٍ : يعرفَ نفسَهُ ، ويعرفَ ربَّهُ ، ويعرفَ الدنيا ، ويعرفَ الآخرةَ .

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .
(٢) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (٩٦٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٣٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٢٤) .

فيعرفُ نفسَهُ بالعبوديةِ والذُّلِّ ، وبكونِهِ غريباً في هٰذا العالمِ ، وأجنبياً مِنْ هٰذهِ الشهواتِ البهيميَّةِ ، وإنَّما الموافقُ لهُ طبعاً هوَ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، والنظرُ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ فقطْ .

فلا يُتصوَّرُ أنْ يعرفَ هٰذا ما لمْ يعرفْ نفسَهُ ولمْ يعرفْ ربَّهُ .

فليستعنْ علىٰ هٰذا بما ذكرناهُ في كتابِ المحبَّةِ ، وفي كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ الشكرِ ؛ إذْ فيها إشاراتٌ إلىٰ وصفِ النفسِ ، وإلىٰ وصفِ جلالِ اللهِ .

ويحصلُ بهِ التنبيهُ على الجملةِ ، وكمالُ المعرفةِ وراءَهُ ؛ فإنّ هٰذا مِنْ علومِ المكاشفةِ ، ولم نطنبْ في هٰذا الكتابِ إلا في علومِ المعاملةِ .

وأمَّا معرفةُ الدنيا والآخرةِ . . فيستعينُ عليها بما ذكرناهُ في كتابِ ذمِّ الدنيا وكتابِ ذكرِ الموتِ ؛ ليتبيَّنَ لهُ أنْ لا نسبةَ للدنيا إلى الآخرةِ .

فإذا عرفَ نفسَهُ وربَّهُ ، وعرفَ الدنيا والآخرةَ . . ثارَ مِنْ قلبِهِ بمعرفةِ اللهِ حبُّ اللهِ .

وبمعرفةِ الآخرةِ شدَّةُ الرغبةِ فيها .

وبمعرفةِ الدنيا الرغبةُ عنها .

فيصيرُ أهمُّ أمورِهِ ما يوصلُهُ إلى اللهِ تعالىٰ وينفعُهُ في الآخرةِ .

وإذا غلبَتْ هٰذه الإرادةُ علىٰ قلبِهِ . . صحَّتْ نيتهُ في الأمورِ كلِّها .

فإنْ أكلَ مثلاً أوِ اشتغلَ بقضاءِ الحاجةِ . . كانَ قصدُهُ منهُ الاستعانةَ علىٰ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، وصحَّتْ نيّتُهُ ، واندفعَ عنهُ كلُّ غرورٍ منشؤُهُ تجاذبُ الأغراضِ ، والنزوعُ إلى الدنيا والجاهِ والمالِ ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ المفسدُ للنيّةِ .

وما دامتِ الدنيا أحبَّ إليهِ مِنَ الآخرةِ ، وهوىٰ نفسِهِ أحبَّ إليهِ مِنْ رضا اللهِ تعالىٰ . . فلا يمكنُهُ الخلاصُ مِنَ الغرورِ .

فإذا غلبَ حبُّ اللهِ علىٰ قلبِهِ بمعرفتِهِ باللهِ وبنفسِهِ الصادرةِ عنْ كمالِ عقلِهِ . . فيحتاجُ إلى **المعنى الثالثِ ، وهوَ العلمُ** : أعني : العلمَ بكيفيةِ سلوكِ الطريقِ إلى اللهِ ، والعلمَ بما يقرِّبُهُ مِنَ اللهِ وما يبعدُهُ عنهُ ، والعلمَ بآفاتِ الطريقِ وعقباتِهِ وغوائلِهِ ، وجميعُ ذلكَ قدْ أودعناهُ كتبَ « إحياءِ علومِ الدينِ » .

فيعرفُ مِنْ **ربعِ العباداتِ** شروطَها فيراعيها ، وآفاتِها فيتقيها .

ومِنْ **ربعِ العاداتِ** أسرارَ المعايشِ وما هوَ مضطرٌّ إليهِ فيأخذُهُ بأدبِ الشرعِ ، وما هوَ مستغنٍ عنهُ فيعرضُ عنهُ .

ومِنْ **ربعِ المهلكاتِ** يعلمُ جميعَ العقباتِ المانعةِ في طريقِ اللهِ ؛ فإنَّ المانعَ مِنَ اللهِ الصفاتُ المذمومةُ في الخلقِ ، فيعلمُ المذمومَ ويعلمُ طريقَ علاجِهِ .

ويعرفُ مِنْ **ربعِ المنجياتِ** الصفاتِ المحمودةَ التي لا بدَّ وأنْ تُوضعَ خَلَفاً عنِ المذمومةِ بعدَ محوِها .

فإذا أحاطَ بجميعِ ذلكَ . . أمكنَهُ الحذرُ مِنَ الأنواعِ التي أشرنا إليها مِنَ الغرورِ .

وأصلُ ذلكَ كلِّهِ : أنْ يغلبَ حبُّ اللهِ على القلبِ ، ويسقطَ حبُّ الدنيا منهُ ؛ حتَّىٰ تقوىٰ بهِ الإرادةُ ، وتصحَّ بهِ النيَّةُ ، ولا يحصلُ ذلكَ إلا بالمعرفةِ التي ذكرناها .

* * *

فإن قلتَ : فإذا فعلَ جميعَ ذلكَ . . فما الذي يُخافُ عليهِ ؟

فأقولُ : يُخافُ عليهِ أنْ يخدعَهُ الشيطانُ ، ويدعوَهُ إلىٰ نصحِ الخلقِ ونشرِ العلمِ ، ودعوةِ الناسِ إلىٰ ما عرفَهُ مِنْ دينِ اللهِ .

فإنَّ المريدَ المخلصَ إذا فرغَ مِنْ تهذيبِ نفسِهِ وأخلاقِهِ ، وراقبَ القلبَ حتَّىٰ صفَّاهُ مِنْ جميعِ الكدوراتِ ، واستوىٰ على الصراطِ المستقيمِ ، وصغُرَتِ الدنيا في عينِهِ فتركَها ، وانقطعَ طمعُهُ عنِ الخلقِ فلمْ يلتفِتْ إليهِمْ ، ولمْ يبقَ لهُ إلا همٌّ واحدٌ ؛ وهوَ اللهُ تعالىٰ ، والتلذُّذُ بذكرِهِ ومناجاتِهِ ، والشوقُ إلىٰ لقائِهِ ، وقدْ عجزَ الشيطانُ عنْ إغوائِهِ .

إذْ يأتيهِ مِنْ جهةِ الدنيا وشهواتِ النفسِ فلا يطيعُهُ ، فيأتيهِ مِنْ جهةِ الدينِ ، ويدعوهُ إلى الرحمةِ علىٰ خلقِ اللهِ ، والشفقةِ علىٰ دينِهِمْ بالنصحِ لهُمْ ، والدعاءِ إلى اللهِ .

فينظرُ العبدُ برحمتِهِ إلى العبيدِ ، فيراهُمْ حيارىٰ في أمرِهِمْ ، سكارىٰ في دينِهِمْ ، صمّاً عمياً ، قدِ استولىٰ عليهِمُ المرضُ وهمْ لا يشعرونَ ، وفقدوا الطبيبَ ، وأشرفوا على العطبِ ، فغلبَ علىٰ قلبِهِ الرحمةُ لهُمْ ، وقدْ كانَ عندَهُ حقيقةُ المعرفةِ بما يهديهِمْ ويبيِّنُ لهمْ ضلالَهُمْ ، ويرشدُهُمْ إلىٰ سعادتِهِمْ ، وهوَ يقدرُ علىٰ ذكرِها مِنْ غيرِ تعبٍ ومؤنةٍ ولزومِ غرامةٍ .

فكانَ مثلُهُ كمثلِ رجلٍ كانَ بهِ داءٌ عظيمٌ لا يُطاقُ ألمُهُ ، وقدْ كانَ لذلكَ يسهرُ ليلَهُ ويقلقُ نهارَهُ ، لا يأكلُ ولا يشربُ ، ولا يتحرَّكُ ولا يتصرَّفُ ؛ لشدَّةِ ضَرَبانِ الألمِ ، فوجدَ لهُ دواءً عفواً صفواً مِنْ غيرِ ثمنٍ ولا تعبٍ ولا مرارةٍ في تناولِهِ ، فاستعملَهُ ، فبرِئَ وصحَّ ، وطابَ نومُهُ بالليلِ بعدَ طولِ سهرِهِ ، وهدأَ بالنهارِ بعدَ شدَّةِ القلقِ ، وطابَ عيشُهُ بعدَ نهايةِ الكربِ ، وأصابَ لذَّةَ العافيةِ بعدَ طولِ السقامِ .

ثمَّ نظرَ إلىٰ عددٍ كثيرٍ مِنَ المسلمينَ وإذا بهِمْ تلكَ العلَّةُ بعينِها ، وقدْ طالَ سهرُهُمْ ، واشتدَّ قلقُهُمْ ، وارتفعَ إلى السماءِ أنينُهُمْ ، فتذكَّرَ أنَّ دواءَهُمْ هوَ الذي يعرفُهُ ، وأنَّهُ يقدرُ علىٰ شفائِهِمْ بأسهلِ ما يكونُ ، وفي أوحىٰ زمانٍ[1] يقدرُ ، فأخذَتْهُ الرحمةُ والرِّقَّةُ ، ولمْ يجدْ فسحةً مِنْ نفسِهِ في التراخي عنِ الاشتغالِ بعلاجِهِمْ .

فكذلكَ العبدُ المخلصُ بعدَ أنِ اهتدىٰ إلى الطريقِ ، وشُفِيَ مِنْ أمراضِ

---

(١) أوحىٰ ـ هنا ـ : أسرع .

القلوبِ . . شاهدَ الخلقَ وقدْ مرضَتْ قلوبُهُمْ ، وأعضلَ داؤُهُمْ ، وقرُبَ هلاكُهُمْ وشقاؤُهُمْ ، وسَهُلَ عليهِ دواؤُهُمْ .

فانبعثَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ عزمٌ جازمٌ في الاشتغالِ بنصحِهِمْ ، وحرَّضَهُ الشيطانُ علىٰ ذلكَ ؛ رجاءَ أنْ يجدَ مجالاً للفتنةِ .

فلمَّا اشتغلَ بذلكَ . . وجدَ الشيطانُ مجالاً للفتنةِ ، فدعاهُ إلى الرئاسةِ دعاءً خفيّاً أخفىٰ مِنْ دبيبِ النملِ لايشعرُ بهِ المريدُ ، فلمْ يزلْ ذلكَ الدبيبُ في قلبِهِ حتَّىٰ دعاهُ إلى التصنُّعِ والتزيُّنِ للخلقِ ، بتحسينِ الألفاظِ والنغماتِ والحركاتِ ، والتصنُّعِ في الزِّيِّ والهيئةِ .

فأقبلَ الناسُ إليهِ يعظمونَهُ ويبجلونَهُ ويوقرونَهُ توقيراً يزيدُ علىٰ توقيرِ الملوكِ ؛ إذْ رأوهُ شافياً لأدوائِهِمْ بمحضِ الشفقةِ والرحمةِ مِنْ غيرِ طمعٍ ، فصارَ أحبَّ إليهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ وأقاربِهِمْ ، فآثروهُ بأبدانِهِمْ وأموالِهِمْ ، وصاروا لهُ خَوَلاً كالخدمِ والعبيدِ ، فخدموهُ وقدَّموهُ في المحافلِ ، وحكَّموهُ على الملوكِ والسلاطينِ .

فعندَ ذلكَ انتشرَ الطبعُ ، وارتاحتِ النفسُ ، وذاقَتْ لذَّةً يا لها مِنْ لذَّةٍ ! وأصابَتْ مِنَ الدنيا شهوةً يُستحقرُ معَها كلُّ شهوةٍ ، فكانَ قدْ تركَ الدنيا فوقعَ في أعظمِ لذاتِها ، فعندَ ذلكَ وجدَ الشيطانُ فرصةً ، وامتدَّتْ إلىٰ قلبِهِ يدُهُ ، فهوَ يَستعملُهُ في كلِّ ما يحفظُ عليهِ تلكَ اللذةَ .

وأمارةُ انتشارِ الطبعِ وركونِ النفسِ إلى الشيطانِ أنَّهُ لوْ أخطأَ فرُدَّ عليهِ بينَ

يدي الخلقِ . . غضبَ ، فإذا أنكرَ علىٰ نفسِهِ ما وجدَهُ مِنَ الغضبِ . . بادرَ الشيطانُ فخيَّلَ إليهِ أنَّ ذلكَ غضبٌ للهِ ؛ لأنَّهُ إذا لمْ يحسُنِ اعتقادُ المريدينَ فيهِ . . انقطعوا عنْ طريقِ اللهِ ، فوقعَ في الغرورِ .

فربَّما أخرجَهُ ذلكَ إلى الوقيعةِ فيمَنْ ردَّ عليهِ ، فوقعَ في الغيبةِ المحظورةِ بعدَ تركِهِ الحلالَ المتسعَ ، ووقعَ في الكبرِ الذي هوَ تمرُّدٌ عنْ قبولِ الحقِّ والشكرِ عليهِ بعدْ أنْ كانَ يحذرُ مِنْ طوارقِ الخطراتِ .

وكذلكَ إذا سبقَهُ الضحكُ ، أوْ فتَرَ عنْ بعضِ الأورادِ . . جزعَتْ نفسُهُ أن يطلعوا عليهِ فيسقطَ قبولُهُ فأتبعَ ذلكَ بالاستغفارِ وتنفُّسِ الصعداءِ .

وربَّما زادَ في الأعمالِ والأورادِ لأجلِهِمْ ، والشيطانُ يخيِّلُ إليهِ : إنَّكَ إنَّما تفعلُ ذلكَ كي لا يفترَ رأيُهُمْ عنْ طريقِ اللهِ ، فيتركونَ الطريقَ بتركِهِ .

وإنَّما ذلكَ خدعةٌ وغرورٌ ، بلْ هوَ جزعٌ مِنَ النفسِ خيفةَ فوتِ الرئاسةِ ، ولذلكَ لا تجزعُ نفسُهُ مِنَ اطلاعِ الناسِ علىٰ مثلِ ذلكَ مِنْ أقرانِهِ .

بلْ ربَّما يحبُّ ذلكَ ويستبشرُ بهِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ مالتِ القلوبُ إلىٰ قبولِهِ وزادَ أثرُ كلامِهِ في القبولِ علىٰ كلامِهِ . . شقَّ ذلكَ عليهِ ، ولولا أنَّ النفسَ قدِ استبشرَتْ واستلذَّتِ الرئاسةَ . . لكانَ يغتنمُ ذلكَ .

إذْ مثالُهُ أنْ يرى الرجلُ جماعةً مِنْ إخوانِهِ قدْ وقعوا في بئرٍ وتغطَّىٰ رأسُ البئرِ بحجرٍ كبيرٍ ، فعجزوا عنِ الرُّقيِّ مِنَ البئرِ بسببِهِ ، فرقَّ قلبُهُ لإخوانِهِ ، فجاءَ ليرفعَ الحجرَ عنْ رأسِ البئرِ ، فشقَّ عليهِ ، فجاءَ مَنْ أعانَهُ علىٰ ذلكَ

حتَّىٰ تيسَّرَ عليهِ ، أوْ كفاهُ ذلكَ ونحَّاهُ بنفسِهِ ، فيعظُمُ بذلكَ فرحُهُ لا محالةَ ؛ إذْ غرضُهُ خلاصُ إخوانِهِ مِنَ البئرِ .

فإنْ كانَ غرضُ الناصحِ خلاصَ إخوانِهِ المسلمينَ مِنَ النارِ ، فإذا ظهرَ مَنْ أعانَهُ أوْ كفاهُ ذلكَ . . لمْ يثقلْ عليهِ ، أرأيتَ لوِ اهتدَوا جميعُهُم بأنفسِهِمْ أكانَ ينبغي أنْ يثقلَ ذلكَ عليهِ إنْ كانَ غرضُهُ هدايتَهُمْ ؟ فإذا اهتدَوا بغيرِهِ . . فلِمَ يثقلُ عليهِ ؟

ومهما وجدَ ذلكَ في نفسِهِ . . دعاهُ الشيطانُ إلىٰ جميعِ كبائرِ القلوبِ ، وفواحشِ الجوارحِ ، وأهلكَهُ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ زيغِ القلوبِ بعدَ الهدىٰ ، ومِنِ اعوجاجِ النفسِ بعدَ الاستواءِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فمتىٰ يصحُّ لهُ أنْ يشتغلَ بنصحِ الناسِ ؟

فأقولُ : إذا لمْ يكنْ لهُ قصدٌ سوىٰ هدايتِهِمْ للهِ تعالىٰ ، وكانَ يودُّ لوْ وجدَ مَنْ يعينُهُ أوْ لوِ اهتدَوا بأنفسِهِمْ ، وانقطعَ بالكليَّةِ طمعُهُ عنْ ثنائِهِمْ وعنْ أموالِهِمْ ، فاستوىٰ عندَهُ حمدُهُمْ وذمُّهُمْ ، فلمْ يبالِ بذمِّهِمْ إذا كانَ اللهُ يحمدُهُ ، ولمْ يفرحْ بحمدِهِمْ إذا لمْ يقترنْ بهِ حمدُ اللهِ تعالىٰ ، ونظرَ إليهِمْ كما ينظرُ إلى الساداتِ وإلى البهائمِ .

أمَّا إلى الساداتِ . . فمِنْ حيثُ إنَّهُ لا يتكبَّرُ عليهِمْ ، ويرىٰ كلَّهُمْ خيراً منهُ ؛ لجهلِهِ بالخاتمةِ .

وأمَّا إلى البهائمِ.. فمِنْ حيثُ انقطاعُ طمعِهِ عنْ طلبِ المنزلةِ في قلوبِهِمْ ؛ فإنّهُ لا يبالي كيفَ تراهُ البهائمُ ؛ فلا يتزيَّنُ لها ولا يتصنَّعُ ، بلْ راعي الماشيةِ إنَّما غرضُهُ رعايةُ الماشيةِ ودفعُ الذئبِ عنها دونَ نظرِ الماشيةِ إليهِ ، فما لمْ يرَ سائرَ الناسِ كالماشيةِ التي لا يُلتفَتُ إلىٰ نظرِها ولا يُبالىٰ بها. . لا يسلمُ مِنَ الاشتغالِ بإصلاحِهِمْ ؟

نعمْ ، ربَّما يصلحُهُمْ ولكنْ يفسدُ نفسَهُ بإصلاحِهِمْ ، فيكونُ كالشمعِ الذي يضيءُ لغيرِهِ ويحترقُ في نفسِهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فلوْ تركَ الوعَّاظُ الوعظَ إلا عندَ نيلِ هـٰذهِ الدرجةِ. . لخلتِ الدنيا عنِ الوعظِ وخربَتِ القلوبُ !

فأقولُ : قدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ »(١) .

ولوْ لمْ يحبَّ الناسُ الدنيا. . لهلكَ العالَمُ ، وبطلَتِ المعايشُ ، وهلكَتِ القلوبُ والأبدانُ جميعاً ، إلا أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علمَ أنَّ حبَّ الدنيا مهلكٌ ، وأنَّ ذكرَ كونِهِ مهلكاً لا ينزعُ الحبَّ مِنْ قلوبِ الأكثرينَ ، لا الأقلينَ الذينَ لا تخربُ الدنيا بتركِهِمْ ، فلم يتركِ النصحَ ، وذكرَ ما في حبِّ الدنيا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٩) عن الحسن مرسلاً .

مِنَ الخطرِ ، ولمْ يتركْ ذكرَهُ خوفاً مِنْ أن تُترَكَ ؛ ثقةً بالشهواتِ المهلكةِ التي سلَّطَها اللهُ علىٰ عبادِهِ ليسوقَهُمْ بها إلىٰ جهنَّمَ ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فكذلكَ لا تزالُ ألسنةُ الوعَّاظِ مطلقةً لحبِّ الرئاسةِ ، ولا يدَعونَها بقولِ مَنْ يقولُ : إنَّ الوعظَ لحبِّ الرئاسةِ حرامٌ ؛ كما لمْ يدعِ الخلقُ الشربَ والزنا والسرقةَ والربا والظلمَ وسائرَ المعاصي بقولِ اللهِ تعالىٰ ورسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ ذلكَ حرامٌ .

فانظرْ لنفسِكَ ، وكنْ فارغَ القلبِ مِنْ حديثِ الناسِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يصلحُ خلقاً كثيراً بإفسادِ شخصٍ واحدٍ وأشخاصٍ .

ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهُمْ ببعضٍ . . لفسدتِ الأرضُ .

وإنَّ اللهَ يؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ .

فإنَّما يُخشىٰ أنْ ينسدَّ طريقُ الاتِّعاظِ ، فأمَّا أنْ تخرسَ ألسنةُ الوعَّاظِ ووراءَهُمْ باعثُ الرئاسةِ وحبُّ الدنيا . . فلا يكونُ ذلكَ أبداً .

* * *

فإنْ قلتَ : فإنْ علمَ المريدُ هٰذهِ المكيدةَ مِنَ الشيطانِ ، فاشتغلَ بنفسِهِ وتركَ النصحَ ، أوْ نصحَ وراعىٰ شرطَ الصدقِ والإخلاصِ فيهِ . . فما الذي يُخافُ عليهِ ؟ وما الذي بقيَ بينَ يديهِ مِنَ الأخطارِ وحبائلِ الاغترارِ ؟

فـاعلـمْ : أنَّـهُ بقـيَ عليـهِ أعظمُـهُ ، وهـوَ أنَّ الشيطـانَ يقـولُ لـهُ : قـدْ أعجزتَني ، وأفلَتَّ منِّي بذكائِكَ وكمالِ عقلِكَ ، وقدْ قدرتُ علىٰ جملةٍ مِنَ الأولياءِ والكبراءِ ، وما قدرتُ عليكَ ، فما أصبرَكَ ! وما أعظمَ عندَ اللهِ قدرَكَ ومحلَّكَ ! إذْ قوَّاكَ علىٰ قهري ، ومكَّنَكَ مِنَ التفطُّنِ لجميعِ مداخلِ غروري .

فيصغي إليهِ ويصدِّقُهُ ، ويعجبُ بنفسِهِ في فرارِهِ مِنَ الغرورِ كلِّهِ ، فيكونُ إعجابُهُ بنفسِهِ غايةَ الغرورِ ، وهوَ المهلكُ الأكبرُ .

فالعجْبُ أعظمُ مِنَ كلِّ ذنبٍ ، ولذلكَ قالَ الشيطانُ : (يا بنَ آدمَ ؛ إذا ظننـتَ أنَّـكَ بعلمِـكَ تخلَّصـتَ منِّـي . . فبجهلِـكَ قـدْ وقعـتَ فـي حبائلي)[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : فلوْ لمْ يعجبْ بنفسِهِ إذْ علمَ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ لا منهُ ، وأنَّ مثلَهُ لا يقوىٰ علىٰ دفعِ الشيطانِ إلا بتوفيقِ اللهِ ومعونتِهِ ، ومَنْ عرفَ ضعفَ نفسِهِ وعجزَهُ عنْ أقلِّ القليلِ : فإذا قدرَ علىٰ مثلِ هٰذا الأمرِ العظيمِ . . علمَ أنَّهُ لمْ يقوَ عليهِ بنفسِهِ ، بلْ باللهِ تعالىٰ ، فما الذي يُخافُ عليهِ بعدَ نفيِ العجبِ ؟

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣١٧) عن أبي عبد الله الساجي .

فأقولُ : يُخافُ عليهِ الغرورُ بفضلِ اللهِ ، والثقةِ بكرمِهِ ، والأمنِ مِنْ مكرِهِ ، حتَّىٰ يظنَّ أنَّهُ يبقىٰ علىٰ هـٰذهِ الوتيرةِ في المستقبلِ ، ولا يخافُ مِنَ الفترةِ والانقلابِ فيكونُ حالُهُ الاتِّكالَ علىٰ فضلِ اللهِ فقطْ ، دونَ أنْ يقارنَهُ الخوفُ مِنْ مكْرِهِ ، ومَنْ أمِنَ مكرَ اللهِ . . فهوَ خاسرٌ جداً .

بلْ سبيلُهُ أنْ يكونَ مشاهداً لجملةِ ذلكَ أنَّهُ مِنْ فضلِ اللهِ ، ثمَّ خائفاً علىٰ نفسِهِ أنْ يكونَ قدْ شذَّتْ عنهُ صفةٌ مِنْ صفاتِ قلبِهِ ؛ مِنْ حبِّ دنيا ، ورياءٍ ، وسوءِ خُلُقٍ ، والتفاتٍ إلىٰ عزٍّ وهو غافلٌ عنهُ .

ويكونُ خائفاً أنْ يُسلَبَ حالُهُ في كلِّ طرفةِ عينٍ ، غيرَ آمنٍ مِنْ مكرِ اللهِ ، ولا غافلٍ عنْ خطرِ الخاتمةِ ، وهـٰذا خطرٌ لا محيصَ عنهُ وخوفٌ لا نجاةَ منهُ إلا بعدَ مجاوزةِ الصراطِ .

ولذلكَ لمَّا ظهرَ الشيطانُ لبعضِ الأولياءِ في وقتِ النزعِ وكانَ قدْ بقيَ لهُ نفسٌ ، فقالَ لهُ : أفلتَّ منِّي يا فلانُ ، فقالَ : لا ، بعدُ .

ولذلكَ قيلَ : (الناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصونَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ)[1] .

❊ ❊ ❊

---

(1) قوت القلوب (١/ ١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .

فإذاً ؛ المغرورُ هالكٌ ، والمخلصُ الفارُّ مِنَ الغرورِ علىٰ خطرٍ ؛ فلذلكَ لا يفارقُ الخوفُ والحذرُ قلوبَ أولياءِ اللهِ أبداً ، فنسألُ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ العونَ والتوفيقَ وحسنَ الخاتمةِ ؛ فإنَّ الأمورَ بخواتيمِها ، والسلامُ .

* * *

تمّ كتاب ذمّ الغرور

وهو آخر ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وحسن توفيقه

والصّلاة على خير خلقه محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم تسليماً

يتلوه ربع المنجيات

وهو الرّبع الرّابع من كتاب إحياء علوم الدّين

مُحتَوى الكِتَاب
رُبُعُ المُهلِكَاتِ / القِسمُ الثَّاني

كتاب ذم الدنيا 7
بيان ذم الدنيا ١٢
ـ الأخبار الواردة في ذم الدنيا ١٢
بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها ٤٦
بيان صفة الدنيا بالأمثلة ٥٦
ـ تشبيه الدنيا بالظلِّ الزائل ٥٦
ـ تشبيه الدنيا بخيالات المنام وأضغاث الأحلام ٥٧
ـ تشبيه الدنيا بعجوز متزينة ٥٩
ـ تشبيه الدنيا بمنزل قصير في سفر طويل ٦٠
بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد ٧٣
ـ ما لك إليه ميلٌ في الدنيا على ثلاثة أقسام ٧٣
ـ أيُّ نعيم في الدنيا مهما صغُر فهو سبب لنقصان حظ العبد في الآخرة . . ٧٩
ـ **تحريجة**: ما الذي هو لله تعالى؟ ٨١
ـ طرف من أخبار أويس القرني ٨٣
ـ مثال في بيان ما صورته لحظ النفس وهو لله تعالى ٨٩
بيان ماهية الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتىٰ أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم ٩٠

ـ كل ما علىٰ الأرض يجمعه ثلاثة أقسام ٩٠
ـ أكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن ٩٢
ـ الناس في الصناعات ثلاث طوائف ٩٨
ـ لو زهد الناس في الدنيا لبطلت المعايش ١٠٠
ـ الفرقة الناجية ١٠٨

كتاب ذم المال والبخل ١١١

ـ أعظم فتن الدنيا أنه لا غنى عنها ١١٤
بيان ذم المال وكراهة حبه ١١٦
ـ الآيات والأحاديث في ذم المال وكراهة حبه ١١٦
بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم ١٢٤
ـ تسمية المال خيراً في القرآن الكريم ١٢٤
ـ وجه الجمع بين مدح المال وذمه ١٢٤
ـ الوسائل التي تنال بها السعادة في الدنيا ١٢٥
ـ معنى دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ ... ١٢٧
بيان تفصيل آفات المال وفوائده ١٢٩
ـ ذكر الله تعالى هو أصل العبادات ومخُّها ١٣٤
بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس ... ١٣٦
ـ الأحاديث الواردة في ذم الحرص والطمع ومدح القناعة ١٣٦
ـ خبر القنبرة والصياد ١٤٤

بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة ١٤٧
بيان فضيلة السخاء ١٥٥
ـ الأحاديث الواردة في فضل السخاء ١٥٥
حكايات الأسخياء ١٦٨
بيان ذم البخل ١٨٥
ـ الآيات والأحاديث في ذم البخل ١٨٥
حكايات البخلاء ١٩٧
بيان الإيثار وفضله ٢٠٠
ـ ليس بعد الإيثار درجة في السخاء ٢٠٠
بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما ٢٠٦
ـ **تحريجة**: فما حدُّ البخل وكل إنسان يرى نفسه كريماً؟ ٢٠٦
ـ الحكمة من خلْق المال ٢٠٨
ـ الجود وسط بين الإقتار والسرف، وبين القبض والبسط ٢٠٨
ـ **تحريجة**: فما الذي يجب بذله؟ ٢٠٨
ـ من صور البخل عند الأكياس ٢١٠
ـ أداء واجب الشرع والمروءة صفة رافعة للبخل غير مثبتة للجود والسخاء ٢١٠
ـ طالب الثناء بيّاع وليس بجواد ٢١١
بيان علاج البخل ٢١٣
ـ حب المال لذاته مرض عسِرُ العلاج ٢١٤
ـ المعالجة بالأضداد ٢١٤

ـ لا بأس بالتكلف في البدايات ٢١٥
ـ التداوي ببعض الخبائث للضرورة ٢١٦
ـ علاج الصوفية للمريد البخيل ٢١٨
ـ بين المصيبة والفقر ٢١٨
بيان مجموع الوظائف التي علىٰ العبد في ماله ٢٢٠
بيان ذم الغنىٰ ومدح الفقر ٢٢٣
ـ تنزُّه أغنياء الصحابة عن أن يريدوا المال للتكاثر والشرف والزينة ٢٢٦
ـ حال أغنياء الصحابة مع أموالهم ٢٣٠
ـ أحوال طالب الغنى المحتج بأغنياء الصحابة ٢٣١
ـ شربة من الدنيا ٢٤٠
ـ ذكر الله تعالى أفضل من الإنفاق ٢٤٢
ـ الإقرار بالتقصير خير من التماس المعاذير ٢٤٤
ـ حال آل بيت النبوة ونصيبهم من الدنيا ٢٤٨
ـ هذه الدنيا فاحذروها ٢٤٩

كتاب ذم الجاه والرياء ٢٥٥
ـ شدَّة خفاء الرياء ٢٥٧
الشطر الأول: في حب الجاه والشهرة ٢٦٠
بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت ٢٦٠
ـ الأخبار في ذم الصيت والشهرة ٢٦٠

بيان فضيلة الخمول ٢٦٥
ـ تحريجة: فكيف عظمت شهرة الأنبياء والراشدين والأئمة وفاتهم فضيلة الخمول؟ ٢٦٩
بيان ذم حب الجاه ٢٧٠
بيان معنى الجاه وحقيقته ٢٧٢
ـ حدُّ الجاه ٢٧٣
بيان سبب كون الجاه محموداً بالطبع حتىٰ لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة ٢٧٥
ـ لملك القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه ٢٧٥
ـ تحريجة: لِمَ يحب الإنسان من المال والجاه ما يقطع هو بعدم انتفاعه به؟ ٢٧٨
بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له ٢٨٦
ـ كمال العلم لله وحده ٢٨٦
ـ تقسيم المعلومات إلىٰ متغيرات وأزليات ٢٨٧
ـ الكمال الحقيقي في العلم بالله وبصفاته وأفعاله ٢٨٨
ـ لا سعادة إلا في معرفة الله وما يعين على هذه المعرفة ٢٨٨
ـ لا مطمع للعبد في تحصيل القدرة الحقيقية ٢٨٩
ـ ابتعاد العبد عن التغير والتأثر بالعوارض هو كمال الحرية ٢٩٠
ـ الباقيات الصالحات العلم والحرية ٢٩١
بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم ٢٩٣

ـ **تحريجة**: طلب المنزلة في القلوب لتحقيق الأمر مباح على الإطلاق أو له حد مخصوص؟ ٢٩٤
بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس له وميل الطباع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه ٢٩٧
ـ إبطال هذه اللذائذ ٢٩٩
بيان علاج حب الجاه ٣٠١
ـ عنتُ محبِّ الجاه في شغله بالخلق ٣٠١
ـ ما يبنى على قلوب الخلق كالذي يبنى على أمواج البحر ٣٠٣
ـ تفصيل القول في أفعال الملاميَّة ٣٠٤
ـ أرباب الأحوال قد يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه ٣٠٤
ـ العزلة خير دواء إن تحقق شرطها ٣٠٥
بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم ٣٠٧
ـ إن كنت فاضلاً فالمدح لا يزيدك فضلاً ٣٠٨
ـ طلبك للمنزلة عند الناس يسقط منزلتك عند ربِّ الناس ٣٠٩
بيان علاج كراهة الذم ٣١٢
ـ الذام لا يخلو من ثلاثة أحوال ٣١٢
بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم ٣١٦
ـ من لم يطلع على آفات النفوس أكثر عباداته تعب ضائع ٣١٧
الشطر الثاني: في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات وهو الرياء ٣٢٢
بيان ذم الرياء ٣٢٢

بيان حقيقة الرياء وما يراءىٰ به ٣٣٦
ـ حد الرياء ٣٣٦
ـ **تحريجة**: الرياء حرامٌ أو مكروهٌ أو مباحٌ أو فيه تفصيلٌ؟ ٣٤٤
ـ تصوُّر الرياء من غير حرمة ٣٤٥
ـ تزيُّنُه صلى الله عليه وسلم للخلق عبادةٌ ٣٤٦
ـ الرياء سجود وركوع لغير الله تعالى ٣٤٨
بيان درجات الرياء ٣٥٠
ـ أركان الرياء ٣٥٠
ـ لا حجة للمرائي بفعله لأجل صون الناس عن غيبته ٣٥٦
ـ ليس للعبد أن يدفع عنه ذم الخلق بالمراءاة بالطاعة ٣٥٧
بيان الرياء الخفي الذي هو أخفىٰ من دبيب النمل ٣٦٢
ـ لا يروج يومَ القيامة غيرُ الخالص ٣٦٥
ـ **تحريجة**: هل كلُّ سرور بالطاعة مذموم أو فيه تفصيل؟ ٣٦٦
بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه ٣٦٨
بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه ٣٧٨
ـ بيان مضرَّة الرياء ٣٨١
ـ أغلق الباب عند الطاعة كما تغلقه عند المعصية ٣٨٤
ـ دفع الخاطر الأول خير معين على دفع الرياء ٣٨٥
ـ **تحريجة**: إن أبى الرياء ولكنه غير خال عن ميل إليه فهل يؤاخذ؟ ٣٨٨
ـ مراتب المتخلصين عن الرياء في دفع خواطر الرياء ٣٩٠

ـ مثال جامع يوضح هذه الرتب الأربعة ٣٩١

ـ **تحريجة**: الحذر من الشيطان أيكون بالترصد له أم بالتوكل على الله أم بالغفلة عنه؟ ٣٩٢

ـ قد تكون وسوسة الشيطان في صفات الله وتحسين البدع والضلال ... ٣٩٣

ـ الحذر من الشيطان لا ينافي الاشتغال بحبِّ الله تعالى ٣٩٥

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات ٣٩٩

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له ٤٠٦

ـ متى يكون الحياء ضعفاً ٤١٢

ـ **تحريجة**: فهل له أن يحبه الناس لصلاحه؟ ٤١٣

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات ٤١٥

ـ **تحريجة**: فما القول فيمن ترك العمل مخافة الشهرة؟ ٤١٨

ـ الخلافة والإمارة من أفضل العبادات ٤٢١

ـ **تحريجة**: لو حكمنا بهذا التدقيق تعطلت العلوم وعمَّ الجهل ٤٢٧

ـ لا تشغل قلبك بأمر الناس واشتغل بشأن نفسك ٤٢٩

ـ إلى ما آل إليه أمر الوعظ ٤٣٠

ـ **تحريجة**: أليس الأولى أن يقرَّ على وعظه ونطالبه بالمجاهدة؟ ٤٣٢

ـ آفة الرياء في العبادات ضعيفة بخلاف الولايات ٤٣٣

ـ **تحريجة**: فما علامة الصادق من الوعَّاظ والعلماء؟ ٤٣٦

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ... ٤٤٠

ـ إن علم جزماً أن داعي الزيادة هو الرياء لم يزد على ما اعتاده ٤٤٢
ـ التفريق بين البكاء لله تعالى والبكاء رياءً ٤٤٣
ـ تعوذوا بالله من خشوع النفاق ٤٤٥
بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه ٤٤٨
ـ من انتظر ثناء من الخلق ومحمدة فقد أخذ أجره ٤٥٠
ـ من تقرَّر في نفسه أن ليس في الوجود سوى الله جاوزه الرياء ٤٥٥

كتابُ ذمِّ الكبْرِ والعجْبِ ٤٥٩

الشطر الأول: في الكبر ٤٦٣
بيان ذم الكبر ٤٦٣
ـ الكِبْر قرين الشِّرك بالله ٤٦٥
ـ حسبُ المتكبّرين من الوبال أن يُسقَوا من طين الخبال ٤٦٨
ـ الكِبرُ من فخوخ الشيطان ٤٧٠
بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب ٤٧٢
ـ المتكبّرون إخوان الشيطان ٤٧٥
بيان فضيلة التواضع ٤٧٦
ـ التواضع لله يثمر الرِّفعة ٤٧٦
ـ ذو الشأن المتواضعُ من صفوة الله ٤٧٨
ـ التواضعُ أفضلُ العبادة ٤٨١
ـ الموحِّد لا يثبت نفسه فكيف يضعها؟! ٤٨٧

بيان حقيقة الكبر وآفاته ٤٨٩
ـ أركانُ خُلق الكبر ثلاثة ٤٩٠
ـ التكبُّر أعمال تصدر عن خُلق الكبر، وله صور شتّى ٤٩٠
ـ صاحبُ الكبر مضطرٌّ إلى كلّ خُلق ذميم ليحفظ عزَّه ٤٩٢
بيان المتكبَّر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه ٤٩٥
بيان ما به التكبر ٥٠٣
ـ ما أسرعَ الكبرَ إلى العلماء ٥٠٣
ـ العالم المتواضع يندرُ وجوده على بسيط الأرض ٥٠٧
ـ درجات العلماء والعباد في آفة الكبر ٥١٣
ـ العزُّ لا يقمعُه إلا الذلُّ ٥١٧
بيان البواعث على الكبر وأسبابه المهيجة له ٥٢١
بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر ٥٢٤
ـ ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر ٥٢٧
ـ بين الخشونة واللين ٥٢٩
ـ المحبوبُ من اللباس الوسطُ ٥٣٢
بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع ٥٣٨
ـ للعالِم قدرٌ عند الله ما لم يرَ لنفسه قدراً، وإلا فلا ٥٥٧
ـ العلم حجّة على العالم، أو وسيلة له ٥٦٣
بيان غاية الرياضة في خلق التواضع ٥٧٢
ـ التواضع للدون تخاسس مذموم، والمحمود المطلق هو العدل ٥٧٢

الشطر الثاني : في العجب ٥٧٤
بيان ذم العجب وآفته ٥٧٤
ـ مَن ظن أنه محسن فهو مسيء ٥٧٧
بيان آفة العجب ٥٧٨
بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما ٥٨٠
بيان علاج العجب علىٰ الجملة ٥٨٢
ـ أنت وأوصافك وعملك من خلق الله ، فلا تعجب بما ليس إليك ٥٨٤
ـ العقل مع الفقر عدلٌ ٥٨٧
بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه ٥٩٢
ـ لا تترك الحمية لحذاقة الطبيب ٥٩٨

كتاب ذم الغرور ٦٠٥
ـ أرباب البصائر قلوبهم كمشكاة والمغترّون قلوبهم كظلمات ٦٠٧
بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته ٦١٠
ـ حنين الإنسان إلى جوار ربّه طبعيّ ذاتيّ إلا أن يصرفه عارض غريب ٦١٧
ـ إقبال الدنيا أمارة المقت عند أرباب البصائر ٦٢٢
ـ اطّراد النعم مع زيادة الذنوب استدراج ٦٢٣
ـ توقّع المغفرة مع التوبة رجاء، ومع الإصرار غرور. ٦٣٠
بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف ٦٣٦
الصنف الأول : أهل العلم ٦٣٦

ـ مَن علم فلم يعمل كان كالكلب أو الحمار ٦٣٨
ـ من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال ٦٥٢
ـ الاشتغالُ بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصيةٌ ٦٥٤
ـ الاشتغال بالطامّات والشطح طلبٌ للإغراب ٦٦٣
الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل ٦٧٦
ـ تحقيق حروف الفاتحة مع الذهول عن المعنى من أقبح أنواع الغرور .. ٦٧٧
ـ ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الغرور ٦٨٤
الصنف الثالث: المتصوفة ٦٨٧
الصنف الرابع: أرباب الأموال ٦٩٩
ـ **تحريجة**: لا يقوىٰ أحد من البشر علىٰ الحذر من خفايا هذه الآفات؟ .. ٧٠٧
ـ **تحريجة**: فبم ينجو العبد من الغرور؟ ٧٠٩
ـ **تحريجة**: إن فعل العبد ما ينجو به من الغرور فما الذي يخاف عليه؟ .. ٧١٤
ـ **تحريجة**: متىٰ يصح أن يشتغل بنصح الناس؟ ٧١٨
ـ **تحريجة**: لو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعاظ وخربت القلوب؟ ٧١٩
ـ **تحريجة**: ما الذي بقي بين يدي المريد من الأخطار وحبائل الاغترار بعد علمه بمكيدة الشيطان وإصلاح نفسه؟ ٧٢٠
ـ **تحريجة**: ما الذي يُخاف على المريد بعد نفي العجب؟ ٧٢١
محتوى الكتاب ٧٢٥

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف
الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١م)

ربع المنجيات / القسم الأول

كتاب
التوبة ـ الصبر والشكر
الرجاء والخوف

المجلد السابع

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بسم الله الرحمن الرحيم

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كِتَابُ التَّوْبَةِ

وهو الكتاب الأوّل من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي بتحميدِهِ يُستفتحُ كلُّ كتابٍ ، وبذكرِهِ يُصدَّرُ كلُّ خطابٍ ، وبحمدِهِ يتنعَّمُ أهلُ النعيمِ في دارِ الثوابِ ، وباسمِهِ يتسلَّى الأشقياءُ وإنْ أرخىٰ دونَهُمُ الحجابَ ، وضربَ بينَهُمْ وبينَ السعداءِ بسورٍ لهُ بابٌ ، باطنُهُ فيهِ الرحمةُ وظاهرُهُ مِنْ قبلِهِ العذابُ .

ونتوبُ إليهِ توبةَ مَنْ يوقنُ أنَّهُ ربُّ الأربابِ ، ومسبِّبُ الأسبابِ ، ونرجوهُ رجاءَ مَنْ يعلمُ أنَّهُ الملكُ الرحيمُ الغفورُ التوَّابُ ، ونمزجُ برجائِنا الخوفَ مزْجَ مَنْ لا يرتابُ أنَّهُ معَ كونِهِ غافرَ الذنبِ وقابلَ التوبِ شديدُ العقابِ .

ونصلِّي علىٰ نبيِّهِ محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ الأكرمينَ صلاةً تنقذُنا مِنْ هولِ المُطَّلَعِ يومَ العرضِ والحسابِ[1] ، وتمهدُ لنا عندَ اللهِ زلفىٰ وحسنَ مآبٍ .

أما بعـد :

فإنَّ التوبةَ عنِ الذنوبِ بالرجوعِ إلىٰ ستَّارِ العيوبِ وعلاَّمِ الغيوبِ مبدأُ طريقِ السالكينَ ، ورأسُ مالِ الفائزينَ ، وأوَّلُ إقدامِ المريدينَ ، ومفتاحُ

---

(١) **المُطَّلَع** : ما يطلع عليه من أهوال الآخرة وشدائدها ، ولا يبعد أن تكون المَطْلَع موضع الطلوع ، أو بكسر اللام وقت الطلوع . انظر « مشارق الأنوار » (١/ ٣١٩) .

استقامةِ المائلينَ ، ومَطلَعُ الاصطفاءِ والاجتباءِ للمقرَّبينَ ، ولأبينا آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ سائرِ الأنبياءِ أجمعينَ .

وما أجدرَ بالأولادِ الاقتداءَ بالآباءِ والأجدادِ ، فلا غروَ إنْ أذنبَ الآدميُّ واجترمَ ؛ فهيَ شِنْشِنَةٌ يعرفُها مِنْ أخزمَ ، ومَنْ أشبهَ أباهُ فما ظلمَ ، ولكنَّ الأبَ إذا جبرَ بعدَ أنْ كسرَ ، وعَمَرَ بعدَ أنْ هدمَ . . فليكنِ النزوعُ إليهِ في كلا طرفي النفيِ والإثباتِ ، والوجودِ والعدمِ ، ولقدْ قرعَ آدمُ عليهِ السلامُ سنَّ الندمِ ، وتندَّمَ علىٰ ما سبقَ منهُ وتقدَّمَ ، فمَنِ اتخذَهُ قدوةً في الذنبِ دونَ التوبةِ . . فقدْ زلَّتْ بهِ القدمُ .

بلِ التجرُّدُ لمحضِ الخيرِ دأبُ الملائكةِ المقرَّبينَ ، والتجرُّدُ للشرِّ دونَ التلافي سجيَّةُ الشياطينِ ، والرجوعُ إلى الخيرِ بعدَ الوقوعِ في الشرِّ ضرورةُ الآدميينَ ، فالمتجرِّدُ للخيرِ مَلَكٌ مقرَّبٌ عندَ الملكِ الديَّانِ ، والمتجرِّدُ للشرِّ شيطانٌ ، والمتلافي للشرِّ بالرجوعِ إلى الخيرِ بالحقيقةِ إنسانٌ ، فقدِ ازدوجَ في طينةِ الإنسانِ شائبتانِ ، واصطحبَ فيهِ سجيَّتانِ ، وكلُّ عبدٍ مصحِّحٌ نسبَهُ ؛ إمَّا إلى المَلَكِ ، أوْ إلىٰ آدمَ ، أوْ إلى الشيطانِ :

فالتائبُ قدْ أقامَ البرهانَ علىٰ صحَّةِ نسبهِ إلىٰ آدمَ عليهِ السلامُ بملازمةِ حدِّ الإنسانِ .

والمصرُّ على الطغيانِ مسجِّلٌ علىٰ نفسِهِ بنسبِ الشيطانِ[1] .

---

(١) في (ب) : (منتحل لنفسه) بدل (مسجل علىٰ نفسه) .

فأمَّا تصحيحُ النسبِ بالتجرُّدِ لمحضِ الخيرِ إلى الملائكةِ . . فخارجٌ عنْ حَيِّزِ الإمكانِ ؛ فإنَّ الشرَّ معجونٌ معَ الخيرِ في طينةِ آدمَ عليهِ السلامُ عجناً محكماً ، لا يخلِّصُهُ إلا إحدىٰ نارينِ ؛ نارِ الندمِ أوْ نارِ جهنَّمَ ، فالإحراقُ بالنارِ ضروريٌّ في تخليصِ جوهرِ الإنسانِ عنْ خبائثِ الشيطانِ .

وإليكَ الآنَ اختيارُ أهونِ الشرَّينِ ، والمبادرةُ إلىٰ أخفِّ النارينِ ، قبلَ أنْ يُطوىٰ بساطُ الاختيارِ ، ويُساقَ إلىٰ دارِ الاضطرارِ ، إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النارِ .

وإذا كانَتِ التوبةُ موقعُها مِنَ الدينِ هـٰذا الموقعُ . . وجبَ تقديمُها في صدْرِ ربعِ المنجياتِ ؛ بشرحِ حقيقتِها ، وشروطِها ، وسببِها ، وعلامتِها ، وثمرتِها ، والآفاتِ المانعةِ منها ، والأدويةِ الميسِّرةِ لها ، **ويتضحُ ذلكَ بذكرِ أربعةِ أركانٍ** :

الركنُ الأوَّلُ : في نفسِ التوبةِ ، وبيانِ حدِّها وحقيقتِها ، وأنَّها واجبةٌ على الفورِ ، وعلىٰ جميعِ الأشخاصِ ، وفي جميعِ الأحوالِ ، وأنَّها إذا صحَّتْ . . كانَتْ مقبولةً .

الركنُ الثاني : فيما عنهُ التوبةُ ؛ وهيَ الذنوبُ ، وبيانِ انقسامِها إلىٰ صغائرَ وكبائرَ ، وما يتعلَّقُ بالعبادِ وما يتعلَّقُ بحقِّ اللهِ تعالىٰ ، وبيانِ كيفيَّةِ توزُّعِ الدرجاتِ والدركاتِ على الحسناتِ والسيئاتِ ، وبيانِ الأسبابِ التي بها تعظمُ الصغائرُ .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ شروطِ التوبةِ ودوامِها ، وكيفيَّةِ تداركِ ما مضىٰ مِنَ المظالمِ ، وكيفيةِ تكفيرِ الذنوبِ ، وبيانِ أقسامِ التائبينَ في دوامِ التوبةِ .

الركنُ الرابعُ : في السببِ الباعثِ على التوبةِ ، وكيفيةِ العلاجِ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ مِنَ المذنبينَ .

ويتمُّ المقصودُ بهـٰذه الأركانِ الأربعةِ إنْ شاءَ الله تعالىٰ .

* * *

الرُّكنُ الأوَّلُ
في نفسِ التّوبة

بيان حقيقة التّوبة وحدِّها

اعلمْ : أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ معنىً ينتظمُ ويلتئمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ مرتَّبةٍ : علمٍ ، وحالٍ ، وفعلٍ ، فالعلمُ أوَّلُ ، والحالُ ثانٍ ، والفعلُ ثالثٌ ، والأوَّلُ موجِبٌ للثاني ، والثاني موجِبٌ للثالثِ إيجاباً اقتضاهُ اطرادُ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في الملكِ والملكوتِ .

أمَّا العلمُ . . فهوَ معرفةُ عظَمِ ضررِ الذنوبِ ، وكونِها حجاباً بينَ العبدِ وبينَ كلِّ محبوبٍ .

فإذا عرفَ ذلكَ معرفةً محقَّقةً بيقينٍ غالبٍ علىٰ قلبِهِ . . ثارَ مِنْ هٰذهِ المعرفةِ تألُّمٌ للقلبِ بسببِ فواتِ المحبوبِ ؛ فإنَّ القلبَ مهما شعرَ بفواتِ محبوبِهِ . . تألَّمَ .

فإنْ كانَ فواتُهُ بفعلِهِ . . تأسَّفَ على الفعلِ المفوِّتِ ، فيُسمَّىٰ تألُّمُهُ بسببِ فعلِهِ المفوِّتِ لمحبوبِهِ ندماً .

فإذا غلبَ هٰذا الألمُ على القلبِ واستولىٰ . . انبعثَ مِنْ هٰذا الألمِ في

القلبِ حالةٌ أخرىٰ تسمَّىٰ إرادةً وقصداً إلىٰ فعلٍ لهُ تعلُّقٌ بالحالِ ، وبالماضي ، وبالاستقبالِ :

أمَّا تعلُّقُهُ بالحالِ . . فبالتركِ للذنبِ الذي كانَ ملابساً لهُ .

وأمَّا بالاستقبالِ . . فبالعزمِ علىٰ تركِ الذنبِ المفوِّتِ للمحبوبِ إلىٰ آخرِ العمرِ .

وأمَّا بالماضي . . فبتلافي ما فاتَ بالجبْرِ والقضاءِ إنْ كانَ قابلاً للجبْرِ .

فالعلمُ هوَ الأوَّلُ ، وهوَ مطلَعُ هٰذهِ الخيراتِ ، وأعني بهٰذا العلمِ الإيمانَ واليقينَ ؛ فإنَّ الإيمانَ عبارةٌ عنِ التصديقِ بأنَّ الذنوبَ سمومٌ مهلكةٌ ، واليقينَ عبارةٌ عنْ تأكُّدِ هٰذا التصديقِ ، وانتفاءِ الشكِّ عنهُ ، واستيلائِهِ على القلبِ ، فيثمرُ نورُ هٰذا الإيمانِ مهما أشرقَ على القلبِ نارَ الندمِ ، فيتألَّمُ بها القلبُ حيثُ يبصرُ بإشراقِ نورِ الإيمانِ أنَّهُ صارَ محجوباً عنْ محبوبِهِ ؛ كمَنْ يشرقُ عليهِ نورُ الشمسِ وقدْ كانَ في ظلمةٍ ، فسطعَ النورُ عليهِ بانقشاعِ سحابٍ أوِ انحسارِ حجابٍ ، فرأىٰ محبوبَهُ قدْ أشرفَ على الهلاكِ ، فتشتعلُ نيرانُ الحبِّ في قلبِهِ ، فتنبعثُ بتلكَ النيرانِ إرادتُهُ للانتهاضِ للتدارُكِ .

فالعلمُ ، والندمُ ، والقصدُ المتعلِّقُ بالتركِ في الحالِ والاستقبالِ والتلافي للماضي . . ثلاثةُ معانٍ مرتبةٍ في الحصولِ ، يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ مجموعِها .

وكثيراً ما يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ معنى الندمِ وحدَهُ ، ويُجعلُ العلمُ كالسابقِ والمقدمةِ ، والتركُ كالثمرةِ والتابعِ المتأخِّرِ ، وبهـٰذا الاعتبارِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »[1] ؛ إذْ لا يخلو الندمُ عنْ علمٍ أوجبَهُ وأثمرَهُ ، وعنْ عزمٍ يتبعُهُ ويتلوهُ ، فيكونُ الندمُ محفوفاً بطرفيهِ ؛ أعني : ثمرتَهُ ومثمرَهُ[2] .

وبهـٰذا الاعتبارِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إنَّهُ ذوبانُ الحشا لما سبقَ مِنَ الخطا[3] ، فإنَّ هـٰذا يعرضُ لمجرَّدِ الألمِ .

وكذلكَ قيلَ : هوَ نارٌ في القلبِ تلتهبُ ، وصدعٌ في الكبدِ لا ينشعبُ .

وباعتبارِ معنى التركِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إنَّهُ خلعُ لباسِ الجفاءِ ، ونشرُ بساطِ الوفاءِ[4] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (التوبةُ : تبديلُ الحركاتِ المذمومةِ بالحركاتِ المحمودةِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بالخلوةِ ، والصمتِ ، وأكلِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(٢) فالمثمر هو العلم ، والثمرة هي العزم .

(٣) والحشا داخل البطن ، وذوبانه بتأثير ألم فيه عن الزلات السابقة . « إتحاف » (٨/ ٥٠٣) .

(٤) والمراد بخلع لباس الجفاء ألا يعود إلىٰ ما يبعده عن حضرة الله ، وينشر لباس الوفاء بأن يستقيم عليه ، فلا يمر بباله الجفاء حتىٰ ذكره ؛ إذ ذكر الجفاء حال الصفاء جفاء . انظر « الإتحاف » (٨/ ٥٠٣) .

الحلالِ)[1] ، وكأنَّهُ أشارَ إلى المعنى الثالثِ مِنَ التوبةِ .

والأقاويلُ في حدودِ التوبةِ لا تنحصرُ ، وإذا فهمتَ هـٰذهِ المعانيَ الثلاثةَ وتلازمَها وترتيبَها . . عرفتَ أنَّ جميعَ ما قيلَ في حدودِها قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بجميعِ معانيها ، وطلبُ العلمِ بحقائقِ الأمورِ أهمُّ مِنْ طلبِ الألفاظِ المجرَّدةِ .

* * *

(١) تفسير التستري (ص٧٤) ، وأورده له صاحب « القوت » (١/ ١٨١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٧) .

بيان وجوب التّوبة وفضلها

اعلمْ : أنَّ وجوبَ التوبةِ ظاهرٌ بالأخبارِ والآياتِ ، وهوَ واضحٌ بنورِ البصيرةِ عندَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ ، وشرحَ اللهُ بنورِ الإيمانِ صدرَهُ ، حتَّى اقتدرَ علىٰ أنْ يسعىٰ بنورِهِ الذي بينَ يديهِ في ظلماتِ الجهلِ ، مستغنياً عنْ قائدٍ يقودُهُ في كلِّ خطوةٍ ، فالسالكُ إمَّا **أعمىٰ** لا يستغني عنِ القائدِ في خطوِهِ ، وإمَّا **بصيرٌ** يُهدىٰ إلىٰ أوَّلِ الطريقِ ثمَّ يهتدي بنفسِهِ .

وكذلكَ الناسُ في طريقِ الدينِ ينقسمونَ هٰذا الانقسامَ ؛ فمِنْ **قاصرٍ** لا يقدرُ علىٰ مجاوزةِ التقليدِ في خطوِهِ ، فيفتقرُ إلىٰ أنْ يسمعَ في كلِّ قدمٍ نصّاً مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ أوْ سنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وربَّما يعوزُهُ ذلكَ فيتحيَّرُ ، فسيرُ هٰذا وإنْ طالَ عمرُهُ وعظمَ جِدُّهُ مختصرٌ ، وخطاهُ قاصرةٌ ، ومِنْ **سعيدٍ** شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ ، فهوَ علىٰ نورٍ مِنْ ربِّهِ ، يتنبَّهُ بأدنىٰ إشارةٍ لسلوكِ طريقٍ معوصةٍ ، وقطعِ عقباتٍ متعبةٍ ، فيشرقُ في قلبِهِ نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ ، وهوَ لشدَّةِ نورِ باطنِهِ يجتزىءُ بأدنىٰ بيانٍ[1] ، وكأنَّهُ يكادُ زيتُهُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فإذا مسَّتْهُ نارٌ . . فهوَ نورٌ علىٰ نورٍ ، يهدي اللهُ لنورِهِ مَنْ يشاءُ ، فهٰذا لا يحتاجُ إلىٰ نصٍّ منقولٍ في كلِّ واقعةٍ .

فمَنْ هٰذا حالُهُ إذا أرادَ أنْ يعرفَ وجوبَ التوبةِ . . فينظرُ أوَّلاً بنورِ

(١) **يجتزىء** : يكتفي .

البصيرةِ إلى التوبةِ ما هيَ ، ثمَّ إلى الوجوبِ ما معناهُ ، ثمَّ يجمعُ بينَ معنى الوجوبِ والتوبةِ ، فلا يشكُّ في ثبوتِهِ لها ؛ وذلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ معنى الواجبِ ما هوَ واجبٌ في الوصولِ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، والنجاةِ مِنْ هلاكِ الأبدِ ، وأنَّهُ لولا تعلُّقُ السعادةِ والشقاوةِ بفعلِ الشيءِ وتركِهِ . . لمْ يكنْ لوصفِهِ بكونِهِ واجباً معنىً معقولٌ ، وقولُ القائلِ : (صارَ واجباً بالإيجابِ) حديثٌ محضٌ ؛ فإنَّ ما لا غرضَ لنا عاجلاً وآجلاً في فعلِهِ وتركِهِ فلا معنىٰ لاشتغالِنا بهِ ، أوجبَهُ علينا غيرُنا أوْ لمْ يوجبْهُ .

فإذا عرفَ معنى الوجوبِ ، وأنَّهُ الوسيلةُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، وعلمَ أنَّهُ لا سعادةَ في دارِ البقاءِ إلا في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ كلَّ محجوبٍ عنهُ يشقىٰ لا محالةَ ، مَحولٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، محترقٌ بنارِ الفراقِ ونارِ جهنَّمَ ، وعلمَ أنَّهُ لا مبعِدَ عنْ لقاءِ اللهِ إلا اتباعُ الشهواتِ ، والأنسُ بهٰذا العالمِ الفاني ، والإكبابُ علىٰ حبِّ ما لا بدَّ مِنْ فراقِهِ قطعاً ، وعلمَ أنَّهُ لا مقرِّبَ مِنْ لقاءِ اللهِ إلا قطعُ علاقةِ القلبِ عنْ زخرفِ هٰذا العالمِ ، والإقبالُ بالكليَّةِ على اللهِ ؛ طلباً للأنسِ بهِ بدوامِ ذكرِهِ ، وللمحبةِ لهُ بمعرفةِ جلالِهِ وجمالِهِ علىٰ قدْرِ طاقتِهِ ، وعلمَ أنَّ الذنوبَ التي هيَ إعراضٌ عنِ اللهِ واتباعٌ لمحابِّ الشياطينِ أعداءِ اللهِ المبعدينَ عنْ حضرتِهِ سببُ كونِهِ محجوباً مبعَداً عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يشكُّ في أنَّ الانصرافَ عنْ طريقِ البعدِ واجبٌ للوصولِ إلى القربِ ، وإنَّما يتمُّ الانصرافُ بالعلمِ والندمِ والعزمِ ، فإنَّهُ ما لمْ يعلمْ أنَّ الذنوبَ أسبابٌ للبعدِ عنِ المحبوبِ . . لمْ يتندَّمْ ولمْ يتوجَّعْ بسببِ سلوكِهِ في

طريقِ البعدِ، وما لمْ يتوجَّعْ . . فلا يرجعُ ، ومعنى الرجوعِ : التركُ والعزمُ ، فلا يشكُّ في أنَّ المعانيَ الثلاثةَ ضروريةٌ في الوصولِ إلى المحبوبِ .

فهكذا يكونُ الإيمانُ الحاصلُ عنْ نورِ البصيرةِ .

وأمَّا مَنْ لمْ يترشَّحْ لمثلِ هـٰذا المقامِ المرتفعِ ذروتُهُ عنْ حدودِ أفهامِ أكثرِ الخلقِ . . ففي التقليدِ والاتباعِ لهُ مجالٌ رحبٌ ، يتوصَّلُ بهِ إلى النجاةِ مِنَ الهلاكِ ، فليلاحظْ فيهِ قولَ اللهِ تعالىٰ ، وقولَ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولَ السلفِ الصالحينَ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وهـٰذا أمرٌ على العمومِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ الآيةَ ، ومعنى النصوحِ : الخالصُ للهِ تعالىٰ خالياً عنِ الشوائبِ ، مأخوذٌ مِنَ النُّصْحِ .

ويدلُّ علىٰ فضْلِ التوبةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ حبيبُ اللهِ ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »(١) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٧٩) ، وقوله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) ، وصدر الحديث نصَّت عليه الآية المتقدمة ، وقد روى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٣) عن الشعبي أنه ذكر حديث ابن ماجه وتلا هـٰذه الآية ، وروىٰ أيضاً (١٨٤) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه : « إن الله يحب الشاب التائب » .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ المؤمنِ مِنْ رجلٍ نزلَ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مهلكةٍ ، معَهُ راحلتُهُ عليها طعامُهُ وشرابُهُ ، فوضعَ رأسَهُ ، فنامَ نومةً ، فاستيقظَ وقدْ ذهبَتْ راحلتُهُ ، فطلبَها ، حتَّىٰ إذا اشتدَّ عليهِ الحرُّ والعطشُ أوْ ما شاءَ اللهُ . . قالَ : أرجعُ إلىٰ مكاني الذي كنتُ فيهِ فأنامُ حتَّىٰ أموتَ ، فوضعَ رأسَهُ علىٰ ساعدِهِ ليموتَ ، فاستيقظَ ، فإذا راحلتُهُ عندَهُ عليها زادُهُ وشرابُهُ ، فاللهُ تعالىٰ أشدُّ فرحاً بتوبةِ العبدِ المؤمنِ مِنْ هـٰذا براحلتِهِ »(١) ، وفي بعضِ الألفاظِ قالَ مِنْ شدَّةِ فرحِهِ إذْ أرادَ شكْرَ اللهِ : « اللهمَّ ؛ أنا ربُّكَ وأنتَ عبدي »(٢) .

ويروىٰ عنِ الحسنِ قالَ : لمَّا تابَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ . . هنَّأَتْهُ الملائكةُ ، وهبطَ عليهِ جبريلُ وميكائيلُ ودرديائيلُ فقالوا : يا آدمُ ؛ قرَّتْ عينُكَ بتوبةِ اللهِ عليكَ ، فقالَ آدمُ عليهِ السلامُ : يا جبريلُ ؛ فإنْ كانَ بعدَ هـٰذهِ التوبةِ سؤالٌ . . فأينَ مقامي ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ورَّثْتَ ذرِّيتَكَ التعبَ والنصبَ ، وورَّثْتُهُمُ التوبةَ ، فمَنْ دعاني منهُمْ بدعوتِكَ . . لبَّيْتُهُ كما لبَّيْتُكَ ، ومَنْ سألَني المغفرةَ . . لمْ أبخلْ عليهِ ؛ لأنِّي قريبٌ مجيبٌ يا آدمُ ، وأحشرُ التائبينَ مِنَ القبورِ مستبشرينَ ضاحكينَ ، ودعاؤُهُمْ مستجابٌ(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) واللفظ له .

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧) بتقديم وتأخير .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٩) .

والأخبارُ والآثارُ في ذلكَ لا تُحصىٰ ، والإجماعُ منعقدٌ مِنَ الأمَّةِ علىٰ وجوبِها ؛ إذْ معناهُ العلمُ بأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ مهلكاتٌ ومبعِداتٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا داخلٌ في وجوبِ الإيمانِ ، ولكنْ قدْ تدهشُ الغفلةُ عنهُ ، فمعنىٰ هـٰذا العلمِ إزالةُ هـٰذهِ الغفلةِ ، ولا خلافَ في وجوبِها .

ومِنْ معانيها : تركُ المعاصي في الحالِ ، والعزمُ علىٰ تركِها في الاستقبالِ ، وتدارُكُ ما سبقَ مِنَ التقصيرِ في سابقِ الأحوالِ ، وذلكَ لا يُشكُّ في وجوبِهِ .

وأمَّا التندُّمُ علىٰ ما سبقَ والتحزُّنُ عليهِ . . فواجبٌ ، وهوَ روحُ التوبةِ ، وبهِ تمامُ التلافي ، فكيفَ لا يكونُ واجباً ؟! بلْ هوَ نوعُ ألمٍ يحصلُ ـ لا محالةَ ـ عَقيبَ حقيقةِ المعرفةِ بما فاتَ مِنَ العمرِ وضاعَ في سخطِ اللهِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : تألُّمُ القلبِ أمرٌ ضروريٌّ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فكيفَ يُوصفُ بالوجوبِ ؟[1] .

فاعلمْ : أنَّ سببَهُ تحقيقُ العلمِ بفواتِ المحبوبِ ، ولهُ سبيلٌ إلىٰ تحصيلِ سببِهِ ، وبمثلِ هـٰذا المعنىٰ دخلَ العلمُ تحتَ الوجوبِ ، لا بمعنىٰ أنَّ العلمَ يخلقُهُ العبدُ ويحدثُهُ في نفسِهِ ، فإنَّ ذلكَ محالٌ ، بلِ العلمُ والندمُ والفعلُ

---

(١) أي : كيف يوصف بوجوب الإيجاد وهو موجود بالضرورة لعلمنا بأن من فعل كذا . . فقد عصى الله تعالىٰ ، ومن عصاه . . فقد فاته محبوبه ونأىٰ عن سعادته ؟

والإرادةُ والقدرةُ والقادرُ والمقدورُ والكلُّ[1] مِنْ خلقِ اللهِ وفعلِهِ ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هٰذا هوَ الحقُّ عندَ ذوي البصائرِ ، وما سوىٰ هٰذا ضلالٌ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : أفليسَ للعبدِ اختيارٌ في الفعلِ والتركِ ؟

قلنا : نعمْ ، وذلكَ لا يناقضُ قولَنا : (إنَّ الكلَّ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ) ، بلِ الاختيارُ أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ ، والعبدُ مضطرٌّ في الاختيارِ الذي لهُ ؛ فإنَّ اللهَ إذا خلقَ اليدَ الصحيحةَ ، وخلقَ الطعامَ اللذيذَ ، وخلقَ الشهوةَ للطعامِ في المعدةِ ، وخلقَ العلمَ في القلبِ بأنَّ هٰذا الطعامَ مسكِّنٌ للشهوةِ ، وخلقَ الخواطرَ المتعارضةَ في أنَّ هٰذا الطعامَ هلْ فيهِ مضرَّةٌ معَ أنَّهُ يسكِّنُ الشهوةَ ، وهلْ دونَ تناولِهِ مانعٌ يتعذَّرُ معَهُ تناولُهُ أمْ لا ، ثمَّ خلقَ العلمَ بأنَّهُ لا مانعَ . . فعندَ اجتماعِ هٰذهِ الأسبابِ تنجزمُ الإرادةُ الباعثةُ على التناولِ ، فانجزامُ الإرادةِ بعدَ تردُّدِ الخواطرِ المتعارضةِ وبعدَ قوَّةِ الشهوةِ للطعامِ يسمَّى اختياراً ، ولا بدَّ مِنْ حصولِهِ عندَ تمامِ أسبابِهِ ، فإذا حصلَ انجزامُ الإرادةِ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ إيَّاها . . تحرَّكتِ اليدُ الصحيحةُ إلىٰ جهةِ الطعامِ لا محالةَ ؛ إذْ بعدَ تمامِ الإرادةِ والقدرةِ يكونُ حصولُ الفعلِ ضرورياً ، فتحصلُ

---

(١) كذا في جميع النسخ : (والكل) بإثبات الواو ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٥٠٨) بإسقاطها .

الحركةُ ، فتكونُ الحركةُ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ بعدَ حصولِ القدرةِ وانجزامِ الإرادةِ ، وهما أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ ، وانجزامُ الإرادةِ يحصلُ بعدَ صدقِ الشهوةِ والعلمِ بعدمِ الموانعِ ، وهما أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُ هـٰذهِ المخلوقاتِ يترتَّبُ على البعضِ ترتباً جرَتْ بهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في خلقِهِ ، ولنْ تجدَ لسنَّةِ اللهِ تبديلاً ، فلا يخلقُ اللهُ حركةَ اليدِ بكتابةٍ منظومةٍ ما لمْ يخلقْ فيها صفةً تسمَّىٰ قدرةً ، وما لمْ يخلقْ فيها حياةً ، وما لمْ يخلقْ إرادةً مجزومةً ، ولا يخلقُ الإرادةَ المجزومةَ ما لمْ يخلقْ شهوةً وميلاً في النفسِ ، ولا ينبعثُ هـٰذا الميلُ انبعاثاً تاماً ما لمْ يخلقْ علماً بأنَّهُ موافقٌ للنفسِ ؛ إمَّا في الحالِ أوْ في المآلِ ، ولا يخلقُ العلمَ أيضاً إلا بأسبابٍ أخرَ ترجعُ إلىٰ حركةٍ وإرادةٍ وعلمٍ .

فالعلمُ والميلُ الطبيعيُّ أبداً يستتبعُ الإرادةَ الجازمةَ ، والإرادةُ والقدرةُ أبداً تستردفُ الحركةَ ، وهـٰكذا الترتيبُ في كلِّ فعلٍ ، والكلُّ مِنِ اختراعِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُ مخلوقاتِهِ شرطٌ لبعضٍ ، فلذلكَ يجبُ تقدُّمُ البعضِ وتأخُّرُ البعضِ ؛ كما لا تُخلقُ الإرادةُ إلا بعدَ العلمِ ، ولا يُخلقُ العلمُ إلا بعدَ الحياةِ ، ولا تُخلقُ الحياةُ إلا بعدَ الجسمِ ، فيكونُ خلقُ الجسمِ شرطاً لحدوثِ الحياةِ ، لا أنَّ الحياةَ تتولَّدُ مِنَ الجسمِ ، ويكونُ خلقُ الحياةِ شرطاً لخلقِ العلمِ ، لا أنَّ العلمَ يتولَّدُ مِنَ الحياةِ ، ولكنْ لا يستعدُّ المحلُّ لقبولِ العلمِ إلا إذا كانَ حيّاً ، ويكونُ خلقُ العلمِ شرطاً لجزمِ الإرادةِ ، لا أنَّ العلمَ يولِّدُ الإرادةَ ، ولكنْ لا يقبلُ الإرادةَ إلا جسمٌ حيٌّ عالمٌ .

ولا يدخلُ في الوجودِ إلا ممكنٌ ، وللإمكانِ ترتيبٌ لا يقبلُ التغييرَ ؛ لأنَّ تغييرَهُ محالٌ ، فمهما وُجدَ شرطُ الوصفِ . . استعدَّ المحلُّ بهِ لقبولِ الوصفِ ، فحصلَ ذلكَ الوصفُ مِنَ الجودِ الإلـٰهيِّ والقدرةِ الأزليَّةِ عندَ حصولِ الاستعدادِ ، ولمَّا كانَ للاستعدادِ بسببِ الشروطِ ترتيبٌ . . كانَ لحصولِ الحوادثِ بفعلِ اللهِ تعالىٰ ترتيبٌ ، والعبدُ مجرىٰ هـٰذهِ الحوادثِ المرتَّبةِ ، وهيَ مرتَّبةٌ في قضاءِ اللهِ تعالى الذي هوَ واحدٌ كلمحِ البصرِ ، ترتيباً كلِّيّاً لا يتغيَّرُ ، وظهورُها بالتفصيلِ مقدرٌ بقدَرٍ لا يتعداهُ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وعنِ القضاءِ الكلِّيِّ الأزليِّ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ .

وأمَّا العبادُ . . فإنَّهُمْ مسخَّرونَ تحتَ مجاري القضاءِ والقدرِ ، ومِنْ جملةِ القدرِ خلقُ حركةٍ في يدِ الكاتبِ بعدَ خلقِ صفةٍ مخصوصةٍ في يدِهِ تُسمَّى القدرةَ ، وبعدَ خلقِ ميلٍ قويٍّ جازمٍ في نفسِهِ يُسمَّى القصْدَ ، وبعدَ علمٍ بما إليهِ ميلُهُ يُسمَّى الإدراكَ والمعرفةَ .

فإذا ظهرَتْ مِنْ باطنِ الملكوتِ هـٰذهِ الأمورُ الأربعةُ علىٰ جسمِ عبدٍ مسخَّرٍ تحتَ قهرِ التقديرِ . . سبقَ أهلُ عالمِ الملكِ والشهادةِ المحجوبونَ عنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ وقالوا : أيُّها الرجلُ ؛ قدْ تحرَّكتَ وكتبتَ ورميتَ ، ونُوديَ مِنْ وراءِ حُجُبِ الغيبِ ، وسرادقاتِ الملكوتِ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ، وما قتلتَ إذْ قتلتَ ولكنَّ اللهَ قتلهُمُ ، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وعندَ هٰذا تتحيَّرُ عقولُ القاعدينَ في بحبوحةِ عالمِ الشهادةِ :

فمِنْ قائلٍ : إنَّهُ جبرٌ محضٌ .

ومِنْ قائلٍ : إنَّهُ اختراعٌ صِرْفٌ(١) .

ومِنْ متوسِّطٍ مائلٍ إلىٰ أنَّهُ كسبٌ(٢) .

ولوْ فُتِحَتْ لهمْ أبوابُ السماءِ ، فنظروا إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ . . لظهرَ لهُمْ أنَّ كلَّ واحدٍ صادقٌ مِنْ وجهٍ ، وأنَّ القصورَ شاملٌ لجميعِهِمْ(٣) ، فلمْ يدركْ واحدٌ منهُمْ كنهَ هٰذا الأمرِ ، ولمْ يحطْ علمُهُ بجوانبِهِ ، وتمامُ علمِهِ يُنالُ بإشراقِ النورِ مِنْ كوَّةٍ نافذةٍ إلىٰ عالمِ الغيبِ ، وأنَّهُ تعالىٰ عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلا مَنِ ارتضىٰ مِنْ رسولٍ ، وقدْ يُطلعُ على الشهادةِ مَنْ لمْ يدخلْ في حيِّزِ الارتضاءِ .

---

(١) أي : من فعل العبد ، وهٰؤلاء هم القدرية . « إتحاف » (٨/ ٥١٠) .

(٢) فيسندون الفعل إلى الله ويثبتون للعبد كسباً في الفعل ، وهٰؤلاء هم الأشاعرة من أهل السنة والجماعة ومن وافقهم في هٰذه المسألة من الماتريدية ، إلا أنهم سمَّوه جزءاً اختيارياً ، وهٰؤلاء هم المتوسطة . « إتحاف » (٨/ ٥١٠) .

(٣) علىٰ تفاوت بينهم ، فقصور المتوسط في إدراك كنه هٰذا الأمر وتمام علمه ، والطرفان قصورهم في مناقضتهم للتلفيق بين ظواهر النصوص ومقتضيات العقول فضلاً عن ذلك ، وسيبين المصنف هٰذا بمثال في التحريجة الآتية .

ومَنْ حرَّكَ سلسلةَ الأسبابِ والمسبَّباتِ ، وعلمَ كيفيَّةَ تسلسلِها ، ووجهَ ارتباطِ مناطِ سلسلتِها بمسبِّبِ الأسبابِ . . انكشفَ لهُ سرُّ القدَرِ ، وعلمَ علماً يقيناً أنْ لا خالقَ إلا اللهُ ، ولا مبدعَ سواهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قضيتَ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ القائلينَ بالجبْرِ والاختراعِ والكسبِ بأنَّهُ صادقٌ مِنْ وجهٍ ، وهوَ معَ صدقِهِ قاصرٌ ، وهٰذا متناقضٌ ، فكيفَ يمكنُ فهْمُ ذلكَ ؟ وهلْ يمكنُ إيصالُ ذلكَ إلى الأفهامِ بمثالٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ جماعةً مِن العميانِ سمعوا أنَّهُ قدْ حُمِلَ إلى البلدةِ حيوانٌ عجيبٌ يُسمَّى الفيلَ ، وما كانوا قطُّ شاهدوا صورتَهُ ، ولا سمعوا اسمَهُ ، فقالوا : لا بدَّ لنا مِنْ مشاهدتِهِ ومعرفتِهِ باللمسِ الذي نقدرُ عليهِ ، فطلبوهُ ، فلما وصلوا إليهِ . . لمسوهُ ، فوقعَتْ يدُ بعضِ العميانِ علىٰ رجلِهِ ، ووقعَتْ يدُ بعضِهِمْ علىٰ نابِهِ ، ووقعَتْ يدُ بعضِهِمْ علىٰ أذنِهِ ، فقالوا : قدْ عرفناهُ ، فلما انصرفوا . . سألَهُمْ بقيَّةُ العميانِ ، فاختلفَ أجوبتُهُمْ :

فقالَ الذي لمسَ الرجْلَ : إنَّ الفيلَ ما هوَ إلا مثلُ أُسطوانةٍ خشنةِ الظاهرِ ، إلا أنَّهُ ألينُ منها .

وقالَ الذي لمسَ النابَ : ليسَ كما يقولُ ، بلْ هوَ صلْبٌ لا لينَ فيهِ ، وأملسُ لا خشونةَ فيهِ ، وليسَ في غلظِ الأسطوانةِ أصلاً ، بلْ هوَ مثلُ عمودٍ .

وقالَ الذي لمسَ الأُذُنَ : لعمري هوَ ليِّنٌ وفيهِ خشونةٌ ، فصدَّقَ أحدَهُمَا فيهِ ، ولكنْ قالَ : ما هوَ مثلَ عمودٍ ، ولا هو مثلَ أُسطوانةٍ ، وإنَّما هوَ مثلُ جلدٍ عريضٍ غليظٍ .

فكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ صدقَ مِنْ وجهٍ ، إذْ أخبرَ كلُّ واحدٍ عمَّا أصابَهُ مِنْ معرفةِ الفيلِ ، ولمْ يخرجْ واحدٌ في خبرِهِ عنْ وصفِ الفيلِ ، ولكنَّهُمْ بجملتِهِمْ قصَّروا عنِ الإحاطةِ بكُنْهِ صورةِ الفيلِ .

فاستبصرْ بهـٰذا المثالِ واعتبرْ بهِ ، فإنَّهُ مثالُ أكثرِ ما اختلفَ الناسُ فيهِ .

وإذا كانَ هـٰذا كلاماً يناطحُ علومَ المكاشفةِ ويحرِّكُ أمواجَها ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا . . فلنرجعْ إلىٰ ما كنَّا بصددِهِ ، وهوَ بيانُ أنَّ التوبةَ واجبةٌ بجميعِ أجزائِها الثلاثةِ : العلمِ ، والندمِ ، والتركِ ، وأنَّ الندمَ داخلٌ في الوجوبِ ؛ لكونِهِ واقعاً في جملةِ أفعالِ اللهِ المحصورةِ بينَ علمِ العبدِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ المتخللةِ بينهُما ، وما هـٰذا وصفُهُ فٱسمُ الوجوبِ يشملُهُ .

* * *

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أمَّا وجوبُها على الفورِ . . فلا يسترابُ فيهِ[١] ؛ إذْ معرفةُ كونِ المعاصي مهلكاتٍ مِنْ نفسِ الإيمانِ ، وهوَ واجبٌ على الفورِ ، والمتفصِّي عنْ وجوبِهِ هوَ الذي عرفَهُ معرفةً زجرَهُ ذلكَ عنِ الفعلِ المكروهِ[٢] ، فإنَّ هٰذهِ المعرفةَ ليسَتْ مِنْ علومِ المكاشفاتِ التي لا تتعلَّقُ بعملٍ ، بلْ هيَ مِنْ علومِ المعاملةِ ، وكلُّ علمٍ يرادُ ليكونَ باعثاً علىٰ عملٍ . . فلا يقعُ التفصِّي عنْ عهدتِهِ ما لمْ يصرْ باعثاً عليهِ ، فالعلمُ بضررِ الذنوبِ إنَّما أُريدَ ليكونَ باعثاً علىٰ تركِها ، فمَنْ لمْ يترْكْها . . فهوَ فاقدٌ لهٰذا الجزْءِ مِنَ الإيمانِ .

وهوَ المرادُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[٣] ، وما أرادَ بهِ نفيَ الإيمانِ الذي يرجعُ إلىٰ علومِ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ ، ووحدانيتِهِ وصفاتِهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ لا ينافيهِ الزنا والمعاصي ، وإنَّما أرادَ بهِ نفيَ الإيمانِ بكونِ الزنا مبعداً عنِ اللهِ جلَّ جلالُهُ

---

(١) وحاصل ما سيذكره في السياق الآتي : هو أن المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة بالأبدان ، فمن تناول سمّاً بغير علم وأدركه الأسف علىٰ بدنه أترىٰ يخرجه من بدنه بالقيء وغيره على الفور تلافياً لبدنه أو يتراخىٰ في ذلك ؟ فإذا كان خوفه علىٰ بدنه يوجب إخراج ما فيه من المهلك . . فالرجوع على الفور من سمائم الذنوب المفوِّتة لسعادة الأبد أولىٰ . « إتحاف » (٨/ ٥١١) .

(٢) **المتفصي** : كذا بالفاء والصاد المهملة ؛ أي : المتخلص . « إتحاف » (٨/ ٥١١) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

موجباً للمقتِ ؛ كما إذا قالَ الطبيبُ : (هـٰذا سمٌّ فلا تتناولْهُ) ، فإذا تناولَهُ . . يُقالُ : (تناولَ وهوَ غيرُ مؤمنٍ) ، لا بمعنىٰ أنَّهُ غيرُ مؤمنٍ بوجودِ الطبيبِ وكونِهِ طبيباً، وغيرُ مصدِّقٍ بهِ، بلِ المرادُ أنَّهُ غيرُ مصدِّقٍ بقولِهِ : (إنَّهُ سمٌّ مهلكٌ)، فإنَّ العالمَ بالسمِّ لا يتناولُهُ أصلاً ، فالعاصي بالضرورةِ ناقصُ الإيمانِ .

وليسَ الإيمانُ باباً واحداً ، بلْ هوَ نيِّفٌ وسبعونَ باباً ، أعلاها شهادةُ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ[1] ، ومثالُهُ : قولُ القائلِ : ليسَ الإنسانُ موجوداً واحداً ، بلْ هوَ نيِّفٌ وسبعونَ موجوداً ، أعلاها القلبُ والروحُ ، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ البشرةِ ؛ بأنْ يكونَ مقصوصَ الشاربِ ، مقلومَ الأظفارِ ، نقيَّ البشرةِ عنِ الخبثِ ، حتَّىٰ يتميَّزَ عنِ البهائمِ المرسلَةِ الملوثةِ بأرواثِها ، المستكرهةِ الصورِ بطولِ مخالبِها وأظلافِها .

وهـٰذا مثالٌ مطابقٌ ؛ فالإيمانُ كالإنسانِ ، وفقدُ شهادةِ التوحيدِ يوجبُ البطلانَ بالكليَّةِ كفقدِ الروحِ ، والذي ليسَ لهُ إلا شهادةُ التوحيدِ والرسالةِ هوَ كإنسانٍ مقطوعِ الأطرافِ ، مفقوءِ العينِ ، فاقدٍ لجميعِ أعضائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ إلاَّ أصلَ الروحِ .

وكما أنَّ مَنْ هـٰذا حالُهُ قريبٌ مِنْ أنْ يموتَ ، فتزايلُهُ الروحُ الضعيفةُ المنفردةُ التي تخلَّفَ عنها الأعضاءُ التي تمدُّها وتقوِّيها . . فكذلكَ مَنْ ليسَ لهُ إلا أصلُ الإيمانِ ، وهوَ مقصِّرٌ في الأعمالِ ، قريبٌ مِنْ أنْ تُقتلعَ شجرةُ إيمانِهِ

---

(١) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

إذا صدمَتْها الرياحُ العاصفةُ المحرِّكةُ للإيمانِ في مقدمةِ قدومِ ملكِ الموتِ ووروده ، فكلُّ إيمانٍ لمْ يثبتْ في اليقينِ أصلُهُ ، ولمْ تنتشرْ في الأعمالِ فروعُهُ . . لمْ يثبتْ علىٰ عواصفِ الأهوالِ عندَ ظهورِ ناصيةِ ملكِ الموتِ ، وخيفَ عليهِ سوءُ الخاتمةِ ، إلاَّ ما سُقِي بماءِ الطاعاتِ علىٰ توالي الأيامِ والساعاتِ حتَّىٰ رسخَ وثبتَ .

وقولُ العاصي للمطيعِ : إنِّي مؤمنٌ كما أنَّكَ مؤمنٌ . . كقولِ شجرةِ القرعِ لشجرةِ الصنوبرِ : إنِّي شجرةٌ وأنتِ شجرةٌ ، وما أحسنَ جوابَ شجرةِ الصنوبرِ إذْ قالَتْ : ستعرفينَ اغترارَكِ بشمولِ الاسمِ إذا عصفَتْ رياحُ الخريفِ ، فعندَ ذلكَ تنقلعُ أصولُكِ ، وتتناثرُ أوراقُكِ ، وينكشفُ غرورُكِ بالمشاركةِ في اسمِ الشجرِ معَ الغفلةِ عنْ أسبابِ ثباتِ الأشجارِ .

وَسَوْفَ تَرَىٰ إِذا ٱنْجَلَى ٱلْغُبارُ		أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمارُ[1]

فهٰذا أمرٌ يظهرُ عندَ الخاتمةِ ، وإنَّما انقطعَ نياطُ العارفينَ خوفاً مِنْ دواهي الموتِ ومقدماتِهِ الهائلةِ[2] ، التي لا يثبتُ عليها إلا الأقلُّونَ ، فالعاصي إذا كانَ لا يخافُ الخلودَ في النارِ بسببِ معصيتِهِ كالصحيحِ المنهمكِ في الشهواتِ المضرَّةِ للأبدانِ إذا كانَ لا يخافُ الموتَ بسببِ صحتِهِ ، وإنَّ الموتَ غالباً لا يقعُ فجأةً ، فيُقالُ لهُ : الصحيحُ يخافُ

---

(١) الواو أول البيت عاطفة وليست منه ، وهو من الرجز لبديع الزمان الهمذاني . انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤٥) ، و« معجم الأدباء » (١/ ٤٠٠ـ٤٠٤) .

(٢) **النياط** : الفؤاد ، أو هو عرق علّق به القلب من الوتين ، فإذا قطع . . مات صاحبه .

المرضَ ، ثمَّ إذا مرضَ . . خافَ الموتَ ؛ فكذلكَ العاصي يخافُ سوءَ الخاتمةِ ، ثمَّ إذا خُتِمَ لهُ بالسوءِ والعياذُ باللهِ . . وجبَ الخلودُ في النارِ ، فالمعاصي للإيمانِ كالمأكولاتِ المضرَّةِ للأبدانِ ، فلا تزالُ تجتمعُ في الباطنِ وتغيِّرُ مزاجَ الأخلاطِ وهوَ لا يشعرُ بها إلىٰ أنْ يفسدَ المزاجُ ، فيمرضَ دفعةً ، ثمَّ يموتَ دفعةً ؛ فكذلكَ المعاصي .

فإنْ كانَ الخائفُ مِنَ الهلاكِ في هٰذهِ الدنيا المنقضيةِ يجبُ عليه تركُ السمومِ وما يضرُّهُ مِنَ المأكولاتِ في كلِّ حالٍ وعلى الفورِ . . فالخائفُ مِنْ هلاكِ الأبدِ أولىٰ بأنْ يجبَ عليهِ ذلكَ ، وإنْ كانَ متناولُ السمِّ إذا ندمَ . . يجبُ عليهِ أنْ يتقيَّأَ ويرجعَ عنْ تناولِهِ بإبطالِهِ وإخراجِهِ عنِ المعدةِ علىٰ سبيلِ الفورِ والمبادرةِ ؛ تلافياً لبدنِهِ المشرفِ علىٰ هلاكٍ لا يفوِّتُ عليهِ إلا هٰذهِ الدنيا الفانيةَ . . فمتناولُ سمومِ الدينِ وهيَ الذنوبُ أولىٰ بأنْ يجبَ عليهِ الرجوعُ عنها بالتداركِ الممكنِ ما دامَ يبقىٰ للتداركِ مهلةٌ وهوَ العمرُ ، فإنَّ المخوفَ مِنْ هٰذا السمِّ فواتُ الآخرةِ الباقيةِ ، التي فيها النعيمُ المقيمُ والملكُ العظيمُ ، وفي فواتِها نارُ الجحيمِ والعذابُ المقيمُ ، الذي تتصرَّمُ أضعافُ أعمارِ الدنيا دونَ عشرِ عَشِيرِ مدَّتِهِ ؛ إذْ ليسَ لمدَّتِهِ آخرٌ ألبتةَ .

فالبدارَ البدارَ إلى التوبةِ قبلَ أنْ تعملَ سمومُ الذنوبِ بروحِ الإيمانِ عملاً يجاوزُ الأمرُ فيهِ اختيارَ الأطباءِ ، ولا ينفعُ بعدَهُ الاحتماءُ ، فلا ينجعُ بعدَ ذلكَ نصحُ الناصحينَ ووعظُ الواعظينَ ، وتحقُّ الكلمةُ عليهِ بأنَّهُ مِنَ الهالكينَ ، ويدخلُ تحتَ عمومِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ

إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يغرَّنَّكَ لفظُ الإيمانِ ، فتقولَ : المرادُ بهِ الكافرونَ ؛ إذْ بُيِّنَ لكَ أنَّ الإيمانَ بضعٌ وسبعونَ باباً ، وأنَّ الزانيَ لا يزني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ ، فالمحجوبُ عنِ الإيمانِ الذي هوَ شُعَبٌ وفروعٌ سيحجبُ في الخاتمةِ عنِ الإيمانِ الذي هوَ أصلٌ ، كما أنَّ الشخصَ الفاقدَ لجميعِ الأطرافِ التي هيَ حروفٌ وفروعٌ . . سيُساقُ إلى الموتِ المعدمِ للروحِ التي هيَ أصلٌ ، فلا بقاءَ للأصلِ دونَ الفرعِ ، ولا وجودَ للفرعِ دونَ الأصلِ ، ولا فرقَ بينَ الأصلِ والفرعِ إلا في شيءٍ واحدٍ ، وهوَ أنَّ وجودَ الفرعِ وبقاءَهُ جميعاً يستدعي وجودَ الأصلِ ، وأمَّا وجودُ الأصلِ . . فلا يستدعي وجودَ الفرعِ ، ولكنْ بقاؤُهُ يستدعي وجودَ الفرعِ ، فبقاءُ الأصلِ بالفرعِ(١) ، ووجودُ الفرعِ بالأصلِ .

فعلومُ المكاشفةِ وعلومُ المعاملةِ متلازمةٌ كتلازمِ الفرعِ والأصلِ ، فلا يستغني أحدُهُما عنِ الآخرِ وإنْ كانَ أحدُهُما في رتبةِ الأصلِ والآخرُ في رتبةِ التابعِ ، وعلومُ المعاملةِ إذا لمْ تكنْ باعثةً على العملِ . . فعدمُها خيرٌ مِنْ وجودِها ؛ فإنَّها لمْ تعملْ عملَها الذي تُرادُ لهُ ، ثمَّ قامَتْ مؤكِّدةً للحجَّةِ علىٰ صاحبِها ، ولذلكَ يُزادُ في عذابِ العالمِ الفاجرِ علىٰ عذابِ الجاهلِ الفاجرِ كما أوردنا مِنَ الأخبارِ في كتابِ العلمِ .

* * *

---

(١) أي : قوّته به . « إتحاف » (٨/ ٥١٤) .

بيان أن وجوب التوبة عامٌّ في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحدٌ ألبتة

اعلمْ : أنَّ ظاهرَ الكتابِ قدْ دلَّ علىٰ هـٰذا ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فعمَّمَ الخطابَ .

ونورُ البصيرةِ أيضاً يرشدُ إليهِ ؛ إذْ معنى التوبةِ : الرجوعُ عنِ الطريقِ المبعِدِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، المقرِّبِ إلى الشيطانِ ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا مِنْ عاقلٍ ، ولا تكملُ غريزةُ العقلِ إلا بعدَ كمالِ غريزةِ الشهوةِ والغضبِ وسائرِ الصفاتِ المذمومةِ التي هيَ وسائلُ الشيطانِ إلىٰ إغواءِ الإنسانِ ؛ إذْ كمالُ العقلِ إنَّما يكونُ عندَ مقاربةِ الأربعينَ ، وأصلُهُ إنَّما يتمُّ عندَ مراهقةِ البلوغِ ، ومباديهِ تظهرُ بعدَ سبعِ سنينَ .

والشهواتُ جنودُ الشيطانِ ، والعقولُ جنودُ الملائكةِ ، فإذا اجتمعا . . قامَ القتالُ بينَ الجندينِ بالضرورةِ ؛ إذْ لا يثبتُ أحدُهُما للآخرِ ؛ فإنَّهما ضدَّانِ ، فالتطاردُ بينَهُما كالتطاردِ بينَ الليلِ والنهارِ ، والنورِ والظلمةِ ، فمهما غلبَ أحدُهُما . . أزعجَ الآخرَ بالضرورةِ .

وإذا كانَتِ الشهواتُ تكملُ في الصبا والشبابِ قبلَ كمالِ العقلِ . . فقدْ سبقَ جندُ الشيطانِ ، واستولىٰ على المكانِ ، ووقعَ للقلبِ بهِ أنسٌ ، وألفَ ـ لا محالةَ ـ مقتضياتِ الشهواتِ بالعادةِ ، وغلبَ ذلكَ عليهِ ، وتعسَّرَ عليهِ النزوعُ عنهُ .

ثمَّ يلوحُ العقلُ الذي هوَ حزبُ اللهِ وجندُهُ ، ومنقذُ أوليائِهِ مِنْ أيدي أعدائِهِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ ؛ فإنْ لمْ يقوَ ولمْ يكملْ . . سلمَتْ مملكةُ القلبِ للشيطانِ[1] ، وأنجزَ اللعينُ موعودَهُ حيثُ قالَ : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وإنْ كَمُلَ العقلُ وقويَ . . كانَ أوَّلَ شغلِهِ قمعُ جنودِ الشيطانِ بكسرِ الشهواتِ ، ومفارقةِ العاداتِ ، وردِّ الطبعِ علىٰ سبيلِ القهرِ إلى العباداتِ ، ولا معنىٰ للتوبةِ إلا هـٰذا ، وهوَ الرجوعُ عنْ طريقٍ دليلُهُ الشهوةُ وخفيرُهُ الشيطانُ إلىٰ طريقِ اللهِ تعالىٰ .

وليسَ في الوجودِ آدميٌّ إلا وشهوتُهُ سابقةٌ علىٰ عقلِهِ ، وغريزتُهُ التي هيَ عُدَّةُ الشيطانِ متقدمةٌ علىٰ غريزتِهِ التي هيَ عُدَّةُ الملائكةِ ، فكانَ الرجوعُ عمَّا سبقَ إليهِ علىٰ مساعدةِ الشهواتِ ضرورياً في حقِّ كلِّ إنسانٍ ، نبيّاً كانَ أوْ غبيّاً ، فلا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذهِ الضرورةَ اختصَّتْ بآدمَ عليهِ السلامُ ، وقدْ قيلَ[2] : [من الطويل]

فَلا تَحْسَبَنْ هِنْداً لَها ٱلْغَدْرُ وَحْدَها		سَجِيَّةَ نَفْسٍ كُلُّ غـانِيَـةٍ هِنْـدُ

بلْ هوَ حكْمٌ أزليٌّ مكتوبٌ علىٰ جنسِ الإنسِ ، لا يمكنُ فرضُ خلافِهِ ما لمْ تتبدَّلِ السنةُ الإلـٰهيَّةُ التي لا مطمعَ في تبديلِها .

---

(١) فاستولىٰ عليها بما فيها من العجائب والخزائن ، وصار ما في البدن رعايا له . « إتحاف » (٨/ ٥١٥) .

(٢) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (٢/ ٨١) .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ بلغَ كافراً جاهلاً فعليهِ التوبةُ مِنْ كفرِهِ وجهلِهِ ، فإذا بلغَ مسلماً تبعاً لأبويهِ ، غافلاً عنْ حقيقةِ إسلامِهِ . . فعليهِ التوبةُ عنْ غفلتِهِ بتفهُّمِ معنى الإسلامِ ، فإنَّهُ لا يغني عنهُ إسلامُ أبويهِ شيئاً ما لمْ يسلمْ بنفسِهِ .

فإنْ فهمَ ذلكَ . . فعليهِ الرجوعُ عنْ عادتِهِ وإلْفِهِ للاسترسالِ وراءَ الشهواتِ مِنْ غيرِ صارفٍ ؛ بالرجوعِ إلىٰ قالبِ حدودِ اللهِ في المنعِ والإطلاقِ ، والانكفافِ والاسترسالِ ، وهوَ مِنْ أشقِّ أبوابِ التوبةِ ، وفيهِ هلكَ الأكثرونَ ؛ إذْ عجزوا عنهُ ، وكلُّ هـٰذا رجوعٌ وتوبةٌ .

فدلَّ أنَّ التوبةَ فرضُ عينٍ في حقِّ كلِّ شخصٍ ، لا يُتصوَّرُ أنْ يستغنيَ عنها أحدٌ مِنَ البشرِ ، كما لمْ يستغنِ عنها آدمُ عليهِ السلامُ ، فخلقةُ الولدِ لا تتسعُ لما لمْ يتسعْ لهُ خلقةُ الوالدِ أصلاً .

وأمَّا بيانُ وجوبِها على الدوامِ وفي كلِّ حالٍ : فهوَ أنَّ كلَّ بشرٍ لا يخلُو عنْ معصيةٍ بجوارحِهِ ؛ إذْ لمْ يخلُ عنهُ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ ، كما وردَ في القرآنِ والأخبارِ مِنْ خطايا الأنبياءِ وتوبتِهِمْ ، وبكائِهِمْ علىٰ خطاياهُم .

فإنْ خلا في بعضِ الأحوالِ عنْ معصيةِ الجوارحِ . . فلا يخلو عنِ الهمِّ بالذنوبِ بالقلبِ(١) .

---

(١) وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما من أحد إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا » .

فإنْ خلا في بعضِ الأحوالِ عنِ الهمِّ . . فلا يخلو عنْ وساوسِ الشيطانِ بإيرادِ الخواطرِ المتفرقةِ المذهلةِ عنْ ذكرِ اللهِ .

فإنْ خلا عنهُ . . فلا يخلو عنْ غفلةٍ وقصورٍ في العلمِ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ .

وكلُّ ذلكَ نقصٌ ، ولهُ أسبابٌ ، وتركُ أسبابِهِ بالتشاغلِ بأضدادِهِ رجوعٌ عنْ طريقٍ إلىٰ ضدِّهِ ، والمرادُ بالتوبةِ الرجوعُ ، ولا يُتصوَّرُ الخلوُّ في حقِّ الآدميِّ عنْ هٰذا النقصِ ، وإنَّما يتفاوتونَ في المقاديرِ ، فأمَّا الأصلُ . . فلا بدَّ منهُ .

ولهٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي ، فأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرَّةً »(١) ، ولذلكَ أكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بأنْ قالَ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وإذا كانَ هٰذا حالَهُ . . فكيفَ حالُ غيرِهِ ؟!

فإنْ قلتَ : لا يخفىٰ أنَّ ما يطرأُ على القلبِ مِنَ الهمومِ والخواطرِ نقصٌ ، وأنَّ الكمالَ في الخلوِّ عنهُ ، وأنَّ القصورَ عنْ معرفةِ كنْهِ جلالِ اللهِ نقصٌ ، وأنَّهُ كلَّما زادَتِ المعرفةُ . . زادَ الكمالُ ، وأنَّ الانتقالَ إلى الكمالِ

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

مِنْ أسبابِ النقصانِ رجوعٌ ، والرجوعُ توبةٌ ؛ ولكنْ هـٰذهِ فضائلُ لا فرائضُ ، وقدْ أطلقتَ القولَ بوجوبِ التوبةِ في كلِّ حالٍ ، والتوبةُ عنْ هـٰذهِ الأمورِ ليسَتْ بواجبةٍ ؛ إذْ دَرْكُ الكمالِ غيرُ واجبٍ في الشرعِ ، فما المرادُ بقولِكَ : (التوبةُ واجبةٌ في كلِّ حالٍ) ؟

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ سبقَ أنَّ الإنسانَ لا يخلو في مبدأِ خلقتِهِ عنِ اتباعِ الشهواتِ أصلاً ، وليسَ معنى التوبةِ تركَها فقطْ ، بلْ تمامُ التوبةِ بتداركِ ما مضىٰ ، وكلُّ شهوةٍ اتبعَها الإنسانُ ارتفعَ منها ظلمةٌ إلىٰ قلبِهِ كما يرتفعُ مِنْ نَفَسِ الإنسانِ ظلمةٌ إلىٰ وجهِ المرآةِ الصقيلةِ ، فإنْ تراكمَتْ ظلمةُ الشهواتِ . . صارَتْ رَيْناً ؛ كما يصيرُ بخارُ النَّفَسِ في وجهِ المرآةِ عندَ تراكمِهِ خبثاً ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، فإذا تراكمَ الرينُ . . صارَ طَبْعاً ، فيُطبعُ علىٰ قلبِهِ ؛ كالخبثِ علىٰ وجهِ المرآةِ إذا تراكمَ وطالَ زمانُهُ . . غاصَ في جرمِ الحديدِ وأفسدَهُ ، وصارَ لا يقبلُ الصقلَ بعدَهُ ، وصارَ كالمطبوعِ مِنَ الخبثِ .

ولا يكفي في تداركِ اتباعِ الشهواتِ تركُها في المستقبلِ ، بلْ لا بدَّ مِنْ محوِ تلكَ الآثارِ التي انطبعَتْ في القلبِ ، كما لا يكفي في ظهورِ الصورِ في المرآةِ قطعُ الأنفاسِ والبخاراتِ المسوِّدةِ لوجهِها في المستقبلِ ما لمْ يشتغلْ بمحوِ ما انطبعَ فيها مِنَ الآثارِ .

وكما يرتفعُ إلى القلبِ ظلمةٌ مِنَ المعاصي والشهواتِ . . فيرتفعُ إليهِ نورٌ مِنَ الطاعاتِ وتركِ الشهواتِ ، فتنمحي ظلمةُ المعصيةِ بنورِ الطاعةِ ، وإليهِ

الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1] .

فإذاً ؛ لا يستغني العبدُ في حالٍ مِنْ أحوالِهِ عنْ محوِ آثارِ السيئاتِ عنْ قلبِهِ بمباشرةِ حسناتٍ تضادُّ آثارُها آثارَ تلكَ السيئاتِ .

هٰذا في قلبٍ حصلَ أوَّلاً صفاؤُهُ وجلاؤُهُ ، ثمَّ أظلمَ بأسبابٍ عارضةٍ ، فأمَّا التصقيلُ الأوَّلُ . . ففيهِ يطولُ الشغلُ ؛ إذْ ليسَ شغْلُ الصَّيقَلِ في إزالةِ الصدأِ عنِ المرآةِ كشغْلِهِ في عملِ أصْلِ المرآةِ[2] ، فهٰذهِ أشغالٌ طويلةٌ لا تنقطعُ أصلاً ، وكلُّ ذلكَ يرجعُ إلى التوبةِ .

فأمَّا قولُكَ : (إنَّ هٰذا لا يُسمَّىٰ واجباً ، بلْ هوَ فضْلٌ وطلبُ كمالٍ) . . فاعلمْ أنَّ الواجبَ لهُ معنيانِ :

أحدُهُما : ما يدخلُ في فتوى الشرعِ ، ويشتركُ فيهِ كافَّةُ الخلقِ ، وهوَ القدْرُ الذي لوِ اشتغلَ كافَّةُ الخلقِ بِهِ . . لمْ يخربِ العالمُ ، ولوْ كلِّفَ الناسُ كلُّهُمْ أنْ يتقوا اللهَ حقَّ تقاتِهِ . . لتركوا المعايشَ ، ورفضوا الدنيا بالكليَّةِ ، ثمَّ يؤدِّي ذلكَ إلىٰ بطلانِ التقوىٰ بالكليَّةِ ؛ فإنَّهُ مهما فسدتِ المعايشُ . . لمْ يتفرَّغْ أحدٌ للتقوىٰ ، بلْ شغْلُ الحياكةِ والحراثةِ والخَبْزِ يستغرقُ جميعَ عُمُرِ كلِّ واحدٍ فيما يحتاجُ إليهِ ، فجميعُ هٰذهِ الدرجاتِ ليسَتْ واجبةً بهٰذا الاعتبارِ .

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .
(2) **الصيقل** : الذي يشحذ السيوف ويجلوها ، وهو ما يعمله صانع المرايا .

والواجبُ الثاني : هوَ الذي لا بدَّ منهُ للوصولِ بهِ إلى القرْبِ المطلوبِ مِنْ ربِّ العالمينَ ، والمقامِ المحمودِ بينَ الصديقينَ ، والتوبةُ عنْ جميعِ ما ذكرناهُ واجبةٌ في الوصولِ إليهِ ، كما يُقالُ : الطهارةُ واجبةٌ في صلاةِ التطوُّعِ ؛ أيْ : لمَنْ يريدُها ، فإنَّهُ لا يُوصلُ إليها إلا بها .

فأمَّا مَنْ رضيَ بالنقصانِ والحرمانِ عنْ فضْلِ صلاةِ التطوُّعِ . . فالطهارةُ ليسَتْ واجبةً عليهِ لأجلِها ؛ كما يُقالُ : العينُ والأذنُ واليدُ والرِّجْلُ شرطٌ في وجودِ الإنسانِ ؛ يعني أنَّهُ شرطٌ لمَنْ يريدُ أنْ يكونَ إنساناً كاملاً ينتفعُ بإنسانيتِهِ ، ويتوصَّلُ بها إلىٰ درجاتِ العلا في الدنيا ، فأمَّا مَنْ قنعَ بأصلِ الحياةِ ، ورضيَ بأنْ يكونَ كلحْمٍ علىٰ وَضَمٍ (١) ، وكخرقةٍ مطروحةٍ . . فليسَ يشترطُ لمثلِ هـٰذهِ الحياةِ عينٌ ويدٌ ورجْلٌ .

فأصلُ الواجباتِ الداخلةِ في فتوى العامَّةِ لا يُوصلُ إلا إلىٰ أصلِ النجاةِ ، وأصلُ النجاةِ كأصلِ الحياةِ ، وما وراءَ أصلِ النجاةِ مِنَ السعاداتِ التي بها تتهيَّأُ الحياةُ يجري مَجرى الأعضاءِ والآلاتِ التي بها تتهيَّأُ الحياةُ ، وفيهِ سَعْيُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والأمثلِ فالأمثلِ ، وعليهِ كانَ حرصُهُمْ ، وحوالَيْهِ كانَ تطوافُهُمْ ، ولأجلِهِ كانَ رفضُهُمْ لملاذِّ الدنيا بالكليّةِ ، حتَّى انتهىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ إلىٰ أنْ توسَّدَ حجراً في منامِهِ ، فجاءَ إليهِ الشيطانُ وقالَ : أما

---

(١) الوضم : الخشبة التي يفرىٰ عليها اللحم ، أو ما يوضع عليه من خشبة أو خصفة ليوقىٰ ، وقوله : (لحم علىٰ وضم) هو مثل يضرب للضعيف والذليل .

كنتَ تركتَ الدنيا للآخرةِ ؟ فقالَ : نعمْ ، وما الذي حدثَ ؟ فقالَ : توسُّدُكَ لهٰذا الحجرِ تنعُّمٌ بالدنيا ، فلمَ لا تضعُ رأسَكَ على الأرضِ ؟ فرمىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ بالحجرِ ، ووضعَ رأسَهُ على الأرضِ[١] ، وكانَ رميُهُ الحجرَ توبةً عنْ ذلكَ التنعُّمِ ، أفترىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يعلمْ أنَّ وضعَ الرأسِ على الأرضِ لا يسمَّىٰ واجباً في فتاوى العامَّةِ ؟!

أفترىٰ أنَّ نبيَّنا محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا شغلَهُ الثوبُ الذي كانَ عليهِ عَلَمٌ في صلاتِهِ حتَّىٰ نزعَهَ[٢] ، وشغلَهُ شِراكُ نعلِهِ الذي جدَّدَهُ حتَّىٰ أعادَ الشِّراكَ الخليعَ[٣] . . ما علمَ أنَّ ذلكَ ليسَ واجباً في شرعِهِ الذي شرعَهُ لكافَّةِ العبادِ ؟! فإذا علمَ ذلكَ . . فلمَ تابَ عنهُ بتركِهِ ؟ وهلْ كانَ ذلكَ إلاَّ لأنَّهُ رآهُ مؤثِّراً في قلبِهِ أثراً يمنعُهُ عنْ بلوغِ المقامِ المحمودِ الذي قدْ وُعِدَ بهِ ؟

أوَترىٰ أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ أنْ شربَ اللبنَ ، وعرفَ أنَّهُ مِنْ غيرِ وجهِهِ ، أدخلَ إصبعَهُ في حلقِهِ ليخرجَهُ ، حتَّىٰ كادَ أنْ يخرجَ معَهُ روحُهُ . . ما علمَ مِنَ الفقهِ هٰذا القدْرَ وهوَ أنَّ ما أكلَهُ عنْ جهلٍ فهوَ غيرُ آثمٍ بهِ ، ولا يجبُ في فتوى الفقهِ إخراجُهُ ؟! فلِمَ تابَ عنْ شربِهِ بالتداركِ علىٰ حسَبِ إمكانِهِ بتخليةِ المعدةِ عنهُ ؟[٤] وهلْ كانَ ذلكَ إلا لسرٍّ وقرَ في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (ص٤٩٣) عن إسماعيل بن أبي خالد .
(٢) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/٦٢) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) .
(٤) رواه البخاري (٣٨٤٢) .

صدرِه[1] ، عرَّفَهُ ذلكَ السرُّ أنَّ فتوى العامَّةِ حديثٌ آخرُ ، وأنَّ خطرَ طريقِ الآخرةِ لا يعرفُهُ إلا الصدِّيقونَ ؟

فتأمَّلْ أحوالَ هؤلاءِ الذينَ همْ أعرفُ خلْقِ اللهِ باللهِ ، وبطريقِ اللهِ ، وبمكْرِ اللهِ ، وبمكامنِ الغرورِ باللهِ ، وإيَّاكَ مرَّةً واحدةً أنْ تغرَّكَ الحياةُ الدنيا ، وإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ ألفَ مرَّةٍ أنْ يغرَّكَ باللهِ الغَرورُ .

فهـٰذهِ أسرارٌ مَنِ استنشقَ مباديَ روائحِها . . علمَ أنَّ لزومَ التوبةِ النصوحِ ملازمٌ للعبدِ السالكِ في طريقِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ ، ولوْ عُمِّرَ عمرَ نوحٍ ، وأنَّ ذلكَ واجبٌ على الفورِ مِنْ غيرِ مهلةٍ .

ولقدْ صدقَ أبو سليمانَ الدارانيُّ حيثُ قالَ : (لوْ لمْ يبكِ العاقلُ فيما بقيَ مِنْ عمرِهِ إلا علىٰ فوْتِ ما مضىٰ منهُ في غيرِ الطاعةِ . . لكانَ خَليقاً أنْ يحزنَهُ ذلكَ إلى المماتِ ، فكيفَ مَنْ يستقبلُ ما بقيَ مِنْ عمرِهِ بمثلِ ما مضىٰ مِنْ جهلِهِ ؟!)[2] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّ العاقلَ إذا ملكَ جوهرةً نفيسةً فضاعَتْ منهُ بغيرِ فائدةٍ . . بكىٰ عليها لا محالةَ ، وإنْ ضاعَتْ منهُ وصارَ ضياعُها سببَ هلاكِهِ . . كانَ بكاؤُهُ منها أشدَّ ، وكلُّ ساعةٍ مِنَ العمرِ بلْ كلُّ نَفَسٍ جوهرةٌ

---

(١) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١) ، و« ختم الأولياء » (ص٤٤٢) موقوفاً علىٰ بكر بن عبد الله المزني .

(٢) قوت القلوب (١/١٧٩) .

نفيسةٌ ، لا خَلَفَ لها ، ولا بدلَ منها ؛ فإنَّها صالحةٌ لأَنْ توصلَكَ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، وتنقذَكَ مِنْ شقاوةِ الأبدِ ، وأيُّ جوهرٍ أنفسُ مِنْ هـٰذا ؟

فإذا ضيَّعتَها في الغفلةِ . . فقدْ خسرتَ خُسراناً مبيناً ، وإنْ صرفتَها إلىٰ معصيةٍ . . فقدْ هلكتَ هلاكاً فاحشاً .

فإنْ كنتَ لا تبكي علىٰ هـٰذهِ المصيبةِ . . فذلكَ لجهلِكَ ، ومصيبتُكَ بجهلِكَ أعظمُ مِنْ كلِّ مصيبةٍ ، لكنَّ الجهلَ مصيبةٌ لا يعرفُ المصابُ بها أنَّهُ صاحبُ مصيبةٍ ، فإنَّ نومَ الغفلةِ يحولُ بينَهُ وبينَ معرفتِهِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، فعندَ ذلكَ ينكشفُ لكلِّ مفلسٍ إفلاسُهُ ، ولكلِّ مصابٍ مصيبتُهُ ، وقدْ وقعَ اليأسُ عنِ التداركِ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليهِ السلامُ إذا ظهرَ للعبدِ . . أعلمَهُ أنَّهُ قدْ بقيَ مِنْ عمرِكَ ساعةٌ ، وإنَّكَ لا تستأخرُ عنها طرفةَ عينٍ ، فيبدو للعبدِ مِنَ الأسفِ والحسرةِ ما لوْ كانَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها . . لخرجَ منها علىٰ أنْ يضمَّ إلىٰ تلكَ الساعةِ ساعةً أخرىٰ ، ليستعتبَ فيها ويتداركَ تفريطَهُ ، فلا يجدُ إليهِ سبيلاً[1] .

وهوَ أوَّلُ ما يظهرُ مِنْ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٠) .

أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ ، فقيلَ : الأجلُ القريبُ الذي يطلبُهُ العبدُ معناهُ : أنَّهُ يقولُ عندَ كشْفِ الغطاءِ : يا ملكَ الموتِ ؛ أخِّرْني يوماً أعتذرُ فيهِ إلىٰ ربِّي وأتوبُ وأتزوَّدُ صالحاً لنفسي ، فيقولُ : فنيَتِ الأيامُ فلا يومَ ، فيقولُ : فأخِّرْني ساعةً ، فيقولُ : فنيَتِ الساعاتُ فلا ساعةَ ، فيغلقُ عليهِ بابَ التوبةِ ، فيغرغرُ بروحِهِ ، وتتردَّدُ أنفاسُهُ في شراسيفِهِ[1] ، ويتجرَّعُ غصَّةَ اليأسِ عنِ التداركِ ، وحسرةَ الندامةِ علىٰ تضييعِ العمرِ ، فيضطربُ أصلُ إيمانِهِ في صدماتِ تلكَ الأهوالِ ، فإذا زهقَتْ نفسُهُ ؛ فإنْ كانَ قدْ سبقَتْ لهُ مِنَ اللهِ الحسنىٰ . . خرجَتْ روحُهُ على التوحيدِ ، فذلكَ حسنُ الخاتمةِ ، وإنْ سبقَ لهُ القضاءُ بالشقوةِ والعياذُ باللهِ . . خرجَتْ روحُهُ على الشكِّ والاضطرابِ ، وذلكَ سوءُ الخاتمةِ ، ولمثلِ هـٰذا يُقالُ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ ، بلِ ﴿ ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ، ومعناهُ : عنْ قربِ عهدٍ بالخطيئةِ ؛ بأنْ يتندَّمَ عليها ، ويمحوَ أثرَها بحسنةٍ يردفُها بها قبلَ أنْ يتراكمَ الرينُ على القلبِ فلا يقبلَ المحوَ[2] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[3] .

---

(١) الشراسيف : أطراف الأضلاع مما يلي البطن .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٨٠) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .

ولذلكَ قالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تؤخرِ التوبةَ ؛ فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً)(١) .

ومَنْ تركَ المبادرةَ إلى التوبةِ بالتسويفِ . . كانَ بينِ خطرينِ عظيمينِ :

أحدُهُما : أنْ تتراكمَ الظلمةُ علىٰ قلبِهِ مِنَ المعاصي حتَّىٰ يصيرَ ريناً وطبْعاً ، فلا يقبلُ المحوَ .

والثاني : أنْ يعاجلَهُ المرضُ أوِ الموتُ ، فلا يجدُ مهلةً للاشتغالِ بالمحوِ .

ولذلكَ وردَ في الخبرِ : (إنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ)(٢) .

فما هلكَ مَنْ هلكَ إلا بالتسويفِ ، فيكونُ تسويدُهُ للقلبِ نقداً ، وجلاؤُهُ بالطاعةِ نسيئةً ، إلىٰ أنْ يختطفَهُ الأجلُ ، فيأتي اللهَ بقلبٍ غيرِ سليمٍ ، ولا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، فالقلبُ أمانةُ اللهِ تعالىٰ عندَ عبدِهِ ، والعمرُ أمانةُ اللهِ عندَهُ ، وكذا سائرُ أسبابِ الطاعةِ ، فمَنْ خانَ في الأمانةِ ولمْ يتداركْ خيانتَهُ . . فأمرُهُ مخطرٌ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ للهِ تعالىٰ إلىٰ عبدِهِ سرَّينِ يسرُّهُما إليهِ علىٰ سبيلِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٩) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٩٠) عن عثمان بن زائدة يذكر الوصية .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢١٧) عن عبد الله بن المبارك بلفظ : (بلغني أن أكثر تلاقع أهل النار : أفٌ لسوفَ ، أف لسوف) .

الإلهامِ ؛ أحدُهُما : إذا خرجَ مِنْ بطنِ أمِّهِ يقولُ لهُ : عبدي ؛ قدْ أخرجتُكَ إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتُكَ عمرَكَ وأْتمنتُكَ عليهِ ، فانظرْ كيفَ تحفظُ الأمانةَ ، وانظرْ كيفَ تلقاني ، والثاني : عندَ خروجِ روحِهِ يقولُ : عبدي ؛ ماذا صنعتَ في أمانتي عندَكَ ؟ هلْ حفظتَها حتَّىٰ تلقاني على العهدِ فألقاكَ على الوفاءِ ؟ أوْ أضعتَها فألقاكَ بالمطالبةِ والعقابِ ؟[1] .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨١) ، والسياق عنده .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة[1]

اعلمْ : أنَّكَ إذا فهمتَ معنى القبولِ . . لمْ تشكَّ في أنَّ كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فهيَ مقبولةٌ .

فالناظرونَ بنورِ البصائرِ المستمدُّونَ مِنْ أنوارِ القرآنِ علموا أنَّ كلَّ قلبٍ سليمٍ مقبولٌ عندَ اللهِ ، ومتنعِّمٌ في الآخرةِ في جوارِ اللهِ تعالىٰ ، ومستعدٌّ لأنْ ينظرَ بعينِهِ الباقيةِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وعلموا أنَّ القلبَ خُلِقَ سليماً في الأصلِ ، فكلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، وإنَّما تفوتُهُ السلامةُ بكدورةٍ ترهقُ وجهَهُ مِنْ غَبَرَةِ الذنوبِ وظلمتِها ، وعلموا أنَّ نارَ الندمِ تحرقُ تلكَ الغبرةَ ، وأنَّ نورَ الحسنةِ يمحو عنْ وجهِ القلبِ ظلمةَ السيئةِ ، وأنَّهُ لا طاقةَ لظلامِ المعاصي معَ نورِ الحسناتِ ؛ كما لا طاقةَ لظلامِ الليلِ معَ نورِ النهارِ ، بلْ كما لا طاقةَ لكدورةِ الوسخِ معَ بياضِ الصابونِ ، وكما أنَّ الثوبَ الوسخَ لا يقبلُهُ الملكُ لأنْ يكونَ لباسَهُ . . فالقلبُ المظلمُ لا يقبلُهُ اللهُ تعالىٰ لأنْ يكونَ في جوارِهِ ، وكما أنَّ استعمالَ الثوبِ في الأعمالِ الخسيسةِ يوسِّخُ الثوبَ ، وغسلُهُ بالصابونِ والماءِ الحارِّ ينظِّفُهُ لا محالةَ . . فاستعمالُ القلبِ

---

(١) بفضل الله تعالىٰ ، لا بطريق الوجوب ؛ إذ لا يجب شيء على الخالق ؛ لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ ، هٰذا حاصل ما ذكره المصنف في هٰذا الفصل ، وقد أخَّر تلك الشرائط وكان الأولىٰ تقديمها حتىٰ يكون ما في هٰذا الفصل كالمتمم له ، والإيمان بهٰذا واجب ؛ لأنه من عقود الإيمان بالله تعالىٰ . « إتحاف » (٨/٥٢٢) .

في الشهواتِ يوسِّخُ القلبَ ، وغسلُهُ بماءِ الدموعِ وحرقةِ الندمِ ينظِّفُهُ ويطهِّرُهُ ويزكِّيهِ ، وكلُّ قلبٍ زكيٍّ طاهرٍ فهوَ مقبولٌ ؛ كما أنَّ كلَّ ثوبٍ نظيفٍ فهوَ مقبولٌ ، فإنَّما عليكَ التزكيةُ والتطهيرُ ، فأمَّا القبولُ . . فمبذولٌ قدْ سبقَ بهِ القضاءُ الأزليُّ الذي لا مردَّ لهُ ، وهوَ المسمَّىٰ فلاحاً في قولِهِ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ .

ومَنْ لمْ يعرفْ علىٰ سبيلِ التحقيقِ معرفةً أقوىٰ وأجلىٰ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ أنَّ القلبَ يتأثَّرُ بالمعاصي والطاعاتِ تأثُّراً متضاداً ؛ يُستعار لأحدِهما لفظُ الظلمةِ كما يُستعارُ للجهلِ ، ويُستعارُ للآخرِ لفظُ النورِ كما يُستعارُ للعلمِ ، وأنَّ بينَ النورِ والظلمةِ تضاداً ضرورياً لا يُتصوَّرُ الجمعُ بينهُما . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ مِنَ الدينِ إلا قشورَهُ ، ولمْ يعلقْ بهِ إلا أسماؤُهُ ، وقلبُهُ في غطاءٍ كثيفٍ عنْ حقيقةِ الدينِ ، بلْ عنْ حقيقةِ نفسِهِ وصفاتِ نفسِهِ ، ومَنْ جهلَ نفسَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ ، وأعني بهِ قلبَهُ ؛ إذْ بقلبِهِ يعرفُ غيرَ قلبِهِ ، فكيفَ يعرفُ غيرَهُ وهوَ لا يعرفُ قلبَهُ ؟!

فمَنْ يتوهَّمُ أنَّ التوبةَ تصحُّ ولا تُقبلُ كمَنْ يتوهَّمُ أنَّ الشمسَ تطلعُ والظلامُ لا يزولُ ، والثوبَ يغسلُ بالصابونِ والوسخُ لا يزولُ ، إلا أنْ يغوصَ الوسخُ لطولِ تراكمِهِ في تجاويفِ الثوبِ وخَلَلِهِ ، فلا يقوى الصابونُ علىٰ قلعِهِ ، فمثالُ ذلكَ أنْ تتراكمَ الذنوبُ حتَّىٰ تصيرَ طبعاً وريناً على القلبِ ، فمثلُ هـٰذا القلبِ لا يرجعُ ولا يتوبُ .

نعمْ ، قدْ يقولُ باللسانِ : (تبتُ) ، فيكونُ ذلكَ كقولِ القصارِ بلسانِهِ : (قدْ غسلتُ الثوبَ) ، وذلك لا ينظِّفُ الثوبَ أصلاً ، ما لمْ يغيِّرْ صفةَ الثوبِ باستعمالِ ما يضادُّ الوصفَ المتمكِّنَ منهُ .

فهٰذا حالُ امتناعِ أصلِ التوبةِ ، وهوَ غيرُ بعيدٍ ، بلْ هوَ الغالبُ علىٰ كافَّةِ الخلقِ المقبلينَ على الدنيا ، المعرضينَ عنِ اللهِ بالكليَّةِ .

فهٰذا البيانُ كافٍ عندَ ذوي البصائرِ في قبولِ التوبةِ ، ولكنَّا نعضدُ جناحَهُ بنقلِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ ، فكلُّ استبصارٍ لا يشهدُ لهُ الكتابُ والسنَّةُ لا يوثقُ بهِ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ المؤمنِ » الحديثَ[1] ، والفرحُ وراءَ القبولِ ، فهوَ دليلٌ على القبولِ وزيادةٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسطُ يدَهُ بالتوبةِ لمسيءِ الليلِ إلى النهارِ ، ولمسيءِ النهارِ إلى الليلِ ، حتَّىٰ تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربِها »[2] ، وبسطُ اليدِ كنايةٌ عنْ طلبِ التوبةِ[3] ، والطالبُ وراءَ القابلِ ،

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) بنحوه .
(٣) وقبولها ، وهو في حقه تعالىٰ عبارة عن التوسع في الجود ، والتنزيه عن المنع عند اقتضاء الحكمة . « إتحاف » (٨/ ٥٢٤) .

فربَّ قابلٍ ليسَ بطالبٍ ، ولا طالبَ إلا وهوَ قابلٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ عملتُمُ الخطايا حتَّىٰ تبلغَ السماءَ ، ثمَّ ندمتُمْ . . لتابَ اللهُ عليكُمْ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « إنَّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ فيدخلُ بهِ الجنَّةَ » ، قيلَ : كيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يكونُ نصبَ عينِهِ تائباً منهُ فارّاً حتَّىٰ يدخلَ الجنَّةَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفارةُ الذنبِ الندامةُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »[4] .

ويُروىٰ أنَّ حبشيّاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي كنتُ أعملُ الفواحشَ ، فهلْ لي مِنْ توبةٍ ؟ قالَ : « نعمْ » ، فولَّىٰ ثمَّ رجعَ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أكانَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) ولفظه : « لو أخطأتم حتىٰ تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم . . لتاب عليكم » ، وسيأتي شاهده الذي رواه الترمذي (٣٥٤٠) ، وفيه : « يا بن آدم ؛ لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني . . غفرت لك ولا أبالي . . . » الحديث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٦٢) عن الحسن مرسلاً ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٢١٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٧٦/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « إن العبد ليذنب ذنباً ، فإذا ذكره . . أحزنه ما صنع ، فإذا نظر الله إليه قد أحزنه ما صنع . . غفر له » ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢٨٩/١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧٢/١٢) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

يراني وأنا أعملُها ؟ قالَ : « نعمْ » ، فصاحَ الحبشيُّ صيحةً خرجَتْ فيها نفسُهُ[1] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا لعنَ إبليسَ . . سألَهُ النَّظِرةَ ، فأنظرَهُ إلىٰ يومِ القيامةِ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا خرجتُ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ما دامَ فيهِ الروحُ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا حجبتُ عنهُ التوبةَ ما دام فيه الروحُ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ كما يذهبُ الماءُ الوسخَ »[3] .

والأخبارُ في هـٰذا لا تُحصىٰ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أبو طاهر بن العلاف في « زهر الرياض » كما ذكر ذلك ابن الجوزي في « تنوير الغبش في فضل السودان والحبش » (ص١٤٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٨٤) عن أبي قلابة بلفظ المصنف هنا ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٢٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٩٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ؛ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال الرب : وعزتي وجلالي ؛ لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وهو صحيح المعنىٰ ، وهو بمعنىٰ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي وتقدم قريباً) ، وعلق عليه الحافظ الزبيدي بقوله : (بل روىٰ أبو نعيم في « الحلية » [١/ ٢٧٠] من حديث شداد بن أوس : « إن التوبة تغسل الحوبة ، وإن الحسنات يذهبن السيئات » الحديث ، فلعل المصنف أشار إلىٰ هـٰذا) . « إتحاف » (٨/ ٥٢٥) .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (أُنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ في الرجلِ يذنبُ ثمَّ يتوبُ ، ثمَّ يذنبُ ثمَّ يتوبُ)(١) .

وقالَ الفضيلُ : (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : بشِّرِ المذنبينَ بأنَّهُمْ إنْ تابوا.. قبلتُ منهُمْ ، وحذِّرِ الصديقينَ أنِّي إنْ وضعتُ عليهِمْ عدلي.. عذَّبتُهُمْ)(٢) .

وقالَ طلْقُ بنُ حبيبٍ : (إنَّ حقوقَ اللهِ أعظمُ مِنْ أنْ يقومَ بها العبدُ ، ولكنْ أصبحوا تائبينَ وأمسوا تائبينَ)(٣) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ ذكرَ خطيئةً ألمَّ بها ، فوجلَ منها قلبُهُ.. محيَتْ عنهُ في أمِّ الكتابِ)(٤) .

ويُروىٰ أنَّ نبيّاً مِنْ أنبياءِ بني إسرائيلَ أذنبَ ذنباً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي وجلالي ؛ لئنْ عدتَ.. لأعذِّبَنَّكَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، وعزَّتِكَ لئنْ لمْ تعصمْني.. لأعودَنَّ ، فعصمَهُ اللهُ تعالىٰ(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٤) .
(٢) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٥) عن عبد العزيز بن أبي رواد .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٦٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١١٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بنحوه .
(٥) الخبر بنحوه في « القوت » (٢/ ٦٥) عن آصف ابن خالة سيدنا موسىٰ عليه السلام ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٦) عن جابر رضي الله عنه قال : رأىٰ =

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ ، فلا يزالُ نادماً حتَّىٰ يدخلَ الجنَّةَ ، فيقولُ إبليسُ : ليتَني لمْ أوقعْهُ في الذنبِ) .

وقالَ حبيبُ بنُ أبي ثابتٍ : (تُعرضُ على الرجلِ ذنوبُهُ يومَ القيامةِ ، فيمرُّ بالذنبِ فيقولُ : أما إنِّي قدْ كنتُ مشفقاً منكَ ، فيُغفرُ لهُ)[١] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً سألَ ابنَ مسعودٍ عنْ ذنبٍ ألمَّ بهِ : هلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فأعرضَ عنهُ ابنُ مسعودٍ ، ثمَّ التفتَ إليهِ ، فرأىٰ عينيهِ تذرفانِ ، فقالَ لهُ : إنَّ للجنةِ ثمانيةَ أبوابٍ ، كلُّها تفتحُ وتغلقُ إلا بابَ التوبةِ ، فإنَّ عليهِ ملكاً موكلاً بهِ لا يغلقُ ، فاعملْ ولا تيئسْ[٢] .

وقالَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ أبي القاسمِ : تذاكرنا معَ عبدِ الرحيمِ توبةَ الكافرِ وقولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فقالَ : إنِّي لأرجو أنْ يكونَ المسلمُ أحسنَ حالاً عندَ اللهِ ، ولقدْ بلغَني أنَّ توبةَ المسلمِ كإسلامٍ بعدَ إسلامٍ[٣] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ : (لا أحدِّثُكُمْ إلا عنْ نبيٍّ مرسلٍ أوْ كتابٍ

= رجل جمجمة ، فحدث نفسه بشيء ، قال : فخرَّ ساجداً تائباً مكانه ، قال : فقيل له : ارفع رأسك ، فإنك أنت أنت ، وأنا أنا .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٠٥) عن عروة بن عامر .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٢) .

(٣) وعبد الرحيم هو ابن يحيى المعروف بالأسود ، كذا نص عليه في « الإتحاف » (٨/ ٥٢٦) ، وفي (ب) : (وقد بلغني أن العبد إذا عمل عملاً من أعمال البرِّ . . دخل به الجنة ، ولقد بلغني . . .) .

منزلٍ ، إنَّ العبدَ إذا عملَ ذنباً ثمَّ ندمَ عليهِ طرفةَ عينٍ . . سقطَ عنهُ أسرعَ مِنْ طرفةِ عينٍ)[1] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اجلسوا إلى التوَّابينَ ؛ فإنَّهُمْ أرقُّ أفئدةً)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : أنا أعلمُ متَّىٰ يغفرُ اللهُ لي ، قيلَ : ومتى ؟ قالَ : إذا تابَ عليَّ[3] .

وقالَ آخرُ : (أنا مِنْ أنْ أُحرمَ التوبةَ أخوفُ مِنْ أنْ أُحرمَ المغفرةَ)[4] أي : المغفرةُ مِنْ لوازمِ التوبةِ وتوابعِها لا محالةَ .

ويُروىٰ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ شابٌّ عبدَ اللهَ تعالىٰ عشرينَ سنةً ، ثمَّ عصاهُ عشرينَ سنةً ، ثمَّ نظرَ في المرآةِ فرأى الشيبَ في لحيتِهِ ، فساءَهُ ذلكَ ، فقالَ : إلٰهي ؛ أطعتُكَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ عصيتُكَ عشرينَ سنةً ، فإنْ رجعتُ إليكَ أتقبلُني ؟ فسمعَ قائلاً يقولُ ولا يرىٰ شخصاً : أحببتَنا فأحببناكَ ، وتركتَنا فتركناكَ ، وعصيتَنا فأمهلناكَ ، وإنْ رجعتَ إلينا . . قبلناكَ[5] .

---

(١) رواه بنحوه الطبراني كما نص عليه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٠١) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٨١) .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٢٣) عن إبراهيم بن شيبان ، يحكي هـٰذا عن شاب كان عندهم بنحوه .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إنَّ للهِ عباداً نصبوا أشجارَ الخطايا نصْبَ روامقِ القلوبِ ، وسقوها بماءِ التوبةِ ، فأثمرَتْ ندماً وحزناً ، فجُنُّوا مِنْ غيرِ جنونٍ ، وتبلَّدوا مِنْ غيرِ عيٍّ ولا بَكَمٍ ، وإنَّهُمْ لهُمُ البلغاءُ الفصحاءُ ، العارفونَ باللهِ ورسولِهِ ، ثمَّ شربوا بكأسِ الصفاءِ ، فورثوا الصبرَ علىٰ طولِ البلاءِ ، ثمَّ تولَّهَتْ قلوبُهُمْ في الملكوتِ ، وجالَ فكرُهُمْ بينَ سرايا حُجبِ الجبروتِ ، واستظلُّوا تحتَ رِواقِ الندمِ ، وقرؤوا صحيفةَ الخطايا ، فأورثوا أنفسَهُمُ الجزعَ ، حتَّىٰ وصلوا إلىٰ عُلْوِ الزهدِ بسلَّمِ الورعِ ، فاستعذبوا مرارةَ التركِ للدنيا ، واستلانوا خشونةَ المضجعِ ، حتَّىٰ ظفروا بحبلِ النجاةِ وعروةِ السلامةِ ، فسرحَتْ أرواحُهُمْ في العلا ، حتَّىٰ أناخوا في رياضِ النعيمِ ، وخاضوا في بحرِ الحياةِ ، وردموا خنادقَ الجزعِ ، وعبروا جسورَ الهوىٰ ، حتَّىٰ نزلوا بفناءِ العلمِ ، واستقوا مِنْ غديرِ الحكمةِ ، وركبوا سفينةَ الفطنةِ ، وأقلعوا بريحِ النجاةِ في بحرِ السلامةِ ، حتَّىٰ وصلوا إلىٰ رياضِ الراحةِ ، ومعدنِ العزِّ والكرامةِ)[1] .

فهٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ أنَّ كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فمقبولةٌ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٤) واللفظ له ، وبنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٩/٣٣٢) .

فإنْ قلتَ : أفتقولُ ما قالَهُ المعتزلةُ مِنْ أنَّ قبولَ التوبةِ واجبٌ على اللهِ ؟[1] .

فأقولُ : لا أعني بما ذكرتُهُ مِنْ وجوبِ قبولِ التوبةِ على اللهِ إلا ما يريدُهُ القائلُ بقولِهِ : (إنَّ الثوبَ إذا غُسِلَ بالصابونِ . . وجبَ زوالُ الوسخِ ، وإنَّ العطشانَ إذا شربَ الماءَ . . وجبَ زوالُ العطشِ ، وإنَّهُ إذا مُنِعَ الماءَ مدَّةً . . وجبَ العطشُ ، وإنَّهُ إذا دامَ العطشُ . . وجبَ الموتُ) ، وليسَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ ما يريدُهُ المعتزلةُ بالإيجابِ على اللهِ تعالىٰ .

بلْ أقولُ : خلقَ اللهُ تعالى الطاعةَ مكفِّرةً للمعصيةِ والحسنةَ ماحيةً للسيئةِ كما خلقَ الماءَ مزيلاً للعطشِ ، والقدرةُ متسعةٌ بخلافِهِ لوْ سبقَتْ بهِ المشيئةُ ، فلا واجبَ على اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ ما سبقتْ بهِ إرادتُهُ الأزليَّةُ فواجبٌ كونُهُ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما مِنْ تائبٍ إلا وهوَ شاكٌّ في قبولِ توبتِهِ ، والشاربُ للماءِ لا يشكُّ في زوالِ عطشِهِ ، فلِمَ يشكُّ في قبولِ التوبةِ ؟

فأقولُ : شكُّهُ في القبولِ كشكِّهِ في وجودِ شرائطِ الصحَّةِ ، فإنَّ للتوبةِ أركاناً وشروطاً دقيقةً كما سيأتي ، وليسَ يتحقَّقُ وجودُ جميعِ شروطِها ، كالذي يشكُّ في دواءٍ شربَهُ للإسهالِ في أنَّهُ هلْ يسهلُ ، وذلكَ لشكِّهِ في

---

(١) انظر « الإرشاد » (ص٤٠٣) .

حصولِ شروطِ الإسهالِ في الدواءِ ؛ باعتبارِ الحالِ والوقتِ ، وكيفيةِ خلْطِ الدواءِ وطبخِهِ ، وجودةِ عقاقيرِه وأدويتِهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ موجبٌ للخوفِ بعدَ التوبةِ ، وموجبٌ للشكِّ في قبولِها لا محالةَ ، علىٰ ما سيأتي في شروطِها إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

الرُّكنُ الثَّاني
فيما عنه التّوبة ، وهي الذّنوب صغائرها وكبائرها

اعلمْ : أنَّ التوبةَ تركُ الذنبِ ، ولا يمكنُ تركُ الشيءِ إلا بعدَ معرفتِهِ ، وإذا كانَتِ التوبةُ واجبةً . . كانَ ما لا يتوصَّلُ إليها إلا بهِ واجباً ، فمعرفةُ الذنوبِ إذاً واجبةٌ .

والذنبُ : عبارةٌ عنْ كلِّ ما هوَ مخالفٌ لأمرِ اللهِ مِنْ تركٍ أوْ فعلٍ ، وتفصيلُ ذلكَ يستدعي شرحَ التكليفاتِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا ، ولكنَّا نشيرُ إلىٰ مجامعِها وروابطِ أقسامِها ، واللهُ الموفقُ للصوابِ برحمتِهِ .

بيان أقسام الذّنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ أخلاقاً وأوصافاً كثيرةً ، علىٰ ما عُرفَ شرحُهُ في كتابِ عجائبِ القلبِ وعوالمِهِ[1] ، ولكنْ تنحصرُ مثاراتُ الذنوبِ في أربعِ صفاتٍ : صفاتٍ ربوبيَّةٍ ، وصفاتٍ شيطانيَّةٍ ، وصفاتٍ بهيميةٍ ، وصفاتٍ سبعيةٍ ، وذلكَ لأنَّ طينةَ الإنسانِ عُجنَتْ مِنْ أخلاطٍ مختلفةٍ ، فاقتضىٰ كلُّ واحدٍ مِنَ الأخلاطِ في المعجونِ منهُ أثراً مِنَ الآثارِ ، كما يقتضي السكَّرُ

---

(١) في (ن) : (وغوائله) بدل (وعوالمه) .

والخلُّ والزعفرانُ في السكنجبينِ آثاراً مختلفةً[1] .

فأمَّا ما يقتضيهِ النزوعُ إلى الصفاتِ الربوبيةِ : فمثلُ الكبرِ ، والفخرِ ، والجبروتِ[2] ، وحبِّ المدحِ والثناءِ والعزِّ والغنىٰ ، وحبِّ دوامِ البقاءِ ، وطلبِ الاستعلاءِ على الكافَّةِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ يريدُ أنْ يقولَ : (أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ) .

وهـٰذا يتشعَّبُ منهُ جملةٌ مِنْ كبائرِ الذنوبِ ، غفلَ عنها الخلْقُ ولمْ يعدُّوها ذنوباً ، وهيَ المهلكاتُ العظيمةُ التي هيَ كالأمَّهاتِ لأكثرِ المعاصي ، كما استقصيناهُ في ربعِ المهلكاتِ .

الثانيةُ : **هيَ الصفةُ الشيطانيَّةُ** : التي منها يتشعَّبُ الحسدُ ، والبغيُ ، والحيلةُ ، والخداعُ ، والأمرُ بالفسادِ والمنكرِ ، وفيهِ يدخلُ الغشُّ ، والنفاقُ ، والدعوةُ إلى البدعِ والضلالِ .

الثالثةُ : **الصفةُ البهيميَّةُ** : ومنها يتشعَّبُ الشرهُ ، والكَلَبُ ، والحرْصُ علىٰ قضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ ، ومنهُ يتشعَّبُ الزنا ، واللواطُ ، والسرقةُ ، وأكلُ مالِ الأيتامِ ، وجمعُ الحطامِ لأجلِ الشهواتِ .

الرابعةُ : **الصفةُ السبعيَّةُ** : ومنها يتشعَّبُ الغضبُ ، والحقدُ ، والتهجُّمُ على الناسِ بالضربِ والشتمِ والقتلِ واستهلاكِ الأموالِ ، ويتفرَّعُ عنها جملٌ مِنَ الذنوبِ .

---

(١) السكنجبين : هو مخلوط العسل والخل والسكر لدفع الصفراء ، كلمة فارسية معربة ، أصلها سِكَنْكُبين .

(٢) في غير (أ) : (والجبرية) بدل (والجبروت) ، وهما بمعنىً .

وهٰذهِ الصفاتُ لها تدريجٌ في الفطرةِ ، فالصفةُ البهيميَّةُ هيَ التي تغلبُ أوَّلاً ، ثمَّ تتلوها الصفةُ السبعيَّةُ ثانياً ، ثمَّ إذا اجتمعَتا . . استعملَتا العقلَ في الخداعِ والمكرِ والحيلةِ ، وهيَ الصفةُ الشيطانيَّةُ ، ثمَّ بالآخرةِ تغلبُ الصفاتُ الربوبيَّةُ ، وهيَ الفخرُ والعزُّ والعلُوُّ ، وطلبُ الكبرياءِ ، وقصدُ الاستيلاءِ علىٰ جميعِ الخلقِ .

فهٰذهِ أمَّهاتُ الذنوبِ ومنابعُها ، ثمَّ تتفجَّرُ الذنوبُ مِنْ هٰذهِ المنابعِ على الجوارحِ ؛ فبعضُها على القلبِ خاصَّةً ؛ كالكفرِ والبدعةِ والنفاقِ وإضمارِ السوءِ للناسِ ، وبعضُها على العينِ والسمعِ ، وبعضُها على اللسانِ ، وبعضُها على البطنِ والفرجِ ، وبعضُها على اليدينِ والرجلينِ ، وبعضُها علىٰ جميعِ البدنِ ، ولا حاجةَ إلىٰ بيانِ تفصيلِ ذلكَ ، فإنَّهُ واضحٌ .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ ثانيةٌ :

اعلمْ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلىٰ ما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ .

فما يتعلَّقُ بالعبدِ خاصَّةً كتركِ الصلاةِ ، والصومِ ، والواجباتِ الخاصَّةِ بهِ .

وما يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ كتركِهِ الزكاةَ ، وقتلِهِ النفسَ ، وغصبِهِ الأموالَ ، وشتمِهِ الأعراضَ .

وكلُّ متناوَلٍ مِنْ حقِّ الغيرِ فإمَّا نفسٌ ، أوْ طرفٌ ، أوْ مالٌ ، أوْ عرضٌ ، أوْ دِينٌ ، أوْ جاهٌ .

وتناولُ الدِّينِ بالإغواءِ ، والدعاءِ إلى البدعةِ ، والترغيبِ في المعاصي ، وتهييجِ أسبابِ الجراءةِ على اللهِ تعالىٰ ، كما يفعلُهُ بعضُ الوعَّاظِ بتغليبِ جانبِ الرجاءِ علىٰ جانبِ الخوفِ .

وما يتعلَّق بالعبادِ فالأمرُ فيهِ أغلظُ ، وما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ إذا لمْ يكنْ شركاً . . فالعفوُ فيهِ أرجىٰ وأقربُ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : « الدواوينُ ثلاثةٌ : ديوانٌ يُغفرُ ، وديوانٌ لا يُغفرُ ، وديوانٌ لا يتركُ ، فالديوانُ الذي يُغفرُ ذنوبُ العبادِ بينَهُمْ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُغفرُ . . فالشركُ باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُتركُ . . فمظالمُ العبادِ »[1] أيْ : لا بدَّ أنْ يطالبَ بها حتَّىٰ يتفصَّىٰ عنها .

❊ ❊ ❊

قسمةٌ ثالثةٌ :

اعلمْ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلىٰ صغائرَ وكبائرَ ، وقدْ كثرَ اختلافُ الناسِ فيها ، فقالَ قائلونَ : (لا صغيرةَ ، بلْ كلُّ مخالفةٍ للهِ فهيَ كبيرةٌ)[2] ،

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٢) وسيأتي قريباً قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة) ، وقال القشيري في « لطائف الإشارات » (٣/ ٤٨٧) : (الذنوب كلها كبائر ؛ لأنها مخالفة =

وهٰذا ضعيفٌ[1] ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ تكفِّرُ ما بينَهُنَّ إنِ اجتنبَتِ الكبائرُ »[2] .

وفي لفظٍ آخرَ : « كفاراتٌ لما بينَهُنَّ إلا الكبائرَ »[3] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو بنِ العاصِ : « الكبائرُ : الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ ، وقتْلُ النفسِ ، واليمينُ الغموسُ »[4] .

= لأمر الله ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، ولا شيء أعظم من الشرك) ، ونقل أبو حيان في « البحر المحيط » (٣/ ٢٣٣) هٰذا إذ قال : (وقد اختلفوا في ذلك ، فذهب الجمهور إلى انقسام الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر . . . ، وذهب جماعة من الأصوليين منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وأبو المعالي وأبو نصر عبد الرحيم القشيري إلىٰ أن الذنوب كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها : صغيرة بالإضافة إلىٰ ما هو أكبر منها ؛ كما يقال : الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر) .

(١) انظر « المستصفىٰ » (٢/ ٢١٣) ، و« الإتحاف » (٨/ ٥٣٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٣٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٧) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٢/ ٣٥٩) : « كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

(٤) رواه البخاري (٦٦٧٥) .

واختلفَ الصحابةُ والتابعونَ في عددِ الكبائرِ مِنْ أربعٍ ، إلىٰ سبعٍ ، إلىٰ تسعٍ ، إلىٰ إحدىٰ عشرةَ ، فما فوقَ ذلكَ .

فقالَ ابنُ مسعودٍ : (هُنَّ أربعٌ)[1] .

وقالَ ابنُ عمرَ : (هُنَّ سبعٌ)[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : (هُنَّ تسعٌ)[3] .

وكانَ ابنُ عباسٍ إذا بلغَهُ قولُ ابنِ عمرَ : (الكبائرُ سبعٌ) .. يقولُ : (هُنَّ إلىٰ سبعينَ أقربُ منها إلىٰ سبعٍ)[4] .

وقالَ مرَّةً : (كلُّ ما نهى اللهُ عنهُ فهوَ كبيرةٌ)[5] .

---

(١) روى الطبراني في « الكبير » (٩/١٥٦) عنه قال : (أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) ، وسياق المصنف هنا تبع لصاحب « القوت » (٢/١٤٨) ، وجمع غالبها الطبري في « تفسيره » (٤/٥/٥٢) .

(٢) روى الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٤٨) عنه قال : (الكبائر : الإشراك بالله ، وقذف المحصنة ـ قال الراوي : أقبلَ الدم ؟ قال : نعم ، ورغماً ـ وقتل النفس ، والفرار يوم الزحف ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين) .

(٣) روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨) عن ابن عمر لا ابن عمرو رضي الله عنهم جميعاً : (هن تسع : الإشراك بالله ، وقتل نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسحر ، وبكاء الوالدين من العقوق . . .) الحديث .

(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٧) .

(٥) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

وقالَ غيرُهُ : (كلُّ ما أوعدَ اللهُ عليهِ بالنارِ فهوَ مِنَ الكبائرِ)(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كلُّ ما أوجبَ الحدَّ في الدنيا فهوَ كبيرةٌ)(٢) .

وقيلَ : (إنَّها مبهمةٌ لا يُعرفُ عددُها ، كليلةِ القدْرِ ، وساعةِ يومِ الجمعةِ)(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ لمَّا سُئِلَ عنها : (اقرأْ مِنْ أوَّلِ « سورةِ النساءِ » إلىٰ رأسِ ثلاثينَ آيةً منها عندَ قولِهِ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ ، فكلُّ ما نهى اللهُ عنهُ في هـٰذهِ السورةِ إلىٰ هـٰهنا فهوَ كبيرةٌ)(٤) .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (الكبائرُ سبعَ عشرةَ ، جمعتُها مِنْ جملةِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٨) ، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن سعيد بن جبير كذلك عند الطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ٥٩) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ٥٩) عن الضحاك ومجاهد والحسن .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٨) ، وقال الشيخ ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (١/ ١٥) : (واعتمده الواحدي من أصحابنا في « بسيطه » ، فقال : الصحيح : أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به ، وإلا.. لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، ولكن الله عز وجل أخفىٰ ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطىٰ وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك) ، ولم يرتضه ، والمصنف رحمه الله تعالىٰ أورد هـٰذا ولم يستبعده ، بشرط أن يكون قسماً من الأقسام ، لا علىٰ إطلاقه ، وكتاب ابن حجر الهيتمي « الزواجر عن اقتراف الكبائر » أجمع كتاب في هـٰذا الباب كما ذكر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٥٣٥) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/ ٥/ ٥٢) .

الأخبارِ، وجملةُ ما اجتمعَ مِنْ قولِ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ وغيرِهِمْ :

أربعةٌ في القلبِ : وهيَ الشركُ باللهِ ، والإصرارُ علىٰ معصيتِهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتِهِ ، والأمنُ مِنْ مَكْرِهِ .

وأربعةٌ في اللسانِ : وهي شهادةُ الزورِ ، وقذفُ المحصنِ ، واليمينُ الغموسُ ؛ وهيَ التي يحقُّ بها باطلاً أوْ يبطلُ بها حقّاً ، وقيلَ : هيَ التي يقتطعُ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ باطلاً ولوْ سواكاً مِنْ أراكٍ ، وسمِّيتْ غموساً لأنَّها تغمسُ صاحبَها في النارِ ، والسحرُ ؛ وهوَ كلُّ كلامٍ يغيِّرُ الإنسانَ وسائرَ الأجسامِ عنْ موضوعاتِ الخلْقةِ .

وثلاثٌ في البطنِ : وهيَ شربُ الخمرِ والمسكرِ مِنْ كلِّ شرابٍ ، وأكلُ مالِ اليتيمِ ظلماً ، وأكلُ الربا وهوَ يعلمُ .

واثنتانِ في الفرجِ : وهما الزنا ، واللواطُ .

واثنتانِ في اليدينِ ؛ وهما القتلُ ، والسرقةُ .

وواحدةٌ في الرجلينِ : وهيَ الفرارُ مِنَ الزحفِ ، الواحدُ مِن اثنينِ ، والعشرةُ مِنْ عشرينَ .

وواحدةٌ في جميعِ الجسدِ : وهيَ عقوقُ الوالدينِ ، قالَ : وجملةُ عقوقِهِما أنْ يُقسما عليهِ في حقٍّ فلا يبرَّ قسمَهُما ، وأنْ يسألاهُ حاجةً فلا يعطيَهُما ، وأن يسبَّاهُ فيضربَهُما ، ويجوعانِ فلا يطعمُهما)[1] .

---

(١) « قوت القلوب » (٢/١٤٨) .

هـٰذا ما قالَهُ ، وهوَ قريبٌ ، ولكنْ ليسَ يحصلُ بهِ تمامُ الشفاءِ ؛ إذْ يمكنُ الزيادةُ عليهِ والنقصانُ منهُ ، فإنَّهُ جعلَ أكلَ الربا ومالِ اليتيمِ مِنَ الكبائرِ ، وهيَ جنايةٌ على الأموالِ ، ولمْ يذكرْ في كبائرِ النفوسِ إلا القتلَ ، فأمَّا فقءُ العينينِ وقطعُ اليدينِ وغيرُ ذلكَ مِنْ تعذيبِ المسلمينَ بالضربِ وأنواعِ العذابِ . فلمْ يتعرَّضْ لهُ ، وضربُ اليتيمِ وتعذيبُهُ وقطعُ أطرافِهِ لا شكَّ في أنَّهُ أكبرُ مِنْ أكلِ مالِهِ .

كيفَ وفي الخبرِ : « مِنَ الكبائرِ السبَّتانِ بالسَّبَّةِ ، ومِنَ الكبائرِ استطالةُ الرجلِ في عرضِ أخيهِ المسلمِ »(١) ، وهـٰذا زائدٌ علىٰ قذْفِ المحصنِ ؟!

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ وغيرُهُ مِنَ الصحابةِ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعينِكُمْ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ)(٢) .

وقالَتْ طائفةٌ : (كلُّ عمدٍ كبيرةٌ)(٣) ، (وكلُّ ما نهى اللهُ عنهُ فهوَ كبيرةٌ)(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٣/ ٢٨٥) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٤٨) .

(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

وكشفُ الغطاءِ عنْ هـٰذا : أنَّ نظرَ الناظرِ في السرقةِ أهيَ كبيرةٌ أمْ لا . . لا يصحُّ ما لمْ يفهمْ معنى الكبيرةِ والمرادَ بها ؛ كقولِ القائلِ : (السرقةُ حرامٌ أمْ لا) لا مطمعَ في معرفتِهِ إلا بعدَ تقريرِ معنى الحرامِ أولاً ، ثمَّ البحثِ عنْ وجودِهِ في السرقةِ .

فالكبيرةُ مِنْ حيثُ اللفظُ مبهمٌ ، ليسَ لهُ موضوعٌ خاصٌّ في اللغةِ ولا في الشرعِ ، وذلكَ لأنَّ الكبيرَ والصغيرَ مِنَ المضافاتِ ، وما مِنْ ذنبٍ إلا وهوَ كبيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما دونَهُ ، وصغيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ؛ فالمضاجعةُ معَ الأجنبيةِ كبيرةٌ بالإضافةِ إلى النظرِ ، صغيرةٌ بالإضافةِ إلى الزنا ، وقطعُ يدِ المسلمِ كبيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ضربِهِ ، صغيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ قتلِهِ .

نعمْ ، للإنسانِ أنْ يطلقَ علىٰ ما تُوعِّدَ بالنارِ علىٰ فعلِهِ خاصَّةً اسمَ الكبيرةِ ، ونعني بوصفِهِ بالكبيرةِ : أنَّ العقوبةَ بالنارِ عظيمةٌ ، ولهُ أنْ يطلقَ علىٰ ما أُوجبَ الحدُّ عليهِ مصيراً إلىٰ أنَّ ما عُجِّلَ عليهِ في الدنيا عقوبةٌ واجبةٌ . . عظيمٌ ، ولهُ أنْ يطلقَ علىٰ ما وردَ في نصِّ الكتابِ النهيُ عنهُ ، فيقولُ : تخصيصُهُ بالذكرِ في القرآنِ يدلُّ علىٰ عظمِهِ ، ثمَّ يكونُ عظيماً وكبيراً ـ لا محالةَ ـ بالإضافةِ ؛ إذْ منصوصاتُ القرآنِ أيضاً تتفاوتُ درجاتُها .

فهـٰذهِ الإطلاقاتُ لا حرجَ فيها ، وما نقلَ مِنْ ألفاظِ الصحابةِ يتردَّدُ بينَ هـٰذهِ الجهاتِ ، ولا يبعدُ تنزيلُها علىٰ شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الاحتمالاتِ .

نعمْ ، مِنَ المهمَّاتِ أنْ تعلمَ معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ، وقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفَّاراتٌ لما بينهُنَّ إلا الكبائرَ »[1] ؛ فإنَّ هـٰذا إثباتُ حكمٍ للكبائرِ .

والحقُّ في ذلكَ : أنَّ الذنوبَ منقسمةٌ في نظرِ الشرعِ إلىٰ ما يعلمُ استعظامُهُ إيَّاها ، وإلىٰ ما يعلم أنَّها معدودةٌ في الصغائرِ ، وإلىٰ ما يشكُّ فيهِ فلا يُدرىٰ حكمُهُ .

فالطمعُ في معرفةِ حدٍّ حاصرٍ أوْ عددٍ جامعٍ مانعٍ طلبٌ لما لا يمكنُ ؛ فإنَّ ذلكَ لا يمكنُ إلا بالسماعِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بأنْ يقولَ : إنِّي أردتُ بالكبائرِ عشراً ، أوْ خمساً ، ويفصِّلُها ، فإنْ لمْ يردْ هـٰذا ، بلْ وردَ في بعضِ الألفاظِ : « ثلاثٌ مِنَ الكبائرِ »[2] ، وفي بعضِها : « سبعٌ مِنَ الكبائرِ »[3] ، ثمَّ وردَ أنَّ السَّبتينِ بالسَّبَّةِ الواحدةِ مِنَ الكبائرِ[4] ، وهوَ خارجٌ عنِ السبعِ والثلاثِ . . علمَ أنَّهُ لمْ يقصدْ بهِ العددَ والحصرَ ، فكيفَ يطمعُ في عددِ ما لمْ يعدِّدْهُ الشرعُ ؟! وربَّما قصدَ الشرعُ إبهامَهُ ؛ ليكونَ العبادُ منهُ علىٰ وَجَلٍ ، كما أبهمَ ليلةَ القدْرِ ليعظمَ جدُّ الناسِ في طلبِها .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) .
(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٥) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٧٧) .

نعمْ ، لنا سبيلٌ كلِّيٌّ يمكنُنا أنْ نعرفَ بهِ أجناسَ الكبائرِ وأنواعَها بالتحقيقِ ، وأمَّا أعيانُها . . فنعرفُها بالظنِّ والتقريبِ ، ونعرفُ أيضاً أكبرَ الكبائرِ ، فأمَّا أصغرُ الصغائرِ . . فلا سبيلَ إلىٰ معرفتِهِ .

وبيانُهُ : أنَّا نعلمُ بشواهدِ الشرعِ وأنوارِ البصائرِ جميعاً أنَّ مقصودَ الشرائعِ كلِّها سياقةُ الخلْقِ إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ وسعادةِ لقائِهِ ، وأنَّهُ لا وصولَ لهُمْ إلىٰ ذلكَ إلا بمعرفةِ اللهِ ومعرفةِ صفاتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أيْ : ليكونوا عبيداً لي ، ولا يكونُ العبدُ عبداً ما لمْ يعرفْ ربَّهُ بالربوبيَّةِ ونفسَهُ بالعبوديَّةِ ، فلا بدَّ أنْ يعرفَ نفسَهُ وربَّهُ ، فهـٰذا هوَ المقصودُ الأقصىٰ ببعثةِ الأنبياءِ .

ولكنْ لا يتمُّ هـٰذا إلا في الحياةِ الدنيا ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الدنيا مزرعةُ الآخرةِ »(١) ، فصارَ حفظُ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدينِ ؛ لأنَّهُ وسيلةٌ إليهِ .

والمتعلِّقُ مِنَ الدنيا بالآخرةِ شيئانِ ؛ النفوسُ والأموالُ ، فكلُّ ما يسدُّ بابَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ فهوَ أكبرُ الكبائرِ ، ويليهِ ما يسدُّ بابَ حياةِ النفوسِ ،

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ مرفوعاً ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » [٣/ ٨٤٣] ، وأبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث طارق بن أشيم : « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته » الحديث ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٨/ ٥٣٩) .

ويلي ذلكَ ما يسدُّ بابَ المعايشِ التي بها حياةُ النفوسِ ، فهٰذهِ ثلاثُ مراتبَ.

فحفظُ المعرفةِ على القلوبِ ، والحياةِ على الأبدانِ ، والأموالِ على الأشخاصِ . . ضروريٌّ في مقصودِ الشرائعِ كلِّها ، وهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ لا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ فيها المللُ ، فلا يجوزُ أن يبعثَ اللهُ نبيّاً يريدُ ببعثتِهِ إصلاحَ الخلْقِ في دينِهِمْ ودنياهم ثمَّ يأمرُهُمْ بما يمنعُهُمْ عنْ معرفتِهِ ومعرفةِ رسلِهِ ، أوْ يأمرُهُمْ بإهلاكِ النفوسِ وإهلاكِ الأموالِ .

❁ ❁ ❁

فحصلَ مِنْ هٰذا أنَّ الكبائرَ علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : ما يمنعُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ رسلِهِ : وهوَ الكفرُ ، فلا كبيرةَ فوقَ الكفرِ ؛ إذِ الحجابُ بينَ العبدِ وبين اللهِ هوَ الجهلُ ، والوسيلةُ المقرِّبةُ لهُ إليهِ هيَ العلمُ والمعرفةُ ، وقربُهُ بقدْرِ معرفتِهِ ، وبعدُهُ بقدْرِ جهلهِ .

ويتلو الجهلَ الذي يسمَّىٰ كفراً الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتِهِ ، فإنَّ هٰذا أيضاً عينُ الجهلِ ، فمَنْ عرفَ اللهَ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يكونَ آمناً ، ولا أنْ يكونَ آيساً .

ويتلو هٰذهِ الرتبةَ البدعُ كلُّها المتعلِّقةُ بذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وتفاوتُها علىٰ حسَبِ تفاوتِ الجهلِ بها ، وعلىٰ حسَبِ تعلُّقِها بذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، وبأفعالِهِ وشرائعِهِ ، وبأوامرِهِ

ونواهيهِ ، ومراتبُ ذلكَ لا تنحصرُ ، وهيَ تنقسمُ إلىٰ ما يعلمُ أنَّها داخلةٌ تحتَ ذكرِ الكبائرِ المذكورةِ في القرآنِ ، وإلىٰ ما يُعلمُ أنَّهُ لا يدخلُ ، وإلىٰ ما يُشكُّ فيهِ ، وطلبُ رفعِ الشكِّ في القسمِ المتوسطِ طمعٌ في غيرِ مطمعٍ .

❀ ❀ ❀

المرتبةُ الثانيةُ : النفوسُ : إذْ ببقائِها وحفظِها تدومُ الحياةُ ، وتحصلُ المعرفةُ باللهِ ، فقتلُ النفسِ ـ لا محالةَ ـ مِنَ الكبائرِ ، وإنْ كانَ دونَ الكفرِ ؛ لأنَّ ذلكَ يصدمُ عينَ المقصودِ ، وهـٰذا يصدمُ وسيلةَ المقصودِ ؛ إذِ الحياةُ الدنيا لا تُرادُ إلا للآخرةِ ، والتوصلُ إليها بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ .

ويتلو هـٰذهِ الكبيرةَ قطعُ الأطرافِ ، وكلُّ ما يفضي إلى الهلاكِ ، حتَّى الضربُ ، وبعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ .

ويقعُ في هـٰذهِ الرتبةِ تحريمُ الزنا واللواطِ ؛ لأنَّهُ لوِ اجتمعَ الناسُ على الاكتفاءِ بالذكورِ في قضاءِ الشهواتِ . . انقطعَ النسلُ ، ورفعُ الوجودِ[١] قريبٌ مِنْ قطعِ الوجودِ ، وأمَّا الزنا . . فإنَّهُ لا يفوِّتُ أصلَ الوجودِ ، ولكنْ يشوِّشُ الأنسابَ ، ويبطلُ التوارثَ والتناصرَ ، وجملةً مِنَ الأمورِ التي لا ينتظمُ العيشُ إلا بها ، بلْ كيفَ يتمُّ النظامُ معَ إباحةِ الزنا ولا ينتظمُ أمورُ البهائمِ ما لمْ يتميَّزِ الفحلُ منها بإناثٍ يختصُّ بها عنْ سائرِ الفحولِ ؟! ولذلكَ لا يتصوَّرُ أنْ يكونَ الزنا مباحاً في شرعٍ قُصِدَ بهِ الإصلاحُ .

---

(١) في غير (أ ، س) : (ودفع الوجود) بدل (ورفع الوجود) .

وينبغي أنْ يكونَ الزنا في الرتبةِ دونَ القتلِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يفوِّتُ دوامَ الوجودِ ، ولا يمنعُ أصلَهُ ، ولكنْ يفوِّتُ تمييزَ الأنسابِ ، ويحرِّكُ مِنَ الأسبابِ ما يكادُ يفضي إلى التقاتلِ ، وينبغي أنْ يكونَ أشدَّ مِنَ اللواطِ ؛ لأنَّ الشهوةَ داعيةٌ إليهِ مِنَ الجانبينِ ، فيكثرُ وقوعُهُ ، ويعظمُ أثرُ الضررِ بكثرتِهِ .

❁ ❁ ❁

المرتبةُ الثالثةُ : **الأموالُ** : فإنَّها معايشُ الخلْقِ ، فلا يجوزُ تسليطُ الناسِ علىٰ تناولِها كيفَ شاؤوا حتَّىٰ بالاستيلاءِ والسرقةِ وغيرِهما ، بلْ ينبغي أنْ تحفظَ لتبقىٰ ببقائِها النفوسُ ، إلا أنَّ الأموالَ إذا أُخذَتْ . . أمكنَ استردادُها ، وإنْ أُكلَتْ . . أمكنَ تغريمُها ، فليسَ يعظمُ الأمرُ فيها .

نعمْ ، إذا جرىٰ تناولُها بطريقٍ يعسرُ التداركُ لهُ . . فينبغي أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ الكبائرِ ، وذلكَ بأربعِ طرقٍ :

أحدُها : الخفيةُ ، وهيَ السرقةُ ، فإنَّهُ إذا لمْ يطلعْ عليهِ غالباً . . فكيفَ يتداركُ ؟

الثاني : أكلُ مالِ اليتيمِ ، وهٰذا أيضاً مِنَ الخفيةِ ، وأعني بهِ في حقِّ الوليِّ والقيِّمِ ، فإنَّهُ مؤتمنٌ فيهِ ، وليسَ لهُ خصمٌ سوى اليتيمِ ، وهوَ صغيرٌ لا يعرفُهُ ، فتعظيمُ الأمرِ فيهِ واجبٌ ، بخلافِ الغصْبِ ؛ فإنَّهُ ظاهرٌ يعرفُ ، وبخلافِ الخيانةِ في الوديعةِ ؛ فإنَّ المودِعَ خصمٌ فيهِ ينتصفُ لنفسِهِ .

الثالثُ : تفويتُها بشهادةِ الزورِ .

الرابعُ : أخذُ الوديعةِ وغيرِها باليمينِ الغموسِ .

فإنَّ هٰذهِ طرقٌ لا يمكنُ فيها التداركُ ، ولا يجوزُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في تحريمِها أصلاً ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وكلُّها دونَ الرتبةِ الثانيةِ المتعلِّقةِ بالنفوسِ .

وهٰذهِ الأربعةُ جديرةٌ بأنْ تكونَ مرادةً بالكبائرِ ، وإنْ لمْ يُوجبِ الشرعُ الحدَّ في بعضِها ، ولكنْ كثَّرَ الوعيدَ عليها ، وعظَّمَ في مصالحِ الدنيا تأثيرَها .

وأمَّا أكلُ الربا . . فليسَ فيهِ إلا أكلُ مالِ الغيرِ بالتراضي ، معَ الإخلالِ بشرطِ وضعَهُ الشرعُ ، ولا يبعدُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في مثلِهِ ، وإذا لمْ يُجعلِ الغصبُ الذي هوَ أكلُ مالِ الغيرِ بغيرِ رضاهُ وبغيرِ رضا الشرعِ مِنَ الكبائرِ . . فأكلُ الربا أكلٌ برضا المالكِ ، ولكنْ دونَ رضا الشرعِ ، وإنْ عظَّمَ الشرعُ الربا بالزجرِ عنهُ . . فقدْ عظَّمَ أيضاً الظلمَ بالغصبِ وغيرِهِ وعظَّمَ الخيانةَ ، والمصيرُ إلىٰ أنَّ أكلَ دانقٍ بالخيانةِ أوِ الغصبِ مِنَ الكبائرِ فيهِ نظرٌ ، وذلكَ واقعٌ في مظِنَّةِ الشكِّ ، وأكثرُ ميلِ الظنِّ إلىٰ أنَّهُ غيرُ داخلٍ تحتَ الكبائرِ ، بلْ ينبغي أنْ تختصَّ الكبيرةُ بما لا يجوزُ اختلافُ الشرائعِ فيهِ ؛ ليكونَ ضرورياً في الدينِ .

❀ ❀ ❀

فيبقىٰ ممَّا ذكرَهُ أبو طالبٍ المكيُّ : القذفُ ، والشربُ ، والسحرُ ،

والفرارُ مِنَ الزحفِ ، وعقوقُ الوالدينِ :

أمَّا الشربُ لما يزيلُ العقلَ : فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ الكبائرِ ، وقدْ دلَّ عليهِ تشديداتُ الشرعِ وطريقُ النظرِ أيضاً ؛ لأنَّ العقلَ محفوظٌ كما أنَّ النفسَ محفوظةٌ ، بلْ لا خيرَ في النفسِ دونَ العقلِ ، فإزالةُ العقلِ مِنَ الكبائرِ ، ولكنْ هـٰذا لا يجري في قطرةٍ مِنَ الخمرِ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ شربَ ماءً فيهِ قطرةٌ مِنَ الخمرِ . . لمْ يكنْ ذلكَ كبيرةً ، وإنَّما هوَ شربُ ماءٍ نجسٍ ، فالقطرةُ وحدَها في محلِّ الشكِّ ، وإيجابُ الشرعِ الحدَّ بهِ يدلُّ علىٰ تعظيمِ أمرِهِ ، فيُعدُّ ذلكَ مِنَ الكبائرِ بالشرعِ ، وليسَ في القوَّةِ البشريَّةِ الوقوفُ علىٰ جميعِ أسرارِ الشرعِ ، فإنْ ثبتَ إجماعٌ في أنَّهُ كبيرةٌ . . وجبَ الاتباعُ ، وإلا . . فللتوقفِ فيهِ مجالٌ[1] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا القذفُ : فليسَ فيهِ إلا تناولُ الأعراضِ ، والأعراضُ دونَ الأموالِ في الرتبةِ ولتناولِها مراتبُ ، وأعظمُها التناولُ بالقذفِ بالإضافةِ إلىٰ فاحشةِ الزنا ، وقدْ عظَّمَ الشرعُ أمرَهُ ، وأظنُّ ظنّاً غالباً أنَّ الصحابةَ كانوا يعدُّونَ كلَّ ما يجبُ الحدُّ به كبيرةً ، فهوَ بهـٰذا الاعتبارِ لا تكفِّرُهُ الصلواتُ الخمسُ ، وهوَ الذي نريدُهُ بالكبيرةِ الآنِ ، ولكنْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يجوزُ أنْ تختلفَ فيهِ

---

(١) وقال ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (٢/ ٣١١) : (أما شرب الخمر ولو قطرة منها . . فكبيرة إجماعاً) .

الشرائعُ فالقياسُ بمجرَّدِهِ لا يدلُّ علىٰ كبرِهِ وعظمِهِ ، بلْ كانَ يجوزُ أنْ يردَ الشرعُ بأنَّ العدلَ الواحدَ إذا رأىٰ إنساناً يزني . . فلهُ أنْ يشهدَ عليهِ ، ويُجلدُ المشهودُ عليهِ بمجرَّدِ شهادتِهِ ، فإنْ لمْ تُقبلْ شهادتُهُ . . فحدُّهُ ليسَ ضرورياً في مصالحِ الدنيا ، وإنْ كانَ على الجملةِ مِنَ المصالحِ الظاهرةِ الواقعةِ في رتبةِ الحاجاتِ .

فإذاً ؛ هـٰذا أيضاً يلتحقُ بالكبائرِ في حقِّ مَنْ عرفَ حكْمَ الشرعِ ، فأمَّا مَنْ ظنَّ أنَّ لهُ أنْ يشهدَ وحدَهُ ، أوْ ظنَّ أنَّهُ يساعدُهُ على الشهادةِ غيرُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُجعلَ في حقِّهِ مِنَ الكبائرِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا السحرُ : فإنْ كانَ فيهِ كفرٌ . . فكبيرةٌ ، وإلا . . فعظمُهُ بحسَبِ الضررِ الذي يتولَّدُ منهُ ؛ مِنْ هلاكِ نفسٍ ، أوْ مرضٍ ، أوْ غيرِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الفرارُ مِنَ الزحفِ وعقوقُ الوالدينِ : فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ يكونَ مِنْ حيثُ القياسُ في محلِّ التوقُّفِ ، وإذا قُطِعَ بأنَّ سبَّ الناسِ بكلِّ شيءٍ سوى الزنا وضرْبَهُمْ والظلمَ لهُمْ بغصْبِ أموالِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ مساكنِهِمْ وبلادِهِمْ وإجلائِهِمْ مِنْ أوطانِهِمْ ليسَ مِنَ الكبائرِ ؛ إذْ لمْ يُنقلْ ذلكَ في السبعَ عشرةَ كبيرةً ، وهوَ أكثرُ ما قيلَ فيهِ . . فالتوقُّفُ في هـٰذا أيضاً غيرُ بعيدٍ ، ولكنَّ الحديثَ يدلُّ علىٰ تسميتِهما كبيرةً ، فلتُلحقْ بالكبائرِ .

فإذاً ؛ رجعَ حاصلُ الأمرِ إلىٰ أنَّا نعني بالكبيرةِ : ما لا تكفِّرُهُ الصلواتُ الخمسُ بحكمِ الشرعِ ، وذلكَ ممَّا انقسمَ إلىٰ ما عُلِمَ أنَّهُ لا تكفِّرُهُ قطعاً ، وإلىٰ ما ينبغي أنْ تكفِّرَهُ ، وإلىٰ ما يُتوقَّفُ فيهِ ، والمتوقَّفُ فيهِ بعضُهُ مظنونٌ بالنفي والإثباتِ ، وبعضُهُ مشكوكٌ فيهِ ، وهوَ شكٌّ لا يزيلُهُ إلا نصُّ كتابٍ أو سنَّةٍ ، وإذْ لا مطمعَ فيهما . . فطلبُ رفعِ الشكِّ فيهما محالٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذا إقامةُ برهانٍ على استحالةِ معرفةِ حدِّها ، فكيفَ يَرِدُ الشرعُ بما يستحيلُ معرفةُ حدِّهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ كلَّ ما لا يتعلَّقُ بهِ حكْمٌ في الدنيا فيجوزُ أنْ يتطرَّقَ إليهِ الإبهامُ ؛ لأنَّ دارَ التكليفِ هيَ دارُ الدنيا ، والكبيرةُ على الخصوصِ لا حكمَ لها في الدنيا مِنْ حيثُ إنَّها كبيرةٌ ، بلْ كلُّ موجباتِ الحدودِ معلومةٌ بأسمائِها ؛ كالسرقةِ والزنا وغيرِهِما ، وإنَّما حكمُ الكبيرةِ أنَّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفِّرُها ، وهٰذا أمرٌ يتعلَّقُ بالآخرةِ ، والإبهامُ أليقُ بهِ ؛ حتَّىٰ يكونَ الناسُ علىٰ وَجَلٍ وحذرٍ ، فلا يتجرؤونَ على الصغائرِ اعتماداً على الصلواتِ الخمسِ ، وكذلكَ اجتنابُ الكبائرِ يكفِّرُ الصغائرَ بموجبِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ .

ولكنَّ اجتنابَ الكبيرةِ إنَّما يكفِّرُ الصغيرةَ إذا اجتنبَها معَ القدرةِ والإرادةِ ، كمَنْ يتمكَّنُ مِنِ امرأةٍ ومِنْ مواقعتِها ، فيكفُّ نفسَهُ عنِ الوقاعِ ويقتصرُ علىٰ

نظرٍ أو لمسٍ ؛ فإنَّ مجاهدةَ نفسِهِ في الكفِّ عنِ الوقاعِ أشدُّ تأثيراً في تنويرِ قلبِهِ مِنْ إقدامِهِ على النظرِ في إظلامِهِ ، فهـٰذا معنىٰ تكفيرِهِ ، فإنْ كانَ عنِّيناً ، أو لمْ يكنِ امتناعُهُ إلا بالضرورةِ للعجزِ ، أوْ كانَ قادراً ولكنِ امتنعَ لخوفِ أمرٍ آخرَ . . فهـٰذا لا يصلحُ للتكفيرِ أصلاً .

وكلُّ مَنْ لا يشتهي الخمرَ بطبعِهِ ، ولوْ أُبيحَ لهُ . . لما شربَهُ ؛ فاجتنابُهُ لا يكفِّرُ عنهُ الصغائرَ التي هيَ مِنْ مقدِّماتِهِ ؛ كسماعِ الملاهي والأوتارِ .

نعمْ ، مَنْ يشتهي الخمرَ وسماعَ الأوتارِ ، فيمسكُ نفسَهُ بالمجاهدةِ عنِ الخمرِ ، ويطلقُها في السماعِ . . فمجاهدةُ النفسِ بالكفِّ ربَّما تمحو عنْ قلبِهِ الظلمةَ التي ارتفعَتْ إليهِ مِنْ معصيةِ السماعِ .

وكلُّ هـٰذهِ أحكامٌ أخرويَّةٌ يجوزُ أنْ يبقىٰ بعضُها في محلِّ الشكِّ ، وتكونَ مِنَ المتشابهاتِ ، ولا يُعرفُ تفصيلُها إلا بالنصِّ ، ولمْ يردِ النصُّ بعددٍ ولا حدٍّ جامعٍ ، بلْ وردَ بألفاظٍ متفرِّقةٍ مختلفةٍ ، فقدْ روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « الصلاةُ إلى الصلاةِ كفارةٌ ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ كفارةٌ ، إلا مِنْ ثلاثٍ : إشراكٍ باللهِ ، وتركِ السنَّةِ ، ونكثِ الصفقةِ » ، قيلَ : وما تركُ السنَّةِ ؟ قالَ : « الخروجُ مِنَ الجماعةِ ، ونكثُ الصفقةِ أنْ يبايعَ رجلاً ثمَّ يخرجَ عليهِ بالسيفِ يقاتلُهُ »[1] ، فهـٰذا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٥٩) .

وأمثالُهُ مِنَ الألفاظِ لا يحيطُ بالعددِ كلِّهِ ، ولا يدلُّ علىٰ حدٍّ جامعٍ ، فيبقىٰ ـ لا محالةَ ـ مبهماً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الشهادةُ لا تُقبلُ إلا ممَّنْ يجتنبُ الكبائرَ ، والورعُ عنِ الصغائرِ ليسَ شرطاً في قبولِ الشهادةِ ، وهاذا مِنْ أحكامِ الدنيا .

فاعلمْ : أنَّا لا نخصِّصُ ردَّ الشهادةِ بالكبائرِ ، فلا خلافَ في أنَّ مَنْ يسمعُ الملاهيَ ، ويلبسُ الديباجَ ، ويتختَّمُ بخاتمِ الذهبِ ، ويشربُ مِنْ أواني الذهبِ والفضةِ . . لا تقبلُ شهادتُهُ ، ولمْ يذهبْ أحدٌ إلىٰ أنَّ هاذهِ الأمورَ مِنَ الكبائرِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا شربَ الحنفيُّ النبيذَ . . حددتُهُ ولمْ أردَّ شهادتَهُ) ، فقدْ جعلَهُ كبيرةً بإيجابِ الحدِّ عليهِ ، ولمْ يردَّ بهِ الشهادةَ ، فدلَّ علىٰ أنَّ الشهادةَ نفياً وإثباتاً لا تدورُ على الصغائرِ والكبائرِ .

بلْ كلُّ الذنوبِ تقدحُ في العدالةِ ، إلا ما لا يخلو الإنسانُ عنهُ غالباً بضرورةِ مجاري العاداتِ ؛ كالغيبةِ ، والتجسُّسِ ، وسوءِ الظنِّ ، والكذبِ في بعضِ الأقوالِ ، وسماعِ الغيبةِ ، وتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، وأكلِ الشبهاتِ ، وسبِّ الولدِ والغلامِ ، وضربِهما بحكمِ الغضبِ زائداً علىٰ حدِّ المصلحةِ ، وإكرامِ السلاطينِ الظلمةِ ، ومصادقةِ الفجَّارِ ، والتكاسلِ عنْ تعليمِ الأهلِ والولدِ جميعَ ما يحتاجونَ إليهِ مِنْ أمرِ الدينِ ؛

فهٰذه ذنوبٌ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ الشاهدُ عنْ قليلِها أوْ كثيرِها إلا بأنْ يعتزلَ الناسَ ، ويتجرَّدَ لأمرِ الآخرةِ ، ويجاهدَ نفسَهُ مدَّةً ، بحيثُ يبقىٰ علىٰ سجيتِهِ[1] معَ المخالطةِ بعدَ ذلكَ ، ولوْ لمْ يُقبلْ إلا قولُ مثلِهِ . . لعزَّ وجودُهُ ، وبطلَتِ الأحكامُ والشهاداتُ ، وليسَ لبسُ الحريرِ ، وسماعُ الملاهي ، واللعبُ بالنردِ ، ومجالسةُ أهلِ الشَّرْبِ في وقتِ الشربِ ، والخلوةُ بالأجنبياتِ ، وأمثالُ هٰذهِ الصغائرِ . . مِنْ هٰذا القبيلِ ، فإلىٰ مثلِ هٰذا المنهاجِ ينبغي أنْ يُنظرَ في قبولِ الشهادةِ وردِّها ، لا إلى الكبيرةِ والصغيرةِ .

ثمَّ آحادُ هٰذهِ الصغائرِ التي لا تُردُّ الشهادةُ بها . . لوْ واظبَ عليها لأثَّرَتْ في ردِّ الشهادةِ ؛ كمنِ اتخذَ الغيبةَ وثلْبَ الناسِ عادةً ، وكذلكَ مجالسةُ الفجَّارِ ومصادقتُهُمْ .

والصغيرةُ تكبرُ بالمواظبةِ ؛ كما أنَّ المباحَ يصيرُ صغيرةً بالمواظبةِ ، كاللعبِ بالشطرنجِ ، والترنُّمِ بالغناءِ على الدوامِ ، وغيرِهِ .

فهٰذا بيانُ حكمِ الصغائرِ والكبائرِ .

* * *

---

(١) في غير (أ) : (سمته) بدل (سجيته) .

بيان كيفيّة توزّع الدّرجات والدّركات في الآخرة على الحسنات والسّيئات في الدّنيا

اعلمْ : أنَّ الدنيا مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، والآخرةَ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، وأعني بالدنيا : حالتَكَ قبلَ الموتِ ، وبالآخرةِ : حالتَكَ بعدَ الموتِ ، فدنياكَ وآخرتُكَ صفاتُكَ وأحوالُكَ ، يسمَّى القريبُ الداني منها دنيا ، والمتأخِّرُ آخرةً .

ونحنُ الآنَ نتكلَّمُ مِنَ الدنيا في الآخرةِ ، فإنَّا الآنَ في الدنيا وهيَ عالمُ الملكِ ، وغرضُنا شرحُ الآخرةِ وهيَ عالمُ الملكوتِ ، ولا يُتصوَّرُ شرحُ عالمِ الملكوتِ في عالمِ الملكِ إلا بضربِ الأمثالِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ ، وهـٰذا لأنَّ عالمَ الملكِ نومٌ بالإضافةِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا »(١) ، وما سيكونُ في اليقظةِ لا يتبيَّنُ لكَ في النومِ إلا بضربِ الأمثالِ المحوجةِ إلى التعبيرِ ، فكذلكَ ما سيكونُ في

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما يعزىٰ إلىٰ علي بن أبي طالب) ، قال الحافظ الزبيدي : (وهكذا أورده الشريف الموسوي في « نهج البلاغة » من كلام أمير المؤمنين ، وذكره أبو نعيم في « الحلية » [٧/ ٥٢] في ترجمة سفيان الثوري) . « إتحاف » (٨/ ٥٤٨) .

يقظةِ الآخرةِ لا يتبيَّنُ في نومِ الدنيا إلا في كسوةِ الأمثالِ ، وأعني بكسوةِ الأمثالِ : ما تعرفُهُ مِنْ علمِ التعبيرِ[(١)] .

ويكفيكَ منهُ إنْ كنتَ فطناً ثلاثةُ أمثلةٍ :

فقدْ جاءَ رجلٌ إلى ابنِ سيرينَ[(٢)] فقالَ : رأيتُ كأنَّ في يدي خاتماً أختمُ بهِ أفواهَ الرجالِ وفروجَ النساءِ ، فقالَ : إنَّكَ مؤذِّنٌ تؤذِّنُ في رمضانَ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، قالَ : صدقتَ .

وجاءَ رجلٌ آخرُ فقالَ : رأيتُ كأنِّي أصبُّ الزيتَ في الزيتونِ ، فقالَ : إنْ كانَ تحتكَ جاريةٌ اشتريتَها . . ففتِّشْ عنْ حالِها ؛ فإنَّها أمُّكَ سُبِيَتْ في صغرِكَ ؛ لأنَّ الزيتونَ أصلُ الزيتِ ، فهوَ ردٌّ إلى الأصلِ ، فنظرَ ، فإذا جاريتُهُ كانَتْ أمَّهُ وقدْ سبيَتْ في صغرِهِ .

وقالَ لهُ آخرُ : رأيتُ كأنِّي أقلِّدُ الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ ، فقالَ : إنَّكَ تعلِّمُ الحكمةَ غيرَ أهلِها ، فكانَ كما قالَ .

والتعبيرُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ مثالٌ يعرِّفُكَ طريقَ ضربِ الأمثالِ ، وإنَّما نعني بالمثالِ أداءَ المعنىٰ في صورةٍ إنْ نُظِرَ إلىٰ معناهُ . . وُجِدَ صادقاً ، وإن نُظِرَ إلىٰ صورتِهِ . . وُجِدَ كاذباً ، فالمؤذِّنُ إنْ نظرَ إلىٰ صورةِ الخاتمِ والختْمِ بهِ على

---

(١) انظر للمصنف « مشكاة الأنوار » (ص٥٢) .

(٢) التابعي البصري الثقة ، رأس المعبرين رحمه الله تعالىٰ ، وكان يضاهي الحسن في علمه وورعه ، وفيه القول المشهور الذي يستدل به علىٰ (أو) للتخيير : جالس الحسن أو ابن سيرين . « إتحاف » (٨/٥٤٨) .

الفروجِ . . رآهُ كاذباً ؛ فإنَّهُ لَمْ يختمْ بهِ قطُّ ، وإنْ نظرَ إلىٰ معناهُ . . وجدَهُ صادقاً ؛ إذْ قدْ صدرَ منهُ روحُ الختمِ ومعناهُ ، وهوَ المنعُ الذي يرادُ الختمُ لهُ .

وليسَ للأنبياءِ أنْ يتكلَّموا معَ الخلْقِ إلا بضربِ الأمثالِ ؛ لأنَّهُمْ كُلِّفوا أنْ يكلِّموا الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، وقدْرُ عقولِهِمْ أنَّهُمْ في النومِ ، والنائمُ لا يُكشفُ لهُ عنْ شيءٍ إلا بمثالٍ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا وعرفوا أنَّ المثلَ صادقٌ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »(١) ، وهوَ مِنَ المثالِ الذي لا يعقلُهُ إلا العالمونَ ، فأمَّا الجاهلُ . . فلا يجاوزُ قدْرُهُ ظاهرَ المثالِ ؛ لجهلِهِ بالتفسيرِ الذي يُسمَّىٰ تأويلاً ؛ كما يُسمَّىٰ تفسيرُ ما يُرىٰ مِنَ الأمثلةِ في النومِ تعبيراً ، فيثبتُ للهِ تعالىٰ يداً وإصبعاً ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ علوّاً كبيراً .

وكذلكَ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »(٢) ، فإنَّه لا يفهمُ مِنَ الصورةِ إلا اللونَ والشكلَ والهيئةَ ، فيثبتُ للهِ تعالىٰ مثلَ ذلكَ ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ علوّاً كبيراً .

ومِنْ هـٰهنا زلَّ مَنْ زلَّ في صفاتِ الإلـٰهيَّةِ ، حتَّىٰ في الكلامِ ، وجعلوهُ صوتاً وحرفاً ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الصفاتِ ، والقولُ فيه يطولُ .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) ، وبيَّن بعض سرِّه في « مشكاة الأنوار » (ص٥٩) ، وسيأتي قريباً الحديث عنه .

وكذلكَ قدْ يردُ في أمرِ الآخرةِ ضربُ أمثلةٍ يكذِّبُ بها الملحدُ ؛ لجمودِ نظرِهِ علىٰ ظاهرِ المثالِ ، وتناقضِهِ عندَهُ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالموتِ يومَ القيامةِ في صورةِ كبشٍ أملحَ فيذبحُ »[١] ، فيثورُ الملحدُ الأحمقُ ويكذِّبُ بهِ ، ويستدلُّ بهِ علىٰ كذبِ الأنبياءِ ، ويقولُ : يا سبحانَ اللهِ ! الموتُ عرضٌ ، والكبشُ جسمٌ ، فكيفَ ينقلبُ العرضُ جسماً ؟ وهلْ هٰذا إلا محالٌ ؟!

ولكنَّ اللهَ تعالىٰ عزلَ هؤلاءِ الحمقىٰ عنْ معرفةِ أسرارِهِ فقالَ : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ ولا يدري المسكينُ أنَّ مَنْ قالَ : رأيتُ في منامي أنَّهُ جِيءَ بكبشٍ ، وقيلَ : هٰذا هوَ الوباءُ الذي في البلدِ ، وذبحَ ، فقالَ المعبِّرُ : صدقتَ ، والأمرُ كما رأيتَ ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذا الوباءَ ينقطعُ ولا يعودُ قطُّ ؛ لأنَّ المذبوحَ وقعَ اليأسُ عنهُ .

فإذاً ؛ المعبِّرُ صادقٌ في تعبيرِهِ[٢] ، وهوَ صادقٌ في رؤيتِهِ ، وترجعُ حقيقتُهُ إلىٰ أنَّ الملكَ الموكَّلَ بالرؤيا ـ وهوَ الذي يُطْلِعُ الأرواحَ عندَ النومِ علىٰ ما في اللوحِ المحفوظِ ـ عرَّفَهُ ما في اللوحِ المحفوظِ بمثالٍ ضربَهُ لهُ ؛ لأنَّ النائمَ إنَّما يحتملُ المثالَ ، فكانَ مثالُهُ صادقاً ، وكانَ معناهُ صحيحاً .

فالرسلُ أيضاً إنَّما يكلِّمونَ الناسَ في الدنيا ، وهيَ بالإضافةِ إلى الآخرةِ

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .
(٢) في غير (د ، س) : (في تصديقه) بدل (في تعبيره) .

نومٌ ، فيوصلونَ المعانيَ إلىٰ أفهامِهِمْ بالأمثلةِ ؛ حكمةً مِنَ اللهِ ، ولطفاً بعبادِهِ ، وتيسيراً لإدراكِ ما يعجزونَ عنْ إدراكِهِ دونَ ضربِ المثلِ ، فقولُهُ : « يُؤتىٰ بالموتِ في صورةِ كبشٍ أملحَ » مثالٌ ضربَهُ ليوصلَ إلى الأفهامِ حصولَ اليأسِ مِنَ الموتِ ، وقدْ جُبلَتِ القلوبُ على التأثُّرِ بالأمثلةِ ، وثبوتِ المعاني فيها بواسطتِها ، ولذلكَ عبَّرَ القرآنُ بقولِهِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ عنْ نهايةِ القدرةِ ، وعبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « قلبُ المؤمنِ بين إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[1] عنْ سرعةِ التقليبِ ، وقدْ أشرنا إلىٰ حكمةِ ذلكَ في كتابِ قواعدِ العقائدِ مِنْ ربعِ العباداتِ ، فلنرجعِ الآنَ إلى الغرضِ .

فالمقصودُ : أنَّ تعريفَ توزُّعِ الدرجاتِ والدركاتِ على الحسناتِ والسيئاتِ لا يمكنُ أنْ يفهمَ إلا بضربِ الأمثالِ ، فليُفهمْ مِنَ المثالِ الذي نضربُهُ معناهُ لا صورتُهُ ، فنقولُ :

الناسُ في الآخرةِ ينقسمونَ أصنافاً ، وتتفاوتُ درجاتُهُمْ ودركاتُهُمْ في السعادةِ والشقاوةِ تفاوتاً لا يدخلُ تحتَ الحصرِ ، كما تفاوتوا في سعادةِ الدنيا وشقاوتِها ، ولا تفارقُ الآخرةُ الدنيا في هـٰذا المعنىٰ أصلاً ألبتةَ ؛ فإنَّ مدبِّرَ الملكِ والملكوتِ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، وسنَّتُهُ الصادرةُ عنْ إرادتِهِ الأزليَّةِ مطردةٌ لا تبديلَ لها ، إلا أنَّا إنْ عجزنا عنْ إحصاءِ آحادِ الدرجاتِ . . فلا نعجزُ عنْ إحصاءِ الأجناسِ ، فنقولُ :

---

(١) تقدم قريباً .

الناسُ في الآخرةِ ينقسمونَ بالضرورةِ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ : هالكينَ ، ومعذَّبينَ ، وناجينَ ، وفائزينَ(١) .

ومثالُهُ في الدنيا : أنْ يستوليَ مَلكٌ مِنَ الملوكِ علىٰ إقليمٍ ، فيقتلَ بعضَهُمْ فهُمُ الهالكونَ ، ويعذِّبَ بعضَهُمْ مدَّةً ولا يقتلَهُمْ فهُمُ المعذَّبونَ ، ويخليَ بعضَهُمْ فهُمُ الناجونَ ، ويخلعَ علىٰ بعضِهِمْ فهُمُ الفائزونَ .

فإنْ كانَ الملكُ عادلاً . . لمْ يقسمْهُمْ كذلكَ إلا باستحقاقٍ ، فلا يقتلُ إلا جاحداً لاستحقاقِهِ الملكَ ، معانداً لهُ في أصلِ الدولةِ ، ولا يعذِّبُ إلا مَنْ قصَّرَ في خدمتِهِ معَ الاعترافِ بملكِهِ وعلوِّ درجتِهِ ، ولا يخلي إلا معترفاً لهُ برتبةِ الملكِ لكنَّهُ لمْ يقصِّرْ ليعذَّبَ ولمْ يخدمْ ليخلعَ عليهِ ، ولا يخلعُ إلا علىٰ مَنْ أبلىٰ عذْرَهُ في الخدمةِ والنصرةِ(٢) .

ثمَّ ينبغي أنْ تكونَ خِلَعُ الفائزينَ متفاوتةَ الدرجاتِ بحسَبِ درجاتِ خدمتِهِمْ ، وإهلاكُ الهالكينَ إمَّا تخفيفاً بحزِّ الرقبةِ ، أوْ تنكيلاً بالمُثْلةِ بحسَبِ

---

(١) لأنهم لا يخلون عن سعادة أو شقاوة ، والشقاوة إن كانت بالشرك والكفر وجحود صفات الربوبية . . فهم الهالكون ، فإن كان مع وجود الإقرار بالربوبية نوع عصيان ومخالفة . . فهم المعذبون ، والسعادة إن كانت بالإيمان بالله وبما جاء به الرسل . . فهم الناجون ، فإن كان مع ذلك نبذ الدنيا وإقبال على الله بالكلية . . فهم الفائزون ، فهٰذا وجه الحصر في الأقسام المذكورة . « إتحاف » (٨/ ٥٥١) .

(٢) أبلىٰ في قوله : (أبلىٰ عذره) بمعنىٰ أظهر ؛ كما يقال : فلان أبلىٰ في الحرب ؛ أي : أظهر بأسه ، وقال المطرّزي في « المغرب » (ب ل ي) : (وقوله : أبلىٰ عذره إلا أنه مجارف ؛ أي : اجتهد في العمل إلا أنه مجدود غير مرزوق) .

درجاتِ معانداتِهِمْ ، وتعذيبُ المعذَّبينَ في الخفَّةِ والشدَّةِ ، وطولِ المدَّةِ وقصرِها ، واتحادِ أنواعِها واختلافِها . . بحسبِ درجاتِ تقصيرِهِمْ ، فتنقسمُ كلُّ رتبةٍ مِنْ هٰذهِ الرتبِ إلىٰ درجاتٍ لا تحصىٰ ولا تنحصرُ ، فكذلكَ فافهمْ أنَّ الناسَ في الآخرةِ هٰكذا يتفاوتونَ ؛ فمِنْ هالكٍ ، ومِنْ معذَّبٍ مدَّةً ، ومِنْ ناجٍ يحلُّ في دارِ السلامةِ ، ومِنْ فائزٍ .

والفائزونَ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يحلونَ في جناتِ عدنٍ ، أوْ جناتِ المأوىٰ ، أوْ جناتِ الفردوسِ ، والمعذَّبونَ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يُعذَّبُ قليلاً ، وإلىٰ مَنْ يُعذَّبَ ألفَ سنةٍ إلىٰ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، وذلكَ آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ كما وردَ في الخبر[1] ، وكذلكَ الهالكونَ الآيسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ تتفاوتُ دركاتُهُمْ ، وهٰذهِ الدرجاتُ والدركاتُ بحسَبِ اختلافِ الطاعاتِ والمعاصي ، فلنذكرْ كيفيَّةَ توزُّعِها عليها .

❀ ❀ ❀

---

(١) هٰذا المعنىٰ عند صاحب « القوت » (٢/ ١٥٠) ولفظه : (وقد جاء في الخبر : « آخر من يخرج من النار وهو أيضاً آخر من يدخل الجنة » ، فلعله ـ والله أعلم ـ بعد سبعة آلاف سنة) ، وكان قد روىٰ قبله خبراً عن أبي سعيد الخدري أو غيره من الصحابة كما ذكر : (والله ؛ لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتىٰ يقيم فيها سبعة آلاف سنة) .
وحديث « آخر من يدخل الجنة » دون ذكر المدة عند مسلم (١٨٧) ، وجاء عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلىٰ يوم أفنيت ، وذلك سبعة آلاف سنة » .

أمّا الرتبةُ الأولىٰ : وهيَ الهُلاَّكُ :

ونعني بالهُلاَّكِ : الآيسينَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذِ الذي قتلَهُ الملكُ في المثالِ الذي ضربناهُ أيسَ مِنْ رضا الملكِ وإكرامِهِ ، فلا تغفُلْ عنْ معاني المثالِ .

وهـٰذهِ الدرجةُ لا تكونُ إلا للجاحدينَ والمعرضينَ ، المتجرِّدينَ للدنيا ، المكذِّبينَ باللهِ ورسلِهِ وكتبِهِ ؛ فإنَّ السعادةَ الأخرويَّةَ في القرْبِ مِنَ اللهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ ، وذلكَ لا يُنالُ أصلاً إلا بالمعرفةِ التي يعبَّرُ عنها بالإيمانِ والتصديقِ ، والجاحدونَ همُ المنكرونَ ، والمكذِّبونَ همُ الآيسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ أبدَ الآبادِ ، وهمُ الذينَ يكذِّبونَ بربِّ العالمينَ وبأنبيائِهِ المرسلينَ ، وهمْ عنْ ربِّهِمْ يومئذٍ محجوبونَ لا محالةَ ، وكلُّ محجوبٍ عنْ محبوبِهِ فمحولٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، فهوَ ـ لا محالةَ ـ يكونُ محترقاً معَ جهنَّمَ بنارِ الفراقِ .

ولذلكَ قالَ العارفونَ : (ليسَ خوفُنا مِنْ نارِ جهنَّمَ ، ولا رجاؤُنا للحورِ العينِ ، وإنَّما مطلبُنا اللقاءُ ، ومهربُنا مِنَ الحجابِ فقطْ)[1] .

وقالوا : مَنْ يعبدُ اللهَ لعوضٍ . . فهوَ لئيمٌ ؛ كأنْ يعبدَهُ لطلبِ جنَّتِهِ أوْ

---

(١) وهـٰذا كقول علي بن الموفق الذي رواه البيهقي في « الشعب » (٤٢٧) : (اللهمَّ ؛ إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك ، فعذبني بها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حبّاً مني لجنتك وشوقاً إليها . . فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أني إنما أعبدك حبّاً مني لك وشوقاً إلىٰ وجهك الكريم . . فأبحنيه مرَّة واصنع ما شئت) .

لخوفِ نارِهِ ، بلِ العارفُ يعبدُهُ لذاتِهِ ، فلا يطلبُ إلا ذاتَهُ فقطْ ، فأمَّا الحورُ العينُ والفواكهُ . . فقدْ لا يشتهيها ، وأمَّا النارُ . . فقدْ لا يتَّقيها ؛ إذْ نارُ الفراقِ إذا استولَتْ . . ربَّما غلبَتِ النارَ المحرقةَ للأجسامِ ، فإنَّ نارَ الفراقِ هيَ نارُ اللهِ الموقدةُ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، ونارُ جهنَّمَ لا شغلَ لها إلا معَ الأجسامِ، وألمُ الأجسامِ يستحقرُ معَ ألمِ الفؤادِ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من المنسرح]

فَفِي فُؤادِ ٱلْمُحِبِّ نارُ جَوىً أَحَرُّ نارِ ٱلْجَحِيمِ أَبْرَدُها

ولا ينبغي أنْ تنكرَ هٰذا في عالمِ الآخرةِ ؛ إذْ لهُ نظيرٌ مشاهدٌ في عالمِ الدنيا ، فقدْ رُئِيَ مَنْ غلبَ عليهِ الوجدُ فعدا على النارِ ، وعلىٰ أصولِ القصبِ الجارحةِ للقدمِ ، وهوَ لا يحسُّ بهِ لفرطِ غلبةِ ما في قلبِهِ[2] ، وترى الغضبانَ يستولي عليهِ الغضبُ في القتالِ ، فتصيبُهُ جراحاتٌ وهوَ لا يشعرُ بها في الحالِ ؛ لأنَّ الغضبَ نارٌ في القلبِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغضبُ قطعةٌ مِنَ النارِ »[3] .

واحتراقُ الفؤادِ أشدُّ منِ احتراقِ الأجسادِ ، والأشدُّ يبطلُ الإحساسَ بالأضعفِ كما تراهُ ، فليس التألُّمُ مِنَ النارِ والسيفِ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يفرِّقُ بينَ

---

(١) البيت للمتنبي ، في « ديوانه بشرح العكبري » (١/ ٢٩٦) .
(٢) وهو أبو الحسين النوري ، وقد روىٰ قصته الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٣٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) ، وأوردها الطوسي في « اللمع » (ص ٣٦٣) .
(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم . . . » .

جزأينِ يرتبطُ أحدُهُما بالآخرِ برابطةِ التأليفِ الممكنِ في الأجسامِ ، فالذي يفرِّقُ بينَ القلبِ وبينَ محبوبِهِ المرتبطِ بهِ برابطةِ تأليفٍ أشدَّ إحكاماً مِنْ تأليفِ الأجسامِ . . فهوَ أشدُّ إيلاماً إنْ كنتَ مِنْ أربابِ البصائرِ وأربابِ القلوبِ .

ولا يبعدُ ألا يدركَ مَنْ لا قلبَ لهُ شدَّةَ هـٰذا الألمِ ، ويستحقرَهُ بالإضافةِ إلىٰ ألمِ الجسمِ ، فالصبيُّ لوْ خيِّرَ بينَ ألمِ الحرمانِ عنِ الكرةِ والصولجانِ وبينَ ألمِ الحرمانِ عنْ رتبةِ السلطانِ . . لمْ يحسَّ بألمِ الحرمانِ عنْ رتبةِ السلطانِ أصلاً ، ولمْ يعدَّ ذاكَ ألماً ، بلْ قالَ : العدْوُ في الميدانِ معَ الصولجانِ أحبُّ إليَّ مِنْ سريرِ ألفِ سلطانٍ معَ الجلوسِ عليهِ ، بلْ مَنْ تغلبُهُ شهوةُ البطنِ لوْ خيِّرَ بينَ الهريسةِ والحلواءِ وبينَ فعلٍ جميلٍ يقهرُ بهِ الأعداءَ ويفرِحُ بهِ الأصدقاءَ . . لآثرَ الهريسةَ والحلواءَ .

وهـٰذا كلُّهُ لفقدِ المعنى الذي بوجودِهِ يصيرُ الجاهُ محبوباً ، ووجودِ المعنى الذي بوجودِهِ يصيرُ الطعامُ لذيذاً ، وذلكَ لمَنِ استرقَّتْهُ صفاتُ البهائمِ والسباعِ ، ولمْ تظهرْ فيهِ صفاتُ الملائكةِ التي لا يناسبُها ولا يلذُّ لها إلا القربُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، ولا يؤلمُها إلا البعدُ والحجابُ .

وكما لا يكونُ الذوقُ إلا في اللسانِ والسمعُ إلا في الآذانِ . . فلا تكونُ هـٰذهِ الصفةُ إلا في القلبِ ، فمَنْ لا قلبَ لهُ ليسَ لهُ هـٰذا الحسُّ ، كمَنْ لا سمعَ لهُ ولا بصرَ ليسَ لهُ لذَّةُ الألحانِ ، وحسنُ الصورِ والألوانِ .

وليسَ لكلِّ إنسانٍ قلبٌ ، ولوْ كانَ . . لما صحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، فجعلَ مَنْ لمْ يتذكَّرْ بالقرآنِ مفلساً مِنَ القلبِ ، ولستُ أعني بالقلبِ هٰذا الذي تكتنفُهُ عظامُ الصدرِ مِنْ عالمِ الخلقِ ، بلْ أعني بهِ السرَّ الذي هوَ مِنْ عالمِ الأمرِ ، وهٰذا اللحمُ الذي هوَ مِنْ عالمِ الخلقِ عرشُهُ ، والصدرُ كرسيُّهُ[1] ، وسائرُ الأعضاءِ عالمُهُ ومملكتُهُ ، وللهِ الخلْقُ والأمرُ جميعاً ، ولكنَّ ذلكَ السرَّ الذي قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ هوَ الملكُ والأميرُ ؛ لأنَّ بينَ عالمِ الأمرِ وبينَ عالمِ الخلقِ ترتيباً ، وعالمُ الأمرِ أميرٌ علىٰ عالمِ الخلقِ ، وهيَ اللطيفةُ التي إذا صلحَتْ . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ ، مَنْ عرفَها . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، ومَنْ عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ ، وعندَ ذلكَ يشَمُّ العبدُ مباديَ روائحِ المعنى المطويِّ تحتَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[2] ، ونظرَ بعينِ الرحمةِ إلى الجامدينَ علىٰ ظاهرِ لفظِهِ ، وإلى المتعسِّفينَ في طرقِ تأويلِهِ ، وإنْ كانَتْ رحمتُهُ على الجامدِ على اللفظِ أكثرَ مِنْ رحمتِهِ على المتعسِّفِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الرحمةَ علىٰ قدْرِ المصيبةِ ، ومصيبةُ أولئكَ أكثرُ وإنِ اشتركوا في مصيبةِ الحرمانِ عنْ حقيقةِ الأمرِ ، فالحقيقةُ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ ، وهيَ حكمتُهُ يختصُّ بها مَنْ يريدُ ، ومَنْ يؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتيَ خيراً كثيراً .

---

(١) تقدم هٰذا من قول سهل بن عبد الله ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ٢٣١) .
(٢) رواه مسلم (٢٦١٢/ ١١٥) .

ولنعدْ إلى الغرضِ ، فقدْ أرخينا الطِّوَلَ[1] ، وطوَّلْنا النَّفَسَ في أمرٍ هوَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ التي نقصدُها في هٰذا الكتابِ ، فقدْ ظهرَ أنَّ رتبةَ الهُلاَّكِ ليسَتْ إلا للجهَّالِ المكذِّبينَ ، وشهادةُ ذلكَ مِنْ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا تدخلُ تحتَ الحصرِ ، فلذلكَ لمْ نوردْها .

❁ ❁ ❁

الرتبةُ الثانيةُ : رتبةُ المعذَّبينَ :

وهٰذهِ رتبةُ مَنْ تحلَّىٰ بأصلِ الإيمانِ ، ولكنْ قصَّرَ في الوفاءِ بمقتضاهُ ، فإنَّ رأسَ الإيمانِ هوَ التوحيدُ ، وهوَ ألا يعبدَ إلا اللهَ ، ومَنِ اتبعَ هواهُ . . فقدِ اتخذَ إلٰهَهُ هواهُ ، فهوَ موحِّدٌ بلسانِهِ لا بالحقيقةِ ، بلْ معنىٰ قولِكَ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، وهوَ أنْ تذرَ بالكليَّةِ غيرَ اللهِ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ، ولمَّا كانَ الصراطُ المستقيمُ الذي لا يكملُ التوحيدُ إلا بالاستقامةِ عليهِ أدقَّ مِنَ الشعرِ ، وأحدَّ مِنَ السيفِ ، مثلَ الصراطِ الموصوفِ في الآخرةِ ، فلا ينفكُّ بشرٌ عنْ ميلٍ عنِ الاستقامةِ ولوْ في أمرٍ يسيرٍ ، ولا يخلو عنِ اتباعِ الهوىٰ ولوْ في فعلٍ قليلٍ ، وذلكَ قادحٌ في كمالِ التوحيدِ بقدْرِ ميلِهِ عنِ الصراطِ المستقيمِ . . فذلكَ يقتضي ـ لا محالةَ ـ نقصاناً في درجةِ القربِ ، ومعَ كلِّ نقصانٍ نارانِ ؛ نارُ الفراقِ لذلكَ الكمالِ الفائتِ

---

(١) الطِّوَل : الحبل يطوَّل للدابة توسيعاً لمجال رعيها ، وهو مجاز عن تطويل الكلام هنا .

بالنقصانِ ، ونارُ جهنَّمَ كما وصفَها القرآنُ ، فيكونُ كلُّ مائلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ معذَّباً مرَّتينِ مِنْ وجهينِ ، ولكنَّ شدَّةَ ذلكَ العذابِ وخفَّتَهُ وتفاوتَهُ بحسَبِ طولِ المدَّةِ إنَّما يكونُ بسببِ أمرينِ :

أحدُهُما : قوَّةُ الإيمانِ وضعفُهُ .

والثاني : كثرةُ اتباعِ الهوىٰ وقلَّتُهُ .

وإذْ لا يخلو بشرٌ في غالبِ الأمرِ عنْ واحدٍ مِنَ الأمرينِ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، ولذلك قالَ الخائفونَ مِنَ السلفِ : (إنَّما خوفُنا لأنَّا تيقَّنَّا أنَّا على النارِ واردونَ ، وشكَّكنا في النجاةِ)[1] .

ولمَّا روى الحسنُ الخبرَ الورادَ فيمَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ ألفِ عامٍ ، وأنَّهُ ينادي : يا حنَّانُ ، يا منَّانُ . . قالَ الحسنُ : (يا ليتني كنتُ ذلكَ الرجلَ)[2] .

---

(١) فقد روى ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٩) عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما نزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ . . ذهب عبد الله بن رواحة إلىٰ بيته فبكىٰ ، فجاءت امرأته فبكت ، فجاءت الخادم فبكت ، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون ، فلما انقطعت عبرته . . قال : يا أهلاه ؛ ما الذي أبكاكم ؟ قالوا : لا ندري ، ولكن رأيناك بكيت فبكينا ، قال : إنه أنزلت علىٰ رسول الله آية ينبئني فيها ربي عز وجل أني وارد النار ، ولم ينبئني أني صادر عنها ، فذلك الذي أبكاني .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٠) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص٣٥) .

واعلمْ : أنَّ في الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ آخرَ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ سبعةِ آلافِ سنةٍ[١] ، وأنَّ الاختلافَ في المدَّةِ بينَ اللحظةِ وبينَ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، حتَّىٰ قدْ يجوزُ بعضُهُمْ على النارِ كبرقٍ خاطفٍ ، ولا يكونُ لهُ فيها لبثٌ[٢] ، وبينَ اللحظةِ وسبعةِ آلافِ سنةٍ درجاتٌ متفاوتةٌ ، مِنَ اليومِ ، والأسبوعِ ، والشهرِ ، وسائرِ المُدَدِ ، وإنَّ الاختلافَ بالشدَّةِ لا نهايةَ لأعلاهُ ، وأدناهُ التعذيبُ بالمناقشةِ في الحسابِ ؛ كما أنَّ الملكَ قدْ يعذِّبُ بعضَ المقصِّرينَ في الأعمالِ بالمناقشةِ في الحسابِ ، ثمَّ يعفو ، وقدْ يضربُ بالسياطِ ، وقدْ يعذِّبُ بأنواعٍ أخرَ مِنَ العذابِ .

ويتطرَّقُ إلى العذابِ اختلافٌ ثالثٌ في غيرِ المدَّةِ والشدَّةِ ، وهوَ اختلافُ الأنواعِ ؛ إذْ ليسَ مَنْ يعذَّبُ بمصادرةِ المالِ فقطْ كمَنْ يُعذَّبُ بأخذِ المالِ ، وقتلِ الولدِ ، واستباحةِ الحريمِ ، وتعذيبِ الأقاربِ ، والضربِ ، وقطعِ اللسانِ واليدِ والأنفِ والأذنِ وغيرِهِ ، فهـٰذهِ الاختلافاتُ ثابتةٌ في عذابِ الآخرةِ ، دلَّ عليها قواطعُ الشرعِ ، وهيَ بحسَبِ اختلافِ قوَّةِ الإيمانِ

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٩) .

(٢) روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٢٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « يمر الناس علىٰ جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً ، وعلىٰ جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فمن الناس من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الفرس ، ومنهم من يسعىٰ سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً . . . » الحديث .

وضعفِهِ ، وكثرةِ الطاعاتِ وقلَّتِها ، وكثرةِ السيئاتِ وقلَّتِها .

أمَّا شدَّةُ العذابِ . . فبشدَّةِ قبحِ السيئاتِ وكبرِها ، وأمَّا كثرتُهُ . . فبكثرتِها ، وأمَّا اختلافُ أنواعِهِ . . فباختلافِ أنواعِ السيئاتِ ، وقدِ انكشفَ هـٰذا لأربابِ القلوبِ معَ شواهدِ القرآنِ بنورِ الإيمانِ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، وبقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في الكتابِ والسنةِ ؛ مِنْ كونِ العقابِ والثوابِ جزاءً على الأعمالِ .

وكلُّ ذلكَ بعدْلٍ لا ظلمَ فيهِ ، وجانبُ العفوِ والرحمةِ أرجحُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ فيما حكىٰ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَتْ رحمتي غضبي »[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فإذاً ؛ هـٰذهِ الأمورُ الكليَّةُ مِنِ ارتباطِ الدرجاتِ والدركاتِ بالحسناتِ والسيئاتِ معلومةٌ بقواطعِ الشرعِ ونورِ المعرفةِ ، فأمَّا التفصيلُ . . فلا يُعرفُ إلا ظنّاً ، ومستندُهُ ظواهرُ الأخبارِ ونوعُ حدسٍ يُستمدُّ مِنْ أنوارِ الاستبصارِ بعينِ الاعتبارِ .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥١) بلفظه هنا ، وأصله عند البخاري كذلك (٣١٩٤) .

فنقولُ : كلُّ مَنْ أحكمَ أصلَ الإيمانِ ، واجتنبَ جميعَ الكبائرِ ، وأحسنَ جميعَ الفرائضِ ؛ أعني : الأركانَ الخمسةَ ، ولمْ يكنْ منهُ إلا صغائرُ متفرقةٌ لمْ يصرَّ عليها . . فيشبهُ أنْ يكونَ عذابُهُ بالمناقشةِ في الحسابِ فقطْ ، فإنَّهُ إذا حُوسبَ . . رجحَتْ حسناتُهُ علىٰ سيئاتِهِ ؛ إذْ وردَ في الأخبارِ : أنَّ الصلواتِ الخمسَ ، والجمعةَ ، وصومَ رمضانَ . . كفارةٌ لما بينهنَّ[1] ، وكذلكَ اجتنابُ الكبائرِ بحكمِ نصِّ القرآنِ مكفِّرٌ للصغائرِ[2] ، وأقلُّ درجاتِ التكفيرِ أنْ يُدفعَ العذابُ إنْ لمْ يُدفعِ الحسابُ ، وكلُّ مَنْ هـٰذا حالُهُ فقدْ ثقلَتْ موازينُهُ ، فينبغي أنْ يكونَ بعدَ ظهورِ الرجحانِ في الميزانِ ، وبعدَ الفراغِ مِنَ الحسابِ . . في عيشةٍ راضيةٍ .

نعمِ ، التحاقُهُ بأصحابِ اليمينِ أوْ بالمقربينَ ، ونزولُهُ في جناتِ عدْنٍ أوْ في الفردوسِ الأعلىٰ . . فذلكَ يتبعُ أصنافَ الإيمانِ ؛ لأنَّ الإيمانَ إيمانانِ :

إيمانٌ تقليديٌّ كإيمانِ العوامِّ ؛ يصدِّقونَ بما يسمعونَ ويستمرُّونَ عليهِ .

وإيمانٌ كشفيٌّ يحصلُ بانشراحِ الصدْرِ بنورِ اللهِ ، حتَّىٰ ينكشفَ فيهِ الوجودُ كلُّهُ علىٰ ما هوَ عليهِ ، فيتضحَ أنَّ الكلَّ إلى اللهِ مرجعُهُ ومصيرُهُ ؛ إذْ

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣/١٦) .

(٢) وهو قوله عز من قائل : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ .

ليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ وصفاتُهُ وأفعالُهُ(١) .

فهٰذا الصنفُ همُ المقرَّبونَ النازلونَ في الفردوسِ الأعلىٰ ، وهمْ علىٰ غايةِ القرْبِ مِنَ الملأِ الأعلىٰ ، وهمْ أيضاً علىٰ أصنافٍ ؛ فمنهُمُ السابقونَ ، ومنهُمْ مَنْ دونَهُمْ ، وتفاوتُهُمْ بحسَبِ تفاوتِ معرفتِهِمْ باللهِ تعالىٰ ، ودرجاتُ العارفينَ في المعرفةِ باللهِ تعالىٰ لا تنحصرُ ؛ إذِ الإحاطةُ بكنْهِ جلالِ اللهِ غيرُ ممكنةٍ ، وبحرُ المعرفةِ ليسَ لهُ ساحلٌ وعمقٌ ، وإنَّما يغوصُ فيهِ الغوَّاصونَ بقدْرِ قواهُمْ ، وبقدْرِ ما سبقَ لهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الأزلِ ، فالطريقُ إلى اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لمنازلِهِ ، فالسالكونَ لسبيلِ اللهِ لا نهايةَ لدرجاتِهِمْ .

وأمَّا المؤمنُ إيماناً تقليدياً . . فهوَ مِنْ أصحابِ اليمينِ ، ودرجتُهُ دونَ درجةِ المقرَّبينَ ، وهمْ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، فالأعلىٰ مِنْ درجاتِ أصحابِ اليمينِ تقاربُ رتبتُهُ رتبةَ الأدنىٰ مِنْ درجاتِ المقرَّبينَ .

هٰذا حالُ مَنِ اجتنبَ كلَّ الكبائرِ ، وأدَّى الفرائضَ كلَّها ؛ أعني : الأركانَ الخمسةَ التي هيَ النطقُ بكلمةِ الشهادةِ باللسانِ ، والصلاةُ ، والزكاةُ ، والصومُ ، والحجُّ .

---

(١) وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لا أنه يصير هالكاً من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذلك ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته . . فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل . . فيكون الموجود وجه الله فقط ، ولكل شيء وجهان ؛ وجه إلىٰ نفسه ، ووجه إلىٰ ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله موجود ؛ إذ لا موجود إلا الله ووجهه) . « إتحاف » (٨/ ٥٥٦) ، وهو من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص ٤٠) .

فأمَّا مَنِ ارتكبَ كبيرةً أوْ كبائرَ ، أوْ أهملَ بعضَ أركانِ الإسلامِ ؛ فإنْ تابَ توبةً نصوحاً قبلَ قرْبِ الأجلِ . . التحقَ بمَنْ لمْ يرتكبْ ؛ لأنَّ التائبَ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ ، والثوبُ المغسولُ كالذي لمْ يتوسَّخْ أصلاً .

وإنْ ماتَ قبلَ التوبةِ . . فهٰذا أمرٌ مخطرٌ عندَ الموتِ ؛ إذْ ربَّما يكونُ موتُهُ على الإصرارِ سبباً لتزلزلِ إيمانِهِ ، فيُختمُ لهُ بسوءِ الخاتمةِ ، لا سيما إذا كانَ إيمانُهُ تقليدياً .

فإنَّ التقليدَ وإنْ كانَ جزماً فهوَ قابلٌ للانحلالِ بأدنىٰ شكٍّ وخيالٍ ، والعارفُ البصيرُ أبعدُ مِنْ أنْ يُخافَ عليهِ سوءُ الخاتمةِ ، وكلاهما إنْ ماتا على الإيمانِ يعذَّبانِ ـ إلا أنْ يعفوَ اللهُ ـ عذاباً يزيدُ علىٰ عذابِ المناقشةِ في الحسابِ ، وتكونُ كثرةُ العقابِ مِنْ حيثُ المدَّةُ بحسَبِ كثرةِ مدَّةِ الإصرارِ ، ومِنْ حيثُ الشدَّةُ بحسَبِ قبحِ الكبائرِ ، ومِنْ حيثُ اختلافُ النوعِ بحسَبِ اختلافِ أصنافِ السيئاتِ .

وعندَ انقضاءِ مدَّةِ العقابِ ينزلُ البُلْهُ المقلِّدونَ في درجاتِ أصحابِ اليمينِ ، والعارفونَ المستبصرونَ في أعلىٰ علِّيِّينَ ، ففي الخبرِ : « آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ يُعطىٰ مثلَ الدنيا كلِّها عشرةَ أضعافٍ »[(١)] .

ولا تظنَّنَّ أنَّ المرادَ بهِ تقديرُهُ بالمساحةِ لأطرافِ الأجسامِ ، بأنْ يُقابلَ فرسخٌ بفرسخينِ أوْ عشرةٍ ، فإنَّ هٰذا جهلٌ بطريقِ ضَرْبِ الأمثالِ ،

(١) رواه البخاري (٦٥٧١) ، ومسلم (١٨٦) .

بلْ هـٰذا كقولِ القائلِ : (أخذَ منهُ جملاً وأعطاهُ عشرةَ أمثالِهِ) ، وكانَ الجملُ يساوي عشرةَ دنانيرَ ، فأعطاهُ مئةَ دينارٍ ، فإنْ لمْ يفهمْ مِنَ المثلِ إلا المثلَ في الوزنِ والثقلِ . . فلا تكونُ مئةُ دينارٍ لوْ وُضعَتْ في كفَّةِ الميزانِ والجملُ في الكفَّةِ الأخرىٰ عشرَ عَشيرِهِ ، بلْ هوَ موازنةُ معاني الأجسامِ وأرواحِها ، دونَ أشخاصِها وهياكلِها ، فإنَّ الجملَ لا يُقصدُ لثقلِهِ وطولِهِ وعرضِهِ ومساحتِهِ ، بلْ لماليَّتِهِ ، فروحُهُ الماليَّةُ ، وجسمُهُ اللحمُ والدمُ ، ومئةُ دينارٍ عشرةُ أمثالِهِ بالموازنةِ الروحانيَّةِ ، لا بالموازنةِ الجسمانيَّةِ ، وهـٰذا صادقٌ عندَ مَنْ يعرفُ روحَ الماليَّةِ مِنَ الذهبِ والإبلِ ، بلْ لوْ أعطاهُ جوهرةً وزنُها مثقالٌ ، وقيمتُها مئةُ دينارٍ ، وقالَ : (أعطيتُهُ عشرةَ أمثالِهِ) . . كانَ صادقاً ، ولكنْ لا يدركُ صدقَهُ إلا الجوهريُّ ؛ فإنَّ روحَ الجوهريَّةِ لا تُدركُ بمجرَّدِ البصرِ ، بلْ بفطنةٍ أخرىٰ وراءَ البصرِ ، فلذلكَ يكذِّبُ بهِ الصبيُّ بلِ القرويُّ والبدويُّ ، ويقولُ : (ما هـٰذهِ الجوهرةُ إلا حجرٌ وزنُهُ مثقالٌ ، ووزنُ الجملِ ألفُ ألفِ مثقالٍ ، فقدْ كذبَ في قولِهِ : إنِّي أعطيتُهُ عشرةَ أمثالِهِ) ، والكاذبُ بالتحقيقِ هوَ الصبيُّ ، ولكنْ لا سبيلَ إلىٰ تحقيقِ ذلكَ عندَهُ إلا بأنْ يُنتظرَ بهِ البلوغُ والكمالُ ، وأنْ يحصلَ في قلبِهِ النورُ الذي بهِ يدركُ أرواحَ الجواهرِ وسائرِ الأموالِ ، فعندَ ذلكَ ينكشفُ لهُ الصدقُ .

والعارفُ عاجزٌ عنْ تفهيمِ المقلِّدِ القاصرِ صدقَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هـٰذهِ الموازنةِ ؛ إذْ يقولُ : « الجنةُ في السماواتِ » ، كما وردَ في

الأخبارِ[1] ، والسماواتُ مِنَ الدنيا ، فكيفَ يكونُ عشرةُ أمثالِ الدنيا في الدنيا ؟ وهٰذا كما يعجزُ البالغُ عنْ تفهيمِ الصبيِّ تلكَ الموازنةَ ، وكذلكَ تفهيمِ البدويِّ .

وكما أنَّ الجوهريَّ مرحومٌ إذا بُلِيَ بالبدويِّ والقرويِّ في تفهيمِ تلكَ الموازنةِ . . فالعارفُ أيضاً مرحومٌ إذا بُلِيَ بالبليدِ الأبلهِ في تفهيمِ هٰذهِ الموازنةِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارحموا ثلاثةً : عالماً بينَ الجهَّالِ ، وغنيَّ قومٍ افتقرَ ، وعزيزَ قومٍ ذلَّ »[2] .

والأنبياءُ مرحومونَ بينَ الأمَّةِ بهٰذا السببِ ، ومقاساتُهُمْ لقصورِ عقولِ الأممِ فتنةٌ لهُمْ ، وامتحانٌ وابتلاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وبلاءٌ موكلٌ بهِمْ سبقَ بتوكيلِهِ القضاءُ الأزليُّ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البلاءُ موكلٌ بالأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ »[3] .

---

(١) وليس المراد اللفظ بعينه ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٠٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (الجنة في السماء السابعة العليا) ، ثم قرأ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .

(٢) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٩٨) بتقديم وتأخير ، من طريق عيسى بن طهمان عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد ضعَّف فيه عيسىٰ ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٥٥٩) : (لكن وجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : عيسىٰ ثقة ، لم يتكلم فيه غير ابن حبان ، وقد احتج به البخاري والنسائي والأمة ممن دونه) ، وانظر « تهذيب التهذيب » (٣/ ٣٥٩) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٤٣٩) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) .

فلا تظنَّنَّ أنَّ البلاءَ بلاءُ أيوبَ عليهِ السلامُ ، وهوَ الذي ينزلُ بالبدنِ ، فإنَّ بلاءَ نوحٍ عليهِ السلامُ أيضاً مِنَ البلاءِ العظيمِ ؛ إذْ بُلِيَ بجماعةٍ كانَ لا يزيدُهُمْ دعاؤُهُ إلى اللهِ إلا فراراً ، ولذلكَ لمَّا تأذَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكلامِ بعضِ الناسِ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ؛ لقدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هـٰذا فصبرَ »(١) .

فإذاً ؛ كما لا يخلو الأنبياءُ عنِ الابتلاءِ بالجاحدينَ . . فلا يخلو الأولياءُ والعلماءُ عنِ الابتلاءِ بالجاهلينَ ، ولذلكَ قلَّما انفكَّ الأولياءُ عنْ ضروبٍ مِنَ الإيذاءِ وأنواعِ البلاءِ ؛ بالإخراجِ مِنَ البلادِ ، والسعايةِ بهِمْ إلى السلاطينِ ، والشهادةِ عليهِمْ بالكفرِ والخروجِ عنِ الدينِ .

وواجبٌ أنْ يكونَ أهلُ المعرفةِ عندَ أهلِ الجهلِ مِنَ الكافرينَ ؛ كما يجبُ أنْ يكونَ المعتاضُ عنِ الجملِ الكبيرِ جوهرةً صغيرةً عندَ الجاهلينَ مِنَ المبذِّرينَ المضيِّعينَ .

فإذا عرفتَ هـٰذهِ الدقائقَ . . فآمِنْ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّهُ يُعطىٰ آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ مثلَ الدنيا عشرَ مرَّاتٍ ، وإيَّاكَ أنْ يقتصرَ تصديقُكَ علىٰ ما يدركُهُ البصرُ والحواسُّ فقطْ ، فتكونَ حماراً برِجْلينِ ؛ لأنَّ الحمارَ يشارِكُكَ في الحواسِّ الخمسِ ، وإنَّما أنتَ مفارقٌ للحمارِ بسرٍّ إلـٰهيٍّ عُرِضَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملْنَهُ وأشفقنَ منهُ ، فإدراكُ

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

ما يخرجُ عنْ عالمِ الحواسِّ الخمسِ لا يُصادفُ إلا في عالمِ ذلكَ السرِّ الذي بهِ فارقتَ الحمارَ وسائرَ البهائمِ ، فمَنْ ذهلَ عنْ ذلكَ ، وعطَّلَهُ وأهملَهُ ، وقنعَ بدرجةِ البهائمِ ، ولمْ يجاوزِ المحسوساتِ . . فهوَ الذي أهلكَ نفسَهُ بتعطيلِها ، ونسيَها بالإعراضِ عنها ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، فكلُّ مَنْ لمْ يعرفْ إلا المدرَكَ بالحواسِّ . . فقدْ نسيَ اللهَ ؛ إذْ ليسَ ذاتُ اللهِ مدركاً في هـٰذا العالمِ بالحواسِّ الخمسِ (١) ، وكلُّ مَنْ نسيَ اللهَ . . أنساهُ اللهُ ـ لا محالةَ ـ نفسَهُ ، ونزلَ إلىٰ رتبةِ البهائمِ ، وتركَ الترقيَ إلىٰ أفقِ الملأِ الأعلىٰ ، وخانَ في الأمانةِ التي أودعَهُ اللهُ تعالىٰ إيَّاها وأنعمَ بها عليهِ ، كافراً لنعمتِهِ ومتعرضاً لنقمتِهِ ، إلا أنَّهُ أسوأُ حالاً مِنَ البهيمةِ ؛ فإنَّ البهيمةَ تتخلَّصُ بالموتِ ، وأمَّا هـٰذا . . فعندَهُ أمانةٌ سترجعُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مودِعِها ، فإليهِ مرجعُ الأمانةِ ومصيرُها .

وتلكَ الأمانةُ كالشمسِ الزاهرةِ ، وإنَّما هبطَتْ إلىٰ هـٰذا القالبِ الفاني وغربَتْ فيهِ ، وستطلعُ هـٰذهِ الشمسُ عندَ خرابِ القالبِ مِنْ مغربِها ، وتعودُ إلىٰ بارئِها وخالقِها ؛ إمَّا مظلمةً منكسفةً ، وإمَّا زاهرةً مشرقةً ، والزاهرةُ المشرقةُ غيرُ محجوبةٍ عنِ حضرةِ الربوبيَّةِ ، والمظلمةُ أيضاً راجعةٌ إلى الحضرةِ ؛ إذِ المرجعُ والمصيرُ للكلِّ إليهِ ، إلا أنَّها ناكسةٌ رؤوسَها عنْ جهةِ أعلىٰ عليينَ إلىٰ جهةِ أسفلِ السافلينَ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ :

---

(١) في (أ) : (في هـٰذا العالم المحبوس بالحواس الخمس) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ عندَ ربِّهِمْ ، إلا أنَّهُمْ منكوسونَ منحوسونَ ، قدِ انقلبَتْ وجوهُهُمْ إلىٰ أقفيتِهِمْ ، وانتكسَتْ رؤوسُهُمْ عنْ جهةِ فوقٍ إلىٰ جهةِ أسفلَ ، وذلكَ حكمُ اللهِ تعالىٰ فيمَنْ حرمَهُ توفيقَهُ ، ولمْ يهدِهِ طريقَهُ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ ، والنزولِ إلىٰ منازلِ الجهَّالِ .

فهٰذا حكمُ انقسامِ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ ، ويُعطىٰ مثلَ عشرةِ أمثالِ الدنيا أوْ أكثرَ ، ولا يخرجُ مِنَ النارِ إلا موحِّدٌ ، ولستُ أعني بالتوحيدِ أنْ يقولَ بلسانِهِ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) ، فإنَّ اللسانَ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، فلا ينفعُ إلا في عالمِ الملكِ ، فيدفعُ السيفَ عنْ رقبتِهِ ، وأيديَ الغانمينَ عنْ مالِهِ[1] ، ومدَّةُ الرقبةِ والمالِ مدَّةُ الحياةِ ، فحيثُ لا تبقىٰ رقبةٌ ولا مالٌ . . لا ينفعُ القولُ باللسانِ ، وإنَّما ينفعُ الصدْقُ في التوحيدِ ، **وكمالُ التوحيدِ** : ألا يرى الأمورَ كلَّها إلا مِنَ اللهِ ، **وعلامتُهُ** : ألا يغضبَ علىٰ أحدٍ مِنَ الخلقِ بما يجري عليهِ ؛ إذْ لا يرى الوسائطَ ، وإنَّما يرىٰ مسبِّبَ الأسبابِ كما سيأتي تحقيقُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

وهٰذا التوحيدُ متفاوتٌ ؛ فمِنَ الناسِ مَنْ لهُ مِنَ التوحيدِ مثلُ الجبالِ ،

---

(١) وذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ الذي رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) ـ : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إلٰه إلا الله ، فإذا قالوها . . عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وحسابهم على الله عز وجل » . « إتحاف » (٨/ ٥٦١) ، ويؤكد التخصيص بالقلب حديث الشعيرة والبرة والذرة الآتي تعليقاً .

ومنهُمْ مَنْ لهُ مثقالٌ ، ومنهُمْ مَنْ لهُ مقدارُ خردلةٍ وذرَّةٍ ، فمَنْ في قلبِهِ مثقالُ دينارٍ مِنْ إيمانٍ . . فهوَ أوَّلُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ ، وفي الخبرِ : « يُقالُ : أخرجوا مِنَ النارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ دينارٍ مِنْ إيمانٍ »[1] ، وآخرُ مَنْ يخرجُ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ ، وما بينَ المثقالِ والذرَّةِ علىٰ قدرِ تفاوتِ درجاتِهِمْ يخرجونَ بينَ طبقةِ المثقالِ وبينَ طبقةِ الذرَّةِ[2] ، والموازنةُ بالمثقالِ والذرَّةِ علىٰ سبيلِ ضربِ المثلِ ؛ كما ذكرناهُ في الموازنةِ بينَ أعيانِ الأموالِ وبينَ النقودِ .

وأكثرُ ما يُدخلُ الموحدينَ النارَ مظالمُ العبادِ ، فديوانُ العبادِ هوَ الديوانُ الذي لا يُتركُ[3] ، فأمَّا بقيَّةُ السيئاتِ . . فيتسارعُ العفوُ والتكفيرُ إليها ، ففي الأثرِ : (إنَّ العبدَ ليوقفُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ولهُ مِنَ الحسناتِ أمثالُ الجبالِ ، لوْ سلمَتْ لهُ . . لكانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فيقومُ أصحابُ المظالمِ ، فيكونُ قدْ سبَّ عرضَ هـٰذا ، وأخذَ مالَ هـٰذا ، وضربَ هـٰذا ، فيقتصُّ لهُمْ مِنْ حسناتِهِ حتَّىٰ لا تبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فتقولُ الملائكةُ : يا ربِّ ؛ هـٰذا قدْ فنيَتْ

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) .

(٢) ففي حديث الشفاعة المشهور ، وهو عند البخاري (٧٤١٠) ، ومسلم (١٩٣) : « يخرج من النار من قال : لا إلـٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلـٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلـٰه إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة » .

(٣) فقد روىٰ ذلك مرفوعاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها أحمد في « المسند » (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٥) .

حسناتُهُ ، وبقيَ طالبونَ كثيرٌ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ألقوا مِنْ سيئاتِهِمْ علىٰ سيئاتِهِ ، وصكُّوا لهُ صكّاً إلى النارِ)[1] .

وكما يهلِكُ هوَ بسيئةِ غيرِهِ بطريقِ القصاصِ فكذلكَ ينجو المظلومُ بحسنةِ الظالمِ ؛ إذْ ينقلُ إليهِ عوضاً عمَّا ظلمَهُ بهِ ، وقدْ حُكِيَ عنِ ابنِ الجلاءِ أنَّ بعضَ إخوانِهِ اغتابَهُ ، ثمَّ أرسلَ إليهِ يستحلُّهُ ، فقالَ : لا أفعلُ ، ليسَ في صحيفتي حسنةٌ أفضلَ منها ، فكيفَ أمحوها ؟![2] .

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (ذنوبُ إخواني مِنْ حسناتي ، أريدُ أنْ أزيِّنَ بها صحيفتي)[3] .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنِ اختلافِ أحوالِ العبادِ في المعادِ في درجاتِ السعادةِ والشقاوةِ ، وكلُّ ذلكَ حكمٌ بظاهرِ الأسبابِ ، يضاهي حكْمَ الطبيبِ علىٰ مريضٍ بأنَّهُ يموتُ ـ لا محالةَ ـ ولا يقبلُ العلاجَ ، وعلىٰ مريضٍ آخرَ بأنَّ عارضَهُ خفيفٌ وعلاجَهُ هيِّنٌ ، فإنَّ ذلكَ ظنٌّ يصيبُ في أكثرِ الأحوالِ ، ولكنْ قدْ يثوبُ إلى المشرفِ على الهلاكِ نفسُهُ مِنْ حيثُ لا يشعرُ الطبيبُ ، وقدْ يُساقُ إلىٰ ذي العارضِ الخفيفِ أجلُهُ مِنْ حيثُ لا يطَّلعُ عليهِ ، وذلكَ لأسرارِ اللهِ تعالى الخفيَّةِ في أرواحِ الأحياءِ ، وغموضِ الأسبابِ التي رتَّبَها

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٩) ، وهو بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو قريب من حديث المفلس المشهور .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٠) .
(٣) هو من تتمة قول ابن الجلاء السابق كما في « القوت » (٢/ ١٥٠) .

مسبِّبُ الأسبابِ بقدَرٍ معلومٍ ؛ إذْ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الوقوفُ علىٰ كنهِها ، فكذلكَ النجاةُ والفوزُ في الآخرةِ لهما أسبابٌ خفيَّةٌ ، ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، يعبَّرُ عنْ ذلكَ السببِ الخفيِّ المفضي إلى النجاةِ بالعفوِ والرضا ، وعمَّا يفضي إلى الهلاكِ بالغضبِ والانتقامِ ، ووراءَ ذلكَ سرُّ المشيئةِ الإلـٰهيةِ الأزليَّةِ التي لا يطلعُ الخلقُ عليها ، فلذلكَ يجبُ علينا أنْ نجوِّزَ العفوَ عنِ العاصي وإنْ كثرَتْ سيئاتُهُ الظاهرةُ ، والغضبَ على المطيعِ وإنْ كثرَتْ طاعاتُهُ الظاهرةُ ؛ فإنَّ الاعتمادَ على التقوىٰ ، والتقوىٰ في القلبِ ، وهوَ أغمضُ مِنْ أنْ يطلعَ عليهِ صاحبُهُ ، فكيفَ غيرُهُ ؟!

ولكنْ قدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ أنَّهُ لا عفوَ عنْ عبدٍ إلا بسببٍ خفيٍّ فيهِ يقتضي العفوَ ، ولا غضبَ إلا بسببٍ باطنٍ يقتضي البعدَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ولولا ذلكَ . . لمْ يكنِ العفوُ والغضبُ جزاءً على الأعمالِ والأوصافِ ، ولوْ لمْ يكنْ جزاءً . . لمْ يكنْ عدْلاً ، ولوْ لمْ يكنْ عدلاً . . لمْ يصحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، ولا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، وكلُّ ذلكَ صحيحٌ ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ، وسعيُهُ هوَ الذي يُرىٰ ، وكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ، فلمَّا زاغوا . . أزاغَ اللهُ قلوبَهُمْ ، ولمَّا غيَّروا ما بأنفسِهِمْ . . غيَّرَ اللهُ ما بهِمْ ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وهـٰذا كلُّهُ قدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أوضحَ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ ؛ إذِ البصرُ يمكنُ الغلطُ فيهِ ، إذْ قدْ يرى البعيدَ قريباً ، والكبيرَ

صغيراً ، ومشاهدةُ القلبِ لا يمكنُ الغلطُ فيها ، وإنَّما الشأنُ في انفتاحِ بصيرةِ القلبِ ، وإلا . . فما يرىٰ بها بعدَ الانفتاحِ فلا يتصوَّرُ فيهِ الكذبُ[1] ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[2] .

❀ ❀ ❀

الرتبةُ الثالثةُ : رتبةُ الناجينَ :

وأعني بالنجاةِ : السلامةَ فقطْ ، دونَ السعادةِ والفوزِ ، وهُمْ قومٌ لمْ يخدموا ليُخلعَ عليهِمْ ، ولمْ يقصِّروا فيعذَّبوا ، ويشبهُ أنْ يكونَ هـٰذا حالَ المجانينِ ، والصبيانِ مِنَ الكفارِ ، والمعتوهينَ ، والذينَ لمْ تبلغهُمُ الدعوةُ في أطرافِ البلادِ وعاشوا على البَلَهِ وعدمِ المعرفةِ ، فلمْ يكنْ لهُمْ معرفةٌ ، ولا جحودٌ ، ولا طاعةٌ ، ولا معصيةٌ ، ولا وسيلةٌ تقرِّبُهُمْ ، ولا جنايةٌ تبعدُهُمْ ، فما همْ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ولا مِنْ أهلِ النارِ ، بلْ ينزلونَ في منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، ومقامٍ بينَ المقامينِ ، عبَّرَ الشرعُ عنهُ بالأعرافِ ، وحلولُ طائفةٍ

---

(١) **فإن قلت** : نرىٰ جماعة من أرباب العقول يغلطون في نظرهم . . **فاعلم** : أن فيهم خيالات وأوهاماً واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل ، فالغلط منسوب إليها ، فأما العقل المجرد إذا تجرَّد عن غشاوة الوهم والخيال . . لم يتصور أن يغلط ، بل يرى الأشياء علىٰ ما هي عليه ، وفي تجرده عسر . « إتحاف » (٨/ ٥٦٣) .

(٢) أي : من عجائب الملكوت الأعلىٰ ، وذلك لأن البصر من عالم الشهادة والحس ، والبصيرة من عالم الملكوت ، لا ترىٰ بالأبصار ، وإنما تشاهد ببصيرة القلب . « إتحاف » (٨/ ٥٦٤) .

وكما تتضاعفُ أوزارُهُمْ على الذنوبِ فكذلكَ يتضاعفُ ثوابُهُمْ على الحسناتِ إذا اتُّبِعوا .

فإذا تركَ التجمُّلَ والميلَ إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ومِنَ الطعامِ بالقوتِ ، ومِنَ الكسوةِ بالخلَقِ ، فيُتَّبَعُ عليهِ ، ويقتدي بهِ العلماءُ والعوامُّ ، فيكونُ لهُ مثلُ ثوابِهِمْ ، وإنْ مالَ إلى التجمُّلِ.. مالَتْ طباعُ مَنْ دونَهُ إلى التشبُّهِ بهِ ، ولا يقدرونَ على التجمُّلِ إلا بخدمةِ السلاطينِ ، وجمعِ الحطامِ مِنَ الحرامِ ، ويكونُ هوَ السببَ في جميعِ ذلكَ ، فحركاتُ العلماءِ في طوري الزيادةِ والنقصانِ تتضاعفُ آثارُها ؛ إمَّا بالربحِ ، وإمَّا بالخسرانِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفاصيلِ الذنوبِ التي التوبةُ توبةٌ عنها .

* * *

والقدْرُ الممكنُ ذكرُهُ ما فصَّلَهُ القرآنُ ، فليسَ بعدَ بيانِ اللهِ بيانٌ ، والذي لا يمكنُ التعبيرُ عنهُ في هٰذا العالمِ فهوَ الذي أجملَهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

والعارفونَ مطلبُهُمْ تلكَ الحالةُ التي لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ في هٰذا العالمِ ، فأمَّا الحورُ والقصورُ ، والفواكهُ واللبنُ والعسلُ والخمرُ ، والحليُّ والأساورُ . . فإنَّهُمْ لا يحرصونَ عليها ، ولوْ أُعطوها . . لمْ يقنعوا بها ، ولا يطلبونَ إلا لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ ، فهيَ غايةُ السعاداتِ ، ونهايةُ اللذَّاتِ .

ولذلكَ لمَّا قيلَ لرابعةَ العدويَّةِ رحمةُ اللهِ عليها : كيفَ رغبتُكِ في الجنَّةِ ؟ فقالَتْ : الجارُ ثمَّ الدارُ .

فهؤلاءِ قومٌ شغلَهُمْ حبُّ ربِّ الدارِ عنِ الدارِ وزينتِها ، بلْ عنْ كلِّ شيءٍ سواهُ ، حتَّىٰ عنْ أنفسِهِمْ ، ومثالُهُمْ مثالُ العاشقِ المستهترِ بمعشوقِهِ ، المستوفي همَّهُ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ والفكرِ فيهِ ، فإنَّهُ في حالِ الاستغراقِ غافلٌ عنْ نفسِهِ ، لا يحسُّ بما يصيبُهُ في بدنِهِ ، ويُعبَّرُ عنْ هٰذهِ الحالةِ بأنَّهُ فنيَ عنْ نفسِهِ ، ومعناهُ : أنَّهُ صارَ مستغرقاً بغيرِهِ ، وصارَتْ همومُهُ همّاً واحداً وهوَ

---

(1) حديث قدسي رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

محبوبُهُ ، ولمْ يبقَ فيهِ متسعٌ لغيرِ محبوبِهِ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ ، لا إلىٰ نفسِهِ ولا إلىٰ غيرِهِ .

وهٰذهِ الحالةُ هيَ التي توصلُ في الآخرةِ إلىٰ قرَّةِ عينٍ لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ في هٰذا العالمِ علىٰ قلبِ بشرٍ ، كما لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ صورةُ الألوانِ والألحانِ علىٰ قلبِ الأصمِّ والأكمَهِ ، إلا أنْ يُرفعَ الحجابُ عنْ سمعِهِ وبصرِهِ ، فعندَ ذلكَ يدركُ حالَةً يعلمُ قطعاً أنَّهُ لمْ يُتصوَّرْ أنْ تخطرَ ببالِهِ قبلَ ذلكَ صورتُها ، فالدنيا حجابٌ على التحقيقِ ، وبرفعِهِ ينكشفُ الغطاءُ ، فعندَ ذلكَ يدركُ ذوقَ الحياةِ الطيبةِ ، وأنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانَ لوْ كانوا يعلمونَ .

فهٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ توزُّعِ الدرجاتِ على الحسناتِ ، والدركاتِ على السيئاتِ ، واللهُ الموفِّقُ بلطفِهِ .

❋ ❋ ❋

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلمْ : أنَّ الصغيرةَ تكبرُ بأسبابٍ :

منها الإصرارُ والمواظبةُ : ولذلكَ قيلَ : « لا صغيرةَ معَ إصرارٍ ، ولا كبيرةَ معَ استغفارٍ »(١) ، فكبيرةٌ واحدةٌ تنصرمُ ولا يتبعُها مثلُها لوْ تُصوِّرَ ذلكَ . . لكانَ العفوُ عنها أرجىٰ مِنْ صغيرةٍ يواظبُ العبدُ عليها .

ومثالُ ذلكَ مثالُ قطراتٍ مِنَ الماءِ تقعُ على الحجرِ علىٰ توالٍ فتؤثِّرُ فيهِ ، وذلكَ القدْرُ مِنَ الماءِ لوْ صُبَّ عليهِ دفعةً واحدةً . . لمْ يؤثِّرْ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأعمالِ أدومُها وإنْ قلَّ »(٢) ، والأشياءُ تُستبانُ بأضدادِها ، فإنْ كانَ النافعُ مِنَ العملِ هوَ الدائمَ وإنْ قلَّ ، والكثيرُ المتصرِّمُ قليلُ النفعِ في تنويرِ القلبِ وتطهيرِهِ . . فكذلكَ القليلُ مِنَ السيئاتِ إذا دامَ . . عظمَ تأثيرُهُ في إظلامِ القلبِ .

إلا أنَّ الكبيرةَ قلَّما يُتصوَّرُ الهجومُ عليها بغتةً مِنْ غيرِ سوابقَ ولواحقَ مِنْ جملةِ الصغائرِ ، فقلَّما يزني الزاني بغتةً مِنْ غيرِ مراودةٍ ومقدِّماتٍ ، وقلَّما يقتلُ القاتلُ بغتةً مِنْ غيرِ مشاحنةٍ سابقةٍ ومعاداةٍ ، فكلُّ كبيرةٍ تكتنفُها صغائرُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) بنحوه .

سابقةٌ ولاحقةٌ ، ولوْ تُصوِّرتْ كبيرةٌ وحدَها بغتةً ولمْ يتفقْ إليها عَوْدٌ . . ربَّما كانَ العفوُ فيها أرجىٰ مِنْ صغيرةٍ واظبَ الإنسانُ عليها عمرَهُ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يستصغرَ الذنبَ : فإنَّ الذنبَ كلَّما استعظمَهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ . . صغرَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما استصغرَهُ . . كبرَ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ استعظامَهُ يصدرُ عنْ نفورِ القلبِ عنهُ ، وكراهيتِهِ لهُ ، وذلكَ النفورُ يمنعُ مِنْ شدَّةِ تأثُّرِهِ بهِ ، واستصغارُهُ يصدرُ عنِ الإلفِ بهِ ، وذلكَ يوجبُ شدَّةَ الأثرِ في القلبِ ، والقلبُ هوَ المطلوبُ تنويرُهُ بالطاعاتِ ، والمحذورُ تسويدُهُ بالسيئاتِ ، ولذلكَ لا يؤاخذُ بما يجري عليهِ في الغفلةِ ، فإنَّ القلبَ لا يتأثَّرُ بما يجري في الغفلةِ .

وقدْ جاءَ في الخبرِ : « المؤمنُ يرىٰ ذنبَهُ كالجبلِ فوقَهُ يخافُ أنْ يقعَ عليهِ ، والمنافقُ يرىٰ ذنبَهُ كذبابٍ مرَّ علىٰ أنفِهِ فأطارَهُ »[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الذنبُ الذي لا يُغفرُ قولُ العبدِ : ليتَ كلَّ شيءٍ عملتُهُ مثلُ هٰذا)[2] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) عن الحارث بن سويد قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين ؛ أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه ، وذكره أوَّلاً ، وذُكر بعد حديث : « لله أفرح بتوبة العبد » ، ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وصرح أحمد في « المسند » (١/ ٣٨٣) برواية بوقفه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٨١) .

وإنَّما يعظمُ الذنبُ في قلبِ المؤمنِ لعلمِهِ بجلالِ اللهِ ، فإذا نظرَ إلىٰ عظمِ مَنْ عصىٰ بذلكَ الذنبِ.. رأى الصغيرةَ كبيرةً ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (لا تنظرْ إلىٰ قلَّةِ الهديةِ ، وانظرْ إلىٰ عظمِ مهديها ، ولا تنظرْ إلىٰ صغرِ الخطيئةِ ، وانظرْ إلىٰ كبرياءِ مَنْ واجهتَهُ بها)[1] .

وبهٰذا الاعتبارِ قالَ بعضُ العارفينَ : (لا صغيرةَ ، بلْ كلُّ مخالفةٍ فهيَ كبيرةٌ)[2] .

ولذلكَ قالَ بعضُ الصحابةِ للتابعينَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ في أعينِكُمْ أدقُّ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الموبقاتِ)[3] إذْ كانَتْ معرفةُ الصحابةِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ أتمَّ ، فكانَتِ الصغائرُ عندَهُمْ بالإضافةِ إلىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ كبائرَ .

وبهٰذا السببِ يعظمُ مِنَ العالمِ ما لا يعظمُ مثلُهُ مِنَ الجاهلِ ، ويُتجاوزُ عنِ العامِّيِّ في أمورٍ لا يُتجاوزُ في أمثالِها عنِ العارفِ ؛ لأنَّ الذنبَ والمخالفةَ يكبرُ بمعرفةِ قدْرِ المخالَفِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٢) .

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) بنحوه ، واختار ذلك القول أبو إسحاق الإسفراييني وأبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين في « الإرشاد » والقشيري في « المرشدة » ، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في « تفسيره » واعتمد عليه التقي السبكي . « إتحاف » (٨/ ٥٧١) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣) .

ومنها السرورُ بالصغيرةِ : والفرحُ والتبجُّحُ بها ، واعتدادُ التمكُّنِ مِنْ ذلكَ نعمةً ، والغفلةُ عنْ كونِهِ سببَ الشقاوةِ ، فكلَّما غلبَتْ حلاوةُ الصغيرةِ عندَ العبدِ . . كبرَتِ الصغيرةُ ، وعظمَ أثرُها في تسويدِ قلبِهِ ، حتَّىٰ إنَّ مِنَ المذنبينَ مَنْ يتمدَّحُ بذنبِهِ ويتبجَّحُ بِهِ ؛ لشدَّةِ فرحِهِ بمقارفتِهِ إيَّاهُ ، كما يقولُ : أما رأيتَني كيفَ مزَّقتُ عرضَهُ ؟ ويقولُ المناظرُ في مناظرتِهِ : أما رأيتَني كيفَ فضحتُهُ ؟ وكيفَ ذكرتُ مساوئَهُ حتَّىٰ أخجلتُهُ ؟ وكيفَ استخففتُ بِهِ ؟ وكيفَ لبَّستُ عليهِ ؟ ويقولُ المعاملُ في التجارةِ : أما رأيتَ كيفَ روَّجتُ عليهِ الزائفَ ؟ وكيفَ خدعتُهُ ؟ وكيفَ غبنْتُهُ في مالِهِ ؟ وكيفَ استحمقتُهُ ؟

فهٰذا وأمثالُهُ تكبرُ بِهِ الصغائرُ ، فإنَّ الذنوبَ مهلكاتٌ ، وإذا دُفعَ العبدُ إليها ، وظفرَ الشيطانُ بِهِ في الحملِ عليها . . فينبغي أنْ يكونَ في مصيبةٍ وتأسُّفٍ بسببِ غلبةِ العدوِّ عليه ، وبسببِ بعدِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فالمريضُ الذي يفرحُ بأنْ ينكسرَ إناؤُهُ الذي فيهِ دواؤُهُ حتَّىٰ يتخلَّصَ مِنْ ألمِ شربِهِ . . لا يُرجىٰ شفاؤُهُ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يتهاونَ بسترِ اللهِ عليهِ وحلمِهِ عنهُ وإمهالِهِ إيَّاهُ : ولا يدري أنَّهُ إنَّما يُمهَلُ مقتاً ليزدادَ بالإمهالِ إثماً ، فيظنُّ أنَّ تمكُّنَهُ مِنَ المعاصي عنايةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بهِ ، فيكونُ ذلكَ لأمنِهِ مِنْ مكرِ اللهِ ، وجهلِهِ بمكامنِ الغرورِ باللهِ ، كما

قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

* * *

ومنها أنْ يأتيَ الذنبَ ويظهرَهُ : بأنْ يذكرَهُ بعدَ إتيانِهِ ، أوْ يأتيَهُ علىٰ ملأٍ ومشهدٍ مِنْ غيرِهِ ، فإنَّ ذلكَ منهُ جنايةٌ علىٰ سترِ اللهِ الذي أسدلَهُ عليهِ ، وتحريكٌ لرغبةِ الشرِّ فيمَنْ أسمعَهُ ذنبَهُ أوْ أشهدَهُ فعلَهُ ، فهما جنايتانِ انضمتا إلىٰ جنايتِهِ . . فغلظَتْ بهِ .

فإنِ انضافَ إلىٰ ذلكَ الترغيبُ للغيرِ فيهِ ، والحملُ عليهِ ، وتهيئةُ الأسبابِ لهُ . . صارَتْ جنايةً رابعةً ، وتفاحشَ الأمرُ ، وفي الخبرِ : « كلُّ الناسِ معافىً إلا المجاهرينَ ، يبيتُ أحدُهُمْ علىٰ ذنبٍ قدْ سترَهُ اللهُ عليهِ ، فيصبحُ فيكشفُ سترَ اللهِ ويتحدَّثُ بذنبِهِ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ مِنْ صفاتِ اللهِ ونعمِهِ أنَّهُ يظهرُ الجميلَ ويسترُ القبيحَ ، ولا يهتكُ السترَ ، فالإظهارُ كفرانٌ لهـٰذهِ النعمةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (لا تذنبْ ، فإنْ كانَ ولا بدَّ . . فلا ترغِّبْ غيرَكَ فيهِ فتذنبَ ذنبينِ)[2] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٣) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٣) .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما انتهكَ المرءُ مِنْ أخيهِ حرمةً أعظمَ مِنْ أنْ يساعدَهُ علىٰ معصيةٍ ثمَّ يهوِّنَها عليهِ)[1] .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يكونَ المذنبُ عالماً يُقتدىٰ بهِ : فإذا فعلَهُ بحيثُ يُرىٰ ذلكَ منهُ . . كبرَ ذنبُهُ ؛ كلبسِ العالمِ الإبريسمَ ، وركوبِهِ مراكبَ الذهبِ والفضةِ ، وأخذِهِ مالَ الشبهةِ مِنْ أموالِ السلاطينِ ، ودخولِهِ على السلاطينِ ، وتودُّدِهِ إليهِمْ[2] ، ومساعدتِهِ إيَّاهُمْ بتركِ الإنكارِ عليهِمْ ، وإطلاقِهِ اللسانَ في الأعراضِ ، وتعديهِ باللسانِ في المناظرةِ ، وقصدِهِ الاستخفافَ ، واشتغالِهِ مِنَ العلومِ بما لا يُقصدُ منهُ إلا الجاهُ ؛ كعلمِ الجدلِ والمناظرةِ ، فهٰذهِ ذنوبٌ يُتبعُ العالمُ عليها ، فيموتُ العالمُ ويبقىٰ شرُّهُ مستطيراً في العالمِ آماداً متطاولةً ، فطوبىٰ لمَنْ إذا ماتَ . . ماتَتْ معَهُ ذنوبُهُ .

وفي الخبرِ : « مَنْ سنَّ سنَّةً سيئةً . . فعليهِ وزرُها ووزرُ مَنْ عملَ بها لا ينقصُ مِنْ أوزارِهِمْ شيئاً »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٣) .
(٢) في (ب ، ج) : (وتردده إليهم) بدل (وتودده إليهم) .
(٣) رواه مسلم (١٠١٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ ، والآثارُ : ما يلحقُ مِنَ الأعمالِ بعدَ انقضاءِ العملِ والعاملِ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ويلٌ للعالمِ مِنَ الأتباعِ ، يزلُّ زلَّةً فيرجعُ عنها ، ويحتملُها الناسُ فيذهبونَ بها في الآفاقِ)(١) .

وقال بَعضُهُمْ : (مثلُ زلَّةِ العالمِ مثلُ انكسارِ السفينةِ ، تغرقُ ويغرقُ أهلُها)(٢) .

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ عالماً كانَ يُضلُّ الناسَ بالبدعةِ ، ثمَّ أدركتْهُ توبةٌ ، فعملَ في الإصلاحِ دهراً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قُلْ لهُ : إنَّ ذنبَكَ لوْ كانَ فيما بيني وبينَكَ . . لغفرتُهُ لكَ ، ولكنْ كيفَ بمَنْ أضللتَ مِنْ عبادي فأدخلتَهُمُ النارَ ؟!(٣) .

فبهـٰذا يتضحُ أنَّ أمرَ العلماءِ مخطرٌ ، فعليهِمْ وظيفتانِ :

إحداهُما : تركُ الذنبِ .

والأخرىٰ : إخفاؤُهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٣) .

(٢) القول لعبد الله بن المعتز ، رواه عنه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦٤٦) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٤٦) عن خالد الربعي ، وقد نقل الخبر صاحب « القوت » (١/ ١٨٤) وقال عقبه : (فأما استحلال المعصية وإحلالها للغير . . فليس من هـٰذه الأبواب في شيء ، إنما ذلك خروج عن الملة وتبديل للشريعة ، وهو الكفر بالله تعالىٰ) .

وكما تتضاعفُ أوزارُهُمْ على الذنوبِ فكذلكَ يتضاعفُ ثوابُهُمْ على الحسناتِ إذا اتُّبعوا .

فإذا تركَ التجمُّلَ والميلَ إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ومِنَ الطعامِ بالقوتِ ، ومِنَ الكسوةِ بالخلَقِ ، فيُتَّبَعُ عليهِ ، ويقتدي بهِ العلماءُ والعوامُّ ، فيكونُ لهُ مثلُ ثوابِهِمْ ، وإنْ مالَ إلى التجمُّلِ . . مالَتْ طباعُ مَنْ دونَهُ إلى التشبُّهِ بهِ ، ولا يقدرونَ على التجمُّلِ إلا بخدمةِ السلاطينِ ، وجمعِ الحطامِ مِنَ الحرامِ ، ويكونُ هوَ السببَ في جميعِ ذلكَ ، فحركاتُ العلماءِ في طوري الزيادةِ والنقصانِ تتضاعفُ آثارُها ؛ إمَّا بالربحِ ، وإمَّا بالخسرانِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفاصيلِ الذنوبِ التي التوبةُ توبةٌ عنها .

* * *

الرُّكنُ الثَّالِثُ
في تمام التوبة وشروطها في دوامها إلى آخر العمر

قدْ ذكرنا أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ ندمٍ يورثُ عزماً وقصداً ، وذلكَ الندمُ أورثَهُ العلمُ بكونِ المعاصي حائلاً بينَهُ وبينَ محبوبِهِ .

ولكلِّ واحدٍ مِنَ العلمِ والندمِ والعزمِ دوامٌ وتمامٌ ، ولتمامِها علامةٌ ، ولدوامِها شرطٌ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِها .

أمَّا العلمُ : فالنظرُ فيهِ نظرٌ في سببِ التوبةِ ، وسيأتي .

وأمَّا الندمُ : فهوَ توجُّعُ القلبِ عندَ شعورِهِ بفواتِ المحبوبِ ، وعلامتُهُ : طولُ الحسرةِ والحزنِ ، وانسكابُ الدمعِ وطولُ البكاءِ والفكرِ ، فمَنِ استشعرَ عقوبةً نازلةً بولدِهِ أوْ ببعضِ أعزَّتِهِ . . طالَ عليهِ بكاؤُهُ لمصيبتِهِ ، وأيُّ عزيزٍ أعزُّ عليهِ مِنَ نفسِهِ ؟! وأيُّ عقوبةٍ أشدُّ مِنَ النارِ ؟! وأيُّ سببٍ أدلُّ علىٰ نزولِ العقوبةِ مِنَ المعاصي ؟! وأيُّ مخبرٍ أصدقُ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ؟!

ولوْ حدَّثَهُ إنسانٌ واحدٌ يسمَّىٰ طبيباً أنَّ ولدَهُ المريضَ لا يبرأُ ، وأنَّهُ سيموتُ منهُ . . طالَ في الحالِ حزنُهُ ، فليسَ ولدُهُ بأعزَّ مِنْ نفسِهِ ، ولا الطبيبُ بأعلمَ ولا أصدقَ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ، ولا الموتُ بأشدَّ مِنَ النارِ ، ولا المرضُ بأدلَّ على الموتِ مِنَ المعاصي علىٰ سخطِ اللهِ تعالىٰ ، والتعرضِ بها للنارِ .

فألمُ الندمِ كلَّما كانَ أشدَّ . . كانَ تكفيرُ الذنوبِ بهِ أرجىٰ ، فعلامةُ صحّةِ الندمِ رقّةُ القلبِ ، وغزارةُ الدمعِ ، وفي الخبرِ : (جالسوا التوّابينَ ؛ فإنَّهُمْ أرقُّ أفئدةً)[1] .

ومِنْ علامتِهِ : أنْ تتمكَّنَ مرارةُ تلكَ الذنوبِ في قلبِهِ بدلاً مِنْ حلاوتِها ، فيستبدلُ بالميلِ كراهيةً ، وبالرغبةِ نفرةً .

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ قالَ لبعضِ أنبيائِهِ وقدْ سألَهُ قبولَ توبةِ عبدٍ بعدَ أنِ اجتهدَ سنينَ في العبادةِ ولمْ يرَ قبولَ توبتِهِ فقالَ : وعزَّتي وجلالي ؛ لوْ شفعَ فيهِ أهلُ السماواتِ والأرضِ ما قبلتُ توبتَهُ وحلاوةُ ذلكَ الذنبِ الذي تابَ منهُ في قلبِهِ[2] .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فالذنوبُ هيَ أعمالٌ مشتهاةٌ بالطبعِ ، فكيفَ يجدُ مرارتَها ؟

فأقولُ : مَنْ تناولَ عسلاً كانَ فيهِ سمٌّ ولمْ يدركْهُ بالذوقِ واستلذَّهُ ، ثمَّ مرضَ وطالَ مرضُهُ وألمُهُ ، وتناثرَ شعرُهُ ، وفُلِجَتْ أعضاؤُهُ ، فإذا قدِّمَ إليهِ عسلٌ فيهِ مثلُ ذلكَ السمِّ وهوَ في غايةِ الجوعِ والشهوةِ للحلاوةِ . . فهلَ تنفرُ نفسُهُ عنْ ذلكَ العسلِ أمْ لا ؟

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨١) .

فإنْ قلتَ : لا ، فهوَ جحدٌ للضرورةِ والمشاهدةِ ، بلْ ربَّما تنفرُ عنِ العسلِ الذي ليسَ فيهِ سمٌّ أيضاً ؛ لشبهِهِ بهِ !

فوجدانُ التائبِ مرارةَ الذنبِ كذلكَ يكونُ ، وذلكَ لعلمِهِ بأنَّ كلَّ ذنبٍ فذوقُهُ ذوقُ العسلِ ، وعملُهُ عملُ السمِّ .

ولا تصحُّ التوبةُ ولا تصدقُ إلا بمثلِ هـٰذا الإيمانِ ، ولمَّا عزَّ مثلُ هـٰذا الإيمانِ . . عزَّتِ التوبةُ والتائبونَ ، فلا ترىٰ إلا معرضاً عنِ اللهِ تعالىٰ ، متهاوناً بالذنوبِ ، مصرّاً عليها .

فهـٰذا شرطُ تمامِ الندمِ .

وينبغي أنْ يدومَ إلى الموتِ ، وينبغي أنْ يجدَ هـٰذهِ المرارةَ في جميعِ الذنوبِ وإنْ لمْ يكنْ قدِ ارتكبها مِنْ قبلُ ؛ كما يجدُ متناولُ السمِّ في العسلِ النفرةَ مِنَ الماءِ الباردِ مهما علمَ أنَّ فيهِ مثلَ ذلكَ السمِّ ؛ إذْ لمْ يكنْ ضررُهُ مِنَ العسلِ ، بلْ ممَّا فيهِ ، ولمْ يكنْ ضررُ التائبِ مِنْ سرقتِهِ وزناهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ سرقةٌ وزناً ، بلْ مِنْ حيثُ مخالفتُهُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ جارٍ في كلِّ ذنبٍ .

وأمَّا القصدُ الذي ينبعثُ منهُ ، وهوَ إرادةُ التداركِ : فلهُ تعلُّقٌ بالحالِ ؛ وهوَ موجِبٌ تركَ كلِّ محظورٍ هوَ ملابسٌ لهُ ، وأداءَ كلِّ فرضٍ هوَ متوجِّهٌ عليهِ في الحالِ ، **ولهُ تعلُّقٌ بالماضي ؛** وهوَ تداركُ ما فرطَ ، **وله تعلُّقٌ بالمستقبلِ ؛** وهوَ دوامُ الطاعةِ ودوامُ تركِ المعصيةِ إلى الموتِ .

وشرطُ صحتِهِ فيما يتعلَّقُ بالماضي : أنْ يردَّ فكرَهُ إلىٰ أوَّلِ يومٍ بلغَ فيهِ

بالسنِّ أوِ الاحتلامِ ، ويفتِّشَ عمَّا مضىٰ مِنْ عمرِهِ سنةً سنةً ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونَفَساً نَفَساً ، وينظرَ إلى الطاعاتِ ما الذي قصَّرَ فيهِ منها ، وإلى المعاصي ما الذي قارفَهُ منها .

فإنْ كانَ قدْ تركَ صلاةً ، أوْ صلاَّها في ثوبٍ نجسٍ ، أوْ صلاَّها بنيَّةٍ غيرِ صحيحةٍ لجهلِهِ بشرطِ النيَّةِ . . فيقضيها عنْ آخرِها ، فإنْ شكَّ في عددِ ما فاتَهُ منها . . حسبَ مِنْ مدَّةِ بلوغِهِ وتركَ القدْرَ الذي يستيقنُ أنَّهُ أدَّاهُ ، ويقضي الباقيَ ، ولهُ أنْ يأخذَ فيهِ بغالبِ الظنِّ ، ويصلُ إليهِ علىٰ سبيلِ التحرِّي والاجتهادِ .

وأمَّا الصومُ . . فإنْ كانَ قدْ تركَهُ في سفرٍ ولمْ يقضِهِ ، أوْ أفطرَ عمداً ، أوْ نسيَ النيَّةَ بالليلِ ولمْ يقضِ . . فيتعرَّفُ مجموعَ ذلكَ بالتحرِّي والاجتهادِ ، ويشتغلُ بقضائِهِ .

وأمَّا الزكاةُ . . فيحسبُ جميعَ مالِهِ ، وعددَ السنينَ مِنْ أوَّلِ ملكِهِ ، لا مِنْ زمانِ البلوغِ ؛ فإنَّ الزكاةَ واجبةٌ في مالِ الصبيِّ ، فيؤدِّي ما علمَ بغالبِ الظنِّ أنَّهُ في ذمَّتِهِ ، فإنْ أدَّاهُ لا علىٰ وجهٍ يوافقُ مذهبَهُ ؛ بأنْ لمْ يُصرفْ إلى الأصنافِ الثمانيةِ ، أوْ أخرجَ البدلَ وهوَ علىٰ مذهبِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ . . فيقضي جميعَ ذلكَ ، فإنَّ ذلكَ لا يجزئُهُ أصلاً ، وحسابُ الزكاةِ ومعرفةُ ذلكَ يطولُ ، ويحتاجُ فيهِ إلىٰ تأمُّلٍ شافٍ ، ويلزمُهُ أنْ يسألَ عنْ كيفيَّةِ الخروجِ عنْهُ العلماءَ .

وأمَّا الحجُّ . . فإنْ كانَ قدِ استطاعَ في بعضِ السنينَ ولمْ يتفقْ لهُ الخروجُ وهوَ الآنَ قدْ أفلسَ . . فعليهِ الخروجُ ، فإنْ لمْ يقدرْ معَ الإفلاسِ . . فعليهِ أنْ يكتسبَ مِنَ الحلالِ قدْرَ الزادِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ كسبٌ ولا مالٌ . . فعليهِ أنْ يسألَ الناسَ ليُصرفَ إليهِ مِنَ الزكواتِ أوِ الصدقاتِ ما يحجُّ بهِ ؛ فإنَّهُ إنْ ماتَ قبلَ الحجِّ . . ماتَ عاصياً ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ . . فليمتْ إنْ شاءَ يهودياً وإنْ شاءَ نصرانياً »[1] ، والعجزُ الطارئُ بعدَ القدرةِ لا يُسقطُ عنهُ الحجَّ .

فهٰذا طريقُ تفتيشِهِ عنِ الطاعاتِ وتداركِها .

وأمَّا المعاصي . . فينبغي أنْ يفتِّشَ مَنْ أوَّلِ بلوغِهِ عنْ سمعِهِ ، وبصرِهِ ، ولسانِهِ ، وبطنِهِ ، ويدِهِ ، ورجلِهِ ، وفرجِهِ ، وسائرِ جوارحِهِ ، ثمَّ ينظرَ في جميعِ أيَّامِهِ وساعاتِهِ ، ويفصِّلَ عندَ نفسِهِ ديوانَ معاصيهِ ، حتَّىٰ يطَّلعَ علىٰ جميعِها ؛ صغائرِها وكبائرِها ، ثمَّ ينظرَ فيها : فما كانَ مِنْ ذلكَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا يتعلَّقُ بمظلمةِ العبادِ ؛ كنظرٍ إلىٰ غيرِ محرمٍ ، وقعودٍ في مسجدٍ معَ الجنابةِ ، ومسِّ مصحفٍ بغيرِ وضوءٍ ، واعتقادِ بدعةٍ ، وشربِ خمرٍ ، وسماعِ ملاهٍ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لا يتعلَّقُ بمظالمِ العبادِ . . فالتوبةُ عنها بالندمِ والتحسُّرِ عليها ، وبأنْ يحسبَ مقدارَها مِنْ حيثُ الكثرةُ ومِنْ حيثُ

---

(١) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٣٣٤) وقال : (وهٰذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وذكره .

المدَّةُ ، ويطلبَ لكلِّ معصيةٍ منها حسنةً تناسبُها ، فيأتيَ مِنَ الحسناتِ بمقدارِ تلكَ السيئاتِ ، أخذاً مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1] ، بلْ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

فيكفِّرُ سماعَ الملاهي بسماعِ القرآنِ وبمجالسِ الذكرِ ، ويكفِّرُ القعودَ في المسجدِ جنباً بالاعتكافِ فيهِ معَ الاشتغالِ بالعبادةِ ، ويكفِّرُ مسَّ المصحفِ محدثاً بإكرامِ المصحفِ ، وكثرةِ قراءةِ القرآنِ منهُ ، وكثرةِ تقبيلِهِ[2] ، وبأنْ يكتبَ مصحفاً ويجعلَهُ وقفاً ، ويكفِّرُ شربَ الخمرِ بالتصدُّقِ بكلِّ شرابٍ حلالٍ هوَ أطيبُ منهُ وأحبُّ إليهِ .

وعدُّ جميعِ المعاصي غيرُ ممكنٍ ، وإنَّما المقصودُ سلوكُ طريقِ المضادَّةِ ، فإنَّ المرضَ يعالجُ بضدِّهِ ، فكلُّ ظلمةٍ ارتفعَتْ إلى القلبِ بمعصيةٍ فلا يمحوها إلا نورٌ يرتفعُ إليها بحسنةٍ تضادُّها ، والمتضادَّاتُ هيَ المتناسباتُ ، فلذلكَ ينبغي أنْ يمحوَ كلَّ سيئةٍ بحسنةٍ مِنْ جنسِها لكيْ تضادَّها ، فإنَّ البياضَ يزالُ بالسوادِ ، لا بالحرارةِ والبرودةِ .

وهٰذا التجريدُ والتحقيقُ مِنَ التلطُّفِ في طريقِ المحوِ ، فالرجاءُ فيهِ أصدقُ ، والثقةُ بهِ أكثرُ مِنْ أنْ يواظبَ علىٰ نوعٍ واحدٍ مِنَ العباداتِ ، وإنْ كانَ ذلكَ أيضاً مؤثراً في المحوِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .
(٢) ووضعه على العينين ، ورفعه في أشرف المواضع . « إتحاف » (٨/ ٥٧٦) .

فهٰذا حكمُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ الشيءَ يكفَّرُ بضدِّهِ أنَّ حبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وأثرُ اتباعِ الدنيا في القلبِ السرورُ بها ، والإلْفُ لها ، والحنينُ إليها ، فلا جرمَ كانَ كلُّ أذىً يصيبُ المسلمَ ينبو بسببِهِ قلبُهُ عنِ الدنيا يكونُ كفارةً لهُ ؛ إذِ القلبُ يتجافىٰ بالهمومِ والغمومِ عنْ دارِ الهمومِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفِّرُها إلا الهمومُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « إلا الهمُّ بطلبِ المعيشةِ »(١) .

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إذا كثُرَتْ ذنوبُ العبدِ ولمْ تكنْ لهُ أعمالٌ تكفِّرُها . أدخلَ اللهُ تعالىٰ عليهِ الهمومَ ، فتكونُ كفَّارةً لذنوبِهِ »(٢) .

ويُقالُ : (إنَّ الهمَّ الذي يدخلُ على القلبِ والعبدُ لا يعرفُهُ هوَ ظلمةُ الذنوبِ والهمُّ بها ، وشعورُ القلبِ بوقفةِ الحسابِ وهولِ المطَّلَعِ)(٣) .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : همُّ الإنسانِ غالباً بمالِهِ وولدِهِ وجاهِهِ ، وهوَ خطيئةٌ ، فكيفَ يكونُ كفَّارةً ؟

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٠٠) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٥٧) بنحوه .
(٣) بنحوه عند صاحب « القوت » (١/ ١٨٦) .

فاعلمْ : أنَّ الحبَّ لهُ خطيئةٌ ، والحرمانَ عنهُ كفَّارةٌ ، ولوْ تمتَّعَ بهِ . . لتمَّتِ الخطيئةُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ دخلَ علىٰ يوسفَ عليهِ السلامُ في السجنِ ، فقالَ لهُ : كيفَ تركتَ الشيخَ الكئيبَ ؟ فقالَ : قدْ حزنَ عليكَ حزنَ مئةِ ثكلىٰ ، قالَ : فما لهُ عندَ اللهِ ؟ قالَ : أجرُ مئةِ شهيدٍ[1] .

فإذاً ؛ الهمومُ أيضاً مكفِّراتٌ حقوقَ اللهِ .

فهٰذا حكمُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ .

وأمَّا مظالمُ العبادِ . . ففيها أيضاً معصيةٌ وجنايةٌ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ نهىٰ عنْ ظلمِ العبادِ أيضاً ، فما يتعلَّقُ منهُ بحقِّ اللهِ تعالىٰ تداركَهُ بالندمِ والتحسُّرِ ، وتركِ مثلِهِ في المستقبلِ ، والإتيانِ بالحسناتِ التي هيَ أضدادُها ، فيقابلُ إيذاءَهُ الناسَ بالإحسانِ إليهِمْ ، ويكفِّرُ غصْبَ أموالِهِمْ بالتصدُّقِ بملكِهِ الحلالِ ، ويكفِّرُ تناولَ أعراضِهِمْ بالغيبةِ والقدحِ فيهِمْ بالثناءِ علىٰ أهلِ الدينِ وإظهارِ ما يعرفُ مِنْ خصالِ الخيرِ مِنْ أقرانِهِ وأمثالِهِ ، ويكفِّرُ قتْلَ النفوسِ بإعتاقِ الرقابِ ؛ لأنَّ ذلكَ إحياءٌ ؛ إذِ العبدُ مفقودٌ لنفسِهِ ، موجودٌ لسيِّدِهِ ، فالإعتاقُ إيجادٌ لا يقدرُ الإنسانُ علىٰ أكثرَ منهُ ، فيقابلُ الإعدامَ بالإيجادِ ، وبهٰذا تعرفُ أنَّ ما ذكرناهُ مِنْ سلوكِ طريقِ المضادةِ في التكفيرِ والمحوِ مشهودٌ لهُ في الشرعِ ، حيثُ كفَّرَ القتلَ بإعتاقِ رقبةٍ ، ثمَّ إذا فعلَ ذلكَ كلَّهُ . . لمْ ينجِهِ ولمْ يكفِهِ ما لمْ يخرجْ عنْ مظالمِ العبادِ ، ومظالمُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٨٦) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٦٠) .

العبادِ إمَّا في النفوسِ ، أوِ الأموالِ ، أوِ الأعراضِ ، أوِ القلوبِ ؛ أعني بهِ : الإيذاءَ المحضَ .

أمَّا النفوسُ : فإنْ جرىٰ عليهِ قتلُ خطأٍ . . فتوبتُهُ بتسليمِ الديةِ ووصولِها إلى المستحقِّ ؛ إمَّا منهُ أوْ مِنْ عاقلتِهِ ، وهوَ في عهدةِ ذلكَ قبلَ الوصولِ ، وإنْ كانَ عمداً موجباً للقصاصِ . . فبالقصاصِ ، فإنْ لمْ يُعرفْ . . فيجبُ عليهِ أنْ يعترفَ عندَ وليِّ الدمِ ، ويحكِّمَهُ في روحِهِ ، فإنْ شاءَ عفا عنهُ ، وإنْ شاءَ . . قتلَهُ ، ولا تسقطُ عهدتُهُ إلا بهـٰذا ، ولا يجوزُ لهُ الإخفاءُ .

وليسَ هـٰذا كما لوْ زنىٰ ، أوْ شربَ ، أوْ سرقَ ، أوْ قطعَ الطريقَ ، أوْ باشرَ ما يجبُ فيهِ حدٌّ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لا يلزمُهُ في التوبةِ أنْ يفضحَ نفسَهُ ، ويهتكَ سترَهُ ، ويلتمسَ مِنَ الوالي استيفاءَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ عليهِ أنْ يتسترَ بسترِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويقيمَ حدَّ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ بأنواعِ المجاهدةِ والتعذيبِ ، فالعفوُ في محضِ حقوقِ اللهِ تعالىٰ قريبٌ مِنَ التائبينَ النادمينَ .

فإنْ رفعَ أمرَهُ إلى الوالي حتَّىٰ أقامَ عليهِ الحدَّ . . وقعَ موقعَهُ ، وتكونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ أنَّ ماعزَ بنَ مالكٍ أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ ظلمتُ نفسي وزنيتُ ، وإنِّي أريدُ أنْ تطهِّرَني ، فردَّهُ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . أتاهُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ زنيتُ ، فردَّهُ الثانيةَ والثالثةَ ، فلمَّا كانَ في الرابعةِ . . أمرَ بهِ فحُفرَ لهُ حفيرةٌ ، ثمَّ أمرَ بهِ فرُجمَ ، فكانَ الناسُ فيه فرقتينِ ؛ قائلٌ يقولُ : لقدْ هلكَ ، لقدْ أحاطَتْ بهِ خطيئتُهُ ، وقائلٌ يقولُ : ما توبةٌ أفضلَ مِنْ

توبةِ ماعزٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ تابَ توبةً لوْ قسمَتْ بينَ أمَّةٍ . . لوسعَتْهُمْ »(١) .

وجاءتِ الغامديَّةُ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ زنيتُ فطهِّرْني ، فردَّها ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ لِمَ تردُّني ؟ لعلَّكَ تريدُ أنْ تردِّدَني كما ردَّدْتَ ماعزاً ، فواللهِ ؛ إنِّي لحبلىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إمَّا لا . . فاذهبي حتَّىٰ تلدي » ، فلمَّا ولدَتْ . . أتَتْ بالصبيِّ في خرقةٍ ، فقالَتْ : هٰذا قدْ ولدتُهُ ، قالَ : « اذهبي فأرضعيهِ حتَّىٰ تفطميهِ » ، فلمَّا فطمَتْهُ . . أتَتْ بالصبيِّ وفي يدهِ كسرةُ خبزٍ ، وقالَتْ : هٰذا يا نبيَّ اللهِ قدْ فطمتُهُ ، وقدْ أكلَ الطعامَ ، فدفعَ الصبيَّ إلىٰ رجلٍ مِنَ المسلمينَ ، ثمَّ أمرَ بها ، فحفرَ لها إلىٰ صدرِها ، وأمرَ الناسَ فرجموها ، فأقبلَ خالدُ بنُ الوليدِ بحجرٍ ، فرمىٰ رأسَها ، فتنضَّحَ الدمُ علىٰ وجهِهِ ، فسبَّها ، فسمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبَّهُ إيَّاها ، فقالَ : « مهلاً يا خالدُ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لقدْ تابَتْ توبةً لوْ تابَها صاحبُ مكسٍ . . لغفرَ لهُ » ، ثمَّ أمرَ بها فصُلِّيَ عليها ودفنَتْ(٢) .

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) .

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥) متابعة للحديث السابق ، ومفرداً كما هو هنا ، وقوله : « إما لا » : هو بكسر الهمز وتشديد الميم وبالإمالة ، وفي غير (ب ، س) : (أما الآن) بدل (إما لا) ، وهو غلط كما قاله الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٥٨٠) ، قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (١١/ ٢٠٣) ، (ومعناه : إذا أبيت أن تستري علىٰ نفسك وتتوبي وترجعي عن قولك . . فاذهبي حتىٰ تلدي فتُرجمين بعد ذلك) .

وأمَّا القصاصُ وحدُّ القذفِ. . فلا بدَّ مِنْ تحكيمِ المستحقِّ فيهِ[1] ، وإنْ كانَ المتناولُ مالاً قدْ تناولَهُ بغصْبٍ أوْ خيانةٍ أوْ غبنٍ في معاملةٍ بنوعِ تلبيسٍ ؛ كترويجِ زائفٍ ، أوْ سَترِ عيبٍ مِنَ المبيعِ ، أوْ نقصِ أجرةِ أجيرٍ ، أوْ منعِ أجرتِهِ ، فكلُّ ذلكَ يجبُ أنْ يفتشَ عنهُ ، لا مِنْ حدِّ بلوغِهِ ، بلْ مِنْ أوَّلِ حدِّ وجودِهِ ، فإنَّ ما يجبُ في مالِ الصبيِّ يجبُ على الصبيِّ إخراجُهُ بعدَ البلوغِ إنْ كانَ الوليُّ قدْ قصَّرَ فيهِ ، فإنْ لمْ يفعلْ كانَ ظالماً مطالباً بهِ ؛ إذْ يستوي في الحقوقِ الماليّةِ الصبيُّ والبالغُ ، وليحاسبْ نفسَهُ على الحبَّاتِ والذرَّاتِ مِنْ أوَّلِ يومِ حياتِهِ إلىٰ يومِ توبتِهِ قبلَ أنْ يُحاسبَ في القيامةِ ، وليناقشْ نفسَهُ قبلَ أنْ يُناقشَ ، فمَنْ لمْ يُحاسبْ نفسَهُ في الدنيا . . طالَ في الآخرةِ حسابُهُ .

فإذا حصلَ مجموعُ ما عليهِ بظنٍّ غالبٍ ونوعٍ مِنَ الاجتهادِ ممكنٍ . . فليكتبْهُ ، وليكتبْ أساميَ أصحابِ المظالمِ واحداً واحداً ، وليطفْ في نواحي العالمِ وليطلبْهُمْ ، وليستحلَّهُمْ أوْ ليؤدِّ حقوقَهُمْ .

وهٰذهِ التوبةُ تشقُّ على الظلمةِ وعلى التجَّارِ ، فإنَّهُمْ لا يقدرونَ علىٰ طلبِ المعاملينَ كلِّهِمْ ، ولا علىٰ طلبِ ورثتِهِمْ ، ولكنْ علىٰ كلِّ واحدٍ منهُمْ أنْ يفعلَ منهُ ما يقدرُ عليهِ ، فإنْ عجزَ . . فلا يبقىٰ لهُ طريقٌ إلا أنْ يكثرَ مِنَ الحسناتِ حتَّىٰ تفيضَ منهُ يومَ القيامةِ ، فتُؤخذُ حسناتُهُ وتُوضعُ في موازينِ أربابِ المظالمِ ، ولتكنْ كثرةُ حسناتِهِ بقدْرِ كثرةِ مظالمِهِ ، فإنَّهُ إنْ لمْ تفِ بها

---

(١) فإن شاء . . اقتصَّ ، وإن شاء . . عفا ، وكذا في حدِّ القذف . « إتحاف » (٨/ ٥٨٢) .

حسناتُهُ . . حُمِّلَ مِنْ سيِّئاتِ أربابِ المظالمِ ، فيهلكُ بسيِّئاتِ غيرِه .

فهـٰذا طريقُ كلِّ تائبٍ في ردِّ المظالمِ ، وهـٰذا يوجبُ استغراقَ العمرِ في الحسناتِ لوْ طالَ العمرُ بحسَبِ طولِ مدَّةِ المظالمِ ، فكيفَ وذلكَ ممَّا لا يُعرفُ وربَّما يكونُ الأجلُ قريباً ؟! فينبغي أنْ يكونَ تشمُّرُهُ للحسناتِ والوقتُ ضيِّقٌ أشدَّ مِنْ تشمُّرِهِ الذي كانَ في المعاصي في متَّسعِ الأوقاتِ .

هـٰذا حكْمُ المظالمِ الثابتةِ في ذمَّتِهِ .

أمَّا أموالُهُ الحاضرةُ . . فليردَّ إلى المالكِ ما يعرفُ لهُ مالكاً معيَّناً ، وما لا يعرفُ لهُ مالكاً . . فعليهِ أنْ يتصدَّقَ بهِ ، فإنِ اختلطَ الحرامُ بالحلالِ . . عرفَ قدْرَ الحرامِ بالاجتهادِ ، وتصدَّقَ بذلكَ المقدارِ كما سبقَ تفصيلُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وأمَّا الجنايةُ على القلوبِ بمشافهةِ الناسِ بما يسوءُهُمْ أوْ يعيبُهُمْ في الغيبةِ . . فليطلبْ كلَّ مَنْ تعرَّضَ لهُ بلسانِهِ ، أوْ آذىٰ قلبَهُ بفعلٍ مِنْ أفعالِهِ ، وليستحلَّ واحداً واحداً منهُمْ ، ومَنْ ماتَ أوْ غابَ . . فقدْ فاتَ أمرُهُ ، ولا تداركَ لهُ إلا بتكثيرِ الحسناتِ ، لتُؤخذَ منهُ عوضاً في القيامةِ ، وأمَّا مَنْ وجدَهُ وأحلَّهُ بطيبةِ قلبٍ منهُ . . فذلكَ كفَّارتُهُ ، وعليهِ أنْ يعرِّفَهُ قدْرَ جنايتِهِ وتعرُّضَهُ لهُ ، فالاستحلالُ المبهمُ لا يكفي ، وربَّما لوْ عرفَ ذلكَ وكثرةَ تعدِّيهِ عليهِ . . لمْ تطبْ نفسُهُ بالإحلالِ ، وادخرَ ذلكَ في القيامةِ ذخيرةً يأخذُها مِنْ حسناتِهِ ، أوْ يحمِّلُهُ مِنْ سيئاتِهِ .

فإنْ كانَ في جملةِ جنايتِهِ على الغيرِ ما لوْ ذكرَهُ وعرفَهُ لتأذَّىٰ بمعرفتِهِ ؛ كزناهُ بجاريتِهِ أوْ أهلِهِ ، أوْ نسبتِهِ باللسانِ إلىٰ عيبٍ مِنْ خفايا عيوبِهِ يعظمُ أذاهُ مهما شوَّفَهُ بهِ . . فقدِ انسدَّ عليهِ طريقُ الاستحلالِ ، فليسَ لهُ إلا أنْ يستحلَّ مبهماً ، ثمَّ تبقىٰ لهُ مظلمةٌ فليجبرْها بالحسناتِ كما يجبرُ مظلمةَ الميتِ والغائبِ ، فأمَّا الذكرُ والتعريفُ . . فهوَ سيئةٌ جديدةٌ يجبُ الاستحلالُ منها ، ومهما ذكرَ جنايتَهُ وعرَّفَهُ المجنيَّ عليهِ فلمْ تسمحْ نفسُهُ بالإحلالِ . . بقيتِ المظلمةُ عليهِ ؛ فإنَّ هـٰذا حقُّهُ ، فعليهِ أنْ يتلطَّفَ بهِ ، ويسعىٰ في مهمَّاتِهِ وأغراضِهِ ، ويظهرَ مِنْ حبِّهِ والشفقةِ عليهِ ما يستميلُ بهِ قلبَهُ ، فإنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ ، وكلُّ مَنْ نفرَ بسيئةٍ . . مالَ بحسنةٍ ، فإذا طابَ قلبُهُ بكثرةِ تودُّدِهِ وتلطُّفِهِ . . سمحَتْ نفسُهُ بالإحلالِ ، فإنْ أبىٰ إلاَّ الإصرارَ . . فيمكنُ أنْ يكونَ تلطُّفُهُ بهِ واعتذارُهُ إليهِ مِنْ جملةِ حسناتِهِ التي يمكنُ أنْ يجبرَ بها في القيامةِ جنايتَهُ .

وليكنْ قدْرُ سعيِهِ في فرحِهِ وسرورِ قلبِهِ بتودُّدِهِ وتلطُّفِهِ كقدْرِ سعيِهِ في إيذائِهِ ؛ حتَّىٰ إذا قاومَ أحدُهُما الآخرَ أوْ زادَ عليهِ . . أُخِذَ ذلكَ منهُ عوضاً في القيامةِ بحكمِ اللهِ بهِ عليهِ ؛ كمَنْ أتلفَ في الدنيا مالاً ، فجاءَ بمثلِهِ ، فامتنعَ مَنْ لهُ المالُ عنِ القبولِ وعنِ الإبراءِ ، فإنَّ الحاكمَ يحكمُ عليهِ بالقبضِ منهُ شاءَ أمْ أبىٰ ، فكذلكَ يحكمُ في صعيدِ القيامةِ أحكمُ الحاكمينَ وأعدلُ المقسطينَ .

وفي المتفقِ عليهِ مِنَ « الصحيحينِ » عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ نبيَّ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كانَ فيمَنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً ، فسألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فدُلَّ علىٰ راهبٍ ، فأتاهُ فقالَ : إنَّهُ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً ، فهلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقالَ : لا ، فقتلَهُ ، فكمَّلَ بهِ مئةً ، ثمَّ سألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فدُلَّ علىٰ رجلٍ عالمٍ ، فقالَ لهُ : إنَّهُ قتلَ مئةَ نفسٍ ، فهلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقالَ : نعمْ ، ومَنْ يحولُ بينَهُ وبينَ التوبةِ ؟ انطلقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا ، فإنَّ بها أناساً يعبدونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فاعبدِ اللهَ معَهُمْ ولا ترجعْ إلىٰ أرضِكَ ، فإنَّها أرضُ سوءٍ ، فانطلقَ ، حتَّىٰ إذا نَصَفَ الطريقُ . . أتاهُ الموتُ ، فاختصمَتْ فيهِ ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ ، فقالَتْ ملائكةُ الرحمةِ : جاءَ تائباً مقبلاً بقلبِهِ إلى اللهِ ، وقالَتْ ملائكةُ العذابِ : إنَّهُ لمْ يعملْ خيراً قطُّ ، فأتاهُمْ ملكٌ في صورةِ آدميٍّ ، فجعلوهُ حَكماً بينَهُمْ ، فقالَ : قيسوا ما بينَ الأرضينِ ، فإلىٰ أيتِهِما كانَ أدنىٰ . . فهوَ لها ، فقاسوا ، فوجدوهُ أدنىٰ إلى الأرضِ التي أرادَ ، فقبضَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ » ، وفي روايةٍ : « فكانَ إلى القريةِ الصالحةِ أقربَ منها بشبرٍ ، فجُعِلَ مِنْ أهلِها » ، وفي روايةٍ : « فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ هٰذهِ أنْ تباعدي ، وإلىٰ هٰذهِ أنْ تقرَّبي ، وقالَ : قيسوا ما بينَهُما ، فوجدوهُ إلىٰ هٰذهِ أقربَ بشبرٍ ، فغُفِرَ لهُ »[1] .

فبهٰذا تعرفُ أنَّهُ لا خلاصَ إلا برجحانِ ميزانِ الحسناتِ ولوْ بمثقالِ ذرَّةٍ ، فلا بدَّ للتائبِ مِنْ تكثيرِ الحسناتِ .

---

(١) هو كما قال المصنف رحمه الله تعالىٰ عند البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ والروايات له .

هـٰذا حكمُ القصدِ المتعلِّقِ بالماضي .

فأمّا العزمُ المرتبطُ بالاستقبالِ : فهوَ أنْ يعقدَ معَ اللهِ عقداً مؤكَّداً ، ويعاهدَهُ بعهدٍ وثيقٍ ألا يعودَ إلىٰ تلكَ الذنوبِ ، ولا إلىٰ أمثالِها ؛ كالذي يعلمُ في مرضِهِ أنَّ الفاكهةَ تضرُّهُ مثلاً ، فيعزمُ عزماً جزْماً أنَّهُ لا يتناولُ الفاكهةَ ما لمْ يزلْ مرضُهُ ، فإنَّ هـٰذا العزمَ يتأكَّدُ في الحالِ وإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ تغلبَهُ الشهوةُ في ثاني الحالِ ، ولكنْ لا يكونُ تائباً ما لمْ يتأكَّدْ عزمُهُ في الحالِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يتمَّ ذلكَ للتائبِ في أوّلِ أمرِهِ إلا بالعزلةِ ، والصمتِ ، وقلّةِ الأكلِ والنومِ ، وإحرازِ قوتٍ حلالٍ .

فإنْ كانَ لهُ مالٌ موروثٌ حلالٌ ، أوْ كانَتْ لهُ حرفةٌ يكتسبُ بها قدْرَ الكفايةِ . . فليقتصرْ عليهِ ، فإنَّ رأسَ المعاصي أكلُ الحرامِ ، فكيفَ يكونُ تائباً معَ الإصرارِ عليهِ ؟!

ولا يكتفي بالحلالِ وتركِ الشبهاتِ مَنْ لا يقدرُ علىٰ تركِ الشهواتِ في المأكولاتِ والملبوساتِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنْ صدقَ في تركِ شهوةٍ ، وجاهدَ نفسَهُ للهِ سبعَ مرَّاتٍ . . لمْ يبتلَ بها)[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٨) ، وقريب منها كلمة أبي يزيد البسطامي المشهورة التي رواها القشيري في « رسالته » (ص٦٧) : (ومن صدق في ترك شهوة . . ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالىٰ أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له) .

وقالَ آخرُ : (مَنْ تابَ مِنْ ذنبٍ واستقامَ عليهِ سبعَ سنينَ . . لمْ يعدْ إليهِ أبداً)[1] .

ومِنْ مهمَّاتِ التائبِ إذا لمْ يكنْ عالماً : أنْ يتعلَّمَ ما يجبُ عليهِ في المستقبلِ وما يحرمُ عليهِ ؛ حتَّىٰ يمكنَهُ الاستقامةُ ، وإنْ لمْ يؤثِرِ العزلةَ . . لمْ تتمَّ لهُ الاستقامةُ المطلقةُ ، إلا أنْ يتوبَ عنْ بعضِ الذنوبِ ؛ كالذي يتوبُ عنِ الشربِ والزنا والغصْبِ مثلاً ، وليسَتْ هـٰذهِ توبةً مطلقةً ، وقدْ قالَ بعضُ الناسِ : (إنَّ هـٰذهِ التوبةَ لا تصحُّ)[2] .

وقالَ قائلونَ : (تصحُّ)[3] .

ولفظُ الصحَّةِ في هـٰذا المقامِ مجملٌ ، بلْ نقولُ لمَنْ قالَ : (لا تصحُّ) : إنْ عنيتَ بهِ أنَّ تركَهُ بعضَ الذنوبِ لا يفيدُ أصلاً ، بلْ وجودُهُ كعدمِهِ . . فما أعظمَ خطأَكَ ، فإنَّا نعلمُ أنَّ كثرةَ الذنوبِ سببٌ لكثرةِ العقابِ ، وقلَّتَها سببٌ لقلَّتِهِ .

ونقولُ لمَنْ قالَ : (تصحُّ) : إنْ أردتَ بهِ أنَّ التوبةَ عنْ بعضِ الذنوبِ توجبُ قبولاً يوصلُ إلى النجاةِ والفوزِ . . فهـٰذا أيضاً خطأٌ ، بلِ النجاةُ والفوزُ بتركِ الجميعِ .

---

(1) قوت القلوب (١/ ١٨٨) ، وقوله : (واستقام عليه) أي : علىٰ توبته من ذلك الذنب ، وسقطت (عليه) من « القوت » وهو المناسب للسياق .

(2) وهو المحكي عن المعتزلة . « إتحاف » (٨/ ٥٨٤) .

(3) وهو المحكي عن أهل السنة والجماعة . « إتحاف » (٨/ ٥٨٤) .

هـٰذا حكْمُ الظاهرِ ، ولسنا نتكلَّمُ في خفايا أسرارِ عفوِ اللهِ .

وإنْ قالَ مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّها لا تصحُّ : إنِّي أردتُ بهِ أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنِ الندمِ ، وإنَّما يندمُ على السرقةِ مثلاً لكونِها معصيةً ، لا لكونِها سرقةً ، ويستحيلُ أنْ يندمَ عليها دونَ الزنا إنْ كانَ توجُّعُهُ لأجلِ المعصيةِ ؛ فإنَّ العلَّةَ شاملةٌ لهما ؛ إذْ مَنْ يتوجَّعُ علىٰ قتلِ ولدِهِ بالسيفِ يتوجَّعُ علىٰ قتلِهِ بالسكينِ ؛ لأنَّ توجُّعَهُ بفواتِ محبوبِهِ سواءٌ كانَ بالسيفِ أوْ بالسكينِ ، فكذلكَ توجُّعُ العبدِ بفواتِ محبوبِهِ ، وذلكَ بالمعصيةِ سواءً عصىٰ بالسرقةِ أوْ بالزنا ، فكيفَ يتوجَّعُ على البعضِ دونَ البعضِ ؟! فالندمُ حالةٌ يوجبُها العلمُ بكونِ المعصيةِ مفوتةً للمحبوبِ مِنْ حيثُ إنَّها معصيةٌ ، فلا يتصوَّرُ أنْ يكونَ علىٰ بعضِ المعاصي دونَ بعضٍ ، ولوْ جازَ هـٰذا . لجازَ أنْ يتوبَ مَنْ شربَ الخمرَ مِنْ أحدِ الدَّنَّينِ دونَ الآخرِ ، فإنِ استحالَ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّ المعصيةَ في الخمرينِ واحدةٌ ، وإنَّما الدِّنانُ ظروفٌ . فكذلكَ أعيانُ المعاصي آلاتٌ للمعصيةِ ، والمعصيةُ مِنْ حيثُ مخالفةُ الأمرِ واحدةٌ .

فإذاً ؛ معنىٰ عدمِ الصحَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَ التائبينَ رتبةً ، وتلكَ الرتبةُ لا تُنالُ إلا بالندمِ ، ولا يُتصوَّرُ الندمُ علىٰ بعضِ المتماثلاتِ ، فهوَ كالمِلْكِ المرتَّبِ على الإيجابِ والقبولِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتمَّ الإيجابُ والقبولُ . . يُقالُ : إنَّ العقدَ لمْ يصحَّ ؛ أيْ : لا تترتَّبُ عليهِ الثمرةُ ، وهوَ المِلْكُ .

وتحقيقُ هـٰذا : أنَّ ثمرةَ مجرَّدِ التركِ أنْ ينقطعَ عنهُ عقابُ ما تركَهُ ،

وثمرةَ الندمِ تكفيرُ ما سبقَ ، فتركُ السرقةِ لا يكفِّرُ السرقةَ ، بلِ الندمُ عليها يكفِّرُها ، ولا يُتصوَّرُ الندمُ إلا لكونِها معصيةً ، وذلكَ يعمُّ جميعَ المعاصي .

وهـٰذا كلامٌ مفهومٌ واقعٌ ، يستنطقُ المنصِفَ بتفصيلٍ بهِ ينكشفُ الغطاءُ ، فنقولُ : التوبةُ عنْ بعضِ الذنوبِ لا تخلو : إمَّا أنْ تكونَ عنِ الكبائرِ دونَ الصغائرِ ، أوْ عنِ الصغائرِ دونَ الكبائرِ ، أوْ عنَ كبيرةٍ دونَ كبيرةٍ .

❁ ❁ ❁

أمَّا التوبةُ عنِ الكبائرِ دونَ الصغائرِ : فأمرٌ ممكنٌ ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّ الكبائرَ أعظمُ عندَ اللهِ ، وأجلبُ لسخطِ اللهِ ومقتِهِ ، والصغائرَ أقربُ إلىٰ تطرُّقِ العفوِ إليها ، فلا يستحيلُ أنْ يتوبَ عنِ الأعظمِ ويتندَّمَ عليهِ ؛ كالذي يجني علىٰ أهلِ الملكِ وحرمِهِ ، ويجني علىٰ دابَّتِهِ ، فيكونُ خائفاً مِنَ الجنايةِ على الأهلِ ، مستحقراً للجنايةِ على الدابَّةِ ، والندمُ بحسَبِ استعظامِ الذنبِ ، واعتقادِ كونِهِ مبعِداً عنِ اللهِ تعالىٰ .

وهـٰذا ممكنٌ وجودُهُ في الشرعِ ، فقدْ كثرَ التائبونَ في الأعصارِ الخاليةِ ولمْ يكنْ أحدٌ منهُمْ معصوماً ، فلا تستدعي التوبةُ العصمةَ ، والطبيبُ قدْ يحذِّرُ المريضَ العسلَ تحذيراً شديداً ، ويحذِّرُهُ السكَّرَ تحذيراً أخفَّ منهُ ، علىٰ وجهٍ يشعرُ معَهُ بأنَّهُ ربَّما لا يظهرُ ضررُ السكَّرِ أصلاً ، فيتوبُ المريضُ بقولِهِ عنِ العسلِ دونَ السكَّرِ ، فهـٰذا غيرُ محالٍ وجودُهُ ، وإنْ أكلَهُما جميعاً بحكْمِ شهوتِهِ . . ندمَ علىٰ أكلِ العسلِ دونَ السكَّرِ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أنْ يتوبَ عنْ بعضِ الكبائرِ دونَ بعضٍ : وهـٰذا أيضاً ممكنٌ ؛ لاعتقادِهِ أنَّ بعضَ الكبائرِ أشدُّ وأغلظُ مِنْ بعضٍ عندَ اللهِ ؛ كالذي يتوبُ عنِ القتلِ والنهبِ والظلمِ ومظالمِ العبادِ لعلمِهِ أنَّ ديوانَ العبادِ لا يُترَكُ ، وما بينَهُ وبينَ اللهِ يتسارعُ العفوُ إليهِ .

فهـٰذا أيضاً ممكنٌ ، كما في تفاوتِ الكبائرِ والصغائرِ ؛ لأنَّ الكبائرَ أيضاً متفاوتةٌ في أنفسِها وفي اعتقادِ مرتكبِيها .

وكذلكَ قدْ يتوبُ عنْ بعضِ الكبائرِ التي لا تتعلَّقُ بالعبادِ ، كما يتوبُ عنْ شربِ الخمرِ دونَ الزنا مثلاً ؛ إذْ يتضحُ لهُ أنَّ الخمرَ مفتاحُ الشرورِ ، وأنَّهُ إذا زالَ عقلُهُ . . ارتكبَ جميعَ المعاصي وهوَ لا يدري ، فبحسَبِ ترجُّحِ شربِ الخمرِ عندَهُ ينبعثُ منهُ خوفٌ يوجبُ ذلكَ تركاً في المستقبلِ وندماً على الماضي .

❁ ❁ ❁

الثالثُ : أنْ يتوبَ عنْ صغيرةٍ أوْ صغائرَ وهوَ مصرٌّ علىٰ كبيرةٍ يعلمُ أنَّها كبيرةٌ : كالذي يتوبُ عنِ الغيبةِ أوْ عنِ النظرِ إلىٰ غيرِ المحرمِ أوْ ما يجري مَجراهُ وهوُ مصرٌّ علىٰ شربِ الخمرِ ، وهوَ أيضاً ممكنٌ ، ووجهُ إمكانِهِ : أنَّهُ ما مِنْ مؤمنٍ إلا وهوَ خائفٌ علىٰ معاصيهِ[1] ، ونادمٌ علىٰ فعلِهِ ندماً إمَّا ضعيفاً وإمَّا قوياً ، ولكنْ تكونُ لذَّةُ نفسِهِ في تلكَ المعصيةِ أقوىٰ مِنْ ألمِ قلبِهِ

---

(١) كذا (علىٰ معاصيه) ، ومن معاني (على) التعليل ؛ أي : خائف لوجود معاصيه .

في الخوفِ منها لأسبابٍ توجبُ ضعفَ الخوفِ ؛ مِنَ الجهلِ والغفلةِ ، وأسبابٍ توجبُ قوّةَ الشهوةِ ، فيكونُ الندمُ موجوداً ، ولكنْ لا يكونُ مليئاً بتحريكِ العزمِ[1] ، ولا قوياً عليهِ ، فإنْ سلمَ عنْ شهوةٍ أقوىٰ منهُ ؛ بأنْ لمْ يعارضْهُ إلا ما هوَ أضعفُ . . قهرَ الخوفُ الشهوةَ وغلبَها ، وأوجبَ ذلكَ تركَ المعصيةِ .

وقدْ تشتدُّ ضراوةُ الفاسقِ بالخمرِ ، فلا يقدرُ على الصبرِ عنها ، وتكونُ لهُ ضراوةٌ ما بالغيبةِ وثلبِ الناسِ والنظرِ إلىٰ غيرِ المحرمِ ، وخوفُهُ مِنَ اللهِ قدْ بلغَ مبلغاً يقمعُ هـٰذهِ الشهوةَ الضعيفةَ دونَ القويّةِ ، فيوجبُ غلبةُ جندِ الخوفِ انبعاثَ العزمِ للتركِ ، بلْ يقولُ هـٰذا الفاسقُ في نفسِهِ : (إنْ قهرَني الشيطانُ بواسطةِ غلبةِ الشهوةِ في بعضِ المعاصي . . فلا ينبغي أنْ أخلعَ العذارَ وأرخي العِنانَ بالكليّةِ ، بلْ أجاهدُهُ في بعضِ المعاصي ، فعساني أغلبُهُ ، فيكونُ قهري لهُ في البعضِ كفارةً لبعضِ ذنوبي) ، ولوْ لمْ يُتصوَّرْ هـٰذا . . لما تُصوِّرَ مِنَ الفاسقِ أنْ يصلِّيَ ويصومَ ، ولقيلَ لهُ : (إنْ كانَتْ صلاتُكَ لغيرِ اللهِ . . فلا تصحُّ ، وإنْ كانَتْ للهِ . . فاتركِ الفسقَ للهِ ، فإنَّ أمرَ اللهِ فيهِ واحدٌ ، فلا يُتصوَّرُ أنْ تقصدَ بصلاتِكَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ما لمْ تتقرَّبْ بتركِ الفسقِ) ، وهـٰذا محالٌ ، بلْ يقولُ : (للهِ تعالىٰ عليَّ أمرانِ ، ولي على المخالفةِ فيهما عقوبتانِ ، وأنا مليءٌ في أحدِهما بقهْرِ الشيطانِ ، عاجزٌ عنهُ في الآخرةِ ،

---

(١) الملِيء : بوزن فعيل هنا ، وفي سياقات آتية بمعنىٰ : قادر .

فأنا أقهرُهُ فيما أقدرُ عليهِ ، وأرجو بمجاهدتي فيهِ أنْ يُكفِّرَ عني بعضُ ما عجزتُ عنهُ لفرطِ شهوتي) ، فكيفَ لا يُتصوَّرُ هـٰذا وهوَ حالُ كلِّ مسلمٍ ؟! إذْ لا مسلمَ إلا وهوَ جامعٌ بينَ طاعةِ اللهِ ومعصيتِهِ ، ولا سببَ لهُ إلا هـٰذا .

وإذا فهمَ هـٰذا . . فهمَ أنَّ غلبةَ الخوفِ للشهوةِ في بعضِ الذنوبِ ممكنٌ وجودُها ، والخوفُ إذا كانَ مِنْ فعلٍ ماضٍ أورثَ الندمَ ، والندمُ يورثُ العزمَ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »(١) ، ولمْ يشترطِ الندمَ علىٰ كلِّ ذنبٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »(٢) ، ولمْ يقلِ : التائبُ مِنَ الذنوبِ كلِّها .

وبهـٰذهِ المعاني تبيَّنَ سقوطُ قولِ القائلِ : إنَّ التوبةَ عنْ بعضِ الذنوبِ غيرُ ممكنةٍ ؛ لأنَّها متماثلةٌ في حقِّ الشهوةِ ، وفي حقِّ التعرُّضِ لسخطِ اللهِ تعالىٰ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يتوبَ عنْ شربِ الخمرِ دونَ النبيذِ ؛ لتفاوتِهما في اقتضاءِ السخطِ ، ويتوبَ عنِ الكثيرِ دونَ القليلِ ؛ لأنَّ لكثرةِ المعصيةِ تأثيراً في كثرةِ العقوبةِ ، فيساعدُ الشهوةَ بالقدْرِ الذي يعجزُ عنهُ ، ويتركُ بعضَ شهوتِهِ للهِ تعالىٰ ، كالمريضِ الذي حذَّرَهُ الطبيبُ الفاكهةَ ، فإنَّهُ قدْ يتناولُ قليلَها ، ولكنْ لا يستكثرُ منها .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

فقدْ حصلَ مِنْ هـٰذا : أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يتوبَ عنْ شيءٍ ولا يتوبَ عنْ مثلِهِ ، بلْ لا بدَّ وأنْ يكونَ ما تابَ عنهُ مخالفاً لما بقيَ عليهِ ؛ إمَّا في شدَّةِ المعصيةِ ، وإمَّا في غلبةِ الشهوةِ ، وإذا حصلَ هـٰذا التفاوتُ في اعتقادِ التائبِ . . تُصوِّرَ اختلافُ حالِهِ في الخوفِ والندمِ ، فيُتصوَّرُ اختلافُ حالِهِ في التركِ ، فندمُهُ علىٰ ذلكَ الذنبِ ووفاؤُهُ بعزمِهِ على التركِ يلحقُهُ بمَنْ لمْ يذنبْ ، وإنْ لمْ يكنْ قدْ أطاعَ اللهَ في جميعِ الأوامرِ والنواهي .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهلْ تصحُّ توبةُ العنِّينِ مِنَ الزنا الذي قارفَهُ قبلَ طريانِ العنَّةِ ؟

فأقولُ : لا ؛ لأنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ ندمٍ يبعثُ العزمَ على التركِ فيما يقدرُ علىٰ فعلِهِ ، وما لا يقدرُ علىٰ فعلِهِ فقدِ انعدمَ بنفسِهِ ، لا بتركِهِ إيَّاهُ .

ولكنِّي أقولُ : لوْ طرأَ عليهِ بعدَ العنَّةِ كشفٌ ومعرفةٌ تحقَّقَ بهِ ضررَ الزنا الذي قارفَهُ ، وثارَ منهُ احتراقٌ وتحسُّرٌ وندمٌ ؛ بحيثُ لوْ كانَتْ شهوةُ الوقاعِ باقيةً لكانَتْ حرقةُ الندمِ تقمعُ تلكَ الشهوةَ وتغلبُها . . فإنِّي أرجو أنْ يكونَ ذلكَ مكفِّراً لذنبِهِ ، وماحياً عنهُ سيِّئتَهُ ؛ إذْ لا خلافَ في أنَّهُ لوْ تابَ قبلَ طريانِ العنَّةِ وماتَ عَقيبَ التوبةِ . . كانَ مِنَ التائبينَ وإنْ لمْ تطرأْ عليهِ حالةٌ تهيجُ فيها الشهوةُ ، وتتيسَّرُ فيها أسبابُ القضاءِ للشهوةِ ، ولكنَّهُ تائبٌ باعتبارِ أنَّ ندمَهُ بلغَ مبلغاً أوجبَ صرفَ قصدِهِ عنِ الزنا لوْ ظهرَ قصدُهُ .

فإذاً ؛ لا يستحيلُ أنْ تبلغَ قوَّةُ الندمِ في حقِّ العنِّينِ هـٰذا المبلغَ ، إلا أنَّهُ

لا يعرفُهُ مِنْ نفسِهِ ، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يشتهي شيئاً يقدِّرُ نفسَهُ قادراً علىٰ تركِهِ بأدنىٰ خوفٍ ، واللهُ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ ضميرِهِ وعلىٰ مقدارِ تندُّمِهِ ، فعساهُ يقبلُهُ منهُ ، بلِ الظاهرُ أنَّهُ يقبلُهُ .

والحقيقةُ في هـٰذا كلِّهِ ترجعُ إلىٰ أنَّ ظلمةَ المعصيةِ تنمحي عنِ القلبِ بشيئينِ :

أحدُهُما : حرقةُ الندمِ .

والآخرُ : شدَّةُ المجاهدةِ بالتركِ في المستقبلِ .

وقدِ امتنعَتِ المجاهدةُ بزوالِ الشهوةِ ، ولكنْ ليسَ محالاً أنْ يقوى الندمُ بحيثُ يقوىٰ علىٰ محوِها دونَ المجاهدةِ ، ولولا هـٰذا.. لقلنا : إنَّ التوبةَ لا تُقبلُ ما لمْ يعشِ التائبُ بعدَ التوبةِ مدَّةً يجاهدُ نفسَهُ في عينِ تلكَ الشهوةِ مرَّاتٍ كثيرةً ، وذلكَ ممَّا لا يدلُّ ظاهرُ الشرعِ على اشتراطِهِ أصلاً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : إذا فرضْنا تائبينِ ؛ أحدُهُما : سكنَتْ نفسُهُ عنِ النزوعِ إلى الذنبِ ، والآخرُ : بقيَ في نفسِهِ نزوعٌ إليهِ وهوَ يجاهدُها ويمنعُها ، فأيُّهُما أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا اختلفَ العلماءُ فيهِ :

فقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ وأصحابُ أبي سليمانَ الدارانيِّ : إنَّ المجاهدَ أفضلُ ؛ لأنَّ لهُ معَ التوبةِ فضلَ الجهادِ .

وقالَ علماءُ البصرةِ : ذلكَ الآخرُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ لوْ فترَ في توبتِهِ . . كانَ أقربَ إلى السلامةِ مِنَ المجاهدِ الذي هوَ في عرضةِ القصورِ عنِ المجاهدةِ .

وما قالَهُ كلُّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ لا يخلو عنْ حقٍّ وعنْ قصورٍ عنْ كمالِ الحقيقةِ .

والحقُّ فيهِ : أنَّ الذي انقطعَ نزوعُ نفسِهِ لهُ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يكونَ انقطاعُ نزوعِهِ إليهِ لفتورٍ في نفسِ الشهوةِ فقطْ ، فالمجاهدةُ أفضلُ مِنْ هـٰذا ؛ إذْ تركُهُ بالمجاهدةِ قدْ دلَّ علىٰ قوَّةِ يقينِهِ ، واستيلاءِ دينِهِ علىٰ شهوتِهِ ، فهوَ دليلٌ قاطعٌ علىٰ قوَّةِ اليقينِ ، وعلىٰ قوَّةِ الدينِ ، وأعني بقوَّةِ الدينِ : قوَّةَ الإرادةِ التي تنبعثُ بإشارةِ اليقينِ ، وتقمعُ الشهوةَ المنبعثةَ بإشارةِ الشياطينِ ، فهاتانِ قوَّتانِ تدلُّ المجاهدةُ عليهما قطعاً .

وقولُ القائلِ : (إنَّ هـٰذا أسلمُ ؛ إذْ لوْ فترَ . . لا يعودُ إلى الذنبِ) ، فهـٰذا صحيحٌ ، ولكنِ استعمالُ لفظِ الأفضلِ فيهِ خطأٌ ، وهوَ كقولِ القائلِ : (العنينُ أفضلُ مِنَ الفحلِ ؛ لأنَّهُ في أمنٍ مِنْ خطرِ الشهوةِ ، والصبيُّ أفضلُ مِنَ البالغِ ؛ لأنَّهُ أسلمُ ، والمفلسُ أفضلُ مِنَ الملكِ القاهرِ القامعِ لأعدائِهِ ؛ لأنَّ المفلسَ لا عدوَّ لهُ والملكُ ربَّما يُغلبُ مرَّةً وإنْ غلبَ مرَّاتٍ) ، وهـٰذا كلامُ رجلٍ سليمِ القلبِ ، قاصرِ النظرِ على الظواهرِ ، غيرِ عالمٍ بأنَّ العزَّ في الأخطارِ ، وأنَّ العلوَّ شرطُهُ اقتحامُ الأغرارِ ، بلْ هوَ كقولِ القائلِ : (الصيَّادُ

الذي ليسَ لهُ فرسٌ ولا كلبٌ أفضلُ في صناعةِ الاصطيادِ وأعلىٰ رتبةً مِنْ صاحبِ الكلبِ والفرسِ ؛ لأنَّهُ آمنٌ مِنْ أنْ يجمحَ بهِ فرسُهُ فتنكسرَ أعضاؤُهُ عندَ السقوطِ على الأرضِ ، وآمنٌ مِنْ أنْ يعضَّهُ الكلبُ ويعتديَ عليهِ) ، وهـٰذا خطأٌ ، بلْ صاحبُ الفرسِ والكلبِ إذا كانَ قويّاً عالماً بطريقِ تأديبِهما أعلىٰ رتبةً وأحرىٰ بدرْكِ سعادةِ الصيدِ .

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ بطلانُ النزوعِ بسببِ قوَّةِ اليقينِ ، وصدقِ المجاهدةِ السابقةِ ، إذْ بلغَ مبلغاً قمعَ هيجانَ الشهوةِ ، حتَّىٰ تأدبَتْ بأدبِ الشرعِ ، فلا تهيجُ إلا بإشارةِ الدينِ ، وقدْ سكنَ بسببِ استيلاءِ الدينِ عليهِ ، فهـٰذا أعلىٰ رتبةً مِنَ المجاهدِ المقاسي لهيجانِ الشهوةِ وقمعِها .

وقولُ القائلِ : (لذلكَ فضلُ الجهادِ) قصورٌ عنِ الإحاطةِ بمقصودِ الجهادِ ؛ فإنَّ الجهادَ ليسَ مقصوداً لعينِهِ ، بلِ المقصودُ قطعُ ضراوةِ العدوِّ حتَّىٰ لا يستجرَّكَ إلىٰ شهواتِهِ ، وإنْ عجزَ عنِ استجرارِكَ . . فلا يصدُّكَ عنْ سلوكِ طريقِ الدينِ ، فإذا قهرتَهُ وحصَّلْتَ المقصودَ . . فقدْ ظفرتَ ، وما دمتَ في المجاهدةِ . . فأنتَ بعدُ في طلبِ الظفرِ .

ومثالُهُ كمثالِ مَنْ قهرَ العدوَّ واسترقَّهُ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ مشغولٌ بالجهادِ في صفِّ القتالِ ولا يدري كيفَ يسلمُ .

ومثالُهُ أيضاً مثالُ مَنْ علَّمَ كلبَ الصيدِ وراضَ الفرسَ ، فهما نائمانِ عندَهُ بعدَ تركِ الكلبِ الضراوةَ والفرسِ الجماحَ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ مشغولٌ بمقاساةِ التأديبِ بعدُ .

ولقدْ زلَّ في هـٰذا فريقٌ ، فظنُّوا أنَّ الجهادَ هوَ المقصودُ الأقصىٰ ، ولمْ يعلموا أنَّ ذلكَ طلبٌ للخلاصِ مِنْ عوائقِ الطريقِ ، وظنَّ آخرونَ أنَّ قمعَ الشهواتِ وإماطتَها بالكليَّةِ مقصودٌ ، حتَّىٰ جرَّبَ بعضُهُمْ نفسَهُ فعجزَ عنهُ ، فقالَ : (هـٰذا محالٌ) ، فكذَّبَ بالشرعِ ، وسلكَ سبيلَ الإباحةِ ، واسترسلَ في اتباعِ الشهواتِ ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ وضلالٌ ، وقدْ قرَّرْنا ذلكَ في كتابِ رياضةِ النفسِ مِن ربعِ المهلكاتِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما قولُكَ في تائبينِ : أحدُهُما نسيَ الذنبَ ولمْ يشتغلْ بالتفكُّرِ فيهِ ، والآخرُ جعلَهُ نصبَ عينِهِ فلا يزالُ يتفكَّر فيهِ ويحترقُ ندماً عليهِ ، أيُّهما أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا أيضاً قدِ اختلفوا فيه :

فقالَ بعضُهُمْ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنصبَ ذنبكَ بينَ عينيكَ) .

وقالَ آخرونَ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنسىٰ ذنبَكَ) .

وكلُّ واحدٍ مِنَ المذهبينِ عندَنا حقٌّ ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالينِ .

وكلامُ المتصوِّفةِ أبداً يكونُ قاصراً ، فإنَّ عادةَ كلِّ واحدٍ منهُمْ أنْ يخبرَ عنْ حالِ نفسهِ فقطْ ، ولا يهمُّهُ حالُ غيرِهِ ، فتختلفُ الأجوبةُ لاختلافِ الأحوالِ ، وهـٰذا نقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، فإنَّ معرفةَ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ أفضلُ وأعلىٰ ، ولكنَّهُ كمالٌ بالإضافةِ إلى الهمَّةِ والإرادةِ

والجدِّ ، حيثُ يكونُ صاحبُهُ مقصورَ النظرِ علىٰ حالِ نفسِهِ ، لا يهمُّهُ أمرُ غيرِهِ ؛ إذْ طريقُهُ إلى اللهِ نفسُهُ ، ومنازِلُهُ أحوالُهُ ، وقدْ يكونُ طريقُ العبدِ إلى اللهِ العلمَ والتعليمَ ، فالطرقُ إلى اللهِ تعالىٰ كثيرةٌ وإنْ كانَتْ مختلفةً في القربِ والبعدِ ، واللهُ أعلمُ بمَنْ هوَ أهدىٰ سبيلاً ، معَ الاشتراكِ في أصلِ الهدايةِ .

فأقولُ : تصوُّرُ الذنبِ وذكرُهُ والتفجُّعُ عليهِ كمالٌ في حقِّ المبتدئِ المريدِ ؛ لأنَّهُ إذا نسيَهُ . . لمْ يكثرِ احتراقُهُ ، فلا تقوىٰ إرادتُهُ وانبعاثُهُ لسلوكِ الطريقِ ، ولأنَّ ذلكَ يستخرجُ منهُ الحزنَ والخوفَ الوازعَ عنِ الرجوعِ إلىٰ مثلِهِ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الغافلِ كمالٌ ، ولكنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ سالكِ الطريقِ نقصانٌ ؛ فإنَّهُ شغلٌ مانعٌ عنْ سلوكِ الطريقِ ، بلْ سالكُ الطريقِ ينبغي ألا يعرِّجَ علىٰ غيرِ السلوكِ ، فإنْ ظهرَتْ لهُ مبادي الوصولِ ، وانكشفَتْ لهُ أنوارُ المعرفةِ ولوامعُ الغيبِ . . استغرقَهُ ذلكَ ، ولمْ يبقَ فيهِ متسعٌ للالتفاتِ إلىٰ ما سبقَ مِنْ أحوالِهِ ، وهوَ الكمالُ .

بلْ لوْ عاقَ المسافرَ عنِ الطريقِ إلىٰ بلدٍ مِنَ البلادِ نهرٌ حاجزٌ . . طالَ تعبُ المسافرِ في عبورِهِ مدةً ، مِنْ حيثُ إنَّهُ كانَ قدْ خرَّبَ جسرَهُ مِنْ قبلُ ، فلوْ جلسَ علىٰ شاطئِ النهرِ بعدَ عبورِهِ يبكي متأسِّفاً علىٰ تخريبِهِ الجسرَ . . كانَ هـٰذا مانعاً آخرَ اشتغلَ بهِ بعدَ الفراغِ عنْ ذلكَ المانعِ .

نعمْ ، إنْ لمْ يكنِ الوقتُ وقتَ الرحيلِ ، بأنْ كانَ ليلاً فتعذَّرَ السلوكُ ،

أوْ كانَ علىٰ طريقِهِ أنهارٌ وهوَ يخافُ علىٰ نفسِهِ أنْ يمرَّ بها[1] . . فليطلْ بالليلِ بكاؤُهُ وحزنُهُ علىٰ تخريبِ الجسرِ ؛ ليتأكَّدَ بطولِ الحزنِ عزمُهُ علىٰ ألا يعودَ إلىٰ مثلِهِ ، فإنْ حصلَ لهُ مِنَ التنبُّهِ ما وثقَ بنفسِهِ أنَّهُ لا يعودُ إلىٰ مثلِهِ . . فسلوكُ الطريقِ أولىٰ بهِ مِنَ الاشتغالِ بذكرِ تخريبِ الجسرِ والبكاءِ عليهِ ، وهـٰذا لا يعرفُهُ إلا مَنْ عرفَ الطريقَ والمقصدَ ، والعائقَ وطريقَ السلوكِ ، وقدْ أشرنا إلىٰ تلويحاتٍ منهُ في كتابِ العلمِ وفي ربعِ المهلكاتِ .

بلْ نقولُ : شرطُ دوامِ التوبةِ أنْ يكونَ كثيرَ الفكرِ في النعيمِ في الآخرةِ لتزيدَ رغبتُهُ ، ولكنْ إنْ كانَ شاباً . . فلا ينبغي أنْ يطيلَ فكرَهُ في كلِّ ما لهُ نظيرٌ في الدنيا ؛ كالحورِ والقصورِ ، فإنَّ ذلكَ الفكرَ ربَّما يحرِّكُ رغبتَهُ ، فيطلبُ العاجلةَ ولا يرضىٰ بالآجلةِ ، بلْ ينبغي أنْ يتفكَّرَ في لذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، فذلكَ لا نظيرَ لهُ في الدنيا ، فكذلكَ تذكُّرُ الذنبِ قدْ يكونُ محرِّكاً للشهوةِ ، فالمبتدىءُ أيضاً قدْ يستضرُّ بهِ ، فيكونُ النسيانُ أفضلَ لهُ عندَ ذلكَ .

ولا يصدَّنَّكَ عنِ التصديقِ بهـٰذا التحقيقِ ما يُحكىٰ لكَ مِنْ بكاءِ داوودَ عليهِ السلامُ ونياحتِهِ[2] ، فإنَّ قياسَكَ نفسَكَ على الأنبياءِ قياسٌ في غايةِ الاعوجاجِ ؛ لأنَّهُمْ قدْ ينزلونَ في أقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ إلى الدرجاتِ اللائقةِ

---

(١) في (أ) : (أن يخرجها) ، وفي (ب) : (أن يجريها) ، وفي بقية النسخ : (أن يخربها) بدل (أن يمر بها) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٢) تقدم في ذلك أخبار ، والاعتراض وجوابه أورده كذلك صاحب « القوت » (١/ ١٨٢) ، وجواب المصنف هنا قريب منه .

بأممِهِمْ ، فإنَّهُمْ ما بُعثوا إلا لإرشادِهِمْ ، فعليهِمُ التلبُّسُ بما تنتفعُ أممُهُمْ بمشاهدتِهِ ، وإنْ كانَ ذلكَ نازلاً عنْ ذروةِ مقامِهِمْ ، فقدْ كانَ في الشيوخِ مَنْ لا يشيرُ علىٰ مريدِهِ بنوعِ رياضةٍ إلا ويخوضُ معَهُ فيها ، وقدْ كانَ مستغنياً عنها ؛ لفراغِهِ عنِ المجاهدةِ وتأديبِ النفسِ ، ولكنْ تسهيلاً للأمرِ على المريدِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنِّي لا أنسىٰ ، ولكنِّي أُنسَّىٰ لأشرِّعَ »(١) ، وفي لفظٍ : « إنَّما أسهو لأسنَّ » .

ولا تعجبْ مِنْ هـٰذا ؛ فإنَّ الأممَ في كنفِ شفقةِ الأنبياءِ كالصبيانِ في كنفِ شفقةِ الآباءِ ، وكالمواشي في كنفِ الرعاةِ ، أما ترى الأبَ إذا أرادَ أنْ يستنطقَ ولدَهُ الصغيرَ كيفَ ينزلُ إلىٰ درجةِ نطقِ الصبيِّ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ : « كِخْ كِخْ » لمَّا أخذَ تمرةً مِنْ تمرِ الصدقةِ ووضعَها في فيهِ(٢) ، وما كانَتْ فصاحتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تقصُرُ عنْ أنْ

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ١٠٠) بلاغاً ، قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/ ٣٧٥) : (أما هـٰذا الحديث بهـٰذا اللفظ . . فلا أعلمه يروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه مسنداً ولا مقطوعاً من غير هـٰذا الوجه والله أعلم ، وهو أحد الأحاديث الأربعة في « الموطأ » التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة والله أعلم ، ومعناه صحيح في الأصول) ، وقال أبو الطاهر الأنماطي : (وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه الأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به ، وادّعىٰ بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً) . « إتحاف » (٨/ ٥٩٢) .

(٢) رواه البخاري (١٤٩١) ، ومسلم (١٠٦٩) وقد تقدم ، وكِخْ : كلمة ردع للطفل مثل : بَعْ ، قيل : هي لفظة فارسية ، وبكونها فارسية جاء التصريح في « البخاري » =

يقولَ : ارمِ هـٰذهِ التمرةَ ؛ فإنَّها حرامٌ ، ولكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ علمَ أنَّهُ لا يفهمُ منطقَهُ تركَ فصاحتَهُ ونزلَ إلىٰ لُكْنتِهِ ، بلِ الذي يعلِّمُ شاةً أوْ طائراً يصوِّتُ بهِ رغاءً أوْ صفيراً تشبُّهاً بالبهيمةِ والطائرِ ، وتلطُّفاً في تعليمِهِ ، فإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عنْ أمثالِ هـٰذهِ الدقائقِ ، فإنَّها مزلَّةُ أقدامِ العارفينَ فضلاً عنِ الغافلينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

= (٣٠٧٢) ، وأصلها في الفارسية : كِخْكِخْ مركبة ، وتستعمل عندهم كاستعمال (يَعْ) عند العرب .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلمْ : أنَّ التائبينَ في التوبةِ علىٰ أربعِ طبقاتٍ :

الطبقةُ الأولىٰ : أنْ يتوبَ العاصي ويستقيمَ على التوبةِ إلىٰ آخرِ عمرِهِ ، فيتداركُ ما فرطَ مِنْ أمرِهِ ، ولا يحدِّثُ نفسَهُ بالعودِ إلىٰ ذنوبِهِ ، إلا الزلاتِ التي لا ينفكُّ البشرُ عنها في العاداتِ مهما لمْ يكنْ في رتبةِ النبوَّةِ .

فهٰذهِ هيَ الاستقامةُ في التوبةِ ، وصاحبُها هوَ السابقُ بالخيراتِ ، المستبدِلُ بالسيئاتِ حسناتٍ .

واسمُ هٰذهِ التوبةِ التوبةُ النصوحُ ، واسمُ هٰذهِ النفسِ الساكنةِ **النفسُ المطمئنةُ** ، التي ترجعُ إلىٰ ربِّها راضيةً مرضيةً ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ إليهِمُ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَ المفردونَ ، المستهتَرونَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وضعَ الذكرُ عنهُمْ أوزارَهُمْ ، فوردُوا القيامةَ خفافاً »(١) ، فإنَّ فيهِ إشارةً إلىٰ أنَّهُمْ كانوا تحتَ أوزارٍ وضعَها الذكرُ عنهُمْ .

وأهلُ هٰذهِ الطبقةِ علىٰ رتبٍ مِنْ حيثُ النزوعُ إلى الشهواتِ ؛ فمِنْ تائبٍ سكنَتْ شهواتُهُ تحتَ قهرِ المعرفةِ ففترَ نزاعُها ، ولمْ يشغلْهُ عنِ السلوكِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) مقتصراً علىٰ أوله ، وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ، قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً » .

صراعُها ، وإلىٰ مَنْ لا ينفكُّ عنْ منازعةِ النفسِ ، ولكنَّهُ مليءٌ بمجاهدتِها وردِّها .

ثمَّ تتفاوتُ درجاتُ النزاعِ أيضاً بالكثرةِ والقلَّةِ وباختلافِ المدَّةِ وباختلافِ الأنواعِ ، وكذلكَ يختلفونَ مِنْ حيثُ طولُ العمرِ ؛ فمِنْ مختطفٍ يموتُ قريباً مِنْ توبتِهِ ، يُغبطُ علىٰ ذلكَ لسلامتِهِ وموتِهِ قبلَ الفترةِ ، ومِنْ ممهلٍ طالَ جهادُهُ وصبرُهُ ، وتمادَتِ استقامتُهُ وكثرَتْ حسناتُهُ ، وحالُ هٰذا أعلىٰ وأفضلُ ؛ إذْ كلُّ سيئةٍ فإنَّما تمحوها حسنةٌ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّما يكفِّرُ الذنبَ الذي ارتكبَهُ العاصي عشرَ مرَّاتٍ أنْ يتمكَّنَ منهُ عشرَ مراتٍ معَ صدْقِ الشهوةِ ، ثمَّ يصبرَ عنهُ ويكسرَ شهوتَهُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ) ، واشتراطُ هٰذا بعيدٌ ، وإنْ كانَ لا يُنكرُ عظمُ أثرِهِ لوْ فرضَ ، ولكنْ لا ينبغي للمريدِ الضعيفِ أنْ يسلكَ هٰذا الطريقَ فيهيِّجَ الشهوةَ ، ويحضرَ الأسبابَ حتَّىٰ يتمكَّنَ ، ثمَّ يطمعَ في الانكفافِ ؛ فإنَّهُ لا يؤمنُ خروجُ عِنانِ الشهوةِ عنِ اختيارِهِ ، فيقدمَ على المعصيةِ وينقضَ توبتَهُ ، بلْ طريقُهُ الفرارُ مِنِ ابتداءِ أسبابِهِ الميسِّرةِ لهُ ، حتَّىٰ يسدَّ طرقَها علىٰ نفسِهِ ، ويسعىٰ معَ ذلكَ في كسرِ شهوتِهِ بما يقدرُ عليهِ ، فبهِ تسلمُ توبتُهُ في الابتداءِ .

❁ ❁ ❁

الطبقةُ الثانيةُ : تائبٌ سلَكَ طريقَ الاستقامةِ في أمَّهاتِ الطاعاتِ وتركِ كبائرِ الفواحشِ كلِّها ، إلا أنَّهُ ليسَ ينفكُّ عنْ ذنوبٍ تعتريهِ ، لا عنْ عمدٍ

وتجريدِ قصدٍ ، ولكنْ يُبتلىٰ بها في مجاري أحوالِهِ مِنْ غيرِ أنْ يقدمَ عزماً على الإقدامِ عليها ، ولكنَّهُ كلَّما أقدمَ عليها . . لامَ نفسَهُ وندمَ وتأسَّفَ ، وجدَّدَ عزمَهُ علىٰ أنْ يتشمَّرَ للاحترازِ مِنْ أسبابِها التي تعرِّضُهُ لها .

وهـٰذهِ النفسُ جديرةٌ بأنْ تكونَ هيَ **النفسَ اللوَّامةَ** ؛ إذ تلومُ صاحبَها علىٰ ما يستهدفُ لهُ مِنَ الأحوالِ الذميمةِ ، لا عنْ تصميمِ عزمٍ وتخميرِ رأيٍ وقصدٍ ، وهـٰذهِ أيضاً رتبةٌ عاليةٌ وإنْ كانَتْ نازلةً عنِ الطبقةِ الأولىٰ ، وهيَ أغلبُ أحوالِ التائبينَ ؛ لأنَّ الشرَّ معجونٌ بطينةِ الآدميِّ قلَّما ينفكُّ عنهُ ، وإنَّما غايةُ سعيهِ أنْ يغلبَ خيرُهُ شرَّهُ حتَّىٰ يثقلَ ميزانُهُ ، فترجحَ كفَّةُ الخيراتِ ، فأمَّا أنْ تخلوَ بالكليَّةِ كفَّةُ السيئاتِ . . فذلكَ في غايةِ البعدِ .

وهؤلاءِ لهُمْ حسنُ الوعدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

فكلُّ إلمامٍ يقعُ بصغيرةٍ لا عنْ توطينِ نفسِهِ عليهِ فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ اللممِ المعفوِّ عنهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، فأثنىٰ عليهِمْ معَ ظلمِهِمْ لأنفسِهِمْ ؛ لتندُّمِهِمْ ولومِهِمْ أنفسَهُمْ عليهِ .

وإلىٰ مثلِ هـٰذهِ الرتبةِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : « خيارُكُمْ كلُّ مفتَّنٍ توَّابٍ »(١) .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٧٠٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧١) ، =

وفي خبرٍ آخرَ : « المؤمنُ كالسنبلةِ ، تفيء أحياناً وتميلُ أحياناً »[1] .

وفي الخبرِ : « لا بدَّ للمؤمنِ مِنْ ذنبٍ يأتيهِ الفينةَ بعدَ الفينةِ »[2] أيِ : الحينَ بعدَ الحينِ .

فكلُّ ذلكَ أدلَّةٌ قاطعةٌ علىٰ أنَّ هـٰذا القدْرَ لا ينقضُ التوبةَ ، ولا يلحقُ صاحبَها بدرجةِ المصرِّينَ .

ومَنْ يُؤْيِسُ مثلَ هـٰذا عنْ درجةِ التائبينَ كالطبيبِ الذي يُؤْيِسُ الصحيحَ عنْ دوامِ الصحةِ بما يتناولُهُ مِنَ الفواكِهِ والأطعمةِ الحارَّةِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ مِنْ غيرِ مداومةٍ واستمرارٍ ، وكالفقيهِ الذي يُؤْيِسُ المتفقِّهَ عنْ نيلِ درجةِ الفقهاءِ بفتورِهِ عنِ التكرارِ والتعليقِ في أوقاتٍ نادرةٍ غيرِ متطاولةٍ ولا كثيرةٍ[3] ، وذلكَ يدلُّ علىٰ نقصانِ الطبيبِ والفقيهِ ، بلِ الفقيهُ في الدينِ هوَ الذي لا يُؤْيِسُ الخلقَ

= والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٩) ، ورواه موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ابنُ أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٧) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٨٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « مثل المؤمن مثل السنبلة ، تستقيم مرة وتخرُّ مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة ، لا تزال مستقيمة حتىٰ تخرَّ ولا تشعر » ، ورواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٥/ ٢٨٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٠٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتقوم أحياناً » .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٠٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢٢) .

(٣) **والمراد بالتكرار** : إعادة ما يحصله في درسه مرة بعد أخرىٰ حتىٰ يرسخ في الذهن ، **والتعليق** : أن يعلق ما يسمع من فوائد الشيوخ في أوراق . « إتحاف » (٨/ ٥٩٦) .

عَنْ درجاتِ السعاداتِ بما يتفقُ لهُمْ مِنَ الفتراتِ ومقارفةِ السيئاتِ المختطفاتِ .

قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخطَّائينَ التوَّابونَ المستغفرونَ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « المؤمنُ واهٍ راقعٌ ، فخيرُهُمْ مَنْ ماتَ علىٰ رقعِهِ »(٢) أيْ : واهٍ بالذنوبِ ، راقعٌ بالتوبةِ والندمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، فما وصفَهُمْ بعدمِ السيئةِ أصلاً .

❁ ❁ ❁

الطبقةُ الثالثةُ : أنْ يتوبَ ويستمرَّ على الاستقامةِ مدَّةً ، ثمَّ تغلبُهُ شهوتُهُ في بعضِ الذنوبِ ، فيقدمُ عليها عنْ قصدٍ وصدقِ شهوةٍ ؛ لعجزِهِ عنْ قهرِ الشهوةِ ، إلا أنَّهُ معَ ذلكَ مواظبٌ على الطاعاتِ ، وتاركٌ جملةً مِنَ الذنوبِ معَ القدرةِ والشهوةِ ، وإنَّما قهرَتْهُ هٰذهِ الشهوةُ الواحدةُ أوِ الشهوتانِ وهوَ يودُّ لوْ أقدرَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ قمعِها وكفاهُ شرَّها ، هٰذا أمنيتُهُ في حالِ قضاءِ

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٨٨) ، ورواه الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٨) بلفظ المصنف ولكن من كلام عون العقيلي .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٨٨) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢١) .

النفسِ ، فكما لا يصلحُ لمنصبِ الرئاسةِ والقضاءِ والتقدُّمِ بالعلمِ إلا نفسٌ صارَتْ فقيهةً بطولِ التفقيهِ . . فلا يصلحُ لملكِ الآخرةِ ونعيمِها ولا للقربِ مِنْ ربِّ العالمينَ إلا قلبٌ سليمٌ صارَ طاهراً بطولِ التزكيةِ والتطهيرِ .

هكذا سبقَ في الأزلِ بتدبيرِ ربِّ الأربابِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، فمهما وقعَ العبدُ في ذنبٍ ، فصارَ الذنبُ نقداً والتوبةُ نسيئةً . . كانَ هـٰذا مِنْ علاماتِ الخذلانِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ سبعينَ سنةً ، حتَّىٰ يقولَ الناسُ : إنَّهُ مِنْ أهلِها ، ولا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنةِ إلا شبرٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها »(١) .

فإذاً ؛ الخوفُ مِنَ الخاتمةِ قبلَ التوبةِ ، وكلُّ نَفَسٍ فهوَ خاتمةُ ما قبلَهُ ؛ إذْ يمكنُ أنْ يكونَ الموتُ متصلاً بهِ ، فليراقبِ الأنفاسَ ، وإلا . . وقعَ المحذورُ ، ودامَتِ الحسراتُ حينَ لا ينفعُ التحسُّرُ .

* * *

الطبقةُ الرابعةُ : أنْ يتوبَ ويجريَ مدَّةً على الاستقامةِ ، ثمَّ يعودَ إلىٰ مقارفةِ الذنبِ أوِ الذنوبِ مِنْ غيرِ أنْ يحدِّثَ نفسَهُ بالتوبةِ ، ومِنْ غيرِ أنْ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) ، وليس فيه لفظ : (سبعين سنة) ، وهو عند ابن راهويه في « مسنده » (١٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٧٥) .

يتأسَّفَ علىٰ فعلِهِ ، بلْ ينهمكُ انهماكَ الغافلِ في اتباعِ شهوتِهِ .

فهـٰذا مِنْ جملةِ المصرِّينَ ، وهـٰذهِ النفسُ هيَ النفسُ **الأمَّارةُ بالسوءِ** الفرَّارةُ مِنَ الخيرِ ، ويُخافُ علىٰ هـٰذا سوءُ الخاتمةِ ، وأمرُهُ في مشيئةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ ختمَ لهُ بالسوءِ . . شقيَ شقاوةً لا آخرَ لها ، وإنْ ختمَ لهُ بالحسنىٰ حتَّىٰ ماتَ على التوحيدِ . . فيُنتظرُ لهُ الخلاصُ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ حينٍ ، ولا يستحيلُ أنْ يشملَهُ عمومُ العفوِ بسببٍ خفيٍّ لا يُطلعُ عليهِ ؛ كما لا يستحيلُ أنْ يدخلَ الإنسانُ خراباً ليجدَ كنزاً فيتفقَ أنْ يجدَهُ ، ولا أنْ يجلسَ في البيتِ ليجعلَهُ اللهُ عالماً بالعلومِ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ كما كانَ للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهمْ ، فطلبُ المغفرةِ بالطاعاتِ كطلبِ العلمِ بالجهدِ والتكرارِ ، وطلبِ المالِ بالتجارةِ وركوبِ البحارِ ، وطلبُها بمجرَّدِ الرجاءِ معَ خرابِ الأعمالِ كطلبِ الكنوزِ في المواضعِ الخربةِ ، وطلبِ العلومِ مِنْ تعليمِ الملائكةِ ، وليتَ مَنِ اجتهدَ وتعبَ . . تعلَّمَ ، وليتَ مَنِ اتجرَ وركبَ البحارَ . . استغنىٰ ، وليتَ مَنْ صامَ وصلَّىٰ . . غفرَ لهُ ، فالناسُ كلُّهُمْ محرومونَ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ محرومونَ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ محرومونَ إلا المخلصونَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ[1] .

وكما أنَّ مَنْ خرَّبَ بيتَهُ وضيَّعَ مالَهُ وتركَ نفسَهُ وعيالَهُ جياعاً يزعمُ أنَّهُ

---

(١) سبق هـٰذا القول أثراً ، وبيان جواز الإبدال في الاستثناء الموجب علىٰ لغة أو تأويل ، وانظر « الدر المصون » (٢/٥٢٨) .

ينتظرُ فضْلَ اللهِ بأنْ يرزقَهُ كنزاً يجدُهُ تحتَ الأرضِ في بيتِهِ الخربِ يُعدُّ عندَ ذوي البصائرِ مِنَ الحمقىٰ والمغرورينَ وإنْ كانَ ما ينتظرُهُ غيرَ مستحيلٍ في قدرةِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ . . فكذلكَ مَنْ ينتظرُ المغفرةَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وهوَ مقصِّرٌ عَنِ الطاعةِ مصرٌّ على الذنوبِ غيرُ سالكٍ سبيلَ المغفرةِ ، معدودٌ عندَ أربابِ القلوبِ مِنَ المعتوهينَ .

والعجبُ مِنْ عقلِ هٰذا المعتوهِ ، وترويجِهِ حماقتَهُ في صيغةٍ حسنةٍ ؛ إذْ يقولُ : (إنَّ اللهَ كريمٌ وجنتُهُ ليسَتْ تضيقُ عنْ مثلي[1] ، ومعصيتي ليسَتْ تضرُّهُ) ، ثمَّ تراهُ يركبُ البحارَ ، ويقتحمُ الأخطارَ في طلبِ الدينارِ ، وإذا قيلَ لهُ : (إنَّ اللهَ كريمٌ ، ودنانيرُ خزائنِهِ ليسَتْ تقصرُ عنْ فقرِكَ ، وكسلُكَ بتركِ التجارةِ ليسَ يضرُّهُ ، فاجلسْ في بيتِكَ ، فعساهُ يرزقُكَ مِنْ حيثُ لا تحتسبُ) ، فيستحمقُ قائلَ هٰذا الكلامِ ويستهزىءُ بهِ ، ويقولُ : (ما هٰذا الهوسُ ؟! السماءُ لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً ، وإنَّما يُنالُ ذلكَ بالكسبِ ، هٰكذا قدَّرَهُ ربُّ الأربابِ وأجرىٰ بهِ سنَّتَهُ ولا تبديلَ لسنَّةِ اللهِ) .

ولا يعلمُ المغرورُ أنَّ ربَّ الآخرةِ وربَّ الدنيا واحدٌ ، وأنَّ سنتَهُ لا تبديلَ لها فيهما جميعاً ، وأنَّهُ قدْ أخبرَ إذْ قالَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فكيفَ يعتقدُ أنَّهُ كريمٌ في الآخرةِ وليسَ بكريمٍ في الدنيا ؟! وكيفَ يقولُ : ليسَ مقتضى الكرمِ الفتورَ عنْ كسبِ المالِ ، ومقتضاهُ الفتورُ عنِ العملِ

(١) في (أ) : (ورحمته واسعة) بدل (وجنته) .

للملكِ المقيمِ والنعيمِ الدائمِ ، وأنَّ ذلكَ بحكْمِ الكرمِ يعطيهِ مِنْ غيرِ جهدٍ في الآخرةِ ، وهٰذا يمنعُهُ معَ شدَّةِ الاجتهادِ في غالبِ الأمرِ في الدنيا ، وينسىٰ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ؟!

فنعوذُ باللهِ مِنَ العمىٰ والضلالِ ، فما هٰذا إلا انتكاسٌ علىٰ أمِّ الراسِ ، وانغماسٌ في ظلماتِ الجهلِ ، وصاحبُهُ جديرٌ بأنْ يكونَ داخلاً تحتَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ أيْ : أبصرنا أنَّكَ صدقْتَ إذْ قلتَ : ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فارجعْنا نسعىٰ ، وعندَ ذلكَ لا يمكَّنُ مِنَ الانقلابِ ، ويحقُّ عليهِ العذابُ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ دواعي الجهلِ والشكِّ والارتيابِ السائقِ بالضرورةِ إلىٰ سوءِ المنقلبِ والمآبِ .

❋ ❋ ❋

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إمّا عن قصدٍ وشهوةٍ غالبة ، أو عن إلمامٍ بحكم الاتفاق

اعلمْ : أنَّ الواجبَ عليهِ التوبةُ والندمُ والاشتغالُ بالتكفيرِ بحسنةٍ تضادُّهُ كما ذكرنا طريقَهُ ، فإنْ لمْ تساعدْهُ النفسُ على العزمِ على التركِ لغلبةِ الشهوةِ . . فقدْ عجزَ عنْ أحدِ الواجبينِ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ الواجبَ الثاني ، وهوَ أنْ يدرأَ بالحسنةِ السيئةَ لتمحوَها ، فيكونَ ممَّنْ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً .

والحسناتُ المكفِّرةُ للسيئاتِ : إمَّا بالقلبِ ، وإمَّا باللسانِ ، وإمَّا بالجوارحِ ، ولتكنِ الحسنةُ في محلِّ السيئةِ ، وفيما يتعلَّقُ بأسبابِها .

فأما بالقلبِ : فليكفِّرْهُ بالتضرُّعِ إلى اللهِ تعالىٰ في سؤالِ المغفرةِ والعفوِ ، ويتذلَّلْ تذلُّلَ العبدِ الآبقِ ، ويكونُ ذلُّهُ بحيثُ يظهرُ لسائرِ العبادِ ، وذلكَ بنقصانِ كبْرِهِ فيما بينَهُمْ ، فما للعبدِ الآبقِ المذنبِ وجهٌ للتكبُّرِ على سائرِ العبادِ[1] ، وكذلكَ يضمرُ بقلبِهِ الخيراتِ للمسلمينَ والعزمَ على الطاعاتِ .

وأمَّا باللسانِ : فبالاعترافِ بالظلمِ والاستغفارِ ، فيقولُ : (ربِّ ؛ ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً ، فاغفرْ لي ذنوبي) ، وكذلكَ يكثرُ مِنْ ضروبِ الاستغفارِ ، كما أوردناهُ في كتابِ الدعواتِ والأذكارِ .

---

(١) والكبر والمعصية لا يجتمعان في قلب مؤمن . « إتحاف » (٨/ ٦٠٢) .

وأمَّا بالجوارحِ : فبالطاعاتِ ، والصدقاتِ ، وأنواعِ العباداتِ ، وفي الآثارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الذنبَ إذا أُتبعَ بثمانيةِ أعمالٍ كانَ العفوُ عنهُ مرجوّاً ، أربعةٌ مِنْ أعمالِ القلوبِ وهيَ التوبةُ أوِ العزمُ على التوبةِ ، وحبُّ الإقلاعِ عنِ الذنبِ ، وخوفُ العقابِ عليهِ ، ورجاءُ المغفرةِ لهُ ، وأربعةٌ مِنْ أعمالِ الجوارحِ ، وهيَ أنْ يصلِّيَ عَقيبَ الذنبِ ركعتينِ[(١)] ، ثمَّ يستغفرَ اللهَ تعالىٰ بعدَهُما سبعينَ مرَّةً[(٢)] ، ويقولَ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ مئةَ مرَّةٍ ، ثمَّ يتصدَّقَ بصدقةٍ ، ثمَّ يصومَ يوماً[(٣)] .

وفي بعضِ الآثارِ : «يسبغُ الوضوءَ ، ويدخلُ المسجدَ ويصلِّي ركعتينِ»[(٤)] .

وفي بعضِ الأخبارِ : « يصلِّي أربعَ ركعاتٍ »[(٥)] .

---

(١) وذلك بعد أن يتوضأ ، وإن اغتسل . . كان أكمل ، وإن أمكنه أن يغسل الثياب التي عصى الله فيها . . كان أكمل ؛ فإن طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن ، وإذا كانت الصلاة في موضع خال عن اشتغال وعن توهم الرياء والسمعة في بال . . كان أكمل . « إتحاف » (٨/ ٦٠٢) .

(٢) مع البكاء إن أمكن ، وإلا . . فبالتباكي وقلب حزين علىٰ ما سبق له من المعصية ، ويجعلها نصب عينيه . « إتحاف » (٨/ ٦٠٢) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٩٠) .

(٤) فقد روى الترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠١٧٥ ، ١٠١٧٧) مرفوعاً وموقوفاً ، وابن ماجه (١٣٩٥) من حديث الصديق الأكبر رضي الله عنه نحوه ، ولم يذكر المسجد ، وعند البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٠) من حديث الحسن مرسلاً : « ما أذنب عبد ذنباً ، ثم توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلىٰ براز من الأرض ، فصلىٰ ركعتين ، واستغفر الله من ذلك الذنب . . إلا غفر له » .

(٥) إذ روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ٤٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٨٣) =

وفي الخبرِ : « إذا عملتَ سيئةً . . فأتبعْها حسنةً تكفِّرْها ، السرُّ بالسرِّ والعلانيةُ بالعلانيةِ »[1] .

ولذلكَ قيلَ : (صدقةُ السرِّ تكفِّرُ ذنوبَ الليلِ ، وصدقةُ الجهرِ تكفِّرُ ذنوبَ النهارِ)[2] .

وفي الخبرِ الصحيحِ : أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنِّي عالجتُ امرأةً ، فأصبتُ منها كلَّ شيءٍ إلا المسيسَ ، فاقضِ عليَّ بحكْمِ اللهِ تعالىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَما صلَّيتَ معنا صلاةَ الغداةِ ؟ » قالَ : بلىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ »[3] .

= من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ، فكان ذات يوم جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، فأذن له ، فخرج في يوم مطير ، فإذا هو بامرأة علىٰ غدير تغتسل ، فلما رآها . . جلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة ، فقام نادماً ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع ركعات » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

(١) هو من وصيته صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٦٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٥٩) .

(٢) هو عند صاحب « القوت » (١/ ١٩٠) بلفظ : (صدقة الليل تكفر ذنوب النهار ، وصدقة السر تكفر ذنوب الليل) .

(٣) رواه البخاري (٥٢٦) ، ومسلم (٢٧٦٣) واللفظ أقرب له ، والمسيس في الحديث كناية عن الجماع .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ ما دونَ الزنا مِنْ معالجةِ النساءِ صغيرةٌ ؛ إذْ جعلَ الصلاةَ كفارةً لهُ بمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينهُنَّ إلا الكبائرَ » .

فعلى الأحوالِ كلِّها ينبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ كلَّ يومٍ ، ويجمعَ سيئاتِهِ ، ويجتهدَ في دفعِها بالحسناتِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فكيفَ يكونُ الاستغفارُ نافعاً مِنْ غيرِ حلِّ عقدةِ الإصرارِ وفي الخبرِ : « المستغفرُ مِنَ الذنبِ وهوَ مصرٌّ عليهِ كالمستهزئِ بآياتِ اللهِ »(١) ، وكانَ بعضُهُمْ يقولُ : (أستغفرُ اللهَ مِنْ قولي : أستغفرُ اللهَ)(٢) ، وقيلَ : (الاستغفارُ باللسانِ توبةُ الكذابينَ)(٣) ، وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ)(٤) .

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ وردَ في فضلِ الاستغفارِ أخبارٌ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، ذكرناها في كتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، حتَّىٰ قرنَ اللهُ الاستغفارَ ببقاءِ الرسولِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٨٩) ، وذكر الكلاباذي في « التعرُّف » (ص٩٣) أنه من قول رابعة .

(٣) ذكره الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٩) لرابعة ، ونحوه ذكره القشيري في « رسالته » (ص١٨٤) لذي النون المصري .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ١٨٩) ، وعند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٩): (توبتنا تحتاج إلىٰ توبة) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فكانَ بعضُ الصحابةِ يقولُ : (كانَ لنا أمانانِ ، ذهبَ أحدُهُما وهوَ كونُ الرسولِ فينا ، وبقيَ الاستغفارُ معنا ، فإنْ ذهبَ . . هلكنا)(١) .

فنقولُ : الاستغفارُ الذي هوَ توبةُ الكذابينَ : هوَ الاستغفارُ بمجرَّدِ اللسانِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ للقلبِ فيهِ شِرْكةٌ ؛ كما يقولُ الإنسانُ بحكْمِ العادةِ وعنْ رأسِ الغفلةِ : (أستغفرُ اللهَ) ، وكما يقولُ إذا سمعَ صفةَ النارِ : (نعوذُ باللهِ منها) مِنْ غيرِ أنْ يتأثَّرَ بهِ قلبُهُ ، وهـٰذا يرجعُ إلىٰ مجرَّدِ حركةِ اللسانِ ، ولا جدوىٰ لهُ .

فأمَّا إذا انضافَ إليهِ تضرُّعُ القلبِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وابتهالُهُ في سؤالِ المغفرةِ عنْ صدقِ إرادةٍ وخلوصِ نيَّةٍ ورغبةٍ ، فهـٰذهِ حسنةٌ في نفسِها ، فتصلحُ لأنْ تُدفعَ بها السيئةُ ، وعلىٰ هـٰذا تحملُ الأخبارُ الواردةُ في فضلِ الاستغفارِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصرَّ مَنِ استغفرَ ولوْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »(٢) ، وهوَ عبارةٌ عنِ الاستغفارِ بالقلبِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/٣٩٣) من قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، كما روي أيضاً عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم ، وروى الترمذي (٣٠٨٢) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فإذا مضيت . . تركت فيهم الاستغفار إلىٰ يوم القيامة » .

(٢) رواه أبو داوود (١٥١٤) ، والترمذي (٣٥٥٩) .

وللتوبةِ والاستغفارِ درجاتٌ ، وأوائلُها لا تخلو عنِ الفائدةِ وإنْ لمْ تنتهِ إلىٰ أواخرِها ، ولذلكَ قالَ سهلٌ : (لا بدَّ للعبدِ في كلِّ حالٍ مِنْ مولاهُ ، فأحسنُ أحوالِهِ أنْ يرجعَ إليهِ في كلِّ شيءٍ ، فإنْ عصىٰ . . قالَ : يا ربِّ ؛ استرْ عليَّ ، فإذا فرغَ مِنَ المعصيةِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ تبْ عليَّ ، فإذا تابَ . . قالَ : يا ربِّ ؛ ارزقني العصمةَ ، وإذا عملَ . . قالَ : يا ربِّ ؛ تقبلْ منِّي)(١) .

وسُئِلَ أيضاً عنِ الاستغفارِ الذي يكفِّرُ الذنوبَ ، فقالَ : (أوَّلُ الاستغفارِ الاستجابةُ ، ثمَّ الإنابةُ ، ثمَّ التوبةُ ، فالاستجابةُ أعمالُ الجوارحِ ، والإنابةُ أعمالُ القلوبِ ، والتوبةُ إقبالُهُ علىٰ مولاهُ بأنْ يتركَ الخلْقَ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ مِنْ تقصيرِهِ الذي هوَ فيهِ ، ومِنَ الجهلِ بالنعمةِ وتركِ الشكرِ ، فعندَ ذلكَ يُغفرُ لهُ ، ويكونُ عندَهُ مأواهُ ، ثمَّ التنقُّلُ إلى الانفرادِ ، ثمَّ الثباتُ ، ثمَّ البيانُ ، ثمَّ القرْبُ ، ثمَّ المعرفةُ ، ثمَّ المناجاةُ ، ثمَّ المصافاةُ ، ثمَّ الموالاةُ ، ثمَّ محادثةُ السرِّ وهوَ الخلَّةُ ، ولا يستقرُّ هـٰذا في قلبِ عبدٍ حتَّىٰ يكونَ العلمُ غذاءَهُ ، والذكرُ قوامَهُ ، والرضا زادَهُ ، والتوكُّلُ صاحبَهُ ، ثمَّ ينظرُ اللهُ إليهِ ، فيرفعُهُ إلى العرشِ ، فيكونُ مقامُهُ مقامَ حملةِ العرشِ)(٢) .

وسُئِلَ أيضاً عنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ حبيبُ اللهِ »(٣) ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٩٠) ، وقد زاد في المعطوفات : (والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه . . .) .
(٣) هـٰذا الحديث قد نصَّ عليه قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، =

فقالَ : (إنَّما يكونُ حبيباً إذا كانَ فيهِ جميعُ ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ . . . ﴾ الآيةَ) ، وقالَ : (الحبيبُ هوَ الذي لا يدخلُ فيما يكرهُهُ حبيبُهُ) .

والمقصودُ : أنَّ للتوبةِ ثمرتينِ :

إحداهُما : تكفيرُ السيئاتِ ، حتَّىٰ يصيرَ كمَنْ لا ذنبَ لهُ .

والثانيةُ : نيلُ الدرجاتِ ، حتَّىٰ يصيرَ حبيباً .

وللتكفيرِ أيضاً درجاتٌ ، فبعضُهُ محوٌ لأصلِ الذنبِ بالكليَّةِ ، وبعضُهُ تخفيفٌ لهُ ، ويتفاوتُ ذلكَ بتفاوتِ درجاتِ التوبةِ ، فالاستغفارُ بالقلبِ والتداركُ بالحسناتِ وإنْ خلا عنْ حلِّ عقدةِ الإصرارِ مِنْ أوائلِ الدرجاتِ فليسَ يخلو عنِ الفائدةِ أصلاً ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّ وجودَها كعدمِها ، بلْ عرفَ أهلُ المشاهدةِ وأربابُ القلوبِ معرفةً لا ريبَ فيها أنَّ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ صدقٌ ، وأنَّهُ لا تخلو ذرَّةٌ مِنَ الخيرِ عنْ أثرٍ ، كما لا تخلو شعيرةٌ تطرحُ في الميزانِ عنْ أثرٍ ، ولوْ خلَتِ الشعيرةُ الأولىٰ عنْ أثرٍ . . لكانَتِ الثانيةُ مثلَها ، ولكانَ لا يترجَّحُ الميزانُ بأحمالِ الذرّاتِ ، وذلكَ بالضرورةِ محالٌ ، بلْ ميزانُ الحسناتِ يترجَّحُ بذراتِ الخيراتِ إلىٰ أنْ يثقلَ فتُشيلَ كفَّةَ السيئاتِ ، فإيَّاكَ أنْ تستصغرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ

= وروى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله يحب الشاب التائب » .

فلا تأتيَها ، وذراتِ المعاصي فلا تتقيَها ؛ كالمرأةِ الخرقاءِ ، تكسلُ عنِ الغزلِ تعلُّلاً بأنَّها لا تقدرُ في كلِّ ساعةٍ إلا علىٰ خيطٍ واحدٍ وتقولُ : (أيُّ غنىً يحصلُ بخيطٍ ؟ وما وقْعُ ذلكَ في الثيابِ ؟!) ، ولا تدري المعتوهةُ أنَّ ثيابَ الدنيا اجتمعَتْ خيطاً خيطاً ، وأنَّ أجسامَ العالمِ معَ اتساعِ أقطارِهِ اجتمعَتْ ذرَّةً ذرَّةً .

فإذاً ؛ التضرُّعُ والاستغفارُ بالقلبِ حسنةٌ لا تضيعُ عندَ اللهِ أصلاً ، بلْ أقولُ : الاستغفارُ باللسانِ أيضاً حسنةٌ ؛ إذْ حركةُ اللسانِ بها عنْ غفلةٍ خيرٌ منْ حركةِ اللسانِ في تلكَ الساعةِ بغيبةِ مسلمٍ أوْ فضولِ كلامٍ ، بلْ هوَ خيرٌ مِنَ السكوتِ عنهُ ، فيظهرُ فضلُهُ بالإضافةِ إلى السكوتِ عنهُ ، وإنَّما يكونُ نقصاناً بالإضافةِ إلىٰ عملِ القلبِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ لشيخِهِ أبي عثمانَ المغربيِّ : إنَّ لساني في بعضِ الأحوالِ(١) يجري بالذكرِ والقرآنِ وقلبي غافلٌ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ إذِ استعملَ جارحةً مِنْ جوارحِكَ في الخيرِ ، وعوَّدَهُ الذكرَ ، ولمْ يستعملْهُ في الشرِّ ، ولمْ يعوِّدْهُ الفضولَ .

وما ذكرَهُ حقٌّ ، فإنَّ تعوُّدَ الجوارحِ للخيراتِ حتَّىٰ يصيرَ لها ذلكَ كالطبعِ يدفعُ جملةً مِنَ المعاصي ، فمَنْ تعوَّدَ لسانُهُ الاستغفارَ إذا سمعَ مِنْ غيرِهِ كذباً . . سبقَ لسانُهُ إلىٰ ما تعوَّدَهُ فقالَ : (أستغفرُ اللهَ) ، ومَنْ تعوَّدَ الفضولَ . . سبقَ لسانُهُ إلىٰ أنْ يقولَ : (ما أحمقَكَ ، وما أقبحَ كذبَكَ !) ، ومَنْ تعوَّدَ الاستعاذةَ إذا حُدِّثَ بظهورِ مبادي الشرِّ مِنْ شريرٍ . . قالَ بحكمِ

(١) في (س) : (الأوقات) بدل (الأحوال) .

سبقِ اللسانِ : (نعوذُ باللهِ) ، وإذا تعوَّدَ الفضولَ.. قالَ : (لعنَهُ اللهُ) ، فيعصي في إحدى الكلمتينِ ويسلمُ في الأخرىٰ ، وسلامتُهُ أثرُ اعتيادِ لسانِهِ الخيرَ ، وهوَ مِنْ جملةِ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ومعاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فانظرْ كيفَ ضاعفَها إذْ جعلَ الاستغفارَ في الغفلةِ عادةَ اللسانِ حتَّىٰ دفعَ بتلكَ العادةِ شرَّ العصيانِ بالغيبةِ واللعنِ والفضولِ ، هٰذا تضعيفٌ في الدنيا لأدنى الطاعاتِ ، وتضعيفُ الآخرةِ أكبرُ ، لوْ كانوا يعلمونَ .

فإيَّاكَ وأنْ تلمحَ في الطاعاتِ مجرَّدَ الآفاتِ ، فتفترَ رغبتُكَ عنِ العباداتِ ، فإنَّ هٰذهِ مكيدةٌ روَّجَها الشيطانُ بلعنتِهِ على المغرورينَ ، وخيَّلَ إليهِمْ : إنَّكُمْ أربابُ البصائرِ ، وأهلُ التفطُّنِ للخفايا والسرائرِ ، فأيُّ خيرٍ في ذكرٍ باللسانِ معَ غفلةِ القلبِ ؟!

فانقسمَ الخلقُ في هٰذهِ المكيدةِ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : ظالمٌ لنفسِهِ ، ومقتصدٌ ، وسابقٌ بالخيراتِ .

أمَّا السابقُ : فقالَ : (صدقتَ يا ملعونُ ، ولكنْ هيَ كلمةُ حقٍّ أردتَ بها باطلاً ، فلا جرمَ أعذِّبُكَ مرَّتينِ ، وأرغمُ أنفَكَ مِنْ وجهينِ ، فأضيفُ إلىٰ حركةِ اللسانِ حركةَ القلبِ) ، فكانَ كالذي داوىٰ جرْحَ الشيطانِ بنثرِ الملحِ عليهِ .

وأمَّا الظالمُ المغرورُ : فاستشعرَ في نفسِهِ خيلاءَ الفطنةِ لهٰذهِ الدقيقةِ ،

ثمَّ عجزَ عنِ الإخلاصِ بالقلبِ ، فتركَ معَ ذلكَ تعويدَ اللسانِ بالذكرِ ، فأسعفَ الشيطانَ بمرادِهِ ، وتدلَّىٰ بحبلِ غرورِهِ ، فتمَّتْ بينَهُما المشاكلةُ والموافقةُ ، كما قيلَ : (وافقَ شنٌّ طبقَهْ ، وافقَهُ فاعتنقَهُ)[1] .

وأمَّا **المقتصدُ** : فلمْ يقدرْ علىٰ إرغامِهِ بإشراكِ القلبِ في العملِ ، وتفطَّنَ لنقصانِ حركةِ اللسانِ بالإضافةِ إلى القلبِ ، ولكنِ اهتدىٰ إلىٰ كمالِهِ بالإضافةِ إلى السكوتِ والفضولِ ، فاستمرَّ عليهِ ، وسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يشركَ القلبَ معَ اللسانِ في اعتيادِ الخيرِ .

فكانَ السابقُ كالحائكِ الذي ذُمَّتْ حياكتُهُ فتركَها وأصبحَ كاتباً ، والظالمُ المتخلِّفُ كالذي تركَ الحياكةَ أصلاً وأصبحَ كنَّاساً ، والمقتصدُ كالذي عجزَ عنِ الكتابةِ فقالَ : (لا أنكرُ مذمَّةَ الحياكةِ ، ولكنَّ الحائكَ مذمومٌ بالإضافةِ إلى الكاتبِ ، لا بالإضافةِ إلى الكنَّاسِ ، فإذا عجزتُ عنِ الكتابةِ . . فلا أتركُ الحياكةَ) .

ولذلكَ قالَتْ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ) ، فلا تظنَّ أنَّها تذمُّ حركةَ اللسانِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ذكرُ اللهِ ، بلْ تذمُّ غفلةَ القلبِ ، فهوَ

---

(١) مثل مشهور يضرب لاثنين جمعتهما حالة واحدة فاتفقا بها ، ومنهم من يجعله رجزاً مجزوءاً ، وشنٌّ وطبقٌ اسمان لرجلين على الراجح ، أو علمان علىٰ قبيلتين ، أو علىٰ رجل وامرأة ، وقيل غير ذلك ، والهاء في (طبقه) للسكت لموافقة السجعة في الأوليين ، وانظر « مجمع الأمثال » (٣/ ٤٨٨) ، وقال فيه الميداني : (وزاد المتأخرون فيه : وافقه فاعتنقه) .

يحتاجُ إلى الاستغفارِ مِنْ غفلةِ قلبِهِ ، لا مِنْ حركةِ لسانِهِ ، فإنْ سكتَ عنِ الاستغفارِ باللسانِ أيضاً . . احتاجَ إلى استغفارينِ ، لا إلى استغفارٍ واحدٍ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ ذمَّ ما يُذمُّ ، وحمدَ ما يُحمدُ ، وإلا . . جهلتَ معنىٰ ما قالَ القائلُ الصادقُ : (حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ)[1] ، فإنَّ هٰذهِ أمورٌ تثبتُ بالإضافةِ ، فلا ينبغي أنْ تُؤخذَ مِنْ غيرِ إضافةٍ[2] ، بلْ ينبغي ألا تستحقرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ والمعاصي ، ولذلكَ قالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خبَّأَ ثلاثاً في ثلاثٍ ؛ رضاهُ في طاعتِهِ ، فلا تحْقِروا منها شيئاً ؛ فلعلَّ رضاهُ فيهِ ، وخبَّأَ غضبَهُ في معاصيهِ ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعلَّ غضبَهُ فيهِ ، وخبَّأَ ولايتَهُ في عبادِهِ ، فلا تحقروا منهُمْ أحداً ، فلعلَّهُ وليُّ اللهِ تعالىٰ) ، وزادَ : (وخبَّأَ إجابتَهُ في دعائِهِ ، فلا تتركوا الدعاءَ ، فربَّما كانتِ الإجابةُ فيهِ)[3] .

* * *

(١) كلمة مشهورة لأبي سعيد الخرّاز ، تقدمت للمصنف غير مرة .

(٢) في (ب) هنا زيادة : (فلا ينبغي أن توجد وحدها) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٠٧) ، ورواه البيهقي في « الزهد » (٧٥٩) من كلام ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

الرُّكنُ الرَّابعُ
في دواءِ التّوبة وطريق العلاج لحلّ عقدة الإصرار

اعلمْ : أنَّ الناسَ قسمانِ :

ـ شابٌّ لا صبوةَ لهُ ، نشأَ على الخيرِ واجتنابِ الشرِّ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعجبُ ربُّكَ مِنْ شابٍّ ليسَتْ لهُ صبوةٌ »(١) ، وهـٰذا عزيزٌ نادرٌ .

ـ القسمُ الثاني : هوَ الذي لا يخلو عنْ مقارفةِ الذنوبِ ، ثمَّ همُ ينقسمونَ إلىٰ مصرِّينَ وإلىٰ تائبينَ ، وغرضُنا أنْ نبيِّنَ العلاجَ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ ، ونذكرَ الدواءَ فيهِ .

فاعلمْ : أنَّ شفاءَ التوبةِ لا يحصلُ إلا بالدواءِ ، ولا يقفُ على الدواءِ مَنْ لا يقفُ على الداءِ ؛ إذْ لا معنىٰ للدواءِ إلا مناقضةُ أسبابِ الداءِ ، فكلُّ داءٍ حصلَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ٣٠٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه موقوفاً عليه ابنُ المبارك في « الزهد » (٣٤٩) ، **والعجب** : كون الشيء خارجاً عن نظائره من جنسه حتىٰ يكون نظره في صفة ويكون استعظام الشيء واستكباره لخروجه عن العادة وبعده ، وذلك مما ينزه عن مثله الباري تعالىٰ ، فيؤول بمعنىٰ يعظم قدره عنده فيحيز له أجره ، وإنما عبر بذلك تقريباً لأفهام العرب . « إتحاف » (٨/ ٦٠٨) .

مِنْ سببٍ فدواؤُهُ حلُّ ذلكَ السببِ ورفعُهُ وإبطالُهُ ، ولا يبطلُ الشيءُ إلا بضدِّهِ .

ولا سببَ للإصرارِ إلا الغفلةُ والشهوةُ ، ولا يضادُّ الغفلةَ إلا العلمُ ، ولا يضادُّ الشهوةَ إلا الصبرُ علىٰ قطعِ الأسبابِ المحرِّكةِ للشهوةِ ، والغفلةُ رأسُ الخطايا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

فلا دواءَ إذاً للتوبةِ إلا معجونٌ يعجنُ مِنْ حلاوةِ العلمِ ومرارةِ الصبرِ ؛ كما يجمعُ السَّكَنْجَبينُ بينَ حلاوةِ السكرِ وحموضةِ الخلِّ ، ويُقصدُ بكلِّ واحدٍ منهُما غرضٌ آخرُ في العلاجِ بمجموعِهِما ، بقمعِ الأسبابِ المهيِّجةِ للصفراءِ ؛ فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ علاجَ القلبِ عمَّا بهِ مِنْ مرضِ الإصرارِ .

فإذاً ؛ لهٰذا الدواءِ أصلانِ : أحدُهُما : العلمُ ، والآخرُ : الصبرُ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِهِما .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : أينفعُ كلُّ علمٍ لحلِّ الإصرارِ أمْ لا بدَّ مِنْ علمٍ مخصوصٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ العلومَ بجملتِها أدويةٌ لأمراضِ القلوبِ ، ولكنْ لكلِّ مرضٍ علمٌ يخصُّهُ ؛ كما أنَّ علمَ الطبِّ نافعٌ في علاجِ الأمراضِ بالجملةِ ، ولكنْ يخصُّ كلَّ علَّةٍ علمٌ مخصوصٌ ؛ فكذلكَ داءُ الإصرارِ .

فلنذكرْ خصوصَ ذلكَ العلمِ علىٰ موازنةِ مرضِ الأبدانِ ؛ ليكونَ أقربَ إلى الفهمِ ، فنقولُ :

يحتاجُ المريضُ إلىٰ التصديقِ بأمورٍ أربعةٍ :

الأوّلُ : أنْ يصدِّقَ على الجملةِ بأنَّ للمرضِ والصحَّةِ أسباباً يتوصَّلُ إليها بالاختيارِ ، علىٰ ما رتَّبَهُ مسبِّبُ الأسبابِ ، وهـٰذا هوَ الإيمانُ بأصلِ الطبِّ ، فإنَّ مَنْ لا يؤمنُ بهِ . . لا يشتغلُ بالعلاجِ ، ويحقُّ عليهِ الهلاكُ .

وهـٰذا وِزانُهُ ممَّا نحنُ فيهِ الإيمانُ بأصلِ الشرعِ ، وهوَ أنَّ للسعادةِ في الآخرةِ سبباً هوَ الطاعةُ ، وللشقاوةِ سبباً هوَ المعصيةُ ، وهـٰذا هوَ الإيمانُ بأصلِ الشرائعِ ، وهـٰذا لا بدَّ مِنْ حصولِهِ إمَّا عنْ تحقيقٍ أوْ تقليدٍ ، وكلاهُما مِنْ جملةِ الإيمانِ .

الثاني : أنَّهُ لا بدَّ أنْ يعتقدَ المريضُ في طبيبٍ معيَّنٍ أنَّهُ عالمٌ بالطبِّ ، حاذقٌ فيهِ ، صادقٌ فيما يعبِّرُ عنهُ ، لا يلبِّسُ ولا يكذبُ ، فإنَّ إيمانَهُ بأصلِ الطبِّ لا ينفعُهُ بمجرَّدِهِ دونَ هـٰذا الإيمانِ .

ووِزانُهُ ممَّا نحنُ فيهِ العلمُ بصدْقِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والإيمانُ بأنَّ كلَّ ما يقولُهُ حقٌّ وصدْقٌ ، لا كذبَ فيهِ ولا خُلْفَ .

الثالثُ : أنَّهُ لا بدَّ أنْ يصغيَ إلى الطبيبِ فيما يحذِّرُهُ مضرَّتَهُ ؛ مِنْ تناولِ الفواكهِ ، والأسبابِ المضرَّةِ على الجملةِ ، حتَّىٰ يغلبَ عليهِ الخوفُ في تركِ الاحتماءِ ، فتكونَ شدَّةُ الخوفِ باعثةً لهُ على الاحتماءِ .

ووِزانُهُ مِنَ الدينِ الإصغاءُ إلى الآياتِ والأخبارِ المشتملةِ على الترغيبِ في التقوىٰ والتحذيرِ مِنِ ارتكابِ الذنوبِ واتباعِ الهوىٰ ، والتصديقُ بجميعِ

ما يُلقىٰ إلىٰ سمعِهِ مِنْ ذلكَ مِنْ غيرِ شكٍّ واسترابةٍ ، حتَّىٰ ينبعثَ بهِ الخوفُ المقوّي على الصبرِ ، الذي هوَ الركنُ الآخرُ في العلاجِ .

الرابعُ : أنْ يصغيَ إلى الطبيبِ فيما يخصُّ مرضَهُ ، وفيما يلزمُهُ في نفسِهِ الاحتماءُ عنهُ ؛ ليعرِّفَهُ أوَّلاً تفصيلَ ما يضرُّهُ مِنْ أفعالِهِ وأحوالِهِ ، ومأكولِهِ ومشروبِهِ ، فليسَ علىٰ كلِّ مريضٍ الاحتماءُ عنْ كلِّ شيءٍ ، ولا ينفعُهُ كلُّ دواءٍ ، بلْ لكلِّ علَّةٍ خاصَّةٍ علمٌ خاصٌّ ، وعلاجٌ خاصٌّ .

ووِزانُهُ مِنَ الدينِ أنَّ كلَّ عبدٍ فليسَ يُبتلىٰ بكلِّ شهوةٍ ، وارتكابِ كلِّ ذنبٍ ، بلْ لكلِّ مؤمنٍ ذنبٌ مخصوصٌ أوْ ذنوبٌ مخصوصةٌ ، وإنَّما حاجتُهُ في الحالِ مرهقةٌ إلى العلمِ بأنَّها ذنوبٌ ، ثمَّ إلى العلمِ بآفاتِها وقدْرِ ضررِها في الدينِ ، ثمَّ إلى العلمِ بكيفيةِ التوصُّلِ إلى الصبرِ عنها ، ثمَّ إلى العلمِ بكيفيةِ تكفيرِ ما سبقَ منها ، فهٰذهِ علومٌ يختصُّ بها أطباءُ الدينِ ، وهمُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ .

فالعاصي إنْ علمَ عصيانَهُ . . فعليهِ طلبُ العلاجِ مِنَ الطبيبِ ، وهوَ العالمُ ، فإنْ كانَ لا يدري أنَّ ما يرتكبُهُ ذنبٌ . . فعلى العالمِ أنْ يعرِّفَهُ ذلكَ ، وذلكَ بأنْ يتكفَّلَ كلُّ عالمٍ بإقليمٍ أوْ بلدةٍ أوْ محلَّةٍ أوْ مسجدٍ أوْ مشهدٍ فيعلِّمَ أهلَهُ دينَهُمْ ، ويميِّزَ ما يضرُّهُمْ عمَّا ينفعُهُمْ ، وما يشقيهِمْ عمَّا يسعدُهُمْ ، ولا ينبغي أنْ يصبرَ إلىٰ أنْ يُسألَ عنهُ ، بلْ ينبغي أنْ يتصدَّىٰ لدعوةِ الناسِ إلىٰ نفسِهِ ، فإنَّهُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، والأنبياءُ ما تركوا الناسَ علىٰ جهلِهِمْ ، بلْ كانوا

ينادونَهُمْ في مجامعِهِمْ ، ويدورونَ علىٰ أبوابِ دورِهِمْ في الابتداءِ ، ويطلبونَ واحداً واحداً فيرشدونَهُمْ ، فإنَّ مرضى القلوبِ لا يعرفونَ مرضَهُمْ ؛ كما أنَّ الذي ظهرَ علىٰ وجهِهِ برصٌ ولا مرآةَ معَهُ لا يعرفُ برصَهُ ما لمْ يعرِّفْهُ غيرُهُ ، وهـٰذا فرضُ عينٍ على العلماءِ كافةً .

وعلى السلاطينِ كافةً أنْ يرتِّبوا في كلِّ قريةٍ وكلِّ محلَّةٍ فقيهاً متديِّناً ، يعلِّمُ الناسَ دينَهُمْ ، فإنَّ الخلقَ لا يُولدونَ إلا جهَّالاً ، فلا بدَّ مِنْ تبليغِ الدعوةِ إليهِمْ في الأصلِ والفرعِ ، فالدنيا دارُ المرضىٰ ؛ إذ ليسَ في بطنِ الأرضِ إلا ميِّتٌ ، ولا علىٰ ظهرِها إلا سقيمٌ ، ومرضُ القلوبِ أكثرُ مِنْ مرضِ الأبدانِ ، والعلماءُ أطباءُ القلوبِ ، والسلاطينُ قُوَّامُ دارِ المرضىٰ ، فكلُّ مريضٍ لمْ يقبلِ العلاجَ بمداواةِ العالمِ يُسلَّمُ إلى السلطانِ ليكفَّ شرَّهُ ، كما يُسلِّمُ الطبيبُ المريضَ الذي لا يحتمي أوِ الذي غلبَ عليهِ الجنونُ إلى القيِّمِ ليقيِّدَهُ بالسلاسلِ والأغلالِ ويكفَّ شرَّهُ عنْ نفسِهِ وعنْ سائرِ الناسِ .

وإنَّما صارَ مرضُ القلوبِ أكثرَ مِنْ مرضِ الأبدانِ لثلاثِ عللٍ :

إحداها : أنَّ المريضَ بهِ لا يدري أنَّهُ مريضٌ .

والثانيةُ : أنَّ عاقبتَهُ غيرُ مشاهدةٍ في هـٰذا العالمِ ، بخلافِ مرضِ البدنِ ، فإنَّ عاقبتَهُ موتٌ مشاهدٌ ، تنفرُ الطباعُ منهُ ، وما بعدَ الموتِ غيرُ مشاهدٍ ، وعاقبةُ الذنوبِ موتُ القلبِ ، وهوَ غيرُ مشاهدٍ في هـٰذا العالمِ ، فقلَّتِ النفرةُ عنِ الذنوبِ وإنْ علمَها مرتكبُها ، فلذلكَ تراهُ يتكلُ علىٰ فضلِ اللهِ في مرضِ

القلبِ ويجتهدُ في علاجِ مرضِ البدنِ مِنْ غيرِ اتكالٍ .

والثالثةُ ـ وهيَ الداءُ العضالُ ـ : فقدُ الطبيبِ ، فإنَّ الأطباءَ همُ العلماءُ ، وقدْ مرضوا في هـٰذهِ الأعصارِ مرضاً شديداً عجزوا عنْ علاجِهِ ، وصارَتْ لهُمْ سلوةٌ في عمومِ المرضِ حتَّىٰ لا يظهرَ نقصانُهُمْ ، فاضطروا إلىٰ إغواءِ الخلقِ ، والإشارةِ عليهمْ بما يزيدُهُمْ مرضاً ؛ لأنَّ الداءَ المهلكَ هوَ حبُّ الدنيا ، وقدْ غلبَ هـٰذا الداءُ على الأطباءِ ، فلمْ يقدروا علىٰ تحذيرِ الخلقِ منهُ ؛ استنكافاً مِنْ أنْ يُقالَ لهُمْ : فما بالُكُمْ تأمرونَ بالعلاجِ وتنسونَ أنفسَكُمْ ؟! فبهـٰذا السببِ عمَّ على الخلقِ الداءُ ، وعظمَ الوباءُ ، وانقطعَ الدواءُ ، وهلكَ الخلقُ لفقدِ الأطباءِ ، بلِ اشتغلَ الأطباءُ بفنونِ الإغواءِ ، فليتَهُمْ إذْ لمْ ينصحوا . . لمْ يغشُّوا ، وإذْ لمْ يصلحوا . . لمْ يفسدوا ، وليتَهُمْ سكتوا وما نطقوا ، فإنَّهُمْ إذا تكلموا . . لمْ يهمُّهُمْ في مواعظِهِمْ إلا ما يرغِّبُ العوامَّ[1] ، ويستميلُ قلوبَهُمْ ، ولا يتوصَّلونَ إلىٰ ذلكَ إلا بالإرجاءِ وتغليبِ أسبابِ الرجاءِ ، وذكرِ دلائلِ الرحمةِ ؛ لأنَّ ذلكَ ألذُّ في الأسماعِ ، وأخفُّ على الطباعِ ، فتنصرفُ الخلقُ عنْ مجالسِ الوعظِ وقدِ استفادوا مزيدَ جرأةٍ على المعاصي ، ومزيدَ ثقةٍ بفضْلِ اللهِ .

ومهما كانَ الطبيبُ جاهلاً أوْ خائناً . . أهلكَ بالدواءِ حيثُ يضعُهُ في غيرِ موضعِهِ ، فالرجاءُ والخوفُ دواءانِ ، ولكنْ لشخصينِ متضاديِ العلَّةِ ؛ أمَّا

---

(١) في (د) : (يذعن العوام) ، وفي بقية النسخ : (يزعق العوام) بدل (يرغب العوام) ، والمثبت من (ق) .

الذي غلبَ عليهِ الخوفُ حتَّىٰ هجرَ الدنيا بالكليَّةِ ، وكلَّفَ نفسَهُ ما لا تطيقُ ، وضيَّقَ العيشَ علىٰ نفسِهِ بالكليَّةِ . . فتكسرُ سَوْرةُ إسرافِهِ في الخوفِ بذكرِ أسبابِ الرجاءِ ؛ ليعودَ إلى الاعتدالِ .

وكذا المصرُّ على الذنوبِ المشتهي للتوبةِ الممتنعُ عنها بحكْمِ القنوطِ واليأسِ استعظاماً لذنوبِهِ التي سبقَتْ . . يُعالجُ أيضاً بأسبابِ الرجاءِ ؛ حتَّىٰ يطمعَ في قبولِ التوبةِ فيتوبَ .

فأمَّا معالجةُ المغرورِ المسترسلِ في المعاصي بذكرِ أسبابِ الرجاءِ . . فيضاهي معالجةَ المحرورِ بالعسلِ طلباً للشفاءِ ، وذلكَ مِنْ دأبِ الجهَّالِ والأغبياءِ .

فإذاً ؛ فسادُ الأطباءِ هوَ الداءُ المعضلُ الذي لا يقبلُ الدواءَ أصلاً .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فاذكرِ الطريقَ الذي ينبغي أنْ يسلكَهُ الواعظُ في وعظِهِ معَ الخلقِ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ يطولُ ولا يمكنُ استقصاؤُهُ .

❀ ❀ ❀

نعمْ ، نشيرُ إلى الأنواعِ النافعةِ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ ، وحملِ الناسِ علىٰ تركِ الذنوبِ ، وهيَ أربعةُ أنواعٍ :

النوعُ الأوّلُ : أنْ يذكرَ ما في القرآنِ مِنَ الآياتِ المخوفةِ للمذنبينَ والعاصينَ ، وكذلكَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ والآثارِ :

مثلَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ يومٍ طلعَ فجرُهُ ولا ليلةٍ غابَ شفقُها إلا وملكانِ يتجاوبانِ بأربعةِ أصواتٍ ؛ يقولُ أحدُهُما : يا ليتَ هٰذا الخلْقَ لمْ يُخلقوا ، ويقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ خُلقوا.. علموا لماذا خُلقوا ، فيقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ علموا لماذا خُلقوا.. عملوا بما علموا - وفي بعضِ الرواياتِ : تجالسوا فتذاكروا ما علموا - ويقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ لمْ يعملوا بما علموا.. تابوا ممَّا عملوا »(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا أذنبَ العبدُ.. أمرَ صاحبُ اليمينِ صاحبَ الشمالِ وهوَ أميرٌ عليهِ أنْ يرفعَ القلمَ عنهُ ستَّ ساعاتٍ ، فإنْ تابَ واستغفرَ.. لمْ يكتبْها عليهِ ، وإنْ لمْ يستغفرْ.. كتبَها)(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٩٠) ، ووقع في النسخ : (إذ لم يعلموا) بدل (علموا) ، وصحح من « القوت » ، وقد قال الإمام أبو طالب في هٰذا : (وفي أخبار متفرقة جمعناها) ، وقال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده هٰكذا ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عمر : « إن ملكاً ينادي في كل يوم وليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده » الحديث ، وفيه : « ليت الخلائق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا.. علموا لماذا خلقوا ، فتجالسوا بينهم فتذاكروا... » الحديث) . « إتحاف » (٨/ ٦١٢) ، وانظر « تفسير الثعلبي » (٨/ ٩٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٣٤) ، و« حلية الأولياء » (٦/ ١٤٢) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٩٠) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٤٨) من حديث أبي أمامة مرفوعاً .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما مِنْ عبدٍ يعصي إلا استأذنَ مكانُهُ مِنَ الأرضِ أنْ يخسفَ بهِ ، واستأذنَ سقفُهُ مِنَ السماءِ أنْ يسقطَ عليهِ كسفاً ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ للأرضِ والسماءِ : كُفَّا عنْ عبدي وأمهلاهُ ، فإنَّكُما لمْ تخلقاهُ ، ولوْ خلقتماهُ . . لرحمتماهُ ، ولعلَّهُ يتوبُ إليَّ فأغفرَ لهُ ، ولعلَّهُ يستبدلُ صالحاً فأبدلَهُ لهُ حسناتٍ ، فذلكَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾)(١) .

وفي حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (الطابعُ معلقٌ بقائمةِ العرشِ ، فإذا انتهكَتِ الحرماتُ واستحلَّتِ المحارمُ . . أرسلَ اللهُ الطابعَ ، فيطبعُ على القلوبِ بما فيها)(٢) .

وفي حديثِ مجاهدٍ : (القلبُ مثلُ الكفِّ المفتوحةِ ، كلَّما أذنبَ العبدُ ذنباً . . انقبضَتْ إصبعٌ حتَّىٰ تنقبضَ الأصابعُ كلُّها ، فيُسدُّ على القلبِ ، فذلكَ هوَ القفلُ)(٣) .

وقالَ الحسنُ : (إن بينَ العبدِ وبينَ اللهِ حدّاً مِنَ المعاصي معلوماً ، إذا بلغَهُ العبدُ . . طبعَ اللهُ علىٰ قلبِهِ ، فلمْ يوفِّقْهُ بعدَها لخيرٍ)(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٨٧) .
(٢) الخبر في جميع النسخ عن عمر الفاروق رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١/ ١٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وكذا رواه عنه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٣) مرفوعاً .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٤) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٦١٣) لصاحب « القوت » .

والأخبارُ والآثارُ في ذمِّ المعاصي ومدحِ التائبينَ لا تحصىٰ ، فينبغي أنْ يستكثرَ الواعظُ منها إنْ كانَ وارثَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ ما خلَّفَ ديناراً ولا درهماً ، إنَّما خلَّفَ العلمَ والحكمةَ ، وورَّثَهُ كلَّ عالمٍ بقدْرِ ما أصابَهُ .

* * *

النوعُ الثاني : حكاياتُ الأنبياءِ والسلفِ الصالحينَ ، وما جرىٰ عليهِمْ مِنَ المصائبِ بسببِ ذنوبِهِمْ :

فذلكَ شديدُ الوقعِ ظاهرُ النفعِ في قلوبِ الخلقِ ، مثلَ أحوالِ آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عصيانِهِ ، وما لقيَهُ مِنَ الإخراجِ مِنَ الجنةِ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا أكلَ مِنَ الشجرةِ .. تطايرَتِ الحللُ عنْ جسدِهِ ، وبدَتْ عورتُهُ ، فاستحيا التاجُ والإكليلُ مِنْ وجهِهِ أنْ يرتفعا عنهُ ، فجاءَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فأخذَ التاجَ عنْ رأسِهِ ، وحلَّ الإكليلَ عنْ جبينِهِ ، ونُودِيَ مِنْ فوقِ العرشِ : اهبطا مِنْ جواري ؛ فإنَّهُ لا يجاورُني مَنْ عصاني ، قالَ : فالتفتَ آدمُ إلىٰ حوَّاءَ باكياً وقالَ : هٰذا أوَّلُ شؤمِ المعصيةِ ، أُخرجنا مِنْ جوارِ الحبيبِ[1] .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ لمَّا عُوقبَ علىٰ خطيئتِهِ لأجلِ

---

(1) كذا في « القوت » (١/ ١٨٤) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٤٠٩) عن مجاهد .

التمثالِ الذي عُبدَ في دارِهِ أربعينَ يوماً[١] ، وقيلَ : لأنَّ المرأةَ سألَتْهُ أنْ يحكمَ لأبيها ، فقالَ : نعمْ ، ولمْ يفعلْ ، وقيلَ : بلْ أحبَّ بقلبِهِ أنْ يكونَ الحكْمُ لأبيها علىٰ خصمِهِ لمكانِها منهُ ؛ فسُلبَ ملكُهُ أربعينَ يوماً ، فهربَ تائهاً علىٰ وجهِهِ ، فكانَ يسألُ بكفِّهِ فلا يطعمُ ، فإذا قالَ : أطعموني فإنِّي سليمانُ بنُ داودَ . . شُجَّ وضربَ ، وحُكِيَ أنَّهُ استطعمَ مِنْ بيتٍ لامرأةٍ ، فطردَتْهُ وبزقَتْ في وجهِهِ ، وفي روايةٍ فأخرجَتْ عجوزٌ جرَّةً فيها بولٌ فصبَّتْهُ علىٰ رأسِهِ ، إلىٰ أنْ أُخرجَ الخاتمُ مِنْ بطنِ الحوتِ ، فلبسَهُ بعدَ انقضاءِ الأربعينَ أيامِ العقوبةِ ، قالَ : فجاءَتِ الطيرُ فعكفَتْ علىٰ رأسِهِ ، وجاءَتِ الجنُّ والشياطينُ والوحوشُ فاجتمعَتْ حولَهُ ، واعتذرَ إليهِ بعضُ مَنْ كانَ جنىٰ عليهِ ، فقالَ : لا ألومُكُمْ فيما فعلتُمْ مِنْ قبلُ ، ولا أحمدُكُمْ في عذرِكُم ؛ لأنَّ هـٰذا أمرٌ كانَ مِنَ السماءِ ولا بدَّ منهُ[٢] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ أنَّ رجلاً تزوَّجَ امرأةً مِنْ بلدةٍ أخرىٰ ، وأرسلَ عبدَهُ ليحملَها إليهِ ، فراودَتْهُ نفسُهُ وطالبَتْهُ بها ، فجاهدَها واستعصمَ ، قالَ : فنبَّأَهُ اللهُ تعالىٰ ببركةِ تقواهُ ، فكانَ نبياً في بني إسرائيلَ[٣] .

---

(١) والخبر مبسوط عند الطبري في « تاريخه » (١/ ٤٩٦) من رواية وهب بن منبه ، وكان ذلك من زوجه جرادة ، ولم يكن اتخاذ التماثيل محرماً في شريعته ، كما أن هـٰذا التمثال عُبد بغير علمه ، فتسمية ذلك خطيئة لرفيع مقامه عليه الصلاة والسلام .

(٢) كذا برواياته في « القوت » (١/ ١٨٤) ، وقد رواه بنحوه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٩٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .

وفي قصصِ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ للخضرِ عليهِ السلامُ : بِمَ أطلعَكَ اللهُ علىٰ علمِ الغيبِ ؟ قالَ : بتركِ المعاصي لأجلِ اللهِ تعالىٰ(١) .

ورُوِيَ أنَّ الريحَ كانَتْ تسيرُ بسليمانَ عليهِ السلامُ ، فنظرَ إلىٰ قميصِهِ نظرةً ، وكانَ عليهِ قميصٌ جديدٌ ، فكأنَّهُ أعجبَهُ ، قالَ : فوضعَتْهُ الريحُ ، فقالَ : لِمَ فعلتِ ولمْ آمرْكِ ؟ قالَتْ : إنَّما نطيعُكَ إذا أطعتَ اللهَ(٢) .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يعقوبَ عليهِ السلامُ : أتدري لِمَ فرَّقتُ بينَكَ وبينَ ولدِكَ يوسفَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لقولِكَ لإخوتِهِ : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ ، لِمَ خفتَ عليهِ الذئبَ ولمْ ترجُني ؟! ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلةِ إخوتِهِ ولمْ تنظرْ إلىٰ حفظي لهُ ؟! وتدري لِمَ رددتُهُ عليكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لأنكَ رجوتني وقلتَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ، وبما قلتَ : ﴿ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾(٣) .

وكذلكَ لمَّا قالَ يوسفُ لصاحبِ الملكِ : ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾(٤) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٤) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٩١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٩١) .

وأمثالُ هـٰذهِ الحكاياتِ لا تنحصرُ ، ولمْ يردْ بها القرآنُ والأخبارُ ورودَ الأسمارِ ، بلِ الغرضُ بها الاعتبارُ والاستبصارُ ؛ لتعلمَ أنَّ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ لمْ يُتجاوزْ عنهُمْ في الذنوبِ الصغارِ ، فكيفَ يُتجاوزُ عنْ غيرِهِمْ في الذنوبِ الكبارِ ؟!

نعمْ ، كانَتْ سعادتُهُمْ في أنْ عُوجلوا بالعقوبةِ ولمْ يُؤخَّروا إلى الآخرةِ ، والأشقياءُ يُمهلونَ ليزدادوا إثماً ، ولأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأكبرُ ، فهـٰذا أيضاً ممَّا ينبغي أنْ يكثرَ جنسُهُ علىٰ أسماعِ المصرِّينَ ؛ فإنَّهُ نافعٌ في تحريكِ دواعي التوبةِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الثالثُ : أنْ يقرِّرَ عندَهُمْ أنَّ تعجيلَ العقوبةِ في الدنيا متوقَّعٌ على الذنبِ ، وأنَّ كلَّ ما يصيبُ العبدَ مِنَ المصائبِ فهوَ بسببِ جناياتِهِ :

فربَّ عبدٍ يتساهلُ في أمرِ الآخرةِ ، ويخافُ مِنْ عقوبةِ اللهِ في الدنيا أكثرَ ؛ لفرطِ جهلِهِ ، فينبغي أنْ يُخوَّفَ بهِ ؛ فإنَّ الذنوبَ كلَّها يُتعجَّلُ في الدنيا شؤمُها في غالبِ الأمرِ ، كما حُكِيَ في قصَّةِ داوودَ وسليمانَ عليهما السلامُ ، حتَّىٰ إنَّهُ قدْ يضيقُ على العبدِ رزقُهُ بسببِ ذنوبِهِ ، وقدْ تسقطُ منزلتُهُ مِنَ القلوبِ ويستولي عليهِ أعداؤُهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليُحرمُ الرزقَ بالذنبِ يصيبُهُ »[1] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢) ضمن خبر مرفوع أوله : « لا يزيد في العمر إلا البر » ، وهو =

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إنِّي لأحسبُ أنَّ العبدَ ينسى العلمَ بالذنبِ يصيبُهُ)[١] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لا يعودُ إليهِ أبداً »[٢] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ليسَتِ اللعنةُ سواداً في الوجهِ ، ونقصاً في المالِ ، إنَّما اللعنةُ ألا تخرجَ مِنْ ذنبٍ إلا وقعتَ في مثلِهِ أوْ شرٍّ منهُ)[٣] .

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ اللعنةَ هيَ الطردُ والإبعادُ ، فإذا لمْ يُوفَّقْ للخيرِ ، ويُسِّرَ لهُ الشرُّ . . فقدْ أُبعِدَ ، والحرمانُ مِنْ رزقِ التوفيقِ أعظمُ حرمانٍ ، وكلُّ ذنبٍ فإنَّهُ يدعو إلىٰ ذنبٍ آخرَ ويتضاعفُ ، فيُحرمُ العبدُ بهِ عنْ رزقِهِ النافعِ مِنْ مجالسةِ العلماءِ المنكرينَ للذنوبِ ، ومِنْ مجالسةِ الصالحينَ ، بلْ يمقتُهُ اللهُ تعالىٰ فيمقتُهُ الصالحونَ .

وحُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّهُ كانَ يمشي في وسطِ الوحْلِ جامعاً ثيابَهُ محترزاً ، إذْ زلقَتْ رجلُهُ وسقطَ ، فقامَ فجعلَ يمشي في وسطِ الوحْلِ ويبكي

= مفرداً مرفوعاً رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٦) ، وهو في « القوت » (١/ ١٨٤) .

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٤) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٢٣١) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٢) ، وكذا هو عند صاحب « القوت » (١/ ١٨٥) .

ويقولُ : هـٰذا مثلُ العبدِ ، لا يزالُ يتوقَّى الذنوبَ ويجانبُها حتَّىٰ يقعُ في ذنبٍ وذنبينِ ، فعندَها يخوضُ في الذنوبِ خوضاً[١] .

وهوَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الذنبَ تُعجَّلُ عقوبتُهُ بالانجرارِ إلىٰ ذنبٍ آخرَ ، ولذلكَ قالَ الفضيلُ : (ما أنكرتَ مِنْ تغيُّرِ الزمانِ وجفاءِ الإخوانِ فذنوبُكَ ورَّثتْكَ ذلكَ)[٢] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأعرفُ عقوبةَ ذنبي في سوءِ خلقِ حماري)[٣] .

وقالَ آخرُ : (أعرفُ العقوبةَ حتَّىٰ في فأرِ بيتي)[٤] .

وقالَ بعضُ صوفيةِ الشامِ : نظرتُ إلىٰ غلامٍ نصرانيٍّ حسنِ الوجهِ ، فوقفتُ أنظرُ إليهِ ، فمرَّ بي ابنُ الجلاءِ الدمشقيُّ ، فأخذَ بيدي ، فاستحييتُ منهُ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ سبحانَ اللهِ ! تعجبتُ منْ هـٰذهِ الصورةِ الحسنةِ وهـٰذهِ الصنعةِ المحكمةِ كيفَ خُلقَتْ للنارِ ، فغمزَ يدي وقالَ : لتجدنَّ عقوبتَها بعدَ حينٍ ، قالَ : فعوقبتُ بها بعدَ ثلاثينَ سنةً[٥] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[٦] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٩) عن الفضيل بن عياض .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٦) .

وقالَ : (لا تفوتُ أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنبٍ يذنبُهُ)[1] .

وفي الخبرِ : (ما أنكرتُمْ مِنْ زمانِكُمْ فبما غيَّرتُمْ مِنْ أعمالِكُمْ)[2] .

وفي الخبرِ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعبدِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ طاعتي . . أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي)[3] .

وحُكِيَ عنْ أبي عمرِو بنِ علوانَ في قصَّةٍ تطولُ قالَ فيها : كنتُ قائماً أصلِّي ذاتَ يومٍ ، فخامرَ قلبي هوىً طاولتُهُ بفكرتي ، حتَّىٰ تولَّدَ منهُ شهوةُ الرجالِ ، فوقعتُ إلى الأرضِ واسودَّ جسدي كلُّهُ ، فاستترتُ في البيتِ ، فلمْ أخرجْ ثلاثةَ أيامٍ ، وكنتُ أعالجُ غسلَهُ في الحمامِ بالصابونِ فلا يزدادُ إلا سواداً ، حتَّى انكشفَ بعدَ ثلاثٍ ، فلقيتُ الجنيدَ وكانَ قدْ وجَّهَ إليَّ فأشخصَني مِنَ الرقَّةِ ، فلمَّا أتيتُهُ . . قالَ لي : أما استحييتَ مِنَ اللهِ تعالىٰ كنتَ قائماً بينَ يديهِ فسامرتَ نفسَكَ بشهوةٍ حتَّى استولَتْ عليكَ[4] وأخرجَتْكَ مِنْ بينِ يديِ اللهِ تعالىٰ ؟! فلولا أنِّي دعوتُ اللهَ لكَ وتبتُ إليهِ عنكَ . . للقيتَ اللهَ تعالىٰ بذلكَ اللونِ ، قالَ : فعجبتُ كيفَ علمَ ذلكَ وهوَ ببغدادَ وأنا بالرقَّةِ ![5] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٧٠٩) من قول أبي الدرداء رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٤) في (ج ، د ، س) : (استولت عليك برقة) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٨٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣/ ١٧) .

واعلمْ : أنَّهُ لا يذنبُ العبدُ ذنباً إلا ويسودُّ وجهُ قلبِهِ ، فإنْ كانَ سعيداً . . ظهرَ السوادُ علىٰ ظاهرِهِ لينزجرَ ، وإنْ كانَ شقيّاً . . أُخفي عنهُ حتَّىٰ ينهمكَ ويستوجبَ النارَ .

والأخبارُ كثيرةٌ في آفاتِ الذنوبِ في الدنيا ؛ مِنَ الفقرِ ، والمرضِ ، وغيرِهِ ، بلْ مِنْ شؤمِ الذنبِ في الدنيا على الجملةِ : أنْ يكتسبَ ما بعدَهُ صفتَهُ ، فإنِ ابتليَ بشيءٍ . . كانَ عقوبةً لهُ ، ويُحرمُ جميلَ الرزقِ حتَّىٰ يتضاعفَ شقاؤُهُ ، وإنْ أصابتْهُ نعمةٌ . . كانَتِ استدراجاً لهُ ، ويُحرمُ جميلَ الشكرِ حتَّىٰ يُعاقبَ علىٰ كفرانِهِ .

وأمَّا المطيعُ . . فمِنْ بركةِ طاعتِهِ أنْ تكونَ كلُّ نعمةٍ في حقِّه جزاءً علىٰ طاعتِهِ ، ويُوفَّقُ لشكرِها ، وكلُّ بليَّةٍ كفارةً لذنوبِهِ ، وزيادةً في درجاتِهِ .

❊ ❊ ❊

النوعُ الرابعُ : ذكرُ ما وردَ مِنَ العقوباتِ علىٰ آحادِ الذنوبِ :

كالخمرِ ، والزنا ، والسرقةِ ، والقتلِ ، والغيبةِ ، والكبرِ ، والحسدِ ، وذلكَ ممَّا لا يمكنُ حصرُهُ ، وذكرُهُ معَ غيرِ أهلِهِ وضعٌ للدواءِ في غيرِ موضعِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ العالمُ كالطبيبِ الحاذقِ ؛ ليستدلَّ أوَّلاً بالنبضِ، والسحنةِ ووجوهِ الحركاتِ على العللِ الباطنةِ ، ويشتغلَ بعلاجِها ، فليستدلَّ بقرائنِ الأحوالِ علىٰ خفايا الصفاتِ ، وليتعرَّضْ لما وقفَ عليهِ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ قالَ له رجلٌ : أوصني

يا رسولَ اللهِ ولا تكثرْ عليَّ ، فقالَ : « لا تغضبْ »(١) .

وقالَ لهُ آخرُ : أوصني يا رسولَ اللهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكَ باليأسِ ممَّا في أيدي الناسِ ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ الغنىٰ ، وإيَّاكَ والطمعَ ؛ فإنَّهُ الفقرُ الحاضرُ ، وصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، وإيَّاكَ وما يُعتذرُ منهُ »(٢) .

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ واسعٍ : أوصني ، فقالَ : أوصيكَ أنْ تكونَ ملكاً في الدنيا والآخرةِ ، فقالَ : كيفَ لي بذلكَ ؟ قالَ : الزمِ الزهدَ في الدنيا(٣) .

فكأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ توسَّمَ في السائلِ الأوَّلِ مخايلَ الغضبِ فنهاهُ عنهُ ، وفي السائلِ الآخرِ مخايلَ الطمعِ في الناسِ وطولِ الأملِ ، وتخيَّلَ محمدُ بنُ واسعٍ في السائلِ مخايلَ الحرصِ على الدنيا .

وقالَ رجلٌ لمعاذٍ : أوصني ، فقالَ : (كنْ رحيماً أكنْ لكَ بالجنَّةِ زعيماً)(٤) .

فكأنَّهُ تفرَّسَ فيهِ آثارَ الفظاظةِ والغلظةِ .

وقالَ رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : أوصني ، فقالَ : إيَّاكَ والناسَ ، وعليكَ بالناسِ ، ولا بدَّ مِنَ الناسِ ، فإنَّ الناسَ همُ الناسُ ، وليسَ كلُّ الناسِ

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٠) .

(٤) عزاه الحافظ الزبيدي إلىٰ صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٦٢٠) .

بالناسِ ، ذهبَ الناسُ ، وبقيَ النسناسُ ، وما أراهُمْ بالناسِ ، بلْ غُمسوا في ماءِ الناسِ(١) .

فكأنَّهُ تفرَّسَ فيهِ آفةَ المخالطةِ ، وأخبرَ عمَّا كانَ هوَ الغالبَ علىٰ حالِهِ في وقتِهِ ، وكانَ الغالبُ أذاهُ بالناسِ ، والكلامُ علىٰ قدْرِ حالِ السائلِ أولىٰ مِنْ أنْ يكونَ بحسَبِ حالِ القائلِ .

وكتبَ معاويةُ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهما أنِ اكتبي لي كتاباً توصيني فيهِ ولا تكثري ، فكتبَتْ إليهِ : (مِنْ عائشةَ إلىٰ معاويةَ ، سلامٌ عليكَ ، أمَّا بعدُ : فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنِ التمسَ رضا الناسِ بسخطِ اللهِ .. وكلَهُ اللهُ إلى الناسِ ، ومَنِ التمسَ رضا اللهِ بسخطِ الناسِ .. كفاهُ اللهُ مؤونةَ الناسِ » ، والسلامُ عليكَ)(٢) .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣١٤) ، وقال : (قال إبراهيم : أما قولي : « عليك بالناس ».. بمجالسة العلماء ، وأما قولي : « وإياك والناس ».. إياك ومجالسة السفهاء ، وأما قولي : « لا بد من الناس ».. لا بد من الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه ، وأما قولي : « الناس هم الناس ».. الفقهاء والحكماء ، وأما قولي : « ليس الناس بالناس ».. أهل الأهواء والبدع ، وأما قولي : « ذهب الناس ».. ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قولي : « وبقي النسناس ».. يعني من يروي عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قولي : « وما أراهم بالناس ، إنما هم غمسوا في ماء الناس ».. نحن وأمثالنا) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٤) ولفظه : « من التمس رضا الله بسخط الناس .. كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله .. وكله الله إلى الناس » .

فانظرْ إلىٰ فقهِها كيفَ تعرَّضَتْ للآفةِ التي تكونُ الولاةُ بصددِها ، وهيَ مراعاةُ الناسِ وطلبُ مرضاتِهِمْ .

وكتبَتْ إليهِ مرَّةً أخرىٰ : (أمَّا بعدُ : فاتقِ اللهَ ؛ فإنَّكَ إذا اتقيتَ اللهَ . . كفاكَ الناسَ ، وإذا اتقيتَ الناسَ . . لمْ يغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، والسلامُ)(١) .

فإذاً ؛ علىٰ كلِّ ناصحٍ أنْ تكونَ عنايتُهُ مصروفةً إلىٰ تفرُّسِ الصفاتِ الخفيَّةِ ، وتوسُّمِ الأحوالِ اللائقةِ ؛ ليكونَ اشتغالُهُ بالمهمِّ ، فإنَّ حكايةَ جميعِ مواعظِ الشرعِ معَ كلِّ واحدٍ غيرُ ممكنةٍ ، والاشتغالُ بوعظِ مَنْ هوَ مستغنٍ عنِ الوعظِ فيهِ تضييعُ زمانٍ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإنْ كانَ الواعظُ يتكلَّمُ في جمعٍ ، أوْ سألَهُ مَنْ لا يدري باطنَ حالِهِ أنْ يعظَهُ . . فكيفَ يفعلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ طريقَهُ في ذلكَ أنْ يعظَهُ بما يشتركُ كافَّةُ الخلقِ في الحاجةِ إليهِ ؛ إمَّا على العمومِ ، وإمَّا على الأكثرِ ، فإنَّ في علومِ الشرعِ أغذيةً وأدويةً ، فالأغذيةُ للكافَّةِ ، والأدويةُ لأربابِ العللِ .

ومثالُهُ : ما رُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ لأبي سعيدٍ الخدريِّ : أوصني ، فقالَ : (عليكَ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّها رأسُ كلِّ خيرٍ ، وعليكَ بالجهادِ ؛ فإنَّهُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩١) .

رهبانيةُ الإسلامِ ، وعليكَ بالقرآنِ ؛ فإنَّهُ نورٌ لكَ في أهلِ الأرضِ وذكرٌ لكَ في أهلِ السماءِ ، وعليكَ بالصمتِ إلا مِنْ خيرٍ ؛ فإنَّكَ بذلكَ تغلبُ الشيطانَ)[١] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : أوصني ، فقالَ : (أعزَّ أمرَ اللهِ يعزَّكَ اللهُ)[٢] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ زاحمِ العلماءَ بركبتيكَ ، ولا تجادلْهُمْ فيمقتوكَ ، وخذْ مِنَ الدنيا بلاغَكَ ، وأنفقْ فضولَ كسبِكَ لآخرتِكَ ، ولا ترفضِ الدنيا كلَّ الرفضِ فتكونَ عيالاً ، وعلىٰ أعناقِ الرجالِ كلاًّ ، وصمْ صوماً يكسرُ شهوتَكَ ، ولا تصمْ صوماً يضرُّ بصلاتِكَ ؛ فإنَّ الصلاةَ أفضلُ مِنَ الصومِ ، ولا تجالسِ السفيهَ ، ولا تخالطْ ذا الوجهينِ)[٣] .

وقالَ أيضاً لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تضحكْ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تمشِ في غيرِ أربٍ ، ولا تسألْ عمَّا لا يعنيكَ ، ولا تضيِّعْ مالَكَ وتصلحَ مالَ غيرِكَ ؛ فإنَّ مالَكَ ما قدمتَ ، ومالَ غيرِكَ ما تركتَ ، يا بنيَّ ؛ إنَّ مَنْ يرحمْ . . يُرحمْ ، ومَنْ يصمتْ . . يسلمْ ، ومَنْ يقلِ الخيرَ . . يغنمْ ، ومَنْ يقلِ الشرَّ . . يأثمْ ، ومَنْ لا يملكْ لسانَهُ . . يندمْ) .

وقالَ رجلٌ لأبي حازمٍ : أوصني ، فقالَ : (كلُّ ما لوْ جاءَكَ الموتُ عليهِ رأيتَهُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٠) ، ورواه أحمد في « المسند » (٣/ ٨٢) من حديثه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني بنحوه .

غنيمةً . . فالزمْهُ ، وكلُّ ما لوْ جاءَكَ الموتُ عليهِ رأيتَهُ مصيبةً . . فاجتنبْهُ)(١) .

وقالَ موسىٰ للخضرِ عليهما السلامُ : أوصني ، فقالَ : (كُنْ بسَّاماً ولا تكنْ غضَّاباً ، وكُنْ نفَّاعاً ولا تكنْ ضرَّاراً ، وانزعْ عنِ اللجاجةِ ، ولا تمشِ في غيرِ حاجةٍ ، ولا تضحكْ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تعيِّرِ الخطائينَ بخطاياهُمْ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ يا بنَ عمرانَ)(٢) .

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ كرَّامٍ : أوصني ، فقالَ : (اجتهدْ في رضا خالقِكَ بقدْرِ ما تجتهدُ في رضا نفسِكَ) .

وقالَ رجلٌ لحامدٍ اللفافِ : أوصني ، فقالَ : اجعلْ لدينِكَ غلافاً كغلافِ المصحفِ كي لا تدنسَهُ الآفاتُ ، فقالَ : وما غلافُ الدينِ ؟ قالَ : تركُ طلبِ الدنيا إلا ما لا بدَّ منهُ ، وتركُ كثرةِ الكلامِ إلا فيما لا بدَّ منه ، وتركُ مخالطةِ الناسِ إلا فيما لا بدَّ منهُ .

وكتبَ الحسنُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُما اللهُ تعالىٰ : (أمَّا بعدُ : فخفْ ما خوَّفَكَ اللهُ ، واحذرْ ما حذَّرَكَ اللهُ ، وخذْ ممَّا في يديكَ لما بينَ يديكَ ، فعندَ الموتِ يأتيكَ الخبرُ اليقينُ ، والسلامُ) .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ يسألُهُ أنْ يعظَهُ ، فكتبَ إليهِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الهولَ الأعظمَ والأمورَ المفظعاتِ أمامَكَ ، ولا بدَّ لكَ مِنْ مشاهدةِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣١٧) بنحوه ، والسائل المستوصي هو عمر بن عبد العزيز .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٣٤٠) .

ذلكَ ؛ إمَّا بالنجاةِ ، وإمَّا بالعطبِ ، واعلمْ أنَّ مَنْ حاسبَ نفسَهُ . . ربحَ ، ومَنْ غفلَ عنها . . خسرَ ، ومَنْ نظرَ في العواقبِ . . نجا ، ومَنْ أطاعَ هواهُ . . ضلَّ ، ومَنْ حلمَ . . غنمَ ، ومَنْ خافَ . . أمِنَ ، ومَنْ أمِنَ . . اعتبرَ ، ومَنِ اعتبرَ . . أبصرَ ، ومَنْ أبصرَ . . فهمَ ، ومَنْ فهمَ . . علمَ ، فإذا زللتَ . . فارجعْ ، وإذا ندمتَ . . فأقلعْ ، وإذا جهلتَ . . فاسألْ ، وإذا غضبتَ . . فأمسكْ) .

وكتبَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا دارُ عقوبةٍ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ ، وبها يغترُّ مَنْ لا علمَ عندَهُ ، فكُنْ فيها يا أميرَ المؤمنينَ كالمداوي جرحَهُ ، يصبرُ علىٰ شدَّةِ الدواءِ لما يخافُ مِنْ عاقبةِ الداءِ)(١) .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ عديِّ بنِ أرطاةَ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا عدوَّةُ أولياءِ اللهِ ، وعدوَّةُ أعداءِ اللهِ ، أمَّا أولياؤُهُ : فغمَّتْهُمْ ، وأمَّا أعداؤُهُ : فغرَّتْهُمْ)(٢) .

وكتبَ أيضاً إلىٰ بعضِ عمَّالِهِ : (أمَّا بعدُ : فقدْ أمكنتْكَ القدرةُ مِنْ ظلمِ العبادِ ، فإذا هممْتَ بظلمِ أحدٍ . . فاذكرْ قدرةَ اللهِ عليكَ ، واعلمْ أنَّكَ لا تأتي إلى الناسِ شيئاً إلا كانَ زائلاً عنهُمْ باقياً عليكَ ، واعلمْ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ آخذٌ للمظلومينَ مِنَ الظالمينَ ، والسلامُ) .

---

(١) تقدم صدره مرفوعاً ، والخبر هنا عن مطرف أورده المسعودي في « مروج الذهب » (٤/ ٢٠) نقلاً عن المدائني .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٤٣) .

فهكذا ينبغي أنْ يكونَ وعظُ العامَّةِ ، ووعظُ مَنْ لا يدري خصوصَ واقعتِهِ ، فهـٰذهِ المواعظُ مثلُ الأغذيةِ التي يشتركُ الكافَّةُ في الانتفاعِ بها ، ولأجلِ فقْدِ مثلِ هؤلاءِ الوعَّاظِ انحسمَ بابُ الاتعاظِ ، وغلبتِ المعاصي ، واستشرى الفسادُ ، وبُلِيَ الخلقُ بوعَّاظٍ يزخرفونَ أسجاعاً ، وينشدونَ أبياتاً ، ويتكلَّفونَ ذكرَ ما ليسَ في سعةِ علمِهِمْ ، ويتشبَّهونَ بحالِ غيرِهِمْ ، فسقطَ عنْ قلوبِ العامَّةِ وقارُهُمْ ، ولمْ يكنْ كلامُهُمْ صادراً مِنَ القلبِ ليصلَ إلى القلبِ ، بلِ القائلُ متصلِّفٌ ، والمستمعُ متكلِّفٌ ، وكلٌّ واحدٍ منهُما مدبرٌ ومتخلِّفٌ .

وإذا كانَ طلبُ الطبيبِ أوَّلَ علاجِ المرضىٰ . . فطلبُ العلماءِ أوَّلُ علاجِ العاصينَ ، **فهـٰذا أحدُ أركانِ العلاجِ وأصولِهِ** .

الأصلُ الثاني : الصبرُ ، ووجهُ الحاجةِ إليهِ أنَّ المريضَ إنَّما يطولُ مرضُهُ لتناولِهِ ما يضرُّهُ ، وإنَّما يتناولُ ذلكَ إمَّا لغفلتِهِ عنْ مضرَّتِهِ ، وإمَّا لشدَّةِ غلبةِ شهوتِهِ ، فلهُ سببانِ ، فما ذكرناهُ هوَ علاجُ الغفلةِ ، فيبقىٰ علاجُ الشهوةِ ، وطريقُ علاجِها قدْ ذكرناهُ في كتابِ رياضةِ النفسِ .

وحاصلُهُ : أنَّ المريضَ إذا اشتدَّتْ ضراوتُهُ لمأكولٍ مضرٍّ . . فطريقُهُ أنْ يستشعرَ عظمَ ضررِهِ ، ثمَّ يُغيِّبُ ذلكَ عنْ عينِهِ فلا يُحضرُهُ ، ثمَّ يتسلَّىٰ عنهُ بما يقربُ منهُ في صورتِهِ ولا يكثرُ ضررُهُ ، ثمَّ يصبرُ بقوَّةِ الخوفِ على الألمِ الذي ينالُهُ في تركِهِ ، فلا بدَّ علىٰ كلِّ حالٍ مِنْ مرارةِ الصبرِ ؛ فكذلكَ يعالجُ

الشهوةَ في المعاصي ، كالشابِّ مثلاً إذا غلبَتْهُ الشهوةُ ، فصارَ لا يقدرُ علىٰ حفظِ عينِهِ ، أوْ حفظِ قلبِهِ ، أوْ حفظِ جوارحِهِ في السعيِ وراءَ شهوتِهِ . . فينبغي أنْ يستشعرَ ضررَ ذنبِهِ ؛ بأنْ يستقرئَ المخوفاتِ التي جاءَتْ فيهِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا اشتدَّ خوفُهُ . . تباعدَ مِنَ الأسبابِ المهيِّجةِ لشهوتِهِ ، ومهيِّجُ الشهوةِ مِنْ خارجٍ هوَ حضورُ المشتهىٰ والنظرُ إليهِ ، وعلاجُهُ : الهربُ والعزلةُ ، ومِنْ داخلٍ تناولُ لذائذِ الأطعمةِ ، وعلاجُهُ : الجوعُ والصومُ الدائمُ ، وكلُّ ذلكَ لا يتمُّ إلا بصبرٍ ، ولا يصبرُ إلا عنْ خوفٍ ، ولا يخافُ إلا عنْ علمٍ ، ولا يعلمُ إلا عنْ بصيرةٍ وافتكارٍ أوْ عنْ سماعٍ وتقليدٍ .

فأوَّلُ الأمرِ حضورُ مجالسِ الذكرِ ، ثمَّ الاستماعُ مِنْ قلبٍ مجرَّدٍ عنْ سائرِ الشواغلِ ، مصروفٍ إلى السماعِ ، ثمَّ التفكُّرُ فيهِ لتمامِ الفهمِ ، وينبعثُ مِنْ تمامِهِ ـ لا محالةَ ـ خوفُهُ ، وإذا قويَ الخوفُ . . تيسَّرَ بمعونتِهِ الصبرُ ، وانبعثَتِ الدواعي لطلبِ العلاجِ ، وتوفيقُ اللهِ وتيسيرُهُ مِنْ وراءِ ذلكَ .

فمَنْ أعطىٰ مِنْ قلبِهِ حسنَ الإصغاءِ ، واستشعرَ الخوفَ فاتقىٰ ، وانتظرَ الثوابَ وصدَّقَ بالحسنىٰ . . فسييسرُهُ اللهُ تعالىٰ لليسرىٰ ، وأمَّا مَنْ بخلَ واستغنىٰ وكذَّبَ بالحسنىٰ . . فسييسرُهُ اللهُ للعسرىٰ ، ثمَّ لا يغني عنهُ ما اشتغلَ بهِ مِنْ ملاذِّ الدنيا مهما هلكَ وتردىٰ ، وما على الأنبياءِ إلا شرحُ طرقِ الهدىٰ ، وإنَّما للهِ الآخرةُ والأولىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ رجعَ الأمرُ كلُّهُ إلى الإيمانِ ؛ لأنَّ تركَ الذنبِ لا يمكنُ إلا بالصبرِ ، والصبرُ لا يمكنُ إلا بمعرفةِ الخوفِ ، والخوفُ لا يحصلُ إلا بالعلمِ ، والعلمُ لا يحصلُ إلا بالتصديقِ بعظمِ ضررِ الذنوبِ ، والتصديقُ بعظمِ ضررِ الذنوبِ هوَ تصديقُ اللهِ ورسولِهِ ، وهوَ الإيمانُ ، فكأنَّ مَنْ أصرَّ على الذنبِ . . لمْ يصرَّ إلا لأنَّهُ غيرُ مؤمنٍ !

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا لا يكونُ لفقدِ الإيمانِ ، بلْ يكونُ لضعفِ الإيمانِ ؛ إذْ كلُّ مؤمنٍ مصدِّقٌ بأنَّ المعصيةَ سببُ البعدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وسببُ العقابِ في الآخرةِ ، **ولكنْ سببُ وقوعِهِ في الذنبِ أمورٌ** :

أحدُها : أنَّ العقابَ الموعودَ غيبٌ ليسَ بحاضرٍ ، والنفسُ جبلَتْ متأثرةً بالحاضرِ ، فتأثرُها بالموعودِ ضعيفٌ بالإضافةِ إلىٰ تأثُّرِها بالحاضرِ .

الثاني : أنَّ الشهواتِ الباعثةَ على الذنوبِ لذَّاتُها ناجزةٌ ، وهيَ في الحالِ آخذةٌ بالمُخَنَّقِ[1] ، وقدْ قويَ ذلكَ واستولىٰ بسببِ الاعتيادِ والإلفِ ، والعادةُ طبيعةٌ خامسةٌ ، والنزوعُ عنِ العاجلِ لخوفِ الآجلِ شديدٌ على النفسِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وقدْ عبَّرَ عنْ شدَّةِ الأمرِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُفَّتِ

---

(١) **المخنَّق** : موضع الخنق من العنق .

الجنَّةُ بالمكارِهِ ، وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ »[1] .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ النارَ ، فقالَ لجبريلَ عليهِ السلامُ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلُها ، فحفَّها بالشهواتِ ثمَّ قالَ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لقدْ خشيتُ ألا يبقىٰ أحدٌ إلا دخلَها ، وخلقَ الجنَّةَ ، فقالَ لجبريلَ عليهِ السلامُ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلَها ، فحفَّها بالمكارهِ ثمَّ قالَ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لقدْ خشيتُ ألا يدخلَها أحدٌ »[2] .

فإذاً ؛ كونُ الشهوةِ مرهقةً في الحالِ وكونُ العقابِ متأخراً إلى المآلِ سببانِ ظاهرانِ في الاسترسالِ معَ حصولِ أصلِ الإيمانِ .

فليسَ كلُّ مَنْ شربَ في مرضِهِ ماءَ الثلجِ لشدَّةِ عطشِهِ مكذِّباً بأصلِ الطبِّ ، ولا مكذِّباً بأنَّ ذلكَ مضرٌّ في حقِّهِ ، ولكنَّ الشهوةَ تغلبُهُ ، وألمُ الصبرِ عنهُ ناجزٌ ، فيهونُ عليهِ الألمُ المنتظرُ .

الثالثُ : أنَّهُ ما مِنْ مذنبٍ مؤمنٍ إلا وهوَ في الغالبِ عازمٌ على التوبةِ ، وتكفيرِ السيئاتِ بالحسناتِ ، وقدْ وُعِدَ بأنَّ ذلكَ يجبرُهُ ، إلا أنَّ طولَ الأملِ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٢٣) ، وبنحوه هو عند البخاري كذلك (٦٤٨٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٠) ، والنسائي (٧/ ٣) .

غالبٌ على الطباعِ ، فلا يزالُ يسوِّفُ التوبةَ والتكفيرَ ، فمِنْ حيثُ رجاؤُهُ التوفيقَ للتوبةِ ربَّما يقدمُ عليهِ معَ الإيمانِ .

الرابعُ : أنَّهُ ما مِنْ مؤمنٍ موقنٍ إلا وهوَ معتقدٌ أنَّ الذنبَ لا يوجبُ العقوبةَ إيجاباً لا يمكنُ العفوُ عنها ، فهوَ يذنبُ وينتظرُ العفوَ ؛ اتكالاً علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ .

فهـٰذهِ أسبابٌ أربعةٌ موجبةٌ للإصرارِ على الذنبِ معَ بقاءِ أصلِ الإيمانِ .

نعمْ ، قدْ يقدمُ المذنبُ **بسببٍ خامسٍ** يقدحُ في أصلِ إيمانِهِ ، وهوَ كونُهُ شاكاً في صدقِ الرسلِ ، وهـٰذا هوَ الكفرُ ؛ كالذي يحذِّرُهُ الطبيبُ عنْ تناولِ ما يضرُّهُ في المرضِ ، وكانَ المحذِّرُ ممَّنْ لا يَعتقدُ فيهِ أنَّهُ عالمٌ بالطبِّ ، فيكذِّبُهُ أوْ يشكُّ فيهِ ، فلا يبالي بهِ ، فهـٰذا هوَ الكفرُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما علاجُ الأسبابِ الخمسةِ ؟

فأقولُ : هوَ الفكرُ ، وذلكَ بأنْ يقرِّرَ علىٰ نفسِهِ في السببِ الأوَّلِ ـ وهوَ تأخُّرُ العقابِ ـ أنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ آتٍ ، وأنَّ غداً لناظرِهِ قريبٌ ، وأنَّ الموتَ أقربُ إلىٰ كلِّ أحدٍ مِنْ شراكِ نعلِهِ ، فما يدريهِ لعلَّ الساعةَ قريبٌ ، والمتأخِّرُ إذا وقعَ . . صارَ ناجزاً ، ويذكِّرَ نفسَهُ أنَّهُ أبداً في دنياهُ يتعبُ في الحالِ لخوفِ أمرٍ في الاستقبالِ ؛ إذْ يركبُ البحارَ ويقاسي الأسفارَ لأجلِ الربحِ الذي يظنُّ أنَّهُ قدْ يحتاجُ إليهِ في ثاني الحالِ ، بلْ لوْ مرضَ فأخبرَهُ نصرانيٌّ طبيبٌ بأنَّ

شربَ الماءِ الباردِ يضرُّهُ ويسوقُهُ إلى الموتِ ، وكانَ الماءُ الباردُ ألذَّ الأشياءِ عندَهُ. . تركَهُ معَ أنَّ الموتَ ألمُهُ لحظةٌ إذا لمْ يخفْ ما بعدَهُ ، ومفارقتُهُ للدنيا لا بدَّ منها ، فكمْ نسبةُ وجودِهِ في الدنيا إلىٰ عدمِهِ أزلاً وأبداً ؟!

فلينظرْ كيفَ يبادرُ إلىٰ تركِ ملاذِّهِ بقولِ ذمِّيٍّ لمْ تقمْ معجزةٌ علىٰ طبِّهِ ، فيقولُ: كيفَ يليقُ بعقلي أنْ يكونَ قولُ الأنبياءِ المؤيدينَ بالمعجزاتِ عندي دونَ قولِ نصرانيٍّ يدَّعي الطبَّ لنفسِهِ بلا معجزةٍ علىٰ طبِّهِ ، ولا يشهدُ لهُ إلا عوامُّ الخلقِ ؟!

وكيفَ يكونُ عذابُ النارِ أخفَّ عندي مِنْ عذابِ المرضِ وكلُّ يومٍ في الآخرةِ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سنةٍ مِنْ أيامِ الدنيا ؟!

وبهـٰذا التفكُّرِ بعينِهِ يعالجُ اللذَّةَ الغالبةَ عليهِ ، ويكلِّفُ نفسَهُ تركَها ، ويقولُ : إذا كنتُ لا أقدرُ علىٰ تركِ لذَّاتي أيامَ العمرِ وهيَ أيامٌ قلائلُ. . فكيفَ أقدرُ علىٰ ذلكَ أبدَ الآبادِ ؟!

وإذا كنتُ لا أطيقُ ألمَ الصبرِ. . فكيفَ أطيقُ ألمَ النارِ ؟!

وإذا كنتُ لا أصبرُ عنْ زخارفِ الدنيا معَ كدوراتِها وتنغُّصِها وامتزاجِ صفوِها بكدرِها. . فكيفَ أصبرُ عنْ نعيمِ الآخرةِ ؟!

وأمَّا تسويفُ التوبةِ. . فيعالجُهُ بالفكرِ في أنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ ؛ لأنَّ المسوِّفَ يبني الأمرَ علىٰ ما ليسَ إليهِ ، وهوَ البقاءُ ، فلعلَّهُ لا يبقىٰ ، وإنْ بقيَ. . فلا يقدرُ على التركِ غداً كما لا يقدرُ عليهِ اليومَ .

فليتَ شعري ؛ هلْ عجزَ في الحالِ إلا لغلبةِ الشهوةِ ، والشهوةُ ليسَتْ تفارقُهُ غداً بلْ تتضاعفُ ؛ إذْ تتأكَّدُ بالاعتيادِ ، فليسَتِ الشهوةُ التي أكَّدَها الإنسانُ بالعادةِ كالتي لمْ يؤكِّدْها ، وعنْ هـٰذا هلكَ المسوِّفونَ ؛ لأنَّهُمْ يظنُّونَ الفرقَ بينَ المتماثلينِ ، ولا يظنُّونَ أنَّ الأيامَ متشابهةٌ في أنَّ تركَ الشهواتِ فيها أبداً شاقٌّ ، وما مثالُ المسوِّفِ إلا مثالُ مَنِ احتاجَ إلىٰ قلْعِ شجرةٍ ، فرآها قويَّةً لا تنقلعُ إلا بمشقَّةٍ شديدةٍ ، فقالَ : (أؤخِّرُها سنةً ثمَّ أعودُ إليها) ، وهوَ يعلمُ أنَّ الشجرةَ كلَّما بقيَتْ ازدادَ رسوخُها ، وهوَ كلَّما طالَ عمرُهُ . . ازدادَ ضعفُهُ ، فلا حماقةَ في الدنيا أعظمُ مِنْ حماقتِهِ ؛ إذْ عجزَ معَ قوَّتِهِ عنْ مقاومةِ ضعيفٍ ، فأخذَ ينتظرُ الغلبةَ عليهِ إذا ضعفَ هوَ في نفسِهِ وقويَ الضعيفُ .

وأمَّا المعنى الرابعُ ـ وهوَ انتظارُ عفوِ اللهِ تعالىٰ ـ فعلاجُهُ ما سبقَ ، فمَنْ ينفقُ جميعَ أموالِهِ ويتركُ نفسَهُ وعيالَهُ فقراءَ ، منتظراً مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يرزقَهُ العثورَ علىٰ كنزٍ في أرضٍ خربةٍ . . فإنَّ إمكانَ العفوِ عنِ الذنبِ مثلُ هـٰذا الإمكانِ ، وهوَ مثلُ مَنْ وقعَ النهبُ مِنَ الظلمةِ في بلدِهِ ، وذخائرُ أموالِهِ في صحنِ دارِهِ وقدرَ علىٰ دفنِها وإخفائِها ، فلمْ يفعلْ ، وقالَ : أنتظرُ مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يسلِّطَ غفلةً أوْ عقوبةً على الظالمِ الناهبِ حتَّىٰ لا يتفرَّغَ إلىٰ داري ، أوْ إذا انتهىٰ إلىٰ داري . . ماتَ علىٰ بابِ الدارِ ، فإنَّ الموتَ ممكنٌ ، والغفلةَ ممكنةٌ ، وقدْ حُكِيَ في الأسمارِ أنَّ مثلَ ذلكَ وقعَ ، فأنا أنتظرُ مِنْ فضْلِ اللهِ مثلَهُ !

فمنتظرُ هـٰذا منتظرُ أمرٍ ممكنٍ ، ولكنَّهُ في غايةِ الحماقةِ والجهلِ ؛ إذْ قدْ لا يمكنُ ولا يكونُ .

وأمَّا الخامسُ ـ وهوَ الشكُّ ـ فهـٰذا كفرٌ ، وعلاجُهُ الأسبابُ التي تعرِّفُهُ صدقَ الرسلِ ، وذلكَ يطولُ ، ولكنْ يمكنُ أنْ يُعالجَ بعلمٍ قريبٍ يليقُ بحدِّ عقلِهِ ، فيُقالُ لهُ : ما قالَهُ الأنبياءُ المؤيَّدونَ بالمعجزاتِ هلْ صدقُهُ ممكنٌ أوْ تقولُ : أعلمُ أنَّهُ محالٌ كما أعلمُ استحالةَ كونِ شخصٍ واحدٍ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ ؟

فإنْ قالَ : (أعلمُ استحالتَهُ كذلكَ).. فهوَ أخرقُ معتوهٌ ، وكأنَّهُ لا وجودَ لمثلِ هـٰذا في العقلاءِ .

وإنْ قالَ : (أنا شاكٌّ فيهِ).. فيُقالُ : لوْ أخبركَ شخصٌ واحدٌ مجهولٌ عندَ تركِكَ طعامَكَ في البيتِ لحظةً أنَّهُ قدْ ولغَتْ فيهِ حيَّةٌ وألقَتْ سمَّها فيهِ ، وجوزتَ صدقَهُ.. فهلْ تأكلُهُ أوْ تتركُهُ وإنْ كانَ ألذَّ الأطعمةِ ؟ فيقولُ : (أتركُهُ لا محالةَ ؛ لأنيِّ أقولُ : إنْ كذبَ.. فلا يفوتُني إلا هـٰذا الطعامُ ، والصبرُ عنهُ وإنْ كانَ شديداً فهوَ قريبٌ ، وإنْ صدقَ.. فتفوتُني الحياةُ ، والموتُ بالإضافةِ إلىٰ ألمِ الصبرِ عنِ الطعامِ وإضاعتِهِ شديدٌ) ، فيُقالُ لهُ : يا سبحانَ اللهِ ! كيفَ تؤخِّرُ صدقَ الأنبياءِ كلِّهِمْ معَ ما ظهرَ لهُمْ مِنَ المعجزاتِ وصدقِ كافَّةِ العلماءِ والأولياءِ والحكماءِ بلْ جميعِ أصنافِ العقلاءِ ولستُ أعني بهِمْ جهَّالَ العوامِّ ، بلْ ذوي الألبابِ.. عنْ صدقِ رجلٍ واحدٍ مجهولٍ لعلَّ لهُ غرضاً فيما يقولُ ؟!

فليسَ في العقلاءِ إلا مَنْ صدَّقَ باليومِ الآخرِ ، وأثبتَ ثواباً وعقاباً ، وإنِ اختلفوا في كيفيتِهِ ، فإنْ صدقوا . . فقدْ أشرفتَ علىٰ عذابٍ يبقىٰ أبدَ الآبادِ ، وإنْ كذبوا . . فلا يفوتُكَ إلا بعضُ شهواتِ هٰذهِ الدنيا الفانيةِ المكدرةِ .

فلا يبقىٰ لهُ توقُّفٌ إنْ كانَ عاقلاً معَ هٰذا الفكرِ ؛ إذْ لا نسبةَ لمدَّةِ العمرِ إلىٰ أبدِ الآبادِ ، بلْ لوْ قدَّرْنا أنَّ الدنيا مملوءةٌ بالذُّرَةِ ، وقدَّرْنا طائراً يلتقطُ في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ حبَّةً واحدةً منها . . لفنيَتِ الذُّرةُ ، ولمْ ينقصْ من أبدِ الآبادِ شيءٌ ، فكيفَ يفترُ رأيُ العاقلِ في الصبرِ عنِ الشهواتِ مئةَ سنةٍ مثلاً لأجلِ سعادةٍ تبقىٰ أبدَ الآبادِ وذلكَ لا منتهىٰ لهُ ؟!

ولذلكَ قالَ أبو العلاءِ المعرِّيُّ[1] : [من الكامل]

قالَ ٱلْمُنَجِّمُ وَٱلطَّبِيبُ كِلاهُما ... لا تُبْعَثُ ٱلأَمْواتُ قُلْتُ إِلَيْكُما

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلَسْتُ بِخاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَٱلْخَسارُ عَلَيْكُما

ولذلكَ قالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لبعضِ مَنْ قصرَ عقلُهُ عنْ فهمِ تحقيقِ الأمورِ وكانَ شاكّاً : (إنْ صحَّ ما قلتُ . . فقدْ تخلصنا جميعاً ، وإلا . . فقدْ تخلصنا وهلكتَ)[2] أي : العاقلُ يسلكُ طريقَ الأمنِ في جميعِ الأحوالِ .

* * *

(١) شرح اللزوميات (٣/ ١٣٣) .
(٢) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٨/ ٤٣٢) .

فإنْ قلتَ : هٰذهِ الأمورُ جليّةٌ ، ولكنَّها ليسَتْ تُنالُ إلا بالفكرِ ، فما بالُ القلوبِ هجرَتِ الفكرَ فيها واستثقلَتْهُ ؟ وما علاجُ القلوبِ لردِّها إلى الفكرِ لا سيما مَنْ آمنَ بأصلِ الشرعِ وتفصيلِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المانعَ مِنَ الفكرِ أمرانِ :

أحدُهُما : أنَّ الفكرَ النافعَ هوَ الفكرُ في عقابِ الآخرةِ ، وأهوالِها وشدائدِها ، وحسراتِ العاصينَ في الحرمانِ عنِ النعيمِ المقيمِ ، وهٰذا فكرٌ لذَّاغٌ مؤلمٌ للقلبِ ، فينفرُ القلبُ عنهُ ، ويتلذَّذُ بالفكرِ في أمورِ الدنيا علىٰ سبيلِ التفرُّجِ والاستراحةِ .

والثاني : أنَّ الفكرَ شغلٌ في الحالِ مانعٌ مِنْ لذائذِ الدنيا وقضاءِ الشهواتِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ولهُ في كلِّ حالةٍ مِنْ أحوالِهِ ونَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ شهوةٌ قدْ تسلطَتْ عليهِ واسترقَّتْهُ ، فصارَ عقلُهُ مسخَّراً لشهوتِهِ ، فهوَ مشغولٌ بتدبيرِ حيلتِهِ ، وصارَتْ لذَّتُهُ في طلبِ الحيلةِ فيهِ أوْ في مباشرةِ قضاءِ الشهوةِ ، والفكرُ يمنعُهُ مِنْ ذلكَ .

وأمَّا علاجُ هٰذينِ المانعينِ :

فهو أنْ يقولَ لقلبِهِ : ما أشدَّ غباوتَكَ في الاحترازِ مِنَ الفكرِ في الموتِ وما بعدَهُ تألُّماً بذكرِهِ معَ استحقارِ ألمِ مواقعتِهِ ! فكيفَ تصبرُ علىٰ مقاساتِهِ إذا وقعَ وأنتَ عاجزٌ عنِ الصبرِ علىٰ تقديرِ الموتِ وما بعدَهُ ومتألِّمٌ بهِ ؟!

وأمَّا الثاني وهوَ كونُ الفكرِ مفوِّتاً للذَّاتِ الدنيا . . فهوَ أنْ يتحقَّقَ أنَّ فواتَ

لذَّاتِ الآخرةِ أشدُّ وأعظمُ ، فإنَّها لا آخرَ لها ، ولا كدورةَ فيها ، ولذَّاتُ الدنيا سريعةُ الدثورِ[1] ، وهيَ مشوبةٌ بالمكدِّراتِ ، فما فيها لذَّةٌ صافيةٌ عنْ كدرٍ ، وكيفَ وفي التوبةِ عنِ المعاصي والإقبالِ على الطاعةِ تلذُّذٌ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ ، واستراحةٌ بمعرفتِهِ وطاعتِهِ وطولِ الأنسِ بهِ ؟! ولوْ لمْ يكنْ للمطيعِ جزاءٌ علىٰ عملِهِ إلا ما يجدُهُ مِنْ حلاوةِ الطاعةِ ، وروحِ الأنسِ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ . لكانَ ذلكَ كافياً ، فكيفَ بما ينضافُ إليهِ مِنْ نعيمِ الآخرةِ ؟!

نعمْ ، هٰذهِ اللذَّةُ لا تكونُ في ابتداءِ التوبةِ ، ولكنَّها بعدَما يصبرُ عليها مدةً مديدةً[2] ، وقدْ صارَ الخيرُ ديدناً كما كانَ الشرُّ ديدناً ، فالنفسُ قابلةٌ ما عوَّدتَها تتعوَّدُ ، والخيرُ عادةٌ ، والشرُّ لجاجةٌ .

فإذاً ؛ هٰذهِ الأفكارُ هيَ المهيِّجةُ للخوفِ المهيِّجِ لقوَّةِ الصبرِ عنِ اللذَّاتِ ، ومهيِّجُ هٰذهِ الأفكارِ وعظُ الوعَّاظِ ، وتنبيهاتٌ تقعُ للقلبِ بأسبابٍ تتفقُ لا تدخلُ في الحصرِ ، فيصيرُ الفكرُ موافقاً للطبعِ ، فيميلُ القلبُ إليهِ ، ويعبَّرُ عنِ السببِ الذي أوقعَ الموافقةَ بينَ الطبعِ وبينَ الفكرِ الذي هوَ سببُ الخيرِ بالتوفيقِ ؛ إذِ التوفيقُ هوَ التأليفُ بينَ الإرادةِ وبينَ المعنى الذي هوَ طاعةٌ نافعةٌ في الآخرةِ .

وقدْ رُوِيَ في حديثٍ طويلٍ أنَّهُ قامَ عمَّارُ بنُ ياسرٍ فقالَ لعليِّ بنِ

---

(١) أي : الذهاب والانطماس . « إتحاف » (٨/ ٦٢٩) .
(٢) في النسخ : (ولكنه يصبر عليه مديدة) ، والمثبت من (ق) .

أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أخبرْنا عنِ الكفرِ علىٰ ماذا بُنِيَ ؟ فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : علىٰ أربعِ دعائمَ : على الجفاءِ ، والعمىٰ ، والغفلةِ ، والشكِّ ، فمَنْ جفا . . احتقرَ الحقَّ ، وجهرَ بالباطلِ ، ومقتَ العلماءَ ، ومَنْ عميَ . . نسيَ الذكرَ ، ومَنْ غفلَ . . حادَ عنِ الرشدِ ، وغرَّتْهُ الأمانيُّ ، فأخذَتْهُ الحسرةُ والندامةُ ، وبدا لهُ مِنَ اللهِ ما لمْ يكنْ يحتسبُ(١) .

فما ذكرناهُ بيانٌ لبعضِ آفاتِ الغفلةِ عنِ التفكُّرِ ، وهـٰذا القدْرُ في التوبةِ كافٍ ، وإذا كانَ الصبرُ ركناً مِنْ أركانِ دوامِ التوبةِ . . فلا بدَّ مِنْ بيانِ الصبرِ ، فنذكرُهُ في كتابٍ مفردٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

تم كتاب التوبة

وهو الكتاب الأوّل من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله حقّ حمده ، وصلاته على النبي محمّد وآله أجمعين وسلامه

يتلوه كتاب الصبر والشكر

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٨٨) ، وزاد : (ومن شكَّ . . تاه في الضلالة) .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الصّبر والشّكر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ أهلِ الحمدِ والثناءِ ، المتفرِّدِ برداءِ الكبرياءِ ، المتوحِّدِ بصفاتِ المجدِ والعلاءِ ، المؤيِّدِ صفوةَ الأولياءِ ، بقوَّةِ الصبرِ على السرَّاءِ والضرَّاءِ ، والشكرِ على البلاءِ والنعماءِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ ، وعلىٰ أصحابِهِ سادةِ الأصفياءِ ، وعلىٰ آلِهِ قادةِ البررةِ الأتقياءِ ، صلاةً محروسةً بالدوامِ عنِ الفناءِ ، ومصونةً بالتعاقبِ عنِ التصرُّمِ والانقضاءِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الإيمانَ نصفانِ ، نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ ؛ كما وردَتْ بهِ الآثارُ ، وشهدَتْ لهُ الأخبارُ[1] ، وهما أيضاً وصفانِ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ ، واسمانِ مِنْ أسمائِهِ الحسنىٰ ؛ إذْ سمَّىٰ نفسَهُ صبوراً وشكوراً ، فالجهلُ بحقيقةِ الصبرِ والشكرِ جهلٌ بكلا شطريِ الإيمانِ ، ثمَّ هوَ غفلةٌ عنْ وصفينِ مِنْ أوصافِ

---

(١) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الإيمان نصفان ، نصف في الصبر ونصف في الشكر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان) .

الرحمـٰنِ ، ولا سبيلَ إلى الوصولِ إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلا بالإيمانِ ، وكيفَ يُتصوَّرُ سلوكُ سبيلِ الإيمانِ دونَ معرفةِ ما بهِ الإيمانُ ومَنْ بهِ الإيمانُ ؟! والتقاعدُ عنْ معرفةِ الصبرِ والشكرِ تقاعدٌ عنْ معرفةِ مَنْ بهِ الإيمانُ ، وعنْ إدراكِ ما بهِ الإيمانُ ، فما أحوجَ كلا الشطرينِ إلى الإيضاحِ والبيانِ ، ونحنُ نوضحُ كلا الشطرينِ في كتابٍ واحدٍ لارتباطِ أحدِهما بالآخرِ إنْ شاءَ اللهُ .

* * *

الشَّطْرُ الأَوَّلُ
فِي الصَّبْرِ

وفيهِ بيانُ فضيلةِ الصبرِ ، وبيانُ حدِّهِ وحقيقتِهِ ، وبيانُ كونِهِ نصفَ الإيمانِ ، وبيانُ اختلافِ أساميهِ باختلافِ متعلَّقاتِهِ ، وبيانُ أقسامِهِ ، بحسَبِ اختلافِ القوّةِ والضعفِ ، وبيانُ مظانِّ الحاجةِ إلى الصبرِ ، وبيانُ دواءِ الصبرِ وما يُستعانُ بهِ عليهِ .

فهيَ سبعةُ فصولٍ تشتملُ علىٰ جميعِ مقاصدِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

بيان فضيلة الصّبر

قدْ وصفَ اللهُ تعالى الصابرينَ بأوصافٍ ، وذكرَ الصبرَ في القرآنِ في نيِّفٍ وسبعينَ موضعاً ، وأضافَ أكثرَ الخيراتِ والدرجاتِ إلى الصبرِ ، وجعلَها ثمرةً لهُ .

فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فما مِنْ قربةٍ إلا وأجرُها بتقديرٍ وحسابٍ إلا الصبرَ .

ولأجلِ كونِ الصومِ مِنَ الصبرِ ـ فإنَّهُ نصفُ الصبرِ [١] ـ قالَ اللهُ تعالىٰ : « الصومُ لي وأنا أجزي بهِ » [٢] ، فأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ مِنْ بينِ سائرِ العباداتِ .

ووعدَ الصابرينَ بأنَّهُ معَهُمْ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ .

وعلَّقَ النصرَ على الصبرِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

وجمعَ للصابرينَ بينَ أمورٍ لمْ يجمعْها لغيرِهِمْ فقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ ، فالهدىٰ والصلواتُ والرحمةُ مجموعةٌ للصابرينَ .

واستقصاءُ جميعِ الآياتِ في مقامِ الصبرِ يطولُ .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ » [٣] ، علىٰ ما سيأتي وجهُ كونِهِ نصفاً .

---

(١) هو جزء من حديث مرفوع رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .
(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٢٧) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعطيَ حظَّهُ منهُما . . لمْ يبالِ بما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولأَنْ تصبروا علىٰ مثلِ ما أنتُمْ عليهِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يوافيَني كلُّ امرىءٍ منكُمْ بمثلِ عملِ جميعِكُمْ ، ولكنِّي أخافُ أنْ تُفتحَ عليكُمُ الدنيا بعدي ، فينكرَ بعضُكُمْ بعضاً ، وينكرَكُمْ أهلُ السماءِ عندَ ذلكَ ، فمَنْ صبرَ واحتسبَ . . ظفرَ بكمالِ ثوابِهِ » ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وروىٰ جابرٌ أنَّهُ سُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإيمانِ ، فقالَ : « الصبرُ والسماحةُ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « الصبرُ كنزٌ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ »[3] .

---

(١) كذا أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/ ١٩٤) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٨٥) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) ، وروى الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٧) من حديث أنس مرفوعاً : « ثلاث من كنوز البر : إخفاء الصدقة ، وكتمان الشكوىٰ ، وكتمان المصيبة . . . » الحديث .

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّةً : ما الإيمانُ ؟ فقالَ : « الصبرُ »(١) ، وهٰذا يشبهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ عرفةُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « أفضلُ الأعمالِ ما أُكرِهَتْ عليهِ النفوسُ »(٣) .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : تخلَّقْ بأخلاقي ، وإنَّ مِنْ أخلاقي أنِّي أنا الصبورُ(٤) .

وفي حديثِ عطاءٍ عنِ ابنِ عباسٍ : لمَّا دخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الأنصارِ فقالَ : « أمؤمنونَ أنتُمْ ؟ » فسكتوا ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فقالوا : نشكرُ على الرخاءِ ، ونصبرُ على البلاءِ ، ونرضىٰ بالقضاءِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « في الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »(٦) .

---

(١) روى الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٨٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

(٢) رواه أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/ ٢٥٦) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ١٩٥)، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣).

(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٢٧) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ١٩٤) .

(٦) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٣٠٧) .

وقالَ المسيحُ عليهِ السلامُ : (إنَّكُمْ لا تدركونَ ما تحبُّونَ إلا بصبرِكُمْ علىٰ ما تكرهونَ)(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ الصبرُ رجلاً . . لكانَ كريماً ، واللهُ يحبُّ الصابرينَ »(٢) .

والأخبارُ في هٰذا ممَّا لا يُحصىٰ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ وُجِدَ في رسالةِ عمرَ بنِ الخطابِ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُما : (عليكَ بالصبرِ ، واعلمْ أنَّ الصبرَ صبرانِ ، أحدُهُما أفضلُ مِنَ الآخرِ ، الصبرُ في المصيباتِ حسنٌ ، وأفضلُ منهُ الصبرُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، واعلمْ أنَّ الصبرَ مِلاكُ الإيمانِ ، وذلكَ بأنَّ التقوىٰ أفضلُ البرِّ ، والتقوىٰ بالصبرِ)(٣) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (بُنِيَ الإيمانُ علىٰ أربعِ دعائمَ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٨٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٦) : (رواه إبراهيم بن بشار الرمادي عن سفيان عن والد إدريس بن عبد الله عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسىٰ عن أبيه ، وكان أبو موسىٰ قد أوصىٰ إلى ابنه أبي بردة رسائل عمر التي كان يكتبها إليه) ، ورواه مختصراً ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٨٨٢٧) .

اليقينُ ، والصبرُ ، والجهادُ ، والعدْلُ)(١) .

وقالَ أيضاً : (الصبرُ مِنَ الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِنَ الجسدِ ، ولا جسدَ لِمَنْ لا رأسَ لهُ ، ولا إيمانَ لِمَنْ لا صبرَ لهُ)(٢) .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (نعمَ العِدْلانِ ونعمتِ العِلاوةُ للصابرينَ) ؛ يعني بالعدلينِ : الصلاةَ والرحمةَ ، وبالعلاوةِ : الهدىٰ ، والعِلاوةُ ما يُحملُ فوقَ العدلينِ على البعيرِ ، وأشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾(٣) .

وكانَ حبيبُ بنُ أبي حبيبٍ إذا قرأَ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ .. بكىٰ وقالَ : (وا عجباهُ ! أعطىٰ وأثنىٰ) أيْ : هوَ المعطي للصبرِ وهوَ المثنىٰ عليهِ(٤) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكمِ ، والرضا بالقدَرِ)(٥) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨) ، وهو في « القوت » (١/ ١٩٤) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، وهو في « القوت » (١/ ١٩٤) .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ١٩٤) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٧٠) .
(٤) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٧) ، والرب إذا أثنىٰ علىٰ أعمال عباده .. فقد أثنىٰ علىٰ فعل نفسه ؛ لأن أعمالهم من خلقه . « إتحاف » (٩/ ٧) ، وسيؤكد هٰذا المعنى المصنف ، والمثنىٰ بالمقصورة ، لا بالياء ، كما سيُوضَّح في بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١٦) ، وزاد : (والإخلاص في التوكل ، والاستسلام للرب عز وجل) .

هـٰذا بيانُ فضيلةِ الصبرِ مِنْ حيثُ النقلُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ . . فلا تفهمُهُ إلا بعدَ فهمِ حقيقةِ الصبرِ ومعناهُ ؛ إذْ معرفةُ الفضيلةِ والرتبةِ معرفةُ صفةٍ ، فلا تحصلُ قبلَ معرفةِ الموصوفِ ، فلنذكرْ حقيقتَهُ ومعناهُ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

بيان حقيقة الصّبر ومعناه

اعلمْ : أنَّ الصبرَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ ، ومنزلٌ مِنْ منازلِ السالكينَ ، وجميعُ مقاماتِ الدينِ إنَّما تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : معارفُ، وأحوالٌ، وأعمالٌ.

فالمعارفُ هيَ الأصولُ ، وهيَ التي تورثُ الأحوالَ ، والأحوالُ تثمرُ الأعمالَ ، فالمعارفُ كالأشجارِ ، والأحوالُ كالأغصانِ ، والأعمالُ كالثمارِ ، وهٰذا مطردٌ في جميعِ منازلِ السالكينَ إلى اللهِ تعالىٰ .

واسمُ الإيمانِ تارةً يختصُّ بالمعارفِ ، وتارةً يُطلقُ على الكلِّ ؛ كما ذكرناهُ في اختلافِ اسمِ الإيمانِ والإسلامِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكذلكَ الصبرُ لا يتمُّ إلا بمعرفةٍ سابقةٍ ، وبحالةٍ قائمةٍ ، فالصبرُ على التحقيقِ عبارةٌ عنها ، والعملُ هوَ كالثمرةِ يصدرُ عنها ، ولا يُعرفُ هٰذا إلا بمعرفةِ كيفيَّةِ الترتيبِ بينَ الملائكةِ والإنسِ والبهائمِ ؛ فإنَّ الصبرَ خاصِّيَّةُ الإنسِ ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ في البهائمِ والملائكةِ ؛ أمَّا في البهائمِ . . فلنقصانِها ، وأمَّا في الملائكةِ . . فلكمالِها .

وبيانُهُ : أنَّ البهائمَ سُلِّطَتْ عليها الشهواتُ ، وصارَتْ مسخَّرةً لها ، فلا باعثَ لها على الحركةِ والسكونِ إلا الشهوةُ ، وليسَ فيها قوَّةٌ تصادمُ الشهوةَ وتردُّها عنْ مقتضاها حتَّىٰ يُسمَّىٰ ثباتُ تلكَ القوَّةِ في مقابلةِ مقتضى الشهوةِ صبراً .

وأمَّا الملائكةُ عليهمُ السلامُ . . فإنَّهُمْ جُرِّدوا للشوقِ إلى الحضرةِ الربوبيةِ ، والابتهاجِ بدرجةِ القرْبِ منها ، ولمْ تُسلَّطْ عليهِمْ شهوةٌ صارفةٌ صادَّةٌ عنها حتَّىٰ تحتاجَ إلىٰ مصادمةِ ما يصرفُها عنْ حضرةِ الجلالِ بجندٍ آخرَ يغلبُ الصوارفَ .

وأمَّا الإنسانُ . . فإنَّهُ خُلِقَ في ابتداءِ الصبَا ناقصاً مثلَ البهيمةِ ، لمْ يُخلقْ فيهِ إلا شهوةُ الغذاءِ الذي هوَ محتاجٌ إليهِ ، ثمَّ تظهرُ فيهِ شهوةُ اللعبِ والزينةِ ، ثمَّ شهوةُ النكاحِ على الترتيبِ(١) ، وليسَ لهُ قوَّةُ الصبرِ ألبتةَ ؛ إذِ الصبرُ عبارةٌ عنْ ثباتِ جندٍ في مقابلةِ جندٍ آخرَ قامَ القتالُ بينَهُما لتضادِّ مقتضياتِهِما ومطالبِهِما ، وليسَ في الصبيِّ إلا جندُ الهوىٰ كما في البهائمِ .

ولكنَّ اللهَ تعالىٰ بفضلِهِ وسعةِ جودِهِ أكرمَ بني آدمَ ، ورفعَ درجتَهُمْ عنْ درجةِ البهائمِ ، فوكلَ بهِ عندَ كمالِ شخصِهِ بمقاربةِ البلوغِ ملكينِ ؛ أحدُهُما يهديهِ ، والآخرُ يقوِّيهِ ، فتميَّزَ بمعونةِ الملكينِ عنِ البهائمِ ، واختُصَّ بصفتينِ ؛ إحداهُما معرفةُ اللهِ تعالىٰ ومعرفةُ رسولِهِ ، ومعرفةُ المصالحِ المتعلِّقةِ بالعواقبِ ، وكلُّ ذلكَ حاصلٌ مِنَ الملكِ الذي إليهِ الهدايةُ والتعريفُ ، فالبهيمةُ لا معرفةَ لها ولا هدايةَ إلىٰ مصلحةِ العواقبِ ، بلْ إلىٰ مقتضىٰ شهوتِها في الحالِ فقطْ ، فلذلكَ لا تطلبُ إلا اللذيذَ ، فأمَّا الدواءُ النافعُ معَ كونِهِ مضرّاً في الحالِ . . فلا تطلبُهُ ولا تعرفُهُ .

---

(١) إلىٰ أن يظهر فيه الرغبة في طلب الكمال ، والنظر للعاقبة ، وعصيان مقتضىٰ تلك الشهوات . « إتحاف » (٩/٩) .

فصارَ الإنسانُ بنورِ الهدايةِ يعرفُ أنَّ اتباعَ الشهواتِ لهُ مغبَّاتٌ مكروهةٌ في العاقبةِ ، ولكنْ لمْ تكنْ هـٰذهِ الهدايةُ كافيةً ما لمْ تكنْ لهُ قدرةٌ علىٰ تركِ ما هوَ مضرٌّ ، فكمْ مِنْ مضرٍّ يعرفُهُ الإنسانُ ـ كالمرضِ النازلِ بهِ مثلاً ـ ولكنْ لا قدرةَ لهُ علىٰ دفعِهِ ، فافتقرَ إلىٰ قدرةٍ وقوَّةٍ يدفعُ بها في نحرِ الشهواتِ فيجاهدُها بتلكَ القوَّةِ حتَّىٰ يقطعَ عداوتَها عنْ نفسِهِ ، فوكلَ اللهُ تعالىٰ بهِ ملكاً آخرَ يسدِّدُهُ ويؤيِّدُهُ ويقوِّيهِ بجنودٍ لمْ ترَوها ، وأمرَ هـٰذا الجندَ بقتالِ جندِ الشهوةِ ، فتارةً يضعفُ هـٰذا الجندُ ، وتارةً يقوىٰ ، وذلكَ بحسَبِ إمدادِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ بالتأييدِ ؛ كما أنَّ نورَ الهدايةِ أيضاً يختلفُ في الخلقِ اختلافاً لا ينحصرُ ، فلنسمِّ هـٰذهِ الصفةَ التي بها فارقَ الإنسانُ البهائمَ في قمعِ الشهواتِ وقهرِها : باعثاً دينيّاً ، ولنسمِّ مطالبةَ الشهواتِ بمقتضياتِها : باعثَ الهوىٰ .

وليُفهمْ أنَّ القتالَ قائمٌ بينَ باعثِ الدينِ وباعثِ الهوىٰ ، والحربُ بينَهُما سجالٌ ، ومعركةُ هـٰذا القتالِ قلبُ العبدِ ، ومددُ باعثِ الدينِ مِنَ الملائكةِ الناصرينَ لحزبِ اللهِ تعالىٰ ، ومددُ باعثِ الشهوةِ مِنَ الشياطينِ الناصرينَ لأعداءِ اللهِ تعالىٰ[1] ، **فالصبرُ : عبارةٌ عنْ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الشهوةِ** ، فإنْ ثبتَ حتَّىٰ قهرَهُ واستمرَّ علىٰ مخالفةِ الشهوةِ . فقدْ نصرَ

(١) ومعرفة هـٰذا من الإيمان بالله تعالىٰ ، وهو تصديق الله تعالىٰ فيما أخبر به من عداوة النفس والشيطان والشهوات للعقل والمعرفة والملك الملهم للخير ، وأن الشهوات والنفس من حزب الشيطان ، والمعرفة والعقل والملائكة من جند الله وحزبه ، وهـٰذا الإيمان واجب لا يستغني عنه سالك لطريق الله تعالىٰ . « إتحاف » (٩/٩) .

حزبَ اللهِ والتحقَ بالصابرينَ ، وإنْ تخاذلَ وضعفَ حتَّىٰ غلبَتِ الشهوةُ ولمْ يصبرْ في دفعِها . . التحقَ بأتباعِ الشياطينِ .

فإذاً ؛ تركُ الأفعالِ المشتهاةِ عملٌ يثمرُهُ حالٌ يُسمَّى الصبرَ ، وهوَ ثباتُ باعثِ الدينِ الذي هوَ في مقابلةِ باعثِ الشهوةِ ، وثباتُ باعثِ الدينِ حالٌ تثمرُها المعرفةُ بعداوةِ الشهواتِ ومضادَّتِها لأسبابِ السعاداتِ في الدنيا والآخرةِ ، فإذا قويَ يقينُهُ ـ أعني المعرفةَ التي تُسمَّىٰ إيماناً ـ وهوَ اليقينُ بكونِ الشهوةِ عدوّاً قاطعاً لطريقِ اللهِ تعالىٰ . . قويَ ثباتُ باعثِ الدينِ ، وإذا قويَ ثباتُهُ . . تمَّتِ الأفعالُ علىٰ خلافِ ما تتقاضاهُ الشهوةُ ، فلا يتمُّ تركُ الشهوةِ إلا بقوَّةِ باعثِ الدينِ المضادِّ لباعثِ الشهوةِ ، وقوَّةُ المعرفةِ والإيمانِ تقبِّحُ مغبَّةَ الشهواتِ وسوءَ عاقبتِها ، وهـٰذانِ الملكانِ هما المتكفِّلانِ بهـٰذينِ الجندينِ بإذنِ اللهِ تعالىٰ وتسخيرِهِ إيَّاهُما ، وهما مِنَ الكرامِ الكاتبينَ ، وهما الملكانِ الموكلانِ بكلِّ شخصٍ مِنَ الآدميينَ .

وإذا عرفتَ أنَّ رتبةَ الملكِ الهادي أعلىٰ مِنْ رتبةِ الملكِ المقوِّي . . لمْ يخفَ عليكَ أنَّ جانبَ اليمينِ الذي هوَ أشرفُ الجانبينِ مِنْ جنبتي الدَّسْتِ ينبغي أنْ يكونَ مسلماً لهُ[1] ، فهوَ إذاً صاحبُ اليمينِ ، والآخرُ صاحبُ الشمالِ .

---

(١) الدَّسْت : لفظة فارسية ، لها معان عديدة ، أشهرها اليد ، ويطلق على المجلس الذي يتصدره الكبراء .

وللعبدِ طورانِ في الغفلةِ والفكرِ ، وفي الاسترسالِ والمجاهدةِ ، فهوَ بالغفلةِ معرضٌ عنْ صاحبِ اليمينِ ومسيءٌ إليهِ ، فيكتبُ إعراضَهُ سيئةً ، وبالفكرِ مقبلٌ عليهِ ليستفيدَ منهُ الهدايةَ ، فهوَ بهِ محسنٌ ، فيكتبُ إقبالَهُ لهُ حسنةً ، وكذا بالاسترسالِ هوَ معرضٌ عنْ صاحبِ الشمالِ تاركٌ للاستمدادِ منهُ ، فهوَ بهِ مسيءٌ إليهِ ، فيثبتُ عليهِ سيئةً ، وبالمجاهدةِ مستمدٌّ مِنْ جنودِهِ ، فيثبتُ لهُ بهِ حسنةً .

وإنَّما ثبتَتْ هـٰذهِ الحسناتُ والسيئاتُ بإثباتِهِما ، فلذلكَ سُمِّيا كراماً كاتبينَ ، أمَّا (الكرامَ) . . فلانتفاعِ العبدِ بكرمِهِما ، ولأنَّ الملائكةَ كلَّهُمْ كرامٌ بررةٌ ، وأمَّا (الكاتبينَ) . . فلإثباتِهِما الحسناتِ والسيئاتِ ، وإنَّما يكتبانِ في صحائفَ مطويَّةٍ في سرِّ القلبِ ومطويةٍ عنْ سرِّ القلبِ ؛ حتَّىٰ لا يُطلعَ عليهِ في هـٰذا العالمِ ، فإنَّهُما وكتبَتَهُما وخطَّهُما وصحائفَهُما وجملةَ ما يتعلَّقُ بهِما مِنْ جملةِ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، لا مِنْ عالمِ الشهادةِ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ عالمِ الملكوتِ لا تدركُهُ الأبصارُ في هـٰذا العالمِ[1] .

ثمَّ تُنشرُ هـٰذهِ الصحائفُ المطويَّةُ عنهُ مرَّتينِ ؛ مرَّةً في القيامةِ الصغرىٰ ، ومرَّةً في القيامةِ الكبرىٰ ، وأعني بالقيامةِ الصغرىٰ : حالةَ الموتِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ »[2] ، وفي هـٰذهِ

(١) والعبارة في (ج) : (وسرُّ عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هـٰذا العالم) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » والديلمي في « مسند الفردوس » (١١١٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

القيامةِ يكونُ العبدُ وحدَهُ ، وعندَها يُقالُ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وفيها يُقال : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، أمَّا في القيامةِ الكبرى الجامعةِ لكافةِ الخلقِ . . فلا يكونُ وحدَهُ ، بلْ ربَّما يُحاسبُ على ملأٍ مِنَ الخلقِ ، وفيها يُساقُ المتقونَ إلى الجنَّةِ والمجرمونَ إلى النارِ زمراً لا آحاداً .

والهولُ الأوَّلُ هوَ هولُ القيامةِ الصغرىٰ ، ولجميعِ أهوالِ القيامةِ الكبرىٰ نظيرٌ في القيامةِ الصغرىٰ ؛ مثلُ زلزلةِ الأرضِ مثلاً ، فإنَّ أرضَكَ الخاصَّةَ بكَ تزلزلُ في الموتِ ؛ فإنَّكَ تعلمُ أنَّ الزلزلةَ إذا نزلَتْ ببلدةٍ . . صدقَ أنْ يُقالَ : (قدْ زُلزلَتْ أرضُهُمْ) وإنْ لمْ تُزلزلِ البلادُ المحيطةُ بها ، بلْ لوْ زُلزلَ مسكنُ الإنسانِ ودارُهُ . . فقدْ حصلَتِ الزلزلةُ في حقِّهِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يتضرَّرُ عندَ زلزلةِ جميعِ الأرضِ بزلزلةِ مسكنِهِ لا بزلزلةِ مسكنِ غيرِهِ ، فحصَّتُهُ مِنَ الزلزلةِ قدْ توفَّرَتْ مِنْ غيرِ نقصانٍ .

واعلمْ : أنَّكَ أرضيٌّ مخلوقٌ مِنَ الترابِ ، وحظُّكَ الخاصُّ مِنَ الترابِ

= وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٢٥) عن ابن بشار السلمي قال : خطب عمر الناس فقال : أيها الناس ؛ لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة ؛ فإنه من وافته منيته . . فقد قامت عليه قيامته .

وروى الدولابي في « الكنىٰ » (٢/ ٨٩) عن أبي قيس عبد الرحمـٰن بن ثروان قال : صلىٰ علقمة علىٰ جنازة فقال : (أما هـٰذا . . فقد قامت قيامته) ، ومن حديثه عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : (يقولون : القيامة القيامة ، وإنما قيامة أحدكم موته) .

بدنُكَ فقطْ ، فأمَّا بدنُ غيرِكَ . . فليسَ بحظِّكَ ، والأرضُ التي أنتَ جالسٌ عليها بالإضافةِ إلىٰ بدنِكَ ظرفٌ ومكانٌ ، وإنَّما تخافُ مِنْ تزلزلِهِ أنْ يتزلزلَ بدنُكَ بسببِهِ ، وإلا . . فالهواءُ أبداً متزلزلٌ وأنتَ لا تخشاهُ ؛ إذْ ليسَ يتزلزلُ بِهِ بدنُكَ ، فحظُّكَ مِنْ زلزلةِ الأرضِ كلِّها زلزلةُ بدنِكَ فقطْ ، فهوَ أرضُكَ وترابُكَ الخاصُّ بكَ ، وعظامُكَ جبالُ أرضِكَ ، ورأسُكَ سماءُ أرضِكَ ، وقلبُكَ شمسُ أرضِكَ ، وسمعُكَ وبصرُكَ وسائرُ حواسِّكَ نجومُ سمائِكَ ، ومفيضُ العرقِ مِنْ بدنِكَ بحرُ أرضِكَ ، وشعورُكَ نباتُ أرضِكَ ، وأطرافُكَ أشجارُ أرضِكَ ، وهٰكذا إلىٰ جميعِ أجزائِكَ ، فإذا انهدمَ بالموتِ أركانُ بدنِكَ . . فقدْ زُلزلتِ الأرضُ زلزالَها ، فإذا انفصلَتِ العظامُ مِنَ اللحومِ . . فقدْ حُملَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكتا دكَّةً واحدةً ، فإذا رَمَّتِ العظامُ . . فقدْ نُسفَتِ الجبالُ نسفاً ، فإذا أظلمَ قلبُكَ عندَ الموتِ . . فقدْ كُورَتِ الشمسُ تكويراً ، فإذا بطلَ سمعُكَ وبصرُكَ وسائرُ حواسِّكَ . . فقدِ انكدرتِ النجومُ انكداراً ، فإذا انشقَّ دماغُكَ . . فقدِ انشقَّتِ السماءُ انشقاقاً ، فإذا انفجرَ مِنْ هولِ الموتِ عرقُ جبينِكَ . . فقدْ فُجِّرَتِ البحارُ تفجيراً ، فإذا التفَّتْ إحدىٰ ساقيكَ بالأخرىٰ وهما مطيَّتاكَ . . فقدْ عُطِّلَتِ العشارُ تعطيلاً ، فإذا فارقَتِ الروحُ الجسدَ . . فقدْ حُملَتِ الأرضُ فمُدَّتْ حتَّىٰ ألقَتْ ما فيها وتخلَّتْ .

ولستُ أطوِّلُ بموازنةِ جميعِ الأحوالِ والأهوالِ ، ولكنِّي أقولُ : بمجرَّدِ الموتِ تقومُ عليكَ هٰذهِ القيامةُ الصغرىٰ ، ولا يفوتُكَ مِنَ القيامةِ الكبرىٰ شيءٌ ممَّا يخصُّكَ ، بلْ ما يخصُّ غيرَكَ ، فإنَّ بقاءَ الكواكبِ في حقِّ غيرِكَ

ماذا ينفعُكَ وقدِ انتثرَتْ حواسُّكَ التي بها تنتفعُ بالنظرِ إلى الكواكبِ ، والأعمىٰ يستوي عندَهُ الليلُ والنهارُ ، وكسوفُ الشمسِ وانجلاؤُها ؛ لأنَّها قدْ كسفَتْ في حقِّه دفعةً واحدةً ، وهوَ حصتُهُ منها ، فالانجلاءُ بعدَ ذلكَ حصَّةُ غيرِهِ ، ومَنِ انشقَّ رأسُهُ . . فقدِ انشقَّتْ سماؤُهُ ؛ إذِ السماءُ عبارةٌ عمَّا يلي جهةَ الرأسِ ، فمَنْ لا رأسَ لهُ لا سماءَ لهُ ، فمِنْ أينَ ينفعُهُ بقاءُ السماءِ لغيرِهِ ؟!

فهٰذهِ هيَ القيامةُ الصغرىٰ ، والخوفُ بعدُ أسفلَ ، والهولُ بعدُ مدَّخرٌ ، وذلكَ إذا جاءَتِ الطامَّةُ الكبرىٰ ، وارتفعَ الخصوصُ ، وبطلَتِ السماواتُ والأرضُ ، ونُسفَتِ الجبالُ ، وتمَّتِ الأهوالُ .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الصغرىٰ وإنْ طوَّلنا في وصفِها فإنَّا لمْ نذكرْ عُشْرَ عَشيرِ أوصافِها ، وهيَ بالنسبةِ إلى القيامةِ الكبرىٰ كالولادةِ الصغرىٰ بالنسبةِ إلى الولادةِ الكبرىٰ ، فإنَّ للإنسانِ ولادتينِ ؛ إحداهُما الخروجُ مِنَ الصلبِ والترائبِ إلىٰ مستودعِ الأرحامِ ، فهوَ في الرحمِ في قرارٍ مكينٍ إلىٰ قدَرٍ معلومٍ ، ولهُ في سلوكِهِ إلى الكمالِ منازلُ وأطوارٌ ؛ مِنْ نطفةٍ ، وعلقةٍ ، ومضغةٍ ، وغيرِها ، إلىٰ أنْ يخرجَ مِنْ مضيقِ الرحمِ إلىٰ فضاءِ العالمِ ، فنسبةُ عمومِ القيامةِ الكبرىٰ إلىٰ خصوصِ القيامةِ الصغرىٰ كنسبةِ سَعَةِ فضاءِ العالمِ إلىٰ سعةِ فضاءِ الرحمِ ، ونسبةُ سعةِ العالمِ الذي يقدمُ عليهِ العبدُ بالموتِ إلىٰ سعةِ فضاءِ الدنيا كنسبةِ فضاءِ الدنيا أيضاً إلى الرحمِ ، بلْ أوسعُ وأعظمُ ، فقسِ الآخرةَ بالأولىٰ ، فما خلقُكُمْ ولا بعثُكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ، وما النشأةُ الثانيةُ إلا علىٰ قياسِ النشأةِ الأولىٰ ، بلْ أعدادُ النشآتِ ليسَتْ محصورةً في

اثنتينِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالمقرُّ بالقيامتينِ مؤمنٌ بعالمِ الغيبِ والشهادةِ ، وموقنٌ بالمُلْكِ والملكوتِ ، والمقرُّ بالقيامةِ الصغرىٰ دونَ الكبرىٰ ناظرٌ بالعينِ العوراءِ إلىٰ أحدِ العالمينِ ، وذلكَ هوَ الجهلُ والضلالُ ، والاقتداءُ بالأعورِ الدجَّالِ ، فما أعظمَ غفلتَكَ يا مسكينُ ـ وكلُّنا ذلكَ المسكينُ ـ وبينَ يديكَ هٰذهِ الأهوالُ ، فإنْ كنتَ لا تؤمنُ بالقيامةِ الكبرىٰ للجهلِ والضلالِ . . أفلا تكفيكَ دلالةُ القيامةِ الصغرىٰ ؟!

أوَما سمعتَ قولَ سيِّدِ الأنبياءِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالموتِ واعظاً » ؟![1] .

أوَما سمعتَ بكربِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الموتِ حتَّىٰ قالَ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ علىٰ محمدٍ سكراتِ الموتِ » ؟![2] .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .

(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم ؛ أعني علىٰ غمرات الموت أو سكرات الموت » .
وروى البخاري (٤٤٤٦) ، والنسائي (٤/٦) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي ، فلا أكره شدة الموت لأحد بعدما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

أوَما تستحي مِنِ استبطائِكَ هجومَ الموتِ اقتداءً برعاعِ الغافلينَ الذينَ لا ينظرونَ إلا صيحةً واحدةً تأخذُهُمْ وهُمْ يخصِّمونَ ، فلا يستطيعونَ توصيةً ولا إلىٰ أهلِهِمْ يرجعونَ ، فيأتيهِمُ المرضُ نذيراً مِنَ الموتِ فلا ينزجرونَ ، ويأتيهِمُ الشيبُ رسولاً منهُ فما يعتبرونَ ؟!

فيا حسرةً على العبادِ ، ما يأتيهِمْ مِنْ رسولٍ إلا كانوا بهِ يستهزئونَ ، أفيظنُّونَ أنَّهُمْ في الدنيا خالدونَ ؟!

أوَلمْ يرَوا كمْ أهلكنا قبلَهُمْ مِنَ القرونِ أنَّهُمْ إليهِمْ لا يرجعونَ ؟!

أمْ يحسبونَ أنَّ الموتىٰ سافروا مِنْ عندِهِمْ فهمْ معدومونَ ؟!

كلا ، إنْ كلٌّ لمَّا جميعٌ لدينا محضرونَ ، ولكنْ ما تأتيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِمْ إلا كانوا عنها معرضينَ ، وذلكَ لأنَّا جعلنا مِنْ بينِ أيديهِمْ سدّاً ومِنْ خلفِهِمْ سدّاً ، فأغشيناهُمْ فهُمْ لا يبصرونَ ، وسواءٌ عليهِمْ أأنذرتَهُمْ أمْ لمْ تنذرْهُمْ لا يؤمنونَ .

ولنرجعْ إلى الغرضِ ، فإنَّ هـٰذهِ تلويحاتٌ تشيرُ إلىٰ أمورٍ هيَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ ، فنقولُ :

قدْ ظهرَ أنَّ الصبرَ عبارةٌ عنْ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقاومةِ باعثِ الهوىٰ ، وهـٰذهِ المقاومةُ مِنْ خاصَّةِ الآدميينَ ؛ لما وُكِلَ بهِمْ مِنَ الكرامِ الكاتبينَ ، ولا يكتبانِ شيئاً على الصبيانِ والمجانينِ ؛ إذْ قدْ ذكرنا أنَّ الحسنةَ في الإقبالِ على الاستفادةِ منهما ، والسيئةَ في الإعراضِ عنهما ، وما للصبيانِ

والمجانينِ سبيلٌ إلى الاستفادةِ ، فلا يُتصوَّرُ منهما إقبالٌ وإعراضٌ ، وهما لا يكتبانِ إلا الإقبالَ والإعراضَ مِنَ القادرينَ على الإقبالِ والإعراضِ .

ولعمري ؛ إنَّهُ قدْ تظهرُ مبادي إشراقِ نورِ الهدايةِ عندَ سنِّ التمييزِ ، وتنمو على التدريجِ إلىٰ سنِّ البلوغِ ؛ كما يبدو نورُ الصبحِ إلىٰ أنْ يطلعَ قرصُ الشمسِ ، ولكنَّها هدايةٌ قاصرةٌ لا ترشدُ إلىٰ مضارِّ الآخرةِ ، بلْ إلىٰ مضارِّ الدنيا ، فلذلكَ يُضربُ علىٰ تركِ الصلواتِ ناجزاً ولا يُعاقبُ في الآخرةِ ، ولا يُكتبُ عليهِ مِنَ الصحائفِ ما يُنشرُ في الآخرةِ ، بلْ على القيِّمِ العدْلِ ، والوليِّ البرِّ الشفيقِ ، إنْ كانَ مِنَ الأبرارِ ، وكانَ علىٰ سمتِ الكرامِ البررةِ الأخيارِ . أنْ يكتبَ على الصبيِّ سيئتَهُ وحسنتَهُ علىٰ صحيفةِ قلبِهِ ، فيكتبُهُ عليهِ بالحفظِ ، ثمَّ ينشرُهُ عليهِ بالتعريفِ ، ثمَّ يعذِّبُهُ عليهِ بالضربِ ، فكلُّ وليٍّ هٰذا سمتُهُ في حقِّ الصبيِّ فقدْ ورثَ أخلاقَ الملائكةِ ، واستعملَها في حقِّ الصبيِّ ، فينالُ بها درجةَ القرْبِ مِنْ ربِّ العالمينَ كما نالَتْهُ الملائكةُ ، فيكونُ معَ النبيِّينَ والمقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وكافلُ اليتيمِ كهاتينِ في الجنَّةِ » وأشارَ إلىٰ إصبعيهِ الكريمتينِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٥٣٠٤) ، والترمذي (١٩١٨) بنحوه .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلمْ : أنَّ الإيمانَ تارةً يختصُّ في إطلاقِهِ بالتصديقاتِ بأصولِ الدينِ ، وتارةً يُخصُّ بالأعمالِ الصالحةِ الصادرةِ منها ، وتارةً يُطلقُ عليهما جميعاً .

وللمعارفِ أبوابٌ ، وللأعمالِ أبوابٌ ، ولاشتمالِ لفظِ الإيمانِ علىٰ جميعِها كانَ الإيمانُ نيِّفاً وسبعينَ باباً ، واختلافُ هـٰذهِ الإطلاقاتِ ذكرناهُ في كتابِ قواعدِ العقائدِ مِنْ ربعِ العباداتِ ، **ولكنَّ الصبرَ نصفُ الإيمانِ باعتبارينِ ، وعلىٰ مقتضىٰ إطلاقينِ** :

أحدُهُما : أنْ يُطلقَ على التصديقاتِ والأعمالِ جميعاً ، فيكونَ للإيمانِ ركنانِ : أحدُهُما اليقينُ ، والآخرُ الصبرُ ، والمرادُ باليقينِ : المعارفُ القطعيَّةُ الحاصلةُ بهدايةِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ إلىٰ أصولِ الدينِ ، والمرادُ بالصبرِ : العملُ بمقتضى اليقينِ ؛ إذِ اليقينُ يعرِّفُهُ أنَّ المعصيةَ ضارَّةٌ ، والطاعةَ نافعةٌ ، ولا يمكنُ تركُ المعصيةِ والمواظبةُ على الطاعةِ إلا بالصبرِ ، وهوَ استعمالُ باعثِ الدينِ في قهرِ باعثِ الهوىٰ والكسلِ ، فيكونُ الصبرُ نصفَ الإيمانِ بهـٰذا الاعتبارِ .

ولهـٰذا جمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَهُما فقالَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديثَ إلىٰ آخرِهِ(١) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٤) .

الاعتبارُ الثاني : أنْ يُطلقَ على الأحوالِ المثمرةِ للأعمالِ لا على المعارفِ ، وعندَ ذلكَ ينقسمُ جميعُ ما يلاقيهِ العبدُ إلىٰ ما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ أوْ يضرُّهُ فيهما ، ولهُ بالإضافةِ إلىٰ ما يضرُّهُ حالُ الصبرِ ، وبالإضافةِ إلىٰ ما ينفعُهُ حالُ الشكرِ ، فيكونُ الشكرُ أحدَ شطريِ الإيمانِ بهـٰذا الاعتبارِ كما كانَ اليقينُ أحدَ الشطرينِ بالاعتبارِ الأوَّلِ .

وبهـٰذا النظرِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الإيمانُ نصفانِ : نصفٌ صبرٌ ، ونصفٌ شكرٌ) ، وقدْ يُرفعُ أيضاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

ولمَّا كانَ الصبرُ صبراً عنْ بواعثِ الهوىٰ بثباتِ باعثِ الدينِ ، وكانَ باعثُ الهوىٰ قسمينِ ؛ باعثٌ مِنْ جهةِ الشهوةِ ، وباعثٌ مِنْ جهةِ الغضبِ ، فالشهوةُ لطلبِ اللذيذِ ، والغضبُ للهربِ مِنَ المؤلمِ ، وكانَ الصومُ صبراً عنْ مقتضى الشهوةِ فقطْ ، وهيَ شهوةُ البطنِ والفرْجِ دونَ مقتضى الغضبِ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهـٰذا الاعتبارِ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[2] ؛ لأنَّ كمالَ الصبرِ بالصبرِ عنْ دواعي الشهوةِ ودواعي الغضبِ جميعاً ، فيكونُ الصومُ بهـٰذا الاعتبارِ ربعَ الإيمانِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) بنحوه .
(٢) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ تقديراتِ الشرعِ بحدودِ الأعمالِ والأحوالِ ونسبتِها إلى الإيمانِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ تعرفَ كثرةَ أبوابِ الإيمانِ ، وأنَّ اسمَ الإيمانِ يُطلقُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ .

* * *

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلمْ : أنَّ الصبرَ ضربانِ :

أحدهما : ضربٌ بدنيٌّ ؛ كتحمُّلِ المشاقِّ بالبدنِ والثباتِ عليها ، وهوَ إمَّا بالفعلِ ؛ كتعاطي الأعمالِ الشاقَّةِ إمَّا مِنَ العباداتِ أوْ مِنْ غيرِها ، وإمَّا بالاحتمالِ ؛ كالصبرِ على الضربِ الشديدِ والمرضِ العظيمِ والجراحاتِ الهائلةِ ، وذلكَ قدْ يكونُ محموداً إذا وافقَ الشرعَ .

ولكنَّ المحمودَ التامَّ هوَ :

الضربُ الآخرُ : وهوَ **الصبرُ النفسيُّ** عنْ مشتهياتِ الطبعِ ومقتضياتِ الهوىٰ .

ثمَّ هـٰذا الضربُ إنْ كانَ صبراً عنْ شهوةِ البطنِ والفرجِ . . سُمِّيَ **عفةً** ، وإنْ كانَ عنِ احتمالِ مكروهٍ . . اختلفَتْ أساميهِ عندَ الناسِ باختلافِ المكروهِ الذي عليهِ الصبرُ .

فإنْ كانَ في مصيبةٍ . . اقتصرَ على اسمِ **الصبرِ** ، وتضادُّهُ حالةٌ تُسمَّى **الجزعَ والهلعَ** ؛ وهوَ إطلاقُ داعي الهوىٰ ليسترسلَ في رفعِ الصوتِ وضربِ الخدودِ وشقِّ الجيوبِ وغيرِها .

وإنْ كانَ في احتمالِ الغنىٰ . . سُمِّيَ **ضبطَ النفسِ** ، وتضادُّهُ حالةٌ تُسمَّى **البطرَ** .

وإنْ كانَ في حربٍ ومقاتلةٍ.. سُمِّيَ **شجاعةً** ، ويضادُّهُ **الجبنُ** .

وإنْ كانَ في كظمِ الغيظِ والغضبِ سُمِّيَ **حلماً** ، ويضادُّهُ **التذمُّرُ** .

وإنْ كانَ في نائبةٍ مِنْ نوائبِ الزمانِ مضجرةٍ.. سُمِّيَ **سعةَ الصدرِ** ، ويضادُّهُ **الضجرُ والتبرُّمُ وضيقُ الصدرِ** .

وإنْ كانَ في إخفاءِ كلامٍ.. سُمِّيَ **كتمانَ السرِّ** ، وسُمِّيَ صاحبُهُ كَتُوماً .

وإنْ كانَ عنْ فضولِ العيشِ.. سُمِّيَ **زهداً** ، ويضادُّهُ **الحرصُ** .

وإنْ كانَ صبراً على قدْرٍ يسيرٍ مِنَ الحظوظِ.. سُمِّي **قناعةً** ، ويضادُّهُ **الشرهُ** .

فأكثرُ أخلاقِ الإيمانِ داخلٌ في الصبرِ ، ولذلكَ لمَّا سُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّةً عنِ الإيمانِ.. قالَ : « هوَ الصبرُ »[1] ؛ لأنَّهُ أكثرُ أعمالِهِ وأعزُّها ؛ كما قالَ : « الحجُّ عرفةُ »[2] .

وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ أقسامَ ذلكَ وسمَّى الكلَّ صبراً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ أيِ : المصيبةِ ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أيِ : الفقرِ ، ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أيِ : المحاربةِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

فإذاً ؛ هٰذهِ أقسامُ الصبرِ باختلافِ متعلَّقاتِها ، ومَنْ يأخذُ المعانيَ مِنَ

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٣١) .
(٢) رواه أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٥٦) .

الأسامي يظنُّ أنَّ هـٰذهِ أحوالٌ مختلفةٌ في ذواتِها وحقائقِها مِنْ حيثُ رأى الأساميَ مختلفةً ، والذي يسلكُ الطريقَ المستقيمَ وينظرُ بنورِ اللهِ . . يلحظُ المعانيَ أوَّلاً ، فيطلعُ علىٰ حقائقِها ، ثمَّ يلاحظُ الأساميَ ؛ فإنَّها وُضعَتْ دلالةً على المعاني ، فالمعاني هيَ الأصولُ ، والألفاظُ هيَ التوابعُ ، ومَنْ يطلبُ الأصولَ مِنَ التوابعِ . . لا بدَّ وأنْ يزلَّ ، وإلى الفريقينِ الإشارةُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فإنَّ الكفارَ لمْ يغلطوا فيما غلطوا فيهِ إلا بمثلِ هـٰذهِ الانعكاساتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ ولطفِهِ .

* * *

بيان انقسام الصّبر بحسب اختلاف القوّة والضّعف

اعلمْ : أنَّ باعثَ الدينِ بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الهوىٰ لهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يقهرَ داعيَ الهوىٰ فلا تبقىٰ لهُ قوَّةُ المنازعةِ :

ويتوصَّلُ إليهِ بدوامِ الصبرِ ، وعندَ هـٰذا يقالُ : (مَنْ صبرَ . ظفرَ) ، والواصلونَ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ همُ الأقلُّونَ ، فلا جرمَ همُ الصدِّيقونَ المقرَّبونَ ، الذينَ قالوا : (ربُّنا اللهُ) ثمَّ استقاموا ، فهؤلاءِ لازموا الطريقَ المستقيمَ ، واستوَوا على الصراطِ القويمِ ، واطمأنَّتْ نفوسُهُمْ علىٰ مقتضىٰ بواعثِ الدينِ ، وإيَّاهُمْ ينادي المنادي : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ تغلبَ دواعي الهوىٰ وتسقطَ بالكليَّةِ منازعةُ باعثِ الدينِ :

فيسلِمُ نفسَهُ إلىٰ جندِ الشياطينِ ، ولا يجاهدُ ليأسِهِ منَ المجاهدةِ ، وهؤلاءِ همُ الغافلونَ ، وهمُ الأكثرونَ ، وهمُ الذينَ استرقَّتْهُمْ شهواتُهُمْ ، وغلبَتْ عليهِمْ شِقْوتُهُمْ ، فحكَّموا أعداءَ اللهِ في قلوبِهِمُ التي هيَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ ، وأمرٌ مِنْ أمورِ اللهِ ، وإليهِمُ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وهؤلاءِ همُ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ،

فخسرَتْ صفقتُهُمْ ، وقيلَ لمَنْ قصدَ إرشادَهُمْ : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ .

وهـٰذهِ الحالةُ علامتُها اليأسُ والقنوطُ والغرورُ بالأمانيِّ ، وهوَ غايةُ الحمقِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[1] .

وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ إذا وُعِظَ . . قالَ : (أنا مشتاقٌ إلى التوبةِ ، ولكنَّها قدْ تعذَّرَتْ عليَّ ، فلستُ أطمعُ فيها) ، أوْ لمْ يكنْ مشتاقاً إلى التوبةِ ، ولكنْ قالَ : (إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ كريمٌ ، فلا حاجةَ بهِ إلىٰ توبتي) .

وهـٰذا المسكينُ قدْ صارَ عقلُهُ رقيقاً لشهوتِهِ ، فلا يستعملُ عقلَهُ إلا في استنباطِ دقائقِ الحيلِ التي بها يتوصَّلُ إلىٰ قضاءِ شهوتِهِ ، فقدْ صارَ عقلُهُ في يدِ شهواتِهِ كمسلمٍ أسيرٍ في أيدي الكفارِ ، فهُمْ يَسْتَسْخِرُونَهُ في رعايةِ الخنازيرِ ، وحفظِ الخمورِ وحملِها ، ومحلُّهُ عندَ اللهِ تعالىٰ محلُّ مَنْ يقهرُ مسلماً ويسلمُهُ إلى الكفارِ ويجعلُهُ أسيراً عندَهُمْ ؛ لأنَّ تفاحشَ جنايتِهِ سببُهُ أنَّهُ سخَّرَ ما كانَ حقُّهُ ألا يستسخرَهُ[2] وسلَّطَ ما حقُّهُ أنْ يُسلَّطَ عليهِ ، وإنَّما

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلاَّم في « غريب الحديث » (٣/ ١٣٤) ، دان نفسه : جعلها منقادة مطيعة لربِّها تعالىٰ ، وتمنَّىٰ على الله : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٧/ ٤٤) .

(٢) في النسخ : (أن يستسخر) بدل (ألا يستسخره) ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي .

استحقَّ المسلمُ أنْ يكونَ متسلِّطاً لما فيهِ مِنْ معرفةِ اللهِ وباعثِ الدينِ ، وإنَّما استحقَّ الكافرُ أن يكونَ متسلَّطاً عليهِ لما فيهِ مِنَ الجهلِ بالدينِ وباعثِ الشياطينِ ، وحقُّ المسلمِ علىٰ نفسِهِ أوجبُ مِنْ حقِّ غيرِهِ عليهِ ، فمهما سخَّرَ المعنى الشريفَ الذي هوَ مِنْ حزبِ اللهِ وجندِ الملائكةِ للمعنى الخسيسِ الذي هوَ مِنْ حزبِ الشياطينِ المبعدينَ عنِ اللهِ تعالىٰ . . كانَ كمَنْ أرقَّ مسلماً لكافرٍ ، بلْ هوَ كمَنْ قصدَ الملكَ المنعِمَ عليهِ فأخذَ أعزَّ أولادِهِ وسلَّمَهُ إلىٰ أبغضِ أعدائِهِ .

فانظرْ كيفَ يكونُ كفرانُهُ لنعمتِهِ ، واستيجابُهُ لنقمتِهِ ؛ لأنَّ الهوىٰ أبغضُ إلـٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والعقلَ أعزُّ موجودٍ خُلِقَ علىٰ وجهِ الأرضِ .

* * *

الحالةُ الثالثةُ : أنْ تكونَ الحربُ سِجالاً بينَ الجندينِ ، فتارةً لهُ اليدُ عليها ، وتارةً لها عليهِ :

وهـٰذا مِنَ المجاهدينَ يُعدُّ مثلُهُ لا مِنَ الظافرينَ ، وأهلُ هـٰذهِ الحالةِ هُمُ الذينَ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِمْ .

هـٰذا باعتبارِ القوّةِ والضعفِ .

ويتطرَّقُ إليهِ أيضاً ثلاثةُ أحوالٍ باعتبارِ عددِ ما يُصبرُ عنهُ ؛ فإنَّهُ إمَّا أنْ يغلبَ جميعَ الشهواتِ ، أوْ لا يغلبَ شيئاً منها ، أوْ يغلبَ بعضَها دونَ

بعضٍ ، وتنزيلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ علىٰ مَنْ عجزَ عنْ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضٍ أولىٰ ، والتاركونَ للمجاهدةِ معَ الشهواتِ مطلقاً يُشبَّهون بالأنعامِ ، بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً ؛ إذِ البهيمةُ لمْ تُخلقْ لها المعرفةُ والقدرةُ التي بها تجاهدُ مقتضى الشهواتِ ، وهٰذا قدْ خُلِقَ ذلكَ لهُ ولكنْ عطَّلَهُ ، فهوَ الناقصُ حقّاً ، المدبرُ يقيناً ، ولذلكَ قيلَ(١) : [من الوافر]

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ عَيْباً كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِينَ عَلَى ٱلتَّمَامِ

* * *

وينقسمُ الصبرُ أيضاً **باعتبارِ اليسرِ والعسرِ** إلىٰ ما يشقُّ على النفسِ فلا يمكنُ الدوامُ عليهِ إلا بجهدٍ جهيدٍ وتعبٍ شديدٍ ، ويُسمَّىٰ ذلك تصبُّراً ، وإلىٰ ما يكونُ مِنْ غيرِ شدَّةِ تعبٍ ، بلْ يحصلُ بأدنىٰ تحاملٍ على النفسِ ، ويُخصُّ ذلكَ باسمِ الصبرِ ، وإذا دامَ التقوىٰ وقويَ التصديقُ بما في العاقبةِ مِنَ الحسنىٰ . . تيسَّرَ الصبرُ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

ومثالُ هٰذهِ القسمةِ قدرةُ المصارعِ علىٰ غيرِهِ ؛ فإنَّ الرجلَ القويَّ يقدرُ علىٰ أنْ يصرعَ الضعيفَ بأدنىٰ حملةٍ وأيسرِ قوَّةٍ ، بحيثُ لا يلقاهُ في مصارعتِهِ إعياءٌ ولا لغوبٌ ، ولا تضطربُ فيهِ نفسُهُ ولا ينبهرُ ، ولا يقوىٰ علىٰ أنْ يصرعَ الشديدَ إلا بتعبٍ ومزيدِ جهدٍ وعرقِ جبينٍ ، فهكذا تكونُ المصارعةُ

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/ ١٤٥) .

بين باعثِ الدينِ وباعثِ الهوىٰ ، فإنَّه على التحقيقِ صراعٌ بينَ جنودِ الملائكةِ وجنودِ الشياطينِ ، ومهما أذعنَتِ الشهواتُ وانقمعَتْ ، وتسلَّطَ باعثُ الدينِ واستولىٰ ، وتيسَّرَ الصبرُ بطولِ المواظبةِ . . أورثَ ذلكَ مقامَ الرضا كما سيأتي في كتابِ الرضا ، فالرضا أعلىٰ مِنَ الصبرِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبدِ اللهَ على الرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »(١) .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (أهلُ الصبرِ علىٰ ثلاثِ مقاماتٍ ؛ أوَّلُها : تركُ الشكوىٰ ، وهـٰذهِ درجةُ التائبينَ ، والثانيةُ : الرضا بالمقدورِ ، وهـٰذهِ درجةُ الزاهدينَ ، والثالثةُ : المحبةُ لما يصنعُ بهِ مولاهُ ، وهـٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ)(٢) .

وسنبيِّنُ في كتابِ المحبَّةِ أنَّ مقامَ المحبَّةِ أعلىٰ مِنْ مقامِ الرضا ؛ كما أنَّ مقامَ الرضا أعلىٰ مِنْ مقامِ الصبرِ ، وكأنَّ هـٰذا الانقسامَ يجري في صبرٍ خاصٍّ ، وهوَ الصبرُ على المصائبِ والبلايا .

واعلمْ : أنَّ الصبرَ أيضاً ينقسمُ **باعتبارِ حكمِهِ** إلىٰ فرضٍ ، ونفلٍ ، ومكروهٍ ، ومحرَّمٍ .

فالصبرُ عنِ المحظوراتِ فرضٌ ، وعلى المكارهِ نفلٌ ، والصبرُ على

---

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٣٠٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٩٩) .

الأذى المحظورِ محظورٌ ؛ كمَنْ تُقطعُ يدُهُ أوْ يدُ ولدِهِ وهوَ يصبرُ عليهِ ساكتاً ، وكمَنْ يُقصدُ حريمُهُ بشهوةٍ محظورةٍ فتهيجُ غيرتُهُ ، فيصبرُ عنْ إظهارِ الغيرةِ ، ويسكتُ علىٰ ما يجري علىٰ أهلِهِ ، فهٰذا الصبرُ محرَّمٌ ، والصبرُ المكروهُ هوَ الصبرُ علىٰ أذىً ينالُهُ بجهةٍ مكروهةٍ في الشرعِ .

فليكنِ الشرعُ محكَّ الصبرِ ، فكونُ الصبرِ نصفَ الإيمانِ لا ينبغي أنْ يُخيَّلَ إليكَ أنَّ جميعَهُ محمودٌ ، بلِ المرادُ بهِ أنواعٌ مِنَ الصبرِ مخصوصةٌ .

* * *

بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر
وأنّ العبد لا يستغني عنه في حالٍ من الأحوال

اعلمْ : أنَّ جميعَ ما يلقى العبدُ في هـٰذهِ الحياةِ لا يخلو مِنْ نوعينِ :

أحدُهُما : هوَ الذي يوافقُ هواهُ .

والآخرُ : هو الذي لا يوافقُهُ بلْ يكرهُهُ .

وهوَ محتاجٌ إلى الصبرِ في كلِّ واحدٍ منهُما ، وهوَ في جميعِ الأحوالِ لا يخلو عنْ أحدِ هـٰذينِ النوعينِ أوْ عنْ كليهِما ، فهو إذاً لا يستغني قطُّ عنِ الصبرِ .

* * *

النوعُ الأوَّلُ : ما يوافقُ الهوىٰ :

وهوَ الصحةُ ، والسلامةُ ، والمالُ ، والجاهُ ، وكثرةُ العشيرةِ ، واتساعُ الأسبابِ ، وكثرةُ الأتباعِ والأنصارِ ، وجميعُ ملاذِّ الدنيا ، وما أحوجَ العبدَ إلى الصبرِ علىٰ هـٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يضبطْ نفسَهُ عنِ الاسترسالِ والركونِ إليها ، والانهماكِ في ملاذِّها المباحةِ منها . أخرجَهُ ذلكَ إلى البطرِ والطغيانِ ، فإنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ العارفينَ : (البلاءُ يصبرُ عليهِ المؤمنُ ، والعوافي لا يصبرُ عليها إلا صدِّيقٌ)(١) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٧) ، والسياق عنده .

وقالَ سهلٌ : (الصبرُ على العافيةِ أشدُّ مِنَ الصبرِ على البلاءِ)(١) .

ولمَّا فُتحَتْ أبوابُ الدنيا على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . قالوا : (ابتلينا بفتنةِ الضرَّاءِ فصبرنا ، وابتلينا بفتنةِ السرَّاءِ فلمْ نصبرْ)(٢) .

ولذلكَ حذَّرَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ مِنْ فتنةِ المالِ والزوجِ والولدِ فقالَ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ محزنةٌ »(٣) .

ولمَّا نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى ابنِهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ يتعثَّرُ في قميصِهِ . نزلَ عنِ المنبرِ واحتضنَهُ ثمَّ قالَ : « صدقَ اللهُ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ ، إنِّي لمَّا رأيتُ ابني يتعثَّرُ . لمْ أملكْ نفسي أنْ أخذتُهُ »(٤) .

ففي ذلكَ عبرةٌ لأولي الأبصارِ .

فالرجلُ كلُّ الرجلِ مَنْ يصبرُ على العافيةِ ، ومعنى الصبرِ عليها : ألا

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٧) .
(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٣٢) .
(٤) رواه أبو داوود (١١٠٩) ، والترمذي (٣٧٧٤) ، والنسائي (٣/ ١٠٨) ، وابن ماجه (٣٦٠٠) ، وقالوا : (الحسن والحسين) رضي الله عنهما .

يركنَ إليها ، ويعلمَ أنَّ كلَّ ذلكَ مستودعٌ عندَهُ ، وعسىٰ أنْ يُسترجعَ على القرْبِ ، وألا يرسلَ نفسَهُ في الفرحِ بها ، ولا ينهمكَ في التنعُّمِ واللذَّةِ واللهوِ واللعبِ ، وأنْ يرعىٰ حقوقَ اللهِ في مالِهِ بالإنفاقِ ، وفي بدنِهِ ببذلِ المعونةِ للخلقِ ، وفي لسانِهِ ببذلِ الصدقِ ، وكذلكَ في سائرِ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ ، وهـٰذا الصبرُ متصلٌ بالشكرِ ، فلا يتمُّ إلا بالقيامِ بحقِّ الشكرِ كما سيأتي .

وإنَّما كانَ الصبرُ على السرَّاءِ أشدَّ لأنَّهُ مقرونٌ بالقدرةِ ، ومِنَ العصمةِ ألا تقدرَ ، والصبرُ على الحجامةِ والفصْدِ إذا تولاَّهُ غيرُكَ أيسرُ مِنَ الصبرِ علىٰ فصدِكَ نفسَكَ وحجامتِكَ نفسَكَ ، والجائعُ عندَ غيبةِ الطعامِ أقدرُ على الصبرِ منهُ إذا حضرَتْهُ الأطعمةُ الطيبةُ اللذيذةُ وقدرَ عليها ، فلهـٰذا عظمَتْ فتنةُ السرَّاءِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الثاني : ما لا يوافقُ الهوىٰ والطبعَ :

وذلكَ لا يخلو : إمَّا أنْ يرتبطَ باختيارِ العبدِ ؛ كالطاعاتِ والمعاصي ، أوْ لا يرتبطَ باختيارِهِ ؛ كالمصائبِ والنوائبِ ، أوْ لا يرتبطَ أوَّلُهُ باختيارِهِ ولكنْ لهُ اختيارٌ في إزالتِهِ ؛ كالتشفِّي مِنَ المؤذي بالانتقامِ منهُ ، فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ .

❁ ❁ ❁

القسمُ الأوَّلُ : ما يرتبطُ باختيارِهِ :

وهوَ سائرُ أفعالِهِ التي تُوصفُ بكونِها طاعةً أوْ معصيةً ، وهما ضربانِ :

الضربُ الأوَّلُ : الطاعةُ : والعبدُ يحتاجُ إلى الصبرِ عليها ، فالصبرُ على الطاعةِ شديدٌ ؛ لأنَّ النفسَ بطبعِها تنفرُ عنِ العبوديةِ ، وتشتهي الربوبيةَ ، ولذلكَ قالَ بعضُ العارفينَ : ما مِنْ نفسٍ إلا وهيَ مضمرةٌ ما أظهرَهُ فرعونُ مِنْ قولِهِ : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ، ولكنْ فرعونُ وجدَ لَهُ مجالاً وقبولاً فأظهرَهُ ؛ إذِ استخفَّ قومَهُ فأطاعوهُ ، وما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ يدَّعي ذلكَ معَ عبدِهِ وخادمِهِ وأتباعِهِ وكلِّ مَنْ هوَ تحتَ قهرِهِ وطاعتِهِ وإنْ كانَ ممتنعاً مِنْ إظهارِهِ ، فإنَّ امتعاضَهُ وغيظَهُ عندَ تقصيرِهِمْ في خدمتِهِ واستبعادَهُ ذلكَ ليسَ يصدرُ إلا عنْ إضمارِ الكبرِ ومنازعةِ الربوبيةِ في رداءِ الكبرياءِ .

فإذاً ؛ العبوديةُ شاقَّةٌ على النفسِ مطلقاً ، ثمَّ مِنَ العباداتِ ما يُكرهُ بسببِ الكسلِ كالصلاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِ البخلِ كالزكاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِهما جميعاً كالحجِّ والجهادِ ، فالصبرُ على الطاعةِ صبرٌ على الشدائدِ ، ويحتاجُ المطيعُ إلى الصبرِ علىٰ طاعتِهِ في ثلاثِ أحوالٍ :

ـ **الحالةُ الأولىٰ : قبلَ الطاعةِ** : وذلكَ في تصحيحِ النيَّةِ ، والإخلاصِ ، والصبرِ عنْ شوائبِ الرياءِ ودواعي الآفاتِ ، وعقدِ العزمِ على الإخلاصِ والوفاءِ ، وذلكَ مِنَ الصبرِ الشديدِ عندَ مَنْ يعرفُ حقيقةَ النيَّةِ والإخلاصِ وآفاتِ الرياءِ ومكايدِ النفسِ ، وقدْ نبَّهَ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ :

« إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ »[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

ولهٰذا المعنىٰ قدَّم اللهُ تعالى الصبرَ على العملِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ .

ـ **الحالةُ الثانيةُ : حالةَ العملِ** : كي لا يغفُلَ عنِ اللهِ تعالىٰ في أثناءِ عملِهِ ، ولا يتكاسلَ عنْ تحقيقِ آدابِهِ وسننِهِ ، ويدومَ علىٰ شرطِ الأدبِ إلىٰ آخرِ العملِ ، فيلازمُ الصبرَ عنْ دواعي الفتورِ إلى الفراغِ ، وهٰذا أيضاً مِنْ شدائدِ الصبرِ ، ولعلَّهُ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أيْ : صبروا إلىٰ تمامِ العملِ .

ـ **الحالةُ الثالثةُ : بعدَ الفراغِ مِنَ العملِ** : إذْ يحتاجُ إلى الصبرِ عنْ إفشائِهِ والتظاهرِ بهِ للسمعةِ والرياءِ ، والصبرِ عنِ النظرِ إليهِ بعينِ العجْبِ ، وعنْ كلِّ ما يبطلُ عملَهُ ويحبطُ أثرَهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ ، فمَنْ لمْ يصبرْ بعدَ الصدقةِ عنِ المنِّ والأذىٰ . . فقدْ أبطلَ عملَهُ .

والطاعاتُ تنقسمُ إلىٰ فرضٍ ونفلٍ ، وهوَ محتاجٌ إلى الصبرِ عليهِما جميعاً ، وقدْ جمعَهما اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ ، فالعدْلُ هوَ الفرضُ ، والإحسانُ هوَ النفلُ ، وإيتاءُ

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

ذي القربىٰ هوَ المروءةُ وصلةُ الرحمِ ، وكلُّ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ صبرٍ .

الضربُ الثاني : المعاصي : فما أحوجَ العبدَ إلى الصبرِ عنها ! وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ أنواعَ المعاصي في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المهاجرُ مَنْ هجرَ السوءَ ، والمجاهدُ مَنْ جاهدَ هواهُ »(١) .

والمعاصي مقتضىٰ باعثِ الهوىٰ ، وأشدُّ أنواعِ الصبرِ عنِ المعاصي الصبرُ عنِ المعاصي التي صارَتْ مألوفةً بالعادةِ ، فإنَّ العادةَ طبيعةٌ خامسةٌ ، فإذا انضافَتِ العادةُ إلى الشهوةِ . . تظاهرَ جندانِ مِنْ جنودِ الشيطانِ علىٰ جندِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يقوىٰ باعثُ الدينِ علىٰ قمعِهما .

ثمَّ إنْ كانَ ذلكَ الفعلُ ممَّا يتيسَّرُ فعلُهُ . . كانَ الصبرُ عنهُ أثقلَ على النفسِ ؛ كالصبرِ عنْ معاصي اللسانِ ؛ مِنَ الغيبةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والثناءِ على النفسِ تعريضاً وتصريحاً ، وأنواعِ المزحِ المؤذي للقلوبِ ، وضروبِ الكلماتِ التي يُقصدُ بها الإزراءُ والاستحقارُ ، وذكرِ الموتىٰ والقدحِ فيهم وفي علومِهِمْ وسيرِهِمْ ومناصبِهِمْ ، فإنَّ ذلكَ في ظاهرِهِ غيبةٌ ،

---

(١) رواه بنحوه الحاكم في « المستدرك » (١ / ١١) ضمن خطبة له صلى الله عليه وسلم من حديث فضالة رضي الله عنه ، ولفظه : « والمجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » .

وفي باطنِهِ ثناءٌ على النفسِ ، فللنفسِ فيهِ شهوتانِ : إحداهُما : نفيُ الغيرِ ، والأخرىٰ : إثباتُ نفسِهِ ، وبهما تتمُّ لهُ الربوبيةُ التي في طبعِهِ ، وهيَ ضدُّ ما أُمرَ بهِ مِنَ العبوديةِ ، ولاجتماعِ الشهوتينِ وتيسُّرِ تحريكِ اللسانِ ، ومصيرِ ذلكَ معتاداً في المحاوراتِ . . يعسرُ الصبرُ عنها، وهيَ أكبرُ الموبقاتِ، حتَّىٰ بطلَ استنكارُها واستقباحُها مِنَ القلوبِ ؛ لكثرةِ تكررِها ، وعمومِ الأنسِ بها ، فترى الإنسانَ يلبسُ حريراً مثلاً فيُستبعدُ ذلكَ منهُ غايةَ الاستبعادِ ، ويطلقُ لسانَهُ طولَ النهارِ في أعراضِ الناسِ ولا يُستنكرُ ذلكَ معَ ما وردَ في الخبرِ مِنْ أنَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزنا(١) ، ومَنْ لمْ يملكْ لسانَهُ في المحاوراتِ ، ولمْ يقدرْ على الصبرِ علىٰ ذلكَ . . فيجبُ عليهِ العزلةُ والانفرادُ ، فلا ينجيهِ غيرُهُ ، فالصبرُ على الانفرادِ أهونُ مِنَ الصبرِ على السكوتِ معَ المخالطةِ .

وتختلفُ شدَّةُ الصبرِ في آحادِ المعاصي باختلافِ داعيةِ تلكَ المعصيةِ في قوَّتِها وضعفِها ، وأيسرُ مِنْ حركةِ اللسانِ حركةُ الخواطرِ باختلاجِ الوساوسِ ، فلا جرمَ يبقىٰ حديثُ النفسِ في العزلةِ ، ولا يمكنُ الصبرُ عنهُ أصلاً ، إلا بأنْ يغلبَ على القلبِ همٌّ آخرُ في الدينِ يستغرقُهُ ؛ كمَنْ أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وإلا . . فإنْ لمْ يستعملِ الفكرَ في شيءٍ معيَّنٍ . . لمْ يُتصوَّرْ فتورُ الوسواسِ عنهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .

القسمُ الثاني : ما لا يرتبطُ هجومُهُ باختيارِهِ ولهُ اختيارٌ في دفعِهِ :

كما لوْ أُوذيَ بفعلٍ أوْ قولٍ ، أوْ جُنِيَ عليهِ في نفسِهِ أوْ مالِهِ ، فالصبرُ علىٰ ذلكَ بتركِ المكافأةِ تارةً يكونُ واجباً ، وتارةً يكونُ فضيلةً .

قالَ بعضُ الصحابةِ : (ما كنَّا نعدُّ إيمانَ الرجلِ إيماناً إذا لمْ يصبرْ على الأذىٰ)(١) .

وقدْ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ في قولِهِ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وقسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً مالاً ، فقالَ بعضُ الأعرابِ مِنَ المسلمينَ : هٰذهِ قسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ ، فأُخبرَ بذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فاحمرَّتْ وجنتاهُ ثمَّ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ، لقدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هٰذا فصبرَ »(٢) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .

---

(١) هو في « القوت » (١/ ١٩٥) بلفظ : (وقال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذىٰ ويصبر عليه إيماناً) .

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أيْ : تصبروا عنِ المكافأةِ ، ولذلكَ مدحَ اللهُ تعالى العافينَ عنْ حقوقِهِمْ في القصاصِ وغيرِه فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلْ مَنْ قطعَكَ ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ ، واعفُ عمَّنْ ظلمَكَ »[(١)] .

ورأيتُ في الإنجيلِ : قالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ : لقدْ قيلَ لكُمْ مِنْ قبلُ[(٢)] : إنَّ السنَّ بالسنِّ والأنفَ بالأنفِ ، وأنا أقولُ لكُمْ : لا تقاوموا الشرَّ بالشرِّ ، بلْ مَنْ ضربَ خدَّكَ الأيمنَ . . فحوِّلْ إليهِ الخدَّ الأيسرَ ، ومَنْ أخذَ رداءَكَ . . فأعطِهِ إزارَكَ ، ومَنْ سخَّرَكَ لتسيرَ معهُ ميلاً . . فسِرْ معَهُ ميلينِ .

وكلُّ ذلكَ أمرٌ بالصبرِ على الأذىٰ ، فالصبرُ علىٰ أذى الناسِ مِنْ أعلىٰ مراتبِ الصبرِ ؛ لأنَّهُ يتعاونُ فيهِ باعثُ الدينِ وباعثُ الشهوةِ والغضبِ جميعاً .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٢٣) .

(٢) أي : في التوراة ، وذلك مصداق قول الحق جل وعلا : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ .

القسمُ الثالثُ : ما لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ أوَّلُهُ وآخرُهُ :

كالمصائبِ ؛ مثلُ موتِ الأعزَّةِ ، وهلاكِ الأموالِ ، وزوالِ الصحَّةِ بالمرضِ ، وعمى العينِ ، وفسادِ الأعضاءِ ، وبالجملةِ سائرُ أنواعِ البلاءِ ، فالصبرُ علىٰ ذلكَ مِنْ أعلىٰ مقاماتِ الصبرِ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (الصبرُ في القرآنِ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ : صبرٌ علىٰ أداءِ فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ ثلاثُ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ عنْ محارمِ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ ستُّ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ على المصيبةِ عندَ الصدمةِ الأولىٰ ، فلهُ تسعُ مئةِ درجةٍ)(١) .

وإنَّما فُضِّلَتْ هـٰذهِ الرتبةُ معَ أنَّها مِنَ الفضائلِ علىٰ ما قبلَها وهيَ مِنَ الفرائضِ . . لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يقدرُ على الصبرِ عنِ المحارمِ ، فأمَّا الصبرُ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ . . فلا يقدرُ عليهِ إلا الأنبياءُ ؛ لأنَّهُ بضاعةُ الصدِّيقينَ ، فإنَّ ذلكَ شديدٌ على النفسِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ مِنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ عليَّ مصائبَ الدنيا »(٢) ، فهـٰذا صبرٌ مستندُهُ حسنُ اليقينِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (واللهِ ؛ ما نصبرُ علىٰ ما نحبُّ ، فكيفَ نصبرُ علىٰ ما نكرَهُ ؟!)(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٩٨) ، وروى الديلمي نحوه مرفوعاً في « مسند الفردوس » (٣٨٤٦) من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٢٨) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٢٥) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا وجَّهتُ إلىٰ عبدٍ مِنْ عبيدي مصيبةً في بدنِهِ أوْ مالِهِ أوْ ولدِهِ ثمَّ استقبلَ ذلكَ بصبرٍ جميلٍ . . استحييتُ منهُ يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ لهُ ميزاناً أوْ أنشرَ لهُ ديواناً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انتظارُ الفرجِ بالصبرِ عبادةٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ مؤمنٍ أُصيبَ بمصيبةٍ فقالَ كما أمرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ أْجُرْني في مصيبتي وأعقبْني خيراً منها . . إلا فعلَ اللهُ ذلكَ بهِ »(٣) .

وقالَ أنسٌ : حدَّثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : « يا جبريلُ ؛ ما جزاءُ مَنْ سلبتُ كريمتيهِ ؟ قالَ : سبحانَكَ لا علمَ لنا إلا ما علمتَنا ، قالَ تعالىٰ : جزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي »(٤) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا ابتليتُ عبدي ببلاءٍ فصبرَ ولمْ يشكُني إلىٰ عوَّادِهِ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً مِنْ لحمِهِ ، ودماً خيراً

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) .

(٣) رواه مسلم (٩١٨) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » .

مِنْ دمِهِ، فإنْ أبرأتُهُ . . أبرأتُهُ ولا ذنبَ لهُ ، وإنْ توفَّيتُهُ . . فإلىٰ رحمتي »(١) .

وقالَ داوودُ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ما جزاءُ الحزينِ الذي يصبرُ على المصائبِ ابتغاءَ مرضاتِكَ ؟ قالَ : جزاؤُهُ أنْ ألبسَهُ لباسَ الإيمانِ فلا أنزعَهُ عنهُ أبداً(٢) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمة اللهِ عليه في خطبتِهِ : (ما أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ نعمةً فانتزعَها منهُ وعوَّضَهُ منها الصبرَ إلا كانَ ما عوَّضَهُ منها أفضلَ ممَّا انتزعَ منهُ) ، وقرأَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣) .

وسُئِلَ الفضيلُ عنِ الصبرِ فقالَ : هوَ الرضا بقضاءِ اللهِ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : الراضي لا يتمنَّىٰ فوقَ منزلتِهِ(٤) .

وقيلَ : حُبسَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ في المارستانِ ، فدخلَ عليهِ جماعةٌ فقالَ: مَنْ أنتُمْ ؟ قالوا : أحباؤُكَ جاؤُوكَ زائرينَ ، فأخذَ يرميهِمْ بالحجارةِ ، فأخذوا يهربونَ منهُ ، فقالَ : لوْ كنتُمْ أحبَّائي . . لصبرتُمْ علىٰ بلائي(٥) .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٣٤٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) عن عطاء بن يسار مرسلاً .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٧) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٨) .
(٤) روى ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (١٦) عن الفضيل يقول : (الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته) .
(٥) الرسالة القشيرية (ص٣٢٨) .

وكانَ بعضُ العارفينَ في جيبِهِ رقعةٌ يخرجُها كلَّ ساعةٍ ويطالعُها ، وكانَ فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(١) .

ويُقالُ : إنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عثرَتْ ، فانقطعَ ظفرُها ، فضحكَتْ ، فقيلَ لها : أما تجدينَ الوجعَ ؟ فقالَتْ : إنَّ لذةَ ثوابِهِ أزالَتْ عنْ قلبي مرارةَ وجعِهِ(٢) .

وقالَ داوودُ لسليمانَ عليهِما السلامُ : (يُستدلُّ علىٰ تقوى المؤمنِ بثلاثٍ : حسنُ التوكلِ فيما لمْ ينلْ ، وحسنُ الرضا فيما قدْ نالَ ، وحسنُ الصبرِ فيما قدْ فاتَ)(٣) .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ إجلالِ اللهِ ومعرفةِ حقِّهِ ألا تشكوَ وجعَكَ ولا تذكرَ مصيبتَكَ »(٤) .

ويُروىٰ عنْ بعضِ الصالحينَ أنَّهُ خرجَ يوماً وفي كمِّهِ صرَّةٌ ، فافتقدَها ،

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٢٨) ولفظه : وقال بعضهم : كنت بمكة ، فرأيت فقيراً طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومرَّ ، فلما كان بالغد.. فعل مثل ذلك ، فترقبته أياماً وهو يفعل مثل ذلك ، فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة ، وتباعد قليلاً وسقط ميتاً ، فأخرجت الرقعة من جيبه ، فإذا فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥١٩) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٦٦) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال : من الصبر ألا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك) . « إتحاف » (٩/ ٢٩) ، وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) أيضاً .

فإذا هيَ قدْ أُخذَتْ مِنْ كمِّهِ ، فقالَ : باركَ اللهُ لهُ فيها ، لعلَّهُ أحوجُ إليها منِّي .

ورُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : مررتُ علىٰ سالمٍ مولىٰ أبي حذيفةَ في القتلىٰ ـ وذلكَ باليمامةِ في ردَّةِ بني حنيفةَ ـ وبهِ رمقٌ ، فقلتُ لهُ : أسقيكَ ماءً ؟ فقالَ : جُرَّني قليلاً إلى العدوِّ واجعلِ الماءَ في الترسِ فإنِّي صائمٌ ، فإنْ عشتُ إلى الليلِ . . شربتُهُ .

فهكذا كانَ صبرُ سالكي طريقِ الآخرةِ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فبماذا تُنالُ درجةُ الصبرِ في المصائبِ وليسَ الأمرُ إلى اختيارِهِ ، فهوَ مضطرٌّ شاءَ أمْ أبىٰ ، فإنْ كانَ المرادُ بهِ ألا تكونَ في نفسِهِ كراهيةٌ للمصيبةِ . . فذلكَ غيرُ داخلٍ في الاختيارِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ إنَّما يخرجُ عنْ مقامِ الصابرينَ بالجزعِ ، وشقِّ الجيوبِ ، وضربِ الخدودِ ، والمبالغةِ في الشكوىٰ ، وإظهارِ الكآبةِ ، وتغييرِ العادةِ في الملبسِ والمفرشِ والمطعمِ ، وهٰذهِ الأمورُ داخلةٌ تحتَ اختيارِهِ ، فينبغي أنْ يجتنبَ جميعَها ، ويظهرَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، ويبقىٰ مستمراً علىٰ عادتِهِ ، ويعتقدَ أنَّ ذلكَ كانَ وديعةً فاسترُجعَتْ ؛ كما رُوِيَ عنِ الرُّميصاءِ أمِّ سُليمٍ رحمها اللهُ أنَّها قالَتْ : تُوفِّيَ ابنٌ لي وزوجي أبو طلحةَ غائبٌ ، فقمتُ فسجَّيتُهُ في ناحيةِ البيتِ ، فقدمَ أبو طلحةَ ، فقمتُ فهيَّأتُ لهُ إفطارَهُ ، فجعلَ

يأكلُ ، وقالَ : كيفَ الصبيُّ ؟ فقلتُ : بأحسنِ حالٍ بحمدِ اللهِ ومنِّهِ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ منذُ اشتكىٰ بأسكنَ منهُ الليلةَ ، ثمَّ تصنَّعتُ لهُ أحسنَ ما كنتُ أتصنَّعُ قبلَ ذلكَ ، حتَّىٰ أصابَ منِّي حاجتَهُ ، ثمَّ قلتُ : ألا تعجبُ مِنْ جيرانِنا ؟ قالَ : وما لهُمْ ؟ قلتُ : أُعيروا عاريةً ، فلمَّا طُلبَتْ منهُمْ واستُرجعتْ.. جزعوا ، فقالَ : بئسَ ما صنعوا ، فقلتُ : هٰذا ابنُكَ كانَ عاريةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّ اللهَ قدْ قبضَهُ إليهِ ، فحمدَ اللهَ واسترجعَ ، ثمَّ غدا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ : « اللهمَّ ؛ باركْ لهُمْ في ليلتِهِمْ » ، قالَ الراوي[1] : فلقدْ رأيتُ لهُمْ بعدَ ذلكَ في المسجدِ سبعةً ، كلُّهُمْ قدْ قرؤوا القرآنَ[2] .

ورَوىٰ جابرٌ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « رأيتُني دخلتُ الجنَّةَ ؛ فإذا أنا بالرُّميصاءِ امرأةِ أبي طلحةَ »[3] .

وقدْ قيلَ : (الصبرُ الجميلُ هوَ ألا يُعرفَ مَنْ صاحبُ المصيبةِ إذْ يشبهُ غيرَهُ)[4] .

ولا يخرجُهُ عنْ حدِّ الصابرينَ توجُّعُ القلبِ ، ولا فيضانُ العينِ بالدمعِ ؛

---

(١) وهو عَباية بن رِفاعة .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٥/١٢٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٥٩) ، وأصله عند البخاري (٥٤٧٠) ، ومسلم (٢١٤٤) .
(٣) رواه البخاري (٣٦٧٩) .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٢٨) بنحوه .

إذْ يكونُ منْ جميعِ الحاضرينَ لأجلِ الموتِ سواءً ، ولأنَّ البكاءَ توجُّعُ القلبِ على الميتِ ؛ فإنَّ ذلكَ مقتضى البشريَّةِ ، ولا يفارقُ الإنسانَ إلى الموتِ ، ولذلكَ لمَّا ماتَ إبراهيمُ ولدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.. فاضَتْ عيناهُ ، فقيلَ لهُ : أما نهيتَنا عنْ هٰذا ؟ فقالَ : « إنَّ هٰذهِ رحمةٌ ، وإنَّما يرحمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرحماءَ »(١) .

بلْ ذلكَ أيضاً لا يخرجُ عنْ مقامِ الرضا ، فالمقدمُ على الفصدِ والحجامةِ راضٍ بهِ وهوَ متألِّمٌ بسببِهِ لا محالةَ ، وقدْ تفيضُ عينُهُ إذا عظمَ ألمُهُ ، وسيأتي ذلكَ في كتابِ الرضا إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وكتبَ ابنُ أبي نَجيحٍ يُعزِّي بعضَ الخلفاءِ فكتبَ : (إنَّ أحقَّ مَنْ عرفَ حقَّ اللهِ تعالىٰ فيما أُخِذَ منهُ مَنْ عظَّمَ حقَّ اللهِ تعالىٰ عندَهُ فيما أبقاهُ لهُ ، واعلمْ أنَّ الماضيَ قبلَكَ هوَ الباقي لكَ ، والباقيَ بعدكَ هوَ المأجورُ فيكَ ، واعلمْ أنَّ أجرَ الصابرينَ فيما يُصابونَ بهِ أعظمُ مِنَ النعمةِ عليهِمْ فيما يُعافَونَ فيهِ)(٢) .

فإذاً ؛ مهما دفعَ الكراهةَ بالتفكُّرِ في نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالثوابِ.. نالَ درجةَ الصابرينَ .

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٢٣١٥) بنحوه ، ووقع هٰذا القول عندما رفع إليه عليه الصلاة والسلام ابن لابنة له كما هو عند البخاري (١٣٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٩٥) .

نعمْ ، مِنْ كمالِ الصبرِ كتمانُ المرضِ والفقرِ وسائرِ المصائبِ ، وقدْ قيلَ : (مِنْ كنوزِ البرِّ كتمانُ المصائبِ والأوجاعِ والصدقةِ)[1] .

فقدْ ظهرَ لكَ بهٰذهِ التقسيماتِ أنَّ وجوبَ الصبرِ عامٌّ في جميعِ الأحوالِ والأفعالِ ، فإنَّ الذي كُفِيَ الشهواتِ كلَّها واعتزلَ وحدَهُ . . فلا يستغني عنِ الصبرِ على العزلةِ والانفرادِ ظاهراً ، وعنِ الصبرِ عنْ وساوسِ الشيطانِ باطناً ، فإنَّ اختلاجَ الخواطرِ لا يسكنُ ، وأكثرُ جولانِ الخاطرِ إنَّما يكونُ في فائتٍ لا تداركَ لهُ ، أوْ في مستقبلٍ لا بدَّ وأنْ يحصلَ منهُ ما هوَ مقدَّرٌ ، فهوَ كيفَما كانَ تضييعُ زمانٍ ، وآلةُ العبدِ قلبُهُ وبضاعتُهُ عمرُهُ ، فإذا غفلَ القلبُ في نَفَسٍ واحدٍ عنْ ذكرٍ يستفيدُ بهِ أنساً باللهِ تعالىٰ ، أوْ عنْ فكرٍ يستفيدُ بهِ معرفةً باللهِ تعالىٰ ليستفيدَ بالمعرفةِ محبةَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مغبونٌ ، هٰذا إنْ كانَ فكرُهُ ووسواسُهُ في المباحاتِ مقصوراً عليهِ ، ولا يكونُ كذلكَ غالباً ، بلْ يتفكَّرُ في وجوهِ الحيلِ لقضاءِ الشهواتِ ؛ إذْ لا يزالُ ينازعُ كلَّ مَنْ تحرَّكَ علىٰ خلافِ غرضِهِ في جميعِ عمرِهِ ، أوْ مَنْ يتوهَّمُ بهِ أنَّهُ ينازعُهُ ويخالفُ أمرَهُ أوْ غرضَهُ بظهورِ أمارةٍ لهُ منهُ ، بلْ يقدِّرُ المخالفةَ مِنْ أخلصِ الناسِ في حبِّهِ ، حتَّىٰ في أهلِهِ وولدِهِ ، ويتوهَّمُ مخالفتَهُمْ لهُ ، ثمَّ يتفكَّرُ في كيفيةِ زجرِهِمْ وكيفيةِ قهرِهِمْ وجوابِهِمْ عمَّا يتعلَّلونَ بهِ في مخالفتِهِ ، ولا يزالُ في شغلٍ دائمٍ .

فللشيطانِ جندانِ ؛ جندٌ يطيرُ ، وجندٌ يسيرُ ، والوسواسُ عبارةٌ عنْ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٧) مرفوعاً .

حركةِ جندِهِ الطيَّارِ ، والشهوةُ عبارةٌ عنْ حركةِ جندِهِ السيَّارِ ، وهـٰذا لأنَّ الشيطانَ خُلِقَ مِنَ النارِ ، وخُلِقَ الإنسانُ مِنْ صلصالٍ كالفخارِ ، والفخارُ قدِ اجتمعَ فيهِ معَ النارِ الطينُ ، والطينُ طبعُهُ السكونُ ، والنارُ طبعُها الحركةُ ، فلا يُتصوَّرُ نارٌ مشتعلةٌ لا تتحرَّكُ ، بلْ لا تزالُ تتحرَّكُ بطبعِها ، وقدْ كُلِّفَ الملعونُ المخلوقُ مِنَ النارِ أنْ يطمئنَّ عنْ حركتِهِ ساجداً لما خُلِقَ مِنَ الطينِ ، فأبىٰ واستكبرَ واستعصىٰ ، وعبَّرَ عنْ سببِ استعصائِهِ بأنْ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ .

فإذاً ؛ حيثُ لمْ يسجدِ الملعونُ لأبينا آدمَ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُطمعَ في سجودِهِ لأولادِهِ ، ومهما كفَّ عنِ القلبِ وسواسَهُ وعدوانَهُ ، وطيرانَهُ وجولانَهُ . . فقدْ أظهرَ انقيادَهُ وإذعانَهُ ، وانقيادُهُ بالإذعانِ سجودٌ منهُ ، فهوَ روحُ السجودِ ، وإنَّما وضْعُ الجبهةِ على الأرضِ قالبُهُ وعلامتُهُ الدالَّةُ بالاصطلاحِ عليهِ ، ولوْ جُعلَ وضعُ الجبهةِ على الأرضِ علامةَ استخفافٍ بالاصطلاحِ . . لتُصوِّرَ ذلكَ ، كما أنَّ الانبطاحَ بينَ يدي المعظَّمِ المحترمِ يُرى استخفافاً بالعادةِ .

فلا ينبغي أنْ يدهشَكَ صدفُ الجوهرِ عنِ الجوهرِ ، وقالبُ الروحِ عنِ الروحِ ، وقشرُ اللبِّ عنِ اللبِّ ، فتكونَ ممَّنْ قيَّدَهُ عالمُ الشهادةِ بالكليَّةِ عنْ عالمِ الغيبِ ، وتحقَّقْ أنَّ الشيطانَ مِنَ المنظرينَ ، فلا يتواضعُ لكَ بالكفِّ عنِ الوسواسِ إلىٰ يومِ الدينِ ، إلا أنْ تصبحَ وهمومُكَ همٌّ واحدٌ ، فتشغلَ قلبَكَ باللهِ وحدَهُ ، فلا يجدُ الملعونُ مجالاً فيكَ ، فعندَ ذلكَ تكونُ مِنْ عبادِ اللهِ

المخلصينَ ، الداخلينَ في الاستثناءِ عنْ سلطنةِ هٰذا اللعينِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّهُ يخلو عنهُ قلبٌ فارغٌ ، بلْ هوَ سيَّالٌ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، وسيلانُهُ مثلُ الهواءِ في القدحِ ، فإنَّكَ إنْ أردتَ أنْ يخلوَ القدحُ عنِ الهواءِ مِنْ غيرِ أنْ تشغلَهُ بالماءِ أوْ بغيرِهِ . . فقدْ طمعتَ في غيرِ مطمعٍ ، بلْ بقدْرِ ما يخلو مِنَ الماءِ يدخلُ فيهِ الهواءُ لا محالةَ ، فكذلكَ القلبُ المشغولُ بفكرٍ مهمٍّ في الدينِ يخلو عنْ جولانِ الشياطينِ ، وإلا . . فمَنْ غفلَ عنِ اللهِ تعالىٰ ولوْ في لحظةٍ فليسَ لهُ في تلكَ اللحظةِ قرينٌ إلا الشيطانُ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يبغضُ الشابَّ الفارغَ »(1) ، وهٰذا لأنَّ الشابَّ إذا تعطَّلَ عنْ عملٍ يشغلُ باطنَهُ بمباحٍ يستعينُ بهِ علىٰ دينِهِ . . كانَ ظاهرُهُ فارغاً ، ولمْ يبقَ قلبُهُ فارغاً ، بلْ يعشِّشُ فيهِ الشيطانُ ويبيضُ ويفرِّخُ ، ثمَّ تزدوجُ أفراخُهُ أيضاً وتبيضُ مرَّةً أخرىٰ وتفرِّخُ ، وهٰكذا يتوالدُ نسلُ الشيطانِ توالداً أسرعَ مِنْ توالدِ سائرِ الحيواناتِ ؛ لأنَّ طبعَهُ مِنَ النارِ ، وإذا وجدَ الحَلْفاءَ اليابسةَ . . كثرَ توالدُهُ ، فلا يزالُ تتوالدُ النارُ مِنَ النارِ ، ولا تنقطعُ ألبتةَ ، بلْ تسري شيئاً فشيئاً على الاتصالِ ، فالشهوةُ في نفسِ

(1) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) . « إتحاف » (٩/ ٣٣) ، وروى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في أمر دنيا ولا آخرة) .

الشابِّ للشيطانِ كالحلفاءِ اليابسةِ للنارِ ، وكما لا تبقى النارُ إذا لَمْ يبقَ لها قوتٌ وهوَ الحطبُ . . فلا يبقىٰ للشيطانِ مجالٌ إذا لَمْ تكنْ شهوةٌ .

فإذاً ؛ إذا تأمَّلتَ . . علمتَ أنَّ أعدىٰ عدوِّكَ شهوتُكَ ، وهيَ صفةُ نفسِكَ ، ولذلكَ قالَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلاَّجُ حينَ كانَ يُصلبُ وقدْ سُئِلَ عنِ التصوُّفِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هيَ نفسُكَ ، إنْ لمْ تشغلْها . . شغلَتْكَ)(1) .

فإذاً ؛ حقيقةُ الصبرِ وكمالُهُ الصبرُ عنْ كلِّ حركةٍ مذمومةٍ ، وحركةُ الباطنِ أولىٰ بالصبرِ عنْ ذلكَ ، وهـٰذا صبرٌ دائمٌ لا يقطعُهُ إلا الموتُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(1) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/١٢٨) .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلمْ : أنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ ووعدَ الشفاءَ ، فالصبرُ وإنْ كانَ شاقّاً أوْ ممتنعاً فتحصيلُهُ يمكنُ بمعجونِ العلمِ والعملِ ، فالعلمُ والعملُ هما الأخلاطُ التي منها تُركبُ الأدويةُ لأمراضِ القلوبِ كلِّها ، ولكنْ يحتاجُ كلُّ مرضٍ إلىٰ علمٍ آخرَ وعملٍ آخرَ .

وكما أنَّ أقسامَ الصبرِ مختلفةٌ فأقسامُ العللِ المانعةِ منهُ مختلفةٌ ، وإذا اختلفَتِ العللُ . . اختلفَ العلاجُ ؛ إذْ معنى العلاجِ مضادَّةُ العلَّةِ وقمعُها ، واستيفاءُ ذلكَ ممَّا يطولُ ، ولكنَّا نعرِّفُ الطريقَ في بعضِ الأمثلةِ فنقولُ :

إذا افتقرَ إلى الصبرِ عنْ شهوةِ الوقاعِ مثلاً وقدْ غلبَتْ عليهِ الشهوةُ بحيثُ ليسَ يملكُ معَها فرجَهُ ، أوْ يملكُ فرجَهُ ولكنْ ليسَ يملكُ عينَهُ ، أوْ يملكُ عينَهُ ولكنْ ليسَ يملكُ قلبَهُ ونفسَهُ ؛ إذْ لا تزالُ تحدِّثُهُ بمقتضياتِ الشهوةِ ، ويصرفُهُ ذلكَ عنِ المواظبةِ على الذكرِ والفكرِ والأعمالِ الصالحةِ . . فنقولُ :

قدْ قدَّمنا أنَّ الصبرَ عبارةٌ عنْ مصارعةِ باعثِ الدينِ معَ باعثِ الهوىٰ ، وكلُّ متصارعينِ أردنا أنْ يغلبَ أحدُهُما الآخرَ فلا طريقَ لنا فيهِ إلا بتقويةِ مَنْ أردنا أنْ تكونَ لهُ اليدُ العليا وتضعيفِ الآخرِ ، فلزمَنا هٰهنا تقويةُ باعثِ الدينِ وتضعيفُ باعثِ الشهوةِ .

* * *

فأمّا باعثُ الشهوةِ . . فسبيلُ تضعيفِهِ ثلاثةُ أمورٍ :

أحدُها : أنْ ننظرَ إلىٰ مادةِ قوتِهِ ، وهيَ الأغذيةُ الطيِّبةُ المحرِّكةُ للشهوةِ مِنْ حيثُ نوعُها ومِنْ حيثُ كثرتُها ، فلا بدَّ مِنْ قطعِها بالصومِ الدائمِ معَ الاقتصارِ عندَ الإفطارِ علىٰ طعامٍ قليلٍ في نفسِهِ ، ضعيفٍ في جنسِهِ ، فيحترزُ مِنَ اللحمِ والأطعمةِ المهيِّجةِ للشهوةِ .

والثاني : قطعُ أسبابِهِ المهيِّجةِ لهُ في الحالِ ، فإنَّهُ إنَّما يهيجُ بالنظرِ إلىٰ مظانِّ الشهوةِ ؛ إذِ النظرُ يحرِّكُ القلبَ ، والقلبُ يحرِّكُ الشهوةَ ، وهـٰذا يحصلُ بالعزلةِ ، والاحترازِ عنْ مظانِّ وقوعِ البصرِ على الصورِ المشتهاةِ ، والفرارِ منها بالكليَّةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ »(١) ، وهـٰذا سهمٌ يسدِّدُهُ الملعونُ ولا ترسَ يمنعُ منهُ إلا تغميضُ الأجفانِ ، أوِ الهربُ مِنْ صوبِ رميِهِ ، فإنَّهُ إنَّما يرمي هـٰذا السهمَ عنْ قوسِ الصورِ ، فإذا انفتلتَ عنْ صوْبِ الصورِ . . لمْ يصبْكَ سهمُهُ .

والثالثُ : تسليةُ النفسِ بالمباحِ مِنَ الجنسِ الذي تشتهيهِ ، وذلكَ بالنكاحِ ، فإنَّ كلَّ ما يشتهيهِ الطبعُ ففي المباحاتِ مِنْ جنسِهِ ما يغني عنِ المحظوراتِ منهُ ، وهـٰذا هوَ العلاجُ الأنفعُ في حقِّ الأكثرِ ، فإنَّ قطعَ الغذاءِ يضعفُ عنْ سائرِ الأعمالِ ، ثمَّ قدْ لا يقمعُ الشهوةَ في حقِّ أكثرِ الرجالِ ،

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٤) .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّ الصومَ لهُ وجاءٌ »(١) .

فهـٰذهِ ثلاثةُ أسبابٍ ، فالعلاجُ الأوَّلُ ـ وهوَ قطعُ الطعامِ ـ يضاهي قطعَ العلفِ عنِ البهيمةِ الجموحِ وعنِ الكلبِ الضاري ليضعفَ فتسقطَ قوَّتُهُ ، والثاني يضاهي تغييبَ اللحمِ عن الكلبِ وتغييبَ الشعيرِ عنِ البهيمةِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ بواطنُها بسببِ مشاهدتِها ، والثالثُ يضاهي تسليتَها بشيءٍ قليلٍ ممَّا يميلُ إليهِ طبعُها حتَّىٰ يبقىٰ معَها مِنَ القوَّةِ ما تصبرُ بهِ على التأديبِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا تقويةُ باعثِ الدينِ . . فإنَّما تكونُ بطريقينِ :

أحدُهُما : إطماعُهُ في فوائدِ المجاهدةِ وثمراتِها في الدينِ والدنيا ، وذلكَ بأنْ يكثرَ فكرُهُ في الأخبارِ التي أوردناها في فضلِ الصبرِ ، وفي حسنِ عواقبِهِ في الدنيا والآخرةِ ، وفي الأثرِ أنَّ ثوابَ الصبرِ على المصيبةِ أكثرُ ممَّا فاتَ(٢) ، وأنَّهُ بسببِ ذلكَ مغبوطٌ بالمصيبةِ ؛ إذْ فاتَهُ ما لا يبقىٰ معَهُ إلا مدَّةَ الحياةِ ، وحصلَ لهُ ما يبقىٰ بعدَ موتِهِ أبدَ الآبادِ ، ومَنْ أسلمَ خسيساً في نفيسٍ . . فلا ينبغي أنْ يحزنَ لفواتِ الخسيسِ في الحالِ .

وهـٰذا مِنْ بابِ المعارفِ ، وهوَ مِنَ الإيمانِ ، فتارةً يضعفُ وتارةً

---

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٨٥٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٨١٩٩) .

(٢) لعله يشير إلىٰ قول ابن عباس رضي الله عنهما : (. . . ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولىٰ ، فله تسع مئة درجة) ، وهو مروي في « القوت » (١/١٩٨) .

يقوىٰ ، فإنْ قويَ . . قويَ باعثُ الدينِ ، وهيَّجَهُ تهييجاً شديداً ، وإنْ ضعفَ . . ضعَّفَهُ ، وإنَّما قوَّةُ الإيمانِ يُعبَّرُ عنها باليقينِ ، وهوَ المحرِّكُ لعزيمةِ الصبرِ ، وأقلُّ ما أُوتيَ الناسُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ[1] .

والثاني : أنْ يعوِّدَ هٰذا الباعثَ مصارعةَ باعثِ الهوىٰ تدريجاً ، قليلاً قليلاً ، حتَّىٰ يدركَ لذَّةَ الظفرِ بها ، فيستجرئَ عليها ، وتقوىٰ مُنَّتُهُ في مصارعتِها ؛ فإنَّ الاعتيادَ والممارسةَ للأعمالِ الشاقَّةِ تؤكِّدُ القوى التي تصدرُ منها تلكَ الأعمالُ ، ولذلكَ تزيدُ قوَّةُ الحمَّالينَ والفلاَّحينَ والمقاتلينَ وبالجملةِ : فقوةُ الممارسينَ للأعمالِ الشاقَّةِ تزيدُ علىٰ قوَّةِ الخيَّاطينَ والعطَّارينَ والفقهاءِ والصالحينَ ، وذلكَ لأنَّ قواهُمْ لمْ تتأكَّدْ بالممارسةِ .

فالعلاجُ الأوَّلُ يضاهي إطماعَ المصارعِ في الخلعةِ عندَ الغلبةِ ، ووعدَهُ بأنواعِ الكرامةِ ؛ كما وعدَ فرعونُ سحرتَهُ عندَ إغرائِهِ إيَّاهُمْ بموسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

والثاني يضاهي تعويدَ الصبيِّ الذي يُرادُ منهُ المصارعةُ والمقاتلةُ بمباشرةِ أسبابِ ذلكَ منذُ الصبا حتَّىٰ يأنسَ بهِ ، ويستجرئَ عليهِ ، وتقوىٰ فيهِ مُنَّتُهُ ، فمَنْ تركَ بالكليَّةِ المجاهدةَ بالصبرِ . . ضعفَ فيهِ باعثُ الدينِ ، ولا يقوىٰ على الشهوةِ وإنْ ضعفَتْ ، ومَنْ عوَّدَ نفسَهُ مخالفةَ الهوىٰ . . غلبَها مهما أرادَ .

فهٰذا منهاجُ العلاجِ في جميعِ أنواعِ الصبرِ ، ولا يمكنُ استيفاؤُهُ ، وإنَّما

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٤) .

أشدُّها كفُّ الباطنِ عنْ حديثِ النفسِ ، وإنَّما يشتدُّ ذلكَ علىٰ مَنْ تفرَّغَ لهُ ؛ بأنْ قمعَ الشهواتِ الظاهرةَ والباطنةَ كلَّها ، وآثرَ العزلةَ ، وجلسَ للمراقبةِ والذكرِ والفكرِ ، فإنَّ الوسواسَ لا يزالُ يجاذبُهُ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ ، وهٰذا لا علاجَ لهُ ألبتةَ إلا قطعُ العلائقِ كلِّها ظاهراً وباطناً ؛ بالفرارِ عنِ الأهلِ والولدِ ، والمالِ والجاهِ ، والرفقاءِ والأصدقاءِ ، والاعتزالِ إلىٰ زاويةٍ بعدَ إحرازِ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ القوتِ ، وبعدَ القناعةِ بهِ .

ثمَّ كلُّ ذلكَ لا يكفي ما لمْ تصرِ الهمومُ همّاً واحداً ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ إذا غلبَ ذلكَ على القلبِ . . فلا يكفي ذلكَ ما لمْ يكنْ لهُ مجالٌ في الفكرِ ، وسيرٌ بالباطنِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وسائرِ أبوابِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ إذا استولىٰ ذلكَ علىٰ قلبِهِ . . دفعَ اشتغالُهُ بذلكَ محادثةَ[1] الشيطانِ ووسواسَهُ .

وإنْ لمْ يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ . . فلا ينجيهِ إلا الأورادُ المتواصلةُ المترتبةُ في كلِّ لحظةٍ ؛ مِنَ القراءةِ ، والأذكارِ ، والصلواتِ ، ويحتاجُ معَ ذلكَ إلىٰ تكليفِ القلبِ الحضورَ ، فإنَّ الفكرَ بالباطنِ هوَ الذي يستغرقُ القلبَ دونَ الأورادِ الظاهرةِ .

ثمَّ إذا فعلَ كلَّ ذلكَ . . لمْ يسلمْ لهُ مِنَ الأوقاتِ إلا بعضُها ؛ إذْ لا يخلو في جميعِ أوقاتِهِ عنْ حوادثَ تتجدَّدُ فتشغلُهُ عنِ الفكرِ والذكرِ ؛ مِنْ مرضٍ ،

---

(١) في (ن) : (بذلك مجاذبة) بدل (بذلك محادثة) .

وخوفٍ ، وإيذاءٍ مِنْ إنسانٍ ، وطغيانٍ مِنْ مخالطٍ ؛ إذْ لا يستغني عنْ مخالطةِ مَنْ يعينُهُ في بعضِ أسبابِ المعيشةِ .

فهٰذا أحدُ الأنواعِ الشاغلةِ .

وأمَّا النوعُ الثاني فهوَ ضروريٌّ أشدُّ ضرورةً مِنَ الأولِ ، وهوَ اشتغالُهُ بالمطعمِ والملبسِ وأسبابِ المعاشِ ، فإنَّ تهيئةَ ذلكَ أيضاً تحوجُ إلىٰ شغلٍ إنْ تولاَّهُ بنفسِهِ ، وإنْ تولاَّهُ غيرُهُ.. فلا يخلو عنْ شغلِ قلبٍ بمَنْ يتولاهُ ، ولكنْ بعدَ قطعِ العلائقِ كلِّها تسلمُ لهُ أكثرَ الأوقاتِ إنْ لمْ تهجمْ عليهِ ملمَّةٌ أوْ واقعةٌ ، وفي تلكَ الأوقاتِ يصفو القلبُ ، ويتيسَّرُ لهُ الفكرُ ، وينكشفُ فيهِ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ما لا يقدرُ علىٰ عُشْرِ عَشيرِهِ في زمانٍ طويلٍ لوْ كانَ مشغولَ القلبِ بالعلائقِ ، والانتهاءُ إلىٰ هٰذا هوَ أقصى المقاماتِ التي يمكنُ أنْ تُنالَ بالاكتسابِ والجهدِ .

فأمَّا مقاديرُ ما ينكشفُ ، ومبالغُ ما يردُ مِنْ لطفِ اللهِ تعالىٰ في الأحوالِ والأعمالِ.. فذلكَ يجري مَجرى الصيدِ ، وهوَ بحسبِ الرزقِ ، فقدْ يقلُّ الجهدُ ويجلُّ الصيدُ ، وقدْ يطولُ الجهدُ ويقلُّ الحظُّ ، والمعوَّلُ وراءَ هٰذا الاجتهادِ علىٰ جذبةٍ مِنْ جذباتِ الرحمٰنِ ، فإنَّها توازي أعمالَ الثقلينِ ، وليسَ ذلكَ باختيارِ العبدِ .

نعمْ ، اختيارُ العبدِ في أنْ يتعرَّضَ لتلكَ الجذبةِ ؛ بأنْ يقطعَ عنْ قلبهِ جواذبَ الدنيا ، فإنَّ المجذوبَ إلىٰ أسفلِ سافلينَ لا ينجذبُ إلىٰ أعلىٰ

علِّيينَ ، وكلُّ منهومٍ بالدنيا فهوَ منجذبٌ إليها ، فقطعُ العلائقِ الجاذبةِ هوَ المرادُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »[1] ، وذلكَ لأنَّ تلكَ النفحاتِ والجذباتِ لها أسبابٌ سماويَّةٌ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وهٰذا مِنْ أعلىٰ أنواعِ الرزقِ ، والأمورُ السماويَّةُ غائبةٌ عنَّا ، فلا ندري متىٰ ييسِّرُ اللهُ أسبابَ الرزقِ ، فما علينا إلا تفريغُ المحلِّ والانتظارُ لنزولِ الرحمةِ وبلوغِ الكتابِ أجلَهُ ؛ كالذي يصلحُ الأرضَ وينقِّيها مِنَ الحشيشِ ، ويبثُّ البذرَ فيها ، وكلُّ ذلكَ لا ينفعُهُ إلا بمطرٍ ، ولا يدري متىٰ يقدِّرُ اللهُ أسبابَ المطرِ ، إلا أنَّهُ يثقُ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ أنَّهُ لا يخلي سنةً عنْ مطرٍ ، فكذلكَ قلَّما تخلو سنةٌ وشهرٌ ويومٌ عنْ جذبةٍ مِنَ الجذباتِ ونفحةٍ مِنَ النفحاتِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ قدْ طهَّرَ القلبَ مِنْ حشيشِ الشهواتِ ، وبذرَ فيهِ بذرَ الإرادةِ والإخلاصِ ، وعرضَهُ لمهابِّ رياحِ الرحمةِ ، وكما يقوى انتظارُ الأمطارِ في أوقاتِ الربيعِ وعندَ ظهورِ الغيمِ . . فيقوى انتظارُ تلكَ النفحاتِ في الأوقاتِ الشريفةِ وعند اجتماعِ الهممِ وتساعدِ القلوبِ ؛ كما في يومِ عرفةَ ، ويومِ الجمعةِ ، وأيامِ رمضانَ ؛ فإنَّ الهممَ والأنفاسَ أسبابٌ بحكمِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ لاستدرارِ رحمتِهِ ، حتَّىٰ تستدرُّ بها الأمطارُ في أوقاتِ الاستسقاءِ ، وهي لاستدرارِ أمطارِ المكاشفاتِ ولطائفِ المعارفِ مِنْ خزائنِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٣٣٩) بنحوه .

الملكوتِ أشدُّ مناسبةً منها لاستدرارِ قطراتِ الماءِ واستجرارِ الغيومِ مِنْ أقطارِ الجبالِ والبحارِ .

بلِ الأحوالُ والمكاشفاتُ حاضرةٌ معَكَ في قلبِكَ ، وإنَّما أنتَ مشغولٌ عنها بعلائقِكَ وشهواتِكَ ، فصارَ ذلكَ حجاباً بينَكَ وبينَها ، فلا تحتاجُ إلا إلىٰ أنْ تكسرَ البثقَ[1] ، ويُرفعَ الحجابُ ، فتُشرقُ أنوارُ المعارفِ مِنْ باطنِ القلبِ ، وإظهارُ ماءِ الأرضِ بحفْرِ القُنىٰ أسهلُ وأقربُ مِنِ استنزالِ الماءِ إليها مِنْ مكانٍ بعيدٍ منخفضٍ عنها ، ولكونِهِ حاضراً في القلبِ ومنسيّاً بالشغلِ عنهُ سمَّى اللهُ تعالىٰ جميعَ معارفِ الإيمانِ تذكُّراً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

فهٰذا هوَ علاجُ الصبرِ عنِ الوساوسِ والشواغلِ ، وهوَ آخرُ درجاتِ الصبرِ .

وإنَّما الصبرُ عنِ العلائقِ كلِّها مقدَّمٌ على الصبرِ عنِ الخواطرِ ، قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (المسيرُ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ سهلٌ على المؤمنِ ، وهجرانُ الخلقِ في جنبِ الحقِّ شديدٌ ، والمسيرُ مِنَ النفسِ إلى اللهِ تعالىٰ صعبٌ شديدٌ ، والصبرُ معَ اللهِ أشدُّ)[2] .

---

(١) البثق : اسم الموضع الذي حفره الماء ، واسم للمكان المكسور ، واستعمال هٰذه اللفظة يناسب قوله : (بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك) ، وفي (ب) : (تكسر النفس) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٢٤) .

فذكرَ شدةَ الصبرِ عنْ شواغلِ القلبِ ، ثمَّ شدةَ هجرانِ الخلقِ ، وأشدُّ العلائقِ على النفسِ علاقةُ الخلقِ وحبُّ الجاهِ ؛ فإنَّ لذةَ الرئاسةِ والغلبةِ والاستعلاءِ والاستتباعِ أغلبُ اللذاتِ في الدنيا علىٰ نفوسِ العقلاءِ ، وكيفَ لا تكونُ أغلبَ اللذاتِ ومطلوبُها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالى وهيَ الربوبيةُ ؟! والربوبيةُ محبوبةٌ ومطلوبةٌ بالطبعِ للقلبِ ؛ لما فيهِ مِنَ المناسبةِ للأمورِ الربوبيةِ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ .

وليسَ القلبُ مذموماً علىٰ حبِّهِ ذلكَ ، وإنَّما هوَ مذمومٌ علىٰ غلطٍ وقعَ لهُ بسببِ تغريرِ الشيطانِ اللعينِ المبعدِ عنْ عالمِ الأمرِ ، إذْ حسدَهُ علىٰ كونِهِ مِنْ عالمِ الأمرِ ، فأضلَّهُ وأغواهُ ، وكيفَ يكونُ مذموماً عليهِ وهوَ يطلبُ سعادةَ الآخرةِ ؟! ليسَ يطلبُ إلا بقاءً لا فناءَ فيهِ ، وعزّاً لا ذلَّ فيهِ ، وأمناً لا خوفَ فيهِ ، وغنىً لا فقرَ فيهِ ، وكمالاً لا نقصانَ فيهِ ، وهاذهِ كلُّها مِنْ أوصافِ الربوبيَّةِ ، وليسَ مذموماً علىٰ طلبِ ذلكَ ، بلْ حقُّ كلِّ عبدٍ أنْ يطلبَ ملكاً عظيماً لا آخرَ لهُ ، وطالبُ الملكِ طالبٌ للعلوِّ والعزِّ والكمالِ لا محالةَ ، ولكنِ الملكُ ملكانِ :

ملكٌ مشوبٌ بأنواعِ الآلامِ ، وملحوقٌ بسرعةِ الانصرامِ ، ولكنَّهُ عاجلٌ ، وهوَ في الدنيا .

وملكٌ مخلَّدٌ دائمٌ لا يشوبُهُ كدرٌ ولا ألمٌ ، ولا يقطعُهُ قاطعٌ ، ولكنَّهُ آجلٌ .

وقدْ خُلقَ الإنسانُ عجولاً راغباً في العاجلةِ ، فجاءَ الشيطانُ وتوسَّلَ إليهِ بواسطةِ العجلةِ التي في طبعِهِ ، فاستغواهُ بالعاجلةِ ، وزيَّنَ لهُ الحاضرةَ ، وتوسَّلَ إليهِ بواسطةِ الحمقِ ، فوعدَهُ بالغرورِ في الآخرةِ ، ومنَّاهُ معَ ملكِ الدنيا ملكَ الآخرةِ ، كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »(١) ، فانخدعَ المخذولُ بغرورِهِ ، واشتغلَ بطلبِ عزِّ الدنيا وملكِها علىٰ قدْرِ إمكانِهِ ، ولمْ يتدلَّ الموفَّقُ بحبلِ غرورِهِ ؛ إذْ علمَ مداخلَ مكْرِهِ ، فأعرضَ عنِ العاجلةِ ، فعُبِّرَ عنِ المخذولينَ وقيلَ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

ولمَّا استطارَ مكرُ الشيطانِ في كافَّةِ الخلقِ . . أرسلَ اللهُ الملائكةَ إلى الرسلِ ، فأوحَوا إليهِمْ ما تمَّ على الخلقِ مِنْ إهلاكِ العدوِّ وإغوائِهِ ، فاشتغلوا بدعوةِ الخلقِ إلى الملْكِ الحقيقيِّ عنِ الملْكِ المجازيِّ الذي لا أصلَ لهُ إنْ سلمَ ، ولا دوامَ لهُ أصلاً ، فنادَوا فيهِمْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

فالتوراةُ والإنجيلُ والزبورُ والفرقانُ وصحفُ موسىٰ وإبراهيمَ وكلُّ كتابٍ منزلٍ.. ما أُنزلَ إلا لدعوةِ الخلقِ إلى الملْكِ الدائمِ المخلَّدِ ، والمرادُ منهُمْ أنْ يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرةِ ، أمَّا ملكُ الدنيا.. فبالزهدِ فيها ، والقناعةِ باليسيرِ منها ، وأمَّا ملكُ الآخرةِ.. فبالقربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بدرْكِ بقاءٍ لا فناءَ فيهِ ، وعزٍّ لا ذلَّ فيهِ ، وقرَّةِ عينٍ أُخفيَتْ في هـٰذا العالمِ لا تعلمُها نفسٌ مِنَ النفوسِ .

والشيطانُ يدعوهُمْ إلىٰ ملكِ الدنيا لعلمِهِ بأنَّ ملكَ الآخرةِ يفوتُ بهِ ؛ إذِ الدنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، ولعلمِهِ بأنَّ الدنيا لا تسلمُ لهُ أيضاً ، ولوْ كانَتْ تسلمُ لهُ.. لكانَ يحسدُهُ أيضاً ، ولكنْ ملكُ الدنيا لا يخلو عنِ المنازعاتِ والمكدِّراتِ وطولِ الهمومِ في التدبيراتِ ، وكذا سائرُ أسبابِ الجاهِ ، ثمَّ كما تسلمُ وتتمُّ الأسبابُ ينقضي العمرُ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ ﴾ ، فضربَ اللهُ تعالىٰ لها مثلاً فقالَ : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ .

والزهدُ في الدنيا لمَّا أنْ كانَ ملكاً حاضراً.. حسدَهُ الشيطانُ عليهِ ، فصدَّهُ عنهُ ، ومعنى الزهدِ : أنْ يملكَ العبدُ شهوتَهُ وغضبَهُ ، فينقادانِ لباعثِ الدينِ وإشارةِ الإيمانِ ، وهـٰذا ملكٌ بالاستحقاقِ ؛ إذْ بهِ يصيرُ صاحبُهُ حرّاً ، وباستيلاءِ الشهوةِ عليهِ يصيرُ عبداً لفرجِهِ وبطنِهِ وسائرِ أغراضِهِ ، فيكونُ

مسخَّراً مثلَ البهيمةِ ، مملوكاً يستجرُّهُ زمامُ الشهوةِ آخذاً بمُخَنَّقِهِ إلىٰ حيثُ يريدُ ويهوىٰ .

فما أعظمَ اغترارَ الإنسانِ ! إذْ ظنَّ أنَّهُ ينالُ الملكَ بأنْ يصيرَ مملوكاً ، وينالُ الربوبيّةَ بأنْ يصيرَ عبداً ! ومثلُ هـٰذا هلْ يكونُ إلا معكوساً في الدنيا ، منكوساً في الآخرةِ ؟!

ولهـٰذا قالَ بعضُ الملوكِ لبعضِ الزهَّادِ : هلْ مِنْ حاجةٍ ؟ فقالَ : كيفَ أطلبُ منكَ حاجةً وملكي أعظمُ مِنْ ملكِكَ ، فقالَ : كيفَ ؟ قالَ : مَنْ أنتَ عبدُهُ فهوَ عبدٌ لي ، فقالَ : كيفَ ذلكَ ؟ قالَ : أنتَ عبدُ شهوتِكَ وغضبِكَ وفرجِكَ وبطنِكَ ، وقدْ ملكتُ هؤلاءِ كلَّهُمْ فهُمْ عبيدٌ لي(١) .

فهـٰذا إذاً هوَ الملكُ في الدنيا ، وهوَ الذي يسوقُ إلى الملكِ في الآخرةِ ، فالمنخدعونَ بغرورِ الشيطانِ خسروا الدنيا والآخرةَ جميعاً ، والذين وُفِّقوا للاشتدادِ على الصراطِ المستقيمِ فازوا بالدنيا والآخرةِ جميعاً .

فإذا عرفتَ الآنَ معنى الملْكِ والربوبيّةِ ، ومعنى التسخيرِ والعبوديةِ ، ومدخلَ الغلطِ في ذلكَ ، وكيفَ تعميةُ الشيطانِ وتلبيسُهُ . يسهلُ عليكَ النزوعُ عنِ الملكِ والجاهِ والإعراضُ عنهما ، والصبرُ عندَ فواتِهما ؛ إذْ تصيرُ بتركِهما ملكاً في الحالِ ، وترجو بهِ ملْكاً في الآخرةِ .

---

(١) وممن حكي عنه هـٰذا بعد عصر المصنف الشيخُ الجليل أبو الغيث بن جميل ، انظر « الإرشاد والتطريز » (ص ١٤٢) .

ومَنْ كُوشفَ بهـٰذهِ الأمورِ بعدَ أنْ ألفَ الجاهَ وأنسَ بهِ ورسخَتْ فيهِ بالعادةِ مباشرةُ أسبابِهِ.. فلا يكفيهِ في العلاجِ مجرَّدُ العلمِ والكشفِ، بلْ لا بدَّ وأنْ يضيفَ إليهِ العملَ، وعملُهُ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنْ يهربَ عنْ موضعِ الجاهِ كي لا يشاهدَ أسبابَهُ، فيعسرَ عليهِ الصبرُ معَ الأسبابِ؛ كما يهربُ مَنْ غلبَتْهُ الشهوةُ عنْ مشاهدةِ الصورِ المحرِّكةِ، ومَنْ لمْ يفعلْ هـٰذا.. فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في سعةِ الأرضِ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

الثاني : أنْ يكلِّفَ نفسَهُ في أعمالِهِ أفعالاً تخالفُ ما اعتادَهُ، فيبدِّلُ التكلُّفَ بالتبذُّلِ، وزيَّ الحشمةِ بزيِّ التواضعِ، وكذلكَ كلُّ هيئةٍ وحالٍ وفعلٍ في مسكنٍ وملبسٍ ومطعمٍ وقيامٍ وقعودٍ كانَ يعتادُهُ وفاءً بمقتضىٰ جاهِهِ، فينبغي أنْ يبدِّلَها بنقائضِها، حتَّىٰ يرسخَ باعتيادِ ذلكَ ضدُّ ما رسخَ فيهِ مِنْ قبلُ باعتيادِ ضدِّهِ، فلا معنىٰ للمعالجةِ إلا المضادَّةُ .

الثالثُ : أنْ يراعيَ في ذلكَ التلطُّفَ والتدريجَ، فلا ينتقلَ دفعةً واحدةً إلى الطرفِ الأقصىٰ مِنَ التبذُّلِ، فإنَّ الطبعَ نفورٌ، ولا يمكنُ نقلُهُ عنْ أخلاقِهِ إلا بالتدريجِ، فيتركُ البعضَ ويسلِّي نفسَهُ بالبعضِ، ثمَّ إذا قنعَتْ نفسُهُ بذلكَ البعضِ.. ابتدأَ بتركِ البعضِ مِنْ ذلكَ البعضِ، إلىٰ أنْ يقنعَ بالبقيَّةِ، وهـٰكذا يفعلُ شيئاً فشيئاً، إلىٰ أنْ يقمعَ تلكَ الصفاتِ التي رسخَتْ فيهِ .

وإلىٰ هـٰذا التدريجِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هـٰذا الدِّينَ

متينٌ ، فأوغلْ فيهِ برفقٍ ، ولا تبغِّضْ إلىٰ نفسِكَ عبادةَ اللهِ ؛ فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطعَ ولا ظهراً أبقىٰ »(1) .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تشادُّوا هـٰذا الدينَ ؛ فإنَّ مَنْ يشادُّهُ يغلبْهُ »(2) .

فإذاً ؛ ما ذكرناهُ في علاجِ الصبرِ عنِ الوسواسِ وعنِ الشهوةِ وعنِ الجاهِ . . أضفْهُ إلىٰ ما ذكرناهُ مِنْ قوانينِ طرقِ المجاهدةِ في كتابِ رياضةِ النفسِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ واتخذْهُ دستورَكَ ؛ لتعرفَ بهِ علاجَ الصبرِ في جميعِ الأقسامِ التي فصلناها مِنْ قبلُ ؛ فإنَّ تفصيلَ الآحادِ يطولُ ، ومَنْ راعى التدريجَ . . ترقَّىٰ بهِ الصبرُ إلىٰ حالةٍ يشقُّ عليهِ الصبرُ دونَهُ كما كانَ يشقُّ عليهِ الصبرُ معَهُ ، فتنعكسُ أمورُهُ ، فيصيرُ ما كانَ محبوباً عندَهُ ممقوتاً ، وما كانَ مكروهاً عندَهُ مشرباً هنيئاً لا يصبرُ عنهُ ، وهـٰذا لا يُعرفُ إلا بالتجربةِ والذوقِ ، ولهُ نظيرٌ في العاداتِ ، فإنَّ الصبيَّ يُحملُ على التعلُّمِ في الابتداءِ قهراً ، فيشقُّ عليهِ الصبرُ عنِ اللعبِ والصبرُ معَ العلمِ ، حتَّىٰ إذا انفتحَتْ بصيرتُهُ وأنسَ بالعلمِ . . انقلبَ الأمرُ ، فصارَ يشقُّ عليهِ الصبرُ عنِ العلمِ والصبرُ على اللعبِ .

وإلىٰ هـٰذا يشيرُ ما حُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّهُ سألَ الشبليَّ عنِ الصبرِ :

---

(1) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٦٠٢) .
(2) رواه البخاري (٣٩) بنحوه .

أيُّهُ أشدُّ ؟ فقالَ : الصبرُ في اللهِ تعالىٰ ، فقالَ : لا ، فقالَ : الصبرُ للهِ ، قالَ : لا ، قالَ : الصبرُ معَ اللهِ ، قالَ : لا ، قالَ : فأيشٍ ؟ قالَ : الصبرُ عنِ اللهِ ، فصرخَ الشبليُّ صرخةً كادَتْ روحُهُ تتلفُ(١) .

وقدْ قيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ : (اصبروا في اللهِ ، وصابروا باللهِ ، ورابطوا معَ اللهِ)(٢) .

وقيلَ : (الصبرُ للهِ عناءٌ(٣) ، والصبرُ باللهِ بقاءٌ ، والصبرُ معَ اللهِ وفاءٌ ، والصبرُ عنِ اللهِ جفاءٌ)(٤) .

وقدْ قيلَ في معناهُ(٥) : [من البسيط]

وَٱلصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عَواقِبُهُ ... وَٱلصَّبْرُ فِي سائِرِ ٱلأَشْياءِ مَحْمُودُ

وقيلَ أيضاً(٦) : [من الرجز]

اَلصَّبْرُ يَجْمُلُ فِي ٱلْمَواطِنِ كُلِّها ... إلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لا يَجْمُلُ

هـٰذا آخرُ ما أردنا شرحَهُ مِنْ علومِ الصبرِ وأسرارِهِ .

* * *

---

(١) الخبر عند الطوسي في « اللمع » (ص٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٢٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٣٢٧) .
(٣) في غير (ب ، د) : (غنىً) بدل (عناء) .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٢٧) .
(٥) البيت للحلاج . انظر « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار (١٩/ ٨٩) .
(٦) البيت للشبلي في « ديوانه » (ص١١٩) .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الشّكر

ولهُ ثلاثةُ أركانٍ :

الركنُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الشكرِ وحقيقتِهِ ، وأقسامِهِ وأحكامِهِ .

الركنُ الثاني : في حقيقةِ النعمةِ ، وأقسامِها الخاصَّةِ والعامَّةِ .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ الأفضلِ مِنَ الصبرِ والشكرِ .

الرّكن الأوّل : في نفس الشّكر

بيان فضيلة الشّكر

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قرنَ الشكرَ بالذكرِ في كتابِهِ معَ أنَّه قالَ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ إخباراً عنْ إبليسَ اللعينِ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، قيلَ : هوَ طريقُ الشكرِ(١) .

---

(١) قوت القلوب (١/٢٠٣) .

ولعلوِّ رتبةِ الشكرِ طعنَ اللعينُ في الخلقِ فقالَ : ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ .

وقدْ قطعَ اللهُ تعالىٰ بالمزيدِ معَ الشكرِ ولمْ يستثنِ فقالَ تعالىٰ : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ، واستثنىٰ في خمسةِ أشياءَ ؛ في الإغناءِ ، والإجابةِ ، والرزقِ ، والمغفرةِ ، والتوبةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ ، وقالَ : ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ ، وقالَ : ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ، وقالَ : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ، وقالَ : ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ .

وهوَ خلقٌ مِنْ أخلاقِ الربوبيّةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

وقدْ جعلَ اللهُ الشكرَ مفتاحَ كلامِ أهلِ الجنةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ ، وقالَ : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

❁ ❁ ❁

وأمّا الأخبار :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ »(١) .

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

ورُوِيَ عنْ عطاءٍ أنَّهُ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فقلتُ : أخبرينا بأعجبِ ما رأيتِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبكَتْ وقالَتْ : وأيُّ شأنِهِ لمْ يكنْ عجباً ؟! إنَّهُ أتاني ليلةً فدخلَ معي في فراشي ـ أوْ قالَتْ : في لحافي ـ حتَّىٰ مسَّ جلدُهُ جلدِي ، ثمَّ قالَ : « يا بنةَ أبي بكرٍ ؛ ذريني أتعبَّدُ لربِّي ؟ » ، قالَتْ : قلتُ : إنِّي أحبُّ قربَكَ لكنِّي أوثرُ هواكَ ، فأذنتُ لهُ ، فقامَ إلىٰ قربةِ ماءٍ ، فتوضَّأَ فلمْ يكثرْ صبَّ الماءِ ، ثمَّ قامَ يصلِّي ، فبكىٰ حتَّىٰ سالَتْ دموعُهُ علىٰ صدرِهِ ، ثمَّ ركعَ فبكىٰ ، ثمَّ سجدَ فبكىٰ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فبكىٰ ، فلمْ يزلْ كذلكَ حتَّىٰ جاءَ بلالٌ فآذنَهُ بالصلاةِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ قالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ، ولِمَ لا أفعلُ وقدْ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليَّ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآياتِ ؟! »(1) .

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ البكاءَ ينبغي ألا ينقطعَ أبداً ، وإلىٰ هٰذا السرِّ يشيرُ ما رُوِيَ أنَّهُ مرَّ بعضُ الأنبياءِ بحجرٍ صغيرٍ يخرجُ منهُ ماءٌ كثيرٌ ، فتعجَّبَ منهُ ، فأنطقَهُ اللهُ تعالىٰ فقالَ : منذُ سمعتُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ فأنا أبكي مِنْ خوفِهِ ، فسألَهُ أنْ يجيرَهُ مِنَ النارِ ، فأجارَهُ ، ثمَّ رآهُ بعدَ مدَّةٍ

---

(1) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٢١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣١٠) ، عن عطاء ومعه عبيد بن عمير رحمهما الله تعالىٰ ، ورواه مختصراً من حديثها رضي الله عنها مسلم (٢٨٢٠) .

مثلَ ذلكَ ، فقالَ : لِمَ تبكي الآنَ ؟ فقالَ : ذلكَ بكاءُ الخوفِ ، وهٰذا بكاءُ الشكرِ والسرورِ[1] .

وقلبُ العبدِ كالحجارةِ أوْ أشدُّ قسوةً ، ولا تزولُ قسوتُهُ إلا بالبكاءِ في حالِ الخوفِ والشكرِ جميعاً .

ورُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُنادىٰ يومَ القيامةِ : ليقمِ الحمَّادونَ ، فتقومُ زمرةٌ ، فيُنصبُ لهُمْ لواءٌ فيدخلونَ الجنَّةَ » ، قيلَ : ومَنِ الحمَّادونَ ؟ قالَ : « الذينَ يشكرونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « على السرَّاءِ والضرَّاءِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحمدُ رداءُ الرحمٰنِ »[3] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ أيوبَ عليهِ السلامُ : (إنِّي رضيتُ بالشكرِ مكافأةً مِنْ أوليائي) في كلامٍ طويلٍ[4] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ أيضاً في صفةِ الصابرينَ : (دارُهُمْ دارُ السلامِ ،

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٦) بالروايتين ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٦٩) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٥) حيث قال : (وفي الخبر . . .) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١/ ٢٦) عن الضحاك ولم يرفعه ، وتقدم : « الكبرياء رداؤه » .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) .

إذا دخلوها . . ألهمتُهُمُ الشكرَ وهوَ خيرُ الكلامِ ، وعندَ الشكرِ أستزيدُهُمْ ، وبالنظرِ إليَّ أزيدُهُمْ)(١) .

ولمَّا نزلَ في الكنوزِ ما نزلَ(٢) . . قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : فأيَّ المالِ نتخذُ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليتخذْ أحدُكُمْ لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً »(٣) ، فأمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باقتناءِ القلبِ الشاكرِ بدلاً مِنَ المالِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الشكرُ نصفُ الإيمانِ)(٤) .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٤) .

(٢) وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ . « إتحاف » (٩/ ٤٨) .

(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) .

بيان حدّ الشكر وحقيقته

اعلمْ : أنَّ الشكرَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وهوَ أيضاً ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ هوَ الأصلُ ، فيورثُ الحالَ ، والحالُ يورثُ العملَ .

أمَّا العلمُ : فهوَ معرفةُ النعمةِ مِنَ المنعِمِ ، **والحالُ** : هوَ الفرحُ الحاصلُ بإنعامِهِ ، **والعملُ** : هوَ القيامُ بما هوَ مقصودُ المنعِمِ ومحبوبُهُ ، ويتعلَّقُ ذلكَ العملُ بالقلبِ وبالجوارحِ وباللسانِ ، ولا بدَّ مِنْ بيانِ جميعِ ذلكَ ليحصلَ بمجموعِهِ الإحاطةُ بحقيقةِ الشكرِ ، فإنَّ كلَّ ما قيلَ في حدِّ الشكرِ قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بكمالِ معانيهِ .

❁ ❁ ❁

فالأصلُ الأوَّلُ : العلمُ :

وهوَ علمٌ بثلاثةِ أمورٍ : بعينِ النعمةِ ، ووجهِ كونِها نعمةً في حقِّهِ ، وبذاتِ المنعمِ ووجودِ صفاتِهِ التي بها يتمُّ الإنعامُ ويصدرُ الإنعامُ منهُ عليهِ ، فإنَّهُ لا بدَّ مِنْ نعمةٍ ومنعِمٍ ومنعَمٍ عليهِ تصلُ إليهِ النعمةُ مِنَ المنعِمِ بقصدٍ وإرادةٍ ، فهـٰذهِ الأمورُ لا بدَّ مِنْ معرفتِها ، هـٰذا في حقِّ غيرِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا يتمُّ الإيمانُ إلا بأنْ يعرفَ أنَّ النعمَ كلَّها مِنَ اللهِ ، وأنَّهُ هوَ المنعمُ ، والوسائطَ مسخرونَ مِنْ جهتِهِ ، وهـٰذهِ المعرفةُ وراءَ التقديسِ والتوحيدِ ؛ إذْ دخلَ التقديسُ والتوحيدُ فيها ، بلِ الرتبةُ الأولىٰ

في معارفِ الإيمانِ التقديسُ ، ثمَّ إذا عرفَ ذاتاً مقدسةً.. فيعرفُ أنَّهُ لا مقدَّسَ إلا واحدٌ ، وما عداهُ غيرُ مقدَّسٍ ، وهوَ التوحيدُ ، ثمَّ يعلمُ أنَّ كلَّ ما في العالمِ فهوَ موجودٌ مِنْ ذلكَ الواحدِ فقطْ ، فالكلُّ نعمةٌ منهُ ، فتقعُ هٰذهِ المعرفةُ في الرتبةِ الثالثةِ ؛ إذْ ينطوي فيها معَ التقديسِ والتوحيدِ كمالُ القدرةِ والانفرادُ بالفعلِ ، وعنْ هٰذا عبَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ.. فلهُ عشرُ حسناتٍ ، ومَنْ قالَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ.. فلهُ عشرونَ حسنةً ، ومَنْ قالَ : الحمدُ للهِ.. فلهُ ثلاثونَ حسنةً »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الذكرِ لا إلٰه إلا اللهُ ، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ للهِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الأذكارِ يُضاعفُ كما يُضاعفُ الحمدُ للهِ »(٣) .

ولا تظنَّنَّ أنَّ هٰذهِ الحسناتِ بإزاءِ تحريكِ اللسانِ بهٰذهِ الكلماتِ مِنْ غيرِ حصولِ معانيها في القلبِ ، فسبحانَ اللهِ كلمةٌ تدلُّ على التقديسِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ كلمةٌ تدلُّ على التوحيدِ ، والحمدُ للهِ كلمةٌ تدلُّ علىٰ معرفةِ النعمةِ مِنَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٥) .
(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٥) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٨٣) من كلام إبراهيم النخعي بلفظ : (إن الحمد لله أكثر الكلام تضعيفاً) .

الواحدِ الحقِّ ، فالحسناتُ بإزاءِ هٰذهِ المعارفِ التي هيَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ واليقينِ .

واعلمْ : أنَّ تمامَ هٰذهِ المعرفةِ ينفي الشركَ في الأفعالِ ، فمَنْ أنعمَ عليهِ ملكٌ مِنَ الملوكِ بشيءٍ ؛ فإنْ رأىٰ لوزيرِهِ أوْ لوكيلِهِ دخلاً في تيسيرِ ذلكَ وإيصالِهِ إليهِ . . فهوَ إشراكٌ بهِ في النعمةِ ، فلا يرى النعمةَ مِنَ الملكِ مِنْ كلِّ وجهٍ ، بلْ منهُ بوجهٍ ، ومنْ غيرِهِ بوجهٍ ، فيتوزَّعُ فرحُهُ عليهما ، فلا يكونُ موحداً في حقِّ الملكِ .

نعمْ ، لا يغضُّ مِنْ توحيدِهِ في حقِّ الملكِ وكمالِ شكرِهِ أنْ يرى النعمةَ الواصلةَ إليهِ بتوقيعِهِ الذي كتبَهُ بقلمِهِ ، وبالكاغدِ الذي كتبَهُ عليهِ ، فإنَّهُ لا يفرحُ بالقلمِ والكاغدِ ولا يشكرُهُما ؛ لأنَّهُ لا يثبتُ لهما دخلاً مِنْ حيثُ هما موجودانِ بأنفسِهِما ، بلْ مِنْ حيثُ هما مسخَّرانِ تحتَ قدرةِ الملكِ ، وقدْ يعلمُ أنَّ الوكيلَ الموصلَ والخازنَ أيضاً مضطرانِ مِنْ جهةِ الملكِ في الإيصالِ ، وأنَّهُ لوْ ردَّ الأمرَ إليهِ ولمْ يكنْ مِنْ جهةِ الملكِ إرهاقٌ وأمرٌ جزْمٌ يخافُ عاقبتَهُ . . لما سلَّمَ إليهِ شيئاً ، فإذا عرفَ ذلكَ . . كانَ نظرُهُ إلى الخازنِ الموصلِ كنظرِهِ إلى القلمِ والكاغدِ ، فلا يورثُ ذلكَ شركاً في توحيدِهِ مِنْ إضافةِ النعمةِ إلى الملكِ .

وكذلكَ مَنْ عرفَ اللهَ سبحانَهُ وعرفَ أفعالَهُ . . علمَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٌ بأمرِهِ كالقلمِ مثلاً في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ الحيواناتِ التي لها

اختيارٌ مسخَّراتٌ في نفسِ اختيارِها ، فإنَّ اللهَ هوَ المسلِّطُ للدواعي عليها لتفعلَ شاءَتْ أمْ أبتْ ؛ كالخازنِ المضطرِّ الذي لا يجدُ سبيلاً إلىٰ مخالفةِ الملكِ ، ولوْ خُلِّيَ ونفسَهُ.. لما أعطاكَ ذرَّةً ممَّا في يدِهِ ، فكلُّ مَنْ وصلَ إليكَ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ يدِهِ فهوَ مضطرٌّ ؛ إذْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ الإرادةَ وهيَّجَ عليهِ الدواعيَ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ خيرَهُ في الدنيا والآخرةِ في أنْ يعطيَكَ ما أعطاكَ ، وأنَّ غرضَهُ المقصودَ عندَهُ في الحالِ والمآلِ لا يحصلُ إلا بهِ ، وبعدَ أنْ خلقَ اللهُ لهُ هٰذا الاعتقادَ.. فلا يجدُ سبيلاً إلىٰ تركِهِ ، فهوَ إذاً إنَّما يعطيكَ لغرضِ نفسِهِ لا لغرضِكَ ، ولوْ لمْ يكنْ غرضُهُ في العطاءِ.. لما أعطاكَ ، ولوْ لمْ يعلمْ أنَّ منفعتَهُ في منفعتِكَ.. لما نفعَكَ ، فهوَ إذاً إنَّما يطلبُ نفعَ نفسِهِ بنفعِكَ ، فليسَ منعماً عليكَ ، بلِ اتخذَكَ وسيلةً إلىٰ نعمةٍ أخرىٰ هوَ يرجوها ، وإنَّما الذي أنعمَ عليكَ هوَ الذي سخَّرَهُ لكَ ، وألقىٰ في قلبِهِ مِنَ الاعتقاداتِ والإراداتِ ما صارَ بهِ مضطراً إلى الإيصالِ إليكَ .

فإنْ عرفتَ الأمورَ كذلكَ.. فقدْ عرفتَ اللهَ وعرفتَ فعلَهُ ، وكنتَ موحِّداً ، وقدرتَ علىٰ شكرِهِ ، بلْ كنتَ بهٰذهِ المعرفةِ بمجرَّدِها شاكراً .

ولذلكَ قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ في مناجاتِهِ : إلٰهي ؛ خلقتَ آدمَ بيدِكَ ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيفَ شكرَكَ ؟ فقالَ : علمَ أنَّ كلَّ ذلكَ منِّي ، فكانَتْ معرفتُهُ شكراً[١] .

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٣١٣) ، ورواه بنحوه هناد في « الزهد » (٧٧٧) .

فإذاً ؛ لا شكرَ إلا بأنْ تعرفَ أنَّ الكلَّ منهُ ، فإنْ خالجَكَ ريبٌ في هـٰذا . . لمْ تكنْ عارفاً لا بالنعمةِ ولا بالمنعمِ ، فلا تفرحُ بالمنعمِ وحدَهُ بلْ بغيرِهِ ، فبنقصانِ معرفتِكَ ينقصُ حالُكَ في الفرحِ ، وبنقصانِ فرحِكَ ينقصُ عملُكَ .

فهـٰذا بيانُ هـٰذا الأصلِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثاني : الحالُ المستمدَّةُ مِنْ أصلِ المعرفةِ :

وهوَ الفرحُ بالمنعمِ معَ هيئةِ الخضوعِ والتواضعِ ، وهوَ أيضاً في نفسِهِ شكرٌ علىٰ تجرُّدِهِ ؛ كما أنَّ المعرفةَ شكرٌ ، ولكنْ إنَّما يكونُ شكراً إذا كانَ جامعاً شروطَهُ ، وشرطُهُ أنْ يكونَ فرحُكَ بالمنعمِ لا بالنعمةِ ولا بالإنعامِ ، ولعلَّ هـٰذا ممَّا يتعذَّرُ عليكَ فهمُهُ ، فنضربُ لكَ مثلاً فنقولُ :

الملكُ الذي يريدُ الخروجَ إلىٰ سفرٍ فأنعمَ بفرسٍ علىٰ إنسانٍ يُتصوَّرُ أنْ يفرحَ المنعَمُ عليهِ بالفرسِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنْ يفرحَ بالفرسِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، وإنَّهُ مالٌ يُنتفعُ بهِ ، ومركوبٌ يوافقُ غرضَهُ ، وإنَّهُ جوادٌ نفيسٌ ، وهـٰذا فرحُ مَنْ لا حظَّ لهُ في الملكِ ، بلْ غرضُهُ الفرسُ فقطْ ، ولوْ وجدَهُ في صحراءَ فأخذَهُ . . لكانَ فرحُهُ مثلَ هـٰذا الفرحِ .

الوجهُ الثاني : أنْ يفرحَ بهِ لا مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، بلْ مِنْ حيثُ يستدلُّ بهِ علىٰ عنايةِ الملكِ بهِ وشفقتِهِ عليهِ واهتمامِهِ بجانبِهِ ، حتَّىٰ لوْ وجدَ هـٰذا

الفرسَ في صحراءَ أوْ أعطاهُ إيّاهُ غيرُ الملكِ . . لكانَ لا يفرحُ بهِ أصلاً ؛ لاستغنائِهِ عنِ الفرسِ أصلاً ، واستحقارِهِ لهُ بالإضافةِ إلىٰ مطلوبِهِ مِنْ نيلِ المحلِّ في قلبِ الملكِ .

الوجهُ الثالثُ : أنْ يفرحَ بهِ ليركبَهُ فيخرجَ في خدمةِ الملكِ ويحتملَ مشقَّةَ السفرِ لينالَ بخدمتِهِ رتبةَ القرْبِ منهُ ، وربَّما يرتقي إلىٰ درجةِ الوزارةِ ، مِنْ حيثُ إنَّهُ ليسَ يقنعُ بأنْ يكونَ محلُّهُ في قلبِ الملكِ أنْ يعطيَهُ فرساً ويُعنىٰ بهِ هـٰذا القدرَ مِنَ العنايةِ ، بلْ هوَ طالبٌ لئلا ينعمَ الملكُ بشيءٍ مِنْ مالِهِ علىٰ أحدٍ إلا بواسطتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ ليسَ يريدُ مِنَ الوزارةِ الوزارةَ أيضاً ، بلْ يريدُ مشاهدةَ الملكِ والقرْبَ منهُ ، حتَّىٰ لوْ خُيِّرَ بينَ القرْبِ دونَ الوزارةِ ، وبينَ الوزارةِ دونَ القربِ . . لاختارَ القرْبَ .

فهـٰذهِ ثلاثُ درجاتٍ .

فالأولىٰ لا يدخلُ فيها معنى الشكرِ أصلاً ؛ لأنَّ نظرَ صاحبِها مقصورٌ على الفرسِ ، ففرحُهُ بالفرسِ لا بالمعطي ، وهـٰذا حالُ كلِّ مَنْ فرحَ بنعمةٍ مِنْ حيثُ إنَّها لذيذةٌ وموافقةٌ لغرضِهِ ، فهوَ بعيدٌ عنْ معنى الشكرِ .

والثانيةُ داخلةٌ في معنى الشكرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرحٌ بالمنعِمِ ، ولكنْ لا مِنْ حيثُ ذاتُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ معرفةُ عنايتِهِ التي تستحثُّهُ على الإنعامِ في المستقبلِ ، وهـٰذا حالُ الصالحينَ الذينَ يعبدونَ اللهَ ويشكرونَهُ خوفاً مِنْ عقابِهِ ورجاءً لثوابِهِ .

وإنَّما الشكرُ التامُّ في الفرحِ الثالثِ ، وهوَ أنْ يكونَ فرحُ العبدِ بنعمةِ اللهِ

مِنْ حيثُ إنَّهُ يقدرُ بها على التوصُّلِ إلى القرْبِ منهُ تعالىٰ والنزولِ في جوارِهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ على الدوامِ ، فهٰذا هوَ الرتبةُ العليا ، **وأمارتُهُ** : ألا يفرحَ مِنَ الدنيا إلا بما هوَ مزرعةُ الآخرةِ ويعينُهُ عليها ، ويحزنَ بكلِّ نعمةٍ تلهيهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتصدُّهُ عنْ سبيلِهِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يريدُ النعمةَ لأنَّها لذيذةٌ كما لمْ يردْ صاحبُ الفرسِ الفرسَ لأنَّهُ جوادٌ ومهملجٌ[1] ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يحملُهُ في صحبةِ الملكِ حتَّىٰ تدومَ مشاهدتُهُ لهُ وقربُهُ منهُ ، ولذلكَ قالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (الشكرُ رؤيةُ المنعِمِ لا رؤيةُ النعمةِ)[2] .

وقالَ الخوَّاصُ : (شكرُ العامَّةِ على المطعمِ والملبسِ والمشربِ ، وشكرُ الخاصَّةِ علىٰ وارداتِ القلوبِ)[3] .

وهٰذهِ رتبةٌ لا يدركُها كلُّ مَنِ انحصرَتْ عندَهُ اللذَّاتُ في البطنِ والفرجِ ومدركاتِ الحواسِّ مِنَ الألوانِ والأصواتِ وخلا عنْ لذَّةِ القلبِ ، فإنَّ القلبَ لا يلتذُّ في حالِ الصحةِ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ ومعرفتِهِ ولقائِهِ ، وإنَّما يلتذُّ بغيرِهِ إذا مرضَ بسوءِ العاداتِ كما يلتذُّ بعضُ الناسِ بأكلِ الطينِ ، وكما يستبشعُ بعضُ المرضى الأشياءَ الحلوةَ ويستحلي الأشياءَ المرَّةَ ، كما قيلَ[4] : [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْماءَ ٱلزُّلالا

---

(١) **المهملج** : لفظة فارسية ، السريع السير في بخترة وحسن .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٣١٢) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٣١٢) .
(٤) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٨) .

فإذاً ؛ هـٰذا شرطُ الفرحِ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لمْ تكنْ إبلٌ . . فمِعْزىً ، فإنْ لمْ يكنْ هـٰذا . . فالدرجةُ الثانيةُ ، أمَّا الأولىٰ . . فخارجةٌ عنْ كلِّ حسابٍ ، فكمْ مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ الملكَ للفرسِ ، ومَنْ يريدُ الفرسَ للملكِ ، وكمْ مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ اللهَ لينعمَ عليهِ ، وبينَ مَنْ يريدُ نعمَ اللهِ ليصلَ بها إليهِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثالثُ : العملُ بموجَبِ الفرحِ الحاصلِ مِنْ معرفةِ المنعمِ :

وهـٰذا العملُ يتعلَّقُ بالقلبِ ، وباللسانِ ، وبالجوارحِ .

أمَّا بالقلبِ . . فقصدُ الخيرِ وإضمارُهُ لكافَّةِ الخلقِ .

وأمَّا باللسانِ . . فإظهارُ الشكرِ للهِ تعالىٰ بالتحميداتِ الدالَّةِ عليهِ .

وأمَّا بالجوارحِ . . فاستعمالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في طاعتِهِ ، والتوقي مِنَ الاستعانةِ بها علىٰ معصيتِهِ ، حتَّىٰ إنَّ شكرَ العينينِ أنْ تسترَ كلَّ عيبٍ تراهُ لمسلمٍ ، وشكرَ الأذنينِ أنْ تسترَ كلَّ عيبٍ تسمعُهُ فيهِ ، فيدخلُ هـٰذا في جملةِ شكرِ النعمِ لهـٰذهِ الأعضاءِ ، والشكرُ باللسانِ لإظهارِ الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مأمورٌ بهِ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « كيفَ أصبحتَ ؟ » فقالَ : بخيرٍ ، فأعادَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ السؤالَ ، فأعادَ الرجلُ الجوابَ ، حتَّىٰ قالَ في الثالثةِ : بخيرٍ أحمدُ اللهَ وأشكرُهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هـٰذا الذي أردتُ منكَ »[1] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٤) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٣٧) ، والطبراني في « الدعاء » (١٩٣٩) من حديث فضيل بن عمرو معضلاً بنحوه ، ورواه في =

وكانَ السلفُ يتساءلونَ ونيَّتُهُمُ استخراجُ الشكرِ للهِ تعالىٰ ؛ ليكونَ الشاكرُ مطيعاً ، والمستنطقُ لهُ بهِ مطيعاً ، وما كانَ قصدُهُمُ الرياءَ بإظهارِ الشوقِ[1] .

وكلُّ عبدٍ سُئِلَ عنْ حالٍ فهوَ بينَ أنْ يشكرَ أوْ يشكوَ أوْ يسكتَ ، فالشكرُ طاعةٌ ، والشكوىٰ معصيةٌ قبيحةٌ مِنْ أهلِ الدينِ ، وكيفَ لا تقبحُ الشكوىٰ مِنْ ملكِ الملوكِ وبيدِهِ كلُّ شيءٍ إلىٰ عبدٍ مملوكٍ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ ؟! فالأحرىٰ بالعبدِ إنْ لمْ يحسنِ الصبرَ على البلاءِ والقضاءِ ، وأفضىٰ بهِ الضعفُ إلى الشكوىٰ . أنْ تكونَ شكواهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فهوَ المبلي وهوَ القادرُ علىٰ إزالةِ البلاءِ ، وذلُّ العبدِ لمولاهُ عزٌّ ، والشكوىٰ إلى غيرِهِ ذلٌّ ، وإظهارُ الذلِّ للعبيدِ معَ كونِهِمْ أذلاَّءَ قبيحٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ .

فالشكرُ باللسانِ مِنْ جملةِ الشكرِ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ وفداً قدموا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فقامَ شابٌّ ليتكلَّمَ ، فقالَ عمرُ : الكبرَ الكبرَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لوْ كانَ

= « الأوسط » (٤٣٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وليس فيه ذكر تكرار السؤال .

(١) فقد روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٦١) عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب، وسلَّمَ عليه رجل فردَّ عليه السلام ، ثم سأل عمرُ الرجلَ : كيف أنت ؟ فقال : أحمد إليك الله ، فقال عمر : ذلك الذي أردت منك .

الأمرُ بالسنِّ . . لكانَ في المسلمينَ مَنْ هوَ أسنُّ منكَ ، فقالَ : تكلَّمْ ، فقالَ : لسنا وفدَ الرغبةِ ، ولا وفدَ الرهبةِ ، أمَّا الرغبةُ . . فقدْ أوصلَها إلينا فضلُكَ ، وأمَّا الرهبةُ . . فقدْ آمَنَنا منها عدلُكَ ، وإنَّما نحنُ وفدُ الشكرِ ، جئناكَ نشكرُكَ باللسانِ وننصرفُ[1] .

فهٰذهِ هيَ أصولُ معاني الشكرِ المحيطةُ بمجموعِ حقيقتِهِ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا قولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ علىٰ وجهِ الخضوعِ)[2] . . فهوَ نظرٌ إلىٰ فعلِ اللسانِ معَ بعضِ أحوالِ القلبِ .

وقولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الثناءُ على المحسنِ بذكرِ إحسانِهِ)[3] نظرٌ إلىٰ مجرَّدِ عملِ اللسانِ .

وقولُ القائلِ : (إنَّ الشكرَ هوَ اعتكافٌ علىٰ بساطِ الشهودِ بإدامةِ حفظِ الحرمةِ)[4] جامعٌ لأكثرِ معاني الشكرِ ، لا يشذُّ منهُ إلا عملُ اللسانِ .

وقولُ حمدونِ القصارِ : (شكرُ النعمةِ أنْ ترىٰ نفسَكَ في الشكرِ طفيليّاً)[5]

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٨/ ١٣٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٩٤) ، وكذا أورده القشيري في « رسالته » (ص٣١٤) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٣١١) .

(٣) هٰذا ما جعله حقيقة الشكر الإمام القشيري في تفسيره « لطائف الإشارات » (١/ ٣٨٠) ، وأورده في « رسالته » (ص٣١١) .

(٤) وهو شكر القلب كما أورده القشيري في « رسالته » (ص٣١١) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص٣١١) .

إشارةٌ إلىٰ أنَّ معنى المعرفةِ مِنْ معاني الشكرِ فقطْ .

وقولُ الجنيدِ : (الشكرُ ألاَّ ترىٰ نفسَكَ أهلاً للنعمةِ)(١) إشارةٌ إلىٰ حالٍ مِنْ أحوالِ القلبِ على الخصوصِ .

وهؤلاءِ أقوالُهُمْ تعربُ عنْ أحوالِهِمْ ، ولذلكَ تختلفُ أجوبتُهُمْ ولا تتفقُ ، ثمَّ قدْ يختلفُ جوابُ كلٍّ واحدٍ في حالتينِ ؛ لأنَّهُمْ لا يتكلَّمونَ إلا عنْ حالتِهِمُ الراهنةِ الغالبةِ عليهِمْ ؛ اشتغالاً بما يهمُّهُمْ عمَّا لا يهمُّهُمْ ، أوْ يتكلَّمونَ بما يرونَهُ لائقاً بحالِ السائلِ ؛ اقتصاراً علىٰ ذكرِ القدْرِ الذي يحتاجُ إليهِ ، وإعراضاً عمَّا لا يحتاجُ إليهِ ، فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ ما ذكرناهُ طعنٌ عليهِمْ ، وأنَّهُ لوْ عُرِضَ عليهِمْ جميعُ المعاني التي شرحناها.. كانوا ينكرونَها ، بلْ لا يُظَنُّ ذلكَ بعاقلٍ أصلاً ، إلا أنْ تُفرضَ منازعةٌ مِنْ حيثُ اللفظُ في أنَّ اسمَ الشكرِ في وضعِ اللسانِ هلْ يشملُ جميعَ المعاني ، أمْ يتناولُ بعضَها مقصوداً وبقيةُ المعاني تكونُ مِنْ توابعِها ولوازمِها ؟

ولسنا نقصدُ في هٰذا الكتابِ شرحَ موضوعاتِ اللغاتِ ، فليسَ ذلكَ مِنْ علمِ طريقِ الآخرةِ في شيءٍ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ .

* * *

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٢) .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ

لعلَّهُ يخطرُ ببالِكَ : أنَّ الشكرَ إنَّما يُعقلُ في حقِّ منعِمٍ هوَ صاحبُ حظٍّ في الشكرِ ، فإنَّا نشكرُ الملوكَ إمَّا بالثناءِ ليزيدَ محلُّهُمْ في القلوبِ ، ويظهرَ كرمُهُمْ عندَ الناسِ فيزيدَ بهِ صيتُهُمْ وجاهُهُمْ ، أوْ بالخدمةِ التي هيَ إعانةٌ لهُمْ علىٰ بعضِ أغراضِهِمْ ، أوْ بالمثولِ بينَ أيديهِمْ في صورةِ الخدمِ وذلكَ تكثيرٌ لسوادِهِمْ وسببٌ لزيادةِ جاهِهِمْ ، فلا يكونُ شاكراً لهُمْ إلا بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، وهـٰذا محالٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنِ الحظوظِ والأغراضِ ، مقدَّسٌ عنِ الحاجةِ إلى الخدمةِ والإعانةِ ، وعنْ نشرِ الجاهِ والحشمةِ بالثناءِ والإطراءِ ، وعنْ تكثيرِ سوادِ الخدمِ بالمثولِ بينَ يديهِ راكعاً أوْ ساجداً ، فشكرُنا إيَّاهُ بما لا حظَّ لهُ فيهِ يضاهي شكرَنا الملكَ المنعِمَ علينا بأنْ ننامَ في بيوتِنا أوْ نسجدَ أوْ نركعَ ؛ إذْ لا حظَّ للملكِ فيهِ وهوَ غائبٌ لا علمَ لهُ ، ولا حظَّ للهِ تعالىٰ في أفعالِنا كلِّها .

والوجهُ الثاني : أنَّ جميعَ ما نتعاطاهُ باختيارِنا فهوَ نعمةٌ أخرىٰ علينا مِنْ نعمِ اللهِ ؛ إذْ جوارحُنا وقدرتُنا وإرادتُنا وداعيتُنا وسائرُ الأمورِ التي هيَ أسبابُ حركتِنا ونفسُ حركتِنا . . مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ونعمتِهِ ، فكيفَ نشكرُ نعمتَهُ بنعمتِهِ ؟ ولوْ أعطانا الملكُ مركوباً ، فأخذنا مركوباً آخرَ لهُ وركبناهُ أوْ أعطانا الملكُ مركوباً آخرَ . . لمْ يكنِ الثاني شكراً للأوَّلِ منَّا ، بلْ كانَ الثاني يحتاجُ

إلىٰ شكرٍ كما يحتاجُ الأوَّلُ ، ثمَّ لا يمكنُ شكرُ الشكرِ إلا بنعمةٍ أخرىٰ ، فيؤدي ذلكَ إلىٰ أنْ يكونَ الشكرُ محالاً في حقِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ هـٰذينِ الوجهينِ ، ولسنا نشكُّ في الأمرينِ جميعاً ، والشرعُ قدْ وردَ بهِ ، فكيفَ السبيلُ إلى الجمعِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الخاطرَ قدْ خطرَ لداوودَ عليهِ السلامُ ، وكذلكَ لموسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ : يا ربِّ ، كيفَ أشكرُكَ وأنا لا أستطيعُ أنْ أشكرَكَ إلا بنعمةٍ ثانيةٍ مِنْ نعمِكَ ؟ وفي لفظٍ آخرَ : وشكري لكَ نعمةٌ أخرىٰ منكَ توجبُ عليَّ الشكرَ لكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إذا عرفتَ هـٰذا.. فقدْ شكرتَني ، وفي خبرٍ آخرَ : إذا عرفتَ أنَّ النعمَ منِّي.. رضيتُ منكَ بذلكَ شكراً(١) .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ السؤالَ وفهمي قاصرٌ عنْ إدراكِ معنىٰ ما أُوحيَ إليهِمْ ، فإنّي أعلمُ استحالةَ الشكرِ للهِ تعالىٰ ، فأمَّا كونُ العلمِ باستحالةِ الشكرِ شكراً.. فلا أفهمُهُ ، فإنَّ هـٰذا العلمَ أيضاً نعمةٌ منهُ ، فكيفَ صارَ شكراً ؟ وكأنَّ الحاصلَ يرجعُ إلىٰ أنَّ مَنْ لمْ يشكرْ فقدْ شكرَ ، وأنَّ قبولَ الخلعةِ الثانيةِ مِنَ الملكِ شكرٌ للخلعةِ الأولىٰ ، والفهمُ قاصرٌ عنْ دركِ السرِّ فيهِ ، فإنْ أمكنَ تعريفُ ذلكَ بمثالٍ ؛ فهوَ مهمٌّ في نفسِهِ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٤) .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا قرعُ بابٍ مِنَ المعارفِ ، وهيَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ ، ولكنَّا نشيرُ منها إلىٰ ملامحَ ونقولُ : هـٰهنا نظرانِ :

نظرٌ بعينِ التوحيدِ المحضِ : وهـٰذا النظرُ يعرِّفُكَ قطعاً أنَّهُ الشاكرُ وأنَّهُ المشكورُ ، وأنَّهُ المحبُّ وأنَّهُ المحبوبُ ، وهـٰذا نظرُ مَنْ عرفَ أنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، وأنَّ ذلكَ صدقٌ في كلِّ حالٍ أزلاً وأبداً ؛ لأنَّ الغيرَ هوَ الذي يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ بنفسِهِ قوامٌ ، ومثلُ هـٰذا الغيرِ لا وجودَ لهُ ، بلْ هوَ محالٌ أنْ يوجدَ ؛ إذِ الموجودُ المحقَّقُ هوَ القائمُ بنفسِهِ ، وما ليسَ لهُ بنفسِهِ قوامٌ فليسَ لهُ بنفسِهِ وجودٌ ، بلْ هوَ قائمٌ بغيرِهِ ، فهوَ موجودٌ بغيرِهِ ، فإنِ اعتُبِرَ ذاتُهُ ولمْ يُلتفَتْ إلىٰ غيرِهِ . . لمْ يكنْ لهُ وجودٌ ألبتةَ ، وإنَّما الموجودُ هوَ القائمُ بنفسِهِ ، والقائمُ بنفسِهِ هوَ الذي لوْ قُدِّرَ عدمُ غيرِهِ . . بقيَ موجوداً ، فإنْ كانَ معَ قيامِهِ بنفسِهِ يقومُ بوجودِهِ وجودُ غيرِهِ . . فهوَ قيُّومٌ ، ولا قيُّومَ إلا واحدٌ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ غيرُ ذلكَ .

فإذاً ؛ ليسَ في الوجودِ غيرُ الحيِّ القيُّومِ ، وهوَ الواحدُ الصمدُ ، فإنْ نظرتَ مِنْ هـٰذا المقامِ . . علمتَ أنَّ الكلَّ منهُ مصدرُهُ ، وإليهِ مرجعُهُ ، فهوَ الشاكرُ وهوَ المشكورُ ، وهوَ المحبُّ وهوَ المحبوبُ .

ومِنْ هـٰهنا نظرَ حبيبُ بنُ أبي حبيبٍ حيثُ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فقالَ : (وا عجباهُ ! أعطىٰ وأثنىٰ)[1] ، أشارَ إلىٰ أنَّهُ

---

(١) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٧) .

إذا أثنىٰ علىٰ عطائِهِ . . فعلىٰ نفسِهِ أثنىٰ ، فهوَ المثني وهوَ المثنىٰ عليهِ .

ومِنْ هٰهنا نظرَ الشيخُ أبو سعيدٍ المِيهَنِيُّ حيثُ قُرِئَ بينَ يديهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فقالَ : (لعمري يحبُّهُمْ ، ودعْهُ يحبُّهُم ، فبحقٍّ يحبُّهُمْ لأنَّهُ إنَّما يحبُّ نفسَهُ) ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّهُ المحبُّ وأنَّهُ المحبوبُ .

وهٰذهِ رتبةٌ عاليةٌ لا تفهمُها إلا بمثالٍ علىٰ حدِّ عقلِكَ ، ولا يخفىٰ عليكَ أنَّ المصنِّفَ إذا أحبَّ تصنيفَهُ . . فقدَ أحبَّ نفسَهُ ، والصانعُ إذا أحبَّ صنعتَهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، والوالدُ إذا أحبَّ ولدَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ولدُهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، وكلُّ ما في الوجودِ سوى اللهِ فهوَ تصنيفُ اللهِ وصنعتُهُ ، فإنْ أحبَّهُ فما أحبَّ إلا نفسَهُ ، وإذا لمْ يحبَّ إلا نفسَهُ . . فبحقٍّ أحبَّ ما أحبَّ .

وهٰذا كلُّهُ نظرٌ بعينِ التوحيدِ ، وتعبِّرُ الصوفيَّةُ عنْ هٰذهِ الحالةِ بفناءِ النفسِ ؛ أيْ : فنيَ عنْ نفسِهِ وعنْ غيرِ اللهِ ، فلمْ يرَ إلا اللهَ ، فمَنْ لمْ يفهمْ هٰذا . . ينكرُ عليهِمْ ويقولُ : كيفَ فنِيَ وطولُ طللِهِ أربعةُ أذرعٍ[1] ، ولعلَّهُ يأكلُ في كلِّ يومٍ أرطالاً مِنَ الخبزِ ؟! فيضحكُ عليهِمُ الجهَّالُ ؛ لجهلِهِمْ بمعاني كلامِهِمْ ، وضرورةُ العارفينَ أنْ يكونوا ضُحْكَةً للجاهلينَ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ سبحانَهُ أنَّ ضحكَ

---

(١) **الطلل** : الشخص ، يقال : حيا الله طللك وطلالتك ؛ أي : شخصك .

العارفينَ عليهِمْ غداً أعظمُ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ ، وكذلكَ أمَّةُ نوحٍ كانوا يضحكونَ عليهِ عندَ اشتغالِهِ بعملِ السفينةِ ، ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .

فهٰذا أحدُ النظرينِ .

* * *

النظرُ الثاني : نظرُ مَنْ لمْ يبلغْ إلىٰ مقامِ الفناءِ عنْ نفسِهِ : وهؤلاءِ قسمانِ :

ـ قسمٌ لمْ يثبتوا إلا وجودَ أنفسِهِمْ ، وأنكروا أنْ يكونَ لهُمْ ربٌّ يُعبدُ ، وهؤلاءِ هُمُ العميانُ المنكوسونَ ، وعماهُمْ في كلتا العينينِ ؛ لأنَّهُمْ نفَوا ما هوَ الثابتُ تحقيقاً ، وهوَ القيُّومُ الذي هوَ قائمٌ بنفسِهِ ، وقائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ ، وكلُّ قائمٍ فقائمٌ بهِ ، ولمْ يقتصروا علىٰ هٰذا حتَّىٰ أثبتوا أنفسَهُمْ ! ولوْ عرفوا.. لعلموا أنَّهُمْ مِنْ حيثُ هُمْ هُمْ لا ثباتَ لهُمْ ، ولا وجودَ لهُمْ ، وإنَّما وجودُهُمْ مِنْ حيثُ أُوجدوا ، لا مِنْ حيثُ وُجدوا ، وفرقٌ بينَ الموجودِ وبينَ الموجَدِ ، وليسَ في الوجودِ إلا موجودٌ واحدٌ وموجَدٌ ، فالموجودُ حقٌّ ، والموجَدُ باطلٌ مِنْ حيثُ هوَ هوَ ، والموجودُ قائمٌ وقيُّومٌ ، والموجَدُ هالكٌ وفانٍ ، وإذا كانَ كلُّ مَنْ عليها فانياً.. فلا يبقىٰ إلا وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ .

ـ الفريقُ الثاني ليسَ بهِم عمىً ، ولكنْ بهِمْ عَوَرٌ ، يبصرونَ بإحدى

العينينِ وجودَ الموجودِ الحقِّ فلا ينكرونَهُ ، والعينُ الأخرىٰ إنْ تمَّ عماها . . لمْ يُبصرْ بها فناءُ غيرِ الموجودِ الحقِّ ، فأثبتَ موجوداً آخرَ معَ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا مشركٌ تحقيقاً ، كما كانَ الذي قبلَهُ جاحداً تحقيقاً ، فإنْ جاوزَ حدَّ العمىٰ إلى العمشِ . . أدركَ تفاوتاً بينَ الموجودينِ ، فأثبتَ عبداً وربّاً ، فبهـٰذا القدْرِ مِنْ إثباتِ التفاوتِ والنقصِ مِنَ الموجودِ الآخرِ دخلَ في حدِّ التوحيدِ .

ثمَّ إنْ كُحِلَ بصرُهُ بما يزيدُ في أنوارِهِ . . فيقلُّ عمشُهُ ، وبقدْرِ ما يزيدُ في بصرِهِ يظهرُ لهُ نقصانُ ما أثبتَهُ سوى اللهِ تعالىٰ ، فإنْ بقيَ في سلوكِهِ كذلكَ . . فلا يزالُ يفضي بهِ النقصانُ إلى المحوِ ، فينمحي عنْ رؤيةِ ما سوى اللهِ ، فلا يرىٰ إلا اللهَ ، فيكونُ قدْ بلغَ كمالَ التوحيدِ .

وحيثُ أدركَ نقصاً في وجودِ ما سوى اللهِ تعالىٰ . . دخلَ في أوائلِ التوحيدِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا تُحصىٰ ، فيها تتفاوتُ درجاتُ الموحِّدينَ .

وكتبُ اللهِ المنزَّلةُ علىٰ ألسنةِ رسلِهِ هيَ الكحْلُ الذي بِهِ يحصلُ أنوارُ الأبصارِ ، والأنبياءُ هُمُ الكحَّالونَ ، وقد جاؤوا داعينَ إلى التوحيدِ المحضِ ، وترجمتُهُ قولُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ومعناهُ : ألا يرىٰ إلا الواحدَ الحقَّ ، والواصلونَ إلىٰ كمالِ التوحيدِ هُمُ الأقلُّونَ ، والجاحدونَ والمشركونَ أيضاً قليلونَ ، وهُمْ على الطرفِ الأقصى المقابلِ لطرفِ التوحيدِ ؛ إذْ عبدةُ الأوثانِ قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ، فكانوا داخلين في أوائلِ أبوابِ التوحيدِ دخولاً ضعيفاً ، والمتوسطونَ هُمُ

الأكثرونَ ، وفيهِمْ مَنْ تنفتحُ بصيرتُهُ في بعضِ الأحوالِ ، فتلوحُ لهُ حقائقُ التوحيدِ ولكنْ كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ، وفيهِمْ مَنْ يلوحُ لهُ ذلكَ ويثبتُ زماناً ولكنْ لا يدومُ ، والدوامُ فيهِ عزيزٌ .

لِكُلٍّ إِلَىٰ شَأْوِ ٱلْعَلا حَرَكَاتُ   وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي ٱلرِّجَالِ ثَبَاتُ(١)

ولمَّا أُمِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بطلبِ القرْبِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ . . قالَ في سجودِهِ : « أعوذُ بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ ، وأعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ ، لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »(٢) ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ » كلامٌ عنْ مشاهدةِ فعلِ اللهِ فقطْ ، فكأنَّهُ لمْ يرَ إلا اللهَ وأفعالَهُ ، فاستعاذَ بفعلِهِ مِنْ فعلِهِ ، ثمَّ اقتربَ ففنيَ عنْ مشاهدةِ الأفعالِ ، وترقَّىٰ إلىٰ مصادرِ الأفعالِ وهيَ الصفاتُ فقالَ : « أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ » ، وهما صفتانِ ، ثمَّ رأىٰ ذلكَ نقصاناً في التوحيدِ ، فاقتربَ ورقيَ مِنْ مقامِ مشاهدةِ الصفاتِ إلىٰ مشاهدةِ الذاتِ فقالَ : « أعوذُ بكَ منكَ » ، وهـٰذا فرارٌ منهُ إليهِ مِنْ غيرِ رؤيةِ فعلٍ وصفةٍ ، ولكنَّهُ رأىٰ نفسَهُ فارّاً منهُ إليهِ ، ومستعيذاً ومثنياً ، ففنيَ عنْ مشاهدةِ نفسِهِ ؛ إذْ رأىٰ ذلكَ نقصاناً ، واقتربَ فقالَ : أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحصي » خبرٌ عنْ فناءِ نفسِهِ وخروجِهِ

(١) البيت من الطويل ، وهو لابن الحَريش الأصبهاني . انظر « تتمة يتيمة الدهر » (٥/ ١٣٦) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) ، والنسائي (٨/ ٢٨٣) .

عنْ مشاهدَتِها[١] ، وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » بيانٌ أنَّهُ المثني وهوَ المثنىٰ عليهِ ، وأنَّ الكلَّ منهُ بدأَ وإليهِ يعودُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، فكانَ أوَّلُ مقاماتِهِ نهايةَ مقاماتِ الموحِّدينَ ، وهوَ ألا يرىٰ إلا اللهَ تعالىٰ وأفعالَهُ ، فيستعيذُ بفعلٍ مِنْ فعلٍ ، فانظرْ إلىٰ ماذا انتهتْ نهايتُهُ إذِ انتهىٰ إلى الواحدِ الحقِّ ، حتَّى ارتفعَ مِنْ نظرِهِ ومشاهدتِهِ سوى الذاتِ الحقِّ .

ولقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يرقىٰ مِنْ رتبةٍ إلىٰ أخرىٰ إلا ويرى الأولىٰ بعداً بالإضافةِ إلى الثانيةِ ، فكانَ يستغفرُ اللهَ مِنَ الأولىٰ ، ويرىٰ ذلكَ نقصاناً في سلوكِهِ وتقصيراً في مقامِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي حتَّىٰ أستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرّةً »[٢] ، فكأنَّ ذلكَ لترقيهِ إلىٰ سبعينَ مقاماً بعضُها فوقَ البعضِ ، أوائلُها وإنْ كانَ مجاوزاً أقصىٰ غاياتِ الخلقِ ، ولكنْ كانَ نقصاناً بالإضافةِ إلىٰ أواخرِها ، فكانَ استغفارُهُ لذلكَ .

ولمَّا قالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أليسَ قدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ فما هـٰذا البكاءُ في السجودِ ، وما هـٰذا الجهدُ الشديدُ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً »[٣] ، معناهُ : أفلا أكونُ

---

(١) في غير (د) : (عن مشاهدته) بدل (عن مشاهدتها) .
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧): « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة».
(٣) رواه مسلم (٢٨٢٠) .

طالباً للمزيدِ في المقاماتِ ، فإنَّ الشكرَ سببُ الزيادةِ ، حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وإذْ تغلغلنا في بحارِ علومِ المكاشفةِ . . فلنقبضِ العِنانَ ، ولنرجعْ إلىٰ ما يليقُ بعلومِ المعاملةِ ، فنقولُ :

الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ بُعثوا لدعوةِ الخلقِ إلىٰ كمالِ التوحيدِ الذي وصفناهُ ، ولكنْ بينَهُمْ وبينَ الوصولِ إليهِ مسافةٌ بعيدةٌ ، وعقباتٌ شديدةٌ ، وإنَّما الشرعُ كلُّهُ تعريفُ طريقِ سلوكِ تلكَ المسافةِ ، وقطعِ تلكَ العقباتِ ، وعندَ ذلكَ يكونُ النظرُ عنْ مشاهدةٍ أخرىٰ ومقامٍ آخرَ ، فيظهرُ في ذلكَ المقامِ وبالإضافةِ إلىٰ تلكَ المشاهدةِ الشكرُ والشاكرُ والمشكورُ ، ولا يُعرفُ ذلكَ إلا بمثالٍ ، فأقولُ :

يمكنُكَ أنْ تفهمَ أنَّ ملكاً مِنَ الملوكِ أرسلَ إلىٰ عبدٍ قدْ بعُدَ منهُ مركوباً وملبوساً ونقداً ؛ لأجلِ زادِهِ في الطريقِ حتَّىٰ يقطعَ بهِ مسافةَ البعدِ ويقربَ مِنْ حضرةِ الملكِ ، ثمَّ يكونُ لهُ حالتانِ :

إحداهما : أنْ يكونَ قصدُهُ مِنْ وصولِ العبدِ إلىٰ حضرتِهِ أنْ يقومَ ببعضِ مهمَّاتِهِ ، ويكونَ لهُ عنايةٌ في خدمتِهِ .

والثانيةُ : ألا يكونَ للملكِ حظٌّ في العبدِ ، ولا حاجةَ بهِ إليهِ ، بلْ حضورُهُ لا يزيدُ في ملكِهِ ؛ لأنَّهُ لا يقوىٰ على القيامِ بخدمةٍ تغني منهُ غَناءً(١)، وغيبتُهُ

---

(١) الغَناء : النفع .

لا تنقصُ مِنْ ملكِهِ ، فيكونُ قصدُهُ مِنَ الإنعامِ عليهِ بالمركوبِ والزادِ أنْ يحظى العبدُ بالقربِ منهُ ، وينالَ سعادةَ حضرتِهِ ؛ لينتفعَ هوَ في نفسِهِ ، لا لينتفعَ الملكُ بهِ وبانتفاعِهِ . فينزلُ العبادُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في المنزلةِ الثانيةِ ، لا في المنزلةِ الأولىٰ ، فإنَّ الأولىٰ محالٌ على اللهِ ، والثانيةَ غيرُ محالٍ .

ثمَّ اعلمْ أنَّ العبدَ لا يكونُ شاكراً في الحالةِ الأولىٰ بمجرَّدِ الركوبِ والوصولِ إلىٰ حضرتِهِ ما لمْ يقمْ بخدمتِهِ التي أرادَها الملكُ منهُ ، وأمَّا في الحالةِ الثانيةِ . . فلا يحتاجُ إلى الخدمةِ أصلاً ، ومعَ ذلكَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ شاكراً وكافراً ، ويكونُ شكرُهُ بأنْ يستعملَ ما أنفذَهُ إليهِ مولاهُ فيما أحبَّهُ لأجلِهِ لا لأجلِ نفسِهِ ، وكفرُهُ ألا يستعملَ ذلكَ فيهِ بأنْ يعطِّلَهُ أوْ يستعملَهُ فيما يزيدُ في بعدِهِ منهُ .

فمهما لبسَ العبدُ الثوبَ وركبَ المركوبَ ولمْ ينفقِ الزادَ إلا في الطريقِ . . فقدْ شكرَ مولاهُ ؛ إذِ استعملَ نعمتَهُ في محبَّتِهِ ؛ أيْ : فيما أحبَّهُ لعبدِهِ لا لنفسِهِ .

وإنْ ركبَهُ واستدبرَ حضرتَهُ ، وأخذَ يبعدُ منهُ . . فقدْ كفرَ نعمتَهُ ؛ أيِ : استعملَها فيما كرهَهُ مولاهُ لعبدِهِ لا لنفسِهِ .

وإنْ جلسَ ولمْ يركبْ لا في طلبِ القربِ ولا في طلبِ البعدِ . . فقدْ كفرَ أيضاً نعمتَهُ ؛ إذْ أهملَها وعطَّلَها ، وإنْ كانَ هـٰذا دونَ ما لوْ بعدَ منهُ .

فكذلكَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ الخلقَ ، وهُمْ في ابتداءِ فطرتِهِمْ يحتاجونَ إلى

استعمالِ الشهواتِ ؛ لتكملَ بها أبدانُهُمْ ، فيبعدونَ بها عنْ حضرتِهِ ، وإنَّما سعادتُهُمْ في القرْبِ منهُ ، فأعدَّ لهُمْ مِنَ النعمِ ما يقدرونَ على استعمالِها في نيلِ درجةِ القرْبِ ، وعنْ بعدِهِمْ وقربِهِمْ عبَّرَ اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . ﴾ الآيةَ .

فإذاً ؛ نعمُ اللهِ تعالىٰ آلاتٌ يترقَّى العبدُ بها عنْ أسفلِ السافلينَ ، خلقَها اللهُ تعالىٰ لأجلِ العبدِ حتَّىٰ ينالَ بها سعادةَ القربِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ عنهُ قرُبَ أمْ بعُدَ ، والعبدُ فيها بينَ أنْ يستعملَها في الطاعةِ فيكونَ قدْ شكرَ لموافقتِهِ محبَّةَ مولاهُ ، وبينَ أنْ يستعملَها في معصيتِهِ فقدْ كفرَ لاقتحامِهِ ما يكرهُهُ مولاهُ ولا يرضاهُ لهُ ، فإنَّ اللهَ لا يرضىٰ لعبادِهِ الكفرَ والمعصيةَ ، وإنْ عطَّلَها ولمْ يستعملْها في طاعةٍ ولا معصيةٍ . . فهوَ أيضاً كفرانٌ للنعمةِ بالتضييعِ ، وكلُّ ما خُلقَ في الدنيا إنَّما خُلقَ آلةً للعبدِ ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ونيلِ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مطيعٍ فهوَ بقدْرِ طاعتِهِ شاكرٌ نعمةَ اللهِ في الأسبابِ التي استعملَها في الطاعةِ ، وكلُّ كسلانَ تركَ الاستعمالَ أوْ عاصٍ استعملَها في طريقِ البعدِ . . فهوَ كافرٌ جارٍ في غيرِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ ، فالمعصيةُ والطاعةُ تشملُهما المشيئةُ ، ولكنْ لا تشملُهُما المحبَّةُ والكراهةُ ، بلْ رُبَّ مرادٍ محبوبٌ ، ورُبَّ مرادٍ مكروهٌ ، ووراءَ بيانِ هـٰذهِ الدقيقةِ سرُّ القدرِ الذي مُنِعَ مِنْ إفشائِهِ ، وقدِ انحلَّ بهـٰذا الإشكالُ الأوَّلُ ، وهوَ أنَّهُ إذا لمْ يكنْ للمشكورِ حظٌّ فكيفَ يكونُ الشكرُ .

وبهـٰذا أيضاً ينحلُّ الإشكالُ الثاني ، فإنَّا لمْ نعنِ بالشكرِ إلا انصرافَ

نعمةِ اللهِ في جهةِ محبَّةِ اللهِ ، فإذا انصرفَتِ النعمةُ في جهةِ المحبَّةِ بفعلِ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ حصلَ المرادُ ، وفعلُكَ عطاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ حيثُ أنتَ محلُّهُ فقدْ أثنىٰ عليكَ ، وثناؤُهُ نعمةٌ أخرىٰ منهُ إليكَ ، فهوَ الذي أعطىٰ ، وهوَ الذي أثنىٰ ، فصارَ أحدُ فعليهِ سبباً لانصرافِ فعلِهِ الثاني إلىٰ جهةِ محبَّتِهِ ، فلهُ الشكرُ علىٰ كلِّ حالٍ ، وأنتَ موصوفٌ بأنَّكَ شاكرٌ ؛ بمعنىٰ أنَّكَ محلُّ المعنى الذي الشكرُ عبارةٌ عنهُ ، لا بمعنىٰ أنَّكَ موجدٌ لهُ ؛ كما أنَّكَ موصوفٌ بأنَّكَ عارفٌ وعالمٌ لا بمعنىٰ أنَّكَ خالقُ العلمِ وموجدُهُ ولكنْ بمعنىٰ أنَّكَ محلٌّ لهُ ، وقدْ وُجِدَ بالقدرةِ الأزليَّةِ فيكَ ، فوصفُكَ بأنَّكَ شاكرٌ إثباتُ شيئيَّةٍ لكَ ، وأنتَ شيءٌ إذْ جعلكَ خالقُ الأشياءِ شيئاً ، وإنَّما أنتَ لا شيءَ إذا كنتَ أنتَ ظاناً لنفسكَ شيئيَّةً مِنْ ذاتِكَ ، فأمَّا باعتبارِ النظرِ إلى الذي جعلَ الأشياءَ أشياءَ . . فأنتَ شيءٌ إذْ جعلَكَ شيئاً ، فإنْ قُطعَ النظرُ عنْ جعلِهِ . . كنتَ لا شيءَ تحقيقاً .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « اعملوا ؛ فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ » لمَّا قيلَ لهُ : ففيمَ العملُ إذا كانتِ الأشياءُ قدْ فُرِغَ منها مِنْ قبلُ ؟[1] .

فبيَّنَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الخلقَ مجاري قدرةِ اللهِ تعالىٰ ومحلُّ أفعالِهِ وإنْ كانوا همْ أيضاً مِنْ أفعالِهِ ، ولكنْ بعضُ أفعالِهِ محلٌّ للبعضِ ، وقولُهُ :

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

« اعملوا » وإنْ كانَ جارياً علىٰ لسانِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ ، وهوَ سببٌ لعلمِ الخلقِ بأنَّ العملَ نافعٌ ، وعلمُهُمْ فعلٌ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، والعلمُ سببٌ لانبعاثِ داعيةٍ جازمةٍ إلى الحركةِ والطاعةِ ، وانبعاثُ الداعيةِ أيضاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ سببٌ لحركةِ الأعضاءِ ، وهيَ أيضاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُ أفعالِهِ سببٌ لبعضٍ ؛ أي : الأوَّلُ شرطٌ للثاني ؛ كما كانَ خلقُ الجسمِ سبباً لخلْقِ العرضِ ؛ إذْ لا يُخلَقُ العرضُ قبلَهُ ، وخلْقُ الحياةِ شرطٌ لخلْقِ العلمِ ، وخلْقُ العلمِ شرطٌ لخلْقِ الإرادةِ ، والكلُّ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وبعضُها سببٌ للبعضِ ؛ أي : هوَ شرطٌ ، ومعنىٰ كونِهِ شرطاً : أنَّهُ لا يستعدُّ لقبولِ فعلِ الحياةِ إلا جوهرٌ ، ولا يستعدُّ لقبولِ العلمِ إلا ذو حياةٍ ، ولا لقبولِ الإرادةِ إلا ذو علمٍ ، فيكونُ بعضُ أفعالِهِ سبباً للبعضِ بهٰذا المعنىٰ ، لا بمعنىٰ أنَّ بعضَ أفعالِهِ موجِدٌ لغيرِهِ ، بلْ ممهِّدٌ شرطَ الحصولِ لغيرِهِ ، وهٰذا إذا حُقِّقَ . . ارتقىٰ إلىٰ درجةِ التوحيدِ الذي ذكرناهُ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فلِمَ قالَ اللهُ تعالىٰ : اعملوا ، وإلا . . فأنتم معاقبونَ ومذمومونَ على العصيانِ ، وما إلينا شيءٌ ، فكيفَ نُذمُّ وإنَّما الكلُّ إلى اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا القولَ مِنَ اللهِ تعالىٰ سببٌ لحصولِ اعتقادٍ فينا ، والاعتقادُ سببٌ لهيجانِ الخوفِ ، وهيجانُ الخوفِ سببٌ لتركِ الشهواتِ

والتجافي عنْ دارِ الغرورِ ، وذلكَ سببٌ للوصولِ إلىٰ جوارِ اللهِ ، واللهُ تعالىٰ مسبِّبُ الأسبابِ ومرتِّبُها ، فمَنْ سبقَ لهُ في الأزلِ السعادةُ . . يسَّرَ لهُ هٰذهِ الأسبابَ حتَّىٰ يقودَهُ بسلسلتِها إلى الجنةِ ، ويُعبَّرُ عنْ مثلِهِ بأنَّ كُلاً ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ ، ومَنْ لمْ يسبقْ لهُ مِنَ اللهِ الحسنىٰ . . بعُدَ عنْ سماعِ كلامِ اللهِ تعالىٰ وكلامِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكلامِ العلماءِ ، فإذا لمْ يسمعْ . . لمْ يعلمْ ، وإذا لمْ يعلمْ . . لمْ يخفْ ، وإذا لمْ يخفْ . . لمْ يتركِ الركونَ إلى الدنيا ، وإذا لمْ يتركِ الركونَ إلى الدنيا . . بقيَ في حزْبِ الشيطانِ ، وإنَّ جهنَّمَ لموعدُهُمْ أجمعينَ .

فإذا عرفتَ هٰذا . . تعجبتَ مِنْ قومٍ يُقادونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ مقودٌ إلى الجنَّةِ بسلاسلِ الأسبابِ ، وهوَ تسليطُ العلمِ والخوفِ عليهِ ، وما مِنْ مخذولٍ إلا وهوَ مقودٌ إلى النارِ بالسلاسلِ ، وهوَ تسليطُ الغفلةِ والأمنِ والغرورِ عليهِ ، فالمتقونَ يُساقونَ إلى الجنَّةِ قهراً ، والمجرمونَ يُقادونَ إلى النارِ قهراً ، ولا قاهرَ إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ، ولا قادرَ إلا الملكُ الجبَّارُ ، وإذا انكشفَ الغطاءُ عنْ أعينِ الغافلينَ فشاهدوا الأمرَ كذلكَ . . سمعوا عندَ ذلكَ نداءَ المنادي : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، ولقدْ كانَ الملكُ للهِ الواحدِ القهَّارِ كلَّ يومٍ لا ذلكَ اليومَ على الخصوصِ ، ولكنِ الغافلونَ لا يسمعونَ هٰذا النداءَ إلا ذلكَ اليومَ ، فهوَ نبأٌ عمَّا يتجدَّدُ للغافلينَ مِنْ كشفِ الأحوالِ ، حيثُ لا ينفعُهُمُ الكشفُ ، فنعوذُ باللهِ الحليمِ الكريمِ مِنَ الجهلِ والعمىٰ ، فإنَّهُ أصلُ أسبابِ الهلاكِ .

* * *

بيان تمييز ما يحبه الله تعالىٰ عما يكرهه

اعلمْ : أنَّ فعلَ الشكرِ وتركَ الكفرانِ لا يتمُّ إلا بمعرفةِ ما يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ عمَّا يكرهُهُ ؛ إذْ معنى الشكرِ استعمالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في محابِّهِ ، ومعنى الكفرِ نقيضُ ذلكَ ؛ إمَّا بتركِ الاستعمالِ ، أوْ باستعمالِها في مكارهِهِ ، ولتمييزِ ما يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ عمَّا يكرهُهُ مدركانِ :

أحدُهُما : السمعُ ، ومستندُهُ الآياتُ والأخبارُ .

والثاني : بصيرةُ القلبِ ، وهوَ النظرُ بعينِ الاعتبارِ .

وهٰذا الأخيرُ عسيرٌ ، وهوَ لأجلِ ذلكَ عزيزٌ ، فلذلكَ أرسلَ اللهُ تعالىٰ الرسلَ ، وسهَّلَ بهِمُ الطريقَ على الخلقِ ، ومعرفةُ ذلكَ تنبني علىٰ معرفةِ جميعِ أحكامِ الشرعِ في أفعالِ العبادِ ، فمَنْ لا يطلعُ علىٰ أحكامِ الشرعِ في جميعِ أفعالِهِ . . لمْ يمكنْهُ القيامُ بحقِّ الشكرِ أصلاً .

وأمَّا الثاني ـ وهوَ النظرُ بعينِ الاعتبارِ ـ فهوَ إدراكُ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ خلقَهُ ؛ إذْ ما خلقَ شيئاً في العالمِ إلا وفيهِ حكمةٌ ، وتحتَ الحكمةِ مقصودٌ ، وذلكَ المقصودُ هوَ المحبوبُ ، وتلكَ الحكمةُ منقسمةٌ إلىٰ جليَّةٍ وخفيَّةٍ .

أمَّا الجليَّةُ . . فكالعلمِ بأنَّ مِنَ الحكمةِ في خلقِ الشمسِ أنْ يحصلَ بها الفرقُ بينَ الليلِ والنهارِ ، فيكونَ النهارُ معاشاً ، والليلُ لباساً ، فتتيسَّرَ

الحركةُ عندَ الإبصارِ ، والسكونُ عندَ الاستتارِ ، فهٰذا مِنْ جملةِ حِكَمِ الشمسِ لا كلُّ الحِكَمِ فيها ، بلْ فيها حكمٌ أخرىٰ كثيرةٌ دقيقةٌ .

وكذلكَ معرفةُ الحكمةِ في الغيمِ ونزولِ الأمطارِ ، وذلكَ لانشقاقِ الأرضِ بأنواعِ النباتِ مطعماً للخلْقِ ومرعىً للأنعامِ ، وقدِ انطوى القرآنُ علىٰ جملةٍ مِنَ الحكمِ الجليّةِ التي تحتملُها أفهامُ الخلقِ دونَ الدقيقِ الذي يقصرونَ عنْ فهمِهِ ، إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا . . . ﴾ الآياتِ .

وأمَّا الحكمةُ في سائرِ الكواكبِ السيَّارةِ منها والثوابتِ . . فخفيَّةٌ ، لا يطلعُ عليها أكثرُ الخلقِ ، والقدْرُ الذي يحتملُهُ فهْمُ الخلقِ أنَّها زينةٌ للسماءِ ؛ لتستلذَّ العينُ بالنظرِ إليها ، وأشارَ إليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ ، فجميعُ أجزاءِ العالَمِ ؛ سماؤُهُ وكواكبُهُ ، ورياحُهُ وبحارُهُ ، وجبالُهُ ومعادنُهُ ، ونباتُهُ وحيواناتُهُ وأعضاءُ حيواناتِهِ . . لا تخلو ذرَّةٌ مِنْ ذرَّاتِهِ عنْ حِكَمٍ كثيرةٍ ، مِنْ حكمةٍ واحدةٍ إلىٰ عشرةٍ إلىٰ ألفٍ إلى عشرةِ آلافٍ .

وكذلكَ أعضاءُ الحيوانِ تنقسمُ إلىٰ ما يُعرفُ حكمتُها ؛ كالعلمِ بأنَّ العينَ للإبصارِ لا للبطشِ ، واليدَ للبطشِ لا للمشيِ ، والرجْلَ للمشيِ لا للشمِّ ، فأمَّا الأعضاءُ الباطنةُ مِنَ الأمعاءِ والمرارةِ والكليةِ والكبدِ ، وآحادِ العروقِ والأعصابِ والعضلاتِ ، وما فيها مِنَ التجاويفِ والالتفافِ والاشتباكِ والانحرافِ والدقَّةِ والغلظِ ، وسائرِ الصفاتِ . . فلا يعرفُ الحكمةَ فيها كافَّةُ الناسِ ، والذينَ يعرفونَها لا يعرفونَ منها إلا قدراً يسيراً بالإضافةِ إلىٰ

ما في علمِ اللهِ تعالىٰ ، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

فإذاً ؛ كلُّ مَنِ استعملَ شيئاً في جهةٍ غيرِ الجهةِ التي خُلِقَ لها ، ولا على الوجهِ الذي أُريدَ بهِ . . فقدْ كفرَ فيهِ نعمةَ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ ضربَ غيرَهُ بيدِهِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اليدِ ؛ إذْ خُلقَتْ لهُ اليدُ ليدفعَ بها عَنْ نفسِهِ ما يهلكُهُ ويأخذَ ما ينفعُهُ ، لا ليهلكَ بها غيرَهُ ، ومَنْ نظرَ إلىٰ وجهِ غيرِ المَحْرمِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ العينِ ونعمةَ الشمسِ ؛ إذِ الإبصارُ يتمُّ بهما ، وإنَّما خُلقَتا ليبصرَ بهِما ما ينفعُهُ في دينِهِ ودنياهُ ، ويتقيَ بهِما ما يضرُّهُ فيهِما ، فقدِ استعملَهُما في غيرِ ما أُريدَتا بهِ ، وهٰذا لأنَّ المرادَ مِنْ خلقِ الخلْقِ وخلْقِ الدنيا وأسبابِها أنْ يستعينَ الخلْقُ بهِما على الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا وصولَ إليهِ إلا بمحبَّتِهِ والأنسِ بهِ في الدنيا ، والتجافي عنْ غرورِ الدنيا ، ولا أنسَ إلا بدوامِ الذكرِ ، ولا محبَّةَ إلا بالمعرفةِ الحاصلةِ بدوامِ الفكرِ ، ولا يمكنُ الدوامُ على الذكرِ والفكرِ إلا بدوامِ البدنِ ، ولا يبقى البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا يتمُّ الغذاءُ إلا بالأرضِ والماءِ والهواءِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بخلْقِ السماءِ والأرضِ ، وخلْقِ سائرِ الأعضاءِ ظاهراً وباطناً ، فكلُّ ذلكَ لأجلِ البدنِ ، والبدنُ مطيَّةُ النفسِ ، والراجعُ إلى اللهِ تعالىٰ هيَ النفسُ المطمئنَّةُ بطولِ العبادةِ والمعرفةِ ، فلذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ .

فكلُّ مَنِ استعملَ شيئاً في غيرِ طاعةِ اللهِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ في جميعِ الأسبابِ التي لا بدَّ منها لإقدامِهِ علىٰ تلكَ المعصيةِ ، ولنذكرْ مثالاً واحداً للحِكَمِ الخفيَّةِ التي ليسَتْ في غايةِ الخفاءِ حتَّىٰ تعتبرَ بها ،

وتعلمَ طريقةَ الشكرِ والكفرانِ على النعمِ ، فنقولُ :

مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ خلْقُ الدراهمِ والدنانيرِ ، وبهما قوامُ الدنيا ، وهما حجرانِ لا منفعةَ في أعيانِهما ، ولكنْ يُضطرُّ الخلقُ إليهما مِنْ حيثُ إنَّ كلَّ إنسانٍ محتاجٌ إلىٰ أعيانٍ كثيرةٍ في مطعمِهِ وملبسِهِ وسائرِ حاجاتِهِ ، وقدْ يعجزُ عمَّا يحتاجُ إليهِ ، ويملكُ ما يستغني عنهُ ؛ كمَنْ يملكُ الزعفرانَ مثلاً وهوَ محتاجٌ إلىٰ جَمَلٍ يركبُهُ ، ومَنْ يملكُ الجمَلَ ربَّما يستغني عنهُ ويحتاجُ إلى الزعفرانِ ، فلا بدَّ بينَهُما مِنْ معاوضةٍ ، ولا بدَّ في مقدارِ العوضِ مِنْ تقديرٍ ؛ إذْ لا يبذُلُ صاحبُ الجَمَلِ جَمَلَهُ بكلِّ مقدارٍ مِنَ الزعفرانِ ، ولا مناسبةَ بينَ الزعفرانِ والجملِ حتَّىٰ يُقالَ : يُعطىٰ منهُ مثلَهُ في الوزنِ أوِ الصورةِ ، وكذا مَنْ يشتري داراً بثيابٍ ، أوْ عبداً بخفٍّ ، أوْ دقيقاً بحمارٍ ، فهٰذهِ الأشياءُ لا تناسبَ فيها ، فلا يدري أنَّ الجملَ كمْ يساوي بالزعفرانِ ، فتتعذَّرُ المعاملاتُ جداً ، فافتقرَتْ هٰذهِ الأعيانُ المتنافرةُ المتباعدةُ إلىٰ متوسِّطٍ بينَها يحكمُ فيها بحكمٍ عدلٍ ، فيعرفُ مِنْ كلِّ واحدٍ رتبتَهُ ومنزلتَهُ ، حتَّىٰ إذا تقرَّرَتِ المنازلُ ، وترتبَتِ الرتبُ .. علمَ بعدَ ذلكَ المساويَ مِنْ غيرِ المساوي ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ الدنانيرَ والدراهمَ حاكمينِ ومتوسطينِ بينَ سائرِ الأموالِ ، حتَّىٰ تُقدَّرَ الأموالُ بهما ، فيُقالُ : هٰذا الجملُ يساوي مئةَ دينارٍ ، وهٰذا القدْرُ مِنَ الزعفرانِ يساوي مئةً ، فهما مِنْ حيثُ إنَّهُما متساويانِ بشيءٍ واحدٍ إذاً متساويانِ ، وإنَّما أمكنَ التعديلُ بالنقدينِ إذْ لا غرضَ في أعيانِهما ، ولوْ كانَ في أعيانِهما غرضٌ .. ربَّما اقتضىٰ خصوصُ ذلكَ الغرضِ في حقِّ

صاحبِ الغرضِ ترجيحاً ولمْ يقتضِ ذلكَ في حقِّ مَنْ لا غرضَ لهُ ، فلا ينتظمُ الأمرُ ، فإذاً ؛ خلقَهُما اللهُ تعالىٰ لتتداولَهُما الأيدي ، ويكونا حاكمينِ بينَ الأموالِ بالعدْلِ .

ولحكمةٍ أخرىٰ ؛ وهيَ التوسُّلُ بهِما إلىٰ سائرِ الأشياءِ ؛ لأنَّهُما عزيزانِ في أنفسِهِما ، ولا غرضَ في أعيانِهِما ، ونسبتُهُما إلىٰ سائرِ الأموالِ نسبةٌ واحدةٌ ، فمَنْ ملكَهُما فكأنَّهُ ملكَ كلَّ شيءٍ ، لا كمَنْ ملكَ ثوباً ، فإنَّهُ لمْ يملكْ إلا الثوبَ ، فلوِ احتاجَ إلىٰ طعامٍ . . ربَّما لمْ يرغبْ صاحبُ الطعامِ في الثوبِ ؛ لأنَّ غرضَهُ في دابَّةٍ مثلاً ، فاحتيجَ إلىٰ شيءٍ هوَ في صورتِهِ كأنَّهُ ليسَ بشيءٍ ، وهوَ في معناهُ كأنَّهُ كلُّ الأشياءِ ، والشيءُ إنَّما تستوي نسبتُهُ إلى المختلفاتِ إذا لمْ تكنْ لهُ صورةٌ خاصَّةٌ يفيدُها بخصوصِها ؛ كالمرآةِ لا لونَ لها وتحكي كلَّ لونٍ ، فكذلكَ النقدُ لا غرضَ فيهِ وهوَ وسيلةٌ إلىٰ كلِّ غرضٍ ، وكالحرفِ لا معنىٰ لهُ في نفسِهِ وتظهرُ بهِ المعاني في غيرِهِ ، فهـٰذهِ هيَ الحكمةُ الثانيةُ .

وفيهِما أيضاً حِكَمٌ يطولُ ذكرُها ، فكلُّ مَنْ عملَ فيهِما عملاً لا يليقُ بالحِكَمِ بلْ يخالفُ الغرضَ المقصودَ بالحِكَمِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ فيهِما ، فإذاً ؛ مَنْ كنزَهُما . . فقدْ ظلمَهُما وأبطلَ الحكمةَ فيهِما ، وكانَ كمَنْ حبسَ حاكمَ المسلمينَ في سجْنٍ يمتنعُ عليهِ الحكْمُ بسببِهِ ؛ لأنَّهُ إذا كُنِزَ . . فقدْ ضُيِّعَ ، ولا يحصلُ الغرضُ المقصودُ بهِ ، وما خُلقَتِ الدراهمُ والدنانيرُ لزيدٍ خاصَّةً ولا لعمروٍ خاصَّةً ؛ إذْ لا غرضَ للآحادِ في أعيانِهِما ، فإنَّهُما

حجرانِ ، وإنَّما خُلقا لتتداولَهُما الأيدي فيكونا حاكمينِ بينَ الناسِ ، وعلامةً معرِّفةً للمقاديرِ مقوِّمةً للمراتبِ ، فأخبرَ اللهُ الذينَ يعجزونَ عنْ قراءةِ الأسطرِ الإلـٰهيةِ المكتوبةِ علىٰ صفحاتِ الموجوداتِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ لا حرفَ فيهِ ولا صوتَ ، الذي لا يُدركُ بعينِ البصرِ بلْ بعينِ البصيرةِ . . أخبرَ هؤلاءِ العاجزينَ بكلامٍ سمعوهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ وصلَ إليهِمْ بواسطةِ الحرفِ والصوتِ المعنى الذي عجزوا عنْ إدراكِهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وكلُّ مَنِ اتخذَ مِنَ الدراهمِ والدنانيرِ آنيةً مِنْ ذهبٍ أوْ فضَّةٍ . . فقدْ كفرَ النعمةَ ، وكانَ أسوأَ حالاً ممَّنْ كنزَ ؛ لأنَّ مثالَ هـٰذا مثالُ مَنِ استسخرَ حاكمَ البلدِ في الحياكةِ والكنْسِ والأعمالِ التي يقومُ بها أخسَّاءُ الناسِ ، والحبسُ أهونُ منهُ ، وذلكَ أنَّ الخزفَ والحديدَ والرصاصَ والنحاسَ تنوبُ منابَ الذهبِ والفضَّةِ في حفظِ المائعاتِ عنْ أنْ تتبدَّدَ ، وإنَّما الأواني لحفظِ المائعاتِ ، ولا يكفي الخزفُ والحديدُ في المقصودِ الذي أُريدَ بهِ النقودُ ، فمَنْ لمْ ينكشفْ لهُ هـٰذا . . انكشفَ لهُ بالترجمةِ الإلـٰهيةِ وقيلَ لهُ : « مَنْ شربَ في آنيةٍ مِنْ ذهبٍ أوْ فضةٍ . . فكأنَّما يجرجرُ في بطنِهِ نارَ جهنَّمَ »(١) .

وكلُّ مَنْ عاملَ معاملةَ الربا على الدراهمِ والدنانيرِ . . فقدْ كفرَ النعمةَ وظلمَ ؛ لأنَّهُما خُلقا لغيرِهِما لا لأنفسِهِما ؛ إذْ لا غرضَ في عينِهِما ، فإذا

(١) كما رویٰ ذلك البخاري (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) .

اتَّجرَ في عينِهما . . فقدْ اتخذَهُما مقصوداً علىٰ خلافِ وضْعِ الحكمةِ ؛ إذْ طلبُ النقدِ لغيرِ ما وُضِعَ لهُ ظلمٌ ، ومَنْ معَهُ ثوبٌ ولا نقدَ معَهُ فقدْ لا يقدرُ علىٰ أنْ يشتريَ بهِ طعاماً ودابّةً ؛ إذْ ربما لا يُباعُ الطعامُ والدابّةُ بالثوبِ ، فهوَ معذورٌ في بيعِهِ بنقدٍ ليحصِّلَ النقدَ فيتوصَّلَ بهِ إلىٰ مقصودِهِ ، فإنَّهُما وسيلتانِ إلى الغيرِ ، لا غرضَ في أعيانِهما ، ووقْعُهُما مِنَ الأموالِ كوقْعِ الحرفِ مِنَ الكلامِ ؛ كما قالَ النحويونَ : (إنَّ الحرفَ هوَ الذي جاءَ لمعنىً في غيرِهِ) ، وكموقعِ المرآةِ مِنَ الألوانِ ، فأمَّا مَنْ مَعَهُ نقدٌ فلوْ جازَ لهُ أنْ يبيعَ بالنقدِ ، فيتخذَ التعاملَ على النقدِ غايةَ عملِهِ . . فيبقى النقدُ متقيِّداً عندَهُ ، وينزلُ منزلةَ المكنوزِ ، وتقييدُ الحاكمِ والبريدِ الموصلِ إلى الغيرِ ظلمٌ ؛ كما أنَّ حبسَهُ ظلمٌ ، فلا معنىً لبيعِ النقدِ بالنقدِ إلا باتخاذِ النقدِ مقصوداً للادِّخارِ ، وهوَ ظلمٌ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فلِمَ جازَ بيعُ أحدِ النقدينِ بالآخرِ ؟ ولِمَ جازَ بيعُ الدرهمِ بمثلِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أحدَ النقدينِ يخالفُ الآخرَ في مقصودِ التوسُّلِ ؛ إذْ قدْ يتيسَّرُ التوصُّلُ بأحدِهِما مِنْ حيثُ كثرتُهُ كالدراهمِ ، فتتفرَّقُ في الحاجاتِ قليلاً قليلاً ، ففي المنعِ منهُ ما يشوِّشُ المقصودَ الخاصَّ بهِ ، وهوَ تيسُّرُ التوصُّلِ بهِ إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا بيعُ الدرهمِ بدرهمٍ يماثلُهُ . . فجائزٌ مِنْ حيثُ إنَّ ذلكَ لا يرغبُ فيهِ عاقلٌ مهما تساويا ، ولا يشتغلُ بهِ تاجرٌ ؛ فإنَّهُ عبثٌ يجري مَجرىٰ وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، ونحنُ لا نخافُ على العقلاءِ أنْ يصرفوا أوقاتَهُمْ إلىٰ وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، فلا نمنعُ ممَّا لا تتشوَّفُ النفوسُ إليهِ ، إلا أنْ يكونَ أحدُهُما أجودَ مِنَ الآخرِ ، وذلكَ أيضاً لا يُتصوَّرُ جريانُهُ ؛ إذْ صاحبُ الجيِّدِ لا يرضىٰ بمثلِهِ مِنَ الرديءِ ، فلا ينتظمُ العقدُ ، وإنْ طلبَ زيادةً في الرديءِ . . فذلكَ ممَّا قدْ يقصدُهُ ، فلا جرمَ نمنعُهُ منهُ ، ونحكمُ بأنَّ جيِّدَها ورديئَها سواءٌ ؛ لأنَّ الجودةَ والرداءةَ ينبغي أنْ يُنظرَ إليهما فيما يُقصدُ في عينِهِ ، وما لا غرضَ في عينِهِ فلا ينبغي أنْ يُنظرَ إلىٰ مصارفاتٍ دقيقةٍ في صفاتِهِ ، وإنَّما الذي ظلمَ هوَ الذي ضربَ النقودَ مختلفةً في الجودةِ والرداءةِ حتَّىٰ صارَتْ مقصودةً في أعيانِها ، وحقُّها ألا تُقصدَ .

وأمَّا إذا باعَ درهماً بدرهمٍ مثلِهِ نسيئةً . . فإنَّما لمْ يجزْ ذلكَ لأنَّهُ لا يقدِمُ علىٰ هٰذا إلا مسامحٌ قاصدٌ للإحسانِ ، ففي القرْضِ ـ وهوَ مكرمةٌ ـ مندوحةٌ عنهُ ؛ لتبقىٰ صورةُ المسامحةِ ، فيكونَ لهُ حمدٌ وأجرٌ ، والمعاوضةُ لا حمدَ فيها ولا أجرَ ، فهوَ أيضاً ظلمٌ ؛ لأنَّهُ إضاعةُ خصوصِ المسامحةِ وإخراجُها في معرضِ المعاوضةِ .

وكذلكَ الأطعمةُ خُلقَتْ ليُتغذَّىٰ بها ، أوْ يُتداوىٰ بها ، فلا ينبغي أنْ تُصرفَ عنْ جهتِها ، فإنَّ فتحَ بابِ المعاملةِ فيها يوجبُ تقييدَها في الأيدي ، ويؤخِّرُ عنها الأكلَ الذي أُريدَتْ لهُ ، فما خُلِقَ الطعامُ إلا ليُؤكلَ ، والحاجةُ

إلى الأطعمةِ شديدةٌ ، فينبغي أنْ تُخرجَ عنْ يدِ المستغني عنها إلى المحتاجِ ، ولا يتعاملُ على الأطعمةِ إلا مستغنٍ عنها ؛ إذْ مَنْ معَهُ طعامٌ فلِمَ لا يأكلُهُ إنْ كانَ محتاجاً ، ولِمَ يجعلهُ بضاعةَ تجارةٍ ؟ وإنْ جعلَهُ بضاعةَ تجارةٍ . . فليبعْهُ ممَّنْ يطلبُهُ بعوضٍ غيرِ الطعامِ ليكونَ محتاجاً إليهِ ، فأمَّا مَنْ يطلبُهُ بعينِ ذلكَ الطعامِ . . فهوَ أيضاً مستغنٍ عنهُ ، ولهٰذا وردَ في الشرعِ لعْنُ المحتكرِ ، ووردَ فيهِ مِنَ التشديداتِ ما ذكرناهُ في كتابِ آدابِ الكسبِ .

نعمْ ، بائعُ البُرِّ بالتمرِ معذورٌ ؛ إذْ أحدُهُما لا يسدُّ مسدَّ الآخرِ في الغرضِ ، وبائعُ صاعٍ مِنَ البُرِّ بصاعٍ منهُ غيرُ معذورٍ ، ولكنَّهُ عابثٌ ، فلا يحتاجُ إلىٰ منعٍ ؛ لأنَّ النفوسَ لا تسمحُ بهِ إلا عندَ التفاوتِ في الجودةِ ، ومقابلةُ الجيِّدِ بمثلِهِ مِنَ الرديءِ لا يرضىٰ بها صاحبُ الجيِّدِ ، وأمَّا جيِّدٌ برديئينِ . . فقدْ يُقصدُ ، ولكنْ لمَّا كانتِ الأطعمةُ مِنَ الضرورياتِ ، والجيِّدُ يساوي الرديءَ في أصلِ الفائدةِ ، ويخالفُهُ في وجوهِ التنعُّمِ . . أسقطَ الشرعُ غرضَ التنعُّمِ فيما هوَ القوامُ .

فهٰذهِ حكمةُ الشرعِ في تحريمِ الربا ، وقدِ انكشفَ لنا هٰذا بعدَ الإعراضِ عنْ فنِّ الفقهِ[1] ، فليُلحقْ هٰذا بفنِّ الفقهياتِ ؛ فإنَّهُ أقوىٰ مِنْ جميعِ ما أوردناهُ في الخلافياتِ .

وبهٰذا يتضحُ رجحانُ مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في التخصيصِ

(١) وذلك عند خروجه من دار السلام ببغداد . « إتحاف » (٩/ ٦٨) .

بالأطعمةِ دونَ المكيلاتِ ، إذْ لوْ دخلَ الجصُّ فيهِ . . لكانتِ الثيابُ والدوابُّ أولىٰ بالدخولِ ، ولولا الملحُ . . لكانَ مذهبُ مالكٍ رحمةُ اللهِ عليهِ أقومَ المذاهبِ فيهِ ؛ إذْ خصَّصَهُ بالأقواتِ ، ولكنْ كلُّ معنىً يرعاهُ الشرعُ فلا بدَّ أنْ يُضبطَ بحدٍّ ، وتحديدُ هـٰذا كانَ ممكناً بالقوتِ ، وكانَ ممكناً بالمطعومِ ، فرأى الشرعُ التحديدَ بجنسِ المطعومِ أحرىٰ لكلِّ ما هوَ ضرورةُ البقاءِ ، وتحديداتُ الشرعِ قدْ تحيطُ بأطرافٍ لا يقوىٰ فيها أصلُ المعنى الباعثِ على الحكمِ ، ولكنَّ التحديدَ يقعُ كذلكَ بالضرورةِ ، ولوْ لمْ يُحدَّ . . لتحيَّرَ الخلقُ في تتبُّعِ جوهرِ المعنىٰ معَ اختلافِهِ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فعينُ المعنىٰ بكمالِ قوَّتِهِ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فيكونُ الحدُّ ضرورياً ، فلذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ ، ولأنَّ أصولَ هـٰذهِ المعاني لا تختلفُ فيها الشرائعُ ، وإنَّما تختلفُ في وجوهِ التحديدِ ؛ كما يحدُّ شرعُ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ تحريمَ الخمرِ بالسكْرِ ، وقدْ حدَّهُ شرعُنا بكونِهِ مِنْ جنسِ المسكرِ ؛ لأنَّ قليلَهُ يدعو إلىٰ كثيرِهِ ، والداخلُ في الحدودِ داخلٌ في التحريمِ بحكمِ الحسمِ[1] ، كما دخل أصلُ المعنىٰ بالحكمةِ الأصليَّةِ .

فهـٰذا مثالٌ واحدٌ لحكمةٍ خفيَّةٍ مِنْ حِكَمِ النقدينِ ، فينبغي أنْ يعتبرَ شكرَ النعمةِ وكفرانَها بهـٰذا المثالِ ، فكلُّ ما خُلِقَ لحكمةٍ . . فلا ينبغي أنْ يُصرفَ عنها ، ولا يعرفُ هـٰذا إلا مَنْ قدْ عرفَ الحكمةَ ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، ولكنْ لا تُصادَفُ جواهرُ الحِكَمِ في قلوبٍ هيَ مزابلُ

(١) وفي بعض النسخ : (بحكمة الحسم) بدل (بحكم الحسم) .

الشهواتِ وملاعبُ الشياطينِ ، بلْ لا يتذكَّرُ إلا أولو الألبابِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »(١) .

وإذا عرفتَ هٰذا المثالَ . . فقسْ عليهِ حركتَكَ وسكونَكَ ، ونطقَكَ وسكوتَكَ ، وكلَّ فعلٍ صادرٍ منكَ ؛ فإنَّهُ إمَّا شكرٌ وإمَّا كفرٌ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنهُما ، وبعضُ ذلكَ نصفُهُ في لسانِ الفقهِ الذي تناطقَ بهِ عوامُّ الناسِ بالكراهةِ وبعضُهُ بالحظْرِ ، وكلُّ ذلكَ عندَ أربابِ القلوبِ موصوفٌ بالحظْرِ ، فأقولُ مثلاً :

لو استنجيتَ باليمينِ . . فقدْ كفرتَ نعمةَ اليدينِ ؛ إذْ خلقَ اللهُ لكَ اليدينِ ، وجعلَ إحداهُما أقوىٰ مِنَ الأخرىٰ ، فاستحقَّ الأقوىٰ بمزيدِ رجحانِهِ في الغالبِ التشريفَ والتفضيلَ ؛ إذْ تفضيلُ الناقصِ عدولٌ عنِ العدْلِ ، واللهُ لا يأمرُ إلا بالعدلِ ، ثمَّ أحوجَكَ مَنْ أعطاكَ اليدينِ إلىٰ أعمالٍ بعضُها شريفةٌ كأخذِ المصحفِ ، وبعضُها خسيسةٌ كإزالةِ النجاسةِ ، فإذا أخذتَ المصحفَ باليسارِ وأزلتَ النجاسةَ باليمينِ . . فقدْ خصصتَ الشريفَ بما هوَ خسيسٌ ، فغضضتَ مِنْ حقِّه وظلمتَهُ وعدلتَ عنِ العدْلِ .

وكذلكَ إذا بصقتَ مثلاً في جهةِ القبلةِ أوِ استقبلتَها في قضاءِ الحاجةِ . . فقدْ كفرتَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الجهاتِ وخلْقِ سعةِ العالمِ ؛ لأنَّهُ خلقَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) .

الجهاتِ لتكونَ متسعَكَ في حركتِكَ ، وقسمَ الجهاتِ إلىٰ ما لمْ يشرِّفْها ، وإلىٰ ما شرَّفَها بأنْ وضعَ فيها بيتاً أضافَهُ إلىٰ نفسِهِ استمالةً لقلبِكَ إليهِ ؛ ليتقيَّدَ بهِ قلبُكَ ، فيتقيَّدَ بسببِهِ بدنُكَ في تلكَ الجهةِ علىٰ هيئةِ الثباتِ والوقارِ إذا عبدتَ ربَّكَ ، وكذلكَ انقسمَتْ أفعالُكَ إلىٰ ما هيَ شريفةٌ كالطاعاتِ ، وإلىٰ ما هيَ خسيسةٌ كقضاءِ الحاجةِ ورميِ البصاقِ ، فإذا رميتَ بصاقَكَ إلىٰ جهةِ القبلةِ . . فقدْ ظلمتَها وكفرتَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليكَ بوضعِ القبلةِ التي بوضعِها كمالُ عبادتِكَ .

وكذلكَ إذا لبستَ خفَّكَ فابتدأتَ باليسرىٰ . . فقدْ ظلمتَ ؛ لأنَّ الخفَّ وقايةٌ للرجْلِ ، فللرجْلِ فيهِ حظٌّ ، والبدايةُ في الحظوظِ ينبغي أنْ تكونَ بالأشرفِ ، فهوَ العدْلُ والوفاءُ بالحكمةِ ، ونقيضُهُ ظلمٌ وكفرانٌ لنعمةِ الرجْلِ والخفِّ ، وهـٰذا عندَ العارفينَ كبيرةٌ وإنْ سمَّاهُ الفقيهُ مكروهاً ، حتىٰ إنَّ بعضَهُمْ كانَ قدْ جمعَ أكراراً مِنَ الحنطةِ ، وكانَ يتصدَّقُ بها ، فسُئِلَ عنْ سببِهِ فقالَ : لبستُ المداسَ مرَّةً فابتدأتُ بالرجلِ اليسرىٰ سهواً ، فأريدُ أنْ أكفِّرَهُ بالصدقةِ .

نعمِ ، الفقيهُ لا يقدرُ علىٰ تفخيمِ الأمرِ في هـٰذهِ الأمورِ ؛ لأنَّهُ مسكينٌ ، بُلِيَ بإصلاحِ العوامِّ الذينَ تقربُ درجتُهُمْ مِنْ درجةِ الأنعامِ وهُمْ منغمسونَ في ظلماتٍ أطمَّ وأعظمَ مِنْ أنْ تظهرَ أمثالُ هـٰذهِ الظلماتِ بالإضافةِ إليها ، فقبيحٌ أنْ يُقالَ : الذي شربَ الخمرَ وأخذَ القدحَ بيسارِهِ فقدْ تعدَّىٰ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : الشربُ ، والآخرُ : الأخذُ باليسارِ ، ومَنْ باعَ خمراً في وقتِ

النداءِ يومَ الجمعةِ فقبيحٌ أنْ يُقالَ : خالفَ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : بيعُ الخمرِ ، والآخرُ : البيعُ في وقتِ النداءِ ، ومَنْ قضىٰ حاجتَهُ في محرابِ المسجدِ مستدبرَ القبلةِ فقبيحٌ أنْ يُذكرَ تركُهُ الأدبَ في قضاءِ الحاجةِ مِنْ حيثُ إنَّهُ لـمْ يجعلِ القبلةَ عنْ يمينِهِ !

فالمعاصي كلُّها ظلماتٌ ، وبعضُها فوقَ بعضٍ ، فينمحقُ بعضُها في جنْبِ البعضِ ، فالسيِّدُ قدْ يعاقبُ عبدَهُ إذا استعملَ سكينَهُ بغيرِ إذنِهِ ، ولكنْ لوْ قتلَ بتلكَ السكينِ أعزَّ أولادِهِ . . لمْ يبقَ لاستعمالِ السكينِ بغيرِ إذنِهِ حكْمٌ ونكايةٌ في نفسِهِ ، فكلُّ ما راعاهُ الأنبياءُ والأولياءُ مِنَ الآدابِ وتسامحنا فيهِ في الفقهِ معَ العوامِّ . . فسببُهُ هـٰذهِ الضرورةُ ، وإلا . . فكلُّ هـٰذهِ المكارهِ عدولٌ عنِ العدْلِ ، وكفرانٌ للنعمةِ ، ونقصانٌ عنِ الدرجةِ المبلغةِ للعبدِ إلىٰ درجاتِ القرْبِ .

نعمْ ، بعضُها يؤثِّرُ في العبدِ بنقصانِ القربِ وانحطاطِ المنزلةِ ، وبعضُها يخرجُ بالكليّةِ عنْ حدودِ القرْبِ إلىٰ عالمِ البعدِ الذي هوَ مستقرُّ الشياطينِ .

وكذلكَ مَنْ كسَرَ غصناً مِنْ شجرةٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ ناجزةٍ مهمةٍ ومِنْ غيرِ غرضٍ صحيحٍ . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في خلقِ الأشجارِ وخلْقِ اليدِ .

أمَّا اليدُ . . فإنَّها لـمْ تُخلقْ للعبثِ ، بلْ للطاعةِ والأعمالِ المعينةِ على الطاعةِ .

وأمَّا الشجرُ . . فإنَّما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، وخلقَ لهُ العروقَ ، وساقَ إليهِ

الماءَ ، وخلقَ فيهِ قوّةَ الاغتذاءِ والنماءِ. . ليبلغَ منتهىٰ نشوئِهِ فينتفعَ بهِ عبادُهُ ، فكسرُهُ قبلَ منتهىٰ نشوئِهِ لا علىٰ وجهٍ ينتفعُ بهِ عبادُهُ مخالفةٌ لمقصودِ الحكمةِ ، وعدولٌ عنِ العدْلِ ، فإنْ كانَ لهُ غرضٌ صحيحٌ . . فلهُ ذلكَ ؛ إذِ الشجرُ والحيوانُ جُعِلاَ فداءً لأغراضِ الإنسانِ ؛ فإنَّهُما جميعاً فانيانِ هالكانِ ، فإفناءُ الأخسِّ في بقاءِ الأشرفِ مدَّةً ما أقربُ إلى العدْلِ مِنْ تضييعِهِما جميعاً ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ .

نعمْ ، إنْ كسرَ ذلكَ مِنْ ملكِ غيرِهِ . . فهوَ ظالمٌ أيضاً وإنْ كانَ محتاجاً ؛ لأنَّ كلَّ شجرةٍ بعينِها لا تفي بحاجاتِ عبادِ اللهِ كلِّهِمْ ، بلْ تفي بحاجةٍ واحدةٍ ، ولوْ خُصِّصَ واحدٌ بها مِنْ غيرِ رجحانٍ واختصاصٍ . . كانَ ظلماً ، وصاحبُ الاختصاصِ هوَ الذي حصَّلَ البذرَ ووضعَهُ في الأرضِ وساقَ إليهِ الماءَ وقامَ بالتعهُّدِ ، فهوَ أولىٰ بهِ مِنْ غيرِهِ ، فيرجحُ جانبُهُ بذلكَ ، فإنْ نبتَ ذلكَ في مواتِ الأرضِ لا بسعيِ آدميٍّ اختصَّ بمغرسِهِ أوْ بغرسِهِ . . فلا بدَّ مِنْ طلبِ اختصاصٍ آخرَ ، وهوَ السبْقُ إلىٰ أخذِهِ ، فللسابقِ خاصِّيَّةُ السبقِ ، فالعدْلُ أنْ يكونَ هوَ أولىٰ بهِ ، وعبَّر الفقهاءُ عنْ هٰذا الترجيحِ بالملكِ ، وهوَ مجازٌ محضٌ ؛ إذْ لا ملكَ إلا لملكِ الملوكِ الذي لهُ ما في السماواتِ والأرضِ ، وكيفَ يكونُ العبدُ مالكاً وهوَ في نفسِهِ ليسَ يملكُ نفسَهُ بلْ هوَ ملكُ غيرِهِ ؟!

نعم ، الخلقُ عبادُ اللهِ ، والأرضُ مائدةُ اللهِ ، وقدْ أذنَ لهُمْ في الأكلِ مِنْ مائدتِهِ بقدْرِ حاجتِهِمْ ؛ كالملكِ ينصبُ مائدةً لعبيدِهِ ، فمَنْ أخذَ لقمةً بيمينِهِ

واحتوتْ عليها براجمُهُ ، فجاءَ عبدٌ آخرُ وأرادَ انتزاعَها مِنْ يدِهِ . . لمْ يُمكَّنْ منهُ ، لا لأنَّ اللقمةَ صارَتْ ملكاً لهُ بالأخذِ باليدِ ؛ فإنَّ اليدَ وصاحبَ اليدِ أيضاً مملوكٌ ، ولكنْ إذا كانَتْ كلُّ لقمةٍ بعينِها لا تفي بحاجةِ كلِّ العبيدِ . . فالعدْلُ في التخصيصِ عندَ حصولِ ضربٍ مِنَ الترجيحِ والاختصاصِ والأخذِ . . اختصاصٌ ينفردُ بهِ العبدُ ، فمنعُ مَنْ لا يدلي بذلكَ الاختصاصِ عنْ مزاحمتِهِ . . عدْلٌ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ أمرَ اللهِ في عبادِهِ ، ولذلكَ نقولُ : مَنْ أخذَ مِنْ أموالِ الدنيا أكثرَ مِنْ حاجتِهِ وكنزَهُ وأمسكَهُ وفي عبادِ اللهِ مَنْ يحتاجُ إليهِ . . فهوَ ظالمٌ ، وهوَ منَ الذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضَّةَ ولا ينفقونَها في سبيلِ اللهِ ، وإنَّما سبيلُ اللهِ طاعتُهُ ، وزادُ الخلقِ في طاعتِهِ أموالُ الدنيا ؛ إذْ بها تندفعُ ضروراتُهُمْ وترتفعُ حاجاتُهُمْ .

نعمْ ، لا يدخلُ هـٰذا في حدِّ فتاوى الفقهِ ؛ لأنَّ مقاديرَ الحاجاتِ خفيَّةٌ ، والنفوسُ في استشعارِ الفقرِ في الاستقبالِ مختلفةٌ ، وأواخرُ الأعمارِ غيرُ معلومةٍ ، فتكليفُ العوامِّ ذلكَ يجري مَجرىٰ تكليفِ الصبيانِ الوقارَ والتؤدةَ والسكوتَ عنْ كلِّ كلامٍ غيرِ مهمٍّ ، وهُمْ بحكْمِ نقصانِهِمْ لا يطيقونَهُ ، فتركنا الاعتراضَ عليهِمْ في اللعبِ واللهوِ ، وإباحتُنا إيَّاهُمْ ذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ اللهوَ واللعبَ حقٌّ ؛ فكذلكَ إباحتُنا للعوامِّ حفْظَ الأموالِ والاقتصارَ في الإنفاقِ علىٰ قدْرِ الزكواتِ لضرورةِ ما جُبلوا عليهِ مِنَ البخلِ . . لا يدلُّ علىٰ أنَّهُ غايةُ الحقِّ .

وقدْ أشارَ القرآنُ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ ﴾(١) ، بلِ الحقُّ الذي لا كدورةَ فيهِ والعدْلُ الذي لا ظلمَ فيهِ ألا يأخذَ أحدٌ مِنْ عبادِ اللهِ مِنْ مالِ اللهِ إلا بقدْرِ زادِ الراكبِ ، وكلُّ عبادِ اللهِ ركّابٌ لمطايا الأبدانِ إلىٰ حضرةِ الملكِ الديَّانِ ، فمتىٰ أخذَ زيادةً عليهِ ، ومنعَهُ عنْ راكبٍ آخرَ محتاجٍ إليهِ . . فهوَ ظالمٌ تاركٌ للعدْلِ ، وخارجٌ عنْ مقصودِ الحكمةِ ، وكافرٌ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالقرآنِ والرسولِ والعقلِ وسائرِ الأسبابِ التي بها عرفَ أنَّ ما سوىٰ زادِ الراكبِ وبالٌ عليهِ في الدنيا والآخرة .

فمَنْ فهمَ حكمةَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ أنواعِ الموجوداتِ . . قدرَ على القيامِ بوظيفةِ الشكرِ ، واستقصاءُ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ مجلداتٍ ، ثمَّ لا يفي إلا بالقليلِ ، وإنَّما أوردنا هـٰذا القدْرَ ليُعلمَ علَّةُ الصدقِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ، وفرحِ إبليسَ لعنهُ اللهُ بقولِهِ : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ ، فلا يعرفُ معنىٰ هـٰذهِ الآيةِ مَنْ لمْ يعرفْ هـٰذا كلَّهُ وأموراً أخرَ وراءَ هـٰذا تنقضي الأعمارُ دونَ استقصاءِ مباديها ، فأمَّا تفسيرُ الآيةِ ومعنىٰ لفظِها . . فيعرفُهُ كلُّ مَنْ يعرفُ اللغةَ ، وبهـٰذا يتبيَّنُ لكَ الفرقُ بينَ المعنىٰ والتفسيرِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) أي : متىٰ يبالغ في سؤالكم حتىٰ لا تبقوا منها شيئاً إلا وقد صرفتموه في سبيل الحق . . تبخلوا ، وذلك مقتضى الجبلية . « إتحاف » (٩ / ٧١) .

فإنْ قلتَ : فقدْ رجعَ حاصلُ هـٰذا الكلامِ إلىٰ أنَّ للهِ تعالىٰ حكمةً في كلِّ شيءٍ ، وأنَّهُ جعلَ بعضَ أفعالِ العبادِ سبباً لتمامِ تلكَ الحكمةِ وبلوغِها غايةَ المرادِ منها ، وجعلَ بعضَ أفعالِهِمْ مانعاً مِنْ تمامِ الحكمةِ ، فكلُّ فعلٍ وافقَ مقتضى الحكمةِ حتَّى انساقَتِ الحكمةُ إلىٰ غايتِها . . فهوَ شكرٌ ، وكلُّ ما خالفَ ومنعَ الأسبابَ مِنْ أنْ تنساقَ إلى الغايةِ المرادةِ بها . . فهوَ كفرانٌ ، وهـٰذا كلُّهُ مفهومٌ ، ولكنَّ الإشكالَ باقٍ ، وهوَ أنَّ فعلَ العبدِ المنقسمَ إلىٰ ما يتمِّمُ الحكمةَ وإلىٰ ما يدفعُها . . هوَ أيضاً مِنْ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، فأينَ العبدُ في البينِ حتَّىٰ يكونَ شاكراً مرَّةً وكافراً أخرى ؟

فاعلمْ : أنَّ تمامَ التحقيقِ في هـٰذا يُستمدُّ مِنْ تيارِ بحرٍ عظيمٍ مِنْ علومِ المكاشفاتِ ، وقدْ رمزنا فيما سبقَ إلىٰ تلويحاتٍ بمباديها ، ونحنُ الآنَ نعبِّرُ بعبارةٍ وجيزةٍ عنْ آخرِها وغايتِها ، يفهمُها مَنْ عرفَ منطقَ الطيرِ ، ويجحدُها مَنْ عجزَ عنِ الإيضاعِ في السيرِ[1] ، فضلاً عنْ أنْ يجولَ في جوِّ الملكوتِ جولانَ الطيرِ ، فنقولُ :

إنَّ للهِ سبحانَهُ في جلالِهِ وكبريائِهِ صفةً عنها يصدرُ الخلقُ والاختراعُ ، وتلكَ الصفةُ أعلىٰ وأجلُّ مِنْ أنْ تلمحَها عينُ واضعِ اللغةِ حتَّىٰ يعبِّرَ عنها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ كنْهِ جلالِها وخصوصِ حقيقتِها ، فلمْ يكنْ لها في العالمِ عبارةٌ لعلوِّ شأنِها وانحطاطِ رتبةِ واضعي اللغاتِ عنْ أنْ يمتدَّ طرفُهُمْ إلىٰ

(١) أي : الإسراع في السير .

مبادي إشراقِها ، فانخفضَتْ عنْ ذروتِها أبصارُهُمْ كما تنخفضُ أبصارُ الخفافيشِ عنْ نورِ الشمسِ ، لا لغموضٍ في نورِ الشمسِ ، ولكنْ لضعفٍ في أبصارِ الخفافيشِ ، فاضطرَّ الذينَ فُتحَتْ أبصارُهُمْ لملاحظةِ جلالِها إلىٰ أنْ يستعيروا مِنْ حضيضِ عالمِ المتناطقينَ باللغاتِ عبارةً تفهمُ مِنْ مبادي حقائقِها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسمَ القدرةِ ، فتجاسرنا بسببِ استعارتِهِمْ على النطقِ فقلنا : للهِ تعالىٰ صفةٌ هيَ القدرةُ ، عنها يصدرُ الخلْقُ والاختراعُ .

ثمَّ الخلْقُ ينقسمُ في الوجودِ إلىٰ أقسامٍ وخصوصِ صفاتٍ ، ومصدرُ انقسامِ هٰذهِ الأقسامِ واختصاصُها بخصوصِ صفاتِها صفةٌ أخرى استُعيرَ لها بمثلِ الضرورةِ التي سبقَتْ عبارةُ المشيئةِ ، فهيَ توهمُ منها أمراً مجملاً عندَ المتناطقينَ باللغاتِ التي هيَ حروفٌ وأصواتُ المتفاهمينَ بها ، وقصورُ لفظِ المشيئةِ عنِ الدلالةِ علىٰ كنهِ تلكَ الصفةِ وحقيقتِها كقصورِ لفظِ القدرةِ .

ثمَّ انقسمَتِ الأفعالُ الصادرةُ مِنَ القدرةِ إلىٰ ما ينساقُ إلى المنتهى الذي هوَ غايةُ حكمتِها وإلىٰ ما يقفُ دونَ الغايةِ ، وكانَ لكلٍّ واحدٍ نسبةٌ إلىٰ صفةِ المشيئةِ ؛ لرجوعِها إلى الاختصاصاتِ التي بها تتمُّ القسمةُ والاختلافُ ، فاستُعيرَ لنسبةِ البالغِ غايتَهُ عبارةُ المحبّةِ ، واستُعيرَ لنسبةِ الواقفِ دونَ غايتِهِ عبارةُ الكراهةِ ، وقيلَ : إنَّهُما جميعاً داخلانِ في وصفِ المشيئةِ ، ولكنْ لكلِّ واحدٍ خاصِّيَّةٌ أخرىٰ في النسبةِ ، يوهمُ لفظُ المحبّةِ والكراهةِ منهُما أمراً مجملاً عندَ طالبي الفهمِ مِنَ الألفاظِ واللغاتِ .

ثمَّ انقسمَ عبادُهُ الذينَ هُمْ أيضاً مِنْ خلقِهِ واختراعِهِ إلىٰ مَنْ سبقَتْ لهُ في المشيئةِ الأزليَّةِ أنْ يستعملَهُ لاستيقافِ حكمتِهِ دونَ غايتِها ، ويكونُ ذلكَ قهراً في حقِّهِمْ بتسليطِ الدواعي والبواعثِ عليهِمْ ، وإلىٰ مَنْ سبقَتْ لهُمْ في الأزلِ أنْ يستعملَهُمْ لسياقةِ حكمتِهِ إلىٰ غايتِها في بعضِ الأمورِ ، فكانَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ نسبةٌ إلى المشيئةِ خاصَّةٌ ، فاستُعيرَ لنسبةِ المستعمَلينَ في إتمامِ الحكمةِ بهِمْ عبارةُ الرضا ، واستُعيرَ للذينَ استوقفَ بهمْ أسبابَ الحكمةِ دونَ غايتِها عبارةُ الغضبِ ، فظهرَ علىٰ مَنْ غضبَ عليهِ في الأزلِ فعلٌ وقفَتِ الحكمةُ بهِ دونَ غايتِها ، فاستُعيرَ لهُ الكفرانُ ، وأُردفَ ذلكَ بنقمةِ اللعنِ والمذمَّةِ زيادةً في النكالِ ، وظهرَ علىٰ مَنِ ارتضاهُ في الأزلِ فعلٌ انساقَتْ بسببِهِ الحكمةُ إلىٰ غايتِها ، فاستُعيرَ لهُ عبارةُ الشكرِ ، وأُردفَ بخلعةِ الثناءِ والإطراءِ زيادةً في الرضا والقبولِ والإقبالِ .

فكانَ الحاصلُ أنَّهُ تعالىٰ أعطى الجمالَ ثمَّ أثنىٰ ، وأعطى النكالَ ثمَّ قبَّحَ وأردىٰ ، وكانَ مثالُهُ أنْ ينظِّفَ الملكُ عبدَهُ الوسِخَ عنْ أوساخِهِ ، ثمَّ يلبسَهُ مِنْ محاسنِ ثيابِهِ ، فإذا تمَّمَ زينتَهُ . . قالَ : يا جميلُ ؛ ما أجملَكَ وأجملَ ثيابَكَ وأنظفَ وجهَكَ ! فيكونُ بالحقيقةِ هوَ المجمِّلَ وهوَ المثنيَ على الجمالِ ، فهو المُثنىٰ عليهِ بكلِّ حالٍ ، وكأنَّهُ لمْ يثنِ مِنْ حيثُ المعنىٰ إلا علىٰ نفسِهِ ، وإنَّما العبدُ هدفُ الثناءِ مِنْ حيثُ الظاهرُ والصورةُ .

فهكذا كانتِ الأمورُ في أزلِ الآزالِ ، وهكذا تسلسلتِ الأسبابُ والمسبَّباتُ بتقديرِ ربِّ الأربابِ ومسبِّبِ الأسبابِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ عنِ اتفاقٍ

وبحثٍ ، بلْ عنْ إرادةٍ وحكمةٍ ، وحكمٍ حقٍّ وأمرٍ جزْمٍ استُعيرَ لهُ لفظُ القضاءِ ، وقيلَ : إنَّهُ كلمحٍ بالبصرِ أوْ هوَ أقربُ ، ففاضَتْ بحارُ المقاديرِ بحكْمِ ذلكَ القضاءِ الجزْمِ بما سبقَ بهِ التقديرُ ، فاستُعيرَ لترتُّبِ آحادِ المقدوراتِ بعضِها علىٰ بعضٍ لفظُ القَدَرِ ، فكانَ لفظُ القضاءِ بإزاءِ الأمرِ الواحدِ الكلِّيِّ ، ولفظُ القَدَرِ بإزاءِ التفصيلِ المتمادي إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وقيلَ : إنَّ شيئاً مِنْ ذلكَ ليسَ خارجاً عنِ القضاءِ والقدَرِ ، فخطرَ لبعضِ العبادِ أنَّ القسمةَ لماذا اقتضتْ هٰذا التفصيلَ ؟ وكيفَ انتظمَ العدْلُ معَ هٰذا التفاوتِ والتفضيلِ ؟ وكانَ بعضُهُمْ لقصورِهِ لا يطيقُ ملاحظةَ كنْهِ هٰذا الأمرِ والاحتواءِ علىٰ مجامعِهِ ، فأُلجموا عمَّا لمْ يطيقوا خوضَ غمرتِهِ بلجامِ المنعِ ، وقيلَ لهُمْ : اسكتوا ، فما لهٰذا خلقتُمْ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ .

وامتلأَتْ مشكاةُ بعضِهِمْ نوراً مقتبَساً مِنْ نورِ اللهِ تعالىٰ في السماواتِ والأرضِ ، وكانَ زيتُهُمْ أوَّلاً صافياً يكادُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فمسَّتْهُ نارٌ ، فاشتعلَ نوراً علىٰ نورٍ ، فأشرقَتْ أقطارُ الملكوتِ بينَ أيديهِمْ بنورِ ربِّها ، فأدركوا الأمورَ كلَّها علىٰ ما هيَ عليهِ ، فقيلَ لهُمْ : تأدَّبوا بآدابِ اللهِ تعالىٰ واسكتوا ، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ . فأمسكوا ؛ فإنَّ للحيطانِ آذاناً ، وحوالَيْكُمْ ضعفاءُ الأبصارِ ، فسيروا بسيرِ أضعفِكُمْ ، ولا تكشفوا حجابَ الشمسِ لأبصارِ الخفافيشِ ، فيكونَ ذلكَ سببَ هلاكِهِمْ ، فتخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وانزلوا إلىٰ سماءِ الدنيا مِنْ منتهىٰ علوِّكُمْ ليأنسَ بكُمُ الضعفاءُ ، ويقتبسوا مِنْ بقايا أنوارِكُمُ المشرقةِ مِنْ وراءِ حجابِكُمْ ؛ كما

يقتبسُ الخفافيشُ مِنْ بقايا نورِ الشمسِ والكواكبِ في جنحِ الليلِ ، فيحيا بهِ حياةً يحتملُها شخصُهُ وحالُهُ ، وإنْ كانَ لا يحيا بهِ حياةَ المتردِّدينَ في كمالِ نورِ الشمسِ ، وكونوا كمَنْ قيلَ فيهِم(١) : [من الطويل]

شَرِبْنا شَراباً طَيِّباً عِنْدَ طَيِّبٍ كَذاكَ شَرابُ ٱلطَّيِّبينَ يَطيبُ
شَرِبْنا وَأَهْرَقْنا عَلى ٱلأَرْضِ فَضْلَةً وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ ٱلْكِرامِ نَصيبُ

فهكذا كانَ أوَّلُ هـٰذا الأمرِ وآخرُهُ ، ولا تفهمُهُ إلا إذا كنتَ أهلاً لهُ ، وإذا كنتَ أهلاً لهُ .. فتحتَ العينَ وأبصرتَ ، فلا تحتاجُ إلىٰ قائدٍ يقودُكَ ، والأعمىٰ يمكنُ أنْ يُقادَ ، ولكنْ إلىٰ حدٍّ ما ، فإذا ضاقَ الطريقُ وصارَ أحدَّ مِنَ السيفِ وأدقَّ مِنَ الشعرِ .. قدرَ الطائرُ علىٰ أنْ يطيرَ عليهِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ أنْ يستجرَّ وراءَهُ أعمىٰ ، وإذا دقَّ المجالُ ولطُفَ لطْفَ الماءِ مثلاً ، ولمْ يمكنِ العبورُ إلا بالسباحةِ .. فقدْ يقدرُ الماهرُ بصنعةِ السباحةِ أنْ يعبرَ بنفسِهِ ، وربَّما لمْ يقدرْ علىٰ أنْ يستجرَّ وراءَهُ آخرَ .

فهـٰذهِ أمورٌ نسبةُ السيرِ عليها إلى السيرِ علىٰ ما هوَ مجالُ جماهيرِ الخلْقِ كنسبةِ المشيِ على الماءِ إلى المشيِ على الأرضِ ، والسباحةُ يمكنُ أنْ تُتعلَّمَ ، فأمَّا المشيُ على الماءِ .. فلا يُكتسبُ بالتعلُّمِ ، بلْ يُنالُ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذلكَ قيلَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ

(١) انظر « زهر الأكم » (١/ ٢٦٥) .

يُقالُ : إنَّهُ مشىٰ على الماءِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لو ازدادَ يقيناً . . لمشىٰ على الهواءِ »(١) .

فهٰذهِ رموزٌ وإشاراتٌ إلىٰ معنى الكراهةِ والمحبّةِ ، والرضا والغضبِ ، والشكرِ والكفرانِ ، لا يليقُ بعلمِ المعاملةِ أكثرُ منها .

وقدْ ضربَ اللهُ مثلاً لذلكَ تقريباً إلىٰ أفهامِ الخلْقِ ؛ إذْ عرَّفَ أنَّهُ ما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدوهُ ، فكانَتْ عبادتُهُمْ غايةَ الحكمةِ في حقِّهِمْ ، ثمَّ أخبرَ أنَّ لهُ عبدينِ ؛ يحبُّ أحدَهُما ، واسمُهُ جبريلُ وروحُ القدُسِ والأمينُ ، وهوَ عندَهُ محبوبٌ مطاعٌ أمينٌ مكينٌ ، ويبغضُ الآخرَ ، واسمُهُ إبليسُ ، وهوَ اللعينُ ، المُنْظَرُ إلىٰ يومِ الدينِ .

ثمَّ أحالَ الإرشادَ إلىٰ جبريلَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وأحالَ الإغواءَ علىٰ إبليسَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، والإغواءُ : هوَ استيقافُ العبادِ دونَ بلوغِ غايةِ الحكمةِ ، فانظرْ كيفَ نسبَهُ إلى العبدِ الذي غضبَ عليهِ ، والإرشادُ : سياقةٌ لهُمْ إلى الغايةِ ، فانظرْ كيفَ نسبَهُ إلى العبدِ الذي أحبَّهُ .

وعندَكَ في العادةِ لهُ مثالٌ ؛ فالملكُ إذا كانَ محتاجاً إلىٰ مَنْ يسقيهِ

(١) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٤٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو كذلك عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣٠٣) ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٧٥) .

الشرابَ وإلىٰ مَنْ يحجمُهُ وينظِّفُ فِناءَ منزلِهِ عنِ القاذوراتِ وكانَ لهُ عبدانِ . . فلا يعيِّنُ للحجامةِ والتنظيفِ إلا أقبحَهُما وأخسَّهُما ، ولا يفوِّضُ حملَ الشرابِ الطيِّبِ إلا إلىٰ أحسنِهما وأكملِهما وأحبِّهما إليهِ .

ولا ينبغي أنْ تقولَ : هٰذا فعلي ، فلِمَ يكونُ فعلُهُ علىٰ وِزانِ فعلي ؟ فإنَّكَ أخطأتَ إذْ أضفتَ ذلكَ إلىٰ نفسِكَ ، بلْ هوَ الذي صرفَ داعيتَكَ لتخصيصِ الفعلِ المكروهِ بالشخصِ المكروهِ والفعلِ المحبوبِ بالشخصِ المحبوبِ ؛ إتماماً للعدْلِ ، فإنَّ عدْلَهُ تارةً يتمُّ بأمورٍ لا مدخلَ لكَ فيها ، وتارةً يتمُّ فيكَ ، فإنَّكَ أيضاً مِنْ أفعالِهِ ، فداعيتُكَ وقدرتُكَ ، وعلمُكَ وعملُكَ ، وسائرُ أسبابِ حركاتِكَ في التعيينِ . . هوَ فعلُهُ الذي رتَّبَهُ بالعدلِ ترتيباً تصدرُ منهُ الأفعالُ المعتدلةُ ، إلا أنَّكَ لا ترىٰ إلا نفسَكَ ، فتظنُّ أنَّ ما يظهرُ عليكَ في عالمِ الشهادةِ ليسَ لهُ سببٌ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، فلذلكَ تضيفُهُ إلىٰ نفسِكَ .

وإنَّما أنتَ مثلُ الصبيِّ الذي ينظرُ ليلاً إلىٰ لعبِ المشعوذِ الذي يخرجُ صوراً مِنْ وراءِ حجابٍ ترقصُ وتزعقُ وتقومُ وتقعدُ ، وهيَ مؤلَّفةٌ مِنْ خرقٍ لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، وإنَّما تحرِّكُها خيوطٌ شعريَّةٌ دقيقةٌ لا تظهرُ في ظلامِ الليلِ ، ورؤوسُها في يدِ المشعوذِ ، وهوَ محتجبٌ عنْ أبصارِ الصبيانِ ، فيفرحونَ ويتعجَّبونَ ؛ لظنِّهِمْ أنَّ تلكَ الخرقَ ترقصُ وتلعبُ وتقومُ وتقعدُ ، وأمَّا العقلاءُ . . فإنَّهُمْ يعلمونَ أنَّ ذلكَ تحريكٌ وليسَ بتحرُّكٍ ، ولكنَّهُمْ ربَّما لا يعلمونَ كيفَ تفصيلُهُ ، والذي يعلمُ بعضَ تفصيلِهِ لا يعلمُهُ كما

يعلمُهُ المشعوذُ الذي الأمرُ إليهِ والجاذبةُ بيدِهِ .

فكذلكَ صبيانُ أهلِ الدنيا ، والخلقُ كلُّهُمْ صبيانٌ بالنسبةِ إلى العلماءِ ، ينظرونَ إلىٰ هـٰذهِ الأشخاصِ فيظنُّونَ أنَّها المتحرِّكةُ ، فيحيلونَ عليها ، والعلماءُ يعلمونَ أنَّهُمْ محرَّكونَ إلا أنَّهُمْ لا يعرفونَ كيفيَّةَ التحريكِ وهُمُ الأكثرونَ ، إلا العارفونَ والعلماءُ الراسخونَ ، فإنَّهُمْ أدركوا بحدَّةِ أبصارِهِمْ خيوطاً دقيقةً عنكبوتيَّةً ، بلْ أدقُّ منها بكثيرٍ ، معلَّقةً مِنَ السماءِ متشبثةَ الأطرافِ بأشخاصِ أهلِ الأرضِ ، لا تُدركُ تلكَ الخيوطُ لدقَّتِها بهـٰذهِ الأبصارِ الظاهرةِ ، ثمَّ شاهدوا رؤوسَ تلكَ الخيوطِ في مناطاتٍ لها هيَ معلَّقةٌ بها ، وشاهدوا لتلكَ المناطاتِ مقابضَ هيَ في أيدي الملائكةِ المحرِّكينَ للسماواتِ ، وشاهدوا أبصارَ ملائكةِ السماواتِ مصروفةً إلىٰ حملةِ العرشِ ، ينتظرونَ منهُم ما ينزلُ عليهِمْ مِنَ الأمرِ مِنْ حضرةِ الربوبيَّةِ كيْ لا يعصوا اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ .

وعُبِّرَ عنْ هـٰذهِ المكاشفاتِ في القرآنِ فقيلَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وعُبِّرَ عنِ انتظارِ ملائكةِ السماواتِ لما ينزلُ إليهِمْ مِنَ الأمرِ والقدرِ فقيلَ : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .

وهـٰذهِ أمورٌ لا يعلمُ تأويلَها إلا اللهُ والراسخونَ في العلمِ ، وعبَّرَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ اختصاصِ الراسخينَ في العلمِ بعلومٍ لا تحتملُها

أفهامُ الخلقِ حيثُ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ فقالَ : (لوْ ذكرتُ ما أعرفُهُ مِنْ معنىٰ هٰذهِ الآيةِ . . لرجمتُموني) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لقلتُمْ : إنَّهُ كافرٌ)(١) .

ولنقتصرْ علىٰ هٰذا القدْرِ ، فقدْ خرجَ عِنانُ الكلامِ عنْ قبضةِ الاختيارِ ، وامتزجَ بعلمِ المعاملةِ ما ليسَ منهُ ، فلنرجعْ إلىٰ مقاصدِ الشكرِ ، فنقولُ :

إذا رجعَ حقيقةُ الشكرِ إلىٰ كونِ العبدِ مستعملاً في إتمامِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ . . فأشكرُ العبادِ أحبُّهُمْ إلى اللهِ وأقربُهُمْ إليهِ ، وأقربُهُمْ إلى اللهِ الملائكةُ ، ولهُمْ أيضاً ترتيبٌ ، وما منهُمْ إلا لهُ مقامٌ معلومٌ ، وأعلاهُمْ في رتبةِ القرْبِ ملكٌ اسمُهُ إسرافيلُ عليهِ السلامُ ، وإنَّما علوُّ درجتِهِمْ لأنَّهُمْ في أنفسِهِمْ كرامٌ بررةٌ ، وقدْ أصلحَ اللهُ تعالىٰ بهِمُ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ وهُمْ أشرفُ مخلوقٍ علىٰ وجهِ الأرضِ ، وتلي درجتَهُمْ درجةُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فإنَّهُمْ في أنفسِهِمْ أخيارٌ ، وقدْ هدى اللهُ بهِمْ سائرَ الخلْقِ ، وتمَّمَ بهِمْ حكمتَهُ ، وأعلاهُمْ رتبةً نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ أكملَ اللهُ بهِ الدينَ ، وختمَ بهِ النبيِّينَ ، ويليهِمُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، فإنَّهُمْ في أنفسِهِمْ صالحونَ ، وقدْ أصلحَ اللهُ بهِمْ سائرَ الخلقِ ، ودرجةُ كلِّ واحدٍ منهُمْ بقدْرِ ما أصلحَ مِنْ نفسهِ ومِنْ غيرِهِ ، ثمَّ يليهِمُ السلاطينُ بالعدْلِ ؛ لأنَّهُمْ أصلحوا دنيا الخلْقِ كما أصلحَ العلماءُ دينَهُمْ ، ولأجلِ اجتماعِ الدينِ والملكِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٣) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/٢٨/١٨٨) .

والسلطنةِ لنبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كانَ أفضلَ مِنْ سائرِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ؛ فإنَّهُ أكملَ اللهُ بهِ صلاحَ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، ولمْ يكنِ السيفُ والملكُ لغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ، ثمَّ يلي العلماءَ والسلاطينَ الصالحونَ الذينَ أصلحوا نفوسَهُمْ فقطْ ، فلمْ تتمَّ حكمةُ اللهِ بهِمْ إلا فيهِمْ ، ومَنْ عدا هؤلاءِ . . فهمَجٌ رَعاعٌ .

واعلمْ : أنَّ السلطانَ بهِ قوامُ الدينِ ، فلا ينبغي أنْ يُستحقرَ وإنْ كانَ ظالماً فاسقاً ، قال عمرُو بنُ العاصِ : (إمامٌ غشومٌ خيرٌ مِنْ فتنةٍ تدومُ)(١) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ يفسدونَ وما يصلحُ اللهُ بهِمْ أكثرُ ، فإنْ أحسنوا . . فلهُمُ الأجرُ وعليكُمُ الشكرُ ، وإنْ أساؤوا . . فعليهِمُ الوزرُ وعليكُمُ الصبرُ »(٢) .

وقالَ سهلٌ : (مَنْ أنكرَ إمامةَ السلطانِ . . فهوَ زنديقٌ ، ومَنْ دعاهُ السلطانُ فلمْ يجبْ . . فهوَ مبتدعٌ ، ومَنْ أتاهُ مِنْ غيرِ دعوةٍ . . فهوَ جاهلٌ)(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) ، والغشوم : الظالم .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٢٥) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٩٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٣٢) من حديثه رضي الله عنه : اصبروا ؛ فإن جور إمام خمسين عاماً خير من هرج شهر ، وذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا بد للناس من إمارة برة أو فاجرة ، فأما البرة . . فتعدل في القسم ، ويقسم بينكم فيئكم بالسوية ، وأما الفاجرة . . فيبتلىٰ فيها المؤمن ، والإمارة الفاجرة خير من الهرج » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما الهرج ؟ قال : « القتل والكذب » .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) .

وسُئِلَ : أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ فقالَ : السلطانُ ، فقيلَ : كنَّا نرىٰ أنَّ شرَّ الناسِ السلطانُ ! فقالَ : مهلاً ، إنَّ للهِ تعالىٰ كلَّ يومٍ نظرتينِ ، نظرةٌ إلىٰ سلامةِ أموالِ المسلمينَ ، ونظرةٌ إلىٰ سلامةِ أبكارِهِمْ ، فيطلعُ في صحيفتِهِ ، فيغفرُ لهُ جميعَ ذنوبِهِ[1] .

وكانَ يقولُ : (الخشباتُ السودُ المعلَّقةُ علىٰ أبوابِهِمْ خيرٌ مِنْ سبعينَ قاصّاً يقصُّونَ)[2] .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) . وفي (أ) : (أبصارهم) ، وفي (د) : (أبدانهم) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) .

الرّكن الثّاني من أركان الشّكر : ما عليه الشّكر

وهوَ النعمةُ ، ولنذكرْ فيهِ حقيقةَ النعمةِ ، وأقسامَها ، ودرجاتِها ، وأصنافَها ، ومجامعَها فيما يخصُّ ويعمُّ ، فإنَّ إحصاءَ نعمِ اللهِ علىٰ عبادِهِ خارجٌ عنْ مقدورِ البشرِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

فنقدِّمُ أموراً كليَّةً تجري مَجرى القوانينِ في معرفةِ النعَمِ ، ثمَّ نشتغلُ بذكرِ الآحادِ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .

بيان حقيقة النّعمة وأقسامها

اعلمْ : أنَّ كلَّ خيرٍ ولذَّةٍ وسعادةٍ ، بلْ كلَّ مطلوبٍ ومؤثَرٍ فإنَّهُ يُسمَّىٰ نعمةً ، ولكنَّ النعمةَ بالحقيقةِ هيَ السعادةُ الأخرويَّةُ ، وتسميةُ ما عداها نعمةً وسعادةً إمَّا غلطٌ وإمَّا مجازٌ ؛ كتسميةِ السعادةِ الدنيويةِ التي لا تعينُ على الآخرةِ نعمةً ، فإنَّ ذلكَ غلطٌ محضٌ ، وقدْ يكونُ اسمُ النعمةِ للشيءِ صدقاً ، ولكنْ يكونُ إطلاقُهُ على السعادةِ الأخرويَّةِ أصدقَ ؛ ككلِّ سببٍ يوصلُ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ويعينُ عليها ، إمَّا بواسطةٍ واحدةٍ أوْ بوسائطَ ، فإنَّ تسميتَهُ نعمةً صحيحٌ وصدقٌ ؛ لأجلِ أنَّهُ يفضي إلى النعمةِ الحقيقيةِ .

والأسبابُ المعينةُ واللذَّاتُ المسمَّاةُ نعمةً نشرحُها بتقسيماتٍ :

القسمةُ الأولىٰ :

أنَّ الأمورَ كلَّها بالإضافةِ إلينا تنقسمُ إلىٰ ما هوَ نافعٌ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ؛ كالعلمِ وحسْنِ الخلُقِ ، وإلىٰ ما هوَ ضارٌّ فيهما جميعاً ؛ كالجهلِ وسوءِ الخلُقِ ، وإلىٰ ما ينفعُ في الحالِ ويضرُّ في المآلِ ؛ كالتلذُّذِ باتباعِ الشهواتِ ، وإلىٰ ما يضرُّ في الحالِ ويؤلمُ ولكنْ ينفعُ في المآلِ ؛ كقمعِ الشهواتِ ومخالفةِ النفسِ .

فالنافعُ في الحالِ والمآلِ هوَ النعمةُ تحقيقاً ؛ كالعلمِ وحسْنِ الخلقِ ، والضارُّ فيهما هوَ البلاءُ تحقيقاً ؛ وهوَ ضدُّهُما .

والنافعُ في الحالِ المضرُّ في المآلِ بلاءٌ محضٌ عندَ ذوي الأبصارِ وتظنُّهُ الجهَّالُ نعمةً ، ومثالُهُ : الجائعُ إذا وجدَ عسلاً فيهِ سمٌّ ، فإنَّهُ يعدُّهُ نعمةً إنْ كانَ جاهلاً ، وإذا علمَهُ . . علمَ أنَّ ذلكَ بلاءٌ سيقَ إليهِ .

والضارُّ في الحالِ النافعُ في المآلِ نعمةٌ عندَ ذوي الألبابِ ، بلاءٌ عندَ الجهَّالِ ، ومثالُهُ : الدواءُ البشعُ في الحالِ مذاقُهُ ، إلا أنَّهُ شافٍ مِنَ الأمراضِ والأسقامِ وجالبٌ للصحَّةِ والسلامةِ ، فالصبيُّ الجاهلُ إذا كُلِّفَ شربَهُ . . ظنَّهُ بلاءً ، والعاقلُ يعدُّهُ نعمةً ويتقلَّدُ المنَّةَ ممَّنْ يهديهِ إليهِ ويقربُهُ منهُ ويهيِّئُ لهُ أسبابَهُ ، فلذلكَ تمنعُ الأمُّ ولدَها مِنَ الحجامةِ والأبُ يدعوهُ إليها ، فإنَّ الأبَ بكمالِ عقلِهِ يلحظُ العاقبةَ ، والأمَّ لقصورِها وفرْطِ حبِّها تلحظُ الحالَ ،

والصبيَّ لجهلِهِ يتقلَّدُ منَّةً مِنْ أمِّهِ دونَ أبيهِ ، ويأنسُ إليها وإلىٰ شفقتِها ، ويقدِّرُ الأبَ عدواً لهُ ، ولوْ عقلَ . . لعلمَ أنَّ الأمَّ عدوٌّ باطنٌ في صورةِ صديقٍ ؛ لأنَّ منعَها إيَّاهُ مِنَ الحجامةِ يسوقُهُ إلىٰ أمراضٍ وآلامٍ أشدَّ مِنَ الحجامةِ ، ولكنَّ الصديقَ الجاهلَ شرٌّ مِنَ العدوِّ العاقلِ ، وكلُّ إنسانٍ فإنَّهُ صديقُ نفسِهِ ، ولكنَّهُ صديقٌ جاهلٌ ، فلذلكَ تعملُ بهِ ما لا يعملُ بهِ العدوُّ .

* * *

قسمةٌ ثانيةٌ :

اعلمْ : أنَّ الأسبابَ الدنيويَّةَ مختلطةٌ ، قدِ امتزجَ خيرُها بشرِّها ، فقلَّما يصفو خيرُها ؛ كالمالِ والأهلِ والولدِ والأقاربِ والجاهِ وسائرِ الأسبابِ ، ولكنْ تنقسمُ إلىٰ ما نفعُهُ أكثرُ مِنْ ضرِّهِ ؛ كقدْرِ الكفايةِ مِنَ المالِ والجاهِ وسائرِ الأسبابِ ، وإلىٰ ما ضرُّهُ أكثرُ مِنْ نفعِهِ في حقِّ أكثرِ الأشخاصِ ؛ كالمالِ الكثيرِ والجاهِ الواسعِ ، وإلىٰ ما يكافىءُ ضررُهُ نفعَهُ ، وهـٰذهِ أمورٌ تختلفُ بالأشخاصِ ، فربَّ إنسانٍ صالحٍ ينتفعُ بالمالِ الصالحِ وإنْ كثرَ ، فينفقُهُ في سبيلِ اللهِ ، ويصرفُهُ إلى الخيراتِ ، فهوَ معَ هـٰذا التوفيقِ نعمةٌ في حقِّهِ ، وربَّ إنسانٍ يستضرُّ بالقليلِ أيضاً ؛ إذْ لا يزالُ مستصغراً لهُ شاكياً مِنْ ربِّهِ ، طالباً للزيادةِ عليهِ ، فيكونُ ذلكَ معَ هـٰذا الخذلانِ بلاءً في حقِّهِ .

* * *

قسمةٌ ثالثةٌ :

اعلمْ : أنَّ الخيراتِ باعتبارٍ آخرَ تنقسمُ إلىٰ ما هوَ مؤثَرٌ لذاتِهِ لا لغيرِهِ ، وإلىٰ مؤثَرٍ لغيرِهِ ، وإلىٰ مؤثَرٍ لذاتِهِ ولغيرِهِ .

فالأوَّلُ : ما يُؤثَرُ لذاتِهِ لا لغيرِهِ ؛ كلذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وسعادةِ لقائِهِ ، وبالجملةِ سعادةُ الآخرةِ التي لا انقضاءَ لها ؛ فإنَّها لا تُطلبُ ليُتوصَّلَ بها إلىٰ غايةٍ أخرىٰ مقصودةٍ وراءَها ، بلْ تُطلبُ لذاتِها .

الثاني : ما يُقصدُ لغيرِهِ ولا غرضَ أصلاً في ذاتِهِ ؛ كالدراهمِ والدنانيرِ ، فإنَّ الحاجاتِ لوْ كانَتْ لا تنقضي بها.. لكانَتْ هيَ والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ولكنْ لمَّا كانَتْ وسيلةً إلى اللذَّاتِ سريعةَ الإيصالِ إليها.. صارَتْ عندَ الجهَّالِ محبوبةً في أنفسِها ، حتَّىٰ يجمعونَها ويكنزونَها ويتصارفونَ عليها بالربا ، ويظنُّونَ أنَّها مقصودةٌ ، ومثالُ هؤلاءِ مثالُ مَنْ يحبُّ شخصاً ، فيحبُّ بسببِهِ رسولَهُ الذي يجمعُ بينَهُ وبينَهُ ، ثمَّ ينسىٰ في محبَّةِ الرسولِ محبَّةَ الأصلِ ، فيعرضُ عنهُ طولَ عمرِهِ ولا يزالُ مشغولاً بتعهُّدِ الرسولِ ومراعاتِهِ وتفقُّدِهِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ والضلالِ .

الثالثُ : ما يُقصدُ لذاتِهِ ولغيرِهِ ؛ كالصحَّةِ والسلامةِ ، فإنَّها تُقصدُ ليقدرَ بسببِها على الفكرِ والذكرِ الموصلينِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ، أوْ ليتوصَّلَ بها إلى استيفاءِ لذَّاتِ الدنيا، وتُقصدُ أيضاً لذاتِها ، فإنَّ الإنسانَ وإنِ استغنىٰ عنِ المشي الذي تُرادُ سلامةُ الرجْلِ لأجلِهِ فيريدُ أيضاً سلامةَ الرجْلِ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ .

فإذاً ؛ المؤثَرُ لذاتِهِ فقطْ هوَ الخيرُ والنعمةُ تحقيقاً ، وما يُؤثرُ لذاتِهِ ولغيرِهِ أيضاً فهو نعمةٌ ، ولكنْ دونَ الأوَّلِ ، فأمَّا ما لا يُؤثرُ إلا لغيرِهِ ؛ كالنقدينِ . . فلا يُوصفانِ في أنفسِهِما مِنْ حيثُ إنَّهُما جوهرانِ بأنَّهُما نعمةٌ ، بلْ مِنْ حيثُ هما وسيلتانِ ، فيكونانِ نعمةً في حقِّ مَنْ يقصدُ أمراً ليسَ يمكنُهُ أنْ يتوصَّلَ إليهِ إلا بهِما ، فلوْ كانَ مقصدُهُ العلمَ والعبادةَ ومعَهُ الكفايةُ التي هيَ ضرورةُ حياتِهِ . . استوىٰ عندَهُ الذهبُ والمدرُ ، فكانَ وجودُهُما وعدمُهُما عندَهُ بمثابةٍ واحدةٍ ، بلْ ربما شغلَهُ وجودُهُما عنِ الفكرِ والعبادةِ ، فيكونانِ بلاءً في حقِّهِ ولا يكونانِ نعمةً .

* * *

قسمةٌ رابعةٌ :

اعلمْ : أنَّ الخيراتِ باعتبارٍ آخرَ تنقسمُ إلىٰ نافعٍ ، وجميلٍ ، ولذيذٍ ؛ فاللذيذُ : هوَ الذي تُدركُ راحتُهُ في الحالِ ، والنافعُ : هوَ الذي يفيدُ في المآلِ ، والجميلُ : هوَ الذي يُستحسنُ في سائرِ الأحوالِ .

والشرورُ أيضاً تنقسمُ إلىٰ ضارٍّ ، وقبيحٍ ، ومؤلمٍ .

وكلُّ واحدٍ من القسمينِ ضربانِ : مطلقٌ ومقيَّدٌ .

فالمطلقُ : هوَ الذي اجتمعَ فيهِ الأوصافُ الثلاثةُ ؛ أمَّا في الخيرِ . . فكالعلمِ والحكمةِ ؛ فإنَّها نافعةٌ وجميلةٌ ولذيذةٌ عندَ أهلِ العلمِ والحكمةِ ، وأمَّا في الشرِّ . . فكالجهلِ ، فإنَّهُ ضارٌّ وقبيحٌ ومؤلمٌ ، وإنَّما يحسُّ الجاهلُ

بألمِ جهلِهِ إذا عرفَ أنَّهُ جاهلٌ ؛ بأنْ يرىٰ غيرَهُ عالماً ، ويرىٰ نفسَهُ جاهلاً ، فيدركَ ألمَ النقصِ ، فتنبعثَ منهُ شهوةُ العلمِ اللذيذةُ ، ثمَّ قدْ يمنعُهُ الحسدُ والكبْرُ والشهواتُ البدنيَّةُ عنِ التعلُّمِ ، فيتجاذبُهُ متضادَّانِ ، فيعظمُ ألمُهُ ، فإنَّهُ إنْ تركَ التعلُّمَ . . تألَّمَ بالجهلِ ودرْكِ النقصانِ ، وإنِ اشتغلَ بالتعلُّمِ . . تألَّمَ بتركِ الشهواتِ أوْ بتركِ الكبْرِ وذلِّ التعلُّمِ ، ومثلُ هـٰذا الشخصِ لا يزالُ في عذابٍ دائمٍ لا محالةَ .

والضربُ الثاني : مقيَّدٌ : وهوَ الذي جمعَ بعضَ هـٰذهِ الأوصافِ دونَ بعضٍ ، فربَّ نافعٍ مؤلمٌ ؛ كقطْعِ الإصبعِ المتآكلةِ والسِّلعةِ الخارجةِ مِنَ البدنِ(١) ، وربَّ نافعٍ قبيحٌ ؛ كالحمقِ ، فإنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الأحوالِ نافعٌ ، وقدْ قيلَ : (استراحَ مَنْ لا عقلَ لهُ) ، فإنَّهُ لا يهتمُّ بالعاقبةِ ، فيستريحُ في الحالِ إلىٰ أنْ يحينَ وقتُ هلاكِهِ ، وربَّ نافعٍ مِنْ وجهٍ ضارٌّ مِنْ وجهٍ ؛ كإلقاءِ المالِ في البحرِ عندَ خوفِ الغرقِ ، فإنَّهُ ضارٌّ للمالِ ، ونافعٌ للنفْسِ في نجاتِها .

والنافعُ قسمانِ : ضروريٌّ ؛ كالإيمانِ وحسْنِ الخلقِ في الإيصالِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ، وأعني بهما العلمَ والعملَ ؛ إذْ لا يقومُ مقامَهُما ألبتةَ غيرُهُما ، وإلىٰ ما لا يكونُ ضرورياً ؛ كالسكنجبينِ مثلاً في تسكينِ الصفراءِ ، فإنَّهُ قدْ يمكنُ تسكينُها بما يقومُ مقامَهُ .

❀ ❀ ❀

(١) السلعة : زيادة تحدث في الجسد ؛ كالغدة والخرَّاج .

قسمةٌ خامسةٌ :

اعلمْ : أنَّ النعمةَ يُعبَّرُ بها عنْ كلِّ لذيذٍ ، واللذَّاتُ بالإضافةِ إلى الإنسانِ مِنْ حيثُ اختصاصُهُ بها أوْ مشاركتُهُ لغيرِهِ ثلاثةُ أنواعٍ : عقليَّةٌ ، وبدنيَّةٌ مشتركةٌ معَ بعضِ الحيواناتِ ، وبدنيَّةٌ مشتركةٌ معَ جميعِ الحيواناتِ .

أمَّا العقليَّةُ . . فكلذَّةِ العلمِ والحكمةِ ؛ إذْ ليسَ يستلذُّها السمعُ والبصرُ والشمُّ ، ولا البطنُ ولا الفرجُ ، وإنَّما يستلذُّها القلبُ ؛ لاختصاصِهِ بصفةٍ يُعبَّرُ عنها بالعقلِ ، وهـٰذهِ أقلُّ اللذاتِ وجوداً ، وهيَ أشرفُها .

أمَّا قلَّتُها . . فلأنَّ العلمَ لا يستلذُّهُ إلا عالمٌ ، والحكمةَ لا يستلذُّها إلا حكيمٌ ، وما أقلَّ أهلَ العلمِ والحكمةِ ، وما أكثرَ المتسمِّينَ باسمِهِمْ والمترسِّمينَ برسومِهِمْ .

وأمَّا شرفُها . . فلأنَّها لازمةٌ لا تزولُ أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرةِ ، ودائمةٌ لا تُملُّ ، فالطعامُ يُشبعُ منهُ فيُملُّ ، وشهوةُ الوقاعِ يُفرغُ منها فتُستثقلُ ، والعلمُ والحكمةُ قطُّ لا يُتصوَّرُ أنْ تُملَّ وتُستثقلَ .

ومَنْ قدرَ على الشريفِ الباقي أبدَ الآبادِ إذا رضيَ بالخسيسِ الفاني في أقربِ الآمادِ . . فهوَ مصابٌ في عقلِهِ ، محرومٌ لشقاوتِهِ وإدبارِهِ ، وأقلُّ أمرٍ فيهِ أنَّ العلمَ والعقلَ لا يحتاجُ إلىٰ أعوانٍ وحفظةٍ بخلافِ المالِ ؛ إذِ العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ يزيدُ بالإنفاقِ والمالُ ينقصُ بالإنفاقِ ، والمالُ يُسرقُ والولايةُ يُعزلُ عنها والعلمُ لا تمتدُّ إليهِ أيدي السرَّاقِ

بالأخذِ ، ولا أيدي السلاطينِ بالعزْلِ ، فيكونُ صاحبُهُ في رَوْحِ الأمنِ أبداً ، وصاحبُ المالِ والجاهِ في كَرْبِ الخوفِ أبداً .

ثمَّ العلمُ نافعٌ ولذيذٌ وجميلٌ في كلِّ حالٍ أبداً ، والمالُ تارةً يجذبُ إلى الهلاكِ ، وتارةً يجذبُ إلى النجاةِ ، ولذلكَ ذمَّ اللهُ تعالى المالَ في القرآنِ في مواضعَ وإنْ سمَّاهُ خيراً في مواضعَ .

وأمَّا قصورُ أكثرِ الخلقِ عنْ إدراكِ لذَّةِ العلمِ . . فإمَّا لعدمِ الذوْقِ ، فمَنْ لمْ يذقْ . . لمْ يعرفْ ولمْ يشتقْ ؛ إذِ الشوقُ تبعُ الذوقِ ، وإمَّا لفسادِ أمزجتِهِمْ ومرضِ قلوبِهِمْ بسببِ اتباعِ الشهواتِ ؛ كالمريضِ الذي لا يدركُ حلاوةَ العسلِ ويراهُ مرّاً ، وإمَّا لقصورِ فطرتِهِمْ ؛ إذْ لمْ تُخلقْ لهُمْ بعدُ الصفةُ التي بها يُستلذُّ العلمُ ؛ كالطفلِ الرضيعِ الذي لا يدركُ لذَّةَ العسلِ والطيورِ السمانِ ، ولا يستلذُّ إلا اللبنَ ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّها ليسَتْ لذيذةً ، ولا استطابتُهُ للبنِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ ألذُّ الأشياءِ .

فالقاصرونَ عنْ دركِ لذَّةِ العلمِ والحكمةِ ثلاثةٌ : إمَّا مَنْ لمْ يحيَ بعدُ باطنُهُ كالطفلِ ، وإمَّا مَنْ ماتَ بعدَ الحياةِ باتباعِ الشهواتِ ، وإمَّا مَنْ مرضَ بسببِ اتباعِ الشهواتِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ إشارةٌ إلىٰ مرضِ العقولِ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ إشارةٌ إلىٰ مَنْ لمْ يحيَ حياةً باطنةً ، وكلُّ حيٍّ بالبدنِ ميِّتٍ بالقلبِ فهوَ عندَ اللهِ مِنَ الموتىٰ وإنْ كانَ عندَ الجهَّالِ مِنَ

الأحياءِ ، ولذلكَ كانَ الشهداءُ أحياءً عندَ ربِّهِمْ يُرزقونَ فرحينَ وإنْ كانوا موتىٰ بالأبدانِ .

الثانيةُ : لذةٌ يشاركُ الإنسانُ فيها بعضَ الحيواناتِ : كلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ والاستيلاءِ ، وذلكَ موجودٌ في الأسدِ والنمرِ وبعضِ الحيواناتِ .

الثالثةُ : ما يشاركُ الإنسانُ بها سائرَ الحيواناتِ : كلذةِ البطْنِ والفرْجِ ، وهـٰذهِ أكثرُها وجوداً ، وهي أخسُّها ، ولذلكَ اشتركَ فيها كلُّ ما دبَّ ودرجَ حتَّى الديدانُ والحشراتُ .

ومَنْ جاوزَ هـٰذهِ الرتبةَ . . تشبثَتْ بهِ لذَّةُ الغلبةِ ، وهيَ أشدُّها التصاقاً بالمتعاقلينَ[1] ، فإنْ جاوزَ ذلكَ . . ارتقىٰ إلى الثالثةِ ، فصارَ أغلبُ اللذَّاتِ عليهِ لذةَ العلمِ والحكمةِ ، لا سيما لذَّةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وهـٰذهِ رتبةُ الصدِّيقينَ ، ولا يُنالُ تمامُها إلا بخروجِ استيلاءِ حبِّ الرئاسةِ مِنَ القلبِ ، وآخرُ ما يخرجُ مِنْ رؤوسِ الصدِّيقينَ حبُّ الرئاسةِ ، وأمَّا شرهُ البطْنِ والفرْجِ . . فكسرُهُ ممَّا يقوىٰ عليهِ الصالحونَ ، وشهوةُ الرئاسةِ لا يقوىٰ علىٰ قهرِها إلا الصدِّيقونَ ، فأمَّا قمعُها بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يقعَ بها الإحساسُ على الدوامِ وفي اختلافِ الأحوالِ . . فيشبهُ أنْ يكونَ خارجاً عنْ مقدورِ البشرِ .

---

(١) في (د) : (المتغافلين) .

نعمْ ، تغلبُ لذَّةُ معرفةِ اللهِ في أحوالٍ لا يقعُ معَها الإحساسُ بلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ ، ولكنْ ذلكَ لا يدومُ طولَ العمرِ ، بلْ تعتريهِ الفتراتُ ، فتعودُ إليهِ الصفاتُ البشريَّةُ ، فتكونُ موجودةً ولكنْ تكونُ مقهورةً لا تقوىٰ علىٰ حمْلِ النفسِ على العدولِ عنِ العدْلِ .

وعندَ هـٰذا تنقسمُ القلوبُ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ :

قلبٌ لا يحبُّ إلا اللهَ تعالىٰ ، ولا يستريحُ إلا بزيادةِ المعرفةِ بهِ والفكرِ فيهِ ، وقلبٌ لا يدري ما لذَّةُ المعرفةِ ، وما معنى الأنسِ باللهِ ، وإنَّما لذتهُ بالجاهِ والرئاسةِ والمالِ وسائرِ الشهواتِ البدنيَّةِ ، وقلبٌ أغلبُ أحوالِهِ الأنسُ باللهِ سبحانَهُ والتلذُّذُ بمعرفتِهِ والفكرِ فيهِ ، ولكنْ قدْ يعتريهِ في بعضِ الأحوالِ الرجوعُ إلىٰ أوصافِ البشريَّةِ ، وقلبٌ أغلبُ أحوالِهِ التلذُّذُ بالصفاتِ البشريةِ ويعتريهِ في بعضِ الأحوالِ تلذُّذٌ بالعلمِ والمعرفةِ .

أمَّا الأوَّلُ . . فإنْ كانَ ممكناً في الوجودِ فهوَ في غايةِ البعدِ .

وأمَّا الثاني . . فالدنيا طافحةٌ بهِ .

وأمَّا الثالثُ والرابعُ . . فموجودانِ ولكنْ علىٰ غايةِ الندورِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ذلكَ إلا نادراً شاذّاً ، وهوَ معَ الندورِ يتفاوتُ في القلَّةِ والكثرةِ ، وإنَّما تكونُ كثرتُهُ في الأعصارِ القريبةِ مِنْ أعصارِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، فلا يزالُ يزدادُ العهدُ طولاً وتزدادُ مثلُ هـٰذهِ القلوبِ قلَّةً إلىٰ أنْ تقربَ الساعةُ ، ويقضيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً .

وإنَّما وجبَ أنْ يكونَ هـٰذا نادراً ؛ لأنَّهُ مبادي ملكِ الآخرةِ ، والملكُ عزيزٌ ، والملوكُ لا يكثرونَ ، فكما لا يكونُ الفائقُ في الملكِ والجمالِ إلا نادراً وأكثرُ الناسِ مِنْ دونِهِمْ . . فكذا في ملكِ الآخرةِ ، فإنَّ الدنيا مرآةُ الآخرةِ ، فإنَّها عبارةٌ عنْ عالمِ الشهادةِ ، والآخرةُ عبارةٌ عنْ عالمِ الغيبِ ، وعالمُ الشهادةِ تابعٌ لعالمِ الغيبِ ؛ كما أنَّ الصورةَ في المرآةِ تابعةٌ لصورةِ الناظرِ في المرآةِ ، والصورةُ في المرآةِ وإنْ كانَتْ هيَ الثانيةَ في رتبةِ الوجودِ فإنَّها أولىٰ في حقِّ رؤيتِكَ ، فإنَّكَ لا ترىٰ نفسَكَ ، وترىٰ صورتَكَ في المرآةِ أوَّلاً ، فتعرفُ بها صورتَكَ التي هيَ قائمةٌ بكَ ثانياً علىٰ سبيلِ المحاكاةِ ، فانقلبَ التابعُ في الوجودِ متبوعاً في حقِّ المعرفةِ ، وانقلبَ المتأخِّرُ متقدماً ، وهـٰذا نوعٌ مِنَ الانعكاسِ ، ولكنَّ الانعكاسَ والانتكاسَ ضرورةُ هـٰذا العالمِ ، فكذلكَ عالمُ الملكِ والشهادةِ محاكٍ لعالمِ الغيبِ والملكوتِ .

فمِنَ الناسِ مَنْ يُسِّرَ لهُ نظرُ الاعتبارِ ، فلا ينظرُ في شيءٍ مِنْ عالمِ الملكِ إلا ويعبرُ بهِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، فيُسمَّىٰ عبورُهُ عبرةً ، وقدْ أُمرَ الخلقُ بهِ ، فقيلَ : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .

ومنهُمْ مَنْ عميَتْ بصيرتُهُ فلمْ يعبرْ ، فاحتُبسَ في عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وستُفتَحُ إلىٰ حبسِهِ أبوابُ جهنَّمَ ، وهـٰذا الحبسُ مملوءٌ ناراً منْ شأنِها أنْ تطلعَ على الأفئدةِ ، إلا أنَّ بينَهُ وبينَ إدراكِ ألمِها حجاباً ، فإذا رُفِعَ ذلكَ الحجابُ بالموتِ . . أدركَ .

وعنْ هـٰذا أظهرَ اللهُ الحقَّ علىٰ لسانِ قومٍ استنطقَهُمْ بالحقِّ[1] ، فقالوا : (الجنَّةُ والنارُ مخلوقتانِ) ، ولكنِ الجحيمُ تُدركُ مرَّةً بإدراكٍ يُسمَّىٰ علمَ اليقينِ ، ومرَّةً بإدراكٍ آخرَ يُسمَّىٰ عينَ اليقينِ ، وعينُ اليقينِ لا يكونُ إلا في الآخرةِ ، وعلمُ اليقينِ قدْ يكونُ في الدنيا ، ولكنْ للذينَ وفرَ حظُّهُمْ مِنْ نورِ اليقينِ ، فلذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ أيْ : في الدنيا ، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ أيْ : في الآخرةِ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ القلبَ الصالحَ لملكِ الآخرةِ لا يكونُ إلا عزيزاً كالشخصِ الصالحِ لملكِ الدنيا .

❁ ❁ ❁

قسمةٌ سادسةٌ حاويةٌ لمجامعِ النعَمِ :

اعلمْ : أنَّ النعمَ تنقسمُ إلىٰ ما هيَ غايةٌ مطلوبةٌ لذاتِها ، وإلىٰ ما هيَ مطلوبةٌ لأجلِ الغايةِ .

أمَّا الغايةُ . . فإنَّها سعادةُ الآخرةِ ، ويرجعُ حاصلُها إلىٰ أربعةِ أمورٍ : بقاءٌ لا فناءَ لهُ ، وسرورٌ لا غمَّ فيهِ ، وعلمٌ لا جهلَ معَهُ ، وغنىً لا فقرَ بعدَهُ ، وهيَ النعمةُ الحقيقيَّةُ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةِ » ، وقالَ ذلكَ مرَّةً في الشدَّةِ تسليةً للنفسِ ، وذلكَ في وقتِ حفرِ

---

(١) قوله : (وعن هـٰذا) أي : بسبب ما ذكر ، فعنْ هنا للتسبب ، والمراد بالقوم : أهل السنة والجماعة .

الخندقِ في شدَّةِ الضرِّ ، وقالَ ذلكَ مرَّةً في السرورِ منعاً للنفسِ مِنَ الركونِ إلىٰ سرورِ الدنيا ، وذلكَ عندَ إحداقِ الناسِ بهِ في حجَّةِ الوداعِ[١] .

وقالَ رجلٌ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ تمامَ النعمةِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وهلْ تعلمُ ما تمامُ النعمةِ ؟ » ، قالَ : لا ، قالَ : « تمامُ النعمةِ دخولُ الجنةِ »[٢] .

وأمَّا الوسائلُ . . فتنقسمُ إلى الأقربِ الأخصِّ ؛ كفضائلِ النفسِ ، وإلىٰ ما يليهِ في القرْبِ ؛ كفضائلِ البدنِ ، وهوَ الثاني ، وإلىٰ ما يليهِ في القربِ ويجاوزُ إلىٰ غيرِ البدنِ ؛ كالأسبابِ المطيفةِ بالبدنِ مِنَ المالِ والأهلِ والعشيرةِ ، وإلىٰ ما يجمعُ بينَ هـٰذهِ الأسبابِ الخارجةِ عنِ النفسِ وبينَ الحاصلةِ للنفسِ ؛ كالتوفيقِ والهدايةِ ، فهيَ إذاً أربعةُ أنواعٍ .

النوعُ الأوَّلُ وهوَ الأخصُّ : الفضائلُ النفسيَّةُ : ويرجعُ حاصلُها معَ انشعابِ أطرافِها إلى الإيمانِ وحسْنِ الخلقِ ، وينقسمُ الإيمانُ إلىٰ علمِ المكاشفةِ ؛ وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ ورسلِهِ ، وإلىٰ علومِ المعاملةِ .

وحسْنُ الخلقِ ينقسمُ إلىٰ قسمينِ : تركُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ واسمُهُ العفَّةُ ، ومراعاةُ العدْلِ في الكفِّ عنْ مقتضى الشهواتِ والإقدامِ حتَّىٰ

---

(١) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣/ ٣٩١) عن مجاهد مرسلاً .
(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٧) .

لا يمتنعَ أصلاً ولا يقدمَ كيفَ شاءَ ، بلْ يكونُ إقدامُهُ وإحجامُهُ بالميزانِ العدْلِ الذي أنزلَهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ .

فمَنْ خصىٰ نفسَهُ ليزيلَ شهوةَ النكاحِ ، أوْ تركَ النكاحَ معَ القدرةِ والأمنِ مِنَ الآفاتِ ، أوْ تركَ الأكلَ حتَّىٰ ضعفَ عنِ العبادةِ والذكرِ والفكرِ .. فقدْ أخسرَ الميزانَ ، ومَنِ انهمَكَ في شهوةِ البطنِ والفرجِ .. فقدْ طغىٰ في الميزانِ ، وإنَّما العدْلُ أنْ يخلوَ وزنُهُ وتقديرُهُ عنِ الطغيانِ والخسرانِ ، فتعتدلَ بهِ كفتا الميزانِ .

فإذاً ؛ الفضائلُ الخاصَّةُ بالنفسِ المقربةُ إلى اللهِ تعالىٰ أربعةٌ : علمُ مكاشفةٍ ، وعلمُ معاملةٍ ، وعفةٌ ، وعدالةٌ ، ولا يتمُّ هٰذا في غالبِ الأمرِ إلا بالنوعِ الثاني ، وهيَ الفضائلُ البدنيَّةُ ، وهيَ أربعةٌ : الصحةُ ، والقوَّةُ ، والجمالُ ، وطولُ العمرِ ، ولا تتهيَّأُ هٰذهِ الأمورُ الأربعةُ إلا بالنوعِ الثالثِ ، وهيَ النعَمُ الخارجةُ المطيفةُ بالبدنِ ، وهيَ أربعةٌ : المالُ ، والأهلُ ، والجاهُ ، وكرمُ العشيرةِ ، ولا ينتفعُ بشيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ الخارجةِ والبدنيَّةِ إلا بالنوعِ الرابعِ ، وهيَ الأسبابُ التي تجمعُ بينَها وبينَ ما يناسبُ الفضائلَ النفسيَّةَ الداخلةَ ، وهيَ أربعةٌ : هدايةُ اللهِ ، ورشدُهُ ، وتسديدُهُ ، وتأييدُهُ .

فمجموعُ هـٰذهِ النعَمِ ستَّ عشرةَ ؛ إذْ قسمناها إلىٰ أربعةٍ وقسمنا كلَّ واحدةٍ منَ الأربعةِ إلىٰ أربعةٍ .

وهـٰذهِ الجملةُ يحتاجُ البعضُ منها إلى البعضِ ؛ إمَّا حاجةً ضروريَّةً ، أوْ نافعةً .

أمَّا الحاجةُ الضروريَّةُ . . فكحاجةِ سعادةِ الآخرةِ إلى الإيمانِ وحسْنِ الخلقِ ؛ إذْ لا سبيلَ إلى الوصولِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ألبتةَ إلا بهما ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ، وليسَ لأحدٍ في الآخرةِ إلا ما تزوَّدَ مِنَ الدنيا ، وكذلكَ حاجةُ الفضائلِ النفسيَّةِ بكسبِ العلومِ وتهذيبِ الأخلاقِ إلىٰ صحَّةِ البدنِ ضروريٌّ .

وأمَّا الحاجةُ النافعةُ على الجملةِ . . فكحاجةِ هـٰذهِ النعمِ النفسيَّةِ والبدنيَّةِ إلى النعمِ الخارجةِ ؛ مثلُ المالِ والعزِّ والأهلِ ؛ فإنَّ ذلكَ لوْ عُدِمَ . . ربما تطرَّقَ الخللُ إلىٰ بعضِ النعمِ الداخلةِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما وجهُ الحاجةِ لطريقِ الآخرةِ إلى النعمِ الخارجةِ مِنَ المالِ والأهلِ والجاهِ والعشيرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الأسبابَ جاريةٌ مجرى الجناحِ المبلِّغِ والآلةِ المسهِّلةِ للمقصودِ .

أمَّا المالُ : فالفقيرُ في طلبِ العلمِ والكمالِ وليسَ معَهُ كفايةٌ كساعٍ إلى

الهيجا بغيرِ سلاحٍ ، وكبازٍ يرومُ الصيدَ بلا جناحٍ[1] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ العونُ علىٰ تقوى اللهِ المالُ »[3] .

وكيفَ لا ومَنْ عدمَ المالَ . . صارَ مستغرقَ الأوقاتِ في طلبِ الأقواتِ ، وفي تهيئةِ اللباسِ والمسكنِ وضروراتِ المعيشةِ ؟!

ثمَّ يتعرَّضُ لأنواعٍ مِنَ الأذىٰ تشغلُهُ عنِ الذكرِ والفكرِ ، ولا تندفعُ إلا بسلاحِ المالِ ، ثمَّ معَ ذلكَ يُحرمُ عنْ فضيلةِ الحجِّ والزكاةِ والصدقاتِ وإفاضةِ الخيراتِ !

وقالَ بعضُ الحكماءِ وقدْ قيلَ لهُ : ما النعيمُ ؟ فقالَ : الغنىٰ ؛ فإنِّي رأيتُ الفقيرَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : الأمنُ ؛ فإنِّي رأيتُ الخائفَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : العافيةُ ؛ فإنِّي رأيتُ المريضَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : الشبابُ ؛ فإنِّي رأيتُ الهرِمَ لا عيشَ لهُ[4] .

---

(١) **الهيجا** : الحرب .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .
(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) .

وكأنَّ ما ذكرَهُ إشارةٌ إلىٰ نعيمِ الدنيا ، ولكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ معينٌ على الآخرةِ فهوَ نعمةٌ ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أصبحَ معافىً في بدنِهِ ، آمناً في سربِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حِيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[1] .

وأمَّا الأهلُ والولدُ الصالحُ : فلا يخفىٰ وجهُ الحاجةِ إليهما ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعْمَ العونُ على الدينِ المرأةُ الصالحةُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الولدِ : « إذا ماتَ العبدُ . . انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ : ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ . . . » الحديثَ[3] ، وقدْ ذكرنا فوائدَ الأهلِ والولدِ في كتابِ النكاحِ .

وأمَّا الأقاربُ : فمهما كثرَ أولادُ الرجلِ وأقاربُهُ . . كانوا لهُ مثلَ الأعينِ والأيدي ، فيتيسَّرُ لهُ بسببِهِمْ مِنَ الأمورِ الدنيويَّةِ المهمَّةِ في دينِهِ ما لوِ انفردَ بهِ . . لطالَ شغلُهُ ، وكلُّ ما يفرغُ قلبَكَ عنْ ضروراتِ الدنيا فهوَ معينٌ لكَ على الدينِ ، فهوَ إذاً نعمةٌ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً .
(٢) رواه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .
(٣) رواه مسلم (١٦٣١) .

وأمَّا العزُّ والجاهُ : فبهِ يدفعُ الإنسانُ عنْ نفسهِ الذلَّ والضيمَ ، ولا يستغني عنهُ مسلمٌ ، فإنَّهُ لا ينفكُّ عنْ عدوٍّ يؤذيهِ ، وظالمٍ يشوِّشُ عليهِ علمَهُ وعملَهُ وفراغَهُ ، ويشغلُ قلبَهُ ، وقلبُهُ رأسُ مالِهِ ، وإنَّما تندفعُ هـٰذهِ الشواغلُ بالعزِّ والجاهِ ، ولذلكَ قيلَ : (الدينُ والسلطانُ توءمانِ) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ .

ولا معنىٰ للجاه إلا ملكُ القلوبِ ؛ كما لا معنىٰ للغنىٰ إلا ملكُ الدراهمِ ، ومَنْ ملكَ القلوبَ . . تسخَّرَتْ لهُ أربابُ القلوبِ لدفعِ الأذىٰ عنهُ ، فكما يحتاجُ الإنسانُ إلىٰ سقفٍ يدفعُ عنهُ المطرَ ، وجبَّةٍ تدفعُ عنهُ البردَ ، وكلبٍ يدفعُ الذئبَ عنْ ماشيتِهِ . . فيحتاجُ أيضاً إلىٰ مَنْ يدفعُ الشرَّ بهِ عنْ نفسِهِ .

وعلىٰ هـٰذا القصدِ كانَ الأنبياءُ الذينَ لا ملكَ لهُمْ ولا سلطنةَ يراعونَ السلاطينَ ويطلبونَ عندَهُمُ الجاهَ ، وكذلكَ علماءُ الدينِ ، لا علىٰ قصدِ التناولِ مِنْ خزائنِهِمْ أوِ الاستئثارِ والاستكثارِ في الدنيا بمتابعتِهِمْ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ نعمةَ اللهِ تعالىٰ علىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ نصرَهُ وأكملَ دينَهُ وأظهرَهُ علىٰ جميعِ أعدائِهِ ومكَّنَ لهُ في القلوبِ حبَّهُ حتَّى اتسعَ بهِ عزُّهُ وجاهُهُ . . كانَتْ أقلَّ مِنْ نعمتِهِ عليهِ حيثُ كانَ يُؤذىٰ ويُضربُ حتَّى افتقرَ إلى الهربِ والهجرةِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : كرمُ العشيرةِ وشرفُ الأهلِ هوَ مِنَ النعمِ أمْ لا ؟

فأقولُ : نعمْ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأئمَّةُ مِنْ قريشٍ »(١) .

ولذلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أكرمِ الناسِ أَرُومةً في نسبِ آدمَ عليهِ السلامُ(٢) .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تخيَّروا لنطفِكُمْ الأكفاءَ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ وخضراءَ الدِّمَنِ » ، فقيلَ : وما خضراءُ الدمنِ ؟ قالَ : « المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ »(٤) .

فهٰذا أيضاً مِنَ النعمِ ، ولستُ أعني بهِ الانتسابَ إلى الظلمةِ وأربابِ الدنيا ، بلِ الانتسابَ إلىٰ شجرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلىٰ أئمةِ العلماءِ ، وإلى الصالحينَ والأبرارِ المتزيِّنينَ بالعلمِ والعملِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٩٠٩) .

(٢) الأرومة : الأصل ، وروىٰ مسلم (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

(٣) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٦٣) .

(٤) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٨٤) ، والشهاب في « مسنده » (٩٥٧) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٥٣٧) .

فإنْ قلتَ : فما غناءُ الفضائلِ البدنيّةِ ؟

فأقولُ : لا خفاءَ بشدَّةِ الحاجةِ إلى الصحةِ وإلى القوّةِ وإلىٰ طولِ العمرِ ؛ إذْ لا يتمُّ علمٌ وعملٌ إلا بهما ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ »[1] .

وإنَّما يُستحقرُ مِنْ جملتِهِ أمرُ الجمالِ ، فيُقالُ : يكفي أنْ يكونَ البدنُ سليماً مِنَ الأمراضِ الشاغلةِ عنْ تحرِّي الخيراتِ ، ولعمري ؛ الجمالُ قليلُ الغَناءِ ، ولكنَّهُ مِنَ الخيراتِ أيضاً ، أمَّا في الدنيا . . فلا يخفىٰ نفعُهُ فيها ، وأمَّا في الآخرةِ . . فمِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّ القبيحَ مذمومٌ ، والطباعُ عنهُ نافرةٌ ، وحاجاتُ الجميلِ إلى الإجابةِ أقربُ ، وجاهُهُ في الصدورِ أوسعُ ، فكأنَّهُ مِنْ هـٰذا الوجهِ جناحٌ مبلغٌ كالمالِ والجاهِ ؛ إذْ هوَ نوعُ قدرةٍ ، إذْ يقدرُ الجميلُ الوجهِ علىٰ تنجيزِ حاجاتٍ لا يقدرُ عليها القبيحُ ، وكلُّ معينٍ علىٰ قضاءِ حاجاتِ الدنيا فمعينٌ على الآخرةِ بواسطتِها .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ١٦) من حديث عبد الله بن حنطب ، وبلفظ : « إن السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وروى الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

والثاني : أنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ النفسِ ؛ لأنَّ نورَ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ . . تأدَّىٰ إلى البدنِ[1] ، فالمنظرُ والمخبرُ كثيراً ما يتلازمانِ .

ولذلكَ عوَّلَ أصحابُ الفراسةِ في معرفةِ مكارمِ النفسِ علىٰ هيئاتِ البدنِ وقالوا : الوجهُ والعينُ مرآةُ الباطنِ ، ولذلكَ يظهرُ فيهِ أثرُ الغضبِ والسرورِ والغمِّ .

ولذلكَ قيلَ : (طلاقةُ الوجهِ عنوانُ ما في النفسِ) .

وقيلَ : (ما في الأرضِ قبيحٌ إلا ووجهُهُ أحسنُ ما فيهِ) .

واستعرضَ المأمونُ جيشاً ، فعُرِضَ عليهِ رجلٌ قبيحٌ ، فاستنطقَهُ ، فإذا هوَ ألكنُ ، فأسقطَ اسمَهُ مِنَ الديوانِ وقالَ : الروحُ إذا أشرقَتْ على الظاهرِ . . فصباحَةٌ ، أوْ على الباطنِ . . ففصاحةٌ ، وهـٰذا ليسَ لهُ ظاهرٌ ولا باطنٌ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبوا الخيرَ عند حسانِ الوجوهِ »[2] .

---

(١) وكلُّ شخص فله حكمان : أحدهما من قبل جسمه وهو منظره ، والآخر من قبل نفسه وهو مخبره . « إتحاف » (٩/ ٩٠) .

(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٤٦) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٧٥٩) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٤٢) من حديث جبرة بنت محمد بن ثابت عن أبيها عن عائشة مرفوعاً ، ورواه عبد بن حميد في « مسنده » (٧٥٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إذا بعثتُمْ رسولاً . . فاطلبوا حسنَ الوجهِ ، حسنَ الاسمِ)[١] .

وقالَ الفقهاءُ : إذا تساوتْ درجاتُ المصلِّينَ . . فأحسنُهُمْ وجهاً أولاهُمْ بالإمامةِ[٢] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ ممتناً بذلك : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِى ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ ﴾ .

ولسنا نعني بالجمالِ ما يحرِّكُ الشهوةَ ؛ فإنَّ ذلكَ أنوثةٌ ، وإنَّما نعني بهِ ارتفاعَ القامةِ على الاستقامةِ ، معَ الاعتدالِ في اللحمِ ، وتناسبِ الأعضاءِ ، وتناصفِ خلقةِ الوجهِ ، بحيث لا تنبو الطباعُ عنِ النظرِ إليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ أدخلتَ المالَ والجاهَ والنسبَ والأهلَ والولدَ في حيِّزِ النعمِ وقدْ ذمَّ اللهُ تعالى المالَ والجاهَ ، وكذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٣] ، وكذا العلماءُ ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوًّا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾ ، وقالَ

---

(١) روىٰ هـٰذا مرفوعاً أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) وروىٰ فيه البيهقي حديثاً مرفوعاً في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢١) .
(٣) روى الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في ذمِّ النسبِ : (الناسُ أبناءُ ما يحسنونَ)[١] ، و(قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنُهُ)[٢] ، وقيلَ : (المرءُ بنفسِهِ لا بأبيهِ) ، فما معنىٰ كونِها نعمةً معَ كونِها مذمومةً شرعاً ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يأخذُ العلومَ مِنَ الألفاظِ المنقولةِ المؤولةِ والعموماتِ المخصصَّةِ . . كانَ الضلالُ عليهِ أغلبَ ما لمْ يهتدِ بنورِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ إدراكِ العلومِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، ثمَّ ينزِّلُ النقلَ علىٰ وفْقِ ما ظهرَ لهُ منها ؛ بالتأويلِ مرَّةً ، وبالتخصيصِ أخرىٰ ، فهـٰذهِ نعمٌ معينةٌ علىٰ أمرِ الآخرةِ لا سبيلَ إلىٰ جحدِها ، إلا أنَّ فيها فتناً ومخاوفَ .

فمثالُ المالِ مثالُ الحيَّةِ التي فيها ترياقٌ نافعٌ وسمٌّ ناقعٌ ، فإنْ أصابَها المعزِّمُ الذي يعرفُ وجهَ الاحترازِ عنْ سمِّها وطريقَ استخراجِ ترياقِها النافعِ . . كانَتْ نعمةً ، وإنْ أصابَها السواديُّ الغرُّ . . فهيَ عليهِ بلاءٌ وهلاكٌ .

وهوَ مثلُ البحرِ الذي تحتَهُ أصنافُ الجواهرِ واللآلىءِ ، فمَنْ ظفرَ بالبحرِ ؛ فإنْ كانَ عالماً بالسباحةِ وطريقِ الغوْصِ وطريقِ الاحترازِ عنْ مهلكاتِ البحرِ . . فقدْ ظفرَ بنعمِهِ ، وإنْ خاضَهُ جاهلاً بذلكَ . . فقدْ هلكَ .

فلذلكَ مدحَ اللهُ تعالى المالَ وسمَّاهُ خيراً ، ومدحَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) كذا أورده الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص٤٨) .
(٢) كذا أورده العسكري في « ديوان المعاني » (١/ ١٤٦) .

عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « نعمَ العونُ علىٰ تقوى اللهِ تعالى المالُ »[1] .

وكذلكَ مدحَ الجاهَ والعزَّ ؛ إذْ منَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ أظهرَهُ على الدينِ كلِّهِ ، وحبَّبَهُ في قلوبِ الخلقِ ، وهوَ المعنيُّ بالجاهِ ، ولكنِ المنقولُ في مدحِهِما قليلٌ ، والمنقولُ في ذمِّ المالِ والجاهِ كثيرٌ ، وحيثُ ذُمَّ الرياءُ فهوَ ذمُّ الجاهِ ، إذِ الرياءُ مقصودُهُ اجتلابُ القلوبِ ، ومعنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وإنَّما كثرَ هـٰذا وقلَّ ذاكَ لأنَّ الناسَ أكثرُهُمْ جهَّالٌ بطريقِ الرقيةِ لحيَّةِ المالِ ، وطريقِ الغوْصِ في بحرِ الجاهِ ، فوجبَ تحذيرُهُمْ ؛ فإنَّهُمْ يهلكونَ بِسُمِّ المالِ قبلَ الوصولِ إلىٰ ترياقِهِ ، ويهلكُهُمْ تمساحُ بحرِ الجاهِ قبلَ العثورِ علىٰ جواهرِهِ ، ولوْ كانا في أعيانِهما مذمومينِ بالإضافةِ إلىٰ كلِّ أحدٍ . لما تُصوِّرَ أنْ ينضافَ إلى النبوَّةِ الملْكُ ؛ كما كانَ لرسولِنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا أنْ ينضافَ إليها الغنىٰ ؛ كما كانَ لسليمانَ عليهِ السلامُ .

فالناسُ كلُّهُمْ صبيانٌ ، والأموالُ حيَّاتٌ ، والأنبياءُ والعارفونَ معزِّمونَ ، فقدْ يضرُّ الصبيَّ ما لا يضرُّ المعزِّمَ .

نعمْ ، المعزِّمُ لوْ كانَ لهُ ولدٌ يريدُ بقاءَهُ وإصلاحَهُ وقدْ وجدَ حيَّةً وعلمَ أنَّهُ لوْ أخذَها لأجلِ ترياقِها لاقتدىٰ بهِ ولدُهُ وأخذَ الحيَّةَ إذا رآها ليلعبَ بها

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

فيهلِكَ . . فلهُ غرضٌ في الترياقِ ، ولهُ غرضٌ في حفْظِ الولدِ ، فواجبٌ عليهِ أنْ يزنَ غرضَهُ في الترياقِ بغرضِهِ في حفْظِ الولدِ ، فإذا كانَ يقدرُ على الصبرِ عنِ الترياقِ ولا يستضرُّ بهِ ضرراً كثيراً ، ولوْ أخذَها لأخذَها الصبيُّ ، ويعظمُ ضررُهُ بهلاكِهِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يهربَ عنِ الحيَّةِ إذا رآها ويشيرُ على الصبيِّ بالهربِ ، ويقبِّحُ صورتَها في عينِهِ ، ويعرِّفُهُ أنَّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منهُ أحدٌ ، ولا يحدِّثُهُ أصلاً بما فيها مِنْ نفعِ الترياقِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يغرُّهُ فيقدمُ عليهِ مِنْ غيرِ تمامِ المعرفةِ .

وكذلكَ الغوَّاصُ إذا علمَ أنَّهُ لوْ غاصَ في البحرِ بمرأىً مِنْ ولدِهِ لاتبعَهُ وهلكَ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يحذِّرَ الصبيَّ ساحلَ البحرِ والنهرِ ، فإنْ كانَ لا ينزجرُ الصبيُّ بمجرَّدِ الزجرِ مهما رأىٰ أباهُ يحومُ حولَ الساحلِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يبعُدَ مِنَ الساحلِ معَ الصبيِّ ولا يقربَ منهُ بينَ يديهِ .

فكذلكَ الأمَّةُ في حجرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ كالصبيانِ الأغبياءِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ تتهافتونَ على النارِ تهافتَ الفراشِ وأنا آخذٌ بحُجزِكُمْ »[2] .

وحظُّهُمُ الأوفرُ في حفْظِ أولادِهِمْ عنِ المهالكِ ، فإنَّهُمْ لمْ يُبعثوا إلا

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

لذلكَ ، وليسَ لهُمْ في المالِ حظٌّ إلا بقدْرِ القوتِ ، فلا جرمَ اقتصروا علىٰ قدْرِ القوتِ ، وما فضلَ فلمْ يمسكوهُ ، بلْ أنفقوهُ ؛ فإنَّ الإنفاقَ فيهِ الترياقُ ، وفي الإمساكِ السمُّ ، ولوْ فُتِحَ للناسِ بابُ كسبِ المالِ ورُغِّبوا فيهِ . . لمالوا إلىٰ سمِّ الإمساكِ ، ورغبوا عنْ ترياقِ الإنفاقِ ، فلذلكَ قُبِّحَتِ الأموالُ ، والمعنيُّ بهِ تقبيحُ إمساكِها ، والحرصِ عليها للاستكثارِ منها ، والتوسعِ في نعيمِها بما يوجبُ الركونَ إلى الدنيا ولذَّاتِها ، فأمَّا أخذُها بقدْرِ الكفايةِ ، وصرْفُ الفاضلِ إلى الخيراتِ . . فليسَ بمذمومٍ .

وحقُّ كلِّ مسافرٍ ألا يحملَ إلا بقدْرِ زادِهِ في السفرِ إذا صمَّمَ العزمَ علىٰ أنْ يختصَّ بما يحملُهُ ، فأمَّا إنْ سمحَتْ نفسُهُ بإطعامِ الطعامِ وتوسيعِ الزادِ على الرفقاءِ . . فلا بأسَ بالاستكثارِ ، وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليكنْ بلاغُ أحدِكُمْ مِنَ الدنيا كزادِ الراكبِ »[1] معناهُ : لأنفسِكُمْ خاصَّةً ، وإلا . . فقدْ كانَ فيمَنْ يروي هـٰذا الحديثَ ويعملُ بهِ مَنْ يأخذُ مئةَ ألفِ درهمٍ في موضعٍ واحدٍ ويفرِّقُها في موضعِهِ ، ولا يمسكُ منها حبَّةً[2] .

---

(١) رواه الترمذي (١٧٨٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتِ اللحوق بي . . فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب . . . » ، ورواه ابن ماجه (٤١٠٤) عن سلمان رضي الله عنه قال : (عهد إليَّ ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب . . .) .

(٢) منهم السيدة المبجلة عائشة رضي الله عنها ، كما سبق ذكر ذلك عنها في كتاب (ذم البخل) عند بدء الكلام علىٰ حكايات الأسخياء وكذا سلمان رضي الله عنه ، فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٩٨) : (أن عطاءه كان خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً =

ولمَّا ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الأغنياءَ يدخلونَ الجنَّةَ بشدَّةٍ . . استأذنَهُ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ في أنْ يخرجَ عنْ جميعِ ما يملكُهُ ، فأذنَ لهُ ، فنزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ وقالَ : مُرْهُ بأنْ يطعمَ المسكينَ ، ويكسوَ العاريَ ، ويقريَ الضيفَ . . . الحديثَ[1] .

فإذاً ؛ النعمُ الدنيويَّةُ مشوبةٌ ، قدِ امتزجَ داؤُها بدوائِها ، ومرجوُّها بمَخُوفِها ، ونفعُها بضرِّها ، فمَنْ وثقَ ببصيرتِهِ وكمالِ معرفتِهِ . . فلهُ أنْ يقرُبَ منها متقياً داءَها ومستخرجاً دواءَها ، ومَنْ لا يقدرُ علىٰ ذلكَ . . فالبعدَ البعدَ ، والفرارَ الفرارَ عنْ مظانِّ الأخطارِ ، فلا تعدلْ بالسلامةِ شيئاً في حقِّ هؤلاءِ ، وهُمُ الخلْقُ كلُّهُمْ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ وهداهُ لطريقِهِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما معنى النعَمِ التوفيقيَّةِ الراجعةِ إلى الهدايةِ والرشدِ والتأييدِ والتسديدِ ؟

فاعلمْ : أنَّ التوفيقَ لا يستغني عنهُ أحدٌ ، **وهوَ عبارةٌ عنِ التأليفِ والتلفيقِ بينَ إرادةِ العبدِ وبينَ قضاءِ اللهِ وقدَرِهِ** ، وهـٰذا يشملُ الشرَّ والخيرَ ، وما هوَ سعادةٌ وما هوَ شقاوةٌ ، ولكنْ جرتِ العادةُ بتخصيصِ اسمِ التوفيقِ بما يوافقُ

= علىٰ زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها ، وإذا خرج عطاؤه . . أمضاه ويأكل من سفيف يده) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) .

السعادةَ مِنْ جملةِ قضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدَرِه ، كما أنَّ الإلحادَ عبارةٌ عنِ الميلِ ، فخُصِّصَ بمَنْ يميلُ إلى الباطلِ عنِ الحقِ ، وكذا الارتدادُ .

ولا خفاءَ بالحاجةِ إلى التوفيقِ ، ولذلكَ قيلَ(١) : [من الطويل]

إذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ ٱللهِ لِلْفَتَى ... فَأَكْثَرُ ما يَجْنِي عَلَيْهِ ٱجْتِهادُهُ

فأمَّا الهدايةُ :

فلا سبيلَ لأحدٍ إلىٰ طلبِ السعادةِ إلا بها ؛ لأنَّ داعيةَ الإنسانِ قدْ تكونُ مائلةً إلىٰ ما فيهِ صلاحُ آخرتِهِ ، ولكنْ إذا لمْ يعلمْ ما فيهِ صلاحُ آخرتِهِ حتَّىٰ يظنُّ الفسادَ صلاحاً . فمِنْ أينَ ينفعُهُ مجرَّدُ الإرادةِ ؟! فلا فائدةَ في الإرادةِ والقدرةِ والأسبابِ إلا بعدَ الهدايةِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلا برحمةِ اللهِ تعالىٰ » أيْ : بهدايتِـهِ ، فقيلَ : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا »(٢) .

---

(١) البيت لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص٢٦٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) بنحوه .

وللهدايةِ ثلاثُ منازلَ :

الأولىٰ : معرفةُ طريقِ الخيرِ والشرِّ المشارِ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ، وقدْ أنعمَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ كافَّةِ عبادِهِ ، بعضُهُ بالعقلِ ، وبعضُهُ علىٰ لسانِ الرسلِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، فأسبابُ الهدىٰ هيَ الكتبُ والرسلُ وبصائرُ العقولِ ، وهيَ مبذولةٌ ، ولا يمنعُ منها إلا الحسدُ ، والكبرُ ، وحبُّ الدنيا ، والأسبابُ التي تعمي القلوبَ وإنْ كانَتْ لا تعمي الأبصارَ .

قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ومِنْ جملةِ المعمياتِ الإلْفُ والعادةُ وحبُّ استصحابِهِما ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ . . . ﴾ الآيةَ .

وعنِ الكبرِ والحسدِ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾ .

فهٰذهِ المعمياتُ هيَ التي منعَتِ الاهتداءَ .

والهدايةُ الثانيةُ : وراءَ هٰذهِ الهدايةِ العامَّةِ ، وهيَ التي يمدُّ اللهُ تعالىٰ بها العبدَ حالاً بعدَ حالٍ ، وهيَ ثمرةُ المجاهدةِ ، حيث قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

والهدايةُ الثالثةُ : وراءَ الثانيةِ ، وهوَ النورُ الذي يشرقُ في عالمِ النبوَّةِ

والولايةِ بعدَ كمالِ المجاهدةِ ، فيهتدي بها إلىٰ ما لا يهتدي إليهِ بالعقلِ الذي يحصلُ التكليفُ وإمكانُ تعلُّمِ العلومِ بهِ ، وهوَ الهدى المطلقُ ، وما عداهُ حجابٌ لهُ ومقدماتٌ ، وهوَ الذي شرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ بتخصيصِ الإضافةِ إليهِ وإنْ كانَ الكلُّ مِنْ جهتِهِ تعالىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

وهوَ المسمَّىٰ حياةً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ ، والمعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وأمَّا الرشدُ :

فنعني بهِ العنايةَ الإلـٰهيَّةَ التي تعينُ الإنسانَ عندَ توجُّهِهِ إلىٰ مقاصدِهِ ، فتقوِّيهِ علىٰ ما فيهِ صلاحُهُ ، وتفتِّرُهُ عمَّا فيهِ فسادُهُ ، ويكونُ ذلكَ مِنَ الباطنِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ ، **فالرشدُ** : عبارةٌ عنْ هدايةٍ باعثةٍ إلىٰ جهةِ السعادةِ ، محرِّكةٍ إليها ، فالصبيُّ إذا بلغَ خبيراً بحفْظِ المالِ وطرقِ التجارةِ والاستنماءِ ولكنَّهُ معَ ذلكَ يبذِّرُ ولا يريدُ الاستنماءَ . . لا يُسمَّىٰ رشيداً ، لا لعدمِ هدايتِهِ ، بلْ لقصورِ هدايتِهِ عنْ تحريكِ داعيتِهِ ، فكَمْ مِنْ شخصٍ يقدمُ علىٰ ما يعلمُ أنَّهُ يضرُّهُ ، فقدْ أُعطيَ الهدايةَ ومُيِّزَ بها عنِ الجاهلِ الذي لا يدري أنَّهُ يضرُّهُ ، ولكنْ ما أُعطيَ الرشدَ ، فالرشدُ بهـٰذا الاعتبارِ أكملُ مِنْ مجرَّدِ الهدايةِ إلىٰ وجوهِ الأعمالِ ، وهيَ نعمةٌ عظيمةٌ .

وأمَّا التسديدُ :

فهوَ توجيهُ حركاتِهِ إلىٰ صوبِ المطلوبِ ، وتيسُّرُها عليهِ ليستدَّ في صوبِ الصوابِ في أسرعِ وقتٍ ، فإنَّ الهدايةَ بمجرَّدِها لا تكفي ، بلْ لا بدَّ مِنْ هدايةٍ محرِّكةٍ للداعيةِ وهيَ الرشدُ ، والرشدُ لا يكفي ، بل لا بدَّ مِنْ تيسيرِ الحركاتِ بمساعدةِ الأعضاءِ والآلاتِ حتَّىٰ يتمَّ المرادُ ممَّا انبعثَتِ الداعيةُ إليهِ .

فالهدايةُ : محضُ التعريفِ ، والرشدُ : هوَ تنبيهُ الداعيةِ لتستيقظَ وتتحرَّكَ ، والتسديدُ : إعانةٌ ونصرةٌ بتحريكِ الأعضاءِ في صوبِ السدادِ .

وأمَّا التأييدُ :

فكأنَّهُ جامعٌ للكلِّ ، وهوَ عبارةٌ عنْ تقويةِ أمرِهِ بالبصيرةِ مِنْ داخلٍ وتقويةِ البطشِ ومساعدةِ الأسبابِ مِنْ خارجٍ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ، وتقرُبُ منهُ العصمةُ ، وهيَ عبارةٌ عنْ جودٍ إلـٰهيٍّ يسبحُ في الباطنِ يقوىٰ بهِ الإنسانُ علىٰ تحرِّي الخيرِ وتجنُّبِ الشرِّ ، حتَّىٰ يصيرَ كمانعٍ مِنْ باطنِهِ غيرِ محسوسٍ ، وإيَّاهُ عُنيَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ .

فهـٰذهِ هيَ مجامعُ النعمِ ، ولنْ تتثبَّتَ إلا بما يخوِّلُهُ اللهُ مِنَ الفهمِ الصافي الثاقبِ ، والسمعِ الواعي ، والقلبِ البصيرِ المتواضعِ المراعي ، والمعلِّمِ الناصحِ ، والمالِ الزائدِ علىٰ ما يقصرُ عنِ المهمَّاتِ بقلَّتِهِ ، القاصرِ عمَّا

يشغلُ عنِ الدينِ بكثرتِهِ ، والعزِّ الذي يصونُهُ عنْ سفهِ السفهاءِ وظلْمِ الأعداءِ .

ويستدعي كلُّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ الستةَ عشرَ أسباباً ، وتستدعي تلكَ الأسبابُ أسباباً ، إلىٰ أنْ تنتهيَ بالآخرةِ إلىٰ دليلِ المتحيِّرينَ وملجأِ المضطرينَ ، وذلكَ ربُّ الأربابِ ومسبِّبُ الأسبابِ .

وإذا كانَتْ تلكَ الأسبابُ طويلةً لا يحتملُ مثلُ هـٰذا الكتابِ استقصاءَها . . فلنذكرْ منها أنموذجاً ؛ ليُعلمَ بهِ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالىٰ وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلمْ : أنَّا جمعنا النعَمَ في ستةَ عشرَ ضرباً ، وجعلنا صحَّةَ البدنِ نعمةً مِنَ النعمِ الواقعةِ في الرتبةِ المتأخرةِ .

فهٰذهِ النعمةُ الواحدةُ لوْ أردنا أنْ نستقصيَ الأسبابَ التي بها تمَّتْ هٰذهِ النعمةُ . . لمْ نقدرْ عليها ، ولكنِ الأكلُ أحدُ أسبابِ الصحَّةِ .

فلنذكرْ نبذةً مِنْ جملةِ الأسبابِ التي بها تتمُّ نعمةُ الأكلِ .

ولا يخفىٰ أنَّ الأكلَ فعلٌ ، وكلُّ فعلٍ مِنْ هٰذا النوعِ فهوَ حركةٌ ، وكلُّ حركةٍ فلا بدَّ لها مِنْ جسمٍ متحرِّكٍ هوَ آلتُها ، ولا بدَّ لها مِنْ قدرةٍ على الحركةِ ، ولا بدَّ مِنْ إرادةٍ للحركةِ ، ولا بدَّ مِنْ علمٍ بالمرادِ وإدراكٍ لهُ ، ولا بدَّ للآكلِ مِنْ مأكولٍ ، ولا بدَّ للمأكولِ مِنْ أصلٍ منهُ يحصلُ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ صانعٍ يصلحُهُ .

فلنذكرْ أسبابَ الإدراكِ ، ثمَّ أسبابَ الإراداتِ ، ثمَّ أسبابَ القدرةِ ، ثمَّ أسبابَ المأكولِ علىٰ سبيلِ التلويحِ لا علىٰ سبيلِ الاستقصاءِ .

* * *

الطرف الأول : في نعم الله تعالىٰ في خلق أسباب الإدراك

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ النباتَ ، وهوَ أكملُ وجوداً مِنَ الحجرِ والمدرِ ، والحديدِ والنحاسِ ، وسائرِ الجواهرِ التي لا تنمو ولا تغتذي ، فإنَّ النباتَ خُلِقَ فيهِ قوَّةٌ بها يجتذبُ الغذاءَ إلىٰ نفسهِ مِنْ جهةِ أصلِهِ وعروقِهِ التي في الأرضِ ، وهيَ لهُ آلاتٌ فيها يجتذبُ الغذاءَ ، وهيَ العروقُ الدقيقةُ التي تراها في كلِّ ورقةٍ ، ثمَّ تغلظُ أصولُها ثمَّ تتشعَّبُ ، ولا تزالُ تستدقُّ وتتشعَّبُ إلىٰ عروقٍ شعريَّةٍ تنبسطُ في أجزاءِ الورقةِ حتَّىٰ تغيبَ عنِ البصرِ .

إلا أنَّ النباتَ معَ هٰذا الكمالِ ناقصٌ ، فإنَّهُ لوْ أعوزَهُ غذاءٌ يُساقُ إليهِ ويماسُّ أصلَهُ . . جفَّ ويبسَ ، ولمْ يمكنْهُ طلبُ الغذاءِ مِنْ موضعٍ آخرَ ، فإنَّ الطلبَ إنَّما يكونُ بمعرفةِ المطلوبِ وبالانتقالِ إليهِ ، والنباتُ عاجزٌ عنْ ذلكَ ، فمِنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ أنْ خلقَ لكَ آلةَ الإحساسِ ، وآلةَ الحركةِ في طلبِ الغذاءِ ، فانظرْ إلىٰ ترتيبِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الحواسِّ الخمسِ التي هي آلةُ الإدراكِ .

فأولُها حاسَّةُ اللمْسِ ، وإنَّما خُلقَتْ لكَ حتَّىٰ إذا مسَّتْكَ نارٌ محرقةٌ أوْ سيفٌ جارحٌ . . تحسُّ بهِ فتهربُ منهُ ، وهٰذا أوَّلُ حسٍّ يُخلقُ للحيوانِ ، ولا يُتصوَّرُ حيوانٌ إلا ويكونُ لهُ هٰذا الحسُّ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يحسَّ أصلاً . . فليسَ بحيوانٍ ، وأنقصُ درجاتِ الحسِّ أنْ يحسَّ بما يلاصقُهُ ويماسُّهُ ، فإنَّ

الإحساسَ بما يبعدُ منهُ إحساسٌ أتمُّ لا محالةَ ، وهـٰذا الحسُّ موجودٌ لكلِّ حيوانٍ ، حتَّى الدودةُ التي في الطينِ ، فإنَّها إذا غُرِزَ فيها إبرةٌ . . انقبضَتْ للهربِ ، لا كالنباتِ ؛ فإنَّ النباتَ يُقطعُ فلا ينقبضُ ؛ إذْ لا يحسُّ بالقطعِ .

إلا أنَّكَ لوْ لمْ يُخلقْ لكَ إلا هـٰذا الحسُّ . . لكنتَ ناقصاً كالدودِ لا تقدرُ علىٰ طلبِ الغذاءِ مِنْ حيثُ يبعدُ عنكَ ، بلْ ما يمسُّ بدنَكَ فتحسُّ بهِ ، فتجذبُهُ إلىٰ نفسِكَ فقطْ ، فافتقرتَ إلىٰ حسٍّ تدركُ بهِ ما بعُدَ عنكَ ، فخلقَ لكَ الشمَّ .

إلا أنَّكَ تدركُ بهِ الرائحةَ ، ولا تدري أنَّها جاءَتْ مِنْ أيِّ ناحيةٍ ، فتحتاجُ إلىٰ أنْ تطوفَ كثيراً مِنَ الجوانبِ ، فربَّما تعثرُ على الغذاءِ الذي شممتَ ريحَهُ وربَّما لمْ تعثرْ ، فتكونُ في غايةِ النقصانِ لوْ لمْ يخلقْ لكَ إلا هـٰذا ، فخلقَ لكَ البصرَ لتدركَ بهِ ما بعُدَ عنكَ ، وتدركَ جهتَهُ ، فتقصدَ تلكَ الجهةَ بعينِها .

إلا أنَّهُ لوْ لمْ يخلقْ لكَ إلا هـٰذا . . لكنتَ ناقصاً ؛ إذْ لا تدركُ بهـٰذا ما وراءَ الجدرانِ والحجبِ ، فتبصرُ غذاءً ليسَ بينَكَ وبينَهُ حجابٌ ، وتبصرُ عدوّاً لا حجابَ بينَكَ وبينَهُ ، وأمّا ما بينكَ وبينَهُ حجابٌ فلا تبصرُهُ وقدْ لا ينكشفُ الحجابُ إلا بعدَ قربِ العدوِّ فتعجزُ عنِ الهربِ ، فخلقَ لكَ السمعَ حتَّىٰ تدركَ بهِ الأصواتَ مِنْ وراءِ الجدرانِ والحجبِ عندَ جريانِ الحركاتِ ، ولأنَّكَ لا تدركُ بالبصرِ إلا شيئاً حاضراً ، وأمَّا الغائبُ . . فلا يمكنُكَ معرفتُهُ إلا بكلامِ

ينتظمُ مِنْ حروفٍ وأصواتٍ تُدركُ بحسِّ السمعِ ، فاشتدَّتْ إليهِ حاجتُكَ ؛ فخلقَ لكَ ذلكَ ، ومُيِّزتَ بفهمِ الكلامِ عنْ سائرِ الحيواناتِ .

وكلُّ ذلكَ ما كانَ يغنيكَ لوْ لمْ يكنْ لكَ حسُّ الذوقِ ؛ إذْ يصلُ الغذاءُ إليكَ فلا تدري أنَّهُ موافقٌ لكَ أوْ مخالفٌ ، فتأكلُهُ فتهلكُ ؛ كالشجرةِ يُصبُّ في أصلِها كلُّ مائعٍ ولا ذوقَ لها ، فتجذبُهُ وربَّما يكونُ ذلكَ سببَ جفافِها .

ثمَّ كلُّ ذلكَ لا يكفيكَ لوْ لمْ يُخلقْ في مقدِّمةِ دماغِكَ إدراكٌ آخرُ يُسمَّىٰ حسّاً مشتركاً تتأدَّىٰ إليهِ هـٰذهِ المحسوساتُ الخمسُ وتجتمعُ فيهِ ، ولولاهُ . . لطالَ الأمرُ عليكَ ، فإنَّكَ إذا أكلتَ شيئاً أصفرَ مثلاً ، فوجدتَهُ مرّاً مخالفاً لكَ فتركتَهُ ؛ فإذا رأيتَهُ مرَّةً أخرىٰ . . فلا تعرفُ أنَّهُ مضرٌّ ما لمْ تذقْهُ ثانياً لولا الحسُّ المشتركُ ؛ إذِ العينُ تبصرُ الصفرةَ ولا تدركُ المرارةَ ، فكيفَ تمتنعُ عنهُ والذوقُ يدركُ المرارةَ ولا يدركُ الصفرةَ ، فلا بدَّ مِنْ حاكمٍ تجتمعُ عندَهُ الصفرةُ والمرارةُ جميعاً ، حتَّىٰ إذا أدركَ الصفرةَ . . حكمَ بأنَّهُ مرٌّ ، فيمتنعُ عنْ تناولِهِ ثانياً .

وهـٰذا كلُّهُ تشاركُكَ فيهِ الحيواناتُ ؛ إذْ للشاةِ هـٰذهِ الحواسُّ كلُّها ، فلوْ لمْ يكنْ لكَ إلا هـٰذا . . لكنتَ ناقصاً ، فإنَّ البهيمةَ يُحتالُ عليها فتُؤخذُ ، فلا تدري كيفَ تدفعُ الحيلةَ عنْ نفسِها وكيفَ تتخلَّصُ إذا قُيِّدَتْ ، وقدْ تلقي نفسَها في البئرِ ولا تدري أنَّ ذلكَ يهلكُها ، وكذلكَ قدْ تأكلُ البهيمةُ ما تستلذُّهُ في الحالِ ويضرُّها في ثاني الحالِ ، فتمرضُ وتموتُ ؛ إذْ ليسَ لها

إلا الإحساسُ بالحاضرِ ، فأمَّا إدراكُ العواقبِ . . فلا ، فميَّزَكَ اللهُ تعالىٰ وأكرمَكَ بصفةٍ أخرىٰ هيَ أشرفُ مِنَ الكلِّ ، وهيَ العقلُ ، فبهِ تدركُ مضرَّةَ الأطعمةِ ومنفعتَها في الحالِ والمآلِ ، وبهِ تدركُ كيفيَّةَ طبخِ الأطعمةِ وتأليفِها وإعدادِ أسبابِها ، فتنتفعُ بعقلِكَ في الأكلِ الذي هوَ سببُ صحَّتِكَ ، وهوَ أخسُّ فوائدِ العقلِ وأقلُّ الحِكَمِ فيهِ ، بلِ الحكمةُ الكبرىٰ فيهِ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ومعرفةُ أفعالِهِ ومعرفةُ الحكمةِ في عالمِهِ .

وعندَ ذلكَ تنقلبُ فائدةُ الحواسِّ الخمسِ في حقِّكَ ، فتكونُ الحواسُّ الخمسُ كالجواسيسِ وأصحابِ الأخبارِ الموكَّلينَ بنواحي المملكةِ ، وقدْ وُكِّلَتْ كلُّ واحدةٍ منها بأمرٍ تختصُّ بهِ ، فواحدةٌ منها بأخبارِ الألوانِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الأصواتِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الروائحِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الطعومِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الحرِّ والبردِ ، والخشونةِ والملاسةِ ، واللينِ والصلابةِ ، وغيرِها .

وهـٰذهِ البُرُدُ والجواسيسُ يقتنصونَ الأخبارَ مِنْ أقطارِ المملكةِ ، ويسلمونَها إلى الحسِّ المشتركِ ، والحسُّ المشتركُ قاعدٌ في مقدمةِ الدماغِ ، مثلُ صاحبِ القصصِ والكتبِ علىٰ بابِ الملكِ ، يجمعُ القصصَ والكتبَ الواردةَ مِنْ نواحي العالمِ ، فيأخذُها وهيَ مختومةٌ ؛ ويسلِّمُها إذْ ليسَ لهُ إلا أخذُها وجمعُها وحفظُها ، فأمَّا معرفةُ حقائقِ ما فيها . . فلا ، ولكنْ إذا صادفَ القلبَ العاقلَ الذي هوَ الأميرُ والملكُ . . سلَّمَ الإنهاءاتِ المختومةَ إليهِ ، فيفتشُها الملكُ ويطلعُ منها علىٰ أسرارِ المملكةِ ، ويحكمُ فيها بأحكامٍ

عجيبةٍ لا يمكنُ استقصاؤُها في هٰذا المقامِ ، وبحسَبِ ما يلوحُ لهُ مِنَ الأحكامِ والمصالحِ يحرِّكُ الجنودَ ، وهيَ الأعضاءُ ، مرَّةً في الطلبِ ، ومرَّةً في الهربِ ، ومرَّةً في إتمامِ التدبيراتِ التي تعنُّ لهُ .

فهٰذهِ سياقةُ نعمةِ اللهِ عليكَ في الإدراكاتِ ، ولا تظُنَّنَّ أنَّا استوفيناها ؛ فإنَّ الحواسَّ الظاهرةَ هيَ بعضُ الإدراكاتِ ، والبصرُ واحدٌ مِنْ جملةِ الحواسِّ ، والعينُ آلةٌ واحدةٌ لهُ ، وقدْ رُكبَتِ العينُ مِنْ عشرِ طبقاتٍ مختلفةٍ ، بعضُها رطوباتٌ وبعضُها أغشيةٌ ، وبعضُ الأغشيةِ كأنَّها نسجُ العنكبوتِ ، وبعضُها كالمشيمةِ ، وبعضُ تلكَ الرطوباتِ كأنَّهُ بياضُ البيضِ ، وبعضُها كأنَّهُ الجمْدُ ، ولكلِّ واحدةٍ منْ هٰذهِ الطبقاتِ العشرِ صفةٌ وصورةٌ ، وشكلٌ وهيئةٌ ، وعرْضٌ وتدويرٌ وتركيبٌ ، لوِ اختلَّتْ طبقةٌ واحدةٌ مِنْ جملةِ العشرِ ، أوْ صفةٌ واحدةٌ مِنْ صفاتِ كلِّ طبقةٍ.. لاختلَّ البصرُ ، وعجزَ عنهُ الأطباءُ والكحَّالونَ كلُّهُمْ .

فهٰذا في حسٍّ واحدٍ ، فقسْ بهِ حاسَّةَ السمعِ وسائرَ الحواسِّ ، بلْ لا يمكنُ أنْ تُستوفىٰ حِكَمُ اللهِ تعالىٰ وأنواعُ نِعَمِهِ في جسمِ البصرِ وطبقاتِهِ في مجلَّداتٍ كثيرةٍ ، معَ أنَّ جملتَهُ لا تزيدُ علىٰ جوزةٍ صغيرةٍ ، فكيفَ ظنُّكَ بجميعِ البدنِ وسائرِ أعضائِهِ وعجائبِهِ ؟!

فهٰذهِ مرامزُ إلىٰ نعمِ اللهِ تعالىٰ بخلْقِ الإدراكاتِ .

❋ ❋ ❋

الطّرف الثّاني : في أصناف النّعم في خلق الإرادات

اعلمْ : أنَّهُ لوْ خُلِقَ لكَ البصرُ حتَّىٰ تدركَ بهِ الغذاءَ مِنْ بعْدٍ ولمْ يُخلقْ لكَ ميلٌ في الطبعِ وشوقٌ إليهِ وشهوةٌ لهُ تستحثُّكَ على الحركةِ . . لكانَ البصرُ معطَّلاً ، فكَمْ مِنْ مريضٍ يرى الطعامَ وهوَ أنفعُ الأشياءِ لهُ وقدْ سقطَتْ شهوتُهُ ، فلا يتناولُهُ ، فيبقى البصرُ والإدراكُ معطَّلاً في حقِّهِ .

فاضطررتَ إلىٰ أنْ يكونَ لكَ ميلٌ إلىٰ ما يوافقُكَ يُسمَّىٰ شهوةً ، ونفرةٌ عمَّا يخالفُكَ تُسمَّىٰ كراهةً ؛ لتطلبَ بالشهوةِ ، وتهربَ بالكراهةِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ فيكَ شهوةَ الطعامِ ، وسلَّطَها عليكَ ، ووكلَها بكَ ؛ كالمتقاضي الذي يضطرُّكَ إلى التناولِ ، حتَّىٰ تتناولَ وتتغذَّىٰ ، فتبقىٰ بالغذاءِ ، وهـٰذا ممَّا يشاركُكَ فيهِ الحيوانُ دونَ النباتِ .

ثمَّ هـٰذهِ الشهوةُ لوْ لمْ تسكنْ إذا أخذتَ مقدارَ الحاجةِ . . أسرفتَ وأهلكتَ نفسَكَ ، فخلقَ اللهُ لكَ الكراهةَ عندَ الشبعِ ؛ لتتركَ الأكلَ بها ، لا كالزرعِ ، فإنَّهُ لا يزالُ يجتذبُ الماءَ إذا انصبَّ في أسافلِهِ حتَّىٰ يفسدَ ، فيحتاجُ إلىٰ آدميٍّ يقدِّرُ غذاءَهُ بقدْرِ الحاجةِ ، فيسقيهِ مرَّةً ويقطعُ عنهُ الماءَ أخرىٰ .

وكما خُلقَتْ لكَ هـٰذهِ الشهوةُ حتَّىٰ تأكلَ فيبقىٰ بهِ بدنُكَ . . خلقَ لكَ شهوةَ الوقاعِ حتَّىٰ تجامعَ فيبقىٰ بهِ نسلُكَ .

ولوْ قصصنا عليكَ عجائبَ صنعِ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الرحمِ ، وخلْقِ دمِ الحيضِ ، وتأليفِ الجنينِ مِنَ المنيِّ ودمِ الحيضِ ، وكيفيَّةِ خلْقِ الأنثيينِ والعروقِ السالكةِ إليها مِنَ الفقارِ الذي هوَ مستقرُّ النطفةِ ، وكيفيَّةِ انصبابِ ماءِ المرأةِ مِنَ الترائبِ بواسطةِ العروقِ ، وكيفيَّةِ انقسامِ مقعَّرِ الرحمِ إلىٰ قوالبَ تقعُ النطفةُ في بعضِها فتتشكَّلُ بشكلِ الذكورِ ، وتقعُ في بعضِها فتتشكَّلُ بشكلِ الإناثِ ، وكيفيَّةِ إدارتِها في أطوارِ خلقِها مضغةً وعلقةً ، ثمَّ عظماً ولحماً ودماً ، وكيفيَّةِ قسمةِ أجزائِها إلىٰ رأسٍ ورجْلٍ وبطنٍ وظهرٍ ويدٍ وسائرِ الأعضاءِ . . لقضيتَ منْ أنواعِ نعَمِ اللهِ تعالىٰ عليكَ في مبدأِ خلقِكَ كلَّ العجبِ فضلاً عمَّا تراهُ الآنَ ، ولكنَّا لسنا نريدُ أنْ نتعرَّضَ إلا لنعَمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ وحدَهُ كي لا يطولَ الكلامُ .

فإذاً ؛ شهوةُ الطعامِ أحدُ ضروبِ الإراداتِ ، وذلكَ لا يكفيكَ ، فإنَّهُ تأتيكَ المهلكاتُ مِنَ الجوانبِ ، فلوْ لمْ يُخلقْ فيكَ الغضبُ الذي بهِ تدفعُ كلَّ ما يضادُّكَ ولا يوافقُكَ . . لبقيتَ عرضةً للآفاتِ ، ولأُخِذَ منكَ كلُّ ما حصَّلتَهُ مِنَ الغذاءِ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يشتهي ما في يديكَ ، فتحتاجُ إلىٰ داعيةٍ في دفعِهِ ومقاتلتِهِ ، وهيَ داعيةُ الغضبِ الذي بهِ تدفعُ كلَّ ما يضادُّكَ ولا يوافقُكَ .

ثمَّ هـٰذا لا يكفيكَ ؛ إذِ الشهوةُ والغضبُ لا يدعوانِ إلا إلىٰ ما يضرُّ وينفعُ في الحالِ ، وأمَّا في المآلِ . . فلا تكفي فيهِ هـٰذهِ الإرادةُ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لكَ إرادةً أخرىٰ مسخَّرةً تحتَ إشارةِ العقلِ المعرِّفِ للعواقبِ ؛ كما خلقَ

الشهوةَ والغضبَ مسخَّرةً تحتَ إدراكِ الحسِّ المدرِكِ للحالةِ الحاضرةِ ، فتمَّ بها انتفاعُكَ بالعقلِ ؛ إذْ كانَ مجرَّدُ المعرفةِ بأنَّ هـٰذهِ الشهوةَ مثلاً تضرُّكَ لا يغنيكَ في الاحترازِ عنها ما لم يكنْ لكَ ميلٌ إلى العملِ بموجَبِ المعرفةِ ، وهـٰذهِ الإرادةُ أفردتَ بها عنِ البهائمِ إكراماً لبني آدمَ ، كما أفردتَ بمعرفةِ العواقبِ ، وقدْ سمَّينا هـٰذهِ الإرادةَ باعثاً دينياً ، وفصلناهُ في كتابِ الصبرِ تفصيلاً أوفىٰ مِنْ هـٰذا .

* * *

الطّرف الثّالث: في نِعَمِ الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلمْ : أنَّ الحسَّ لا يفيدُ إلا الإدراكَ ، والإرادةُ لا معنىً لها إلا الميلُ إلى الطلبِ أوِ الهربِ ، وهـٰذا لا كفايةَ فيهِ ما لَمْ تكنْ فيكَ آلةُ الطلبِ والهربِ ، فكَمْ مِنْ زَمِنٍ مشتاقٍ إلىٰ شيءٍ بعيدٍ عنهُ مدركٍ لهُ ، ولكنَّهُ لا يمكنُهُ أنْ يمشيَ إليهِ لفقدِ رجْلِهِ ، أوْ لا يمكنُهُ أنْ يتناولَهُ لفقدِ يدِهِ ، أوْ لفلجٍ وخَدَرٍ فيهما ، فلا بدَّ مِنْ آلاتٍ للحركةِ ، وقدرةٍ في تلكَ الآلاتِ على الحركةِ ؛ لتكونَ حركتُها بمقتضى الشهوةِ طلباً ، وبمقتضى الكراهةِ هرباً ، فلذلكَ خلقَ اللهُ تعالىٰ لكَ الأعضاءَ التي تنظرُ إلىٰ ظاهرِها ولا تعرفُ أسرارَها ، فمنها ما هوَ للطلبِ والهربِ ؛ كالرجْلِ للإنسانِ ، والجناحِ للطيرِ ، والقوائمِ للدوابِّ ، ومنها ما هوَ للدفعِ ؛ كالأسلحةِ للإنسانِ ، والقرونِ للحيواناتِ ، وفي هـٰذا تختلفُ الحيواناتُ اختلافاً كثيراً ؛ فمنها ما يكثرُ أعداؤُهُ ويبعدُ غذاؤُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ سرعةِ الحركةِ ، فخُلِقَ لهُ الجناحُ ليطيرَ بسرعةٍ ، ومنها ما خُلِقَ لهُ أربعُ قوائمَ ، ومنها ما له رجْلانِ ، ومنها ما يدبُّ ، وذكرُ ذلكَ يطولُ .

فلنذكرِ الأعضاءَ التي بها يتمُّ الأكلُ فقطْ ؛ ليقاسَ عليها غيرُها ، فنقولُ :

رؤيتُكَ الطعامَ مِنْ بعدٍ وحركتُكَ إليهِ لا تكفي ما لَمْ تتمكَّنْ منْ أنْ تأخذَهُ، فافتقرتَ إلىٰ آلةٍ باطشةٍ ، فأنعمَ اللهُ تعالىٰ عليكَ بخلْقِ اليدينِ ، وهما طويلتانِ ممتدَّتانِ إلى الأشياءِ ، ومشتملتانِ علىٰ مفاصلَ كثيرةٍ لتتحرَّكَ في الجهاتِ ،

فتمتدُّ وتنثني إليكَ ، فلا تكونُ كخشبةٍ منصوبةٍ ، ثمَّ جعلَ رأسَ اليدِ عريضاً بخلْقِ الكفِّ ، ثمَّ قسَّمَ رأسَ الكفِّ بخمسةِ أقسامٍ هيَ الأصابعُ ، وجعلَها في صفَّينِ بحيثُ يكونُ الإبهامُ في جانبٍ ويدورُ على الأربعةِ الباقيةِ ، ولوْ كانَتْ مجتمعةً أوْ متراكمةً . . لمْ يحصلْ بها تمامُ غرضِكَ ، فوضعَها وضعاً إنْ بسطتَها . . كانَتْ لكَ مجرفةً ، وإنْ ضممتَها . . كانَتْ لكَ مغرفةً ، وإنْ جمعتَها . . كانَتْ لكَ آلةً للضربِ ، وإنْ نشرتَها ثمَّ قبضتَها . . كانَتْ لكَ آلةً في القبضِ ، ثمَّ خلقَ لها أظفاراً ، وأسندَ إليها رؤوسَ الأصابعِ حتَّىٰ لا تتفتَّتَ ، وحتَّىٰ تلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تحويها الأصابعُ ، فتأخذَها برؤوسِ أظفارِكَ .

ثمَّ هبْ أنَّكَ أخذتَ الطعامَ باليدِ . . فمِنْ أينَ يكفيكَ هـٰذا ما لمْ يصلْ إلى المعدةِ وهيَ في الباطنِ ، فلا بدَّ وأنْ يكونَ مِنَ الظاهرِ دهليزٌ إليها ؛ حتَّىٰ يدخلَ الطعامُ منهُ ، فجعلَ الفمَ منفذاً إلى المعدةِ معَ ما فيهِ مِنَ الحِكَمِ الكثيرةِ سوىٰ كونِهِ منفذاً للطعامِ إلى المعدةِ .

ثمَّ إنْ وضعتَ الطعامَ في الفمِ وهوَ قطعةٌ واحدةٌ . . فلا يتيسَّرُ ابتلاعُهُ ، فتحتاجُ إلىٰ طاحونةٍ تطحنُ بها الطعامَ ، فخلقَ لكَ اللحيينِ مِنْ عظمينِ ، وركَّبَ فيهِما الأسنانَ ، وطبَّقَ الأضراسَ مِنَ العليا على السفلىٰ لتطحنَ بهِما الطعامَ طحناً .

ثمَّ الطعامُ تارةً يحتاجُ إلى الكسرِ ، وتارةً إلى القطعِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ طحنٍ بعدَ ذلكَ ، فقسَّمَ الأسنانَ إلىٰ عريضةٍ طواحنَ كالأضراسِ ، وإلىٰ حادَّةٍ قواطعَ كالرَّباعِياتِ ، وإلىٰ ما يصلحُ للكسرِ كالأنيابِ .

ثمَّ جعلَ مفصِلَ اللحيينِ متخلخلاً بحيثُ يتقدَّمُ الفكُّ الأسفلُ ويتأخَّرُ ؛ حتَّىٰ يدورَ على الفكِّ الأعلىٰ دورانَ الرحىٰ ، ولولا ذلكَ . . لما تيسَّرَ إلا ضربُ أحدِهما على الآخرِ ؛ مثلَ تصفيقِ اليدينِ مثلاً ، وبذلكَ لا يتمُّ الطحنُ ، فجعلَ اللحيَ الأسفلَ متحرِّكاً حركةً دوريَّةً ، واللحيَ الأعلىٰ ثابتاً لا يتحرَّكَ ، فانظرْ إلىٰ عجيبِ صنعِ اللهِ تعالى ! فإنَّ كلَّ رحىً صنعَهُ الخلْقُ فيثبتُ منهُ الحجرُ الأسفلُ ويدورُ الأعلىٰ إلا هـٰذا الرحى الذي صنعَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ يدورُ منهُ الأسفلُ على الأعلىٰ ، فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ وأعزَّ سلطانَهُ وأتمَّ برهانَهُ وأوسعَ امتنانَهُ !

ثمَّ هبْ أنَّكَ وضعتَ الطعامَ في فضاءِ الفمِ . . فكيفَ يتحرَّكُ الطعامُ إلىٰ ما تحتَ الأسنانِ ؟ أوْ كيفَ تستجرُّهُ الأسنانُ إلىٰ نفسِها ؟ أوْ كيفَ يتصرَّفُ باليدِ في داخلِ الفمِ ؟ فانظرْ كيفَ أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليكَ بخلْقِ اللسانِ ، فإنَّهُ يطوفُ في جوانبِ الفمِ ويردُّ الطعامَ مِنَ الوسطِ إلى الأسنان بحسَبِ الحاجةِ كالمجرفةِ التي تردُّ الطعامَ إلى الرحىٰ ، هـٰذا معَ ما فيهِ مِنْ فائدةِ الذوْقِ ، وعجائبِ قوَّةِ النطْقِ التي لسنا نطنبُ بذكرِها .

ثمَّ هبْ أنَّكَ قطعتَ الطعامَ وطحنتَهُ وهوَ يابسٌ . . فلا تقدرُ على الابتلاعِ إلا بأنْ ينزلقَ إلى الحلقِ بنوعِ رطوبةٍ ، فانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ تحتَ اللسانِ عيناً يفيضُ اللعابُ منها وينصبُّ بقدْرِ الحاجةِ ؛ حتَّىٰ ينعجنَ بهِ الطعامُ ، فانظرْ كيفَ سخَّرَها لهـٰذا الأمرِ ، فإنَّكَ ترى الطعامَ مِنْ بعدٍ ، فتثورُ

المسكينةُ للخدمةِ[1] ، وينصبُّ اللعابُ حتَّىٰ تتحلَّبَ أشداقُكَ والطعامُ بعدُ بعيدٌ عنكَ .

ثمَّ هـٰذا الطعامُ المطحونُ المنعجنُ مَنْ يوصلُهُ إلى المعدةِ وهوَ في الفمِ ولا تقدرُ علىٰ أنْ تدفعَهُ باليدِ ، ولا في المعدةِ يدٌ حتَّىٰ تمتدَّ فتجذبَ الطعامَ ؟ فانظرْ كيفَ هيَّأَ اللهُ تعالى المريءَ والحَنْجَرةَ ، وجعلَ علىٰ رأسِها طبقاتٍ تنفتحُ لأخذِ الطعامِ ، ثمَّ تنطبقُ وتنضغطُ حتَّىٰ يتقلَّبَ الطعامُ بضغطِهِ ، فيهويَ إلى المعدةِ في دهليزِ المريءِ .

فإذا وردَ الطعامُ على المعدةِ وهوَ خبزٌ وفاكهةٌ مقطعةٌ . . فلا يصلحُ لأنْ يصيرَ لحماً وعظماً ودماً علىٰ هـٰذهِ الهيئةِ ، بل لا بدَّ وأنْ يُطبخَ طبخاً تامّاً حتىٰ تتشابهَ أجزاؤُهُ ، فخلقَ اللهُ تعالى المعدةَ علىٰ هيئةِ قدْرٍ ، فيقعُ فيها الطعامُ ، فتحتوي عليهِ ، وتنغلقُ عليهِ الأبوابُ ، فلا يزالُ لابثاً فيها حتَّىٰ يتمَّ الهضمُ والنضْجُ بالحرارةِ التي تحيطُ بالمعدةِ مِنَ الأعضاءِ الباطنةِ ؛ إذْ مِنْ جانبِها الأيمنِ الكبدُ ، ومِنَ الأيسرِ الطحالُ ، ومِنْ قدَّامِ الثَّرْبُ[2] ، ومِنْ خلفِ لحمُ الصلْبِ ، فتتعدَّى الحرارةُ إليها مِنْ تسخينِ هـٰذهِ الأعضاءِ مِنَ الجوانبِ ، حتَّىٰ ينطبخَ الطعامُ ويصيرَ مائعاً متشابهاً ، يصلحُ للنفوذِ في تجاويفِ العروقِ ، وعندَ ذلكَ يشبهُ ماءَ الشعيرِ في تشابهِ أجزائِهِ ورقَّتِهِ ، وهوَ

---

(١) في نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ١٠٨) : (فيثور الحنكان للخدمة) .

(٢) الثرب : شحم رقيق يغشِّي الكرش والأمعاء .

بعدُ لا يصلحُ للتغذيةِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ بينَها وبينَ الكبدِ مجاريَ مِنَ العروقِ ، وجعلَ لها فوهاتٍ كثيرةً حتَّىٰ ينصبَّ الطعامُ فيها ، فينتهيَ إلى الكبدِ .

والكبدُ معجونٌ مِنْ طينةِ الدمِ حتَّىٰ كأنَّهُ دمٌ ، وفيهِ عروقٌ كثيرةٌ شعريَّةٌ منتشرةٌ في أجزاءِ الكبدِ ، فينصبُّ الطعامُ الرقيقُ النافذُ فيها ، وينتشرُ في أجزائِها ، حتَّىٰ تستوليَ عليهِ قوَّةُ الكبدِ ، فتصبغُهُ بلونِ الدمِ ، فيستقرُّ فيها ريثما يحصلُ لهُ نضجٌ آخرُ ، ويحصلُ لهُ هيئةُ الدمِ الصافي الصالحِ لغذاءِ الأعضاءِ ، إلا أنَّ حرارةَ الكبدِ هيَ التي تنضجُ هـٰذا الدمَ ، فيتولَّدُ مِنْ هـٰذا الدمِ فضلتانِ كما يتولَّدُ في جميعِ ما يُطبخُ : إحداهُما : شبيهةٌ بالدرديِّ والعكرِ[1] ، وهوَ الخلطُ السوداويُّ ، والأخرىٰ : شبيهةٌ بالرغوةِ ، وهيَ الصفراءُ ، ولوْ لمْ تُفصلْ عنهُما هاتانِ الفضلتانِ . . فسدَ مزاجُ الأعضاءِ ، فخلقَ اللهُ تعالى المرارةَ والطحالَ ، وجعلَ لكلِّ واحدٍ منهُما عنقاً ممدوداً إلى الكبدِ داخلاً في تجويفِهِ ، فتجذبُ المرارةُ الفضلةَ الصفراويَّةَ ، ويجذبُ الطحالُ العكرَ السوداويَّ ، فيبقى الدمُ صافياً ليسَ فيهِ إلا زيادةُ رقَّةٍ ورطوبةٍ لما فيهِ مِنَ المائيَّةِ ، ولولاها . . لما انتشرَ في تلكَ العروقِ الشعريَّةِ ، ولا خرجَ منها متصاعداً إلى الأعضاءِ ، فخلقَ اللهُ تعالى الكليتينِ ، وأخرجَ مِنْ كلِّ واحدةٍ منهُما عنقاً طويلاً إلى الكبدِ ، ومِنْ عجائبِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ عنقَهُما ليسَ داخلاً في تجويفِ الكبدِ ، بلْ متصلٌ بالعروقِ الطالعةِ مِنْ

(١) الدردي والعكر : ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان .

حدبةِ الكبدِ ، حتَّىٰ يجذبَ مائيتَها بعدَ الطلوعِ مِنَ العروقِ الدقيقةِ التي في الكبدِ ، إذْ لوِ اجتُذبَ قبلَ ذلكَ . . لغلظَ ولمْ يخرجْ مِنَ العروقِ ، فإذا انفصلَتْ منهُ المائيَّةُ . . فقدْ صارَ الدمُ صافياً مِنَ الفضلاتِ الثلاثِ ، نقيّاً مِنْ كلِّ ما يفسدُ الغذاءَ .

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أطلعَ مِنَ الكبدِ عروقاً ، ثمَّ قسمَها بعدَ الطلوعِ أقساماً ، وشعبَ كلَّ قسمٍ بشعبٍ ، وانتشرَ ذلكَ في البدنِ كلِّهِ مِنَ الفَرْقِ إلى القدمِ ظاهراً وباطناً ، فيجري الدمُ الصافي فيها ، ويصلُ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ ، حتَّىٰ تصيرَ العروقُ المنقسمةُ شعريَّةً كعروقِ الأوراقِ في الأشجارِ ، بحيثُ لا تدركُ بالأبصارِ ، فيصلُ منها الغذاءُ بالرشحِ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ .

ولوْ حلَّتْ بالمرارةِ آفةٌ فلمْ تجذبْ الفضلةَ الصفراويةَ . . فسدَ الدمُ ، وحصلَ منهُ الأمراضُ الصفراويَّةُ ؛ كاليرقانِ والبثورِ والحمرةِ ، وإنْ حلَّتْ بالطحالِ آفةٌ فلمْ يجذبِ الخلطَ السوداويَّ . . حدثَتِ الأمراضُ السوداويَّةُ ؛ كالبهقِ والجذامِ والماليخوليا وغيرِها(١) ، وإنْ لمْ تندفعِ المائيةُ نحوَ الكلىٰ . . حدثَ منهُ الاستسقاءُ وغيرُهُ(٢) .

ثمَّ انظرْ إلىٰ حكمةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ رتَّبَ منافعَ علىٰ هـٰذهِ الفضلاتِ الثلاثِ الخسيسةِ :

---

(١) **الماليخوليا** : مرض يثوِّر الوساوس والظنون والخوف .

(٢) **الاستسقاء** : مرض احتباس السوائل في الجسم .

أمَّا المرارةُ . . فإنَّها تجذبُ بأحدِ عنقيها وتقذفُ بعنقٍ آخرَ إلى الأمعاءِ ؛ ليحصلَ بهِ في ثفلِ الطعامِ رطوبةٌ مزلقةٌ ، ويحدثَ في الأمعاءِ لذعٌ يحرِّكُها للدفعِ ، فتنضغطَ حتَّىٰ يندفعَ الثفلُ وينزلقَ ، وتكونُ صفرتُهُ لذلكَ .

وأمَّا الطحالُ . . فإنَّهُ يحيلُ تلكَ الفضلةَ إحالةً يحصلُ بها فيهِ حموضةٌ وقبضٌ ، ثمَّ يرسلُ منها في كلِّ يومٍ شيئاً إلىٰ فمِ المعدةِ ، فيحرِّكُ الشهوةَ بحموضتِهِ ، وينبهها ويثيرُها ، ويخرجُ الباقيَ معَ الثفلِ .

وأمَّا الكليةُ . . فإنَّها تغتذي بما في تلكَ المائيَّةِ مِنْ دمٍ ، وترسلُ الباقيَ إلى المثانةِ .

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ مِنْ بيانِ نعَمِ اللهِ تعالىٰ في الأسبابِ التي أُعدَّتْ للأكلِ ، ولوْ ذكرنا كيفيَّةَ احتياجِ الكبدِ إلى القلبِ والدماغِ ، واحتياجَ كلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأَعضاءِ الرئيسةِ إلىٰ صاحبِهِ ، وكيفيَّةَ انشعابِ العروقِ الضواربِ مِنَ القلبِ إلىٰ سائرِ البدنِ التي بواسطتِها تصلُ الروحُ[1] ، وكيفيَّةَ انشعابِ الأعصابِ مِنَ الدماغِ إلىٰ سائرِ البدنِ وبواسطتِها يصلُ الحسُّ ، وكيفيَّةَ انشعابِ العروقِ السواكنِ مِنَ الكبدِ إلىٰ سائرِ البدنِ وبواسطتِها يصلُ الغذاءُ ، ثمَّ كيفيَّةَ تركيبِ الأعضاءِ ، وعددَ عظامِها وعضلاتِها وعروقِها ، وأوتارِها ورباطاتِها ، وغضاريفِها ورطوباتِها . . لطالَ الكلامُ ، وكلُّ ذلك محتاجٌ إليهِ للأكلِ ولأمورٍ أُخرَ سواهُ .

---

(١) **والمراد بالروح هنا** : البخار اللطيف الذي محلّه القلب ، كما سيبينه المصنف قريباً .

بلْ في الآدميِّ آلافٌ مِنَ العضلاتِ والعروقِ والأعصابِ ، مختلفةٌ بالصغرِ والكبرِ ، والدقَّةِ والغلظِ ، وكثرةِ الانقسامِ وقلَّتِهِ ، ولا شيءَ منها إلا وفيهِ حكمةٌ أو اثنتانِ أوْ ثلاثٌ أوْ أربعٌ إلىٰ عشرٍ وزيادةٍ ، وكلُّ ذلكَ نعَمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ ، لوْ سكنَ مِنْ جملتِها عرقٌ متحرِّكٌ ، أوْ تحرَّكَ عرقٌ ساكنٌ . . لهلكتَ يا مسكينُ .

فانظرْ إلىٰ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ أوَّلاً ؛ لتقوىٰ بعدَها على الشكرِ ، فإنَّكَ لا تعرفُ مِنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إلا الأكلَ وهوَ أخسُّها ، ثمَّ لا تعرفُ منها إلا أنَّكَ تجوعُ فتأكلُ ، والحمارُ أيضاً يعلمُ أنَّهُ يجوعُ فيأكلُ ، ويتعبُ فينامُ ، ويشتهي فيجامعُ ، ويستريحُ فيُشْمَصُ ويُرمَحُ[1] ، فإذا لمْ تعرفْ أنتَ مِنْ نفسِكَ إلا ما يعرفُهُ الحمارُ . . فكيفَ تقومُ بشكرِ نعَمِ اللهِ عليكَ ؟!

وهـٰذا الذي رمزنا إليهِ على الإيجازِ قطرةٌ مِنْ بحرٍ واحدٍ مِنْ بحارِ نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ فقطْ ، فقسْ على الإجمالِ ما أهملناهُ مِنْ جملةِ ما عرفناهُ حذراً مِنَ التطويلِ .

وجملةُ ما عرفناهُ وعرفَهُ الخلقُ كلُّهُمْ بالإضافةِ إلىٰ ما لمْ يعرفوهُ مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ أقلُّ مِنْ قطرةٍ مِنْ بحرٍ ، إلا أنَّ مَنْ علمَ شيئاً مِنْ هـٰذا . . أدركَ شمَّةً مِنْ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

ثمَّ انظرْ كيفَ ربطَ اللهُ تعالىٰ قوامَ هـٰذهِ الأعضاءِ وقوامَ منافعِها وإدراكاتِها

(١) الشمص : ضرب الدابة وطردها لاستنهاضها ، والرَّمْح مثله ، أو هو وصف للدابة إن رفست .

وقوَّاها ببخارٍ لطيفٍ يتصاعدُ مِنَ الأخلاطِ الأربعةِ ، ومستقرُّهُ القلبُ ، ويسري في جميعِ البدنِ بواسطةِ العروقِ الضوارِبِ ، فلا ينتهي إلىٰ جزءٍ مِنْ أجزاءِ البدنِ إلا ويحدثُ عندَ وصولِهِ في تلكَ الأجزاءِ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ قوَّةِ حسٍّ وإدراكٍ ، وقوَّةِ حركةٍ وغيرِها ؛ كالسراجِ الذي يُدارُ في أطرافِ البيتِ ، فلا يصلُ إلىٰ جزءٍ إلا ويحصلُ بسببِ وصولِهِ ضوءٌ علىٰ أجزاءِ البيتِ مِنْ خلْقِ اللهِ تعالىٰ واختراعِهِ ، ولكنَّهُ جعلَ السراجَ سبباً لهُ بحكمتِهِ .

وهـٰذا البخارُ اللطيفُ هوَ الذي تسمِّيهِ الأطباءُ الروحَ ، ومحلُّهُ القلبُ ، ومثالُهُ جرمُ نارِ السراجِ ، والقلبُ لهُ كالمَسْرَجةِ[1] ، والدمُ الأسودُ الذي في باطنِ القلبِ لهُ كالفتيلةِ ، والغذاءُ لهُ كالزيتِ ، والحياةُ الظاهرةُ في سائرِ أعضاءِ البدنِ بسببِهِ كالضوءِ للسراجِ في جملةِ البيتِ ، وكما أنَّ السراجَ إذا انقطعَ زيتُهُ انطفأَ . فسراجُ الروحِ أيضاً ينطفىءُ مهما انقطعَ غذاؤُهُ .

وكما أنَّ الفتيلةَ قدْ تحترقُ وتصيرُ رماداً ، بحيثُ لا تقبلُ الزيتَ ، فينطفىءُ السراجُ معَ كثرةِ الزيتِ . فكذلكَ الدمُ الذي تشبَّثَ بهِ هـٰذا البخارُ في القلبِ قدْ يحترقُ بفرْطِ حرارةِ القلبِ ، فينطفىءُ معَ وجودِ الغذاءِ ، فإنَّهُ لا يقبلُ الغذاءَ الذي يبقىٰ بهِ الروحُ كما لا يقبلُ الرمادُ الزيتَ قبولاً تتشبَّثُ النارُ بهِ .

وكما أنَّ السراجَ تارةً ينطفىءُ بسببٍ مِنْ داخلٍ كما ذكرناهُ ، وتارةً بسببٍ

---

(١) المسرجة : التي فيها الفتيلة والزيت .

مِنْ خارجٍ كريحٍ عاصفٍ . . فكذلكَ الروحُ تارةً تنطفىءُ بسببٍ مِنْ داخلٍ ، وتارةً بسببٍ مِنْ خارجٍ وهوَ القتلُ ، وكما أنَّ انطفاءَ السراجِ بفناءِ الزيتِ ، أوْ بفسادِ الفتيلةِ ، أوْ بريحٍ عاصفٍ ، أوْ بإطفاءِ إنسانٍ لا يكونُ إلا بأسبابٍ مقدَّرةٍ في علمِ اللهِ تعالىٰ مرتبةٍ ، ويكونُ كلُّ ذلكَ بقدَرٍ . . فكذلكَ انطفاءُ الروحِ ، وكما أنَّ انطفاءَ السراجِ هوَ منتهىٰ وقتِ وجودِهِ ، فيكونُ ذلكَ أجلَهُ الذي أُجِّلَ لهُ في أمِّ الكتابِ . . فكذلكَ انطفاءُ الروحِ .

وكما أنَّ السراجَ إذا انطفأَ أظلمَ البيتُ كلُّهُ . . فالروحُ إذا انطفأَ أظلمَ البدنُ كلُّهُ ، وفارقَتْهُ أنوارُهُ التي كانَ يستفيدُها مِنَ الروحِ ، وهيَ أنوارُ الإحساساتِ والقُدَرِ والإراداتِ وسائرِ ما يجمعُها معنىٰ لفظِ الحياةِ .

فهـٰذا أيضاً رمزٌ وجيزٌ إلىٰ عالمٍ آخرَ مِنْ عوالمِ نعمِ اللهِ تعالىٰ وعجائبِ صنعِهِ وحكمتِهِ ؛ ليعلمَ أنَّهُ لوْ كانَ البحرُ مداداً لكلماتِ ربِّي . . لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربِّي ، فتَعْساً لمَنْ كفرَ باللهِ تَعْساً ، وسُحْقاً لمَنْ كفرَ نعمتَهُ سُحقاً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ وصفتَ الروحَ ومثَّلتَهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عنِ الروحِ فلمْ يزدْ علىٰ أنْ قالَ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، فلِمَ لمْ يصفْهُ لهُمْ علىٰ هـٰذا الوجهِ ؟[1] .

---

(١) أي : علىٰ أنه بخار لطيف محلّه القلب ، وحديث السؤال عن الروح رواه البخاري (٤٧٢١) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذهِ غفلةٌ عنِ الاشتراكِ الواقعِ في لفظِ الروحِ ، فإنَّ الروحَ يُطلقُ لمعانٍ كثيرةٍ لا نطوِّلُ بذكرِها ، ونحنُ إنَّما وصفنا مِنْ جملتِها جسماً لطيفاً تسمِّيهِ الأطباءُ روحاً ، وقدْ عرفوا صفتَهُ ووجودَهُ ، وكيفيَّةَ سريانِهِ في الأعضاءِ ، وكيفيَّةَ حصولِ الإحساسِ والقوىٰ في الأعضاءِ بهِ ، حتَّىٰ إذا خدِرَ بعضُ الأعضاءِ . . علموا أنَّ ذلكَ لوقوعِ سدَّةٍ في مجَرىٰ هـٰذا الروحِ ، فلا يعالجونَ موضعَ الخدَرِ ، بلْ منابتَ الأعصابِ ومواقعَ السدةِ فيها ، ويعالجونَها بما يفتحُ السدةَ ، فإنَّ هـٰذا الجسمَ بلطفِهِ ينفذُ في شباكِ العصبِ ، وبواسطتِهِ يتأدَّىٰ مِنَ القلبِ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ ، وما ترتقي إليهِ معرفةُ الأطباءِ فأمرُهُ سهلٌ نازلٌ .

وأمَّا الروحُ التي هيَ الأصلُ ، وهيَ التي إذا فسدَتْ فسدَ لها سائرُ البدنِ . . فذلكَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ لمْ نصفْهُ ، ولا رخصةَ في وصفِهِ إلا بأنْ يُقالَ : هوَ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، والأمورُ الربَّانيَّةُ لا تحتملُ العقولُ وصفَها ، بل تتحيَّرُ فيها عقولُ أكثرِ الخلقِ ، وأمَّا الأوهامُ والخيالاتُ . . فقاصرةٌ عنها بالضرورةِ قصورَ البصرِ عنْ إدراكِ الأصواتِ ، وتتزلزلُ في ذكرِ مبادي وصفِها معاقدُ العقولِ المقيدةِ بالجوهرِ والعرضِ ، المحبوسةِ في مضيقِها ، فلا يُدركُ بالعقلِ شيءٌ مِنْ وصفِهِ ، بلْ بنورٍ آخرَ أعلىٰ وأشرفَ مِنَ العقلِ ، يشرقُ ذلكَ النورُ في عالمِ النبوَّةِ والولايةِ ، نسبتُهُ إلى العقلِ نسبةُ العقلِ إلى الوهمِ والخيالِ .

وقدْ خلقَ اللهُ تعالى الخلْقَ أطواراً ، فكما يدركُ الصبيُّ المحسوساتِ

ولا يدركُ المعقولاتِ ؛ لأنَّ ذلكَ طورٌ لمْ يبلغْهُ بعدُ . . فكذلكَ يدركُ البالغُ المعقولاتِ ولا يدركُ ما وراءَها ؛ لأنَّ ذلكَ طورٌ لمْ يبلغْهُ بعدُ ، وإنَّهُ لمقامٌ شريفٌ ، ومشربٌ عذبٌ ، ورتبةٌ عاليةٌ ، فيها يُلحظُ جنابُ الحقِّ بنورِ الإيمانِ واليقينِ ، وذلكَ المشربُ أعزُّ مِنْ أنْ يكونَ شريعةً لكلِّ واردٍ ، بلْ لا يطلعُ عليهِ إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ ، ولجنابِ الحقِّ صدرٌ ، وفي مقدمةِ الصدرِ مجالٌ وميدانٌ رحبٌ ، وعلىٰ أوَّلِ الميدانِ عتبةٌ هيَ مستقرُّ ذلكَ الأمرِ الربَّانيِّ ، فمَنْ لمْ يكنْ لهُ علىٰ هـٰذهِ العتبةِ جوازٌ ، ولا لحافظِ العتبةِ مشاهدةٌ . . استحالَ أنْ يصلَ إلى الميدانِ ، فكيفَ بالانتهاءِ إلىٰ ما وراءَهُ مِنَ المشاهداتِ العاليةِ ؟!

ولذلكَ قيلَ : (مَنْ لمْ يعرفْ نفسَهُ . . لمْ يعرفْ ربَّهُ)[1] ، وأنَّىٰ يُصادفُ هـٰذا في خزانةِ الأطباءِ ؟! ومِنْ أينَ للطبيبِ أنْ يلاحظَهُ ؟ بلِ المعنى المسمَّىٰ روحاً عندَ الطبيبِ بالإضافةِ إلىٰ هـٰذا الأمرِ الربَّانيِّ كالكرةِ التي يحرِّكُها صولجانُ الملكِ بالإضافةِ إلى الملكِ ، فمَنْ عرفَ الروحَ الطبِّيَّ فظنَّ أنَّهُ أدركَ الأمرَ الربَّانيَّ . . كانَ كمَنْ رأى الكرةَ التي يحرِّكُها صولجانُ الملكِ فظنَّ أنَّهُ رأى الملكَ ، ولا يُشكُّ في أنَّ خطأَهُ فاحشٌ ، وهـٰذا الخطأُ أفحشُ منهُ جداً .

ولمَّا كانتِ العقولُ التي بها يحصلُ التكليفُ وبها تُدركُ مصالحُ الدنيا

---

(1) أورده ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٥/ ٢٩١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

عقولاً قاصرةً عنْ ملاحظةِ كنْهِ هـٰذا الأمرِ . . لمْ يأذنِ اللهُ تعالىٰ لرسولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يتحدَّثَ عنهُ ، بلْ أمرَهُ أنْ يكلِّمَ الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، ولمْ يذكرِ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ مِنْ حقيقةِ هـٰذا الأمرِ شيئاً ، لكنْ ذكرَ نسبتَهُ وفعلَهُ ، ولمْ يذكرْ ذاتَهُ ؛ أمَّا نسبتُهُ . . ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وأمَّا فعلُهُ . . فقدْ ذُكِرَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

ولنرجعِ الآنَ إلى الغرضِ ، فإنَّ المقصودَ ذكْرُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ ، فقدْ ذكرنا بعضَ نعمِ اللهِ تعالىٰ في آلاتِ الأكلِ .

❁ ❁ ❁

الطرف الرابع : في نعم الله تعالىٰ في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته

اعلمْ : أنَّ الأطعمةَ كثيرةٌ ، ولله تعالىٰ في خلقِها عجائبُ كثيرةٌ لا تُحصىٰ ، وأسبابٌ متواليةٌ لا تتناهىٰ ، وذكرُ ذلكَ في كلِّ طعامٍ ممَّا يطولُ ، فإنَّ الأطعمةَ إمَّا أدويةٌ ، وإمَّا فواكهُ ، وإمَّا أغذيةٌ ، فلنأخذِ الأغذيةَ ؛ فإنَّها الأصلُ ، ولنأخذْ مِنْ جملتِها حبَّةً مِنَ البُرِّ ، ولندعْ سائرَ الأغذيةِ ، فنقولُ :

إذا وجدتَ حبَّةً أوْ حبَّاتٍ ، فلوْ أكلتَها . . فنيَتْ وبقيتَ جائعاً ، فما أحوجَكَ إلىٰ أنْ تنموَ الحبَّةُ في نفسِها ، وتزيدَ وتتضاعفَ حتَّىٰ تفيَ بتمامِ حاجتِكَ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ في حبَّةِ الحنطةِ مِنَ القوىٰ ما تغتذي بهِ كما خلقَ فيكَ ؛ فإنَّ النباتَ إنَّما يفارقُكَ في الحسِّ والحركةِ ، ولا يخالفُكَ في الاغتذاءِ ؛ لأنَّهُ يغتذي بالماءِ ويجتذبُ إلىٰ باطنِهِ بواسطةِ العروقِ كما تغتذي أنتَ وتجتذبُ ، ولسنا نطنبُ في ذكرِ آلاتِ النباتِ في اجتذابِ الغذاءِ إلىٰ نفسِهِ ، ولكنْ نشيرُ إلىٰ غذائِهِ فنقولُ :

كما أنَّ الخشبَ والترابَ لا يغذِّيكَ ، بلْ تحتاجُ إلىٰ طعامٍ مخصوصٍ . . فكذلكَ الحبَّةُ لا تغتذي بكلِّ شيءٍ ، بلْ تحتاجُ إلىٰ شيءٍ مخصوصٍ ؛ بدليلِ أنَّكَ لوْ تركتَها في البيتِ . . لمْ تزدْ ؛ لأنَّهُ ليسَ يحيطُ بها إلا الهواءُ ، ومجرَّدُ

الهواءِ لا يصلحُ لغذائِها ، ولوْ تركتَها في الماءِ . . لمْ تزدْ ، ولوْ تركتَها في أرضٍ لا ماءَ فيها . . لمْ تزدْ ، بلْ لا بدَّ مِنْ أرضٍ فيها ماءٌ يمتزجُ ماؤُها بالأرضِ فيصيرُ طيناً ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ .

ثمَّ لا يكفي الماءُ والترابُ ؛ إذْ لوْ تُرِكَتْ في أرضٍ نديَّةٍ صلبةٍ متراكمةٍ . . لمْ تنبتْ ؛ لفقدِ الهواءِ ، فيحتاجُ إلىٰ تركِها في أرضٍ رَخوةٍ متخلخلةٍ ، يتغلغلُ الهواءُ إليها .

ثمَّ الهواءُ لا يتحرَّكُ إليها بنفسِهِ ، فيحتاجُ إلىٰ ريحٍ تحرِّكُ الهواءَ وتضربُهُ بقهْرٍ وعنفٍ على الأرضِ حتَّىٰ ينفذَ فيها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ وإنَّما إلقاحُها في إيقاعِ الازدواجِ بينَ الهواءِ والماءِ والأرضِ .

ثمَّ كلُّ ذلكَ لا يغنيكَ لوْ كانَ في بردٍ مفرطٍ وشتاءٍ شاتٍ ، فتحتاجُ إلىٰ حرارةِ الربيعِ والصيفِ .

فقدْ بانَ احتياجُ غذائِهِ إلىٰ هٰذهِ الأربعةِ ، فانظرْ إلىٰ ماذا يحتاجُ كلُّ واحدٍ ؛ إذْ يحتاجُ الماءُ لينساقَ إلىٰ أرضِ الزراعةِ مِنَ البحارِ والعيونِ والأنهارِ والسواقي ، فانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ البحارَ ، وفجَّرَ العيونَ ، وأجرىٰ منها الأنهارَ .

ثمَّ الأرضُ ربَّما تكونُ مرتفعةً والمياهُ لا ترتفعُ إليها ، فانظرْ كيفَ خلقَ

الغيومَ وكيفَ سلَّطَ الرياحَ عليها لتسوقَها بإذنِهِ إلىٰ أقطارِ الأرضِ ، وهيَ سُحُبٌ ثِقالٌ حواملُ بالماءِ ، ثمَّ انظرْ كيفَ يرسلُهُ مدراراً على الأراضي في وقتِ الربيعِ والخريفِ علىٰ حسبِ الحاجةِ .

وانظرْ كيفَ خلقَ الجبالَ حافظةً للمياهِ ، تتفجَّرُ منها العيونُ تدريجاً ، فلوْ خرجَتْ دفعةً . . لغرقتِ البلادُ ، وهلكَ الزرعُ والمواشي ، ونعمُ اللهِ تعالىٰ في الجبالِ والسحابِ والبحارِ والأمطارِ لا يمكنُ إحصاؤُها .

وأمَّا الحرارةُ . . فإنَّها لا تحصلُ بينَ الماءِ والأرضِ ، وكلاهما باردانِ ، فانظرْ كيفَ سخَّرَ الشمسَ ، وكيفَ خلقَها معَ بعدِها عنِ الأرضِ مسخِّنةً للأرضِ في وقتٍ دونَ وقتٍ ؛ ليحصلَ البردُ عندَ الحاجةِ إلى البردِ ، والحرُّ عندَ الحاجةِ إلى الحرِّ ، فهٰذهِ إحدىٰ حكَمِ الشمسِ ، والحكَمُ فيها أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ .

ثمَّ النباتُ إذا ارتفعَ عنِ الأرضِ . . كانَ في الفواكهِ انعقادٌ وصلابةٌ ، فتفتقرُ إلىٰ رطوبةٍ تنضجُها ، فانظرْ كيفَ خلقَ القمرَ وجعلَ مِنْ خاصِّيتِهِ الترطيبَ ، كما جعلَ مِنْ خاصِّيةِ الشمس التسخينَ ، فهوَ ينضجُ الفواكهَ ويصبُغُها بتقديرِ الفاطرِ الحكيمِ ، ولذلكَ لوْ كانَتِ الأشجارُ في ظلٍّ يمنعُ شروقَ الشمسِ والقمرِ وسائرِ الكواكبِ عليها . . لكانَتْ فاسدةً ناقصةً ، حتَّىٰ إنَّ الشجرةَ الصغيرةَ تفسدُ إذا أظلَّتْها شجرةٌ كبيرةٌ ، وتعرفُ ترطيبَ القمرِ بأنْ تكشفَ رأسَكَ لهُ بالليلِ ، فتغلبَ علىٰ رأسِكَ الرطوبةُ التي يُعبَّرُ عنها بالزكامِ ، فكما يرطِّبُ رأسَكَ يرطِّبُ الفواكهَ أيضاً .

ولا نطوِّلُ فيما لا مطمعَ في استقصائِهِ ، بلْ نقولُ :

كلُّ كوكبٍ في السماءِ فقدْ سُخِّرَ لنوعِ فائدةٍ كما سُخِّرَتِ الشمسُ للتسخينِ والقمرُ للترطيبِ ، فلا يخلو واحدٌ منها عنْ حكَمٍ كثيرةٍ لا تفي قوَّةُ البشرِ بإحصائِها ، ولوْ لمْ يكنْ كذلكَ . . لكانَ خلقُها عبثاً وباطلاً ، ولمْ يصحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ ، وكما أنَّهُ ليسَ في أعضاءِ بدنِكَ عضوٌ إلا لفائدةٍ . . فليسَ في أعضاءِ بدنِ العالمِ عضوٌ إلا لفائدةٍ ، والعالمُ كلُّهُ كشخصٍ واحدٍ ، وآحادُ أجسامِهِ كالأعضاءِ لهُ ، وهيَ متعاونةٌ تعاونَ أعضاءِ بدنِكَ في جملةِ بدنِكَ ، وشرحُ ذلكَ يطولُ .

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ الإيمانَ بأنَّ النجومَ والشمسَ والقمرَ مسخراتٌ بأمرِ اللهِ تعالىٰ في أمورٍ جُعلَتْ أسباباً لها بحكْمِ الحكمةِ . . مخالفٌ للشرعِ ؛ لما وردَ فيهِ مِنَ النهيِ عنْ تصديقِ المنجِّمينَ وعنْ علمِ النجومِ[1] ، **بلِ المنهيُّ عنهُ في النجومِ أمرانِ** :

أحدُهُما : أنْ تصدِّقَ بأنَّها فاعلةٌ لآثارِها مستقلَّةٌ بها ، وأنَّها ليسَتْ مسخَّرةً تحتَ تدبيرِ مدبِّرٍ خلقَهَا وقهرَها ، وهٰذا كفرٌ .

---

(١) فقد روىٰ أبو داوود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « من اقتبس علماً من النجوم . . اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » ، وروىٰ أحمد في « المسند » (١/ ٧٨) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٧٧٦) مرفوعاً : « يا علي ؛ لا تجالس أصحاب النجوم » .

والثاني : تصديقُ المنجِّمينَ في تفصيلِ ما يخبرونَ عنهُ مِنَ الآثارِ التي لا يشتركُ كافَّةُ الخلقِ في دركِها ؛ لأنَّهُمْ يقولونَ ذلكَ عنْ جهلٍ ، فإنَّ علمَ أحكامِ النجومِ كانَ معجزةً لبعضِ الأنبياءِ[1] ، ثمَّ اندرسَ ذلكَ العلمُ ، فلمْ يبقَ منهُ إلا ما هوَ مختلطٌ لا يتميَّزُ فيهِ الصوابُ عنِ الخطأِ ، فاعتقادُ كونِ الكواكبِ أسباباً لآثارٍ تحصلُ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ في الأرضِ وفي النباتِ وفي الحيوانِ . . ليسَ قادحاً في الدينِ ، بلْ هوَ حقٌّ ، ولكنْ دعوى العلمِ بتلكَ الآثارِ على التفصيلِ معَ الجهلِ قادحٌ في الدينِ ، ولذلكَ إذا كانَ معَكَ ثوبٌ غسلتَهُ وتريدُ تجفيفَهُ ، فقالَ لكَ غيرُكَ : (أخرجِ الثوبَ وابسطْهُ ؛ فإنَّ الشمسَ قدْ طلعَتْ وحميَ الهواءُ) . . لا يلزمُكَ تكذيبُهُ ، ولا يلزمُكَ الإنكارُ عليهِ بحوالتِهِ حَمْيَ الهواءِ علىٰ طلوعِ الشمسِ ، وإذا سألتَ عنْ تغيُّرِ وجهِ الإنسانِ بذلكَ ، فقالَ : (قرعَتْني الشمسُ في الطريقِ فاسودَّ وجهي) . . لمْ يلزمْكَ تكذيبُهُ بذلكَ ، وقسْ بهـٰذا سائرَ الآثارِ .

إلا أنَّ الآثارَ بعضُها معلومٌ وبعضُها مجهولٌ ، فالمجهولُ لا يجوزُ دعوى العلمِ فيهِ ، والمعلومُ بعضُهُ معلومٌ للناسِ كافَّةً ؛ كحصولِ الضياءِ والحرارةِ بطلوعِ الشمسِ ، وبعضُهُ لبعضِ الناسِ ؛ كحصولِ الزكامِ بشروقِ القمرِ .

فإذاً ؛ الكواكبُ ما خُلقَتْ عبثاً ، بلْ فيها حكَمٌ كثيرةٌ لا تُحصىٰ ، ولهـٰذا

---

(1) قيل : هو إدريس ، وقيل : هو دانيال . « إتحاف » (٩/١١٨) ، وفي (أ) : (لأنهم لا يقولون ذلك عن جهل ؛ فإن علم أحكام . . .) ، ولا يبعد .

نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى السماءِ وقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ثمَّ قالَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَ هٰذهِ الآيةَ ثمَّ مسحَ بها سَبَلَتَهُ »(١) ، ومعناهُ : أنْ يقرأَ ويتركَ التأمُّلَ ، ويقتصرَ مِنْ فهمِ ملكوتِ السماواتِ علىٰ أنْ يعرفَ لونَ السماءِ وضوءَ الكواكبِ ، وذلكَ ممَّا تعرفُهُ البهائمُ أيضاً ، فمَنْ قنعَ منهُ بمعرفةِ ذلكَ . . فهوَ الذي مسحَ بها سبلتَهُ .

فللَّهِ تعالىٰ في ملكوتِ السماواتِ والآفاقِ والأنفسِ والحيواناتِ والنباتِ عجائبُ يطلبُ معرفتَها المحبُّونَ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ عالماً . . فلا يزالُ مشغوفاً بطلبِ تصانيفِهِ ؛ ليزدادَ بمزيدِ الوقوفِ علىٰ عجائبِ علمِهِ حبّاً لهُ ، فكذلكَ الأمرُ في عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ العالمَ كلَّهُ مِنْ تصنيفِهِ ، بلْ تصنيفُ المصنِّفينَ مِنْ تصنيفِهِ الذي صنَّفَهُ بواسطةِ قلوبِ عبادِهِ ، فإنْ تعجَّبتَ مِنْ تصنيفٍ . . فلا تتعجَّبْ مِنَ المصنِّفِ ، بلْ مِنَ الذي سخَّرَ المصنِّفَ لتصنيفِهِ بما أنعمَ عليهِ مِنْ هدايتِهِ وتسديدِهِ وتعريفِهِ ، كما إذا رأيتَ لُعَبَ المشعوذِ ترقصُ وتتحرَّكُ حركاتٍ موزونةً متناسبةً . . فلا تتعجَّبْ مِنَ اللعبِ ؛ فإنَّها خِرَقٌ محرَّكةٌ لا متحرِّكةٌ ، ولكنْ تعجَّبْ مِنْ حذْقِ المشعوذِ المحرِّكِ لها بروابطَ دقيقةٍ خفيَّةٍ عنِ الأبصارِ .

فإذاً ؛ المقصودُ أنَّ غذاءَ النباتِ لا يتمُّ إلا بالماءِ والهواءِ والشمسِ والقمرِ

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (١/ ٢٥٤) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه ، والسَّبَلَة : الشارب ، أو الدائرة في وسط الشفة العليا ، أو ما على الذقن إلىٰ طرف اللحية .

والكواكبِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بالأفلاكِ التي هيَ مركوزةٌ فيها ، ولا تتمُّ الأفلاكُ إلا بحركاتِها ، ولا تتمُّ حركاتُها إلا بملائكةٍ سماويَّةٍ يحرِّكونَها ، وكذلكَ يتمادىٰ ذلكَ إلىٰ أسبابٍ بعيدةٍ تركنا ذكرَها تنبيهاً بما ذكرناهُ علىٰ ما أهملناهُ ، ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا مِنْ ذكرِ أسبابِ غذاءِ النباتِ .

* * *

الطّرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الأطعمةَ كلَّها لا تُوجدُ في كلِّ مكانٍ ، بلْ لها شروطٌ مخصوصةٌ لأجلِها تُوجدُ في بعضِ الأماكنِ دونَ بعضٍ ، والناسُ منتشرونَ علىٰ وجهِ الأرضِ ، وقدْ تبعدُ عنهُمُ الأطعمةُ ، ويحولُ بينَهُمْ وبينَها البحارُ والبراري .

فانظرْ كيفَ سخَّرَ اللهُ تعالى التجَّارَ ، وسلَّطَ عليهِمْ حرْصَ المالِ وشرهَ الربحِ ، معَ أنَّهُ لا يغنيهِمْ في غالبِ الأمرِ شيئاً ، بلْ يجمعونَ ؛ فإمَّا أنْ تغرقَ بها السفنُ ، أوْ تنهبَها قطَّاعُ الطريقِ ، أوْ يموتوا في بعضِ البلادِ فيأخذَها السلاطينُ ، وأحسنُ أحوالِهِمْ أنْ يأخذَها ورثتُهُمْ وهُمْ أشدُّ أعدائِهِمْ لوْ عرفوا .

فانظرْ كيفَ سلَّطَ اللهُ الجهلَ والغفلةَ عليهِمْ ، حتَّىٰ يقاسونَ الشدائدَ في طلبِ الربحِ ويركبونَ الأخطارَ ، ويغررونَ بالأرواحِ في ركوبِ البحارِ ، فيحملونَ الأطعمةَ وأنواعَ الحوائجِ مِنْ أقصى الشرقِ والغربِ إليكَ .

وانظرْ كيفَ علَّمَهُمُ اللهُ تعالىٰ صناعةَ السفنِ ، وكيفيَّةَ الركوبِ فيها ، وانظرْ كيفَ خلقَ الحيواناتِ ، وسخَّرَها للركوبِ والحمْلِ في البراري ، وانظرْ إلى الإبلِ كيفَ خُلقَتْ ، وإلى الفرسِ كيفَ أُمدَّتْ بسرعةِ الحركةِ ، وإلى الحمارِ كيفَ جُعِلَ صبوراً على التعبِ ، وإلى الجمالِ كيفَ تقطعُ

البراريَ وتطوي المراحلَ تحتَ الأعباءِ الثقيلةِ على الجوعِ والعطشِ ، وانظرْ كيفَ سيَّرَهُمُ اللهُ تعالىٰ بواسطةِ السفنِ والحيواناتِ في البرِّ والبحرِ ليحملوا إليكَ الأطعمةَ وسائرَ الحوائجِ .

وتأمَّلْ ما يحتاجُ إليهِ الحيواناتُ مِنْ أسبابِها وأدواتِها وعلفِها ، وما تحتاجُ إليهِ السفنُ ، فقدْ خلقَ اللهُ تعالىٰ جميعَ ذلكَ إلىٰ حدِّ الحاجةِ وفوقَ الحاجةِ ، وإحصاءُ ذلكَ غيرُ ممكنٍ ، ويتمادىٰ هٰذا إلىٰ أمورٍ خارجةٍ عنِ الحصْرِ نرىٰ تركَها طلباً للإيجازِ .

* * *

الطّرف السّادس : في إصلاح الأطعمة

اعلمْ : أنَّ الذي ينبتُ في الأرضِ مِنَ النباتِ ، وما يُخلقُ مِنَ الحيواناتِ . . لا يمكنُ أنْ يُقضمَ ويُؤكلَ وهوَ كذلكَ ، بلْ لا بدَّ في كلِّ واحدٍ مِنْ إصلاحٍ وطبخٍ وتركيبٍ وتنظيفٍ بإلقاءِ البعضِ وإبقاءِ البعضِ ، إلىٰ أمورٍ أُخرَ لا تُحصىٰ ، واستقصاءُ ذلكَ في كلِّ طعامٍ طويلٌ ، فلنعيِّنْ رغيفاً واحداً ، ولننظرْ إلىٰ ما يحتاجُ إليهِ الرغيفُ الواحدُ حتَّىٰ يستديرَ ويصلحَ للأكلِ مِنْ بعدِ إلقاءِ البذرِ في الأرضِ .

فأوَّلُ ما يحتاجُ إليهِ الحرَّاثُ ؛ ليزرعَ ويصلحَ الأرضَ ، ثمَّ الثورُ الذي يثيرُ بهِ الأرضَ والفَدَانُ وجميعُ أسبابِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ التعهُّدُ بسقيِ الماءِ مدَّةً ، ثمَّ تنقيةُ الأرضِ مِنَ الحشيشِ ، ثمَّ الحصادُ ، ثمَّ الفركُ والتنقيةُ ، ثمَّ الطحنُ ، ثمَّ العجْنُ ، ثمَّ الخبْزُ .

فتأمَّلْ عددَ هـٰذهِ الأفعالِ التي ذكرناها وما لمْ نذكرْهُ ، وعددَ الأشخاصِ القائمينَ بها ، وعددَ الآلاتِ التي يُحتاجُ إليها مِنَ الحديدِ والخشبِ والحجرِ وغيرِهِ .

وانظرْ إلىٰ أعمالِ الصنَّاعِ في إصلاحِ آلاتِ الحراثةِ والطحْنِ والخبْزِ ؛ مِنْ نجَّارٍ وحدَّادٍ وغيرِهما ، وانظرْ إلىٰ حاجةِ الحدَّادِ إلى الحديدِ والرصاصِ والنحاسِ ، وانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالى الجبالَ والأحجارَ والمعادنَ ، وكيفَ جعلَ الأرضَ قطعاً متجاوراتٍ مختلفةً .

فإنْ فتشتَ.. علمتَ أنَّ رغيفاً واحداً لا يستديرُ بحيثُ يصلحُ لأكلِكَ يا مسكينُ ما لمْ يعملْ عليهِ أكثرُ مِنْ ألفِ صانعٍ ، فابتَدِئ مِنَ المَلَكِ الذي يزجي السحابَ لينزلَ الماءَ ، إلىٰ آخرِ الأعمالِ مِنْ جهةِ الملائكةِ ، حتَّىٰ تنتهيَ النوبةُ إلىٰ عملِ الإنسانِ ، فإذا استدارَ. طلبَهُ قريبٌ مِنْ سبعةِ آلافِ صانعٍ ، كلُّ صانعٍ أصلٌ مِنْ أصولِ الصنائعِ التي بها تتمُّ مصلحةُ الخلقِ .

ثمَّ تأمَّلْ كثرةَ أعمالِ الإنسانِ في تلكَ الآلاتِ ، حتَّىٰ إنَّ الإبرةَ التي هيَ آلةٌ صغيرةٌ فائدتُها خياطةُ اللباسِ الذي يمنعُ البردَ عنكَ لا تكملُ صورتُها مِنْ حديدةٍ تصلحُ للإبرةِ إلا بعدَ أنْ تمرَّ علىٰ يدِ الإِبْرِيِّ خمساً وعشرينَ مرَّةً ، يتعاطىٰ في كلِّ مرَّةٍ منها عملاً ، فلوْ لمْ يجمعِ اللهُ تعالىٰ البلادَ ، ولمْ يسخِّرِ العبادَ ، وافتقرتَ إلىٰ عملِ المِنْجلِ الذي تحصدُ بهِ البرَّ مثلاً بعدَ نباتِهِ.. لنفدَ عمرُكَ وعجزتَ عنهُ .

أفلا ترىٰ كيفَ هدى اللهُ عبدَهُ الذي خلقَهُ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ لأَنْ يعملَ هٰذهِ الأعمالَ العجيبةَ والصنائعَ الغريبةَ ؟!

فانظرْ إلى المقراضِ مثلاً وهما جَلَمانِ متطابقانِ ، ينطبقُ أحدُهُما على الآخرِ ، فيتناولانِ الشيءَ معاً ويقطعانِهِ بسرعةٍ ، ولوْ لمْ يكشفِ اللهُ تعالىٰ طريقَ اتخاذِهِ بفضلِهِ وكرمِهِ لِمَنْ قبلَنا ، وافتقرنا إلى استنباطِ الطريقِ فيهِ بفكرِنا ، ثمَّ إلى استخراجِ الحديدِ مِنَ الحجرِ ، وإلىٰ تحصيلِ الآلاتِ التي بها يُعملُ المقراضُ ، وعُمِّرَ الواحدُ منَّا عمرَ نوحٍ ، وأُوتيَ أكملَ العقولِ..

لقصرَ عمرُهُ عنِ استنباطِ الطريقِ في إصلاحِ هـٰذهِ الآلةِ وحدَها فضلاً عنْ غيرِها .

فسبحانَ مَنْ ألحقَ ذوي الأبصارِ بالعميانِ ! وسبحانَ مَنْ منعَ التبيُّنَ معَ هـٰذا البيانِ !

فانظرِ الآنَ لوْ خلا بلدُكَ عنِ الطحانِ مثلاً ، أوْ عنِ الحدَّادِ ، أوْ عنِ الحجَّامِ الذي هوَ أخسُّ العمَّالِ ، أوْ عنِ الحائكِ ، أوْ عنْ واحدٍ مِنْ جملةِ الصنَّاعِ . . ماذا يصيبُكَ مِنَ الأذىٰ ، وكيفَ تضطربُ عليكَ أمورُكَ كلُّها ، فسبحانَ مَنْ سخَّرَ بعضَ العبادِ لبعضٍ حتَّىٰ نفذَتْ بهِ مشيئتُهُ ، وتمَّتْ بهِ حكمتُهُ .

ولنوجزِ القولَ في هـٰذهِ الطبقةِ أيضاً ، فإنَّ الغرضَ التنبيهُ على النعَمِ دونَ الاستقصاءِ .

❋ ❋ ❋

الطّرف السّابع : في إصلاح المصلحين

اعلمْ : أنَّ هؤلاءِ الصنَّاعَ المصلحينَ للأطعمةِ وغيرِها لوْ تفرَّقَتْ آراؤُهُمْ وتنافرَتْ طباعُهُمْ تنافرَ طباعِ الوحشِ . . لتبدَّدوا وتباعدوا ، ولمْ ينتفعْ بعضُهُمْ ببعضٍ ، بلْ كانوا كالوحوشِ لا يحويهِمْ مكانٌ واحدٌ ، ولا يجمعُهُمْ غرضٌ واحدٌ ، فانظرْ كيفَ ألَّفَ اللهُ تعالىٰ بينَ قلوبِهِمْ ، وسلَّطَ الأنْسَ والمحبَّةَ عليهِمْ ، ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، فلأجلِ الإلْفِ وتعارفِ الأرواحِ اجتمعوا وائتلفوا ، وبنَوُا المدنَ والبلادَ ورتبوا المساكنَ والدورَ متقاربةً متجاورةً ، ورتبوا الأسواقَ والخاناتِ وسائرَ أصنافِ البقاعِ ، ممَّا يطولُ إحصاؤُهُ .

ثمَّ هـٰذهِ المحبَّةُ تزولُ بأغراضٍ يتزاحمونَ عليها ، ويتنافسونَ فيها ، ففي جبلةِ الإنسانِ الغيظُ والحسدُ والمنافسةُ ، وذلكَ مما يؤدي إلى التقاتلِ والتنافرِ ، فانظرْ كيفَ سلَّطَ اللهُ تعالى السلاطينَ وأمدَّهُمْ بالقوَّةِ والعدةِ والأسبابِ ، وألقىٰ رعبَهُمْ في قلوبِ الرعايا حتَّىٰ أذعنوا لهُمْ طوعاً وكرهاً ، وكيفَ هدى السلاطينَ إلىٰ طريقِ إصلاحِ البلادِ ، حتَّىٰ رتَّبوا أجزاءَ البلدِ كأنَّها أجزاءُ شخصٍ واحدٍ ، تتعاونُ علىٰ غرضٍ واحدٍ ، ينتفعُ البعضُ منها بالبعضِ ، فرتَّبوا الرؤساءَ والقضاةَ والشِّحَنَ وزعماءَ الأسواقِ(١) ، واضطروا

---

(١) الشِّحن : جمع شِحنة ، لفظة فارسية بمعنىٰ نائب الحاكم ومسؤول الأمن .

الخلْقَ إلىٰ قانونِ العدْلِ ، وألزموهُمُ التساعدَ والتعاونَ ، حتَّىٰ صارَ الحدَّادُ ينتفعُ بالقصَّابِ والخبَّازِ وسائرِ أهلِ البلدِ ، وكلُّهُمْ ينتفعونَ بالحدَّادِ ، وصارَ الحجَّامُ ينتفعُ بالحرَّاثِ ، والحرَّاثُ بالحجَّامِ ، وينتفعُ كلُّ واحدٍ بكلِّ واحدٍ بسببِ ترتُّبِهِمْ واجتماعِهِمْ وانضباطِهِمْ تحتَ ترتيبِ السلطانِ وجمعِهِ ؛ كما يتعاونُ جميعُ أعضاءِ البدنِ وينتفعُ بعضُها ببعضٍ .

وانظرْ كيفَ بعثَ الأنبياءَ عليهمُ السلامُ حتَّىٰ أصلحوا السلاطينَ المصلحينَ للرعايا ، وعرَّفوهُمْ قوانينَ الشرعِ في حفْظِ العدْلِ بينَ الخلقِ ، وقوانينَ السياسةِ في ضبطِهِمْ ، وكشفوا مِنْ أحكامِ الإمامةِ والسلطنةِ وأحكامِ الفقهِ ما اهتدَوا بهِ إلىٰ إصلاحِ الدنيا ، فضلاً عمَّا أرشدوهُمْ إليهِ مِنْ إصلاحِ الدينِ .

وانظرْ كيفَ أصلحَ اللهُ تعالىٰ الأنبياءَ بالملائكةِ ، وكيفَ أصلحَ الملائكةَ بعضَهُمْ ببعضٍ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى الملكِ المقرَّبِ الذي لا واسطةَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

فالخبَّازُ يخبزُ العجينَ ، والطحَّانُ يصلحُ الحبَّ بالطحْنِ ، والحرَّاثُ يصلحُهُ بالحصادِ ، والحدَّادُ يصلحُ آلاتِ الحراثةِ ، والنجَّارُ يصلحُ آلاتِ الحدَّادِ ، وكذا جميعُ أربابِ الصناعاتِ المصلحينَ لآلاتِ الأطعمةِ ، والسلطانُ يصلحُ الصنَّاعَ ، والأنبياءُ يصلحونَ العلماءَ الذينَ هُمْ ورثتُهُمْ ، والعلماءُ يصلحونَ السلاطينَ ، والملائكةُ يصلحونَ الأنبياءَ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلىٰ حضرةِ الربوبيَّةِ التي هيَ ينبوعُ كلِّ نظامٍ ، ومطلعُ كلِّ حسنٍ وجمالٍ ،

ومنشأُ كلِّ ترتيبٍ وتأليفٍ ، وكلُّ ذلكَ نعَمٌ مِنْ ربِّ الأربابِ ومسببِّ الأسبابِ ، ولولا فضلُهُ وكرمُهُ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ . . لما اهتدينا إلىٰ معرفةِ هـٰذهِ النبذةِ اليسيرةِ مِنْ نعَمِ اللهِ تعالىٰ ، ولولا عزلُهُ إيَّانا عنْ أنْ نطمحَ بعينِ الطمعِ إلى الإحاطةِ بكنْهِ نعَمِهِ . . لتشوَّفنا إلىٰ طلبِ الإحاطةِ والاستقصاءِ ، ولكنَّه تعالىٰ عزلَنا بحكْمِ القهرِ والقدرةِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا ﴾ .

فإنْ تكلمنا . . فبإذنِهِ انبسطنا ، وإنْ سكتنا . . فبقهرِهِ انقبضنا ؛ إذْ لا معطيَ لما منعَ ، ولا مانعَ لما أعطىٰ ؛ لأنَّا في كلِّ لحظةٍ مِنْ لحظاتِ العمرِ قبلَ الموتِ نسمعُ بسمعِ القلوبِ نداءَ الملكِ الجبَّارِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ، فالحمدُ للهِ الذي ميَّزَنا عنِ الكفَّارِ ، وأسمعَنا هـٰذا النداءَ قبلَ انقضاءِ الأعمارِ .

* * *

الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليسَ يخفىٰ عليكَ ما سبقَ مِنْ نعمةِ اللهِ في خلقِ الملائكةِ بإصلاحِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ وهدايتِهِمْ ، وتبليغِ الوحيِ إليهِمْ ، ولا تظنَّنَّ أنَّهُمْ مقتصرونَ في أفعالِهِمْ علىٰ ذلكَ القدْرِ ، بلْ طبقاتُ الملائكةِ معَ كثرتِها وترتُّبِ مراتبِها تنحصرُ بالجملةِ في ثلاثِ طبقاتٍ : الملائكةُ الأرضيَّةُ ، والسماويَّةُ ، وحملةُ العرشِ .

فانظرْ كيفَ وكلَهُمُ اللهُ تعالىٰ بكَ فيما يرجعُ إلى الأكلِ والغذاءِ الذي ذكرناهُ دونَ ما يجاوزُ ذلكَ مِنَ الهدايةِ والإرشادِ وغيرِهِما .

واعلمْ : أنَّ كلَّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ بدنِكَ ، بلْ مِنْ أجزاءِ النباتِ . . لا يتغذَّىٰ إلا بأنْ يُوكلَ بهِ سبعةٌ مِنَ الملائكةِ هوَ أقلُّهُ إلىٰ عشرةٍ ، إلىٰ مئةٍ ، إلىٰ ما وراءَ ذلكَ .

وبيانُهُ : أنَّ معنى الغذاءِ أنْ يقومَ جزءٌ مِنَ الغذاءِ مقامَ جزءٍ قدْ تلفَ ، وذلكَ الغذاءُ يصيرُ دماً في آخرِ الأمرِ ، ثمَّ يصيرُ لحماً وعظماً ، فإذا صارَ لحماً وعظماً . . تمَّ اغتذاؤُكَ ، والدمُ واللحمُ أجسامٌ ليسَ لها قدرةٌ ومعرفةٌ واختيارٌ ، فهي لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، ولا تتغيَّرُ بأنفسِها ، ومجرَّدُ الطبعِ لا يكفي في تردُّدِها في أطوارِها ، كما أنَّ البُرَّ بنفسِهِ لا يصيرُ طحيناً ، ثمَّ عجيناً ، ثمَّ خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصنَّاعٍ ؛ فكذلكَ الدمُ بنفسِهِ لا يصيرُ لحماً وعظماً وعرقاً وعصباً إلا بصنَّاعٍ ، والصنَّاعُ في الباطنِ هُمُ الملائكةُ ؛

كما أنَّ الصنَّاعَ في الظاهرِ هُمْ أهلُ البلدِ ، وقدْ أسبغَ اللهُ تعالىٰ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ، فلا ينبغي أنْ تغفُلَ عنْ نعمِهِ الباطنةِ ، فأقولُ :

لا بدَّ مِنْ مَلَكٍ يجذبُ الغذاءَ إلىٰ جوارِ اللحمِ والعظمِ ، فإنَّ الغذاءَ لا يتحرَّكُ بنفسِهِ ، ولا بدَّ مِنْ مَلَكٍ آخرَ يمسكُ الغذاءَ في جوارِهِ ، ولا بدَّ مِنْ ثالثٍ يخلعُ عنهُ صورةَ الدمِ ، ولا بدَّ مِنْ رابعٍ يكسوهُ صورةَ اللحمِ والعظمِ والعرقِ ، ولا بدَّ مِنْ خامسٍ يدفعُ الفضْلَ الفاضلَ عنْ حاجةِ الغذاءِ ، ولا بدَّ مِنْ سادسٍ يلصقُ ما اكتسبَ صفةَ العظمِ بالعظمِ ، وما اكتسبَ صفةَ اللحمِ باللحمِ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ منفصلاً ، ولا بدَّ مِنْ سابعٍ يرعى المقاديرَ في الإلصاقِ ، فيلحقُ بالمستديرِ ما لا يبطلُ استدارتَهُ ، وبالعريضِ ما لا يزيلُ عرْضَهُ ، وبالمجوَّفِ ما لا يبطلُ تجويفَهُ ، ويحفظُ علىٰ كلِّ واحدٍ قدْرَ حاجتِهِ ، فإنَّهُ لوْ جُمعَ مثلاً مِنَ الغذاءِ علىٰ أنفِ الصبيِّ ما يجمعُ علىٰ فخذِهِ . . لكبرَ أنفُهُ ، وبطلَ تجويفُهُ ، وتشوَّهَتْ صورتُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يسوقَ إلى الأجفانِ معَ رقَّتِها ، وإلى الحدقةِ معَ صفائِها ، وإلى الأفخاذِ معَ غلظِها ، وإلى العظْمِ معَ صلابتِهِ . . ما يليقُ بكلِّ واحدٍ منها مِنْ حيثُ القدْرُ والشكلُ ، وإلا . . بطلَتِ الصورةُ ، وربما بعضُ المواضعِ ، وضعفَ بعضُ المواضعِ ، بلْ لوْ لمْ يراعِ هـٰذا الملكُ العدْلَ في القسمةِ والتقسيطِ ؛ فساقَ إلىٰ رأسِ الصبيِّ وسائرِ بدنِهِ مِنَ الغذاءِ ما ينمو بهِ إلا إحدى الرجْلينِ مثلاً . . لبقيَتْ تلك الرجْلُ كما كانَتْ في حدِّ الصغرِ ، وكبرَ جميعُ البدنِ ، فكنتَ ترىٰ شخصاً في ضخامةِ رجُلٍ ولهُ رجْلٌ واحدةٌ كأنَّها رجْلُ صبيٍّ ، فلا ينتفعُ بنفسِهِ ألبتةَ .

فمراعاةُ هـٰذهِ الهندسةِ في هـٰذهِ القسمةِ مفوَّضةٌ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملائكةِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ الدمَ بطبعِهِ يهندسُ شكْلَ نفسِهِ ، فإنَّ محيلَ هـٰذهِ الأمورِ على الطبعِ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ .

فهـٰذهِ هيَ الملائكةُ الأرضيَّةُ .

وقدْ شُغلوا بكَ وأنتَ في النومِ تستريحُ ، وفي الغفلةِ تتردَّدُ ، وهُمْ يصلحونَ الغذاءَ في باطنِكَ ، ولا خبرَ لكَ منهُمْ ، وذلكَ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزائِكَ التي لا تتجزَّأُ ، حتَّىٰ يفتقرُ بعضُ الأجزاءِ كالعينِ والقلبِ إلىٰ أكثرَ مِنْ مئةِ ملكٍ ، تركنا تفصيلَ ذلكَ للإيجازِ .

والملائكةُ الأرضيَّةُ مددُهُمْ مِنَ الملائكةِ السماويَّةِ علىٰ ترتيبٍ معلومٍ ، لا يحيطُ بكنهِهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ومددُ الملائكةِ السماويَّةِ مِنْ حملةِ العرشِ ، والمنعِمُ علىٰ جميعِهِمْ بالتأييدِ والهدايةِ والتسديدِ المهيمنُ القدُّوسُ المنفردُ بالملْكِ والملكوتِ والعزَّةِ والجبروتِ ، جبَّارُ السماواتِ والأرضِ ، مالكُ الملكِ ذو الجلالِ والإكرامِ .

والأخبارُ الواردةُ في الملائكةِ الموكلينَ بالسماواتِ والأرضِ وأجزاءِ النباتِ والحيواناتِ حتَّىٰ كلِّ قطرةٍ مِنَ المطرِ ، وكلِّ سحابٍ ينجرُّ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ . . أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ، فلذلكَ تركنا الاستشهادَ بهِ[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) ينظر « الحبائك في أخبار الملائك » لمزيد التوسع ، ففيه ما يشفي ويكفي .

فإنْ قلتَ : فهلاَّ فوَّضتَ هٰذهِ الأفعالَ إلىٰ ملكٍ واحدٍ ، ولِمَ افتقرَ إلىٰ سبعةِ أملاكٍ ، والحنطةُ أيضاً تحتاجُ إلىٰ مَنْ يطحنُ أولاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يميزُ عنهُ النخالةَ ويدفعُ الفضلةَ ثانياً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يصبُّ الماءَ عليهِ ثالثاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يعجنُ رابعاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يقطعُهُ كراتٍ مدورةً خامساً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يرقِّقُها رغفاناً عريضةً سادساً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يلصقُها بالتنورِ سابعاً ، ولكنْ قدْ يتولىٰ جميعَ ذلكَ رجلٌ واحدٌ يستقلُّ بهِ ، فهلاَّ كانَتْ أعمالُ الملائكةِ باطناً كأعمالِ الإنسِ ظاهراً .

فاعلمْ : أنَّ خلقةَ الملائكةِ تخالفُ خلقةَ الإنسِ ، وما مِنْ واحدٍ منهُمْ إلا وهوَ وحدانيُّ الصفةِ ، ليسَ فيهِ خلطٌ وتركيبٌ ألبتةَ ، فلا يكونُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ إلا فعلٌ واحدٌ ، وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، فلذلكَ ليسَ بينَهُمْ تنافسٌ وتقاتلٌ ، بلْ مثالُهُمْ في تعيُّنِ مرتبةِ كلِّ واحدٍ منهُمْ وفعلِهِ مثالُ الحواسِّ الخمسِ ، فإنَّ البصرَ لا يزاحمُ السمعَ في إدراكِ الأصواتِ ، ولا الشمُّ يزاحمُهُما ، ولا هما ينازعانِ الشمَّ ، وليسَ كاليدِ والرجْلِ ؛ فإنَّكَ قدْ تبطشُ بأصابعِ الرجْلِ بطشاً ضعيفاً ، فتزاحمُ بهِ اليدَ ، وقدْ تضربُ غيرَكَ برأسِكَ فتزاحمُ اليدَ التي هيَ آلةُ الضرْبِ ، ولا كالإنسانِ الواحدِ الذي يتولَّىٰ بنفسِهِ الطحْنَ والعجْنَ والخبْزَ ؛ فإنَّ هٰذا نوعٌ مِنَ الاعوجاجِ والعدولِ عنِ العدْلِ ، سببُهُ اختلافُ صفاتِ الإنسانِ واختلافُ دواعيهِ ، فإنَّهُ ليسَ وحدانيَّ الصفةِ ، فلمْ يكنْ وحدانيَّ الفعلِ .

ولذلكَ ترى الإنسانَ يطيعُ اللهَ مرَّةً ويعصيهِ أخرىٰ ؛ لاختلافِ دواعيهِ

وصفاتِهِ ، وذلكَ غيرُ ممكنٍ في طباعِ الملائكةِ ، بلْ هُمْ مجبولونَ على الطاعةِ ، لا مجالَ للمعصيةِ في حقِّهِمْ ، فلا جرمَ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ، ويفعلونَ ما يُؤمرونَ ، ويسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترونَ ، والراكعُ منهُمْ راكعٌ أبداً ، والساجدُ منهُمْ ساجدٌ أبداً ، والقائمُ قائمٌ أبداً ، لا اختلافَ في أفعالِهِمْ ولا فتورَ ، ولكلٍّ واحدٍ مقامٌ معلومٌ لا يتعدَّاهُ[1] .

وطاعتُهُمْ للهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا مجالَ للمخالفةِ فيهِمْ يمكنُ أنْ تُشبَّهَ بطاعةِ أطرافِكَ لكَ ؛ فإنَّكَ مهما جزمتَ الإرادةَ بفتحِ الأجفانِ . . لمْ يكنْ للجفنِ الصحيحِ تردُّدٌ واختلافٌ في طاعتِكَ مرَّةً ومعصيتِكَ أخرىٰ ، بلْ كأنَّهُ منتظرٌ لأمرِكَ ونهيِكَ ، ينفتحُ وينطبقُ متصلاً بإشارتِكَ ، فهـٰذا يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ، لكنْ يخالفُهُ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ الجفنُ لا علمَ لهُ بما يصدرُ منهُ مِنَ الحركةِ فتحاً وإطباقاً ، والملائكةُ أحياءٌ عالمونَ بما يفعلونَ .

فإذاً ؛ هـٰذهِ نعمةُ اللهِ عليكَ في الملائكةِ الأرضيَّةِ والسماويَّةِ ، وحاجتُكَ إليهِما في غرضِ الأكلِ فقطْ دونَ ما عداها مِنَ الحركاتِ والحاجاتِ كلِّها ، فإنَّا لمْ نطوِّلْ بذكرِها .

---

(١) وقد روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٢٦٠) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥١٥) مرفوعاً : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك يقطر دمعة من عينه إلا وقعت ملكاً قائماً يصلي ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السماوات والأرض ، لم يرفعوا رؤوسهم ، لا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة ، وإن منهم ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السماوات والأرض ، فلا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة ، فإذا رفعوا رؤوسهم ونظروا إلىٰ وجه الله . . قالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك » .

فهٰذهِ طبقةٌ أخرىٰ مِنْ طبقاتِ النعَمِ ، ومجامعُ الطبقاتِ لا يمكنُ إحصاؤُها ، فكيفَ آحادُ ما يدخلُ تحتَ مجامعِ الطبقاتِ ؟!

فإذاً ؛ قدْ أسبغَ اللهُ تعالىٰ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ، ثمَّ قالَ : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ، فتركُ باطنِ الإثمِ ممَّا لا يعرفُهُ الخلقُ مِنَ الحسدِ وسوءِ الظنِّ والبدعةِ وإضمارِ الشرِّ للناسِ إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ آثامِ القلوبِ . . هوَ الشكرُ للنعَمِ الباطنةِ ، وتركُ الإثمِ الظاهرِ بالجوارحِ شكرٌ للنعمةِ الظاهرةِ .

بلْ أقولُ : كلُّ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ ولوْ في تطريفةٍ واحدةٍ ؛ بأنْ فتحَ جفنَهُ مثلاً حيثُ يجبُ غضُّ البصرِ . . فقدْ كفرَ كلَّ نعمةٍ للهِ تعالىٰ عليهِ في السماواتِ والأرضِ وما بينَهُما ، فإنَّ كلَّ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ حتَّى الملائكةِ والسماواتِ والأرضِ والحيوانِ والنباتِ بجملتِهِ نعمةٌ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ العبادِ ، قدْ تمَّ بهِ انتفاعُهُ وإنِ انتفعَ غيرُهُ أيضاً بهِ ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ تطريفةٍ بالجفنِ نعمتينِ في نفسِ الجفنِ ؛ إذْ خلقَ تحتَ كلِّ جفنٍ عضلاتٍ ولها أوتارٌ ورباطاتٌ متصلةٌ بأعصابِ الدماغِ ، بها يتمُّ انخفاضُ الجفنِ الأعلىٰ وارتفاعُ الجفنِ الأسفلِ ، وعلىٰ كلِّ جفنٍ شعورٌ سودٌ ، ونعمةُ اللهِ في سوادِها أنَّها تجمعُ ضوءَ العينِ ؛ إذِ البياضُ يفرِّقُ الضوءَ ، والسوادُ يجمعُهُ ، ونعمةُ اللهِ تعالىٰ في ترتيبِها صفّاً واحداً أنْ يكونَ مانعاً للهوامِّ مِنَ الدبيبِ إلىٰ باطنِ العينِ ، ومتشبثاً للأقذاءِ التي تتناثرُ في الهواءِ ، ولهُ في كلِّ شعرةٍ منها نعمتانِ مِنْ حيثُ لينُ أصلِها ، ومعَ اللينِ قُوِّمَ نصبُها ، ولهُ في اشتباكِ الأهدابِ نعمةٌ أعظمُ مِنَ الكلِّ ، وهوَ أنَّ غبارَ الهواءِ قدْ يمنعُ مِنْ فتحِ العينِ ،

ولوْ طبّقَ . . لمْ يبصرْ ، فيجمعُ الأجفانَ مقدارَ ما تتشابكُ الأهدابُ ، فينظرُ مِنْ وراءِ شبَّاكِ الشعرِ ، فيكونُ شبَّاكُ الشعرِ مانعاً مِنْ وصولِ القذىٰ مِنْ خارجٍ ، وغيرَ مانعٍ مِنِ امتدادِ البصرِ مِنْ داخلٍ .

ثمَّ إنْ أصابَ الحدقةَ غبارٌ . . فقدْ خلقَ أطرافَ الأجفانِ حادَّةً منطبقةً على الحدقةِ ، كالمصقلةِ للمرآةِ ، فيطبقُها مرَّةً أوْ مرَّتينِ وقدِ انصقلَتِ الحدقةُ مِنَ الغبارِ ، وخرجَتِ الأقذاءُ إلىٰ زوايا العينِ والأجفانِ ، والذبابُ لما لمْ يكنْ لحدقتِهِ جفنٌ . . خلقَ لهُ يدينِ ، فتراهُ على الدوامِ يمسحُ بهِما حدقتيهِ ليصقلَهُما مِنَ الغبارِ .

وإذْ تركنا الاستقصاءَ لتفاصيلِ النعَمِ لافتقارِهِ إلىٰ تطويلٍ يزيدُ علىٰ أصلِ هٰذا الكتابِ ، ولعلَّنا نستأنفُ لهُ كتاباً مقصوداً فيهِ إنْ أمهلَ الزمانُ وساعدَ التوفيقُ ، نسمِّيهِ : « عجائبَ صنْعِ اللهِ تعالىٰ »[1] . . فلنرجعْ إلىٰ غرضِنا ، فنقولُ :

مَنْ نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرمٍ . . فقدْ كفرَ بفتحِ العينِ نعمةَ اللهِ في الأجفانِ[2] ،

---

(١) ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٢٢٧) ضمن ما سرد للمصنف رحمه الله تعالىٰ من مؤلفات ، ولعله هو كتاب « الحكمة من مخلوقات الله عز وجل » نفسه ؛ إذ يقول الإمام الغزالي في مقدمته : (إنه لما كان الطريق إلىٰ معرفة الله سبحانه التعظيم له بالنظر إلىٰ مخلوقاته ، والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة . . .) ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) قوله : (من نظر إلىٰ غير محرم) سقط من جميع النسخ ، وأثبت من (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي .

ولا تقومُ الأجفانُ إلا بعينٍ ، ولا العينُ إلا برأسٍ ، ولا الرأسُ إلا بجميعِ البدنِ ، ولا البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا الغذاءُ إلا بالماءِ والأرضِ والهواءِ والمطرِ والغيمِ والشمسِ والقمرِ ، ولا يقومُ شيءٌ مِنْ ذلكَ إلا بالسماواتِ ، ولا السماواتُ إلا بالملائكةِ ، فإنَّ الكلَّ كالشيءِ الواحدِ ، يرتبطُ البعضُ منهُ بالبعضِ ارتباطَ أعضاءِ البدنِ بعضِها ببعضٍ ، فإذاً ؛ قدْ كفرَ كلَّ نعمةٍ للهِ تعالىٰ في الوجودِ مِنْ منتهى الثريَّا إلىٰ منتهى الثرىٰ ، فلمْ يبقَ فلكٌ ولا ملكٌ ولا حيوانٌ ولا نباتٌ ولا جمادٌ إلا ويلعنُهُ ، ولذلكَ وردَ في الأخبارِ أنَّ البقعةَ التي يجتمعُ فيها الناسُ إمَّا أنْ تلعنَهُمْ إذا تفرَّقوا أوْ تستغفرَ لهُمْ[1] ، وكذلكَ وردَ أنَّ العالمَ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتَّى الحوتُ في البحرِ[2] ، وأنَّ الملائكةَ يلعنونَ العصاةَ[3] ، في ألفاظٍ كثيرةٍ لا يمكنُ إحصاؤُها ، وكلُّ ذلكَ إشارةٌ

---

(١) بهـٰذا اللفظ قد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، والمعنىٰ مبثوث في كتب السنة ، روى الترمذي (٣٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات . . بكيا عليه ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ » .
وروىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٥/٢٤٦٨) عن مالك بن عتاهية رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الأرض لتستغفر للمصلي في السراويل » ، وفي خبر أيوب عليه السلام الآتي ما يفيد هـٰذا المعنىٰ كذلك .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) روىٰ مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشار إلىٰ أخيه بحديدة . . فإن الملائكة تلعنه حتىٰ يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه » .
وروى الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٧٥) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ عن قتادة : (هم الملائكة) .

إلىٰ أنَّ العاصيَ بتطريفةٍ واحدةٍ جنىٰ علىٰ جميعِ ما في الملكِ والملكوتِ ، وقدْ أهلكَ نفسَهُ ، إلا أنْ يتبعَ السيئةَ بحسنةٍ تمحوها ، فيتبدَّلُ اللعنُ بالاستغفارِ ، فعسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِ ويتجاوزَ عنهُ .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ أيُّوبَ عليهِ السلامُ : (يا أيوبُ ؛ ما مِنْ عبدٍ لي مِنَ الآدميينَ إلا ومعَهُ ملكانِ ، فإذا شكرني علىٰ نعمائي . . قالَ الملكانِ : اللهمَّ ؛ زدْهُ نعماً علىٰ نعمٍ ، فإنَّكَ أهلُ الحمدِ والشكرِ ، فكُنْ مِنَ الشاكرينَ قريباً ، فكفىٰ بالشاكرينَ علوَّ رتبةٍ عندي أنِّي أشكرُ شكرَهُمْ ، وملائكتي يدعونَ لهُمْ ، والبقاعُ تحبُّهُمْ ، والآثارُ تبكي عليهِمْ)(١) .

وكما عرفتَ أنَّ في كلِّ طرفةِ عينٍ نعماً كثيرةً . . فاعلمْ أنَّ في كلِّ نَفَسٍ ينبسطُ وينقبضُ نعمتينِ ؛ إذْ بانبساطِهِ يخرجُ الدخانُ المحترقُ مِنَ القلبِ ، ولوْ لمْ يخرجْ . . لهلكَ ، وبانقباضِهِ يجمعُ روحَ الهواءِ إلى القلبِ ، ولوْ سُدَّ متنفسُهُ . . لاحترقَ قلبُهُ بانقطاعِ روحِ الهواءِ وبرودتِهِ عنهُ وهلكَ .

بلِ اليومُ والليلةُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، وفي كلِّ ساعةٍ قريبٌ مِنْ ألفِ نفسٍ ، وكلُّ نفسٍ قريبٌ مِنْ عشرِ لحظاتٍ ، فعليكَ في كلِّ لحظةٍ آلافُ آلافِ نعمةٍ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ بدنِكَ ، بلْ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ العالمِ ، فانظرْ هلْ يُتصوَّرُ إحصاءُ ذلكَ أمْ لا ؟!

ولـمَّا انكشفَ لموسىٰ عليهِ السلامُ حقيقةُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا ﴾ . . قالَ : (إلـٰهي ؛ كيفَ أشكرُكَ ولكَ في كلِّ شعرةٍ مِنْ جسدي نعمتانِ ؛ أنْ لينتَ أصلَها ، وأنْ طمستَ رأسَها ؟!)[1] .

ولذلكَ وردَ في الأثرِ : (مَنْ لمْ يعرفْ نعَمَ اللهِ إلا في مطعمِهِ ومشربِهِ . . فقدْ قلَّ علمُهُ ، وحضرَ عذابُهُ)[2] .

وجميعُ ما ذكرناهُ يرجعُ إلى المطعمِ والمشربِ ، فاعتبرْ ما سواهُ مِنَ النعمِ بهِ ، فإنَّ البصيرَ لا تقعُ عينُهُ في العالمِ علىٰ شيءٍ ولا يلمُّ خاطرُهُ بموجودٍ إلا ويتحقَّقُ أنَّ للهِ فيهِ نعمةً عليهِ .

فلنتركِ الاستقصاءَ والتفصيلَ ؛ فإنَّهُ طمعٌ في غيرِ مَطْمَعٍ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلمْ : أنَّهُ لمْ يقصرْ بالخلقِ عنْ شكرِ النعمةِ إلا الجهلُ والغفلةُ ، فإنَّهُمْ مُنعوا بالجهلِ والغفلةِ عنْ معرفةِ النعَمِ ، ولا يُتصوَّرُ شكرُ النعمةِ إلا بعدَ معرفتِها ، ثمَّ إنَّهُمْ إنْ عرفوا نعمةً ظنُّوا أنَّ الشكرَ عليها أنْ يقولَ بلسانِهِ : الحمدُ للهِ ، الشكرُ للهِ ، ولمْ يعرفوا أنَّ معنى الشكرِ أنْ يستعملَ النعمةَ في إتمامِ الحكمةِ التي أُريدَتْ بها ، وهيَ طاعةُ اللهِ تعالىٰ ، فلا يمنعُ مِنَ الشكرِ بعدَ حصولِ هاتينِ المعرفتينِ إلا غلبةُ الشهوةِ واستيلاءُ الشيطانِ .

أمَّا الغفلةُ عنِ النعمِ . . فلها أسبابٌ ، وأحدُ أسبابِها أنَّ الناسَ بجهلِهِمْ لا يعدُّونَ ما يعمُّ الخلقَ ويسلمُ لهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ نعمةً ، فلذلكَ لا يشكرونَ علىٰ جملةِ ما ذكرناهُ مِنَ النعمِ ؛ لأنَّها عامَّةٌ للخلْقِ مبذولةٌ لهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ، فلا يرىٰ كلُّ واحدٍ لنفسِهِ اختصاصاً بهِ ، فلا يعدُّهُ نعمةً ، فلا تراهُمْ يشكرونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ روحِ الهواءِ ، ولوْ أُخذَ بمُخَنَّقِهِمْ لحظةً حتَّى انقطعَ الهواءُ عنهُمْ . . ماتوا ، ولوْ حُبسوا في بيتِ حمامٍ فيهِ هواءٌ حارٌّ ، أوْ في بئرٍ فيهِ هواءٌ ثقُلَ برطوبةِ الماءِ . . ماتوا غمّاً ، فإنِ ابتليَ واحدٌ منهُمْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ ثمَّ نجا . . ربَّما قدَّرَ ذلكَ نعمةً ، وشكرَ اللهَ عليها ، وهٰذا غايةُ الجهلِ ؛ إذْ صارَ شكرُهُمْ موقوفاً علىٰ أنْ تُسلبَ عنهُمُ النعمةُ ثمَّ تُردُّ عليهِمْ في بعضِ الأحوالِ ، والنعمةُ في جميعِ الأحوالِ أولىٰ بأنْ تُشكرَ

مِنَ النعمةِ في بعضِها ، فلا ترى البصيرَ يشكرُ صحَّةَ بَصرِهِ إلىٰ أنْ تعمىٰ عينُهُ ، فعندَ ذلكَ لوْ أُعيدَ عليهِ بصرُهُ . . أحسَّ بهِ وشكرَهُ وعدَّهُ نعمةً .

ولمَّا كانَتْ رحمةُ اللهِ واسعةً على الخلقِ ، مبذولةً لهُمْ في جميعِ الأحوالِ[(١)] . . فلمْ يعدَّهُ الجاهلُ نعمةً ، وهـٰذا الجاهلُ مثلُ العبدِ السوءِ ، حقُّهُ أنْ يُضربَ دائماً ، حتَّىٰ إذا تُرِكَ ضربُهُ ساعةً . . تقلَّدَ بهِ منَّةً ، فإنْ تُرِكَ ضربُهُ على الدوامِ . . غلبَهُ البطرُ وتركَ الشكرَ ، فصارَ الناسُ لا يشكرونَ إلا المالَ الذي يتطرَّقُ الاختصاصُ إليهِ مِنْ حيثُ الكثرةُ والقلَّةُ ، وينسونَ جميعَ نعَمِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ .

كما شكا بعضُهُمْ فقرَهُ إلىٰ بعضِ أربابِ البصائرِ ، وأظهرَ شدَّةَ اغتمامِهِ بهِ ، فقالَ لهُ : أيسرُّكَ أنَّكَ أعمىٰ ولكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ أخرسُ ولكَ عشرةُ آلافٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ أقطعُ اليدينِ والرجلينِ ولكَ عشرونَ ألفاً ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ مجنونٌ ولكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أما تستحي أنْ تشكوَ مولاكَ ولهُ عندَكَ عروضٌ بخمسينَ ألفاً ؟ ![(٢)] .

وحُكِيَ أنَّ بعضَ القرَّاءِ اشتدَّ بهِ الفقرُ حتَّىٰ ضاقَ بهِ ذرعاً ، فرأىٰ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : تودُّ أنَّا أنسيناكَ سورةَ الأنعامِ وأنَّ لكَ ألفَ دينارٍ ؟

---

(١) والعبارة في غير (أ) : (ولما كانت رحمة الله واسعة . . عمَّمَ الخلق ، وبذل لهم في جميع الأحوال . . .) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

قالَ : لا ، قالَ : فسورةَ هودٍ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فسورةَ يوسفَ ؟ قالَ : لا ، فلمْ يزلْ يعدِّدُ عليهِ سوراً ، ثمَّ قالَ : فمعَكَ قيمةُ مئةِ ألفِ دينارٍ وأنتَ تشكو ؟! فأصبحَ وقدْ سُرِّيَ عنهُ[(١)] .

ودخلَ ابنُ السمَّاكِ علىٰ بعضِ الخلفاءِ وبيدهِ كوزُ ماءٍ يشربُهُ ، فقالَ لهُ : عظْني ، فقالَ : لوْ لمْ تُعطَ هـٰذهِ الشربةَ إلا ببذلِ جميعِ أموالِكَ وإلا . . بقيتَ عطشانَ . . فهلْ كنتَ تعطيهِ ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ : لوْ لمْ تُعطَ إلا بملكِكَ كلِّهِ . . فهلْ كنتَ تتركُهُ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فلا تفرحْ بملْكٍ لا يساوي شربةَ ماءٍ[(٢)] .

فبهـٰذا يتبيَّنُ أنَّ نعمةَ اللهِ تعالىٰ على العبدِ في شربةِ ماءٍ عندَ العطشِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأرضِ كلِّها .

وإذا كانَتِ الطباعُ مائلةً إلى اعتدادِ النعمةِ الخاصَّةِ نعمةً دونَ العامَّةِ وقدْ ذكرنا النعَمَ العامَّةَ . . فلنذكرْ إشارةً وجيزةً إلى النعَمِ الخاصَّةِ ، فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا ولوْ أنعمَ النظرَ في أحوالِهِ . . رأىٰ مِنَ اللهِ تعالىٰ نعمةً أو نعماً كثيرةً تخصُّهُ ، لا يشاركُهُ فيها الناسُ كافَّةً ، بلْ يشاركُهُ عددٌ يسيرٌ مِنَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

(٢) والخبر في (أ) : (ودخل ابن السماك على الرشيد وفي يده كوز ماء ليشربه ، فقال : عظني ، قال : أرأيت لو منعت هـٰذه الشربة أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلىٰ ، قال : اشرب هنيئاً ، فشرب ، ثم قال : أرأيت لو منعت إخراجها أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلىٰ ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ وما قدر ملك لا يساوي شربة وبولة ؟!) ، وقد رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٤) .

الناسِ ، وربَّما لا يشاركُهُ فيها أحدٌ ، وذلكَ يعترفُ بهِ كلُّ عبدٍ في ثلاثةِ أمورٍ : في العقلِ ، والخُلُقِ ، والعلمِ .

أمَّا العقلُ : فما مِنْ عبدٍ للهِ تعالىٰ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ تعالىٰ في عقلِهِ ، يعتقدُ أنَّهُ أعقلُ الناسِ ، وقلَّما يسألُ اللهَ العقلَ ، وإنَّ مِنْ شرفِ العقلِ أنْ يفرحَ بهِ الخالي عنهُ كما يفرحُ بهِ المتصفُ بهِ ، فإذا كانَ اعتقادُهُ أنَّهُ أعقلُ الناسِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يشكرَهُ ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ كذلكَ . . فالشكرُ واجبٌ عليهِ ، وإنْ لمْ يكنْ ولكنَّهُ يعتقدُ أنَّهُ كذلكَ . . فهوَ نعمةٌ في حقِّهِ ، فمَنْ وضعَ كنزاً تحتَ الأرضِ فهوَ يفرحُ بهِ ويشكرُ عليهِ ، فإنْ أُخذَ الكنزُ مِنْ حيثُ لا يدري . . فيبقىٰ فرحُهُ بحسَبِ اعتقادِهِ ، ويبقىٰ شكرُهُ ؛ لأنَّهُ في حقِّهِ كالباقي .

وأمَّا الخُلُقُ : فما مِنْ عبدٍ إلا ويرىٰ مِنْ غيرِهِ عيوباً يكرهُها وأخلاقاً يذمُّها ، وإنَّما يذمُّها مِنْ حيثُ يرىٰ نفسَهُ بريئاً عنها ، فإذا لمْ يشتغلْ بذمِّ الغيرِ . . فينبغي أنْ يشتغلَ بشكرِ اللهِ ؛ إذْ حسَّنَ خُلُقَهُ وابتلىٰ غيرَهُ بالخُلُقِ السيِّءِ .

وأمَّا العلمُ : فما مِنْ أحدٍ إلا ويعرفُ مِنْ بواطنِ أمورِ نفسِهِ وخفايا أفكارِهِ ما هوَ منفردٌ بهِ ، ولوْ كُشِفَ الغطاءُ حتَّى اطلعَ عليهِ أحدٌ مِنَ الخلقِ . . لافتضحَ ، فكيفَ لوِ اطلعَ الناسُ كافَّةً ؟!

فإذاً ؛ لكلِّ عبدٍ علمٌ بأمرٍ خاصٍّ لا يشاركُهُ فيهِ أحدٌ مِنْ عبادِ اللهِ ، فلِمَ

لا يشكرُ سترَ اللهِ الجميلَ الذي أرسلَهُ علىٰ وجهِ مساوئِهِ ، فأظهرَ الجميلَ وسترَ القبيحَ ، وأخفىٰ ذلكَ عنْ أعينِ الخلْقِ ، وخصَّصَ علمَهُ بهِ حتَّىٰ لا يطلعَ عليهِ أحدٌ ؟!

فهٰذهِ ثلاثٌ مِنَ النعَمِ خاصَّةٌ يعترفُ بها كلُّ عبدٍ ؛ إمَّا مطلقاً ، وإمَّا في بعضِ الأمورِ ، فلننزلْ عنْ هٰذهِ الطبقةِ إلىٰ طبقةٍ أخرىٰ أعمَّ منها قليلاً ، فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا وقدْ رزقَهُ اللهُ تعالىٰ في صورتِهِ أوْ شخصِهِ ، أوْ أخلاقِهِ أوْ صفاتِهِ ، أوْ أهلِهِ أوْ ولدِهِ ، أوْ مسكنِهِ أوْ بلدِهِ ، أوْ رفيقِهِ أوْ أقاربِهِ ، أو عزِّهِ أوْ جاهِهِ ، أوْ في سائرِ محابِّهِ . . أموراً لوْ سُلبَ ذلكَ منهُ وأُعطيَ ما خُصِّصَ بهِ غيرُهُ . . لكانَ لا يرضىٰ بهِ ، وذلكَ مثلُ أنْ جعلَهُ مؤمناً لا كافراً ، وحيّاً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمةً ، وذكراً لا أنثىٰ ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإنَّ كلَّ هٰذهِ خصائصُ وإنْ كانَ فيها عمومٌ أيضاً ؛ فإنَّ هٰذهِ الأحوالَ لوْ بُدِّلَتْ بأضدادِها . . لمْ يرضَ بها ، بلْ لهُ أمورٌ لا يبدِّلُها بأحوالِ الآدميينَ أيضاً ، وذلكَ إمَّا أنْ يكونَ بحيثُ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ بهِ أحدٌ مِنَ الخلقِ ، أوْ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ بهِ الأكثرُ ، فإذا كانَ لا يبدِّلُ حالَ نفسِهِ بحالِ غيرِهِ . . فإذاً حالُهُ أحسنُ مِنْ حالِ غيرِهِ ، فإنْ كانَ لا يعرفُ شخصاً يرتضي لنفسِهِ حالَهُ بدلاً عنْ حالِ نفسِهِ إمَّا على الجملةِ وإمَّا في أمرٍ خاصٍّ . . فإذاً للهِ تعالىٰ عليهِ نعمٌ ليسَتْ لهُ علىٰ أحدٍ مِنْ عبادِهِ سواهُ ، وإنْ كانَ يبدِّلُ حالَ نفسِهِ بحالِ بعضِهِمْ دونَ البعضِ . . فلينظرْ إلىٰ عددِ المغبوطينَ عندَهُ ،

فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يراهُمْ أقلَّ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِمْ ، فيكونُ مَنْ دونَهُ في الحالِ أكثرَ بكثيرٍ ممَّنْ هوَ فوقَهُ ، فما بالُهُ ينظرُ إلىٰ مَنْ فوقَهُ ليزدريَ نعَمَ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ ولا ينظرُ إلىٰ مَنْ دونَهُ ليستعظمَ نعمَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ؟! وما بالُهُ لا يسوِّي دنياهُ بدينِهِ ؟ أليسَ إذا لامَتْهُ نفسُهُ علىٰ سيئةٍ يقارفُها يعتذرُ إليها بأنَّ في الفسَّاقِ كثرةً ، فينظرُ أبداً في الدينِ إلىٰ مَنْ دونَهُ لا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ؟! فلِمَ لا يكونُ نظرُهُ في الدنيا كذلكَ ؟

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدينِ خيراً منهُ ، وحالُهُ في الدنيا خيراً مِنْ حالِ أكثرِ الخلْقِ . . فكيفَ لا يلزمُهُ الشكرُ ؟!

ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نظرَ في الدنيا إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ ، ونظرَ في الدينِ إلىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ . . كتبَهُ اللهُ صابراً وشاكراً ، ومَنْ نظرَ في الدنيا إلىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ ، وفي الدينِ إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ . . لمْ يكتبْهُ اللهُ صابراً ولا شاكراً »(١) .

فإذاً ؛ كلُّ مَنِ اعتبرَ حالَ نفسِهِ وفتَّشَ عمَّا خُصَّ بهِ . . وجدَ للهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ نعماً كثيرةً ، لا سيَّما مَنْ خُصَّ بالسنَّةِ والإيمانِ ، والعلمِ والقرآنِ ، ثمَّ الفراغِ والصحَّةِ والأمنِ وغيرِ ذلكَ .

ولذلكَ قيلَ(٢) : [من البسيط]

مَنْ شاءَ عيشاً رحيباً يستطيبُ بهِ ... فـي دينِـهِ ثـم فـي دنيـاهُ إقبـالا

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٢) .
(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص٢٨٤) .

فلينظـرَنَّ إلـىٰ مَـنْ فـوقَـهُ ورعـاً ولينظـرَنَّ إلـىٰ مَـنْ دونَـهُ مـالا

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يستغنِ بآياتِ اللهِ . . فلا أغناهُ اللهُ »[1] ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ نعمةِ العلمِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ القرآنَ هوَ الغنى الذي لا غنىٰ بعدَهُ ولا فقرَ معَهُ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ آتاهُ اللهُ القرآنَ فظنَّ أنَّ أحداً أغنىٰ منهُ . . فقدِ استهزأَ بآياتِ اللهِ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ باليقينِ غنىً »[5] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ عبداً أغنيتُهُ عنْ ثلاثةٍ لقدْ أتممتُ عليهِ نعمتي ؛ عنْ سلطانٍ يأتيهِ ، وطبيبٍ يداويهِ ، وعمَّا في يدِ أخيهِ)[6] ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٠) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٩/ ١٣٢) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧٧٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٥٥) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢١٠) ، وروى البخاري في « التاريخ الكبير » (٣/ ٢٦٥) نحوه .

(٤) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .

(٦) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

وعبَّرَ الشاعرُ عنْ هٰذا فقالَ[1] : [من الهزج]

إذا ٱلْقُـوتُ تـأَتَّـىٰ لَـ ـكَ وَٱلصِّحَّـةُ وَٱلأَمْـنُ
وَأَصْبَحْـتَ أَخـا حُـزْنٍ فَـلا فـارَقَـكَ ٱلْحُـزْنُ

بلْ أرشقُ العباراتِ وأفصحُ الكلماتِ كلامُ أفصحِ مَنْ نطقَ بالضادِ ، حيثُ عبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ هٰذا المعنىٰ فقالَ : « مَنْ أصبحَ آمناً في سربِهِ ، معافىً في بدنِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[2] .

ومهما تأمَّلتَ الناسَ كلَّهُمْ . . وجدتَهُمْ يشكونَ ويتألَّمونَ مِنْ أمورٍ وراءَ هٰذهِ الثلاثِ معَ أنَّها وبالٌ عليهِمْ ، ولا يشكرونَ نعمةَ اللهِ في هٰذهِ الثلاثِ ، ولا يشكرونَ نعمةَ اللهِ عليهِم في الإيمانِ الذي بهِ وصولُهُمْ إلى النعيمِ المقيمِ والملكِ العظيمِ .

بلِ البصيرُ ينبغي ألا يفرحَ إلا بالمعرفةِ واليقينِ والإيمانِ ، بلْ نحنُ نعلمُ مِنَ العلماءِ مَنْ لوْ سُلِّمَ إليهِ جميعُ ما دخلَ تحتَ قدرةِ ملوكِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ مِنْ أموالٍ وأتباعٍ وأنصارٍ وقيلَ لهُ : خُذْ هٰذا عوضاً عنْ علمِكَ ، بلْ عنْ عُشْرِ عَشِيرِ علمِكَ . . لمْ يأخذْهُ ، وذلكَ لرجائِهِ أنَّ نعمةَ

---

(1) البيتان متنازع في نسبتهما ، فهما في « زهر الآداب » (٢/ ٨٢٧) لمنصور الفقيه ، وفي « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣١٣ـ ٣١٤) لأبي العتاهية ، وفي « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤١٦) للإمام الشافعي .

(2) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) .

العلمِ تفضي بهِ إلىٰ قرْبِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ في الآخرةِ ، بلْ لوْ قيلَ لهُ : لكَ في الآخرةِ ما ترجوهُ بكمالِهِ ، فخذْ هـٰذهِ اللذَّاتِ في الدنيا بدلاً عنِ التذاذِكَ بالعلمِ في الدنيا وفرحِكَ بهِ . . لكانَ لا يأخذُهُ ؛ لعلمِهِ بأنَّ لذَّةَ العلمِ دائمةٌ لا تنقطعُ وثابتةٌ لا تُسرقُ ولا تُغصبُ ولا يُنافسُ فيها ، وأنَّها صافيةٌ لا كدورةَ فيها ، ولذَّاتُ الدنيا كلُّها ناقصةٌ ومكدَّرةٌ ومشوشةٌ لا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا لذَّتُها بألمِها ، ولا فرحُها بغمِّها ، هـٰكذا رُئِيَ إلى الآنَ ، وهـٰكذا تكونُ ما بقيَ الزمانُ ، إذْ ما خُلقَتْ لذَّاتُ الدنيا إلا لتُجلبَ بها العقولُ الناقصةُ وتُخدعَ ؛ حتَّىٰ إذا انخدعَتْ وتقيَّدَتْ بها . . أبتْ عليها واستعصَتْ ؛ كالمرأةِ الجميلِ ظاهرُها ، تتزيَّنُ للشابِّ الشبقِ الغبيِّ ، حتَّىٰ إذا تقيَّدَ بها قلبُهُ . . استعصَتْ عليهِ واحتجبَتْ عنهُ ، فلا يزالُ معَها في عناءٍ دائمٍ وتعبٍ قائمٍ ، وكلُّ ذلكَ باغترارِهِ بلذَّةِ النظرِ إليها في لحظةٍ ، ولوْ عقلَ وغضَّ البصرَ واستهانَ بتلكَ اللذَّةِ . . سلمَ جميعَ عمرِهِ ، فهكذا وقعَتْ أربابُ الدنيا في شباكِ الدنيا وحبائلِها .

ولا ينبغي أنْ نقولَ : إنَّ المعرضَ عنِ الدنيا متألِّمٌ بالصبرِ عنها ؛ فإنَّ المقبلَ عليها أيضاً متألِّمٌ بالصبرِ عليها وحفظِها وتحصيلِها ودفعِ القُصُودِ عنها(١) ، وتألُّمُ المعرضِ يفضي إلىٰ لذَّةٍ في الآخرةِ ، وتألُّمُ المقبلِ يفضي إلىٰ آلامٍ في الآخرةِ ، فليقرأِ المعرضُ عنِ الدنيا علىٰ نفسِهِ قولَهُ تعالىٰ :

---

(١) وفي (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي : (اللصوص) بدل (القصود) . « إتحاف » (٩/ ١٣٣) .

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فإذاً ؛ إنَّما انسدَّ طريقُ الشكرِ على الخلْقِ لجهلِهِمْ بضروبِ النعمِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والخاصَّةِ والعامَّةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما علاجُ هـٰذهِ القلوبِ الغافلةِ حتَّىٰ تشعرَ بنعمِ اللهِ تعالىٰ فعساها تشكرُ ؟

فأقولُ : أمَّا القلوبُ البصيرةُ . . فعلاجُها التأمُّلُ فيما رمزنا إليهِ مِنْ أصنافِ نعَمِ اللهِ تعالى العامَّةِ ، وأمَّا القلوبُ البليدةُ التي لا تعُدُّ النعمةَ نعمةً إلا إذا خصَّتْها ، أوْ أُشعرَ بالبلاءِ معها . . فسبيلُهُ أنْ ينظرَ أبداً إلىٰ مَنْ دونَهُ ، ويفعلَ ما كانَ يفعلُهُ بعضُ الصوفيَّةِ ، إذْ كانَ يحضرُ كلَّ يومٍ دارَ المرضىٰ والمقابرَ والمواضعَ التي تُقامُ فيها الحدودُ ، فكانَ يحضرُ دارَ المرضىٰ ويشاهدُ أنواعَ بلاءِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ ، ثمَّ يتأمَّلُ في صحتِهِ وسلامتِهِ ؛ ليشعرَ قلبُهُ بنعمةِ الصحَّةِ عندَ شعورِهِ ببلاءِ الأمراضِ ويشكرَ اللهَ تعالىٰ ، ويشاهدُ الجناةَ الذينَ يُقتلونَ وتُقطعُ أطرافُهُمْ ويُعذَّبونَ بأنواعِ العذابِ ؛ ليشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ عصمتِهِ مِنَ الجناياتِ ومِنْ تلكَ العقوباتِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ نعمةِ الأمنِ ، ويحضرُ المقابرَ فيعلمُ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى الموتىٰ أنْ يُردُّوا إلى الدنيا ولوْ يوماً واحداً ؛ أمَّا مَنْ عصىٰ اللهَ . . فليتداركْ ، وأمَّا مَنْ أطاعَ . . فليزيدَ في طاعتِهِ ، فإنَّ يومَ القيامةِ يومُ التغابنِ ، فالمطيعُ مغبونٌ ؛ إذْ يرىٰ

جزاءَ طاعتِهِ فيقولُ : كنتُ أقدرُ علىٰ أكثرَ مِنْ هـٰذهِ الطاعاتِ ، فما أعظمَ غبني إذْ ضيَّعتُ بعضَ الأوقاتِ في المباحاتِ ! وأمَّا العاصي . . فغبنُهُ ظاهرٌ ، فإذا شاهدَ المقابرَ ، وعلمَ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إليهِمْ أنْ يكونَ قدْ بقيَ لهُمْ مِنَ العمرِ ما بقيَ لهُ . . فيصرفُ بقيَّةَ العمرِ إلىٰ ما يشتهي أهلُ القبورِ العودَ لأجلِهِ ؛ ليكونَ ذلكَ معرفةً لنعمةِ اللهِ في بقيَّةِ العمرِ ، بلْ في الإمهالِ في كلِّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ ، وإذا عرفَ تلكَ النعمةَ . . شكَرَ بأنْ يصرفَ العمرَ إلىٰ ما خُلِقَ العمرُ لأجلِهِ ، وهوَ التزوُّدُ مِنَ الدنيا للآخرةِ .

فهـٰذا علاجُ هـٰذهِ القلوبِ الغافلةِ لتشعرَ بنعمِ اللهِ تعالىٰ فعساها تشكرُ .

ولقدْ كانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ معَ تمامِ استبصارِهِ يستعينُ بهـٰذهِ الطريقِ تأكيداً للمعرفةِ ، فكانَ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ يضعُ غِلاًّ في عنقِهِ وينامُ في لحدِهِ ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا ﴾ ، ثمَّ يقومُ ويقولُ : يا ربيعُ ؛ قدْ أُعطيتَ ما سألتَ ، فاعملْ قبلَ أنْ تسألَ الرجوعَ فلا ترجعَ[1] .

وممَّا ينبغي أنْ تُعالجَ بهِ القلوبُ البعيدةُ عنِ الشكرِ أنْ تعرفَ أنَّ النعمةَ إذا لمْ تُشكرْ . . زالَتْ ولمْ تعدْ ، ولذلكَ كانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (عليكُمْ بمداومةِ الشكرِ على النعمِ ، فقلَّ نعمةٌ زالَتْ عنْ قومٍ فعادَتْ إليهِمْ)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (النعَمُ وحشيَّةٌ ، فقيِّدوها بالشكرِ)[3] .

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٣١١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) ، والسياق عنده .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) .

وفي الخبرِ : (ما عظمَتْ نعمةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبدٍ إلا كثرَتْ حوائجُ الناسِ إليهِ ، فمَنْ تهاونَ بهِمْ . . عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ)(١) .

وقالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

فهٰذا تمامُ هٰذا الركنِ .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٠٩) ، وأصله من كلام لسيدنا علي رضي الله عنه رواه له ابن الطيوري في « الطيوريات » (٤٦٢) .

الرّكن الثّالث من كتاب الصّبر والشّكر فيما يشترك فيه الصّبر والشّكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصّبر والشّكر على شيءٍ واحد

لعلَّكَ تقولُ : ما ذكرتَهُ في النعمِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ نعمةً ، وهـٰذا يشيرُ إلىٰ أنَّ البلاءَ لا وجودَ لهُ أصلاً ، فما معنى الصبرِ إذاً ؟ وإنْ كانَ البلاءُ موجوداً . . فما معنى الشكرِ على البلاءِ وقدِ ادَّعىٰ مدَّعونَ أنَّا نشكرُ على البلاءِ فضلاً عنِ الشكرِ على النعمةِ ، فكيفَ يُتصوَّرُ الشكرُ على البلاءِ ؟ وكيفَ يُشكرُ علىٰ ما يُصبرُ عليهِ والصبرُ على البلاءِ يستدعي ألماً والشكرُ يستدعي فرحاً وهما متضادانِ ؟ وما معنىٰ ما ذكرتُموهُ مِنْ أنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ ما أوجدهُ نعمةً علىٰ عبادِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ البلاءَ موجودٌ كما أنَّ النعمةَ موجودةٌ ، والقولَ بإثباتِ النعمةِ يوجبُ القولَ بإثباتِ البلاءِ ؛ لأنَّهُما متضادانِ ، ففقدُ البلاءِ نعمةٌ ، وفقدُ النعمةِ بلاءٌ ، ولكنْ قدْ سبقَ أنَّ النعمةَ تنقسمُ إلىٰ نعمةٍ **مطلقةٍ مِنْ كلِّ وجهٍ** ؛ أمَّا في الآخرةِ . . فكسعادةِ العبدِ بالنزولِ في جوارِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا في الدنيا . . فكالإيمانِ وحسنِ الخلقِ وما يعينُ عليهما ، وإلىٰ نعمةٍ **مقيَّدةٍ مِنْ وجهٍ دونَ وجهٍ** ؛ كالمالِ الذي يصلحُ الدينَ مِنْ وجهٍ ويفسدُهُ مِنْ وجهٍ .

فكذلكَ البلاءُ ينقسمُ إلىٰ مطلقٍ ومقيَّدٍ ؛ أمَّا **المطلقُ** في الآخرةِ . . فالبعدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ إمَّا مدَّةً وإمَّا أبداً ، وأمَّا في الدنيا . . فالكفرُ والمعصيةُ وسوءُ الخلقِ ، وهيَ التي تفضي إلى البلاءِ المطلقِ ، وأمَّا **المقيَّدُ** . . فكالفقرِ والمرضِ والخوفِ وسائرِ أنواعِ البلاءِ التي لا تكونُ بلاءً في الدينِ بلْ في الدنيا .

فالشكرُ المطلقُ للنعمةِ المطلقةِ ، أمَّا البلاءُ المطلقُ في الدنيا . . فقدْ لا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ؛ لأنَّ الكفرَ بلاءٌ ، ولا معنىٰ للصبرِ عليهِ ، وكذا المعصيةُ ، بلْ حقُّ الكافرِ أنْ يتركَ كفرَهُ وكذا حقُّ العاصي .

نعم ، الكافرُ قدْ لا يعرفُ أنَّهُ كافرٌ ، فيكونُ كمَنْ بهِ علَّةٌ وهوَ لا يتألَّمُ بها بسببِ غَشْيةٍ أوْ غيرِها ، فلا صبرَ عليهِ ، والعاصي يعرفُ أنَّهُ عاصٍ ، فعليهِ تركُ المعصيةِ ، بلْ كلُّ بلاءٍ يقدرُ الإنسانُ علىٰ دفعِهِ فلا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ، فلوْ تركَ الإنسانُ الماءَ معَ طولِ العطشِ حتَّىٰ عظمَ ألمُهُ . . فلا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ، بلْ يُؤمرُ بإزالةِ الألمِ ، وإنَّما الصبرُ علىٰ ألمٍ ليسَ إلى العبدِ إزالتُهُ .

فإذاً ؛ يرجعُ الصبرُ في الدنيا إلىٰ ما ليسَ ببلاءٍ مطلقٍ ، بلْ يجوزُ أنْ يكونَ نعمةً مِنْ وجهٍ ، فلذلكَ يُتصوَّرُ أنْ تجتمعَ عليهِ وظيفةُ الصبرِ والشكرِ ، فإنَّ الغنىٰ مثلاً يجوزُ أن يصيرَ سببَ هلاكِ الإنسانِ ، حتَّىٰ يُقصدُ بسببِ مالِهِ ، فيُقتلُ وتُقتلُ أولادُهُ ، والصحةُ أيضاً كذلكَ ، فما مِنْ نعمةٍ مِنْ هٰذهِ النعمِ الدنيويةِ إلا ويجوزُ أنْ تصيرَ بلاءً ، ولكنْ بالإضافةِ إليهِ ، فكذلكَ ما مِنْ بلاءٍ

إلا ويجوزُ أنْ يصيرَ نعمةً ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِ ، فربَّ عبدٍ تكونُ الخيرةُ لهُ في الفقرِ والمرضِ ، ولوْ صحَّ بدنُهُ وكثرَ مالُهُ.. لبطِرَ وبغىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليحمي عبدَهُ المؤمنَ مِنَ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما يحمي أحدُكُمْ مريضَهُ »(١) .

وكذلكَ الزوجةُ والولدُ والقريبُ وكلُّ ما ذكرناهُ في الأقسامِ الستةَ عشرَ مِنَ النعمِ سوى الإيمانِ وحسنِ الخلقِ.. فإنَّها يُتصوَّرُ أنْ تكونَ بلاءً في حقِّ بعضِ الناسِ ، فتكونَ أضدادُها إذاً نعماً في حقِّهِمْ ، إذْ قدْ سبقَ أنَّ المعرفةَ كمالٌ ونعمةٌ ، فإنَّها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ قدْ تكونُ على العبدِ في بعضِ الأمورِ بلاءً ، ويكونُ فقدُها نعمةً .

مثالُهُ : جهلُ الإنسانِ بأجلِهِ ، فإنَّهُ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ عرفَهُ.. ربما تنغَّصَ عليهِ العيشُ ، وطالَ بذلكَ غمُّهُ .

وكذلكَ جهلُهُ بما يضمرُهُ الناسُ عليهِ مِنْ معارفِهِ وأقاربِهِ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ رُفعَ السترُ وأُطلعَ عليهِ.. لطالَ ألمُهُ وحقدُهُ وحسدُهُ واشتغالُهُ بالانتقامِ .

وكذلكَ جهلُهُ بالصفاتِ المذمومةِ مِنْ غيرِهِ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ عرفَها.. أبغضَهُ وآذاهُ ، وكانَ ذلكَ وبالاً عليهِ في الدنيا والآخرةِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٩) .

بلْ جهلُهُ بالخصالِ المحمودةِ في غيرِه قدْ يكونُ نعمةً عليهِ ، فإنَّهُ ربما يكونُ وليّاً للهِ تعالىٰ وهوَ يُضطرُّ إلىٰ إيذائِهِ وإهانتِهِ ، ولوْ عرفَ ذلكَ وآذىٰ . . كانَ إثمُهُ أعظمَ لا محالةَ ، فليسَ مَنْ آذىٰ نبيّاً أوْ وليّاً وهوَ يعرفُ كمَنْ آذىٰ وهوَ لا يعرفُ .

ومنها إبهامُ اللهِ تعالىٰ أمرَ القيامةِ ، وإبهامُهُ ليلةَ القدرِ ، وساعةَ يوم الجمعةِ ، وإبهامُهُ بعضَ الكبائرِ ، فكلُّ ذلكَ نعمةٌ ؛ لأنَّ هـٰذا الجهلَ يوفِّرُ دواعيَكَ على الطلبِ والاجتهادِ .

فهـٰذهِ وجوهُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في الجهلِ ، فكيفَ في العلمِ ؟!

وحيثُ قلنا : إنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ نعمةً . . فهوَ حقٌّ ، وذلكَ مطردٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ ، ولا يُستثنىٰ عنهُ بالظنِّ إلا الآلامُ التي يخلقُها في بعضِ الناسِ ، وهيَ أيضاً قدْ تكونُ نعمةً في حقِّ المتألِّمِ بها ، فإنْ لمْ تكنْ نعمةً في حقِّهِ ؛ كالألمِ الحاصلِ مِنَ المعصيةِ ، كقطعِهِ يدَ نفسِهِ ، ووشمِهِ بشرتَهُ ، فإنَّهُ يتألمُ بهِ وهوَ عاصٍ بهِ ، وألمِ الكفَّارِ في النارِ . فهيَ أيضاً نعمةٌ ، ولكنْ في حقِّ غيرِهِمْ مِنَ العبادِ لا في حقِّهِمْ ، فإنَّ مصائبَ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ العذابَ وعذَّبَ بهِ طائفةً . . لما عرفَ المتنعِّمونَ قدْرَ نعمتِهِ ، ولا كثرَ فرحُهُمْ بها ، ففرحُ أهلِ الجنَّةِ إنَّما يتضاعفُ إذا تفكَّروا في آلامِ أهلِ النارِ ، أما ترىٰ أهلَ الدنيا ليسَ يشتدُّ فرحُهُمْ بنورِ الشمسِ معَ شدَّةِ حاجتِهِمْ إليها مِنْ حيثُ إنَّها عامَّةٌ مبذولةٌ ؟

ولا يشتدُّ فرحُهُمْ بالنظرِ إلىٰ زينةِ السماءِ وهيَ أحسنُ مِنْ كلِّ بستانٍ لهُمْ في الأرضِ يجتهدونَ في عمارتِهِ ، ولكنْ زينةُ السماءِ لمَّا عمَّتْ . . لمْ يشعروا بها ، ولمْ يفرحوا بسببِها ؟

فإذاً ؛ قدْ صحَّ ما ذكرناهُ مِنْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يخلقْ شيئاً إلا وفيهِ حكمةٌ ، ولا خلقَ شيئاً إلا وفيهِ نعمةٌ ، إمَّا علىٰ جميعِ عبادِهِ ، أوْ علىٰ بعضِهِمْ ، فإذاً في خلقِ اللهِ تعالى البلاءَ أيضاً نعمةٌ ، إمَّا على المبتلىٰ أو علىٰ غيرِ المبتلىٰ ، فإذاً كلُّ حالةٍ لا تُوصفُ بأنَّها بلاءٌ مطلقٌ ولا نعمةٌ مطلقةٌ فيجتمعُ فيها على العبدِ وظيفتانِ : الصبرُ والشكرُ جميعاً .

* * *

فإنْ قلتَ : فهما متضادانِ ، فكيفَ يجتمعانِ ؟! إذْ لا صبرَ إلا علىٰ غمٍّ ، ولا شكرَ إلا علىٰ فرحٍ .

فاعلمْ : أنَّ الشيءَ الواحدَ قدْ يُغتمُّ بهِ مِنْ وجهٍ ، ويُفرحُ بهِ مِنْ وجهٍ آخرَ ، فيكونُ الصبرُ مِنْ حيثُ الاغتمامُ ، والشكرُ مِنْ حيثُ الفرحُ .

وفي كلِّ فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وبلاءٍ في الدنيا خمسةُ أمورٍ ينبغي أنْ يفرحَ العاقلُ بها ويشكرَ عليها :

أحدُها : أنَّ كلَّ مصيبةٍ ومرضٍ فيُتصوَّرُ أنْ يكونَ أكبرُ منها ؛ إذْ مقدوراتُ اللهِ تعالىٰ لا تتناهىٰ ، فلوْ ضعَّفَها اللهُ تعالىٰ وزادَها . . ماذا كانَ يردُّهُ ويحجزُهُ ؟ فليشكرْ إذْ لمْ تكنْ أعظمُ منها في الدنيا .

الثاني : أنَّهُ كانَ يمكنُ أنْ تكونَ مصيبتُهُ في دينِهِ ، قالَ رجلٌ لسهلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلَ اللصُّ بيتي وأخذَ متاعي ، فقالَ : اشكرِ اللهَ تعالىٰ ، لوْ دخلَ الشيطانُ قلبَكَ وأفسدَ التوحيدَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟[1] .

ولذلكَ استعاذَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في دعائِهِ إذْ قالَ : (اللهمَّ ؛ لا تجعلْ مصيبتي في ديني)[2] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (ما ابتليتُ ببلاءٍ إلا كانَ للهِ تعالىٰ عليَّ فيهِ أربعُ نعَمٍ ؛ إذْ لمْ يكنْ في ديني ، وإذْ لمْ يكنْ أعظمَ منهُ ، وإذْ لمْ أُحرمِ الرضا بهِ ، وإذْ أرجو الثوابَ عليهِ)[3] .

وكانَ لبعضِ أربابِ القلوبِ صديقٌ ، فحبسَهُ السلطانُ ، فأرسلَ إليهِ يعلمُهُ ويشكو إليهِ ، فقالَ لهُ : اشكرِ اللهَ ، فضربَهُ ، فأرسلَ إليهِ يعلمُهُ ويشكو إليهِ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فجيءَ بمجوسيٍّ فحُبسَ عندَهُ وكانَ مبطوناً ، فقُيِّدَ ، وجُعلَ حلقةٌ مِنْ قيدِهِ في رجْلِهِ وحلقةٌ في رجْلِ المجوسيِّ ، فأرسلَ إليهِ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فكانَ يحتاجُ المجوسيُّ إلىٰ أنْ يقومَ مرَّاتٍ وهوَ يحتاجُ أنْ يقومَ معَهُ ويقفَ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ يقضيَ حاجتَهُ ، فكتبَ إليهِ بذلكَ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ هـٰذا ؟ وأيُّ بلاءٍ أعظمُ مِنْ هـٰذا ؟! فقالَ : لوْ جُعلَ الزنَّارُ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٣) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٣٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢١١) دون نسبة بنحوه .

الذي في وسطِهِ علىٰ وسطِكَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟![1] .

فإذاً ؛ ما مِنْ إنسانٍ قدْ أُصيبَ ببلاءٍ إلا ولوْ تأمَّلَ حقَّ التأمُّلِ في سوءِ أدبِهِ ظاهراً وباطناً في حقِّ مولاهُ . . لكانَ يرىٰ أنَّهُ يستحقُّ أكثرَ ممَّا أُصيبَ بهِ عاجلاً وآجلاً ، ومَنِ استحقَّ عليكَ أنْ يضربَكَ مئةَ سوطٍ ، فاقتصرَ علىٰ عشرةٍ . . فهوَ مستحقٌّ للشكرِ ، ومَنِ استحقَّ عليكَ أنْ يقطعَ يديكَ ، فتركَ إحداهُما . . فهوَ مستحقٌّ للشكرِ .

ولذلكَ مرَّ بعضُ الشيوخِ في شارعٍ ، فصُبَّ علىٰ رأسِهِ طشتٌ مِنْ رمادٍ ، فسجدَ للهِ تعالىٰ سجدةَ الشكرِ ، فقيلَ لهُ : ما هـٰذهِ السجدةُ ؟ فقالَ : كنتُ أنتظرُ أنْ تُصبَّ عليَّ النارُ ، فالاقتصارُ على الرمادِ نعمةٌ[2] .

وقيلَ لبعضِهِمْ : ألا تخرجُ إلى الاستسقاءِ ؛ فقدِ احتبسَتِ الأمطارُ ؟ فقالَ : أنتُمْ تستبطئونَ المطرَ وأنا أستبطىءُ الحجرَ[3] .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : كيفَ أفرحُ وأرىٰ جماعةً ممَّنْ زادَتْ معصيتُهُمْ علىٰ معصيتي ولمْ يُصابوا بمثلِ ما أُصبتُ بهِ حتَّى الكفارِ ؟!

فاعلمْ : أنَّ الكافرَ قدْ خُبِّىءَ لهُ ما هوَ أكثرُ ، وإنَّما أُمهلَ حتَّىٰ يستكثرَ مِنَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٣) .

(٢) وهو أبو عثمان الزاهد ، وعبارته كما في « الرسالة القشيرية » (ص٤١٤) : (من استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد . . لم يجز له أن يغضب) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٧٣) ، وصاحب الخبر هو مالك بن دينار .

الإثمِ ، ويطولَ عليهِ العقابُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾ .

وأمَّا العاصي . . فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّ في العالمِ مَنْ هوَ أعصىٰ منكَ ؟! وربَّ خاطرٍ بسوءِ أدبٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وفي صفاتِهِ أعظمُ وأطمُّ مِنْ شربِ الخمرِ والزنا وسائرِ المعاصي بالجوارحِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ في مثلِهِ : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ، فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّ غيرَكَ أعصىٰ منكَ ؟!

ثمَّ لعلَّهُ قدْ أُخِّرَتْ عقوبتُهُ إلى الآخرةِ وعُجِّلَتْ عقوبتُكَ في الدنيا ، فلِمَ لا تشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلكَ ؟

وهـٰذا هوَ الوجهُ الثالثُ في الشكرِ ، وهوَ أنَّهُ ما مِنْ عقوبةٍ إلا وكانَ يُتصوَّرُ أنْ تُؤخَّرَ إلى الآخرةِ ، ومصائبُ الدنيا يُتسلَّىٰ عنها بأسبابٍ أُخرَ تهوِّنُ المصيبةَ فيخفُّ وقعُها ، ومصيبةُ الآخرةِ تدومُ ، وإنْ لمْ تدمْ . . فلا سبيلَ إلىٰ تخفيفِها بالتسلِّي ، إذْ أسبابُ التسلِّي مقطوعةٌ بالكليَّةِ في الآخرةِ عنِ المعذَّبينَ .

ومَنْ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ في الدنيا . . فلا يُعاقبُ ثانياً ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً ، فأصابَتْهُ شِدَّةٌ أوْ بلاءٌ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذِّبَهُ ثانياً »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) ولفظه : « من أصاب حدّاً فعُجّل عقوبتُه في الدنيا . . فالله أعدل من أن يثنِّيَ علىٰ عبده العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حدّاً فستره الله عليه وعفا عنه . . فالله أكرم من أن يعود إلىٰ شيء قد عفا عنه » .

الرابعُ : أنَّ هـٰذهِ المصيبةَ والبليّةَ كانَتْ مكتوبةً عليهِ في أمِّ الكتابِ ، وكانَ لا بدَّ مِنْ وصولِها إليهِ ، وقدْ وصلَتْ ، ووقعَ الفراغُ ، واستراحَ مِنْ بعضِها أوْ مِنْ جميعِها ، فهـٰذهِ نعمةٌ .

الخامسُ : أنَّ ثوابَها أكثرُ منها ؛ فإنَّ مصائبَ الدنيا طرقٌ إلى الآخرةِ مِنْ وجهينِ :

ـ **أحدُهُما** : الوجهُ الذي يكونُ بهِ الدواءُ الكريهُ نعمةً في حقِّ المريضِ ، ويكونُ المنعُ مِنْ أسبابِ اللعبِ نعمةً في حقِّ الصبيِّ ، فإنَّهُ لوْ خُلِّيَ واللعبَ . . كانَ يمنعُهُ ذلكَ عنِ العلمِ والأدبِ ، فكانَ يخسرُ جميعَ عمرِهِ ؛ فكذلكَ المالُ والأهلُ والأقاربُ والأعضاءُ حتَّى العينُ التي هيَ أعزُّ الأشياءِ قدْ تكونُ سبباً لهلاكِ الإنسانِ في بعضِ الأحوالِ .

بلِ العقلُ الذي هوَ أعزُّ الأمورِ قدْ يكونُ سبباً لهلاكِهِ ، فالملحدةُ غداً يتمنَّونَ لوْ كانوا مجانينَ أوْ صبياناً ولمْ يتصرَّفوا بعقولِهِمْ في دينِ اللهِ تعالىٰ ، فما مِنْ شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الأسبابِ يوجدُ مِنَ العبدِ إلا ويُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ فيهِ خيرةٌ دينيّةٌ ، فعليهِ أنْ يحسنَ الظنَّ باللهِ تعالىٰ ، ويقدِّرَ فيهِ الخيرةَ ويشكرَهُ عليهِ ؛ فإنَّ حكمةَ اللهِ تعالىٰ واسعةٌ ، وهوَ بمصالحِ العبادِ أعلمُ مِنَ العبادِ ، وغداً يشكرُهُ العبادُ على البلايا إذا رأَوا ثوابَ اللهِ على البلايا كما يشكرُ الصبيُّ بعدَ العقلِ والبلوغِ أستاذَهُ وأباهُ علىٰ ضربِهِ وتأديبِهِ ؛ إذْ يدركُ ثمرةَ ما استفادَهُ مِنَ التأديبِ ، والبلاءُ تأديبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وعنايتُهُ بعبادِهِ أتمُّ وأوفرُ مِنْ

عنايةِ الآباءِ بالأولادِ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « لا تتهمِ اللهَ في شيءٍ قضاهُ عليكَ »(١) .

ونظرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى السماءِ فضحكَ ، فسُئِلَ ، فقالَ : « عجبتُ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ للمؤمنِ ؛ إنْ قضىٰ لهُ بالسرَّاءِ . . رضيَ وكانَ خيراً لهُ ، وإنْ قضىٰ لهُ بالضرَّاءِ . . رضيَ وكانَ خيراً لهُ »(٢) .

ـ **الوجهُ الثاني** : أنَّ رأسَ الخطايا المهلكةِ حبُّ الدنيا ، ورأسَ أسبابِ النجاةِ التجافي بالقلبِ عنْ دارِ الغرورِ ، ومواتاةُ النعمِ علىٰ وَفْقِ المرادِ مِنْ غيرِ امتزاجٍ ببلاءٍ ومصيبةٍ تورثُ طمأنينةَ القلبِ إلى الدنيا وأنساً بها ، حتَّىٰ تصيرَ كالجنَّةِ في حقِّهِ ، فيعظمُ بلاؤُهُ عندَ الموتِ بسببِ مفارقتِهِ ، وإذا كثرَتْ عليهِ المصائبُ . . انزعجَ قلبُهُ عنِ الدنيا ، ولمْ يسكنْ إليها ، ولمْ يأنسْ بها ، وصارَتْ سجناً عليهِ ، وكانَتْ نجاتُهُ منها غايةَ اللذَّةِ ؛ كالخلاصِ مِنَ السجنِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ »(٣) ، والكافرُ كلُّ مَنْ أعرضَ عنِ اللهِ تعالىٰ ولمْ يردْ إلا الحياةَ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢١٧) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٤/٢٠٤) ، (٥/٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٣) .
(٢) كذا في « القوت » (١/٢١٧) ، وهو عند مسلم (٢٩٩٩) دون ذكر النظر إلى السماء والضحك ، وقد ورد ذكر ذلك في أخبار مقاربة ، انظر « الإتحاف » (٩/١٤١) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

الدنيا ، ورضيَ بها ، واطمأنَّ إليها ، والمؤمنُ كلُّ منقلعٍ بقلبِهِ عنِ الدنيا ، شديدِ الحنينِ إلى الخروجِ منها ، والكفرُ بعضُهُ ظاهرٌ وبعضُهُ خفيٌّ ، وبقدْرِ حبِّ الدنيا في القلبِ يسري فيهِ الشركُ الخفيُّ ، بلِ الموحِّدُ المطلقُ هوَ الذي لا يحبُّ إلا الواحدَ الحقَّ .

فإذاً ؛ في البلاءِ نعَمٌ مِنْ هـٰذا الوجهِ ، فيجبُ الفرحُ بهِ .

وأمَّا التألُّمُ . . فهوَ ضروريٌّ ، وذلكَ يضاهي فرحَكَ عندَ الحاجةِ إلى الحجامةِ بمَنْ يتولَّىٰ حجامتَكَ مجاناً ، أوْ يسقيكَ دواءً نافعاً بشعاً مجاناً ؛ فإنَّكَ تتألَّمُ وتفرحُ ، فتصبرُ على الألمِ ، وتشكرُهُ علىٰ سببِ الفرحِ ، فكلُّ بلاءٍ في الأمورِ الدنيويَّةِ مثالُهُ الدواءُ الذي يؤلمُ في الحالِ وينفعُ في المآلِ .

بلْ مَنْ دخلَ دارَ ملكٍ للنضارةِ[1] ، وعلمَ أنَّهُ يخرجُ منها لا محالةَ ، فرأىٰ وجهاً حسناً لا يخرجُ معَهُ مِنَ الدارِ . . كانَ ذلكَ وبالاً وبلاءً عليهِ ؛ لأنَّهُ يورثُهُ الأنسَ بمنزلٍ لا يمكنُهُ المُقامُ فيهِ ، ولوْ كانَ عليهِ في المُقامِ خطرٌ مِنْ أنْ يطلعَ عليهِ الملكُ فيعذِّبَهُ ، فأصابَهُ ما يكرهُ حتَّىٰ نفرَهُ عنِ المقامِ . . كانَ ذلكَ نعمةً عليهِ ، والدنيا منزلٌ ، وقدْ دخلَها الناسُ مِنْ بابِ الرحمِ ، وهُمْ خارجونَ عنها مِنْ بابِ اللحدِ ، فكلُّ ما يحقِّقُ أنسَهُمْ بالمنزلِ فهوَ بلاءٌ ، وكلُّ ما يزعجُ قلوبَهُمْ عنها ويقطعُ أنسَهُمْ بها فهوَ نعمةٌ ، فمَنْ عرفَ هـٰذا . .

---

(١) أي : التفرج .

تُصوِّرَ منهُ أنْ يشكرَ على البلاءِ ، ومَنْ لمْ يعرفْ هـٰذهِ النعمةَ في البلاءِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ الشكرُ ؛ لأنَّ الشكرَ يتبعُ معرفةَ النعمةِ بالضرورةِ ، ومَنْ لا يؤمنُ بأنَّ ثوابَ المصيبةِ أكبرُ مِنَ المصيبةِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ الشكرُ على المصيبةِ .

وحُكِيَ أنَّ أعرابياً عزَّى ابنَ عباسٍ علىٰ أبيهِ رضي الله عنهما فقالَ[1] : [من الكامل]

اِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صابِرِينَ فَإِنَّما　　صَبْرُ ٱلرَّعِيَّةِ بعَدْ صَبْرِ ٱلرَّاسِ

خَيْرٌ مِنَ ٱلْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ　　وَٱللهُ خَيْـرٌ مِنْـكَ لِلْعَبَّـاسِ

فقالَ ابنُ عباسٍ : ما عزَّاني أحدٌ أحسنَ مِنْ تعزيتِهِ[2] .

والأخبارُ الواردةُ في الصبرِ على المصائبِ كثيرةٌ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يصبْ منهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : إذا وجَّهتُ إلىٰ عبدٍ مِنْ عبيدي مصيبةً في بدنِهِ أوْ مالِهِ أوْ ولدِهِ ، ثمَّ استقبلَ ذلكَ بصبرٍ جميلٍ . . استحييتُ منهُ يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ لهُ ميزاناً أوْ أنشرَ لهُ ديواناً »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ عبدٍ أُصيبَ بمصيبةٍ ، فقالَ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ أْجُرْني في مصيبتي ،

---

(١) البيتان في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٢٤٧) بسياق مختلف .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١١) .
(٣) رواه البخاري (٥٦٤٥) .
(٤) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .

وأعقبْني خيراً منها . . إلا فعلَ اللهُ ذلكَ بهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : مَنْ سلبتُ كريمتيهِ . . فجزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ذهبَ مالي ، وسقمَ جسمي ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا خيرَ في عبدٍ لا يذهبُ مالُهُ ولا يسقمُ جسمُهُ ، إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً . . ابتلاهُ ، وإذا ابتلاهُ . . صبَّرَهُ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ الرَّجلَ لتكونُ لهُ الدرجةُ عندَ اللهِ تعالىٰ لا يبلغُها بعملٍ حتَّىٰ يُبتلىٰ ببلاءٍ في جسمِهِ ، فيبلغُها بذلكَ »(٤) .

وعنْ خبَّابِ بنِ الأرتِّ قالَ : أتينا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ متوسِّدٌ بردائِهِ في ظلِّ الكعبةِ ، فشكونا إليهِ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تدعو اللهَ تستنصرُهُ لنا ، فجلسَ محمرّاً لونُهُ ، ثمَّ قالَ : « إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ

---

(١) رواه مسلم (٩١٨) ، و(أجرني) : يجوز فيه أيضاً مد الهمزة والقصر والوصل ، (آجرني ، أَجِرني ، أْجُرني) ؛ بمعنىٰ طلب الأجر على المد والوصل ، أو من الإجارة على القصر .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢٩٠٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٤) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ليُؤتىٰ بالرجلِ ، فيُحفرُ لهُ في الأرضِ حفيرةٌ ، ويُجاءُ بالمنشارِ ، فيوضعُ علىٰ رأسِهِ ، فيُجعلُ فرقتينِ ، ما يصرفُهُ ذلكَ عنْ دينِهِ »(١) .

وعنْ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : (أيُّما رجلٍ حبسَهُ السلطانُ ظلماً فماتَ . . فهوَ شهيدٌ ، وإنْ ضربَهُ فماتَ . . فهوَ شهيدٌ)(٢) . وقالَ أيضاً : (مِنْ إجلالِ اللهِ ومعرفةِ حقِّهِ ألا تشكوَ وجعَكَ ، ولا تذكرَ مصيبتَكَ)(٣) .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (تُولدونَ للموتِ ، وتعمرونَ للخرابِ ، وتحرصونَ علىٰ ما يفنىٰ ، وتذرون ما يبقىٰ ، ألا حبذا المكروهاتُ الثلاثُ : الفقرُ والمرضُ والموتُ)(٤) .

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً ، وأرادَ أنْ يصافيَهُ . . صَبَّ عليهِ البلاءَ صبّاً ، وثجَّهُ عليهِ ثجّاً ، فإذا دعاهُ . . قالَتِ الملائكةُ : صوتٌ معروفٌ ، فإنْ دعاهُ ثانياً فقالَ : يا ربِّ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : لبَّيكَ عبدي وسعديكَ ، لا تسألُني شيئاً إلاّ أعطيتُكَ أوْ دفعتُ عنكَ ما هوَ خيرٌ ، وادَّخرتُ لكَ عندي ما هوَ أفضلُ منهُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . جيءَ بأهلِ الأعمالِ ، فوُفُّوا أعمالَهُمْ بالميزانِ ، أهلُ

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢) ، وأبو داوود (٢٦٤٩) .

(٢) أورده الأبشيهي في « المستطرف » (٢/ ٣٣٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء) . « الإتحاف » (٩/ ٢٩) .
وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) أيضاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ١٦٣) .

الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ والحجِّ ، ثمَّ يُؤتىٰ بأهلِ البلاءِ . . فلا يُنصبُ لهُمْ ميزانٌ ، ولا ينشرُ لهُمْ ديوانٌ ، يُصبُّ عليهِمُ الأجرُ صبّاً كما كان يُصبُّ عليهِمُ البلاءُ صبّاً ، فيودُّ أهلُ العافيةِ في الدنيا لوْ أنَّهُمْ كانَتْ تُقرضُ أجسادُهُمْ بالمقاريضِ لما يرونَ ما يذهبُ بهِ أهلُ البلاءِ مِنَ الثوابِ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ »[1] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قالَ : (شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ إلىٰ ربِّهِ فقالَ : يا ربِّ ؛ العبدُ المؤمنُ يطيعُكَ ويجتنبُ معاصيَكَ ، تزوي عنهُ الدنيا ، وتعرضُ لهُ البلاءَ ، ويكونُ العبدُ الكافرُ لا يطيعُكَ ويجترىءُ عليكَ وعلىٰ معاصيكَ ، تزوي عنهُ البلاءَ ، وتبسطُ لهُ الدنيا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ العبادَ لي ، والبلاءَ لي ، وكلٌّ يسبِّحُ بحمدي ، فيكونُ المؤمنُ عليهِ مِنَ الذنوبِ ، فأزوي عنهُ الدنيا ، وأعرضُ لهُ البلاءَ ، فيكونُ كفارةً لذنوبِهِ ؛ حتَّىٰ يلقاني فأجزيَهُ بحسناتِهِ ، ويكونُ الكافرُ لهُ الحسناتُ ، فأبسطُ لهُ في الرزقِ ، وأزوي عنهُ البلاءَ ، فأجزيهِ بحسناتِهِ في الدنيا ؛ حتَّىٰ يلقاني فأجزيَهُ بسيئاتِهِ)[2] .

ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ . . قالَ

---

(١) رواه بتمامه التميمي في « المحن » (ص ٢٨٦) ، والترمذي (٢٤٠٢) روىٰ بعضه ، وهو قوله : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطىٰ أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٢٣) .

أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : كيفَ الفرحُ بعدَ هـٰذهِ الآيةِ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غفرَ اللهُ لكَ يا أبا بكرٍ ؛ ألستَ تمرضُ ؟ ألستَ يصيبُكَ الأذى ؟ ألستَ تحزنُ ؟ فهـٰذا ما تُجزونَ بهِ »[1] ؛ يعني : أنَّ جميعَ ما يصيبُكَ يكونُ كفارةً لذنوبِكَ .

وعنْ عقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا رأيتُمُ الرجلَ يعطيهِ اللهُ ما يحبُّ وهوَ مقيمٌ علىٰ معصيتِهِ . . فاعلموا أنَّ ذلكَ استدراجٌ ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ »[2] ، يعني : لمَّا تركوا ما أُمروا بهِ . . فتحنا عليهِمْ أبوابَ الخيراتِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ أيْ : بما أُعطوا مِنَ الخيرِ ، ﴿ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴾ .

وعنِ الحسنِ البصريِّ رحمَهُ اللهُ : أنَّ رجلاً مِنَ الصحابةِ رأى امرأةً كانَ يعرفُها في الجاهليةِ ، فكلَّمَها ثمَّ تركَها ، فجعلَ الرجلُ يلتفتُ إليها وهوَ يمشي ، فصدمَهُ حائطٌ ، فأثَّرَ في وجهِهِ ، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأخبرَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . عجَّلَ لهُ عقوبةَ ذنبِهِ في الدنيا »[3] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١٠) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٤٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٦٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٨٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١١) عن الحسن عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ألا أخبرُكُمْ بأرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالوا : بلىٰ ، فقرأَ عليهِمْ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ، فالمصائبُ في الدنيا بكسبِ الأوزارِ ، فإذا عاقبَهُ اللهُ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذبَهُ ثانياً ، وإنْ عفا عنهُ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذِّبَهُ يومَ القيامةِ(١) .

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما تجرعَ عبدٌ قطُّ جرعتينِ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جرعةِ غيظٍ ردَّها بحلمٍ ، وجرعةِ مصيبةٍ يصبرُ الرجلُ لها ، ولا قطرَتْ قطرةٌ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ قطرةِ دمٍ أهريقَتْ في سبيلِ اللهِ ، أوْ قطرةِ دمعٍ في سوادِ الليلِ وهوَ ساجدٌ ولا يراهُ إلا اللهُ تعالىٰ ، وما خطا عبدٌ خطوتينِ أحبَّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ خطوةٍ إلىٰ صلاةِ الفريضةِ ، وخطوةٍ إلىٰ صلةِ الرحمِ »(٢) .

---

(١) رواه مرفوعاً الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٨) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٨٥).

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث علي بن أبي طالب ، دون ذكر القطرتين ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث ، وروى ابن ماجه [٤١٨٩] من حديث ابن عمر بإسناد جيد : « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » [٦٢٠٥] من حديث أبي أمامة : « ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل » ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث) . « إتحاف » (٩/ ١٤٥) . وروى ابن وهب في « جامعه » (٤٧٨) حديث الجرعتين مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وعنْ أبي الدرداءِ قالَ : تُوفي ابنٌ لسليمانَ بنِ داوودَ عليهما السلامُ ، فوجدَ عليهِ وجداً شديداً ، فأتاهُ ملكانِ ، فجلسا بينَ يديهِ في زيِّ الخصومِ ، فقالَ أحدُهُما : بذرتُ بذراً ، فلمَّا استحصدَ . . مرَّ بهِ هـٰذا فأفسدَهُ ، فقالَ للآخرِ : ما تقولُ ؟ فقالَ : أخذتُ الجادةَ فأتيتُ علىٰ زرعٍ ، فنظرتُ يميناً وشمالاً فإذا الطريقُ عليهِ ، فقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ولِمَ بذرتَ على الطريقِ ؟ أما علمتَ أنْ لا بدَّ للناسِ مِنَ الطريقِ ؟! قالَ : فلِمَ تحزنُ علىٰ ولدِكَ ؟ أما علمتَ أنَّ الموتَ سبيلُ الآخرةِ ؟! فتابَ سليمانُ عليهِ السلامُ إلىٰ ربِّهِ ، ولمْ يجزعْ علىٰ ولدِهِ بعدَ ذلكَ(١) .

ودخلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ على ابنٍ لهُ مريضٍ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ لأنْ تكونَ في ميزاني أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أكونَ في ميزانِكَ ، فقالَ : يا أبتِ ؛ لأَنْ يكونَ ما تحبُّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ ما أحبُّ(٢) .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ نُعيَ إليهِ ابنةٌ لهُ ، فاسترجعَ وقالَ : عورةٌ سترَها اللهُ ، ومؤنةٌ كفاها اللهُ ، وأجرٌ قدْ ساقَهُ اللهُ ، ثمَّ نزلَ فصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ قالَ : قدْ صنعنا ما أمرَ اللهُ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤١٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٥٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٨١) .
(٣) عزاه الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ٢١٥) لابن أبي الدنيا في «العزاء» .

وعنِ ابنِ المباركِ أنَّهُ ماتَ لهُ ابنٌ ، فعزَّاهُ مجوسيٌّ يعرفُهُ فقالَ لهُ : ينبغي للعاقلِ أنْ يفعلَ اليومَ ما يفعلُهُ الجاهلُ بعدَ خمسةِ أيامٍ ، فقالَ ابنُ المباركِ : اكتبوا عنهُ هـٰذهِ(١) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليبتلي العبدَ بالبلاءِ بعدَ البلاءِ ، حتَّىٰ يمشيَ على الأرضِ وما لهُ ذنبٌ)(٢) .

وقالَ الفضيلُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليتعاهدُ عبدَهُ المؤمنَ بالبلاءِ كما يتعاهدُ الرجلُ أهلَهُ بالخيرِ)(٣) .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحتجُّ على الخلقِ يومَ القيامةِ بأربعةِ أنفسٍ علىٰ أربعةِ أجناسٍ : على الأغنياءِ بسليمانَ ، وعلى الفقراءِ بعيسىٰ ، وعلى العبيدِ بيوسفَ ، وعلى المرضىٰ بأيوبَ ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ) .

ورُوِيَ أنَّ زكريا عليهِ السلامُ لمَّا هربَ مِنَ الكفارِ مِنْ بني إسرائيلَ ،

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٣٨) .

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ١٢٩) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٣) روي هـٰذا من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً كما هو عند البيهقي في « الشعب » (٩٦٤٨) ، وبلفظ : « إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بخير » ، قال حذيفة : وإنَّ أقرَّ أيامي لعيني يوم أدخل علىٰ أهلي فيشكون إلي الحاجة .

واختفىٰ في الشجرةِ ، فعرفوا ذلك ، فجيءَ بالمنشارِ ، فنُشرَتِ الشجرةُ حتَّىٰ بلغَ المنشارُ إلىٰ رأسِ زكريا ، فأنَّ منهُ أنَّةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا زكريا ؛ لئنْ صعدَتْ منكَ أنَّةٌ ثانيةٌ لأمحونَّكَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ ، فعضَّ زكريا عليهِ السلامُ على الصبرِ حتَّىٰ قُطعَ بشطرينِ[1] .

وقالَ أبو مسعودٍ البلخيُّ : (مَنْ أُصيبَ بمصيبةٍ فمزَّقَ ثوباً ، أوْ ضربَ صدراً . . فكأنَّما أخذَ رمحاً يريدُ أنْ يقاتلَ بهِ ربَّهَ عزَّ وجلَّ)[2] .

وقالَ لقمانُ رحمهُ اللهُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الذهبَ يُجرَّبُ بالنارِ ، والعبدُ الصالحُ يُجرَّبُ بالبلاءِ ، فإذا أحبَّ اللهُ قوماً . . ابتلاهُمْ ، فمَنْ رضيَ . . فلهُ الرضا ، ومَنْ سخطَ . . فلهُ السخطُ)[3] .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : أصبحتُ يوماً أشتكي ضرسي ، فقلتُ لعمِّي : ما نمتُ البارحةَ مِنْ وجعِ الضرسِ ، حتَّىٰ قلتُها ثلاثاً ، فقالَ : لقدْ أكثرتَ مِنْ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٥) عن وهب بن منبه .

(٢) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٥٧) .

(٣) هـٰذا القول متوازع في المرفوع ، فقد روى الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٦٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار . . . » الحديث ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

شكوىٰ ضرسِكَ في ليلةٍ واحدةٍ ، وقدْ ذهبَتْ عيني هـٰذهِ منذ ثلاثينَ سنةً ما علمَ بها أحدٌ[1] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عزيرٍ عليهِ السلامُ : إذا نزلَتْ بكَ بليَّةٌ . . فلا تشكُني إلىٰ خلقي ، واشكُ إليَّ كما لا أشكوكَ إلىٰ ملائكتي إذا صعدَتْ بمساوئِكَ وفضائحِكَ[2] ، نسألُ اللهَ مِنْ عظيمِ لطفِهِ وكرمِهِ سترَهُ الجميلَ في الدنيا والآخرةِ .

* * *

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٨٣) عن ابن أخٍ للأحنف ، وصاحب القول هو الأحنف نفسه ، ورواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٣٢٩/١٢) عن الأحنف وعمه المتشمس بن معاوية ولم يعيِّن الشكوىٰ .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله عز وجل إلىٰ أخي العزير : يا عزير . . . » الخبر .

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلَّكَ تقولُ : هـٰذهِ الأخبارُ تدلُّ علىٰ أنَّ البلاءَ في الدنيا خيرٌ مِنَ النعَمِ ، فهلْ لنا أنْ نسألَ اللهَ البلاءَ ؟

فأقولُ : لا وجهَ لذلكَ ؛ لما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يستعيذُ في دعائِهِ مِنْ بلاءِ الدنيا وبلاءِ الآخرةِ[1] ، وكانَ يقولُ هوَ والأنبياءُ عليهِمُ السلامُ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[2] ، وكانوا يستعيذونَ مِنْ شماتةِ الأعداءِ وغيرِها[3] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الصبرَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ سألتَ اللهَ البلاءَ . فاسألْهُ العافيةَ »[4] .

وروى الصدِّيقُ رضوانُ اللهِ عليهِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « سلوا اللهَ العافيةَ ، فما أُعطيَ أحدٌ أفضلَ مِنَ العافيةِ إلا اليقينَ »[5] ، وأشارَ باليقينِ إلىٰ عافيةِ القلبِ عنْ مرضِ الجهلِ والشكِّ ، فعافيةُ القلبِ أعلىٰ مِنْ عافيةِ البدنِ .

---

(١) إذ روىٰ أحمد في « مسنده » (٤/١٨١) من حديث بسر بن أرطاة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

(٢) وكان هـٰذا من أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام كما روىٰ ذلك مسلم (٣٦٩٠) .

(٣) رواها النسائي (٨/ ٢٦٥) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣١) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعيَّنه (٣٥٦٤) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) بنحوه .

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : (الخيرُ الذي لا شرَّ فيهِ العافيةُ معَ الشكرِ ، فكَمْ مِنْ منعَمٍ عليهِ غيرُ شاكرٍ)(١) .

وقالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ : (لأَنْ أُعافىٰ فأشكرَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُبتلىٰ فأصبرَ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « وعافيتُكَ أحبُّ إليَّ »(٣) .

وهٰذا أظهرُ مِنْ أنْ يُحتاجَ فيهِ إلى استشهادٍ ، وهٰذا لأنَّ البلاءَ صارَ نعمةً باعتبارينِ :

أحدُهُما : بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ أكثرُ منهُ ؛ إمَّا في الدنيا ، أوْ في الدينِ .

والآخرُ : بالإضافةِ إلىٰ ما يُرجىٰ مِنَ الثوابِ ، فينبغي أنْ يسألَ اللهَ تمامَ النعمةِ في الدنيا ، ودفعَ ما فوقَهُ مِنَ البلاءِ ، ويسألَهُ الثوابَ في الآخرةِ على

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٥٤) عن عون بن عبد الله .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٥٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٠) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٦) ، وهي قطعة من الدعاء المشهور له صلى الله عليه وسلم يوم خرج إلى الطائف يدعو ثقيفاً ، وأورده ابن هشام في « سيرته » (١/ ٤٢٠) ولفظه : « ولكن عافيتك هي أوسع لي » ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن الجوزي في « السيرة » . . . ، وكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الدعاء » من رواية حسان بن عطية مرسلاً ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل) . « إتحاف » (٩/ ١٤٨) .

الشكرِ علىٰ نعمِهِ ، فإنَّهُ قادرٌ علىٰ أنْ يعطيَ على الشكرِ ما يعطيهِ على الصبرِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ بعضُهُمْ : (أودُّ أنْ أكونَ جسراً على النارِ يعبرُ عليَّ الخلقُ كلُّهُمْ فينجونَ ، وأكونَ أنا في النارِ) .

وقالَ سمنونٌ[1] : [من مخلع البسيط]

وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَٱخْتَبِرْنِي

فهٰذا منْ هؤلاءِ سؤالٌ للبلاءِ .

فاعلمْ : أنَّهُ حُكِيَ عنْ سمنونٍ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ بُلِيَ بعدَ هٰذا البيتِ بعلَّةِ الحصرِ ، فكانَ بعدَ ذلكَ يدورُ علىٰ أبوابِ المكاتبِ ويقولُ للصبيانِ : (ادعوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ) .

وأمَّا محبَّةُ الإنسانِ ليكونَ هوَ في النارِ دونَ سائرِ الخلقِ . . فغيرُ ممكنةٍ ، ولكنْ قدْ تغلبُ المحبَّةُ على القلبِ ، حتَّىٰ يظنَّ المحبُّ بنفسِهِ حبّاً لمثلِ ذلكَ ، فمَنْ شربَ بكأسِ المحبةِ . . سكرَ ، ومَنْ سكرَ . . توسَّعَ في الكلامِ ، ولوْ زايلَهُ سكرُهُ . . علمَ أنَّ ما غلبَ عليهِ كانَ حالةً لا حقيقةَ لها ، فما سمعتَهُ مِنْ هٰذا الفنِّ فهوَ كلامُ العشَّاقِ الذينَ أفرطَ حبُّهُمْ ، وكلامُ العشَّاقِ يُستلذُّ سماعُهُ ولا يُعوَّلُ عليهِ ؛ كما حُكِيَ أنَّ فاختةً كانَ يراودُها زوجُها فمنعَتْهُ ، فقالَ : ما الذي يمنعُكِ عنِّي ولوْ أردتِ أنْ أقلبَ لكِ ملكَ

---

(١) عقلاء المجانين (ص٣٣٩) ، والرسالة القشيرية (ص٨٨) .

سليمانَ ظهراً لبطنٍ. . لفعلتُهُ لأجلِكِ ، فسمعَهُ سليمانُ عليهِ السلامُ ، فاستدعاهُ وعاتبَهُ ، فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ كلامُ العشّاقِ لا يُحكىٰ[1] ، وهوَ كما قالَ .

وقولُ الشاعرِ[2] : [من الوافر]

أُرِيدُ وِصالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي ... فَأَتْرُكُ ما أُرِيدُ لِما يُرِيدُ

هوَ أيضاً محالٌ ، ومعناهُ : أنّي أريدُ ما لا أريدُ ؛ لأنَّ مَنْ أرادَ الوصالَ ما أرادَ الهجرَ ، فكيفَ أرادَ الهجرَ الذي لمْ يردْهُ ؟! بلْ لا يصدقُ هٰذا الكلامُ إلا بتأويلينِ .

أحدُهُما : أنْ يكونَ ذلكَ في بعضِ الأحوالِ حتّىٰ يكتسبَ بهِ رضاهُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ مرادِ الوصالِ في الاستقبالِ ، فيكونُ الهجرانُ وسيلةً إلى الرضا ، والرضا وسيلةً إلىٰ وصالِ المحبوبِ ، والوسيلةُ إلى المحبوبِ محبوبٌ ، فيكونُ مثالُهُ مثالَ محبِّ المالِ إذا أسلمَ درهماً في درهمينِ ، فهوَ بحبِّ الدرهمينِ يتركُ الدرهمَ في الحالِ .

الثاني : أنْ يصيرَ رضاهُ عندَهُ مطلوباً مِنْ حيثُ إنَّهُ رضاً فقطْ ، ويكونُ لهُ لذّةٌ في استشعارِهِ رضا محبوبِهِ منهُ تزيدُ تلكَ اللذّةُ علىٰ لذّتِهِ في مشاهدتِهِ معَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٥٣٠) بنحوه ، **والفاختة** : الحمامةُ المطوقة .

(٢) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٢/ ٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/ ٢٦٨) .

كراهتِهِ ، فعندَ ذلكَ يُتصوَّرُ أنْ يريدَ ما فيهِ الرضا ، فلذلكَ قدِ انتهىٰ حالُ بعضِ المحبِّينَ إلىٰ أنْ صارَتْ لذتُهُمْ في البلاءِ معَ استشعارِهِمْ رضا اللهِ عنهُمْ أكثرَ مِنْ لذَّاتِهِمْ في العافيةِ مِنْ غيرِ شعورِ الرضا ، فهؤلاءِ إذا قدَّروا رضاهُ في البلاءِ . . صارَ البلاءُ أحبَّ إليهِمْ مِنَ العافيةِ ، وهـٰذهِ حالةٌ لا يبعدُ وقوعُها في غلباتِ الحبِّ ، ولكنَّها لا تثبتُ ، وإنْ ثبتَتْ مثلاً . . فهلْ هيَ حالةٌ صحيحةٌ أمْ حالةٌ اقتضَتْها حالةٌ أخرىٰ وردَتْ على القلبِ فمالَتْ بهِ عنِ الاعتدالِ ؟ هـٰذا فيهِ نظرٌ ، وذكرُ تحقيقِهِ لا يليقُ بما نحنُ فيهِ .

وقدْ ظهرَ بما سبقَ أنَّ العافيةَ خيرٌ مِنَ البلاءِ ، فنسألُ اللهَ تعالى المنانَ بفضلِهِ علىٰ جميعِ خلقِهِ العفوَ والعافيةَ في الدينِ والدنيا والآخرةِ لنا ولجميعِ المسلمينَ .

❊ ❊ ❊

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلمْ : أنَّ الناسَ اختلفوا في ذلكَ :

فقالَ قائلونَ : الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ .

وقالَ آخرونَ : الشكرُ أفضلُ .

وقالَ آخرونَ : هما سيَّانِ .

وقالَ آخرونَ : يختلفُ ذلكَ باختلافِ الأحوالِ .

واستدلَّ كلُّ فريقٍ بكلامٍ شديدِ الاضطرابِ ، بعيدٍ عنِ التحصيلِ ، فلا معنىٰ للتطويلِ بالنقلِ ، بلِ المبادرةُ إلىٰ إظهارِ الحقِّ أولىٰ ، فنقولُ : **في بيانِ ذلكَ مقامانِ** :

المقامُ الأوَّلُ : البيانُ علىٰ سبيلِ التساهلِ :

وهوَ أنْ يُنظرَ إلىٰ ظاهرِ الأمرِ ، ولا يُطلبَ بالتفتيشِ تحقيقُهُ ، وهوَ البيانُ الذي ينبغي أنْ يُخاطبَ بهِ عوامُّ الخلقِ ؛ لقصورِ أفهامِهِمْ عنْ دركِ الحقائقِ الغامضةِ ، وهـٰذا الفنُّ مِنَ الكلامِ هوَ الذي ينبغي أنْ يعتمدَهُ الوعَّاظُ ؛ إذْ مقصودُ كلامِهِمْ مِنْ مخاطبةِ العوامِّ إصلاحُهُمْ ، والظِّئْرُ المشفقةُ لا ينبغي أنْ تصلحَ الصبيَّ الطفلَ بالطيورِ السمانِ وضروبِ الحلاواتِ ، بلْ باللبنِ اللطيفِ ، وعليها أنْ تؤخِّرَ عنهُ أطايبَ الأطعمةِ إلىٰ أنْ يصيرَ محتملاً لها بقوَّتِهِ ، ويفارقَ الضعفَ الذي هوَ عليهِ في بِنْيَتِهِ ، فنقولُ :

هـٰذا المقامُ في البيانِ يأبى البحثَ والتفصيلَ ، ومقتضاهُ النظرُ إلى الظاهرِ المفهومِ مِنْ مواردِ الشرعِ ، وذلكَ يقتضي تفضيلَ الصبرِ ؛ فإنَّ الشكرَ وإنْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في فضلِهِ ، فإذا أُضيفَ إليهِ ما وردَ في فضيلةِ الصبرِ . . كانَتْ فضائلُ الصبرِ أكثرَ ، بلْ فيهِ ألفاظٌ صريحةٌ في التفضيلِ ؛ كقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ أفضلِ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ »(١) .

وفي الخبرِ : (يُؤتىٰ بأشكرِ أهلِ الأرضِ ، فيجزيهِ اللهُ جزاءَ الشاكرينَ ، ويُؤتىٰ بأصبرِ أهلِ الأرضِ ، فيُقالُ لهُ : أترضىٰ أنْ نجزيَكَ كما جزينا هـٰذا الشاكرَ ، فيقولُ : نعمْ يا ربِّ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كلاَّ ، أنعمتُ عليهِ فشكرَ ، وابتليتُكَ فصبرتَ ، لأضعِّفَنَّ لكَ الأجرَ عليهِ ، فيُعطىٰ أضعافَ جزاءِ الشاكرينَ)(٢) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وأمَّا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ »(٣) . . فهوَ دليلٌ على الفضيلةِ في الصبرِ ؛ إذْ ذكرَ ذلكَ في معرضِ المبالغةِ لرفعِ درجةِ الشكرِ ، فألحقَهُ بالصبرِ ، فكانَ هـٰذا منتهىٰ درجتِهِ ، ولولا أنَّهُ فُهِمَ مِنَ الشرعِ علوُّ درجةِ الصبرِ . . لما كانَ إلحاقُ الشكرِ بهِ مبالغةً

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/ ١٩٤) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « من أقلّ » بدل « من أفضل » .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٩٥) ، ولم يذكر رفعه .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

فـي الشكـرِ ، وهـوَ كقـولـهِ صلَّـى اللهُ عليـهِ وسلَّـمَ : « الجمعـةُ حـجُّ المساكينِ »[1] ، « وجهادُ المرأةِ حسنُ التبعُّلِ »[2] ، وكقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شاربُ الخمرِ كعابدِ وثنٍ »[3] ، وأبداً المشبَّهُ بهِ ينبغي أنْ يكونَ أعلىٰ رتبةً ، فكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »[4] لا يدلُّ علىٰ أنَّ الشكرَ مثلُهُ ، وهوَ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[5] ؛ فإنَّ كلَّ ما ينقسمُ بقسمينِ يُسمَّىٰ أحدُهُما نصفاً وإنْ كانَ بينَهُما تفاوتٌ ؛ كما يُقالُ : الإيمانُ هوَ العلمُ والعملُ ، فالعملُ نصفُ الإيمانِ ، فلا يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ العملَ يساوي العلمَ .

وفي الخبرِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنَّةَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٦٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٤٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٥٢) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر ، وروى ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٢٨) حديث وافدة النساء التي وصفت من حال الرجال ما لا يبلغ شأوه النساء وفيه : « أقرئي النساء عني وقولي لهن : إن طاعة الزوج تعدل ما هناك ، وقليل منكن تفعله . . . » الخبر .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣٧٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٢٧) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

الجنَّةَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؛ لمكانِ غناهُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « يدخلُ سليمانُ بعدَ الأنبياءِ بأربعينَ خريفاً »(١) .

وفي الخبرِ : (أبوابُ الجنَّةِ كلُّها مصراعانِ إلا بابَ الصبرِ ، فإنَّهُ مصراعٌ واحدٌ ، وأوَّلُ مَنْ يدخلُهُ أهلُ البلاءِ أمامَهُمْ أيُّوبُ عليهِ السلامُ)(٢) .

وكلُّ ما وردَ في فضائلِ الفقرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ الصبرِ ؛ لأنَّ الصبرَ حالُ الفقيرِ ، والشكرَ حالُ الغنيِّ .

فهـٰذا هوَ المقامُ الذي يقنعُ العوامَّ ، ويكفيهِمْ في الوعظِ اللائقِ بهِمْ ، والتعريفِ لما فيهِ صلاحُ دينِهِمْ .

❊ ❊ ❊

المقامُ الثاني : هوَ البيانُ الذي نقصدُ بهِ تعريفَ أهلِ العلمِ والاستبصارِ بحقائقِ الأمورِ بطريقِ الكشفِ والإيضاحِ :

فنقولُ فيهِ : كلُّ أمرينِ مبهمينِ لا تمكنُ الموازنةُ بينَهُما معَ الإبهامِ ما لمْ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٠٣) ، وقد روى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام. . . » الحديث ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٩٠٩) بلفظ : « يدخل الأنبياء كلهم قبل داوود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمـٰن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٠٣) ، ولم يرفعه ، بل قال : (وقد جاء في الآثار. . .) .

يُكشفُ عنْ حقيقةِ كلِّ واحدٍ منهُما ، وكلُّ مكشوفٍ يشتملُ علىٰ أقسامٍ لا تمكنُ الموازنةُ بينَ الجملةِ والجملةِ ، بلْ يجبُ أنْ تُفردَ الآحادُ بالموازنةِ حتَّىٰ يتبيَّنَ الرجحانُ ، والصبرُ والشكرُ أقسامُهُما وشعبُهُما كثيرةٌ ، فلا يتبيَّنُ حكمُهُما في الرجحانِ والنقصانِ معَ الإجمالِ ، فنقولُ :

قدْ ذكرنا أنَّ هـٰذهِ المقاماتِ تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : علومٌ ، وأحوالٌ ، وأعمالٌ ، والشكرُ والصبرُ وسائرُ المقاماتِ هيَ كذلكَ ، وهـٰذهِ الثلاثةُ إذا وُزنَ البعضُ منها بالبعضِ . . لاحَ للناظرينَ إلى الظواهرِ أنَّ العلومَ تُرادُ للأحوالِ ، والأحوالُ تُرادُ للأعمالِ ، والأعمالُ هيَ الأفضلُ ، وأمَّا أربابُ البصائرِ . . فالأمرُ عندَهُمْ بالعكسِ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ الأعمالَ تُرادُ للأحوالِ ، والأحوالُ تُرادُ للعلومِ ، فالأفضلُ العلومُ ، ثمَّ الأحوالُ ، ثمَّ الأعمالُ ؛ لأنَّ كلَّ مرادٍ لغيرِهِ فذلكَ الغيرُ ـ لا محالةَ ـ أفضلُ منهُ .

وأمَّا آحادُ هـٰذهِ الثلاثةِ . . فالأعمالُ قدْ تتساوىٰ وقدْ تتفاوتُ إذا أُضيفَ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وكذا آحادُ الأحوالِ إذا أُضيفَ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وكذا آحادُ المعارفِ .

وأفضلُ المعارفِ علومُ المكاشفةِ ، وهيَ أرفعُ مِنْ علومِ المعاملةِ ، بلْ علومُ المعاملةِ دونَ المعاملةِ ؛ لأنَّها تُرادُ للمعاملةِ ، ففائدتُها إصلاحُ العملِ ، وإنَّما فضلُ العالمِ بالمعاملةِ على العابدِ إذا كانَ علمُهُ ممَّا يعمُّ نفعُهُ ، فيكونُ بالإضافةِ إلىٰ عملٍ خاصٍّ أفضلَ ، وإلا . . فالعلمُ القاصرُ بالعملِ ليسَ بأفضلَ مِنَ العملِ القاصرِ ، فنقولُ :

فائدةُ إصلاحِ العملِ إصلاحُ حالِ القلبِ ، وفائدةُ إصلاحِ حالِ القلبِ أنْ ينكشفَ لهُ جلالُ اللهِ تعالىٰ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فأرفعُ علومِ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، وهيَ الغايةُ التي تُطلبُ لذاتِها ؛ فإنَّ السعادةَ تُنالُ بها ، بلْ هيَ عينُ السعادةِ ، ولكنْ قدْ لا يشعرُ القلبُ في الدنيا بأنَّها عينُ السعادةِ ، وإنَّما يشعرُ بها في الآخرةِ ، فهيَ المعرفةُ الحرَّةُ التي لا قيدَ عليها ، فلا تتقيَّدُ بغيرِها ، وكلُّ ما عداها مِنَ المعارفِ عبيدٌ وخدمٌ بالإضافةِ إليها ، فإنَّها إنَّما تُرادُ لأجلِها ، ولما كانَتْ مرادةً لأجلِها . . كانَ تفاوتُها بحسَبِ نفعِها في الإفضاءِ إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ بعضَ المعارفِ يفضي إلىٰ بعضٍ ؛ إمَّا بواسطةٍ وإمَّا بوسائطَ كثيرةٍ ، فكلَّما كانَتِ الوسائطُ بينَهُ وبينَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ أقلَّ . . فهيَ أفضلُ .

وأمَّا الأحوالُ . . فنعني بها أحوالَ القلبِ في تصفيتِهِ وتطهيرِهِ عنْ شوائبِ الدنيا وشواغلِ الخلقِ ، حتَّىٰ إذا طهرَ وصفا . . اتضحَ لهُ حقيقةُ الحقِّ .

فإذاً ؛ فضائلُ الأحوالِ بقدْرِ تأثيرِها في إصلاحِ القلبِ وتطهيرِهِ وإعدادِهِ لأنْ تحصلَ لهُ علومُ المكاشفةِ ، وكما أنَّ تصقيلَ المرآةِ يحتاجُ إلىٰ أنْ يتقدَّمَ علىٰ تمامِهِ أحوالٌ للمرآةِ ، بعضُها أقربُ إلى الصقالةِ مِنْ بعضٍ . . فكذلكَ أحوالُ القلبِ ، فالحالةُ القريبةُ أو المقرِّبةُ مِنْ صفاءِ القلبِ هيَ أفضلُ ممَّا دونَها لا محالةَ ؛ بسببِ القربِ مِنَ المقصودِ .

وهكذا ترتيبُ الأعمالِ ؛ فإنَّ تأثيرَها في تأكيدِ صفاءِ القلبِ وجلبِ الأحوالِ إليهِ ، وكلُّ عملٍ إمَّا أنْ يجلبَ إليهِ حالةً مانعةً مِنَ المكاشفةِ ،

موجبةً لظلمةِ القلبِ ، جاذبةً إلىٰ زخارفِ الدنيا ، وإمَّا أنْ يجلبَ إليهِ حالةً مهيِّئةً للمكاشفةِ ، موجبةً صفاءَ القلبِ وقطعَ علائقِ الدنيا عنهُ ، واسمُ الأوَّلِ المعصيةُ ، واسمُ الثاني الطاعةُ .

والمعاصي مِنْ حيثُ التأثيرُ في ظلمةِ القلبِ وقساوتِهِ متفاوتةٌ ، وكذا الطاعاتُ في تنويرِ القلبِ وتصفيتِهِ ، فدرجاتُها بحسَبِ درجاتِ تأثيرِها ، وذلكَ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ ، وذلكَ أنَّا بالقولِ المطلقِ ربما نقولُ : الصلاةُ النافلةُ أفضلُ مِنْ كلِّ عبادةٍ نافلةٍ ، وإنَّ الحجَّ أفضلُ مِنَ الصدقةِ ، وإنَّ قيامَ الليلِ أفضلُ مِنْ غيرِهِ .

ولكنَّ التحقيقَ فيهِ : أنَّ الغنيَّ الذي معَهُ مالٌ وقدْ غلبَهُ البخلُ وحبُّ المالِ علىٰ إمساكِهِ . . فإخراجُ درهمٍ لهُ أفضلُ مِنْ قيامِ ليالٍ وصيامِ أيامٍ ؛ لأنَّ الصيامَ يليقُ بمَنْ غلبَتْهُ شهوةُ البطنِ فأرادَ كسرَها ، أوْ منعَهُ الشبعُ عنْ صفاءِ الفكرِ في علومِ المكاشفةِ فأرادَ تصفيةَ القلبِ بالجوعِ ، فأمَّا هـٰذا المدبرُ إذا لمْ تكنْ حالُهُ هـٰذهِ الحالَ . . فليسَ يستضرُّ بشهوةِ بطنِهِ ، ولا هوَ مشتغلٌ بنوعِ فكرٍ يمنعُهُ الشبعُ منهُ ، فاشتغالُهُ بالصومِ خروجٌ منهُ عنْ حالِهِ إلىٰ حالِ غيرِهِ ، وهوَ كالمريضِ الذي يشكو وجعَ البطنِ ، إذا استعملَ دواءَ الصداعِ . . لَمْ ينتفعْ بهِ ، بلْ حقُّهُ أنْ ينظرَ في المهلكِ الذي استولىٰ عليهِ ، والشحُّ المطاعُ مِنْ جملةِ المهلكاتِ ، ولا يزيلُ صيامُ مئةِ سنةٍ وقيامُ ألفِ ليلةٍ منهُ ذرَّةً ، بلْ لا يزيلُهُ إلا إخراجُ المالِ ، فعليهِ أنْ يتصدَّقَ بما معَهُ ، وتفصيلُ هـٰذا ممَّا ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ ، فليُرجعْ إليهِ .

فيهلِكَ . . فلهُ غرضٌ في الترياقِ ، ولهُ غرضٌ في حفْظِ الولدِ ، فواجبٌ عليهِ أنْ يزنَ غرضَهُ في الترياقِ بغرضِهِ في حفْظِ الولدِ ، فإذا كانَ يقدرُ على الصبرِ عنِ الترياقِ ولا يستضرُّ بهِ ضرراً كثيراً ، ولوْ أخذَها لأخذها الصبيُّ ، ويعظمُ ضررُهُ بهلاكِهِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يهربَ عنِ الحيَّةِ إذا رآها ويشيرُ على الصبيِّ بالهربِ ، ويقبِّحُ صورتَها في عينِهِ ، ويعرِّفُهُ أنَّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منهُ أحدٌ ، ولا يحدِّثُهُ أصلاً بما فيها مِنْ نفعِ الترياقِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يغرُّهُ فيقدمُ عليهِ مِنْ غيرِ تمامِ المعرفةِ .

وكذلكَ الغوَّاصُ إذا علمَ أنَّهُ لوْ غاصَ في البحرِ بمرأىً مِنْ ولدِهِ لاتبعَهُ وهلكَ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يحذِّرَ الصبيَّ ساحلَ البحرِ والنهرِ ، فإنْ كانَ لا ينزجرُ الصبيُّ بمجرَّدِ الزجرِ مهما رأىٰ أباهُ يحومُ حولَ الساحلِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يبعُدَ مِنَ الساحلِ معَ الصبيِّ ولا يقربَ منهُ بينَ يديهِ .

فكذلكَ الأمَّةُ في حجرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ كالصبيانِ الأغبياءِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ تتهافتونَ على النارِ تهافتَ الفراشِ وأنا آخذٌ بحُجزِكُمْ »[٢] .

وحظُّهُمُ الأوفرُ في حفْظِ أولادِهِمْ عنِ المهالكِ ، فإنَّهُمْ لمْ يُبعثوا إلا

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ، فكيفَ لا يكونُ الفعلُ والإنفاقُ هوَ الأفضلَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الطبيبَ إذا أثنىٰ على الدواءِ . . لمْ يدلَّ علىٰ أنَّ الدواءَ مرادٌ لعينِهِ ، أوْ علىٰ أنَّهُ أفضلُ مِنَ الصحةِ والشفاءِ الحاصلِ بهِ ، ولكنَّ الأعمالَ علاجٌ لمرضِ القلوبِ ، ومرضُ القلوبِ ممَّا لا يُشعرُ بهِ غالباً ، فهوَ كبرصٍ علىٰ وجهِ مَنْ لا مرآةَ مَعَهُ ، فإنَّهُ لا يشعرُ بهِ ، ولوْ ذكرَ لهُ لا يصدِّقُ بهِ ، فالسبيلُ معَهُ المبالغةُ في الثناءِ علىٰ غسلِ الوجهِ بماءِ الوردِ مثلاً إنْ كانَ ماءُ الورد يزيلُ البرصَ ؛ حتَّىٰ يستحثَّهُ فرطُ الثناءِ على المواظبةِ عليهِ ، فيزولَ مرضُهُ ، فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ أنَّ المقصودَ زوالُ البرصِ عنْ وجهِكَ . . ربما تركَ العلاجَ ، وزعمَ أنَّ وجهَهُ لا عيبَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

ولنضربْ مثلاً أقربَ مِنْ هـٰذا فنقولُ :

مَنْ لهُ ولدٌ علَّمَهُ العلمَ والقرآنَ ، وأرادَ أنْ يثبتَ ذلكَ في حفظِهِ بحيثُ لا يزولُ عنهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ أمرَهُ بالتكرارِ والدراسةِ ليبقىٰ لهُ محفوظاً . . لقالَ : إنَّهُ محفوظٌ ، ولا حاجةَ بي إلىٰ تكرارٍ ودراسةٍ ؛ لأنَّهُ يظنُّ أنَّ ما يحفظُهُ في الحالِ يبقىٰ كذلكَ أبداً ، وكانَ لهُ عبيدٌ ، فأمرَ الولدَ بتعليمِ العبيدِ ، ووعدَهُ علىٰ ذلكَ بالجميلِ ؛ لتتوفَّرَ داعيتُهُ علىٰ كثرةِ التكرارِ بالتعليمِ ، فربما يظنُّ الصبيُّ المسكينُ أنَّ المقصودَ تعليمُ العبيدِ القرآنَ ، وأنَّهُ قدِ استخدمَ لتعليمِهِمْ ، فيشكلُ عليهِ الأمرُ فيقولُ : ما بالي قدِ استخدمتُ

لأجلِ العبيدِ وأنا أجلُّ منهُمْ وأعزُّ عندَ الوالدِ ؟ وأعلمُ أنَّ أبي لوْ أرادَ تعليمَ العبيدِ . . لقدرَ عليهِ دونَ تكليفي ؟ وأعلمُ أنَّهُ لا نقصانَ لأبي بفقدِ هؤلاءِ العبيدِ فضلاً عنْ عدمِ علمِهِمْ بالقرآنِ ؟!

فربما يتكايسُ هـٰذا المسكينُ فيتركُ تعليمَهُمُ اعتماداً على استغناءِ أبيهِ وعلىٰ كرمِهِ في العفوِ عنهُ ، فينسى العلمَ والقرآنَ ، ويبقىٰ مدبراً محروماً مِنْ حيثُ لا يدري .

وقدِ انخدعَ بمثلِ هـٰذا الخيالِ طائفةٌ ، وسلكوا طريقَ الإباحةِ ، وقالوا : إنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ عنْ عبادتِنا وعنْ أنْ يستقرضَ منَّا ، فأيُّ معنىً لقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ ولوْ شاءَ اللهُ إطعامَ المساكينِ . . لأطعمَهُمْ ؟ فلا حاجةَ بنا إلىٰ صرفِ أموالِنا إليهِمْ ، كما قالَ تعالىٰ حكايةً عنِ الكفارِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ ﴾ ، وقالوا أيضاً : ﴿ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، فانظرْ كيفَ كانوا صادقينَ في كلامِهِمْ وكيفَ هلكوا بصدقِهِمْ .

فسبحانَ مَنْ إذا شاءَ . . أهلكَ بالصدقِ ، وإذا شاءَ أسعدَ بالجهلِ ، يضلُّ بهِ كثيراً ويهدي بهِ كثيراً !

فهؤلاءِ لمَّا ظنُّوا أنَّهُمُ استخدموا لأجلِ المساكينِ والفقراءِ ، أوْ لأجلِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ قالوا : لا حظَّ لنا في المساكينِ ، ولا حظَّ للهِ فينا وفي أموالِنا ، سواءٌ أنفقنا أوْ أمسكنا . . هلكوا كما هلكَ الصبيُّ لمَّا ظنَّ أنَّ مقصودَ الوالدِ

استخدامُهُ لأجلِ العبيدِ ، ولمْ يشعرْ بأنَّهُ كانَ المقصودُ منهُ ثباتَ صفةِ العلمِ في نفسِهِ ، وتأكدَهُ في قلبِهِ ، حتَّىٰ يكونَ ذلكَ سببَ سعادتِهِ في الدنيا ، وإنَّما كانَ ذلكَ مِنَ الوالدِ تلطُّفاً بهِ في استجرارِهِ إلىٰ ما فيهِ سعادتُهُ .

فهٰذا المثالُ يبيِّنُ لكَ ضلالَ مَنْ ضلَّ مِنْ هٰذا الطريقِ .

فإذاً ؛ المسكينُ الآخذُ لمالِكَ يستوفي بواسطةِ المالِ خبْثَ البخلِ وحبَّ الدنيا مِنْ باطنِكَ ، فإنَّهُ مهلكٌ لكَ ، فهوَ كالحجَّامِ ، يستخرجُ الدمَ منكَ ليخرجَ بخروجِ الدمِ العلَّةَ المهلكَةِ منْ باطنِكَ ، فالحجَّامُ خادمٌ لكَ ، لا أنتَ خادمٌ للحجَّامِ ، ولا يخرجُ الحجَّامُ عنْ كونِهِ خادماً ؛ بأنْ يكونَ لهُ غرضٌ في أنْ يصنعَ شيئاً بالدمِ ، ولمَّا كانتِ الصدقاتُ مطهرةً للبواطنِ ، ومزكيةً لها عنْ خبائثِ الصفاتِ . امتنعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أخذِها ، وانتهىٰ عنها ؛ كما نهىٰ عنْ كسبِ الحجَّامِ[1] ، وسمَّاها : أوساخَ أموالِ الناسِ ، وشرَّفَ أهلَ بيتِهِ بالصيانةِ عنها[2] .

والمقصودُ : أنَّ الأعمالَ مؤثراتٌ في القلبِ كما سبقَ في ربعِ المهلكاتِ ، والقلبُ بحسَبِ تأثيرِها يستعدُّ لقبولِ الهدايةِ ونورِ المعرفةِ ، فهٰذا هوَ القولُ الكلِّيُّ والقانونُ الأصليُّ الذي ينبغي أنْ يُرجعَ إليهِ في معرفةِ فضائلِ الأعمالِ والأحوالِ والمعارفِ .

(١) رواه النسائي (٧/ ٣١٠) ، وابن ماجه (٢١٦٥) .
(٢) كما روىٰ ذلك مسلم (١٠٧٢) .

فلنرجعِ الآنَ إلىٰ خصوصِ ما نحنُ فيهِ مِنَ الصبرِ والشكرِ ، فنقولُ :

في كلِّ واحدٍ منهُما معرفةٌ وحالٌ وعملٌ ، فلا يجوزُ أنْ تُقابلَ المعرفةُ في أحدِهما بالحالِ أوِ العملِ في الآخرِ ، بلْ يُقابلُ كلُّ واحدٍ منها بنظيرِهِ ، حتَّىٰ يظهرَ التناسبُ ، وبعدَ التناسبِ يظهرُ الفضلُ .

ومهما قُوبلَتْ معرفةُ الشاكرِ بمعرفةِ الصابرِ ربما رجعا إلىٰ معرفةٍ واحدةٍ ؛ إذْ معرفةُ الشاكرِ أنْ يرىٰ نعمةَ العينينِ مثلاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةُ الصابرِ أنْ يرى العمىٰ مِنَ اللهِ ، وهما معرفتانِ متلازمتانِ ومتساويتانِ ، هـٰذا إنِ اعتُبِرَ في البلاءِ والمصائبِ ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الصبرَ قدْ يكونُ على الطاعةِ وعنِ المعصيةِ ، وفيهِما يتَّحدُ الصبرُ والشكرُ ؛ لأنَّ الصبرَ على الطاعةِ هوَ عينُ شكرِ الطاعةِ ؛ لأنَّ الشكرَ يرجعُ إلىٰ صرْفِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ ما هوَ المقصودُ منها بالحكمةِ ، والصبرَ يرجعُ إلىٰ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ ، فالصبرُ والشكرُ فيهِ اسمانِ لمسمّىً واحدٍ باعتبارينِ مختلفينِ ، فثباتُ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ يُسمَّىٰ صبراً بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الهوىٰ ، ويُسمَّىٰ شكراً بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الدينِ ؛ إذْ باعثُ الدينِ إنَّما خُلِقَ لهـٰذهِ الحكمةِ ، وهوَ أنْ يصرعَ بهِ باعثَ الشهوةِ ، فقدْ صرفَهُ إلىٰ مقصودِ الحكمةِ ، فهُما عبارتانِ عنْ معنىً واحدٍ ، فكيفَ يفضلُ الشيءُ علىٰ نفسِهِ ؟!

فإذاً ؛ مجاري الصبرِ ثلاثةٌ : الطاعةُ ، والمعصيةُ ، والبلايا ، وقدْ ظهرَ حكمُهُما في الطاعةِ والمعصيةِ .

وأمَّا البلاءُ.. فهوَ عبارةٌ عنْ فقْدِ نعمةٍ ، والنعمةُ إمَّا أنْ تقعَ ضروريةً ؛ كالعينينِ مثلاً ، وإمَّا أنْ تقعَ في محلِّ الحاجةِ ؛ كالزيادةِ علىٰ قدْرِ الكفايةِ مِنَ المالِ .

أمَّا العينانِ.. فصبرُ الأعمىٰ عنهُما بألا يُظهرَ الشكوىٰ ، ويظهرَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يترخَّصَ بسببِ العمىٰ في بعضِ المعاصي ، وشكرُ البصيرِ عليهِما مِنْ حيثُ العملُ بأمرينِ :

أحدُهُما : ألا يستعينَ بهِما علىٰ معصيةٍ .

والآخرُ : أنْ يستعملَهُما في الطاعةِ .

وكلُّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ لا يخلو عنِ الصبرِ ؛ فإنَّ الأعمىٰ كُفِيَ الصبرَ عنِ الصورِ الجميلةِ لأنَّهُ لا يراها ، والبصيرُ إذا وقعَ بصرُهُ علىٰ جميلٍ فصبرَ.. كانَ شاكراً لنعمةِ العينينِ ، وإنْ أتبعَ النظرَ.. كفرَ نعمةَ العينينِ ، فقدْ دخلَ الصبرُ في شكرِهِ .

وكذا إذا استعانَ بالعينينِ على الطاعةِ.. فلا بدَّ أيضاً فيهِ مِنْ صبرٍ على الطاعةِ ، ثمَّ قدْ يشكرُها بالنظرِ إلىٰ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيكونَ هـٰذا الشكرُ أفضلَ مِنَ الصبرِ .

ولولا هـٰذا.. لكانَتْ رتبةُ شعيبٍ عليهِ السلامُ مثلاً ـ وقدْ كانَ ضريراً ـ من الأنبياءِ فوقَ رتبةِ موسىٰ عليهِما السلامُ وغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ؛ لأنَّهُ صبرَ علىٰ فقْدِ البصرِ ، وموسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يصبرْ مثلاً ، ولكانَ الكمالُ في أنْ يُسلبَ

الإنسانُ الأطرافَ كلَّها ويُترك كلحمٍ علىٰ وَضَمٍ ، وذلكَ محالٌ جداً ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأعضاءِ آلةٌ في الدينِ ، فيفوتُ بفواتِها ذلكَ الركنُ مِنَ الدينِ ، وشكرُها استعمالُها فيما هيَ آلةٌ فيهِ مِنَ الدينِ ، وذلكَ لا يكونُ إلا بصبرٍ .

وأمَّا ما يقعُ في محلِّ الحاجةِ ؛ كالزيادةِ على الكفايةِ مِنَ المالِ . . فإنَّهُ إذا لمْ يُؤتَ إلا قدْرَ الضرورةِ وهوَ محتاجٌ إلىٰ ما وراءَهُ . . ففي الصبرِ عنهُ مجاهدةٌ ، وهوَ جهادُ الفقراءِ ، ووجودُ الزيادةِ نعمةٌ ، وشكرُها أنْ تُصرفَ إلى الخيراتِ ، أوْ ألا تُستعملَ في المعصيةِ ، فإنْ أُضيفَ الصبرُ إلى الشكرِ الذي هوَ صرْفٌ إلى الطاعةِ . . فالشكرُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ تضمَّنَ الصبرَ أيضاً ، وفيهِ فرحٌ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، وفيهِ احتمالُ ألمٍ في صرفهِ إلى الفقراءِ ، وترْكُ صرفهِ إلى التنعُّمِ المباحِ ، وكانَ الحاصلُ يرجعُ إلىٰ أنَّ شيئينِ أفضلُ مِنْ شيءٍ واحدٍ ، وأنَّ الجملةَ أعلىٰ رتبةً مِنَ البعضِ ، وهٰذا فيهِ خللٌ ، إذْ لا تصحُّ الموازنةُ بينَ الجملةِ وبينَ أبعاضِها .

وأمَّا إذا كانَ شكرُهُ بألا يستعينَ بهِ علىٰ معصيةٍ ، بلْ يصرفُهُ إلى التنعُّمِ المباحِ . . فالصبرُ هٰهنا أفضلُ مِنَ الشكرِ ، والفقيرُ الصابرُ أفضلُ مِنَ الغنيِّ الممسكِ مالَهُ الصارفِ لهُ إلى المباحاتِ ، لا مِنَ الغنيِّ الصارفِ مالَهُ إلى الخيراتِ ؛ لأنَّ الفقيرَ قدْ جاهدَ نفسَهُ وكسرَ نهمتَها ، وأحسنَ الرضا علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الحالةُ تستدعي ـ لا محالةَ ـ قوَّةً ، والغنيُّ أتبعَ نهمتَهُ وأطاعَ شهوتَهُ ، ولكنَّهُ اقتصرَ على المباحِ ، والمباحُ فيهِ مندوحةٌ عنِ الحرامِ ، ولكنْ لا بدَّ مِنْ قوَّةٍ في الصبرِ عنِ الحرامِ أيضاً ، إلا أنَّ القوَّةَ التي عنها

يصدرُ صبرُ الفقيرِ أعلىٰ وأتمُّ مِنْ هـٰذهِ القوَّةِ التي عنها يصدرُ الاقتصارُ في التنعُّمِ على المباحِ ، والشرفُ لتلكَ القوَّةِ التي يدلُّ العملُ عليها ، فإنَّ الأعمالَ لا تُرادُ إلا لأحوالِ القلوبِ ، وتلكَ القوَّةُ حالةٌ للقلبِ تختلفُ بحسَبِ قوَّةِ اليقينِ والإيمانِ ، فما دلَّ علىٰ زيادةِ قوَّةٍ في الإيمانِ فهوَ أفضلُ لا محالةَ .

وجميعُ ما وردَ مِنْ تفضيلِ أجرِ الصبرِ علىٰ أجرِ الشكرِ في الآياتِ والأخبارِ إنَّما أُريدَ بهِ هـٰذهِ الرتبةُ على الخصوصِ ؛ لأنَّ السابقَ إلىٰ أفهامِ الناسِ مِنَ النعمةِ الأموالُ والغنىٰ بها ، والسابقَ إلى الأفهامِ مِنَ الشكرِ أنْ يقولَ الإنسانُ : (الحمدُ للهِ) ، ولا يستعينَ بالنعمةِ على المعصيةِ ، لا أنْ يصرفَها إلى الطاعةِ ، فإذاً ؛ الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ ؛ أي : الصبرُ الذي تفهمُهُ العامَّةُ أفضلُ مِنَ الشكرِ الذي تفهمُهُ العامَّةُ .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ على الخصوصِ أشارَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ حيثُ سُئِلَ عنِ الصبرِ والشكرِ أيُّهُما أفضلُ ؟ فقالَ : (ليسَ مدحُ الغنيِّ بالوجودِ ، ولا مدحُ الفقيرِ بالعدمِ ، وإنَّما المدحُ في الاثنينِ قيامُهُما بشروطِ ما عليهِما ، فشرطُ الغنيِّ يصحبُهُ فيما عليهِ أشياءُ تلائمُ صفتَهُ وتمتعُها وتلذِّذُها ، والفقيرُ يصحبُهُ فيما عليهِ أشياءُ تلائمُ صفتَهُ وتقبضُها وتزعجُها ، فإذا كانَ الاثنانِ قائمينِ للهِ عزَّ وجلَّ بشرطِ ما عليهِما . . كانَ الذي آلمَ صفتَهُ وأزعجَها أتمَّ حالاً ممَّنْ متَّعَ صفتَهُ ونعَّمَها)[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠١) .

والأمرُ علىٰ ما قالَهُ ، وهوَ صحيحٌ مِنْ جملةِ أقسامِ الصبرِ والشكرِ في القسمِ الأخيرِ الذي ذكرناهُ ، وهوَ لمْ يردْ سواهُ .

ويُقالُ : كانَ أبو العباسِ بنُ عطاءٍ قدْ خالفَهُ في ذلكَ وقالَ : (الغنيُّ الشاكرُ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ) ، فدعا عليهِ الجنيدُ ، فأصابَهُ ما أصابَهُ مِنَ البلاءِ مِنْ قتلِ أولادِهِ وإتلافِ أموالِهِ وزوالِ عقلِهِ أربعَ عشرةَ سنةً ، فكانَ يقولُ : دعوةُ الجنيدِ أصابَتْني ، ورجعَ إلىٰ تفضيلِ الفقيرِ الصابرِ على الغنيِّ الشاكرِ(١) .

ومهما لاحظتَ المعانيَ التي ذكرناها . . علمتَ أنَّ لكلِّ واحدٍ مِنَ القولينِ وجهاً في بعضِ الأحوالِ ، فربَّ فقيرٍ صابرٍ أفضلُ مِنْ غنيٍّ شاكرٍ كما سبقَ ، وربَّ غنيٍّ شاكرٍ أفضلُ مِنْ فقيرٍ صابرٍ ، وذلكَ هوَ الغنيُّ الذي يرىٰ نفسَهُ مثلَ الفقيرِ ، إذْ لا يمسكُ لنفسِهِ مِنَ المالِ إلا قدْرَ الضرورةِ ، والباقي يصرفُهُ إلى الخيراتِ ، أوْ يمسكُهُ على اعتقادِ أنَّهُ خازنُ المحتاجينَ والمساكينَ ، وإنَّما ينتظرُ حاجةً تسنحُ حتَّىٰ يصرفَ إليها ، ثمَّ إذا صرفَ . . لمْ يصرفْهُ لطلبِ جاهٍ وصيتٍ ، ولا لتقليدِ منَّةٍ ، بلْ أداءً لحقِّ اللهِ تعالىٰ في تفقُّدِ عبادِهِ ، فهـٰذا أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهـٰذا لا يثقلُ على النفسِ ، والفقيرُ يثقلُ عليهِ الفقرُ ؛ لأنَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠١) .

هٰذا يستشعرُ لذَّةَ القدرةِ ، وذاكَ يستشعرُ ألمَ الصبرِ ، فإنْ كانَ متألِّماً بفراقِ المالِ . . فينجبرُ ذلكَ بلذَّتِهِ في القدرةِ على الإنفاقِ .

فاعلمْ : أنَّ الذي نراهُ أنَّ مَنْ ينفقُ مالَهُ عنْ رغبةٍ وطيبِ نفسٍ أكملُ حالاً ممَّنْ ينفقُهُ وهوَ بخيلٌ بهِ ، وإنَّما يقتطعُهُ عنْ نفسِهِ قهراً ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ هٰذا فيما سبقَ مِنْ كتابِ التوبةِ ، فإيلامُ النفسِ ليسَ مطلوباً لعينِهِ ، بلْ لتأديبِها ، وذلكَ يضاهي ضرْبَ كلبِ الصيدِ ، والكلبُ المتأدِّبُ أكملُ مِنَ الكلبِ المحتاجِ إلى الضرْبِ وإنْ كانَ صابراً على الضربِ ، ولذلكَ يحتاجُ إلى الإيلامِ والمجاهدةِ في البدايةِ ، ولا يحتاجُ إليهما في النهايةِ ، بلِ النهايةُ أنْ يصيرَ ما كانَ مؤلماً في حقِّهِ لذيذاً عندَهُ ، كما يصيرُ التعلُّمُ عندَ الصبيِّ العاقلِ لذيذاً وقدْ كانَ مؤلماً لهُ أوَّلاً ، ولكنْ لمَّا كانَ الناسُ كلُّهُمْ إلا الأقلينَ في البدايةِ بلْ قبلَ البدايةِ بكثيرٍ كالصبيانِ . . أطلقَ الجنيدُ القولَ بأنَّ الذي يؤلمُ صفتَهُ أفضلُ ، وهوَ كما قالَ صحيحٌ فيما أرادَهُ مِنْ عمومِ الخلقِ .

فإذاً ؛ إذا كنتَ لا تفصِّلُ الجوابَ ، وتطلقُهُ لإرادةِ الأكثرِ . . فأطلقِ القولَ بأنَّ الصبرَ أفضلُ مِنَ الشكرِ ؛ فإنَّهُ صحيحٌ بالمعنى السابقِ إلى الأفهامِ .

فأمَّا إذا أردتَ التحقيقَ . . ففصِّلْ ، فإنَّ للصبرِ درجاتٍ أقلُّها تركُ الشكوىٰ معَ الكراهةِ ، ووراءَها الرضا ، وهوَ مقامٌ وراءَ الصبرِ ، ووراءَهُ الشكرُ على البلاءِ ، وهوَ وراءَ الرضا ، إذِ الصبرُ معَ التألُّمِ والرضا يمكنُ بما لا ألمَ فيهِ ولا فرحَ ، والشكرُ لا يمكنُ إلا علىٰ محبوبٍ مفروحٍ بهِ .

وكذلكَ للشكرِ درجاتٌ كثيرةٌ ، ذكرنا أقصاها ، ويدخلُ في جملتِها أمورٌ دونَها ، فإنَّ حياءَ العبدِ مِنْ تتابعِ نعَمِ اللهِ عليهِ شكرٌ ، ومعرفتُهُ بتقصيرِهِ عنِ الشكرِ شكرٌ ، والاعتذارُ مِنْ قلَّةِ الشكرِ شكرٌ ، والمعرفةُ بعظيمِ حلْمِ اللهِ وكنفِ سترِهِ شكرٌ ، والاعترافُ بأنَّ النعَمَ ابتداءً مِنَ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ استحقاقٍ شكرٌ ، والعلمُ بأنَّ الشكرَ أيضاً نعمةٌ مِنْ نعمِ اللهِ وموهبةٌ منهُ شكرٌ ، وحسنُ التواضعِ للنعَمِ والتذلُّلُ فيها شكرٌ ، وشكرُ الوسائطِ شكرٌ ؛ إذْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ لمْ يشكرِ الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ »[1] ، وقدْ ذكرنا حقيقةَ ذلكَ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وقلَّةُ الاعتراضِ وحسنُ الأدبِ بينَ يدي المنعِمِ شكرٌ ، وتلقِّي النعمِ بحسْنِ القبولِ واستعظامُ صغيرِها شكرٌ .

فما يندرجُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ تحتَ اسمِ الشكرِ والصبرِ لا تنحصرُ آحادُها ، وهيَ درجاتٌ مختلفةٌ ، فكيفَ يمكنُ إجمالُ القولِ بتفضيلِ أحدِهما على الآخرِ إلا علىٰ سبيلِ إرادةِ الخصوصِ باللفظِ العامِّ كما وردَ في الأخبارِ والآثارِ ؟!

وقدْ رُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : رأيتُ في بعضِ الأسفارِ شيخاً كبيراً قدْ طعنَ في السنِّ ، فسألتُهُ عنْ حالِهِ ، فقالَ : إنِّي كنتُ في ابتداءِ عمري أهوى ابنةَ عمٍّ لي ، وهيَ كذلكَ كانَتْ تهواني ، فاتفقَ أنَّها زُوِّجَتْ منِّي ، فليلةَ زفافِها قلتُ : تعالَيْ حتَّىٰ نحييَ هـٰذهِ الليلةَ شكراً للهِ تعالىٰ علىٰ ما جمعَنا ،

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

فصلَّينا تلكَ الليلةَ ، ولمْ يتفرَّغْ أحدُنا إلىٰ صاحبهِ ، فلمَّا كانَتِ الليلةُ الثانيةُ . . قلنا مثلَ ذلكَ ، فصلينا طولَ الليلِ ، فمنذُ سبعينَ أوْ ثمانينَ سنةً نحنُ علىٰ تلكَ الحالةِ كلَّ ليلةٍ ، أليسَ كذلكَ يا فلانةُ ؟ قالتِ العجوزُ : هوَ كما يقولُ الشيخُ (١) .

فانظرْ إليهما لوْ صبرا علىٰ بلاءِ الفرقةِ أنْ لوْ لمْ يجمعِ اللهُ بينَهُما ، وانسبْ صبرَ الفرقةِ إلىٰ شكرِ الوصالِ علىٰ هـٰذا الوجهِ . . فلا يخفىٰ عليكَ أنَّ هـٰذا الشكرَ أفضلُ .

فإذاً ؛ لا وقوفَ علىٰ حقائقِ المفضلاتِ إلا بتفصيلٍ كما سبقَ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تمّ كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثّاني من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله وحده ، وصلّى الله على نبيّنا محمّدٍ وآله أجمعين وسلّم

يتلوه كتاب الرّجاء والخوف

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٥) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ١٦٣) : (وفائدة ذكر العجوز والشيخ الإعلام بأنهما داما على الاشتغال بالله من حالة الصبا إلىٰ تلك الحالة) .

كتاب

الرجاء والخوف

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الرّجاء والخوف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المرجوِّ لطفُهُ وثوابُهُ ، المَخُوفِ مكرُهُ وعقابُهُ ، الذي عَمَرَ قلوبَ أوليائِهِ برَوْحِ رجائِهِ ، حتَّىٰ ساقَهُمْ بلطائفِ آلائِهِ إلى النزولِ بفِنائِهِ ، والعدولِ عنْ دارِ بلائِهِ ، التي هيَ مستقرُّ أعدائِهِ ، وصرفَ بسياطِ التخويفِ وزجرِهِ العنيفِ وجوهَ المعرضينَ عنْ حضرتِهِ إلىٰ دارِ ثوابِهِ وكرامتِهِ ، وصدَّهُمْ عنِ التعرُّضِ لأئمَّتِهِ ، والتهدُّفِ لسخطِهِ ونقمتِهِ ، قوداً لأصنافِ الخلقِ بسلاسلِ القهرِ والعنفِ وأزمَّةِ الرفْقِ واللطفِ إلىٰ جنَّتِهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ وخيرِ خليقتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وعترتِهِ .

أما بعد :

فإنَّ الرجاءَ والخوفَ جناحانِ بهما يطيرُ المقرَّبونَ إلىٰ كلِّ مقامٍ محمودٍ ، ومطيَّتانِ بهما يُقطعُ مِنْ طرقِ الآخرةِ كلُّ عقبةٍ كؤودٍ ، فلا يقودُ إلىٰ قرْبِ الرحمٰنِ وروحِ الجنانِ معَ كونِهِ بعيدَ الأرجاءِ ، ثقيلَ الأعباءِ ، محفوفاً بمكارهِ القلوبِ ومشاقِّ الجوارحِ والأعضاءِ . . إلا أزمَّةُ الرجاءِ ، ولا يصدُّ عنْ نارِ الجحيمِ والعذابِ المقيمِ معَ كونِهِ محفوفاً بلطائفِ الشهواتِ وعجائبِ

اللذَّاتِ. . إلا سياطُ التخويفِ وسطواتُ التعنيفِ .

فلا بدَّ إذاً مِنْ بيانِ حقيقتِهِما وفضيلتِهِما ، وسبيلِ التوصُّلِ إلى الجمعِ بينَهُما معَ تضادِّهِما وتعاندِهِما ، ونحنُ نجمعُ ذكرَهُما في كتابٍ واحدٍ مشتملٍ علىٰ شطرينِ :

الشطرُ الأوَّلُ : في الرجاءِ .

والشطرُ الثاني : في الخوفِ .

* * *

الشَّطرُ الأوّلُ
في الرّجاء[1]

أمَّا الشطرُ الأوَّلُ . . فيشتملُ علىٰ بيانِ حقيقةِ الرجاءِ ، وبيانِ فضيلةِ الرجاءِ ، وبيانِ دواءِ الرجاءِ ، والطريقِ الذي يُجتلبُ بهِ الرجاءُ .

بيان حقيقة الرّجاء

اعلمْ : أنَّ الرجاءَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وأحوالِ الطالبينَ ، وإنَّما يُسمَّى الوصفُ مقاماً إذا ثبتَ وأقامَ ، وإنَّما يُسمَّىٰ حالاً إذا كانَ عارضاً سريعَ الزوالِ ، وكما أنَّ الصفرةَ تنقسمُ إلىٰ ثابتةٍ ؛ كصفرةِ الذهبِ ، وإلىٰ سريعةِ الزوالِ ؛ كصفرةِ الوَجَلِ ، وإلىٰ ما هوَ بينَهُما ؛ كصفرةِ المريضِ . . فكذلكَ صفاتُ القلبِ تنقسمُ هـٰذهِ الأقسامَ ، فالذي هوَ غيرُ ثابتٍ يُسمَّىٰ حالاً ؛ لأنَّهُ يحولُ على القرْبِ ، وهـٰذا جارٍ في كلِّ وصفٍ مِنْ أوصافِ القلبِ[2] .

وغرضُنا الآنَ حقيقةُ الرجاءِ ، فالرجاءُ أيضاً يتمُّ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ سببٌ يثمرُ الحالَ ، والحالُ يقتضي العملَ ، وكأنَّ الرجاءَ اسمٌ للحالِ مِنْ جملةِ الثلاثةِ .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .
(٢) فما يعرف وصف من أوصافه إلا وفيه حال ومقام . « إتحاف » (٩/ ١٦٥) .

وبيانُهُ : أنَّ كلَّ ما يلاقيكَ مِنْ مكروهٍ ومحبوبٍ فينقسمُ إلىٰ موجودٍ في الحالِ ، وإلىٰ موجودٍ فيما مضىٰ ، وإلىٰ منتظرٍ في الاستقبالِ ، فإذا خطرَ ببالِكَ موجودٌ فيما مضىٰ . . سُمِّيَ ذكراً وتذكُّراً ، وإنْ كانَ ما خطرَ بقلبِكَ موجوداً في الحالِ . . سُمِّيَ وجداً وذوقاً وإدراكاً ، وإنَّما سُمِّيَ وجداً لأنَّها حالةٌ تجدُها مِنْ نفسِكَ[1] ، وإنْ كانَ قدْ خطرَ ببالِكَ وجودُ شيءٍ في الاستقبالِ ، وغلبَ ذلكَ علىٰ قلبِكَ . . سُمِّيَ انتظاراً وتوقُّعاً ؛ فإنْ كانَ المنتظرُ مكروهاً . . حصلَ منهُ ألمٌ في القلبِ يُسمَّىٰ خوفاً وإشفاقاً ، وإنْ كانَ محبوباً . . حصلَ مِنِ انتظارِهِ وتعلُّقِ القلبِ بهِ وإخطارِ وجودِهِ بالبالِ لذَّةٌ في القلبِ وارتياحٌ يُسمَّىٰ ذلكَ الارتياحُ رجاءً ، **فالرجاءُ** : هوَ ارتياحُ القلبِ لانتظارِ ما هوَ محبوبٌ عندَهُ .

ولكنْ ذلكَ المحبوبُ المتوقَّعُ لا بدَّ أنْ يكونَ لهُ سببٌ ، فإنْ كانَ انتظارُهُ لأجلِ حصولِ أكثرِ أسبابِهِ . . فاسمُ الرجاءِ عليهِ صادقٌ ، وإنْ كانَ ذلكَ انتظاراً معَ انخرامِ أسبابِهِ واضطرابِها . . فاسمُ الغرورِ والحمقِ عليهِ أصدقُ مِنِ اسمِ الرجاءِ ، وإنْ لمْ تكنِ الأسبابُ معلومةَ الوجودِ ولا معلومةَ الانتفاءِ . . فاسمُ التمنِّي أصدقُ على انتظارِهِ ؛ لأنَّهُ انتظارٌ مِنْ غيرِ سببٍ .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فلا يُطلقُ اسمُ الرجاءِ والخوفِ إلا علىٰ ما يُتردَّدُ فيهِ ، أمَّا ما يُقطعُ بهِ . . فلا ؛ إذْ لا يُقالُ : أرجو طلوعَ الشمسِ وقتَ الطلوعِ ،

---

(١) وإنما سمي ذوقاً على التشبيه بالذوق الذي هو تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم ، وإنما سمي إدراكاً لأنه أحاط عليه علماً بكماله . « إتحاف » (٩/ ١٦٥) .

وأخافُ غروبَها وقتَ الغروبِ ؛ لأنَّ ذلكَ مقطوعٌ بهِ ، نعمْ ، يُقالُ : أرجو نزولَ المطرِ وأخافُ انقطاعَهُ .

وقدْ علمَ أربابُ القلوبِ أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، والقلبُ كالأرضِ ، والإيمانُ كالبذْرِ فيهِ ، والطاعاتُ جاريةٌ مجرىٰ تقليبِ الأرضِ وتطهيرِها ، ومجرىٰ حفرِ الأنهارِ وسياقةِ الماءِ إليها ، والقلبُ المستهترُ بالدنيا المستغرقُ بها كالأرضِ السَّبخةِ التي لا ينمو فيها البذْرُ ، ويومُ القيامةِ يومُ الحصادِ ، ولا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا ينمو زرعٌ إلا مِنْ بذْرِ الإيمانِ ، وقلَّما ينفعُ إيمانٌ معَ خبثِ القلبِ وسوءِ أخلاقِهِ ، كما لا ينمو بذرٌ في أرضٍ سَبخةٍ ، فينبغي أنْ يُقاسَ رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاءِ صاحبِ الزرعِ .

فكلُّ مَنْ طلبَ أرضاً طيبةً ، وألقىٰ فيها بذْراً جيداً غيرَ عفنٍ ولا مسوَّسٍ ، ثمَّ أمدَّهُ بما يحتاجُ إليهِ وهوَ سوْقُ الماءِ إليهِ في أوقاتِهِ ، ثمَّ نقَّى الأرضَ عنِ الشوكِ والحشيشِ وكلِّ ما يمنعُ نباتَ البذْرِ أوْ يفسدُهُ ، ثمَّ جلسَ منتظراً مِنْ فضْلِ اللهِ دفعَ الصواعقِ والآفاتِ المفسدةِ إلىٰ أنْ يتمَّ الزرعُ ويبلغَ غايتَهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ رجاءً .

وإنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ صلبةٍ سبخةٍ مرتفعةٍ لا ينصبُّ إليها الماءُ ، ولمْ يشتغلْ بتعهُّدِ البذْرِ أصلاً ، ثمَّ انتظرَ حصادَ الزرعِ منهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ حمقاً وغروراً ، لا رجاءً .

وإنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ طيِّبةٍ ، لكنْ لا ماءَ لها ، وأخذَ ينتظرُ مياهَ الأمطارِ حيثُ لا تغلبُ الأمطارُ ولا تمتنعُ أيضاً . . سُمِّيَ انتظارُهُ تمنِّياً ، لا رجاءً .

فإذاً ؛ اسمُ الرجاءِ إنَّما يصدقُ على انتظارِ محبوبٍ تمهَّدَتْ جميعُ أسبابِهِ الداخلةِ تحتَ اختيارِ العبدِ ، ولمْ يبقَ إلا ما ليسَ يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ، وهوَ فضْلُ اللهِ تعالىٰ بصرْفِ القواطعِ والمفسداتِ .

فالعبدُ إذا بثَّ بذرَ الإيمانِ ، وسقاهُ بماءِ الطاعاتِ ، وطهَّرَ القلبَ عنْ شوكِ الأخلاقِ الرديئةِ ، وانتظرَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ تثبيتَهُ علىٰ ذلكَ إلى الموتِ ، وحسنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلى المغفرةِ . . كانَ انتظارُهُ رجاءً حقيقياً ، محموداً في نفسِهِ ، باعثاً لهُ على المواظبةِ والقيامِ بمقتضى أسبابِ الإيمانِ في إتمامِ أسبابِ المغفرةِ إلى الموتِ .

وإنْ قطعَ عنْ بذْرِ الإيمانِ تعهُّدَهُ بماءِ الطاعاتِ ، أوْ تركَ القلبَ مشحوناً برذائلِ الأخلاقِ ، وانهمكَ في طلبِ لذَّاتِ الدنيا ، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ . . فانتظارُهُ حمقٌ وغرورٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ .

وذمَّ اللهُ تعالىٰ صاحبَ البستانِ إذْ دخلَ جنَّتَهُ وقالَ : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1] .

فإذاً ؛ العبدُ المجتهدُ في الطاعاتِ ، المجتنبُ للمعاصي . . حقيقٌ بأنْ ينتظرَ مِنْ فضْلِ اللهِ تمامَ النعمةِ ، وما تمامُ النعمةِ إلا بدخولِ الجنَّةِ ، وأمَّا العاصي ؛ فإذا تابَ وتداركَ جميعَ ما فرطَ منهُ مِنْ تقصيرٍ . . فحقيقٌ بأنْ يرجوَ قبولَ التوبةِ ، وأمَّا قبلَ التوبةِ إذا كانَ كارهاً للمعصيةِ ، تسوءُهُ السيئةُ وتسرُّهُ الحسنةُ ، وهوَ يذمُّ نفسَهُ ويلومُها ، ويشتهي التوبةَ ويشتاقُ إليها . . فحقيقٌ بأنْ يرجوَ مِنَ اللهِ التوفيقَ للتوبةِ ؛ لأنَّ كراهتَهُ للمعصيةِ وحرصَهُ على التوبةِ يجري مجرى السببِ الذي قدْ يفضي إلى التوبةِ ، وإنَّما الرجاءُ بعدَ تأكُّدِ الأسبابِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ، معناهُ : أولئكَ يستحقُّونَ أنْ يرجوا رحمةَ اللهِ ، وما أرادَ بهِ تخصيصَ وجودِ الرجاءِ ؛ لأنَّ غيرَهُمْ أيضاً قدْ يرجو ، ولكنْ خصَّصَ بهِمُ استحقاقَ الرجاءِ .

فأمَّا مَنْ ينهمكُ فيما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، ولا يذمُّ نفسَهُ عليهِ ، ولا يعزمُ على التوبةِ والرجوعِ . . فرجاؤُهُ المغفرةَ حمقٌ ؛ كرجاءِ مَنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ سبخةٍ وعزمَ علىٰ ألا يتعهدَهُ بسقيٍ ولا تنقيةٍ .

قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مِنْ أعظمِ الاغترارِ عندي : التمادي في الذنوبِ

---

(١) وروى الطبري في « تفسيره » (٩/١٥/٣٠٢) عن قتادة في وصف صاحب البستان : (كفور لنعم ربه ، مكذب بلقائه ، متمنٍّ على الله) .

معَ رجاءِ العفوِ مِنْ غيرِ ندامةٍ ، وتوقُّعُ القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بغيرِ طاعةٍ ، وانتظارُ زرعِ الجنةِ ببذْرِ النارِ ، وطلبُ دارِ المطيعينَ بالمعاصي ، وانتظارُ الجزاءِ بغيرِ عملٍ ، والتمنِّي على اللهِ عزَّ وجلَّ معَ الإفراطِ) .

تَرْجو ٱلنَّجاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسالِكَها إِنَّ ٱلسَّفينَةَ لا تَجْري عَلى ٱلْيَبَسِ[١]

فإذا عرفتَ حقيقةَ الرجاءِ ومَظِنَّتَهُ . . فقدْ علمتَ أنَّها حالةٌ أثمرَها العلمُ بجريانِ أكثرِ الأسبابِ ، وهـٰذهِ الحالةُ تثمرُ الجهدَ للقيامِ ببقيةِ الأسبابِ علىٰ حسبِ الإمكانِ ، فإنَّ مَنْ حَسُنَ بذرُهُ ، وطابَتْ أرضُهُ ، وغزرَ ماؤُهُ . . صدقَ رجاؤُهُ ، فلا يزالُ يحملُهُ صدقُ الرجاءِ علىٰ تفقُّدِ الأرضِ وتعهُّدِها ، وتنحيةِ كلِّ حشيشٍ ينبتُ فيها ، فلا يفترُ عنْ تعهُّدِها أصلاً إلىٰ وقتِ الحصادِ ، وهـٰذا لأنَّ الرجاءَ يضادُّهُ اليأسُ ، واليأسُ يمنعُ مِنَ التعهُّدِ ، فمَنْ عرفَ أنَّ الأرضَ سبخةٌ ، وأنَّ الماءَ مُعْوِزٌ[٢] ، وأنَّ البذْرَ لا ينبتُ . . فيتركُ ـ لا محالةَ ـ تفقُّدَ الأرضِ والتعبَ في تعهُّدِها .

والرجاءُ محمودٌ لأنَّهُ باعثٌ ، واليأسُ مذمومٌ ـ وهوَ ضدُّهُ ـ لأنَّهُ صارفٌ عنِ العملِ ، والخوفُ ليسَ بضدٍّ للرجاءِ ، بلْ هوَ رفيقٌ لهُ كما سيأتي بيانُهُ ، بلْ هوَ باعثٌ آخرُ بطريقِ الرهبةِ ، كما أنَّ الرجاءَ باعثٌ بطريقِ الرغبةِ .

فإذاً ؛ حالُ الرجاءِ يورثُ طولَ المجاهدةِ بالأعمالِ ، والمواظبةَ على الطاعاتِ كيفما تقلَّبَتِ الأحوالُ ، ومِنْ آثارِهِ التلذُّذُ بدوامِ الإقبالِ على اللهِ

---

(١) البيت من البحر البسيط ، وهو لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٩٤) .
(٢) معوز : قليل الوجود .

تعالىٰ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ، والتلطُّفُ في التملُّقِ لهُ ، فإنَّ هـٰذهِ الأحوالَ لا بدَّ وأنْ تظهرَ علىٰ كلِّ مَنْ يرجو مَلِكاً مِنَ الملوكِ أوْ شخصاً مِنَ الأشخاصِ ، فكيفَ لا يظهرُ ذلكَ في حقِّ اللهِ تعالى ؟!

فإنْ كانَ ذلكَ لا يظهرُ . . فليستدلَّ بهِ على الحرمانِ عنْ مقامِ الرجاءِ ، والنزولِ في حضيضِ الغرورِ والتمنِّي .

فهـٰذا هوَ البيانُ لحالِ الرجاءِ ، ولما أثمرَهُ مِنَ العلمِ ، ولما استثمرَ منهُ مِنَ العملِ .

ويدلُّ علىٰ إثمارِهِ لهـٰذهِ الأعمالِ حديثُ زيدِ الخيلِ ؛ إذْ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جئتُ لأسألَكَ عنْ علامةِ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، وعلامتِهِ فيمَنْ لا يريدُ ، فقالَ : « كيفَ أصبحتَ ؟ » قالَ : أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهلَهُ ، وإذا قدرتُ علىٰ شيءٍ منهُ . . سارعتُ إليهِ وأيقنتُ بثوابِهِ ، وإذا فاتَني شيءٌ منهُ . . حزنتُ عليهِ وحننتُ إليهِ ، فقالَ : « هـٰذهِ علامةُ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، ولوْ أرادَكَ بالأخرىٰ . . هيَّأَكَ لها ، ثمَّ لا يبالي في أيِّ أوديتِها هلكتَ »(١) ، فقدْ ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علامةَ مَنْ أُريدَ بهِ الخيرُ ، فمَنِ ارتجىٰ أنْ يكونَ مراداً بالخيرِ مِنْ غيرِ هـٰذهِ العلاماتِ . . فهوَ مغرورٌ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٠٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سماه زيد الخير وغيَّر له اسمه .

بيان فضيلة الرّجاء والتّرغيب فيه

اعلمْ : أنَّ العملَ على الرجاءِ أعلىٰ منهُ على الخوفِ ؛ لأنَّ أقربَ العبادِ إلى اللهِ تعالىٰ أحبُّهُمْ لهُ ، والحبُّ يغلبُ بالرجاءِ .

واعتبرْ ذلكَ بمَلِكينِ ؛ يُخدمُ أحدُهُما خوفاً مِنْ عقابِهِ ، والآخرُ رجاءً لثوابِهِ .

ولذلكَ وردَ في الرجاءِ وحسنِ الظنِّ رغائبُ ، لا سيما في وقتِ الموتِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ، فحرَّمَ أصلَ اليأسِ .

وفي أخبارِ يعقوبَ عليهِ السلامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : أتدري لِمَ فرَّقتُ بينَكَ وبينَ يوسفَ ؟ لقولِكَ : أخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمُ عنهُ غافلونَ ، لِمَ خفتَ الذئبَ ولمْ ترجُني ؟ ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلةِ إخوتِهِ ولمْ تنظرْ إلىٰ حفظي لهُ ؟[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهوَ يحسنُ الظنَّ باللهِ تعالىٰ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٥) .
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ رجلٍ وهوَ في النزعِ ، فقالَ : « كيفَ تجدُكَ ؟ » فقالَ : أجدُني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمةَ ربِّي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في هٰذا الموطنِ إلا أعطاهُ اللهُ ما رجا ، وأمَّنَهُ ممَّا يخافُ »(١) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ أخرجَهُ الخوفُ إلى القنوطِ لكثرةِ ذنوبِهِ : (يا هٰذا ؛ يأسُكَ مِنْ رحمةِ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ)(٢) .

وقالَ سفيانُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قدَّرَهُ عليهِ ورجا غفرانَهُ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ ، قالَ : لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عيَّرَ قوماً فقالَ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ : ما منعَكَ إذْ رأيتَ المنكرَ أنْ تنكرَهُ ؟ فإنْ لقَّنَهُ اللهُ حجَّتَهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ رجوتُكَ وخفتُ الناسَ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ : قدْ غفرتُهُ لكَ »(٤) .

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٨٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٤) بنحوه ، وهو بلفظه هنا في « القوت » (١/ ٢١٥) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢١٧) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠١٧) .

وفي الخبرِ الصحيحِ : « أنَّ رجلاً كانَ يداينُ الناسَ فيسامحُ الغنيَّ ، ويتجاوزُ عنِ المعسرِ ، فلقي اللهَ ولمْ يعملْ خيراً قطُّ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ أحقُّ بذلكَ منّا ؟ فعفا عنهُ لحسنِ ظنِّهِ ورجائِهِ أنَّهُ يعفو عنهُ معَ إفلاسِهِ عنِ الطاعاتِ »[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ .

ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً ، ولخرجتُمْ إلى الصُّعُداتِ تلدمونَ صدورَكُمْ ، وتجأرونَ إلىٰ ربِّكُمْ » ، فهبطَ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ : إنَّ ربَّكَ يقولُ لكَ : لِمَ تقنِّطُ عبادي ؟ فخرجَ عليهِمْ فرجَّاهُمْ وشوَّقَهُمْ[2] .

وفي الخبرِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : أحبَّني ، وأحبَّ مَنْ يحبُّني ، وحبِّبْني إلىٰ خلقي ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ أحبِّبُكَ إلىٰ خلقِكَ ؟ قالَ : اذكرْني بالحسنِ الجميلِ ، واذكرْ آلائي وإحساني ، وذكِّرْهُمْ

---

(١) رواه مسلم (١٥٦٠) ولفظه : « تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا ، قالوا : تذكَّرْ ، قال : كنت أداين الناس ، فآمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوَّزوا عن الموسر ، قال : قال الله عز وجل : تجوَّزوا عنه » ، وهو مختصراً عند البخاري (٢٣٩١) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٠) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (١١٣) ، وليس فيه ذكر الصعدات ، وهي عند أحمد في « المسند » (٥/ ١٧٣) .

ذلكَ ، فإنَّهُمْ لا يعرفونَ منِّي إلا الجميلَ(١) .

ورُئِيَ أبانُ بنُ أبي عيَّاشٍ في النومِ وكانَ يكثرُ ذكرَ أبوابِ الرجاءِ ، فقالَ : أوقفَني اللهُ تعالىٰ بينَ يديهِ ، فقالَ : ما الذي حملَكَ علىٰ ذلكَ ؟ فقلتُ : أردتُ أنْ أحبِّبَكَ إلىٰ خلقِكَ ، فقالَ : قدْ غفرتُ لكَ(٢) .

ورُئِيَ يحيىٰ بنُ أكثمَ في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : أوقفَني بينَ يديهِ وقالَ : يا شيخَ السوءِ ؛ فعلتَ وفعلتَ ، قالَ : فأخذَني مِنَ الرعبِ ما يعلمُ اللهُ ، ثمَّ قلتُ : يا ربِّ ؛ ما هٰكذا حُدثتُ عنكَ ، فقالَ : وما حدثتَ عنِّي ؟ فقلتُ : حدثنَا عبدُ الرزاقِ ، عنْ معمرٍ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ أنسٍ ، عنْ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ عنْ جبريلَ عليهِ السلامُ : أنَّكَ قلتَ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ ، وكنتُ أظنُّ بكَ ألا تعذِّبَني ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : صدقَ جبريلُ ، وصدقَ نبيِّي ، وصدقَ أنسٌ ، وصدقَ الزهريُّ ، وصدقَ معمرٌ ، وصدقَ عبدُ الرزاقِ ، وصدقتَ ، قالَ : فأُلبستُ ومشىٰ بينَ يديَّ الولدانُ إلى الجنَّةِ ، فقلتُ : يا لها مِنْ فرحةٍ(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، وقد رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً البيهقيُّ في « الشعب » (٧٢٦٢) بنحوه ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٥) عن عبد الله بن الحارث من كلامه .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٠٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/ ٩١) .

وفي الخبرِ : أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ كانَ يقنِّطُ الناسَ ويشدِّدُ عليهِمْ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : اليومَ أؤيسُكَ مِنْ رحمتي كما كنتَ تقنِّطُ عبادي منها[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً يدخلُ النارَ ، فيمكثُ فيها ألفَ سنةٍ ينادي : يا حنَّانُ ، يا منَّانُ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ لجبريلَ : اذهبْ فأتني بعبدِي ، قالَ : فيجيءُ بهِ ، فيوقفُهُ علىٰ ربِّهِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كيفَ وجدتَ مكانَكَ ؟ فيقولُ : شرَّ مكانٍ ، قالَ : فيقولُ : ردُّوهُ إلىٰ مكانِهِ ، قالَ : فيمشي ويلتفتُ إلىٰ ورائِهِ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إلىٰ أيِّ شيءٍ تلتفتُ ؟ فيقولُ : لقدْ رجوتُ ألا تعيدَني إليها بعدَ إذْ أخرجتَني منها ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : اذهبوا بهِ إلى الجنةِ »[2] ، فدلَّ هـٰذا علىٰ أنَّ رجاءَهُ كانَ سببَ نجاتِهِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٨٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٢٢) عن زيد بن أسلم .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٠) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلمْ : أنَّ هٰذا الدواءَ يحتاجُ إليهِ أحدُ رجلينِ : إمَّا رجلٌ غلبَ عليهِ اليأسُ فتركَ العبادةَ ، وإمَّا رجلٌ غلبَ عليهِ الخوفُ فأسرفَ في المواظبةِ على العبادةِ حتَّىٰ أضرَّ بنفسِهِ وأهلِهِ ، وهٰذانِ رجلانِ مائلانِ عنِ الاعتدالِ إلىٰ طرفَيِ الإفراطِ والتفريطِ ، فيحتاجانِ إلىٰ علاجٍ يردُّهُما إلى الاعتدالِ .

فأمَّا العاصي المغرورُ المتمنِّي على اللهِ معَ الإعراضِ عنِ العبادةِ واقتحامِ المعاصي . . فأدويةُ الرجاءِ تنقلبُ سموماً في حقِّهِ مهلكةً ، وتنزلُ منزلةَ العسلِ الذي هوَ شفاءٌ لمَنْ غلبَ عليهِ البردُ ، وهوَ سمٌّ مهلكٌ لمَنْ غلبَ عليهِ الحرارةُ ، بلِ المغرورُ لا يُستعملُ في حقِّهِ إلا أدويةُ الخوفِ ، والأسبابُ المهيِّجةُ لهُ .

فلهٰذا يجبُ أنْ يكونَ واعظُ الخلْقِ متلطِّفاً ، ناظراً إلىٰ مواقعِ العللِ ، معالجاً لكلِّ علَّةٍ بما يضادُّها ، لا بما يزيدُ فيها ، فإنَّ المطلوبَ هوَ العدلُ والقصْدُ في الصفاتِ والأخلاقِ كلِّها ، وخيرُ الأمورِ أوساطُها ، فإذا جاوزَ الوسطَ إلىٰ أحدِ الطرفينِ . . عُولجَ بما يردُّهُ إلى الوسطِ ، لا بما يزيدُ في ميلِهِ عنِ الوسطِ .

وهٰذا الزمانُ زمانٌ لا ينبغي أنْ يُستعملَ فيهِ معَ الخلق أسبابُ الرجاءِ ، بلِ المبالغةُ في التخويفِ أيضاً تكادُ ألا تردَّهُمْ إلىٰ جادَّةِ الحقِّ وسننِ

الصوابِ ، فأمَّا ذكرُ أسبابِ الرجاءِ . . فيهلكُهُمْ ويرديهِمْ بالكلِّيَّةِ ، ولكنَّها لمَّا كانَتْ أخفَّ على القلوبِ ، وألذَّ عندَ النفوسِ ، ولمْ يكنْ غرضُ الوعَّاظِ إلا استمالةَ القلوبِ ، واستنطاقَ الخلقِ بالثناءِ كيفما كانوا . . مالوا إلى الرجاءِ ، حتَّى ازدادَ الفسادُ فساداً ، وازدادَ المنهمكونَ في طغيانِهِمْ تمادياً .

قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إنَّما العالمُ الذي لا يقنِّطُ الناسَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يؤمِّنُهُمْ مِنْ مكرِ اللهِ)(١) .

ونحنُ نذكرُ أسبابَ الرجاءِ لتُستعملَ في حقِّ الآيسِ ، أوْ فيمَنْ غلبَ عليهِ الخوفُ ؛ اقتداءً بكتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُما مشتملانِ على الخوفِ والرجاءِ جميعاً ؛ لأنَّهُما جامعانِ لأسبابِ الشفاءِ في حقِّ أصنافِ المرضىٰ ، ليستعملَهُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ بحسَبِ الحاجةِ استعمالَ الطبيبِ الحاذقِ ، لا استعمالَ الأخرقِ الذي يظنُّ أنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الأدويةِ صالحٌ لكلِّ مريضٍ كيفما كانَ !

❁ ❁ ❁

وحالُ الرجاءِ يغلبُ بشيئينِ :

أحدُهُما : الاعتبارُ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٧) بلفظ : (ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فهم فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها) .

والآخرُ : استقراءُ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

أمّا الاعتبارُ[1] : فهوَ أنْ يتأمَّلَ جميعَ ما ذكرناهُ في أصنافِ النعمِ مِنْ كتابِ الشكرِ ، حتَّىٰ إذا علمَ لطائفَ نعَمِ اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ في الدنيا ، وعجائبَ حكمِهِ التي راعاها في فطرةِ الإنسانِ ، حتَّىٰ أعدَّ لهُ في الدنيا كلَّ ما هوَ ضروريٌّ لهُ في دوامِ الوجودِ ؛ كآلاتِ الغذاءِ ، وما هو محتاجٌ إليهِ كالأصابعِ والأظفارِ ، وما هوَ زينةٌ لهُ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ ، واختلافِ ألوانِ العينينِ ، وحمرةِ الشفتينِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا كانَ لا ينثلمُ بفقدِهِ غرضٌ مقصودٌ ، وإنَّما كانَ يفوتُ بهِ مزيَّةُ جمالٍ ، فالعنايةُ الإلـٰهيةُ إذاً لَمْ تقصرْ عنْ عبادِهِ في أمثالِ هـٰذهِ الدقائقِ ، حتَّىٰ لمْ يرضَ لعبادِهِ أنْ تفوتَهُمُ المزايدُ والمزايا في الزينةِ والحاجةِ . . كيفَ يرضىٰ بسياقِهِمْ إلى الهلاكِ المؤبَّدِ ؟!

---

(١) **الاعتبار هنا** : استقراء أول الوجود ، فإنك ترى الوجود من قمة العرش إلىٰ منتهى الفرش خيراً كله ، ولم يكن فيه من الشر إلا ما ينسب إلىٰ جنس المكلفين ، والمكلفون في جزء يسير من الأرض ، والأرض جزء يسير من الدنيا ، وما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليم ، وهـٰذا ظاهر في الاستقراء ؛ لأن عالم الآخرة أوسع من عالم الدنيا ، بل ملك من الملائكة يعدل الخلق أجمع ، فموجبات الرحمة في الوجود أكثر من موجبات الغضب ، ولذلك آثار كثيرة أثنىٰ بها علىٰ نفسه فقال : الرحمـٰن ، الرحيم ، الفتاح ، الكريم ، الجواد ، الأكرم ، التواب ، الوهاب ، العفو ، الغفور ، الشكور ، الصمد ، المجيب ، الودود ، البر ، الرزاق ، اللطيف ، الرؤوف ، المحسن ، المنعم ، المنان ، الرفيق ، الهادي ، مع ما يضاف إلىٰ هـٰذا من الرضا والمحبة والذكر والمشي والهرولة ، وما أشبه هـٰذا ، فالنظر إلىٰ آثار هـٰذه الأفعال وما ورد من الأخبار في فضائل الأعمال شفاء للإياس ، وترويح للخائف ، وترغيب للمعتدل . « إتحاف » (٩/ ١٧٣) .

بلْ إذا نظرَ الإنسانُ نظراً شافياً . . علمَ أنَّ أكثرَ الخلقِ قدْ هُيِّئ لهُ أسبابُ السعادةِ في الدنيا ، حتَّىٰ إنَّهُ يكرهُ الانتقالَ مِنَ الدنيا بالموتِ وإنْ أُخبرَ بأنَّهُ لا يُعذَّبُ بعدَ الموتِ مثلاً أوْ لا يُحشرُ أصلاً ، فليسَتْ كراهتُهُمْ للعدمِ إلا لأنَّ أسبابَ النعمِ أغلبُ لا محالةَ ، وإنَّما الذي يتمنَّى الموتَ نادرٌ ، ثمَّ لا يتمنَّاهُ إلا في حالةٍ نادرةٍ ، وواقعةٍ هاجمةٍ غريبةٍ .

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدنيا الغالبُ عليهِ الخيرُ والسلامةُ ، فسنَّةُ اللهِ لا تجدُ لها تبديلاً . . فالغالبُ أنَّ أمرَ الآخرةِ هٰكذا يكونُ ؛ لأنَّ مدبِّرَ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وهوَ غفورٌ رحيمٌ ، لطيفٌ بعبادِهِ ، متعطِّفٌ عليهِمْ .

فهٰذا إذا تُؤُمِّلَ حقَّ التأمُّلِ . . قويَ بهِ أسبابُ الرجاءِ .

ومِنَ الاعتبارِ أيضاً النظرُ في حكمةِ الشريعةِ وسننِها في مصالحِ الدنيا ، ووجهِ الرحمةِ للعبادِ بها ، حتَّىٰ كانَ بعضُ العارفينَ يرىٰ آيةَ المداينةِ في سورةِ البقرةِ مِنْ أقوىٰ أسبابِ الرجاءِ ، فقيلَ لهُ : وما فيها مِنَ الرجاءِ ؟ فقالَ : الدنيا كلُّها قليلٌ ، ورزقُ الإنسانِ منها قليلٌ ، والدينُ قليلٌ مِنْ رزقِهِ ، فانظرْ كيفَ أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهِ أطولَ آيةٍ ليهديَ عبدَهُ إلىٰ طريقِ الاحتياطِ في حفظِ دَينِهِ ، فكيفَ لا يحفظُ دِينَهُ الذي لا عوضَ لهُ منهُ ؟!

❁ ❁ ❁

الفنُّ الثاني : استقراءُ الآياتِ والأخبارِ : فما وردَ في الرجاءِ خارجٌ عنِ الحصرِ .

أمَّا الآياتُ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، وفي قراءةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ولا يبالي » ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وأخبرَ تعالىٰ أنَّ النارَ أعدَّها لأعدائِهِ ، وإنَّما خوَّفَ بها أولياءَهُ فقالَ : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ .

ويُقالُ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يزلْ يسألُ في أمَّتِهِ حتَّىٰ قيلَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٧) عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعته صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذا .

لهُ : أما ترضىٰ وقدْ أنزلَتْ عليكَ هـٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِـرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ ؟!(١) .

وفي تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ قالَ : « لا يرضىٰ محمدٌ وأحدٌ مِنْ أمَّتِهِ في النارِ »(٢) .

وكانَ أبو جعفرٍ محمدُ بنُ عليٍّ يقولُ : أنتُمْ ـ أهلَ العراقِ ـ تقولونَ : أرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ قولُهُ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ ، ونحنُ ـ أهلَ البيتِ ـ نقولُ : أرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالىٰ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾(٣) .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ روىٰ أبو موسىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أمَّتي أمةٌ مرحومةٌ ، لا عذابَ عليها في الآخرةِ ، عُجِّلَ عقابُها في الدنيا ؛ الزلازلُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِـرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله وتجاوزه . . ما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه . . لاتَّكل كل أحد » .

(٢) رواه الخطيب في « تلخيص المتشابه » (١/ ١٧٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧١٧٩) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٧٩) .

والفتنُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . دُفِعَ إلىٰ كلِّ رجلٍ مِنْ أمَّتي رجلٌ مِنْ أهلِ الكتابِ ، فقيلَ : هٰذا فداؤُكَ مِنَ النارِ »(١) .

وفي لفظٍ آخرَ : « يأتي كلُّ رجلٍ مِنْ هٰذهِ الأمَّةِ بيهوديٍّ أوْ نصرانيٍّ إلىٰ جهنَّمَ فيقولُ : هٰذا فدائي مِنَ النارِ ، فيُلقىٰ فيها »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحمَّىٰ مِنْ فيحِ جهنَّمَ ، وهيَ حظُّ المؤمنِ مِنَ النارِ »(٣) .

ورُوِيَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ نبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنِّي أجعلُ حسابَ أمَّتِكَ إليكَ ، قالَ : « لا ياربِّ ، أنتَ خيرٌ لهُمْ منِّي » ، فقالَ : إذاً ؛ لا نخزيكَ فيهِمْ(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، والحديث رواه أبو داوود (٤٢٧٨) دون قوله : (فإذا كان يوم القيامة . . .) ، وهٰذه رواها ابن ماجه (٤٢٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٤٠٧) بلفظه هنا ، وبنحوه عند مسلم (٢٧٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « الحمىٰ من كير جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار » .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٦٢) عن الحسين بن عبد الرحمٰن عن شيخ من قريش وذكره ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ٣٩٣) عن حذيفة رضي الله عنه قال : غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فلم يخرج حتىٰ ظننا أنه لن يخرج ، فلما خرج . . سجد سجدة ، فظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : « إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ، فقلت : ما شئت أي رب ، هم خلقك وعبادك ، فاستشارني الثانية ، فقلت له كذلك ، فقال : لا أحزنك في أمتك يا محمد . . . » الحديث .

ورُوِي عنْ أنسٍ : أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سأَلَ ربَّهُ في ذنوبِ أمَّتِهِ فقالَ : « يا ربِّ ، اجعلْ حسابَهُمْ إليَّ لئلا يطلعَ علىٰ مساوئِهِمْ غيري » ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : همْ أمَّتُكَ ، وهمْ عبادي ، وأنا أرحمُ بهِمْ منكَ ، لا أجعلُ حسابَهُمْ إلىٰ غيري ؛ لئلا تنظرَ في مساوئِهِمْ أنتَ ولا غيرُكَ(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حياتي خيرٌ لكُمْ ، وموتي خيرٌ لكم ، أمَّا حياتي . . فأسُنُّ لكُمُ السننَ ، وأشرِّعُ لكُمُ الشرائعَ ، وأمَّا موتي . . فإنَّ أعمالَكُمْ تُعرضُ عليَّ ؛ فما رأيتُ منها حسناً . . حمدتُ اللهَ عليهِ ، وما رأيتُ منها سيئاً . . استغفرتُ اللهَ تعالىٰ لكمْ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً : « يا كريمَ العفوِ » ، فقالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : أتدري ما تفسيرُ يا كريمَ العفوِ ؟ هوَ أنْ عفا عنِ السيئاتِ برحمتِهِ ، ثمَّ بدَّلَها حسناتٍ بكرمِهِ(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢١٣) حيث قال : (وروينا في خبر سلمة بن وردان ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله . . .) وذكره .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٢/١٧٤) ، والبزار في « مسنده » (١٩٢٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٦) بنحوه .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢١٣) ، وفيه : (أنَّهُ) بدل (أنْ) المخففة ، وقد رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٨٠) عن عتبة بن الوليد قال : (سمع جبريل إبراهيم الخليل . . .) ولم يذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا رواه البيهقي في « الشعب » (٦٦٤٣) عن بعض الرهاويين .

وسمعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً يقولُ : اللهمَّ ، إنِّي أسألُكَ تمامَ النعمةِ فقالَ : « هلْ تدري ما تمامُ النعمةِ ؟ » قالَ : لا ، قالَ : « دخولُ الجنَّةِ »[١] .

فقالَ العلماءُ : قدْ أتمَّ نعمتَهُ علينا برضاهُ الإسلامَ لنا ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وفي الخبرِ : « إذا أذنبَ العبدُ فاستغفرَ اللهَ . . يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِهِ : انظروا إلىٰ عبدي ، أذنبَ ذنباً ، فعلمَ أنَّ لهُ ربّاً يغفرُ الذنوبَ ويأخذُ بالذنبِ ، أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُ »[٢] .

وفي الخبرِ : « لوْ أذنبَ العبدُ حتَّىٰ تبلغَ ذنوبُهُ عَنانَ السماءِ . . غفرتُها لهُ ما استغفرني ورجاني »[٣] .

وفي الخبرِ : « لوْ لقيني عبدي بقُرابِ الأرضِ ذنوباً . . لقيتُهُ بقُرابِ الأرضِ مغفرةً »[٤] .

وفي الحديثِ : « إنَّ الملكَ ليرفعُ القلمَ عنِ العبدِ إذا أذنبَ ستَّ ساعاتٍ ، فإنْ تابَ واستغفرَ . . لمْ يكتبْهُ عليهِ ، وإلا . . كتبَها سيئةً » ، وفي

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ، وأحمد في « المسند » (٥/ ٢٣١) .
(٢) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) بنحوه .
(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومطلعه : « يا بن آدم ؛ إنك ما دعوتني . . . » الحديث .
(٤) رواه مسلم (٢٦٨٧) ومطلعه : (من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها . . . » الحديث .

لفظٍ آخرَ : « فإذا كتبَها عليهِ وعملَ حسنةً . . قالَ صاحبُ اليمينِ لصاحبِ الشمالِ وهوَ أميرٌ عليهِ : ألقِ هـٰذهِ السيئةَ حتَّىٰ ألقيَ مِنْ حسناتِهِ واحدةً مِنْ تضعيفِ العشرِ وأرفعَ لهُ تسعَ حسناتٍ ، فتُلقىٰ عنهُ هـٰذه السيئةُ »(١) .

ورُوىٰ أنسٌ في حديثٍ : أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « إذا أذنبَ العبدُ ذنباً . . كُتِبَ عليهِ » ، فقالَ أعرابيٌّ : فإنْ تابَ عنهُ ؟ قالَ : « مُحِيَ عنهُ » ، قالَ : فإنْ عادَ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يكتبُ عليهِ » ، فقالَ الأعرابيُّ : فإنْ تابَ ؟ قالَ : « مُحِيَ مِنْ صحيفتِهِ » ، قالَ : إلىٰ متى ؟ قالَ : « إلىٰ أنْ يستغفرَ ويتوبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، إنَّ اللهَ لا يملُّ مِنَ المغفرةِ حتَّىٰ يملَّ العبدُ مِنَ الاستغفارِ ، فإذا همَّ العبدُ بحسنةٍ . . كتبَها صاحبُ اليمينِ حسنةً قبلَ أنْ يعملَها ، فإنْ عملَها . . كُتِبَتْ عشرَ حسناتٍ ، ثمَّ يضاعفُها اللهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) بروايتيه وسياقه ، وقد رواه هناد في « الزهد » (٩٢٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « الملك الذي على اليمين أمير على الملك الذي على الشمال ، فإذا عمل حسنة . . قال لصاحب الشمال : اكتبها ، وإذا عمل سيئة . . قال له : دعها ، لا تكتبها سبع ساعات ؛ لعله يستغفر » ورواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٩١) بنحوه وفيه : « وإذا عمل سيئة . . قال له صاحب اليمين : امكث ست ساعات ، فإن استغفر . . لم يكتب عليه ، وإلا . . أثبت عليه سيئة » .
ورواه مطولاً الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ١٤٧) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم مع العبد من ملك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ملك علىٰ يمينك علىٰ حسناتك ، وهو أمين على الذي على الشمال ، فإذا عملت حسنة . . كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة . . قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أكتبُ ؟ قال : لا ؛ لعله يستغفر الله ويتوب . . . » الحديث .

عزَّ وجلَّ إلىٰ سبع مئةِ ضعفٍ ، وإذا همَّ بخطيئةٍ . . لمْ تُكتبْ عليهِ ؛ فإنْ عملَها . . كُتبَتْ خطيئةً واحدةً ، ووراءَها حسْنُ عفوِ اللهِ عزَّ وجلَّ »(١) .

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لا أصومُ إلا الشهرَ لا أزيدُ عليهِ ، ولا أصلِّي إلا الخمسَ لا أزيدُ عليها ، وليسَ للهِ في مالي صدقةٌ ولا حجٌّ ولا تطوُّعٌ ، أينَ أنا إذا متُّ ؟ فتبسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « نعمْ ، معي إذا حفظتَ قلبَكَ مِنَ اثنتينِ : الغلِّ والحسدِ ، ولسانَكَ مِنِ اثنتينِ : الغيبةِ والكذبِ ، وعينيكَ مِنِ اثنتينِ : النظرِ إلىٰ ما حرَّمَ اللهُ ، وأنْ تزدريَ بهما مسلماً . . دخلتَ معيَ الجنَّةَ علىٰ راحتيَّ هاتينِ »(٢) .

وفي الحديثِ الطويلِ لأنسٍ : أنَّ الأعرابيَّ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ يلي حسابَ الخلقِ ؟ فقالَ : « اللهُ تباركَ وتعالىٰ » ، قالَ : هو بنفسِهِ ؟ قالَ : « نعمْ » ، فتبسَّمَ الأعرابيُّ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ممَّ ضحكتَ يا أعرابيُّ ؟ » فقالَ : إنَّ الكريمَ إذا قدر . . عفا ، وإذا حاسبَ . . سامحَ ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) ، ونعته بحديث أنس الطويل ، وستأتي قطعة منه بعد الخبر الآتي . وقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٨) عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ إني أذنبت ، قال : « استغفر ربك » ، قال : فأستغفر ثم أعود ، قال : « فإذا عدت . . فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً ـ شك عمر ـ فقال : « استغفر ربك حتىٰ يكون الشيطان هو المحسور » ، والحديث عن غيره متوازع معناه في الصحيح .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٥) .

فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقَ الأعرابيُّ ، ألا ولا كريمَ أكرمُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، هوَ أكرمُ الأكرمينَ » ، ثمَّ قالَ : « فَقُهَ الأعرابيُّ »[1] ، وفيهِ أيضاً : « إنَّ اللهَ تعالىٰ شرَّفَ الكعبةَ وعظَّمَها ، ولوْ أنَّ عبداً هدمَها حجراً حجراً ثمَّ أحرقَها . . ما بلغَ جرْمَ مَنِ استخفَّ بوليٍّ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ » ، قالَ الأعرابيُّ : ومَنْ أولياءُ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « المؤمنونَ كلُّهُمْ أولياءُ اللهِ تعالىٰ ، أما سمعتَ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؟ »[2] .

وفي بعضِ الأخبارِ : « المؤمنُ أفضلُ مِنَ الكعبةِ »[3] ، و« المؤمنُ طيِّبٌ طاهرٌ »[4] ، و« المؤمنُ أكرمُ على اللهِ تعالىٰ مِنَ الملائكةِ »[5] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) ، وهو قطعة من حديث أنس المنقول قبل الخبر السابق ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ١٧٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) .

(٣) روى ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده ؛ لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً » .

(٤) هـٰذا الخبر والذي قبله والذي بعده في خبر مفرد عند صاحب « القوت » (١/ ٢١٥) ، وعند البخاري (٢٨٥) ، ومسلم (٣٧١) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧) ولفظه : « المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته » ، وروىٰ وكيع في « الزهد » (٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً عليه : (المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده) . =

وفي الخبرِ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ جهنَّمَ مِنْ فضْلِ رحمتِهِ سوطاً يسوقُ اللهُ بهِ عبادَهُ إلى الجنَّةِ)(١) .

وفي خبرٍ آخرَ : (يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما خلقتُ الخلقَ ليربحوا عليَّ ، ولمْ أخلقْهُمْ لأربحَ عليهِمْ)(٢) .

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما خلقَ اللهُ تعالىٰ شيئاً إلا جعلَ لهُ ما يغلبُهُ ، وجعلَ رحمتَهُ تغلبُ غضبَهُ »(٣) .

وفي الخبرِ المشهورِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ كتبَ علىٰ نفسِهِ قبلَ أنْ يخلقَ الخلقَ : إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي »(٤) .

= وروى البيهقي في « الشعب » (١٥١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم » ، قال : قيل : يا رسول الله ؛ ولا الملائكة ؟ قال : « الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٩) ، وعند البخاري (٣٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢١٩) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) من قول داوود عليه السلام .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٤٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٠٧) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٤٦٣) عن زيد بن أسلم مرسلاً .

(٤) رواه البخاري (٧٥٥٣) ، ومسلم (٢٧٥١) .

وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ وأنسِ بنِ مالكٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . دخلَ الجنَّةَ »[(١)] ، و« مَنْ كانَ آخرُ كلامِهِ لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . لمْ تمسَّهُ النارُ »[(٢)] ، و« مَنْ لقيَ اللهَ لا يشركُ بهِ شيئاً . . حُرِّمَتْ عليهِ النارُ »[(٣)] ، و« لا يدخلُها مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ »[(٤)] .

وفي خبرٍ آخرَ : « لوْ علمَ الكافرُ سعةَ رحمةِ اللهِ . . ما أيسَ مِنْ جنَّتِهِ أحدٌ »[(٥)] .

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ . . قالَ : « أتدرونَ أيَّ يومٍ هـٰذا ؟ هـٰذا يومَ يُقالُ لآدمَ عليهِ السلامُ : قمْ فابعثْ بعثَ النارِ مِنْ ذرِّيَّتِكَ ، فيقولُ : كمْ ؟ فيُقالُ : مِنْ كلِّ

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٩) مع الأخبار الثلاثة الآتية بألفاظها وسياقها ، وقد رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١١٤١) من حديث معاذ : « اعلم أن من شهد أن لا إلـٰه إلا الله . . دخل الجنة » ، وعنده من حديث أنس عن معاذ مرفوعاً كذلك : « من مات يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله موقناً من قلبه . . دخل الجنة » .

(٢) رواه أبو داوود (٣١١٦) وفيه : (دخل الجنة) بدل (لم تمسه النار) .

(٣) رواه البخاري (١٢٩) عن أنس رضي الله عنه قال : ذكر لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً . . دخل الجنة » ، وهو عند مسلم (٩٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤١٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه : « ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، وجاء عند البخاري (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو خير من النار .

(٥) رواه البخاري (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٥) .

ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ وواحدٌ إلى الجنَّةِ » ، قالَ : فأُبلسَ القومُ ، وجعلوا يبكونَ ، وتعطَّلوا يومَهُمْ عنِ الأشغالِ والعملِ ، فخرجَ عليهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « ما لكمْ لا تعملونَ ؟ » فقالوا : ومَنْ يشتغلُ بعملٍ بعدَ ما حدثْتَنا بهٰذا ؟ فقالَ : « كم أنتُمْ في الأممِ ؟ أينَ تاويلُ وتاريسُ ومنسكُ ويأجوجُ ومأجوجُ ؟ أممٌ لا يحصيها إلا اللهُ عزَّ وجلَّ ، إنَّما أنتُمْ في سائرِ الأممِ كالشعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ ، وكالرقمةِ في ذراعِ الدابَّةِ »(1) .

فانظرْ كيفَ كانَ يسوقُ الخلقَ بسياطِ الخوفِ ، ويقودُهُمْ بأزمَّةِ الرجاءِ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ساقَهُمْ بسياطِ الخوفِ أوَّلاً ، فلمَّا خرجَ ذلكَ بهِمْ عنْ حدِّ الاعتدالِ إلىٰ إفراطِ اليأسِ . . داواهُمْ بدواءِ الرجاءِ ، وردَّهُمْ إلى الاعتدالِ والقصْدِ ، والآخِرُ لمْ يكنْ مناقضاً للأوَّلِ ، ولكنْ ذكرَ في الأوَّلِ ما رآهُ سبباً للشفاءِ واقتصرَ عليهِ ، فلمَّا احتاجوا إلى المعالجةِ بالرجاءِ . . ذكرَ تمامَ الأمرِ .

فعلى الواعظِ أنْ يقتديَ بسيِّدِ الوعَّاظِ ، فيتلطَّفُ في استعمالِ أخبارِ الخوفِ والرجاءِ بحسَبِ الحاجةِ ، بعدَ ملاحظةِ العللِ الباطنةِ ، وإنْ لمْ يراعِ

---

(1) رواه الترمذي (٣١٦٨) بألفاظ مقاربة ، وأصله عند البخاري (٣٣٤٨) ، ومسلم (٢٢٢) ، وليس عندهم ذكر تاويل وتاريس ومنسك ، ووقع ذكرهم عند الطبري في « تهذيب الآثار » مسند ابن عباس (٧١٤) ، والرقمة هنا : الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل ، وهما رقمتان في ذراعيها .

ذلكَ . . كانَ ما يفسدُهُ بوعظِهِ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وفي الخبرِ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخلقَ اللهُ خلقاً يذنبونَ ليغفرَ لهُمْ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « لذهبَ بكُمْ وجاءَ بخلقٍ آخرَ يذنبونَ فيغفرُ لهُمْ ، إنَّهُ هوَ الغفورُ الرحيمُ »(١) .

وفي الخبرِ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخشيتُ عليكُمْ ما هوَ شرٌّ مِنَ الذنوبِ » ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : « العُجبُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ للهُ أرحمُ بعبدِهِ المؤمنِ مِنَ الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها »(٣) .

وفي الخبرِ : « ليغفرنَّ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ مغفرةً ما خطرَتْ قطُّ علىٰ قلبِ أحدٍ ، حتَّىٰ إنَّ إبليسَ ليتطاولُ لها رجاءَ أنْ تصيبَهُ »(٤) .

وفي الخبرِ : « إنَّ للهِ تعالىٰ مئةَ رحمةٍ ، ادَّخرَ منها عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً ، وأظهرَ منها في الدنيا رحمةً واحدةً ، فبها يتراحمُ الخلقُ ، فتحنُّ الوالدةُ إلىٰ ولدِها ، وتعطفُ البهيمةُ علىٰ ولدِها ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . ضمَّ هـٰذهِ الرحمةَ إلى التسعِ والتسعينَ ثمَّ بسطَها علىٰ جميعِ خلقِهِ ، وكلُّ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨ ، ٢٧٤٩) .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) .
(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٣) ، وقريب منه عند ابن المبارك في « الزهد » (١٢٧٠) .

رحمةٍ منها طباقَ السماواتِ والأرضينَ ، قالَ : فلا يهلكُ على اللهِ يومئذٍ إلا هالكٌ »[1] .

وفي الخبرِ : « ما منكُمْ مِنْ أحد يُدخلُهُ عملُهُ الجنَّةَ ، ولا ينجيهِ مِنَ النارِ » ، قالوا : ولا أنتَ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أنْ يتغمَّدنيَ اللهُ برحمتِهِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اعملوا وأبشروا ، واعلموا أنَّ أحداً لنْ ينجيَهُ عملُهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي اختبأتُ شفاعتي لأهلِ الكبائرِ مِنْ أمَّتي »[4]، « أترونَها للمصفَّينَ المتقينَ ؟ بلْ هيَ للمخلِّطينَ المتلوثينَ »[5] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بُعثتُ بالحنيفيَّةِ السمحةِ السهلةِ »[6] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢١) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٠٠ ، ٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢١) .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٢١) ، جاء الخبر مستقلاً عما بعده ، وقد رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) بلفظ : « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .

(٥) كذا في « القوت » (١/ ٢٢١) ، ورواه ابن ماجه (٤٣١١) بنحوه ، وفي (أ) : (بل هي للمخطئين المتلوثين) .

(٦) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٦٦) ، دون قوله : (السهلة) ، وهي في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ووقعت برواية الشك عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢١٨) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أحبُّ أنْ يعلمَ أهلُ الكتابينِ أنَّ في دينِنا سماحةً »(١) .

ويدلُّ علىٰ معناهُ استجابةُ اللهِ تعالىٰ للمؤمنينَ في قولِهِمْ : ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروىٰ محمدُ بنُ الحنفيَّةِ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهما أنَّهُ قالَ : لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ . . قالَ : « يا جبريلُ ؛ وما الصفحُ الجميلُ ؟ » قالَ عليهِ السلامُ : إذا عفوتَ عمَّنْ ظلمكَ . . فلا تعاتبْهُ ، فقالَ : « يا جبريلُ ؛ فاللهُ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يعاتِبَ مَنْ عفا عنهُ » ، فبكىٰ جبريلُ وبكى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبعثَ اللهُ تعالىٰ إليهما ميكائيلَ عليهِ السلامُ وقالَ : إنَّ ربَّكُما يقرئُكُما السلامَ ويقولُ : كيفَ أعاتبُ مَنْ عفوتُ عنهُ ؟ هٰذا ما لا يشبهُ كرمي(٢) .

والأخبارُ الواردةُ في أسبابِ الرجاءِ أكثرُ مِنْ أنْ تحصىٰ .

❁ ❁ ❁

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٦/ ١١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لتعلم يهود أن في ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفية سمحة » .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » موقوفاً علىٰ علي مختصراً ، قال : الرضا بغير عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر) . « إتحاف » (٩/ ١٨٥) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فسترَهُ اللهُ عليهِ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يكشفَ سترَهُ في الآخرةِ ، ومَنْ أذنبَ ذنباً فعوقبَ عليهِ في الدنيا . . فاللهُ تعالىٰ أعدلُ مِنْ أنْ يثنيَ عقوبتَهُ علىٰ عبدِهِ في الآخرةِ)(١) .

وقالَ الثوريُّ : (ما أحبُّ أنْ يُجعلَ حسابي إلىٰ أبويَّ ؛ لأنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أرحمُ بي منهما)(٢) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (المؤمنُ إذا عصى اللهَ تعالىٰ . . سترَهُ اللهُ عنْ أبصارِ الملائكةِ كي لا تراهُ فتشهدَ عليهِ)(٣) .

وكتبَ محمدُ بنُ مصعبٍ إلىٰ أسودَ بنِ سالمٍ بخطِّهِ : (إنَّ العبدَ إذا كانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، فرفعَ يديهِ يدعو يقولُ : يا ربِّ . . حجبَتِ الملائكةُ صوتَهُ وكذلكَ الثانيةُ والثالثةُ ، حتىٰ إذا قالَ الرابعةَ : يا ربِّ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : حتَّىٰ متىٰ تحجبونَ عنِّي صوتَ عبدي ؟ قدْ علمَ عبدي أنَّهُ ليسَ لهُ ربٌّ يغفرُ الذنوبَ غيري ، أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُ)(٤) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٤) ، ورواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) من حديثه رضي الله عنه بنحوه مرفوعاً .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٣) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢١٣) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢١٤) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمةُ اللهِ عليهِ : خلا ليَ الطوافُ ليلةً ، وكانَتْ ليلةً مطيرةً مظلمةً ، فوقفتُ في الملتزمِ عندَ البابِ ، فقلتُ : يا ربِّي ؛ اعصمني حتَّىٰ لا أعصيَكَ أبداً ، فهتفَ بي هاتفٌ مِنَ البيتِ : يا إبراهيمُ ؛ أنتَ تسألني العصمةَ ، وكلُّ عبادي المؤمنينَ يطلبونَ ذلكَ ، فإذا عصمتُهُمْ . . فعلىٰ مَنْ أتفضَّلُ ؟ ولِمَنْ أغفرُ ؟[1] .

وكانَ الحسنُ يقولُ : (لوْ لمْ يذنبِ المؤمنُ . . لكانَ يطيرُ في الملكوتِ ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ قمعَهُ بالذنوبِ)[2] .

وقالَ الجنيدُ رحمةُ اللهُ تعالىٰ : (إنْ بدَتْ عينٌ مِنَ الكرمِ . . ألحقَتِ المسيئينَ بالمحسنينَ)[3] .

ولقيَ مالكُ بنُ دينارٍ أباناً ، فقالَ لهُ : إلىٰ كمْ تحدِّثُ الناسَ بالرخصِ ؟ فقالَ : يا أبا يحيىٰ ؛ إنِّي لأرجو أنْ ترىٰ مِنْ عفوِ اللهِ يومَ القيامةِ ما تخرقُ لهُ كساءَكَ هـٰذا مِنَ الفرحِ[4] .

وفي حديثِ ربعيِّ بنِ حراشٍ عنْ أخيهِ ، وكانَ مِنْ خيارِ التابعينَ ، وهوَ ممَّنْ تكلَّمَ بعدَ الموتِ ، قالَ : لمَّا ماتَ أخي . . سُجِّيَ بثوبِهِ ، وألقيناهُ علىٰ نعشِهِ ، فكشفَ الثوبَ عنْ وجهِهِ واستوىٰ قاعداً وقالَ : إنِّي لقيتُ ربِّي عزَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٦) .

وجلَّ ، فحيَّاني بروحٍ وريحانٍ ، وربٌّ غيرِ غضبانَ ، وإنِّي رأيتُ الأمرَ أيسرَ ممَّا تظنُّونَ ، ولا تغترُّوا ، وإنَّ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينتظرُني وأصحابُهُ حتَّىٰ أرجعَ إليهِمْ ، قالَ : ثمَّ طرحَ نفسَهُ ، فكأنَّها كانَتْ حصاةً وقعَتْ في طستٍ ، فحملناهُ ودفناهُ[1] .

وفي الحديثِ : « أنَّ رجلينِ مِنْ بني إسرائيلَ تواخيا في اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ أحدُهُما يسرفُ علىٰ نفسِهِ ، وكانَ الآخرُ عابداً ، وكانَ يعظُهُ ويزجرُهُ ، فكانَ يقولُ : دعْني وربِّي ، أبُعثتَ عليَّ رقيباً ، حتَّىٰ رآهُ ذاتَ يومٍ علىٰ كبيرةٍ ، فغضبَ ، فقالَ : لا يغفرُ اللهُ لكَ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : أيستطيعُ أحدٌ أنْ يحظرَ رحمتي علىٰ عبادي ؟! اذهبْ أنتَ فقدْ غفرتُ لكَ ، ثمَّ يقولُ للعابدِ : وأنتَ فقدْ أوجبتُ لكَ النارَ » ، قالَ : فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لقدْ تكلَّمَ بكلمةٍ أهلكَتْ دنياهُ وآخرتَهُ[2] .

ورُوِيَ أيضاً أنَّ لصّاً كانَ يقطعُ الطريقَ في بني إسرائيلَ أربعينَ سنةً ، فمرَّ عليهِ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، وخلفَهُ عابدٌ مِنْ عبَّادِ بني إسرائيلَ مِنَ الحواريينَ ، فقالَ اللصُّ في نفسِهِ : هٰذا نبيُّ اللهِ يمرُّ وإلىٰ جنبِهِ حواريُّهُ ، لوْ نزلتُ فكنتُ معهما ثالثاً ، قالَ : فنزلَ ، فجعلَ يريدُ أنْ يدنوَ مِنَ الحواريِّ ويزدري نفسَهُ تعظيماً للحواريِّ ويقولُ في نفسِهِ : مثلي لا يمشي إلىٰ جنبِ هٰذا العابدِ ، قالَ : وأحسَّ بهِ الحواريُّ ، فقالَ في نفسِهِ : هٰذا يمشي إلىٰ جانبي ، فضمَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٢) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠١) ، والقول في آخره لأبي هريرة رضي الله عنه .

منهُ نفسَهُ وتقدَّمَ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، فمشىٰ إلىٰ جانبهِ ، فبقيَ اللصُّ خلفَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه السلامُ : قلْ لهما يستأنفا العملَ[(١)] ، فقدْ أحبطتُ ما سلفَ مِنْ أعمالِهما ، أمَّا الحواريُّ . . فقدْ أحبطتُ حسناتِهِ لعجْبِهِ بنفسِهِ ، وأمَّا الآخرُ . . فقدْ أحبطتُ سيئاتِهِ بما أزرىٰ علىٰ نفسِهِ ، فأخبرَهُما بذلكَ ، وضمَّ اللصَّ إليهِ في سياحتِهِ ، وجعلَهُ مِنْ حواريِّهِ[(٢)] .

ورُوِيَ عنْ مسروقٍ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ كانَ ساجداً ، فوطىءَ بعضُ العتاةِ عنقَهُ حتَّىٰ ألزقَ الحصىٰ بجبهتِهِ ، قالَ : فرفعَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ رأسَهُ مغضباً فقالَ : اذهبْ فلنْ يغفرَ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : تتألَّىٰ عليَّ في عبادي ؟! إنِّي قدْ غفرتُ لهُ[(٣)] .

ويقربُ مِنْ هـٰذا ما روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقنتُ على المشركينَ ويلعنُهُمْ في صلاتِهِ ، فنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ . . . ﴾ الآيةَ ، فتركَ الدعاءَ عليهِمْ ، وهدى اللهُ تعالىٰ عامَّةَ أولئكَ للإسلامِ[(٤)] .

ورُوِيَ في الأثرِ : أنَّ رجلينِ كانا مِنَ العابدينَ ، متساويينِ في العبادةِ ،

---

(١) في (أ) : (ليستأنفا العمل) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٣) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٣) .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، ورواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم .

قالَ : فإذا أُدخلا الجنةَ . . رُفعَ أحدُهُما في الدرجاتِ العلا علىٰ صاحبِهِ ، فيقولُ : يا ربِّ ، ما كانَ هـٰذا في الدنيا بأكثرَ منِّي عبادةً ، فرفعتَهُ عليَّ في عليينَ ، فيقولُ اللهُ سبحانَهُ : إنَّهُ كانَ يسألني في الدنيا الدرجاتِ العلا وأنتَ كنتَ تسألني النجاةَ مِنَ النارِ ، فأعطيتُ كلَّ عبدٍ سؤلَهُ(١) .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ العبادةَ على الرجاءِ أفضلُ ؛ لأنَّ المحبَّةَ أغلبُ على الراجي منها على الخائفِ ، فكمْ مِنْ فرْقٍ في الملوكِ بينَ مَنْ يُخدمُ اتقاءً لعقابِهِ ، وبينَ مَنْ يُخدمُ ارتجاءً لإنعامِهِ وإكرامِهِ ، ولذلكَ أمرَ اللهُ تعالىٰ بحسنِ الظنِّ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سلوا اللهَ الدرجاتِ العلا ؛ فإنَّما تسألونَ كريماً »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا سألتُمُ اللهَ . . فأعظموا الرغبةَ ، وسلوا الفردوسَ الأعلىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ »(٣) .

وقالَ بكرُ بنُ سليمٍ الصوافُ : دخلنا علىٰ مالكِ بنِ أنسٍ في العشيَّةِ التي

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٤) ، وروى الترمذي (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « سلوا الله من فضله ؛ فإن الله عز وجل يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٩) ولفظه : « إذا دعا أحدكم . . فلا يقل : اللهم ؛ اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .
وروى البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فإذا سألتم الله . . فاسألوه الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » .

قُبضَ فيها ، فقلنا : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ كيفَ تجدُكَ ؟ قالَ : لا أدري ما أقولُ لكُمْ ، إلا أنَّكُمْ ستعاينونَ مِنْ عفوِ اللهِ ما لمْ يكنْ لكمْ في حسابٍ ، ثمَّ ما برحنا حتَّىٰ أغمضناهُ(١) .

وقال يحيىٰ بنُ معاذٍ في مناجاتِهِ : (يكادُ رجائي لكَ معَ الذنوبِ يغلبُ رجائي لكَ معَ الأعمالِ ؛ لأنِّي أعتمدُ في الأعمالِ على الإخلاصِ ، وكيفَ أحرزُها وأنا بالآفةِ معروفٌ ؟! وأجدني في الذنوبِ أعتمدُ علىٰ عفوِكَ ، وكيفَ لا تغفرُها وأنتَ بالجودِ موصوفٌ ؟!)(٢) .

وقيلَ : إنَّ مجوسيّاً استضافَ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ ، فقالَ : إنْ أسلمتَ . . أضفتُكَ ، فمرَّ المجوسيُّ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا إبراهيمُ ؛ لمْ تطعمْهُ إلا بتغييرِ دينِهِ ونحنُ مِنْ سبعينَ سنةً نطعمُهُ علىٰ كفرِهِ ؟! فلوْ أضفتَهُ ليلةً ماذا كانَ عليكَ ؟ فمرَّ إبراهيمُ يسعىٰ خلفَ المجوسيِّ ، فردَّهُ وأضافَهُ ، فقالَ لهُ المجوسيُّ : ما السببُ فيما بدا لكَ ؟ فذكرَ لهُ : فقالَ لهُ المجوسيُّ : أهكذا يعاملُني ؟ ثمَّ قالَ : اعرضْ عليَّ الإسلامَ ، فأسلمَ(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٥) ، ومن طريقه رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٦) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٧) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/١٨٩) : (وجه تعلق هـٰذا بالرجاء : أنه تعالىٰ يجعل الأسباب الضعيفة موصلة لغفران الذنوب العظيمة) .

ورأى الأستاذُ أبو سهلٍ الصُّعْلُوكيُّ أبا سهلٍ الزجَّاجيَّ في المنامِ[1] ، وكانَ يقولُ بوعيدِ الأبدِ[2] ، فقالَ لهُ : كيفَ حالُكَ ؟ فقالَ : وجدنا الأمرَ أسهلَ ممَّا توهمنا[3] .

ورأىٰ بعضُهُمْ أبا سهلٍ الصُّعْلُوكيَّ في المنامِ علىٰ هيئةٍ حسنةٍ لا تُوصفُ ، فقالَ لهُ : يا أستاذُ ؛ بمَ نلتَ هـٰذا ؟ فقالَ : بحسنِ ظنِّي بربِّي[4] .

وحُكِيَ أنَّ أبا العباسِ بنَ سُريجٍ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ رأىٰ في مرضِ موتِهِ في منامِهِ كأنَّ القيامةَ قدْ قامَتْ ، وإذا الجبَّارُ سبحانَهُ يقولُ : أينَ العلماءُ ؟ قالَ : فجاؤوا ، ثمَّ قالَ : ماذا عملتُمْ فيما علمتُمْ ؟ قالَ : فقلنا : يا ربِّ ؛ قصَّرنا وأسأْنا ، قالَ : فأعادَ السؤالَ كأنَّهُ لمْ يرضَ بالجوابِ وأرادَ جواباً غيرَهُ ، فقلتُ : أمَّا أنا.. فليسَ في صحيفتي الشركُ ، وقدْ وعدتَ أنْ تغفرَ ما دونَهُ ، فقالَ : اذهبوا بهِ ، فقدْ غفرتُ لكُمْ ، وماتَ بعدَ ذلكَ بثلاثِ ليالٍ[5] .

وقيلَ : كانَ رجلٌ شِرِّيبٌ جمعَ قوماً مِنْ ندمائِهِ ، ودفعَ إلىٰ غلامٍ لهُ أربعةَ

---

(١) وضبطه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ١٨٩) فقال : (الصعلوكي : بفتح الصاد وسكون العين المهملتين) .

(٢) فسوّىٰ بين الوعد والوعيد من حيث وجوب الإنجاز ، فلو أوعد الله بعقاب.. فعنده لا بدَّ من وقوعه .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٧) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٧) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .

دراهمَ ، وأمرَهُ أنْ يشتري شيئاً مِنَ الفواكهِ للمجلسِ ، فمرَّ الغلامُ ببابِ مجلسِ منصورِ بنِ عمَّارٍ ، وهوَ يسألُ لفقيرٍ شيئاً ويقولُ : مَنْ دفعَ إليهِ أربعةَ دراهمَ . . دعوتُ لهُ أربعَ دعواتٍ ، قالَ : فدفعَ الغلامُ الدراهمَ إليهِ ، فقالَ منصورٌ : ما الذي تريدُ أنْ أدعوَ لكَ ؟ فقالَ : لي سيِّدٌ أريدُ أنْ أتخلَّصَ منهُ ، فدعا منصورٌ ، وقالَ : الأخرى ؟ فقالَ : أنْ يخلفَ اللهُ عليَّ دراهمي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرى ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ علىٰ سيِّدي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرى ؟ فقالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولسيِّدي ولكَ وللقومِ ، فدعا منصورٌ .

فرجعَ الغلامُ ، فقالَ لهُ سيِّدُهُ : لِمَ أبطأتَ ؟ فقصَّ عليهِ القصَّةَ ، قالَ : وبمَ دعا ، فقالَ : سألتُ لنفسي العتقَ ، فقالَ لهُ : اذهبْ فأنتَ حرٌّ ، قالَ : وأيشِ الثاني ؟ قالَ : أنْ يُخلفَ اللهُ عليَّ الدراهمَ ، فقالَ : لكَ أربعةُ آلافِ درهم ، وأيشِ الثالثُ ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ عليكَ ، قالَ : تبتُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأيشِ الرابعُ ؟ قالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولكَ وللقومِ وللمذكِّرِ ، قالَ : هـٰذا الواحدُ ليسَ إليَّ ، فلمَّا باتَ تلكَ الليلةَ . . رأىٰ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : أنتَ فعلتَ ما كانَ إليكَ ، أفترىٰ أني لا أفعلُ ما إليَّ ؟! قدْ غفرتُ لكَ وللغلامِ ولمنصورِ بنِ عمارٍ وللقومِ الحاضرينَ أجمعينَ[1] .

ورُوِيَ عنْ عبدِ الوهَّابِ بنِ عبدِ المجيدِ الثقفيِّ قالَ : رأيتُ جنازةً يحملُها

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .

ثلاثةٌ مِنَ الرجالِ وامرأةٌ ، قالَ : فأخذتُ مكانَ المرأةِ ، وذهبنا إلى المقبرةِ ، وصلَّينا عليها ، ودفنا الميِّتَ ، فقلتُ للمرأةِ : مَنْ كانَ هـٰذا الميتُ منكِ ؟ قالتِ : ابني ، قلتُ : ولمْ يكنْ لكُمْ جيرانٌ ؟ قالَتْ : بلىٰ ، ولكنْ صغَّروا أمرَهُ ، فقلتُ : وأيشٍ كانَ هـٰذا ؟ قالتْ : مخنَّثاً ، قالَ : فرحمتُها وذهبتُ بها إلىٰ منزلي ، وأعطيتُها دراهمَ وحنطةً وثياباً ، قالَ : فرأيتُ تلكَ الليلةَ كأنَّهُ أتاني آتٍ كأنَّهُ القمرُ ليلةَ البدرِ ، وعليهِ ثيابٌ بيضٌ ، فجعلَ يتشكَّرُ لي ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : المخنَّثُ الذي دفنتموني اليومَ ، رحمَني ربِّي باحتقارِ الناسِ إيَّايَ(١) .

وقالَ إبراهيمُ الأُطْروشُ : كنَّا قعوداً ببغدادَ معَ معروفٍ الكرخيِّ علىٰ دجلةَ ، إذْ مرَّ قومٌ أحداثٌ في زورقٍ يضربونَ بالدفِّ ويشربونَ ويلعبونَ ، فقالوا لمعروفٍ : أما تراهُمْ يعصونَ اللهَ تعالىٰ مجاهرينَ ؟ ادعُ اللهَ عليهِمْ ، فرفعَ يديهِ وقالَ : إلـٰهي ؛ كما فرَّحتَهُمْ في الدنيا ففرِّحْهُمْ في الآخرةِ ، فقالَ القومُ : إنَّما سألناكَ أنْ تدعوَ عليهِمْ ، فقالَ : إذا فرَّحَهُمْ في الآخرةِ . . تابَ عليهِمْ(٢) .

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ في دعائِهِ : يا ربِّ ؛ وأيُّ أهلِ دهرٍ لمْ يعصوكَ ؟ ثمَّ كانَتْ نعمتُكَ عليهِمْ سابغةً ، ورزقُكَ عليهِمْ دارّاً ، سبحانَكَ ما أحلمَكَ ! وعزَّتِكَ ؛ إنَّكَ لتُعصىٰ ثمَّ تسبغُ النعمةَ وتدرُّ الرزقَ حتَّىٰ كأنَّكَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٥٠) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) .

يا ربَّنا إنَّما تُطاعُ ، سبحانَكَ ما أحلمَكَ ! تُعصىٰ وتدرُّ الرزقَ وتسبغُ النعمة حتىٰ لكأنَّكَ يا ربَّنا لا تغضبُ[1] .

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ التي يُجتلبُ بها روحُ الرجاءِ إلىٰ قلوبِ الخائفينَ والآيسينَ ، فأمَّا الحمقى المغرورونَ . . فلا ينبغي أنْ يسمعوا شيئاً مِنْ ذلكَ ، بلْ يسمعونَ ما سنوردُهُ في أسبابِ الخوفِ ، فإنَّ أكثرَ الناسِ لا يصلحُ إلا على الخوفِ ؛ كالعبدِ السوءِ والصبيِّ العَرِمِ[2] ، لا يستقيمُ إلا بالسوطِ والعصا ، وإظهارِ الخشونةِ في الكلامِ ، وأمَّا ضدُّ ذلكَ . . فيُسدُّ عليهِمْ بابُ الصلاحِ في الدينِ والدنيا .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥١) .
(٢) العرم : الشرس .

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الخوف

وفيهِ بيانُ حقيقةِ الخوفِ ، وبيانُ درجاتِهِ ، وبيانُ أقسامِ المخاوفِ ، وبيانُ فضيلةِ الخوفِ ، وبيانُ الأفضلِ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، وبيانُ دواءِ الخوفِ ، وبيانُ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ، وبيانُ أحوالِ الخائفينَ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ والصالحينَ رحمةُ اللهِ عليهِمْ .

بيان حقيقة الخوف

اعلمْ : أنَّ الخوفَ عبارةٌ عنْ تألُّمِ القلبِ واحتراقِهِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبالِ ، وقدْ ظهرَ هـٰذا في بيانِ حقيقةِ الرجاءِ .

ومَنْ أنسَ باللهِ ، وملكَ الحقُّ قلبَهُ ، وصارَ ابنَ وقتِهِ ، مشاهداً لجمالِ الحقِّ على الدوامِ . . لمْ يبقَ لهُ التفاتٌ إلى المستقبلِ ؛ فلمْ يكنْ لهُ خوفٌ ولا رجاءٌ ، بلْ صارَ حالُهُ أعلىٰ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، فإنَّهُما زمامانِ يمنعانِ النفسَ عنِ الخروجِ إلىٰ رعوناتِها .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ الواسطيُّ حيثُ قالَ : (الخوفُ حجابٌ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ)[1] .

---

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٣٣) ، وأورده القشيري في « رسالته » =

وقالَ أيضاً : (إذا ظهرَ الحقُّ على السرائرِ . . لا يبقىٰ فيها فضلةٌ لرجاءٍ ولا خوفٍ)[1] .

وبالجملةِ : فالمحبُّ إذا شغلَ قلبَهُ في مشاهدةِ المحبوبِ بخوفِ الفراقِ . . كانَ ذلكَ نقصاً في الشهودِ ، وإنَّما دوامُ الشهودِ غايةُ المقاماتِ ، ولكنَّا الآنَ إنما نتكلَّمُ في أوائلِ المقاماتِ ، فنقولُ :

حالُ الخوفِ ينتظمُ أيضاً مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ .

أمَّا العلمُ : فهوَ العلمُ بالسببِ المفضي إلى المكروهِ ، وذلكَ كمَنْ جنىٰ علىٰ ملكٍ ، ثمَّ وقعَ في يدِهِ ، فيخافُ القتلَ مثلاً ، ويجوِّزُ العفوَ أوِ الإفلاتَ ، ولكنْ يكونُ تألُّمُ قلبِهِ بالخوفِ بحسَبِ قوَّةِ علمِهِ بالأسبابِ المفضيةِ إلىٰ قتلِهِ ، وهوَ تفاحشُ جنايتِهِ ، وكونُ الملكِ في نفسِهِ حقوداً غضوباً منتقماً ، وكونُهُ محفوفاً بمَنْ يحثُّهُ على الانتقامِ ، خالياً عمَّنْ يتشفَّعُ إليهِ في حقِّهِ ، وكانَ هٰذا الخائفُ عاطلاً عنْ كلِّ وسيلةٍ وحسنةٍ تمحو أثرَ جنايتِهِ عندَ الملكِ . فالعلمُ بتظاهرِ هٰذهِ الأسبابِ سببٌ لقوَّةِ الخوفِ وشدَّةِ تألُّمِ القلبِ ، وبحسَبِ ضعفِ هٰذهِ الأسبابِ يضعفُ الخوفُ .

= (ص٢٣٧) ، وقال : (وهٰذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه : أن الخائف متطلع لوقت ثان ، وأبناء الوقت لا تطلع لهم في المستقبل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين) .

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٢٣٩) ، وقال : (وهٰذا فيه إشكال ، ومعناه : إذا اصطلمت شواهد الحق تعالى الأسرار . . ملكتها ، فلا يبقىٰ فيها مساغ لذكر حدثان ، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بالأحكام البشرية) .

وقدْ يكونُ الخوفُ لا عنْ سببِ جنايةٍ قارفَها الخائفُ ، بلْ عنْ صفةِ المَخُوفِ ؛ كالذي وقَع في مخالبِ سبعٍ ؛ فإنَّهُ يخافُ السبعَ لصفةِ ذاتِ السبعِ ، وهيَ سطوتُهُ وحرصُهُ على الافتراسِ غالباً ، وإنْ كانَ افتراسُهُ بالاختيارِ .

وقدْ يكونُ مِنْ صفةٍ جبلِّيَّةٍ للمَخُوفِ منهُ ؛ كخوفِ مَنْ وقعَ في مجرىٰ سيلٍ أوْ جوارِ حريقٍ ؛ فإنَّ الماءَ يُخافُ لأنَّهُ بطبعِهِ مجبولٌ على السيلانِ والإغراقِ ، وكذا النارُ على الإحراقِ .

فالعلمُ بأسبابِ المكروهِ هوَ السببُ الباعثُ المثيرُ لاحتراقِ القلبِ وتألُّمِهِ ، وذلكَ الاحتراقُ هوَ الخوفُ ، فكذلكَ الخوفُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ تارةً يكونُ لمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ وأنَّهُ لوْ أهلكَ العالمينَ . . لمْ يبالِ ولمْ يمنعْهُ مانعٌ ، وتارةً يكونُ لكثرةِ الجنايةِ مِنَ العبدِ بمقارفةِ المعاصي ، وتارةً يكونُ بهما جميعاً .

وبحسَبِ معرفتِهِ بعيوبِ نفسِهِ ، ومعرفتِهِ بجلالِ اللهِ وتعاليهِ واستغنائِهِ ، وأنَّهُ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ . . تكونُ قوَّةُ خوفِهِ ، فأخوفُ الناسِ لربِّهِ أعرفُهُمْ بنفسِهِ وبربِّهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أخوفُكُمْ للهِ »(١) ،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الرهط الثلاثة الذين تقالُّوا عمله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . » الحديث ، وعند البخاري (٦١٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها : « فوالله ؛ إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

ولذلك قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

ثمَّ إذا كملَتِ المعرفةُ . . أورثَتْ حالَ الخوفِ واحتراقِ القلبِ ، ثمَّ يفيضُ أثرُ الحرقةِ مِنَ القلبِ على البدنِ ، وعلى الجوارحِ ، وعلى الصفاتِ .

أمّا في البدنِ . . فبالنحولِ ، والصفارِ ، والغشيةِ ، والزعقةِ ، والبكاءِ ، وقدْ تنشقُّ بهِ المرارةُ فيفضي إلى الموتِ ، أوْ يصعدُ إلى الدماغِ فيفسدُ العقلَ ، أوْ يقوىٰ فيورثُ القنوطَ واليأسَ .

وأمّا في الجوارحِ . . فبكفِّها عنِ المعاصي ، وتقييدِها بالطاعاتِ ؛ تلافياً لما فرطَ ، واستعداداً للمستقبلِ ، ولذلكَ قيلَ : (ليسَ الخائفُ مَنْ يبكي ويمسحُ عينيهِ ، بلْ مَنْ يتركُ ما يخافُ أنْ يُعاقبَ عليهِ)(١) .

وقالَ أبو القاسم الحكيمُ : (مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ خافَ اللهَ . . هربَ إليهِ)(٢) .

وقيلَ لذي النونِ : متىٰ يكونُ العبدُ خائفاً ؟ قالَ : إذا أنزلَ نفسَهُ منزلةَ السقيمِ الذي يحتمي مخافةَ طولِ السقامِ(٣) .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٦) من كلام إسحاق بن خلف .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) ، وأبو القاسم هو إسحاق بن محمد السمرقندي ، وليس القشيري .
(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) .

وأمَّا في الصفاتِ . . فهوَ أنْ يقمعَ الشهواتِ ، ويكدِّرَ اللذَّاتِ ، فتصيرَ المعاصي المحبوبةُ عندَهُ مكروهةً كما يصيرُ العسلُ مكروهاً عندَ مَنْ يشتهيهِ إذا عرفَ أنَّ فيهِ سمّاً ، فتحترقُ الشهواتُ بالخوفِ ، وتتأدَّبُ الجوارحُ ، ويحصلُ في القلبِ الذبولُ ، والخشوعُ ، والذلَّةُ ، والاستكانةُ ، ويفارقُهُ الكبرُ ، والحقدُ ، والحسدُ ، بلْ يصيرُ مستوعبَ الهمِّ بخوفِهِ والنظرِ في خطرِ عاقبتِهِ ، فلا يتفرَّغُ لغيرِهِ ، ولا يكونُ لهُ شغلٌ إلا المراقبةُ ، والمحاسبةُ ، والمجاهدةُ ، والضنَّةُ بالأنفاسِ واللحظاتِ ، ومؤاخذةُ النفسِ في الخطراتِ والخطواتِ والكلماتِ ، ويكونُ حالُهُ حالَ مَنْ وقعَ في مخالبِ سبعٍ ضارٍ ، لا يدري أنَّهُ يغفُلُ عنهُ فيفلتُ ، أوْ يهجمُ عليهِ فيهلكُ ، فيكونُ ظاهرُهُ وباطنُهُ مشغولاً بما هوَ خائفٌ منهُ ، لا متسعَ فيهِ لغيرِهِ .

هـٰذا حالُ مَنْ غلبَهُ الخوفُ واستولىٰ عليهِ ، وهـٰكذا كانَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ .

وقوَّةُ المراقبةِ والمحاسبةِ والمجاهدةِ بحسَبِ قوَّةِ الخوفِ الذي هَو تألُّمُ القلبِ واحتراقُهُ ، وقوَّةُ الخوفِ بحسَبِ قوَّةِ المعرفةِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وبعيوبِ النفسِ وما بينَ يديها مِنَ الأخطارِ والأهوالِ .

وأقلُّ درجاتِ الخوفِ ممَّا يظهرُ أثرُهُ في الأعمالِ أنْ يمنعَ عنِ المحظوراتِ ، ويُسمَّى الكفُّ الحاصلُ عنِ المحظوراتِ **ورعاً** ، فإنْ زادَتْ قوَّتُهُ . . كفَّ عمَّا يتطرَّقُ إليهِ إمكانُ التحريمِ ، فيكفُّ عمَّا لا يُتيقَّنُ أيضاً

تحريمَهُ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ **تقوىٰ**[1] ؛ إذِ التقوىٰ أنْ يتركَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وقدْ يحملُهُ علىٰ أنْ يتركَ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ما بهِ بأسٌ ، وهوَ **الصدقُ في التقوىٰ** ، فإذا انضمَّ إليهِ التجرُّدُ للخدمةِ ، فصارَ لا يبني ما لا يسكنُهُ ، ولا يجمعُ ما لايأكلُهُ ، ولا يلتفتُ إلىٰ دنيا يعلمُ أنَّها تفارقُهُ ، ولا يصرفُ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ نَفَساً مِنْ أنفاسِهِ . . فهوَ **الصدْقُ** ، وصاحبُهُ جديرٌ بأنْ يُسمَّىٰ صدِّيقاً ، ويدخلُ في الصدقِ التقوىٰ ، ويدخلُ في التقوى الورعُ ، ويدخلُ في الورعِ **العفَّةُ** ؛ فإنَّها عبارةٌ عنِ الامتناعِ عنْ مقتضى الشهواتِ خاصةً .

فإذاً ؛ الخوفُ يؤثِّرُ في الجوارحِ بالكفِّ والإقدامِ ، ويتجدَّدُ لهُ بسببِ الكفِّ اسمُ العفَّةِ ، وهوَ كفٌّ عنْ مقتضى الشهوةِ ، وأعلَىٰ منهُ الورعُ ، فإنَّهُ أعمُّ ؛ لأنَّهُ كفٌّ عنْ كلِّ محظورٍ ، وأعلىٰ منهُ التقوىٰ ، فإنَّهُ اسمٌ للكفِّ عنِ المحظورِ والشبهةِ جميعاً ، ووراءَهُ اسمُ **الصدِّيقِ** والمقرَّبِ ، وتجري الرتبةُ الأخيرةُ ممَّا قبلَها مجرى الأخصِّ مِنَ الأعمِّ ، فإذا ذكرتَ الأخصَّ . . فقدْ ذكرتَ الكلَّ ، كما أنَّكَ تقولُ : الإنسانُ إمَّا عربيٌّ وإمَّا عجميٌّ ، والعربيُّ إمَّا قرشيٌّ أوْ غيرُهُ ، والقرشيُّ إمَّا هاشميٌّ أوْ غيرُهُ ، والهاشمِّيُّ إمَّا علويٌّ أوْ غيرُهُ ، والعلويُّ إمَّا حسنيٌّ أوْ حسينيٌّ ، فإذا ذكرتَ أنَّهُ حسنيٌّ مثلاً . . فقدْ

---

(١) وهاذه هي الدرجة الثالثة من درجات الورع ، وهي ما لا تحرمه الفتوىٰ ولا شبهة في حلِّه ، ولكن يُخاف أداؤه إلىٰ محرم ، وهو ورع المتقين . « إتحاف » (٩/ ١٩٩) .

وصفتَهُ بالجميعِ ، وإنْ وصفتَهُ بأنَّهُ علويٌّ . . وصفتَهُ بما هوَ فوقَهُ ممَّا هوَ أعمُّ منهُ ، فكذلكَ إذا قلتَ : صدِّيقٌ . . فقدْ قلتَ : إنَّهُ متقٍ وورعٌ وعفيفٌ ، فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ كثرةَ هـٰذهِ الأسامي تدلُّ علىٰ معانٍ كثيرةٍ متباينةٍ ، فيختلطَ عليكَ كما اختلطَ علىٰ كلِّ مَنْ طلبَ المعانيَ مِنَ الألفاظِ ، ولمْ يتبعِ الألفاظَ المعانيَ .

فهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مجامعِ معاني الخوفِ ، وما يكتنفُهُ مِنْ جانبِ العلوِ ؛ كالمعرفةِ الموجبةِ لهُ ، ومن جانبِ السفلِ ؛ كالأعمالِ الصادرةِ منهُ كفّاً وإقداماً .

* * *

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلمْ : أنَّ الخوفَ محمودٌ ، وربما يُظنُّ أنَّ كلَّ ما هوَ محمودٌ فكلَّما كانَ أقوىٰ وأكثرَ . . كانَ أحمدَ ، وهوَ غلطٌ ، بلِ الخوفُ سوطُ اللهِ تعالىٰ يسوقُ بهِ عبادَهُ إلى المواظبةِ على العلمِ والعملِ ؛ لينالوا بهما رتبةَ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والأصلحُ للبهيمةِ ألا تخلوَ عنْ سوطٍ ، وكذا الصبيُّ ، ولكنَّ ذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ المبالغةَ في الضرْبِ محمودةٌ ، وكذلكَ الخوفُ لهُ قصورٌ ، ولهُ إفراطٌ ، ولهُ اعتدالٌ ، والمحمودُ هوَ الاعتدالُ والوسطُ .

فأمَّا القاصرُ منهُ . . فهوَ الذي يجري مَجرىٰ رقَّةِ النساءِ ، يخطرُ بالبالِ عندَ سماعِ آيةٍ مِنَ القرآنِ ، فيورثُ البكاءَ ، وتفيضُ الدموعُ ، وكذلكَ عندَ مشاهدةِ سببٍ هائلٍ ، فإذا غابَ ذلكَ السببُ عنِ الحسِّ . . رجعَ القلبُ إلى الغفلةِ ، فهٰذا خوفٌ قاصرٌ قليلُ الجدوىٰ ضعيفُ النفعِ ، وهوَ كالقضيبِ الضعيفِ الذي تضربُ بهِ دابَّةً قويَّةً لا يؤلمُها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقُها إلى المقصدِ ، ولا يصلحُ لرياضتِها .

وهكذا خوفُ الناسِ كلِّهِمْ إلا العارفينَ والعلماءَ ، ولستُ أعني بالعلماءِ المترسمينَ برسومِ العلماءِ ، والمتسمينَ بأسمائِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ أبعدُ الناسِ عنِ الخوفِ ، بلْ أعني العلماءَ باللهِ وبأيامِهِ وبأفعالِهِ ، وذلكَ ممَّا قدْ عزَّ وجودُهُ الآنَ .

ولذلكَ قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ : (إذا قيلَ لكَ : هلْ

تخافُ اللهَ : فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا . . كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعمْ . . كذبتَ)[1] ، وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ الخوفَ هوَ الذي يكفُّ الجوارحَ عنِ المعاصي ، ويقيِّدُها بالطاعاتِ ، وما لمْ يؤثِّرْ في الجوارحِ . . فهوَ حديثُ نفْسٍ وحركةُ خاطرٍ ، لا يستحقُّ أنْ يُسمَّىٰ خوفاً .

وأمَّا المفرِطُ . . فهوَ الذي يقوىٰ ويجاوزُ حدَّ الاعتدالِ حتَّىٰ يخرجَ إلى اليأسِ والقنوطِ ، وهوَ مذمومٌ أيضاً ؛ لأنَّهُ يمنعُ مِنَ العملِ ، والمرادُ مِنَ الخوفِ ما هوَ المرادُ مِنَ السوطِ ، وهوَ الحملُ على العملِ ، ولولاهُ . . لما كانَ الخوفُ كمالاً ؛ لأنَّهُ بالحقيقةِ نقصانٌ ؛ لأنَّ منشأَهُ الجهلُ والعجزُ :

أمَّا الجهلُ . . فإنَّهُ ليسَ يدري عاقبةَ أمرِهِ ، ولوْ عرفَ . . لمْ يكنْ خائفاً ؛ لأنَّ المَخُوفَ هوَ الذي يُتردَّدُ فيهِ .

وأمَّا العجزُ . . فهوَ أنَّهُ متعرضٌ لمحذورٍ لا يقدرُ علىٰ دفعِهِ .

فإذاً ؛ هوَ محمودٌ بالإضافةِ إلىٰ نقْصِ الآدميِّ ، وإنَّما المحمودُ في نفسِهِ وذاتِهِ هوَ العلمُ والقدرةُ ، وكلُّ ما يجوزُ أنْ يُوصفَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وما لا يجوزُ وصفُ اللهِ بهِ . . فليسَ بكمالٍ في ذاتِهِ ، وإنَّما يصير محموداً بالإضافةِ إلىٰ نقْصٍ أعظمَ منهُ ، كما يكونُ احتمالُ ألمِ الدواءِ محموداً لأنَّهُ أهونُ مِنْ ألمِ المرضِ والموتِ ، فما يخرجُ إلى القنوطِ فهوَ مذمومٌ .

وقدْ يخرجُ الخوفُ أيضاً إلى المرضِ والضعفِ ، وإلى الولهِ والدهشةِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٦) .

وزوالِ العقلِ ، وقدْ يخرجُ إلى الموتِ ، وكلُّ ذلكَ مذمومٌ ، وهوَ كالضربِ الذي يقتلُ الصبيَّ ، والسوطِ الذي يهلكُ الدابَّةَ أوْ يمرضُها أوْ يكسرُ عضواً مِنْ أعضائِها ، وإنَّما ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسبابَ الرجاءِ وأكثرَ منها ليعالجَ بها صدمةَ الخوفِ المفرطِ المفضي إلى القنوطِ أوْ أحدِ هـٰذهِ الأمورِ ، فكلُّ ما يرادُ لأمرٍ فالمحمودُ منهُ ما يفضي إلى المرادِ المقصودِ منهُ ، وما يقصرُ عنهُ أوْ يجاوزُهُ فهوَ مذمومٌ .

وفائدةُ الخوفِ : الحذرُ ، والورعُ ، والتقوىٰ ، والمجاهدةُ ، والعبادةُ ، والفكرُ ، والذكرُ ، وسائرُ الأسبابِ الموصلةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكلُّ ذلكَ يستدعي الحياةَ معَ صحَّةِ البدنِ وسلامةِ العقلِ ، فكلُّ ما يقدحُ في هـٰذهِ الأسبابِ فهوَ مذمومٌ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : مَنْ خافَ فماتَ مِنْ خوفِهِ فهوَ شهيدٌ ، فكيفَ يكونُ حالُهُ مذموماً ؟!

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ كونِهِ شهيداً أنَّ لهُ رتبةً بسببِ موتِهِ مِنَ الخوفِ كانَ لا ينالُها لوْ ماتَ في ذلكَ الوقتِ لا بسببِ الخوفِ ، فهوَ بالإضافةِ إليهِ فضيلةٌ ، فأمَّا بالإضافةِ إلىٰ تقديرِ بقائِهِ وطولِ عمرِهِ في طاعةِ اللهِ وسلوكِ سبلِهِ . . فليسَ بفضيلةٍ ، بلْ للسالكِ سبيلَ اللهِ تعالىٰ بطريقِ الفكرِ والمشاهدةِ والترقِّي في درجاتِ المعارفِ في كلِّ لحظةٍ رتبةُ شهيدٍ وشهداءَ ، ولولا

هـٰذا . . لكانَتْ رتبةُ صبيٍّ يُقتلُ أوْ مجنونٍ يفترسُهُ سبعٌ أعلىٰ مِنْ رتبةِ نبيٍّ أوْ وليٍّ يموتُ حتفَ أنفِهِ ، وهوَ محالٌ ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ هـٰذا ، بلْ أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ ما أبطلَ العمرَ أوِ العقلَ أوِ الصحَّةَ التي يتعطَّلُ العمرُ بتعطُّلِها . . فهوَ خسرانٌ ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ أمورٍ ، وإنْ كانَ بعضُ أقسامِها فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ أمورٍ أخرَ ؛ كما كانَتِ الشهادةُ فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ ما دونَها ، لا بالإضافةِ إلىٰ درجةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ .

فإذاً ؛ الخوفُ إنْ لمْ يؤثِّرْ في العملِ . . فوجودُهُ كعدمِهِ ؛ مثلُ السوطِ الذي لا يزيدُ في حركةِ الدابَّةِ ، وإنْ أثَّرَ . . فلهُ درجاتٌ بحسَبِ ظهورِ أثرِهِ ، فإنْ لمْ يحملْ إلا على العفَّةِ وهيَ الكفُّ عنْ مقتضى الشهواتِ . . فلهُ درجةٌ ، فإنْ أثمرَ الورعَ . . فهوَ أعلىٰ ، وأقصىٰ درجاتِهِ أنْ يثمرَ درجاتِ الصدِّيقينَ ، وهوَ أنْ يسلبَ الظاهرَ والباطنَ عمَّا سوى اللهِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لغيرِ اللهِ فيهِ متسعٌ ، فهـٰذا أقصىٰ ما يُحمدُ منهُ ، وذلكَ معَ بقاءِ الصحَّةِ والعقلِ .

فإنْ جاوزَ هـٰذا إلىٰ إزالةِ العقلِ أوِ الصحَّةِ . . فهوَ مرضٌ يجبُ علاجُهُ إنْ قدرَ عليهِ ، ولوْ كانَ محموداً . . لما وجبَ علاجُهُ بأسبابِ الرجاءِ وبغيرِهِ حتَّىٰ يزولَ ، ولذلكَ كانَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ للمريدينَ الملازمينَ للجوعِ أياماً كثيرةً : (احفظوا عقولَكُمْ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ للهِ تعالىٰ وليٌّ ناقصُ العقلِ)[1] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٨) .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلىٰ ما يُخاف منه

اعلمْ : أنَّ الخوفَ لا يتحقَّقُ إلا بانتظارِ مكروهٍ ، والمكروهُ إمَّا أنْ يكونَ مكروهاً في ذاتِهِ كالنارِ ، وإمَّا أنْ يكونَ مكروهاً لأنَّهُ يفضي إلى المكروهِ ؛ كما تُكرهُ المعاصي لأدائِها إلىٰ مكروهٍ في الآخرةِ ، وكما يكرهُ المريضُ الفواكهَ المضرَّةَ لأدائِها إلى الموتِ ، ولا بدَّ لكلِّ خائفٍ أنْ يتمثَّلَ في نفسِهِ مكروهاً مِنْ أحدِ القسمينِ ، ويقوى انتظارُهُ في قلبِهِ حتَّىٰ يحترقَ قلبُهُ بسببِ استشعارِهِ ذلكَ المكروهَ .

ومقامُ الخائفينَ يختلفُ فيما يغلبُ علىٰ قلوبِهِمْ مِنَ المكروهاتِ المحذورةِ ، فالذينَ يغلبُ علىٰ قلوبِهِمْ ما ليسَ مكروهاً لذاتِهِ بلْ لغيرِهِ ؛ كالذينَ يغلبُ عليهِمْ خوفُ الموتِ قبلَ التوبةِ ، أوْ خوفُ نقضِ التوبةِ ونكثِ العهدِ ، أوْ خوفُ ضعفِ القوَّةِ عنِ الوفاءِ بتمامِ حقوقِ اللهِ ، أوْ خوفُ زوالِ رقَّةِ القلبِ وتبدُّلِها بالقساوةِ أوْ خوفُ الميلِ عَنِ الاستقامةِ ، أوْ خوفُ استيلاءِ العادةِ فِي اتباعِ الشهواتِ المألوفةِ ، أوْ خوفُ أنْ يكلَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ حسناتِهِ التي اتكلَ عليها وتعزَّزَ بها في عبادِ اللهِ ، أوْ خوفُ البطرِ بكثرةِ نعَمِ اللهِ عليهِ ، أوْ خوفُ الاشتغالِ عنِ اللهِ بغيرِ اللهِ ، أوْ خوفُ الاستدراجِ بتواترِ النعَمِ ، أوْ خوفُ انكشافِ غوائلِ طاعاتِهِ حيثُ يبدو لهُ مِنَ اللهِ ما لمْ يكنْ يحتسبُ ، أوْ خوفُ تبعاتِ الناسِ عندَهُ في الغيبةِ والخيانةِ والغشِّ وإضمارِ السوءِ ، أوْ

خوفُ ما لا يدري أنَّهُ يحدثُ في بقيَّةِ عمرِهِ ، أوْ خوفُ تعجيلِ العقوبةِ في الدنيا والافتضاحِ قبلَ الموتِ ، أوْ خوفُ الاغترارِ بزخارفِ الدنيا ، أوْ خوفُ اطلاعِ اللهِ علىٰ سريرتِهِ في حالِ غفلتِهِ عنهُ ، أوْ خوفُ الختْمِ لهُ عندَ الموتِ بخاتمةِ السوءِ ، أوْ خوفُ السابقةِ التي سبقَتْ لهُ في الأزلِ . . فهـٰذهِ كلُّها مخاوفُ العارفينَ ، ولكلِّ واحدٍ خصوصُ فائدةٍ ، وهوَ سلوكُ سبيلِ الحذرِ عمَّا يفضي إلى المَخُوفِ .

فمَنْ يخافُ استيلاءَ العادةِ عليهِ . . فيواظبُ على الفطامِ عنِ العادةِ ، والذي يخافُ مِنِ اطلاعِ اللهِ علىٰ سريرتِهِ يشتغلُ بتطهيرِ قلبِهِ عنِ الوساوسِ ، وهـٰكذا إلىٰ بقيةِ الأقسامِ .

وأغلبُ هـٰذهِ المخاوفِ على المتقينَ خوفُ الخاتمةِ ، فإنَّ الأمرَ فيهِ مُخْطِرٌ ، وأعلى الأقسامِ وأدلُّها علىٰ كمالِ المعرفةِ خوفُ السابقةِ ؛ لأنَّ الخاتمةَ تتبعُ السابقةَ ، وفرعٌ يتفرعُ عنها بعدَ تخلُّلِ أسبابٍ كثيرةٍ ، فالخاتمةُ تُظهرُ ما سبقَ بهِ القضاءُ في أمِّ الكتابِ .

والخائفُ مِنَ الخاتمةِ بالإضافةِ إلى الخائفِ مِنَ السابقةِ كرجلينِ وقَّعَ الملكُ في حقِّهما بتوقيعٍ ، يحتملُ أنْ يكونَ فيهِ حزُّ الرقبةِ ، ويحتملُ أنْ يكونَ فيهِ تسليمُ الوزارةِ إليهِ ، ولمْ يصلِ التوقيعُ إليهما بعدُ ، فيرتبطُ قلبُ أحدِهما بحالةِ وصولِ التوقيعِ ونشرِهِ ، وأنَّهُ عمَّاذا يظهرُ ، ويرتبطُ قلبُ الآخرِ بحالةِ توقيعِ الملكِ وكيفيتِهِ وأنَّهُ ما الذي خطرَ لهُ في حالِ التوقيعِ مِنْ رحمةٍ أوْ

غضبٍ ، وهـٰذا التفاتٌ إلى السببِ ، فهوَ أعلىٰ مِنَ الالتفاتِ إلىٰ ما هوَ فرعٌ ؛ فكذلكَ الالتفاتُ إلى القضاءِ الأزليِّ الذي جرىٰ بتوقيعِهِ القلمُ أعلىٰ مِنَ الالتفاتِ إلىٰ ما يظهرُ في الأبدِ .

وإليهِ أشارَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ كانَ على المنبرِ ، فقبضَ كفَّهُ اليمنىٰ ثمَّ قالَ : « هـٰذا كتابُ اللهِ ، كُتبَ فيهِ أهلُ الجنَّةِ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ ، لا يُزادُ فيهِمْ ولا ينقصُ » ، ثمَّ قبضَ كفَّهُ اليسرىٰ وقالَ : « هـٰذا كتابُ اللهِ ، كُتبَ فيهِ أهلُ النارِ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ ، لا يُزادُ فيهِمْ ولا ينقصُ ، وليعملنَّ أهلُ السعادةِ بعملِ أهلِ الشقاءِ حتَّىٰ يُقالَ كأنهُمْ منهُمْ ، بلْ هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستنقذُهُمُ اللهُ تعالىٰ قبلَ الموتِ ولوْ بفُواقِ ناقةٍ ، وليعملنَّ أهلُ الشقاءِ بعملِ أهلِ السعادةِ حتَّىٰ يُقالَ كأنَّهُمْ منهُمْ ، بلْ هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستخرجُهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ قبلَ الموتِ ولوْ بفُواقِ ناقةٍ ، السعيدُ مَنْ سعدَ بقضاءِ اللهِ ، والشقيُّ مَنْ شقيَ بقضاءِ اللهِ ، والأعمالُ بالخواتيمِ »[1] .

وهـٰذا كانقسامِ الخائفينَ إلىٰ مَنْ يخافُ معصيتَهُ وجنايتَهُ ، وإلىٰ مَنْ يخافُ اللهَ تعالىٰ نفسَهُ لصفتِهِ وجلالِهِ وأوصافِهِ التي تقتضي الهيبةَ لا محالةَ ، فهـٰذا أعلىٰ رتبةً ، ولذلكَ يبقىٰ خوفُهُ وإنْ كانَ في طاعةِ الصدِّيقينَ ، وأمَّا الآخَرُ . فهوَ في عرضةِ الغرورِ ، والأمنِ إنْ واظبَ على الطاعاتِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ومطلعه : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هـٰذان الكتابان ؟ » ثم ساقه بنحوه .

فالخوفُ مِنَ المعصيةِ خوفُ الصالحينَ ، والخوفُ مِنَ اللهِ خوفُ الموحِّدينَ والصدِّيقينَ ، وهوَ ثمرةُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مَنْ عرفَهُ وعرفَ صفاتِهِ.. علمَ مِنْ صفاتِهِ ما هوَ جديرٌ بأنْ يُخافَ مِنْ غيرِ جنايةٍ ، بلِ العاصي لوْ عرفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ.. لخافَ اللهَ ولمْ يخفْ معصيتَهُ ، ولولا أنَّهُ مَخُوفٌ في نفسِهِ.. لما سخَّرَهُ للمعصية ، ويسَّرَ لهُ سبيلَها ، ومهَّدَ لهُ أسبابَها ، فإنَّ تيسيرَ أسبابِ المعصيةِ إبعادٌ ، ولمْ يسبقْ منهُ قبلَ المعصيةِ معصيةٌ استحقَّ بها أنْ يسخَّرَ للمعصيةِ ، وتجريَ عليهِ أسبابُها ، ولا سبقَ قبلَ الطاعةِ وسيلةٌ توسَّل بَها مَنْ يُسِّرتْ لهُ الطاعاتُ ومُهِّدَ لهُ سبيلُ القرباتِ ، فالعاصي قدْ قضىٰ عليهِ بالمعصيةِ شاءَ أمْ أبىٰ ، وكذا المطيعُ ، فالذي يرفعُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أعلىٰ عليينَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سبقَتْ منهُ قبلَ وجودِهِ ، ويضعُ أبا جهل في أسفلِ سافلينَ مِنْ غيرِ جنايةٍ سبقَتْ منهُ قبلَ وجودِهِ.. جديرٌ بأنْ يُخافَ لصفةِ جلالِهِ ، فإنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ.. أطاعَ بأنْ سلَّطَ عليهِ إرادةَ الطاعةِ ، وآتاهُ القدرةَ ، وبعدَ خلقِ الإرادةِ الجازمةِ والقدرةِ التامَّةِ يصيرُ الفعلُ ضرورياً ، والذي عصىٰ.. عصىٰ لأنَّهُ سلَّطَ عليهِ إرادةً قويَّةً جازمةً ، وآتاهُ الأسبابَ والقدرةَ ، فكانَ الفعلُ بعدَ الإرادةِ والقدرةِ ضرورياً .

فليتَ شعري ؛ ما الذي أوجبَ إكرامَ هـٰذا وتخصيصَهُ بتسليطِ إرادةِ الطاعاتِ عليهِ ، وما الذي أوجبَ إهانةَ الآخرِ وإبعادَهُ بتسليطِ دواعي المعصيةِ عليهِ ؟! وكيفَ يُحالُ ذلكَ على العبدِ ؟! وإذا كانتِ الحوالةُ ترجعُ إلى القضاءِ الأزليِّ مِنْ غيرِ جنايةٍ ولا وسيلةٍ.. فالخوفُ ممَّنْ يقضي

بما يشاءُ ويحكمُ بما يريدُ حزمٌ عندَ كلِّ عاقلٍ .

ووراءَ هـٰذا المعنىٰ سرُّ القدرِ الذي لا يجوزُ إفشاؤُهُ .

ولا يمكنُ تفهيمُ الخوفِ منهُ في صفاتِهِ جلَّ جلالُهُ إلا بمثالٍ لولا إذنُ الشرعِ . . لمْ يستجرىءْ علىٰ ذكرِهِ ذو بصيرةٍ ، فقدْ جاءَ في الخبرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ خفْني كما تخافُ السبعَ الضاريَ)(١) .

فهـٰذا المثالُ يفهمُكَ حاصلَ المعنىٰ ، وإنْ كانَ لا يقفُ بكَ علىٰ سببِهِ ، فإنَّ الوقوفَ علىٰ سببِهِ وقوفٌ علىٰ سرِّ القدرِ ، ولا يُكشفُ ذلكَ إلا لأهلِهِ .

والحاصلُ : أنَّ السبعَ يُخافُ لا لجنايةٍ سبقَتْ إليهِ منكَ ، بلْ لصفتِهِ وبطشِهِ وسطوتِهِ ، وكبرِهِ وهيبتِهِ ، ولأنَّهُ يفعلُ ما يفعلُ ولا يبالي ، فإنْ قتلكَ . . لم يرقَّ قلبُهُ ولمْ يتألَّمْ بقتلِكَ ، وإن خلاَّكَ . . لمْ يخلِّكَ شفقةً عليكَ وإبقاءً علىٰ روحِكَ ، بلْ أنتَ عندَهُ أخسُّ مِنْ أنْ يلتفتَ إليكَ حيّاً كنتَ أو ميتاً ، بلْ إهلاكُ ألفِ مثلِكَ وإهلاكُ نملةٍ عندَهُ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ ؛ إذْ لا يقدحُ ذلكَ في عالمِ سبعيتِهِ ، وما هوَ موصوفٌ بهِ مِنْ قدرتِهِ وسطوتِهِ ، وللهِ المثلُ الأعلىٰ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤١) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فإنه عبر عنه بقوله : جاء في الخبر ، وكثيراً ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة) . « إتحاف » (٩/ ٢٠٧) .
وعند السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٧٠) : (وأخرج ابن المنذر عن جعفر قال : أوحى الله إلىٰ داوود : خفني علىٰ كل حال . . .) .

ولكنْ مَنْ عرفَهُ . . عرفَ بالمشاهدةِ الباطنةِ التي هيَ أقوىٰ وأوثقُ وأجلىٰ مِنَ المشاهدةِ الظاهرةِ أنَّهُ صادقٌ في قولِهِ : (هؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النارِ ولا أبالي)(١) ، ويكفيكَ مِنْ موجباتِ الهيبةِ والخوفِ المعرفةُ بالاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ .

الطبقةُ الثانيةُ مِنَ الخائفينَ : أن يتمثَّلَ في أنفسِهِمْ ما هوَ المكروهُ ، وذلكَ مثلُ سكراتِ الموتِ وشدَّتِهِ ، أو سؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، أوْ عذابِ القبرِ ، أوْ هولِ المُطَّلَعِ ، أوْ هيبةِ الموقفِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، أوِ الحياءِ مِنْ كشفِ السترِ والسؤالِ عنِ النقيرِ والقطميرِ ، أوِ الخوفِ مِنَ الصراطِ وحدَّتِهِ ، وكيفيَّةِ العبورِ عليهِ ، أوِالخوفِ مِنَ النارِ وأغلالِها وأهوالِها ، أوِ الخوفِ مِنَ الحرمانِ عنِ الجنَّةِ دارِ النعيمِ والملكِ المقيمِ ، وعنْ نقصانِ الدرجاتِ ، أو الخوفِ مِنَ الحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وكلُّ هـٰذهِ الأسبابِ مكروهةٌ في أنفسِها ، فهيَ ـ لا محالةَ ـ مَخُوفةٌ ، وتختلفُ أحوالُ الخائفينَ فيها ، وأعلاها رتبةً هوَ خوفُ الفراقِ والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ خوفُ العارفينَ ، وما قبلَ ذلكَ خوفُ العابدينَ والصالحينَ والزاهدينَ وكافةِ العاملينَ .

ومَنْ لمْ تكملْ معرفتُهُ ، ولمْ تنفتحْ بصيرتُهُ . . لمْ يشعرْ بلذَّةِ الوصالِ ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمـٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً .

ولا بألمِ البعدِ والفراقِ ، وإذا ذُكرَ لهُ أنَّ العارفَ لا يخافُ النارَ ، وإنَّما يخافُ الحجابَ . . وجدَ ذلكَ منكراً في باطنِهِ ، وتعجَّبَ منهُ في نفسِهِ ، وربَّما أنكرَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ لولا منعُ الشرعِ إيَّاهُ مِنْ إنكارِهِ ، فيكونُ اعترافُهُ بهِ باللسانِ عنْ ضرورةِ التقليدِ ، وإلا . . فباطنُهُ لا يصدِّقُ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يعرفُ إلا لذَّةَ البطنِ والفرجِ ، والعينِ بالنظرِ إلى الألوانِ والوجوهِ الحسانِ ، وبالجملةِ : كلُّ لذَّةٍ تشاركُهُ البهائمُ فيها ، فأمَّا لذَّةُ العارفينَ . . فلا يدركُها غيرُهُمْ ، وتفصيلُ ذلكَ وشرحُهُ حرامٌ معَ مَنْ ليسَ أهلاً لهُ ، ومَنْ كانَ أهلاً لهُ . . استبصرَ بنفسِهِ واستغنىٰ عنْ أنْ يشرحَهُ لهُ غيرُهُ .

فإلىٰ هـٰذهِ الأقسامِ يرجعُ خوفُ الخائفينَ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ .

❋ ❋ ❋

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلمْ : أنَّ فضلَ الخوفِ تارةً يُعرفُ بالتأمُّلِ والاعتبارِ ، وتارةً بالآياتِ والأخبارِ .

أمَّا الاعتبارُ : فسبيلُهُ أنَّ فضيلةَ الشيءِ بقدْرِ غنائِهِ في الإفضاءِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ في الآخرةِ ؛ إذْ لا مقصودَ سوى السعادةِ ، ولا سعادةَ للعبدِ إلا في لقاءِ مولاهُ والقرْبِ منهُ ، فكلُّ ما أعانَ عليهِ فلهُ فضيلةٌ ، وفضيلتُهُ بقدْرِ إعانتِهِ ، وقدْ ظهرَ أنَّه لا وصولَ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ في الآخرةِ إلاّ بتحصيلِ محبَّتِهِ والأنسِ بِهِ فِي الدنيا ، ولا تحصلُ المحبَّةُ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصلُ المعرفةُ إلا بدوامِ الفكرِ ، ولا يحصلُ الأنسُ إلا بالمحبةِ ودوامِ الذكرِ ، ولا تتيسَّرُ المواظبةُ على الذكرِ والفكرِ إلا بانقلاعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، ولا ينقلعُ ذاكَ إلا بتركِ لذَّاتِ الدنيا وشهواتِها ، ولا يمكنُ تركُ المشتهَياتِ إلا بقمعِ الشهواتِ ، ولا تنقمعُ الشهوةُ بشيءٍ كما تنقمعُ بنارِ الخوفِ ، فالخوفُ هوَ النارُ المحرقةُ للشهواتِ .

فإذاً ؛ فضيلتُهُ بقدْرِ ما يحرقُ مِنَ الشهوةِ ، وبقدْرِ ما يكفُّ عنِ المعاصي ويحثُّ على الطاعاتِ ، ويختلفُ ذلكَ باختلافِ درجاتِ الخوفِ كما سبقَ .

وكيفَ لا يكونُ الخوفُ ذا فضيلةٍ وبهِ تحصلُ العفَّةُ ، والورعُ ،

والتقوىٰ ، والمجاهدةُ ، وهيَ الأعمالُ الفاضلةُ المحمودةُ التي يُتقرَّبُ بهَا إلى اللهِ زلفى ؟!

* * *

وأمَّا بطريقِ الاقتباسِ مِنَ الآياتِ والأخبارِ : فما وردَ في فضيلةِ الخوفِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وناهيكَ دلالةً علىٰ فضيلتِهِ جمعُ اللهِ تعالىٰ للخائفينَ الهدىٰ والرحمةَ والعلمَ والرضوانَ ، وهيَ مجامعُ مقاماتِ أهلِ الجنانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، فوصفَهُمْ بالعلمِ لخشيتِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ .

وكلُّ ما دلَّ علىٰ فضيلةِ العلمِ دلَّ علىٰ فضيلةِ الخوفِ ؛ لأنَّ الخوفَ ثمرةُ العلمِ ، ولذلكَ جاءَ في خبرِ موسىٰ عليهِ السلامُ : (وأمَّا الخائفونَ . . فإنَّ لهُمُ الرفيقَ الأعلىٰ ، لا يُشاركونَ فيهِ)[1] ، فانظرْ كيفَ أفردَهُمْ بمرافقةِ الرفيقِ الأعلىٰ ، وذلكَ لأنَّهُمُ العلماءُ ، والعلماءُ لهُمْ رتبةُ مرافقةِ الأنبياءِ ؛ لأنَّهُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، ومرافقةُ الرفيقِ الأعلىٰ للأنبياءِ ومَنْ يلحقُ بهِمْ ، ولذلكَ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ضمن خبر ، وفيه : « وأما الباكون من خشيتي . . فأولـٰئك لهم الرفيق الأعلىٰ لا يشاركهم فيه أحد » .

لمَّا خُيِّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مرضِ موتِهِ بينَ البقاءِ في الدنيا وبينَ القدومِ على اللهِ تعالىٰ.. كانَ يقولُ : « أسألُكَ الرفيقَ الأعلىٰ »[1] .

فإذاً ؛ إنْ نظرَ إلىٰ مُثمرِهِ.. فهوَ العلمُ ، وإنْ نظرَ إلىٰ ثمرتِهِ.. فالورعُ والتقوىٰ ، ولا يخفىٰ ما وردَ في فضائلِهِما ، حتَّىٰ إنَّ العاقبةَ صارَتْ موسومةً بالتقوىٰ مخصوصةً بها كما صارَ الحمدُ مخصوصاً باللهِ تعالىٰ والصلاةُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ يُقالُ : (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والعاقبةُ للمتقينَ ، والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ) .

وقدْ خصَّصَ اللهُ تعالىٰ التقوىٰ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وإنَّما التقوىٰ عبارةٌ عنْ كفٍّ بمقتضى الخوفِ كما سبقَ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، ولذلكَ وصَّى اللهُ تعالى الأولينَ والآخرينَ بالتقوىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، فأمرَ بالخوفِ وأوجبَهُ وشرطَهُ في الإيمانِ ، فلذلكَ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ مؤمنٌ عنْ خوفٍ وإنْ ضعفَ ، ويكونُ ضعْفُ خوفِهِ بحسَبِ ضعْفِ معرفتِهِ وإيمانِهِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في فضيلةِ التقوىٰ : « إذا جمعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ.. ناداهُمْ بصوتٍ يُسمِعُ أقصاهُمْ كما

(١) رواه البخاري (٣٦٧٠) ، ومسلم (٢١٩١ ، ٢٤٤٤) .

يُسمِعُ أدناهُمْ فيقولُ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قدْ أنصتُّ لكُمْ منذُ خلقتُكُمْ إلىٰ يومِكُمْ هـٰذا ، فأنصتوا لي اليومَ ، إنَّما هيَ أعمالُكُمْ تُردُّ عليكُمْ ، أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قدْ جعلتُ نسباً وجعلتُمْ نسباً ، فوضعتُمْ نسبي ورفعتُمْ نسبَكُمْ ، قلتُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وأبيتُمْ إلا أنْ تقولوا : فلانُ بنُ فلانٍ ، وفلانٌ أغنىٰ مِنْ فلانٍ ، فاليومَ أضعُ نسبَكُمْ وأرفعُ نسبي ، أينَ المتقونَ ؟ فيُنصبُ للقومِ لواءٌ ، فيتبعُ القومُ لواءَهُمْ إلىٰ منازِلِهِمْ ، فيدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ »(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لابنِ مسعودٍ : « إنْ أردتَ أنْ تلقاني . . فأكثِرْ مِنَ الخوفِ بعدي »(٣) .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ خافَ اللهَ . . دلَّهُ الخوفُ علىٰ كلِّ خيرٍ)(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٣٠) ، و« الأوسط » (٤٥٠٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفي « دلائل النبوة » (٥/ ٢٤١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ضمن خبر طويل ، وفيه : « رأس الحكم . . . » ، وتقدم أنه فاتحة الزبور ، وهو ما رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٦) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٦) .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (ما خفتُ اللهَ يوماً إلا رأيتُ لهُ باباً مِنَ الحكمةِ والعبرةِ ما رأيتُهُ قطُّ)(١) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (ما مِنْ مؤمنٍ يعملُ سيئةً إلا وتلحقُهُ حسنتانِ : خوفُ العقابِ ، ورجاءُ العفوِ ، كثعلبٍ بينَ أسدينِ)(٢) .

وفي خبرِ موسىٰ عليه الصلاةُ والسلامُ : (وأمَّا الورعونَ . . فإنَّهُ لا يبقىٰ أحدٌ إلا ناقشتُهُ الحسابَ ، وفتشتُ عمَّا في يديهِ إلا الورعينَ ؛ فإنِّي أستحييهِمْ وأجلُّهُمْ أنْ أوقفَهُمْ للحسابِ)(٣) .

والورعُ والتقوىٰ أسامٍ اشتقَّتْ مِنْ معانٍ شرطُها الخوفُ ، فإنْ خلا شيءٌ منها عنِ الخوفِ . . لمْ تُسمَّ بهـٰذهِ الأسامي .

وكذلكَ ما وردَ في فضائلِ الذكرِ لا يخفىٰ ، وقدْ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ مخصوصاً بالخائفينَ ، فقالَ ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : وعزَّتي ؛ لا أجمعُ علىٰ عبدي خوفينِ ، ولا أجمعُ لهُ أمنينِ ، فإذا أمنَني في الدنيا . . أخفتُهُ يومَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٨) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) .

القيامةِ ، وإذا خافَني في الدنيا . . أمَّنتُهُ يومَ القيامةِ »(١) .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ اللهَ تعالىٰ . . خافَهُ كلُّ شيءٍ ، ومَنْ خافَ غيرَ اللهِ . . خوَّفَهُ اللهُ مِنْ كلِّ شيءٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدُّكُمْ للهِ تعالىٰ خوفاً ، وأحسنُكُمْ فيما أمرَ اللهُ تعالىٰ بهِ ونهىٰ عنهُ نظراً »(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لوْ خافَ النارَ كما يخافُ الفقرَ . . دخلَ الجنةَ)(٤) .

وقالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ خافَ اللهَ تعالىٰ . . ذابَ قلبُهُ ، واشتدَّ للهِ حبُّهُ ، وصحَّ لهُ لبُّهُ)(٥) .

وقالَ ذو النونِ أيضاً : (ينبغي أنْ يكونَ الخوفُ أبلغَ مِنَ الرجاءِ ،

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » بإسناد معضل) . « إتحاف » (٩/٢١١) .

(٣) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٢١٥) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص٢٣٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٩) ، وبنحوه القشيري في « رسالته » (ص٢٣٨) .

فإذا غلبَ الرجاءُ.. تشوَّشَ القلبُ)[1] .

وكانَ أبو الحسينِ الضريرُ يقولُ : (علامةُ السعادةِ خوفُ الشقاوةِ ؛ لأنَّ الخوفَ زمامٌ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ عبدِهِ ، فإذا انقطعَ زمامُهُ.. هلكَ مع الهالكينَ)[2] .

وقيلَ ليحيىٰ بنِ معاذٍ : مَنْ آمنُ الخلقِ غداً ؟ قالَ : أشدُّهُمْ خوفاً اليومَ[3] .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (لا تجدُ الخوفَ حتَّىٰ تأكلَ الحلالَ)[4] .

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ : كيفَ نصنعُ بمجالسةِ أقوامٍ يخوِّفونَنا حتَّىٰ تكادُ قلوبُنا تطيرُ ؟ فقالَ : إنَّكَ واللهِ أنْ تخالطَ أقواماً يخوِّفونَكَ حتَّىٰ يدركَكَ أمنٌ.. خيرٌ لكَ مِنْ أنَ تصحبَ قوماً يؤمِّنونَكَ حتَّىٰ يدركَكَ الخوفُ[5] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (ما فارقَ الخوفُ قلباً إلا خربَ)[6] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هوَ الرجلُ يسرقُ ويزني ؟ قالَ : « لا ، بلِ الرجلُ يصومُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٩) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٠) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٢) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٣) ، وكان السائل له المغيرة بن مخادش .
(٦) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٣٧) .

ويصلِّي ويتصدَّقُ ويخافُ ألا يُقبلَ منهُ »[1] .

والتشديداتُ الواردةُ في الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ وعذابِهِ لا تنحصرُ ، وكلُّ ذلكَ ثناءٌ على الخوفِ ؛ لأنَّ مذمَّةَ الشيءِ ثناءٌ علىٰ ضدِّهِ الذي ينفيهِ ، وضدُّ الخوفِ الأمنُ ؛ كما أنَّ ضدَّ الرجاءِ اليأسُ ، وكما دلَّتْ مذمَّةُ القنوطِ علىٰ فضيلةِ الرجاءِ فكذلكَ تدلُّ مذمَّةُ الأمنِ علىٰ فضيلةِ الخوفِ المضادِّ لهُ .

بلْ نقولُ : كلُّ ما وردَ في فضلِ الرجاءِ فهوَ دليلٌ علىٰ فضْلِ الخوفِ ؛ لأنَّهُما متلازمانِ ؛ فإنَّ كلَّ مَنْ رجا محبوباً . . فلا بدَّ وأنْ يخافَ فوتَهُ ، فإنْ كانَ لا يخافُ فوتَهُ . . فهوَ إذاً لا يحبُّهُ ، فلا يكونُ بانتظارِهِ راجياً ، فالخوفُ والرجاءُ متلازمانِ ، يستحيلُ انفكاكُ أحدِهِما عنِ الآخرِ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يغلبَ أحدُهُما على الآخرِ وهما مجتمعانِ ، ويجوزُ أنْ يشتغلَ القلبُ بأحدِهِما ولا يلتفتُ إلى الآخرِ في الحالِ لغفلةٍ عنهُ ، وهٰذا لأنَّ مِنْ شرطِ الرجاءِ والخوفِ تعلُّقَهُما بما هوَ مشكوكٌ فيهِ ؛ إذِ المعلومُ لا يُرجىٰ ولا يُخافُ .

فإذاً ؛ المحبوبُ الذي يجوزُ وجودُهُ يجوزُ عدمُهُ لا محالةَ ، فتقديرُ وجودِهِ يروِّحُ القلبَ ، وهوَ الرجاءُ ، وتقديرُ عدمِهِ يوجعُ القلبَ ، وهوَ الخوفُ ، والتقديرانِ يتقابلانِ ـ لا محالةَ ـ إذا كانَ ذلكَ الأمرُ المنتظرُ مشكوكاً فيهِ .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٤١٩٨) .

نعمْ ، أحدُ طرفي الشكِّ قدْ يترجَّحُ على الآخرِ بحضورِ بعضِ الأسبابِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ ظناً ، فيكونُ ذلكَ سببَ غلبةِ أحدِهما على الآخرِ ، فإذا غلبَ على الظنِّ وجودُ المحبوبِ . . قويَ الرجاءُ وخفيَ الخوفُ بالإضافةِ إليهِ ، وكذا بالعكسِ .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فهما متلازمانِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

ولذلكَ عبَّرَ العربُ عنِ الخوفِ بالرجاءِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أيْ : لا تخافونَ[1] ، وكثيراً ما وردَ في القرآنِ الرجاءُ بمعنى الخوفِ[2] ، وذلكَ لتلازمِهما ؛ إذْ عادةُ العربِ التعبيرُ عنِ الشيءِ بما يلازمُهُ .

بلْ أقولُ : كلُّ ما وردَ في فضلِ البكاءِ مِنْ خشيةِ اللهِ فهوَ إظهارٌ لفضيلةِ

---

(١) قال الإمام الطبري في « تفسيره » (١٤/٢٩/١١٧) : (وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال : معنىٰ ذلك : ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وذلك أن الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد ـ النفي ـ في موضع الخوف) ، ثم أنشد قول أبي ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرجُ لسعَها وخالفها في بيت نُوبٍ عواسلِ

(٢) ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ؛ والمعنىٰ فيها : لا يخافون .

الخشيةِ ؛ فإنَّ البكاءَ ثمرةُ الخشيةِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ مؤمنٍ تخرجُ مِنْ عينيهِ دمعةٌ وإنْ كانَتْ مثلَ رأسِ الذبابِ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ ثمَّ تصيبُ شيئاً مِنْ حُرِّ وجهِهِ . . إلا حرَّمَهُ اللهُ على النارِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا اقشعرَّ قلبُ المؤمنِ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ . . تحاتَّتْ عنهُ خطاياهُ كما يتحاتُّ مِنَ الشجرةِ ورقُها »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يلجُ النارَ أحدٌ بكىٰ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ حتَّىٰ يعودَ اللبنُ في الضَّرْعِ »[3] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : ما النجاةُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ »[4] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنْها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيدخلُ أحدٌ مِنْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٧) ، **وحُرُّ الوجه** : ما أقبل عليك وبدا لك منه .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (١٣٢٢) ، وابن قانع في « معجم الصحابة » (١٤٠٥) من حديث العباس رضي الله عنه ، ولفظه : « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله عز وجل . . تحاتت خطاياه كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » .

(٣) رواه الترمذي (١٦٣٣) ، والنسائي (٦/ ١٢) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

أمَّتِكَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ؟ قالَ : « نعمْ ، مَنْ ذكرَ ذنوبَهُ فبكىٰ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ قطرةٍ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ قطرةِ دمعٍ مِنْ خشيةِ اللهِ ، أوْ قطرةِ دمٍ أُهريقَتْ في سبيلِ اللهِ سبحانَهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني عينينِ هطَّالتينِ تشفيانِ بذروفِ الدمعِ قبلَ أنْ تصيرَ الدموعُ دماً والأضراسُ جمراً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » وذكرَ منهُمْ رجلاً ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ(٤) .

وقالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ استطاعَ أنْ يبكيَ . . فليبكِ ، ومَنْ لمْ يستطعْ . . فليتباكَ)(٥) .

وكانَ محمدُ بنُ المنكدرِ إذا بكىٰ . . مسحَ وجهَهُ ولحيتَهُ مِنْ دموعِهِ ويقولُ : (بلغَني أنَّ النارَ لا تأكلُ موضعاً مسَّتْهُ الدموعُ)(٦) .

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢١٤) : (أغفله العراقي) .
(٢) رواه الترمذي (١٦٦٩) .
(٣) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٤٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .
(٤) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٥) ، وقال : (يعني : التضرع) .
(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٥٠) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٧٨٦ ، ٧٨٧) عن علي كرم الله =

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهُما : (ابكوا ، فإنْ لمْ تبكوا . . فتباكَوا ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ يعلمُ العلمَ أحدُكُمْ . . لصرخَ حتَّىٰ ينقطعَ صوتُهُ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ ينكسرَ صلبُهُ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (ما تغرغرَتْ عينٌ بمائِها إلا لمْ يرهقْ وجهَ صاحبِها قترٌ ولا ذلةٌ يومَ القيامةِ ، فإنْ سالَتْ دموعُهُ . . أطفأَ اللهُ بأوَّلِ قطرةٍ منها بحاراً مِنَ النيرانِ ، ولوْ أنَّ رجلاً بكىٰ فِي أمَّةٍ ما عُذِّبَتْ تلكَ الأمَّةُ)[2] .

وقالَ أبو سليمانَ : (البكاءُ مِنَ الخوفِ ، والرجاءُ والطربُ مِنَ الشوقِ) .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (والذي نفسي بيدِهِ ؛ لأنْ أبكيَ مِنْ خشيةِ اللهِ حتَّىٰ تسيلَ دموعي علىٰ وجنتي . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بجبلٍ مِنْ ذهبٍ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمروٍ رضيَ اللهُ عنهما : (لأنْ أدمعَ دمعةً مِنْ خشيةِ اللهِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بألفِ دينارٍ)[4] .

ورُوِيَ عنْ حنظلةَ قالَ : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ،

= وجهه قال : (إذا دمعت عيناك وسالت دموعك علىٰ خدك . . فلا تكفها بثوبك ، وامسح بها وجهك حتىٰ تلقى الله بها) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٥٧٨) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢١٥) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٦٦).

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨١٦) .

فوعظَنا موعظةً رقَّتْ منها القلوبُ ، وذرفَتْ منها العيونُ ، وعرفنا أنفسَنا ، فرجعتُ إلىٰ أهلي ، فدنَتْ منِّي المرأةُ ، وجرىٰ بينَنا مِنْ حديثِ الدنيا ، فنسيتُ ما كنَّا عليهِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأخذنا في الدنيا ، ثمَّ تذكَّرتُ ما كنتُ فيهِ ، وقلتُ في نفسي : قدْ نافقتُ حيثُ تحوَّلَ عنِّي ما كنتُ فيهِ مِنَ الخوفِ والرقَّةِ ، فخرجتُ وجعلتُ أنادي : نافقَ حنظلةُ ، فاستقبلَني أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : كلا لمْ ينافقْ حنظلةُ ، فدخلتُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا أقولُ : نافقَ حنظلةُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلا ، لمْ تنافقْ » ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ كنَّا عندَكَ ، فوعظتَنا موعظةً وجلَتْ منها القلوبُ ، وذرفَتْ منها العيونُ ، وعرفنا أنفسَنا ، فرجعتُ إلىٰ أهلي ، فأخذنا في حديثِ الدنيا ، ونسيتُ ما كنَّا عندَكَ عليهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا حنظلةُ ؛ لوْ أنَّكُمْ كنتُمْ أبداً علىٰ تلكَ الحالةِ . . لصافحَتكُمُ الملائكةُ في الطرقِ وعلىٰ فُرُشِكُمْ ، ولكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعةً »[1] .

فإذاً ؛ كلُّ ما وردَ في فضْلِ الرجاءِ والبكاءِ ، وفضلِ التقوىٰ والورعِ ، وفضلِ العلمِ ومذمَّةِ الأمنِ . . فهوَ دلالةٌ علىٰ فضْلِ الخوفِ ؛ لأنَّ جملةَ ذلكَ متعلقةٌ بهِ ، إمَّا تعلُّقَ السببِ ، أوْ تعلُّقَ المسبَّبِ .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠) بألفاظ مقاربة .

بيان أنّ الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرّجاء أو اعتدالهما

اعلمْ : أنَّ الأخبارَ في فضْلِ الخوفِ والرجاءِ قدْ كثرَتْ ، وربما ينظرُ الناظرُ إليهما فيعتريهِ شكٌّ في أنَّ الأفضلَ أيُّهما ؟

وقولُ القائلِ : الخوفُ أفضلُ أمِ الرجاءُ . . سؤالٌ فاسدٌ ، يضاهي قولَ القائلِ : الخبزُ أفضلُ أمِ الماءُ ، وجوابُهُ أنْ يُقالَ : الخبزُ أفضلُ للجائعِ ، والماءُ أفضلُ للعطشانِ ، فإنِ اجتمعا . . نُظرَ إلى الأغلبِ ، فإنْ كانَ الجوعُ أغلبَ . . فالخبزُ أفضلُ وإنْ كانَ العطشُ أغلبَ . . فالماءُ أفضلُ وإنِ استويا . . فهما متساويانِ ، وهـٰذا لأنَّ كلَّ ما يُرادُ لمقصودٍ ففضلُهُ يظهرُ بالإضافةِ إلىٰ مقصودِهِ لا إلىٰ نفسِهِ .

والخوفُ والرجاءُ دواءانِ تُداوىٰ بهما القلوبُ ، ففضلُهُما بحَسبِ الداءِ الموجودِ ، فإنْ كانَ الغالبُ على القلبِ داءَ الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ والاغترارِ بهِ . . فالخوفُ أفضلُ ، وإنْ كانَ الأغلبُ هوَ اليأسَ والقنوطَ مِنْ رحمةِ اللهِ . . فالرجاءُ أفضلُ ، وكذلكَ إنْ كانَ الغالبُ على العبدِ المعصيةَ . . فالخوفُ أفضلُ .

ويجوزُ أنْ يُقالَ مطلقاً : الخوفُ أفضلُ ، على التأويلِ الذي يُقالُ فيهِ : الخبزُ أفضلُ مِنَ السكنجبينِ ، إذْ يُعالجُ بالخبزِ مرضُ الجوعِ ، وبالسكنجبينِ مرضُ الصفراءِ ، ومرضُ الجوعِ أغلبُ وأكثرُ ، فالحاجةُ إلى الخبزِ أكثرُ ،

فهوَ أفضلُ ، فبهٰذا الاعتبارِ غلبةُ الخوفِ أفضلُ ؛ لأنَّ المعاصيَ والاغترارَ على الخلقِ أغلبُ .

وإنْ نظرَ إلىٰ مطلعِ الخوفِ والرجاءِ . . فالرجاءُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ مستقىً مِنْ بحرِ الرحمةِ ، ومستقى الخوفِ مِنْ بحرِ الغضبِ ، ومَنْ لاحظَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ما يقتضي اللطفَ والرحمةَ . . كانَتِ المحبَّةُ عليهِ أغلبَ ، وليسَ وراءَ المحبَّةِ مقامٌ ، وأمَّا الخوفُ . . فمستندُهُ الالتفاتُ إلى الصفاتِ التي تقتضي العنفَ ، فلا تمازجُهُ المحبَّةُ ممازجتَها للرجاءِ[1] .

وعلى الجملةِ : فما يُرادُ لغيرِهِ ينبغي أنْ يُستعملَ فيهِ لفظُ الأصلحِ ، لا لفظُ الأفضلِ ، فنقولُ : أكثرُ الخلقِ الخوفُ لهُمْ أصلحُ مِنَ الرجاءِ ، وذلكَ لأجلِ غلبةِ المعاصي ، فأمَّا التقيُّ الذي تركَ ظاهرَ الإثمِ وباطنَهُ ، وخفيَّهُ وجليَّهُ . . فالأصلحُ أنْ يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، ولذلكَ قيلَ : (لوْ وُزِنَ خوفُ المؤمنِ ورجاؤُهُ . . لاعتدلا)[2] .

---

(١) وممن نظر إلى المطلع صالح بن عبد الكريم ، فقد أورد الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٥) أنه قال : إن الرجاء والخوف في القلب لهما نوران ، فقيل : أيهما أشد ضياء ؟ قال : الرجاء ، فبلغ ذلك أبا سليمان ، فقال أبو سليمان : يا سبحان الله ! ما أعجب هٰذا الكلام ! الخوف يتشعب منه التقوىٰ والصوم والصلاة وأعمال البر ، والرجاء لا يتشعب منه هٰذه الخصال ، فكيف يكون أشد ضياء ؟! فبلغ ذلك صالحاً ، فقال : صدق أبو سليمان ، ولكن الرجاء رجع إلىٰ كرمه ، فصار أشد ضياء .

(٢) أورده كل من أبي النصر الطوسي في « اللمع » (ص٩١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٧) ، والسلمي في « درجات المعاملات » (ص١٦٨) مرفوعاً ، =

ورُوِيَ أنَّ علياً رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لبعضِ ولدِهِ : (يا بنيَّ ؛ خفِ اللهَ خوفاً ترىٰ أنَّكَ إنْ أتيتَهُ بحسناتِ أهلِ الأرضِ . . لمْ يتقبلْها منكَ ، وارجُ اللهَ رجاءً ترىٰ أنَّكَ إنْ أتيتَهُ بسيئاتِ أهلِ الأرضِ . . غفرَها لكَ)(١) .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ نوديَ : ليدخلِ النارَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لرجوتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الرجلَ ، ولوْ نوديَ : ليدخلِ الجنَّةَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لخشيتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الرجلَ)(٢) ، وهٰذهِ عبارةٌ عنْ غايةِ الخوفِ والرجاءِ ، واعتدالِهما معَ الغلبةِ والاستيلاءِ ، ولكنْ علىٰ سبيلِ التقاومِ والتساوي ، فمثلُ عمرَ رضيَ اللهَ عنهُ ينبغي أنْ يساويَ خوفَهُ رجاؤُهُ ، فأمَّا العاصي إذا ظنَّ أنَّهُ الرجلُ الذي استثنيَ مِنَ الذينَ أُمروا بدخولِ النارِ . . كانَ ذلكَ دليلاً على اغترارِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ لا ينبغي أنْ يتساوىٰ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يغلبَ رجاؤُهُ كما سبقَ في أوَّلِ كتابِ الرجاءِ ، وأنَّ قوَّتَهُ ينبغي أنْ تكونَ بحسَبِ قوَّةِ أسبابِهِ كما مُثِّل بالبذرِ والزرعِ ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ بثَّ البذرَ

= وقد رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٨) من كلام مطرف بن عبد الله الشخير .

(١) أورده الآبي في « نثر الدر » (٥/ ١٩٠) عن الحسن ، ورواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٣٢) عن داوود بن شابور من وصية لقمان لابنه بلفظ : (خف الله خوفاً يحول بينك وبين الرجاء ، وارجه رجاء يحول بينك وبين الخوف) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٣) .

الصحيحَ في أرضٍ نقيَّةٍ وواظبَ علىٰ تعهُّدِها ، وجاءَ بجميعِ شروطِ الزراعةِ . . غلبَ علىٰ قلبهِ رجاءُ الإدراكِ ، ولمْ يكنْ خوفُهُ مساوياً لرجائِهِ ، فهكذا ينبغي أنْ تكونَ أحوالُ المتقينَ .

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يأخذُ المعارفَ مِنَ الألفاظِ والأمثلةِ يكثرُ زللُهُ ، وذلكَ وإنْ أوردناهُ مثالاً ، فليسَ يضاهي ما نحنُ فيهِ مِنْ كلِّ وجهٍ ؛ لأنَّ سببَ غلبةِ الرجاءِ العلمُ الحاصلُ بالتجربةِ ، إذْ علمَ بالتجربةِ صحَّةَ الأرضِ ونقاءَها ، وصحَّةَ البذْرِ ، وصحَّةَ الهواءِ ، وقلَّةَ الصواعقِ المهلكةِ في تلكَ البقاعِ وغيرِها ، وإنَّما مثالُ مسألتِنا بذرٌ لمْ يُجرَّبْ جنسُهُ ، وقدْ بُثَّ في أرضٍ غريبةٍ لمْ يعهدْها الزارعُ ولمْ يختبرْها ، وهيَ في بلادٍ ليسَ يُدرىٰ أتكثرُ الصواعقُ بها أمْ لا ، فمثلُ هـٰذا الزارعِ وإنْ أدَّىٰ كنْهَ مجهودِهِ وجاءَ بكلِّ مقدورِهِ فلا يغلبُ رجاؤُهُ علىٰ خوفِهِ .

والبذْرُ في مسألتِنا هوَ الإيمانُ ، وشروطُ صحَّتِهِ دقيقةٌ ، والأرضُ القلبُ ، وخفايا خبثِهِ وصفائِهِ مِنَ الشركِ الخفيِّ والنفاقِ والرياءِ ، وخبايا الأخلاقِ فيهِ غامضةٌ ، والآفاتُ هيَ الشهواتُ وزخارفُ الدنيا ، والتفاتُ القلبِ إليها في مستقبلِ الزمانِ وإنْ سلمَ في الحالِ ، وذلكَ ممَّا لا يُتحقَّقُ ولا يُعرفُ بالتجربةِ ؛ إذْ قدْ يعرضُ مِنَ الأسبابِ ما لا يُطاقُ مخالفتُهُ ، ولمْ يُجرَّبْ مثلُهُ ، والصواعقُ هيَ أهوالُ سكراتِ الموتِ ، واضطرابُ الاعتقادِ عندَهُ ، وذلكَ ممَّا لمْ يُجرَّبْ مثلُهُ ، ثمَّ الحصادُ والإدراكُ عندَ المنصرَفِ مِنَ القيامةِ إلى الجنَّةِ ، وذلكَ لمْ يُجرَّبْ .

فمَنْ عرفَ حقائقَ هـٰذهِ الأمورِ ؛ فإنْ كانَ ضعيفَ القلبِ ، جباناً في نفسِهِ . . غلبَ خوفُهُ علىٰ رجائِهِ لا محالةَ ، كما سنحكي في أحوالِ الخائفينَ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ ، وإنْ كانَ قويَّ القلبِ ، ثابتَ الجأْشِ ، تامَّ المعرفةِ . . استوىٰ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، فأمَّا أنْ يغلبَ رجاؤُهُ . . فلا .

❁ ❁ ❁

ولقدْ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يبالغُ في تفتيشِ قلبِهِ ، حتَّىٰ كانَ يسألُ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ هلْ يعرفُ بهِ مِنْ آثارِ النفاقِ شيئاً ، إذْ كانَ قدْ خصَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعلمِ المنافقينَ ، فمَنْ ذا الذي يقدرُ علىٰ تطهيرِ قلبِهِ مِنْ خفايا النفاقِ والشركِ الخفيِّ ؟ وإنِ اعتقدَ نقاءَ قلبِهِ عنْ ذلكَ . . فمِنْ أينَ يأمنُ مكرَ اللهِ تعالىٰ بتلبيسِ حالِهِ عليهِ ، وإخفاءِ عيبِهِ عنهُ ؟ وإنْ وثقَ بهِ . . فمِنْ أينَ يثقُ ببقائِهِ علىٰ ذلكَ إلىٰ تمامِ حسنِ الخاتمةِ ؟

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنَّةِ خمسينَ سنةً ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنَّةِ إلا شبرٌ ـ وفي روايةٍ : إلا قدْرُ فُواقِ ناقةٍ ـ فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيُختمُ لهُ بعملِ أهلِ النارِ »(١) ، وقدْرُ فواقِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٢٦) ، وهو عند مسلم (٢٦٥١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، ولفظه : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » .
ورواه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) وفيه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة =

الناقةِ لا يحتملُ عملاً بالجوارحِ ، إنَّما هوَ بمقدارِ خاطرٍ يختلجُ في القلبِ عندَ الموتِ ، فيقتضي خاتمةَ السوءِ ، فكيفَ يُؤمنُ ذلكَ ؟!

فإذاً ؛ أقصىٰ غاياتِ المؤمنِ أنْ يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، وأمَّا غلبةُ الرجاءِ في غالبِ الناسِ يكونُ مستندُهُ الاغترارَ وقلَّةَ المعرفةِ ، ولذلكَ جمعَ اللهُ تعالىٰ بينَهُما في وصفِ مَنْ أثنىٰ عليهِمْ ، فقالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، وأينَ مثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؟!

فالخلقُ الموجودونَ في هـٰذا الزمانِ كلُّهُمُ الأصلحُ لهُمْ غلبةُ الخوفِ ، بشرطِ ألا يخرجَهُمْ إلى اليأسِ وتركِ العملِ ، وقطعِ الطمعِ مِنَ المغفرةِ ، فيكونُ ذلكَ سبباً للتكاسلِ عنِ العملِ ، وداعياً إلى الانهماكِ في المعاصي ، فإنَّ ذلكَ قنوطٌ وليسَ بخوفٍ ، إنَّما الخوفُ هوَ الذي يحثُّ على العملِ ، ويكدِّرُ جميعَ الشهواتِ ، ويزعجُ القلبَ عنِ الركونِ إلى الدنيا ، ويدعوهُ إلى التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، فهوَ الخوفُ المحمودُ ، دونَ حديثِ النفسِ الذي لا يؤثِّرُ في الكفِّ والحثِّ ، ودونَ اليأسِ الموجبِ للقنوطِ .

وقدْ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مَنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ بمحضِ الخوفِ . . غرقَ في بحارِ الأفكارِ ، ومَنْ عبدَهُ بمحضِ الرجاءِ . . تاهَ في مفازةِ الاغترارِ ، ومَنْ عبدَهُ بالخوفِ والرجاءِ . . استقامَ في محجَّةِ الأذكارِ)(١) .

= سبعين سنة . . . » ، وليس فيه ذكر الشبر والفواق ، بل فيه ذكر الذراع كما هو عند البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

(١) قوت القلوت (١/ ٢٤٢) .

وقالَ مكحولٌ النسفيُّ : (مَنْ عبدَ اللهَ بالخوفِ . . فهوَ حروريٌّ ، ومَنْ عبدَهُ بالرجاءِ . . فهوَ مرجىءٌ ، ومَنْ عبدَهُ بالمحبَّةِ . . فهوَ زنديقٌ ، ومَنْ عبدَهُ بالخوفِ والرجاءِ والمحبةِ . . فهوَ موحِّدٌ)[1] .

فإذاً ؛ لا بدَّ مِنَ الجمعِ بينَ هٰذهِ الأمورِ ، وغلبةُ الخوفِ هوَ الأصلحُ ، ولكنْ قبلَ الإشرافِ على الموتِ ، فأمَّا عندَ الموتِ . . فالأصلحُ غلبةُ الرجاءِ وحسنُ الظنِّ ؛ لأنَّ الخوفَ جارٍ مَجرى السوطِ الباعثِ على العملِ ، وقدِ انقضىٰ وقتُ العملِ ، فالمشرفُ على الموتِ لا يقدرُ على العملِ ، ثمَّ لا يطيقُ أسبابَ الخوفِ ، فإنَّ ذلكَ يقطعُ نياطَ قلبِهِ ، ويعينُ علىٰ تعجيلِ موتِهِ ، وأمَّا رَوْحُ الرجاءِ . . فإنَّهُ يقوي قلبَهُ ، ويحبِّبُ إليهِ ربَّهُ الذي إليهِ رجاؤُهُ .

ولا ينبغي أنْ يفارقَ أحدٌ الدنيا إلا محبّاً للهِ تعالىٰ ؛ ليكونَ محبّاً للقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهَ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، والرجاءُ تقارنُهُ المحبَّةُ ، فمَنِ ارتجىٰ كرمَهُ . . فهوَ محبوبٌ ، والمقصودُ مِنَ العلومِ والأعمالِ كلِّها معرفةُ اللهِ ، حتَّىٰ تثمرَ المعرفةُ المحبَّةَ ، فإنَّ المصيرَ إليهِ ،

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٢) حيث قال : (وقال مكحول النسفي رحمه الله تعالىٰ في معناه ـ أي : معنىٰ قول يحيى بن معاذ السابق ـ إلا أنه جاوز فيه الحد) وذكره ، ووقع في (أ) : (الشامي) ، وفي (س) : (الدمشقي) بدل (النسفي) ، وتصدىٰ لبيان هٰذه العبارة الإمام تقي الدين السبكي في « فتاويه » (٢/ ٥٥٥) ، وأورد الإمام أبو عبد الرحمٰن السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٣٨) عن أحمد بن يسع السجزي نحوه .

والقدومَ بالموتِ عليهِ ، ومَنْ قدمَ علىٰ محبوبِهِ . . عظمَ سرورُهُ بقدْرِ محبَّتِهِ ، ومَنْ فارقَ محبوبَهُ . . اشتدَّتْ محنتُهُ وعذابُهُ .

فمهما كانَ القلبُ الغالبُ عليهِ عندَ الموتِ حبُّ الأهلِ والولدِ والمالِ والمسكنِ والعقارِ والرفقاءِ والأصحابِ . . فهـٰذا رجلٌ محابُّهُ كلُّها في الدنيا ، فالدنيا جنَّتُهُ ، إذِ الجنَّةُ عبارةٌ عنِ البقعةِ الجامعةِ لجميعِ المحابِّ ، فموتُهُ خروجٌ مِنَ الجنَّةِ ، وحيلولةٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، ولا يخفىٰ حالُ مَنْ يُحالُ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ .

فأمَّا إذا لمْ يكنْ لهُ محبوبٌ سوى اللهِ تعالىٰ وسوىٰ ذكرِهِ ومعرفتِهِ والفكرِ فيهِ . . فالدنيا وعلائقُها شاغلةٌ لهُ عنِ المحبوبِ ، فالدنيا إذاً سجنُهُ ؛ لأنَّ السجنَ عبارةٌ عنِ البقعةِ المانعةِ للمحبوسِ عنِ الانسراحِ إلىٰ محابِّهِ ، فموتُهُ قدومٌ علىٰ محبوبِهِ وخلاصٌ مِنَ السجنِ ، ولا يخفىٰ حالُ مَنْ أفلتَ مِنَ السجنِ وخُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ بلا مانعٍ ولا مكدِّرٍ ، فهـٰذا أوَّلُ ما يلقاهُ كلُّ مَنْ فارقَ الدنيا عَقيبَ موتِهِ مِنَ الثوابِ والعقابِ ، فضلاً عمَّا أعدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ ممَّا لمْ ترهُ عينٌ ولمْ تسمعْهُ أذنٌ ، ولا خطرَ عَلَىٰ قلْبِ بشرٍ ، وفضلاً عمَّا أعدَّهُ اللهُ تعالىٰ للذينَ استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ورضوا بها واطمأنوا إليها ؛ مِنَ الأنكالِ ، والسلاسلِ والأغلالِ ، وضروبِ الخزيِ والنكالِ ، فنسألُ اللهُ تعالىٰ أنْ يتوفَّانا مسلمينَ ، ويلحقَنا بالصالحينَ .

ولا مطمعَ في إجابةِ هـٰذا الدعاءِ إلا باكتسابِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، ولا سبيلَ

إليهِ إلا بإخراجِ حبِّ غيرِهِ مِنَ القلبِ ، وقطعِ العلائقِ عنْ كلِّ ما سوى اللهِ تعالىٰ مِنْ جاهٍ ومالٍ ووطنٍ ، فالأولىٰ أنْ ندعوَ بما دعا بهِ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ ، وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ ما يقربُني إلىٰ حبِّكَ ، واجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ مِنَ الماءِ البارِدِ »[1] .

والغرضُ أنَّ غلبةَ الرجاءِ عندَ الموتِ أصلحُ ؛ لأنَّهُ أجلبُ للمحبَّةِ ، وغلبةُ الخوفِ قبلَ الموتِ أصلحُ ؛ لأنَّهُ أحرقُ لنارِ الشهواتِ ، وأقمعُ لمحبَّةِ الدنيا عنِ القلب .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتنَّ أحدُكُمْ إلا وهوَ يحسنُ الظنَّ بربِّهِ »[2] .

وقالَ تعالىٰ : « أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[3] .

ولمَّا حضرَتْ سليمانَ التيميَّ الوفاةُ .. قالَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ حدِّثْني بالرُّخَصِ ، واذكرْ ليَ الرجاءَ ؛ حتَّىٰ ألقى اللهَ علىٰ حسنِ الظنِّ بهِ)[4] .

---

(١) وكان من دعاء داوود علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كما روىٰ ذلك الترمذي (٣٤٩٠) .
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧/ ٨٢) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣١) .

وكذلكَ لمَّا حضرَتِ الثوريَّ الوفاةُ واشتدَّ جزعُهُ . . جمعَ العلماءَ حولَهُ يُرجُّونَهُ[1] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لابنِهِ عندَ الموتِ : (اذكرْ ليَ الأخبارَ التي فيها الرجاءُ وحسنُ الظنِّ)[2] .

والمقصودُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ أنْ يحبِّبَ اللهَ إلىٰ نفسِهِ .

ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : أنْ حبِّبْني إلىٰ عبادي ، فقالَ : بماذا ؟ قالَ : بأنْ تذكِّرَهُمْ آلائي ونعمائي[3] .

فإذاً ؛ غايةُ السعادةِ أنْ يموتَ العبدُ محبّاً للهِ تعالىٰ ، وإنَّما تحصلُ المحبَّةُ بالمعرفةِ ، وبإخراجِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، حتَّىٰ تصيرَ الدنيا كالسجنِ المانعِ مِنَ المحبوبِ .

ولذلكَ رأىٰ بعضُ الصالحينَ أبا سليمانَ الدارانيَّ في المنامِ وهوَ يطيرُ ، فسألَهُ ، فقالَ : الآنَ أفلتُّ ، فلمَّا أصبحَ . . سألَ عنْ حالِهِ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ ماتَ البارحةَ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٩) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢) ، ولكن عنده مما أوحى الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام .

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ في دواءِ الصبرِ ، وشرحناهُ في كتابِ الصبرِ والشكرِ . . هوَ كافٍ في هـٰذا الغرضِ ؛ لأنَّ الصبرَ لا يمكنُ إلا بعدَ حصولِ الخوفِ والرجاءِ ؛ لأنَّ أوَّلَ مقاماتِ الدينِ اليقينُ الذي هوَ عبارةٌ عنْ قوَّةِ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ والجنةِ والنارِ ، وهـٰذا اليقينُ بالضرورةِ يهيِّجُ الخوفَ مِنَ النارِ ، والرجاءَ للجنَّةِ ، والخوفُ والرجاءُ يقوِّيانِ على الصبرِ ؛ فإنَّ الجنَّةَ قدْ حُفَّتْ بالمكارهِ ، فلا يُصبرُ علىٰ تحمُّلِها إلا بقوَّةِ الرجاءِ ، والنارُ قدْ حُفَّتْ بالشهواتِ ، فلا يُصبرُ علىٰ قمعِها إلا بقوَّةِ الخوفِ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنِ اشتاقَ إلى الجنَّةِ . . سلا عنِ الشهواتِ ، ومَنْ أشفقَ مِنَ النارِ . . رجعَ عنِ المحرَّماتِ) .

ثمَّ يؤدي مقامُ الصبرِ المستفادُ مِنَ الخوفِ والرجاءِ إلىٰ مقامِ المجاهدةِ ، والتجرُّدِ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والفكرِ فيهِ على الدوامِ ، ويؤدي دوامُ الذكرِ إلى الأنسِ ، ودوامُ الفكرِ إلىٰ كمالِ المعرفةِ ، ويؤدِّي كمالُ المعرفةِ والأنسُ إلى المحبَّةِ ، ويتبعُها مقامُ الرضا والتوكُّلِ ، وسائرُ المقامات .

فهـٰذا هوَ الترتيبُ في سلوكِ منازلِ الدينِ ، وليسَ بعدَ أصلِ اليقينِ مقامٌ سوى الخوفِ والرجاءِ ، ولا بعدَهُما مقامٌ سوى الصبرِ ، وبهِ المجاهدةُ والتجرُّدُ للهِ باطناً وظاهراً ، ولا مقامَ بعدَ المجاهدةِ لمَنْ فُتِحَ لهُ الطريقُ إلا

الهدايةُ والمعرفةُ ، ولا مقامَ بعدَ المعرفةِ إلا المحبةُ والأنسُ ، ومِنْ ضرورةِ المحبَّةِ الرضا بفعلِ المحبوبِ ، والثقةُ بعنايتِهِ ، وهوَ التوكُّلُ .

فإذاً ؛ فيما ذكرنا في علاجِ الصبرِ كفايةٌ ، ولكنَّا نفردُ الخوفَ بكلامٍ جُمَلِيٍّ فنقولُ :

الخوفُ يحصلُ بطريقينِ مختلفينِ ، أحدُهُما أعلىٰ مِنَ الآخرِ ، ومثالُهُ : أنَّ الصبيَّ إذا كانَ في بيتٍ ، فدخلَ عليهِ سبُعٌ أوْ حيَّةٌ . . ربما كانَ لا يخافُ ، وربما مدَّ اليدَ إلى الحيَّةِ ليأخذَها ويلعبَ بها ، ولكنْ إذا كانَ معَهُ أبوُه وهوَ عاقلٌ . . خافَ مِنَ الحيَّةِ وهربَ منها ، فإذا نظرَ الصبيُّ إلىٰ أبيهِ وهوَ ترتعدُ فرائصُهُ ، ويحتالُ في الهربِ . . قامَ معَهُ ، وغلبَ عليهِ الخوفُ ، ووافقَهُ في الهربِ ، فخوفُ الأبِ عنْ بصيرةٍ ومعرفةٍ بصفةِ الحيَّةِ وسمِّها وخاصيَّتِها ، وسطوةِ السبعِ وبطشِهِ وقلَّةِ مبالاتِهِ ، وأمَّا خوفُ الابنِ . . فإيمانٌ بمجرَّدِ التقليدِ ؛ لأنَّهُ يحسنُ الظنَّ بأبيهِ ، ويعلمُ أنَّهُ لا يخافُ إلا مِنْ سببٍ مَخُوفٍ في نفسِهِ ، فيعلمُ أنَّ السبعَ مَخُوفٌ ، ولا يعرفُ وجهَهُ .

فإذا عرفتَ هـٰذا المثالَ . . فاعلمْ أنَّ الخوفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ مقامينِ :

أحدُهُما : الخوفُ مِنْ عذابِهِ .

والثاني : الخوفُ منهُ في ذاتِهِ .

فأمَّا الخوفُ منهُ . . فهوَ خوفُ العلماءِ وأربابِ القلوبِ العارفينَ مِنْ صفاتِهِ ما يقتضي الهيبةَ والخوفَ والحذرَ ، المطَّلعينَ علىٰ سرِّ قولِهِ تعالىٰ :

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ .

فأمَّا الأوَّلُ : فهوَ خوفُ عمومِ الخلقِ ، وهوَ حاصلٌ بأصلِ الإيمانِ بالجنَّةِ والنارِ ، وكونِهما جزاءينِ على الطاعةِ والمعصيةِ ، وضعفُهُ بسببِ الغفلةِ ، وبسببِ ضعفِ الإيمانِ ، وإنَّما تزولُ الغفلةُ بالوعظِ والتذكيرِ ، وملازمةِ الفكرِ في أهوالِ القيامةِ وأصنافِ العذابِ في الآخرةِ ، وتزولُ أيضاً بالنظرِ إلى الخائفينَ ومجالستِهِمْ ، ومشاهدةِ أحوالِهِمْ ، فإنْ فاتَتِ المشاهدةُ.. فالسماعُ لا يخلو عنْ تأثيرٍ .

وأمَّا الثاني وهوَ الأعلىٰ : فأنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ هوَ المَخُوفَ ؛ أعني : أنْ يخافَ البعدَ والحجابَ عنهُ ، ويرجوَ القربَ منهُ ، قالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (خوفُ النارِ عندَ خوفِ الفراقِ كقطرةٍ قُطرَتْ في بحرٍ لجِّيٍّ)(١) ، وهـٰذهِ خشيةُ العلماءِ ، حيثُ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

ولعمومِ المؤمنينَ أيضاً حظٌّ مِنْ هـٰذهِ الخشيةِ ، ولكنْ هوَ بمجرَّدِ التقليدِ ، يضاهي خوفَ الصبيِّ مِنَ الحيَّةِ تقليداً لأبيهِ ، وذلكَ لا يستندُ إلىٰ بصيرةٍ ، فلا جرمَ يضعفُ ويزولُ عنْ قرْبٍ ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ ربما يرى المعزِّمَ يقدمُ علىٰ أخذِ الحيَّةِ ، فينظرُ إليهِ ويغترُّ بهِ ، فيتجرأُ علىٰ أخذِها تقليداً لهُ ، كما احترزَ مِنْ أخذِها تقليداً لأبيهِ ، والعقائدُ التقليديَّةُ ضعيفةٌ في الغالبِ ،

---

(١) أورده أبو طالب في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٠) وزاد : (ولا أعلم شيئاً أحمد للقلب من خوف الفراق) .

إلا إذا قويَتْ بمشاهدةِ أسبابها المؤكدةِ لها على الدوامِ ، وبالمواظبةِ علىٰ مقتضاها في تكثيرِ الطاعاتِ واجتنابِ المعاصي مدَّةً طويلةً على الاستمرارِ .

فإذاً ؛ مَنِ ارتقىٰ إلىٰ ذروةِ المعرفةِ ، وعرفَ اللهَ تعالىٰ . . خافَهُ بالضرورةِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ لجلبِ الخوفِ ، كما أنَّ مَنْ عرفَ السبعَ ورأىٰ نفسَهُ واقعاً في مخالبِهِ لا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ ليجلبَ الخوفَ إلىٰ قلبِهِ ، بلْ يخافُهُ بالضرورةِ شاءَ أمْ أبىٰ .

ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : (خفْني كما تخافُ السبعَ الضاريَ)[(١)] ، ولا حيلةَ في جلْبِ الخوفِ مِنَ السبعِ الضاري إلا معرفةُ السبعِ ، ومعرفةُ الوقوعِ في مخالبِهِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ حيلةٍ سواهُ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . عرفَ أنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ ولا يبالي ، ويحكمُ ما يريدُ ولا يخافُ[(٢)] ، قرَّبَ الملائكةَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ ، وأبعدَ إبليسَ مِنْ غيرِ جريمةٍ سالفةٍ ، بلْ صفتُهُ ما ترجمَهُ قولُهُ تعالىٰ : « هؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النارِ ولا أبالي »[(٣)] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤١) .

(٢) إذ قال من إليه الرهبوت والرغبوت : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمـٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٢٣) : (لكن يشترط في هـٰذه المعرفة أن يكون الفكر فيها بإمعان ، فإنه هو المستجلب للخوف ، وإلا . . فالفكر الخفيف لا ينضج قساوة القلب ، أرأيت لو أوقدت =

وإنْ خطرَ ببالِكَ أنَّهُ لا يعاقبُ إلا علىٰ معصيةٍ ، ولا يثيبُ إلا علىٰ طاعةٍ . . فتأمَّلْ أنَّهُ لِمَ يمدُّ المطيعَ بأسبابِ الطاعةِ حتَّىٰ يطيعَ شاءَ أم أبى ؟ ولِمَ يمدُّ العاصيَ بدواعي المعصيةِ حتَّىٰ يعصيَ شاءَ أمْ أبى ؟ فإنَّهُ مهما خلقَ الغفلةَ والشهوةَ والقدرةَ علىٰ قضاءِ الشهوةِ . . كانَ الفعلُ واقعاً بها بالضرورةِ ، فإنْ كانَ أبعدَهُ لأنَّهُ عصاهُ . . فلِمَ حملَهُ على المعصيةِ ؟

هلْ ذلكَ لمعصيةٍ سابقةٍ حتَّىٰ يتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ؟! أوْ يقفَ ـ لا محالةَ ـ علىٰ أوَّلَ لا علَّةَ لهُ مِنْ جهةِ العبدِ ، بلْ قُضِيَ عليهِ في الأزلِ ؟

وعنْ هـٰذا المعنىٰ عبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « احتجَّ آدمُ وموسىٰ عليهِما الصلاةُ والسلامُ عندَ ربِّهِما ، فحجَّ آدمُ موسىٰ ، قالَ موسىٰ : أنتَ آدمُ الذي خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأسجدَ لكَ ملائكتَهُ ، وأسكنَكَ جنَّتَهُ ، ثمَّ أهبطتَ الناسَ بخطيئتِكَ إلى الأرضِ ؟ فقالَ آدمُ : أنتَ موسى الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ ، وقرَّبَكَ نجيّاً ، فبِكَمْ وجدتَ اللهَ كتبَ التوراةَ قبلَ أنْ أُخلقَ ؟ قالَ موسىٰ : بأربعينَ عاماً ، قالَ آدمُ : فهلْ وجدتَ فيها : وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغوىٰ ، قالَ : نعمْ ، قالَ : أفتلومُني علىٰ أنْ عملتُ عملاً كتبَهُ اللهُ عليَّ قبلَ

= ناراً تحت قدر ثم أخمدت قبل الإنضاج ، ثم أوقدت ، ثم أخمدت . . فني الوقود وما حصل الإنضاج ، فلا بد من الإقبال بكنه الهمة على الفكر المحتاج إليه حتىٰ ينضج القلب على الفور ؛ لئلا يفنى الزمان ولا يتحصل المقصود) .

أنْ أعملَهُ قبلَ أنْ يخلقَني بأربعينَ سنةً ؟! قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فحجَّ آدمُ موسىٰ ، فحجَّ آدمُ موسىٰ »(1) .

فمَنْ عرفَ السببَ في هٰذا الأمرِ معرفةً صادرةً عنْ نورِ الهدايةِ . . فهوَ مِنْ خصوصِ العارفينَ المطلعينَ علىٰ سرِّ القدرِ ، ومَنْ سمعَ هٰذا فآمنَ بهِ وصدَّقَ بمجرَّدِ السماعِ . . فهوَ مِنْ عمومِ المؤمنينَ ، ويحصلُ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ خوفٌ ، فإنَّ كلَّ عبدٍ فهوَ واقعٌ في قبضةِ القدرةِ وقوعَ الصبيِّ الضعيفِ في مخالبِ السبعِ ، والسبعُ قدْ يغفُلُ بالاتفاقِ فيخلِّيهِ ، وقدْ يهجمُ عليه فيفترسُهُ ، وذلك بحسَبِ ما يتفقُ ، ولذلكَ الاتفاقِ أسبابٌ مرتبةٌ بقدَرٍ معلومٍ ، لكنْ إذا أُضيفَ إلىٰ مَنْ لا يعرفُهُ . . سُمِّيَ اتفاقاً ، وإنْ أُضيفَ إلىٰ علمِ اللهِ . . لمْ يجزْ أنْ يُسمَّى اتفاقاً ، والواقعُ في مخالبِ السبعِ لوْ كملَتْ معرفتُهُ . . لكانَ لا يخافُ السبعَ ؛ لأنَّ السبعَ مسخَّرٌ ؛ إنْ سلَّطَ عليهِ الجوعَ . . افترسَ ، وإنْ سلَّطَ عليهِ الغفلةَ . . خلَّىٰ وتركَ ، فإنَّما يُخافُ خالقُ السبعِ وخالقُ صفاتِهِ ، فلستُ أقولُ : (مثالُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالى الخوفُ مِنَ السبعِ) ، بلْ إذا كُشفَ الغطاءُ . . عُلمَ أنَّ الخوفَ مِنَ السبعِ هوَ عينُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لأنَّ المهلِكَ بواسطةِ السبعِ هوَ اللهُ تعالىٰ .

فاعلم : أنَّ سباعَ الآخرةِ مثلُ سباعِ الدنيا ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ أسبابَ العذابِ وأسبابَ الثوابِ ، وخلقَ لكلِّ واحدٍ أهلاً ، يسوقُهُ القدرُ المتفرِّعُ عنِ

---

(1) رواه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له .

القضاءِ الجزْمِ الأزليِّ إلىٰ ما خُلِقَ لهُ ، فخلقَ الجنَّةَ وخلقَ لها أهلاً سُخِّروا لأسبابِها شاؤوا أمْ أبَوا ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلاً سُخِّروا لأسبابِها شاؤوا أمْ أبَوا ، فلا يرىٰ أحدٌ نفسَهُ في ملتطمِ أمواجِ القدرِ إلا غلبَهُ الخوفُ بالضرورةِ .

فهٰذهِ مخاوفُ العارفينَ بسرِّ القدرِ .

فمَنْ قعدَ بهِ القصورُ عنِ الارتفاعِ إلىٰ يفاعِ الاستبصارِ . . فسبيلُهُ أنْ يعالجَ نفسَهُ بسماعِ الأخبارِ والآثارِ ، فيطالعُ أحوالَ الخائفينَ العارفينَ وأقوالَهُمْ ، وينسبُ عقولَهُمْ ومناصبَهُمْ إلىٰ مناصبِ الراجينَ المغرورينَ ، فلا يتمارىٰ في أنَّ الاقتداءَ بهِمْ أولىٰ ؛ لأنَّهُمُ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ ، وأمَّا الآمنونَ . . فهُمُ الفراعنةُ والجهَّالُ والأغبياءُ .

أمَّا رسولُنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ سيِّدُ الأولينَ والآخرينَ ، وكانَ أشدَّ الناسِ خوفاً ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّهُ كانَ يصلِّي علىٰ طفلٍ ، ففي روايةٍ : أنَّهُ سُمِعَ في دعائِهِ يقولُ : « اللهمَّ ؛ قهِ عذابَ القبرِ وعذابَ النارِ »(١) ، وفي

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) وبيَّن أن الطفل كان منفوساً ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (٤/ ١٢١) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه : أن صبياً دفن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أفلت أحد من ضمة القبر . . لأفلت هـٰذا الصبي » ، وعنده في « الأوسط » (٢٧٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ علىٰ صبي أو صبية فقال : « لو كان نجا أحد من ضمة القبر . . لنجا هـٰذا الصبي » .
وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٠٨ ، ٣٠٤٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه =

روايةٍ ثانيةٍ : أنَّهُ سمعَ قائلاً يقولُ : هنيئاً لكَ ، عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، فغضبَ وقالَ : « ما يدريكَ أنَّهُ كذلكَ ؟! واللهِ ؛ إنِّي رسولُ اللهِ ، وما أدري ما يُصنعُ بي ، إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الجنةَ وخلقَ لها أهلاً ، لا يُزادُ فيهِمْ ، ولا ينقصُ منهُمْ »(١) .

ورويَ أنَّهُ قالَ ذلكَ أيضاً علىٰ جنازةِ عثمانَ بنِ مظعونٍ ـ وكانَ مِنَ المهاجرينَ والأوَّلينَ ـ لمَّا قالَتْ أمُّ سلمةَ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ ، فكانَتْ تقولُ أمُّ سلمةَ بعدَ ذلكَ : واللهِ ؛ لا أزكِّي أحداً بعدَ عثمانَ(٢) .

وقالَ محمدُ بنُ خولةَ الحنفيَّةِ : (واللهِ ، لا أزكِّي أحداً غيرَ رسولِ اللهِ

= أنه كان يقوم على المنفوس من ولده الذي لم يعمل خطيئة فيقول : (اللهم ؛ أجره من عذاب القبر) ، وفي الرواية الثانية : (اللهم ؛ أجره من عذاب النار) .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، وروىٰ مسلم (٢٦٦٢) نحوه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، ورواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٣٧) ولم يعين المرأة القائلة ، وعنده في « المسند » (٦/ ٤٣٦) ، والبخاري (٧٠٠٤) والقائلة هي أم العلاء بنت الحارث الأنصارية ، قال ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص٥٥٣) بعد رواية الخبر : « اختلفت الروايات في المرأة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ » حين شهدت لعثمان بن مظعون بالجنة ، وقالت له : طبت ، هنيئاً لك الجنة أبا السائب . علىٰ ثلاث نسوة ، فقيل : كانت امرأته أم السائب ، وقيل : أم العلاء الأنصارية وكان نزل عليها ، وقيل : كانت أم خارجة بن زيد) ، وذكر في ترجمة أم العلاء أنها قد تكون أم خارجة ، بل قال ابن حجر في « الإصابة » (٤/ ٤٥٦) : (وهـٰذا ظاهر في أن أم العلاء هي والدة خارجة ـ أحد الرواة ـ المذكور) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد فيه ذكر أم سلمة) . « إتحاف » (٩/ ٢٢٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا أبي الذي ولدَني) ، قالَ : فثارتِ الشيعةُ عليهِ ، فأخذَ يذكرُ مِنْ فضائلِ عليٍّ ومناقبِهِ[1] .

ورُوِيَ في حديثٍ آخرَ : أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الصفَّةِ استشهدَ ، فقالَتْ أمُّهُ : هنيئاً لكَ ، عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، هاجرْتَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقتلتَ في سبيلِ اللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما يدريكِ ؟! لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ بما لا ينفعُهُ ويمنعُ ما لا يضرُّهُ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّهُ دخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بعضِ أصحابِهِ وهوَ عليلٌ ، فسمعَ امرأةً تقولُ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هٰذهِ المتألِّيةُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؟! فقالَ المريضُ : هيَ أمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما يدريكِ ؟! لعلَّ فلاناً كانَ يتكلَّمُ بما لا يعنيهِ ، ويبخلُ بما لا يغنيهِ »[3] .

وكيفَ لا يخافُ المؤمنونَ كلُّهُمْ وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « شيَّبَتْني (سورةُ هودٍ) وأخواتُها ؛ (سورةُ الواقعةِ) ، و(إذا الشمسُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٢٩) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/٣٤٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٢٨) ، وكان المقتول غلاماً ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٢٨) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٠) والمريض هو كعب بن عجرة رضي الله عنه .

كوِّرتْ) ، و(عمَّ يتساءلونَ) »[1] ، فقالَ العلماءُ : لعلَّ ذاكَ لما في (سورةِ هودٍ) مِنَ الإبعادِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، معَ علمِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنَّهُ لوْ شاءَ اللهُ . . ما أشركوا ؛ إذْ لوْ شاءَ . . لآتىٰ كلَّ نفسٍ هداها .

وفي (سورةِ الواقعةِ) : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أيْ : جفَّ القلمُ بما هوَ كائنٌ ، وتمَّتِ السابقةُ ، حتَّىٰ نزلَتِ الواقعةُ ؛ إمَّا خافضةً قوماً كانوا مرفوعينَ في الدنيا ، وإمَّا رافعةً قوماً كانوا مخفوضينَ في الدنيا .

وفي (سورةِ التكويرِ) أهوالُ القيامةِ وانكشافُ الخاتمةِ ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

وفي (عمَّ يتساءلونَ) : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ مخاوفُ لمَنْ قرأَهُ بتدبُّرٍ ، ولوْ لمْ يكنْ فيهِ إلا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ . . لكانَ كافياً ؛ إذْ علَّقَ المغفرةَ علىٰ أربعةِ شروطٍ يعجزُ العبدُ عنْ آحادِها .

وأشدُّ منهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٣٤٣) ، وكذا وقعت الرواية هنا بإثبات كلمة (سورة) في جميع النسخ إلا (ق) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا . . . ﴾ الآيتينِ(١) .

وقولُهُ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . . . ﴾ الآيتينِ(٢) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ .

وكذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ السورةِ ، فهـٰذهِ أربعةُ شروطٍ للخلاصِ مِنَ الخسرانِ .

وإنَّما كانَ خوفُ الأنبياءِ معَ ما فاضَ عليهِمْ مِنَ النعمِ لأنَّهُمْ لمْ يأمنوا مكْرَ اللهِ تعالىٰ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ النبيَّ

---

(١) إذ قال بعدها سبحانه : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ .
(٢) إذ بعدها : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وجبريلَ عليهِ السلامُ بكيا خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فأوحى اللهُ إليهما : لم تبكيانِ وقدْ أمَّنتُكُما ؟ فقالا : ومَنْ يأمنُ مكرَكَ ؟!(١) .

وكأنَّهما إذْ علما أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ علاَّمُ الغيوبِ ، وأنَّهُ لا وقوفَ لهما على غايةِ الأمورِ . . لمْ يأمنا أنْ يكونَ قولُهُ : (قدْ أمَّنتُكما) ابتلاءً لهما وامتحاناً ومكراً بهما ، حتَّىٰ إنْ سكنَ خوفُهُما . . ظهرَ أنَّهُما قدْ أمنا مِنَ المكرِ ، وما وفَّيا بقولِهما .

كما أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لمَّا وُضِعَ في المنجنيقِ . . قالَ : (حسبيَ اللهُ) ، وكانَتْ هٰذهِ مِن الدعاوي العظامِ ، فامتُحنَ وعُورضَ بجبريلَ في الهواءِ ، حتىٰ قالَ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليك . . فلا ، فكانَ ذلكَ وفاءً بمقتضىٰ قولِهِ : (حسبيَ اللهُ) ، فأخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ فقالَ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أيْ : بموجَبِ قولِهِ : (حسبيَ اللهُ)(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، ورواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الأوسط » (٢٦٠٤) ، وزاد الحافظ العراقي : (وابن شاهين في « شرح السنة » من حديث عمر ، ورويناه في مجلس من « أمالي أبي سعيد النقاش » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٩/ ٢٢٧) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، وقال بعده : (ولأن الله تعالىٰ لا يدخل تحت الأحكام ، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام ، ولا يختبر صدقه سبحانه وتعالىٰ ، ولا يجوز أن يوصف بضد الصدق وإن بدل الكلم هو بتبديل منه ؛ لأن كلامه قائم به ، فله أن يبدل ما شاء وهو الصادق في الكلامين ، العادل في الحكمين ، الحاكم في الحالين ؛ لأنه حاكم عليه ولا حكم يلزمه فيه ؛ لأنه قد جاوز العلوم والعقول التي هي =

وبمثلِ هٰذا أخبرَ عنْ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، ومع هٰذا لمَّا ألقى السحرةُ سحرَهُمْ . . أوجسَ موسىٰ في نفسِهِ خيفةً ؛ إذْ لمْ يأمنْ مكرَ اللهِ ، والتبسَ الأمرُ عليهِ ، حتَّىٰ جُدِّدَ عليهِ الأمنُ وقيلَ لهُ : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] .

ولمَّا ضعفَتْ شوكةُ المسلمينَ يومَ بدرٍ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنْ تهلكْ هٰذهِ العصابةَ . . لمْ يبقَ علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ يعبدُكَ » ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دعْ عنكَ مناشدتَكَ ربَّكَ ، فإنَّهُ وافٍ لكَ بما وعدَكَ[2] ، فكانَ مقامُ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ مقامَ الثقةِ بوعدِ اللهِ ، وكانَ مقامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مقامَ الخوفِ مِنْ مكرِ اللهِ ، وهوَ أتمُّ ؛ لأنَّهُ لا يصدرُ إلا عنْ كمالِ المعرفةِ بأسرارِ اللهِ تعالىٰ وخفايا أفعالِهِ ،

= أماكن للحدود من الأمر والنهي ، وفات الرسوم والمعقول التي هي أواسط الأحكام والأقدار) ، والخبر رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ٦٠) ، وهو عند الحكيم في « نوادر الأصول » (ص٤) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٠) ، وقال بعده : (لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لا نهاية لها ، وأن القول أحكام ، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام ، كما لا تعود عليه الأحكام ، وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام ، ثم تعود على المحكومات أبداً ، ولأنه ـ جلت قدرته ـ لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم ، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً عند من عرفه ، فأجله وعظمه عن معارف من جهله) .

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) .

ومعاني صفاتِهِ التي يُعبَّرُ عنْ بعضِ ما يصدرُ عنها بالمكْرِ ، وما لأحدٍ مِنَ البشرِ الوقوفُ علىٰ كنْهِ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ومَنْ عرفَ حقيقةَ المعرفةِ قصورَ معرفتِهِ عنِ الإحاطةِ بكنْهِ الأمورِ . عَظُمَ خوفُهُ لا محالةَ ، ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا قيلَ لهُ : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآيةَ[1] ، فوَّضَ الأمرَ إلى المشيئةِ ، وأخرجَ نفسَهُ بالكليَّةِ مِنَ البينِ ؛ لعلمِهِ بأنَّهُ ليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ ، وأنَّ الأمورَ مرتبطةٌ بالمشيئةِ ارتباطاً يخرجُ عنْ حدِّ المعقولاتِ والمألوفاتِ ، فلا يمكنُ الحكمُ عليها بقياسٍ ، ولا حدسٍ وحسبانٍ ، فضلاً عنِ التحقيقِ والاستيقانِ .

وهٰذا هوَ الذي قطَّعَ قلوبَ العارفينَ ؛ إذِ الطامَّةُ الكبرىٰ هيَ ارتباطُ أمرِكَ بمشيئةِ مَنْ لا يبالي بكَ إنْ أهلكَكَ ، فقدْ أهلكَ مَنْ لا يحصىٰ مِنْ أمثالِكَ ، ولمْ يزلْ في الدنيا يعذِّبُهُمْ بأنواعِ الآلامِ والأمراضِ ، ويمرضُ معَ ذلكَ قلوبَهُمْ بالكفرِ والنفاقِ ، ثمَّ يخلِّدُ العقابَ عليهِمْ أبدَ الآبادِ ، ثمَّ يخبرُ عنهُ ويقولُ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٠) .

فكيفَ لا يُخافُ ما حُقَّ مِنَ القولِ في الأزلِ ولا مطمعَ في تداركِهِ ؟! ولوْ كانَ الأمرُ أُنُفاً . . لكانَتِ الأطماعُ تمتدُّ إلىٰ حيلةٍ فيهِ[1] ، ولكنْ ليسَ إلا التسليمُ ، واستقراءُ خفيِّ السابقةِ مِنْ جليِّ الأسبابِ الظاهرةِ على القلبِ والجوارحِ ، فمَنْ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الشرِّ ، وحيلَ بينَهُ وبينَ أسبابِ الخيرِ ، وأُحكِمَتْ علاقتُهُ معَ الدنيا . . فكأنَّهُ كُشِفَ لهُ على التحقيقِ سرُّ السابقةِ التي سبقَتْ لهُ بالشقاوةِ ؛ إذْ كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ .

وإنْ كانَتِ الخيراتُ كلُّها ميسَّرةً ، والقلبُ بالكلِّيَّةِ عنِ الدنيا منقطعاً ، وبظاهرِهِ وباطنِهِ على اللهِ تعالىٰ مقبلاً . . كانَ هـٰذا يقتضي تخفيفَ الخوفِ لوْ كانَ الدوامُ علىٰ ذلكَ موثوقاً بهِ ، ولكنَّ خطرَ الخاتمةِ وعسرَ الثباتِ يزيدُ نيرانَ الخوفِ اشتعالاً ، ولا يمكِّنُها مِنَ الانطفاءِ .

وكيفَ يُؤمنُ تغيُّرُ الحالِ وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ؟! وإنَّ القلبَ أشدُّ تقلُّباً مِنَ القدرِ في غليانِها ، وقدْ قالَ مقلِّبُ القلوبِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ .

فأجهلُ الناسِ مَنْ أمنَهُ وهوَ يناديهِ بالتحذيرِ مِنَ الأمنِ ، ولولا أنَّ اللهَ لطفَ بعبادِهِ العارفينَ ؛ إذْ روَّحَ قلوبَهُمْ بروْحِ الرجاءِ . . لاحترقَتْ قلوبُهُمْ مِنْ نارِ الخوفِ ، فأسبابُ الرجاءِ رحمةٌ لخواصِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأسبابُ الغفلةِ

---

(١) والأمر الأُنُف : المبتدأ الذي لم يسبق به علم ولا قدر من الله تعالىٰ ، فلا تعلّق للأمور بالمشيئة الأزلية ، وهو مذهب غلاة القدرية ، الذين زعموا أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُف ، وقد تبرّأ منهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما جاء عند مسلم (٨) .

رحمةٌ علىٰ عوامِّ الخلقِ مِنْ وجهٍ ؛ إذْ لوِ انكشفَ الغطاءُ.. لزهقَتِ النفوسُ ، وتقطَّعَتِ القلوبُ مِنْ خوفِ مقلِّبِ القلوبِ(١) .

قالَ بعضُ العارفينَ : (لوْ حالَتْ بيني وبينَ مَنْ عرفتُهُ بالتوحيدِ خمسينَ سنةً أسطوانةٌ فماتَ.. لمْ أقطعْ لهُ بالتوحيدِ ؛ لأنِّي لا أدري ما ظهرَ لهُ مِنَ التقليبِ)(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : (لوْ كانَتِ الشهادةُ علىٰ بابِ الدارِ والموتُ على الإسلامِ عندَ بابِ الحجرةِ.. لاخترتُ الموتَ على الإسلامِ ؛ لأنِّي لا أدري ما يعرضُ لقلبي بينَ بابِ الحجرةِ وبابِ الدارِ)(٣) .

وكانَ أبو الدرداءِ يحلفُ باللهِ ما أحدٌ أمِنَ علىٰ إيمانِهِ أنْ يُسلبَهُ عندَ الموتِ إلا سُلِبَهُ(٤) .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (خوفُ الصديقينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ عندَ كلِّ خطرةٍ وكلِّ حركةٍ ، وهُمُ الذينَ وصفَهُمُ اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾)(٥) .

ولمَّا احتضرَ سفيانُ.. جعلَ يبكي ويجزعُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ، عليكَ بالرجاءِ ؛ فإنَّ عفوَ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ ، فقالَ : أوَعلىٰ ذنوبي

---

(١) السياق بنحوه في « القوت » (١/ ٢٣٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٤٧) عن محمد بن مسلم أنه بلغه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قاله .
(٥) قوت القلوب (١/ ٢٣٢) .

أبكي ؟! لوْ علمتُ أنِّي أموتُ على التوحيدِ . . لمْ أبالِ أنْ ألقى اللهَ بأمثالِ الجبالِ مِنَ الخطايا[1] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ الخائفينَ أنَّهُ أوصىٰ بعضَ إخوانِهِ فقالَ : إذا حضرَتْني الوفاةُ . . فاقعدْ عندَ رأسي ، فإنْ رأيتَني متُّ على التوحيدِ . . فخذْ جميعَ ما أملكُهُ واشترِ بهِ لوزاً وسكراً وانثرْهُ علىٰ صبيانِ أهلِ البلدِ ، وقلْ : هٰذا عرسُ المنفلتِ ، وإنْ متُّ علىٰ غيرِ التوحيدِ . . فأعلمِ الناسَ بذلكَ حتَّىٰ لا يغترُّوا بشهودِ جنازتي ليحضرَ جنازتي مَنْ أحبَّ علىٰ بصيرةٍ ؛ لئلا يلحقَني الرياءُ بعدَ الوفاةِ ، قالَ : وبِمَ أعلمُ ذلكَ ؟ فذكرَ لهُ علامةً ، فرأىٰ علامةَ التوحيدِ عندَ موتِهِ ، فاشترى السكَّرَ واللوزَ وفرَّقَهُ[2] .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (المريدُ يخافُ أنْ يُبتلىٰ بالمعاصي ، والعارفُ يخافُ أنْ يُبتلىٰ بالكفرِ)[3] .

وكانَ أبو يزيدَ يقولُ : (إذا توجهتُ إلى المسجدِ كأنَّ في وسطي زناراً ، أخافُ أنْ يذهبَ بي إلى البيعةِ وبيتِ النارِ ، حتَّىٰ أدخلَ المسجدَ ، فينقطعُ عنِّي الزنَّارُ ، فهٰذا لي في كلِّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٣) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٣) ، رواه عن بعض إخوانه .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) ، وقال : (لعلمهم بسرعة تقلب القلوب في قدرة علام الغيوب) ، وقريب من هٰذا رواه عنه القشيري في « رسالته » (ص١٨٨) .

ورُوِيَ عنْ عيسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ أنتمْ تخافونَ المعاصيَ ، ونحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ نخافُ الكفرَ)(١) .

ورُوِيَ في أخبارِ الأنبياءِ : أنَّ نبياً شكا إلى اللهِ تعالى الجوعَ والقملَ والعرْيَ سنينَ ، وكانَ لباسُهُ الصوفَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : عبدي ؛ أما رضيتَ أنْ عصمتُ قلبَكَ أنْ تكفرَ بي حتَّىٰ تسألَني الدنيا ؟! فأخذَ الترابَ فوضعَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : بلىٰ ، قدْ رضيتُ يا ربِّ ، فاعصمْني مِنَ الكفرِ(٢) .

فإذا كانَ خوفُ العارفينَ معَ رسوخِ أقدامِهِمْ وقوّةِ إيمانِهِمْ مِنْ سوءِ الخاتمةِ . . فكيفَ لا يخافُهُ الضعفاءُ ؟!

ولسوءِ الخاتمةِ أسبابٌ تتقدَّمُ على الموتِ ، مثلُ البدعةِ ، والنفاقِ ، والكبرِ ، وجملةٍ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، ولذلكَ اشتدَّ خوفُ الصحابةِ مِنَ النفاقِ ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ : (لوْ أنِّي أعلمُ أنِّي بريءٌ مِنَ النفاقِ . . كانَ أحبَّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ)(٣) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) ، وقد روى الطبري في « تفسيره » (٦/ ٩/ ١٥٣) عن مجاهد وسيَّار أن بلعام أو بلعم كان قد أوتي النبوة ، ونقل عن السدي وغيره أنه كان يعلم اسم الله الأعظم ، وكان مجاب الدعوة ، قال الإمام أبو طالب في « قوته » (١/ ٢٣٠) : (قال بعض أهل التفسير في أخبار بلعم بن باعوراء : إنه أوتي النبوة ، والمشهور أنه أوتي الاسم الأكبر ، فكان سبب هلاكه) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) ، ورواه الفريابي في « صفة المنافق » (ص ٧٣) .

وما عنوا بهِ النفاقَ الذي هوَ ضدُّ أصلِ الإيمانِ ، بلِ المرادُ بهِ ما يجتمعُ معَ أصلِ الإيمانِ ، فيكونُ مسلماً منافقاً ، ولهُ علاماتٌ كثيرةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهوَ منافقٌ خالصٌ ، وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مسلمٌ ، وإنْ كانَتْ فيهِ خصلةٌ منهُنَّ . . ففيهِ شعبةٌ مِنَ النفاقِ حتَّىٰ يدعهَا : مَنْ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، و إذا اؤتمنَ . . خانَ ، وإذا خاصمَ . . فجرَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا عاهدَ . . غدرَ »[1] .

وقدْ فسَّرَ الصحابةُ والتابعونَ النفاقَ بتفاسيرَ لا يخلو عنْ شيءٍ منهُ إلا صدِّيقٌ ، إذْ قالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ السرِّ والعلانيةِ ، واختلافَ اللسانِ والقلبِ ، واختلافَ المدخلِ والمخرجِ)[2] ، ومَنِ الذي يخلو عنْ هٰذهِ المعاني ؟ بلْ صارَتْ هٰذهِ الأمورُ مألوفةً بينَ الناسِ معتادةً ، ونُسِيَ كونُها منكراً بالكلِّيَّةِ ، بلْ جرىٰ ذلكَ علىٰ قرْبِ عهدٍ بزمانِ النبوَّةِ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِنا ؟!

حتَّىٰ قالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إنْ كانَ الرجلُ ليتكلَّمُ بالكلمةِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيصيرُ بها منافقاً ، إنِّي لأسمعُها مِنْ أحدِكُمْ في اليومِ عشرَ مرَّاتٍ)[3] .

---

(١) رواه البخاريَ (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآفات اللسان » (٤٨٣) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٩٠) .

وكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعينِكُمْ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ)(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (علامةُ النفاقِ أنْ تكرهَ مِنَ الناسِ ما تأتي مثلَهُ ، وأنْ تحبَّ علىٰ شيءٍ مِنَ الجورِ ، وأنْ تبغضَ علىٰ شيءٍ مِنَ الحقِّ)(٢) .

وقيلَ : (مِنَ النفاقِ أنَّهُ إذا مُدِحَ بشيءٍ ليسَ فيهِ . . أعجبَهُ ذلكَ)(٣) .

وقالَ رجلٌ لابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : إنَّا ندخلُ علىٰ هؤلاءِ الأمراءِ فنصدِّقُهُمْ فيما يقولونَ ، فإذا خرجنا . . تكلَّمنا فيهِمْ ، فقالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٤) .

ورُوِيَ أنَّهُ سمعَ رجلاً يذمُّ الحجَّاجَ ويقعُ فيهِ ، فقالَ : أرأيتَ لوْ كانَ الحجَّاجُ حاضراً . . أكنتَ تتكلَّمُ بما تكلَّمتَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٥) .

وأشدُّ مِنْ ذلكَ ما رُوِيَ أنَّ نفراً قعدوا علىٰ بابِ حذيفةَ ينتظرونَهُ ، فكانوا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٣/ ٢٨٥) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) ، ورواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٠٢) .

(٥) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٣/ ٢٤) ، وأصله في « البخاري » (٧١٧٨) .

يتكلمونَ في شيءٍ مِنْ شأنِهِ ، فلمَّا خرجَ عليهِمْ . . سكتوا حياءً منهُ ، فقالَ : تكلموا فيما كنتُمْ تقولونَ ، فسكتوا ، فقالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

وهـٰذا حذيفةُ كانَ قدْ خُصَّ بعلمِ المنافقينَ وأسبابِ النفاقِ ، وكانَ يقولُ : (إنَّهُ يأتي على القلبِ ساعةٌ يمتلىءُ بالإيمانِ حتَّىٰ لا يكونَ للنفاقِ فيهِ مغرزُ إبرةٍ ، ويأتي عليهِ ساعةٌ يمتلىءُ بالنفاقِ حتَّىٰ لا يكونَ للإيمانِ فيهِ مغرزُ إبرةٍ)[2] .

فقدْ عرفتَ بهـٰذا أنَّ خوفَ العارفينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ ، وأنَّ سببَهُ أمورٌ مقدَّمةٌ ، منها البدعُ ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاقُ ، ومتىٰ يخلو العبدُ عنْ شيءٍ مِنْ جملةِ ذلكِ ؟! وإنْ ظنَّ أنَّهُ قدْ خلا عنهُ . . فهوَ النفاقُ ، إذْ قيلَ : (مَنْ أمنَ النفاقَ . . فهوَ منافقٌ)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ العارفينَ : إنِّي أخافُ علىٰ نفسي النفاقَ ، فقالَ : لوْ كنتَ منافقاً . . لما خفتَ النفاقَ[4] .

فلا يزالُ العارفُ بينَ الالتفاتِ إلى السابقةِ والخاتمةِ خائفاً منهما ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٣٣) عن الحسن البصري .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٠٤) عن حذيفة رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٨٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العبدُ المؤمنُ بينَ مخافتينِ ، بينَ أجلٍ قدْ مضىٰ لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيهِ ، وبينَ أجلٍ قدْ بقيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ ما بعدَ الموتِ منْ مستعتبٍ ، ولا بعدَ الدنيا مِنْ دارٍ إلا الجنةُ أوِ النارُ »[1] ، واللهُ المستعانُ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

بيان معنى سوء الخاتمة

فإنْ قلتَ : إنَّ أكثرَ هؤلاءِ يرجعُ خوفُهُمْ إلىٰ سوءِ الخاتمةِ ، فما معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ سوءَ الخاتمةِ علىٰ رتبتينِ ، إحداهُما أعظمُ مِنَ الأخرىٰ .

فأمَّا الرتبةُ العظيمةُ الهائلةُ : فأنْ يغلبَ على القلبِ عندَ سكراتِ الموتِ وظهورِ أهوالِهِ إمَّا الشكُّ وإمَّا الجحودُ ، فتُقبضَ الروحُ في حالةِ غلبةِ الجحودِ أوِ الشكِّ ، فيكونَ ما غلبَ على القلبِ مِنْ عقدةِ الجحودِ حجاباً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ أبداً ، وذلكَ يقتضي البعدَ الدائمَ والعذابَ المخلَّدَ .

والثانيةُ وهيَ دونَها : أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ عندَ الموتِ حبُّ أمرٍ مِنْ أمورِ الدنيا ، وشهوةٍ مِنْ شهواتِها ، فيتمثَّلَ ذلكَ في قلبِهِ ويستغرقَهُ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ في تلكَ الحالةِ متسعٌ لغيرِهِ ، فيتفقَ قبضُ روحِهِ في تلكَ الحالِ ، فيكونَ استغراقُ قلبِهِ بهِ منكساً رأسَهُ إلى الدنيا ، وصارفاً وجهَهُ إليها ، ومهما انصرفَ الوجهُ عنِ اللهِ تعالىٰ . . حصلَ الحجابُ ، ومهما حصلَ الحجابُ . . نزلَ العذابُ ، إذْ نارُ اللهِ الموقدةُ لا تأخذُ إلا المحجوبينَ عنهُ .

فأمَّا المؤمنُ السليمُ قلبُهُ عنْ حبِّ الدنيا ، المصروفُ همُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . فتقولُ لهُ النارُ : جزْ يا مؤمنُ ؛ فإنَّ نورَكَ قدْ أطفأَ لهبي(١) .

---

(١) روي هـٰذا مرفوعاً ، رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٢٥٨) ، وابن عدي في =

فمهما اتفقَ قبضُ الروحِ في حالةِ غلبةِ حبِّ الدنيا . . فالأمرُ مخطرٌ ؛ لأنَّ المرءَ يموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ولا يمكنُ اكتسابُ صفةٍ أخرىٰ للقلبِ بعدَ الموتِ تضادُّ الصفةَ الغالبةَ عليهِ ؛ إذ لا تصرُّفَ في القلوبِ إلا بأعمالِ الجوارحِ ، وقدْ بطلَتِ الجوارحُ بالموتِ ، فبطلَتِ الأعمالُ ، فلا مطمعَ في عملٍ ، ولا مطمعَ في رجوعٍ إلى الدنيا ليتداركَ ، وعندَ ذلكَ تعظمُ الحسرةُ .

إلا أنَّ أصلَ الإيمانِ وحبَّ اللهِ تعالىٰ إذا كانَ قدْ رسخَ في القلبِ مدَّةً طويلةً ، وتأكَّدَ ذلكَ بالأعمالِ الصالحةِ . . فإنَّهُ يمحو عنِ القلبِ هٰذهِ الحالةَ التي عرضَتْ لهُ عندَ الموتِ ، فإنْ كانَ إيمانُهُ في القوَّةِ إلىٰ حدِّ مثقالٍ . . أخرجَهُ مِنَ النارِ في زمانٍ أقربَ ، وإنْ كانَ أقلَّ مِنْ ذلكَ . . طالَ مكثُهُ في النارِ ، ولوْ لمْ يكنْ إلا مثقالُ حبَّةٍ . . فلا بدَّ أنْ يخرجَهُ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ آلافِ سنينَ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما ذكرتَهُ يقتضي أن تسرعَ النارُ إليهِ عقيبَ موتِهِ ، فما بالُهُ يُؤَخَّرُ إلىٰ يومِ القيامةِ ويُمهلُ طولَ هٰذهِ المدَّةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ أنكرَ عذابَ القبرِ . . فهوَ مبتدعٌ محجوبٌ عنْ نورِ اللهِ تعالىٰ وعنْ نورِ القرآنِ ونورِ الإيمانِ ، بلِ الصحيحُ عندَ ذوي الأبصارِ ما صحَّتْ بهِ الأخبارُ ، وهوَ أنَّ القبرَ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النيرانِ أوْ روضةٌ مِنْ

= « الكامل » (٦/ ٢٩٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣١) عن يعلى بن منية رضي الله عنه مرفوعاً .

رياضِ الجنانِ ، وأنَّهُ قدْ يُفتحُ إلىٰ قبرِ المعذَّبِ سبعونَ باباً مِنَ الجحيمِ كما وردَتْ بِهِ الأخبارُ[1] ، فلا تفارقُهُ روحُهُ إلا وقدْ نزلَ بِهِ البلاءُ إنْ كانَ قدْ شقيَ بسوءِ الخاتمةِ ، وإنَّما تختلفُ أصنافُ العذابِ باختلافِ الأوقاتِ ، فيكونُ سؤالُ مُنكَرٍ ونَكِيرٍ عندَ الوضعِ في القبرِ ، والتعذيبُ بعدَهُ ، ثمَّ المناقشةُ في الحسابِ ، والافتضاحُ علىٰ ملأٍ منَ الأشهادِ في القيامةِ[2] ، ثمَّ بعدَ ذلكَ خطرُ الصراطِ ، وهولُ الزبانيةِ[3] ، إلىٰ آخرِ ما وردَتْ بهِ الأخبارُ ، فلا يزالُ الشقيُّ مردَّداً في جميعِ أحوالِهِ بينَ أصنافِ العذابِ ، وهوَ في جملةِ الأحوالِ معذَّبٌ إلا أنْ يتغمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رویٰ أبو داوود (٤٧٥٣) في الحديث الذي يذكر فيه عذاب القبر : « وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسمومها. . . » الحديث ، أما ذكر السبعين. . فقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٢٣٥) .

(٢) فمن ذلك ما رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « وأما الكفار والمنافقون. . . فينادىٰ بهم علىٰ رؤوس الخلائق : هٰؤلاء الذين كذبوا على الله » .
ومن ذلك ما رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٠) عنه أيضاً مرفوعاً : « من انتفىٰ من ولده ليفضحه في الدنيا. . فضحه الله يوم القيامة علىٰ رؤوس الأشهاد ، قصاص بقصاص » .

(٣) فمن ذلك ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٦) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الزبانية يوم القيامة أسرع إلىٰ فسقة حملة القرآن منها إلىٰ عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ليس من علم كمن لا يعلم » .

ولا تظنَّنَّ أنَّ محلَّ الإيمانِ يأكلُهُ الترابُ ، بلِ الترابُ يأكلُ جميعَ الجوارحِ ويبدِّدُها ، إلىٰ أن يبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، فتجتمعُ الأجزاءُ المتفرِّقَةُ ، وتُعادُ إليها الروحُ التي هيَ محلُّ الإيمانِ ، وقدْ كانَتْ مِنْ وقتِ الموتِ إلى الإعادةِ إمَّا في حواصلِ طيرٍ خضْرٍ معلَّقةٍ تحتَ العرشِ إنْ كانَتْ سعيدةً ، وإمَّا علىٰ حالةٍ تضادُّ هـٰذهِ الحالَ إنْ كانَتْ ـ والعياذُ باللهِ ـ شقيَّةً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما السببُ الذي يفضي إلىٰ سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أسبابَ هـٰذهِ الأمورِ لا يمكنُ إحصاؤُها على التفصيلِ ، ولكنْ يمكنُ الإشارةُ إلىٰ مجامعِها :

أمَّا الختمُ على الشكِّ والجحودِ . . فينحصرُ سببُهُ في شيئينِ :

أحدُهُما : يُتصوَّرُ معَ تمامِ الورعِ والزهدِ ، وتمامِ الصلاحِ في الأعمالِ ؛ كالمبتدعِ الزاهدِ ، فإنَّ عاقبتَهُ مخطرةٌ جدّاً وإنْ كانَتْ أعمالُهُ صالحةً ، ولستُ أعني مذهباً فأقولُ : (إنَّهُ بدعةٌ) ؛ فإنَّ بيانَ ذلكَ يطولُ القولُ فيهِ ، بلْ أعني بالبدعةِ : أنْ يعتقدَ الرجلُ في ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ خلافَ الحقِّ ، فيعتقدُهُ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ ؛ إمَّا برأيِهِ ومعقولِهِ ونظرِهِ الذي بهِ يجادلُ الخصومَ وعليهِ يعوِّلُ وبهِ يغترُّ ، وإمَّا أخذاً بالتقليدِ ممَّنْ هـٰذا حالُهُ .

فإذا قربَ الموتُ ، وظهرَتْ لهُ ناصيةُ ملكِ الموتِ ، واضطربَ القلبُ بما فيهِ . . فربما ينكشفُ لهُ في حالِ سكراتِ الموتِ بطلانُ ما اعتقدَهُ جهلاً ؛

إذْ حالُ الموتِ حالُ كشْفِ الغطاءِ ، ومبادىءُ سكراتِهِ منهُ ، فقدْ ينكشفُ بهِ بعضُ الأمورِ ، فمهما بطلَ عندَهُ ما كانَ اعتقدَهُ ، وقدْ كانَ قاطعاً بهِ متيقناً لهُ عندَ نفسِهِ . . لمْ يظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ أخطأَ في هـٰذا الاعتقادِ خاصةً ؛ لالتجائِهِ فيهِ إلىٰ رأيِهِ الفاسدِ وعقلِهِ الناقصِ ، بلْ ظنَّ أنَّ كلَّ ما اعتقدَهُ لا أصلَ لهُ ؛ إذْ لمْ يكنْ عندَهُ فرقٌ بينَ إيمانِهِ باللهِ ورسولِهِ وسائرِ اعتقاداتِهِ الصحيحةِ وبينَ اعتقادِهِ الفاسدِ ، فيكونُ انكشافُ بعضِ اعتقاداتِهِ عنِ الجهلِ سبباً لبطلانِ بقيَّةِ اعتقاداتِهِ أوْ لشكِّهِ فيها .

فإنِ اتفقَ زهوقُ روحِهِ في هـٰذهِ الخطرةِ قبلَ أن ينيبَ ويعودَ إلىٰ أصلِ الإيمانِ[1] . . فقدْ خُتمَ لهُ بالسوءِ ، وخرجَتْ روحُهُ على الشركِ والعياذُ باللهِ منهُ ، فهؤلاءِ هُمُ المرادونَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وكما أنَّهُ قدْ ينكشفُ في النومِ ما سيكونُ في المستقبلِ وذلكَ بسببِ خفَّةِ أشغالِ الدنيا عنِ القلبِ . . فكذلكَ ينكشفُ في سكراتِ الموتِ بعضُ الأمورِ ، إذْ شواغلُ الدنيا وشهواتُ البدنِ هيَ المانعةُ للقلبِ مِنْ أنْ ينظرَ إلى الملكوتِ ، فيطالعَ ما في اللوحِ المحفوظِ لتنكشفَ لهُ الأمورُ علىٰ ما هيَ عليهِ ، فيكونُ مثلُ هـٰذهِ الحالِ سببَ الكشفِ ، ويكونُ الكشفُ سببَ الشكِّ في بقيَّةِ الاعتقاداتِ .

---

(١) في غير (أ) : (يثبت) بدل (ينيب) .

وكلُّ مَنِ اعتقدَ في اللهِ تعالىٰ وفي صفاتِهِ وأفعالِهِ شيئاً علىٰ خلافِ ما هوَ بهِ ؛ إمَّا تقليداً ، وإمَّا نظراً بالرأيِ والمعقولِ . . فهوَ في هٰذا الخطرِ ، والزهدُ والصلاحُ لا يكفي لدفعِ هٰذا الخطرِ ، بلْ لا ينجي منهُ إلا الاعتقادُ الحقُّ .

والبُلْهُ بمعزلٍ عنْ هٰذا الخطرِ ؛ أعني : الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ إيماناً مجملاً راسخاً ؛ كالأعرابِ ، والسواديَّةِ ، وسائرِ العوامِّ الذينَ لمْ يخوضوا في البحثِ والنظرِ ، ولمْ يشرعوا في الكلامِ استقلالاً ، ولا أصغَوا إلىٰ أصنافِ المتكلمينَ في تقليدِ أقاويلِهِمُ المختلفةِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البُلْهُ »(١) .

ولذلكَ منعَ السلفُ مِنَ البحثِ والنظرِ والخوضِ في الكلامِ ، والتفتيشِ عنْ هٰذهِ الأمورِ ، وأمروا الخلقَ أنْ يقتصروا علىٰ أنْ يؤمنوا بما أنزلَ اللهُ جميعاً ، وبكلِّ ما جاءَ مِنَ الظواهرِ ، معَ اعتقادِ نفيِ التشبيهِ ، ومنعوهُمْ عنِ الخوضِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الخطرَ في البحثِ عنِ الصفاتِ عظيمٌ ، وعقباتُهُ كؤودةٌ ، ومسالكُهُ وعرةٌ ، والعقولُ عنْ دركِ جلالِ اللهِ تعالىٰ قاصرةٌ ، وهدايةُ اللهِ تعالىٰ بنورِ اليقينِ عنِ القلوبِ بما جُبلَتْ عليهِ مِنْ حبِّ الدنيا

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٧/ ٤٣١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣١٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً .

محجوبةٌ ، وما ذكرَهُ الباحثونَ ببضاعةِ عقولِهِمْ مضطربٌ ومتعارضٌ ، والقلوبُ لما أُلقيَ إليها في مبدأِ النشأةِ آلفةٌ ، وبهِ متعلِّقةٌ ، والتعصباتُ الثائرةُ بينَ الخلقِ مساميرُ مؤكدةٌ للعقائدِ الموروثةِ ، أوِ المأخوذةِ بحسنِ الظنِّ مِنَ المعلِّمينَ في أوَّلِ الأمرِ ، ثمَّ الطباعُ بحبِّ الدنيا مشغوفةٌ ، وعليها مقبلةٌ ، وشهواتُ الدنيا بمُخَنَّقِها آخذةٌ ، وعنْ تمامِ الفكرِ صارفةٌ .

فإذا فُتِحَ بابُ الكلامِ في اللهِ وفي صفاتِهِ بالرأيِ والمعقولِ ، معَ تفاوتِ الناسِ في قرائحِهِمْ ، واختلافِهِمْ في طبائعِهِمْ ، وحرصِ كلِّ جاهلٍ منهُمْ علىٰ أنْ يدَّعيَ الكمالَ أوِ الإحاطةَ بكنْهِ الحقِّ . . انطلقَتْ ألسنتُهُمْ بما يقعُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ ، وتعلَّقَ ذلكَ بقلوبِ المصغينَ إليهِمْ ، وتأكَّدَ ذلكَ بطولِ الإلفِ فيهِمْ ، وانسدَّ بالكلِّيَّةِ طريقُ الخلاصِ عليهِمْ ، فكانَتْ سلامةُ الخلقِ في أنْ يشتغلوا بالأعمالِ الصالحةِ ، ولا يتعرَّضوا لما هوَ خارجٌ عنْ حدِّ طاقتِهِمْ .

ولكنِ الآنَ قدِ استرخى العِنانُ ، وفشا الهذيانُ ، ونزلَ كلُّ جاهلٍ علىٰ ما وافقَ طبعَهُ بظنٍّ وحسبانٍ ، وهوَ يعتقدُ أنَّ ذلكَ علمٌ واستيقانٌ ، وأنَّهُ صفوُ الإيمانِ ، ويظنُّ أنَّ ما قَنِعَ بهِ مِنْ حدسٍ وتخمينٍ علمُ اليقينِ وعينُ اليقينِ ، ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ .

وينبغي أنْ يُنشدَ في هؤلاءِ عندَ كشْفِ الغطاءِ(١) : [من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِٱلأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلْقَدَرُ

---

(١) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما في « ديوان سيدنا علي » (ص ١٣٢) ، و« ديوان الإمام الشافعي » (ص ٦٥) ، و« ديوان أبي العتاهية » (ص ٥٣٦) .

وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِي فَٱغْتَرَرْتَ بِها ... وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِي يَحْدُثُ ٱلْكَدَرُ

واعلمْ يقيناً أنَّ كلَّ مَنْ فارقَ الإيمانَ الساذجَ باللهِ ورسولِهِ وكتبِهِ[1] ، وخاضَ في البحثِ . . فقدْ تعرَّضَ لهـٰذا الخطرِ ، ومثالُهُ : مَنِ انكسرَتْ سفينتُهُ وهوَ في ملتطمِ الأمواجِ ، يرميهِ موجٌ إلىٰ موجٍ ، فربما يتفقُ أنْ يلقيَهُ إلى الساحلِ ، وذلكَ بعيدٌ ، والهلاكُ أغلبُ عليهِ .

وكلُّ نازلٍ علىٰ عقيدةٍ تلقَّفَها مِنَ الباحثينَ ببضاعةِ عقولِهِمْ ؛ إمَّا معَ الأدلَّةِ التي حرَّرُوها في تعصباتِهِمْ ، أوْ دونَ الأدلَّةِ ؛ إنْ كانَ شاكّاً فيهِ . . فهوَ فاسدُ الدينِ ، وإنْ كانَ واثقاً بهِ . . فهوَ آمنٌ مِنْ مكْرِ اللهِ ، مغترٌّ بعقلِهِ الناقصِ ، وكلُّ خائضٍ في البحثِ فلا ينفكُّ عنْ هاتينِ الحالتينِ إلا إذا جاوزَ حدودَ المعقولِ[2] إلىٰ نورِ المكاشفةِ الذي يشرقُ في عالمِ الولايةِ والنبوَّةِ ، وذلكَ هوَ الكبريتُ الأحمرُ ، وأنَّىٰ يتيسَّرُ ؟! وإنَّما يسلمُ عنْ هـٰذا الخطرِ البلْهُ مِنَ العوامِّ ، أوِ الذينَ شغلَهُمْ خوفُ النارِ بطاعةِ اللهِ ، فلمْ يخوضوا في هـٰذا الفضولِ .

فهـٰذا أحدُ الأسبابِ المخطرةِ في سوءِ الخاتمةِ .

وأمَّا السببُ الثاني : فهوَ ضعْفُ الإيمانِ في الأصلِ ، ثمَّ استيلاءُ حبِّ الدنيا على القلبِ ، ومهما ضعفَ الإيمانُ . . ضعفَ حبُّ اللهِ ، وقويَ حبُّ

---

(١) الساذج : يطلقه أهل الكلام علىٰ ما ليس ببرهان قاطع .
(٢) في (أ) : (العقل) بدل (المعقول) .

الدنيا ، فيصيرُ بحيثُ لا يبقىٰ في القلبِ موضعٌ لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، إلا مِنْ حيثُ حديثُ النفسِ ، لا يظهرُ لهُ أثرٌ في مخالفةِ النفسِ والعدولِ عنْ طريقِ الشيطانِ ، فيورثُ ذلكَ الانهماكَ في اتباعِ الشهواتِ ، حتَّىٰ يظلمَ القلبُ ، ويقسوَ ويسودَّ ، وتتراكمَ ظلمةُ الذنوبِ على القلبِ ، فلا يزالُ يطفىءُ ما فيهِ مِنْ نورِ الإيمانِ علىٰ ضعفِهِ حتَّىٰ يصيرَ طبعاً ورَيْناً .

فإذا جاءَتْ سكراتُ الموتِ . . ازدادَ ذلكَ الحبُّ ـ أعني : حبَّ اللهِ ـ ضعفاً ؛ لما يبدو مِنِ استشعارِ فراقِ الدنيا ، وهيَ المحبوبُ الغالبُ على القلبِ[1] ، فيتألَّمُ القلبُ باستشعارِ فراقِ الدنيا ، ويرىٰ ذلكَ مِنَ اللهِ ، فيختلجُ ضميرُهُ بإنكارِ ما قدَّرَ عليهِ مِنَ الموتِ ، وكراهةِ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مِنَ اللهِ ، فيُخشىٰ أنْ يثورَ في باطنِهِ بغضٌ للهِ تعالىٰ بدلَ الحبِّ ، كما أنَّ الذي يحبُّ ولدَهُ حبّاً ضعيفاً إذا أخذَ ولدُهُ أموالَهُ التي هيَ أحبُّ إليهِ مِنْ ولدِهِ وأحرقَها . . انقلبَ ذلكَ الحبُّ الضعيفُ بغضاً ، فإنِ اتفقَ زهوقُ روحِهِ في تلكَ اللحظةِ التي خطرَتْ فيها هـٰذهِ الخطرةُ . . فقدْ خُتِمَ لهُ بالسوءِ ، وهلكَ هلاكاً مؤبَّداً .

والسببُ الذي يفضي إلىٰ مثلِ هـٰذهِ الخاتمةِ هوَ غلبةُ حبِّ الدنيا ، والركونُ إليها ، والفرحُ بأسبابِها ، معَ ضعفِ الإيمانِ الموجبِ لضعفِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ وجدَ في قلبِهِ حبَّ اللهِ أغلبَ مِنْ حبِّ الدنيا ـ وإنْ

---

(١) في (أ) : (وبقي) بدل (وهي) .

كانَ يحبُّ الدنيا أيضاً ـ فهوَ أبعدُ عنْ هـٰذا الخطرِ .

وحبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وهوَ الداءُ العضالُ ، وقدْ عمَّ أصنافَ الخلقِ ، وذلكَ كلُّهُ لقلَّةِ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، إذْ لا يحبُّهُ إلا مَنْ عرفَهُ ، ولهـٰذا قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ .

فإذاً ؛ مَنْ فارقَتْهُ روحُهُ في حالةِ خَطْرةِ الإنكارِ على اللهِ تعالىٰ ببالِهِ ، وظهورِ بغضِ فعلِ اللهِ تعالىٰ بقلبِهِ في تفريقِهِ بينَهُ وبينَ أهلِهِ ومالِهِ وسائرِ محابِّهِ . . فيكونُ موتُهُ قدوماً علىٰ ما أبغضَهُ ، وفراقاً لما أحبَّهُ ، فيقدمُ على اللهِ تعالىٰ قدومَ العبدِ المبغضِ الآبقِ إذا قُدِمَ بهِ علىٰ مولاهُ قهراً ، فلا يخفىٰ ما يستحقُّهُ مِنَ الخزيِ والنَّكالِ .

وأمَّا الذي يُتوفَّىٰ على الحبِّ . . فإنَّهُ يقدمُ على اللهِ تعالىٰ قدومَ العبدِ المحسنِ المشتاقِ إلىٰ مولاهُ ، الذي تحمَّلَ مشاقَّ الأعمالِ ووعثاءَ الأسفارِ طمعاً في لقائِهِ ، فلا يخفىٰ ما يلقاهُ مِنَ الفرحِ والسرورِ بمجرَّدِ القدومِ ، فضلاً عمَّا يستحقُّهُ مِنْ لطائفِ الإكرامِ وبدائعِ الإنعامِ .

وأمَّا الخاتمةُ الثانيةُ التي هيَ دونَ الأولىٰ ، وليسَتْ مقتضيةً للخلودِ في النارِ . . فلها أيضاً سببانِ :

أحدُهما : كثرةُ المعاصي وإنْ قويَ الإيمانُ .

والآخرُ : ضعفُ الإيمانِ وإنْ قلَّتِ المعاصي .

وذلكَ لأنَّ مقارفةَ المعاصي سببُها غلبةُ الشهواتِ ورسوخُها في القلبِ بكثرةِ الإلفِ والعادةِ ، وجميعُ ما ألفَهُ الإنسانُ في عمرِهِ يعودُ ذكرُهُ إلىٰ قلبِهِ عندَ موتِهِ ، فإنْ كانَ ميلُهُ الأكثرُ إلى الطاعاتِ . . كانَ أكثرُ ما يحضرُهُ ذكرَ طاعةِ اللهِ ، وإنْ كانَ ميلُهُ الأكثرُ إلى المعاصي . . غلبَ ذكرُها علىٰ قلبِهِ عندَ الموتِ ، فربما تُقبضُ روحُهُ عندَ غلبةِ شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ، ومعصيةٍ مِنَ المعاصي ، فيتقيَّدُ بها قلبُهُ ، ويصيرُ محجوباً عنِ اللهِ تعالىٰ ، فالذي لا يقارفُ الذنبَ إلا الفينة بعدَ الفينةِ . . فهوَ أبعدُ عنْ هٰذا الخطرِ ، والذي لمْ يقارفْ ذنباً أصلاً . . فهوَ بعيدٌ جداً عنْ هٰذا الخطرِ ، والذي غلبَتْ عليهِ المعاصي ، وكانَتْ أكثرَ مِنْ طاعاتِهِ ، وقلبُهُ بها أفرحُ منهُ بالطاعاتِ . . فهٰذا الخطرُ عظيمٌ في حقِّهِ جدّاً .

ويعرفُ هٰذا بمثالٍ : وهوَ أنَّهُ لا يخفىٰ عليكَ أنَّ الإنسانَ يرىٰ في منامِهِ جملةً مِنَ الأحوالِ التي عهدَها طولَ عمرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يرىٰ إلا ما يماثلُ مشاهداتِهِ في اليقظةِ ، وحتَّىٰ إنَّ المراهقَ الذي يحتلمُ لا يرىٰ صورةَ الوقاعِ إذا لمْ يكنْ قدْ واقعَ في اليقظةِ ، ولوْ بقيَ كذلكَ مدةً . . لمَا رأىٰ عندَ الاحتلامِ صورةَ الوقاعِ .

ثمَّ لا يخفىٰ أنَّ الذي قضىٰ عمرَهُ في التفقُّهِ يرىٰ مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بالعلمِ والعلماءِ أكثرَ ممَّا يراهُ النجَّارُ الذي قضىٰ عمرَهُ في النجارةِ ، والنجَّارُ

يرىٰ مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بأسبابِ النجارةِ أكثرَ ممَّا يراهُ الطبيبُ والفقيهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما يظهرُ في حالةِ النومِ ما حصلَ لهُ مناسبةٌ معَ القلبِ بطولِ الإلفِ أوْ بسببٍ آخرَ مِنَ الأسبابِ .

والموتُ شبهُ النومِ ، ولكنَّهُ فوقَهُ ، ولكنَّ سكراتِ الموتِ وما يتقدَّمُهُ مِنَ الغشيةِ قريبٌ مِنَ النومِ ، فيقتضي ذلكَ تذكُّرَ المألوفاتِ وعودَها إلى القلبِ ، وأحدُ الأسبابِ المرجِّحةِ لحصولِ ذكرِهِ في القلبِ طولُ الإلفِ ، فطولُ الإلفِ بالمعاصي والطاعاتِ أيضاً مرجِّحٌ ؛ ولذلكَ أيضاً تُخالفُ مناماتُ الصالحينَ مناماتِ الفسَّاقِ ، فتكونُ غلبةُ الإلفِ سبباً لأنْ تتمثَّلَ صورةُ فاحشةٍ في قلبِهِ وتميلَ إليها نفسُهُ ، فربَّما تُقبضُ عليها روحُهُ ، فيكونُ ذلكَ سببَ سوءِ خاتمتِهِ، وإنْ كانَ أصلُ الإيمانِ باقياً ، بحيثُ يُرجىٰ لهُ الخلاصُ منها .

وكما أنَّ ما يخطرُ في اليقظةِ إنَّما يخطرُ بسببٍ خاصٍّ يعلمُهُ اللهُ تعالىٰ . . فكذلكَ آحادُ المناماتِ لها أسبابٌ عندَ اللهِ ، نعرفُ بعضَها ولا نعرفُ بعضَها ، كما أنَّا نعلمُ أنَّ الخاطرَ ينتقلُ مِنَ الشيءِ إلىٰ ما يناسبُهُ : إمَّا بالمشابهةِ ، وإمَّا بالمضادَّةِ ، وإمَّا بالمقارنةِ ، بأنْ يكونَ قدْ وردَ على الحسِّ معَهُ .

أمَّا بالمشابهةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ جميلٍ ، فيتذكَّرَ جميلاً آخرَ .

وأمَّا بالمضادَّةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ جميلٍ ، فيتذكَّرَ قبيحاً ، ويتأمَّلَ في شدةِ التفاوتِ بينَهُما .

وأمَّا بالمقارنةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ فرسٍ قدْ رآهُ مِنْ قبلُ معَ إنسانٍ ، فيتذكَّرَ ذلكَ الإنسانَ .

وقدْ ينتقلُ الخاطرُ مِنْ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ولا يُدرىٰ وجهُ مناسبتِهِ لهِ ، وإنَّما يكونُ ذلكَ بواسطةٍ وواسطتينِ ، مثلَ أنْ ينتقلَ مِنْ شيءٍ إلىٰ ثانٍ ، ومنهُ إلىٰ ثالثٍ ، ثمَّ ينسى الثانيَ ولا يكونُ بينَ الثالثِ والأوَّلِ مناسبةٌ ، ولكنْ يكونُ بينَهُ وبينَ الثاني مناسبةٌ ، وبينَ الثاني والأوَّلِ مناسبةٌ ؛ فكذلكَ لانتقالاتِ الخواطرِ في المنامِ أسبابٌ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، وكذا عندَ سكراتِ الموتِ ؛ فإنَّ الخواطرَ تنتقلُ فيها في أمورٍ بعضُها مرتبطٌ بالبعضِ بأسبابٍ مختلفةٍ .

فعلىٰ هـٰذا ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ منْ كانتِ الخياطةُ أكثرَ أشغالِهِ . . فإنَّكَ تراهُ يوميءُ إلىٰ رأسهِ كأنَّهُ يأخذُ إبرتَهُ ليخيطَ بها ، ويبلُّ إصبعَهُ التي لها عادةٌ بالكشتبانِ ، ويأخذُ الإزارَ منْ فوقهِ ويقدرُهُ ويشبرُهُ كأنَّهُ يتعاطىٰ تفصيلَهُ ، ثمَّ يمدُّ يدَهُ إلى المقراضِ .

ومَنْ أرادَ أنْ يكفَّ خاطرَهُ عنِ الانتقالِ إلى المعاصي والشهواتِ . . فلا طريقَ لهُ إلا المجاهدةُ طولَ العمرِ في فطامِ نفسِهِ عنها ، وفي قمعِ الشهواتِ مِنَ القلبِ ، فهـٰذا هوَ القدْرُ الذي يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، ويكونُ طولُ المواظبةِ على الخيرِ ، وتخليةُ الفكرِ عنِ الشرِّ . . عدَّةً وذخيرةً لحالةِ سكراتِ الموتِ ، فإنَّهُ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما ماتَ عليهِ .

ولذلكَ نُقِلَ عنْ بقَّالٍ أنَّهُ كانَ يُلقَّنُ عندَ الموتِ كلمتيِ الشهادةِ ، فيقولُ :

(خمسةٌ ، ستةٌ ، أربعةٌ) ، فكانَ مشغولَ النفسِ بالحسابِ الذي طالَ إلفُهُ لهُ قبلَ الموتِ .

وقالَ بعضُ العارفينَ مِنَ السلفِ : العرشُ جوهرةٌ تتلألأ نوراً ، فلا يكونُ العبدُ علىٰ حالٍ إلا انطبعَ مثالُهُ في العرشِ على الصورةِ التي كانَ عليها ، فإذا كانَ في سكراتِ الموتِ . . كُشفَتْ لهُ صورتُهُ مِنَ العرشِ ، فربما يرىٰ نفسَهُ علىٰ صورةٍ معصيةٍ ، وكذلكَ يُكشفُ لهُ يومَ القيامةِ ، فيرىٰ أحوالَ نفسِهِ ، فيأخذُهُ مِنَ الحياءِ والخوفِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ(١) .

وما ذكرَهُ صحيحٌ ، وسببُ الرؤيا الصادقةِ قريبٌ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ النائمَ يدركُ ما يكونُ في المستقبلِ مِنْ مطالعةِ اللوحِ المحفوظِ ، وهيَ جزءٌ مِنْ أجزاءِ النبوَّةِ(٢) .

فإذاً ؛ رجعَ سوءُ الخاتمةِ إلىٰ أحوالِ القلبِ واختلاجِ الخواطرِ ، ومقلِّبُ القلوبِ هوَ اللهُ ، والاتفاقاتُ المقتضيةُ لسوءِ الخواطرِ(٣) غيرُ داخلةٍ تحتَ الاختيارِ دخولاً كلِّياً وإنْ كانَ لطولِ الإلفِ فيهِ تأثيرٌ ، فلهـٰذا عظمَ خوفُ العارفينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ ؛ لأنَّهُ لوْ أرادَ الإنسانُ ألا يرىٰ في المنامِ إلا أحوالَ الصالحينَ وأحوالَ الطاعاتِ والعباداتِ . . عسرَ عليهِ ذلكَ ، وإنْ كانَتْ كثرةُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٣) بتصرف .
(٢) كما روى البخاري (٦٩٨٣) ، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .
(٣) في (أ ، س) : (الخاتمة) بدل (الخواطر) .

الصلاحِ والمواظبةُ عليهِ ممَّا يؤثرُ فيهِ ، ولكنَّ اضطراباتِ الخيالِ لا تدخلُ بالكلِّيَّةِ تحتَ الضبطِ ، وإنْ كانَ الغالبُ مناسبةَ ما يظهرُ في النومِ لما غلبَ في اليقظةِ .

حتَّىٰ سمعتُ الشيخَ أبا عليٍّ الفارمْذيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ يصفُ لي وجوبَ حسْنِ أدبِ المريدِ لشيخِهِ ، وألا يكونَ في قلبِهِ إنكارٌ لكلِّ ما يقولُهُ ، ولا في لسانِهِ مجادلةٌ عليهِ ، فقالَ : حكيتُ لشيخي أبي القاسم الكُرْكانيِّ[1] مناماً لي ، وقلتُ : رأيتُكَ قلتَ لي كذا ، فقلتُ : لِمَ ذاكَ ؟ قالَ : فهجرَني شهراً ولمْ يكلِّمْني ، وقالَ : لولا أنَّهُ كانَ في باطنِكَ تجويزُ المطالبةِ وإنكارُ ما أقولُهُ لكَ . . لما جرىٰ ذلكَ علىٰ لسانِكَ في المنامِ .

وهوَ كما قالَ ؛ إذْ قلَّما يرى الإنسانُ في منامِهِ خلافَ ما يغلبُ في اليقظةِ علىٰ قلبِهِ .

فهٰذا هوَ القدْرُ الذي نسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ مِنْ أسرارِ أمرِ

---

(١) وهو جدُّ أبي علي الفارمذي لأمه ، روى الحافظ السلفي في « معجم السفر » (١٣٧) عن أخي الغزالي أحمد أنه قال : (كان أبو القاسم الكركاني بطوس شيخ خراسان في عصره في التصوف. . .) ، قال العلامة ياقوت في « معجم البلدان » (٤/٤٥٢) : (كُركان : بالضم ، وآخره نون ، وإذا عرِّب. . قيل : جُرجان) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٢٤١) : (وكان أبو علي الفارمذي قد صاهر أبا القاسم الكركاني هٰذا ، والمصنف رحمه الله تعالىٰ قد أخذ عن كل من الفارمذي ويوسف النساج ، وهما جميعاً عن أبي القاسم الكركاني هٰذا ، وقد دفن الكركاني والنساج كلاهما في قبر واحد بطوس ، وكل هٰؤلاء الثلاثة من كبار مشايخ السلسلة النقشبندية ، وللكركاني في الأخذ طريقان) وذكرهما .

الخاتمةِ ، وما وراءَ ذلكَ فهوَ داخلٌ في علمِ المكاشفةِ .

وقدْ ظهرَ لكَ بهٰذا أنَّ الأمنَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ بأنْ ترى الأشياءَ كما هيَ عليهِ مِنْ غيرِ جهلٍ ، وتزجِّيَ جميعَ العمرِ في طاعةِ اللهِ مِنْ غيرِ معصيةٍ[1] ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ ذلكَ محالٌ أوْ عسيرٌ . . فلا بدَّ أنْ يغلبَ عليكَ مِنَ الخوفِ ما غلبَ على العارفينَ ، حتَّىٰ يطولَ بسببِهِ بكاؤُكَ ونياحتُكَ ، ويدومَ بهِ حزنُكَ وقلقُكَ ، كما سنحكيهِ مِنْ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ والسلفِ الصالحينَ ؛ ليكونَ ذلكَ أحدَ الأسبابِ المهيِّجةِ لنارِ الخوفِ مِنْ قلبِكَ .

وقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ أعمالَ العمرِ كلَّها ضائعةٌ إنْ لمْ يسلمْ في النفَسِ الأخيرِ الذي عليهِ خروجُ الروحِ ، وأنَّ سلامتَهُ معَ اضطرابِ أمواجِ الخواطرِ مشكلٌ جداً ، ولذلك كانَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ يقولُ : (إنِّي لا أعجبُ ممَّنْ هلكَ كيفَ هلكَ ، ولكنِّي أعجبُ ممَّن نجا كيفَ نجا ؟!!)[2] .

ولذلكَ قالَ حامدٌ اللفَّافُ : (إذا صعدَتِ الملائكةُ بروحِ العبدِ المؤمنِ وقدْ ماتَ على الخيرِ والإسلامِ . . تعجبَتِ الملائكةُ منهُ ، وقالوا : كيفَ نجا هٰذا مِنْ دنيا فسدَ فيها خيارُنا ؟!)[3] .

---

(١) تزجي : زجَّيت الشيء تزجية ؛ إذا دفعته برفق ، يقال : كيف تزجِّي الأيام ؟ أي : كيف تدفعها ؟ ودفعها يكون بالرضا بقوت قليل .
(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢٤١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧١) عن سليمان ينصح به ابنه .
(٣) يشيرون بذلك إلىٰ إبليس وهاروت وماروت . « إتحاف » (٩/ ٢٤١) .

وكانَ الثوريُّ يوماً يبكي ، فقيلَ لهُ : علامَ تبكي ؟ فقالَ : بكينا على الذنوبِ زماناً ، فالآنَ نبكي على الإسلامِ[1] .

وبالجملةِ : مَنْ وقعَتْ سفينتُهُ في لجَّةِ البحرِ ، وهجمَتْ عليهِ الرياحُ العاصفةُ ، واضطربَتْ الأمواجُ . . كانَتِ النجاةُ في حقِّهِ أبعدَ مِنَ الهلاكِ ، وقلبُ المؤمنِ أشدُّ اضطراباً مِنَ السفينةِ ، وأمواجُ الخواطرِ أعظمُ التطاماً مِنْ أمواجِ البحرِ ، وإنَّما المَخُوفُ عندَ الموتِ خاطرُ سوءٍ يخطرُ فقطْ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ خمسينَ سنةً ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنَّةِ إلا فُواقُ ناقةٍ ، فيُختمُ لهُ بما سبقَ بهِ الكتابُ »[2] ، ولا يتسعُ فُواقُ الناقةِ لأعمالٍ توجبُ الشقاوةَ ، بلْ هيَ الخواطرُ التي تضطربُ وتخطرُ خطورَ البرقِ الخاطفِ .

وقالَ سهلٌ : (رأيتُ كأنِّي أُدخلتُ الجنَّةَ ، فرأيتُ ثلاثَ مئةِ نبيٍّ ، فسألتُهُمْ : ما أخوفُ ما كنتُمْ تخافونَ في الدنيا ؟ قالوا : سوءُ الخاتمةِ)[3] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٤١) ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢) عن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : مات سفيان الثوري عندي ، فلما اشتد به . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ! فرفع شيئاً من الأرض فقال : والله ؛ لذنوبي أهون عندي من ذا ، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٦) ، ورواه مسلم (٢٦٥١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٩) .

ولأجلِ هـٰذا الخطرِ العظيمِ كانَتِ الشهادةُ مغبوطاً عليها ، وكانَ موتُ الفجأةِ مكروهاً .

أمَّا الموتُ فجأةً . . فلأنَّهُ ربما يتفقُ عندَ غلبةِ خاطرِ سوءٍ واستيلائِهِ على القلبِ، والقلبُ لا يخلو عنْ أمثالِهِ ، إلا أنْ يُدفعَ بالكراهةِ أوْ بنورِ المعرفةِ .

وأمَّا الشهادةُ . . فلأنَّها عبارةٌ عنْ قبضِ الروحِ في حالةٍ لمْ يبقَ في القلبِ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وخرجَ حبُّ الدنيا والأهلِ والمالِ ، والولدِ وجميعِ الشهواتِ عنِ القلبِ ، إذْ لا يهجمُ علىٰ صفِّ القتالِ موطِّناً نفسَهُ على الموتِ إلا حبّاً للهِ ، وطلباً لمرضاتِهِ ، وبائعاً دنياهُ بآخرتِهِ ، وراضياً بالبيعِ الذي بايعَهُ اللهُ بهِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ ، والبائع راغبٌ عنِ المبيعِ لا محالةَ ، ومخرجٌ حبَّهُ مِنَ القلبِ ، ومجرِّدٌ حبَّ العوضِ المطلوبِ في قلبِهِ ، ومثلُ هـٰذهِ الحالةِ قدْ يغلبُ على القلبِ في بعضِ الأحوالِ ، ولكنْ لا يتفقُ زهوقُ الروحِ فيها ، فصفُّ القتالِ سببٌ لزهوقِ الروحِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ ، هـٰذا فيمَنْ ليسَ يقصدُ الغلبةَ والغنيمةَ وحسنَ الصيتِ بالشجاعةِ ، فإنَّ مَنْ هـٰذا حالُهُ وإنْ قُتِلَ في المعركةِ فهوَ بعيدٌ عنْ مثلِ هـٰذهِ الرتبةِ كما دلَّتْ عليهِ الأخبارُ(١) .

---

(١) إذ روى البخاري (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله » .

وإذْ بانَ لكَ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ، وما هوَ مخوفٌ فيها . . فاشتغلْ بالاستعدادِ لها ؛ فواظبْ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وأخرجْ مِنْ قلبِكَ حبَّ الدنيا ، واحرسْ عنْ فعلِ المعاصي جوارحَكَ ، وعن الفكرِ فيها قلبَكَ ، واحترزْ عنْ مشاهدةِ المعاصي ومشاهدةِ أهلِها جهدَكَ ، فإنَّ ذلكَ أيضاً يؤثِّرُ في قلبِكَ ، ويصرفُ إليهِ فكرَكَ وخواطرَكَ .

وإيَّاكَ أنْ تسوِّفَ وتقولَ : (سأستعدُّ لها إذا جاءَتِ الخاتمةُ) ، فإنَّ كلَّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِكَ خاتمتُكَ ، إذْ يمكنُ أنْ تُختطفَ فيهِ روحُكَ ، فراقبْ قلبَكَ في كلِّ تطريفةٍ ، وإيَّاكَ أنْ تهملَهُ لحظةً ، فلعلَّ تلكَ اللحظةَ خاتمتُكَ ؛ إذْ يمكنُ أنْ تُختطفَ فيها روحُكَ ، هٰذا ما دمتَ في يقظتِكَ .

وأمَّا إذا نمتَ . . فإيَّاكَ أنْ تنامَ إلا علىٰ طهارةِ الظاهرِ والباطنِ ، وأنْ يغلبَكَ النومُ إلا بعدَ غلبةِ ذكرِ اللهِ علىٰ قلبِكَ ، لستُ أقولُ : علىٰ لسانِكَ ، فإنَّ حركةَ اللسانِ بمجرَّدِها ضعيفةُ الأثرِ .

واعلمْ قطعاً : أنَّهُ لا يغلبُ عندَ النومِ علىٰ قلبِكَ إلا ما كانَ قبلَ النومِ غالباً عليهِ ، وأنَّهُ لا يغلبُ في النومِ إلا ما كانَ غالباً قبلَ النومِ ، ولا تُبعثُ عنْ نومِكَ إلا علىٰ ما غلبَ علىٰ قلبِكَ في نومِكَ ، والموتُ والبعثُ شبهُ النومِ واليقظةِ ، فكما لا ينامُ العبدُ إلا علىٰ ما غلبَ عليهِ في يقظتِهِ ، ولا يستيقظُ إلا علىٰ ما كانَ عليهِ في نومِهِ . . فكذلكَ لا يموتُ المرءُ إلا علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ولا يُحشرُ إلا علىٰ ما ماتَ عليهِ .

وتحقَّقْ قطعاً ويقيناً أنَّ الموتَ والبعثَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ كما أنَّ النومَ واليقظةَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ ، وآمنْ بهٰذا تصديقاً باعتقادِ القلبِ ، إنْ لمْ تكنْ أهلاً لمشاهدةِ ذلكَ بعينِ اليقينِ ونورِ البصيرةِ ، وراقبْ أنفاسَكَ ولحظاتِكَ ، وإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عنِ اللهِ طرفةَ عينٍ ، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ كلَّهُ[1] . . كنتَ معَ ذلكَ في خطرٍ عظيمٍ ، فكيفَ إذا لمْ تفعلْ ؟! فالناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصونَ والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ .

واعلمْ : أنَّ ذلكَ لا يتيسَّرُ لكَ ما لمْ تقنعْ مِنَ الدنيا بقدْرِ ضرورتِكَ ، وضرورتُكَ مطعمٌ وملبسٌ ومسكنٌ ، والباقي كلُّهُ فضولٌ .

والضرورةُ مِنَ المطعمِ : ما يقيمُ صلبَكَ ويسدُّ رمقَكَ ، فينبغي أنْ يكونَ تناولُكَ تناولَ مضطرٍّ كارهٍ لهُ ، ولا تكونَ رغبتُكَ فيهِ أكثرَ مِنْ رغبتِكَ في قضاءِ حاجتِكَ ، إذْ لا فرقَ بينَ إدخالِ الطعامِ في البطنِ وبينَ إخراجِهِ ، فهما ضرورتانِ في الجبلَّةِ ، وكما لا يكونُ قضاءُ الحاجةِ مِنْ همَّتِكَ التي يشتغلُ بها قلبُكَ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ تناولُ الطعامِ مِنْ همَّتِكَ ، واعلمْ أنَّهُ إنْ كانَ همَّتُكَ ما يدخلُ في بطنِكَ . . فقيمتُكَ ما يخرجُ مِنْ بطنِكَ .

وإذا لمْ يكنْ قصدُكَ مِنَ الطعامِ إلا التقوِّيَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كقصدِكَ

---

(١) أي : من الإيمان القلبي ومراقبة الأنفاس واللحظات . « إتحاف » (٩/ ٢٤٣) .

مِنْ قضاءِ حاجتِكَ . . فعلامةُ ذلكَ تظهرُ في ثلاثةِ أمورٍ مِنْ مأكولِكَ : في وقتِهِ ، وقدرِهِ ، وجنسِهِ .

أمَّا الوقتُ . . فأقلُّهُ أن يكتفيَ في اليومِ والليلةِ بمرَّةٍ واحدةٍ ، فيواظبَ على الصومِ .

وأمَّا قدرُهُ . . فألا يزيدَ علىٰ ثلثِ البطنِ .

وأمَّا جنسُهُ . . فألا يطلبَ اللذائذَ مِنَ الأطعمةِ ، بلْ يقنعُ بما يتفقُ .

فإنْ قدرتَ علىٰ هـٰذهِ الثلاثِ ، وسقطَتْ عنكَ مؤنةُ الشهواتِ اللذائذِ . . قدرتَ بعدَ ذلكَ علىٰ تركِ الشبهاتِ ، وأمكنكَ ألا تأكلَ إلا مِنْ حلِّهِ ، فإنَّ الحلالَ يعزُّ ولا يفي بجميعِ الشهواتِ .

وأمَّا ملبسُكَ : فليكنْ غرضُكَ منهُ دفعَ الحرِّ والبردِ وسترَ العورةِ ، فكلُّ ما دفعَ البردَ عنْ رأسِكَ ـ ولوْ قلنسوةً بدانقٍ ـ فطلبُكَ غيرَهُ فضولٌ منكَ ، يضيِّعُ زمانَكَ ، ويلزمُكَ الشغلَ الدائمَ والعناءَ القائمَ في تحصيلِهِ بالكسبِ مرَّةً ، وبالطمعِ أخرىٰ مِنَ الحرامِ والشبهةِ ، وقسْ بهـٰذا ما تدفعُ بهِ الحرَّ والبردَ عنْ بدنِكَ ، فكلُّ ما حصَّلَ مقصودَ اللِّباسِ إنْ لمْ تكتفِ بهِ في خساسةِ قدرِهِ وجنسِهِ . . لمْ يكنْ لكَ موقفٌ ومردٌّ بعدَهُ ، بلْ كنتَ ممَّنْ لا يملأُ بطنَهُ إلا الترابُ .

وكذلكَ المسكنُ : إنِ اكتفيتَ بمقصودِهِ . . كفتكَ السماءُ سقفاً ، والأرضُ مستقرّاً ، فإنْ غلبَكَ حرٌّ أوْ بردٌ . . فعليكَ بالمساجدِ (١) ، فإنْ طلبتَ

(١) في غير (ب ، ج) : (فالمساجد) بدل (فعليك بالمساجد) .

مسكناً خاصاً . . طالَ عليكَ ، وانصرفَ إليهِ أكثرُ عمرِكَ ، وعمرُكَ هوَ بضاعتُكَ ، ثمَّ إنْ تيسَّرَ لكَ فقصدتَ مِنَ الحائطِ سوىٰ كونِهِ حائلاً بينَكَ وبينَ الأبصارِ ، ومِنَ السقفِ سوىٰ كونِهِ دافعاً للأمطارِ ، فأخذتَ ترفعُ الحيطانَ ، وتزيِّنُ السقوفَ . . فقدْ تورَّطتَ في مهواةٍ يبعدُ رقيُّكَ منها .

وهكذا جميعُ ضروراتِ أمورِكَ ؛ إنِ اقتصرتَ عليها . . تفرغتَ للهِ ، وقدرتَ على التزوُّدِ لآخرتِكَ ، والاستعدادِ لخاتمتِكَ ، وإنْ جاوزتَ حدَّ الضرورةِ إلىٰ أوديةِ الأمانيِّ . . تشعبَتْ همومُكَ ، ولمْ يبالِ اللهُ في أي وادٍ أهلكَكَ .

فاقبلْ هٰذهِ النصيحةَ ممَّنْ هوَ أحوجُ إلى النصيحةِ منكَ .

واعلمْ : أنَّ متسعَ التدبيرِ والتزوُّدِ والاحتياطِ هٰذا العمرُ القصيرُ ، فإذا دفعتَهُ يوماً بيومٍ في تسويفِكَ أوْ غفلتِكَ . . اختُطفتَ فجأةً في غيرِ وقتِ إرادتِكَ ، ولمْ تفارقْكَ حسرتُكَ وندامتُكَ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ علىٰ ملازمةِ ما أرشدتُ إليهِ لضعفِ خوفِكَ ؛ إذْ لمْ يكنْ فيما وصفناهُ مِنَ أمرِ الخاتمةِ كفايةٌ في تخويفِكَ . . فإنَّا سنوردُ عليكَ مِنْ أحوالِ الخائفينَ ما نرجو أنْ يزيلَ بعضَ القساوةِ عنْ قلبِكَ ، فإنَّكَ تتحقَّقُ أنَّ عقلَ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ وعلمَهُمْ ومكانَهُمْ عندَ اللهِ لمْ يكنْ دونَ عقلِكَ وعلمِكَ ومكانِكَ (١) ، فتأمَّلْ ـ معَ كَلالِ بصيرتِكَ وعمشِ عينِ قلبِكَ ـ في

---

(١) في غير (أ ، ب) : (وعملهم . . . وعملك) بدل (وعلمهم . . . وعلمك) .

أحوالِهِمْ : لِمَ اشتدَّ بهِمُ الخوفُ ، وطالَ بهِمُ الحزنُ والبكاءُ ؟ حتَّىٰ كانَ بعضُهُمْ يصعقُ ، وبعضُهُمْ يدهشُ ، وبعضُهُمْ يسقطُ مغشيّاً عليهِ ، وبعضُهُمْ يخرُّ ميتاً إلى الأرضِ .

ولا غروَ إنْ كانَ ذلكَ لا يؤثِّرُ في قلبِكَ ؛ فإنَّ قلوبَ الغافلينَ مثلُ الحجارةِ أوْ أشدُّ قسوةً ، وإنَّ مِنَ الحجارةِ لما يتفجَّرُ منهُ الأنهارُ ، وإنَّ منها لما يشقَّقُ فيخرجُ منهُ الماءُ ، وإنَّ منها لما يهبطُ مِنْ خشيةِ اللهِ ، وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ .

* * *

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا تغيَّرَ الهواءُ ، وهبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ .. يتغيَّرُ وجهُهُ ، ويقومُ ويتردَّدُ في الحجرةِ ، ويدخلُ ويخرجُ ، كلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١) .

وقرأ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آيةً في (سورةِ الحاقَّةِ) فصعقَ(٢) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صورةَ جبريلَ عليهِ السلامُ بالأبطحِ فصعقَ(٣) .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ إذا دخلَ في الصلاةِ يُسمعُ لصدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المرْجَلِ(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩) ، وفيه قوله لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « ما يُؤْمِنِّي أن يكون فيه عذاب ؟! عذب قوم بالريح ، وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ » .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٣٨) ، قال : (وروىٰ حمزة عن حمران بن أعين ...) وذكره ، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم قرأ أو قُرِىء عنده : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فصعق ، وأنها رواها ابن عدي في « الكامل » (٢/٤٣٦) ، وهناد في « الزهد » (٢٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/٣٢٢) ، والبزار في « مسنده » (٤٧١٨) ، والطبراني في « الكبير » (١١/٥٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٩٠٤) ، والنسائي (٣/١٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جاءَني جبريلُ قطُّ إلا وهوَ يُرعَدُ فرقاً مِنَ الجبَّارِ »[١] .

وقيلَ : لما ظهرَ علىٰ إبليسَ ما ظهرَ . . طفقَ جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ يبكيانِ ، فأوحى اللهُ إليهما : ما لكما تبكيانِ كلَّ هٰذا البكاءِ ؟ فقالا : يا ربُّ ؛ ما نأمنُ مكرَكَ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : هٰكذا كونا ، لا تأمنا مكري[٢] .

وعنْ محمدِ بنِ المنكدرِ قالَ : (لمَّا خُلقَتِ النارُ . . طارَتْ أفئدةُ الملائكةِ مِنْ أماكنِها ، فلمَّا خُلقَ بنو آدمَ . . عادَتْ)[٣] .

وعنْ أنسٍ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ سألَ جبريلَ : « ما لي لا أرىٰ ميكائيلَ

---

(١) عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٣٥٧) من حديث أبي ذر : « والذي بعثني بالحق ؛ ما أتاني جبريل قط إلا رأيت بين عينيه مصوراً ، فقلت : يا جبريل ؛ ما لي أراك تأتيني وبين عينيك مصوراً ؟ قال : والذي بعثك بالحق وجعلني أميناً فيما بينه وبينك ؛ ما ضحكت منذ خلقت جهنم » ، وروىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالىٰ تُرعَدُ فرائصه فرقاً من عذاب الله تعالىٰ ، يقول : سبحانك لا إلـٰه إلا أنت ، ما عبدناك حق عبادتك ، وروى البيهقي في « الشعب » (٨٨٧) عن أبي عمران الجوني قال : بلغني أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فقال : « ما يبكيك ؟ » ، قال : ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم ؛ مخافة أن أعصيه فيلقيني فيها .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٢٤٠) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٣) وليس فيه ذكر إبليس .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٥) من كلام طاووس بن كيسان .

يضحكُ ؟ » فقالَ جبريلُ : ما ضحكَ ميكائيلُ منذُ خُلقَتِ النارُ[١] .

ويُقالُ : إنَّ للهِ تعالىٰ ملائكةً لمْ يضحكْ أحدٌ منهُمْ منذُ خُلقَتِ النارُ ؛ مخافةَ أنْ يغضبَ اللهُ عليهِمْ فيعذِّبَهُمْ بها[٢] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : خرجتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ دخلَ بعضَ حيطانِ الأنصارِ ، فجعلَ يلتقطُ مِنَ التمرِ ويأكلُ ، قالَ : فقالَ : « يا بنَ عمرَ ؛ مالكَ لا تأكلُ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لا أشتهيهِ ، فقالَ : « لكنِّي أشتهيهِ ، وهـٰذا صبحُ رابعةٍ مُذْ لمْ أذقْ طعاماً ولمْ أجدْهُ ، ولوْ سألْتُ ربِّي . . لأعطاني ملكَ كسرىٰ وقيصرَ ، فكيفَ بكَ ـ يا بنَ عمرَ ـ إذا بقيتَ في قومٍ يخبؤونَ رزقَ سنتِهِمْ ، ويضعفُ اليقينُ في قلوبِهِمْ ؟ » قالَ : فواللهِ ؛ ما برحنا ولا قمنا حتَّىٰ نزلَتْ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ ، قالَ : فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لمْ يأمرْكُمْ بكنزِ المالِ ، ولا باتباعِ الشهواتِ ، مَنْ كنزَ دنانيرَ يريدُ بها حياةً فانيةً . . فإنَّ الحياةَ بيدِ اللهِ ، ألا وإنِّي لا أكنزُ ديناراً ولا درهماً ، ولا أخبأُ رزقاً لغدٍ »[٣] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٢٤) ، ورواه كذلك في حق إسرافيل عليه السلام البيهقي في « الشعب » (٨٨٥) .

(٢) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٨٨٦) مرفوعاً : « إن لله عز وجل ملائكة تُرعَد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك يقطر من عينيه دمعة إلا وقعت ملكاً قائماً يسبح » .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ١٢٧) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (كانَ يُسمعُ أزيزُ قلبِ إبراهيمَ خليلِ الرحمـٰنِ عليهِ السلامُ إذا قامَ في الصلاةِ مِنْ مسيرةِ ميلٍ ؛ خوفاً مِنْ ربِّه)[1] .

وقالَ مجاهدٌ : بكىٰ داوودُ عليهِ السلامُ أربعينَ يوماً ساجداً لا يرفعُ رأسَهُ ، حتَّىٰ نبتَ المرعىٰ مِنْ دموعِهِ ، وحتَّىٰ غطَّىٰ رأسَهُ ، فنُودِيَ : يا داوودُ ؛ أجائعٌ أنتَ فتُطعمُ ، أمْ ظمآنُ فتُسقىٰ ، أمْ عارٍ فتُكسى ؟ فنَحَبَ نحبةً هاجَ العودُ فاحترقَ مِنْ حرِّ جوفِهِ ، ثمَّ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليهِ التوبةَ والمغفرةَ ، فقالَ : يا ربِّ ، اجعلْ خطيئتي في كفِّي ، فصارَتْ خطيئتُهُ في كفِّهِ مكتوبةً ، فكانَ لا يبسطُ كفَّهُ لطعامٍ ولا لشرابٍ ولا لغيرِهِ إلا رآها فأبكتهُ ، قالَ : وكانَ يُؤتىٰ بالقدحِ ثلثاهُ ماءٌ ، فإذا تناولَهُ . . أبصرَ خطيئتَهُ ، فما يضعُهُ علىٰ شفتِهِ حتَّىٰ يفيضَ القدحُ مِنْ دموعِهِ[2] .

ويُروىٰ عنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّهُ ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ حتَّىٰ ماتَ ، حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ[3] .

وكانَ يقولُ في مناجاتِهِ : (إلـٰهي ؛ إذا ذكرتُ خطيئتي . . ضاقَتْ عليَّ الأرضُ برُحْبِها ، وإذا ذكرتُ رحمتَكَ . . ارتدَّتْ إليَّ روحي ، سبحانَكَ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢١٨) بنحوه .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٤) ، وهاج : يبس ، قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٥) .

إلـٰهي ، أتيتُ أطباءَ عبادِكَ ليداووا خطيئتي ، فكلُّهُمْ عليكَ يدلُّني ، فبؤساً للقانطينَ مِنْ رحمتِكَ)[1] .

وقالَ الفضيلُ : بلغَني أنَّ داوودَ عليهِ السلامُ ذكرَ ذنبَهُ ذاتَ يومٍ ، فوثبَ صارخاً واضعاً يدَهُ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ لحقَ بالجبالِ ، فاجتمعَتْ إليهِ السباعُ ، فقالَ : ارجعوا لا أريدُكُمْ ، إنَّما أريدُ كلَّ بكَّاءٍ علىٰ خطيئتِهِ ، فلا يستقبلُني إلا بالبكاءِ ، ومَنْ لمْ يكنْ ذا خطيئةٍ . . فما يصنعُ بداوودَ الخطَّاءِ[2] .

وكانَ يُعاتبُ في كثرةِ البكاءِ فيقولُ : (دعوني أبكي قبلَ خروجِ يومِ البكاءِ ، قبلَ تخريقِ العظامِ واشتعالِ الحشا ، وقبلَ أنْ يُؤمرَ بي ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ)[3] .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ عميرٍ : لمَّا أصابَ داوودُ الخطيئةَ . . نقصَ صوتُهُ ، فقالَ : (إلـٰهي ؛ بُحَّ صوتي في صفاءِ أصواتِ الصدِّيقينَ)[4] .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ السلامُ لمَّا طالَ بكاؤُهُ ولمْ ينفعْهُ ذلكَ ، فضاقَ ذرعُهُ ، واشتدَّ غمُّهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ أما ترحمُ بكائي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ نسيتَ ذنبَكَ وذكرتَ بكاءَكَ ؟! فقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ؛ كيفَ أنسىٰ ذنبي وكنتُ إذا تلوتُ الزبورَ . . كفَّ الماءُ الجاري عنْ جريِهِ ، وسكنَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٢) عن عثمان ابن عاتكة يحكيه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/ ٢٤٧) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨٣) ، وفيه : (اللحىٰ) بدل (الحشا) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٣٩٤) .

هبوبُ الريحِ ، وأظلَّني الطيرُ علىٰ رأسِي ، وأنسَتِ الوحوشُ إلىٰ محرابي ؟ إلـٰهي وسيِّدي ؛ فما هـٰذهِ الوحشةُ التي بيني وبينَكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ ذاكَ أنسُ الطاعةِ ، وهـٰذهِ وحشةُ المعصيةِ ، يا داوودُ ؛ آدمُ خلقٌ مِنْ خلقي ، خلقتُهُ بيدي ، ونفختُ فيهِ مِنْ روحي ، وأسجدتُ لهُ ملائكتي ، وألبستُهُ ثوبَ كرامتي ، وتوجتُهُ بتاجِ وقاري ، وشكا إليَّ الوحدةَ ، فزوجتُهُ حوَّاءَ أَمَتي ، وأسكنتُهُ جنَّتي ، عصاني ، فطردتُهُ عنْ جواري عرياناً ذليلاً ، يا داوودُ ؛ اسمعْ منِّي والحقَّ أقولُ : أطعتَنا فأطعناكَ ، وسألتَنا فأعطيناكَ ، وعصيتَنا فأمهلناكَ ، وإنْ عدتَ إلينا علىٰ ما كانَ منكَ . . قبلناكَ[1] .

وقالَ يحيىٰ بنُ أبي كثيرٍ : بلغَنا أنَّ داوودَ عليهِ السلامُ كانَ إذا أرادَ أنْ ينوحَ . . مكثَ قبلَ ذلكَ سبعاً لا يأكلُ الطعامَ ، ولا يشربُ الشرابَ ، ولا يقربُ النساءَ ، فإذا كانَ قبلَ ذلكَ بيومٍ . . أُخرجَ لهُ منبرٌ إلى البريَّةِ ، فيأمرُ سليمانَ عليهِ السلامُ أنْ ينادِيَ بصوتٍ يستقرِئُ البلادَ وما حولَها مِنَ الغياضِ والآكامِ والجبالِ والبراري والصوامعِ والبِيَعِ ، فينادي فيها : ألا مَنْ أرادَ أنْ يسمعَ نوحَ داوودَ علىٰ نفسِهِ . . فليأتِ ، قالَ : فتأتي الوحوشُ مِنَ البراري والآكامِ ، وتأتي السباعُ مِنَ الغياضِ ، وتأتي الهوامُّ مِنَ الجبالِ ، وتأتي الطيرُ مِنَ الأوكارِ ، وتأتي العذارَىٰ مِنْ خدورِهِنَّ ، وتجتمعُ الناسُ لذلكَ اليومِ ، ويأتي داوودُ حتَّىٰ يرقىٰ على المنبرِ ، ويحيطُ بهِ بنو إسرائيلَ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/ ٢٤٧) .

وكلٌّ صنفٍ علىٰ حدتِهِ محيطونَ بهِ ، وسليمانُ عليهِ السلامُ قائمٌ علىٰ رأسِهِ ، فيأخذُ في الثناءِ علىٰ ربِّهِ ، فيضجُّونَ بالبكاءِ والصراخِ ، ثمَّ يأخذُ في ذكرِ الجنَّةِ والنارِ ، فتموتُ الهوامُّ وطائفةٌ مِنَ الوحوشِ والسباعِ والناسِ ، ثمَّ يأخذُ في أهوالِ القيامةِ ، وفي النياحةِ علىٰ نفسِهِ ، فيموتُ مِنْ كلِّ نوعٍ طائفةٌ ، فإذا رأىٰ سليمانُ كثرةَ الموتىٰ . . قالَ : يا أبتاهُ ؛ قدْ مزَّقتَ المستمعينَ كلَّ ممزَّقٍ ، وماتَتْ طوائفُ مِنْ بني إسرائيلَ ومِنَ الوحوشِ والهوامِّ ، فيأخذُ في الدعاءِ ، فبينا هوَ كذلكَ . . إذْ ناداهُ بعضُ عبَّادِ بني إسرائيلَ : يا داوودُ ؛ عجلْتَ بطلبِ الجزاءِ علىٰ ربِّكَ ، قالَ : فيخرُّ داوودُ مغشيّاً عليهِ ، فإذا نظرَ سليمانُ إلىٰ ما أصابَهُ . . أتىٰ بسريرٍ فحملَهُ عليهِ ، ثمَّ أمرَ منادياً ينادي : ألا مَنْ كانَ لهُ معَ داوودَ حميمٌ أوْ قريبٌ . . فليأتِ بسريرٍ فليحملْهُ ، فإنَّ الذينَ كانوا معَهُ قدْ قتلَهُمْ ذكرُ الجنَّةِ والنارِ ، فكانَتِ المرأةُ تأتي بالسريرِ وتحملُ قريبَها وتقولُ : يا مَنْ قتلَهُ ذكرُ النارِ ، يا مَنْ قتلَهُ خوفُ اللهِ ، ثمَّ إذا أفاقَ داوودُ . . قامَ ووضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ، ودخلَ بيتَ عبادتِهِ ، وأغلقَ بابَهُ ، ويقولُ : يا إلـٰهَ داوودَ ؛ أغضبانُ أنتَ علىٰ داوودَ ؟ ولا يزالُ يناجي ربَّهُ ، فيأتي سليمانُ ويقعدُ على البابِ ، ويستأذنُ ، ثمَّ يدخلُ ومعَهُ قرصٌ مِنْ شعيرٍ ، فيقولُ : يا أبتاهُ ؛ تقوَّ بهـٰذا علىٰ ما تريدُ ، فيأكلُ مِنْ ذلكَ القرصِ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ يخرجُ إلىٰ بني إسرائيلَ فيكونُ بينَهُمْ[1] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/ ٢٤٨) ، ورواه السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/ ٢٧٢) .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : خرجَ داوودُ ذاتَ يومٍ بالناسِ يعظُهُمْ ويخوِّفُهُمْ ، فخرجَ في أربعينَ ألفاً ، فماتَ منهُمْ ثلاثونَ ألفاً ، وما رجعَ إلا في عشرةِ آلافٍ ، قالَ : وكانَ لهُ جاريتانِ اتخذَهُما ، حتَّىٰ إذا جاءَهُ الخوفُ ، وسقطَ فاضطربَ . . قعدتا علىٰ صدرِهِ وعلىٰ رجليهِ مخافةَ أنْ تتفرَّقَ أعضاؤُهُ ومفاصلُهُ فيموتَ(١) .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : دخلَ يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ بيتَ المقدسِ وهوَ ابنُ ثمانِ حججٍ ، فنظرَ إلىٰ عبَّادِهِمْ قدْ لبسوا مدارعَ الشعرِ والصوفِ ، ونظرَ إلىٰ مجتهديهِمْ قدْ خرقوا التراقيَ وسلكوا فيها السلاسلَ ، وشدُّوا أنفسَهُمْ إلىٰ أطرافِ بيتِ المقدسِ ، فهالَهُ ذلكَ ، فرجعَ إلىٰ أبويهِ ، فمرَّ بصبيانٍ يلعبونَ ، فقالوا لهُ : يا يحيىٰ ؛ هلمَّ بنا لنلعبَ ، فقالَ : إنِّي لمْ أُخلقْ للَّعبِ ، قالَ : فأتىٰ أبويهِ ، فسألَهُما أنْ يدرِّعاهُ الشعرَ ، ففعلا ، فرجعَ إلىٰ بيتِ المقدسِ ، وكانَ يخدمُهُ نهاراً ، ويصبحُ فيهِ ليلاً(٢) ، حتَّىٰ أتَتْ عليهِ خمسَ عشرةَ سنةً ، فخرجَ ولزمَ أطوادَ الأرضِ وغيرانَ الشعابِ ، فخرجَ أبواهُ في طلبِهِ ، فأدركاهُ علىٰ بحيرةِ الأردنِّ وقدْ أنقعَ رجليهِ في الماءِ وقدْ كادَ

---

(١) وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٩) عن ثابت البناني قال : (كان داوود نبي الله عليه السلام إذا ذكر عقاب الله . . تخلعت أوصاله ، لا يشدها إلا الأسر ، فإذا ذكر رحمة الله . . تراجعت) ، **والأسر** : العصب والشد ، والمراد هنا : الأعصاب والعروق لشبهها بالحبل .

(٢) أي : يسرج السرج . « إتحاف » (٩/٢٤٨) .

العطشُ يذبحُهُ وهوَ يقولُ : وعزَّتِكَ وجلالِكَ ؛ لا أذوقُ باردَ الشرابِ حتَّىٰ أعلمَ أينَ مكاني منكَ ، فسألَهُ أبواهُ أنْ يفطرَ علىٰ قرْصٍ كانَ معهما مِنْ شعيرٍ ، ويشربَ مِنْ ذلكَ الماءِ ، ففعلَ وكفَّرَ عنْ يمينِهِ ، فمُدِحَ بالبرِّ ، فردَّهُ أبواهُ إلىٰ بيتِ المقدسِ ، فكانَ إذا قامَ يصلِّي . . بكىٰ حتَّىٰ يبكيَ معَهُ الشجرُ والمدرُ ، ويبكيَ زكريا عليهِ السلامُ لبكائِهِ ، حتَّىٰ يُغمىٰ عليهِ ، فلمْ يزلْ يبكي حتَّىٰ أحرقَتْ دموعُهُ لحمَ خدَّيهِ ، وبدَتْ أضراسُهُ للناظرينَ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا بنيَّ ؛ لوْ أذنتَ لي أنْ أتخذَ لكَ شيئاً تواري بهِ أضراسَكَ عنِ الناظرينَ ، فأذنَ لها ، فعمدَتْ إلىٰ قطعتي لبودٍ فألصقَتْهُما علىٰ خدَّيهِ ، فكانَ إذا قامَ يصلِّي . . بكىٰ ، فإذا استنقعَتْ دموعُهُ في القطعتينِ . . أتتْ إليهِ أمُّهُ فعصرتهُما ، فإذا رأىٰ دموعَهُ تسيلُ علىٰ ذراعي أمِّهِ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هٰذهِ دموعي ، وهٰذهِ أمِّي ، وأنا عبدُكَ ، وأنتُ أرحمُ الراحمينَ ، فقالَ لهُ زكريا يوماً : يا بنيَّ ؛ إنَّما سألتُ ربِّي أنْ يهبَكَ لي لتقرَّ عيناي بكَ ، فقالَ يحيىٰ : يا أبتِ ؛ إنَّ جبريلَ أخبرَني أنَّ بينَ الجنَّةِ والنارِ مفازةً لا يقطعُها إلا كلُّ بكَّاءٍ ، فقالَ زكريا عليهِ السلامُ : فابكِ يا بنيَّ[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (معاشرَ الحواريينَ ؛ خشيةُ اللهِ وحبُّ الفردوسِ يورثانِ الصبرَ على المشقَّةِ ، ويباعدانِ مِنَ الدنيا ، وبحقٍّ أقولُ

---

(١) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٩٤) إلىٰ قوله : (وأنت أرحم الراحمين) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٥٣) عن يزيد بن أبي منصور .

لكُمْ : إنَّ أكلَ الشعيرِ والنومَ على المزابلِ معَ الكلابِ في طلبِ الفردوسِ قليلٌ)[1] .

وقيلَ : كانَ الخليلُ عليهِ السلامُ إذا ذكرَ خطيئتَهُ . . يُغشىٰ عليهِ ، ويُسمعُ اضطرابُ قلبِهِ ميلاً في ميلٍ ، فيأتيهِ جبريلُ فيقولُ لهُ : الجبَّارُ يقرئُكَ السلامَ ويقولُ : هلْ رأيتَ خليلاً يخافُ خليلَهُ ؟ فيقولُ : يا جبريلُ ؛ إنِّي إذا ذكرتُ خطيئَتي . . نسيتُ خلَّتي[2] .

فهٰذهِ أحوالُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فدونَكَ والتأمُّلَ فيها ؛ فإنَّهُمْ أعرفُ خلقِ اللهِ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، وعلىٰ كلِّ عبادِ اللهِ المقربينَ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٤٢٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/٢٤٩) .

بيان أحوال الصّحابة والتّابعين والسّلف الصّالحين في شدّة الخوف

رُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لطائرٍ : (ليتَني مثلُكَ يا طائرُ ولمْ أُخلقْ بشراً)[١] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ لوْ أنِّي شجرةٌ تُعضدُ)[٢] ، وكذا قالَ طلحةُ[٣] .

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ أنِّي إذا متُّ لمْ أُبعثْ)[٤] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وددتُ أنِّي كنتُ نسياً منسياً)[٥] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يسقطُ مِنَ الخوفِ إذا سمعَ آيةً مِنَ القرآنِ مغشيّاً عليهِ ، فكانَ يُعادُ أيّاماً[٦] .

وأخذَ يوماً تبنةً مِنَ الأرضِ فقالَ : (يا ليتَني كنتُ هٰذهِ التبنةَ ، يا ليتَني

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٧٦٩) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) ، وذكره موقوفاً عليه رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (١/٢٢٨) .
(٤) كذا في « القوت » (١/٢٢٨) ، وروى ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٧٢) عنه رضي الله عنه قال : (لو وقفت بين الجنة والنار ، فخيِّرت بين أن أصير رماداً أو أخير إلىٰ أي الدارين أصير . . لاخترت أن أكون رماداً) .
(٥) رواه البخاري (٤٧٥٣) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٥١) .

لمْ أكُ شيئاً مذكوراً ، يا ليتَني كنتُ نسياً منسيّاً ، يا ليتَني لمْ تلدْني أمِّي)[١] .

وكانَ في وجهِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ خطَّانِ أسودانِ مِنَ الدموعِ[٢] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ خافَ اللهَ . . لمْ يشفِ غيظَهُ ، ومَنِ اتقى اللهَ . . لمْ يصنعْ ما يريدُ ، ولولا يومُ القيامةِ . . لكانَ غيرَ ما ترونَ)[٣] .

ولمَّا قرأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، وانتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ . . خرَّ مغشيّاً عليهِ[٤] .

ومرَّ يوماً بدارِ إنسانٍ وهوَ يصلِّي ويقرأُ (سورةَ الطورِ) فوقفَ يستمعُ ، فلمَّا بلغَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ . . نزلَ عنْ حمارِهِ ، واستندَ إلىٰ حائطٍ ، ومكثَ زماناً ، ورجعَ إلىٰ منزلِهِ ، فمرضَ شهراً يعودُهُ الناسُ ولا يدرونَ ما مرضُهُ[٥] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وقدْ سلَّمَ مِنْ صلاةِ الفجرِ وقدْ علاهُ كآبةٌ وهوَ يقلِّبُ يدَهُ : (لقدْ رأيتُ أصحابَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمْ أرَ اليومَ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) .
(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٣١٨) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٥٨) .
(٤) أورده المحب الطبري في « الرياض النضرة » (٢/ ٣٧٥) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣٠٨) .

شيئاً يشبهُهُمْ ، لقدْ كانوا يصبحونَ شعثاً صفراً غبراً ، بينَ أعينِهِمْ أمثالُ رُكَبِ المعزىٰ ، قدْ باتوا للهِ سجّداً وقياماً يتلونَ كتابَ اللهِ ، يراوحونَ بينَ جباهِهِمْ وأقدامِهِمْ ، فإذا أصبحوا وذكروا اللهَ . . مادوا كما يميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ ، وهملَتْ أعينُهُمْ الدموعَ حتَّىٰ تبلَّ ثيابَهُمْ ، واللهِ ؛ كأنِّي بالقومِ باتوا غافلينَ) ، ثمَّ قامَ فما رُئِيَ بعدَ ذلكَ ضاحكاً حتَّىٰ ضربَهُ ابنُ ملجمٍ[(١)] .

وقالَ عمرانُ بنُ الحصينِ : (وددتُ أنِّي رمادٌ تسفيني الرياحُ في يومٍ عاصفٍ)[(٢)] .

وقالَ أبو عبيدةَ ابنُ الجرَّاحِ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ أنِّي كبشٌ فيذبحُني أهلي ، فيأكلونَ لحمي ، ويحسونَ مرقي)[(٣)] .

وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ إذا توضَّأَ . . اصفرَّ لونُهُ ، فيقولُ لهُ أهلُهُ : ما هٰذا الذي يعتادُكَ عندَ الوضوءِ ؟ فيقولُ : أتدرونَ بينَ يدي مَنْ أريدُ أنْ أقومَ ؟![(٤)] .

وقالَ موسىٰ بنُ مسعودٍ : كنَّا إذا جلسنا إلى الثوريِّ كأنَّ النارَ قدْ أحاطَتْ بنا ؛ لما نرىٰ مِنْ خوفِهِ وجزعِهِ[(٥)] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٧٦) .
(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٠) .
(٣) هو ضمن الخبر المروي قبله .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٤٨) .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٤٠) .

وقرأ مضرُ القارئُ يوماً : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ . . . ﴾ الآيةَ ، فبكىٰ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ حتَّىٰ غُشِيَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا عصيتُكَ جهدي أبداً ، فأعنّي بتوفيقِكَ علىٰ طاعتِكَ[1] .

وكانَ المسورُ بنُ مخرمةَ لا يقوىٰ أنْ يسمعَ شيئاً منَ القرآنِ لشدَّةِ خوفِهِ ، ولقدْ كانَ يُقرأُ عندَهُ الحرفُ أوِ الآيةُ فيصيحُ صيحةً فما يعقلُ أياماً ، حتَّىٰ أتىٰ عليهِ رجلٌ مِنْ خثعمٍ ، فقرأَ عليهِ : ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ۝ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ ، فقالَ : أنا مِنَ المجرمينَ ، ولستُ مِنَ المتقينَ ، أعدْ عليَّ القولَ أيُّها القارئُ ، فأعادَها عليهِ ، فشهقَ شهقةً فلحقَ بالآخرةِ[2] .

وقُرِئَ عندَ يحيى البَكَّاءِ : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ ، فصاحَ صيحةً مكثَ منها مريضاً أربعةَ أشهرٍ يُعادُ مِنْ أطرافِ البصرةِ[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : بينما أنا أطوفُ بالبيتِ إذْ أنا بجُويريةَ المتعبدةِ متعلقةً بأستارِ الكعبةِ وهيَ تقولُ : يا ربِّ ؛ كمْ مِنْ شهوةٍ ذهبَتْ لذَّاتُها وبقيَتْ

---

(١) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ٢٣٠) .
(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٥٢) : (هكذا ذكره المصنف في سبب موته ، والذي ثبت من قول عمرو بن علي الفلاس أنه أصابه المنجنيق في فتنة ابن الزبير وهو يصلي في الحجر ، فمكث خمسة أيام ثم مات ، فلعل هـٰذه القصة إن صحت . . كانت في أثناء هـٰذه الأيام الخمسة ، أو حصل التصحيف من النساخ في صاحب القصة) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢١٣) .

تبعاتُها ؟! يا ربِّ ؛ أما كانَ لكَ أدبٌ وعقوبةٌ إلا النارُ ؟! وتبكي ، فما زالَ ذلكَ مقامُها حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، قالَ مالكٌ : فلمَّا رأيتُ ذلكَ . . وضعتُ يدي علىٰ رأسي صارخاً أقولُ : ثكلَتْ مالكاً أمُّهُ[(١)] .

ورُوِيَ أنَّ الفضيلَ رُئِيَ يومَ عرفةَ والناسُ يدعونَ وهوَ يبكي بكاءَ الثكلى المحترقةِ ، حتَّىٰ إذا كادَتِ الشمسُ تغربُ . . قبضَ علىٰ لحيتِهِ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقالَ : وا سوءتاهُ منكَ وإنْ غفرتَ ، ثمَّ انقلبَ معَ الناسِ[(٢)] .

وسُئِلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ الخائفينَ ، فقالَ : (قلوبُهُمْ بالخوفِ قرحةٌ ، وأعينُهُمْ باكيةٌ ، يقولونَ : كيفَ نفرحُ والموتُ مِنْ ورائِنا ، والقبرُ أمامَنا ، والقيامةُ موعدُنا ، وعلىٰ جهنَّمَ طريقُنا ، وبينَ يدي ربِّنا موقفُنا ؟!)[(٣)] .

ومرَّ الحسنُ بشابٍّ وهوَ مستغرقٌ في ضحكِهِ وهوَ جالسٌ معَ قومٍ في مجلسٍ ، فقالَ لهُ الحسنُ : يا فتىٰ ؛ هلْ مررتَ بالصراطِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ تدري إلى الجنَّةِ تصيرُ أمْ إلى النارِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فما هٰذا

---

(١) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/ ٣١٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٤٣١) ، وكذا وقع في النسخ : (المتعبدة) بالتعريف ، وعند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٥٢) : (بجويريةٍ متعبدة) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٢٠) .

(٣) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/ ١٧٧) .

الضحكُ ؟! قالَ : فما رُئِيَ ذلكَ الفتىٰ بعدَها ضاحكاً[١] .

وكانَ حمَّادُ بنُ عبدِ ربِّهِ إذا جلسَ . . جلسَ مستوفزاً علىٰ قدميهِ ، فيُقالُ لهُ : لوِ اطمأننتَ ، فيقولُ : تلكَ جلسةُ الآمنِ ، وأنا غيرُ آمنٍ ؛ إذْ عصيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (إنَّما جعلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذهِ الغفلةَ في قلوبِ العبادِ رحمةً ؛ كي لا يموتوا مِنْ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[٢] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (لقدْ هممتُ إذا أنا متُّ أنْ آمرَهُمْ أنْ يقيِّدوني ويغلُّوني ، ثمَّ ينطلقوا بي إلىٰ ربِّي كما يُنطلقُ بالعبدِ الآبقِ إلىٰ سيِّدهِ)[٣] .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (لا تغترَّ بموضعٍ صالحٍ ؛ فلا مكانَ أصلحُ مِنَ الجنَّةِ وقدْ لقيَ آدمُ عليهِ السلامُ فيها ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العبادةِ ؛ فإنَّ إبليسَ بعدَ طولِ تعبُّدِهِ لقيَ ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العلمِ ؛ فإنَّ بلعامَ كانَ يحسنُ اسمَ اللهِ الأعظمَ ، فانظرْ ماذا لقيَ ، ولا تغترَّ برؤيةِ الصالحينَ ؛ فلا شخصَ أكبرُ منزلةً عندَ اللهِ مِنَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ ينتفعْ بلقائِهِ أقاربُهُ وأعداؤُهُ)[٤] .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢٥٣) .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٥٣) .
(٣) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٨٠) بنحوه .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٤١) .

وقالَ السريُّ : (إنِّي لأنظرُ إلىٰ أنفي كلَّ يومٍ مراتٍ ؛ مخافةَ أنْ يكونَ قدِ اسودَّ وجهي)[١] .

وقالَ أبو حفصٍ : (منذُ أربعينَ سنةً اعتقادي في نفسي أنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ إليَّ نظرَ السخطِ ، وأعمالي تدلُّ علىٰ ذلكَ)[٢] .

وخرجَ ابنُ المباركِ يوماً علىٰ أصحابِهِ فقالَ : (إنِّي اجترأتُ البارحةَ على اللهِ تعالىٰ ؛ سألتُهُ الجنَّةَ)[٣] .

وقالَتْ أمُّ محمدِ بنِ كعبٍ القرظيِّ لابنِها : يا بنيَّ ؛ إنِّي أعرفُكَ صغيراً طيِّباً ، وكبيراً طيِّباً ، وكأنَّكَ أحدَثتَ حدثاً موبقاً لما أراكَ تصنعُ في ليلِكَ ونهارِكَ ![٤] فقالَ : يا أمَّاهُ ؛ ما يؤمنُني أنْ يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ قدِ اطلعَ عليَّ وأنا علىٰ بعضِ ذنوبي فمقتَني وقالَ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا غفرتُ لكَ ؟![٥] .

وقالَ الفضيلُ : (إنِّي لا أغبطُ نبيّاً مرسلاً ، ولا ملكاً مقرباً ، ولا عبداً صالحاً ، أليسَ هؤلاءِ يعاينونَ يومَ القيامةِ ؟! إنَّما أغبطُ مَنْ لمْ يُخلقْ)[٦] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٢٤٠) ، وأبو حفص هو عمر بن مسلمة الحداد .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٤١) .
(٤) أي : من الاجتهاد في العبادة ، والبكاء من الخوف . « إتحاف » (٩/ ٢٥٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢١٤) .
(٦) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩) ، ويعاينون : يشاهدون أهوالها .

ورُوِيَ أنَّ فتىً مِنَ الأنصارِ دخلتهُ خشيةُ النارِ ، فكانَ يبكي حتَّىٰ حبسَهُ ذلكَ في البيتِ ، فجاءَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدخلَ عليهِ واعتنقَهُ ، فخرَّ ميتاً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جهِّزوا صاحبَكُمْ ؛ فإنَّ الفَرَقَ مِنَ النارِ فتَّتَ كبدَهُ »(١) .

ورُوِيَ عن أبي ميسرةَ أنَّهُ كانَ إذا أوىٰ إلىٰ فراشِهِ قالَ : يا ليتَ أمِّي لمْ تلدْني ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا أبا ميسرةَ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أحسنَ إليكَ ؛ هداكَ للإسلامِ ، قالَ : أجلْ ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ بيَّنَ لنا أنَّا واردو النارِ ، ولمْ يبيِّنْ لنا أنا صادرونَ عنها(٢) .

وقيلَ لفرقدٍ السَّبَخِيِّ : أخبرْنا بأعجبِ شيءٍ بلغَكَ عنْ بني إسرائيلَ ، فقالَ : بلغَني أنَّهُ دخلَ بيتَ المقدسِ خمسُ مئةِ عذراءَ ، لباسُهُنَّ الصوفُ والمسوحُ ، فتذاكرْنَ ثوابَ اللهِ وعقابَهُ ، فمتنَ جميعاً في يومٍ واحدٍ(٣) .

وكانَ عطاءٌ السَّليميُّ مِنَ الخائفينَ ، ولمْ يكنْ يسألُ اللهَ الجنَّةَ أبداً ، إنَّما كانَ يسألُ اللهَ العفوَ(٤) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٢٠) ، من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « الزهد » (٢٣٤٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٩٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٠٨) .

(٢) رواه النسائي في « الكبرى » (١١٨٣٧) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣١٢) ، وفي غير (ب) : (وروي عن ابن أبي ميسرة) .

(٣) أورده ابن الجوزي في « المدهش » (٢/ ٦١٣) .

(٤) روىٰ ذلك له أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١٧) .

وقيلَ لهُ في مرضِهِ : ألا تشتهي شيئاً ؟ فقالَ : إنَّ خوفَ جهنَّمَ لمْ يدعْ في قلبي موضعاً للشهوةِ(١) .

ويُقالُ : إنَّهُ ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ولا ضحكَ أربعينَ سنةً ، وإنَّهُ رفعَ رأسَهُ يوماً ، ففزعَ ، فسقطَ ، فانفتقَ في بطنِهِ فتقٌ(٢) .

وكانَ يمسُّ جسدَهُ في بعضِ الليلةِ مخافةَ أنْ يكونَ قدْ مُسِخَ(٣) .

وكانَ إذا أصابَتْهُمْ ريحٌ أوْ برقٌ أوْ غلاءُ طعامٍ . . قالَ : هـٰذا مِنْ أجلي يصيبُهُمْ ، لوْ ماتَ عطاءٌ . . لاستراحَ الناسُ(٤) .

وقالَ عطاءٌ : خرجنا معَ عتبةَ الغلامِ وفينا كهولٌ وشبَّانٌ يصلُّونَ صلاةَ الفجرِ بطهورِ العشاءِ ، قدْ تورَّمَتْ أقدامُهُمْ مِنْ طولِ القيامِ ، وغارَتْ أعينُهُمْ في رؤوسِهِمْ ، ولصقَتْ جلودُهُمْ علىٰ عظامِهِمْ ، وبقيَتِ العروقُ كأنَّها الأوتارُ ، يصبحونَ كأنَّ جلودَهُمْ قشورُ البطيخِ ، وكأنَّهُمْ قدْ خرجوا مِنَ القبورِ يخبرونَ كيفَ أكرمَ اللهُ المطيعينَ ، وكيفَ أهانَ العاصينَ ، فبينَما هُمْ يمشونَ . . إذْ مرَّ بمكانٍ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فجلسَ أصحابُهُ حولَهُ يبكونَ في يومٍ شديدِ البردِ ، وجبينُهُ يرشحُ عرقاً ، فجاؤوا بماءٍ فمسحوا وجهَهُ ،

(١) رویٰ ما يفيد هـٰذا أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٢) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .

فأفاقَ ، وسألوهُ عنْ أمرِهِ ، فقالَ : إنِّي ذكرتُ أنِّي كنتُ عصيتُ اللهَ في ذلكَ المكانِ[١] .

وقالَ صالحٌ المريُّ : قرأتُ علىٰ رجلٍ مِنَ المتعبدينَ : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ ، فصعقَ ، ثمَّ أفاقَ فقالَ : زدْني يا صالحُ ؛ فإنِّي أجدُ غمّاً ، فقرأتُ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ، فخرَّ ميتاً .

ورُوِيَ أنَّ زرارةَ بنَ أوفىٰ صلَّىٰ بالناسِ الغداةَ ، فلمَّا قرأَ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ . . خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فحُملَ ميتاً[٢] .

ودخلَ يزيدُ الرقاشيُّ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقالَ : عظْني يا يزيدُ ؛ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ اعلمْ أنَّكَ لستَ أوَّلَ خليفةٍ يموتُ ، فبكىٰ ، ثمَّ قالَ : زدْني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ليسَ بينَكَ وبينَ آدمَ أبٌ إلا ميِّتٌ ، فبكىٰ ، ثمَّ قالَ : زدْني يا يزيدُ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ليسَ بينَكَ وبينَ الجنَّةِ والنارِ منزلٌ ، فسقطَ مغشيّاً عليهِ[٣] .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : لمَّا نزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . . صاحَ سلمانُ الفارسيُّ ، ووضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ،

---

(١) خبر أنه مرَّ بمكان فأصابه ما أصابه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٨) .
(٢) رواه الترمذي (٤٤٥) بنحوه .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥١) .

وخرجَ هارباً ثلاثةَ أيامٍ لا يقدرونَ عليهِ[1] .

ورأىٰ داوودُ الطائيُّ امرأةً تبكي علىٰ رأسِ قبرِ والدِها وهيَ تقولُ : يا أبتاهُ ؛ ليتَ شعري أيُّ خديكَ بدأَ بهِ الدودُ أوَّلاً ؟ فصعقَ داوودُ وسقطَ مكانَهُ[2] .

وقيلَ : مرضَ سفيانُ الثوريُّ ، فعُرِضَ بولُهُ علىٰ طبيبٍ ذميٍّ ، فقالَ : هـٰذا رجلٌ قطعَ الخوفُ كبدَهُ ، ثمَّ جاءَ وجسَّ عروقَهُ ، ثمَّ قالَ : ما علمتُ أنَّ في الملةِ الحنيفيةِ مثلَهُ[3] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ : سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يفتحَ عليَّ باباً مِنَ الخوفِ ، ففتحَ ، فخفتُ علىٰ عقلي ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ علىٰ قدْرِ ما أطيقُ ، فسكنَ قلبي[4] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : (ابكوا ، فإنْ لمْ تبكوا . . فتباكَوا ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ يعلمُ العلمَ أحدُكُمْ . . لصرخَ حتَّىٰ ينقطعَ صوتُهُ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ ينكسرَ صلبُهُ)[5] ، وكأنَّهُ أشارَ إلىٰ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٩/ ٢٥٥) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٢٤) ، وعند القشيري في « الرسالة » (ص٥٩) أن سبب زهد داوود رحمه الله تعالىٰ أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأيِّ خديك تبدَّى البلى ... وأي عينيك إذاً سالا

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٤١) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٤٢) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٨) .

وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »[1] .

وقالَ العنبريُّ : اجتمعَ أصحابُ الحديثِ علىٰ بابِ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فاطلعَ عليهِمْ مِنْ كوَّةٍ وهوَ يبكي ولحيتُهُ ترجفُ ، فقالَ : عليكمْ بالقرآنِ ، عليكُمْ بالصلاةِ ، ويحَكُمْ ، ليسَ هٰذا زمانَ حديثٍ ، إنَّما هٰذا زمانُ بكاءٍ وتضرُّعٍ واستكانةٍ ، ودعاءٍ كدعاءِ الغريقِ ، إنَّما هٰذا زمانُ : احفظْ لسانَكَ ، وأخفِ مكانَكَ ، وعالجْ قلبَكَ ، وخذْ ما تعرفُ ، ودعْ ما تنكرُ[2] .

ورُئِيَ الفضيلُ يوماً وهوَ يمشي ، فقيلَ لهُ : إلىٰ أينَ ؟ فقالَ : لا أدري ، وكانَ يمشي والهاً مِنَ الخوفِ[3] .

وقالَ ذرُّ بنُ عمرَ لأبيهِ عمرَ بنِ ذرٍّ : ما بالُ المتكلمينَ يتكلَّمونَ فلا يبكي أحدٌ ، فإذا تكلمتَ أنتَ . . سمعتُ البكاءَ مِنْ كلِّ جانبٍ ؟ فقالَ : يا بنيَّ ، ليسَتِ النائحةُ الثكلىٰ كالنائحةِ المستأجرةِ[4] .

وحُكِيَ أنَّ قوماً وقفوا بعابدٍ وهوَ يبكي ، فقالوا : ما الذي يبكيكَ يرحمُكَ اللهُ ؟ قالَ : روعةٌ يجدُها الخائفونَ في قلوبِهِمْ ، قالوا : وما هيَ ؟

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .
(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٤) من طريق الحسين بن زياد قال : سمعت الفضيل يقول : (احفظ لسانك ، وأقبل علىٰ شأنك ، واعرف زمانك ، وأخف مكانك) .
(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٥٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١١٠) .

قالَ : روعةُ النداءِ بالعرضِ على اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وكانَ الخوَّاصُ يبكي ويقولُ في مناجاتِهِ : (قدْ كبرتُ وضعفَ جسمي عنْ خدمتِكَ ، فأعتقْني)[2] .

وقالَ صالحٌ المرِّيُّ : قدمَ علينا ابنُ السمَّاكِ مرَّةً فقالَ : أرني شيئاً مِنْ بعضِ عجائبِ عُبَّادِكُمْ ، فذهبتُ بهِ إلىٰ رجلٍ في بعضِ الأحياءِ في خُصٍّ لهُ ، فاستأذنا عليهِ ، فإذا رجلٌ يعملُ خوصاً ، فقرأتُ عليهِ : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، فشهقَ الرجلُ شهقةً وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فخرجنا مِنْ عندِهِ وتركناهُ علىٰ حالِهِ ، وذهبنا إلىٰ آخرَ ، فدخلنا عليهِ ، فقرأتُ هـٰذهِ الآيةَ ، فشهقَ شهقةً وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فذهبنا واستأذنا علىٰ ثالثٍ ، فقالَ : ادخلوا إنْ لمْ تشغلونا عنْ ربِّنا ، فقرأتُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، فشهقَ شهقةً ، فبدا الدمُ مِنْ منخريهِ ، وجعلَ يتشحَّطُ في دمِهِ حتَّىٰ يبسَ ، فتركناهُ علىٰ حالِهِ وخرجنا ، فأدرتُهُ علىٰ ستَّةِ أنفسٍ ، كلٌّ نخرجُ مِنْ عندِهِ ونتركُهُ مغشيّاً عليهِ ، ثمَّ أتيتُ بهِ السابعَ ، فاستأذنا ، فإذا امرأةٌ من وراءِ الخُصِّ تقولُ : ادخلوا ، فدخلنا ، فإذا شيخٌ فانٍ جالسٌ في مصلاَّهُ ، فسلَّمنا عليهِ ، فلمْ يشعرْ بسلامِنا ، فقلتُ بصوتٍ عالٍ ، ألا إنَّ للخلقِ غداً مقاماً ، فقالَ الشيخُ : بينَ يدي مَنْ ويحَكَ ؟ ثمَّ بقيَ مبهوتاً ، فاتحاً فاهُ ، شاخصاً بصرَهُ ، يصيحُ بصوتٍ لهُ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢٥٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٢٨٢) بنحوه .

ضعيفٍ : أوْهِ أوْهِ ، حتَّى انقطعَ ذلكَ الصوتُ ، فقالَتِ امرأتُهُ : اخرجوا ، فإنَّكُمْ لا تنتفعونَ بهِ الساعةَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ . . سألتُ عنِ القومِ ، فإذا ثلاثةٌ قدْ أفاقوا ، وثلاثةٌ قدْ لحقوا باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الشيخُ . . فإنَّهُ مكثَ ثلاثةَ أيامٍ علىٰ حالتِهِ مبهوتاً متحيِّراً ، لا يؤدِّي فرضاً ، فلمَّا كانَ بعدَ ثلاثٍ . . عقلَ[1] .

وكانَ يزيدُ بنُ الأسودِ يُرىٰ أنَّهُ مِنَ الأبدالِ ، وكانَ قدْ حلفَ ألا يضحكَ أبداً ، ولا ينامَ مضطجعاً ، ولا يأكلَ سميناً أبداً ، فما رُئِيَ ضاحكاً ، ولا مضطجعاً ، ولا أكلَ سميناً حتَّىٰ ماتَ رحمَهُ اللهُ[2] .

وقالَ الحجَّاجُ لسعيدِ بنِ جبيرٍ : بلغَني أنَّكَ لمْ تضحكْ قطُّ ، فقالَ : كيفَ أضحكُ وجهنَّمُ قدْ سُعِرَتْ ، والأغلالُ قدْ نُصبَتْ ، والزبانيةُ قدْ أُعدَّتْ[3] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : بخيرٍ ، قالَ : كيفَ حالُكَ ؟ فتبسَّمَ الحسنُ وقالَ : تسألُني عنْ حالي ؟! ما ظنُّكَ بناسٍ ركبوا سفينةً حتَّىٰ توسَّطوا البحرَ فانكسرَتْ سفينتُهُمْ ، فتعلَّقَ كلُّ إنسانٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٩) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٥/ ١١١) من طريق ابن أبي الدنيا ، وصوَّب الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٥٧) أنه الأسود بن يزيد ، ولكن في النسخ والأصل المنقول عنه كما أثبت .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٩١) ضمن خبر طويل ، ولفظه : (وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين ، والطين تأكله النار) .

منهُمْ بخشبةٍ ، علىٰ أيِّ حالٍ هُمْ ؟ قالَ الرجلُ : علىٰ حالٍ شديدةٍ ، قالَ الحسنُ : حالي أشدُّ مِنْ حالِهِمْ(١) .

ودخلَتْ مولاةٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عليهِ ، فسلَّمَتْ عليهِ ، ثمَّ قامَتْ إلىٰ مسجدٍ في بيتِهِ ، فصلَّتْ فيهِ ركعتينِ ، وغلبَتْها عيناهَا ، فرقدَتْ ، فاستبكَتْ في منامِها(٢) ، ثمَّ انتبهتْ فقالَتْ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِّي رأيتُ ـ واللهِ ـ عجباً ، قالَ : وما ذاكِ ؟ قالَتْ : رأيتُ النارَ وهيَ تزفرُ علىٰ أهلِها ، ثمَّ جيءَ بالصراطِ فوُضعَ علىٰ متنِها ، فقالَ : هيهِ ، قالَتْ : فجيءَ بعبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، فحُملَ عليهِ ، فما مضىٰ عليهِ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ ثمَّ جِيءَ بالوليدِ بنِ عبدِ الملكِ ، فحُملَ عليهِ ، فما مضىٰ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جِيءَ بسليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فما مضىٰ عليهِ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ كذلكَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جيءَ بكَ ـ واللهِ ـ يا أميرَ المؤمنينَ ، فصاحَ عمرُ رحمةُ اللهِ عليهِ صيحةً خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فقامَتْ إليهِ ، فجعلَتْ تنادي في أذنِهِ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنِّي رأيتُكَ ـ واللهِ ـ حتَّىٰ نجوتَ(٣) ، قالَ : وهيَ تنادي وهوَ يصيحُ ويفحصُ برجليهِ(٤) .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٢٥٨) .
(٢) أي : انتبهت باكية مذعورة . « إتحاف » (٩/٢٥٨) .
(٣) في (د) : (إني رأيتك والله حتىٰ نجوت ، إني رأيتك والله حتىٰ نجوت) ، وكذا في (ج) دون (حتىٰ) .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/٢٥٨) .

ويُحكىٰ أنَّ أويساً القرنيَّ رحمَهُ اللهُ كانَ يحضرُ عندَ القاصِّ فيبكي مِنْ كلامِهِ ، فإذا ذكرَ النارَ . . صرخَ أويسٌ ، ثمَّ يقومُ منطلقاً ، فيتبعُهُ الناسُ ، فيقولونَ : مجنونٌ مجنونٌ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ المؤمنَ لا تسكنُ روعتُهُ حتَّىٰ يخلِّفَ جسرَ جهنَّمَ وراءَهُ)(١) .

وكانَ طاووسٌ يفرشُ فراشَهُ ، ثمَّ يضطجعُ ويتقلَّىٰ كما تتقلَّى الحبَّةُ في المقلَىٰ ، ثمَّ يثبُ فيدرجُهُ(٢) ويستقبلُ القبلةَ حتَّى الصباحِ ، ويقولُ : (طيَّرَ ذكرُ جهنَّمَ نومَ الخائفينَ)(٣) .

وقالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ : (يخرجُ مِنَ النارِ رجلٌ بعدَ ألفِ عامٍ ويا ليتَني كنتُ ذلكَ الرجلَ)(٤) ، وإنَّما قالَ ذلكَ لخوفِهِ منَ الخلودِ وسوءِ الخاتمةِ .

ورُوِيَ أنَّهُ ما ضحكَ أربعينَ سنةً ، قالَ : وكنتُ إذا رأيتُهُ قاعداً كأنَّهُ أسيرٌ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩٢٧٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) أي : يطوي الفراش .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) ، وفيه : (العابدين) بدل (الخائفين) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٠) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

قدْ قدمَ لتُضربَ عنقُهُ ، وإذا تكلَّمَ كأنَّهُ يعاينُ الآخرةَ فيخبرُ عنْ مشاهدتِها ، فإذا سكتَ كأنَّ النارَ تُسعرُ بينَ عينيهِ ، وعُوتبَ في شدَّةِ حزنِهِ وخوفِهِ فقالَ : (ما يؤمنُني أنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ قدِ اطلعَ عليَّ في بعضِ ما يكرهُ ، فمقتَني فقالَ : اذهبْ فلا غفرتُ لكَ ، فأنا أعملُ في غيرِ معملٍ ؟!)[1] .

وعنِ ابنِ السمَّاكِ قالَ : وعظتُ يوماً في مجلسٍ ، فقامَ شابٌّ مِنَ القومِ فقالَ : يا أبا العباسِ ؛ لقدْ وعظتَ اليومَ بكلمةٍ ما كنَّا نبالي ألا نسمعَ غيرَها ، قلتُ : وما هيَ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : قولُكَ : لقدْ قطعَ قلوبَ الخائفينَ طولُ الخلودينِ ؛ إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النارِ ، ثمَّ غابَ عنِّي ، فتفقدتُهُ في المجلسِ الآخرِ فلمْ أرَهُ ، فسألتُ عنهُ ، فأُخبرتُ أنَّهُ مريضٌ يُعادُ ، فأتيتُهُ أعودُهُ ، فقلتُ : يا أخي ، ما الذي أرىٰ بكَ ؟ فقالَ : يا أبا العباسِ ؛ ذلكَ مِنْ قولِكَ : لقدْ قطعَ قلوبَ الخائفينَ طولُ الخلودينِ ؛ إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النارِ ، قالَ : ثمَّ ماتَ رحمَهُ اللهُ ، فرأيتُهُ في المنامِ ، فقلتُ : يا أخي ، ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ورحمَني ، وأدخلَني الجنَّةَ ، قلتُ : بماذا ؟ قالَ : بالكلمةِ .

فهٰذهِ مخاوفُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والصالحين ، ونحنُ أجدرُ بالخوفِ منهُمْ ، لكنْ ليسَ الخوفُ بكثرةِ الذنوبِ ، بلْ بصفاءِ القلوبِ وكمالِ المعرفةِ ، وإلا . . فليسَ أمنُنا لقلَّةِ ذنوبِنا وكثرةِ طاعاتِنا ، بلْ قادَتنا شهوتُنا ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٨) .

وغلبَتْ علينا شقوتُنا ، وصدَّتنا عنْ ملاحظةِ أحوالِنا غفلتُنا وقسوتُنا ، فلا قرْبُ الرحيلِ ينبِّهُنا ، ولا كثرةُ الذنوبِ تحرِّكُنا ، ولا مشاهدةُ أحوالِ الخائفينَ تخوِّفُنا ، ولا خطرُ الخاتمةِ يزعجُنا ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يتداركَ بفضلِهِ وجودِهِ أحوالَنا فيصلحَنا ، إنْ كانَ تحريكُ اللسانِ بمجرَّدِ السؤالِ دونَ الاستعدادِ ينفعُنا .

ومِنَ العجائبِ أنَّا إذا أردنا المالَ في الدنيا . . زرعنا وغرسنا واتجرنا ، وركبنا البحارَ والبراريَ وخاطرنا ، وإنْ أردنا طلبَ رتبةِ العلمِ . . تفقَّهنا ، وتعبنا في حفظِهِ وتكرارِهِ وسهرنا ، ونجتهدُ في طلبِ أقواتِنا ولا نثقُ بضمانِ اللهِ لنا ، ولا نجلسُ في بيوتِنا فنقولَ : اللهمَّ ؛ ارزقْنا ، ثمَّ إذا طمحَتْ أعينُنا نحو الملكِ الدائمِ المقيمِ . . قنعنا بأنْ نقولَ بألسنتِنا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لنا وارحمْنا ، والذي إليهِ رجاؤُنا وبهِ اعتزازُنا ينادينا ويقولُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ ، ثمَّ كلُّ ذلكَ لا ينبهُنا ولا يخرجُنا عنْ أوديةِ غرورِنا وأمانينا ! فما هٰذهِ إلا محنةٌ هائلةٌ إنْ لمْ يتفضَّلِ اللهُ علينا بتوبةٍ نصوحٍ يتداركُنا بها ويجبرُنا .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يتوبَ علينا ، بلْ نسألُهُ أنْ يشوِّقَ إلى التوبةِ سرائرَ قلوبنا ، وألا يجعلَ حركةَ اللسانِ بسؤالِ التوبةِ غايةَ حظِّنا ، فنكونَ ممَّنْ يقولُ ولا يعملُ ، ويسمعُ ولا يقبلُ ، إذا سمعنا الوعظَ . . بكينا ، وإذا جاءَ وقتُ العملِ بما سمعناهُ . . عصينا ، فلا علامةَ للخذلانِ أعظمُ مِنْ هٰذا ،

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يمنَّ بالتوفيقِ والرشدِ علينا بمنِّه وفضلِهِ .

ولنقتصرْ مِنْ حكايةِ أحوالِ الخائفينَ علىٰ ما أوردنا ، فإنَّ القليلَ مِنْ هـٰذا يصادفُ القلبَ القابلَ فيكفي ، والكثيرَ منهُ وإنْ أُفيضَ على القلبِ الغافلِ . . فلا يغني .

ولقدْ صدقَ الراهبُ الذي حكىٰ عنهُ عيسىٰ بنُ مالكٍ الخولانيُّ ـ وكانَ مِنْ خيارِ العبَّادِ ـ أنَّهُ رآهُ علىٰ بابِ بيتِ المقدسِ واقفاً كهيئةِ المحزونِ مِنْ شدَّةِ الولهِ ، ما يكادُ يرقأُ دمعُهُ مِنْ كثرةِ البكاءِ ، فقالَ عيسىٰ : لمَّا رأيتُهُ . . هالَني منظرُهُ ، فقلتُ : أيُّها الراهبُ ؛ أوصني بوصيَّةٍ أحفظُها عنكَ ، فقالَ : يا أخي ، بماذا أوصيكَ ؟ إنِ استطعتَ أنْ تكونَ بمنزلةِ رجلٍ قدِ احتوشَتْهُ السباعُ والهوامُّ فهوَ خائفٌ حَذِرٌ ، يخافُ أنْ يغفُلَ فتفترسَهُ السباعُ ، أوْ يسهوَ فتنهشَهُ الهوامُّ ، فهوَ مذعورُ القلبِ وَجِلٌ ، فهوَ في المخافةِ في ليلِهِ وإنْ أمنَ المغترُّونَ ، وفي الحزنِ في نهارِهِ وإنْ فرحَ البطَّالونَ ، ثم ولَّىٰ وتركَني ، فقلتُ : لوْ زدتَني شيئاً عسىٰ أنْ ينفعَني ، فقالَ : الظمآنُ يجزئُهُ مِنَ الماءِ أيسرُهُ[1] .

وقدْ صدقَ ، فإنَّ القلبَ الصافيَ يحرِّكُهُ أدنىٰ مخافةٍ ، والقلبَ الجامدَ تنبو عنهُ كلُّ المواعظِ .

---

(١) أورده مجير الدين الحنبلي في « الأنس الجليل » (١/ ٢٨٩) عن قاسم الزاهد بدلاً من الخولاني بنحوه .

وما ذكرَهُ مِنْ تقديرِهِ أنَّهُ احتوشَتْهُ السباعُ والهوامُّ فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّهُ تقديرٌ ، بلْ هوَ تحقيقٌ ، فإنَّكَ لوْ شاهدتَ بنورِ البصيرةِ باطنَكَ . . لرأيتَهُ مشحوناً بأصنافِ السباعِ وأنواعِ الهوامِّ ؛ مثلَ الغضبِ ، والشهوةِ ، والحقدِ ، والحسدِ ، والكبرِ ، والعجْبِ ، والرياءِ ، وغيرِها ، وهيَ التي لا تزالُ تفترسُكَ وتنهشُكَ إنْ غفلتَ عنها لحظةً ، إلا أنَّكَ محجوبُ العينِ عنْ مشاهدتِها ، فإذا انكشفَ الغطاءُ ، ووُضعتَ في قبرِكَ . . عاينتَها وقدْ تمثَّلَتْ لكَ بصورِها وأشكالِها الموافقةِ لمعانيها ، فترىٰ بعينِكَ العقاربَ والحيَّاتِ قدْ أحدقَتْ بكَ في قبرِكَ ، وإنَّما هيَ صفاتُكَ الحاضرةُ الآنَ ، قدِ انكشفَ لكَ صورُها ، فإنْ أردتَ أنْ تقتلَها وتقهرَها وأنتَ قادرٌ عليها قبلَ الموتِ . . فافعلْ ، وإلا . . فوطِّنْ نفسَكَ علىٰ لدغِها ونهشِها لصميمِ قلبِكَ فضلاً عنْ ظاهرِ بشرتِكَ وجسمِكَ ، والسلامُ .

* * *

تمّ كتاب الرّجاء والخوف

وهو الكتاب الثّالث من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه وتأييده ، وصلاته على سيّدنا محمّد النّبيّ وآله وسلامه

يتلوه كتاب الفقر والزّهد

مُحتوى الكتاب

رُبعُ المُنجِيات / القِسمُ الأوّل

كتاب التوبة ٧
ـ آدم عليه السلام قدوة لأبنائه في التوبة ١٠
ـ لا يطهر الإنسان إلا بإحدى نارين ١١
الركن الأول: في نفس التوبة ١٣
بيان حقيقة التوبة وحدها ١٣
التوبة: علم وحال وفعل ١٣
ـ «الندم توبة» ١٥
بيان وجوب التوبة وفضلها ١٧
ـ الواجب في الحقيقة هو الموصل إلى السعادة الأبدية ١٧
ـ تحريجة: تألم القلب لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يجب؟ ٢١
ـ تحريجة: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ ٢٢
ـ الردُّ على القائلين بالتولُّد ٢٣
ـ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ٢٤
ـ تحريجة: كيف يصدق من وجه وهو قاصر؟ هل من مثال لهذا؟ ٢٦
بيان أن وجوب التوبة على الفور ٢٨
ـ لكل علم موجب للعمل جزء إيمان خاص به ٢٨
ـ الإيمان نيف وسبعون باباً ٢٩
ـ الإيمان كالإنسان ٢٩
ـ مثال إيمان العاصي والمؤمن ٣٠
ـ لا خير في علم لا يثمر العمل ٣٢

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة . . . ٣٣
ـ التوبة عن الكفر والتوبة عن الغفلة ٣٥
ـ **تحريجة**: إذا كان طلب الكمال فضيلة . . فما معنى قولك: التوبة واجبة في كل حال؟ ٣٦
ـ الواجب له معنيان ٣٨
ـ فرق بين فتوى العامة وفتوى طلاَّب السعادات ٣٩
ـ خطر التسويف ٤٤
بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة ٤٦
ـ المحافظة على سلامة القلب ٤٦
ـ من جهل قلبه . . فهو بغيره أجهل ٤٧
ـ شواهد الآيات والأخبار والآثار ٤٨
ـ **تحريجة**: فهل قبول التوبة واجب على الله كما تقول المعتزلة؟ ٥٥
ـ **تحريجة**: لا شك في الري بعد العطش، وثَمَّ شك في قبول التوبة بعد التوبة . ٥٥
الركن الثاني: فيما عنه التوبة، وهي الذنوب صغائرها وكبائرها ٥٧
ـ حدُّ الذنب ٥٧
بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد ٥٧
ـ الاختلاف في عدد الكبائر ٦٢
ـ المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ٦٨
ـ الكبائر على ثلاث مراتب ٦٩
ـ الكبيرة: ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع ٧٥
ـ **تحريجة**: كيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حدِّه؟ ٧٥
ـ **تحريجة**: مرتكب الكبيرة لا تقبل شهادته، فكيف تبهم الكبيرة؟ ٧٧
بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا ٧٩

ـ لا سبيل للحديث عن عالم الملكوت إلا بضرب الأمثال ٧٩
ـ أمثلة من علم التعبير ٨٠
ـ كلام الأنبياء على قدر عقول الناس ٨١
ـ سبب الزلل في فهم الآيات المتشابهات ٨١
ـ كيفية تمثيل الرؤيا في المنام ٨٢
ـ انقسام الناس في الآخرة إلى أربعة أقسام ومثاله في الدنيا ٨٤
ـ لا ينال المعرفة إلا أهل الإيمان ٨٦
ـ نار الفراق هي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ٨٧
ـ سبب أي ألم هو التفريق ٨٧
ـ لا يعي هذا إلا من كان له قلب ٨٨
ـ ليس لكل إنسان قلب ٨٩
ـ الرحمة على قدر المصيبة ٨٩
ـ الإيمان إيمانان ٩٤
ـ لا نهاية للمعرفة ٩٥
ـ حكم من مات ولم يتب من ذنبه ٩٦
ـ عطاء آخر من يخرج من النار ٩٦
ـ معنى «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» ٩٨
ـ المرجع والمآل إليه سبحانه ١٠٠
ـ لا ينفع في عالم الملكوت إلا ما كان من عالم الملكوت ١٠١
ـ خطر مظالم العباد يوم القيامة ١٠٢
ـ عود إلى حكم من مات قبل التوبة ١٠٣
ـ مطلب العارفين ما لا يخطر على قلب بشر وهو لذة النظر إلى وجه الله الكريم .. ١٠٧
بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب ١٠٩
ـ النظر إلى جلال الله تعالى يورث تعظيم الذنب ١١١

الركن الثالث: في تمام التوبة وشروطها في دوامها إلى آخر العمر ١١٧
ـ كيفية تحصيل الندم ١١٧
ـ **تحريجة**: كيف نجد مرارة الذنوب وهي مشتهاة بالطبع؟ ١١٨
ـ كيفية تدارك ما فات من الصلاة والصوم والزكاة والحج ١٢٠
ـ كيفية محو المعاصي التي بينه وبين الله تعالى ١٢١
ـ أثر الهموم في تكفير الذنوب ١٢٣
ـ **تحريجة**: همُّ الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه، وهو خطيئة، فكيف يكون كفارة؟ ١٢٣
ـ كيفية محو المعاصي التي بينه وبين العباد ١٢٤
ـ لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويطلبَ إقامة الحدِّ عليه ١٢٥
ـ الاستحلال المبهم لا يكفي ١٢٨
ـ لا بد للتائب من تكثير الحسنات ١٢٩
ـ حكم التوبة عن بعض الذنوب ١٣٢
ـ التوبة لا تستدعي العصمة ١٣٤
ـ **تحريجة**: فهل تصح توبة العاجز عن المعصية مطلقاً بعدما قارفها؟ ١٣٨
ـ **تحريجة**: أيهما أفضل: من سكنت شهوته، أم من بقيت وهو يجاهدها؟ .. ١٣٩
ـ ليس الجهاد مطلوباً لذاته ١٤٢
ـ **تحريجة**: أيهما أفضل: المتفكر في ذنبه على الدوام، أم الناسي له؟ ١٤٢
ـ ترك التفكُّر فيما له نظير في الدنيا كالحور والقصور ١٤٤
ـ تنزُّل الأنبياء والأولياء ١٤٥
بيان أقسام العباد في دوام التوبة ١٤٧
ـ اطلب المغفرة من موردها الصحيح ١٥٤
بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق ١٥٧

ـ **تحريجة**: كيف ينفع الاستغفار مع وجود الإصرار؟ ١٦٠
ـ أحسن أحوال العبد الرجوع إلى الله تعالى ١٦٢
ـ لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ١٦٣
ـ الاستغفار باللسان لا يخلو عن فضل ١٦٤
ـ أثر العادة في العون على الطاعة ١٦٤
الركن الرابع: في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار ١٦٨
ـ سبب الإصرار الغفلة والشهوة ١٦٩
ـ **تحريجة**: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ ١٦٩
ـ أمور يحتاج المريض إلى التصديق بها ١٧٠
ـ واجب السلاطين في تعيين العلماء والفقهاء في كل قرية ومحلة ١٧٢
ـ انتشار مرض القلوب لثلاث علل ١٧٢
ـ **تحريجة**: ما هو الطريق الذي يجب على الواعظ أن يسلكه؟ ١٧٤
ـ الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب ١٧٤
ـ الأخبار والآثار في تعجيل العقوبة ١٨١
ـ الجنيد يشفع في ابن علوان ١٨٣
ـ الكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل ١٨٥
ـ **تحريجة**: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع وهو لا يدري حال السامع؟ ١٨٧
ـ حال الوعّاظ الجهلة ١٩١
ـ ركنا العلاج: طلب الطبيب، والصبر ١٩١
ـ حاصل علاج مرض الشهوة ١٩١
ـ أول الأمر حضور مجالس الذكر ١٩٢
ـ **تحريجة**: فهل سبب المعصية هو فقد الإيمان؟ ١٩٣
ـ سبب وقوع المؤمن بالذنوب ١٩٣
ـ **تحريجة**: فما علاج أسباب الإصرار على المعصية مع وجود الإيمان؟ ١٩٥

ـ مثال بديع في علاج الجاحد ١٩٨
ـ **تحريجة**: فلِمَ هجرت القلوب الفكر؟ وما علاجها لردها له؟ ٢٠٠
ـ أمران مانعان من الفكر وعلاجهما ٢٠٠
ـ بيان معنى التوفيق ٢٠١

كتاب الصبر والشكر ٢٠٣
ـ الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر ٢٠٥
الشطر الأول: في الصبر ٢٠٧
بيان فضيلة الصبر ٢٠٧
ـ الآيات في فضيلة الصبر ٢٠٧
بيان حقيقة الصبر ومعناه ٢١٤
ـ جميع مقامات الدين منظومة من معارف وأحوال وأعمال ٢١٤
ـ الصبر خاصية الإنس ٢١٤
ـ فضْل الله المنان برعاية بني آدم ٢١٥
ـ حدُّ الصبر ٢١٦
ـ الكرام الكاتبون والصحائف المكتوبة ٢١٨
ـ متى تنشر الصحائف ٢١٨
ـ مشابهة القيامة الصغرى للقيامة الكبرى ٢١٩
ـ إشراق نور الهداية في سنِّ التمييز ٢٢٤
ـ عناية الولي بقلب الصغير ٢٢٤
بيان كون الصبر نصف الإيمان ٢٢٥
ـ لِمَ كان الإيمان نيِّفاً وسبعين باباً ٢٢٥
ـ الصوم ربع الإيمان ٢٢٦
بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر ٢٢٨

بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف ٢٣١
ـ الجناية على العقل ٢٣٢
ـ الصبر باعتبار عدد ما يصبر عنه ٢٣٣
ـ الذين تخلَّوا عن المجاهدة مطلقاً هم أضل سبيلاً من الأنعام ٢٣٤
ـ الصبر باعتبار العسر واليسر ٢٣٤
ـ الصبر باعتبار حكمه ٢٣٥
بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال . ٢٣٧
ـ سبب عظم الصبر على السراء ٢٣٩
ـ عسر الصبر على المعاصي المألوفة بالعادة ٢٤٢
ـ عسر الصبر عن المعاصي الميسورة ٢٤٢
ـ فضيلة هذا النوع من الصبر ٢٤٦
ـ **تحريجة**: لا بد من وقوع كراهية للمصيبة ولا تدفع، فكيف تنال درجة الصبر؟ ٢٥٠
ـ توجع القلب وفيضان العين لا يخرج عن حد الصابرين والراضين ٢٥١
ـ من كمال الصبر كتمان المصيبة ٢٥٣
ـ مغبون من ضيَّع نَفَساً بغير ذكر الله ٢٥٣
ـ جندا الشيطان، وطبعه في عداوته للإنسان ٢٥٣
ـ لا يقيِّدَنَّك عالم الشهادة عن عالم الغيب ٢٥٤
ـ أعدى عدوِّك شهوتك ٢٥٦
بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه ٢٥٧
ـ تنوُّع العلاج بتنوُّع المرض ٢٥٧
ـ الصبر عن شهوة الوقاع ٢٥٧
ـ ثلاثة أمور تساعد على تضعيف باعث الشهوة ٢٥٨
ـ طريقتان لتقوية باعث الدين ٢٥٩

ـ أشد المجاهدات كفُّ الباطن عن حديث النفس ٢٦٠
ـ هذا جهد العبد، ثم الفتح من عند الله تعالى ٢٦٢
ـ التعرُّض للنفحات ٢٦٢
ـ الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ٢٦٤
ـ الصبر عن العلائق مقدم على الصبر عن الخواطر ٢٦٤
ـ أشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه ٢٦٥
ـ كيف غرَّر الشيطان بالعبد ورغَّبه بالفانية ٢٦٥
ـ ما أنزلت الكتب إلا لدعوة الخلق إلى النعيم المقيم ٢٦٧
ـ معنى الزهد ٢٦٧
ـ تتمة علاج الركون إلى الجاه بالعمل بعد العلم ٢٦٩
الشطر الثاني: في الشكر ٢٧٢
ـ أركان الشكر ٢٧٢
الركن الأول: في نفس الشكر ٢٧٢
بيان فضيلة الشكر ٢٧٢
ـ الآيات في فضيلة الشكر ٢٧٢
ـ لا ينبغي للبكاء أن ينقطع ٢٧٤
بيان حد الشكر وحقيقته ٢٧٧
ـ من التقديس إلى التوحيد إلى الشكر ٢٧٧
ـ معرفة النعمة من الله وحده تنفي الشرك في الأفعال ٢٧٩
ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ٢٧٩
ـ علمك بأنه لا منعم إلا الله هو عين الشكر ٢٨٠
ـ شرط هذه الحال أن يكون الفرح بالمنعم دون النعمة والإنعام ٢٨١
ـ لا يلتذُّ القلب حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ٢٨٣
ـ فرقٌ بين من يريد الله لينعم عليه، وبين من يريد نعم الله ليصل إليه ٢٨٤

ـ استنطاق السلف لشكر الله عز وجل ٢٨٥
ـ وفد الشكر ٢٨٥
ـ سبب تنوُّع الحدود والأجوبة عند الصوفية ٢٨٧
بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى ٢٨٨
ـ **تحريجة**: كيف نشكر من هو غني عن شكرنا، وشكرنا نعمة من نعمه؟ ... ٢٨٨
ـ **تحريجة**: كيف يكون العلم باستحالة الشكر شكراً؟ ٢٨٩
ـ هو الشاكر والمشكور عز وجل ٢٩٠
ـ مثال لتقريب هذه الحقيقة وتفهيمها ٢٩١
ـ الصوفية ينعتون هذا النظر بالفناء ٢٩١
ـ ضرورة العارفين أن يكونوا ضُحْكة للجاهلين ٢٩١
ـ الأنبياء هم الكحَّالون الذين يكحلون الناس بإثمد التوحيد ٢٩٣
ـ أسرار «أنت كما أثنيت على نفسك» ٢٩٤
ـ غين الأنوار ٢٩٥
ـ معنى «أفلا أكون عبداً شكوراً» ٢٩٥
ـ مقام ظهور الشكر والشاكر والمشكور ٢٩٦
ـ أنت شاكر لأنك محل الشكر، لا بمعنى أنك موجد للشكر ٢٩٩
ـ الخلْق مجاري قدر الله تعالى ٢٩٩
ـ **تحريجة**: كيف نذمُّ أو نمدح والكل إلى الله سبحانه؟ ٣٠٠
ـ سلاسل الأسباب والله الواحد القهار ٣٠١
بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ٣٠٢
ـ كيف السبيل لمعرفة محابِّ الله تعالى ٣٠٢
ـ حِكمَ الله تعالى جلية وخفية ٣٠٢
ـ معرفة الحكمة تعين على حسن توظيف النعمة ٣٠٤
ـ مثال للحكمة الخفية ٣٠٤

ـ صور من كفران نعمة الذهب والفضة ٣٠٦
ـ **تحريجة**: فلِمَ جاز بيع أحد النقدين بالآخر وبيع الدرهم بمثله؟ ٣٠٨
ـ إلحاق الأطعمة في قضايا الربا والحكمة فيه ٣٠٩
ـ لا ينبغي صرف الأشياء عن حِكَمِها ٣١١
ـ الخروج عن الحكمة محظور وإن قال علماء الظاهر بالكراهة ٣١٢
ـ ما هو مكروه في حق العامة محظور في حق العارفين ٣١٣
ـ سبب التسامح مع العوام هو الضرورة ٣١٤
ـ كسْر غصن شجرة دون غرض صحيح . . كفر بنعمة الله تعالى ٣١٤
ـ مثال يوضِّح أن لا مالك إلا الله عز سلطانه ٣١٥
ـ يد الفقيه لا تطال هذه الخفايا ٣١٦
ـ فهم الحكمة يعين على أداء الشكر ٣١٧
ـ **تحريجة**: فعل العبد سواء أتى بالحكمة فشكر أو دفعها فكفر . . هو أيضاً من فعل الله تعالى ٣١٨
ـ عجز اللغات عن بيان طرف من شريف المعاني العلوية ٣١٨
ـ ثمَّ أشياء لا تكتسب بالتعلم، ولكن بقوة اليقين ٣٢٢
ـ عبرٌ في خيال الظل لمن اعتبر ٣٢٤
ـ في السلطان خير وإن كان ظالماً فاسقاً ٣٢٧
الركن الثاني: ما عليه الشكر ٣٢٩
بيان حقيقة النعمة وأقسامها ٣٢٩
ـ أسباب قصور الخلق عن إدراك لذة العلم والحكمة ٣٣٦
ـ أقسام القلوب ٣٣٨
ـ الاعتبار اتصال بعالم الملكوت ٣٣٩
ـ **تحريجة**: ما وجه الحاجة إلى النعم الخارجة كالمال والجاه في طريق الآخرة؟ ٣٤٣

- **تحريجة**: كرم العشيرة وشرف الأهل من النعم أم لا؟ ٣٤٧
- **تحريجة**: فما غناء الفضائل البدنية؟ ٣٤٨
- المقصود بالجمال في هذا المقام ٣٥٠
- **تحريجة**: لِمَ أُدخل المال والجاه والنسب والولد في حيز النعم وقد ورد ذمُّها؟ ٣٥٠
- **تحريجة**: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والتأييد؟ ٣٥٥
- منازل الهداية ٣٥٧
- حدُّ العصمة ٣٥٨

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء ٣٦١
- الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل ٣٦١

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك ٣٦٢

الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات ٣٦٧

الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة ٣٧٠
- التأمُّل في النعمة يطلق اللسان بالشكر ٣٧٧
- **تحريجة**: كيف تُمثِّل الروح وفي القرآن: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ وما زاد؟ ٣٧٩
- الأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفَها ٣٨٠

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته ٣٨٣
- المنهي عنه في علم النجوم أمران ٣٨٦
- المحبُّون لله لا يفتؤون يطلبون معرفة عجائب صنعه ٣٨٨

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك ٣٩٠

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة ٣٩٢

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين ٣٩٥

الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام ٣٩٨
ـ صنَّاع البدن هم الملائكة ٣٩٨
ـ **تحريجة**: فلِمَ تعدَّدت الملائكة في أمر يُتصوَّر فيه انفراد العامل؟ ٤٠١
ـ تعددت الأفعال لتعدد الصفات ٤٠١
ـ لأنه أنعم عليك ظاهراً وباطناً . . أمرك بترك ظاهر الإثم وباطنه ٤٠٣
بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر ٤٠٨
ـ من أسباب وجود الغفلة عن النعمة التشارك فيها ٤٠٨
ـ الحديث عن النعم الخاصة ٤١٠
ـ الغفلة عن شكر النعم العظيمة ٤١٥
ـ المعرض عن الدنيا والمقبل عليها كلاهما متألم مع تخالف الثمرة ٤١٦
ـ **تحريجة**: فكيف لنا بردِّ القلوب الغافلة إلى الشكر؟ ٤١٧
ـ النعمة إن لم تشكر . . زالت ولم تعد ٤١٨
الركن الثالث: فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر ٤٢٠
بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد ٤٢٠
ـ **تحريجة**: هل يجتمع الشكر مع الصبر؟ وكيف يكون كل ما أوجده الله نعمةً؟ . . ٤٢٠
ـ صور يكون فيها الجهل نعمة ٤٢٢
ـ كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق أو نعمة مطلقة . . ففيها الصبر والشكر . ٤٢٤
ـ **تحريجة**: كيف يجتمع الصبر والشكر وهما متضادان؟ ٤٢٤
ـ خمسة أمور يُفرح بها في المصيبة ٤٢٤
ـ **تحريجة**: كيف أفرح بالمصيبة وغيري فعل من المعاصي أكثر ولم يصب؟ . . ٤٢٦
ـ قد يكون التألم ضرورياً، وأخبار في جزاء البلاء ٤٣٠
بيان فضل النعمة على البلاء ٤٤١
ـ **تحريجة**: هل لنا أن نسأل الله تعالى البلاء؟ ٤٤١
ـ **تحريجة**: ورد عن بعضهم أنهم سألوا الله البلاء ٤٤٣

بيان الأفضل من الصبر والشكر ٤٤٦
ـ تفضيل الصبر على الشكر هو اللائق بغالب العوامِّ ٤٤٧
ـ **تحريجة**: كيف يكون العمل وقد جاء الثناء عليه أفضلَ من المعرفة؟ ٤٥٣
ـ مثال بديع لتوضيح ذلك ٤٥٤
ـ تصوُّر تساوي المعرفتين ٤٥٧
ـ مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلايا ٤٥٧
ـ الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة ٤٦٠
ـ صورةٌ الشاكرُ فيها خير من الصابر ٤٦١
ـ **تحريجة**: وأين ألم الصبر عند هذا الشاكر؟ ٤٦١
ـ العاشقان الشاكران ٤٦٣

كتاب الرجاء والخوف ٤٦٥

الشطر الأول: في الرجاء ٤٦٩
بيان حقيقة الرجاء ٤٦٩
ـ متى يسمَّى الوصف مقاماً أو حالاً ٤٦٩
ـ متى يكون الرجاء صادقاً ٤٧٠
ـ لا تصوُّر للرجاء والخوف إلا في أمر متردَّد فيه ٤٧٠
ـ صناعة الرجاء ٤٧٢
ـ لا يُرجى ثمر الجنة ببذر النار ٤٧٣
ـ من آثار الرجاء الصادق ٤٧٤
بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه ٤٧٦
ـ العبادة على الرجاء أعلى منها على الخوف ٤٧٦
بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب ٤٨١
ـ على الواعظ أن يكون حكيماً عند استخدام أدوية العلل ٤٨١

- تقديم الخوف على الرجاء في التأديب ٤٩٥
الشطر الثاني: في الخوف ٥٠٩
بيان حقيقة الخوف ٥٠٩
- ابن وقته لا خوف عنده ولا رجاء، بل حال فوقهما ٥٠٩
- كيف يكون العلم بالخوف ٥١٠
- الحال التي يورثها العلم بالخوف ٥١٢
بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف ٥١٦
- إذا قيل لك: هل تخاف الله.. فاسكت ٥١٦
- **تحريجة**: من خاف فمات فهو شهيد، فكيف يُذمُّ حالُهُ؟ ٥١٨
- الخوف إن لم يورث العمل فوجوده كعدمه ٥١٩
بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه ٥٢٠
- مخاوف العارفين ٥٢٠
- أغلب مخاوف المتقين خوف الخاتمة ٥٢١
- ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ ٥٢٣
- خبر (يا داوود؛ خفني كما تخاف السبع الضاري) ٥٢٤
- مخاوف الصالحين ٥٢٥
- لذة العارفين لهم وحدهم ٥٢٥
بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه ٥٢٧
- لا سعادة إلا في القرب من المولى عز وجل ٥٢٧
- لا شيء يقمع الشهوات كالخوف ٥٢٧
- الورع والتقوى أسامٍ لمعانٍ شرطها الخوف ٥٣١
- ورود الرجاء بمعنى الخوف ٥٣٥
بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما ٥٤٠
- يمكن أن يقال على التوسع: الخوف أفضل ٥٤٠

ـ تحريجة: لِمَ لا ينبغي لمثل عمر أن يغلب رجاؤه خوفه؟ ٥٤٢
ـ أخطرْ بشأن الخاتمة! ٥٤٤
ـ خير الخوف ما يحمل على العمل ٥٤٥
ـ عند الموت الأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ٥٤٦
ـ خير مزادة للعبد حبُّ الله جلَّ ثناؤه ٥٤٦
ـ لا سبيل لاكتساب محبة الله إلا بإخراج حبِّ ما سواه ٥٤٧
ـ أخبار في فضل الرجاء عند الموت ٥٤٨
بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف ٥٥٠
ـ طرف من ترتيب منازل الدين ٥٥٠
ـ الخوف من الله تعالى على مقامين ٥٥١
ـ التعرُّف على صفة الله تعالى ٥٥٣
ـ ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ ٥٥٤
ـ المعالجة بمطالعة أخبار الخائفين من الكُمَّل ٥٥٦
ـ الأنبياء لا يأمنون مكر الله ٥٦٠
ـ مقام الخوف من مكر الله أتمُّ من مقام الثقة بوعد الله ٥٦٢
ـ التعلُّق بالمشيئة قطعَ نياط العارفين ٥٦٣
ـ لوائح سوء الخاتمة ٥٦٧
ـ من علامات النفاق ٥٦٨
بيان معنى سوء الخاتمة ٥٧٢
ـ تحريجة: فما معنى سوء الخاتمة؟ ٥٧٢
ـ تحريجة: لماذا يمهل المحجوب فلا يعاقب في قبره إلى يوم القيامة؟ ٥٧٣
ـ محلُّ الإيمان لا يأكله التراب ٥٧٥
ـ تحريجة: ما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟ ٥٧٥
ـ خطر البدعة الاعتقادية ٥٧٥

ـ الشهوات هي المانعة من مطالعة الملكوت ٥٧٦
ـ الزهد والصلاح لا يدفع خطر البدعة ٥٧٧
ـ البُلْه أكثر أهل الجنة ٥٧٧
ـ خطر حبِّ الدنيا ٥٧٩
ـ ما يألفه الإنسان في حياته يعود ذكره عند موته ٥٨٢
ـ كيف يخطر الخاطر ٥٨٣
ـ لا سبيل لدفع الخواطر إلا بطول المجاهدة ٥٨٤
ـ سوء الخاتمة راجع إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ٥٨٥
ـ الشهادة وموت الفجأة ٥٨٩
ـ كيف يكون الاستعداد للخاتمة ٥٩٠
ـ الأسباب الميسرة لذلك الاستعداد ٥٩١
بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف ٥٩٥
ـ أخبار داوود عليه السلام في الخوف ٥٩٨
بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف ٦٠٥
ـ كثرة الخوف مرتبطة بصفاء القلب ٦٢١
ـ علامة الخذلان ٦٢٢
ـ الظمآن يجزئه من الماء أيسرُهُ ٦٢٣
محتوى الكتاب ٦٢٥

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع المنجيات / القسم الثاني

كتاب

الفقر والزهد ـ التوحيد والتوكل

المحبة والشوق والأنس والرضا

المجلد الثامن

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص . ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كتاب
الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الفقر والزهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي تسبِّحُ لهُ الرمالُ ، وتسجدُ لهُ الظلالُ ، وتتدكدكُ مِنْ هيبتِهِ الجبالُ ، خلقَ الإنسانَ مِنَ الطينِ اللازبِ والصلصالِ ، وزيَّنَ صورتَهُ بأحسنِ تقويمٍ وأتمِّ اعتدالٍ ، وعصمَ قلبَهُ بنورِ الهدايةِ عنْ ورَطاتِ الضلالِ ، وأذنَ لهُ في قرعِ بابِ الخدمةِ بالغدوِّ والآصالِ ، ثمَّ كحلَ بصيرةَ المخلصِ في خدمتِهِ بنورِ العبرةِ حتَّىٰ لاحظَ بضيائِهِ حضرةَ الجلالِ ، فلاحَ لهُ مِنَ البهجةِ والبهاءِ والكمالِ ما استقبحَ دونَ مبادي إشراقِهِ كلَّ حسنٍ وجمالٍ ، واستثقلَ كلَّ ما صرفَهُ عنْ مشاهدتِهِ وملازمتِهِ غايةَ الاستثقالِ ، وتمثَّلَ لهُ ظاهرُ الدنيا في صورةِ امرأةٍ جميلةٍ تميسُ وتختالُ ، وانكشفَ لهُ باطنُها عنْ عجوزٍ شوهاءَ عُجنَتْ مِنْ طينةِ الخزيِ وضُربَتْ في قالَبِ النكالِ ، وهيَ متلفعةٌ بجلبابِها لتخفيَ قبائحَ أسرارِها بلطائفِ السحرِ والاحتيالِ ، وقدْ نصبَتْ حبائلَها في مدارجِ الرجالِ ، فهيَ تقتنصُهُمْ بضروبِ المكرِ والاغتيالِ ، ثمَّ لا تجتزىءُ معَهُمْ بالخُلْفِ في مواعيدِ الوصالِ ، بلْ تقيِّدُهُمْ معَ قطعِ الوصالِ بالسلاسلِ والأغلالِ ، وتبليهِمْ بأنواعِ البلايا والأنكالِ[1] ، فلمَّا انكشفَ للعارفينَ منها

(١) **الأنكال** : جمع نِكْل ، وهو القيد الشديد ، أو جمع نُكلة ، وهي ما نكلت به غيرك كائناً من كان . « إتحاف » (٩/ ٢٦٥) .

قبائحُ الأسرارِ والأفعالِ . . زهدوا فيها زهدَ المبغضِ لها فتركوها وتركوا التفاخرَ والتكاثرَ بالأموالِ ، وأقبلوا بكنْهِ هممِهِمْ علىٰ حضرةِ الجلالِ ، واثقينَ منها بوصالٍ ليسَ دونَهُ انفصالٌ ، ومشاهدةٍ أبديَّةٍ لا يعتريها فناءٌ ولا زوالٌ .

والصلاةُ علىٰ سيدِنا محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ وعلَىٰ آلِهِ خيرِ آلٍ .

أما بعد :

فإنَّ الدنيا عدوَّةٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، بغرورِها ضلَّ مَنْ ضلَّ ، وبمكرِها زلَّ مَنْ زلَّ ، فحبُّها رأسُ الخطايا والسيئاتِ ، وبغضُها أمُّ الطاعاتِ وأسُّ القرباتِ ، وقدِ استقصينا ما يتعلَّقُ بوصفِها وذمِّ الحبِّ لها في كتابِ ذمِّ الدنيا مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نذكرُ فضْلَ البغضِ لها والزهدِ فيها فإنَّهُ رأسُ المنجياتِ ، فلا مطمعَ في النجاةِ إلا بالانقطاعِ عنِ الدنيا والبعدِ منها ، ولكنْ مقاطعتُها إمَّا أنْ تكونَ بانزوائِها عنِ العبدِ ويُسمَّىٰ ذلكَ فقراً ، وإمَّا بانزواءِ العبدِ عنها ويُسمَّىٰ ذلكَ زهداً ، ولكلٍّ واحدٍ منهُما درجةٌ في نيلِ السعاداتِ ، وحظٌّ في الإعانةِ على الفوزِ والنجاةِ .

ونحنُ الآنَ نذكرُ حقيقةَ الفقرِ والزهدِ ، ودرجاتِهما ، وأقسامَهُما ، وشروطَهُما ، وأحكامَهُما ، ونذكرُ الفقرَ في شطرٍ مِنَ الكتابِ والزهدَ في شطرٍ آخرَ منهُ .

❋ ❋ ❋

ونبدأُ بذكرِ الفقرِ فنقولُ :

الشَّطرُ الأوّلُ مِنَ الكِتَاب
في الفقر

وفيهِ : بيانُ حقيقةِ الفقرِ ، وبيانُ فضيلةِ الفقرِ مطلقاً ، وبيانُ فضيلةِ خصوصِ الفقراءِ ، وبيانُ فضلِ الفقرِ على الغنىٰ ، وبيانُ أدبِ الفقيرِ في فقرِهِ ، وبيانُ أدبِهِ في قبولِ العطاءِ ، وبيانُ تحريمِ السؤالِ بغيرِ ضرورةٍ ، وبيانُ مقدارِ الغِنَى المحرِّمِ للسؤالِ ، وبيانُ أحوالِ السائلينَ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلمْ : أنَّ الفقرَ عبارةٌ عنْ فقدِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ ، أمَّا فقْدُ ما لا حاجةَ إليهِ . . فلا يُسمَّىٰ فقراً ، وإنْ كان المحتاجُ إليهِ موجوداً مقدوراً عليهِ . . لمْ يكنِ المحتاجُ فقيراً[1] .

وإذا فهمتَ هـٰذا . . لمْ تشكَّ في أنَّ كلَّ موجودٍ سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فقيرٌ ؛ لأنَّهُ محتاجٌ إلىٰ دوامِ الوجودِ في ثاني الحالِ ، ودوامُ وجودِهِ مستفادٌ مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ وجودِهِ ، فإنْ كانَ في الوجودِ موجودٌ ليسَ وجودُهُ مستفاداً

---

(١) فالفقير : هو الفاقد المحتاج ، والفقر : هو الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/ ٢٦٦).

لهُ مِنْ غيرِه . . فهوَ الغنيُّ المطلقُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ مثلُ هـٰذا الموجودِ إلا واحداً ، فليسَ في الوجودِ إلا غنيٌّ واحدٌ ، وكلُّ مَنْ عداهُ فإنَّهُمْ محتاجونَ إليهِ ليمدَّ وجودَهُمْ بالدوامِ ، وإلىٰ هـٰذا الحصرِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ .

هـٰذا معنى الفقرِ مطلقاً .

ولكنَّا لسنا نقصدُ بيانَ الفقرِ المطلقِ ، بلِ الفقرِ مِنَ المالِ على الخصوصِ ، وإلا . . ففقرُ العبدِ بالإضافةِ إلىٰ أصنافِ حاجاتِهِ لا ينحصرُ ؛ لأنَّ حاجاتِهِ لا حصرَ لها ، ومِنْ جملةِ حاجاتِهِ ما يُتوصَّلُ إليهِ بالمالِ ، وهوَ الذي نريدُ الآنَ بيانَهُ فقطْ ، فنقولُ :

كلُّ فاقدٍ للمالِ فإنَّا نسمِّيه فقيراً بالإضافةِ إلى المالِ الذي فقدَهُ ، إذا كانَ ذلكَ المفقودُ محتاجاً إليهِ في حقِّهِ ، ثمَّ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ خمسةُ أحوالٍ عندَ الفقرِ ، ونحنُ نميزُها ونخصِّصُ كلَّ حالٍ باسمٍ ؛ لنتوصَّلَ بالتمييزِ إلىٰ ذكرِ أحكامِها .

الحالة الأولىٰ ـ وهيَ العليا ـ : أنْ يكونَ بحيثُ لوْ أتاهُ المالُ . . لكرِهَهُ وتأذَّىٰ بهِ ، وهربَ مِنْ أخذِهِ ، مبغضاً لهُ ، ومحترزاً مِنْ شرِّهِ وشغلِهِ ، وهوَ **الزهدُ** ، واسمُ صاحبِهِ **الزاهدُ** .

الثانيةُ : أنْ يكونَ بحيثُ لا يرغبُ فيهِ رغبةً يفرحُ بحصولِهِ ، ولا يكرهُهُ كراهةً يتأذَّىٰ بهِ ويزهدُ فيهِ لوْ أتاهُ ، وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ يُسمَّىٰ **راضياً** .

الثالثةُ : أنْ يكونَ وجودُ المالِ أحبَّ إليهِ مِنْ عدمِهِ ؛ لرغبةٍ لهُ فيهِ ،

ولكنْ لمْ يبلغْ مِنْ رغبتِهِ أنْ ينهضَ لطلبهِ ، بلْ إنْ أتاهُ عفواً صفواً . . أخذَهُ وفرحَ بهِ ، وإنِ افتقرَ إلىٰ تعبٍ في طلبِهِ . . لمْ يشتغلْ بهِ ، وصاحبُ هٰذهِ الحالةِ نسمِّيهِ **قانعاً** ؛ إذْ أقنعَ نفسَهُ بالموجودِ حتَّىٰ تركَ الطلبَ معَ ما فيهِ مِنَ الرغبةِ الضعيفةِ .

الرابعةُ : أنْ يكونَ تركُهُ للطلبِ لعجزِهِ ، وإلا . . فهوَ راغبٌ فيهِ رغبةً لوْ وجدَ سبيلاً إلىٰ طلبِهِ ولوْ بالتعبِ . . لطلبَهُ ، أوْ هوَ مشغولٌ بالطلبِ ، وصاحبُ هٰذهِ الحالةِ نسمِّيهِ **الحريصَ** .

الخامسةُ : أنْ يكونَ ما فقدَهُ مِنَ المالِ مضطراً إليهِ ؛ كالجائعِ الفاقدِ للخبزِ ، والعاري الفاقدِ للثوبِ ، ويُسمَّىٰ صاحبُ هٰذهِ الحالةِ **مضطراً** ، كيفَما كانَتْ رغبتُهُ في الطلبِ إمَّا ضعيفةً وإمَّا قويَّةً ، وقلَّما تنفكُّ هٰذهِ الحالةُ عنِ الرغبةِ .

فهٰذهِ خمسةُ أحوالٍ ، أعلاها الزهدُ ، والاضطرارُ إنِ انضمَّ إليهِ الزهدُ وتُصوِّرَ ذلكَ(١) ، فهوَ أقصىٰ درجاتِ الزهدِ كما سيأتي بيانُهُ .

ووراءَ هٰذهِ الأحوالِ الخمسةِ حالةٌ هيَ أعلىٰ مِنَ الزهدِ ، وهيَ أنْ يستويَ عندَهُ وجودُ المالِ وفقدُهُ ، فإنْ وُجدَ . . لمْ يفرحْ بهِ ولمْ يتأذَّ ، وإنْ فُقدَ . . فكذلكَ ، بلْ حالُهُ كما كانَ حالُ عائشةَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها ؛ إذْ أتاها مئةُ ألفِ درهمٍ مِنَ العطاءِ ، فأخذَتْها وفرقَتْها مِنْ يومِها ، فقالَتْ خادمتُها :

---

(١) بأن يكون كارهاً للمال مع اضطراره . « إتحاف » (٩/ ٢٦٧) .

ما استطعتِ فيما فرّقتِ اليومَ أنْ تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نفطرُ عليهِ ؟ فقالَتْ : لوْ ذكرتِني . . لفعلتُ[1] .

فمَنْ هـٰذا حالُهُ ؛ فلوْ كانَتِ الدنيا بحذافيرِها في يدِهِ وخزانتِهِ . . لمْ تضرَّهُ ؛ إذْ هوَ يرى الأموالَ في خزانةِ اللهِ تعالىٰ لا في يدِ نفسِهِ ، فلا يفرِّقُ بينَ أنْ تكونَ في يدِهِ أوْ في يدِ غيرِهِ ، وينبغي أنْ يُسمَّىٰ صاحبُ هـٰذهِ الحالةِ **المستغنيَ** ؛ لأنَّهُ غنيٌّ عنْ فقدِ المالِ ووجودِهِ جميعاً .

وليُفهمْ مِنْ هـٰذا الاسمِ معنىً يفارقُ اسمَ الغنى المطلقِ على اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ مَنْ كثرَ مالُهُ مِنَ العبادِ ، فإنَّ مَنْ كثرَ مالُهُ مِنَ العبادِ وهوَ يفرحُ بهِ . . فهوَ فقيرٌ إلىٰ بقاءِ المالِ في يدِهِ ، وإنَّما هوَ غنيٌّ عنْ دخولِ المالِ في يدِهِ ، لا عَنْ بقائِهِ ، فهوَ إذاً فقيرٌ مِنْ وجهٍ .

وأمَّا هـٰذا الشخصُ . . فهوَ غنيٌّ عنْ دخولِ المالِ في يدِهِ ، وعنْ بقائِهِ في يدِهِ ، وعنْ خروجِهِ مِنْ يدِهِ أيضاً ، فإنَّهُ ليسَ يتأذَّىٰ بهِ ليحتاجَ إلىٰ إخراجِهِ ، وليسَ يفرحُ بهِ ليحتاجَ إلىٰ بقائِهِ ، وليسَ فاقداً لهُ ليحتاجَ إلى الدخولِ في يدِهِ ، فغناهُ إلى العمومِ أميلُ ، فهوَ إلى الغنى الذي هوَ وصفُ اللهِ تعالىٰ أقربُ ، وإنَّما قربُ العبدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقربِ الصفاتِ ، لا بقربِ المكانِ .

ولكنَّا لا نسمِّي صاحبَ هـٰذهِ الحالةِ غنيّاً ، بلْ مستغنياً ؛ ليبقى الغنيُّ اسماً لمَنْ لهُ الغنى المطلقُ عنْ كلِّ شيءٍ ، وأمَّا هـٰذا العبدُ فإنِ استغنىٰ عنِ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/ ٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٧) .

المالِ وجوداً وعدماً . . فلمْ يستغنِ عنْ أشياءَ أخرَ سواهُ ، ولمْ يستغنِ عنْ مددِ توفيقِ اللهِ تعالىٰ لهُ ليبقى استغناؤُهُ الذي زيَّنَ اللهُ بهِ قلبَهُ ؛ فإنَّ القلبَ المقيَّدَ بحبِّ المالِ رقيقٌ ، والمستغنيَ عنهُ حرٌّ ، واللهُ تعالىٰ هوَ الذي أعتقَهُ مِنْ هٰذا الرقِّ ، فهوَ محتاجٌ إلىٰ دوامِ هٰذا العتقِ ، والقلوبُ متقلِّبةٌ بينَ الرقِّ والحريَّةِ في أوقاتٍ متقاربةٍ ؛ لأنَّها بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، فلذلكَ لمْ يكنِ اسمُ الغنىٰ مطلقاً عليهِ معَ هٰذا الكمالِ إلا مجازاً .

واعلمْ : أنَّ الزهدَ درجةٌ هيَ كمالُ الأبرارِ ، وصاحبُ هٰذهِ الحالةِ مِنَ المقرَّبينَ ، فلا جرمَ صارَ الزهدُ في حقِّهِ نقصاناً ؛ إذْ حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ ؛ وهٰذا لأنَّ الكارهَ للدنيا مشغولٌ بالدنيا ، كما أنَّ الراغبَ فيها مشغولٌ بها ، والشغلُ بما سوى اللهِ تعالىٰ حجابٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، إذْ لا بعدَ بينَكَ وبينَ اللهِ حتَّىٰ يكونَ البعدُ حجاباً ؛ فإنَّهُ أقربُ إليكَ مِنْ حبلِ الوريدِ ، وليسَ هوَ في مكانٍ حتَّىٰ تكونَ السماواتُ والأرضُ حجاباً بينكَ وبينَهُ ، فلا حجابَ بينَكَ وبينَهُ إلا شغلُكَ بغيرِهِ ، وشغلُكَ بنفسِكِ وشهواتِكَ شغلٌ بغيرِهِ ، وأنتَ لا تزالُ مشغولاً بنفسِكَ وبشهواتِ نفسِكَ ، فكذلكَ لا تزالُ محجوباً عنهُ ، فالمشغولُ بحبِّ نفسِهِ مشغولٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، والمشغولُ ببغضِ نفسِهِ أيضاً مشغولٌ عنِ اللهِ تعالىٰ .

بلْ كلُّ ما سوى اللهِ تعالىٰ مثالُهُ مثالُ الرقيبِ الحاضرِ في مجلسٍ جمعَ العاشقَ والمعشوقَ ، فإنِ التفتَ قلبُ العاشقِ إلى الرقيبِ ، وإلىٰ بغضِهِ واستثقالِهِ وكراهةِ حضورِهِ . . فهوَ في حالِ اشتغالِ قلبِهِ ببغضِهِ مصروفٌ عنِ

التلذُّذِ بمشاهدةِ معشوقِهِ ، ولوِ استغرقَهُ العشقُ . . لغفلَ عنْ غيرِ المعشوقِ ولمْ يلتفتْ إليهِ ، فكما أنَّ النظرَ إلىٰ غيرِ المعشوقِ لحبِّهِ عندَ حضورِ المعشوقِ شرْكٌ في العشقِ ونقصٌ فيهِ . . فكذا النظرُ إلىٰ غيرِ المحبوبِ لبغضهِ شرْكٌ فيهِ ونقصٌ ، ولكنْ أحدُهُما أخفُّ مِنَ الآخرِ ، بلِ الكمالُ في ألا يلتفتَ القلبُ إلىٰ غيرِ المحبوبِ بغضاً وحبّاً ؛ فإنَّهُ كما لا يجتمعُ في القلبِ حبَّانِ في حالةٍ واحدةٍ . . فلا يجتمعُ أيضاً بغضٌ وحبٌّ في حالةٍ واحدةٍ .

فالمشغولُ ببغضِ الدنيا غافلٌ عنِ اللهِ كالمشغولِ بحبِّها ، إلا أنَّ المشغولَ بحبِّها غافلٌ وهوَ في غفلتِهِ سالكٌ في طريقِ البعدِ ، والمشغولُ ببغضِها غافلٌ وهوَ في غفلتِهِ سالكٌ في طريقِ القربِ ؛ إذْ يُرجىٰ لهُ أنْ ينتهيَ حالُهُ إلىٰ أنْ تزولَ هـٰذهِ الغفلةُ وتتبدَّلَ بالشهودِ ، فالكمالُ لهُ مرتقَبٌ ؛ لأنَّ بغضَ الدنيا مطيَّةٌ توصلُ إلى اللهِ تعالىٰ .

فالمحبُّ والمبغضُ كرجلينِ في طريقِ الحجِّ ، مشغولينِ بركوبِ الناقةِ وعلفِها وتسييرِها ، ولكنْ أحدُهُما مستدبرٌ للكعبةِ ، والآخرُ مستقبلٌ لها ، فهُما سيّانِ بالإضافةِ إلى الحالِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما محجوبٌ عنِ الكعبةِ ومشغولٌ عنها ، ولكنْ حالُ المستقبلِ محمودٌ بالإضافةِ إلى المستدبرِ ؛ إذْ يُرجىٰ لهُ الوصولُ إليها ، وليسَ بمحمودٍ بالإضافةِ إلى المعتكفِ في الكعبةِ والملازمِ لها ، الذي لا يخرجُ منها حتَّىٰ يفتقرَ إلى الاشتغالِ بالدابَّةِ في الوصولِ إليها .

فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ بغضَ الدنيا مقصودٌ في عينِهِ ، بلِ الدنيا عائقٌ

عنِ اللهِ تعالىٰ ، ولا وصولَ إليهِ إلا بدفعِ العائقِ .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ زهدَ في الدنيا واقتصرَ عليهِ . . فقدِ استعجلَ الراحةَ ، بلْ ينبغي أنْ يشتغلَ بالآخرةِ)[1] ، فبيَّنَ أنَّ سلوكَ طريقِ الآخرةِ وراءَ الزهدِ ، كما أنَّ سلوكَ طريقِ الحجِّ وراءَ دفعِ الغريمِ العائقِ عنِ الحجِّ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ الزهدَ في الدنيا إنْ أُريدَ بهِ عدمُ الرغبةِ في وجودِها وعدمِها . . فهوَ غايةُ الكمالِ ، وإنْ أُريدَ بهِ الرغبةُ في عدمِها . . فهوَ كمالٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ الراضي والقانعِ والحريصِ ، ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ المستغني ، بلِ الكمالُ في حقِّ المالِ أنْ يستويَ عندَكَ الماءُ والمالُ ، وكثرةُ الماءِ في جوارِكَ لا تؤذيكَ بأنْ تكونَ علىٰ شاطئِ البحرِ ، ولا قلَّتُهُ تؤذيكَ إلا في قدْرِ الضرورةِ ، مع أنَّ المالَ محتاجٌ إليهِ ، كما أنَّ الماءَ محتاجٌ إليهِ ، فلا يكونُ قلبُكَ مشغولاً بالفرارِ عنْ جوارِ الماءِ الكثيرِ ، ولا ببغضِ الماءِ الكثيرِ ، بلْ تقولُ : أشربُ منهُ بقدْرِ الحاجةِ ، وأسقي منهُ عبادَ اللهِ بقدْرِ الحاجةِ ، ولا أبخلُ بهِ علىٰ أحدٍ .

فهكذا ينبغي أنْ يكونَ المالُ ؛ لأنَّ الخبزَ والماءَ واحدٌ في الحاجةِ ، وإنَّما الفرقُ بينَهُما في قلَّةِ أحدِهِما وكثرةِ الآخرِ ، وإذا عرفتَ اللهَ تعالىٰ ، ووثقتَ بتدبيرِهِ الذي دبَّرَ بهِ العالَمَ . . علمتَ أنَّ قدْرَ حاجتِكَ مِنَ الخبزِ يأتيكَ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤) بنحوه .

ـ لا محالةَ ـ ما دمتَ حيّاً كما يأتيكَ قدْرُ حاجتِكَ مِنَ الماءِ ، علىٰ ما سيأتي بيانُهُ في كتابِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ : قالَ مالكُ بنُ دينارٍ للمغيرةِ : اذهبْ إلى البيتِ فخذِ الركوةَ التي أهديتَها لي ، فإنَّ العدوَّ يوسوسُ إليَّ أنَّ اللصَّ قدْ أخذَها ، فقالَ أبو سليمانَ : هـٰذا مِنْ ضعفِ قلوبِ الصوفيَّةِ ، هوَ قدْ زهدَ في الدنيا ، ما عليهِ مِنْ أخذِها ؟![1] .

فبيَّنَ أنَّ كراهيةَ كونِ الركوةِ في بيتِهِ التفاتٌ إليها سببُهُ الضعفُ والنقصانُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما بالُ الأنبياءِ والأولياءِ هربوا مِنَ المالِ ونفروا منهُ كلَّ النفارِ ؟

فأقولُ : كما هربوا مِنَ الماءِ علىٰ معنىٰ أنَّهُمْ ما شربوا أكثرَ مِنْ حاجتِهِمْ ، فنفروا عمَّا وراءَهُ ، ولمْ يجمعوهُ في القِرَبِ والروايا يديرونَها معَ أنفسِهِمْ ، بلْ تركوهُ في الأنهارِ والآبارِ والبراري للمحتاجينَ إليهِ ، لا أنَّهُمْ كانَتْ قلوبُهُمْ مشغولةً بحبِّهِ أوْ بغضِهِ .

وقدْ حُملَتْ خزائنُ الأرضِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلىٰ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعِها ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

وما هربوا منها ، إذْ كانَ قدِ استوىٰ عندَهُمُ المالُ والماءُ ، والذهبُ والحجرُ .

وما نُقِلَ عنهُمْ مِنِ امتناعٍ ؛ فإمَّا أنْ يُنقلَ عمَّنْ خافَ أنْ لوْ أخذَهُ أنْ يخدعَهُ المالُ ويقيدَ قلبَهُ ، فيدعوَهُ إلى الشهواتِ ، وهاذا حالُ الضعفاءِ ، فلا جرمَ البغضُ للمالِ والهربُ منهُ في حقِّهِمْ كمالٌ ، وهاذا حكمُ جميعِ الخلقِ ؛ لأنَّ كلَّهُمْ ضعفاءُ إلا الأنبياءَ والأولياءَ ، وإمَّا أنْ يُنقلَ عنْ قويٍّ بلغَ الكمالَ ، ولكنْ أظهرَ الفرارَ والنفارَ نزولاً إلىٰ درجةِ الضعفاءِ ؛ ليقتدوا بهِ في التركِ ، إذْ لوِ اقتدَوا بهِ في الأخذِ . . لهلكوا ، كما يفرُّ الرجلُ المعزِّمُ بينَ يدي أولادِهِ مِنَ الحيَّةِ ، لا لضعفِهِ عنْ أخذِها ، ولكنْ لعلمِهِ أنَّهُ لوْ أخذَها . . أخذَها أولادُهُ إذا رأَوها فيهلكونَ ، والسيرُ بسيرِ الضعفاءِ ضرورةُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ .

فقدْ عرفتَ إذاً أنَّ المراتبَ ستٌّ ، وأنَّ أعلاها رتبةُ المستغني ، ثمَّ الزاهدِ ، ثمَّ الراضي ، ثمَّ القانعِ ، ثمَّ الحريصِ ، وأمَّا المضطرُّ . . فيُتصوَّرُ في حقِّهِ أيضاً الزهدُ والرضا والقناعةُ ، ودرجتُهُ تختلفُ بحسَبِ اختلافِ هاذهِ الأحوالِ ، واسمُ الفقيرِ يُطلقُ علىٰ هاذهِ الخمسةِ .

أمَّا تسميةُ المستغني فقيراً . . فلا وجهَ لهُ بهاذا المعنىٰ ، بلْ إنْ سُمِّيَ فقيراً فبمعنىً آخرَ ، وهوَ معرفتُهُ بكونِهِ محتاجاً إلى اللهِ تعالىٰ في جميعِ أمورِهِ عامَّةً ، وفي بقاءِ استغنائِهِ عنِ المالِ خاصةً ، فيكونُ اسمُ الفقيرِ لهُ كاسمِ

العبدِ لمَنْ عرفَ نفسَهُ بالعبوديَّةِ وأقرَّ بها ، فإنَّهُ أحقُّ باسمِ العبدِ مِنَ الغافلينَ وإنْ كانَ اسمُ العبدِ عامّاً للخلقِ ؛ فكذلكَ اسمُ الفقرِ عامٌّ ، ومَنْ عرفَ نفسَهُ بالفقرِ إلى اللهِ . . فهوَ أحقُّ باسمِ الفقيرِ ، فاسمُ الفقيرِ مشتركٌ بينَ هـٰذينِ المعنيينِ .

وإذا عرفتَ هـٰذا الاشتراكَ . . فهمتَ أنَّ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ »[1] ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »[2] . . لا يناقضُ قولَهُ : « أحيني مسكيناً وأمتْني مسكيناً »[3] ؛ إذْ فقرُ المضطرِّ هوَ الذي استعاذَ منهُ ، والفقرُ الذي هوَ الاعترافُ بالمسكنةِ والذلَّةِ والافتقارِ إلى اللهِ تعالىٰ . . هوَ الذي سألَهُ في دعائِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً منْ أهلِ الأرضِ والسماءِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رویٰ أبو داوود (١٥٤٤) ، والنسائي (٨/ ٢٦١) ، وابن ماجه (٣٨٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة . . . » .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) .

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أمّا مِنَ الآياتِ . . فيدلُّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ساقَ الكلامَ في معرضِ المدحِ ، ثمَّ قدَّمَ وصفَهُمْ بالفقرِ علىٰ وصفِهِمْ بالهجرةِ والإحصارِ ، وفيهِ دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ مدْحِ الفقرِ .

وأمّا الأخبارُ في مدحِ الفقرِ . . فأكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ؛ فقدْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ : « أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ » فقالوا : موسرٌ من المالِ يعطي حقَّ اللهِ في نفسِهِ ومالِهِ ، فقالَ : « نعمَ الرجلُ هٰذا وليسَ بهِ » ، قالوا : فمَنْ خيرُ الناسِ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « فقيرٌ يعطي جهدَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبلالٍ : « الْقَ اللهَ فقيراً ، ولا تلقَهُ غنيّاً »(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٦٣) ، وقد رواه الطيالسي في « مسنده » (١٨٥٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٤/٢٣٨) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/٢٦٢) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٦) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١/٣٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٤٩) ولفظه عندهما : « يا بلال ؛ مت فقيراً ، ولا تمت غنياً » ، قلت : وكيف ذاك ؟ قال : « ما رزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع » ، فقلت : يا رسول الله ؛ كيف لي بذاك ؟ فقال : « هو ذاك أو النار » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[(١)] .

وفي الخبرِ المشهورِ : « يدخلُ فقراءُ أمَّتي الجنَّةَ قبلَ أغنيائِها بخمسِ مئةِ عامٍ »[(٢)] .

وفي حديثٍ آخرَ : « بأربعينَ خريفاً »[(٣)] أيْ : أربعينَ سنةً ، فيكونُ المرادُ بهِ تقديرَ تقدُّمِ الفقيرِ الحريصِ على الغنيِّ الحريصِ ، والتقديرُ بخمسِ مئةِ عامٍ تقديرُ تقدُّمِ الفقيرِ الزاهدِ على الغنيِّ الراغبِ ، وما ذكرناهُ مِنِ اختلافِ درجاتِ الفقرِ يعرِّفُكَ بالضرورةِ تفاوتاً بينَ الفقراءِ في درجاتِهِمْ ، وكانَ الفقيرُ الحريصُ علىٰ درجتينِ مِنْ خمسٍ وعشرينَ درجةً مِنَ الفقيرِ الزاهدِ ؛ إذْ هـٰذهِ نسبةُ الأربعينَ إلىٰ خمسِ مئةٍ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تقديرَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يجري علىٰ لسانِهِ جزافاً وبالاتفاقِ ، بل لا يستنطقُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا بحقيقةِ الحقِّ ، فإنَّهُ لا ينطقُ عنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلا وحيٌ يُوحىٰ ، وهـٰذا كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ مِنْ ستَّةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »[(٤)] ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٣) .
(٣) رواه مسلم (٢٩٧٩) .
(٤) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

فإنَّهُ تقديرُ تحقيقٍ لا محالةَ ، ولكنْ ليسَ في قوَّةِ غيرِهِ أنْ يعرفَ علَّةَ تلكَ النسبةِ إلا بتخمينٍ ، فأمَّا بالتحقيقِ . . فلا ، إذْ يعلمُ أنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عمَّا يختصُّ بهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويفارقُ بهِ غيرَهُ ، وهوَ يختصُّ بأنواعٍ مِنَ الخواصِّ :

أحدُها : أنَّهُ يعرفُ حقائقَ الأمورِ المتعلِّقةِ باللهِ وصفاتِهِ وملائكتِهِ والدارِ الآخرةِ لا كما يعلمُهُ غيرُهُ ، بلْ مخالفاً لهُ بكثرةِ المعلوماتِ ، وبزيادةِ اليقينِ والتحقيقِ والكشفِ .

والثاني : أنَّ لهُ في نفسِهِ صفةً بها تتمُّ لهُ الأفعالُ الخارقةُ للعاداتِ ، كما أنَّ لنا صفةً بها تتمُّ الحركاتُ المقرونةُ بإرادتِنا واختيارِنا وهيَ القدرةُ ، وإنْ كانَتِ القدرةُ والمقدورُ جميعاً مِنْ فعلِ اللهِ تعالىٰ .

والثالثُ : أنَّ لهُ صفةً بها يبصرُ الملائكةَ ويشاهدُهُمْ ، كما أنَّ للبصيرِ صفةً بها يفارقُ الأعمىٰ حتَّىٰ يدركَ بها المبصراتِ .

والرابعُ : أنَّ لهُ صفةً بها يدركُ ما سيكونُ في الغيبِ ؛ إمَّا في اليقظةِ ، وإمَّا في المنامِ ، إذْ بها يطالعُ اللوحَ المحفوظَ ، فيرىٰ ما فيهِ مِنَ الغيبِ .

فهـٰذهِ كمالاتٌ وصفاتٌ يُعلمُ ثبوتُها للأنبياءِ ، ويُعلمُ انقسامُ كلِّ واحدٍ منها إلىٰ أقسامٍ ، وربَّما يمكنُنا أنْ نقسمَها إلىٰ أربعينَ ، وإلىٰ خمسينَ ، وإلىٰ ستينَ ، ويمكنُنا أيضاً أنْ نتكلَّفَ تقسيمَها إلىٰ ستةٍ وأربعينَ ؛ بحيثُ تقعُ الرؤيا الصحيحةُ جزءاً واحداً مِنْ جملتِها ، ولكنْ تعيينُ طريقٍ واحدٍ مِنْ طرقِ

التقسيماتِ الممكنةِ لا يمكنُ إلا بظنٍّ وتخمينٍ ، فلا ندري تحقيقاً أنَّهُ الذي أرادَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمْ لا ، وإنَّما المعلومُ مجامعُ الصفاتِ التي بها تتمُّ النبوَّةُ وأصلُ انقسامِها ، وذلكَ لا يرشدُنا إلىٰ معرفةِ علَّةِ التقديرِ .

وكذلكَ نعلمُ أنَّ الفقراءَ لهمْ درجاتٌ كما سبقَ ، فأمَّا لِمَ كانَ هـٰذا الفقيرُ الحريصُ مثلاً علىٰ نصفِ سدسِ درجةِ الفقيرِ الزاهدِ(١) ، حتىٰ لمْ يقتضِ لهُ التقدُّمَ بأكثرَ مِنْ أربعينَ سنةً إلى الجنةِ ، واقتضىٰ ذلكَ التقدُّمَ بخمسِ مئةِ عامٍ . . فليسَ في قوَّةِ البشرِ غيرِ الأنبياءِ الوقوفُ علىٰ ذلكَ إلا بنوعٍ مِنَ التخمينِ ، ولا وثوقَ بهِ ، والغرضُ التنبيهُ علىٰ منهاجِ التقديرِ في أمثالِ هـٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّ الضعيفَ الإيمانِ قدْ يظنُّ أنَّ ذلكَ يجري مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ سبيلِ الاتفاقِ ، وحاشا منصبَ النبوَّةِ عنْ ذلكَ .

ولنرجعْ إلىٰ نقلِ الأخبارِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « خيرُ هـٰذهِ الأمَّةِ فقراؤُها ، وأسرعُها تضجُّعاً في الجنَّةِ ضعفاؤُها »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لي حرفتينِ اثنتينِ ، فمَنْ أحبَّهُما . . فقدْ أحبَّني ، ومَنْ أبغضَهُما . . فقدْ أبغضَني ؛ الفقرُ والجهادُ »(٣) .

---

(١) أي : على التقريب .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٣) ، ورواه الدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (٢/ ١٣٨) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٩٢١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٥٣) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٧/ ١٤٣) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢/ ١٨٢) .

ورُوِيَ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ نزلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : يا محمدُ ؛ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرأُ عليكَ السلامَ ويقولُ : أتحبُّ أنْ أجعلَ هـٰذهِ الجبالَ ذهباً وتكونَ معَكَ حيثُما كنتَ ؟ فأطرقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ساعةً ثمَّ قالَ : « يا جبريلُ ؛ إنَّ الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ لهُ ، ومالُ مَنْ لا مالَ لهُ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ » ، فقالَ لهُ جبريلُ : يا محمدُ ؛ ثبَّتَكَ اللهُ بالقولِ الثابتِ[1] .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ في سياحتِهِ برجلٍ نائمٍ ملتفٍّ في عباءةٍ ، فأيقظَهُ وقالَ : يا نائمُ ؛ قمْ فاذكرِ اللهَ تعالىٰ ، فقالَ : ما تريدُ منِّي ؟ إنِّي قدْ تركتُ الدنيا لأهلِها ، فقالَ لهُ : فنمْ إذاً حبيبي نمْ[2] .

ومرَّ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ نائمٍ على الترابِ وتحتَ رأسِهِ لبنةٌ ، ووجهُهُ ولحيتُهُ في الترابِ ، وهوَ متزرٌ بعباءةٍ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ عبدُكَ هـٰذا في الدنيا ضائعٌ ، فأوحى الله تعالىٰ إليهِ : يا موسىٰ ؛ أما علمتَ أنِّي إذا

---

(١) الخبر جامع بين حديثين ؛ **فالأول حديث** : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً . . . » الذي رواه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، **والثاني** : « الدنيا دار من لا دار له . . . » الذي رواه أحمد في « المسند » (٦/٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً ، مقتصراً علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » ، وزاد ابن أبي الدنيا في روايته له في « ذم الدنيا » (١٨٢) : « ومال من لا مال له » .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٦٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٤٠٦) .

نظرتُ إلىٰ عبدي بوجهي كلِّهِ . . زويتُ عنهُ الدنيا كلَّها[١] .

وعنْ أبي رافعٍ أنَّهُ قالَ : وردَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضيفٌ ، فلمْ يجدْ عندَهُ ما يصلحُهُ ، فأرسلَني إلىٰ رجلٍ مِنْ يهودِ خيبرَ ، وقالَ : « قُلْ لهُ : يقولُ لكَ محمدٌ : أسلفْني أوْ بعْني دقيقاً إلىٰ هلالِ رجبٍ » ، قالَ : فأتيتُهُ ، فقالَ : لا واللهِ إلا برهنٍ ، فأخبرتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ، فقالَ : أما واللهِ إنِّي لأمينٌ في أهلِ السماءِ أمينٌ في أهلِ الأرضِ ، ولوْ باعَني أوْ أسلفَني . . لأدَّيتُ إليهِ ، اذهبْ بدرعي هٰذا إليهِ فارهنْهُ » ، فلمَّا خرجتُ . . نزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . ﴾ الآيةَ ؛ تعزيةً لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الدنيا[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الفقرُ أزينُ بالمؤمنِ مِنَ العذارِ الحسنِ علىٰ خدِّ الفرسِ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ منكمْ آمناً في سربِهِ ، معافىً في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٤) ، وهو عند صاحب « القوت » (١/ ٢٦٤) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٣٨٦٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٣٣١) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٢٥٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٩٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٢٧) .

جسمِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[1] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : قالَ اللهُ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : يا موسىٰ ؛ إذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ[2] .

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : مرَّ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ بساحلٍ ، فإذا هوَ برجلٍ يصطادُ حيتاناً ، فقالَ : باسمِ اللهِ ، وألقىٰ شبكتَهُ ، فلمْ يخرجْ فيها شيءٌ ، ثمَّ مرَّ بآخرَ ، فقالَ : باسمِ الشيطانِ ، وألقىٰ شبكَتَهُ ، فخرجَ فيها مِنَ الحيتانِ ما كانَ يتقاعسُ مِنْ كثرتِها ، فقالَ النبيُّ : يا ربِّ ؛ ما هـٰذا وقدْ علمتُ أنَّ كلَّ ذلكَ بيدِكَ ؟! فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ للملائكةِ : اكشفوا لعبدي عنْ منزلتيهما ، فلمَّا رأىٰ ما أعدَّ اللهُ تعالىٰ لهـٰذا مِنَ الكرامةِ ولذاكَ مِنَ الهوانِ . . قالَ : رضيتُ يا ربِّ[3] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلعتُ في الجنَّةِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الفقراءَ ، واطلعتُ في النارِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها الأغنياءَ والنساءَ »[4] ، وفي لفظٍ آخرَ : « فقلتُ : أينَ الأغنياءُ ؟ فقيلَ : حبسَهُمُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٢١) .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٧٣) .

الجدُّ »[1] ، وفي حديثٍ آخرَ : « فرأيتُ أكثرَ أهلِ النارِ النساءَ ، فقلتُ : ما شأنُهُنَّ ؟ فقيلَ : شغلَهُنَّ الأحمرانِ ؛ الذهبُ والزعفرانُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ في الدنيا الفقرُ »[3] .

وفي الخبرِ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنَّةَ سليمانُ بنُ داوودَ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً الجنَّةَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؛ لأجلِ غناهُ »[4] .

وفي حديثٍ آخرَ : « رأيتُهُ دخلَ الجنَّةَ زحفاً »[5] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٢) ، وعند مسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما مرفوعاً : « قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدّ محبوسون . . . » الحديث .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥٢) ، وروى أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٩) نحوه ، وفيه : (الحرير) بدل (الزعفران) ، وعند مسلم (٢٧٣٨) مرفوعاً : « إن أقلّ ساكني الجنة النساء » ، وذكر الزعفران جاء عند أبي نعيم في « معرفة الصحابة » (٦/ ٣٤٠٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، قال الحافظ العراقي : (رواه محمد بن خفيف الشيرازي في « شرف الفقراء » ، والديلمي في « مسند الفردوس » [٢٣٩٩] من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به) . « إتحاف » (٩/ ٢٧٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) ، وروى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام . . . » الحديث ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمـٰن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) ، ولفظه : « يا بن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً . . . » .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بشدةٍ يدخلُ الغنيُّ الجنةَ)(١) .

وفي خبرٍ آخرَ عنْ أهلِ البيتِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغَ . . اقتناهُ » ، قيلَ : وما اقتناهُ ؟ قالَ : « لمْ يتركْ لهُ أهلاً ولا مالاً »(٢) .

وفي الخبرِ : (إذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً . . فقلْ : مرحباً بشعارِ الصالحينَ ، وإذا رأيتَ الغنىٰ مقبلاً . . فقلْ : ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبتُهُ)(٣) .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ مَنْ أحبَّاؤُكَ مِنْ خلقِكَ حتَّىٰ أحبَّهُمْ لأجلِكَ ؟ فقالَ : كلُّ فقيرٍ فقيرٍ(٤) . فيمكنُ أنْ يكونَ الثاني للتأكيدِ ، ويمكنُ أنْ يُرادَ بهِ الشديدُ الضرِّ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إنِّي لأحبُّ المسكنةَ وأبغضُ النعماءَ)(٥) ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٦) ، وفيه : (أو قال : بعجب . . .) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) ولفظه : (لشدَّة ما يدخل الغني الجنة) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/ ٤٦) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مقتصراً على الشطر الأخير منه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٤) ، وتقدم قريباً عن كعب الأحبار ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٤٦٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) ، واللحاق بنحوه عنده .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) ، وفيه : (الغنىٰ) بدل (النعماء) .

وكان أحبُّ الأسامي إليه صلواتُ اللهِ عليهِ أنْ يُقالَ لهُ : يا مسكينُ[١] .

ولمَّا قالَ ساداتُ العربِ وأغنياؤُها للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : اجعلْ لنا يوماً ولهم يوماً ، يجيئونَ إليكَ ولا نجيءُ ، ونجيءُ إليكَ ولا يجيئونَ ، يعنونَ بذلكَ الفقراءَ ؛ مثلَ بلالٍ ، وسلمانَ ، وصهيبٍ ، وأبي ذرٍّ ، وخبَّابِ بنِ الأرتِّ ، وعمارِ بنِ ياسرٍ ، وأبي هريرةَ ، وأصحابِ الصُّفَّةِ مِنَ الفقراءِ ، فأجابَهُمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ ذلكَ ، وذلكَ لأنَّهُمْ شكَوا إليهِ التأذِّيَ بروائحتِهِمْ ، وكانَ لباسُ القومِ الصوفَ في شدَّةِ الحرِّ ، فإذا عرقوا . . فاحَتِ الروائحُ مِنْ ثيابِهِمْ ، فاشتدَّ على الأغنياءِ ذلكَ ، منهُمُ الأقرعُ بنُ حابسٍ التميميُّ ، وعيينةُ بنُ حصنٍ الفزاريُّ ، وعباسُ بنُ مرداسٍ السلميُّ ، وغيرُهُمْ ، فأجابَهُمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألا يجمعَهُمْ وإيَّاهُمْ في مجلسٍ واحدٍ ، فنزلَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ﴾ يعني الفقراءَ ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ يعني الأغنياءَ ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا ﴾ يعني الأغنياءَ ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ معَ الفقراءِ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ . . . ﴾ الآيةَ[٢] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) .
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٢٧) ، والبزار في « مسنده » (٢١٢٩ ، ٢١٣٠) عن خباب بن الأرت رضي الله عنه بنحوه ، ومؤاذاتهم لهم بريحهم رواه الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٥/ ٢٩٠) عن سلمان الفارسي ، قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلىٰ رسول الله =

واستأذنَ ابنُ أمِّ مكتومٍ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعندَهُ رجلٌ مِنْ أشرافِ قريشٍ ، فشَقَّ ذلكَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتومٍ ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ يعني هـٰذا الشريفَ[1] .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُؤتىٰ بالعبدِ يومَ القيامةِ فيعتذرُ اللهُ تعالىٰ إليهِ كما يعتذرُ الرجلُ إلى الرجلِ في الدنيا ، فيقولُ : وعزَّتي وجلالي ؛ ما زويتُ الدنيا عنكَ لهوانِكَ عليَّ ، ولكنْ لما أعددتُ لكَ مِنَ الكرامةِ والفضيلةِ ، اخرجْ يا عبدي إلىٰ هـٰذهِ الصفوفِ ، فمَنْ أطعمَكَ فيَّ أوْ كساكَ فيَّ يريدُ بذلكَ وجهي . . فخذْ بيدِهِ فهوَ لكَ ، والناسُ يومَئذٍ قدْ

= صلى الله عليه وسلم ؛ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا نبي الله ؛ إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هـٰؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف ، ولم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك . . . الخبر .

(١) رواه الترمذي (٣٣٣١) ، وروى الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٦٨) أن الشريف كان العباس رضي الله عنه ، أو عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وقيل غير ذلك ، وفي خطابه سبحانه له صلى الله عليه وسلم لطف ؛ إذ خاطبه بضمير الغائب ، ثم بيَّن أن خطابه إنما هو تذكرة ، وإنما سيق العتاب تعظيماً لأمر الفقراء ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (٤/ ١٩٤) أنه صلى الله عليه وسلم بعد هـٰذا العتاب كان يكرم ابن أم مكتوم ، واستخلفه على المدينة مرتين .

ألجمَهُمُ العرقُ ، فيتخلَّلُ الصفوفَ ، وينظرُ مَنْ فعلَ ذلكَ بهِ ، فيأخذُ بيدِهِ ويدخلُهُ الجنَّةَ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أكثروا معرفةَ الفقراءِ ، واتخذوا عندَهُمُ الأياديَ ؛ فإنَّ لهم دولةً » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما دولتُهُمْ ؟ قالَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . قيلَ لهُمْ : انظروا مَنْ أطعمَكُمْ كسرةً وسقاكُمْ شربةً وكساكُمْ ثوباً فخذوا بيدِهِ ، ثمَّ أفيضوا بهِ إلى الجنَّةِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دخلتُ الجنَّةَ ، فسمعتُ حركةً أمامي ، فنظرتُ فإذا بلالٌ ، ونظرتُ في أعلاها فإذا فقراءُ أمَّتي وأولادُهُمْ ، ونظرتُ في أسفلِها فإذا فيها مِنَ الأغنياءِ والنساءِ قليلٌ ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما شأنُهُمْ ؟ قالَ : أمَّا النساءُ . . فأضرَّ بهنَّ الأحمرانِ الذهبُ والحريرُ ، وأمَّا الأغنياءُ . . فاشتغلوا بطولِ الحسابِ ، وتفقدتُ أصحابي فلمْ أرَ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ، ثمَّ جاءَني بعدَ ذلكَ وهوَ يبكي ، فقلتُ : ما خلَّفَكَ عنِّي ؟ فقالَ :

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أنس بسند ضعيف ، يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي ، فتقول الملائكة : ومن أحباؤك ؟ فيقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه ، فيقول : أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم عليّ ، ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم ، فتمنَّوا عليَّ ما شئتم اليوم . . . الحديث ، دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث . . فرواه أبو نعيم في « الحلية » ، وسيأتي في الحديث الذي بعده) . « إتحاف » (٩/ ٢٧٨) .

(٢) رواه بنحوه النرسي في « قضاء حوائج الإخوان » (ص٧٧) عن أبي عبد الرحمـٰن السلمي مرسلاً .

أما واللهِ يا رسولَ الله ؛ ما خلصتُ إليكَ حتَّىٰ لقيتُ المشيِّاتِ ، وظننتُ أنِّي لا أراكَ ، فقلتُ : ولِمَ ، قالَ : كنتُ أُحاسبُ بمالي »[(١)] .

فانظرْ إلىٰ هـٰذا وعبدُ الرحمـٰنِ صاحبُ السابقةِ العظيمةِ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ مِنَ العشرةِ المخصوصينَ بأنَّهُمْ مِنْ أهلِ الجنَّةِ[(٢)] ، وهوَ مِنَ الأغنياءِ الذينَ قالَ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إلا مَنْ قالَ بالمالِ هـٰكذا وهـٰكذا »[(٣)] ، ومعَ هـٰذا فقدِ استضرَّ بالغنىٰ إلىٰ هـٰذا الحدِّ .

ودخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ رجلٍ فقيرٍ ولمْ يرَ لهُ شيئاً ، فقالَ : « لوْ قُسمَ نورُ هـٰذا علىٰ أهلِ الأرضِ . . لوسعَهُمْ »[(٤)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أخبرُكُمْ بملوكِ أهلِ الجنةِ ؟ » قالوا :

---

(١) رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٥/٢٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢٣٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٤٥) ، وخبر بلال رضي الله عنه مفرداً عند البخاري (٣٦٧٩) .

(٢) كما روىٰ ذلك أبو داوود (٤٦٤٨) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٠٠) ، وابن ماجه (١٣٤) .

(٣) رواه البخاري (٢٣٨٨) ، ومسلم (٩٤) في (كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة) .

(٤) روى البيهقي في « الشعب » (١٠٠٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن ملوك أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء . . لم يؤذن لهم ، وإذا طلبوا النساء . . لم ينكحوا ، وإذا قالوا الحديث . . لم ينصت لقولهم ، حاجة أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قسم نوره بين أهل الأرض . . لوسعهم » ، وهو قريب من الحديث الآتي .

بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « كلُّ ضعيفٍ مستضعفٍ أغبرَ أشعثَ ذي طمرينِ لا يؤبَهُ لهُ ، لو أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[١] .

وقالَ عمرانُ بنُ حصينٍ : كانَتْ لي مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منزلةٌ وجاهٌ ، فقالَ : « يا عمرانُ ؛ إنَّ لكَ عندَنا منزلةً وجاهاً ، فهلْ لكَ في عيادةِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ » فقلتُ : نعمْ ، بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، فقامَ وقمتُ معَهُ ، حتَّىٰ وقفَ ببابِ فاطمةَ ، فقرعَ البابَ وقالَ : « السلامُ عليكُمْ ، أأدخلُ ؟ » فقالَتِ : ادخلْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « أنا ومَنْ معي ؟ » قالَتْ : ومَنْ معَكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « عمرانُ » ، فقالَتْ فاطمةُ : والذي بعثَكَ بالحقِّ نبيّاً ؛ ما عليَّ إلا عباءةٌ ، قالَ : « اصنعي بها هٰكذا وهٰكذا » وأشارَ بيدِهِ ، فقالَتْ : هٰذا جسدي قدْ واريتُهُ ، فكيفَ برأسي ؟ فألقىٰ إليها ملاءةً كانَتْ عليهِ خَلَقةً فقالَ : « شدِّي بها علىٰ رأسِكِ » ، ثمَّ أذنَتْ لهُ فدخلَ ، فقالَ : « السلامُ عليكُمْ يا ابنتاهُ ، كيفَ أصبحتِ ؟ » قالَتْ : أصبحتُ ـ واللهِ ـ وجعةً ، وزادَني وجعاً علىٰ ما بي أنِّي لستُ أقدرُ علىٰ طعامٍ آكلُهُ ، فقدْ أضرَّ بي الجوعُ ، فبكىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « لا تجزعي يا ابنتاهُ ، فواللهِ ؛ ما ذقتُ طعاماً منذُ ثلاثٍ وإنِّي لأكرمُ على اللهِ منكِ ، ولوْ

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) وفيهما : « ألا أخبركم بأهل الجنة . . . » ، وعند ابن ماجه (٤١١٥) من حديث معاذ رضي الله عنه : « ألا أخبرك عن ملوك الجنة . . . » ولم يقل فيه : (أشعث أغبر) .

سألتُ ربِّي . . لأطعمَني ، ولكنِّي آثرتُ الآخرةَ على الدنيا » ، ثمَّ ضربَ بيدِهِ علىٰ منكبِها وقالَ لها : « أبشري ، فواللهِ ؛ إنَّكِ لسيدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ » ، قالَتْ : فأينَ آسيةُ امرأةُ فرعونَ ومريمُ بنتُ عمرانَ ؟ قالَ : « آسيةُ سيِّدةُ نساءِ عالَمِها ، ومريمُ سيِّدةُ نساءِ عالَمِها ، وخديجةُ سيدةُ نساءِ عالَمِها ، وأنتِ سيِّدةُ نساءِ عالَمِكِ ، إنَّكنَّ في بيوتٍ مِنْ قصبٍ ، لا أذىٰ فيها ولا صخبَ ولا نصبَ » ، ثمَّ قالَ لها : « اقنعي بابنِ عمِّكِ ، فواللهِ ؛ لقدْ زوجتُكِ سيِّداً في الدنيا سيِّداً في الآخرةِ »(١) .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا أبغضَ الناسُ فقراءَهُمْ ، وأظهروا عمارةَ الدنيا ، وتكالبوا علىٰ جمعِ الدراهمِ . . رماهُمُ اللهُ بأربعِ خصالٍ : بالقحطِ مِنَ الزمانِ ، والجورِ مِنَ السلطانِ ، والخيانةِ مِنْ ولاةِ الأحكامِ ، والشوكةِ مِنَ الأعداءِ »(٢) .

* * *

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (١٦٠٧) ، ورواه مختصراً من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٢٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ١٢٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٥) ، وفيه : (علماءَهم) بدل (فقراءهم) ، وعليه فقد لا يصلح شاهداً هنا ، وقد سقط هـٰذا الحديث من جميع النسخ إلا (س) ، واستكمل من نسخة الحافظ الزبيدي (٩/ ٢٨٠) ، وهو في نسخة الحافظ العراقي كذلك ؛ إذ أثبت تخريجه في « المغني » .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذو الدرهمينِ أشدُّ حبساً ـ أوْ قالَ : أشدُّ حساباً ـ مِنْ ذي الدرهمِ)[(١)] .

وأرسلَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ سعيدِ بنِ عامرٍ بألفِ دينارٍ ، فجاءَ كئيباً حزيناً ، فقالَتِ امرأتُهُ : أحدثَ أمرٌ ؟ قالَ : أشدُّ مِنْ ذلكَ ، ثمَّ قالَ : أريني درعَكِ الخَلَقَ ، فشقَّهُ وجعلَهُ صرراً وفرَّقَهُ ، ثمَّ قامَ يصلِّي ويبكي إلى الغداةِ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يدخلُ فقراءُ المسلمينَ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بخمسِ مئةِ عامٍ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ مِنَ الأغنياءِ يدخلُ في غمارِهِمْ فيُؤخذُ بيدِهِ فيُستخرجُ »[(٢)] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثةٌ يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ : رجلٌ يريدُ أنْ يغسلَ ثوبَهُ فلمْ يكنْ لهُ خَلَقٌ يلبسُهُ ، ورجلٌ لمْ يُنصبْ لهُ على

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٤) .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/١٤٥) ، وروى المرفوع وحده بنحوه الطبراني في « الكبير » (٦/٥٨) ، ولفظ المرفوع عندهم : « يجمع الله عز وجل الناس للحساب ، فيجيء فقراء المؤمنين يزفون كما تزف الحمام ، فيقال لهم : قفوا عند الحساب ، فيقولون : ما عندنا حساب ولا آتيتمونا شيئاً ، فيقول ربهم : صدق عبادي ، فيفتح لهم باب الجنة ، فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاماً » ، وروى الخمس مئة عام الترمذي (٢٣٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

مستوقدِ قدرانٍ ، ورجلٌ دعا بشرابِهِ فلا يُقالُ لهُ : أيَّها تريدُ ؟)[1] .

وقيلَ : جاءَ فقيرٌ إلىٰ مجلسِ الثوريِّ رحمهُ اللهُ ، فقالَ لهُ : تخطَّ ، لوْ كنتَ غنياً . . ما قرَّبْتُكَ ، وكانَ الأغنياءُ مِنْ أصحابِهِ يودُّونَ أنَّهُمْ فقراءُ ؛ لكثرةِ تقريبِهِ الفقراءَ وإعراضِهِ عنِ الأغنياءِ[2] .

وقالَ المؤملُ : (ما رأيتُ الغنيَّ أذلَّ منهُ في مجلسِ الثوريِّ ، ولا رأيتُ الفقيرَ أعزَّ منهُ في مجلسِ الثوريِّ رحمهُ اللهُ)[3] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لوْ خافَ مِنَ النارِ كما يخافُ مِنَ الفقرِ . . لنجا منهُما جميعاً ، ولوْ رغبَ في الجنَّةِ كما يرغبُ في الغنىٰ . . لفازَ بهِما جميعاً ، ولوْ خافَ اللهَ في الباطنِ كما يخافُ خلقَهُ في الظاهرِ . . لسعدَ في الدارينِ جميعاً)[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (ملعونٌ مَنْ أكرمَ بالغنىٰ وأهانَ بالفقرِ)[5] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (لا تحقرنَّ أحداً لخُلْقانِ ثيابِهِ ، فإنَّ ربَّكَ وربَّهُ واحدٌ) .

---

(١) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٧)، وكذا أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٩٠)، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وعزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦٠٧٨) لأبي الشيخ في « الثواب » عن أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٨٢) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٥٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٥) عن قبيصة بن عقبة لا عن المؤمل بن إسماعيل .

(٤) روىٰ بعضَه عن يحيى بن معاذ الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢١٥) ، وأورده القشيري في « الرسالة » (ص ٢٣٦) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٠/ ٣٥٦) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (حبُّكَ للفقراءِ مِنْ أخلاقِ المرسلينَ ، وإيثارُكَ مجالستَهُمْ مِنْ علامةِ الصالحينَ ، وفرارُكَ مِنْ صحبتِهِمْ مِنْ علامةِ المنافقينَ) .

وفي الأخبارِ عنِ الكتبِ السالفةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : احذرْ أنْ أمقتَكَ فتسقطَ مِنْ عيني ، فأصبَّ عليكَ الدنيا صبّاً[1] .

وكانَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها تفرِّقُ مئةَ ألفِ درهمٍ في يومِها ، يوجهُها إليها معاويةُ وابنُ عامرٍ وغيرُهما ، وإنَّ درعَها لمرقوعٌ ، وتقولُ لها الجاريةُ : لوِ اشتريتِ لكِ بدرهمٍ لحماً تفطرينَ عليهِ وكانَتْ صائمةً ، فقالَتْ : لوْ ذكرتيني . . لفعلتُ[2] .

وكانَ قدْ أوصاها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « إنْ أردتِ اللحوقَ بي . . فعليكِ بعيشِ الفقراءِ ، وإيَّاكِ ومجالسةَ الأغنياءِ ، ولا تنزعي درعَكِ حتَّىٰ ترقِّعيهِ »[3] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ إبراهيمَ بنِ أدهمَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فأبىٰ عليهِ ، فطلبَ إليهِ الرجلُ قبولَها ، فقالَ إبراهيمُ : تريدُ أنْ أمحوَ اسمي مِنْ ديوانِ الفقراءِ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ؟! لا أفعلُ ذلكَ أبداً[4] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤٣) .
(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١٠/ ٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٤٧) .
(٣) رواه الترمذي (١٧٨٠) .
(٤) أورده صاحب «القوت» (٢/ ١٩٥) والسياق عنده، والقشيري في « رسالته » (ص٤٥٣).

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الرّاضين والقانعين والصّادقين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافاً وقنعَ بهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[2] ، فالأوَّلُ للقانعِ ، وهـٰذا للراضي ، ويكادُ يشعرُ هـٰذا بمفهومِهِ أنَّ الحريصَ لا ثوابَ لهُ علىٰ فقرِهِ ، ولكنِ العموماتُ الواردةُ في فضْلِ الفقرِ تدلُّ علىٰ أنَّ لهُ ثواباً كما سيأتي تحقيقُهُ ، فلعلَّ المرادَ بعدمِ الرضا هوَ الكراهةُ لفعلِ اللهِ في حبسِ الدنيا عنهُ ، وربَّ راغبٍ في المالِ لا يخطرُ بقلبِهِ إنكارٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ ولا كراهةٌ في فعلِهِ ، فتلكَ الكراهةُ هيَ التي تحبطُ ثوابَ الفقرِ .

ورُوِيَ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لكلِّ شيءٍ مفتاحٌ ، ومفتاحُ الجنَّةِ حبُّ المساكينِ ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٩٣) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وعند مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٤/ ٢٨١) ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٢٨٣ ، ٦٥٠) .

والفقراءُ الصبُرُ هُمْ جلساءُ اللهِ تعالىٰ يومَ القيامةِ »[١] .

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أحبُّ العبادِ إلى اللهِ الفقيرُ القانعُ برزقِهِ الراضي عنِ اللهِ تعالىٰ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كفافاً »[٣] .

وقالَ : « ما مِنْ أحدٍ غنيٍّ ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّهُ كانَ أُوتيَ قوتاً في الدنيا »[٤] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إسماعيلَ عليهِ السلامُ : اطلبْني عندَ المنكسرةِ قلوبُهُمْ ، قالَ : ومَنْ هُمْ ؟ قالَ : الفقراءُ الصادقونَ[٥] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «لا أحدَ أفضلُ مِنَ الفقيرِ إذا كانَ راضياً»[٦] .

---

(١) رواه الديلمي في « الفردوس » (٤٩٩٣) ، والقشيري في « رسالته » (ص٤٥٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٤) حيث قال : (وروىٰ عبد الرحمـٰن بن سابط عن علي عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل . . .) وذكره ، وتقدم حديث : « إن الله يحب الفقير المتعفف » وهو ما رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٨٣) : (وفي بعض النسخ : « رزق » بدل « قوت ») .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٤٠) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٩٢) .

(٦) كذا في « القوت » (١/ ١٩٢) حيث قال : (وفي الحديث الذي روي عن ابن الأعرابي . . .) وذكره .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : أينَ صفوتي مِنْ خلقي ؟ فتقولُ الملائكةُ : ومَنْ هُمْ يا ربَّنا ؟ فيقولُ : فقراءُ المسلمينَ القانعونَ بعطائي ، الراضونَ بقدري ، أدخلوهُمُ الجنَّةَ ، فيدخلونَها ، ويأكلونَ ويشربونَ والناسُ في الحسابِ يتردَّدونَ »(١) .

فهٰذا في القانعِ والراضي ، وأمَّا الزاهدُ . . فسنذكرُ فضلَهُ في الشطرِ الثاني مِنَ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

وأمَّا الآثارُ في الرضا والقناعةِ . . فكثيرةٌ ، ولا يخفىٰ أنَّ القناعةَ يضادُّها الطمعُ ، وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الطمعَ فقرٌ ، واليأسَ غنىً ، وإنَّهُ مَنْ يئسَ عمَّا في أيدي الناسِ وقنعَ . . استغنىٰ عنهُمْ)(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْ يومٍ إلا وملكٌ ينادي مِنْ تحتِ العرشِ : يا بنَ آدمَ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ مِنْ كثيرٍ يطغيكَ)(٣) .

وقال أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (ما مِنْ أحدٍ إلا وفي عقلِهِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أنس) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٣) ، وعند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٥٨) من حديثه رضي الله عنه : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أدنوا مني أحبائي . . . » الحديث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٠) .

(٣) قد روىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ١٩٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : « ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ؛ فإن ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ . . . » الحديث .

نقصٌ ، وذلكَ أنَّهُ إذا أتتْهُ الدنيا بالزيادةِ . . ظلَّ فرحاً مسروراً ، والليلُ والنهارُ دائبانِ في هدمِ عمرِهِ ثمَّ لا يحزنُهُ ذلكَ ، ويحَ ابنِ آدمَ ! ما ينفعُ مالٌ يزيدُ وعمرٌ ينقصُ ؟!)[1] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما الغنىٰ ؟ قالَ : قلَّةُ تمنِّيكَ ، ورضاكَ بما يكفيكَ[2] .

وقيلَ : كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ مِنْ أهلِ النعمِ بخراسانَ ، فبينَما هوَ يشرفُ مِنْ قصرٍ لهُ ذاتَ يومٍ . . إذْ نظرَ إلىٰ رجلٍ في فناءِ القصرِ وفي يدِهِ رغيفٌ يأكلُهُ ، فلمَّا أكلَ . . نامَ ، فقالَ لبعضِ غلمانِهِ : إذا قامَ . . فجئْني بهِ ، فلمَّا قامَ . . جاءَ بهِ إليهِ ، فقالَ إبراهيمُ : أيُّها الرجلُ ؛ أكلتَ الرغيفَ وأنتَ جائعٌ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فشبعتَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : ثمَّ نمتَ طيِّباً ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ إبراهيمُ في نفسِهِ : فما أصنعُ أنا بالدنيا والنفسُ تقنعُ بهٰذا القدْرِ[3] .

ومرَّ رجلٌ بعامرِ بنِ عبدِ قيسٍ وهوَ يأكلُ ملحاً وبقلاً ، فقالَ لهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أرضيتَ مِنَ الدنيا بهٰذا ؟ فقالَ : ألا أدلُّكَ علىٰ مَنْ رضيَ بشرٍّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٧٧) .

(٢) أي : عدم تعلق النفس بالآمال ، والرضا بما يسر له في الحال ، وهٰذا أحسن ما عرف به الغنىٰ . « إتحاف » (٩/ ٢٨٤) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢٨٧) .

مِنْ هٰذا ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : مَنْ رضيَ بالدنيا عوضاً عنِ الآخرةِ[1] .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ رحمةُ اللهِ عليهِ يخرجُ خبزاً يابساً فيبلُّهُ بالماءِ ويأكلُهُ بالملحِ ويقولُ : مَنْ رضيَ مِن الدنيا بهٰذا . . لمْ يحتجْ إلىٰ أحدٍ[2] .

وقال الحسنُ : لعنَ اللهُ أقواماً أقسمَ اللهُ تعالىٰ لهمْ ثمَّ لمْ يصدِّقوهُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ . . . ﴾ الآيةَ[3] .

وكانَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً جالساً في الناسِ ، فأتتْهُ امرأتُهُ فقالَتْ لهُ : أتجلسُ بينَ هؤلاءِ ؟! واللهِ ؛ ما في البيتِ هِفَّةٌ ولا سُفَّةٌ ، فقالَ : يا هٰذهِ ؛ إنَّ بينَ أيدينا عقبةً كؤوداً لا ينجو منها إلا كلُّ مخفٍّ ، فرجعَتْ وهيَ راضيةٌ[4] .

وقالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ : (أقربُ الناسِ إلى الكفرِ ذو فاقةٍ لا صبرَ لهُ)[5] .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : ما مالُكَ ؟ فقالَ : التجمُّلُ في الظاهرِ ، والقصدُ

---

(١) ولفظ « القوت » : (وكان عامر بن عبد قيس إذا عوتب في تقلله من الدنيا . . يقول : بل أنتم ـ والله ـ رضيتم بالقليل ، وكان غيره يقول : إذا قيل له : أزهد الناس ، فقال : أنتم أزهد مني ؛ لأني زهدت في قليل يفنىٰ ، وأنتم زهدتم في كثير يبقىٰ) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٤) .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٣) نحوه .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٦/ ٢٥٣) عن الحسن بلاغاً .

(٤) بنحوه رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٥) ، والهفة والسفة بوزن المرة : ما يهف وما يسف ، والهِفَّة : من صغار السمك ، والسُّفَّة : حبة من السويق ، تكني عن العدم .

(٥) وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

في الباطنِ ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناسِ .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ في بعضِ الكتبِ المنزلةِ : يا بنَ آدمَ ؛ لوْ كانَتِ الدنيا كلُّها لكَ . . لمْ يكنْ لكَ منها إلا القوتُ ، فإذا أنا أعطيتُكَ منها القوتَ ، وجعلتُ حسابَها علىٰ غيرِكَ . . فأنا محسنٌ إليكَ .

وقدْ قيلَ في القناعةِ(١) : [من البسيط]

اِضْرَعْ إِلَى ٱللهِ لا تَضْرَعْ إِلَى ٱلنَّاسِ ... وَٱقْنَعْ بِيَأْسٍ فَإِنَّ ٱلْعِزَّ فِي ٱلْيَاسِ
وَٱسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَذِي رَحِمٍ ... إِنَّ ٱلْغَنِيَّ مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ عَنِ ٱلنَّاسِ

وقيلَ أيضاً(٢) : [من البسيط]

يا جامِعاً مانِعاً وَٱلدَّهْرُ يَرْمُقُهُ ... مُقَدِّراً أَيَّ بابٍ مِنْهُ يُغْلِقُهُ
مُفَكِّراً كَيْفَ تَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ ... أَغادِياً أَمْ بِها يَسْرِي فَتَطْرُقُهُ
جَمَعْتَ مالاً فَفَكِّرْ هَلْ جَمَعْتَ لَهُ ... يا جامِعَ ٱلْمالِ أَيّاماً تُفَرِّقُهُ
اَلْمالُ عِنْدَكَ مَخْزُونٌ لِوارِثِهِ ... ما ٱلْمَالُ مالَكَ إِلاَّ يَوْمَ تُنْفِقُهُ
أَرْفِهْ بِبالِ فَتىً يَغْدُو عَلَىٰ ثِقَةٍ ... إِنَّ ٱلَّذِي قَسَمَ الأَرْزاقَ يَرْزُقُهُ
فَٱلْعِرْضُ مِنْهُ مَصُونٌ ما يُدَنِّسُهُ ... وَٱلْوَجْهُ مِنْهُ جَدِيدٌ لَيْسَ يُخْلِقُهُ
إِنَّ ٱلْقَناعَةَ مَنَ يَحْلُلْ بِساحَتِها ... لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّها هَمّاً يُؤَرِّقُهُ

* * *

(١) البيتان لابن أبي حازم في « ديوانه » (ص٦٣) .

(٢) الأبيات للعطوي . انظر « ديوانه » (ص ٨٤ ، ضمن مجلة المورد ، المجلد الأول ١٣٩١ـ ١٩٧١ ـ العددان ١ و٢) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٥٥) .

بيان فضل الفقر على الغنى

اعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في هٰذا ، فذهبَ الجنيدُ والخوَّاصُ والأكثرونَ إلىٰ تفضيلِ الفقرِ(١) ، وقالَ ابنُ عطاءٍ : (الغنيُّ الشاكرُ القائمُ بحقِّهِ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ)(٢) ، ويُقالَ : إنَّ الجنيدَ دعا على ابنِ عطاءٍ لمخالفتِهِ إيَّاهُ في هٰذا ، فأصابَتْهُ محنةٌ(٣) .

وقدْ ذكرنا ذلكَ في كتابِ الصبرِ ، ووجهَ التفاوتِ بينَ الصبرِ والشكرِ ، ومهدنا سبيلَ طلبِ الفضيلةِ في الأعمالِ والأحوالِ ، وأنَّ ذلك لا يمكنُ إلا بتفصيلٍ .

وأمَّا الفقرُ والغنىٰ إذا أُخذا مطلقاً . . لمْ يسترِبْ مَنْ قرأَ الأخبارَ والآثارَ في تفضيلِ الفقرِ ، ولا بدَّ فيهِ مِنْ تفصيلٍ ، فنقولُ :

إنَّما يُتصوَّرُ الشكُّ في مقامينِ :

أحدُهُما : فقيرٌ صابرٌ ليسَ بحريصٍ على الطلبِ ، بلْ هوَ قانعٌ أوْ راضٍ بالإضافةِ إلىٰ غنيٍّ منفقٍ مالَهُ في الخيراتِ ، ليسَ حريصاً علىٰ إمساكِ المالِ .

والثاني : فقيرٌ حريصٌ معَ غنيٍّ حريصٍ ؛ إذْ لا يخفىٰ أنَّ الفقيرَ القانعَ

---

(١) والخواص هو إبراهيم بن أحمد ، وضع كتاباً سماه « شرف الفقراء » ، ونقل تفضيله الطوسي في « اللمع » (ص٧٤) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .

(٣) قوت القوب (١/ ٢٠١ ، ٢٦٤) .

أفضلُ مِنَ الغنيِّ الحريصِ الممسكِ ، وأنَّ الغنيَّ المنفقَ مالَهُ في الخيراتِ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الحريصِ .

ـ أمَّا **الأوَّلُ** : فربَّما يُظنُّ أنَّ الغنيَّ أفضلُ مِنَ الفقيرِ ؛ لأنَّهُما تساويا في ضعفِ الحرصِ على المالِ ، والغنيُّ متقرِّبٌ بالصدقاتِ والخيراتِ والفقيرُ عاجزٌ عنهُ ، وهـٰذا هوَ الذي ظنَّهُ ابنُ عطاءٍ فيما نحسبُهُ ، فأمَّا الغنيُّ المتمتِّعُ بالمالِ ـ وإنْ كانَ في مباحٍ ـ فلا يُتصوَّرُ أنْ يُفضَّلَ على الفقيرِ القانعِ .

وقدْ يشهدُ لهُ ما رُوِيَ في الخبرِ أنَّ الفقراءَ شكَوا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبقَ الأغنياءِ بالخيراتِ والصدقاتِ والحجِّ والجهادِ ، فعلَّمَهُمْ كلماتٍ في التسبيحِ وذكرَ لهُمْ أنَّهُمْ ينالونَ بها فوقَ ما نالَهُ الأغنياءُ ، فتعلَّمَ الأغنياءُ ذلكَ ، فكانوا يقولونَهُ ، فعادَ الفقراءُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبروه ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ »(١) .

وقدِ استشهدَ ابنُ عطاءٍ أيضاً لمَّا سُئِلَ عنْ ذلكَ فقالَ : (الغنىٰ أفضلُ لأنَّهُ وصْفُ الحقِّ)(٢) .

أمَّا دليلُهُ **الأوَّلُ** . . ففيهِ نظرٌ ؛ **لأنَّ** الخبرَ قدْ وردَ مفصَّلاً تفصيلاً يدلُّ علىٰ خلافِ ذلكَ ، وهوَ أنَّ ثوابَ الفقيرِ في التسبيحِ يزيدُ علىٰ ثوابِ الغنيِّ ، وأنَّ فوزَهُمْ بذلكَ الثوابِ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ؛ فقد روىٰ زيدُ بنُ أسلمَ

---

(١) رواه البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .

عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : بعثَ الفقراءُ رسولاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : إنِّي رسولُ الفقراءِ إليكَ ، فقالَ : « مرحباً بكَ وبمَنْ جئتَ مِنْ عندِهِمْ ، جئتَ مِنْ عندِ قومٍ أحبُّهُمْ » ، قالَ : قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الأغنياءَ ذهبوا بالجنَّةِ ؛ يحجُّونَ ولا نقدرُ عليهِ ، ويعتمرونَ ولا نقدرُ عليهِ ، وإذا مرضوا . . بعثوا بفضْلِ أموالِهِمْ ذخيرةً لهُمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلِّغْ عنِّي الفقراءَ أنَّ لمَنْ صبرَ واحتسبَ منكُمْ ثلاثَ خصالٍ ليسَتْ للأغنياءِ ، أمَّا خصلةٌ واحدةٌ : فإنَّ في الجنَّةِ غرفاً ينظرُ إليها أهلُ الجنَّةِ كما ينظرُ أهلُ الأرضِ إلىٰ نجومِ السماءِ ، لا يدخلُها إلا نبيٌّ فقيرٌ أوْ شهيدٌ فقيرٌ أوْ مؤمنٌ فقيرٌ ، والثانيةُ : يدخلُ الفقراءُ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يومٍ ، وهوَ خمسُ مئةِ عامٍ ، والثالثةُ : إذا قالَ الغنيُّ : سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ، وقالَ الفقيرُ مثلَ ذلكَ . . لمْ يلحقِ الغنيُّ بالفقيرِ وإنْ أنفقَ فيها عشرةَ آلافِ درهمٍ ، وكذلكَ أعمالُ البرِّ كلُّها » ، فرجعَ إليهِمْ فأخبرَهُمْ بما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فقالوا : رضينا رضينا(١) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ قولَهُ : « ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ » أيْ : مزيدُ ثوابِ الفقراءِ علىٰ ذكرِهِمْ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٢) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا بهـٰذا السياق ، والمعروف في هـٰذا المعنىٰ ما رواه ابن ماجه [٤١٢٤] من حديث ابن عمر : اشتكىٰ فقراء المهاجرين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل به عليهم أغنياؤهم ، فقال : « يا معشر الفقراء ، ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم ؛ خمس مئة عام » ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٧) .

وأمَّا قولُهُ : (إنَّ الغنىٰ وصفُ الحقِّ) . . فقدْ أجابَهُ بعضُ الشيوخِ فقالَ : أترىٰ أنَّ الحقَّ غنيٌّ بالأسبابِ والأعراضِ ؟! فانقطعَ ولمْ ينطقْ[1] .

وأجابَ آخرونَ فقالوا : إنَّ التكبُّرَ مِنْ صفاتِ الحقِّ ، فينبغي أنْ يكونَ أفضلَ مِنَ التواضعِ ! ثمَّ قالوا : بلْ هٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الفقرَ أفضلُ ؛ لأنَّ صفاتِ العبوديةِ أفضلُ للعبدِ ؛ كالخوفِ والرجاءِ ، وصفاتُ الربوبيَّةِ لا ينبغي أنْ يُنازعَ فيها ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ فيما روىٰ عنهُ نبيُّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري ، فمَنْ نازعَني فيهما . . قصمتُهُ »[2] .

وقالَ سهلٌ : (حبُّ العزِّ والبقاءِ شركٌ في الربوبيةِ ومنازعةٌ فيها ؛ لأنَّهُما مِنْ صفاتِ الربِّ تعالىٰ)[3] .

فمِنْ هٰذا الجنسِ تكلَّموا في تفضيلِ الغنىٰ والفقرِ ، وحاصلُ ذلكَ : تعلُّقٌ بعموماتٍ تقبلُ التأويلَ ، وبكلماتٍ قاصرةٍ لا تبعدُ مناقضتُها ، إذْ كما يُناقضُ قولُ مَنْ فضَّلَ الغنىٰ بأنَّهُ صفةُ الحقِّ . . بالتكبُّرِ ؛ فكذلكَ يُناقضُ قولُ مَنْ فضَّلَ الفقرَ بأنَّهُ وصفُ العبدِ . . بالعلمِ والمعرفةِ ؛ فإنَّهُ وصفُ الربِّ تعالىٰ ، والجهلُ والغفلةُ وصفُ العبدِ ، وليسَ لأحدٍ أنْ يفضِّلَ الغفلةَ على العلمِ .

فكشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا هوَ ما ذكرناهُ في كتابِ الصبرِ ، وهوَ أنَّ ما لا

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٤) .

يُرادُ لعينِهِ بلْ يُرادُ لغيرِهِ . . فينبغي أنْ يُضافَ إلىٰ مقصودِهِ ؛ إذْ بهِ يظهرُ فضلُهُ ، والدنيا ليسَتْ محذورةً لعينِها ، ولكنْ لكونِها عائقةً عنِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا الفقرُ مطلوبٌ لعينِهِ ، لكنْ لأنَّ فيهِ فقدَ العائقِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعدمَ الشاغلِ عنهُ ، وكمْ مِنْ غنيٍّ لمْ يشغلْهُ الغنىٰ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، مثلَ سليمانَ عليهِ السلامُ ، وعثمانَ ، وعبدِ الرحمـٰنِ بنِ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكمْ مِنْ فقيرٍ شغلَهُ الفقرُ وصرفَهُ عنِ المقصدِ ، **وغايةُ المقصدِ في الدنيا هوَ حبُّ اللهِ تعالىٰ والأنسُ بهِ** ، ولا يكونُ ذلكَ إلا بعدَ معرفتِهِ ، وسلوكُ سبيلِ المعرفةِ معَ الشواغلِ غيرُ ممكنٍ ، والفقرُ قدْ يكونُ مِنَ الشواغلِ ؛ كما أنَّ الغنىٰ قدْ يكونُ مِنَ الشواغلِ ، **وإنَّما الشاغلُ على التحقيقِ حبُّ الدنيا** ؛ إذْ لا يجتمعُ معَهُ حبُّ اللهِ في القلبِ ، والمحبُّ للشيءِ مشغولٌ بهِ سواءٌ كانَ في فراقِهِ أوْ في وصالِهِ ، وربما يكونُ شغلُهُ في الفراقِ أكثرَ ، وربما يكونُ شغلُهُ في الوصالِ أكثرَ ، والدنيا معشوقةُ الغافلينَ ، المحرومُ منها مشغولٌ بطلبِها ، والقادرُ عليها مشغولٌ بحفظِها والتمتعِ بها .

فإذاً ؛ إنْ فرضتَ فارغينِ عنْ حبِّ المالِ ؛ بحيثُ صارَ المالُ في حقِّهِما كالماءِ . . استوى الفاقدُ والواجدُ ؛ إذْ كلُّ واحدٍ غيرُ متمتِّعٍ إلا بقدْرِ الحاجةِ ، ووجودُ قدْرِ الحاجةِ أفضلُ مِنْ فقدِهِ ؛ إذِ الجائعُ يسلكُ سبيلَ الموتِ لا سبيلَ المعرفةِ .

وإنْ أخذتَ الأمرَ باعتبارِ الأكثرِ . . فالفقيرُ عنِ الخطرِ أبعدُ ؛ إذْ فتنةُ السرَّاءِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الضرَّاءِ ، ومِنَ العصمةِ ألا يقدرَ ، ولذلكَ قالَ الصحابةُ

رضيَ اللهُ عنهُمْ : (بُلينا بفتنةِ الضرَّاءِ فصبرنا ، وبُلينا بفتنةِ السرَّاءِ فلمْ نصبرْ)(١) ، وهـٰذهِ خِلقةُ الآدميينَ كلِّهِمْ إلا الشاذَّ الفذَّ الذي لا يُوجدُ في الأعصارِ الكثيرةِ إلا نادراً .

ولمَّا كانَ خطابُ الشرعِ معَ الكلِّ لا معَ ذلكَ النادرِ ، والضراءُ أصلحُ للكلِّ دونَ ذلكَ النادرِ . زجرَ الشرعُ عنِ الغنىٰ وذمَّهُ ، وفضَّلَ الفقرَ ومدحَهُ ، حتىٰ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تنظروا إلىٰ أموالِ أهلِ الدنيا ، فإنَّ بريقَ أموالِهِمْ يذهبُ بنورِ إيمانِكُمْ)(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (تقليبُ الأموالِ يمصُّ حلاوةَ الإيمانِ)(٣) .

وفي الخبرِ : « لكلِّ أمةٍ عجلٌ ، وعجلُ هـٰذهِ الأمَّةِ الدينارُ والدرهمُ »(٤) ، وكانَ أصلُ عجلِ قومِ موسىٰ مِنْ حليةِ الذهبِ والفضةِ أيضاً .

واستواءُ المالِ والماءِ والذهبِ والحجرِ إنَّما يُتصوَّرُ للأنبياءِ والأولياءِ ، ثمَّ يتمُّ لهُمْ ذلكَ بعدَ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بطولِ المجاهدةِ ، إذْ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) .
(٤) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٥٠١٩] من طريق أبي عبد الرحمـٰن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة) . « إتحاف » (٩/ ٢٨٩) .

عليهِ وسلَّمَ يقولُ للدنيا : « إليكِ عنِّي » إذْ كانَتْ تتمثَّلُ لهُ بزينتِها[١] .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (يا صفراءُ ؛ غرِّي غيري ، ويا بيضاءُ ؛ غرِّي غيري)[٢] وذلكَ لاستشعارِهِ في نفسِهِ ظهورَ مبادي الاغترارِ بها لولا أنْ رأىٰ برهانَ ربِّهِ ، وذلكَ هوَ الغنى المطلقُ ، إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ الغنىٰ عنْ كثرةِ العرضِ ، إنَّما الغنىٰ غنى النفسِ »[٣] .

وإذا كانَ ذلكَ بعيداً . . فإذاً الأصلحُ لكافَّةِ الخلقِ فقْدُ المالِ وإنْ تصدَّقوا بهِ وصرفوهُ إلى الخيراتِ ؛ لأنَّهُمْ لا ينفكُّونَ في القدرةِ على المالِ عنْ أُنْسٍ بالدنيا ، وتمتعٍ بالقدرةِ عليها ، واستشعارِ راحةٍ في بذلِها ، وكلُّ ذلكَ يورثُ الأُنْسَ بهٰذا العالمِ ، وبقدْرِ ما يأنسُ العبدُ بالدنيا يستوحشُ مِنَ الآخرةِ ، وبقدْرِ ما يأنسُ بصفةٍ مِنْ صفاتِهِ ـ سوىٰ صفةِ المعرفةِ باللهِ ـ يستوحشُ مِنَ اللهِ ومِنْ حبِّهِ ، ومهما انقطعَتْ أسبابُ الأنسِ بالدنيا . . تجافى القلبُ عنِ الدنيا وزهرتِها ، والقلبُ إذا تجافىٰ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ وكانَ مؤمناً باللهِ . . انصرفَ ـ لا محالةَ ـ إلى اللهِ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ قلبٌ فارغٌ .

وليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ وغيرُهُ ، فمَنْ أقبلَ علىٰ غيرِهِ . . فقدْ تجافىٰ عنهُ ، ومَنْ أقبلَ عليهِ . . تجافىٰ عنْ غيرِهِ ، ويكونُ إقبالُهُ علىٰ أحدِهما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١١) ، والبزار في « مسنده » (٤٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٣٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨١) .

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

بقدْرِ تجافيهِ عنِ الآخرِ ، وقربُهُ مِنْ أحدِهِما بقدْرِ بعدِهِ مِنَ الآخرِ ، ومثلُهُما مثلُ المشرقِ والمغربِ ، فإنَّهُما جهتانِ ، فالمتردِّدُ بينَهُما بقدْرِ ما يقربُ مِنْ أحدِهِما يبعدُ مِنَ الآخرِ ، بلْ عينُ القرْبِ مِنْ أحدِهِما هوَ عينُ البعدِ مِنَ الآخرِ ، فعينُ حبِّ الدنيا هوَ عينُ بغضِ اللهِ تعالىٰ ، فينبغي أنْ يكونَ مطمحُ نظرِ العارفِ قلبَهُ في عزوفِهِ عنِ الدنيا وأنسِهِ بها .

فإذاً ؛ فضْلُ الفقيرِ والغنيِّ بحسَبِ تعلُّقِ قلبيهِما بالمالِ فقطْ ، فإنْ تساويا فيهِ . . تساوَتْ درجتُهُما ، إلا أنَّ هـٰذا مزلَّةُ قدمٍ وموضعُ غرورٍ ؛ فإنَّ الغنيَّ ربما يظنُّ أنَّهُ منقطعُ القلبِ عنِ المالِ ويكونُ حبُّهُ دفيناً في باطنِهِ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وإنَّما يشعرُ بهِ إذا فقدَهُ ، فليجرِّبْ نفسَهُ بتفريقِهِ أوْ إذا سُرِقَ منهُ ، فإنْ وجدَ لقلبِهِ إليهِ التفاتاً . . فليعلمْ أنَّهُ كانَ مغروراً ، فكَمْ مِنْ رجلٍ باعَ سُرِّيَّةً لهُ لظنِّهِ أنَّهُ منقطعُ القلبِ عنها ، فبعدَ لزومِ البيعِ وتسليمِ الجاريةِ . . اشتعلَتْ مِنْ قلبِهِ النارُ التي كانَتْ مستكنَّةً فيهِ ، فتحقَّقَ بهِ أنَّهُ كانَ مغروراً ، وأنَّ العشقَ كانَ مستكنّاً في الفؤادِ استكنانَ النارِ تحتَ الرمادِ ، وهـٰذا حالُ كلِّ الأغنياءِ ، إلا الأنبياءَ والأولياءَ .

وإذا كانَ ذلكَ محالاً أوْ بعيداً . . فلنطلقِ القولَ بأنَّ الفقرَ أصلحُ لكافَّةِ الخلقِ وأفضلُ ؛ لأنَّ علاقةَ الفقيرِ وأنسَهُ بالدنيا أضعفُ ، وبقدْرِ ضعفِ علاقتِهِ يتضاعفُ ثوابُ تسبيحاتِهِ وعباداتِهِ ، فإنَّ حركاتِ اللسانِ ليسَتْ مرادةً لأعيانِها ، بلْ ليتأكَّدَ بها الأنسُ بالمذكورِ ، ولا يكونُ تأثيرُها في إثارةِ الأنسِ في قلبٍ فارغٍ مِنْ غيرِ المذكورِ كتأثيرِها في قلبٍ مشغولٍ .

ولذلكَ قالَ بعضُ السلفِ : (مثلُ مَنْ تعبَّدَ وهوَ في طلبِ الدنيا مثلُ مَنْ يطفىءُ النارَ بالحلفاءِ ، ومثلُ مَنْ يغسلُ يدَهُ مِنَ الغَمَرِ بالسمكِ)[١] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (تنفُّسُ فقيرٍ دونَ شهوةٍ لا يقدرُ عليها أفضلُ مِنْ عبادةِ غنيٍّ ألفَ عامٍ)[٢] .

وعنِ الضحَّاكِ قالَ : (مَنْ دخلَ السوقَ ، فرأىٰ شيئاً يشتهيهِ ، فصبرَ واحتسبَ . . كانَ خيراً لهُ مِنْ ألفِ دينارٍ ينفقُها كلَّها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ) .

وقالَ رجلٌ لبشرِ بنِ الحارثِ رحمهُ اللهُ : ادعُ اللهَ لي ، فقدْ أضرَّ بي الفقرُ والعيالُ ، فقالَ : إذا قالَ لكَ عيالُكَ : ليسَ عندَنا دقيقٌ ولا خبزٌ . . فادعُ لي في ذلكَ الوقتِ ؛ فإنَّ دعاءَكَ أفضلُ مِنْ دعائي[٣] .

وكانَ يقولُ : (مثلُ الغنيِّ المتعبِّدِ مثلُ روضةٍ علىٰ مزبلةٍ ، ومثلُ الفقيرِ المتعبِّدِ مثلُ عقدِ الجوهرِ في جيدِ الحسناءِ)[٤] .

وقدْ كانوا يكرهونَ سماعَ علمِ المعرفةِ مِنَ الأغنياءِ[٥] .

وقدْ قالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الذلَّ عندَ النصَفِ مِنْ نفسي ، والزهدَ فيما جاوزَ الكفافَ)[٦] ، وإذا كانَ مثلُ الصدِّيقِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) ، والغَمَر : ريح اللحم وزهمه .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٩٢) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٩٣) .
(٦) قوت القلوب (١/ ٢٦٢) .

رضيَ اللهُ عنهُ في كمالِ حالِهِ يحذرُ مِنَ الدنيا ووجودِها . . فكيفَ يُشَكُّ في أنَّ فقدَ المالِ أصلحُ مِنْ وجودِهِ ؟! هـٰذا معَ أنَّ أحسنَ أحوالِ الغنيِّ أنْ يأخذَ حلالاً ، وينفقَ طيِّباً ، ومعَ ذلكَ فيطولُ حسابُهُ في عرصاتِ القيامةِ ، ويطولُ انتظارُهُ ، ومَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ ، ولهـٰذا تأخَّرَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ عنِ الجنَّةِ ؛ إذْ كانَ مشغولاً بالحسابِ كما رآهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)] .

ولهـٰذا قالَ أبو الدرداءِ : ما أحبُّ أنَّ لي حانوتاً علىٰ بابِ المسجدِ ولا تخطئُني فيهِ صلاةٌ وذكرٌ وأربحُ كلَّ يومٍ أربعينَ ديناراً وأتصدَّقُ بها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، قيلَ : وما تكرهُ ؟ قالَ : سوءَ الحسابِ[(٢)] .

ولذلكَ قالَ سفيانُ رحمهُ اللهُ : (اختارَ الفقراءُ ثلاثةَ أشياءَ ، واختارَ الأغنياءُ ثلاثةَ أشياءَ ؛ اختارَ الفقراءُ راحةَ النفسِ ، وفراغَ القلبِ ، وخفَّةَ الحسابِ ، واختارَ الأغنياءُ تعبَ النفسِ ، وشغلَ القلبِ ، وشدَّةَ الحسابِ) .

وما ذكرَهُ ابنُ عطاءٍ مِنْ أنَّ الغنىٰ وصفُ الحقِّ ؛ فهوَ بذلكَ أفضلُ . . فهوَ صحيحٌ ، ولكنْ إذا كانَ العبدُ غنيّاً عنْ وجودِ المالِ وعدمِهِ جميعاً ، بأنْ يستويَ عندَهُ كلاهُما ، فأمَّا إذا كانَ غنيّاً بوجودِهِ ومفتقراً إلىٰ بقائِهِ . . فلا يضاهي غناهُ غنى اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ بذاتِهِ ، لا بما يُتصوَّرُ زوالُهُ ، والمالُ يُتصوَّرُ زوالُهُ بأنْ يُسرقَ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) .

وما ذُكِرَ في الردِّ عليهِ مِنْ أنَّ اللهَ ليسَ غنياً بالأعراضِ والأسبابِ . . صحيحٌ في ذمِّ غنيٍّ يريدُ بقاءَ المالِ ، وما ذُكِرَ مِنْ أنَّ صفاتِ الحقِّ لا تليقُ بالعبدِ . . غيرُ صحيحٍ ، بلِ العلمُ مِنْ صفاتِهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ أفضلُ شيءٍ للعبدِ ، بلْ منتهى العبدِ أنْ يتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ سمعتُ بعضَ المشايخِ يقولُ : إنَّ سالكَ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ قبلَ أنْ يقطعَ الطريقَ تصيرُ الأسماءُ التسعةُ والتسعونَ أوصافاً لهُ ؛ أيْ : يكونُ لهُ مِنْ كلِّ واحدٍ نصيبٌ .

وأمَّا التكبُّرُ . . فلا يليقُ بالعبدِ ، فإنَّ التكبُّرَ علىٰ مَنْ لا يستحقُّ التكبُّرَ عليهِ ليسَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا التكبُّرُ علىٰ مَنْ يستحقُّهُ ؛ كتكبُّرِ المؤمنِ على الكافرِ ، وتكبُّرِ العالمِ على الجاهلِ ، والمطيعِ على العاصي . . فيليقُ بهِ .

نعمْ ، قدْ يُرادُ بالتكبُّرِ الزهوُ والصلفُ والإيذاءُ ، وليسَ ذلكَ مِنْ وصفِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما وصفُ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ أكبرُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ كذلكَ ، والعبدُ مأمورٌ بأنْ يطلبَ أعلى المراتبِ إنْ قدرَ عليهِ ، ولكنْ بالاستحقاقِ كما هوَ حقُّهُ ، لا بالباطلِ والتلبيسِ ، فعلى العبدِ أنْ يعلمَ أنَّ المؤمنَ أكبرُ مِنَ الكافرِ ، والمطيعَ أكبرُ مِنَ العاصي ، والعالمَ أكبرُ مِنَ الجاهلِ ، والإنسانَ أكبرُ مِنَ البهيمةِ والجمادِ والنباتِ ، وأقربُ إلى اللهِ تعالىٰ منها ، فلو رأىٰ نفسَهُ بهٰذهِ الصفةِ رؤيةً محقَّقةً لا شكَّ فيها . . لكانَتْ صفةُ التكبُّرِ حاصلةً لهُ ولائقةً بهِ وفضيلةً في حقِّهِ ، إلا أنَّهُ لا سبيلَ لهُ إلىٰ معرفتِهِ ، فإنَّ ذلكَ موقوفٌ على الخاتمةِ ، وليسَ يدري الخاتمةَ كيفَ تكونُ ، وكيفَ تتفقُ ، فلجهلِهِ بذلكَ وجبَ ألا يعتقدَ لنفسِهِ رتبةً فوقَ رتبةِ الكافرِ ؛ إذْ ربما

يُختمُ للكافرِ بالإيمانِ ويُختمُ لهُ بالكفرِ ، فلمْ يكنْ ذلكَ لائقاً بهِ ؛ لقصورِ علمِهِ عنْ معرفةِ العاقبةِ .

ولمَّا تُصوِّرَ أنْ يعلمَ الشيءَ علىٰ ما هوَ بهِ . . كانَ العلمُ كمالاً في حقِّهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ صفاتِ اللهِ ، ولمَّا كانَتْ معرفةُ بعضِ الأشياءِ قدْ تضرُّهُ . . صارَ ذلكَ العلمُ نقصاً في حقِّهِ ؛ إذْ ليسَ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ علمٌ يضرُّهُ ، فمعرفةُ الأمورِ التي لا ضررَ فيها هيَ التي تُتصوَّرُ في العبدِ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، فلا جرمَ هوَ منتهى الفضيلةِ ، وبهِ فضلَ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ .

فإذاً ؛ لوِ استوىٰ عندَهُ وجودُ المالِ وعدمُهُ . . فهٰذا نوعٌ مِنَ الغنىٰ يضاهي بوجهٍ مِنَ الوجوهِ الغنى الذي يُوصفُ بهِ اللهُ سبحانَهُ(١) ، فهوَ فضيلةٌ ، أمَّا الغنىٰ بوجودِ المالِ . . فلا فضيلةَ فيهِ أصلاً .

فهٰذا بيانُ نسبةِ حالِ الفقيرِ القانعِ إلىٰ حالِ الغنيِّ الشاكرِ .

ـ **المقامُ الثاني** : في نسبةِ حالِ الفقيرِ الحريصِ إلى حالِ الغنيِّ الحريصِ :

ولنفرضْ ذلكَ في شخصٍ واحدٍ هوَ طالبٌ للمالِ وساعٍ فيهِ وفاقدٌ لهُ ثمَّ وجدَهُ ، فلهُ حالةُ الفقدِ وحالةُ الوجودِ ، فأيُّ حالتيهِ أفضلُ ؟

فنقولُ : ننظرُ ؛ فإنْ كانَ مطلوبُهُ ما لا بدَّ منهُ في المعيشةِ ، وكانَ قصدُهُ أنْ يسلكَ سبيلَ الدينِ ، ويستعينَ بهِ عليهِ . . فحالُ الوجودِ أفضلُ ؛ لأنَّ الفقرَ

---

(١) **يضاهي هنا** : يشاكل ويشابه ، ويقال : فلان يضاهي فلاناً ؛ أي : يتابعه .

يشغلُهُ بالطلبِ ، وطالبُ القوتِ لا يقدرُ على الذكرِ والفكرِ إلا قدرةً مدخولةً بشغلٍ ، والمكفيُّ هوَ القادرُ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ قوتَ آلِ محمدٍ كفافاً »[1] .

وقالَ : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كفراً »[2] أي : الفقرُ معَ الاضطرارِ فيما لا بدَّ منهُ .

وإنْ كانَ المطلوبُ فوقَ الحاجةِ ، أوْ كانَ المطلوبُ قدْرَ الحاجةِ ولكنْ لمْ يكنِ المقصودُ الاستعانةَ بهِ على سلوكِ سبيلِ الدينِ . . فحالةُ الفقرِ أصلحُ وأفضلُ ؛ لأنَّهُما استويا في الحرصِ وحبِّ المالِ ، واستويا في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما ليسَ يقصدُ بهِ الاستعانةَ على طريقِ الدينِ ، واستويا في أنَّ كلَّ واحدٍ منهُما ليسَ يتعرَّضُ لمعصيةٍ بسببِ الفقرِ والغنى ، ولكنِ افترقا في أنَّ الواجدَ يأنسُ بما وجدَهُ ، فيتأكَّدُ حبُّهُ في قلبِهِ ، ويطمئنُّ إلى الدنيا ، والفاقدُ المضطرُّ يتجافى قلبُهُ عنِ الدنيا ، وتكونُ الدنيا عندَهُ مثلَ السجنِ الذي يبغي الخلاصَ منهُ .

ومهمَا استوتِ الأمورُ كلُّها ، وخرجَ مِنَ الدنيا رجلانِ ؛ أحدُهُما أشدُّ ركوناً إلى الدنيا . . فحالُهُ أشدُّ لا محالةَ ؛ إذْ يلتفتُ قلبُهُ إلى الدنيا ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) بلفظ : « اللهم ؛ ارزق آل محمد قوتاً » ، وبلفظ المصنف رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٣٤٣) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦١٨٨) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

ويستوحشُ مِنَ الآخرةِ بقدْرِ تأكُّدِ أنسِهِ بالدنيا ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[1] ، وهٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ فراقَ المحبوبِ شديدٌ .

فينبغي أنْ تحبَّ مَنْ لا يفارقُكَ ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ، ولا تحبَّ ما يفارقُكَ ، وهوَ الدنيا ؛ فإنَّكَ إذا أحببتَ الدنيا . كرهْتَ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، فيكونُ قدومُكَ بالموتِ علىٰ ما تكرهُهُ ، وفراقُكَ لما تحبُّهُ ، وكلُّ مَنْ فارقَ محبوباً فيكونُ أذاهُ في فراقِهِ بقدْرِ حبِّهِ وقدْرِ أنسِهِ بهِ ، وأنسُ الواجدِ للدنيا بالدنيا أكثرُ مِنْ أنسِ الفاقدِ لها وإنْ كانَ حريصاً عليها .

* * *

فإذاً ؛ قدِ انكشفَ بهٰذا التحقيقِ أنَّ الفقرَ هوَ الأشرفُ والأفضلُ والأصلحُ لكافَّةِ الخلقِ إلا في موضعينِ :

أحدُهُما : غنىً مثلُ غنىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، استوىٰ عندَهُ الوجودُ والعدمُ ، فيكونُ الوجودُ مزيداً لهُ ، إذْ يستفيدُ بهِ أدعيةَ الفقراءِ والمساكينِ وجمعَ هِمَمِهِمْ .

والثاني : الفقرُ عنْ مقدارِ الضرورةِ ، فإنَّ ذلكَ يكادُ أنْ يكونَ كفراً ،

---

(١) الشطر الأول من الحديث رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦) ، والثاني رواه أيضاً أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

ولا خيرَ فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، إلا إذا كانَ وجودُهُ يُبقي حياتَهُ ، ثمَّ يستعينُ بقوتِهِ وحياتِهِ على الكفرِ والمعاصي ، ولوْ ماتَ جوعاً . . لكانَتْ معاصيهِ أقلَّ ، فالأصلحُ لهُ أنْ يموتَ جوعاً ولا يجدَ ما يُضطرُّ إليهِ أيضاً .

فهٰذا تفصيلُ القولِ في الغنىٰ والفقرِ ، ويبقى النظرُ في فقيرٍ حريصٍ متكالبٍ علىٰ طلبِ المالِ ، ليسَ لهُ همٌّ سواهُ ، وفي غنيٍّ دونَهُ في الحرصِ علىٰ حفظِ المالِ ، ولمْ يكنْ تفجُّعُهُ بفقْدِ المالِ لوْ فقدَهُ كتفجُّعِ الفقيرِ بفقدِهِ ، فهٰذا في محلِّ النظرِ ، والأظهرُ : أنَّ بعدَهُما عنِ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ قوَّةِ تفجُّعِهِما لفقدِ المالِ ، وقربَهُما بقدْرِ ضعفِ تفجُّعِهِما بفقدِهِ ، والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ فيهِ .

* * *

بيان آداب الفقير في فقره

اعلمْ : أنَّ للفقيرِ آداباً في باطنِهِ وظاهرِهِ ، ومخالطتِهِ وأفعالِهِ ، ينبغي أنْ يراعيَها .

فأمَّا أدبُ باطنِهِ : فألا يكونَ فيهِ كراهةٌ لما ابتلاهُ اللهُ تعالىٰ بهِ مِنَ الفقرِ ؛ أعني أنَّهُ لا يكونُ كارهاً فعلَ اللهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ وإنْ كانَ كارهاً للفقرِ ؛ كالمحجومِ يكونُ كارهاً للحجامةِ لتألُّمِهِ بها ، ولا يكونُ كارهاً فعلَ الحجَّامِ ، ولا كارهاً للحجَّامِ ، بلْ ربما يتقلَّدُ منهُ منَّةً .

فهـٰذا أقلُّ درجاتِهِ ، وهوَ واجبٌ ، ونقيضُهُ حرامٌ ومحبطٌ ثوابَ الفقرِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ الرضا مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[1] .

وأرفعُ مِنْ هـٰذا : ألا يكونَ كارهاً للفقرِ ، بلْ يكونُ راضياً بهِ .

وأرفعُ منهُ : أنْ يكونَ طالباً لهُ ، وفرحاً بهِ ؛ لعلمِهِ بغوائلِ الغنىٰ ، ويكونَ متوكلاً في باطنِهِ على اللهِ تعالىٰ ، واثقاً بهِ في قدْرِ ضرورتِهِ أنَّهُ يأتيهِ لا محالةَ ، ويكونَ كارهاً للزيادةِ على الكفافِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٤/٢٨١) ، وانظر « الإتحاف » (٩/٢٨٣ ، ٦٥٠) .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ للهِ تعالىٰ عقوباتٍ بالفقرِ ومثوباتٍ بالفقرِ ، فمِنْ علامةِ الفقرِ إذا كانَ مثوبةً أنْ يحسنَ عليهِ خلقُهُ ، ويطيعَ بهِ ربَّهُ ، ولا يشكوَ حالَهُ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ فقرِهِ ، ومِنْ علامتِهِ إذا كانَ عقوبةً أنْ يسوءَ عليهِ خلقُهُ ، ويعصيَ ربَّهُ بتركِ طاعتِهِ ، ويكثرَ الشكايةَ ، ويتسخَّطَ القضاءَ)[١] .

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ فقيرٍ فليسَ بمحمودٍ ، بلِ الذي لا يتسخَّطُ ، أوْ يرضىٰ ، أوْ يفرحُ بالفقرِ ويرضىٰ لعلمِهِ بثمرتِهِ ؛ إذْ قيلَ : (ما أُعطيَ عبدٌ شيئاً مِنَ الدنيا إلا قيلَ لهُ : خذْهُ علىٰ ثلاثةِ أثلاثٍ : شغلٍ وهمٍّ وطولِ حسابٍ)[٢] .

وأمَّا أدبُ ظاهرِهِ : فأنْ يظهرَ التعفُّفَ والتجمُّلَ ، ولا يظهرَ الشكوىٰ والفقرَ ، بلْ يسترُ فقرَهُ ، ويسترُ أنَّهُ يسترُهُ ؛ ففي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الفقيرَ المتعفِّفَ أبا العيالِ »[٣] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ .

وقالَ سفيانُ : (أفضلُ الأعمالِ التجمُّلُ عندَ المحنةِ)[٤] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٥) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٤) قوت القوت (٢/ ١٩٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : (سترُ الفقرِ مِنْ كنوزِ البرِّ) .

وأمَّا في أعمالِهِ : فأدبُهُ : ألا يتواضعَ لغنيٍّ لأجلِ غناهُ ، بلْ يتكبَّرُ عليهِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أحسنَ تواضعَ الغنيِّ للفقيرِ رغبةً في ثوابِ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ منهُ تيهُ الفقيرِ على الغنيِّ ثقةً باللهِ عزَّ وجلَّ)(١) .

فهٰذهِ رتبةٌ ، وأقلُّ منها : ألا يخالطَ الأغنياءَ ولا يرغبَ في مجالستِهِمْ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ مبادي الطمعِ ، قالَ الثوريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا خالطَ الفقيرُ الأغنياءَ . . فاعلمْ أنَّهُ مراءٍ ، وإذا خالطَ السلطانَ . . فاعلمْ أنَّهُ لصٌّ)(٢) .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إذا مالَ الفقيرُ إلى الأغنياءِ . . انحلَّتْ عروتُهُ ، فإذا طمعَ فيهِمْ . . انقطعَتْ عصمتُهُ ، فإذا سكنَ إليهِمْ . . ضلَّ)(٣) .

وينبغي ألا يسكتَ عنْ ذكرِ الحقِّ مداهنةً للأغنياءِ ، وطمعاً في العطاءِ(٤) .

---

(١) القول له في حكاية منام رآه الفتح بن شخرف ، رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/ ٣٨١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٧) . وفيه : (القارئ) بدل (الفقير) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٦) .

(٤) وهٰذا واجب ، روى البيهقي في « الشعب » (٧٨٨٢) من قول ابن مسعود : (من خضع لغني ، ووضع له نفسه إعظاماً له ، وطمعاً فيما قبله . . ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه) . « إتحاف » (٩/ ٢٩٦) .

وأمَّا أدبُهُ في أفعالِهِ : فألا يفترَ بسببِ الفقرِ عنْ عبادةٍ ، ولا يمنعَ بذلَ قليلِ ما يفضلُ عنهُ ؛ فإنَّ ذلكَ جهدُ المقلِّ ، وفضلُهُ أكثرُ مِنْ أموالٍ كثيرةٍ تُبذلُ عنْ ظهرِ غنىً .

وروىٰ زيدُ بنُ أسلمَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « درهمٌ مِنَ الصدقةِ أفضلُ عندَ اللهِ تعالىٰ من مئةِ ألفِ درهمٍ » ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أخرجَ رجلٌ مِنْ عرضِ مالِهِ مئةَ ألفِ درهمٍ فتصدَّقَ بها ، وأخرجَ رجلٌ درهماً مِنْ درهمينِ لا يملكُ غيرَهُما طيبةً مِنْ نفسِهِ ، فصارَ صاحبُ الدرهمِ أفضلَ مِنْ صاحبِ المئةِ ألفٍ »(١) .

وينبغي ألا يدخرَ مالاً ، بلْ يأخذُ قدْرَ الحاجةِ ويخرجُ الباقيَ ، **وفي الادخارِ ثلاثُ درجاتٍ** :

إحداها : ألا يدخرَ إلا ليومِهِ وليلتِهِ ، وهيَ درجةُ الصديقينَ .

والثانيةُ : أنْ يدخرَ لأربعينَ يوماً ، فإنَّ ما زادَ عليهِ داخلٌ في طولِ الأملِ ، وقدْ فهمَ العلماءُ ذلكَ مِنْ ميعادِ اللهِ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ ، ففُهِمَ منهُ الرخصةُ في أملِ الحياةِ أربعينَ يوماً ، وهيَ درجةُ المتقينَ .

والثالثةُ : أنْ يدَّخرَ لسنتِهِ ، وهيَ أقصى المراتبِ ، وهيَ رتبةُ الصالحينَ .

---

(١) تقدم بلفظ : « سبق درهم مئة ألف درهم . . . » ، وهو عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو ما رواه النسائي (٥/ ٥٩) .

ومَنْ زادَ في الادخارِ علىٰ هٰذا . . فهوَ واقعٌ في غمارِ العمومِ ، خارجٌ عنْ حيِّزِ الخصوصِ بالكلِّيَّةِ ، فغنى الصالحِ الضعيفِ في طُمأنينةِ قلبِهِ في قوتِ سنةٍ ، وغنى الخصوصِ في أربعينَ يوماً ، وغنىٰ خصوصِ الخصوصِ في يومٍ وليلةٍ .

وقدْ قسمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لنسائِهِ علىٰ مثلِ هٰذهِ الأقسامِ ، فبعضُهنَّ كانَ يعطيها قوتَ سنةٍ عندَ حصولِ ما يحصلُ ، وبعضُهنَّ قوتَ أربعينَ يوماً ، وبعضُهنَّ يوماً وليلةً ؛ وهوَ قَسمُ عائشةَ وحفصةَ .

❊ ❊ ❊

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أنْ يلاحظَ الفقيرُ فيما جاءَهُ ثلاثةَ أمورٍ : نفسُ المالِ ، وغرضُ المعطي ، وغرضُهُ في الأخذِ .

أمَّا نفسُ المالِ : فينبغي أنْ يكونَ حلالاً خالياً عنِ الشبهاتِ كلِّها ، فإنْ كانَ فيهِ شبهةٌ . . فليحترزْ مِنْ أخذِهِ .

وقدْ ذكرنا في كتابِ الحلالِ والحرامِ درجاتِ الشبهةِ ، وما يجبُ اجتنابُهُ وما يُستحبُّ .

وأمَّا غرضُ المعطي : فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ غرضُهُ تطييبَ قلبِهِ وطلبَ محبَّتِهِ وهوَ الهديةُ ، أوِ الثوابَ وهوَ الصدقةُ والزكاةُ ، أوِ الذكرَ والرياءَ والسمعةَ ؛ إمَّا على التجرُّدِ ، وإمَّا ممزوجاً ببقيةِ الأغراضِ .

ـ **أمَّا الأوَّلُ وهوَ الهديةُ** : فلا بأسَ بقبولِها ، فإنَّ قبولَها سنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١] ، ولكنْ ينبغي ألا يكونَ فيها منَّةٌ ، فإنْ كانَ فيها منَّةٌ . . فالأولىٰ تركُها ، فإنْ علمَ أنَّ بعضَها ممَّا تعظمُ فيهِ المنَّةُ . . فليردَّ البعضَ دونَ البعضِ ، فقدْ أُهديَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمنٌ وأقطٌ وكبشٌ ، فقبلَ السمنَ والأقطَ وردَّ الكبشَ[٢] .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٩٩) ، والسياق عنده ، ورواه أحمد في « المسند » =

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُ مِنْ بعضِ الناسِ ويردُّ علىٰ بعضٍ ، وقالَ : « لقدْ هممتُ ألا أتَّهِبَ إلا مِنْ قرشيٍّ أوْ أنصاريٍّ أوْ ثقفيٍّ أوْ دوسيٍّ »(١) ، وفعلَ هٰذا جماعةٌ مِنَ التابعينَ .

وجاءَتْ إلىٰ فتحٍ الموصليِّ صرَّةٌ فيها خمسونَ درهماً ، فقالَ : حدثَنا عطاءٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « منْ أتاهُ رزقٌ مِنْ غيرِ مسألةٍ فردَّهُ . . فإنَّما يردُّهُ على اللهِ » ، ثمَّ فتحَ الصرَّةَ ، فأخذَ منها درهماً وردَّ سائرَها(٢) .

وكانَ الحسنُ يروي هٰذا الحديثَ أيضاً ، ولكنْ حملَ إليهِ رجلٌ كيساً ورزمةً مِنْ رقيقِ ثيابِ خراسانَ ، فردَّ ذلكَ وقالَ : مَنْ جلسَ مجلسي هٰذا

= (٤/ ١٧٢) عن يعلى بن مرَّة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته امرأة بابن لها قد أصابه لَمَمٌ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اخرج عدوَّ الله ، أنا رسول الله » ، فبرأ ، فأهدت له كبشين وشيئاً من أقط وسمن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يعلىٰ خذ الأقط والسمن ، وخذ أحد الكبشين وردَّ عليها الآخر » .

(١) رواه أبو داوود (٣٥٣٧) ، والترمذي (٣٩٤٥) ، **وأتهب** : أقبل هبة .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٩) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرسلاً هٰكذا ، وسيأتي بعد هٰذا بحديث ما يصحح معناه) . « إتحاف » (٩/ ٢٩٧) ، ومن ذلك ما رواه البخاري (١٤٧٣) ، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء ، فأقول : أعطه من هو أفقر إليه مني ، فقال : « إذا جاءك من هٰذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل . . فخذه ، وما لا . . فلا تتبعه نفسك » .

وقبلَ مِنَ الناسِ مثلَ هـٰذا . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ وليسَ لهُ خلاقٌ[١] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ أمرَ العالمِ والواعظِ أشدُّ في قبولِ العطاءِ .

وقدْ كانَ الحسنُ يقبلُ مِنْ أصحابهِ[٢] .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يسألُ أصحابَهُ الدرهمَ والدرهمينِ ونحوَهُ ، ويعرضُ عليهِ غيرُهُمُ المئينَ فلا يأخذُها[٣] .

وكانَ بعضُهُمْ إذا أعطاهُ صديقُهُ شيئاً . . يقولُ : اتركْهُ عندَكَ ، وانظرْ إنْ كنتُ بعدَ قبولِهِ في قلبِكَ أفضلَ منِّي قبلَ القبولِ . . فأخبرْني حتَّىٰ آخذَهُ ، وإلا . . فلا .

وأمارةُ هـٰذا أنْ يشقَّ عليهِ الردُّ لوْ ردَّهُ ، ويفرحَ بالقبولِ ويرى المنَّةَ علىٰ نفسِهِ في قبولِ صديقِهِ هديَّتَهُ ، فإنْ علمَ أنَّهُ يمازجُهُ منَّةٌ . . فأخذُهُ مباحٌ ، ولكنَّهُ مكروهٌ عندَ الفقراءِ الصادقينَ .

وقالَ بشرٌ : ما سألتُ أحداً قطُّ شيئاً إلا سرياً السقطيَّ ؛ لأنَّهُ قدْ صحَّ عندي زهدُهُ في الدنيا ، فهوَ يفرحُ بخروجِ الشيءِ مِنْ يدِهِ ، ويتبرَّمُ ببقائِهِ عندَهُ ، فأكونُ عوناً لهُ علىٰ ما يحبُّ[٤] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) ، والسياق عنده .
(٢) تطييباً لقلوبهم . « إتحاف » (٩/ ٢٩٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .

وجاءَ خراسانيٌّ إلى الجنيدِ رحمهُ اللهُ بمالٍ ، وسألَهُ أنْ يأكلَهُ ، فقالَ : أفرِّقُهُ على الفقراءِ ، فقالَ : ما أريدُ هـٰذا ، فقالَ : ومتىٰ أعيشُ حتَّىٰ آكلَ هـٰذا ؟! فقالَ : ما أريدُ أنْ تنفقَهُ في الخلِّ والبقلِ ، بلْ في الحلاوةِ والطيباتِ ، فقبلَ ذلكَ منهُ ، فقالَ الخراسانيُّ : ما أحدٌ ببغدادَ أمنَّ عليَّ منكَ ، فقالَ الجنيدُ : ولا ينبغي أنْ يُقبلَ إلا مِنْ مثلِكَ(١) .

ـ **الثاني : أنْ يكونَ للثوابِ المجرَّدِ وذلكَ صدقةٌ أوْ زكاةٌ** : فعليهِ أنْ ينظرَ في صفاتِ نفسِهِ أنَّهُ هلْ هوَ مستحقٌّ للزكاةِ ، فإنِ اشتبهَ عليهِ . . فهوَ محلُّ شبهةٍ ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ ذلكَ في كتابِ أسرارِ الزكاة ، وإنْ كانَتْ صدقةً ، وكانَ يعطيهِ لدينِهِ . . فلينظرْ إلىٰ باطنِهِ ؛ فإنْ كانَ مقارفاً لمعصيةٍ في السرِّ يعلمُ أنَّ المعطيَ لوْ علمَ ذلكَ لنفرَ طبعُهُ ، ولما تقرَّبَ إلى اللهِ بالتصدُّقِ عليهِ . . فهـٰذا حرامٌ أخذُهُ ، كما لوْ أعطاهُ لظنِّهِ أنَّهُ عالمٌ أوْ علويٌّ ولمْ يكنْ كذلكَ ، فإنَّ أخذَهُ حرامٌ محضٌ لا شبهةَ فيهِ .

ـ **الثالثُ : أنْ يكونَ غرضُهُ الشهرةَ والرياءَ والسمعةَ** : فينبغي أنْ يردَّ عليهِ قصدَهُ الفاسدَ ولا يقبلَهُ ، إذْ يكونُ معيناً لهُ علىٰ غرضِهِ الفاسدِ .

وكانَ سفيانُ الثوريُّ رحمَهُ اللهُ يردُّ ما يُعطىٰ ويقولُ : لوْ علمتُ أنَّهُمْ لا يذكرونَ ذلكَ افتخاراً بِهِ . . لأخذتُ(٢) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .

وعُوتبَ بعضُهُمْ في ردِّ ما كانَ يأتيهِ مِنْ صلةٍ ، فقالَ : إنَّما أردُّ صلتَهُمْ إشفاقاً عليهِمْ ونصحاً لهُمْ ؛ لأنَّهُمْ يذكرونَ ذلكَ ويحبُّونَ أنْ يُعلمَ بهِ ، فتذهبُ أموالُهُمْ وتحبطُ أجورُهُمْ .

وأمَّا غرضُهُ في الأخذِ : فينبغي أنْ ينظرَ أهوَ محتاجٌ إليهِ فيما لا بدَّ لهُ منهُ أوْ هوَ مستغنٍ عنهُ ، فإنْ كانَ محتاجاً إليهِ وقدْ سلمَ مِنَ الشبهةِ والآفاتِ التي ذكرناها في المعطي . . فالأفضلُ لهُ الأخذُ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما المعطي مِنْ سعةٍ بأعظمَ أجراً مِنَ الآخذِ إذا كانَ محتاجاً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أتاهُ شيءٌ مِنْ هٰذا المالِ مِنْ غيرِ مسألةٍ ولا استشرافٍ . . فإنَّما هوَ رزقٌ ساقَهُ اللهُ إليهِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « فلا يردُّهُ »(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ أُعطيَ ولمْ يأخذْ . . سألَ ولمْ يُعطَ)(٣) .

وقدْ كانَ سريٌّ السقطيُّ يوصلُ إلىٰ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُما شيئاً ، فردَّهُ مرَّةً ، فقالَ لهُ السريُّ : يا أحمدُ ؛ احذرْ آفةَ الردِّ ، فإنَّها أشدُّ مِنْ آفةِ الأخذِ ، فقالَ لهُ أحمدُ : أعدْ عليَّ ما قلتَ ، فأعادَهُ ، فقالَ أحمدُ :

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٥) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٢) ، (٤/ ٢٢٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٩٨) .

ما رددتُ عليكَ إلا لأنَّ عندي قوتَ شهرٍ ، فاحبسْهُ لي عندَكَ ، فإذا كانَ بعدَ شهرٍ فأنفذْهُ إليَّ[1] .

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : يُخافُ في الردِّ معَ الحاجةِ عقوبةٌ مِنِ ابتلاءٍ بطمعٍ ، أوْ دخولٍ في شبهةٍ أوْ غيرِهِ .

فأمَّا إذا كانَ ما أتاهُ زائداً علىٰ حاجتِهِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ حالُهُ الاشتغالَ بنفسِهِ ، أوِ التكفُّلَ بأمورِ الفقراءِ والإنفاقِ عليهِمْ لما في طبعِهِ مِنَ الرفقِ والسخاءِ ، فإنْ كانَ مشغولاً بنفسِهِ . . فلا وجهَ لأخذِهِ وإمساكِهِ إنْ كانَ طالباً طريقَ الآخرةِ ، فإنَّ ذلكَ محضُ اتباعِ الهوىٰ ، وكلُّ عملٍ ليسَ للهِ فهوَ في سبيلِ الشيطانِ أوْ داعٍ إليهِ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، **ثمَّ لهُ مقامانِ :**

أحدُهُما : أنْ يأخذَ في العلانيةِ ويردَّ في السرِّ ، أوْ يأخذَ في العلانيةِ ويفرِّقَ في السرِّ ، وهـٰذا مقامُ الصدِّيقينَ ، وهوَ شاقٌّ على النفسِ ، لا يطيقُهُ إلا مَنِ اطمأنَّتْ نفسُهُ بالرياضةِ .

والثاني : أنْ يتركَ ولا يأخذَ ؛ ليصرفَهُ صاحبُهُ إلىٰ مَنْ هوَ أحوجُ منهُ ، أوْ يأخذَ ويوصلَ إلىٰ مَنْ هوَ أحوجُ منهُ ، فيفعلُ كليهِما في السرِّ أوْ كليهِما في العلانيةِ .

وقدْ ذكرنا أنَّ الأفضلَ إظهارُ الأخذِ أوْ إخفاؤُهُ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٨) .

معَ جملةٍ مِنْ أحكامِ الفقرِ ، فليُطلبْ مِنْ موضعِهِ .

وأمَّا امتناعُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ عنْ قبولِ عطاءِ سريٍّ السقطيِّ رحمَهُما اللهُ . . فإنَّما كانَ لاستغنائِهِ عنهُ ؛ إذْ كانَ عندَهُ قوتُ شهرٍ ، ولمْ يرَ لنفسِهِ أنْ يشتغلَ بأخذِهِ وصرفِهِ إلىٰ غيرِهِ ، فإنَّ في ذلكَ آفاتٍ وأخطاراً ، والورعُ يكونُ حذراً مِنْ مظانِّ الآفاتِ ؛ إذْ لمْ يأمنْ مكيدةَ الشيطانِ علىٰ نفسِهِ .

وقالَ بعضُ المجاورينَ بمكةَ : كانَتْ عندي دراهمُ أعددتُها للإنفاقِ في سبيلِ اللهِ ، فسمعتُ فقيراً قدْ فرغَ مِنْ طوافِهِ وهوَ يقولُ بصوتٍ خفيٍّ : أنا جائعٌ كما ترىٰ ، عريانٌ كما ترىٰ ، فما ترىٰ فيما ترىٰ ، يا مَنْ يرىٰ ولا يُرى ؟ فنظرتُ فإذا عليهِ خُلْقانٌ لا تكادُ تواريهِ ، فقلتُ في نفسي : لا أجدُ لدراهمي موضعاً أحسنَ مِنْ هـٰذا ، فحملتُها إليهِ ، فنظرَ إليها ، ثمَّ أخذَ منها خمسةَ دراهمَ فقالَ : أربعةٌ ثمنُ مئزرينِ ، ودرهمٌ أنفقُهُ ثلاثاً ، فلا حاجةَ بي إلى الباقي ، فردَّهُ ، قالَ : فرأيتُهُ الليلةَ الثانيةَ وعليهِ مئزرانِ جديدانِ ، فهجسَ في نفسي منهُ شيءٌ ، فالتفتَ إليَّ ، فأخذَ بيدي ، فأطافَني معَهُ أسبوعاً ، كلَّ شوطٍ منها في جوهرٍ مِنْ معادنِ الأرضِ يتخشخشُ تحتَ أقدامِنا إلى الكعبينِ ، منها ذهبٌ ، وفضةٌ ، وياقوتٌ ، ولؤلؤٌ ، وجوهرٌ ، ولمْ يظهرْ ذلكَ للناسِ ، فقالَ : هـٰذا كلُّهُ قدْ أُعطيناهُ فزهدنا فيهِ ، ونأخذُ مِنْ أيدي الخلقِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ أثقالٌ وفتنةٌ ، وذلكَ للعبادِ فيهِ رحمةٌ ونعمةٌ(١) .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٦) بنحوه ، وفي آخره : (ونأخذ من أيدي الخلق أحب إلينا ؛ لأنه أحبُّ إلى الله وأخف علينا في المطالبة ، وهـٰذه أثقال . . .) .

والمقصودُ منْ هٰذا : أنَّ الزيادةَ علىٰ قدْرِ الحاجةِ إنَّما تأتيكَ ابتلاءً وفتنةً ، لينظرَ اللهُ إليكَ ماذا تعملُ فيهِ ، وقدرُ الحاجةِ يأتيكَ رفقاً بكَ ، فلا تغفُلْ عنِ الفرقِ بينَ الرفقِ والابتلاءِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثلاثٍ : طعامٌ يقيمُ صلبَهُ ، وثوبٌ يواري عورتَهُ ، وبيتٌ يكنُّهُ ، فما زادَ فهوَ حسابٌ »[1] .

فإذاً ؛ أنتَ في أخذِ قدرِ الحاجةِ مِنْ هٰذهِ الثلاثِ مثابٌ ، وفيما زادَ عليهِ إنْ لمْ تعصِ اللهَ متعرِّضٌ للحسابِ ، وإنْ عصيتَ اللهَ . . فأنتَ متعرِّضٌ للعقابِ .

ومِنَ الاختبارِ أيضاً أنْ تعزمَ علىٰ تركِ لذَّةٍ مِنَ اللذَّاتِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ، وكسراً لصفةِ النفسِ ، فتأتيكَ عفواً صفواً لتمتحنَ بها قوَّةَ عقلِكَ ، فالأولى الامتناعُ عنها ، فإنَّ النفسَ إذا رُخِّصَ لها في نقضِ العزمِ . . ألفَتْ نقضَ العهدِ ، وعادَتْ لعادتِها ، ولا يمكنُ قهرُها ، فردُّ ذلكَ مهمٌّ ، وهوَ الزهدُ .

فإنْ أخذتَهُ وصرفتَهُ إلىٰ محتاجٍ . . فهوَ غايةُ الزهدِ ، ولا يقدرُ عليهِ إلا الصديقونَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٨) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

فأمَّا إذا كانَتْ حالُكَ السخاءَ والبذلَ ، والتكفُّلَ بحقوقِ الفقراءِ ، وتعهُّدَ جماعةٍ مِنَ الصلحاءِ .. فخذْ ما زادَ علىٰ حاجتِكَ ، فإنَّهُ غيرُ زائدٍ علىٰ حاجةِ الفقراءِ ، وبادرْ بهِ إلى الصرفِ إليهِمْ ، ولا تدَّخرْهُ ، فإنَّ إمساكَهُ ـ ولوْ ليلةً واحدةً ـ فيه فتنةٌ واختبارٌ ، فربما يحلو في قلبِكَ فتمسكُهُ ويكونُ فتنةً عليكَ .

وقدْ تصدَّىٰ لخدمةِ الفقراءِ جماعةٌ اتخذوها وسيلةً إلى التوسُّعِ في المالِ ، والتنعُّمِ في المطعمِ والمشربِ ، وذلكَ هوَ الهلاكُ ، ومَنْ كانَ غرضُهُ الرفقَ وطلبَ الثوابِ بهِ .. فلهُ أنْ يستقرضَ علىٰ حسنِ الظنِّ باللهِ ، لا على اعتمادِ السلاطينِ الظلمةِ ، فإنْ رزقَهُ اللهُ مِنْ حلالٍ .. قضاهُ ، وإنْ ماتَ قبلَ القضاءِ .. قضاهُ اللهُ تعالىٰ عنهُ وأرضىٰ غرماءَهُ ، وذلكَ بشرطِ أنْ يكونَ مكشوفَ الحالِ عندَ مَنْ يقرضُهُ ، فلا يغرُّ المقرضَ ولا يخدعُهُ بالمواعيدِ ، بلْ يكشفُ حالَهُ عندَهُ ؛ ليقدمَ علىٰ إقراضِهِ عنْ بصيرةٍ .

ودينُ مثلِ هـٰذا الرجلِ واجبٌ أنْ يُقضىٰ مِنْ مالِ بيتِ المالِ ، ومِنَ الزكواتِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ، قيلَ : معناهُ : ليبعْ أحدَ ثوبيهِ ، وقيلَ : معناهُ : فليستقرضْ بجاهِهِ ، فذلكَ ممَّا قدْ آتاهُ اللهُ (١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (للهِ تعالىٰ عبادٌ ينفقونَ علىٰ قدْرِ بضائِعِهِمْ ، وللهِ عبادٌ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .

ينفقونَ علىٰ قدْرِ حسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ)[1] .

وماتَ بعضُهُمْ فأوصىٰ بمالِهِ لثلاثِ طوائفَ : الأقوياءُ ، والأسخياءُ ، والأغنياءُ ، فقيلَ : مَنْ هؤلاءِ ؟ فقالَ : أمَّا الأقوياءُ . . فهمْ أهلُ التوكُّلِ على اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الأسخياءُ . . فهُمْ أهلُ حسنِ الظنِّ باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الأغنياءُ . . فهُمْ أهلُ الانقطاعِ إلى الله تعالىٰ[2] .

فإذاً ؛ مهما وُجدَتْ هـٰذهِ الشروطُ فيهِ وفي المالِ وفي المعطي . . فليأخذْهُ .

وينبغي أنْ يرىٰ ما يأخذُهُ مِنَ اللهِ لا مِنَ المعطي ، إنَّما المعطي واسطةٌ قدْ سُخِّرَ للعطاءِ ، وهوَ مضطرٌّ إليهِ بما سُلِّطَ عليهِ مِنَ الدواعي والإراداتِ والاعتقاداتِ .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الناسِ دعا شقيقاً في خمسينَ مِنْ أصحابِهِ ، فوضعَ الرجلُ مائدةً حسنةً ، فلمَّا قعدَ . . قالَ لأصحابِهِ : إنَّ هـٰذا الرجلَ يقولُ : مَنْ لمْ يرني صنعتُ هـٰذا الطعامَ وقدمتُهُ . . فطعامي عليهِ حرامٌ ، فقاموا كلُّهُمْ وخرجوا إلا شاباً منهُمْ كانَ دونَهُمْ في الدرجةِ ، فقالَ صاحبُ المنزلِ لشقيقٍ : ما قصدتَ بهـٰذا ؟ قالَ : أردتُ أنْ أختبرَ توحيدَ أصحابي كلِّهِمْ[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٠) .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ جعلتَ رزقي هٰكذا علىٰ أيدي بني إسرائيلَ ، يغدِّيني هٰذا يوماً ، ويعشِّيني هٰذا ليلةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، هٰكذا أصنعُ بأوليائي ، أجري أرزاقَهُمْ علىٰ أيدي البطَّالينَ مِنْ عبادي ليؤجروا فيهِمْ[1] .

فلا ينبغي أنْ يرى المعطيَ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ مسخَّرٌ مأجورٌ منَ اللهِ تعالىٰ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضاهُ .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٠) .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورته، وآداب الفقير المضطر فيه

اعلمْ : أنَّهُ قدْ وردَتْ مناهٍ كثيرةٌ في السؤالِ وتشديداتٌ ، ووردَ فيهِ أيضاً ما يدلُّ على الرخصةِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للسائلِ حقٌّ وإنْ جاءَ علىٰ فرسٍ »(١) .

وفي الحديثِ : « ردُّوا السائلَ ولوْ بظلفٍ محرَّقٍ »(٢) .

ولوْ كانَ السؤالُ حراماً مطلقاً . . لما جازَ إعانةُ المعتدي علىٰ عدوانِهِ ، والإعطاءُ إعانةٌ .

فالكاشفُ للغطاءِ فيهِ أنَّ السؤالَ حرامٌ في الأصلِ ، وإنَّما يُباحُ بضرورةٍ أوْ حاجةٍ مهمَّةٍ قريبةٍ مِنَ الضرورةِ ، فإنْ كانَ عنها بدٌّ . . فهوَ حرامٌ .

وإنَّما قلنا : إنَّ الأصلَ فيهِ التحريمُ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ ثلاثةِ أمورٍ محرَّمةٍ :

الأوَّلُ : إظهارُ الشكوىٰ من اللهِ تعالىٰ :

إذِ السؤالُ إظهارٌ للفقرِ ، وذكرٌ لقصورِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عنهُ ، وهوَ عينُ

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٦٥) من حديث سيدنا الحسين رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٩٦) عن زيد بن أسلم مرسلاً : « أعطوا السائل وإن جاء علىٰ فرس » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٣٥) بلفظه وتمامه ، وبنحوه هو عند أبي داوود (١٦٦٧) ، والترمذي (٦٦٥) ، والنسائي (٥/ ٨١) .

الشكوىٰ ، وكما أنَّ العبدَ المملوكَ لوْ سألَ لكانَ سؤالُهُ تشنيعاً علىٰ سيِّدِهِ . . فكذلكَ سؤالُ العبادِ تشنيعٌ على اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا ينبغي أنْ يحرمَ ولا يحلَّ إلا لضرورةٍ كما تحلُّ الميتةُ .

* * *

والثاني : أنَّ فيهِ إذلالَ السائلِ نفسَهُ لغيرِ اللهِ تعالىٰ :

وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ لغيرِ اللهِ ، بلْ عليهِ أنْ يذلَّ نفسَهُ لمولاهُ ، فإنَّ فيهِ عزَّهُ ، فأمَّا سائرُ الخلقِ . . فإنَّهُمْ عبادٌ أمثالُهُ ، فلا ينبغي أنْ يذلَّ لهُمْ إلا لضرورةٍ ، وفي السؤالِ ذلٌّ للسائلِ بالإضافةِ إلى المسؤولِ .

* * *

والثالثُ : أنَّهُ لا ينفكُّ عنْ إيذاءِ المسؤولِ غالباً :

لأنَّهُ ربما لا تسمحُ نفسُهُ بالبذلِ عنْ طيبةِ قلبٍ منهُ ، فإنْ بذلَ حياءً مِنَ السائلِ أوْ رياءً . . فهوَ حرامٌ على الآخذِ ، وإنْ منعَ . . ربما استحيا وتأذَّىٰ في نفسِهِ بالمنعِ ، إذْ يرىٰ نفسَهُ في صورةِ البخلاءِ ، ففي البذلِ نقصانُ مالِهِ ، وفي المنعِ نقصانُ جاهِهِ ، وكلاهما مؤذيانِ ، والسائلُ هوَ السببُ في الإيذاءِ ، والإيذاءُ حرامٌ إلا بضرورةٍ .

* * *

ومهما فهمتَ هـٰذهِ المحذوراتِ الثلاثَ . . فهمتَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مسألةُ الناسِ مِنَ الفواحشِ ، ما أُحلَّ مِنَ الفواحشِ

غيرُها »[1] ، فانظرْ كيفَ سمَّاها فاحشةً ، ولا يخفىٰ أنَّ الفاحشةَ إنَّما تُباحُ لضرورةٍ كما يُباحُ شربُ الخمرِ لمَنْ غصَّ بلقمةٍ وهوَ لا يجدُ غيرَهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سألَ عنْ غنىً . . فإنَّما يستكثرُ مِنْ جمرِ جهنَّمَ ، ومَنْ سألَ ولهُ ما يغنيهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتقعقعُ ، ليسَ عليهِ لحمٌ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « كانَتْ مسألتُهُ خدوشاً وكدوحاً في وجهِهِ »[2] ، وهاذهِ الألفاظُ صريحةٌ في التحريمِ والتشديدِ .

وبايعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قوماً على الإسلامِ ، فاشترطَ عليهِمُ السمعَ والطاعةَ ، ثمَّ قالَ لهُمْ كلمةً خفيةً : « ولا تسألوا الناسَ شيئاً »[3] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ كثيراً بالتعفُّفِ عنِ السؤالِ ويقولُ : « مَنْ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) حيث قال : (وقد روينا في الخبر . . .) وذكره ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٣٠٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) ، وقد روىٰ أبو داوود (١٦٢٩) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه مرفوعاً : « من سأل وعنده ما يغنيه . . فإنما يستكثر من النار » ، وعنده أيضاً : « من جمر جهنم » ، وعند البخاري (١٤٧٥) ، ومسلم (١٠٤٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم » ، وروىٰ أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/ ٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من سأل وله ما يغنيه . . جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه » .

(٣) رواه مسلم (١٠٤٣) .

سألنا . . أعطيناهُ ، ومَنِ استغنىٰ . . أغناهُ اللهُ »[١] ، وقالَ : « ومَنْ لمْ يسألْنا . . فهوَ أحبُّ إلينا »[٢] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استغنوا عنِ الناسِ ، وما قلَّ مِنَ السؤالِ فهوَ خيرٌ » ، قالوا : ومنكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ومنِّي »[٣] .

وسمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ سائلاً يسألُ بعدَ المغربِ ، فقالَ لواحدٍ مِنْ قومِهِ : عشِّ الرجلَ ، فعشَّاهُ ، ثمَّ سمعَهُ ثانيةً يسألُ ، فقالَ : ألمْ أقلْ لكَ عشِّ الرجلَ ؟! قالَ : قدْ عشَّيتُهُ ، فنظرَ عمرُ فإذا تحتَ يدِهِ مخلاةٌ مملوءةٌ خبزاً ، فقالَ : لستَ سائلاً ، ولكنَّكَ تاجرٌ ، ثمَّ أخذَ المخلاةَ ونثرَهَا بينَ يدي إبلِ الصدقةِ ، وضربَهُ بالدِّرَّةِ ، وقالَ : لا تعدْ[٤] . ولولا أنَّ سؤالَهُ كانَ حراماً . . لما ضربَهُ ولا أخذَ مخلاتَهُ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٩٣) ، ورواه النسائي (٥/٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه : « من استغنىٰ . . أغناه الله ، ومن استعف . . أعفه الله عز وجل ، ومن استكفىٰ . . كفاه الله عز وجل . . . » الحديث ، ولفظ : « من سألنا . . أعطيناه » عند ابن حبان في « صحيحه » (٣٣٩٨) .

(٢) هـٰذه الرواية رواها ابن أبي الدنيا في « القناعة والتعفف » (٧٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٩٣) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٣/٤٣٤) من حديث حكيم بن حزام ، ولفظه : « اليد العليا خير من اليد السفلىٰ ، وليبدأ أحدكم بمن يعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً ، ومن يستغن . . يغنه الله ، ومن يستعفف . . يعفه الله » ، فقلت : ومنك يا رسول الله ؟ قال : « ومني » ، وعند البزار في « مسنده » (٤٨٢٤) ، والطبراني في « الكبير » (١١/٤٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك » .

(٤) قوت القلوب (٢/١٩٣) .

ولعلَّ الفقيهَ الضعيفَ المُنَّةِ الضيِّقَ الحوصلةِ يستبعدُ هٰذا مِنْ فعلِ عمرَ ، ويقولُ : أمَّا ضربُهُ.. فهوَ تأديبٌ ، وقدْ وردَ الشرعُ بالتعزيرِ ، وأمَّا أخذُهُ مالَهُ.. فهوَ مصادرةٌ ، والشرعُ لمْ يردْ بالعقوبةِ بالمالِ ، فكيفَ استجازَهُ ؟

وهوَ استبعادٌ مصدرُهُ القصورُ في الفقهِ ، فأينَ يظهرُ الفقهاءُ كلُّهُمْ في حوصلةِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ واطلاعِهِ علىٰ أسرارِ دينِ اللهِ ومصالحِ عبادِهِ ؟! أفترىٰ أنَّهُ لمْ يعلمْ أنَّ المصادرةَ بالمالِ غيرُ جائزةٍ ، أوْ علمَ ذلكَ ولكنْ أقدمَ عليهِ غضباً في معصيةِ اللهِ وحاشاهُ ، أوْ أرادَ الزجرَ بالمصلحةِ بغيرِ طريقٍ شرعَها نبيُّ اللهِ ؟! وهيهاتَ ! فإنَّ ذلكَ أيضاً معصيةٌ .

بلِ الفقهُ الذي لاحَ لهُ فيهِ أنَّهُ رآهُ مستغنياً عنِ السؤالِ ، وعلمَ أنَّ مَنْ أعطاهُ شيئاً فإنَّما أعطاهُ على اعتقادِ أنَّهُ محتاجٌ ، وقدْ كانَ كاذباً ، فلمْ يدخلْ في ملكِهِ بأخذِهِ معَ التلبيسِ ، وعسرَ تمييزُ ذلكَ وردُّهُ إلىٰ أصحابِهِ ؛ إذْ لا يُعرفُ أصحابُهُ بأعيانِهِمْ ، فبقيَ مالاً لا مالكَ لهُ ، فوجبَ صرفُهُ إلى المصالحِ ، وإبلُ الصدقةِ وعلفُها مِنَ المصالحِ .

ويتنزَّلُ أخذُ السائلِ معَ إظهارِ الحاجةِ كاذباً كأخذِ العلويِّ بقولِهِ : إنِّي علويٌّ وهوَ كاذبٌ ؛ فإنَّهُ لا يملكُ ما يأخذُهُ ، وكأخذِ الصوفيِّ والصالحِ الذي يُعطىٰ لصلاحِهِ وهوَ في الباطنِ مقارفٌ معصيةً لوْ عرفَها المعطي.. لما أعطاهُ ، وقدْ ذكرنا في مواضعَ أنَّ ما أخذوهُ علىٰ هٰذا الوجهِ لا يملكونَهُ ، وهوَ حرامٌ عليهِمْ ، ويجبُ عليهِمُ الردُّ إلىٰ مالكِهِ ، فاستَدِلَّ بفعلِ عمرَ

رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ صحّةِ هـٰذا المعنى الذي يغفُلُ عنهُ كثيرٌ مِنَ الفقهاءِ ، وقدْ قررناهُ في مواضعَ ، ولا تستدلَّ بغفلتِكَ عنْ هـٰذا الفقهِ علىٰ بطلانِ فعلِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ .

فإذا عرفتَ أنَّ السؤالَ يُباحُ لضرورةٍ . . فاعلمْ أنَّ الشيءَ إمَّا أنْ يكونَ مضطراً إليهِ ، أوْ محتاجاً إليهِ حاجةً مهمَّةً ، أوْ حاجةً خفيفةً ، أوْ مستغنىً عنهُ ، فهـٰذهِ أربعةُ أحوالٍ .

أمَّا المضطرُّ إليهِ : فهوَ سؤالُ الجائعِ عندَ خوفِهِ علىٰ نفسِهِ موتاً أوْ مرضاً ، وسؤالُ العاري وبدنُهُ مكشوفٌ ليسَ معهُ ما يواريهِ ، وهوَ مباحٌ مهما وُجدَتْ بقيَّةُ الشروطِ في المسؤولِ بكونِهِ مباحاً ، والمسؤولِ منهُ بكونِهِ راضياً في الباطنِ ، والسائلِ بكونِهِ عاجزاً عنِ الكسبِ ؛ فإنَّ القادرَ على الكسبِ وهوَ بطَّالٌ ليسَ لهُ السؤالُ إلا إذا استغرقَ طلبُ العلمِ أوقاتَهُ ، وكلُّ مَنْ لهُ خطٌّ فهوَ قادرٌ على الكسبِ بالوراقةِ .

وأمَّا المستغني . . فهوَ الذي يطلبُ شيئاً وعندَهُ مثلُهُ أوْ أمثالُهُ ، فسؤالُهُ حرامٌ قطعاً . وهـٰذانِ طرفانِ واضحانِ .

وأمَّا المحتاجُ حاجةً مهمَّةً : فكالمريضِ الذي يحتاجُ إلىٰ دواءٍ ليسَ يظهرُ خوفُهُ لوْ لمْ يستعملْهُ ولكنَّهُ لا يخلو عنْ خوفٍ ، وكمَنْ لهُ جبَّةٌ ولا قميصَ تحتها في الشتاءِ وهوَ يتأذَّىٰ بالبردِ تأذِّياً لا ينتهي إلىٰ حدِّ الضرورةِ ، وكذلكَ مَنْ يسألُ لأجلِ الكراءِ وهوَ قادرٌ على المشيِ بمشقَّةٍ ، فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ

تسترسلَ عليهِ الإباحةُ ؛ لأنَّها أيضاً حاجةٌ محقَّقةٌ ، ولكنِ الصبرُ عليهِ أولىٰ ، وهو بالسؤالِ تاركٌ للأولىٰ ، ولا يُسمَّىٰ سؤالُهُ مكروهاً مهما صدقَ في السؤالِ وقالَ : (ليسَ تحتَ جبَّتي قميصٌ ، والبردُ يؤذيني أذىً أطيقُهُ ، ولكنْ يشقُّ عليَّ) ، فإذا صدقَ . . فصدقُهُ يكونُ كفَّارةً لسؤالِهِ إنْ شاءَ اللهُ .

وأمَّا الحاجةُ الخفيفةُ : فمثلُ سؤالِهِ قميصاً ليلبسَهُ فوقَ ثيابِهِ عندَ خروجِهِ فيسترَ الخروقَ التي في ثيابِهِ عنْ أعينِ الناسِ ، وكمَنْ يسألُ لأجلِ الأدمِ وهوَ واجدٌ للخبزِ ، وكمَنْ يسألُ لكراءِ الفرسِ في الطريقِ وهوَ واجدٌ كراءَ الحمارِ ، أوْ يسألُ كراءَ المحملِ وهوَ قادرٌ على الراحلةِ ، فهـٰذا ونحوُهُ إنْ كانَ فيهِ تلبيسُ حالٍ بإظهارِ حاجةٍ غيرِ هـٰذهِ . . فهوَ حرامٌ ، وإنْ لمْ يكنْ وكانَ فيهِ شيءٌ مِنَ المحذوراتِ الثلاثةِ ؛ مِنَ الشكوىٰ ، أوِ الذلِّ ، أوْ إيذاءِ المسؤولِ . . فهوَ حرامٌ ؛ لأنَّ مثلَ هـٰذهِ الحاجةِ لا تصلحُ لأنْ تُباحَ بها هـٰذهِ المحذوراتُ ، وإنْ لمْ يكنْ فيها شيءٌ مِنْ ذلكَ . . فهوَ مباحٌ معَ الكراهةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يمكنُ إخلاءُ السؤالِ عنْ هـٰذهِ المحذوراتِ ؟

فاعلمْ : أنَّ **الشكوىٰ** تندفعُ بأنْ يظهرَ الشكرَ للهِ تعالىٰ والاستغناءَ عنِ الخلقِ ، ولا يسألَ سؤالَ محتاجٍ ، ولكنْ يقولُ : (أنا مستغنٍ بما أملكُهُ ، ولكنْ تطالبُني رعونةُ النفسِ بثوبٍ فوقَ ثيابي ، وهوَ فضلةٌ عنِ الحاجةِ وفضولٌ مِنَ النفسِ) ، فيخرجُ بهِ عنْ حدِّ الشكوىٰ .

وأمَّا الذلُّ . . فأنْ يسألَ أباهُ أوْ قريبَهُ أوْ صديقَهُ الذي يعلمُ أنَّهُ لا ينقصُهُ ذلكَ في عينِهِ ، ولا يزدريهِ بسببِ سؤالِهِ ، أوِ الرجلَ السخيَّ الذي قدْ أعدَّ مالَهُ لمثلِ هـٰذهِ المكارمِ ، فيفرحُ بوجودِ مثلِهِ ، ويتقلَّدُ منهُ منَّةً بقبولِهِ ، فيسقطُ عنهُ الذلُّ بذلكَ ، فإنَّ الذلَّ لازمٌ للمنَّةِ لا محالةَ .

وأمَّا الإيذاءُ . . فسبيلُ الخلاصِ عنهُ ألا يعيِّنَ شخصاً بالسؤالِ بعينِهِ ، بلْ يلقي الكلامَ عرضاً بحيثُ لا يقدمُ على البذلِ إلا متبرِّعٌ بصدقِ الرغبةِ .

وإنْ كانَ في القومِ شخصٌ مرموقٌ لوْ لمْ يبذلْ لكانَ يُلامُ . . فهـٰذا إيذاءٌ ، فإنَّهُ ربما يبذلُ كُرهاً خوفاً مِنَ الملامةِ ، ويكونُ الأحبُّ إليهِ في الباطنِ الخلاصَ لوْ قدرَ عليهِ مِنْ غيرِ ملامةٍ .

وأمَّا إذا كانَ يسألُ شخصاً معيّناً . . فينبغي ألا يصرِّحَ ، بلْ يعرِّضُ تعريضاً يُبقي لهُ سبيلاً إلى التغافلِ إنْ أرادَ ، فإذا لمْ يتغافلْ معَ القدرةِ عليهِ . . فذلكَ لرغبتِهِ ، وأنَّهُ غيرُ متأذٍّ بهِ .

وينبغي أنْ يسألَ مَنْ لا يستحيي منهُ لوْ ردَّهُ أوْ تغافلَ عنهُ ، فإنَّ الحياءَ مِنَ السائلِ يؤذي ؛ كما أنَّ الرياءَ معَ غيرِ السائلِ يؤذي .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فإذا أخذَ معَ العلمِ بأنَّ باعثَ المعطي هوَ الحياءُ منهُ أوْ مِنَ الحاضرينَ ، ولولاهُ لما ابتدأهُ بهِ . . فهوَ حلالٌ أوْ شبهةٌ ؟

فأقولُ : ذلكَ حرامٌ محضٌ لا خلافَ فيهِ بينَ الأمَّةِ ، وحكمُهُ حكمُ أخذِ

مالِ الغيرِ بالضربِ والمصادرةِ ، إذْ لا فرقَ بينَ أنْ يضربَ ظاهرَ جلدِهِ بسياطِ الخشبِ ، أوْ يضربَ باطنَ قلبِهِ بسوطِ الحياءِ وخوفِ الملامِ ، وضربُ الباطنِ أشدُّ نكايةً في قلوبِ العقلاءِ ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ : هوَ في الظاهرِ قدْ رضيَ بهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ نحكمُ بالظاهرِ واللهُ يتولَّى السرائرَ »(١) ؛ فإنَّ هاذهِ ضرورةُ القضاةِ في فصلِ الخصوماتِ ، إذْ لا يمكنُ ردُّهُمْ إلى البواطنِ وقرائنِ الأحوالِ ، فاضطروا إلى الحكمِ بظاهرِ اللسانِ معَ أنَّهُ ترجمانٌ كثيرُ الكذبِ ، ولكنَّ الضرورةَ دعَتْ إليهِ ، وهاذا سؤالٌ عمَّا بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والحاكمُ فيه أحكمُ الحاكمينَ ، والقلوبُ عندَهُ كالألسنةِ عندَ سائرِ الحكَّامِ ، فلا تنظرْ في مثلِ هاذا إلا إلىٰ قلبكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ ، فإنَّ المفتيَ معلِمُ القاضيَ والسلطانَ ليحكموا في عالمِ الشهادةِ ، ومفتي القلوبِ هُمْ علماءُ الآخرةِ ، وبفتواهُمُ النجاةُ مِنْ سطوةِ سلطانِ الآخرةِ ، كما أنَّ بفتوى الفقيهِ النجاةَ مِنْ سطوةِ سلطانِ الدنيا .

---

(١) قال الحافظ ابن الملقن في « البدر المنير » (٩/ ٥٩٠) : (هاذا الحديث غريب لا أعلم من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة ولا غيرها ، وسئل عنه حافظ زماننا جمال الدين المزي فقال : لا أعرفه) ، وبوّب الإمام مسلم في « صحيحه » (باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة) وساق (١٧١٣) حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له علىٰ نحو مما أسمع منه . . . » الحديث ، وروىٰ مسلم (١٠٦٤/ ١٤٤) ضمن خبر : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » الحديث ، قال الإمام النووي في « شرحه صحيح مسلم » (٧/ ١٦٣) : (معناه : إني أمرت بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص٩١) .

فإذاً ؛ ما يأخذُهُ معَ الكراهةِ لا يملكُهُ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، ويجبُ عليهِ ردُّهُ علىٰ صاحبِهِ ، فإنْ كانَ يستحيي مِنْ أنْ يستردَّهُ ولَمْ يستردَّهُ . . فعليهِ أنْ يثيبَهُ علىٰ ذلكَ بما يساوي قيمتَهُ في معرضِ الهديَّةِ والمقابلةِ ، ليتفصَّىٰ عنْ عهدتِهِ ، فإنْ لَمْ يقبلْ هديَّتَهُ . . فعليهِ أنْ يردَّ ذلكَ إلىٰ ورثتِهِ ، فإنْ تلفَ في يدِهِ . . فهوَ مضمونٌ عليهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ عاصٍ بالتصرُّفِ فيهِ ، وبالسؤالِ الذي حصلَ بهِ الأذىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذا أمرٌ باطنٌ يعسرُ الاطلاعُ عليهِ ، فكيفَ السبيلُ فيهِ ؟ فربما يظنُّ السائلُ أنَّهُ راضٍ ولا يكونُ هوَ في الباطنِ راضياً .

فأقولُ : لهـٰذا تركَ المتقونَ السؤالَ رأساً ، فما كانوا يأخذونَ مِنْ أحدٍ شيئاً أصلاً ، فكانَ بشرٌ لا يأخذُ مِنْ أحدٍ أصلاً إلا مِنَ السريِّ رحمةُ اللهِ عليهِما ، وقالَ : (لأنِّي علمتُ أنَّهُ يفرحُ بخروجِ المالِ مِنْ يدِهِ ، فأنا أعينُهُ علىٰ ما يحبُّهُ)[1] .

وإنَّما عظمَ النكيرُ في السؤالِ وتأكَّدَ الأمرُ بالتعفُّفِ لهـٰذا ؛ لأنَّ هـٰذا الأذىٰ إنَّما يحلُّ بضرورةٍ ، وهوَ أن يكونَ السائلُ مشرفاً على الهلاكِ ، ولمْ يبقَ لهُ سبيلٌ إلى الخلاصِ ، ولمْ يجدْ مَنْ يعطيهِ مِنْ غيرِ كراهةٍ وأذىً ، فيُباحُ لهُ ذلكَ كما يُباحُ لهُ أكلُ لحمِ الخنزيرِ وأكلُ لحمِ الميتةِ ، فكانَ الامتناعُ طريقَ الورعينَ .

ومِنْ أربابِ القلوبِ مَنْ كانَ واثقاً ببصيرتِهِ في الاطلاعِ علىٰ قرائنِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٩) .

الأحوالِ ، فكانوا يأخذونَ مِنْ بعضِ الناسِ دونَ البعضِ ، ومنهُمْ مَنْ كانَ لا يأخذُ إلا مِنْ أصدقائِهِ ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يأخذُ ممَّا يعطىٰ بعضاً ويردُّ بعضاً ، كما فعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الكبشِ والسمنِ والأقطِ[1] ، وكانَ هٰذا فيما يأتيهِمْ مِنْ غيرِ سؤالٍ ؛ فإنَّ ذلكَ لا يكونُ إلا عنْ رغبةٍ ، ولكنْ قدْ تكونُ رغبتُهُ طمعاً في جاهٍ ، أوْ طلباً لرياءٍ وسمعةٍ ، فكانوا يحترزونَ مِنْ ذلكَ .

فأمَّا السؤالُ . . فقدِ امتنعوا عنهُ رأساً إلا في موضعينِ :

أحدُهُما : الضرورةُ : فقدْ سألَ ثلاثةٌ مِنَ الأنبياءِ في موضعِ الضرورةِ ؛ سليمانُ ، وموسىٰ ، والخضرُ عليهِمُ السلامُ ، ولا شكَّ في أنَّهُمْ ما سألوا إلا مَنْ علموا أنَّهُ يرغبُ فيهِمْ .

والثاني : السؤالُ مِنَ الأصدقاءِ والإخوانِ : فقدْ كانوا يأخذونَ مالَهُمْ بغيرِ سؤالٍ واستئذانٍ ؛ لأنَّ أربابَ القلوبِ علموا أنَّ المطلوبَ رضا القلبِ لا نطقُ اللسانِ ، وكانوا قدْ وثقوا بإخوانِهِمْ أنَّهُمْ كانوا يفرحونَ بمباسطتِهِمْ ، فإذاً ؛ كانوا يسألونَ الإخوانَ عندَ شكِّهِمْ في اقتدارِ إخوانِهِمْ علىٰ ما يريدونَهُ ، وإلا . . فكانوا يستغنونَ عنِ السؤالِ .

وحدُّ إباحةِ السؤالِ : أنْ تعلمَ أنَّ المسؤولَ بصفةٍ لوْ علمَ ما بكَ مِنَ الحاجةِ . . لابتدأَكَ دونَ السؤالِ ، فلا يكونُ لسؤالِكَ تأثيرٌ إلا في تعريفِ حاجتِكَ ، فأمَّا في تحريكِهِ بالحياءِ ، وإثارةِ داعيتِهِ بالحيلِ . . فلا .

---

(١) روىٰ ذلك أحمد في « المسند » (٤/ ١٧٢) .

ويتصدَّىٰ للسائلِ حالةٌ لا يشكُّ فيها في الرضا بالباطنِ ، وحالةٌ لا يشكُّ في الكراهةِ ، ويعلمُ ذلكَ بقرينةِ الأحوالِ ، فالأخذُ في الحالةِ الأولىٰ حلالٌ طلْقٌ ، وفي الثانيةِ حرامٌ سُحْتٌ ، ويتردَّدُ بينَ الحالتينِ أحوالٌ يشكُّ فيها ، فليستفتِ فيها قلبَهُ ، وليتركْ حزَّازَ القلبِ ، فإنَّهُ الإثمُ ، وليدعْ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وإدراكُ ذلكَ بقرائنِ الأحوالِ سهلٌ علىٰ مَنْ قويَتْ فطنتُهُ ، وضعفَ حرصُهُ وشهوتُهُ ، فإنْ قويَ الحرْصُ وضعفَتِ الفطنةُ . . تراءَىٰ لهُ ما يوافقُ غرضَهُ ، فلا يتفطَّنُ للقرائنِ الدالَّةِ على الكراهةِ .

وبهـٰذهِ الدقائقِ يُطلعُ علىٰ سرِّ قولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجلُ مِنْ كسبِهِ »[1] ، وقدْ أُوتيَ جوامعَ الكلمِ ؛ لأنَّ مَنْ لا كسبَ لهُ ، ولا مالَ ورثَهُ مِنْ كسبِ أبيهِ أوْ أحدِ قرابتِهِ ؛ فيأكلُ مِنْ أيدي الناسِ ، وإنْ أُعطيَ بغيرِ سؤالٍ . . فإنَّما يُعطىٰ بدينِهِ ، ومتىٰ يكونُ باطنُهُ بحيثُ لوِ انكشفَ . . لا يُعطىٰ بدينِهِ ؟! فيكونُ ما يأخذُهُ حراماً ، وإنْ أُعطيَ بسؤالٍ . . فأينَ مَنْ يطيبُ قلبُهُ بالعطاءِ إذا سُئِلَ ؟ وأينَ مَنْ يقتصرُ في السؤالِ علىٰ حدِّ الضرورةِ ؟

فإذا فتَّشتَ أحوالَ مَنْ يأكلُ مِنْ أيدي الناسِ . . علمتَ أنَّ جميعَ ما يأكلُهُ أوْ أكثرَهُ سحتٌ ، وأنَّ الطيِّبَ هوَ الكسبُ الذي اكتسبتَهُ بحلالِكَ أنتَ أوْ مورِّثُكَ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٠) .

فإذاً ؛ بعيدٌ أنْ يجتمعَ الورعُ معَ الأكلِ مِنْ أيدي الناسِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقطعَ طمعَنا عنْ غيرِهِ ، وأنْ يغنيَنا بحلالِهِ عنْ حرامِهِ وبفضلِهِ عمَّنْ سواهُ ، بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ؛ فإنَّهُ علىٰ ما يشاءُ قديرٌ .

بيان مقدار الغنى المحرِّم للسؤال

اعلمْ : أنَّ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سألَ عنْ ظهرِ غنىً . . فإنَّما يسألُ جمراً ، فليستقلَّ منهُ ، أوْ ليستكثرْ »(١) صريحٌ في التحريمِ ، ولكنْ حدُّ الغنىٰ مشكلٌ ، وتقديرُهُ عسيرٌ ، وليسَ إلينا وضعُ المقاديرِ ، بلْ يُستدركُ ذلكَ بالتوقيفِ .

وقدْ وردَ في الحديثِ : « استغنوا بغنى اللهِ تعالىٰ عنْ غيرِهِ » ، قالوا : وما هوَ : قالَ : « غداءُ يومٍ وعشاءُ ليلةٍ »(٢) .

وفي حديثٍ آخرَ : « مَنْ سألَ ولهُ خمسونَ درهماً أوْ عدلُها مِنَ الذهبِ . . فقدْ سألَ إلحافاً »(٣) .

ووردَ في لفظٍ آخرَ : « أربعون درهماً »(٤) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٣١) ، وبنحوه أبو داوود (١٦٢٩) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٩٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٨٠) ، وهو عند أبي داوود (١٦٢٩) ولفظه : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من النار » ، فقالوا : وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعشيه » ، وعند أحمد في « المسند » (١/ ١٤٧) من حديث علي كرم الله وجهه : قالوا : وما ظهر غنىً ؟ قال : « عشاء ليلة » .

(٣) رواه أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/ ٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) بنحوه .

(٤) رواه أبو داوود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٥/ ٩٨) .

ومهما اختلفَتِ التقديراتُ وصحَّتِ الأخبارُ . فينبغي أنْ يُقطعَ بورودِها علىٰ أحوالٍ مختلفةٍ ، فإنَّ الحقَّ في نفسِهِ لا يكونُ إلا واحداً ، والتقديرُ ممتنعٌ ، وغايةُ الممكنِ فيهِ تقريبٌ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بتقسيمٍ محيطٍ بأحوالِ المحتاجينَ ، فنقولُ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثلاثٍ : طعامٌ يقيمُ صلبَهُ ، وثوبٌ يواري عورتَهُ ، وبيتٌ يكنُّهُ ، فما زادَ فهوَ حسابٌ »[1] ، فلنجعلْ هـٰذهِ الثلاثَ أصلاً في الحاجاتِ لبيانِ أجناسِها ، والنظرُ في الأجناسِ والمقاديرِ والأوقاتِ .

فأمَّا الأجناسُ : فهيَ هـٰذهِ الثلاثُ ، ويلحقُ بها ما في معناها ، حتَّىٰ يلحقُ بها الكراءُ للمسافرِ إذا كانَ لا يقدرُ على المشيِ ، وكذلكَ ما يجري مَجراهُ مِنَ المهمَّاتِ ، ويلحقُ بنفسِهِ عيالُهُ وولدُهُ ، وكلُّ مَنْ تحتَ كفالتِهِ كالدابةِ أيضاً .

وأمَّا المقاديرُ : فالثوبُ يُراعىٰ فيهِ ما يليقُ بذوي الدينِ ، وهوَ ثوبٌ واحدٌ ، وقميصٌ ، ومنديلٌ ، وسراويلُ ، ومداسٌ ، فأمَّا الثاني مِنْ كلِّ جنسٍ . فهوَ مستغنىً عنهُ ، وليقسْ علىٰ هـٰذا أثاثَ البيتِ جميعَهُ .

ولا ينبغي أنْ يطلبَ رقةَ الثيابِ ، وكونَ الأواني مِنَ النحاسِ والصفرِ فيما

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٨) ، ورواه الترمذي (٢٣٤١) بنحوه .

يكفي فيهِ الخزفُ ؛ فإنَّ ذلكَ مستغنىً عنهُ ، فيقتصرُ مِنَ العددِ علىٰ واحدٍ ، ومِنَ النوعِ علىٰ أخسِّ أجناسهِ ما لمْ يكنْ في غايةِ البعدِ عنِ العادةِ .

وأمَّا الطعامُ . . فقدْرُهُ في اليومِ مدٌّ ، وهوَ ما قدَّرَهُ الشرعُ ، ونوعُهُ ما يُقتاتُ ولوْ كانَ منَ الشعيرِ ، والأدمُ على الدوامِ فضلةٌ ، وقطعُهُ بالكلِّيَّةِ إضرارٌ ، ففي طلبهِ في بعضِ الأحوالِ رخصةٌ .

وأمَّا المسكنُ . . فأقلُّهُ ما يجزىءُ مِنْ حيثُ المقدارُ ، وذلكَ مِنْ غيرِ زينةٍ ، فأمَّا السؤالُ للزينةِ والتوسُّعِ . . فهوَ سؤالٌ عنْ ظهرِ غنىً .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الأوقاتِ : فما يحتاجُ إليهِ في الحالِ مِنَ طعامِ يومٍ وليلةٍ ، وثوبٍ يلبسُهُ ، ومأوىً يكنُّهُ . . فلا شكَّ فيهِ ، فأمَّا سؤالُهُ للمستقبلِ . . فهٰذا لهُ ثلاثُ درجاتٍ :

إحداها : ما يحتاجُ إليهِ في غدٍ .

والثانيةُ : ما يحتاجُ إليهِ في أربعينَ يوماً أوْ خمسينَ يوماً .

والثالثةُ : ما يحتاجُ إليهِ في السنةِ .

ولنقطعْ بأنَّ مَنْ معَهُ ما يكفيهِ لهُ ولعيالِهِ ـ إنْ كانَ لهُ عيالٌ ـ لسنةٍ . . فسؤالُهُ حرامٌ ؛ فإنَّ ذلكَ غايةُ الغنىٰ ، وعليهِ يُنزَّلُ التقديرُ بخمسينَ درهماً في الحديثِ ، فإنَّ خمسةَ دنانيرَ تكفي المنفردَ في السنةِ إذا اقتصدَ ، أمَّا المعيلُ . . فربما لا يكفيهِ ذلكَ .

وإنْ كانَ يحتاجُ إليهِ قبلَ السنةِ ؛ فإنْ كانَ قادراً على السؤالِ ولا تفوتهُ

فرصتُهُ . . فلا يحلُّ لهُ السؤالُ ؛ لأنَّهُ مستغنٍ في الحالِ ، وربما لا يعيشُ إلى الغدِ ، فيكونُ قدْ سألَ ما لا يحتاجُ ، فيكفيهِ غداءُ يومٍ وعشاءُ ليلةٍ ، وعليهِ يُنزَّلُ الخبرُ الذي وردَ في التقديرِ بهـٰذا القدْرِ .

وإنْ كانَ يفوتُهُ فرصةُ السؤالِ ، ولا يجدُ مَنْ يعطيهِ لوْ أخَّرَ . . فيُباحُ لهُ السؤالُ ؛ لأنَّ أملَ البقاءِ سنةً غيرُ بعيدٍ ، فهوَ بتأخيرِ السؤالِ خائفٌ أنْ يبقىٰ مضطراً عاجزاً عمَّا يعينُهُ .

فإنْ كانَ خوفُ العجزِ عنِ السؤالِ في المستقبلِ ضعيفاً ، وكانَ ما لأجلِهِ السؤالُ خارجاً عنْ محلِّ الضرورةِ . . لمْ يخلُ سؤالُهُ عنْ كراهةٍ ، وتكونُ كراهتُهُ بحسَبِ درجاتِ ضعفِ الاضطرارِ وخوفِ الفوتِ وتراخي المدةِ التي فيها يُحتاجُ إلى السؤالِ .

وكلُّ ذلكَ لا يقبلُ الضبطَ ، وهوَ منوطٌ باجتهادِ العبدِ ونظرِهِ لنفسِهِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فيستفتي فيهِ قلبَهُ ، ويعملُ بهِ إنْ كانَ سالكاً طريقَ الآخرةِ ، وكلَّما كانَ يقينُهُ أقوىٰ ، وثقتُهُ بمجيءِ الرزقِ في المستقبلِ أتمَّ ، وقناعتُهُ بقوتِ الوقتِ أظهرَ . . فدرجتُهُ عندَ اللهِ تعالىٰ أعلىٰ[1] ، فلا يكونُ خوفُ الاستقبالِ وقدْ آتاكَ اللهُ قوتَ يومِكَ لكَ ولعيالِكَ إلا مِنْ ضعفِ اليقينِ ،

---

(١) وهو داخل في حد قولهم : الصوفي ابن وقته ؛ أي : يقنع بما تيسر له من كل شيء في وقته ، سواء كان قوتاً ظاهرياً أو معنوياً ، ولا يعلق قلبه بما سيأتي . « إتحاف » (٣١١/٩) .

والإصغاءِ إلىٰ تخويفِ الشيطانِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ .

والسؤالُ مِنَ الفحشاءِ التي أُبيحَتْ بالضرورةِ ، وحالُ مَنْ يسألُ لحاجةٍ متراخيةٍ عنْ يومِهِ وإنْ كانَ ممَّا يحتاجُ إليهِ في السنةِ . أشدُّ مِنْ حالِ مَنْ ملكَ مالاً موروثاً وادَّخرَهُ لحاجةٍ وراءَ السنةِ ، وكلاهما مباحانِ في الفتوى الظاهرةِ ، ولكنَّهُما صادرانِ عنْ حبِّ الدنيا وطولِ الأملِ ، وعدمِ الثقةِ بفضْلِ اللهِ ، وهٰذهِ الخصلةُ مِنْ أمَّهاتِ المهلكاتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

❊ ❊ ❊

بيان أحوال السائلين

كانَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (الفقراءُ ثلاثةٌ : فقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ . . لا يأخذُ ، فهـٰذا معَ الروحانيينَ في عليينَ ، وفقيرٌ لا يسألُ ، وإنْ أُعطيَ . . أخذَ ، فهـٰذا معَ المقرَّبينَ في جناتِ الفردوسِ ، وفقيرٌ يسألُ عندَ فاقتِهِ ، فهـٰذا معَ الصادقينَ مِنْ أصحابِ اليمينِ)[1] .

فإذاً ؛ قدِ اتفقَ كلُّهُمْ علىٰ ذمِّ السؤالِ ، وعلىٰ أنَّهُ معَ الفاقةِ يحطُّ المرتبةَ والدرجةَ .

وقال إبراهيمُ بنُ أدهمَ لشقيقِ بنِ إبراهيمَ حينَ قدمَ عليهِ مِنْ خراسانَ : كيفَ تركتَ الفقراءَ مِنْ أصحابِكَ ؟ قالَ : تركتُهُمْ إنْ أُعطوا . . شكروا ، وإنْ مُنعوا . . صبروا ، وظنَّ أنَّهُ لمَّا وصفَهُمْ بتركِ السؤالِ فقدْ أثنىٰ عليهِمْ غايةَ الثناءِ ، فقالَ إبراهيمُ : هـٰكذا تركتُ كلابَ بلخٍ عندَنا ، فقالَ لهُ شقيقٌ : فكيفَ الفقراءُ عندكَ يا أبا إسحاقَ ؟ فقالَ : الفقراءُ عندَنا إنْ مُنعوا . . شكروا ، وإنْ أُعطوا . . آثروا ، فقبَّلَ رأسَهُ وقالَ : صدقتَ يا أستاذُ[2] .

فإذاً ؛ درجاتُ أربابِ الأحوالِ في الرضا والصبرِ والشكرِ والسؤالِ كثيرةٌ ، فلا بدَّ لسالكِ طريقِ الآخرةِ مِنْ معرفتِها ، ومعرفةِ انقسامِها واختلافِ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٢٥٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٠٤) بنحوه .

(٢) رواه بنحوه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٧) ، وفيهما أنهما اجتمعا في مكة .

درجاتِها ، فإنَّهُ إذا لمْ يعلمْ . . لمْ يقدرْ على الترقِّي مِنْ حضيضِها إلىٰ يفاعِها ، ومِنْ أسفلِ سافلينَ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، وقدْ خُلِقَ الإنسانُ في أحسنِ تقويمٍ ، ثمَّ رُدَّ إلىٰ أسفلِ سافلينَ ، ثمَّ أُمِرَ أنْ يترقَّىٰ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، ومَنْ لا يميزُ بينَ السفلِ والعلوِ . . لا يقدرُ على الترقِّي قطعاً ، وإنَّما الشكُّ فيمَنْ عرفَ ذلكَ ، فإنَّهُ ربما يقدرُ عليهِ[1] .

وأربابُ الأحوالِ قدْ تغلبُهُمْ حالةٌ تقتضي أنْ يكونَ السؤالُ مزيداً لهُمْ في درجاتِهِمْ ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِمْ ، فإنَّ مثلَ هـٰذهِ الأعمالِ بالنياتِ ؛ وذلكَ كما رُوِيَ أنَّ بعضَهُمْ رأىٰ أبا الحسينِ النوريَّ رحمَهُ اللهُ يمدُّ يدَهُ ويسألُ الناسَ في بعضِ المواطنِ ، قالَ : فاستعظمتُ ذلكَ واستقبحتُهُ لهُ ، فأتيتُ الجنيدَ رحمهُ اللهُ فأخبرتُهُ ، فقالَ : لا يعظمْ هـٰذا عليكَ ؛ فإنَّ النوريَّ لمْ يسألِ الناسَ إلا ليعطيَهُمْ ، وإنَّما سألَهُمْ ليثيبَهُمْ في الآخرةِ ، فيُؤجرونَ مِنْ حيثُ لا يضرُّهُمْ ـ وكأنَّهُ أشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدُ المعطي هيَ العليا »[2] ، فقالَ بعضُهُمْ : يدُ المعطي هيَ يدُ الآخذِ للمالِ ؛ لأنَّهُ يعطي الثوابَ ، والقدرُ لهُ لا لما يأخذُهُ ـ ثمَّ قالَ الجنيدُ : هاتِ الميزانَ ، فوزنَ مئةَ درهمٍ ، ثمَّ قبضَ قبضةً فألقاها على المئةِ ، ثمَّ قالَ : احملْها إليهِ ، فقلتُ في نفسي : إنَّما يُوزنُ الشيءُ ليُعرفَ مقدارُهُ ، فكيفَ خلطَ بهِ مجهولاً وهوَ رجلٌ حكيمٌ ؟! واستحييتُ أنْ أسألَهُ ، فذهبتُ بالصرَّةِ إلى النوريِّ ، فقالَ : هاتِ

---

(١) فالترقي تابع للمعرفة والتمييز . « إتحاف » (٩/ ٣١٢) .

(٢) رواه النسائي (٥/ ٦١) عن طارق المحاربي رضي الله عنه مرفوعاً .

الميزانَ ، فوزن مئةً وقالَ : ردَّها عليهِ ، وقلْ لهُ : أنا لا أقبلُ منكَ شيئاً ، وأخذَ ما زادَ على المئةِ ، قالَ : فزادَ تعجُّبي ، فسألتُهُ ، فقالَ : الجنيدُ رجلٌ حكيمٌ ، يريدُ أنْ يأخذَ الحبلَ بطرفيهِ ، وزنَ المئةَ لنفسِهِ طلباً لثوابِ الآخرةِ ، وطرحَ عليها قبضةً بلا وزنٍ للهِ عزَّ وجلَّ ، فأخذتُ ما كانَ للهِ تباركَ وتعالىٰ ، ورددتُ ما جعلَهُ لنفسِهِ ، قالَ : فرددتُها إلى الجنيدِ ، فبكىٰ وقالَ : أخذَ مالَهُ وردَّ مالَنا ، واللهُ المستعانُ[1] .

فانظرِ الآنَ كيفَ صفَتْ قلوبُهُمْ وأحوالُهُمْ ، وكيفَ خلصَتْ للهِ أعمالُهُمْ ، حتَّىٰ كانَ يشاهدُ كلُّ واحدٍ قلبَ صاحبِهِ مِنْ غيرِ مناطقةٍ باللسانِ ، ولكنْ بتشاهدِ القلوبِ وتناجي الأسرارِ ، وذلكَ نتيجةُ أكلِ الحلالِ ، وخلوِّ القلبِ عنْ حبِّ الدنيا ، والإقبالِ على اللهِ تعالىٰ بكنهِ الهمَّةِ .

فمَنْ أنكرَ ذلكَ قبلَ تجربةِ طريقِهِ . . فهوَ جاهلٌ ؛ كمَنْ ينكرُ مثلاً كونَ الدواءِ مسهلاً قبلَ شربِهِ ، ومَنْ أنكرَهُ بعدَ أنْ طالَ اجتهادُهُ حتَّىٰ بذلَ كنْهَ مجهودِهِ ولمْ يصلْ ، فأنكرَ ذلكَ لغيرِهِ . . كانَ كمَنْ شربَ المسهلَ فلمْ يؤثِّرْ في حقِّهِ خاصَّةً لعلَّةٍ في باطنِهِ ، فأخذَ ينكرُ كونَ الدواءِ مسهلاً ، وهاذا وإنْ كانَ في الجهلِ دونَ الأوَّلِ ولكنَّهُ ليسَ خالياً عنْ حظٍّ وافٍ مِنَ الجهلِ .

---

(١) رواه أبو طالب المكي في « القوت » (٢/ ٢٠١) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٣١٣) : (فمن كان بهاذه المثابة من المعرفة والاستشراف على الخواطر كيف لا يكون السؤال مزيداً في درجاته ؟!) .

بلِ البصيرُ أحدُ رجلينِ :

إمَّا رجلٌ سلكَ الطريقَ فظهرَ لهُ مثلَ ما ظهرَ لهُمْ ، فهوَ صاحبُ الذوقِ والمعرفةِ ، وقدْ وصلَ إلىٰ عينِ اليقينِ .

وإمَّا رجلٌ لمْ يسلكِ الطريقَ ، أوْ سلكَ ولمْ يصلْ ، ولكنَّهُ آمنَ بذلكَ وصدَّقَ بهِ ، فهوَ صاحبُ علمِ اليقينِ ، وإنْ لمْ يكنْ واصلاً إلىٰ عينِ اليقينِ ، ولعلمِ اليقينِ أيضاً رتبةٌ وإنْ كانَ دونَ عينِ اليقينِ .

ومَنْ خلا عنْ علمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ . . فهوَ خارجٌ عنْ زمرةِ المؤمنينَ ، ويُحشرُ يومَ القيامةِ في زمرةِ الجاحدينَ المستكبرينَ ، الذينَ همْ قتلى العقولِ الضعيفةِ وأتباعُ الشياطينِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا مِنَ الراسخينَ في العلمِ ، القائلينَ : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الزّهد

وفيهِ بيانُ حقيقةِ الزهدِ ، وبيانُ فضيلةِ الزهدِ ، وبيانُ درجاتِ الزهدِ وأقسامِهِ ، وبيانُ تفصيلِ الزهدِ في المطعمِ والملبسِ والمسكنِ والأثاثِ وضروراتِ المعيشةِ ، وبيانُ علامةِ الزهدِ .

بيان حقيقة الزّهد

اعلمْ : أنَّ الزهدَ في الدنيا مقامٌ شريفٌ مِنْ مقاماتِ السالكينَ ، وينتظمُ هـٰذا المقامُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ كسائرِ المقاماتِ ؛ لأنَّ أبوابَ الإيمانِ كلَّها كمَا قالَ السلفُ ترجعُ إلىٰ عقدٍ وقولٍ وعملٍ(١) .

وكأنَّ القولَ لظهورِهِ أُقيمَ مقامَ الحالِ ؛ إذْ بهِ يظهرُ الحالُ الباطنُ ، وإلا . . فليسَ القولُ مراداً لعينِهِ ، وإنْ لمْ يكنْ صادراً عنْ حالٍ . . سُمِّيَ إسلاماً ولمْ يُسمَّ إيماناً(٢) ، والعلمُ هوَ السببُ في الحالِ ، يجري مَجرى

---

(١) فالعقد يرجع إلى القلب ، والقول يرجع إلى اللسان ، والعمل يرجع إلى الجوارح . « إتحاف » (٩/ ٣١٧) .

(٢) فالعلم هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله أو لله ، والحال ما ينشأ عنه من المواجيد ، والعمل هو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال . « إتحاف » (٩/ ٣١٧) .

المثمرِ ، والعملُ يجري مِنَ الحالِ مَجرى الثمرةِ ، فلنذكرِ الحالَ معَ كلا طرفيهِ مِنَ العلمِ والعملِ .

أمّا الحالُ :

فنعني بها ما يُسمَّىٰ زهداً ، وهوَ عبارةٌ عنِ انصرافِ الرغبةِ عنِ الشيءِ إلىٰ ما هو خيرٌ منهُ ، فكلُّ مَنْ عدلَ عنْ شيءٍ إلىٰ غيرِهِ بمعاوضةٍ وبيعٍ وغيرِهِ فإنَّما عدلَ عنهُ لرغبتِهِ عنهُ، وإنَّما عدلَ إلىٰ غيرِهِ لرغبتِهِ في غيرِهِ ، فحالُهُ بالإضافةِ إلى المعدولِ عنهُ يُسمَّىٰ زُهداً ، وبالإضافةِ إلى المعدولِ إليهِ يُسمَّىٰ رغبةً وحبّاً .

فإذاً ؛ يستدعي حالُ الزهدِ : مرغوباً عنهُ ، ومرغوباً فيهِ هوَ خيرٌ مِنَ المرغوبِ عنهُ .

وشرطُ المرغوبِ عنهُ : أنْ يكونَ أيضاً هو مرغوباً فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ، فمَنْ رغبَ عمَّا ليسَ مطلوباً في نفسِهِ لا يُسمَّىٰ زاهداً ، إذْ تاركُ الترابِ والحجرِ وما أشبهَهُ لا يُسمَّىٰ زاهداً ، وإنَّما يُسمَّىٰ زاهداً مَنْ تركَ الدراهمَ والدنانيرَ ؛ لأنَّ الترابَ والحجرَ ليسا في مَظِنَّةِ الرغبةِ .

وشرطُ المرغوبِ فيهِ : أنْ يكونَ عندَهُ خيراً مِنَ المرغوبِ عنهُ ، حتَّىٰ تغلبَ هـٰذهِ الرغبةُ ، فالبائعُ لا يقدمُ على البيعِ إلا والمُشترَىٰ عندَهُ خيرٌ مِنَ المبيعِ ، فيكونُ حالُهُ بالإضافةِ إلى المبيعِ زهداً فيهِ ، وبالإضافةِ إلى العوضِ عنهُ رغبةً فيهِ وحبّاً ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ ؛ معناهُ : باعوهُ ، فقدْ يُطلقُ الشراءُ بمعنى

البيعِ ، ووصفَ إخوةَ يوسفَ بالزهدِ فيهِ إذْ طمعوا أنْ يخلوَ لهُمْ وجهُ أبيهِمْ ، وكانَ ذلكَ عندَهُمْ أحبَّ إليهِمْ مِنْ يوسفَ ، فباعوهُ طمعاً في العوضِ .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ باعَ الدنيا بالآخرةِ . . فهوَ زاهدٌ في الدنيا ، وكلُّ مَنْ باعَ الآخرةَ بالدنيا . . فهوَ أيضاً زاهدٌ ولكنْ في الآخرةِ ، ولكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيصِ اسمِ الزهدِ بمَنْ يزهدُ في الدنيا ، كما خُصِّصَ اسمُ الإلحادِ بمَنْ يميلُ إلى الباطلِ خاصَّةً وإنْ كانَ هوَ للميلِ في وضعِ اللسانِ .

ولمَّا كانَ الزهدُ رغبةً عنْ محبوبٍ بالجملةِ . . لمْ يُتصوَّرْ إلا بالعدولِ إلىٰ شيءٍ هوَ أحبُّ منهُ ، وإلا . . فتركُ المحبوبِ بغيرِ الأحبِّ محالٌ(١) .

والذي يرغبُ عنْ كلِّ ما سوى اللهِ حتَّى الفراديسِ ، ولا يحبُّ إلا اللهَ تعالىٰ . . فهوَ الزاهدُ المطلقُ .

والذي يرغبُ عنْ كلِّ حظٍّ يُنالُ في الدنيا ، ولمْ يزهدْ في مثلِ تلكَ الحظوظِ في الآخرةِ ، بلْ طمعَ في الحورِ والقصورِ ، والأنهارِ والفواكهِ . . فهوَ أيضاً زاهدٌ ، ولكنَّهُ دونَ الأوَّلِ .

والذي يتركُ مِنْ حظوظِ الدنيا البعضَ دونَ البعضِ ؛ كالذي يتركُ المالَ دونَ الجاهِ ، أوْ يتركُ التوسُّعَ في الأكلِ ولا يتركُ التجمُّلَ في الزينةِ . . فلا يستحقُّ اسمَ الزاهدِ مطلقاً ، ودرجتُهُ في الزهَّادِ درجةُ مَنْ يتوبُ عنْ بعضِ المعاصي في التائبينَ ، وهوَ زهدٌ صحيحٌ ؛ كما أنَّ التوبةَ عنْ بعضِ المعاصي

---

(١) وبهٰذا يفارق الفقر ؛ فإن حقيقة الفقر الفقد والاحتياج . « إتحاف » (٩/ ٣١٨) .

صحيحةٌ ؛ فإنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ تركِ المحظوراتِ ، والزهدُ عبارةٌ عنْ تركِ المباحاتِ التي هيَ حظُّ النفسِ ، ولا يبعدُ أنْ يقدرَ علىٰ تركِ بعضِ المباحاتِ دونَ بعضٍ ، كما لا يبعدُ ذلكَ في المحظوراتِ ، والمقتصرُ علىٰ تركِ المحظوراتِ لا يُسمَّىٰ زاهداً وإنْ كانَ قدْ زهدَ في المحظورِ وانصرفَ عنهُ ، ولكنَّ العادةَ تخصِّصُ هـٰذا الاسمَ بتركِ المباحاتِ .

فإذاً ؛ الزهدُ عبارةٌ عنْ رغبتِهِ عنِ الدنيا عدولاً إلى الآخرةِ ، أوْ عنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ عدولاً إلى اللهِ تعالىٰ ، وهيَ الدرجةُ العليا .

وكما يُشترطُ في المرغوبِ فيهِ أنْ يكونَ خيراً عندَهُ . . فيُشترطُ في المرغوبِ عنهُ أنْ يكونَ مقدوراً عليهِ ، فإنَّ تركَ ما لا يُقدرُ عليهِ محالٌ ، وبالتركِ يتبيَّنُ زوالُ الرغبةِ ، ولذلكَ قيلَ لابنِ المباركِ : يا زاهدُ ، فقالَ : الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ؛ إذْ جاءَتْهُ الدنيا راغمةً فتركَها ، وأمَّا أنا . . ففيماذا زهدتُ ؟[1] .

وأمَّا العلمُ الذي هو مثمرٌ لهـٰذهِ الحالِ :

فهوَ العلمُ بكونِ المتروكِ حقيراً بالإضافةِ إلى المأخوذِ ؛ كعلمِ التاجرِ بأنَّ العوضَ خيرٌ منَ المبيعِ ، فيرغبُ فيهِ ، وما لمْ يتحقَّقْ هـٰذا العلمُ . .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٢٤٩) ، وهو عند صاحب « القوت » (١/٢٤٩) . وقد روي في هـٰذا الباب عن الشريف محسن بن علوي السقاف (ت ١٢٩١هـ) لما سمع أحدهم ـ ممن لا يملك من الدنيا شيئاً ـ يقول للدنيا : (طلقتك ثلاثاً !!) . . فقال له : (إنك لم تطلق الدنيا ، بل الدنيا طلقتك) .

لا يُتصوَّرُ أنْ تزولَ الرغبةُ عنِ المبيع ؛ فكذلكَ مَنْ عرفَ أنَّ ما عندَ اللهِ باقٍ وأنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ؛ أيْ : لذَّاتُها خيرٌ في نفسِها وأبقىٰ ، كما يكونُ الجوهرُ خيراً مِنَ الثلجِ مثلاً ، وهيَ أبقىٰ كما يكونُ الجوهرُ أبقىٰ مِنَ الثلجِ ، ولا يعسرُ علىٰ مالكِ الثلجِ بيعُهُ بالجواهرِ واللآلىءِ ، فهكذا مثالُ الدنيا والآخرةِ ، فالدنيا كالثلجِ الموضوعِ في الشمسِ لا يزالُ في الذوبانِ إلى الانقراضِ ، والآخرةُ كالجوهرِ الذي لا فناءَ لهُ .

فبقدْرِ قوَّةِ اليقينِ والمعرفةِ بالتفاوتِ بينَ الدنيا والآخرةِ تقوى الرغبةُ في البيعِ والمعاملةِ ، حتَّىٰ إنَّ مَنْ قويَ يقينُهُ يبيعُ نفسَهُ ومالَهُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ صفقتَهُمْ رابحةٌ فقالَ : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ .

فليسَ يحتاجُ مِنَ العلمِ في الزهدِ إلا إلىٰ هـٰذا القدْرِ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ ، وقدْ يعلمُ ذلكَ مَنْ لا يقدرُ علىٰ تركِ الدنيا ؛ إمَّا لضعفِ علمِهِ ويقينِهِ ، وإمَّا لاستيلاءِ الشهوةِ في الحالِ عليهِ ، وكونِهِ مقهوراً في يدِ الشيطانِ ، وإمَّا لاغترارِهِ بمواعيدِ الشيطانِ في التسويفِ يوماً بعد يومٍ إلىٰ أنْ يختطفَهُ الموتُ ، ولا يبقىٰ معَهُ إلا الحسرةُ بعدَ الفوتِ .

وإلىٰ تعريفِ خساسةِ الدنيا الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ ، وإلىٰ تعريفِ نفاسةِ الآخرةِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ

﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ العلمَ بنفاسةِ الجوهرِ هوَ المرغِّبُ عنْ عوضِهِ .

ولمَّا لمْ يُتصوَّرِ الزهدُ إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عنْ محبوبٍ في أحبَّ منهُ . . قالَ رجلٌ في دعائِهِ : اللهمَّ أرني الدنيا كما تراها ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تقلْ هٰكذا ، ولكنْ قلْ : أرني الدنيا كما أريتَها الصالحينَ منْ عبادِكَ »(١) ، وهٰذا لأنَّ اللهَ تعالىٰ يراها حقيرةً كما هيَ ، وكلُّ مخلوقٍ فهوَ بالإضافةِ إلىٰ جلالِهِ حقيرٌ ، والعبدُ يراها حقيرةً في حقِّ نفسِهِ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ خيرٌ لهُ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يرىٰ بائعُ الفرسِ وإنْ رغبَ عنْ فرسِهِ كما يرىٰ حشراتِ الأرضِ مثلاً(٢) ؛ لأنَّهُ مستغنٍ عنِ الحشراتِ أصلاً ، وليسَ مستغنياً عنِ الفرسِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ بذاتِهِ عنْ كلِّ ما سواهُ ، فيرى الكلَّ في درجةٍ واحدةٍ بالإضافةِ إلىٰ جلالِهِ ، ويراها متفاوتةً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، والزاهدُ هوَ الذي يرىٰ تفاوتَهُ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ لا إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا العملُ الصادرُ عنْ حالِ الزهدِ :

فهوَ تركٌ وأخذٌ ؛ لأنَّهُ بيعٌ ، ومعاملةٌ ، واستبدالُ الذي هوَ خيرٌ بالذي هوَ أدنىٰ ، فكما أنَّ العملَ الصادرَ عنْ عقدِ البيعِ هوَ تركُ المبيعِ وإخراجُهُ مِنَ اليدِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٥٣) ، والخبر رواه ابن فضيل في « الدعاء » (٢) عن أبي الغصين الطائي ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (١٩١٠) عن أبي العصير الكناني .

(٢) كذا في (ب) ، وفي باقي النسخ : (أن يرىٰ بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه . . .) .

وأخذُ العوضِ . . فكذلكَ الزهدُ يوجبُ تركَ المزهودِ فيهِ بالكلِّيَّةِ ؛ وهيَ الدنيا بأسرِها ، معَ أسبابِها ومقدماتِها وعلائقِها ، فيخرجُ مِنَ القلبِ حبَّها ، ويدخلُ حبَّ الطاعاتِ ، ويخرجُ من اليدِ والعينِ ما أخرجَهُ مِنَ القلبِ ، ويوظِّفُ على اليدِ والعينِ وسائرِ الجوارحِ وظائفَ الطاعاتِ ، وإلا . . كانَ كمَنْ سلَّمَ المبيعَ ولمْ يأخذِ الثمنَ .

فإذا وفَّىٰ بشرطِ الجانبينِ في الأخذِ والتركِ . . فليستبشرْ ببيعِهِ الذي بايعَ بهِ ، فإنَّ الذي بايعَهُ بهٰذا البيعِ وفَّىٰ بالعهدِ ، فمَنْ أسلمَ حاضراً في غائبٍ ، وسلَّمَ الحاضرَ وأخذَ يسعىٰ في طلبِ الغائبِ . . سُلِّمَ إليهِ الغائبُ حينَ فراغِهِ مِنْ سعيِهِ إنْ كانَ العاقدُ ممَّنْ يُوثَقُ بصدقِهِ وقدرتِهِ ووفائِهِ بالعهدِ .

وما دامَ ممسكاً للدنيا . . لا يصحُّ زهدُهُ أصلاً ، ولذلكَ لمْ يصفِ اللهُ تعالىٰ إخوةَ يوسفَ بالزهدِ في بنيامينَ ، وإنْ كانوا قدْ قالوا : ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلىٰ أبينا منَّا ، وعزموا علىٰ إبعادِهِ كما عزموا علىٰ يوسفَ حتَّىٰ تشفَّعَ فيهِ أحدُهُمْ فتُرِكَ(١) ، ولا وصفَهُمْ أيضاً بالزهدِ في يوسفَ عندَ العزمِ علىٰ إخراجِهِ ، بلْ عندَ التسليمِ والبيعِ .

فعلامةُ الرغبةِ الإمساكُ ، وعلامةُ الزهدِ الإخراجُ ، فإنْ أخرجتَ عنِ اليدِ بعضَ الدنيا دونَ البعضِ . . فأنتَ زاهدٌ فيما أخرجتَ فقطْ ، ولستَ زاهداً

---

(١) وهو يهوذا ، فشفع فيه ورحمه ومنعه ، وكان شديداً بينهم منيعاً مهيباً فيهم ، وقد قيل في السير : (إن أخاهم الأكبر روبيل هو استوهبه منهم) . « إتحاف » (٩/ ٣٢١) نقلاً عن « القوت » (١/ ٢٤٨) .

مطلقاً ، وإنْ لمْ يكنْ لكَ مالٌ ولمْ تساعدْكَ الدنيا . . لمْ يُتصوَّرْ منكَ الزهدُ ؛ لأنَّ ما لا يُقدرُ عليهِ لا يُقدرُ علىٰ تركِهِ ، وربما يستهويكَ الشيطانُ بغرورِهِ ، ويخيِّلُ إليكَ أنَّ الدنيا وإنْ لمْ تأتِكَ فأنتَ زاهدٌ فيها ، فلا ينبغي أنْ تتدلَّىٰ بحبلِ غرورِهِ دونَ أنْ تستوثقَ وتستظهرَ بموثقٍ غليظٍ مِنَ اللهِ ؛ فإنَّكَ إذا لمْ تجرِّبْ حالَ القدرةِ . . فلا تثقْ بالقدرةِ على التركِ عندَها ، فكمْ مِنْ ظانٍّ بنفسِهِ كراهةَ المعاصي عندَ تعذُّرِها ، فلمَّا تيسَّرَتْ لهُ أسبابُها مِنْ غيرِ مكدِّرٍ ولا خوفٍ مِنَ الخلقِ . . وقعَ فيها ، وإذا كانَ هٰذا غرورَ النفسِ في المحظوراتِ . . فإيَّاكَ أنْ تثقَ بوعدِها في المباحاتِ .

والموثقُ الغليظُ الذي تأخذُهُ عليها : أنْ تجرِّبَها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ في حالِ القدرةِ ، فإذا وفَّتْ بما وعدَتْ على الدوامِ معَ انتفاءِ الصوارفِ والأعذارِ ظاهراً وباطناً . . فلا بأسَ أنْ تثقَ بها وثوقاً ما ، ولكنْ تكونُ مِنْ تغيُّرِها أيضاً علىٰ حذرٍ ؛ فإنَّها سريعةُ النقضِ للعهدِ ، قريبةُ الرجوعِ إلىٰ مقتضى الطبعِ .

وبالجملةِ : فلا أمانَ منها إلا عندَ التركِ بالإضافةِ إلىٰ ما تُرِكَ فقطْ ، وذلكَ عندَ القدرةِ ، قالَ ابنُ أبي ليلىٰ لابنِ شبرمةَ : ألا ترىٰ إلىٰ هٰذا ابنِ الحائكِ ، لا نفتي في مسألةٍ إلا ردَّ علينا ! يعني أبا حنيفةَ ، فقالَ ابنُ شبرمةَ : لا أدري أهوَ ابنُ الحائكِ أمْ ما هوَ ، لكنْ أعلمُ أنَّ الدنيا غدَتْ إليهِ فهربَ منها ، وهربَتْ منَّا فطلبناها[1] .

---

(١) أورده الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٣٥) ، قال الحافظ الزبيدي في =

ولذلكَ قالَ جميعُ المسلمينَ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّا نحبُّ ربَّنا ، ولوْ علمنا في أيِّ شيءٍ محبَّتُهُ . . لفعلناهُ ، حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ منهُمْ » أي : مِنَ القليلِ ، قالَ : (وما عرفتُ أنَّ فينا مَنْ يحبُّ الدنيا حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾)[1] .

واعلمْ : أنَّهُ ليسَ مِنَ الزهدِ تركُ المالِ وبذلُهُ علىٰ سبيلِ السخاءِ والفتوَّةِ ، وعلىٰ سبيلِ استمالةِ القلوبِ ، ولا علىٰ سبيلِ الطمعِ ، فذلكَ كلُّهُ مِنْ محاسنِ العاداتِ ، ولكنْ لا مدخلَ لشيءٍ منهُ في العباداتِ ، وإنَّما الزهدُ أنْ تتركَ الدنيا لعلمِكَ بحقارتِها بالإضافةِ إلىٰ نفاسةِ الآخرةِ ، فأمَّا كلُّ نوعٍ مِنَ

= « إتحافه » (٩/ ٣٢٢) : (فإن كلاً منهما تولىٰ قضاء الكوفة ، وأباها الإمام وضرب وامتحن لذلك ، ولقد أنصف ابن شبرمة في جوابه ، وأما ابن أبي ليلىٰ . . فكان يحسد الإمام دائماً ويعاديه لما يرىٰ له من القدر والمنزلة عند الخاص والعام ، سامح الله عن الجميع وجعلهم إخواناً علىٰ سرر متقابلين) .

(١) روى الترمذي (٣٣٠٩) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله . . لعملناه ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وقول ابن مسعود رضي الله عنه : (وما عرفت أن فينا من يحب . . .) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٦٣) ، والطبري في « تفسيره » (٣/ ٤/ ١٦٤) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٣٣٠) .

التركِ . . فإنَّهُ يُتصوَّرُ ممَّنْ لا يؤمنُ بالآخرةِ ، فذلكَ قدْ يكونُ مروءةً وفتوَّةً وسخاءً وحسنَ خلقٍ ، ولكنْ لا يكونُ زهداً ؛ إذْ حسنُ الذكرِ وميلُ القلوبِ مِنْ حظوظِ العاجلةِ ، وهيَ ألذُّ وأهنأُ مِنَ المالِ ، وكما أنَّ تركَ المالِ على سبيلِ السلمِ طمعاً في العوضِ ليسَ مِنَ الزهدِ . . فكذلكَ تركُهُ طمعاً في الذكرِ والثناءِ والاشتهارِ بالفتوةِ والسخاءِ ، أوِ استثقالاً لهُ لما في حفظِ المالِ مِنَ المشقَّةِ والعناءِ ، والحاجةِ إلى التذلُّلِ للسلاطينِ والأغنياءِ . . ليسَ مِنَ الزهدِ أصلاً ، بلْ هوَ استعجالُ حظٍّ آخرَ للنفسِ .

بلِ الزاهدُ مَنْ أتتْهُ الدنيا راغمةً عفواً صفواً وهوَ قادرٌ على التنعُّمِ بها مِنْ غيرِ نقصانِ جاهٍ وقبحِ اسمٍ ولا فواتِ حظٍّ للنفسِ ، فتركَها خوفاً مِنْ أنْ يأنسَ بها ، فيكونَ آنساً بغيرِ اللهِ ، ومحبّاً لما سوى اللهِ ، ويكونَ مشركاً في حبِّ اللهِ تعالى غيرَهُ ، أوْ تركَها طمعاً في ثوابِ اللهِ في الآخرةِ ، فتركَ التمتُّعَ بأشربةِ الدنيا طمعاً في أشربةِ الجنَّةِ ، وتركَ التمتُّعَ بالسراري والنسوانِ طمعاً في الحورِ العينِ ، وتركَ التفرُّجَ في البساتينِ طمعاً في بساتينِ الجنةِ وأشجارِها ، وتركَ التزيُّنَ والتجمُّلَ بزينةِ الدنيا طمعاً في زينةِ الجنَّةِ ، وتركَ المطاعمَ اللذيذةَ طمعاً في فواكهِ الجنَّةِ ، وخوفاً مِنْ أنْ يُقالَ لهُ : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ، فآثرَ في جميعِ ذلكَ ما وُعِدَ بهِ في الجنَّةِ على ما تيسَّرَ لهُ في الدنيا عفواً صفواً ؛ لعلمِهِ بأنَّ ما في الآخرةِ خيرٌ وأبقى ، وأنَّ ما سوى هـٰذا فمعاملاتٌ دنيويَّةٌ لا جدوى لها في الآخرةِ أصلاً .

❋ ❋ ❋

بيان فضيلة الزهد

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ ﴾[(١)] ، فنسبَ الزهدَ إلى العلماءِ ، ووصفَ أهلَهُ بالعلمِ ، وهوَ غايةُ الثناءِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ ، وجاءَ في التفسيرِ : على الزهدِ في الدنيا[(٢)] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، قيلَ : معناهُ : أيُّهُمْ أزهدُ فيها[(٣)] ، فوصفَ الزهدَ بأنَّهُ مِنْ أحسنِ الأعمالِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

---

(١) والآية بتمامها : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٤٢) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٤٢) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ، فوصفَ الكفارَ بذلكَ ، فمفهومُهُ أنَّ المؤمنَ هوَ الذي يتصفُ بنقيضِهِ ، وهوَ أنْ يستحبَّ الآخرةَ على الحياةِ الدنيا .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فما وردَ منها في ذمِّ الدنيا كثيرٌ ، وقدْ أوردنا بعضَها في كتابِ ذمِّ الدنيا مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، إذْ حبُّ الدنيا مِنَ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقتصرُ علىٰ فضيلةِ بغضِ الدنيا ؛ فإنَّهُ مِنَ المنجياتِ ، وهوَ المعنيُّ بالزهدِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أصبحَ وهمُّهُ الدنيا . . شتَّتَ اللهُ عليهِ أمرَهُ ، وفرَّقَ عليهِ ضيعتَهُ ، وجعلَ فقرَهُ بينَ عينيهِ ، ولمْ يأتِهِ مِنَ الدنيا إلا ما كُتِبَ لهُ ، ومَنْ أصبحَ وهمُّهُ الآخرةُ . . جمعَ اللهُ لهُ همَّهُ ، وحفظَ عليهِ ضيعتَهُ ، وجعلَ غناهُ في قلبِهِ ، وأتتْهُ الدنيا وهيَ راغمةٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمُ العبدَ قدْ أُعطيَ صمتاً وزهداً في الدنيا . . فاقتربوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ »(٢) .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ ، ولذلك

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .

قيلَ : (مَنْ زهدَ في الدنيا أربعينَ يوماً . . أجرى اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ في قلبِهِ ، وأنطقَ بها لسانَهُ)[1] .

وعنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ قالَ : « كلُّ مؤمنٍ مخمومِ القلبِ صدوقِ اللسانِ » ، قلنا : يا رسولَ اللهِ ، وما مخمومُ القلبِ ؟ قالَ : « التقيُّ النقيُّ الذي لا غلَّ فيهِ ولا غشَّ ولا بغيَ ولا حسدَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ فمَنْ علىٰ أثرِهِ ؟ قالَ : « الذي يشنأُ الدنيا ويحبُّ الآخرةَ »[2] ، ومفهومُ هٰذا : أنَّ شرَّ الناسِ الذي يحبُّ الدنيا .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ أردتَ أنْ يحبَّكَ اللهُ . . فازهدْ في الدنيا » ، فجعلَ الزهدَ سبباً للمحبةِ ، فمَنْ أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ . . فهوَ في أعلى الدرجاتِ ، فينبغي أنْ يكونَ الزهدُ في الدنيا مِنْ أفضلِ المقاماتِ ، ومفهومُهُ أيضاً : أنَّ محبَّ الدنيا متعرِّضٌ لبغضِ اللهِ تعالىٰ .

وفي خبرٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : (الزهدُ والورعُ يجولانِ في القلوبِ كلَّ ليلةٍ ، فإنْ صادفا قلباً فيهِ الإيمانُ والحياءُ . . أقاما فيهِ ، وإلا . . ارتحلا)[3] .

---

(1) تقدم بلفظ : « من أكل الحلال أربعين يوماً . . . » ، وهو ما أورده صاحب « القوت » (٢/٢٨٧) ، وبلفظه هنا عند ابن عدي في « الكامل » (٥/٣٠٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً .

(2) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٤٥) بتمامه ، وصدره عند ابن ماجه (٤٢١٦) .

(3) كذا في « القوت » (١/٢٥٠) حيث قال : (وروينا في ذلك حديثاً من طريق أهل =

ولـمَّا قالَ حارثةُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنا مؤمنٌ حقّاً . . قالَ : « وما حقيقةُ إيمانِكَ ؟ » قالَ : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوىٰ عندي حجرُها وذهبُها ، وكأنِّي بالجنَّةِ والنارِ ، وكأنِّي بعرشِ ربِّي بارزاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرفتَ فالزمْ ، عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ »[(١)] ، فانظرْ كيفَ بدأَ في إظهارِ حقيقةِ الإيمانِ بعزوفِ النفسِ عنِ الدنيا ، وقرنَهُ باليقينِ ، وكيفَ زكَّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « عبدٌ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ بالإيمانِ » .

ولـمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ معنى الشرحِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وقيلَ لهُ : ما هٰذا الشرحُ ؟ قالَ : « إنَّ النورَ إذا دخلَ القلبَ . . انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ : « نعمِ ، التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[(٢)] ، فانظرْ كيفَ جعلَ الزهدَ شرطاً للإسلامِ ، وهوَ التجافي عنْ دارِ الغرورِ .

= البيت) وذكره ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨١) عن محمد بن علي بن الحسين بن علي يقول : (الغنىٰ والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلىٰ مكان فيه التوكل . . أوطناه) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٤) ، والبزار في « مسنده » (٦٩٤٨) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٦٦) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٧٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٠٧ ، ١٠١٠٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ » ، قالوا : إنَّا لنستحيي منهُ تعالىٰ ، فقالَ : « ليسَ كذلكَ ، تبنونَ ما لا تسكنونَ ، وتجمعونَ ما لا تأكلونَ ! »[1] ، فبيَّنَ أنَّ ذلكَ يناقضُ الحياءَ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ولمَّا قدمَ عليهِ بعضُ الوفودِ . . قالوا : إنَّا مؤمنونَ ، قالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبرَ عندَ البلاءِ ، والشكرَ عندَ الرخاءِ ، والرضا بمواقعِ القضاءِ ، وتركَ الشماتةِ بالمصيبةِ إذا نزلَتْ بالأعداءِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنْ كنتُمْ كذلكَ . . فلا تجمعوا ما لا تأكلونَ ، ولا تبنوا ما لا تسكنونَ ، ولا تنافسوا فيما عنهُ ترحلونَ »[2] ، فجعلَ الزهدَ تكملةً لإيمانِهِمْ .

وقالَ جابرٌ رضيَ اللهُ عنهُ : خطبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « مَنْ جاءَ بلا إلهَ إلا اللهُ لا يخلطُ معَها غيرَها . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ » ، فقامَ إليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ، ما لا يُخلطُ بها غيرُها صفْهُ لنا ، فسِّرْهُ لنا ، فقالَ : « حبُّ الدنيا طلباً لها واتباعاً لها ، وقومٌ يقولونَ قولَ الأنبياءِ ويعملونَ أعمالَ الجبابرةِ ، فمَنْ جاءَ بلا إلهَ إلا اللهُ ليسَ فيها شيءٌ مِنْ هـٰذا . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ »[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٥/ ١٧٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ٩٧) عن أم الوليد بنت عمر .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ١٩٧) من حديث سويد بن الحارث .

(٣) رواه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٩٠) من حديث جابر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي الخبرِ : « السخاءُ مِنَ اليقينِ ، ولا يدخلُ النارَ موقنٌ ، والبخلُ مِنَ الشكِّ ، ولا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ شكَّ »(١) .

وقالَ أيضاً : « السخيُّ قريبٌ مِنَ اللهِ ، قريبٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ الجنَّةِ ، والبخيلُ بعيدٌ مِنَ اللهِ ، بعيدٌ مِنَ الناسِ ، قريبٌ مِنَ النارِ »(٢) ، والبخلُ ثمرةُ الرغبةِ في الدنيا ، والسخاءُ ثمرةُ الزهدِ ، والثناءُ على الثمرةِ ثناءٌ على المثمرِ لا محالةَ .

وروى ابنُ المسيَّبِ عنْ أبي ذرٍّ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ زهدَ في الدنيا . . أدخلَ اللهُ الحكمةَ قلبَهُ ، فأنطقَ بها لسانَهُ ، وعرَّفَهُ داءَ الدنيا ودواءَها ، وأخرجَهُ منها سالماً إلىٰ دارِ السلامِ »(٣) .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ في أصحابِهِ بعشارٍ مِنَ النوقِ حُفَّلٍ ؛ وهيَ الحواملُ ، وكانَتْ مِنْ أحبِّ أموالِهِمْ إليهِمْ وأنفسِها عندَهُمْ ؛ لأنَّها تجمعُ الظهرَ واللحمَ واللبنَ والوبرَ ، ولعظمِها في قلوبِهِمْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ، قالَ : فأعرضَ عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وغضَّ بصرَهُ ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هذهِ أنفسُ أموالِنا ، لِمَ لا تنظرُ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٥١) ، وقد قال صاحب « القوت » (١/ ٢٥١) : (وروينا في خبر مقطوع) وذكره .

(٢) رواه الترمذي (١٩٦١) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٩) عن صفوان بن سليم مرسلاً .

إليها ؟ فقالَ : قدْ نهاني اللهُ تعالىٰ عنْ ذلكَ ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وروىٰ مسروقٌ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالَتْ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تستطعمُ اللهَ فيطعمَكَ ؟ قالَتْ : وبكيتُ لما رأيتُ بهِ مِنَ الجوعِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ سألتُ ربِّي أنْ يجريَ معيَ جبالَ الدنيا ذهباً . . لأجراها حيثُ شئتُ مِنَ الأرضِ ، ولكنِ اخترتُ جوعَ الدنيا علىٰ شبعِها ، وفقرَ الدنيا علىٰ غناها ، وحزنَ الدنيا علىٰ فرحِها ، يا عائشةُ ؛ إنَّ الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ ، يا عائشةُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يرضَ لأولي العزمِ مِنَ الرسلِ إلا الصبرَ علىٰ مكروهِ الدنيا والصبرَ عنْ محبوبِها ، ثمَّ لمْ يرضَ لي إلا أنْ يكلِّفَني ما كلَّفَهُمْ فقالَ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، واللهِ ؛ ما لي بدٌّ مِنْ طاعتِهِ ، وإنِّي ـ واللهِ ـ لأصبرنَّ كما صبروا بجهدي ولا قوَّةَ إلا باللهِ »[2] .

ورُوِيَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ حينَ فُتِحَ عليهِ الفتوحاتُ قالَتْ لهُ ابنتُهُ حفصةُ رضيَ اللهُ عنها : البسْ ليِّنَ الثيابِ إذا قدمَتْ عليكَ الوفودُ مِنَ

---

(1) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٥) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٥/ ٦١٣) : (وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة : أنه كان إذا دخل علىٰ أهل الدنيا فرأىٰ من دنياهم طرفاً ، فإذا رجع إلىٰ أهله فدخل الدار . . قرأ ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ ، ثم يقول : الصلاة الصلاة رحمكم الله) .

(2) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٥٨٣) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٠٦) بنحوه ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٦٢٨) مختصراً .

الآفاقِ ، ومُرْ بصنعةِ طعامٍ تطعمُهُ وتطعمُ مَنْ حضرَ .

فقالَ عمرُ : يا حفصةُ ؛ ألستِ تعلمينَ أنَّ أعلمَ الناسِ بحالِ الرجلِ أهلُ بيتِهِ ؟ فقالَتْ : بلىٰ .

قالَ : ناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبثَ في النبوَّةِ كذا وكذا سنةً لمْ يشبعْ هوَ ولا أهلُ بيتِهِ غدوةً إلا جاعوا عشيَّةً ، ولا شبعوا عشيَّةً إلا جاعوا غدوةً ؟(١) .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لبثَ في النبوَّةِ كذا وكذا سنةً لمْ يشبعْ مِنَ التمرِ هوَ وأهلُهُ حتَّىٰ فتحَ اللهُ عليهِ خيبرَ ؟(٢) .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرَّبتُمْ إليهِ يوماً طعاماً علىٰ مائدةٍ فيها ارتفاعٌ فشَقَّ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ تغيَّرَ لونُهُ ، ثمَّ أمرَ بالمائدةِ فرُفعَتْ ووُضعَ الطعامُ علىٰ دونِ ذلكَ أوْ وُضعَ على الأرضِ ؟(٣) .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ ينامُ علىٰ عباءةٍ مثنيَّةٍ ، فثُنيَتْ لهُ ليلةً أربعَ طاقاتٍ ، فنامَ عليها ، فلمَّا استيقظَ . .

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٠٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، وروى الترمذي (٢٣٥٦) عن عائشة رضي الله عنها نحوه .

(٢) وقد روى ابن سعد في « طبقاته » (١/٣٤٩) عن عمر رضي الله عنه : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوي يومه من الجوع ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه) ، وعنده عن النعمان بن بشير : (ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع من الدقل ، وما ترضون دون ألوان التمر والزبد) .

(٣) حديث عدم أكله علىٰ خوان رواه البخاري (٦٤٥٠) .

قالَ : « منعتُموني قيامَ الليلةِ بهذهِ العباءةِ ، اثنوها باثنتينِ كما كنتُمْ تثنونَها » ؟[١] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يضعُ ثيابَهُ لتُغسلَ ، فيأتيهِ بلالٌ فيؤذنُهُ بالصلاةِ ، فما يجد ثوباً يخرجُ بهِ إلى الصلاةِ حتَّىٰ تجفَّ ثيابُهُ ، فيخرجُ فيها إلى الصلاةِ ؟[٢] .

وناشدتُكِ اللهَ ؛ هلْ تعلمينَ أنَّ امرأةً مِنْ بني ظفرٍ صنعَتْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كساءَينِ إزاراً ورداءً ، وبعثَتْ إليهِ بأحدِهما قبلَ أنْ يبلغَ الآخرُ ، فخرجَ إلى الصلاةِ وهوَ مشتملٌ بهِ ليسَ عليهِ غيرُهُ ، قدْ عقدَ طرفيهِ إلىٰ عنقِهِ ، فصلَّىٰ كذلكَ ؟[٣] .

فما زالَ حتَّىٰ أبكاها ، وبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وانتحبَ حتَّىٰ ظننَّا أنَّ نفسَهُ ستخرجُ[٤] .

وفي بعضِ الرواياتِ زيادةٌ مِنْ قولِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وهوَ أنَّهُ قالَ : كانَ لي صاحبانِ سلكا طريقاً ، فإنْ سلكتُ غيرَ طريقِهما . . سُلِكَ بي طريقٌ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٠٠) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٤٦٣) .

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في « القناعة » (٤٦) بلفظ المصنف هنا ، وروايته هـٰذه تشعر بأن للحديث أصلاً بهـٰذا السياق .

(٣) روى ابن ماجه (١٠٣٢) عن ثابت بن الصامت رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والبزار في « مسنده » (٤١٠٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٤) روي هـٰذا الخبر مختصراً كما سيأتي بيانه في الحديث الآتي .

غيرُ طريقِهما ، وإنِّي ـ واللهِ ـ سأصبرُ علىٰ عيشِهما الشديدِ لعلِّي أدركُ معَهُما عيشَهُما الرغيدَ[١] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لقدْ كانَ الأنبياءُ قبلي يُبتلىٰ أحدُهُمْ بالفقرِ ، فلا يجدُ إلا العباءةَ ، وإنْ كانَ أحدُهُمْ ليُبتلىٰ بالقملِ حتَّىٰ يقتلَهُ القملُ ، وكانَ ذلكَ أحبَّ إليهِمْ مِنَ العطاءِ إليكُمْ »[٢] .

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ : (لمَّا وردَ موسىٰ عليهِ السلامُ ماءَ مدينَ . . كانَتْ خضرةُ البقلِ تُرىٰ في بطنِهِ مِنَ الهزالِ)[٣] .

فهذا ما كانَ قدِ اختارَهُ أنبياءُ اللهِ ورسلُهُ ، وهمْ أعرفُ خلقِ اللهِ باللهِ وبطريقِ الفوزِ في الآخرةِ .

وفي حديثِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قال : لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تبّاً للدنيا ، تبّاً

---

(١) روى ابن المبارك في « الزهد » (٥٧٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/١٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٤٨) عن مصعب بن سعد : أن حفصة قالت لعمر : ألا تلبس ثوباً ألين من ثوبك ، وتأكل طعاماً أطيب من طعامك هـٰذا ؟ فقد فتح الله عليك الأرض وأوسع عليك الرزق ، قال : سأخصمك إلىٰ نفسك ، فذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يلقىٰ من شدة العيش ، ولم يزل يذكر حتىٰ بكت ، ثم قال عمر : لأشركنهما في مثل عيشهما الشديد ؛ لعلي أدرك معهما مثل عيشهما الرخي .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١١/٢٠/٧٥) .

للدينارِ والدرهمِ » ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ نهانا اللهُ عنْ كنزِ الذهبِ والفضةِ ، فأيَّ شيءٍ ندخرُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليتخذْ أحدُكُم لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجةً صالحةً تعينُهُ علىٰ أمرِ آخرتِهِ »(١) .

وفي حديثِ حذيفةَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ آثرَ الدنيا على الآخرةِ . . ابتلاهُ اللهُ بثلاثٍ : همٌّ لا يفارقُ قلبَهُ أبداً ، وفقرٌ لا يستغني أبداً ، وحرصٌ لا يشبعُ أبداً »(٢) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ يكونَ ألا يعرفَ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يعرفَ ، وحتَّىٰ يكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كثرتِهِ »(٣) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) عن ثوبان رضي الله عنه قال : لما نزل في الفضة والذهب ما نزل . . قالوا : فأي المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك ، فأوضع علىٰ بعيره فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأنا علىٰ أثره ، فقال : يا رسول الله ؛ أي المال نتخذ ؟ فقال : « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم علىٰ أمر الآخرة » .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٦) ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (١٠/١٦٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٥٤١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشرب حب الدنيا . . التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه » .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٥٦) حيث قال : (وروينا حديثاً مرسلاً عن علي بن معبد ، عن علي بن أبي طلحة) يرسله ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له إسناداً ، وذكره صاحب « الفردوس » من رواية علي بن أبي طلحة مرسلاً : « لا يستكمل عبد الإيمان حتىٰ يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته ، وحتىٰ يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه=

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (الدنيا قنطرةٌ ، فاعبروها ولا تعمروها)[1] .

وقيلَ لهُ : يا نبيَّ اللهِ ؛ لوْ أمرتَنا أنْ نبنيَ بيتاً نعبدُ اللهَ فيهِ ، فقالَ : اذهبوا فابنوا بيتاً على الماءِ ، فقالوا : كيفَ يستقيمُ بنيانٌ على الماءِ ؟! قالَ : وكيفَ تستقيمُ عبادةٌ علىٰ حبِّ الدنيا ؟![2] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ عرضَ عليَّ أنْ يجعلَ لي بطحاءَ مكةَ ذهباً ، فقلتُ : لا يا ربِّ ، ولكنْ أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، فأمَّا اليومُ الذي أجوعُ فيهِ . . فأتضرَّعُ إليكَ وأدعوكَ ، وأمَّا اليومُ الذي أشبعُ فيهِ . . فأحمدُكَ وأثني عليكَ »[3] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ يمشي وجبريلُ معَهُ ، فصعدَ على الصفا ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي بعثَكَ بالحقِّ ؛ ما أمسىٰ لآلِ محمدٍ كفُّ سويقٍ ولا سفَّةُ دقيقٍ » ، فلمْ يكنْ كلامُهُ بأسرعَ مِنْ أنْ سمعَ هدَّةً مِنَ السماءِ أفظعَتْهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمرَ اللهُ القيامةَ أنْ تقومَ ؟ » قالَ : لا ، ولكنْ هٰذا إسرافيلُ عليهِ السلامُ قدْ نزلَ إليكَ حينَ سمعَ

= من أن يعرف في غير ذات الله » ، ولم يخرجه ولده في « مسنده » ، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم ، وروىٰ عن ابن عباس ، لكن روايته عنه مرسلة ، والحديث إذاً معضل) . « إتحاف » (٩/ ٣٣٢) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٢) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٦) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٧) .

كلامَكَ ، فأتاهُ إسرافيلُ فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سمعَ ما ذكرتَ ، فبعثني بمفاتيحِ الأرضِ وأمرَني أنْ أعرضَ عليكَ ؛ إنْ أحببتَ أنْ أسيِّرَ معكَ جبالَ تهامةَ زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضةً . . فعلتُ ، وإنْ شئتَ نبيّاً ملكاً ، وإنْ شئتَ نبياً عبداً ، فأومأَ إليهِ جبريلُ أنْ تواضعْ للهِ ، فقالَ : « نبيّاً عبداً » ثلاثاً[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . زهَّدَهُ في الدنيا ، ورغَّبَهُ في الآخرةِ ، وبصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « ازهدْ في الدنيا . . يحبَّكَ اللهُ ، وازهدْ فيما في أيدي الناسِ . . يحبَّكَ الناسُ »[٣] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ أنْ يؤتيَهُ اللهُ علماً بغيرِ تعلُّمٍ ، وهدىً بغيرِ هدايةٍ . . فليزهدْ في الدنيا »[٤] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٩٣٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٤٤٧) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه ، وليس عندهما (ورغبه في الآخرة) ، بل (فقهه في الدين) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٢) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٨) من حديث الحسن مرسلاً ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم فقال : « هل منكم من يريد أن يؤتيه الله عز وجل علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية ؟ هل منكم من يريد أن يذهب الله عز وجل عنه العمىٰ ويجعله بصيراً ؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وأطال أمله فيها . . أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها . . أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية . . . » الحديث .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اشتاقَ إلى الجنَّةِ . . سارعَ إلى الخيراتِ ، ومَنْ خافَ مِنَ النارِ . . لها عنِ الشهواتِ ، ومَنْ ترقَّبَ الموتَ . . تركَ اللذَّاتِ ، ومَنْ زهدَ في الدنيا . . هانَتْ عليهِ المصيباتُ »[1] .

ويروىٰ عنْ نبيِّنا وعنْ عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِما وسلامُهُ : « أربعٌ لا يُدركنَ إلا بعجبٍ : الصمتُ وهوَ أوَّلُ العبادةِ ، والتواضعُ ، وكثرةُ الذكرِ ، وقلَّةُ الشيءِ »[2] .

وجميعُ الأخبارِ الواردةِ في مدحِ بغضِ الدنيا وذمِّ حبِّها لا يمكنُ حصرُها ، فإنَّ الأنبياءَ ما بُعثوا إلا لصرفِ الناسِ عنِ الدنيا إلى الآخرةِ ، فإليهِ يرجعُ أكثرُ كلامِهِمْ معَ الخلقِ ، وفيما أوردناهُ كفايةٌ ، واللهُ المستعانُ .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ جاءَ في الأثرِ : (لا تزالُ لا إلهَ إلا اللهُ تدفعُ عنِ العبادِ سخطَ اللهِ عزَّ وجلَّ ما لمْ يبالوا ما نقصَ مِنْ دنياهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (ما لمْ يؤثروا صفقةَ دنياهُمْ علىٰ دينِهِمْ ، فإذا فعلوا ذلكَ وقالوا : لا إلهَ إلا اللهُ . .

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٣٤) من حديث علي كرم الله وجهه مرفوعاً .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٦) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٥٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٢٨) .

قالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتُمْ ، لستُمْ بها صادقينَ)[١] .

وعنْ بعضِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ قالَ : (تابعنا الأعمالَ كلَّها ، فلمْ نرَ في أمرِ الآخرةِ أبلغَ مِنْ زهدٍ في الدنيا)[٢] .

وقالَ بعضُ الصحابةِ لصدرٍ منَ التابعينَ : أنتُمْ أكثرُ أعمالاً واجتهاداً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهُمْ كانوا خيراً منكُمْ ، قيلَ : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ : كانوا أزهدَ في الدنيا منكُمْ[٣] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الزهادةُ في الدنيا راحةُ القلبِ والجسدِ)[٤] .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (كفىٰ بهِ ذنباً أنَّ اللهَ تعالىٰ يزهِّدُنا في الدنيا ونحنُ نرغبُ فيها)[٥] .

وقالَ رجلٌ لسفيانَ : أشتهي أنْ أرىٰ عالماً زاهداً ، فقالَ : ويحَكَ ! تلكَ ضالَّةٌ لا تُوجدُ[٦] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، وقد رواه مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ابنُ عدي في « الكامل » (٢/ ٢١٤) .

(٢) والقول لأبي واقد الليثي رضي الله عنه ، رواه له أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٠٠) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٠١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يخاطب صدر التابعين الأول .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٣) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٢٤) .

(٦) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص٧٥) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٢) .

وقالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ : إنَّ للجنَّةِ ثمانيةَ أبوابٍ ، فإذا صارَ أهلُ الجنَّةِ إليها . . جعلَ البوَّابونَ يقولونَ : وعزَّةِ ربِّنا ؛ لا يدخلُها أحدٌ قبلَ الزاهدينَ في الدنيا والعاشقينَ للجنَّةِ .

وقالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ رحمهُ اللهُ : إنِّي لأشتهي مِنَ اللهِ ثلاثَ خصالٍ : أنْ أموتَ حينَ أموتُ وليسَ في ملكي درهمٌ ، ولا يكونُ عليَّ دينٌ ، ولا علىٰ عظمي لحمٌ ، فأُعطيَ ذلكَ كلَّه .

ورُوِيَ أنَّ بعضَ الخلفاءِ أرسلَ إلى الفقهاءِ بجوائزَ فقبلوها ، وأرسلَ إلى الفضيلِ بعشرةِ آلافٍ فلمْ يقبلْها ، فقالَ لهُ بنوهُ : قدْ قبلَ الفقهاءُ وأنتَ تردُّ علىٰ حالتِكَ هذهِ ! فبكى الفضيلُ وقالَ : أتدرونَ ؟ ما مثلي ومثلُكُمْ إلا كمثلِ قومٍ كانَتْ لهُمْ بقرةٌ يحرثونَ عليها ، فلما هرمَتْ . . قالوا : اذبحوها وانتفعوا بجلدِها ، وكذلكَ أنتُمْ أردتُمْ ذبحي علىٰ كبرِ سنِّي ، موتوا يا أهلي جوعاً خيرٌ لكمْ مِنْ أنْ تذبحوا فضيلاً(١) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : (كانَ عيسىٰ ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ يلبسُ الشعرَ ، ويأكلُ الشجرَ ، وليسَ لهُ ولدٌ يموتُ ، ولا بيتٌ يخربُ ، ولا يدخرُ لغدٍ ، أينَما أدركَهُ المساءُ . . نامَ)(٢) .

---

(١) رواه ضمن خبر طويل فيه قصة زيارة هارون الرشيد له أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٢٨) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٦٧) .

وقالَتِ امرأةُ أبي حازمٍ لأبي حازمٍ : هـٰذا الشتاءُ قدْ هجمَ علينا ، ولا بدَّ لنا مِنَ الطعامِ والثيابِ والحطبِ ، فقالَ لها أبو حازمٍ : مِنْ هـٰذا كلِّهِ بدٌّ ، ولكنْ لا بدَّ لنا مِنَ الموتِ ، ثمَّ البعثِ ، ثمَّ الوقوفِ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثمَّ الجنَّةِ أوِ النارِ[١] .

وقيلَ للحسنِ : لِمَ لا تغسلُ قميصَكَ ؟ قالَ : الأمرُ أعجلُ مِنْ ذلكَ[٢] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (قدْ حُجبَتْ قلوبُنا بثلاثةِ أغطيةٍ ، فلنْ يُكشفَ للعبدِ اليقينُ حتَّىٰ تُرفعَ هـٰذهِ الحُجُبُ : الفرحُ بالموجودِ ، والحزنُ على المفقودِ ، والسرورُ بالمدحِ ، فإذا فرحتَ بالموجودِ . . فأنتَ حريصٌ ، وإذا حزنتَ على المفقودِ . . فأنتَ ساخطٌ والساخطُ معذَّبٌ ، وإذا سُررتَ بالمدحِ . . فأنتَ معجبٌ والعجْبُ يحبطُ العملَ)[٣] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ركعتانِ مِنْ زاهدٍ قلبُهُ خيرٌ لهُ وأحبُّ إلى اللهِ مِنْ عبادةِ المتعبدينَ المجتهدينَ إلىٰ آخرِ الدهرِ أبداً سرمداً)[٤] .

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ٥١٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٠) .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٤) بنحوه .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢٦٥) حيث قال : (وروىٰ مسروق عن ابن مسعود) وذكره .

وقالَ بعضُ السلفِ : (نعمةُ اللهِ علينا فيما صرفَ عنَّا أكثرُ مِنْ نعمتِهِ فيما صرفَ إلينا)(١) ، وكأنَّهُ التفتَ إلىٰ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يحمي عبدَهُ المؤمنَ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما تحمونَ مريضَكُمُ الطعامَ والشرابَ تخافونَ عليهِ »(٢) ، فإذا فُهِمَ هـٰذا . . عُلِمَ أنَّ النعمةَ في المنعِ المؤدِّي إلى الصحةِ أكبرُ منها في الإعطاءِ المؤدِّي إلى السقمِ .

وكانَ الثوريُّ يقولُ : (الدنيا دارُ التواءٍ لا دارُ استواءٍ ، ودارُ ترحٍ لا دارُ فرحٍ ، مَنْ عرفَها . . لمْ يفرحْ برخاءٍ ، ولمْ يحزنْ علىٰ شقاءٍ)(٣) .

وقالَ سهلٌ : (لا يخلصُ العملُ لمتعبدٍ حتَّىٰ لا يفزعَ مِنْ أربعةِ أشياءَ : الجوعُ ، والعريُ ، والفقرُ ، والذلُّ)(٤) .

وقالَ الحسنُ البصريُّ : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ ما كانوا يفرحونَ بشيءٍ مِنَ الدنيا أقبلَ ، ولا يأسفونَ علىٰ شيءٍ منها أدبرَ ، ولهيَ كانَتْ في أعينِهِمْ أهونَ مِنَ الترابِ ، كانَ أحدُهُمْ يعيشُ خمسينَ سنةً وستينَ سنةً لمْ يُطوَ لهُ ثوبٌ ، ولمْ يُنصبْ له قدْرٌ ، ولمْ يجعلْ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً ، ولا أمرَ مَنْ في بيتِهِ بصنعةِ طعامٍ قطُّ ، فإذا كانَ الليلُ . . فقيامٌ علىٰ

---

(١) قوت القلوب (١/٢٦٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٦) .

(٣) قوت القلوب (١/٢٦٦) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٤٥) .

أطرافِهِمْ ، يفترشونَ وجوهَهُمْ ، تجري دموعُهُمْ علىٰ خدودِهِمْ ، يناجونَ ربَّهُمْ في فكاكِ رقابِهِمْ ، كانوا إذا عملوا الحسنةَ . . دأبوا في شكرِها ، وسألوا اللهَ أنْ يتقبَّلَها ، وإذا عملوا السيئةَ . . أحزنَتْهُمْ ، وسألوا اللهَ أن يغفرَها لهُمْ ، فلم يزالوا علىٰ ذلكَ ، وواللهِ ما سلموا مِنَ الذنوبِ ولا نجوا إلا بالمغفرةِ)[1] .

* * *

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

بيان درجات الزّهد وأقسامه
بالإضافة إلى نفسه، وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه

اعلمْ : أنَّ الزهدَ في نفسِهِ يتفاوتُ بحسبِ تفاوتِ قوَّتِهِ علىٰ درجاتٍ ثلاثٍ :

الدرجةُ الأولىٰ ـ وهيَ السفلىٰ منها ـ :

أنْ يزهدَ في الدنيا وهوَ لها مشتهٍ ، وقلبُهُ إليها مائلٌ ، ونفسُهُ إليها ملتفتةٌ ، ولكنَّهُ يجاهدُها ويكفُّها ، وهـٰذا يُسمَّى المتزهِّدَ ، وهوَ مبدأُ الزهدِ في حقِّ مَنْ يصلُ إلىٰ درجةِ الزهدِ بالكسبِ والاجتهادِ .

والمتزهِّدُ يذيبُ أوَّلاً نفسَهُ ثمَّ كيسَهُ[1] ، والزاهدُ أوَّلاً يذيبُ كيسَهُ ثمَّ يذيبُ نفسَهُ في الطاعةِ ، لا في الصبرِ علىٰ ما فارقَهُ ، والمتزهِّدُ علىٰ خطرٍ ؛ فإنَّهُ ربما تغلبُهُ نفسُهُ ، وتجذبُهُ شهوتُهُ ، فيعودُ إلى الدنيا وإلى الاستراحةِ بها في قليلٍ أوْ كثيرٍ .

***

الدرجةُ الثانيةُ :

الذي يتركُ الدنيا طوعاً لاستحقارِهِ إيَّاها بالإضافةِ إلىٰ ما طمعَ فيهِ ؛ كالذي يتركُ درهماً لأجلِ درهمينِ ، فإنَّهُ لا يشقُّ عليهِ ذلكَ وإنْ كانَ يحتاجُ

---

(١) بإخراج المرغوب منه . « إتحاف » (٩/ ٣٣٧) .

إلى انتظارٍ قليلٍ ، ولكنْ هـٰذا الزاهدُ يرىٰ ـ لا محالةَ ـ زهدَهُ ويلتفتُ إليهِ ؛ كما يرى البائعُ المبيعَ ويلتفتُ إليهِ ، فيكادُ يكونُ معجباً بنفسِهِ وبزهدِهِ ، ويظنُّ بنفسِهِ أنَّهُ تركَ شيئاً لهُ قدرٌ لما هوَ أعظمُ قدراً منهُ ، وهـٰذا أيضاً نقصانٌ .

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ :

أنْ يزهدَ طوعاً ، ويزهدَ في زهدِهِ ، فلا يرىٰ زهدَهُ ؛ إذْ لا يرىٰ أنَّهُ تركَ شيئاً ، إذْ عرفَ أنَّ الدنيا لا شيءَ ، فيكونُ كمَنْ تركَ خزفةً وأخذَ جوهرةً ، فلا يرىٰ ذلكَ معاوضةً ، ولا يرىٰ نفسَهُ تاركاً شيئاً ، والدنيا بالإضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ ونعيمِ الآخرةِ أخسُّ مِنْ خزفةٍ بالإضافةِ إلىٰ جوهرةٍ .

فهـٰذا هوَ الكمالُ في الزهدِ ، وسببُهُ كمالُ المعرفةِ ، ومثلُ هـٰذا الزاهدِ آمنٌ مِنْ خطرِ الالتفاتِ إلى الدنيا ، كما أنَّ تاركَ الخزفةِ بالجوهرةِ آمنٌ مِنْ طلبِ الإقالةِ في البيعِ .

قالَ أبو يزيدَ لأبي موسىٰ : عبدُ الرحيمِ في أيِّ شيءٍ يتكلَّمُ ؟ قالَ : في الزهدِ ، قالَ : في أيِّ شيءٍ ؟ قالَ : في الدنيا ، فنفضَ يدَهُ وقالَ : ظننتُ أنَّهُ يتكلَّمُ في شيءٍ ، الدنيا لا شيءَ ، أيشٍ يزهدُ فيها ؟! [1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٩) ، وأبو موسىٰ هو هارون بن سليمان الكوفي ، وعبد الرحيم هو ابن يحيى الأسود الأرموي الدمشقي . انظر « الإتحاف » (٩/ ٣٣٨) .

ومثلُ مَنْ تركَ الدنيا للآخرةِ عندَ أهلِ المعرفةِ وأربابِ القلوبِ المعمورةِ بالمشاهداتِ والمكاشفاتِ مثلُ مَنْ منعَهُ عنْ بابِ الملكِ كلبٌ علىٰ بابِهِ ، فألقىٰ إليهِ لقمةً مِنْ خبزٍ ، فشغلَهُ بنفسِهِ ، ودخلَ البابَ ونالَ القربَ عندَ الملكِ ، حتَّىٰ نفذَ أمرُهُ في جميعِ مملكتِهِ ، أفترىٰ أنَّهُ يرىٰ لنفسِهِ يداً عندَ الملكِ بلقمةِ خبزٍ ألقاها إلىٰ كلبِهِ في مقابلةِ ما قدْ نالَهُ ؟

فالشيطانُ كلبٌ علىٰ بابِ اللهِ تعالىٰ يمنعُ الناسَ مِنَ الدخولِ ، معَ أنَّ البابَ مفتوحٌ والحجابَ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمةِ خبزٍ ، إنْ أُكلَتْ . . فلذَّتُها في حالِ المضغِ ، وتنقضي على القربِ بالابتلاعِ ، ثمَّ يبقىٰ ثفلُها في المعدةِ ، ثمَّ تنتهي إلى النتنِ والقذرِ ، ثمَّ يحتاجُ بعدَ ذلكَ إلىٰ إخراجِ ذلكَ الثفلِ ، فمَنْ تركَها لينالَ عزَّ الملكِ كيفَ يلتفتُ إليها ؟!

ونسبةُ الدنيا كلِّها ـ أعني ما يسلمُ لكلِّ شخصٍ منها وإنْ عُمِّرَ مئةَ سنةٍ ـ بالإضافةِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ أقلُّ مِنْ لقمةٍ بالإضافةِ إلىٰ ملكِ الدنيا ؛ إذْ لا نسبةَ للمتناهي إلىٰ ما لا نهايةَ لهُ ، والدنيا متناهيةٌ على القربِ ولوْ كانَتْ تتمادىٰ ألفَ ألفِ سنةٍ صافيةً عنْ كلِّ كدرٍ . . لكانَ لا نسبةَ لها إلىٰ نعيمِ الأبدِ ، فكيفَ ومدَّةُ العمرِ قصيرةٌ ولذَّاتُ الدنيا مكدرةٌ غيرُ صافيةٍ ؟! فأيُّ نسبةٍ لها إلىٰ نعيمِ الأبدِ ؟!

فإذاً ؛ لا يلتفتُ الزاهدُ إلىٰ زهدِهِ إلا إذا التفتَ إلىٰ ما زهدَ فيهِ ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما زهدَ فيهِ إلا لأنَّهُ يراهُ شيئاً معتدّاً بهِ ، ولا يراهُ شيئاً معتداً بهِ

إلا لقصورِ معرفتِهِ ، فسببُ نقصانِ الزهدِ نقصانُ المعرفةِ .

فهـٰذا تفاوتُ درجاتِ الزهدِ ، وكلُّ درجةٍ مِنْ هـٰذهِ أيضاً لها درجاتٌ ، إذْ تصبُّرُ المتزهِّدِ يختلفُ ويتفاوتُ أيضاً باختلافِ قدْرِ المشقَّةِ في الصبرِ ، وكذلكَ درجةُ المعجبِ بزهدِهِ في قدْرِ التفاتِهِ إلىٰ زهدِهِ .

وأمَّا انقسامُ الزهدِ بالإضافةِ إلى المرغوبِ فيهِ . . فهوَ أيضاً علىٰ ثلاثِ درجاتٍ :

الدرجةُ السفلىٰ :

أنْ يكونَ المرغوبُ فيهِ النجاةَ مِنَ النارِ ومِنْ سائرِ الآلامِ ؛ كعذابِ القبرِ ، ومناقشةِ الحسابِ ، وخطرِ الصراطِ ، وسائرِ ما بينَ يدي العبدِ مِنَ الأهوالِ كما وردَتْ بهِ الأخبارُ ؛ ففي الخبرِ : « إنَّ الرجلَ ليُوقفُ في الحسابِ حتىٰ لوْ وردَتْ مئةُ بعيرٍ عطاشاً علىٰ عرقِهِ . . لصدرَتْ رِواءً »(١) ، فهـٰذا هوَ زهدُ

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « التقىٰ مؤمنان علىٰ باب الجنة ؛ مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فيقول : أي أخي ؛ ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتىٰ خفت عليك ، فيقول : أي أخي ؛ حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ، وما وصلت إليك حتىٰ سال مني من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض . . لصدرت عنه رواء » ، والحمض : نبت فيه ملوحة يحمل علىٰ كثرة الشرب .

الخائفينَ ، وكأنَّهُمْ رضوا بالعدمِ لوْ أعدموا ، فإنَّ الخلاصَ مِنَ الألمِ يحصلُ بمجرَّدِ العدمِ[1] .

* * *

الدرجةُ الثانيةُ :

أنْ يزهدَ رغبةً في ثوابِ اللهِ ونعيمِهِ ، واللذَّاتِ الموعودةِ في جنَّتِهِ مِنَ الحورِ والقصورِ وغيرِها ، وهـٰذا **زهدُ الراجينَ** ، فإنَّ هؤلاءِ ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدمِ والخلاصِ مِنَ الألمِ ، بلْ طمعوا في وجودٍ دائمٍ ونعيمٍ سرمدٍ لا آخرَ لهُ .

* * *

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ العليا ـ :

ألا يكونَ لهُ رغبةٌ إلا في اللهِ وفي لقائِهِ ، فلا يلتفتُ قلبُهُ إلى الآلامِ ليقصدَ الخلاصَ منها ، ولا إلى اللذاتِ ليقصدَ نيلَها والظفرَ بها ، بلْ هوَ مستغرقُ الهمِّ باللهِ تعالىٰ ، وهوَ الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وهوَ الموحِّدُ الحقيقيُّ الذي لا يطلبُ غيرَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مَنْ طلبَ غيرَ اللهِ . . فقدْ عبدَهُ ، وكلُّ مطلوبٍ معبودٌ ، وكلُّ طالبٍ عبدٌ بالإضافةِ إلىٰ مطلبِهِ ، وطلبُ غيرِ اللهِ

---

(١) أشار الحافظ الزبيدي إلىٰ أن العدم هنا بمعنى الفقر إذ قال في « إتحافه » (٩/ ٣٣٩) : (لأن احتباس الغني إنما كان لسبب غناه) ، وما يفيده لحاق المصنف الآتي أن العدم هنا علىٰ إطلاقه .

مِنَ الشركِ الخفيِّ ، وهـٰذا زهدُ المحبِّينَ[1] ، وهمُ العارفونَ ؛ لأنَّهُ لا يحبُّ اللهَ تعالىٰ خاصَّةً إلا مَنْ عرفَهُ ، وكما أنَّ مَنْ عرفَ الدينارَ وعرفَ الدرهمَ وعلمَ أنَّهُ لا يقدرُ على الجمعِ بينَهُما . . لمْ يحبَّ إلا الدينارَ ؛ فكذلكَ مَنْ عرفَ اللهَ ، وعرفَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، وعرفَ أنَّ الجمعَ بينَ تلكَ اللذةِ وبينَ لذَّةِ التنعُّمِ بالحورِ العينِ والنظرِ إلىٰ نقشِ القصورِ وخضرةِ الأشجارِ غيرُ ممكنٍ . . فلا يحبُّ إلا لذَّةَ النظرِ ولا يؤثرُ غيرَهُ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ أهلَ الجنَّةِ عندَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ يبقىٰ للذَّةِ الحورِ والقصورِ متسعٌ في قلوبِهِمْ ، بلْ تلكَ اللذَّةُ بالإضافةِ إلىٰ لذَّةِ نعيمِ الجنَّةِ كلذَّةِ ملْكِ الدنيا والاستيلاءِ علىٰ أطرافِ الأرضِ ورقابِ الخلقِ بالإضافةِ إلىٰ لذَّةِ الاستيلاءِ علىٰ عصفورٍ واللعبِ بهِ ، والطالبونَ لنعيمِ الجنَّةِ عندَ أهلِ المعرفةِ وأربابِ القلوبِ كالصبيِّ الطالبِ للعبِ بالعصفورِ التاركِ للذَّةِ الملْكِ ، وذلكَ لقصورِهِ عنْ إدراكِ لذَّةِ الملكِ ، لا لأنَّ اللعبَ بالعصفورِ في نفسِهِ أعلىٰ وألذُّ مِنَ الاستيلاءِ بطريقِ الملكِ علىٰ كافَّةِ الخلقِ .

* * *

وأمَّا انقسامُهُ بالإضافةِ إلى المرغوبِ عنهُ : فقدْ كثرَتْ فيهِ الأقاويلُ ، ولعلَّ المذكورَ فيهِ يزيدُ علىٰ مئةِ قولٍ ، فلا نشتغلُ بنقلِ الأقاويلِ ، ولكنْ

---

(١) وصاحب هـٰذا المقام قد سباه الحب وشغفه الشوق ، فهو داخل في الخلق منفصل منهم ، غير مضيع لما ألزمه الله من حقوقهم ، فأنَّىٰ لإبليس أن يطمع في هـٰذا ومعه من الله عصمة وتأييد ، فلولا القدر . . لرفعه إليه من حبه له . « إتحاف » (٩/ ٣٤٠) .

نشيرُ إلىٰ كلامٍ محيطٍ بالتفاصيلِ ، حتَّىٰ يتضحَ أنَّ أكثرَ ما ذُكرَ فيهِ قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بالكلِّ ، فنقولُ :

المرغوبُ عنهُ بالزهدِ لهُ إجمالٌ وتفصيلٌ ، ولتفصيلِهِ مراتبُ ، بعضُها أشرحُ لآحادِ الأقسامِ ، وبعضُها أجمعُ للجملِ .

أمَّا الإجمالُ في **الدرجةِ الأولىٰ** : فهوَ كلُّ ما سوى اللهِ ، فينبغي أنْ يزهدَ فيهِ ، حتَّىٰ يزهدَ في نفسِهِ أيضاً .

والإجمالُ في **الدرجةِ الثانيةِ** : أنْ يزهدَ في كلِّ صفةٍ للنفسِ فيها متعةٌ ، وهـٰذا يتناولُ جميعَ مقتضياتِ الطبعِ ؛ مِنَ الشهوةِ ، والغضبِ ، والكبرِ ، والرئاسةِ ، والمالِ ، والجاهِ ، وغيرِها .

وفي **الدرجةِ الثالثةِ** : أنْ يزهدَ في المالِ والجاهِ وأسبابِهما ، إذْ إليهِما ترجعُ جميعُ حظوظِ النفسِ .

وفي **الدرجةِ الرابعةِ** : أنْ يزهدَ في العلمِ والقدرةِ ، والدينارِ والدرهمِ والجاهِ ، إذِ الأموالُ وإنْ كثرَتْ أصنافُها فيجمعُها الدينارُ والدرهمُ ، والجاهُ وإنْ كثرَتْ أسبابُهُ فيرجعُ إلى العلمِ والقدرةِ ، وأعني بهِ كلَّ علمٍ وقدرةٍ مقصودُها مِلْكُ القلوبِ ، إذْ معنى الجاهِ هوَ ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها ، كما أنَّ معنى المالِ ملكُ الأعيانِ والقدرةُ عليها .

فإنْ جاوزتَ هـٰذا التفصيلَ إلىٰ شرحٍ وتفصيلٍ أبلغَ مِنْ هـٰذا . . فيكادُ يخرجُ ما فيهِ الزهدُ عنِ الحصرِ ، وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في آيةٍ واحدةٍ سبعةً منها

فقالَ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

ثمَّ ردَّهُ في آيةٍ أخرىٰ إلىٰ خمسةٍ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ .

ثمَّ ردَّهُ تعالىٰ في موضعٍ آخرَ إلى اثنينِ فقالَ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ .

ثمَّ ردَّ الكلَّ إلىٰ واحدٍ في موضعٍ آخرَ فقالَ : ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فالهوىٰ لفظٌ يجمعُ جميعَ حظوظِ النفسِ في الدنيا ، فينبغي أنْ يكونَ الزهدُ فيهِ .

وإذا فهمتَ طريقَ الإجمالِ والتفصيلِ . . عرفتَ أنَّ البعضَ مِنْ هاذهِ لا يخالفُ البعضَ ، وإنَّما يفارقُهُ في الشرحِ مرَّةً والإجمالِ أخرىٰ .

والحاصلُ : أنَّ الزهدَ عبارةٌ عنِ الرغبةِ عنْ حظوظِ النفسِ كلِّها ، ومهما رغبَ عنْ حظوظِ النفسِ . . رغبَ عنِ البقاءِ في الدنيا ، فقصرَ أملَهُ لا محالَةَ ؛ لأنَّهُ إنَّما يريدُ البقاءَ ليتمتَّعَ ، ويريدُ التمتُّعَ الدائمَ بإرادةِ البقاءِ ، فإنَّ مَنْ أرادَ شيئاً . . أرادَ دوامَهُ ، ولا معنىً لحبِّ الحياةِ إلا حبُّ دوامِ ما هوَ موجودٌ أوْ ممكنٌ في هاذهِ الحياةِ ، فإذا رغبَ عنها . . لمْ يردْها .

ولذلكَ لمَّا كُتِبَ عليهِمُ القتالُ قالوا : ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أيْ : لستُمْ تريدونَ

البقاءَ إلا لمتاعِ الدنيا، فظهرَ عندَ ذلكَ الزاهدونَ ، وانكشفَ حالُ المنافقينَ .

أمَّا الزاهدونَ المحبُّونَ للهِ تعالىٰ . . فقاتلوا في سبيلِ اللهِ كأنَّهُمْ بنيانٌ مرصوصٌ ، وانتظروا إحدى الحسنيينِ ، وكانوا إذا دُعوا إلى القتالِ . . يستنشقونَ رائحةَ الجنَّةِ ، ويبادرونَ إليهِ مبادرةَ الظمآنِ إلى الماءِ البارِدِ ؛ حرصاً علىٰ نصرةِ دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ أوْ نيلِ رتبةِ الشهادةِ ، وكانَ مَنْ ماتَ منهُمْ علىٰ فراشِهِ يتحسَّرُ علىٰ فوتِ الشهادةِ ، حتَّىٰ إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لما احتضرَ للموتِ علىٰ فراشِهِ كانَ يقولُ : (كمْ غررتُ بروحي وهجمتُ على الصفوفِ طمعاً في الشهادةِ ، وأنا الآنَ أموتُ موتَ العجائزِ) ، فلمَّا ماتَ عُدَّ علىٰ جسدِهِ ثمانُ مئةِ ثقبٍ مِنْ آثارِ الجراحاتِ[1] ، هـٰكذا كانَ حالُ الصادقينَ في الإيمانِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ أجمعينَ .

وأمَّا المنافقونَ . . ففرُّوا مِنَ الزحفِ خوفاً مِنَ الموتِ ، فقيلَ لهُمْ : ﴿ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾ ، فإيثارُهُمُ البقاءَ على الشهادةِ استبدالُ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ ، فأولئكَ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فما ربحَتْ تجارتُهُمْ وما كانوا مهتدينَ .

وأمَّا المخلصونَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ اشترىٰ منهُمْ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ

---

(١) روى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٤٢) عن أبي الزناد : أن خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة . . بكىٰ وقال : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، فهـأنا أموت علىٰ فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

الجنَّةَ ، فلما رأَوا أنَّهُمْ تركوا تمتُّعَ عشرينَ سنةً مثلاً أوْ ثلاثينَ سنةً بتمتُّعِ الأبدِ . استبشروا ببيعِهِمُ الذي بايعوا بهِ .

فهٰذا بيانُ المزهودِ فيهِ .

وإذا فهمتَ هٰذا . علمتَ أن ما ذكرَهُ المتكلِّمونَ في حدِّ الزهدِ لمْ يشيروا بهِ إلا إلىٰ بعضِ أقسامِهِ ، فذكرَ كلٌّ واحدٍ منهُمْ ما رآهُ غالباً علىٰ نفسِهِ أوْ علىٰ مَنْ كانَ يخاطبُهُ .

فقالَ بشرٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (الزهدُ في الدنيا هوَ الزهدُ في الناسِ)(١) ، وهٰذا إشارةٌ إلى الزهدِ في الجاهِ خاصَّةً .

وقالَ قاسمٌ الجوعيُّ : (الزهدُ في الدنيا هوَ الزهدُ في الجوفِ ، فبقدْرِ ما تملكُ مِنْ بطنِكَ كذلكَ تملكُ مِنَ الزهدِ)(٢) ، وهٰذا إشارةٌ إلى الزهدِ في شهوةٍ واحدةٍ ، ولعمري هيَ أغلبُ الشهواتِ على الأكثرِ ، وهيَ المهيِّجةُ لأكثرِ الشهواتِ .

وقالَ الفضيلُ : (الزهدُ في الدنيا هوَ القناعةُ)(٣) ، وهٰذا إشارةٌ إلى المالِ خاصَّةً .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٢) ، ونحوه أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص٢٤٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٢) ، ورواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٤٧) .

وقالَ الثوريُّ : (الزهدُ هوَ قصرُ الأملِ)(١) ، وهٰذا جامعٌ لجميعِ الشهواتِ ، فإنَّ مَنْ يميلُ إلى الشهواتِ يحدِّثُ نفسَهُ بالبقاءِ ، فيطولُ أملُهُ ، ومَنْ قصرَ أملُهُ . . فكأنَّهُ رغبَ عنِ الشهواتِ كلِّها .

وقالَ أويسٌ : (إذا خرجَ الزاهدُ يطلبُ . . ذهبَ الزهدُ عنهُ)(٢) ، وما قصدَ بهٰذا حدَّ الزهدِ ، ولكنْ جعلَ التوكُّلَ شرطاً في الزهدِ .

وقالَ أويسٌ أيضاً : (الزهدُ هوَ تركُ الطلبِ للمضمونِ)(٣) ، وهوَ إشارةٌ إلى الرزقِ .

وقالَ أهلُ الحديثِ : (الدنيا هوَ العملُ بالرأيِ والمعقولِ ، والزهدُ إنَّما هوَ اتباعُ العلمِ ولزومُ السنةِ)(٤) ، وهٰذا إنْ أُريدَ بهِ الرأيُ الفاسدُ والمعقولُ الذي يُطلبُ بهِ الجاهُ في الدنيا . . فهوَ صحيحٌ ، ولكنَّهُ إشارةٌ إلىٰ بعضِ أسبابِ الجاهِ خاصَّةً ، أوْ إلىٰ بعضِ ما هوَ منْ فضولِ الشهواتِ ، فإنَّ مِنَ العلومِ ما لا فائدةَ فيهِ في الآخرةِ ، وقدْ طوَّلوها حتَّىٰ ينقضي عمرُ الإنسانِ في الاشتغالِ بواحدٍ منها ، فشرطُ الزاهدِ أنْ يكونَ الفضولُ أوَّلَ مرغوبٍ عنهُ عندَهُ .

وقالَ الحسنُ : (الزاهدُ الذي إذا رأىٰ أحداً . . قالَ : هٰذا أفضلُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

منِّي)[١] ، فذهبَ إلىٰ أنَّ الزهدَ هوَ التواضعُ ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ نفيِ الجاهِ والعجبِ ، وهوَ بعضُ أقسامِ الزهدِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (الزهدُ هوَ طلبُ الحلالِ)[٢] ، وأينَ هـٰذا ممَّنْ يقولُ : (الزهدُ هوَ تركُ الطلبِ) كما قالَ أويسٌ ، ولا شكَّ في أنَّهُ أرادَ بهِ تركَ طلبِ الحلالِ ؟!

وقدْ كانَ يوسفُ بنُ أسباطٍ يقولُ : (مَنْ صبرَ على الأذىٰ ، وتركَ الشهواتِ ، وأكلَ الخبزَ مِنْ حلالٍ . . فقدْ أخذَ بأصلِ الزهدِ)[٣] .

وفي الزهدِ أقاويلُ وراءَ ما نقلناهُ ، فلمْ نرَ في نقلِها فائدةً ، فإنَّ مَنْ طلبَ كشفَ حقائقِ الأمورِ مِنْ أقاويلِ الناسِ . . رآها مختلفةً ، فلا يستفيدُ إلا الحيرةَ ، وأمَّا مَنِ انكشفَ لهُ الحقُّ في نفسِهِ ، وأدركَهُ بمشاهدةٍ مِنْ قلبِهِ ، لا بتلقُّفٍ مِنْ سمعهِ . . فقدْ وثقَ بالحقِّ ، واطلعَ علىٰ قصورِ مَنْ قصَّرَ لقصورِ بصيرتِهِ ، وعلى اقتصارِ مَنِ اقتصرَ معَ كمالِ المعرفةِ لاقتصارِ حاجتِهِ .

وهؤلاءِ كلُّهُمُ اقتصروا لا لقصورٍ في البصيرةِ ، ولكنَّهُمْ ذكروا ما ذكروهُ عندَ الحاجةِ ، فلا جرمَ ذكروهُ بقدْرِ الحاجةِ ، والحاجاتُ تختلفُ ، فلا جرمَ الكلماتُ تختلفُ .

وقدْ يكونُ سببُ الاقتصارِ الإخبارَ عنِ الحالةِ الراهنةِ التي هيَ مقامُ العبدِ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٧٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٨) .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٠٤) .

في نفسِهِ ، والأحوالُ تختلفُ ، فلا جرمَ الأقوالُ المخبرةُ عنها تختلفُ .

وأمَّا الحقُّ في نفسِهِ . . فلا يكونُ إلا واحداً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ ، وإنَّما الجامعُ مِنْ هـٰذهِ الأقاويلِ ، الكاملُ في نفسِهِ وإنْ لمْ يكنْ فيهِ تفصيلٌ . . ما قالَهُ أبو سليمانَ الدارانيُّ ؛ إذْ قالَ : (سمعنا في الزهدِ كلاماً كثيراً ، والزهدُ عندَنا تركُ كلِّ شيءٍ يشغلُكَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] ، وقدْ فصَّلَ مرَّةً وقالَ : (مَنْ تزوَّجَ ، أوْ سافرَ في طلبِ المعيشةِ ، أوْ كتبَ الحديثَ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[2] ، فجعلَ جميعَ ذلكَ ضدّاً للزهدِ ، وقدْ قرأَ أبو سليمانَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ فقالَ : (هوَ القلبُ الذي ليسَ فيهِ غيرُ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وقالَ : (إنَّما زهدوا في الدنيا لتفرغَ قلوبُهُمْ مِنْ همومِها للآخرةِ)[4] .

فهـٰذا بيانُ انقسامِ الزهدِ بالإضافةِ إلىٰ أصنافِ المزهودِ فيهِ .

فأمَّا بالإضافةِ إلىٰ أحكامِهِ : فينقسمُ إلىٰ فرضٍ ، ونفلٍ ، وسلامةٍ ؛ كما قالَهُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، فالفرضُ هوَ الزهدُ في الحرامِ ، والنفلُ هوَ الزهدُ في الحلالِ ، والسلامةُ هوَ الزهدُ في الشبهاتِ[5] .

وقدْ ذكرنا تفاصيلَ درجاتِ الورعِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، وذلكَ مِنَ

---

(١) بنحوه عند صاحب « القوت » (١/ ٢٥٢) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٥٢) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦) .

الزهدِ ، إذْ قيلَ لمالكِ بنِ أنسٍ : ما الزهدُ ؟ قالَ : التقوىٰ .

وأمّا بالإضافةِ إلىٰ خفايا ما يُتركُ : فلا نهايةَ للزهدِ فيهِ ، إذْ لا نهايةَ لما تتمتَّعُ بهِ النفسُ في الخطراتِ واللحظاتِ وسائرِ الحالاتِ ، لا سيما خفايا الرياءِ ، فإنَّ ذلكَ لا يطلعُ عليهِ إلا سماسرةُ العلماءِ ، بلِ الأمورُ الظاهرةُ أيضاً درجاتُ الزهدِ فيها لا تتناهىٰ .

فمِنْ أقصىٰ درجاتِها زهدُ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، إذْ توسَّدَ حجراً في نومِهِ ، فقالَ لهُ الشيطانُ : أما كنتَ تركتَ الدنيا ، فما الذي بدا لكَ ؟ قالَ : وما الذي تجدَّدَ ؟ قالَ : توسدتَ الحجرَ ـ أي : تنعمتَ برفعِ رأسِكَ عنِ الأرضِ في النومِ ـ فرمى الحجرَ وقالَ : خذهُ معَ ما تركتُهُ لكَ[1] .

ورُوِيَ عنْ يحيىٰ بنِ زكريا عليهما السلامُ أنَّهُ لبسَ المسوحَ حتَّىٰ نَقِبَ جلدُهُ ؛ تركاً للتنعُّمِ بلينِ اللباسِ ، واستراحةِ حسِّ اللمسِ ، فسألَتْهُ أمُّهُ أنْ يلبسَ مكانَها جبَّةً مِنْ صوفٍ ، ففعلَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا يحيىٰ ؛ آثرتَ عليَّ الدنيا ! فبكىٰ ونزعَ الصوفَ ، وعادَ إلىٰ ما كانَ عليهِ[2] .

وقالَ أحمدُ رحمهُ اللهُ : (الزهدُ زهدُ أويسٍ ، بلغَ مِنَ العريِ إلىٰ أنْ جلسَ في قَوْصرَّةٍ)[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) عن إسماعيل بن أبي خالد .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٥) .
(٣) نحوه عند أحمد في « الورع » (٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١/ ٢٦٧) ، والقوصرَّة ـ وتخفف ـ : وعاء للتمر من قصب .

وجلسَ عيسىٰ عليهِ السلامُ في ظلِّ حائطِ إنسانٍ ، فأقامَهُ صاحبُ الحائطِ ، فقالَ : ما أقمتَني أنتَ ، إنَّما أقامَني الذي لمْ يرضَ لي أنْ أتنعَّمَ بظلِّ الحائطِ(١) .

فإذاً ؛ درجاتُ الزهدِ ظاهراً وباطناً لا حصرَ لها ، وأقلُّ درجاتِهِ الزهدُ في كلِّ شبهةٍ ومحظورٍ .

وقالَ قومٌ : الزهدُ هوَ الزهدُ في الحلالِ ، لا في الشبهةِ والمحظورِ ، فليسَ ذلكَ مِنْ درجاتِهِ في شيءٍ ، ثمَّ رأَوا أنَّهُ لمْ يبقَ حلالٌ في أموالِ الدنيا ، فلا يُتصوَّرُ الزهدُ الآنَ .

* * *

فإنْ قلتَ : مهما كانَ الصحيحُ هوَ أنَّ الزهدَ تركُ ما سوى اللهِ . . فكيفَ يُتصوَّرُ ذلكَ معَ الأكلِ والشربِ واللبسِ ، ومخالطةِ الناسِ ومكالمتِهِمْ وكلُّ ذلكَ اشتغالٌ بما سوى اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ معنى الانصرافِ عنِ الدنيا إلى اللهِ تعالىٰ هوَ الإقبالُ بكلِّ القلبِ عليهِ ذكراً وفكراً ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا معَ البقاءِ ، ولا بقاءَ إلا بضرورياتِ النفسِ ، فمهما اقتصرتَ منَ الدنيا علىٰ دفعِ المهلكاتِ عنِ البدنِ وكانَ غرضُكَ الاستعانةَ بالبدنِ على العبادةِ . . لمْ تكنْ مشتغلاً بغيرِ اللهِ ؛ فإنَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٩/٤٧) بنحوه .

ما لا يُتوصَّلُ إلى الشيءِ إلا بهِ فهوَ منهُ ، فالمشتغلُ بعلفِ الناقةِ وبسقيها في طريقِ الحجِّ ليسَ معرضاً عنِ الحجِّ ، ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ بدنُكَ في طريقِ اللهِ مثلَ ناقتِكَ في طريقِ الحجِّ ، ولا غرضَ لكَ في تنعمِ ناقتِكَ باللذاتِ ، بلْ غرضُكَ مقصورٌ علىٰ دفعِ المهلكاتِ عنها ، حتَّىٰ تسيرَ بكَ إلىٰ مقصدِكَ ؛ فكذلكَ ينبغي أنْ تكونَ في صيانةِ بدنِكَ عنِ الجوعِ والعطشِ المهلِكِ بالأكلِ والشربِ ، وعنِ الحرِّ والبردِ المهلِكِ باللباسِ والمسكنِ ، فتقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ولا تقصدُ التلذُّذَ ، بلِ التقوِّيَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فذلكَ لا يناقضُ الزهدَ ، بلْ هوَ شرطُ الزهدِ .

* * *

فإنْ قلتَ : لا بدَّ وأنْ أتلذَّذَ بالأكلِ عندَ الجوعِ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ لا يضرُّكَ إذا لمْ يكنْ قصدُكَ التلذُّذَ ؛ فإنَّ شاربَ الماءِ الباردِ قدْ يستلذُّ الشربَ ويرجعُ حاصلُهُ إلىٰ زوالِ ألمِ العطشِ ، ومَنْ يقضي حاجتَهُ . . فقدْ يستريحُ بذلكَ ، ولكنْ لا يكونُ ذلكَ مقصوداً عندَهُ ومطلوباً بالقصدِ ، فلا يكونُ القلبُ منصرفاً إليهِ ، فالإنسانُ قدْ يستريحُ في قيامِ الليلِ بتنسُّمِ الأسحارِ وصوتِ الأطيارِ ، ولكنْ إذا لمْ يقصدْ طلبَ موضعٍ لهـٰذهِ الاستراحةِ . . فما يصيبُهُ مِنْ ذلكَ بغيرِ قصدِهِ لا يضرُّهُ .

ولقدْ كانَ في الخائفينَ مَنْ طلبَ موضعاً لا يصيبُهُ فيهِ نسيمُ الأسحارِ خيفةً مِنَ الاستراحةِ بهِ وأنسِ القلبِ معَهُ ، فيكونُ فيهِ أنسٌ بالدنيا ، ونقصانٌ في

الأنسِ باللهِ بقدْرِ وقوعِ الأنسِ بغيرِ اللهِ ، ولذلكَ كانَ داوودُ الطائيُّ لهُ حُبٌّ مكشوفٌ فيهِ ماؤُهُ[1] ، فكانَ لا يرفعُهُ مِنَ الشمسِ ويشربُ الماءَ الحارَّ ويقولُ : مَنْ وجدَ لذَّةَ الماءِ الباردِ . . شقَّ عليهِ مفارقةُ الدنيا[2] .

فهـٰذهِ مخاوفُ المحتاطينَ ، والحزمُ في جميعِ ذلكَ الاحتياطُ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ شاقّاً . . فمدتُهُ قريبةٌ ، والاحتماءُ مدَّةً يسيرةً للتنعُّمِ على التأبيدِ لا يثقلُ علىٰ أهلِ المعرفةِ القاهرينَ أنفسَهُمْ بسياسةِ الشرعِ ، المعتصمينَ بعروةِ اليقينِ في معرفةِ المضادَّةِ التي بينَ الدنيا والدينِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ أجمعينَ .

* * *

(١) الحُبُّ : الخابية للماء ، جمعه : حِباب وحِببة .

(٢) معناه عند أبي نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٩ ، ٣٥١) .

بيان تفصيل الزّهد فيما هو من ضروريّات الحياة

اعلمْ : أنَّ ما الناسُ منهمكونَ فيهِ ينقسمُ إلىٰ فضولٍ وإلىٰ مهمٍّ .

فالفضولُ : كالخيلِ المسوَّمةِ مثلاً ؛ إذْ غالبُ الناسِ إنَّما يقتنيها للترفُّهِ بركوبِها ، وهوَ قادرٌ على المشيِ .

والمهمُّ : كالأكلِ والشربِ .

ولسنا نقدرُ علىٰ تفصيلِ أصنافِ الفضولِ ، فإنَّ ذلكَ لا ينحصرُ ، وإنَّما ينحصرُ المهمُّ الضروريُّ ، والمهمُّ أيضاً يتطرَّقُ إليهِ فضولٌ في مقدارِهِ وجنسِهِ وأوقاتِهِ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِ وجهِ الزهدِ فيهِ .

والمهماتُ ستةُ أمورٍ : المطعمُ ، والملبسُ ، والمسكنُ ، وأثاثُهُ ، والمنكحُ ، والمالُ ، والجاهُ يُطلبُ لأغراضٍ ، وهـٰذهِ الستةُ مِنْ جملتِها[١] ، وقدْ ذكرنا معنى الجاهِ ، وسببَ حبِّ الخلقِ لهُ ، وكيفيةَ الاحترازِ منهُ في كتابِ الرياءِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، ونحنُ الآنَ نقتصرُ علىٰ بيانِ هـٰذهِ المهمَّاتِ الستةِ .

* * *

(١) أي : الستة من جملة الأغراض التي يطلب الجاه لأجلها ، فليس الجاه معدوداً في المهمات ، وسيجعل المصنف رحمه الله تعالى المال والجاه في مهم واحد ، وهو المهم السادس .

الأوَّلُ : المطعمُ :

ولا بدَّ للإنسانِ مِنْ قوتٍ حلالٍ يقيمُ صلبَهُ ، ولكنْ لهُ طولٌ وعرضٌ ، فلا بدَّ مِنْ قبضِ طولِهِ وعرضِهِ حتَّىٰ يتمَّ بهِ الزهدُ .

فأمَّا طولُهُ . . فبالإضافةِ إلىٰ جملةِ العمرِ ؛ فإنَّ مَنْ يملكُ طعامَ يومِهِ فلا يقنعُ بهِ ، وأما عرضُهُ . . ففي مقدارِ الطعامِ وجنسِهِ ووقتِ تناولِهِ .

أمَّا طولُهُ : فلا يقصرُ إلا بقصرِ الأملِ ، وأقلُّ درجاتِ الزهدِ فيهِ الاقتصارُ علىٰ قدْرِ دفعِ الجوعِ عندَ شدَّةِ الجوعِ وخوفِ المرضِ ، ومَنْ هـٰذا حالُهُ فإذا استقلَّ بما تناولَهُ . . لمْ يدَّخرْ مِنْ غدائِهِ لعشائِهِ ، وهـٰذهِ هيَ **الدرجةُ العليا** .

الدرجةُ الثانيةُ : أنْ يدخرَ لشهرٍ أوْ لأربعينَ يوماً .

الدرجةُ الثالثةُ : أنْ يدخرَ لسنةٍ فقطْ ، وهـٰذهِ رتبةُ ضعفاءِ الزهَّادِ .

ومَنِ ادخرَ لأكثرَ مِنْ ذلكَ . . فتسميتُهُ زاهداً محالٌ ؛ لأنَّ مَنْ أملَ بقاءَ أكثرَ مِنْ سنةٍ . . فهوَ طويلُ الأملِ جداً ، فلا يتمُّ منهُ الزهدُ إلا إذا لمْ يكنْ لهُ كسبٌ ، ولمْ يرضَ لنفسِهِ الأخذَ مِنْ أيدي الناسِ ؛ كداوودَ الطائيِّ ، فإنَّهُ ورثَ عشرينَ ديناراً ، فأمسكَها وأنفقَها في عشرينَ سنةً[1] ، فهـٰذا لا يضادُّ أصلَ الزهدِ إلا عندَ مَنْ جعلَ التوكُّلَ شرطَ الزهدِ .

وأمَّا عرضُهُ . . فبالإضافةِ إلى المقدارِ : وأقلُّ درجاتِهِ في اليومِ والليلةِ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٧) .

نصفُ رطلٍ ، وأوسطُهُ رطلٌ ، وأعلاهُ مدٌّ واحدٌ ، وهوَ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ في إطعامِ المسكينِ في الكفَّارةِ ، وما وراءَ ذلكَ . . فهوَ مِنِ اتساعِ البطنِ والاشتغالِ بهِ ، ومَنْ لمْ يقدرْ على الاقتصارِ علىٰ مدٍّ . . لمْ يكنْ لهُ مِنَ الزهدِ في البطنِ نصيبٌ .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الجنسِ : فأقلُّهُ كلُّ ما يقوتُ ولوِ الخبزَ مِنَ النخالةِ ، وأوسطُهُ خبزُ الشعيرِ والذرةِ ، وأعلاهُ خبزُ البرِّ غيرَ منخولٍ ، فإذا ميزَ مِنَ النخالةِ وصارَ حُوَّارَىٰ . . فقدْ دخلَ في التنعُّمِ ، وخرجَ عنْ آخرِ أبوابِ الزهدِ فضلاً عنْ أوائلِهِ .

وأمَّا الأدمُ . . فأقلُّهُ الملحُ أوِ البقلُ أوِ الخلُّ ، وأوسطُهُ الزيتُ أوْ يسيرٌ مِنَ الأدهانِ أيَّ دهنٍ كانَ ، وأعلاهُ اللحمُ أيَّ لحمٍ كانَ ، وذلكَ في الأسبوعِ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ، فإنْ صارَ دائماً ، أوْ أكثرَ مِنْ مرَّتينِ في الأسبوعِ . . خرجَ مِنْ آخرِ أبوابِ الزهدِ ، فلمْ يكنْ صاحبُهُ زاهداً في البطنِ أصلاً .

وأمَّا بالإضافةِ إلى الوقتِ : فأقلُّهُ في اليومِ والليلةِ مرَّةٌ ، وهوَ أنْ يكونَ صائماً ، وأوسطُهُ أنْ يصومَ ويشربَ ليلةً ولا يأكلَ ، ويأكلَ ليلةً ولا يشربَ ، وأعلاهُ ينتهي إلىٰ أنْ يطويَ ثلاثةَ أيامٍ أوْ أسبوعاً وما زادَ عليهِ ، وقدْ ذكرنا طريقَ تقليلِ الطعامِ وكسرِ شرهِهِ في ربعِ المهلكاتِ .

ولينظرْ إلىٰ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهِمْ في كيفيَّةِ زهدِهِمْ في المطاعمِ وتركِهِمُ الأدمَ ، قالَتْ

عائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها : كانَتْ تأتي علينا أربعونَ ليلةً وما يُوقدُ في بيتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مصباحٌ ولا نارٌ ، قيلَ لها : فبمَ كنتُمْ تعيشونَ ؟ قالَتْ : بالأسودينِ ؛ التمرِ والماءِ[1] . وهٰذا تركُ اللحمِ والمرقةِ والأدمِ .

وقالَ الحسنُ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يركبُ الحمارَ ، ويلبسُ الصوفَ ، وينتعلُ المخصوفَ ، ويلعقُ أصابعَهُ ، ويأكلُ على الأرضِ ، ويقولُ : « إنَّما أنا عبدٌ ، آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ »[2] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (بحقٍّ أقولُ لكُمْ : إنَّهُ مَنْ طلبَ الفردوسَ فخبزُ الشعيرِ لهُ والنومُ على المزابلِ معَ الكلابِ كثيرٌ)[3] .

---

(١) روى ابن ماجه (٤١٤٥) من حديثها رضي الله عنها : لقد كان يأتي على آل محمد صلى الله عليه وسلم الشهر ما يرىٰ في بيت من بيوته الدخان ، قال أبو سلمة : قلت : فما كان طعامهم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء . . . الحديث .
وعند أحمد في « المسند » (٦/ ٨٦) : كان يمر برسول الله صلى الله عليه وسلم هلال وهلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار .

(٢) روىٰ قول الحسن إلىٰ قوله : (ويأكل على الأرض) ابنُ سعد في « طبقاته » (١/ ٣٢٠) ، والشطر الثاني منه رواه أيضاً ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٣٢٨) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٩٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٧٤) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٢٢) .

وقالَ الفضيلُ : (ما شبِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منذُ قدمَ المدينةَ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ خبزِ البرِّ)[١] .

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ يقولُ : (يا بني إسرائيلَ ؛ عليكمْ بالماءِ القراحِ ، والبقلِ البرِّيِّ وخبزِ الشعيرِ ، وإيَّاكُمْ وخبزَ البرِّ ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقوموا بشكرِهِ)[٢] .

وقدْ ذكرنا سيرةَ الأنبياءِ والسلفِ في المطعمِ والمشربِ في ربعِ المهلكاتِ ، فلا نعيدُهُ .

ولمَّا أتىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أهلَ قُباءَ . . أتوهُ بشربةٍ مِنْ لبنٍ مشوبةٍ بعسلٍ ، فوضعَ القدحَ مِنْ يدِهِ وقالَ : « أما إنِّي لستُ أحرِّمُهُ ، ولكنِّي أتركُهُ تواضعاً للهِ تعالىٰ »[٣] .

وأُتِيَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشربةٍ مِنْ ماءٍ باردٍ وعسلٍ في يومٍ صائفٍ ، فقالَ : (اعزلوا عنِّي حسابَها)[٤] .

وقدْ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : (الزاهدُ الصادقُ قوتُهُ ما وجدَ ، ولباسُهُ ما سترَ ، ومسكنُهُ حيثُ أدركَ ، الدنيا سجنُهُ ، والقبرُ مضجعُهُ ، والخلوةُ مجلسُهُ ، والاعتبارُ فكرتُهُ ، والقرآنُ حديثُهُ ، والربُّ أنيسُهُ ،

---

(١) رواه البخاري (٥٤١٦) ، ومسلم (٢٩٧٠) .
(٢) هو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٣٢) بلاغاً عنه عليه السلام .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٥٦) ، وروى الحكيم الترمذي في « نوادره » (٢/ ٤٢٦) نحوه .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٦٢٨) .

[redacted]

[redacted]

المهمُّ الثالثُ : المسكنُ :

وللزهدِ أيضاً فيهِ ثلاثُ درجاتٍ :

أعلاها : ألا يطلبَ موضعاً خاصّاً لنفسِهِ ، فيقنعَ بزوايا المساجدِ كأصحابِ الصفَّةِ .

وأوسطُها : أنْ يطلبَ موضعاً خاصّاً لنفسِهِ ؛ مثلَ كوخٍ مبنيٍّ مِنْ سعفٍ أوْ خصٍّ أوْ ما يشبهُهُ[1] .

وأدناها : أنْ يطلبَ حجرةً مبنيةً ؛ إمَّا بشراءٍ أوْ إجارةٍ ، فإنْ كانَ قدْرُ سعةِ المسكنِ علىٰ قدْرِ حاجتِهِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ، ولمْ يكنْ فيهِ زينةٌ . . لمْ يخرجْهُ هـٰذا القدْرُ عن آخرِ درجاتِ الزهدِ ، فإنْ طلبَ التشييدَ والتجصيصَ والسعةَ وارتفاعَ السقفِ أكثرَ مِنْ ستةِ أذرعٍ . . فقدْ جاوزَ بالكليَّةِ حدَّ الزهدِ في المسكنِ .

فاختلافُ جنسِ البناءِ بأنْ يكونَ بالجصِّ أوِ القصبِ أوْ بالطينِ أوْ بالآجرِّ ،

---

(١) **الخُصُّ** : البيت من قصب ، وفي (أ) : (الخوص) وهو ورق النخل ، وهـٰذا الوسط كان وصف مسكن الأسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم ، إذ لم تكن بيوت أزواجه عليه الصلاة والسلام من حجر أو لَبِن ، بل كانت من سعف وطين ، روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٣٠) عن عمران بن أبي أنس قال : (أدركت حُجَر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرتُ كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ ، يأمر بإدخال حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم) .

واختلافُ قدرِهِ بالسعةِ والضيقِ ، واختلافُ طولِهِ بالإضافةِ إلى الأوقاتِ بأنْ يكونَ مملوكاً أوْ مستأجراً أوْ مستعاراً ، وللزهدِ مدخلٌ في جميعِ ذلكَ .

وبالجملةِ : كلُّ ما يُرادُ للضرورةِ فلا ينبغي أنْ يجاوزَ حدَّ الضرورةِ ، وقدْرُ الضرورةِ مِنَ الدنيا آلةُ الدينِ ووسيلتُهُ ، وما جاوزَ ذلكَ فهوَ مضادٌّ للدينِ ، والغرضُ مِنَ المسكنِ دفعُ المطرِ والبردِ ، ودفعُ الأعينِ والأيدي ، وأقلُّ الدرجاتِ فيه معلومٌ ، وما زادَ عليهِ فهوَ مِنَ الفضولِ ، والفضولُ كلُّهُ مِنَ الدنيا ، وطالبُ الفضولِ والساعي لهُ بعيدٌ مِنَ الزهدِ جداً .

وقدْ قيلَ : أوَّلُ شيءٍ ظهرَ مِنْ طولِ الأملِ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التدريزُ والتشييدُ ، يعني بالتدريزِ : كفَّ دروزِ الثيابِ ؛ فإنَّها كانَتْ تُشلُّ شلاًّ[1] ، والتشييدُ هوَ البنيانُ بالجصِّ والآجرِّ ، وإنَّما كانوا يبنونَ بالسعفِ والجريدِ[2] ، وقدْ جاءَ في الأثرِ : (يأتي على الناسِ زمانٌ

---

(١) أي : تخاط خياطة خفيفة ، بخلاف الدرز الذي هو التدقيق فيها . روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٩٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : لبس عمر قميصاً جديداً ثم قال : مدَّ كميَّ يا بني وألزق يدك بأطراف أصابعي واقطع ما فضل عنهما ، قال : فقطعت من الكمين ، فصار فم الكمين بعضه فوق بعض ، فقلت : لو سويته بالمقص ، قال : دعه يا بني ، هـٰكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، قال ابن عمر : فما زال القميص علىٰ أبي حتىٰ تقطَّع ، وما كنا نصلي حتىٰ رأيت بعض الخيوط تتساقط علىٰ قدميه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٠) والسياق عنده ، وعند البخاري (٤٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ عهده مبنياً باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل .

يوشُّونَ بنيانَهُمْ كما تُوشَّى البرودُ اليمانيةُ)[١] .

وأمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ العباسَ أنْ يهدمَ عِلِّيَّةً كانَ قدْ علا بها[٢] ، ومرَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بجُنْبُذةٍ معلاَّةٍ فقالَ : « لِمَنْ هـٰذهِ » ؟ فقالوا : لفلانٍ ، فلمَّا جاءَهُ الرجلُ . . أعرضَ عنهُ ، فلمْ يكنْ يقبلُ عليهِ كما كانَ ، فسألَ الرجلُ أصحابَهُ عنْ تغيُّرِ وجهِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأُخبرَ ، فذهبَ فهدمَها ، فمرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالموضعِ فلمْ يرَها ، فأُخبرَ بأنَّهُ هدمَها ، فدعا لهُ بخيرٍ[٣] .

وقالَ الحسنُ : (ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ يضعْ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ)[٤] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ شرّاً . . أهلكَ مالَهُ في الماءِ والطينِ »[٥] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٢) .

(٣) رواه أبو داوود (٥٢٣٧) وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فرأىٰ قبة مشرفة . . . الحديث ، **والجنبذة** : لفظة فارسية معربة ، أصلها : گنبد ، وهي القبة .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٤٠) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ١٨٥) من حديث جابر رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٣٥) من حديث محمد بن بشير الأنصاري .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : مرَّ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونحنُ نعالجُ خُصّاً ، فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » قلنا : خُصٌّ لنا قدْ وَهيَ ، فقالَ : « أرى الأمرَ أعجلَ مِنْ ذلكَ »(١) .

واتخذَ نوحٌ عليهِ السلامُ بيتاً مِنْ قصبٍ ، فقيلَ لهُ : لوْ بنيتَ ، فقالَ : هـٰذا كثيرٌ لمَنْ يموتُ(٢) .

وقالَ الحسنُ : دخلنا علىٰ صفوانَ بنِ مُحْرِزٍ وهوَ في بيتٍ مِنْ قصبٍ قدْ مالَ عليهِ ، فقيلَ لهُ : لوْ أصلحتَهُ ، فقالَ : كم مِنْ رجلٍ قدْ ماتَ وهـٰذا قائمٌ علىٰ حالِهِ(٣) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بنىٰ فوقَ ما يكفيهِ . كُلِّفَ أنْ يحملَهُ يومَ القيامةِ »(٤) .

وفي الخبرِ : « كلُّ نفقةٍ يُؤجرُ عليها العبدُ إلا ما أنفقَهُ في الماءِ والطينِ »(٥) .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٢٣٥) ، والترمذي (٢٣٣٥) ، وابن ماجه (٤١٦٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٥٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٦٦) .

(٣) بنحوه عند ابن سعد في « طبقاته » (١٤٨/٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٢٧) .

(٥) رواه بنحوه ابن ماجه (٤١٦٣) ففيه : « إن العبد ليؤجر في نفقته كلها إلا في التراب » أو قال : « في البناء » .

وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أنَّهُ الرئاسةُ والتطاولُ في البنيانِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ بناءٍ وبالٌ علىٰ صاحبِهِ يومَ القيامةِ إلا ما أكنَّ مِنْ حرٍّ وبردٍ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرجلِ الذي شكا إليهِ ضيقَ منزلِهِ : « اتسعْ في السماءِ » أيْ : في الجنَّةِ(٢) .

ونظرَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ في طريقِ الشامِ إلىٰ صرحٍ قدْ بُنِيَ بجصٍّ وآجرٍّ ، فكبَّرَ وقالَ : (ما كنتُ أظنُّ أنْ يكونَ في هـٰذهِ الأمَّةِ مَنْ يبني بنيانَ هامانَ لفرعونَ)(٣) ؛ يعني قولَ فرعونَ : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ؛ يعني بهِ الآجرَّ .

ويُقالُ : إنَّ فرعونَ هوَ أوَّلُ مَنْ بُنِيَ لهُ بالجصِّ والآجرِّ ، وأوَّلُ مَنْ عملَهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦١) ، وهو عند أبي داوود (٥٢٣٧) في الحديث الذي فيه ذكر القبة المتقدم قريباً ، ولفظه : « أما إن كل بناء وبال علىٰ صاحبه إلا ما لا ، إلا ما لا » ؛ يعني : ما لا بد منه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٦١) ، ورواه ابن شبة في « تاريخ المدينة » (١/ ٢٤٤) عن المغيرة بن عبد الرحمـٰن ، وأبو داوود في « المراسيل » (٤٨٩) عن اليسع بن المغيرة ، كلاهما مرسلاً ، ووصله الطبراني في « الكبير » (٤/ ١١٧) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وهو الرجل الذي شكا ضيق مسكنه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) .

هامانُ ، ثمَّ تبعَهُما الجبابرةُ ، وهـٰذا هوَ الزخرفُ(١) .

وذكرَ بعضُ السلفِ جامعاً في بعضِ الأمصارِ فقالَ : أدركتُ هـٰذا المسجدَ مبنياً مِنَ الجريدِ والسعفِ ، ثمَّ رأيتُهُ مبنياً مِنْ رهوصٍ ، ثمَّ رأيتُهُ الآنَ مبنياً باللَّبِنِ ، فكانَ أصحابُ السعفِ خيراً مِنْ أصحابِ الرهوصِ ، وكانَ أصحابُ الرهوصِ خيراً مِنْ أصحابِ اللَّبِنِ(٢) .

وكانَ في السلفِ مَنْ يبني دارَهُ مراراً في مدَّةِ عمرِهِ لضعفِ بنائِهِ ، وقصرِ أملِهِ ، وزهدِهِ في إحكامِ البنيانِ ، وكانَ منهُمْ مَنْ إذا حجَّ أوْ غزا . . نزعَ بيتَهُ أوْ وهبَهُ لجيرانِهِ ، فإذا رجعَ . . أعادَهُ ، وكانَتْ بيوتُهُمْ مِنَ الحشيشِ والجلودِ ، وهيَ عادةُ العربِ الآنَ ببلادِ اليمنِ(٣) .

وكانَ ارتفاعُ بناءِ السلفِ قامةً وبسطةً ، قالَ الحسنُ : (كنتُ إذا دخلتُ بيوتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضربتُ بيدي إلى السقفِ)(٤) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) ، والرهوص : جمع رهْص ، وهو الطين الذي يبنىٰ به ، يجعل بعضه علىٰ بعض .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٠) .

(٤) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٤٣١) ، وفيه : (كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سُقُفَها بيدي) ، وقد روىٰ (١/ ٤٣٠) أيضاً في وصف بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أنها من جريد قد طرَّت بالطين ، عليها مسوح شعر ، وقول أبي أمامة بن سهل يوم أدخِلت في مسجده صلى الله عليه وسلم زمن الوليد : (ليتها تركت فلم تهدم ؛ حتىٰ يقصر الناس عن البناء ، ويروا ما رضي الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده) ، وقول سعيد بن =

وقالَ عمرو بنُ دينارٍ : (إذا عَلَّى العبدُ البناءَ فوقَ ستةِ أذرعٍ . . ناداهُ ملكٌ : إلىٰ أينَ يا أفسقَ الفاسقينَ ؟!)[1] .

وقدْ نهىٰ سفيانُ عنِ النظرِ إلىٰ بناءٍ مشيدٍ وقالَ : لولا نظرُ الناسِ . . لما شيدوهُ ، فالناظرُ إليهِ معينٌ عليهِ[2] .

وقالَ الفضيلُ : (إنِّي لا أعجبُ ممَّنْ بنىٰ وتركَ ، ولكنِّي أعجبُ ممَّنْ نظرَ إليهِ ولمْ يعتبرْ !)[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (يأتي قومٌ يرفعونَ الطينَ ، ويضعونَ الدينَ ، ويستعملونَ البراذينَ ، يصلُّون إلىٰ قبلتِكُمْ ، ويموتونَ علىٰ غيرِ دينِكُمْ) .

* * *

= المسيب : (والله ؛ لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها ينشأ ناشىء من أهل المدينة ويقدم القادم من الأفق فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر) .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٦٠) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع . . ناداه مناد من السماء : أين تذهب يا أفسق الفاسقين ؟! » .

(٢) قال نحوه ليحيى بن يمان كما في « القوت » (١/ ٢٦٠) حين نظر إلىٰ باب مشيد ، فقال له سفيان : لا تنظر إليه ؛ إذا نظرت إليه . . كنت عوناً علىٰ بنائه ؛ لأنه إنما بناه لينظر إليه ، ولو كان كل من مر به لم ينظر إليه . . ما عمله .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٣٦٣) .

المهمُّ الرابعُ : أثاثُ البيتِ :

وللزهدِ فيهِ أيضاً درجاتٌ :

أعلاها : حالُ عيسىٰ عليهِ السلامُ ؛ إذْ كانَ لا يصحبُهُ إلا مشطٌ وكوزٌ ، فرأىٰ إنساناً يمشُطُ لحيتَهُ بأصابعِهِ ، فرمى المُشْطَ ، ورأىٰ آخرَ يشربُ مِنَ النهرِ بكفيهِ ، فرمى الكوزَ .

وهٰذا حكمُ كلِّ أثاثٍ ، فإنَّهُ إنَّما يُرادُ لمقصودٍ ، فإذا استغنىٰ عنهُ . . فهوَ وبالٌ في الدنيا والآخرةِ ، وما لا يُستغنىٰ عنهُ فيقتصرُ فيهِ علىٰ أقلِّ الدرجاتِ ، وهوَ الخزفُ في كلِّ ما يكفي فيهِ الخزفُ ، ولا يبالي بأنْ يكونَ مكسورَ الطرفِ إذا كانَ المقصودُ يحصلُ بهِ .

وأوسطُها : أنْ يكونَ لهُ أثاثٌ بقدْرِ الحاجةِ صحيحٌ في نفسِهِ ، لكنْ يستعملُ الآلةَ الواحدةَ في مقاصدَ ؛ كالذي معَهُ قصعةٌ يشربُ فيها ، ويأكلُ الثريدَ فيها ، ويحفظُ المتاعَ فيها ، وكانَ السلفُ يستحبُّونَ استعمالَ آلةٍ واحدةٍ في أشياءَ للتخفيفِ .

وأدناها : أنْ يكونَ لهُ بعددِ كلِّ حاجةٍ آلةٌ مِنَ الجنسِ النازلِ الخسيسِ ، فإنْ زادَ في العددِ أو في نفاسةِ الجنسِ . . خرجَ عنْ جميعِ أبوابِ الزهدِ ، وركنَ إلىٰ طلبِ الفضولِ .

ولينظرْ إلىٰ سيرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسيرةِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، فقدْ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ ضِجاعُ رسولِ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الذي ينامُ عليهِ وسادةً مِنْ أدمٍ حشوُها ليفٌ)(١) .

وقالَ الفضيلُ : (ما كانَ فراشُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا عباءةً مثنيَّةً ، ووسادةً مِنْ أدمٍ حشوُها ليفٌ)(٢) .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ دخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ نائمٌ علىٰ سريرٍ مرمولٍ بشريطٍ ، فجلسَ ، فرأىٰ أثرَ الشريطِ في جنبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدمعَتْ عينا عمرَ ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الذي أبكاكَ يا بنَ الخطابِ ؟ » قالَ : ذكرتُ كسرىٰ وقيصرَ وما هما فيهِ مِنَ الملكِ ، وذكرتُكَ وأنتَ رسولُ اللهِ وحبيبُهُ وصفيُّهُ نائمٌ علىٰ سريرٍ مرمولٍ بالشريطِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما ترضىٰ يا عمرُ أنْ تكونَ لهُما الدنيا ولنا الآخرةُ ؟ » قالَ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فذلكَ كذلكَ »(٣) .

ودخلَ رجلٌ علىٰ أبي ذرٍّ ، فجعلَ يقلِّبُ بصرَهُ في بيتِهِ ، فقالَ : يا أبا ذرٍّ ؛ ما أرىٰ في بيتِكَ متاعاً ولا غيرَ ذلكَ مِنَ الأثاثِ ! فقالَ : إنَّ لنا بيتاً نوجِّهُ إليهِ صالحَ متاعِنا ، فقالَ : إنَّهُ لا بدَّ لكَ مِنْ متاعٍ ما دمتَ هـٰهنا ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٦) ، وأبو داوود (٤١٤٧) ، والترمذي (١٧٦١) ، وابن ماجه (٤١٥١) ، **والضجاع** : كالفراش لفظاً ومعنىً .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣٢٩) بنحوه عن عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

(٣) رواه بنحوه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩/ ٣١) ، وبلفظه هنا رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١١٦٣) ، **والمرمول** : المنسوج ، يقال : أرملته ؛ إذا نسجته بشريطٍ من خوص أو ليف .

فقالَ : إنَّ صاحبَ المنزلِ لا يدعُنا فيهِ[1] .

ولمَّا قدمَ عميرُ بنُ سعدٍ أميرُ حمصَ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما . . قالَ لهُ : ما معَكَ مِنَ الدنيا ؟ فقالَ : معي عصايَ أتوكَّأُ عليها ، وأقتلُ بها حيَّةً إنْ لقيتُها ، ومعي جرابي أحملُ فيهِ طعامي ، ومعي قصعتي آكلُ فيها ، وأغسلُ فيها رأسي وثوبي ، ومعي مطهرتي أحملُ فيها شرابي ووضوئي للصلاةِ ، فما كانَ بعدَ هٰذا مِنَ الدنيا فهو تبعٌ لما معي ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : صدقتَ رحمَكَ اللهُ[2] .

وقدمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ سفرٍ ، فدخلَ علىٰ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها ، فرأىٰ علىٰ بابِ منزلِها ستراً ، وفي يدِها قُلْبينِ مِنْ فضةٍ ، فرجعَ ، فدخلَ عليها أبو رافعٍ وهيَ تبكي ، فأخبرَتْهُ برجوعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألَهُ أبو رافعٍ ، فقالَ : « مِنْ أجلِ السترِ والسوارينِ » ، فأرسلَتْ بهِما بلالاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَتْ : قدْ تصدقتُ بهِما ، فضعْهُما حيثُ ترىٰ ، فقالَ : « اذهبْ فبعْهُ وادفعْهُ إلىٰ أهلِ الصفَّةِ » ، فباعَ القُلْبينِ بدرهمينِ ونصفٍ ، وتصدَّقَ بهِما عليهِمْ ، فدخلَ عليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « بأبي أنتِ ، قدْ أحسنتِ »[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٨) .
(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٧) ، وقد رواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الكبير » (١٧/٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٤٨) .
(٣) كذا في « القوت » (١/٢٥٨) ، وروىٰ أبو داوود (٤٢١٣) عن ثوبان رضي الله عنه =

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بابِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ستراً ، فهتكَهُ وقالَ : « كلَّما رأيتُهُ . . ذكرتُ الدنيا ، أرسلي بهِ إلىٰ آلِ فلانٍ »(١) .

وفرشَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ذاتَ ليلةٍ فراشاً جديداً ، وقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينامُ علىٰ عباءةٍ مثنيَّةٍ ، فما زالَ يتقلَّبُ ليلتَهُ ، فلما أصبحَ . . قالَ لها : « أعيدي العباءةَ الخلقةَ ونحِّي هـٰذا الفراشَ عني ، قدْ أسهرَني الليلةَ »(٢) .

وكذلكَ أتتْهُ دنانيرُ خمسةٌ أوْ ستةٌ عشاءً فبيَّتَها ، فسهرَ ليلتَهُ حتَّىٰ أخرجَها مِنْ آخرِ الليلِ ، قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها ، فنامَ حينئذٍ حتَّىٰ سمعتُ

= قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر . . كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة ، فقدم من غزاة وقد علقت مسحاً أو ستراً علىٰ بابها ، وحلَّت الحسن والحسين قُلْبين من فضة ، فقدم ، فلم يدخل ، فظنت أن ما منعه أن يدخل ما رأىٰ ، فهتكت الستر ، وفككت القلبين عن الصبيين وقطعته بينهما ، فانطلقا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذه منهما وقال : « يا ثوبان ؛ اذهب بهـٰذا إلىٰ آل فلان ـ أهل بيت بالمدينة ـ إن هـٰؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، يا ثوبان ؛ اشتر لفاطمة قلادة عصب وسوارين من عاج » ، **والقُلْب** : السوار .

(١) كذا في « القوت » (١/٢٥٩) ، ورواه مسلم (٢١٠٧/٨٨) من حديثها رضي الله عنها وفيه : « حوِّلي هـٰذا ، فإني كلما دخلت فرأيته . . ذكرت الدنيا » ، وعنده (٢١٠٧/٩١) : (ثم تناول الستر فهتكه) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٥٩) ، وهو بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي الشيخ في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه » (٤٦٣) .

غطيطَهُ ، ثمَّ قالَ : « ما ظنُّ محمدٍ بربِّهِ لوْ لقيَ اللهَ وهـٰذهِ عندَهُ ؟ »[1] .

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ سبعينَ مِنَ الأخيارِ ما لأحدِهِمْ إلا ثوبُهُ ، وما وضعَ أحدُهُمْ بينَهُ وبينَ الأرضِ ثوباً قطُّ ، كانَ إذا أرادَ النومَ .. باشرَ الأرضَ بجسمِهِ ، وجعلَ ثوبَهُ فوقَهُ)[2] .

* * *

المهمُّ الخامسُ : المنكحُ :

وقدْ قالَ قائلونَ : لا معنىٰ للزهدِ في أصلِ النكاحِ ولا في كثرتِهِ ، وإليهِ ذهبَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ ، وقالَ : (قدْ حُبِّبَ إلىٰ سيِّدِ الزاهدينَ النساءُ ، فكيفَ نزهدُ فيهِنَّ)[3] .

ووافقَهُ علىٰ هـٰذا القولِ ابنُ عيينةَ ، وقالَ : (كانَ أزهدَ الصحابةِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانَ لهُ أربعُ نسوةٍ وبضعَ عشرةَ سُرِّيَّةً)[4] .

والصحيحُ : ما قالَهُ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ ، إذْ قالَ : (كلُّ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٩) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٤٩) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ؛ ما فعلتِ الذهب ؟ » فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلِّبها بيده ويقول : « ما ظن محمد بالله عز وجل لو لقيه وهـٰذه عنده ؟ أنفقيها » .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

ما شغلَكَ عنِ اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ)(١) ، والمرأةُ قدْ تكونُ شاغلاً عنِ اللهِ .

وكشْفُ الحقِّ فيهِ : أنَّهُ قدْ تكونُ العزوبةُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ كما سبقَ في كتابِ النكاحِ ، فيكونُ تركُ النكاحِ مِنَ الزهدِ .

وحيثُ يكونُ النكاحُ أفضلَ لدفعِ الشهوةِ الغالبةِ . . فهوَ واجبٌ ، فكيفَ يكونُ مِنَ الزهدِ تركُهُ ؟!

وإنْ لمْ يكنْ عليهِ آفةٌ في تركِهِ ولا في فعلِهِ ، ولكنْ تركَ النكاحَ احترازاً مِنْ ميلِ القلبِ إليهِنَّ والأنسِ بهِنَّ ؛ بحيثُ يشتغلُ عنْ ذكرِ اللهِ . . فتركُ ذلكَ مِنَ الزهدِ .

وإنْ علمَ أنَّ المرأةَ لا تشغلُهُ عنْ ذكرِ اللهِ ، ولكنْ تركَ ذلكَ احترازاً مِنْ لذَّةِ النظرِ والمضاجعةِ والمواقعةِ . . فليسَ هٰذا مِنَ الزهدِ أصلاً ، فإنَّ الولدَ مقصودٌ لبقاءِ نسلِهِ ، وتكثيرُ أمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ القرباتِ ، واللذةُ التي تلحقُ الإنسانَ فيما هوَ مِنْ ضرورةِ الوجودِ لا تضرُّهُ إذا لمْ تكنْ هيَ المطلبَ والمقصدَ ، وهٰذا كمَنْ تركَ أكلَ الخبزِ وشربَ الماءِ احترازاً مِنْ لذَّةِ الأكلِ والشربِ ، وليسَ ذلكَ مِنَ الزهدِ في شيءٍ ؛ لأنَّ في تركِ ذلكَ فواتَ بدنِهِ ، فكذلكَ في تركِ النكاحِ انقطاعُ نسلِهِ .

فلا يجوزُ أنْ يتركَ النكاحَ زهداً في لذَّتِهِ مِنْ غيرِ خوفِ آفةٍ أخرىٰ ، وهٰذا

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٣٦٢) .

ما عناهُ سهلٌ لا محالةَ ، ولأجلِهِ نكحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وإذا ثبتَ هـٰذا . . فمَنْ حالُهُ حالُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أنَّهُ لا يشغلُهُ كثرةُ النسوةِ ولا اشتغالُ القلبِ بإصلاحِهِنَّ والإنفاقِ عليهِنَّ . . فلا معنىٰ لزهدِهِ فيهِنَّ حذراً مِنْ مجرَّدِ لذَّةِ الوقاعِ والنظرِ ، ولكنْ أنَّىٰ يُتصوَّرُ ذلكَ لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ ؟! فأكثرُ الناسِ يشغلُهُمْ كثرةُ النسوانِ ، فينبغي أنْ يتركَ الأصلَ إنْ كانَ يشغلُهُ ، وإنْ لمْ يشغلْهُ وكانَ يخافُ مِنْ أنْ تشغلَهُ الكثرةُ منهُنَّ أوْ جمالُ المرأةِ . . فلينكحْ واحدةً غيرَ جميلةٍ ، وليراعِ قلبَهُ في ذلكَ .

قالَ أبو سليمانَ : (الزهدُ في النساءِ أنْ يختارَ المرأةَ الدونَ أوِ اليتيمةَ على المرأةِ الجميلةِ والشريفةِ)(١) .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (أحبُّ للمريدِ المبتدىءِ ألا يشغلَ قلبَهُ بثلاثٍ ، وإلا . . تغيَّرَ حالُهُ : التكسُّبُ ، وطلبُ الحديثِ ، والتزويجُ)(٢) .

وقالَ : (أحبُّ للصوفيِّ ألا يقرأَ ولا يكتبَ ؛ لأنَّهُ أجمعُ لهمِّهِ)(٣) .

فإذا ظهرَ أنَّ لذَّةَ النكاحِ كلذَّةِ الأكلِ . . فما يشغلُ عنِ اللهِ فهوَ محذورٌ فيهِما جميعاً .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) ، وقال : (وذهب إلىٰ هـٰذا مالك بن دينار) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

المهمُّ السادسُ : ما يكونُ وسيلةً إلىٰ هـٰذهِ الخمسةِ ، وهوَ المالُ والجاهُ :

أمَّا الجاهُ : فمعناهُ ملكُ القلوبِ بطلبِ محلٍّ فيها ؛ ليتوصَّلَ بهِ إلى الاستعانةِ في الأغراضِ والأعمالِ ، وكلُّ مَنْ لا يقدرُ على القيامِ بنفسِهِ في جميعِ حاجاتِهِ ، وافتقرَ إلىٰ مَنْ يخدمُهُ . . افتقرَ إلىٰ جاهٍ ـ لا محالةَ ـ في قلبِ خادمِهِ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يكنْ لهُ عندَهُ محلٌّ وقدْرٌ . . لمْ يقمْ بخدمتِهِ ، وقيامُ القدرِ والمحلِّ في القلوبِ هوَ الجاهُ .

وهـٰذا لهُ أوَّلٌ قريبٌ ، ولكنْ يتمادىٰ بهِ إلىٰ هاويةٍ لا عمقَ لها ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، وإنَّما يحتاجُ إلى المحلِّ في القلوبِ إمَّا لجلبِ نفعٍ ، أوْ لدفعِ ضرٍّ ، أوْ لخلاصٍ مِنْ ظلمٍ .

فأمَّا النفعُ . . فيغني عنهُ المالُ ، فإنَّ مَنْ يخدمُ بأجرةٍ يخدمُ وإنْ لمْ يكنْ للمستأجرِ عندَهُ قدْرٌ ، وإنَّما يُحتاجُ إلى الجاهِ في قلبِ مَنْ يخدمُ بغيرِ أجرةٍ .

وأمَّا دفعُ الضرِّ . . فيحتاجُ لأجلِهِ إلى الجاهِ في بلدةٍ لا يكملُ العدلُ فيها ، أوْ أنْ يكونَ بينَ جيرانٍ يظلمونَهُ ولا يقدرُ علىٰ دفعِ شرِّهِمْ إلا بمحلٍّ لهُ في القلوبِ ، أوْ محلٍّ لهُ عندَ السلطانِ ، وقدْرُ الحاجةِ فيهِ لا ينضبطُ ، لا سيما إذا انضمَّ إليهِ الخوفُ وسوءُ الظنِّ بالعواقبِ .

والخائضُ في طلبِ الجاهِ سالكٌ طريقَ الهلاكِ ، بلْ حقُّ الزاهدِ ألا يسعىٰ لطلبِ المحلِّ في القلوبِ أصلاً ، فإنَّ اشتغالَهُ بالدينِ والعبادةِ يمهدُ لهُ مِنَ المحلِّ في القلوبِ ما يدفعُ بهِ عنهُ الأذىٰ ولوْ كانَ بينَ الكفَّارِ ، فكيفَ بينَ

المسلمينَ ؟! فأمَّا التوهُّماتُ والتقديراتُ التي تحوجُ إلىٰ زيادةٍ في الجاهِ على الحاصلِ بغيرِ كسبٍ . . فهيَ أوهامٌ كاذبةٌ ؛ إذْ مَنْ طلبَ الجاهَ أيضاً لمْ يخلُ عنْ أذىً في بعضِ الأحوالِ ، فعلاجُ ذلكَ بالاحتمالِ والصبرِ أولىٰ مِنْ علاجِهِ بطلبِ الجاهِ .

فإذاً ؛ طلبُ المحلِّ في القلوبِ لا رخصةَ فيهِ أصلاً ، واليسيرُ منهُ داعٍ إلى الكثيرِ ، وضراوتُهُ أشدُّ مِنْ ضراوةِ الخمرِ ، فليحترزْ مِنْ قليلِهِ وكثيرِهِ .

وأمَّا المالُ : فهوَ ضروريٌّ في المعيشةِ ؛ أعني القليلَ منهُ ، فإنْ كانَ كسوباً ؛ فإذا اكتسبَ حاجةَ يومِهِ . . فينبغي أنْ يتركَ الكسبَ ، كانَ بعضُهُمْ إذا اكتسبَ حبَّتينِ . . رفعَ سفطَهُ وقامَ . هـٰذا شرطُ الزهدِ .

فإنْ جاوزَ ذلكَ إلىٰ ما يكفيهِ أكثرَ مِنْ سنةٍ . . فقدْ خرجَ عنْ حدِّ ضعفاءِ الزهَّادِ وأقويائِهِمْ جميعاً ، وإنْ كانَتْ لهُ ضيعةٌ ولمْ يكنْ لهُ قوَّةُ يقينٍ في التوكُّلِ ، فأمسكَ منها مقدارَ ما يكفي ريعَهُ لسنةٍ واحدةٍ . . فلا يخرجُ بهـٰذا القدْرِ عنِ الزهدِ ، بشرطِ أنْ يتصدَّقَ بكلِّ ما يفضلُ عنْ كفايةِ سنتِهِ ، ولكنْ يكونُ مِنْ ضعفاءِ الزهَّادِ ؛ فإنْ شُرِطَ التوكُّلُ في الزهدِ كما شرطَهُ أويسٌ القرنيُّ رحمهُ اللهُ . . فلا يكونُ هـٰذا مِنَ الزهَّادِ ، وقولُنا : (إنَّهُ خرجَ مِنْ حدِّ الزهَّادِ) نعني بهِ : أنَّ ما وُعدَ للزاهدينَ في الدارِ الآخرةِ مِنَ المقاماتِ المحمودةِ لا ينالُهُ ، وإلا . . فاسمُ الزهدِ قدْ لا يفارقُهُ بالإضافةِ إلىٰ ما زُهِدَ فيهِ مِنَ الفضولِ والكثرةِ .

وأمرُ المنفردِ في جميعِ ذلكَ أخفُّ مِنْ أمرِ المعيلِ ، وقدْ قالَ أبو سليمانَ : (لا ينبغي أنْ يرهقَ الرجلُ أهلَهُ إلى الزهدِ ، بلْ يدعوهُمْ إليهِ ، فإنْ أجابوا ، وإلا . . تركَهُمْ وفعلَ بنفسِهِ ما شاءَ) ؛ معناهُ : أنَّ التضييقَ المشروطَ على الزاهدِ يخصُّهُ ولا يلزمُهُ كلُّ ذلكَ في عيالِهِ ، نعمْ ، لا ينبغي أنْ يجيبَهُمْ أيضاً فيما يخرجُ عنْ حدِّ الاعتدالِ ، وليتعلَّمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذِ انصرفَ مِنْ بيتِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها بسببِ سترٍ وقُلْبينِ ؛ لأنَّ ذلكَ مِنَ الزينةِ لا مِنَ الحاجةِ .

فإذاً ؛ ما يُضطرُّ الإنسانُ إليهِ مِنْ جاهٍ ومالٍ ليسَ بمحذورٍ ، بلِ الزائدُ على الحاجةِ سمٌّ قاتلٌ ، والاقتصارُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ دواءٌ نافعٌ ، وما بينَهُما درجاتٌ متشابهةٌ ، فما يقربُ مِنَ الزيادةِ وإنْ لمْ يكنْ سمّاً قاتلاً . . فهوَ مضرٌّ ، وما يقربُ مِنَ الضرورةِ . . فهوَ وإنْ لمْ يكنْ دواءً نافعاً ولكنَّهُ قليلُ الضررِ ، والسمُّ محظورٌ شربُهُ ، والدواءُ فرضٌ تناولُهُ ، وما بينَهُما مشتبهٌ أمرُهُ ، فمَنِ احتاطَ . . فإنَّما يحتاطُ لنفسِهِ ، ومَنْ تساهلَ . . فإنَّما يتساهلُ علىٰ نفسِهِ ، ومَنِ استبرأَ لدينِهِ ، وتركَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وردَّ نفسَهُ إلىٰ مضيقِ الضرورةِ . . فهوَ الآخذُ بالحزمِ ، وهوَ مِنَ الفرقةِ الناجيةِ لا محالةَ .

والمقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ والمهمِّ لا يجوزُ أنْ يُنسبَ إلى الدنيا ، بلْ ذلكَ القدْرُ مِنَ الدنيا هوَ عينُ الدينِ ؛ لأنَّهُ شرطُ الدينِ ، والشرطُ مِنْ جملةِ المشروطِ ، ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ أصابَتْهُ

حاجةٌ ، فذهبَ إلىٰ صديقٍ لهُ يستقرضُهُ شيئاً ، فلمْ يقرضْهُ ، فرجعَ مهموماً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : لوْ سألتَ خليلَكَ.. لأعطاكَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ عرفتُ مقتكَ للدنيا ، فخفتُ أنْ أسألَكَ منها شيئاً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : ليسَ الحاجةُ مِنَ الدنيا(١) .

فإذاً ؛ قدْرُ الحاجةِ مِنَ الدينِ ، وما وراءَ ذلكَ وبالٌ في الآخرةِ ، وهوَ في الدنيا أيضاً كذلكَ ، يعرفُهُ مَنْ يخبُرُ أحوالَ الأغنياءِ ، وما عليهِمْ مِنَ المحنةِ في كسبِ المالِ وجمعِهِ وحفظِهِ واحتمالِ الذلِّ فيهِ ، وغايةُ سعادتِهِ بهِ أنْ يُسلَّمَ لورثتِهِ فيأكلونَهُ وربَّما يكونونَ أعداءً لهُ ، وقدْ يستعينونَ بهِ على المعصيةِ ، فيكونُ هوَ معيناً لهُمْ عليها .

ولذلكَ شُبِّهَ جامعُ الدنيا ومتبعُ الشهواتِ بدودِ القزِّ ، لا يزالُ ينسجُ علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ يقتلَها ، ثمَّ يرومُ الخروجَ فلا يجدُ مخلصاً ، فيموتُ ويهلكُ بسببِ عملِهِ الذي عملَهُ بنفسِهِ ، فكذلكَ كلُّ مَنِ اتبعَ شهواتِ الدنيا فإنَّما يحكمُ علىٰ قلبِهِ بسلاسلَ تقيِّدُهُ بما يشتهيهِ ، حتَّىٰ تتظاهرَ عليهِ السلاسلُ ، فيقيدَهُ المالُ ، والجاهُ ، والأهلُ ، والولدُ ، وشماتةُ الأعداءِ ، ومراءاةُ الأصدقاءِ ، وسائرُ حظوظِ الدنيا ، فلوْ خطرَ لهُ أنَّهُ قدْ أخطأَ فيهِ ، فقصدَ الخروجَ مِنَ الدنيا.. لمْ يقدرْ عليهِ ، ورأىٰ قلبَهُ مقيَّداً بسلاسلَ وأغلالٍ لا يقدرُ علىٰ قطعِها ، ولوْ تركَ محبوباً مِنْ محابِّهِ باختيارِهِ.. كادَ أنْ يكونَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤٥) .

قاتلاً لنفسِهِ ، وساعياً في هلاكِهِ ، إلىٰ أنْ يفرِّقَ ملكُ الموتِ بينَهُ وبينَ جميعِها دفعةً واحدةً ، فتبقى السلاسلُ مِنْ قلبِهِ معلَّقةً بالدنيا التي فاتَتْهُ وخلَّفَها ، فهيَ تجاذبُهُ إلى الدنيا ، ومخالبُ ملكِ الموتِ قدْ علقَتْ بعروقِ قلبِهِ تجذبُهُ إلى الآخرةِ ، فيكونُ أهونُ أحوالِهِ عندَ الموتِ أنْ يكونَ كشخصٍ يُنشرُ بالمنشارِ ، ويُفصلُ أحدُ جانبيهِ عنِ الآخرِ بالمجاذبةِ مِنَ الجانبينِ ، والذي يُنشرُ بالمنشارِ إنَّما ينزلُ الألمُ ببدنِهِ ، ويألمُ قلبُهُ بذلكَ بطريقِ السرايةِ مِنْ حيثُ أثرُهُ ، فما ظنُّكَ بألمٍ يتمكَّنُ أوَّلاً مِنْ صميمِ القلبِ ، مخصوصاً بهِ لا بطريقِ السرايةِ إليهِ مِنْ غيرِهِ ؟!

فهٰذا أوَّلُ عذابٍ يلقاهُ قبلَ ما يراهُ مِنْ حسرةِ فوتِ النزولِ في أعلىٰ علِّيِّينَ ، وجوارِ ربِّ العالمينَ ، فبالنزوعِ إلى الدنيا يُحجبُ عنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وعندَ الحجابِ تتسلَّطُ عليهِ نارُ جهنَّمَ ؛ إذِ النارُ غيرُ مسلَّطةٍ إلا علىٰ محجوبٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، فرتَّبَ العذابَ بالنارِ علىٰ ألمِ الحجابِ ، وألمُ الحجابِ كافٍ مِنْ غيرِ علاوةِ النارِ ، فكيفَ إذا أُضيفَتِ العلاوةُ إليهِ ؟! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يقرِّرَ في أسماعِنا ما نُفِثَ في رُوعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قيلَ لهُ : « أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ »[1] .

---

(١) كذا في النسخ : « أحبب ما » ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) بلفظ : « أحبب من » .

وفي معنىٰ ما ذكرناهُ مِنَ المثالِ قولُ الشاعرِ[1] : [من الطويل]

كَـدُودٌ كَـدُودِ ٱلْقَزِّ يَنْسُجُ دائِمـاً وَيَهْلَكُ غَمّاً وَسْطَ ما هُوَ ناسِجُهْ

ولمَّا انكشفَ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ أنَّ العبدَ مهلكٌ نفسَهُ بأعمالِهِ واتباعِهِ هوىٰ نفسِهِ إهلاكَ دودِ القزِّ نفسَهُ.. رفضوا الدنيا بالكلِّيَّةِ ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ : (رأيتُ سبعينَ بدريّاً كانوا فيما أحلَّ اللهُ لهُمْ أزهدَ منكُمْ فيما حرَّمَ اللهُ عليكُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (كانوا بالبلاءِ أشدَّ فرحاً منكُمْ بالخصبِ والرخاءِ ، لوْ رأيتُموهُمْ.. قلتُمْ : مجانينَ ، ولوْ رأَوا خيارَكُمْ.. قالوا : ما لهؤلاءِ مِنْ خلاقٍ ، ولوْ رأَوا شرارَكُمْ.. قالوا : ما يؤمنُ هؤلاءِ بيومِ الحسابِ ، وكانَ أحدُهُمْ يعرضُ لهُ المالُ الحلالُ فلا يأخذُهُ ، ويقولُ : أخافُ أنْ يفسدَ عليَّ قلبي)[2] .

فمَنْ كانَ لهُ قلبٌ فهوَ ـ لا محالةَ ـ يخافُ مِنْ فسادِهِ ، والذينَ أماتَ حبُّ الدنيا قلوبَهُمْ فقدْ أخبرَ اللهُ عنهُمْ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، فأحالَ ذلكَ كلَّهُ على الغفلةِ وعدمِ العلمِ .

---

(١) البيت لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص٤١٧) ، وكدود : فعول من الكدّ ، وهو التعب .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٥) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٤) .

ولذلكَ قالَ رجلٌ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : احملْني معكَ في سياحتِكَ ، فقالَ : أخرجْ مالَكَ والحقْني ، فقالَ : لا أستطيعُ ، فقالَ عليهِ السلامُ : بعجبٍ يدخلُ الغنيُّ الجنَّةَ ، أوْ قالَ : بشدةٍ(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : ما مِنْ يومٍ ذرَّ شارقُهُ إلا وأربعةُ أملاكٍ ينادونَ في الآفاقِ بأربعةِ أصواتٍ ؛ ملكانِ بالمشرقِ ، وملكانِ بالمغربِ ، يقولُ أحدُهُمْ بالمشرقِ : يا باغيَ الخيرِ هلمَّ ، ويا باغيَ الشرِّ أقصرْ ، ويقولُ الآخرُ : اللهمَّ ؛ أعطِ منفقاً خلفاً ، وأعطِ ممسكاً تلفاً ، ويقولُ أحدُ اللذينِ في المغربِ : لدوا للموتِ وابنوا للخرابِ ، ويقولُ الآخرُ : كلوا وتمتَّعوا لطولِ الحسابِ(٢) .

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (١/٢٥٦) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٨) بنحوه .
(٢) كذا في « القوت » (١/٢٦٢) ، وعند البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم ؛ أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم ؛ أعط ممسكاً تلفاً » ، وروىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٥١٧) نحو هـٰذا وزاد : « وملك بباب آخر ينادي : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ، ما قلَّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ ، وملك بباب آخر ينادي : يا بني آدم ؛ لدوا للموت وابنوا للخراب » .

بيان علامات الزهد

اعلمْ : أنَّهُ قدْ يُظنُّ أنَّ تاركَ المالِ زاهدٌ ، وليسَ كذلكَ ، فإنَّ تركَ المالِ وإظهارَ الخشونةِ سهلٌ علىٰ مَنْ أحبَّ المدحَ بالزهدِ ، فكمْ مِنَ الرهابينِ[1] مَنْ ردُّوا أنفسَهُمْ كلَّ يومٍ إلىٰ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ الطعامِ ، ولازموا ديراً لا بابَ لهُ ، وإنَّما مسرَّةُ أحدِهِمْ معرفةُ الناسِ حالَهُ ونظرُهُمْ إليهِ ومدحُهُمْ لهُ ، فذلكَ لا يدلُّ على الزهدِ دلالةً قاطعةً ، بلْ لا بدَّ مِنَ الزهدِ في المالِ والجاهِ جميعاً ؛ حتَّىٰ يكملَ الزهدُ في جميعِ حظوظِ النفسِ مِنَ الدنيا .

بل قدْ يدَّعي جماعةٌ الزهدَ معَ لبسِ الأصوافِ الفاخرةِ والثيابِ الرفيعةِ ، كما قالَ الخوَّاصُ في وصفِ المدَّعينَ إذْ قالَ : (وقومٌ ادعَوُا الزهدَ ، ولبسوا الفاخرَ مِنَ اللباسِ ، يموِّهونَ بذلكَ على الناسِ ليُهدىٰ إليهِمْ مثلُ لباسِهِمْ ، لئلا يُنظرَ إليهِمْ بالعينِ التي يُنظرُ بها إلى الفقراءِ فيُحتقروا ، فيُعطَوا كما تُعطى المساكينُ ، ويحتجُّون لنفوسِهِمْ باتباعِ العلمِ[2] ، وأنَّهُمْ على السنَّةِ ، وأنَّ الأشياءَ داخلةٌ عليهِمْ وهمْ خارجونَ منها ، وإنَّما يأخذونَ بعلَّةِ غيرِهِمْ ، هـٰذا إذا طُولبوا بالحقائقِ وأُلجئوا إلى المضايقِ ، وكلُّ هؤلاءِ أكلةُ الدنيا بالدينِ ، لمْ يُعنَوا بتصفيةِ أسرارِهِمْ ، ولا بتهذيبِ أخلاقِ نفوسِهِمْ ،

(١) رهابين : جمع رهبان ، ورهبان لفظ يطلق على الواحد والجمع .
(٢) في « القوت » (١/ ٢٦٠) : (باتساع العلم) .

فظهرَتْ عليهِمْ صفاتُهُمْ ، فغلبَتْهُمْ ، فادعَوها حالاً لهُمْ ، منهُمْ مائلونَ إلى الدنيا ، متبعونَ للهوىٰ) ، فهٰذا كلُّهُ كلامُ الخوَّاصِ رحمهُ اللهُ[١] .

فإذاً ؛ معرفةُ الزهدِ أمرٌ مشكلٌ ، بلْ حالُ الزاهدِ على الزاهدِ مشكلٌ[٢] ، وينبغي أنْ يعوِّلَ في باطنِهِ علىٰ ثلاثِ علاماتٍ :

العلامةُ الأولىٰ : ألا يفرحَ بموجودٍ ، ولا يحزنَ علىٰ مفقودٍ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ بالضدِّ مِنْ ذلكَ ، وهوَ أنْ يحزنَ بوجودِ المالِ ، ويفرحَ بفقدِهِ .

* * *

والعلامةُ الثانيةُ : أنْ يستويَ عندَهُ ذامُّهُ ومادحُهُ ، فالأوَّلُ علامةُ الزهدِ في المالِ ، والثاني علامةُ الزهدِ في الجاهِ[٣] .

* * *

(١) حكاه في كتابه « شرف الفقراء » الذي سبقت الإشارة إليه ، ونقله عنه صاحب « القوت » (١/ ٢٦٠) ، وقال : (وكان الخواص رحمه الله تعالىٰ لا يلبس أكثر من قطعتين ؛ إزارين ، وقميص ومئزر تحته ، يعطف ذيل قميصه علىٰ رأسه ، ويغطي به رأسه ، وكذلك استحب للفقير هٰذا اللباس) .

(٢) في (ق) : (وحال الزهد على الزاهد مشكل) .

(٣) وقد روى البيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٩) عن يونس بن ميسرة الجبلاني : (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك ، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء ، وأن يكون مادحك وذامُّك في الحق سواء) .

والعلامةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ أنسُهُ باللهِ تعالىٰ ، والغالبُ علىٰ قلبِهِ حلاوةَ الطاعةِ ، إذْ لا يخلو القلبُ عنْ حلاوةِ المحبَّةِ ؛ إمَّا محبةُ الدنيا ، وإمَّا محبةُ اللهِ ، وهما في القلبِ كالماءِ والهواءِ في القدحِ ، فالماءُ إذا دخلَ . . خرجَ الهواءُ ، ولا يجتمعانِ ، وكلُّ مَنْ أنسَ باللهِ . . اشتغلَ بهِ ولمْ يشتغلْ بغيرِهِ .

ولذلكَ قيلَ لبعضِهِمْ : إلىٰ ماذا أفضىٰ بهِمُ الزهدُ ؟ فقالَ : إلى الأنسِ باللهِ[1] .

فأمَّا الأنسُ بالدنيا وباللهِ . . فلا يجتمعانِ ، وقدْ قالَ أهلُ المعرفةِ : إذا تعلَّقَ الإيمانُ بظاهرِ القلبِ . . أحبَّ الدنيا والآخرةَ جميعاً وعملَ لهُما ، وإذا بطنَ الإيمانُ في سويداءِ القلبِ وباشرَهُ . . أبغضَ الدنيا ، فلمْ ينظرْ إليها ، ولمْ يعملْ لها[2] .

ولهـٰذا وردَ في دعاءِ آدمَ عليهِ السلامُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً يباشرُ قلبي)[3] .

وقالَ أبو سليمانَ : (مَنْ شُغِلَ بنفسِهِ . . شُغلَ عنِ الناسِ ، وهـٰذا مقامُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٢) ، والسائل هو مضاء بن عيسىٰ ، والمجيب هو سباع الموصلي .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) .

(٣) قاله عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ؛ كما روىٰ ذلك الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

العاملينَ ، ومَنْ شُغِلَ بربِّهِ . . شُغلَ عنْ نفسِهِ ، وهـٰذا مقامُ العارفينَ)[1] ، والزاهدُ لا بدَّ وأنْ يكونَ في أحدِ هـٰذينِ المقامينِ ، ومقامُهُ الأوَّلُ : أنْ يشغلَ نفسَهُ بنفسِهِ ، وعندَ ذلكَ يستوي عندَهُ الذمُّ والمدحُ والوجودُ والعدمُ .

ولا يُستدلُّ بإمساكِهِ قليلاً مِنَ المالِ علىٰ فقْدِ زهدِهِ أصلاً .

قالَ ابنُ أبي الحواري : قلتُ لأبي سليمانَ : أكانَ داوودُ الطائيُّ زاهداً ؟ قالَ : نعمْ ، قلتُ : قدْ بلغَني أنَّهُ ورثَ عنْ أبيهِ عشرينَ ديناراً ، فأنفقَها في عشرينَ سنةً ، فكيفَ كانَ زاهداً وهوَ يمسكُ الدنانيرَ ؟ فقالَ : أردتَ منهُ أنْ يبلغَ حقيقةَ الزهدِ ؟![2]

وأرادَ بالحقيقةِ الغايةَ ؛ فإنَّ الزهدَ ليسَ لهُ غايةٌ ؛ لكثرةِ صفاتِ النفسِ ، ولا يتمُّ الزهدُ إلا بالزهدِ في جميعِها ، فكلُّ مَنْ تركَ مِنَ الدنيا شيئاً معَ القدرةِ عليهِ خوفاً علىٰ قلبِهِ وعلىٰ دينِهِ . . فلهُ مدخلٌ في الزهدِ بقدْرِ ما تركَهُ ، وآخرُهُ أنْ يتركَ كلَّ ما سوى اللهِ ، حتَّىٰ لا يتوسَّدَ حجراً ؛ كما فعلَهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٧٠) ، وهـٰذا أيضاً يقال فيه : هو علىٰ مذهب من يشرط التوكل في الزهد ، ورواية أنه ورث عن أبيه . . . رواها القشيري في « رسالته » (ص٥٩) ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٧) : (ورث عن أبيه دنانير ، فكان ينفق فيها حتىٰ كفِّن بآخرها) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٥٥٧) .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَنا مِنْ مباديهِ نصيباً وإنْ قلَّ ، فإنَّ أمثالَنا لا يستجرىءُ على الطمعِ في غاياتِهِ ، وإنْ كانَ قطعُ الرجاءِ عنْ فضْلِ اللهِ غيرَ مأذونٍ فيهِ ، وإذا لاحظنا عجائبَ نعمِ اللهِ تعالىٰ علينا . . علمنا أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ ، فلا بُعْدَ في أنْ نعظِّمَ السؤالَ اعتماداً على الجودِ المجاوزِ لكلِّ كمالٍ[١] .

❊ ❊ ❊

فإذاً ؛ علامةُ الزهدِ : استواءُ الغنىٰ والفقرِ ، والعزِّ والذلِّ ، والمدحِ والذمِّ ، وذلكَ لغلبةِ الأنسِ باللهِ ، ويتفرَّعُ عنْ هـٰذهِ العلاماتِ علاماتٌ أخرُ لا محالةَ ، مثلُ أنْ يتركَ الدنيا ولا يباليَ مَنْ أخذَها[٢] .

وقيلَ : (علامتُهُ : أنْ يتركَ الدنيا كما هيَ ، ولا يقولَ : أبني رباطاً ، أوْ أعمرُ مسجداً)[٣] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (علامةُ الزهدِ : السخاءُ بالموجودِ)[٤] .

وقالَ ابنُ خفيفٍ : (علامتُهُ : وجودُ الراحةِ في الخروجِ مِنَ الملكِ)[٥] .

---

(١) فما لا يدرك كله لا يترك كله ، ومن فاته من الكمال وبله لا يفوته طله . « إتحاف » (٩/ ٣٧٤) .

(٢) قاله أبو عثمان المغربي كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص٢١٩) .

(٣) وهو قول الأستاذ أبي علي الدقاق كما هو عند القشيري في « رسالته » (ص٢١٩) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٢١٩) ، وفيها : (الزهد يورث السخاء بالملك ، والحب يورث السخاء بالروح) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) .

وقالَ أيضاً : (الزهدُ هوَ عزوفُ النفسِ عنِ الدنيا بلا تكلُّفٍ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ : (الصوفُ عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الزهدِ ، فلا ينبغي أنْ يلبسَ صوفاً بثلاثةِ دراهمَ وفي قلبِهِ رغبةُ خمسةِ دراهمَ)[2] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ وسفيانُ : (علامةُ الزهدِ : قصرُ الأملِ)[3] .

وقالَ سريٌّ : (لا يطيبُ عيشُ الزاهدِ إذا اشتغلَ عنْ نفسِهِ ، ولا يطيبُ عيشُ العارفِ إذا اشتغلَ بنفسِهِ)[4] .

وقالَ النصراباذيُّ : (الزاهدُ غريبٌ في الدنيا ، والعارفُ غريبٌ في الآخرةِ)[5] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (علامةُ الزهدِ ثلاثٌ : عملٌ بلا علاقةٍ ، وقولٌ بلا طمعٍ ، وعزٌّ بلا رئاسةٍ)[6] .

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) دون نسبة .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٢٠) ، والقول لهما ولعيسى بن يونس وغيرهم .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٢١) ، وفي هـٰذا المعنىٰ روى البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٢٩) أنه قيل للجنيد : ما تقول في رجل ما بقي عليه من الدنيا غير مصِّ النوىٰ ، هل بقي عليه من الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، هـٰكذا علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم » . وهـٰذا بخلاف العارف الذي لا شغل له عن الله تعالىٰ ، فإذا اشتغل بنفسه . . لم تطب نفسه .
(٥) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٢٠) .
(٦) الرسالة القشيرية (ص٢٢١) .

وقالَ أيضاً : (الزاهدُ يسعطُكَ الخلَّ والخردلَ ، والعارفُ يشِمُّكَ المسكَ والعنبرَ)(١) .

وقالَ لهُ رجلٌ : متىٰ أدخلُ حانوتَ التوكُّلِ ، وألبسُ رداءَ الزهدِ ، وأقعدُ معَ الزاهدينَ ؟ فقالَ : إذا صرتَ مِنْ رياضتِكَ لنفسِكَ في السرِّ إلىٰ حدٍّ لوْ قطعَ اللهُ عنكَ الرزقَ ثلاثةَ أيامٍ.. لمْ تضعفْ في نفسِكَ ، فأمَّا ما لمْ تبلغْ هٰذهِ الدرجةَ.. فجلوسُكَ علىٰ بساطِ الزاهدينَ جهلٌ ، ثمَّ لا آمنُ عليكَ أنْ تفتضحَ(٢) .

وقالَ أيضاً : (الدنيا كالعروسِ ، ومَنْ يطلبُها ماشطتُها ، والزاهدُ فيها يسخِّمُ وجهَها ، وينتفُ شعرَها ، ويخرقُ ثوبَها ، والعارفُ يشتغلُ باللهِ تعالىٰ ولا يلتفتُ إليها)(٣) .

وقالَ السريُّ : (مارستُ كلَّ شيءٍ مِنْ أمرِ الزهدِ ، فنلتُ منهُ ما أريدُ ، إلا الزهدَ في الناسِ ، فإنِّي لمْ أبلغْهُ ولمْ أطقْهُ)(٤) .

وقالَ الفضيلُ رحمهُ اللهُ : (جعلَ اللهُ الشرَّ كلَّهُ في بيتٍ ، وجعلَ مفتاحَهُ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢٢١) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٢٢٢) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٢٢) ، وبعضه رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٥٣) بزيادة أخرىٰ .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٢٣) .

حبَّ الدنيا ، وجعلَ الخيرَ كلَّهُ في بيتٍ، وجعلَ مفتاحَهُ الزهدَ في الدنيا)[1] .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنْ حقيقةِ الزهدِ وأحكامِهِ ، وإذا كانَ الزهدُ لا يتمُّ إلا بالتوكُّلِ . . فلنشرعْ في بيانِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

تمّ كتاب الفقر والزّهد

وهو الكتاب الرّابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله ومنّه ، وحسن توفيقه ، وجميل صنعه ، ولطيف كفايته

وصلاته على سيّد المرسلين محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين

يتلوه كتاب التّوحيد والتّوكّل

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٢٣) ، وبه ختم باب الزهد ، وعقد الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٣٧٦) فصولاً فيها تفصيل لما أجمله المصنف رحمه الله تعالىٰ .

كتاب

التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب التّوحيد والتّوكّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المدبِّرِ للملكِ والملكوتِ ، المنفردِ بالعزَّةِ والجبروتِ ، الرافعِ للسماءِ بغيرِ عمادٍ ، المقدِّرِ فيها أرزاقَ العبادِ ، الذي صرفَ أعينَ ذوي القلوبِ والألبابِ عنْ ملاحظةِ الوسائطِ والأسبابِ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، ورفعَ هممَهُمْ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما عداهُ ، والاعتمادِ علىٰ مدبِّرٍ سواهُ ، فلمْ يعبدوا إلا إيَّاهُ ، علماً بأنَّهُ الواحدُ الفردُ الصمدُ الإلـٰهُ ، وتحققاً بأنَّ جميعَ أصنافِ الخلقِ عبادٌ أمثالُهُمْ لا يُبتغىٰ عندَهُمُ الرزقُ ، وأنَّهُ ما مِنْ ذرَّةٍ إلا إلى اللهِ خلقُها ، وما مِنْ دابَّةٍ إلىٰ على اللهِ رزقُها ، فلمَّا تحقَّقوا أنَّهُ لرزقِ عبادِهِ ضامنٌ وبهِ كفيلٌ . توكَّلوا عليهِ وقالوا : حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ قامعِ الأباطيلِ ، الهادي إلىٰ سواءِ السبيلِ ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ التوكُّلَ منزلٌ مِنْ منازلِ الدينِ ، ومقامٌ مِنْ مقاماتِ الموقنينَ ، بلْ هوَ مِنْ معالي درجاتِ المقرَّبينَ ، وهوَ في نفسِهِ غامضٌ مِنْ حيثُ العلمُ ، ثمَّ هوَ شاقٌّ مِنْ حيثُ العملُ .

ووجهُ غموضِهِ مِنْ حيثُ الفهمُ : أنَّ ملاحظةَ الأسبابِ والاعتمادَ عليها شركٌ في التوحيدِ ، والتثاقلَ عنها بالكليَّةِ طعنٌ في السنةِ وقدحٌ في الشرعِ ، والاعتمادَ على الأسبابِ مِنْ غيرِ أنْ ترىٰ أسباباً تغييرٌ في وجهِ العقلِ ، وانغماسٌ في غمرةِ الجهلِ ، وتحقيقُ معنى التوكُّلِ علىٰ وجهٍ يتوافقُ فيهِ مقتضى التوحيدِ والعقلِ والشرعِ في غايةِ الغموضِ والعسرِ ، ولا يقوىٰ علىٰ كشفِ هٰذا الغطاءِ معَ شدةِ الخفاءِ إلا سماسرةُ العلماءِ ، الذينَ اكتحلوا مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ بأنوارِ الحقائقِ ، فأبصروا وتحقَّقوا ، ثمَّ نطقوا بالإعرابِ عمَّا شاهدوهُ مِنْ حيثُ استنطقوا .

ونحنُ الآنَ نبتدئُ بذكرِ فضيلةِ التوكُّلِ علىٰ سبيلِ التقدمةِ ، ثمَّ نردفُهُ بالتوحيدِ في الشطرِ الأوَّلِ مِنَ الكتابِ ، ونذكرُ حالَ التوكُّلِ وعملَهُ في الشطرِ الثاني .

❋ ❋ ❋

بيان فضيلة التوكّل

أمّا مِنَ الآياتِ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأعظمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّةِ اللهِ سبحانَهُ صاحبُهُ ، ومضمونٍ بكفايةِ اللهِ تعالىٰ ملابسُهُ ، فمَنِ اللهُ تعالىٰ حسبُهُ وكافيهِ ، ومحبُّهُ ومراعيهِ . . فقدْ فازَ الفوزَ العظيمَ ؛ فإنَّ المحبوبَ لا يُعذَّبُ ، ولا يُبعَدُ ولا يُحجَبُ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ ، فطالبُ الكفايةِ مِنْ غيرِهِ هوَ التاركُ للتوكُّلِ ، وهوَ المكذِّبُ بهـٰذهِ الآيةِ ؛ فإنَّهُ سؤالٌ في معرضِ استنطاقٍ بالحقِّ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عزيزٌ لا يذلُّ مَنِ استجارَ بهِ ، ولا يضيعُ مَنْ لاذَ بجنابِهِ والتجأَ إلىٰ ذمارِهِ وحماهُ ، وحكيمٌ لا يقصرُ عنْ تدبيرِ مَنْ توكَّلَ علىٰ تدبيرِهِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ، بيَّنَ

أنَّ كلَّ ما سوى اللهِ تعالىٰ عبدٌ مسخَّرٌ ، حاجتُهُ مثلُ حاجتِكُمْ ، فكيفَ يتّكلُ عليهِ ؟!

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ .

وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ التوحيدِ فهوَ تنبيهٌ علىٰ قطعِ الملاحظةِ عنِ الأغيارِ ، والتوكُّلِ على الواحدِ القهَّارِ .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ ابنُ مسعودٍ : « أُريتُ الأممَ بالموسمِ ، فرأيتُ أمّتي قدْ ملؤوا السهلَ والجبلَ ، فأعجبَني كثرتُهُمْ وهيئتُهُمْ ، فقيلَ لي : أرضيتَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قيلَ : ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ ، قيلَ : منْ همْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : الذينَ لا يكتوونَ ، ولا يتطيَّرونَ ، ولا يسترقونَ ، وعلىٰ ربِّهِمْ يتوكَّلونَ » ، فقامَ عكاشةُ وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ أنْ يجعلَني منهُمْ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْهُ منهُمْ » ، فقامَ آخرُ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ادعُ اللهَ

أنْ يجعلَني منهُمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَكَ بها عكاشةُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّكُمْ تتوكَّلونَ على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ . . لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ ، تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ انقطعَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . كفاهُ اللهُ كلَّ مؤنةٍ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسِبُ ، ومَنِ انقطعَ إلى الدنيا . . وكلَهُ اللهُ إليها »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يكونَ أغنى الناسِ . . فليكنْ بما عندَ اللهِ تعالىٰ أوثقَ منهُ بما في يديهِ »(٤) .

ويُروىٰ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ إذا أصابَ أهلَهُ خصاصةٌ . . قالَ : « قوموا إلى الصلاةِ » ، ويقولُ : « بهٰذا أمرَني ربِّي عزَّ وجلَّ ، قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا . . . ﴾ » الآيةَ(٥) .

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٣٥٢) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢٩٤) ، وهو عند البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٣٨٣) ، و« الصغير » (١/١١٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٤) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢١٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٦٧) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١١) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (كان النبي إذا نزل بأهله الضيق . . أمرهم بالصلاة ثم قرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ يتوكَّلْ مَنِ استرقىٰ واكتوىٰ »(١) ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا قالَ جبريلُ لإبراهيمَ عليهِما السلامُ وقدْ رُمِيَ بهِ إلى النارِ بالمنجنيقِ : ألكَ حاجةٌ ؟ قالَ : أمَّا إليكَ.. فلا . وفاءً بقولِهِ : حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ ؛ إذْ قالَ ذلكَ حينَ أُخذَ ليُرمىٰ بهِ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾(٢) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ ما مِنْ عبدٍ يعتصمُ بي دونَ خلقي فتكيدُهُ السماواتُ والأرضُ.. إلا جعلتُ لهُ مخرجاً)(٣) .

* * *

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : (لدغَتْني عقربٌ ، فأقسمَتْ عليَّ أمِّي لتسترقِيَنْ ، فناولتُ الراقيَ يديَ التي لمْ تُلدغْ)(٤) .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٥١) واللفظ له ، والترمذي (٢٠٥٥) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٥٦١) ، وابن ماجه (٣٤٨٩) .

(٢) كذا في القوت » (١/ ٢٢٩) ، وأما قوله عليه السلام حين ألقي في النار : (حسبي الله ونعم الوكيل).. فقد رواه البخاري (٤٥٦٤) ، وخبره مع جبريل عليه السلام رواه بنحوه الطبري في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ٦٠) .

(٣) رواه تمام في « فوائده » (١٧٠٠) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٧٥) ، وزاد : (وكرهت أن أحنثها) .

وقرأَ الخوَّاصُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ إلىٰ آخرِها ، فقالَ : (ما ينبغي للعبدِ بعدَ هـٰذهِ الآيةِ أنْ يلجأَ إلىٰ أحدٍ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ)(١) .

وقيلَ لبعضِ العلماءِ في منامِهِ : (مَنْ وثقَ باللهِ تعالىٰ . . فقدْ أحرزَ قوتَهُ)(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (لا يشغلَنَّكَ المضمونُ لكَ مِنَ الرزقِ عنِ المفروضِ عليكَ مِنَ العملِ فتضيعَ أمرَ آخرتِكَ ، ولا تنالَ مِنَ الدنيا إلا ما قدْ كتبَ اللهُ لكَ)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (في وجودِ العبدِ الرزقَ مِنْ غيرِ طلبٍ دلالةٌ علىٰ أنَّ الرزقَ مأمورٌ بطلبِ العبدِ)(٤) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : سألتُ بعضَ الرهبانِ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقالَ لي : ليسَ هـٰذا العلمُ عندي ، ولكنْ سلْ ربِّي مِنْ أينَ يطعمُني(٥) .

وقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ لأويسٍ القرنيِّ : أينَ تأمرُني أنْ أكونَ ؟ فأومأَ إلى

---

(١) الخواص هو سليمان أبو أيوب ، انظر خبره هـٰذا في « مختصر تاريخ دمشق » (١٠/١٩٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣١٠) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٣٨٩) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٣٨٩) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/٣٨٩) .

الشامِ ، فقالَ هرمٌ : كيفَ المعيشةُ بها ؟ قالَ أويسٌ : أفٍّ لهـٰذهِ القلوبِ ! قدْ خالطَها الشكُّ فما تنفعُها الموعظةُ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (متىٰ رضيتَ باللهِ وكيلاً .. وجدتَ إلىٰ كلِّ خيرٍ سبيلاً) ، نسألُ اللهَ تعالىٰ حسنَ الأدبِ .

* * *

(١) رواه الخلال في « الحث على التجارة والصناعة والعمل » (١٢٨) ولم يذكر فيه هرماً ، ولقاء هرم بأويس رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٠٦) .

الشَّطرُ الأوَّل
بيان حقيقة التّوحيد الّذي هو أصل التّوكّل

اعلمْ : أنَّ التوكُّلَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وجميعُ أبوابِ الإيمانِ لا تنتظمُ إلا بعلمٍ وحالٍ وعملٍ ، والتوكلُ كذلكَ ينتظمُ مِنْ علمٍ هوَ الأصلُ ، وعملٍ هوَ الثمرةُ ، وحالٍ هوَ المرادُ باسمِ التوكلِ .

فلنبدأ ببيانِ العلمِ الذي هوَ الأصلُ ، وهوَ المسمَّىٰ إيماناً في أصلِ اللسانِ ؛ إذِ الإيمانُ هوَ التصديقُ ، وكلُّ تصديقٍ بالقلبِ فهوَ علمٌ ، وإذا قويَ . . سُمِّيَ يقيناً ، ولكنْ أبوابُ اليقينِ كثيرةٌ ، ونحنُ إنَّما نحتاجُ منها إلىٰ ما يُبنىٰ عليهِ التوكلُ ؛ وهوَ التوحيدُ الذي يترجمُهُ قولُكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ) ، والإيمانُ بالقدرةِ التي يترجمُها قولُكَ : (لهُ الملكُ) ، والإيمانُ بالجودِ والحكمةِ الذي يدلُّ عليهِ قولُكَ : (ولهُ الحمدُ) .

فمَنْ قالَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ) . . تمَّ لهُ الإيمانُ الذي هوَ أصلُ التوكلِ ؛ أعني : أنْ يصيرَ معنىٰ هـٰذا القولِ وصفاً لازماً لقلبِهِ غالباً عليهِ .

❊ ❊ ❊

فأمَّا التوحيدُ . . فهوَ الأصلُ ، والقولُ فيهِ طويلٌ ، وهوَ مِنْ علمِ المكاشفةِ ، ولكنْ بعضُ علومِ المكاشفاتِ تتعلَّقُ بالأعمالِ بواسطةِ

الأحوالِ[1] ، ولا يتمُّ علمُ المعاملةِ إلا بها ، فإذاً ؛ لا نتعرَّضُ إلا للقدْرِ الذي يتعلَّقُ بالمعاملةِ ، وإلا . . فالتوحيدُ هوَ البحرُ الخِضَمُّ الذي لا ساحلَ لهُ ، فنقولُ :

للتوحيدِ أربعُ مراتبَ ، وهوَ ينقسمُ إلىٰ لبٍّ ، ولبِّ اللبِّ ، وإلىٰ قشرٍ ، وقشرِ القشرِ ، ولنمثِّلْ ذلكَ تقريباً إلى الأفهامِ الضعيفةِ بالجوزِ في قشرتِهِ العليا ، فإنَّ لهُ قشرتينِ ، ولهُ لبٌّ ، وللبِّ دهنٌ هوَ لبُّ اللبِّ .

❊ ❊ ❊

فالمرتبةُ الأولىٰ مِنَ التوحيدِ : أنْ يقولَ الإنسانُ بلسانِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) وقلبُهُ غافلٌ عنهُ ، أوْ منكرٌ لهُ ؛ كتوحيدِ المنافقينَ .

والثانيةُ : أنْ يصدِّقَ بمعنى اللفظِ قلبُهُ ، كما صدَّقَ بهِ عمومُ المسلمينَ ، وهوَ اعتقادٌ[2] .

والثالثةُ : أن يشاهدَ ذلكَ بطريقِ الكشفِ بواسطةِ نورِ الحقِّ ، وهوَ مقامُ المقرَّبينَ ، وذلكَ بأنْ يرىٰ أشياءَ كثيرةً ، ولكنْ يراها علىٰ كثرتِها صادرةً عنِ الواحدِ القهَّارِ .

والرابعةُ : ألا يرىٰ في الوجودِ إلا واحداً ، وهوَ مشاهدةُ الصديقينَ ،

---

(١) فإن الأحوال هي التي تثمر الأعمال ، وهي مواجيد القلوب . « إتحاف » (٩/ ٣٩٠) .

(٢) كذا في جميع النسخ : (وهو اعتقادٌ) ، وهو الصحيح ، وسيأتي قريباً قوله : (وأما الثاني وهو الاعتقاد . . فهو موجود في عموم المسلمين) .

وتسمِّيهِ الصوفيَّةُ الفناءَ في التوحيدِ ؛ لأنَّهُ مِنْ حيثُ لا يرىٰ إلا واحداً فلا يرىٰ نفسَهُ أيضاً ، وإذا لمْ يرَ نفسَهُ لكونِهِ مستغرقاً بالواحدِ . كانَ فانياً عن نفسهِ في توحيدِهِ ، بمعنىٰ أنَّهُ فنيَ عنْ رؤيةِ نفسِهِ والخلقِ[١] .

* * *

فالأوَّلُ : موحدٌ بمجرَّدِ اللسانِ ، ويعصمُ ذلكَ صاحبَهُ في الدنيا عنِ السيفِ والسنانِ .

والثاني : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ معتقدٌ بقلبِهِ مفهومَ لفظِهِ ، وقلبُهُ خالٍ عنِ التكذيبِ بما انعقدَ عليهِ قلبُهُ ، وهوَ عقدةٌ على القلبِ ليسَ فيهِ انشراحٌ وانفتاحٌ ، ولكنَّهُ يحفظُ صاحبَهُ عنِ العذابِ في الآخرةِ إنْ تُوفِّيَ عليها ولمْ تضعفْ بالمعاصي عقدتُهُ ، ولهـٰذا العقدِ حيلٌ يُقصدُ بها تضعيفُهُ وتحليلُهُ تُسمَّىٰ **بدعةً** ، ولهُ حيلٌ يُقصدُ بها دفعُ حيلةِ التحليلِ والتضعيفِ ، ويُقصدُ بها أيضاً إحكامُ هـٰذهِ العقدةِ وشدُّها على القلبِ وتُسمَّىٰ **كلاماً** ، والعارفُ بهِ يُسمَّىٰ مُتكلِّماً ، وهوَ في مقابلةِ المبتدعِ[٢] ، ومقصدُهُ دفعُ المبتدعِ عنْ تحليلِ هـٰذهِ العقدةِ عنْ قلوبِ العوامِّ ، وقدْ يُخصُّ المتكلِّمُ باسمِ الموحِّدِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يحمي بكلامِهِ مفهومَ لفظِ التوحيدِ علىٰ قلوبِ العوامِّ حتَّىٰ لا تنحلَّ عقدتُهُ .

والثالثُ : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ لمْ يشاهدْ إلا فاعلاً واحداً ؛ إذْ قدِ انكشفَ لهُ

---

(١) وعن الخلق من باب أولىٰ .

(٢) وعليه : فاصطلاح (المتكلم) عند المصنف مقتصر علىٰ أهل الحق ، ولا مشاحّة في الاصطلاح .

الحقُّ كما هوَ عليهِ[١] ، ولا فاعلَ بالحقيقةِ إلا واحدٌ ، وقدِ انكشفَتْ لهُ الحقيقةُ كما هيَ عليهِ ، لا أنَّهُ كلَّفَ قلبَهُ أنْ يعقدَ علىٰ مفهومِ لفظِ الحقيقةِ[٢] ؛ فإنَّ ذلكَ رتبةُ العوامِّ والمتكلمينَ ؛ إذْ لمْ يفارقِ المتكلِّمُ العاميَّ في الاعتقادِ ، بلْ في صنعةِ تلفيقِ الكلامِ الذي بهِ يدفعُ حيلَ المبتدعِ في تحليلِ هـٰذهِ العقدةِ .

والرابعُ : موحدٌ بمعنىٰ أنَّهُ لمْ يحضُرْ في شهودِهِ غيرُ الواحدِ ، فلا يرى الكلَّ مِنْ حيثُ إنَّهُ كثيرٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ واحدٌ ، وهـٰذهِ هيَ الغايةُ القصوىٰ في التوحيدِ .

❊ ❊ ❊

فالأوَّلُ كالقشرةِ العليا مِنَ الجوزِ ، والثاني كالقشرةِ السفلىٰ ، والثالثُ كاللبِّ ، والرابعُ كالدهنِ المستخرجِ مِنَ اللبِّ .

وكما أنَّ القشرةَ العليا منَ الجوزِ لا خيرَ فيها ، بلْ إنْ أُكلَ . . فهوَ مرُّ المذاقِ ، وإنْ نُظرَ إلىٰ باطنِهِ . . فهوَ كريهُ المنظرِ ، وإنِ اتُّخذَ حطباً . . أطفأَ النارَ وأكثرَ الدخانَ ، وإنْ تُركَ في البيتِ . . ضيَّقَ المكانَ ، فلا يصلحُ إلا أنْ يُتركَ مدَّةً على الجوزِ للصوانِ ثمَّ يُرمىٰ بهِ ؛ فكذلكَ التوحيدُ بمجرَّدِ اللسانِ دونَ التصديقِ بالقلبِ عديمُ الجدوىٰ كثيرُ الضررِ ، مذمومُ الظاهرِ والباطنِ ،

---

(١) في غير (أ) : (إذا انكشف) بدل (إذ قد انكشف) .
(٢) في (أ ، ف) : (إلا أنه) بدل (لا أنه) .

لكنَّهُ ينفعُ مدَّةً في حفظِ القشرةِ السفلىٰ إلىٰ وقتِ الموتِ ، والقشرةُ السفلىٰ هيَ القلبُ والبدنُ ، وتوحيدُ المنافقِ يصونُ بدنَهُ عنْ سيفِ الغزاةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يُؤمروا بشقِّ القلوبِ ، والسيفُ إنَّما يصيبُ جسمَ البدنِ وهوَ القشرُ ، وإنَّما يتجرَّدُ عنهُ بالموتِ ، فلا يبقىٰ لتوحيدِهِ فائدةٌ بعدَهُ .

وكما أنَّ القشرةَ السفلىٰ ظاهرةُ النفعِ بالإضافةِ إلى القشرةِ العليا ؛ فإنَّها تصونُ اللبَّ وتحرسُهُ عنِ الفسادِ عندَ الادخارِ ، وإذا فُصلَتْ . أمكنَ أنْ ينتفعَ بها حطباً ، لكنَّها نازلةُ القدْرِ بالإضافةِ إلى اللبِّ ؛ فكذلكَ مجرَّدُ الاعتقادِ مِنْ غيرِ كشفٍ كثيرُ النفعِ بالإضافةِ إلىٰ مجرَّدِ نطقِ اللسانِ ، ناقصُ القدْرِ بالإضافةِ إلى الكشفِ والمشاهدةِ التي تحصلُ بانشراحِ الصدرِ وانفساحِهِ وإشراقِ نورِ الحقِّ فيهِ ؛ إذْ ذلكَ الشرحُ هوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وكما أنَّ اللبَّ نفيسٌ في نفسِهِ بالإضافةِ إلى القشرِ وكأنَّهُ المقصودُ ، ولكنَّهُ لا يخلو عنْ شوبِ عصارةٍ بالإضافةِ إلى الدهنِ المستخرجِ منهُ ؛ فكذلكَ توحيدُ الفعلِ مقصدٌ عالٍ للسالكينَ ، ولكنَّهُ لا يخلو عنْ شوبِ ملاحظةِ الغيرِ والالتفاتِ إلى الكثرةِ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ لا يشاهدُ سوى الواحدِ الحقِّ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : كيفَ يُتصوَّرُ ألا يشاهدَ إلا واحداً وهوَ يشاهدُ السماءَ والأرضَ

وسائرَ الأجسامِ المحسوسةِ وهيَ كثيرةٌ ؟ فكيفَ يكونُ الكثيرُ واحداً ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا غايةُ علومِ المكاشفاتِ ، وأسرارُها لا يجوزُ أنْ تُسطرَ في كتابٍ[١] ، فقدْ قالَ العارفونَ : (إفشاءُ سرِّ الربوبيَّةِ كفرٌ)[٢] .

ثمَّ هوَ غيرُ متعلِّقٍ بعلمِ المعاملةِ ، نعمْ ، ذكرُ ما يكسرُ سورةَ استبعادِكَ ممكنٌ ، وهوَ أنَّ الشيءَ قدْ يكونُ كثيراً بنوعِ مشاهدةٍ واعتبارٍ ويكونُ واحداً بنوعٍ آخرَ مِنَ المشاهدةِ والاعتبارِ ، وهـٰذا كما أنَّ الإنسانَ كثيرٌ إنِ التفتَ إلىٰ روحِهِ وجسدِهِ وأطرافِهِ وعروقِهِ وعظامِهِ وأحشائِهِ ، وهوَ باعتبارٍ آخرَ ومشاهدةٍ أخرىٰ واحدٌ ؛ إذْ نقولُ : إنَّهُ إنسانٌ واحدٌ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الإنسانيةِ واحدٌ ، وكمْ مِنْ شخصٍ يشاهدُ إنساناً ولا يخطرُ ببالِهِ كثرةُ أمعائِهِ وعروقِهِ وأطرافِهِ ، وتفصيلُ روحِهِ وجسدِهِ وأعضائِهِ ، والفرقُ بينَهُمَا ، فهوَ في حالةِ الاستغراقِ والاستهتارِ بهِ مستغرقٌ بواحدٍ ليسَ فيهِ تفرقٌ[٣] ، وكأنَّهُ في عينِ الجمعِ ، والملتفتُ إلى الكثرةِ في تفرقةٍ .

فكذلكَ كلُّ ما في الوجودِ مِنَ الخالقِ والمخلوقِ لهُ اعتباراتٌ ومشاهداتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ ، وهو باعتبارٍ واحدٍ مِنَ الاعتباراتِ واحدٌ ، وباعتباراتٍ أخرَ

---

(١) فيطلع عليه من ليس بأهل لمزاولتها ، فيقع في وحلة لا يكاد يتخلص منها . « إتحاف » (٩/ ٣٩٢) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٩٠) ، وقد بيَّن الإمام الغزالي معناه في « الإملاء » .

(٣) كذا في جميع النسخ ، وعند الحافظ في « إتحافه » (٩/ ٣٩٣) : (والفرقُ بينهما أنه في حالة الاستغراق) ، علماً أنه لم يتقدم ذكر للتفريع صريح .

سواها كثيرٌ ، بعضُها أشدُّ كثرةً مِنْ بعضٍ ، ومثالُ الإنسانِ وإنْ كانَ مثالاً لا يطابقُ الغرضَ ولكنَّهُ ينبِّهُ في الجملةِ علىٰ كيفيَّةِ مصيرِ الكثرةِ في حكمِ المشاهدةِ واحداً .

وتستفيدُ بهـٰذا الكلامِ تركَ الإنكارِ والجحودِ لمقامٍ لمْ تبلغْهُ وتؤمنُ بهِ إيمانَ تصديقٍ ، فيكونُ لكَ مِنْ حيثُ إنَّكَ مؤمنٌ بهـٰذا التوحيدِ نصيبٌ وإنْ لمْ يكنْ ما آمنتَ بهِ صفتَكَ ؛ كما أنَّكَ إذا آمنتَ بالنبوَّةِ وإنْ لمْ تكنْ نبيّاً . . كانَ لكَ نصيبٌ منهُ بقدْرِ قوَّةِ إيمانِكَ .

وهـٰذهِ المشاهدةُ التي لا يظهرُ فيها إلا الواحدُ الحقُّ تارةً تدومُ ، وتارةً تطرأُ كالبرقِ الخاطفِ وهوَ الأكثرُ ، والدوامُ نادرٌ عزيزٌ[1] ، وإلىٰ هـٰذا أشارَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلاَّجُ حيثُ رأى الخوَّاصَ يدورُ في الأسفارِ فقالَ : فيماذا أنتَ ؟ فقالَ : أدورُ في الأسفارِ لأصحِّحَ حالي في التوكُّلِ ـ وقدْ كانَ مِنَ المتوكِّلينَ ـ فقالَ الحسينُ : قدْ أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ[2] ؟ فكأنَّ الخوَّاصَ كانَ في تصحيحِ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ، فطالبَهُ بالمقامِ الرابعِ .

---

(١) لكنها إذا غابت . . بقيت آثارها ، فصاحبها بعد سكون غليانه يعيش في بركات ضيائها إلىٰ أن تلوح ثانية يزجي وقته على انتظار عودها ، ويعيش بما وجد في حين كونه . « إتحاف » (٩/ ٣٩٤) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٧) .

فهٰذهِ مقاماتُ الموحِّدينَ في التوحيدِ علىٰ سبيلِ الإجمالِ[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : فلا بدَّ لهٰذا مِنْ شرحٍ بمقدارِ ما يُفهمُ كيفيةُ ابتناءِ التوكُّلِ عليهِ .

فأقولُ : أمَّا الرابعُ . . فلا يجوزُ الخوضُ في بيانِهِ ، وليسَ التوكُّلُ أيضاً مبنيّاً عليهِ ، بلْ يحصلُ حالُ التوكُّلِ بالتوحيدِ الثالثِ .

وأمَّا الأوَّلُ وهوَ النفاقُ . . فهوَ واضحٌ .

وأمَّا الثاني وهوَ الاعتقادُ . . فهوَ موجودٌ في عمومِ المسلمينَ ، وطريقُ تأكيدِهِ بالكلامِ ، ودفعُ حيلِ المبتدعةِ فيهِ مذكورٌ في علمِ الكلامِ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » القدْرَ المهمَّ منه .

وأمَّا الثالثُ . . فهوَ الذي يبتنى التوكلُ عليهِ ؛ إذْ مجرَّدُ التوحيدِ بالاعتقادِ لا يورثُ حالَ التوكلِ ، فلنذكرْ منهُ القدْرَ الذي يرتبطُ التوكلُ بهِ دونَ تفصيلِهِ الذي لا يحتملُهُ أمثالُ هٰذا الكتابِ .

وحاصلُهُ : أنْ ينكشفَ لكَ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ، وأنَّ كلَّ موجودٍ مِنْ خلقٍ ورزقٍ ، وعطاءٍ ومنعٍ ، وحياةٍ وموتٍ ، وغنىً وفقرٍ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا ينطلقُ عليهِ اسمٌ[2] . . فالمنفردُ بإبداعِهِ واختراعِهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ،

---

(١) وقد اعترض على المصنف هٰذا التقسيم ، حتىٰ إنه عقد له جواباً في « إملائه » .

(٢) في (ب) : (اسم الحادث) .

لا شريكَ لهُ فيهِ ، وإذا انكشفَ لكَ هـٰذا . . لمْ تنظرْ إلىٰ غيرِهِ ، بلْ كانَ منهُ خوفُكَ ، وإليهِ رجاؤُكَ ، وبهِ ثقتُكَ ، وعليهِ اتكالُكَ ؛ فإنَّهُ الفاعلُ على الانفرادِ دونَ غيرِهِ ، وما سواهُ مسخرونَ لا استقلالَ لهم بتحريكِ ذرَّةٍ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وإذا انفتحَتْ لكَ أبوابُ المكاشفةِ . . اتضحَ لكَ هـٰذا اتضاحاً أتمَّ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ .

وإنَّما يصدُّكَ الشيطانُ عنْ هـٰذا التوحيدِ في مقامينِ يبتغي بهما أنْ يطرقَ إلىٰ قلبِكَ شائبةَ الشركِ :

أحدُهُما : الالتفاتُ إلى اختيارِ الحيواناتِ .

والثاني : الالتفاتُ إلى الجماداتِ .

أمّا الالتفاتُ إلى الجماداتِ . . فكاعتمادِكَ على المطرِ في خروجِ الزرعِ ونباتِهِ ونمائِهِ ، وعلى الغيمِ في نزولِ المطرِ ، وعلى البردِ في اجتماعِ الغيمِ ، وعلى الريحِ في استواءِ السفينةِ وسيرِها ، وهـٰذا كلُّهُ شركٌ في التوحيدِ ، وجهلٌ بحقائقِ الأمورِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ، قيلَ : معناهُ : أنَّهم يقولونَ : لولا استواءُ الريحِ . . لما نجونا .

ومَنِ انكشفَ لهُ أمرُ العالمِ كما هوَ عليهِ . . علمَ أنَّ الريحَ هوَ الهواءُ ، والهواءُ لا يتحرَّكُ بنفسِهِ ما لمْ يُحرِّكْ وكذلكَ محرِّكُهُ ، وهـٰكذا إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى المحرِّكِ الأوَّلِ الذي لا محرِّكَ لهُ ، ولا هوَ متحرِّكٌ في نفسِهِ عزَّ وجلَّ ،

فالتفاتُ العبدِ في النجاةِ إلى الريحِ يضاهي التفاتَ مَنْ أُخذَ لتُحزَّ رقبتُهُ فكتبَ الملكُ توقيعاً بالعفوِ عنهُ وتخليتِهِ ، فأخذَ يشتغلُ بشكرِ الحبرِ والكاغدِ والقلمِ الذي بهِ كُتبَ التوقيعُ ، ويقولُ : (لولا القلمُ . . لما تخلَّصتُ) ، فيرىٰ نجاتَهُ مِنَ القلمِ لا مِنْ محرِّكِ القلمِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ ، ومَنْ علمَ أنَّ القلمَ لا حكمَ لهُ في نفسِهِ ، وإنَّما هوَ مسخَّرٌ في يدِ الكاتبِ . . لمْ يلتفتْ إليهِ ، ولمْ يشكرْ إلا الكاتبَ ، بلْ ربَّما يدهشُهُ فرحُ النجاةِ وشكرُ الملكِ والكاتبِ عنْ أنْ يخطرَ ببالِهِ القلمُ والحبرُ والدواةُ .

فالشمسُ والقمرُ والنجومُ والمطرُ والغيمُ والأرضُ وكلُّ حيوانٍ وجمادٍ مسخراتٌ في قبضةِ القدرةِ كتسخيرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، بلْ هٰذا تمثيلٌ في حقِّكَ لاعتقادِكَ أنَّ الملكَ الموقِّعَ هوَ كاتبُ التوقيعِ ، والحقُّ أنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ هوَ الكاتبُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

فإذا انكشفَ لكَ أنَّ جميعَ ما في السماواتِ والأرضِ مسخراتٌ علىٰ هٰذا الوجهِ . . انصرفَ عنكَ الشيطانُ خائباً ، وأيسَ مِنْ مزجِ توحيدِكَ بهٰذا الشركِ ، فيأتيكَ في المهلكةِ الثانيةِ ، **وهيَ الالتفاتُ إلى اختيارِ الحيواناتِ في الأفعالِ الاختياريةِ** ، ويقولُ : كيفَ ترى الكلَّ مِنَ اللهِ وهٰذا الإنسانُ يعطيكَ رزقَكَ باختيارِهِ ؛ فإنْ شاءَ . . أعطاكَ ، وإنْ شاءَ . . قطعَ عنكَ ؟ وهٰذا الشخصُ هوَ الذي يحزُّ رقبتَكَ بسيفِهِ وهوَ قادرٌ عليكَ ؛ إنْ شاءَ . . حزَّ رقبتَكَ ، وإنْ شاءَ . . عفا عنكَ ، فكيفَ لا تخافُهُ وكيفَ لا ترجوهُ وأمرُكَ بيدِهِ ، وأنتَ تشاهدُ ذلكَ ولا تشكُّ فيهِ ؟ ويقولُ لهُ أيضاً : نعمْ ، إنْ كنتَ

لا ترى القلمَ لأنَّهُ مسخَّرٌ . فكيفَ لا ترى الكاتبَ بالقلمِ وهوَ المسخِّرُ لهُ ؟

وعندَ هـٰذا زلَّ أقدامُ الأكثرينَ ، إلا عبادَ اللهِ المخلصينَ ، الذينَ لا سلطانَ عليهِمْ للشيطانِ اللعينِ ، فشاهدوا بنورِ البصائرِ كونَ الكاتبِ مسخَّراً مضطرّاً كما شاهدَ جميعُ الضعفاءِ كونَ القلمِ مسخَّراً ، وعرفوا أنَّ غلطَ الضعفاءِ في ذلكَ كغلطِ النملةِ مثلاً لوْ كانَتْ تدبُّ على الكاغدِ فترىٰ رأسَ القلمِ يسوِّدُ الكاغدَ ، ولمْ يمتدَّ بصرُها إلى اليدِ والأصابعِ فضلاً عنْ صاحبِ اليدِ ، فغلطَتْ وظنَّتْ أنَّ القلمَ هوَ المسوِّدُ للبياضِ ، وذلكَ لقصورِ بصرِها عنْ مجاوزةِ رأسِ القلمِ لضيقِ حدقتِها .

فكذلكَ مَنْ لمْ ينشرحْ بنورِ اللهِ صدرُهُ للإسلامِ . قصرَتْ بصيرتُهُ عنْ ملاحظةِ جبَّارِ السماواتِ والأرضِ ، ومشاهدةِ كونِهِ قاهراً وراءَ الكلِّ ، فوقفَ في الطريقِ على الكاتبِ ، وهوَ جهلٌ محضٌ .

بلْ أربابُ القلوبِ والمشاهداتِ قدْ أنطقَ اللهُ تعالىٰ في حقِّهِمْ كلَّ ذرَّةٍ في الأرضِ والسماواتِ بقدرتِهِ التي بها أنطقَ كلَّ شيءٍ ، حتَّىٰ سمعوا تقديسَها وتسبيحَها للهِ تعالىٰ ، وشهادتَها علىٰ نفسِها بالعجزِ بلسانٍ ذلقٍ ، تتكلَّمُ بلا حرفٍ ولا صوتٍ ، ولا يسمعُهُ الذينَ هُمْ عنِ السمعِ معزولونَ ، ولستُ أعني بهِ السمعَ الظاهرَ الذي لا يجاوزُ الأصواتَ ، فإنَّ الحمارَ شريكٌ فيهِ ، ولا قدْرَ لما يُشاركُ فيهِ البهائمُ ، وإنَّما أريدُ بهِ سمعاً يُدركُ بهِ كلامٌ ليسَ بحرفٍ ولا صوتٍ ، ولا هوَ عربيٌّ ولا عجميٌّ .

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ أعجوبةٌ لا يقبلُها العقلُ ، فصفْ لي كيفيَّةَ نطقِها ، وأنَّها كيفَ نطقَتْ ، وبماذا نطقَتْ ، وكيفَ سبَّحَتْ وقدَّسَتْ ، وكيفَ شهدَتْ علىٰ نفسِها بالعجزِ .

فاعلمْ : أنَّ لكلِّ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ معَ أربابِ القلوبِ مناجاةً في السرِّ ، وذلكَ ممَّا لا ينحصرُ ولا يتناهىٰ ، فإنَّها كلماتٌ تَستمدُّ مِنْ بحرِ كلامِ اللهِ تعالىٰ الذي لا نهايةَ لهُ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

ثمَّ إنَّها تتناجىٰ بأسرارِ الملكِ والملكوتِ ، وإفشاءُ السرِّ لؤمٌ ، بلْ صدورُ الأحرارِ قبورُ الأسرارِ ، وهلْ رأيتَ قطُّ أميناً علىٰ أسرارِ الملكِ قدْ نُوجيَ بخفاياهُ ، فنادىٰ بسرِّهِ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ؟ ولوْ جازَ إفشاءُ كلِّ سرٍّ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً »[(١)] ، بلْ كانَ يذكرُ ذلكَ لهُمْ حتَّىٰ يبكونَ ولا يضحكونَ ، ولما نهىٰ عنْ إفشاءِ سرِّ القدرِ[(٢)] ، ولما قالَ : « إذا ذُكرَ النجومُ . . فأمسكوا ، وإذا ذُكرَ القدرُ . . فأمسكوا ، وإذا ذُكرَ أصحابي . . فأمسكوا »[(٣)] ، ولما خصَّ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ ببعضِ الأسرارِ[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .
(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨٢) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٨) .
(٤) روىٰ ذلك البخاري (٣٧٤٣) .

فإذاً ؛ عنْ حكاياتِ مناجاةِ ذرّاتِ الملكِ والملكوتِ لقلوبِ أربابِ المشاهداتِ مانعانِ :

أحدُهُما : استحالةُ إفشاءِ السرِّ .

والثاني : خروجُ كلماتِها عنِ الحصرِ والنهايةِ .

ولكنَّا في المثالِ الذي كنَّا فيهِ وهيَ حركةُ القلمِ نحكي مِنْ مناجاتِها قدراً يسيراً يُفهمُ بهِ على الإجمالِ كيفيةُ ابتناءِ التوكلِ عليهِ ، ونردُّ كلماتِها إلى الحروفِ والأصواتِ وإنْ لمْ تكنْ هيَ حروفاً وأصواتاً ، ولكنْ هـٰذهِ ضرورةُ التفهيمِ ، فنقولُ : قالَ بعضُ الناظرينَ عنْ مشكاةِ نورِ اللهِ[1] تعالىٰ للكاغدِ وقدْ رآهُ اسودَّ وجهُهُ بالحبرِ : ما بالُ وجهِكَ كانَ أبيضَ مشرقاً والآنَ قدْ ظهرَ عليهِ السوادُ ، فلِمَ سوَّدتَ وجهَكَ ؟ وما السببُ فيهِ ؟

فقالَ الكاغدُ : ما أنصفتَني في هـٰذهِ المطالبةِ ؛ فإنِّي ما سوَّدتُ وجهي بنفسي ، ولكنْ سلِ الحبرَ ، فإنَّهُ كانَ مجموعاً في المحبرةِ التي هيَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ، فسافرَ عنِ الوطنِ ، ونزلَ بساحةِ وجهي ظلماً وعدواناً . فقالَ : صدقتَ .

فسألَ الحبرَ عنْ ذلكَ فقالَ : ما أنصفتَني ، فإنِّي كنتُ في المحبرةِ وادعاً ساكناً ، عازماً علىٰ ألا أبرحَ منها ، فاعتدىٰ عليَّ القلمُ بطبعِهِ الفاسدِ[2]

---

(١) أي : بعين البصيرة . « إتحاف » (٩/ ٤٠٢) .

(٢) في غير (أ ، ب) : (بطمعه) بدل (بطبعه) .

واختطفَني مِنْ وطني ، وأجلاني عنْ بلادي ، وفرّقَ جمعي ، وبددَني كما ترىٰ علىٰ ساحةٍ بيضاءَ ، فالسؤالُ عليهِ لا عليَّ . فقالَ : صدقتَ .

ثمَّ سألَ القلمَ عنِ السببِ في ظلمِهِ وعدوانِهِ ، وإخراجِ الحبرِ مِنْ أوطانِهِ ، فقالَ : سلِ اليدَ والأصابعَ ؛ فإنِّي كنتُ قصباً نابتاً علىٰ شطِّ الأنهارِ ، متنزهاً بينَ خضرةِ الأشجارِ ، فجاءَتْني اليدُ بسكينٍ ، فنحَتْ عنِّي قشري ، ومزّقَتْ عني ثيابي ، واقتلعَتْني مِنْ أصلي ، وفصلَتْ بينَ أنابيبي ، ثمَّ برتْني وشقَّتْ رأسي ، ثمَّ غمسَتْني في سوادِ الحبرِ ومرارتِهِ ، وهيَ تستخدمُني وتمشيني علىٰ قمَّةِ رأسي ، فلقدْ نثرتَ الملحَ علىٰ جرحي بسؤالِكَ وعتابِكَ ، فتنحَّ عنِّي وسلْ مَنْ قهرَني . فقالَ : صدقتَ .

ثمَّ سألَ اليدَ عنْ ظلمِها للقلمِ وتعديها عليهِ واستخدامِها لهُ ، فقالَتِ اليدُ : ما أنا إلا لحمٌ وعظمٌ ودمٌ ، وهلْ رأيتَ لحماً يظلمُ أوْ جسماً يتحرَّكُ بنفسِهِ ؟ وإنَّما أنا مركَبٌ مسخَّرٌ ، ركبَني فارسٌ يُقالُ لهُ : القدرةُ والقوَّةُ ، فهيَ التي تردِدُني وتجولُ بي في نواحي الأرضِ ، أما ترى المدرَ والحجرَ والشجرَ لا يتعدَّىٰ شيءٌ منها مكانَهُ ولا يتحرَّكُ بنفسِهِ إذْ لمْ يركبْها مثلُ هـٰذا الفارسِ القويِّ القاهرِ ؟ أما ترىٰ أيديَ الموتىٰ تساويني في صورةِ اللحمِ والعظمِ والدمِ ثمَّ لا معاملةَ بينَها وبينَ القلمِ ؟ فأنا أيضاً مِنْ حيثُ أنا لا معاملةَ بيني وبينَ القلمِ ، فسلِ القدرةَ عنْ شأني ، فإنِّي مركَبٌ أزعجَني مَنْ ركبَني . فقالَ : صدقتِ .

ثمَّ سألَ القدرةَ عنْ شأنِها في استعمالِها اليدَ واستخدامِها وكثرةِ ترديدِها ،

فقالَتْ : دعْ عنكَ لومي ومعاتبتي ، فكمْ مِنْ لائمٍ ملومٌ ، وكمْ مِنْ ملومٍ لا ذنبَ لهُ ، وكيفَ خفيَ عليكَ أمري ؟ وكيفَ ظننتَ أنِّي ظلمتُ اليدَ لما ركبتُها ولقدْ كنتُ لها راكبةً قبلَ التحريكِ وما كنتُ أحرِّكُها ولا أستسخرُها ؟! بلْ كنتُ نائمةً ساكنةً نوماً ظنَّ الظانُّونَ بي أنِّي ميتةٌ أوْ معدومةٌ ؛ لأنِّي ما كنتُ أتحرَّكُ ولا أحرِّكُ ، حتَّىٰ جاءَني موكَّلٌ أزعجَني وأرهقَني إلىٰ ما تراهُ منِّي ، فكانَتْ لي قوَّةٌ علىٰ مساعدتِهِ ، ولمْ تكنْ لي قوَّةٌ علىٰ مخالفتِهِ ، وهـٰذا الموكَّلُ يُسمَّى الإرادةَ ، ولا أعرفُهُ إلا باسمِهِ وهجومِهِ وصيالِهِ ، إذْ أزعجَني مِنْ غمرةِ النومِ وأرهقَني إلىٰ ما كانَ لي مندوحةٌ عنهُ لوْ خلاَّني ورأيي .

فقالَ : صدقتِ .

ثمَّ سألَ الإرادةَ : ما الذي جرَّأَكِ علىٰ هـٰذهِ القدرةِ الساكنةِ المطمئنةِ حتَّىٰ صرفتِها إلى التحريكِ ، وأرهقتِها إليه إرهاقاً لمْ تجدْ عنهُ مخلصاً ولا مناصاً ، فقالَتِ الإرادةُ : لا تعجلْ عليَّ ، فلعلَّ لنا عذراً وأنتَ تلومُ ؛ فإنِّي ما انتهضتُ بنفسي ولكنِّي أُنهضتُ ، وما انبعثتُ ولكنِّي بُعثتُ بحكمٍ قاهرٍ وأمرٍ جازمٍ ، وقدْ كنتُ ساكنةً قبلَ مجيئِهِ ، ولكنْ وردَ عليَّ مِنْ حضرةِ القلبِ رسولُ العلمِ علىٰ لسانِ العقلِ بالإشخاصِ للقدرةِ ، فأشخصتُها باضطرارٍ ، فإنِّي مسكينةٌ مسخرةٌ تحتَ قهرِ العلمِ والعقلِ ، ولا أدري بأيِّ جرمٍ وُقفتُ عليهِ وسُخِّرتُ لهُ وأُلزمتُ طاعتَهُ ، لكنِّي أدري أنِّي في دعةٍ وسكونٍ ما لمْ يردْ عليَّ هـٰذا الواردُ القاهرُ ، وهـٰذا الحاكمُ العادلُ أوِ الظالمُ ، وقدْ وُقفتُ عليهِ وقفاً ، وأُلزمتُ طاعتَهُ إلزاماً ، بلْ لا يبقىٰ لي معَهُ مهما جزمَ حكمَهُ طاقةٌ على

المخالفةِ ، لعمري ما دامَ هوَ في التردُّدِ علىٰ نفسِهِ والتحيُّرِ في حكمِهِ فأنا ساكنةٌ ، لكنْ معَ استشعارٍ وانتظارٍ لحكمِهِ ، فإذا انجزمَ حكمُهُ . . أُزعجتُ بطبعٍ وقهرٍ تحتَ طاعتِهِ ، وأَشخصتِ القدرةُ لتقومَ بموجَبِ حكمِهِ ، فسلِ العلمَ عنْ شأني ، ودعْ عنِّي عتابَكَ ؛ فإنِّي كما قالَ الشاعرُ[1] : [من البسيط]

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَلاَّ تفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

فقالَ : صدقتِ .

وأقبلَ على العقلِ والعلمِ والقلبِ مطالباً لهُم ومعاتباً إيَّاهُمْ على استنهاضِ الإرادةِ وترشيحِها لإشخاصِ القدرةِ ، فقالَ العقلُ : أمَّا أنا . . فسراجٌ ما اشتعلتُ بنفسي ، ولكنِّي أُشعلتُ ، وقالَ القلبُ : أمَّا أنا . . فلوحٌ ما انبسطتُ بنفسي ، ولكنِّي بُسطتُ ، وقالَ العلمُ : إنَّما أنا نقشٌ نُقشتُ في بياضِ لوحِ القلبِ لمَّا أشرقَ سراجُ العقلِ ، وما انخططتُ بنفسي ، فكمْ كانَ هـٰذا اللوحُ قبلي خالياً عنِّي ، فسلِ القلمَ عنِّي ؛ لأنَّ الخطَّ لا يكونُ إلا بالقلمِ .

فعندَ هـٰذا تتعتعَ السائلُ ولمْ يقنعْهُ جوابُهُ وقالَ : قدْ طالَ تعبي في هـٰذا الطريقِ وكثرَتْ منازلي ، ولا يزالُ يحيلُني مَنْ طمعتُ في معرفةِ هـٰذا الأمرِ منهُ علىٰ غيرِهِ ، ولكنِّي كنتُ أطيبَ نفساً بكثرةِ التردادِ لما كنتُ أسمعُ كلاماً

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٢) ، والمراد منه : تعليق الأمر بالغير ورفع الملام ، فكأنه قال : إذا رحلت عن قوم قدروا علىٰ ألا ترحل بإكرامك ونزع علة سفرك . . فكأنهم هم الذين رحلوا عنك لاختيارهم رحلتك .

مقبولاً في الفؤادِ وعذراً ظاهراً في دفعِ السؤالِ ، فأمَّا قولُكَ : إنِّي خطٌّ ونقشٌ ، وإنَّما خطَّني قلمٌ . . فلستُ أفهمُهُ ، فإنِّي لا أعلمُ قلماً إلا مِنَ القصبِ ، ولا لوحاً إلا مِنَ الحديدِ أوِ الخشبِ ، ولا خطّاً إلا بالحبرِ ، ولا سراجاً إلا مِنَ النارِ ، وإنِّي لأسمعُ في هٰذا المنزلِ حديثَ اللوحِ والسراجِ والخطِّ والقلمِ ولا أشاهدُ منهُ شيئاً ! أسمعُ جعجعةً ولا أرىٰ طِحْناً !

فقالَ لهُ العلمُ : إنْ صدقتَ فيما قلتَ . . فبضاعتُكَ مزجاةٌ ، وزادُكَ قليلٌ ، ومركبُكَ ضعيفٌ .

واعلمْ : أنَّ المهالكَ في الطريقِ الذي توجهتَ إليهِ كثيرةٌ ، فالصوابُ لكَ أنْ تنصرفَ وتدعَ ما أنتَ فيهِ ، فما هٰذا بعشِّكَ فادرجْ عنهُ ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ .

وإنْ كنتَ راغباً في استتمامِ الطريقِ إلى المقصدِ . . فألقِ سمعَكَ وأنتَ شهيدٌ ، واعلمْ أنَّ العوالمَ في طريقِكَ هٰذا ثلاثةٌ :

عالمُ الملكِ : والشهادةُ أوَّلُهُ ، ولقدْ كانَ الكاغدُ والحبرُ والقلمُ واليدُ مِنْ هٰذا العالمِ ، وقدْ جاوزتَ تلكَ المنازلَ علىٰ سهولةٍ .

والثاني : **عالمُ الملكوتِ** : وهوَ ورائي ، فإذا جاوزتَني . . انتهيتَ إلىٰ منازلِهِ ، وفيها المهامهُ الفيحُ ، والجبالُ الشاهقةُ ، والبحارُ المغرقةُ ، ولا أدري كيفَ تسلمُ فيها .

والثالثُ : **عالمُ الجبروتِ** : وهوَ بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ ،

ولقدْ قطعتَ منهُ ثلاثَ منازلَ ؛ إذْ في أوَّلِهِ منزلُ القدرةِ والإرادةِ والعلمِ ، وهوَ واسطةٌ بينَ عالمِ الملكِ والملكوتِ ؛ لأنَّ عالمَ الملكِ أسهلُ منهُ طريقاً ، وعالمُ الملكوتِ أوعرُ منهُ منهجاً ، وإنَّما عالمُ الجبروتِ بينَ عالمِ الملكِ وعالمِ الملكوتِ يشبهُ السفينةَ التي هيَ في الحركةِ بينَ الأرضِ والماءِ ، فلا هيَ في حدِّ اضطرابِ الماءِ ، ولا هيَ في حدِّ سكونِ الأرضِ وثباتِها ، وكلُّ مَنْ يمشي على الأرضِ يمشي في عالمِ الملكِ والشهادةِ ، فإنْ جاوزَتْ قوتُهُ إلىٰ أنْ يقوىٰ علىٰ ركوبِ السفينةِ . . كانَ كمَنْ يمشي في عالمِ الجبروتِ ، فإنِ انتهىٰ إلىٰ أنْ يمشيَ على الماءِ مِنْ غيرِ سفينةٍ . . مشىٰ في عالمِ الملكوتِ مِنْ غيرِ تتعتعٍ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ على المشيِ على الماءِ . . فانصرفْ ، فقدْ جاوزتَ الأرضَ وخلفتَ السفينةَ ، ولمْ يبقَ بينَ يديكَ إلا الماءُ الصافي ، وأوَّلُ عالمِ الملكوتِ مشاهدةُ القلمِ الذي يُكتبُ بهِ العلمُ في لوحِ القلبِ ، وحصولُ اليقينِ الذي يُمْشَىٰ بهِ على الماءِ ، أما سمعتَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عيسىٰ عليهِ السلامُ : « لوِ ازدادَ يقيناً . . لمشىٰ على الهواءِ » لما قيلَ لهُ : إنَّهُ كانَ يمشي على الماءِ ؟[1] .

فقالَ السالكُ السائلُ : قدْ تحيَّرتُ في أمري ، واستشعرَ قلبي خوفاً ممَّا

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادره » (ص ٣٠٣) ، والبيهقي في « الزهد » (٩٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥٦) .

وصفتهُ مِنْ خطرِ الطريقِ ، ولستُ أدري أطيقُ قطعَ هٰذهِ المهامهِ التي وصفتَها أمْ لا ، فهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟

فقالَ : نعمِ ، افتحْ بصرَكَ ، واجمعْ ضوءَ عينيكَ وحدِّقْهُ نحوي ، فإنْ ظهرَ لكَ القلمُ الذي بهِ اكتُتِبَ في لوحِ القلبِ . . فيشبهُ أنْ تكونَ أهلاً لهٰذا الطريقِ ، فإنَّ كلَّ مَنْ جاوزَ عالمَ الجبروتِ وقرعَ أوَّلَ بابٍ مِنْ أبوابِ الملكوتِ . . كُوشفَ بالقلمِ ، أما ترىٰ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أوَّلِ أمرِهِ كُوشفَ بالقلمِ ؛ إذْ نزلَ عليهِ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فقالَ السالكُ : لقدْ فتحتُ بصري وحدَّقتُهُ ، فواللهِ ؛ ما أرىٰ قصباً ولا خشباً ، ولا أعلمُ قلماً إلا كذلكَ .

فقالَ العلمُ : لقدْ أبعدتَ النُّجعةَ ، أما سمعتَ أنَّ متاعَ البيتِ يشبهُ ربَّ البيتِ ؟ أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا تشبهُ ذاتُهُ سائرَ الذواتِ ؟ فكذلكَ لا تشبهُ يدُهُ الأيديَ ولا قلمُهُ الأقلامَ ، ولا كلامُهُ سائرَ الكلامِ ، ولا خطُّهُ سائرَ الخطوطِ ، وهٰذهِ أمورٌ إلٰهيَّةٌ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، فليسَ اللهُ تعالىٰ في ذاتِهِ بجسمٍ ، ولا هوَ في مكانٍ بخلافِ غيرِهِ ، ولا يدُهُ لحمٌ وعظمٌ ودمٌ بخلافِ الأيدي ، ولا قلمُهُ مِنْ قصبٍ ، ولا لوحُهُ مِنْ خشبٍ ، ولا كلامُهُ صوتٌ وحرفٌ ، ولا خطُّهُ رقمٌ ورسمٌ ، ولا حبرُهُ زاجٌ وعفصٌ ، فإنْ كنتَ لا تشاهدُ هٰذا هٰكذا . . فما أراكَ إلا مخنثاً بينَ فحولةِ التنزيهِ وأنوثةِ التشبيهِ ، مذبذباً

بينَ هـٰذا وذاكَ ، لا إلىٰ هؤلاءِ ولا إلىٰ هؤلاءِ ، فكيفَ نزَّهتَ ذاتَهُ تعالىٰ وصفاتِهِ عنِ الأجسامِ وصفاتِها ونزهتَ كلامَهُ عنْ معاني الحروفِ والأصواتِ وأخذتَ تتوقَّفُ في يدِهِ وقلمِهِ ولوحِهِ وخطِّهِ ؟!

فإنْ كنتَ قدْ فهمتَ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »(١) الصورةَ الظاهرةَ المدركةَ بالبصرِ . . فكنْ مشبِّهاً مطلقاً ؛ كما يُقالُ : كُنْ يهودياً صِرْفاً وإلا . . فلا تلعبْ بالتوراةِ .

وإنْ فهمتَ منهُ الصورةَ الباطنةَ التي تُدركُ بالبصائرِ لا بالأبصارِ . . فكنْ منزِّهاً صرفاً ومقدِّساً فحلاً ، واطوِ الطريقَ ، فإنَّكَ بالوادِ المقدَّسِ طوىً ، واستمعْ بسرِّ قلبكَ لما يُوحىٰ ، فلعلَّكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ولعلَّكَ مِنْ سرادقاتِ العزِّ تُنادىٰ بما نُودي بهِ موسىٰ : إنِّي أنا ربُّكَ الأعلىٰ .

فلمَّا سمعَ السالكُ مِنَ العلمِ ذلكَ . . استشعرَ قصورَ نفسهِ ، وأنَّهُ مخنَّثٌ بينَ التشبيهِ والتنزيهِ ، فاشتعلَ قلبُهُ ناراً مِنْ حدَّةِ غضبهِ علىٰ نفسهِ لمَّا رآها بعينِ النقصِ ، ولقدْ كانَ زيتُهُ الذي في مشكاةِ قلبهِ يكادُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فلما نفخَ فيهِ العلمُ بحدَّتِهِ . . اشتعلَ زيتُهُ ، فأصبحَ نوراً علىٰ نورٍ ، فقالَ لهُ العلمُ : اغتنمِ الآنَ هـٰذهِ الفرصةَ وافتحْ بصرَكَ ، فلعلَّكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ففتحَ بصرَهُ ، فانكشفَ لهُ القلمُ الإلـٰهيُّ ، فإذا هوَ كما وصفَهُ العلمُ في التنزيهِ ، ما هوَ مِنْ خشبٍ ولا قصبٍ ، ولا لهُ رأسٌ ولا ذنبٌ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) .

وهوَ يكتبُ على الدوامِ في قلوبِ البشرِ كلِّهِمْ أصنافَ العلومِ ، وكأنَّ لهُ في كلِّ قلبٍ رأساً ولا رأسَ لهُ ، فقضىٰ منهُ العجبَ وقالَ : نعمَ الرفيقُ العلمُ ، جزاهُ اللهُ عنِّي خيراً إذِ الآنَ ظهرَ لي صدقُ أنبائِهِ عنْ أوصافِ القلمِ ، فإنِّي أراهُ قلماً لا كالأقلامِ .

فعندَ هٰذا ودَّعَ العلمَ وشكرَهُ ، وقالَ : قدْ طالَ مقامي عندَكَ ، ومرادَّتي لكَ ، وأنا عازمٌ علىٰ أنْ أسافرَ إلىٰ حضرةِ القلمِ فأسألَهُ عنْ شأنِهِ .

فسافرَ إليهِ ، وقالَ : ما بالُكَ أيُّها القلمُ تخطُّ على الدوامِ في القلوبِ مِنَ العلومِ ما تبعثُ بهِ الإراداتِ إلىٰ إشخاصِ القدرةِ وصرفِها إلى المقدوراتِ ؟

فقالَ : لقدْ نسيتَ ما رأيتَ في عالمِ الملكِ والشهادةِ وسمعتَهُ مِنْ جوابِ القلمِ إذْ سألتَهُ فأحالَكَ على اليدِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فجوابي مثلُ جوابِهِ .

قالَ : وكيفَ وأنتَ لا تشبهُهُ ؟

قالَ القلمُ : أما سمعتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فسلْ عنْ شأني الملقبَ بيمينِ الملكِ ؛ فإنِّي في قبضتِهِ ، هوَ الذي يردِّدُني ، وأنا مقهورٌ مسخَّرٌ ، فلا فرقَ بينَ القلمِ الإلٰهيِّ وقلمِ الآدميِّ في معنى التسخيرِ ، وإنَّما الفرقُ في ظاهرِ الصورةِ .

فقالَ : ومَنْ يمينُ الملكِ ؟ فقالَ القلمُ : أما سمعتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ قالَ : نعمْ ، قالَ : فالأقلامُ أيضاً في قبضةِ يمينِهِ ، هوَ الذي يردِّدُها .

فسافرَ السالكُ مِنْ حضرةِ القلمِ إلىٰ حضرةِ اليمينِ حتَّىٰ شاهدَهُ ، ورأىٰ مِنْ عجائبِهِ ما يزيدُ علىٰ عجائبِ القلمِ ، ولا يجوزُ وصفُ شيءٍ مِنْ ذلكَ ولا شرحُهُ ، بلْ لا تحوي مجلداتٌ كثيرةٌ عشرَ عَشيرِ وصفِهِ ، والجملةُ فيهِ : أنَّهُ يمينٌ لا كالأيمانِ ، ويدٌ لا كالأيدي ، وإصبعٌ لا كالأصابعِ ، فرأى القلمَ محرَّكاً في قبضتِهِ ، فظهرَ لهُ عذرُ القلمِ ، فسألَ اليمينَ عنْ شأنِهِ وتحريكِهِ للقلمِ ، فقالَ : جوابي ما سمعتَهُ مِنَ اليمينِ التي رأيتَها في عالمِ الشهادةِ ، وهوَ الحوالةُ على القدرةِ ؛ إذِ اليدُ لا حكمَ لها في نفسِها ، وإنَّما محرِّكُها القدرةُ لا محالةَ .

فسافرَ السالكُ إلىٰ عالمِ القدرةِ ، ورأىٰ فيهِ مِنَ العجائبِ ما استحقرَ عندَها ما قبلَهُ ، وسألَها عنْ تحريكِ اليمينِ ، فقالَتْ : إنَّما أنا صفةٌ ، فاسألِ القادرَ ؛ إذِ العهدةُ على الموصوفاتِ لا على الصفاتِ .

وعندَ هـٰذا كادَ أنْ يزيغَ ويطلقَ بالجرأةِ لسانَ السؤالِ ، فثُبِّتَ بالقولِ الثابتِ ونُودِيَ مِنْ وراءِ حجابِ سرادقاتِ الحضرةِ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ ، فغشيَتْهُ هيبةُ الحضرةِ ، فخرَّ صعقاً يضطربُ في غشيتِهِ مدةً ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : سبحانَكَ ! ما أعظمَ شانَكَ ! تبتُ إليكَ[1] ، وتوكلتُ عليكَ[2] ، وآمنتُ بأنَّكَ الملكُ الجبَّارُ ، الواحدُ القهَّارُ ، فلا أخافُ غيرَكَ ،

---

(١) أي : رجعت عما كنت عازماً عليه في السؤال عن مثل هـٰذه الحقائق . «إتحاف» (٩/ ٤٠٩) .

(٢) فلا يتم مقام التوكل إلا بعد ملاحظة عظمة شأنه وألوهيته ، والانصراف إليه بكليته . « إتحاف » (٩/ ٤٠٩) .

ولا أرجو سواكَ ، ولا أعوذُ إلا بعفوكَ مِنْ عقابكَ ، وبرضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وما لي إلا أنْ أسألَكَ وأتضرعَ إليكَ وأبتهلَ بينَ يديكَ ، فأقولُ : اشرحْ لي صدري لأعرفَكَ ، واحللْ عقدةً مِنْ لساني لأثنيَ عليكَ .

فنُودِيَ مِنْ وراءِ الحجابِ : إيَّاكَ أنْ تطمعَ في الثناءِ ، وتزيدَ على سيِّدِ الأنبياءِ ، بلِ ارجعْ إليهِ ، فما آتاكَ فخذْهُ ، وما نهاكَ عنهُ فانتهِ عنهُ ، وما قالَهُ فقلْهُ ، فإنَّهُ ما زادَ في هـٰذهِ الحضرةِ على أنْ قالَ : « سبحانَكَ ! لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِكَ »(١) .

فقالَ : إلـٰهي ؛ إنْ لمْ يكنْ للسانِ جرأةٌ على الثناءِ عليكَ . . فهلْ للقلبِ مطمعٌ في معرفتِكَ ؟

فنُودِيَ : إيَّاكَ وأنْ تتخطى رقابَ الصدِّيقينَ ، فارجعْ إلى الصدِّيقِ الأكبرِ واقتدِ بهِ ، فإنَّ أصحابَ سيِّدِ الأنبياءِ كالنجومِ ، بأيِّهِمُ اقتديتُمْ . . اهتديتُمْ(٢) ، أما سمعتَهُ يقولُ : (العجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ) ؟ فيكفيكَ

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) وقد ورد هـٰذا مرفوعاً ، ومن المرفوع ما رواه مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : « النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم . . أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت . . أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي . . أتى أمتي ما يوعدون » ، وهـٰذا الحديث ـ كما قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص٤٣٩) ـ يؤدي بعض معنى الأثر المشهور : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم . . اهتديتم » .

نصيباً مِنْ حضرتِنا أنْ تعرفَ أنَّكَ محرومٌ عنْ حضرتِنا ، عاجزٌ عنْ ملاحظةِ جمالِنا وجلالِنا .

فعندَ هٰذا رجعَ السالكُ واعتذرَ عنْ أسولتِهِ ومعاتباتِهِ[1] ، وقالَ لليمينِ والقلمِ والعلمِ والإرادةِ والقدرةِ وما بعدَها : اقبلوا عذري ؛ فإنِّي كنتُ غريباً حديثَ العهدِ بالدخولِ في هٰذهِ البلادِ ، ولكلِّ داخلٍ دهشةٌ ، فما كانَ إنكاري عليكُمْ إلا عنْ قصورٍ وجهلٍ ، والآنَ قدْ صحَّ عندي عذرُكُمْ ، وانكشفَ لي أنَّ المنفردَ بالملكِ والملكوتِ والعزةِ والجبروتِ . . هوَ الواحدُ القهَّارُ ، فما أنتُمْ إلا مسخَّرونَ تحتَ قهرِهِ وقدرتِهِ ، مردَّدونَ في قبضتِهِ ، وهوَ الأوَّلُ والآخرُ ، والظاهرُ والباطنُ .

فلمَّا ذكرَ ذلكَ في عالمِ الشهادةِ . . استُبعدَ منهُ ذلكَ ، وقيلَ لهُ : كيفَ يكونُ هوَ الأوَّلَ والآخرَ وهما وصفانِ متناقضانِ ؟ وكيفَ يكونُ هوَ الظاهرَ والباطنَ والأوَّلُ ليسَ بآخرٍ والظاهرُ ليسَ بباطنٍ ؟

فقالَ : هوَ الأوَّلُ بالإضافةِ إلى الموجوداتِ ؛ إذْ صدرَ منهُ الكلُّ علىٰ ترتيبِهِ واحداً بعدَ واحدٍ ، وهوَ الآخرُ بالإضافةِ إلىٰ سيرِ المسافرينَ إليهِ ؛ فإنَّهُمْ لا يزالونَ مترقِّينَ مِنْ منزلٍ إلىٰ منزلٍ إلىٰ أنْ يقعَ الانتهاءُ إلىٰ تلكَ الحضرةِ ، فيكونَ ذلكَ آخرَ السفرِ ، فهوَ آخرٌ في المشاهدةِ ، أوَّلٌ في الوجودِ .

---

(١) كذا في جميع النسخ : (أسولته) ، وأسولة : جمع سُوَال بتسهيل الهمزة ، وهو جمع صحيح ، حكاه ابن جني .

وهوَ باطنٌ بالإضافةِ إلى العاكفينَ في عالمِ الشهادةِ ، الطالبينَ لإدراكِهِ بالحواسِّ الخمسِ ، ظاهرٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يطلبُهُ في السراجِ الذي اشتعلَ في قلبِهِ بالبصيرةِ الباطنةِ النافذةِ في عالمِ الملكوتِ(١) .

فهـٰذا كانَ توحيدَ السالكينَ لطريقِ التوحيدِ في الفعلِ ؛ أعني : مَنِ انكشفَ لهُ أنَّ الفاعلَ واحدٌ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدِ انتهىٰ هـٰذا التوحيدُ إلىٰ أنْ يُبتنىٰ على الإيمانِ بعالمِ الملكوتِ ، فمَنْ لا يفهمُ ذلكَ أوْ يجحدُهُ . . فما طريقُهُ ؟

فأقولُ : أمَّا الجاحدُ . . فلا علاجَ لهُ إلا أنْ يُقالَ لهُ : إنكارُكَ لعالمِ الملكوتِ كإنكارِ السُّمَنيَّةِ لعالمِ الجبروتِ(٢) ، وهُمُ الذينَ حصروا العلومَ في الحواسِّ الخمسِ ، فأنكروا القدرةَ والإرادةَ والعلمَ ؛ لأنَّها لا تُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، ولازموا حضيضَ عالمِ الشهادةِ .

فإنْ قالَ : وأنا منهُمْ ؛ فإنِّي لا أهتدي إلا إلىٰ عالمِ الشهادةِ بالحواسِّ الخمسِ ، ولا أعلمُ شيئاً سواهُ . . فيُقالُ : إنكارُكَ لما شاهدناهُ ممَّا وراءَ

---

(١) وقد اعتُرِض على المصنف بسياقه لهـٰذه الحكاية بجملة من الأسئلة والإشكالات ، أجاب عنها في « إملائه » بما لا غنىٰ لمن قصُرَ فهمه للعبائر هنا عنه .

(٢) السمنية : بضم السين وفتح الميم المخففة ، نسبة إلىٰ صنم عند الهنود يقال له : سومنات ، وقد اندثر ، وهم قوم من عبدة الأوثان قائلون بالتناسخ ، وبأنه لا طريق للعلم سوى الحس فقط . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (١/ ٩٧٦) .

الحواسِّ الخمسِ كإنكارِ السوفسطائيةِ للحواسِّ الخمسِ[١] ؛ فإنَّهُمْ قالوا : ما نراهُ لا نثقُ بهِ ، فلعلَّنا نراهُ في المنامِ !

فإنْ قالَ : وأنا مِنْ جملتِهِمْ ؛ فإنِّي شاكٌّ أيضاً في المحسوساتِ. . فيُقالُ : هٰذا شخصٌ فسدَ مزاجُهُ ، وامتنعَ علاجُهُ ، فيُتركُ أياماً قلائلَ ، فلا كلُّ مريضٍ يقوىٰ علىٰ علاجِهِ الأطباءُ .

هٰذا حكمُ الجاحدِ .

وأمَّا الذي لا يجحدُ ، ولكنْ لا يفهمُ. . فطريقُ السالكينَ معَهُ أنْ ينظروا إلىٰ عينِهِ التي بها يشاهدُ عالمَ الملكوتِ ، فإنْ وجدوها صحيحةً في الأصلِ ، وقدْ نزلَ فيها ماءٌ أسودُ يقبلُ الإزالةَ والتنقيةَ. . اشتغلوا بتنقيتِهِ اشتغالَ الكحَّالِ بالأبصارِ الظاهرةِ ، فإذا استوىٰ بصرُهُ. . أُرشدَ إلى الطريقِ ليسلكَهُ ، كما فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بخواصِّ أصحابِهِ[٢] .

وإنْ كانَ غيرَ قابلٍ للعلاجِ ، فلمْ يمكنْهُ أنْ يسلكَ الطريقَ الذي ذكرناهُ في التوحيدِ ، ولمْ يمكنْهُ أنْ يسمعَ كلامَ ذرَّاتِ الملكِ والملكوتِ بشهادةِ التوحيدِ. . كلَّموهُ بحرفٍ وصوتٍ ، وردُّوا ذروةَ التوحيدِ إلىٰ حضيضِ

---

(١) **السوفسطائية** : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات والضروريات ، فلم يكتفوا بما أنكره السمنية ، بل زادوا عليها إنكار مدرك الحس ، وهم علىٰ طوائف . انظر « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » (١/ ٩٥٧) .

(٢) أزال بنظره إليهم العلل الباطنة ، فأشرقت الأنوار في صدورهم وأعينهم ، ثم أرشدهم . « إتحاف » (٩/ ٤١٨) .

فهمِهِ ، فإنَّ في عالمِ الشهادةِ أيضاً توحيداً ؛ إذْ يعلمُ كلُّ أحدٍ أنَّ المنزلَ يفسدُ بصاحبينِ ، والبلدَ يفسدُ بأميرينِ ، فيُقالُ لهُ علىٰ حدِّ عقلِهِ : إلـٰهُ العالمِ واحدٌ ، والمدبِّرُ واحدٌ ؛ إذْ لوْ كانَ فيهِما آلهةٌ إلا اللهُ . . لفسدتا ، فيكونُ ذلكَ علىٰ ذوقِ ما رآهُ في عالمِ الشهادةِ ، فينغرسُ اعتقادُ التوحيدِ في قلبِهِ بهـٰذا الطريقِ اللائقِ بقدْرِ عقلِهِ ، وقدْ كُلِّفَ الأنبياءُ أنْ يكلِّموا الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، ولذلكَ نزلَ القرآنُ بلسانِ العربِ وعلىٰ حدِّ عادتِهِمْ في المحاورةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فمثلُ هـٰذا التوحيدِ الاعتقاديِّ هلْ يصلحُ أنْ يكونَ عماداً للتوكُّلِ وأصلاً فيهِ ؟

فأقولُ : نعمْ ، فإنَّ الاعتقادَ إذا قويَ . . عمِلَ عمَلَ الكشفِ في إثارةِ الأحوالِ ، إلا أنَّهُ في الغالبِ يضعفُ ويتسارعُ إليهِ الاضطرابُ والتزلزلُ غالباً ، ولذلكَ يحتاجُ صاحبُهُ إلىٰ متكلِّمٍ يحرسُهُ بكلامِهِ ، أوْ إلىٰ أنْ يتعلَّمَ هوَ الكلامَ ليحرسَ بهِ العقيدةَ التي تلقَّفَها مِنْ أستاذِهِ أوْ مِنْ أبويهِ أوْ مِنْ أهلِ بلدِهِ .

وأمَّا الذي شاهدَ الطريقَ وسلكَهُ بنفسِهِ . . فلا يُخافُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، بلْ لوْ كُشِفَ الغطاءُ . . لما ازدادَ يقيناً وإنْ كانَ يزدادُ وضوحاً ، كما أنَّ الذي يرىٰ إنساناً في وقتِ الإسفارِ لا يزدادُ يقيناً عندَ طلوعِ الشمسِ بأنَّهُ

إنسانٌ ، ولكنْ يزدادُ وضوحاً في تفصيلِ خلقتِهِ .

وما مثالُ المكاشفينَ والمعتقدينَ إلا كسحرةِ فرعونَ معَ أصحابِ السامريِّ ، فإنَّ سحرةَ فرعونَ لمَّا كانوا مطلعينَ علىٰ منتهىٰ تأثيرِ السحرِ لطولِ مشاهدتِهِمْ وتجربتِهِمْ ، فرأَوا مِنْ موسىٰ عليهِ السلامُ ما جاوزَ حدودَ السحرِ . انكشفَ لهُمْ حقيقةُ الأمرِ ، فلمْ يكترثوا بقولِ فرعونَ : (لأقطعَنَّ أيديَكُمْ وأرجلَكُمْ منْ خلافٍ) ، بلْ قالوا : (لنْ نؤثرَكَ علىٰ ما جاءَنا منَ البيِّناتِ والذي فطرَنا فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تقضي هٰذهِ الحياةَ الدنيا) ؛ فإنَّ البيانَ والكشفَ يمنعُ التغييرَ .

وأمَّا أصحابُ السامريِّ لمَّا كانَ إيمانُهُمْ عنِ النظرِ إلىٰ ظاهرِ الثعبانِ ، فلمَّا نظروا إلىٰ عجلِ السامريِّ وسمعوا خوارَهُ . . تغيَّروا وسمعوا قولَهُ : (هٰذا إلٰهُكُمْ وإلٰهُ موسىٰ) ، ونسوا أنَّهُ لا يرجعُ إليهِم قولاً ، ولا يملكُ لهُمْ ضرّاً ولا نفعاً .

فكلُّ مَنْ آمنَ بالنظرِ إلىٰ ثعبانٍ يكفرُ ـ لا محالةَ ـ إذا نظرَ إلىٰ عجلٍ ؛ لأنَّ كليهِما مِنْ عالمِ الشهادةِ ، والاختلافُ والتضادُّ في عالمِ الشهادةِ كثيرٌ .

وأمَّا عالمُ الملكوتِ . . فهوَ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ، فلذلكَ لا تجدُ فيهِ اختلافاً وتناقضاً أصلاً .

* * *

فإنْ قلتَ : ما ذكرتَهُ مِنَ التوحيدِ ظاهرٌ مهما ثبتَ أنَّ الوسائطَ والأسبابَ

مسخراتٌ ، وكلُّ ذلكَ ظاهرٌ إلا في حركاتِ الإنسانِ ، فإنَّهُ يتحرَّكُ إنْ شاءَ ، ويسكنُ إنْ شاءَ ، فكيفَ يكونُ مسخَّراً ؟[1] .

فاعلمْ : أنَّهُ لوْ كانَ معَ هـٰذا يشاءُ إنْ أرادَ أنْ يشاءَ ، ولا يشاءُ إنْ لمْ يردْ أنْ يشاءَ . . لكانَ هـٰذا مزلَّةَ القدمِ وموقعَ الغلطِ ، ولكنِ اعلمْ أنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ إذا شاءَ ، ويشاءُ شاءَ أمْ لمْ يشأْ ، فليسَتِ المشيئةُ إليهِ ؛ إذْ لوْ كانَتْ إليهِ . . لافتقرَتْ إلىٰ مشيئةٍ أخرىٰ ، وتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وإذا لمْ تكنِ المشيئةُ إليهِ ؛ فمهما وُجدَتِ المشيئةُ التي تصرفُ القدرةَ إلىٰ مقدورِها . . انصرفَتِ القدرةُ لا محالةَ ، ولمْ يكنْ لها سبيلٌ إلى المخالفةِ ، فالحركةُ لازمةٌ ضرورةً بالقدرةِ ، والقدرةُ محركةٌ ضرورةً عندَ انجزامِ المشيئةِ ، والمشيئةُ تحدثُ ضرورةً في القلبِ ، فهـٰذهِ ضروراتٌ ترتبَ بعضُها علىٰ بعضٍ ، وليسَ للعبدِ أنْ يدفعَ وجودَ المشيئةِ ولا انصرافَ القدرةِ إلى المقدورِ بعدَها ، ولا وجودَ الحركةِ بعدَ بعثِ المشيئةِ للقدرةِ ، فهوَ مضطرٌّ في الجميعِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذا جبرٌ محضٌ ، والجبرُ يناقضُ الاختيارَ ، وأنتَ لا تنكرُ الاختيارَ ، فكيفَ يكونُ مجبوراً مختاراً ؟

فأقولُ : لوِ انكشفَ الغطاءُ . . لعرفتَ أنَّهُ في عينِ الاختيارِ مجبورٌ ، فهوَ إذاً مجبورٌ على الاختيارِ ، فكيفَ يفهمُ هـٰذا مَنْ لا يفهمُ الاختيارَ ؟

---

(١) والتسخير يناقض الاختيار .

فلنشرحِ الاختيارَ بلسانِ المتكلِّمينَ شرحاً وجيزاً يليقُ بما ذُكِرَ متطفلاً وتابعاً ، فإنَّ هـٰذا الكتابَ لمْ نقصدْ بهِ إلا علمَ المعاملةِ ، ولكنِّي أقولُ : لفظُ الفعلِ في الإنسانِ يُطلقُ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ ؛ إذْ يُقالُ : الإنسانُ يكتبُ بالأصابعِ ، ويتنفَّسُ بالرئةِ والحَنْجَرةِ ، ويخرقُ الماءَ إذا وقفَ عليهِ بجسمِهِ ، فيُنسبُ إليهِ الخرقُ في الماءِ ، والتنفسُ ، والكتابةُ ، وهـٰذهِ الثلاثةُ في حقيقةِ الاضطرارِ والجبرِ واحدٌ ، ولكنَّها تختلفُ وراءَ ذلكَ في أمورٍ ، فأُعرِبَ لذلكَ عنها بثلاثِ عباراتٍ ، فسُمِّيَ خرقُهُ للماءِ عندَ وقوعِهِ علىٰ وجهِهِ فعلاً طبيعياً ، ويُسمَّىٰ تنفسُهُ فعلاً إرادياً ، وسُمِّيَتْ كتابتُهُ فعلاً اختيارياً .

والجبرُ ظاهرٌ في الفعلِ الطبيعيِّ ؛ لأنَّهُ مهما وقفَ علىٰ وجهِ الماءِ أوْ تخطَّىٰ مِنَ السطحِ الهواءَ . . انخرقَ لا محالةَ ، فيكونُ الخرقُ بعدَ التخطِّي ضرورياً .

والتنفُّسُ في معناهُ ، فإنَّ نسبةَ حركةِ الحَنْجَرةِ إلىٰ إرادةِ التنفُّسِ كنسبةِ انخراقِ الماءِ إلىٰ ثقلِ البدنِ ، فمهما كانَ الثقلُ موجوداً . . وُجِدَ الانخراقُ بعدَهُ ، وليسَ الثقلُ إليهِ ، فكذلكَ الإرادةُ ليسَتْ إليهِ ، ولذلكَ لوْ قصدَ عينَ الإنسانِ بإبرةٍ . . طبقَ الأجفانَ اضطراراً ، ولوْ أرادَ أنْ يتركَها مفتوحةً . . لمْ يقدرْ معَ أنَّ تغميضَ الأجفانِ فعلٌ إراديٌّ ، ولكنَّهُ إذا تمثَّلَ صورةَ الإبرةِ في مشاهدتِهِ بالإدراكِ . . حدثَتِ الإرادةُ للتغميضِ ضرورةً ، وحدثَتِ الحركةُ بها ، ولوْ أرادَ أنْ يتركَ التغميضَ . . لمْ يقدرْ عليهِ ، معَ أنَّهُ فعلٌ بالقدرةِ والإرادةِ ؛ فقدِ التحقَ هـٰذا بالفعلِ الطبيعيِّ في كونِهِ ضرورياً .

وأمَّا الثالثُ وهوَ الاختياريُّ . . فهوَ مظنَّةُ الالتباسِ ، كالكتابةِ والنطقِ ، وهوَ الذي يُقالُ فيهِ : إنْ شاءَ . . فعلَ ، وإنْ شاءَ . . لمْ يفعلْ ، وتارةً يشاءُ وتارةً لا يشاءُ ، فيُظنُّ مِنْ هـٰذا أنَّ الأمرَ إليهِ ، وهوَ للجهلِ بمعنى الاختيارِ ، فلنكشفْ عنهُ .

وبيانُهُ : أنَّ الإرادةَ تبعٌ للعلمِ الذي يحكمُ بأنَّ الشيءَ موافقٌ لكَ ، والأشياءُ تنقسمُ إلىٰ ما تحكمُ مشاهدتُكَ الظاهرةُ أوِ الباطنةُ بأنَّهُ يوافقُكَ مِنْ غيرِ تحيُّرٍ وتردُّدٍ ، وإلىٰ ما قدْ يتردَّدُ العقلُ فيهِ .

فالذي تقطعُ بهِ مِنْ غيرِ تردُّدٍ أنْ تُقصَدَ عينُكَ مثلاً بإبرةٍ أوْ بدنُكَ بسيفٍ ، فلا يكونُ في علمِكَ تردُّدٌ في أنَّ دفعَ ذلكَ خيرٌ لكَ وموافقٌ ، فلا جرمَ تنبعثُ الإرادةُ بالعلمِ ، والقدرةُ بالإرادةِ ، وتحصلُ حركةُ الأجفانِ بالدفعِ ، وحركةُ اليدِ بدفعِ السيفِ ، وذلكَ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وفكرةٍ ، ويكونُ ذلكَ بالإرادةِ .

ومِنَ الأشياءِ ما يتوقَّفُ التمييزُ والعقلُ فيهِ ، فلا يُدرىٰ أنَّهُ موافقٌ أمْ لا ، فيحتاجُ إلىٰ رويَّةٍ وفكرٍ حتَّىٰ يتبيَّنَ أنَّ الخيرَ في الفعلِ أوِ التركِ ، فإذا حصلَ بالفكرِ والرويَّةِ العلمُ بأنَّ أحدَهُما خيرٌ . . التحقَ ذلكَ بالذي يُقطعُ بهِ مِنْ غيرِ رويَّةٍ وفكرٍ ، وانبعثَتِ الإرادةُ هـٰهنا كما تنبعثُ لدفعِ السيفِ والسنانِ ، فإذا انبعثَتْ لفعلِ ما ظهرَ للعقلِ أنَّهُ خيرٌ . . سُمِّيَتْ هـٰذهِ الإرادةُ اختياراً ؛ مشتقاً مِنَ الخيرِ ؛ أيْ : هوَ انبعاثٌ إلىٰ ما ظهرَ للعقلِ أنَّهُ خيرٌ ، وهوَ عينُ تلكَ الإرادةِ ، ولمْ ينتظرْ في انبعاثِها إلا ما انتظرَتْ تلكَ الإرادةُ ، وهوَ ظهورُ

خيريَّةِ الفعلِ في حقِّهِ ، إلا أنَّ الخيريَّةَ في دفعِ السيفِ ظهرَتْ مِنْ غيرِ رويَّةٍ ، بلْ على البديهةِ ، وهـٰذا افتقرَ إلى الرويَّةِ .

فالاختيارُ عبارةٌ عنْ إرادةٍ خاصَّةٍ ، وهيَ التي انبعثَتْ بإشارةِ العقلِ فيما لهُ في إدراكِهِ توقُّفٌ ، وعنْ هـٰذا قيلَ : إنَّ العقلَ يُحتاجُ إليهِ للتمييزِ بينَ خيرِ الخيرينِ وشرِّ الشرينِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ تنبعثَ الإرادةُ إلا بحكمِ الحسِّ والتخييلِ ، أوْ بحكمٍ جزمٍ مِنَ العقلِ ، ولذلكَ لوْ أرادَ الإنسانُ أنْ يحزَّ رقبةَ نفسِهِ مثلاً . . لمْ يمكنْهُ ، لا لعدمِ القدرةِ في اليدِ ، ولا لعدمِ السكينِ ، ولكنْ لفقدِ الإرادةِ الداعيةِ المشخصةِ للقدرةِ ، وإنَّما فُقدَتِ الإرادةُ لأنَّها تنبعثُ بحكمِ العقلِ أوِ الحسِّ بكونِ الفعلِ موافقاً ، وقتلُهُ نفسَهُ ليسَ موافقاً لهُ ، فلا يمكنُهُ معَ قوَّةِ الأعضاءِ أنْ يقتلَ نفسَهُ إلا إذا كانَ في عقوبةٍ مؤلمةٍ لا تُطاقُ ، فإنَّ العقلَ هـٰهنا يتوقَّفُ في الحكمِ ويتردَّدُ ؛ لأنَّهُ تردُّدٌ بينَ شرِّ الشرَّينِ ، فإنْ ترجَّحَ لهُ بعدَ الرويَّةِ أنَّ تركَ القتلِ أقلُّ شرّاً . . لمْ يمكنْهُ قتلُ نفسِهِ ، وإنْ حكمَ بأنَّ القتلَ أقلُّ شرّاً ، وكانَ حكمُهُ جزماً لا ميلَ فيهِ ولا صارفَ عنهُ . . انبعثَتِ الإرادةُ والقدرةُ وأهلكَ نفسَهُ ؛ كالذي يُتبعُ بالسيفِ للقتلِ ، فإنَّهُ يرمي بنفسِهِ مِنَ السطحِ مثلاً وإنْ كانَ مهلكاً ولا يبالي ، ولا يمكنُهُ ألا يرميَ نفسَهُ ، وإنْ كانَ يُتبعُ بضربٍ خفيفٍ ؛ فإنِ انتهىٰ إلىٰ طرفِ السطحِ . . حكمَ العقلُ بأنَّ الضربَ أهونُ مِنَ الرميِ ، فوقفَتْ أعضاؤُهُ ، فلا يمكنُهُ أنْ يرميَ نفسَهُ ، ولا تنبعثُ لهُ داعيةٌ ألبتةَ ؛ لأنَّ داعيةَ الإرادةِ مسخَّرةٌ لحكمِ العقلِ والحسِّ ، والقدرةُ مسخَّرةٌ للداعيةِ ، والحركةُ مسخَّرةٌ للقدرةِ ، والكلُّ يصدرُ بالضرورةِ

فيهِ مِنْ حيثُ لا يدري ، فإنَّما هوَ محلٌّ ومجرىً لهـٰذهِ الأمورِ ، فأمَّا أنْ يكونَ منهُ . . فكلا ولا .

فإذاً ؛ معنىٰ كونِهِ مجبوراً : أنَّ جميعَ ذلكَ حاصلٌ فيهِ مِنْ غيرِهِ لا منهُ ، ومعنىٰ كونِهِ مختاراً : أنَّهُ محلٌّ لإرادةٍ حدثَتْ فيهِ جبراً بعدَ حكمِ العقلِ بكونِ الفعلِ خيراً محضاً موافقاً ، وحدثَ الحكمُ أيضاً جبراً ، فإذاً هوَ مجبورٌ على الاختيارِ ، ففعلُ النارِ في الإحراقِ مثلاً جبرٌ محضٌ ، وفعلُ اللهِ تعالى اختيارٌ محضٌ ، وفعلُ الإنسانِ علىٰ منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، فإنَّهُ جبرٌ على الاختيارِ ، فطلبَ أهلُ الحقِّ لهـٰذا عبارةً ثالثةً لما كانَ فنّاً ثالثاً ، وتيمَّنوا فيهِ بكتابِ اللهِ تعالىٰ[1] ، فسمَّوهُ : كسباً ، وليسَ مناقضاً للجبرِ ولا للاختيارِ ، بلْ هوَ جامعٌ بينَهُما عندَ مَنْ فهمَهُ .

وفعلُ اللهِ تعالىٰ يُسمَّى اختياراً بشرطِ ألا يُفهمَ مِنَ الاختيارِ إرادةٌ بعدَ تحيُّرٍ وتردُّدٍ ، فإنَّ ذلكَ في حقِّه محالٌ ، وجميعُ الألفاظِ المذكورةِ في اللغاتِ لا يمكنُ أنْ تُستعملَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ إلا علىٰ نوعٍ مِنَ الاستعارةِ والتجوُّزِ ، وذكرُ ذلكَ لا يليقُ بهـٰذا العلمِ ، ويطولُ القولُ فيهِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ تقولُ إنَّ العلمَ ولَّدَ الإرادةَ ، والإرادةَ ولَّدَتِ القدرةَ ،

---

(١) في قوله عز شأنه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ ، ومن تمسك بلفظ الاختيار . . لم يعب عليه .

والقدرةَ ولّدَتِ الحركةَ ، وإنَّ كلَّ متأخِّرٍ حدثَ مِنَ المتقدِّمِ ؟ فإنْ قلتَ ذلكَ . . فقدْ حكمتَ بحدوثِ شيءٍ لا مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ أبيتَ ذلكَ . . فما معنىٰ ترتُّبِ البعضِ مِنْ هٰذا على البعضِ ؟

فاعلم : أنَّ القولَ بأنَّ بعضَ ذلكَ حدثَ عنْ بعضٍ جهلٌ محضٌ ، سواءٌ عُبِّرَ عنهُ بالتولُّدِ أوْ بغيرِهِ[١] ، بلْ حوالةُ جميعِ ذلكَ على المعنى الذي يُعبَّرُ عنهُ بالقدرةِ الأزليَّةِ ، وهوَ الأصلُ الذي لمْ يقفْ كافَّةُ الخلقِ عليهِ إلا الراسخونَ في العلمِ فإنَّهُمْ وقفُوا علىٰ كنهِ معناهُ ، والكافةُ وقفُوا علىٰ مجرَّدِ لفظِهِ معَ نوعِ تشبيهٍ بقدرتِنا ، وهوَ بعيدٌ عنِ الحقِّ ، وبيانُ ذلكَ يطولُ ، ولكنْ بعضُ المقدوراتِ مترتِّبةٌ على البعضِ في الحدوثِ ترتُّبَ المشروطِ على الشرطِ ، فلا تصدرُ مِنَ القدرةِ الأزليَّةِ إرادةٌ إلا بعدَ علمٍ ، ولا علمٌ إلا بعدَ حياةٍ ، ولا حياةٌ إلا بعدَ محلٍّ للحياةِ .

وكما لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الحياةُ حصلَتْ مِنَ الجسمِ الذي هوَ شرطُ الحياةِ . . فكذلكَ في سائرِ درجاتِ الترتيبِ ، ولكنْ بعضُ الشروطِ مما ظهرَ للعامَّةِ ، وبعضُها لمْ يظهرْ إلا للخواصِّ المكاشفينَ بنورِ الحقِّ ، وإلا . . فلا يتقدَّمُ متقدِّمٌ ولا يتأخَّرُ متأخِّرٌ إلا بالحقِّ واللزومِ ، وكذلكَ جميعُ أفعالِ اللهِ

---

(١) والذين عبّروا عنه بالتولُّد وهم زعماء القائلين به في الفرق الإسلامية هم المعتزلة ، وهٰذه التحريجة وجوابها تمهيد للحديث عن العبارة المشهورة التي فاه بها المصنف : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) .

تعالىٰ ، ولولا ذلكَ . . لكانَ التقديمُ والتأخيرُ عبثاً يضاهي فعلَ المجانينِ ، تعالى اللهُ عنْ قولِ الجاهلينَ علوّاً كبيراً .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

فكلُّ ما بينَ السماءِ والأرضِ حادثٌ علىٰ ترتيبٍ واجبٍ وحقٍّ لازمٍ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ إلا كما حدثَ ، وعلى الترتيب الذي وُجدَ ، فما تأخَّرَ متأخِّرٌ إلا لانتظارِ شرطِهِ ، والمشروطُ قبلَ الشرطِ محالٌ ، والمحالُ لا يُوصفُ بكونِهِ مقدوراً[١] ، فلا يتأخَّرُ العلمُ عنِ النطفةِ إلا لفقدِ شرطِ الحياةِ ، ولا تتأخَّرُ عنها الإرادةُ بعدَ العلمِ إلا لفقدِ شرطِ العلمِ ، وكلُّ ذلكَ علىٰ منهاجِ الواجبِ وترتيبِ الحقِّ ، ليسَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ لعبٌ واتفاقٌ ، بلْ كلُّ ذلكَ بحكمةٍ وتدبيرٍ .

وتفهيمُ ذلكَ عسيرٌ ، ولكنَّا نضربُ لتوقُّفِ المقدورِ معَ وجودِ القدرةِ علىٰ وجودِ الشرطِ مثالاً يقرِّبُ مبادىءَ الحقِّ مِنَ الأفهامِ الضعيفةِ ، وذلكَ بأنْ تقدِّرَ إنساناً مُحْدِثاً قدِ انغمسَ في الماءِ إلىٰ رقبتِهِ ، فالحدثُ لا يرتفعُ عنْ أعضائِهِ وإنْ كانَ الماءُ هوَ الرافعَ وهوَ ملاقٍ لهُ ، فقدْرُ القدرةِ الأزليَّةِ حاضرةٌ ملاقيةٌ للمقدوراتِ متعلِّقةٌ بها ملاقاةَ الماءِ للأعضاءِ ، ولكنْ لا يحصلُ بها المقدورُ

---

(١) فلا يقال : إنه داخل في الإمكان ، ولو شاء الله . . لأوجده وأبدعه ؛ إذ القدرة لا تعلّق لها بالمستحيل ، والمشروط يستحيل تصور وقوعه قبل شرطه ، ولا يجب بعد شرطه ، فهو ممكن في ذاته ، وكلام المصنف هنا هينمة لما سيأتي تفصيله .

كما لا يحصلُ رفعُ الحدثِ بالماءِ انتظاراً للشرطِ ، وهوَ غسلُ الوجهِ ، فإذا وضعَ الواقفُ في الماءِ وجهَهُ على الماءِ . . عملَ الماءُ في سائرِ الأعضاءِ وارتفعَ الحدثُ ، فربَّما يظنُّ الجاهلُ أنَّ الحدثَ ارتفعَ عنِ اليدِ برفعِهِ عنِ الوجهِ ؛ لأنَّهُ حدثَ عَقيبَهُ ، إذْ يقولُ : كانَ الماءُ ملاقياً ولمْ يكنْ رافعاً ، والماءُ لمْ يتغيَّرْ عمَّا كانَ ، فكيفَ حصلَ منهُ ما لمْ يحصلْ مِنْ قبلُ ؟! بلْ حصلَ ارتفاعُ الحدثِ عنِ اليدِ عندَ غسلِ الوجهِ[1] ، فإذاً غسلُ الوجهِ هوَ الرافعُ للحدثِ عنِ اليدِ !

وهوَ جهلٌ يضاهي ظنَّ مَنْ يظنُّ أنَّ الحركةَ تحصلُ بالقدرةِ ، والقدرةَ بالإرادةِ ، والإرادةَ بالعلمِ ، وكلُّ ذلكَ خطأٌ ، بلْ عندَ ارتفاعِ الحدثِ عنِ الوجهِ ارتفعَ الحدثُ عنِ اليدِ بالماءِ الملاقي لها ، لا بغسلِ الوجهِ ، والماءُ لمْ يتغيَّرْ ، واليدُ لمْ تتغيَّرْ ، ولمْ يحدثْ فيهِما شيءٌ ، ولكنْ حدثَ وجودُ الشرطِ ، فظهرَ أثرُ العلَّةِ[2] .

---

(١) أي ـ والكلام علىٰ لسان المعترض ـ : (بل حصل ارتفاع الحدث عن اليد بغسل الوجه) ، إذ حصوله عنده لا به هو ما سيقرره المصنف ، **فالمراد بالعندية هنا عند المعترض : العلّية .**

(٢) وقد تبيَّن بهـٰذا المثال بأن السابق ليس مؤثراً في اللاحق ، فتأخُّر اللاحق عنه لا يدل قطعاً علىٰ تولُّده من السابق ، بل هي قضية شرط ومشروط ، يقول المصنف في « الاقتصاد » (ص٢٨٠) : (ومعلوم أنه يلزم من عدم الشرط عدمُ المشروط ، فإذا رأينا علمَ الشخص مع حياته ، وإرادته مع علمه . . فيلزم ـ لا محالة ـ من تقدير انتفاءِ الحياة انتفاءُ العلم ، ومن تقدير انتفاء العلم انتفاءُ الإرادة ، ويعبَّر عن هـٰذا بالشرط ، **وهو الذي لا بد منه لوجود الشيء ، ولكن ليس وجود الشيء به ، بل عنده ومعه)** .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ صدورَ المقدوراتِ مِنَ القدرةِ الأزليَّةِ معَ أنَّ القدرة قديمةٌ والمقدوراتِ حادثةٌ ، وهـٰذا قرعُ بابِ آخرَ لعالمٍ آخرَ مِنْ عوالمِ المكاشفاتِ .

فلنتركْ جميعَ ذلكَ ؛ فإنَّ مقصودَنا التنبيهُ علىٰ طريقِ التوحيدِ في الفعلِ ، فإنَّ الفاعلَ بالحقيقةِ واحدٌ ، فهوَ المخُوفُ والمرجوُّ ، وعليهِ التوكُّلُ والاعتمادُ ، ولـمْ نقدرْ علىٰ أنْ نذكرَ مِنْ بحارِ التوحيدِ إلا قطرةً مِنْ بحرِ المقامِ الثالثِ مِنْ مقاماتِ التوحيدِ ، واستيفاءُ ذلكَ في عمرِ نوحٍ محالٌ ؛ كاستيفاءِ ماءِ البحرِ بأخذِ القطراتِ منهُ ، وكلُّ ذلكَ ينطوي تحتَ قولِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، وما أخفَّ مؤنتَهُ على اللسانِ ! وما أسهلَ اعتقادَ مفهومِ لفظِهِ على القلبِ ! وما أعزَّ حقيقتَهُ ولبَّهُ عندَ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ! فكيفَ عندَ غيرِهِمْ ؟!

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ الجمعُ بينَ التوحيدِ والشرعِ ومعنى التوحيدِ أنْ لا فاعلَ إلا اللهُ تعالىٰ ومعنى الشرعِ إثباتُ الأفعالِ للعبادِ ؟ فإنْ كانَ العبدُ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ اللهُ تعالىٰ فاعلاً ؟ وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ فاعلاً . . فكيفَ يكونُ العبدُ فاعلاً ؟ ومفعولٌ بينَ فاعلينِ غيرُ مفهومٍ ؟

فأقولُ : نعمْ ، ذلكَ غيرُ مفهومٍ إذا كانَ للفاعلِ معنىً واحدٌ ، وإنْ كانَ لهُ معنيانِ ويكونُ الاسمُ مجملاً مردَّداً بينَهُما . . لمْ يتناقضْ ، كما يُقالُ : قتلَ الأميرُ فلاناً ، ويُقالُ قتلَهُ الجلادُ ، ولكنِ الأميرُ قاتلٌ بمعنىً ، والجلادُ قاتلٌ

بمعنىً آخرَ ؛ فكذلكَ العبدُ فاعلٌ بمعنىً ، واللهُ عزَّ وجلَّ فاعلٌ بمعنىً آخرَ ، فمعنىٰ كونِ اللهِ تعالىٰ فاعلاً : أنَّهُ المخترعُ الموجدُ ، ومعنىٰ كونِ العبدِ فاعلاً : أنَّهُ المحلُّ الذي خلقَ فيهِ القدرةَ بعدَ أنْ خلقَ فيهِ الإرادةَ بعدَ أنْ خلقَ فيهِ العلمَ ، فارتبطَتِ القدرةُ بالإرادةِ والحركةُ بالقدرةِ ارتباطَ الشرطِ بالمشروطِ ، وارتبطَ بقدرةِ اللهِ ارتباطَ المعلولِ بالعلَّةِ وارتباطَ المخترَعِ بالمخترِعِ ، وكلُّ ما لهُ ارتباطٌ بقدرةٍ فإنَّ محلَّ القدرةِ يُسمَّىٰ فاعلاً لهُ كيفَما كانَ الارتباطُ ؛ كما يُسمَّى الجلادُ قاتلاً والأميرُ قاتلاً ؛ لأنَّ القتلَ ارتبطَ بقدرتِهما ، ولكنْ علىٰ وجهينِ مختلفينِ ، فلذلكَ سُمِّيَ فعلاً لهُما ؛ فكذلكَ ارتباطُ المقدورِ بالقدرتينِ .

ولأجلِ توافقِ ذلكَ وتطابقِهِ نسبَ اللهُ تعالى الأفعالَ في القرآنِ مرَّةً إلى الملائكةِ ، ومرَّةً إلى العبادِ ، ونسبَها بعينِها مرَّةً أخرىٰ إلىٰ نفسِهِ ، فقالَ تعالىٰ في الموتِ : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، أضافَ الحرثَ إلينا ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ، ثمَّ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ، وكانَ النافخُ جبريلَ عليهِ السلامُ .

وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ ، قيلَ في التفسيرِ : معناهُ : إذا قرأَهُ عليكَ جبريلُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ، فأضافَ القتلَ إليهِمْ والتعذيبَ إلىٰ نفسِهِ ، والتعذيبُ هوَ عينُ القتلِ ، بلْ صرَّحَ وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ وهوَ جمعٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ظاهراً ، ولكنْ معناهُ : (وما رميتَ) بالمعنى الذي يكونُ الربُّ بهِ رامياً (إذْ رميتَ) بالمعنى الذي يكونُ العبدُ بهِ رامياً ؛ إذْ هما معنيانِ مختلفانِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ ، ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في وصفِ ملكِ الأرحامِ : « إنَّهُ يدخلُ الرحمَ ، فيأخذُ النطفةَ في يدِهِ ثمَّ يُصوِّرُها جسداً فيقولُ : يا ربِّ ؛ أذكرٌ أمْ أنثى ؟ أسويٌّ أمْ معوجٌّ ؟ فيقولُ اللهُ ما شاءَ ويخلقُ الملَكُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « ويُصوِّرُ الملَكُ ، ثمَّ ينفخُ فيها الروحَ بالسعادةِ أوْ بالشقاوةِ »[1] .

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : إنَّ الملكَ الذي يُقالُ لهُ : الروحُ هوَ الذي يولجُ الأرواحَ في الأجسامِ ، وأنَّهُ يتنفَّسُ بوصفِهِ ، فيكونُ كلُّ نفسٍ مِنْ أنفاسِهِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٣) ، وقد رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٣٨٧٤) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/٢٢٧) ، والآجري في « الشريعة » (٣٦٥) ، وأصله في « الصحيحين » .

روحاً يلجُ في جسمٍ ، ولذلكَ سُمِّيَ روحاً[١] .

وما ذكرَهُ مِنْ مثلِ هـٰذا الملكِ وصفتِهِ فهوَ حقٌّ ، شاهدَهُ أربابُ القلوبِ ببصائرِهِمْ ، فأمَّا كونُ الروحِ عبارةً عنهُ . . فلا يمكنُ أنْ يُعلمَ إلا بالنقلِ ، والحكمُ بهِ دونَ النقلِ تخمينٌ مجرَّدٌ .

وكذلكَ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ منَ الأدلَّةِ والآياتِ في الأرضِ والسماواتِ ثمَّ قالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وقالَ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُ الدليلُ علىٰ نفسِهِ ، وذلكَ ليسَ بمتناقضٍ ، بلْ طرقُ الاستدلالِ مختلفةٌ ، فكمْ مِنْ طالبٍ عرفَ اللهَ تعالىٰ بالنظرِ إلى الموجوداتِ ، وكمْ مِنْ طالبٍ عرفَ كلَّ الموجوداتِ باللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ بعضُهُمْ : (عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي لما عرفتُ ربِّي)[٢] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ نفسَهُ بأنَّهُ المحيي والمميتُ ، ثمَّ فوَّضَ الموتَ والحياةَ إلىٰ ملكينِ ، ففي الخبرِ : أنَّ ملكَ الموتِ وملكَ الحياةِ تناظرا ، فقالَ ملكُ الموتِ : أنا أميتُ الأحياءَ ، وقالَ ملكُ الحياةِ : أنا أحيي الموتىٰ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِما : كونا علىٰ عملِكُما وما سُخِّرتُما لهُ مِنَ الصنعِ ، وأنا المميتُ والمحيي ، لا مميتَ ولا محييَ سوايَ[٣] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٣) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥١٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣) .

فإذاً ؛ الفعلُ يُستعملُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ ، فلا تتناقضُ هـٰذهِ المعاني إذا فهمَتْ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي ناولَهُ التمرةَ : « خذْها ، لوْ لمْ تأتِها . . لأتتْكَ »[1] ، أضافَ الإتيانَ إليهِ وإلى التمرةِ ، ومعلومٌ أنَّ التمرةَ لا تأتي على الوجهِ الذي يأتي الإنسانُ إليها .

ولذلكَ لمَّا قالَ ذلكَ التائبُ : أتوبُ إلى اللهِ ولا أتوبُ إلىٰ محمدٍ . . فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عرفَ الحقَّ لأهلِهِ »[2] .

فكلُّ مَنْ أضافَ الكلَّ إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ المحقِّقُ الذي عرفَ الحقَّ والحقيقةَ لأهلِها ، ومَنْ أضافَهُ إلىٰ غيرِهِ . . فهوَ المتجوِّزُ المستعيرُ في كلامِهِ ، وللتجوُّزِ وجهٌ كما أنَّ للحقيقةِ وجهاً ، واسمُ الفاعلِ وضعَهُ واضعُ اللغةِ للمخترِعِ ، ولكنْ ظنَّ أنَّ الإنسانَ مخترعٌ بقدرتِهِ ، فسمَّاهُ فاعلاً بحركتِهِ ، وظنَّ أنَّهُ تحقيقٌ ، وتوهَّمَ أنَّ نسبتَهُ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ المجازِ ، مثلَ نسبةِ القتلِ إلى الأميرِ ؛ فإنَّهُ مجازٌ بالإضافةِ إلىٰ نسبتِهِ إلى الجلادِ ، فلمَّا انكشفَ الحقُّ لأهلِهِ . . عرفوا أنَّ الأمرَ بالعكسِ ، وقالوا : إنْ كانَ الفاعلُ قدْ وضعتَهُ أيُّها اللغويُّ للمخترِعِ . . فلا فاعلَ إلا اللهُ ، فالاسمُ لهُ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢٧٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٨٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أتي بأسير ، فقاله .

بالحقيقةِ ولغيرهِ بالمجازِ ؛ أيْ : تُجُوِّزَ بهِ عمَّا وضعَهُ اللغويُّ لهُ .

ولما جرىٰ حقيقةُ المعنىٰ علىٰ لسانِ بعضِ الأعرابِ قصداً أوِ اتفاقاً . . صدَّقَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصدقُ بيتٍ قالَهُ شاعرٌ قولُ لبيدٍ : أَلا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا ٱللهَ باطِلٌ »[1] .

أيْ : كلُّ ما لا قوامَ لهُ بنفسِهِ ، وإنَّما قوامُهُ بغيرِهِ . . فهوَ باعتبارِ نفسِهِ باطلٌ ، وإنَّما حقيَّتُهُ وحقيقتُهُ بغيرِهِ لا بنفسِهِ .

فإذاً ؛ لا حقَّ بالحقيقةِ إلا الحيُّ القيُّومُ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ؛ فإنَّهُ قائمٌ بذاتِهِ ، وكلُّ ما سواهُ قائمٌ بقدرتِهِ ، فهوَ الحقُّ ، وما سواهُ باطلٌ .

ولذلكَ قالَ سهلٌ : (يا مسكينُ ؛ كانَ ولمْ تكنْ ، ويكونُ ولا تكونُ ، فلمَّا كنتَ اليومَ . . صرتَ تقولُ : أنا وأنا ؟! كنِ الآنَ كما لمْ تكنْ ؛ فإنَّهُ اليومَ كما كانَ)[2] .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ ظهرَ الآنَ أنَّ الكلَّ جبرٌ ، فما معنى الثوابِ والعقابِ ، والغضبِ والرضا ؟ وكيفَ غضبُهُ علىٰ فعلِ نفسِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ ذلكَ قدْ أشرنا إليهِ في كتابِ الشكرِ ، فلا نطوِّلُ بإعادتِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦) .

فهـٰذا هوَ القدْرُ الذي رأينا الرمزَ إليهِ مِنَ التوحيدِ الذي يورثُ حالَ التوكُّلِ ، ولا يتمُّ هـٰذا إلا بالإيمانِ بالرحمةِ والحكمةِ ، فإنَّ التوحيدَ يورثُ النظرَ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، والإيمانُ بالرحمةِ وسعتِها هوَ الذي يورثُ الثقةَ بمسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يتمُّ حالُ التوكُّلِ كما سيأتي إلا بالثقةِ بالوكيلِ ، وطمأنينةِ القلبِ إلىٰ حسنِ نظرِ الكفيلِ .

وهـٰذا الإيمانُ أيضاً بابٌ عظيمٌ مِنْ أبوابِ الإيمانِ ، وحكايةُ طريقِ المكاشفينَ فيهِ تطولُ ، فلنذكرْ حاصلَهُ ليعتقدَهُ الطالبُ لمقامِ التوكلِ اعتقاداً قاطعاً لا يستريبُ فيهِ :

وهوَ أنْ يصدِّقَ تصديقاً يقينياً لا ضعفَ فيهِ ولا ريبَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لوْ خلقَ الخلقَ كلَّهُمْ علىٰ عقلِ أعقلِهِمْ وعلمِ أعلمِهِمْ ، وخلقَ لهُمْ مِنَ العلمِ ما تحتملُهُ نفوسُهُمْ ، وأفاضَ عليهِمْ مِنَ الحكمةِ ما لا منتهىٰ لوصفِها ، ثمَّ زادَ مثلَ عددِ جميعِهِمْ علماً وحكمةً وعقلاً ، ثمَّ كشفَ لهُمْ عواقبَ الأمورِ ، وأطلعَهُمْ علىٰ أسرارِ الملكوتِ ، وعرَّفَهُمْ دقائقَ اللطفِ وخفايا العقوباتِ ، حتَّى اطلعوا بهِ على الخيرِ والشرِّ ، والنفعِ والضرِّ ، ثمَّ أمرَهُمْ أنْ يدبِّروا الملكَ والملكوتَ بما أُعطوا مِنَ العلومِ والحكمِ . . لما اقتضىٰ تدبيرُ جميعِهِمْ معَ التعاونِ والتظاهرِ عليهِ أنْ يُزادَ فيما دبَّرَ اللهُ سبحانَهُ الخلقَ بهِ في الدنيا والآخرةِ جناحُ بعوضةٍ ، ولا أنْ يُنقصَ منها جناحُ بعوضةٍ ، ولا أنْ يُرفعَ منها ذرَّةٌ ، ولا أنْ يُخفضَ منها ذرَّةٌ ، ولا أنْ يُدفعَ مرضٌ أوْ عيبٌ أوْ نقصٌ أوْ فقرٌ

أوْ ضرٌّ عمَّنْ بُليَ بهِ ، ولا أنْ تزُالَ صحةٌ أوْ كمالٌ أوْ غنىً أوْ نفعٌ عمَّنْ أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ ، بلْ كلُّ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ السماواتِ والأرضِ إنْ رجعوا فيها البصرَ ، وطوَّلوا فيها النظرَ . . ما رأَوا فيها مِنْ تفاوتٍ ولا فطورٍ .

وكلُّ ما قسمَ اللهُ تعالىٰ بينَ عبادِهِ مِنْ رزقٍ وأجلٍ ، وسرورٍ وفرحٍ ، وعجزٍ وقدرةٍ ، وإيمانٍ وكفرٍ ، وطاعةٍ ومعصيةٍ . . فكلُّهُ عدْلٌ محضٌ لا جورَ فيهِ ، وحقٌّ صِرْفٌ لا ظلمَ فيهِ ، بلْ هوَ على الترتيبِ الواجبِ الحقِّ علىٰ ما ينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدرِ الذي ينبغي ، **وليسَ في الإمكانِ أصلاً أحسنُ منهُ ولا أتمُّ ولا أكملُ**[1] ، ولوْ كانَ وادَّخرَهُ معَ القدرةِ ولمْ يفعلْهُ . . لكانَ بخلاً يناقضُ الجودَ ، وظلماً يناقضُ العدْلَ ، ولوْ لمْ يكنْ قادراً . . لكانَ عجزاً يناقضُ الإلـٰهيةَ ، بلْ كلُّ فقرٍ وضرٍّ في الدنيا فهوَ نقصانٌ مِنَ الدنيا وزيادةٌ في الآخرةِ ، وكلُّ نقصٍ في الآخرةِ بالإضافةِ إلىٰ شخصٍ فهوَ نعيمٌ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ، إذْ لولا الليلُ . . لما عُرفَ قدْرُ النهارِ ، ولولا المرضُ . . لما تنعَّمَ الأصحاءُ بالصحةِ ، ولولا النارُ . .

---

(١) هـٰذه هي العبارة المجلجلة التي تلان وتقال : (**ليس في الإمكان أبدع مما كان**) ، والتي تحزَّب العلماء لأجلها في حق المصنف رحمه الله أحزاباً ، والمراد هنا : إسقاط قول من قال بدسِّ هـٰذه العبارة على المصنف ، وهو قول غريب ! إذ العبارة ليست غريبة عن سياقها ، بل سبقها ولحقها مثيل لها ؛ بنحو لفظها أو بمعناها ، ثم هي ثابتة في جميع النسخ ، بل وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٤٣٠) عن نسخه التي اعتمدها : (هكذا نص هـٰذه العبارة في سائر نسخ الكتاب ، ولا سيما وفي أواخر بعضها أنها نقلت من نسخة موثوق بها معتمداً علىٰ صحتها) .

لما عرفَ أهلُ الجنَّةِ قدْرَ النعمةِ .

وكما أنَّ فداءَ أرواحِ الإنسِ بأرواحِ البهائمِ وتسليطَهُمْ علىٰ ذبحِها ليسَ بظلمٍ ، بلْ تقديمُ الكاملِ على الناقصِ عينُ العدْلِ . . فكذلكَ تفخيمُ النعمِ علىٰ سكَّانِ الجنانِ بتعظيمِ العقوبةِ علىٰ أهلِ النيرانِ فداءٌ لأهلِ الإيمانِ بأهلِ الكفرانِ عينُ العدْلِ ، وما لمْ يُخلقِ الناقصُ . . لا يُعرفِ الكاملُ ، ولولا خلقُ البهائمِ . . لما ظهرَ شرفُ الإنسِ ، فإنَّ الكمالَ والنقصَ يظهرُ بالإضافةِ ، فمقتضى الجودِ والحكمةِ خلقُ الكاملِ والناقصِ جميعاً .

وكما أنَّ قطعَ اليدِ إذا تآكلَتْ إبقاءً على الروحِ عدْلٌ ؛ لأنَّهُ فداءُ كاملٍ بناقصٍ . . فكذلكَ الأمرُ في التفاوتِ الذي بينَ الخلقِ في القسمةِ في الدنيا والآخرةِ ، فكلُّ ذلكَ عدْلٌ لا جورَ فيهِ ، وحقٌّ لا لعبَ فيهِ .

وهٰذا الآنَ بحرٌ آخرُ عظيمُ العمقِ واسعُ الأطرافِ مضطربُ الأمواجِ ، قريبٌ في السعةِ مِنْ بحرِ التوحيدِ ، فيهِ غرقَ طوائفُ مِنَ القاصرينَ ، ولمْ يعلموا أنَّ ذلكَ غامضٌ لا يعقلُهُ إلا العالمونَ ، ووراءَ هٰذا البحرِ سرُّ القدرِ الذي تحيَّرَ فيهِ الأكثرونَ ، ومُنِعَ مِنْ إفشاءِ سرِّهِ المكاشفونَ .

والحاصلُ : أنَّ الخيرَ والشرَّ مقضيٌّ بهِ ، وقدْ صارَ ما قُضِيَ بهِ واجبَ الحصولِ بعدَ سبقِ المشيئةِ ، فلا رادَّ لحكْمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، بلْ كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستَطَرٌ ، وحصولُهُ بقدرٍ معلومٍ منتظَرٌ ، وما أصابَكَ لمْ يكنْ

ليخطئَكَ ، وما أخطأَكَ لمْ يكنْ ليصيبَكَ ، ولنقتصرْ علىٰ هٰذهِ المرامزِ مِنْ علومِ المكاشفةِ التي هيَ أصولُ مقامِ التوكُّلِ ، ولنرجعْ إلىٰ علمِ المعاملةِ[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) وقد أجاب المصنف رحمه الله تعالىٰ في « إملائه » عن سياقه هنا عما اعترضه المعترضون بأحسن جواب ، وقد عقد الحافظ الزبيدي فصلاً طويلاً في « إتحافه » (٩/ ٤٣٤) ساق فيه أقوال المعترضين والمنتصرين .

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب

في أحوال التوكّل وأعماله

وفيهِ بيانُ حالِ التوكُّلِ وبيانُ ما قالهُ الشيوخُ في حدِّ التوكلِ ، وبيانُ التوكلِ في الكسبِ للمنفردِ والمعيلِ ، وبيانُ التوكلِ بتركِ الادخارِ ، وبيانُ التوكلِ في دفعِ المضارِّ ، وبيانُ التوكلِ في إزالةِ الضررِ بالتداوي وغيرِهِ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ .

بيان حال التوكّل

قدْ ذكرنا أنَّ مقامَ التوكلِ ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، وذكرنا العلمَ .

فأمَّا الحالُ . . فالتوكلُ بالتحقيقِ عبارةٌ عنهُ ، وإنَّما العلمُ أصلُهُ ، والعملُ ثمرتُهُ ، وقدْ أكثرَ الخائضونَ في بيانِ حدِّ التوكلِ واختلفَتْ عباراتُهُمْ ، وتكلَّمَ كلُّ واحدٍ عنْ مقامِ نفسِهِ ، وأخبرَ عنْ حدِّهِ ، كما جرتْ عادةُ أهلِ التصوُّفِ بهِ ، ولا فائدةَ في النقلِ والإكثارِ .

فلنكشفِ الغطاءَ عنهُ فنقولُ :

التوكلُ مشتقٌّ مِنَ الوكالةِ ، يُقالَ : وَكَلَ أمرَهُ إلىٰ فلانٍ ؛ أي : فوَّضَهُ إليهِ واعتمدَ عليهِ فيهِ ، ويُسمَّى الموكولُ إليهِ وكيلاً ، ويُسمَّى المفوِّضُ إليهِ متكلاً عليهِ ، ومتوكلاً عليهِ ، مهما اطمأنَّتْ إليهِ نفسُهُ ووثقَ بهِ ، ولمْ يتهمْهُ فيهِ بتقصيرٍ ، ولمْ يعتقدْ فيهِ عجزاً وقصوراً .

فالتوكلُ عبارةٌ عنِ اعتمادِ القلبِ على الوكيلِ وحدَهُ ، ولنضربِ الوكيلَ في الخصومةِ مثلاً ؛ فنقولُ : منِ ادُّعِيَ عليهِ دعوىً باطلةً بتلبيسٍ فوكلَ للخصومةِ مَنْ يكشفُ ذلكَ التلبيسَ . . لمْ يكنْ متوكلاً عليهِ ولا واثقَ القلبِ مطمئنَّ النفسِ بوكيلِهِ إلا إذا اعتقدَ فيهِ أربعةَ أمورٍ : منتهى الهدايةِ ، ومنتهى القوَّةِ ، ومنتهى الفصاحةِ ، ومنتهى الشفقةِ .

أمَّا الهدايةُ . . فليعرفَ بها مواقعَ التلبيسِ حتَّىٰ لا يخفىٰ عليهِ مِنْ غوامضِ الحيلِ شيءٌ أصلاً .

وأمَّا القدرةُ والقوَّةُ . . فليستجرِئَ على التصريحِ بالحقِّ ؛ فلا يداهنَ ولا يخافَ ، ولا يستحييَ ولا يجبنَ ، فإنَّهُ ربَّما يطلعُ علىٰ وجهِ تلبيسِ خصمِهِ فيمنعُهُ الخوفُ أوِ الجبنُ أوِ الحياءُ أوْ صارفٌ آخرُ مِنَ الصوارفِ المضعفةِ للقلبِ . . عنِ التصريحِ بهِ .

وأمَّا الفصاحةُ . . فهيَ أيضاً مِنَ القدرةِ ، إلا أنَّها قدرةٌ في اللسانِ على الإفصاحِ عنْ كلِّ ما استجرأَ القلبُ عليهِ وأشارَ إليهِ ، فلا كلُّ عالمٍ بمواقعِ التلبيسِ قادرٌ بذلاقةِ لسانِهِ علىٰ حلِّ عقدتِهِ .

وأمَّا منتهى الشفقةِ . . فيكونُ باعثاً لهُ علىٰ بذلِ كلِّ ما يقدرُ عليهِ في حقِّهِ مِنَ المجهودِ ، فإنَّ قدرتَهُ لا تغني دونَ العنايةِ بهِ إذا كانَ لا يهمُّهُ أمرُهُ ، ولا يبالي بهِ ظفرَ بهِ خصمُهُ أوْ لمْ يظفرْ ، هلكَ بهِ حقُّهُ أوْ لمْ يهلكْ .

فإنْ كانَ شاكّاً في هـٰذهِ الأربعةِ ، أوْ في واحدةٍ منها ، أوْ جوَّزَ أنْ يكونَ

خصمُهُ أكملَ في هـٰذهِ الأربعةِ منهُ . . لمْ تطمئنَّ نفسُهُ إلىٰ وكيلِهِ ، بلْ يبقىٰ منزعجَ القلبِ ، مستغرقَ الهمِّ بالحيلةِ والتدبيرِ ليدفعَ ما يحذرُهُ مِنْ قصورِ وكيلِهِ وسطوةِ خصمِهِ ، ويكونُ تفاوتُ أحوالِهِ في شدَّةِ الثقةِ والطُّمأنينةِ بحسبِ تفاوتِ قوَّةِ اعتقادِهِ لهـٰذهِ الخصالِ فيهِ .

والاعتقاداتُ والظنونُ في القوَّةِ والضعفِ تتفاوتُ تفاوتاً لا ينحصرُ ، فلا جرمَ تتفاوتُ أحوالُ المتوكِّلِ في قوَّةِ الطُّمأنينةِ والثقةِ تفاوتاً لا ينحصرُ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى اليقينِ الذي لا ضعفَ فيهِ ، كما لوْ كانَ الوكيلُ والدَ الموكِّلِ ، وهوَ الذي يسعىٰ لجمعِ الحلالِ والحرامِ لأجلِهِ ، فإنَّهُ يحصلُ لهُ يقينٌ بمنتهى الشفقةِ والعنايةِ ، فتصيرُ خصلةٌ واحدةٌ مِنَ الخصالِ الأربعةِ قطعيةً ، وكذلكَ سائرُ الخصالِ يُتصوَّرُ أنْ يحصلَ القطعُ بهِ ، وذلكَ بطولِ الممارسةِ والتجربةِ ، وتواترِ الأخبارِ بأنَّهُ أفصحُ الناسِ لساناً ، وأقواهم بياناً ، وأقدرُهُمْ علىٰ نصرةِ الحقِّ ، بلْ علىٰ تصويرِ الحقِّ بالباطلِ والباطلِ بالحقِّ .

فإذا عرفتَ التوكلَ في هـٰذا المثالِ . . فقسِ التوكلَ على اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فإنْ ثبتَ في نفسِكَ بكشفٍ أوْ باعتقادٍ جازمٍ أنَّهُ لا فاعلَ إلا اللهُ كما سبقَ ، واعتقدتَ معَ ذلكَ تمامَ العلمِ والقدرةِ علىٰ كفايةِ العبادِ ، ثمَّ تمامَ العطفِ والعنايةِ والرحمةِ بجملةِ العبادِ وبالآحادِ ، وأنَّهُ ليسَ وراءَ منتهىٰ قدرتِهِ قدرةٌ ، ولا وراءَ منتهىٰ علمِهِ علمٌ ، ولا وراءَ منتهىٰ عنايتِهِ بكَ ورحمتِهِ لكَ عنايةٌ ورحمةٌ . . اتكلَ ـ لا محالةَ ـ قلبُكَ عليهِ وحدَهُ ، ولمْ يلتفتْ إلىٰ غيرِهِ بوجهٍ ، ولا إلىٰ نفسِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ ، فإنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، كما

سبقَ في التوحيدِ عندَ ذكرِ الحركةِ والقدرةِ ، فإنَّ الحولَ عبارةٌ عنِ الحركةِ ، والقوَّةَ عبارةٌ عنِ القدرةِ .

فإنْ كنتَ لا تجدُ هـٰذهِ الحالةَ مِنْ نفسِكَ . . فسببُهُ أحدُ أمرينِ : إمَّا ضعفُ اليقينِ بإحدىٰ هـٰذهِ الخصالِ الأربعةِ ، وإمَّا ضعفُ القلبِ ومرضُهُ باستيلاءِ الجبنِ عليهِ ، وانزعاجُهُ بسببِ الأوهامِ الغالبةِ عليهِ ، فإنَّ القلبَ قدْ ينزعجُ تبعاً للوهمِ وطاعةً لهُ مِنْ غيرِ نقصانٍ في اليقينِ ؛ فإنَّ مَنْ يتناولُ عسلاً فشُبِّهَ بينَ يديهِ بالعذرةِ . . ربَّما نفرَ طبعُهُ عنهُ وتعذَّرَ عليهِ تناولُهُ ، ولوْ كُلِّفَ العاقلُ أنْ يبيتَ معَ الميتِ في قبرٍ أوْ فراشٍ أوْ بيتٍ . . نفرَ طبعُهُ وإنْ كانَ متيقناً بكونِهِ ميتاً ، وأنَّهُ جمادٌ في الحالِ ، وأنَّ سنةَ اللهِ تعالىٰ مطردةٌ بأنَّهُ لا يحشرُهُ الآنَ ولا يحييهِ وإنْ كانَ قادراً عليهِ ؛ كما أنَّها مطردةٌ بألا يقلبَ القلمَ الذي في يدِهِ حيَّةً ، ولا يقلبَ السنورَ أسداً وإنْ كانَ قادراً عليهِ ، ومعَ أنَّهُ لا يشكُّ في هـٰذا اليقينِ ينفرُ طبعُهُ عنْ مضاجعةِ الميتِ في فراشٍ لهُ أوِ المبيتِ معَهُ في بيتٍ ولا ينفرُ عنْ سائرِ الجماداتِ ، وذلكَ جبنٌ في القلبِ ، وهوَ نوعُ ضعفٍ قلَّما يخلو الإنسانُ عنْ شيءٍ منهُ وإنْ قلَّ ، وقدْ يقوىٰ فيصيرُ مرضاً ، حتَّىٰ يخافَ أنْ يبيتَ في البيتِ وحدَهُ معَ إغلاقِ البابِ وإحكامِهِ !

فإذاً ؛ لا يتمُّ التوكلُ إلا بقوَّةِ القلبِ وقوَّةِ اليقينِ جميعاً ؛ إذْ بهما يحصلُ سكونُ القلبِ وطمأنينتُهُ ، فالسكونُ في القلبِ شيءٌ ، واليقينُ شيءٌ آخرُ ، **فكمْ مِنْ يقينٍ لا طمأنينةَ معَهُ** ؛ كما قالَ تعالىٰ لإبراهيمَ عليهِ السلامُ : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، فالتمسَ أنْ يكونَ مشاهداً إحياءَ الميتِ

بعينِهِ ليثبتَ في خيالِهِ ، فإنَّ النفسَ تتبعُ الخيالَ وتطمئنُّ بهِ ولا تطمئنُّ باليقينِ في ابتداءِ أمرِهِ إلىٰ أنْ تبلغَ بالآخرةِ إلىٰ درجةِ النفسِ المطمئنَّةِ ، وذلكَ لا يكونُ في البدايةِ أصلاً ، وكمْ مِنْ مطمئنٍّ لا يقينَ لهُ ، كسائرِ أربابِ المللِ والمذاهبِ ؛ فإنَّ اليهوديَّ مطمئنُّ القلبِ إلىٰ تهوُّدِهِ ، وكذا النصرانيُّ ، ولا يقينَ لهُمْ أصلاً ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ، ولقدْ جاءَهُمْ مِنْ ربِّهِمُ الهدىٰ وهوَ سببُ اليقينِ ، إلا أنَّهُمْ معرضونَ عنهُ .

فإذاً ؛ الجبنُ والجراَةُ غرائزُ ، ولا ينفعُ اليقينُ معَها ، فهيَ أحدُ الأسبابِ التي تضادُّ حالَ التوكُّلِ ؛ كما أنَّ ضعفَ اليقينِ بالخصالِ الأربعةِ أحدُ الأسبابِ ، وإذا اجتمعَتْ هـٰذهِ الأسبابُ . . حصلَتِ الثقةُ باللهِ تعالىٰ .

وقدْ قيلَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ملعونٌ مَنْ ثقتُهُ إنسانٌ مثلُهُ)(١) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ اعتزَّ بالعبيدِ . . أذلَّهُ اللهُ »(٢) .

* * *

وإذا انكشفَ لكَ معنى التوكلِ وعُلِمَتِ الحالةُ التي سُمِّيَتْ توكلاً . . فاعلمْ أنَّ تلكَ الحالةَ لها في القوَّةِ والضعفِ ثلاثُ درجاتٍ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤) عن يحيى بن أبي كثير ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٦٣) عن ذي النون المصري .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٤) ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٢/ ٦٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٧٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٥٠) .

الدرجةُ الأولىٰ : ما ذكرناهُ ، وهوَ أنْ يكونَ حالُهُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ والثقةِ بكفالتِهِ وعنايتِهِ كحالِهِ في الثقةِ بالوكيلِ .

الثانيةُ ـ وهيَ أقوىٰ ـ : أنْ يكونَ حالُهُ معَ اللهِ تعالىٰ كحالِ الطفلِ مع أمِّهِ ، فإنَّهُ لا يعرفُ غيرَها ، ولا يفزعُ إلىٰ أحدٍ سواها ، ولا يعتمدُ إلا إيَّاها ، فإنْ رآها . . تعلَّقَ في كلِّ حالٍ بذيلِها ولمْ يخلِّها ، وإنْ نابَهُ أمرٌ في غيبتِها . . كانَ أوَّلُ سابقٍ إلىٰ لسانِهِ : (يا أمّاهُ) ، وأوَّلُ خاطرٍ يخطرُ علىٰ قلبِهِ أمُّهُ ؛ فإنَّها مفزعُهُ ، فإنَّهُ قدْ وثقَ بكفالتِها وكفايتِها وشفقتِها ؛ ثقةً بها ليسَتْ خاليةً عنْ نوعِ إدراكٍ بالتمييزِ الذي لهُ ، ويُظنُّ أنَّهُ طبعٌ مِنْ حيثُ إنَّ الصبيَّ لوْ طُولبَ بتفصيلِ هـٰذهِ الخصالِ . . لمْ يقدرْ علىٰ تلفيقِ لفظِهِ ، ولا علىٰ إحضارِهِ مفصَّلاً في ذهنِهِ ، ولكنْ كلُّ ذلكَ وراءَ الإدراكِ .

فمَنْ كانَ تألُّهُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ونظرُهُ إليهِ واعتمادُهُ عليهِ . . كَلِفَ بهِ كما يكلَفُ الصبيُّ بأمِّهِ ، فيكونُ متوكلاً حقّاً ، فإنَّ الطفلَ متوكِّلٌ علىٰ أمِّهِ .

والفرقُ بينَ هـٰذا وبينَ الأوَّلِ : أنَّ هـٰذا متوكِّلٌ وقدْ فنِيَ في توكُّلِهِ عنْ توكُّلِهِ ؛ إذْ ليسَ يلتفتُ قلبُهُ إلى التوكلِ وحقيقتِهِ ، بلْ إلى المتوكَّلِ عليهِ فقطْ ، فلا مجالَ في قلبِهِ لغيرِ المتوكَّلِ عليهِ ، وأمَّا الأوَّلُ . . فمتوكلٌ بالتكلُّفِ والكسبِ ، وليس فانياً عنْ توكُّلِهِ ؛ لأنَّ لهُ التفاتاً[1] إلىٰ توكلِهِ وشعوراً بهِ ، وذلكَ شغلٌ صارفٌ عنْ ملاحظةِ المتوكَّلِ عليهِ وحدَهُ .

---

(١) في غير (ج) : (أي : له التفات) بدل (لأن له التفاتاً) .

وإلىٰ هـٰذهِ الدرجةِ أشارَ سهلٌ حيثُ سُئِلَ عنِ التوكلِ ما أدناهُ ؟ قالَ : تركُ الأمانيِّ ، قيلَ : وأوسطُهُ ؟ قالَ : تركُ الاختيارِ ـ وهوَ إشارةٌ إلى الدرجةِ الثانيةِ ـ وسُئِلَ عنْ أعلاهُ ؟ فلمْ يذكرْهُ ، وقالَ : لا يعرفُهُ إلا مَنْ بلغَ أوسطَهُ[(١)] .

الثالثةُ ـ وهيَ أعلاها ـ : أنْ يكونَ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ في حركاتِهِ وسكناتِهِ مثلَ الميتِ بينَ يدي الغاسلِ ، لا يفارقُهُ إلا في أنَّهُ يرىٰ نفسَهُ ميتاً تحرِّكُهُ القدرةُ الأزليَّةُ كما تحرِّكُ يدُ الغاسلِ الميتَ ، وهوَ الذي قَوِيَ يقينُهُ[(٢)] بأنَّهُ مجرى الحركةِ والقدرةِ والإرادةِ والعلمِ وسائرِ الصفاتِ ، وأنَّ كلَّهُ يحدثُ جبراً ، فيكونُ عينَ الانتظارِ لما يجري عليهِ[(٣)] ، ويفارقُ الصبيَّ ؛ فإنَّ الصبيَّ يفزعُ إلىٰ أمِّهِ ويصيحُ ، ويتعلَّقُ بذيلِها ويعدو خلفَها ، بلْ مثالُ هـٰذا مثالُ صبيٍّ علمَ أنَّهُ وإنْ لمْ يزعقْ بأمِّهِ . . فالأمُّ تطلبُهُ ، وأنَّهُ وإنْ لمْ يتعلَّقْ بذيلِ أمِّهِ . . فالأمُّ تحملُهُ ، وإنْ لمْ يسألْها اللبنَ . . فالأمُّ تفاتحُهُ وتسقيهِ[(٤)] .

وهـٰذا المقامُ في التوكُّلِ يثمرُ تركَ الدعاءِ والسؤالِ منهُ ؛ ثقةً بكرمِهِ وعنايتِهِ ، وأنَّهُ يُعطي ابتداءً أفضلَ ممَّا يُسألُ ، فكمْ مِنْ نعمةٍ ابتدأَها قبلَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤) .
(٢) في (أ) : (وهو الذي يرىٰ نفسه) .
(٣) والعبارة في « الإتحاف » (٩/ ٤٦٤) : (وأن كلاً يحدث جبراً ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليهِ) .
(٤) في (أ ، ع) : (تعالجه) بدل (تفاتحه) ، وفي (ج ، ن) : (فالأم تبتدىء وترضعه) بدل (فالأم تفاتحه وتسقيه) .

السؤالِ والدعاءِ وبغيرِ الاستحقاقِ . والمقامُ الثاني لا يقتضي تركَ الدعاءِ والسؤالِ منهُ ، وإنَّما يقتضي تركَ السؤالِ مِنْ غيرِه فقطْ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهٰذهِ الأحوالُ هلْ يُتصوَّرُ وجودُها ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ ليسَ بمحالٍ ، ولكنَّهُ عزيزٌ نادرٌ ، والمقامُ الثاني والثالثُ أعزُّها ، والأوَّلُ أقربُ إلى الإمكانِ .

ثمَّ إذا وُجدَ الثاني والثالثُ . . فدوامُهُ أبعدُ منهُ ، بلْ يكادُ لا يكونُ المقامُ الثالثُ في دوامِهِ إلا كصفرةِ الوجلِ ؛ فإنَّ انبساطَ القلبِ إلىٰ ملاحظةِ الحولِ والقوَّةِ والأسبابِ طبْعٌ ، وانقباضُهُ عارضٌ ، كما أنَّ انبساطَ الدمِ إلىٰ جميعِ الأطرافِ طبعٌ وانقباضُهُ عارضٌ ، والوجلُ عبارةٌ عنِ انقباضِ الدمِ عنْ ظاهرِ البشرةِ إلى الباطنِ ، حتَّىٰ تنمحيَ عنْ ظاهرِ البشرةِ الحمرةُ التي كانَتْ تتراءىٰ مِنْ وراءِ الرقيقِ مِنْ سترِ البشرةِ ، فإنَّ البشرةَ سترٌ رقيقٌ تتراءىٰ مِنْ ورائِهِ حمرةُ الدمِ ، وانقباضُهُ يُوجبُ الصفرةَ ، وذلكَ لا يدومُ ، وكذلكَ انقباضُ القلبِ بالكليَّةِ عنْ ملاحظةِ الحولِ والقوَّةِ وسائرِ الأسبابِ الظاهرةِ لا يدومُ .

وأمَّا المقامُ الثاني . . فيشبهُ صفرةَ المحمومِ ، فإنَّهُ قدْ يدومُ يوماً ويومينِ ، والأوَّلُ يشبهُ صفرةَ مريضٍ استحكمَ مرضُهُ ، فلا يبعدُ أنْ يدومَ ، ولا يبعدُ أنْ يزولَ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ يبقىٰ معَ العبدِ تدبيرٌ وتعلُّقٌ بالأسبابِ في هـٰذهِ الأحوالِ؟

فاعلمْ : أنَّ المقامَ الثالثَ ينفي التدبيرَ رأساً ما دامَتِ الحالةُ باقيةً ، بلْ يكونُ صاحبُها كالمبهوتِ .

والمقامُ الثاني ينفي كلَّ تدبيرٍ إلا مِنْ حيثُ الفزعُ إلى اللهِ تعالىٰ بالدعاءِ والابتهالِ ؛ كتدبيرِ الطفلِ في التعلُّقِ بأمِّهِ فقطْ .

والمقامُ الأوَّلُ لا ينفي أصلَ التدبيرِ والاختيارِ ، ولكنْ ينفي بعضَ التدبيراتِ ؛ كالمتوكلِ علىٰ وكيلِهِ في الخصومةِ ؛ فإنَّهُ يتركُ تدبيرَهُ مِنْ جهةِ غيرِ الوكيلِ ، ولكنْ لا يتركُ التدبيرَ الذي أشارَ إليهِ وكيلُهُ بهِ ، أوِ التدبيرَ الذي عرفَهُ مِنْ عادتِهِ وسنَّتِهِ دونَ صريحِ إشارتِهِ .

فأمَّا الذي يعرفُهُ بإشارتِهِ فأنْ يقولَ لهُ : لستُ أتكلَّمُ إلا في حضورِكَ ، فيشتغلُ ـ لا محالةَ ـ بالتدبيرِ للحضورِ ، ولا يكونُ هـٰذا مناقضاً توكُّلَهُ عليهِ ؛ إذْ هوَ ليسَ فزعاً منهُ إلىٰ حولِ نفسِهِ وقوَّتِهِ في إظهارِ الحجَّةِ ، ولا إلىٰ حولِ غيرِهِ ، بلْ مِنْ تمامِ توكُّلِهِ عليهِ أنْ يفعلَ ما رسمَهُ لهُ ؛ إذْ لوْ لمْ يكنْ متوكلاً عليهِ ولا معتمداً لهُ في قولِهِ . . لما حضرَ بقولِهِ .

وأمَّا المعلومُ مِنْ عادتِهِ واطرادِ سنَّتِهِ . . فهوَ أنْ يعلمَ مِنْ عادتِهِ أنَّهُ لا يحاجُّ الخصمَ إلا مِنَ السجلِّ ، فتمامُ توكُّلِهِ إنْ كانَ متوكلاً عليهِ أنْ يكونَ معوِّلاً علىٰ سنتِهِ وعادتِهِ ووافياً بمقتضاها ، وهوَ أنْ يحملَ السجلَّ معَ نفسِهِ إليهِ عندَ مخاصمتِهِ .

فإذاً ؛ لا يستغني عنِ التدبيرِ في الحضورِ وعنِ التدبيرِ في إحضارِ السجلِّ ، ولوْ تركَ شيئاً مِنْ ذلكَ . . كانَ نقصاً في توكُّلِهِ ، فكيفَ يكونُ فعلُهُ نقصاً فيهِ ؟!

نعمْ ، بعدَ أنْ حضرَ وفاءً بإشارتِهِ وأحضرَ السجلَّ وفاءً بسنَّتِهِ وعادتِهِ ، وقعدَ ناظراً إلىٰ محاجَّتِهِ . . فقدْ ينتهي إلى المقامِ الثاني والثالثِ في حضورِهِ ، حتَّىٰ يبقىٰ كالمبهوتِ المنتظرِ لا يفزعُ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ ، إذْ لمْ يبقَ لهُ حولٌ ولا قوَّةٌ ، وقدْ كانَ فزعُهُ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ في الحضورِ وإحضارِ السجلِّ بإشارةِ الوكيلِ وسنَّتِهِ ، وقدِ انتهىٰ نهايتَهُ ، فلمْ يبقَ إلا طُمأنينةُ النفسِ والثقةُ بالوكيلِ والانتظارُ لما يجري .

وإذا تأمَّلْتَ هـٰذا . . اندفعَ عنكَ كلُّ إشكالٍ في التوكلِ ، وفهمتَ أنَّهُ ليسَ مِنْ شرطِ التوكُّلِ تركُ كلِّ تدبيرٍ وعملٍ ، وأنَّ كلَّ تدبيرٍ وعملٍ لا يجوزُ أيضاً معَ التوكلِ ، بلْ هوَ على الانقسامِ ، وسيأتي تفصيلُهُ في الأعمالِ .

فإذاً ؛ فزعُ الموكِّلِ إلىٰ حولِهِ وقوَّتِهِ في الحضورِ والإحضارِ لا يناقضُ التوكُّلَ ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّهُ لولا الوكيلُ . . لكانَ حضورُهُ وإحضارُهُ باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوىٰ .

فإذاً ؛ لمْ يصرْ مفيداً مِنْ حيثُ إنَّهُ حولُهُ وقوَّتُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّ الوكيلَ جعلَهُ مفيداً لمحاجَّتِهِ ، وعرَّفَهُ ذلكَ بإشارتِهِ وسنَّتِهِ .

فإذاً ؛ لا حولَ ولا قوَّةَ لهُ إلا بالوكيلِ ، إلا أنَّ هـٰذهِ الكلمةَ لا يكملُ

معناها في حقِّ الوكيلِ ؛ لأنَّهُ ليسَ خالقَ حولِهِ وقوَّتِهِ ، بلْ هوَ جاعلٌ لهُما مفيدينِ في أنفسِهِما ، ولمْ يكونا مفيدينِ لولا فعلُهُ ، وإنَّما يصدقُ ذلكَ في حقِّ الوكيلِ الحقِّ ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ هوَ خالقُ الحولِ والقوَّةِ كما سبقَ في التوحيدِ ، وهوَ الذي جعلَهُما مفيدينِ ؛ إذْ جعلَهُما شرطاً لما سيخلقُهُ مِنْ بعدِهِما مِنَ الفوائدِ والمقاصدِ .

فإذاً ؛ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ حقّاً وصدقاً ، فمَنْ شاهدَ هٰذا كذلكَ . . كانَ لهُ الثوابُ العظيمُ الذي وردَتْ بهِ الأخبارُ فيمَنْ يقولُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ(١) ، وذلكَ قدْ يُستبعدُ فيُقالُ : كيفَ يُعطىٰ هٰذا الثوابَ كلَّهُ بهٰذهِ الكلمةِ معَ سهولتِها على اللسانِ وسهولةِ اعتقادِ القلبِ بمفهومِ لفظِها ؟!

وهيهاتَ ! فإنَّما ذلكَ جزاءٌ علىٰ هٰذهِ المشاهدةِ التي ذكرناها في التوحيدِ ، ونسبةُ هٰذهِ الكلمةِ وثوابِها إلىٰ كلمةِ لا إلٰهَ إلا اللهُ وثوابِها . . كنسبةِ معنىٰ إحداهما إلى الأخرىٰ ؛ إذْ في هٰذهِ الكلمةِ إضافةُ شيئينِ إلى اللهِ تعالىٰ فقطْ ، وهما الحولُ والقوَّةُ ، وأمَّا كلمةُ لا إلٰهَ إلا اللهُ . . فهوَ نسبةُ الكلِّ إليهِ ، فانظرْ إلى التفاوتِ بينَ الكلِّ وبينَ شيئينِ لتعرفَ بهِ ثوابَ لا إلٰهَ إلا اللهُ بالإضافةِ إلىٰ هٰذا .

---

(١) فمنها : ما رواه البخاري (٦٣٨٤) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « . . . فقال : يا عبد الله بن قيس ؛ قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فإنها كنز من كنوز الجنة » ، ومنها : ما رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٥٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . . كان دواء من تسعة وتسعين داء ، أيسرها الهمّ » ، وانظر « الإتحاف » (٩/٤٦٦) .

وكما ذكرنا مِنْ قبلُ أنَّ للتوحيدِ قشرينِ ولبَّينِ . . فكذلكَ لهـٰذهِ الكلمةِ ولسائرِ الكلماتِ ، وأكثرُ الخلقِ قُيِّدوا بالقشرينِ وما طرقوا إلى اللبَّينِ ، وإلى اللبَّينِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ صادقاً مِنْ قلبهِ مخلصاً . . وجبَتْ لهُ الجنَّةُ »(١) ، وحيثُ أطلقَ مِنْ غيرِ ذكرِ الصدقِ والإخلاصِ . . أرادَ بالمطلقِ هـٰذا المقيَّدَ ، كما أضافَ المغفرةَ إلى الإيمانِ والعملِ الصالحِ في بعضِ المواضعِ ، وأضافَها إلىٰ مجرَّدِ الإيمانِ في بعضِ المواضعِ ، والمرادُ بهِ المقيَّدُ بالعملِ الصالحِ ، فالملكُ لا يُنالُ بالحديثِ ، وحركةُ اللسانِ حديثٌ ، وعقدُ القلبِ أيضاً حديثٌ ، ولكنَّهُ حديثُ نفسٍ ، وإنَّما الصدقُ والإخلاصُ وراءَهما ، ولا يُنصبُ سريرُ الملكِ إلا للمقرَّبينَ ، وهُمُ المخلصونَ .

نعمْ ، لمَنْ يقربُ منهُمْ في الرتبةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ أيضاً درجاتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ وإنْ كانتْ لا تنتهي إلى الملكِ ، أما ترىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ذكرَ في سورةِ الواقعةِ المقرَّبينَ السابقينَ . . تعرَّضَ لسريرِ الملكِ فقالَ : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ ، ولما انتهىٰ إلىٰ أصحابِ اليمينِ . . ما زادَ علىٰ ذكرِ الماءِ والظلِّ والفواكهِ والأشجارِ والحورِ العينِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ لذَّاتِ المنظورِ والمشروبِ والمأكولِ والمنكوحِ ، ويُتصوَّرُ ذلكَ للبهائمِ

---

(١) رواه ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٢٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه كلاهما مرفوعاً بنحوه .

على الدوامِ ، وأينَ لذَّاتُ البهائمِ مِنْ لذةِ الملكِ والنزولِ في أعلىٰ عليينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ ؟!

ولوْ كانَ لهـٰذهِ اللذَّاتِ قدْرٌ . . لما وُسِّعَتْ على البهائمِ ، ولما رُفِعَ عنها درجةُ الملائكةِ .

أفترىٰ أنَّ أحوالَ البهائمِ وهيَ مسيَّبةٌ في الرياضِ ، متنعمةٌ بالمياهِ والأشجارِ وأصنافِ المأكولاتِ ، متمتعةٌ بالنزوانِ والسفادِ . . أعلىٰ وألذُّ وأشرفُ وأجدرُ بأنْ تكونَ عندَ ذوي الكمالِ مغبوطةً مِنْ أحوالِ الملائكةِ في سرورِهِمْ بالقربِ مِنْ جوارِ ربِّ العالمينَ في أعلىٰ عليينَ ؟!

هيهاتَ هيهاتَ ! ما أبعدَ عنِ التحصيلِ مَنْ إذا خُيِّرَ بينَ أنْ يكونَ حماراً أوْ يكونَ في درجةِ جبريلَ عليهِ السلامُ فيختارُ درجةَ الحمارِ علىٰ درجةِ جبريلَ !

وليسَ يخفىٰ أنَّ شبهَ كلِّ شيءٍ منجذبٌ إليهِ ، وأنَّ النفسَ التي نزوعُها إلىٰ صنعةِ الأساكفةِ أكثرُ مِنْ نزوعِها إلىٰ صنعةِ الكتابةِ . . فهوَ بالأساكفةِ أشبهُ في جوهرِهِ منهُ بالكُتَّابِ[1] ، فكذلكَ مَنْ نزوعُ نفسِهِ إلىٰ نيلِ لذَّاتِ البهائمِ أكثرُ مِنْ نزوعِها إلىٰ نيلِ لذَّاتِ الملائكةِ . . فهوَ بالبهائمِ أشبهُ منهُ بالملائكةِ لا محالةَ ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ يُقالُ فيهِمْ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾ ، وإنَّما كانوا أضلَّ لأنَّ الأنعامَ ليسَ في قوَّتِها طلبُ درجةِ الملائكةِ ، فتركُها

(١) تقدم الحديث عن القول بالمشابهة ، والأساكفة : جمع إسكاف ، ويطلق علىٰ كل صانع ، وهو هنا الخراز الذي يعمل في الأحذية .

الطلبَ للعجزِ ، وأمَّا الإنسانُ . . ففي قوّتهِ ذلكَ ، والقادرُ علىٰ نيلِ الكمالِ أحرىٰ بالذمِّ وأجدرُ بالنسبةِ إلى الضلالِ مهما تقاعدَ عنْ طلبِ الكمالِ .

وإذا كانَ هٰذا كلاماً معترضاً . . فلنرجعْ إلى المقصودِ ، فقدْ بيَّنا معنىٰ قولِ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ، ومعنىٰ قولِ : لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ ، ومَنْ ليسَ قائلاً بهِما عنْ مشاهدةٍ . . فلا يُتصوَّرُ منهُ حالُ التوكلِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : ليسَ في قولِكَ : لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ إلا نسبةُ شيئينِ إلى اللهِ ، فلو قالَ قائلٌ : السماءُ والأرضُ خلقُ اللهِ . . فهلْ يكونُ ثوابُهُ مثلَ ثوابِهِ ؟

فأقولُ : لا ، لأنَّ الثوابَ علىٰ قدْرِ درجةِ المثابِ عليهِ ، ولا مساواةَ بينَ الدرجتينِ ، ولا يُنظرُ إلىٰ عظمِ السماءِ والأرضِ وصغرِ الحولِ والقوّةِ إنْ جازَ وصفُهُما بالصغرِ تجوُّزاً ، فليسَتِ الأمورُ بعظمِ الأشخاصِ ، بلْ كلُّ عاميٍّ يفهمُ أنَّ الأرضَ والسماءَ ليستَا مِنْ جهةِ الآدميينَ ، بلْ هما مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، فأمَّا الحولُ والقوّةُ . . فقدْ أشكلَ أمرُهُما على المعتزلةِ والفلاسفةِ وطوائفَ كثيرةٍ ممَّنْ يدَّعي أنَّهُ يدقِّقُ النظرَ في الرأيِ والمعقولِ حتَّىٰ يشقَّ الشعْرَ بحدَّةِ نظرِهِ ، فهيَ مهلكةٌ مخطرةٌ ، ومزلَّةٌ عظيمةٌ ، هلكَ فيها الغافلونَ ؛ إذْ أثبتوا لأنفسِهِمْ أمراً ، وهوَ شركٌ في التوحيدِ وإثباتُ خالقٍ سوى اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ جاوزَ هٰذهِ العقبةَ بتوفيقِ اللهِ إيَّاهُ . . فقدْ علتْ رتبتُهُ ، وعظُمَتْ درجتُهُ ، فهوَ الذي يصدقُ قولُهُ : لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ .

وقدْ ذكرنا أنَّهُ ليسَ في التوحيدِ إلا عقبتانِ :

إحداهما : النظرُ إلى السماءِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والغيمِ والمطرِ وسائرِ الجماداتِ .

والثانيةُ : النظرُ إلى اختيارِ الحيواناتِ ، وهيَ أعظمُ العقبتينِ وأخطرُهُما ، وبقطعِهِما[1] كمالُ سرِّ التوحيدِ ، فلذلكَ عظُمَ ثوابُ هـٰذهِ الكلمةِ ؛ أعني : ثوابَ المشاهدةِ التي هـٰذهِ الكلمةُ ترجمتُها .

فإذاً ؛ رجعَ حالُ التوكلِ إلى التبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ ، والتوكلِ على الواحدِ الحقِّ ، وسيتضحُ ذلكَ عندَ ذكرِنا تفصيلَ أعمالِ التوكُّلِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

(١) في النسخ (وكأنَّه) بدل (وبقطعهما) ، والمثبت من (ق) .

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

اعلمْ : أنَّ شيئاً منها لا يخرجُ عمَّا ذكرناهُ ، ولكنْ كلٌّ واحدٍ يشيرُ إلىٰ بعضِ الأحوالِ .

فقدْ قالَ أبو موسى الدَّيْبُليُّ : قلتُ لأبي يزيدَ : ما التوكلُ ؟ فقالَ : ما تقولُ أنتَ ؟ قلتُ : إنَّ أصحابَنا يقولونَ : لوْ أنَّ السباعَ والأفاعيَ عنْ يمينِكَ ويسارِكَ . . ما تحرَّكَ لذلكَ سرُّكَ ، فقالَ أبو يزيدَ : نعمْ ، هـٰذا قريبٌ ، لكنْ لوْ أنَّ أهلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ يتنعَّمونَ ، وأهلَ النارِ في النارِ يُعذَّبونَ ، ثمَّ وقعَ بكَ تمييزٌ بينَهُما . . خرجتَ مِنْ جملةِ التوكلِ(١) .

فما ذكرَهُ أبو موسىٰ فهوَ خبرٌ عنْ أعلىٰ أحوالِ التوكُّلِ ، وهوَ المقامُ الثالثُ ، وما ذكرهُ أبو يزيدَ عبارةٌ عنْ أعزِّ أنواعِ العلمِ الذي هوَ مِنْ أصولِ التوكُّلِ ، وهوَ العلمُ بالحكمةِ ، وأنَّ ما فعلَهُ اللهُ تعالىٰ فعلَهُ بالواجبِ(٢) ، فلا تمييزَ بينَ أهلِ النارِ وأهلِ الجنَّةِ بالإضافةِ إلىٰ أصلِ العدْلِ والحكمةِ ، وهـٰذا أغمضُ أنواعِ العلمِ ، ووراءَهُ سرُّ القدرِ ، وأبو يزيدَ قلَّما يتكلَّمُ إلا عنْ أعلى المقاماتِ وأقصى الدرجاتِ .

وليسَ تركُ الاحترازِ عنِ الحيَّاتِ شرطاً في المقامِ الأوَّلِ مِنَ التوكلِ ، فقدِ

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٥) ، ومعنىٰ (**وقع بك تمييز بينهما**) : بأن ميَّزت أحدهما عن الآخر ؛ يعني : اخترت لنفسك شيئاً . « إتحاف » (٩/ ٤٦٩) .

(٢) وهـٰذه العبارة أيضاً دائرة في فلك عبارته : (ليس بالإمكان أبدع . . .) .

احترزَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ في الغارِ ؛ إذْ سدَّ منافذَ الحيَّاتِ[1] ، إلا أنْ يُقالَ : فعلَ ذلكَ بيدِهِ ولمْ يتغيَّرْ بسببِهِ سرُّهُ ، أوْ يُقالَ : إنَّما فعلَ ذلكَ شفقةً علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا في حقِّ نفسِهِ ، وإنَّما يزولُ التوكلُ بحركةِ سرِّهِ وتغيُّرِهِ لأمرٍ يرجعُ إلىٰ نفسِهِ ، وللنظرِ في هـٰذا مجالٌ ، ولكنْ سيأتي أنَّ أمثالَ ذلكَ وأكثرَ منهُ لا يناقضُ التوكلَ ؛ فإنَّ حركةَ السرِّ مِنَ الحيَّاتِ هوَ الخوفُ ، وحقُّ المتوكلِ أنْ يخافَ مسلِّطَ الحيَّاتِ ؛ إذْ لا حولَ للحيَّاتِ ولا قوَّةَ لها إلا باللهِ ، وإنِ احترزَ . . لمْ يكنِ اتكالُهُ علىٰ تدبيرِهِ وحولِهِ وقوَّتِهِ في الاحترازِ ، بل علىٰ خالقِ الحولِ والقوَّةِ والتدبيرِ .

وسُئِلَ ذو النونِ المصريُّ عنِ التوكلِ فقالَ : (خلعُ الأربابِ ، وقطعُ الأسبابِ) ، فخلعُ الأربابِ إشارةٌ إلىٰ علومِ التوحيدِ ، وقطعُ الأسبابِ إشارةٌ إلى الأعمالِ ، وليسَ فيهِ تعرُّضٌ صريحٌ للحالِ وإنْ كانَ اللفظُ يتضمَّنُهُ ، فقيلَ لهُ : زدْنا ، فقالَ : (إلقاءُ النفسِ في العبوديةِ ، وإخراجُها مِنَ الربوبيَّةِ)[2] ، وهـٰذا إشارةٌ إلى التبرِّي مِنَ الحولِ والقوَّةِ فقطْ .

وسُئِلَ حمدونٌ القصارُ عنِ التوكلِ فقالَ : (إنْ كانَ لكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ وعليكَ دانقٌ دينٌ . . لمْ تأمنْ أنْ تموتَ ويبقىٰ ذلكَ في عنقِكَ ، ولوْ كانَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٤٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٨٠) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٨٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٩٧) .

عليكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ دينٌ مِنْ غيرِ أنْ تتركَ لها وفاءً . . لا تيئَسُ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ يقضيَها عنكَ) ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ الإيمانِ بسعةِ القدرةِ ، وأنَّ في المقدوراتِ أسباباً خفيَّةً سوىٰ هٰذهِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وسُئِلَ أبو عبدِ اللهِ القرشيُّ عنِ التوكلِ فقالَ : (التعلُّقُ باللهِ تعالىٰ في كلِّ حالٍ) ، فقالَ السائلُ : زدْني ، فقالَ : (تركُ كلِّ سببٍ يوصلُ إلىٰ سببٍ حتَّىٰ يكونَ الحقُّ هوَ المتولِّيَ لذلكَ)[١] ، فالأوَّلُ عامٌّ للمقاماتِ الثلاثِ ، والثاني إشارةٌ إلى المقامِ الثالثِ خاصةً ، وهوَ مثلُ توكلِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ لهُ جبريلُ عليهِ السلامُ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليكَ . . فلا[٢] ؛ إذْ كانَ سؤالُهُ سبباً يفضي إلىٰ سببٍ ، وهوَ حفظُ جبريلَ لهُ ، فتركَهُ ثقةً بأنَّ اللهَ تعالىٰ إنْ أرادَ . . سخَّرَ جبريلَ لذلكَ ، فيكونُ هوَ المتولِّيَ لذلكَ ، وهٰذا حالُ مبهوتٍ غائبٍ عنْ نفسِهِ باللهِ تعالىٰ ، فلمْ يرَ معَهُ غيرَهُ ، وهوَ حالٌ عزيزٌ في نفسِهِ ، ودوامُهُ إنْ وُجِدَ أبعدُ منهُ وأعزُّ .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : (التوكلُ اضطرابٌ بلا سكونٍ ، وسكونٌ بلا اضطرابٍ)[٣] ، ولعلَّهُ يشيرُ إلى المقامِ الثاني ، فسكونُهُ بلا اضطرابٍ إشارةٌ إلىٰ سكونِ القلبِ إلى الوكيلِ وثقتِهِ بهِ ، واضطرابُهُ بلا سكونٍ إشارةٌ إلىٰ فزعِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٢٩٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ١٨٤) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٩٨) .

إليهِ وابتهالِهِ وتضرُّعِهِ بينَ يديهِ ؛ كاضطرابِ الطفلِ ببدنِهِ إلىٰ أمِّهِ ، وسكونِ قلبِهِ إلىٰ تمامِ شفقتِها[1] .

وقالَ أبو عليٍّ الدقاقُ : (التوكلُ ثلاثُ درجاتٍ : التوكلُ ، ثمَّ التسليمُ ، ثمَّ التفويضُ ، فالمتوكلُ يسكنُ إلىٰ وعدِهِ ، والمسلِّمُ يكتفي بعلمِهِ ، وصاحبُ التفويضِ يرضىٰ بحكمِهِ)[2] ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ تفاوتِ درجاتِ نظرِهِ بالإضافةِ إلى المنظورِ إليهِ ، فإنَّ العلمَ هوَ الأصلُ ، والوعدُ يتبعُهُ ، والحكمُ يتبعُ الوعدَ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ الغالبُ علىٰ قلبِ المتوكلِ ملاحظةَ شيءٍ مِنْ ذلكَ .

وللشيوخِ في التوكلِ أقاويلُ سوىٰ ما ذكرناهُ ، فلا نطوِّلُ بها ، فإنَّ الكشفَ أنفعُ مِنَ الروايةِ والنقلِ .

فهـٰذا ما يتعلَّقُ بحالِ التوكلِ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ ولطفِهِ .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥١) بنحوه .
(٢) رواه القشيري عنه في « رسالته » (ص٢٩٨) .

بيان أعمال المتوكّلين

اعلمْ : أنَّ العلمَ يورثُ الحالَ ، والحالَ يثمرُ الأعمالَ ، وقدْ يُظنُّ أنَّ معنى التوكلِ تركُ الكسبِ بالبدنِ ، وتركُ التدبيرِ بالقلبِ ، والسقوطُ على الأرضِ كالخرقةِ الملقاةِ ، وكاللحمِ على الوضمِ ، وهـٰذا ظنُّ الجهَّالِ ، فإنَّ ذلكَ حرامٌ في الشرعِ ، والشرعُ قدْ أثنىٰ على المتوكلينَ ، فكيفَ يُنالُ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ بمحظوراتِ الدينِ ؟!

بلْ نكشفُ الغطاءَ عنهُ ونقولُ :

إنَّما يظهرُ تأثيرُ التوكلِ في حركةِ العبدِ وسعيِهِ بعملِهِ إلىٰ مقاصدِهِ[1] ، وسعيُ العبدِ باختيارِهِ إمَّا أنْ يكونَ لأجلِ جلبِ نافعٍ هوَ مفقودٌ عندَهُ كالكسبِ ، أوْ لحفظِ نافعٍ هوَ موجودٌ عندَهُ كالادخارِ ، أوْ لدفعِ ضارٍّ لمْ ينزلْ بهِ كدفعِ الصائلِ والسارقِ والسباعِ ، أوْ لإزالةِ ضارٍّ قدْ نزلَ بهِ كالتداوي مِنَ المرضِ ، فمقصودُ حركاتِ العبدِ لا تعدو هـٰذهِ الفنونَ الأربعةَ ، وهوَ جلبُ النافعِ ، أوْ حفظُهُ ، أوْ دفعُ الضارِّ ، أوْ قطعُهُ ، فلنذكرْ شرطَ التوكلِ ودرجاتِهِ في كلٍّ واحدٍ منها مقروناً بشواهدِ الشرعِ .

❊ ❊ ❊

(١) في (ج ، د ، ع ، ف) : (بعلمه) بدل (بعمله) .

الفنّ الأوّل : في جلب النّافع

فنقولُ فيهِ: الأسبابُ التي بها يُجلَبُ النافعُ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ : مقطوعٌ بهِ، ومظنونٌ ظنّاً يُوثَقُ بهِ ، وموهومٌ وهماً لا تثقُ النفسُ بهِ ثقةً تامَّةً ولا تطمئنُّ إليهِ .

※ ※ ※

الدرجةُ الأولىٰ : المقطوعُ بهِ :

وذلكَ مثلُ الأسبابِ التي ارتبطَتِ المسبباتُ بها بتقديرِ اللهِ تعالىٰ ومشيئتِهِ ارتباطاً مطرداً لا يختلفُ ؛ كما إذا كانَ الطعامُ موضوعاً بينَ يديكَ وأنتَ جائعٌ محتاجٌ ، ولكنَّكَ لستَ تمدُّ اليدَ إليهِ ، وتقولُ : أنا متوكِّلٌ ، وشرطُ التوكلِ تركُ السعيِ ، ومدُّ اليدِ إليهِ سعيٌ وحركةٌ ، وكذلكَ مضغُهُ بالأسنانِ وابتلاعُهُ بإطباقِ أعالي الحنكِ علىٰ أسافلِهِ !

فهٰذا جنونٌ محضٌ ، وليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ، فإنَّكَ إنِ انتظرتَ أنْ يخلقَ اللهُ فيكَ شبعاً دونَ الخبزِ ، أوْ يخلقَ في الخبزِ حركةً إليكَ ، أوْ يسخِّرَ ملكاً ليمضغَهُ ويوصلَهُ إلىٰ معدتِكَ . . فقدْ جهلتَ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ .

وكذلكَ لوْ لمْ تزرعِ الأرضَ وطمعتَ في أنْ يخلقَ اللهُ تعالىٰ نباتاً مِنْ غيرِ بذرٍ ، أوْ تلدَ زوجتُكَ مِنْ غيرِ وقاعٍ كما ولدَتْ مريمُ عليها السلامُ ، فكلُّ ذلكَ جنونٌ ، وأمثالُ هٰذا ممَّا يكثرُ ولا يمكنُ إحصاؤُهُ ، فليسَ التوكلُ في هٰذا المقامِ بالعملِ ، بلْ بالحالِ والعلمِ .

أمَّا العلمُ . . فهوَ أنْ تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الطعامَ واليدَ والأسنانَ وقوَّةَ الحركةِ ، وأنَّهُ هوَ الذي يطعمُكَ ويسقيكَ .

وأمَّا الحالُ . . فهوَ أنْ يكونَ سكونُ قلبِكَ واعتمادُكَ علىٰ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، لا على اليدِ والطعامِ ، وكيفَ تعتمدُ علىٰ صحةِ يدِكَ وربَّما تجفُّ في الحالِ وتفلجُ ؟! وكيفَ تعوِّلُ علىٰ قدرتِكَ وربَّما يطرأُ عليكَ في الحالِ ما يزيلُ عقلَكَ ويبطلُ قوَّةَ حركتِكَ ؟! وكيفَ تعوِّلُ علىٰ حضورِ الطعامِ وربَّما يسلِّطُ اللهُ تعالىٰ عليكَ مَنْ يغلبُكَ عليهِ ، أوْ يبعثُ حيَّةً تزعجُكَ عنْ مكانِكَ ، وتفرِّقُ بينَكَ وبينَ طعامِكَ ؟!

وإذا احتُملَ أمثالُ ذلكَ ولمْ يكنْ لها علاجٌ إلا بفضْلِ اللهِ تعالىٰ . . فبذلكَ فلتفرحْ ، وعليهِ فلتعوِّلْ .

فإذا كانَ هـٰذا حالَهُ وعلمَهُ . . فليمدَّ اليدَ ، فإنَّهُ متوكلٌ .

* * *

الدرجةُ الثانيةُ : الأسبابُ التي ليسَتْ متيقنةً :

ولكنِ الغالبُ أنَّ المسبباتِ لا تحصلُ دونَها ، وكانَ احتمالُ حصولِها دونَها بعيداً ؛ كالذي يفارقُ الأمصارَ والقوافلَ ويسافرُ في البوادي التي لا يطرقُها الناسُ إلا نادراً ، ويكونُ سفرُهُ مِنْ غيرِ استصحابِ زادٍ ، فهـٰذا ليسَ شرطاً في التوكلِ ، بلِ استصحابُ الزادِ في البوادي سنَّةُ الأوَّلينَ ، ولا يزولُ التوكلُ بهِ بعدَ أنْ يكونَ الاعتمادُ علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ لا على الزادِ

كما سبقَ ، ولكنْ فعلُ ذلكَ جائزٌ ، وهوَ مِنْ أعلىٰ مقاماتِ التوكلِ ، ولذلكَ كانَ يفعلُهُ الخوّاصُ(١) .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهـٰذا سعيٌ في الهلاكِ وإلقاءِ النفسِ في التهلكةِ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ يخرجُ عنْ كونِهِ حراماً بشرطينِ :

أحدُهُما : أنْ يكونَ الرجلُ قدْ راضَ نفسَهُ وجاهدَها ، وسوَّاها على الصبرِ عنِ الطعامِ أسبوعاً أوْ ما يقاربُهُ ، بحيثُ يصبرُ عنهُ مِنْ غيرِ ضيقِ قلبٍ وتشوُّشِ خاطرٍ وتعذُّرٍ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ .

والثاني : أنْ يكونَ بحيثُ يقوىٰ على التقوُّتِ بالحشيشِ وما يتفقُ مِنَ الأشياءِ الخسيسةِ .

فبعدَ هـٰذينِ الشرطينِ لا يخلو في غالبِ الأمرِ في البوادي في كلِّ أسبوعٍ عنْ أنْ يلقاهُ آدميٌّ ، أوْ ينتهي إلىٰ حِلَّةٍ أوْ قريةٍ(٢) ، أو إلىٰ حشيشٍ يزجِّي بهِ وقتَهُ فيحيا بهِ مجاهداً نفسَهُ ، والمجاهدةُ عمادُ التوكلِ ، وعلىٰ هـٰذا كانَ يعوِّلُ الخوّاصُ ونظراؤُهُ مِنَ المتوكلينَ .

والدليلُ عليهِ : أنَّ الخوّاصَ كانَ لا تفارقُهُ الإبرةُ والمقراضُ والحبلُ

---

(١) أي : إبراهيم الخواص رحمه الله تعالىٰ .

(٢) **الحِلَّة** : المحلة ، وهي منزل القوم .

والركوةُ ويقولُ : (هٰذا لا يقدحُ في التوكلِ)[1] ، وسببُهُ : أنَّهُ علمَ أنَّ البواديَ لا يكونُ الماءُ فيها علىٰ وجهِ الأرضِ ، وما جرتْ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ بصعودِ الماءِ مِنَ البئرِ بغيرِ دلوٍ ولا حبلٍ ، ولا يغلبُ وجودُ الحبلِ والدلوِ في البوادي كما يغلبُ وجودُ الحشيشِ ، والماءُ يحتاجُ إليهِ لوضوئِهِ كلَّ يومٍ مراتٍ ، ولعطشِهِ في كلِ يومٍ أوْ يومينِ مرَّةً ، فإنَّ المسافرَ معَ حرارةِ الحركةِ لا يصبرُ عنِ الماءِ وإنْ صبرَ عنِ الطعامِ ، وكذلكَ يكونُ لهُ ثوبٌ واحدٌ ، وربَّما يتخرَّقُ فتنكشفُ عورتُهُ ، ولا يوجدُ المقراضُ والإبرةُ في البوادي غالباً عندَ كلِّ صلاةٍ ، ولا يقومُ مقامَهُما في الخياطةِ والقطعِ شيءٌ ممَّا يُوجدُ في البوادي .

فكلُّ ما في معنىٰ هٰذهِ الأربعةِ أيضاً يلتحقُ بالدرجةِ الأولىٰ ؛ إلا أنَّهُ مظنونٌ ظنّاً ليسَ مقطوعاً بهِ ؛ لأنَّهُ يحتملُ ألا يتخرَّقَ الثوبُ ، أوْ يعطيَهُ إنسانٌ ثوباً ، أوْ يجدَ علىٰ رأسِ البئرِ مَنْ يسقيهِ ، ولا يحتملُ أنْ يتحرَّكَ الطعامُ ممضوغاً إلىٰ فيهِ ، فبينَ الدرجتينِ فرقٌ ، ولكنِ الثاني في معنى الأوَّلِ .

ولهٰذا نقولُ : لوِ انحازَ إلىٰ شعبٍ مِنْ شعابِ الجبالِ حيثُ لا ماءَ ولا حشيشَ ، ولا يطرقُهُ طارقٌ فيهِ ، وجلسَ متوكلاً . . فهوَ آثمٌ بهِ ، ساعٍ في إهلاكِ نفسِهِ ؛ كما رُوِيَ أنَّ زاهداً مِنَ الزهَّادِ فارقَ الأمصارَ وأقامَ في سفحِ جبلٍ سبعاً وقالَ : لا أسألُ أحداً شيئاً حتَّىٰ يأتيَني ربِّي برزقي ، فقعدَ سبعاً ،

---

(1) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٩) .

فكادَ يموتُ ولمْ يأتِهِ رِزقٌ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ إنْ أحييتَني . . فأْتني برزقي الذي قسمتَ لي ، وإلا . . فاقبِضْني إليكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي ؛ لا رزقتُكَ حتَّىٰ تدخلَ الأمصارَ وتقعدَ بينَ الناسِ ، فدخلَ المصرَ وأقامَ ، فجاءَهُ هـٰذا بطعامٍ ، وهـٰذا بشرابٍ ، فأكلَ وشربَ ، وأوجسَ في نفسِهِ مِنْ ذلكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : أردتَ أنْ تُذهِبَ حكمتي بزهدِكَ في الدنيا ؟! أما علمتَ أنِّي أنْ أرزقَ عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرزقَهُ بيدِ قدرتي ؟!(١) .

فإذاً ؛ التباعدُ عنِ الأسبابِ كلِّها مراغمةٌ للحكمة ، وجهلٌ بسنَّةِ اللهِ تعالىٰ ، والعملُ بموجَبِ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ معَ الاتكالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ دونَ الأسبابِ لا يناقضُ التوكلَ كما ضربناهُ مثلاً في الوكيلِ بالخصومةِ مِنْ قبلُ ، ولكنَّ الأسبابَ تنقسمُ إلىٰ ظاهرةٍ وإلىٰ خفيةٍ ، فمعنى التوكلِ : الاكتفاءُ بالأسبابِ الخفيَّةِ عنِ الأسبابِ الظاهرةِ معَ سكونِ النفسِ إلىٰ مسبِّبِ السببِ الخفيِّ لا إلى السببِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما قولُكَ في القاعدِ في البلدِ بغيرِ كسبٍ أهوَ حرامٌ أوْ مباحٌ أوْ مندوبٌ إليهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ ليسَ بحرامٍ ؛ لأنَّ صاحبَ السياحةِ في البوادي إذا لمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٩٦) .

يكنْ مهلكاً نفسَهُ . . فكيفَ يكونُ هـٰذا مهلكاً نفسَهُ حتَّىٰ يكونَ فعلُهُ حراماً ؟ بلْ لا يبعدُ أنْ يأتيَهُ الرزقُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ ، ولكنْ قدْ يتأخَّرُ عنهُ ، والصبرُ ممكنٌ إلىٰ أنْ يتفقَ ، ولكنْ لوْ أغلقَ بابَ البيتِ علىٰ نفسِهِ بحيثُ لا طريقَ لأحدٍ إليهِ . . ففعلُهُ ذلكَ حرامٌ .

وإنْ فتحَ بابَ البيتِ وهوَ بطَّالٌ غيرُ مشغولٍ بعبادةٍ . . فالكسبُ والخروجُ لهُ أولىٰ ، ولكنْ ليسَ فعلُهُ حراماً إلىٰ أنْ يشرفَ على الموتِ ، فعندَ ذلكَ يلزمُهُ الخروجُ والسؤالُ والكسبُ ، وإنْ كانَ مشغولَ القلبِ باللهِ تعالىٰ ، غيرَ مستشرفٍ إلى الناسِ ، ولا متطلِّعٍ إلىٰ مَنْ يدخلُ مِنَ البابِ فيأتيهِ برزقِهِ ، بلْ تطلُّعُهُ إلىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ واشتغالُهُ باللهِ . . فهوَ أفضلُ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ التوكلِ ، وهوَ أنْ يشتغلَ باللهِ تعالىٰ ولا يهتمَّ برزقِهِ ، فإنَّ الرزقَ يأتيهِ لا محالةَ ، وعندَ هـٰذا يصحُّ ما قالَهُ بعضُ العلماءِ ؛ وهوَ أنَّ العبدَ لوْ هربَ مِنْ رزقِهِ . . لطلبَهُ ؛ كما لوْ هربَ مِنَ الموتِ . . لأدركَهُ(١) ، وأنَّهُ لوْ سألَ اللهَ تعالىٰ ألا يرزقَهُ . . لما استجابَ لهُ وكانَ عاصياً ، ولقالَ لهُ : يا جاهلُ ؛ كيفَ أخلقُكَ ولا أرزقُكَ ؟!

ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (اختلفَ الناسُ في كلِّ شيءٍ إلا في الرزقِ والأجلِ ، وأجمعوا علىٰ أنْ لا رازقَ ولا مميتَ إلا اللهُ تعالىٰ)(٢) .

---

(١) كما روىٰ هـٰذا مرفوعاً الطبراني في « الأوسط » (٤٤٤١) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/١٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٩٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ توكَّلتُمْ على اللهِ حقَّ توكُّلِهِ .. لرزقَكُمْ كما يرزقُ الطيرَ ، تغدوا خِماصاً وتروحُ بِطاناً ، ولزالَتْ بدعائِكُمُ الجبالُ »(١) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (انظروا إلى الطيرِ ، لا تزرعُ ولا تحصدُ ولاتدَّخرُ ، واللهُ تعالىٰ يرزقُها يوماً بيومٍ ، فإنْ قلتُمْ : نحنُ أكبرُ بطوناً .. فانظروا إلى الأنعامِ كيفَ قيَّضَ اللهُ تعالىٰ لها هـٰذا الخلقَ للرزقِ)(٢) .

وقالَ أبو يعقوبَ السوسيُّ : (المتوكلونَ تجري أرزاقُهُمْ علىٰ أيدي العبادِ بلا تعبٍ منهُمْ ، وغيرُهُمْ مشغولونَ مكدودونَ)(٣) . وقالَ بعضُهُمْ : (العبيدُ كلُّهُمْ في رزقِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُهُمْ يأكلُ بذلٍّ كالسؤَّالِ ، وبعضُهُمْ بتعبٍ وانتظارٍ كالتجَّارِ ، وبعضُهُمْ بامتهانٍ كالصنَّاعِ ، وبعضُهُمْ بعزٍّ كالصوفيَّةِ ، يشهدونَ العزيزَ ، فيأخذونَ رزقَهُمْ مِنْ يدهِ ولا يرونَ الواسطةَ)(٤) .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤) ، ورواه الترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) إلىٰ قوله : (وتروح بطاناً)، وأما زيادة : (ولزالت بدعائكم الجبال) .. فقد رواها المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٠٢) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً : « إنكم لو عرفتم الله حق المعرفة .. لمشيتم على البحور ، ولزال بدعائكم الجبال ... » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤) بنحوه .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٤) بزيادة تفصيل .

الدرجةُ الثالثةُ : ملابسةُ الأسبابِ التي يُتوهَّمُ إفضاؤُها إلى المسبباتِ مِنْ غيرِ ثقةٍ ظاهرةٍ :

كالذي يستقصي في التدبيراتِ الدقيقةِ في تفصيلِ الاكتسابِ ووجوهِهِ ، وذلكَ يخرجُ بالكليَّةِ عنْ درجاتِ التوكُّلِ كلِّها ، وهوَ الذي فيهِ الناسُ كلُّهُمْ ؛ أعني : مَنْ يكتسبُ بالحيلِ الدقيقةِ اكتساباً مباحاً لمالٍ مباحٍ ، فأمَّا أخذُ الشبهةِ أوِ الاكتسابُ بطريقٍ فيهِ شبهةٌ . . فذلكَ غايةُ الحرصِ على الدنيا والاتكالِ على الأسبابِ ، فلا يخفىٰ أنَّ ذلكَ يبطلُ التوكلَ ، وهوَ مثلُ الأسبابِ التي نسبتُها إلىٰ جلبِ النافعِ مثلُ نسبةِ الرقيةِ والطيرةِ والكيِّ بالإضافةِ إلىٰ إزالةِ الضارِّ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصفَ المتوكِّلينَ بذلكَ ، ولمْ يصفْهُمْ بأنَّهُمْ لا يكتسبونَ ، ولا يجلسونَ في الأمصارِ ، ولا يأخذونَ مِنْ أحدٍ شيئاً ، بلْ وصفَهُمْ بأنَّهُمْ يتعاطونَ هٰذهِ الأسبابَ ، وأمثالُ هٰذهِ الأسبابِ التي لا يُوثقُ بها في المسبَّباتِ ممَّا يكثرُ فلا يمكنُ إحصاؤُها .

وقالَ سهلٌ في التوكُّلِ : (إنَّهُ تركُ التدبيرِ)[1] ، وقالَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الخلقَ ولمْ يحجبْهُمْ عنْ نفسِهِ ، وإنَّما حجابُهُمْ تدبيرُهُمْ)[1] ، ولعلَّهُ أرادَ بهِ استنباطَ الأسبابِ البعيدةِ بالفكرِ ، فهيَ التي تحتاجُ إلى التدبيرِ دونَ الأسبابِ الجليَّةِ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ الأسبابَ منقسمةٌ : إلىٰ ما يخرجُ التعلُّقُ بها عنِ

---

(١) قوت القلوب (٢/٦) .

التوكُّلِ ، وإلىٰ ما لا يخرجُ ، وأنَّ الذي لا يخرجُ ينقسمُ : إلىٰ مقطوعٍ بهِ ، وإلىٰ مظنونٍ ، وأنَّ المقطوعَ بهِ لا يخرجُ عنِ التوكلِ عندَ وجودِ حالِ التوكلِ وعلمِهِ ، وهوَ الاتكالُ علىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، فالتوكلُ فيها بالحالِ والعلمِ ، لا بالعملِ ، وأمَّا المظنوناتُ . . فالتوكلُ فيها بالحالِ والعلمِ والعملِ جميعاً .

* * *

والمتوكلونَ في ملابسةِ هٰذهِ الأسبابِ علىٰ ثلاثةِ مقاماتٍ :

الأوَّلُ : مقامُ الخوَّاصِ ونظرائِهِ : وهوَ الذي يدورُ في البوادي بغيرِ زادٍ ثقةً بفضلِ اللهِ تعالىٰ عليهِ في تقويتِهِ على الصبرِ أسبوعاً فما فوقَهُ ، أوْ بتيسيرِ حشيشٍ لهُ أوْ قوتٍ ، أو تثبيتِهِ على الرضا بالموتِ إنْ لمْ يتيسَّرْ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ الذي يحملُ الزادَ قدْ يُؤخذُ زادُهُ أوْ يضلُّ بعيرُهُ ويموتُ جوعاً ، فذلكَ ممكنٌ معَ الزادِ كما أنَّهُ ممكنٌ معَ فقدِهِ .

المقامُ الثاني : أنْ يقعدَ في بيتِهِ أوْ في مسجدِهِ ولكنَّهُ في القرىٰ والأمصارِ : وهٰذا أضعفُ مِنَ الأوَّلِ ، ولكنَّهُ أيضاً متوكِّلٌ ؛ لأنَّهُ تاركٌ للكسبِ والأسبابِ الظاهرةِ ، معوِّلٌ علىٰ فضلِ اللهِ تعالىٰ في تدبيرِ أمرِهِ مِنْ جهةِ الأسبابِ الخفيَّةِ ، ولكنَّهُ بالقعودِ في الأمصارِ متعرِّضٌ لأسبابِ الرزقِ ، فإنَّ ذلكَ مِنَ الأسبابِ الجالبةِ ، إلا أنَّ ذلكَ لا يبطِلُ توكلَهُ إذا كانَ نظرُهُ إلى الذي سخَّرَ لهُ سكانَ البلدِ لإيصالِ رزقِهِ إليهِ ، لا إلىٰ سكانِ البلدِ ؛ إذْ يُتصوَّرُ

أنْ يغفُلَ جميعُهُمْ عنهُ ويضيِّعوهُ لولا فضْلُ اللهِ تعالىٰ بتعريفِهِمْ وتحريكِ دواعيهِم .

المقامُ الثالثُ : أنْ يخرجَ ويكتسبَ اكتساباً على الوجهِ الذي ذكرناهُ في البابِ الثالثِ والرابعِ مِنْ كتابِ آدابِ الكسبِ : وهٰذا السعيُ أيضاً لا يخرجُهُ عنْ مقاماتِ التوكلِ إذا لمْ تكنْ طُمأنينةُ نفسِهِ إلىٰ كفايتِهِ وقوتِهِ وجاهِهِ وبضاعتِهِ ، فإنَّ ذلكَ ربَّما يهلكُهُ اللهُ تعالىٰ جميعَهُ في لحظةٍ ، بلْ يكونُ نظرُهُ إلى الكفيلِ الحقِّ بحفظِ جميعِ ذلكَ وتيسيرِ أسبابِهِ لهُ ، بلْ يرىٰ كسبَهُ وبضاعتَهُ وكفايتَهُ بالإضافةِ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ كما يرى القلمَ في يدِ الملكِ الموقِّعِ ، فلا يكونُ نظرُهُ إلى القلمِ ، بلْ إلىٰ قلبِ الملكِ أنَّهُ بماذا يتحرَّكُ ، وإلىٰ ماذا يميلُ ، وبمَ يحكمُ ؟

ثمَّ إنْ كانَ هٰذا المكتسبُ مكتسباً لعيالِهِ ، أوْ ليفرِّقَ على المساكينِ . . فهوَ ببدنِهِ مكتسبٌ وبقلبِهِ عنهُ منقطعٌ ، فحالُ هٰذا أشرفُ مِنْ حالِ القاعدِ في بيتِهِ .

والدليلُ علىٰ أنَّ الكسبَ لا ينافي حالَ التوكلِ إذا رُوعيَتْ فيهِ الشروطُ وانضافَ إليهِ الحالُ والمعرفةُ كما سبقَ ذكرُهُ . . أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا بُويعَ بالخلافةِ . . أخذَ الأثوابَ تحتَ حضنِهِ والذراعُ بيدِهِ ودخلَ السوقَ ينادي ، حتَّىٰ كرهَهُ المسلمونَ وقالوا : كيفَ تفعلُ ذلكَ وقدْ أُقمتَ لخلافةِ النبوَّةِ ؟ فقالَ : لا تشغلوني عنْ عيالي ؛ فإنِّي إنْ أضعتُهُمْ . كنتُ لما سواهُمْ أضيعَ ،

حتَّىٰ فرضوا لهُ قوتَ أهلِ بيتٍ مِنَ المسلمينَ ، فلمَّا رضوا بذلكَ . . رأىٰ مساعدتَهُمْ وتطييبَ قلوبِهِمْ واستغراقَ الوقتِ بمصالحِ المسلمينَ أولىٰ[1] .

ويستحيلُ أنْ يُقالَ : لمْ يكنِ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ في مقامِ التوكلِ ، فمَنْ أولىٰ بهٰذا المقامِ منهُ ؟! فدلَّ علىٰ أنَّهُ كانَ متوكلاً لا باعتبارِ تركِ الكسبِ والسعيِ ، بلْ باعتبارِ قطعِ الالتفاتِ إلىٰ قوتِهِ وكفايتِهِ ، والعلمِ بأنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ ميسِّرُ الاكتسابِ ومدبِّرُ الأسبابِ ، وبشروطٍ كانَ يراعيها في طريقِ الكسبِ مِنَ الاكتفاءِ بقدْرِ الحاجةِ مِنْ غيرِ استكثارٍ وتفاخرٍ وادخارٍ ، ومِنْ غيرِ أنْ يكونَ درهمُهُ أحبَّ إليهِ مِنْ درهمِ غيرِهِ ، فمَنْ دخلَ السوقَ ودرهمُهُ أحبُّ إليهِ مِنْ درهمِ غيرِهِ . . فهوَ حريصٌ على الدنيا ، ومحبٌّ لها ، ولا يصحُّ التوكلُ إلا معَ الزهدِ في الدنيا ، نعمْ ، يصحُّ الزهدُ دونَ التوكلِ ؛ فإنَّ التوكلَ مقامٌ وراءَ الزهدِ .

وقالَ أبو جعفرٍ الحدادُ وهوَ شيخُ الجنيدِ رحمةُ اللهِ عليهما ، وكانَ مِنَ المتوكلينَ : (أخفيتُ التوكلَ عشرينَ سنةً وما فارقتُ السوقَ ، كنتُ أكتسبُ في كلِّ يومٍ ديناراً ، ولا أبيتُ منهُ دانقاً ، ولا أستريحُ منهُ إلىٰ قيراطٍ أدخلُ بهِ الحمامَ ، بلْ أخرجُهُ كلَّهُ قبلَ الليلِ)[2] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٧) ، وقد روىٰ نحو هٰذا ابن سعد في « طبقاته » (٣/١٦٨) ، غير أن الصديق رضي الله عنه أوصىٰ برد ما أخذه من بيت المال بعد موته كما سبق بيانه .

(٢) قوت القلوب (٢/١٧) .

وكانَ الجنيدُ لا يتكلَّمُ في التوكلِ بحضرتِهِ ، وكانَ يقولُ : (أستحي أنْ أتكلمَ في مقامِهِ وهوَ حاضرٌ عندي)[1] .

واعلمْ : أنَّ الجلوسَ في رباطاتِ الصوفيَّةِ معَ المعلومِ بعيدٌ مِنَ التوكلِ ؛ فإنْ لمْ يكنْ معلومٌ ووقفٌ ، وأمروا الخادمَ بالخروجِ للطلبِ . . لمْ يصحَّ معَهُ التوكلُ إلا علىٰ ضعفٍ ، ولكنْ يقوىٰ بالحالِ والعلمِ ؛ كتوكلِ المكتسبِ ، وإنْ لمْ يسألوا ، بلْ قنعوا بما يُحملُ إليهِمْ . . فهٰذا أقوىٰ في توكلِهِمْ ، ولكنَّهُ بعدَ اشتهارِ القومِ بذلكَ صارَ سوقاً ، فهوَ كدخولِ السوقِ ، ولا يكونُ داخلُ السوقِ متوكلاً إلا بشروطٍ كثيرةٍ كما سبقَ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما الأفضلُ : أنْ يقعدَ في بيتِهِ ، أوْ يخرجَ ويكتسبَ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ إنْ كانَ يتفرَّغُ بتركِ الكسبِ لفكرٍ وذكرٍ وإخلاصٍ واستغراقِ وقتٍ بالعبادةِ ، وكانَ الكسبُ يشوِّشُ عليهِ ذلكَ ، وهوَ معَ هٰذا لا تستشرفُ نفسُهُ إلى الناسِ في انتظارِ مَنْ يدخلُ عليهِ فيحملُ إليهِ شيئاً ، بلْ يكونُ قويَّ القلبِ في الصبرِ والاتكالِ على اللهِ تعالىٰ . . فالقعودُ لهُ أولىٰ ، وإنْ كانَ يضطربُ قلبُهُ في البيتِ ، ويستشرفُ إلى الناسِ . . فالكسبُ أولىٰ ؛ لأنَّ استشرافَ القلبِ إلى الناسِ سؤالٌ بالقلبِ ، وتركُهُ أهمُّ مِنْ تركِ الكسبِ ، وما كانَ المتوكلونَ يأخذونَ ما تستشرفُ إليهِ نفوسُهُمْ .

---

(١) قوت القلوب (٢ / ١٧) .

كانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ قدْ أمرَ أبا بكرٍ المروزيَّ أنْ يُعطيَ بعضَ الفقراءِ شيئاً فضلاً عمَّا كانَ استأجرَهُ عليهِ ، فردَّهُ ، فلمَّا ولَّىٰ . . قالَ لهُ أحمدُ : الحقْهُ وأعطِهِ ، فإنَّهُ يقبلُ ، فلحقَهُ وأعطاهُ فأخذَهُ ، فسألَ أحمدَ عنْ ذلكَ ، فقالَ : كانَ قدِ استشرفَتْ نفسُهُ فردَّ ، فلمَّا خرجَ . . انقطعَ طمعُهُ وأيسَ فأخذَ[1] .

وكانَ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ إذا نظرَ إلىٰ عبدٍ في العطاءِ ، أوْ خافَ اعتيادَ النفسِ لذلكَ . . لمْ يقبلْ منهُ شيئاً[2] .

وقالَ الخوَّاصُ بعدَ أنْ سُئِلَ عنْ أعجبِ ما رآهُ في أسفارِهِ : رأيتُ الخضرَ ورضيَ بصحبتي ، ولكنِّي فارقتُهُ خيفةَ أنْ تسكنَ نفسي إليهِ فيكونَ نقصاً في توكُّلي[3] .

فإذاً ؛ المكتسبُ إذا راعىٰ آدابَ الكسبِ وشروطَ نيَّتِهِ كما سبقَ في كتابِ الكسبِ ، ولمْ يقصدِ الاستكثارَ ، ولمْ يكنِ اعتمادُهُ علىٰ بضاعتِهِ وكفايتِهِ . . كانَ متوكلاً .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فما علامةُ عدمِ اتكالِهِ على البضاعةِ والكفايةِ ؟

فأقولُ : علامتُهُ : أنَّهُ إنْ سُرِقَتْ بضاعتُهُ ، أوْ خسرَتْ تجارتُهُ ، أوْ تعوَّقَ

---

(١) قوت القلوب (٢/١٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/١٧) .
(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٩٨) .

أمرٌ مِنْ أمورِهِ . . كانَ راضياً بهِ ، ولمْ تبطلْ طُمأنينتُهُ ، ولمْ يضطربْ قلبُهُ ، بلْ كانَ حالُ قلبِهِ في السكونِ قبلَهُ وبعدَهُ واحداً ، فإنَّ مَنْ لمْ يسكنْ إلىٰ شيءٍ . . لمْ يضطربْ لفقدِهِ ، ومَنِ اضطربَ لفقدِ شيءٍ . . فقدْ سكنَ إليهِ .

وكانَ بشرٌ يعملُ المغازلَ ، فتركَها ، وذلكَ لأنَّ البعاديَّ كاتبَهُ[1] : بلغَني أنَّكَ استعنتَ علىٰ رزقِكَ بالمغازلِ ، أرأيتَ إنْ أخذَ اللهُ سمعَكَ وبصرَكَ الرزقُ علىٰ مَنْ ؟ فوقعَ ذلكَ في قلبِهِ ، فأخرجَ آلةَ المغازلِ عنْ يدِهِ ، وقيلَ : تركَها لما نوَّهَتْ باسمِهِ وقُصدَ لأجلِها[2] ، وقيلَ : فعلَ ذلكَ لمَّا ماتَ عيالُهُ ، كما كانَ لسفيانَ خمسونَ ديناراً يتجرُ فيها ، فلمَّا ماتَ عيالُهُ . . فرَّقَها[3] .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ بضاعةٌ ولا يسكنُ إليها وهوَ يعلمُ أنَّ الكسبَ بغيرِ بضاعةٍ لا يمكنُ ؟

فأقولُ : بأنْ يعلمَ أنَّ الذينَ يرزقُهُمُ اللهُ تعالىٰ بغيرِ بضاعةٍ فيهِمْ كثرةٌ ، وأنَّ الذينَ كثرَتْ بضاعتُهُمْ فسُرقَتْ وهلكَتْ فيهِمْ كثرةٌ ، وأنْ يوطِّنَ نفسَهُ

---

(١) في (أ) : (وذلك أن فلاناً كتب إليه) ، وفي (ب ، ن ، ف) : (البعلوي) بدل (البعادي) ، وفي (ج) : (التعلوي) ، وفي (د) : (العبدي) .

(٢) فقيل : المغازل البشريّة ، وطلبت لأجله ، وقد أشار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٤٨٥) إلىٰ نسبة الخبر لصاحب « القوت » .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٨) .

علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يفعلُ بهِ إلا ما فيهِ صلاحُهُ ، فإنْ أهلكَ بضاعتَهُ . . فهوَ خيرٌ لهُ ، فلعلَّهُ لوْ تركَها . . كانَ سبباً لفسادِ دينِهِ ؟ وقدْ لطفَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وغايتُهُ أنْ يموتَ جوعاً ، فينبغي أنْ يعتقدَ أنَّ الموتَ جوعاً خيرٌ لهُ في الآخرةِ مهما قضى اللهُ عليهِ بذلكَ ، مِنْ غيرِ تقصيرٍ مِنْ جهتِهِ ، فإذا اعتقدَ جميعَ ذلكَ . . استوىٰ عندَهُ وجودُ البضاعةِ وعدمُها ؛ ففي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليهمُّ مِنَ الليلِ بأمرٍ مِنْ أمورِ التجارةِ ممَّا لوْ فعلَهُ . . لكانَ فيهِ هلاكُهُ ، فينظرُ اللهُ تعالىٰ إليهِ مِنْ فوقِ عرشِهِ ، فيصرفُهُ عنهُ ، فيصبحُ كئيباً حزيناً يتطيَّرُ بجارِهِ وابنِ عمِّهِ ، مَنْ سبقَني ؟ مَنْ دهاني ؟ وما هو إلا رحمةٌ رحمَهُ اللهُ بها »(١) .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)(٢) .

ومَنْ لمْ يتكاملْ يقينُهُ بهـٰذهِ الأمورِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ التوكلُ ، ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ لأحمدَ بنِ أبي الحواري : (لي مِنْ كلِّ مقامٍ نصيبٌ إلا مِنْ هـٰذا التوكلِ المباركِ ؛ فإنِّي ما شممتُ منهُ رائحةً)(٣) ، هـٰذا كلامُهُ معَ علوِّ قدرِهِ ، ولمْ ينكرْ كونَهُ مِنَ المقاماتِ الممكنةِ ، ولكنَّهُ قالَ : ما أدركتُهُ ، ولعلَّهُ أرادَ إدراكَ أقصاهُ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٢) ، وقد رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) روىٰ هـٰذا ابن المبارك في « الزهد » (٥٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٠٢) .

وما لمْ يكملِ الإيمانُ بأنْ لا فاعلَ إلا اللهُ ، ولا رازقَ سواهُ ، وبأنَّ كلَّ ما يقدِّرُهُ على العبدِ مِنْ فقرٍ وغنىً ، وموتٍ وحياةٍ فهوَ خيرٌ لهُ ممَّا يتمنَّاهُ العبدُ . . لمْ يكملْ حالُ التوكلِ ، فبناءُ التوكلِ على قوَّةِ الإيمانِ بهٰذهِ الأمورِ كما سبقَ ، وكذا سائرُ مقاماتِ الدينِ مِنَ الأحوالِ والأعمالِ تنبني على أصولِها مِنَ الإيمانِ .

وبالجملةِ : التوكلُ مقامٌ مفهومٌ ، ولكنْ يستدعي قوَّةَ القلبِ وقوَّةَ اليقينِ ، ولذلكَ قالَ سهلٌ : (مَنْ طعنَ على التكسُّبِ . . فقدْ طعنَ على السنَّةِ ، ومَنْ طعنَ على تركِ التكسبِ . . فقدْ طعنَ على التوحيدِ)[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ مِنْ دواءٍ يُنتفعُ بهِ في صرفِ القلبِ عنِ الركونِ إلى الأسبابِ الظاهرةِ ، وحسنِ الظنِّ باللهِ تعالى في تيسيرِ الأسبابِ الخفيَّةِ ؟

فأقولُ : نعمْ ، هوَ أنْ تعرفَ أنَّ سوءَ الظنِّ تلقينُ الشيطانِ ، وحسنَ الظنِّ تلقينُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ ، فالإنسانُ بطبعِهِ مشغوفٌ بسماعِ تخويفِ الشيطانِ ، ولذلكَ قيلَ : (الشفيقُ بسوءِ الظنِّ مولعٌ)[2] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٦) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١٩٥) ، والقشيري في « رسالته » (ص٢٩٩) .

(٢) يراد منه أن ذا الشفقة يضع سوء الظن في غير موضعه .

وإذا انضمَّ إلىٰ سوءِ الظنِّ الجبنُ ، وضعفُ القلبِ ، ومشاهدةُ المتكلين على الأسبابِ الظاهرةِ والباعثينَ عليها . . غلبَ سوءُ الظنِّ وبطلَ التوكلُ بالكليَّةِ .

بلْ رؤيةُ الرزقِ مِنَ الأسبابِ الخفيَّةِ أيضاً تبطلُ التوكلَ ، فقدْ حُكِيَ عنْ عابدٍ أنَّهُ عكفَ في مسجدٍ ولمْ يكنْ لهُ معلومٌ ، فقالَ لهُ الإمامُ : لوِ اكتسبتَ . . لكانَ أفضلَ لكَ ، فلمْ يجبْهُ حتَّىٰ أعادَ القولَ ثلاثاً ، فقالَ في الرابعةِ : يهوديٌّ في جوارِ المسجدِ قدْ ضمنَ لي كلَّ يومٍ رغيفينِ ، فقالَ : إنْ كانَ صادقاً في ضمانِهِ . . فعكوفُكَ في المسجدِ خيرٌ لكَ ، فقالَ : يا هـٰذا ؛ لوْ لمْ تكنْ إماماً تقفُ بينَ يدي اللهِ وبينَ العبادِ معَ هـٰذا النقصِ في التوحيدِ . . كانَ خيراً لكَ[1] ؛ أيْ : فضلتَ وعدَ يهوديٍّ علىٰ ضمانِ اللهِ تعالىٰ بالرزقِ .

وقالَ إمامُ مسجدٍ لبعضِ المصلِّينَ : مِنْ أينَ تأكلُ ؟ فقالَ : يا شيخُ ؛ اصبرْ حتَّىٰ أعيدَ الصلاةَ التي صلَّيتُها خلفَكَ ثمَّ أجيبُكَ[1] .

وينفعُ في حسنِ الظنِّ بمجيءِ الرزقِ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ الأسبابِ الخفيَّةِ أنْ تسمعَ الحكاياتِ التي فيها عجائبُ صنعِ اللهِ تعالىٰ في وصولِ الرزقِ إلىٰ صاحبِهِ ، وفيها عجائبُ قهرِ اللهِ تعالىٰ في إهلاكِ أموالِ التجارِ والأغنياءِ وقتلِهِمْ جوعاً ، كما رُوِيَ عنْ حذيفةَ المرعشيِّ وكانَ قدْ خدمَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فقيلَ لهُ : ما أعجبُ ما رأيتَ منهُ ؟ فقالَ : بقينا في طريقِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥) .

مكَّةَ أياماً لمْ نجدْ طعاماً ، ثمَّ دخلنا الكوفةَ ، فأوينا إلىٰ مسجدٍ خرابٍ ، فنظرَ إليَّ إبراهيمُ وقالَ : يا حذيفةُ ؛ أرىٰ بكَ أثرَ الجوعِ ، فقلتُ : هوَ ما رأى الشيخُ ، فقالَ : عليَّ بدواةٍ وقرطاسٍ ، فجئتُ بهِ ، فكتبَ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، أنتَ المقصودُ إليهِ بكلِّ حالٍ ، والمشارُ إليهِ بكلِّ معنىً ، وكتبَ شعراً(١) : [من الكامل]

أَنـا حـامِـدٌ أَنـا شـاكِـرٌ أَنـا ذاكِـرٌ   أَنَا جائِعٌ أَنَا نائِعٌ(٢) أَنَا عارِيْ
هِيَ سِتَّةٌ وَأَنا ٱلضَّمِينُ لِنِصْفِها   فَكُنِ ٱلضَّمِينَ لِنِصْفِها يا بارِيْ
مَدْحِي لِغَيْرِكَ لَهْبُ نارٍ خُضْتُها   فَأَجِرْ عُبَيْدَكَ مِنْ دُخُولِ ٱلنَّارِ

ثمَّ دفعَ إليَّ الرقعةَ وقالَ : اخرجْ ولا تعلِّقْ قلبَكَ بغيرِ اللهِ تعالىٰ ، وادفعِ الرقعةَ إلىٰ أوَّلِ مَنْ يلقاكَ ، فخرجتُ ، فأوَّلُ مَنْ لقيَني كانَ رجلاً علىٰ بغلةٍ ، فناولتُهُ الرقعةَ ، فأخذَها ، فلمَّا وقفَ عليها . . بكىٰ وقالَ : ما فعلَ صاحبُ هـٰذهِ الرقعةِ ؟ فقلتُ : هوَ في المسجدِ الفلانيِّ ، فدفعَ إليَّ صرَّةً فيها ستُّ مئةِ دينارٍ ، ثمَّ لقيتُ رجلاً آخرَ ، فسألتُهُ عنْ راكبِ البغلةِ ، فقالَ : هـٰذا نصرانيٌّ ، فجئتُ إلىٰ إبراهيمَ وأخبرتُهُ بالقصَّةِ ، فقالَ : لا تمسَّها ؛ فإنَّهُ يجيءُ الساعةَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ساعةٍ . . دخلَ

---

(١) البيتان الأول والثاني في « معجم الشعراء » (ص ٤٧٥) للخليع الأصفر الرقي ، والثلاثة في « المستطرف » (١/ ٤٥٦) لإبراهيم بن الأدهم .

(٢) النائع : العطشان ، وقيل : إتباع للجائع .

النصرانيُّ وأكبَّ علىٰ رأسِ إبراهيمَ يقبِّلُهُ ، وأسلمَ[1] .

وقالَ أبو يعقوبَ الأقطعُ البصريُّ : جعتُ مرَّةً بالحرمِ عشرةَ أيامٍ ، فوجدتُ ضعفاً ، فحدثتْني نفسي بالخروجِ ، فخرجتُ إلى الوادي لعلِّي أجدُ شيئاً يسكنُ ضعفي ، فرأيتُ سَلْجَمَةً مطروحةً[2] ، فأخذتُها ، فوجدتُ في قلبي منها وحشةً ، وكأنَّ قائلاً يقولُ لي : جعتَ عشرةَ أيامٍ وآخرُهُ يكونُ حظُّكَ سلجمةً متغيِّرةً ؟ فرميتُ بها ودخلتُ المسجدَ ، فقعدتُ ، فإذا أنا برجلٍ أعجميٍّ قدْ أقبلَ ، حتَّىٰ جلسَ بينَ يديَّ ووضعَ قمطرةً ، وقالَ : هـٰذهِ لكَ ، فقلتُ : كيفَ خصصتَني بها ؟ فقالَ : اعلمْ أنَّا كنَّا في البحرِ منذُ عشرةِ أيامٍ ، وأشرفَتِ السفينةُ على الغرقِ ، فنذرتُ إنْ خلَّصَني اللهُ تعالىٰ أنْ أتصدَّقَ بهـٰذهِ علىٰ أوَّلِ مَنْ يقعُ عليهِ بصري مِنَ المجاورينَ ، وأنتَ أوَّلُ مَنْ لقيتُهُ ، فقلتُ : افتحْها ، ففتحَها ، فإذا فيها سميدٌ مصريٌّ ، ولوزٌ مقشَّرٌ وسكرٌ كعابٌ ، فقبضتُ قبضةً مِنْ ذا وقبضةً مِنْ ذا ، وقلتُ : ردَّ الباقي إلىٰ صبيانِكَ هديةً منِّي إليكُمْ ، وقدْ قبلتُها ، ثمَّ قلتُ في نفسي : رزقُكَ يسيرُ إليكَ مِنْ عشرةِ أيامٍ وأنتَ تطلبُهُ مِنَ الوادي ؟![3] .

وقالَ مِمشاذُ الدينوريُّ : كانَ عليَّ دينٌ ، فاشتغلَ قلبي بسببِهِ ، فرأيتُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٨) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٠٦) واللفظ له .

(٢) **السلجمة** : واحدة السلجم بوزان جعفر ، وهو النبت المسمَّىٰ باللفت ، شبه الفجل .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٠٢) .

في النومِ كأنَّ قائلاً يقولُ : يا بخيلُ ؛ أخذتَ علينا هٰذا المقدارَ مِنَ الدينِ ؟! خُذْ ، عليكَ الأخذُ وعلينا العطاءُ[(١)] ، فما حاسبتُ بعدَ ذلكَ بقَّالاً ولا قصَّاباً ولا غيرَهما[(٢)] .

وحُكِيَ عنْ بنانٍ الحمَّالِ قالَ : كنتُ في طريقِ مكَّةَ أجيءُ مِنْ مصرَ ومعي زادٌ ، فجاءَتْني امرأةٌ وقالَتْ لي : يا بنانُ ؛ أنتَ حمَّالٌ تحملُ علىٰ ظهرِكَ الزادَ وتتوهَّمُ أنَّهُ لا يرزقُكَ ؟ قالَ : فرميتُ بزادي ، ثمَّ أتىٰ عليَّ ثلاثٌ لمْ آكلْ ، فوجدتُ خلخالاً في الطريقِ ، فقلتُ في نفسي : أحملُهُ حتَّىٰ يجيءَ صاحبُهُ ، فربَّما يعطيني شيئاً فأردُّهُ عليهِ ، فإذا أنا بتلكَ المرأةِ ، فقالَتْ لي : أنتَ تاجرٌ ؟ تقولُ : عسىٰ يجيءُ صاحبُهُ فآخذُ منهُ شيئاً ؟! ثمَّ رمَتْ إليَّ شيئاً مِنَ الدراهمِ وقالَتْ : أنفقْها ، فاكتفيتُ بها إلىٰ قريبٍ مِنْ مكةَ[(٣)] .

ويُحكىٰ أنَّ بناناً احتاجَ إلىٰ جاريةٍ تخدمُهُ ، فانبسطَ إلىٰ إخوانِهِ ، فجمعوا لهُ ثمنَها ، وقالوا : هوَ ذا يجيءُ النفرُ فنشتري ما يوافقُ ، فلمَّا وردَ النفرُ . . اجتمعَ رأيُهُمْ علىٰ واحدةٍ ، وقالوا : إنَّها تصلحُ لهُ ، فقالوا لصاحبِها : بكمْ هٰذهِ ؟ فقالَ : إنَّها ليسَتْ للبيعِ ، فألحُّوا عليهِ ، فقالَ : إنَّها لبنانٍ الحمالِ ، أهدتْها إليهِ امرأةٌ مِنْ سمرقندَ ، فحُملَتْ إلىٰ بنانٍ وذُكِرَتْ لهُ القصَّةُ[(٤)] .

---

(١) في (ب) : (القضاء) بدل (العطاء) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٣) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص٣٠٣) ، ووقع في النسخ : (قريب من مصر) ، والمثبت من (ق) و« الرسالة القشيرية » .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٠٤) .

وقيلَ : كانَ في الزمنِ الأوَّلِ رجلٌ في سفرٍ ومعَهُ قرصٌ ، فقالَ : إنْ أكلتُهُ . . متُّ ، فوكلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ ملكاً وقالَ : إنْ أكلَهُ فارزقْهُ ، وإنْ لمْ يأكلْهُ . . فلا تعطِهِ غيرَهُ ، فلمْ يزلِ القرصُ معَهُ إلىٰ أنْ ماتَ ولمْ يأكلْهُ ، وبقيَ القرصُ بعدَهُ(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : دخلتُ الباديةَ بغيرِ زادٍ ، فأصابَتْني فاقةٌ ، فرأيتُ المرحلةَ مِنْ بعيدٍ(٢) ، فسُررتُ بأنْ وصلتُ ، ثمَّ فكرتُ في نفسي أني سكنتُ واتكلتُ علىٰ غيرِهِ ، فآليتُ ألا أدخلَ المرحلةَ إلا أنْ أُحملَ إليها ، فحفرتُ لنفسي في الرملِ حفيرةً ، وواريتُ جسدي فيها إلىٰ صدري ، فسمعوا صوتاً في نصفِ الليلِ عالياً : يا أهلَ المرحلةِ ؛ إنَّ للهِ تعالىٰ وليّاً حبسَ نفسَهُ في هـٰذا الرملِ فالحقوهُ ، فجاءَ جماعةٌ فأخرجوني وحملوني إلى القريةِ(٣) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً لازمَ بابَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ عمرُ : يا هـٰذا ؛ هاجرتَ إلىٰ عمرَ أوْ إلى اللهِ تعالى ؟ اذهبْ فتعلَّمِ القرآنَ ، فإنَّهُ سيغنيكَ عنْ بابِ عمرَ ، فذهبَ الرجلُ وغابَ حتَّى افتقدَهُ عمرُ ، فإذا هوَ قدِ اعتزلَ واشتغلَ بالعبادةِ ، فجاءَهُ عمرُ فقالَ لهُ : إنِّي قدْ اشتقتُ إليكَ ، فما الذي شغلَكَ عنَّا ؟ فقالَ : إنِّي قرأتُ القرآنَ ، فأغناني عنْ عمرَ وآلِ عمرَ ، فقالَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٠٤) .
(٢) المرحلة : القرية .
(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٥) .

عمرُ : رحمَكَ اللهُ ، فما وجدتَ فيهِ ؟ فقالَ : وجدتُ فيهِ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، فقلتُ : رزقي في السماءِ وأنا أطلبُهُ في الأرضِ ؟! فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : صدقتَ ، فكانَ عمرُ بعدَ ذلكَ يأتيه ويجلسُ إليهِ[1] .

وقالَ أبو حمزةَ الخراسانيُّ : حججتُ سنةً مِنَ السنينِ ، فبينا أنا أمشي في الطريقِ . . إذْ وقعتُ في بئرٍ ، فنازعَتْني نفسي أنْ أستغيثَ ، فقلتُ : لا واللهِ لا أستغيثُ ، فما استتممتُ هـٰذا الخاطرَ حتَّىٰ مرَّ برأسِ البئرِ رجلانِ ، فقالَ أحدُهُما للآخرِ : تعالَ حتَّىٰ نسدَّ رأسَ هـٰذا البئرِ لئلا يقعَ فيهِ أحدٌ ، فأتَوا بقصبٍ وباريةٍ[2] ، وطمُّوا رأسَ البئرِ ، فهممتُ أنْ أصيحَ ، فقلتُ في نفسي : إلىٰ مَنْ أصيحُ ؟ هوَ أقربُ منهُما ، وسكنتُ ، فبينا أنا بعدَ ساعةٍ إذْ أنا بشيءٍ جاءَ وكشفَ عنْ رأسِ البئرِ وأدلىٰ رجلَهُ ، وكأنَّهُ يقولُ : تعلَّقْ بي في همهمةٍ لهُ كنتُ أعرفُ ذلكَ ، فتعلَّقتُ بهِ فأخرجَني ، فإذا هوَ سبعٌ ، فمرَّ وهتفَ بي هاتفٌ : يا أبا حمزةَ ؛ أليس هـٰذا أحسنَ ؟ نجَّيناكَ مِنَ التلفِ بالتلفِ ، فمشيتُ وأنا أقولُ[3] : [من الطويل]

نَهانِي حَيائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ ٱلْهَوَى ... وَأَغْنَيْتَنِي بِٱلْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ ٱلْكَشْفِ

تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شاهِدِي ... إِلَىٰ غَائِبِي وَٱللُّطْفُ يُدْرَكُ بِٱللُّطْفِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٨) ، ورواه بنحوه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) من زيادات نعيم بن حماد ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٨٩) مختصراً .

(٢) **البارية** : الحصير .

(٣) الأبيات لمحمد بن إبراهيم الصوفي . انظر « المحمدون من الشعراء » (ص ١٢٣) .

تَراءَيْتَ لِي بِٱلْغَيْبِ حَتَّىٰ كَأَنَّما　　　تُبَشِّرُنِي بِٱلْغَيْبِ أَنَّكَ فِي ٱلْكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ　　　فَتُؤْنِسُنِي بِٱللُّطْفِ مِنْكَ وَبِٱلْعَطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبّاً أَنْتَ فِي ٱلْحُبِّ حَتْفُهُ　　　وَذا عَجَبٌ كَوْنُ ٱلْحَياةِ مَعَ ٱلْحَتْفِ

وأمثالُ هـٰذهِ الوقائعِ ممَّا يكثرُ(١) ، وإذا قويَ الإيمانُ بهِ ، وانضمَّ إليهِ القدرةُ على الجوعِ قدْرَ أسبوعٍ مِنْ غيرِ ضيقِ صدرٍ ، وقويَ الإيمانُ بأنَّهُ إنْ لمْ يُسقْ إليهِ رزقُهُ في أسبوعٍ فالموتُ خيرٌ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولذلكَ حبسَهُ عنهُ . . تمَّ التوكُّلُ بهـٰذهِ الأحوالِ والمشاهداتِ ، وإلا . . فلا يتمُّ أصلاً .

＊ ＊ ＊

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٠٥) ، وقد اعترض على المصنف في إيراده لهـٰذه القصة ، وقد أجاب عن الاعتراض رحمه الله في « إملائه » ، وكذا التمس لهـٰذا عذراً القاضي ابن العربي المالكي في « أحكام القرآن » (٣/٨٣) ، والحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٤٩١) .

بيان توكل المعيل

اعلمْ : أنَّ مَنْ لهُ عيالٌ فحكمُهُ يفارقُ حكمَ المنفردِ ؛ لأنَّ المنفردَ لا يصحُّ توكلُهُ إلا بأمرينِ :

أحدُهُما : قدرتُهُ على الجوعِ أسبوعاً مِنْ غيرِ استشرافٍ وضيقِ نفسٍ .

والآخرُ : أبوابٌ مِنَ الإيمانِ ذكرناها ؛ مِنْ جملتِها أنْ يطيبَ نفساً بالموتِ إنْ لمْ يأتِهِ رزقُهُ ؛ علماً بأنَّ رزقَهُ الموتُ والجوعُ ، وهوَ وإنْ كانَ نقصاناً في الدنيا . . فهوَ زيادةٌ في الآخرةِ ، فيرىٰ أنَّهُ سيقَ إليهِ خيرُ الرزقينِ لهُ ، وهوَ رزقُ الآخرةِ ، وأنَّ هٰذا هوَ المرضُ الذي به يموتُ ، ويكونُ راضياً بذلكَ ، وأنَّهُ كذا قُضيَ وقُدِّرَ لهُ ، فبهٰذا يتمُّ للمنفردِ التوكلُ .

ولا يجوزُ تكليفُ العيالِ الصبرَ على الجوعِ ، ولا يمكنُ أنْ يقرِّرَ عندَهُمُ الإيمانَ بالتوحيدِ وأنَّ الموتَ على الجوعِ رزقٌ مغبوطٌ عليهِ في نفسِهِ إنِ اتفقَ ذلكَ نادراً ، وكذا سائرُ أبوابِ الإيمانِ ، فإذاً ؛ لا يمكنُهُ في حقِّهِمْ إلا توكلُ المكتسِبِ ، وهوَ المقامُ الثالثُ ؛ كتوكلِ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ إذْ خرجَ للكسبِ[1] .

فأمَّا دخولُ البوادي وتركُ العيالِ توكلاً في حقِّهِمْ ، أوِ القعودُ عنِ

---

(١) روىٰ ذلك ابن سعد في « الطبقات » (٣/١٦٨) ، والمحب الطبري في « الرياض النضرة » (١/٢٠٢) .

الاهتمامِ بأمرِهِمْ توكلاً في حقِّهِمْ . . فهـٰذا حرامٌ ، وقدْ يفضي إلىٰ هلاكِهِمْ ، ويكونُ هوَ مؤاخذاً بِهِمْ .

بلِ التحقيقُ : أنَّهُ لا فرقَ بينَهُ وبينَ عيالِهِ ؛ فإنَّهُ إنْ ساعدَهُ العيالُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً وعلى الاعتدادِ بالموتِ على الجوعِ رزقاً وغنيمةً في الآخرةِ . . فلهُ أنْ يتوكَّلَ في حقِّهِمْ ، ونفسُهُ أيضاً عيالٌ عندَهُ ، لا يجوزُ لهُ أنْ يضيعَها إلا بأنْ تساعدَهُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً ، فإنْ كانَ لا يطيقُهُ ، ويضطربُ عليهِ قلبُهُ ، وتتشوَّشُ عبادتُهُ . . لمْ يجزْ لهُ التوكلُ .

ولذلكَ رُوِيَ أنَّ أبا ترابٍ النخشبيَّ نظرَ إلىٰ صوفيٍّ مدَّ يدَهُ إلىٰ قشرِ بطيخٍ ليأكلَهُ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ ، فقالَ لهُ : (لا يصلحُ لكَ التصوُّفُ ، الزمِ السوقَ)[1] أيْ : لا تصوُّفَ إلا معَ التوكلِ ، ولا يصحُّ التوكلُ إلا لمَنْ يصبرُ عنِ الطعامِ أكثرَ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ .

وقالَ أبو عليٍّ الروذباريُّ : (إذا قالَ الفقيرُ بعدَ خمسةِ أيامٍ : أنا جائعٌ . . فألزموهُ السوقَ ، ومُروهُ بالعملِ والكسبِ)[2] .

فإذاً ؛ بدنُهُ عيالُهُ ، وتوكلُهُ فيما يضرُّ ببدنِهِ كتوكلِهِ في عيالِهِ ، وإنَّما يفارقُهُمْ في شيءٍ واحدٍ ، وهوَ أنَّ لهُ تكليفَ نفسِهِ الصبرَ على الجوعِ ، وليسَ لهُ ذلكَ في عيالِهِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٤٩) ، والقشيري في « رسالته » (ص٧٤ ، ٣٠٢) .

(٢) رواه القشيري (ص٢٦١ ، ٣٠٢) .

وقدِ انكشفَ لكَ مِنْ هٰذا أنَّ التوكلَ ليسَ انقطاعاً عنِ الأسبابِ ، بلِ الاعتمادُ على الصبرِ على الجوعِ مدَّةً ، والرضا بالموتِ إنْ تأخَّرَ الرزقُ نادراً ، وملازمةُ البلادِ والأمصارِ ، أوْ ملازمةُ البوادي التي لا تخلو عنْ حشيشٍ وما يجري مجراهُ ، فهٰذهِ كلُّها أسبابُ البقاءِ ، ولكنْ معَ نوعٍ مِنَ الأذىٰ لا يمكنُ الاستمرارُ عليهِ إلا بالصبرِ ، والتوكلُ في الأمصارِ أقربُ إلى الأسبابِ مِنَ التوكلِ في البوادي ، وكلُّ ذلكَ مِنَ الأسبابِ ، إلا أنَّ الناسَ عدلوا إلىٰ أسبابٍ أظهرَ منها ، فلمْ يعدُّوا تلكَ أسباباً ، وذلكَ لضعفِ إيمانِهِمْ ، وشدَّةِ حرصِهِمْ ، وقلَّةِ صبرِهِمْ على الأذىٰ في الدنيا لأجلِ الآخرةِ ، واستيلاءِ الجبنِ علىٰ قلوبِهِمْ بإساءةِ الظنِّ وطولِ الأملِ .

ومَنْ نظرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ . . انكشفَ لهُ تحقيقاً أنَّ اللهَ تعالىٰ دبَّرَ الملكَ والملكوتَ تدبيراً لا يجاوزُ العبدَ رزقُهُ وإنْ تركَ الاضطرابَ ، فإنَّ العاجزَ عنِ الاضطرابِ لمْ يجاوزْهُ رزقُهُ ، أما ترى الجنينَ في بطنِ أمِّهِ لمَّا أنْ كانَ عاجزاً عنِ الاضطرابِ كيفَ وصلَ سرَّتَهُ بالأمِّ حتَّىٰ تنتهيَ إليهِ فضلاتُ غذاءِ الأمِّ بواسطةِ السرَّةِ ؟ ولمْ يكنْ ذلكَ بحيلةِ الجنينِ ، ثمَّ لما انفصلَ . . سلَّطَ الحبَّ والشفقةَ على الأمِّ لتكفَّلَ بهِ شاءَتْ أمْ أبتْ ، اضطراراً مِنَ اللهِ تعالىٰ إليهِ بما أشعلَ في قلبها مِنْ نارِ الحبِّ ، ثمَّ لمَّا لمْ يكنْ لهُ سِنٌّ يمضغُ بهِ الطعامَ . . جعلَ رزقَهُ مِنَ اللبنِ الذي لا يحتاجُ إلى المضغِ ، ولأنَّهُ لرخاوةِ مزاجِهِ كانَ لا يحتملُ الغذاءَ الكثيفَ ، فأدرَّ لهُ اللبنَ اللطيفَ في ثدي الأمِّ عندَ انفصالِهِ علىٰ حسبِ حاجتِهِ ، أفكانَ هٰذا بحيلةِ الطفلِ أوْ بحيلةِ

الأمِّ ؟! فإذا صارَ بحيثُ يوافقُهُ الغذاءُ الكثيفُ . . أنبتَ لهُ أسناناً قواطعَ وطواحنَ لأجلِ المضغِ ، فإذا كبرَ واستقلَّ . . يسَّرَ لهُ أسبابَ التعلُّمِ وسلوكِ سبيلِ الآخرةِ ، فجبنُهُ بعدَ البلوغِ جهلٌ محضٌ ؛ لأنَّهُ ما نقصَتْ أسبابُ معيشتِهِ ببلوغِهِ بلْ زادَتْ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ قادراً على الاكتسابِ ، والآنَ قدْ قدرَ ، فزادَتْ قدرتُهُ .

نعمْ ، كانَ المشفقُ عليهِ شخصاً واحداً وهوَ الأمُّ أوِ الأبُ ، وكانَتْ شفقتُهُ مفرطةً جداً ، فكانَ يسقيهِ ويطعمُهُ في اليومِ مرَّةً أوْ مرَّتينِ ، وكانَ إطعامُهُ بتسليطِ اللهِ تعالى الشفقةَ والحبَّ علىٰ قلبِهِ ، فكذلكَ قدْ سلَّطَ اللهُ تعالى الشفقةَ والمودةَ والرقَّةَ والرحمةَ علىٰ قلوبِ المسلمينَ وأهلِ البلدِ كافَّةً ، حتىٰ إنَّ كلَّ واحدٍ منهُمْ إذا أحسَّ بمحتاجٍ . . تألَّمَ قلبُهُ ورقَّ عليهِ ، وانبعثَتْ لهُ داعيةٌ إلىٰ إزالةِ حاجتِهِ ، فقدْ كانَ المشفقُ عليهِ واحداً ، والآنَ المشفقُ عليهِ ألفٌ وزيادةٌ ، ولقدْ كانوا لا يشفقونَ عليهِ لأنَّهُمْ رأَوْهُ في كفالةِ الأمِّ والأبِ ، وهيَ مشفقٌ خاصٌّ ، فما رأَوْهُ محتاجاً ، ولوْ رأَوْهُ يتيماً . . لسلَّطَ اللهُ داعيةَ الرحمةِ علىٰ واحدٍ مِنَ المسلمينَ أوْ علىٰ جماعةٍ حتَّىٰ يأخذوهُ ويكفلوهُ ، فما رُئِيَ إلى الآنَ في سنيِّ الخصبِ يتيمٌ قدْ ماتَ جوعاً ، معَ أنَّهُ عاجزٌ عنِ الاضطرابِ ، وليسَ لهُ كافلٌ خاصٌّ ، واللهُ تعالىٰ كافلُهُ بواسطةِ الشفقةِ التي خلقَها في قلوبِ عبادِهِ .

فلماذا ينبغي أنْ يشغلَ قلبَهُ برزقِهِ بعدَ البلوغِ ولمْ يشتغلْ في الصبا ؟ وقدْ كانَ المشفقُ واحداً والمشفقُ الآنَ آلافٌ ؟!

نعمْ ، كانَتْ شفقةُ الأمِّ أقوىٰ وأخصَّ ، ولكنَّها واحدةٌ ، وشفقةُ آحادِ الناسِ وإنْ ضعفَتْ فيخرجُ مِنْ مجموعِها ما يفيدُ الغرضَ ، فكمْ مِنْ يتيمٍ قدْ يسَّرَ اللهُ تعالىٰ لهُ حالاً هوَ أحسنُ مِنْ حالِ مَنْ لهُ أبٌ وأمٌّ ، فينجبرُ ضعفُ شفقةِ الآحادِ بكثرةِ المشفقينَ ، وبتركِ التنعُّمِ ، والاقتصارِ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ولقدْ أحسنَ الشاعرُ حيثُ يقولُ(١) : [من الوافر]

جَرَىٰ قَلَمُ ٱلْقَضَاءِ بِما يَكُونُ ... فَسِيَّانِ ٱلتَّحَرُّكُ وَٱلسُّكُونُ
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَىٰ لِرِزْقٍ ... وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ ٱلْجَنِينُ

* * *

فإنْ قلتَ : الناسُ يكفلونَ اليتيمَ لأنَّهُمْ يرونَهُ عاجزاً لصباهُ ، وأمَّا هٰذا . . فبالغٌ قادرٌ على الكسب ، فلا يلتفتونَ إليهِ ، ويقولونَ : هوَ مثلُنا ، فليجتهدْ لنفسِهِ .

فأقولُ : إنْ كانَ هٰذا القادرُ بطَّالاً . . فقدْ صدقوا ، فعليهِ الكسبُ ، ولا معنىٰ للتوكلِ في حقِّهِ ، فإنَّ التوكلَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ يُستعانُ بهِ على التفرُّغِ للهِ تعالىٰ ، فما للبطَّالِ والتوكلِ ؟!

وإنْ كانَ مشتغلاً باللهِ ، ملازماً لمسجدٍ أوْ بيتٍ ، وهوَ مواظبٌ على العلمِ والعبادةِ . . فالناسُ لا يلومونَهُ في تركِ الكسبِ ، ولا يكلِّفونَهُ ذلكَ ، بلِ

(١) البيتان في « تتمة يتيمة الدهر » (٥/ ١٦٣) لأبي الفرج بن هندو ، و« مرآة الجنان » (٣/ ٣٨١) لأبي الخير الواسطي .

اشتغالُهُ باللهِ تعالىٰ يقرِّرُ حبَّهُ في قلوبِ الناسِ ، حتَّىٰ يحملونَ إليهِ فوقَ كفايتِهِ ، وإنَّما عليهِ ألا يغلقَ البابَ ، ولا يهربَ إلىٰ جبلٍ مِنْ بينِ الناسِ ، وما رُئِيَ إلى الآنَ عالمٌ أوْ عابدٌ استغرقَ الأوقاتَ باللهِ تعالىٰ وهوَ في الأمصارِ فماتَ جوعاً ، ولا يُرىٰ قطُّ ، بلْ لوْ أرادَ أنْ يطعمَ جماعةً مِنَ الناسِ بقولِهِ . . لقدرَ عليهِ ، فإنَّ مَنْ كانَ للهِ تعالىٰ . . كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ ، ومَنِ اشتغلَ باللهِ عزَّ وجلَّ . . ألقى اللهُ حبَّهُ في قلوبِ الناسِ ، وسخَّرَ لهُ القلوبَ كما سخَّرَ قلبَ الأمِّ لولدِها .

فقدْ دبَّرَ اللهُ تعالىٰ الملْكَ والملكوتَ تدبيراً كافياً لأهلِ الملكِ والملكوتِ ، فمَنْ شاهدَ هٰذا التدبيرَ . . وثقَ بالمدبِّرِ ، واشتغلَ بهِ ، وآمنَ ونظرَ إلىٰ مدبِّرِ الأسبابِ لا إلى الأسبابِ .

نعمْ ، ما دبَّرَهُ تدبيراً يصلُ إلى المشتغلِ بهِ الحلواءُ والطيورُ السمانُ والثيابُ الرفيعةُ والخيولُ النفيسةُ على الدوامِ لا محالةَ ، وقدْ يقعُ ذلكَ أيضاً في بعضِ الأحوالِ ، لكنْ دبَّرَهُ تدبيراً يصلُ إلىٰ كلِّ مشتغلٍ بعبادةِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ أسبوعٍ قرصُ شعيرٍ أوْ حشيشٌ يتناولُهُ لا محالةَ ، والغالبُ أنَّهُ يصلُ أكثرُ منهُ ، بلْ يصلُ ما يزيدُ علىٰ قدرِ الحاجةِ والكفايةِ .

فلا سببَ لتركِ التوكلِ إلا رغبةُ النفسِ في التنعُّمِ على الدوامِ ، ولبسِ الثيابِ الناعمةِ ، وتناولِ الأغذيةِ اللطيفةِ ، وليسَ ذلكَ مِنْ طريقِ الآخرةِ ، وذلكَ قدْ لا يحصلُ مِنْ غيرِ اضطرابٍ ، وهوَ في الغالبِ أيضاً ليسَ يحصلُ معَ الاضطرابِ ، وإنَّما يحصلُ نادراً ، وفي النادرِ أيضاً قدْ يحصلُ بغيرِ اضطرابٍ ، فأثرُ الاضطرابِ ضعيفٌ عندَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ ، فلذلكَ

لا يطمئنُّ إلى اضطرابِهِ ، بلْ إلىٰ مدبِّرِ الملكِ والملكوتِ تدبيراً لا يجاوزُ عبداً مِنْ عبادِهِ رزقُهُ وإنْ سكنَ إلا نادراً ندوراً عظيماً يُتصوَّرُ مثلُهُ في حقِّ المضطربِ .

فإذا انكشفَتْ هـٰذهِ الأمورُ ، وكانَ معَهُ قوَّةٌ في القلبِ وشجاعةٌ في النفسِ . . أثمرَ ما قالَهُ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ إذْ قالَ : (وددتُ أنَّ أهلَ البصرةِ في عيالي وأنَّ حبةً بدينارٍ)(١) .

وقالَ وهيبُ بنُ الوردِ : (لوْ كانَتِ السماءُ نحاساً ، والأرضُ رصاصاً ، واهتممتُ برزقي . . لظننتُ أنِّي مشركٌ)(١) .

فإذا فهمتَ هـٰذهِ الأمورَ . . فهمتَ أنَّ التوكلَ مقامٌ مفهومٌ في نفسِهِ ، ويمكنُ الوصولُ إليهِ لمَنْ قهرَ نفسَهُ ، وعلمتَ أنَّ مَنْ أنكرَ أصلَ التوكلِ وإمكانَهُ . . أنكرَهُ عنْ جهلٍ ، فإيَّاكَ أنْ تجمعَ بينَ إفلاسينِ ؛ إفلاسٍ عنْ وجودِ المقامِ ذوقاً ، وإفلاسٍ عنِ الإيمانِ بهِ علماً .

فإذاً ؛ عليكَ بالقناعةِ بالنزرِ القليلِ ، والرضا بالقوتِ ؛ فإنَّهُ يأتيكَ ـ لا محالةَ ـ وإنْ فررتَ منهُ ، وعندَ ذلكَ على اللهِ أنْ يبعثَ إليكَ رزقَكَ علىٰ يدي مَنْ لا تحتسبُ ، فإنِ اشتغلتَ بالتقوىٰ والتوكُّلِ . . شاهدتَ بالتجربةِ مصداقَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ، إلا أنَّهُ لمْ يتكفلْ لهُ أنْ يرزقَهُ لحمَ الطيرِ ولذائذَ الأطعمةِ ، فما

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٩) .

ضمنَ إلا الرزقَ الذي تدومُ بهِ حياتُهُ ، وهـٰذا المضمونُ مبذولٌ لكلِّ مَنِ اشتغلَ بالضامنِ واطمأنَّ إلىٰ ضمانِهِ ، فإنَّ الذي أحاطَ بهِ تدبيرُ اللهِ تعالىٰ مِنَ الأسبابِ الخفيَّةِ للرزقِ أعظمُ ممَّا ظهرَ للخلقِ ، بلْ مداخلُ الرزقِ لا تُحصىٰ ، ومجاريهِ لا يُهتدىٰ إليها ، وذلكَ لأنَّ ظهورَهُ على الأرضِ وسببُهُ في السماءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وأسرارُ السماءِ لا يُطلعُ عليها ، ولهـٰذا دخلَ جماعةٌ على الجنيدِ فقالوا : نطلبُ الرزقَ ، فقالَ : إنْ علمتُمْ أيُّ موضعٍ هوَ . . فاطلبوهُ ، قالوا : فنسألُ اللهَ ، قالَ : إنْ علمتُمْ أنَّهُ ينساكُمْ . . فذكِّروهُ ، فقالوا : ندخلُ البيتَ ونتوكَّلُ وننظرُ ما يكونُ ، فقالَ : التوكلُ على التجربةِ شكٌّ ، قالوا : فما الحيلةُ ؟ قالَ : تركُ الحيلةِ[1] .

وقالَ أحمدُ بنُ عيسى الخرَّازُ : كنتُ في الباديةِ ، فنالَني جوعٌ شديدٌ ، فغلبَتْني نفسي أنْ أسألَ اللهَ تعالىٰ طعاماً ، فقلتُ : ليسَ هـٰذا مِنْ فعالِ المتوكلينَ ، فطالبَتْني أنْ أسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ صبراً ، فلمَّا هممتُ بذلكَ . . سمعتُ هاتفاً يهتفُ بي ويقولُ : [من الوافر]

وَيَـزْعُـمُ أَنَّـهُ مِنَّـا قَـرِيـبٌ ... وأَنَّـا لا نُضَيِّـعُ مَـنْ أَتـانـا
وَيَسْـأَلُنـا ٱلْقِرَىٰ جُهْـداً وَصَبْـراً ... كَـأَنَّـا لا نَـراهُ ولاَ يَـرانـا[2]

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٣٠٢) ، وقد رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٣٥) عن جعفر الخلدي وكان بحضرة الجنيد .

(٢) كذا الخبر عند الكلاباذي في « التعرف » (ص١٥٠) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ١٤٠) .

فقدْ فهمتَ أنَّ مَنِ انكسرَتْ نفسُهُ ، وقويَ قلبُهُ ، ولمْ يضعفْ بالجبنِ باطنُهُ ، وقويَ إيمانُهُ بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ . . كانَ مطمئنَّ النفسِ أبداً ، واثقاً باللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ أسوأَ حالِهِ أنْ يموتَ ولا بدَّ أنْ يأتيَهُ الموتُ كما يأتي مَنْ ليسَ مطمئناً .

فإذاً ؛ تمامُ التوكلِ بقناعةٍ مِنْ جانبٍ ، ووفاءٍ بالمضمونِ مِنْ جانبٍ ، والذي ضمنَ رزقَ القانعينَ بهٰذهِ الأسبابِ التي دبَّرَها صادقٌ ، فاقنعْ وجرِّبْ . . تشاهدْ صدقَ الوعدِ تحقيقاً بما يردُ عليكَ مِنَ الأرزاقِ العجيبةِ التي لمْ تكنْ في ظنِّكَ وحسابِكَ ، ولا تكنْ في توكُّلِكَ منتظراً للأسبابِ ، بلْ لمسبِّبِ الأسبابِ ، كما لا تكونُ منتظراً لقلمِ الكاتبِ ، بلْ لقلبِ الكاتبِ ، فإنَّهُ أصلُ حركةِ القلمِ ، **والمحرِّكُ الأوَّلُ واحدٌ** ، فلا ينبغي أنْ يكونَ النظرُ إلا إليهِ ، وهٰذا شرطُ توكلِ مَنْ يخوضُ البواديَ بلا زادٍ ، أوْ يقعدُ في الأمصارِ وهوَ خاملٌ .

وأمَّا الذي لهُ ذكرٌ بالعبادةِ والعلمِ ؛ فإذا قنعَ في اليومِ والليلةِ بالطعامِ مرَّةً واحدةً كيفَ كانَ وإنْ لمْ يكنْ مِنَ اللذائذِ ، وبثوبٍ خشنٍ يليقُ بأهلِ الدينِ . . فهٰذا يأتيهِ مِنْ حيثُ يحتسبُ ومِنْ حيثُ لا يحتسبُ على الدوامِ ، بلْ يأتيهِ أضعافُهُ ، فتركُهُ التوكلَ واهتمامُهُ بالرزقِ غايةُ الضعفِ والقصورِ ، فإنَّ اشتهارَهُ بسببٍ ظاهرٍ يجلبُ الرزقَ إليهِ أقوىٰ مِنْ دخولِ الأمصارِ في حقِّ الخاملِ معَ الاكتسابِ .

فالاهتمامُ بالرزقِ قبيحٌ بذوي الدينِ ، وهوَ بالعلماءِ أقبحُ ؛ لأنَّ شرطَهُمُ القناعةُ ، والعالمُ القانعُ يأتيهِ رزقُهُ ورزقُ جماعةٍ كثيرةٍ إنْ كانوا معَهُ ، إلا إذا أرادَ ألا يأخذَ مِنْ أيدي الناسِ ويأكلَ مِنْ كسبِهِ ، فذلكَ لهُ وجهٌ لائقٌ بالعالمِ العاملِ الذي سلوكُهُ بظاهرِ العلمِ والعملِ ، ولمْ يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ ، فإنَّ الكسبَ يمنعُ مِنَ السيرِ بالفكرِ الباطنِ ، فاشتغالُهُ بالسلوكِ معَ الأخذِ مِنْ يدِ مَنْ يتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بما يعطيهِ أولىٰ ؛ لأنَّهُ تفرُّغٌ للهِ عزَّ وجلَّ ، وإعانةٌ للمعطي علىٰ نيلِ الثوابِ .

ومَنْ نظرَ إلىٰ مجاري سنَّةِ اللهِ تعالىٰ . . علمَ أنَّ الرزقَ ليسَ علىٰ قدْرِ الأسبابِ ، ولذلكَ سألَ بعضُ الأكاسرةِ حكيماً عنِ الأحمقِ المرزوقِ والعاقلِ المحرومِ ، فقالَ : أرادَ الصانعُ أنْ يدلَّ علىٰ نفسِهِ ؛ إذْ لوْ رزقَ كلَّ عاقلٍ وحرمَ كلَّ أحمقَ . . لظُنَّ أنَّ العقلَ رزقَ صاحبَهُ ، فلمَّا رأَوا خلافَهُ . . علموا أنَّ الرازقَ غيرُهُمْ ، ولا ثقةَ بالأسبابِ الظاهرةِ لهُمْ .

قالَ الشاعرُ[1] : [من الطويل]

وَلَوْ كانَتِ ٱلأَرْزاقُ تَجْرِي عَلَى ٱلْحِجا ... هَلَكْـنَ إِذاً مِـنْ جَهْلِهِـنَّ ٱلْبَهـائِـمُ

* * *

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (٣/ ١٧٨) .

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلمْ : أنَّ مثالَ الخلقِ معَ اللهِ تعالىٰ مثالُ طائفةٍ مِنَ السؤَّالِ وقفوا في ميدانٍ علىٰ بابِ قصرِ الملكِ وهمْ محتاجونَ إلى الطعامِ ، فأخرجَ إليهِم غلماناً كثيرةً ومعَهُمْ أرغفةٌ مِنَ الخبزِ ، وأمرَهُمْ أنْ يعطوا بعضَهُمْ رغيفينِ رغيفينِ ، وبعضَهُمْ رغيفاً رغيفاً ، ويجتهدوا في ألا يغفُلوا عنْ واحدٍ منهُمْ ، وأمرَ منادياً حتَّىٰ نادىٰ فيهِمْ : أنِ اسكنوا ولا تتعلَّقوا بغلماني إذا خرجوا إليكُمْ ، بلْ ينبغي أنْ يطمئنَّ كلُّ واحدٍ منكُمْ في موضعِهِ ، فإنَّ الغلمانَ مسخَّرونَ وهُمْ مأمورونَ بأنْ يوصلوا إليكُمْ طعامَكُمْ ، فمَنْ تعلَّقَ بالغلمانِ وآذاهُمْ وأخذَ رغيفينِ ؛ فإذا فُتحَ بابُ الميدانِ وخرجَ . أتبعتُهُ بغلامٍ يكونُ موكلاً بهِ إلىٰ أنْ أتقدمَ لعقوبتِهِ في ميعادٍ معلومٍ عندي ولكنِّي أخفيهِ ، ومَنْ لمْ يؤذِ الغلمانَ وقنعَ برغيفٍ واحدٍ أتاهُ مِنْ يدِ الغلامِ وهوَ ساكنٌ . فإنِّي أخصُّهُ بخلعةٍ سنيَّةٍ في الميعادِ المذكورِ لعقوبةِ الآخرِ ، ومَنْ ثبتَ في مكانِهِ ولكنَّهُ أخذَ رغيفينِ . فلا عقوبةَ عليهِ ولا خلعةَ لهُ ، ومَنْ أخطأَهُ غلماني فما أوصلوا إليهِ شيئاً ، فباتَ الليلةَ جائعاً غيرَ متسخِّطٍ على الغلمانِ ولا قائلٍ : ليتَهُ أوصلَ إليَّ رغيفاً . فإنِّي غداً أستوزرُهُ وأفوِّضُ ملكي إليهِ .

فانقسمَ السؤَّالُ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ :

قسمٌ غلبَتْ عليهِمْ بطونُهُمْ فلمْ يلتفتوا إلى العقوبةِ الموعودةِ ، وقالوا :

مِنَ اليومِ إلىٰ غدٍ فرجٌ ، ونحنُ الآنَ جائعونَ ، فبادروا إلى الغلمانِ فآذوهُمْ وأخذوا الرغيفينِ ، فسبقَتِ العقوبةُ إليهِمْ في الميعادِ المذكورِ ، فندموا ولمْ ينفعْهُمُ الندمُ .

وقسمٌ تركوا التعلُّقَ بالغلمانِ خوفَ العقوبةِ ، ولكنْ أخذوا رغيفينِ لغلبةِ الجوعِ ، فسلموا مِنَ العقوبةِ ، وما فازوا بالخلعةِ .

وقسمٌ قالوا : إنَّا نجلسُ بمرأىً مِنَ الغلمانِ حتَّىٰ لا يخطئونا ، ولكنَّا لا نأخذُ إذا أعطونا إلا رغيفاً واحداً ، ونقنعُ بهِ ، فلعلَّنا نفوزُ بالخلعةِ ، ففازوا بها .

وقسمٌ رابعٌ اختفَوا في زوايا الميدانِ ، وانحرفوا عنْ مرأىٰ أعينِ الغلمانِ ، وقالوا : إنِ اتبعونا وأعطَونا.. قنعنا برغيفٍ واحدٍ ، وإنْ أخطؤونا.. قاسينا شدَّةَ الجوعِ الليلةَ ، فلعلَّنا نقوىٰ علىٰ تركِ التسخُّطِ ، فننالَ رتبةَ الوزارةِ ودرجةَ القربِ عندَ الملكِ ، فما نفعَهُمْ ذلكَ ؛ إذْ تبعَهُمُ الغلمانُ في كلِّ زاويةٍ وأعطَوا كلَّ واحدٍ رغيفاً واحداً ، وجرىٰ مثلُ ذلكَ أياماً ، حتَّى اتفقَ على الندورِ أنِ اختفىٰ ثلاثةٌ في زاويةٍ ولمْ تقعْ عليهِمْ أبصارُ الغلمانِ ، وشغلَهُمْ شغلٌ صارفٌ عنْ طولِ التفتيشِ ، فباتوا في جوعٍ شديدٍ ، فقالَ اثنانِ منهُمْ : ليتَنا تعرَّضنا للغلمانِ وأخذنا طعامَنا ، فلسنا نطيقُ الصبرَ ، وسكتَ الثالثُ إلى الصباحِ ، فنالَ درجةَ القربِ والوزارةِ .

فهـٰذا مثالُ الخلقِ ، فالميدانُ هوَ الحياةُ الدنيا ، وبابُ الميدانِ الموتُ ،

والميعادُ المجهولُ يومُ القيامةِ ، والوعدُ بالوزارةِ هوَ الوعدُ بالشهادةِ للمتوكلِ إذا ماتَ جائعاً راضياً مِنْ غيرِ تأخيرِ ذلكَ إلىٰ ميعادِ القيامةِ ؛ لأنَّ الشهداءَ أحياءٌ عندَ ربِّهِمْ يُرزقونَ ، والمتعلِّقُ بالغلمانِ هوَ المتعدِّي في الأسبابِ ، والغلمانُ المسخَّرونَ هُمُ الأسبابُ ، والجالسُ في ظاهرِ الميدانِ بمرأى الغلمانِ هُمُ المقيمونَ في الأمصارِ في الرباطاتِ والمساجدِ علىٰ هيئةِ السكونِ ، والمختفونَ في الزوايا هُمُ السائحونَ في البوادي علىٰ هيئةِ التوكلِ ، والأسبابُ تتبعُهُمْ ، والرزقُ يأتيهِمْ إلا علىٰ سبيلِ الندورِ ، فإنْ ماتَ واحدٌ منهُمْ جائعاً راضياً . . فلهُ الشهادةُ والقربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وقدِ انقسمَ الخلقُ إلىٰ هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ ، فلعلَّ مِنْ كلِّ مئةٍ تعلَّقَ بالأسبابِ تسعونَ ، وأقامَ سبعةٌ مِنَ العشرةِ الباقيةِ في الأمصارِ متعرِّضينَ للسببِ بمجرَّدِ حضورِهِمْ واشتهارِهِمْ ، وساحَ في البوادي ثلاثةٌ ، وتسخَّطَ منهُمُ اثنانِ ، وفازَ بالقربِ واحدٌ ، ولعلَّهُ كذلكَ كانَ في الأعصارِ السالفةِ ، وأمَّا الآنَ . . فالتاركُ للأسبابِ لا ينتهي إلىٰ واحدٍ مِنْ عشرةِ آلافٍ .

❋ ❋ ❋

الفنّ الثاني : في التعرض لأسباب الادخار

فمَنْ حصلَ لهُ مالٌ بإرثٍ أوْ كسبٍ أوْ سؤالٍ أوْ سببٍ مِنَ الأسبابِ . . فلهُ في ادخارِهِ ثلاثةُ أحوالٍ :

الحالةُ الأولىٰ : أنْ يأخذَ قدْرَ حاجتِهِ في الوقتِ ، فيأكلَ إنْ كانَ جائعاً ، ويلبسَ إنْ كانَ عارياً ، ويشتريَ مسكناً مختصراً إنْ كانَ محتاجاً ، ويفرِّقَ الباقيَ في الحالِ ، ولا يأخذُ ولا يدَّخرُ إلا القدرَ الذي يدركُ بهِ منْ يستحقُّهُ ويحتاجُ إليهِ ، فيدخرُهُ علىٰ هٰذهِ النيّةِ ، فهٰذا هوَ الوفاءُ بموجَبِ التوكلِ تحقيقاً ، وهيَ الدرجةُ العليا .

الحالةُ الثانيةُ المقابلةُ لهٰذهِ ، المخرجةُ لهُ عنْ حدودِ التوكلِ : أنْ يدخرَ لسنةٍ فما فوقَها ، فهٰذا ليسَ مِنَ المتوكلينَ أصلاً ، وقدْ قيلَ : (لا يدخرُ مِنَ الحيواناتِ إلا ثلاثةٌ : الفأرةُ ، والنملةُ ، وابنُ آدمَ)[1] .

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يدخرَ لأربعينَ يوماً فما دونَها ، فهٰذا هلْ يوجبُ حرمانَهُ عنِ المقامِ المحمودِ الموعودِ في الآخرةِ للمتوكلينَ ؟ اختلفوا فيهِ : فذهبَ سهلٌ إلىٰ أنَّهُ يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ ، وذهبَ الخوّاصُ إلىٰ أنَّهُ لا يخرجُ بأربعينَ يوماً ، ويخرجُ بما يزيدُ على الأربعينَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤) .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : لا يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ بالزيادةِ على الأربعينَ أيضاً[1] .

وهـٰذا اختلافٌ لا معنىٰ لهُ بعدَ تجويزِ أصلِ الادخارِ ، نعمْ ، يجوزُ أنْ يظنَّ ظانٌّ أنَّ أصلَ الادخارِ يناقضُ التوكلَ ، فأمَّا التقديرُ بعدَ ذلكَ.. فلا مدركَ لهُ ، وكلُّ ثوابٍ موعودٍ علىٰ رتبةٍ فإنَّهُ يتوزعُ علىٰ تلكَ الرتبةِ وتلكَ الرتبةُ لها بدايةٌ ونهايةٌ ، ويُسمَّىٰ أصحابُ النهاياتِ السابقينَ ، وأصحابُ البداياتِ أصحابَ اليمينِ ، ثمَّ أصحابُ اليمينِ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، وكذلكَ السابقونَ ، وأعالي درجاتِ أصحابِ اليمينِ تلاصقُ أسافلَ درجاتِ السابقينَ ، فلا معنىٰ للتقديرِ في مثلِ هـٰذا .

بلِ التحقيقُ : أنَّ التوكلَ بتركِ الادخارِ لا يتمُّ إلا بقصرِ الأملِ ، وأمَّا عدمُ أملِ البقاءِ.. فيبعدُ اشتراطُهُ ولوْ في نَفَسٍ ؛ فإنَّ ذلك كالممتنعِ وجودُهُ ، وأمَّا الناسُ.. فمتفاوتونَ في طولِ الأملِ وقصرِهِ ، وأقلُّ درجاتِ الأملِ يومٌ وليلةٌ فما دونَهُ مِنَ الساعاتِ ، وأقصاهُ ما يُتصوَّرُ أنْ يكونَ عمرَ الإنسانِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا حصرَ لها ، فمَنْ لمْ يؤمِّلْ أكثرَ مِنْ شهرٍ أقربُ إلى المقصودِ ممَّنْ يؤمِّلُ سنةً ، وتقييدُهُ بأربعينَ لأجلِ ميعادِ موسىٰ عليهِ السلامُ بعيدٌ ؛ فإنَّ تلكَ الواقعةَ ما قُصِدَ بها بيانُ مقدارِ ما يُرخَّصُ الأملُ فيهِ ، ولكنِ استحقاقُ موسىٰ لنيلِ الموعودِ كانَ لا يتمُّ إلا بعدَ أربعينَ يوماً لسرٍّ جرتْ بهِ

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠) ، وقد نقل كلام سهل والخواص .

وبأمثالِهِ سنّةُ اللهِ تعالىٰ في تدريجِ الأمورِ ، كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : (إنَّ اللهَ خمَّرَ طينةَ آدمَ بيدِهِ أربعينَ صباحاً)[1] لأنَّ استحقاقَ تلكَ الطينةِ للتخميرِ كانَ موقوفاً علىٰ مدَّةٍ مبلغُها ما ذُكِرَ .

فإذاً ؛ ما وراءَ السنةِ لا يُدَّخرُ لهُ إلا بحكمِ ضعفِ القلبِ ، والركونِ إلىٰ ظاهرِ الأسبابِ ، فهوَ خارجٌ عن مقامِ التوكلِ ، غيرُ واثقٍ بإحاطةِ التدبيرِ مِنَ الوكيلِ الحقِّ بخفايا الأسبابِ ، فإنَّ أسبابَ الدخلِ في الارتفاعاتِ والزكواتِ تتكرَّرُ بتكرُّرِ السنينَ غالباً ، ومَنِ ادَّخرَ لأقلَّ مِنْ سنةٍ . . فلهُ درجةٌ بحسبِ قصرِ أملِهِ ، ومَنْ كانَ أملُهُ شهرينِ . . لمْ تكنْ درجتُهُ كدرجةِ مَنْ أمَّلَ شهراً ، ولا درجةِ مَنْ أمَّلَ ثلاثةَ أشهرٍ ، بلْ هوَ بينَهُما في الرتبةِ .

ولا يمنعُ مِنَ الادخارِ إلا قصرُ الأملِ ، فالأفضلُ ألا يدَّخرَ أصلاً ، فإنْ ضعُفَ قلبُهُ ؛ فكلَّما قلَّ ادخارُهُ . . كانَ فضلُهُ أكثرَ ، وقدْ رُوِيَ في الفقيرِ الذي أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علياً كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وأسامةَ أنْ يغسلاهُ فغسَّلاهُ وكفَّناهُ ببردتِهِ ، فلمَّا دفنَهُ . . قالَ لأصحابِهِ : « إنَّهُ يُبعثُ يومَ القيامةِ ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، ولولا خصلةٌ كانَتْ فيهِ . . لبُعثَ ووجهُهُ كالشمسِ الضاحيةِ » ، قلنا : وما هيَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « كانَ صوَّاماً قوَّاماً كثيرَ

---

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦٣) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٣٠٩) موقوفاً علىٰ سلمان أو ابن مسعود رضي الله عنهما ، ووقع في بعض النسخ عدم رفع الحديث ، قال البيهقي عقب روايته : (وروي ذلك من وجه آخر ضعيف عن التيمي مرفوعاً ، وليس بشيء) .

الذكرِ للهِ تعالىٰ ، غيرَ أنَّهُ كانَ إذا جاءَهُ الشتاءُ . . ادَّخرَ حُلَّةَ الصيفِ لصيفِهِ ، وإذا جاءَ الصيفُ . . ادَّخرَ حلَّةَ الشتاءِ لشتائِهِ » ، ثمَّ قالَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديثَ[1] .

وليسَ الكوزُ والشفرةُ وما يُحتاجُ إليهِ على الدوامِ في معنىٰ ذلكَ ، فادخارُهُ لا ينقصُ الدرجةَ ، وأمّا ثوبُ الشتاءِ . . فلا يُحتاجُ إليهِ في الصيفِ ، وهـٰذا في حقِّ مَنْ لا ينزعجُ قلبُهُ بتركِ الادخارِ ، ولا تستشرفُ نفسُهُ إلىٰ أيدي الخلقِ ، بلْ لا يلتفتُ قلبُهُ إلا إلى الوكيلِ الحقِّ .

فإنْ كانَ يستشعرُ في نفسِهِ اضطراباً يشغلُ قلبَهُ عنِ العبادةِ والذكرِ والفكرِ . . فالادخارُ لهُ أولىٰ ، بلْ لوْ أمسكَ ضيعةً يكونُ دخلُها وافياً بقدْرِ كفايتِهِ ، وكانَ لا يتفرَّغُ قلبُهُ إلا بهِ . . فذلكَ لهُ أولىٰ ؛ لأنَّ المقصودَ إصلاحُ القلوبِ لتتجرَّدَ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وربَّ شخصٍ يشغلُهُ وجودُ المالِ وربَّ شخصٍ يشغلُهُ عدمُهُ ، والمحذورُ ما يشغلُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وإلا . . فالدنيا في عينِها غيرُ محذورةٍ ، لا وجودُها ولا عدمُها .

ولذلكَ بُعثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصنافِ الخلقِ ، وفيهِمُ التجارُ والمحترفونَ وأهلُ الحرفِ والصناعاتِ ، فلمْ يأمرِ التاجرَ بتركِ تجارتِهِ ، ولا المحترفَ بتركِ حرفتِهِ ، ولا أمرَ التاركَ لهُما بالاشتغالِ بهِما ،

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٥٠٣) : (رواه صاحب « القوت » بسنده إلىٰ شهر بن حوشب عن أبي أمامة رضي الله عنه) .

بلْ دعا الكلَّ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأرشدَهُمْ إلىٰ أنَّ فوزَهُمْ ونجاتَهُمْ في انصرافِ قلوبِهِمْ عنِ الدنيا إلى اللهِ تعالىٰ ، وعمدةُ الاشتغالِ باللهِ عزَّ وجلَّ القلبُ ، فصوابُ الضعيفِ ادخارُ قدْرِ حاجتِهِ ، كما أنَّ صوابَ القويِّ تركُ الادخارِ ، وهـٰذا كلُّهُ حكمُ المنفردِ .

فأمَّا المعيلُ . . فلا يخرجُ عنْ حدِّ التوكلِ بادخارِ قوتِ سنةٍ لعيالِهِ ؛ جبراً لضعفِهِمْ ، وتسكيناً لقلوبِهِمْ ، وادخارُ أكثرَ مِنْ ذلكَ مبطلٌ للتوكلِ ؛ لأنَّ الأسبابَ تتكرَّرُ عندَ تكرُّرِ السنينَ ، فادخارُ ما يزيدُ عليهِ مصدرُهُ ضعفُ قلبِهِ ، وذلكَ يناقضُ قوَّةَ التوكلِ ، فالمتوكلُ عبارةٌ عنْ موحدٍ قويِّ القلبِ ، مطمئنِّ النفسِ إلىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ ، واثقٍ بتدبيرِهِ دونَ وجودِ الأسبابِ الظاهرةِ .

وقدِ ادخرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعيالِهِ قوتَ سنةٍ[١] ، ونهىٰ أمَّ أيمنَ وغيرَها أنْ تدَّخرَ لهُ شيئاً لغدٍ[٢] ، ونهىٰ بلالاً عنِ الادخارِ في كسرةِ خبزٍ ادخرَها ليفطرَ عليها، فقالَ : «أنفقْ بلالاً ، ولا تخشَ مِنْ ذي العرشِ إقلالاً»[٣] ،

(١) كما في « البخاري » (٢٩٠٤) ، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

(٢) قوت القلوب (٢ / ٢٠) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١ / ٣٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢ / ٢٨٠) =

وقالَ لهُ : « إذا سُئلتَ . . فلا تمنعْ ، وإذا أُعطيتَ . . فلا تخبِّىءْ »[١] ، فالاقتداءُ بسيِّدِ المتوكلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وقدْ كانَ قصُرَ أملُهُ بحيثُ كانَ إذا بالَ . . تيمَّمَ معَ قربِ الماءِ ، ويقولُ : « ما يدريني ، لعلِّي لا أبلغُهُ »[٢] .

وقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوِ ادَّخرَ . . لمْ ينقصْ ذلكَ مِنْ توكلِهِ ؛ إذْ كانَ لايثقُ بما ادخرَهُ ، ولكنَّهُ تركَهُ تعليماً للأقوياءِ مِنْ أمتِهِ ، فإنَّ أقوياءَ أمَّتِهِ ضعفاءُ بالإضافةِ إلىٰ قوَّتِهِ وادَّخرَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لعيالِهِ سنةً لا لضعفِ قلبٍ فيهِ وفي عيالِهِ ، ولكنْ ليسُنَّ ذلكَ للضعفاءِ مِنْ أمَّتِهِ ، ثمَّ أخبرَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ أنْ تُؤتىٰ رخصُهُ كما يُحبُّ أنْ تُؤتىٰ عزائمُهُ[٣] ؛ تطييباً لقلوبِ الضعفاءِ ، حتىٰ لا ينتهيَ بهِمُ الضعفُ إلى اليأسِ والقنوطِ ، فيتركونَ الميسورَ مِنَ الخيرِ عليهِمْ ؛ لعجزِهِمْ عنْ منتهى الدرجاتِ ، فما أُرسلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلا رحمةً للعالمينَ كلِّهِمْ ، على اختلافِ أصنافِهِمْ ودرجاتِهِمْ .

وإذا فهمتَ هٰذا . . علمتَ أنَّ الادِّخارَ قدْ يضرُّ بعضَ الناسِ وقدْ

= (٦/ ٣٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٨٣) ، وكان المدَّخر صُبرة من تمر ، لا كسرة خبز ، وروايته بالبناء على الضم في (بلال) ، ومن نوَّنه ونصبه فلمناسبة (إقلالاً) له ، وللمزاوجة في الكلام .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٦) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٠٨) .

لا يضرُّ ، ويدلُّ عليهِ ما روى أبو أمامةَ الباهليُّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ بعضَ أصحابِ الصفَّةِ تُوفِّيَ ، فما وُجدَ لهُ كفنٌ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فتِّشوا ثوبَهُ » ، فوجدوا فيهِ دينارينِ في داخلِ إزارِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيَّتانِ »[1] ، وقدْ كانَ غيرُهُ مِنَ المسلمينَ يموتُ ويخلِّفُ أموالاً ولا يقولُ ذلكَ في حقِّهِ ، وهـٰذا يحتملُ وجهينِ ؛ لأنَّ حالَهُ يحتملُ حالينِ :

أحدهُمُا : أنَّهُ أرادَ (كيّتانِ) مِنَ النارِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، وذلك إذا كانَ حالُهُ إظهارَ الزهدِ والفقرِ والتوكلِ معَ الإفلاسِ عنهُ ، فهوَ نوعُ تلبيسٍ .

والثاني : ألا يكونَ ذلكَ عنْ تلبيسٍ ، فيكونَ المعنيُّ بهِ النقصانَ عنْ درجةِ كمالِهِ ؛ كما ينقصُ مِنْ جمالِ الوجهِ أثرُ كيتينِ في الوجهِ ، وذلكَ لا يكونُ عنْ تلبيسٍ ، فإنَّ كلَّ ما يخلِّفُهُ الرجلُ فهوَ نقصانٌ عنْ درجتِهِ في الآخرةِ ؛ إذْ لا يُؤتىٰ أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا نقصَ بقدرِهِ مِنَ الآخرةِ .

وأمَّا بيانُ أنَّ الادخارَ معَ فراغِ القلبِ عنِ المدخرِ ليسَ مِنْ ضرورتِهِ بطلانُ التوكلِ . . فيشهدُ لهُ ما رُوِيَ عنْ بشرٍ ؛ قالَ الحسينُ المغازليُّ مِنْ أصحابِهِ : كنتُ عندَهُ ضحوةً مِنَ النهارِ ، فدخلَ رجلٌ كهلٌ أسمرُ خفيفُ العارضينِ ، فقامَ إليهِ بشرٌ ، قالَ : وما رأيتُهُ قامَ لأحدٍ غيرِهِ ، قالَ : ودفعَ إليَّ كفّاً مِنْ دراهمَ وقالَ : اشترِ لنا مِنْ أجودِ ما تقدرُ عليهِ مِنَ الطعامِ الطيِّبِ ، وما قالَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٣) .

لي قطُّ مثلَ ذلكَ . قالَ : فجئتُ بالطعامِ ، فوضعتُهُ ، فأكلَ معَهُ وما رأيتُهُ أكلَ معَ غيرِهِ ، قالَ : فأكلنا حاجتَنا ، وبقيَ مِنَ الطعامِ شيءٌ كثيرٌ ، فأخذَهُ الرجلُ وجمعَهُ في ثوبِهِ وحملَهُ معهُ وانصرفَ ، فعجبتُ مِنْ ذلكَ وكرهتُهُ لهُ ، فقالَ لي بشرٌ : لعلَّكَ أنكرتَ فعلَهُ ؟ قلتُ : نعمْ ، أخذَ بقيَّةَ الطعامِ مِنْ غيرِ إذنٍ ، فقالَ : ذاكَ أخونا فتحٌ الموصليُّ ، زارَنا اليومَ مِنَ الموصلِ ، وإنَّما أرادَ أنْ يعلِّمنا أنَّ التوكلَ إذا صحَّ . . لمْ يضرَّ معَهُ الادخارُ[1] .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩) .

الفنّ الثّالث: في مباشرة الأسباب الدّافعة للضّرر المُعرِّض للخوف[1]

اعلمْ : أنَّ الضررَ قدْ يعرضُ للخوفِ في نفسٍ أوْ مالٍ ، وليسَ من شرطِ التوكلِ تركُ الأسبابِ الدافعةِ رأساً ، أمَّا في النفسِ . . فكالنومِ في الأرضِ المَسْبَعَةِ[2] ، أوْ في مجرى السيلِ مِنَ الوادي ، أوْ تحتَ الجدارِ المائلِ والسقفِ المنكسرِ ، فكلُّ ذلكَ منهيٌّ عنهُ ، وصاحبُهُ قدْ عرَّضَ نفسَهُ للهلاكِ بغيرِ فائدةٍ .

نعمْ ، تنقسمُ هـٰذهِ الأسبابُ إلىٰ مقطوعٍ بها ، وإلىٰ مظنونةٍ ، وإلىٰ موهومةٍ ، فتركُ الموهومِ منها مِنْ شرطِ التوكلِ ، وهيَ التي نسبتُها إلىٰ دفعِ الضررِ نسبةُ الكيِّ والرقيةِ ؛ فإنَّ الكيَّ والرقيةَ قدْ تقدَّمُ على المحذورِ دفعاً لما يُتوقَّعُ ، وقد يُستعملُ بعدَ نزولِ المحذورِ للإزالةِ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يصفِ المتوكلينَ إلا بتركِ الكيِّ والرقيةِ والطيرةِ ، ولمْ يصفْهُمْ بأنَّهُمْ إذا خرجوا إلىٰ موضعٍ باردٍ لمْ يلبسوا جبةً ، والجبةُ تُلبسُ دفعاً للبردِ المتوقَّعِ ، وكذلكَ كلُّ ما في معناها مِنَ الأسبابِ .

نعمْ ، الاستظهارُ بأكلِ الثومِ مثلاً عندَ الخروجِ إلىٰ سفرٍ في الشتاءِ تهييجاً لقوَّةِ الحرارةِ مِنَ الباطنِ . . ربَّما يكونُ مِنْ قبيلِ التعمُّقِ في الأسبابِ والتعويلِ

---

(١) في النسخ : (المتعرض) بدل (المعرض) ، والمثبت من (ق) .
(٢) أي : ذات سباع .

عليها ، فيكادُ يقربُ مِنَ الكيِّ ، بخلافِ الجبَّةِ .

ولتركِ الأسبابِ الدافعةِ وإنْ كانَتْ مقطوعةً وجهٌ إذا نالَ الضررُ مِنْ إنسانٍ ، فإنَّهُ إذا أمكنَهُ الصبرُ وأمكنَهُ الدفعُ والتشفِّي . . فشرطُ التوكلِ الاحتمالُ والصبرُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ . وقالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وهـٰذا في أذى الناسِ .

وأمَّا الصبرُ علىٰ أذى الحيَّاتِ والسباعِ والعقاربِ . . فتركُ دفعِها ليسَ مِنَ التوكلِ في شيءٍ ؛ إذْ لا فائدةَ فيهِ ، ولا يرادُ السعيُ ولا تركُ السعيِ لعينِهِ ، بلْ لإعانتِهِ على الدينِ ، وترتُّبُ الأسبابِ هـٰهنا كترتُّبِها في الكسبِ وجلبِ النافعِ ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

وكذلكَ في الأسبابِ الدافعةِ عنِ المالِ ، فلا ينقصُ التوكلُ بإغلاقِ بابِ البيتِ عندَ الخروجِ ، ولا بأنْ يعقلَ البعيرَ ؛ لأنَّ هـٰذهِ أسبابٌ عُرِفَتْ بسنَّةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إمَّا قطعاً ، وإمَّا ظنّاً ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للأعرابيِّ لمَّا أنْ أهملَ البعيرَ وقالَ : توكلتُ على اللهِ : « اعقلْها وتوكلْ »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾ .

وقالَ في كيفيَّةِ صلاةِ الخوفِ : ﴿ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ ﴾ .

وقالَ سبحانَهُ : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا ﴾ ، والتحصُّنُ بالليلِ اختفاءً عنْ أعينِ العدوِّ نوعُ تسبُّبٍ .

واختفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الغارِ عنْ أعينِ الأعداءِ دفعاً للضررِ(١) .

وأخذُ السلاحِ في الصلاةِ ليسَ دافعاً قطعاً كقتلِ الحيَّةِ والعقربِ ؛ فإنَّهُ دافعٌ قطعاً ، ولكنْ أخذُ السلاحِ سببٌ مظنونٌ ، وقدْ بيَّنا أنَّ المظنونَ كالمقطوعِ ، وإنَّما الموهومُ هوَ الذي يقتضي التوكلُ تركَهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ أنَّ منهُمْ مَنْ وضعَ الأسدُ يدَهُ علىٰ كتفِهِ ولمْ يتحرَّكْ .

فأقولُ : وقدْ حُكِيَ عنْ جماعةٍ أنَّهُمْ ركبوا الأسدَ وسخَّروهُ ، فلا ينبغي أنْ يغرَّكَ ذلكَ المقامُ ، فإنَّهُ وإنْ كانَ صحيحاً في نفسِهِ فلا يصلحُ للاقتداءِ بطريقِ التعلُّمِ مِنَ الغيرِ ، بلْ ذلكَ مقامٌ رفيعٌ في الكراماتِ ، وليسَ ذلكَ

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

شرطاً في التوكلِ ، وفيهِ أسرارٌ لا تقفُ عليها ما لمْ تنتهِ إليها .

فإنْ قلتَ : وهلْ مِنْ علامةٍ أعلمُ بها أنِّي قدْ وصلتُ إليهِ ؟

فأقولُ : الواصلُ لا يحتاجُ إلىٰ طلبِ العلاماتِ ، ولكنْ مِنَ العلاماتِ السابقةِ عليهِ أنْ يُسخَّرَ لكَ كلبٌ هوَ معكَ في إهابِكَ يُسمَّى الغضبَ ، فلا يزالُ يعضُّكَ ويعضُّ غيرَكَ ، فإنْ سُخِّرَ لكَ هـٰذا الكلبُ بحيثُ إذا هُيِّجَ وأُشْلِيَ . . لمْ يستشلِ إلا بإشارتِكَ ، وكانَ مسخَّراً لكَ ، فربَّما ترتفعُ درجتُكَ إلىٰ أنْ يسخَّرَ لكَ الأسدَ الذي هوَ ملكُ السباعِ ، وكلبُ دارِكَ أولىٰ بأنْ يكونَ مسخَّراً لكَ مِنْ كلبِ البوادي ، وكلبُ إهابِكَ أولىٰ بأنْ يُسخَّرَ مِنْ كلبِ دارِكَ ، فإذا لمْ يُسخَّرْ لكَ الكلبُ الباطنُ . . فلا تطمعْ في استسخارِ الكلبِ الظاهرِ .

فإنْ قلتَ : فإذا أخذَ المتوكلُ سلاحَهُ حذراً مِنَ العدوِّ ، وأغلقَ بابَهُ حذراً مِنَ اللصِّ ، وعقلَ بعيرَهُ حذراً مِنْ أنْ ينطلقَ . . فبأيِّ اعتبارٍ يكونُ متوكلاً ؟

فأقولُ : يكونُ متوكلاً بالعلمِ والحالِ .

فأمَّا العلمُ . . فهوَ أنْ يعلمَ أنَّ اللصَّ إنِ اندفعَ . . لمْ يندفعْ بكفايتِهِ في إغلاقِ البابِ ، بلْ بدفعِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، فكمْ مِنْ بابٍ يُغلقُ ولا ينفعُ ، وكمْ مِنْ بعيرٍ يُعقلُ ويموتُ أوْ يفلتُ ، وكمْ مِنْ آخذٍ سلاحَهُ يُقتلُ أوْ يُغلبُ ! فلا تتكلْ علىٰ هـٰذهِ الأسبابِ أصلاً ، بلْ علىٰ مسبِّبِ الأسبابِ كما ضربنا المثلَ

في الوكيلِ بالخصومةِ ؛ فإنَّهُ وإنْ حضرَ وأحضرَ السجلَّ . . فلا يتكلُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ سجلِّهِ ، بل علىٰ كفايةِ الوكيلِ وقوَّتِهِ .

وأمَّا الحالُ . . فهوَ أنْ يكونَ راضياً بما يقضي اللهُ تعالىٰ بهِ في بيتِهِ ونفسِهِ ، ويقولَ : اللهمَّ ؛ إنْ سلَّطتَ علىٰ ما في البيتِ مَنْ يأخذُهُ . . فهوَ في سبيلِكَ ، وأنا راضٍ بحكمِكَ ؛ فإنِّي لا أدري أنَّ ما أعطيتَني هبةٌ فلا تسترجعُها ، أوْ عاريةٌ أوْ وديعةٌ فتستردُّها ؟ ولا أدري أنَّها رزقي ، أوْ سبقَتْ مشيئتُكَ في الأزلِ بأنَّهُ رزقُ غيري ؟ وكيفما قضيتَ . . فأنا راضٍ بهِ ، وما أغلقتُ البابَ تحصُّناً مِنْ قضائِكَ وتسخُّطاً لهُ ، بلْ جرياً علىٰ مقتضىٰ سنَّتِكَ في ترتيبِ الأسبابِ ، فلا ثقةَ إلا بكَ يا مسبِّبَ الأسبابِ .

فإذا كانَ هـٰذا حالَهُ ، وذلكَ الذي ذكرناهُ علمُهُ . . لمْ يخرجْ عنْ حدودِ التوكلِ بعقلِ البعيرِ وأخذِ السلاحِ وإغلاقِ البابِ .

ثمَّ إذا عادَ فوجدَ متاعَهُ في البيتِ . . فينبغي أنْ يكونَ ذلكَ عندَهُ نعمةً جديدةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإنْ لمْ يجدْهُ ، بلْ وجدَهُ مسروقاً ؛ نظرَ إلىٰ قلبِهِ ، فإنْ وجدَهُ راضياً أوْ فرحاً بذلكَ عالماً أنَّهُ ما أخذَ اللهُ ذلكَ منهُ إلا ليزيدَ رزقَهُ في الآخرةِ . . فقدْ صحَّ مقامُهُ في التوكلِ ، وظهرَ لهُ صدقُهُ ، وإنْ تألَّمَ قلبُهُ بهِ ، ووجدَ قوَّةَ الصبرِ . . فقدْ بانَ لهُ أنَّهُ ما كانَ صادقاً في دعوى التوكلِ ؛ لأنَّ التوكلَ مقامٌ بعدَ الزهدِ ، ولا يصحُّ الزهدُ إلا ممَّنْ لا يأسفُ علىٰ ما فاتَ مِنَ الدنيا ولا يفرحُ بما يأتي ، بلْ قدْ يكونُ على العكسِ منهُ ، فكيفَ يصحُّ لهُ التوكلُ ؟!

نعمْ ، قدْ صحَّ لهُ مقامُ الصبرِ إنْ أخفاهُ ولمْ يظهرْ شكواهُ ، ولمْ يكثرْ سعيَهُ في الطلبِ والتجسسِ ، وإنْ لمْ يقدرْ علىٰ ذلكَ حتَّىٰ تأذَّىٰ بقلبِهِ ، وأظهرَ الشكوىٰ بلسانِهِ ، واستقصى الطلبَ ببدنِهِ . . فقدْ كانَتِ السرقةُ مزيداً لهُ في ذنبِهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ظهرَ لهُ قصورُهُ عن جميعِ المقاماتِ ، وكذبُهُ في جميعِ الدعاوىٰ ، فبعدَ هـٰذا ينبغي أنْ يجتهدَ حتَّىٰ لا يصدِّقَ نفسَهُ في دعاويها ، ولا يتدلَّىٰ بحبلِ غرورِها ، فإنَّها خدَّاعةٌ أمَّارةٌ بالسوءِ مدعيةٌ للخيرِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يكونُ للمتوكلِ مالٌ حتَّىٰ يُؤخذَ ؟

فأقولُ : المتوكلُ لا يخلو بيتُهُ مِنْ متاعٍ ؛ كقصعةٍ يأكلُ فيها ، وكوزٍ يشربُ منهُ ، وإناءٍ يتوضَّأُ منهُ ، وجرابٍ يحفظُ بهِ زادَهُ ، وعصاً يدفعُ بها عدوَّهُ ، وغيرِ ذلكَ مِنْ ضروراتِ المعيشةِ مِنْ أثاثِ البيتِ ، وقدْ يدخلُ في يدِهِ مالٌ وهوَ يمسكُهُ ليجدَ محتاجاً فيصرفَهُ إليهِ ، فلا يكونُ ادخارُهُ علىٰ هـٰذهِ النيَّةِ مبطلاً لتوكلِهِ ، وليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ إخراجُ الكوزِ الذي يشربُ منهُ ، والجرابِ الذي فيهِ زادُهُ ، وإنَّما ذلكَ في المأكولِ ، وفي كلِّ مالٍ زائدٍ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بوصولِ الخيرِ إلى الفقراءِ المتوكلينَ في زوايا المساجدِ ، وما جرتِ السنَّةُ بتفرقةِ الكيزانِ والأمتعةِ في كلِّ يومٍ ولا في كلِّ أسبوعٍ ، والخروجُ عنْ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ ليسَ شرطاً في التوكلِ .

ولذلكَ كانَ الخوَّاصُ يأخذُ في السفرِ الحبلَ والركوةَ والمقراضَ والإبرةَ دونَ الزادِ[1] ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بالفرقِ بينَ الأمرينِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يُتصوَّرُ ألا يحزنَ إذا أُخذَ متاعُهُ الذي هوَ محتاجٌ إليهِ ولا يأسفَ عليهِ ؟ فإنْ كانَ لا يشتهيهِ . . فلمَ أمسكَهُ وأغلقَ البابَ عليهِ ؟

وإن كانَ أمسكَهُ لأنَّهُ يشتهيهِ لحاجتِهِ إليهِ . . فكيفَ لا يتأذَّىٰ قلبُهُ ولا يحزنُ وقدْ حيلَ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ؟

فأقولُ : إنَّما كانَ يحفظُهُ ليستعينَ بهِ علىٰ دينِهِ ؛ إذْ كانَ يظنُّ أنَّ الخيرةَ لهُ في أنْ يكونَ لهُ ذلكَ المتاعُ . ولولا أنَّ الخيرةَ لهُ فيهِ . . لما رزقَهُ اللهُ تعالىٰ ولما أعطاهُ إيَّاهُ ، فاستدلَّ علىٰ ذلكَ بتيسيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحسنِ الظنِ باللهِ تعالىٰ معَ ظنِّهِ أنَّ ذلكَ معينٌ لهُ علىٰ أسبابِ دينِهِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ عندَهُ مقطوعاً بهِ ؛ إذْ يحتملُ أنْ تكونَ خيرتُهُ في أنْ يُبتلىٰ بفقدِ ذلكَ حتَّىٰ ينصبَ في تحصيلِ غرضِهِ ، ويكونَ ثوابُهُ في التعبِ والنصبِ أكثرَ ، فلمَّا أخذَهُ اللهُ تعالىٰ منهُ بتسليطِ اللصِّ . . تغيَّرَ ظنُّهُ ؛ لأنَّهُ في جميعِ الأحوالِ واثقٌ باللهِ حسنُ الظنِّ بهِ ، فيقولُ : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ علمَ أنَّ الخيرةَ لي كانَتْ في وجودِها إلى الآنَ والخيرةُ الآنَ لي في عدمِها . . لما أخذَها منِّي .

فبمثلِ هـٰذا الظنِّ يُتصوَّرُ أنْ يندفعَ عنهُ الحزنُ ؛ إذْ بهِ يخرجُ عنْ أنْ يكونَ

---

(١) رویٰ ذلك عنه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٩) .

فرحُهُ بالأسبابِ مِنْ حيثُ إنَّها أسبابٌ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يسَّرَها مسبِّبُ الأسبابِ عنايةً بهِ وتلطُّفاً ، وهوَ كالمريضِ بينَ يديِ الطبيبِ الشفيقِ يرضىٰ بما يفعلُهُ ، فإنْ قدَّمَ إليهِ الغذاءَ . . فرحَ وقالَ : لولا أنَّهُ عرفَ أنَّ الغذاءَ ينفعُني وقدْ قويتُ على احتمالِهِ . . لما قرَّبَهُ إليَّ ، وإنْ أخَّرَ عنهُ الغذاءَ بعدَ ذلكَ أيضاً . . فرحَ وقالَ : لولا أنَّ الغذاءَ يضرُّني ويسوقُني إلى الموتِ . . لما حالَ بيني وبينَهُ .

وكلُّ مَنْ لا يعتقدُ في لطفِ اللهِ تعالىٰ ما يعتقدُهُ المريضُ في الوالدِ المشفقِ الحاذقِ بعلمِ الطبِّ . . فلا يصحُّ منهُ التوكلُ أصلاً ، ومَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ ، وعرفَ أفعالَهُ ، وعرفَ سنَّتَهُ في إصلاحِ عبادِهِ . . لمْ يكنْ فرحُهُ بالأسبابِ ، فإنَّهُ لا يدري أيُّ الأسبابِ خيرٌ لهُ ؛ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهما خيرٌ لي)(١) ، فكذلكَ ينبغي ألا يباليَ المتوكلُ يُسرقُ متاعُهُ أوْ لا يُسرقُ ؛ فإنَّهُ لا يدري أيُّهما خيرٌ لهُ في الدنيا وفي الآخرةِ ، فكمْ مِنْ متاعٍ في الدنيا يكونُ سببَ هلاكِ الإنسانِ ، وكمْ مِنْ غنيٍّ يُبتلىٰ بواقعةٍ لأجلِ غناهُ يقولُ : يا ليتَني كنتُ فقيراً .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٠٤) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .

بيان آداب المتوكلين إذا سُرِق متاعهم

للمتوكلِ آدابٌ في متاعِ بيتِهِ إذا خرجَ عنهُ :

الأوّلُ : أنْ يغلقَ البابَ ، ولا يستقصيَ في أسبابِ الحفظِ ، كالتماسِهِ مِنَ الجيرانِ الحفظَ معَ الغلقِ ، وكجمعِهِ أغلاقاً كثيرةً ، فقدْ كانَ مالكُ بنُ دينارٍ لا يغلقُ بابَهُ ، ولكنْ يشدُّهُ بشريطٍ ويقولُ : (لولا الكلابُ .. ما شددتُهُ أيضاً)(١) .

* * *

الثاني : ألا يتركَ في البيتِ متاعاً يحرِصُ عليهِ السرَّاقُ ، فيكونَ هوَ سببَ معصيتِهِمْ ؛ إذْ إمساكُهُ يكونُ سببَ هيجانِ رغبتِهِمْ ، ولذلكَ لمَّا أهدى المغيرةُ إلىٰ مالكِ بنِ دينارٍ ركوةً .. قالَ لهُ : خذْها ، فلا حاجةَ لي إليها ، قالَ : لِمَ ؟ قالَ : يوسوسُ إليَّ العدوُّ أنَّ اللصَّ قدْ أخذَها(٢) .

فكأنَّهُ احترزَ مِنْ أنْ يعصيَ السارقُ ، ومِنْ شغلِ قلبِهِ بوسواسِ الشيطانِ بسرقَتِها ، ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ : (هٰذا مِنْ ضعفِ قلوبِ الصوفيَّةِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٣) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٧) أنه كان يقول : (من دخل بيتي فأخذ شيئاً .. فهو له حلال ، أما أنا .. فلا أحتاج إلىٰ قفل ولا إلىٰ مفتاح) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) ، وخبر مالك مفرداً رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) ، وليس فيه ذكر للمغيرة ، بل قالها للحارث بن نبهان .

هـٰذا قدْ زهدَ في الدنيا ، فما عليهِ مِنْ أخذِها ؟!)[1] .

الثالثُ : أنَّ ما يُضطرُّ إلىٰ تركِهِ في البيتِ ينبغي أنْ ينويَ عندَ خروجِهِ الرضا بما يقضي اللهُ تعالىٰ فيهِ مِنْ تسليطِ سارقٍ عليهِ ، ويقولَ : ما يأخذُهُ السارقُ . . فهوَ منهُ في حلٍّ ، أوْ هوَ في سبيلِ اللهِ ، وإنْ كانَ فقيراً . . فهوَ عليهِ صدقةٌ ، وإنْ لمْ يشترطِ الفقرَ . . فهوَ أولىٰ ، ويكونَ لهُ نيّتانِ : لوْ أخذَهُ غنيٌّ أوْ فقيرٌ :

إحداهُما : أنْ يكونَ مالُهُ مانعاً لهُ مِنَ المعصيةِ ، فإنَّهُ ربَّما يستغني بهِ فيتوانىٰ عنِ السرقةِ بعدَهُ ، وقدْ زالَ عصيانُهُ بأكلِ الحرامِ لمَّا أنْ جعلَهُ في حلٍّ .

والثانيةُ : ألا يظلمَ مسلماً آخرَ ، فيكونَ مالُهُ فداءً لمالِ مسلمٍ آخرَ ، ومهما نوىٰ حراسةَ مالِ غيرِهِ بمالِ نفسِهِ ، أوْ نوىٰ دفعَ المعصيةِ عنِ السارقِ ، أوْ تخفيفَها عليهِ . . فقدْ نصحَ للمسلمينَ ، وامتثلَ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصرْ أخاكَ ظالماً أوْ مظلوماً »[2] ، ونصرةُ الظالمِ بمنعِهِ مِنَ الظلمِ ، وعفوهُ عنهُ إعدامٌ للظلمِ ومنعٌ لهُ .

وليتحققْ أنَّ هـٰذهِ النيةَ لا تضرُّهُ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ ؛ إذْ ليسَ فيها ما يسلِّطُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٦٧) .

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٣) .

السارقَ ويغيِّرُ القضاءَ الأزليَّ ، ولكنَّهُ تتحقَّقُ بالزهدِ نيَّتُهُ ، فإنْ أُخِذَ مالُهُ . . كانَ لهُ بكلِّ درهمٍ سبعُ مئةِ درهمٍ ؛ لأنَّهُ نواهُ وقصدَهُ ، وإنْ لمْ يُؤخذْ . . حصلَ لهُ الأجرُ أيضاً ؛ كما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيمَنْ تركَ العزلَ وأقرَّ النطفةَ قرارَها أنَّ لهُ أجرَ غلامٍ وُلِدَ لهُ مِنْ ذلكَ الجماعِ وعاشَ فقُتِلَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ وإنْ كانَ لمْ يُولدْ لهُ(١) ؛ لأنَّهُ ليسَ إليهِ مِنْ أمرِ الولدِ إلا الوقاعُ ، فأمَّا الخلقُ والحياةُ والرزقُ والبقاءُ . . فليسَ إليهِ ، فلوْ خُلِقَ . . لكانَ ثوابُهُ علىٰ فعلِهِ ، وفعلُهُ لمْ ينعدمْ ؛ فكذلكَ أمرُ السرقةِ .

* * *

الرابعُ : أنَّهُ إذا وجدَ المالَ مسروقاً . . فينبغي ألا يحزنَ ، بلْ يفرحُ إنْ أمكنَهُ ويقولُ : لولا أنَّ الخيرةَ كانَتْ فيهِ . . لما سلبَهُ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ إنْ لمْ يكنْ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يبالغْ في طلبِهِ وإساءةِ الظنِّ بالمسلمينَ ، وإنْ كانَ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ . . فيتركُ طلبَهُ ، فإنَّهُ قدْ قدَّمَهُ ذخيرةً لنفسِهِ إلى الآخرةِ ، فإنْ أُعيدَ إليهِ . . فالأولىٰ ألا يقبلَهُ بعدَ أنْ كانَ قدْ جعلَهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنْ قبلَهُ . . فهوَ في ملكِهِ في ظاهرِ العلمِ ؛ لأنَّ الملكَ لا يزولُ بمجرَّدِ تلكَ النيَّةِ ، ولكنَّهُ غيرُ محبوبٍ عندَ المتوكلينَ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما سُرِقَتْ ناقتُهُ ، فطلبَها حتَّىٰ أعيا ،

---

(١) كذا الخبر في « القوت » (٢/٣٣) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٥١٢) .

ثمَّ قالَ : في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فدخلَ المسجدَ ، فصلَّىٰ ركعتينِ ، فجاءَهُ رجلٌ فقالَ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ إنَّ ناقتَكَ في مكانِ كذا ، فلبسَ نعلَهُ وقامَ ، ثمَّ قالَ : أستغفرُ اللهَ ، وجلسَ ، فقيلَ لهُ : ألا تذهبُ فتأخذَها ؟ فقالَ : إنِّي كنتُ قلتُ : في سبيلِ اللهِ[1] .

وقالَ بعضُ الشيوخِ : رأيتُ بعضَ إخواني في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي وأدخلَني الجنَّةَ ، وعرضَ عليَّ منازلي فيها فرأيتُها ، قالَ : وهو معَ ذلكَ كئيبٌ حزينٌ ، فقلتُ : قدْ دخلتَ الجنَّةَ وغُفِرَ لكَ وأنتَ حزينٌ ؟! فتنفَّسَ الصعداءَ ثمَّ قالَ : نعمْ ، إنِّي لا أزالُ حزيناً إلىٰ يومِ القيامةِ ، قلتُ : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ : إنِّي لمَّا رأيتُ منازلي مِنَ الجنَّةِ . . رُفِعَتْ لي مقاماتٌ في علِّيينَ ما رأيتُ مثلَها فيما رأيتُ ، ففرحتُ بها ، فلمَّا هممتُ بدخولِها . . نادىٰ منادٍ مِنْ فوقِها : اصرفوهُ عنها ، فليسَتْ هـٰذهِ لهُ ، إنَّما هـٰذهِ لمَنْ أمضى السبيلَ ، فقلتُ : وما أمضى السبيلَ ؟ فقيلَ لي : كنتَ تقولُ للشيءِ إنَّهُ في سبيلِ اللهِ ، ثمَّ ترجعُ فيهِ ، فلوْ كنتَ أمضيتَ السبيلَ . . لأمضينا لكَ[2] .

وحُكيَ عنْ بعضِ العبَّادِ بمكَّةَ أنَّهُ كانَ نائماً بجنبِ رجلٍ معَهُ هميانٌ ، فانتبهَ الرجلُ ففقدَ هميانَهُ ، فاتهمَهُ بهِ ، فقالَ لهُ : كمْ كانَ في هميانِكَ ؟ فذكرَهُ ، فحملَهُ إلى البيتِ ووزنَهُ مِنْ عندِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ أعلمَهُ أصحابُهُ أنَّهُمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٣) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

كانوا أخذوا الهميانَ مزحاً معَهُ ، فجاءَ هوَ وأصحابُهُ وردُّوا الذهبَ ، فأبىٰ وقالَ : خذْهُ حلالاً طيِّباً ، فما كنتُ لأعودَ في مالٍ أخرجتُهُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلمْ يقبلْ ، فألحُّوا عليهِ ، فدعا ابناً لهُ وجعلَ يصرُّهُ صُرراً ويبعثُ بها إلى الفقراءِ حتَّىٰ لمْ يبقَ منهُ شيءٌ[١] .

فهكذا كانَتْ أخلاقُ السلفِ ، وكذلكَ مَنْ أخذَ رغيفاً ليعطيَهُ فقيراً ، فغابَ عنهُ . . كانَ يكرهُ ردَّهُ إلى البيتِ بعدَ إخراجِهِ ، فيعطيهِ فقيراً آخرَ ، وكذلكَ يفعلُ في الدراهمِ والدنانيرِ وسائرِ الصدقاتِ[٢] .

❊ ❊ ❊

الخامسُ ـ وهوَ أقلُّ الدرجاتِ ـ : ألا يدعوَ على السارقِ الذي ظلمَهُ بالأخذِ ، فإنْ فعلَ . . بطلَ توكلُهُ ، ودلَّ ذلكَ علىٰ كراهتِهِ وتأسُّفِهِ علىٰ ما فاتَ ، وبطلَ زهدُهُ ، وإنْ بالغَ فيهِ . . بطلَ أيضاً أجرُهُ فيما أُصيبَ بهِ ، ففي الخبرِ : « مَنْ دعا علىٰ مَنْ ظلمَهُ . . فقدِ انتصرَ »[٣] .

وحُكيَ أنَّ الربيعَ بنَ خُثيمٍ سُرِقَ فرسُهُ ، وكانَ ثمنُهُ عشرينَ ألفاً ، وكانَ قائماً يصلِّي فلمْ يقطعْ صلاتَهُ ، ولمْ ينزعجْ لطلبِهِ ، فجاءَهُ قومٌ يعزُّونَهُ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٤) يرويه عن بعض الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبّاد .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) ، وقال بعده : (وهـٰذا طريق قد عفا أثره ، ودرس خبره ، فمن عمل به . . فقد أحياه وأظهره ، وقد كان قديماً طريقاً إلى الله تعالىٰ عليه السابلة من الأولياء) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٥٢) .

فقالَ : أما إنِّي قدْ كنتُ رأيتُهُ وهوَ يحلُّهُ ، قيلَ : وما منعَكَ أنْ تزجرَهُ ؟ قالَ : كنتُ فيما هوَ أحبُّ إليَّ مِنْ ذلكَ ـ يعني : الصلاةَ ـ قالَ : فجعلوا يدعونَ عليهِ ، فقالَ : لا تفعلوا وقولوا خيراً ؛ فإنِّي قدْ جعلتُها صدقةً عليهِ[1] .

وقيلَ لبعضِهِمْ في شيءٍ قدْ كانَ سُرِقَ لهُ : ألا تدعو علىٰ ظالمِكَ ؟ قالَ : ما أحبُّ أنْ أكونَ عوناً للشيطانِ عليهِ ، قيلَ : أفرأيتَ لوْ رُدَّ عليكَ ؟ قالَ : لا آخذُهُ ولا أنظرُ إليهِ ؛ لأنِّي كنتُ قدْ أحللتُهُ لهُ[2] .

وقيلَ لآخرَ : ادعُ اللهَ علىٰ مَنْ ظلمَكَ ، فقالَ : ما ظلمَني أحدٌ ، ثمَّ قالَ : إنَّما ظلمَ نفسَهُ ، ألا يكفيهِ المسكينَ ظلمُهُ لنفسِهِ حتَّىٰ أزيدَهُ شرّاً ؟ ![3] .

وأكثرَ بعضُهُمْ شتمَ الحجَّاجِ عندَ بعضِ السلفِ في ظلمِهِ ، فقالَ : لا تغرقْ في شتمِهِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ ينتصفُ للحجَّاجِ ممَّنَ انتهكَ عرضَهُ كما ينتصفُ منهُ لمَنْ أخذَ مالَهُ ودمَهُ[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٧٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٢٨٤) بنحوه ، ولفظه هنا في « القوت » (٢/ ٣٤) .

وفي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليُظلمُ المظلمةَ ، فلا يزالُ يشتمُ ظالمَهُ ويسبُّهُ حتَّىٰ يكونَ بمقدارِ ما ظلمَهُ ، ثمَّ يبقىٰ للظالمِ عليهِ مطالبةٌ بما زادَ عليهِ يُقتصُّ لهُ مِنَ المظلومِ »(١) .

* * *

السادسُ : أنْ يغتمَّ لأجلِ السارقِ وعصيانِهِ وتعرُّضِهِ لعذابِ اللهِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ إذْ جعلَهُ مظلوماً ولمْ يجعلْهُ ظالماً ، وجعلَ ذلكَ نقصاناً في دنياهُ لا نقصاناً في دينِهِ ، فقدْ شكا بعضُ الناسِ إلىٰ عالمٍ أنَّهُ قُطِعَ عليهِ الطريقُ وأُخِذَ مالُهُ ، فقالَ : إنْ لمْ يكنْ غمُّكَ أنَّهُ قدْ صارَ في المسلمينَ مَنْ يستحلُّ هـٰذا أكثرَ مِنْ غمِّكَ بمالِكَ . . فما نصحتَ للمسلمينَ(٢) .

وسُرِقَ مِنْ عليِّ بنِ الفضيلِ دنانيرُ وهوَ يطوفُ بالبيتِ ، فرآهُ أبوهُ وهوَ يبكي ويحزنُ ، فقالَ : أعلى الدنانيرِ تبكي ؟! فقالَ : لا واللهِ ، ولكنْ على المسكينِ أنَّهُ يُسألُ يومَ القيامةِ ولا تكونُ لهُ حجَّةٌ(٢) .

وقيلَ لبعضِهِمْ : ادعُ علىٰ مَنْ ظلمَكَ ، فقالَ : إنِّي مشغولٌ بالحزنِ عليهِ عنِ الدعاءِ عليهِ(٢) ، فهـٰذهِ أخلاقُ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ .

* * *

---

(١) أورده ابن بطال في « شرحه لصحيح البخاري » (١٠/ ١٨٦) عن عمر بن عبد العزيز بلاغاً ، ومعناه مروي عند الترمذي (٣٥٥٢) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « من دعا علىٰ من ظلمه فقد انتصر » ، ولفظه هنا في « القوت » (٢/ ٣٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٤) .

الفنّ الرّابع : السّعي في إزالة الضّرر كمداواة المرض وأمثاله

اعلمْ : أنَّ الأسبابَ المزيلةَ للضررِ أيضاً تنقسمُ إلىٰ مقطوعٍ بهِ ؛ كالماءِ المزيلِ لضررِ العطشِ ، والخبزِ المزيلِ لضررِ الجوعِ ، وإلىٰ مظنونٍ ؛ كالفصدِ ، والحجامةِ ، وشربِ الدواءِ المسهلِ ، وسائرِ أبوابِ الطبِّ ؛ أعني : معالجةَ البرودةِ بالحرارةِ ، والحرارةِ بالبرودةِ ، وهيَ الأسبابُ الظاهرةُ في الطبِّ ، وإلىٰ موهومٍ ؛ كالكيِّ والرقيةِ .

أمَّا المقطوعُ بهِ.. فليسَ مِنَ التوكلِ تركُهُ ، بلْ تركُهُ حرامٌ عندَ خوفِ الموتِ .

وأمَّا الموهومُ.. فشرطُ التوكلِ تركُهُ ؛ إذْ بهِ وصفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المتوكلينَ ، وأقواها الكيُّ ، ويليهِ الرقيةُ ، والطيرةُ آخرُ درجاتِها ، والاعتمادُ عليها والاتكالُ إليها غايةُ التعمُّقِ في ملاحظةِ الأسبابِ .

وأمَّا الدرجةُ المتوسطةُ وهيَ المظنونةُ ؛ كالمداواةِ بالأسبابِ الظاهرةِ عندَ الأطباءِ.. ففعلُهُ ليسَ مناقضاً للتوكلِ ؛ بخلافِ الموهومِ ، وتركُهُ ليسَ محظوراً ؛ بخلافِ المقطوعِ بهِ ، بلْ قدْ يكونُ أفضلَ مِنْ فعلِهِ في بعضِ الأحوالِ ، وفي حقِّ بعضِ الأشخاصِ ، فهي علىٰ درجةٍ بينَ الدرجتينِ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ التداويَ غيرُ مناقضٍ للتوكلِ فعلُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولُهُ ، وأمرُهُ بهِ .

أمَّا قولُهُ . فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ داءٍ إلا ولهُ دواءٌ ، عرفَهُ مَنْ عرفَهُ ، وجهلَهُ مَنْ جهلَهُ ، إلا السامَ »(١) يعني : الموتَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تداوَوا عبادَ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ خلقَ الداءَ والدواءَ »(٢) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الدواءِ والرُّقَىٰ : هلْ تردُّ مِنْ قدرِ اللهِ شيئاً ؟ فقالَ : « هيَ مِنْ قدرِ اللهِ »(٣) .

وفي الخبرِ المشهورِ : « ما مررتُ بملأٍ مِنَ الملائكةِ إلا قالوا : مُرْ أمَّتَكَ بالحجامةِ »(٤) .

وفي الحديثِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أمرَ بها وقالَ : « احتجموا لسبعَ عشرةَ ، وتسعَ عشرةَ ، وإحدىٰ وعشرينَ ، لا يتبيَّغْ بكُمُ الدمُ فيقتلَكُمْ »(٥) ، فذكرَ أنَّ تبيُّغَ الدمِ سببُ الموتِ ، وأنَّهُ قاتلٌ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، وبيَّنَ أنَّ إخراجَ الدمِ خلاصٌ منهُ ؛ إذْ لا فرقَ بينَ إخراجِ الدمِ المهلكِ مِنَ الإهابِ وبينَ إخراجِ العقربِ مِنْ تحتِ الثيابِ ، وإخراجِ الحيَّةِ مِنَ البيتِ ، وليسَ مِنْ شرطِ

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢١) ، وقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٣٨٨٤) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٤٠١) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٨٥٥) ، والترمذي (٢٠٣٨)، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٥٤) .

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٥) ، وابن ماجه (٣٤٣٧) .

(٤) رواه الترمذي (٢٠٥٢) ، وابن ماجه (٣٤٧٩) .

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥١) ولم يذكر التبيُّغ ، وابن ماجه (٣٤٨٦) ، والتبيُّغ : هيجان الدم حتىٰ تظهر حمرته في البدن .

التوكلِ تركُ ذلكَ ، بلْ هوَ كصبِّ الماءِ على النارِ لإطفائها ودفعِ ضررِها عندَ وقوعِها في البيتِ ، وليسَ مِنَ التوكلِ الخروجُ عنْ سنةِ الوكيلِ أصلاً .

وفي خبرٍ مقطوعٍ : « مَنِ احتجمَ يومَ الثلاثاءِ لسبعَ عشرةَ منَ الشهرِ . . كانَ لهُ دواءً مِنْ داءِ سنةٍ »(١) .

* * *

وأمَّا أمرُهُ . . فقدْ أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرَ واحدٍ مِنَ الصحابةِ بالتداوي والحميةِ(٢) ، وقطعَ لسعدِ بنِ معاذٍ عرقاً ؛ أيْ : فصدَهُ(٣) ، وكوىٰ سعدَ بنَ زرارةَ(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ وكانَ رَمِدَ العينِ : « لا تأكلْ مِنْ هـٰذا ـ يعني : الرطبَ ـ وكُلْ مِنْ هـٰذا ؛ فإنَّهُ أوفقُ لكَ » ؛ يعني : سلقاً قدْ طُبخَ بدقيقِ شعيرٍ(٥) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لصهيبٍ وقدْ رآهُ يأكلُ التمرَ وهوَ وجعُ العينِ :

---

(١) رواه ابن حبان في « المجروحين » (١/ ٣٨٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٢٠٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٣٤٠) .

(٢) تقدم قريباً قوله صلى الله عليه وسلم : « تداووا » ، وسيأتي في قصة علي وصهيب رضي الله عنهما في الحمية .

(٣) كما هو عند مسلم (٢٢٠٨) .

(٤) كما هو عند ابن ماجه (٣٤٩٢) ، ثم مات رضي الله عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ميتة سوء لليهود ، يقولون : أفلا دفع عن صاحبه ، وما أملك له ولا لنفسي شيئاً » .

(٥) رواه أبو داوود (٣٨٥٦) ، والترمذي (٢٠٣٧) ، وابن ماجه (٣٤٤٢) .

« تأكلُ تمراً وأنتَ رَمِدٌ ؟! » فقالَ : إنِّي آكلُ مِنَ الجانبِ الآخرِ ، فتبسَّمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(١) .

* * *

وأمَّا فعلُهُ . فقدْ رُوِيَ في حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يكتحلُ كلَّ ليلةٍ ، ويحتجمُ كلَّ شهرٍ ، ويشربُ الدواءَ كلَّ سنةٍ(٢) .

وتداوىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غيرَ مرَّةٍ مِنَ العقربِ وغيرِها(٣) .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ إذا نزلَ عليهِ الوحيُ . . صُدِعَ رأسُهُ ، فكانَ يغلفُهُ بالحناءِ(٤) .

وفي خبرٍ : أنَّهُ كانَ إذا خرجَتْ بهِ قرحةٌ . . جعلَ عليها حناءً(٥) ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٤٤٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١) ، وقد رواه من غير طريقهم ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٤٣٣) .

(٣) روى الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٨٧) عن جبلة بن الأزرق رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّىٰ إلىٰ جنب جدار كثير الأحجرة صلىٰ ظهراً وعصراً ، فلما جلس في الركعتين . . خرجت عقرب فلدغته ، فغشي عليه ، فرقاه الناس ، فلما أفاق . . قال : « شفاني الله وليس برقيتكم » .
وروىٰ في « الأوسط » (١٠٩) عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكىٰ . . تقمح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٧٨٥٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٢٥) .

(٥) رواه الترمذي (٢٠٥٤) ، وابن ماجه (٣٥٠٢) .

وقدْ جعلَ علىٰ قرحةٍ خرجَتْ بهِ تراباً(١) .

وما رُوِيَ في تداويهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وأمرِهِ بذلكَ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وقدْ صُنِّفَ في ذلكَ كتابٌ وسُمِّيَ طبَّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

وذكرَ بعضُ العلماءِ في الإسرائيلياتِ : أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ اعتلَّ بعلَّةٍ ، فدخلَ عليهِ بنو إسرائيلَ ، فعرفوا علَّتَهُ ، فقالوا لهُ : لوْ تداويتَ بكذا . . لبرئتَ ، فقالَ : لا أتداوىٰ حتَّىٰ يعافيَني هوَ مِنْ غيرِ دواءٍ ، فطالَتْ علَّتُهُ ، فقالوا لهُ : إنَّ دواءَ هـٰذهِ العلَّةِ معروفٌ مجرَّبٌ ، وإنَّا نتداوىٰ بهِ فنبرأُ ، فقالَ : لا أتداوىٰ ، فدامَتْ علَّتُهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتِي ؛ لا أبرئُكَ حتَّىٰ تتداوىٰ بما ذكروهُ لكَ ، فقالَ لهُمْ : داووني بما ذكرتُمْ ، فداوَوهُ ، فبرأَ ، فأوجسَ في نفسهِ مِنْ ذلكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، أردتَ أنْ تبطلَ حكمتي بتوكُّلِكَ عليَّ ؟! مَنْ أودعَ العقاقيرَ منافعَ الأشياءِ غيري ؟!(٣) .

---

(١) فعند البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح . . قال النبي صلى الله عليه وسلم بإصبعه هـٰكذا ـ ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها ـ : « باسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ؛ ليشفىٰ به سقيمنا بإذن ربنا » .

(٢) وهما كتابان مشهوران بهـٰذا الاسم ، أحدهما للحافظ أبي بكر بن السني ، والثاني للحافظ أبي نعيم الأصبهاني . « إتحاف » (٩/ ٥١٩) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢١) .

ورُوِيَ في خبرٍ آخرَ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ شكا علَّةً يجدُها ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كُلِ البيضَ[1] ، وشكا نبيٌّ آخرُ الضعفَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كُلِ اللحمَ باللبنِ ؛ فإنَّ فيهِما القوَّةَ . قيلَ : هوَ الضعفُ عنِ الجماعِ[2] .

وقدْ رُوِيَ أنَّ قوماً شكَوا إلىٰ نبيِّهِمْ قبحَ أولادِهِمْ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : مُرْهُمْ أنْ يطعموا نساءَهُمْ الحبالى السفرجلَ ؛ فإنَّهُ يحسنُ الولدُ ، ويُفعلُ ذلكَ في الشهرِ الثالثِ والرابعِ ، إذْ فيهِ يُصوِّرُ اللهُ تعالى الولدَ ، وقدْ كانوا يطعمونَ الحبلى السفرجلَ ، والنفساءَ الرطبَ[2] .

فبهـٰذا تبيَّنَ أنَّ مسبِّبَ الأسبابِ أجرىٰ سنَّتَهُ بربطِ المسبَّباتِ بالأسبابِ إظهاراً للحكمةِ ، والأدويةُ أسبابٌ مسخَّرةٌ بحكمِ اللهِ تعالىٰ كسائرِ الأسبابِ ، فكما أنَّ الخبزَ دواءُ الجوعِ ، والماءَ دواءُ العطشِ . . فالسكنجبينُ دواءُ الصفراءِ ، والسقمونيا دواءُ الإسهالِ ، لا يفارقُهُ إلا في أحدِ أمرينِ :

أحدُهُما : أنَّ معالجةَ الجوعِ والعطشِ بالماءِ والخبزِ جليٌّ واضحٌ يدركُهُ كافةُ الناسِ ، ومعالجةُ الصفراءِ بالسكنجبينِ يدركُهُ بعضُ الخواصِّ ، فمَنْ أدركَ ذلكَ بالتجربةِ . . التحقَ في حقِّهِ بالأوَّلِ .

والثاني : أنَّ الدواءَ يسهلُ ، والسكنجبينُ يسكِّنُ الصفراءَ بشروطٍ أخرَ في الباطنِ ، وأسبابٍ في المزاجِ ، ربَّما يتعذَّرُ الوقوفُ علىٰ جميعِ شروطِها ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢) .

وربَّما يفوتُ بعضُ الشروطِ ، فيتقاعدُ الدواءُ عنِ الإسهالِ ، وأمَّا زوالُ العطشِ . . فلا يستدعي ـ سوى الماء ـ شروطاً كثيرةً ، وقدْ يتفقُ مِنَ العوارضِ ما يُوجبُ دوامَ العطشِ معَ كثرةِ شربِ الماءِ ، ولكنَّهُ نادرٌ .

واختلافُ الأسبابِ أبداً ينحصرُ في هـٰذينِ الفنَّينِ ، وإلا . . فالمسبَّبُ يتلو السببَ ـ لا محالةَ ـ مهما تمَّتْ شروطُ السببِ ، وكلُّ ذلكَ بتدبيرِ مسبِّبِ الأسبابِ وتسخيرِهِ وترتيبِهِ بحكمِ حكمتِهِ وكمالِ قدرتِهِ ، فلا يضرُّ المتوكلَ استعمالُهُ مَعَ النظرِ إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ دونَ الطبيبِ والدواءِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : يا ربِّ ؛ ممَّنِ الدواءُ والشفاءُ ؟ فقالَ تعالىٰ : منِّي ، قالَ : فما يصنعُ الأطباءُ ؟ قالَ : يأكلونَ أرزاقَهُمْ ، ويطيِّبونَ نفوسَ عبادي حتَّىٰ يأتيَ شفائي أوْ قبضي(١) .

فإذاً ؛ معنى التوكلِ معَ التداوي التوكلُ بالعلمِ والحالِ كما سبقَ في فنونِ الأعمالِ الدافعةِ للضررِ الجالبةِ للنفعِ ، وأمَّا تركُ التداوي رأساً . . فليسَ شرطاً فيهِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فالكيُّ أيضاً مِنَ الأسبابِ الظاهرةِ النفعِ .

فأقولُ : ليسَ كذلكَ ؛ إذِ الأسبابُ الظاهرةُ مثلُ الفصدِ والحجامةِ وشربِ المسهلِ وسقيِ المبرداتِ للمحرورِ ، وأمَّا الكيُّ ؛ فلوْ كانَ مثلَها في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٢) .

الظهورِ . لما خلتِ البلادُ الكثيرةُ عنهُ ، وقلَّما يُعتادُ الكيُّ في أكثرِ البلادِ ، وإنَّما ذلكَ عادةُ بعضِ الأتراكِ والأعرابِ ، فهوَ مِنَ الأسبابِ الموهومةِ كالرَّقْي[1] ، إلا أنَّهُ يتميَّزُ عنهُ بأمرٍ ، وهوَ أنَّهُ إحراقٌ بالنارِ في الحالِ معَ الاستغناءِ عنهُ ، فإنَّهُ ما مِنْ وجعٍ يُعالجُ بالكيِّ إلا ولهُ دواءٌ يغني عنهُ ليسَ فيهِ إحراقٌ ، فالإحراقُ بالنارِ جرحٌ مخرِّبٌ للبنيةِ ، محذورُ السرايةِ ، معَ الاستغناءِ عنهُ ، بخلافِ الفصدِ والحجامةِ ، فإنَّ سرايتَهُما بعيدةٌ ، ولا يسدُّ مسدَّهُما غيرُهما .

ولذلكَ نهىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الكيِّ دونَ الرَّقْيِ ، وكلُّ واحدٍ منهُما بعيدٌ عنِ التوكلِ[2] .

ورُوِيَ أنَّ عمرانَ بنَ الحصينِ اعتلَّ ، فأشاروا عليهِ بالكيِّ ، فامتنعَ ، فلمْ يزالوا بهِ ، وعزمَ عليهِ الأميرُ حتَّى اكتوىٰ ، فكانَ يقولُ : (كنتُ أرىٰ نوراً وأسمعُ صوتاً ، وتسلِّمُ عليَّ الملائكةُ ، فلما اكتويتُ . . انقطعَ ذلكَ عنِّي)[3]، وكانَ يقولُ : (اكتوينا كيَّاتٍ ، فواللهِ ؛ ما أفلحنَ ولا أنجحنَ)[4]،

---

(١) مصدر ، يقال : رقاه رَقْياً ورُقِياً ، وعند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٥٢٠) جعله جمع رقية ، فهو الرُّقىٰ .

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٠) ولفظه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهىٰ أمتي عن الكي » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢) ، والسياق عنده ، ورواه بنحوه أحمد في « المسند » (٤/ ٤٢٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٣٨٦٥) .

ثمَّ تابَ مِنْ ذلكَ وأنابَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فردَّ اللهُ تعالىٰ عليهِ ما كانَ يجدُ مِنْ أمرِ الملائكةِ .

وقالَ لمطرفِ بنِ عبدِ اللهِ : (ألمْ ترَ إلى الكرامةِ التي كانَ أكرمَني اللهُ بها ، قدْ ردَّها عليَّ) ، بعدَ أنْ كانَ أخبرَهُ بفقدِها[1] .

فإذاً ؛ الكيُّ وما يجري مجراهُ هوَ الذي لا يليقُ بالمتوكلِ ؛ لأنَّهُ يحتاجُ في استنباطِهِ إلىٰ تدبيرٍ ، ثمَّ هوَ موهومٌ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ شدَّةِ ملاحظةِ الأسبابِ وعلى التعمُّقِ فيها ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٢) .

بيان أن ترك التداوي قد يُحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل، وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلمْ : أنَّ الذينَ تداوَوا مِنَ السلفِ لا ينحصرونَ ، ولكنْ قدْ تركَ التداويَ أيضاً جماعةٌ مِنَ الأكابرِ ، فربَّما يُظنُّ أنَّ ذلكَ نقصانٌ ؛ لأنَّهُ لوْ كانَ كمالاً .. لتركَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ لا يكونُ حالُ غيرِهِ في التوكلِ أكملَ مِنْ حالِهِ .

وقدْ رُوِيَ عنْ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قيلَ لهُ في مرضِهِ : لوْ دعونا لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطبيبُ قدْ نظرَ إليَّ وقالَ : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ(١) .

وقيلَ لأبي الدرداءِ في مرضِهِ : ما تشتكي ؟ قالَ : ذنوبي ، قيلَ : فما تشتهي ؟ قالَ : مغفرةَ ربِّي ، قالوا : ألا ندعو لكَ طبيباً ؟ قالَ : الطبيبُ أمرضَني(٢) .

وقيلَ لأبي ذرٍّ وقدْ رمدَتْ عيناهُ : لوْ داويتَهُما ، قالَ : إنِّي عنهُما مشغولٌ ، فقيلَ : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يعافيَكَ ، فقالَ : أسألُهُ فيما هوَ أهمُّ عليَّ منهُما(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٤) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١٨) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ أصابَهُ فالجٌ ، فقيلَ لهُ : لوْ تداويتَ ، فقالَ : قدْ هممتُ ثمَّ ذكرتُ عاداً وثمودَ وأصحابَ الرسِّ وقروناً بينَ ذلكَ كثيراً ، وكانَ فيهِمُ الأطباءُ ، فهلكَ المداوَىٰ والمداوِي ، ولمْ تغنِ الرُّقَىٰ شيئاً(١) .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : (أحبُّ لمَنِ اعتقدَ التوكلَ وسلكَ هـٰذا الطريقَ تركَ التداوي مِنْ شربِ الدواءِ وغيرِهِ)(٢) ، وكانَ بهِ عللٌ ، فلا يخبرُ المتطبِّبَ بها أيضاً إذا سألَهُ(٣) .

وقيلَ لسهلٍ : متىٰ يصحُّ للعبدِ التوكلُ ؟ قالَ : إذا دخلَ عليهِ الضرُّ في جسمِهِ والنقصُ في مالِهِ . . فلمْ يلتفتْ إليهِ شغلاً بحالِهِ ، وينظرُ إلىٰ قيامِ اللهِ تعالىٰ عليهِ(٤) .

فإذاً ؛ منهُمْ مَنْ تركَ التداويَ وراءَهُ ، ومنهُمْ مَنْ كرهَهُ ، ولا يتضحُ وجهُ الجمعِ بينَ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأفعالِهِمْ إلا بحصرِ الصوارفِ عنِ التداوي ، فنقولُ : إنَّ لتركِ التداوي أسباباً :

السببُ الأوَّلُ : أنْ يكونَ المريضُ مِنَ المكاشَفينَ ، وقدْ كُوشفَ بأنَّهُ

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٠٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٢) .
(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٥٢٢) ، والمتطبب : متعاطي علم الطب وقد لا يعرفه معرفة جيدة .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

انتهىٰ أجلُهُ ، وأنَّ الدواءَ لا ينفعُهُ ، ويكونُ ذلكَ معلوماً عندَهُ تارةً برؤيا صادقةٍ ، وتارةً بحدسٍ وظنٍّ ، وتارةً بكشفٍ محقَّقٍ ، ويشبهُ أنْ يكونَ تركُ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ التداويَ مِنْ هٰذا السببِ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنَ المكاشَفينَ ، فإنَّهُ قالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها في أمرِ الميراثِ : (إنَّما هُنَّ أختاكِ) ، وما كانَ لها إلا أختٌ واحدة ، ولكنْ كانَتِ امرأتُهُ حاملاً ، فولدَتْ أنثىٰ[1] ، فعُلِمَ أنَّهُ كانَ قدْ كُوشفَ بأنَّها حاملٌ بأنثىٰ ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ قدْ كُوشفَ أيضاً بانتهاءِ أجلِهِ ، وإلا . . فلا يُظنُّ بهِ إنكارُ التداوي وقدْ شاهدَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تداوىٰ وأمرَ بهِ .

السببُ الثاني : أنْ يكونَ المريضُ مشغولاً بحالِهِ وبخوفِ عاقبتِهِ واطلاعِ اللهِ تعالىٰ عليهِ ، فينسيهِ ذلكَ ألمَ المرضِ ، فلا يتفرَّغُ قلبُهُ للتداوي ؛ شغلاً بحالِهِ ، وعليهِ يدلُّ كلامُ أبي ذرٍّ إذْ قالَ : (إنِّي عنهُما مشغولٌ) ، وكلامُ أبي الدرداءِ إذْ قالَ : (إنَّما أشتكي ذنوبي) ، فكانَ تألُّمُ قلبِهِ خوفاً مِنْ ذنوبِهِ أكثرَ مِنْ تألُّمِ بدنِهِ بالمرضِ ، ويكونُ هٰذا كالمصابِ بموتِ عزيزٍ مِنْ أعزَّتِهِ ، أوْ كالخائفِ الذي يُحملُ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملوكِ ليُقتلَ ، إذا قيلَ لهُ : ألا تأكلُ وأنتَ جائعٌ ؟ فيقولُ : أنا مشغولٌ عنْ ألمِ الجوعِ ، فلا يكونُ ذلكَ إنكاراً لكونِ الخبزِ نافعاً مِنَ الجوعِ ، ولا طعناً فيمَنْ أكلَ .

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٥٢) .

ويقربُ مِنْ هـٰذا اشتغالُ سهلٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قيلَ لهُ : ما القوتُ ؟ فقالَ : هوَ الحيُّ القيُّومُ ، فقيلَ : إنَّما سألناكَ عنِ القوامِ ، فقالَ : القوامُ هوَ العلمُ ، قيلَ : سألناكَ عنِ الغذاءِ ، قالَ : الغذاءُ هوَ الذكرُ ، قيلَ : سألناكَ عنْ طعمةِ الجسدِ ، قالَ : ما لكَ وللجسدِ ؟! دعْ مَنْ تولاهُ أوَّلاً يتولاهُ آخراً ، إذا دخلَ عليهِ علةٌ . . فردُّهُ إلىٰ صانعِهِ ، أما رأيتَ الصنعةَ إذا عابَتْ . . ردُّوها إلىٰ صانعِها حتَّىٰ يصلحَها ؟[1] .

❊ ❊ ❊

السببُ الثالث : أنْ تكونَ العلَّةُ مزمنةً والدواءُ الذي يُؤمرُ بهِ بالإضافةِ إلىٰ علَّتِهِ موهومُ النفعِ ، جارٍ مجرى الكيِّ والرقيةِ ، فيتركُهُ المتوكلُ ، وإليهِ يشيرُ قولُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ إذْ قالَ : (ذكرتُ عاداً وثمودَ وفيهِمُ الأطباءُ ، فهلكَ المداوَىٰ والمداوِي) أيْ : إنَّ الدواءَ غيرُ موثوقٍ بهِ ، وهـٰذا قد يكونُ كذلكَ في نفسِهِ ، وقدْ يكونُ عندَ المريضِ كذلكَ لقلَّةِ ممارستِهِ للطبِّ ، وقلَّةِ تجربتِهِ لهُ ، فلا يغلبُ علىٰ ظنِّهِ كونُهُ نافعاً ، ولا شكَّ في أنَّ الطبيبَ المجرِّبَ أشدُّ اعتقاداً في الأدويةِ مِنْ غيرِهِ ، فتكونُ الثقةُ والظنُّ بحسبِ الاعتقادِ ، والاعتقادُ بحسَبِ التجربةِ .

وأكثرُ مَنْ تركَ التداويَ مِنَ العبَّادِ والزهَّادِ هـٰذا مستندُهُمْ ؛ لأنَّهُ يبقى الدواءُ عندَهُ شيئاً موهوماً لا أصلَ لهُ ، وذلكَ صحيحٌ في بعضِ الأدويةِ عندَ

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩) .

مَنْ عرفَ صناعةَ الطبِّ ، غيرُ صحيحٍ في البعضِ ، ولكنْ غيرُ الطبيبِ قدْ ينظرُ إلى الكلِّ نظراً واحداً ، فيرى التداويَ تعمُّقاً في الأسبابِ كالكيِّ والرَّقْيِ ، فيتركُهُ توكلاً .

❊ ❊ ❊

السببُ الرابعُ : أنْ يقصدَ العبدُ بتركِ التداوي استبقاءَ المرضِ ؛ لينالَ ثوابَ المرضِ بحسنِ الصبرِ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ ليجرِّبَ نفسَهُ في القدرةِ على الصبرِ ، فقدْ وردَ في ثوابِ المرضِ ما يكثرُ ذكرُهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أشدُّ الناسِ بلاءً ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبتلى العبدُ علىٰ قدْرِ إيمانِهِ ، فإنْ كانَ صلبَ الإيمانِ . شُدِّدَ عليهِ البلاءُ ، وإنْ كانَ في إيمانِهِ ضعفٌ . خُفِّفَ عنهُ البلاءُ »(١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يجرِّبُ عبدَهُ بالبلاءِ كما يجرِّبُ أحدُكُمْ ذهبَهُ بالنارِ ، فمنهُمْ مَنْ يخرجُ كالذهبِ الإبريزِ ، ومنهُمْ دونَ ذلكَ ، ومنهُمْ مَنْ يخرجُ أسودَ محترقاً »(٢) .

وفي حديثٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه بنحوه الترمذي (٢٣٩٨) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٧) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ١٦٦) .

ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحبونَ أنْ تكونوا كالحمرِ الصيَّالةِ لا تمرضونَ ولا تسقمونَ ؟! »(٢) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (تجدُ المؤمنَ أصحَّ شيءٍ قلباً وأمرضَهُ جسماً ، وتجدُ المنافقَ أصحَّ شيءٍ جسماً وأمرضَهُ قلباً)(٣) .

فلمَّا عظُمَ الثناءُ على المرضِ والبلاءِ . . أحبَّ قومٌ المرضَ واغتنموهُ ؛ لينالوا ثوابَ الصبرِ عليهِ ، فكانَ فيهِمْ مَنْ لهُ علَّةٌ يخفيها ولا يذكرُها للطبيبِ ، ويقاسي العلَّةَ ، ويرضىٰ بحكمِ اللهِ تعالىٰ ، ويعلمُ أنَّ الحقَّ أغلبُ علىٰ قلبِهِ مِنْ أنْ يشغلَهُ المرضُ عنهُ ، وإنَّما يمنعُ المرضُ جوارحَهُ ، وعلموا أنَّ صلاتَهُمْ قعوداً مثلاً معَ الصبرِ علىٰ قضاءِ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنَ الصلاةِ قياماً معَ العافيةِ والصحةِ ، ففي الخبرِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : اكتبوا لعبدي صالحَ ما كانَ يعملُ ؛ فإنَّهُ في وثاقي ، إنْ أطلقتُهُ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٢٥) ، وبنحوه رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) ، وبلفظه ذكره صاحب « الفردوس » (٩٧١) من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه الروياني في « مسنده » (١٥٤٤) ، وبنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٣٩٣) ، وقال : (وسألت عنه ـ الحمر الصيالة ـ بعض أهل الأدب ، فزعم أنه أراد حمر الوحش التي تصول ، وهو أصح الحيوانات جسماً ، وأقيمت الياء مقام الواو) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٩٠٤) .

مِنْ لحمِهِ ، ودماً خيراً مِنْ دمِهِ ، وإنْ توفيتُهُ . . توفيتُهُ إلىٰ رحمتي »[١] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الأعمالِ ما أُكرِهَتْ عليهِ النفوسُ »[٢] ، فقيلَ : معناهُ : ما دخلَ عليها مِنَ الأمراضِ والمصائبِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (تركُ التداوي وإنْ ضعفَ عنِ الطاعاتِ وقصرَ عنِ الفرائضِ أفضلُ مِنَ التداوي لأجلِ الطاعاتِ)[٣] .

وكانَتْ بهِ علَّةٌ عظيمةٌ ، فلمْ يكنْ يتداوىٰ منها ، وكانَ يداوي الناسَ منها ، وكانَ إذا رأى العبدَ يصلِّي مِنْ قعودٍ ولا يستطيعُ أعمالَ البرِّ مِنَ الأمراضِ ، فيتداوىٰ للقيامِ في الصلاةِ والنهوضِ إلى الطاعةِ . . يعجبُ مِنْ ذلكَ ويقولُ : (صلاتُهُ مِنْ قعودٍ مع الرضا بحالِهِ أفضلُ مِنَ التداوي للقوَّةِ والصلاةِ قائماً)[٣] .

وسُئِلَ عنْ شربِ الدواءِ ، فقالَ : (كلُّ مَنْ دخلَ في شيءٍ مِنَ الدواءِ فإنَّما هوَ سعةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لأهلِ الضعفِ ، ومَنْ لمْ يدخلْ في شيءٍ منهُ . . فهوَ أفضلُ ؛ لأنَّهُ إنْ أخذَ شيئاً مِنَ الدواءِ ولوْ كانَ هوَ الماءَ الباردَ . . يُسألُ عنهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٥) ، وبنحوه رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٥٩) ، وابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣) ، وابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١٤٨) من قول عمر بن عبد العزيز .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

لِمَ أخذتَ ؟ ومَنْ لمْ يأخذْ . . فلا سؤالَ عليهِ)(١) .

وكان مذهبُهُ ومذهبُ البصريينَ تضعيفَ النفسِ بالجوعِ وكسرِ الشهواتِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ ذرَّةً مِنْ أعمالِ القلوبِ مثلَ الصبرِ والرضا والتوكلِ أفضلُ مِنْ أمثالِ الجبالِ مِنْ أعمالِ الجوارحِ(١) ، والمرضُ لا يمنعُ مِنْ أعمالِ القلوبِ إلا إذا كانَ ألمُهُ غالباً مدهشاً .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (عللُ الأجسامِ رحمةٌ ، وعللُ القلوبِ عقوبةٌ)(١) .

* * *

السببُ الخامسُ : أنْ يكونَ العبدُ قدْ سبقَ لهُ ذنوبٌ وهوَ خائفٌ منها ، عاجزٌ عنْ تكفيرِها ، فيرى المرضَ إذا طالَ تكفيراً ، فيتركُ التداويَ خوفاً مِنْ أنْ يسرعَ زوالُ المرضِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تزالُ الحمَّىٰ والمليلةُ بالعبدِ حتَّىٰ يمشيَ على الأرضِ كالبردةِ ما عليهِ ذنبٌ ولا خطيئةٌ »(٢) .

وفي الخبرِ : « حمَّىٰ يومٍ كفارةُ سنةٍ »(٣) ، فقيلَ : لأنَّها تهدُّ قوَّةَ سنةٍ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٩٤٣٣) ولفظه : « إن الحمىٰ والمليلة لا يزالان بالمؤمن وإن ذنبه مثل أحد ، فما يدعانه وعليه من ذنبه مثقال حبة من خردل » ، وعند الترمذي (٢٠٨٦) : « إنما مثل المريض إذا برأ وصحَّ كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها » ، **والمليلة** : حرارة يجدها المرء ، وهي حمَّىٰ في العظام .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، ورواه تمام في « فوائده » (٤٧٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٦٢) .

وقيلَ : للإنسانِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ مفصلاً ، فتدخلُ الحمَّىٰ في جميعِها ، ويجدُ مِنْ كلِّ واحدٍ ألماً ، فيكونُ كلُّ ألمٍ كفارةَ يومٍ(١) .

ولمَّا ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كفارةَ الذنوبِ بالحمَّىٰ . . سألَ زيدُ بنُ ثابتٍ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ألا يزالَ محموماً ، فلمْ تكنِ الحمَّىٰ تفارقُهُ حتَّىٰ ماتَ رضيَ اللهُ عنهُ(٢) .

وسألَ ذلكَ طائفةٌ مِنَ الأنصارِ ، فكانَتِ الحمَّىٰ لا تزايلُهُمْ(٣) .

ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أذهبَ اللهُ كريمتيهِ . . لمْ يرضَ لهُ ثواباً دونَ الجنةِ » . . قالَ : فلقدْ كانَ مِنَ الأنصارِ مَنْ يتمنَّى العمىٰ(٤) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا يكونُ عالماً مَنْ لمْ يفرحْ بدخولِ المصائبِ والأمراضِ علىٰ جسدِهِ ومالِهِ لما يرجو في ذلكَ مِنْ كفارةِ خطاياهُ)(٥) .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ نظرَ إلىٰ عبدٍ عظيمِ البلاءِ ، فقالَ :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) .
(٣) منهم أبي بن كعب رضي الله عنه ، فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٤٩٧) عنه قال : (اللهم ؛ إني أسألك ألا تزال الحمىٰ مضارعة لجسد أبي بن كعب حتىٰ يلقاك ، لا تمنعه من صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيلك) ، فارتكبته الحمىٰ مكانه ، فلم تفارقه حتىٰ مات ، وكان في ذلك يشهد الصلاة ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٢٤) ، والحديث رواه الترمذي (٢٤٠١) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .

يا ربِّ ؛ ارحمْهُ ، فقالَ تعالىٰ : كيفَ أرحمُهُ ممَّا بهِ أرحمُهُ ؛ أي : بهِ أكفرُ ذنوبَهُ ، وأزيدُ في درجاتِهِ[1] .

* * *

السببُ السادسُ : أنْ يستشعرَ العبدُ مِنْ نفسِهِ مباديَ البطرِ والطغيانِ بطولِ مدَّةِ الصحةِ ، فيتركَ التداويَ خوفاً مِنْ أنْ يعاجلَهُ زوالُ المرضِ فتعاودَهُ الغفلةُ والبطرُ والطغيانُ ، أوْ طولُ الأملِ والتسويفُ في تداركِ الفائتِ وتأخيرِ الخيراتِ ؛ فإنَّ الصحةَ عبارةٌ عنْ قوَّةِ الصفاتِ ، وبها ينبعثُ الهوىٰ وتتحرَّكُ الشهواتُ ، وتدعو إلى المعاصي ، وأقلُّها أنْ تدعوَ إلى التنعُّمِ في المباحاتِ ، وهوَ تضييعٌ للأوقاتِ ، وإهمالٌ للربحِ العظيمِ في مخالفةِ النفسِ وملازمةِ الطاعاتِ .

وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . لمْ يخلِهِ عنِ التنبيهِ بالأمراضِ والمصائبِ ، ولذلكَ قيلَ : (لا يخلو المؤمنُ مِنْ علَّةٍ أوْ قلَّةٍ أوْ ذِلَّةٍ)[2] .

وقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : (الفقرُ سجني ، والمرضُ قيدي ، أحبسُ بهِ مَنْ أحبُّ مِنْ خلقي)[2] .

فإذا كانَ في المرضِ حبسٌ عنِ الطغيانِ وركوبِ المعاصي . . فأيُّ خيرٍ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤) ، وقال الله تعالىٰ في تصديق ذلك : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، فأخبر أن ترك الرحمة لهم من الأمراض لطفاً بهم ورحمة بالمنة لهم . « إتحاف » (٩/ ٥٢٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .

يزيدُ عليهِ ؟! ولِمَ ينبغي أنْ يشتغلَ بعلاجِهِ مَنْ يخافُ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ؟! فالعافيةُ في تركِ المعاصي ؛ فقدْ قالَ بعضُ العارفينَ لإنسانٍ : كيفَ كنتَ بعدي ؟ قالَ : في عافيةٍ ، قالَ : إنْ كنتَ لمْ تعصِ اللهَ . . فأنتَ في عافيةٍ ، وإنْ كنتَ قدْ عصيتَهُ . . فأيُّ داءٍ أدوأُ مِنَ المعصيةِ ؟! ما عُوفيَ مَنْ عصى الله[1] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ لمَّا رأىٰ زينةَ النَّبَطِ بالعراقِ في يوم عيدِهِمْ : ما هٰذا الذي أظهروهُ ؟ قالوا : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ هٰذا يومُ عيدٍ لهُمْ ، فقالَ : كلُّ يومٍ لا نعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ فهوَ لنا عيدٌ[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، قيلَ : العوافي ، وقالَ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ ، وكذلكَ إذا استغنىٰ بالعافيةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : إنَّما قالَ فرعونُ : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لطولِ العافيةِ ؛ لأنَّهُ لبثَ أربعَ مئةِ سنةٍ لمْ يُصدَّعْ لهُ رأسٌ ، ولمْ يُحمَّ لهُ جسمٌ ، ولمْ يضربْ عليهِ عرقٌ ؛ فادَّعى الربوبيةَ لعنَهُ اللهُ ، ولوْ أخذَتْهُ الشقيقةُ كلَّ يومٍ . . لشغلَتْهُ عنِ الفضولِ فضلاً عنْ دعوى الربوبيةِ[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ هاذمِ اللذاتِ »[2] ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٤) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/ ٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) .

وقيلَ : (الحمَّىٰ رائدُ الموتِ)[١] ، فهيَ تذكرةٌ بهِ ، ودافعةٌ للتسويفِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، قيلَ : يفتنونَ بأمراضٍ يُختبرون بها[٢] .

ويُقالُ : إنَّ العبدَ إذا مرضَ مرضتينِ ثمَّ لمْ يتبْ . . قالَ لهُ ملكُ الموتِ : يا غافلُ ؛ جاءَكَ منِّي رسولٌ بعدَ رسولٍ فلمْ تُجبْ[٣] ؟!

وقدْ كانَ السلفُ لذلكَ يستوحشونَ إذا خرجَ عامٌ لم يُصابوا فيهِ بنقصٍ في نفسٍ أوْ مالٍ[٤] .

وقالوا : لا يخلو المؤمنُ في كلِّ أربعينَ يوماً أنْ يُروَّعَ روعةً ، أوْ يُصابَ ببليَّةٍ ، حتَّىٰ رُويَ أنَّ عمارَ بنَ ياسرٍ تزوَّجَ امرأةً ، فلمْ تكنْ تمرضُ ، فطلَّقَها[٥] ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عُرِضَتْ عليهِ امرأةٌ ، فذُكِرَ مِنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٤) عن سعيد بن جبير ، ومرسلاً عن الحسن (٧٣) ، وفي (ج ، د ، ن ، ع) : (بريد) بدل (رائد) ، وهي كذلك في « القوت » (٢/٢٦) ، ورواها كذلك أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٢٩) عن أبي حفص النيسابوري .

(٢) قوت القلوب (٢/٢٦) .

(٣) قوت القلوب (٢/٢٦) ، والمعنىٰ : فلم تُجبْ إلا أن آتيك بنفسي أضربك ضربة أقطع منك الوتين . « إتحاف » (٩/٥٢٩) .

(٤) قوت القلوب (٢/٢٦) .

(٥) قوت القلوب (٢/٢٦) .

وصفِها حتَّىٰ همَّ أنْ يتزوجَها ، فقيلَ : وإنَّها ما مرضَتْ قطُّ ، فقالَ : « لا حاجةَ لي فيها »[1] .

وذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأمراضَ والأوجاعَ ؛ كالصداعِ وغيرِهِ ، فقالَ رجلٌ : وما الصداعُ ؟ ما أعرفُهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إليكَ عنِّي ، مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ النارِ . فلينظرْ إلىٰ هـٰذا »[2] ، وهـٰذا لأنَّهُ وردَ في الخبرِ : أنَّ الحمَّىٰ حظُّ كلِّ مؤمنٍ مِنَ النارِ[3] .

وفي حديثِ أنسٍ وعائشةَ رضيَ اللهُ عنهُما : قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يكونُ معَ الشهداءِ يومَ القيامةِ غيرُهُمْ ؟ فقالَ : « نعمْ ، مَنْ ذكرَ الموتَ في كلِّ يومٍ عشرينَ مرَّةً » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الذي يذكرُ ذنوبَهُ فتحزنُهُ »[4] ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٥٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٦) ، وقد رواه أبو داوود (٣٠٨٩) ، إذ قال الرجل : وما الأسقام ؟ والله ما مرضت قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُمْ عنا ، فلست منا » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٥٧) ، وعند الترمذي (٢٠٨٨) ، وابن ماجه (٣٤٧٠) أنه صلى الله عليه وسلم قال للذي وعك : « أبشر ، فإن الله يقول : هي ناري أسلطها علىٰ عبدي المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار في الآخرة » .

(٤) كذا بروايته في « القوت » (٢/ ٢٦) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها ، ولفظه أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم =

ولا شكَّ في أنَّ ذكرَ الموتِ على المريضِ أغلبُ .

فلمَّا أنْ كثرَتْ فوائدُ المرضِ . . رأىٰ جماعةٌ تركَ الحيلةِ في زوالِها ؛ إذْ رأَوا لأنفسِهِمْ مزيداً فيها ، لا مِنْ حيثُ رأَوا التداويَ نقصاناً ، وكيفَ يكونُ نقصاناً وقدْ فعلَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟!

* * *

= خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه . . أعطاه الله أجر شهيد » .

بيان الرّد على من قال : إنّ ترك التّداوي أفضل بكلّ حال

فلوْ قالَ قائلٌ : إنَّما فعلَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليسُنَّ لغيرِهِ ، وإلا . . فهوَ حالُ الضعفاءُ ، ودرجةُ الأقوياءِ تُوجبُ التوكلَ بتركِ الدواءِ .

فيُقالُ لهُ : فينبغي أنْ يكونَ مِنْ شرطِ التوكلِ تركُ الحجامةِ والفصدِ عندَ تبيُّغِ الدمِ ، فإنْ قيلَ : إنَّ ذلكَ أيضاً شرطٌ . . فليكنْ مِنْ شرطِهِ أنْ تلدغَهُ العقربُ أوِ الحيةُ فلا ينحّيَها عنْ نفسِهِ ؛ إذِ الدمُ يلدغُ الباطنَ ، والعقربُ تلدغُ الظاهرَ ، فأيُّ فرقٍ بينَهُما ؟

فإنْ قالَ : وذلكَ أيضاً شرطُ التوكلِ .

فيُقالُ : ينبغي ألا يزيلَ لدغَ العطشِ بالماءِ ولدغَ الجوعِ بالخبزِ ولدغَ البردِ بالجبَّةِ ، وهٰذا لا قائلَ بهِ ، ولا فرقَ بينَ هٰذهِ الدرجاتِ ؛ فإنَّ جميعَ ذلكَ أسبابٌ رتَّبها مسبِّبُ الأسبابِ سبحانَهُ وتعالىٰ وأجرىٰ بها سنَّتَهُ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ ذلكَ ليسَ مِنْ شرطِ التوكلِ ما رُويَ عنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وعنِ الصحابةِ في قصَّةِ الطاعونِ ، فإنَّهُمْ لمَّا قصدوا الشامَ وانتهَوا إلى الجابيةِ[1] . . بلغَهُمُ الخبرُ أنَّ بهِ موتاً ذريعاً ووباءً عظيماً ، فافترقَ الناسُ فرقتينِ ، فقالَ بعضُهُمْ : لا ندخلُ على الوباءِ فنلقيَ بأيدينا إلى التهلكةِ ، وقالَتْ طائفةٌ أخرىٰ : بلْ ندخلُ ونتوكلُ ، ولا نهربُ مِنْ قدرِ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) موضع من أعمال دمشق ، يقع في شمال حوران .

ولا نفرُّ مِنَ الموتِ فنكونَ كمَنْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ ، فرجعوا إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فسألوهُ عنْ رأيِهِ ، فقالَ : نرجعُ ولا ندخلُ على الوباءِ ، فقالَ لهُ المخالفونَ في رأيِهِ : أنفرُّ مِنْ قدرِ اللهِ تعالى ؟! فقالَ عمرُ : نعمْ ، نفرُّ مِنْ قدرِ اللهِ إلىٰ قدرِ اللهِ ، ثمَّ ضربَ لهُمْ مثلاً وقالَ : أرأيتُمْ لوْ كانَ لأحدِكُمْ غنمٌ ، فنزلَ بها وادياً لهُ شعبتانِ ؛ إحداهُما مخصبةٌ ، والأخرىٰ مجدبةٌ ، أليسَ إنْ رعى المخصبةَ . . رعاها بقدرِ اللهِ تعالىٰ وإنْ رعى المجدبةَ . . رعاها بقدرِ اللهِ تعالى ؟ فقالوا : نعمْ ، ثمَّ طلبَ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ ليسألَهُ عنْ رأيِهِ وكانَ غائباً ، فلمَّا أصبحوا . . جاءَ عبدُ الرحمـٰنِ ، فسألَهُ عمرُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : عندي فيهِ يا أميرَ المؤمنينَ شيءٌ سمعتُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عمرُ : اللهُ أكبرُ ! فقالَ عبدُ الرحمـٰنِ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إذا سمعتُمْ بالوباءِ بأرضٍ . . فلا تقدموا عليهِ ، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتُمْ بها . . فلا تخرجوا فراراً منهُ » ، ففرحَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بذلكَ وحمدَ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ رأيَهُ ، ورجعَ بالناسِ مِنَ الجابيةِ[1] .

فإذاً ؛ كيفَ اتفقَ الصحابةُ كلُّهُمْ علىٰ تركِ التوكلِ وهوَ مِنْ أعلى المقاماتِ إنْ كانَ أمثالُ هـٰذا مِنْ شروطِ التوكلِ ؟

---

(١) رواه بمرفوعه البخاري (٥٧٢٩) ، ومختصراً مسلم (٢٢١٩) .

فإنْ قلتَ : فلِمَ نهىٰ عنِ الخروجِ مِنَ البلدِ الذي فيهِ الوباءُ وسببُ الوباءِ في الطبِّ الهواءُ ، وأظهرُ طرقِ التداوي الفرارُ مِنَ المضرِّ ، والهواءُ هوَ المضرُّ ، فلِمَ لمْ يرخصْ فيهِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لا خلافَ في أنَّ الفرارَ عنِ المضرِّ غيرُ منهيٍّ عنهُ ؛ إذِ الحجامةُ والفصدُ فرارٌ مِنَ المضرِّ وتركُ التوكلِ في أمثالِ هـٰذا مباحٌ ، وهـٰذا لا يدلُّ على المقصودِ ، ولكنَّ الذي ينقدحُ فيهِ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أنَّ الهواءَ لا يضرُّ مِنْ حيثُ يلاقي ظاهرَ البدنِ ، بلْ مِنْ حيثُ دوامُ الاستنشاقِ لهُ ، فإنَّهُ إذا كانَ فيهِ عفونةٌ ، ووصلَ إلى الرئةِ والقلبِ وباطنِ الأحشاءِ . . أثَّرَ فيها بطولِ الاستنشاقِ ، فلا يظهرُ الوباءُ على الظاهرِ إلا بعدَ طولِ التأثيرِ في الباطنِ ، فالخروجُ مِنَ البلدِ لا يخلصُ غالباً مِنَ الأثرِ الذي استحكمَ مِنْ قبلُ ، ولكنَّهُ يتوهَّمُ الخلاصَ ، فيصيرُ هـٰذا مِنْ جنسِ الموهوماتِ ، كالرُّقْي والطيرةِ وغيرِهما ، ولوْ تجرَّدَ هـٰذا المعنىٰ . . لكانَ مناقضاً للتوكلِ ولمْ يكنْ منهياً عنهُ ، ولكنْ صارَ منهياً عنهُ ؛ لأنَّهُ انضافَ إليهِ أمرٌ آخرُ ، وهوَ أنَّهُ لوْ رخَّصَ للأصحاءِ في الخروجِ . . لما بقيَ في البلدِ إلا المرضى الذين أقعدَهُمُ الطاعونُ وانكسرَتْ قلوبُهُمْ وفقدوا المتعهِّدينَ ، ولمْ يبقَ في البلدِ مَنْ يسقيهِمُ الماءَ ويطعمُهُمُ الطعامَ ، وهمْ يعجزونَ عنْ مباشرتِهما بأنفسِهِمْ ، فيكونُ ذلكَ سعياً في إهلاكِهِمْ تحقيقاً ، وخلاصُهُمْ منتظرٌ ، كما أنَّ خلاصَ الأصحَّاءِ منتظرٌ ، فلوْ أقاموا . . لمْ تكنِ الإقامةُ قاطعةً بالموتِ ، ولوْ خرجوا . . لمْ يكنِ الخروجُ قاطعاً بالخلاصِ ، وهوَ قاطعٌ في إهلاكِ الباقينَ ،

والمسلمونَ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، والمؤمنونَ كالجسدِ الواحدِ ؛ إذا اشتكىٰ منهُ عضوٌ . تداعىٰ إليهِ سائرُ أعضائِهِ .

فهٰذا هوَ الذي ينقدحُ عندَنا في تعليلِ النهيِ ، وينعكسُ هٰذا فيمَنْ لمْ يقدمْ بعدُ على البلدِ ؛ فإنَّهُ لمْ يؤثِّرِ الهواءُ في باطنِهِمْ ، ولا بأهلِ البلدِ حاجةٌ إليهِمْ .

نعمْ ، لوْ لمْ يبقَ في البلدِ إلا مطعونونَ ، وافتقروا إلى المتعهدينَ ، وقدمَ عليهِمْ قومٌ . فربَّما كانَ ينقدحُ استحبابُ الدخولِ هٰهنا لأجلِ الإعانةِ ، ولا يُنهىٰ عنِ الدخولِ ؛ لأنَّهُ تعرُّضٌ لضررٍ موهومٍ علىٰ رجاءِ دفعِ ضررٍ عنْ بقيَّةِ المسلمينَ ، ولهٰذا شُبِّهَ الفرارُ مِنَ الطاعونِ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ مِنَ الزحفِ[1] ؛ لأنَّ فيهِ كسراً لقلوبِ بقيَّةِ المسلمينَ ، وسعياً في إهلاكِهِمْ .

فهٰذهِ أمورٌ دقيقةٌ ، فمَنْ لا يلاحظُها ، وينظرُ إلىٰ ظواهرِ الأخبارِ والآثارِ . يتناقضُ عندَهُ أكثرُ ما يسمعُهُ ، وغلطُ العبَّادِ والزهَّادِ في مثلِ هٰذا يكثرُ ، وإنَّما شرفُ العلمِ وفضيلتُهُ لأجلِ ذلكَ .

---

(١) فقد روىٰ أحمد في « المسند » (٦/ ٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « الفار من الطاعون كالفار من الزحف » .

فإنْ قلتَ : ففي تركِ التداوي فضلٌ كما ذكرتَ ، فلِمَ لمْ يتركْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التداويَ لينالَ الفضْلَ ؟

فنقولُ : فيهِ فضْلٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ كثرَتْ ذنوبُهُ ليكفِّرَها ، أوْ خافَ علىٰ نفسِهِ طغيانَ العافيةِ وغلبةَ الشهواتِ ، أوِ احتاجَ إلىٰ ما يذكِّرُهُ الموتَ لغلبةِ الغفلةِ ، أوِ احتاجَ إلىٰ نيلِ ثوابِ الصابرينَ لقصورِهِ عنْ مقاماتِ الراضينَ والمتوكلينَ ، أوْ قصرَتْ بصيرتُهُ عنِ الاطلاعِ علىٰ ما أودعَ اللهُ تعالى في الأدويةِ منْ لطائفِ المنافعِ حتَّىٰ صارَ في حقِّهِ موهوماً كالرَّقْيِ ، أوْ كانَ شغلُهُ بحالِهِ يمنعُهُ عنِ التداوي ، وكانَ التداوي يشغلُهُ عنْ حالِهِ لضعفِهِ عنِ الجمعِ ، فإلىٰ هـٰذهِ المعاني رجعَتِ الصوارفُ في تركِ التداوي ، وكلُّ ذلكَ كمالاتٌ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الخلقِ ، ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بلْ كانَ مقامُهُ أعلىٰ مِنْ هـٰذهِ المقاماتِ كلِّها ؛ إذْ كانَ حالُهُ يقتضي أنْ تكونَ مشاهدتُهُ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ عندَ وجودِ الأسبابِ وفقدِها ، فإنَّهُ لمْ يكنْ لهُ نظرٌ في الأحوالِ إلا إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، ومَنْ كانَ هـٰذا مقامُهُ . . لمْ تضرَّهُ الأسبابُ ، كما ذكرنا أنَّ الرغبةَ في المالِ نقصٌ ، والرغبةَ عنِ المالِ كراهةً لهُ وإنْ كانتْ كمالاً فهوَ أيضاً نقصٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يستوي عندَهُ وجودُ المالِ وعدمُهُ ، فاستواءُ الحجرِ والذهبِ أكملُ مِنَ الهربِ مِنَ الذهبِ دونَ الحجرِ ، وكانَ حالُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استواءَ المدرِ والذهبِ عندَهُ ، وكانَ لا يمسكُهُ لتعليمِ الخلقِ مقامَ الزهدِ ، فإنَّهُ منتهىٰ قوَّتِهِمْ ، لا لخوفِهِ علىٰ نفسِهِ مِنْ إمساكِهِ ، فإنَّهُ كانَ أعلىٰ رتبةً مِنْ أنْ تغرَّهُ

الدنيا ، وقدْ عُرضَتْ عليهِ خزائنُ الأرضِ فأبىٰ أنْ يقبلَها[1] ، فكذلكَ يستوي عندَهُ مباشرةُ الأسبابِ وتركُها لمثلِ هـٰذهِ المشاهدةِ .

وإنَّما لمْ يتركِ استعمالَ الدواءِ جرياً علىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ ، وترخيصاً لأمَّتِهِ فيما تمسُّ إليهِ حاجتُهُمْ ، معَ أنَّهُ لا ضررَ فيهِ ، بخلافِ ادخارِ الأموالِ ، فإنَّ ذلكَ يعظمُ ضررُهُ .

نعمْ ، التداوي لا يضرُّ إلا مِنْ حيثُ رؤيةُ الدواءِ نافعاً دونَ خالقِ الدواءِ ، وهـٰذا قدْ نُهيَ عنهُ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ قدْ يُقصدُ بهِ الصحةُ ليُستعانَ بها على المعاصي ، وذلكَ منهيٌّ عنهُ ، والمؤمنُ في غالبِ الأمرِ لا يقصدُ ذلكَ ، وأحدٌ مِنَ المؤمنينَ لا يرى الدواءَ نافعاً بنفسِهِ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ سبباً للنفعِ ، كما لا يرى الماءَ مروياً ولا الخبزَ مشبعاً ، فحكمُ التداوي في مقصودِهِ كحكمِ الكسبِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتسبَ للاستعانةِ على الطاعةِ أوْ على المعصيةِ . . كانَ لهُ حكمُها ، وإنِ اكتسبَ للتنعُّمِ بالمباحِ . . فلهُ حكمُهُ .

فقدْ ظهرَ بالمعاني التي أوردناها أنَّ تركَ التداوي قدْ يكونُ أفضلَ في بعضِ الأحوالِ ، وأنَّ التداويَ قدْ يكونُ أفضلَ في بعضٍ ، وأنَّ ذلكَ يختلفُ

---

(١) فقد روى الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا ربّ ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً . . . » .

باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ والنيّاتِ ، وأنَّ واحداً مِنَ الفعلِ والتركِ ليسَ شرطاً في التوكلِ ، إلا تركَ الموهوماتِ ؛ كالكيِّ والرَّقْيِ ، فإنَّ ذلكَ تعمُّقٌ في التدبيراتِ لا يليقُ بالمتوكلينَ .

❋ ❋ ❋

بيان أحوال المتوكّل في إظهار المرض وكتمانه

اعلمْ : أنَّ كتمانَ المرضِ وإخفاءَ الفقرِ وأنواعِ البلاءِ مِنْ كنوزِ البرِّ ، وهوَ مِنْ أعلى المقاماتِ ؛ لأنَّ الرضا بحكمِ اللهِ تعالىٰ والصبرَ علىٰ بلائِهِ معاملةٌ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، فكتمانُهُ أسلمُ عنِ الآفاتِ ، ومعَ هٰذا فالإظهارُ لا بأسَ بهِ إذا صحَّتْ فيهِ النيَّةُ والقصدُ ، ومقاصدُ الإظهارِ ثلاثةٌ :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ غرضُهُ التداويَ ، فيحتاجُ إلىٰ ذكرِهِ للطبيبِ ، فيذكرُهُ لا في معرضِ الشكايةِ ، بلْ في معرضِ الحكايةِ لما ظهرَ عليهِ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ كانَ بشرٌ يصفُ لعبدِ الرحمٰنِ المتطبِّبِ أوجاعَهُ[1] ، وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يخبرُ بأمراضٍ يجدُها ويقولُ : (إنَّما أصفُ قدرةَ اللهِ تعالىٰ فيَّ)[1] .

﴿ ﴿ ﴿

الثاني : أنْ يصفَ لغيرِ الطبيبِ وكانَ ممَّنْ يُقتدىٰ بهِ ، وكانَ مكيناً في المعرفةِ ، فأرادَ مِنْ ذِكْرِهِ أنْ يُتعلَّمَ منهُ حسنُ الصبرِ في المرضِ ، بلْ حسنُ الشكرِ بأنْ يظهرَ أنَّهُ يرى المرضَ نعمةً فيُشكرُ عليها ، فيتحدَّثُ بهِ كما يتحدَّثُ بالنعمِ ، وقالَ الحسنُ البصريُّ : (إذا حمدَ المريضُ اللهَ تعالىٰ وشكرَهُ ، ثمَّ ذكرَ أوجاعَهُ . . لمْ يكنْ ذلكَ شكوىٰ)[1] .

﴿ ﴿ ﴿

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨) .

الثالثُ : أنْ يظهرَ بذلكَ عجزَهُ وافتقارَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ يحسنُ ممَّنْ تليقُ بهِ القوَّةُ والشجاعةُ ويُستبعدُ منهُ العجزُ ، كما رُوِيَ أنَّهُ قيلَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ في مرضِهِ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : بشرٍّ ، فنظرَ بعضُهُمْ إلىٰ بعضٍ كأنَّهُمْ كرهوا ذلكَ ، وظنُّوا أنَّهُ شكايةٌ ، فقالَ : أتجلَّدُ على اللهِ ؟!(١) فأحبَّ أنْ يظهرَ عجزَهُ وافتقارَهُ معَ ما عُلِمَ بهِ مِنَ القوَّةِ والصرامةِ ، وتأدَّبَ فيهِ بتأديبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيَّاهُ ؛ حيثُ مرضَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ فسمعَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يقولُ : اللهُمَّ ؛ صبِّرْني على البلاءِ ، فقالَ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ سألتَ اللهَ تعالى البلاءَ ، فسلِ اللهَ العافيةَ »(٢) .

فبهٰذهِ النيَّاتِ يُرخَّصُ في ذكرِ المرضِ ، وإنَّما يُشترطُ ذلكَ ؛ لأنَّ ذكرَهُ شكايةٌ ، والشكوىٰ مِنَ اللهِ تعالىٰ حرامٌ ؛ كما ذكرناهُ في تحريمِ السؤالِ على الفقراءِ إلا بضرورةٍ .

ويصيرُ الإظهارُ شكايةً بقرينةِ السخطِ وإظهارِ الكراهةِ لفعلِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ خلا عنْ قرينةِ التسخُّطِ وعنِ النيَّاتِ التي ذكرناها .. فلا يُوصفُ بالتحريمِ ، ولكنْ يُحكمُ فيهِ بأنَّ الأولىٰ تركُهُ ؛ لأنَّهُ ربَّما يوهمُ الشكايةَ ، ولأنَّهُ ربَّما يكونُ فيهِ تصنُّعٌ ومزيدٌ في الوصفِ على الموجودِ مِنَ العلَّةِ ، ومَنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢٩) ، ورواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعيّنه (٣٥٦٤) .

تركَ التداويَ توكلاً . . فلا وجهَ في حقِّهِ للإظهارِ ؛ لأنَّ الاستراحةَ إلى الدواءِ أحسنُ مِنَ الاستراحةِ إلى الإفشاءِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ بثَّ . . لمْ يصبرْ)(١) .

وقيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ : لا شكوىٰ فيهِ(٢) .

وقيلَ ليعقوبَ عليهِ السلامُ : ما الذي أذهبَ بصرَكَ ؟ قالَ : مُرُّ الزمانِ وطولُ الأحزانِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : تفرَّغتَ لشكوايَ إلىٰ عبادي ؟! فقالَ : يا ربِّ ؛ أتوبُ إليكَ(٣) .

ورُوِيَ عنْ طاووسٍ ومجاهدٍ أنَّهُما قالا : يُكتبُ على المريضِ أنينُهُ في مرضِهِ ، وكانوا يكرهونَ أنينَ المريضِ ؛ لأنَّهُ إظهارُ معنىً يقتضي الشكوىٰ ، حتَّىٰ قيلَ : ما أصابَ إبليسُ لعنَهُ اللهُ مِنَ أيوبَ عليهِ السلامُ إلا أنينَهُ في مرضِهِ ، فجُعِلَ الأنينُ حظَّهُ منهُ(٤) .

وفي الخبرِ : « إذا مرضَ العبدُ . . أوحى اللهُ تعالىٰ إلى الملكينِ : انظرا ما يقولُ لعوَّادِهِ ؛ فإنْ حمدَ اللهَ وأثنىٰ بخيرٍ . . دعوا لهُ ، وإنْ شكا وذكرَ شرّاً . . قالا : كذلكَ تكونُ »(٥) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٦٢) عن مسلم بن يسار مرفوعاً .

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٢/ ٢٠٦) عن حبان بن أبي جبلة مرفوعاً مع الخبر السابق.

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٢٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٧٨٣) .

(٤) كذا في «القوت» (٢/ ٢٨)، وعن مجاهد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٩٣٥).

(٥) قوت القلوب (٢/ ٢٨) ، ورواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) عن عطاء بن يسار =

وإنَّما كرهَ بعضُ العبَّادِ العيادةَ خشيةَ الشكايةِ وخوفَ الزيادةِ في الكلامِ ، فكانَ بعضُهُمْ إذا مرضَ . . أغلقَ بابَهُ ، فلمْ يدخلْ عليهِ أحدٌ حتَّىٰ يبرأَ فيخرجَ إليهِمْ ، منهُمْ فضيلٌ ووهيبٌ وبشرٌ ، وكانَ فضيلٌ يقولُ : (أشتهي أنْ أمرضَ بلا عوَّادٍ)[١] ، وقالَ : (لا أكرهُ العلَّةَ إلا لأجلِ العوَّادِ)[٢] .

❋ ❋ ❋

تم كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

وصلّى الله على خيرته من خلقه محمّد النّبيّ وآله الطّاهرين وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب المحبّة والشّوق والأنس والرّضا

= مرسلاً ، وأسنده موصولاً ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٤٧) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، كلهم رواه بنحوه .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٨) بتمام السياق .

كتاب
المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب المحبّة والشّوق والأنس والرّضا

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي نزَّهَ قلوبَ أوليائِهِ عنِ الالتفاتِ إلىٰ متاعِ الدنيا وخضرتِهِ ، وصفَّىٰ أسرارَهُمْ عنْ ملاحظةِ غيرِ حضرتِهِ ، ثمَّ استخلصَها للعكوفِ علىٰ بساطِ عزَّتِهِ ، ثمَّ تجلَّىٰ لها بأسمائِهِ وصفاتِهِ حتَّىٰ أشرقَتْ بأنوارِ معرفتِهِ ، ثمَّ كشفَ لها عنْ سُبُحاتِ وجهِهِ حتَّى احترقَتْ بنارِ محبَّتِهِ ، ثمَّ احتجبَ عنها بكنهِ جلالِهِ حتَّىٰ تاهَتْ في بيداءِ كبريائِهِ وعظمتِهِ ، فكلَّما اهتزَّتْ لملاحظةِ كنهِ الجلالِ . . غشيَها مِنَ الدَّهَشِ ما غبَّرَ في وجهِ العقلِ وبصيرتِهِ ، وكلَّما همَّتْ بالانصرافِ آيسةً . . نُوديَتْ مِنْ سُرادقاتِ الجمالِ : صبراً أيُّها الآيسُ عنْ نيلِ الحقِّ بجهلِهِ وعجلتِهِ ، فبقيَتْ بينَ الردِّ والقبولِ والصدِّ والوصولِ غرقَىٰ في بحرِ معرفتِهِ ، ومحترقةً بنارِ محبَّتِهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ خاتمِ الأنبياءِ بكمالِ نبوَّتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ سادةِ الخلقِ وأئمَّتِهِ ، وقادةِ الحقِّ وأزمَّتِهِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أمَّا بعـد :

فإنَّ المحبَّةَ للهِ تعالىٰ هيَ الغايةُ القصوىٰ مِنَ المقاماتِ ، والذروةُ العليا مِنَ الدرجاتِ ، فما بعدَ إدراكِ المحبَّةِ مقامٌ إلا وهوَ ثمرةٌ مِنْ ثمارِها ، وتابعٌ مِنْ توابعِها ؛ كالشوقِ ، والأنسِ ، والرضا ، وأخواتِها ، ولا قبلَ المحبَّةِ

مقامٌ إلا وهوَ مقدِّمةٌ مِنْ مقدماتِها ؛ كالتوبةِ ، والصبرِ ، والزهدِ ، وغيرِها .

وسائرُ المقاماتِ إنْ عزَّ وجودُها . . فلمْ تخلُ القلوبُ عنِ الإيمانِ بإمكانِها ، وأمّا محبةُ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ عزَّ الإيمانُ بها ، حتَّىٰ أنكرَ بعضُ العلماءِ إمكانَها ، وقالَ : (لا معنىً لها إلا المواظبةُ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وأمّا حقيقةُ المحبَّةِ . . فمحالٌ إلا معَ الجنسِ والمثالِ) ، ولمّا أنكروا المحبةَ . . أنكروا الأُنسَ ، والشوقَ ، ولذَّةَ المناجاةِ ، وسائرَ لوازمِ الحبِّ وتوابعِهِ ، فلا بدَّ مِنْ كشفِ الغطاءِ عنْ هـٰذا الأمرِ .

ونحنُ نذكرُ في هـٰذا الكتابِ بيانَ شواهدِ الشرعِ في المحبَّةِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتِها وأسبابِها ، ثمَّ بيانَ أنْ لا مستحقَّ للمحبَّةِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ أنَّ أعظمَ اللذاتِ لذةُ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ سببِ زيادةِ لذَّةِ النظرِ في الآخرةِ على المعرفةِ في الدنيا ، ثمَّ بيانَ الأسبابِ المقوِّيةِ لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ السببِ في تفاوتِ الناسِ في الحبِّ ، ثمَّ بيانَ السببِ في قصورِ الأفهامِ عنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الشوقِ ، ثمَّ بيانَ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ للعبدِ ، ثمَّ القولَ في علاماتِ محبَّةِ العبدِ للهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الأنسِ باللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بيانَ معنى الانبساطِ في الأنسِ ، ثمَّ القولَ في معنى الرضا وبيانَ فضيلتِهِ ، ثمَّ بيانَ حقيقتِهِ ، ثمَّ بيانَ أنَّ الدعاءَ وكراهةَ المعاصي لاتناقضُهُ ، وكذا الفرارُ مِنَ المعاصي ، ثمَّ بيانَ حكاياتٍ وكلماتٍ للمحبِّينَ متفرقةٍ .

فهـٰذهِ جميعُ بياناتِ هـٰذا الكتابِ .

❋ ❋ ❋

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ الأمَّةَ مجمعةٌ علىٰ أنَّ الحبَّ للهِ تعالىٰ ولرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فرضٌ ، وكيفَ يُفرضُ ما لا وجودَ لهُ ؟![1] ، وكيفَ يُفسَّرُ الحبُّ بالطاعةِ والطاعةُ تبعُ الحبِّ وثمرتُهُ ؟! فلا بدَّ وأنْ يتقدَّمَ الحبُّ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يطيعُ مَنْ أحبَّ .

ويدلُّ علىٰ إثباتِ الحبِّ للهِ تعالىٰ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، وهوَ دليلٌ علىٰ إثباتِ الحبِّ ، وإثباتِ التفاوتِ فيهِ .

وقدْ جعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحبَّ للهِ مِنْ شرطِ الإيمانِ في أخبارٍ كثيرةٍ ؛ إذْ قالَ أبو رزينٍ العُقيليُّ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما الإيمانُ ؟ قالَ : « أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليكَ ممَّا سواهما »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتَّىٰ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُما »[3] .

---

(١) هـٰذا إنكار علىٰ من أنكر المحبة أصلاً . « إتحاف » (٩/٥٤٦) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/١١) ، وأبو رزين هو لقيط بن عامر رضي الله عنه ، وسياق المصنف هنا عند صاحب « القوت » (٢/٥٠) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٥٠) ، وبلفظه رواه أحمد في « المسند » (٣/٢٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وعند البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديثه أيضاً : =

وفي حديثٍ آخرَ : « لا يؤمنُ العبدُ حتَّىٰ أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ أهلِهِ ومالِهِ والناسِ أجمعينَ » ، وفي روايةٍ : « ومِنْ نفسِهِ »[١] .

كيفَ وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّما أجرىٰ ذلكَ في معرضِ التهديدِ والإنكارِ ؟!

وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالمحبَّةِ فقالَ : « أحبُّوا اللهَ لما يغذوكُمْ بهِ مِنْ نعمِهِ ، وأحبُّوني لحبِّ اللهِ »[٢] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي أحبُّكَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « استعدَّ للفقرِ » ، فقالَ : إنِّي أحبُّ اللهَ تعالىٰ ، فقالَ : « استعدَّ للبلاءِ »[٣] .

= « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . . » الحديث .

(١) رواه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) واللفظ له ، والرواية الثانية أوردها صاحب « القوت » (٢/ ٥٠) بلفظ : « ومن نفسك » ، وهي عند البخاري (٦٦٣٢) ، وسيأتي الخبر تاماً .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) ، وقد رواه الترمذي (٣٧٨٩) وتمامه : « . . . وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبِّي » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) وقال : (والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلي وهو الله تعالى المبتلي ، فلما ذكر محبته . . أخبره بالبلاء ليصبر علىٰ أخلاقه ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ ، فدل علىٰ أحكامه وبلائه ، والفقر من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذكر محبته . . دلَّه على اتباع أوصافه ؛ ليقتفي آثاره) ، وقد =

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : نظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ مصعبِ بنِ عميرٍ مقبلاً وعليهِ إهابُ كبشٍ قدْ تنطقَ بهِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انظروا إلىٰ هـٰذا الرجلِ الذي قدْ نوَّرَ اللهُ قلبَهُ ، لقدْ رأيتُهُ بينَ أبوينِ يغذوانِهِ بأطيبِ الطعامِ والشرابِ ، فدعاهُ حبُّ اللهِ ورسولِهِ إلىٰ ما ترونَ »(١) .

وفي الخبرِ المشهورِ : أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ قالَ لملكِ الموتِ إذْ جاءَهُ لقبضِ روحِهِ : هلْ رأيتَ خليلاً يميتُ خليلَهُ ؟! فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : هلْ رأيتَ محبّاً يكرهُ لقاءَ حبيبِهِ ؟! فقالَ : يا ملكَ الموتِ الآنَ فاقبضْ(٢) .

وهـٰذا لا يجدُهُ إلا عبدٌ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ ، فإذا علمَ أنَّ الموتَ سببُ اللقاءِ . . انزعجَ قلبُهُ إليهِ ، ولمْ يكنْ لهُ محبوبٌ غيرَهُ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ .

وقدْ قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ

= روى الترمذي (٢٣٥٠) أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني لأحبك (ثلاث مرات) ، فقال : « إن كنت تحبني . . فأعدَّ للفقر تجفافاً ؛ فإن الفقر أسرع إلىٰ من يحبني من السيل إلىٰ منتهاه » ، وروى البيهقي في « الشعب » (١٣٩٧) أن رجلاً قال له صلى الله عليه وسلم : إني أحبك ، قال : « فاستعد للفاقة » .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٠٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٧٧٩) .

(٢) رواه الخلدي في « فوائده » (ص٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٨) عن محمد بن المنكدر ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٩) عن دكين الفزاري .

وحبَّ مَنْ أحبَّكَ وحبَّ ما يقرِّبُني إلىٰ حبِّكَ ، واجعلْ حبَّكَ إليَّ مِنَ الماءِ البارِدِ »[١] .

وجاءَ أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متى الساعةُ ؟ فقالَ : « ما أعددتَ لها ؟ » فقالَ : ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ، إلا أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ » ، قالَ أنسٌ : فما رأيتُ المسلمينَ فرحوا بشيءٍ بعدَ الإسلامِ فرحَهُمْ بذلكَ[٢] .

وقالَ أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . شغلَهُ ذلكَ عنْ طلبِ الدنيا ، وأوحشَهُ عنْ جميعِ البشرِ)[٣] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ عرفَ ربَّهُ . . أحبَّهُ ، ومَنْ عرفَ الدنيا . . زهدَ فيها ، والمؤمنُ لا يلهو حتَّىٰ يغفُلَ ، فإذا تفكَّرَ . . حزنَ)[٤] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إنَّ مِنْ خلقِ اللهِ خلقاً ما يشغلُهُمْ الجنانُ وما فيها مِنَ النعيمِ عنهُ ، فكيفَ يشتغلونَ عنهُ بالدنيا ؟!)[٥] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٠) .
(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨) ، ومسلم (٢٦٣٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .
(٥) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص١١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٨) .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ بثلاثةِ نفرٍ قدْ نَحَلَتْ أبدانُهُمْ ، وتغيَّرَتْ ألوانُهُمْ ، فقالَ لهُمْ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرى ؟ فقالوا : الخوفُ مِنَ النارِ ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يؤمِّنَ الخائفَ ، ثمَّ جاوزَهُمْ إلىٰ ثلاثةٍ آخرينَ ، فإذا هُمْ أشدُّ نُحولاً وتغيُّراً ، فقالَ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرى ؟ قالوا : الشوقُ إلى الجنةِ ، فقالَ : حقٌّ على اللهِ أنْ يعطيَكُمْ ما ترجونَ ، ثمَّ جاوزَهُمْ إلىٰ ثلاثةٍ آخرينَ ، فإذا هُمْ أشدُّ نحولاً وتغيُّراً ، كأنَّ علىٰ وجوهِهِمُ المرائيَ مِنَ النورِ ، فقالَ : ما الذي بلغَ بكُمْ ما أرى ؟ قالوا : نحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فقالَ : أنتُمُ المقرَّبونَ ، أنتُمُ المقرَّبونَ[(١)] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ برجلٍ نائمٍ في الثلجِ ، فقلتُ : أما تجدُ البردَ ؟ فقالَ : مَنْ شغلَهُ حبُّ اللهِ . . لمْ يجدِ البردَ[(٢)] .

وعنْ سريٍّ السقطيِّ قالَ : تُدعى الأممُ يومَ القيامةِ بأنبيائِها عليهِمُ السلامُ ، فيُقالُ : يا أمَّةَ موسىٰ ، ويا أمَّةَ عيسىٰ ، ويا أمَّةَ محمدٍ ، غيرَ المحبينَ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُمْ يُنادونَ : يا أولياءَ اللهِ ؛ هلمُّوا إلى اللهِ سبحانَهُ ، فتكادُ قلوبُهُمْ تنخلعُ فرحاً[(٣)] .

وقالَ هرمُ بنُ حيانَ : (المؤمنُ إذا عرفَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ ، وإذا

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٨) .
(٢) وفي (أ) وحدها : (قائم) بدل (نائم) ، وقريب من هـٰذا الخبر ما رواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص١٩٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٩) .

أحبَّهُ . . أقبلَ إليهِ ، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبالِ إليهِ . . لمْ ينظرْ إلى الدنيا بعينِ الشهوةِ ، ولمْ ينظرْ إلى الآخرةِ بعينِ الفترةِ ، وهي تحسرُهُ في الدنيا ، وتَروِّحُهُ في الآخرةِ)(١) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (عفوُهُ يستغرقُ الذنوبَ فكيفَ رضوانُهُ ؟! ورضوانُهُ يستغرقُ الآمالَ ، فكيفَ حبُّهُ ؟! وحبُّهُ يدهشُ العقولَ ، فكيفَ وُدُّهُ ؟! وودُّهُ ينسي ما دونَهُ ، فكيفَ لطفُهُ ؟!)(٢) .

وفي بعضِ الكتبِ : (عبدي ؛ أنا ـ وحقِّكَ ـ لكَ محبٌّ ، فبحقّي عليكَ كُنْ لي محبّاً)(٣) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مثقالُ خردلةٍ مِنَ الحبِّ أحبُّ إليَّ مِنْ عبادةِ سبعينَ سنةً بلا حبٍّ)(٤) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (إلـٰهي ؛ إنِّي مقيمٌ بفنائِكَ ، مشغولٌ بثنائِكَ ، صغيراً أخذتَني إليكَ ، وسربلتَني بمعرفتِكَ ، وأمكنتَني مِنْ لطفِكَ ، ونقلتَني في الأحوالِ ، وقلبتَني في الأعمالِ ، ستراً وتوبةً ، وزهداً وشوقاً ، ورضاً وحبّاً ، تسقيني مِنْ حياضِكَ ، وتهملُني في رياضِكَ ، ملازماً لأمرِكَ ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٩) ، والقشيري في « الرسالة القشيرية » (ص٥٢٦) .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٥٢٧) .

ومشغوفاً بقولِكَ ، ولما طرَّ شاربي ، ولاحَ طائلي[1] . . فكيفَ أنصرفُ اليومَ عنكَ كبيراً ، وقدْ اعتدتُ هـٰذا منكَ صغيراً ؟! فلي ما بقيتُ حولكَ دندنةٌ ، وبالضراعةِ إليكَ همهمةٌ ؛ لأنِّي محبٌّ ، وكلُّ محبٌّ بحبيبِهِ مشغوفٌ ، وعنْ غيرِ حبيبِهِ مصروفٌ) .

وقدْ وردَ في حبِّ اللهِ تعالىٰ مِنَ الأخبارِ والآثارِ ما لا يدخلُ في حصرِ حاصرٍ ، وذلكَ أمرٌ ظاهرٌ ، وإنَّما الغموضُ في تحقيقِ معناهُ ، فلنشتغلْ بهِ .

* * *

(١) في (ق) : (ولاح طائري) بدل (ولاح طائلي) .

بيان حقيقة المحبّة وأسبابها وتحقيق معنى محبّة العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ المطلبَ مِنْ هـٰذا الفصلِ لا ينكشفُ إلا بمعرفةِ حقيقةِ المحبّةِ في نفسِها ، ثمَّ معرفةِ شروطِها وأسبابِها ، ثمَّ النظرِ بعدَ ذلكَ في تحقيقِ معناها في حقِّ اللهِ تعالىٰ .

فأوَّلُ ما ينبغي أنْ يُتحقَّقَ : أنَّهُ لا تُتصوَّرُ محبةٌ إلا بعدَ معرفةٍ وإدراكٍ ؛ إذْ لا يحبُّ الإنسانُ ما لا يعرفُهُ ، ولذلكَ لمْ يُتصوَّرْ أنْ يتصفَ بالحبِّ جمادٌ ، بلْ هوَ مِنْ خاصيَّةِ الحيِّ المدرِكِ .

ثمَّ المدركاتُ في أنفسِها تنقسمُ إلىٰ ما يوافقُ طبعَ المدرِكِ ويلائمُهُ ويلذُّهُ ، وإلىٰ ما ينافيهِ وينافرُهُ ويؤلمُهُ ، وإلىٰ ما لا يؤثِّرُ فيهِ بإيلامٍ وإلذاذٍ ، فكلُّ ما في إدراكِهِ لذةٌ وراحةٌ . . فهوَ محبوبٌ عندَ المدرِكِ ، وما في إدراكِهِ ألمٌ . . فهوَ مبغوضٌ عندَ المدرِكِ ، وما يخلو عنِ استعقابِ ألمٍ ولذَّةٍ فلا يوصفُ بكونِهِ محبوباً ولا مكروهاً .

فإذاً ؛ كلُّ لذيذٍ محبوبٌ عندَ الملتذِّ بهِ ، ومعنىٰ كونِهِ محبوباً : أنَّ في الطبعِ ميلاً إليهِ ، ومعنىٰ كونِهِ مبغوضاً : أنَّ في الطبعِ نفرةً عنهُ ، فالحبُّ : عبارةٌ عنْ ميلِ الطبعِ إلى الشيءِ المُلذِّ ، فإنْ تأكَّدَ ذلكَ الميلُ وقويَ سُمِّيَ عشقاً ، والبغضُ : عبارةٌ عنْ نفرةِ الطبعِ عنِ المؤلمِ المتعبِ ، فإذا قويَ . . سُمِّيَ مقتاً ، **فهـٰذا أصلٌ** في حقيقةِ معنى الحبِّ لا بدَّ مِنْ معرفتِهِ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثاني : أنَّ الحبَّ لمَّا كانَ تابعاً للإدراكِ والمعرفةِ . . انقسمَ - لا محالةَ - بحسبِ انقسامِ المدركاتِ والحواسِّ ، فلكلِّ حاسَّةٍ إدراكٌ لنوعٍ مِنَ المدركاتِ ، ولكلِّ واحدٍ منها لذةٌ في بعضِ المدركاتِ ، وللطبعِ بسببِ تلكَ اللذةِ ميلٌ إليها ، فكانَتْ محبوباتٍ عندَ الطبعِ السليمِ ، فلذةُ **العينِ** في الإبصارِ ، وإدراكِ المبصراتِ الجميلةِ ، والصورِ المليحةِ الحسنةِ المستلذَّةِ . ولذةُ **الأذنِ** في النغماتِ الطيبةِ الموزونةِ ، ولذةُ **الشمِّ** في الروائحِ الطيبةِ ، ولذةُ **الذوقِ** في الطعومِ ، ولذةُ **اللمسِ** في اللينِ والنعومةِ .

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ المدركاتُ بالحواسِّ ملذَّةً . . كانَتْ محبوبةً ؛ أيْ : كانَ للطبعِ السليمِ ميلٌ إليها ، حتَّىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُبِّبَ إليَّ مِنْ دنياكمْ ثلاثٌ : الطيبُ والنساءُ ، وجُعلَ قرةُ عيني في الصلاةِ »[1] ، فسمَّى الطيبَ محبوباً ، ومعلومٌ أنَّهُ لا حظَّ للعينِ والسمعِ فيهِ ، بلْ للشمِّ فقطْ ، وسمَّى النساءَ محبوباتٍ ، ولا حظَّ فيهنَّ إلا للبصرِ واللمسِ دونَ الشمِّ والذوقِ والسمعِ ، وسمَّى الصلاةَ قرَّةَ عينٍ ، وجعلَها أبلغَ المحبوباتِ ، ومعلومٌ أنَّهُ ليسَ تحظىٰ بها الحواسُّ الخمسُ ، بلْ حسٌّ سادسٌ مَظِنَّتُهُ

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ١٢٨) دون زيادة كلمة (ثلاث) ، والمصنف تبع في ذكرها صاحب « القوت » (٢/ ٢٤٩) ، وقد نقل الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٣١١) نقولاً عن الحفاظ تفيد خطأ زيادتها رواية ومعنىً ؛ إذ الصلاة ليست من الدنيا إلا علىٰ تأول شديد ، وإنما جاء الحديث بلفظ : « حُبِّبَ » مبنياً للمجهول دلالة علىٰ أن ذلك لم يكن من جبلته وطبعه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مجبوراً علىٰ ذلك الحب رحمةً للعباد ورفقاً بهم ، كما أفاده الشارح نقلاً عن الطيبي .

القلبُ ، لا يدركُهُ إلا مَنْ كانَ لهُ قلبٌ .

ولذاتُ الحواسِّ الخمسِ تشاركُ فيها البهائمُ الإنسانَ ، فإنْ كانَ الحبُّ مقصوراً علىٰ مدركاتِ الحواسِّ الخمسِ ، حتَّىٰ يُقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُدرَكُ بالحواسِّ ، ولا يُتمثَّلُ في الخيالِ ؛ فلا يُحبُّ . . فإذاً قد بطلَتْ خاصيَّةُ الإنسانِ ، وما تميَّزَ بهِ مِنَ الحسِّ السادسِ الذي يُعبَّرُ عنهُ إمَّا بالعقلِ أوْ بالنورِ أوْ بالقلبِ أوْ بما شئتَ مِنَ العباراتِ . . فلا مشاحَّةَ فيها .

وهيهاتَ ! فالبصيرةُ الباطنةُ أقوىٰ مِنَ البصرِ الظاهرِ ، والقلبُ أشدُّ إدراكاً مِنَ العينِ ، وجمالُ المعاني المدركةِ بالعقلِ أعظمُ مِنْ جمالِ الصورِ الظاهرةِ للأبصارِ ، فتكونُ ـ لا محالةَ ـ لذةُ القلبِ بما يدركُهُ مِنَ الأمورِ الشريفةِ الإلـٰهيةِ التي تجلُّ عنْ أنْ تدركَها الحواسُّ . . أتمَّ وأبلغَ ، فيكونُ ميلُ الطبعِ السليمِ والعقلِ الصحيحِ إليهِ أقوىٰ ، ولا معنىً للحبِّ إلا الميلُ إلىٰ ما في إدراكِهِ لذةٌ كما سيأتي تفصيلُهُ ، فلا ينكِرُ إذاً حبَّ اللهِ تعالىٰ إلا مَنْ قعدَ بهِ القصورُ في درجةِ البهائمِ ، فلمْ يجاوزْ إدراكَ الحواسِّ أصلاً .

* * *

الأصلُ الثالثُ : أنَّ الإنسانَ لا يخفىٰ أنَّهُ يحبُّ نفسَهُ ، ولا يخفىٰ أنَّهُ قدْ يحبُّ غيرَهُ لأجلِ نفسِهِ ، وهلْ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ غيرَهُ لذاتِهِ لا لأجلِ نفسِهِ ؟ هـٰذا ممَّا قدْ يشكلُ على الضعفاءِ ، حتَّىٰ يظنونَ أنَّهُ لا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ غيرَهُ لذاتِهِ ما لمْ يرجعْ منهُ حظٌّ إلى المحبِّ سوىٰ إدراكِ ذاتِهِ .

والحقُّ أنَّ ذلكَ متصوَّرٌ وموجودٌ ، فلنبينْ أقسامَ المحبةِ وأسبابَها .

وبيانُهُ : أنَّ المحبوبَ الأوَّلَ عندَ كلِّ حيٍّ نفسُهُ وذاتُهُ ، ومعنىٰ حبِّهِ لنفسِهِ : أنَّ في طبعِهِ ميلاً إلىٰ دوامِ وجودِهِ ، ونفرةً عنْ عدمِهِ وهلاكِهِ ؛ لأنَّ المحبوبَ بالطبعِ هوَ الملائمُ للمحبِّ ، وأيُّ شيءٍ أتمُّ ملاءمةً لهُ مِنْ نفسِهِ ودوامِ وجودِهِ ؟ وأيُّ شيءٍ أعظمُ مضادَّةً ومنافرةً لهُ مِنْ عدمِهِ وهلاكِهِ ؟ فلذلكَ يحبُّ الإنسانُ دوامَ الوجودِ ، ويكرهُ الموتَ والقتلَ ، لا لمجرَّدِ ما يخافُهُ بعدَ الموتِ ، ولا لمجرَّدِ الحذرِ مِنْ سكراتِ الموتِ ، بلْ لوِ اختُطفَ مِنْ غيرِ ألمٍ ، وأُميتَ مِنْ غيرِ ثوابٍ ولا عقابٍ . . لمْ يرضَ بهِ ، وكانَ كارهاً لذلكَ ، ولا يحبُّ الموتَ والعدمَ المحضَ إلا لمقاساةِ ألمٍ في الحياةِ ، ومهما كانَ مبتلىً ببلاءٍ . . فمحبوبُهُ زوالُ البلاءِ ، فإنْ أحبَّ العدمَ . . لمْ يحبُّهُ لأنَّهُ عدمٌ ، بلْ لأنَّ فيهِ زوالَ البلاءِ ، فالهلاكُ والعدمُ ممقوتٌ ، ودوامُ الوجودِ محبوبٌ .

وكما أنَّ دوامَ الوجودِ محبوبٌ . . فكمالُ الوجودِ أيضاً محبوبٌ ؛ لأنَّ الناقصَ فاقدٌ للكمالِ ، والنقصُ عدمٌ بالإضافةِ إلى القدْرِ المفقودِ ، وهوَ هلاكٌ بالنسبةِ إليهِ ، والهلاكُ والعدمُ ممقوتٌ في الصفاتِ وكمالِ الوجودِ ؛ كما أنَّهُ ممقوتٌ في أصلِ الذاتِ ، ووجودُ صفاتِ الكمالِ محبوبٌ ؛ كما أنَّ دوامَ أصلِ الوجودِ محبوبٌ ، وهـٰذهِ غريزةٌ في الطباعِ بحكمِ سنةِ اللهِ تعالىٰ ، ولنْ تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً .

فإذاً ؛ المحبوبُ الأوَّلُ للإنسانِ ذاتُهُ ، ثمَّ سلامةُ أعضائِهِ ، ثمَّ مالُهُ ،

وولدُهُ ، وعشيرتُهُ ، وأصدقاؤُهُ ، فالأعضاءُ محبوبةٌ وسلامتُها مطلوبةٌ ؛ لأنَّ كمالَ الوجودِ ودوامَ الوجودِ موقوفٌ عليها ، والمالُ محبوبٌ لأنَّهُ أيضاً آلةٌ في دوامِ الوجودِ وكمالِهِ ، وكذا سائرُ الأسبابِ ، فالإنسانُ يحبُّ هـٰذهِ الأشياءَ لا لأعيانِها ، بلْ لارتباطِ حظِّهِ في دوامِ الوجودِ وكمالِهِ بها ، حتَّىٰ إنَّهُ ليحبُّ ولدَهُ ـ وإنْ كانَ لا ينالُهُ منهُ حظٌّ ، بلْ يتحمَّلُ المشاقَّ لأجلِهِ ـ لأنَّهُ يخلفُهُ في الوجودِ بعدَ عدمِهِ ، فيكونُ في بقاءِ نسلِهِ نوعُ بقاءٍ لهُ ، فلفرطِ حبِّهِ لبقاءِ نفسِهِ يحبُّ بقاءَ مَنْ هوَ قائمٌ مقامَهُ وكأنَّهُ جزءٌ منهُ ؛ لمَّا عجزَ عنِ الطمعِ في بقاءِ نفسِهِ أبداً .

نعمْ ، لوْ خُيِّرَ بينَ قتلِهِ وقتلِ ولدِهِ ، وكانَ طبعُهُ باقياً على اعتدالِهِ . . آثرَ بقاءَ نفسِهِ علىٰ بقاءِ ولدِهِ ؛ لأنَّ بقاءَ ولدِهِ يشبهُ بقاءَهُ مِنْ وجهٍ ، وليسَ هوَ بقاءَهُ المحقَّقَ .

وكذلكَ حبُّهُ لأقاربِهِ وعشيرتِهِ يرجعُ إلىٰ حبِّهِ لكمالِ نفسِهِ ، فإنَّهُ يرىٰ نفسَهُ كثيراً بهِمْ ، قويّاً بسببِهِمْ ، متجمِّلاً بمكانِهِمْ ؛ فإنَّ العشيرةَ والمالَ والأسبابَ الخارجةَ كالجناحِ المكمِّلِ للإنسانِ ، وكمالُ الوجودِ ودوامُهُ محبوبٌ بالطبعِ لا محالةَ .

فإذاً ؛ المحبوبُ الأوَّلُ عندَ كلِّ حيٍّ ذاتُهُ ، وكمالُ ذاتِهِ ، ودوامُ ذلكَ كلِّهِ ، والمكروهُ عندَهُ ضدُّ ذلكَ ، **فهـٰذا هوَ أوَّلُ الأسبابِ** .

السببُ الثاني : الإحسانُ ، فإنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ ، وقدْ جُبلَتِ

القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليها ، وبغضِ مَنْ أساءَ إليها .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهُمَّ ، لا تجعلْ لفاجرٍ عندي يداً فيحبَّهُ قلبي »[1] ، أشارَ إلىٰ أنَّ حبَّ القلبِ للمحسنِ اضطرارٌ لا يُستطاعُ دفعُهُ ، وهوَ جبلَّةٌ وفطرةٌ لا سبيلَ إلىٰ تغييرِها ، وبهـٰذا السببِ قدْ يحبُّ الإنسانُ الأجنبيَّ الذي لا قرابةَ بينَهُ وبينَهُ ولا علاقةَ .

وهـٰذا إذا حُقِّقَ . . رجعَ إلى السببِ الأوَّلِ ، فإنَّ المحسنَ مَنْ أمدَّ بالمالِ والمعونةِ ، وسائرِ الأسبابِ الموصلةِ إلىٰ دوامِ الوجودِ وكمالِ الوجودِ ، وحصولِ الحظوظِ التي بها يتهيَّأُ الوجودُ ، إلا أنَّ الفرقَ بينَهُما أنَّ أعضاءَ الإنسانِ محبوبةٌ لأنَّ بها كمالَ وجودِهِ ، وهيَ عينُ الكمالِ المطلوبِ ، فأمَّا المحسنُ . . فليسَ هوَ عينَ الكمالِ المطلوبِ ، ولكنْ قدْ يكونُ سبباً لهُ ؛ كالطبيبِ الذي يكونُ سبباً في دوامِ صحَّةِ الأعضاءِ ، ففرقٌ بينَ حبِّ الصحةِ وبينَ حبِّ الطبيبِ الذي هوَ سببُ الصحَّةِ ؛ إذِ الصحةُ مطلوبةٌ لذاتِها ، والطبيبُ محبوبٌ لا لذاتِهِ ، بلْ لأنَّهُ سببٌ للصحةِ ، وكذلكَ العلمُ محبوبٌ ، والأستاذُ محبوبٌ ، ولكنِ العلمُ محبوبٌ لذاتِهِ ، والأستاذُ محبوبٌ لكونِهِ سببَ العلمِ المحبوبِ ، وكذلكَ الطعامُ والشرابُ محبوبٌ ،

---

(1) كذا في « القوت » (٢/ ٤٨) ، قال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسمَّ ، ورواه الديلمي في « مسند الفردوس » [٢٠١١] من حديث معاذ ، وأبو موسى المديني في كتاب « تضييع العمر والأيام » من طريق أهل البيت مرسلاً ، وأسانيده ضعيفة) . « إتحاف » (٦/ ١٤٨) .

والدنانيرُ محبوبةٌ ، لكنِ الطعامُ محبوبٌ لذاتِهِ ، والدنانيرُ محبوبةٌ لأنَّها وسيلةٌ إلى الطعامِ .

فإذاً ؛ يرجعُ الفرقُ إلىٰ تفاوتِ الرتبةِ ، وإلا . . فكلٌّ واحدٍ يرجعُ إلىٰ محبَّةِ الإنسانِ نفسَهُ .

فكأنَّ مَنْ أحبَّ المحسنَ لإحسانِهِ فما أحبَّ ذاتَهُ تحقيقاً ، بلْ أحبَّ إحسانَهُ ، وهوَ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ ، لوْ زالَ . . زالَ الحبُّ معَ بقاءِ ذاتِهِ تحقيقاً ، ولوْ نقصَ . . نقصَ الحبُّ ، ولوْ زادَ . . زادَ ، ويتطرَّقُ إليهِ الزيادةُ والنقصانُ بحسَبِ زيادةِ الإحسانِ ونقصانِهِ .

السببُ الثالثُ : أنْ يحبَّ الشيءَ لذاتِهِ ، لا لحظٍّ يُنالُ منهُ وراءَ ذاتِهِ ، بلْ تكونُ ذاتُهُ عينَ حظِّهِ ، وهـٰذا هوَ الحبُّ الحقيقيُّ البالغُ الذي يُوثَقُ بدوامِهِ ، وذلكَ كحبِّ الجمالِ والحسنِ ، فإنَّ كلَّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدركِ الجمالِ ، وذلكَ لعينِ الجمالِ ؛ لأنَّ إدراكَ الجمالِ فيهِ عينُ اللذَّةِ ، واللذَّةُ محبوبةٌ لذاتِها لا لغيرِها .

ولا تظنَّنَّ أنَّ حبَّ الصورِ الجميلةِ لا يُتصوَّرُ إلا لأجلِ قضاءِ الشهوةِ ؛ فإنَّ قضاءَ الشهوةِ لذَّةٌ أخرىٰ قدْ تُحبُّ الصورُ الجميلةُ لأجلِها ، وإدراكُ نفسِ الجمالِ أيضاً لذيذٌ ، فيجوزُ أنْ يكونَ محبوباً لذاتِهِ .

وكيفَ يُنكرُ ذلكَ والخضرةُ والماءُ الجاري محبوبانِ لا ليُشربَ الماءُ ولا لتُؤكلَ الخضرةُ أوْ يُنالَ منها حظٌّ سوىٰ نفسِ الرؤيةِ ؟!

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعجبُهُ الخضرةُ والماءُ الجاري[1] ، والطباعُ السليمةُ قاضيةٌ باستلذاذِ النظرِ إلى الأنوارِ ، والأزهارِ ، والأطيارِ المليحةِ الألوانِ الحسنةِ النقشِ ، المتناسبةِ الشكلِ ، حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ لتنفرجُ عنهُ الغمومُ والهمومُ بالنظرِ إليها ، لا لطلبِ حظٍّ وراءَ النظرِ .

فهٰذهِ الأسبابُ ملذَّةٌ ، وكلُّ لذيذٍ محبوبٌ ، وكلُّ حسْنٍ وجمالٍ فلا يخلو إدراكُهُ عنْ لذَّةٍ ، ولا أحدَ ينكرُ كونَ الجمالِ محبوباً بالطبعِ ، فإنْ ثبتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ جميلٌ . . كانَ ـ لا محالةَ ـ محبوباً عندَ مَنِ انكشفَ لهُ جمالُهُ وجلالُهُ ، كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ »[2] .

* * *

الأصلُ الرابعُ : في بيانِ معنى الحسنِ والجمالِ .

اعلمْ : أنَّ المحبوسَ في مضيقِ الخيالاتِ والمحسوساتِ ربَّما يظنُّ أنَّهُ لا معنىٰ للحسنِ والجمالِ إلا تناسبُ الخلقةِ والشكلِ ، وحسنُ اللونِ وكونُ البياضِ مشرباً بالحمرةِ ، وامتدادُ القامةِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا يُوصفُ مِنْ جمالِ شخصِ الإنسانِ ، فإنَّ الحسنَ الأغلبَ على الخلقِ حسنُ الإبصارِ ،

---

(١) إذ روى ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري .

(٢) رواه مسلم (٩١) .

وأكثرُ التفاتِهِمْ إلىٰ صورِ الأشخاصِ ، فيظنُّ أنَّ ما ليسَ مبصَراً ، ولا متخيَّلاً متشكِّلاً ، ولا متلوِّناً متقدِّراً . . فلا يُتصوَّرُ حسنُهُ ، وإذا لَمْ يُتصوَّرْ حسنُهُ . . لَمْ يكنْ في إدراكِهِ لذةٌ ، فلَمْ يكنْ محبوباً ، وهاذا خطأٌ ظاهرٌ ؛ فإنَّ الحسْنَ ليسَ مقصوراً علىٰ مدركاتِ البصرِ ، ولا علىٰ تناسبِ الخلقةِ وامتزاجِ البياضِ بالحمرةِ ، فإنَّا نقولُ : هاذا خطٌّ حسنٌ ، وهاذا صوتٌ حسنٌ ، وهاذا فرسٌ حسنٌ ، بلْ نقولُ : هاذا ثوبٌ حسنٌ ، وهاذا إناءٌ حسنٌ ، فأيُّ معنىً لحسنِ الصوتِ والخطِّ وسائرِ الأشياءِ إنْ لمْ يكنِ الحسنُ إلا في الصورِ ؟!

ومعلومٌ أنَّ العينَ تستلذُّ النظرَ إلى الخطِّ الحسنِ ، والأذنُ تستلذُّ استماعَ النغماتِ الحسنةِ الطيِّبةِ ، وما مِنْ شيءٍ مِنَ المدركاتِ إلا وهوَ منقسمٌ إلىٰ حسنٍ وقبيحٍ ، فما معنى الحسنِ الذي تشتركُ فيهِ هاذهِ الأشياءُ ؟ فلا بدَّ مِنَ البحثِ عنهُ ، وهاذا بحثٌ يطولُ ، ولا يليقُ بعلمِ المعاملةِ الإطنابُ فيهِ ، فنصرِّحُ بالحقِّ ونقولُ : كلُّ شيءٍ فجمالُهُ وحسنُهُ في أنْ يحضرَ كمالُهُ اللائقُ بهِ الممكنُ لهُ ، فإذا كانَ جميعُ كمالاتِهِ الممكنةِ حاضرةً . . فهوَ في غايةِ الجمالِ ، وإنْ كانَ الحاضرُ بعضَها . . فلهُ مِنَ الحسنِ والجمالِ بقدْرِ ما حضرَ ، فالفرسُ الحسنُ هوَ الذي جمعَ كلَّ ما يليقُ بالفرسِ ؛ مِنْ هيئةٍ ، وشكلٍ ، ولونٍ ، وحسْنِ عدوٍ ، وتيسُّرِ كرٍّ وفرٍّ عليهِ ، والخطُّ الحسنُ كلُّ ما جمعَ ما يليقُ بالخطِّ ؛ مِنْ تناسبِ الحروفِ ، وتوازيها ، واستقامةِ ترتيبِها ، وحسنِ انتظامِها ، ولكلِّ شيءٍ كمالٌ يليقُ بهِ ، وقدْ يليقُ بغيرِهِ ضدُّهُ ، فحسنُ كلِّ شيءٍ في كمالِهِ الذي يليقُ بهِ ، فلا يحسنُ الإنسانُ بما

يحسنُ بهِ الفرسُ ، ولا يحسنُ الخطُّ بما يحسنُ بهِ الصوتُ ، ولا تحسنُ الأواني بما تحسنُ بهِ الثيابُ ، وكذلكَ سائرُ الأشياءِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الأشياءُ وإنْ لمْ تُدركْ جميعُها بحسنِ البصرِ ؛ مثلُ الأصواتِ والطعومِ والأرائحِ .. فإنَّها لا تنفكُّ عنْ إدراكِ الحواسِّ لها ، فهيَ محسوساتٌ ، وليسَ يُنكرُ الحسنُ والجمالُ للمحسوساتِ ، ولا يُنكرُ حصولُ اللذةِ بإدراكِ حسنِها ، وإنَّما يُنكرُ ذلكَ في غيرِ المدرَكِ بالحواسِّ .

فاعلمْ : أنَّ الحسنَ والجمالَ موجودٌ في غيرِ المحسوساتِ ؛ إذْ يُقالُ : هـٰذا خلقٌ حسنٌ ، وهـٰذا علمٌ حسنٌ ، وهـٰذهِ سيرةٌ حسنةٌ ، وهـٰذهِ أخلاقٌ جميلةٌ ، وإنَّما الأخلاقُ الجميلةُ يُرادُ بها العلمُ والعقلُ والعفةُ والشجاعةُ والتقوىٰ والكرمُ والمروءةُ وسائرُ خلالِ الخيرِ ، وشيءٌ مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ لا يُدركُ بالحواسِّ الخمسِ ، بلْ يُدركُ بنورِ البصيرةِ الباطنةِ ، وكلُّ هـٰذهِ الخصالِ الجميلةِ محبوبةٌ ، والموصوفُ بها محبوبٌ بالطبعِ عندَ مَنْ عرفَ صفاتِهِ .

وآيةُ ذلكَ وأنَّ الأمرَ كذلكَ : أنَّ الطباعَ مجبولةٌ علىٰ حبِّ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ، وعلىٰ حبِّ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ ، معَ أنَّهُمْ لمْ يُشاهدوا ، بلْ علىٰ حبِّ أربابِ المذاهبِ ؛ مثلِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ ومالكٍ

وغيرِهِمْ ، حتَّىٰ إنَّ الرجلَ قدْ يجاوزُ بهِ حبُّهُ لصاحبِ مذهبِهِ حدَّ العشقِ ، فيحملُهُ ذلكَ علىٰ أنْ ينفقَ جميعَ أموالِهِ في نصرةِ مذهبِهِ والذبِّ عنهُ ، ويخاطرَ بروحِهِ في قتالِ مَنْ يطعنُ في إمامِهِ ومتبوعِهِ ، فكمْ مِنْ دمٍ أُريقَ في نصرةِ أربابِ المذاهبِ ، وليتَ شعري مَنْ يحبُّ الشافعيَّ مثلاً فلِمَ يحبُّهُ ولمْ يشاهدْ قطُّ صورتَهُ ؟! ولوْ شاهدَهُ ربَّما لمْ يستحسنْ صورتَهُ ، فاستحسانُهُ الذي حملَهُ علىٰ إفراطِ الحبِّ هوَ لصورتِهِ الباطنةِ ، لا لصورتِهِ الظاهرةِ ؛ فإنَّ صورتَهُ الظاهرةَ قدِ انقلبَتْ تراباً معَ الترابِ ، وإنَّما يحبُّهُ لصفاتِهِ الباطنةِ ؛ مِنَ الدينِ ، والتقوىٰ ، وغزارةِ العلمِ ، والإحاطةِ بمداركِ الدينِ ، وانتهاضِهِ لإفاضةِ علمِ الشرعِ ، ونشرِهِ هـٰذهِ الخيراتِ في العالمِ ، وهـٰذهِ أمورٌ جميلةٌ لا يُدركُ جمالُها إلا بنورِ البصيرةِ ، فأمَّا الحواسُّ.. فقاصرةٌ عنها .

وكذلكَ مَنْ يحبُّ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ ويفضِّلُهُ علىٰ غيرِهِ ، أوْ يحبُّ علياً رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ويفضلُهُ ويتعصَّبُ لهُ ، فلا يحبُّهُمْ إلا لاستحسانِ صورِهِمُ الباطنةِ ؛ مِنَ العلمِ ، والدينِ ، والتقوىٰ ، والشجاعةِ ، والكرمِ وغيرِهِ ، فمعلومٌ أنَّ مَنْ يحبُّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ مثلاً ليسَ يحبُّ لحمَهُ وعظمَهُ وجلدَهُ وأطرافَهُ وشكلَهُ ؛ إذْ كلُّ ذلكَ قدْ زالَ وتبدَّلَ وانعدمَ ، ولكنْ بقيَ ما كانَ الصدِّيقُ بهِ صدِّيقاً ، وهيَ الصفاتُ المحمودةُ التي هيَ مصادرُ السيرِ الجميلةِ ، فكانَ الحبُّ باقياً ببقاءِ تلكَ الصفاتِ معَ زوالِ جميعِ الصورِ .

وتلكَ الصفاتُ ترجعُ جملتُها إلى العلمِ والقدرةِ ؛ إذْ علمَ حقائقَ الأمورِ ، وقدرَ علىٰ حملِ نفسِهِ عليها ؛ بقهرِ شهواتِهِ ، فجميعُ خلالِ الخيرِ تَتشعَّبُ عنْ هـٰذينِ الوصفينِ ، وهما غيرُ مدركينِ بالحسِّ ، ومحلُّهُما مِنْ جملةِ البدنِ جزءٌ لا يتجزَّأُ ، فهوَ المحبوبُ بالحقيقةِ ، وليسَ للجزءِ الذي لا يتجزَّأُ صورةٌ وشكلٌ ولونٌ يظهرُ للبصرِ حتَّىٰ يكونَ محبوباً لأجلِهِ .

فإذاً ؛ الجمالُ موجودٌ في السيَرِ ، ولوْ صدرَتِ السيرةُ الجميلةُ مِنْ غيرِ علمٍ وبصيرةٍ . . لمْ يُوجِبْ ذلكَ حبّاً ، فالمحبوبُ مصدرُ السيرةِ الجميلةِ ، وهيَ الأخلاقُ الحميدةُ ، والفضائلُ الشريفةُ ، وترجعُ جملتُها إلىٰ كمالِ العلمِ والقدرةِ ، وهوَ محبوبٌ بالطبعِ ، وغيرُ مدركٍ بالحواسِّ ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ المخلَّىٰ وطبعَهُ إذا أردنا أنْ نحبِّبَ إليهِ غائباً أوْ حاضراً حيّاً أوْ ميتاً . . لمْ يكنْ لنا سبيلٌ إلا بالإطنابِ في وصفِهِ بالشجاعةِ والكرمِ والعلمِ وسائرِ الخصالِ الحميدةِ ، فمهما اعتقدَ ذلكَ . . لمْ يتمالكْ في نفسِهِ ولمْ يقدرْ ألا يحبَّهُ ، فهلْ غلبَ حبُّ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ وبغضُ أبي جهلٍ وبغضُ إبليسَ لعنَهُ اللهُ إلا بالإطنابِ في وصفِ المحاسنِ والمقابحِ التي لا تُدرَكُ بالحواسِّ ؟

بلْ لمَّا وصفَ الناسُ حاتِماً بالسخاءِ ، ووصفوا خالداً بالشجاعةِ . . أحبَّتْهُمُ القلوبُ حبّاً ضرورياً ، وليسَ ذلكَ عنْ نظرٍ إلىٰ صورةٍ محسوسةٍ ،

ولا عنْ حظٍّ ينالُهُ المحبُّ منهُمْ ، بلْ إذا حُكِيَ مِنْ سيرةِ بعضِ الملوكِ في بعضِ أقطارِ الأرضِ العدلُ والإحسانُ وإفاضةُ الخيرِ . . غلبَ حبُّهُ على القلوبِ معَ اليأسِ مِنِ انتشارِ إحسانِهِ إلى المحبِّينَ ؛ لبعدِ المزارِ وتنائي الديارِ .

فإذاً ؛ ليسَ حبُّ الإنسانِ مقصوراً علىٰ مَنْ أحسنَ إليهِ ، بلِ المحسنُ في نفسِهِ محبوبٌ وإنْ كانَ لا ينتهي قطُّ إحسانُهُ إلى المحبِّ ؛ لأنَّ كلَّ جمالٍ وحسنٍ فهوَ محبوبٌ ، والصورُ ظاهرةٌ وباطنةٌ ، والحسنُ والجمالُ يشملُهُما ، وتُدركُ الصورُ الظاهرةُ بالبصرِ الظاهرِ ، والصورُ الباطنةُ بالبصيرةِ الباطنةِ ، فمَنْ حُرِمَ البصيرةَ الباطنةَ . . لا يدركُها ، ولا يلتذُّ بها ، ولا يحبُّها ولا يميلُ إليها ، ومَنْ كانَتِ البصيرةُ الباطنةُ أغلبَ عليهِ مِنَ الحواسِّ الظاهرةِ . . كانَ حبُّهُ للمعاني الباطنةِ أكثرَ مِنْ حبِّهِ للمعاني الظاهرةِ ، فشتَّانَ بينَ مَنْ يحبُّ نقشاً مصوَّراً على الحائطِ لجمالِ صورتِهِ الظاهرةِ ، وبينَ مَنْ يحبُّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ لجمالِ صورتِهِ الباطنةِ .

السببُ الرابعُ(١) : المناسبةُ الخفيَّةُ بينَ المحبِّ والمحبوبِ ؛ إذْ ربَّ شخصينِ تتأكَّدُ المحبَّةُ بينَهُما لا بسببِ جمالٍ أوْ حظٍّ ، ولكنْ بمجرَّدِ تناسبِ

---

(١) من أسباب المحبة ، وكذا وقع العدُّ في (أ) : (الرابع) ، وفي باقي النسخ (الخامس) ، وهو مشكل ، وقول المصنف الآتي : إنها خمسة . . علىٰ تفريع السبب الثالث إلىٰ : حب الإحسان مجرداً ، وحب الجمال مجرداً . وكلاهما مجموعان في قوله في السبب الثالث : (حب الشيء لذاته ، لا لحظ يُنال منه وراء ذاته) .

الأرواحِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »[١] ، وقدْ حققنا ذلكَ في كتابِ آدابِ الصحبةِ ، عندَ ذكرِ الحبِّ في اللهِ ، فليُطلبْ منهُ ؛ لأنَّهُ أيضاً مِنْ عجائبِ أسبابِ الحبِّ .

فإذاً ؛ ترجعُ أقسامُ الحبِّ إلىٰ خمسةِ أسبابٍ :

وهوَ حبُّ الإنسانِ وجودَ نفسِهِ وكمالِهِ وبقائِهِ .

وحبُّهُ مَنْ أحسنَ إليهِ فيما يرجعُ إلىٰ دوامِ وجودِهِ ويعينُ علىٰ بقائِهِ ودفعِ المهلكاتِ عنهُ .

وحبُّهُ مَنْ كانَ محسناً في نفسِهِ إلى الناسِ وإنْ لمْ يكنْ محسناً إليهِ .

وحبُّهُ لكلِّ ما هوَ جميلٌ في ذاتِهِ ، سواءٌ كانَ مِنَ الصورِ الظاهرةِ أوِ الباطنةِ .

وحبُّهُ لمَنْ بينَهُ وبينَهُ مناسبةٌ خفيَّةٌ في الباطنِ .

فلوِ اجتمعَتْ هـٰذهِ الأسبابُ في شخصٍ واحدٍ . . تضاعفَ الحبُّ لا محالةَ ؛ كما لوْ كانَ للإنسانِ ولدٌ جميلُ الصورةِ ، حسنُ الخلقِ ، كاملُ العلمِ ، حسنُ التدبيرِ ، محسنٌ إلى الخلقِ ومحسنٌ إلى الوالدِ . . كانَ محبوباً ـ لا محالةَ ـ غايةَ الحبِّ .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

وتكونُ قوَّةُ الحبِّ بعدَ اجتماعِ هٰذهِ الخصالِ بحسَبِ قوَّةِ هٰذهِ الخلالِ في نفسِها ؛ فإنْ كانَتْ هٰذهِ الصفاتُ في أقصىٰ درجاتِ الكمالِ . . كانَ الحبُّ ـ لا محالةَ ـ في أعلى الدرجاتِ .

فلنبيِّنِ الآنَ أنَّ هٰذهِ الأسبابَ كلَّها لا يُتصوَّرُ كمالُها واجتماعُها إلا في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فلا يستحقُّ المحبَّةَ بالحقيقةِ إلا اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ .

* * *

بيان أنّ المستحقّ للمحبّة هو الله وحده

وأنَّ مَنْ أحبَّ غيرَ اللهِ لا مِنْ حيثُ نسبتُهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . فذلكَ لجهلِهِ وقصورِهِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ حبَّ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محمودٌ ؛ لأنَّهُ عينُ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وكذا حبُّ العلماءِ والأتقياءِ ؛ لأنَّ محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ، ورسولَ المحبوبِ محبوبٌ ، ومحبَّ المحبوبِ محبوبٌ ، وكلُّ ذلكَ يرجعُ إلىٰ حبِّ الأصلِ ، فلا يجاوزُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فلا محبوبَ بالحقيقةِ عندَ ذوي البصائرِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ولا مستحقَّ للمحبةِ سواهُ .

وإيضاحُهُ : بأنْ نرجعَ إلى الأسبابِ الخمسةِ التي ذكرناها ، ونبيِّنَ أنَّها مجتمعةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ بجملتِها ، ولا يُوجدُ في غيرِهِ إلا آحادُها ، وأنَّها حقيقةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، ووجودُها في حقِّ غيرِهِ وهمٌ وتخيُّلٌ ، وهوَ مجازٌ محضٌ ، لا حقيقةَ لهُ ، ومهما ثبتَ ذلكَ . . انكشفَ لكلِّ ذي بصيرةٍ ضدُّ ما تخيَّلَهُ ضعفاءُ العقولِ والقلوبِ ؛ مِنِ استحالةِ حبِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً ، وبانَ أنَّ التحقيقَ يقتضي ألا يُحبَّ أحدٌ غيرُ اللهِ تعالىٰ .

* * *

فأمَّا السببُ الأوَّلُ : وهوَ حبُّ الإنسانِ نفسَهُ وبقاءَهُ وكمالَهُ ودوامَ وجودِهِ ، وبغضُهُ لهلاكِهِ وعدمِهِ ونقصانِهِ وقواطعِ كمالِهِ :

فهـٰذِهِ جبلَّةُ كلِّ حيٍّ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنها ، وهـٰذا يقتضي غايةَ

المحبَّةِ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ . . عرفَ قطعاً أنَّهُ لا وجودَ لهُ مِنْ ذاتِهِ ، وإنَّما وجودُ ذاتِهِ ودوامُ وجودِهِ وكمالُ وجودِهِ مِنَ اللهِ وباللهِ وإلى اللهِ ، فهوَ المخترعُ الموجدُ لهُ ، وهوَ المبقي لهُ ، وهوَ المكمِّلُ لوجودِهِ ؛ بخلقِ صفاتِ الكمالِ ، وخلقِ الأسبابِ الموصلةِ إليهِ ، وخلقِ الهدايةِ إلى استعمالِ الأسبابِ ، وإلا . . فالعبدُ مِنْ حيثُ ذاتُهُ لا وجودَ لهُ مِنْ ذاتِهِ ، بلْ هوَ محوٌ محضٌ وعدمٌ صرفٌ لولا فضْلُ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالإيجادِ ، وهوَ هالكٌ عقيبَ وجودِهِ لولا فضْلُ اللهِ عليهِ بالإبقاءِ ، وهوَ ناقصٌ بعدَ الوجودِ لولا فضْلُ اللهِ عليهِ بالتكميلِ لخلقتِهِ .

وبالجملةِ : فليسَ في الوجودِ شيءٌ لهُ بنفسِهِ قوامٌ إلا القيُّومُ الحيُّ الذي هوَ قائمٌ بذاتِهِ ، وكلُّ ما سواهُ قائمٌ بهِ ، فإنْ أحبَّ العارفُ ذاتَهُ ووجودُ ذاتِهِ مستفادٌ مِنْ غيرِهِ . . فبالضرورةِ يحبُّ المفيدَ لوجودِهِ والمديمَ لهُ إنْ عرفَهُ خالقاً موجداً ، ومخترعاً مبقياً ، وقيُّوماً بنفسِهِ ، ومقوِّماً لغيرِهِ ، فإنْ كانَ لا يحبُّهُ . . فهوَ لجهلِهِ بنفسِهِ وبربِّهِ ، والمحبَّةُ ثمرةُ المعرفةِ ، تنعدمُ بانعدامِها ، وتضعفُ بضعفِها ، وتقوىٰ بقوَّتِها .

ولذلكَ قالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ عرفَ ربَّهُ . . أحبَّهُ ، ومَنْ عرفَ الدنيا . . زهدَ فيها)[1] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الهم والحزن » (٩٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٩) عن بديل بن ميسرة .

وكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ الإنسانُ نفسَهُ ولا يحبَّ ربَّهُ الذي بهِ قوامُ نفسِهِ ؟!

ومعلومٌ أنَّ المبتلىٰ بحرِّ الشمسِ لمَّا كانَ يحبُّ الظلَّ . . فيحبُّ بالضرورةِ الأشجارَ التي بها قوامُ الظلِّ ، وكلُّ ما في الوجودِ بالإضافةِ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ كالظلِّ بالإضافةِ إلى الشجرِ ، والنورِ بالإضافةِ إلى الشمسِ ؛ فإنَّ الكلَّ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، ووجودُ الكلِّ تابعٌ لوجودِهِ ، كما أنَّ وجودَ النورِ تابعٌ للشمسِ ، ووجودَ الظلِّ تابعٌ للشخصِ .

بلْ هٰذا المثالُ صحيحٌ بالإضافةِ إلىٰ أوهامِ العوامِّ ؛ إذْ تخيَّلوا أنَّ النورَ أثرُ الشمسِ ، وفائضٌ منها ، وموجودٌ بها ، وهوَ خطأٌ محضٌ ؛ إذِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أظهرَ مِنْ مشاهدةِ الأبصارِ أنَّ النورَ حاصلٌ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالى اختراعاً عندَ وقوعِ المقابلةِ بينَ الشمسِ وبينَ الأجسامِ الكثيفةِ ؛ كما أنَّ نورَ الشمسِ وعينَها وشكلَها وصورتَها أيضاً حاصلٌ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّ الغرضَ مِنَ الأمثلةِ التفهيمُ ، فلا يُطلبُ فيها الحقائقُ .

فإذاً ؛ إنْ كانَ حبُّ الإنسانِ نفسَهُ ضرورياً . . فحبُّهُ لمَنْ بهِ قوامُهُ أوَّلاً ودوامُهُ ثانياً ؛ في أصلِهِ وصفاتِهِ ، وظاهرِهِ وباطنِهِ وجواهرِهِ وأعراضِهِ . . أيضاً ضروريٌّ إنْ عرفَ ذلكَ كذلكَ ، ومَنْ خلا عنْ هٰذا الحبِّ . . فلأنَّهُ اشتغلَ بنفسِهِ وشهواتِهِ ، وذهلَ عنْ ربِّهِ وخالقِهِ ، فلمْ يعرفْهُ حقَّ معرفتِهِ ، وقَصَرَ نظرَهُ علىٰ شهواتِهِ ومحسوساتِهِ ، وهوَ عالمُ الشهادةِ الذي يشاركُهُ

البهائمُ في التنعُّمِ بهِ ، والاتساعُ فيهِ دونَ عالمِ الملكوتِ الذي لا يطأُ أرضَهُ إلا مَنْ يقربُ إلىٰ شبهٍ مِنَ الملائكةِ ، فينظرُ فيهِ بقدْرِ قربهِ في الصفاتِ مِنَ الملائكةِ ، ويقصرُ عنهُ بقدْرِ انحطاطِهِ إلىٰ حضيضِ عالمِ البهائمِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا السببُ الثاني : وهوَ حبُّهُ مَنْ أحسنَ إليهِ :

فواساهُ بمالِهِ ، ولاطفَهُ بكلامِهِ ، وأمدَّهُ بمعونتِهِ ، وانتدبَ لنصرتِهِ ، وقمعَ أعداءَهُ ، وقامَ بدفعِ شرِّ الأشرارِ عنهُ ، وانتهضَ وسيلةً إلىٰ جميعِ حظوظِهِ وأغراضِهِ في نفسِهِ وأولادِهِ وأقاربِهِ ؛ فإنَّهُ محبوبٌ ـ لا محالةَ ـ عندَهُ ، وهـٰذا بعينِهِ يقتضي ألا يحبَّ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لوْ عرفَ حقَّ المعرفةِ . . لعلمَ أنَّ المحسنَ إليهِ هوَ اللهُ تعالىٰ فقطْ .

فأمَّا أنواعُ إحسانِهِ إلىٰ كلِّ عبيدِهِ . . فلستُ أعدُّها ؛ إذْ ليسَ يحيطُ بها حصرُ حاصرٍ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، وقدْ أشرنا إلىٰ طرفٍ منهُ في كتابِ الشكرِ ، ولكنَّا نقتصرُ الآنَ علىٰ بيانِ أنَّ الإحسانَ مِنَ الناسِ غيرُ متصوَّرٍ إلا بالمجازِ ، وإنَّما المحسنُ هوَ اللهُ تعالىٰ .

ولنفرضْ ذلكَ فيمَنْ أنعمَ عليكَ بجميعِ خزائنِهِ ومكَّنَكَ منها لتتصرَّفَ فيها كيفَ تشاءُ ، فإنَّكَ تظنُّ أنَّ هـٰذا الإحسانَ منهُ ، وهوَ غلطٌ ؛ فإنَّهُ إنَّما تمَّ إحسانُهُ بهِ وبمالِهِ وبقدرتِهِ على المالِ وبداعيتِهِ الباعثةِ لهُ علىٰ صرفِ المالِ إليكَ ، فمَنِ الذي أنعمَ بخلقِهِ ، وخلقِ مالِهِ ، وخلقِ قدرتِهِ ، وخلقِ إرادتِهِ

وداعيتِهِ ؟ ومَنِ الذي حبّبَكَ إليهِ ، وصرفَ وجهَهُ إليكَ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ أوْ دنياهُ في الإحسانِ إليكَ ، ولولا كلُّ ذلكَ . . لما أعطاكَ حبّةً مِنْ مالِهِ ؟

ومهما سلَّطَ اللهُ عليهِ الدواعيَ ، وقرّرَ في نفسِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ أو دنياهُ في أنْ يسلِّمَ إليكَ مالَهُ . . كانَ مقهوراً مضطراً في التسليمِ ، لا يستطيعُ مخالفتَهُ ، فالمحسنُ هوَ الذي اضطرَّهُ وسخَّرَهُ لكَ ، وسلَّطَ عليهِ الدواعيَ الباعثةَ المرهقةَ إلى الفعلِ ، وأمَّا يدُهُ . . فواسطةٌ يصلُ بها إحسانُ اللهِ تعالىٰ إليكَ ، وصاحبُ اليدِ مضطرٌّ في ذلكَ اضطرارَ مجرى الماءِ في جريانِ الماءِ فيهِ ، فإنِ اعتقدتَهُ محسناً أوْ شكرتَهُ مِنْ حيثُ هوَ بنفسِهِ محسنٌ ، لا مِنْ حيثُ هوَ واسطةٌ . . كنتَ جاهلاً بحقيقةِ الأمرِ ، فإنَّهُ لا يُتصوَّرُ الإحسانُ مِنَ الإنسانِ إلا إلىٰ نفسِهِ ، أمَّا الإحسانُ إلىٰ غيرِهِ . . فمحالٌ مِنَ المخلوقينَ ؛ لأنَّهُ لا يبذلُ مالَهُ إلا لغرضٍ لهُ في البذلِ ؛ إمَّا آجلٍ وهوَ الثوابُ ، وإمَّا عاجلٍ وهوَ المنَّةُ والاستسخارُ ، أوِ الثناءُ والصيتُ ، والاشتهارُ بالسخاءِ والكرمِ ، أوْ جذبِ قلوبِ الخلقِ إلى الطاعةِ والمحبةِ .

وكما أنَّ الإنسانَ لا يلقي مالَهُ في البحرِ ؛ إذْ لا غرضَ لهُ فيهِ . . فلا يلقيهِ في يدِ إنسانٍ إلا لغرضٍ لهُ فيهِ ، وذلكَ الغرضُ هوَ مطلوبُهُ ومقصدُهُ ، وأمَّا أنتَ . . فلستَ مقصوداً ، بلْ يدُكَ آلةٌ لهُ في القبضِ حتَّىٰ يحصلَ غرضُهُ مِنَ الذكرِ والثناءِ أوِ الشكرِ أوِ الثوابِ ؛ بسببِ قبضِكَ المالَ ، فقدِ استسخرَكَ في القبضِ للتوصُّلِ إلىٰ غرضِ نفسِهِ ، فهوَ إذاً محسنٌ إلىٰ نفسِهِ ، ومعتاضٌ عمَّا

بذلَهُ مِنْ مالِهِ عوضاً هوَ أرجحَ عندَهُ مِنْ مالِهِ ، ولولا رجحانُ ذلكَ الحظِّ عندَهُ . . لما نزلَ عنْ مالِهِ لأجلِكَ أصلاً ألبتةَ ، فإذاً ؛ هوَ غيرُ مستحقٍّ للشكرِ والحبِّ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ مضطرٌّ بتسليطِ اللهِ الدواعيَ عليهِ ، فلا قدرةَ لهُ على المخالفةِ ، فهوَ جارٍ مجرىٰ خازنِ الأميرِ ، فإنَّهُ لا يُرىٰ محسناً بتسليمِ خلعةِ الأميرِ إلىٰ مَنْ خلعَ عليهِ ؛ لأنَّهُ مِنْ جهةِ الأميرِ مضطرٌّ إلى الطاعةِ والامتثالِ لما يرسمُهُ ، ولا يقدرُ علىٰ مخالفتِهِ ، ولوْ خلاهُ الأميرُ ونفسَهُ . . لما سلَّمَ ذلكَ ؛ فكذلكَ كلُّ محسنٍ لوْ خلاهُ اللهُ ونفسَهُ . . لمْ يبذُلْ حبَّةً مِنْ مالِهِ ؛ حتَّىٰ سلَّطَ اللهُ الدواعيَ عليهِ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ حظَّهُ ديناً ودنيا في بذلِهِ ، فبذلَهُ لذلكَ .

والثاني : أنَّهُ معتاضٌ عمَّا بذلَهُ حظاً هوَ أوفىٰ عندَهُ وأحبُّ ممَّا بذلَهُ ، فكما لا يعدُّ البائعُ محسناً لأنَّهُ بذلَ بعوضٍ هوَ أحبُّ عندَهُ ممَّا بذلَهُ . . فكذلكَ الواهبُ اعتاضَ الثوابَ أوِ الحمدَ والثناءَ أوْ عوضاً آخرَ ، وليسَ مِنْ شرطِ العوضِ أنْ يكونَ عيناً متموَّلاً ، بلِ الحظوظُ كلُّها أعواضٌ تُستحقرُ الأموالُ والأعيانُ بالإضافةِ إليها ، فالإحسانُ في الجودِ ، والجودُ هوَ بذلُ المالِ مِنْ غيرِ عوضٍ وحظٍّ يرجعُ إلى الباذلِ ، وذلكَ محالٌ مِنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، فهوَ الذي أنعمَ على العالمينَ إحساناً إليهِمْ ، ولأجلِهِمْ ، لا لحظٍّ وغرضٍ يرجعُ إليهِ ؛ فإنَّهُ يتعالىٰ عنِ الأغراضِ .

فلفظُ الجودِ والإحسانِ في حقِّ غيرِهِ كذبٌ أوْ مجازٌ ، ومعناهُ في حقِّ

غيرِه محالٌ وممتنعٌ امتناعَ الجمعِ بينَ السوادِ والبياضِ ، فهوَ المنفردُ بالجودِ والإحسانِ ، والطّوْلِ والامتنانِ .

فإنْ كانَ في الطبعِ حبُّ المحسنِ .. فينبغي ألا يحبَّ العارفُ إلا اللهَ تعالىٰ ؛ إذِ الإحسانُ مِنْ غيرِه محالٌ ، فهوَ المستحقُّ لهـٰذهِ المحبةِ وحدَهُ ، وأمَّا غيرُهُ .. فيستحقُّ المحبةَ على الإحسانِ بشرطِ الجهلِ بمعنى الإحسانِ وحقيقتِهِ .

* * *

وأمَّا السببُ الثالثُ : وهوَ حبُّكَ للمحسنِ في نفسِهِ وإنْ لمْ يصلْ إليكَ إحسانُهُ :

وهـٰذا أيضاً موجودٌ في الطباعِ ؛ فإنَّهُ إذا بلغَكَ خبرُ ملكٍ عالمٍ عابدٍ عادلٍ ، رفيقٍ بالناسِ ، متلطِّفٍ بهِمْ ، متواضعٍ لهُمْ ، وهوَ في قطرٍ مِنْ أقطارِ الأرضِ بعيدٌ عنكَ ، وبلغَكَ خبرُ ملكٍ آخرَ ظالمٍ متكبِّرٍ ، فاسقٍ متهتِّكٍ شريرٍ ، وهوَ أيضاً بعيدٌ عنكَ .. فإنَّكَ تجدُ في قلبِكَ تفرقةً بينَهُما ؛ إذْ تجدُ في القلبِ ميلاً إلى الأوَّلِ ، وهوَ الحبُّ ، ونفرةً عنِ الثاني ، وهوَ البغضُ ، معَ أنَّكَ آيسٌ مِنْ خيرِ الأوَّلِ وآمنٌ مِنْ شرِّ الثاني ؛ لانقطاعِ طمعِكَ عنِ التوغُّلِ إلىٰ بلادِهِما ، فهـٰذا حبُّ المحسنِ مِنْ حيثُ إنَّهُ محسنٌ فقطْ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ محسنٌ إليكَ ، وهـٰذا أيضاً يقتضي حبَّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ يقتضي ألا يحبَّ غيرَهُ أصلاً إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يتعلَّقُ منهُ بسببٍ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ المحسنُ إلى الكافةِ والمتفضِّلُ علىٰ جميعِ أصنافِ الخلائقِ ؛ **أوَّلاً** : بإيجادِهِمْ ، **وثانياً** :

بتكميلِهِمْ بالأعضاءِ والأسبابِ التي هيَ مِنْ ضروراتِهِمْ ، **وثالثاً** : بترفيهِهِمْ وتنعيمِهِمْ بخلقِ الأسبابِ التي هيَ في مظانِّ حاجاتِهِمْ ، وإنْ لمْ تكنْ في مظانِّ الضرورةِ ، **ورابعاً** : بتجميلِهِمْ بالمزايا والزوائدِ التي هيَ في مَظِنَّةِ زينتِهِمْ ، وهيَ خارجةٌ عنْ ضروراتِهِمْ وحاجاتِهِمْ .

ومثالُ الضروريِّ مِنَ الأعضاءِ : الرأسُ ، والقلبُ ، والكبدُ ، **ومثالُ المحتاجِ إليهِ** : العينُ ، واليدُ ، والرجْلُ ، **ومثالُ الزينةِ** : استقواسُ الحاجبينِ ، وحمرةُ الشفتينِ ، وتلوُّنُ العينينِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا لوْ فاتَ . . لمْ تنخرمْ بهِ حاجةٌ ولا ضرورةٌ .

ومثالُ الضروريِّ مِنَ النعمِ الخارجةِ عنْ بدنِ الإنسانِ : الماءُ والغذاءُ ، **ومثالُ الحاجةِ** : الدواءُ ، واللحمُ ، والفواكهُ ، **ومثالُ المزايا والزوائدِ** : خضرةُ الأشجارِ ، وحسنُ أشكالِ الأنوارِ والأزهارِ ، ولذائذُ الفواكهِ والأطعمةِ التي لا تنخرمُ بعدمِها حاجةٌ ولا ضرورةٌ .

وهـٰذهِ الأقسامُ الثلاثةُ موجودةٌ لكلِّ حيوانٍ ، بلْ لكلِّ نباتٍ ، بلْ لكلِّ صنفٍ مِنْ أصنافِ الخلقِ مِنْ ذروةِ العرشِ إلىٰ منتهى الثرىٰ[1] .

فإذاً ؛ هوَ المحسنُ ، وكيفَ يكونُ غيرُهُ محسناً وذلكَ المحسنُ حسنةٌ مِنْ حسناتِ قدرتِهِ ؟! فإنَّهُ خالقُ الحسنِ ، وخالقُ المحسنِ ، وخالقُ الإحسانِ ،

---

(١) وفي نسخة الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٥٦٣) : (الفرش) بدل (الثرىٰ) .

وخالقُ أسبابِ الإحسانِ ، فالحبُّ بهٰذهِ العلّةِ لغيرِهِ أيضاً جهلٌ محضٌ ، ومَنْ عرفَ ذلكَ . . لمْ يحبَّ بهٰذهِ العلةِ إلا اللهَ تعالىٰ .

* * *

وأمَّا السببُ الرابعُ : وهوَ حبُّ كلِّ جميلٍ لذاتِ الجمالِ ، لا لحظٍّ يُنالُ منهُ وراءَ إدراكِ الجمالِ :

فقدْ بيَّنا أنَّ ذلكَ مجبولٌ في الطباعِ ، وأنَّ الجمالَ ينقسمُ إلىٰ جمالِ الصورةِ الظاهرةِ المدركةِ بعينِ الرأسِ ، وإلىٰ جمالِ الصورةِ الباطنةِ المدركةِ بعينِ القلبِ ونورِ البصيرةِ ، والأوَّلُ يدركُهُ الصبيانُ والبهائمُ ، والثاني يختصُّ بدركِهِ أربابُ القلوبِ ، ولا يشاركُهُمْ فيهِ مَنْ لا يعلمُ إلا ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا .

وكلُّ جمالٍ فهوَ محبوبٌ عندَ مدرِكِ الجمالِ ، فإنْ كانَ مدركاً بالقلبِ . . فهوَ محبوبٌ بالقلبِ ، ومثالُ هٰذا في المشاهدةِ : حبُّ الأنبياءِ والعلماءِ وذوي المكارمِ السنيَّةِ والأخلاقِ المرضيَّةِ ؛ فإنَّ ذلكَ متصوَّرٌ معَ تشوُّشِ صورةِ الوجهِ وسائرِ الأعضاءِ ، وهوَ المرادُ بحسنِ الصورةِ الباطنةِ ، والحسُّ لا يدركُهُ .

نعمْ ، يدركُ الحسُّ آثارَهُ الصادرةَ منهُ الدالَّةَ عليهِ ، حتَّىٰ إذا دلَّ القلبَ عليهِ . . مالَ القلبُ إليهِ فأحبَّهُ ، فمَنْ يحبُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أوِ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ ، أوِ الشافعيَّ رحمةُ اللهِ تعالىٰ عليهِ . . فلا

يحبُّهُمْ إلا لحسنِ ما ظهرَ لهُ منهُمْ ، وليسَ ذلكَ لحسنِ صورِهِمْ ، ولا لحسنِ أفعالِهِمْ ، بلْ دلَّ حسنُ أفعالِهِمْ علىٰ حسنِ الصفاتِ التي هيَ مصدرُ الأفعالِ ، إذِ الأفعالُ آثارٌ صادرةٌ عنها ، ودالَّةٌ عليها .

فمَنْ رأىٰ حسنَ تصنيفِ المصنِّفِ ، وحسنَ شعرِ الشاعرِ ، بلْ حسنَ نقشِ النَّقاشِ وبناءِ البنَّاءِ . . انكشفَ لهُ مِنْ هـٰذهِ الأفعالِ صفاتُهُمُ الجميلةُ الباطنةُ التي يرجعُ حاصلُها عندَ البحثِ إلى العلمِ والقدرةِ ، وكلَّما كانَ المعلومُ أشرفَ وأتمَّ جمالاً وعظمةً . . كانَ العلمُ أشرفَ وأجملَ ، وكذا المقدورُ كلَّما كانَ أعظمَ رتبةً وأجلَّ منزلةً . . كانَتِ القدرةُ عليهِ أجلَّ رتبةً وأشرفَ قدْراً .

وأجلُّ المعلوماتِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، فلا جرمَ أحسنُ العلومِ وأشرفُها معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، وكذلكَ ما يقاربُهُ ويختصُّ بهِ فشرفُهُ علىٰ قدْرِ تعلُّقِهِ بهِ[1] .

فإذاً ؛ جمالُ صفاتِ الصدِّيقينَ الذينَ تحبُّهُمُ القلوبُ طبعاً ترجعُ إلىٰ ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : علمُهُمْ باللهِ تعالىٰ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ وشرائعِ أنبيائِهِ .

---

(١) وإنما شرفه لأنه معرفة لأفعال الله تعالىٰ ، ومعرفة للطريق الذي يقرِّب العبد من الله تعالىٰ ، والأمر الذي يسهل به الوصول إلىٰ معرفة الله والقرب منه ، وكل معرفة خارجة عن ذلك . . فليس فيها كبير شرف . « إتحاف » (٩/ ٥٦٣) .

والثاني : قدرتُهُمْ علىٰ إصلاحِ أنفسِهِمْ وإصلاحِ عبادِ اللهِ تعالىٰ بالإرشادِ والسياسةِ .

والثالثُ : تنزُّهُهُمْ عنِ الرذائلِ والخبائثِ والشهواتِ الغالبةِ الصارفةِ عنْ سننِ الخيرِ ، الجاذبةِ إلىٰ طريقِ الشرِّ .

وبمثلِ هـٰذا يُحبُّ الأنبياءُ والعلماءُ والخلفاءُ والملوكُ الذينَ همْ أهلُ العدلِ والكرمِ ، فانسبْ هـٰذهِ الصفاتِ إلىٰ صفاتِ اللهِ تعالىٰ .

أمَّا العلمُ : فأينَ علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ مِنْ علمِ اللهِ تعالىٰ الذي يحيطُ بالكلِّ إحاطةً خارجةً عنِ النهايةِ ؛ حتَّىٰ لا يعزبُ عنهُ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ ؟

وقدْ خاطبَ الخلقَ كلَّهُمْ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، بلْ لوِ اجتمعَ أهلُ الأرضِ والسماءِ علىٰ أنْ يحيطوا بعلمِهِ وحكمتِهِ في تفصيلِ خلقِ نملةٍ أوْ بعوضةٍ . . لمْ يطلعوا علىٰ عُشْرِ عَشيرِ ذلكَ ! ولا يحيطونَ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، والقدْرُ اليسيرُ الذي علمَهُ الخلائقُ كلُّهُمْ فبتعليمِهِ علموهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ .

فإنْ كانَ جمالُ العلمِ وشرفُهُ أمراً محبوباً ، وكانَ هوَ في نفسِهِ زينةً وكمالاً للموصوفِ بهِ . . فلا ينبغي أنْ يُحبَّ بهـٰذا السببِ إلا اللهُ تعالىٰ ، فعلومُ العلماءِ جهلٌ بالإضافةِ إلىٰ علمِهِ ، بلْ مَنْ عرفَ أعلمَ أهلِ زمانِهِ وأجهلَ أهلِ زمانِهِ . . استحالَ أنْ يحبَّ بسببِ العلمِ الأجهلَ ويتركَ الأعلمَ ، وإنْ كانَ

الأجهلُ لا يخلو عنْ علمٍ ما بتفاصيلِ معيشتِهِ ، والتفاوتُ بينَ علمِ اللهِ وبينَ علمِ الخلائقِ أكثرُ مِنَ التفاوتِ بينَ علمِ أعلمِ الخلائقِ وأجهلِهِمْ ؛ لأنَّ الأعلمَ لا يفضلُ الأجهلَ إلا بعلومٍ معدودةٍ متناهيةٍ يُتصوَّرُ في الإمكانِ أنْ ينالَها الأجهلُ بالكسبِ والاجتهادِ ، وفضْلُ علمِ اللهِ سبحانَهُ علىٰ علومِ الخلائقِ كلِّهِمْ خارجٌ عنِ النهايةِ ؛ إذْ معلوماتُهُ لا نهايةَ لها ، ومعلوماتُ الخلقِ متناهيةٌ .

وأمَّا صفةُ القدرةِ : فهيَ أيضاً كمالٌ ، والعجزُ نقصٌ ، وكلُّ كمالٍ وبهاءٍ وعظمةٍ ومجدٍ واستيلاءٍ فإنَّهُ محبوبٌ ، وإدراكُهُ لذيذٌ ، حتَّىٰ إنَّ الإنسانَ ليسمعُ في الحكايةِ شجاعةَ عليٍّ وخالدٍ ـ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما ـ وغيرِهِما مِنَ الشجعانِ ، وقدرتَهُما واستيلاءَهُما على الأقرانِ ، فيصادفُ في قلبِهِ اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرَّدِ لذَّةِ السماعِ فضْلاً عنِ المشاهدةِ ، ويورثُ ذلكَ حبّاً في القلبِ ضرورياً للمتصفِ بهِ ، فإنَّهُ نوعُ كمالٍ .

فانسبِ الآنَ قدرةَ الخلقِ كلِّهِمْ إلىٰ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، فأعظمُ الأشخاصِ قوَّةً ، وأوسعُهُمْ ملكاً ، وأقواهُمْ بطشاً ، وأقهرُهُمْ للشهواتِ ، وأقمعُهُمْ لخبائثِ النفسِ ، وأجمعُهُمْ للقدرةِ علىٰ سياسةِ نفسِهِ وسياسةِ غيرِهِ . . ما منتهىٰ قدرتِهِ ؟ وإنَّما غايتُهُ أنْ يقدرَ علىٰ بعضِ صفاتِ نفسِهِ ، وعلىٰ بعضِ أشخاصِ الإنسِ في بعضِ الأمورِ ، وهوَ معَ ذلكَ لا يملكُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا نفعاً ولا ضرّاً ، بلْ لا يقدرُ علىٰ حفظِ عينِهِ مِنَ العمىٰ ، ولسانِهِ مِنَ الخرسِ ، وأذنِهِ مِنَ الصممِ ، وبدنِهِ مِنَ المرضِ ،

ولا يُحتاجُ إلىٰ عدٍّ ما يعجزُ عنهُ في نفسِهِ وغيرِهِ ممَّا هوَ على الجملةِ متعلَّقُ قدرتِهِ ، فضلاً عمَّا لا تتعلَّقُ بهِ قدرتُهُ مِنْ ملكوتِ السماواتِ وأفلاكِها وكواكبِها ، والأرضِ وجبالِها وبحارِها ورياحِها وصواعقِها ومعادنِها ونباتِها وحيواناتِها وجميعِ أجزائِها ، فلا قدرةَ لهُ علىٰ ذرَّةٍ منها .

وما هوَ قادرٌ عليهِ مِنْ نفسِهِ وغيرِهِ فليسَتْ قدرتُهُ مِنْ نفسِهِ وبنفسِهِ ، بلِ اللهُ خالقُهُ وخالقُ قدرتِهِ ، وخالقُ أسبابِهِ ، والممكِّنُ لهُ مِنْ ذلكَ ، ولوْ سلَّطَ بعوضاً علىٰ أعظمِ ملكٍ وأقوىٰ شخصٍ مِنَ الحيواناتِ . لأهلكَهُ ، فليسَ للعبدِ قدرةٌ إلا بتمكينِ مولاهُ ، كما قالَ في أعظمِ ملوكِ الأرضِ ذي القرنينِ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، فلمْ يكنْ جميعُ ملكِهِ وسلطنتِهِ إلا بتمكينِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ في جزءٍ مِنَ الأرضِ ، والأرضُ كلُّها مدرةٌ بالإضافةِ إلىٰ أجسامِ العالمِ ، وجميعُ الولاياتِ التي يحظىٰ بها الناسُ مِنَ الأرضِ غبرةٌ مِنْ تلكَ المدرةِ ، ثمَّ تلكَ الغبرةُ أيضاً مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وتمكينِهِ ، فيستحيلُ أنْ يحبَّ عبداً مِنْ عبادِ اللهِ تعالىٰ لقدرتِهِ وسياستِهِ ، وتمكُّنِهِ واستيلائِهِ وكمالِ قوَّتِهِ . ولا يحبَّ اللهَ تعالىٰ لذلكَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فهوَ الجبَّارُ القاهرُ ، والعليمُ القادرُ ، السماواتُ مطوياتٌ بيمينِهِ ، والأرضُ وما عليها في قبضتِهِ ، وناصيةُ جميعِ المخلوقاتِ في قبضةِ قدرتِهِ ، إنْ أهلكَهُمْ مِنْ عندِ آخرِهِمْ . لمْ ينقصْ مِنْ سلطانِهِ وملكِهِ ذرَّةٌ ، وإنْ خلقَ أمثالَهُمْ ألفَ مرَّةٍ . لمْ يعْيَ بخلقِهِ ، ولا يمسُّهُ لغوبٌ ولا فتورٌ في اختراعِهِ ، فلا قدرةَ ولا قادرَ إلا وهوَ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، فلهُ الجمالُ والبهاءُ ، والعظمةُ

والكبرياءُ ، والقهرُ والاستيلاءُ ، فإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ يُحبَّ قادرٌ لكمالِ قدرتِهِ.. فلا يستحقُّ الحبَّ بكمالِ القدرةِ سواهُ أصلاً .

وأمَّا صفةُ التنزُّهِ عنِ العيوبِ والنقائصِ ، والتقدُّسِ عنِ الرذائلِ والخبائثِ : فهوَ أحدُ موجباتِ الحبِّ ، ومقتضياتِ الحسنِ والجمالِ في الصورةِ الباطنةِ ، والأنبياءُ والصدِّيقونَ وإنْ كانوا منزَّهينَ عنِ العيوبِ والخبائثِ . . فلا يُتصوَّرُ كمالُ التقديسِ والتنزيهِ إلا للواحدِ الحقِّ ، الملكِ القدوسِ ، ذي الجلالِ والإكرامِ .

وأمَّا كلُّ مخلوقٍ . . فلا يخلو عنْ نقصٍ وعنْ نقائصَ ، بلْ كونُهُ عاجزاً مخلوقاً مسخَّراً مضطراً هوَ عينُ العيبِ والنقصِ ، فالكمالُ للهِ وحدَهُ ، وليسَ لغيرِهِ كمالٌ إلا بقدْرِ ما أعطاهُ اللهُ ، وليسَ في المقدورِ أنْ ينعمَ بمنتهى الكمالِ علىٰ غيرِهِ ، فإنَّ منتهى الكمالِ أقلُّ درجاتِهِ ألا يكونَ عبداً مسخَّراً لغيرِهِ وقائماً بغيرِهِ ، وذلكَ محالٌ في حقِّ غيرِهِ ، فهوَ المنفردُ بالكمالِ ، المنزَّهُ عنِ النقصِ ، المقدَّسُ عنِ العيوبِ ، وشرحُ وجوهِ التقديسِ والتنزيهِ في حقِّهِ عنِ النقائصِ يطولُ ، وهوَ مِنْ أسرارِ علومِ المكاشفاتِ ، فلا نطوِّلُ بذكرِهِ .

فهٰذا الوصفُ أيضاً إنْ كانَ كمالاً وجمالاً محبوباً . . فلا تتمُّ حقيقتُهُ إلا لهُ ، وكمالُ غيرِهِ وتنزُّهُهُ لا يكونُ مطلقاً ، بلْ بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ أشدُّ منهُ نقصاناً ، كما أنَّ للفرسِ كمالاً بالإضافةِ إلى الحمارِ ، وللإنسانِ كمالاً بالإضافةِ إلى الفرسِ ، وأصلُ النقصِ شاملٌ للكلِّ ، وإنَّما يتفاوتونَ في درجاتِ النقصانِ .

فإذاً ؛ الجميلُ محبوبٌ ، والجميلُ المطلقُ هوَ الواحدُ الذي لا ندَّ لهُ ، الفردُ الذي لا ضدَّ لهُ ، الصمدُ الذي لا منازعَ لهُ ، الغنيُّ الذي لا حاجةَ لهُ ، القادرُ الذي يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ ، العالمُ الذي لا يعزبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ ، القاهرُ الذي لا يخرجُ عنْ قبضةِ قدرتِهِ أعناقُ الجبابرةِ ، ولا ينفلتُ مِنْ سطوتِهِ وبطشِهِ رقابُ القياصرةِ ، الأزليُّ الذي لا أوَّلَ لوجودِهِ ، الأبديُّ الذي لا آخرَ لبقائِهِ ، الضروريُّ الوجودِ الذي لا يحومُ إمكانُ العدمِ حولَ حضرتِهِ ، القيُّومُ الذي يقومُ بنفسِهِ ويقومُ كلُّ موجودٍ بهِ ، جبَّارُ الأرضِ والسماواتِ ، خالقُ الجمادِ والحيوانِ والنباتِ ، المنفردُ بالعزَّةِ والجبروتِ ، المتوحِّدُ بالملكِ والملكوتِ ، ذو الفضْلِ والجلالِ ، والبهاءِ والجمالِ ، والقدرةِ والكمالِ ، الذي تتحيَّرُ في معرفةِ جلالِهِ العقولُ ، وتخرسُ في وصفِهِ الألسنةُ ، الذي كمالُ معرفةِ العارفينَ الاعترافُ بالعجزِ عنْ معرفتِهِ ، ومنتهىٰ نبوَّةِ الأنبياءِ الإقرارُ بالقصورِ عنْ وصفِهِ ، كما قالَ سيِّدُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِ وعليهِمْ أجمعينَ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[1] ، وقالَ سيِّدُ الصدِّيقينَ رضيَ اللهُ عنهُ : (سبحانَ مَنْ لمْ يجعلْ للخلقِ طريقاً إلىٰ معرفتِهِ إلا بالعجزِ عنْ معرفتِهِ)[2] ، فالعجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٤٩٥) .

فليتَ شعري مَنْ ينكرُ إمكانَ حبِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً ويجعلُهُ مجازاً . . أينكرُ أنَّ هٰذهِ الأوصافَ هيَ مِنْ أوصافِ الجمالِ والمحامدِ ، ونعوتِ الكمالِ والمحاسنِ ، أوْ ينكرُ كونَ اللهِ تعالىٰ موصوفاً بها ، أوْ ينكرُ كونَ الكمالِ والجمالِ والبهاءِ والعظمةِ محبوباً بالطبعِ عندَ مَنْ أدركَهُ ؟!

فسبحانَ مَنِ احتجبَ عنْ بصائرِ العميانِ غيرةً علىٰ جمالِهِ وجلالِهِ أنْ يطلعَ عليهِ إلا مَنْ سبقَتْ لهُ منهُ الحسنى ! الذينَ هُمْ عنْ نارِ الحجابِ مبعدونَ ، وتركَ الخاسرينَ في ظلماتِ العمىٰ يتيهونَ ، وفي مسارحِ المحسوساتِ وشهواتِ البهائمِ يتردَّدونَ ، يعلمونَ ظاهراً مِنَ الحياةِ الدنيا ، وهُمْ عنِ الآخرةِ هُمْ غافلونَ ، الحمدُ للهِ ، بلْ أكثرُهُمْ لا يعلمونَ .

والحبُّ بهٰذا السببِ[١] أقوىٰ مِنَ الحبِّ بالإحسانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ يزيدُ وينقصُ ، ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (إنَّ أودَّ الأودَّاءِ إليَّ مَنْ عبدَني بغيرِ نوالٍ ، لكنْ ليُعطيَ الربوبيَّةَ حقَّها)[٢] .

وفي الزبورِ : (مَنْ أظلمُ ممَّنْ عبدَني لجنَّةٍ أوْ نارٍ ، لوْ لمْ أخلقْ جنَّةً ولا ناراً . . ألمْ أكنْ أهلاً أنْ أُطاعَ ؟!)[٣] .

ومرَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ طائفةٍ مِنَ العبَّادِ قدْ نحلوا ، فقالوا : نخافُ

---

(١) التعرف علىٰ صفات الكمال المطلق للذات الأحدية ، مع الإقرار بالعجز المطلق عن دركها .

(٢) قوت القلوب (٢/٥٦) .

(٣) قوت القلوب (٢/٥٦) .

النارَ ونرجو الجنَّةَ ، فقالَ لهُمْ : مخلوقاً خفتُمْ ومخلوقاً رجوتُمْ ، ومرَّ بقومٍ آخرينَ كذلكَ ، فقالوا : نعبدُهُ حبّاً لهُ وتعظيماً لجلالِهِ ، فقالَ : أنتُمْ أولياءُ اللهِ حقّاً ، معَكُمْ أُمرتُ أنْ أقيمَ(1) .

وقالَ أبو حازمٍ : (إنِّي لأستحيي أنْ أعبدَهُ للثوابِ والعقابِ ، فأكونَ كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يخفْ . . لمْ يعملْ ، وكالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يُعطَ . . لمْ يعملْ)(2) .

وفي الخبرِ : « لا يكونَنَّ أحدُكُم كالأجيرِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يُعطَ أجراً . . لمْ يعملْ ، ولا كالعبدِ السوءِ ؛ إنْ لمْ يخفْ . . لمْ يعملْ »(3) .

❊ ❊ ❊

وأمَّا السببُ الخامسُ للحبِّ : فهوَ المناسبةُ والمشاكلةُ :

لأنَّ شبهَ الشيءِ منجذبٌ إليهِ ، والشكلُ إلى الشكلِ أميلُ ، ولذلكَ ترى الصبيَّ يألفُ الصبيَّ ، والكبيرَ يألفُ الكبيرَ ، ويألفُ الطيرُ نوعَهُ ، وينفرُ مِنْ

---

(1) كذا في « القوت » (٢/٥٦) ، وروى أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٨) نحوه .

(2) كذا في « القوت » (٢/٥٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٤٢) بنحوه ، وقد رواه عن حكيم من الحكماء ابنُ المبارك في « الزهد » (٢١٩) وفيه زيادة : (ولكن يستخرج مني حب ربي عز وجل ما لم يستخرج مني غيره) .

(3) كذا في « القوت » (٢/٥٦) ، حيث قال بعد إيراده لكلام أبي حازم المدني : (وقد روينا معنى هـذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يكون أحدكم كالعبد السوء ؛ إن خاف . . عمل ، ولا كالأجير السوء ؛ إن لم يعط أجراً . . لم يعمل ») ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٥٦٧) .

غيرِ نوعِهِ ، وأنسُ العالمِ بالعالمِ أكثرُ منهُ بالمحترفِ ، وأنسُ النجّارِ بالنجارِ أكثرُ مِنْ أنسِهِ بالفلاحِ ، وهـٰذا أمرٌ تشهدُ بهِ التجربةُ ، وتشهدُ لهُ الأخبارُ والآثارُ كما استقصيناهُ في بابِ الأخوَّةِ في اللهِ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، فليطلبْ منهُ .

وإذا كانَتِ المناسبةُ سببَ التحابِّ . . فالمناسبةُ قدْ تكونُ في معنىً ظاهرٍ ؛ كمناسبةِ الصبيِّ الصبيَّ في معنى الصبا ، وقدْ يكونُ خفيّاً حتَّىٰ لا يُطلعُ عليهِ ؛ كما ترىٰ مِنَ الاتحادِ الذي يتفقُ بينَ شخصينِ مِنْ غيرِ ملاحظةِ جمالٍ ، أوْ طمعٍ في مالٍ أوْ غيرِهِ ، كما أشارَ إليهِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ ، فما تعارفَ منها . . ائتلفَ ، وما تناكرَ منها . . اختلفَ »[1] ، والتعارفُ هوَ التناسبُ ، والتناكرُ هوَ التباينُ[2] .

وهـٰذا السببُ أيضاً يقتضي حبَّ اللهِ تعالىٰ لمناسبةٍ باطنةٍ لا ترجعُ إلى المشابهةِ في الصورِ والأشكالِ ، بلْ إلىٰ معانٍ باطنةٍ يجوزُ أنْ يُذكرَ بعضُها في الكتبِ ، وبعضُها لا يجوزُ أنْ يُسطرَ ، بلْ يُتركُ تحتَ غطاءِ الغيرةِ حتَّىٰ يعثرَ عليهِ السالكونَ للطريقِ إذا استكملوا شرطَ السلوكِ .

فالذي يُذكرُ هوَ قربُ العبدِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الصفاتِ التي أُمرَ فيها

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨) .

(٢) أي : ما تناسب منها في عالم الأزل . . حصل بينهما الائتلاف في عالم الشهادة ، وما تباين هناك . . أوجب حصول الاختلاف ههنا . « إتحاف » (٩/٥٦٨) .

بالاقتداءِ والتخلُّقِ بأخلاقِ الربوبيّةِ ، حتَّىٰ قيلَ : (تخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ)(١) ، وذلكَ في اكتسابِ محامدِ الصفاتِ التي هيَ مِنْ صفاتِ الإلـٰهيةِ ؛ مِنَ العلمِ ، والبرِّ ، والإحسانِ ، واللطفِ ، وإفاضةِ الخيرِ والرحمةِ على الخلقِ ، والنصيحةِ لهُمْ ، وإرشادِهِمْ إلى الحقِّ ، ومنعِهِمْ مِنَ الباطلِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ مكارمِ الشريعةِ ، فكلُّ ذلكَ يقرِّبُ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، لا بمعنىٰ طلبِ القربِ بالمكانِ ، بلْ بالصفاتِ .

وأمَّا ما لا يجوزُ أنْ يُسطرَ في الكتبِ مِنَ المناسبةِ الخاصَّةِ التي اختُصَّ بها الآدميُّ . . فهيَ التي يومئُ إليها قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، إذْ بيَّنَ أنَّهُ أمرٌ ربَّانيٌّ خارجٌ عنْ حدِّ عقولِ الخلقِ .

وأوضحُ مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ، ولذلكَ أسجدَ لهُ ملائكتَهُ .

ويشيرُ إليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إذْ لمْ يستحقَّ آدمُ خلافةَ اللهِ تعالىٰ إلا بتلكَ المناسبةِ(٢) .

وإليهِ يرمزُ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ

---

(١) إذ روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧) من حديث عثمان رضي الله عنه مرفوعاً : « لله مئة وسبعة عشر خلقاً ، من جاء بخلق منها . . أدخله الله الجنة » ، وقد قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ .

(٢) لأنه أنموذج من نور الله تعالىٰ ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة ، وإن كان لا يرقىٰ إلىٰ ذروة المساواة ، وهـٰذا ربما هزَّك للتفطن لسرِّ الآية . « إتحاف » (٩/ ٥٦٨) .

صورتِهِ »(١) ، حتَّىٰ ظنَّ القاصرونَ أنْ لا صورةَ إلا الصورةُ الظاهرةُ المدركةُ بالحواسِّ ، فشبَّهوا وجسَّموا وصوَّروا ، تعالى اللهُ ربُّ العالمينَ عمَّا يقولُ الجاهلونَ علوّاً كبيراً .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : مرضتُ فلمْ تعدْني ، فقالَ : يا ربِّ ؛ وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : مرضَ عبدي فلانٌ فلمْ تعدْهُ ، ولوْ عدتَهُ . . لوجدتَني عندَهُ(٢) .

وهاذهِ المناسبةُ لا تظهرُ إلا بالمواظبةِ على النوافلِ بعدَ إحكامِ الفرائضِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ولسانَهُ الذي ينطقُ بهِ » .

وهاذا موضعٌ يجبُ قبضُ عنانِ القلمِ فيهِ ، فقدْ تحزَّبَ الناسُ فيهِ : إلىٰ قاصرينَ مالوا إلى التشبيهِ الظاهرِ ، وإلىٰ غالينَ مسرفينَ جاوزوا حدَّ المناسبةِ إلى الاتحادِ وقالوا بالحلولِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُمْ : (أنا الحقُّ) ، وضلَّ النصارىٰ في عيسىٰ عليهِ السلامُ فقالوا : (هوَ الإلهُ)، وقالَ آخرونَ منهُمْ :

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٢/ ١١٥) .

(٢) روىٰ مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ؛ مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب ؛ كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته . . لوجدتني عنده ؟ . . . » الحديث .

(تدرَّعَ الناسوتُ باللاهوتِ) ، وقالَ آخرونَ : (اتحدَ بهِ)(١) .

وأمَّا الذينَ انكشفَ لهمُ استحالةُ التشبيهِ والتمثيلِ ، واستحالةُ الاتحادِ والحلولِ، واتضحَ لهُمْ معَ ذلكَ حقيقةُ السرِّ . فهُمُ الأقلُّونَ ، ولعلَّ أبا الحسينِ النوريَّ عنْ هٰذا المقامِ كانَ ينظرُ ؛ إذْ غلبَهُ الوجدُ في قولِ القائلِ : [من الكامل]

لا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدادِكَ مَنْزِلاً ... تَتَحَيَّـرُ ٱلْأَلْبـابُ عِنْـدَ نُـزُولِـهِ

فلمْ يزلْ يعدو في وجدِهِ علىٰ أجمةِ قصبٍ قدْ قُطعَتْ وبقيَتْ أصولُها ، حتَّىٰ تشقَّقَتْ قدماهُ وتورَّمتا ، وماتَ مِنْ ذلكَ(٢) .

وهٰذا هوَ أعظمُ أسبابِ الحبِّ وأقواها ، وهوَ أعزُّها وأبعدُها وأقلُّها وجوداً .

فهٰذهِ هيَ المعلومةُ مِنْ أسبابِ الحبِّ ، وجملةُ ذلكَ متظاهرةٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ تحقيقاً لا مجازاً ، وفي أعلى الدرجاتِ لا في أدناها ، فكانَ المعقولُ المقبولُ عندَ ذوي البصائرِ حبَّ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، كما أنَّ المعقولَ الممكنَ عندَ العميانِ حبُّ غيرِ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

ثمَّ كلُّ مَنْ يحبُّ واحداً مِنَ الخلقِ بسببٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ يُتصوَّرُ أنْ

---

(١) تقدم هٰذا السياق للمصنف ، وقد ألح المصنف في معالجة هٰذه الأغلوطة في عدد من مؤلفاته ؛ كـ « المنقذ من الضلال » (ص٧٠) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص١٠٦) ، و« ميزان العمل » (ص٢٠٧) ، و« مشكاة الأنوار » (ص٤٢) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٣٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٤) ، وأورده الطوسي في « اللمع » (ص٣٦٣) .

يحبَّ غيرَهُ لمشاركتِهِ إيَّاهُ في السببِ ، والشركةُ نقصانٌ في الحبِّ ، وغضٌّ مِنْ كمالِهِ ، ولا ينفردُ أحدٌ بوصفٍ محبوبٍ إلا وقدْ يُوجدُ لهُ شريكٌ فيهِ ، فإنْ لمْ يُوجدْ . . فيمكنُ أنْ يُوجدَ ، إلا اللهَ تعالىٰ ، فإنَّهُ موصوفٌ بهـٰذهِ الأوصافِ التي هيَ نهايةُ الجلالِ والكمالِ ، ولا شريكَ لهُ في ذلكَ وجوداً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ذلكَ إمكاناً ، فلا جرمَ لا يكونُ في حبِّهِ شركةٌ ، فلا يتطرَّقُ النقصانُ إلىٰ حبِّهِ ؛ كما لا تتطرَّقُ الشركةُ إلىٰ صفاتِهِ ، فهوَ المستحقُّ إذاً لأصلِ المحبةِ ولكمالِ المحبةِ استحقاقاً لا يُساهَمُ فيهِ أصلاً .

* * *

بيان أنّ أجلّ اللّذات وأعلاها معرفة الله تعالىٰ والنّظر إلىٰ وجهه الكريم وأنّه لا يُتصوّر أن يُؤثر عليها لذّة أخرىٰ إلا من حُرِم هـٰذه اللّذّة

اعلمْ : أنَّ اللذاتِ تابعةٌ للإدراكاتِ ، والإنسانُ جامعٌ لجملةٍ مِنَ القوىٰ والغرائزِ ، ولكلِّ قوةٍ وغريزةٍ لذةٌ ، ولذتُها في نيلِها لمقتضىٰ طبعِها الذي خُلقَتْ لهُ ، فإنَّ هـٰذهِ الغرائزَ ما رُكِّبَتْ في الإنسانِ عبثاً ولا هزلاً ، بلْ خُلقتْ كلُّ قوَّةٍ وغريزةٍ لأمرٍ مِنَ الأمورِ هوَ مقتضاها بالطبعِ ، فغريزةُ الغضبِ خُلقَتْ للتشفِّي والانتقامِ ، فلا جرمَ لذَّتُها في الغلبةِ والانتقامِ الذي هوَ مقتضىٰ طبعِها ، وغريزةُ شهوةِ الطعامِ مثلاً خُلقَتْ لتحصيلِ الغذاءِ الذي بهِ القوامُ ، فلا جرمَ لذَّتُها في نيلِ الغذاءِ الذي هوَ مقتضىٰ طبعِها ، وكذلكَ لذَّةُ السمعِ والبصرِ والشمِّ في الإبصارِ والاستماعِ والاشتمامِ ، فلا تخلو غريزةٌ مِنْ هـٰذهِ الغرائزِ عنْ ألمٍ ولذةٍ بالإضافةِ إلىٰ مدركاتِها ؛ **فكذلكَ في القلبِ غريزةٌ تُسمَّى النورَ الإلـٰهيَّ** ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ، وقدْ تُسمَّى العقلَ ، وقدْ تُسمَّى البصيرةَ الباطنةَ ، وقدْ تُسمَّىٰ نورَ الإيمانِ واليقينِ(١) ، ولا معنىٰ للاشتغالِ بالأسامي ؛ فإنَّ الاصطلاحاتِ مختلفةٌ ، والضعيفُ يظنُّ أنَّ الاختلافَ واقعٌ في المعاني ؛ لأنَّ الضعيفَ

---

(١) وكل ذلك تعبيرات عن عين في القلب منزهة عن نقائص العين الظاهرة . « إتحاف » (٩/ ٥٧١) .

يطلبُ المعانيَ مِنَ الألفاظِ ، وهوَ عكسُ الواجبِ[1] .

فالقلبُ مفارقٌ لسائرِ أجزاءِ البدنِ بصفةٍ بها يدركُ المعانيَ التي ليسَتْ متخيَّلةً ولا محسوسةً ؛ كإدراكِهِ خلْقَ العالمِ ، وافتقارَهُ إلىٰ خالقٍ قديرٍ مدبِّرٍ حكيمٍ ، موصوفٍ بصفاتٍ إلـٰهيةٍ ، ولنسمِّ تلكَ الغريزةَ عقلاً ؛ بشرطِ ألا يُفهمَ مِنْ لفظِ العقلِ ما يُدركُ بهِ طرقُ المجادلةِ والمناظرةِ ، فقدِ اشتَهرَ اسمُ العَقلِ بهـٰذا ، ولهـٰذا ذمَّهُ بعضُ الصوفيةِ ، وإلا . . فالصفةُ التي فارقَ الإنسانُ بها البهائمَ ، وبها يدركُ معرفةَ اللهِ تعالىٰ أعزُّ الصفاتِ ؛ فلا ينبغي أنْ تُذمَّ ، وهـٰذهِ الغريزةُ خُلقَتْ ليعلمَ بها حقائقَ الأمورِ كلِّها ، فمقتضىٰ طبعِها المعرفةُ والعلمُ ، وهيَ لذَّتُها ، كما أنَّ مقتضىٰ طبعِ سائرِ الغرائزِ هوَ لذَّتُها .

وليسَ يخفىٰ أنَّ في العلمِ والمعرفةِ لذةً ، حتَّىٰ إنَّ الذي يُنسبُ إلى العلمِ والمعرفةِ ولوْ في شيءٍ خسيسٍ يفرحُ بهِ ، والذي يُنسبُ إلى الجهلِ ولوْ في شيءٍ حقيرٍ يغتمُّ بهِ ، وحتَّىٰ إنَّ الإنسانَ لا يكادُ يصبرُ عنِ التحدِّي بالعلمِ والتمدُّحِ بهِ في الأشياءِ الحقيرةِ ، فالعالمُ باللعبِ بالشطرنجِ علىٰ خسَّتِهِ لا يطيقُ السكوتَ فيهِ عنِ التعليمِ ، وينطلقُ لسانُهُ بذكرِ ما يعلمُهُ ، وكلُّ ذلكَ لفرْطِ لذَّةِ العلمِ ، وما يستشعرُهُ مِنْ كمالِ ذاتِهِ بهِ ، فإنَّ العلمَ مِنْ أخصِّ صفاتِ الربوبيَّةِ ، وهيَ منتهى الكمالِ .

ولذلكَ يرتاحُ الطبعُ إذا أُثنيَ عليهِ بالذكاءِ وغزارةِ العلمِ ؛ لأنَّهُ يستشعرُ

---

(١) فإن دائرة المعاني أوسع من دائرة الألفاظ ، فلا تكاد الألفاظ تحيط بها كما ينبغي . « إتحاف » (٩/ ٥٧١) .

عندَ سماعِ الثناءِ كمالَ ذاتِهِ وكمالَ علمِهِ ، فيعجبُ بنفسِهِ ويلتذُّ بهِ .

ثمَّ ليسَ لذةُ العلمِ بالحراثةِ والخياطةِ كلذَّةِ العلمِ بسياسةِ الملكِ وتدبيرِ أمرِ الخلقِ ، ولا لذَّةُ العلمِ بالنحوِ والشعرِ كلذَّةِ العلمِ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، بلْ لذَّةُ العلمِ بقدْرِ شرفِ العلمِ ، وشرفُ العلمِ بقدْرِ شرفِ المعلومِ ، حتَّىٰ إنَّ الذي يعرفُ بواطنَ أحوالِ الناسِ ويخبرُها . . يجدُ لهُ لذَّةً ، وإنْ جهلَهُ . . يتقاضاهُ طبعُهُ أنْ يفحصَ عنهُ .

فإنْ علمَ بواطنَ أحوالِ رئيسِ البلدِ وأسرارَ تدبيرِهِ في رئاستِهِ . . كانَ ذلكَ ألذَّ عندَهُ وأطيبَ مِنْ علمِهِ بباطنِ حالِ فلاحٍ أوْ حائكٍ ، فإنِ اطلعَ علىٰ أسرارِ الوزيرِ وتدبيرِهِ وما هوَ عازمٌ عليهِ في أمورِ الوزارةِ . . فهوَ أشهىٰ عندَهُ وألذُّ مِنْ علمِهِ بأسرارِ الرئيسِ ، فإنْ كانَ خبيراً بباطنِ أحوالِ الملكِ والسلطانِ الذي هوَ المستولي على الوزيرِ . . كانَ ذلكَ أطيبَ عندَهُ وألذَّ مِنْ علمِهِ بباطنِ أسرارِ الوزيرِ ، وكانَ تمدُّحُهُ بذلكَ وحرصُهُ عليهِ وعلى البحثِ عنهُ أشدَّ ، وحبُّهُ لهُ أكثرَ ؛ لأنَّ لذَّتَهُ فيهِ أعظمُ .

فبهٰذا استبانَ أنَّ ألذَّ المعارفِ أشرفُها ، وشرفُها بحسَبِ شرفِ المعلومِ ، فإنْ كانَ في المعلوماتِ ما هوَ الأجلُّ والأكملُ والأشرفُ والأعظمُ . . فالعلمُ بهِ ألذُّ العلومِ ـ لا محالةَ ـ وأشرفُها وأطيبُها .

وليتَ شعري هلْ في الوجودِ شيءٌ أجلُّ وأعلىٰ وأشرفُ وأكملُ وأعظمُ مِنْ خالقِ الأشياءِ كلِّها ، ومكمِّلِها ومرتِّبِها ، ومُبدئِها ومُعيدِها ، ومدبِّرِها

ومزيِّنِها ؟ وهلْ يُتصوَّرُ أنْ تكونَ حضرةٌ في الملكِ والكمالِ والجمالِ والبهاءِ والجلالِ أعظمَ مِنَ الحضرةِ الربَّانيَّةِ التي لا يحيطُ بمبادي جلالِها وعجائبِ أحوالِها وصفُ الواصفينَ ؟!

فإنْ كنتَ لا تشكُّ في ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ تشكَّ في أنَّ الاطلاعَ علىٰ أسرارِ الربوبيَّةِ والعلمَ بترتُّبِ الأمورِ الإلـٰهيَّةِ المحيطةِ بكلِّ الموجوداتِ . . هوَ أعلىٰ أنواعِ المعارفِ والاطلاعاتِ وألذُّها وأطيبُها وأشهاها ، وأحرىٰ ما تستشعرُ بهِ النفوسُ عندَ الاتصافِ بهِ كمالَها وجمالَها ، وأجدرُ ما يعظمُ بهِ الفرحُ والارتياحُ والاستبشارُ .

وبهـٰذا تبيَّنَ أنَّ العلمَ لذيذٌ ، وأنَّ ألذَّ العلومِ العلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وتدبيرِهِ في مملكتِهِ مِنْ منتهىٰ عرشِهِ إلىٰ تخومِ الأرضينَ ، فينبغي أنْ يعلمَ أنَّ لذَّةَ المعرفةِ أقوىٰ مِنْ سائرِ اللذاتِ ؛ أعني : لذَّةَ الشهوةِ والغضبِ ولذَّةَ سائرِ الحواسِّ الخمسِ ، فإنَّ اللذاتِ **مختلفةٌ بالنوعِ** أولاً ؛ كمخالفةِ لذَّةِ الوقاعِ للذةِ السماعِ ، ولذةِ المعرفةِ للذةِ الرئاسةِ ، وهيَ **مختلفةٌ بالضعفِ والقوَّةِ** ؛ كمخالفةِ لذَّةِ الشَّبِقِ المغتلمِ مِنَ الجماعِ للذَّةِ الفاترِ الشهوةِ ، وكمخالفةِ لذَّةِ النظرِ إلى الوجهِ الجميلِ الفائقِ الجمالِ للذةِ النظرِ إلىٰ ما دونَهُ في الجمالِ ، وإنَّما تُعرفُ أقوى اللذاتِ بأنْ تكونَ مُؤْثَرَةً علىٰ غيرِها ، فإنَّ المخيَّرَ بينَ النظرِ إلىٰ صورةٍ جميلةٍ والتمتعِ بمشاهدتِها وبينَ استنشاقِ روائحَ طيبةٍ إذا اختارَ النظرَ إلى الصورةِ الجميلةِ . . علِمَ أنَّها ألذُّ عندَهُ مِنَ الروائحِ الطيبةِ ، وكذلكَ إذا حضرَ الطعامُ وقتَ الأكلِ واستمرَّ

اللاعبُ بالشطرنجِ على اللعبِ وتركَ الأكلَ . . فيعلمُ بهِ أنَّ لذةَ الغلبةِ في الشطرنجِ أقوىٰ عندَهُ مِنْ لذةِ الأكلِ .

فهـٰذا معيارٌ صادقٌ في الكشفِ عنْ ترجيحِ اللذاتِ ، فنعودُ ونقولُ :

اللذاتُ تنقسمُ إلىٰ **ظاهرةٍ** ؛ كلذَّاتِ الحواسِّ الخمسِ ، وإلىٰ **باطنةٍ** ؛ كلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ والكرامةِ والعلمِ وغيرِها ؛ إذْ ليسَتْ هـٰذهِ اللذَّةُ للعينِ ، ولا للأنفِ ، ولا للأذنِ ، ولا للمسِ ، ولا للذوقِ ، والمعاني الباطنةُ أغلبُ علىٰ ذوي الكمالِ مِنَ اللذاتِ الظاهرةِ فلوْ خُيِّرَ الرجلُ بينَ لذَّةِ الهريسةِ والدجاجِ المسمَّنِ واللوزينجِ وبينَ لذَّةِ الرئاسةِ وقهرِ الأعداءِ ونيلِ درجةِ الاستيلاءِ ؛ فإنْ كانَ المخيَّرُ خسيسَ الهمَّةِ ، ميِّتَ القلبِ ، شديدَ النهمةِ[1] . . اختارَ الهريسةَ والحلاوةَ ، وإنْ كانَ عاليَ الهمَّةِ ، كاملَ العقلِ . . اختارَ الرئاسةَ ، وهانَ عَليهِ الجوعُ والصبرُ عنْ ضرورةِ القوتِ أياماً كثيرةً ، فاختيارُهُ للرئاسةِ يدلُّ علىٰ أنَّها ألذُّ عندَهُ مِنَ المطعوماتِ الطيِّبةِ .

نعم ، الناقصُ الذي لمْ تكملْ معانيهِ الباطنةُ بعدُ ؛ كالصبيِّ ، أوِ الذي ماتَتْ قواهُ الباطنةُ كالمعتوهِ . . لا يبعدُ أنْ يؤثرَ لذَّةَ المطعوماتِ علىٰ لذَّةِ الرئاسةِ ، وكما أنَّ لذَّةَ الرئاسةِ والكرامةِ أغلبُ اللذاتِ علىٰ مَنْ جاوزَ نقصانَ الصبا والعتهِ . . فلذةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومطالعةِ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ ، والنظرِ إلىٰ أسرارِ الأمورِ الإلـٰهيةِ ألذُّ مِنَ الرئاسةِ التي هيَ أعلى اللذاتِ الغالبةِ على الخلقِ .

---

(١) في (أ) : (شديد النهم) ، وفي غير (ص) : (شديد البهيمية) .

وغايةُ العبارةِ عنهُ أنْ يُقالَ : فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهُمْ مِنْ قرَّةِ أعينٍ ، وإنَّهُ أعدَّ لهُمْ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ .

وهاذا الآنَ لا يعرفُهُ إلا مَنْ ذاقَ اللذتينِ جميعاً ، فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يؤثرُ التبتُّلَ والتفرُّدَ والفكرَ والذكرَ ، وينغمسُ في بحارِ المعرفةِ ، ويتركُ الرئاسةَ ، ويستحقرُ الخلقَ الذينَ يرأسُهُمْ ؛ لعلمِهِ بفناءِ رئاستِهِ وفناءِ مَنْ عليهِ رئاستُهُ ، وكونِهِ مشوباً بالكدوراتِ التي لا يُتصوَّرُ الخلوُّ عنها ، وكونِهِ مقطوعاً بالموتِ الذي لا بدَّ مِنْ إتيانِهِ مهما أخذَتِ الأرضُ زخرفَها وازَّيَّنَتْ وظنَّ أهلُها أنَّهُمْ قادرونَ عليها ، فيستعظمُ بالإضافةِ إليها لذَّةَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومطالعةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ونظامِ مملكتِهِ مِنْ أعلىٰ عليينَ إلىٰ أسفلِ السافلينَ ؛ فإنَّها خاليةٌ عنِ المزاحماتِ والمكدِّراتِ ، متسعةٌ للمتواردينَ عليها ، لا تضيقُ عنهُمْ بكبرِها ، وإنَّما عرضُها مِنْ حيثُ التقديرُ السماواتُ والأرضُ ، وإذا خرجَ النظرُ عنِ المقدراتِ . . فلا نهايةَ لعرضِها ، فلا يزالُ العارفُ بمطالعتِها في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، يرتعُ في رياضِها ، ويقطفُ مِنْ ثمارِها ، ويكرعُ في حياضِها ، وهوَ آمنٌ مِنِ انقطاعِها ؛ إذْ ثمارُ هاذهِ الجنَّةِ غيرُ مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ .

ثمَّ هيَ أبديَّةٌ سرمديَّةٌ ، لا يقطعُها الموتُ ؛ إذِ الموتُ لا يهدمُ محلَّ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، ومحلُّها الروحُ الذي هوَ أمرٌ ربَّانيٌّ سماويٌّ ، وإنَّما الموتُ يغيِّرُ أحوالَها ، ويقطعُ شواغلَها وعوائقَها ، ويخلِّيها مِنْ حبسِها ،

فأمَّا أنْ يعدمَها . . فلا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذا مخصوصٌ بالمقتولِ في المعركةِ ، فإنَّ للعارفِ بكلِّ نَفَسٍ درجةَ ألفِ شهيدٍ ، وفي الخبرِ : أنَّ الشهيدَ يتمنَّىٰ في الآخرةِ أنْ يُردَّ إلى الدنيا ليقتلَ مرَّةً أخرىٰ ؛ لعظمِ ما يراهُ مِنْ ثوابِ الشهادةِ[١] ، وأنَّ الشهداءَ يتمنونَ لوْ كانوا علماءَ[٢] ؛ لما يرونَهُ مِنْ علوِّ درجةِ العلماءِ .

فإذاً ؛ جميعُ أقطارِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ميدانُ العارفِ ، يتبوَّأُ منهُ حيثُ يشاءُ ، مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ أنْ يتحرَّكَ إليها بجسمِهِ وشخصِهِ ، فهوَ مِنْ مطالعةِ جمالِ الملكوتِ في جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، وكلُّ عارفٍ فلهُ مثلُها مِنْ غيرِ أنْ يضيقَ بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ أصلاً ، إلا أنَّهُمْ يتفاوتونَ في سعةِ متنزَّهاتِهِمْ بقدْرِ تفاوتِهِمْ في اتساعِ نظرِهِمْ وسعةِ معارفِهِمْ ، وهمْ درجاتٌ عندَ اللهِ ، ولا يدخلُ في الحصرِ تفاوتُ درجاتِهِمْ .

فقدْ ظهرَ أنَّ لذَّةَ الرئاسةِ ـ وهيَ باطنةٌ ـ أقوىٰ في ذوي الكمالِ مِنْ لذَّاتِ الحواسِّ كلِّها ، وأنَّ هـٰذهِ اللذَّةَ لا تكونُ لبهيمةٍ ولا لصبيٍّ ولا لمعتوهٍ ، وأنَّ

(١) رواه البخاري (٢٧٩٥) ، ومسلم (١٨٧٧) .
(٢) عقد الإمام ابن عبد البر فصلاً في « جامع بيان العلم وفضله » (١/١٤٩) أورد فيه الأخبار في تفضيل العلماء على الشهداء .

لذَّةَ المحسوساتِ والشهواتِ تكونُ لذوي الكمالِ معَ لذَّةِ الرئاسةِ ، ولكنْ يؤثرونَ الرئاسةَ .

فأمَّا معنىٰ كونِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وملكوتِ سماواتِهِ وأسرارِ ملكِهِ أعظمَ لذَّةً مِنَ الرئاسةِ . . فهـٰذا يختصُّ بمعرفتِهِ مَنْ نالَ رتبةَ المعرفةِ وذاقَها ، ولا يمكنُ إثباتُ ذلكَ عندَ مَنْ لا قلبَ لهُ ؛ لأنَّ القلبَ معدنُ هـٰذِهِ القوَّةِ ، كما أنَّهُ لا يمكنُ إثباتُ رجحانِ لذَّةِ الوقاعِ علىٰ لذَّةِ اللعبِ بالصولجانِ عندَ الصبيانِ ، ولا رجحانِهِ علىٰ لذةِ شمِّ البنفسجِ عندَ العنينِ ؛ لأنَّهُ فقدَ الصفةَ التي بها تُدركُ هـٰذِهِ اللذةُ ، ولكنْ مَنْ سلمَ مِنْ آفةِ العنَّةِ وسلمَتْ حاسَّةُ شمِّهِ . . أدركَ التفاوتَ بينَ اللذتينِ ، وعندَ هـٰذا لا يبقىٰ إلا أنْ يُقالَ : (مَنْ ذاقَ . . عرفَ) .

ولعمري ؛ طلابُ العلومِ وإنْ لمْ يشتغلوا بطلبِ معرفةِ الأمورِ الإلـٰهيةِ فقدِ استنشقوا رائحةَ هـٰذِهِ اللذةِ عندَ انكشافِ المشكلاتِ وانحلالِ الشبهاتِ التي قويَ حرصُهُمْ علىٰ طلبِها ؛ فإنَّها أيضاً معارفُ وعلومٌ ، وإنْ كانَتْ معلوماتُها غيرَ شريفةٍ شرفَ المعلوماتِ الإلـٰهيةِ .

فأمَّا مَنْ طالَ فكرُهُ في معرفةِ اللهِ سبحانَهُ ، وقدِ انكشفَ لهُ مِنْ أسرارِ ملكِ اللهِ تعالىٰ ولوِ الشيءَ اليسيرَ . . فإنَّهُ يصادفُ في قلبِهِ عندَ حصولِ الكشفِ مِنَ الفرحِ ما يكادُ يطيرُ بهِ ، ويتعجَّبُ مِنْ نفسِهِ في ثباتِهِ واحتمالِهِ لقوَّةِ فرحِهِ وسرورِهِ ، وهـٰذا ممَّا لا يُدركُ إلا بالذوقِ ، والحكايةُ فيهِ قليلةُ الجدوىٰ .

فهـٰذا القدْرُ ينبِّهُكَ علىٰ أنَّ معرفةَ اللهِ سبحانَهُ ألذُّ الأشياءِ ، وأنَّهُ لا لذَّةَ فوقَها ، ولهـٰذا قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إنَّ للهِ تعالىٰ عباداً ليسَ يشغلُهُمْ عنِ اللهِ خوفُ النارِ ولا رجاءُ الجنَّةِ ، فكيفَ تشغلُهُمُ الدنيا عنِ اللهِ ؟!)(١) .

ولذلكَ قالَ بعضُ إخوانِ معروفٍ الكرخيِّ لهُ : أخبِرْني يا أبا محفوظٍ ؛ أيُّ شيءٍ أهاجَكَ إلى العبادةِ والانقطاعِ عنِ الخلقِ ؟ فسكتَ ، فقالَ : ذكرُ الموتِ ، فقالَ : وأيُّ شيءٍ الموتُ ؟ فقالَ : ذكرُ القبرِ والبرزخِ ، فقالَ : وأيُّ شيءٍ القبرُ ؟ فقالَ : خوفُ النارِ ورجاءُ الجنةِ ؟ فقالَ : وأيُّ شيءٍ هـٰذا ؟ إنَّ ملكاً هـٰذا كلُّهُ بيدِهِ إنْ أحببتَهُ . . أنساكَ جميعَ ذلكَ ، وإنْ كانَتْ بينَكَ وبينَهُ معرفةٌ . . كفاكَ جميعَ هـٰذا(٢) .

وفي أخبارِ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إذا رأيتَ التقيَّ مشغوفاً في طلبِ الربِّ تعالىٰ . . فقدْ ألهاهُ ذلكَ عمَّا سواهُ)(٢) .

ورأىٰ بعضُ الشيوخِ بشرَ بنَ الحارثِ في النومِ فقالَ : ما فعلَ أبو نصرٍ التمَّارُ وعبدُ الوهَّابِ الورَّاقُ ؟ فقالَ : تركتُهُما الساعةَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ يأكلانِ ويشربانِ ، قلتُ : فأنتَ ؟ قالَ : علمَ اللهُ قلَّةَ رغبتي في الأكلِ والشربِ فأعطاني النظرَ إليهِ(٣) .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٥٧٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٦) .

(٣) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » في « إتحافه » (٩/ ٥٧٥) وقال : (وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الحربي وغيره أنه رأىٰ بشر بن الحارث في النوم . . .) .

وعنْ عليِّ بنِ الموفقِ قالَ : رأيتُ في النومِ كأنِّي أُدخلتُ الجنةَ ، فرأيتُ رجلاً قاعداً علىٰ مائدةٍ وملكانِ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ يلقمانِه مِنْ جميعِ الطيباتِ وهوَ يأكلُ ، ورأيتُ رجلاً قائماً علىٰ بابِ الجنةِ يتصفَّحُ وجوهَ الناسِ ، فيدخلُ بعضاً ويردُّ بعضاً ، قالَ : ثمَّ جاوزتُهُما إلىٰ حظيرةِ القدسِ ، فرأيتُ في سرادقِ العرشِ رجلاً قدْ شخصَ ببصرِهِ ينظرُ إلى اللهِ تعالىٰ لا يطرفُ ، فقلتُ لرضوانَ : مَنْ هٰذا ؟ فقالَ : معروفٌ الكرخيُّ ، عبدَ اللهَ لا خوفاً مِنْ نارِهِ ولا شوقاً إلىٰ جنَّتِهِ ، بلْ حبّاً لهُ ، فأباحَهُ النظرَ إليهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وذكرَ أنَّ الآخرينِ بشرُ بنُ الحارثِ وأحمدُ ابنُ حنبلٍ[(١)] .

ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (مَنْ كانَ اليومَ مشغولاً بنفسِهِ . . فهوَ غداً مشغولٌ بنفسِهِ ، ومَنْ كانَ اليومَ مشغولاً بربِّهِ . . فهوَ غداً مشغولٌ بربِّه)[(٢)] .

وقالَ الثوريُّ لرابعةَ : ما حقيقةُ إيمانِكِ ؟ قالَتْ : ما عبدتُهُ خوفاً مِنْ نارِهِ ولا حبّاً لجنَّتِهِ فأكونَ كالأجيرِ السوءِ ، بلْ عبدتُهُ حبّاً لهُ وشوقاً إليهِ .

وقالَتْ في معنى المحبةِ نظماً[(٣)] : [من المتقارب]

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ ٱلْهَوَىٰ ... وَحُبّاً لأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٧) .
(٣) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/ ١٥٦) .

فَأَمَّا ٱلَّذي هُوَ حُبُّ ٱلْهَوَىٰ　　فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِواكا
وَأَمَّا ٱلَّذي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ　　فَكَشْفُكَ لِيْ ٱلْحُجْبَ حَتَّىٰ أَراكا
فَلا ٱلْحَمْدُ فِي ذا وَلا ذاكَ لِي　　وَلَكِنْ لَكَ ٱلْحَمْدُ فِي ذا وَذاكا

ولعلَّها أرادَتْ بحبِّ الهوىٰ حبَّ اللهِ لإحسانِهِ إليها وإنعامِهِ عليها بحظوظِ العاجلةِ ، وبحبِّهِ لما هوَ أهلٌ لهُ الحبَّ لجمالِهِ وجلالِهِ الذي انكشفَ لها ، وهوَ أعلى الحبَّينِ وأقواهُما .

ولذَّةُ مطالعةِ جمالِ الربوبيَّةِ هيَ التي عبَّر عنها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ حاكياً عنْ ربِّهِ تعالىٰ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[(١)] .

وقدْ يُتعجَّلُ بعضُ هـٰذهِ اللذاتِ في الدنيا لمَنِ انتهىٰ صفاءُ قلبِهِ إلى الغايةِ ، ولذلكَ قال بعضُهُمْ : إنِّي أقولُ : (يا ربِّ ، يا أللهُ . فأجدُ ذلكَ أثقلَ علىٰ قلبي مِنَ الجبالِ ؛ لأنَّ النداءَ يكونُ مِنْ وراءِ حجابٍ ، وهلْ رأيتَ جليساً ينادي جليسَهُ) ، وقالَ : (إذا بلغَ الرجلُ في هـٰذا العلمِ الغايةَ . . رماهُ الخلقُ بالحجارةِ) أيْ : يخرجُ كلامُهُ عنْ حدِّ عقولِهِمْ ، فيرونَ ما يقولُهُ جنوناً أوْ كفراً[(٢)] .

فمقصدُ العارفينَ كلِّهِمْ وصلُهُ ولقاؤُهُ فقطْ ، فهيَ قرَّةُ العينِ التي لا تعلمُ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .
(٢) عزاهما الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٥٧٨) لصاحب « القوت » .

نفسٌ ما أُخفي لها منها ، وإذا حصلَتْ . . انمحقَتِ الهمومُ والشهواتُ كلُّها ، وصارَ القلبُ مستغرقاً بنعيمِها ، فلوْ أُلقيَ في النارِ . . لمْ يحسَّ بها لاستغراقِهِ ، ولوْ عُرِضَ عليهِ نعيمُ الجنَّةِ . . لمْ يلتفتْ إليهِ لكمالِ نعيمِهِ ، وبلوغِهِ الغايةَ التي ليسَ فوقَها غايةٌ .

وليتَ شعري مَنْ لا يفهمُ إلا حبَّ المحسوساتِ . . كيفَ يؤمنُ بلذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ وما لهُ صورةٌ ولا شكلٌ ؟! وأيُّ معنىً لوعدِ اللهِ تعالىٰ بهِ عبادَهُ وذكرِهِ أنَّهُ أعظمُ النعمِ ؟

بلْ مَنْ عرفَ اللهَ . . عرفَ أنَّ اللذاتِ المفرَّقةَ بالشهواتِ المختلفةِ كلَّها تنطوي تحتَ هـٰذهِ اللذَّةِ ، كما قالَ بعضُهُمْ[1] : [من البسيط]

كـانَـتْ لِقَلْبِـيَ أَهْـواءٌ مُفَـرَّقَـةٌ		فَٱسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ ٱلْعَيْنُ أَهْوائِي
فَصارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ		وَصِرْتُ مَوْلَى ٱلْوَرَىٰ مُذْ صِرْتَ مَوْلائِي
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْياهُمْ وَدِينَهُمُ		شُغْلاً بِذِكْرِكَ يا دِينِي وَدُنْيائِي

ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ[2] : [من السريع]

وَهَجْـرُهُ أَعْظَـمُ مِـنْ نـارِهِ		وَوَصْلُـهُ أَطْيَـبُ مِـنْ جَنَّتِـهْ

وما أرادوا بهـٰذا إلا إيثارَ لذَّةِ القلبِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ لذةِ الأكلِ

---

(١) الأبيات لمحمد بن داوود الأصفهاني في « ديوانه » (ص٣٢) ، وهي مما نسب إلى الحلاج في « ديوانه » (٨٣) .
(٢) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٠/١٥٧) .

والشربِ والنكاحِ ، فإنَّ الجنَّةَ معدنُ تمتُّعِ الحواسِّ ، فأمَّا القلبُ . . فلذَّتُهُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

ومثالُ أطوارِ الخلقِ في لذَّاتِهِمْ ما نذكرُهُ : وهوَ أنَّ الصبيَّ في أوَّلِ حركتِهِ وتمييزِهِ يظهرُ فيهِ غريزةٌ بها يستلذُّ اللعبَ واللهوَ ، حتَّىٰ يكونَ ذلكَ عندَهُ ألذَّ مِنْ سائرِ الأشياءِ ، ثمَّ يظهرُ بعدَهُ لذَّةُ الزينةِ ولبسِ الثيابِ وركوبِ الدوابِّ ، فيستحقرُ معها لذةَ اللعبِ ، ثمَّ يظهرُ بعدَهُ لذَّةُ الوقاعِ وشهوةُ النساءِ ، فيتركُ بها جميعَ ما قبلَها في الوصولِ إليها ، ثمَّ تظهرُ لذَّةُ الرئاسةِ والعلوِّ والتكاثرِ ، وهيَ آخرُ لذَّاتِ الدنيا وأغلبُها وأقواها ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، ثمَّ بعدَ هـٰذا تظهرُ غريزةٌ أخرىٰ يدركُ بها لذَّةَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ أفعالِهِ ، فيستحقرُ معها جميعَ ما قبلَها ، فكلُّ متأخِّرٍ فهوَ أقوىٰ ، وهـٰذا هوَ الأخيرُ ، إذْ يظهرُ حبُّ اللعبِ في سنِّ التمييزِ ، وحبُّ النساءِ والزينةِ في سنِّ البلوغِ ، وحبُّ الرئاسةِ بعدَ العشرينَ ، وحبُّ العلومِ بقربِ الأربعينَ ، وهيَ الغايةُ العليا ، وكما أنَّ الصبيَّ يضحكُ علىٰ مَنْ يتركُ اللعبَ ويشتغلُ بملاعبةِ النساءِ وطلبِ الرئاسةِ . . فكذلكَ الرؤساءُ يضحكونَ علىٰ مَنْ يتركُ الرئاسةَ ويشتغلُ بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ، والعارفونَ يقولونَ : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلمْ : أنَّ المدركاتِ تنقسمُ :

إلىٰ ما يدخلُ في الخيالِ ؛ كالصورِ المتخيلةِ ، والأجسامِ المتلونةِ المتشكلةِ مِنْ أشخاصِ الحيوانِ والنباتِ .

وإلىٰ ما لا يدخلُ في الخيالِ ؛ كذاتِ اللهِ تعالىٰ ، وكلِّ ما ليسَ بجسمٍ ؛ كالعلمِ ، والقدرةِ ، والإرادة ، وغيرِها .

ومَنْ رأىٰ إنساناً ثمَّ غضَّ بصرَهُ . . وجدَ صورتَهُ حاضرةً في خيالِهِ كأنَّهُ ينظرُ إليها ، ولكنْ إذا فتحَ العينَ وأبصرَ . أدركَ تفرقةً بينَهُما ، ولا ترجعُ التفرقةُ إلى اختلافٍ بينَ الصورتينِ ؛ لأنَّ الصورةَ المرئيةَ تكونُ موافقةً للمتخيَّلةِ ، وإنَّما الافتراقُ بمزيدِ الوضوحِ والكشفِ ، فإنَّ صورةَ المرئيِّ صارَتْ بالرؤيةِ أتمَّ انكشافاً ووضوحاً ، وهوَ كشخصٍ يُرىٰ في وقتِ الإسفارِ قبلَ انتشارِ ضوءِ النهارِ ، ثمَّ رُئِيَ عندَ تمامِ الضوءِ ، فإنَّهُ لا تفارقُ إحدى الحالتينِ الأخرىٰ إلا في مزيدِ الانكشافِ .

فإذاً ؛ الخيالُ أوَّلُ الإدراكِ ، والرؤيةُ هيَ استكمالٌ لإدراكِ الخيالِ ، وهوَ غايةُ الكشفِ ، وسُمِّيَ ذلكَ رؤيةً لأنَّهُ غايةُ الكشفِ ، لا لأنَّهُ في العينِ ، بلْ لوْ خلقَ اللهُ هٰذا الإدراكَ الكاملَ المكشوفَ في الجبهةِ أوِ الصدرِ مثلاً . . استحقَّ أنْ يُسمَّىٰ رؤيةً .

وإذا فهمتَ هٰذا في المتخيَّلاتِ . . فاعلمْ أنَّ المعلوماتِ التي لا تتشكَّلُ في الخيالِ أيضاً لمعرفتِها وإدراكِها درجتانِ : إحداهُما أولىٰ ، والثانيةُ استكمالٌ لها ، وبينَ الثانيةِ والأولىٰ مِنَ التفاوتِ في مزيدِ الكشفِ والإيضاحِ ما بينَ المتخيَّلِ والمرئيِّ ، فيُسمَّى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوَّلِ مشاهدةً ولقاءً ورؤيةً ، وهٰذهِ التسميةُ حقٌّ ؛ لأنَّ الرؤيةَ سُمِّيَتْ رؤيةً لأنَّها غايةُ الكشفِ ، وكما أنَّ سنَّةَ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بأنَّ تطبيقَ الأجفانِ يمنعُ مِنْ تمامِ الكشفِ بالرؤيةِ ، ويكونُ حجاباً بينَ البصرِ والمرئيِّ ، ولا بدَّ مِن ارتفاعِ الحجابِ لحصولِ الرؤيةِ ، وما لمْ ترتفعْ كانَ الإدراكُ الحاصلُ مجرَّدَ التخيُّلِ . . فكذلكَ مقتضىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ النفسَ ما دامَتْ محجوبةً بعوارضِ البدنِ ومقتضى الشهواتِ ، وما غلبَ عليها مِنَ الصفاتِ البشريةِ . . فإنَّها لا تنتهي إلى المشاهدةِ واللقاءِ في المعلوماتِ الخارجة عنِ الخيالِ .

بلْ هٰذهِ الحياةُ حجابٌ عنها بالضرورةِ ؛ كحجابِ الأجفانِ عنْ رؤيةِ الأبصارِ ، والقولُ في سببِ كونِهِ حجاباً يطولُ[1] ، ولا يليقُ بهٰذا العلمِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ لموسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ . وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أيْ : في الدنيا ، **والصحيحُ** : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما رأى اللهَ تعالىٰ ليلةَ المعراجِ[2] .

---

(١) **المراد** : كون الوجود في الحياة الدنيا حجاباً .

(٢) **والمراد** من التصحيح هنا : تأكيد قضية امتناع تمام المشاهدة في الحياة الدنيا ، بل لا بد من تجاوز قنطرتها ، وهٰذا ما اختارته الصديقة عائشة رضي الله عنها كما هو عند =

فإذا ارتفعَ الحجابُ بالموتِ . . بقيَتِ النفسُ ملوثةً بكدوراتِ الدنيا ، غيرَ منفكةٍ عنها بالكليَّةِ ، وإنْ كانَتْ متفاوتةً ؛ فمنها ما تراكمَ عليهِ الخبثُ والصدأُ ، فصارَ كالمرآةِ التي فسدَ بطولِ تراكمِ الخبثِ جوهرُها ، فلا تقبلُ الإصلاحَ والتصقيلَ ، وهؤلاءِ هُمُ المحجوبونَ عنْ ربِّهِمْ أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، ومنها ما لمْ ينتهِ إلىٰ حدِّ الرينِ والطبعِ ، ولمْ يخرجْ عنْ قبولِ التزكيةِ والتصقيلِ ، فيُعرضُ على النارِ عرضاً يقمعُ منهُ الخبثَ الذي هوَ متدنِّسٌ بهِ ، ويكونُ العرضُ على النارِ بقدْرِ الحاجةِ إلى التزكيةِ ، وأقلُّها لحظةٌ خفيفةٌ ، وأقصاها في حقِّ المؤمنينَ كما وردَتْ بهِ الأخبارُ سبعةُ آلافِ سنةٍ .

ولنْ ترتحلَ نفسٌ عنْ هـٰذا العالمِ إلا ويصحبُها غَبَرةٌ وكدورةٌ ما وإنْ قلَّتْ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، فكلُّ نفسٍ مستيقنةٌ للورودِ على النارِ وغيرُ مستيقنةٍ للصدورِ عنها ، فإذا أكملَ اللهُ تطهيرَها وتزكيتَها ، وبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ووقعَ الفراغُ عنْ جملةِ ما وعدَ بهِ الشرعُ مِنَ العرضِ والحسابِ وغيرِهِ ، ووافى استحقاقُ الجنَّةِ ، وذلكَ وقتٌ مبهمٌ لمْ يطلعِ اللهُ

= البخاري (٣٢٣٤) ، ومسلم (١٧٧) إذ قالت : (من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأىٰ ربه . . فقد أعظم الفرية) ، ولمسلم (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنَّىٰ أراه » .

عليهِ أحداً مِنْ خلقِهِ ؛ فإنَّهُ واقعٌ بعدَ القيامةِ ، ووقتُ القيامةِ مجهولٌ . . فعندَ ذلكَ يستعدُّ بصفائِهِ ونقائِهِ عنِ الكدوراتِ ـ حيثُ لا يرهقُ وجهَهُ غَبَرةٌ ولا قترةٌ ـ لأنْ يتجلَّىٰ فيهِ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيتجلَّىٰ لهُ تجلِّياً يكونُ انكشافُ تجلِّيهِ بالإضافةِ إلىٰ ما علمَهُ كانكشافِ تجلِّي المرئياتِ بالإضافةِ إلىٰ ما تخيَّلَهُ ، وهـٰذهِ المشاهدةُ والتجلِّي هيَ التي تُسمَّىٰ رؤيةً .

فإذاً ؛ الرؤيةُ حقٌّ بشرطِ ألا يفهمَ مِنَ الرؤيةِ استكمالَ الخيالِ في متخيَّلٍ متصوَّرٍ مخصوصٍ بجهةٍ ومكانٍ ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يتعالىٰ عنهُ ربُّ الأربابِ علواً كبيراً ، بلْ كما عرفتَهُ في الدنيا معرفةً حقيقيةً تامَّةً مِنْ غيرِ تخيُّلٍ وتصوُّرٍ وتقديرِ شكلٍ وصورةٍ ، فتراهُ في الآخرةِ كذلكَ .

بلْ أقولُ : المعرفةُ الحاصلةُ في الدنيا بعينِها هيَ التي تُستكملُ ، فتبلغُ كمالَ الكشفِ والوضوحِ وتنقلبُ مشاهدةً ، ولا يكونُ بينَ المشاهدةِ في الآخرةِ والمعلومِ في الدنيا اختلافٌ إلا مِنْ حيثُ زيادةُ الكشفِ والوضوحِ ، كما ضربنا مِنَ المثالِ في استكمالِ الخيالِ بالرؤيةِ ، فإذا لَمْ يكنْ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ إثباتُ صورةٍ وجهةٍ . . فلا يكونُ في استكمالِ تلكَ المعرفةِ بعينِها وترقِّيها في الوضوحِ إلىٰ غايةِ الكشفِ أيضاً جهةٌ وصورةٌ ؛ لأنَّها هيَ بعينِها لا تفترقُ منها إلا في زيادةِ الكشفِ ، كما أنَّ الصورةَ المرئيَّةَ هيَ المتخيَّلةُ بعينِها إلا في زيادةِ الكشفِ[1] .

---

(١) هـٰذه القطعة النفيسة في تحقيق معنى الرؤية لمن ليس كمثله شيء سبحانه لا تنبو قيد خاطر عما حققه المتكلمون من أهل السنة والجماعة ، غير أنها بلغة غير معهوده =

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ ، إذْ تمامُ النورِ لا يؤثِّرُ إلا في زيادةِ الكشفِ ، ولهٰذا لا يفوزُ بدرجةِ النظرِ والرؤيةِ إلا العارفونَ في الدنيا ؛ لأنَّ المعرفةَ هيَ البذرُ الذي ينقلبُ في الآخرةِ مشاهدةً كما تنقلبُ النواةُ شجرةً ، والحبُّ زرعاً ، ومَنْ لا نواةَ في أرضِهِ . . فكيفَ يحصلُ لهُ نخلٌ وشجرٌ ؟ ومَنْ لمْ يزرعِ الحَبَّ . . فكيفَ يحصدُ الزرعَ ؟ فكذلكَ مَنْ لمْ يعرفِ اللهَ تعالىٰ في الدنيا . . فكيفَ يراهُ في الآخرةِ ؟!

ولمَّا كانَتِ المعرفةُ علىٰ درجاتٍ متفاوتةٍ . . كانَ التجلِّي أيضاً علىٰ درجاتٍ متفاوتةٍ ، فاختلافُ التجلِّي بالإضافةِ إلى اختلافِ المعارفِ كاختلافِ النباتِ بالإضافةِ إلى اختلافِ البذورِ ، إذْ تختلفُ ـ لا محالةَ ـ بكثرتِها وقلَّتِها وحسنِها وقوَّتِها وضعفِها .

ولذلكَ قالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ اللهَ يتجلَّىٰ للناسِ عامَّةً ، ولأبي بكرٍ خاصَّةً »(١) ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّ غيرَ أبي بكرٍ ممَّنْ هوَ دونَهُ يجدُ مِنْ لذَّةِ النظرِ والمشاهدةِ ما يجدُهُ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، بلْ لا يجدُ إلا عُشرَ عَشيرِهِ إنْ كانَتْ معرفتُهُ في الدنيا عُشْرَ عَشِيرِ معرفةِ أبي بكرٍ ، ولمَّا فضلَ

= عندهم ، وبزيادة استبصار لا تدانيه تحقيقاتهم وكلماتهم ، بل هي وراء أسوار علم الكلام وإن تطابقا انتهاءً .

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/٢١٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٧٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/١٥٩) .

الناسَ بسرٍّ وقرَ في صدرِهِ . . فُضِّلَ ـ لا محالةَ ـ بتجلٍّ انفردَ بهِ ، وكما أنَّكَ ترىٰ في الدنيا مَنْ يؤثرُ لذَّةَ الرئاسةِ على المنكوحِ والمطعوم ، وترىٰ مَنْ يؤثرُ لذَّةَ العلمِ وانكشافَ مشكلاتِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وسائرَ الأمورِ الإلـٰهيةِ على الرئاسةِ وعلى المنكوحِ والمطعومِ والمشروبِ جميعاً . . فكذلكَ يكونُ في الآخرةِ قومٌ يؤثرونَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ علىٰ نعيمِ الجنَّةِ ؛ إذْ يرجعُ نعيمُها إلى المطعومِ والمنكوحِ ، وهؤلاءِ بعينِهِمْ هُمُ الذينَ حالُهُمْ في الدنيا ما وصفنا مِنْ إيثارِ لذَّةِ العلمِ والمعرفةِ والاطلاعِ علىٰ أسرارِ الربوبيَّةِ علىٰ لذَّةِ المنكوحِ والمطعومِ والمشروبِ وسائرِ ما الخلقُ مشغولونَ بهِ .

ولذلكَ لمَّا قيلَ لرابعةَ : ما تقولينَ في الجنَّةِ ؟ فقالَتِ : الجارُ ثمَّ الدارُ . فبيَّنَتْ أنَّهُ ليسَ في قلبِها التفاتٌ إلى الجنةِ ، بل إلىٰ ربِّ الجنَّةِ .

وكلُّ مَنْ لمْ يعرفِ اللهَ في الدنيا . . فلا يراهُ في الآخرةِ ، وكلُّ مَنْ لمْ يجدْ لذَّةَ المعرفةِ في الدنيا . . فلا يجدُ لذَّةَ النظرِ في الآخرةِ ؛ إذْ ليسَ يستأنفُ لأحدٍ في الآخرةِ ما لمْ يصحبْهُ في الدنيا ، فلا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا يُحشرُ المرءُ إلا علىٰ ما ماتَ عليهِ ، ولا يموتُ إلا علىٰ ما عاشَ عليهِ ، فما صحبَهُ مِنَ المعرفةِ هوَ الذي يتنعَّمُ بهِ بعينِهِ فقطْ ، إلا أنَّهُ ينقلبُ مشاهدةً بكشفِ الغطاءِ ، فتتضاعفُ اللذَّةُ بهِ كما تتضاعفُ لذَّةُ العاشقِ إذا استبدلَ بخيالِ صورةِ المعشوقِ رؤيةَ صورتِهِ ، فإنَّ ذلكَ هوَ منتهىٰ لذَّتِهِ ، وإنَّما طيبةُ الجنَّةِ أنَّ لكلِّ أحدٍ فيها ما يشتهي ، فمَنْ لا يشتهي إلا لقاءَ اللهِ تعالىٰ . . فلا لذَّةَ لهُ في غيرِهِ ، بلْ ربَّما يتأذَّىٰ بهِ .

فإذاً ؛ نعيمُ الجنَّةِ بقدْرِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وحبُّ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ معرفتِهِ ، فأصلُ السعاداتِ هيَ المعرفةُ التي عبَّرَ الشرعُ عنها بالإيمانِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فلذَّةُ الرؤيةِ إنْ كانَتْ لها نسبةٌ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ . . فهيَ قليلةٌ وإنْ كانَتْ أضعافَها ؛ لأنَّ لذَّةَ المعرفةِ في الدنيا ضعيفةٌ ، فتضاعفُها إلىٰ حدٍّ قريبٍ لا ينتهي في القوَّةِ إلىٰ أنْ يُستحقرَ سائرُ لذاتِ الجنةِ فيها .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الاستحقارَ للذَّةِ المعرفةِ مصدرُهُ الخلوُّ عنِ المعرفةِ ، فمَنْ خلا عنِ المعرفةِ كيفَ يدركُ لذَّتَها ؟ وإنِ انطوىٰ علىٰ معرفةٍ ضعيفةٍ وقلبُهُ مشحونٌ بعلائقِ الدنيا . . فكيفَ يُدركُ لذَّتَها ؟

فللعارفينَ في معرفتِهِمْ وفكرتِهِمْ ومناجاتِهِمْ للهِ تعالىٰ لذَّاتٌ لوْ عُرِضَتْ عليهِمُ الجنَّةُ في الدنيا بدلاً عنها . . لمْ يستبدلوا بها لذَّةَ الجنَّةِ ، ثمَّ هـٰذهِ اللذَّةُ معَ كمالِها لا نسبةَ لها أصلاً إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ والمشاهدةِ ؛ كما لا نسبةَ للذَّةِ خيالِ المعشوقِ إلىٰ رؤيتِهِ ، ولا للذَّةِ استنشاقِ روائحِ الأطعمةِ الشهيَّةِ إلىٰ ذوقِها ، ولا للذَّةِ اللمسِ باليدِ إلىٰ لذَّةِ الوقاعِ ، وإظهارُ عظمِ التفاوتِ بينَهُما لا يمكنُ إلا بضربِ مثالٍ فنقولُ :

لذَّةُ النظرِ إلىٰ وجهِ المعشوقِ في الدنيا تتفاوتُ بأسبابٍ :

أحدُها : **كمالُ جمالِ المعشوقِ ونقصانُهُ** : فإنَّ اللذَّةَ في النظرِ إلى الأجملِ أكملُ لا محالةَ .

والثاني : كمالُ قوَّةِ الحبِّ والشهوةِ والعشقِ : فليسَ التذاذُ مَنِ اشتدَّ عشقُهُ كالتذاذِ مَنْ ضعفَتْ شهوتُهُ وحبُّهُ .

والثالثُ : كمالُ الإدراكِ : فليسَ التذاذُهُ برؤيةِ المعشوقِ في ظلمةٍ ، أوْ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ أوْ مِنْ بعدٍ . . كالتذاذِهِ بإدراكِهِ علىٰ قربٍ مِنْ غيرِ سترٍ ، وعندَ كمالِ الضوءِ ، ولا إدراكُ لذَّةِ المضاجعةِ معَ ثوبٍ حائلٍ كإدراكِها معَ التجرُّدِ .

والرابعُ : اندفاعُ العوائقِ المشوشةِ والآلامِ الشاغلةِ للقلبِ : فليسَ التذاذُ الصحيحِ الفارغِ المتجرِّدِ للنظرِ إلى المعشوقِ . . كالتذاذِ الخائفِ المذعورِ ، أوِ المريضِ المتألِّمِ ، أوِ المشغولِ قلبُهُ بمهمٍّ مِنَ المهمَّاتِ .

فقدِّرْ عاشقاً ضعيفَ العشقِ ، ينظرُ إلىٰ وجهِ معشوقِهِ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ علىٰ بعدٍ ، بحيثُ يمنعُ انكشافَ كنهِ صورتِهِ ، في حالةٍ اجتمعَ عليهِ عقاربُ وزنابيرُ تؤذيهِ وتلدغُهُ وتشغلُ قلبَهُ ، فهوَ في هـٰذهِ الحالةِ لا يخلو عنْ لذَّةٍ ما مِنْ مشاهدةِ معشوقِهِ ، فلوْ طرأَتْ على الفجأةِ حالةٌ انهتكَ بها السترُ ، وأشرقَ بها الضوءُ ، واندفعَ عنهُ المؤذياتُ ، وبقيَ سليماً فارغاً ، وهجمَتْ عليهِ الشهوةُ القويَّةُ والعشقُ المفرطُ حتَّىٰ بلغَ أقصى الغاياتِ . . فانظرْ كيفَ تتضاعفُ اللذَّةُ حتَّىٰ لا يبقىٰ للأولىٰ إليها نسبةٌ يُعتدُّ بها .

فكذلكَ فافهمْ نسبةَ لذَّةِ النظرِ إلىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، فالسترُ الرقيقُ مثالٌ للبدنِ والاشتغالِ بهِ ، والعقاربُ والزنابيرُ مثالٌ للشهواتِ المتسلِّطةِ على الإنسانِ ؛

مِنَ الجوعِ والعطشِ والغضبِ والغمِّ والحزنِ ، وضعفُ الشهوةِ والحبِّ مثالٌ لقصورِ النفسِ في الدنيا ونقصانِها عنِ الشوقِ إلى الملأِ الأعلىٰ والتفاتِها إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، وهوَ مثلُ قصورِ الصبيِّ عنْ ملاحظةِ لذَّةِ الرئاسةِ والتفاتِهِ إلى اللعبِ بالعصفورِ .

والعارفُ وإنْ قويَتْ في الدنيا معرفتُهُ فلا يخلو عنْ هـٰذهِ المشوِّشاتِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يخلوَ عنها ألبتةَ .

نعمْ ، قدْ تضعفُ هـٰذهِ العوائقُ في بعضِ الأحوالِ ولا تدومُ ، فلا جرمَ يلوحُ مِنْ جمالِ المعرفةِ ما يبهتُ العقلَ ، وتعظمُ لذَّتُهُ بحيثُ يكادُ القلبُ يتفطَّرُ لعظمتِهِ ، ولكنْ يكونُ ذلكَ كالبرقِ الخاطفِ ، وقلَّما يدومُ ، بلْ يعرضُ مِنَ الشواغلِ والأفكارِ والخواطرِ ما يشوِّشُهُ وينغِّصُهُ ، وهـٰذهِ ضرورةٌ دائمةٌ في هـٰذهِ الحياةِ الفانيةِ ، فلا تزالُ هـٰذهِ اللذَّةُ منغَّصَةً إلى الموتِ ، وإنَّما الحياةُ الطيِّبةُ بعدَ الموتِ ، وإنَّما العيشُ عيشُ الآخرةِ ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكلُّ مَنِ انتهىٰ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ . . فإنَّهُ يحبُّ لقاءَ اللهِ تعالىٰ ، فيحبُّ الموتَ ولا يكرهُهُ إلا مِنْ حيثُ ينتظرُ زيادةَ استكمالٍ في المعرفةِ ، فإنَّ المعرفةَ كالبذرِ ، وبحرُ المعرفةِ لا ساحلَ لهُ ، والإحاطةُ بكنهِ جلالِ اللهِ محالٌ ، فكلَّما كثرَتِ المعرفةُ باللهِ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ وبأسرارِ مملكتِهِ وقويَتْ . . كثُرَ النعيمُ في الآخرةِ وعظُمَ ؛ كما أنَّهُ كلَّما كثُرَ البذرُ وحسُنَ . .

كثُرَ الزرعُ وحسُنَ ، ولا يمكنُ تحصيلُ هـٰذا البذرِ إلا في الدنيا ، ولا يُزرعُ إلا في صعيدِ القلبِ ، ولا حصادَ إلا في الآخرةِ .

ولهـٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ »[1] ، لأنَّ المعرفةَ إنَّما تكملُ وتكثرُ وتتسعُ في العمرِ الطويلِ بمداومةِ الفكرِ ، والمواظبةِ على المجاهدةِ ، والانقطاعِ عنْ علائقِ الدنيا ، والتجرُّدِ للطلبِ ، ويستدعي ذلكَ زماناً لا محالةَ .

فمَنْ أحبَّ الموتَ . . أحبَّهُ لأنَّهُ رأىٰ نفسَهُ واقفاً في المعرفةِ ، بالغاً إلىٰ منتهىٰ ما يُسِّرَ لهُ ، ومَنْ كرهَ الموتَ . . كرهَهُ لأنَّهُ كانَ يؤمِّلُ مزيدَ معرفةٍ تحصلُ لهُ بطولِ العمرِ ، ورأىٰ نفسَهُ مقصِّراً عمَّا تحتملُهُ قوَّتُهُ لوْ عُمِّرَ ، فهـٰذا سببُ كراهةِ الموتِ وحبِّهِ عندَ أهلِ المعرفةِ .

وأمَّا سائرُ الخلقِ . . فنظرُهُمْ مقصورٌ علىٰ شهواتِ الدنيا إنِ اتسعَتْ . . أحبُّوا البقاءَ ، وإنْ ضاقَتْ . . تمنَّوُا الموتَ ، وكلُّ ذلكَ حرمانٌ وخسرانٌ مصدرُهُ الجهلُ والغفلةُ ، فالجهلُ والغفلةُ مغرسُ كلِّ شقاوةٍ ، والعلمُ والمعرفةُ أساسُ كلِّ سعادةٍ .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٥٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ولفظه : « السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وعند الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره ، وحسن عمله » .

فقدْ عرفتَ بما ذكرناهُ معنى المحبَّةِ ومعنى العشقِ ؛ فإنَّهُ المحبةُ المفرطةُ القويَّةُ ، ومعنىٰ لذَّةِ المعرفةِ ، ومعنى الرؤيةِ ومعنىٰ لذَّةِ الرؤيةِ ومعنىٰ كونِها ألذَّ مِنْ سائرِ اللذاتِ عندَ ذوي الكمالِ ، وإنْ لمْ تكنْ كذلكَ عندَ ذوي النقصانِ ، كما لمْ تكنِ الرئاسةُ ألذَّ مِنَ المطعوماتِ عندَ الصبيانِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذهِ الرؤيةُ محلُّها القلبُ أوِ العينُ في الآخرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الناسَ قدِ اختلفوا في ذلكَ ، وأربابُ البصائرِ لا يلتفتونَ إلىٰ هـٰذا الخلافِ ولا ينظرونَ فيهِ ، بلِ العاقلُ يأكلُ البقلَ ولا يسألُ عنِ المبقلةِ ، ومَنْ يشتهي رؤيةَ معشوقِهِ يشغلُهُ عشقُهُ عنْ أنْ يلتفتَ إلىٰ أنَّ رؤيتَهُ هلْ تُخلقُ في عينِهِ أوْ في جبهتِهِ ؟ بلْ يقصدُ الرؤيةَ ولذَّتَها سواءٌ كانَ ذلكَ بالعينِ أوْ غيرِها ؛ فإنَّ العينَ محلٌّ وظرفٌ لا نظرَ إليهِ ولا حكمَ لهُ .

والحقُّ فيهِ : أنَّ القدرةَ الأزليَّةَ واسعةٌ ، فلا يجوزُ أنْ نحكمَ عليها بالقصورِ عنْ أحدِ الأمرينِ ، هـٰذا في حكمِ الجوازِ ، فأمَّا الواقعُ في الآخرةِ مِنَ الجائزينِ . . فلا يُدركُ إلا بالسمعِ ، والحقُّ ما ظهرَ لأهلِ السنَّةِ والجماعةِ مِنْ شواهدِ الشرعِ أنَّ ذلكَ يُخلقُ في العينِ ؛ ليكونَ لفظُ الرؤيةِ والنظرِ وسائرِ الألفاظِ الواردةِ في الشرعِ يجري علىٰ ظاهرِهِ ؛ إذْ لا يجوزُ إزالةُ الظواهرِ إلا لضرورةٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

بيان الأسباب المقوّية لحبّ الله تعالىٰ

اعلمْ : أنَّ أسعدَ الخلقِ حالاً في الآخرةِ أقواهُمْ حبّاً للهِ تعالىٰ ، فإنَّ الآخرةَ معناها القدومُ على اللهِ تعالىٰ ودرْكُ سعادةِ لقائِهِ ، وما أعظمَ نعيمَ المحبِّ إذا قدمَ علىٰ محبوبِهِ بعدَ طولِ شوقِهِ ، وتمكَّنَ مِنْ دوامِ مشاهدتِهِ أبدَ الآبادِ مِنْ غيرِ منغِّصٍ ومكدِّرٍ ، ومِنْ غيرِ رقيبٍ ومزاحمٍ ، ومِنْ غيرِ خوفِ انقطاعٍ ، إلا أنَّ هـٰذا النعيمَ علىٰ قدْرِ قوَّةِ الحبِّ ، فكلَّما ازدادَ الحبُّ . . ازدادَتِ اللذَّةُ ، وإنَّما يكتسبُ العبدُ حبَّ اللهِ تعالىٰ في الدنيا .

وأصلُ الحبِّ لا ينفكُّ عنهُ مؤمنٌ ؛ لأنَّهُ لا ينفكُّ عنْ أصلِ المعرفةِ ، وأمَّا قوَّةُ الحبِّ واستيلاؤُهُ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الاستهتارِ الذي يُسمَّىٰ عشقاً . . فذلكَ ينفكُّ عنهُ الأكثرونَ ، وإنَّما يحصلُ ذلكَ بسببينِ :

أحدُهُما : قطعُ علائقِ الدنيا وإخراجُ حبِّ غيرِ اللهِ مِنَ القلبِ :

فإنَّ القلبَ مثلُ الإناءِ الذي لا يتسعُ للخلِّ مثلاً ما لمْ يخرجْ منهُ الماءُ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، وكمالُ الحبِّ في أنْ يحبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبِهِ ، وما دامَ يلتفتُ إلىٰ غيرِهِ . . فزاويةٌ مِنْ قلبِهِ مشغولةٌ بغيرِهِ ، فبقدْرِ ما يشتغلُ بغيرِ اللهِ ينقصُ منهُ حبُّ اللهِ ، وبقدْرِ ما يبقىٰ مِنَ الماءِ في الإناءِ ينقصُ مِنَ الخلِّ المصبوبِ فيهِ .

وإلىٰ هٰذا التفريدِ والتجريدِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ، بلْ هوَ معنىٰ قولِكَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ ؛ أيْ : لا معبودَ ولا محبوبَ سواهُ ، وكلُّ محبوبٍ فإنَّهُ معبودٌ ، فإنَّ العبدَ هوَ المقيَّدُ ، والمعبودُ هوَ المقيَّدُ بهِ ، وكلُّ محبٍّ فهوَ مقيَّدٌ بما يحبُّهُ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ إلٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ الهوىٰ »(١) .

ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قالَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنةَ »(٢) ، ومعنى الإخلاصِ : أنْ يخلصَ قلبَهُ للهِ ، فلا يبقىٰ فيهِ شركةٌ لغيرِ اللهِ ، فيكونُ اللهُ محبوبَ قلبِهِ ، ومعبودَ قلبِهِ ، ومقصودَ قلبِهِ فقطْ .

ومَنْ هٰذا حالُهُ . . فالدنيا سجنُهُ ؛ لأنَّها مانعةٌ لهُ عنْ مشاهدةِ محبوبِهِ ، وموتُهُ خلاصٌ مِنَ السجنِ ، وقدومٌ على المحبوبِ ، فما حالُ مَنْ ليسَ لهُ إلا محبوبٌ واحدٌ ، وقدْ طالَ إليهِ شوقُهُ ، وتمادىٰ عنهُ حبسُهُ ، فخُلِّيَ مِنَ السجنِ ، ومُكِّنَ مِنَ المحبوبِ ، ورُوِّحَ بالأمنِ أبدَ الآبادِ ؟!

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (٨/١٠٣) بنحوه .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٥٤) ، وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل » .

فأحدُ أسبابِ ضعفِ حبِّ اللهِ في القلوبِ قوَّةُ حبِّ الدنيا ، ومنهُ حبُّ الأهلِ ، والمالِ ، والولدِ ، والأقاربِ ، والعقارِ ، والدوابِّ ، والبساتينِ ، والمنتزهاتِ ، حتَّىٰ إنَّ المتفرِّجَ بطيبِ أصواتِ الطيورِ ورَوْحِ نسيمِ الأسحارِ . . ملتفتٌ إلىٰ نعيمِ الدنيا ، ومتعرِّضٌ لنقصانِ حبِّ اللهِ تعالىٰ بسببِهِ فبقدْرِ ما أنسَ بالدنيا . . فينقصُ أنسُهُ باللهِ ولا يُؤتىٰ أحدٌ مِنَ الدنيا شيئاً إلا وينقصُ بقدْرِهِ مِنَ الآخرةِ بالضرورةِ ، كما أنَّهُ لا يقربُ الإنسانُ مِنَ المشرقِ إلا ويبعدُ بالضرورةِ مِنَ المغربِ بقدْرِهِ ، ولا يطيِّبُ قلبَ امرأتِهِ إلا ويضيِّقُ بهِ قلبَ ضرَّتِها ، فالدنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، وهما كالمشرقِ والمغربِ ، وقدِ انكشفَ ذلكَ لذوي القلوبِ انكشافاً أوضحَ مِنَ الإبصارِ بالعينِ .

وسبيلُ قلعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ سلوكُ طريقِ الزهدِ ، وملازمةُ الصبرِ ، والانقيادُ إليهما بزمامِ الخوفِ والرجاءِ ، فما ذكرناهُ مِنَ المقاماتِ ؛ كالتوبةِ ، والصبرِ ، والزهدِ ، والخوفِ ، والرجاءِ . . هيَ مقدماتٌ ليكتسبَ بها أحدَ ركني المحبَّةِ ، وهوَ تخليةُ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ ، وأوَّلُهُ الإيمانُ باللهِ ، واليومِ الآخرِ ، والجنةِ ، والنارِ ، ثمَّ يتشعَّبُ منهُ الخوفُ والرجاءُ ، ويتشعَّبُ منهما التوبةُ والصبرُ عليهما ، ثمَّ ينجرُّ ذلكَ إلى الزهدِ في الدنيا ، وفي المالِ والجاهِ ، وكلِّ حظوظِ الدنيا ، حتَّىٰ يحصلَ مِنْ جميعِهِ طهارةُ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ فقطْ ، حتَّىٰ يتسعَ بعدَهُ لنزولِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ وحبِّهِ فيهِ .

فكلُّ ذلكَ مقدماتُ تطهيرِ القلبِ ، وهوَ أحدُ ركنيِ المحبَّةِ وإليهِ الإشارةُ

بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الطهورُ شطرُ الإيمانِ »[1] ، كما ذكرناهُ في أوَّلِ كتابِ الطهارةِ .

* * *

السببُ الثاني لقوَّةِ المحبَّةِ : قوَّةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ واتساعُها ، واستيلاؤُها على القلبِ :

وذلكَ بعدَ تطهيرِ القلبِ مِنْ جميعِ شواغلِ الدنيا وعلائقِها يجري مَجرىٰ وضعِ البذرِ في الأرضِ بعدَ تنقيتِها مِنَ الحشيشِ ، وهوَ الشطرُ الثاني ، ثمَّ يتولَّدُ مِنْ هاذا البذرِ شجرةُ المحبَّةِ والمعرفةِ ، وهيَ الكلمةُ الطيِّبةُ التي ضربَ اللهُ لها مثلاً حيثُ قالَ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] ، وإليها الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، فهيَ المعرفةُ ، ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ ، فالعملُ الصالحُ كالحمَّالِ لهاذهِ المعرفةِ وكالخادمِ ، وإنَّما العملُ الصالحُ كلُّهُ في تطهيرِ القلبِ أوَّلاً مِنَ الدنيا ، ثمَّ في إدامةِ طهارتِهِ ، فلا يُرادُ العملُ إلا لهاذهِ المعرفةِ .

وأمَّا العلمُ بكيفيةِ العملِ . . فيُرادُ للعملِ ، فالعلمُ هوَ الأوَّلُ وهوَ الآخرُ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) .
(٢) فعرفنا أن لها أصلاً ثابتاً في القلوب بما أمدها به من النظر والاعتبار ، وعرفنا أن لها فروعاً تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها . « إتحاف » (٩/ ٥٨٧) .

وإنَّما الأوَّلُ علمُ المعاملةِ ، وغرضُهُ العملُ ، وغرضُ المعاملةِ صفاءُ القلبِ وطهارتُهُ ؛ ليتضحَ فيهِ جليّةُ الحقِّ ، ويتزيَّنَ بعلمِ المعرفةِ ، وهوَ علمُ المكاشفةِ .

ومهما حصلَتْ هـٰذهِ المعرفةُ . . تبعَتْها المحبَّةُ بالضرورةِ ، كما أنَّ مَنْ كانَ معتدلَ المزاجِ إذا أبصرَ الجميلَ وأدركَهُ بالعينِ الظاهرةِ . . أحبَّهُ ومالَ إليهِ ، ومهما أحبَّهُ . . حصلَتِ اللذَّةُ ، فاللذَّةُ تتبعُ المحبةَ بالضرورةِ والمحبَّةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولا يُوصلُ إلىٰ هـٰذهِ المعرفةِ بعدَ انقطاعِ شواغلِ الدنيا مِنَ القلبِ إلا بالفكرِ الصافي ، والذكرِ الدائمِ ، والجدِّ البالغِ في الطلبِ ، والنظرِ المستمرِّ في اللهِ وفي صفاتِهِ ، وملكوتِ سماواتِهِ وسائرِ مخلوقاتِهِ .

والواصلونَ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ ينقسمونَ :

إلى الأقوياءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِمْ باللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بهِ يعرفونَ غيرَهُ .

وإلى الضعفاءِ ، ويكونُ أوَّلُ معرفتِهِمْ بالأفعالِ ، ثمَّ يترقونَ منها إلى الفاعلِ .

وإلى الأوَّلِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ومنْه نظرَ بعضُهُمْ حيثُ قيلَ لهُ : بمَ عرفتَ ربَّكَ ؟ فقالَ : عرفتُ ربِّي بربِّي ، ولولا ربِّي . . لما عرفتُ ربِّي [1] .

---

(١) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥١٤) .

وإلى الثاني الإشارةُ بقولِه تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وبقولِه عزَّ وجلَّ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

وهـٰذا الطريقُ هوَ الأسهلُ على الأكثرينَ ، وهوَ الأوسعُ على السالكينَ ، وإليهِ أكثرُ دعوةِ القرآنِ ؛ عندَ الأمرِ بالتدبُّرِ ، والتفكُّرِ ، والاعتبارِ ، والنظرِ ؛ في آياتٍ خارجةٍ عنِ الحصرِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : كلا الطريقينِ مشكلٌ ، فأوضحْ لنا منهُما ما يُستعانُ بهِ علىٰ تحصيلِ المعرفةِ والتوصُّلِ بهِ إلى المحبةِ .

فاعلمْ : أنَّ الطريقَ الأعلىٰ وهوَ الاستشهادُ بالحقِّ سبحانَهُ علىٰ سائرِ الخلقِ . . فهوَ غامضٌ ، والكلامُ فيهِ خارجٌ عنْ حدِّ فهمِ أكثرِ الخلقِ ، فلا فائدةَ في إيرادِهِ في الكتبِ .

وأمَّا الطريقُ الأسهلُ الأدنىٰ . . فأكثرُهُ غيرُ خارجٍ عنْ حدِّ الأفهامِ ، وإنَّما قصرَتِ الأفهامُ عنهُ لإعراضِها عنِ التدبُّرِ ، واشتغالِها بشهواتِ الدنيا وحظوظِ النفسِ ، والمانعُ مِنْ ذكرِ هـٰذا اتساعُهُ وكثرتُهُ ، وانشعابُ أبوابِهِ الخارجةِ عنِ الحصرِ والنهايةِ ؛ إذْ ما مِنْ ذرَّةٍ مِنْ أعلى السماواتِ إلىٰ تخومِ الأرضينَ إلا

وفيها عجائبُ وآياتٌ تدلُّ علىٰ كمالِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وكمالِ حكمتِهِ ، ومنتهىٰ جلالِهِ وعظمتِهِ ، وذلكَ ممَّا لا يتناهىٰ ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ ، فالخوضُ فيهِ انغماسٌ في بحارِ علومِ المكاشفةِ ، فلا يمكنُ أنْ يُتطفَّلَ بهِ علىٰ علومِ المعاملةِ ، ولكنْ يمكنُ الرمزُ إلىٰ مثالٍ واحدٍ على الإيجازِ ؛ ليقعَ التنبيهُ لجنسِهِ ، فنقولُ :

أسهلُ الطريقينِ النظرُ إلى الأفعالِ ، فلنتكلَّمْ فيها ، ولنتركِ الأعلىٰ ، ثمَّ الأفعالُ الإلـٰهيةُ كثيرةٌ ، فلنطلبْ أقلَّها وأحقرَها وأصغرَها ، ولننظرْ في عجائبِها .

فأقلُّ المخلوقاتِ هيَ الأرضُ وما عليها ؛ أعني : بالإضافةِ إلى الملائكةِ وملكوتِ السماواتِ ، فإنَّكَ إنْ نظرتَ فيها مِنْ حيثُ الجسمُ والعظمُ في الشخصِ . . فالشمسُ علىٰ ما ترىٰ مِنْ صغرِ حجمِها هيَ مثلُ الأرضِ مئةً ونيفاً وستينَ مرةً ، فانظرْ إلىٰ صغرِ الأرضِ بالإضافةِ إليها ، ثمَّ انظرْ إلىٰ صغرِ الشمسِ بالإضافةِ إلىٰ فلكِها الذي هيَ مركوزةٌ فيهِ ؛ فإنَّهُ لا نسبةَ لها إليهِ ، وهيَ في السماءِ الرابعةِ ، وهيَ صغيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَها مِنَ السماواتِ ، ثمَّ السماواتُ السبعُ في الكرسيِّ كحلقةٍ في فلاةٍ ، والكرسيُّ في العرشِ كذلكَ !

فهـٰذا نظرٌ إلىٰ ظاهرِ الأشخاصِ مِنْ حيثُ المقاديرُ ، وما أحقرَ الأرضَ كلَّها بالإضافةِ إليها ، بلْ ما أصغرَ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحارِ ، فقدْ قالَ

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرضُ في البحرِ كالإصطبلِ في الأرضِ »(١) ، ومصداقُ هٰذا عُرِفَ بالمشاهدةِ والتجربةِ ، وعُلِمَ أنَّ المكشوفَ مِنَ الأرضِ عنِ الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ بالإضافةِ إلىٰ كلِّ الأرضِ .

ثمَّ انظرْ إلى الآدميِّ المخلوقِ مِنَ الترابِ الذي هوَ جزءٌ مِنَ الأرضِ ، وإلىٰ سائرِ الحيواناتِ ، وإلىٰ صغرِهِ بالإضافةِ إلى الأرضِ ، ودعْ عنكَ جميعَ ذلكَ ، فأصغرُ ما نعرفُهُ مِنَ الحيواناتِ البعوضُ والنحلُ وما يجري مجراهُ ، فانظرْ إلى البعوضِ علىٰ صغرِ قدرِهِ ، وتأمَّلْهُ بعقلٍ حاضرٍ وفكرٍ صافٍ ، فانظرْ كيفَ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ شكلِ الفيلِ الذي هوَ أعظمُ الحيواناتِ ؛ إذْ خلقَ لهُ خرطوماً مثلَ خرطومِهِ ، وخلقَ لهُ علىٰ شكلِهِ الصغيرِ سائرَ الأعضاءِ كما خلقَهُ للفيلِ بزيادةِ جناحينِ ، وانظرْ كيفَ قسمَ أعضاءَهُ الظاهرةَ ، فأنبتَ جناحَهُ ، وأخرجَ يدَهُ ورجلَهُ ، وشقَّ سمعَهُ وبصرَهُ ، ودبَّرَ في باطنِهِ مِنْ أعضاءِ الغذاءِ وآلاتِهِ ما دبَّرَهُ في سائرِ الحيواناتِ ، وركَّبَ فيها مِنَ القوى الغاذيةِ والجاذبةِ والدافعةِ والماسكةِ والهاضمةِ ما ركَّبَ في سائرِ الحيواناتِ ، هٰذا في شكلِهِ وصفاتِهِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ هدايتِهِ كيفَ هداهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ غذائِهِ ، وعرَّفَهُ أنَّ غذاءَهُ دمُ الإنسانِ ، ثمَّ انظرْ كيفَ أنبتَ لهُ آلةَ الطيرانِ إلى الإنسانِ ، وكيفَ خلقَ لهُ الخرطومَ الطويلَ وهوَ محدَّدُ الرأسِ ، وكيفَ هداهُ إلىٰ مسامِّ بشرةِ الإنسانِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/٥٨٩) .

حتَّىٰ يضعَ خرطومَهُ في واحدٍ منها ، ثمَّ كيفَ قوَّاهُ حتَّىٰ يغرزَ فيهِ الخرطومَ ، وكيفَ علَّمَهُ المصَّ والتجرُّعَ للدمِ ، وكيفَ خلقَ الخرطومَ معَ دقَّتِهِ مجوَّفاً حتَّىٰ يجريَ فيهِ الدمُ الرقيقُ ، وينتهيَ إلىٰ باطنِهِ ، وينتشرَ في سائرِ أجزائِهِ ويغذيَهُ ، ثمَّ كيفَ عرَّفَهُ أنَّ الإنسانَ يقصدُهُ بيدِهِ ، فعلَّمَهُ حيلةَ الهربِ واستعدادَ آلتِهِ ، وخلقَ لهُ السمعَ الذي يسمعُ بهِ حفيفَ حركةِ اليدِ وهيَ بعدُ بعيدةٌ منهُ ، فيتركُ المصَّ ويهربُ ، ثمَّ إذا سكنَتِ اليدُ يعودُ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ لهُ حدقتينِ حتَّىٰ يبصرَ مواضعَ غذائِهِ ، فيقصدَهُ معَ صغرِ حجمِ وجهِهِ ، وانظرْ إلىٰ أنَّ حدقةَ كلِّ حيوانٍ صغيرٍ لمَّا لمْ تحتملْ حدقتُهُ الأجفانَ لصغرِهِ ، وكانَتِ الأجفانُ مصقلةً لمرآةِ الحدقةِ عنِ القذىٰ والغبارِ . خلقَ للبعوضِ والذبابِ يدينِ ، فتنظرُ إلى الذبابِ فتراهُ على الدوامِ يمسحُ حدقتيهِ بيديهِ ، وأمَّا الإنسانُ والحيوانُ الكبيرُ . فخلقَ لحدقتيهِ الأجفانَ حتَّىٰ ينطبقَ أحدُهُما على الآخرِ ، وأطرافُهُما حادةٌ ، فيجمعُ الغبارَ الذي يلحقُ الحدقةَ ويرميهِ إلىٰ أطرافِ الأهدابِ ، وخلقَ الأهدابَ السودَ لتجمعَ ضوءَ العينِ ، وتعينَ على الإبصارِ ، وتحسِّنَ صورةَ العينِ ، وتشبكَها عندَ هيجانِ الغبارِ ، فينظرَ مِنْ وراءِ شبَّاكِ الأهدابِ ، واشتباكُها يمنعُ دخولَ الغبارِ ولا يمنعُ الإبصارَ .

وأمَّا البعوضُ فخلقَ لها حدقتينِ مصقلتينِ مِنْ غيرِ أجفانٍ ، وعلَّمَها كيفيةَ التصقيلِ باليدينِ .

والفراشُ لأجلِ ضعفِ إبصارِها.. تراها تتهافتُ على السراجِ ؛ لأنَّ بصرَها ضعيفٌ ، فهيَ تطلبُ ضوءَ النهارِ ، فإذا رأى ضوءَ المسكينُ السراجِ بالليلِ.. ظنَّ أنَّهُ في بيتٍ مظلمٍ وأنَّ السراجَ كوَّةٌ مِنَ البيتِ المظلمِ إلى الموضعِ المضيءِ ، فلا يزالُ يطلبُ الضوءَ ويرمي بنفسِهِ إليهِ ، فإذا جاوزَهُ ورأى الظلامَ.. ظنَّ أنَّهُ لمْ يصبِ الكوَّةَ ولمْ يقصدْها على السدادِ ، فيعودُ إليهِ مرَّةً أخرىٰ إلىٰ أنْ يحترقَ .

ولعلَّكَ تظنُّ أنَّ هـٰذا لنقصانِها وجهلِها ، فاعلمْ أنَّ جهلَ الإنسانِ أعظمُ مِنْ جهلِها ، بلْ صورةُ الآدميِّ في الإكبابِ علىٰ شهواتِ الدنيا صورةُ الفراشِ في التهافتِ على النارِ ؛ إذْ تلوحُ للآدميِّ أنوارُ الشهواتِ مِنْ حيثُ ظاهرُ صورتِها ، ولا يدري أنَّ تحتَها السمَّ الناقعَ القاتلَ ، فلا يزالُ يرمي نفسَهُ عليها إلىٰ أنْ ينغمسَ فيها ، ويتقيَّدَ بها ، ويهلكَ هلاكاً مؤبداً ، فليتَ كانَ جهلُ الآدميِّ كجهلِ الفراشِ ؛ فإنَّها باغترارِها بظاهرِ الضوءِ إنِ احترقَتْ.. تخلَّصَتْ في الحالِ ، والآدميُّ يبقىٰ في النارِ أبدَ الآبادِ أوْ مدَّةً مديدةً ، ولذلكَ كانَ ينادي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويقولُ : « إنِّي ممسكٌ بحُجَزِكُمْ عنِ النارِ ، وأنتُمْ تتهافتونَ فيها تهافتَ الفراشِ »[1] .

فهـٰذه لمعةٌ مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ في أصغرِ الحيواناتِ ، وفيها مِنَ العجائبِ ما لوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ على الإحاطةِ بكنهِها.. عجزوا عنْ

(١) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

حقيقتِها ، ولمْ يطلعوا علىٰ أمورٍ جليَّةٍ مِنْ ظاهرِ صورتِها ، فأمَّا خفايا معانيها . . فلا يطلعُ عليها إلا اللهُ تعالىٰ .

ثمَّ في كلِّ حيوانٍ ونباتٍ أعجوبةٌ وأعاجيبُ تخصُّهُ لا يشاركُهُ فيها غيرُهُ ، فانظرْ إلى النحلِ وعجائبِها ، وكيفَ أوحى اللهُ تعالىٰ إليها حتَّى اتخذَتْ مِنَ الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشجرِ وممَّا يعرشونَ ، وكيفَ استخرجَ مِنْ لعابِها الشمعَ والعسلَ ، وجعلَ أحدَهُما ضياءً والآخرَ شفاءً ، ثمَّ لوْ تأمَّلْتَ عجائبَ أمرِها في تناولِها الأزهارَ والأنوارَ ، واحترازِها عنِ النجاساتِ والأقذارِ ، وطاعتِها لواحدٍ مِنْ جملتِها هوَ أكبرُها شخصاً ، وهوَ أميرُها ، ثمَّ ما سخَّرَ اللهُ لهُ أميرَها مِنَ العدلِ والإنصافِ بينَها ، حتَّىٰ إنَّهُ ليقتلُ علىٰ بابِ المنفذِ كلَّ ما وقعَ منها علىٰ نجاسةٍ . . لقضيتَ منها عجباً آخرَ العجبِ إنْ كنتَ بصيراً في نفسِكَ ، وفارغاً مِنْ همِّ بطنِكَ وفرجِكَ وشهواتِ نفسِكَ في معاداةِ أقرانِكَ وموالاةِ إخوانِكَ .

ثمَّ دعْ عنكَ جميعَ ذلكَ ، وانظرْ إلىٰ بنائِها بيوتَها مِنَ الشمعِ ، واختيارِها مِنْ جملةِ الأشكالِ الشكلَ المسدَّسَ ، فلا تبني بيتاً مستديراً ، ولا مربعاً ، ولا مخمَّساً ، بلْ مسدَّساً ؛ لخاصيَّةٍ في شكلِ المسدَّسِ يقصرُ فهمُ المهندسينَ عنْ دركِها ، وهوَ أنَّ أوسعَ الأشكالِ وأحواها المستديرةُ وما يقربُ منها ، فإنَّ المربَّعَ يخرجُ منهُ زوايا ضائعةٌ ، وشكلُ النحلِ مستديرٌ مستطيلٌ ، فتركَ المربَّعَ حتَّىٰ لا تضيعَ الزوايا فتبقىٰ فارغةً ، ثمَّ لوْ بناها مستديرةً . . لبقيتْ خارجَ البيوتِ فرجٌ ضائعةٌ ، فإنَّ الأشكالَ المستديرةَ إذا

اجتمعَتْ . . لمْ تجتمعْ متراصَّةً ، ولا شكلَ في الأشكالِ ذواتِ الزوايا يقربُ في الاحتواءِ مِنَ المستديرِ ثمَّ تتراصُّ الجملةُ منهُ بحيثُ لا يبقىٰ بعدَ اجتماعِها فرجةٌ . . إلا المسدَّسُ ، وهـٰذهِ خاصيَّةُ هـٰذا الشكلِ ، فانظرْ كيفَ ألهمَ اللهُ تعالى النحلَ علىٰ صغرِ جرمِهِ ولطافةِ قدِّهِ لطفاً بهِ وعنايةً بوجودِهِ وما هوَ محتاجٌ إليهِ ، ليتهنأَ بعيشِهِ .

فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ ، وأوسعَ لطفَهُ وامتنانَهُ .

فاعتبرْ بهـٰذهِ اللمعةِ اليسيرةِ مِنْ محقَّراتِ الحيواناتِ ، ودعْ عنكَ عجائبَ ملكوتِ الأرضِ والسماواتِ ؛ فإنَّ القدرَ الذي بلغَهُ فهمُنا القاصرُ منهُ تنقضي الأعمارُ دونَ إيضاحِهِ ، ولا نسبةَ لما أحاطَ بهِ علمنا إلىٰ ما أحاطَ بهِ العلماءُ والأنبياءُ ، ولا نسبةَ لما أحاطَ بهِ علمُ الخلائقِ كلِّهِمْ إلىٰ ما استأثرَ اللهُ تعالىٰ بعلمِهِ ، بلْ كلُّ ما عرفَهُ الخلقُ لا يستحقُّ أنْ يُسمَّىٰ علماً في جنبِ علمِ اللهِ تعالىٰ .

فبالنظرِ في هـٰذا وأمثالِهِ تزدادُ المعرفةُ الحاصلةُ بأسهلِ الطريقينِ ، وبزيادةِ المعرفةِ تزدادُ المحبَّةُ ، فإنْ كنتَ طالباً سعادةَ لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فانبذِ الدنيا وراءَ ظهرِكَ ، واستغرقِ العمرَ في الذكرِ الدائمِ والفكرِ اللازمِ ، فعساكَ تحظىٰ منها بقدْرٍ يسيرٍ ، ولكنْ تنالُ بذلكَ اليسيرِ ملكاً عظيماً لا آخرَ لهُ .

* * *

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلمْ : أنَّ المؤمنينَ مشتركونَ في أصلِ الحبِّ لاشتراكِهِمْ في أصلِ المحبَّةِ ، ولكنَّهُمْ متفاوتونَ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ وفي حبِّ الدنيا ؛ إذِ الأشياءُ إنَّما تتفاوتُ بتفاوتِ أسبابِها ، وأكثرُ الناسِ ليسَ لهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلا الصفاتُ والأسماءُ التي قرعَتْ سمعَهُمْ ، فتلقَّنوها وحفظوها ، وربَّما تخيَّلوا لها معانيَ يتعالىٰ عنها ربُّ الأربابِ ، وربَّما لمْ يطلعوا علىٰ حقيقتِها ولا تخيَّلوا لها معنىً فاسداً ، بلْ آمنوا بها إيمانَ تسليمٍ وتصديقٍ ، واشتغلوا بالعملِ وتركوا البحثَ ، وهؤلاءِ همْ أهلُ السلامةِ مِنْ أصحابِ اليمينِ والمتخيِّلونَ هُمُ الضالونَ ، والعارفونَ بالحقائقِ هُمُ المقرَّبونَ .

وقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ حالَ الأصنافِ الثلاثةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . . . ﴾ الآيةَ .

وإنْ كنتَ لا تفهمُ الأمورَ إلا بالأمثلةِ . . فلنضربْ لتفاوتِ الحبِّ مثالاً ، فنقولُ :

أصحابُ الشافعيِّ مثلاً يشتركونَ في حبِّ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ، الفقهاءُ منهُمْ والعوامُّ ؛ لأنَّهُمْ يشتركونَ في معرفةِ فضلِهِ ودينِهِ وحسنِ سيرتِهِ ومحامدِ خصالِهِ ، ولكنَّ العاميَّ يعرفُ علمَهُ مجملاً ، والفقيهُ يعرفُهُ مفصّلاً ، فتكونُ معرفةُ الفقيهِ بهِ أتمَّ ، وإعجابُهُ بهِ وحبُّهُ لهُ أشدَّ ، فمَنْ رأىٰ تصنيفَ مصنفٍ

فاستحسنَهُ وعرفَ بهِ فضلَهُ . . أحبَّهُ لا محالةَ ، ومالَ إليهِ قلبُهُ ، فإن رأىٰ تصنيفاً آخرَ أحسنَ منهُ وأعجبَ . . تضاعفَ ـ لا محالةَ ـ حبُّهُ ؛ لأنَّهُ تضاعفَتْ معرفتُهُ بعلمِهِ ، وكذلكَ يعتقدُ الرجلُ في الشاعرِ أنَّهُ حسنُ الشعرِ فيحبُّهُ ، فإذا سمعَ مِنْ غرائبِ شعرِهِ ما عظُمَ فيهِ حذقُهُ وصنعتُهُ . . ازدادَ بهِ معرفةً ، وازدادَ لهُ حبّاً ، وكذا سائرُ الصناعاتِ والفضائلِ .

فالعاميُّ قدْ يسمعُ أنَّ فلاناً مصنِّفٌ ، وأنَّهُ حسنُ التصنيفِ ، ولكنْ لا يدري ما في التصنيفِ ، فيكونُ لهُ معرفةٌ مجملةٌ ، ويكونُ لهُ بحسَبِهِ ميلٌ مجملٌ ، والبصيرُ إذا فتَّشَ عنِ التصانيفِ ، واطلعَ علىٰ ما فيها مِنَ العجائبِ . . تضاعفَ حبُّهُ لا محالةَ ؛ لأنَّ عجائبَ الصنعةِ والشعرِ والتصنيفِ تدلُّ علىٰ كمالِ صفاتِ الفاعلِ والمصنفِ .

والعالَمُ بجملتِهِ صنعُ اللهِ تعالىٰ وتصنيفُهُ ، والعاميُّ يعلمُ ذلكَ ويعتقدُهُ ، وأمَّا البصيرُ . . فإنَّهُ يطالعُ تفصيلَ صنعِ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، حتَّىٰ يرىٰ في البعوضِ مثلاً مِنْ عجائبِ صنعِهِ ما ينبهرُ بهِ عقلُهُ ، ويتحيَّرُ فيهِ لبُّهُ ، ويزدادُ بسببِهِ ـ لا محالةَ ـ عظمةُ اللهِ وجلالُهُ وكمالُ صفاتِهِ في قلبِهِ ، فيزدادُ لهُ حبّاً ، وكلما ازدادَ علىٰ أعاجيبِ صنعِ اللهِ اطلاعاً . . استدلَّ بذلكَ علىٰ عظمةِ اللهِ الصانعِ وجلالِهِ وازدادَ بهِ معرفةً ولهُ حبّاً .

وبحرُ هٰذهِ المعرفةِ ـ أعني : معرفةَ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ـ بحرٌ لا ساحلَ لهُ ، فلا جرمَ تفاوتُ أهلِ المعرفةِ في الحبِّ لا حصرَ لهُ .

وممَّا يتفاوتُ بسببِهِ الحبُّ اختلافُ الأسبابِ الخمسةِ التي ذكرناها للحبِّ ، فإنَّ مَنْ يحبُّ اللهَ تعالىٰ مثلاً لكونِهِ محسناً إليهِ ، منعماً عليهِ ، ولمْ يحبُّهُ لذاتِهِ . ضعفَتْ محبَّتُهُ ؛ إذْ تتغيَّرُ بتغيُّرِ الإحسانِ ، فلا يكونُ حبُّهُ في حالةِ البلاءِ كحبِّهِ في حالةِ الرضا والنعماءِ . وأمَّا مَنْ يحبُّهُ لذاتِهِ ، ولأنَّهُ مستحقٌّ للحبِّ بسببِ كمالِهِ وجمالِهِ ومجدِهِ وعظمتِهِ . . فإنَّهُ لا يتفاوتُ حبُّهُ بتفاوتِ الإحسانِ إليهِ .

فهـٰذا وأمثالُهُ هوَ سببُ تفاوتِ الناسِ في المحبَّةِ ، والتفاوتُ في المحبَّةِ هوَ سببُ التفاوتِ في سعادةِ الآخرةِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

* * *

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

اعلمْ : أنَّ أظهرَ الموجوداتِ وأجلاها هوَ اللهُ تعالىٰ ، وكانَ هـٰذا يقتضي أنْ تكونَ معرفتُهُ أوّلَ المعارفِ ، وأسبقَها إلى الأفهامِ ، وأسهلَها على العقولِ ، وترى الأمرَ بالضدِّ مِنْ ذلكَ فلا بدَّ مِنْ بيانِ السببِ فيهِ .

وإنَّما قلنا : إنَّهُ أظهرُ الموجوداتِ وأجلاها . . لمعنىً لا تفهمُهُ إلا بمثالٍ ، وهوَ أنَّا إذا رأينا إنساناً يكتبُ أوْ يخيطُ مثلاً . . كانَ كونُهُ حيّاً عندَنا مِنْ أظهرِ الموجوداتِ ، فحياتُهُ وعلمُهُ وقدرتُهُ وإرادتُهُ للخياطةِ أجلىٰ عندَنا مِنْ سائرِ صفاتِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ إذْ صفاتُهُ الباطنةُ كشهوتِهِ وغضبِهِ وخلقِهِ وصحتِهِ ومرضِهِ وكلِّ ذلكَ . . لا نعرفُهُ ، وصفاتُهُ الظاهرةُ لا نعرفُ بعضَها ، وبعضُها نشكُّ فيهِ ؛ كمقدارِ طولِهِ واختلافِ لونِ بشرتِهِ وغيرِ ذلكَ مِنْ صفاتِهِ ، أمَّا حياتُهُ وقدرتُهُ وإرادتُهُ وعلمُهُ وكونُهُ حيواناً . . فإنَّهُ جليٌّ عندَنا مِنْ غيرِ أنْ يتعلَّقَ حسُّ البصرِ بحياتِهِ وقدرتِهِ وإرادتِهِ ، فإنَّ هـٰذهِ الصفاتِ لا تُحسُّ بشيءٍ مِنَ الحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ لا يمكنُ أنْ نعرفَ حياتَهُ وقدرتَهُ وإرادتَهُ إلا بخياطتِهِ وحركتِهِ ، فلو نظرنا إلىٰ كلِّ ما في العالمِ سواهُ . . لمْ نعرفْ بهِ صفتَهُ ، فما عليهِ إلا دليلٌ واحدٌ ، وهوَ معَ ذلكَ جليٌّ واضحٌ .

ووجودُ اللهِ تعالىٰ وقدرتُهُ وعلمُهُ وسائرُ صفاتِهِ يشهدُ لهُ بالضرورةِ كلُّ ما نشاهدُهُ وندركُهُ بالحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ ؛ مِنْ حجرٍ ومدرٍ ، ونباتٍ

وشجرٍ ، وحيوانٍ وسماءٍ ، وأرضٍ وكوكبٍ ، وبرٍّ وبحرٍ ، ونارٍ وهواءٍ ، وجوهرٍ وعرضٍ ، بلْ أوَّلُ شاهدٍ عليهِ أنفسُنا ، وأجسامُنا ، وأوصافُنا ، وتقلُّبُ أحوالِنا ، وتغيُّرُ قلوبِنا ، وجميعُ أطوارِنا في حركاتِنا وسكناتِنا .

وأظهرُ الأشياءِ في علمِنا أنفسُنا ، ثمَّ محسوساتُنا بالحواسِّ الخمسِ ، ثمَّ مدركاتُنا بالعقلِ والبصيرةِ ، وكلُّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ المدركاتِ له مُدركٌ واحدٌ ، وشاهدٌ واحدٌ ، ودليلٌ واحدٌ ، وجميعُ ما في العالمِ شواهدُ ناطقةٌ وأدلةٌ شاهدةٌ بوجودِ خالقِها ومدبِّرِها ، ومصرِّفِها ومحرِّكِها ، ودالَّةٌ علىٰ علمِهِ وقدرتِهِ ، ولطفِهِ وحكمتِهِ ، والموجوداتُ المدركةُ لا حصرَ لها .

فإنْ كانَتْ حياةُ الكاتبِ ظاهرةً عندَنا ، وليسَ يشهدُ لها إلا شاهدٌ واحدٌ ، وهوَ ما أحسسنا بهِ مِنْ حركةِ يدِهِ . . فكيفَ لا يظهرُ عندَنا ما لا يُتصوَّرُ في الوجودِ شيءٌ داخلَ نفوسِنا وخارجَها إلا وهوَ شاهدٌ عليهِ ، وعلىٰ عظمتِهِ وجلالِهِ ، إذْ كلُّ ذرَّةٍ فإنَّها تنادي بلسانِ حالِها أنَّهُ ليسَ وجودُها بنفسِها ، ولا حركتُها بذاتِها ، وأنَّها تحتاجُ إلىٰ موجدٍ ومحرِّكٍ لها ، يشهدُ بذلكَ أوَّلاً تركيبُ أعضائِنا ، وائتلافُ عظامِنا ولحومِنا وأعصابِنا ، ومنابتُ شعورِنا ، وتشكُّلُ أطرافِنا ، وسائرُ أجزائِنا الظاهرةِ والباطنةِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّها لمْ تأتلفْ بأنفسِها ؛ كما نعلمُ أنَّ يدَ الكاتبِ لمْ تتحرَّكْ بنفسِها ، ولكنْ لمَّا لمْ يبقَ في الوجودِ شيءٌ مدرَكٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضرٌ وغائبٌ إلا وهوَ شاهدٌ ومعرِّفٌ . . عظُمَ ظهورُهُ ، فانبهرَتِ العقولُ ودهشَتْ عنْ إدراكِهِ ، فإنَّ ما تقصرُ عنْ فهمِهِ عقولُنا فلهُ سببانِ :

أحدُهُما : خفاؤُهُ في نفسِهِ وغموضُهُ ، وذلكَ لا يخفىٰ مثالُهُ .

والآخرُ : ما يتناهىٰ وضوحُهُ ، وهـٰذا كما أنَّ الخفَّاشَ يبصرُ بالليلِ ولا يبصرُ بالنهارِ ؛ لا لخفاءِ النهارِ واستتارِهِ ، لكنْ لشدَّةِ ظهورِهِ ؛ فإنَّ بصرَ الخفَّاشِ ضعيفٌ يبهرُهُ نورُ الشمسِ إذا أشرقَتْ ، فتكونُ قوَّةُ ظهورِهِ معَ ضعفِ بصرِهِ سبباً لامتناعِ إبصارِهِ ، فلا يرىٰ شيئاً إلا إذا امتزجَ الضوءُ بالظلامِ وضعفَ ظهورُهُ .

فكذلكَ عقولُنا ضعيفةٌ ، وجمالُ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ في نهايةِ الإشراقِ والاستنارةِ ، وفي غايةِ الاستغراقِ والشمولِ ، حتَّىٰ لمْ يشذَّ عنْ ظهورِهِ ذرَّةٌ مِنْ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، فصارَ ظهورُهُ سببَ خفائِهِ .

فسبحانَ مَنِ احتجبَ بإشراقِ نورِهِ ، واختفىٰ عنِ البصائرِ والأبصارِ بظهورِهِ !

ولا يُتعجَّبُ مِنِ اختفاءِ ذلكَ بسببِ الظهورِ ؛ فإنَّ الأشياءَ تُستبانُ بأضدادِها ، وما عمَّ وجودُهُ حتَّىٰ إنَّهُ لا ضدَّ لهُ . . عسُرَ إدراكُهُ ، فلوِ اختلفَتِ الأشياءُ فدلَّ بعضُها دونَ بعضٍ . . أُدركتِ التفرقةُ علىٰ قربٍ ، ولما اشتركَتْ في الدلالةِ علىٰ نسقٍ واحدٍ . . أشكلَ الأمرُ .

ومثالُهُ : نورُ الشمسِ المشرقِ على الأرضِ ، فإنَّا نعلمُ أنَّهُ عرضٌ مِنَ الأعراضِ يحدثُ في الأرضِ ، ويزولُ عندَ غيبةِ الشمسِ ، فلوْ كانَتِ الشمسُ دائمةَ الإشراقِ لا غروبَ لها . . لكنَّا نظنُّ أنْ لا هيئةَ في الأجسامِ إلا ألوانُها ،

وهيَ السوادُ والبياضُ وغيرُهما ، فإنَّا لا نشاهدُ في الأسودِ إلا السوادَ ، وفي الأبيضِ إلا البياضَ ، فأمَّا الضوءُ . . فلا ندركُهُ وحدَهُ ، ولكنْ لمَّا غابَتِ الشمسُ ، وأظلمَتِ المواضعُ . . أدركنا تفرقةً بينَ الحالينِ ، فعلمنا أنَّ الأجسامَ كانَتْ قدِ استضاءَتْ بضوءٍ ، واتصفَتْ بصفةٍ فارقَتْها عندَ الغروبِ ، فعرفنا وجودَ النورِ بعدمِهِ ، وما كنَّا نطلعُ عليهِ لولا عدمُهُ إلا بعسرٍ شديدٍ ، وذلكَ لمشاهدتِنا الأجسامَ متشابهةً غيرَ مختلفةٍ في الظلامِ والنورِ ، هـٰذا معَ أنَّ النورَ أظهرُ المحسوساتِ ؛ إذْ بهِ تُدركُ سائرُ المحسوساتِ .

فما هوَ ظاهرٌ في نفسِهِ وهوَ مظهرٌ لغيرِهِ . . انظرْ كيفَ تُصوِّرَ استبهامُ أمرِهِ بسببِ ظهورِهِ لولا طريانُ ضدِّهِ ، فاللهُ تعالىٰ هوَ أظهرُ الأمورِ ، وبهِ ظهرَتِ الأشياءُ كلُّها ، ولوْ كانَ لهُ عدمٌ أوْ غيبةٌ أوْ تغيُّرٌ . . لانهدَّتِ السماواتُ والأرضُ ، وبطلَ الملكُ والملكوتُ ، ولأُدركَتْ بذلكَ التفرقةُ بينَ الحالينِ ، ولوْ كانَ بعضُ الأشياءِ موجوداً بهِ وبعضُها موجوداً بغيرِهِ . . لأُدركَتِ التفرقةُ بينَ الشيئينِ في الدلالةِ ، ولكنْ دلالتُهُ عامةٌ في الأشياءِ علىٰ نسقٍ واحدٍ ، ووجودُهُ دائمٌ في الأحوالِ يستحيلُ خلافُهُ ، فلا جرمَ أورثَتْ شدَّةُ الظهورِ خفاءً .

فهـٰذا هوَ السببُ في قصورِ الأفهامِ .

وأمَّا مَنْ قويَتْ بصيرتُهُ ، ولمْ تضعفْ مُنَّتُهُ . . فإنَّهُ في حالِ اعتدالِ أمرِهِ لا يرىٰ إلا اللهَ تعالىٰ ، ولا يعرفُ غيرَهُ ، ويعلمُ أنَّهُ ليسَ في الوجودِ إلا اللهُ

تعالىٰ ، وأفعالُهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ ، فهيَ تابعةٌ لهُ ، فلا وجودَ لها بالحقيقةِ دونَهُ ، وإنَّما الوجودُ للواحدِ الحقِّ الذي بهِ وجودُ الأفعالِ كلِّها ، ومَنْ هـٰذهِ حالُهُ فلا ينظرُ في شيءٍ مِنَ الأفعالِ إلا ويرىٰ فيهِ الفاعلَ ، ويذهلُ عنِ الفعلِ مِنْ حيثُ إنَّهُ سماءٌ وأرضٌ وحيوانٌ وشجرٌ ، بلْ ينظرُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ صنعُ الواحدِ الحقِّ ، فلا يكونُ نظرُهُ مجاوزاً لهُ إلىٰ غيرِهِ ، كمَنْ نظرَ في شعرِ إنسانٍ أوْ خطِّهِ أوْ تصنيفِهِ ورأىٰ فيهِ الشاعرَ والمصنِّفَ ، ورأىٰ آثارَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ أثرُهُ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ حبرٌ وعفْصٌ وزاجٌ مرقومٌ علىٰ بياضٍ ، فلا يكونُ قدْ نظرَ إلىٰ غيرِ المصنفِ .

وكلُّ العالمِ تصنيفُ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ نظرَ إليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ ، وعرفَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ ، وأحبَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ . لمْ يكنْ ناظراً إلا في اللهِ ، ولا عارفاً إلا باللهِ ، ولا محبّاً إلا للهِ وكانَ هوَ الموحِّدَ الحقَّ الذي لا يرىٰ إلا اللهَ ، بلْ لا ينظرُ إلىٰ نفسهِ مِنْ حيثُ نفسُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ عبدُ اللهِ ، فهـٰذا هوَ الذي يُقالُ فيهِ : إنَّهُ فنيَ في التوحيدِ ، وإنَّهُ فنيَ عنْ نفسِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِ مَنْ قالَ : (كنَّا بنا ، ففنينا عنَّا[1] ، فبقينا بلا نحنُ) .

فهـٰذه أمورٌ معلومةٌ عندَ ذوي البصائرِ ، أشكلَتْ لضعفِ الأفهامِ عنْ دركِها ، وقصورِ قدرةِ العلماءِ بها عنْ إيضاحِها وبيانِها بعبارةٍ مفهمةٍ موصلةٍ

---

(١) في (أ) : (ففنبنا) بدل (ففنينا) .

للغرضِ إلى الأفهامِ ، أوْ باشتغالِهِمْ بأنفسِهِمْ ، واعتقادِهِمْ أنَّ بيانَ ذلكَ لغيرِهِمْ ممَّا لا يعنيهِمْ .

فهـٰذا هوَ السببُ في قصورِ الأفهامِ عنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، وانضمَّ إليهِ أنَّ المدركاتِ كلَّها التي هيَ شاهدةٌ على اللهِ إنَّما يدركُها الإنسانُ في الصبا عندَ فقدِ العقلِ ، ثمَّ تبدو فيهِ غريزةُ العقلِ قليلاً قليلاً ، وهوَ مستغرقُ الهمِّ بشهواتِهِ ، وقدْ أَنِسَ بمدركاتِه ومحسوساتِهِ وألفَها[1] ، فسقطَ وقعُها عنْ قلبِهِ بطولِ الأنسِ ، ولذلكَ إذا رأىٰ علىٰ سبيلِ الفجأةِ حيواناً غريباً أوْ نباتاً غريباً أوْ فعلاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ خارقاً للعادةِ عجيباً . . انطلقَ لسانُهُ بالمعرفةِ طبعاً ، فقالَ : سبحانَ اللهِ ! وهوَ يرىٰ طولَ النهارِ نفسَهُ وأعضاءَهُ وسائرَ الحيواناتِ المألوفةِ وكلُّها شواهدُ قاطعةٌ ولا يحسُّ بشهادتِها ؛ لطولِ الأنسِ بها .

ولوْ فُرِضَ أكمهُ بلغَ عاقلاً ، ثمَّ انقشعَتْ غشاوةُ عينِهِ ، فامتدَّ بصرُهُ إلى السماءِ والأرضِ والأشجارِ والنباتِ والحيوانِ دفعةً واحدةً علىٰ سبيلِ الفجأةِ . . لخيفَ علىٰ عقلِهِ أنْ ينبهرَ ؛ لعظمِ تعجُّبِهِ مِنْ شهادةِ هـٰذهِ العجائبِ لخالقِها .

فهـٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأسبابِ معَ الانهماكِ في الشهواتِ هوَ الذي سدَّ على الخلقِ سبيلَ الاستضاءةِ بأنوارِ المعرفةِ ، والسباحةِ في بحارِها الواسعةِ ،

---

(١) ولهـٰذا قال المصنف كما سيأتي في (بيان محبة الله للعبد ومعناها) : (الخلْقُ أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق) ، وسبب هـٰذا السبق هو الضعف وطول الإلف .

فالناسُ في طلبِهِمْ معرفةَ اللهِ كالمدهوشِ الذي يُضربُ بهِ المثلُ إذا كانَ راكباً لحمارِهِ وهوَ يطلبُ حمارَهُ ، والجلياتُ إذا صارَتْ مطلوبةً . . صارَتْ معتاصةً ، فهـٰذا سرُّ هـٰذا الأمرِ ، فليُحقق ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من البسيط]

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَما تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ إلاَّ عَلَىٰ أَكْمَهٍ لا يَعْرِفُ ٱلْقَمَرا
لَكِنْ بَطَنْتَ بِما أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً فَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِٱلْعُرْفِ قدْ سُتِرا

* * *

(١) البيتان لذي الرمة في « ديوانه » (٢/١١٦٣) ، وانظر « طبقات الأولياء » (ص٥١٨) .

بيان معنى الشّوق إلى الله تعالى

اعلمْ : أنَّ مَنْ أنكرَ حقيقةَ المحبةِ للهِ تعالىٰ . . فلا بدَّ وأنْ ينكرَ حقيقةَ الشوقِ ، إذْ لا يُتصوَّرُ الشوقُ إلا إلىٰ محبوبٍ ونحنُ نثبتُ وجودَ الشوقِ إلى اللهِ تعالىٰ وكونَ العارفِ مضطراً إليهِ بطريقِ الاعتبارِ والنظرِ بأنوارِ البصائرِ ، وبطريقِ الأخبار والآثارِ .

* * *

أمَّا الاعتبارُ :

فيكفي في إثباتِهِ ما سبقَ في إثباتِ الحبِّ ، فكلُّ محبوبٍ يُشتاقُ إليهِ في غيبتِهِ لا محالةَ ، فأمَّا الحاصلُ الحاضرُ فلا يُشتاقُ إليهِ ؛ فإن الشوقَ طلبٌ وتشوُّفٌ إلىٰ نيلِ أمرٍ ، والموجودُ لا يُطلبُ .

ولكنْ بيانُهُ : أنَّ الشوقَ لا يُتصوَّرُ إلا إلىٰ شيءٍ أُدركَ مِنْ وجهٍ ولمْ يُدركْ مِنْ وجهٍ ، فأمَّا ما لا يُدركُ أصلاً . . فلا يُشتاقُ إليهِ ، فإنَّ مَنْ لمْ يرَ شخصاً ولمْ يسمعْ وصفَهُ . . لا يُتصوَّرُ أنْ يشتاقَ إليهِ ، وما أُدركَ بكمالِهِ لا يُشتاقُ إليهِ ، وكمالُ الإدراكِ بالرؤيةِ ، فمَنْ كانَ في مشاهدةِ محبوبِهِ مداوماً للنظرِ إليهِ . . لا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ شوقٌ ، ولكنَّ الشوقَ إنَّما يتعلَّقُ بما أُدركَ مِنْ وجهٍ ولمْ يُدركْ مِنْ وجهٍ ، وهوَ مِنْ وجهينِ :

الأوَّلُ : هوَ أنْ يتضحَ الشيءُ اتضاحاً ما ، ولكنَّهُ محتاجٌ إلى استكمالٍ ،

ولا ينكشفُ إلا بمثالٍ مِنَ المشاهداتِ ، فنقولُ مثلاً : مَنْ غابَ عنهُ معشوقُهُ وبقيَ في قلبِهِ خيالُهُ . . فيشتاقُ إلى استكمالِ خيالِهِ بالرؤيةِ ، فلوِ انمحىٰ عنْ قلبِهِ ذكرُهُ وخيالُهُ ومعرفتُهُ حتَّىٰ نسيَهُ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يشتاقَ إليهِ ، ولوْ رآهُ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يشتاقَ في وقتِ الرؤيةِ ، فمعنىٰ شوقِهِ : تشوُّقُ نفسِهِ إلى استكمالِ خيالِهِ ، وكذلكَ قدْ يراهُ في ظلمةٍ بحيثُ لا تنكشفُ لهُ حقيقةُ صورتِهِ ، فيشتاقُ إلى استكمالِ رؤيتِهِ ، وتمامُ الانكشافِ في صورتِهِ بإشراقِ الضوءِ عليهِ .

والثاني : أنْ يرىٰ وجهَ محبوبِهِ ولا يرىٰ شعرَهُ مثلاً ولا سائرَ محاسنِهِ ، فيشتاقُ لرؤيتِهِ وإنْ لمْ يرَها قطُّ ، ولمْ يثبتْ في نفسِهِ خيالٌ صادرٌ عنِ الرؤيةِ ، ولكنَّهُ يعلمُ أنَّ لهُ عضواً وأعضاءً جميلةً ، ولمْ يدركْ تفصيلَ جمالِها بالرؤيةِ ، فيشتاقُ إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ ما لمْ يرَهُ قطُّ .

والوجهانِ جميعاً متصوَّرانِ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ هما لازمانِ بالضرورةِ لكلِّ العارفينَ ، فإنَّ ما اتضحَ للعارفينَ مِنَ الأمورِ الإلـٰهيةِ وإنْ كانَ في غايةِ الوضوحِ فكأنَّهُ مِنْ وراءِ سترٍ رقيقٍ ، فلا يكونُ متضحاً غايةَ الاتضاحِ ، بلْ يكونُ مشوباً بشوائبِ التخيُّلاتِ ، فإنَّ الخيالَ لا يفترُ في هـٰذا العالمِ عنِ التمثيلِ والمحاكاةِ لجميعِ المعلوماتِ ، وهيَ مكدراتٌ للمعارفِ ومنغصاتٌ ، وكذلكَ ينضافُ إليها شواغلُ الدنيا ، فإنَّما كمالُ الوضوحِ بالمشاهدةِ وتمامِ إشراقِ التجلِّي ولا يكونُ ذلكَ إلا في الآخرةِ ، وذلكَ بالضرورةِ يوجبُ الشوقَ ؛ فإنَّهُ منتهىٰ محبوبِ العارفينَ ، **فهـٰذا هوَ أحدُ**

نوعي الشوقِ ، وهوَ استكمالُ الوضوحِ فيما اتضحَ اتضاحاً ما .

الثاني : أنَّ الأمورَ الإلـٰهيَّةَ لا نهايةَ لها ، وإنَّما ينكشفُ لكلِّ عبدٍ مِنَ العبادِ بعضُها ، وتبقىٰ أمورٌ لا نهايةَ لها غامضةٌ ، والعارفُ يعلمُ وجودَها ، وكونَها معلومةً للهِ تعالىٰ ، ويعلمُ أنَّ ما غابَ عنْ علمِهِ مِنَ المعلوماتِ أكثرُ ممَّا حضرَ ، فلا يزالُ متشوِّقاً إلىٰ أنْ يحصلَ لهُ أصلُ المعرفةِ فيما لمْ يحصلْ ممَّا بقيَ مِنَ المعلوماتِ التي لمْ يعرفْها أصلاً ، لا معرفةً واضحةً ، ولا معرفةً غامضةً .

والشوقُ الأوَّلُ ينتهي في الدارِ الآخرةِ بالمعنى الذي يُسمَّىٰ رؤيةً ولقاءً ومشاهدةً ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يسكنَ في الدنيا .

وقدْ كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ مِنَ المشتاقينَ ، فقالَ : قلتُ ذاتَ يومٍ : يا ربِّ ؛ إنْ أعطيتَ أحداً مِنَ المحبِّينَ لكَ ما يسكنُ بهِ قلبُهُ قبلَ لقائِكَ . . فأعطني ذلكَ ، فقدْ أضرَّ بي القلقُ ، قالَ : فرأيتُ في النومِ أنَّهُ أوقفني بينَ يديهِ وقالَ : يا إبراهيمُ ؛ أما استحييتَ منِّي أنْ تسألَني أنْ أعطيَكَ ما يسكنُ بهِ قلبُكَ قبلَ لقائي ؟! وهلْ يسكنُ المشتاقُ قبلَ لقاءِ حبيبِهِ ؟! فقلتُ : يا ربِّ ؛ تهتُ في حبِّكَ ، فلمْ أدرِ ما أقولُ ، فاغفرْ لي ، وعلِّمْني ما أقولُ ، فقالَ : قلِ : اللهُمَّ ؛ رضِّني بقضائِكَ ، وصبِّرْني علىٰ بلائِكَ ، وأوزعْني شكرَ نعمائِكَ ![1] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٦١) ، ورواه عنه بغير الدعاء السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/ ٢٧٨) .

فإذاً ؛ هـٰذا الشوقُ يسكنُ في الآخرةِ ، وأمَّا الشوقُ الثاني . . فيشبهُ ألا يكونَ لهُ نهايةٌ لا في الدنيا ولا في الآخرةِ ؛ إذْ نهايتُهُ أنْ ينكشفَ للعبدِ في الآخرةِ مِنْ جلالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وحكمتِهِ وأفعالِهِ ما هوَ معلومٌ للهِ تعالىٰ ، وهوَ محالٌ ؛ لأنَّ ذلكَ لا نهايةَ لهُ ، ولا يزالُ العبدُ عالماً بأنَّهُ بقيَ مِنَ الجمالِ والجلالِ ما لمْ يتضحْ لهُ ، فلا يسكنُ قطُّ شوقُهُ ، لا سيما مَنْ يرىٰ فوقَ درجتِهِ درجاتٍ كثيرةً ، إلا أنَّهُ تشوَّقَ إلى استكمالِ الوصالِ معَ حصولِ أصلِ الوصالِ ، فهوَ يجدُ لذلكَ شوقاً لذيذاً لا يظهرُ فيهِ ألمٌ ، ولا يبعدُ أنْ تكونَ ألطافُ الكشفِ والنظرِ متواليةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، فلا يزالُ النعيمُ واللذَّةُ متزايداً أبدَ الآبادِ ، وتكونُ لذَّةُ ما يتجدَّدُ مِنْ لطائفِ النعيمِ شاغلاً عنِ الإحساسِ بالشوقِ إلىٰ ما لمْ يحصلْ ، وهـٰذا بشرطِ أنْ يمكنَ حصولُ الكشفِ فيما لمْ يحصلْ فيهِ كشفٌ في الدنيا أصلاً ، فإنْ كانَ ذلكَ غيرَ مبذولٍ . . فيكونُ النعيمُ واقفاً علىٰ حدٍّ لا يتضاعفُ ، ولكنْ يكونُ مستمرّاً على الدوامِ .

وقولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ محتملٌ لهـٰذا المعنىٰ ، وهوَ أنْ ينعمَ عليهِ بإتمامِ النورِ مهما تزوَّدَ مِنَ الدنيا أصلَ النورِ ، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ إتمامَ النورِ في غيرِ ما استنارَ في الدنيا استنارةً محتاجةً إلىٰ مزيدِ الاستكمالِ والإشراقِ ، فيكونَ هوَ المرادَ بتمامِهِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ يدلُّ علىٰ

أنَّ الأنوارَ لا بدَّ وأنْ يُتزوَّدَ أصلُها في الدنيا ، ثمَّ يزدادَ في الآخرةِ إشراقاً ، فأمَّا أنْ يتجدَّدَ نورٌ . . فلا .

والحكمُ في هـٰذا برجمِ الظنونِ مخطرٌ ، ولمْ ينكشفْ لنا بعدُ فيهِ ما يُوثَقُ بهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يزيدَنا علماً ورشداً ، ويرِيَنا الحقَّ حقّاً .

فهـٰذا القدْرُ مِنْ أنوارِ البصائرِ كاشفٌ لحقائقِ الشوقِ ومعانيهِ .

* * *

وأمَّا شواهدُ الأخبارِ والآثارِ . . فأكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ :

فمما اشتهرَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يقولُ : « اللهُمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الرضا بعدَ القضاءِ ، وبردَ العيشِ بعدَ الموتِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ ، وشوقاً إلىٰ لقائِكَ »[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ لكعبٍ : أخبرْني عنْ أخصِّ آيةٍ ؛ يعني : في التوراةِ ، فقالَ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : طالَ شوقُ الأبرارِ إلىٰ لقائي ، وإنِّي إلىٰ لقائِهِمْ لأشدُّ شوقاً ، قالَ : ومكتوبٌ إلىٰ جانبِها : مَنْ طلبَني . . وجدَني ، ومَنْ طلبَ غيري . . لمْ يجدْني ، فقالَ أبو الدرداءِ : أشهدُ إنِّي لسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ هـٰذا[2] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٩١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٦) ، وقد رواه أيضا الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٧) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٠٤) : (نقله صاحب « القوت » ، وأغفله العراقي ، والذي رواه أبو الدرداء مرفوعاً هو قوله : يقول الله تعالىٰ : من طلبني . . =

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : (يا داوودُ ؛ أبلغْ أهلَ أرضي أنِّي حبيبٌ لمَنْ أحبَّني ، وجليسٌ لمَنْ جالسَني ، ومؤنسٌ لمَنْ أنسَ بذكري ، وصاحبٌ لمَنْ صاحبَني ، ومختارٌ لمَنِ اختارَني ، ومطيعٌ لمَنْ أطاعَني ، ما أحبَّني عبدٌ أعلمُ ذلكَ يقيناً مِنْ قلبِهِ إلا قبلتُهُ لنفسي ، وأحببتُهُ حبّاً لا يتقدَّمُ عليهِ أحدٌ مِنْ خلقي ، مَنْ طلبَني بالحقِّ . . وجدَني ، ومَنْ طلبَ غيري . . لمْ يجدْني ، فارفضوا يا أهلَ الأرضِ ما أنتُمْ عليهِ مِنْ غرورِها ، وهلمُّوا إلىٰ كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وأْنسوا بي . . أؤانسْكُمْ وأسارعْ إلىٰ محبَّتِكُمْ ، فإنِّي خلقتُ طينةَ أحبائي مِنْ طينةِ إبراهيمَ خليلي وموسىٰ نجيِّي ، ومحمدٍ صفيِّي ، وخلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ نوري ، ونعَّمتُها بجلالي)(١) .

ورُوِيَ عنْ بعضِ السلفِ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الصدِّيقينَ : إنَّ لي عباداً مِنْ عبادي يحبُّوني وأحبُّهُمْ ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهِمْ ، ويذكروني وأذكرُهُمْ ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهِمْ ، فإنْ حذوتَ طريقَهُمْ . . أحببتُكَ ، وإنْ عدلتَ عنهُمْ . . مقتُّكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما علامتُهُمْ ؟

= وجدني ، ومن طلب غيري . . لم يجدني) ، وحديث : « طال شوق الأبرار . . . » أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد روى المقدسي في « الترغيب في الدعاء » (١٩) عن أحمد بن مخلد الخراساني القولين مع زيادة دون رفع أو وقف .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٠٥) .

قالَ : يراعونَ الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي الشفيقُ غنمَهُ ، ويحنُّونَ إلىٰ غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلىٰ أوكارِها عندَ الغروبِ ، فإذا جنَّهُمُ الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وفُرِشَتِ الفرشُ ، ونُصبتِ الأسرَّةُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ.. نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافترشوا لي وجوهَهُمْ وناجَوني بكلامي ، وتملَّقوا لي بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وباكٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، وبينَ قائمٍ وقاعدٍ ، وبينَ راكعٍ وساجدٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حبِّي ، أوَّلُ ما أعطيهِمْ ثلاثاً : أقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ ، والثانيةُ : لوْ كانَتِ السماواتُ والأرضُ وما فيهِما في موازينِهِمْ لاستقللتُها لهُمْ ، والثالثةُ : أقبلُ بوجهِي عليهِمْ ، فترىٰ مَنْ أقبلتُ بوجهي عليهِ يعلمُ أحدٌ ما أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟!(١) .

وفي أخبار داوودَ عليهِ السلامُ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ إلىٰ كمْ تذكرُ الجنَّةَ ولا تسألُني الشوقَ إليَّ ؟! قالَ : يا ربِّ ؛ مَنِ المشتاقونَ إليكَ ؟ قالَ : إنَّ المشتاقينَ إليَّ الذينَ صفَّيتُهُمْ مِنْ كلِّ كدرٍ ، وأنبهتُهُمْ بالحذرِ ، وخرقتُ مِنْ قلوبِهِمْ إليَّ خرقاً ينظرونَ إليَّ ، وإنِّي لأحملُ قلوبَهُمْ بيدي فأضعُها علىٰ سمائي ، ثمَّ أدعو نجباءَ ملائكتي ، فإذا اجتمعوا.. سجدوا لي ، فأقولُ : إنِّي لمْ أدعُكُمْ لتسجدوا لي ، ولكنِّي دعوتُكُمْ لأعرضَ عليكُمْ قلوبَ المشتاقينَ إليَّ ، وأباهي بكُمْ أهلَ الشوقِ إليَّ ، وإنَّ قلوبَهُمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٠) .

لتضيءُ في سمائي لملائكتي كما تضيءُ الشمسُ لأهلِ الأرضِ .

يا داوودُ ؛ إنِّي خلقتُ قلوبَ المشتاقينَ مِنْ رضواني ، ونعَّمتُها بنورِ وجهي ، واتخذتُهُمْ لنفسي محدثينَ ، وجعلتُ أبدانَهُمْ موضعَ نظري إلى الأرضِ ، وقطعتُ مِنْ قلوبِهِمْ طريقاً ينظرونَ بهِ إليَّ يزدادونَ في كلِّ يومٍ شوقاً .

قالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ أرني أهلَ محبَّتِكَ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ ائتِ جبلَ لبنانَ ، فإنَّ فيهِ أربعةَ عشرَ نفساً ، فيهِمْ شبابٌ ، وفيهِمْ كهولٌ ، وفيهِمْ مشايخُ ، فإذا أتيتَهُمْ . فأقرئْهُمْ منِّي السلامَ ، وقلْ لهُمْ : إنَّ ربَّكُمْ يقرئُكُمُ السلامَ ويقولُ لكُمْ : ألا تسألونَ حاجةً ؟ فإنَّكُمْ أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرحُ لفرحِكُمْ ، وأسارعُ إلىٰ محبَّتِكُمْ .

فأتاهم داوودُ عليهِ السلامُ ، فوجدَهُمْ عندَ عينٍ مِنَ العيونِ يتفكَّرونَ في عظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلما نظروا إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ . . نهضوا ليتفرَّقوا عنهُ ، فقالَ داوودُ : إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ ، جئتُكُمْ لأبلِّغَكُمْ رسالةَ ربِّكُمْ ، فأقبلوا نحوَهُ وألقَوا أسماعَهُمْ نحوَ قولِهِ ، وألقَوا أبصارَهُمْ إلى الأرضِ ، فقالَ داوودُ : إنِّي رسولُ اللهِ إليكُمْ ، وهوَ يقرئُكُمُ السلامَ ، ويقولُ لكُمْ : ألا تسألونَ حاجةً ؟ ألا تنادوني أسمعْ صوتَكُمْ وكلامَكُمْ ؟ فإنَّكُمْ أحبائي وأصفيائي وأوليائي ، أفرحُ لفرحِكُمْ ، وأسارعُ إلىٰ محبَّتِكُمْ ، وأنظرُ إليكُمْ في كلِّ ساعةٍ نظرَ الوالدةِ الشفيقةِ الرفيقةِ .

قالَ : فجرتِ الدموعُ علىٰ خدودِهِمْ .

فقالَ شيخُهُمْ : سبحانَكَ سبحانَكَ ، نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، فاغفرْ لنا ما قطعَ قلوبَنا عنْ ذكرِكَ فيما مضىٰ مِنْ أعمارِنا .

وقالَ الآخرُ : سبحانَكَ سبحانَكَ ، نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، فامنُنْ علينا بحسنِ النظرِ فيما بينَنا وبينَكَ .

وقالَ الآخرُ : سبحانَكَ سبحانَكَ ، نحنُ عبيدُكَ وبنو عبيدِكَ ، أفنجترىءُ على الدعاءِ وقدْ علمتَ أنَّهُ لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ أمورِنا ؟! فأدمْ لنا لزومَ الطريقِ إليكَ ، وأتممْ بذلكَ المنَّةَ علينا .

وقالَ الآخرُ : نحنُ مقصرونَ في طلبِ رضاكَ ، فأعنَّا عليهِ بجودِكَ .

وقالَ الآخرُ : مِنْ نطفةٍ خلقتَنا ، ومننتَ علينا بالتفكُّرِ في عظمتِكَ ، أفيجترىءُ على الكلامِ مَنْ هوَ مشتغلٌ بعظمتِكَ متفكِّرٌ في جلالِكَ ، وطلبتُنا الدنوُّ مِنْ نورِكَ .

وقالَ الآخرُ : كلَّتْ ألسنتُنا عنْ دعائِكَ لعظيمِ شأنِكَ ، وقربِكَ مِنْ أوليائِكَ ، وكثرةِ منَّتِكَ علىٰ أهلِ محبَّتِكَ .

وقالَ الآخرُ : أنتَ هديتَ قلوبَنا لذكرِكَ ، وفرَّغتَنا للاشتغالِ بكَ ، فاغفرْ لنا تقصيرَنا في شكرِكَ .

وقالَ الآخرُ : قدْ عرفتَ حاجتَنا ، إنَّما هيَ النظرُ إلىٰ وجهِكَ .

وقالَ الآخرُ : كيفَ يجترىءُ العبدُ علىٰ سيِّدِهِ ، إذْ أمرتَنا بالدعاءِ بجودِكَ . . فهبْ لنا نوراً نهتدي بهِ في الظلماتِ مِنْ أطباقِ السماواتِ .

وقالَ الآخرُ : ندعوكَ أنْ تقبلَ علينا وتديمَهُ عندَنا[1] .

وقالَ الآخرُ : نسألُكَ تمامَ نعمتِكَ فيما وهبتَ لنا ، وتفضَّلتَ بهِ علينا .

وقالَ الآخرُ : لا حاجةَ لنا في شيءٍ مِنْ خلقِكَ ، فامنُنْ علينا بالنظرِ إلىٰ جمالِ وجهِكَ .

وقالَ الآخرُ : أسألُكَ مِنْ بينِهِمْ أنْ تعميَ عيني عنِ النظرِ إلى الدنيا وأهلِها ، وقلبي عنِ الاشتغالِ بالآخرةِ .

وقالَ الآخرُ : قدْ عرفتُ تباركتَ وتعاليتَ أنَّكَ تحبُّ أولياءَكَ ، فامننْ علينا باشتغالِ القلبِ بكَ عنْ كلِّ شيءٍ دونَكَ .

فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : قلْ لهُمْ : قدْ سمعتُ كلامَكُمْ ، وأجبْتُكُمْ إلىٰ ما أحببتُمْ ، فليفارقْ كلُّ واحدٍ منكُمْ صاحبَهُ ، وليتخذْ لنفسِهِ سرباً ، فإنِّي كاشفٌ الحجابَ فيما بيني وبينَكُمْ حتَّىٰ تنظروا إلىٰ نوري وجلالي .

فقالَ داوودُ : يا ربِّ ؛ بمَ نالوا هٰذا منكَ ؟ قالَ : بحسنِ الظنِّ ، والكفِّ عنِ الدنيا وأهلِها ، والخلواتِ بي ، ومناجاتِهِمْ لي ، وإنَّ هٰذا منزلٌ لا ينالُهُ إلا مَنْ رفضَ الدنيا وأهلَها ، ولمْ يشتغلْ بشيءٍ مِنْ ذكرِها ، وفرَّغَ قلبَهُ لي ، واختارَني علىٰ جميعِ خلقي ، فعندَ ذلكَ أعطفُ عليهِ ، وأفرغُ نفسَهُ ، وأكشفُ الحجابَ فيما بيني وبينَهُ ، حتَّىٰ ينظرَ إليَّ نظرَ الناظرِ بعينِهِ إلى

---

(١) في (ب) : (أن تقبل علينا بوجهك) ، وكذا في (ع) بزيادة : (وتديم رغبتنا) .

الشيءِ ، وأريَهُ كرامتي في كلِّ ساعةٍ ، وأقربَهُ مِنْ نورِ وجهي ، إنْ مرضَ . . مرَّضتُهُ كما تمرِّضُ الوالدةُ الشفيقةُ ولدَها ، وإنْ عطشَ . . أرويتُهُ ، وأذيقُهُ طعمَ ذكري ، فإذا فعلتُ ذلكَ بهِ يا داوودُ . . عميتُ نفسَهُ عنِ الدنيا وأهلِها ، ولمْ أحبِّبْها إليهِ ، لا يفترُ عنِ الاشتغالِ بي يستعجلُني القدومَ ، وأنا أكرهُ أنْ أميتَهُ ؛ لأنَّهُ موضعُ نظري مِنْ بينِ خلقي ، لا يرىٰ غيري ولا أرىٰ غيرَهُ ، فلوْ رأيتَهُ يا داوودُ وقد ذابَتْ نفسُهُ ، ونحلَ جسمُهُ ، وتهشَّمَتْ أعضاؤُهُ ، وانخلعَ قلبُهُ ، إذا سمعَ بذكري أباهي بهِ ملائكتي وأهلَ سماواتي . . يزدادُ خوفاً وعبادةً ، وعزَّتي وجلالي يا داوودُ ؛ لأقعدنَّهُ في الفردوسِ ، ولأشفينَّ صدرَهُ مِنَ النظرِ إليَّ حتَّىٰ يرضىٰ وفوقَ الرضا(١) .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أيضاً : (قلْ لعبادي المتوجهينَ إلىٰ محبَّتي : ما ضرَّكُمْ إذا احتجبتُ عنْ خلقي ، ورفعتُ الحجابَ فيما بيني وبينَكُمْ حتَّىٰ تنظروا إليَّ بعيونِ قلوبِكُمْ ؟ وما ضرَّكُمْ ما زويتُ عنكُمْ مِنَ الدنيا إذا بسطتُ ديني لكُمْ ؟ وما ضرَّكُمْ مسخطةُ الخلقِ إذا التمستُمْ رضائي ؟(٢) .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ أيضاً : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : (تزعمُ أنَّكَ تحبُّني ؟ فإنْ كنتَ تحبُّني . . فأخرجْ حبَّ الدنيا مِنْ قلبِكَ ، فإنَّ حبِّي وحبَّها لا يجتمعانِ في قلبٍ ، يا داوودُ ؛ خالصْ حبيبي مخالصةً ، وخالطْ أهلَ الدنيا مخالطةً ، ودينَكَ فقلدْنيهِ ، ولا تقلِّدْ دينَكَ الرجالَ ، أمَّا ما استبانَ

---

(١) نقله صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٩/٦٠٧) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٦٠٧) .

لكَ ممَّا وافقَ محبَّتي . . فتمسَّكْ بهِ ، وأمَّا ما أشكلَ عليكَ . . فقلدْنيه ، حقّاً عليَّ أنِّي أسارعُ إلىٰ سياستِكَ وتقويمِكَ ، وأكونُ قائدَكَ ودليلَكَ أعطيكَ مِنْ غيرِ أنْ تسألَني ، وأعينُكَ على الشدائدِ ، فإنِّي قدْ حلفتُ علىٰ نفسي أنِّي لا أثيبُ عبداً إلا عبداً قدْ عرفتُ مِنْ طَلِبَتِهِ وإرادتِهِ إلقاءَ كنفِهِ بينَ يديَّ ، وأنَّه لا غنىٰ بهِ عنِّي ، فإذا كنتَ كذلكَ . . نزعتُ الذلَّةَ والوحشةَ عنكَ ، وأسكنتُ الغنىٰ قلبَكَ ، فإنِّي قدْ حلفتُ علىٰ نفسي أنَّهُ لا يطمئنُّ عبدٌ لي إلىٰ نفسِهِ ينظرُ إلىٰ فعالِها . . إلا وكلتُهُ إليها ، أضفِ الأشياءَ إليَّ ، لا تضادَّ عملَكَ فتكونَ متعنِّياً ، ولا ينتفعَ بكَ مَنْ يصحبُكَ ، ولا تحدَّ لمعرفتي حدّاً ، فليسَ لها غايةٌ ، ومتىٰ طلبتَ منِّي الزيادةَ . . أعطِكَ ، ولا تحدَّ للزيادةِ منِّي حدّاً ، ثمَّ أعلمْ بني إسرائيلَ أنَّهُ ليسَ بيني وبينَ أحدٍ مِنْ خلقي نسبٌ ، فلتعظمْ رغبتُهُمْ وإرادتُهُمْ عندي . . أبحْ لهُمْ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، ضعْني بينَ عينيكَ ، وانظرْ إليَّ ببصرِ قلبِكَ ، ولا تنظرْ بعينيكَ التي في رأسِكَ إلى الذينَ حجبتُ عقولَهُمْ عنِّي فأمرجوها وسختْ بانقطاعِ ثوابي عنها[1] ؛ فإنِّي حلفتُ بعزَّتي وجلالي لا أفتحُ ثوابي لعبدٍ دخلَ في طاعتي للتجربةِ والتسويفِ ، تواضعْ لِمَنْ تعلِّمُهُ ، ولا تطاولْ على المريدينَ ، فلوْ علمَ أهلُ محبَّتي منزلةَ المريدينَ عندي . . لكانوا لهُمْ أرضاً يمشونَ عليها .

---

(١) أمرجوها : أفسدوها . وفي (أ) : (فأسرجوها وسمحت) ، ومعناه ظاهر ، وفي (د) : (فأمرجوها وسخطت) .

يا داوودُ ؛ لأنْ تخرِجَ مريداً مِنْ سكرةٍ هوَ فيها ، تستنقذُهُ ، فأكتبَكَ عندي جهبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ عندي جهبذاً . لا تكونُ عليهِ وحشةٌ ولا فاقةٌ إلى المخلوقينَ .

يا داوودُ ؛ تمسَّكْ بكلامي ، وخذْ مِنْ نفسِكَ لنفسِكَ ، لا تؤتينْ منها فأحجبَ عنكَ محبَّتي ، لا تؤيسْ عبادي مِنْ رحمتي . أقطعْ شهوتَكَ لي ، فإنَّما أبحتُ الشهواتِ لضَعَفَةِ خلقي ، ما بالُ الأقوياءِ أنْ ينالوا الشهواتِ فإنَّها تنقصُ حلاوةَ مناجاتي ، وإنَّما عقوبةُ الأقوياءِ عندي في موضعِ التناولِ ، أدنىٰ ما يصلُ إليهِمْ أنْ أحجبَ عقولَهُمْ عنِّي ، فإنِّي لمْ أرضَ الدنيا لحبيبي ونزهتُهُ عنها .

يا داوودُ ؛ لا تجعلْ بيني وبينَكَ عالماً يحجبُكَ بسكرِهِ عنْ محبَّتي ، أولئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي المريدينَ ، استعنْ علىٰ تركِ الشهواتِ بإدمانِ الصومِ ، وإيَّاكَ والتجربةَ في الإفطارِ ، فإنَّ محبَّتي للصومِ إدمانُهُ[1] .

يا داوودُ ؛ تحبَّبْ إليَّ بمعاداةِ نفسِكَ ، امنعْها الشهواتِ أنظرْ إليكَ ، وترى الحجبَ بيني وبينَكَ مرفوعةً ، إنَّما أداريكَ مداراةً لتقوىٰ علىٰ ثوابي إذا مننتُ بهِ عليكَ ، وإنِّي أحبسُهُ عنكَ وأنتَ متمسِّكٌ بطاعتي)[2] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ لوْ يعلمُ

---

(١) وفي (أ) : (يعجبني من الصوم إدمانُهُ) .
(٢) ساقه صاحب « القوت » بطوله . « إتحاف » (٩/ ٦٠٨) .

المدبرونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهُمْ ، ورفقي بهِمْ ، وشوقي إلىٰ تركِ معاصيهِمْ . . لماتوا شوقاً إليَّ ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُمْ مِنْ محبَّتي .

يا داوودُ ؛ هٰذهِ إرادتي في المدبرينَ عنِّي ، فكيفَ إرادتي في المقبلينَ عليَّ ؟

يا داوودُ ؛ أحوجُ ما يكونُ العبدُ إليَّ إذا استغنىٰ عنِّي ، وأرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أدبرَ عنِّي ، وأجلُّ ما يكونُ عندي إذا رجعَ إليَّ)[١] .

فهٰذهِ الأخبارُ ونظائرُها ممَّا لا يُحصىٰ تدلُّ علىٰ إثباتِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ ، وأمَّا تحقيقُ معناها . . فينكشفُ بما سبقَ .

* * *

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٠٨) .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلمْ : أنَّ شواهدَ القرآنِ متظاهرةٌ علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ عبدَهُ ، فلا بدَّ مِنْ معرفةِ معنىٰ ذلكَ ، ولنقدِّمِ الشواهدَ علىٰ محبَّتِهِ .

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

ولذلكَ ردَّ سبحانَهُ علىٰ مَنِ ادعىٰ أنَّهُ حبيبُ اللهِ فقالَ : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ .

وقدْ روىٰ أنسٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا أحبَّ اللهُ تعالىٰ عبداً . . لمْ يضرَّهُ ذنبٌ ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ ـ ثمَّ تلا ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ »[1] ، ومعناهُ : أنَّهُ إذا أحبَّهُ . . تابَ عليهِ قبلَ الموتِ ، فلمْ تضرَّهُ الذنوبُ الماضيةُ وإنْ كثرَتْ كما لا يضرُّ الكفرُ الماضي بعدَ الإسلامِ .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) ، حيث قال قبله : (وروينا عن إسماعيل بن أبان ، عن أنس . . .) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ١٧٨) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٣٢) ، ورواه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٨/ ٥٥) من طريق القشيري ، وأما لفظ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » مفرداً . . فقد رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

وقدِ اشترطَ اللهُ تعالىٰ للمحبَّةِ غفرانَ الذنبِ فقالَ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ومَنْ لا يحبُّ ، ولا يعطي الإيمانَ إلا مَنْ يحبُّ »(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تواضعَ للهِ . . رفعَهُ اللهُ ، ومَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ . . أحبَّهُ اللهُ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ . . . » الحديثَ(٣) .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليحبُّ العبدَ حتَّىٰ يبلغَ مِنْ حبِّهِ لهُ أنْ يقولَ : اعملْ ما شئتَ ؛ فقدْ غفرتُ لكَ)(٤) .

وما وردَ مِنْ ألفاظِ المحبَّةِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ محبَّةَ العبدِ للهِ تعالىٰ حقيقةٌ وليسَتْ بمجازٍ ، إذِ المحبَّةُ في وضعِ اللسانِ عبارةٌ عنْ ميلِ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٦٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه ، ودون زيادة : « ومن أكثر ذكر الله . . . » وهي عند ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٧٧) .

(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٥٠) ، وأصله عند البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له .

النفسِ إلى الشيءِ الموافقِ ، والعشقُ عبارةٌ عنِ الميلِ الغالبِ المفرطِ ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الإحسانَ موافقٌ للنفسِ ، والجمالَ موافقٌ أيضاً ، وأنَّ الجمالَ والإحسانَ تارةً يُدركُ بالبصرِ ، وتارةً يُدركُ بالبصيرةِ ، والحبُّ يتبعُ كلَّ واحدٍ منهُما ، فلا يختصُّ بالبصرِ .

فأمَّا حبُّ اللهِ تعالىٰ للعبدِ . . فلا يمكنُ أنْ يكونَ بهـٰذا المعنىٰ أصلاً ، بلِ الأسامي كلُّها إذا أُطلقَتْ على اللهِ تعالىٰ وعلىٰ غيرِ اللهِ . . لمْ تنطلقْ عليهِما بمعنىً واحدٍ أصلاً ، حتَّىٰ إنَّ اسمَ الوجودِ الذي هوَ أعمُّ الأسماءِ اشتراكاً لا يشملُ الخالقَ والخلقَ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، بلْ كلُّ ما سوى اللهِ تعالىٰ وجودُهُ مستفادٌ مِنْ وجودِ اللهِ تعالىٰ ، فالوجودُ التابعُ لا يكونُ مساوياً للوجودِ المتبوعِ ، وإنَّما الاستواءُ في إطلاقِ الاسمِ .

نظيرُهُ : اشتراكُ الفرسِ والشجرِ في اسمِ الجسمِ ؛ إذْ معنى الجسميَّةِ وحقيقتُها متشابهٌ فيهما مِنْ غيرِ استحقاقِ أحدِهِما لأنْ يكونَ فيهِ أصلاً ، فليسَتِ الجسميَّةُ لأحدِهِما مستفادةً مِنَ الآخرِ ، وليسَ كذلكَ اسمُ الوجودِ للهِ تعالىٰ ولا لخلقِهِ .

وهـٰذا التباعدُ في سائرِ الأسامي أظهرُ ؛ كالعلمِ ، والإرادةِ ، والقدرةِ ، وغيرِها ، فكلُّ ذلكَ لا يشبهُ فيهِ الخالقُ الخلقَ ، وواضعُ اللغةِ إنَّما وضعَ هـٰذهِ الأساميَ أوَّلاً للخلقِ ، فإنَّ الخلقَ أسبقُ إلى العقولِ والأفهامِ مِنَ الخالقِ ، فكانَ استعمالُها في حقِّ الخالقِ بطريقِ الاستعارةِ والتجوُّزِ والنقلِ .

والمحبَّةُ في وضعِ اللسانِ عبارةٌ عنْ ميلِ النفسِ إلىٰ موافقٍ ملائمٍ ، وهـٰذا

إنَّما يُتصوَّرُ في نفسٍ ناقصةٍ فاتَها ما يوافقُها ، فتستفيدُ بنيلِه كمالاً ، فتلتذُّ بنيلِهِ ، وهٰذا محالٌ على اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ كلَّ كمالٍ وجمالٍ وبهاءٍ وجلالٍ ممكنٌ في حقِّ الإلٰهيَّةِ فهوَ حاضرٌ وحاصلٌ وواجبُ الحصولِ أبداً وأزلاً ، ولا يُتصوَّرُ تجدُّدُهُ ولا زوالُهُ ، فلا يكونُ لهُ إلىٰ غيرِهِ نظرٌ مِنْ حيثُ إنَّه غيرُهُ ، بلْ نظرُهُ إلىٰ ذاتِهِ وإلىٰ أفعالِهِ فقطْ ، وليسَ في الوجودِ إلا ذاتُهُ وأفعالُهُ .

ولذلكَ قالَ الشيخُ أبو سعيدٍ المِيْهَنيُّ رحمَهُ اللهُ لمَّا قُرِىءَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فقالَ : (بحقٍّ يحبُّهُمْ ، فإنَّهُ ليسَ يحبُّ إلا نفسَهُ) ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ الكلُّ ، وأنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ ، فمَنْ لا يحبُّ إلا نفسَهُ وأفعالَ نفسِهِ وتصانيفَ نفسِهِ . . فلا يجاوزُ حبُّهُ ذاتَهُ وتوابعَ ذاتِهِ مِنْ حيثُ هيَ متعلِّقةٌ بذاتِهِ ، فهوَ إذاً لا يحبُّ إلا نفسَهُ .

وما وردَ مِنَ الألفاظِ في حبِّهِ لعبادِهِ . . فهوَ مؤوَّلٌ ، ويرجعُ معناهُ إلىٰ كشفِ الحجابِ عنْ قلبِهِ حتَّىٰ يراهُ بقلبِهِ ، وإلىٰ تمكينِهِ إيَّاهُ مِنَ القربِ منهُ ، وإلىٰ إرادتِهِ ذلكَ بهِ في الأزلِ ، فحبُّهُ لمَنْ أحبَّهُ أزليٌّ مهما أُضيفَ إلى الإرادةِ الأزليَّةِ التي اقتضتْ تمكينَ هٰذا العبدِ مِنْ سلوكِ طرقِ القربِ ، وإذا أُضيفَ إلىٰ فعلِهِ الذي يكشفُ الحجابَ عنْ قلبِ عبدِهِ . . فهوَ حادثٌ يحدثُ بحدوثِ السببِ المقتضي لهُ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ »[1] ، فيكونُ تقرُّبُهُ بالنوافلِ سبباً لصفاءِ باطنِهِ ، وارتفاعِ الحجابِ

---

(١) كذا في جميع النسخ : (ولا يزال يتقرب . . .) .

عنْ قلبِهِ ، وحصولِهِ في درجةِ القربِ مِنْ ربِّهِ ، وكلُّ ذلكَ فعلُ اللهِ تعالىٰ ولطفُهُ بهِ ، فهوَ معنىٰ حبِّهِ .

ولا يُفهمُ هـٰذا إلا بمثالٍ : وهو أنَّ الملكَ قَدْ يقرِّبُ عبدَهُ مِنْ نفسِهِ ، ويأذنُ لهُ في كلِّ وقتٍ في حضورِ بساطِهِ ؛ لميلِ الملكِ إليهِ ؛ إمَّا لينصرَهُ بقوَّتِهِ ، أوْ ليستريحَ بمشاهدتِهِ ، أوْ ليستشيرَهُ في رأيِهِ ، أوْ ليهيِّئَ أسبابَ طعامِهِ وشرابِهِ ، فيُقالُ : إنَّ الملكَ يحبُّهُ ، ويكونُ معناهُ : ميلَهُ إليهِ لما فيهِ مِنَ المعنى الموافقِ الملائمِ لهُ .

وقدْ يقرِّبُ عبداً ولا يمنعُهُ مِنَ الدخولِ عليهِ ، لا للانتفاعِ بهِ والاستنجادِ ، ولكنْ لكونِ العبدِ في نفسِهِ موصوفاً مِنَ الأخلاقِ الرضيَّةِ والخصالِ الحميدةِ بما يليقُ بهِ أنْ يكونَ قريباً مِنْ حضرةِ الملكِ ، وافرَ الحظِّ مِنْ قربِهِ ، معَ أنَّ الملكَ لا غرضَ لهُ فيهِ أصلاً ، فإذا رفعَ الملكُ الحجابَ بينَهُ وبينَهُ . . يُقالُ : قدْ أحبَّهُ ، وإذا اكتسبَ مِنَ الخصالِ الحميدةِ ما اقتضىٰ رفعَ الحجابِ . . يُقالُ : قدْ توصَّلَ وحبَّبَ نفسَهُ إلى الملكِ .

فحبُّ اللهِ للعبدِ إنَّما يكونُ بالمعنى الثاني ، لا بالمعنى الأوَّلِ ، وإنَّما يصحُّ تمثيلُهُ بالمعنى الثاني بشرطِ ألا يسبقَ إلىٰ فهمِكَ دخولُ تغيُّرٍ عليهِ عندَ تجدُّدِ القربِ ، فإنَّ الحبيبَ هوَ القريبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والقرْبُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في البعدِ مِنْ صفاتِ البهائمِ والسباعِ والشياطينِ ، والتخلُّقِ بمكارمِ الأخلاقِ التي هيَ الأخلاقُ الإلـٰهيَّةُ ، فهوَ قربٌ بالصفةِ لا بالمكانِ ، ومَنْ لمْ يكنْ قريباً . . فصارَ قريباً ، فقدْ تغيَّرَ ، فربَّما يظنُّ بهـٰذا أنَّ القربَ لما تجدَّدَ ، فقدْ

تغيَّرَ وصفُ العبدِ والربِّ جميعاً ، إذْ صارَ قريباً بعدَ أنْ لمْ يكنْ ، وهوَ محالٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ ؛ إذِ التغيُّرُ عليهِ محالٌ ، بلْ لا يزالُ في نعوتِ الكمالِ والجلالِ علىٰ ما كانَ عليهِ في أزلِ الآزالِ .

ولا ينكشفُ هٰذا إلا بمثالِ القربِ بينَ الأشخاصِ : فإنَّ الشخصينِ قدْ يتقاربانِ بتحرُّكِهما جميعاً ، وقدْ يكونُ أحدُهُما ثابتاً ، فيتحرَّكُ الآخرُ ، فيحصلُ القربُ بتغيُّرٍ في أحدِهِما مِنْ غيرِ تغيُّرٍ في الآخرِ ، بلِ القربُ في الصفاتِ أيضاً كذلكَ ، فإنَّ التلميذَ يطلبُ القربَ مِنْ درجةِ أستاذِهِ في كمالِ العلمِ وجمالِهِ ، والأستاذُ واقفٌ في كمالِ علمِهِ غيرُ متحرِّكٍ بالنزولِ إلىٰ درجةِ تلميذِهِ ، والتلميذُ متحرِّكٌ مترقٍّ مِنْ حضيضِ الجهلِ إلىٰ يفاعِ العلمِ ، فلا يزالُ دائباً في التغيُّرِ ، والترقِّي إلىٰ أنْ يقربَ مِنْ أستاذِهِ ، والأستاذُ ثابتٌ غيرُ متغيِّرٍ ؛ فكذلكَ ينبغي أنْ يُفهمَ ترقِّي العبدِ في درجاتِ القربِ ، فكلَّما صارَ أكملَ صفةً ، وأتمَّ علماً وإحاطةً بحقائقِ الأمورِ ، وأثبتَ قوَّةً في قهرِ الشيطانِ وقمعِ الشهواتِ ، وأظهرَ نزاهةً عنِ الرذائلِ . . صارَ أقربَ مِنْ درجةِ الكمالِ ، ومنتهى الكمالِ للهِ تعالىٰ ، وقربُ كلِّ واحدٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقدْرِ كمالِهِ .

نعمْ ، قدْ يقدرُ التلميذُ على القربِ مِنَ الأستاذِ وعلىٰ مساواتِهِ وعلىٰ مجاوزتِهِ ، وذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ محالٌ ، فإنَّهُ لا نهايةَ لكمالِهِ ، وسلوكُ العبدِ في درجاتِ الكمالِ متناهٍ ، ولا ينتهي إلا إلىٰ حدٍّ محدودٍ ، فلا مطمعَ لهُ في المساواةِ .

ثمَّ درجاتُ القربِ تتفاوتُ تفاوتاً لا نهايةَ لهُ أيضاً ؛ لأجلِ انتفاءِ النهايةِ عنْ ذلكَ الكمالِ .

فإذاً ؛ محبَّةُ اللهِ للعبدِ تقريبُهُ مِنْ نفسِهِ بدفعِ الشواغلِ والمعاصي عنهُ ، وتطهيرُ باطنِهِ عنْ كدوراتِ الدنيا ، ورفعُ الحجابِ عنْ قلبِهِ حتَّىٰ يشاهدَهُ كأنَّهُ يراهُ بقلبِهِ ، وأمَّا محبةُ العبدِ للهِ . . فهوَ ميلُهُ إلىٰ دركِ هـٰذا الكمالِ الذي هوَ مفلسٌ عنهُ فاقدٌ لهُ ، فلا جرمَ يشتاقُ إلىٰ ما فاتَهُ ، وإذا أدركَ منهُ شيئاً . . يلتذُّ بهِ ، والشوقُ والمحبَّةُ بهـٰذا المعنىٰ محالٌ على اللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : محبَّةُ اللهِ تعالىٰ للعبدِ أمرٌ ملتبسٌ ، فبمَ يعرفُ العبدُ أنَّهُ حبيبُ اللهِ ؟

فأقولُ : يُستدلُّ عليهِ بعلاماتِهِ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغَ . . اقتناهُ » ، قيلَ : وما اقتناهُ ؟ قالَ : « لمْ يتركْ لهُ أهلاً ولا مالاً »(١) .

فعلامةُ محبةِ اللهِ للعبدِ أنْ يوحشَهُ مِنْ غيرِهِ ، ويحولَ بينَهُ وبينَ غيرِهِ ، قيلَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : لِمَ لا تشتري حماراً فتركبَهُ ؟ فقالَ : أنا أعزُّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤٣) ، ورواه ابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (٢٤٩٩) ، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » (١/ ٤٦) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٦٨) كلهم من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه مرفوعاً .

على اللهِ تعالىٰ مِنْ أنْ يشغلَني عنْ نفسِهِ بحمارٍ[(١)] .

وفي الخبرِ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ، فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »[(٢)] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا رأيتَكَ تحبُّهُ ، ورأيتَهُ يبتليكَ . . فاعلمْ أنَّهُ يريدُ أنْ يصافيَكَ)[(٣)] .

وقالَ بعضُ المريدينَ لأستاذِهِ : قدْ طُولعتُ بشيءٍ مِنَ المحبَّةِ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ هلِ ابتلاكَ بمحبوبٍ سواهُ فآثرتَ عليهِ إيَّاهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فلا تطمعْ في المحبَّةِ ؛ فإنَّهُ لا يعطيها عبداً حتَّىٰ يبلوَهُ[(٤)] .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . جعلَ لهُ واعظاً مِنْ نفسِهِ ، وزاجراً مِنْ قلبِهِ يأمرُهُ وينهاهُ »[(٥)] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٨٥) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٥٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) من حديث علي كرم الله وجهه .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ : « إذا أراد الله بعبد خيراً . . . ») . « إتحاف » (٩/ ٦١٤) ، ورواه معلقاً أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٩٩) عن الحارث المحاسبي ، و(٢/ ٢٦٤) من كلام ابن سيرين .

وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . بصَّرَهُ بعيوبِ نفسِهِ »[1] .

فأخصُّ علاماتِهِ حبُّهُ للهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ حبِّ اللهِ .

وأمَّا الفعلُ الدالُّ علىٰ كونِهِ محبوباً . . فهوَ أنْ يتولَّى اللهُ تعالىٰ أمرَهُ ؛ ظاهرَهُ وباطنَهُ ، سرَّهُ وجهرَهُ ، فيكونَ هوَ المشيرَ عليهِ ، والمدبِّرَ لأمرِهِ ، والمزيِّنَ لأخلاقِهِ ، والمستعملَ لجوارحِهِ ، والمسدِّدَ لظاهرِهِ وباطنِهِ ، والجاعلَ همومَهُ همّاً واحداً ، والمبغضَ للدنيا في قلبِهِ ، والموحشَ لهُ مِنْ غيرِهِ ، والمؤنسَ لهُ بلذَّةِ المناجاةِ في خلواتِهِ ، والكاشفَ لهُ عنْ الحجبِ بينَهُ وبينَ معرفتِهِ ، فهٰذا وأمثالُهُ هوَ علامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ للعبدِ .

فلنذكرِ الآنَ علاماتِ محبَّةِ العبدِ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّها أيضاً علاماتُ حبِّ اللهِ للعبدِ .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٣) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٩٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلمْ : أنَّ المحبَّةَ قدْ يدَّعيها كلُّ أحدٍ ، وما أسهلَ الدعوىٰ وما أعزَّ المعنىٰ ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ الإنسانُ بتلبيسِ الشيطانِ وخداعِ النفسِ مهما ادَّعتْ محبَّةَ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يمتحنْها بالعلاماتِ ، ولمْ يطالبْها بالبراهينِ والأدلَّةِ .

والمحبَّةُ شجرةٌ طيِّبةٌ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ ، وثمارُها تظهرُ على القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وتدلُّ تلكَ الآثارُ الفائضةُ منها على القلبِ والجوارحِ على المحبَّةِ دلالةَ الدخانِ على النارِ ، ودلالةَ الثمارِ على الأشجارِ ، وهيَ كثيرةٌ .

* * *

فمنها : حبُّ لقاءِ الحبيبِ بطريقِ الكشفِ والمشاهدةِ في دارِ السلامِ :

فلا يُتصوَّرُ أنْ يحبَّ القلبُ محبوباً إلا ويحبُّ مشاهدتَهُ ولقاءَهُ ، وإذا علمَ أنَّهُ لا وصولَ إلا بالارتحالِ مِنَ الدنيا ومفارقتِها بالموتِ . فينبغي أنْ يكونَ محبّاً للموتِ غيرَ فارٍّ منهُ ، فإنَّ المحبَّ لا يثقلُ عليهِ السفرُ عنْ وطنِهِ إلىٰ مستقرِّ محبوبِهِ ليتنعَّمَ بمشاهدتِهِ ، والموتُ مفتاحُ اللقاءِ وبابُ الدخولِ إلى المشاهدةِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ »(١) .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) .

وقالَ حذيفةُ عندَ الموتِ : (حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ)(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما مِنْ خصلةٍ أحبُّ إلى اللهِ أنْ تكونَ في العبدِ بعدَ حبِّ لقائِهِ مِنْ كثرةِ السجودِ)(٢) ، فقدَّمَ حبَّ لقاءِ اللهِ على السجودِ .

وقدْ شرطَ اللهُ سبحانَهُ لحقيقةِ الصدقِ في الحبِّ القتلَ في سبيلِ اللهِ حيثُ قالوا : إنَّا نحبُّ اللهَ ، فجعلَ القتلَ في سبيلِ اللهِ وطلبَ الشهادةِ علامتَهُ فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾ .

وفي وصيَّةِ أبي بكرٍ لعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (الحقُّ ثقيلٌ ، وهوَ معَ ثقلِهِ مريءٌ ، والباطلُ خفيفٌ ، وهوَ معَ خفَّتِهِ وبيءٌ ، فإنْ حفظتَ وصيَّتي .. لمْ يكنْ غائبٌ أحبَّ إليكَ مِنَ الموتِ وهوَ مدركُكَ ، وإنْ ضيَّعتَ وصيَّتي .. لمْ يكنْ غائبٌ أبغضَ إليكَ مِنَ الموتِ ولنْ تعجزَهُ)(٣) .

ويُروىٰ عنْ إسحاقَ بنِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ قالَ : حدَّثني أبي أنَّ عبدَ اللهِ بنَ جحشٍ قالَ لهُ يومَ أحدٍ : ألا ندعو اللهَ تعالىٰ ، فخلَوا في ناحيةٍ ، فدعا عبدُ اللهِ بنُ جحشٍ فقالَ : يا ربِّ ؛ إنِّي أقسمتُ عليكَ إذا لقيتُ العدوَّ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٣٥٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٥٠٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/٥١) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/٥١) ، ورواها بنحوها ابن المبارك في « الزهد » (٩١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣٧) .

غداً . . فلقِّني رجلاً شديداً بأسُهُ، شديداً حردُهُ ، أقاتلُهُ فيكَ ويقاتلُني ثمَّ يأخذُني فيجدعُ أنفي وأذني ، ويبقرُ بطني ، فإذا لقيتُكَ غداً . . قلتَ : يا عبدَ اللهِ ؛ مَنْ جدعَ أنفَكَ وأذنَكَ ؟ فأقولُ : فيكَ وفي رسولِكَ ، فتقولُ : صدقتَ . قالَ سعدٌ : (فلقدْ رأيتُهُ آخرَ النهارِ وإنَّ أنفَهُ وأذنَهُ لمعلقتانِ في خيطٍ) ، قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (أرجو أنْ يبرَّ اللهُ آخرَ قسمِهِ كما أبرَّ أوَّلَهُ)(١) .

وقدْ كانَ الثوريُّ وبشرٌ الحافي يقولانَ : (لا يكرهُ الموتَ إلا مريبٌ)(٢) ؛ لأنَّ الحبيبَ على كلِّ حالٍ لا يكرهُ لقاءَ حبيبِهِ .

وقالَ البُوَيْطيُّ لبعضِ الزهَّادِ : أتحبُّ الموتَ ؟ فكأنَّهُ توقَّفَ ، فقالَ : لوْ كنتَ صادقاً . . لأحببتَهُ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فقالَ الرجلُ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يتمنينَّ أحدُكُمُ الموتَ »(٣) ، فقالَ : إنَّما قالَهُ لضرٍّ نزلَ بهِ ؛ لأنَّ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ أفضلُ مِنْ طلبِ الفرارِ منهُ(٤) .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٠٨) مع قول ابن المسيب بعده .

(٢) قوت القلوب (٢/٥١) .

(٣) رواه البخاري (٥٦٧١) ، ومسلم (٢٦٨٠) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . (« إتحاف » (٩/٦١٧) ، ونقل قوله بعده : (لأن التائب إذا صدقت توبته . . طلب الموت خشية الحول عن حاله ، فإذا كان كذلك . . كان هو حال التائب الذي هو حبيب الله) .

فإنْ قلتَ : فمَنْ لا يحبُّ الموتَ فهلْ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ محبّاً للهِ ؟

فأقولُ : كراهةُ الموتِ قدْ تكونُ لحبِّ الدنيا ، والتأسُّفِ علىٰ فراقِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وهـٰذا ينافي كمالَ حبِّ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ الحبَّ الكاملَ هوَ الذي يستغرقُ كلَّ القلبِ ، ولكنْ لا يبعدُ أنْ يكونَ لهُ معَ حبِّ الأهلِ والولدِ شائبةٌ مِنْ حبِّ اللهِ تعالىٰ ضعيفةٌ ، فإنَّ الناسَ متفاوتونَ في الحبِّ .

ويدلُّ على التفاوتِ ما رُوِيَ أنَّ أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ لمَّا زوَّجَ أختَهُ فاطمةَ مِنْ سالمٍ مولاهُ . . عاتبَتْهُ قريشٌ في ذلكَ وقالوا : أنكحتَ عقيلةً مِنْ عقائلِ قريشٍ لمولىً ؟! فقالَ : واللهِ ؛ لقدْ أنكحتُهُ إيَّاها وإنِّي لأعلمُ أنَّهُ خيرٌ منها ، فكانَ قولُهُ ذلكَ أشدَّ عليهِمْ مِنْ فعلِهِ ، فقالوا : وكيفَ وهيَ أختُكَ وهوَ مولاكَ ؟ فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ أرادَ أنْ ينظرَ إلىٰ رجلٍ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ . . فلينظرْ إلىٰ سالمٍ »[1] .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لا يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبِهِ ، فيحبُّهُ ويحبُّ أيضاً غيرَهُ ، فلا جرمَ يكونُ نعيمُهُ بلقاءِ اللهِ عندَ القدومِ عليهِ علىٰ قدْرِ حبِّهِ ، وعذابُهُ بفراقِ الدنيا عندَ الموتِ علىٰ قدْرِ حبِّهِ لها .

وأمَّا السببُ الثاني للكراهةِ . . فهوَ أنْ يكونَ العبدُ في ابتداءِ مقامِ المحبَّةِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥١) ، وروى المرفوع منه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولفظه : « إنه يحب الله تعالىٰ حقاً من قلبه » .

وليسَ يكرهُ الموتَ ، وإنَّما يكرهُ عجلتَهُ قبلَ أنْ يستعدَّ للقاءِ اللهِ ، فذلكَ لا يدلُّ علىٰ ضعفِ الحبِّ ، وهوَ كالمحبِّ الذي وصلَهُ الخبرُ بقدومِ حبيبهِ عليهِ ، فأحبَّ أنْ يتأخَّرَ قدومُهُ ساعةً ليهيِّئَ لهُ دارَهُ ويعدَّ لهُ أسبابَهُ ، فيلقاهُ كما يهواهُ فارغَ القلبِ عنِ الشواغلِ ، خفيفَ الظهرِ عنِ العوائقِ ، فالكراهةُ بهٰذا السببِ لا تنافي كمالَ الحبِّ أصلاً ، **وعلامتُهُ** : الدُّؤوبُ في العملِ ، واستغراقُ الهمِّ في الاستعدادِ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ مؤثراً ما أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ما يحبُّهُ في ظاهرِهِ وباطنِهِ :

فيلزمُ مشاقَّ العملِ ، ويجتنبُ اتباعَ الهوىٰ ، ويعرضُ عنْ دعةِ الكسلِ ، ولا يزالُ مواظباً علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ومتقرِّباً إليهِ بالنوافلِ ، وطالباً عندَهُ مزايا الدرجاتِ كما يطلبُ المحبُّ مزيدَ القربِ في قلبِ محبوبِهِ .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالى المحبِّينَ بالإيثارِ فقالَ : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، ومَنْ بقيَ مستمرّاً علىٰ متابعةِ الهوىٰ . فمحبوبُهُ ما يهواهُ ، بلْ يتركُ المحبُّ هوىٰ نفسِهِ لهوىٰ محبوبِهِ ، كما قيلَ[1] : [من الوافر]

أُريدُ وِصالَهُ وَيُريدُ هَجْرِي فأَتْرُكُ ما أُريدُ لما يُريدُ

(1) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٢/٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/٢٦٨) .

بلِ الحبُّ إذا غلبَ . . قمعَ الهوىٰ ، فلمْ يبقَ لهُ تنعُّمٌ بغيرِ المحبوبِ ، كما رُوِيَ أنَّ زَلِيخا لمَّا آمنَتْ وتزوَّجَ بها يوسفُ عليهِ السلامُ . . انفردَتْ عنهُ ، وتخلَّتْ للعبادةِ ، وانقطعَتْ إلى اللهِ تعالىٰ ، فكانَ يدعوها إلىٰ فراشِهِ نهاراً فتدافعُهُ إلى الليلِ ، فإذا دعاها ليلاً سوَّفَتْهُ إلى النهارِ وقالَتْ : يا يوسفُ ؛ إنَّما كنتُ أحبُّكَ قبلَ أنْ أعرفَهُ ، فأمَّا إذْ عرفتُهُ . . فما أبقتْ محبَّتُهُ محبَّةً لسواهُ ، وما أريدُ بهِ بدلاً ، حتَّىٰ قالَ لها : إنَّ اللهَ جلَّ ذكرُهُ أمرَني بذلكَ ، وأخبرَني أنَّهُ مخرجٌ منكِ ولدينِ ، وجاعلُهُما نبيَّينِ ، فقالَتْ : أما إذا كانَ اللهُ تعالىٰ أمرَكَ بذلكَ ، وجعلَني طريقاً إليهِ . . فطاعةً لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، فعندَها سكنَتْ إليهِ[1] .

فإذاً ؛ مَنْ أحبَّ اللهَ لا يعصيهِ ، ولذلكَ قالَ ابنُ المباركِ فيهِ[2] : [من الكامل]

تَعْصِي ٱلإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ		هَـٰذَا لَعَمْرِي فِي ٱلْفِعالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صادِقاً لأَطَعْتَهُ		إِنَّ ٱلْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وفي هـٰذا المعنىٰ قيلَ أيضاً[3] : [من الطويل]

وَأَتْرُكُ ما أَهْوَىٰ لِمَا قَدْ هَوِيتَهُ		وَأَرْضَىٰ بما تَرْضَىٰ وَإِنْ سَخِطَتْ نَفْسِي

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (علامةُ الحبِّ إيثارُهُ علىٰ نفسِكَ) ، و(ليسَ كلُّ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٢) .
(٢) ديوانه (ص ٨٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٤) .

مَنْ عملَ بطاعةِ اللهِ صارَ حبيباً ، وإنَّما الحبيبُ مَنِ اجتنبَ المناهيَ)[1] .

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ محبَّتَهُ للهِ تعالىٰ سببُ محبَّةِ اللهِ لهُ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، وإذا أحبَّهُ اللهُ . . تولاهُ ونصرَهُ علىٰ أعدائِهِ ، وإنَّما عدوُّهُ نفسُهُ وشهواتُهُ ، فلا يخذلُهُ اللهُ ولا يكلُهُ إلىٰ هواهُ وشهواتِهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

* * *

فإنْ قلتَ : فالعصيانُ هلْ يضادُّ أصلَ المحبَّةِ ؟

فأقولُ : إنَّهُ يضادُّ كمالَها ولا يضادُّ أصلَها ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يحبُّ نفسَهُ وهوَ مريضٌ ويحبُّ الصحَّةَ ويأكلُ ما يضرُّهُ ، معَ العلمِ بأنَّهُ يضرُّهُ ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ عدمِ حبِّهِ لنفسِهِ ، ولكنَّ المعرفةَ قدْ تضعفُ ، والشهوةَ قدْ تغلبُ ، فيعجزُ عنِ القيامِ بحقِّ المحبةِ .

ويدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ نعيمانَ كانَ يُؤتىٰ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ قليلٍ فيحدُّهُ في معصيةٍ يرتكبُها ، إلىٰ أنْ أُتِيَ بهِ يوماً فحدَّهُ ، فلعنَهُ رجلٌ وقالَ : ما أكثرَ ما يُؤتىٰ بهِ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تلعنْهُ ؛ فإنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسولَهُ »[2] ، فلمْ يخرجْهُ بالمعصيةِ عنِ المحبَّةِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٤) ، وهما قولان .

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٠) .

نعمْ ، تخرجُهُ المعصيةُ عنْ كمالِ الحبِّ ، وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (إذا كانَ الإيمانُ في ظاهرِ القلبِ . . أحبَّ اللهَ تعالىٰ حباً متوسطاً ، فإذا دخلَ سويداءَ القلبِ . . أحبَّهُ الحبَّ البالغَ وتركَ المعاصيَ)[١] .

وعلى الجملةِ : في دعوى المحبةِ خطرٌ ، ولذلكَ قالَ الفضيلُ : (إذا قيلَ لكَ : أتحبُّ اللهَ تعالىٰ . . فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا . . كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعمْ . . فليسَ وصفُكَ وصفَ المحبِّينَ ، فاحذرِ المقتَ)[٢] .

ولقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الجنَّةِ نعيمٌ أعلىٰ مِنْ نعيمِ أهلِ المعرفةِ والمحبَّةِ ، ولا في جهنَّمَ عذابٌ أشدَّ مِنْ عذابِ مَنِ ادعى المعرفةَ والمحبَّةَ ولمْ يتحقَّقْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ)[٣] .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ مستهتراً بذكرِ اللهِ تعالىٰ :

لا يفترُ عنهُ لسانُهُ ، ولا يخلو عنهُ قلبُهُ ، فمَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ بالضرورةِ ذكرَهُ ، وذكرَ ما يتعلَّقُ بهِ ، فعلامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ حبُّ ذكرِهِ ، وحبُّ القرآنِ الذي هوَ كلامُهُ ، وحبُّ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحبُّ كلِّ ما يُنسبُ إليهِ ، فإنَّ مَنْ يحبُّ إنساناً يحبُّ كلبَ محلَّتِهِ ، فالمحبَّةُ إذا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥١) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٢) .

قويَتْ . . تعدَّتْ مِنَ المحبوبِ إلىٰ كلِّ ما يكتنفُ بالمحبوبِ ويحيطُ بهِ ويتعلَّقُ بأسبابِهِ .

وذلكَ ليسَ شِرْكةً في الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ رسولَ المحبوبِ لأنَّهُ رسولُهُ ، وكلامَهُ لأنَّهُ كلامُهُ . . فلمْ يجاوزْ حبُّهُ إلىٰ غيرِهِ ، بلْ هوَ دليلُ كمالِ حبِّهِ ، ومَنْ غلبَ حبُّ اللهِ علىٰ قلبِهِ . . أحبَّ جميعَ خلقِ اللهِ ؛ لأنَّهُمْ خلقُهُ ، فكيفَ لا يحبُّ القرآنَ والرسولَ وعبادَ اللهِ الصالحينَ ؟!

وقدْ ذكرنا تحقيقَ هـٰذا في كتابِ آدابِ الصحبةِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّوا اللهَ لما يغذوكُمْ بهِ مِنْ نعمِهِ ، وأحبُّوني لحبِّ اللهِ . . . »[١] .

وقالَ سفيانُ : (مَنْ أحبَّ مَنْ يحبُّ اللهَ تعالىٰ . . فإنَّما أحبَّ اللهَ ، ومَنْ أكرمَ مَنْ يكرمُ اللهَ تعالىٰ . . فإنَّما يكرمُ اللهَ تعالىٰ)[٢] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ المريدينَ قالَ : كنتُ قدْ وجدتُ حلاوةَ المناجاةِ في شِرَّةِ الإرادةِ[٣] ، فأدمنتُ قراءةَ القرآنِ ليلاً ونهاراً ، ثمَّ لحقَتْني فترةٌ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٠) ، ورواه الترمذي (٣٧٨٩) وتمامه : « . . . وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبّي » .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٢٢) .

(٣) الشِّرَّة : النشاط والحرص ، يقال : شرَّة الشباب ؛ أي : حرصه ونشاطه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يناسب السياق ـ : « إن لهـٰذا القرآن شرَّة ، ثم إن للناس عنه فترة . . . » الحديث .

فانقطعتُ عنِ التلاوةِ ، قالَ : فسمعتُ قائلاً يقولُ في المنامِ : إنْ كنتَ تزعمُ أنَّكَ تحبُّني . . فلِمَ جفوتَ كتابي ؟!

أما ترىٰ ما فيهِ مِنْ لطيفِ عتابي ؟ قالَ : فانتبهتُ وقدْ أُشرِبَ في قلبي محبَّةُ القرآنِ ، فعاودتُ إلىٰ حالي[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (لا ينبغي أنْ يسألَ أحدُكُمْ عنْ نفسِهِ إلا القرآنَ ، فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ . . فهوَ يحبُّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وإنْ لمْ يكنْ يحبُّ القرآنَ . . فليسَ يحبُّ اللهَ)[2] .

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ : (علامةُ حبِّ اللهِ تعالىٰ حبُّ القرآنِ ، وعلامةُ حبِّ اللهِ وحبِّ القرآنِ حبُّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حبُّ السنَّةِ ، وعلامةُ حبِّ السنَّةِ حبُّ الآخرةِ ، وعلامةُ حبِّ الآخرةِ بغضُ الدنيا ، وعلامةُ بغضِ الدنيا ألا يأخذَ منها إلا زاداً وبلغةً إلى الآخرةِ)[3] .

❊ ❊ ❊

ومنها : أنْ يكونَ أنسُهُ بالخلوةِ ومناجاةِ اللهِ تعالىٰ وتلاوةِ كتابِهِ :

فيواظبُ على التهجُّدِ ، ويغتنمُ هدوءَ الليلِ ، وصفاءَ الوقتِ بانقطاعِ العوائقِ ، فأقلُّ درجاتِ الحبِّ التلذُّذُ بالخلوةِ بالحبيبِ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٥٣) ، وقد رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٣) .

فمَنْ كانَ النومُ والاشتغالُ بالحديثِ ألذَّ عندَهُ وأطيبَ مِنْ مناجاةِ اللهِ تعالىٰ . . كيفَ تصحُّ محبَّتُهُ ؟!

قيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهَمَ وقدْ نزلَ مِنَ الجبلِ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقالَ : مِنَ الأنسِ باللهِ[(١)] .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : (لا تستأنسْ إلىٰ أحدٍ مِنْ خلقي ، فإنِّي إنَّما أقطعُ عنِّي رجلينِ : رجلاً استبطأَ ثوابي فانقطعَ ، ورجلاً نسيَني فرضيَ بحالِهِ ، وعلامةُ ذلكَ أنْ أكلَهُ إلىٰ نفسِهِ ، وأنْ أدعَهُ في الدنيا حيرانَ)[(٢)] .

ومهما أنسَ بغيرِ اللهِ . . كانَ بقدْرِ أنسِهِ بغيرِ اللهِ مستوحشاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ساقطاً عنْ درجةِ محبَّتِهِ ، وفي قصَّةِ بُرْخٍ ـ وهوَ العبدُ الأسودُ الذي استسقىٰ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ ـ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لموسىٰ عليهِ السلامُ : إنَّ بُرْخاً نعمَ العبدُ هوَ لي ، إلا أنَّ فيهِ عيباً ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما عيبُهُ ؟ قالَ : يعجبُهُ نسيمُ الأسحارِ فيسكنُ إليهِ ، ومَنْ أحبَّني لمْ يسكنْ إلىٰ شيءٍ[(٣)] .

ورُوِيَ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ في غيضةٍ دهراً طويلاً ، فنظرَ إلىٰ طائرٍ قدْ عشَّشَ في شجرةٍ يأوي إليها ويصفِرُ عندَها ، فقالَ : لوْ حوَّلتُ مسجدي إلىٰ تلكَ الشجرةِ ، فكنتُ آنسُ بصوتِ هـٰذا الطائرِ ، قالَ : ففعلَ ، فأوحى اللهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠) .
(٢) نقله صاحب « القوت » (٩/ ٦٢٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٥٤) .

تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذلكَ الزمانِ : قلْ لفلانٍ العابدِ : استأنستَ بمخلوقٍ ؟! لأحطَّنَّكَ درجةً لا تنالُها بشيءٍ مِنْ عملِكَ أبداً(١) .

فإذاً ؛ علامةُ المحبَّةِ كمالُ الأنسِ بمناجاةِ المحبوبِ ، وكمالُ التنعُّمِ بالخلوةِ بهِ ، وكمالُ الاستيحاشِ مِنْ كلِّ ما ينغِّصُ عليهِ الخلوةَ ويعوِّقُ عنْ لذَّةِ المناجاةِ ، وعلامةُ الأنسِ مصيرُ العقلِ والفهمِ كلِّهِ مستغرقاً بلذَّةِ المناجاةِ ؛ كالذي يخاطبُ معشوقَهُ ويناجيهِ .

وقدِ انتهتْ هـٰذهِ اللذَّةُ ببعضِهِمْ حتَّىٰ إنَّهُ كانَ في صلاتِهِ ووقعَ الحريقُ في دارِهِ فلمْ يشعرْ بهِ ، وقُطعَتْ رِجْلُ بعضِهِمْ بسببِ علَّةٍ أصابَتْهُ وهوَ في الصلاةِ فلمْ يشعرْ بهِ(٢) .

ومهما غلبَ عليهِ الحبُّ والأنسُ . . صارَتِ الخلوةُ والمناجاةُ قرَّةَ عينٍ تدفعُ جميعَ الهمومِ ، بلْ يستغرقُ الأنسُ والحبُّ قلبَهُ حتَّىٰ لا يفهمَ أمورَ الدنيا ما لمْ تُكرَّرْ علىٰ سمعِهِ مراراً ؛ مثلَ العاشقِ الولهانِ ، فإنَّهُ يكلِّمُ الناسَ بلسانِهِ وأنسُهُ في الباطنِ بذكرِ حبيبِهِ ، فالمحبُّ مَنْ لا يطمئنُّ إلا بمحبوبِهِ .

وقالَ قتادةُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٥٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٩) بنحوه .

(٢) هو عروة بن الزبير ، وقد روىٰ خبره ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٢٦١) دون تصريح أن القطع كان في الصلاة .

﴿بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ قالَ : (هشَّتْ إليهِ ، واستأنسَتْ بهِ)[(١)] .

وقالَ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ ذاقَ مِنْ خالصِ محبَّةِ اللهِ . . شغلَهُ ذلكَ عنْ طلبِ الدنيا ، وأوحشَهُ عنْ جميعِ البشرِ)[(٢)] .

وقالَ مطرِّفٌ : (المحبُّ لا يسأمُ مِنْ حديثِ حبيبِهِ)[(٣)] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (قدْ كذبَ مَنِ ادَّعىٰ محبَّتي إذا جنَّهُ الليلُ . . نامَ عنِّي ، أليسَ كلُّ محبٍّ يحبُّ لقاءَ حبيبِهِ ؟ فهـٰأنا ذا موجودٌ لمَنْ طلبَني)[(٤)] .

وقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ، أينَ أنتَ فأقصدَكَ ؟ فقالَ : إذا قصدتَ . . فقدْ وصلتَ[(٥)] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مَنْ أحبَّ اللهَ . . أبغضَ نفسَهُ) .

وقالَ أيضاً : (مَنْ لمْ تكنْ فيهِ ثلاثُ خصالٍ . . فليسَ بمحبٍّ ؛ يؤثرُ كلامَ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلامِ الخلقِ ، ولقاءَ اللهِ تعالىٰ علىٰ لقاءِ الخلقِ ، والعبادةَ علىٰ خدمةِ الخلقِ) .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٦٤) ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ١٨٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٥) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٩٦) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٦٠) بنحوه .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣١١) بلفظ : (. . . إذا انقطعت . . فقد وصلت) .

ومنها : ألا يتأسَّفَ علىٰ ما يفوتُهُ ممَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ويعظمَ تأسُّفُهُ علىٰ فوتِ كلِّ ساعةٍ خلتْ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ :

فيكثرَ رجوعُهُ عندَ الغفلاتِ بالاستعطافِ والاستعتابِ ، والتوبةِ ، قالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ للهِ عباداً أحبُّوهُ واطمأنُّوا إليهِ ، فذهبَ عنهُمُ التأسُّفُ على الفائتِ ، فلمْ يتشاغلوا بحظِّ أنفسِهِمْ إذْ كانَ ملْكُ مليكِهِمْ تامّاً ، وما شاءَ كانَ ، فما كانَ لهُمْ فهوَ واصلٌ إليهِمْ ، وما فاتَهُمْ فبحسنِ تدبيرِهِ لهُمْ)(١) .

وحقُّ المحبِّ إذا رجعَ مِنْ غفلتِهِ في لحظتِهِ أنْ يقبلَ علىٰ محبوبِهِ ، ويشتغلَ بالعتابِ ، ويسألَهُ ويقولَ : (ربِّ ؛ بأيِّ ذنبٍ قطعتَ برَّكَ عنِّي ، وأبعدتَني عنْ حضرتِكَ ، وشغلتَني بنفسي وبمتابعةِ الشيطانِ) ، فيستخرجُ ذلكَ منهُ صفاءَ ذكرٍ ورقَّةَ قلبٍ يكفِّرُ عنهُ ما سبقَ مِنَ الغفلةِ ، وتكونُ هفوتُهُ سبباً لتجدُّدِ ذكرِهِ وصفاءِ قلبِهِ .

ومهما لمْ يرَ المحبُّ إلا المحبوبَ ، ولمْ يرَ شيئاً إلا منهُ . . لمْ يتأسَّفْ ولمْ يشكَّ ، واستقبلَ الكلَّ بالرضا ، وعلمَ أنَّ المحبوبَ لمْ يقدرْ لهُ إلا ما فيهِ خيرتُهُ ، ويذكرُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٢٤) .

ومنها : أنْ يتنعَّمَ بالطاعةِ ولا يستثقلَها ، ويسقطَ عنهُ تعبُها :

كما قالَ بعضُهُمْ : (كابدتُ الليلَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تنعَّمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[1] .

وقالَ الجنيدُ : (علامةُ المحبَّةِ دوامُ النشاطِ ، والدؤوبُ بشهوةٍ تفترُ بدنَهُ ولا تفترُ قلبَهُ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (العملُ على المحبَّةِ لا يدخلُهُ الفتورُ)[2] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (واللهِ ، ما اشتفىٰ محبٌّ للهِ مِنْ طاعتِهِ ولوْ حلَّ بعظيمِ الوسائلِ)[2] .

فكلُّ هٰذا مثالُهُ موجودٌ في المشاهداتِ[3] ؛ فإنَّ العاشقَ لا يستثقلُ السعيَ في هوىٰ معشوقِهِ ، ويستلذُّ خدمتَهُ بقلبِهِ وإنْ كانَ شاقّاً علىٰ بدنِهِ ، ومهما عجزَ بدنُهُ . . كانَ أحبُّ الأشياءِ إليهِ أنْ تعاودَهُ القدرةُ ، وأنْ يفارقَهُ العجزُ حتَّىٰ يشتغلَ بهِ .

فهكذا يكونُ حبُّ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ كلَّ حبٍّ صارَ غالباً . . قهرَ ـ لا محالةَ ـ ما هوَ دونَهُ ، فمَنْ كانَ محبوبُهُ أحبَّ إليهِ مِنَ الكسلِ . . تركَ الكسلَ في خدمتِهِ ، وإنْ كانَ أحبَّ إليهِ مِنَ المالِ . . تركَ المالَ في حبِّهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٥٥) .
(٣) في (ف) وحدها : (فكل هـٰذا وأمثاله موجود . . .) .

وقيلَ لبعضِ المحبِّينَ وقدْ كانَ بذلَ مالَهُ ونفسَهُ حتَّىٰ لمْ يبقَ لهُ شيءٌ : ما كانَ سببُ حالِكَ هـٰذهِ في المحبَّةِ ؟ فقالَ : سمعتُ يوماً محبّاً وقدْ خلا بمحبوبِهِ وهوَ يقولُ : أنا ـ واللهِ ـ أحبُّكَ بقلبي كلِّهِ وأنتَ معرضٌ عنِّي بوجهِكَ كلِّهِ ، فقالَ لهُ المحبوبُ : إنْ كنتَ تحبُّني . . فأيشٍ تنفقُ عليَّ ؟ فقالَ : يا سيدي ؛ أملِّكُكَ ما أملكُ ، ثمَّ أنفقُ عليكَ روحي حتَّىٰ تهلكَ ، فقلتُ : هـٰذا خلقٌ لخلقٍ ، وعبدٌ لعبدٍ ، فكيفَ بعبدٍ لمعبودٍ ؟! فكانَ هـٰذا سببَهُ(١) .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ مشفقاً علىٰ جميعِ عبادِ اللهِ ، رحيماً بهِمْ ، شديداً علىٰ جميعِ أعداءِ اللهِ وعلىٰ كلِّ مَنْ يقارفُ شيئاً ممَّا يكرهُهُ :

كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولا تأخذُهُ لومةُ لائمٍ ، ولا يصرفُهُ عنِ الغضبِ للهِ صارفٌ ، وبهِ وصفَ اللهُ تعالىٰ أولياءَهُ إذْ قالَ : (الذينَ يكْلَفونَ بحبِّي كما يكْلَفُ الصبيُّ بالشيءِ ، ويأوونَ إلىٰ ذكري كما يأوي النسرُ إلىٰ وكرِهِ ، ويغضبونَ لمحارمي كما يغضبُ النمرُ إذا حردَ ؛ فإنَّهُ لا يبالي قلَّ الناسُ أوْ كثروا)(٢) .

فانظرْ إلىٰ هـٰذا المثالِ ؛ فإنَّ الصبيَّ إذا كلفَ بالشيءِ . . لمْ يفارقْهُ أصلاً ، وإنْ أُخذَ منهُ . . لمْ يكنْ لهُ شغلٌ إلا البكاءَ والصياحَ حتَّىٰ يُردَّ إليهِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٥) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٢١) .

فإنْ نامَ.. أخذَهُ معَهُ في ثيابِهِ، فإذا انتبهَ.. عادَ وتمسَّكَ بهِ، ومهما فارقَهُ.. بكىٰ، ومهما وجدَهُ.. ضحكَ، ومَنْ نازعَهُ فيهِ.. أبغضَهُ، ومَنْ أعطاهُ إيّاهُ.. أحبَّهُ، وأمّا النمرُ.. فإنَّهُ لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ، حتّىٰ يبلغَ مِنْ شدَّةِ غضبِهِ أنْ يهلكَ نفسَهُ.

فهٰذهِ علاماتُ المحبَّةِ، فمَنْ تمَّتْ فيه هٰذهِ العلاماتُ.. فقدْ تمَّتْ محبَّتُهُ وخلصَ حبُّهُ، فصفا في الآخرةِ شرابُهُ وعذُبَ مشربُهُ، ومَنِ امتزجَ بحبِّهِ حبُّ غيرِ اللهِ.. تنعَّمَ في الآخرةِ بقدْرِ حبِّهِ؛ إذْ يمزجُ شرابَهُ بقدْرٍ مِنْ شرابِ المقرَّبينَ؛ كما قالَ تعالىٰ في الأبرارِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، فإنّما طابَ شرابُ الأبرارِ لشوبِ الشرابِ الصرفِ الذي هوَ للمقرَّبينَ، والشرابُ عبارةٌ عنْ جملةِ نعيمِ الجنانِ، كما أنَّ الكتابَ عبَّرَ بهِ عنْ جميعِ الأعمالِ فقالَ: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، فكانَ أمارةُ علوِّ كتابِهِمْ أنَّهُ ارتفعَ إلىٰ حيثُ يشهدُهُ المقرَّبونَ.

وكما أنَّ الأبرارَ يجدونَ المزيدَ في حالِهِمْ ومعرفتِهِمْ بقربِهِمْ مِنَ المقرَّبينَ ومشاهدتِهِمْ لهُمْ.. فكذلكَ يكونُ حالُهُمْ في الآخرةِ، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وكما قالَ تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: وافقَ الجزاءُ أعمالَهُمْ، فقُوبلَ الخالصُ بالصرفِ مِنَ الشرابِ، وقُوبلَ المشوبُ بالمشوبِ، وشوبُ كلِّ شرابٍ علىٰ قدْرِ ما سبقَ

مِنَ الشوبِ في حبِّهِ وأعمالِهِ ، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ ، ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

فمَنْ كانَ حبُّهُ في الدنيا رجاءَهُ لنعيمِ الجنَّةِ وللحورِ العينِ والقصورِ . . مُكِّنَ مِنَ الجنَّةِ ليتبوَّأَ منها حيثُ يشاءُ ، فيلعبُ معَ الولدانِ ، ويتمتَّعُ بالنسوانِ ، فهناكَ تنتهي لذَّتُهُ في الآخرةِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يُعطىٰ كلُّ إنسانٍ في المحبةِ ما تشتهيهِ نفسُهُ وتلذُّ عينُهُ .

ومَنْ كانَ مقصدُهُ ربَّ الدارِ ومالكَ الملكِ ، ولمْ يغلبْ عليهِ إلا حبُّهُ بالإخلاصِ والصدقِ . . أُنزلَ في مقعدِ صدْقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ .

فالأبرارُ يرتعونَ في البساتينِ ، ويتنعَّمونَ في الجنانِ معَ الحورِ العينِ والولدانِ ، والمقرَّبونَ ملازمونَ للحضرةِ ، عاكفونَ بطرفِهِمْ عليها ، يستحقرونَ نعيمَ الجنانِ بالإضافةِ إلىٰ ذرَّةٍ منها ، فقومٌ بقضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ مشغولونَ ، وللمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البلْهُ ، وعلِّيونَ لذوي الألبابِ »[1] .

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٤٣١/٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٣١٣/٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » =

ولمَّا قصرَتِ الأفهامُ عنْ دركِ معنىٰ علِّيينَ . . عظَّمَ أمرَهُ ، فقالَ : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ .

* * *

ومنها : أنْ يكونَ في حبِّهِ خائفاً متضائلاً تحتَ الهيبةِ والتعظيمِ :

وقدْ يُظنُّ أنَّ الخوفَ يضادُّ الحبَّ ، وليسَ كذلكَ ، بلْ إدراكُ العظمةِ يوجبُ الهيبةَ ؛ كما أنَّ إدراكَ الجمالِ يوجبُ الحبَّ ، ولخصوصِ المحبِّينَ مخاوفُ في مقامِ المحبَّةِ ليسَتْ لغيرِهِمْ ، وبعضُ مخاوفِهِمْ أشدُّ مِنْ بعضٍ .

فأوَّلُها خوفُ الإعراضِ ، وأشدُّ منهُ خوفُ الحجابِ ، وأشدُّ منهُ خوفُ الإبعادِ ، وهاذا المعنىٰ مِنْ (سورةِ هودٍ) هوَ الذي شيَّبَ سيِّدَ المحبِّينَ[1] ؛ إذْ سمعَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بُعۡدًا لِّثَمُودَ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعۡدًا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ .

وإنَّما تعظمُ هيبةُ البعدِ وخوفُهُ في قلبِ مَنْ ألفَ القربَ وذاقَهُ وتنعَّمَ بهِ ، فحديثُ البعدِ في حقِّ المبعدينَ يشيِّبُ سماعُهُ أهلَ القربِ في القربِ ،

= (١٣٠٤) دون زيادة : (وعليون لذوي الألباب) ، وهي عند صاحب « القوت » (١/ ١١٧) ، وقد روىٰ نحو هاذه الزيادة الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (٢٦/ ١١٧ـ ١١٨) عن أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالىٰ .

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) .

ولا يحنُّ إلى القربِ مَنْ ألفَ البعدَ ، ولا يبكي لخوفِ البعدِ مَنْ لمْ يُمكَّنْ مِنْ بساطِ القربِ .

ثمَّ خوفُ الوقوفِ وسلبُ المزيدِ : فإنَّا قدَّمنا أنَّ درجاتِ القربِ لا نهايةَ لها ، وحقُّ العبدِ أنْ يجتهدَ في كلِّ نفسٍ حتَّىٰ يزدادَ فيهِ قرباً ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استوىٰ يوماهُ . . فهوَ مغبونٌ ، ومَنْ كانَ يومُهُ شرّاً مِنْ أمسِهِ . . فهوَ ملعونٌ »(١) .

وكذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّهُ ليغانُ علىٰ قلبي في اليومِ والليلةِ حتَّىٰ أستغفرُ اللهَ سبعينَ مرَّةً »(٢) ، وإنَّما كانَ استغفارُهُ مِنَ القدمِ الأوَّلِ ، فإنَّهُ كانَ بعداً بالإضافةِ إلى القدمِ الثاني(٣) ، ويكونُ ذلكَ عقوبةً لهُمْ على الفتورِ في الطريقِ ، والالتفاتِ إلىٰ غيرِ المحبوبِ ، كما رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالمِ إذا آثرَ شهواتِ الدنيا علىٰ طاعتي أنْ أسلبَهُ لذيذَ

---

(١) هو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٩١٠) من حديث علي رضي الله عنه ، وانظر « الإتحاف » (٦٢٨/٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣٥/٨) عن رؤيا رآها الحسن البصري وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم الموعظة فلقنه إياها ، وهو عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٨٧) رؤيا رآها عبد العزيز بن أبي رواد للنبي صلى الله عليه وسلم يوصيه به .

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٣) في (ب) : (المقام) بدل (القدم) في الموضعين .

مناجاتي)[1] ، فسلبُ المزيدِ بسببِ الشهواتِ عقوبةُ العمومِ ، فأمّا الخصوصُ . فيحجبُهُمْ عنِ المزيدِ مجرّدُ الدعوىٰ والعجبِ والركونِ إلىٰ ما ظهرَ مِنْ مبادي اللطفِ ، وذلكَ هوَ المكرُ الخفيُّ الذي لا يقدرُ على الاحترازِ منهُ إلا ذوو الأقدامِ الراسخةِ .

ثمَّ خوفُ فوتِ ما لا يُدركُ بعدَ فوتِهِ : سمعَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ قائلاً يقولُ وهوَ في سياحتِهِ وكانَ علىٰ جبلٍ[2] : [من مجزوء الرمل]

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُو ... رٌ سِوَى ٱلإِعْرَاضِ عَنِّي
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَا ... تَ بَقِي مَا فَاتَ مِنِّي

فاضطربَ وغُشيَ عليهِ ، فلمْ يفقْ يوماً وليلةً ، وطرأَتْ عليهِ أحوالٌ ، ثمَّ قالَ : سمعتُ النداءَ مِنَ الجبلِ : يا إبراهيمُ ؛ كنْ عبداً ، فكنتُ عبداً واسترحتُ[3] .

ثمَّ خوفُ السلوِّ عنهُ : فإنَّ المحبَّ يلازمُهُ الشوقُ والطلبُ الحثيثُ ، فلا يفترُ عنْ طلبِ المزيدِ ، ولا يتسلّىٰ إلا بلطفٍ جديدٍ ، فإن تسلّىٰ عنْ ذلكَ . . كانَ ذلكَ سببَ وقوفِهِ أوْ سببَ رجعتِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/١٤١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٦٠) .
(٢) انظر « الكشكول » (١/١٥٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/٥٨) ، وفيه : (وهبنا منك) بدل (وهبنا لك) ، وشرح لقول إبراهيم رحمه الله تعالىٰ : (كن عبداً) فقال : (لا يملكك إلا واحد تكون عبداً له حراً مما سواه ، ولا تملك شيئاً ، فإن الأشياء في خزانة مليكها) .

والسلوُّ يدخلُ عليهِ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ؛ كما قدْ يدخلُ عليهِ الحبُّ مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، فإنَّ هـٰذهِ التقلباتِ في القلبِ لها أسبابٌ خفيَّةٌ سماويَّةٌ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، فإذا أرادَ اللهُ تعالى المكرَ بهِ واستدراجَهُ . . أخفىٰ عنهُ ما وردَ عليهِ مِنَ السلوِّ ، فيقفُ معَ الرجاءِ ، ويغترُّ بحسنِ الظنِّ أوْ بغلبةِ الغفلةِ والهوىٰ والنسيانِ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ جنودِ الشيطانِ التي تغلبُ جنودَ الملائكةِ ؛ مِنَ العلمِ والعقلِ والذكرِ والبيانِ ، وكما أنَّ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ ما يظهرُ فيقتضي هيجانَ الحبِّ وهي أوصافُ اللطفِ والرحمةِ والحكمةِ . . فمِنْ أوصافِهِ ما يلوحُ فيورثُ السلوَّ ؛ كأوصافِ الجبريَّةِ والعزَّةِ والاستغناءِ ، وذلكَ مِنْ مقدماتِ المكرِ والشقاءِ والحرمانِ .

ثمَّ خوفُ الاستبدالِ بهِ بانتقالِ القلبِ مِنْ حبِّهِ إلىٰ حبِّ غيرِهِ : وذلكَ هوَ المقتُ والسلوُّ عنهُ مقدمةُ هـٰذا المقامِ ، والإعراضُ والحجابُ مقدمةُ السلوِّ ، وضيقُ الصدرِ بالبرِّ وانقباضُهُ عنْ دوامِ الذكرِ وملالُهُ لوظائفِ الأورادِ أسبابُ هـٰذهِ المعاني ومقدماتُها ، فظهورُ هـٰذهِ الأسبابِ دليلٌ على النقلِ مِنْ مقامِ الحبِّ إلىٰ مقامِ المقتِ نعوذُ باللهِ منهُ ، وملازمةُ الخوفِ لهـٰذهِ الأمورِ وشدَّةُ الحذرِ منها بصفاءِ المراقبةِ دليلُ صدقِ الحبِّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . خافَ ـ لا محالةَ ـ فقدَهُ ، فلا يخلو المحبُّ عنْ خوفٍ إذا كانَ المحبوبُ ممَّا يمكنُ فواتُهُ .

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ بمحضِ المحبَّةِ مِنْ غيرِ

خوفٍ.. هلكَ بالبسطِ والإدلالِ ، ومَنْ عبدَهُ مِنْ طريقِ الخوفِ مِنْ غيرِ محبّةٍ.. انقطعَ عنهُ بالبعدِ والاستيحاشِ ، ومَنْ عبدَهُ مِنْ طريقِ المحبّةِ والخوفِ.. أحبَّهُ اللهُ تعالىٰ ، فقرَّبَهُ ومكَّنَهُ وعلَّمَهُ)(١) .

فالمحبُّ لا يخلو عنْ خوفٍ ، والخائفُ لا يخلو عنْ محبّةٍ ، ولكنِ الذي غلبَتْ عليهِ المحبّةُ حتَّى اتسعَ فيها ، ولمْ يكنْ لهُ مِنَ الخوفِ إلا يسيرٌ.. يُقالُ : هوَ في مقامِ المحبّةِ ، ويُعدُّ مِنَ المحبِّينَ ، وكانَ شوبُ الخوفِ يسكنُ قليلاً مِنْ سكرِ الحبِّ ، فلوْ غلبَ الحبُّ واستولَتِ المعرفةُ.. لمْ تثبتْ لذلكَ طاقةُ البشرِ ، فإنَّما الخوفُ يعدلُهُ ويخفِّفُ وقعَهُ على القلبِ .

فقد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ : أنَّ بعضَ الصديقينَ سألَهُ بعضُ الأبدالِ أنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَهُ ذرَّةً مِنْ معرفتِهِ ، ففعلَ ذلكَ ، فهامَ في الجبالِ ، وحارَ عقلُهُ ، ولهَ قلبُهُ ، وبقيَ شاخصاً سبعةَ أيامٍ لا ينتفعُ بشيءٍ ، ولا ينتفعُ بهِ شيءٌ ، فسألَ لهُ الصدِّيقُ ربَّهُ تعالىٰ فقالَ : يا ربِّ أنقصْهُ مِنَ الذرّةِ بعضَها ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّما أعطيناهُ جزءاً مِنْ مئةِ ألفِ جزءٍ مِنْ ذرّةٍ مِنَ المعرفةِ ، وذلكَ أنَّ مئةَ ألفِ عبدٍ سألوني شيئاً مِنَ المحبّةِ في الوقتِ الذي سألَني هٰذا ، فأخَّرتُ إجابتَهُمْ إلىٰ أنْ شفعتَ أنتَ لهٰذا ، فلما أجبتُكَ فيما سألتَ : أعطيتُهُمْ كما أعطيتُهُ ، فقسمتُ ذرَّةً مِنَ المعرفةِ بينَ مئةِ ألفِ عبدٍ ، فهٰذا ما أصابَهُ مِنْ ذلكَ ، فقالَ : سبحانَكَ يا أحكمَ الحاكمينَ ! أنقصْهُ ممَّا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٩) ، وفيه (عرف) بدل (عبد) في المواضع الثلاثة .

أعطيتَهُ ، فأذهبَ اللهُ عنهُ جملةَ الجزءِ ، وبقيَ معهُ عشْرُ معشارِهِ ، وهوَ جزءٌ مِنْ عشرةِ آلافِ ألفِ جزءٍ مِنْ ذرةٍ[1] ، فاعتدلَ خوفُهُ وحبُّهُ ورجاؤُهُ ، وسكنَ وصارَ كسائرِ العارفينَ[2] .

وقدْ قيلَ في وصفِ حالِ العارفِ[3] : [من الوافر]

قَرِيبُ ٱلْوَجْدِ ذُو مَرْمىً بَعِيدٍ ... عَنِ ٱلأَحْرارِ مِنْهُمْ وَٱلْعَبِيدِ
غَرِيبُ ٱلْوَصْفِ ذُو عِلْمٍ غَرِيبٍ ... كَأَنَّ فُؤادَهُ زُبَرُ ٱلْحَدِيدِ
لَقَدْ عَزَّتْ مَعَانِيهِ فَغَابَتْ ... عَنِ ٱلأَبْصارِ إلا لِلشَّهِيدِ
يَرَى ٱلأَعْيادَ فِي ٱلأَوْقاتِ تَجْرِي ... لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ عِيدِ
وَلِلأَحْبابِ أَفْراحٌ بِعِيدٍ ... وَلا يَجِدُ ٱلسُّرُورَ لَهُ بِعِيدِ

وقدْ كانَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ ينشدُ أبياتاً يشيرُ بها إلىٰ أسرارِ أحوالِ العارفينَ وأنَّ ذلكَ لا يجوزُ إظهارُهُ ، وهيَ هٰذهِ الأبياتُ[4] : [من الطويل]

سَرتْ بِأُناسٍ فِي ٱلْغُيُوبِ قُلُوبُهُمْ ... فَحَلُّوا بِقُرْبِ ٱلْمَاجِدِ ٱلْمُتَفَضِّلُ
عِراصاً بِقُرْبِ ٱللهِ فِي ظِلِّ قُدْسِهِ ... تَجُولُ بِهَا أَرْواحُهُمْ وَتَنَقَّلُ
مَوارِدُهُمْ فِيها عَلَى ٱلْعِزِّ وَٱلنُّهَى ... وَمَصْدَرُهُمْ عَنْها لِمَا هُوَ أَكْمَلُ

---

(١) في (ب ، د ، ع ، ف) : (وهو جزء من ألف ألف جزء) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٠) .
(٣) هٰكذا أنشد هٰذه الأبيات صاحب « القوت » ، إلا أنه بتقديم البيت الأخير على الذي قبله . « إتحاف » (٩/ ٦٣١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٥٩) ، الإتحاف (٩/ ٦٣٢) .

تَـرُوحُ بِعـزٍّ مُفْـرَدٍ مِـنْ صِفـاتِـهِ وَفِي حُلَلِ ٱلتَّوْحِيدِ تَمْشِي وَتَرْفُلُ
وَمِنْ بَعْدِ هَـٰذا مَا تَدِقُّ صِفاتُهُ وَمَـا كَتْمُـهُ أَوْلَـىٰ لَـدَيـهِ وَأَعْـدَلُ
سَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي بِهِ ما يَصُونُهُ وَأَبْذُلُ مِنْهُ مَا أَرَى ٱلْحَقَّ يَبْذُلُ
وَأُعْطِي عِبادَ ٱللهِ مِنْهُ حُقُوقَهُمْ وَأَمْنَعُ مِنْهُ ما أَرَى ٱلْمَنْعَ يفْضُلُ
عَلَىٰ أَنَّ لِلرَّحْمَـٰنِ سِرّاً يَصُونُهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي ٱلسِّرِّ وَٱلصَّوْنُ أَجْمَلُ

وأمثالُ هـٰذهِ المعارفِ التي إليها الإشارةُ لا يجوزُ أنْ يشتركَ الناسُ فيها ، ولا يجوزُ أنْ يظهرَها مَنِ انكشفَ لهُ شيءٌ منها لِمَنْ لمْ ينكشفْ لهُ ، بلْ لوِ اشتركَ الناسُ فيها . . لخربَتِ الدنيا ، فالحكمةُ تقتضي شمولَ الغفلةِ لعمارةِ الدنيا .

بلْ لوْ أكلَ الناسُ كلُّهُمُ الحلالَ أربعينَ يوماً . . لخربَتِ الدنيا ؛ لزهدِهِمْ فيها ، وبطلَتِ الأسواقُ والمعايشُ .

بلْ لوْ أكلَ العلماءُ الحلالَ . . لاشتغلوا بأنفسِهِمْ ، ولوقفَتِ الألسنةُ والأقدامُ عنْ كثيرٍ ممَّا انتشرَ مِنَ العلومِ ، ولكنْ للهِ تعالىٰ فيما هوَ شرٌّ في الظاهرِ أسرارٌ وحكمٌ ، كما أنَّ لهُ في الخيرِ أسراراً وحكماً ، ولا منتهىٰ لحكمتِهِ ، كما لا غايةَ لقدرتِهِ .

❊ ❊ ❊

ومنها : كتمانُ الحبِّ ، واجتنابُ الدعوىٰ ، والتوقِّي مِنْ إظهارِ الوجدِ والمحبَّةِ :

تعظيماً للمحبوبِ ، وإجلالاً لهُ ، وهيبةً منهُ ، وغيرةً على سرِّهِ ؛ فإنَّ الحبَّ سرٌّ مِنْ أسرارِ الحبيبِ ، ولأنَّهُ قدْ يدخلُ في الدعوىٰ ما يتجاوزُ حدَّ المعنىٰ ويزيدُ عليهِ ، فيكونُ ذلكَ مِنَ الافتراءِ ، وتعظمُ العقوبةُ عليهِ في العقبىٰ ، وتتعجَّلُ عليهِ البلوىٰ في الدنيا .

نعمْ ، قدْ يكونُ للمحبِّ سكرةٌ في حبِّهِ حتَّىٰ يدهشَ فيهِ ، وتضطربَ أحوالُهُ ، فيظهرَ عليهِ حبُّهُ ، فإنْ وقعَ ذلكَ عنْ غيرِ تمحُّلٍ أوِ اكتسابٍ . . فهوَ معذورٌ ؛ لأنَّهُ مقهورٌ .

وربَّما تشتعلُ مِنَ الحبِّ نيرانُهُ ، فلا يُطاقُ سلطانُهُ ، وقدْ يفيضُ القلبُ بهِ فلا يندفعُ فيضانُهُ فالقادرُ على الكتمانِ يقولُ : [من الطويل]

وَقَالُوا: قَرِيبٌ، قلتُ: ما أَنَا صانِعٌ ... بِقُرْبِ شُعاعِ ٱلشَّمْسِ لَوْ كَانَ فِي حِجْرِي
فَمَا لِيَ مِنْهُ غَيْرُ ذِكْرٍ بخاطِرٍ ... يُهَيِّجُ نارَ ٱلْحُبِّ وَٱلشَّوْقِ فِي صَدْرِي

والعاجزُ عنهُ يقولُ : [من السريع]

يُخْفِي فَيُبْدِي ٱلدَّمْعُ أَسْرارَهُ ... وَيُظْهِرُ ٱلْوَجْدَ عَلَيْهِ ٱلنَّفَسْ

ويقولُ أيضاً[1] : [من الطويل]

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعْ غَيْرِهِ كَيْفَ حالُهُ ... وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (أكثرُ الناسِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بعداً أكثرُهُمْ

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/ ٨١) .

إشارةً بهِ)[١] ، كأنَّهُ أرادَ مَنْ يكثرُ التعريضَ بهِ في كلِّ شيءٍ ، ويظهرُ التصنُّعَ بذكرِهِ عندَ كلِّ أحدٍ ، فهوَ ممقوتٌ عندَ المحبِّينَ والعلماءِ باللهِ عزَّ وجلَّ .

ودخلَ ذو النونِ المصريُّ علىٰ بعضِ إخوانِهِ ممَّنْ كانَ يذكرُ المحبَّةَ ، فرآهُ مبتلىً ببلاءٍ ، فقالَ : لا يحبُّهُ مَنْ وجدَ ألمَ ضربِهِ ، فقالَ الرجلُ : لكنِّي أقولُ : لا يحبُّهُ مَنْ لمْ يتنعَّمْ بضربِهِ ، فقالَ ذو النونِ : ولكنِّي أقولُ : لا يحبُّهُ مَنْ شهرَ نفسَهُ بحبِّهِ ، فقالَ الرجلُ : أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ[٢] .

* * *

فإنْ قلتَ : المحبَّةُ منتهى المقاماتِ ، وإظهارُها إظهارٌ للخيرِ ، فلماذا يُستنكرُ ؟

فاعلمْ : أنَّ المحبَّةَ محمودةٌ ، وظهورُها محمودٌ أيضاً ، وإنَّما المذمومُ التظاهرُ بها ؛ لما يدخلُ فيهِ مِنَ الدعوىٰ والاستكبارِ ، وحقُّ المحبِّ أنْ ينمَّ علىٰ حبِّهِ الخفيِّ أفعالُهُ وأحوالُهُ دونَ أقوالِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يظهرَ حبُّهُ مِنْ غيرِ قصدٍ منهُ إلىٰ إظهارِ الحبِّ ، ولا إلىٰ إظهارِ الفعلِ الدالِّ على الحبِّ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ قصدُ المحبِّ اطلاعَ الحبيبِ فقطْ ، فأمَّا إرادتُهُ اطلاعَ غيرِهِ . . فشركٌ في الحبِّ ، وقادحٌ فيهِ ؛ كما وردَ في الإنجيلِ : (إذا تصدقتَ . . فتصدَّقْ بحيثُ لا تعلمُ شمالُكَ ما صنعَتْ يمينُكَ ، فالذي يرى الخفيَّاتِ

(١) طبقات الصوفية (ص٧٣) ، قوت القلوب (٢/ ٦٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٧) .

يجزيكَ بهِ علانيةً ، وإذا صمتَ . . فاغسلْ وجهَكَ وادهنْ رأسَكَ ؛ لئلا يعلمَ بذلكَ غيرُ ربِّكَ)[1] .

فإظهارُ القولِ والفعلِ كلُّهُ مذمومٌ ، إلا إذا غلبَ سكرُ الحبِّ فانطلقَ اللسانُ واضطربَتِ الأعضاءُ . . فلا يلامُ فيهِ صاحبُهُ .

حُكِيَ أنَّ رجلاً رأىٰ مِنْ بعضِ المجانينِ ما استجهلَهُ فيهِ[2] ، فأخبرَ بذلكَ معروفاً الكرخيَّ رحمهُ اللهُ ، فتبسَّمَ ثمَّ قالَ : يا أخي ؛ لهُ محبُّونَ صغارٌ وكبارٌ ، وعقلاءُ ومجانينُ ، فهـٰذا الذي رأيتَهُ مِنْ مجانينِهِم[3] .

وممَّا يكرهُ التظاهرُ بالحبِّ بسببِهِ : أنَّ المحبَّ إنْ كانَ عارفاً ، وعرفَ أحوالَ الملائكةِ في حبِّهِمُ الدائمِ وشوقِهِمُ اللازمِ ، الذي بهِ يسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترونَ ، ولا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ . . لاستنكفَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ إظهارِ حبِّهِ ، وعلمَ قطعاً أنَّهُ أخسُّ المحبينَ في مملكتِهِ ، وأنَّ حبَّهُ أنقصُ مِنْ حبِّ كلِّ محبٍّ للهِ تعالىٰ .

قالَ بعضُ المكاشفينَ مِنَ المحبِّينَ : عبدتُ اللهَ تعالىٰ ثلاثينَ سنةً بأعمالِ القلوبِ والجوارحِ علىٰ بذلِ المجهودِ واستفراغِ الطاقةِ ، حتَّىٰ ظننتُ أنَّ لي

---

(١) وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/١٣٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (إذا أصبح أحدكم صائماً . . فليترجَّل ، وإذا تصدق بصدقة بيمينه . . فليخفها عن شماله ، وإذا صلىٰ صلاة أو صلىٰ تطوعاً . . فليصلها في داخله) .

(٢) كذا في النسخ : (استجهله فيه) ، وفي (ق) : (استجلَّهُ فيه) .

(٣) قوت القلوب (٢/٦٧) .

عندَ اللهِ شأناً ، فذكرَ أشياءَ مِنْ مكاشفاتِ آياتِ السماواتِ في قصَّةٍ طويلةٍ قالَ في آخرِها : فبلغتُ صفّاً مِنَ الملائكةِ بعددِ جميعِ ما خلقَ اللهُ مِنْ شيءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : نحنُ المحبُّونَ للهِ عزَّ وجلَّ ، نعبدُهُ هـٰهنا منذُ ثلاثِ مئةِ ألفِ سنةٍ ، ما خطرَ علىٰ قلوبِنا قطُّ سواهُ ، ولا ذكرنا غيرَهُ ، قالَ : فاستحييتُ مِنْ أعمالي ، فوهبتُها لمَنْ حقَّ عليهِ الوعيدُ تخفيفاً عنهُمْ في جهنَّمَ[1] .

فإذاً ؛ مَنْ عرفَ نفسَهُ ، وعرفَ ربَّهُ ، واستحيا منهُ حقَّ الحياءِ . . خرِسَ لسانُهُ عنِ التظاهرِ بالدعوىٰ .

نعمْ ، يشهدُ علىٰ حبِّهِ حركاتُهُ وسكناتُهُ وإقدامُهُ وإحجامُهُ وتردداتُهُ ؛ كما حُكِيَ عنِ الجنيدِ أنَّهُ قالَ : مرضَ أستاذُنا السريُّ رحمهُ اللهُ ، فلمْ نعرفْ لعلَّتِهِ دواءً ، ولا عرفنا لها سبباً ، فوُصِفَ لنا طبيبٌ حاذقٌ ، فأخذنا قارورةَ مائِهِ ، فنظرَ إليهِ الطبيبُ وجعلَ ينظرُ ملياً ، ثمَّ قالَ لي : أراهُ بولَ عاشقٍ ، قالَ الجنيدُ : فصعقتُ وغُشيَ عليَّ ، ووقعتِ القارورةُ مِنْ يدي ، ثمَّ رجعتُ إلى السريِّ فأخبرتُهُ ، فتبسَّمَ ثمَّ قالَ : قاتلَهُ اللهُ ما أبصرَهُ ! قلتُ : يا أستاذُ ؛ وتبينُ المحبةُ في البولِ ؟ قالَ : نعمْ .

وقدْ قالَ السريُّ مرَّةً : (لوْ شئتُ أقولُ : ما أيبسَ جلدي علىٰ عظمي ، ولا سلَّ جسمي إلا حبُّهُ) ، ثمَّ غُشِيَ عليهِ[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٨) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٤٨٧) بنحوه .

وتدلُّ الغشيةُ علىٰ أنَّهُ أفصحَ في غلبةِ الوجدِ ومقدماتِ الغشيةِ فهٰذهِ مجامعُ علاماتِ الحبِّ وثمراتِهِ .

* * *

ومنها : الأنسُ والرضا : كما سيأتي .

وبالجملةِ : جميعُ محاسنِ الدينِ ومكارمِ الأخلاقِ ثمرةُ الحبِّ ، وما لا يثمرُهُ الحبُّ فهوَ اتباعُ الهوىٰ ، وهوَ مِنْ رذائلِ الأخلاقِ .

نعمْ ، قدْ يحبُّ اللهَ لإحسانِهِ إليهِ ، وقدْ يحبُّهُ لجلالِهِ وجمالِهِ وإنْ لمْ يحسنْ إليهِ ، والمحبُّونَ لا يخرجونَ عنْ هٰذينِ القسمينِ .

ولذلكَ قالَ الجنيدُ : (الناسُ في محبةِ اللهِ تعالىٰ عامٌّ وخاصٌّ ، فالعوامُّ نالوا ذلكَ بمعرفتِهِمْ في دوامِ إحسانِهِ وكثرةِ نعمِهِ ، فلمْ يتمالكوا أنْ أرضَوهُ ، إلا أنَّهُمْ تقلُّ محبتُهُمْ وتكثرُ علىٰ قدْرِ النعمِ والإحسانِ ، فأمَّا الخاصَّةُ . . فنالوا المحبَّةَ بعظمِ القدرِ والقدرةِ والعلمِ والحكمةِ والتفرُّدِ بالملكِ ، ولمَّا عرفوا صفاتِهِ الكاملةَ وأسماءَهُ الحسنىٰ . . لمْ يمتنعوا أنْ أحبُّوهُ ؛ إذِ استحقَّ عندَهُمُ المحبَّةَ بذلكَ لأنَّهُ أهلٌ لها ولوْ أزالَ عنهُمْ جميعَ النعمِ .

نعمْ ، مِنَ الناسِ مَنْ يحبُّ هواهُ وعدوَّ اللهِ إبليسَ ، وهوَ معَ ذلكَ يلبِّسُ علىٰ نفسِهِ بحكمِ الغرورِ والجهلِ ، فيظنُّ أنَّهُ محبٌّ للهِ عزَّ وجلَّ)(١) ، وهو الذي فُقدَتْ فيهِ هٰذهِ العلاماتُ ، أوْ يلبِّسُ بها نفاقاً ورياءً وسمعةً وغرضُهُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٨٢) .

عاجلُ حظِّ الدنيا ، وهوَ يظهرُ مِنْ نفسِهِ خلافَ ذلكَ ؛ كعلماءِ السوءِ وقرَّاءِ السوءِ ، أولئكَ بغضاءُ اللهِ في أرضِهِ .

وكانَ سهلٌ إذا تكلَّمَ معَ إنسانٍ . . قالَ : يا دُوْستُ[1] ـ أيْ : يا حبيبُ ـ فقيلَ لهُ : قدْ لا يكونُ حبيباً ، فكيفَ تقولُ هـٰذا ؟! فقالَ في أذنِ القائلِ سرّاً : لا يخلو إمَّا أنَّ يكونَ مؤمناً أوْ منافقاً ، فإنْ كانَ مؤمناً . . فهوَ حبيبُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وإنْ كانَ منافقاً . . فهوُ حبيبُ إبليسَ[2] .

وقدْ قالَ أبو ترابٍ النخشبيُّ في علاماتِ المحبَّةِ أبياتاً ، وهيَ[3] : [من الكامل]

لا تُخْدَعَنَّ فَلِلْمُحِبِّ دَلائِلُ ... وَلَدَيهِ مِنْ تُحَفِ ٱلْحَبِيبِ وَسائِلُ
مِنْهـا تنَعُّمُهُ بِمُرِّ بَلائِهِ ... وَسُرُورُهُ فِي كُلِّ ما هُوَ فاعِلُ
فَـٱلْمَنْعُ مِنْهُ عَطِيَّةٌ مَقْبُولَةٌ ... وَٱلْفَقْرُ إِكْرامٌ وَبِرٌّ عاجِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مِنْ عَزْمِهِ ... طوعَ ٱلْحَبِيبِ وَإِنْ أَلَحَّ ٱلْعاذِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَبَسِّماً ... وَٱلْقَلْبُ فِيهِ مِنَ ٱلْحَبِيبِ بَلابِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَفَهِّماً ... لِكَلامِ مَنْ يَحْظَىٰ لَدَيهِ ٱلسَّائِلُ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَقَشِّفاً ... مُتَحَفِّظاً مِنَ كُلِّ مَا هُوَ قَائِلُ

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ[3] : [من الكامل]

وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ مُشَمِّـراً ... فِي خِرْقَتَينِ عَلَىٰ شُطُوطِ ٱلسَّاحِلِ

---

(١) لفظة فارسية .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٨٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٦٣) .

وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ حُـزْنُـهُ وَنَحِيبُـهُ		جَوْفَ ٱلظَّلامِ فَما لَهُ مِنْ عاذِلِ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ أَنْ تَراهُ مُسافِراً		نَحْوَ ٱلْجِهَادِ وَكلِّ فِعْلٍ فَاضِلِ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ زُهْدُهُ فِيما يَرَى		مِـنْ دارِ ذُلٍّ وَٱلنَّعِيـمِ ٱلـزَّائِـلِ
وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ بـاكِيـاً		أَنْ قَـدْ رَآهُ عَلَـىٰ قَبِيـحِ فعـائِـلِ(١)
وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ مُسَلِّمـاً		كُلَّ ٱلأُمُورِ إِلَى ٱلْمَلِيكِ ٱلْعادِلِ
وَمِـنَ ٱلـدَّلائِـلِ أَنْ تَـراهُ راضِيـاً		بِمَلِيكِـهِ فِـي كُـلِّ حُكْـمٍ نـازِلِ
وَمِنَ ٱلدَّلائِلِ ضِحْكُهُ بَيْنَ ٱلْوَرَى		وَٱلْقَلْبُ مَحْزُونٌ كَقَلْبِ ٱلثاكِلِ

❋ ❋ ❋

(١) في غير (ع) : (فاعل) بدل (فعائل) ، وفي (ب) : (باطل) .

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قدْ ذكرنا أنَّ الأنسَ والخوفَ والشوقَ مِنْ آثارِ المحبَّةِ ، إلا أنَّ هـٰذهِ آثارٌ مختلفةٌ ، تختلفُ على المحبِّ بحسَبِ نظرِهِ ، ومايغلبُ عليهِ في وقتِهِ ، فإذا غلبَ عليهِ التطلُّعُ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ إلىٰ منتهى الجمالِ ، واستشعرَ قصورَهُ عنِ الاطلاعِ علىٰ كنْهِ الجلالِ . . انبعثَ القلبُ إلى الطلبِ ، وانزعجَ لهُ ، وهاجَ إليهِ ، وتُسمَّىٰ هـٰذهِ الحالةُ في الانزعاجِ **شوقاً** ، وهوَ بالإضافةِ إلىٰ أمرٍ غائبٍ .

وإذا غلبَ عليهِ الفرحُ بالقربِ ، ومشاهدةُ الحضورِ بما هوَ حاصلٌ مِنَ الكشفِ ، وكانَ نظرُهُ مقصوراً علىٰ مطالعةِ الجمالِ الحاضرِ المكشوفِ ، غيرَ ملتفتٍ إلىٰ ما لم يدركْهُ بعدُ . . استبشرَ القلبُ بما يلاحظُهُ ، فيُسمَّى استبشارُهُ **أُنساً** .

وإنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ صفاتِ العزِّ ، والاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ ، وخطرِ إمكانِ الزوالِ والبعدِ . . تألَّمَ القلبُ بهـٰذا الاستشعارِ ، فيُسمَّىٰ تألُّمُهُ **خوفاً** .

وهـٰذهِ الأحوالُ تابعةٌ لهـٰذهِ الملاحظاتِ ، والملاحظاتُ تابعةٌ لأسبابٍ تقتضيها لا يمكنُ حصرُها ، **فالأنسُ** : معناهُ استبشارُ القلبِ وفرحُهُ بمطالعةِ الجمالِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا غلبَ ، وتجرَّدَ عنْ ملاحظةِ ما غابَ عنهُ ، وما يتطرَّقُ إليهِ مِنْ خطرِ الزوالِ . . عظمَ نعيمُهُ ولذَّتُهُ .

ومِنْ هنا نظرَ بعضُهُمْ حيثُ قيلَ لهُ : أنتَ مشتاقٌ ؟ فقالَ : لا ، إنَّما

الشوقُ إلىٰ غائبٍ ، فإذا كانَ الغائبُ حاضراً . . فإلىٰ مَنْ يُشتاقُ ؟ ![(١)] .

وهٰذا كلامُ مستغرقٍ بالفرحِ بما نالَهُ ، غيرِ ملتفتٍ إلىٰ ما بقيَ في الإمكانِ مِنْ مزايا الألطافِ .

ومَنْ غلبَ عليهِ حالُ الأنسِ . . لمْ تكنْ شهوتُهُ إلا في الانفرادِ والخلوةِ ، كما حُكِيَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ نزلَ مِنَ الجبلِ ، فقيلَ لهُ : مِنْ أينَ أقبلتَ ؟ فقالَ : مِنَ الأنسِ باللهِ[(٢)] .

وذلكَ لأنَّ الأنسَ باللهِ يلازمُهُ التوحُّش مِنْ غيرِ اللهِ ، بلْ كلُّ ما يعوِّقُ عنِ الخلوةِ فيكونُ مِنْ أثقلِ الأشياءِ على القلبِ ، كما رُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا كلَّمَهُ ربُّهُ . . مكثَ دهراً لا يسمعُ كلامَ أحدٍ مِنَ الناسِ إلا أخذَهُ الغشيانُ[(٣)] ؛ لأنَّ الحبَّ يُوجبُ عذوبةَ كلامِ المحبوبِ وعذوبةَ ذكرِهِ ، فيخرجُ مِنَ القلبِ عذوبةَ ما سواهُ .

ولذلكَ قالَ بعضُ الحكماءِ في دعائِهِ : (يا مَنْ آنسَني بذكرِهِ ، وأوحشَني مِنْ خلقِهِ)[(٤)] .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لداوودَ عليهِ السلامُ : كُنْ لي مشتاقاً ، وبي مستأنساً ، ومِنْ سوايَ مستوحشاً)[(٥)] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠) .
(٣) في (ع ، ص) : (أخذه الغثيان) بدل (أخذه الغشيان) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٠٧) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٠٧) .

وقيلَ لرابعةَ : بِمَ نلتِ هـٰذهِ المنزلةَ ؟ قالَتْ : بتركي ما لا يعنيني ، وأُنسي بمَنْ لمْ يزلْ[١] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ براهبٍ فقلتُ لهُ : يا راهبُ ؛ لقدْ أعجبَتْكَ الوحدةُ ؟ فقالَ : يا هـٰذا ، لوْ ذقتَ حلاوةَ الوحدةِ . . لاستوحشتَ إليها مِنْ نفسِكَ ، الوحدةُ رأسُ العبادةِ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ ما أقلُّ ما تجدُ في الوحدةِ ؟ قالَ : الراحةُ مِنْ مداراةِ الناسِ ، والسلامةُ مِنْ شرِّهِمْ ، قلتُ : يا راهبُ ؛ متىٰ يذوقُ العبدُ حلاوةَ الأنسِ باللهِ تعالى ؟ قالَ : إذا صفا الوُدُّ ، وخلصَتِ المعاملةُ ، قلتُ : ومتىٰ يصفُو الودُّ ؟ قالَ : إذا اجتمعَ الهمُّ فصارَ همّاً واحداً في الطاعةِ[٢] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : عجباً للخلائقِ كيفَ أرادوا بكَ بدلاً ! عجباً للقلوبِ كيفَ استأنسَتْ بسواكَ عنكَ !

***

فإنْ قلتَ : فما علامةُ الأنسِ ؟

فاعلمْ : أنَّ علامتَهُ الخاصَّةَ ضيقُ الصدرِ مِنْ معاشرةِ الخلقِ ، والتبرُّمُ بِهِمْ ، واستهتارُهُ بعذوبةِ الذكرِ ، فإنْ خالطَ . . فهوَ كمنفردٍ في جماعةٍ ، ومجتمعٍ في خلوةٍ ، وغريبٍ في حضرٍ ، وحاضرٍ في سفرٍ ، وشاهدٍ في

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٠٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٠٧) .

غيبةٍ ، وغائبٍ في حضورٍ ، مخالطٌ بالبدنِ منفردٌ بالقلبِ ، مستغرقٌ بعذوبةِ الذكرِ ، كما قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ في وصفِهِمْ : (هُمْ قومٌ هجمَ بهِمُ العلمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا روحَ اليقينِ ، واستلانوا ما استوعرَ المترفونَ ، وأنسوا بما استوحشَ منهُ الجاهلونَ ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولئكَ خلفاءُ اللهِ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ)[١] .

فهٰذا معنى الأنسِ باللهِ ، وهٰذهِ علامتُهُ ، وهٰذهِ شواهدُهُ .

وقدْ ذهبَ بعضُ المتكلِّمينَ إلىٰ إنكارِ الأنسِ والشوقِ والحبِّ ؛ لظنِّهِ أنَّ ذلكَ يدلُّ على التشبيهِ ، وجهلِهِ بأنَّ جمالَ المدركاتِ بالبصائرِ أكملُ مِنْ جمالِ المبصراتِ ، ولذَّةَ معرفتِها أغلبُ علىٰ ذوي القلوبِ ، ومنهُمْ أحمدُ بنُ غالبٍ ، ويُعرفُ بغلامِ الخليلِ ، أنكرَ على الجنيدِ وعلىٰ أبي الحسينِ النوريِّ والجماعةِ حديثَ الحبِّ والشوقِ والعشقِ[٢] ، حتَّىٰ أنكرَ بعضُهُمْ مقامَ الرضا وقالَ : ليسَ إلا الصبرَ ، فأمَّا الرضا .. فغيرُ متصوَّرٍ ، وهٰذا كلُّهُ كلامُ ناقصٍ قاصرٍ ، لمْ يطلعْ مِنْ مقاماتِ الدينِ إلا على القشورِ ، فظنَّ أنَّهُ لا وجودَ إلا للقشرِ ، فإنَّ المحسوساتِ وكلَّ ما يدخلُ في الخيالِ في طريقِ الدينِ قشرٌ مجرَّدٌ ، ووراءَهُ اللبُّ المطلوبُ ، فمَنْ لمْ يصلْ مِنَ الجوزِ إلا إلىٰ قشرِهِ .. يظنُّ أنَّ الجوزَ خشبٌ كلُّهُ ، ويستحيلُ عندَهُ خروجُ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣١١) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٤) ، وفتنته تعرف بمحنة الصوفية ، حتىٰ رُفع أمرهم إلى القتل ، وتقدم تعليقاً ذكر قصتهم . وانظر « الحلية » (١٠/ ٢٥٠) .

الدهنِ منهُ لا محالةَ ، وهو معذورٌ ، ولكنَّ عذرَهُ غيرُ مقبولٍ ، وقدْ قيلَ[1] : [من البسيط]

الأُنْسُ بِـٱللهِ لا يَحْـوِيـهِ بَطَّـالُ		وَلَيْسَ يُدْرِكُهُ بِٱلْحَوْلِ مُحْتالُ
وٱلآنِسُونَ رِجالٌ كُلُّهُمْ نُجُبٌ		وَكُلُّهُـمْ صَفْـوَةٌ للهِ عُمَّـالُ

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٤) عن بعض العارفين .

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلمْ : أنَّ الأنسَ إذا دامَ وغلبَ واستحكمَ ، ولمْ يشوشْهُ قلقُ الشوقِ ، ولمْ ينغصْهُ خوفُ التغيُّرِ والحجابِ . . فإنَّهُ يثمرُ نوعاً مِنَ الانبساطِ في الأقوالِ والأفعالِ والمناجاةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يكونُ منكرَ الصورةِ لما فيهِ مِنَ الجراءةِ وقلَّةِ الهيبةِ ، ولكنَّهُ محتملٌ ممَّنْ أُقيمَ في مقامِ الأنسِ ، ومَنْ لمْ يقمْ في ذلكَ المقامِ ، ويتشبَّهْ بهِمْ في الفعلِ والكلامِ . . هلكَ بهِ وأشرفَ على الكفرِ .

ومثالُهُ : مناجاةُ بُرْخٍ الأسودِ الذي أمرَ اللهُ تعالىٰ كليمَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ أن يسألَهُ ليستسقيَ لبني إسرائيلَ بعدَ أنْ قحطوا سبعَ سنينَ ، وخرجَ موسىٰ عليهِ السلامُ يستسقي لهُمْ في سبعينَ ألفاً ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : كيفَ أستجيبُ لهُمْ وقدْ أظلمَتْ عليهِمْ ذنوبُهُمْ ، سرائرُهُمْ خبيثةٌ ، يدعونَني علىٰ غيرِ يقينٍ ، ويأمنونَ مكري ، ارجع إلىٰ عبدٍ مِنْ عبادي يُقالُ لهُ : بُرْخٌ ، فقلْ لهُ يخرجُ حتَّىٰ أستجيبَ لهُ ، فسألَ عنهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فلمْ يُعرفْ ، فبينا موسىٰ ذاتَ يومٍ يمشي في طريقٍ إذا بعبدٍ أسودَ قدِ استقبلَهُ بينَ عينيهِ ترابٌ مِنْ أثرِ السجودِ ، في شملةٍ قدْ عقدَها علىٰ عنقِهِ ، فعرفَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ بنورِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فسلَّمَ عليه وقالَ لهُ : ما اسمُكَ ؟ فقالَ : اسمي بُرْخٌ ، قالَ : فأنتَ طَلِبَتُنا منذُ حينٍ ، اخرجْ فاستسقِ لنا ، فخرجَ ، فقالَ في كلامِهِ : ما هٰذا مِنْ فعالِكَ ! ولا هٰذا مِنْ حلمِكَ ! وما الذي بدا لكَ ؟!

أنقصَتْ عليك عيونُكَ ؟!(١) أمْ عاندَتِ الرياحُ عنْ طاعتِكَ ؟! أمْ نفدَ ما عندَكَ ؟! أمِ اشتدَّ غضبُكَ على المذنبينَ ؟! ألستَ كنتَ غفّاراً ؟! قبلَ خلقِ الخطَّائينَ خلقتَ الرحمةَ ، وأمرتَ بالعطفِ ، أمْ ترينا أنَّكَ ممتنعٌ ؟! أمْ تخشى الفوتَ فتعجلَ بالعقوبةِ ؟! قالَ : فما برحَ حتَّى اخضلَّتْ بنو إسرائيلَ بالقطرِ ، وأنبتَ اللهُ تعالى العشبَ في نصفِ يومٍ حتَّىٰ بلغَ الرُّكَبَ ، قالَ : فرجعَ بُرْخٌ ، فاستقبلَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ فقالَ : كيفَ رأيتَ حينَ خاصمتُ ربِّي كيفَ أنصفَني ، فهمَّ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ بُرْخاً يضحكُني كلَّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ(٢) .

وعنِ الحسنِ قالَ : احترقَتْ أخصاصٌ بالبصرةِ ، فبقيَ في وسطِها خصٌّ لمْ يحترقْ ، وأبو موسىٰ يومئذٍ أميرُ البصرةِ ، فأُخبرَ بذلكَ ، فبعثَ إلىٰ صاحبِ الخُصِّ ، قالَ : فأُتيَ بشيخٍ ، فقالَ : يا شيخُ ؛ ما بالُ خُصِّكَ لمْ يحترقْ ؟ قالَ : إنِّي أقسمتُ علىٰ ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقَهُ ، فقالَ أبو موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُ : إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يكونُ في أمَّتي قومٌ شعثةٌ رؤوسُهُمْ دنسةٌ ثيابُهُمْ لوْ أقسموا على اللهِ . . لأبرَّهُمْ »(٣) .

---

(١) في (ب) : (أنقضت عليك عهودك) ، وفي « القوت » (٢/ ٦٥) : (غيوثك) وهي كذلك في (ف) .

(٢) يشير إلىٰ أنه من ضنائن أوليائه . « إتحاف » (٩/ ٦٤١) ، والخبر عند صاحب « القوت » (٢/ ٦٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الأولياء » (٤٢)، والمرفوع من حديثه عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٥٧٨)، ولفظ المصنف عند الخركوشي في «تهذيب الأسرار» (ص٥٩٢).

قالَ : ووقعَ حريقٌ بالبصرةِ ، فجاءَ أبو عبيدةَ الخوَّاصُ فجعلَ يتخطَّى النارَ ، فقالَ لهُ أميرُ البصرةِ : انظرْ ، لا تحترقْ بالنارِ ، فقالَ : إنِّي أقسمتُ علىٰ ربِّي عزَّ وجلَّ ألا يحرقَني بالنارِ ، قالَ : فاعزمْ عليها أنْ تطفأَ ، قالَ : فعزمَ عليها ، فطفئَتْ[1] .

وكانَ أبو حفصٍ يمشي ذاتَ يومٍ ، فاستقبلَهُ رستاقيٌّ مدهوشٌ ، فقالَ لهُ أبو حفصٍ : ما أصابَكَ ؟ فقالَ : ضلَّ حماري ولا أملكُ غيرَهُ ، قالَ : فوقفَ أبو حفصٍ وقالَ : وعزَّتِكَ لا أخطو خطوةً ما لمْ تردَّ عليهِ حمارَهُ ، قالَ : فظهرَ الحمارُ في الوقتِ ، ومرَّ أبو حفصٍ رحمَهُ اللهُ[2] .

فهـٰذا وأمثالُهُ يجري لذوي الأنسِ وليسَ لغيرِهِمْ أن يتشبَّهَ بهِمْ .

قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (أهلُ الأنسِ يقولونَ في كلامِهِمْ ومناجاتِهِمْ في خلواتِهِمْ أشياءَ هيَ كفرٌ عندَ العامَّةِ) ، وقال مرَّةً : (لو سمعَها العمومُ . . لكفَّروهُمْ) ، وهمْ يجدونَ المزيدَ في أحوالِهِمْ بذلكَ ، وذلكَ محتمَلٌ منهُمْ ويليقُ بهِمْ ، وإليهِ أشارَ القائلُ : [من البسيط]

قَـوْمٌ تَخـالُجُهُـمْ زَهْـوٌ بِسَيِّدِهِـمْ		وَٱلْعَبْدُ يَزْهُو عَلَىٰ مِقْدارِ مَوْلاهُ

تـاهُـوا بِـرُؤْيَتِـهِ عَمَّـا سِـواهُ لَـهُ		يا حُسْنَ رُؤْيَتِهِمْ في عزِّ ما تاهُوا

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٥٩٢) .
(٢) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٥٩٣) .

ولا تستبعدَنْ رضاهُ عنِ العبدِ بما يغضبُ بهِ علىٰ غيرِهِ مهما اختلفَ مقامُهُما ، ففي القرآنِ تنبيهاتٌ علىٰ هـٰذهِ المعاني لوْ فطنتَ وفهمتَ ، فجميعُ قصصِ القرآنِ تنبيهاتٌ لأولي البصائرِ والأبصارِ ؛ حتَّىٰ ينظروا إليها بعينِ الاعتبارِ ، وإنَّما هيَ عندَ ذوي الاغترارِ مِنَ الأسمارِ .

فأوَّلُ القصصِ قصَّةُ آدمَ عليهِ السلامُ وإبليسَ ، أما تراهُما كيفَ اشتركا في اسمِ المعصيةِ والمخالفةِ ، ثُمَّ تباينا في الاجتباءِ والعصمةِ ؛ أما إبليسُ . . فأبلسَ منْ رحمةِ اللهِ[1] ، وقيلَ : إنَّهُ مِنَ المبعدينَ . وأمَّا آدمُ عليهِ السلامُ . . فقيلَ فيهِ : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

وقد عاتبَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الإعراضِ عنْ عبدٍ والإقبالِ علىٰ عبدٍ وهما في العبوديَّةِ سيَّانِ ، ولكنْ في الحالِ مختلفانِ ، فقالَ : ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ ، وقالَ في الآخرِ : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ .

وكذلكَ أمرَهُ بالقعودِ معَ طائفةٍ فقالَ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ، وأمرَهُ بالإعراضِ عنْ غيرِهِمْ فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ حتى قالَ : ﴿ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ

---

(١) أبلس هنا : يئس .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ .

فكذا الانبساطُ والإدلالُ يُحتملُ مِنْ بعضِ العبادِ دونَ بعضٍ .

فمِن انبساطِ الأنسِ قولُ موسىٰ عليهِ السلامُ : ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ ﴾ ، وقولُهُ في التعلُّلِ والاعتذارِ لمَّا قيلَ لهُ : اذهبْ إلىٰ فرعونَ ، فقالَ : ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ ﴾ وقولُهُ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾ ، وهٰذا مِنْ غيرِ موسىٰ عليهِ السلامُ مِنْ سوءِ الأدبِ ؛ لأنَّ الذي أُقيمَ مقامَ الأنسِ يُلاطفُ ويُحتملُ .

ولمْ يُحتملْ ليونسَ عليهِ السلامُ ما دونَ هٰذا لما أُقيمَ مقامَ القبضِ والهيبةِ ، فعُوقبَ بالسجنِ في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ، ونُوديَ عليهِ إلىٰ يومِ الحشرِ : ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٌ ﴾ ، قالَ الحسنُ : (العراءُ : هوَ القيامةُ)[١] ، ونُهيَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يقتديَ بهِ وقيلَ لهُ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٌ ﴾ .

وهٰذهِ الاختلافاتُ بعضُها لاختلافِ الأحوالِ والمقاماتِ ، وبعضُها لما

---

(١) ولفظ « القوت » (٢/ ٦٤) ـ والسياق له ـ : (وقيل : عراء القيامة) .

سبقَ في الأزلِ مِنَ التفاضلِ والتفاوتِ في القسمةِ بينَ العبادِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ، وقالَ : ﴿ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، فكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ مِنَ المفضَّلينَ ، ولإدلالِهِ سلَّمَ علىٰ نفسِهِ فقالَ : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، وهـٰذا انبساطٌ منهُ لما شاهدَ مِنَ اللطفِ في مقامِ الأنسِ ، وأمَّا يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ . فإنَّهُ أُقيمَ مقامَ الهيبةِ والحياءِ ، فلمْ ينطقْ حتَّىٰ أثنىٰ عليهِ خالقُهُ فقالَ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ .

وانظرْ كيفَ احتملَ لإخوةِ يوسفَ عليهِ السلامُ ما فعلوهُ بيوسفَ ، وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (قدْ عددتُ مِنْ أوَّلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ إلىٰ رأسِ العشرينَ مِنْ إخبارِهِ تعالىٰ عنْ زهدِهِمْ فيهِ نيفاً وأربعينَ خطيئةً ، بعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ ، وقدْ يجتمعُ في الكلمةِ الواحدةِ الثلاثُ والأربعُ ، فغفرَ لهُمْ وعفا عنهُمْ ، ولمْ يحتملْ لعزيرٍ مسألةً واحدةً سألَ عنها في القدرِ ، حتَّىٰ قيلَ : مُحيَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ)[1] .

وكذلكَ كانَ بلعمُ بن باعوراءَ مِنْ أكابرِ العلماءِ ، فأكلَ الدنيا بالدينِ ،

---

(١) سؤال عزير رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٥٠) عن أبي عمران الجوني عن نوف قال : قال عزير فيما يناجي ربه عز وجل : تخلق خلقاً ؛ فتضل وتهدي من تشاء ، قال : فقيل : يا عزير ؛ أعرض عن هـٰذا ، لتعرضن عن هـٰذا أو لأمحونك من النبوة ، لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

فلمْ يُحتملْ لهُ ذلكَ وكانَ آصفُ مِنَ المسرفينَ ، وكانَتْ معصيتُهُ في الجوارحِ ، فعفا عنهُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ سليمانَ عليهِ السلامُ : يا رأسَ العابدينَ ، ويا بنَ محجةِ الزاهدينَ ؛ إلىٰ كمْ يعصيني ابنُ خالتِكَ آصفُ وأنا أحلمُ عليهِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، فوعزتي وجلالي ؛ لئنْ أخذَتْهُ عطفةٌ مِنْ عطفاتي عليه . . لأتركنَّهُ مُثلةً لمَنْ معَهُ ، ونكالاً لمَنْ بعدَهُ ، فلمَّا دخلَ آصفُ علىٰ سليمانَ عليهِ السلامُ . . أخبرَهُ بما أوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ ، فخرجَ حتَّىٰ علا كثيباً مِنْ رملٍ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ ويديهِ نحوَ السماءِ وقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، فكيفَ أتوبُ إنْ لم تتبْ عليَّ ، وكيفَ أستعصمُ إنْ لمْ تعصمْني ، لأعودَنْ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : صدقتَ يا آصفُ ، أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أستقبلُ التوبةَ إليَّ ، فقدْ تبتُ عليكَ ، وأنا التَّوابُ الرحيمُ وهـٰذا كلامُ مدلٍّ بهِ عليهِ ، وهاربٍ منهُ إليهِ ، وناظرٍ بهِ إليهِ[1] .

وفي الخبرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عبدٍ تداركَهُ بعدَ أنْ كان أشفىٰ على الهَلَكَةِ : كمْ مِنْ ذنبٍ واجهتَني بهِ غفرتُهُ لكَ قدْ أهلكتُ في دونهِ أمَّةً مِنَ الأممِ ؟![2] .

فهـٰذهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في عبادِهِ بالتفضيلِ ، والتقديمِ والتأخيرِ علىٰ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٦) .

ما سبقَتْ بهِ مشيئتُهُ الأزليَّةُ ، وهـٰذهِ القصصُ وردَتْ في القرآنِ لتعرفَ بها سنَّةَ اللهِ في عبادِهِ الذينَ خلوا مِنْ قبلُ ، فما في القرآنِ شيءٌ إلا وهوَ هدىً ونورٌ ، وتعرُّفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلىٰ خلقِهِ ، فتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بالتقديسِ فيقولُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ وتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بصفاتِ جلالِهِ فيقولُ : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ ، وتارةً يتعرَّفُ إليهِمْ بأفعالِهِ المخوِّفةِ والمرجوَّةِ ، فيتلو عليهِمْ سنَّتَهُ في أنبيائِهِ وفي أعدائِهِ فيقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ .

ولا يعدو القرآنُ هـٰذهِ الأقسامَ الثلاثةَ ؛ وهيَ الإرشادُ إلىٰ معرفةِ ذاتِ اللهِ تعالىٰ وتقديسِهِ ، أوْ معرفةِ صفاتِهِ وأسمائِهِ ، أوْ معرفةِ أفعالِهِ وسنَّتِهِ معَ عبادِهِ[1] .

ولمَّا اشتملَتْ سورةُ الإخلاصِ علىٰ أحدِ هـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ ؛ وهوَ التقديسُ . . وازنَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلثِ القرآنِ فقالَ : « مَنْ قرأَ سورةَ الإخلاصِ . . فقدْ قرأَ ثلثَ القرآنِ »[2] ؛ لأنَّ منتهى التقديسِ في أنْ

(١) ولذلك انقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام : توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال . « إتحاف » (٩/ ٦٤٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٦) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وهو عن غيره عند البخاري (٥٠١٤) ، ومسلم (٨١١) بنحوه .

يكونَ واحداً في ثلاثةِ أمورٍ : لا يكونُ حاصلاً منهُ مَنْ هوَ نظيرُهُ[١] وشبهُهُ ؛ ودلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ، ولا يكونُ هوَ حاصلاً ممَّنْ هوَ نظيرُهُ وشبهُهُ ؛ ودلَّ عليهِ قولُهُ : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، ولا يكونُ في درجتِهِ وإنْ لمْ يكنْ أصلاً لَهُ ولا فرعاً مَنْ هوَ مثلُهُ[٢] ؛ ودلَّ عليهِ قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، ويجمعُ جميعَ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وجملتُهُ تفصيلُ قولِكَ : لا إلٰهَ إلا اللهُ .

فهٰذهِ أسرارُ القرآنِ ، ولا تتناهىٰ أمثالُ هٰذهِ الأسرارِ في القرآنِ ، ولا رطبَ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ .

ولذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثوِّروا القرآنَ والتمسوا غرائبَهُ ، ففيهِ علمُ الأوَّلينَ والآخرينَ)[٣] ، وهوَ كما قالَ ، ولا يعرفُهُ إلا مَنْ طالَ في آحادِ كلماتِهِ فكرُهُ ، وصفا لها فهمُهُ ، حتَّىٰ تشهدَ لهُ كلُّ كلمةٍ منهُ بأنَّهُ كلامُ جبَّارٍ قاهرٍ ، مليكٍ مقتدرٍ ، وأنَّهُ خارجٌ عنْ حدِّ استطاعةِ البشرِ .

وأكثرُ أسرارِ القرآنِ معبَّأةٌ في طيِّ القصصِ والأخبارِ ، فكنْ حريصاً على

---

(١) في غير (ب ، ص) : (نوعه) بدل (نظيره) .

(٢) والعبارة في (أ) : (ولا يكون له شبيه ونظير) أي : بعد نفي الأصل والفرع .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٥) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٩٤) ولفظه : (من أراد العلم . . فليثور القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين) ، وقوله : (والتمسوا غرائبه) جاءت في المرفوع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٩٣٤) .

استنباطِها ؛ لينكشفَ لكَ فيها مِنَ العجائبِ ما تستحقرُ معَها العلومَ المزخرفةَ الخارجةَ عنها .

فهٰذا ما أردنا ذكرَهُ مِنْ معنى الأنسِ والانبساطِ الذي هوَ ثمرتُهُ ، وبيانِ تفاوتِ عبادِ اللهِ فيهِ ، واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أعلمُ .

* * *

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلمْ : أنَّ الرضا ثمرةٌ مِنْ ثمارِ المحبّةِ ، وهوَ مِنْ أعلىٰ مقامات المقرَّبينَ ، وحقيقتُهُ غامضةٌ على الأكثرينَ ، وما يدخلُ عليهِ مِنَ التشابهِ والإيهامِ غيرُ منكشفٍ إلا لمَنْ علَّمَهُ اللهُ تعالى التأويلَ ، وفهَّمَهُ وفقَّهَهُ في الدينِ .

فقدْ أنكرَ منكرونَ تصوُّرَ الرضا بما يخالفُ الهوىٰ ، ثمَّ قالوا : إنْ أمكنَ الرضا بكلِّ شيءٍ لأنَّهُ فعلُ اللهِ . . فينبغي أن يرضىٰ بالكفرِ والمعاصي .

وانخدعَ بذلكَ قومٌ ، فرأَوُا الرضا بالفجورِ والفسقِ ، وتركِ الاعتراضِ والإنكارِ ؛ مِنْ بابِ التسليمِ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ .

ولوِ انكشفَتْ هٰذهِ الأسرارُ لمَنِ اقتصرَ علىٰ سماعِ ظواهرِ الشرعِ . . لما دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ حيثُ قالَ : « اللهمَّ ؛ فقِّهْهُ في الدينِ ، وعلِّمْهُ التأويلَ »(١) .

فلنبدأْ ببيانِ فضيلةِ الرضا ، ثمَّ بحكاياتِ أحوالِ الراضينَ ، ثم بذكرِ حقيقةِ الرضا وكيفيةِ تصوُّرِهِ فيما يخالفُ الهوىٰ ، ثمَّ نذكرُ ما يُظنُّ أنَّهُ مِنْ تمامِ الرضا وليسَ منهُ ؛ كتركِ الدعاءِ والسكوتِ على المعاصي .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/٢٦٦) .

بيان فضيلة الرضا

أمّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ، ومنتهى الإحسانِ رضا اللهِ عنْ عبدِهِ ، وهوَ ثوابُ رضا العبدِ عَنِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، فقدْ رفعَ اللهُ الرضا فوقَ جناتِ عدنٍ ؛ كما رفعَ ذكرَهُ فوقَ الصلاةِ حيثُ قالَ : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، فكما أنَّ مشاهدةَ المذكورِ في الصلاةِ أكبرُ مِنَ الصلاةِ . . فرضوانُ ربِّ الجنةِ أعلىٰ مِنَ الجنةِ ، بلْ هوَ غاية مطالبِ سكّانِ الجنانِ ، وفي الحديثِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يتجلَّىٰ للمؤمنينَ ، فيقولُ : سلوني ، فيقولونَ : رضاكَ »[1] ، فسؤالُهُمُ الرضا بعدَ النظرِ نهايةُ التفضيلِ .

وأمّا رضا العبدِ . . فسنذكرُ حقيقتَهُ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٩١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر طويل ، وعند أبي يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٢٨) من حديثه أيضاً وفيه : « ثم يقول : ماذا تريدون ؟ فيقولون : ربنا ؛ رضوانك » .

وأمَّا رضوانُ اللهِ تعالىٰ عنِ العبدِ . . فهوَ بمعنىً آخرَ يقربُ ممَّا ذكرناهُ في حبِّ اللهِ للعبدِ ، ولا يجوزُ أنْ يُكشفَ عنْ حقيقتِهِ ، إذْ تقصرُ أفهامُ الخلقِ عنْ دركِهِ ، ومَنْ يقوىٰ عليهِ . . فيستقلُّ بإدراكِهِ مِنْ نفسِهِ .

وعلى الجملةِ : فلا رتبةَ فوقَ النظرِ إليهِ ، فإنَّما سألوا الرضا لأنَّهُ سببُ دوامِ النظرِ ، فكأنَّهُمْ رأَوا غايةَ الغاياتِ وأقصى الأمانيِّ لمَّا ظفروا بنعيمِ النظرِ ، فلمَّا أُمروا بالسؤالِ . . لم يسألوا إلا دوامَهُ ، وعلموا أنَّ الرضا هوَ سببُ دوامِ رفعِ الحجابِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ، قالَ بعضُ المفسرينَ فيهِ : يأتي أهلَ الجنَّةِ في وقتِ المزيدِ ثلاثُ تحفٍ مِنْ عند ربِّ العالمينَ ؛ إحداها : هديَّةٌ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ليسَ عندَهُمْ في الجنانِ مثلُها ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، والثانيةُ : السلامُ عليهِمْ مِنْ ربِّهِمْ ، فيزيدُ ذلكَ على الهديةِ فضلاً ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ، والثالثةُ : يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنِّي عنكُمْ راضٍ ، فيكونُ ذلكَ أفضلَ مِنَ الهديةِ والتسليمِ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أيْ : مِنَ النعيمِ الذي هُمْ فيهِ[1] ، فهـٰذا فضلُ رضا اللهِ تعالىٰ ، وهوَ ثمرةُ رضا العبدِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٣٩) .

وأمّا الأخبارُ :

فقدْ رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ طائفةً مِنْ أصحابِهِ : « ما أنتُمْ ؟ » ، فقالوا : مؤمنونَ ، فقالَ : « ما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فقالوا : نصبرُ على البلاءِ ، ونشكرُ عندَ الرخاءِ ، ونرضىٰ بمواقعِ القضاءِ ، فقالَ : « مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ »(١) .

وفي خبرٍ آخرَ أنَّهُ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « حكماءُ علماءُ ، كادوا مِنْ فقهِهِمْ أنْ يكونوا أنبياءَ »(٢) .

وفي الخبرِ : « طوبىٰ لمَنْ هُدِيَ إلى الإسلامِ ، وكانَ رزقُهُ كفافاً ، ورضيَ بهِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ رضيَ مِنَ اللهِ تعالىٰ بالقليلِ مِنَ الرزقِ . . رضيَ اللهُ تعالىٰ منهُ بالقليلِ مِنَ العملِ »(٤) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٤٠٠) .

(٣) رواه مسلم (١٠٥٤) ، والترمذي (٢٣٤٨) ، وفيهما : (وقنع به) بدل (ورضي به) ، وانظر « قوت القلوب » (٢/ ٣٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ١٢٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فإنْ صبرَ . . اجتباهُ ، فإنْ رضيَ . . اصطفاهُ »(١) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . أنبتَ اللهُ تعالىٰ لطائفةٍ مِنْ أمَّتي أجنحةً ، فيطيرونَ مِنْ قبورِهِمْ إلى الجنانِ ، يسرحونَ فيها ويتنعَّمونَ كيف شاؤوا ، فتقولُ لهُمُ الملائكةُ : هلْ رأيتُمُ الحسابَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا حساباً ، فيقولونَ : هلْ جُزتُمُ الصراطَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا صراطاً ، فيقولونَ لهُمْ : هل رأيتُمْ جهنَّمَ ؟ فيقولونَ : ما رأينا شيئاً ، فتقولُ الملائكةُ : مِنْ أمَّةِ مَنْ أنتُمْ ؟ فيقولونَ : مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقولونَ : ناشدناكُمُ اللهَ ؛ حدِّثونا ما كانَتْ أعمالُكُم في الدنيا ؟ فيقولونَ : خصلتانِ كانتا فينا ، فبلَّغَنا اللهُ هٰذهِ المنزلةَ بفضلِ رحمتِهِ ، فيقولونَ : وما هما ؟ فيقولونَ : كنَّا إذا خلونا . . نستحي أن نعصيَهُ ، ونرضىٰ باليسيرِ ممَّا قسمَ لنا ، فتقولُ الملائكةُ : يحقُّ لكُمْ هٰذا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا معشرَ الفقراءِ ؛ أعطوا اللهَ تعالى الرضا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٥٣) ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٩٧١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٣٩) ، حيث قال : (وقد روينا حديثاً حسناً ، كالمسند عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك) وذكره ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن حبان في « الضعفاء » ، وأبو عبد الرحمٰن السلمي من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن علي القيسي ، ساقط هالك ، والحديث منكر مخالف للقرآن والأحاديث الصحيحة في الورود وغيره) . « إتحاف » (٩/ ٦٥٠) .

مِنْ قلوبِكُمْ . . تظفروا بثوابِ فقرِكُمْ ، وإلا . . فلا »[1] .

وفي أخبارِ موسىٰ عليهِ السلامُ : أنَّ بني إسرائيلَ قالوا لهُ : سَلْ لنا ربَّكَ أمراً إذا نحنُ فعلناهُ . . يرضىٰ بهِ عنَّا ، فقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ قدْ سمعتَ ما قالوا ، فقالَ : يا موسىٰ ؛ قلْ لهُمْ يرضونَ عنِّي حتَّىٰ أرضىٰ عنهُمْ[2] .

ويشهدُ لهـٰذا ما رُوِيَ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ أحبَّ أنْ يعلمَ ما لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلينظرْ ما للهِ عزَّ وجلَّ عندَهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ ينزِلُ العبدَ منهُ حيثُ أنزلَهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ »[3] .

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ : (ما لأوليائِي والهمَّ بالدنيا ؟! إنَّ الهمَّ يذهبُ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلوبِهِمْ ، يا داوودُ ؛ إنَّ محبَّتي مِنْ أوليائي أنْ يكونوا روحانيينَ لا يغتمُّونَ)[4] .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : يا ربِّ ؛ دلَّني علىٰ أمرٍ فيهِ رضاكَ حتَّىٰ أعملَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ رضايَ في كرهِكَ ، وأنتَ لا تصبرُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٩٤) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢١٦) ، وحكىٰ سنده الحافظ ابن حجر في « زهر الفردوس » (٤/ ٢٨١) ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٢٨٣ ، ٦٥٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٣٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٥٢٢) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٤٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٧٩) .

علىٰ ما تكرهُ ، قالَ : يا ربِّ ؛ دلَّني عليهِ ، قالَ : فإنَّ رضايَ في رضاكَ بقضائي .

وفي مناجاةِ موسىٰ عليهِ السلامُ : أيْ ربِّ ؛ أيُّ خلقِكَ أحبُّ إليكَ ؟ قالَ : مَنْ إذا أخذتُ منهُ المحبوبَ . . سالمَني ، قالَ : فأيُّ خلقِكَ أنتَ عليهِ ساخطٌ ؟ قالَ : مَنْ يستخيرُني في الأمرِ ، فإذا قضيتُ لهُ . . سخطَ قضائي[1] .

وقدْ رُوِيَ ما هوَ أشدُّ مِنْ ذلكَ ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : (أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا ، مَنْ لمْ يصبرْ علىٰ بلائي ، ولمْ يشكرْ نعمائي ، ولمْ يرضَ بقضائي . . فليتخذْ ربّاً سوايَ)[2] .

ومثلُهُ في الشدَّةِ قولُهُ تعالىٰ فيما أخبرَ عنهُ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : قدرتُ المقاديرَ ودبرتُ التدبيرَ ، وأحكمتُ الصنعَ ، فمَنْ رضيَ . . فلهُ الرضا منِّي حتَّىٰ يلقاني ، ومَنْ سخطَ . . فلهُ السخطُ منِّي حتَّىٰ يلقاني »[3] .

وفي الخبرِ المشهورِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : خلقتُ الخيرَ والشرَّ ، فطوبىٰ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٤١) ، وقد روي مرفوعاً كما هو عند الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٢٠) ، وأبو نعيم في « معجم الصحابة » (٦/ ٣٠٤٧) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٤١) ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ؛ فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

لِمَنْ خلقتُهُ للخيرِ وأجريتُ الخيرَ علىٰ يديهِ ، وويلٌ لِمَنْ خلقتُهُ للشرِّ وأجريتُ الشرَّ علىٰ يديهِ ، وويلٌ ثمَّ ويلٌ لِمَنْ قالَ : لِمَ ؟ وكيفَ ؟ »[(١)] .

وفي الأخبارِ السالفةِ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ شكا إلى اللهِ تعالى الجوعَ والفقرَ والقملَ عشرَ سنينَ ، فما أُجيبَ إلىٰ ما أرادَ ، ثمَّ أوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : كمْ تشكو ؟! هٰكذا كانَ بدؤُكَ عندي في أمِّ الكتابِ قبلَ أن أخلقَ السماواتِ والأرضَ ، وهٰكذا سبقَ لكَ منِّي ، وهٰكذا قضيتُ عليكَ قبلَ أنْ أخلقَ الدنيا ، أفتريدُ أنْ أعيدَ خلقَ الدنيا مِنْ أجلِكَ ؟! أمْ تريدُ أنْ أبدلَ ما قدَّرتُهُ عليكَ فيكونَ ما تحبُّ فوقَ ما أحبُّ ، ويكونَ ما تريدُ فوقَ ما أريدُ ؟! وعزَّتي وجلالي ؛ لئنْ تلجلجَ[(٢)] هٰذا في صدرِكَ مرَّةً أخرىٰ . . لأمحونَّكَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ[(٣)] .

ورُوِيَ أنَّ آدمَ عليهِ السلامُ كانَ بعضُ أولادِهِ الصغارِ يصعدونَ علىٰ بدنِهِ وينزلونَ ، يجعلُ أحدُهُمْ رجلَهُ علىٰ أضلاعِهِ كهيئةِ الدرجِ ، فيصعدُ إلىٰ رأسِهِ ، ثمَّ ينزلُ علىٰ أضلاعِهِ كذلكَ ، وهوَ مطرقٌ إلى الأرضِ لا ينطقُ ولا يرفعُ رأسَهُ ، فقالَ لهُ بعضُ ولدِهِ : يا أبتِ ؛ أما ترىٰ ما يصنعُ هٰذا

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن شاهين في « شرح السنة » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف » ، وقد رواه دون الجملة الأخيرة منه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) في (أ) : (اختلج) بدل (تلجلج) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

بكَ ؟! لونهيتَهُ عنْ هـٰذا ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ إنِّي رأيتُ ما لم ترَوا ، وعلمتُ ما لمْ تعلموا ، إنِّي تحرَّكتُ حركةً واحدةً فأُهبطتُ مِنْ دارِ الكرامةِ إلىٰ دارِ الهوانِ ، ومِنْ دارِ النعيمِ إلىٰ دارِ الشقاءِ ، فأخافُ أن أتحرَّكَ حركةً أخرىٰ فيصيبَني ما لا أعلمُ)[1] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (خدمتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشرَ سنينَ ، فما قالَ لي لشيءٍ فعلتُهُ : لِمَ فعلتَهُ ، ولا لشيءٍ لمْ أفعلْهُ : ألا فعلتَهُ ، ولا قالَ في شيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ ، ولا في شيءٍ لمْ يكنْ : ليتَهُ كانَ ، وكانَ إذا خاصمَني مخاصمٌ مِنْ أهلِهِ يقولُ : « دعوهُ ، لوْ قُضِيَ شيءٌ . . لكانَ)[2] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ تريدُ وأريدُ ، وإنَّما يكونُ ما أريدُ ؛ فإنْ سلَّمتَ لما أريدُ . . كفيتُكَ ما تريدُ ، وإنْ لمْ تسلِّمْ لما أريدُ . . أتعبتُكَ فيما تريدُ ، ثمَّ لا يكونُ إلا ما أريدُ)[3] .

***

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أوَّلُ مَنْ يُدعىٰ إلى الجنةِ يومَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤١) .
(٢) رواه البخاري (٦٠٣٨) ، ومسلم (٢٣٠٩) إلىٰ قوله : (ألا فعلته) ، ورواه بتمامه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣١) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٥٣) .

القيامةِ الذينَ يحمدونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ)(١) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (ما بقيَ لي سرورٌ إلا في مواقعِ القدرِ)(٢) .

وقيلَ لهُ : ما تشتهي ؟ فقالَ : ما يقضي اللهُ تعالىٰ .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (مَنْ لمْ يرضَ بالقضاءِ . . فليسَ لحمقِهِ دواءٌ)(٣) .

وقالَ الفضيلُ : (إنْ لمْ تصلحْ علىٰ تقديرِ اللهِ . . لمْ تصلحْ علىٰ تقديرِ نفسِكَ) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (ليسَ الشأنُ في أكلِ خبزِ الشعيرِ والخلِّ ، ولا في لبسِ الصوفِ والشعرِ ، ولكنَّ الشأنَ في الرضا عن اللهِ عزَّ وجلَّ)(٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : (لأنْ ألحسَ جمرةً أحرقَتْ ما أحرقَتْ ، وأبقتْ ما أبقتْ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ ، أوْ لشيءٍ لمْ يكنْ : ليتَهُ كانَ)(٥) .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٦٩) من حديثه رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٠٩) عن الحسن البصري .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣/ ١٣٦) ضمن خبر له .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٢) من زيادات نعيم بن حماد .

ونظرَ رجلٌ إلىٰ قرحةٍ في رجْلِ محمدِ بن واسعٍ فقالَ : إنِّي لأرحمُكَ مِنْ هـٰذهِ القرحةِ ، فقالَ : إنِّي لأشكرُها منذُ خرجَتْ إذْ لمْ تخرجْ في عيني ![1] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ دهراً طويلاً ، فرأىٰ في المنامِ : فلانةُ الراعيةُ رفيقتُكَ في الجنةِ ، فسألَ عنها إلىٰ أنْ وجدَها ، فاستضافَها ثلاثاً لينظرَ إلىٰ عملِها ، فكانَ يبيتُ قائماً وتبيتُ نائمةً ، ويظلُّ صائماً وتظلُّ مفطرةً ، فقالَ : أما لكِ عملٌ غيرَ ما رأيتُ ؟ فقالَتْ : ما هوَ ـ واللهِ ـ إلا ما رأيتَ ، لا أعرفُ غيرَهُ ، فلمْ يزلْ يقولُ : تذكَّري حتَّىٰ قالَتْ : خُصيلةٌ واحدةٌ هيَ فيَّ ؛ إنْ كنتُ في شدَّةٍ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في رخاءٍ ، وإنْ كنتُ في مرضٍ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في صحَّةٍ ، وإنْ كنتُ في الشمسِ . . لمْ أتمنَّ أنْ أكونَ في الظلِّ ، فوضعَ العابدُ يدَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : أهـٰذهِ خُصيلةٌ ؟! هـٰذهِ ـ واللهِ ـ خصلةٌ عظيمةٌ يعجزُ عنها العبَّادُ[2] .

وعنْ بعضِ السلفِ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا قضىٰ في السماءِ قضاءً أحبَّ مِنْ أهلِ الأرضِ أنْ يرضَوا بقضائِهِ)[3] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكمِ ، والرضا بالقدرِ)[4] .

---

(١) رواه أبونعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٢) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٣٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٣) .
(٣) كذا في « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٥٤) ، وفي « القوت » (٢/ ٣٩) : (وقد روينا عن ابن مسعود : من رضي بما ينزل من السماء إلى الأرض . . غفر له) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٣٩) ، ورواه مع زيادة ابنُ المبارك في « الزهد » (١٢٣) من زيادات نعيم بن حماد .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما أبالي على أيِّ حالٍ أصبحتُ وأمسيتُ مِنْ شدَّةٍ أوْ رخاءٍ)[1] .

وقالَ الثوريُّ يوماً عندَ رابعةَ : اللهمَّ ؛ ارضَ عنَّا ، فقالتْ : أما تستحي مِنَ اللهِ أنْ تسألَهُ الرضا وأنتَ عنهُ غيرُ راضٍ ؟! فقالَ : أستغفرُ اللهَ ، فقالَ جعفرُ بنُ سليمانَ الضبعيُّ : فمتى يكونُ العبدُ راضياً عنِ اللهِ تعالى ؟ قالتْ : إذا كانَ سرورُهُ بالمصيبةِ مثلَ سرورِهِ بالنعمةِ[2] .

وكانَ الفضيلُ يقولُ : (إذا استوىٰ عندَهُ المنعُ والعطاءُ .. فقدْ رضيَ عنِ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مِنْ كرمِهِ قدْ رضيَ مِنْ عبيدِهِ بما رضيَ العبيدُ مِنْ مواليهِمْ ، قلتُ : وكيفَ ذاكَ ؟ قالَ : أليسَ مرادُ العبدِ مِنَ الخلقِ أنْ يرضىٰ عنهُ مولاهُ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإنَّ محبةَ اللهِ مِنْ عبيدِهِ أنْ يرضَوا عنهُ[4] .

وقالَ سهلٌ : (حظُّ العبيدِ مِنَ اليقينِ علىٰ قدْرِ حظِّهِمْ مِنَ الرضا ،

---

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٣٠٤) : (أخرجه الإسماعيلي في « مناقبه ») .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

وحظُّهُمْ مِنَ الرضا علىٰ قدْرِ عيشِهِمْ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بحكمِهِ وجلالِهِ جعلَ الرَّوْحَ والفرحَ في الرضا واليقينِ ، وجعلَ الغمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ »[2] .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ٤١) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١١٦) بنحوه ، ولفظ المصنف في « القوت » (٢/ ٤١) .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلمْ : أنَّ مَنْ قالَ : (ليسَ فيما يخالفُ الهوىٰ وأنواعَ البلاءِ إلا الصبرُ ، فأمَّا الرضا . . فلا يُتصوَّرُ) . . فإنَّما أُتِي مِنْ ناحيةِ إنكارِ المحبَّةِ ، فأمَّا إذا ثبتَ تصوُّرُ الحبِّ للهِ تعالىٰ ، واستغراقِ الهمِّ بهِ . . فلا يخفىٰ أنَّ الحبَّ يُورثُ الرضا بأفعالِ الحبيبِ ، ويكونُ ذلكَ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنْ يبطلَ الإحساسُ بالألمِ ، حتَّىٰ يجري عليهِ المؤلمُ ولا يحسُّ ، وتصيبُهُ جراحةٌ ولا يدركُ ألمَها ، ومثالُهُ : الرجلُ المحاربُ ؛ فإنَّهُ في حالِ غضبِهِ أوْ حالِ خوفِهِ قدْ تصيبُهُ جراحةٌ وهوَ لا يحسُّ بها ، حتَّىٰ إذا رأى الدمَ . . استدلَّ بهِ على الجراحةِ ، بلِ الذي يغدو في شغلٍ قريبٍ قدْ تصيبُهُ شوكةٌ في قدمِهِ ولا يحسُّ بألمِ ذلكَ ؛ لشغلِ قلبِهِ ، بلِ الذي يُحجَمُ أوْ يُحلقُ رأسُهُ بحديدةٍ كالَّةٍ يتألَّمُ بها ؛ فإنْ كانَ مشغولَ القلبِ بمهمٍّ مِنْ مهمَّاتِهِ . . فرغَ المزيِّنُ والحجَّامُ وهوَ لا يشعرُ بهِ ، وكلُّ ذلكَ لأنَّ القلبَ إذا صارَ مستغرقاً بأمرٍ مِنَ الأمورِ مستوفىً بهِ . . لمْ يدركْ ما عداهُ ، فكذلكَ العاشقُ المستغرقُ الهمِّ بمشاهدةِ معشوقِهِ أوْ بحبِّهِ قدْ يصيبُهُ ما كانَ يتألَّمُ بهِ أوْ يغتمُّ لهُ لولا عشقُهُ ، ثمَّ لا يدركُ غمَّهُ وألمَهُ لفرطِ استيلاءِ الحبِّ علىٰ قلبِهِ ، هـٰذا إذا أصابَهُ مِنْ غيرِ حبيبِهِ ، فكيفَ إذا أصابَهُ مِنْ حبيبِهِ ؟!

وشغلُ القلبِ بالحبِّ والعشقِ مِنْ أعظمِ الشواغلِ ، وإذا تُصوِّرَ هـٰذا في

ألمٍ يسيرٍ بسببِ حبٍّ خفيفٍ . . تُصوِّرَ في الألمِ العظيمِ بالحبِّ العظيمِ ؛ فإنَّ الحبَّ أيضاً يُتصوَّرُ تضاعفُهُ في القوَّةِ كما يُتصوَّرُ تضاعفُ الألمِ ، وكما يقوىٰ حبُّ الصورِ الجميلةِ المدركةِ بحاسَّةِ البصرِ . . فكذا يقوىٰ حبُّ الصورِ الجميلةِ الباطنةِ المدركةِ بنورِ البصيرةِ وجمالُ الحضرةِ الربوبيَّةِ وجلالُها لا يُقاسُ بهِ جمالٌ ولا جلالٌ ، فمَنْ ينكشفُ لهُ شيءٌ منهُ . . فقدْ يبهرُهُ بحيثُ يدهشُ ويُغشىٰ عليهِ ، فلا يحسُّ بما يجري عليهِ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عثرَتْ فانقطعَ ظفرُها ، فضحكَتْ ، فقيلَ لها : أما تجدينَ الوجعَ ؟ فقالَتْ : إنَّ لذَّةَ ثوابِهِ أزالَتْ عنْ قلبي مرارةَ وجعِهِ[1] .

وكانَ سَهلٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ به عِلَّةٌ يعالجُ غيرَهُ منها ولا يعالجُ نفسَهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ : فقالَ : يا دُوْستُ ؛ ضربُ الحبيبِ لا يوجعُ[2] .

وأمَّا **الوجهُ الثاني** : فهوَ أنْ يحسَّ بهِ ، ويدركَ ألمَهُ ، ولكنْ يكونُ راضياً بهِ ، بلْ راغباً فيهِ ، مريداً لهُ : أعني : بعقلِهِ ، وإنْ كانَ كارهاً لهُ بطبعِهِ ، كالذي يلتمسُ مِنَ الفصَّادِ الفصدَ والحجامةَ ؛ فإنَّهُ يدركُ ألمَ ذلكَ ، إلا أنَّهُ راضٍ بهِ وراغبٌ فيهِ ، ومتقلِّدٌ مِنَ الفصَّادِ منَّةً بفعلِهِ .

فهٰذا حالُ الراضي بما يجري عليهِ مِنَ الألمِ ، وكذلكَ كلُّ مَنْ يسافرُ في طلبِ الربحِ يدركُ مشقَّةَ السفرِ ، ولكنْ حبُّهُ لثمرةِ سفرِهِ طيَّبَ عندَهُ مشقَّةَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥١٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٧) ، ودوست : حبيب ، لفظة فارسية تقدم استخدامها .

السفرِ ، وجعلَهُ راضياً بها ، ومهما أصابَهُ بليَّةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ وكانَ لهُ يقينٌ بأنَّ ثوابَهُ الذي ادُّخرَ لهُ فوقَ ما فاتَهُ . . رضيَ بهِ ، ورغبَ فيهِ وأحبَّهُ ، وشكرَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، هـٰذا إنْ كانَ يلاحظُ الثوابَ والإحسانَ الذي يجازىٰ بهِ عليهِ .

ويجوزُ أنْ يغلبَ الحبُّ بحيثُ يكونُ حظُّ المحبِّ في مرادِ حبيبِهِ ورضاهُ ، لا لمعنىً آخرَ وراءَهُ ، فيكونُ مرادُ حبيبِهِ ورضاهُ محبوباً عندَهُ ومطلوباً ، وكلُّ ذلكَ موجودٌ في المشاهداتِ في حبِّ الخلقِ ، وقدْ تواصفَها المتواصفونَ في نظمِهِمْ ونثرِهِمْ ، ولا معنىٰ لهُ إلا ملاحظةُ جمالِ الصورةِ الظاهرةِ بالبصرِ .

فإنْ نظرَ إلى الجمالِ . . فما هوَ إلا جلدٌ علىٰ لحمٍ ودمٍ ، مشحونٌ بالأقذارِ والأخباثِ ، بدايتُهُ مِنْ نطفةٍ مذرةٍ ، ونهايتُهُ جيفةٌ قذرةٌ ، وهوَ فيما بينَ ذلكَ يحملُ العذرةَ .

وإنْ نظرَ إلى المدركِ للجمالِ . . فهيَ العينُ الخسيسةُ التي تغلطُ فيما ترىٰ كثيراً ، فترى الصغيرَ كبيراً ، والكبيرَ صغيراً ، والبعيدَ قريباً ، والقبيحَ جميلاً .

فإذا تُصوِّرَ استيلاءُ هـٰذا الحبِّ . . فمِنْ أينَ يستحيلُ ذلكَ في حبِّ الجمالِ الأزليِّ الأبديِّ ، الذي لا منتهىٰ لكمالِهِ المدرَكِ بعينِ البصيرةِ التي لا يعتريها الغلطُ ولا يدورُ بها الموتُ ، بلْ تبقىٰ بعدَ الموتِ حيَّةً عندَ اللهِ ، فرحةً برزقِ اللهِ تعالىٰ ، مستفيدةً بالموتِ مزيدَ تنبُّهٍ واستكشافٍ ؟!

فهٰذا أمرٌ واضحٌ مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ ، ويشهدُ لذلكَ الوجودُ وحكاياتُ أحوالِ المحبِّينَ وأقوالِهِمْ .

فقدْ قالَ شقيقٌ البلخيُّ : (مَنْ يرىٰ ثوابَ الشدَّةِ . . لا يشتهي المخرجَ منها) .

وقالَ الجنيدُ : سألتُ سريّاً السقطيَّ : هلْ يجدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ ؟ قالَ : لا ، قلتُ : وإنْ ضُربَ بالسيفِ ، قالَ : نعمْ ، وإنْ ضُربَ بالسيفِ سبعينَ ضربةً ، ضربةً علىٰ ضربةٍ .

وقالَ بعضُهُمْ : (أحببتُ كلَّ شيءٍ بحبِّهِ ، حتَّىٰ لوْ أحبَّ النارَ . . أحببتُ دخولَ النارِ) .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : مررتُ برجلٍ وقدْ ضُرِبَ ألفَ سوطٍ في شرقيَّةِ بغدادَ ولمْ يتكلَّمْ ، ثمَّ حُمِلَ إلى الحبسِ ، فتبعتُهُ ، فقلتُ لهُ : لِمَ ضُربتَ ؟ فقالَ : لأنِّي عاشقٌ ، فقلتُ لهُ : ولِمَ سكتَّ ؟ قالَ : لأنَّ معشوقي كانَ بحذائي ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : فلو نظرتَ إلى المعشوقِ الأكبرِ ! قالَ : فزعقَ زعقةً خرَّ ميّتاً .

وقالَ يحيى بن معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا نظرَ أهلُ الجنَّةِ إلى اللهِ تعالىٰ . . ذهبَتْ عيونُهُمْ في قلوبِهِمْ مِنْ لذَّةِ النظرِ إلى اللهِ تعالىٰ ثمانَ مئةِ سنةٍ لا ترجعُ إليهِمْ ، فما ظنُّكَ بقلوبٍ وقعَتْ بينَ جمالِهِ وجلالِهِ ، إذا لاحظَتْ جلالَهُ . . هابَتْ ، وإذا لاحظَتْ جمالَهُ . . تاهَتْ) .

وقالَ بشرٌ : قصدتُ عبّادانَ في بدايتي ؛ فإذا أنا برجلٍ أعمىٰ ،

مجذومٍ ، مجنونٍ قدْ صُرِعَ ، والنملُ يأكلُ لحمَهُ ، فرفعتُ رأسَهُ فوضعتُهُ في حجري وأنا أردِّدُ الكلامَ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : مَنْ هـٰذا الفضوليُّ الذي يدخلُ بيني وبينَ ربِّي ؟! لوْ قطَّعَني إِرْباً إِرْباً . . ما ازددتُ لهُ إلا حبّاً ، قالَ بشرٌ : فما رأيتُ بعدَ ذلكَ نعمةً بينَ عبدٍ وبينَ ربِّهِ فأنكرتُها[1] .

وقالَ أبو عمرٍو محمدُ بنُ الأشعثِ : (إنَّ أهلَ مصرَ مكثوا أربعةَ أشهرٍ لمْ يكنْ لهُمْ غذاءٌ إلا النظرَ إلىٰ وجهِ يوسفَ الصدِّيقِ عليهِ السلامُ ، كانوا إذا جاعوا . . نظروا إلىٰ وجهِهِ ، فشغلَهُمْ جمالُهُ عنِ الإحساسِ بألمِ الجوعِ) ، بلْ في القرآنِ ما هوَ أبلغُ مِنْ ذلكَ ، وهوَ قطعُ النسوةِ أيديَهُنَّ لاستهتارِهِنَّ بملاحظةِ جمالِهِ ، حتَّىٰ ما أحسسنَ بذلكَ .

وقالَ سعيدُ بنُ أحمدَ : رأيتُ بالبصرةِ في خانِ عطاءِ بنِ مسلمٍ شاباً وفي يدِهِ مديةٌ وهوَ ينادي بأعلىٰ صوتِهِ والناسُ حولَهُ وهوَ يقولُ[2] : [من الكامل]

يَوْمُ ٱلْفِراقِ مِنَ القِيامَةِ أَطْوَلُ ... وَٱلْمَوْتُ مِنْ أَلَمِ ٱلتَّفَرُّقِ أَجْمَلُ
قالُوا ٱلرَّحِيلُ فَقُلْتُ لَسْتُ بِراحِلٍ ... لَـٰكِنَّ مُهْجَتِيَ ٱلَّتِي تَتَرَحَّلُ

ثمَّ بقرَ بالمديةِ بطنَهُ وخرَّ ميتاً ، فسألتُ عنهُ وعنْ أمرِهِ ، فقيلَ لي : إنَّهُ كانَ يهوىٰ فتىً لبعضِ الملوكِ حُجبَ عنهُ يوماً واحداً[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٣) .
(٢) انظر « تزيين الأسواق » (ص ١٣٨) .
(٣) أورده بلاغاً ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (١١٢٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٥٨) : (رواه أبو محمد السراج في « مصارع العشاق ») .

ويُروىٰ أنَّ يونسَ عليهِ السلامُ قالَ لجبريلَ : دلَّني علىٰ أعبدِ أهلِ الأرضِ ، فدلَّهُ علىٰ رجلٍ قدْ قطعَ الجذامُ يديهِ ورجليهِ وذهبَ ببصرِهِ ، فسمعَهُ وهوَ يقولُ : إلـٰهي ؛ متعتَني بهِما ما شئتَ أنتَ ، وسلبتَني ما شئتَ أنتَ ، وأبقيتَ لي فيكَ الأملَ ، يا برُّ يا وصولُ[1] .

ويُروىٰ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما أنَّهُ اشتكىٰ لهُ ابنٌ ، فاشتدَّ وجدُهُ عليهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ القومِ : لقدْ خشينا علىٰ هـٰذا الشيخِ إنْ حدثَ بهـٰذا الغلامِ حدثٌ ، فماتَ الغلامُ ، فخرجَ ابنُ عمرَ في جنازتِهِ وما رجلٌ أبدىٰ سروراً منهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ ابنُ عمرَ : إنَّما كانَ حزني رحمةً لهُ ، فلمَّا وقعَ أمرُ اللهِ . . رضينا بهِ[2] .

وقالَ مسروقٌ : كانَ رجلٌ بالباديةِ لهُ كلبٌ وحمارٌ وديكٌ ، فالديكُ يوقظُهُمْ للصلاةِ ، والحمارُ ينقلونَ عليهِ الماءَ ويحملُ لهُمْ خباءَهُمْ ، والكلبُ يحرسُهُمْ ، قالَ : فجاءَ الثعلبُ فأخذَ الديكَ ، فحزنوا لهُ ، وكانَ الرجلُ صالحاً ، فقالَ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ جاءَ ذئبٌ فخرقَ بطنَ الحمارِ فقتلَهُ ، فحزنوا عليهِ ، فقالَ الرجلُ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أُصيبَ الكلبُ بعدَ ذلكَ ، فقالَ : عسىٰ أن يكونَ خيراً ، ثمَّ أصبحوا ذاتَ يومٍ ، فنظروا فإذا قدْ سُبِيَ مَنْ حولَهُمْ وبقوا هُمْ ، قالَ : وإنَّما أُخذوا أولئكَ لما كانَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٩٨) .

عندَهُمْ مِنْ أصواتِ الكلابِ والحميرِ والديكةِ ، وكانَتِ الخيرةُ لهؤلاءِ في هلاكِ هـٰذهِ الحيواناتِ كما قدَّرَهُ الله تعالىٰ[1] .

فمَنْ عرفَ خفيَّ لطفِ اللهِ تعالىٰ . . رضيَ بفعلِهِ علىٰ كلِّ حالٍ .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ مرَّ برجلٍ أعمىٰ أبرصَ مقعدٍ ، مضروبِ الجنبينِ بفالجٍ ، وقدْ تناثرَ لحمُهُ مِنَ الجذامِ ، وهوَ يقولُ : الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتلىٰ بهِ كثيراً مِنْ خلقهِ ، فقالَ لهُ عيسىٰ : يا هـٰذا ؛ أيُّ شيءٍ مِنَ البلاءِ أراهُ مصروفاً عنكَ ؟ فقالَ : يا روحَ اللهِ ؛ أنا خيرٌ ممَّنْ لمْ يجعلِ اللهُ في قلبِهِ ما جعلَ في قلبي مِنْ معرفتِهِ ، فقالَ لهُ : صدقتَ ، هاتِ يدكَ ، فناولَهُ يدَهُ ، فإذا هوَ أحسنُ الناسِ وجهاً ، وأفضلُهُمْ هيئةً ، وقدْ أذهبَ اللهُ عنهُ ما كانَ بهِ ، فصحبَ عيسىٰ عليهِ السلامُ وتعبَّدَ معَهُ .

وقطعَ عروةُ بنُ الزبيرِ رجْلَهُ مِنْ ركبتِهِ مِنْ أكلةٍ خرجَتْ بها ، ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذي أخذَ منّي واحدةً ، وايمُكَ ؛ لئنْ كنتَ أخذتَ . . لقدْ أبقيتَ ، ولئنْ كنتَ ابتليتَ . . لقدْ عافيتَ ، ثمَّ لمْ يدعْ وردَهُ تلكَ الليلةَ[2] .

وكانَ ابنُ مسعودٍ يقولُ : (الفقرُ والغنىٰ مطيتانِ ، ما أبالي أيَّتَهُما ركبتُ ، إنْ كانَ الفقرُ . . فإنَّ فيهِ الصبرَ ، وإنْ كانَ الغنىٰ . . فإنَّ فيهِ البذلَ)[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (٢٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (١٣٨، ١٣٩)، وقوله : (وايمك) قسمٌ .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (قدْ نلتُ مِنْ كلِّ مقامٍ حالاً إلا الرضا ، فما لي منهُ إلا مشامُّ الريحِ ، وعلىٰ ذلكَ لوْ أدخلَ الخلائقَ كلَّهُمُ الجنةَ ، وأدخلَني النارَ . . كنتُ بذلكَ راضياً)(١) .

وقيلَ لعارفٍ آخرَ : هلْ نلتَ غايةَ الرضا عنهُ ؟ فقالَ : أمَّا الغايةُ . . فلا ، ولكنْ مقامٌ مِنَ الرضا قدْ نلتُهُ ، لوْ جعلَني جسراً علىٰ جهنَّمَ يعبرُ الخلائقُ عليَّ إلى الجنَّةِ ، ثمَّ ملأَ بي جهنَّمَ تحلَّةً لقسمِهِ وبدلاً مِنْ خليقتِهِ . . لأحببتُ ذلكَ مِنْ حكمِهِ ، ورضيتُ بهِ مِنْ قسمِهِ(٢) .

وهٰذا كلامُ مَنْ علمَ أنَّ الحبَّ قدِ استغرقَ همَّهُ حتَّىٰ منعَهُ الإحساسَ بألمِ النارِ ، وإنْ بقيَ إحساسٌ فيغمرُهُ ما يحصلُ مِنْ لذَّتِهِ في استشعارِهِ حصولَ رضا محبوبِهِ بإلقائِهِ إيَّاهُ في النارِ ، واستيلاءُ هٰذهِ الحالةِ غيرُ محالٍ في نفسِهِ وإنْ كانَ بعيداً مِنْ أحوالِنا الضعيفةِ ، ولكنْ لا ينبغي أن يستنكرَ الضعيفُ المحرومُ أحوالَ الأقوياءِ ويظنَّ أنَّ ما هوَ عاجزٌ عنهُ يعجزُ عنهُ الأولياءُ .

وقالَ الروذباريُّ : قلتُ لأبي عبدِ اللهِ بنِ الجلاءِ الدمشقيِّ : قولُ فلانٍ : (وددتُ أنَّ جسدي قُرِضَ بالمقاريضِ وأنَّ هٰذا الخلقَ أطاعوهُ) ما معناهُ ؟ فقالَ : يا هٰذا ، إنْ كانَ هٰذا من طريقِ الإشفاقِ والنصحِ للخلقِ . .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٢) عن بعض العارفين ، والمشهور عن أبي يزيد رضي الله عنه أنه قال مثل هٰذا في التوكل .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٢) .

فأعرفُ ، وإنْ كانَ مِنْ طريقِ التعظيمِ والإجلالِ . . فلا أعرفُ ، قالَ : ثمَّ غُشِيَ عليهِ[1] .

وقدْ كانَ عمرانُ بنُ الحصينِ قدِ استسقىٰ بطنُهُ ، فبقي ملقىً علىٰ ظهرِهِ ثلاثينَ سنةً لا يقومُ ولا يقعدُ ، قدْ نُقِبَ لهُ في سريرٍ مِنْ جريدٍ كانَ عليهِ موضعٌ لقضاءِ حاجتِهِ ، فدخلَ عليهِ مطرِّفٌ وأخوهُ العلاءُ[2] ، فجعلَ يبكي لما يرىٰ مِنْ حالِهِ ، فقالَ : لِمَ تبكي ؟ قالَ : لأنِّي أراكَ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ العظيمةِ ، قالَ : لا تبكِ ؛ فإنَّ أحبَّهُ إلى اللهِ تعالىٰ أحبُّهُ إليَّ ، ثمَّ قالَ : أحدِّثُكَ شيئاً لعلَّ اللهَ أنْ ينفعَكَ بهِ واكتمْ عليَّ حتَّىٰ أموتَ ، إنَّ الملائكةَ تزورُني فآنسُ بها ، وتسلِّمُ عليَّ فأسمعُ تسليمَها[3] .

فاعلمْ بذلكَ أنَّ هـٰذا البلاءَ ليسَ بعقوبةٍ ؛ إذْ هوَ سببُ هـٰذه النعمةِ الجسيمةِ ، فمَنْ يشاهدُ هـٰذا في بلائِهِ كيفَ لا يكونُ راضياً بهِ ؟!

قالَ : ودخلنا علىٰ سويدِ بنِ مثعبةَ نعودُهُ ، فرأينا ثوباً ملقىً ، فما ظننَّا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٢) ، والقول المذكور لزهير بن نعيم البابي ، رواه له الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٨٠) ، والضمير في (أطاعوه) عائد لله سبحانه وتعالىٰ ، فهو بقوله هـٰذا يتفدَّىٰ .

(٢) عند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٦٠) : (وفي « القوت » : « أو أخوه أبو العلاء » ، والصواب أبو العلاء ، وهو يزيد بن عبد الله الشخير العامري البصري) ، وفي مطبوعة « القوت » : (أو أخوه العلاء) ، واتفقت النسخ على المثبت .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٣) ، ومختصراً رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٤٢٨) ، والتفسير الآتي عنده .

أنَّ تحتَهُ شيئاً حتَّىٰ كُشِفَ ، فقالَتْ لهُ امرأتُهُ : أهلي فداؤُكَ ، ما نطعمُكَ ؟ ما نسقيكَ ؟ فقالَ : طالَتِ الضجعةُ ، ودبرَتِ الحراقيفُ ، وأصبحتُ نضواً لا أطعمُ طعاماً ولا أسيغُ شراباً منذُ كذا ـ فذكرَ أياماً ـ وما يسرُّني أنِّي نقصتُ مِنْ هٰذا قلامةَ ظفرٍ(١) .

ولمَّا قدمَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ إلىٰ مكةَ وكانَ قدْ كُفَّ بصرُهُ . . جاءَهُ الناسُ يُهرعونَ إليهِ ، كلٌّ واحدٍ يسألُهُ أنْ يدعوَ لهُ ، فيدعو لهٰذا ولهٰذا ، وكانَ مجابَ الدعوةِ ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ السائبِ : فأتيتُهُ وأنا غلامٌ ، فتعرَّفتُ إليهِ فعرفَني وقالَ : أنتَ قارىءُ أهلِ مكةَ ؟ قلتُ : نعمْ ، فذكرَ قصَّةً قالَ في آخرِها : فقلتُ لهُ : يا عمِّ ؛ أنتَ تدعو للناسِ ، فلوْ دعوتَ لنفسِكَ فردَّ اللهُ عليكَ بصرَكَ ، فتبسَّمَ وقالَ : يا بنيَّ ؛ قضاءُ اللهِ سبحانَهُ عندي أحسنُ مِنْ بصري(٢) .

وضاعَ لبعضِ الصوفيَّةِ ولدٌ صغيرٌ ثلاثةَ أيامٍ لمْ يُعرفْ لهُ خبرٌ ، فقيلَ لهُ : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ أنْ يردَّهُ عليكَ ، فقالَ : اعتراضي عليهِ فيما قضىٰ أشدُّ عليَّ مِنْ ذهابِ ولدي(٣) .

وعنْ بعضِ العبَّادِ أنَّهُ قالَ : إني أذنبتُ ذنباً عظيماً ، فأنا أبكي عليهِ منذُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤٣) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٦٣) ، والحراقيف : جمع حَرْقَفَة ، رأس الوَرِك .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٣) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٣) .

ستينَ سنةً ، وكانَ قدِ اجتهدَ في العبادةِ لأجلِ التوبةِ مِنْ ذلكَ الذنبِ ، فقيلَ لهُ : وما هوَ ؟ قالَ : قلتُ مرَّةً لشيءٍ كانَ : ليتَهُ لمْ يكنْ(١) .

وقالَ بعضُ السلفِ : لوْ قُرِضَ جسمي بالمقاريضِ . . لكانَ أحبَّ إليَّ مِنْ أنْ أقولَ لشيءٍ قضاهُ اللهُ سبحانَهُ : ليتَهُ لمْ يقضِهِ(٢) .

وقيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : هٰهنا رجلٌ قدْ تعبَّدَ خمسينَ سنةً ، فقصدَهُ ، فقالَ لهُ : يا حبيبي ؛ أخبرْني عنكَ : هلْ قنعتَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ أنستَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ رضيتَ عنهُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّما مزيدُكَ منهُ الصومُ والصلاةُ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : لولا أنِّي أستحيي منكَ . . لأخبرتُكَ بأنَّ معاملتَكَ خمسينَ سنةً مدخولةٌ(٢) .

ومعناهُ : أنَّكَ لمْ يُفتحْ لكَ بابُ القلبِ فترقىٰ إلىٰ درجاتِ القربِ بأعمالِ القلبِ ، وإنَّما أنتَ تُعدُّ في طبقةِ أصحابِ اليمينِ ؛ لأنَّ مزيدَكَ منهُ في أعمالِ الجوارحِ التي هيَ مزيدُ أهلِ العمومِ .

ودخلَ جماعةٌ مِنَ الناسِ على الشبليِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ في مارستانٍ قدْ حُبسَ فيهِ وقدْ جمعَ بينَ يديهِ حجارةً ، فقالَ : مَنْ أنتمْ ؟ فقالوا : محبُّوكَ ، فأقبلَ عليهِم يرميهِمْ بالحجارةِ ، فتهاربوا ، فقالَ : ما بالُكُمُ ادعيتُمْ محبَّتي ؟ إنْ صدقتُمْ . . فاصبروا علىٰ بلائي(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٣) ، وفيه (ثلاثين) بدل (ستين) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٣) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٥٢٥) .

وللشبليِّ رحمَهُ اللهُ[١] : [من البسيط]

إنَّ ٱلْمَحَبَّةَ لِلرَّحْمَـٰنِ أَسْكَرَنِي ... وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبّاً غَيْرَ سَكْرانِ

وقالَ بعضُ عبَّادِ أهلِ الشامِ : (كلُّكُمْ يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ مصدِّقاً ولعلَّهُ قدْ كذبَهُ ، وذلكَ أنَّ أحدَكُمْ لوْ كانَ لهُ إصبعٌ مِنْ ذهبٍ ظلَّ يشيرُ بها ، ولوْ كانَ بها شللٌ ظلَّ يواريها)[٢] ؛ يعني بذلكَ : أنَّ الذهبَ مذمومٌ عندَ اللهِ والناسُ يتفاخرونَ بهِ ، والبلاءُ زينةُ أهلِ الآخرةِ وهمْ يستنكفونَ منهُ .

وقيلَ : إنَّهُ وقعَ الحريقُ في السوقِ ، فقيلَ للسريِّ : احترقَ السوقُ وما احترقَ دكانُكَ ، فقالَ : الحمدُ للهِ ، ثمَّ قالَ : كيفَ قلتُ ؟! الحمدُ للهِ علىٰ سلامتي دونَ المسلمينَ !! فتابَ مِنَ التجارةِ ، وتركَ الحانوتَ بقيَّةَ عمرِهِ ؛ توبةً واستغفاراً مِنْ قولِهِ : الحمدُ للهِ[٣] .

فإذا تأمَّلتَ هـٰذهِ الحكاياتِ . . عرفتَ قطعاً أنَّ الرضا بما يخالفُ الهوىٰ ليسَ مستحيلاً ، بلْ هوَ مقامٌ عظيمٌ مِنْ مقاماتِ أهلِ الدينِ ، ومهما كانَ ذلكَ ممكناً في حبِّ الخلقِ وحظوظِهِمْ . . كانَ ممكناً في حبِّ الخالقِ تعالىٰ وحظوظِ الآخرةِ قطعاً ، وإمكانُهُ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : الرضا بالألمِ لما يُتوقَّعُ مِنَ الثوابِ الموجودِ ؛ كالرضا

---

(١) ديوانه (ص ١٢٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٤٦) ، وقال : (وبلغني عنه أنه كان يقول : قلت كلمة فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة ؛ يعني قوله : الحمد لله) .

بالفصدِ ، والحجامةِ ، وشرب الدواءِ انتظاراً للشفاءِ .

والثاني : الرضا بهِ لا لحظٍّ وراءَهُ ، بلْ لكونهِ مرادَ المحبوبِ ورضاً لهُ ، فقدْ يغلبُ الحبُّ بحيثُ ينغمرُ مرادُ المحبِّ في مرادِ المحبوبِ ، فيكونُ ألذُّ الأشياءِ عندَهُ سرورَ قلبِ محبوبِهِ ورضاهُ ونفوذَ إرادتِهِ ، ولوْ في هلاكِ روحِهِ ؛ كما قيلَ(١) : [من البسيط]

.... فَمـا لِجُـرْحٍ إذا أَرْضـاكُـمُ أَلَـمُ

وهٰذا ممكنٌ معَ الإحساسِ بالألمِ .

وقدْ يستولي الحبُّ بحيثُ يدهشُ عنْ إدراكِ الألمِ ، فالقياسُ والتجربةُ والمشاهدةُ دالَّةٌ علىٰ وجودِهِ ، فلا ينبغي أنْ ينكرَهُ مَنْ فقدَهُ مِنْ نفسِهِ ، لأنَّهُ إنَّما فقدَهُ لفقدِ سببِهِ ، وهوَ فرطُ حبِّهِ ، ومَنْ لمْ يذقْ طعمَ الحبِّ . لم يعرفْ عجائبَهُ ، فللمحبِّينَ عجائبُ أعظمُ ممَّا وصفناهُ .

وقدْ رُوِيَ عنْ عمرِو بنِ الحارثِ الرافقي(٢) قالَ : كنتُ في مجلسٍ بالرقَّةِ عندَ صديقٍ لي ،وكانَ معنا فتىً يتعشَّقُ جاريةً مغنِّيةً ، وكانَتْ معنا في المجلسِ ، فضربَتْ بالقضيبِ وغنَّتْ : [من مجزوء المتقارب]

عَـلامَـةُ ذُلِّ ٱلْهَـوَىٰ　　عَلَـى ٱلعـاشِقِيـنَ ٱلْبُكـا

---

(١) عجز بيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٠) ، وتمامه :

إن كان سركمُ ما قال حاسدنا　　فما لجرح إذا أرضاكمُ ألم

(٢) منسوب إلى الرافقة ، مدينة جانب الرقة ، بناها المنصور وأتمها المهدي . « إتحاف » (٩/ ٦٦٢) .

وَلا سِيَّمـــا عـــاشِـــقٍ   إذا لَـــمْ يَجِـــدْ مُشْتَكَـــىٰ

فقالَ لها الفتىٰ : أحسنتِ واللهِ يا سيِّدتي ، أفتأذنينَ لي أن أموتَ ؟ فقالَتْ : مُتْ راشداً ، قالَ : فوضعَ رأسَهُ على الوسادةِ ، وأطبقَ فمَهُ ، وغمَّضَ عينيهِ ، فحرَّكناهُ فإذا هوَ ميتٌ(١) .

وقالَ الجنيدُ : رأيتُ رجلاً متعلِّقاً بكُمِّ صبيٍّ وهوَ يتضرَّعُ إليهِ ويظهرُ لهُ المحبَّةَ ، فالتفتَ إليهِ الصبيُّ وقالَ لهُ : إلىٰ متىٰ ذا النفاقُ الذي تظهرُ لي ؟ فقالَ : قدْ علمَ اللهُ أنِّي صادقٌ فيما أوردُهُ ، حتَّىٰ لوْ قلتَ لي : مُتْ . . لمتُّ ، فقالَ : إنْ كنتَ صادقاً . . فمُتْ : قالَ : فتنحَّى الرجلُ وغمَّضَ عينيهِ ، فوُجِدَ ميتاً(٢) .

وقالَ سمنونٌ المحبُّ : كانَ في جيرانِنا رجلٌ ولهُ جاريةٌ يحبُّها غايةَ الحبِّ ، فاعتلَّتِ الجاريةُ ، فجلسَ الرجلُ ليصلحَ لها حَيْساً ، فبينا هوَ يحرِّكُ القِدْرَ إذْ قالتِ الجاريةُ : آهِ ، قالَ : فدهشَ الرجلُ ، وسقطتِ الملعقةُ مِنْ يدِهِ ، وجعلَ يحركُ ما في القِدْرِ بيدِهِ حتَّىٰ تساقطَتْ أصابعُهُ ، فقالَتِ الجاريةُ : ما هـٰذا ؟! قالَ الرجلُ : هـٰذا موضعُ قولِكِ : آهِ(٣) .

---

(١) رواه ابن الوشاء في « الموشىٰ » (ص٧٨) ضمن خبر عجيب ، فيه أنه مات مع الفتى القينةُ وابنة شيخ ، دفنوا بموضع واحد .

(٢) رواه السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص٢٧) .

(٣) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٤) ، ورواه ابن الجوزي في « ذم الهوىٰ » (٩٠٢) .

وحُكِيَ عنْ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ البغداديِّ قالَ : رأيتُ بالبصرةِ شابّاً على سطحٍ مرتفعٍ وقدْ أشرفَ على الناسِ وهوَ يقولُ : [من السريع]

مَنْ ماتَ عِشْقاً فَلْيَمُتْ هَكَذا لاَ خَيْرَ فِي عِشْقٍ بِلا مَوْتِ

ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ إلى الأرضِ ، فحملوهُ ميتاً[1] .

فهٰذا وأمثالُهُ قدْ يصدقُ بهِ في حبِّ المخلوقِ ، والتصديقُ بهِ في حبِّ الخالقِ أولىٰ ؛ لأنَّ البصيرةَ الباطنةَ أصدقُ مِنَ البصرِ الظاهرِ ، وجمالَ الحضرةِ الربانيَّةِ أوفىٰ مِنْ كلِّ جمالٍ ، بلْ كلُّ جمالٍ في العالمِ فهوَ حسنةٌ مِنْ حسناتِ ذلكَ الجمالِ .

نعمْ ، الذي فقدَ البصرَ ينكرُ جمالَ الصورِ ، والذي فقدَ السمعَ ينكرُ لذَّةَ الألحانِ والنغماتِ الموزونةِ ؛ فالذي فقدَ القلبَ لا بدَّ وأنْ ينكرَ أيضاً هٰذهِ اللَّذاتِ التي لا مَظِنَّةَ لها سوى القلبِ .

* * *

(١) كذا عند السلمي في « المقدمة في التصوف » (ص ٢٥) ، ومختصراً عند القشيري في « الرسالة » (ص٥٢٧) .

بيان أنّ الدعاء غير مناقضٍ للرّضا، ولا يُخرج صاحبه عن مقام الرّضا

وكذلكَ كراهةُ المعاصي ، ومقتُ أهلِها ، ومقتُ أسبابِها ، والسعيُ في إزالتِها بالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ لا يناقضُهُ أيضاً ، وقدْ غلطَ في ذلكَ بعضُ البطَّالينَ المغترِّينَ ، وزعموا أنَّ المعاصيَ والفجورَ والكفرَ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدرِهِ، فيجبُ الرضا بهِ، وهٰذا جهلٌ بالتأويلِ، وغفلةٌ عنْ أسرارِ الشرعِ.

فأمَّا الدعاءُ :

فقدْ تُعبِّدنا بهِ ، وكثرةُ دعواتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ علىٰ ما نقلناهُ في كتابِ الدعواتِ . تدلُّ عليهِ ، ولقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أعلى المقاماتِ مِنَ الرضا ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ بعضِ عبادِهِ بقولِهِ : ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ .

وأمَّا إنكارُ المعاصي وكراهتُها وعدمُ الرضا بها :

فقدْ تعبَّدَ اللهُ تعالىٰ بهِ عبادَهُ ، وذمَّهُمْ على الرضا بهِ فقالَ : ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وفي الخبرِ المشهورِ : « مَنْ شهدَ منكراً فرضيَ بهِ . . فكأنَّهُ قدْ فعلَهُ »(١) .

---

(١) رواه بنحوه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٧٨٥) ولفظه : « من شهد أمراً فكرهه . . كان كمن غاب عنه ، ومن غاب عن أمر فرضي به . . كان كمن شهده » .

وفي الحديثِ : « الدالُّ على الشرِّ . . كفاعلِهِ »(١) .

وعنِ ابن مسعودٍ : (إنَّ العبدَ ليغيبُ عنِ المنكرِ ويكونُ عليهِ مثلُ وزرِ صاحبِهِ ، قيلَ : وكيفَ ذلك ؟ قالَ : يبلغُهُ فيرضىٰ بهِ)(٢) .

وفي الخبرِ : « لوْ أنَّ عبداً قُتِلَ بالمشرقِ ورضيَ بقتلِهِ آخرُ بالمغربِ . . كانَ شريكاً في قتلِهِ »(٣) .

وقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالحسدِ والمنافسةِ في الخيراتِ وتوقِّي الشرورِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حسدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ حكمةً فهوَ يبثُّها في الناسِ ويعلِّمُها ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فسلَّطَهُ علىٰ هلكتِهِ في الحقِّ » ، وفي لفظٍ آخرَ : «ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهوَ يقومُ بهِ آناءَ الليلِ والنهارِ ، فيقولُ الرجلُ : لوْ آتاني اللهُ مثلَ ما آتىٰ هـٰذا . . لفعلتُ مثلَ ما يفعلُ »(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/٤٦) ، ورواه أبو بكر الإسماعيلي في « معجم الشيوخ » (١١٨) من حديث أنس رضي الله عنه ، وأورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٣١٢١) من حديث عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما .

(٢) قوت القلوب (٢/٤٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/٤٦) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً بهـٰذا اللفظ ، ولابن عدي ـ في « الكامل » [٧/ ٢٣٠] ـ من حديث أبي هريرة : « من حضر معصية فكرهها . . فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها وأحبها . . فكأنما حضرها » ، وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف) . « إتحاف » (٩/ ٦٦٤) .

(٤) كذا في « القوت » (٢/ ٤٩) بروايته ، وروى الحديث الأول منهما البخاري (٧٣) ، =

وأمّا بغضُ الكفّارِ والفجّارِ والإنكارُ عليهِمْ ومقتُهُمْ :

فما وردَ فيهِ مِنْ شواهدِ القرآنِ والأخبارِ لا يُحصىٰ ؛ مثلَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا ﴾ .

وفي الخبرِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ أخذَ الميثاقَ علىٰ كلِّ مؤمنٍ أنْ يبغضَ كلَّ منافقٍ ، وعلىٰ كلِّ منافقٍ أنْ يبغضَ كلَّ مؤمنٍ)(١) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »(٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أحبَّ قوماً ووالاهُمْ . . حُشِرَ معَهُمْ يومَ القيامةِ »(٣) .

= ومسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وروى الثاني منهما البخاري (٧٢٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٤٧) حيث قال : (وروينا في خبر) ولم يذكر رفعه ، والمعنىٰ في الآيات قبله ، ومما ورد في هـٰذا المعنىٰ ما رواه مسلم (٧٨) عن علي رضي الله عنه قال : (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ؛ إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم إليَّ ألا يحبّني إلا مؤمن ، ولا يبغضني إلا منافق) .

(٢) رواه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٤٧) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٩) من حديث أبي قرصافة رضي الله عنه ، وابن عدي في « الكامل » (١/ ٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوثقُ عرى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ »[1] .

وشواهدُ هـٰذا قدْ ذكرناها في بيانِ الحبِّ والبغضِ في اللهِ تعالىٰ مِنْ كتابِ آدابِ الصحبةِ ، وفي كتابِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فلا نعيدُهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ وردَتِ الآياتُ والأخبارُ بالرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ كانَتِ المعاصي بغيرِ قضاءِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ محالٌ ، وهوَ قادحٌ في التوحيدِ ، وإنْ كانَتْ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ . . فكراهتُها ومقتُها كراهةٌ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ السبيلُ إلى الجمعِ وهوَ متناقضٌ علىٰ هـٰذا الوجهِ ؟ وكيفَ يمكنُ الجمعُ بينَ الرضا والكراهةِ في شيءٍ واحدٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا يلتبسُ على الضعفاءِ القاصرينَ عنِ الوقوفِ علىٰ أسرارِ العلومِ ، وقدِ التبسَ علىٰ قومٍ حتَّىٰ رأَوُا السكوتَ عنِ المنكراتِ مقاماً مِنْ مقاماتِ الرضا ، وسمَّوهُ حسْنَ خلقٍ ، وهوَ جهلٌ محضٌ ، بلْ نقولُ : الرضا والكراهةُ يتضادانِ إذا تواردا علىٰ شيءٍ واحدٍ مِنْ جهةٍ واحدةٍ علىٰ وجهٍ واحدٍ ، فليسَ مِنَ التضادِّ في شيءٍ واحدٍ أنْ يُكرهَ مِنْ وجهٍ ويُرضىٰ بهِ مِنْ وجهٍ ؛ إذْ قدْ يموتُ عدوُّكَ الذي هوَ أيضاً عدوُّ بعضِ أعدائِكَ وساعٍ في

---

(1) رواه الطيالسي في « مسنده » (٧٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٤/٢٨٦) .

إهلاكِهِ ، فتكرهُ موتَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ماتَ عدوُّ عدوِّكَ ، وترضاهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ماتَ عدوُّكَ ، **وكذلكَ المعصيةُ لها وجهانِ** :

وجهٌ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُهُ واختيارُهُ وإرادتُهُ ، فيرضىٰ بهِ مِنْ هـٰذا الوجهِ ؛ تسليماً للمُلْكِ إلىٰ مالكِ المُلْكِ ، ورضاً بما يفعلُهُ فيهِ .

ووجهٌ إلى العبدِ مِنْ حيثُ إنَّهُ كسبُهُ ووصفُهُ وعلامةُ كونِهِ ممقوتاً عندَ اللهِ تعالىٰ وبغيضاً عندَهُ ، حيثُ سلَّطَ عليهِ أسبابَ البعدِ والمقتِ ، فهوَ مِنْ هـٰذا الوجهِ منكرٌ ومذمومٌ .

ولا ينكشفُ هـٰذا لكَ إلا بمثالٍ :

فلنفرضْ محبوباً مِنَ الخلقِ قالَ بينَ يدي محبِّيهِ : إنِّي أريدُ أنْ أميزَ بينَ مَنْ يحبُّني ويبغضُني ، وأنصبَ فيهِ معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً ، وهوَ أنِّي أقصدُ إلىٰ فلانٍ فأوذيهِ وأضربُهُ ضرباً يضطرُّهُ ذلكَ إلى الشتمِ لي ، حتَّىٰ إذا شتمَني . . أبغضتُهُ واتخذتُهُ عدوّاً لي ، فكلُّ مَنْ أحبَّهُ أعلمُ أيضاً أنَّهُ عدوِّي ، وكلُّ مَنْ أبغضَهُ أعلمُ أنَّهُ صديقي ومحبِّي .

ثمَّ فعلَ ذلكَ ، وحصلَ مرادُهُ مِنَ الشتمِ الذي هوَ سببُ البغضِ ، وحصلَ البغضُ الذي هوَ سببُ العداوةِ ، فحقٌّ علىٰ كلِّ مَنْ هوَ صادقٌ في محبَّتِهِ وعالمٌ بشروطِ المحبَّةِ أنْ يقولَ :

أما تدبيرُكَ في إيذاءِ هـٰذا الشخصِ وضربِهِ وإبعادِهِ وتعريضُكَ إيَّاهُ للبغضِ والعداوةِ . . فأنا محبٌّ لهُ وراضٍ بهِ ، فإنَّهُ رأيُكَ وتدبيرُكَ ، وفعلُكَ

وإرادتُكَ ، وأمَّا شتمُهُ إيَّاكَ . . فإنَّهُ عدوانٌ مِنْ جهتِهِ ؛ إذْ كانَ حقُّهُ أنْ يصبرَ ولا يشتمَ ، ولكنَّهُ كانَ مرادَكَ منهُ ، فإنَّكَ قصدتَ بضربِهِ استنطاقَهُ بالشتمِ الموجبِ للمقتِ ، فهوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ حصلَ علىٰ وَفْقِ مرادِكَ وتدبيرِكَ الذي دبَّرتَهُ . . فأنا راضٍ بهِ ، ولوْ لمْ يحصلْ . . لكانَ ذلكَ نقصاناً في تدبيرِكَ ، وتعويقاً في مرادِكَ ، وأنا كارهٌ لفواتِ مرادِكَ ، ولكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفٌ لهٰذا الشخصِ ، وكسبٌ لهُ ، وعدوانٌ وتهجُّمٌ منهُ عليكَ علىٰ خلافِ ما يقتضيهِ جمالُكَ ، إذْ كانَ ذلكَ يقتضي أنْ يحتملَ منكَ الضربَ ولا يقابلَ بالشتمِ . . فأنا كارهٌ لهُ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إليهِ ، ومِنْ حيثُ هوَ وصفٌ لهُ ، لا مِنْ حيثُ هوَ مرادُكَ ومقتضىٰ تدبيرِكَ .

وأمَّا بغضُكَ لهُ بسببِ شتمِكَ . . فأنا راضٍ بهِ ، ومحبٌّ لهُ ؛ لأنَّهُ مرادُكَ ، وأنا علىٰ موافقتِكَ أيضاً مبغضٌ لهُ ؛ لأنَّ شرطَ المحبِّ أنْ يكونَ حبيبُ المحبوبِ حبيباً ، وعدوُّهُ عدوّاً .

وأمَّا بغضُهُ لكَ . . فإنِّي أرضاهُ مِنْ حيثُ إنَّكَ أردتَ أنْ يبغضَكَ ، إذْ أبعدتَهُ عنْ نفسِكَ ، وسلَّطتَ عليهِ دواعيَ البغضِ ، ولكني أبغضُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُ ذلكَ المبغضِ وكسبُهُ وفعلُهُ ، وأمقتُهُ لذلكَ ، فهوَ ممقوتٌ عندي لمقتِهِ إيَّاكَ ، وبغضُهُ ومقتُهُ لكَ أيضاً مكروهٌ عندي مِنْ حيثُ إنَّهُ وصفُهُ ، وكلُّ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ . . فهوَ مرضيٌّ .

وإنَّما التناقضُ أنْ يقولَ : هوَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مرادُكَ مرضيٌّ ، ومِنْ حيثُ إنَّهُ

مرادُكَ مكروهٌ ، فأمّا إذا كانَ مكروهاً لا مِنْ حيثُ إنّهُ فعلُهُ ومرادُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ إنّهُ وصفُ غيرِهِ وكسبُهُ . . فهٰذا لا تناقضَ فيهِ ، ويشهدُ لذلكَ كلُّ ما يُكرهُ مِنْ وجهٍ ويُرضىٰ بهِ مِنْ وجهٍ ، ونظائرُ ذلكَ لا تُحصىٰ .

فإذاً ؛ تسليطُ اللهِ دواعيَ الشهوةِ والمعصيةِ عليهِ حتّىٰ يجرَّهُ ذلكَ إلىٰ حبِّ المعصيةِ ، ويجرَّهُ الحبُّ إلىٰ فعلِ المعصيةِ . . يضاهي ضربَ المحبوبِ للشخصِ الذي ضربناهُ مثلاً ليجرَّهُ الضربُ إلى الغضبِ ، والغضبُ إلى الشتمِ ، ومقتُ اللهِ تعالىٰ لِمَنْ عصاهُ ـ وإنْ كانَتْ معصيتُهُ بتدبيرِهِ ـ يشبهُ بغضَ المشتومِ لِمَنْ شتمَهُ وإنْ كانَ شتمُهُ إنّما يحصلُ بتدبيرِهِ واختيارِهِ لأسبابِهِ .

وفعلُ اللهِ تعالىٰ ذلكَ بكلِّ عبدٍ مِنْ عبيدِهِ ـ أعني : تسليطَ دواعي المعصيةِ عليهِ ـ يدلُّ علىٰ أنّهُ سبقَتْ مشيئتُهُ بإبعادِهِ ومقتِهِ ، فواجبٌ علىٰ كلِّ عبدٍ محبٍّ للهِ أنْ يبغضَ مَنْ أبغضَهُ اللهُ ، ويمقتَ مَنْ مقتَهُ اللهُ ، ويعاديَ مَنْ أبعدَهُ اللهُ عنْ حضرتِهِ ، وإنِ اضطرَّهُ بقهرِهِ وقدرتِهِ إلىٰ معاداتِهِ ومخالفتِهِ ؛ فإنّهُ بعيدٌ مطرودٌ ملعونٌ عنِ الحضرةِ ، وإنْ كانَ بعيداً بإبعادِهِ قهراً ، ومطروداً بطردِهِ اضطراراً .

والمبعدُ عنْ درجاتِ القربِ ينبغي أنْ يكونَ مقيتاً بغيضاً إلىٰ جميعِ المحبّينَ ؛ موافقةً للمحبوبِ بإظهارِ الغضبِ علىٰ مَنْ أظهرَ المحبوبُ الغضبَ عليهِ بإبعادِهِ .

وبهـٰذا يتقرَّرُ جميعُ ما وردَتْ بهِ الأخبارُ مِنَ البغضِ في اللهِ ، والحبِّ في اللهِ ، والتشديدِ على الكفَّارِ ، والتغليظِ عليهِمْ ، والمبالغةِ في مقتِهِمْ ، مع الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّهُ قضاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وهـٰذا كلُّهُ يُستمدُّ مِنْ سرِّ القدرِ الذي لا رخصةَ في إفشائِهِ ، وهوَ أنَّ الشرَّ والخيرَ كلاهما داخلانِ في المشيئةِ والإرادةِ ، ولكنَّ الشرَّ مرادٌ مكروهٌ ، والخيرَ مرادٌ مرضيٌّ بهِ ، فمَنْ قالَ : ليسَ الشرُّ مِنَ اللهِ . . فهوَ جاهلٌ ، وكذا مَنْ قالَ : إنَّهُما جميعاً منهُ مِنْ غيرِ افتراقٍ في الرضا والكراهةِ . . فهوَ أيضاً مقصِّرٌ ، وكشفُ الغطاءِ عنهُ غيرُ مأذونٍ فيهِ ، فالأولى السكوتُ والتأدُّبُ بأدبِ الشرعِ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القدرُ سرُّ اللهِ ، فلا تفشوهُ »[1] ، وذلكَ يتعلَّقُ بعلمِ المكاشفةِ ، وغرضُنا الآنَ بيانُ الإمكانِ فيما تُعبِّدَ بهِ الخلقُ مِنَ الجمعِ بينَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ومقتِ المعاصي معَ أنَّها مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ ظهرَ الغرضُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ كشفِ السرِّ فيهِ .

وبهـٰذا يُعرفُ أيضاً أنَّ الدعاءَ بالمغفرةِ ، والعصمةِ مِنَ المعاصي ، وسائرِ الأسبابِ المعينةِ على الدينِ . . غيرُ مناقضٍ للرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعبَّدَ العبادَ بالدعاءِ ليستخرجَ الدعاءُ منهُمْ صفاءَ الذكرِ وخشوعَ القلبِ ورقَّةَ

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨٢) .

التضرُّعِ ، ويكونَ ذلكَ جلاءً للقلبِ ومفتاحاً للكشفِ ، وسبباً لتواترِ مزايا اللطفِ ؛ كما أنَّ حملَ الكوزِ وشربَ الماءِ ليسَ مناقضاً للرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ في العطشِ ، وشربُ الماءِ طلبٌ لإزالةِ العطشِ ومباشرةُ سببٍ رتَّبَهُ مسبِّبُ الأسبابِ ؛ فكذلكَ الدعاءُ سببٌ رتَّبَهُ اللهُ تعالىٰ وأمرَ بهِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ التمسُّكَ بالأسبابِ جرياً علىٰ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ لا يناقضُ التوكُّلَ ، واستقصيناهُ في كتابِ التوكلِ ، فهوَ أيضاً لا يناقضُ الرضا ؛ لأنَّ الرضا مقامٌ يلاصقُ التوكُّلَ ويتصلُ بهِ .

نعمْ ، إظهارُ البلاءِ في معرضِ الشكوىٰ ، وإنكارُهُ بالقلبِ على اللهِ تعالىٰ . . مناقضٌ للرضا ، وإظهارُ البلاءِ علىٰ سبيلِ الشكرِ والكشفِ عنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ . . لا يناقضُ وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : مِنْ حسنِ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ألا يقولَ : هٰذا يومٌ حارٌّ[1] ؛ أيْ : في معرضِ الشكايةِ ، وذلكَ في الصيفِ ، فأمَّا في الشتاءِ . . فهوَ شكرٌ .

والشكوىٰ تناقضُ الرضا بكلِّ حالٍ ، وذمُّ الأطعمةِ وعيبُها يناقضُ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ مذمَّةَ الصنعةِ مذمَّةٌ للصانعِ ، والكلُّ مِنْ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وقولُ القائلِ : الفقرُ بلاءٌ ومحنةٌ ، والعيالُ همٌّ وتعبٌ ، والاحترافُ كدٌّ ومشقَّةٌ . . كلُّ ذلكَ قادحٌ في الرضا ، بلْ ينبغي أنْ يسلِّمَ التدبيرَ لمدبِّرِهِ ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٠) .

والمملكةَ لمالكِها ، ويقولَ ما قالَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا أبالي أصبحتُ غنيّاً أوْ فقيراً ، فإنِّي لا أدري أيُّهُما خيرٌ لي)[1] .

❋ ❋ ❋

(١) الرعاية (ص ٢٦١) ، وهو في « القوت » (٢/ ٤٠) .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلمْ : أنَّ الضعيفَ قدْ يظنُّ أنَّ نهيَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الخروجِ مِنْ بلدٍ ظهرَ بهِ الطاعونُ[1] يدلُّ على النهيِ عنِ الخروجِ مِنْ بلدٍ ظهرَتْ فيهِ المعاصي ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُما فرارٌ مِنْ قضاءِ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ محالٌ ، بلِ العلَّةُ في النهيِ عنْ مفارقةِ البلدِ بعدَ ظهورِ الطاعونِ أنَّهُ لوْ فُتِحَ هٰذا البابُ . . لارتحلَ عنهُ الأصحَّاءُ وبقيَ فيهِ المطعونونَ مهملينَ ، لا متعهِّدَ لهُمْ ، فيهلكونَ هزالاً وضرّاً ، ولذلكَ شبَّهَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الأخبارِ بالفرارِ مِنَ الزحفِ[2] ، ولوْ كانَ ذلكَ للفرارِ مِنَ القضاءِ . . لما أذنَ لمَنْ قاربَ البلدةَ في الانصرافِ ، وقدْ ذكرنا حكْمَ ذلكَ في كتابِ التوكلِ .

وإذا عُرِفَ المعنىٰ . . ظهرَ أنَّ الفرارَ مِنَ البلادِ التي هيَ مظانُّ المعاصي ليسَ فراراً مِنَ القضاءِ ، بلْ مِنَ القضاءِ الفرارُ ممَّا لا بدَّ مِنَ الفرارِ منهُ ، وكذلكَ مذمَّةُ المواضعِ التي تدعو إلى المعاصي ، والأسبابِ التي تدعو إليها ؛ لأجلِ التنفيرِ عنِ المعصيةِ . . ليسَ مذموماً ، فما زالَ السلفُ الصالحُ يعتادونَ ذلكَ ، حتَّى اتفقَ جماعةٌ علىٰ ذمِّ بغدادَ ، وإظهارِهِمْ ذلكَ ، وطلبِ

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣) ، ومسلم (٢٢١٨) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٤٥) .

الفرارِ منها ، فقالَ ابنُ المباركِ : قدْ طفتُ الشرقَ والغربَ فما رأيتُ بلداً شرّاً مِنْ بغدادَ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : هوَ بلدٌ تُزدرىٰ فيهِ نعمةُ اللهِ ، وتُستصغرُ فيهِ معصيةُ اللهِ[(١)] .

ولمَّا قدمَ خراسانَ . . قيلَ لهُ : كيفَ رأيتَ بغدادَ ؟ فقالَ : ما رأيتُ بها إلا شرطياً غضبانَ ، أوْ تاجراً لهفانَ ، أوْ قارئاً حيرانَ[(١)] .

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ ذلكَ مِنَ الغيبةِ ؛ لأنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لشخصٍ بعينِهِ حتَّىٰ يستضرَّ ذلكَ الشخصُ بهِ ، وإنَّما قصدَ بذلكَ تحذيرَ الناسِ .

وكانَ يخرجُ إلىٰ مكَّةَ وكانَ مقامُهُ ببغدادَ ريثَ استعدادِ القافلةِ ستةَ عشرَ يوماً ، فكانَ يتصدَّقُ بستةَ عشرَ ديناراً ؛ لكلِّ يومٍ دينارٌ كفارةً لمقامِهِ[(١)] .

وقدْ ذمَّ العراقَ جماعةٌ ؛ كعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وكعبِ الأحبارِ ، وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما لمولىً لهُ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : العراقَ ، فقالَ : فما تصنعُ بهِ ؟! بلغَني أنَّهُ ما مِنْ أحدٍ يسكنُ العراقَ إلا قيَّضَ اللهُ لهُ قريناً مِنَ البلاءِ ![(١)] .

وذكرَ كعبُ الأحبارِ يوماً العراقَ فقالَ : فيهِ تسعةُ أعشارِ الشرِّ ، وفيهِ الداءُ العضالُ ، وقدْ قيلَ : قُسِّمَ الخيرُ عشرةَ أجزاءٍ ، فتسعةُ أعشارِهِ بالشامِ ، وعشرُهُ بالعراقِ ، وقُسِّمَ الشرُّ عشرةَ أجزاءٍ على العكسِ مِنْ ذلكَ[(٢)] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٤٩) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١/ ١٥٩) بنحوه .

وقالَ بعضُ أصحابِ الحديثِ : كنَّا يوماً عندَ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فجاءَهُ صوفيٌّ متدرِّعٌ بعباءةٍ فأجلسَهُ إلىٰ جانبِهِ ، وأقبلَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : بغدادَ ، فأعرضَ عنهُ وقالَ : يأتينا أحدُهُمْ في زيِّ الرهبانِ ، فإذا سألناهُ أينَ تسكنُ . . قالَ : في عشِّ الظلمةِ ![(١)] .

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ يقولُ : (مثالُ المتعبِّدِ ببغدادَ مثالُ المتعبِّدِ في الحشِّ) .

وكانَ يقولُ : (لا تقتدوا بي في المقامِ بها ، مَنْ أرادَ أنْ يخرجَ . . فليخرجْ)[(٢)] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : لولا تعلُّقُ هؤلاءِ الصبيانِ بنا . . كانَ الخروجُ مِنْ هـٰذا البلدِ آثرَ في نفسي ، قيلَ : وأينَ تختارُ السكنى ؟ قالَ : بالثغورِ[(٣)] .

وقالَ بعضُهُمْ وقدْ سُئِلَ عنْ أهلِ بغدادَ : (زاهدُهُمْ زاهدٌ ، وشريرُهُمْ شريرٌ) .

فهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ بُلِيَ ببلدةٍ تكثرُ فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخيرُ . . فلا عذرَ لهُ في المقامِ بها ، بلْ ينبغي أنْ يهاجرَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .

(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .

وقالَ بعضُ أصحابِ الحديثِ : كنَّا يوماً عندَ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فجاءَهُ صوفيٌّ متدرِّعٌ بعباءةٍ فأجلسَهُ إلىٰ جانبِهِ ، وأقبلَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : أينَ تسكنُ ؟ فقالَ : بغدادَ ، فأعرضَ عنهُ وقالَ : يأتينا أحدُهُمْ في زيِّ الرهبانِ ، فإذا سألناهُ أينَ تسكنُ . . قالَ : في عشِّ الظلمةِ ![1] .

وكانَ بشرُ بنُ الحارثِ يقولُ : (مثالُ المتعبِّدِ ببغدادَ مثالُ المتعبِّدِ في الحشِّ) .

وكانَ يقولُ : (لا تقتدوا بي في المقامِ بها ، مَنْ أرادَ أنْ يخرجَ . . فليخرجْ)[2] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ يقولُ : لولا تعلُّقُ هؤلاءِ الصبيانِ بنا . . كانَ الخروجُ مِنْ هٰذا البلدِ آثرَ في نفسي ، قيلَ : وأينَ تختارُ السكنى ؟ قالَ : بالثغورِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ وقدْ سُئِلَ عنْ أهلِ بغدادَ : (زاهدُهُمْ زاهدٌ ، وشريرُهُمْ شريرٌ) .

فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ بُلِيَ ببلدةٍ تكثرُ فيها المعاصي ، ويقلُّ فيها الخيرُ . . فلا عذرَ لهُ في المقامِ بها ، بلْ ينبغي أنْ يهاجرَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .
(٢) نقلهما صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .
(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٦٧١) .

لا أكرهُ طولَ البقاءِ ، فقالَ سفيانُ : لِمَ ؟ قالَ : لعلي أصادفُ يوماً أتوبُ فيهِ وأعملُ صالحاً ، فقيلَ لوهيبٍ : أيشٍ تقولُ أنتَ ؟ فقالَ : أنا لا أختارُ شيئاً ، أحبُّ ذلكَ إليَّ أحبُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فقبَّلَهُ الثوريُّ بينَ عينيهِ وقالَ : روحانيَّةٌ وربِّ الكعبةِ(١) .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٤٤) .

بيان جملةٍ من حكايات المحبّين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيلَ لبعضِ العارفينَ : إنَّكَ محبٌّ ، فقالَ : لستُ محبّاً ، إنَّما أنا حبوبٌ ، والمحبُّ متعوبٌ[١] .

وقيلَ لهُ أيضاً : الناسُ يقولونَ : إنَّكَ واحدٌ مِنَ السبعةِ ، فقالَ : أنا كلُّ سبعةِ[٢] .

وكانَ يقولُ : إذا رأيتُمُوني .. فقدْ رأيتُمْ أربعينَ بدلاً ، قيلَ : وكيفَ أنتَ شخصٌ واحدٌ ؟ قالَ : لأنِّي رأيتُ أربعينَ بدلاً ، وأخذتُ مِنْ كلِّ بدلٍ لقاً مِنْ أخلاقِهِ[١] .

وقيلَ لهُ : بلغَنا أنَّكَ ترى الخضرَ عليهِ السلامُ ، فتبسَّمَ وقالَ : ليسَ عجبُ ممَّنْ يرى الخضرَ ، ولكنِ العجبُ ممَّنْ يريدُ الخضرُ أنْ يراهُ فيحتجبُ نهُ[١] .

ويحكىٰ عنِ الخضرِ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (ما حدثتُ نفسي يوماً قطُّ أنَّهُ مْ يبقَ وليٌّ للهِ تعالىٰ إلا عرفتُهُ إلا ورأيتُ في ذلكَ اليومِ وليّاً لمْ أعرفْهُ) .

وقيلَ لأبي يزيدَ البسطاميِّ مرَّةً : حدِّثْنا عنْ مشاهدتِكَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، صاحَ ثمَّ قالَ :

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٦٩) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٦٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٧) .

ويلَكُمْ ! لا يصلحُ لكُمْ أنْ تعلموا ذلكَ .

قيلَ : فحدثْنا بأشدِّ مجاهدتِكَ لنفسِكَ في اللهِ تعالىٰ .

فقالَ : وهـٰذا أيضاً لا يجوزُ أنْ أطلعَكُمْ عليهِ .

قيلَ : فحدثْنا عنْ رياضةِ نفسِكَ في بدايتِكَ .

فقالَ : نعمْ ، دعوتُ نفسي إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فجمحَتْ عليَّ ، فعزمتُ عليها ألا أشربَ الماءَ سنةً ، ولا أذوقَ النومَ سنةً ، فوفَّتْ لي بذلكَ(1) .

وحُكِيَ عنْ يحيىٰ بنِ معاذٍ أنَّهُ رأىٰ أبا يزيدَ في بعضِ مشاهداتِهِ مِنْ بعدِ صلاةِ العشاءِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ مستوفزاً علىٰ صدورِ قدميهِ ، رافعاً أخمصَهُما معَ عقبيهِ عنِ الأرضِ ، ضارباً بذقنِهِ علىٰ صدرِهِ ، شاخصاً بعينيهِ لا يطرفُ ، قالَ : ثمَّ سجدَ عندَ السحرِ فأطالَ ، ثمَّ قعدَ فقالَ :

اللهمَّ ؛ إنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمُ المشيَ على الماءِ ، والمشيَ في الهواءِ ، فرضوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ .

وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمْ طيَّ الأرضِ ، فرضوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ .

وإنَّ قوماً طلبوكَ فأعطيتَهُمْ كنوزَ الأرضِ ، فرضوا بذلكَ ، وإنِّي أعوذُ بكَ مِنْ ذلكَ .

---

(1) قوت القلوب (٢/ ٧٠) .

قالَ : حتَّىٰ عدَّ نيِّفاً وعشرينَ مقاماً مِنْ كراماتِ الأولياءِ ، ثمَّ التفتَ فرآني ، فقالَ :

يحيىٰ ! فقلتُ : نعمْ يا سيِّدي ، فقالَ : مُذْ متىٰ أنتَ هاهنا ؟ قلتُ : منذُ حينٍ ، فسكتَ .

فقلتُ : يا سيِّدي ؛ حدِّثْني بشيءٍ ، فقالَ :

أحدِّثُكَ بما يصلحُ لكَ ، أدخلَني في الفلكِ الأسفلِ ، فدوَّرَني في الملكوتِ السفليِّ ، وأراني الأرضينَ وما تحتَها إلى الثرىٰ ، ثمَّ أدخلَني في الفلكِ العلويِّ ، فطوَّفَ بي في السماواتِ ، وأراني ما فيها مِنَ الجنانِ إلى العرشِ ، ثمَّ أوقفَني بينَ يديهِ ، فقالَ :

سلْني أيَّ شيءٍ رأيتَ حتَّىٰ أهبَهُ لكَ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ ما رأيتُ شيئاً استحسنتُهُ فأسألَكَ إيَّاهُ ، فقالَ :

أنتَ عبدي حقّاً ، تعبدُني لأجلي صدقاً ، لأفعلَنَّ بكَ ولأفعلَنَّ ، فذكرَ أشياءَ .

قالَ يحيىٰ : فهالَني ذلكَ وامتلأتُ بهِ ، وعجبتُ منهُ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ لِمَ لا سألتَهُ المعرفةَ بهِ وقدْ قالَ لكَ ملكُ الملوكِ : سلْني ما شئتَ ؟

قالَ : فصاحَ بي صيحةً وقالَ : اسكتْ ويلَكَ ، غرتُ عليهِ منِّي ، حتَّىٰ لا أحبُّ أنْ يعرفَهُ سواهُ[١] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٠) .

وحُكِيَ أنَّ أبا ترابٍ النخشبيَّ كانَ معجباً ببعضِ المريدينَ ، فكانَ يدنيهِ ، ويقومُ بمصالحِهِ ، والمريدُ مشغولٌ بعبادتِهِ ومواجيدِهِ ، فقالَ لهُ أبو ترابٍ يوماً : لوْ رأيتَ أبا يزيدَ ، فقالَ المريدُ : إنِّي عنهُ مشغولٌ .

فلمَّا أكثرَ عليهِ أبو ترابٍ مِنْ قولِهِ : لوْ رأيتَ أبا يزيدَ . . هاجَ وجْدُ المريدِ فقالَ : ويحَكَ ! ما أصنعُ بأبي يزيدَ ؟ قدْ رأيتُ اللهَ تعالىٰ فأغناني عنْ أبي يزيدَ .

قالَ أبو ترابٍ : فهاجَ طبعي ، ولمْ أملكْ نفسي ، فقلتُ : ويلَكَ ! تغترُّ باللهِ عزَّ وجلَّ ؟! لوْ رأيتَ أبا يزيدَ مرَّةً واحدةً . . كانَ أنفعَ لكَ مِنْ أنْ ترى اللهَ سبعينَ مرَّةً ، قالَ : فبهتَ الفتىٰ مِنْ قولِهِ وأنكرَهُ ، فقالَ : وكيفَ ذلكَ ؟

قالَ لهُ : ويلَكَ ! إنَّما ترى اللهَ تعالىٰ عندَكَ ، فيظهرُ لكَ علىٰ مقدارِكَ ، وترىٰ أبا يزيدَ عندَ اللهِ قدْ ظهرَ لهُ علىٰ مقدارِهِ ، فعرفَ ما قلتُ ، فقالَ : احملْني إليهِ ، فذكرَ قصةً قالَ في آخرِها :

فوقفنا علىٰ تلٍّ ننتظرُهُ ليخرجَ إلينا مِنَ الغيضةِ ، وكانَ يأوي إلىٰ غيضةٍ فيها سباعٌ ، قالَ : فمرَّ بنا وقدْ قلبَ فروةً علىٰ ظهرِهِ ، فقلتُ للفتىٰ : هٰذا أبو يزيدَ فانظرْ إليهِ ، فنظرَ إليهِ الفتىٰ فصعقَ ، فحركناهُ فإذا هوَ ميتٌ ، فتعاونا علىٰ دفنِهِ ، فقلتُ لأبي يزيدَ :

يا سيِّدي نظرُهُ إليكَ قتلَهُ ؟ قالَ : لا ، ولكنْ كانَ صاحبُكَ صادقاً ، وأُسكنَ في قلبِهِ سرٌّ لمْ ينكشفْ لهُ بوصفِهِ ، فلمَّا رآنا . . انكشفَ لهُ سرُّ

قلبِهِ ، فضاقَ عنْ حملِهِ ؛ لأنَّهُ في مقامِ الضعفاءِ المريدينَ ، فقتلَهُ ذلكَ(١) .

ولـمَّا دخلَ الزنجُ البصرةَ ، فقتلوا الأنفسَ ، ونهبوا الأموالَ . . اجتمعَ إلىٰ سهلٍ إخوانُهُ ، فقالوا : لوْ سألتَ اللهَ تعالىٰ دفعَهُمْ ، فسكتَ ثمَّ قالَ :

إنَّ للهِ عباداً في هٰذهِ البلدةِ لوْ دعوا على الظالمينَ . . لمْ يصبحْ علىٰ وجهِ الأرضِ ظالمٌ إلا ماتَ في ليلةٍ واحدةٍ ، ولكنْ لا يفعلونَ ، قيلَ : لِمَ ؟

قالَ : لأنَّهُمْ لا يحبُّونَ ما لا يحبُّ ، ثمَّ ذكرَ مِنْ إجابةِ اللهِ تعالىٰ أشياءَ لا يُستطاعُ ذكرُها ، حتَّىٰ قالَ : ولوْ سألوهُ ألا يقيمَ الساعةَ . . لمْ يقمْها(٢) .

وهٰذهِ أمورٌ ممكنةٌ في أنفسِها ، فمَنْ لمْ يحظَ بشيءٍ منها . . فلا ينبغي أنْ يخلوَ عنِ التصديقِ والإيمانِ بإمكانِها ، فإنَّ القدرةَ واسعةٌ ، والفضلَ عظيمٌ(٣) ، وعجائبَ الملكِ والملكوتِ كثيرةٌ ، ومقدوراتِ اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لها ، وفضلَهُ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصطفىٰ لا غايةَ لهُ .

ولذلكَ كانَ أبو يزيدَ يقولُ : (إنْ أعطاكَ مناجاةَ موسىٰ ، وروحانيَّةَ عيسىٰ ، وخُلَّةَ إبراهيمَ عليهِمُ السلامُ . . فاطلبْ ما وراءَ ذلكَ ، فإنَّ عندَهُ فوقَ ذلكَ أضعافاً مضاعفةً ، فإنْ سكنتَ إلىٰ ذلكَ . . حجبَكَ بهِ ، وهٰذا بلاءُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٠) ، وقد ينكشف للمريد في صحبة العارفين والنظر إلىٰ وجوههم في لحظة واحدة ما لا ينكشف له بالاجتهاد في مدة متطاولة . « إتحاف » (٩/ ٦٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٧١) .

(٣) في (أ) : (عميم) بدل (عظيم) .

مثلِهِمْ ، ومَنْ هوَ في مثلِ حالِهِمْ ؛ لأنَّهُمُ الأمثلُ فالأمثلُ)[١] .

وقدْ قالَ بعضُ العارفينَ :

كُوشفتُ بأربعينَ حوراءَ ، رأيتُهُنَّ يتساعينَ في الهواءِ ، عليهِنَّ ثيابٌ مِنْ ذهبٍ وفضةٍ وجوهرٍ يتخشخشُ ويتثنَّىٰ معَهُنَّ ، فنظرتُ إليهِنَّ نظرةً ، فعُوقبتُ أربعينَ يوماً .

ثمَّ كُوشفتُ بعدَ ذلكَ بثمانينَ حوراءَ فوقَهُنَّ في الحسنِ والجمالِ ، وقيلَ لي : انظرْ إليهِنَّ ، قالَ : فسجدتُ وغمضتُ عيني في سجودي لئلا أنظرَ إليهِنَّ ، وقلتُ :

أعوذُ بكَ ممَّا سواكَ ، لا حاجةَ لي بهـٰذا ، فلمْ أزلْ أتضرَّعُ حتَّىٰ صرفَهُنَّ اللهُ عنِّي[١] .

فأمثالُ هـٰذهِ المكاشفاتِ لا ينبغي أنْ ينكرَها المؤمنُ لإفلاسِهِ عنْ مثلِها ، فلوْ لمْ يؤمنْ كلُّ واحدٍ إلا بما يشاهدُهُ مِنْ نفسِهِ المظلمةِ وقلبِهِ القاسي . . لضاقَ مجالُ الإيمانِ عليهِ .

بلْ هـٰذهِ أحوالٌ تظهرُ بعدَ مجاوزةِ عقباتٍ ونيلِ مقاماتٍ كثيرةٍ ، أدناها الإخلاصُ وإخراجُ حظوظِ النفسِ وملاحظةِ الخلقِ عنْ جميعِ الأعمالِ ظاهراً وباطناً ، ثمَّ مكاتمةُ ذلكَ عنِ الخلقِ بسترِ الحالِ حتَّىٰ يبقىٰ متحصناً بحصنِ الخمولِ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٢) .

فهٰذهِ أوائلُ سلوكِهِمْ ، وأقلُّ مقاماتِهِمْ ، وهيَ أعزُّ موجودٍ في الأتقياءِ مِنَ الناسِ .

وبعدَ تصفيةِ القلبِ عنْ كدورةِ الالتفاتِ إلى الخلقِ يفيضُ عليهِ نورُ اليقينِ ، وينكشفُ لهُ مبادي الحقِّ ، وإنكارُ ذلكَ دونَ التجربةِ وسلوكِ الطريقِ يجري مَجرىٰ إنكارِ مَنْ أنكرَ إمكانَ انكشافِ الصورةِ في الحديدةِ إذا شُكِّلَتْ ونُقِّيَتْ ، وصُقِلَتْ وصُوِّرَتْ بصورةِ المرآةِ .

فنظرَ المنكرُ إلىٰ ما في يدِهِ مِنْ زُبْرةِ حديدٍ مظلمٍ قدِ استولىٰ عليهِ الصدأُ والخبثُ ، وهوَ لا يحكي صورةً مِنَ الصورِ . فأنكرَ إمكانَ انكشافِ المرئيِّ فيها عندَ ظهورِ جوهرِها ، وإنكارُ ذلكَ غايةُ الجهلِ والضلالِ .

فهٰذا حكمُ كلِّ مَنْ أنكرَ كراماتِ الأولياءِ ، إذْ لا مستندَ لهُ إلا قصورُهُ عنْ ذلكَ وقصورُ مَنْ رآهُ ، وبئسَ المستندُ ذلكَ في إنكارِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ .

بلْ إنَّما يَشَمُّ روائحَ المكاشفةِ مَنْ سلكَ شيئاً ولوْ مِنْ مبادي الطريقِ ؛ كما قيلَ لبشرٍ : بأيِّ شيءٍ بلغتَ هٰذهِ المنزلةَ ؟ فقالَ : كنتُ أكاتمُ اللهَ تعالىٰ حالي .

معناهُ : أسألُهُ أنْ يكتمَ عليَّ ويُخفيَ أمري(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ رأى الخضرَ عليهِ السلامُ ، فقالَ لهُ : ادعُ اللهَ تعالىٰ لي ، فقالَ : يسَّرَ اللهُ عليكَ طاعتَهُ ، قلتُ : زدْني ، فقالَ : وستَرَها عليكَ .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٣) .

فقيلَ : معناهُ سترَها عنِ الخلقِ ، وقيلَ : معناهُ : سترَها عنكَ حتَّىٰ لا تلتفتَ أنتَ إليها[1] .

وعنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ :

أقلقَني الشوقُ إلى الخضرِ عليهِ السلامُ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ مرَّةً أنْ يريَني إيَّاهُ ليعلِّمَني شيئاً كانَ أهمَّ الأشياءِ عليَّ ، قالَ : فرأيتُهُ ، فما غلبَ عليَّ همِّي ولا همَّتي إلا أنْ قلتُ لهُ :

يا أبا العباسِ ؛ علِّمْني شيئاً إذا قلتُهُ حُجبتُ عن قلوبِ الخليقةِ ، فلمْ يكنْ لي فيها قدْرٌ ، ولمْ يعرفْني أحدٌ بصلاحٍ ولا ديانةٍ ، فقالَ : قلِ :

اللهمَّ ؛ أسبلْ عليَّ كثيفَ سترِكَ ، وحُطَّ عليَّ سرادقاتِ حجُبِكَ ، واجعلْني في مكنونِ غيبِكَ ، واحجبْني عنْ قلوبِ خلقِكَ[2] .

قالَ : ثمَّ غابَ فلمْ أرهُ ، ولمْ أشتقْ إليهِ بعدَ ذلكَ ، فما زلتُ أقولُ هٰذهِ الكلماتِ في كلِّ يومٍ .

فحكىٰ أنَّهُ صارَ بحيثُ كانَ يُستذلُّ ويُمتهنُ ، حتَّىٰ كانَ أهلُ الذمَّةِ يسخرونَ بهِ ، ويستسخرونهُ في الطرقِ يحملُ الأشياءَ لهُمْ ، لسقوطِهِ عندَهُمْ ، وكانَ الصبيانُ يُولعونَ بهِ ، فكانَتْ راحتُهُ ووجودُ قلبِهِ واستقامةُ حالِهِ في ذلِّهِ وخمولِهِ[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٣) ، وأوردها كذلك القشيري في « رسالته » (ص٥٩٨) .
(٢) في غير (ع ، ف) : (واحجبني في قلوب خلقك) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٧٣) .

فهكذا حالُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، ففي أمثالِ هؤلاءِ ينبغي أنْ يُطلبوا ، والمغرورونَ إنَّما يطلبونَهُمْ تحتَ المرقَّعاتِ والطيالسةِ ، وفي المشهورينَ بينَ الخلقِ بالعلمِ والورعِ والرئاسةِ ، وغيرةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ أوليائِهِ تأبىٰ إلا إخفاءَهُمْ ، كما قالَ تعالىٰ : (أوليائي تحتَ قبابي ، لا يعرفُهُمْ غيري) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ لا يُؤبَهُ لهُ ، لوْ أقسمَ على اللهِ . . لأبرَّهُ »[1] .

وبالجملةِ : فأبعدُ القلوبِ عنْ مشامِّ هـٰذهِ المعاني القلوبُ المتكبِّرةُ ، المعجبةُ بأنفسِها ، المستبشرةُ بعملِها وعلمِها .

وأقربُ القلوبِ إليها القلوبُ المنكسرةُ ، المستشعرةُ ذلَّ نفسِها استشعاراً إذا أُذلَّ واهتُضمَ . . لمْ يحسَّ بالذلِّ ؛ كما لا يحسُّ العبدُ بالذلِّ مهما ترفَّعَ عليهِ مولاهُ .

فإذا لمْ يحسَّ بالذلِّ ، ولمْ يشعرْ أيضاً بعدمِ التفاتِهِ إلى الذلِّ ، بلْ كانَ عندَ نفسِهِ أخسَّ منزلةً مِنْ أنْ يرىٰ جميعَ أنواعِ الذلِّ ذُلاًّ في حقِّهِ ، بلْ يرىٰ نفسَهُ دونَ ذلكَ ، حتَّىٰ صارَ التواضعُ بالطبعِ صفةَ ذاتِهِ . . فمثلُ هـٰذا القلبِ يُرجىٰ لهُ أنْ يستنشقَ مباديَ هـٰذهِ الروائحِ .

فإنْ فقدنا مثلَ هـٰذا القلبِ ، وحُرمنا مثلَ هـٰذا الروحِ . . فلا ينبغي أنْ

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأصله عند مسلم (٢٦٢٢) .

يُطرحَ الإيمانُ بإمكانِ ذلكَ لأهلِهِ ، فمَنْ لا يقدرُ أنْ يكونَ مِنْ أولياءِ اللهِ . . فليكنْ محبّاً لأولياءِ اللهِ ، مؤمناً بهِمْ ، فعسىٰ أنْ يُحشرَ معَ مَنْ أحبَّ .

ويشهدُ لهٰذا ما رُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ قالَ لبني إسرائيلَ : أينَ ينبتُ الزرعُ ؟ قالوا : في الترابِ ، فقالَ : بحقٍّ أقولُ لكُمْ : لا تنبتُ الحكمةُ إلا في قلبٍ مثلِ الترابِ(١) .

ولقدِ انتهى المريدونَ لولايةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ شروطِها بإذلالِ النفسِ إلىٰ منتهى الضعةِ والخسَّةِ .

حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ ابنَ الكَرَنْبِيِّ وهوَ أستاذُ الجنيدِ دعاهُ رجلٌ ثلاثَ مرَّاتٍ إلىٰ طعامِهِ ، ثمَّ كانَ يردُّهُ ، ثمَّ يستدعيهِ ، فيرجعُ إليهِ بعدَ ذلكَ ، حتَّىٰ أدخلَهُ في المرَّةِ الرابعةِ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ :

قدْ رُضْتُ نفسي على الذلِّ عشرينَ سنةً ، حتَّىٰ صارَتْ بمنزلةِ الكلبِ ، يُطردُ فينطردُ ، ثمَّ يُدعىٰ فيُرمىٰ لهُ عظمٌ فيعودُ ، ولوْ رددتَني خمسينَ مرَّةً ثمَّ دعوتَني بعدَ ذلكَ . . لأجبتُ(٢) .

وعنهُ أيضاً أنَّهُ قالَ :

نزلتُ في محلَّةٍ ، فعُرفتُ فيها بالصلاحِ ، فتشتَّتَ قلبي ، فدخلتُ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٤) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٧٤) ، وبنحوه أورد القشيري في « رسالته » (ص٤١٤) عن أبي عثمان الحيري .

الحمَّامَ ، وعيَّنتُ على ثيابٍ فاخرةٍ فسرقتُها ولبستُها ، ثمَّ لبستُ مرقَّعتي فوقَها وخرجتُ ، وجعلتُ أمشي قليلاً قليلاً ، فلحقوني فنزعوا مرقَّعتي ، وأخذوا الثيابَ ، وصفعوني وأوجعوني ضرباً ، فصرتُ بعدَ ذلكَ أُعرفُ بلصِّ الحمامِ ، فسكنَتْ نفسي[1] .

فهكذا كانوا يروضونَ أنفسَهُمْ حتَّىٰ يخلِّصَهُمُ اللهُ مِنَ النظرِ إلى الخلقِ ، ثمَّ مِنَ النظرِ إلى النفسِ ، فإنَّ الملتفتَ إلىٰ نفسهِ محجوبٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وشغلُهُ بنفسهِ حجابٌ لهُ، فليسَ بينَ القلبِ وبينَ اللهِ حجابٌ ببعْدٍ وتخلُّلِ حائلٍ، وإنَّما بعْدُ القلوبِ شغلُها بغيرِهِ أوْ بنفسِها، وأعظمُ الحجبِ شغلُ النفسِ.

ولذلكَ حُكِيَ أنَّ شاهداً عظيمَ القدْرِ مِنْ أعيانِ أهلِ بسطامَ كانَ لا يفارقُ مجلسَ أبي يزيدَ ، فقالَ لهُ يوماً : يا أبا يزيدَ ؛ أنا منذُ ثلاثينَ سنةً أصومُ الدهرَ لا أفطرُ ، وأقومُ الليلَ لا أنامُ ، ولا أجدُ في قلبي مِنْ هٰذا العلمِ الذي تذكرُ شيئاً ، وأنا أصدِّقُ بهِ وأحبُّهُ ، فقالَ أبو يزيدَ :

ولوْ صمتَ ثلاثَ مئةِ سنةٍ ، وقمتَ ليلَها.. ما وجدتَ مِنْ هٰذا ذرَّةً ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ :

لأنَّكَ محجوبٌ بنفسِكَ ، قالَ : فلهٰذا دواءٌ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : قُلْ لي حتَّىٰ أعملَهُ ، قالَ : لا تقبلُهُ ، قالَ : فاذكرْهُ لي حتَّىٰ أعملَهُ ، قالَ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٤) .

اذهبِ الساعةَ إلى المزيِّنِ فاحلقْ رأسَكَ ولحيتَكَ ، وانزعْ هـٰذا اللباسَ واتَّزرْ بعباءةٍ ، وعلِّقْ في عنقِكَ مخلاةً مملوءةً جوزاً ، واجمعِ الصبيانَ حولَكَ وقُلْ :

كلُّ مَنْ صفعَني صفعةً . . أعطيتُهُ جوزةً ، وادخلِ السوقَ ، وطُفِ الأسواقَ كلَّها عندَ الشهودِ وعندَ مَنْ يعرفُكَ وأنتَ علىٰ ذلكَ ، فقالَ الرجلُ :

سبحانَ اللهِ ! تقولُ لي مثلَ هـٰذا ؟! فقالَ أبو يزيدَ : قولُكَ : سبحانَ اللهِ شركٌ ، قالَ : وكيفَ ؟ قالَ : لأنَّكَ عظَّمتَ نفسَكَ فسبَّحتَها ، وما سبَّحتَ ربَّكَ ، فقالَ : هـٰذا لا أفعلُهُ ، ولكنْ دُلَّني علىٰ غيرِهِ ، فقالَ : ابتدِئْ بهـٰذا قبلَ كلِّ شيءٍ ، فقالَ : لا أطيقُهُ ، فقالَ : قدْ قلتُ لكَ : إنَّكَ لا تقبلُ[(١)] .

فهـٰذا الذي ذكرَهُ أبو يزيدَ هوَ دواءُ مَنِ اعتلَّ بنظرِهِ إلىٰ نفسِهِ ومرضَ بنظرِ الناسِ إليهِ ، ولا ينجي مِنْ هـٰذا المرضِ دواءٌ سوىٰ هـٰذا وأمثالِهِ .

فمَنْ لا يطيقُ الدواءَ . . فلا ينبغي أنْ ينكرَ إمكانَ الشفاءِ في حقِّ مَنْ داوىٰ نفسَهُ بعدَ المرضِ ، أوْ لمْ يمرضْ بمثلِ هـٰذا المرضِ أصلاً .

فأقلُّ درجاتِ الصحَّةِ الإيمانُ بإمكانِها ، فويلٌ لمَنْ حُرِمَ هـٰذا القدْرَ القليلَ أيضاً .

وهـٰذهِ أمورٌ جليَّةٌ في الشرعِ واضحةٌ ، وهيَ معَ ذلكَ مستبعدةٌ عندَ مَنْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٤) .

يعدُّ نفسَهُ مِنْ علماءِ الشرعِ ، فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّىٰ تكونَ قلَّةُ الشيءِ أحبَّ إليهِ مِنْ كثرتِهِ ، وحتَّىٰ يكونَ ألا يُعرفَ أحبَّ إليهِ مِنْ أنْ يُعرفَ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ.. استكملَ إيمانَهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ مِنْ عملِهِ ، وإذا عُرِضَ عليهِ أمرانِ ؛ أحدُهُما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ.. آثرَ أمرَ الآخرةِ علىٰ أمرِ الدنيا »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يكملُ إيمانُ العبدِ حتَّىٰ يكونَ فيهِ ثلاثُ خصالٍ : مَنْ إذا غضبَ.. لمْ يخرجْهُ غضبُهُ عَنْ حقٍّ ، وإذا رضيَ.. لمْ يدخلْهُ رضاهُ في باطلٍ ، وإذا قدرَ.. لمْ يتناولْ ما ليسَ لهُ »[3] .

وفي حديثٍ آخرَ :

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، حيث قال : (وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث من أصول هـٰذه الأحوال ، وأساس هـٰذه الأفعال...) فذكرها ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٣٣٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٦١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١٦٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

ثلاثٌ مَنْ أُوتيَهُنَّ . . فقدْ أُوتيَ مثلَ ما أُوتيَ آلُ داوودَ : العدلُ في الرضا والغضبِ ، والقصدُ في الغنىٰ والفقرِ ، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعلانيةِ »[١] .

فهٰذهِ شروطٌ ذكرَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأولي الإيمانِ ، فالعجبُ ممَّنْ يدَّعي علمَ الدينِ ولا يصادفُ في نفسهِ ذرَّةً مِنْ هٰذهِ الشروطِ ، ثمَّ يكونُ نصيبُهُ مِنْ علمِهِ وعقلِهِ أنْ يجحدَ ما لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ مقاماتٍ عظيمةٍ عليّةٍ وراءَ الإيمانِ .

وفي الأخبارِ :

أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ[٢] : (إنَّما أتخذُ لخُلَّتي مَنْ لا يفترُ عنْ ذكري ، ولا يكونُ لهُ همٌّ غيري ، ولا يؤثرُ عليَّ شيئاً مِنْ خلقي ، وإنْ حُرِقَ بالنارِ . . لمْ يجدْ لحرْقِ النارِ وجعاً ، وإنْ قُطِّعَ بالمناشيرِ . . لمْ يجدْ لمسِّ الحديدِ ألماً)[٣] .

فمَنْ لمْ يبلغْ إلىٰ أنْ يغلبَهُ الحبُّ إلىٰ هٰذا الحدِّ . . فمِنْ أينَ يعرفُ ما وراءَ الحبِّ مِنَ الكراماتِ والمكاشفاتِ ، وكلُّ ذلكَ وراءَ الحبِّ ، والحبُّ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٥) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٣٠) ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٥٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) في (ع) : (أوليائه) بدل (أنبيائه) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ٧٧) ، وقد قال : (وقد كان الحسن رحمه الله تعالىٰ يروي في الخلة أخباراً ، منها . . .) فذكره .

وراءَ كمالِ الإيمانِ ، ومقاماتُ الإيمانِ وتفاوتُهُ في الزيادةِ والنقصانِ لا حصرَ لهُ ؟!

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أعطاكَ مثلَ إيمانِ كلِّ مَنْ آمنَ بي مِنْ أمَّتي ، وأعطاني مثلَ إيمانِ كلِّ مَنْ آمنَ بهِ مِنْ ولدِ آدمَ »[1] .

وفي حديثٍ آخرَ :

« إنَّ للهِ تعالىٰ ثلاثَ مئةِ خُلُقٍ ، مَنْ لقيَهُ بخلقٍ منها معَ التوحيدِ .. دخلَ الجنَّةَ » .

فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ فيَّ خلقٌ منها ؟ فقالَ : « كلُّها فيكَ يا أبا بكرٍ ؛ وأحبُّها إلى اللهِ تعالى السخاءُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رأيتُ ميزاناً دُلِّيَ مِنَ السماءِ ، فوُضعتُ في كفَّةٍ ، ووُضعَتْ أمَّتي في كفَّةٍ ، فرجحتُ بهم ، ووُضعَ أبو بكرٍ في كفَّةٍ وجيءَ بأمَّتي فوُضعَتْ في كفَّةٍ ، فرجحَ بهِمْ »[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ٧٨) ، وقد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٧٠) من حديث علي رضي الله عنه بنحوه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٧٨) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ١٠٤) ، وجمع نحو هـٰذه الأخبار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٦٧٩) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ٧٨) ، ورواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

ومعَ هـٰذا كلِّهِ فقدْ كانَ استغراقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باللهِ تعالىٰ بحيثُ لمْ يتسعْ قلبُهُ للخُلَّةِ معَ غيرِهِ ، فقالَ : « لوْ كنتُ متخذاً مِنَ الناسِ خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكنْ صاحبُكُمْ خليلُ اللهِ تعالىٰ »(١) ؛ يعني : نفسَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

* * *

(١) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢ ، ٢٣٨٣) .

خاتمة الكتاب
بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قالَ سفيانُ : (المحبَّةُ اتباعُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)(١) .

وقالَ غيرُهُ : (دوامُ الذكرِ)(٢) .

وقالَ غيرُهُ : (إيثارُ المحبوبِ)(٢) .

وقالَ بعضُهُمْ : (كراهيةُ البقاءِ في الدنيا)(٣) .

وهـٰذا كلُّهُ إشارةٌ إلىٰ ثمراتِ المحبَّةِ ، فأما نفسُ المحبَّةِ . . فلمْ يتعرَّضوا لها .

وقالَ بعضُهُمْ : (المحبَّةُ معنىً مِنَ المحبوبِ قاهرٌ للقلوبِ ، تعجزُ القلوبُ عنْ إدراكِهِ ، وتمتنعُ الألسنُ عنْ عبارتِهِ)(٢) .

وقالَ الجنيدُ : (حرَّمَ اللهُ تعالى المحبَّةَ علىٰ صاحبِ العلاقةِ)(٤) .

وقالَ : (كلُّ محبَّةٍ تكونُ بعوضٍ ، فإذا زالَ العوضُ . . زالَتِ المحبَّةُ)(٥) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) ، وسفيان هو ابن عيينة ، وسياق المصنف الآتي عنده .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٩) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧٤) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٠) .

وقالَ ذو النونِ : (قلْ لمَنْ أظهرَ حبَّ اللهِ : احذرْ أنْ تذلَّ لغيرِ اللهِ)[1] .

وقيلَ للشبليِّ رحمهُ اللهُ : صفْ لنا العارفَ والمحبَّ ، فقالَ : العارفُ إنْ تكلَّمَ . . هلكَ ، والمحبُّ إنْ سكتَ . . هلكَ[2] .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ[3] : [من مخلع البسيط]

يا أيُّها ٱلسَّيِّدُ ٱلْكَرِيمُ ... حُبُّكَ بَيْنَ ٱلْحَشا مُقِيمُ
يا رافِعَ ٱلنَّوْمِ عَنْ جُفُونِي ... أَنْتَ بِما مَرَّ بِي عَلِيمُ

ولغيرِهِ[4] : [من الوافر]

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ رَبِّي ... وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرَ ما نَسِيتُ
أَمُوتُ إِذا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيا ... وَلَوْلا حُسْنُ ظَنِّي ما حَيِيتُ
فَأَحْيا بِٱلْمُنَىٰ وَأَمُوتُ شَوْقاً ... فَكَمْ أَحْيا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ ٱلْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ ... فَما نَفِدَ ٱلشَّرابُ وَما رَوِيتُ
فَلَيْتَ خَيالَهُ نَصْبٌ لِعَيْنِي ... فَإِنْ أَقْصَرْتُ فِي نَظَرِي عَمِيتُ

وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ يوماً : مَنْ يدلُّنا علىٰ حبيبنا ؟ فقالَتْ خادمةٌ لها :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٧٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩١) .
(٣) ديوانه (ص ١٢٢) .
(٤) انظر « شرح نهج البلاغة » (١١/ ٧٩ـ ٢٣٥) .

حبيبُنا معَنا ، ولكنَّ الدنيا قطعَتْنا عنهُ(١) .

وقالَ ابنُ الجلاءِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : إنِّي إذا اطلعتُ علىٰ سرِّ عبدٍ ، فلمْ أجدْ فيهِ حبَّ الدنيا والآخرةِ . . ملأتُهُ مِنْ حُبِّي ، وتوليتُهُ بحفظي)(١) .

وقيلَ : تكلَّمَ سمنونٌ يوماً في المحبَّةِ ، فإذا بطائرٍ نزلَ بينَ يديهِ ، فلمْ يزلْ ينقرُ بمنقارِهِ الأرضَ حتَّىٰ سالَ منهُ الدمُ فماتَ(٢) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ : (إلٰهي ؛ إنَّكَ تعلمُ أنَّ الجنَّةَ لا تزنُ عندي جناحَ بعوضةٍ في جنبِ ما أكرمتَني مِنْ محبَّتِكَ ، وآنستَني بذكرِكَ ، وفرَّغتَني للتفكُّرِ في عظمتِكَ)(٣) .

وقالَ السريُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أحبَّ اللهَ . . عاشَ ، ومَنْ مالَ إلى الدنيا . . طاشَ ، والأحمقُ يغدو ويروحُ في لاشَ ، والعاقلُ عَنْ عيوبِهِ فتّاشٌ)(٤) .

---

(١) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٣) .

(٢) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٣) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٥٢٥) .

(٣) أوردها الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٥) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٦) ، ورواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (١٠٣١) ، ولاش : لا شيء ، وجاءت هٰكذا مراعاة للسجعة ، وهي لا تأتي كذلك إلا في الازدواج ونحوه ، وتقرأ الجمل مسكنة الآخر .

وقيلَ لرابعةَ : كيفَ حبُّكِ للرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟ فقالَتْ : واللهِ ؛ إنِّي لأحبُّهُ حبّاً شديداً ، ولكنْ حبُّ الخالقِ شغلَني عنْ حبِّ المخلوقينَ[1] .

وسُئِلَ عيسىٰ عليهِ السلامُ عنْ أفضلِ الأعمالِ ، فقالَ : الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ والحبُّ لهُ[2] .

وقالَ أبو يزيدَ : (المحبُّ لا يحبُّ الدنيا ولا الآخرةَ ، إنَّما يحبُّ مِنْ مولاهُ مولاهُ)[3] .

وقالَ الشبليُّ : (الحبُّ دهشٌ في لذَّةٍ ، وحيرةٌ في تعظيمٍ)[3] .

وقيلَ : (المحبَّةُ أنْ تمحوَ أثرَكَ عنكَ حتَّىٰ لا يبقىٰ فيكَ شيءٌ راجعٌ منكَ إليكَ)[4] .

وقيلَ : (المحبَّةُ قربُ القلبِ مِنَ المحبوبِ بالاستبشارِ والفرحِ)[4] .

وقالَ الخوَّاصُ : (المحبَّةُ محوُ الإراداتِ ، واحتراقُ جميعِ الصفاتِ والحاجاتِ)[5] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٦) ، ورواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص٣٨٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٩٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠١) .

وسُئِلَ سهلٌ عنِ المحبَّةِ فقالَ : (عطفُ اللهِ تعالىٰ بقلبِ عبدِهِ لمشاهدتِهِ بعدَ الفهمِ للمرادِ منه)[1] .

وقيلَ : (معاملةُ المحبِّ علىٰ أربعِ منازلَ : على المحبةِ ، والهيبةِ ، والحياءِ ، والتعظيمِ ، وأفضلُها التعظيمُ والمحبةُ ؛ لأنَّ هاتينِ المنزلتينِ يبقيانِ في الجنةِ معَ أهلِ الجنةِ ويُرفعُ عنهُمْ غيرُهُما)[1] .

وقالَ هَرِمُ بنُ حيَّانَ : (المؤمنُ إذا عرفَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ . . أحبَّهُ ، وإذا أحبَّهُ . . أقبلَ عليهِ ، وإذا وجدَ حلاوةَ الإقبالِ عليهِ . . لمْ ينظرْ إلى الدنيا بعينِ الشهوةِ ، ولمْ ينظرْ إلى الآخرةِ بعينِ الفترةِ ، وهيَ تحسرُهُ في الدنيا ، وتروِّحُهُ في الآخرةِ)[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ : سمعتُ امرأةً مِنَ المتعبداتِ تقولُ وهيَ باكيةٌ ، والدموعُ علىٰ خدِّها جاريةٌ : واللهِ ؛ لقدْ سئمتُ مِنَ الحياةِ ، حتَّىٰ لوْ وجدتُ الموتَ يُباعُ . . لاشتريتُهُ شوقاً إلى اللهِ تعالىٰ وحبّاً للقائِهِ ، قالَ : فقلتُ لها : فعلىٰ ثقةٍ أنتِ مِنْ عملِكِ ، قالَتْ : لا ، ولكنْ لحبِّي إيَّاهُ وحسْنِ ظنِّي بهِ أفتراهُ يعذِّبُني وأنا أحبُّهُ ؟![3] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (لوْ يعلمُ المدبرونَ عنِّي كيفَ انتظاري لهُمْ ، ورفقي بهِمْ ، وشوقي إلىٰ تركِ معاصيهِمْ . . لماتوا شوقاً

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠١) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٢) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٨) .

إليَّ ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُمْ مِنْ محبَّتي ، يا داوودُ ؛ هٰذهِ إرادتي في المدبرينَ عنِّي ، فكيفَ إرادتي في المقبلينَ عليَّ ؟! يا داوودُ ؛ أحوجُ ما يكونُ العبدُ إليَّ إذا استغنىٰ عنِّي ، وأرحمُ ما أكونُ بعبدي إذا أدبرَ عنِّي ، وأجلُّ ما يكونُ عندي إذا رجعَ إليَّ)(١) .

وقالَ أبو خالدٍ الصفَّارُ : (لقيَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ عابداً ، فقالَ لهُ : إنَّكُمْ معاشرَ العبَّادِ تعملونَ علىٰ أمرٍ لسنا معاشرَ الأنبياءِ نعملُ عليهِ ، أنتمْ تعملونَ على الخوفِ والرجاءِ ، ونحنُ نعملُ على المحبَّةِ والشوقِ)(٢) .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : يا داوودُ ؛ ذكري للذاكرينَ ، وجنَّتي للمطيعينَ ، وزيارتي للمشتاقينَ ، وأنا خاصَّةً للمحبِّين)(٢) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ آدمَ عليهِ السلامُ : (يا آدمُ ؛ مَنْ أحبَّ حبيباً . . صدَّقَ قولَهُ ، ومَنْ أنسَ بحبيبهِ . . رضيَ فعلَهُ ، ومَنِ اشتاقَ إليهِ . . جدَّ في مسيرِهِ)(٣) .

وكانَ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ يضربُ علىٰ صدرِهِ ويقولُ : (واشوقاهُ لمَنْ يراني ولا أراهُ)(٤) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٠٩) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٠) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٠) .

وقالَ الجنيدُ : بكىٰ يونسُ عليهِ السلامُ حتَّىٰ عميَ ، وقامَ حتَّى انحنىٰ ، وصلَّىٰ حتىٰ أُقعدَ ، وقالَ : وعزَّتِكَ وجلالِكَ ؛ لوْ كانَ بيني وبينَكَ بحرٌ مِنْ نارٍ . . لخضتهُ إليكَ شوقاً منِّي إليكَ[1] .

وعنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ سنَّتِهِ فقالَ : « المعرفةُ رأسُ مالي ، والعقلُ أصلُ ديني ، والحبُّ أساسي ، والشوقُ مركبي ، وذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنيسي ، والثقةُ كنزي ، والحزنُ رفيقي ، والعلمُ سلاحي ، والصبرُ ردائي ، والرضا غنيمتي ، والعجزُ فخري ، والزهدُ حرفتي ، واليقينُ قوتي ، والصدقُ شفيعي ، والطاعةُ حسبي ، والجهادُ خلقي ، وقرَّةُ عيني في الصلاةِ »[2] .

وقالَ ذو النونِ : (سبحانَ مَنْ جعلَ الأرواحَ جنوداً مجندةً ، فأرواحُ العارفينَ جلاليَّةٌ قدسيَّةٌ ، فلذلكَ اشتاقوا إلى اللهِ تعالىٰ ، وأرواحُ المؤمنينَ روحانيَّةٌ ، فلذلكَ حنُّوا إلى الجنَّةِ ، وأرواحُ الغافلينَ هوائيَّةٌ ، فلذلكَ مالوا إلى الدنيا)[3] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١١) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٢) ، وكذا أورده القاضي عياض في « الشفا » (ص١٩١) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٩/ ٦٨٤) ، وزاد : (وسئل عنه الحافظ ابن حجر في « فتاويه » فقال : لا أصل له) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٢) .

وقالَ بعضُ المشايخِ : رأيتُ في جبلِ لكامِ رجلاً أسمرَ اللونِ ، ضعيفَ البدنِ ، وهوَ يقفزُ مِنْ حجرٍ إلىٰ حجرٍ وهوَ يقولُ : الشوقُ والهوىٰ صيَّراني كما ترىٰ[1] .

ويُقالُ : الشوقُ نارُ اللهِ تعالىٰ ، أشعلَها في قلوبِ أوليائِهِ ، حتَّىٰ يحرقَ بها ما في قلوبِهِمْ مِنَ الخواطرِ والإراداتِ ، والعوارضِ والحاجاتِ[2] .

فهٰذا القدْرُ كافٍ في شرحِ المحبَّةِ والأنسِ والشوقِ والرضا ، فلنقتصرْ عليهِ ، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ .

* * *

تمَّ كتابُ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ والرضا

وهو الكتابُ السادسُ من ربعِ المنجياتِ من كتبِ إحياءِ علومِ الدِّين

والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخراً ، والصلاةُ على رسولِهِ وآلِهِ ظاهراً وباطناً

يتلوه كتابُ النيَّةِ والإخلاصِ والصدقِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٢) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١١٣) .

مُحتوى الكتاب
رُبعُ المُنجِيات / القِسمُ الثَّاني

كتاب الفقر والزهد ٧

ـ علاقة الفقر والزهد بالدنيا ١٠

الشطر الأول: في الفقر ١١

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه ١١

ـ الفقر وصف لازم للعبد ١١

ـ استواء الوجود والفقد خير من الزهد، وهي درجة المستغني ١٣

ـ قُربُ العبد من الله بقُربِ الصفات ١٤

ـ المستغني من المقرَّبين، والزاهد من أصحاب اليمين ١٥

ـ مثال يبيِّن كيف يكون المشتغل ببغض الدنيا مشغولاً عن الله تعالى ١٥

ـ **تحريجة:** إن كان الاستواء أحمدَ فلِمَ فرَّ الأنبياء والأولياء من المال؟ ١٨

ـ إنما استعاذ صلى الله عليه وسلم من فقر الاضطرار، وإنما سأل الفقر والاضطرار إلى الله تعالى ٢٠

بيان فضيلة الفقر مطلقاً ٢١

ـ كلام النبوة ليس فيه إلا حقيقة الحق ٢٢

ـ طرف من خواصِّ النبوة ٢٣

ـ حال سيدة نساء أهل الجنة ٣٤

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين ٣٩
بيان فضل الفقر على الغنى ٤٥
ـ الرد على من فضَّل الغنى بأنه وصف الحق ٤٨
ـ حبُّ الدنيا هو الشاغل عن الله تعالى ٤٨
ـ علَّة تفضيل الفقر على الغنى على العموم ٤٩
ـ الأصلح لعامة الخلق فقد المال ٥١
ـ البعد عن الدنيا يحتِّم القرب من الحقِّ سبحانه ٥١
ـ بقدْر ضعف العلاقة مع الدنيا تتضاعف تسبيحات الفقير ٥٢
ـ كيف يكون التحلي بوصفه تعالى الغني ٥٤
ـ منتهى العبد التخلُّق بأخلاق الله تعالى ٥٥
ـ سبب بعد التحلي بصفة الكبر التي هي وصف الحق سبحانه ٥٥
ـ طلب ضروري المال شاغل عن الله تعالى ٥٦
ـ ينبغي أن تحب من لا تفارقه ٥٨
ـ الفقر هو الأشرف والأفضل لكافة الخلق إلا في موضعين ٥٨
بيان آداب الفقير في فقره ٦٠
الادخار ثلاث درجات ٦٣
بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال ٦٥
ـ التشديد على العالم والمتصدر للوعظ في قبول العطاء ٦٦
ـ خطر آفة الردِّ ٦٩
ـ الزيادة على قدْر الحاجة ابتلاء وفتنة ٧٢

ـ إنما المعطي هو الله سبحانه ٧٤
بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه ٧٦
ـ الفقيه الضعيف يستبعد هذا المسلك في التأديب ٨٠
ـ للسائل أربعة أحوال عند سؤاله ٨١
ـ مثال الضروريات ٨١
ـ مثال الحاجيات المهمة ٨١
ـ مثال الحاجيات الخفيفة ٨٢
ـ **تحريجة**: كيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ ٨٢
ـ **تحريجة**: لو أخذ وهو يعلم بأن باعث المعطي هو الحياء.. فهو حلال أو شبهة؟ ٨٣
ـ **تحريجة**: ربما ظنَّه راضياً وهو غير راض، فما العمل؟ ٨٥
ـ حدُّ إباحة السؤال ٨٦
ـ أطيب المال كسب اليد ٨٧
بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ٨٩
بيان أحوال السائلين ٩٤
ـ متى يكون السؤال زيادة في الدرجات ٩٥
ـ منكِران جاهلان ٩٦
ـ السعيد أحد رجلين ٩٧
الشطر الثاني: في الزهد ٩٨
بيان حقيقة الزهد ٩٨

ـ الزاهد المطلق ١٠٠
ـ علة تشبث من علم خسَّة الدنيا بها ١٠٢
ـ علامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج ١٠٤
ـ إنما المعول على الترك عند الجِدَةِ والتجربة ١٠٥
ـ أبو حنيفة وفراره من الدنيا ١٠٥
ـ لا تزهد في المال وتركن إلى حب الجاه ١٠٦
بيان فضيلة الزهد ١٠٨
ـ الآيات الواردة في فضل الزهد ١٠٨
ـ نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا ١٢٥
بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى المرغوب فيه ١٢٧
ـ مثال من ترك الدنيا للآخرة عند أهل العرفان ١٢٩
ـ من طلب غير الله تعالى فقد عبد مطلوبه ١٣١
ـ لا لذة فوق لذة النظر إلى وجه الكريم سبحانه ١٣٢
ـ درجات الزهد على الإجمال ١٣٣
ـ إذا كان المراد من العلم ملك القلوب فالزهد فيه فضيلة ١٣٣
ـ إشارة إلى الزهد على التفصيل ١٣٣
ـ الهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس ١٣٤
ـ الزاهدون الحقيقيون هم الذين يبذلون نفوسهم في سبيل الله ١٣٤
ـ أقوالهم في بيان حدِّ الزهد ١٣٦

ـ طلب الحق من أقاويل الناس مجلَبة للحيرة ١٣٨
ـ الحق لا يكون إلا واحداً ١٣٩
ـ **تحريجة**: الأكل والشرب واللبس اشتغال بما سوى الله، فكيف نزهد بما سوى الله؟ ١٤١
ـ **تحريجة**: لا بدَّ من التلذذ عند الجوع ١٤٢
بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ١٤٤
المهم الأول: المطعم ١٤٥
المهم الثاني: الملبس ١٤٩
ـ أحوال الأنبياء والصحابة في ترك الملبس ١٥٠
المهم الثالث: المسكن ١٦٢
ـ للزهد في المسكن ثلاث درجات ١٦٢
ـ الأخبار الواردة في الزهادة في المسكن ١٦٤
المهم الرابع: أثاث البيت ١٦٩
للزهد في أثاث البيت ثلاث درجات ١٦٩
ـ أخبار السلف في زهدهم بالأثاث ١٦٩
المهم الخامس: المنكح ١٧٣
المهم السادس: المال والجاه ١٧٦
ـ الأصل ترك طلب الجاه رأساً ١٧٦
ـ المراد بقولنا: (خرج عن حدِّ الزهد) ١٧٧
ـ على المرء أن يزهِّد أهله دون إرهاق ١٧٨

ـ ليست الحاجة من الدنيا ١٧٨
ـ طالب الدنيا وجامعها كدود القزِّ ١٧٩
ـ العذاب على قدْر الحجاب ١٨٠
بيان علامات الزهد ١٨٣
ـ الزهد في المال دون الجاه لا ينفع ١٨٣
ـ بطلان دعوى من قال: إنما الزهد في القلب فحسب ١٨٣
ـ علامات الزهد في الباطن ١٨٤
ـ إمساك قليل المال لا يدل على فقد الزهد ١٨٦

كتاب التوحيد والتوكل ١٩١

بيان فضيلة التوكل ١٩٥
ـ مَن اعتصم بالله لم يضرّه كيدُ سواه ١٩٨
ـ الرزق طالبٌ للعبد، لا مطلوب ١٩٩
الشطر الأول: بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ٢٠١
ـ التوحيد بحر خضمّ، لا ساحل له ٢٠١
ـ مراتب التوحيد ٢٠٢
ـ **تحريجة**: كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ ٢٠٦
ـ كلُّ شيء واحدٌ باعتبارٍ، كثيرٌ باعتباراتٍ أخر ٢٠٦

ـ تحريجة: قد أنطق الله تعالى في حق أرباب القلوب والمشاهدات كلَّ ذرّة في الأرض والسماء، فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت؟ . . . ٢١٢
ـ أول أبواب الملكوت المكاشفة بالقلم ٢١٩
ـ تحريجة: التوحيد مبني على الإيمان بعالم الملكوت، فمن لا يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟ ٢٢٥
ـ ذرات الملك والملكوت تشهد بالتوحيد ٢٢٦
ـ تحريجة: التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه ٢٢٧
ـ تحريجة: كيف يكون الإنسان مسخراً؟ ٢٢٩
ـ تحريجة: كيف يكون الإنسان مجبوراً مختاراً؟ ٢٢٩
ـ أفعال الإنسان طبيعية، وإرادية، واختيارية ٢٣٠
ـ الكشف عن معنى الاختيار ٢٣١
ـ الكسب جامع بين الجبر والاختيار ٢٣٣
ـ تحريجة: إن قلت: إن العلم ولّد الإرادة، والإرادة ولدت القدرة، فقدحكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالىٰ، وإن أبيت ذلك، فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض؟ ٢٣٣
ـ تحريجة: إن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالىٰ فاعلاً؟ ٢٣٧
ـ تحريجة: إذا كان الكل جبراً فما معنى الثواب والعقاب؟ ٢٤٢
ـ ليس في الإمكان أبدع مما كان ٢٤٤
الشطر الثاني: في أحوال التوكل وأعماله ٢٤٧

بيان حال التوكل ٢٤٧
ـ شروط الوكيل الموثوق به أربعةٌ ٢٤٨
ـ تمام التوكل بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ٢٥٠
ـ درجات التوكّل ثلاث ٢٥٢
ـ الدرجة العليا في التوكل تثمر ترك الدعاء ٢٥٣
ـ حقيقة (لا حول ولا قوة إلا بالله) ونسبتها إلى كلمة التوحيد ٢٥٦
بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل ٢٦٢
ـ معنى قول إبراهيم عليه السلام: (أما إليكَ.. فلا) ٢٦٤
بيان أعمال المتوكلين ٢٦٦
حركات العبد لا تعدو عن فنون أربعة ٢٦٦
الفن الأول: في جلب النافع ٢٦٧
ـ تركُ الأسباب المقطوع بها جنونٌ محضٌ ٢٦٧
ـ حكم القعود دون كسب ٢٧١
ـ الصوفيُّ يأخذ رزقه من يد العزيز ٢٧٣
ـ مقامات المتوكِّلين ٢٧٥
ـ المفاضلة بين القعود والاكتساب ٢٧٨
ـ ما اضطرب قلبك لفقده فأنت متوكلٌ عليه ٢٧٩
ـ مداواة الركون إلى الأسباب الظاهرة ٢٨٢
بيان توكل المعيل ٢٩٠
ـ سبب ترك التوكل الرغبة في التنعّم على الدوام ٢٩٥
ـ الحيلة في تحقيق التوكل ترك الحيلة ٢٩٧

ـ ليس الرزق على قدر الأسباب ٢٩٩
بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال ٣٠٠
ـ السؤّال أربعة أقسام ٣٠٠
الفن الثاني: في التعرض لأسباب الادخار ٣٠٣
ـ الادخار مع فراغ القلب لا يبطل التوكل ٣٠٩
الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف ٣١١
ـ ما علامة الوصول إلى التوكل؟ ٣١٤
ـ ليس الادخار مبطلاً للتوكّل ٣١٦
بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم ٣١٩
ـ أحوال المتوكلين في حفظ المتاع ٣١٩
ـ ما جُعل في سبيل الله فلا رجوع فيه ٣٢٢
الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله ٣٢٦
ـ أدلة عدم مناقضة التداوي للتوكّل ٣٢٦
ـ صور من تداويه صلى الله عليه وسلم ٣٢٩
بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل
وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله ﷺ ٣٣٥
ـ أسباب ترك التداوي عند القوم ٣٣٦
بيان الرد على من قال: إن ترك التداوي أفضل بكل حال ٣٤٩
ـ اختلاف الصحابة في شأن الطاعون ٣٤٩
ـ حكمة النهي عن الخروج من بلد فيه الطاعون ٣٥١

ـ في ترك التداوي فضل، فلم لم يتركه صلى الله عليه وسلم؟ ٣٥٢
بيان أحوال المتوكل في إظهار المرض وكتمانه ٣٥٦

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ٣٦١

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى ٣٦٥
بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى ٣٧٢
ـ لا تتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ٣٧٢
ـ انقسام الحب بحسب انقسام المدركات والحواس ٣٧٣
ـ بيان أقسام المحبة وأسبابها ٣٧٥
ـ محبة الحيِّ وجودَ نفسه وكماله وبقائه ٣٧٥
ـ الإنسان عبد الإحسان ٣٧٦
ـ محبة الشيء لذاته لا لشيء وراء ذاته ٣٧٨
ـ تحريجة: ما ذُكر كله في المحسوسات ولا ينكر الحسن فيها إنما ينكر في غيرها ٣٨١
ـ المحبة لأجل المناسبة الخفية في الباطن ٣٨٤
ـ الأسباب التي ترجع إليها أقسام الحب ٣٨٥
بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده ٣٨٧
ـ أسباب المحبة مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ٣٨٧
ـ بيان محبته تعالى من حيث حبُّ الإنسان نفسه ٣٨٧
ـ بيان محبته تعالى من حيث حب الإنسان من أحسن إليه ٣٩٠

ـ بيان محبته تعالى من حيث حب المحسن في نفسه ٣٩٣
ـ بيان محبته تعالى من حيث حبُّ كل جميل لذاته ٣٩٥
ـ الأمور التي يرجع إليها جمال صفات الصديقين ٣٩٦
ـ النسبة بين علم الخلق وعلم الخالق ٣٩٧
ـ النسبة بين قدرة الخلق وقدرة الخالق ٣٩٨
ـ النسبة بين تنزُّهِ الخلق عن النقائص وتنزهه سبحانه عنها ٤٠٠
ـ بيان محبته سبحانه من حيث المناسبة والمشاكلة ٤٠٣
ـ محبته سبحانه لا يتطرق إليها نقصان الشركة ٤٠٧
بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم
فإنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة ٤٠٩
ـ العقل المذموم عند الصوفية ٤١٠
ـ لذة العلم بقدر شرف المعلوم ٤١١
ـ ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ٤١٢
ـ اللذات: ظاهرة وباطنة، والباطنة أغلب على ذوي الكمال ٤١٣
ـ خصائص لذة معرفة الله تعالى ٤١٤
ـ معرفة الله تعالى مختصة بمن له قلب ٤١٦
ـ مقصد العارفين وصل الله تعالى ولقاؤه ٤١٩
ـ اللذات المتفرقة منطوية في لذة معرفة الله تعالى ٤٢٠
ـ مثال في أطوار الخلق في لذاتهم ٤٢١
بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا ٤٢٢

- الحياة الدنيا حجاب عن مشاهدة ما وراء الخيال من المعلومات ٤٢٣
- تفاوت درجات المعرفة سبب في تفاوت درجات التجلي ٤٢٦
- **تحريجة**: لذَّة المعرفة قليلة فمهما تضاعفت لا تنتهي إلى استحقار لذات الجنة ٤٢٨
- أسباب تفاوت لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا ٤٢٨
- العارف في الدنيا لا يخلو عن مشوشات ٤٣٠
- سبب حب الموت وكراهته عند أهل المعرفة ٤٣١
- سبب حب البقاء وتمني الموت عند سائر الخلق ٤٣١
- **تحريجة**: أين محل هذه الرؤية؟ ٤٣٢

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ٤٣٣
- قوة حب الدنيا سببٌ لضعف حب الله تعالى ٤٣٥
- علاج القلب من آفة حب الدنيا ٤٣٥
- انقسام العارفين إلى أقوياء وضعفاء ٤٣٧
- **تحريجة**: كلا طريقي الأقوياء والضعفاء مشكل ٤٣٨
- بعض عجائب الله تعالى في مخلوقاته ٤٣٩

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ٤٤٥

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ٤٤٨
- أسباب ما تقصر عنه عقولنا ٤٤٩
- ما لا ضدَّ له يعسر إدراكه ٤٥٠
- إلف الشواهد على الله تعالى من الصبا يسقط وقعها عن القلب ٤٥٣

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى ٤٥٥

ـ متعلَّق الشوق ٤٥٥

ـ تصور الشوق في حق الله تعالى ٤٥٦

بيان محبة الله للعبد ومعناها ٤٦٩

ـ استعمال لفظ الحب في حق الخالق استعارة وتجوُّز ٤٧١

ـ محبة الله تعالى لعبده لا توجب تغيُّراً ولا تجدُّداً في حقه سبحانه ٤٧٣

ـ **تحريجة**: فبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟ ٤٧٥

ـ الفعل الدال على كون العبد محبوباً لله تعالى ٤٧٧

القول في علامات محبة العبد لله تعالى ٤٧٨

ـ **تحريجة**: من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محباً لله؟ ٤٨١

ـ **تحريجة**: هل العصيان يضادُّ أصل المحبَّة؟ ٤٨٤

ـ من غلب حبُّ الله على قلبه.. أحب جميع خلقه ٤٨٦

ـ مخاوف المحبين ٤٩٦

ـ خوف الإعراض والحجاب والإبعاد ٤٩٦

ـ خوف الوقوف وسلب المزيد ٤٩٧

ـ خوف فوت ما لا يُدرك بعد فوته ٤٩٨

ـ خوف السلوِّ عن المحبوب ٤٩٨

ـ خوف الاستبدال بالمحبوب غيره ٤٩٩

ـ فائدة خوف المحبين ٥٠٠

ـ الحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا ٥٠٢

ـ تحريجة: لماذا يستنكر إظهار المحبة وهي منتهى المقامات؟ ٥٠٤
ـ مكارم الأخلاق ثمرة الحب ٥٠٧
بيان معنى الأنس بالله تعالى ٥١٠
ـ تحريجة: ما علامة الأنس ٥١٢
بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس ٥١٥
ـ لا يُستبعدُ رضا الله تعالى عن عبد بما يغضب به على غيره ٥١٨
القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته ... ٥٢٥
بيان فضيلة الرضا ٥٢٦
ـ ثلاث تحفِ لأهل المزيد ٥٢٧
بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى ٥٣٨
ـ الحبُّ يورث الرضا بأفعال الحبيب من وجهين ٥٣٨
ـ حكايات في أحوال المحبين وأقوالهم ٥٤١
ـ الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ٥٤٩
ـ من لم يعرف طعم الحب لم يعرف عجائبه ٥٥٠
بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ... ٥٥٣
ـ تحريجة: المعاصي بقضاء الله فكيف السبيل إلى كراهتها والرضا بالقضاء؟ ٥٥٦
ـ اتخاذ الأسباب لا يناقض الرضا بالقضاء ٥٦٠
بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا ٥٦٣

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم ٥٦٨
ـ إنما تتنسم روح هذه المعاني الشريفة القلوب المنكسرة ٥٧٦
ـ أعظم الحجب شغل النفس ٥٧٨
ـ من لا يطيق الدواء لا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء ٥٧٩
خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها ٥٨٤
محتوى الكتاب ٥٩٣

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ - ٢٠١١م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف
الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع المنجيات / القسم الثالث

كتاب
النية والإخلاص والصدق ـ المراقبة والمحاسبة
التفكر ـ ذكر الموت وما بعده

المجلد التاسع

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

كتاب
النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب النّيّة والإخلاص والصّدق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نحمدُ اللهَ حمدَ الشاكرينَ ، ونؤمنُ بهِ إيمانَ الموقنينَ ، ونقرُّ بوحدانيتِهِ إقرارَ الصادقينَ ، ونشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ربُّ العالمينَ ، وخالقُ السماواتِ والأرضينَ ، ومكلِّفُ الجنِّ والإنسِ والملائكةِ المقربينَ أنْ يعبدوهُ عبادةَ المخلصينَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، فما للهِ إلا الدينُ الخالصُ المتينُ ، فإنَّهُ أغنى الأغنياءِ عنْ شركةِ المشاركينَ ، والصلاةُ علىٰ نبيِّهِ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وعلىٰ جميعِ النبيِّينَ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الطيبينَ الطاهرينَ .

أما بعد :

فقدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ ببصيرةِ الإيمانِ وأنوارِ القرآنِ أنْ لا وصولَ إلى السعادةِ إلا بالعلمِ والعبادةِ ، فالناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمينَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصينَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ[1] ، فالعملُ بغيرِ نيَّةٍ عناءٌ ،

(١) تقدم عن سهل بن عبد الله ، وفي بعض النسخ ما بعد (إلا) مرفوع .

والنيَّةُ بغيرِ إخلاصٍ رياءٌ ، وهوَ للنفاقِ كِفاءٌ[1] ، ومعَ العصيانِ سواءٌ ، والإخلاصُ مِنْ غيرِ صدقٍ وتحقيقٍ هباءٌ ، وقدْ قالَ تعالىٰ في كلِّ عملٍ كانَ بإرادةِ غيرِ اللهِ مشوباً مغموراً : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ .

وليتَ شعري كيفَ يصحِّحُ نيَّتَهُ مَنْ لا يعرفُ حقيقةَ النيَّةِ ؟! أوْ كيفَ يخلصُ مَنْ صحَّحَ النيةَ إذا لمْ يعرفْ حقيقةَ الإخلاصِ ؟! أوْ كيفَ تطالبُ المخلصَ نفسُهُ بالصدقِ إذا لمْ يتحقَّقْ معناهُ ؟!

فالوظيفةُ الأولىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ أرادَ طاعةَ اللهِ تعالىٰ أنْ يتعلَّمَ النيةَ أوَّلاً لتحصلَ المعرفةُ ، ثمَّ يصحِّحَها بالعملِ بعدَ فهمِ حقيقةِ الصدقِ والإخلاصِ ، اللذينِ هما وسيلتا العبدِ إلى النجاةِ والخلاصِ ، ونحنُ نذكرُ معانيَ الصدقِ والإخلاصِ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في حقيقةِ النيَّةِ ومعناها .

البابُ الثاني : في الإخلاصِ وحقائقِهِ .

البابُ الثالثُ : في الصدْقِ وحقيقتِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كفاء : نظير ومثيل .

البَابُ الأوّلُ
في النّيّة

وفيهِ بيانُ فضيلةِ النيةِ ، وبيانُ حقيقةِ النيةِ ، وبيانُ كونِ النيةِ خيراً مِنَ العملِ ، وبيانُ تفضيلِ الأعمالِ المتعلِّقةِ بالنيةِ ، وبيانُ خروجِ النيةِ عنِ الاختيارِ .

بيان فضيلة النّيّة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ، والمرادُ بتلكَ الإرادةِ النيةُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، ولكلِّ امرىءٍ ما نوىٰ، فمَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ . . فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلىٰ دنيا يصيبُها أوِ امرأةٍ يتزوَّجُها . . فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ شهداءِ أمَّتي أصحابُ الفُرُشِ ، وربَّ قتيلٍ بينَ الصفينِ اللهُ أعلمُ بنيَّتِهِ »[2] .

---

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٩٧) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾ ، فجعلَ النيَّةَ سببَ التوفيقِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ وأموالِكُمْ ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ »[1] ، وإنَّما نظرَ إلى القلوبِ لأنَّها مَظِنَّةُ النيةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ أعمالاً حسنةً ، فتصعدُ بها الملائكةُ في صحفٍ مختمةٍ ، فتُلقىٰ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فيقولُ : ألقوا هٰذهِ الصحيفةَ ، فإنَّهُ لمْ يردْ بها وجهي ، ثمَّ ينادي الملائكةَ : اكتبوا لهُ كذا ، واكتبوا لهُ كذا ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ إنَّهُ لمْ يعملْ شيئاً مِنْ ذلكَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّهُ نواهُ ، إنَّهُ نواهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ أربعةٌ : رجلٌ آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ علماً ومالاً ، فهوَ يعملُ بعلمِهِ في مالِهِ ، فيقولُ رجلٌ : لو آتاني اللهُ تعالىٰ مثلَ ما آتاهُ . . لعملتُ كما يعملُ ، فهما في الأجرِ سواءٌ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ تعالىٰ مالاً ولمْ يؤتِهِ علماً ، فهوَ يتخبَّطُ بجهلِهِ في مالِهِ ، فيقولُ رجلٌ : لو آتاني اللهُ مثلَ ما آتاهُ . . عملتُ كما يعملُ ، فهما في الوزرِ سواءٌ »[3] ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) .
(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (١/ ٥١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٦) عن أبي عمران الجوني بلاغاً .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

ألا ترىٰ كيفَ شركَهُ بالنيّةِ في محاسنِ عملِهِ ومساوئِهِ ؟!

وكذلكَ في حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ : لمَّا خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ تبوكَ . . قالَ : « إنَّ بالمدينةِ أقواماً ما قطعنا وادياً ، ولا وطِئنا موطِئاً يغيظُ الكفَّارَ ، ولا أنفقنا نفقةً ، ولا أصابَتْنا مخمصةٌ . . إلا شركونا في ذلكَ وهُمْ بالمدينةِ » ، قالوا : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ وليسوا معنا ؟ قالَ : « حبسَهُمُ العذرُ »[1] ، فشُركوا بحسنِ النيةِ .

وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ : (مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً . . فهوَ لهُ ، فهاجرَ رجلٌ فتزوَّجَ امرأةً منَّا ، فكانَ يُسمَّىٰ مهاجرَ أمِّ قيسٍ)[2] .

وكذلكَ جاءَ في الخبرِ : أنَّ رجلاً قُتلَ في سبيلِ اللهِ وكان يُدعىٰ قتيلَ الحمارِ ؛ لأنَّهُ قاتلَ رجلاً ليأخذَ سلبَهُ وحمارَهُ ، فقُتلَ علىٰ ذلكَ ، فأُضيفَ إلىٰ نيتِهِ[3] .

وفي حديثِ عبادةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غزا وهوَ لا ينوي إلا عقالاً . . فلهُ ما نوىٰ »[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٠) ، ورواه البخاري (٤٤٢٣) ، وأبو داوود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً في الموصولات ، وإنما رواه أبو إسحاق الفزاري في « السير » من وجه مرسل) . « إتحاف » (١٠/ ٨) .

(٤) رواه النسائي (٦/ ٢٤) .

وقالَ : إنِّي استعنتُ رجلاً يغزو معي ، فقالَ : لا ، حتىٰ تجعلَ لي جُعلاً ، فجعلتُ لهُ ، فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ليسَ لهُ مِنْ دنياهُ وآخرتِهِ إلا ما جعلتَ لهُ »(١) .

ورُويَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ رجلاً مرَّ بكثبانٍ مِنْ رملٍ في مجاعةٍ ، فقالَ في نفسِهِ : لوْ كانَ لي هـٰذا الرملُ طعاماً . . لقسمتُهُ بينَ الناسِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ أنْ قلْ لهُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ قبلَ صدقتَكَ ، وقدْ شكرَ حسنَ نيَّتِكَ ، وأعطاكَ ثوابَ ما لوْ كانَ طعاماً فتصدقتَ بهِ(٢) .

وقدْ وردَ في أخبارٍ كثيرةٍ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ ولـمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةً »(٣) .

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « مَنْ كانَتِ الدنيا نيَّتَهُ . . جعلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ ، وفارقَها أرغبَ ما يكونُ فيها ، ومَنْ تكنِ الآخرةُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه الطبراني في « مسند الشاميين » ، ولأبي داوود [٢٥٢٧] بإسناد جيد من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيراً للغزو وسمَّىٰ ثلاثة دنانير ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أجد له في غزوته هـٰذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمَّىٰ ») . « إتحاف » (٨/١٠) ، وفيه : (وقال أبيٌّ) بدل (وقال : إني) ، ومشىٰ علىٰ أن أبيّاً هنا هو ابن كعب .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/١٠) : (وهو في « كتاب الإخلاص » لابن أبي الدنيا) وذكره بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

نيَّتَهُ . . جعلَ اللهُ تعالىٰ غناهُ في قلبِهِ ، وجمعَ عليهِ ضيعتَهُ ، وفارقَها أزهدَ ما يكونُ فيها »(١) .

وفي حديثِ أمِّ سلمةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذكرَ جيشاً يُخسفُ بهِمْ بالبيداءِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ يكونُ فيهِمُ المكرهُ والأجيرُ ! فقالَ : « يُحشرونَ علىٰ نيَّاتِهِمْ »(٢) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّما يقتتلُ المقتتلونَ على النيَّاتِ »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا التقى الصفَّانِ . . نزلَتِ الملائكةُ تكتبُ الخلقَ علىٰ مراتبِهِمْ : فلانٌ يقاتلُ للدنيا ، فلانٌ يقاتلُ حميةً ، فلانٌ يقاتلُ عصبيةً ، ألا فلا تقولوا : فلانٌ قُتلَ في سبيلِ اللهِ ، فمَنْ قاتلَ لتكونَ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، ورواه بنحوه من حديثه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٣) ولفظه : « من جعل الهموم هماً واحداً . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » ، وهو عند ابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت ، ولفظه : « من كانت الدنيا همَّهُ . . فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيتَهُ . . جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

(٢) رواه أبو داوود (٤٢٨٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، وقد رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٣٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٣٨٥) ، وفيهما : (يبعث) بدل (يقتتل) ، وعند ابن ماجه (٤٢٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنما يبعث الناس علىٰ نياتهم » .

كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[١] .

وعنْ جابرٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُبعثُ كلُّ عبدٍ علىٰ ما ماتَ عليهِ »[٢] .

وفي حديثِ الأحنفِ عنْ أبي بكرةَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[٣] .

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « مَنْ تزوَّجَ امرأةً علىٰ صداقٍ وهوَ لا ينوي أداءَهُ . . فهوَ زانٍ ، ومَنِ ادَّانَ ديناً وهوَ لا ينوي قضاءَهُ . . فهوَ سارقٌ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تطيَّبَ للهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيبُ مِنَ المسكِ ، ومَنْ تطيَّبَ لغيرِ اللهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أنتنُ مِنَ الجيفةِ »[٥] .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه ، وآخر الحديث عند البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٨) .

(٣) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٨٧٢١) بتمامه ، وآخره رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧٢) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣١٩) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً .

وأمّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (أفضلُ الأعمالِ أداءُ ما افترضَ اللهُ تعالىٰ ، والورعُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، وصدْقُ النيةِ فيما عندَ اللهِ تعالىٰ)(١) .

وكتبَ سالمُ بنُ عبدِ اللهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (اعلمْ : أنَّ عونَ اللهِ تعالىٰ للعبدِ علىٰ قدْرِ النيةِ ، فمَنْ تمَّتْ نيتُهُ.. تمَّ عونُ اللهِ لهُ ، وإنْ نقصَتْ.. نقصَ بقدْرِهِ)(٢) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ربَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيةُ ، وربَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيةُ)(٣) .

وقالَ داوودُ الطائيُّ : (مَنْ كانَ أكبرُ همتِهِ التقوىٰ ، فلو تعلقَتْ جميعُ جوارحِهِ بالدنيا.. لردتهُ نيتُهُ يوماً إلىٰ نيةٍ صالحةٍ ، وكذلكَ الجاهلُ بعكسِ ذلكَ)(٤) .

وقالَ الثوريُّ : (كانوا يتعلَّمونَ النيةَ للعملِ كما تتعلَّمون العملَ)(٥) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٨) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٩) ، ورواه ضمن خبر طويل أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٨٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) ، ونسبه أيضاً لابن المبارك (٢/ ١٦٣) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) ، وفي (أ ، ج ، ن ، ف) : (البرُّ همتُهُ التقوى...) بدل (من كان أكبر همته التقوىٰ) .
(٥) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) ، وفيه : (كما يتعلمون العلم) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (اطلبِ النيةَ للعملِ قبلَ العملِ ، وما دمتَ تنوي الخيرَ فأنتَ بخيرٍ)(١) .

وكانَ بعضُ المريدينَ يطوفُ على العلماءِ يقولُ : مَنْ يدلُّني علىٰ عملٍ لا أزالُ فيهِ عاملاً للهِ تعالى ؟ فإنِّي لا أحبُّ أنْ يأتيَ عليَّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ إلا وأنا عاملٌ مِنْ عمَّالِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقيلَ لهُ : قدْ وجدتَ حاجتَكَ ، فاعملِ الخيرَ ما استطعتَ ، فإذا فترتَ أوْ تركتَهُ . . فهُمَّ بعملِهِ ؛ فإنَّ الهامَّ بعملِ الخيرِ كعاملِهِ(٢) .

وكذلكَ قالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ نعمةَ اللهِ عليكُمْ أكثرُ مِنْ أنْ تحصوها ، وإنَّ ذنوبَكُمْ أخفىٰ مِنْ أنْ تعلموها ، ولكنْ أصبحوا توَّابينَ ، وأمسوا توَّابينَ . . يُغفرْ لكُمْ ما بينَ ذلكَ)(٣) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لعينٍ نامَتْ ولا تهمُّ بمعصيةٍ ، وانتبهَتْ إلىٰ غيرِ إثمٍ)(٤) .

وقالَ أبو هريرةَ : (يُبعثونَ يومَ القيامةِ علىٰ قدْرِ نيَّاتِهِمْ)(٥) .

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ إذا قرأَ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٩٠٢) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٩٢) مرفوعاً .

﴿وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ يبكي ، ويردِّدُها ويقولُ : (إنَّكَ إنْ بلوتَنا . . فضحتَنا وهتكتَ أستارَنا)[(١)] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّما خُلِّدَ أهلُ الجنةِ في الجنةِ وأهلُ النارِ في النارِ بالنيَّاتِ)[(٢)] .

وقالَ أبو هريرةَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ما أُريدَ بهِ وجهي فقليلُهُ كثيرٌ ، وما أُريدَ بهِ غيري فكثيرُهُ قليلٌ) .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إنَّ العبدَ ليقولُ قولَ مؤمنٍ ، فلا يدعُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وقولَهُ حتَّىٰ ينظرَ في عملِهِ ، فإذا عملَ . . لمْ يدعْهُ اللهُ حتَّىٰ ينظرَ في ورعِهِ ، فإنْ تورَّعَ . . لمْ يدعْهُ حتَّىٰ ينظرَ ماذا نوىٰ ، فإنْ صلحَتِ النيةُ . . فبالحريِّ أنْ يصلحَ ما دونَ ذلكَ)[(٣)] .

فإذاً ؛ عمادُ الأعمالِ النياتُ ، فالعملُ مفتقرٌ إلى النيةِ ليصيرَ بها خيراً ، والنيةُ في نفسِها خيرٌ وإنْ تعذَّرَ العملُ بعائقٍ[(٤)] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١١١) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٠) من غير نسبة، وهـٰذا لأن أهل الجنة نووا طاعته ما عاشوا، وأهل الخلود في النار نووا معصيته ما عاشوا ، فعلىٰ نيتهم حوسبوا لا علىٰ أعمالهم .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٣٠) .
(٤) وليس للشرع عناية في طاعة من الطاعات بعد الإيمان بالله أعظم من اعتنائه بالنية ؛ إذ صحة العبادات أجمعها موقوفة علىٰ وجودهما ؛ يعني : الإيمان والنية ، فهي تلي الإيمان في الرتبة . « إتحاف » (١٠/ ١٢) .

بيان حقيقة النّيّة

اعلمْ : أنَّ النيةَ والإرادةَ والقصدَ عباراتٌ متواردةٌ علىٰ معنىً واحدٍ ، وهوَ حالةٌ وصفةٌ للقلبِ يكتنفُها أمرانِ : علمٌ وعملٌ ، العلمُ يقدُمُهُ لأنَّهُ أصلُهُ وشرطُهُ ، والعملُ يتبعُهُ لأنَّهُ ثمرتُهُ وفرعُهُ ، وذلكَ لأنَّ كلَّ عملٍ ـ أعني : كلَّ حركةٍ وسكونٍ ـ اختياريٍّ فإنَّهُ لا يتمُّ إلا بثلاثةِ أمورٍ : علمٍ وإرادةٍ وقدرةٍ ؛ لأنَّهُ لا يريدُ الإنسانُ ما لا يعلمُهُ ، فلا بدَّ وأنْ يعلمَ ، ولا يعملُ ما لمْ يردْ ، فلا بدَّ مِنْ إرادةٍ ، ومعنى الإرادةِ : انبعاثُ القلبِ إلىٰ ما يراهُ موافقاً للغرضِ ؛ إمَّا في الحالِ أوْ في المآلِ ، فقدْ خُلقَ الإنسانُ بحيثُ يوافقُهُ بعضُ الأمورِ ويلائمُ غرضَهُ ، ويخالفُهُ بعضُ الأمورِ ، فاحتاجَ إلىٰ جلبِ الملائمِ الموافقِ إلىٰ نفسِهِ ، ودفعِ الضارِّ المنافي عنْ نفسِهِ ، فافتقرَ بالضرورةِ إلىٰ معرفةٍ وإدراكٍ للشيءِ المضرِّ والنافعِ ، حتَّىٰ يجلبَ هـٰذا ويهربَ مِنْ هـٰذا ، فإنَّ مَنْ لا يبصرُ الغذاءَ ولا يعرفُهُ . . لا يمكنُهُ أنْ يتناولَهُ ، ومَنْ لا يبصرُ النارَ . . لايمكنُهُ الهربُ منها ، فخلقَ اللهُ تعالى الهدايةَ والمعرفةَ ، وجعلَ لها أسباباً ؛ وهيَ الحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا .

ثمَّ لوْ أبصرَ الغذاءَ وعلمَ أنَّهُ موافقٌ لهُ . . فلا يكفيهِ ذلكَ للتناولِ ما لمْ يكنْ فيهِ ميلٌ إليهِ ورغبةٌ فيهِ ، وشهوةٌ لهُ باعثةٌ عليهِ ؛ إذِ المريضُ يرى الغذاءَ ويعلمُ أنَّهُ موافقٌ ولا يمكنُهُ التناولُ لعدمِ الرغبةِ والميلِ ، ولفقدِ الداعيةِ

المحرِّكةِ إليهِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لهُ الميلَ والرغبةَ والإرادةَ ، وأعني بهِ نزوعاً في نفسهِ إليهِ ، وتوجُّهاً في قلبهِ إليهِ .

ثمَّ ذلكَ لا يكفيهِ ، فكَمْ مِنْ مشاهدٍ طعاماً راغبٍ فيهِ مريدٍ تناولَهُ عاجزٌ عنهُ لكونهِ زَمِناً ، فخُلقَتْ لهُ القدرةُ والأعضاءُ المتحرِّكةُ حتَّىٰ يتمَّ بهِ التناولُ ، والعضوُ لا يتحرَّكُ إلا بالقدرةِ ، والقدرةُ تنتظرُ ، يةَ الباعثةَ ، والداعيةُ تنتظرُ العلمَ والمعرفةَ ، أوِ الظنَّ والاعتقادَ ، وهوَ أنْ يقوىٰ في نفسِهِ كونُ الشيءِ موافقاً لهُ ، فإذا جزمَتِ المعرفةُ بأنَّ الشيءَ موافقٌ ، ولا بدَّ أنْ يفعلَ ، وسلمَتْ عنْ معارضةِ باعثٍ آخرَ صارفٍ عنهُ . . انبعثَتِ الإرادةُ ، وتحقَّقَ الميلُ ، فإذا انبعثَتِ الإرادةُ . . انتهضَتِ القدرةُ لتحريكِ الأعضاءِ ، فالقدرةُ خادمةٌ للإرادةِ ، والإرادةُ تابعةٌ لحكمِ الاعتقادِ والمعرفةِ ، **فالنيةُ** : عبارةٌ عنِ الصفةِ المتوسطةِ ، وهيَ الإرادةُ وانبعاثُ النفسِ بحكمِ الرغبةِ والميلِ إلىٰ ما هوَ موافقٌ للغرضِ ؛ إمَّا في الحالِ ، وإمَّا في المآلِ .

فالمحرِّكُ الأوَّلُ هوَ الغرضُ المطلوبُ ، وهوَ الباعثُ ، والغرضُ الباعثُ هوَ المقصدُ المنويُّ ، والانبعاثُ هوَ القصدُ والنيةُ ، وانتهاضُ القدرةِ لخدمةِ الإرادةِ بتحريكِ الأعضاءِ هوَ العملُ ، إلا أنَّ انتهاضَ القدرةِ للعملِ قدْ يكونُ بباعثٍ واحدٍ ، وقدْ يكونُ بباعثينِ اجتمعا في فعلٍ واحدٍ ، وإذا كانَ بباعثينِ . . فقدْ يكونُ كلُّ واحدٍ بحيثُ لوِ انفردَ لكانَ ملياً بإنهاضِ القدرةِ ، وقدْ يكونُ كلُّ واحدٍ قاصراً عنهُ إلا بالاجتماعِ ، وقدْ يكونُ أحدُهُما كافياً لولا الآخرُ ، لكنِ الآخرُ انتهضَ عاضداً لهُ ومعاوناً ، فيخرجُ مِنْ هـٰذا التقسيمِ

أربعةُ أقسامٍ ، فلنذكرْ لكلٍّ واحدٍ مثالاً واسماً .

❊ ❊ ❊

أمَّا الأوَّلُ : فهوَ أنْ ينفردَ الباعثُ الواحدُ ويتجرَّدَ : كما إذا هجمَ على الإنسانِ سبعٌ ، فكلَّما رآهُ.. قامَ مِنْ موضعِهِ ، فلا مزعجَ لهُ إلا غرضُ الهربِ مِنَ السبعِ ، فإنَّهُ رأى السبعَ وعرفَهُ ضارّاً ، فانبعثَتْ نفسُهُ إلى الهربِ ورغبَتْ فيهِ ، فانتهضَتِ القدرةُ عاملةً بمقتضى الانبعاثِ ، فيُقالُ : نيتُهُ الفرارُ مِنَ السبعِ ، لا نيةَ لهُ في القيامِ غيرُهُ ، وهـٰذهِ النيةُ تسمَّىٰ **خالصةً** ، ويسمَّى العملُ بموجبِها **إخلاصاً** بالإضافةِ إلى الغرضِ الباعثِ ، ومعناهُ : أنَّهُ خلصَ عنْ مشاركةِ غيرِهِ وممازجتِهِ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الثاني : فهوَ أنْ يجتمعَ باعثانِ كلُّ واحدٍ مستقلٌّ بالإنهاضِ لوِ انفردَ : ومثالُهُ مِنَ المحسوسِ : أنْ يتعاونَ رجلانِ علىٰ حملِ شيءٍ بمقدارٍ مِنَ القوَّةِ كانَ كافياً في الحملِ لوِ انفردَ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يسألَهُ قريبُهُ الفقيرُ حاجةً فيقضيَها لفقرِهِ وقرابتِهِ ، وعلمَ أنَّهُ لولا فقرُهُ.. لكانَ يقضيها بمجرَّدِ القرابةِ ، وأنَّهُ لولا قرابتُهُ.. لكانَ يقضيها بمجرَّدِ الفقرِ ، وعلمَ ذلكَ مِنْ نفسِهِ بأنْ يحضرَهُ قريبٌ غنيٌّ فيرغبُ في قضاءِ حاجتِهِ ، وفقيرٌ أجنبيٌّ فيرغبُ أيضاً فيهِ، وكذلكَ مَنْ أمرَهُ الطبيبُ بتركِ الطعامِ ، ودخلَ عليهِ يومُ عرفةَ ، فصامَ ، وهوَ يعلمُ أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ يومَ عرفةَ.. لكانَ يتركُ الطعامَ حميةً ، ولولا

الحميةُ . . لكان يتركُهُ لأجلِ أنَّهُ يومُ عرفةَ ، وقدِ اجتمعا جميعاً ، فأقدَم على الفعلِ وكانَ الباعثُ الثاني رفيقَ الأوَّلِ ، فلنسمِّ هـٰذا **مرافقةَ البواعثِ** .

❁ ❁ ❁

والثالثُ : ألا يستقلَّ كلُّ واحدٍ لوِ انفردَ ، ولكنْ قويَ مجموعُهُما علىٰ إنهاضِ القدرةِ ، ومثالُهُ في المحسوسِ : أنْ يتعاونَ ضعيفانِ علىٰ حملِ ما لا ينفردُ أحدُهُما بهِ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أَنْ يقصدَهُ قريبُهُ الغنيُّ فيطلبُ درهماً فلا يعطيهِ ، ويقصدُهُ الأجنبيُّ الفقيرُ فيطلبُ درهماً فلا يعطيهِ ، ثمَّ يقصدُهُ الفقيرُ القريبُ فيعطيهِ ، فيكونُ انبعاثُ داعيتِهِ بمجموعِ الباعثَيْنِ ، وهوَ القرابةُ والفقرُ ، وكذلكَ الرجلُ يتصدَّقُ بينَ يدي الناسِ لغرضِ الثوابِ ولغرضِ الثناءِ ، ويكونُ بحيثُ لوْ كانَ منفرداً . . لكانَ لا يبعثُهُ مجرَّدُ قصدِ الثوابِ على العطاءِ ، ولوْ كانَ الطالبُ فاسقاً لا ثوابَ في التصدُّقِ عليهِ . . لكانَ لا يبعثُهُ مجرَّدُ الرياءِ على العطاءِ ، ولمَّا اجتمعا . . أورثا بمجموعِهِما تحريكَ القلبِ ، ولنسمِّ هـٰذا الجنسَ **مشاركةً** .

❁ ❁ ❁

والرابعُ : أنْ يكونَ أحدُ الباعثَيْنِ مستقلاً لوِ انفردَ بنفسِهِ والثاني لا يستقلُّ ، ولكنْ لمَّا انضافَ إليهِ . . لمْ ينفكَّ عنْ تأثيرٍ بالإعانةِ والتسهيلِ ، ومثالُهُ في المحسوسِ : أنْ يعاونَ الضعيفُ الرجلَ القويَّ على الحملِ ، ولوِ انفردَ القويُّ . . لاستقلَّ ، ولوِ انفردَ الضعيفُ . . لمْ يستقلَّ ، فإنَّ ذلكَ

بالجملةِ يسهِّلُ العملَ ويؤثِّرُ في تخفيفِهِ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يكونَ للإنسانِ وردٌ في الصلاةِ وعادةٌ في الصدقاتِ ، فاتفقَ أنْ حضرَ في وقتِها جماعةٌ مِنَ الناسِ ، فصارَ الفعلُ أخفَّ عليهِ بسببِ مشاهدتِهِمْ ، وعلمَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ لوْ كانَ منفرداً خالياً . . لمْ يفترْ عنْ عملِهِ ، وعلمَ أنَّ عملَهُ لوْ لمْ يكنْ طاعةً . . لمْ يكنْ مجرَّدُ الرياءِ يحملُهُ عليهِ ، فهوَ شوْبٌ تطرَّقَ إلى النيةِ ، ولنسمِّ هٰذا الجنسَ **معاونةً** .

فالباعثُ الثاني إمَّا أنْ يكونَ رفيقاً ، أوْ شريكاً ، أوْ معيناً ، وسنذكرُ حكمَها في بابِ الإخلاصِ ، والغرضُ الآنَ بيانُ أقسامِ النيَّاتِ ، فإنَّ العملَ تابعٌ للباعثِ عليهِ ، فيكتسبُ الحكمَ منهُ ، ولذلكَ قيلَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ »[1] ، لأنَّها تابعةٌ لا حكمَ لها في نفسِها ، وإنَّما الحكمُ للمتبوعِ .

❋ ❋ ❋

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم : « نية المؤمن خير من عمله »[1]

اعلمْ : أنَّهُ قدْ يُظنُّ أنَّ سببَ هٰذا الترجيحِ أنَّ النيةَ سرٌّ لا يطلعُ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والعملَ ظاهرٌ ، ولعملِ السرِّ فضلٌ ، وهٰذا صحيحٌ ، ولكنْ ليسَ هوَ المرادَ ؛ لأنَّهُ لو نوىٰ أنْ يذكرَ اللهَ تعالىٰ بقلبهِ أوْ يتفكَّرَ في مصالحِ المسلمينَ ، فيقتضي عمومُ الحديثِ أنْ تكونَ نيةُ التفكُّرِ خيراً مِنَ التفكُّرِ .

وقدْ يُظنُّ أنَّ سببَ الترجيحِ أنَّ النيةَ تدومُ إلىٰ آخرِ العملِ ، والأعمالَ لا تدومُ ، وهوَ ضعيفٌ ؛ لأنَّ ذلكَ يرجعُ معناهُ إلىٰ أنَّ العملَ الكثيرَ خيرٌ مِنَ القليلِ ، بلْ ليسَ كذلكَ ، فإنَّ نيةَ أعمالِ الصلاةِ قدْ لا تدومُ إلا في لحظاتٍ معدودةٍ ، والأعمالُ تدومُ ، والعمومُ يقتضي أنْ تكونَ نيتُهُ خيراً مِنْ عملِهِ .

وقدْ يقالُ : إنَّ معناهُ أنَّ النيةَ بمجرَّدِها خيرٌ مِنَ العملِ بمجرَّدِهِ دونَ النيةِ ، وهوَ كذلكَ ، ولكنَّهُ بعيدٌ أنْ يكونَ هوَ المرادَ ؛ إذِ العملُ بلا نيةٍ أوْ على الغفلةِ لا خيرَ فيهِ أصلاً ، والنيةُ بمجرَّدِها خيرٌ ، وظاهرُ الترجيحِ للمشتركينِ في أصلِ الخيرِ[2] .

بلِ المعنيُّ بهِ : أنَّ كلَّ طاعةٍ تنتظمُ بنيةٍ وعملٍ . . كانَتِ النيةُ مِنْ جملةِ

---

(1) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ١٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٥٥) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤٤٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣٦) .

(2) وهنا لا اشتراك . « إتحاف » (١٠/ ١٦) .

الخيراتِ ، وكانَ العملُ مِنْ جملةِ الخيراتِ ، ولكنَّ النيةَ مِنْ جملةِ الطاعةِ خيرٌ مِنَ العملِ ؛ أيْ : لكلِّ واحدٍ منهما أثرٌ في المقصودِ ، وأثرُ النيةِ أكثرُ مِنْ أثرِ العملِ ، فمعناهُ : نيةُ المؤمنِ مِنْ جملةِ طاعتِهِ خيرٌ مِنْ عملِهِ الذي هوَ مِنْ جملةِ طاعتِهِ ، والغرضُ أنَّ للعبدِ اختياراً في النيةِ وفي العملِ ، فهما عملانِ ، والنيةُ مِنَ الجملةِ خيرُهُما ، فهـٰذا معناهُ .

وأمَّا سببُ كونِها خيراً ومترجحةً على العملِ . . فلا يفهمُهُ إلا مَنْ فهمَ مقصدَ الدينِ وطريقَهُ ومبلغَ أثرِ الطرقِ في الإيصالِ إلى المقصدِ ، وقاسَ بعضَ الآثارِ بالبعضِ ، حتَّىٰ يظهرَ لهُ بعدَ ذلكَ الأرجحُ بالإضافةِ إلى المقصودِ ، فمَنْ قالَ : الخبزُ خيرٌ مِنَ الفاكهةِ . . فإنَّما يعني بهِ أنَّهُ خيرٌ بالإضافةِ إلىٰ مقصودِ القوتِ والاغتذاءِ ، ولا يفهمُ ذلكَ إلا مَنْ فهمَ أنَّ للغذاءِ مقصداً ؛ وهوَ الصحةُ والبقاءُ ، وأنَّ الأغذيةَ مختلفةُ الآثارِ فيها ، وفهمَ أثرَ كلِّ واحدٍ ، وقاسَ بعضَها بالبعضِ ، فالطاعاتُ غذاءُ القلوبِ ، والمقصودُ شفاؤُها وبقاؤُها ، وسلامتُها في الآخرةِ وسعادتُها ، وتنعُّمُها بلقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فالمقصدُ لذةُ السعادةِ بلقاءِ اللهِ فقطْ ، ولنْ يتنعَّمَ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا مَنْ ماتَ محبّاً للهِ تعالىٰ عارفاً باللهِ ، ولنْ يحبَّهُ إلا مَنْ عرفَهُ ، ولنْ يأنسَ بهِ إلا مَنْ طالَ ذكرُهُ لهُ ، فالأنسُ يحصلُ بدوامِ الذكرِ ، والمعرفةُ تحصلُ بدوامِ الفكرِ ، والمحبةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولنْ يتفرَّغَ القلبُ لدوامِ الذكرِ والفكرِ إلا إذا فرغَ مِنْ شواغلِ الدنيا ، ولنْ يتفرَّغَ مِنْ شواغلِها إلا إذا انقطعَ عنهُ شهواتُها ، حتَّىٰ يصيرَ مائلاً إلى الخيرِ مريداً لهُ ، نافراً عنِ الشرِّ مبغضاً

لهُ ، وإنَّما يميلُ إلى الخيراتِ والطاعاتِ إذا علمَ أنَّ سعادتَهُ في الآخرةِ منوطةٌ بها ، كما يميلُ العاقلُ إلى الفصدِ والحجامةِ لعلمِهِ بأنَّ سلامتَهُ فيهما .

وإذا حصلَ أصلُ الميلِ بالمعرفةِ فإنَّما يقوىٰ بالعملِ بمقتضى الميلِ والمواظبةِ عليهِ ، فإنَّ المواظبةَ علىٰ مقتضىٰ صفاتِ القلبِ وإرادتِها بالعملِ تجري مجرى الغذاءِ والقوتِ لتلكَ الصفةِ ، حتىٰ ترشحُ الصفةُ وتقوىٰ بسببِها ، فالمائلُ إلىٰ طلبِ العلمِ أوْ طلبِ الرئاسةِ لا يكونُ ميلُهُ في الابتداءِ إلا ضعيفاً ، فإنِ اتبعَ مقتضى الميلِ واشتغلَ بالعلمِ وتربيةِ الرئاسةِ والأعمالِ المطلوبةِ لذلكَ . . تأكَّدَ ميلُهُ ورسخَ ، وعسرَ عليهِ النزوعُ ، وإنْ خالفَ مقتضىٰ ميلِهِ . . ضعفَ ميلُهُ وانكسرَ ، وربما زالَ وانمحقَ ، بلِ الذي ينظرُ إلىٰ وجهٍ حسنٍ مثلاً فيميلُ إليهِ طبعُهُ ميلاً ضعيفاً لوِ اتبعَهُ وعملَ بمقتضاهُ ، فداومَ على النظرِ والمجالسةِ والمخالطةِ والمجاورةِ . . تأكَّدَ ميلُهُ حتَّىٰ يخرجَ أمرُهُ عنِ اختيارِهِ ، فلا يقدرُ على النزوعِ عنهُ ، ولوْ فطمَ نفسَهُ ابتداءً وخالفَ مقتضىٰ ميلِهِ . . لكانَ ذلكَ كقطعِ القوتِ والغذاءِ عنْ صفةِ الميلِ ، ويكونُ ذلكَ زبراً ودفعاً في وجهِهِ ، حتَّىٰ يضعفَ وينكسرَ بسببِهِ ، أوْ ينقمعَ وينمحيَ .

وهكذا جميعُ الصفاتِ ، والخيراتُ والطاعاتُ كلُّها هيَ التي تُرادُ بها الآخرةُ ، والشرورُ كلُّها هيَ التي تُرادُ بها الدنيا للدنيا لا للآخرةِ ، وميلُ النفسِ إلى الخيراتِ الأخرويَّةِ وانصرافُها عنِ الدنيويَّةِ هوَ الذي يفرِّغُها للذكرِ والفكرِ ، ولنْ يتأكَّدَ ذلكَ إلا بالمواظبةِ علىٰ أعمالِ الطاعاتِ وتركِ المعاصي بالجوارحِ ؛ لأنَّ بينَ الجوارحِ وبينَ القلبِ علاقةً ، حتَّىٰ إنَّهُ يتأثرُ كلُّ واحدٍ

منهُما بالآخرِ ، فترى العضوَ إذا أصابَتْهُ جراحةٌ تألَّمَ بها القلبُ ، وترى القلبَ إذا تألَّمَ بعلمِهِ بموتِ عزيزٍ مِنْ أعزَّتِهِ أوْ بهجومِ أمرٍ مَخُوفٍ . . تأثرتْ بهِ الأعضاءُ ، وارتعدَتِ الفرائصُ ، وتغيَّرَ اللونُ ، إلا أنَّ القلبَ هوَ الأصلُ المتبوعُ ، فكأنَّهُ الأميرُ والراعي ، والجوارحُ كالخدمِ والرعايا والأتباعِ ، فالجوارحُ خادمةٌ للقلبِ بتأكيدِ صفاتِها فيهِ ، فالقلبُ هوَ المقصودُ ، والأعضاءُ آلاتٌ موصلةٌ إلى المقصودِ .

ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجسدِ مضغةً ، إذا صلحَتْ . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اللهُمَّ ؛ أصلحِ الراعيَ والرعيةَ »[2] ، وأرادَ بالراعي القلبَ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ، وهيَ صفةُ القلبِ .

فمِنْ هـٰذا الوجهِ يجبُ ـ لا محالةَ ـ أنْ تكونَ أعمالُ القلبِ على الجملةِ أفضلَ مِنْ حركاتِ الجوارحِ ، ثمَّ يجبُ أنْ تكونَ النيةُ مِنْ جملتِها أفضلَ ؛ لأنَّها عبارةٌ عنْ ميلِ القلبِ إلى الخيرِ وإرادتِهِ لهُ ، وغرضُنا مِنَ الأعمالِ بالجوارحِ أنْ يُعوِّدَ القلبُ إرادةَ الخيرِ ، ويُؤكِّدَ فيهِ الميلُ إليهِ ؛ ليتفرَّغَ مِنْ

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده) . « إتحاف » (١٠/ ١٧) .

شهواتِ الدنيا ، ويكبَّ على الذكرِ والفكرِ ، فبالضرورةِ يكونُ خيراً بالإضافةِ إلى الغرضِ ؛ لأنَّهُ متمكِّنٌ مِنْ نفسِ المقصودِ ، وهـٰذا كما أنَّ المعدةَ إذا تألَّمَتْ فقدْ تُداوىٰ بأنْ يُوضعَ الطلاءُ على الصدرِ ، وتُداوىٰ بالشربِ والدواءِ الواصلِ إلى المعدةِ . . فالشربُ خيرٌ مِنْ طلاءِ الصدرِ ؛ لأنَّ طلاءَ الصدرِ أيضاً إنَّما أُريدَ بهِ أنْ يسريَ منهُ الأثرُ إلى المعدةِ ، فما يلاقي عينَ المعدةِ فهوَ خيرٌ وأنفعُ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ تأثيرَ الطاعاتِ كلِّها ؛ إذِ المطلوبُ منها تغييرُ القلوبِ وتبديلُ صفاتِها فقطْ دونَ الجوارحِ ، فلا تظنَّنَّ أنَّ في وضعِ الجبهةِ على الأرضِ غرضاً مِنْ حيثُ إنَّهُ جمعٌ بينَ الجبهةِ والأرضِ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ بحكمِ العادةِ يؤكِّدُ صفةَ التواضعِ في القلبِ ، فإنَّ مَنْ يجدُ في نفسِهِ تواضعاً فإذا استعانَ بأعضائِهِ وصوَّرَها بصورةِ التواضعِ . . تأكَّدَ تواضعُهُ ، ومَنْ وجدَ في قلبِهِ رقَّةً علىٰ يتيمٍ ، فإذا مسحَ رأسَهُ وقبَّلَهُ . . تأكَّدَتِ الرقَّةُ في قلبِهِ ، ولهـٰذا لمْ يكنِ العملُ بغيرِ نيةٍ مفيداً أصلاً ؛ لأنَّ مَنْ يمسحُ رأسَ يتيمٍ وهوَ غافلٌ بقلبِهِ ، أوْ ظانٌّ أنَّهُ يمسحُ ثوباً . . لمْ يسرِ مِنْ أعضائِهِ أثرٌ إلىٰ قلبِهِ لتأكيدِ الرقَّةِ ، وكذلكَ مَنْ يسجدُ غافلاً وهوَ مشغولُ الهمِّ بأعراضِ الدنيا . . لم يسرِ مِنْ جبهتِهِ ووضعِها على الأرضِ أثرٌ إلىٰ قلبِهِ يتأكدُ بهِ التواضعُ ، فكانَ وجودُ ذاكَ كعدمِهِ ، وما ساوىٰ وجودُهُ عدمَهُ بالإضافةِ إلى الغرضِ المطلوبِ منهُ يُسمَّىٰ باطلاً ، فيُقالُ : العبادةُ بغيرِ نيةٍ باطلٌ ، وهـٰذا معناهُ إذا فُعِلَ عنْ غفلةٍ ، فإذا قُصِدَ بهِ رياءٌ أوْ تعظيمُ شخصٍ آخرَ . . لمْ يكنْ وجودُهُ كعدمِهِ ، بلْ زادَهُ شرّاً ؛ فإنَّهُ لمْ يؤكِّدِ الصفةَ المطلوبَ تأكيدُها حتَّىٰ أكَّدَ الصفةَ

المطلوبَ قمعُها ، وهيَ صفةُ الرياءِ التي هيَ مِنَ الميلِ إلى الدنيا .

فهٰذا وجهُ كونِ النيةِ خيراً مِنَ العملِ ، وبهٰذا أيضاً يُعرفُ معنىٰ قولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةً »[1] ، لأنَّ همَّ القلبِ هوَ ميلُهُ إلى الخيرِ وانصرافُهُ عنِ الهوىٰ وحبِّ الدنيا ، وهوَ غايةُ الحسناتِ ، وإنَّما الإتمامُ بالعملِ يزيدُها تأكيداً ، فليسَ المقصودُ مِنْ إراقةِ دمِ القربانِ الدمَ واللحمَ ، بلْ ميلُ القلبِ عنْ حبِّ الدنيا ، وبذلِها إيثاراً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الصفةُ قدْ حصلَتْ عندَ جزمِ النيةِ والهمَّةِ وإنْ عاقَ عنِ العملِ عائقٌ ، فلنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ، ولكنْ ينالُهُ التقوىٰ منكُمْ ، والتقوىٰ هٰهنا ، أعني القلبَ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ قوماً بالمدينةِ قدْ شركونا في جهادِنا » كما رويناه[2] ؛ لأنَّ قلوبَهُمْ في صدقِ إرادةِ الخيرِ ، وبذلِ المالِ والنفسِ ، والرغبةِ في طلبِ الشهادةِ وإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ . . كقلوبِ الخارجينَ في الجهادِ ، وإنَّما فارقوهُمْ بالأبدانِ لعوائقَ تخصُّ الأسبابَ الخارجةَ عنِ القلبِ ، وذلكَ غيرُ مطلوبٍ إلا لتأكيدِ هٰذهِ الصفاتِ .

وبهٰذهِ المعاني تُفهمُ جميعُ الأحاديثِ التي أوردناها في فضيلةِ النيةِ ، فاعرضْها عليها ؛ لينكشفَ لكَ أسرارُها ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

(٢) رواه بنحوه البخاري (٤٤٢٣) ، وأبو داوود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلمْ : أنَّ الأعمالَ وإنِ انقسمَتْ أقساماً كثيرةً ؛ مِنْ فعلٍ وقولٍ ، وحركةٍ وسكونٍ ، وجلبٍ ودفعٍ ، وفكرٍ وذكرٍ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لا يُتصوَّرُ إحصاؤُهُ واستقصاؤُهُ . . فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ : معاصٍ ، وطاعاتٌ ، ومباحاتٌ .

القسمُ الأوَّلُ : المعاصي :

وهيَ لا تتغيَّرُ عنْ موضوعاتِها بالنيةِ ، فلا ينبغي أنْ يفهمَ الجاهلُ ذلكَ مِنْ عمومِ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ » فيظنَّ أنَّ المعصيةَ تنقلبُ طاعةً بالنيةِ ؛ كالذي يغتابُ إنساناً مراعاةً لقلبِ غيرِهِ ، أوْ يطعمُ فقيراً مِنْ مالِ غيرِهِ ، أوْ يبني مدرسةً أوْ مسجداً أوْ رباطاً مِنْ مالٍ حرامٍ وقصدُهُ الخيرُ ، فهـٰذا كلُّهُ جهلٌ ، والنيةُ لا تؤثِّرُ في إخراجِهِ عنْ كونِهِ ظلماً وعدواناً ومعصيةً ، بلْ قصدُهُ الخيرَ بالشرِّ علىٰ خلافِ مقتضى الشرعِ شرٌّ آخرُ ، فإنْ عرفَهُ . . فهوَ معاندٌ للشرعِ ، وإنْ جهلَهُ . . فهوَ عاصٍ بجهلِهِ ؛ إذْ طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، والخيراتُ إنَّما عُرِفَ كونُها خيراتٍ بالشرعِ ، فكيفَ يمكنُ أنْ يكونَ الشرُّ خيراً ؟! هيهاتَ ! بلِ المروِّجُ لذلكَ على القلبِ خفيُّ الشهوةِ وباطنُ الهوىٰ ، فإنَّ القلبَ إذا كانَ مائلاً إلىٰ طلبِ الجاهِ ، واستمالةِ قلوبِ الناسِ ، وسائرِ حظوظِ النفسِ . . توسَّلَ الشيطانُ بهِ إلى التلبيسِ على الجاهلِ .

ولذلكَ قالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : ما عُصِيَ اللهُ تعالىٰ بمعصيةٍ أعظمَ مِنَ الجهلِ ، قيلَ : يا أبا محمدٍ ؛ هلْ تعرفُ شيئاً أشدَّ مِنَ الجهلِ ؟ قالَ : نعمِ ، الجهلُ بالجهلِ[1] .

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ الجهلَ بالجهلِ يسدُّ بالكليَّةِ بابَ التعلُّمِ ، فمَنْ يظنُّ بالكليَّةِ بنفسهِ أنَّهُ عالمٌ . . فكيفَ يتعلَّمُ ؟

وكذلكَ أفضلُ ما أُطيعَ اللهُ تعالىٰ بهِ العلمُ ، ورأسُ العلمِ العلمُ بالعلمِ ، كما أنَّ رأسَ الجهلِ الجهلُ بالجهلِ ، فإنَّ مَنْ لا يعلمُ العلمَ النافعَ مِنَ العلمِ الضارِّ . . اشتغلَ بما أكبَّ الناسُ عليهِ مِنَ العلومِ المزخرفةِ التي هيَ وسائلُهُمْ إلى الدنيا ، وذلكَ هوَ مادةُ الجهلِ ومنبعُ فسادِ العالمِ .

والمقصودُ أنَّ مَنْ قصدَ الخيرَ بمعصيةٍ عنْ جهلٍ . . فهوَ غيرُ معذورٍ ، إلا إذا كانَ قريبَ العهدِ بالإسلامِ ولمْ يجدْ بعدُ مهلةً للتعلُّمِ .

وقدْ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يُعذرُ الجاهلُ على الجهلِ ، ولا يحلُّ للجاهلِ أنْ يسكتَ علىٰ جهلِهِ ، ولا للعالمِ أنْ يسكتَ علىٰ علمِهِ »[2] .

ويقربُ مِنْ تقرُّبِ السلاطينِ ببناءِ المساجدِ والمدارسِ بالمالِ الحرامِ

---

(1) قوت القلوب (٢/ ١٥٣) .

(2) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٣) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٦١) بنحوه .

تقرُّبُ العلماءِ السوءِ بتعليمِ العلمِ للسفهاءِ والأشرارِ ، المشغولينَ بالفسقِ والفجورِ ، القاصرينَ همَمَهُمْ علىٰ مماراةِ العلماءِ ومباراةِ السفهاءِ ، واستمالةِ وجوهِ الناسِ ، وجمعِ حُطامِ الدنيا ، وأخذِ أموالِ السلاطينِ واليتامىٰ والمساكينِ ، فإنَّ هؤلاءِ إذا تعلَّموا.. كانوا قطَّاعَ طريقِ اللهِ ، وانتهضَ كلُّ واحدٍ منهُمْ في بلدتِهِ نائباً عنِ الدجَّالِ ، يتكالبُ على الدنيا ، ويتبعُ الهوىٰ ، ويتباعدُ عنِ التقوىٰ ، ويستجرىءُ الناسُ بسببِ مشاهدتِهِ علىٰ معاصي اللهِ ، ثمَّ قدْ ينتشرُ ذلكَ العلمُ إلىٰ مثلِهِ وأمثالِهِ ، ويتخذونَهُ أيضاً آلةً ووسيلةً في الشرِّ واتباعِ الهوىٰ ، ويتسلسلُ ذلكَ ، ووبالُ جميعِهِ يرجعُ إلى المعلِّمِ الذي علَّمَهُ العلمَ معَ علمِهِ بفسادِ نيتِهِ وقصدِهِ ، ومشاهدتِهِ أنواعَ المعاصي مِنْ أقوالِهِ وأفعالِهِ ، وفي مطعمِهِ وملبسِهِ ومسكنِهِ ، فيموتُ هٰذا العالمُ وتبقىٰ آثارُ شرِّهِ منتشرةً في العالمِ ألفَ سنةٍ وألفي سنةٍ ، وطوبىٰ لِمَنْ إذا ماتَ.. ماتَتْ معهُ ذنوبُهُ .

ثمَّ العجبُ مِنْ جهلِهِ حيثُ يقولُ : (إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، وقدْ قصدتُ بذلكَ نشرَ علمِ الدينِ ، فإنِ استعملَهُ هوَ في الفسادِ.. فالمعصيةُ منهُ لا منِّي ، وما قصدتُ بهِ إلا أنْ يستعينَ بهِ على الخيرِ) ، وإنَّما حبُّ الرئاسةِ والاستتباعِ والتفاخرِ بعلوِّ العلمِ يحسِّنُ ذلكَ في قلبِهِ ، والشيطانُ بواسطةِ حبِّ الرئاسةِ يلبِّسُ عليهِ ، وليتَ شعري ما جوابُهُ عمَّنْ وهبَ سيفاً مِنْ قاطعِ طريقٍ ، وأعدَّ لهُ خيلاً وأسباباً يستعينُ بها علىٰ مقصودِهِ ، ويقولُ : (إنَّما أردتُ البذلَ والسخاءَ ، والتخلُّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وقصدتُ بهِ أنْ يغزوَ

بهـٰذا السيفِ والخيلِ في سبيلِ اللهِ ، فإنَّ إعدادَ الخيلِ والرباطِ والقوَّةِ للغزاةِ مِنْ أفضلِ القرباتِ ، فإنْ هوَ صرفَهُ إلىٰ قطعِ الطريقِ . . فهوَ العاصي) ، وقدْ أجمعَ الفقهاءُ علىٰ أنَّ ذلك حرامٌ ، معَ أنَّ السخاءَ هوَ أحبُّ الأخلاقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إن للهِ تعالىٰ ثلاثَ مئةِ خُلُقٍ ، مَنْ تقرَّبَ إليهِ بواحدٍ منها . . دخلَ الجنةَ ، وأحبُّها إليهِ السخاءُ »[1] ، فليتَ شعري لِمَ حرُمَ هـٰذا السخاءُ ؟ ولِمَ وجبَ عليهِ أنْ ينظرَ إلىٰ قرينةِ الحالِ مِنْ هـٰذا الظالمِ ؛ فإذا لاحَ لهُ مِنْ عادتِهِ أنَّهُ يستعينُ بالسلاحِ على الشرِّ . . فينبغي أنْ يسعىٰ في سلبِ سلاحِهِ ، لا في أنْ يمدَّهُ بغيرِهِ ؟

والعلمُ سلاحٌ يقاتلُ بهِ الشيطانُ وأعداءُ اللهِ ، وقدْ يعاونُ بهِ أعداءَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ الهوىٰ ، فمَنْ لا يزالُ مؤْثراً لدنياه علىٰ دينِهِ ، ولهواهُ علىٰ آخرتِهِ ، وهوَ عاجزٌ عنها لقلَّةِ فضلِهِ . . فكيفَ يجوزُ إمدادُهُ بنوعِ علمٍ يتمكَّنُ بهِ مِنَ الوصولِ إلىٰ شهواتِهِ ؟!

بلْ لمْ يزلْ علماءُ السلفِ رحمهمُ اللهُ يتفقدونَ أحوالَ مَنْ يتردَّدُ إليهِمْ ، فلوْ رأوا من واحدٍ منهُمْ تقصيراً في نفلٍ مِنَ النوافلِ . . أنكروهُ وتركوا إكرامَهُ ، وإذا رأَوا منهُ فجوراً واستحلالَ حرامٍ . . هجروهُ ونفَوهُ عنْ مجالسِهِمْ ، وتركوا تكليمَهُ فضلاً عنْ تعليمِهِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ مَنْ تعلَّمَ مسألةً

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٨) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٩٧) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (١٦١) بنحوه .

ولمْ يعملْ بها وجاوزَها إلىٰ غيرِها . . فليسَ يطلبُ إلا آلةَ الشرِّ ، وقدْ تعوَّذَ جميعُ السلفِ باللهِ مِنَ العالمِ الفاجرِ ، وما تعوَّذوا مِنَ الفاجرِ الجاهلِ .

وحُكِيَ عنْ بعضِ أصحابِ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمهُ اللهُ أنَّهُ كانَ يتردَّدُ إليهِ سنينَ ، ثمَّ اتفقَ أنْ أعرضَ عنهُ أحمدُ ، وهجرَهُ وصارَ لا يكلِّمُهُ ، فلمْ يزلْ يسألُهُ عنْ تغيُّرِهِ عليهِ وهوَ لا يذكرُهُ حتىٰ قالَ لهُ : بلغَني أنَّكَ طيَّنْتَ حائطَ دارِكَ مِنْ جانبِ الشارعِ ، فقدْ أخذتَ قدْرَ سمكِ الطينِ ، وهوَ أَنْمُلةٌ مِنْ شارعِ المسلمينَ ، فلا تصلحُ لتعلُّمِ العلمِ[1] .

فهكذا كانَتْ مراقبةُ السلفِ لأحوالِ طلبةِ العلمِ .

وهـٰذا وأمثالُهُ ممَّا يلتبسُ على الأغبياءِ وأتباعِ الشيطانِ وإنْ كانوا أربابَ الطيالسةِ والأكمامِ الواسعةِ وأصحابَ الألسنةِ الطويلةِ والفضْلِ الكثيرِ ؛ أعني : الفضلَ مِنَ العلومِ التي لا تشتملُ على التحذيرِ مِنَ الدنيا والزجرِ عنها ، والترغيبِ في الآخرةِ والدعاءِ إليها ، بلْ هيَ العلومُ التي تتعلَّقُ بالخلقِ ، ويُتوصَّلُ بها إلىٰ جمعِ الحُطامِ ، واستتباعِ الناسِ والتقدُّمِ على الأقرانِ .

فإذاً ؛ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ » يختصُّ مِنَ الأقسامِ الثلاثةِ بالطاعاتِ والمباحاتِ دونَ المعاصي ؛ إذِ الطاعةُ تنقلبُ

---

(١) أورده صاحب « القوت » (١/ ٦٩) ، ثم إن الرجل هدم حائطه وأخَّره إصبعاً ثم طينه من خارج ، فأقبل عليه الإمام أحمد ، رحمهما الله تعالىٰ .

معصيةً بالقصدِ ، والمباحُ ينقلبُ معصيةً وطاعةً بالقصدِ ، فأمَّا المعصيةُ . . فلا تنقلبُ طاعةً بالقصدِ أصلاً ، نعمْ ، للنيةِ دخلٌ فيها ، وهوَ أنَّهُ إذا انضافَ إليها قُصودٌ خبيثةٌ . . تضاعفَ وزرُها ، وعظُمَ وبالُها ، كما ذكرنا ذلكَ في كتابِ التوبةِ .

❋ ❋ ❋

القسمُ الثاني : الطاعاتُ :

وهيَ مرتبطةٌ بالنياتِ في أصلِ صحتِها ، وفي تضاعفِ فضلِها .

أمَّا الأصلُ . . فهوَ أنْ ينويَ بها عبادةَ اللهِ تعالىٰ لا غيرَ ، فإنْ نوى الرياءَ . . صارَتْ معصيةً .

وأمَّا تضاعفُ الفضلِ . . فبكثرةِ النياتِ الحسنةِ ، فإنَّ الطاعةَ الواحدةَ يمكنُ أنْ ينويَ بها خيراتٍ كثيرةً ، فيكونُ لهُ بكلِّ نيةٍ ثوابٌ ؛ إذْ كلُّ واحدةٍ منها حسنةٌ ، ثمَّ تضاعفُ كلُّ حسنةٍ عشرَ أمثالِها كما وردَ بهِ الخبرُ[1] .

ومثالُهُ : القعودُ في المسجدِ ؛ فإنَّهُ طاعةٌ ، ويمكنُ أنْ ينويَ فيهِ نياتٍ كثيرةً حتىٰ يصيرَ مِنْ فضائلِ أعمالِ المتقينَ ، ويبلغَ بهِ درجاتِ المقربينَ :

أوَّلُها : أنْ يعتقدَ أنَّهُ بيتُ اللهِ ، وأنَّ داخلَهُ زائرٌ للهِ ، فيقصدُ بهِ زيارةَ مولاهُ رجاءً لما وعدَهُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مَنْ

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٨٩٥) .

قعدَ في المسجدِ . . فقدْ زارَ اللهَ تعالىٰ ، وحقٌّ على المزورِ إكرامُ زائرِه »(١) .

وثانيها : أنْ ينتظرَ الصلاةَ بعدَ الصلاةِ ، فيكونَ في جملةِ انتظارِه في الصلاةِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾(٢) .

وثالثُها : الترهُّبُ بكفِّ السمعِ والبصرِ والأعضاءِ عنِ الحركاتِ والتردُّداتِ ؛ فإنَّ الاعتكافَ كفٌّ ، وهوَ في معنى الصومِ ، وهوَ نوعُ ترهُّبٍ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رهبانيةُ أمَّتي القعودُ في المساجدِ »(٣) .

ورابعُها : عكوفُ الهمِّ على اللهِ ، ولزومُ السرِّ للفكرِ في الآخرةِ ، ودفعُ الشواغلِ الصارفةِ عنهُ بالاعتزالِ إلى المسجدِ .

وخامسُها : التجرُّدُ لذكرِ اللهِ ، أوْ لاستماعِ ذكرِهِ ، وللتذكيرِ بهِ ، كما

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٤) ، ورواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٦٢) .

(٢) إذ روىٰ مسلم (٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٤) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ١٩٥٧) من حديث أنس قال : مات ابن لعثمان بن مظعون ، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ مسجداً في داره يتعبد فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لم تكتب علينا الرهبانية يا عثمان ، إن رهبانية أمتي في المساجد وانتظار الصلوات والحج والعمرة . . . » الحديث .

رُوِيَ في الخبرِ : « مَنْ غدا إلى المسجدِ ليذكرَ اللهَ تعالىٰ أوْ يذكِّرَ بهِ . . كانَ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ »(1) .

وسادسُها : أنْ يقصدَ إفادةَ علمٍ بأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عنْ منكرٍ ؛ إذِ المسجدُ لا يخلو عمَّنْ يسيءُ صلاتَهُ ، أوْ يتعاطىٰ ما لا يحلُّ لهُ ، فيأمرُهُ بالمعروفِ ، ويرشدُهُ إلى الدينِ ، فيكونُ شريكاً معَهُ في خيرِهِ الذي يعلمُ منهُ ، فتتضاعفُ خيراتُهُ .

وسابعُها : أنْ يستفيدَ أخاً في اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ ذلكَ غنيمةٌ وذخيرةٌ للدارِ الآخرةِ ، والمسجدُ مُعَشَّشُ أهلِ الدينِ المحبِّينَ للهِ وفي اللهِ .

وثامنُها : أنْ يتركَ الذنوبَ حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وحياءً مِنْ أنْ يتعاطىٰ في بيتِ اللهِ ما يقتضي هتكَ الحرمةِ ، وقدْ قالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما : (مَنْ أدمنَ الاختلافَ إلى المسجدِ . . رزقَهُ اللهُ إحدىٰ سبعِ خصالٍ : أخاً مستفاداً في الله ، أوْ رحمةً مستنزلةً ، أوْ علماً مستطرفاً ، أوْ كلمةً تدلُّهُ علىٰ هدىً ، أوْ تصرفُهُ عنْ ردىً ، أوْ يتركُ الذنوبَ خشيةً أوْ حياءً »(2) .

---

(1) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٤) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « من دخل مسجدنا هـٰذا ليتعلَّمَ خيراً ، أو ليعلمه . . كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك . . كان كالناظر إلىٰ ما ليس له » .

(2) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٥) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٨٨) .

فهٰذا طريقُ تكثيرِ النياتِ ، وقسْ بهِ سائرَ الطاعاتِ والمباحاتِ ؛ إذْ ما مِنْ طاعةٍ إلا وتحتملُ نياتٍ كثيرةً ، وإنَّما تحضرُ في قلبِ العبدِ المؤمنِ بقدْرِ جدِّهِ في طلبِ الخيرِ ، وتشمُّرِهِ لهُ ، وتفكُّرِهِ فيهِ ، فبهٰذا تزكو الأعمالُ وتتضاعفُ الحسناتُ .

* * *

القسمُ الثالثُ : المباحاتُ :

وما مِنْ شيءٍ مِنَ المباحاتِ إلا ويحتملُ نيةً أوْ نياتٍ يصيرُ بها مِنْ محاسنِ القرباتِ ، ويُنالُ بها معالي الدرجاتِ ، فما أعظمَ خسرانَ مَنْ يغفُلُ عنها ، ويتعاطاها تعاطيَ البهائمِ المهملةِ عنْ سهوٍ وغفلةٍ !

ولا ينبغي أنْ يستحقرَ العبدُ شيئاً مِنَ الخطراتِ والخطواتِ واللحظاتِ ، فكلُّ ذلكَ يُسألُ عنهُ يومَ القيامةِ أنَّهُ لِمَ فعلَهُ ، وما الذي قصدَ بهِ ، هٰذا في مباحٍ محضٍ لا يشوبُهُ كراهةٌ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ »(١) .

وفي حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ العبدَ ليُسألُ يومَ القيامةِ عنْ كلِّ شيءٍ ، حتَّىٰ عنْ كحلِ عينيهِ ، وعنْ فتاتِ الطينةِ بإصبعيهِ ، وعنْ لمسهِ ثوبَ أخيهِ »(٢) .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٢) ، وقد رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١) .

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ تطيَّبَ للهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيبُ مِنَ المسكِ ، ومَنْ تطيَّبَ لغيرِ اللهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أنتنُ مِنَ الجيفةِ »[1] ، فاستعمالُ الطيبِ مباحٌ ، ولكنْ لا بدَّ فيهِ مِنْ نيةٍ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما الذي يمكنُ أنْ يُنوىٰ بالطيبِ وهوَ حظٌّ مِنْ حظوظِ النفسِ ؟ وكيفَ يُتطيَّبُ للهِ ؟

فاعلم : أنَّ مَنْ يتطيَّبُ مثلاً يومَ الجمعةِ وفي سائرِ الأوقاتِ يُتصوَّرُ أنْ يقصدَ التنعُّمَ بلذاتِ الدنيا ، أوْ يقصدَ بهِ إظهارَ التفاخرِ بكثرةِ المالِ ليحسدَهُ الأقرانُ ، أوْ يقصدَ بهِ رياءَ الخلقِ ليقومَ لهُ الجاهُ في قلوبِهِمْ ويُذكرَ بطيبِ الرائحةِ ، أوْ ليتودَّدَ بهِ إلىٰ قلوبِ النساءِ الأجنبياتِ إذا كانَ مستحلاً للنظرِ إليهنَّ ، ولأمورٍ أخرَ لا تُحصىٰ ، وكلُّ هٰذا يجعلُ التطيُّبَ معصيةً ، فبذلكَ يكونُ أنتنَ مِنَ الجيفةِ في القيامةِ ، إلا القصدَ الأوَّلَ ؛ وهوَ التلذُّذُ والتنعُّمُ ، فإنَّ ذلكَ ليسَ بمعصيةٍ ، إلا أنَّهُ يُسألُ عنهُ ، ومَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ ، ومَنْ أتىٰ شيئاً مِنْ مباحِ الدنيا . . لمْ يُعذَّبْ عليهِ في الآخرةِ ، ولكنْ ينقصُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ لهُ بقدرِهِ ، وناهيكَ خسراناً بأنْ يستعجلَ ما يفنىٰ ، ويخسرَ زيادةَ نعيمٍ يبقىٰ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣١٩) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً .

وأمَّا النياتُ الحسنةُ . . فأنْ ينويَ بهِ اتباعَ سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ الجمعةِ ، وأن ينويَ بذلكَ أيضاً تعظيمَ المسجدِ ، واحترامَ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يرىٰ أنْ يدخلَهُ زائرُ اللهِ إلا طيِّبَ الرائحةِ ، وأنْ يقصدَ بهِ ترويحَ جيرانِهِ ليستريحوا في المسجدِ عندَ مجاورتِهِ بروائحِهِ ، وأنْ يقصدَ بهِ دفعَ الروائحِ الكريهةِ عنْ نفسِهِ التي تؤدِّي إلىٰ إيذاءِ مخالطيهِ ، وأنْ يقصدَ حسمَ بابِ الغيبةِ عنِ المغتابينَ إذا اغتابوهُ بالروائحِ الكريهةِ فيعصونَ اللهَ بسببِهِ ، فمَنْ تعرَّضَ للغيبةِ وهوَ قادرٌ على الاحترازِ منها . . فهوَ شريكٌ في تلكَ المعصيةِ ، كما قيلَ(١) : [من البسيط]

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ التسبُّبَ إلى الشرِّ شرٌّ ، وأنْ يقصدَ بهِ معالجةَ دماغِهِ لتزيدَ بهِ فطنتُهُ وذكاؤُهُ ، ويسهلَ عليهِ دركُ مهمَّاتِ دينِهِ بالفكرِ ، فقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ طابَ ريحُهُ . . زادَ عقلُهُ)(٢) .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ النياتِ لا يعجزُ الفقيهُ عنها إذا كانَتْ تجارةُ الآخرةِ وطلبُ الخيرِ غالباً علىٰ قلبِهِ ، وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ إلا نعيمُ الدنيا . . لمْ

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٢) .
(٢) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٥٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٤) عن محكول .

تحضرُهُ هٰذهِ النياتُ ، وإنْ ذُكرَتْ لهُ . . لمْ ينبعثْ لها قلبُهُ ، فلا يكونُ معهُ منها إلا حديثُ النفسِ ، وليسَ ذلكَ مِنَ النيةِ في شيءٍ .

والمباحاتُ كثيرةٌ ، ولا يمكنُ إحصاءُ النيَّاتِ فيها ، فقسْ بهٰذا الواحدِ ما عداهُ ، ولهٰذا قالَ بعضُ العارفينَ مِنَ السلفِ : (إنِّي لأستحبُّ أنْ يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ ، حتَّىٰ في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاءِ)(١) .

وكلُّ ذلكَ ممَّا يمكنُ أنْ يُقصدَ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ كلَّ ما هوَ سببٌ لبقاءِ البدنِ ، وفراغِ القلبِ مِنْ مهمَّاتِ البدنِ . . فهوَ معينٌ على الدينِ ، فمَنْ قصدُهُ مِنَ الأكلِ التقوِّي على العبادةِ ، ومِنَ الوقاعِ تحصينُ دينِهِ وتطييبُ قلبِ أهلِهِ ، والتوصلُ بهِ إلىٰ ولدٍ صالحٍ يعبدُ اللهَ تعالىٰ بعدَهُ ، فتكثرُ بهِ أمَّةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كانَ مطيعاً بأكلِهِ ونكاحِهِ ، وأغلبُ حظوظِ النفسِ الأكلُ والوقاعُ ، وقصدُ الخيرِ بهِما غيرُ ممتنعٍ لمَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ همُّ الآخرةِ .

ولذلكَ ينبغي أنْ يحسِّنَ نيتَهُ مهما ضاعَ لهُ مالٌ ويقولَ : هوَ في سبيلِ اللهِ ، وإذا بلغَهُ اغتيابُ غيرِهِ لهُ . . فليطيِّبْ قلبَهُ بأنَّهُ سيحملُ سيئاتِهِ وستُنقلُ إلىٰ ديوانِهِ حسناتُهُ ، ولينْوِ ذلكَ بسكوتِهِ عنِ الجوابِ ، ففي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليُحاسبُ ، فتبطلُ أعمالُهُ لدخولِ الآفةِ فيها حتىٰ يستوجبَ النارَ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٤) عن بعض العلماء ، ورواه بنحوه عن زبيد بن الحارث البيهقيُّ في « الشعب » (٦٤٨٩) .

ثمَّ يُنشرُ لهُ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ ما يستوجبُ بهِ الجنةَ ، فيتعجَّبُ ويقولُ : ياربِّ ؛ هـٰذهِ أعمالٌ ما عملتُها قطُّ ! فيُقالُ : هيَ أعمالُ الذينَ اغتابوكَ وآذوكَ وظلموكَ »[١] .

وفي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليوافي القيامةَ بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ ، لوْ خلصَتْ لهُ . . لدخلَ الجنةَ ، ويأتي وقدْ ظلمَ هـٰذا ، وشتمَ هـٰذا ، وضربَ هـٰذا ، فيُقتصُّ لهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، ولهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، حتىٰ لا يبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فتقولُ الملائكةُ : قدْ فنيَتْ حسناتُهُ وبقيَ طالبونَ ؟ فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ألقوا عليهِ مِنْ سيئاتِهِمْ ، ثم صُكُّوا لهُ صكّاً إلى النارِ »[٢] .

وبالجملةِ : فإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أنْ تستحقرَ شيئاً مِنْ حركاتِكَ ، فلا تحترزَ مِنْ غرورِها وشرورِها ، فلا تجدَ لها جواباً يومَ السؤالِ والحسابِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ مطَّلعٌ عليكَ وشهيدٌ ، وما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : كتبتُ كتاباً ، وأردتُ أنْ أتربَهُ مِنْ منزلِ جاري ، فتحرَّجتُ ، ثمَّ قلتُ : ترابٌ وما ترابٌ ؟! فأتربتُهُ ، فهتفَ بي هاتفٌ : سيعلمُ مَنِ استخفَّ بترابٍ ما يلقىٰ غداً مِنْ سوءِ الحسابِ[٣] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٥٢) ، ورواه بنحوه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٩٩) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٤٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٥٣) وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/١٧٨) نحوه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٦٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٢٧) .

وصلَّىٰ رجلٌ معَ الثوريِّ ، فرآهُ مقلوبَ الثوبِ ، فعرَّفَهُ[١] ، فمدَّ يدَهُ ليصلحَهُ ، ثمَّ قبضَها فلمْ يسوِّهِ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : إنِّي لبستُهُ للهِ تعالىٰ ، ولا أريدُ أنْ أسوِّيَهُ لغيرِ اللهِ[٢] .

وقدْ قالَ الحسنُ : إنَّ الرجلَ ليتعلَّقُ بالرجلِ يومَ القيامةِ فيقولُ بيني وبينَكَ اللهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ ما أعرفُكَ ! فيقولُ : بلىٰ ، أنتَ أخذتَ تبنةً مِنْ حائطي ، وأخذتَ خيطاً مِنْ ثوبي[٣] .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأخبارِ قطعَ قلوبَ الخائفينَ ، فإنْ كنتَ مِنْ أولي الحزمِ والنُّهىٰ ، ولمْ تكنْ مِنَ المغترِّينَ . . فانظرْ لنفسِكَ الآنَ ، ودقِّقِ الحسابَ علىٰ نفسِكَ قبلَ أنْ يُدقَّقَ عليكَ ، وراقبْ أحوالَكَ ، ولا تسكنْ ولا تتحرَّكْ ما لمْ تتأمَّلْ أوَّلاً أنَّكَ لِمَ تتحرَّكُ ؟ وماذا تقصدُ ؟ وما الذي تنالُ بهِ مِنَ الدنيا ؟ وما الذي يفوتُكَ بهِ مِنَ الآخرةِ ؟ وبماذا ترجِّحُ الدنيا على الآخرةِ ؟

فإذا علمتَ أنَّهُ لا باعثَ إلا الدينُ . . فأمضِ عزمَكَ وما خطرَ ببالِكَ ، وإلا . . فأمسكْ ، ثمَّ راقبْ أيضاً قلبَكَ في إمساكِكَ وامتناعِكَ ، فإنَّ تركَ الفعلِ فعلٌ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ نيةٍ صحيحةٍ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ لداعي هوىً خفيٍّ لا يُطلعُ عليهِ .

---

(١) أي : عرَّف الرجلُ سفيانَ أن ثوبه مقلوب .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

ولا يغرَّنَّكَ ظواهرُ الأمورِ ، ومشهوراتُ الخيراتِ ، وافطنْ للأغوارِ والأسرارِ . . تخرجْ مِنْ حيِّزِ أهلِ الاغترارِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ زكريا عليهِ السلامُ أنَّهُ كانَ يعملُ في حائطٍ بالطينِ ، وكانَ أجيراً لقومٍ ، فقدَّموا لهُ رغيفينِ ؛ إذْ كانَ لا يأكلُ إلا مِنْ كسبِ يدِهِ ، فدخلَ عليهِ قومٌ ، فلمْ يدعُهُمْ إلى الطعامِ حتَّىٰ فرغَ ، فتعجَّبوا منهُ لما علموا مِنْ سخائِهِ وزهدِهِ ، وظنُّوا أنَّ الخيرَ في طلبِ المساعدةِ في الطعامِ ، فقالَ : إنِّي أعملُ لقومٍ بالأجرةِ ، وقدَّموا إليَّ الرغيفينِ لأتقوَّىٰ بهما علىٰ عملِهِمْ ، فلوْ أكلتُمْ معي . . لمْ يكفكُمْ ولمْ يكفني ، وضعفتُ عنْ عملِهِمْ[1] .

فالبصيرُ هٰكذا ينظرُ إلى البواطنِ بنورِ اللهِ ، فإنَّ ضعفَهُ عنِ العملِ نقصٌ في فرضٍ ، وتركَ الدعوةِ إلى الطعامِ نقصٌ في فضلٍ ، ولا حكمَ للفضائلِ معَ الفرائضِ .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ سفيانَ وهوَ يأكلُ ، فما كلَّمني حتَّىٰ لعقَ أصابعَهُ ، ثمَّ قالَ : لولا أنِّي أخذتُهُ بدينٍ . . لأحببتُ أنْ تأكلَ منهُ[2] .

وقال سفيانُ : (مَنْ دعا رجلاً إلىٰ طعامِهِ وليسَ لهُ رغبةٌ في أنْ يأكلَ ؛ فإنْ أجابَهُ فأكلَ . . فعليهِ وزرانِ ، وإنْ لمْ يأكلْ . . فعليهِ وزرٌ واحدٌ)[3] ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٦) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٣٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٦) ، وسفيان هنا هو ابن عبد الرحمـٰن بن عاصم الثقفي .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وأرادَ بأحدِ الوزرينِ النفاقَ ، وبالثاني تعريضَهُ أخاهُ لما يكرهُ لوْ علمَهُ .

فهـٰكذا ينبغي أنْ يتفقَّدَ العبدُ نيتَهُ في سائرِ الأعمالِ ، فلا يقدمُ ولا يحجمُ إلا بنيةٍ ، فإنْ لمْ تحضرْهُ النيةُ.. توقَّفَ ، فإنَّ النيةَ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ .

* * *

بيان أنّ النّية غير داخلةٍ تحت الاختيار

اعلمْ : أنَّ الجاهلَ يسمعُ ما ذكرناهُ مِنَ الوصيةِ بتحسينِ النيةِ وتكثيرِها معَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ » ، فيقولُ في نفسِهِ عندَ تدريسِهِ أوْ تجارتِهِ أوْ أكلِهِ : نويتُ أنْ أدرِّسَ للهِ ، أوْ أتجرَ للهِ ، أوْ آكلَ للهِ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ نيةٌ ، وهيهاتَ ! فذلكَ حديثُ نفسٍ ، أوْ حديثُ لسانٍ أوْ فكرٍ ، أوِ انتقالٌ مِنْ خاطرٍ إلىٰ خاطرٍ ، والنيةُ بمعزلٍ عنْ جميعِ ذلكَ ، وإنَّما النيةُ انبعاثُ النفسِ وتوجُّهُها وميلُها إلىٰ ما ظهرَ لها أنَّ فيهِ غرضَها ؛ إمَّا عاجلاً أوْ آجلاً ، والميلُ إذا لمْ يكنْ . . لا يمكنُ اختراعُهُ واكتسابُهُ بمجرَّدِ الإرادةِ ، بلْ ذلكَ كقولِ الشبعانِ : نويتُ أنْ أشتهيَ الطعامَ وأميلَ إليهِ ، أوْ قولِ الفارغِ : نويتُ أنْ أعشقَ فلاناً وأحبَّهُ وأعظِّمَهُ بقلبي ، فذلكَ محالٌ ، بلْ لا طريقَ إلى اكتسابِ صرفِ القلبِ إلى الشيءِ ، وميلِهِ إليهِ وتوجهِهِ نحوَهُ إلا باكتسابِ أسبابِهِ ، وذلكَ ممَّا قدْ يقدرُ عليهِ وقدْ لا يقدرُ عليهِ ، وإنَّما تنبعثُ النفسُ إلى الفعلِ إجابةً للغرضِ الباعثِ الموافقِ للنفسِ الملائمِ لها ، وما لمْ يعتقدِ الإنسانُ أنَّ غرضَهُ منوطٌ بفعلٍ مِنَ الأفعالِ . . فلا يتوجَّهُ نحوَهُ قصدُهُ ، وذلكَ ممَّا لا يُقدرُ على اعتقادِهِ في كلِّ حينٍ وإذا اعتُقدَ فإنَّما يتوجَّهُ القلبُ إذا كانَ فارغاً غيرَ مصروفٍ عنهُ بغرضٍ شاغلٍ أقوىٰ منهُ ، وذلكَ لا يمكنُ في كلِّ وقتٍ ، والدواعي والصوارفُ لها أسبابٌ كثيرةٌ بها تجتمعُ ، ويختلفُ ذلكَ بالأشخاصِ وبالأحوالِ وبالأعمالِ .

فإذا غلبَتْ شهوةُ النكاحِ مثلاً ولمْ يعتقدْ غرضاً صحيحاً في الولدِ ديناً ولا دنيا . . لا يمكنُهُ أنْ يواقعَ علىٰ نيةِ الولدِ ، بلْ لا يمكنُ إلا علىٰ نيةِ قضاءِ الشهوةِ ؛ إذِ النيةُ هيَ إجابةُ الباعثِ ، ولا باعثَ إلا الشهوةُ ، فكيفَ ينوي الولدَ ؟!

وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ أنَّ إقامةَ سنةِ النكاحِ اتباعاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعظمُ فضلُها . . لا يمكنُ أنْ ينويَ بالنكاحِ اتباعَ السنةِ إلا أنْ يقولَ ذلكَ بلسانِهِ وقلبِهِ وهوَ حديثٌ محضٌ وليسَ بنيةٍ .

نعمْ ، طريقُ اكتسابِ هـٰذهِ النيةِ مثلاً أنْ يقوِّيَ أوَّلاً إيمانَهُ بالشرعِ ، ويقوِّيَ إيمانَهُ بعظمِ ثوابِ مَنْ يسعىٰ في تكثيرِ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدفعَ عنْ نفسِهِ جميعَ المنفِّراتِ عنِ الولدِ ؛ مِنْ ثقلِ المؤنةِ وطولِ التعبِ وغيرِهِ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . ربما انبعثَتْ مِنْ قلبِهِ رغبةٌ إلىٰ تحصيلِ الولدِ للثوابِ ، فتحرِّكُهُ تلكَ الرغبةُ ، وتتحرَّكُ أعضاؤُهُ لمباشرةِ العقدِ ، فإذا انتهضَتِ القدرةُ المحرِّكةُ للسانِ بقبولِ العقدِ طاعةً لهـٰذا الباعثِ الغالبِ على القلبِ . . كانَ ناوياً ، فإنْ لمْ يكنْ كذلكَ . . فما يقدِّرُهُ في نفسِهِ ويردِّدُهُ في قلبِهِ مِنْ قصدِ الولدِ وسواسٌ وهذيانٌ[1] .

---

(١) وكذا كل غرض شرعي ورد الشرع بفضله وله صوارف من جهة النفس والهوىٰ ، كمن دخل في صوم نفل ثم أمره أبواه أو أحد إخوانه بالإفطار ، فأراد أن يفطر لإدخال السرور علىٰ قلب الوالدين ، فما دامت شهوة الطعام تزاحمه . . لا تصح نيته ، فإن أفطر لاعتقاده أنه عامل لله . . فعلامة صحتها : تصغير اللقمة ، وقصر اليد ، وعدم الشره في =

ولهـٰذا امتنعَ جماعةٌ مِنَ السلفِ مِنْ جملةٍ مِنَ الطاعاتِ ؛ إذْ لمْ تحضرْهُمُ النيةُ ، فكانوا يقولونَ : ليسَ تحضرُنا فيهِ نيةٌ ، حتىٰ إنَّ ابنَ سيرينَ لمْ يصلِّ علىٰ جنازةِ الحسنِ البصريِّ ، وقالَ : ليسَ تحضرُني نيةٌ[1] .

ونادىٰ بعضُهُمُ امرأتَهُ ـ وكانَ يسرِّحُ شعرَهُ ـ أنْ هاتِ المِدْرَىٰ[2] ، فقالَتْ : أجيءُ بالمرآةِ ؟ فسكتَ ساعةً ثمَّ قالَ : نعمْ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : كانَ لي في المِدْرىٰ نيةٌ ، ولم تحضرْني في المرآةِ نيةٌ ، فتوقفتُ حتىٰ هيَّأَها اللهُ تعالىٰ[3] .

وماتَ حمادُ بنُ أبي سليمانَ ، وكانَ أحدَ علماءِ أهلِ الكوفةِ ، فقيلَ للثوريِّ : ألا تشهدُ جنازتَهُ ؟

فقالَ : لوْ كانَ لي نيةٌ . . لفعلتُ[4] .

وكانوا إذا سئلوا عملاً مِنْ أعمالِ البرِّ . . قالوا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ نيةً . . فعلنا[5] .

= الباطن ، والقيام قبل الشبع ، وما من حالة من الحالات إلا ويتقدمها أسباب يكتسب بها ، وتتأخر عنها علامات يعرف بها صحتها ، فليطلب علم كل حال من موضعه . « إتحاف » (١٠/ ٣٠) .

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « العلل » (٢٧٤٨) .

(٢) **المدرىٰ** : قرن علىٰ هيئة المُشط يُسرَّح به الشعر .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وكانَ طاووسٌ لا يحدِّثُ إلا بنيةٍ ، وكانَ يُسألُ أنْ يحدِّثَ فلا يحدِّثُ ، ولا يُسألُ فيبتدىءُ فقيلَ لهُ في ذلكَ ، قالَ : أفتحبونَ أنْ أحدِّثَ بغيرِ نيةٍ ؟ إذا حضرَتْني نيةٌ . . فعلتُ[١] .

وحُكِيَ أنَّ داوودَ بنَ المحبَّرِ لمَّا صنَّفَ كتابَ « العقلِ » . . جاءَهُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، فطلبَهُ منهُ ، فنظرَ فيهِ أحمدُ صفْحاً[٢] ، فردَّهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : فيهِ أسانيدُ ضعافٌ ، فقالَ لهُ داوودُ : أنا لمْ أخرِّجْهُ على الأسانيدِ فأنظرَ فيهِ بعينِ الخُبْرِ[٣] ، إنَّما نظرتُ فيهِ بعينِ العملِ فانتفعتُ ، قالَ أحمدُ : فردُّهُ عليَّ حتىٰ أنظرَ فيهِ بالعينِ التي نظرتَ ، فأخذَهُ ومكثَ عندَهُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقدِ انتفعتُ بهِ[٤] .

وقيلَ لطاووسٍ : ادعُ لنا ، فقالَ : حتىٰ أجدَ لهُ نيةً[٥] .

وقالَ بعضُهُمْ : (أنا في طلبِ نيةٍ لعيادةِ رجلٍ منذُ شهرٍ ، فما صحَّتْ لي بعدُ) .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٥٨٤) .
(٢) قلَّب أوراقه ونظر فيها دون تأمُّل .
(٣) أي : مختبراً له .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) ، وداوود مع اتفاق أهل صنعة الحديث علىٰ تركه لم يكن مطعون الديانة ، ونقل الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (١/ ٥٧٠) عن ابن معين قوله : (ليس بكذاب ، وقد كتبت عن أبيه المحبَّر ، وكان داوود ثقة ، ولكنه جفا الحديث ، وكان يتنسَّك) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩) .

وقالَ عيسىٰ بنُ كثيرٍ : مشيتُ معَ ميمونِ بنِ مهرانَ ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ بابِ دارِهِ . . انصرفتُ ، فقالَ لهُ ابنُهُ : ألا تعرضُ عليهِ العشاءَ ؟ قالَ : ليسَ مِنْ نيتي (١) .

وهـٰذا لأنَّ النيةَ تتبعُ النظرَ ، فإذا تغيَّرَ النظرُ . . تغيَّرتِ النيَّةُ ، وكانوا لا يرونَ أنْ يعملوا عملاً إلا بنيةٍ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ النيةَ روحُ الأعمالِ ، وأنَّ العملَ بغيرِ نيةٍ صادقةٍ رياءٌ وتكلُّفٌ ، وهوَ سببُ مقتٍ لا سببُ قربٍ ، وعلموا أنَّ النيةَ ليسَتْ هيَ قولَ القائلِ بلسانِهِ : نويتُ ، بلْ هوَ انبعاثُ القلبِ يجري مجرى الفتوحِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ تتيسَّرُ في بعضِ الأوقاتِ ، وقدْ تتعذَّرُ في بعضِها .

نعمْ ، مَنْ كانَ الغالبُ علىٰ قلبِهِ أمرَ الدينِ . . تيسَّرَ عليهِ في أكثرِ الأحوالِ إحضارُ النيةِ للخيراتِ ، فإنَّ قلبَهُ مائلٌ بالجملةِ إلىٰ أصلِ الخيرِ ، فينبعثُ إلى التفاصيلِ غالباً ، ومَنْ مالَ قلبُهُ إلى الدنيا وغلبَتْ عليهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ ذلكَ ، بلْ لا يتيسَّرُ لهُ في الفرائضِ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، وغايتُهُ أنْ يتذكَّرَ النارَ ويحذِّرَ نفسَهُ عقابَها ، أوْ نعيمَ الجنَّةِ ويرغِّبَ نفسَهُ فيها ، فربما تنبعثُ لهُ داعيةٌ ضعيفةٌ ، فيكونُ ثوابُهُ بقدْرِ رغبتِهِ ونيتِهِ .

وأمَّا الطاعةُ علىٰ نيةِ إجلالِ اللهِ تعالىٰ لاستحقاقِهِ الطاعةَ والعبوديةَ . . فلا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٨) .

تتيسَّرُ للراغبِ في الدنيا ، وهـٰذهِ أعزُّ النياتِ وأعلاها ، ويعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يفهمُها فضلاً عمَّنْ يتعاطاها .

ونيَّاتُ الناسِ في الطاعاتِ أقسامٌ ؛ إذْ منهُمْ مَنْ يكونُ عملُهُ إجابةً لباعثِ الخوفِ ، فإنَّهُ يتقي النارَ ، ومنهُمْ مَنْ يعملُ إجابةً لباعثِ الرجاءِ ، وهوَ الرغبةُ في الجنةِ ، وهـٰذا وإنْ كانَ نازلاً بالإضافةِ إلىٰ قصدِ طاعةِ اللهِ وتعظيمِهِ لذاتِهِ ولجلالِهِ لا لأمرٍ سواهُ . . فهوَ مِنْ جملةِ النياتِ الصحيحةِ ؛ لأنَّهُ ميلٌ إلى الموعودِ في الآخرةِ وإنْ كانَ مِنْ جنسِ المألوفاتِ في الدنيا ، وأغلبُ البواعثِ باعثُ الفرجِ والبطنِ ، وموضعُ قضاءِ وطرِهما الجنةُ ، فالعاملُ لأجلِ الجنةِ عاملٌ لبطنِهِ وفرجِهِ ؛ كالأجيرِ السوءِ ، ودرجتُهُ درجةُ البُلْهِ ، وإنَّهُ لينالُها بعملِهِ ؛ إذْ أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ .

وأمَّا عبادةُ ذوي الألبابِ . . فلا تجاوزُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ والفكرَ فيهِ ؛ حبّاً لجمالِهِ وجلالِهِ ، وسائرُ الأعمالِ تكونُ مؤكداتٍ وروادفَ ، وهؤلاءِ أرفعُ درجةً مِنَ الالتفاتِ إلى المنكوحِ والمطعومِ في الجنةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يقصدُوها ، بلْ هُمُ الذينَ يدعونَ ربَّهُمْ بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجهَهُ فقطْ ، وثوابُ الناسِ بقدْرِ نياتِهِمْ ، فلا جرمَ يتنعَّمونَ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ويسخرونَ ممَّنْ يلتفتُ إلىٰ وجوهِ الحورِ العينِ كما يسخرُ المتنعِّمُ بالنظرِ إلى الحورِ العينِ ممَّنْ يتنعَّمُ بالنظرِ إلىٰ وجهِ الصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلْ أشدُّ ، فإنَّ التفاوتَ بينَ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ وجمالِ الحورِ العينِ أشدُّ وأعظمُ كثيراً مِنَ التفاوتِ بينَ جمالِ الحورِ العينِ والصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلِ استعظامُ النفوسِ

البهيميةِ الشهوانيةِ لقضاءِ الوطرِ ومخالطةِ الحسانِ وإعراضُها عنْ جمالِ وجهِ اللهِ الكريمِ يضاهي استعظامَ الخنفساءِ لصاحبتِها وإلفَها لها وإعراضَها عنِ النظرِ إلىٰ جمالِ وجوهِ النساءِ ، فعمىٰ أكثرِ القلوبِ عنْ إبصارِ جمالِ اللهِ وجلالِهِ يضاهي عمى الخنفساءِ عنْ إدراكِ جمالِ النساءِ ؛ فإنَّها لا تشعرُ بهِ أصلاً ، ولا تلتفتُ إليهِ ، ولوْ كانَ لها عقلٌ وذُكِرْنَ لها . . لاستخفَّتْ عقلَ مَنْ يلتفتُ إليهِنَّ ، ولا يزالونَ مختلفينَ ، كلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، ولذلكَ خلقَهُمْ .

حُكِيَ أنَّ أحمدَ بنَ خضرويهِ رأىٰ ربَّهُ تعالىٰ في المنامِ ، فقالَ لهُ : كلُّ الناسِ يطلبونَ منِّي الجنةَ إلا أبا يزيدَ ، فإنَّهُ يطلبُني[1] .

ورأىٰ أبو يزيدَ ربَّهُ في المنامِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ الطريقُ إليكَ ؟ فقالَ : اتركْ نفسَكَ وتعالَ إليَّ[1] .

ورُئِيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : لمْ يطالبْني على الدعاوىٰ بالبرهانِ إلا علىٰ قولٍ واحدٍ ، قلتُ يوماً : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ الجنةِ ؟ فقالَ : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ لقائي ؟![2] .

والغرضُ أنَّ هـٰذهِ النيّاتِ متفاوتةٌ بتفاوتِ الدرجاتِ ، ومَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ واحدةٌ منها . . ربما لا يتيسَّرُ لهُ العدولُ إلىٰ غيرِها .

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦٠٨) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦١٠) .

ومعرفةُ هـٰذهِ الحقائقِ تورثُ أعمالاً وأفعالاً يستنكرُها الظاهريونَ مِنَ الفقهاءِ ، فإنَّا نقولُ : مَنْ حضرَتْ لهُ نيةٌ في مباحٍ ، ولمْ تحضرْ في فضيلةٍ . . فالمباحُ أولىٰ ، وانتقلَتِ الفضيلةُ إليهِ[1] ، وصارَتِ الفضيلةُ في حقِّهِ نقيصةً ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وذلكَ مثلُ العفوِ ، فإنَّهُ أفضلُ مِنَ الانتصارِ في الظلمِ ، وربما تحضرُهُ نيةٌ في الانتصارِ دونَ العفوِ ، فيكونُ ذلكَ أفضلَ .

ومثلُ أنْ يكونَ لهُ نيةٌ في الأكلِ والشربِ والنومِ ليريحَ نفسَهُ ويتقوَّىٰ على العبادةِ في المستقبلِ ، وليسَ تنبعثُ نيتُهُ في الحالِ للصومِ والصلاةِ ، فالأكلُ والنومُ هوَ الأفضلُ لهُ ، بلْ لوْ ملَّ العبادةَ لمواظبتِهِ عليها ، وسكنَ نشاطُهُ ، وضعفَتْ رغبتُهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ ترفَّهَ ساعةً بلهوٍ وحديثٍ عادَ نشاطُهُ . . فاللهوُ والحديثُ أفضلُ لهُ مِنَ الصلاةِ ، قالَ أبو الدرداءِ : (إنِّي لأستجمُّ نفسي بشيءٍ من اللهوِ ، فيكونُ ذلكَ عوناً لي على الحقِّ)[2] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (روِّحوا القلوبَ ، فإنَّها إذا أُكرهَتْ . . عميَتْ)[3] .

وهـٰذهِ دقائقُ لا يدركُها إلا سماسرةُ العلماءِ ، دونَ الحشْويةِ منهُمْ ، بلِ

---

(١) أي : انتقل المعنىٰ فصار المباح هو الفضيلة . « إتحاف » (١٠/ ٣٣) .

(٢) أورده ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦/ ٥٠١) ، والسياق عند صاحب « القوت » (٢/ ١٥٣) .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧١٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/ ١٨٣) بنحوه .

الحاذقُ بالطبِّ قدْ يعالجُ المحرورَ باللحمِ معَ حرارتِهِ ، ويستبعدُهُ القاصرُ في الطبِّ ، وإنَّما يبتغي بهِ أنْ يعيدَ أوَّلاً قوَّتَهُ ليحتملَ المعالجةَ بالضدِّ ، والحاذقُ في لعبِ الشطرنجِ مثلاً قدْ ينزلُ عنِ الرُّخِّ والفرسِ مجاناً ليتوصَّلَ بذلكَ إلى الغلبةِ ، والضعيفُ البصيرةِ قدْ يضحكُ بهِ ، ويتعجَّبُ منهُ ، وكذلكَ الخبيرُ بالقتالِ قدْ يفرُّ بينَ يدي قرينِهِ ، ويولِّيهِ دبرَهُ حيلةً منهُ ؛ ليستجرَّهُ إلىٰ مضيقٍ فيكرَّ عليهِ فيقهرَهُ .

فكذلكَ سلوكُ طريقِ اللهِ تعالىٰ كلُّهُ قتالٌ معَ الشيطانِ ، ومعالجةٌ للقلبِ ، والبصيرُ الموفَّقُ يقفُ فيها علىٰ لطائفَ مِنَ الحيلِ يستبعدُها الضعفاءُ ، فلا ينبغي للمريدِ أنْ يضمرَ إنكاراً علىٰ ما يراهُ مِنْ شيخِهِ ، ولا للمتعلِّمِ أنْ يعترضَ علىٰ أستاذِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقفَ عندَ حدِّ بصيرتِهِ ، وما لا يفهمُهُ مِنْ أحوالِهِما يسلِّمُهُ لهما إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ أسرارُ ذلكَ ؛ بأنْ يبلغَ رتبتَهُما ، وينالَ درجتَهُما ، ومنَ اللهِ حسنُ التوفيقِ(١) .

* * *

---

(١) أتى الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٤) علىٰ مزيد من تفصيل القول في النية معتمداً على « القوت » ، و« شرح التقريب » للحافظ العراقي ، و« إدراك الأمنية في النية » للشهاب القرافي ، و« منتهى الآمال » للسيوطي .

البَابُ الثَّاني
في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

وقالَ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ ، نزلَتْ فيمَنْ يعملُ للهِ ويحبُّ أنْ يُحمدَ عليهِ[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ رجلٍ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ للهِ . . . » الحديث[2] .

وعنْ مصعبِ بنِ سعدٍ عنْ أبيهِ قالَ : ظنَّ أبي أنَّ لهُ فضلاً علىٰ مَنْ دونَهُ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ

---

(١) روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١١١) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨) ، ويَغِلّ : هو من الغِلّ ؛ الضغينة والحقد ، ويروىٰ : يُغِلُّ ؛ من الخيانة ، ويروىٰ : يَغِلُ بالتخفيف ؛ من وَغَل وغولاً ، دخل في الشرّ .

والسلامُ : « إنَّما نصرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هٰذهِ الأمَّةَ بضعفائِها ودعوتِهِمْ وإخلاصِهِمْ وصلاتِهِمْ »[1] .

وعنِ الحسنِ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : الإخلاصُ سرٌّ مِنْ سرِّي ، استودعتُهُ قلبَ مَنْ أحببتُ مِنْ عبادي »[2] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : لا تهتمُّوا لقلةِ العملِ ، واهتمُّوا للقبولِ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : « أخلصِ العملَ . . يجزئْكَ منهُ القليلُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ عبدٍ يخلصُ العملَ للهِ أربعينَ يوماً

---

(١) رواه النسائي (٦/ ٤٥) ، وهو عند البخاري (٢٨٩٦) بلفظ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ، وبتمام لفظ المصنف رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٧٩) ، وأبو مصعب هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٧٩) عن الحسن مرسلاً ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٣٦٠) مسنداً مسلسلاً بالسؤال عن الإخلاص عن الحسن عن حذيفة رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥١٣) من حديث علي وابن عباس رضي الله عنهم .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٢) بتمامه ، وحديث معاذ رضي الله عنه رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦١٦٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤٤٣) بلفظ : « أخلص دينك . . يكفك القليل من العمل » .

إلا ظهرَتْ ينابيعُ الحكمةِ مِنْ قلبِهِ علىٰ لسانِهِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوَّلُ مَنْ يُسألُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : رجلٌ آتاهُ اللهُ العلمَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ماذا صنعتَ فيما علمتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ كنتُ أقومُ بهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عالمٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذلكَ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لقدْ أنعمتُ عليكَ ، فماذا صنعتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ كنتُ أتصدَّقُ بهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذلكَ ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ماذا صنعتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ أُمرتَ بالجهادِ ، فقاتلتُ حتىٰ قُتلتُ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ شجاعٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذلكَ » ، قالَ أبو هريرةَ : ثمَّ خطَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فخذي وقالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أولئكَ أوَّلُ خلقٍ تُسعرُ بهِمْ نارُ جهنَّمَ يومَ القيامةِ » ، فدخلَ راوي الحديثِ علىٰ معاويةَ[2] ، وروىٰ لهُ ذلكَ ، فبكىٰ حتَّىٰ كادَتْ نفسُهُ تزهقُ ، ثمَّ قالَ :

---

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٣٦٣) من قول مكحول .

(٢) وهو شُفَيٌّ الأصبحي .

صدقَ اللهُ إذْ قالَ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا. . . ﴾ الآيةَ[1] .

وفي الإسرائيليات : أنَّ عابداً كانَ يعبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ دهراً طويلاً ، فجاءَهُ قومٌ فقالوا : إنَّ هاهنا قوماً يعبدونَ شجرةً مِنْ دونِ اللهِ تعالىٰ ، فغضبَ لذلكَ ، وأخذَ فأسَهُ علىٰ عاتقِهِ ، وقصدَ الشجرةَ ليقطعَها ، فاستقبلَهُ إبليسُ في صورةِ شيخٍ ، فقالَ : أينَ تريدُ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ أقطعَ هاذهِ الشجرةَ ، قالَ : وما أنتَ وذاكَ ، تركتَ عبادتَكَ واشتغالَكَ بنفسِكَ وتفرَّغتَ لغيرِ ذلكَ ، فقالَ : إنَّ هاذا مِنْ عبادتي ، قالَ : فإنِّي لا أتركُكَ أنْ تقطعَها ، فقاتلَهُ ، فأخذَهُ العابدُ فطرحَهُ إلى الأرضِ وقعدَ علىٰ صدرِهِ ، فقالَ لهُ إبليسُ : أطلقْني حتَّىٰ أكلِّمَكَ ، فقامَ عنهُ ، فقالَ لهُ إبليسُ : يا هاذا ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أسقطَ عنكَ هاذا ولمْ يفرضْهُ عليكَ ، وما تعبدُها أنتَ ، وما عليكَ مِنْ غيرِكَ ، وللهِ تعالىٰ أنبياءُ في أقاليمِ الأرضِ ، ولوْ شاءَ . . لبعثَهُمْ إلىٰ أهلِها وأمرَهُمْ بقطعِها ، فقالَ العابدُ : لا بدَّ لي مِنْ قطعِها ، فنابذَهُ القتالَ ، فغلبَهُ العابدُ وصرعَهُ ، وقعدَ علىٰ صدرِهِ ، فعجزَ إبليسُ ، فقالَ لهُ : هلْ لكَ في أمرٍ فصْلٍ بيني وبينَكَ ، وهوَ خيرٌ لكَ وأنفعُ ؟ قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : أطلقْني حتَّىٰ أقولَ لكَ ، فأطلقَهُ ، فقالَ لهُ إبليسُ : أنتَ رجلٌ فقيرٌ لا شيءَ لكَ ، إنَّما أنتَ كَلٌّ على الناسِ يعولونَكَ ، ولعلَّكَ تحبُّ أنْ تتفضَّلَ علىٰ إخوانِكَ ، وتواسيَ جيرانَكَ ، وتشبعَ وتستغنيَ عنِ الناسِ ، قالَ : نعمْ ،

---

(1) الخبر بتمامه هنا رواه البغوي في « شرح السنة » (٤١٤٢) ، والمرفوع رواه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) .

قالَ : فارجعْ عنْ هٰذا الأمرِ ولكَ عليَّ أنْ أجعلَ عندَ رأسِكَ في كلِّ ليلةٍ دينارينِ ، إذا أصبحتَ . . أخذتَهما فأنفقتَ علىٰ نفسِكَ وعيالِكَ ، وتصدقتَ علىٰ إخوانِكَ ، فيكونُ ذلكَ أنفعَ لكَ وللمسلمينَ مِنْ قطعِ هٰذهِ الشجرةِ التي يُغرسُ مكانُها ولا يضرُّهُمْ قطعُها شيئاً ، ولا ينفعُ إخوانَكَ المؤمنينَ قطعُكَ إيَّاها ، فتفكَّرَ العابدُ فيما قالَ ، وقالَ : صدقَ الشيخُ ، لستُ بنبيٍّ فيلزمَني قطعُ هٰذهِ الشجرةِ ، ولا أمرني اللهُ أنْ أقطعَها فأكونَ عاصياً بتركِها ، وما ذكرَهُ أكثرُ منفعةً ، فعاهدَهُ على الوفاءِ بذلكَ ، وحلفَ لهُ ، فرجعَ العابدُ إلىٰ متعبَّدِهِ فباتَ ، فلمَّا أصبحَ رأىٰ دينارينِ عندَ رأسِهِ ، فأخذَهُما ، وكذلكَ الغدُ ، ثمَّ أصبحَ اليومَ الثالثَ وما بعدَهُ فلمْ يرَ شيئاً ، فغضبَ وأخذَ فأسَهُ علىٰ عاتقِهِ ، فاستقبلَهُ إبليسُ في صورةِ شيخٍ ، فقالَ : إلىٰ أينَ ؟ قالَ : أقطعُ تلكَ الشجرةَ ، فقالَ : كذبتَ واللهِ ، ما أنتَ بقادرٍ علىٰ ذلكَ ، ولا سبيلَ لكَ إليها ، قالَ : فتناولَهُ العابدُ ليفعلَ بهِ كما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ ، فقالَ : هيهاتَ ! فأخذَهُ إبليسُ وصرعَهُ ، فإذا هوَ كالعصفورِ بينَ رجليهِ ، وقعدَ إبليسُ علىٰ صدرِهِ وقالَ : لتنتهينَّ عنْ هٰذا الأمرِ أوْ لأذبحَنَّكَ ، فنظرَ العابدُ ، فإذا لا طاقةَ لهُ بهِ ، قالَ : يا هٰذا غلبتَني فخلِّ عنِّي ، وأخبرْني كيفَ غلبتُكَ أوّلاً وغلبتَني الآنَ ؟ فقالَ : لأنَّكَ غضبتَ أوّلَ مرَّةٍ للهِ ، وكانَتْ نيتُكَ الآخرةَ ، فسخَّرَني اللهُ لكَ ، وهٰذهِ المرَّةَ غضبتَ لنفسِكَ وللدنيا فصرعتُكَ[1] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٢) .

وهٰذهِ الحكايةُ تصديقُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، إذْ لا يتخلَّصُ العبدُ مِنَ الشيطانِ إلا بالإخلاصِ .

ولذلكَ كانَ معروفٌ الكرخيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ يضربُ نفسَهُ ويقولُ : (يا نفسُ ؛ أخلِصي وتخلَّصي)[1] .

وقالَ أبو يعقوبَ المكفوفُ : (المخلصُ مَنْ يكتمُ حسناتِهِ كما يكتمُ سيئاتِهِ)[2] .

وقال أبو سليمانَ : (طوبىٰ لمَنْ صحَّتْ لهُ خطوةٌ واحدةٌ لا يريدُ بها إلا اللهَ تعالىٰ)[3] .

وكتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (مَنْ خلصَتْ نيتُهُ . . كفاهُ اللهُ تعالىٰ ما بينَهُ وبينَ الناسِ)[4] .

وكتبَ بعضُ الأولياءِ إلىٰ أخٍ لهُ : (أخلصِ النيةَ في أعمالِكَ . . يكفِكَ القليلُ مِنَ العملِ)[5] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٩٤) .

(٢) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٢/ ٧) وأبو يعقوب : هو يوسف بن أحمد البغدادي المكفوف أحد أصحاب ذي النون المصري ، كما جاء مصرحاً باسمه في أحد أسانيد أبي نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٦٤) ، والله أعلم .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ٤٧) .

(٤) رواه هناد في « الزهد » (٨٥٩)، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٦).

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) وفيه : (وكتب بعض الأدباء) .

وقال أيوبُ السَّخْتياني : (تخليصُ النياتِ على العمَّالِ أشدُّ عليهم مِنْ جميعِ الأعمالِ)(١) .

وكانَ مطرِّفٌ يقولُ : (مَنْ صفا.. صُفِيَ لهُ ، ومَنْ خلَّطَ.. خُلِّطَ عليهِ)(٢) .

ورُئِيَ بعضُهُمْ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : كيفَ وجدتَ أعمالَكَ ؟ فقالَ : كلُّ شيءٍ عملتُهُ للهِ وجدتُهُ ، حتىٰ حبّةِ رمانٍ لقطتُها مِنْ طريقٍ ، وحتىٰ هرَّةٍ ماتَتْ لنا فرأيتُها في كِفَّةِ الحسناتِ ، وكانَ في قلنسوتي خيطٌ مِنْ حريرٍ ، فرأيتُهُ في كِفَّةِ السيئاتِ ، وكانَ قدْ نفقَ حمارٌ لي قيمتُهُ مئةُ دينارٍ ، فما رأيتُ لهُ ثواباً ، فقلتُ : موتُ سِنَّورٍ في كِفَّةِ الحسناتِ ، وموتُ حمارٍ ليسَ فيها ! فقيلَ لي : إنَّهُ قدْ وُجِّهَ حيثُ بعثتَ بهِ ، فإنَّهُ لما قيلَ لكَ : قدْ ماتَ.. قلتَ : في لعنةِ اللهِ ، فبطلَ أجرُكَ فيهِ ، ولوْ قلتَ : في سبيلِ اللهِ.. لوجدتَهُ في حسناتِكَ(٣) .

وفي روايةٍ : قالَ : وكنتُ قدْ تصدقتُ بصدقةٍ بينَ الناسِ ، فأعجبَني نظرُهُمْ إليَّ ، فوجدتُ ذلكَ لا عليَّ ولا لي ، قالَ سفيانُ لمَّا سمعَ هـٰذا : ما أحسنَ حالَهُ ! إذْ لمْ يكنْ عليهِ.. فقدْ أحسنَ إليهِ(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (الإخلاصُ يميزُ العملَ مِنَ العيوبِ كتمييزِ اللبنِ مِنَ الفرثِ والدمِ)[1] .

وقيلَ : كانَ رجلٌ يخرجُ في زيِّ النساءِ ويحضرُ كلَّ موضعٍ يجتمعُ فيهِ النساءُ مِنْ عرسٍ أوْ مأتمٍ ، فاتفقَ أنْ حضرَ يوماً موضعاً فيهِ مجمعٌ للنساءِ ، فسُرِقَتْ دُرَّةٌ ، فصاحوا أن أغلقوا البابَ حتىٰ نفتِّشَ ، فكانوا يفتشونَ واحدةً واحدةً ، حتىٰ بلغَتِ النوبةُ إليهِ وإلى امرأةٍ معَهُ ، فدعا اللهَ تعالىٰ بالإخلاصِ وقالَ : إنْ نجوتُ مِنْ هـٰذهِ الفضيحةِ . . لا أعودُ إلىٰ مثلِ هـٰذا ، فوُجدَتِ الدرَّةُ معَ تلكَ المرأةِ ، فصاحوا أنْ أطلقوا الحرَّةَ ؛ فقد وجدنا الدُّرَّةَ[2] .

وقالَ بعضُ الصوفيةِ : كنتُ قائماً معَ أبي عبيدٍ البُسْريِّ وهوَ يحرثُ أرضَهُ بعدَ العصرِ مِنْ يومِ عرفةَ ، فمرَّ بهِ بعضُ إخوانِهِ مِنَ الأبدالِ ، فسارَّهُ بشيءٍ ، فقالَ أبو عبيدٍ : لا ، فمرَّ كالسحابِ يمسحُ الأرضَ حتىٰ غابَ عنْ عيني ، فقلتُ لأبي عبيدٍ : ما قالَ لكَ ؟ فقالَ : سألَني أنْ أحجَّ معَهُ ، فقلتُ : لا ، قلتُ : فهلا فعلتَ ، قالَ : ليسَ لي في الحجِّ نيةٌ ، وقدْ نويتُ أنْ أتمِّمَ هـٰذهِ الأرضَ العشيةَ ، فأخافُ إنْ حججتُ معَهُ لأجلِهِ . . تعرضتُ لمقتِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنِّي أدخلُ في عملِ اللهِ تعالىٰ شيئاً غيرَهُ ،

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .

فيكونُ ما أنا فيهِ أعظمَ عندي مِنْ سبعينَ حجةً[١] .

ويُروىٰ عنْ بعضِهِمْ قالَ : غزوتُ في البحرِ ، فعرضَ بعضُنا مخلاةً ، فقلتُ : أشتريها فأنتفعُ بها في غزوتي ، فإذا دخلتُ مدينةَ كذا.. بعتُها فربحتُ فيها ، فاشتريتُها ، فرأيتُ تلكَ الليلةَ في النومِ كأن شخصينِ قدْ نزلا مِنَ السماءِ فقالَ أحدُهُما لصاحبِهِ : اكتبِ الغزاةَ ، فأملىٰ عليهِ : خرجَ فلانٌ متنزِّهاً ، وفلانٌ مرائياً ، وفلانٌ تاجراً ، وفلانٌ في سبيلِ اللهِ ، ثمَّ نظرَ إليَّ وقالَ : اكتب خرجَ فلانٌ تاجراً ، فقلتُ : اللهَ اللهَ في أمري ، فواللهِ ؛ ما خرجتُ أتجرُ ، ولا معي تجارةٌ أتجرُ فيها ، ما خرجتُ إلا للغزوِ ، فقال لي : يا شيخُ ؛ قدِ اشتريتَ أمسِ مخلاةً تريدُ أنْ تربحَ فيها ، فبكيتُ وقلتُ : لا تكتبوني تاجراً ، فنظرَ إلىٰ صاحبِهِ وقال : ما ترى ؟ فقالَ : اكتبْ : خرجَ فلانٌ غازياً إلا أنَّهُ اشترىٰ في طريقِهِ مخلاةً ليربحَ فيها ، حتَّىٰ يحكمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ بما يرىٰ[٢] .

وقالَ سريٌّ السقطيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (لأنْ تصليَ ركعتينِ في خلوةٍ تخلصُهُما خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكتبَ سبعينَ حديثاً أوْ سبعَ مئةٍ بعلوِ إسنادٍ)[٣] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) ، ورواه مختصراً القشيري في « رسالته » (ص٩٠) ، والبُسْري : نسبة إلىٰ قرية بُصرىٰ بحوران ، وأبدلت الصاد بالسين ، انظر « الأنساب » (١/ ٣٥٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : (في إخلاصِ ساعةٍ نجاةُ الأبدِ ، ولكنِ الإخلاصُ عزيزٌ)[1] .

ويُقالُ : (العلمُ بذرٌ ، والعملُ زرعٌ ، وماؤُهُ الإخلاصُ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا أبغضَ اللهُ عبداً . . أعطاهُ ثلاثاً ، ومنعَهُ ثلاثاً ، أعطاهُ صحبةَ الصالحينَ ، ومنعَهُ القبولَ منهُمْ ، وأعطاهُ الأعمالَ الصالحةَ ، ومنعَهُ الإخلاصَ فيها ، وأعطاهُ الحكمةَ ، ومنعَهُ الصدقَ فيها)[2] .

وقالَ السوسيُّ : (مرادُ اللهِ تعالىٰ مِنْ عملِ الخلقِ الإخلاصُ فقط)[2] .

وقالَ الجنيدُ : (إنَّ للهِ عباداً عقلوا ، فلمَّا عقلوا . . عملوا ، فلمَّا عملوا . . أخلصوا ، فاستدعاهمُ الإخلاصُ إلىٰ أبوابِ البرِّ أجمعَ)[2] .

وقالَ محمدُ بنُ سعيدٍ المروزيُّ : (الأمرُ كلُّهُ يرجعُ إلىٰ أصلينِ : فعلٌ منهُ بكَ ، وفعلٌ منكَ لهُ ، فترضىٰ ما فعلَ ، وتخلصُ فيما تعملُ ، فإذا أنتَ قدْ سعدتَ بهـٰذينِ . . فزتَ في الدارينِ)[3] .

* * *

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٣) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٦) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٧) .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلمْ : أنَّ كلَّ شيءٍ يُتصوَّرُ أنْ يشوبَهُ غيرُهُ ، فإذا صفا عنْ شوبِهِ وخلصَ عنهُ . . سُمِّيَ خالصاً ، ويُسمَّى الفعلُ المصفَّى المخلَصُ إخلاصاً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ، وإنَّما خلوصُ اللبنِ ألا يكونَ فيهِ شوبٌ مِنَ الدمِ والفرثِ ، ومِنْ كلِّ ما يمكنُ أنْ يمتزجَ بهِ .

والإخلاصُ يضادُّهُ الإشراكُ[1] ، فمَنْ ليسَ مخلصاً . . فهوَ مشركٌ ، إلا أنَّ للشركِ درجاتٍ ، فالإخلاصُ في التوحيدِ يضادُّهُ التشريكُ في الإلٰهيةِ ، والشركُ منهُ خفيٌّ ومنهُ جليٌّ ، وكذا الإخلاصُ ، فالإخلاصُ وضدُّهُ يتواردانِ على القلبِ ، فمحلُّهُ القلبُ ، وإنَّما يكونُ ذلكَ في القصودِ والنياتِ ، وقدْ ذكرنا حقيقةَ النيةِ ، وأنَّها ترجعُ إلىٰ إجابةِ البواعثِ ، فمهما كانَ الباعثُ واحداً على التجرُّدِ . . سُمِّيَ الفعلُ الصادرُ عنهُ إخلاصاً بالإضافةِ إلى المنويِّ ، فمَنْ تصدَّقَ وغرضُهُ محضُ الرياءِ . . فهوَ مخلصٌ ، ومَنْ كانَ غرضُهُ محضَ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مخلصٌ ، ولكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيصِ اسمِ الإخلاصِ بتجريدِ قصدِ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ عنْ جميعِ الشوائبِ ؛ كما أنَّ الإلحادَ عبارةٌ عنِ الميلِ ، ولكنْ خصَّصَتْهُ العادةُ بالميلِ عنِ الحقِّ .

---

(١) وهو أن يشترك باعثان . « إتحاف » (١٠/ ٤٩) .

ومَنْ كانَ باعثُهُ مجرَّدَ الرياءِ . . فهوَ معرَّضٌ للهلاكِ ، ولسنا نتكلَّمُ فيهِ ؛ إذْ قدْ ذكرنا ما يتعلَّقُ بهِ في كتابِ الرياءِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، وأقلُّ أمورِهِ ما وردَ في الخبرِ مِنْ أنَّ المرائيَ يُدعىٰ يومَ القيامةِ بأربعِ أسامٍ : يا مرائي ، يا مخادعُ ، يا مشركُ ، يا كافرُ[1] ، وإنَّما نتكلَّمُ الآنَ فيمَنِ انبعثَ لقصدِ التقرُّبِ ، ولكنِ امتزجَ بهـٰذا الباعثِ باعثٌ آخرُ ؛ إمَّا مِنَ الرياءِ ، أوْ مِنْ غيرِهِ مِنْ حظوظِ النفسِ .

ومثالُ ذلكَ : أنْ يصومَ لينتفعَ بالحميةِ الحاصلةِ بالصومِ معَ قصدِ التقرُّبِ ، أوْ يعتقَ عبداً ليتخلَّصَ مِنْ مؤنتِهِ وسوءِ خُلُقِهِ ، أوْ يحجَّ ليصحَّ مزاجُهُ بحركةِ السفرِ ، أوْ ليتخلَّصَ مِنْ شرٍّ يعرضُ لهُ في بلدِهِ ، أوْ ليهربَ عنْ عدوٍّ لهُ في منزلِهِ ، أوْ يتبرَّمَ[2] بأهلِهِ وولدِهِ أوْ بشغلٍ هوَ فيهِ فأرادَ أنْ يستريحَ منهُ أياماً ، أوْ يغزوَ ليمارسَ الحربَ ويتعلَّمَ أسبابَهُ ويقدرَ بهِ علىٰ تهيئةِ العساكرِ وجرِّها ، أوْ يصلِّيَ بالليلِ ولهُ غرضٌ في دفعِ النعاسِ عنْ نفسِهِ بهِ ليراقبَ أهلَهُ أوْ رحلَهُ ، أوْ يتعلَّمَ العلمَ ليسهلَ عليهِ طلبُ ما يكفيهِ مِنَ المالِ ، أوْ ليكونَ عزيزاً بينَ العشيرةِ ، أوْ ليكونَ عقارُهُ ومالُهُ محروساً بعزِّ العلمِ عنِ الأطماعِ ، أوِ اشتغلَ بالدرسِ والوعظِ ليتخلَّصَ عنْ كربِ الصمتِ ويتفرَّجَ بلذَّةِ الحديثِ ، أوْ تكفَّلَ بخدمةِ العلماءِ أوِ الصوفيةِ لتكونَ حرمتُهُ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٦١٩) بنحوه .
(٢) يتبرَّم : يملُّ ويضجر .

وافرةً عندَهُمْ وعندَ الناسِ ، أوْ لينالَ بهِ رِفْقاً في الدنيا[1] ، أوْ كتبَ مصحفاً ليجوِّدَ بالمواظبةِ على الكتابةِ خطَّهُ ، أوْ حجَّ ماشياً ليخفِّفَ عنْ نفسهِ الكراءَ ، أوْ توضَّأَ ليتنظَّفَ أوْ يتبرَّدَ ، أوِ اغتسلَ لتطيبَ رائحتُهُ ، أوْ روى الحديثَ ليُعرفَ بعلوِّ الإسنادِ ، أوِ اعتكفَ في المسجدِ ليخفِّفَ عليهِ كراءَ المسكنِ ، أوْ صامَ ليخفِّفَ عنْ نفسهِ التردُّدَ في طبخِ الطعامِ أوْ ليتفرَّغَ لأشغالِهِ فلا يشغلُهُ الأكلُ عنها ، أوْ تصدَّقَ على السائلِ ليقطعَ إبرامَهُ في السؤالِ عنْ نفسِهِ ، أوْ يعودَ مريضاً ليُعادَ إذا مرضَ ، أوْ يشيِّعَ جنازةً لتُشيَّعَ جنائزُ أهلِهِ ، أوْ يفعلَ شيئاً مِنْ ذلكَ ليُعرفَ بالخيرِ ويُذكرَ بهِ ويُنظرَ إليهِ بعينِ الصلاحِ والوقارِ .

فمهما كانَ باعثُهُ هوَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولكنِ انضافَ إليهِ خطرةٌ مِنْ هٰذهِ الخطراتِ حتىٰ صارَ العملُ أخفَّ عليهِ بسببِ هٰذهِ الأمورِ . فقدْ خرجَ عملُهُ عنْ حدِّ الإخلاصِ ، وخرجَ عنْ أنْ يكونَ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وتطرَّقَ الشركُ إليهِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : « أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ »[2] .

وبالجملةِ : كلُّ حظٍّ مِنْ حظوظِ الدنيا تستريحُ إليهِ النفسُ ، ويميلُ إليهِ القلبُ ، قلَّ أمْ كثُرَ ، إذا تطرَّقَ إلى العملِ . . تكدَّرَ بهِ صفوُهُ ، وزالَ بهِ إخلاصُهُ .

والإنسانُ مرتبطٌ في حظوظِهِ ، منغمسٌ في شهواتِهِ ، قلَّما ينفكُّ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ وعبادةٌ مِنْ عباداتِهِ عنْ حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ مِنْ هٰذهِ الأجناسِ ، فلذلكَ قيلَ : (مَنْ سلمَ لهُ في عمرِهِ خطوةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ . .

---

(١) الرِّفْق هنا : اسم لما يستعان به من مال أو متاع ونحوه .
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه(٤٢٠٢) .

نجا)[1] ، وذلكَ لعزَّةِ الإخلاصِ ، وعسْرِ تنقيةِ القلبِ عنْ هٰذهِ الشوائبِ ، بلِ الخالصُ هوَ الذي لا باعثَ عليهِ إلا طلبُ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الحظوظُ إنْ كانَتْ هيَ الباعثةَ وحدَها . . فلا يخفىٰ شدَّةُ الأمرِ علىٰ صاحبِهِ فيها ، وإنَّما نظرُنا فيما إذا كانَ القصدُ الأصليُّ هوَ التقرُّبَ وانضافَتْ إليهِ هٰذهِ الأمورُ ، ثمَّ هٰذهِ الشوائبُ إمَّا أنْ تكونَ في رتبةِ الموافقةِ ، أوْ في رتبةِ المشاركةِ ، أوْ في رتبةِ المعاونةِ كما سبقَ في بيانِ النيةِ .

وبالجملةِ : فإمَّا أنْ يكونَ الباعثُ النفسيُّ مثلَ الباعثِ الدينيِّ ، أوْ أقوىٰ منهُ ، أوْ أضعفَ ، ولكلٍّ واحدٍ حكمٌ آخرُ كما سنذكرُهُ ، وإنَّما الإخلاصُ تخليصُ العملِ عنْ هٰذهِ الشوائبِ كلِّها ، قليلِها وكثيرِها ؛ حتىٰ يتجرَّدَ فيهِ قصدُ التقرُّبِ ، فلا يكونُ فيهِ باعثٌ سواهُ .

وهٰذا لا يُتصوَّرُ إلا مِنْ محبٍّ للهِ تعالىٰ مستهترٍ بهِ ، مستغرقِ الهمِّ بالآخرةِ ، بحيثُ لمْ يبقَ لحبِّ الدنيا في قلبِهِ قرارٌ ، حتىٰ لا يحبَّ الأكلَ والشربَ أيضاً ، بلْ تكونُ رغبتُهُ فيهِ كرغبتِهِ في قضاءِ الحاجةِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ضرورةُ الجبلةِ ، فلا يشتهي الطعامَ لأنَّهُ طعامٌ ، بلْ لأنَّهُ يقوِّيهِ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، ويتمنَّىٰ أنْ لوْ كُفيَ شرَّ الجوعِ ؛ حتىٰ لا يحتاجَ إلى الأكلِ ، فلا يبقىٰ في قلبِهِ حظٌّ مِنَ الفضولِ الزائدةِ على الضرورةِ ، ويكونُ قدْرُ الضرورةِ مطلوباً عندَهُ ؛ لأنَّهُ ضرورةُ دينِهِ ، فلا يكونُ لهُ همٌّ إلا اللهَ تعالىٰ .

---

(١) تقدم قريباً بنحوه قولُ أبي سليمان ، وهو : (طوبىٰ لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ) .

فمثلُ هـٰذا الشخصِ لوْ أكلَ أوْ شربَ أوْ قضىٰ حاجتَهُ.. كانَ خالصَ العملِ صحيحَ النيةِ في جميعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، فلوْ نامَ مثلاً ليريحَ نفسَهُ فيتقوَّىٰ على العبادةِ بعدَهُ.. كانَ نومُهُ عبادةً ، وكانَ لهُ درجةُ المخلصينَ فيهِ ، ومَنْ ليسَ كذلكَ.. فبابُ الإخلاصِ في الأعمالِ كالمسدودِ عليهِ إلا على الندورِ ، وكما أنَّ مَنْ غلبَ عليهِ حبُّ اللهِ وحبُّ الآخرةِ ، فاكتسبَتْ حركاتُهُ الاعتياديَّةُ صفةَ همِّهِ وصارَتْ إخلاصاً.. فالذي يغلبُ علىٰ نفسِهِ حبُّ الدنيا والعلوُّ والرئاسةُ ، وبالجملةِ : غيرُ اللهِ تعالىٰ.. فقدِ اكتسبَتْ جميعُ حركاتِهِ تلكَ الصفةَ ، فلا تسلمُ لهُ عباداتُهُ مِنْ صومٍ وصلاةٍ وغيرِ ذلكَ إلا نادراً .

فإذاً ؛ علاجُ الإخلاصِ كسرُ حظوظِ النفسِ ، وقطعُ الطمعِ عنِ الدنيا ، والتجرُّدُ للآخرةِ ؛ بحيثُ يغلبُ ذلكَ على القلبِ ، فإذْ ذاكَ يتيسَّرُ الإخلاصُ .

وكَمْ مِنْ أعمالٍ يتعبُ الإنسانُ فيها ويظنُّ أنَّها خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، ويكونُ فيها مغروراً ؛ لأنَّهُ لا يدري وجهَ الآفةِ فيها ؛ كما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : (قضيتُ صلاةَ ثلاثينَ سنةً كنتُ صلَّيتُها في المسجدِ في الصفِّ الأوَّلِ ؛ لأنِّي تأخَّرتُ يوماً لعذرٍ ، فصليتُ في الصفِّ الثاني ، فاعترَتْني خجلةٌ مِنَ الناسِ حيثُ رأوني في الصفِّ الثاني ، فعرفتُ أنَّ نظرَ الناسِ إليَّ في الصفِّ الأوَّلِ كانَ مسرَّتي وسببَ استراحةِ قلبي مِنْ حيثُ لا أشعرُ) .

وهـٰذا دقيقٌ غامضٌ ، قلَّما تسلمُ الأعمالُ مِنْ أمثالِهِ ، وقلَّ مَنْ يتنبَّهُ لهُ

إلا مَنْ وفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ ، والغافلونَ عنهُ يرونَ حسناتِهِمْ كلَّها في الآخرةِ سيئاتٍ ، وهُمُ المرادونَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وأشدُّ الخلقِ تعرُّضاً لهـٰذهِ الفتنةِ العلماءُ ، فإنَّ الباعثَ للأكثرينَ علىٰ نشرِ العلمِ لذَّةُ الاستيلاءِ ، والفرحُ بالاستتباعِ ، والاستبشارُ بالحمدِ والثناءِ ، والشيطانُ يلبِّسُ عليهِمْ ذلكَ ، ويقولُ : إنَّما غرضُكُمْ نشرُ دينِ اللهِ ، والنضالُ عنِ الشرعِ الذي شرعَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وترى الواعظَ يمنُّ على اللهِ تعالىٰ بنصحِهِ للخلقِ ووعظِهِ للسلاطينِ ، ويفرحُ بقبولِ الناسِ قولَهُ وإقبالِهِمْ عليهِ ، وهوَ يدَّعي أنَّهُ يفرحُ بما يُسِّرَ لهُ مِنْ نصرةِ الدينِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ هوَ أحسنُ منهُ وعظاً ، وانصرفَ الناسُ عنهُ وأقبلوا عليهِ .. ساءَهُ ذلكَ وغمَّهُ ، ولوْ كانَ باعثُهُ الدينَ .. لشكرَ اللهَ تعالىٰ ؛ إذْ كفاهُ اللهُ تعالىٰ هـٰذا المهمَّ بغيرِهِ ، ثمَّ الشيطانُ معَ ذلكَ لا يخلِّيهِ ، ويقولُ : إنَّما غمُّكَ لانقطاعِ الثوابِ عنكَ ، لاَ لانصرافِ وجوهِ الناسِ عنكَ إلىٰ غيرِكَ ؛ إذْ لوِ اتعظوا بقولِكَ .. لكنتَ أنتَ المثابَ ، واغتمامُكَ لفوتِ الثوابِ محمودٌ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ انقيادَهُ للحقِّ ، وتسليمَهُ الأمرَ للأفضلِ[1] .. أجزلُ ثواباً ، وأعودُ عليهِ في الآخرةِ مِنِ انفرادِهِ .

---

(١) أي : تسليمه أمر الوعظ ودعوة الخلق لمن هو أعلم وأفضل وأقدر علىٰ نفعهم وجلب قلوبهم للحق ، وإنما هو مشارك له ، منطوٍ تحت جناحه .

وليتَ شعري لوِ اغتمَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بتصدي أبي بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ للإمامةِ . . أكانَ غمُّهُ محموداً أوْ مذموماً ؟ ولا يستريبُ ذو دينٍ أنْ لوْ كانَ ذلكَ . . لكانَ مذموماً ؛ لأنَّ انقيادَهُ للحقِّ وتسليمَهُ الأمرَ إلىٰ مَنْ هوَ أصلحُ منهُ . . أعودُ عليهِ في الدينِ مِنْ تكفُّلِهِ بمصالحِ الخلقِ ، معَ ما فيهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ ، بلْ فرحَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ باستقلالِ مَنْ هوَ أولىٰ منهُ بالأمرِ(١) ، فما بالُ العلماءِ لا يفرحونَ بمثلِ ذلكَ ؟!

وقدْ ينخدعُ بعضُ أهلِ العلمِ بغرورِ الشيطانِ ، فيحدِّثُ نفسَهُ بأنَّهُ لوْ ظهرَ مَنْ هوَ أولىٰ منهُ بالأمرِ . . لفرحَ بهِ ، وإخبارُهُ بذلكَ عنْ نفسِهِ قبلَ التجربةِ والامتحانِ محضُ الجهلِ والغرورِ ، فإنَّ النفسَ سهلةُ القيادِ في الوعدِ بأمثالِ ذلكَ قبلَ نزولِ الأمرِ ، ثمَّ إذا دهاهُ الأمرُ تغيَّرَ ورجعَ ، ولمْ يفِ بالوعدِ ، وذلكَ لا يعرفُهُ إلا مَنْ عرفَ مكايدَ الشيطانِ والنفسِ ، وطالَ اشتغالُهُ بامتحانِها .

فمعرفةُ حقيقةِ الإخلاصِ والعملُ بهِ بحرٌ عميقٌ ، يغرقُ فيهِ الجميعُ ، إلا الشاذَّ النادرَ والفردَ الفذَّ ، وهوَ المستثنىٰ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، فليكنِ العبدُ شديدَ التفقُّدِ والمراقبةِ لهٰذهِ الدقائقِ ، وإلا . . التحقَ بأتباعِ الشياطينِ وهوَ لا يشعرُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كما دلَّ علىٰ ذلك الآثار الواردة في قصة البيعة . « إتحاف » (١٠/ ٥٣) .

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قالَ السوسيُّ : (الإخلاصُ فقْدُ رؤيةِ الإخلاصِ ؛ لأنَّ مَنْ شاهدَ في إخلاصِهِ الإخلاصَ . . فقدِ احتاجَ إخلاصُهُ إلىٰ إخلاصٍ)(١) .

وما ذكرَهُ إشارةٌ إلىٰ تصفيةِ العملِ عنِ العجبِ بالعملِ ، فإنَّ الالتفاتَ إلى الإخلاصِ والنظرَ إليهِ عجبٌ ، وهوَ مِنْ جملةِ الآفاتِ ، والخالصُ ما صفا عنْ جميعِ الآفاتِ ، فهٰذا تعرُّضٌ لآفةٍ واحدةٍ(٢) .

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (الإخلاصُ أنْ يكونَ سكونُ العبدِ وحركاتُهُ للهِ تعالىٰ خاصَّةً)(٣) .

وهٰذهِ كلمةٌ جامعةٌ محيطةٌ بالغرضِ ، وفي معناهُ قولُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ : (الإخلاصُ صدقُ النيةِ معَ اللهِ تعالىٰ)(٤) .

وقيلَ لسهلٍ : أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ ؟ فقالَ : الإخلاصُ ؛ إذْ ليسَ لها فيهِ نصيبٌ(٥) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .
(٢) أي : فلا تكون حقيقته جامعة لأفراده . « إتحاف » (١٠/ ٥٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) .

وقالَ رويمٌ : (الإخلاصُ في العملِ هوَ ألا يريدَ صاحبُهُ عليهِ عوضاً في الدارينِ)[١] .

وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ حظوظَ النفسِ آفةٌ آجلاً وعاجلاً ، والعابدُ لأجلِ تنعُّمِ النفسِ بالشهواتِ في الجنةِ معلولُ العبادةِ ، بلِ الحقيقةُ ألا يُرادَ بالعملِ إلا وجهُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ إخلاصِ الصدِّيقينَ ، وهوَ الإخلاصُ المطلقُ ، فأمَّا مَنْ يعملُ لرجاءِ الجنةِ وخوفِ النارِ . . فهوَ مخلصٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يطلبُ الحظوظَ العاجلةَ ، وإلا . . فهوَ في طلبِ حظِّ البطنِ والفرجِ ، وإنَّما المطلوبُ الحقُّ لذوي الألبابِ وجهُ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

وقولُ القائلِ : لا يتحرَّكُ الإنسانُ إلا لحظٍّ ، والبراءةُ مِنَ الحظوظِ صفةُ الإلـٰهيَّةِ ، ومَنِ ادعىٰ ذلكَ . . فهوَ كافرٌ[٢] ، وقدْ قضى القاضي أبو بكرٍ الباقلانيُّ بتكفيرِ مَنْ يدعي البراءةَ مِنَ الحظوظِ ، وقالَ : (هـٰذا منْ صفاتِ الإلـٰهيةِ) ؟

وما ذكرَهُ حقٌّ ، ولكنَّ القومَ إنَّما أرادوا بهِ البراءةَ عمَّا يسميهِ الناسُ حظوظاً ، وهيَ الشهواتُ الموصوفةُ في الجنةِ فقطْ ، فأمَّا التلذُّذُ بمجرَّدِ المعرفةِ والمناجاةِ والنظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ . . فهـٰذا حظُّ هؤلاءِ ، وهـٰذا

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) .

(٢) لأنه قد أشرك بالله في صفة من صفاته المختصة به . « إتحاف » (١٠/ ٥٥) .

لا يعدُّهُ الناسُ حظّاً ، بلْ يتعجَّبونَ منهُ ، وهؤلاءِ لوْ عُوِّضوا عمَّا هُمْ فيهِ مِنْ لذَّةِ الطاعةِ والمناجاةِ وملازمةِ الشهودِ للحضرةِ الإلـٰهيةِ سرّاً وجهراً جميعَ نعيمِ الجنةِ. . لاستحقروهُ ، ولمْ يلتفتوا إليهِ ، فحركتُهُمْ لحظٍّ ، وطاعتُهُمْ لحظٍّ ، ولكنْ حظُّهُمْ معبودُهُمْ فقطْ دونَ غيرِهِ .

وقالَ أبو عثمانَ : (الإخلاصُ نسيانُ رؤيةِ الخلقِ بدوامِ النظرِ إلى الخالقِ)[1] .

وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ آفةِ الرياءِ فقطْ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (الإخلاصُ في العملِ ألا يطلعَ عليهِ شيطانٌ فيفسدَهُ ، ولا ملكٌ فيكتبَهُ)[2] ، وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ الإخفاءِ .

وقدْ قيلَ : (الإخلاصُ ما استترَ عنِ الخلائقِ ، وصفا عنِ العلائقِ)[3] ، وهـٰذا أجمعُ للمقاصدِ .

وقالَ المحاسبيُّ : (الإخلاصُ هوَ إخراجُ الخلقِ عنْ معاملةِ الربِّ)[4] ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ نفيِ الرياءِ .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٥) ، وأبو عثمان هو سعيد بن إسماعيل الحيري .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) .

وكذلكَ قولُ الخوَّاصِ : (مَنْ شربَ مِنْ كأسِ الرئاسةِ . . فقدْ خرجَ عنْ إخلاصِ العبوديةِ)[1] .

وقالَ الحواريونَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : ما الخالصُ مِنَ الأعمالِ ؟ فقالَ : الذي يعملُ العملَ للهِ تعالىٰ لا يحبُّ أنْ يحمدَهُ عليهِ أحدٌ[2] .

وهـٰذا أيضاً تعرُّضٌ لتركِ الرياءِ ، وإنَّما خصَّهُ بالذكرِ لأنَّهُ أقوى الأسبابِ المشوشةِ للإخلاصِ .

وقالَ الجنيدُ : (الإخلاصُ تصفيةُ الأعمالِ مِنَ الكدوراتِ)[3] .

وقالَ الفضيلُ : (تركُ العملِ مِنْ أجلِ الناسِ رياءٌ ، والعملُ مِنْ أجلِ الناسِ شركٌ ، والإخلاصُ أنْ يعافيَكَ اللهُ تعالىٰ منهُما)[4] .

وقيلَ : (الإخلاصُ دوامُ المراقبةِ ونسيانُ الحظوظِ كلِّها)[5] .

وهـٰذا هوَ البيانُ الكاملُ ، والأقاويلُ في هـٰذا كثيرةٌ ، ولا فائدةَ في تكثيرِ النقلِ بعدَ انكشافِ الحقيقةِ ، وإنَّما البيانُ الشافي بيانُ سيِّدِ الأولينَ والآخرينَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٣) .
(٢) كذا في « القوت » (١٥٦/٢) ، و« تهذيب الأسرار » (ص٢٨٤) ، وقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٥) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ سُئِلَ عنِ الإخلاصِ فقالَ : « أنْ تقولَ : ربِّيَ اللهُ ، ثمَّ تستقيمُ كما أُمرتَ »[1] أيْ : لا تعبدُ هواكَ ونفسَكَ ، ولا تعبدُ إلا ربَّكَ ، وتستقيمُ في عبادتِهِ كما أمرتَ ، وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ قطعِ كلِّ ما سوى اللهِ عنْ مجرى النظرِ ، وهوَ الإخلاصُ حقّاً .

* * *

(١) كذا أورد هـٰذا الحديث الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) والمصنف تبع له ، وروى الترمذي (٢٤١٠) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ حدثني بأمر أعتصم به ، قال : « قل : ربي الله ، ثم استقم . . . » الحديث ، وبلفظه هنا قال الحافظ العراقي : (لم أره بهـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/٥٧) .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدِّرة للإخلاص

اعلمْ : أنَّ الآفاتِ المشوشةَ للإخلاصِ بعضُها جليٌّ ، وبعضُها خفيٌّ ، وبعضُها ضعيفٌ معَ الجلاءِ ، وبعضُها قويٌّ معَ الخفاءِ ، ولا يُفهمُ اختلافُ درجاتِها في الخفاءِ والجلاءِ إلا بمثالٍ ، وأظهرُ مشوشاتِ الإخلاصِ الرياءُ ، فلنذكرْ منهُ مثالاً فنقولُ :

الشيطانُ يدخلُ الآفةَ على المصلّي مهما كانَ مخلصاً في صلاتهِ ، ثمَّ نظرَ إليهِ جماعةٌ ، أوْ دخلَ عليهِ داخلٌ ، فيقولُ لهُ : حسِّنْ صلاتَكَ حتىٰ ينظرَ إليكَ هـٰذا الحاضرُ بعينِ الوقارِ والصلاحِ ، ولا يزدريَكَ ولا يغتابَكَ ، فتخشعُ جوارحُهُ ، وتسكنُ أطرافُهُ ، وتحسنُ صلاتُهُ ، وهـٰذا هوَ الرياءُ الظاهرُ ، ولا يخفىٰ ذلكَ على المبتدئينَ مِنَ المريدينَ[1] .

❁ ❁ ❁

الدرجةُ الثانية : أنْ يكونَ المريدُ قدْ فهمَ هـٰذهِ الآفةَ وأخذَ منها حذرَهُ ، فصارَ لا يطيعُ الشيطانَ فيها ، ولا يلتفتُ إليهِ ، ويستمرُّ في صلاتِهِ كما كانَ ، فيأتيهِ في معرضِ الخيرِ ، ويقولُ : أنتَ متبوعٌ ومقتدىً بكَ ، ومنظورٌ إليكَ ، وما تفعلُهُ يُؤْثَرُ عنكَ ، ويتأسَّىٰ بكَ غيرُكَ ، فيكونُ لكَ ثوابُ أعمالِهِمْ إنْ أحسنتَ ، وعليكَ الوزرُ إنْ أسأتَ ، فأحسنْ عملَكَ بينَ يديهِ ،

---

(١) وهـٰذه هي الدرجة الأولىٰ .

فعساهُ يقتدي بكَ في الخشوعِ وتحسينِ العبادةِ .

وهٰذا أغمضُ مِنَ الأوَّلِ ، وقدْ ينخدعُ بهِ مَنْ لا ينخدعُ بالأوَّلِ ، وهوَ أيضاً عينُ الرياءِ ، ومبطلٌ للإخلاصِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ يرى الخشوعَ وحسنَ العبادةِ خيراً لا يرضىٰ لغيرِهِ تركَهُ . . فلِمَ لمْ يرتضِ لنفسِهِ ذلكَ في الخلوةِ ؟ ولا يمكنُ أنْ تكونَ نفسُ غيرِهِ أعزَّ عليهِ مِنْ نفسِهِ ، فهٰذا محضُ التلبيسِ ، بلِ المُقتدىٰ بهِ هوَ الذي استقامَ في نفسِهِ واستنارَ قلبُهُ ، فانتشرَ نورُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فيكونُ لهُ ثوابٌ عليهِ ، فأمَّا هٰذا . . فمحضُ النفاقِ والتلبيسِ ، فمَنِ اقتدىٰ بهِ . . أُثيبَ عليهِ ، وأمَّا هوَ . . فيُطالبُ بتلبيسِهِ ، ويُعاقبُ علىٰ إظهارِهِ مِنْ نفسِهِ ما ليسَ متصفاً بهِ .

❋ ❋ ❋

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ أدقُّ ممَّا قبلَها ـ : أنْ يجرِّبَ العبدُ نفسَهُ في ذلكَ ، ويتنبَّهَ لكيدِ الشيطانِ ، ويعلمَ أنَّ مخالفتَهُ بينَ الخلوةِ والمشاهدةِ للغيرِ محضُ الرياءِ ، ويعلمَ أنَّ الإخلاصَ في أنْ تكونَ صلاتُهُ في الخلوةِ مثلَ صلاتِهِ في الملأِ ، ويستحييَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ ربِّهِ أنْ يتخشَّعَ لمشاهدةِ خلقِهِ تخشُّعاً زائداً علىٰ عادتِهِ ، فيقبلُ علىٰ نفسِهِ في الخلوةِ ، ويحسِّنُ صلاتَهُ على الوجهِ الذي يرتضيهِ في الملأِ ، ويصلي في الملأِ أيضاً كذلكَ ، فهٰذا أيضاً مِنَ الرياءِ الغامضِ ؛ لأنَّهُ حسَّنَ صلاتَهُ في الخلوةِ لتحسُنَ في الملأِ ، فلا يكونُ قدْ فرَّقَ بينَهُما ، فالتفاتُهُ في الخلوةِ والملأِ إلى الخلقِ ، بلِ الإخلاصُ أنْ تكونَ

مشاهدةُ البهائمِ لصلاتِهِ ومشاهدةُ الخلْقِ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ ، فكأنَّ نفسَ هـٰذا ليسَتْ تسمحُ بإساءةِ الصلاةِ بينَ أظهرِ الناسِ ، ثمَّ يستحي مِنْ نفسِهِ أنْ يكونَ في صورةِ المرائينَ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ يزولُ بأنْ تستويَ صلاتُهُ في الخلاءِ والملأِ ، وهيهاتَ ! بلْ زوالُ ذلكَ بألا يلتفتَ إلى الخلقِ كما لا يلتفتُ إلى الجماداتِ في الخلاءِ والملأِ جميعاً ، وهـٰذا منْ شخصٍ مشغولِ الهمِّ بالخلقِ في الملأِ والخلاءِ جميعاً ، وهـٰذا مِنَ المكايدِ الخفيَّةِ للشيطانِ .

❁ ❁ ❁

الدرجةُ الرابعةُ ـ وهيَ أدقُّ وأخفىٰ ـ : أنْ ينظرَ إليهِ الناسُ وهوَ في صلاتِهِ ، فيعجزَ الشيطانُ عنْ أنْ يقولَ لهُ : اخشعْ لأجلِهِمْ ؛ فإنَّهُ قدْ عرفَ أنَّهُ تفطَّنَ لذلكَ ، فيقولُ لهُ الشيطانُ : تفكَّرْ في عظمةِ اللهِ وجلالِهِ ، ومَنْ أنتَ واقفٌ بينَ يديهِ ، واستحيِ مِنْ أنْ ينظرَ اللهُ إلىٰ قلبِكَ وهوَ غافلٌ عنهُ ، فيحضرُ بذلكَ قلبُهُ ، وتخشعُ جوارحُهُ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ عينُ الإخلاصِ ، وهوَ عينُ المكرِ والخداعِ ، فإنَّ خشوعَهُ لوْ كانَ لنظرِهِ إلىٰ جلالِهِ.. لكانَتْ هـٰذهِ الخطرةُ تلازمُهُ في الخلوةِ ، ولكانَ لا يختصُّ حضورُها بحالةِ حضورِ غيرِهِ .

وعلامةُ الأمنِ مِنْ هـٰذهِ الآفةِ : أنْ يكونَ هـٰذا الخاطرُ ممَّا يألفُهُ في الخلوةِ كما يألفُهُ في الملأِ ، ولا يكونَ حضورُ الغيرِ هوَ السببَ في حضورِ الخاطرِ ؛ كما لا يكونُ حضورُ بهيمةٍ سبباً ، فما دامَ يفرِّقُ في أحوالِهِ بينَ مشاهدةِ إنسانٍ ومشاهدةِ بهيمةٍ.. فهوَ بعدُ خارجٌ عنْ صفوِ الإخلاصِ ، مدنسُ الباطنِ بالشركِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، وهـٰذا الشركُ أخفىٰ في قلبِ ابنِ

آدمَ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ على الصخرةِ الصماءِ كما وردَ بهِ الخبرُ[١] ، ولا يسلمُ مِنَ الشيطانِ إلا مَنْ دقَّ نظرُهُ ، وسعِدَ بعصمةِ اللهِ وتوفيقِهِ وهدايتِهِ ، وإلا . . فالشيطانُ ملازمٌ للمتشمِّرينَ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ ، لا يغفُلُ عنهُمْ لحظةً حتىٰ يحملَهُمْ على الرياءِ في كلِّ حركةٍ مِنَ الحركاتِ ، حتىٰ في كحْلِ العينِ ، وقصِّ الشاربِ ، وطيبِ يومِ الجمعةِ ، ولبسِ الثيابِ ، فإنَّ هـٰذهِ سننٌ في أوقاتٍ مخصوصةٍ ، وللنفسِ فيها حظٌّ خفيٌّ ؛ لارتباطِ نظرِ الخلقِ بها ، ولاستئناسِ الطبعِ بها ، فيدعو الشيطانُ إلىٰ فعلِ ذلكَ ، ويقولُ : هـٰذهِ سنةٌ لا ينبغي أنْ تتركَها ، ويكونُ انبعاثُ القلبِ باطناً لها لأجلِ تلكِ الشهواتِ الخفيّةِ ، أوْ مشوبةً بها شوباً يخرجُ عنْ حدِّ الإخلاصِ بسببِهِ .

وما لا يسلمُ مِنْ هـٰذهِ الآفاتِ كلِّها فليسَ بخالصٍ ، بلْ مَنْ يعتكفُ في مسجدٍ معمورٍ نظيفٍ حسنِ العمارةِ يأنسُ الطبعُ بهِ ، فالشيطانُ يرغِّبُهُ فيهِ ، ويكثرُ عليهِ مِنْ فضائلِ الاعتكافِ ، وقد يكونُ المحرِّكُ الخفيُّ في سرِّهِ هوَ الأنْسَ بحسنِ صورةِ المسجدِ ، واستراحةَ الطبعِ إليهِ ، ويتبيَّنُ ذلكَ في ميلِهِ إلىٰ أحدِ المسجدينِ أوْ أحدِ الموضعينِ إذا كانَ أحسنَ مِنَ الآخرِ ، وكلُّ ذلكَ امتزاجٌ بشوائبِ الطبعِ وكدوراتِ النفسِ ، ومبطلٌ حقيقةَ الإخلاصِ .

لعمري ؛ الغشُّ الذي يُمزجُ بخالصِ الذهبِ لهُ درجاتٌ متفاوتةٌ ، فمنها

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٩١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٦٨) .

ما يغلبُ ، ومنها ما يقلُّ ولكنْ يسهلُ دركُهُ ، ومنها ما يدقُّ بحيثُ لا يدركُهُ إلا الناقدُ البصيرُ ، وغشُّ القلبِ ودَغَلُ الشيطانِ وخبثُ النفْسِ أغمضُ مِنْ ذلكَ وأدقُّ كثيراً ، ولهـٰذا قيلَ : (ركعتانِ مِنْ عالمٍ أفضلُ مِنْ عبادةِ سنةٍ مِنْ جاهلٍ)(١) ، وأُريدَ بهِ العالمُ البصيرُ بدقائقِ آفاتِ الأعمالِ ، حتىٰ يخلصَ عنها ، فإنَّ الجاهلَ نظرُهُ إلىٰ ظاهرِ العبادةِ واغترارُهُ بها كنظرِ السواديِّ إلىٰ حمرةِ الدينارِ المموَّهِ واستدارتِهِ ، وهوَ مغشوشٌ زائفٌ في نفسِهِ ، وقيراطٌ مِنَ الخالصِ الذي يرتضيهِ الناقدُ خيرٌ مِنْ دينارٍ يرتضيهِ الغِرُّ الغبيُّ .

فهكذا يتفاوتُ أمرُ العباداتِ ، بلْ أشدُّ وأعظمُ ، ومداخلُ الآفاتِ المتطرقةِ إلىٰ فنونِ الأعمالِ لا يمكنُ حصرُها وإحصاؤُها ، فلنقنعْ بما ذكرناهُ مثالاً ، والفطنُ يغنيهِ القليلُ عنِ الكثيرِ ، والبليدُ لا يغنيهُ التطويلُ أيضاً ، فلا فائدةَ في التفصيلِ .

* * *

---

(١) وقد روي في المرفوع نحوه ، روى ابن النجار عن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن جده : « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » رواه الشيرازي في « الألقاب » من طريق مالك بن دينار ، عن الحسن ، عن أنس ، عن علي رفعه : « ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » ، وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس ـ وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٣٤) ـ : « ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط » . « إتحاف » (١٠/ ٥٩) .

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلمْ : أنَّ العملَ إذا لمْ يكنْ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بلِ امتزجَ بهِ شوبٌ مِنَ الرياءِ أو حظوظِ النفسِ . . فقدِ اختُلفَ في أنَّ ذلكَ هلْ يقتضي ثواباً ، أمْ يقتضي عقاباً ، أمْ لا يقتضي شيئاً أصلاً ، فلا يكونُ لهُ ولا عليهِ ؟

أمَّا الذي لمْ يُردْ بهِ إلا الرياءَ . . فهوَ عليهِ قطعاً ، وهوَ سببُ المقتِ والعقابِ ، وأمَّا الخالصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ سببُ الثوابِ ، وإنَّما النظرُ في المشوبِ ، وظاهرُ الأخبارِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا ثوابَ لهُ[1] ، وليسَ تخلو الأخبارُ عنْ تعارضٍ فيهِ .

---

(١) منها ما رواه النسائي (٦/ ٢٥) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، فأعادها ثلاث مرات ، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغي به وجهُهُ » ، ومما ظاهره المعارضة ما رواه الترمذي (٢٣٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ الرجل يعمل العمل فيسرُّه ، فإذا اطلع عليه . . أعجبه ذلك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « له أجران ؛ أجر السر ، وأجر العلانية » ، وقد بيَّن المصنف فيما سبق أن لا تعارض ، ومنها أيضاً ما رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٧٩) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه وقد سأله أبو الدرداء رضي الله عنه عِظَةً ، فقال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فقدمت ، فجاء رجل منهم فجلس في المجلس الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل إلىٰ جنبه : لو رأيتنا حين التقينا نحن والعدو ، فحمل فلان فطعن فقال : خذها وأنا الغلام الغفاري ، كيف ترىٰ في قوله ؟ =

والذي ينقدحُ لنا فيهِ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ : أنْ ينظرَ إلىٰ قدْرِ قوَّةِ البواعثِ ، فإنْ كانَ الباعثُ الدينيُّ مساوياً للباعثِ النفسيِّ . . تقاوما وتساقطا ، وصارَ العملُ لا لهُ ولا عليهِ .

وإنْ كانَ باعثُ الرياءِ أغلبَ وأقوىٰ . . فهوَ ليسَ بنافعٍ ، بل هوَ معَ ذلكَ مضرٌّ ومقتضٍ للعقابِ ، نعم ، العقابُ الذي فيهِ أخفُّ مِنْ عقابِ العملِ الذي تجرَّدَ للرياءِ ولمْ يمتزجْ بهِ شائبةُ التقرُّبِ .

وإنْ كانَ قصدُ التقرُّبِ أغلبَ بالإضافةِ إلى الباعثِ الآخرِ . . فلهُ ثوابٌ بقدْرِ ما فضلَ مِنْ قوَّةِ الباعثِ الدينيِّ ، وهٰذا لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، فلا ينبغي أنْ يضيعَ قصدُ الخيرِ ، بلْ إنْ كانَ غالباً علىٰ قصدِ الرياءِ . . حبطَ منهُ القدْرُ الذي يساويهِ وبقيَتْ زيادةٌ ، وإنْ كانَ مغلوباً . . أُسقطَ بسببِهِ شيءٌ مِنْ عقوبةِ القصدِ الفاسدِ .

وكشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا : أنَّ الأعمالَ تأثيرُها في القلوبِ بتأكيدِ صفاتِها ، فداعيةُ الرياءِ مِنَ المهلكاتِ ، وإنَّما غذاءُ هٰذا المهلكِ وقوتُهُ العملُ علىٰ وَفْقِهِ ، وداعيةُ الخيرِ مِنَ المنجياتِ ، وإنَّما قوَّتُها بالعملِ علىٰ

= قال : ما أُراه إلا قد أبطل أجره ، فسمع ذلك آخر ، فقال : ما أرىٰ بذلك بأساً ، فتنازعا حتىٰ سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « سبحان الله ! لا بأس أن يُحمد ويُؤجر » .

وَفْقِها ، فإذا اجتمعَتِ الصفتانِ في القلبِ . . فهما متضادتانِ ، فإذا عملَ علىٰ وَفْقِ مقتضى الرياءِ . . فقدْ قوَّىٰ تلكَ الصفةَ ، وإذا كانَ العملُ علىٰ وَفْقِ مقتضى التقرُّبِ . . فقدْ قوَّىٰ أيضاً تلكَ الصفةَ ، وأحدُهُما مهلكٌ والآخرُ منجٍ ، فإنْ كانَ تقويةُ هـٰذا بقدْرِ تقويةِ الآخرِ . . فقدْ تقاوما ، فكانَ كالمستضرِّ بالحرارةِ إذا تناولَ ما يضرُّهُ ، ثمَّ تناولَ مِنَ المبرداتِ ما يقاومُ قدْرَ قوَّتِهِ ، فيكونُ بعدَ تناولِهما كأنَّهُ لمْ يتناولْهُما ، وإنْ كانَ أحدُهُما غالباً . . لمْ يخلُ الغالبُ عنْ أثرٍ ، فكما لا يضيعُ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الطعامِ والشرابِ والأدويةِ ، ولا ينفكُّ عنْ أثرٍ في الجسدِ بحكمِ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ . . فكذلكَ لا يضيعُ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الخيرِ والشرِّ ، ولا ينفكُّ عنْ تأثيرٍ في إنارةِ القلبِ أوْ تسويدِهِ ، وفي تقريبِهِ مِنَ اللهِ أوْ إبعادِهِ ، فإذا جاءَ بما يقرِّبُهُ شبراً معَ ما يبعدُهُ شبراً . . فقدْ عادَ إلىٰ ما كانَ ، فلمْ يكنْ لهُ ولا عليهِ ، وإنْ كانَ الفعلُ ممَّا يقرِّبُهُ شبرينِ والآخرُ يبعدُهُ شبراً واحداً . . فضلَ لهُ ـ لا محالةَ ـ شبرٌ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ . . تمحُها »[1] ، فإذا كانَ الرياءُ المحضُ يمحوهُ الإخلاصُ المحضُ عقيبَهُ ؛ فإذا اجتمعا جميعاً . . فلا بدَّ وأنْ يتدافعا بالضرورةِ .

ويشهدُ لهـٰذا إجماعُ الأمَّةِ علىٰ أنَّ مَنْ خرجَ حاجّاً ومعَهُ تجارةٌ صحَّ حجُّهُ وأُثيبَ عليهِ ، وقدِ امتزجَ بهِ حظٌّ مِنْ حظوظِ النفسِ[2] .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) .

(٢) وقد روى البخاري (٢٠٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت عكاظٌ ومَجَنَّةُ =

نعمْ ، يمكنُ أنْ يقالَ : إنَّما يُثابُ علىٰ أعمالِ الحجِّ عندَ انتهائِهِ إلىٰ مكَّةَ ، وتجارتُهُ غيرُ موقوفةٍ عليهِ ، فهوَ خالصٌ ، وإنَّما المشتركُ طولُ المسافةِ ، ولا ثوابَ فيهِ مهما قصدَ تجارةً ، ولكنَّ الصوابَ أنْ يُقالَ : مهما كانَ الحجُّ هوَ المحرِّكَ الأصليَّ ، وكانَ غرضُ التجارةِ كالمعينِ والتابعِ . . فلا ينفكُّ نفسُ السفرِ عنْ ثوابٍ ، وما عندي أنَّ الغزاةَ لا يدركونَ في أنفسِهِمْ تفرقةً بينَ غزوِ الكفارِ في جهةٍ تكثرُ فيها الغنائمُ وبينَ جهةٍ لا غنيمةَ فيها(١) ، ويبعدُ أنْ يُقالَ : إدراكُ هٰذهِ التفرقةِ يحبطُ بالكليَّةِ ثوابَ جهادِهِمْ ، بلِ العدلُ أنْ يُقالَ : إذا كانَ الباعثُ الأصليُّ والمزعجُ القويُّ هوَ إعلاءَ كلمةِ اللهِ ، وإنَّما الرغبةُ في الغنيمةِ علىٰ سبيلِ التبعيةِ . . فلا يحبطُ بهِ الثوابُ .

نعمْ ، لا يساوي ثوابُهُ ثوابَ مَنْ لا يلتفتُ قلبُهُ إلى الغنيمةِ أصلاً ، فإنَّ هٰذا الالتفاتَ نقصانٌ لا محالةَ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فالآياتُ والأخبارُ تدلُّ علىٰ أنَّ شوبَ الرياءِ محبطٌ للثوابِ ، وفي معناهُ شوبُ طلبِ الغنيمةِ والتجارةِ وسائرِ الحظوظِ ، فقدْ رَوىٰ طاووسٌ

= وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فلما كان الإسلام . . تأثَّموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) ، قرأ ابن عباس كذا .

(١) فالتفرقة بينهما حاصلة ، و(ما) في صدر الجملة نافية ، والعبارة في (ب) : (وما عندي إلا أن الغزاة يدركون في أنفسهم . . .) ، والجملتان بمعنىً .

وعدَّةٌ مِنَ التابعينَ : أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ يصطنعُ المعروفَ ـ أوْ قالَ : يتصدَّقُ ـ فيحبُّ أن يُحمدَ ويُؤجرَ ، فلمْ يدرِ ما يقولُ لهُ حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾(١) ، وقدْ قصدَ الأجرَ والحمدَ جميعاً .

وروىٰ معاذٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أدنى الرياءِ شركٌ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُقالُ لمَنْ أشركَ في عملِهِ : خذْ أجرَكَ ممَّنْ عملتَ لهُ »(٣) .

ورُوِيَ عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ : (أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : أنا أغنى

---

(١) رواه من حديث طاووس مرسلاً ابنُ المبارك في « الجهاد » (١٢) ، وأشار إلىٰ هـٰذه الرواية البيهقي في « الشعب » (٦٤٣٨) بعد أن رواه عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه ، ولفظه : قال رجل : يا رسول الله ؛ إني أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرىٰ موطني ؟ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٦) .

(٣) أورده الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص٢٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وروىٰ نحوه الترمذي (٣١٥٤) ، وابن ماجه (٤٢٠٣) عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه ، وعند مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً : « قال الله تبارك وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري . . تركته وشركه » .

الأغنياءِ عنِ الشركةِ ، مَنْ عملَ لي عملاً فأشركَ معي غيري . . ودعتُ نصيبي لشريكي)(١) .

وروىٰ أبو موسىٰ : أنَّ أعرابياً أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يقاتلُ حميةً ، والرجلُ يقاتلُ شجاعةً ، والرجلُ يقاتلُ ليُرىٰ مكانُهُ ، فمَنْ في سبيلِ اللهِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »(٢) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تقولونَ : فلانٌ شهيدٌ ، ولعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ ملأَ دفتي راحلتِهِ وَرِقاً)(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً مِنَ الدنيا . . فهوَ لهُ »(٤) .

فنقولُ : هٰذهِ الأحاديثُ لا تناقضُ ما ذكرناهُ ، بلِ المرادُ بها مَنْ لمْ يردْ بذلكَ إلا الدنيا ؛ كقولِهِ : « مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً مِنَ الدنيا . . . » ، وكانَ ذلكَ هوَ الأغلبَ علىٰ همِّهِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ ذلكَ عصيانٌ وعدوانٌ ، لا لأنَّ

---

(١) كذا هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص١٦٦ ، ٢٣٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٨٥١) ، وفيه : (فمن كان له معي شريك . . فهو له كله ، لا حاجة لي فيه) ، **وودعت** : تركت .

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٨) ، ومسلم (١٩٠٤/ ١٥٠) .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٣٢) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٣) .

طلبَ الدنيا حرامٌ ، ولكنْ طلبُها بأعمالِ الدينِ حرامٌ ؛ لما فيهِ مِنَ الرياءِ وتغييرِ العبادةِ عنْ وضعِها .

وأمَّا لفظُ الشركةِ حيثُ وردَ . . فمطلقُهُ للتساوي ، وقدْ بينَّا أنَّهُ إذا تساوى القصدانِ . . تقاوما ، ولمْ يكنْ لهُ ولا عليهِ ، فلا ينبغي أنْ يُرجىٰ عليهِ ثوابٌ .

ثمَّ إنَّ الإنسانَ عندَ الشركةِ أبداً في خطرٍ ، فإنَّهُ لا يدري أيُّ الأمرينِ أغلبُ علىٰ قصدِهِ ، فربما يكونُ عليهِ وبالاً ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أيْ : لا يُرجى اللقاءُ معَ الشركةِ التي أحسنُ أحوالِها التساقطُ .

ويجوزُ أنْ يُقالَ أيضاً : منصبُ الشهادةِ لا يُنالُ إلا بالإخلاصِ في الغزوِ ، وبعيدٌ أنْ يُقالَ : مَنْ كانَتْ داعيتُهُ الدينيَّةُ بحيثُ تزعجُهُ إلىٰ مجرَّدِ الغزوِ وإنْ لمْ تَكنْ غنيمةٌ ، وقدرَ علىٰ غزوِ طائفتينِ مِنَ الكفارِ ؛ إحداهما غنيةٌ ، والأخرىٰ فقيرةٌ ، فمالَ إلىٰ جهةِ الأغنياءِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ وللغنيمةِ . . لا ثوابَ لهُ علىٰ غزوِهِ ألبتةَ ، ونعوذُ باللهِ أنْ يكونَ الأمرُ كذلكَ ، فإنَّ هـٰذا حرجٌ في الدينِ ، ومدخلٌ لليأسِ على المسلمينَ ؛ لأنَّ أمثالَ هـٰذهِ الشوائبِ التابعةِ قطُّ لا ينفكُّ الإنسانُ عنها إلا على الندورِ ، فيكونُ تأثيرُ هـٰذا في نقصانِ الثوابِ ، فأمَّا أنْ يكونَ في إحباطِهِ . . فلا .

نعمِ ، الإنسانُ فيهِ علىٰ خطرٍ عظيمٍ ؛ لأنَّهُ ربما يظنُّ أنَّ الباعثَ الأقوىٰ

هوَ قصدُ التقرُّبِ إلى اللهِ ، ويكونُ الأغلبُ علىٰ سرِّهِ الحظَّ النفسيَّ ، وذلكَ ممَّا يخفىٰ غايةَ الخفاءِ ، فلا يحصلُ الأمنُ إلا بالإخلاصِ ، والإخلاصُ قلَّما يستيقنُهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ وإنْ بالغَ في الاحتياطِ .

فلذلكَ ينبغي أنْ يكونَ أبداً بعدَ كمالِ الاجتهادِ متردِّداً بينَ الردِّ والقبولِ ، خائفاً أنْ تكونَ في عبادتِهِ آفةٌ يكونُ وبالُها أكثرَ مِنْ ثوابِها فلا تقاومُها ، وهٰكذا كانَ الخائفونَ مِنْ ذوي البصائرِ ، وهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ كلُّ ذي بصيرةٍ .

ولذلكَ قالَ سفيانُ رحمهُ اللهُ : (لا أعتدُّ بما ظهرَ مِنْ عملي)[1] .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (جاورتُ هٰذا البيتَ ستينَ سنةً ، وحججتُ ستينَ حجةً ، فما دخلتُ في شيءٍ مِنْ أعمالِ اللهِ تعالىٰ إلا وحاسبتُ نفسي ، فوجدتُ نصيبَ الشيطانِ أوفىٰ مِنْ نصيبِ اللهِ ، ليتَهُ لا لي ولا عليَّ)[2] .

ومعَ هٰذا فلا ينبغي أنْ يُترَكَ العملُ عندَ خوفِ الآفةِ والرياءِ ، فإنَّ ذلكَ منتهىٰ بغيةِ الشيطانِ منه ، إذِ المقصودُ ألا يفوتَ الإخلاصُ ، ومهما تُرِكَ العملُ . . فقدْ ضُيِّعَ العملُ والإخلاصُ جميعاً .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الفقراءِ كانَ يخدمُ أبا سعيدٍ الخرَّازَ ويخفُّ في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٧) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/ ٢٩١) ضمن خبرين .

أعمالِهِ ، فتكلَّمَ أبو سعيدٍ يوماً في إخلاصِ الحركاتِ ، فأخذَ الفقيرُ يتفقَّدُ قلبَهُ عندَ كلِّ حركةٍ ويطالبُهُ بالإخلاصِ ، فتعذَّرَ عليهِ قضاءُ الحوائجِ ، واستضرَّ الشيخُ بذلكَ ، فسألَهُ عنْ أمرِهِ ، فأخبرَهُ بمطالبتِهِ نفسَهُ بحقيقةِ الإخلاصِ ، وأنَّهُ يعجزُ عنها في أكثرِ أعمالِهِ فيتركُها ، فقالَ أبو سعيدٍ : لا تفعلْ ؛ إنَّ الإخلاصَ لا يقطعُ المعاملةَ ، فواظبْ على العملِ ، واجتهدْ في تحصيلِ الإخلاصِ ، فما قلتُ لكَ : اتركِ العملَ ، وإنَّما قلتُ لكَ : أخلصِ العملَ[1] .

وقدْ قالَ الفضيلُ : (تركُ العملِ بسببِ الخلقِ رياءٌ ، وفعلُهُ لأجلِ الخلقِ شركٌ)[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه القشيري في « الرسالة » (ص٣٦٢) .

البابُ الثَّالِثُ
في الصّدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصّدق

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ ، والبرَّ يهدي إلى الجنةِ ، وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ صدِّيقاً ، وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ ، وإنَّ الرجلَ ليكذبُ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً »(١) .

ويكفي في فضيلةِ الصدقِ أنَّ الصدِّيقَ مشتقٌّ منهُ ، واللهُ تعالىٰ وصفَ بهِ الأنبياءَ في معرضِ المدحِ والثناءِ فقالَ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ .

وقالَ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أربعٌ مَنْ كنَّ فيهِ .. فقدْ ربحَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

الصدقُ ، والحياءُ ، وحسنُ الخلُقِ ، والشكرُ)[1] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ عاملَ اللهَ بالصدقِ . . استوحشَ مِنَ الناسِ)[2] .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الرمليُّ : رأيتُ منصوراً الدينوريَّ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي ، ورحمَني ، وأعطاني ما لمْ أؤمِّلْ ، فقلتُ لهُ : أحسنُ ما توجَّهَ العبدُ بهِ إلى اللهِ ماذا ؟ قالَ : الصدقُ ، وأقبحُ ما توجَّهَ بهِ الكذبُ[3] .

وقالَ أبو سليمانَ : (اجعلِ الصدقَ مطيَّتَكَ ، والحقَّ سيفَكَ ، واللهَ تعالىٰ غايةَ طِلْبَتِكَ)[1] .

وقالَ رجلٌ لحكيمٍ : ما رأيتُ صادقاً ، فقالَ لهُ : لوْ كنتَ صادقاً . . لعرفتَ الصادقينَ[1] .

وعنْ محمدِ بنِ عليٍّ الكتانيِّ قالَ : (وجدنا دينَ اللهِ تعالىٰ مبنيّاً علىٰ ثلاثةِ أركانٍ : على الحقِّ ، والصدقِ ، والعدلِ ، فالحقُّ على الجوارحِ ، والعدْلُ على القلوبِ ، والصدقُ على العقولِ)[4] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٠) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٤٧) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٠) ، والحق على الجوارح بأن يكون =

وقالَ النوريُّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ ، قالَ : هُمُ الذينَ ادعَوا محبَّةَ الله تعالىٰ ولمْ يكونوا فيها صادقينَ(١) .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ مَنْ صدقَني في سريرتِهِ . صدقتُهُ عندَ المخلوقينَ في علانيتِهِ)(٢) .

وصاحَ رجلٌ في مجلسِ الشبليِّ ، ورمىٰ بنفسِهِ في دجلةَ ، فقالَ الشبليُّ : إنْ كانَ صادقاً . . فاللهُ تعالىٰ ينجيهِ كما أنجىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ ، وإنْ كانَ كاذباً . . فاللهُ تعالىٰ يغرقُهُ كما أغرقَ فرعونَ(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (أجمعَ الفقهاءُ والعلماءُ علىٰ ثلاثِ خصالٍ أنَّها إذا صحَّتْ . . ففيها النجاةُ ، ولا يتمُّ بعضُها إلا ببعضٍ : الإسلامُ الخالصُ عنِ البدعةِ والهوىٰ ، والصدقُ للهِ تعالىٰ في الأعمالِ ، وطيبُ المطعمِ)(٤) .

= استعمالها في الطاعة علىٰ صريح الحق مما يطابق السنة ، والعدل في القلوب بأن تستوي في المعرفة علىٰ سبيل الاعتدال ، والصدق في العقول بأن تصدق في الملاحظ فلا تخالف السريرة العلانية . « إتحاف » (١٠/ ٦٩) .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٠) ، وفي (أ ، ب ، ج) : (الثوري) بدل (النوري) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩١) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩١) ، وفيه : (فرمىٰ به في دجلة) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٢) ، والقول لأبي القاسم بن الختلي الفقيه .

وقالَ وهْبُ بنُ منبهٍ : (وجدتُ على حاشيةِ التوراةِ اثنينِ وعشرينَ حرفاً ، كانَ صلحاءُ بني إسرائيلَ يجتمعونَ فيقرؤونَها ويتدراسونَها وهي : لا كنزَ أنفعُ مِنَ العلمِ ، ولا مالَ أربحُ مِنَ الحلمِ ، ولا حسبَ أرفعُ مِنَ الأدبِ ، ولا نسبَ أوضعُ مِنَ الغضبِ ، ولا قرينَ أزينُ مِنَ العقلِ ، ولا رفيقَ أشينُ مِنَ الجهلِ ، ولا شرفَ أعزُّ مِنَ التقوىٰ ، ولا كرمَ أوفىٰ مِنْ تركِ الهوىٰ ، ولا عملَ أفضلُ مِنَ الفكرِ ، ولا حسنةَ أعلىٰ مِنَ الصبرِ ، ولا سيئةَ أخزىٰ مِنَ الكبْرِ ، ولا دواءَ ألينُ مِنَ الرفقِ ، ولا داءَ أوجعُ مِنَ الخُرْقِ ، ولا رسولَ أعدلُ مِنَ الحقِّ ، ولا دليلَ أنصحُ مِنَ الصدقِ ، ولا فقرَ أذلُّ مِنَ الطمعِ ، ولا غنىٰ أشقىٰ مِنَ الجمعِ ، ولا حياةَ أطيبُ مِنَ الصحةِ ، ولا معيشةَ أهنأُ مِنَ العفَّةِ ، ولا عبادةَ أحسنُ مِنَ الخشوعِ ، ولا زهدَ خيرٌ مِنَ القُنوعِ ، ولا حارسَ أحفظُ مِنَ الصمتِ ، ولا غائبَ أقربُ مِنَ الموتِ)[1] .

وقالَ محمدُ بنُ سعيدٍ المروزيُّ : (إذا طلبتَ اللهَ تعالىٰ بالصدقِ . . أفادَكَ اللهُ تعالىٰ مرآةً بيدِكَ حتىٰ تبصرَ كلَّ شيءٍ مِنْ عجائبِ الدنيا والآخرةِ)[2] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٤) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٢٤٢) ، **والخُرْق** : قلة العقل ، وسوء التصرف في الأمور ، **والقنوع** : ضدٌّ ، والمراد هنا الرضا ، وعند الخركوشي : (أوضح) بدل (أنصح) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٦) .

وقالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ : (احفظِ الصدقَ فيما بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والرفقَ فيما بينَكَ وبينَ خلقِ اللهِ)[1] .

وقيلَ لذي النونِ : هلْ للعبدِ إلىٰ صلاحِ أمورهِ سبيلٌ؟ فقالَ[2] : [من الخفيف]

قَدْ بَقِينا مُذَبْذَبِينَ حَيارَىٰ　　نَطْلُبُ ٱلصِّدْقَ ما إِلَيْهِ سَبيلُ
فَدَعاوَى ٱلْهَوَىٰ تَخِفُّ عَلَيْنا　　وَخِلافُ ٱلْهَوَىٰ عَلَيْنا ثَقِيلُ

وقيل لسهلٍ : ما أصلُ هـٰذا الأمرِ الذي نحنُ عليهِ؟ فقالَ : الصدقُ ، والسخاءُ ، والشجاعةُ ، فقيلَ : زِدْنا ، فقالَ : التقىٰ ، والحياءُ ، وطيبُ الغذاءِ[3] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عنِ الكمالِ ، فقالَ : « قولُ الحقِّ ، والعملُ بالصدقِ »[4] .

وعنِ الجنيدِ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ لِيَسْئَلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ ، قالَ : يسألُ الصادقينَ عندَ أنفسِهِمْ عنْ صدقِهِمْ عندَ ربِّهِمْ ، وهـٰذا أمرٌ علىٰ خطرٍ[5] .

* * *

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٧) .
(٢) البيتان للسهروردي في « ديوانه » (ص٥٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٩) .
(٤) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٩) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/ ٧٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٩) .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلمْ : أنَّ لفظَ الصدقِ يُستعملُ في ستةِ معانٍ : صدقٌ في القولِ ، وصدقٌ في النيةِ والإرادةِ ، وصدقٌ في العزمِ ، وصدقٌ في الوفاءِ بالعزمِ ، وصدقٌ في العملِ ، وصدقٌ في تحقيقِ مقاماتِ الدينِ كلِّها ، فمَنِ اتصفَ بالصدقِ في جميعِ ذلكَ . . فهوَ صدِّيقٌ ؛ لأنَّهُ مبالغةٌ في الصدقِ ، ثمَّ همْ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، ومَنْ كانَ لهُ حظٌّ في الصدقِ في شيءٍ مِنَ الجملةِ . . فهوَ صادقٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فيهِ صدقُهُ .

* * *

الصدقُ الأوَّلُ : صدقُ اللسانِ :

وذلكَ لا يكونُ إلا في الإخبارِ ، أوْ فيما يتضمَّنُ الإخبارَ وينبِّهُ عليهِ[1] ، والخبرُ إمَّا أنْ يتعلَّقَ بالماضي أوْ بالمستقبلِ ، وفيهِ يدخلُ الوفاءُ بالوعدِ والخلفُ فيهِ ، وحقٌّ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يحفظَ ألفاظَهُ ، فلا يتكلَّمَ إلا بالصدقِ ، وهـٰذا هوَ أشهرُ أنواعِ الصدقِ وأظهرُها ، فمَنْ حفظَ لسانَهُ عنِ

---

(١) أي : بالعرض لا بالقصد الأول ، فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء ، وذلك أن قول القائل : أزيدٌ في الدار . . في ضمنه إخبار بكونه جاهلاً بحال زيد ، وكذلك إذا قال : واسني . . في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة ، وإذا قال : لا تؤذني . . في ضمنه أنه يؤذيه . « إتحاف » (١٠/ ٧٢) .

الإخبارِ عنِ الأشياءِ علىٰ خلافِ ما هيَ عليهِ.. فهوَ صادقٌ ، ولكنْ لهٰذا الصدقِ كمالانِ :

أحدُهُما : الاحترازُ عنِ المعاريضِ : فقدْ قيلَ : (في المعاريضِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ)[1] ، وذلكَ لأنَّها تقومُ مقامَ الكذبِ ، إذِ المحذورُ مِنَ الكذبِ تفهيمُ الشيءِ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ في نفسِهِ ، إلا أنَّ ذلكَ ممَّا تمسُّ إليهِ الحاجةُ ، وتقتضيهِ المصلحةُ في بعضِ الأحوالِ ، وفي تأديبِ الصبيانِ والنسوانِ ومَنْ يجري مجراهُمْ ، وفي الحذرِ عنِ الظلمةِ ، وفي قتالِ الأعداءِ والاحترازِ عنِ اطلاعِهِمْ علىٰ أسرارِ الملكِ ، فمَنِ اضطرَّ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ.. فصدقُهُ فيهِ أنْ يكونَ نطقُهُ فيهِ للهِ تعالىٰ فيما يأمرُهُ الحقُّ بهِ ويقتضيهِ الدينُ ، فإذا نطقَ بهِ.. فهوَ صادقٌ وإنْ كانَ كلامُهُ مفهماً غيرَ ما هوَ عليهِ ؛ لأنَّ الصدقَ ما أُريدَ لذاتِهِ ، بلْ للدلالةِ على الحقِّ والدعاءِ إليهِ ، فلا ينظرُ إلىٰ صورتِهِ بلْ إلىٰ معناهُ .

نعمْ ، في مثلِ هٰذا الموضعِ ينبغي أنْ يعدلَ إلى المعاريضِ ما وجدَ إليهِ سبيلاً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا توجَّهَ إلىٰ سفرٍ.. ورَّىٰ بغيرِهِ[2] ، وذلكَ كي لا ينتهيَ الخبرُ إلى الأعداءِ فيُقصدَ ، وليسَ هٰذا مِنَ الكذبِ في شيءٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابِ

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٩) عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً .

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٧) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ ، فقالَ خيراً أوْ نمىٰ خيراً »[1] .

ورخَّصَ في النطقِ علىٰ وَفْقِ المصلحةِ في ثلاثةِ مواضعَ : مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ ، ومَنْ كانَ لهُ زوجتانِ ، ومَنْ كانَ في مصالحِ الحربِ[2] .

والصدقُ هاهنا يتحوَّلُ إلى النيةِ ، فلا يُراعىٰ فيهِ إلا صدقُ النيةِ وإرادةُ الخيرِ ، فمهما صحَّ قصدُهُ وصدقَتْ نيَّتُهُ وتجرَّدَتْ للخيرِ إرادتُهُ . . كانَ صادقاً وصدِّيقاً كيفَما كانَ لفظُهُ .

ثمَّ التعريضُ فيهِ أولىٰ ، وطريقُهُ ما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ يطلبُهُ بعضُ الظلمةِ وهوَ في دارِهِ ، فقالَ لزوجتِهِ : خُطِّي بإصبعِكِ دائرةً ، وضعي الإصبعَ عليها ، وقولي : ليسَ هوَ هاهنا[3] . واحترزَ بذلكَ عنِ الكذبِ ، ودفعَ الظالمَ عنْ نفسِهِ ، فكانَ قولُهُ صدقاً ، وأفهمَ الظالمَ أنَّهُ ليسَ في الدارِ .

فالكمالُ الأوَّلُ في اللفظِ : أنْ يحترزَ عنْ صريحِ اللفظِ وعنِ المعاريضِ أيضاً إلا عندَ الضرورةِ .

والكمالُ الثاني : أنْ يراعيَ معنى الصدقِ في ألفاظِهِ التي يناجي بها ربَّهُ عزَّ وجلَّ : كقولِهِ : (وجهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) ، فإنَّ قلبَهُ إنْ كانَ منصرفاً عنِ اللهِ تعالىٰ ، مشغولاً بأمانيِّ الدنيا وشهواتِها . . فهوَ

---

(1) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .
(2) روىٰ ذلك أبو داوود (٤٩٢١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٠٧٥) .
(3) أورده النووي في « الأذكار » (ص٦١٣) عن الشعبي .

كاذبٌ ، وكقولِهِ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقولِهِ : أنا عبدُ اللهِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتصفْ بحقيقةِ العبوديةِ ، وكانَ لهُ مطلبٌ سوى اللهِ . . لمْ يكنْ كلامُهُ صدقاً ، ولوْ طُولِبَ يومَ القيامةِ بالصدقِ في قولِهِ : أنا عبدُ اللهِ . . لعجزَ عنْ تحقيقِهِ ، فإنَّهُ إنْ كانَ عبداً لنفسِهِ أوْ عبداً لدنيا ، أوْ عبداً لشهواتِهِ . . لمْ يكنْ صادقاً في قولِهِ .

وكلُّ ما تقيَّدَ العبدُ بهِ فهوَ عبدٌ لهُ ، كما قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا عبيدَ الدنيا)[1] ، وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعسَ عبدُ الدينارِ ، تعسَ عبدُ الدرهمِ ، وعبدُ الحلَّةِ ، وعبدُ الخميصةِ »[2] ، سمَّىٰ كلَّ مَنْ تقيَّدَ قلبُهُ بشيءٍ عبداً لهُ ، وإنَّما العبدُ الحقُّ للهِ عزَّ وجلَّ مَنْ عتقَ أوَّلاً عنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، فصارَ حرّاً مطلقاً ، فإذا تقدمَتْ هـٰذهِ الحريَّةُ . . صارَ القلبُ فارغاً ، فحلَّتْ فيهِ العبوديةُ للهِ ، فتشغلُهُ باللهِ وبمحبتِهِ ، وتقيِّدُ باطنَهُ وظاهرَهُ بطاعتِهِ ، فلا يكونُ لهُ مرادٌ إلا اللهَ تعالىٰ .

ثمَّ قدْ يجاوزُ هـٰذا إلىٰ مقامٍ آخرَ أسنىٰ منهُ يُسمَّى الحريةَ ، وهوَ أنْ يعتقَ أيضاً عنْ إرادتِهِ للهِ مِنْ حيثُ هوَ ، بلْ يقنعُ بما يريدُ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنْ تقريبٍ أوْ إبعادٍ ، فتفنىٰ إرادتُهُ في إرادةِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا عبدٌ عتقَ عنْ غيرِ اللهِ فصارَ حرّاً ، ثمَّ عادَ وعتقَ عنْ نفسِهِ فصارَ حرّاً ، وصارَ مفقوداً لنفسِهِ موجوداً لسيِّدِهِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٠) (٦٨/ ٦٤) ضمن خبر طويل .
(٢) رواه البخاري (٦٤٣٥) .

ومولاهُ ، إنْ حرَّكَهُ . . تحرَّكَ ، وإن سكَّنَهُ . . سكنَ ، وإنِ ابتلاهُ . . رضيَ ، لمْ يبقَ فيهِ متسعٌ لطلبٍ والتماسٍ واعتراضٍ ، بلْ هوَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ كالميتِ بينَ يدي الغاسلِ ، وهاذا منتهى الصدقِ في العبوديةِ للهِ تعالىٰ ، فالعبدُ الحقُّ هوَ الذي وجودُهُ لمولاهُ لا لنفسِهِ ، وهاذهِ درجةُ الصدِّيقينَ ، وأمَّا الحريَّةُ عنْ غيرِ اللهِ . . فدرجاتُ الصادقينَ ، وبعدَها تتحقَّقُ العبوديةُ للهِ تعالىٰ ، وما قبلَ هاذا فلا يستحقُّ صاحبُهُ أنْ يُسمَّىٰ صادقاً ولا صدِّيقاً ، فهاذا هوَ معنى الصدقِ في القولِ .

* * *

الصدقُ الثاني : في النيةِ والإرادةِ :

ويرجعُ ذلكَ إلى الإخلاصِ ، وهوَ ألا يكونَ لهُ باعثٌ في الحركاتِ والسكناتِ إلا اللهَ تعالىٰ ، فإنْ مازجَهُ شوبٌ مِنْ حظوظِ النفسِ . . بطلَ صدقُ النيةِ ، وصاحبُهُ يجوزُ أنْ يُسمَّىٰ كاذباً ؛ كما روينا في فضيلةِ الإخلاصِ مِنْ حديثِ الثلاثةِ ، حينَ يُسألُ العالمُ : « ما عملتَ فيما علمتَ ؟ فقالَ : فعلتُ كذا وكذا ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عالمٌ »[1] ، فإنَّهُ لمْ يكذبْهُ ولمْ يقلْ لهُ : لمْ تعملْ ، ولكنْ كذَّبهُ في إرادتِهِ ونيتِهِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (الصدقُ صحةُ التوجُّهِ في القصدِ)[2] .

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) .

(٢) أورده الخركوشي في «تهذيب الأسرار» (ص٢٩١)، وفي (ج، د): (صحة التوحيد) بدل (صحة التوجه) .

وكذلكَ قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ، وقدْ قالوا : إنَّكَ لرسولُ اللهِ ، وهٰذا صدقٌ ، ولكنْ كذَّبَهُمْ لا مِنْ حيثُ نطقُ اللسانِ ، بلْ مِنْ حيثُ ضميرُ القلبِ ، وكانَ التكذيبُ يتطرَّقُ إلى الخبرِ ، وهٰذا القولُ يتضمَّنُ إخباراً بقرينةِ الحالِ ؛ إذْ صاحبُهُ يظهرُ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ يعتقدُ ما يقولُ ، فكُذِّبَ في دلالتِهِ بقرينةِ الحالِ علىٰ ما في قلبِهِ ؛ فإنَّهُ كذبَ في ذلكَ وإنْ لمْ يكذبْ فيما يلفظُ بهِ ، فيرجعُ أحدُ معاني الصدقِ إلىٰ خلوصِ النيةِ ، وهوَ الإخلاصُ ، فكلُّ صادقٍ فلا بدَّ وأنْ يكونَ مخلصاً .

❊ ❊ ❊

الصدقُ الثالثُ : صدقُ العزمِ :

فإنَّ الإنسانَ قدْ يقدِّمُ العزمَ على العملِ ، فيقولُ في نفسِهِ : إنْ رزقَني اللهُ مالاً . . تصدقتُ بجميعِهِ أوْ بشطرِهِ ، أوْ إنْ لقيتُ عدواً في سبيلِ اللهِ تعالىٰ . . قاتلتُ ولمْ أبالِ وإنْ قُتلتُ ، وإنْ أعطاني اللهُ تعالىٰ ولايةً . . عدلتُ فيها ولمْ أعصِ اللهَ تعالىٰ بظلمٍ وميلٍ إلىٰ خلقٍ .

فهٰذهِ العزيمةُ قدْ يصادفُها مِنْ نفسِهِ ، وهيَ عزيمةٌ جازمةٌ صادقةٌ ، وقدْ يكونُ في عزمِهِ نوعُ ميلٍ وتردُّدٍ وضعفٍ يضادُّ الصدقَ في العزيمةِ ، فكانَ الصدقُ هٰهنا عبارةً عنِ التمامِ والقوَّةِ ؛ كما يُقالُ : لفلانٍ شهوةٌ صادقةٌ ، ويُقالُ : هٰذا المريضُ شهوتُهُ كاذبةٌ ؛ مهما لمْ تكنْ شهوتُهُ عنْ سببٍ ثابتٍ قويٍّ أوْ كانَتْ ضعيفةً ، فقدْ يُطلقُ الصدقُ ويُرادُ بهِ هٰذا المعنىٰ ، فالصادقُ

والصدِّيقُ هوَ الذي تُصادَفُ عزيمتُهُ في الخيراتِ كلِّها قويَّةً تامَّةً ، ليسَ فيها ميلٌ ولا ضعفٌ ولا تردُّدٌ ، بلْ تسخو نفسُهُ أبداً بالعزمِ المصممِ الجازمِ على الخيراتِ .

وهوَ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي في غيرِ حدٍّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ)[١] ، فإنَّهُ قدْ وجدَ مِنْ نفسِهِ العزمَ الجازمَ والمحبَّةَ الصادقةَ بأنَّهُ لا يتأمَّرُ معَ وجودِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وأكَّدَ ذلكَ بما ذكرَهُ مِنَ القتلِ .

ومراتبُ الصدِّيقينَ في العزائمِ تختلفُ ، فقدْ يصادفُ العزمَ ولا ينتهي بهِ إلىٰ أنْ يرضىٰ بالقتلِ فيهِ ، ولكنْ إذا خُلِّيَ ورأيَهُ . . لمْ يقدمْ ، ولوْ ذُكِرَ لهُ حديثُ القتلِ لانتقضَ عزمُهُ[٢] ، بلْ في الصادقينَ والمؤمنينَ مَنْ لوْ خُيِّرَ بينَ أنْ يُقتلَ هوَ أوْ أبو بكرٍ . . كانَتْ حياتُهُ أحبَّ إليهِ مِنْ حياةِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ .

❁ ❁ ❁

الصدقُ الرابعُ : في الوفاءِ بالعزمِ :

فإنَّ النفسَ قدْ تسخو بالعزمِ في الحالِ ، إذْ لا مشقَّةَ في الوعدِ والعزمِ ،

---

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠) ضمن خبر طويل .

(٢) وفي (ج ، ص) : (لم ينقض) بدل (لانتقض) ، وعليه يكون المعنىٰ : ذكر حديث القتل لا ينقضُ عزمه ، ولكن لو طولب بالقتل . . لاحتاج إلىٰ صدق آخر ، هو صدق الوفاء بالعزم .

والمؤنةُ فيهِ خفيفةٌ ، فإذا حقَّتِ الحقائقُ وحصلَ التمكُّنُ ، وهاجَتِ الشهواتُ . . انحلَّتِ العزيمةُ ، وغلبَتِ الشهواتُ ، ولمْ يتفقِ الوفاءُ بالعزمِ ، وهٰذا يضادُّ الصدقَ فيهِ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أنسٍ : أنَّ عمَّهُ أنسَ بنَ النضرِ لمْ يشهدْ بدراً معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فشقَّ ذلكَ علىٰ قلبِهِ ، وقالَ : أوَّلُ مشهدٍ شهدَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غبتُ عنهُ ! أما واللهِ لئنْ أراني اللهُ مشهداً معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ليرينَّ اللهُ ما أصنعُ ، فشهدَ أحداً من العامِ القابلِ ، فاستقبلَهُ سعدُ بنُ معاذٍ ، فقالَ : يا أبا عمرو ؛ إلىٰ أينَ ؟[1] فقالَ : واهاً لريحِ الجنةِ ! إنِّي أجدُها دونَ أحدٍ ، فقاتلَ حتىٰ قُتِلَ ، فوُجِدَ في جسدِهِ بضعٌ وثمانونَ ، ما بينَ رميةٍ وضربةٍ وطعنةٍ ، فقالَتْ أختُهُ بنتُ النضرِ[2] : ما عرفتُ أخي إلا ببنانِهِ ، ونزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[3] .

ووقفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ مصعبِ بنِ عميرٍ وقدْ سقطَ

---

(١) السائل هو أنس بن النضر رضي الله عنه ، وأبو عمرو هي كنية سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وسياق المصنف موهم أن السائل هو سعد ، وأنس لم ينتظر جواب سعد ، بل سرد كلامه .
(٢) هي الرُّبَيِّع بنت النضر رضي الله عنها .
(٣) رواه البخاري (٢٨٠٦) ، ومسلم (١٩٠٣) ، والترمذي (٣٢٠٠) واللفظ له .

علىٰ وجهِهِ يومَ أحدٍ شهيداً ، وكانَ صاحبَ لواءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾[(١)] .

وقالَ فضالةُ بنُ عبيدٍ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الشهداءُ أربعةٌ : رجلٌ مؤمنٌ جيِّدُ الإيمانِ ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ حتىٰ قُتِلَ ، فذلكَ الذي يرفعُ الناسُ إليهِ أعينَهُمْ يومَ القيامةِ هٰكذا ـ ورفعَ رأسَهُ حتَّىٰ وقعَتْ قلنسوتُهُ ، قالَ الراوي : فلا أدري قلنسوةَ عمرَ أوْ قلنسوةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ ورجلٌ جيِّدُ الإيمانِ إذا لقيَ العدوَّ . . فكأنَّما يُضربُ وجهُهُ بشوكِ الطلحِ ، أتاهُ سهمٌ عائرٌ فقتلَهُ ، فهوَ في الدرجةِ الثانيةِ ، ورجلٌ مؤمنٌ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ تعالىٰ حتىٰ قُتِلَ ، فذلكَ في الدرجةِ الثالثةِ ، ورجلٌ مؤمنٌ أسرفَ علىٰ نفسِهِ ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ حتىٰ قُتِلَ ، فذاكَ في الدرجةِ الرابعةِ »[(٢)] .

وقالَ مجاهدٌ : (رجلانِ خرجا علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ قعودٍ ، فقالا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ مالاً . . لنصَّدَّقَنَّ فرُزِقوا ، فبخلوا بهِ ، فنزلَتْ : ﴿ وَمِنۡهُم

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٢٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٠٧) عن عبيد بن عمير مرسلاً .
(٢) رواه الترمذي (١٦٤٤) ، **وسهم عائر** : لا يعلم من أين هو ولا من رماه .

مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١] .

وقالَ بعضُهُمْ : إنَّما هوَ شيءٌ نووهُ في أنفسِهِمْ لمْ يتكلَّموا بهِ[٢] ، فقالَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ ، فجعلَ العزمَ عهداً ، وجعلَ الخلْفَ فيهِ كذباً والوفاءَ بهِ صدقاً .

وهٰذا الصدقُ أشدُّ مِنَ الصدقِ الثالثِ ؛ فإنَّ النفسَ قدْ تسخو بالعزمِ ثمَّ تكيعُ[٣] عندَ الوفاءِ لشدَّتِهِ عليها ، ولهيجانِ الشهواتِ عندَ التمكُّنِ وحصولِ الأسبابِ ، ولذلكَ استثنىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (لأنْ أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِمْ أبو بكرٍ ، اللهمَّ إلا أنْ تسوِّلَ لي نفسي عندَ القتلِ شيئاً لا أجدُهُ الآنَ ؛ لأنِّي لا آمنُ أنْ يثقلَ عليها ذلكَ فتتغيَّرَ عنْ عزمِها)[٤] ، أشارَ بذلكَ إلىٰ شدَّةِ الوفاءِ بالعزمِ .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ ملكينِ نزلا مِنَ السماءِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١٩) ، والطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ٢٣٩) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ٢٤٢) عن سعيد بن ثابت .
(٣) تكيع : تجبن وتتلكَّأ .
(٤) رواه البخاري (٦٨٣٠) .

فقالا لي : ما الصدقُ ؟ قلتُ : الوفاءُ بالعهدِ ، فقالا لي : صدقتَ ، وعرجا إلى السماء[1] .

❊ ❊ ❊

الصدقُ الخامسُ : في الأعمالِ :

وهوَ أنْ يجتهدَ حتىٰ لا تدلَّ أعمالُهُ الظاهرةُ علىٰ أمرٍ في باطنِهِ لا يتصفُ هوَ بهِ ، لا بأنْ يتركَ الأعمالَ ، ولكنْ بأنْ يستجرَّ الباطنَ إلىٰ تصديقِ الظاهرِ ، وهـٰذا يخالفُ ما ذكرناهُ مِنْ تركِ الرياءِ ؛ لأنَّ المرائيَ هوَ الذي يقصدُ ذلكَ لأجلِ الخلقِ ، وربَّ واقفٍ علىٰ هيئةِ الخشوعِ في صلاتِهِ ليسَ يقصدُ بهِ مشاهدةَ غيرِهِ ، ولكنْ قلبُهُ غافلٌ عنِ الصلاةِ ، فمَنْ ينظرُ إليهِ يراهُ قائماً بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بالباطنِ قائمٌ في السوقِ بينَ يدي شهوةٍ مِنْ شهواتِهِ ، فهـٰذهِ أعمالٌ تعربُ بلسانِ الحالِ عنِ الباطنِ إعراباً هوَ فيهِ كاذبٌ ، وهوَ مطالبٌ بالصدقِ في الأعمالِ .

وكذلكَ قدْ يمشي الرجلُ علىٰ هيئةِ السكونِ والوقارِ وليسَ باطنُهُ موصوفاً بذلكَ الوقارِ ، فهـٰذا غيرُ صادقٍ في عملِهِ وإنْ لمْ يكنْ ملتفتاً إلى الخلقِ ولا مرائياً إيَّاهُمْ ، ولا ينجو مِنْ هـٰذا إلا باستواءِ السريرةِ والعلانيةِ ؛ بأنْ يكونَ باطنُهُ مثلَ ظاهرِهِ أوْ خيراً مِنْ ظاهرِهِ .

ومِنْ خيفةِ ذلكَ اختارَ بعضُهُمْ تشويشَ الظاهرِ ، ولبسَ ثيابِ الأشرارِ ؛

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٣) .

كي لا يُظنَّ بهِ الخيرُ بسببِ ظاهرِهِ ، فيكونَ كاذباً في دلالةِ الظاهرِ على الباطنِ .

فإذاً ؛ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ إنْ كانَتْ عنْ قصدٍ . . سُمِّيَتْ رياءً ، ويفوتُ بها الإخلاصُ ، وإنْ كانَ عنْ غيرِ قصدٍ . . فيفوتُ بها الصدقُ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ سريرتي خيراً مِنْ علانيتي ، واجعلْ علانيتي صالحةً »(١) .

وقالَ زُبيدُ بنُ الحارثِ : (إذا استوَتْ سريرةُ العبدِ وعلانيتُهُ . . فذلكَ النَّصَفُ ، وإنْ كانَتْ سريرتُهُ أفضلَ مِنْ علانيتِهِ . . فذلكَ الفضلُ ، وإنْ كانَتْ علانيتُهُ أفضلَ مِنْ سريرتِهِ . . فذلكَ الجورُ)(٢) .

وأنشدوا(٣) :	[من الطويل]

إذا ٱلسِّرُّ وَٱلإعْلانُ في ٱلْمُؤْمِنِ ٱسْتَوَىٰ	فَقَدْ عَزَّ فِي ٱلدَّارَيْنِ وَٱسْتَوْجَبَ ٱلثَّنا
فَإِنْ خالَفَ ٱلإِعْلانُ سِرّاً فَمَا لَهُ	عَلَىٰ سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوَى ٱلْكَدِّ وَٱلْعَنا
كَمَا خالِصُ ٱلدِّينارِ فِي ٱلسُّوقِ نافِقٌ	وَمَغْشُوشُهُ ٱلْمَرْدُودُ لا يَقْتَضِي ٱلْمُنَىٰ

وقالَ عقبةُ بنُ عبدِ الغافرِ : (إذا وافقَتْ سريرةُ المؤمنِ علانيتَهُ . .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٤٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٣) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٨٤) ، ووقع في النسخ : (زيد) بدل (زبيد) .
(٣) انظر « الكشكول » (٢/ ٣٨٣) .

باهى اللهُ بهِ ملائكتَهُ ، يقولُ : هٰذا عبدي حقّاً)[1] .

وقالَ معاويةُ بنُ قرَّةَ : (مَنْ يدلُّني علىٰ بكَّاءٍ بالليلِ بسَّامٍ بالنهارِ ؟)[2] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (كانَ الحسنُ إذا أمرَ بشيءٍ . . كانَ مِنْ أعملِ الناسِ بهِ ، وإذا نهىٰ عنْ شيءٍ . . كانَ مِنْ أتركِ الناسِ لهُ ، ولمْ أرَ أحداً قطُّ أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ منهُ)[3] .

وكانَ أبو عبدِ الرحمٰنِ الزاهدُ يقولُ : (إلٰهي ؛ عاملتُ الناسَ فيما بيني وبينَهُمْ بالأمانةِ ، وعاملتُكَ فيما بيني وبينَكَ بالخيانةِ) ويبكي .

وقالَ أبو يعقوبَ النهرجوريُّ : (الصدقُ موافقةُ الحقِّ في السرِّ والعلانيةِ)[4] .

فإذاً ؛ مساواةُ السريرةِ للعلانيةِ أحدُ أنواعِ الصدق .

❀ ❀ ❀

الصدقُ السادسُ ـ وهوَ أعلى الدرجاتِ وأعزُّها ـ : الصدقُ في مقاماتِ الدينِ :

كالصدقِ في الخوفِ ، والرجاءِ ، والتعظيمِ ، والزهدِ ، والرضا ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٦١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٥١) ، ووقع في النسخ : (عطية) بدل (عقبة) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٩٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٨٣) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٧) عن خالد بن صفوان ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (ص٩١) من وصية الحسن نفسه .
(٤) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٨٦) .

والحبِّ ، والتوكُّلِ ، وسائرِ هـٰذهِ الأمورِ ، فإنَّ هـٰذهِ الأمورَ لها مبادٍ ينطلقُ الاسمُ بظهورِها ، ثمَّ لها غاياتٌ وحقائقُ ، والصادقُ المحقِّقُ مَنْ نالَ حقيقتَها .

وإذا غلبَ الشيءُ وتمَّتْ حقيقتُهُ . . سُمِّيَ صاحبُهُ صادقاً فيهِ ، كما يُقالُ : فلانٌ صدقَ القتالَ[1] ، ويقالُ : هـٰذا هوَ الخوفُ الصادقُ ، وهـٰذهِ هيَ الشهوةُ الصادقةُ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ .

وسُئِلَ أبو ذرٍّ عنِ الإيمانِ ، فقرأَ هـٰذهِ الآيةَ ، فقيلَ لهُ : سألناكَ عنِ الإيمانِ ! فقالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإيمانِ ، فقرأَ هـٰذهِ الآيةَ[2] .

ولنضربْ للخوفِ مثلاً ، فما مِنْ عبدٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ إلا وهوَ خائفٌ مِنَ اللهِ خوفاً ينطلقُ عليهِ الاسمُ ، ولكنَّهُ خوفٌ غيرُ صادقٍ ؛ أيْ : غيرُ

---

(١) يقال : فلان صدقَ القتالَ ؛ إذا بذل الجد ، وكذَّب عنه ؛ إذا جبن .

(٢) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٠٨ ، ٤٠٩) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ٤١٠) (أخرجه ابن أبي حاتم وصححه) ، وساق له روايات عن غير أبي ذر رضي الله عنه .

بالغِ درجةَ الحقيقةِ ، أما تراهُ إذا خافَ سلطاناً أوْ قاطعَ طريقٍ في سفرِهِ كيفَ يصفرُّ لونُهُ ، وترتعدُ فرائصُهُ ، ويتنغَّصُ عليهِ عيشُهُ ، ويتعذَّرُ عليهِ أكلُهُ ونومُهُ ، وينقسمُ عليهِ فكرُهُ حتَّىٰ لا ينتفعُ بهِ أهلُهُ وولدُهُ ، وقدْ ينزعجُ عنِ الوطنِ فيستبدلُ بالأنسِ الوحشةَ ، وبالراحةِ التعبَ والمشقَّةَ والتعرُّضَ للأخطارِ ، كلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ دركِ المحذورِ ، ثمَّ إنَّهُ يخافُ النارَ ، ولا يظهرُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ عندَ جريانِ معصيةٍ عليهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ أرَ مثلَ النارِ نامَ هاربُها ، ولا مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها »(١) .

فالتحقيقُ في هٰذهِ الأمورِ عزيزٌ جداً ، ولا غايةَ لهٰذهِ المقاماتِ حتىٰ يُنالَ تمامُها ، ولكنْ لكلِّ عبدٍ منهُ حظٌّ بحسَبِ حالِهِ ؛ إمَّا ضعيفٌ وإمَّا قويٌّ ، فإذا قويَ . . سُمِّيَ صادقاً فيهِ .

فمعرفةُ اللهِ تعالىٰ وتعظيمُهُ والخوفُ منهُ لا نهايةَ لهُ ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجبريلَ : « أحبُّ أنْ أراكَ في صورتِكَ التي هيَ صورتُكَ » ، فقالَ : لا تطيقُ ذلكَ ، قالَ : « بلىٰ ، أرني » ، فواعدَهُ البقيعَ في ليلةٍ مقمرةٍ ، فأتاهُ ، فنظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فإذا هوَ بهِ قدْ سدَّ الأفقَ ـ يعني : جوانبَ السماءِ ـ فوقعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مغشيّاً عليهِ ، فأفاقَ وقدْ عادَ جبريلُ لصورتِهِ الأولىٰ ، فقالَ النبي صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٠١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧٨) .

وسلَّمَ : « ما ظننتُ أنَّ أحداً مِنْ خلقِ اللهِ هـٰكذا » ، قالَ : كيفَ لوْ رأيتَ إسرافيلَ ؟ إنَّ العرشَ لعلىٰ كاهلِهِ ، وإنَّ رجليهِ قدْ مرقتا تخومَ الأرضينَ السفلىٰ ، وإنَّهُ ليتصاغرُ مِنْ عظمةِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يصيرَ كالوَصَعِ ؛ يعني : كالعصفورِ الصغيرِ [1] .

فانظرْ ما الذي يغشاهُ مِنَ العظمةِ والهيبةِ حتىٰ يرجعَ إلىٰ ذلكَ الحدِّ ، وسائرُ الملائكةِ ليسوا كذلكَ ؛ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ ، فهـٰذا هوَ الصدقُ في التعظيمِ .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسريَ بي وجبريلَ بالملأِ الأعلىٰ كالحِلْسِ البالي مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ »[2] ؛ يعني الكساءَ الذي يُلقىٰ علىٰ ظهر البعيرِ .

وكذلكَ الصحابةُ كانوا خائفينَ ، وما كانوا بلغوا خوفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولذلكَ قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : لنْ يبلغَ الرجلُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يرى الناسَ كلَّهُمْ حمقىٰ في دينِ اللهِ)[3] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً ، والثعلبي في « تفسيره » (١٠/ ١٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ جبريل عليه السلام علىٰ صورته مرتين ، وهو ما رواه البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٦٣٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٦٧٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٠٦) .

وقالَ مطرِّفٌ : (ما مِنَ الناسِ أحدٌ إلا وهوَ أحمقُ فيما بينَهُ وبينَ ربِّهِ ، إلا أنَّ بعضَ الحمقِ أهونُ مِنْ بعضٍ)[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتىٰ ينظرَ إلى الناسِ كالأباعرِ في جنبِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يرجعَ إلىٰ نفسِهِ فيجدَها أحقرَ حقيرٍ »[2] .

فالصادقُ إذاً في جميعِ هٰذهِ المقاماتِ عزيزٌ ، ثمَّ درجاتُ الصدقِ لا نهايةَ لها ، وقدْ يكونُ للعبدِ صدقٌ في بعضِ الأمورِ دونَ بعضٍ ، فإنْ كانَ صادقاً في الجميعِ . . فهوَ الصدِّيقُ حقّاً ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ : (ثلاثةٌ أنا فيهنَّ قويٌّ ، وفيما سواهُنَّ ضعيفٌ : ما صليتُ صلاةً قطُّ منذُ أسلمتُ فحدثتُ نفسي حتَّىٰ أفرغَ منها ، ولا شيَّعتُ جنازةً فحدثتُ نفسي بغيرِ ما هيَ قائلةٌ وما هوَ مقولٌ لها حتىٰ يُفرغَ مِنْ دفنِها ، وما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قولاً إلا علمتُ أنَّهُ حقٌّ) ، فقالَ ابنُ المسيِّبِ : (ما ظننتُ أنَّ هٰذهِ الخصالَ تجتمعُ إلا في النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ)[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٤٩٧) .

(٢) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٧٤) مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٢) من طريقه عن خالد بن معدان ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٦) عن أبي الدرداء رضي الله عنه : (لا تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في جنب الله ، ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون أشد لها مقتاً) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨٩٤) ، وقول سعيد بن المسيب عنده من قول الزهري ، وعنده أيضاً (٢٨٩٥) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

فهٰذا صدقٌ في هٰذهِ الأمورِ ، وكمْ مِنْ جِلَّةِ الصحابةِ قدْ أدوْا الصلاةَ واتبعوا الجنائزَ ولمْ يبلغوا هٰذا المبلغَ !

فهٰذهِ هيَ درجاتُ الصدقِ ومعانيهِ ، والكلماتُ المأثورةُ عنِ المشايخِ في حقيقةِ الصدقِ في الأغلبِ لا تتعرَّضُ إلا لآحادِ هٰذهِ المعاني .

نعمْ ، قدْ قالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ : (الصدقُ ثلاثةٌ : صدقُ التوحيدِ ، وصدقُ الطاعةِ ، وصدقُ المعرفةِ ، فصدقُ التوحيدِ لعامَّةِ المؤمنينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ، وصدقُ الطاعةِ لأهلِ العلمِ والورعِ ، وصدقُ المعرفةِ لأهلِ الولايةِ الذينَ هُمْ أوتادُ الأرضِ)(١) .

وكلُّ هٰذا يدورُ علىٰ ما ذكرناهُ في الصدقِ السادسِ ، ولكنَّهُ ذكرُ أقسامِ ما فيهِ الصدقُ ، وهوَ أيضاً غيرُ محيطٍ بجميعِ الأقسامِ .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ : (الصدقُ هوَ المجاهدةُ ، وألا تختارَ على اللهِ غيرَ اللهِ ؛ كما لمْ يخترْ عليكَ غيرَكَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾)(١) .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (إنِّي إذا أحببتُ عبداً . . ابتليتُهُ ببلايا لا تقومُ بها الجبالُ ؛ لأنظرَ كيفَ صدقُهُ ، فإنْ وجدتُهُ صابراً . . اتخذتُهُ وليّاً وحبيباً ، وإنْ وجدتُهُ جزوعاً يشكوني إلىٰ خلقي . . خذلتُهُ ولمْ أبالِ)(٢) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٨) .

فإذاً ؛ مِنْ علاماتِ الصدقِ كتمانُ المصائبِ والطاعاتِ جميعاً ، وكراهةُ اطلاعِ الخلقِ عليها ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تمّ كتاب النّيّة والإخلاص والصّدق

وهو الكتاب السّابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

ولله الحمد والمنّة ، وصلّى الله على خير خلقه محمّد النّبيّ وآله الطّاهرين وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة

كتاب

المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب المراقبة والمحاسبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ القائمِ علىٰ كلِّ نفْسٍ بما كسبَتِ ، الرقيبِ علىٰ كلِّ جارحةٍ بما اجترحَتِ ، المطَّلعِ علىٰ ضمائرِ القلوبِ إذا هجسَتِ ، الحسيبِ علىٰ خواطرِ عبادِهِ إذا اختلجَتِ ، الذي لا يعزبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ تحرَّكَتْ أَوْ سكنَتِ ، المحاسبِ على النقيرِ والقطميرِ والقليلِ والكثيرِ مِنَ الأعمالِ وإنْ خفيَتِ ، المتفضِّلِ بقبولِ طاعاتِ العبادِ وإنْ صغرَتِ ، المتطوِّلِ بالعفوِ عنْ معاصيهِمْ وإنْ كثرَتْ ، وإنَّما يحاسبُهُمْ لتعلمَ كلُّ نفْسٍ ما أحضرَتْ ، وتنظرَ فيما قدَّمَتْ وأخَّرَتْ ، فتعلمَ أنَّهُ لولا لزومُها للمراقبةِ والمحاسبةِ في الدنيا . . لشقيَتْ في صعيدِ القيامةِ وهلكَتْ ، وبعدَ المجاهدةِ والمحاسبةِ والمراقبةِ لولا فضْلُ اللهِ بقبولِ بضاعتِها المزجاةِ . . لخابَتْ وخسرَتْ ، فسبحانَ مَنْ عمَّتْ نعمتُهُ كافَّةَ العبادِ وشملَتْ ، واستغرقَتْ رحمتُهُ الخلائقَ في الدنيا والآخرةِ وغمرَتْ ، فبنفحاتِ فضلِهِ اتسعَتِ القلوبُ للإيمانِ وانشرحَتْ ، وبيُمْنِ توفيقِهِ تقيَّدَتِ الجوارحُ بالعباداتِ وتأدَّبَتْ ، وبحسنِ هدايتِهِ انجلَتْ عنِ القلوبِ ظلماتُ الجهلِ وانقشعَتْ ، وبتأييدِهِ ونصرتِهِ انقطعَتْ مكايدُ الشيطانِ واندفعَتْ ، وبلطفِ عنايتِهِ تترجَّحُ كِفَّةُ الحسناتِ إِذَا ثقلَتْ ، وبتيسيرِهِ تيسَّرَتْ مِنَ الطاعاتِ

ما تيسَّرَتْ ، فمنهُ العطاءُ والجزاءُ ، والإبعادُ والإدناءُ ، والإسعادُ والإشقاءُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ ، وعلىٰ آلِهِ سادةِ الأصفياءِ ، وعلىٰ أصحابِهِ قادةِ الأتقياءِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۛ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ .

فعرفَ أربابُ البصائرِ مِنْ جملةِ العبادِ أنَّ اللهَ تعالىٰ لهُمْ بالمرصادِ ،

وأنهُمْ سيُناقشونَ في الحسابِ ، ويُطالبونَ بمثاقيلِ الذرِّ مِنَ الخطراتِ واللحظاتِ ، وتحقَّقوا أنَّهُ لا ينجيهِمْ مِنْ هـٰذهِ الأخطارِ إلا لزومُ المحاسبةِ ، وصدْقُ المراقبةِ ، ومطالبةُ النفسِ في الأنفاسِ والحركاتِ ، ومحاسبتُها في الخطراتِ واللحظاتِ ، فمَنْ حاسبَ نفسَهُ قبلَ أَنْ يُحاسبَ . . خفَّ في القيامةِ حسابُهُ ، وحضرَ عندَ السؤالِ جوابُهُ ، وحسُنَ منقلبُهُ ومآبُهُ ، ومَنْ لمْ يحاسبْ نفسَهُ . . دامَتْ حسراتُهُ ، وطالَتْ في عرصاتِ القيامةِ وقفاتُهُ ، وقادَتْهُ إلى الخزيِ والمقتِ سيئاتُهُ .

فلمَّا انكشفَ لهُمْ ذلكَ . . علموا أنَّهُ لا ينجيهِمْ منهُ إلا طاعةُ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ أمرَهُمْ بالصبرِ والمرابطةِ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ، فرابطوا أنفسَهُمْ أوَّلاً بالمشارطةِ ، ثمَّ بالمراقبةِ ، ثمَّ بالمحاسبةِ ، ثمَّ بالمعاقبةِ ، ثمَّ بالمجاهدةِ ، ثمَّ بالمعاتبةِ ، فكانَ لهُمْ في المرابطةِ ستُّ مقاماتٍ ، ولا بدَّ مِنْ شرحِها وبيانِ حقيقتِها وفضيلتِها ، وتفصيلِ الأعمالِ فيها ، وأصلُ ذلكَ المحاسبةُ ، ولكنْ كلُّ حسابٍ فبعدَ مشارطةٍ ومراقبةٍ ، ويتبعُهُ عندَ الخسرانِ معاتبةٌ ومعاقبةٌ ، فلنذكرْ شرحَ هـٰذهِ المقاماتِ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

المقامُ الأوّلُ مِنَ المرابطة
المشارطة

اعلمْ : أنَّ مطلبَ المتعاملينَ في التجاراتِ ، المشتركينَ في البضائعِ عندَ المحاسبةِ . . سلامةُ الربحِ ، وكما أنَّ التاجرَ يستعينُ بشريكِهِ فيسلِّمُ إليهِ المالَ حتىٰ يتَّجرَ ثمَّ يحاسبُهُ . . فكذلكَ العقلُ هوَ التاجرُ في طريقِ الآخرةِ[1] ، وإنَّما مطلبُهُ وربحُهُ تزكيةُ النفسِ إذْ بهِ فلاحُها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، وإنَّما فلاحُها بالأعمالِ الصالحةِ ، والعقلُ يستعينُ بالنفسِ في هـٰذهِ التجارةِ ، إذْ يستعملُها ويستسخرُها فيما يزكِّيها ؛ كما يستعينُ التاجرُ بشريكِهِ وغلامِهِ الذي يتَّجرُ في مالِهِ .

وكما أنَّ الشريكَ يصيرُ خصماً منازعاً يجاذبُهُ في الربحِ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يشارطَهُ أوّلاً ، ويراقبَهُ ثانياً ، ويحاسبَهُ ثالثاً ، ويعاتبَهُ أو يعاقبَهُ رابعاً . . فكذلكَ العقلُ يحتاجُ إلىٰ مشارطةِ النفسِ أوّلاً ، فيوظِّفُ عليها الوظائفَ ، ويشرطُ عليها الشروطَ ، ويرشدُها إلىٰ طريقِ الفلاحِ ، ويجزمُ عليها الأمرَ بسلوكِ تلكَ الطريقِ ، ثمَّ لا يغفُلُ عنْ مراقبتِها لحظةً ، فإنَّهُ لوْ أهملَها . . لمْ

---

(١) في (ب) زيادة : (ورأس ماله إنما هو العمر) .

يرَ منها إلا الخيانةَ وتضييعَ رأسِ المالِ ؛ كالعبدِ الخائنِ إذا خلا لهُ الجوُّ وانفردَ بالمالِ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ ينبغي أنْ يحاسبَها ويطالبَها بالوفاءِ بما شرطَ عليها ، فإنَّ هٰذهِ تجارةٌ ربحُها الفردوسُ الأعلىٰ ، وبلوغُ سدرةِ المنتهىٰ معَ الأنبياءِ والشهداءِ ، فتدقيقُ الحسابِ في هٰذا معَ النفسِ أهمُّ كثيراً مِنْ تدقيقِهِ في أرباحِ الدنيا ، معَ أنَّها محتقرةٌ بالإضافةِ إلىٰ نعيمِ العقبىٰ ، ثمَّ كيفما كانَتْ فمصيرُها إلى التصرُّمِ والانقضاءِ ، ولا خيرَ في خيرٍ لا يدومُ ، بلْ شرٌّ لا يدومُ خيرٌ مِنْ خيرٍ لا يدومُ ؛ لأنَّ الشرَّ الذي لا يدومُ إذا انقطعَ . . بقيَ الفرحُ بانقطاعِهِ دائماً وقدِ انقضى الشرُّ ، والخيرَ الذي لا يدومُ يبقى الأسفُ على انقطاعِهِ دائماً وقدِ انقضى الخيرُ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من الوافر]

أَشَدُّ ٱلْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ٱنْتِقَالا

فحتمٌ علىٰ كلِّ ذي حزمٍ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ألا يغفُلَ عنْ محاسبةِ نفسِهِ ، والتضييقِ عليها في حركاتِها وسكناتِها ، وخطراتِها وخطواتِها ؛ فإنَّ كلَّ نفَسٍ مِنْ أنفاسِ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا عوضَ لها ، يمكنُ أنْ يُشترىٰ بها كنزٌ مِنَ الكنوزِ لا يتناهىٰ نعيمُهُ أبدَ الآبادِ ، فانقضاءُ هٰذه الأنفاسِ ضائعةً أوْ مصروفةً إلىٰ ما يجلبُ الهلاكَ خسرانٌ عظيمٌ هائلٌ ، لا تسمحُ بِهِ نفسُ عاقلٍ .

فإذا أصبحَ العبدُ وفرغَ مِنْ فريضةِ الصبحِ . . ينبغي أنْ يفرغَ قلبَهُ ساعةً

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٤) .

لمشارطةِ النفسِ ؛ كما أنَّ التاجرَ عندَ تسليمِ البضاعةِ إلى الشريكِ العاملِ يفرغُ المجلسَ لمشارطتِهِ ، فيقولُ للنفسِ : ما لي بضاعةٌ إلا العمرُ ، ومهما فنيَ . . فقدْ فنيَ رأسُ المالِ ، ووقعَ اليأسُ عنِ التجارةِ وطلبِ الربحِ ، وهـٰذا اليومُ الجديدُ قدْ أمهلَنِي اللهُ تعالىٰ فيهِ ، وأنسأَني أجلي(١) ، وأنعمَ عليَّ بهِ ، ولوْ توفَّاني . . لكنتُ أتمنَّىٰ أنْ يرجعَني إلى الدنيا يوماً واحداً حتىٰ أعملَ فيهِ صالحاً ، فاحسبي أنَّكِ قدْ تُوفيتِ ، ثمَّ رُددتِ ، فإيَّاكِ ثمَّ إيَّاكِ أنْ تضيِّعي هـٰذا اليومَ ، فإنَّ كلَّ نفَسٍ مِنَ الأنفاسِ جوهرةٌ لا قيمةَ لها ، واعلمي يا نفسُ ؛ أنَّ اليومَ والليلةَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، وقدْ وردَ في الخبرِ أنَّهُ يُنشرُ للعبدِ بكلِّ يومٍ وليلةٍ أربعٌ وعشرونَ خزانةً مصفوفةً ، فيُفتحُ لهُ منها خزانةٌ ، فيراها مملوءةً نوراً مِنْ حسناتِهِ التي عملَها في تلكَ الساعةِ ، فينالُهُ مِنَ الفرحِ والسرورِ والاستبشارِ بمشاهدةِ تلكَ الأنوارِ التي هيَ وسيلةٌ عندَ الملكِ الجبارِ ما لوْ وُزِّعَ علىٰ أهلِ النارِ . . لأدهشَهُمْ ذلكَ الفرحُ عنِ الإحساسِ بألمِ النارِ ، ويُفتحُ لهُ خزانةٌ أخرىٰ سوداءُ مظلمةٌ ، يفوحُ نَتْنُها ، ويتغشاهُ ظلامُها ، وهيَ الساعةُ التي عصى اللهَ تعالىٰ فيها ، فينالُهُ مِنَ الهولِ والفزعِ ما لوْ قُسمَ علىٰ أهلِ الجنةِ لتنغَّصَ عليهم نعيمُها ، ويُفتحُ لهُ خزانةٌ أخرىٰ فارغةٌ ليسَ فيها ما يسرُّهُ ولا ما يسوءُهُ ، وهي الساعةُ التي نامَ فيها ، أوْ غفلَ ، أوِ اشتغلَ بشيءٍ مِنْ مباحاتِ الدنيا ، فيتحسَّرُ علىٰ خلوِّها ، وينالُهُ مِنْ غبنِ ذلكَ ما ينالُ

---

(١) يقال : أنسأه الله أجله ونسأه في أجله بمعنىً ؛ أخَّره وفسح له فيه .

القادرَ على الربحِ الكثيرِ والملكِ الكبيرِ إذا أهملَهُ وتساهلَ فيهِ حتىٰ فاتَهُ ، وناهيكَ بهِ حسرةً وغبناً ، وهٰكذا تَعرضُ عليهِ خزائنُ أوقاتِهِ طولَ عمرِهِ(١) .

فيقولُ لنفسِهِ : اجتهدي اليومَ في أنْ تعمُري خزانتكِ ، ولا تدعيها فارغةً عنْ كنوزِكِ التي هيَ أسبابُ ملكِكِ ، ولا تميلي إلى الكسلِ والدعةِ والاستراحةِ فيفوتَكِ مِن درجاتِ علِّيينَ ما يدركُهُ غيرُكِ ، وتبقىٰ عندَكِ حسرةٌ لا تفارقُكِ وإنْ دخلتِ الجنةَ ، فألمُ الغبنِ والحسرةِ لا يُطاقُ وإنْ كانَ دونَ ألمِ النارِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : هبْ أنَّ المسيءَ قدْ عُفِيَ عنهُ ؛ أليسَ قدْ فاتَهُ ثوابُ المحسنينَ ؟!(٢) أشارَ بهِ إلى الغبنِ والحسرةِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ .

---

(١) كذا بألفاظ مقاربة في « القوت » (١٠٦/١) ، ولم يذكر رفعه ، بل قال : (ويقال . . .) ، ورواه مختصراً البيهقي في « الشعب » (٥٠٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا تحسَّر عليها يوم القيامة » ، وعنده (٥٠٩ ، ٥١٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً : « ليس يتحسَّر أهل الجنة إلا علىٰ ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله فيها » ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٤١/٦) عن الأوزاعي : (ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة ، يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمرُّ به ساعة لم يذكر الله تعالىٰ فيها إلا تقطَّعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم ، وليلة مع ليلة ؟!) .

(٢) كذا في « القوت » (١٠٦/١) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٦٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧٤) .

فهٰذهِ وصيتُهُ لنفسهِ في أوقاتِهِ .

ثمَّ ليستأنفْ لها وصيةً في أعضائِهِ السبعةِ ؛ وهيَ العينُ ، والأذنُ ، واللسانُ ، والبطنُ ، والفرجُ ، واليدُ ، والرجْلُ ، ويسلِّمُها إليها ؛ فإنَّها رعايا خادمةٌ لنفسهِ في هٰذهِ التجارةِ ، وبها تتمُّ أعمالُ هٰذهِ التجارةِ ، وإنَّ لجهنَّمَ سبعةَ أبوابٍ ، لكلِّ بابٍ منهُمْ جزءٌ مقسومٌ ، وإنَّما تتعيَّنُ تلكَ الأبوابُ لمَنْ عصى اللهَ تعالىٰ بهٰذهِ الأعضاءِ ، فيوصيها بحفظِها عنْ معاصيها .

أمَّا العينُ : فيحفظُها عنِ النظرِ إلىٰ وجهِ مَنْ ليسَ لهُ بمحرمٍ ، أوْ إلىٰ عورةِ مسلمٍ ، أوِ النظرِ إلىٰ مسلمٍ بعينِ الاحتقارِ ، بلْ عنْ كلِّ فضولٍ مستغنىً عنهُ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يسألُ عبدَهُ عنْ فضولِ النظرِ كما يسألُهُ عنْ فضولِ الكلامِ(١) .

ثمَّ إذا صرفَها عنْ هٰذا لمْ تقنعْ بهِ حتىٰ يشغلَها بما فيهِ نجاتُها وربحُها ، وهوَ ما خُلقَتْ لهُ مِنَ النظرِ إلىٰ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الاعتبارِ ، والنظرِ إلىٰ أعمالِ الخيرِ للاقتداءِ ، والنظرِ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنةِ رسولِهِ ، ومطالعةِ كتبِ الحكمةِ للاتعاظِ والاستفادةِ .

وهكذا ينبغي أنْ يفصِّلَ الأمرَ عليها في عضوٍ عضوٍ ، لا سيما اللسانُ والبطنُ .

---

(١) كذا أورده المحاسبي في « رسالة المسترشدين » (ص ١٧٩) عن داوود الطائي بلاغاً ، قال : (وقال داوود الطائي لرجل وقد أحدَّ النظر إلىٰ بعض من ينظر إليه : يا هٰذا ؛ اردد نظرك عليك ؛ فإنه بلغني أن الرجل يسأل عن فضول نظره كما يسأل عن فضول عمله) .

أمَّا اللسانُ : فلأنَّهُ منطلقٌ بالطبعِ ، ولا مؤنةَ عليهِ في الحركةِ ، وجنايتُهُ عظيمةٌ بالغيبةِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، وتزكيةِ النفسِ ، ومذمَّةِ الخلْقِ والأطعمةِ ، واللعنِ ، والدعاءِ على الأعداءِ ، والمماراةِ في الكلامِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا ذكرناهُ في كتابِ آفاتِ اللسانِ ، فهوَ بصددِ ذلكَ كلِّهِ ، معَ أنَّهُ خُلِقَ للذكرِ والتذكيرِ ، وتكرارِ العلمِ والتعليمِ ، وإرشادِ عبادِ اللهِ إلىٰ طريقِ اللهِ ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ ، وسائرِ خيراتِهِ ، فليشترطْ علىٰ نفسِهِ ألا يحرِّكَ اللسانَ طولَ نهارِهِ إلا في الذكرِ ، فنطْقُ المؤمنِ ذكرٌ ، ونظرُهُ عبرةٌ ، وصمتُهُ فكرةٌ ، وما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

وأمَّا البطنُ : فيكلِّفُهُ تركَ الشرهِ ، وتقليلَ الأكلِ مِنَ الحلالِ ، واجتنابَ الشبهاتِ ، ويمنعُهُ مِنَ الشهواتِ ، ويقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ويشرطُ علىٰ نفسِهِ أنَّها إنْ خالفَتْ شيئاً مِنْ ذلكَ . . عاقبَها بالمنعِ عنْ شهواتِ البطنِ ؛ ليفوتَها أكثرَ ممَّا نالَتْهُ بشهوتِها .

وهكذا يشترطُ عليها في جميعِ الأعضاءِ ، واستقصاءُ ذلكَ يطولُ ، ولا تخفىٰ معاصي الأعضاءِ وطاعاتُها .

ثمَّ يستأنفُ وصيَّتَها في وظائفِ الطاعاتِ التي تتكرَّرُ عليهِ في اليومِ والليلةِ ، ثمَّ في النوافلِ التي يقدرُ عليها ، ويقدرُ على الاستكثارِ منها ، ويرتِّبُ لها تفصيلَها ، وكيفيتَها وكيفيةَ الاستعدادِ لها بأسبابِها .

وهـٰذهِ شروطٌ يفتقرُ إليها في كلِّ يومٍ ، ولكنْ إذا تعوَّدَ الإنسانُ شرْطَ ذلكَ

علىٰ نفسِهِ أياماً ، وطاوعتْهُ نفسُهُ في الوفاءِ بجميعِها . . استغنىٰ عنِ المشارطةِ فيها ، وإنْ أطاعَ في بعضِها . . بقيَتِ الحاجةُ إلىٰ تجديدِ المشارطةِ فيما بقيَ ، ولكن لا يخلو كلُّ يومٍ عنْ مهمٍّ جديدٍ ، وواقعةٍ حادثةٍ لها حكمٌ جديدٌ ، وللهِ عليهِ في ذلكَ حقٌّ ، ويكثرُ هـٰذا علىٰ مَنْ يشتغلُ بشيءٍ مِنْ أعمالِ الدنيا ؛ مِنْ ولايةٍ ، أوْ تجارةٍ ، أوْ تدريسٍ ؛ إذْ قلَّما يخلو يومٌ عنْ واقعةٍ جديدةٍ يحتاجُ إلىٰ أنْ يقضيَ حقَّ اللهِ فيها ، فعليهِ أنْ يشترطَ علىٰ نفسِهِ الاستقامةَ فيها ، والانقيادَ للحقِّ في مجاريها ، ويحذِّرَها مغبَّةَ الإهمالِ ، ويعظَها كما يُوعظُ العبدُ الآبقُ المتمرِّدُ ؛ فإنَّ النفسَ بالطبعِ متمردةٌ عنِ الطاعاتِ ، مستعصيةٌ عنِ العبوديةِ ، ولكنَّ الوعظَ والتأديبَ يؤثِّرُ فيها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فهـٰذا وما يجرىٰ مجراهُ هوَ أوَّلُ مقامِ المرابطةِ معَ النفسِ ، وهيَ المحاسبةُ قبلَ العملِ ، والمحاسبةُ تارةً تكونُ بعدَ العملِ ، وتارةً قبلَهُ للتحذيرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ ، وهـٰذا للمستقبلِ .

وكلُّ نظرٍ في كثرةٍ ومقدارٍ لمعرفةِ زيادةٍ ونقصانٍ فإنَّهُ يُسمَّىٰ محاسبةً ، فالنظرُ فيما بينَ يدي العبدِ في نهارِهِ ليعرفَ زيادتَهُ مِنْ نقصانِهِ مِنَ المحاسبةِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ ، ذكرَ ذلكَ تحذيراً وتنبيهاً للاحترازِ منهُ في المستقبلِ .

وروىٰ عبادةُ بنُ الصامتِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ لرجلٍ سألَهُ أنْ يوصيَهُ ويعظَهُ : « إذا أردتَ أمراً . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ؛ فإنْ كانَ رشداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كانَ غيّاً . . فانتهِ عنهُ »[1] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا أردتَ أنْ يكونَ العقلُ غالباً للهوىٰ . . فلا تعملْ بقضاءِ الشهوةِ حتىٰ تنظرَ العاقبةَ ، فإنَّ مكثَ الندامةِ في القلبِ أكثرُ مِنْ مكثِ خفةِ الشهوةِ) .

وقالَ لقمانُ : (إنَّ المؤمنَ إذا أبصرَ العاقبةَ . . أمنَ الندامةَ) .

وروىَ شدادُ بنُ أوسٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[2] ، دانَ نفسَهُ ؛ أيْ : حاسبَها ، ويومُ الدينِ هوَ يومُ الحسابِ ، وقولُهُ : ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أيْ : لمحاسبونَ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن أبي جعفر ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوصٍ إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غيّاً . . فانتهِ » .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أَنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا ، وتهيَّؤوا للعرضِ الأكبرِ)[1] .

وكتبَ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (حاسبْ نفسَكَ في الرخاءِ قبلَ حسابِ الشدَّةِ)[2] .

وقالَ لكعبِ الأحبارِ : كيفَ تجدُنا في كتابِ اللهِ ـ يعني التوراةَ ـ ؟ قالَ : ويلٌ لديَّانِ الأرضِ مِنْ ديَّانِ السماءِ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ وقالَ : إلا مَنْ حاسبَ نفسَهُ ، فقالَ كعبٌ : واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّها إلىٰ جنبِها في التوراةِ ، ما بينَهُما حرفٌ : إلا مَنْ حاسبَ نفسَهُ[3] .

وهٰذا كلُّهُ إشارةٌ إلى المحاسبةِ للمستقبلِ ؛ إذْ قالَ : « مَنْ دانَ نفسَهُ فعملَ لما بعدَ الموتِ » ، ومعناهُ : وزنَ الأمورَ أوَّلاً ، وقدَّرَها ، ونظرَ فيها ، وتدبَّرَها ، ثمَّ أقدمَ عليها فباشرَها .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٢) .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٦٢) ، وفيه : (إلىٰ بعض عمَّاله) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٠٨) دون قوله : (كيف تجدنا) ، وسؤاله عن نفسه : (كيف تجدني) عند أبي داوود (٤٦٥٦) .

المرابطة الثّانية
المراقبة

إذا أوصى الإنسانُ نفسَهُ ، وشرطَ عليها ما ذكرناهُ . . فلا يبقىٰ إلا المراقبةُ لها عندَ الخوضِ في الأعمالِ ، وملاحظتُها بالعينِ الكالئةِ ؛ فإنَّها إنْ تُركَتْ . . طغَتْ وفسدَتْ .

❀ ❀ ❀

ولنذكرْ فضيلةَ المراقبةِ ثمَّ درجاتِها .

فضيلة المراقبة[1]

أمّا الفضيلةُ : فقدْ سألَ جبريلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإحسانِ ، فقالَ : « أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[2] .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ .

وقالَ ابنُ المباركِ لرجلٍ : راقبِ اللهَ تعالىٰ ، فسألَهُ عنْ تفسيرِهِ ، فقالَ : كُنْ أبداً كأنَّكَ ترى اللهَ عزَّ وجلَّ[3] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (إذا كانَ سيِّدي رقيباً عليَّ . . فما أبالي بغيرِهِ)[4] .

وقالَ أبو عثمانَ المغربيُّ : (أفضلُ ما يُلزمُ الإنسانُ نفسَهُ في هٰذهِ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) ، وفي غير (أ) و(ج) جاء السياق : (. . . كأنك تراه » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك ») ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٢) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٣) ، وسياق المصنف عنده .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٣) .

الطريقةِ المحاسبةُ والمراقبةُ ، وسياسةُ عملِهِ بالعلمِ)[1] .

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (أفضلُ الطاعاتِ مراقبةُ الحقِّ علىٰ دوامِ الأوقاتِ)[1] .

وقالَ الجريريُّ : (أمرُنا هٰذا مبنيٌّ علىٰ أصلينِ : أنْ تلزمَ نفسَكَ المراقبةَ للهِ عزَّ وجلَّ ، ويكونَ العلمُ علىٰ ظاهرِكَ قائماً)[1] .

وقالَ أبو عثمانَ : قالَ لي أبو حفصٍ : (إذا جلستَ للناسِ . . فكُنْ واعظاً لنفسِكَ وقلبِكَ ، ولا يغرَّنَّكَ اجتماعُهُمْ عليكَ ؛ فإنَّهُمْ يراقبونَ ظاهرَكَ ، واللهُ رقيبٌ علىٰ باطنِكَ)[2] .

وحُكِيَ أنَّهُ كانَ لبعضِ مشايخِ هٰذهِ الطبقةِ تلميذٌ شابٌّ ، وكانَ يكرمُهُ ويقدمُهُ ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : كيفَ تكرمُ هٰذا وهوَ شابٌّ ونحنُ شيوخٌ ؟! فدعا بعدَّةِ طيورٍ ، وناولَ كلَّ واحدٍ منهُمْ طائراً وسكِّيناً وقالَ : ليذبحْ كلُّ واحدٍ منكُمْ طائرَهُ في موضعٍ بحيثُ لا يراهُ أحدٌ ، ودفعَ إلى الشابِّ مثلَ ذلكَ ، وقالَ : اذبحْهُ حيثُ لا يراكَ أحدٌ ، فرجعَ كلُّ واحدٍ بطائرِهِ مذبوحاً ، ورجعَ الشابُّ والطائرُ حيٌّ في يدِهِ ، فقالَ : ما لكَ لمْ تذبحْ وقدْ ذبحَ أصحابُكَ ؟ فقالَ : لمْ أجدْ موضعاً لا يراني فيهِ أحدٌ ؛ إذِ اللهُ مطَّلعٌ عليَّ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) .

في كلِّ مكانٍ ، فاستحسنوا منهُ مراقبتَهُ ، وقالوا : حُقَّ لكَ أنْ تُكرمَ[(١)] .

وحُكِيَ أنَّ زليخا لمَّا خلَتْ بيوسفَ عليهِ السلامُ . . قامَتْ فغطَّتْ وجهَ صنمِها ، فقالَ يوسفُ : ما لكِ ، أتستحيينَ مِنْ مراقبةِ جمادٍ ولا أستحيي مِنْ مراقبةِ الملكِ الجبّارِ ؟![(٢)] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ الأحداثِ أنَّهُ راودَ جاريةً عنْ نفسِها ، فقالَتْ لهُ : ألا تستحيي ؟ فقالَ : ممَّنْ أستحيي وما يرانا إلا الكواكبُ ؟ قالَتْ : وأينَ مُكَوْكِبُها ؟![(٣)] .

وقالَ رجلٌ للجنيدِ : بِمَ أستعينُ على غضِّ البصرِ ؟ قالَ : بعلمِكَ أنَّ نظرَ الناظرِ إليكَ أسبقُ مِنْ نظرِكَ إلى المنظورِ إليهِ[(٤)] .

وقالَ الجنيدُ : (إنَّما يتحقَّقُ بالمراقبةِ مَنْ يخافُ على فوتِ حظِّهِ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ)[(٥)] .

وعنْ مالكِ بنِ دينارٍ قالَ : جنَّاتُ عدنٍ مِنْ جنَّاتِ الفردوسِ ، وفيها حورٌ خُلقنَ مِنْ وردِ الجنةِ ، قيلَ لهُ : ومَنْ يسكنُها ؟ قالَ : يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٣٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) ، ورواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٨٣) .

(٤) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .

إنَّما يسكنُ جنَّاتِ عدنٍ الذينَ إذا همُّوا بالمعاصي.. ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنَتْ أصلابُهُمْ مِنْ خشيتي ، وعزَّتي وجلالي ؛ إنِّي لأهُمُّ بعذابِ أهل الأرضِ ، فإذا نظرتُ إلىٰ أهلِ الجوعِ والعطشِ مِنْ مخافتي.. صرفتُ عنهُمُ العذابَ[1] .

وسُئِلَ المحاسبيُّ عنِ المراقبةِ فقالَ : أوَّلُها علمُ القلبِ بقرْبِ الربِّ تعالىٰ[2] .

وقالَ المرتعشُ : (المراقبةُ مراعاةُ السرِّ بملاحظةِ الغيبِ معَ كلِّ لحظةٍ ولفظةٍ)[3] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لملائكتِهِ : أنتمْ موكَّلونَ بالظواهرِ ، وأنا الرقيبُ على البواطنِ[4] .

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ : (اجعلْ مراقبتَكَ لِمَنْ لا تغيبُ عنْ نظرِهِ إليكَ ، واجعلْ شكرَكَ لِمَنْ لا تنقطعُ نعمُهُ عنكَ ، واجعلْ طاعتَكَ لِمَنْ لا تستغني عنهُ ، واجعلْ خضوعَكَ لِمَنْ لا تخرجُ عنْ ملكِهِ وسلطانِهِ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦٥٩٤) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٧) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٧) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٥) .

وقالَ سهلٌ : (لمْ يتزيَّنِ القلبُ بشيءٍ أفضلَ ولا أشرفَ مِنْ علمِ العبدِ بأنَّ اللهَ شاهدُهُ حيثُ كانَ)[١] .

وسُئِلَ بعضُهُمْ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ ، فقالَ : معناهُ : ذلكَ لمَنْ راقبَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ، وحاسبَ نفسَهُ ، وتزوَّدَ لمعادِهِ[٢] .

وسُئِلَ ذو النونِ : بمَ ينالُ العبدُ الجنةَ ؟ فقالَ : بخمسٍ : استقامةٌ ليسَ فيها روغانٌ ، واجتهادٌ ليسَ معهُ سهوٌ ، ومراقبةُ اللهِ تعالىٰ في السرِّ والعلانيةِ ، وانتظارُ الموتِ بالتأهُّبِ لهُ ، ومحاسبةُ نفسِكَ قبلَ أنْ تُحاسبَ[٣] .

وقدْ قيلَ[٤] : [من الطويل]

إِذا ما خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْماً فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَٰكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ يَغْفُلُ ساعَةً ... وَلا أَنَّ ما تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْيَوْمَ أَسْرَعُ ذاهِبٍ ... وَأَنَّ غَداً لِلنّاظِرِينَ قَرِيبُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٧) .
(٤) الأبيات متنازع في نسبتها وهي في « روضة العقلاء » (١/ ١٢٣) ، وانظر تخريجها ثمة .

وقالَ حميدٌ الطويلُ لسليمانَ بنِ عليٍّ : عظْني ، فقالَ : لئنْ كنتَ إذا عصيتَ اللهَ خالياً ظننتَ أنَّهُ يراكَ . . لقدِ اجترأتَ علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، ولئنْ كنتَ تظنُّ أنَّهُ لا يراكَ . . فلقدْ كفرتَ(١) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (عليكَ بالمراقبةِ ممَّنْ لا تخفىٰ عليهِ خافيةٌ ، وعليكَ بالرجاءِ ممَّنْ يملكُ الوفاءَ ، وعليكَ بالحذرِ ممَّنْ يملكُ العقوبةَ)(٢) .

وقالَ فرقدٌ السبخيُّ : (إنَّ المنافقَ ينظرُ ، فإذا لمْ يرَ أحداً . . دخلَ مدخلَ السوءِ ، وإنَّما يراقبُ الناسَ ولا يراقبُ اللهَ تعالىٰ) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ دينارٍ : خرجتُ معَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ الله عنهُ إلىٰ مكَّةَ ، فعرَّسْنا في بعضِ الطريقِ ، فانحدرَ علينا راعٍ مِنَ الجبلِ ، فقالَ لهُ : يا راعي ؛ بعني شاةً مِنْ هـٰذهِ الغنمِ ، فقالَ : إنِّي مملوكٌ ، فقالَ : قلْ لسيِّدِكَ : أكلَها الذئبُ ، قالَ : فأينَ اللهُ ؟! قالَ : فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ غدا إلى المملوكِ فاشتراهُ مِنْ مولاهُ وأعتقَهُ ، وقالَ : أعتقتْكَ في الدنيا هـٰذهِ الكلمةُ ، وأرجو أنْ تعتقَكَ في الآخرةِ(٣) .

* * *

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٩٢) ، وسليمان بن علي يومها والي البصرة .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ٩٨) .

(٣) روى الخبر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أبو داوود في « الزهد » (٣٠٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٦٣) .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلمْ : أنَّ حقيقةَ المراقبةِ هيَ ملاحظةُ الرقيبِ ، وانصرافُ الهمِّ إليهِ ، فمَنِ احترزَ مِنْ أمرٍ مِنَ الأمورِ بسببِ غيرِهِ يُقالُ : إنَّهُ يراقبُ فلاناً ويراعي جانبَهُ ، ونعني بهـٰذهِ المراقبةِ حالةً للقلبِ يثمرُها نوعٌ مِنَ المعرفةِ ، وتثمرُ تلكَ الحالةُ أعمالاً في الجوارحِ وفي القلبِ .

أمَّا الحالةُ . . فهيَ مراعاةُ القلبِ للرقيبِ ، واشتغالُهُ بهِ ، والتفاتُهُ إليهِ ، وملاحظتُهُ إيَّاهُ ، وانصرافُهُ إليهِ .

وأمَّا المعرفةُ التي تثمرُ هـٰذهِ الحالةَ . . فهوَ العلمُ بأنَّ اللهَ مطلعٌ على الضمائرِ ، عالمٌ بالسرائرِ ، رقيبٌ علىٰ أعمالِ العبادِ ، قائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ ، وأنَّ سرَّ القلبِ في حقِّهِ مكشوفٌ ؛ كما أنَّ ظاهرَ البشرةِ للخلقِ مكشوفٌ ، بلْ أشدُّ مِنْ ذلكَ ، فهـٰذهِ المعرفةُ إذا صارَتْ يقيناً ؛ أعني : أنَّها خلَتْ عنِ الشكِّ ، ثمَّ استولَتْ بعدَ ذلكَ على القلبِ وقهرَتْهُ ، فربَّ علمٍ لا شكَّ فيهِ لا يغلبُ على القلبِ ؛ كالعلمِ بالموتِ ، فإذا استولَتْ على القلبِ . . استجرَّتِ القلبَ إلىٰ مراعاةِ جانبِ الرقيبِ ، وصرفَتْ همَّهُ إليهِ .

والموقنونَ بهـٰذهِ المعرفةِ هُمُ المقرَّبونَ ، وهمْ ينقسمونَ إلى الصدِّيقينَ ، وإلىٰ أصحابِ اليمينِ ، فمراقبتُهُمْ علىٰ درجتينِ :

الدرجةُ الأولىٰ : مراقبةُ المقرَّبينَ مِنَ الصدِّيقينَ :

وهيَ مراقبةُ التعظيمِ والإجلالِ ، وهوَ أنْ يصيرَ القلبُ مستغرقاً بملاحظةِ ذلكَ الجلالِ ، ومنكسراً تحتَ الهيبةِ ، فلا يبقىٰ فيهِ متسعٌ للالتفاتِ إلى الغيرِ أصلاً ، وهٰذهِ مراقبةٌ لا نطوِّلُ النظرَ في تفصيلِ أعمالِها ؛ فإنَّها مقصورةٌ على القلبِ ، أمَّا الجوارحُ . . فإنَّها تتعطَّلُ عنِ الالتفاتِ إلى المباحاتِ فضلاً عنِ المحظوراتِ ، وإذا تحرَّكَتْ بالطاعاتِ . . كانَتْ كالمستعملةِ بها ، فلا تحتاجُ إلىٰ تدبيرٍ وتثبيتٍ في حفظِها علىٰ سننِ السدادِ ، بلْ يسدِّدُ الرعيةَ مَنْ ملكَ كلِّيَّةَ الراعي ، والقلبُ هوَ الراعي ، فإذا صارَ مستوفىً بالمعبودِ . . صارَتِ الجوارحُ كلُّها مستعملةً جاريةً على السدادِ والاستقامةِ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ .

وهٰذا هوَ الذي صارَ همُّهُ همّاً واحداً ، فكفاهُ اللهُ سائرَ الهمومِ ، ومَنْ نالَ هٰذهِ الدرجةَ . . فقدْ يغفُلُ عنِ الخلقِ ، حتىٰ لا يبصرُ مَنْ يحضرُ عندَهُ وهوَ فاتحٌ عينيهِ ، ولا يسمعُ ما يُقالُ لهُ معَ أنَّه لا صممَ بهِ ، وقدْ يمرُّ على ابنهِ مثلاً فلا يكلِّمُهُ ، حتىٰ كانَ بعضُهُمْ يجري عليهِ مثلُ ذلكَ ، فقالَ لمَنْ عاتبَهُ : إذا مررتَ بي . . فحرِّكْني[1] .

ولا تستبعدْ هٰذا ؛ فإنَّكَ تجدُ نظيرَ هٰذا في القلوبِ المعظِّمةِ لملوكِ الأرضِ ، حتىٰ إنَّ خدمَ الملوكِ قدْ لا يحسُّونَ بما يجري عليهِمْ في مجالسِ

---

(١) أورده المحاسبي في « القصد والرجوع إلى الله » والمطبوع باسم « الوصايا » (ص٣١٤).

الملوكِ لشدَّةِ استغراقِهِمْ بهِمْ ، بلْ قدْ يشتغلُ القلبُ بمهمٍّ حقيرٍ مِنْ مهمَّاتِ الدنيا ، فيغوصُ الرجلُ في الفكرِ فيهِ ويمشي ، فربَّما يخطئُ الموضعَ الذي قصدَهُ ، وينسى الشغلَ الذي نهضَ لهُ .

وقدْ قيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : هلْ تعرفُ في زمانِكَ هـٰذا رجلاً قدِ اشتغلَ بحالِهِ عن الخلقِ ؟ فقالَ : ما أعرفُ[1] إلا رجلاً واحداً سيدخلُ عليكُمُ الساعةَ ، فما كانَ إلا سريعاً حتىٰ دخلَ عتبةُ الغلامُ ، فقالَ لهُ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: مِنْ أينَ جئتَ يا عتبةُ ؟ فقالَ : مِنْ موضعِ كذا ، وكانَ طريقُهُ على السوقِ ، فقالَ : مَنْ لقيتَ في الطريقِ ؟ فقالَ : ما رأيتُ أحداً[2] .

ورُوِيَ عنْ يحيىٰ بنِ زكريا عليهما السلامُ : أنَّهُ مرَّ بامرأةٍ ، فدفعَها ، فسقطَتْ علىٰ وجهِها ، فقيلَ لهُ : لمَ فعلتَ هـٰذا ؟ فقالَ : ما ظننتُها إلا جداراً[3] .

وحُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : مررتُ بجماعةٍ يترامونَ وواحدٌ جالسٌ بعيداً منهُمْ ، فتقدمتُ إليهِ ، فأردتُ أنْ أكلِّمَهُ ، فقالَ : ذكرُ اللهِ تعالىٰ أشهىٰ ، فقلتُ : أنتَ وحدَكَ ؟ فقالَ : معي ربِّي وملكايَ ، فقلتُ : مَنْ سبقَ مِنْ هؤلاءِ ؟ فقالَ : مَنْ غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ، فقلتُ : أينَ الطريقُ ؟ فأشارَ نحوَ

---

(١) في النسخ : (ما أعرفه) ، والمثبت من (ق) .
(٢) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٣١٤) واللفظ له ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٣) .
(٣) أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٣١٤) .

السماءِ ، وقامَ ومشىٰ وقالَ : أكثرُ خلقِكَ شاغلٌ عنكَ[1] .

فهٰذا كلامُ مستغرقٍ بمشاهدةِ اللهِ تعالىٰ ، لا يتكلَّمُ إلا منهُ ، ولا يسمعُ إلا فيهِ ، فهٰذا لا يحتاجُ إلىٰ مراقبةِ لسانِهِ وجوارحِهِ ، فإنَّها لا تتحرَّكُ إلا بما هوَ فيهِ .

ودخلَ الشبليُّ علىٰ أبي الحسينِ النوريِّ وهوَ معتكفٌ ، فوجدَهُ ساكناً حسنَ الاجتماعِ ، لا يتحرَّكُ مِنْ ظاهرِهِ شيءٌ ، فقالَ لهُ : مِنْ أينَ أخذتَ هٰذهِ المراقبةَ والسكونَ ؟ فقالَ : مِنْ سنَّورٍ كانَتْ لنا ، فكانَتْ إذا أرادَتِ الصيدَ . رابطَتْ رأسَ الجُحْرِ لا تتحرَّكُ لها شعرةٌ .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ بنُ خفيفٍ : خرجتُ مِنْ مصرَ أريدُ الرملةَ للقاءِ أبي عليٍّ الروذباريِّ ، فقالَ لي عيسىٰ بنُ يونسَ المصريُّ المعروفُ بالزاهدِ : إنَّ في صورَ شاباً وكهلاً قد اجتمعا علىٰ حالِ المراقبةِ ، فلو نظرتَ إليهما نظرةً لعلَّكَ تستفيدُ منهما ، فدخلتُ صورَ وأنا جائعٌ عطشانُ ، وفي وسطي خرقةٌ ، وليسَ علىٰ كتفي شيءٌ ، فدخلتُ المسجدَ ، فإذا بشخصينِ قاعدينِ مستقبلي القبلةِ ، فسلمتُ عليهما ، فما أجاباني ، فسلمتُ ثانيةً وثالثةً ، فلمْ أسمعِ الجوابَ ، فقلتُ : نشدتُكُما باللهِ إلا رددتُما عليَّ السلامَ ، فرفعَ الشابُّ رأسَهُ مِنْ مرقعتِهِ ، فنظرَ إليَّ وقالَ : يا بنَ خفيفٍ ؛ الدنيا قليلٌ ، وما بقيَ مِنَ القليلِ إلا قليلٌ ، فخذْ مِنَ القليلِ الكثيرَ ، يا بنَ خفيفٍ ؛ ما أقلَّ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

شغلَكَ حتىٰ تتفرَّغَ إلىٰ لقائِنا ! قالَ : فأخذ بكليّتي ، فنظرَ إليَّ ثمَّ طأطأَ رأسَهُ في المكانِ ، فبقيتُ عندَهُما حتىٰ صلَّينا الظهرَ والعصرَ ، فذهبَ جوعي وعطشي وعنائي ، فلمَّا كانَ وقتُ العصرِ . . قلتُ : عظْني ، فرفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : يا بنَ خفيفٍ ؛ نحنُ ـ أصحابَ المصائبِ ـ ليسَ لنا لسانُ العظةِ ، فبقيتُ عندَهُما ثلاثةَ أيامٍ لا آكلُ ولا أشربُ ولا أنامُ ، ولا رأيتُهُما أكلا شيئاً ولا شربا ولا ناما ، فلمَّا كانَ في اليومِ الثالثِ . . قلتُ في سرِّي : أحلِّفُهُما أنْ يعظاني لعلِّي أنْ أنتفعَ بعظتِهما ، فرفعَ الشابُّ رأسَهُ وقالَ لي : يا بنَ خفيفٍ ؛ عليكَ بصحبةِ مَنْ تذكِّرُكَ اللهَ رؤيتُهُ ، وتقعُ هيبتُهُ علىٰ قلبِكَ ، يعظُكَ بلسانِ فعلِهِ ، ولا يعظُكَ بلسانِ قولِهِ والسلامُ ، قمْ عنّا(١) .

فهٰذهِ درجةُ المراقبينَ الذينَ غلبَ علىٰ قلوبِهِمُ الإجلالُ والتعظيمُ ، فلمْ يبقَ فيهِمْ متَّسعٌ لغيرِ ذلكَ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثانيةُ : مراقبةُ الورعينَ مِنْ أصحابِ اليمينِ :

وهُمْ قومٌ غلبَ يقينُ اطلاعِ اللهِ علىٰ ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ علىٰ قلوبِهِمْ ، ولكنْ لمْ تدهشْهُمْ ملاحظةُ الجلالِ ، بلْ بقيتْ قلوبُهُمْ علىٰ حدِّ الاعتدالِ ، متسعةً للتلفُّتِ إلى الأحوالِ والأعمالِ ، إلا أنَّها معَ ممارسةِ الأعمالِ لا تخلو عنِ المراقبةِ .

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

نعمْ ، غلبَ عليهِمُ الحياءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فلا يقدمونَ ولا يحجمونَ إلا بعدَ التثبُّتِ فيهِ ، ويمتنعونَ عنْ كلِّ ما يفتضحونَ بهِ في القيامةِ ، فإنَّهُمْ يرونَ اللهَ سبحانه في الدنيا مطَّلِعاً عليهِمْ ، فلا يحتاجونَ إلى انتظارِ القيامةِ .

وتعرفُ اختلافَ الدرجتينِ بالمشاهداتِ ، فإنَّكَ في خلوتِكَ قدْ تتعاطىٰ أعمالاً ، فيحضرُكَ صبيٌّ أوِ امرأةٌ ، فتعلمُ أنَّهُ مطلعٌ عليكَ ، فتستحيي منهُ ، فتحسنُ جلوسَكَ ، وتراعي أحوالَكَ ، لا عنْ إجلالٍ وتعظيمٍ ، بلْ عنْ حياءٍ ، فإنَّ مشاهدتَهُ وإنْ كانَتْ لا تدهشُكَ ولا تستغرقُكَ فإنَّها تهيِّجُ الحياءَ منكَ ، وقدْ يدخلُ عليكَ ملكٌ مِنَ الملوكِ ، أوْ كبيرٌ مِنَ الأكابرِ ، فيستغرقُكَ التعظيمُ حتىٰ تتركَ كلَّ ما أنتَ فيهِ شغلاً بهِ ، لا حياءً منهُ ، فهكذا تختلفُ مراتبُ العبادِ في مراقبةِ اللهِ تعالىٰ .

ومَنْ كانَ في هٰذهِ الدرجةِ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يراقبَ جميعَ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وخطراتِهِ ولحظاتِهِ ، وبالجملةِ : جميعَ اختياراتِهِ ، ولهُ فيها نظرانِ : نظرٌ قبلَ العملِ ، ونظرٌ في العملِ .

❊ ❊ ❊

أمَّا قبلَ العملِ :

فلينظرْ أنَّ ما ظهرَ لهُ وتحرَّكَ بفعلِهِ خاطرُهُ : أهوَ للهِ خاصَّةً ، أوْ هوَ في هوى النفسِ ومتابعةِ الشيطانِ ؟ فيتوقفُ فيهِ ويتثبَّتُ حتىٰ ينكشفَ لهُ ذلكَ بنورِ

الحقِّ ؛ فإنْ كانَ للهِ تعالىٰ . . أمضاهُ ، وإنْ كانَ لغيرِ اللهِ . . استحيا مِنَ اللهِ وانكفَّ عنهُ ، ثمَّ لامَ نفسَهُ علىٰ رغبتِها فيهِ ، وهمِّها بهِ ، وميلِها إليهِ ، وعرَّفَها سوءَ فعلِها ، وسعيَها في فضيحتِها ، وأنَّها عدوَّةُ نفسِها إنْ لمْ يتداركْها اللهُ بعصمتِهِ ، وهاذا التوقُّفُ في بدايةِ الأمورِ إلىٰ حدِّ البيانِ واجبٌ محتومٌ لا محيصَ لأحدٍ عنهُ ، فإنَّ في الخبرِ أنَّهُ يُنشرُ للعبدِ في كلِّ حركةٍ مِنْ حركاتِهِ وإنْ صغُرَتْ ثلاثةُ دواوينَ الديوانُ الأوَّلُ : لِمَ ، والثاني : كيفَ ، والثالثُ : لمَنْ ، ومعنىٰ لِمَ ؛ أيْ : لِمَ فعلتَ هاذا ؟ أكانَ عليكَ أنْ تفعلَهُ لمولاكَ أوْ ملتَ إليهِ بشهوتِكَ وهواكَ ؟ فإنْ سلمَ منهُ بأنْ كانَ عليهِ أنْ يعملَ ذلكَ لمولاهُ . . سُئِلَ عنِ الديوانِ الثاني ، فقيلَ : كيفَ فعلتَ هاذا ؟ فإنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ عملٍ شرطاً وحكماً لا يُدركُ قدرُهُ ووقتُهُ وصفتُهُ إلا بعلمٍ ، فيُقالُ لهُ : كيفَ فعلتَ ؟ أبعلمٍ محقَّقٍ ، أمْ بجهلٍ وظنٍّ ؟ فإنْ سلمَ مِنْ هاذا . . نُشرَ الديوانُ الثالثُ ، وهوَ المطالبةُ بالإخلاصِ ، فيُقالُ : لمَنْ عملتَ ؟ ألوجهِ اللهِ خالصاً وفاءً بقولِكَ : لا إلهَ إلا اللهُ ، فيكونَ أجرُكَ على اللهِ ؟ أوْ لمراءاةِ خلْقٍ مثلِكَ ، فخذْ أجرَكَ منهُ ؟ أمْ عملتَهُ لتنالَ عاجلَ دنياكَ ، فقد وفَّيناكَ نصيبَكَ مِنَ الدنيا ؟ أمْ عملتَهُ بسهوٍ وغفلةٍ ، فقدْ سقطَ أجرُكَ ، وحبطَ عملُكَ ، وخابَ سعيُكَ ؟ وإنْ عملتَ لغيري . . فقدِ استوجبتَ مقتي وعقابي ؛ إذْ كنتَ عبداً لي ، تأكلُ رزقي ، وتترفَّهُ بنعمتي ، ثمَّ تعملُ لغيري ، أما سمعتَني أقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ

عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ ويحَكَ ! أما سمعتَني أقولُ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾(١) .

فإذا عرفَ العبدُ أنَّهُ بصددِ هٰذهِ المطالباتِ والتوبيخاتِ . . طالبَ نفسَهُ قبلَ أنْ تُطالبَ ، وأعدَّ للسؤالِ جواباً ، وللجوابِ صواباً ، فلا يبدي ولا يعيدُ إلا بعدَ التثبُّتِ ، ولا يحرِّكُ جفناً ولا أَنْمُلةً إلا بعدَ التأمُّلِ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمعاذٍ : « إنَّ الرجلَ ليُسألُ عنْ كحلِ عينيهِ ، وعنْ فتِّهِ الطينَ بإصبعيهِ ، وعنْ لمسِهِ ثوبَ أخيهِ »(٢) .

وقالَ الحسنُ : (كانَ أحدُهُمْ إذا أرادَ أنْ يتصدَّقَ بصدقةٍ . . نظرَ وتثبَّتَ ، فإنْ كانَ للهِ . . أمضاهُ)(٣) .

وقالَ الحسنُ : (رحمَ اللهُ تعالىٰ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ ، فإنْ كانَ للهِ . . مضىٰ ، وإنْ كانَ لغيرِهِ . . تأخَّرَ)(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٨٠) ، ولم يذكره مرفوعاً ، بل قال : (وبلغني) ، وقد تقدم حديث : « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك » ، وهو ما رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٢) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ١٠٣) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ١٠٣) .

وقالَ في حديثِ سعدٍ حينَ أوصاهُ سلمانُ : (اتقِ اللهَ عندَ همِّكَ إذا هممتَ)(١) .

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ : (إنَّ المؤمنَ وَقَّافٌ متأنٍّ ، يقفُ عندَ همِّهِ ، ليسَ كحاطبِ ليلٍ)(٢) .

فهـٰذا هوَ النظرُ الأوَّلُ في هـٰذهِ المراقبةِ ، ولا يخلِّصُ مِنْ هـٰذا إلا العلمُ المتينُ ، والمعرفةُ الحقيقيَّةُ بأسرارِ الأعمالِ وأغوارِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، فمتىٰ لمْ يعرفْ نفسَهُ وربَّهُ وعدوَّهُ إبليسَ ، ولمْ يعرفْ ما يوافقُ هواهُ ، ولمْ يميِّزْ بينَهُ وبينَ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ في نيَّتِهِ ، وهمَّتِهِ وفكرتِهِ ، وسكونِهِ وحركتِهِ . . فلا يسلمُ في هـٰذهِ المراقبةِ ، بلِ الأكثرونَ يرتكبونَ الجهلَ فيما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ وهمْ يحسبونَ أنَّهُمْ يحسنونَ صنعاً .

ولا تظنَّنَّ أنَّ الجاهلَ بما يقدرُ على التعلُّمِ فيهِ يُعذرُ بالجهلِ هيهاتَ ! بلْ طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، ولهـٰذا كانَتْ ركعتانِ مِنْ عالمٍ أفضلَ مِنْ ألفِ ركعةٍ مِنْ غيرِ عالمٍ(٣) ؛ لأنَّهُ يعلمُ آفاتِ النفوسِ ومكايدَ الشيطانِ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩١٠) ولفظه : (يا سعدُ ؛ اذكر الله عند همِّك إذا هممت ، وعند يدك إذا أقسمت ، وعند حكمك إذا حكمت) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٥٠) ، ونحوه عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٣٠) .

(٣) وذلك فيما رواه ابن النجار عن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن جده : « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » رواه الشيرازي في « الألقاب » من طريق =

ومواضعَ الغرورِ ، فيتقي ذلكَ ، والجاهلُ لا يعرفُهُ ، فكيفَ يحترزُ منهُ ، فلا يزالُ الجاهلُ في تعبٍ ، والشيطانُ منهُ في فرحٍ وشماتةٍ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الجهلِ والغفلةِ ، فهوَ رأسُ كلِّ شقاوةٍ ، وأساسُ كلِّ خسرانٍ .

فحكمُ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يراقبَ نفسَهُ عندَ همِّهِ بالفعلِ وسعيِهِ بالجارحةِ ، فيتوقَّفُ عندَ الهمِّ وعندَ السعيِ حتىٰ ينكشفَ لهُ بنورِ العلمِ أنَّهُ للهِ تعالىٰ فيمضيَهُ ، أوْ هوَ لهوى النفسِ فيتقيَهُ ، ويزجرَ القلبَ عنِ الفكرِ فيهِ ، وعنِ الهمِّ بهِ ، فإنَّ الخطرةَ الأولىٰ في الباطلِ إذا لمْ تدفعْ . أورثَتِ الرغبةَ ، والرغبةُ تورثُ الهمَّ ، والهمُّ يورثُ جزْمَ القصدِ ، والقصدُ يورثُ الفعلَ ، والفعلُ يورثُ البوارَ والمقتَ ، فينبغي أنْ تحسمَ مادةُ الشرِّ مِنْ منبعِهِ الأوَّلِ ، وهوَ الخاطرُ ، فإنَّ جميعَ ما وراءَهُ يتبعُهُ .

ومهما أشكلَ على العبدِ ذلكَ ، وأظلمَتِ الواقعةُ فلمْ ينكشفْ لهُ . . فليتفكرْ في ذلكَ بنورِ العلمِ ، ويستعذْ باللهِ مِنْ مكرِ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ ، فإنْ عجزَ عنِ الاجتهادِ والفكرِ بنفسِهِ . . فليستضيءْ بنورِ علماءِ الدينِ ، وليفرَّ مِنَ العلماءِ المضلِّينَ المقبلينَ على الدنيا فرارَهُ مِنَ الشيطانِ ، بلْ أشدَّ ، فقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ لا تسألْ عنِّي عالماً

= مالك بن دينار ، عن الحسن ، عن أنس ، عن علي رفعه : « ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » ، وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس ـ وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٣٤) ـ : « ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط » . « إتحاف » (١٠/ ٥٩) .

أسكرَهُ حبُّ الدنيا فيقطعَكَ عنْ محبَّتي ، أولـئك قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي)[١] ، فالقلوبُ المظلمةُ بحبِّ الدنيا وشدَّةِ الشرهِ والتكالبِ عليها محجوبةٌ عنْ نورِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ مستضاءَ أنوارِ القلوبِ حضرةُ الربوبيَّةِ ، فكيفَ يستضيءُ بها مَنِ استدبَرها ، وأقبلَ علىٰ عدوِّها ، وعشقَ بغيضَها ومقيتَها وهيَ شهواتُ الدنيا ؟!

فلتكنْ همَّةُ المريدِ أوَّلاً في إحكامِ العلمِ ، أوْ في طلبِ عالمٍ معرضٍ عنِ الدنيا ، أوْ ضعيفِ الرغبةِ فيها إنْ لمْ يجدْ مَنْ هوَ عديمُ الرغبةِ فيها ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ البصرَ النافذَ عندَ ورودِ الشبهاتِ ، والعقلَ الكاملَ عندَ هجومِ الشهواتِ »[٢] ، جمعَ بينَ الأمرينِ ، وهما متلازمانِ حقّاً ، فمَنْ ليسَ لهُ عقلٌ وازعٌ عنِ الشهواتِ . . فليسَ لهُ بصرٌ نافذٌ في الشبهاتِ .

ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لا يعودُ إليهِ أبداً »[٣] ، فما قدْرُ العقلِ الضعيفِ الذي سعدَ الآدميُّ بهِ حتىٰ يعمدَ إلىٰ محوِهِ ومحقِهِ بمقارفةِ الذنوبِ ؟!

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، ورواه يحيى بن الحسين بن إسماعيل الشجري في « الأمالي الشجرية » (١/ ٦٣) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٩) مختصراً ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٨١) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٤) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه .
(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٢٣١) .

ومعرفةُ آفاتِ الأعمالِ قدِ اندرسَتْ في هـٰذهِ الأعصارِ ، فإنَّ الناسَ كلَّهُمْ قدْ هجروا هـٰذهِ العلومَ ، واشتغلوا بالتوسُّطِ بينَ الخلقِ في الخصوماتِ الثائرةِ مِنِ اتباعِ الشهواتِ ، وقالوا : هـٰذا هوَ الفقهُ ، وأخرجوا هـٰذا العلمَ الذي هوَ فقهُ الدينِ عنْ جملةِ العلومِ ، وتجرَّدوا لفقهِ الدنيا الذي ما قُصِدَ بهِ إلا دفعُ الشواغلِ عنِ القلوبِ ليُتفرَّغَ لفقهِ الدينِ ، فكانَ فقهُ الدنيا مِنَ الدينِ بواسطةِ هـٰذا الفقهِ ، وفي الخبرِ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ خيرُكُمْ فيهِ المتثبِّتُ)[1] .

ولهـٰذا توقَّفَ طائفةٌ مِنَ الصحابةِ في القتالِ معَ أهلِ العراقِ وأهلِ الشامِ لما أشكلَ عليهِمُ الأمرُ ؛ كسعدِ بنِ أبي وقاصٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وأسامةَ ، ومحمدِ بنِ مسلمةَ ، وغيرِهِمْ[2] .

فمَنْ لمْ يتوقَّفْ عندَ الاشتباهِ . . كانَ متبعاً لهواهُ ، معجباً برأيِهِ ، وكانَ ممَّنْ وصفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « فإذا رأيتَ شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ بخاصَّةِ نفسِكَ »[3] .

وكلُّ مَنْ خاضَ في شبهةٍ بغيرِ تحقيقٍ . . فقدْ خالفَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إيَّاكُمْ والظنَّ ؛

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦١) ، وهو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) انظر تفصيل ذلك في « الإتحاف » (١٠/ ١٠٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ »[1] ، وأرادَ بهِ ظنّاً بغيرِ دليلٍ ؛ كما يستفتي بعضُ العوامِّ قلبَهُ فيما أشكلَ عليهِ ويتبعُ ظنَّهُ ، ولصعوبةِ هـٰذا الأمرِ وعظمِهِ كانَ دعاءُ الصديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (اللهمَّ ؛ أرِني الحقَّ حقّاً وارزقْني اتباعَهُ ، وأرني الباطلَ باطلاً وارزقْني اجتنابَهُ ، ولا تجعلْهُ متشابهاً عليَّ فأتبعَ الهوىٰ)[2] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (الأمورُ ثلاثةٌ : أمرٌ استبانَ رشدُهُ فاتبعْهُ ، وأمرٌ استبانَ غيُّهُ فاجتنبْهُ ، وأمرٌ أشكلَ عليكَ فكلْهُ إلىٰ عالمِهِ)[3] .

وقدْ كانَ مِنْ دعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أقولَ في الدينِ بغيرِ علمٍ »[4] ، فأعظمُ نعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ هوَ العلمُ ، وكشفُ الحقِّ ، والإيمانُ عبارةٌ عنْ نوعِ كشفٍ وعلمٍ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى امتناناً علىٰ عبدِهِ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وأرادَ بهِ العلمَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ ، وقالَ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري (٦٧٢٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ٧٩) ، وسياق المصنف بنحوه عنده .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٨) .
(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوته » (١/ ٧٩) من دعاء علي رضي الله عنه ، وقال سبحانه في حق النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الهوىٰ شريكُ العمىٰ ، ومِنَ التوفيقِ التوقُّفُ عندَ الحيرةِ ، ونعمَ طاردُ الهمِّ اليقينُ ، وعاقبةُ الكذبِ الندمُ ، وفي الصدقِ السلامةُ ، ربَّ بعيدٍ أقربُ مِنْ قريبٍ ، وغريبٌ مَنْ لمْ يكنْ لهُ حبيبٌ ، والصديقُ مَنْ صدقَ غيبُهُ ، ولا يعدمْكَ مِنْ حبيبٍ سوءُ الظنِّ ، نعمَ الخُلُقُ التكرُّمُ ، والحياءُ سببٌ إلىٰ كلِّ جميلٍ ، وأوثقُ العرى التقوىٰ ، وأوثقُ سببٍ أخذتَ بهِ سببٌ بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّما لكَ مِنْ دنياكَ ما أصلحتَ بهِ مثواكَ ، والرزقُ رزقانِ : رزقٌ تطلبُهُ ، ورزقٌ يطلبُكَ ، فإنْ لمْ تأتِهِ . . أتاكَ ، وإنْ كنتَ جازعاً علىٰ ما أفلتَ مِنْ يديكَ . . فلا تجزعْ علىٰ ما لمْ يصلْ إليكَ ، واستدلَّ علىٰ ما لمْ يكنْ بما كانَ ؛ فإنَّما الأمورُ أشباهٌ ، والمرءُ يسرُّهُ دركُ ما لمْ يكنْ ليفوتَهُ ، ويسوءُهُ فوتُ ما لمْ يكنْ ليدركَهُ ، فما نالَكَ مِنْ دنياكَ فلا تكثرَنْ بهِ فرحاً ، وما فاتَكَ منها فلا تتبعْهُ نفسَكَ أسفاً ، وليكنْ سرورُكَ بما قدَّمتَ وأسفُكَ علىٰ ما خلَّفتَ ، وشغلُكَ لآخرتِكَ ، وهمُّكَ فيما بعدَ الموتِ)[1] ، وغرضُنا مِنْ نقلِ هـٰذهِ الكلماتِ قولُهُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ومِنَ التوفيقِ التوقُّفُ عندَ الحيرةِ) .

فإذاً ؛ النظرُ الأوَّلُ للمراقبِ نظرُهُ في الهمِّ والحركةِ : أهيَ للهِ أمْ للهوىٰ ؟ وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ استكملَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٧٦) إلىٰ قوله : (الأمور أشباه) ، وهو ضمن خطبة عند العسكري في « المواعظ » كما في « كنز العمال » (٤٤٢١٥) .

إيمانَهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ مِنْ عملِهِ ، وإذا عرضَ لهُ أمرانِ ؛ أحدُهُما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ . . آثرَ الآخرةَ على الدنيا »[١] .

وأظهرُ ما ينكشفُ لهُ في حركاتِهِ أنْ يكونَ مباحاً ولكنْ لا يعنيهِ ، فيتركُهُ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »[٢] .

❁ ❁ ❁

النظرُ الثاني للمراقبةِ عندَ الشروعِ في العملِ :

وذلكَ بتفقُّدِ كيفيةِ العملِ ليقضيَ حقَّ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، ويحسنَ النيةَ في إتمامِهِ ، ويكمِّلَ صورتَهُ ، ويتعاطاهُ علىٰ أكملِ ما يمكنُهُ ، وهٰذا ملازمٌ لهُ في جميعِ أحوالِهِ ، فإنَّهُ لا يخلو في جميعِ أحوالِهِ عنْ حركةٍ وسكونٍ ، فإذا راقبَ اللهَ تعالىٰ في جميعِ ذلكَ . . قدرَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ فيها بالنيةِ ، وحسنِ الفعلِ ، ومراعاةِ الأدبِ .

فإنْ كانَ قاعداً مثلاً . . فينبغي أنْ يقعدَ مستقبلَ القبلةِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ المجالسِ ما استُقبلَ بهِ القبلةُ »[٣] ، ولا يجلسُ متربِّعاً ؛

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/٣٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣٢٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٢٧٢) .

(٣) رواه بلفظه هنا أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٣٥ ، ٣٢٢) ، والديلمي في « مسند =

إذْ لا يُجالسُ الملوكُ كذلكَ ، وملكُ الملوكِ مطلعٌ عليهِ ، قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : جلستُ مرَّةً متربعاً ، فسمعتُ هاتفاً يقولُ : هٰكذا تُجالَسُ الملوكُ ؟! فلمْ أجلسْ بعدَ ذلكَ متربعاً .

وإنْ كانَ ينامُ . . فينامُ على اليدِ اليمنىٰ مستقبلَ القبلةِ ، معَ سائرِ الآدابِ التي ذكرناها في مواضعِها ، فكلُّ ذلكَ داخلٌ في المراقبةِ ، بلْ لوْ كانَ في قضاءِ الحاجةِ . . فمراعاتُهُ لآدابِها وفاءٌ بالمراقبةِ .

فإذاً ؛ لا يخلو العبدُ إمَّا أنْ يكونَ في طاعةٍ ، أوْ معصيةٍ ، أوْ مباحٍ ، فمراقبتُهُ في الطاعةِ بالإخلاصِ ، والإكمالِ ، ومراعاةِ الأدبِ وحراستِها عنِ الآفاتِ ، وإنْ كانَ في معصيةٍ . . فمراقبتُهُ بالتوبةِ ، والندمِ ، والإقلاعِ ، والحياءِ ، والاشتغالِ بالتكفيرِ ، وإنْ كانَ في مباحٍ . . فمراقبتُهُ بمراعاةِ الأدبِ ، ثمَّ بشهودِ المنعمِ في النعمةِ ، وبالشكرِ عليها .

ولا يخلو العبدُ في جملةِ أحوالِهِ عنْ بليةٍ لا بدَّ لهُ مِنَ الصبرِ عليها ، ونعمةٍ لا بدَّ لهُ مِنَ الشكرِ عليها ، وكلُّ ذلكَ مِنَ المراقبةِ ، بلْ لا ينفكُّ العبدُ في كلِّ حالٍ مِنْ فرضٍ للهِ تعالىٰ عليهِ : إمَّا فعلٍ يلزمُهُ مباشرتُهُ ، أوْ محظورٍ

= الفردوس » (٢٩٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وهو عند الطبراني في « الأوسط » (٨٣٥٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٣٧٦) بلفظ : « أكرم المجالس . . . » ، وروى البخاري في « الأدب المفرد » (١١٣٧) عن سفيان بن منقذ عن أبيه قال : (كان أكثر جلوس عبد الله بن عمر وهو مستقبل القبلة) ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « إن لكل شيء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة . . . » .

يلزمُهُ تركُهُ ، أوْ ندبٍ حثَّهُ عليهِ ليسارعَ بهِ إلىٰ مغفرةِ اللهِ تعالىٰ ، ويسابقَ بهِ عبادَ اللهِ ، أوْ مباحٍ فيهِ صلاحُ جسمِهِ وقلبِهِ ، وفيهِ عونٌ لهُ علىٰ طاعتِهِ ، ولكلٍّ واحدٍ مِنَ ذلك حدودٌ لا بدَّ مِنْ مراعاتِها بدوامِ المراقبةِ ، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

فينبغي أنْ يتفقَّدَ العبدُ نفسَهُ في جميعِ أوقاتِهِ في هـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ ، فإذا كانَ فارغاً مِنَ الفرائضِ ، وقدرَ على الفضائلِ . . فينبغي أنْ يلتمسَ أفضلَ الأعمالِ ليشتغلَ بها ، فإنَّ مَنْ فاتَهُ مزيدُ ربحٍ وهوَ قادرٌ علىٰ دركِهِ . . فهوَ مغبونٌ ، والأرباحُ تُنالُ بمزايا الفضائلِ ، فبذلكَ يأخذُ العبدُ مِنْ دنياهُ لآخرتِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وكلُّ ذلكَ إنَّما يمكنُ بصبرِ ساعةٍ واحدةٍ ، فإنَّ الساعاتِ ثلاثٌ : ساعةٌ مضَتْ لا تعبَ فيها على العبدِ كيفَما انقضَتْ ، في مشقةٍ أوْ في رفاهيةٍ ، وساعةٌ مستقبلةٌ لمْ تأتِ بعدُ ، لا يدري العبدُ أيعيشُ إليها أمْ لا ، ولا يدري ما يقضي اللهُ فيها ، وساعةٌ راهنةٌ ينبغي أنْ يجاهدَ فيها نفسَهُ ، ويراقبَ فيها ربَّهُ ، فإنْ لمْ تأتِهِ الساعةُ الثانيةُ . . لمْ يتحسَّرْ علىٰ فواتِ هـٰذهِ الساعةِ ، وإنْ أتتْهُ الساعةُ الثانيةُ . . استوفىٰ حقَّهُ منها كما استوفىٰ مِنَ الأولىٰ ، ولا يطوِّلْ أملَهُ خمسينَ سنةً فيطولَ عليهِ العزمُ على المراقبةِ فيها ، بلْ يكونُ ابنَ وقتِهِ ؛ كأنَّهُ في آخرِ أنفاسِهِ ، فلعلَّهُ آخرُ أنفاسِهِ وهوَ لا يدري .

وإذا أمكنَ أنْ يكونَ آخرَ أنفاسِهِ . . فينبغي أنْ يكونَ علىٰ وجهٍ لا يكرهُ أنْ

يدركَهُ الموتُ وهوَ علىٰ تلكَ الحالةِ ، وتكونَ جميعُ أحوالِهِ مقصورةً علىٰ ما رواهُ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يكونُ المؤمنُ ظاعناً إلا في ثلاثٍ : تزوُّدٍ لمعادٍ ، أوْ مَرَمَّةٍ لمعاشٍ ، أوْ لذةٍ في غيرِ محرَّمٍ »(١) ، وما رُوِيَ عنهُ أيضاً في معناهُ : « وعلى العاقلِ أنْ تكونَ لهُ أربعُ ساعاتٍ : ساعةٌ يناجي فيها ربَّهُ ، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ ، وساعةٌ يفكِّرُ فيها في صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وساعةٌ يخلو فيها للمطعمِ والمشربِ ، فإنَّ في هـٰذهِ الساعةِ عوناً لهُ علىٰ بقيَّةِ الساعاتِ »(٢) .

ثمَّ هـٰذهِ الساعةُ التي هوَ فيها مشغولُ الجوارحِ بالمطعمِ والمشربِ لا ينبغي أنْ يخلوَ عنْ عملٍ هوَ أفضلُ الأعمالِ ، وهوَ الذكرُ والفكرُ ، فإنَّ الطعامَ الذي يتناولُهُ مثلاً فيهِ مِنَ العجائبِ ما لوْ تفكَّرَ فيهِ وفطنَ لهُ . . كانَ ذلكَ أفضلَ مِنْ كثيرٍ مِنْ أعمالِ الجوارحِ .

والناسُ فيهِ أقسامٌ :

قسمٌ ينظرونَ إليهِ بعينِ التبصُّرِ والاعتبارِ ، فينظرونَ في عجائبِ صنعتِهِ ، وكيفيةِ ارتباطِ قوامِ الحيواناتِ بهِ ، وكيفيةِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ لأسبابِهِ ، وخلقِ الشهوةِ الباعثةِ عليهِ ، وخلقِ الآلاتِ المسخرةِ للشهوةِ فيهِ ؛ كما فصَّلنا بعضَهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٨٩) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣/ ٢٧٤) بلفظ : « وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً . . . » ، ومرمة : إصلاح .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٨٩) ، وهو ضمن الحديث السابق .

في كتابِ الشكرِ ، وهـٰذا مقامُ ذوي الألبابِ .

وقسمٌ ينظرونَ فيهِ بعينِ المقتِ والكراهةِ ، ويلاحظونَ وجهَ الاضطرارِ إليهِ وبودِّهِمْ لوِ استغنوا عنهُ ، ولكنْ يرونَ أنفسَهُمْ مقهورينَ فيهِ ، مسخرينَ لشهواتِهِ ، وهـٰذا مقامُ الزاهدينَ .

وقسمٌ يرونَ في الصنعةِ الصانعَ ، ويترقونَ منها إلىٰ صفاتِ الخالقِ ، فتكونُ مشاهدةُ ذلكَ سبباً لتذكُّرِ أبوابٍ مِنَ الفكرِ تنفتحُ عليهِمْ بسببِهِ ، وهوَ أعلى المقاماتِ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ العارفينَ وعلاماتِ المحبِّينَ ؛ إذِ المحبُّ إذا رأىٰ صنعةَ حبيبِهِ وكتابَهُ وتصنيفَهُ . نسيَ الصنعةَ ، واشتغلَ قلبُهُ بالصانعِ ، وكلُّ ما يتردَّدُ العبدُ فيهِ هوَ صنعُ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ في النظرِ منهُ إلى الصانعِ مجالٌ رحبٌ إنْ فُتحَتْ لهُ أبوابُ الملكوتِ ، وذلكَ عزيزٌ جداً .

وقسمٌ رابعٌ ينظرونَ إليهِ بعينِ الرغبةِ والحرصِ ، فيتأسَّفونَ علىٰ ما فاتَهُمْ منهُ ، ويفرحونَ بما حضرَهُمْ مِنْ جملتِهِ ، ويذمُّونَ منهُ ما لا يوافقُ هواهُمْ ، ويعيبونَهُ ويذمُّونَ فاعلَهُ ، فيذمُّون الطبيخَ والطبَّاخَ ، ولا يعلمونَ أنَّ الفاعلَ للطبيخِ والطبَّاخِ ولقدرتِهِ ولعلمِهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، وأنَّ مَنْ ذمَّ شيئاً مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ بغيرِ إذنِ اللهِ فقد ذمَّ اللهَ ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الدهرَ ؛ فإنَّ اللهَ هوَ الدهرُ »(١) .

---

(١) رواه مسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٤٨٢٦) من حديثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

فهٰذه هيَ المرابطةُ الثانيةُ بمراقبةِ الأعمالِ على الدوامِ والاتصالِ ، وشرحُ ذلكَ يطولُ ، وفيما ذكرناهُ تنبيهٌ على المنهاجِ لمَنْ أحكمَ الأصولَ .

* * *

المُرابطة الثّالِثَة
محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكرْ فضيلةَ المحاسبةِ ثمَّ حقيقتَها :

فضيلة المحاسبة[(١)]

أمَّا الفضيلةُ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ، وهٰذهِ إشارةٌ إلى المحاسبةِ علىٰ ما مضىٰ مِنَ الأعمالِ .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا)[(٢)] .

وفي الخبرِ : أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ جاءَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : « أمستوصٍ أنتَ ؟ » ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : « إذا هممتَ بأمرٍ . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ، فإنْ كانَ رشداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كانَ غيّاً . . فانتهِ عنهُ »[(٣)] .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٥٢) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن أبي جعفر ، عن عبد الله بن مسعود =

وفي الخبرِ : « وينبغي للعاقلِ أنْ يكونَ لهُ أربعُ ساعاتٍ . . ساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ » .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، والتوبةُ نظرٌ في الفعلِ بعدَ الفراغِ منهُ بالندمِ عليهِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ تعالىٰ وأتوبُ إليهِ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ »(١) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ كانَ يضربُ قدميهِ بالدِّرَّةِ إذا جنَّهُ الليلُ ويقولُ لنفسِهِ : ماذا عملتِ اليومَ ؟

وعنْ ميمونِ بنِ مهرانَ أنَّهُ قالَ : (لا يكونُ العبدُ مِنَ المتقينَ حتىٰ يحاسبَ نفسَهُ أشدَّ مِنْ محاسبةِ شريكِهِ)(٢) ، والشريكانِ يتحاسبانِ بعدَ العملِ .

ورُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أبا بكرٍ رضوانُ اللهِ عليهِ قالَ لها

= رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوصٍ إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غياً . . فانته » .

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) وأبو داوود (١٥١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٧) .

عندَ الموتِ : ما أحدٌ مِنَ الناسِ أحبَّ إليَّ مِنْ عمرَ ، ثمَّ قالَ لها : كيفَ قلتُ ؟ فأعادَتْ عليهِ ما قالَ ، فقالَ : لا ، ما أحدٌ أعزَّ عليَّ مِنْ عمرَ[1] .

فانظرْ كيفَ نظرَ بعدَ الفراغِ مِنَ الكلمةِ ، فتدبَّرَها وأبدَلَها بكلمةٍ غيرِها .

وحديثُ أبي طلحةَ حينَ شغلَهُ الطائرُ في صلاتِهِ ، فتدبَّرَ ذلكَ ، فجعلَ حائطَهُ صدقةً للهِ تعالىٰ ندماً ورجاءً للعوضِ ممَّا فاتَهُ[2] .

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ : أنَّهُ حملَ حزمةً مِنْ حطبٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قدْ كانَ في بنيكَ وغلمانِكَ مَنْ يكفيكَ هـٰذا ، فقالَ : أردتُ أنْ أجرِّبَ نفسي هلْ تنكرُهُ ؟[3] .

وقالَ الحسنُ : (المؤمنُ قوَّامٌ علىٰ نفسِهِ يحاسبُها للهِ ، وإنَّما خفَّ الحسابُ علىٰ قومٍ حاسبوا أنفسَهُمْ في الدنيا ، وإنَّما شقَّ الحسابُ يومَ القيامةِ علىٰ قومٍ أخذوا هـٰذا الأمرَ مِنْ غيرِ محاسبةٍ) ، ثمَّ فسَّرَ المحاسبةَ فقالَ : (إنَّ المؤمنَ يفجؤُهُ الشيءُ يعجبُهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ إنَّكَ لتعجبُني ، وإنَّكَ لمنْ حاجتي ، ولكنْ هيهاتَ ! حيلَ بيني وبينَكَ) ، وهـٰذا حسابٌ قبلَ العملِ ، ثمَّ قالَ : (ويفرطُ منهُ الشيءُ ، فيرجعُ إلىٰ نفسِهِ فيقولُ : ماذا أردتُ بهـٰذا ؟

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٢٤٧) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (١/٩٨) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٤١٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩/١٣٣) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص ٤١٣) .

والله لا أعذرُ بهذا ، والله لا أعودُ لهذا أبداً إنْ شاءَ اللهُ)[1] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً وقدْ خرجتُ معَهُ حتىٰ دخلَ حائطاً ، فسمعتُهُ يقولُ وبيني وبينَهُ جدارٌ وهوَ في الحائطِ : (عمرُ بنُ الخطابِ أميرُ المؤمنينَ ! بخٍ بخٍ ، واللهِ ؛ لتتقينَّ اللهَ أوْ ليعذِّبنَّكَ)[2] .

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ، قال : (لا يُلقى المؤمنُ إلا يعاتبُ نفسَهُ ؛ ماذا أردتُ بكلمتي ؟ ماذا أردتُ بشربتي ؟ ماذا أردتُ بأكلتي ؟ والفاجرُ يمضي قدماً لا يعاتبُ نفسَهُ)[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (رحمَ اللهُ عبداً قالَ لنفسِهِ : ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ثمَّ ذمَّها ، ثمَّ خطمَها ، ثمَّ ألزمَها كتابَ اللهِ تعالىٰ فكانَ لهُ قائداً)[4] ، وهٰذا مِنْ معاتبةِ النفسِ كما سيأتي في موضعِهِ .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (التقيُّ أشدُّ محاسبةً لنفسِهِ مِنْ سلطانٍ غاشمٍ ، ومِنْ شريكٍ شحيحٍ)[5] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥٧) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩) .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (مثَّلتُ نفسي في الجنةِ ، آكلُ مِنْ ثمارِها ، وأشربُ مِنْ أنهارِها ، وأعانقُ أبكارَها ، ثمَّ مثلتُ نفسي في النارِ ، آكلُ مِنْ زقُّومِها ، وأشربُ مِنْ صديدِها ، وأعالجُ سلاسلَها وأغلالَها ، فقلتُ لنفسي : يا نفسُ ؛ أيَّ شيءٍ تريدينَ ؟ فقالَتْ : أريدُ أنْ أُردَّ إلى الدنيا فأعملَ صالحاً ، قلتُ : فأنتِ في الأمنيَّةِ فاعملي)[١] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (سمعتُ الحجَّاجَ يخطبُ وهوَ يقولُ : رحمَ اللهُ امرأً حاسبَ نفسَهُ قبلَ أنْ يصيرَ الحسابُ إلىٰ غيرِهِ ، رحمَ اللهُ امرأً أخذَ بعنانِ عملِهِ فنظرَ ماذا يريدُ بهِ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ في مكيالِهِ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ في ميزانِهِ ، فما زالَ يقولُ : رحمَ اللهُ امرأً ، رحمَ اللهُ امرأً حتىٰ أبكاني)[٢] .

وحكىٰ صاحبٌ للأحنفِ بنِ قيسٍ قالَ : (كنتُ أصحبُهُ ، فكانَ عامَّةُ صلاتِهِ بالليلِ الدعاءَ ، وكانَ يجيءُ إلى المصباحِ فيضعُ إصبعَهُ فيهِ حتىٰ يحسَّ بالنارِ ، ثمَّ يقولُ لنفسِهِ : يا حنيفُ ؛ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ يومَ كذا ؟ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ يومَ كذا ؟)[٣] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٣) ، وفيه : (فيضع إصبعه فيه ثم يقول : حسِّ . . .) ، وهو اسم صوت يقال لمن تألم من نحو جمرة .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلمْ : أنَّ العبدَ كما يكونُ لهُ وقتٌ في أوَّلِ النهارِ يشارطُ فيهِ نفسَهُ علىٰ سبيلِ التوصيةِ بالحقِّ . . فينبغي أنْ يكونَ لهُ في آخرِ النهارِ ساعةٌ يطالبُ فيها النفسَ ويحاسبُها علىٰ جميعِ حركاتِها وسكناتِها ؛ كما يفعلُ التجارُ في الدنيا مع الشركاءِ في آخرِ كلِّ سنةٍ أوْ شهرٍ أوْ يومٍ ؛ حرصاً منهُمْ على الدنيا ، وخوفاً مِنْ أنْ يفوتَهُمْ منها ما لوْ فاتَهُمْ . . لكانَتِ الخيرةُ لهم في فواتِهِ ، ولوْ حصلَ ذلكَ لهُمْ . . فلا يبقىٰ إلا أياماً قلائلَ ، فكيفَ لا يحاسبُ العاقلُ نفسَهُ فيما يتعلَّقُ بهِ خطرُ الشقاوةِ والسعادةِ أبدَ الآبادِ ؟! ما هٰذهِ المساهلةُ إلا عنِ الغفلةِ والخذلانِ وقلَّةِ التوفيقِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ .

ومعنى المحاسبةِ معَ الشريكِ : أنْ ينظرَ في رأسِ المالِ ، وفي الربحِ والخسرانِ ؛ ليتبيَّنَ لهُ الزيادةُ مِنَ النقصانِ ، فإنْ كانَ مِنْ فضْلٍ حاصلٍ . . استوفاهُ وشكرَهُ ، وإنْ كانَ مِنْ خسرانٍ . . طالبَهُ بضمانِهِ وكلَّفَهُ تداركَهُ في المستقبلِ ؛ فكذلكَ رأسُ مالِ العبدِ في دينِهِ الفرائضُ ، وربحُهُ النوافلُ والفضائلُ ، وخسرانُهُ المعاصي ، وموسمُ هٰذهِ التجارةِ جملةُ النهارِ ، ومعاملةُ نفسِهِ الأمارةِ بالسوءِ ، فيحاسبُها على الفرائضِ أوَّلاً ، فإنْ أدَّاها علىٰ وجهِها . . شكرَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، ورغَّبَها في مثلِها ، وإنْ فوَّتَها مِنْ أصلِها . . طالبَها بالقضاءِ ، وإنْ أدَّاها ناقصةً . . كلَّفَها الجبرانَ بالنوافلِ ، وإنْ ارتكبَ

معصيةً . . اشتغلَ بعقابِها وتعذيبِها ومعاتبتِها ؛ ليستوفي منها ما يتداركُ بهِ ما فرطَ ، كما يصنعُ التاجرُ بشريكِهِ .

وكما أنَّهُ يفتِّشُ في حسابِ الدنيا عنِ الحبَّةِ والقيراطِ ، فيحفظُ مداخلَ الزيادةِ والنقصانِ ؛ حتىٰ لا يُغبنَ في شيءٍ منها . . فينبغي أنْ يتقيَ غبينةَ النفسِ ومكرَها ، فإنَّها خدَّاعةٌ ملبِّسةٌ مكَّارةٌ ، فليطالبْها أوَّلاً بتصحيحِ الجوابِ عنْ جميعِ ما تكلَّمَ بهِ طولَ نهارِهِ ، وليتكفَّلْ بنفسِهِ مِنَ الحسابِ ما سيتولَّاهُ غيرُهُ في صعيدِ القيامةِ ، وهٰكذا عنْ نظرِهِ ، بلْ عنْ خواطرِهِ وأفكارِهِ ، وقيامِهِ ، وقعودِهِ ، وأكلِهِ وشربِهِ ونومِهِ ، وحتىٰ عنْ سكوتِهِ أنَّهُ لِمَ سكتَ ؟ وعنْ سكونِهِ لِمَ سكنَ ؟ فإذا عرفَ مجموعَ الواجبِ على النفسِ ، وصحَّ عندَهُ قدْرٌ أدى الواجبَ فيهِ . . كانَ ذلكَ القدْرُ محسوباً لهُ ، فيظهرُ لهُ الباقي علىٰ نفسِهِ ، فليثبتْهُ عليها ، وليكتبْهُ علىٰ صحيفةِ قلبِهِ كما يكتبُ الباقي الذي علىٰ شريكِهِ علىٰ قلبِهِ وفي جريدةِ حسابِهِ .

ثمَّ النفسُ غريمٌ يمكنُ أنْ يُستوفىٰ منهُ الديونُ ، أمَّا بعضُها . . فبالغرامةِ والضمانِ ، وبعضُها بردِّ عينِهِ ، وبعضُها بالعقوبةِ لها علىٰ ذلكَ ، ولا يمكنُ شيءٌ مِنْ ذلكَ إلا بعدَ تحقيقِ الحسابِ ، وتمييزِ الباقي مِنَ الحقِّ الواجبِ عليهِ ، فإذا حصلَ ذلكَ . . اشتغلَ بعدَهُ بالمطالبةِ والاستيفاءِ .

ثمَّ ينبغي أنْ يحاسبَ النفسَ علىٰ جميعِ العمرِ يوماً يوماً ، وساعةً ساعةً ، في جميعِ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ ، كما نُقِلَ عنْ توبةَ بنِ الصمَّةِ وكانَ

بالرقَّةِ ، وكانَ محاسباً لنفسِهِ ، فحسَبَ يوماً فإذا هوَ ابنُ ستينَ سنةً ، فحسبَ أيَّامَها فإذا هيَ أحدٌ وعشرونَ ألفَ يومٍ وخمسُ مئةِ يومٍ ، فصرخَ وقالَ : يا ويلتي ! ألقى الملكَ بأحدٍ وعشرينَ ألفَ ذنبٍ ؟! كيفَ وفي كلِّ يومٍ عشرةُ آلافِ ذنبٍ ؟! ثمَّ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فإذا هوَ ميتٌ ، فسمعوا قائلاً يقولُ : يا لكِ ركضةً إلى الفردوسِ الأعلى ![1] .

فهكذا ينبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ على الأنفاسِ ، وعلىٰ معصيتِهِ بالقلبِ والجوارحِ في كلِّ ساعةٍ ، ولوْ رمى العبدُ بكلِّ معصيةٍ حجراً في دارِهِ . . لامتلأَتْ دارُهُ في مدَّةٍ يسيرةٍ قريبةٍ مِنْ عمرِهِ ، ولكنَّهُ يتساهلُ في حفظِ المعاصي ، والملكانِ يحفظانِ عليهِ ذلكَ ، ﴿ أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٦) .

المُرابطة الرّابعة
في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسبَ نفسَهُ ، فلمْ تسلمْ عنْ مقارفةِ معصيةٍ ، وارتكابِ تقصيرٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا ينبغي أنْ يهملَها ، فإنَّه إنْ أهملَها . . سهُلَ عليهِ مقارفةُ المعاصي ، وأنسَتْ بها نفسُهُ ، وعسُرَ عليهِ فطامُها ، وكانَ ذلكَ سببَ هلاكِها ، بلْ ينبغي أنْ يعاقبَها ، فإذا أكلَ لقمةَ شبهةٍ بشهوةِ نفسٍ . . فينبغي أنْ يعاقبَ البطنَ بالجوعِ ، وإذا نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرمٍ ينبغي أنْ يعاقبَ العينَ بمنعِ النظرِ ، وكذلكَ يعاقبُ كلَّ طرفٍ من أطرافِ بدنِهِ بمنعِهِ عنْ شهواتِهِ ، هـٰكذا كانَتْ عادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ .

فقدْ رُوِيَ عنْ منصورِ بنِ إبراهيمَ : أنَّ رجلاً مِنَ العبَّادِ كلَّمَ امرأةً ، فلمْ يزلْ حتىٰ وضعَ يدَهُ علىٰ فخذِها ، ثمَّ ندمَ ، فوضعَ يدَهُ على النارِ حتىٰ نشَّتْ[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ رجلٌ يتعبَّدُ في صومعتِهِ ، فمكثَ كذلكَ زماناً طويلاً ، فأشرفَ ذاتَ يومٍ فإذا هوَ بامرأةٍ ، فافتتنَ بها ، وهمَّ بها ، فأخرجَ رجلَهُ لينزلَ إليها ، فأدركَهُ اللهُ بسابقةٍ ، فقالَ : ما هـٰذا الذي أريدُ أنْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٣٩) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٢) ، ونشَّت : يبست ، والخبر عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم النخعي ، ولكن في النسخ ما أثبت ، والله أعلم .

أصنعَ ؟! فرجعَتْ إليهِ نفسُهُ وعصمَهُ اللهِ ، فندمَ ، فلمَّا أرادَ أنْ يعيدَ رجلَهُ إلى الصومعةِ . . قالَ : هيهاتَ هيهاتَ ! رجْلٌ خرجَتْ تريدُ أنْ تعصيَ اللهَ تعودُ معي في صومعتي ؟! لا يكونُ واللهِ ذلكَ أبداً ، فتركَها معلَّقةً في الصومعةِ تصيبُها الأمطارُ والرياحُ والثلجُ والشمسُ حتىٰ تقطَّعَتْ فسقطَتْ ، فشكرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ذلكَ ، وأنزلَ في بعضِ كتبِهِ ذكرَهُ(١) .

ويُحكىٰ عنِ الجنيدِ قالَ : سمعتُ ابنَ الكَرَنْبيِّ يقولُ : أصابَتْني ليلةً جنابةٌ ، فاحتجتُ أنْ أغتسلَ ، وكانَتْ ليلةً باردةً ، فوجدتُ في نفسي تأخُّراً وتقصيراً ، فحدثَتْني نفسي بالتأخيرِ حتىٰ أصبحَ وأسخنَ الماءَ أوْ أدخلَ الحمَّامَ ولا أعينُ علىٰ نفسي ، فقلتُ : واعجباهُ ! أنا أعاملُ اللهَ تعالىٰ في طولِ عمري ، فيجبُ لهُ عليَّ حقٌّ ، فلا أجدُ في المسارعةِ ، وأجدُ الوقوفَ والتأخُّرَ ؟! آليتُ ألا أغتسلَ إلا في مرقعتي هٰذهِ ، وآليتُ ألا أنزعَها ولا أعصرَها ولا أجففَها في الشمسِ(٢) .

ويُحكىٰ أنَّ غزوانَ وأبا موسىٰ كانا في بعضِ مغازيهِمْ ، فتكشَّفَتْ جاريةٌ ، فنظرَ إليها غزوانُ ، فرفعَ يدَهُ فلطمَ عينَهُ حتىٰ نفرَتْ وقالَ : إنَّكِ للحَّاظةٌ إلىٰ ما يضرُّكِ(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٣) .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤١٥) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٦١) عن عتبة بن غزوان الرقاشي قال : قال لي أبو موسى الأشعري : ما لي أرىٰ عينك نافرة ؟ فقلت : إني التفت التفاتة ، =

ونظرَ بعضُهُمْ نظرةً واحدةً إلى امرأةٍ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ ألا يشربَ الماءَ الباردَ طولَ حياتِهِ ، فكانَ يشربُ الماءَ الحارَّ لينغِّصَ علىٰ نفسِهِ العيشَ (١) .

ويُحكىٰ أنَّ حسانَ بنَ أبي سنانٍ مرَّ بغرفةٍ فقالَ : متىٰ بنيَتْ هـٰذهِ ؟ ثمَّ أقبلَ علىٰ نفسِهِ فقالَ : تسألينَ عمَّا لا يعنيكِ ؟! لأعاقبنَّكِ بصومِ سنةٍ ، فصامَها (٢) .

وقالَ مالكُ بنُ ضيغمٍ : جاءَ رباحٌ القيسيُّ يسألُ عنْ أبي بعدَ العصرِ ، فقلنا : إنَّهُ نائمٌ ، فقالَ : نومٌ هـٰذهِ الساعةَ ؟! أهـٰذا وقتُ نومٍ ؟! ثمَّ ولَّىٰ منصرفاً ، فأتبعناهُ رسولاً وقلنا : ألا نوقظُهُ لكَ ، فجاءَ الرسولُ وقالَ : هوَ أشغلُ مِنْ أنْ يفهمَ عنِّي شيئاً ، أدركتُهُ وهوَ يدخلُ المقابرَ وهوَ يعاتبُ نفسَهُ ويقولُ : أقُلْتِ : نومٌ هـٰذهِ الساعةَ ؟ أفكانَ هـٰذا عليكِ ؟ ينامُ الرجلُ متىٰ شاءَ ، وما يدريكِ أنَّ هـٰذا ليسَ وقتَ نومٍ ؟! تتكلمينَ بما لا تعلمينَ ، أما إنَّ للهِ عليَّ عهداً لا أنقضُهُ أبداً ؛ لا أوسِّدُكِ الأرضَ لنومٍ حولاً إلا لمرضٍ حائلٍ ، أوْ لعقلٍ زائلٍ ، سوءةً لكِ سوءَةً لكِ ، أما تستحينَ ؟! كمْ تُوبِّخينَ ،

= فرأيت جارية لبعض الجيش ، فلحظتها لحظة ، فصككتها صكة ، فنفرت ، فصارت إلىٰ ما ترىٰ ، فقال : استغفر ربك ، ظلمت عينك ؛ إن لها أول نظرة وعليك ما بعدها .

(١) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ١٤١) ، وصاحب الخبر هو ضيغم بن مالك الراسبي ، والد مالك بن ضيغم الآتي ذكره .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١١٥) .

وعنْ غيِّكِ لا تنتهينَ ؟! قالَ : وجعلَ يبكي وهوَ لا يشعرُ بمكاني ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ . . انصرفتُ وتركتُهُ(١) .

ويُحكىٰ أنَّ تميماً الداريَّ نامَ ليلةً لمْ يقمْ فيها يتهجَّدُ ، فقامَ سنةً لمْ ينمْ فيها عقوبةً للذي صنعَ(٢) .

وعنْ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : انطلقَ رجلٌ ذاتَ يومٍ فنزعَ ثيابَهُ وتمرَّغَ في الرمضاءِ ، وكانَ يقولُ لنفسِهِ : ذوقي ، نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً ، أجيفةٌ بالليلِ بطَّالةٌ بالنهارِ ؟! قالَ : فبينا هوَ كذلكَ . . إذْ أبصرَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ظلِّ شجرةٍ ، فأتاهُ فقالَ : غلبَتْني نفسي ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألمْ يكنْ لكَ بدٌّ مِنَ الذي صنعتَ ؟ أما لقدْ فُتحَتْ لكَ أبوابُ السماءِ ، ولقدْ باهى اللهُ بكَ الملائكةَ » ، ثمَّ قالَ لأصحابِهِ : « تزوَّدوا مِنْ أخيكُمْ » ، فجعلَ الرجلُ يقولُ لهُ : يا فلانُ ؛ ادعُ لي ، يا فلانُ ؛ ادعُ لي ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُمَّهُمْ » ، فقالَ : اللهمَّ ، اجعلِ التقوىٰ زادَهُمْ ، واجمعْ على الهدىٰ أمرَهُمْ ، فجعلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « اللهمَّ ، سدِّدْهُ » ، فقالَ الرجلُ : اللهمَّ ، اجعلِ الجنَّةَ مآبَهُمْ(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٧) ، إذ رواه عن ليث بن أبي سليم عن طلحة ، ولم يعيِّن ، فإن كان الصحابي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . . فالحديث منقطع ، فليث لم يدركه ، وإن كان هو طلحة بن مصرف . . فالحديث مرسل ، إذ روايته =

وقالَ حذيفةُ بنُ قتادةَ : قيلَ لرجلٍ : كيفَ تصنعُ بنفسِكَ في شهواتِها ؟ فقالَ : ما علىٰ وجهِ الأرضِ نفسٌ أبغضَ إليَّ منها ، فكيفَ أعطيها شهواتِها ؟ ![1] .

ودخلَ ابنُ السمَّاكِ علىٰ داوودَ الطائيِّ حينَ ماتَ وهوَ في بيتِهِ على الترابِ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ سجنتَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُسجنَ ، وعذَّبتَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُعذَّبَ ، فاليومَ ترىٰ ثوابَ مَنْ كنتَ تعملُ لهُ[2] .

وعنْ وهبِ بنِ منبهٍ : أنَّ رجلاً تعبَّدَ زماناً ، ثمَّ بدتْ لهُ إلى اللهِ تعالىٰ حاجةٌ ، فصامَ سبعينَ سبتاً يأكلُ في كلِّ سبتٍ إحدىٰ عشرةَ تمرةً ، ثمَّ سألَ حاجتَهُ ، فلمْ يُعطَها ، فرجعَ إلىٰ نفسِهِ وقالَ : منكِ أتيتُ ، لوْ كانَ فيكِ خيرٌ . لأُعطيتِ حاجتَكِ ، فنزلَ إليهِ ملكٌ وقالَ : يا بنَ آدمَ ؛ ساعتُكَ هـٰذهِ خيرٌ مِنْ عبادتِكَ التي مضَتْ ، وقدْ قضى اللهُ حاجتَكَ[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ قيسٍ : كنَّا في غزاةٍ لنا ، فحضرَ العدوُّ ، فصيحَ في

= عن الصحابة وكبار التابعين ، انظر بيان هـٰذا في « الإتحاف » (١٠/ ١١٧) ، والحديث رواه عن بريدة رضي الله عنه الروياني في « مسنده » (١) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٤٣٥) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٧٠) .

الناسِ ، فقاموا إلى المصافِّ في يومٍ شديدِ الريحِ ، وإذا رجلٌ أمامي وهوَ يخاطبُ نفسَهُ ويقولُ : أيْ نفسي ؛ ألمْ أشهدْ مشهدَ كذا وكذا فقلتِ لي : أهلَكَ وعيالَكَ ، فأطعتُكِ ورجعتُ ، ألمْ أشهدْ مشهدَ كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلَكَ وعيالَكَ ، فأطعتُكِ ورجعتُ ، واللهِ ؛ لأعرضنَّكِ اليومَ على اللهِ أخذَكِ أوْ تركَكِ ، فقلتُ : لأرمقنَّهُ اليومَ ، فرمقتُهُ ، فحملَ الناسُ على عدوِّهِمْ ، فكانَ في أوائلِهِمْ ، ثمَّ إنَّ العدوَّ حملَ على الناسِ فانكشفوا ، فكانَ في موضعِهِ حتى انكشفوا مرَّاتٍ وهوَ ثابتٌ يقاتلُ ، فواللهِ ؛ ما زالَ ذاكَ دأبَهُ حتىٰ رأيتُهُ صريعاً ، فعددتُ بهِ وبدابتِهِ ستينَ أوْ أكثرَ مِنْ ستينَ طعنةً[1] .

وقدْ ذكرنا حديثَ أبي طلحةَ لمَّا اشتغلَ قلبُهُ في الصلاةِ بطائرٍ في حائطِهِ ، فتصدَّقَ بالحائطِ كفَّارةً لذلكَ[2] ، وأنَّ عمرَ كانَ يضربُ قدميهِ بالدِّرَّةِ كلَّ ليلةٍ ويقولُ : ماذا عملتِ اليومَ ؟ .

وعنْ مجمعٍ أنَّهُ رفعَ رأسَهُ إلى السطحِ ، فوقعَ بصرُهُ على امرأةٍ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ ألا يرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ما دامَ في الدنيا[3] .

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ لا يفارقُهُ المصباحُ بالليلِ ، فكانَ يضعُ إصبعَهُ عليهِ ويقولُ لنفسِهِ : ما حملَكِ علىٰ أنْ صنعتِ يومَ كذا كذا ؟[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٢٥) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٩٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » . « إتحاف » (١٠/ ١١٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٣) .

وأنكرَ وهيبُ بنُ الوردِ شيئاً علىٰ نفسِهِ ، فنتفَ شعراتٍ علىٰ صدرِهِ حتىٰ عظُمَ ألمُهُ ، ثمَّ جعلَ يقولُ لنفسِهِ : ويحَكِ ! إنَّما أريدُ بكِ الخيرَ[1] .

ورأىٰ محمدُ بنُ بشرٍ داوودَ الطائيَّ وهوَ يأكلُ عندَ إفطارِهِ خبزاً بغيرِ ملحٍ ، فقالَ لهُ : لوْ أكلتَهُ بملحٍ ، فقالَ : إنَّ نفسي لتدعوني إلى الملحِ منذُ سنةٍ ، ولا ذاقَ داوودُ ملحاً ما دامَ في الدنيا[2] .

فهٰكذا كانَتْ عقوبةُ أولي الحزمِ لأنفسِهِمْ ، والعجبُ أنَّكَ تعاقبُ عبدَكَ وأمتَكَ وأهلَكَ وولدَكَ علىٰ ما يصدرُ منهُمْ مِنْ سوءِ خلقٍ وتقصيرٍ في أمرٍ ، وتخافُ أنَّكَ لوْ تجاوزتَ عنهُمْ . . لخرجَ أمرُهُمْ عنِ الاختيارِ وبغوا عليكَ ؛ ثمَّ تهملُ نفسَكَ وهيَ أعظمُ عدوٍّ لكَ ، وأشدُّ طغياناً عليكَ ، وضررُكَ مِنْ طغيانِها أعظمُ مِنْ ضررِكَ مِنْ طغيانِ أهلِكَ ، فإنَّ غايتَهُمْ أنْ يشوِّشوا عليكَ معيشةَ الدنيا ، ولوْ عقلتَ . . لعلمتَ أنَّ العيشَ عيشُ الآخرةِ ؛ وأنَّ فيهِ النعيمَ المقيمَ الذي لا آخرَ لهُ ؛ ونفسُكَ هيَ التي تنغِّصُ عليكَ عيشَ الآخرةِ ، فهيَ بالمعاقبةِ أولىٰ مِنْ غيرِها .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » . « إتحاف » (١٠/ ١١٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٩) .

المُرابطة الخامِسَة
المجاهدة

وهوَ أنَّهُ إذا حاسبَ نفسَهُ فرآها قدْ قارفَتْ معصيةً . . فينبغي أنْ يعاقبَها بالعقوباتِ التي مضَتْ ، وإنْ رآها تتوانىٰ بحكمِ الكسلِ في شيءٍ مِنَ الفضائلِ أوْ وردٍ مِنَ الأورادِ . . فينبغي أنْ يؤدِّبَها بتثقيلِ الأورادِ عليها ، ويلزمَها فنوناً مِنَ الوظائفِ جبراً لما فاتَ منهُ ، وتداركاً لما فرطَ ، فهٰكذا كانَ يعملُ عمَّالُ اللهِ تعالىٰ .

فقدْ عاقبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ نفسَهُ حينَ فاتَتْهُ صلاةُ العصرِ في جماعةٍ بأنْ تصدَّقَ بأرضٍ كانَتْ لهُ قيمتُها مئتا ألفِ درهمٍ .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما إذا فاتَتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ . . أحيا تلكَ الليلةَ(١) ، وأخَّرَ ليلةً صلاةَ المغربِ حتىٰ طلعَ كوكبانِ ، فأعتقَ رقبتينِ(٢) .

وفاتَ ابنَ أبي ربيعةَ ركعتا الفجرِ ، فأعتقَ رقبةً(٣) .

وكانَ بعضُهُمْ يجعلُ علىٰ نفسِهِ صومَ سنةٍ ، أوِ الحجَّ ماشياً ، أوِ التصدُّقَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٣٠٣) أنه كان إذا فاتته صلاة العشاء في جماعة . . أحيا تلك الليلة .

(٢) قوت القلوب (١/٢٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/٥٧) .

بجميعِ مالِهِ ، كلُّ ذلكَ مرابطةٌ للنفسِ ومؤاخذةٌ لها بما فيهِ نجاتُها .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : إنْ كانَتْ نفسي لا تطاوِعُني على المجاهدةِ والمواظبةِ على الأورادِ . . فما سبيلُ معالجتِها ؟

فأقولُ :/سبيلُكَ في ذلكَ أنْ تسمعَها ما وردَ في الأخبارِ مِنْ فضلِ المجتهدينَ[1] ، ومِنْ أنفعِ أسبابِ العلاجِ : أنْ تطلبَ صحبةَ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ مجتهدٍ في العبادةِ ، فتلاحظَ أحوالَهُ ، وتقتديَ بهِ ، كانَ بعضُهُمْ يقولُ : (كنتُ إذا اعترتْني فترةٌ في العبادةِ . . نظرتُ إلىٰ محمدِ بنِ واسعٍ وإلى اجتهادِهِ ، فعملتُ علىٰ ذلكَ أسبوعاً)[2] .

إلا أنَّ هٰذا علاجٌ قدْ تعذَّرَ ؛ إذْ قدْ فُقِدَ في هٰذا الزمانِ مَنْ يجتهدُ في العبادةِ اجتهادَ الأوَّلينَ ، فينبغي أنْ يعدلَ مِنَ المشاهدةِ إلى السماعِ ، فلا شيءَ أنفعُ مِنْ سماعِ أحوالِهِمْ ، ومطالعةِ أخبارِهِمْ ، وما كانوا فيهِ مِنَ الجهدِ الجهيدِ ، وقدِ انقضىٰ تعبُهُمْ ، وبقيَ ثوابُهُمْ ونعيمُهُمْ أبدَ الآبادِ لا ينقطعُ ،

---

(١) كذا في جميع النسخ ، وصُحِّفتْ في نسخة الحافظ العراقي إلى (المتهجدين) ، فأورد أخباراً في فضائل التهجد ، انظر « الإتحاف » (١٠/ ١٢٠) ، أما أخبار المجتهدين . . فسيوردها المصنف قريباً .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٩) ، والقائل هو جعفر بن سليمان ، وعنه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٧) قال : (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة . . نظرت إلىٰ وجه محمد بن واسع نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع . . حسبت أن وجهه وجه ثكلىٰ) .

فما أعظمَ ملكَهُمْ ! وما أشدَّ حسرةَ مَنْ لا يقتدي بهِمْ ! فيمتِّعُ نفسَهُ أياماً قلائلَ بشهواتٍ مكدَّرةٍ ، ثمَّ يأتيهِ الموتُ ، ويُحالُ بينَهُ وبينَ كلِّ ما يشتهيهِ أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ ذلكَ .

ونحنُ نوردُ مِنْ أوصافِ المجتهدينَ وفضائلِهِمْ ما يحرِّكُ رغبةَ المريدِ في الاجتهادِ ؛ اقتداءً بهِمْ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ أقواماً يحسبُهُمُ الناسُ مرضىٰ وَمَا هُمْ بمرضىٰ » ، قالَ الحسنُ : أجهدَتْهُمُ العبادةُ[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ ، قالَ الحسنُ : يعملونَ ما عملوا مِنْ أعمالِ البرِّ ، ويخافونَ ألا ينجيَهُمْ ذلكَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ طالَ عمرُهُ وحسُنَ عملُهُ »[2] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : ما بالُ عبادي مجتهدينَ ؟ فيقولونَ : إلـٰهنا ؛ خوَّفتَهُمْ شيئاً فخافوهُ ، وشوَّقتَهُمْ إلىٰ شيءٍ فاشتاقوا إليهِ ، فيقولُ اللهُ

---

(١) كذا روى المرفوع مرسلاً من قول الحسن وعقبه قول الحسن هنا ابنُ المبارك في « الزهد » (٩٢) ، وفيه : (قوماً) بدل (أقواماً) .

(٢) رواه ابن الجعد في « مسنده » (٣٥٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١١١) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الترمذي (٢٣٣٠) عن أبي بكرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

تباركَ وتعالىٰ : فكيفَ لوْ رآني عبادي ؛ لكانوا أشدَّ اجتهاداً[١] .

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ منهُمْ ما كانوا يفرحونَ بشيءٍ مِنَ الدنيا أقبلَ ، ولا يتأسَّفونَ علىٰ شيءٍ منها أدبرَ ، ولهي كانَتْ أهونَ في أعينِهِمْ مِنْ هـٰذا الترابِ الذي تطؤونَهُ بأرجلِكُمْ ، إنْ كانَ أحدُهُمْ ليعيشُ عمرَهُ كلَّهُ ما طُوِيَ لهُ ثوبٌ ، ولا أمرَ أهلَهُ بصنعةِ طعامٍ قطُّ ، ولا جعلَ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً قطُّ ، وأدركتُهُمْ عاملينَ بكتابِ ربِّهِمْ وسنةِ نبيِّهِمْ ، إذا جنَّهُمُ الليلُ . . فقيامٌ علىٰ أطرافِهِمْ ، يفترشونَ وجوهَهُمْ ، تجري دموعُهُمْ علىٰ خدودِهِمْ ، يناجونَ ربَّهُمْ في فكاكِ رقابِهِمْ ، إذا عملوا الحسنةَ . . فرحوا بها ، ودأبوا في شكرِها ، وسألوا اللهَ أنْ يتقبَّلَها ، وإذا عملوا السيئةَ . . أحزنَتْهُمْ ، وسألوا اللهَ أنْ يغفرَها لهُمْ ، واللهِ ؛ ما زالوا كذلكَ وعلىٰ ذلكَ ، وواللهِ ، ما سلموا مِنَ الذنوبِ ولا نجوا إلا بالمغفرةِ)[٢] .

ويُحكىٰ أنَّ قوماً دخلوا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يعودونَهُ في مرضِهِ ، وإذا فيهِمْ شابٌّ ناحلُ الجسمِ ، فقالَ لهُ عمرُ : يا فتىٰ ؛ ما الذي بلغَ بكَ ما أرى ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أسقامٌ وأمراضٌ ، فقالَ : سألتُكَ باللهِ إلا صدقتَني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ذقتُ حلاوةَ الدنيا فوجدتُها مرَّةً ،

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ١٢١) ، وبنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه ، والمعنىٰ في حديث البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) ، وفيه : « وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك . . كانوا أشد لك عبادة ، وأشهد تمجيداً وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً . . . » الحديث .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

وصغُرَ عندي زهرتُها وحلاوتُها ، واستوىٰ عندي ذهبُها وحجرُها ، وكأني أنظرُ إلىٰ عرشِ ربِّي والناسُ يُساقونَ إلى الجنةِ والنارِ ، فأظمأتُ لذلك نهاري ، وأسهرتُ لهُ ليلي ، وقليلٌ حقيرٌ كلُّ ما أنا فيهِ في جنبِ ثوابِ اللهِ تعالىٰ وعقابِهِ[1] .

وقالَ أبو نعيمٍ[2] : كانَ داوودُ الطائيُّ يشربُ الفتيتَ ، ولا يأكلُ الخبزَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (بينَ مضْغِ الخبزِ وشربِ الفتيتِ قراءةُ خمسينَ آيةً) ، ودخلَ رجلٌ عليهِ يوماً فقالَ : إنَّ في سقفِ بيتِكَ جذْعاً مكسوراً ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ إنَّ لي في البيتِ منذُ عشرينَ سنةً ما نظرتُ إلى السقفِ ، وكانوا يكرهونَ فضولَ النظرِ كما يكرهونَ فضولَ الكلامِ[3] .

وقالَ محمدُ بنُ عبدِ العزيزِ : جلسنا إلىٰ أحمدَ بنِ رزينٍ مِنْ غدوةٍ إلى العصرِ ، فما التفتَ يمنةً ولا يسرةً ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ العينينِ لينظرَ بهما العبدُ إلىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مَنْ نظرَ بغيرِ اعتبارٍ . كُتبَتْ عليهِ خطيئةٌ[4] .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٩١) .

(٢) هو الفضل بن دكين ، لا صاحب « الحلية » .

(٣) الخبر بتمامه رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦) عن أبي إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي ، عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، والجملة الأخيرة رويت له مفردة أيضاً ، ونحوها عند أبي نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٢) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٣) .

وقالَتْ امرأةُ مسروقٍ : ما كانَ يوجدُ مسروقٌ إلا وساقاهُ منتفختانِ مِنْ طولِ الصلاةِ ، وقالَتْ : واللهِ ؛ إنْ كنتُ لأجلسُ خلفَهُ فأبكي رحمةً لهُ(١) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (لولا ثلاثٌ . . ما أحببتُ العيشَ يوماً واحداً : الظمأُ للهِ بالهواجرِ ، والسجودُ للهِ في جوفِ الليلِ ، ومجالسةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلامِ كما يُنتقىٰ أطايبُ الثمرِ)(٢) .

وكانَ الأسودُ بنُ يزيدَ يجتهدُ في العبادةِ ، ويصومُ في الحرِّ ، حتىٰ يخضرَّ جسدُهُ ويصفرَّ ، وكانَ علقمةُ بنُ قيسٍ يقولُ لهُ : لِمَ تعذِّبُ نفسَكَ ؟ فيقولُ : كرامتَها أريدُ(٣) .

وكانَ يصومُ حتىٰ يخضرَّ جسدُهُ ، ويصلِّي حتىٰ يسقطَ ، فدخلَ عليهِ أنسُ بنُ مالكٍ والحسنُ ، فقالا لهُ : إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ لمْ يأمرْكَ بكلِّ هـٰذا ، فقالَ : إنَّما أنا عبدٌ مملوكٌ ، لا أدعُ مِنَ الاستكانةِ شيئاً إلا جئتُ بهِ(٤) .

وكانَ بعضُ المجتهدينَ يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ حتىٰ أقعدَ مِنْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٥) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٧) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٦) .
(٤) الضمير في قوله : (وكان) يومىء أن صاحب الخبر هو الأسود بن يزيد ، وإنما صاحبه هو العلاء بن زياد ؛ كما رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٣) .

رجليهِ[1] ، فكانَ يصلِّي جالساً ألفَ ركعةٍ ، فإذا صلَّى العصرَ . احتبىٰ ثمَّ قالَ : (عجبتُ للخليقةِ كيفَ أرادَتْ بكَ بدلاً منكَ ! عجبتُ للخليقةِ كيفَ أنسَتْ بسواكَ ! بلْ عجبتُ للخليقةِ كيفَ استنارَتْ قلوبُها بذكرِ سواكَ !)[2] .

وكانَ ثابتٌ البنانيُّ قدْ حُبِّبَ إليهِ الصلاةُ ، فكانَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ أذنتَ لأحدٍ أنْ يصليَ لكَ في قبرِهِ . . فأْذَنْ لي أنْ أصلِّيَ في قبري)[3] .

وقالَ الجنيدُ : (ما رأيتُ أعبدَ مِنَ السريِّ ، أتَتْ عليهِ ثمانٌ وتسعونَ سنةً ما رُئِيَ مضطجعاً إلا في علَّةِ الموتِ)[4] .

وقالَ الحارثُ بنُ سعدٍ : مرَّ قومٌ براهبٍ ، فرأَوا ما يصنعُ بنفسِهِ مِنْ شدَّةِ اجتهادِهِ ، فكلَّموهُ في ذلكَ ، فقالَ : وما هـٰذا عندَ ما يُرادُ بالخلقِ مِنْ ملاقاةِ الأهوالِ وهمْ غافلونَ ؟! قدِ اعتكفوا علىٰ حظوظِ أنفسِهِمْ ، ونسوا حظَّهُمُ الأكبرَ مِنْ ربِّهِمْ ، فبكى القومُ عنْ آخرِهِمْ .

---

(1) منهم عامر بن عبد الله بن عبد قيس ؛ كما روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١٠) ، ومنهم كهمس بن الحسن كما سيأتي قريباً .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٥) عن بعضهم .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١٨) .

(4) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢) .

وعنْ أبي محمدٍ المغازليِّ قالَ : جاورَ أبو محمدٍ الجريريُّ بمكةَ سنةً ، فلمْ ينمْ ، ولمْ يتكلَّمْ ، ولمْ يستندْ إلىٰ عمودٍ ولا إلىٰ حائطٍ ، ولمْ يمدَّ رجليهِ ، فعبرَ عليهِ أبو بكرٍ الكتَّانيُّ ، فسلَّمَ عليهِ وقالَ لهُ : يا أبا محمدٍ ؛ بِمَ قدرتَ على اعتكافِكَ هٰذا ؟ فقالَ : عَلِمَ صدْقَ باطني ، فأعانَني علىٰ ظاهري ، فأطرقَ الكتانيُّ ومشىٰ مفكِّراً[1] .

وعنْ بعضِهِمْ قالَ : دخلتُ علىٰ فتحٍ الموصليِّ ، فرأيتُهُ قدْ مدَّ كفيهِ يبكي حتىٰ رأيتُ الدموعَ تنحدرُ مِنْ بينِ أصابعِهِ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا دموعُهُ قدْ خالطَها صفرةٌ ، فقلتُ لهُ : باللهِ يا فتحُ ؛ بكيتَ الدمَ ؟ فقالَ : لولا أنَّكَ حلَّفتَني باللهِ ما أخبرتُكَ ، نعمْ ، بكيتُ دماً ، فقلتُ لهُ : علىٰ ماذا بكيتَ الدموعَ ؟ فقالَ : علىٰ تخلُّفي عنْ واجبِ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وبكيتُ الدمَ على الدموعِ لئلا يكونَ لمْ تصحَّ ليَ الدموعُ[2] ، قالَ : فرأيتُهُ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ، فقلتُ لهُ : فماذا صنعَ في دموعِكَ ؟ فقالَ : قرَّبَني ربِّي عزَّ وجلَّ وقالَ لي : يا فتحُ ؛ الدمعُ علىٰ ماذا ؟ قلتُ : يا ربِّ ؛ علىٰ تخلُّفي عنْ واجبِ حقِّكَ ، فقالَ : والدمُ علىٰ ماذا ؟ قلتُ : علىٰ دموعي ألا تصحَّ لي ، فقالَ لي : يا فتحُ ؛ ما أردتَ

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/١٩٨) .

(٢) أي : خوفاً من أن تكون دموعي ضاعت سدىً ، وفي غير (ب) : (صحَّت) بدل (لم تصحَّ) .

بهـٰذا كلِّهِ ؟ وعزَّتي وجلالي ؛ لقدْ صعدَ حافظاكَ أربعينَ سنةً بصحيفتِكَ ما فيها خطيئةٌ[1] .

وقيلَ : إنَّ قوماً أرادوا سفراً ، فحادوا عنِ الطريقِ ، فانتهوا إلىٰ راهبٍ منفردٍ عنِ الناسِ ، فنادَوهُ ، فأشرفَ عليهِمْ مِنْ صومعتِهِ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ إنَّا قدْ أخطأنا الطريقَ ، فكيفَ هوَ الطريقُ ؟ قالَ : فأومأَ برأسِهِ إلى السماءِ ، فعلمَ القومُ ما أرادَ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ إنَّا سائلوكَ ، فهلْ أنتَ مجيبُنا ؟ فقالَ : سلوا ولا تكثروا ؛ فإنَّ النهارَ لنْ يرجعَ ، والعمرَ لا يعودُ ، والطالبَ حثيثٌ ، فعجبَ القومُ مِنْ كلامِهِ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ علامَ الخلْقُ غداً عندَ مليكِهِمْ ؟ فقالَ : علىٰ نيَّاتِهِمْ ، فقالوا : أوصِنا ، فقالَ : تزودوا علىٰ قدْرِ سفرِكُمْ ، فإنَّ خيرَ الزادِ ما بلَّغَ البغيةَ ، ثمَّ أرشدَهُمْ إلى الطريقِ ، وأدخلَ رأسَهُ في صومعتِهِ[2] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ بصومعةِ راهبٍ مِنْ رهبانِ الصينِ ، فناديتُهُ : يا راهبُ ؛ فلمْ يجبْني ، فناديتُهُ الثانيةَ ، فلمْ يجبْني ، فناديتُهُ الثالثةَ ، فأشرفَ عليَّ وقالَ : يا هـٰذا ؛ ما أنا براهبٍ ، إنَّما الراهبُ مَنْ رهبَ اللهَ في سمائِهِ ، وعظَّمَهُ في كبريائِهِ ، وصبرَ علىٰ بلائِهِ ، ورضيَ بقضائِهِ ، وحمدَهُ علىٰ آلائِهِ ، وشكرَهُ علىٰ نعمائِهِ ، وتواضعَ لعظمتِهِ ، وذلَّ لعزَّتِهِ ، واستسلمَ لقدرتِهِ ، وخضعَ لمهابتِهِ ، وفكَّرَ في حسابِهِ وعقابِهِ ،

---

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/٢/١٢٧) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٢٦) .

فنهارُهُ صائمٌ ، وليلُهُ قائمٌ ، قدْ أسهرَهُ ذكرُ النارِ ، ومسألةُ الجبَّارِ ، فذلكَ هوَ الراهبُ ، وأمَّا أنا.. فكلبٌ عقورٌ ، حبستُ نفسي في هـٰذهِ الصومعةِ عنِ الناسِ لئلا أعقرَهُمْ ، فقلتُ : يا راهبُ ؛ فما الذي قطعَ الخلقَ عنِ اللهِ بعدَ أنْ عرفوهُ ؟ فقالَ : يا أخي ؛ لمْ يقطعِ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ إلا حبُّ الدنيا وزينتِها ؛ لأنَّها محلُّ المعاصي والذنوبِ ، فالعاقلُ مَنْ رمىٰ بها عنْ قلبِهِ ، وتابَ إلى اللهِ مِنْ ذنبِهِ ، وأقبلَ علىٰ ما يقرِّبُهُ مِنْ ربِّهِ .

وقيلَ لداوودَ الطائيِّ : لو سرَّحتَ لحيتَكَ ، فقالَ : إنِّي إذاً لفارغٌ[1] .

وكانَ أويسٌ القرنيُّ يقولُ : هـٰذهِ ليلةُ الركوعِ ، فيحيي الليلَ كلَّهُ في ركعةٍ ، وإذا كانَتِ الليلةُ الآتيةُ.. قالَ : هـٰذهِ ليلةُ السجودِ ، فيحيي الليلَ كلَّهُ في سجدةٍ[2] .

وقيلَ : لمَّا تابَ عتبةُ الغلامُ كانَ لا يتهنَّأُ بالطعامِ والشرابِ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : لوْ رفقتَ بنفسِكَ ، فقالَ : الرفقَ أطلبُ ، دعيني أتعبُ قليلاً وأتنعَّمُ طويلاً[3] .

وقيلَ : حجَّ مسروقٌ ، فما نامَ قطُّ إلا ساجداً[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٣٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٧) .
(٣) بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٦) ، والناصح له هو عبد الواحد بن زيد .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٥) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ ، وعندَ المماتِ يحمدُ القومُ التقىٰ)[١] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ داوودَ : (كانَ أحدُهُمْ إذا بلغَ أربعينَ سنةً . . طوىٰ فراشَهُ)[٢] أيْ : كانَ لا ينامُ طولَ الليلِ .

وكانَ كهمسُ بنُ الحسنِ يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ ، ثمَّ يقولُ لنفسِهِ : قومي يا مأوىٰ كلِّ شرٍّ ، فلمَّا ضعُفَ . . اقتصرَ علىٰ خمسِ مئةٍ ، ثمَّ كانَ يبكي ويقولُ : ذهبَ نصفُ عملي[٣] .

وكانَتِ ابنةُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ تقولُ لهُ : يا أبةِ ؛ ما لي أرى الناسَ ينامونَ وأراكَ لا تنامُ ؟ فيقولُ : يا بُنتاهُ ؛ إنَّ أَباكِ يخافُ البياتَ[٤] .

ولمَّا رأَتْ أمُّ الربيعِ ما يلقى الربيعُ مِنَ البكاءِ والسهرِ . . نادتْهُ : يا بنيَّ ؛ لعلَّكَ قتلتَ قتيلاً ؟! فقالَ : نعمْ يا أماهُ ، قالَتْ : فمَنْ هوَ حتىٰ نطلبَ أهلَهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٥) عن أبي كريمة الكلبي ؛ من عباد أهل الشام ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٢٧) : (رواه البيهقي في « الشعب » ، وأبو نعيم في « الحلية ») .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١١) مختصراً .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٤) ، والبيات : أن يفجأه العدو ليلاً فيوقع به ، واتفق رسم النسخ : (يا أبة) بالمربوطة ، وهي علىٰ لغة من يقلبها هاءً في الوقف ، وبها قرأ ابن كثير وابن عامر قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا . . . ﴾ الآية .

فيعفوا عنكَ ، فواللهِ ؛ لوْ يعلمونَ ما أنتَ فيهِ . . لرحموكَ وعفَوا عنكَ ، فيقول : يا والدتي ؛ هيَ نفسي[١] .

وعنْ عمرَ ابنِ أختِ بشرِ بنِ الحارثِ قالَ : سمعتُ خالي بشرَ بنَ الحارثِ يقولُ لأمِّي[٢] : يا أختي ؛ جوفي وخواصري تضربُ عليَّ ، فقالَتْ لهُ أمِّي : يا أخي ؛ تأذنُ لي حتىٰ أصلحَ لكَ قليلَ حساءٍ بكفٍّ دقيقٍ عندي تتحسَّاهُ يرمُّ جوفَكَ ؟ فقالَ لها : ويحكِ ! أخافُ أنْ يقولَ : مِنْ أينَ لكَ هـٰذا الدقيقُ ؟ فلا أدري أيشٍ أقولُ لهُ ، فبكَتْ أمِّي ، وبكىٰ معَها ، وبكَيتُ معهُمْ ، قالَ عمرُ : ورأتْ أمِّي ما ببشرٍ مِنْ شدَّةِ الجوعِ ، وجعلَ يتنفَّسُ نفساً ضعيفاً ، فقالَتْ لهُ أمِّي : يا أخي ؛ ليتَ أمَّكَ لمْ تلدْني ؛ فقدْ واللهِ تقطَّعَتْ كبدي ممَّا أرىٰ بكَ ، فسمعتُهُ يقولُ لها : وأنا فليتَ أمَّكِ لمْ تلدْني ، وإذْ ولدَتْني لمْ يدرَّ ثديُها عليَّ ، قالَ عمرُ : وكانَتْ أمِّي تبكي عليهِ الليلَ والنهارَ[٣] .

وقالَ الربيعُ : أتيتُ أويساً ، فوجدتُه جالساً قدْ صلَّى الفجرَ ، ثمَّ جلسَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٤) .

(٢) أخوات بشر هنَّ مضغةٌ ، وهي أكبرهن وأكبر من بشر ، وكانت أنيسه ، ومخةٌ ، وهي صاحبة سؤال ابن حنبل في الغزل ، وزبدةٌ ، ولها روايات عنه ، وكلهنَّ من الخيِّرات الزاهدات ، انظر طرفاً من خبرهن عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤٣٧) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٢٨) : (رواه أبو الحسن بن جهضم) وذكر إسناده ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٩٩) .

فجلستُ ، فقلتُ : لا أشغلُهُ عنِ التسبيحِ ، فمكثَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى الظهرَ ، ثمَّ قامَ إلى الصلاةِ حتىٰ صلَّى العصرَ ، ثمَّ جلسَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى المغربَ ، ثمَّ ثبتَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى العشاءَ ، ثمَّ ثبتَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى الصبحَ ، ثمَّ جلسَ ، فغلبتْهُ عيناهُ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عينٍ نوَّامةٍ ، ومِنْ بطنٍ لا تشبعُ ، فقلتُ : حسبي هـٰذا منهُ ، ثمَّ رجعتُ[1] .

ونظرَ رجلٌ إلىٰ أويسٍ فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما لي أرَاكَ كأنَّكَ مريضٌ ؟ فقالَ : وما لأويسٍ ألا يكونَ مريضاً ، يطعمُ المريضُ وأويسٌ غيرُ طاعمٍ ، وينامُ المريضُ وأويسٌ غيرُ نائمٍ ؟! وقالَ أحمدُ بنُ حربٍ : يا عجباً لِمَنْ يعرفُ أنَّ الجنةَ تُزيَّنُ فوقَهُ ، وأنَّ النارَ تُسعرُ تحتَهُ . . كيفَ ينامُ بينَهُما ؟!

وقالَ رجلٌ مِنَ النسَّاكِ : أتيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فوجدتُهُ قدْ صلَّى العشاءَ ، فقعدتُ أرقُبُهُ ، فلفَّ نفسَهُ بعباءةٍ ، ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ ، فلمْ ينقلبْ مِنْ جنبٍ إلىٰ جنبٍ الليلَ كلَّهُ حتىٰ طلعَ الفجرُ وأذَّنَ المؤذِّنُ ، فوثبَ إلى الصلاةِ ولمْ يحدثْ وضوءاً ، فحاكَ ذلكَ في صدري ، فقلتُ لهُ : رحمَكَ اللهُ ، قدْ نمتَ الليلَ كلَّهُ مضطجعاً ، ثمَّ لمْ تجدِّدِ الوضوءَ ؟ فقالَ : كنتُ الليلَ كلَّهُ جائلاً في رياضِ الجنةِ أحياناً ، وفي أوديةِ النارِ أحياناً ، فهلْ في ذلكَ نومٌ ؟!

---

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (١٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/٤٤٣) .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : (أدركتُ رجالاً كانَ أحدُهُمْ يصلِّي ، فيعجزُ حتىٰ ما يأتي فراشَهُ إلا حبواً)[1] .

وقيلَ : مكثَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ أربعينَ سنةً لا يضعُ جنبَهُ علىٰ فراشٍ[2] .

ونزلَ الماءُ في إحدىٰ عينيهِ ، فمكثَ عشرينَ سنةً لا يعلمُ بهِ أهلُهُ[3] .

وقيلَ : كانَ وِرْدُ سمنونٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مئةِ ركعةٍ[4] .

وعنْ أبي بكرٍ المُطَّوِّعيِّ قالَ : كانَ وردي في شبيبتي كلَّ يومٍ وليلةٍ أقرأُ فيهِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) إحدىٰ وثلاثينَ ألفَ مرَّةٍ ، أوْ أربعينَ ألفَ مرَّةٍ ، شكَّ الراوي[5] .

وكانَ منصورُ بنُ المعتمرِ إذا رأيتَهُ . . قلتَ : رجلٌ أُصيبَ بمصيبةٍ ، منكسرُ الطرْفِ ، منخفضُ الصوتِ ، رطْبُ العينينِ ، إنْ حرَّكتَهُ . . جاءَتْ عيناهُ بأربعٍ[6] ، ولقدْ قالَتْ لهُ أمُّهُ : ما هٰذا الذي تصنعُ بنفسِكَ ؟ تبكي الليلَ عامَّتَهُ لا تسكتُ ؟! لعلَّكَ يا بنيَّ أصبتَ نفساً ، لعلَّكَ قتلتَ قتيلاً ؟

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٧) من زيادات نعيم بن حماد .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٨٢) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٨٣) .
(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣٤) .
(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٩١) .
(٦) لغزارة دمعه ، فهو يسيل من اللحظين والموقين ، وانظر « أساس البلاغة » (ر ب ع) .

فيقولُ : يا أمَّهْ ؛ أنا أعلمُ بما صنعتُ بنفسي[1] .

وقيلَ لعامرِ بنِ عبدِ اللهِ : كيفَ صبرُكَ علىٰ سهرِ الليلِ وظمأِ الهواجرِ ؟ فقالَ : هلْ هوَ إلا أنِّي صرفتُ طعامَ النهارِ إلى الليلِ ، ونومَ الليلِ إلى النهارِ ؟! وليسَ في ذلكَ خطيرُ أمرٍ !

وكانَ يقولُ : ما رأيتُ مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها ، وما رأيتُ مثلَ النارِ نامَ هاربُها ، وكانَ إذا جاءَ الليلُ . . قالَ : أذهبَ حرُّ النارِ النومَ ، فما ينامُ حتىٰ يصبحَ ، فإذا جاءَ النهارُ . . قالَ : أذهبَ حرُّ النارِ النومَ ، فما ينامُ حتىٰ يمسي ، فإذا جاءَ الليلُ . . قالَ : مَنْ خافَ . . أدلجَ ، عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : صحبتُ عامرَ بنَ عبدِ قيسٍ أربعةَ أشهرٍ ، فما رأيتُهُ نامَ بليلٍ ولا نهارٍ[3] .

ويُروىٰ عنْ رجلٍ مِنْ أصحابِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : صلَّيتُ خلفَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ الفجرَ ، فلمَّا سلَّمَ . . انفتلَ عنْ يمينِهِ وعليهِ كآبةٌ ، فمكثَ حتىٰ طلعَتِ الشمسُ ، ثمَّ قلَّبَ يدَهُ وقالَ : واللهِ ؛ لقدْ رأيتُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩٠) ولم يذكر صدره ، وبتمامه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/١/٥٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٧) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، وهو الآتي ذكره .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٨) .

أصحابَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما أرى اليومَ شيئاً يشبهُهُمْ ، كانوا يصبحونَ شعثاً غبراً صفراً ، قدْ باتوا للهِ سُجَّداً وقياماً ، يتلونَ كتابَ اللهِ ، يراوحونَ بينَ أقدامِهِمْ وجباهِهِمْ ، وكانوا إذا ذكروا اللهَ . . مادوا كما يميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ ، وهملَتْ أعينُهُمْ حتىٰ تبلَّ ثيابَهُمْ ، وكأنَّ القومَ باتوا غافلينَ ؛ يعني مَنْ كانَ حولَهُ[1] .

وكانَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ قدْ علَّقَ سوطاً في مسجدِ بيتِهِ يخوِّفُ بهِ نفسَهُ ، وكانَ يقولُ لنفسِهِ : قومي ، فواللهِ ؛ لأزحفنَّ بكِ زحفاً حتىٰ يكونَ الكللُ منكِ لا مني ، فإذا دخلَتْهُ الفترةُ . . تناولَ سوطَهُ وضربَ بهِ ساقَهُ ويقولُ : أنتِ أولىٰ بالضربِ مِنْ دابتي[2] .

وكانَ يقولُ : أيظنُّ أصحابُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يستأثروا بهِ دونَنا ، كلا ، واللهِ ؛ لنزاحمنَّهُمْ عليهِ زحاماً حتىٰ يعلموا أنَّهُمْ قدْ خلَّفوا وراءَهُمْ رجالاً[3] .

وكانَ صفوانُ بنُ سليمٍ قدْ تعقَّدَتْ ساقاهُ مِنْ طولِ القيامِ ، وبلغَ مِنَ الاجتهادِ ما لوْ قيلَ لهُ : يومُ القيامةِ غداً . . ما وجدَ متزيَّداً[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٢٧) .
(٣) أورده ابن الجوزي في « التبصرة » (١/ ٥٠٠) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٥٩) .

وكانَ إذا جاءَ الشتاءُ. . اضطجعَ على السطحِ ليضرَّ بهِ البردُ ، وإذا كانَ في الصيفِ. . اضطجعَ داخلَ البيوتِ ليجدَ الحرَّ والغمَّ فلا ينامُ ، وإنَّهُ ماتَ وهوَ ساجدٌ(١) .

وكانَ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أحبُّ لقاءَكَ فأحبَّ لقائي(٢) .

وقالَ القاسمُ بنُ محمدٍ : غدوتُ يوماً ، وكنتُ إذا غدوتُ. . بدأتُ بعائشةَ رضيَ اللهُ عنها أسلِّمُ عليها ، فغدوتُ يوماً إليها ، فإذا هيَ تصلِّي صلاةَ الضحىٰ وهيَ تقرأُ : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وتبكي وتدعو وتردِّدُ الآيةَ ، فقمتُ حتىٰ مللتُ وهيَ كما هيَ ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ. . ذهبتُ إلى السوقِ ، فقلتُ : أفرغُ مِنْ حاجتي ثمَّ أرجعُ ففرغتُ مِنْ حاجتي ثمَّ رجعتُ وهيَ كما هيَ تردِّدُ الآيةَ وتدعو وتبكي(٣) .

وقالَ محمدُ بنُ إسحاقَ : لمَّا وردَ علينا عبدُ الرحمٰنِ بنُ الأسودِ حاجّاً. . اعتلَّتْ إحدىٰ قدميهِ ، فقامَ يصلِّي علىٰ قدمٍ واحدةٍ حتىٰ صلَّى الصبحَ بوضوءِ العشاءِ(٤) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٥٩) بنحوه ضمن خبرين .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ١٣٥) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٥) ، وعزاه لابن أبي الدنيا ابنُ رجب في « فتح الباري » (٤/ ٢٤٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٠٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ٢٣١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (ما أخافُ مِنَ الموتِ إلا مِنْ حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ)[١] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (سيما الصالحينَ صفرةُ الألوانِ مِنَ السهرِ ، وعمشُ العيونِ مِنَ البكاءِ ، وذبولُ الشفاهِ مِنَ الصومِ ، عليهِمْ غبرةُ الخاشعينَ)[٢] .

وقيلَ للحسنِ : ما بالُ المتهجدينَ أحسنُ الناسِ وجوهاً ؟ فقالَ : إنَّهُمْ خلوا بالرحمـٰنِ ، فألبسَهُمْ نوراً مِنْ نورِهِ[٣] .

وكانَ عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ يقولُ : إلـٰهي ؛ خلقتَني ولمْ تؤامرْني ، وتميتُني ولا تعلمُني ، وخلقتَ معي عدوّاً ، وجعلتَهُ يجري منِّي مجرى الدمِ ، وجعلتَهُ يراني ولا أراهُ ، ثمَّ قلتَ لي : استمسكْ ، إلـٰهي ؛ كيفَ أستمسكُ إنْ لمْ تمسكْني ؟ إلـٰهي ؛ في الدنيا الهمومُ والأحزانُ ، وفي الآخرةِ العقابُ والحسابُ ، فأينَ الراحةُ والفرحُ ؟[٤] .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : كانَ عتبةُ الغلامُ يقطعُ الليلَ بثلاثِ صيحاتٍ ، كانَ إذا صلَّى العتمةَ وضعَ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ . .

---

(١) فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٥) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمِّ ألذ من أهل اللهو بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٦) عن مجاهد قال : (شيعة علي الحلماء العلماء ، الذبل الشفاه ، الأخيار الذين يعرفون بالرهبانية من أثر العبادة) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٧) .

صاحَ صيحةً ثمَّ يضعُ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ . . صاحَ صيحةً ثمَّ يضعُ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا كانَ السحرُ . . صاحَ صيحةً ، قالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : فحدثتُ بهِ بعضَ البصريينَ ، فقالَ : لا تنظرْ إلىٰ صياحِهِ ، ولكنِ انظرْ إلىٰ ما كانَ فيهِ بينَ الصيحتينِ حتىٰ صاحَ[1] .

وعنِ القاسمِ بنِ راشدٍ الشيبانيِّ قالَ : كانَ زمعةُ نازلاً عندنا بالمحصَّبِ ، وكانَ لهُ أهلٌ وبناتٌ ، وكانَ يقومُ فيصلِّي ليلاً طويلاً ، فإذا كانَ السحرُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : أيُّها الركبُ المعرسونَ ؛ أكلَّ هـٰذا الليلِ ترقدونَ ؟! أفلا تقومونَ فترحلونَ ؟ فيتواثبونَ ، فيُسمعُ مِنْ هـٰهنا باكٍ ، ومِنْ هـٰهنا داعٍ ، ومِنْ هـٰهنا قارئٌ ، ومِنْ هـٰهنا متوضئٌ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[2] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّ للهِ عباداً أنعمَ عليهِمْ فعرفوهُ ، وشرحَ صدورَهُمْ فأطاعوهُ ، وتوكَّلوا عليهِ فسلَّموا الخلقَ والأمرَ إليهِ ، فصارَتْ قلوبُهُمْ معادنَ لصفاءِ اليقينِ ، وبيوتاً للحكمةِ ، وتوابيتَ للعظمةِ ، وخزائنَ للقدرةِ ، فهُمْ بينَ الخلائقِ مقبلونَ ومدبرونَ ، وقلوبُهُمْ تجولُ في الملكوتِ ، وتلوذُ بمحجوبِ الغيوبِ ، ثمَّ ترجعُ ومعها طرائفُ مِنْ لطيفِ الفوائدِ ما لا يمكنُ واصفاً أنْ يصفَهُ ، فهُمْ في باطنِ أمورِهِمْ كالديباجِ حسناً ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٨) .

وهمْ في الظاهرِ مناديلُ مبذولونَ لمَنْ أرادَهُمْ تواضعاً) ، وهٰذهِ طريقةٌ لا يبلغُ إليها بالتكلُّفِ ، وإنَّما هوَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : بينَما أنا أسيرُ في بعضِ جبالِ بيتِ المقدسِ ، إذْ هبطتُ إلىٰ وادٍ هنالكَ ، فإذا أنا بصوتٍ قدْ علا ، وإذا تلكَ الجبالُ تجيبُهُ لها دويٌّ عالٍ ، فاتبعتُ الصوتَ ، فإذا أنا بروضةٍ عليها شجرٌ ملتفٌّ ، وإذا أنا برجلٍ قائمٍ فيها يردِّدُ هٰذهِ الآية : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ إلىٰ قولهِ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، قالَ : فجلستُ خلفَهُ أسمعُ كلامَهُ وهوَ يردِّدُ هٰذهِ الآيةَ ؛ إذْ صاحَ صيحةً خرَّ منها مغشياً عليهِ ، فقلتُ : وا أسفاهُ ، هٰذا لشقائي ، ثمَّ انتظرتُ إفاقتَهُ ، فأفاقَ بعدَ ساعةٍ ، فسمعتُهُ وهوَ يقولُ : أعوذُ بكَ مِنْ مقامِ الكذَّابينَ ، أعوذُ بكَ مِنْ أعمالِ البطَّالينَ ، أعوذُ بكَ مِنْ إعراضِ الغافلينَ ، ثمَّ قالَ : لكَ خشعَتْ قلوبُ الخائفينَ ، وإليكَ فزعَتْ آمالُ المقصرينَ ، ولعظمتِكَ ذلَّتْ قلوبُ العارفينَ ، ثمَّ نفضَ يدَهُ فقالَ : ما لي وللدنيا ، وما للدنيا ولي ؟! عليكِ يا دنيا بأبناءِ جنسِكِ ، وأُلَّافِ نعيمِكِ ، إلىٰ محبيكِ فاذهبي ، وإيَّاهُمْ فاخدعي ، ثمَّ قالَ : أينَ القرونُ الماضيةُ ، وأهلُ الدهورِ السالفةِ ؟ في الترابِ يبلونَ ، وعلى الزمانِ يفنونَ ، فناديتُهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أنا منذُ اليومِ خلفَكَ أنتظرُ فراغَكَ ، فقالَ : وكيفَ يفرغُ مَنْ يبادرُ الأوقاتَ وتبادرُهُ ، يخافُ سبقَها بالموتِ إلىٰ نفسِهِ ؟! أمْ كيفَ يفرغُ مَنْ ذهبتْ أيامُهُ وبقيَتْ آثامُهُ ؟! ثمَّ قالَ : أنتَ لها ولكلِّ شدَّةٍ أتوقَّعُ نزولَها ، ثمَّ لها عنِّي ساعةً وقرأَ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، ثمَّ صاحَ صيحةً أخرىٰ

أشدَّ مِنَ الأولىٰ ، فخرَّ مغشياً عليهِ ، فقلتُ : قدْ خرجَتْ نفسُهُ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا هوَ يضطربُ ، ثمَّ أفاقَ وهوَ يقولُ : مَنْ أنا ؟ ما خطري ؟ هبْ لي إساءتي مِنْ فضلِكَ ، وجلِّلْني بسترِكَ ، واعفُ عنْ ذنوبي بكرمِ وجهِكَ إذا وقفتُ بينَ يديكَ ، فقلتُ لهُ : بالذي ترجوهُ لنفسِكَ وتثقُ بهِ إلا كلَّمتَني ، فقالَ : عليكَ بكلامِ مَنْ ينفعُكَ كلامُهُ ، ودعْ كلامَ مَنْ أوبقتْهُ ذنوبُهُ ، إنِّي لفي هـٰذا الموضعِ مُذْ شاءَ اللهُ أجاهدُ إبليسَ ويجاهدُني ، فلمْ يجدْ عوناً عليَّ ليخرجَني ممَّا أنا فيهِ غيرَكَ ، فإليكَ عنِّي يا مخدوعُ ، فقدْ عطَّلتَ عليَّ لساني ، وميَّلتَ إلىٰ حديثِكَ شعبةً مِنْ قلبي ، فأنا أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكَ ، ثمَّ أرجو أنْ يعيذَني مِنْ سخطِهِ ، ويتفضَّلَ عليَّ برحمتِهِ ، قالَ : فقلتُ : هـٰذا وليٌّ للهِ ؛ أخافُ أنْ أشغلَهُ فأُعاقبَ في موضعي هـٰذا ، فانصرفتُ وتركتُهُ .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : بينَما أنا أسيرُ في مسيرٍ لي إذ ملتُ إلىٰ شجرةٍ لأستريحَ تحتَها ، فإذا أنا بشيخٍ قدْ أشرفَ عليَّ ، فقالَ لي : يا هـٰذا ؛ قُمْ ، فإنَّ الموتَ لمْ يمتْ ، ثمَّ هامَ علىٰ وجهِهِ ، فاتبعتُهُ ، فسمعتهُ وهوَ يقولُ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، اللهمَّ ؛ باركْ لي في الموتِ ، فقلتُ : وفيما بعدَ الموتِ[1] ، فقالَ : مَنْ أيقنَ بما بعدَ الموتِ شمَّرَ مئزرَ الحذرِ ، ولمْ يكنْ لهُ

---

(١) إذ روى الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يومٍ خمساً وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه ، أعطاه الله أجر شهيد » .

في الدنيا مستقرٌّ ، ثمَّ قالَ : يا مَنْ لوجهِهِ عنتِ الوجوهُ ؛ بيِّضْ وجهي بالنظرِ إليكَ ، واملأْ قلبي مِنَ المحبةِ لكَ ، وأجرني مِنْ ذلَّةِ التوبيخِ غداً عندَكَ ، فقدْ آن لي الحياءُ منكَ ، وحانَ لي الرجوعُ عنِ الإعراضِ عنكَ ، ثمَّ قالَ : لولا حلمُكَ.. لمْ يسعْني أجلي ، ولولا عفوُكَ.. لمْ ينبسطْ فيما عندَكَ أملي ، ثمَّ مضىٰ وتركَني .

وقدْ أنشدوا في هـٰذا المعنىٰ : [من الوافر]

نَحِيلُ ٱلْجِسْمِ مُكْتَئِبُ ٱلْفُؤادِ ... تَراهُ بِقُنَّةٍ أَوْ بَطْنِ وادِي
يَنُوحُ عَلَىٰ مَعاصٍ فادِحاتٍ ... يُكَدِّرُ ثِقْلُها صَفْوَ ٱلرُّقادِ
فَإِنْ هاجَتْ مَخاوِفُهُ وَزادَتْ ... فَدَعْوَتُهُ أَغِثْنِي يا عِمادِي
فَأَنْتَ بِما أُلاقِيهِ عَلِيمٌ ... كَثِيرُ ٱلصَّفْحِ عَنْ زَلَلِ ٱلْعِبادِ

وقيلَ أيضاً[1] : [من الوافر]

أَلَذُّ مِنَ ٱلتَّلَذُّذِ بِٱلْغَوانِي ... إذا أَقْبَلْنَ فِي حُلَلٍ حِسانِ
مُنِيبٌ فَرَّ مِنْ أَهْلٍ وَمالٍ ... يَسِيحُ إِلَىٰ مَكانٍ مِنْ مَكانِ
لِيُخْمِلَ ذِكْرَهُ وَيَعِيشَ فَرْداً ... وَيَظْفَرَ فِي ٱلْعِبادَةِ بِٱلأَمانِي
تَلَذُّذُهُ ٱلتِّلاوَةُ أَيْنَ وَلَّىٰ ... وَذِكْرٌ بِٱلْفُؤادِ وَبِٱللِّسانِ
وَعِنْدَ ٱلْمَوْتِ يَأْتِيهِ بَشِيرٌ ... يُبَشِّرُ بِٱلنَّجاةِ مِنَ ٱلْهَوانِ
فَيُدْرِكُ ما أَرادَ وَما تَمَنَّىٰ ... مِنَ ٱلرَّاحاتِ فِي غُرَفِ ٱلْجِنانِ

---

(١) انظر « الكشكول » (١/ ٢٧٤) .

وكانَ كُرزُ بنُ وبرةَ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، ويجاهدُ نفسَهُ في العباداتِ غايةَ المجاهدةِ ، فقيلَ لهُ : قدْ أجهدتَ نفسَكَ ، فقالَ : كمْ عمرُ الدنيا ؟ فقيلَ : سبعةُ آلافِ سنةٍ ، فقالَ : كمْ مقدارُ يومِ القيامةِ ، فقيلَ : خمسونَ ألفَ سنةٍ ، فقالَ : كيفَ يعجزُ أحدُكُمْ أنْ يعملَ سُبُعَ يومٍ حتىٰ يأمنَ ذلكَ اليومَ ؟! يعني : أنَّكَ لوْ عشتَ عمرَ الدنيا ، واجتهدتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ ، وتخلَّصتَ مِنْ يومٍ واحدٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ ربحُكَ كثيراً ، وكنتَ بالرغبةِ فيهِ جديراً ، فكيفَ وعمرُكَ قصيرٌ والآخرةُ لا غايةَ لها ؟![1] .

فهكذا كانَتْ سيرةُ السلفِ الصالحينَ في مرابطةِ النفسِ ومراقبتِها ، فمهما تمرَّدَتْ نفسُكَ عليكَ ، وامتنعَتْ مِنَ المواظبةِ على العبادةِ . . فطالعْ أحوالَ هؤلاءِ ؛ فإنَّهُ قدْ عزَّ الآنَ وجودُ مثلِهِمْ ، ولوْ قدرتَ علىٰ مشاهدةِ مَنِ اقتدىٰ بهِمْ . . فهوَ أنجعُ في القلبِ ، وأبعثُ على الاقتداءِ ، فليسَ الخبرُ كالمعاينةِ ، وإذا عجزتَ عنْ هٰذا . . فلا تغفُلْ عنْ سماعِ أحوالِ هؤلاءِ ، فإنْ لمْ تكنْ إبلٌ . . فمعزىً .

وخيِّرْ نفسَكَ بينَ الاقتداءِ بهِمْ والكونِ في زمرتِهِمْ وغمارِهِمْ وهُمُ العقلاءُ والحكماءُ وذوو البصائرِ في الدينِ ، وبينَ الاقتداءِ بالجهلةِ الغافلينَ مِنْ أهلِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤١٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥٨) ، وكونه يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٥٧) .

عصرِكَ ، ولا ترضَ لها أنْ تنخرطَ في سلكِ الحمقىٰ ، وتقنعَ بالتشبُّهِ بالأغبياءِ ، وتؤثرَ مخالفةَ العقلاءِ .

فإنْ حدثَتْكَ نفسُكَ بأنَّ هؤلاءِ رجالٌ أقوياءُ لا يُطاقُ الاقتداءُ بهِم . . فطالعْ أحوالَ النساءِ المجتهداتِ وقلْ لها : يا نفسُ ؛ ألا تستنكفي أنْ تكوني أقلَّ مِن امرأةٍ ؟! فأخسسْ برجلٍ يقصرُ عنِ امرأةٍ في أمرِ دينِها ودنياها !

❊ ❊ ❊

ولنذكرِ الآنَ نبذةً مِنْ أحوالِ المجتهداتِ :

فقدْ رُوِيَ عنْ حبيبةَ العدويَّةِ أنَّها كانَتْ إذا صلَّتِ العتمةَ . . قامَتْ علىٰ سطحٍ لها ، وشدَّتْ عليها درعَها وخمارَها ، ثمَّ قالَتْ : إلـٰهي ؛ قدْ غارَتِ النجومُ ، ونامَتِ العيونُ ، وغلَّقَتِ الملوكُ أبوابَها ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ ، وهـٰذا مقامي بينَ يديكَ . ثمَّ تقبلُ علىٰ صلاتِها ، فإذا كانَ السحرُ وطلعَ الفجرُ . . قالَتْ : إلـٰهي ؛ هـٰذا الليلُ قدْ أدبرَ ، وهـٰذا النهارُ قدْ أسفَرَ ، فليتَ شعري أقبلتَ منِّي ليلتي فأهنأَ ، أمْ رددتَها عليَّ فأُعزَّىٰ ؟ وعزَّتِكَ ؛ لهـٰذا دأبي ودأبُكَ ما أبقيتَني ، وعزتِكَ ؛ لوِ انتهرتَني عَنْ بابِكَ . . ما برحتُ ؛ لما وقعَ في نفسي مِنْ جودِكَ وكرمِكَ[1] .

ويُروىٰ عنْ عَجْرَدَةَ أنَّها كانَتْ تحيي الليلَ ، وكانَتْ مكفوفةَ البصرِ ، فإذا كانَ في السحرِ . . نادَتْ بصوتٍ لها محزونٍ : إليكَ قطعَ العابدونَ دجى

---

(١) رواه السلمي في « ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات » (ص ٩٣) .

الليالي ، يستبقونَ إلىٰ رحمتِكَ وفضْلِ مغفرتِكَ ، فبكَ يا إلـٰهي أسألُكَ لا بغيرِكَ أنْ تجعلَني في أوَّلِ زمرةِ السابقينَ ، وأنْ ترفعَني لديكَ في عليينَ في درجةِ المقرَّبينَ ، وأنْ تلحقَني بعبادِكَ الصالحينَ ، فأنتَ أرحمُ الرحماءِ ، وأعظمُ العظماءِ ، وأكرمُ الكرماءِ يا كريمُ ، ثمَّ تخرُّ ساجدةً فيُسمعُ لها وَجْبةٌ ، ثمَّ لا تزالُ تدعو وتبكي إلى الفجرِ[(١)] .

وقالَ يحيىٰ بنُ بسطامٍ : كنتُ أشهدُ مجلسَ شَعْوانةَ ، فكنتُ أرىٰ ما تصنعُ مِنَ النياحةِ والبكاءِ ، فقلتُ لصاحبٍ لي : لوْ أتيناها إذا خلتْ فأمرناها بالرفقِ بنفسِها ، فقالَ : أنتَ وذاكَ ، قالَ : فأتيناها ، فقلتُ لها : لوْ رفقتِ بنفسِكِ وأقصرتِ عنْ هـٰذا البكاءِ شيئاً ، فكانَ أقوىٰ لكِ علىٰ ما تريدينَ ، قالَ : فبكَتْ ثمَّ قالَتْ : واللهِ ، لوددتُ أنِّي أبكي حتىٰ تنفدَ دموعي ، ثمَّ أبكي دماً حتىٰ لا تبقىٰ قطرةٌ مِنْ دمٍ في جارحةٍ مِنْ جوارحي ، وأنَّىٰ لي بالبكاءِ ، وأنَّىٰ لي بالبكاءِ ؟! فلمْ تزلْ تردِّدُ : (وأنَّىٰ لي بالبكاءِ) حتىٰ غُشِيَ عليها[(٢)] .

وقالَ محمدُ بنُ معاذٍ : حدثَتْني امرأةٌ مِنَ المتعبِّداتِ قالَتْ : رأيتُ في منامي كأنِّي أُدخلتُ الجنةَ ، فإذا أهلُ الجنَّةِ قيامٌ علىٰ أبوابِهِمْ ، فقلتُ : ما شأنُ أهلِ الجنةِ قيامٌ ؟ فقالَ لي قائلٌ : خرجوا ينظرونَ إلىٰ هـٰذهِ المرأةِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٥) ، وعجردة هي العمية ، ذكرها السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ٥٣) .

(٢) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/٢/٣٣) .

التي زُخرفَتِ الجنانُ لقدومِها ، فقلتُ : ومَنْ هـٰذهِ المرأةُ ؟ فقيلَ : أمةٌ سوداءُ مِنْ أهلِ الأُبُلَّةِ يُقالُ لها شَعْوانةُ ، قالَتْ : فقلتُ : أختي واللهِ ، قالَتْ : فبينا أنا كذلكَ . . إذْ أُقبلَ بها علىٰ نجيبةٍ تطيرُ بها في الهواءِ ، فلما رأيتُها . . ناديتُ : يا أختي ؛ أما ترينَ مكاني مِنْ مكانِكِ ، فلوْ دعوتِ لي مولاكِ فألحقَني بكِ ، قالَتْ : فتبسَّمَتْ إليَّ وقالَتْ : لمْ يأْنِ لقدومِكِ ، ولكنِ احفظي عنِّي اثنتينِ : ألزمي الحزنَ قلبَكِ ، وقدِّمي محبَّةَ اللهِ علىٰ هواكِ ، ولا يضرُّكِ متىٰ متِّ[1] .

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ الحسنِ : كانَتْ لي جاريةٌ روميَّةٌ ، وكنتُ بها معجباً ، فكانَتْ في بعض الليالي نائمةً إلىٰ جنبي ، فانتبهَتْ ، فالتمستُها[2] ، فلمْ أجدْها ، فقمتُ أطلبُها ، فإذا هيَ ساجدةٌ وهيَ تقولُ : بحبِّكَ لي إلا ما غفرتَ لي ذنوبي ، فقلتُ لها : لا تقولي : بحبِّكَ لي ، ولكنْ قولي : بحبِّي لكَ ، فقالَتْ : لا يا مولايَ ، بحبِّهِ لي أخرجَني مِنَ الشركِ إلى الإسلامِ ، وبحبِّهِ لي أيقظَ عيني وكثيرٌ مِنْ خلقِهِ نيامٌ[3] .

وقالَ أبو هاشمٍ القرشيُّ : قدمَتْ علينا امرأةٌ مِنْ أهلِ اليمنِ يُقالُ لها سريةُ ، فنزلَتْ في بعضِ ديارِنا ، قالَ : فكنتُ أسمعُ لها مِنَ الليلِ أنيناً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ١٣٩) .
(٢) أي : طلبتها ، وفي غالب النسخ : (لمستها) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٣٠٩) ، وعبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري قاضي البصرة .

وشهيقاً ، فقلتُ يوماً لخادمٍ لي : أشرفي علىٰ هـٰذهِ المرأةِ فانظري ماذا تصنعُ ، قالَ : فأشرفَتْ عليها ، فما رأتْها تصنعُ شيئاً غيرَ أنَّها لا تردُّ طرفَها عنِ السماءِ وهيَ مستقبلَةٌ القبلةَ تقولُ : خلقتَ سريةَ ، ثمَّ غذَّيتَها بنعمتِكَ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ ، وكلُّ أحوالِكَ لها حسنةٌ ، وكلُّ بلائِكَ عندَها جميلٌ ، وهيَ معَ ذلكَ متعرِّضةٌ لسخطِكَ بالتوثُّبِ علىٰ معاصيكَ فلتةً بعدَ فلتةٍ ، أتراها تظنُّ أنَّكَ لا ترىٰ سوءَ فعالِها وأنتَ عليمٌ خبيرٌ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ؟!(١) .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : خرجتُ ليلةً مِنْ وادي كنعانَ ، فلمَّا علوتُ الواديَ . . إذا سوادٌ مقبلٌ عليَّ وهوَ يقولُ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ويبكي ، فلمَّا قرُبَ منِّي السوادُ . . إذا هيَ امرأةٌ عليها جبَّةُ صوفٍ ، وبيدِها ركوةٌ ، فقالَتْ لي : مَنْ أنتَ ؟ غيرَ فازعةٍ منِّي ، فقلتُ : رجلٌ غريبٌ ، فقالَتْ : يا هـٰذا ؛ وهلْ يُوجدُ معَ اللهِ غربةٌ ، قالَ : فبكيتُ لقولِها ، فقالَتْ لي : ما الذي أبكاكَ ؟ فقلتُ : وقعَ الدواءُ علىٰ داءٍ قدْ قرحَ ، فأسرعَ في نجاحِهِ ، قالَتْ : فإنْ كنتَ صادقاً . . فلمَ بكَيتَ ؟ قلت :

---

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢/١٨٢) ، والمتعبدة عنده اسمها (سوية) ، وتمام الخبر : (ثم صرخت وسقطت ، فنزلت الجارية فأخبرتني بسقطتها ، فلما أصبحنا . . نظرنا فإذا هي قد ماتت) ، وعند السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ١١٧) متعبدة اسمها سُرَيرة الشرقية ، ووقع في (ف) : (سريرة) بدل (سرية) .

يرحمُكِ اللهُ ، والصادقُ لا يبكي ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ : ولِمَ ذاكَ ؟ قالَتْ : لأنَّ البكاءَ راحةُ القلبِ ، فسكتُّ متعجباً مِنْ قولِها[1] .

وقالَ أحمدُ بنُ عليٍّ : استأْذنَّا علىٰ عفيرةَ[2] ، فحجبَتْنا ، فلازمنا البابَ ، فلمَّا علمَتْ ذلكَ . . قامَتْ لتفتحَ البابَ لنا ، فسمعتُها وهيَ تقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ ممَّنْ جاءَ يشغلُني عنْ ذكرِكَ ، ثمَّ فتحَتِ البابَ ودخلنا عليها ، فقلنا لها : يا أمةَ اللهِ ؛ ادعي لنا ، فقالَتْ : جعلَ اللهُ قراكُمْ في بيتي المغفرةَ ، ثمَّ قالَتْ لنا : مكثَ عطاءٌ السلميُّ أربعينَ سنةً لا ينظرُ إلى السماءِ ، فحانَتْ منهُ نظرةٌ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فأصابَهُ فتقٌ في بطنِهِ ، فيا ليتَ عُفيرةَ إذْ رفعَتْ رأسَها . . لمْ تعصِ ، ويا ليتَها إذْ عصَتْ . . لمْ تعدْ[3] .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : خرجتُ يوماً إلى السوقِ ومعي جاريةٌ حبشيةٌ ، فاحتبستُها في موضعٍ بناحيةِ السوقِ ، وذهبتُ في بعضِ حوائجي ، وقلتُ : لا تبرحي حتىٰ أنصرفَ إليكِ ، قالَ : فانصرفتُ ، فلمْ أجدها في الموضعِ ، فانصرفتُ إلىٰ منزلي وأنا شديدُ الغضبِ عليها ، فلمَّا رأتْني . . عرفَتِ الغضبَ في وجهي ، فقالَتْ لي : يا مولايَ ؛ لا تعجلْ عليَّ ، إنَّكَ أجلستَني في موضعٍ لمْ أرَ فيهِ ذاكراً للهِ تعالىٰ ، فخفتُ أنْ يُخسفَ بذلكَ

---

(١) رواه مع زيادة أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٤١) .

(٢) انظر بعض أخبارها عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/ ٤/ ٢٠) ، وعند السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ٣٩) عابدة باسم (غُفيرة) ، وهي في بعض نسخ أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٤٠) .

(٣) رواه مختصراً أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .

الموضعِ ، فعجبتُ لقولِها وقلتُ لها : أنتِ حرَّةٌ ، فقالَتْ : ساءَ ما صنعتَ ، كنتُ أخدمُكَ فيكونُ لي أجرانِ ، وأمَّا الآنَ . . فقدْ ذهبَ عنِّي أحدُهُما[1] .

وقالَ ابنُ العلاءِ السعديُّ : كانَتْ لي ابنةُ عمٍّ يُقالُ لها بريرةُ ، تعبَّدَتْ ، وكانَتْ تكثرُ القراءةَ في المصحفِ ، فكلَّما أتَتْ علىٰ آيةٍ فيها ذكرُ النارِ . . بكَتْ ، فلمْ تزلْ تبكي حتىٰ ذهبَتْ عيناها مِنَ البكاءِ ، فقالَ بنو عمِّها : انطلقوا بنا إلىٰ هـٰذهِ المرأةِ حتىٰ نعذلَها في كثرةِ البكاءِ ، قالَ : فدخلنا عليها فقلنا لها : يا بريرةُ ؛ كيفَ أصبحتِ ؟ فقالَتْ : أصبحنا أضيافاً منيخينَ بأرضِ غربةٍ ننتظرُ متىٰ نُدعىٰ فنجيبُ ، فقلنا لها : كمْ هـٰذا البكاءُ ؟! قدْ ذهبَتْ عيناكِ منهُ فقالَتْ : إنْ يكنْ لعينيَّ عندَ اللهِ خيرٌ . . فما يضرُّهُما ما ذهبَ منهُما في الدنيا ، وإنْ كانَ لهما عندَ اللهَ شرٌّ . . فسيزيدُهما بكاءً أطولَ مِنْ هـٰذا ، وأعرضَتْ ، قالَ : فقالَ القومُ : قوموا بنا ، فهيَ واللهِ في شيءٍ غيرِ ما نحنُ فيهِ[2] .

وكانَتْ معاذةُ العدويَّةُ إذا جاءَ النهارُ . . تقولُ : هـٰذا يومي الذي أموتُ فيهِ ، فما تطعمُ حتىٰ تمسي ، فإذا جاءَ الليلُ . . تقولُ : هـٰذهِ الليلةُ التي أموتُ فيها ، فتصلِّي حتىٰ تصبحَ[3] .

---

(١) روىٰ ما يقربه البيهقي في « الشعب » (٢٩٦٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ١٤١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٨١) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : بتُّ ليلةً عندَ رابعةَ ، فقامَتْ إلىٰ محرابٍ لها ، وقمتُ أنا إلىٰ ناحيةٍ مِنَ البيتِ ، فلمْ تزلْ قائمةً إلى السحرِ ، فلمَّا كانَ السحرُ . قلتُ : ما جزاءُ مَنْ قوَّانا علىٰ قيامِ هـٰذهِ الليلةِ ؟ قالَتْ : جزاؤُهُ أنْ تصومَ لهُ غداً(١) .

وكانَتْ شَعْوانةُ تقولُ في دعائِها : (إلـٰهي ؛ ما أشوقَني إلىٰ لقائِكَ ، وأعظمَ رجائي لجزائِكَ ! وأنتَ الكريمُ الذي لا يخيبُ لديكَ أملُ الآملينَ ، ولا يبطلُ عندَكَ شوقُ المشتاقينَ .

إلـٰهي ؛ إنْ كانَ دنا أجلي ، ولمْ يقرِّبْني منكَ عملي . . فقدْ جعلتُ الاعترافَ بالذنبِ وسائلَ عِلَلي ، فإنْ عفوتَ . . فمَنْ أولىٰ منكَ بذلكَ ؟! وإنْ عذَّبتَ . . فمَنْ أعدلُ منكَ هنالكَ ؟!

إلـٰهي ؛ قدْ جرتُ علىٰ نفسي في النظرِ لها ، وبقيَ لها حسنُ نظرِكَ ، فالويلُ لها إنْ لمْ تسعدْها .

إلـٰهي ؛ إنَّكَ لمْ تزلْ بي برّاً أيامَ حياتي ، فلا تقطعْ عنِّي برَّكَ بعدَ مماتي ، ولقدْ رجوتُ ممَّنْ تولاَّني في حياتي بإحسانِهِ أنْ يشفعَهُ عند مماتي بغفرانِهِ .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٩٦٩) ، ولكن عزاه لجعفر بن سليمان ، لا لأبي سليمان الداراني .

إلـهي ؛ كيفَ أيئَسُ مِنْ حسنِ نظرِكَ بعدَ مماتي ولمْ تولني إلا الجميلَ في حياتي ؟!

إلـهي ؛ إنْ كانَتْ ذنوبي قدْ أخافَتْني . . فإنَّ محبَّتي لكَ قدْ أجارَتْني ، فتولَّ مِنْ أمري ما أنتَ أهلُهُ ، وعُدْ بفضلِكَ علىٰ مَنْ غرَّهُ جهلُهُ .

إلـهي ؛ لوْ أردتَ إهانتي . . لما هديتَني ، ولوْ أردتَ فضيحتي . . لمْ تسترْني ، فمتعْني بما لهُ هديتَني ، وأدمْ لي ما بهِ سترتَني .

إلـهي ؛ ما أظنُّكَ تردُّني في حاجةٍ أفنيتُ فيها عمري .

إلـهي ؛ لولا ما قارفتُ مِنَ الذنوبِ . . ما خفتُ عقابَكَ ، ولولا ما عرفتُ مِنْ كرمِكَ . . ما رجوتُ ثوابَكَ)[1] .

وقالَ الخوَّاصُ : دخلنا علىٰ زُجْلةَ العابدةِ[2] ، وكانَتْ قدْ صامَتْ حتى اسودَّتْ وبكَتْ حتىٰ عميَتْ ، وصلَّتْ حتىٰ أُقعدَتْ ، وكانَتْ تصلِّي قاعدةً ، فسلَّمنا عليها ، ثمَّ ذكرناها شيئاً مِنَ العفوِ ليهونَ عليها الأمرُ ، قالَ : فشهقَتْ ثمَّ قالَتْ : علمي بنفسي قرَّحَ فؤادي وكلمَ كبدي ، واللهِ ؛ لوددتُ أنَّ اللهَ لمْ يخلقْني ولمْ أكُ شيئاً مذكوراً ، ثمَّ أقبلَتْ علىٰ صلاتِها[3] .

---

(١) عزا رواية الخبر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٤٢) لابن أبي الدنيا .

(٢) زُجْلة : بزاي مضمومة وجيم ، مولاة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أو مولاة لعاتكة بنت معاوية ، روت عن أم الدرداء . انظر « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » (٢/ ٥٩٧) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/ ٢/ ٢٥) .

فعليكَ إنْ كنتَ مِنَ المرابطينَ المراقبينَ لنفسِكَ أنْ تطالعَ أحوالَ الرجالِ والنساءِ مِنَ المجتهدينَ ؛ لينبعثَ نشاطُكَ ، ويزيدَ حرصُكَ ، وإيَّاكَ أنْ تنظرَ إلىٰ أهلِ عصرِكَ ؛ فإنَّكَ إنْ تطعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يضلُّوكَ عنْ سبيلِ اللهِ .

وحكاياتُ المجتهدينَ غيرُ محصورةٍ ، وفيما ذكرناهُ كفايةٌ للمعتبرِ ، وإنْ أردتَ مزيداً . . فعليكَ بالمواظبةِ علىٰ مطالعةِ كتابِ « حليةُ الأولياءِ »[1] ، فهوَ مشتملٌ علىٰ شرحِ أحوالِ الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهُمْ ، وبالوقوفِ عليهِ يستبينُ لكَ بعْدُكَ وبعْدُ أهلِ عصرِكَ مِنْ أهلِ الدينِ .

فإنْ حدَّثتْكَ نفسُكَ بالنظرِ إلىٰ أهلِ زمانِك ، وقالَتْ : إنَّما تيسَّرَ الخيرُ في ذلكَ الزمانِ لكثرةِ الأعوانِ ، والآنَ فإنْ خالفتَ أهلَ زمانِكَ . . رأوكَ مجنوناً ، وسخروا بكَ ، فوافقْهُمْ فيما هُمْ فيهِ وعليهِ ، فلا يجري عليكَ إلا ما يجري عليهِمْ ، والمصيبةُ إذا عمَّتْ . . طابَتْ ؛ فإيَّاكَ أنْ تتدلَّىٰ بحبلِ غرورِها ، وتنخدعَ بتزويرِها ، وقلْ لها : أرأيتِ لوْ هجمَ سيلٌ جارفٌ يغرقُ أهلَ البلدِ ، وثبتوا علىٰ مواضعِهِمْ ، ولمْ يأخذوا حذرَهُمْ لجهلِهِمْ بحقيقةِ الحالِ ، وقدرتِ أنتِ علىٰ أنْ تفارقيهِمْ وتركبي في سفينةٍ تتخلَّصي بها مِنَ الغرقِ . . فهلْ يختلجُ في نفسِكِ أنَّ المصيبةَ إذا عمَّتْ . . طابَتْ ؟ أمْ تتركينَ موافقتَهُمْ ، وتستجهلينَهُمْ في صنيعِهِمْ ، وتأخذينَ حذرَكِ ممَّا دهاكِ ؟ فإذا

---

(١) للإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، المتوفىٰ سنة (٤٣٠هـ) ، قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٤٥٩) : (وكانوا يقولون : لما صنَّف كتاب « الحلية » . . حمل إلىٰ نيسابور حال حياته ، فاشتروه بأربع مئة دينار) .

كنتِ تتركينَ موافقتَهُمْ خوفاً مِنَ الغرقِ وعذابُ الغرقِ لا يتمادىٰ إلا ساعةً . . فكيفَ لا تهربينَ مِنْ عذابِ الأبدِ وأنتِ متعرضةٌ لهُ في كلِّ حالٍ ؟ ومِنْ أينَ تطيبُ المصيبةُ إذا عمَّتْ ولأهلِ النارِ شغلٌ شاغلٌ عنِ الالتفاتِ إلى العمومِ والخصوصِ ، ولمْ يهلكِ الكفَّارُ إلا بموافقةِ أهلِ زمانِهِمْ حيثُ قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ؟!

فعليكَ إذا اشتغلتَ بمعاتبةِ نفسِكَ أوْ بحملِها على الاجتهادِ فاستعصَتْ ألا تتركَ معاتبتَها وتوبيخَها ، وتقريعَها وتعريفَها سوءَ نظرِها لنفسِها ، فعساها تنزجرُ عنْ طغيانِها .

* * *

المرابطة السادسة
في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلمْ : أنَّ أعدىٰ عدوِّكَ نفسُكَ التي بينَ جنبيكَ ، وقدْ خُلقَتْ أمَّارةً بالسوءِ ، ميَّالةً إلى الشرِّ ، فرارةً مِنَ الخيرِ ، وأُمرتَ بتزكيتِها وتقويمِها ، وقودِها بسلاسلِ القهرِ إلىٰ عبادةِ ربِّها وخالقِها ، ومنعِها عنْ شهواتِها ، وفطامِها عنْ لذَّاتِها ، فإنْ أهملتَها . . جمحَتْ وشردَتْ ، ولمْ تظفرْ بها بعدَ ذلكَ ، وإنْ لازمتَها بالتوبيخِ والمعاتبةِ ، والعذلِ والملامةِ . . كانَتْ نفسُكَ هيَ النفسَ اللوَّامةَ التي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بها ، ورجوتَ أنْ تصيرَ النفسَ المطمئنةَ ، المدعوةَ إلىٰ أنْ تدخلَ في زمرةِ عبادِ اللهِ راضيةً مرضيةً ، فلا تغفُلَنْ ساعةً عنْ تذكيرِها ومعاتبتِها ، ولا تشتغلَنْ بوعظِ غيرِكَ ما لمْ تشتغلْ أوَّلاً بوعظِ نفسِكَ .

أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ؛ فإنِ اتعظَتْ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي)[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وسبيلُكَ أنْ تُقبلَ عليها فتقرِّرَ عندَها جهلَها وغباوتَها ، وأنَّها أبداً تتعزَّزُ بفطنتِها وهدايتِها ، ويشتدُّ أنفُها واستنكافُها إذا نُسبَتْ إلى الحمقِ ، فتقولُ لها :

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .

يا نفسُ ؛ ما أعظمَ جهلَكِ ! تدَّعينَ الحكمةَ والذكاءَ والفطنةَ وأنتِ أشدُّ الناسِ غباوةً وحمقاً ؟! أما تعرفينَ ما بينَ يديكِ مِنَ الجنةِ والنارِ ، وأنَّكِ صائرةٌ إلىٰ إحداهُما على القربِ ؟ فما لكِ تفرحينَ وتضحكينَ ، وتشتغلينَ باللهوِ وأنتِ مطلوبةٌ لهـٰذا الخطبِ الجسيمِ ، وعساكِ اليومَ تُختطفينَ أوْ غداً ؟! فأراكِ ترينَ الموتَ بعيداً ويراهُ اللهُ قريباً ، أما تعلمينَ أنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، وأنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ ؟ أما تعلمينَ أنَّ الموتَ يأتي بغتةً مِنْ غيرِ تقديمِ رسولٍ ، ومِنْ غيرِ مواعدةٍ ومواطأةٍ ، وأنَّهُ لا يأتي في شيءٍ دونَ شيءٍ ، ولا في شتاءٍ دونَ صيفٍ ، ولا في صيفٍ دونَ شتاءٍ ، ولا في نهارٍ دونَ ليلٍ ، ولا في ليلٍ دونَ نهارٍ ، ولا يأتي في الصبا دونَ الشبابِ ، ولا في الشبابِ دونَ الصبا ، بلْ كلُّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ يمكنُ أنْ يكونَ فيهِ الموتُ فجأةً ، فإنْ لمْ يكنِ الموتُ فجأةً . . فيكونُ المرضُ فجأةً ، ثمَّ يفضي إلى الموتِ ؟! فما لكِ لا تستعدينَ للموتِ وهوَ أقربُ إليكِ مِنْ كلِّ قريبٍ ؟! أما تتدبرينَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! إنْ كانَتْ جراءتُكِ علىٰ معصيةِ اللهِ لاعتقادِكِ أنَّ اللهَ لا يراكِ . . فما أعظمَ كفرَكِ ! وإنْ كانَ معَ علمِكِ باطلاعِهِ عليكِ . . فما أشدَّ وقاحتَكِ وأقلَّ حياءَكِ !

ويحَكِ يا نفسُ ! لوْ واجهَكِ عبدٌ مِنْ عبيدِكِ ، بلْ أَخٌ مِنْ إخوانِكِ بما تكرهينَهُ كيفَ كانَ غضبُكِ عليهِ ومقتُكِ لهُ ؟! فبأيِّ جسارةٍ تتعرَّضينَ

لمقتِ اللهِ وغضبهِ وشديدِ عقابهِ ؟! أفتظنِّينَ أنَّكِ تطيقينَ عذابَهُ ؟ هيهات هيهاتَ ! جرِّبي نفسَكِ إنْ ألهاكِ البطرُ عنْ أليمِ عذابِهِ ؛ فاحتبسي ساعةً في الشمسِ ، أوْ في بيتِ الحمَّامِ ، أوْ قرِّبي إصبعَكِ مِنَ النارِ ؛ ليتبيَّنَ لكِ قدْرُ طاقتِكِ ، أمْ تغترِّينَ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ، واستغنائِهِ عنْ طاعتِكِ وعبادتِكِ ، فما لكِ لا تعوِّلينَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ في مهمَّاتِ دنياكِ ؟! فإذا قصدكِ عدوٌّ . . فلِمَ تستنبطينَ الحيلَ في دفعِهِ ولا تكلينَهُ إلىٰ كرمِ اللهِ تعالى ؟! وإنْ أرهقَتْكِ حاجةٌ إلىٰ شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ممَّا لا ينقضي إلا بالدينارِ والدرهمِ . . فما لكِ تنزعينَ الروحَ في طلبِها وتحصيلِها مِنْ وجوهِ الحيلِ ؟! فلِمَ لا تعوِّلينَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يعثرَ بكِ علىٰ كنزٍ ، أوْ يسخِّرَ عبداً مِنْ عبيدِهِ فيحملَ إليكِ حاجتَكِ مِنْ غيرِ سعيٍ منكِ ولا طلبٍ ؟! أفتحسبينَ أنَّ اللهَ كريمٌ في الآخرةِ دونَ الدنيا وقدْ عرفتِ أنَّ سنةَ اللهِ لا تبديلَ لها ، وأنَّ ربَّ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سعى ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أعجبَ نفاقَكِ ودعاويَكِ الباطلةَ ! فإنَّكِ تدعينَ الإيمانَ بلسانِكِ وأثرُ النفاقِ ظاهرٌ عليكِ ، ألمْ يقلْ لكِ سيِّدُكِ ومولاكِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وقال في أمرِ الآخرةِ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فقدْ تكفَّلَ لكِ بأمرِ الدنيا خاصةً ، وصرفَكِ عنِ السعيِ فيها ، فكذبتِهِ بأفعالِكِ ، وأصبحتِ تتكالبينَ علىٰ طلبِها تكالبَ المدهوشِ المستهتَرِ ، ووكلَ أمرَ الآخرةِ إلىٰ سعيِكِ ، فأعرضتِ عنها إعراضَ المغرورِ المستحقرِ ! ما هٰذا مِنْ علاماتِ الإيمانِ ، لوْ كانَ الإيمانُ

باللسانِ. . فلماذا كانَ المنافقونَ في الدرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! كأنَّكِ لا تؤمنينَ بيومِ الحسابِ ، وتظنِّينَ أنَّكِ إذا متِّ. . انفلتِّ وتخلصتِ ، وهيهاتَ ! أتحسبينَ أنَّكِ تُتركينَ سدىً ، ألمْ تكوني نطفةً مِنْ منيٍّ يُمنىٰ ، ثمَّ كنتِ علقةً فخلقَ فسوَّىٰ ، أليسَ ذلكَ بقادرٍ علىٰ أنْ يحييَ الموتى ؟! فإنْ كانَ هـٰذا إضمارَكِ. . فما أكفرَكِ وأجهلَكِ ! أما تتفكَّرينَ أنَّهُ مِنْ ماذا خلقَكِ ؟ مِنْ نطفةٍ خلقَكِ فقدَّرَكِ ، ثمَّ السبيلَ يسَّرَكِ ، ثمَّ أماتَكِ فأقبرَكِ ، أفتكذِّبينَهُ في قولِهِ : ثمَّ إذا شاءَ أنشرَكِ ؟ ، فإنْ لمْ تكوني مكذبةً. . فما لكِ لا تأخذينَ حذرَكِ ؟! ولوْ أنَّ يهودياً أخبرَكِ في ألذِّ أطعمتِكِ بأنَّهُ يضرُّكِ في مرضِكِ. . لصبرتِ عنهُ وتركتِهِ وجاهدتِ نفسَكِ فيهِ ، أفكانَ قولُ الأنبياءِ المؤيَّدينَ بالمعجزاتِ ، وقولُ اللهِ تعالىٰ في كتبهِ المنزلةِ أقلَّ عندَكِ تأثيراً مِنْ قولِ يهوديٍّ يخبرُكِ عنْ حدسٍ وتخمينٍ وظنٍّ ، معْ نقصانِ عقلٍ وقصورِ علمٍ ؟! والعجبُ أنَّهُ لوْ أخبرَكِ طفلٌ بأنَّ في ثوبِكِ عقرباً. . لرميتِ ثوبَكِ في الحالِ مِنْ غيرِ مطالبةٍ لهُ بدليلٍ وبرهانٍ ، أفكانَ قولُ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ وكافَّةِ الأولياءِ أقلَّ عندَكِ مِنْ قولِ صبيٍّ مِنْ جملةِ الأغبياءِ ؟! أمْ صارَ حرُّ جهنَّمَ ، وأغلالُها وأنكالُها ، وزقُّومُها ومقامعُها ، وصديدُها وسمومُها ، وأفاعيها وعقاربُها. . أحقرَ عندَكِ مِنْ عقربٍ لا تحسينَ بألمِها إلا يوماً أوْ أقلَّ منهُ ؟! ما هـٰذا أفعالَ العقلاءِ ، بلْ لوِ انكشفَ للبهائمِ حالُكِ. . لضحكوا منكِ ، وسخروا مِنْ عقلِكِ .

فإنْ كنتِ يا نفسُ قدْ عرفتِ جميعَ ذلكَ وآمنتِ بهِ. . فما لكِ تسوِّفينَ

العملَ والموتُ لكِ بالمرصادِ ، ولعلَّهُ يختطفُكِ مِنْ غيرِ مهلةٍ ؟! فبماذا أمنتِ استعجالَ الأجلِ ؟! وهبْكِ أنَّكِ وُعدتِ بالإمهالِ مئةَ سنةٍ ؛ أفتظنينَ أنَّ مَنْ يُطعمُ الدابّةَ في حضيضِ العقبةِ يفلحُ ويقدرُ علىٰ قطعِ العقبةِ بها ؟ إنْ ظننتِ ذلكَ . . فما أعظمَ جهلَكِ ! أرأيتِ لوْ سافرَ رجلٌ ليتفقَّهَ في الغربةِ ، فأقامَ فيها سنينَ متعطِّلاً بطَّالاً ، يَعِدُ نفسَهُ بالتفقُّهِ في السنةِ الأخيرةِ عندَ رجوعِهِ إلىٰ وطنِهِ . . هلْ كنتِ تضحكينَ مِنْ عقلِهِ وظنِّهِ أنَّ تفقيهَ النفسِ ممَّا يطمعُ فيهِ بمدَّةٍ قريبةٍ أوْ حسبانَهُ أنَّ مناصبَ الفقهاءِ تُنالُ مِنْ غيرِ تفقُّهٍ اعتماداً علىٰ كرمِ اللهِ سبحانَهُ ؟! ثمَّ هبْ أنَّ الجهدَ في آخرِ العمرِ نافعٌ ، وأنَّهُ موصلٌ إلى الدرجاتِ العلا ؛ فلعلَّ اليومَ آخرُ عمرِكِ ، فلِمَ لا تشتغلينَ فيهِ بذلكَ ؟ فإنْ أُوحيَ إليكِ بالإمهالِ . . فما المانعُ لكِ مِنَ المبادرةِ ، وما الباعثُ لكِ على التسويفِ ؟ هلْ لهُ سببٌ إلا عجزُكِ عنْ مخالفةِ شهوتِكِ لما فيه مِنَ التعبِ والمشقةِ ؟ أفتنتظرينَ يوماً يأتيكِ لا تعسرُ فيهِ مخالفةُ الشهواتِ ، هـٰذا يومٌ لمْ يخلقْهُ اللهُ قطُّ ، ولا يخلقُهُ ، فلا تكونُ الجنةُ قطُّ إلا محفوفةً بالمكارهِ ، ولا تكونُ المكارهُ قطُّ خفيفةً على النفوسِ ، وهـٰذا محالٌ وجودُهُ . أما تتأمَّلينَ مذْ كمْ تَعِدِينَ نفسَكِ وتقولينَ : غداً وغداً ؟! فقدْ جاءَ الغدُ وصارَ يوماً ، فكيفَ وجدتِهِ ؟ أما علمتِ أنَّ الغدَ الذي جاءَ وصارَ يوماً كانَ لهُ حكمُ الأمسِ ؟! لا بلْ ما تعجزينَ عنهُ اليومَ فأنتِ غداً عنهُ أعجزُ وأعجزُ ؛ لأنَّ الشهوةَ كالشجرةِ الراسخةِ التي تُعبِّدَ العبدُ بقلعِها ، فإذا عجزَ العبدُ عنْ قلعِها للضعفِ وأخَّرَها . . كانَ كمَنْ عجزَ عنْ قلعِ شجرةٍ وهوَ شابٌّ قويٌّ ، فأخَّرَها إلىٰ سنةٍ

أخرىٰ ، معَ العلمِ بأنَّ طولَ المدَّةِ يزيدُ الشجرةَ قوةً ورسوخاً ، ويزيدُ القالعَ ضعفاً ووهناً ، فما لا يقدرُ عليهِ في الشبابِ فلا يقدرُ عليهِ قطُّ في المشيبِ ، بلْ مِنَ العناءِ رياضةُ الهَرِمِ ، ومِنَ التعذيبِ تهذيبُ الذيبِ ، والقضيبُ الرطْبُ يقبلُ الانحناءَ ، فإذا جفَّ وطالَ عليهِ الزمانُ . . لمْ يقبلْ ذلكَ .

فإذا كنتِ أيَّتُها النفسُ لا تفهمينَ هـٰذهِ الأمورَ الجليَّةَ وتركنينَ إلى التسويفِ . . فما لكِ تدَّعينَ الحكمةَ ؟! وأيةُ حماقةٍ تزيدُ علىٰ هـٰذهِ الحماقةِ ؟!

ولعلَّكِ تقولينَ : (ما يمنعُني عنِ الاستقامةِ إلا حرصي علىٰ لذَّةِ الشهواتِ ، وقلَّةُ صبري على الآلامِ والمشقَّاتِ) ، فما أجهلَكِ وأقبحَ اعتذارَكِ ! إنْ كنتِ صادقةً في ذلكَ . . فاطلبي التنعُّمَ بالشهواتِ الصافيةِ عنِ الكدوراتِ الدائمةِ أبدَ الآبادِ ، ولا مطمعَ في ذلكَ إلا في الجنةِ ، فإنْ كنتِ ناظرةً لشهوتِكِ . . فالنظرُ لها في مخالفتِها ، فربَّ أكلةٍ تمنعُ أكلاتٍ ، وما قولُكِ في عقلِ مريضٍ أشارَ عليهِ الطبيبُ بتركِ الماءِ الباردِ ثلاثةَ أيامٍ ليصحَّ ويهنأَ بشربهِ طولَ عمرهِ ، وأخبرَهُ أنَّهُ إنْ شربَ ذلكَ . . مرضَ مرضاً مزمناً ، وامتنعَ عليهِ شربُهُ طولَ العمرِ ، فما مقتضى العقلِ في قضاءِ حقِّ الشهوةِ : أيصبرُ ثلاثةَ أيامٍ ليتنعَّمَ طولَ العمرِ ، أمْ يقضي شهوتَهُ في الحالِ خوفاً مِنْ ألمِ المخالفةِ ثلاثةَ أيامٍ حتىٰ يلزمَهُ ألمُ المخالفةِ ثلاثَ مئةِ يومٍ ، وثلاثةَ آلافِ يومٍ ، وجميعُ عمرِكِ بالإضافةِ إلى الأبدِ الذي هوَ مدَّةُ نعيمِ أهلِ الجنةِ وعذابِ أهلِ النارِ أقلُّ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ بالإضافةِ إلىٰ جميعِ العمرِ وإنْ طالَتْ مدَّتُهُ ؟

وليتَ شعري ألمُ الصبرِ عنِ الشهواتِ أعظمُ شدَّةً وأطولُ مدَّةً ، أوْ ألمُ النارِ في دركاتِ جهنَّمَ ؟! فمَنْ لا يطيقُ الصبرَ علىٰ ألمِ المجاهدةِ كيفَ يطيقُ ألمَ عذابِ اللهِ ؟!

ما أراكِ تتوانينَ عنِ النظرِ لنفسِكِ إلا لكفرٍ خفيٍّ أوْ لحمقٍ جليٍّ :

أمَّا الكفرُ الخفيُّ . . فهوَ ضعفُ إيمانِكِ بيومِ الحسابِ ، وقلَّةُ معرفتِكِ بعظمِ قدْرِ الثوابِ والعقابِ .

وأمَّا الحمقُ الجليُّ . . فاعتمادُكِ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ وعفوِهِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ مكرِهِ واستدراجِهِ ، واستغنائِهِ عنْ عبادتِكِ ، معَ أنَّكِ لا تعتمدينَ علىٰ كرمِهِ في لقمةٍ مِنَ الخبزِ ، أوْ حبَّةٍ مِنَ المالِ ، أوْ كلمةٍ واحدةٍ تسمعينَها مِنَ الخلقِ ، بلْ تتوصَّلينَ إلىٰ غرضِكِ في ذلكَ بجميعِ الحيلِ ، وبهاذا الجهلِ تستحقينَ لقبَ الحماقةِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « الكيسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »(١) .

ويحَكِ يا نفسُ ! لا ينبغي أنْ تغرَّكِ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرنَّكِ باللهِ الغرورُ ، فانظري لنفسِكِ ؛ فما أمرُكِ بمهمٍّ لغيرِكِ ، ولا تضيِّعي أوقاتَكِ ، فالأنفاسُ معدودةٌ ، فإذا مضىٰ منكِ نَفَسٌ . . فقدْ ذهبَ بعضُكِ ، فاغتنمي

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وعندهما (والعاجز) بدل (والأحمق) .

الصحةَ قبلَ السقمِ ، والفراغَ قبلَ الشغلِ ، والغنىٰ قبلَ الفقرِ ، والشبابَ قبلَ الهرمِ ، والحياةَ قبلَ الموتِ ، واستعدي للآخرةِ علىٰ قدْرِ بقائِكِ فيها .

يا نفسُ ؛ أما تستعدِّينَ للشتاءِ بقدْرِ طولِ مدَّتِهِ ؛ فتجمعينَ لهُ القوتَ والكسوةَ والحطبَ وجميعَ الأسبابِ ، ولا تتكلينَ في ذلكَ علىٰ فضْلِ اللهِ وكرمِهِ حتىٰ يدفعَ عنكِ البردَ مِنْ غيرِ جبَّةٍ ولبْدٍ وحطبٍ وغيرِ ذلكَ ؛ فإنَّهُ قادرٌ علىٰ ذلكَ ، أفتظنينَ أيَّتُها النفسُ أنَّ زمهريرَ جهنَّمَ أخفُّ برداً أوْ أقصرُ مدَّةً مِنْ زمهريرِ الشتاءِ ؟! أفتظنينَ أنَّ العبدَ ينجو منها بغيرِ سعيٍ ؟! هيهاتَ ! كما لا يندفعُ بردُ الشتاءِ إلا بالجبَّةِ والنارِ وسائرِ الأسبابِ . . فلا يندفعُ حرُّ النارِ وبردُها إلا بحصنِ التوحيدِ وخندقِ الطاعاتِ ، وإنَّما كرمُ اللهِ تعالىٰ في أنْ عرَّفَكِ طريقَ التحصُّنِ ، ويسَّرَ لكِ أسبابَهُ ، لا في أنْ يدفعَ عنكِ العذابَ دونَ حصنِهِ ، كما أنَّ كرمَ اللهِ تعالىٰ في دفعِ بردِ الشتاءِ أنْ خلقَ النارَ ، وهداكِ لطريقِ استخراجِها مِنْ بينِ حديدةٍ وحجرٍ حتىٰ تدفعي بها بردَ الشتاءِ عنْ نفسِكِ ، وكما أنَّ شراءَ الحطبِ والجبةِ ممَّا يستغني عنهُ خالقُكِ ومولاكِ ، وإنَّما تشتريهِ لنفسِكِ ؛ إذْ خلقَهُ سبباً لاستراحتِكِ . . فطاعاتُكِ ومجاهداتُكِ أيضاً هوَ مستغنٍ عنها ، وإنَّما هيَ طريقُكِ إلىٰ نجاتِكِ ، فمَنْ أحسنَ . . فلنفسِهِ ، ومَنْ أساءَ . . فعليها ، واللهُ غنيٌّ عنِ العالمينَ .

ويحَكِ يا نفسُ ؛ انزعي عنْ جهلِكِ ، وقيسي آخرتَكِ بدنياكِ ، فما خلقُكُمْ ولا بعثُكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ، وكما بدأْنا أولَّ خلقٍ نعيدُهُ ، وكما بدأَكُمْ تعودونَ ، وسنةُ اللهِ تعالىٰ لا تجدينَ لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أراكِ إلا ألفتِ الدنيا وأنستِ بها ، فعسرَ عليكِ مفارقتُها وأنتِ مقبلةٌ علىٰ مقاربتِها ، وتؤكدينَ في نفسِكِ مودَّتَها ، فاحسبي أنَّكِ غافلةٌ عنْ عقابِ اللهِ وثوابِهِ ، وعنْ أهوالِ القيامةِ وأحوالِها ، فما أنتِ مؤمنةٌ بالموتِ المفرِّقِ بينَكِ وبينَ محابِّكِ ؟ أفتري أنَّ مَنْ يدخلُ دارَ ملكٍ ليخرجَ مِنَ الجانبِ الآخرِ ، فمدَّ بصرَهُ إلىٰ وجهٍ مليحٍ يعلمُ أنَّهُ يستغرقُ ذلكَ قلبَهُ ، ثمَّ يضطرُّ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مفارقتِهِ . . أهوَ معدودٌ مِنَ العقلاءِ أمْ مِنَ الحمقى ؟

أما تعلمينَ أنَّ الدنيا دارٌ لملكِ الملوكِ ، وما لكِ فيها إلا مجازٌ ، وكلُّ ما فيها لا يصحبُ المجتازينَ بها بعدَ الموتِ ، ولذلكَ قالَ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ[1] ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ ، وعشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ »[2] .

ويحَكِ يا نفسُ ! أما تعلمينَ أنَّ كلَّ مَنْ يلتفتُ إلىٰ ملاذِّ الدنيا ، ويأنسُ بها معَ أنَّ الموتَ مِنْ ورائِهِ . . فإنَّما يستكثرُ مِنَ الحسرةِ عندَ المفارقةِ ، وإنَّما يتزوَّدُ مِنَ السمِّ المهلكِ وهوَ لا يدري ؟! أوما تنظرينَ إلى الذينَ مضوا كيفَ

---

(١) في غير (ص) : (ما) بدل (من) .
(٢) رویٰ لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » عبد الرزاق في « المصنف » (١٢٥/١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٧/١٠) ، وتتمة الحديث رواها أبو نعيم في « الحلية » (٢٠٢/٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

بنوا وعلَوا ، ثمَّ ذهبوا وخلَّوا ، وكيفَ أورثَ اللهُ أرضَهُمْ وديارَهُمْ أعداءَهُمْ ، أما ترينَهُمْ[1] كيفَ يجمعونَ ما لا يأكلونَ ، ويبنونَ ما لا يسكنونَ ، ويؤملونَ ما لا يدركونَ ، يبني كلُّ واحدٍ قصراً مرفوعاً إلىٰ جهةِ السماءِ ، ومقرُّهُ قبرٌ محفورٌ تحتَ الأرضِ ، فهلْ في الدنيا حمقٌ وانتكاسٌ أعظمُ مِنْ هـٰذا ؟! يعمُرُ الواحدُ دنياهُ وهوَ مرتحلٌ عنها يقيناً ، ويخرِّبُ آخرتَهُ وهوَ صائرٌ إليها قطعاً ! أما تستحيينَ يا نفسُ مِنْ مساعدةِ هؤلاءِ الحمقىٰ علىٰ حماقتِهِمْ .

واحسبي أنَّكِ لستِ ذاتَ بصيرةٍ تهتدي إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ ، وإنَّما تميلينَ بالطبعِ إلى التشبُّهِ والاقتداءِ ، فقيسي عقلَ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ بعقلِ هؤلاءِ المكبِّينَ على الدنيا ، واقتدي مِنَ الفريقينِ بمَنْ هوَ أعقلُ عندَكِ إنْ كنتِ تعتقدينَ في نفسِكِ العقلَ والذكاءَ .

يا نفسُ ؛ ما أعجبَ أمرَكِ وأشدَّ جهلَكِ وأظهرَ طغيانَكِ ! عجباً لكِ ! كيفَ تعمينَ عنْ هـٰذهِ الأمورِ الواضحةِ الجليَّةِ ولعلَّكِ يا نفسُ أسكرَكِ حبُّ الجاهِ ، وأدهشَكِ عنْ فهمِها ، أوَما تتفكرينَ أنَّ الجاهَ لا معنىٰ لهُ إلا ميلُ القلوبِ منْ بعضِ الناسِ إليكِ ؟ فاحسبي أنَّ كلَّ مَنْ علىٰ وجهِ الأرضِ سجدَ لكِ وأطاعَكِ ، أفما تعرفينَ أنَّهُ بعدَ خمسينَ سنةً لا تبقينَ أنتِ ولا أحدٌ ممَّنْ علىٰ وجهِ الأرضِ ممَّنْ عبدَكِ وسجدَ لكِ ، وسيأتي زمانٌ لا يبقىٰ ذكرُكِ ولا ذكرُ مَنْ ذكرَكِ ؛ كما أتىٰ على الملوكِ الذينَ كانوا مِنْ قبلِكِ ،

---

(١) في جميع النسخ : (أما تراهم) ، والمثبت من (ق) .

فـ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، فكيفَ تبيعينَ يا نفسُ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ بما لا يبقىٰ أكثرَ مِنْ خمسينَ سنةً إنْ بقيَ ؟! هـٰذا إنْ كنتِ ملكاً مِنْ ملوكِ الأرضِ ، سلمَ لكِ الشرقُ والغربُ ، حتىٰ أذعنَتْ لكِ الرقابُ ، وانتظمَتْ لكِ الأسبابُ ، كيفَ ويأبىٰ إدبارُكِ وشقاوتُكِ أنْ يسلمَ لكِ أمرُ محلتِكِ ، بلْ أمرُ داركِ فضلاً عنْ محلتِكِ ؟! فإنْ كنتِ يا نفسُ لا تتركينَ الدنيا رغبةً في الآخرةِ لجهلِكِ وعمىٰ بصيرتِكِ . . فما لكِ لا تتركينَها ترفُّعاً عنْ خسَّةِ شركائِها ، وتنزُّهاً عنْ كثرةِ عنائِها ، وتوقِّياً مِنْ سرعةِ فنائِها ؟! أمْ ما لكِ لا تزهدينَ في قليلِها بعدَ أنْ زهدَ فيكِ كثيرُها ؟! وما لكِ تفرحينَ بدنيا إنْ ساعدَتْكِ . . فلا تخلو بلدُكِ عنْ جماعةٍ منَ اليهودِ والمجوسِ يسبقونَكِ بها ، ويزيدونَ عليكِ في نعيمِها وزينتِها ، فأفٍّ لدنيا يسبقُكِ بها هؤلاءِ الأخسَّاءُ ، فما أجهلَكِ وأخسَّ همَّتَكِ وأسقطَ رأيَكِ ! إذْ رغبتِ عنْ أنْ تكوني في زمرةِ المقرَّبينَ مِنَ النبيينَ والصدِّيقينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ أبدَ الآبدينِ ؛ لتكوني في صفِّ النعالِ مِنْ جملةِ الحمقى الجاهلينَ أياماً قلائلَ ، فيا حسرةً عليكِ إذْ خسرتِ الدنيا والدينَ .

فبادري ـ ويحَكِ يا نفسُ ـ فقدْ أشرفتِ على الهلاكِ ، واقتربَ الموتُ ، ووردَ النذيرُ ، فمَنْ ذا يصلِّي عنكِ بعدَ الموتِ ، ومَنْ ذا يصومُ عنكِ بعدَ الموتِ ، ومَنْ ذا يترضَّىٰ عنكِ ربَّكِ بعدَ الموتِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! ما لكِ إلا أيامٌ معدودةٌ هيَ بضاعتُكِ ، إنِ اتجرتِ فيها وقدْ ضيَّعتِ أكثرَها ؛ فلوْ بكيتِ بقيةَ عمركِ علىٰ ما ضيَّعتِ منها . . لكنتِ

مقصرةً في حقِّ نفسِكِ ، فكيفَ إذا ضيَّعتِ البقيةَ وأصررتِ علىٰ عادتِكِ ؟!

أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّ الموتَ موعدُكِ ، والقبرَ بيتُكِ ، والترابَ فراشُكِ ، والدودَ أنيسُكِ ، والفزعَ الأكبرَ بينَ يديكِ ، أما علمتِ يا نفسُ أنَّ عسكرَ الموتىٰ علىٰ بابِ البلدِ ينتظرونَكِ ، وقدْ آلوا كلُّهُمْ علىٰ أنفسِهِمْ بالأيمانِ المغلَّظةِ أنَّهُمْ لا يبرحونَ مِنْ مكانِهِمْ ما لمْ يأخذوكِ معَهُمْ .

أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّهُمْ يتمنَّونَ الرجعةَ إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتداركِ ما فرطَ منهُمْ ، وأنتِ في أمنيَّتِهِمْ ، ويومٌ مِنْ عمرِكِ لوْ بيعَ منهم بالدنيا بحذافيرِها . . لاشتروهُ لوْ قدروا عليهِ ، وأنتِ تضيعينَ أيَّامَكِ في الغفلةِ والبطالةِ .

ويحَكِ يا نفسُ ! أما تستحيينَ ؟! تزيِّنينَ ظاهرَكِ للخلقِ ، وتبارزينَ اللهَ في السرِّ بالعظائمِ ، أفتستحيينَ مِنَ الخلقِ ولا تستحيينَ مِنَ الخالقِ ؟! ويحَكِ ! أهوَ أهونُ الناظرينَ عليكِ ؟! أتأمرينَ الناسَ بالخيرِ وأنتِ متلطِّخةٌ بالرذائلِ ، تدعينَ إلى البرِّ وأنتِ منهُ فارَّةٌ ، وتذكرينَ باللهِ وأنتِ لهُ ناسيةٌ ، أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّ المذنبَ أنتنُ مِنَ العذرةِ ، وأنَّ العذرةَ لا تطهِّرُ غيرَها ؟! فلِمَ تطمعينَ في تطهيرِ غيرِكِ وأنتِ غيرُ طيِّبةٍ في نفسِكِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! لوْ عرفتِ نفسَكِ حقَّ المعرفةِ . . لظننتِ أنَّ الناسَ ما يصيبُهُمْ بلاءٌ إلا بشؤمِكِ .

ويحَكِ يا نفسُ ! قدْ جعلتِ نفسَكِ حماراً لإبليسَ يقودُكِ إلىٰ حيثُ

يريدُ ، ويسخرُ بكِ ، ومعَ هـٰذا فتعجبينَ بعملِكِ وفيهِ مِنَ الآفاتِ ما لوْ نجوتِ منها رأساً برأسٍ . . لكانَ الربحُ في يديكِ ، وكيفَ تعجبينَ بعملِكِ معَ كثرةِ خطاياكِ وزلَلِكِ ، وقدْ لعنَ اللهُ إبليسَ بخطيئةٍ واحدةٍ بعدَ أنْ عبدَهُ مئتي ألفِ سنةٍ ، وأخرجَ آدمَ مِنَ الجنةِ بخطيئةٍ واحدةٍ معَ كونِهِ نبيَّهُ وصفيَّهُ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أغدَرَكِ !

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أوقحَكِ !

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أجهلَكِ وما أجرأَكِ على المعاصي !

ويحَكِ كمْ تعقدينَ فتنقضينَ .

ويحَكِ كمْ تعهدينَ فتغدرينَ .

ويحَكِ يا نفسُ ! أتشتغلينَ معَ هـٰذهِ الخطايا بعمارةِ دنياكِ كأنَّكِ غيرُ مرتحلةٍ عنها ؟! أما تنظرينَ إلىٰ أهلِ القبورِ كيفَ كانوا جمعوا كثيراً ، وبنَوا مشيداً ، وأمَّلوا بعيداً ، فأصبحَ جمعُهُمْ بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملُهُمْ غروراً ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! أما لكِ بهِمْ عبرةٌ ؟! أما لكِ إليهِمْ نظرةٌ ؟! أتظنينَ أنَّهُمْ دعوا إلى الآخرةِ وأنتِ مِنَ المخلَّدينَ ؟! هيهاتَ هيهاتَ ! ساءَ ما تتوهَّمينَ ، ما أنتِ إلا في هدمِ عمرِكِ منذُ سقطتِ مِنْ بطنِ أمِّكِ ، فابني علىٰ وجهِ الأرضِ قصرَكِ ، فإنَّ بطنَها عنْ قليلٍ يكونُ قبرَكِ ! أما تخافينَ إذا بلغَتِ النفسُ منكِ التراقيَ أنْ تبدوَ رسلُ ربِّكِ منحدرةً إليكِ بسوادِ الألوانِ ، وكلَحِ

الوجوهِ ، وبشرى العذابِ ؟! فهلْ ينفعُكِ حينئذٍ الندمُ ، أوْ يُقبلُ منكِ الحزنُ ، أوْ يُرحمُ منكِ البكاءُ ؟

والعجبُ كلُّ العجبِ منكِ يا نفسُ أنَّكِ معَ هـٰذا تدَّعينَ البصيرةَ والفطنةَ ، ومِنْ فطنتِكِ أنَّكِ تفرحينَ كلَّ يومٍ بزيادةِ مالِكِ ، ولا تحزنينَ بنقصانِ عمرِكِ ، وما نفعُ مالٍ يزيدُ وعمرٍ ينقصُ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! تعرضينَ عنِ الآخرةِ وهيَ مقبلةٌ عليكِ ، وتقبلينَ على الدنيا وهيَ معرضةٌ عنكِ ، فكمْ مِنْ مستقبلٍ يوماً لمْ يستكملْهُ ، وكمْ مِنْ مؤمِّلٍ لغدٍ لمْ يبلغْهُ ، فأنتِ تشاهدينَ ذلكَ في إخوانِكِ وأقاربِكِ وجيرانِكِ ، وترينَ تحسُّرَهُمْ عندَ الموتِ ، ثمَّ لا ترجعينَ عنْ جهالتِكِ !

فاحذري أيَّتُها النفسُ المسكينةُ يوماً آلى اللهُ فيهِ علىٰ نفسِهِ ألا يتركَ عبداً أمرَهُ في الدنيا ونهاهُ حتىٰ يسألَهُ عنْ عملِهِ ؛ دقيقِهِ وجليلِهِ ، سرِّهِ وعلانيتِهِ ، فانظري يا نفسُ بأيِّ بدنٍ تقفينَ بينَ يديِ اللهِ ؟ وبأيِّ لسانٍ تجيبينَ ؟ وأَعدِّي للسؤالِ جواباً ، وللجوابِ صواباً ، واعملي بقيَّةَ عمرِكِ في أيامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ ، وفي دارِ زوالٍ لدارِ مُقامةٍ ، وفي دارِ حزنٍ ونصَبٍ لدارِ نعيمٍ وخلودٍ ، اعملي قبلَ ألا تعملي ، اخرجي مِنَ الدنيا اختياراً خروجَ الأحرارِ قبلَ أنْ تخرجي منها على الاضطرارِ ، ولا تفرحي بما يساعدُكِ مِنْ زهراتِ الدنيا ، فربَّ مسرورٍ مغبونٌ ، وربَّ مغبونٍ لا يشعرُ ، فويلٌ لمَنْ لهُ الويلُ ثمَّ لا يشعرُ ، يضحكُ ويفرحُ ، ويلهو ويمرحُ ، ويأكلُ ويشربُ ، وقدْ حقَّ لهُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ مِنْ وقودِ النارِ !

فليكنْ نظرُكِ يا نفسُ إلى الدنيا اعتباراً ، وسعيُكِ لها اضطراراً ، ورفضُكِ لها اختياراً ، وطلبُكِ للآخرةِ ابتداراً ، ولا تكوني ممَّنْ يعجزُ عنْ شكرِ ما أُوتيَ ، ويبتغي الزيادةَ فيما بقيَ ، وينهى الناسَ ولا ينتهي .

واعلمي يا نفسُ أنَّهُ ليسَ للدينِ عوضٌ ، ولا للإيمانِ بدلٌ ، ولا للجسدِ خلفٌ ، ومَنْ كانَتْ مطيَّتُهُ الليلَ والنهارَ . . فإنَّهُ يُسارُ بهِ وإنْ لمْ يسرْ .

فاتعظي يا نفسُ بهـٰذهِ الموعظةِ ، واقبلي هـٰذهِ النصيحةَ ، فإنَّ مَنْ أعرضَ عنِ الموعظةِ . . فقدْ رضيَ بالنارِ ، وما أراكِ بها راضيةً ، ولا لهـٰذهِ الموعظةِ واعيةً ، فإنْ كانَتِ القساوةُ تمنعُكِ عنْ قبولِ الموعظةِ . . فاستعيني عليها بدوامِ التهجُّدِ والقيامِ ؛ فإنْ لمْ تزلْ . . فبالمواظبةِ على الصيامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فبقلةِ المخالطةِ والكلامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فبصلةِ الأرحامِ ، واللطفِ بالأيتامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فاعلمي أنَّ اللهَ قدْ طبعَ علىٰ قلبِكِ وأقفلَ عليهِ ، وأنَّهُ قدْ تراكمَتْ ظلمةُ الذنوبِ علىٰ ظاهرِهِ وباطنِهِ ، فوطِّني نفسَكِ على النارِ ، فقدْ خلقَ اللهُ الجنةَ وخلقَ لها أهلاً ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلاً ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ ، فإنْ لمْ يبقَ فيكِ مجالٌ للوعظِ . . فاقنطي مِنْ نفسِكِ ، والقنوطُ كبيرةٌ مِنَ الكبائرِ نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، فلا سبيلَ لكِ إلى القنوطِ ، ولا سبيلَ لكِ إلى الرجاءِ معَ انسدادِ طرقِ الخيرِ عليكِ ، فإنَّ ذلكَ اغترارٌ وليسَ برجاءٍ ، فانظري الآنَ هلْ يأخذُكِ حزنٌ علىٰ هـٰذهِ المصيبةِ التي ابتليتِ بها ؟ وهلْ تسمحُ عينُكِ بدمعةٍ رحمةً منكِ علىٰ نفسِكِ ، فإنْ

سمحَتْ . . فمستقى الدمعِ مِنْ بحرِ الرحمةِ ، فقدْ بقيَ فيكِ موضعٌ للرجاءِ ، فواظبي على النياحةِ والبكاءِ ، واستغيثي بأرحمِ الراحمينَ ، واشتكي إلىٰ أكرمِ الأكرمينَ ، وأدمني الاستغاثةَ ، ولا تملِّي طولَ الشكايةِ ؛ لعلَّهُ أَنْ يرحمَ ضعفَكِ ويغيثَكِ ، فإنَّ مصيبتكِ قدْ عظمَتْ ، وبليتكِ قدْ تفاقمَتْ ، وتماديَكِ قدْ طالَ ، وقدِ انقطعَتْ منكِ الحيلُ ، وراحَتْ عنكِ العللُ ، فلا مذهبَ ولا مطلبَ ، ولا مستغاثَ ولا مهربَ ، ولا ملجأَ ولا منجىٰ إلا إلىٰ مولاكِ ، فافزعي إليهِ بالتضرُّعِ ، واخشعي في تضرُّعِكِ علىٰ قدْرِ عظمِ جهلِكِ وكثرةِ ذنوبِكِ ؛ لأنَّهُ يرحمُ المتضرِّعَ الذليلَ ، ويغيثُ الطالبَ المتلهِّفَ ، ويجيبُ دعوةَ المضطرِّ .

وقدْ أصبحتِ واللهِ إليهِ اليومَ مضطرةً ، وإلىٰ رحمتِهِ محتاجةً ، وقدْ ضاقَتْ بكِ السبلُ ، وانسدَّتْ عليكِ الطرقُ ، وانقطعَتْ منكِ الحيلُ ، ولمْ تنجعْ فيكِ العظاتُ ، ولمْ يكسركِ التوبيخُ ، فالمطلوبُ منهُ كريمٌ ، والمسؤولُ جوادٌ ، والمستغاثُ بهِ برٌّ رؤوفٌ ، والرحمةُ واسعةٌ ، والكرمُ فائضٌ ، والعفوُ شاملٌ ، وقُولي : (يا أرحمَ الراحمينَ ، يا رحمانُ ، يا رحيمُ ، يا حليمُ ، يا عظيمُ ، يا كريمُ ؛ أنا المذنبُ المصرُّ ، أنا الجريءُ الذي لا أقلعُ ، أنا المتمادي الذي لا أستحي ، هـٰذا مقامُ المتضرِّعِ المسكينِ ، والبائسِ الفقيرِ ، والضعيفِ الحقيرِ ، والهالكِ الغريقِ ؛ فعجِّلْ إغاثتي وفرجي ، وأرني آثارَ رحمتِكَ ، وأذقْني بردَ عفوِكَ ومغفرتِكَ ، وارزقْني قوَّةَ عصمتِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ) اقتداءً بأبيكِ آدمَ عليهِ السلامُ ، فقدْ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ :

لما أهبطَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدمَ إلى الأرضِ مِنَ الجنةِ . . مكثَ لا ترقأُ لهُ دمعةٌ ، فاطلعَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ في اليومِ السابعِ وهوَ محزونٌ كئيبٌ كظيمٌ منكِّسٌ رأسَهُ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ما هـٰذا الجهدُ الذي أرىٰ بكَ ؟ قالَ : يا ربِّ ؛ عظمَتْ مصيبتي ، وأحاطَتْ بي خطيئتي ، وأُخرجتُ مِنْ ملكوتِ ربِّي ، فصرتُ في دارِ الهوانِ بعدَ الكرامةِ ، وفي دارِ الشقاءِ بعدَ السعادةِ ، وفي دارِ النصبِ بعدَ الراحةِ ، وفي دارِ البلاءِ بعدَ العافيةِ ، وفي دارِ الزوالِ بعدَ القرارِ ، وفي دارِ الموتِ والفناءِ بعدَ الخلودِ والبقاءِ ، فكيفَ لا أبكي علىٰ خطيئتي ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ألَمْ أصطفِكَ لنفسي ، وأحللتُكَ داري ، وخصصتُكَ بكرامتي ، وحذَّرتُكَ سخطي ؟ ألَمْ أخلقْكَ بيدي ، ونفختُ فيكَ مِنْ روحي ، وأَسجدتُ لكَ ملائكتي ، فعصيتَ أمري ، ونسيتَ عهدي ، وتعرَّضتَ لسخطي ، فوعزَّتي وجلالي ؛ لوْ ملأْتُ الأرضَ رجالاً كلَّهُمْ مثلَكَ ، يعبدونَني ويسبِّحونَني ثمَّ عصوني . . لأنزلتُهُمْ منازلَ العاصينَ ، فبكىٰ آدمُ عليهِ السلامُ عندَ ذلكَ ثلاثَ مئةِ عامٍ[1] .

وكانَ عبيدُ اللهِ البجليُّ كثيرَ البكاءِ[2] ، يقولُ في بكائِهِ طولَ ليلِهِ : (إلـٰهي ؛ أنا الذي كلَّما طالَ عمري . . زادَتْ ذنوبي ، أنا الذي كلَّما هممتُ

---

(١) رواه ابن قدامة في « التوابين » (ص ٩) ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (١/١٥) عن الحسن : (بكىٰ آدم على الجنة ثلاث مئة سنة) .
(٢) في غير (ف) : (عبد الله) بدل (عبيد الله) .

بتركِ خطيئةٍ . . عرضَتْ لي شهوةٌ أخرىٰ ، وا عبيداهُ ؛ خطيئةٌ لمْ تبلَ وصاحبُها في طلبِ أخرى ! وا عبيداهُ ؛ إنْ كانَتِ النارُ لكَ مقيلاً ومأوىً ، وا عبيداهُ ؛ إنْ كانَتِ المقامعُ لرأسِكَ تهيَّأُ ، وا عبيداهُ ؛ قُضيَتْ حوائجُ الطالبينَ ولعلَّ حاجتكَ لا تُقضىٰ) .

وقالَ منصورُ بنُ عمَّارٍ : سمعتُ في بعضِ الليالي بالكوفةِ عابداً يناجي ربَّهُ وهوَ يقولُ : (يا ربِّ ؛ وعزَّتِكَ ما أردتُ بمعصيتِكَ مخالفتَكَ ، ولا عصيتُكَ إذْ عصيتُكَ وأنا بمكانِكَ جاهلٌ ، ولا لعقوبتِكَ متعرِّضٌ ، ولا لنظرِكَ مستخفٌّ ، ولكنْ سوَّلَتْ لي نفسي ، وأعانَني علىٰ ذلكَ شِقوتي ، وغرَّني سترُكَ المرخيُّ عليَّ ، فعصيتُكَ بجهلي ، وخالفتُكَ بفعلي ، فمِنْ عذابِكَ الآنَ مَنْ يستنقذُني ، أوْ بحبلِ مَنْ أعتصمُ إنْ قطعتَ حبلَكَ عنِّي ؟ واسوءتاهُ مِنَ الوقوفِ بينَ يديكَ غداً إذا قيلَ للمخفِّينَ : جوزوا ، وقيلَ للمثقلينَ : حُطُّوا ، أمعَ المخفِّينَ أجوزُ أمْ معَ المثقلينَ أحطُّ ؟ ويلي ! كلَّما كبرَتْ سنِّي . . كثرَتْ ذنوبي ، ويلي ! كلَّما طالَ عمري . . كثرَتْ معاصيَّ ، فمِنْ كمْ أتوبُ ؟ وفي كمْ أعودُ ؟ أما آنَ لي أنْ أستحييَ مِنْ ربِّي ؟)[1] .

فهٰذهِ طرقُ القومِ في مناجاةِ مولاهُمْ ، وفي معاتبةِ نفوسِهِمْ ، وإنَّما مطلبُهُمْ مِنَ المناجاةِ الاسترضاءُ ، ومقصدُهُمْ مِنَ المعاتبةِ التنبيهُ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٢٨) ، وفي (ج ، ص) : (فإلىٰ متىٰ أتوب ؟ وإلىٰ متىٰ أعود ؟) بدل (فمن كم أتوب ؟ وفي كم أعود) ؟ .

والاسترعاءُ ، فمَنْ أهملَ المعاتبةَ والمناجاةَ . . لمْ يكنْ لنفسِهِ مراعياً ، ويوشكُ ألا يكونَ اللهُ تعالىٰ عنهُ راضياً ، والسلامُ .

* * *

تمّ كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثّامن من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّدٍ وآله أجمعين

يتلوه كتاب التفكّر

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب التفكّر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لمْ يقدرْ لانتهاءِ عزَّتِهِ نحواً ولا قُطراً[١] ، ولمْ يجعلْ لمراقي أقدامِ الأوهامِ ومرمىٰ سهامِ الأفهامِ إلىٰ حمىٰ عظمتِهِ مجرىً ، بلْ تركَ قلوبَ الطالبينَ في بيداءِ كبريائِهِ والهةً حيرىٰ ، كلَّما اهتزَّتْ لنيلِ مطلوبِها . . ردَّتْها سُبُحاتُ الجلالِ قسراً ، وإذا همَّتْ بالانصرافِ آيسةً . . نُوديَتْ مِنْ سرادقاتِ الجمالِ صبراً صبراً ، ثمَّ قيلَ لها : أجيلي في ذلِّ العبوديةِ منكِ فكراً ؛ لأنَّكِ لوْ تفكَّرتِ في جلالِ الربوبيَّةِ . . لمْ تقدري لهُ قدْراً ، وإنْ طلبتِ وراءَ التفكُّرِ في صفاتِكِ أمراً . . فانظري في نعمِ اللهِ تعالىٰ وأياديهِ كيفَ توالَتْ عليكِ تترىٰ ، وجدِّدي لكلِّ نعمةٍ منها ذكراً وشكراً ، وتأمَّلي في بحارِ المقاديرِ كيفَ فاضَتْ على العالمينَ خيراً وشرّاً ، ونفعاً وضُراً ، وعسراً ويسراً ، وفوزاً وخُسراً ، وجبراً وكسراً ، وطيّاً ونشراً ، وإيماناً وكفراً ، وعرفاناً ونُكراً ، فإنْ جاوزتِ النظرَ في الأفعالِ إلى النظرِ في الذاتِ . . فقدْ حاولتِ أَمراً إِمْراً ، وخاطرتِ بنفسكِ مجاوزةً حدَّ طاقةِ البشريَّةِ ظلماً

(١) أي : لم يجعل لغلبته الآتية علىٰ كل الظاهر والباطن جهة ولا ناحية . « إتحاف » (١٠/ ١٦٠) .

وجوراً ، فقدِ انبهرَتِ العقولُ دونَ مبادي إشراقِهِ وانتكصَتْ علىٰ أعقابِها اضطراراً وقهراً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ ولدِ آدمَ وإنْ كانَ لمْ يعدَّ سيادتَهُ فخراً[1] ، صلاةً تبقىٰ لنا في عرصاتِ القيامةِ عُدَّةً وذخراً ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ الذينَ أصبحَ كلُّ واحدٍ منهُمْ في سماءِ الدينِ بدراً ، ولطوائفِ المسلمينَ صدراً ، وسلِّمْ تسليماً كثيراً .

أمّا بعـد :

فقدْ وردَتِ السنَّةُ بأنَّ تفكُّرَ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ[2] ، وكثُرَ الحثُّ في كتابِ اللهِ تعالىٰ على التدبُّرِ والاعتبارِ ، والنظرِ والافتكارِ ، ولا يخفىٰ أنَّ الفكرَ هوَ مفتاحُ الأنوارِ ، ومبدأُ الاستبصارِ ، وهوَ شبكةُ العلومِ ، ومصيدةُ المعارفِ والفهومِ ، وأكثرُ الناسِ قدْ عرفوا فضلَهُ ورتبتَهُ ، ولكنْ جهلوا حقيقتَهُ وثمرتَهُ ، ومصدرَهُ وموردَهُ ، ومجراهُ ومسرحَهُ ، وطريقَهُ وكيفيتَهُ ،

---

(١) إذ روى الترمذي (٣١٤٨) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(٢) إذ روىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه : « تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » .
وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة) .

ولمْ يعلمْ أنَّهُ كيفَ يتفكَّرُ ؟ وفيماذا يتفكَّرُ ؟ ولماذا يتفكَّرُ ؟ وما الذي يُطلبُ بهِ ؟ أهوَ مرادٌ لعينِهِ ، أمْ لثمرةٍ تُستفادُ منهُ ؟ فإنْ كانَ لثمرةٍ . . فما تلكَ الثمرةُ ؟ أهيَ مِنَ العلومِ ، أوْ مِنَ الأحوالِ ، أوْ منهُما جميعاً ؟

وكشفُ جميعِ ذلكَ مهمٌّ ، ونحنُ نذكرُ أوَّلاً فضيلةَ التفكُّرِ ، ثمَّ حقيقةَ التفكُّرِ وثمرتَهُ ، ثمَّ مجاريَ الفكرِ ومسارحَهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

فضيلة التفكر

قدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالتفكُّرِ والتدبُّرِ في كتابِهِ العزيزِ في مواضعَ لا تُحصىٰ ، وأثنىٰ على المتفكرينَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ .

وقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّ قوماً تفكَّروا في اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تفكَّروا في خلْقِ اللهِ ، ولا تتفكَّروا في اللهِ ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقدروا قدرَهُ »(١) .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ خرجَ علىٰ قومٍ ذاتَ يومٍ وهُمْ يتفكَّرونَ ، فقالَ : « ما لكمْ لا تتكلَّمونَ ؟ » فقالوا : نتفكَّرُ في خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ : « فكذلكَ فافعلوا ، تفكَّروا في خلقِهِ ، ولا تتفكَّروا فيهِ ، فإنَّ بهٰذا المغربِ أرضاً بيضاءَ ، نورُها بياضُها أو بياضُها نورُها مسيرةَ الشمسِ أربعينَ يوماً ، بها خلقٌ مِنْ خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ لمْ يعصوا اللهَ طرفةَ عينٍ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ فأينَ الشيطانُ منهُمْ ؟ قالَ : « ما يدرونَ خُلِقَ الشيطانُ

---

(١) كذا رواه الخركوشي بسنده في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٣) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٢٧١ ، ٣٨٩) ، ورواه من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٦٦) ، ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (١١٩) .

أم لا » ، قالوا : مِنْ ولدِ آدمَ ؟ قالَ : « لا يدرونَ خُلِقَ آدمُ أمْ لا »(١) .

وعنْ عطاءٍ قالَ : انطلقتُ يوماً أنا وعبيدُ بنُ عميرٍ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فكلَّمتْنا وبيننا وبينَها حجابٌ ، فقالَتْ : يا عبيدُ ؛ ما يمنعُكَ مِنْ زيارتِنا ؟ قالَ : قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زُرْ غبّاً تزددْ حبّاً »(٢) ، قالَ ابنُ عميرٍ : فأخبرينا بأعجبِ شيءٍ رأيتِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فبكَتْ وقالَتْ : كلُّ أمرِهِ كانَ عجباً ، أتاني في ليلتي ، حتىٰ مسَّ جلدُهُ جلدي ، ثمَّ قالَ : « ذريني أتعبَّدُ لربِّي عزَّ وجلَّ » ، فقامَ إلى القربةِ فتوضَّأَ منها ، ثمَّ قامَ يصلِّي ، فبكىٰ حتىٰ بلَّ لحيتَهُ ، ثمَّ سجدَ حتىٰ بلَّ الأرضَ ، ثمَّ اضطجعَ علىٰ جنبِهِ حتىٰ أتىٰ بلالٌ يؤذنُهُ بصلاةِ الصبحِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « ويحَكَ يا بلالُ ! وما يمنعُني أنْ أبكيَ وقدْ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليَّ في هـٰذهِ الليلةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ » ، ثمَّ قالَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَها ولمْ يتفكَّرْ فيها »(٣) .

---

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٣) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٣) عن بعض أئمة الكوفة يرفعه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن الجوزي في « المنتظم » (١/٦١) عن عثمان بن أبي دهرس بلاغاً .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٣٤٧) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٤) ، ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في « التفكر » كما أشار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/١٦٣) .

فقيلَ للأوزاعيِّ : ما غايةُ التفكُّرِ فيهنَّ ؟ قالَ : يقرؤُهُنَّ ويعقلُهُنَّ(١) .

وعنْ محمدِ بنِ واسعٍ : أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ البصرةِ ركبَ إلىٰ أمِّ ذرٍّ بعدَ موتِ أبي ذرٍّ ، فسألَها عنْ عبادةِ أبي ذرٍّ ، فقالَتْ : كانَ نهارَهُ أجمعَ في ناحيةِ البيتِ يتفكَّرُ(٢) .

وعنِ الحسنِ قالَ : (تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ)(٣) .

وعنِ الفضيلِ قالَ : (الفكر مرآةٌ تريكَ حسناتِكَ وسيئاتِكَ)(٤) .

وقيلَ لإبراهيمَ : إنَّكَ تطيلُ الفكرةَ ، فقالَ : الفكرةُ مخُّ العقلِ(٥) .

وكانَ سفيانُ بنُ عيينةَ كثيراً ما يتمثَّلُ ويقولُ(٦) : [من المتقارب]

إذا ٱلْمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِكْـرَةٌ ... فَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِبْـرَةٌ

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٤) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٣) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٤) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧١) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٨) عن الفضيل عن الحسن من قوله .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٨) مع الخبر السابق .

(٦) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٦) ، وانظر « المدهش » (١/ ٣٦٨) .

وعنْ طاووسٍ قالَ : قالَ الحواريُّونَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ : يا روحَ اللهِ ؛ هلْ على الأرضِ اليومَ مثلُكَ ؟ فقالَ : نعمْ ، مَنْ كانَ منطقُهُ ذكراً ، وصمتُهُ فكراً ، ونظرُهُ عبرةً . . فإنَّهُ مثلي[١] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ لمْ يكنْ كلامُهُ حكمةً . . فهوَ لغوٌ ، ومَنْ لمْ يكنْ سكوتُهُ تفكُّراً . . فهوَ سهوٌ ، ومَنْ لمْ يكنْ نظرُهُ اعتباراً . . فهوَ لهوٌ)[٢] .

وفي قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، قالَ : أمنعُ قلوبَهُمُ التفكُّرَ في أمري[٣] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعطوا أعينَكُمْ حظَّها مِنَ العبادةِ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما حظُّها مِنَ العبادةِ ؟ قالَ : « النظرُ في المصحفِ والتفكُّرُ فيهِ ، والاعتبارُ عندَ عجائبِهِ »[٤] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (١١) عن الفريابي .

(٤) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٦٤) : (قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » ، ومن طريقه أبو الشيخ في « العظمة » [١٢] بإسناد ضعيف ، انتهىٰ ، قلت : ورواه أيضاً الحكيم في « النوادر » [ص٣٣٣] ، والبيهقي في « الشعب » [٢٠٣٠] وضعفه) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) .

وعنِ امرأةٍ كانَتْ تسكنُ الباديةَ قريباً مِنْ مكةَ أنَّها قالَتْ : (لوْ تطالعَتْ قلوبُ المتقينَ بفكرِها إلىٰ ما قدْ ذُخِرَ لها في حجبِ الغيوبِ مِنْ خيرِ الآخرةِ . . لمْ يصفُ لهُمْ في الدنيا عيشٌ ، ولمْ تقرَّ لهُمْ في الدنيا عينٌ)(١) .

وكانَ لقمانُ يطيلُ الجلوسَ وحدَهُ ، فكانَ يمرُّ بهِ مولاهُ فيقولُ : يا لقمانُ ؛ إنَّكَ تديمُ الجلوسَ وحدَكَ ، فلوْ جلستَ معَ الناسِ كانَ آنسَ لكَ ، فيقولُ لقمانُ : إنَّ طولَ الوحدةِ أفهمُ للفكرِ ، وطولُ الفكرةِ دليلٌ علىٰ طريقِ الجنةِ(٢) .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (ما طالَتْ فكرةُ امرىءٍ قطُّ إلا علمَ ، وما علمَ امرؤٌ قطُّ إلا عملَ)(٣) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (الفكرةُ في نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ أفضلِ العبادةِ)(٤) .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٧) .
(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .
(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٥٦) .
(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ يوماً لسهلِ بنِ عليٍّ ورآهُ ساكتاً متفكِّراً : أينَ بلغتَ ؟ قالَ : الصراطَ[1] .

وقالَ بشرٌ : (لوْ تفكَّرَ الناسُ في عظمةِ اللهِ تعالىٰ . . ما عصَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ)[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكُّرٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ بلا قلبٍ)[3] .

وبينا أبو شريحٍ يمشي . . إذْ جلسَ فتقنَّعَ بكسائِهِ ، فجعلَ يبكي ، فقلنا : ما يبكيكَ ؟ قالَ : تفكَّرتُ في ذهابِ عمري ، وقلَّةِ عملي ، واقترابِ أجلي[4] .

وقالَ أبو سليمانَ : (عوِّدوا أعينَكُمُ البكاءَ ، وقلوبَكُمُ التفكُّرَ)[5] .

وقالَ أبو سليمانَ : (الفكرُ في الدنيا حجابٌ عنِ الآخرةِ ، وعقوبةٌ لأهلِ

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٧) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٨٨) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العمر والشيب » (٢٢) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٤) ، وأبو سليمان هو الداراني .

الولايةِ ، والفكرُ في الآخرةِ يورثُ الحكمةَ ، ويحيي القلوبَ)(١) .

وقالَ حاتمٌ : (مِنَ العبرةِ يزيدُ العلمُ ، ومِنَ الذكرِ يزيدُ الحبُّ ، ومِنَ التفكُّرِ يزيدُ الخوفُ)(٢) .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (التفكُّرُ في الخيرِ يدعو إلى العملِ بهِ ، والندمُ على الشرِّ يدعو إلىٰ تركِهِ)(٣) .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ في بعضِ كتبِهِ : « إنِّي لستُ أقبلُ كلامَ كلِّ حكيمٍ ، ولكنْ أنظرُ إلىٰ همِّه وهواهُ ، فإذا كانَ همُّهُ وهواهُ لي . . جعلتُ صمتَهُ تفكُّراً ، وكلامَهُ حمداً وإنْ لمْ يتكلَّمْ »(٤) .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ أهلَ العقلِ لمْ يزالوا يعودونَ بالذكرِ على الفكرِ ، وبالفكرِ على الذكرِ ، حتى استنطقوا قلوبَهُمْ ، فنطقَتْ بالحكمةِ)(٥) .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٨) ضمن خبر طويل .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه الدارمي في « سننه » (٢٥٨) عن المهاصر بن حبيب مرسلاً ، وفيه : (جعلت صمته حمداً لي ووقاراً وإن لم يتكلم) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩) ، وزاد في رواية : (وورثوا السر) .

وقالَ إسحاقُ بنُ خلفٍ : كانَ داوودُ الطائيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ سطحٍ في ليلةٍ قمراءَ ، فتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وهوَ ينظرُ إلى السماءِ ويبكي حتىٰ وقعَ في دارِ جارٍ لهُ ، قالَ : فوثبَ صاحبُ الدارِ مِنْ فراشِهِ عرياناً وبيدِهِ سيفٌ ، وظنَّ أنَّهُ لصٌّ ، فلمَّا نظرَ إلىٰ داوودَ . . رجعَ ووضعَ السيفَ وقالَ : مَنْ ذا الذي طرحَكَ مِنَ السطحِ ؟ قالَ : ما شعرتُ بذلكَ(١) .

وقالَ الجنيدُ : (أشرفُ المجالسِ وأعلاها الجلوسُ معَ الفكرةِ في ميدانِ التوحيدِ ، والتنسُّمُ بنسيمِ المعرفةِ ، والشربُ بكأسِ المحبَّةِ مِنْ بحرِ الودادِ ، والنظرُ بحسنِ الظنِّ للهِ عزَّ وجلَّ) ، ثمَّ قالَ : (يا لها مِنْ مجالسَ ما أجلَّها ! ومِنْ شرابٍ ما ألذَّهُ ! طوبىٰ لمَنْ رُزقَهُ)(٢) .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (استعينوا على الكَـ   ـِ بالصمتِ ، وعلى الاستنباطِ بالفكرِ)(٣) .

وقالَ أيضاً : (صحَّةُ النظرِ في الأمورِ نجاةٌ مِنَ الغرورِ ، والعزمُ في الرأيِ سلامةٌ مِنَ التفريطِ والندمِ ، والرويةُ والفكرُ يكشفانِ عنِ الحزمِ والفطنةِ ، ومشاورةُ الحكماءِ ثباتٌ في النفسِ وقوَّةٌ في البصيرةِ ، ففكِّرْ قبلَ

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٥٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٨) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢/١٥١) .

أنْ تعزمَ ، وتدبَّرْ قبلَ أنْ تهجمَ ، وشاورْ قبلَ أنْ تقدمَ)[1] .

وقالَ أيضاً : (الفضائلُ أربعٌ : إحداها : الحكمةُ ، وقوامُها الفكرةُ ، والثانيةُ : العفَّةُ ، وقوامُها في الشهوةِ ، والثالثةُ : القوةُ ، وقوامُها في الغضبِ ، والرابعةُ : العدْلُ ، وقوامُهُ في اعتدالِ قوى النفسِ)[2] .

فهٰذهِ أقاويلُ العلماءِ في الفكرةِ ، وما شرعَ أحدٌ منهُمْ في ذكرِ حقيقتِها وبيانِ مجاريها .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلمْ : أنَّ معنى الفكرِ هوَ إحضارُ معرفتينِ في القلبِ ليستثمرَ منهُما معرفةً ثالثةً .

ومثالُهُ : أنَّ مَنْ مالَ إلى العاجلةِ ، وآثرَ الحياةَ الدنيا ، وأرادَ أنْ يعرفَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ مِنَ العاجلةِ . . فلهُ طريقانِ :

أحدُهُما : أنْ يسمعَ مِنْ غيرِهِ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ مِنَ العاجلةِ ، فيقلِّدَهُ ويصدِّقَهُ مِنْ غيرِ بصيرةٍ بحقيقةِ الأمرِ ، فيميلُ بعملِهِ إلىٰ إيثارِ الآخرةِ اعتماداً علىٰ مجرَّدِ قولِهِ ، وهـٰذا يُسمَّىٰ تقليداً ، ولا يُسمَّىٰ معرفةً .

والطريقُ الثاني : أنْ يعرفَ أنَّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثارِ ، ثمَّ يعرفَ أنَّ الآخرةَ أبقىٰ ، فيحصلُ لهُ مِنْ هاتينِ المعرفتينِ معرفةٌ ثالثةٌ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، ولا يمكنُ تحقُّقُ المعرفةِ بأنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ إلا بالمعرفتينِ السابقتينِ ، فإحضارُ المعرفتينِ السابقتينِ في القلبِ للتوصُّلِ بهِ إلى المعرفةِ الثالثةِ يُسمَّىٰ تفكُّراً واعتباراً ، وتذكُّراً ونظراً ، وتأمُّلاً وتدبراً .

أمَّا التدبُّرُ والتأمُّلُ والتفكُّرُ . . فعباراتٌ مترادفةٌ علىٰ معنىً واحدٍ ، ليسَ تحتها معانٍ مختلفةٌ .

وأمَّا اسمُ التذكُّرِ والاعتبارِ والنظرِ . . فهيَ مختلفةُ المعاني ، وإنْ كانَ أصلُ المسمَّىٰ واحداً ؛ كما أنَّ اسمَ الصارمِ والمهنَّدِ والسيفِ يتواردُ علىٰ

شيءٍ واحدٍ ولكنْ باعتباراتٍ مختلفةٍ ، فالصارمُ يدلُّ على السيفِ مِنْ حيثُ هوَ قاطعٌ ، والمهنَّدُ يدلُّ عليهِ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إلىٰ موضعِهِ ، والسيفُ يدلُّ دلالةً مطلقةً مِنْ غيرِ إشعارٍ بهٰذهِ الزوائدِ ؛ فكذلكَ الاعتبارُ ينطلقُ علىٰ إحضارِ المعرفتينِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يعبرُ منهُما إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ ، فإنْ لمْ يقعِ العبورُ ، ولمْ يكنْ إلا الوقوفُ على المعرفتينِ . . فينطلقُ عليهِ اسمُ التذكُّرِ ، لا اسمُ الاعتبارِ .

وأمَّا النظرُ والتفكُّرُ . . فيقعُ عليهِ مِنْ حيثُ إنَّ فيهِ طلبَ معرفةٍ ثالثةٍ ، فمَنْ ليسَ يطلبُ المعرفةَ الثالثةَ لا يُسمَّىٰ ناظراً ، فكلُّ متفكِّرٍ فهوَ متذكِّرٌ ، وليسَ كلُّ متذكِّرٍ متفكراً .

وفائدةُ التذكارِ تكرارُ المعارفِ على القلبِ لتترسَّخَ وتثبتَ ولا تنمحيَ عنِ القلبِ ، وفائدةُ التفكُّرِ تكثيرُ العلمِ واستجلابُ معرفةٍ ليسَتْ حاصلةً ، فهٰذا هوَ الفرقُ بينَ التذكُّرِ والتفكُّرِ .

والمعارفُ إذا اجتمعَتْ في القلبِ وازدوجَتْ علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ . . أثمرَتْ معرفةً أخرىٰ ، فالمعرفةُ نتاجُ المعرفةِ ، فإذا حصلَتْ معرفةٌ وازدوجَتْ معَ معرفةٍ أخرىٰ . . حصلَ مِنْ ذلكَ نتاجٌ آخرُ ، وهٰكذا يتمادى النتاجُ وتتمادى العلومُ ، ويتمادى الفكرُ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وإنَّما تنسدُّ طريقُ زيادةِ المعارفِ بالموتِ أوِ العوائقِ ، هٰذا لمَنْ يقدرُ على استثمارِ العلومِ ويهتدي إلىٰ طريقِ التفكُّرِ .

وأما أكثرُ الناسِ . . فإنَّما مُنعوا الزيادةَ في العلومِ لفقدِهِمْ رأسَ المالِ ، وهوَ المعارفُ التي منها تُستثمرُ العلومُ ؛ كالذي لا بضاعةَ لهُ ، فإنَّهُ لا يقدرُ على الربحِ ، وقدْ يملكُ البضاعةَ ولكنْ لا يحسنُ صنعةَ التجارةِ ، فلا يربحُ شيئاً ؛ فكذلكَ قدْ يكونُ معَهُ مِنَ المعارفِ ما هوَ رأسُ مالِ العلومِ ، ولكنَّهُ ليسَ يحسنُ استعمالَها وتأليفَها ، وإيقاعَ الازدواجِ المفضي إلى النتاجِ فيها .

ومعرفةُ طريقِ الاستعمالِ والاستثمارِ تارةً تكونُ بنورٍ إلـٰهيٍّ في القلبِ يحصلُ بالفطرةِ ؛ كما كان للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ ، وذلكَ عزيزٌ جداً ، وقدْ تكونُ بالتعلُّمِ والممارسةِ ، وهوَ الأكثرُ .

ثمَّ المتفكِّرُ قدْ تحضرُهُ هـٰذهِ المعارفُ ، وتحصلُ لهُ الثمرةُ وهوَ لا يشعرُ بكيفيةِ حصولِها(١) ، ولا يقدرُ على التعبيرِ عنها لقلَّةِ ممارستِهِ لصناعةِ التعبيرِ والإيرادِ(٢) ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يعلمُ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ علماً حقيقياً ، ولوْ سُئِلَ عنْ سببِ معرفتِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ إيرادِهِ والتعبيرِ عنهُ ، معَ أنَّهُ لمْ تحصلْ معرفتُهُ إلا عنِ المعرفتينِ السابقتينِ ، وهوَ أنَّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثارِ ، وأنَّ الآخرةَ أبقىٰ مِنَ الدنيا ، فتحصلُ لهُ معرفةٌ ثالثةٌ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، فرجعَ حاصلُ حقيقةِ الفكرِ إلىٰ إحضارِ معرفتينِ للتوصلِ بهما إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ .

---

(١) لأن ذلك الحصول عبارة عن انتقال القلب بسرعة من معرفة إلىٰ معرفة ، فربما لا يحس به صاحبه ، ويظن أنه واقف عند المعرفة الأولىٰ . « إتحاف » (١٠/ ١٦٨) .

(٢) في (ص) وحدها : (في الإيراد) بدل (والإيراد) .

وأمَّا ثمرةُ الفكرِ. . فهيَ العلومُ والأحوالُ والأعمالُ ، ولكنْ ثمرتهُ الخاصَّةُ العلمُ لا غيرُ .

نعمْ ، إذا حصلَ العلمُ في القلبِ. . تغيَّرَ حالُ القلبِ ، وإذا تغيَّرَ حالُ القلبِ. . تغيَّرَتْ أعمالُ الجوارحِ ، فالعملُ تابعُ الحالِ ، والحالُ تابعُ العلمِ ، والعلمُ تابعُ الفكرِ ، فالفكرُ إذاً هوَ المبدأُ والمفتاحُ للخيراتِ كلِّها ، وهٰذا هوَ الذي يكشفُ لكَ عنْ فضيلةِ التفكُّرِ ، وأنَّهُ خيرٌ مِنَ الذكرِ والتذكُّرِ ؛ لأنَّ في الفكرِ ذكراً وزيادةً ، وذكرُ القلبِ خيرٌ مِنْ عملِ الجوارحِ ، بلْ شرُفَ العملُ لما فيهِ مِنَ الذكرِ .

فإذاً ؛ التفكُّرُ أفضلُ مِنْ جملةِ الأعمالِ ، ولذلكَ قيلَ : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ »(١) ، فقيلَ : هوَ الذي ينقلُ مِنَ المكارهِ إلى المحابِّ ، ومِنَ الرغبةِ والحرصِ إلى الزهدِ والقناعةِ(٢) .

---

(١) روىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٩٧) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » .
وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (تفكر ساعة خير من قيام ليلة) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤) .

وقيلَ : هوَ الذي يحدِثُ مشاهدةً وتقوىٰ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[1] .

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ كيفيةَ تغيُّرِ الحالِ بالفكرِ . . فمثالُهُ ما ذكرناهُ مِنْ أمرِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الفكرَ فيهِ يعرِّفُنا أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، فإذا رسخَتْ هـٰذهِ المعرفةُ يقيناً في قلوبِنا . . تغيَّرَتِ القلوبُ إلى الرغبةِ في الآخرةِ ، والزهدِ في الدنيا ، وهـٰذا ما عنيناهُ بالحالِ ؛ إذْ كانَ حالُ القلبِ قبلَ هـٰذهِ المعرفةِ حبَّ العاجلةِ والميلَ إليها ، والنفرةَ عنِ الآخرةِ وقلَّةَ الرغبةِ فيها ، وبهـٰذهِ المعرفةِ تغيَّرَ حالُ القلبِ ، وتبدَّلَتْ إرادتُهُ ورغبتُهُ ، ثمَّ أثمرَ تغيُّرُ الإرادةِ أعمالَ الجوارحِ في اطِّراحِ الدنيا ، والإقبالِ علىٰ أعمالِ الآخرةِ ، فهـٰهنا خمسُ درجاتٍ :

أولاها : التذكُّرُ ؛ وهوَ إحضارُ المعرفتينِ في القلبِ .

وثانيتُها : التفكُّرُ ؛ وهوَ طلبُ المعرفةِ المقصودةِ منهما .

والثالثةُ : حصولُ المعرفةِ المطلوبةِ ، واستنارةُ القلبِ بها .

والرابعةُ : تغيُّرُ حالِ القلبِ عمَّا كانَ بسببِ حصولِ نورِ المعرفةِ .

والخامسةُ : خدمةُ الجوارحِ للقلبِ بحسَبِ ما تجدَّدَ لهُ مِنَ الحالِ .

فكما يُضربُ الحجرُ على الحديدِ فيخرجُ منهُ نارٌ يستضيءُ بها الموضعُ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤) .

فتصيرُ العينُ مبصرةً بعدَ أنْ لمْ تكنْ مبصرةً ، وتنتهضُ الأعضاءُ للعملِ . . فكذلكَ زنادُ نورِ المعرفةِ هوَ الفكرُ ، فيجمعُ بينَ المعرفتينِ كما يُجمعُ بينَ الحجرِ والحديدِ ، ويؤلِّفُ بينَهما تأليفاً مخصوصاً كما يُضربُ الحجرُ على الحديدِ ضرباً مخصوصاً ، فينبعثُ نورُ المعرفةِ كما تنبعثُ النارُ مِنَ الحديدِ ، ويتغيَّرُ القلبُ بسببِ هـٰذا النورِ حتىٰ يميلَ إلىٰ ما لمْ يكنْ يميلُ إليهِ كما يتغيَّرُ البصرُ بنورِ النارِ ، فيرىٰ ما لمْ يكنْ يراهُ ، ثمَّ تنتهضُ الأعضاءُ للعملِ بمقتضىٰ حالِ القلبِ كما ينتهضُ العاجزُ عنِ العملِ بسببِ الظلمةِ للعملِ عندَ إدراكِ البصرِ ما لمْ يكنْ يبصرُهُ .

فإذاً ؛ ثمرةُ الفكرِ العلومُ والأحوالُ ، والعلومُ لا نهايةَ لها ، والأحوالُ التي تُتصوّرُ أنْ تتقلَّبَ على القلبِ لا يمكنُ حصرُها ، ولهـٰذا لوْ أرادَ مريدٌ أنْ يحصرَ فنونَ الفكرِ ومجاريَهُ ، وأنَّهُ فيماذا يتفكَّرُ . . لمْ يقدرْ عليهِ ؛ لأنَّ مجاريَ الفكرِ غيرُ محصورةٍ ، وثمراتِهِ غيرُ متناهيةٍ .

نعمْ ، نحنُ نجتهدُ في ضبطِ مجاريهِ بالإضافةِ إلىٰ مهماتِ العلومِ الدينيَّةِ ، وبالإضافةِ إلى الأحوالِ التي هيَ مقاماتُ السالكينَ ، ويكونُ ذلكَ ضبطاً جُمليّاً ؛ فإنَّ تفصيلَ ذلكَ يستدعي شرحَ العلومِ كلِّها ، وجملةُ هـٰذهِ الكتبِ كالشرحِ لبعضِها ، فإنَّها مشتملةٌ علىٰ علومٍ ، تلكَ العلومُ تُستفادُ مِنْ أفكارٍ مخصوصةٍ ، فلنشرْ إلىٰ ضبطِ المجامعِ ؛ فبهِ يحصلُ الوقوفُ علىٰ مجاري الفكرِ .

❋ ❋ ❋

بيان مجاري الفكر

اعلمْ : أنَّ الفكرَ قدْ يجري في أمرٍ يتعلَّقُ بالدينِ ، وقدْ يجري فيما يتعلَّقُ بغيرِ الدينِ ، وإنَّما غرضُنا ما يتعلَّق بالدينِ ، فلنتركِ القسمَ الآخرَ .

ونعني بالدينِ : المعاملةَ التي بينَ العبدِ وبينَ الربِّ تعالىٰ ، فجميعُ أفكارِ العبدِ إمَّا أنْ تتعلَّقَ بالعبدِ وصفاتِهِ وأحوالِهِ ، وإمَّا أنْ تتعلَّقَ بالمعبودِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، لا يمكنُ أنْ يخرجَ عنْ هٰذينِ القسمينِ .

وما يتعلَّقُ بالعبدِ إمَّا أنْ يكونَ نظراً فيما هوَ محبوبٌ عندَ الربِّ تعالىٰ ، أوْ فيما هوَ مكروهٌ ، ولا حاجةَ إلى الفكرِ في غيرِ هٰذينِ القسمينِ .

وما يتعلَّقُ بالربِّ تعالىٰ إمَّا أنْ يكونَ نظراً في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ الحسنىٰ ، وإمَّا أنْ يكونَ في أفعالِهِ وملكِهِ وملكوتِهِ ، وجميعِ ما في السماواتِ والأرضِ وما بينَهما .

وينكشفُ لكَ انحصارُ الفكرِ في هٰذهِ الأقسامِ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ حالَ السائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ والمشتاقينَ إلىٰ لقائِهِ يضاهي حالَ العشَّاقِ ، فلنتخذِ العاشقَ المستهترَ مثالَنا ، فنقولُ : العاشقُ المستغرقُ الهمِّ بعشقِهِ لا يعدو فكرُهُ مِنْ أنْ يتعلَّقَ بمعشوقِهِ ، أوْ يتعلَّقَ بنفسِهِ ، فإنْ تفكَّرَ في معشوقِهِ . فإمَّا أنْ يتفكَّرَ في جمالِهِ وحسنِ صورتِهِ في ذاتِهِ ؛ ليتنعَّمَ بالفكرِ فيهِ وبمشاهدتِهِ ، وإمَّا أنْ يتفكَّرَ في أفعالِهِ اللطيفةِ الحسنةِ الدالَّةِ علىٰ أخلاقِهِ وصفاتِهِ ؛ ليكونَ

ذلكَ مضعفاً للذَّتِهِ ومقوياً لمحبتِهِ ، وإنْ تفكَّرَ في نفسِهِ . . فيكونُ فكرُهُ في صفاتِهِ التي تسقطُهُ مِنْ عينِ محبوبِهِ حتىٰ يتنزَّهَ عنها ، أوْ في الصفاتِ التي تقرِّبُهُ منهُ وتحبِّبُهُ إليهِ حتىٰ يتصفَ بها ، فإنْ تفكَّرَ في شيءٍ خارجٍ عنْ هٰذهِ الأقسامِ . . فذلكَ خارجٌ عنْ حدِّ العشقِ ، وهوَ نقصانٌ فيهِ ؛ لأنَّ العشقَ التامَّ الكاملَ ما يستغرقُ العاشقَ ويستوفي القلبَ ، حتىٰ لا يتركَ فيهِ متسعاً لغيرِهِ ، فمحبُّ اللهِ تعالىٰ ينبغي أنْ يكونَ كذلكَ ، فلا يعدو نظرُهُ وتفكُّرُهُ محبوبَهُ ، ومهما كانَ تفكُّرُهُ محصوراً في هٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ . . لمْ يكنْ خارجاً عنْ مقتضى المحبَّةِ أصلاً .

❁ ❁ ❁

فلنبدأْ بالقسمِ الأوَّلِ :

وهوَ تفكُّرُهُ في صفاتِ نفسِهِ وأفعالِ نفسِهِ ؛ ليميزَ المحبوبَ منها عنِ المكروهِ ، فإنَّ هٰذا الفكرَ هوَ الذي يتعلَّقُ بعلمِ المعاملةِ الذي هوَ مقصودُ هٰذا الكتابِ ، وأمَّا القسمُ الآخرُ(١) . . فيتعلَّقُ بعلمِ المكاشفةِ .

ثمَّ كلُّ واحدٍ ممَّا هوَ مكروهٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أوْ محبوبٌ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ ؛ كالطاعاتِ والمعاصي ، وإلىٰ باطنٍ ؛ كالصفاتِ المنجياتِ والمهلكاتِ التي محلُّها القلبُ ، وذكرنا تفصيلَها في ربعِ المهلكاتِ والمنجياتِ .

والطاعاتُ والمعاصي تنقسمُ إلىٰ ما يتعلَّقُ بالأعضاءِ السبعةِ ، وإلىٰ

---

(١) وهو التفكر في ذاته سبحانه وصفاته وأفعاله ، وسيأتي ، ولوَّح لمباديه المصنف في كتابه « المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ » .

ما يُنسبُ إلىٰ جميعِ البدنِ ؛ كالفرارِ مِنَ الزحفِ ، وعقوقِ الوالدينِ ، والسكنىٰ في المسكنِ الحرامِ .

❀ ❀ ❀

ويجبُ في كلِّ واحدٍ مِنَ المكارهِ التفكُّرُ في ثلاثةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : التفكُّرُ في أنَّهُ هلْ هوَ مكروهٌ عندَ اللهِ أمْ لا ؟ فربَّ شيءٍ لا يظهرُ كونُهُ مكروهاً ، بلْ يُدركُ بدقيقِ النظرِ .

والثاني : التفكُّرُ في أنَّهُ إنْ كانَ مكروهاً . . فما طريقُ الاحترازِ عنهُ ؟

والثالثُ : أنَّ هـٰذا المكروهَ هلْ هوَ متصفٌ بهِ في الحالِ فيتركَهُ ؟ أوْ هوَ متعرِّضٌ لهُ في الاستقبالِ فيحترزَ عنهُ ؟ أوْ قارفَهُ فيما مضىٰ مِنَ الأحوالِ فيحتاجَ إلىٰ تداركِهِ ؟

❀ ❀ ❀

وكذلكَ كلُّ واحدٍ مِنَ المحبوباتِ ينقسمُ هـٰذهِ الانقساماتِ ، فإذا جُمعَتْ هـٰذهِ الأقسامُ . . زادَتْ مجاري الفكرِ في هـٰذهِ الأقسامِ علىٰ مئةٍ ، والعبدُ مدفوعٌ إلى التفكُّرِ إمَّا في جميعِها ، أوْ في أكثرِها ، وشرحُ آحادِ هـٰذهِ الأقسامِ يطولُ ، ولكنِ انحصرَ هـٰذا القسمُ في أربعةِ أنواعٍ : الطاعاتُ ، والمعاصي ، والصفاتُ المهلكاتُ ، والصفاتُ المنجياتُ ، فلنذكرْ في كلِّ نوعٍ مثالاً ليقيسَ بهِ المريدُ سائرَها ، وينفتحَ لهُ بابُ الفكرِ ، ويتسعَ عليهِ طريقُهُ .

❀ ❀ ❀

النوعُ الأوَّلُ : المعاصي :

ينبغي أنْ يفتِّشَ العبدُ صبيحةَ كلِّ يومٍ جميعَ أعضائِهِ السبعةِ تفصيلاً ، ثمَّ بدنَهُ على الجملةِ ؛ هلْ هوَ في الحالِ ملابسٌ لمعصيةٍ بها فيتركَها ؟ أوْ لابَسَها بالأمسِ فيتداركَها بالتركِ والندمِ ، أوْ هوَ متعرِّضٌ لها في نهارِهِ فيستعدَّ للاحترازِ والتباعدِ عنها ؟

فينظرُ في اللسانِ ويقولُ : إنَّهُ متعرِّضٌ للغيبةِ ، والكذبِ ، وتزكيةِ النفسِ ، والاستهزاءِ بالغيرِ ، والمماراةِ ، والممازحةِ ، والخوضِ فيما لا يعني ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ المكارهِ ، فيقرِّرُ أوَّلاً في نفسِهِ أنَّها مكروهةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويتفكَّرُ في شواهدِ القرآنِ والسنةِ علىٰ شدَّةِ العذابِ فيها ، ثمَّ يتفكَّرُ في أحوالِهِ أنَّهُ كيفَ يتعرَّضُ لها مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، ثمَّ يتفكَّرُ أنَّهُ كيفَ يحترزُ منهُ ؟ ويعلمُ أنَّهُ لا يتمُّ لهُ ذلكَ إلا بالعزلةِ والانفرادِ ، أوْ بألا يجالسَ إلا صالحاً تقيّاً ينكرُ عليهِ مهما تكلَّمَ بما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، أوْ يضعُ حجراً في فيهِ إذا جالسَ غيرَهُ ؛ حتىٰ يكونَ ذلكَ مذكِّراً لهُ ، فهكذا يكونُ الفكرُ في حيلةِ الاحترازِ .

ويتفكَّرُ في سمعِهِ أنَّهُ يصغي بهِ إلى الغيبةِ ، والكذبِ ، وفضولِ الكلامِ ، وإلى اللهوِ ، والبدعةِ ، وأنَّ ذلكَ إنَّما يسمعُهُ مِنْ زيدٍ وعمرٍو ، وأنَّهُ كيفَ ينبغي أنْ يحترزَ عنهُ بالاعتزالِ ، أوْ بالنهيِ عنِ المنكرِ مهما سمعَ ذلكَ .

ويتفكرُ في بطنِهِ أنَّهُ إنَّما يعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ بالأكلِ والشربِ ؛ إمَّا بكثرةِ

الأكلِ مِنَ الحلالِ ؛ فإنَّ ذلكَ مكروهٌ عندَ اللهِ ، ومقوٍّ للشهوةِ التي هيَ سلاحُ الشيطانِ عدوِّ اللهِ ، وإمَّا بأكلِ الحرامِ أوِ الشبهةِ ، فينظرُ مِنْ أينَ مطعمُهُ وملبسُهُ ومسكنُهُ ؟ وما مكسبُهُ ؟ ويتفكَّرُ في طرقِ الحلالِ ومداخلِهِ ، ثمَّ يتفكَّرُ في وجوهِ الحيلةِ في الاكتسابِ منهُ والاحترازِ مِنَ الحرامِ ، ويقرِّرُ علىٰ نفسِهِ أنَّ العباداتِ كلَّها ضائعةٌ معَ أكلِ الحرامِ ، وأنَّ أكلَ الحلالِ هوَ أساسُ العباداتِ كلِّها ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقبلُ صلاةَ عبدٍ في ثمنِ ثوبِهِ درهمٌ حرامٌ كما وردَ في الخبرِ (١) .

فهكذا يتفكَّرُ في أعضائِهِ ، ففي هـٰذا القدْرِ كفايةٌ عنِ الاستقصاءِ ، فمهما حصلَ بالتفكُّرِ حقيقةُ المعرفةِ بهـٰذهِ الأحوالِ . . اشتغلَ بالمراقبةِ طولَ النهارِ حتىٰ يحفظَ الأعضاءَ عنها .

❊ ❊ ❊

وأمَّا النوعُ الثاني ، وهوَ الطاعاتُ :

فينظرُ أوَّلاً في الفرائضِ المكتوبةِ عليهِ أنَّهُ كيفَ يؤدِّيها ؟ وكيفَ يحرسُها عنِ النقصانِ والتقصيرِ ؟ أوْ كيفَ يجبرُ نقصانَها بكثرةِ النوافلِ ؟ ثمَّ يرجعُ إلىٰ عضوٍ عضوٍ فيتفكَّرُ في الأفعالِ التي تتعلَّقُ بها ممَّا يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ ، فيقولُ مثلاً :

إنَّ العينَ خُلقَتْ للنظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ عبرةً ، ولتُستعملَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٩٨) .

في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وتنظرَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأنا قادرٌ علىٰ أنْ أشغلَ العينَ بمطالعةِ القرآنِ والسنةِ ، فلِمَ لا أفعلُهُ ؟ وأنا قادرٌ علىٰ أنْ أنظرَ إلىٰ فلانٍ المطيعِ بعينِ التعظيمِ فأدخلَ السرورَ علىٰ قلبِهِ ، وأنظرَ إلىٰ فلانٍ الفاسقِ بعينِ الازدراءِ فأزجرَهُ بذلكَ عنْ معصيتِهِ ، فلِمَ لا أفعلُهُ ؟

وكذلكَ يقولُ في سمعِهِ : إنِّي قادرٌ على استماعِ كلامِ ملهوفٍ ، أوِ استماعِ حكمةٍ وعلمٍ ، أوِ استماعِ قراءةٍ وذكرٍ ، فما لي أعطِّلُهُ وقدْ أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليَّ بهِ ، وأودعنيهِ لأشكرَهُ ، فما لي أكفرُ نعمةَ اللهِ فيهِ بتضييعِهِ أوْ تعطيلِهِ ؟

وكذلكَ يتفكَّرُ في اللسانِ ويقولُ : إنِّي قادرٌ علىٰ أنْ أتقرَّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بالتعليمِ والوعظِ والتودُّدِ إلىٰ قلوبِ أهلِ الصلاحِ ، وبالسؤالِ عنْ أحوالِ الفقراءِ ، وإدخالِ السرورِ علىٰ قلبِ زيدٍ الصالحِ وعمروٍ العالمِ بكلمةٍ طيِّبةٍ ، وكلُّ كلمةٍ طيبةٍ فإنَّها صدقةٌ .

وكذلكَ يتفكَّرُ في مالِهِ فيقولُ : أنا قادرٌ علىٰ أنْ أتصدَّقَ بالمالِ الفلانيِّ ؛ فإنِّي مستغنٍ عنهُ ، ومهما احتجتُ إليهِ . . رزقَني اللهُ تعالىٰ مثلَهُ ، وإنْ كنتُ محتاجاً الآنَ . . فأنا إلىٰ ثوابِ الإيثارِ أحوجُ منِّي إلىٰ ذلكَ المالِ .

وهكذا يفتِّشُ عنْ جميعِ أعضائِهِ ، وجملةِ بدنِهِ وأموالِهِ ، بلْ عنْ دوابِّهِ وغلمانِهِ وأولادِهِ ، فإنَّ كلَّ ذلكَ أدواتُهُ وأسبابُهُ ، ويقدرُ علىٰ أنْ يطيعَ اللهَ

تعالىٰ بها ، فيستنبطُ بدقيقِ الفكرِ وجوهَ الطاعاتِ الممكنةِ بها ، ويتفكَّرُ فيما يرغِّبُهُ في البدارِ إلىٰ تلكَ الطاعاتِ ، ويتفكَّرُ في إخلاصِ النيّةِ فيها ، ويطلبُ لها مظانَّ الاستحقاقِ حتىٰ يزكوَ بها عملُهُ ، وقسْ علىٰ هـٰذا سائرَ الطاعات .

❁ ❁ ❁

وأمَّا النوعُ الثالثُ : فهيَ الصفاتُ المهلكةُ التي محلُّها القلبُ :

فيعرفُها ممَّا ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ ، وهيَ استيلاءُ الشهوةِ ، والغضبِ ، والبخلِ ، والكبرِ ، والعجبِ ، والرياءِ ، والحسدِ ، وسوءِ الظنِّ ، والغفلةِ ، والغرورِ ، وغيرِ ذلكَ ، ويتفقَّدُ مِنْ قلبِهِ هـٰذهِ الصفاتِ ، فإنْ ظنَّ أنَّ قلبَهُ منزَّهٌ عنها . . فيتفكَّرُ في كيفيَّةِ امتحانِهِ ، والاستشهادِ بالعلاماتِ عليهِ ؛ فإنَّ النفسَ أبداً تعدُ بالخيرِ مِنْ نفسِها وتخلفُ ، فإذا ادَّعَتِ التواضعَ والبراءةَ مِنَ الكبرِ . . فينبغي أنْ تُجرَّبَ بحملِ حزمةِ حطبٍ في السوقِ ، كما كانَ الأوَّلونَ يجرِّبونَ بهِ أنفسَهُمْ ، وإذا ادَّعَتِ الحلمَ . . تُعرَّضُ لغضبٍ ينالُهُ مِنْ غيرِهِ ، ثمَّ يجرِّبُها في كظمِ الغيظِ ، وكذلكَ في سائرِ الصفاتِ .

وهـٰذا تفكُّرٌ في أنَّهُ هلْ هوَ موصوفٌ بالصفةِ المكروهةِ أمْ لا ؟ ولذلكَ علاماتٌ ذكرناها في ربعِ المهلكاتِ ، فإذا دلَّتِ العلامةُ علىٰ وجودِها . . فكَّرَ في الأسبابِ التي تقبِّحُ تلكَ الصفاتِ عندَهُ[1] ، وتبيَّنَ أنَّ منشأَها مِنَ الجهلِ

---

(١) في بعض النسخ يحتمل قراءة (تقبِّح) : (تنتجُ) ، وهو معنىً لا يبعد .

والغفلةِ وخبثِ الدُّخْلةِ ؛ كما لوْ رأىٰ في نفسِهِ عُجْباً بالعملِ ، فيتفكَّرُ ويقولُ : إنَّما عملي ببدني وجارحتي ، وبقدرتي وإرادتي ، وكلُّ ذلك ليسَ منِّي ولا إليَّ ، وإنَّما هوَ مِنْ خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ وفضلِهِ عليَّ ، فهوَ الذي خلقَني ، وخلقَ جارحتي ، وخلقَ قدرتي وإرادتي ، وهوَ الذي حرَّكَ أعضائي بقدرتِهِ ، وأقدرَني وأرادَ إرادتي ، فكيفَ أعجبُ بعملي أوْ بنفسي ولا قوامَ لنفسي بنفسي ؟!

وإذا أحسَّ في نفسِهِ بالكبرِ . . قرَّرَ علىٰ نفسِهِ ما فيهِ مِنَ الحماقةِ ، ويقولُ لها : لِمَ ترينَ نفسَكِ أكبرَ والكبيرُ مَنْ هوَ عندَ اللهِ كبيرٌ ؟ وذلكَ ينكشفُ بعدَ الموتِ ، وكمْ مِنْ كافرٍ في الحالِ يموتُ مقرَّباً إلى اللهِ تعالىٰ بنزوعِهِ عنِ الكفرِ ، وكمْ مِنْ مسلمٍ يموتُ شقيّاً بتغيُّرِ حالِهِ عندَ الموتِ بسوءِ الخاتمةِ ! فإذا عرفَ أنَّ الكبرَ مهلكٌ ، وأنَّ أصلَهُ الحماقةُ . . فيتفكَّرُ في علاجِ إزالةِ ذلكَ ؛ بأنْ يتعاطىٰ أفعالَ المتواضعينَ .

وإذا وجدَ في نفسِهِ شهوةَ الطعامِ وشرهَهُ . . تفكَّرَ في أنَّ هـٰذهِ صفةُ البهائمِ ، ولوْ كانَ في شهوةِ الطعامِ والوقاعِ كمالٌ . . لكانَ ذلكَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِ الملائكةِ ؛ كالعلمِ والقدرةِ ، ولما اتصفَ بهِ البهائمُ ، ومهما كانَ الشرهُ عليهِ أغلبَ . . كانَ بالبهائمِ أشبهَ ، وعنِ الملائكةِ المقرَّبينَ أبعدَ .

وكذلكَ يقرِّرُ علىٰ نفسِهِ في الغضبِ ، ثمَّ يتفكَّرُ في طريقِ العلاجِ ، وكلُّ

ذلكَ ذكرناهُ في هـٰذهِ الكتبِ ، فمَنْ يريدُ أنْ يتسعَ لهُ طريقُ الفكرِ . . فلا بدَّ لهُ مِنْ تحصيلِ ما في هـٰذهِ الكتبِ .

❁ ❁ ❁

وأمّا النوعُ الرابعُ ، وهوَ المنجياتُ :

فهوَ التوبةُ ، والندمُ على الذنوبِ ، والصبرُ على البلاءِ ، والشكرُ على النعماءِ ، والخوفُ والرجاءُ ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ والصدقُ في الطاعاتِ ، ومحبةُ اللهِ تعالىٰ وتعظيمُهُ ، والرضا بأفعالِهِ ، والشوقُ إليهِ ، والخشوعُ والتواضعُ لهُ وكلُّ ذلكَ ذكرناهُ في هـٰذا الربعِ ، وذكرنا أسبابَهُ وعلاماتِهِ : فليتفكَّرِ العبدُ كلَّ يومٍ في قلبِهِ ما الذي يعوزُهُ مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ التي هيَ المقرِّبةُ إلى اللهِ تعالى ؟ فإذا افتقرَ إلىٰ شيءٍ منها . . فليعلمْ أنَّها أحوالٌ لا يثمرُها إلا علومٌ ، وأنَّ العلومَ لا يثمرُها إلا أفكارٌ .

فإذا أرادَ أنْ يكتسبَ لنفسِهِ حالَ التوبةِ والندمِ . . فليفتِّشْ ذنوبَهُ أوّلاً ، وليتفكَّرْ فيها ، وليجمعْها علىٰ نفسِهِ ، وليعظمْها في قلبِهِ ، ثمَّ لينظرْ في الوعيدِ والتشديدِ الذي وردَ في الشرعِ فيها ، وليتحقَّقْ عندَ نفسِهِ أنَّهُ متعرِّضٌ لمقتِ اللهِ تعالىٰ ؛ حتىٰ ينبعثَ لهُ حالُ الندمِ .

وإذا أرادَ أنْ يستثيرَ مِنْ قلبِهِ حالَ الشكرِ . . فلينظرْ في إحسانِ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وأياديهِ عليهِ ، وفي إرسالِهِ جميلَ سترِهِ عليهِ ، علىٰ ما شرحنا بعضَهُ في كتابِ الشكرِ ، فليطالعْ ذلكَ .

وإذا أرادَ حالَ المحبَّةِ والشوقِ . . فليتفكَّرْ في جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، وعظمتِهِ وكبريائِهِ ، وذلكَ بالنظرِ في عجائبِ حكمتِهِ وبدائعِ صنعِهِ ، كما سنشيرُ إلىٰ طرفٍ يسيرٍ منهُ في القسمِ الثاني مِنَ الفكرِ .

وإذا أرادَ حالَ الخوفِ . . فلينظرْ أوَّلاً في ذنوبِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، ثمَّ لينظرْ في الموتِ وسكراتِهِ ، ثمَّ فيما بعدَهُ مِنْ سؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، وعذابِ القبرِ ، وحيَّاتِهِ وعقاربِهِ وديدانِهِ ، ثمَّ في هولِ النداءِ عندَ نفخةِ الصورِ ، ثمَّ في هولِ المحشرِ عندَ جمعِ الخلائقِ علىٰ صعيدٍ واحدٍ ، ثمَّ في المناقشةِ في الحسابِ ، والمضايقةِ في النقيرِ والقطميرِ ، ثمَّ في الصراطِ ودقتِهِ وحدَّتِهِ ، ثمَّ في خطرِ الأمرِ عندَهُ أنَّهُ يُصرفُ إلى الشمالِ فيكونُ مِنْ أصحابِ النارِ ، أوْ يُصرفُ إلى اليمينِ فينزلُ دارَ القرارِ ، ثمَّ ليحضِرْ بعدَ أهوالِ القيامةِ في قلبِهِ صورةَ جهنَّمَ ودركاتِها ، ومقامعِها وأهوالِها ، وسلاسلِها وأغلالِها ، وزقُّومِها وصديدِها ، وأنواعِ العذابِ فيها ، وقبْحِ صورةِ الزبانيةِ الموكَّلينَ بها ، وأنَّهُمْ كلَّما نضجَتْ جلودُهُمْ بُدِّلَتْ جلوداً غيرَها ، وأنَّهُمْ كلَّما أرادوا أنْ يخرجوا منها . . أُعيدوا فيها ، وأنَّهم إذا رأَوْها مِنْ مكانٍ بعيدٍ . . سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً ، وهلُمَّ جرّاً إلىٰ جميعِ ما وردَ في القرآنِ مِنْ شرحِها .

وإذا أرادَ أنْ يستجلبَ حالَ الرجاءِ . . فلينظرْ إلى الجنَّةِ ونعيمِها ، وأشجارِها وأنهارِها ، وحورِها وولدانِها ، ونعيمِها المقيمِ ، وملكِها الدائمِ .

فهكذا طريقُ الفكرِ الذي تُطلبُ بهِ العلومُ التي تثمرُ اجتلابَ أحوالٍ محبوبةٍ ، أوِ التنزُّهَ عنْ صفاتٍ مذمومةٍ ، وقدْ ذكرنا في كلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الأحوالِ كتاباً مفرداً يُستعانُ بهِ علىٰ تفصيلِ الفكرِ .

أمَّا بذكرِ مجامعِهِ . . فلا يُوجدُ فيهِ أنفعُ منْ قراءَةِ ٱلْقرآنِ بالتفكُّرِ ، فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ المقاماتِ والأحوالِ ، وفيهِ شفاءٌ للعالمينَ ، وفيهِ ما يورثُ الخوفَ والرجاءَ ، والصبرَ والشكرَ ، والمحبةَ والشوقَ ، وسائرَ الأحوالِ ، وفيهِ ما يزجرُ عنْ سائرِ الصفاتِ المذمومةِ ، فينبغي أنْ يقرأَهُ العبدُ ويردِّدَ الآيةَ التي هوَ محتاجٌ إلى التفكُّرِ فيها مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ولوْ مئةَ مرَّةٍ[1] ، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وفهمٍ خيرٌ مِنْ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وفهمٍ ، وليتوقَّفْ في التأمُّلِ فيها ولوْ ليلةً واحدةً ، فإنَّ تحتَ كلِّ كلمةٍ منها أسراراً لا تنحصرُ ، ولا يُوقفُ عليها إلا بدقيقِ الفكرِ عنْ صفاءِ القلبِ بعدَ صدقِ المعاملةِ .

وكذلكَ مطالعةُ أخبارِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ قد أُوتيَ جوامعَ الكلمِ ، وكلُّ كلمةٍ مِنْ كلماتِهِ بحرٌ مِنْ بحورِ الحكمةِ ، لوْ تأمَّلَها العالمُ حقَّ التأمُّلِ . . لمْ ينقطعْ فيها نظرُهُ طولَ عمرِهِ .

وشرحُ آحادِ الآياتِ والأخبارِ يطولُ ، فانظرْ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ

---

(١) حتىٰ يعثر علىٰ مقصوده منها ، ومتىٰ دام العبد علىٰ ذلك . . طهُر قلبه وغزر علمه . « إتحاف » (١٠/ ١٧٥) .

مفارِقُهُ ، وعِشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ »[1] ، فإنَّ هٰذهِ الكلماتِ جامعةٌ حكمَ الأولينَ والآخرينَ ، وهيَ كافيةٌ للمتأمِّلين فيها طولَ العمرِ ، إذْ لوْ وقفوا علىٰ معانيها ، وغلبَتْ علىٰ قلوبِهِمْ غلبة يقينٍ . . لاستغرقَتْهُمْ ، ولحالَ ذلكَ بينَهُمْ وبينَ التلفُّتِ إلى الدنيا بالكليَّةِ .

فهٰذا هوَ طريقُ الفكرِ في علومِ المعاملةِ وصفاتِ العبدِ مِنْ حيثُ هيَ محبوبةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أوْ مكروهةٌ ، والمبتدىءُ ينبغي أنْ يكونَ مستغرقَ الوقتِ في هٰذهِ الأفكارِ ؛ حتىٰ يعمرَ قلبَهُ بالأخلاقِ المحمودةِ والمقاماتِ الشريفةِ ، وينزِّهَ باطنَهُ وظاهرَهُ عنِ المكارهِ .

وليعلمْ أنَّ هٰذا معَ أنَّهُ أفضلُ مِنْ سائرِ العباداتِ فليسَ هوَ لهُ غايةَ المطلبِ ، بلِ المشغولُ بهِ محجوبٌ عنْ مطلبِ الصدِّيقينَ ، وهوَ التنعُّمُ بالفكرِ في جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، واستغراقِ القلبِ بحيثُ يفنىٰ عنْ نفسِهِ ؛ أيْ : ينسىٰ نفسَهُ وأحوالَهُ ، ومقاماتِهِ وصفاتِهِ ، فيكونُ مستغرقَ الهمِّ بالمحبوبِ ، كالعاشقِ المستهتَرِ عندَ لقاءِ الحبيبِ ؛ فإنَّهُ لا يتفرَّغُ للنظرِ في أحوالِ نفسِهِ وأوصافِها ، بلْ يبقىٰ كالمبهوتِ الغافلِ عنْ نفسِهِ ، وهوَ منتهىٰ لذَّةِ العشَّاقِ .

فأمَّا ما ذكرناهُ . . فهوَ تفكُّرٌ في عمارةِ الباطنِ ليصلحَ للقرْبِ والوصالِ ، فإذا ضيَّعَ جميعَ عمرِهِ في إصلاحِ نفسِهِ . . فمتىٰ يتنعَّمُ بالقرْبِ ؟!

---

(١) روىٰ لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » عبد الرزاق في « المصنف » (١١/١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٦) ، وتتمة الحديث رواها أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

ولذلكَ كانَ الخوَّاصُ يدورُ في البوادي ، فلقيَهُ الحسينُ بنُ منصورٍ ، وقالَ : فيمَ أنتَ ؟ قالَ : أدورُ في البوادي أصحِّحُ حالي في التوكُّلِ ، فقالَ الحسينُ : أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ ؟!(١) .

فالفناءُ في الواحدِ الحقِّ هوَ غايةُ مقصدِ الطالبينَ ، ومنتهىٰ نعيمِ الصدِّيقينَ ، وأمَّا التنزُّهُ عنِ الصفاتِ المهلكاتِ . . فيجري مجرى الخروجِ عنِ العدَّةِ في النكاحِ ، وأمَّا الاتصافُ بالصفاتِ المنجياتِ وسائرِ الطاعاتِ . . فيجري مجرىٰ تهيئةِ المرأةِ جهازَها ، وتنظيفِها وجهَها ، ومشطِها شعرَها ؛ لتصلحَ بذلكَ للقاءِ زوجِها ، فإن استغرقَتْ جميعَ عمرِها في تبرئةِ الرحمِ وتزيينِ الوجهِ . . كانَ ذلكَ حجاباً لها عنْ لقاءِ المحبوبِ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ طريقَ الدينِ إنْ كنتَ مِنْ أهلِ المجالسةِ .

وإنْ كنتَ كالعبدِ السوءِ ، لا يتحرَّكُ إلا خوفاً مِنَ الضربِ ، وطمعاً في الأجرةِ . . فدونَكَ وإتعابَ البدنِ بالأعمالِ الظاهرةِ ، فإنَّ بينَكَ وبينَ القلبِ حجاباً كثيفاً ، فإذا قضيتَ حقَّ الأعمالِ . . كنتَ مِنْ أهلِ الجنةِ ، ولكنْ للمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ(٢) .

وإذا عرفتَ مجالَ الفكرِ في علومِ المعاملةِ التي بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ . . فينبغي أنْ تتخذَ ذلكَ عادتَكَ وديدنَكَ صباحاً ومساءً ، فلا تغفُلُ عنْ نفسِكَ ،

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٧) .
(٢) في (ب) زيادة : (وهو معنىٰ قوله : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾) .

وعنْ صفاتِكَ المبعدةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأحوالِكَ المقرِّبةِ إليهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، بلْ كلُّ مريدٍ فينبغي أنْ يكونَ لهُ جريدةٌ يثبتُ فيها جملةَ الصفاتِ المهلكاتِ ، وجملةَ الصفاتِ المنجياتِ ، وجملةَ المعاصي والطاعاتِ ، ويعرضُ نفسَهُ عليها كلَّ يومٍ .

ويكفيهِ مِنَ المهلكاتِ النظرُ في عشرةٍ ، فإنَّهُ إنْ سلمَ منها.. سلمَ مِنْ غيرِها ؛ وهيَ البخلُ ، والكبرُ ، والعجبُ ، والرياءُ ، والحسدُ ، وشدَّةُ الغضبِ ، وشرهُ الطعامِ ، وشرهُ الوقاعِ ، وحبُّ المالِ ، وحبُّ الجاهِ .

ومِنَ المنجياتِ عشرةٌ ؛ الندمُ على الذنوبِ ، والصبرُ على البلاءِ ، والرضا بالقضاءِ ، والشكرُ على النعماءِ ، واعتدالُ الخوفِ والرجاءِ ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ في الأعمالِ ، وحسنُ الخُلُقِ معَ الخلْقِ ، وحبُّ اللهِ تعالىٰ ، والخشوعُ لهُ .

فهٰذهِ عشرونَ خصلةً ، عشرةٌ مذمومةٌ ، وعشرةٌ محمودةٌ ، فمهما كُفِيَ مِنَ المذموماتِ واحدةً.. فيخطُّ عليها في جريدتِهِ ، ويدعُ الفكرَ فيها ، ويشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ كفايتِهِ إيَّاها ، وتنزيههِ قلبَهُ عنها ، ويعلمُ أنَّ ذلكَ لمْ يتمَّ إلا بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ وعونِهِ ، ولوْ وكلَهُ إلىٰ نفسِهِ.. لمْ يقدرْ علىٰ محوِ أقلِّ الرذائلِ عنْ نفسِهِ ، فيقبلُ على التسعةِ الباقيةِ ، وهٰكذا يفعلُ حتىٰ يخطَّ على الجميعِ ، وكذا يطالبُ نفسَهُ بالاتصافِ بالمنجياتِ ، فإذا اتصفَ بواحدةٍ منها ؛ كالتوبةِ والندمِ مثلاً.. خطَّ عليها ، واشتغلَ بالباقي ، وهٰذا يحتاجُ إليهِ المريدُ المشمِّرُ .

وأمَّا أكثرُ الناسِ مِنَ المعدودينَ مِنَ الصالحينَ . . فينبغي أنْ يثبتوا في جرائِدِهمُ المعاصيَ الظاهرةَ ؛ كأكلِ الشبهةِ ، وإطلاقِ اللسانِ بالغيبةِ والنميمةِ والمراءِ والثناءِ على النفسِ ، والإفراطِ في معاداةِ الأعداءِ وموالاةِ الأولياءِ ، والمداهنةِ معَ الخلقِ في تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فإنَّ أكثرَ مَنْ يعدُّ نفسَهُ مِنْ وجوهِ الصالحينَ لا ينفكُّ عنْ جملةٍ مِنْ هٰذهِ المعاصي في جوارحِهِ .

وما لمْ تطهرِ الجوارحُ عنِ الآثامِ . . لا يمكنُ الاشتغالُ بعمارةِ القلبِ وتطهيرِهِ ، بلْ كلُّ فريقٍ مِنَ الناسِ يغلبُ عليهِمْ نوعٌ مِنَ المعصيةِ ، فينبغي أنْ يكونَ تفقُّدُهُمْ لها وتفكُّرُهُمْ فيها لا في معاصٍ هُمْ بمعزلٍ عنها .

مثالُهُ : العالمُ الورعُ ، فإنَّهُ لا يخلو في غالبِ الأمرِ عنْ إظهارِ نفسِهِ بالعلمِ وطلبِ الشهرةِ ، وانتشارِ الصيتِ ؛ إمَّا بالتدريسِ أوْ بالوعظِ ، ومَنْ فعلَ ذلكَ . . تصدَّىٰ لفتنةٍ عظيمةٍ ، لا ينجو منها إلا الصدِّيقونَ ، فإنَّهُ إنْ كانَ كلامُهُ مقبولاً حسنَ الوقْعِ في القلوبِ . . لمْ ينفكَّ عنِ الإعجابِ والخيلاءِ ، والتزيُّنِ والتصنُّعِ ، وذلكَ مِنَ المهلكاتِ ، وإنْ رُدَّ كلامُهُ . . لمْ يخلُ عنْ أنفةٍ وغيظٍ وحقدٍ علىٰ مَنْ يردُّهُ وهوَ أكثرُ مِنْ غيظِهِ علىٰ مَنْ يردُّ كلامَ غيرِهِ ، وقدْ يلبِّسُ الشيطانُ عليهِ ويقولُ : إنَّ غيظَكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ ردَّ الحقَّ وأنكرَهُ ، فإنْ وجدَ تفرقةً بينَ أنْ يُردَّ عليهِ كلامُهُ أوْ يُردَّ علىٰ عالمٍ آخرَ . . فهوَ مغرورٌ وضُحْكةٌ للشيطانِ .

ثمَّ مهما كانَ لهُ ارتياحٌ بالقبولِ ، وفرحٌ بالثناءِ ، واستنكافٌ مِنَ الردِّ

أوِ الإعراضِ. . لمْ يخلُ عنْ تكلُّفٍ وتصنُّعٍ لتحسينِ اللفظِ والإيرادِ ؛ حرصاً علىٰ استجلابِ الثناءِ ، واللهُ لا يحبُّ المتكلِّفينَ ، والشيطانُ قدْ يلبِّسُ عليهِ ويقولُ : إنَّما حرصُكَ علىٰ تحسينِ الألفاظِ والتكلُّفِ فيها لينتشرَ الحقُّ ، ويحسُنَ موقعُهُ في القلبِ إعلاءً لدينِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ كانَ فرحُهُ بحسنِ ألفاظِهِ وثناءِ الناسِ عليهِ أكثرَ مِنْ فرحِهِ بثناءِ الناسِ علىٰ واحدٍ مِنْ أقرانِهِ. . فهوَ مخدوعٌ ، وإنَّما يدندنُ حولَ طلبِ الجاهِ ، وهوَ يظنُّ أنَّ مطلبَهُ الدينُ .

ومهما اختلجَ ضميرُهُ بهٰذهِ الصفاتِ. . ظهرَ علىٰ ظاهرِهِ ذلكَ ، حتىٰ يكونَ للموقِّرِ لهُ المعتقدِ لفضلِهِ أكثرَ احتراماً ، ويكونَ بلقائِهِ أشدَّ فرحاً واستبشاراً ممَّنْ يغلو في موالاةِ غيرِهِ ، وإنْ كانَ ذلكَ الغيرُ مستحقاً للموالاةِ ، وربما ينتهي الأمرُ بأهلِ العلمِ إلىٰ أنْ يتغايروا تغايرَ النساءِ ، فيشقُّ علىٰ أحدِهِمْ أنْ يختلفَ بعضُ تلامذتِهِ إلىٰ غيرِهِ ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّهُ منتفعٌ بغيرِهِ ومستفيدٌ منهُ في دينِهِ !

وكلُّ هٰذا رشحُ الصفاتِ المهلكاتِ المستكنَّةِ في سرِّ القلبِ ، التي قدْ يظنُّ العالمُ النجاةَ منها وهوَ مغرورٌ فيها ، وإنَّما ينكشفُ ذلكَ بهٰذهِ العلاماتِ ، ففتنةُ العالمِ عظيمةٌ ، وهوَ إمَّا مالكٌ وإمَّا هالكٌ ، ولا مطمعَ لهُ في سلامةِ العوامِّ[1] ، فمَنْ أحسَّ في نفسِهِ بهٰذهِ الصفاتِ. . فالواجبُ عليهِ الانفرادُ والعزلةُ وطلبُ الخمولِ ، والمدافعةُ للفتاوىٰ مهما سُئِلَ ، فقدْ كانَ

(١) فإن العوام قد يعذرون ، بخلاف العالم . « إتحاف » (١٠/ ١٧٨) .

المسجدُ يحوي في زمنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ جمعاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كلُّهُمْ مفتونَ ، وكانوا يتدافعونَ الفتوىٰ ، وكلُّ مَنْ كانَ يفتي كانَ يودُّ أنْ يكفيَهُ غيرُهُ(١) .

وعندَ هٰذا ينبغي أنْ يتقيَ شياطينَ الإنسِ إذا قالوا : لا تفعلْ هٰذا ؛ فإنَّ هٰذا البابَ لوْ فُتِحَ . . لاندرسَتِ العلومُ مِنْ بينِ الخلقِ ، وليقلْ لهُمْ : إنَّ دينَ الإسلامِ مستغنٍ عنِّي ؛ فإنَّهُ قدْ كانَ معموراً قبلي ، وكذلكَ يكونُ بعدي ، ولوْ متُّ . . لمْ تنهدمْ أركانُ الإسلامِ ، فإنَّ الدينَ مستغنٍ عنِّي ، وأنا لستُ بمستغنٍ عنْ إصلاحِ قلبي ، وأمَّا أداءُ ذلكَ إلى اندراسِ العلمِ . . فخيالٌ يدلُّ علىٰ غايةِ الجهلِ ، فإنَّ الناسَ لوْ حُبسوا في السجنِ ، وقُيِّدوا بالقيودِ ، وتُوعِّدوا بالنارِ علىٰ طلبِ العلمِ . . لكانَ حبُّ العلوِّ والرئاسةِ يحملُهُمْ علىٰ

---

(١) فقد روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٨٧) ـ عن تدافع الصحابة للفتوىٰ ـ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : (أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هٰذا إلىٰ هٰذا ، وهٰذا إلىٰ هٰذا ، حتىٰ ترجع إلى الأول) .
ورویٰ مسلم عن أبي المنهال أنه قال : سألت البراء بن عازب عن الصرف فقال : سل زيد بن أرقم ؛ فهو أعلم ، فسألت زيداً فقال : سل البراء ؛ فإنه أعلم ، ثم قالا : نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الورق بالذهب ديناً .
وروى ابن سعد في « الطبقات » (٨/ ٢٣٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٨٦) ـ عن تمنّي أحدهم لو يكفيه الآخر الفتيا ـ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : (لقد أدركت في هٰذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أحد منهم يحدث حديثاً إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يُسأل عن فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

كسرِ القيودِ ، وهدمِ حيطانِ الحصونِ والخروجِ منها ، والاشتغالِ بطلبِ العلمِ ، فالعلمُ لا يندرسُ ما دامَ الشيطانُ يحبِّبُ إلى الخلقِ الرئاسةَ ، والشيطانُ لا يفترُ عنْ عملِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، بلْ ينتهضُ لنشرِ العلمِ أقوامٌ لا نصيبَ لهُمْ في الآخرةِ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[1] ، « وإنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هـٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »[2] ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ العالمُ بهـٰذهِ التلبيساتِ فيشتغلَ بمخالطةِ الخلقِ ، حتىٰ يتربَّىٰ في قلبِهِ حبُّ الجاهِ والثناءِ والتعظيمِ ؛ فإنَّ ذلكَ بذرُ النفاقِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الجاهِ والمالِ ينبتُ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »[3] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ إفساداً فيها مِنْ حبِّ الجاهِ والمالِ في دينِ المرءِ المسلمِ »[4] .

ولا ينقلعُ حبُّ الجاهِ مِنَ القلبِ إلا بالاعتزالِ عنِ الناسِ ، والهربِ مِنْ مخالطتِهِمْ ، وتركِ كلِّ ما يزيدُ جاهَهُ في قلوبِهِمْ ، فليكنْ فكرُ العالمِ في التفطُّنِ لخفايا هـٰذهِ الصفاتِ مِنْ قلبِهِ ، وفي استنباطِ طريقِ الخلاصِ منها ، وهـٰذهِ وظيفةُ العالمِ المتقي .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) .
(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .
(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٨/ ١٤٤) .
(٤) رواه الترمذي (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كلاهما مرفوعاً .

فأمَّا أمثالُنا . . فينبغي أنْ يكونَ تفكُّرُنا فيما يقوي إيمانَنا بيومِ الحسابِ ؛ إذْ لوْ رآنا السلفُ الصالحونَ . . لقالوا قطعاً : إنَّ هؤلاءِ لا يؤمنونَ بيومِ الحسابِ ، فما أعمالُنا أعمالَ مَنْ يؤمنُ بالجنةِ والنارِ ، فإنَّ مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، وقدْ علمنا أنَّ الهربَ مِنَ النارِ بتركِ الشبهاتِ والحرامِ وبتركِ المعاصي ونحنُ منهمكونَ فيها ، وأنَّ طلبَ الجنةِ بتكثيرِ نوافلِ الطاعاتِ ونحنُ مقصرونَ في الفرائضِ منها ، فلمْ يحصلْ لنا مِنْ ثمرةِ العلمِ إلا أنَّهُ يُقتدىٰ بنا في الحرصِ على الدنيا والتكالبِ عليها ، ويُقالُ : لوْ كانَ هـٰذا مذموماً . . لكانَ العلماءُ أحقَّ وأولىٰ باجتنابِهِ منَّا ، فليتَنا كنَّا كالعوامِّ ؛ إذا متنا . . ماتَتْ معنا ذنوبُنا ، فما أعظمَ الفتنةَ التي تعرَّضْنا لها لوْ تفكَّرنا ! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يصلحَنا ويصلحَ بنا ، ويوفِّقَنا للتوبةِ قبلَ أنْ يتوفَّانا ؛ إنَّهُ الكريمُ اللطيفُ بنا ، المنعمُ علينا .

فهـٰذهِ مجاري أفكارِ العلماءِ والصالحينَ في علمِ المعاملةِ ، فإنْ فرغوا منها . . انقطعَ التفاتُهُمْ عنْ أنفسِهِمْ ، وارتقوا منها إلى التفكُّرِ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ ، والتنعُّمِ بمشاهدتِهِ بعينِ القلبِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بعدَ الانفكاكِ مِنْ جميعِ المهلكاتِ ، والاتصافِ بجميعِ المنجياتِ ، وإنْ ظهرَ شيءٌ منهُ قبلَ ذلكَ . . كانَ مدخولاً معلولاً ، مكدّراً مقطوعاً ، وكانَ ضعيفاً كالبرقِ الخاطفِ ، لا يثبتُ ولا يدومُ ، ويكونُ كالعاشقِ الذي خلا بمعشوقِهِ ، ولكنْ تحتَ ثيابِهِ حيَّاتٌ وعقاربُ تلدغُهُ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، فتنغِّصُ عليهِ لذةَ المشاهدةِ ، ولا طريقَ لهُ في إكمالِ التنعُّمِ إلا بإخراجِ العقاربِ والحيَّاتِ مِنْ

ثيابِهِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ المذمومةُ عقاربُ وحيَّاتٌ ، وهيَ مؤذياتٌ ومشوشاتٌ ، وفي القبرِ يزيدُ ألمُ لدغِها علىٰ لدغِ العقاربِ والحيَّاتِ ، فهـٰذا القدْرُ كافٍ في التنبيه علىٰ مجاري فكرِ العبدِ في صفاتِ نفسِهِ المحبوبةِ والمكروهةِ عندَ ربِّهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني : الفكرُ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ وكبريائِهِ ، وفيهِ مقامانِ :

المقامُ الأعلىٰ : الفكرُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ ومعاني أسمائِهِ : وهـٰذا ممَّا مُنِعَ منهُ ، حيثُ قيلَ : « تفكَّروا في خلقِ اللهِ تعالىٰ ولا تفكَّروا في ذاتِ اللهِ »(١) ، وذلكَ لأنَّ العقولَ تتحيَّرُ فيهِ ، فلا يطيقُ مدَّ البصرِ إليهِ إلا الصدِّيقونَ ، ثمَّ لا يطيقونَ دوامَ النظرِ ، بلْ سائرُ الخلقِ أحوالُ أبصارِهِمْ بالإضافةِ إلىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ كحالِ بصرِ الخُفَّاشِ بالإضافةِ إلىٰ نورِ الشمسِ ، فإنَّهُ لا يطيقُهُ ألبتةَ ، بلْ يختفي نهاراً ، وإنَّما يتردَّدُ ليلاً لينظرَ في بقيةِ نورِ الشمسِ إذا وقعَ على الأرضِ ، وأحوالُ الصدِّيقينَ كحالِ الإنسانِ في النظرِ إلى الشمسِ ، فإنَّهُ يقدرُ على النظرِ إليها ولا يطيقُ دوامَهُ ، ويُخشىٰ

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٣) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٢٧١ ، ٣٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٦٦) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١١٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، كلهم مرفوعاً .

علىٰ بصرِهِ لوْ أدامَ النظرَ ، ونظرُهُ المختطفُ إليها يورثُ العمشَ ويفرِّقُ البصرَ ، وكذلكَ النظرُ إلىٰ ذاتِ اللهِ تعالىٰ يورثُ الحيرةَ والدَّهَشَ واضطرابَ العقلِ ، فالصوابُ إذاً ألا يُتعرَّضَ لمجاري الفكرِ في ذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، فإنَّ أكثرَ العقولِ لا تحتملُهُ .

بلِ القدْرُ اليسيرُ الذي صرَّحَ بهِ بعضُ العلماءِ ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ مقدَّسٌ عنِ المكانِ ، ومنزَّهٌ عنِ الأقطارِ والجهاتِ ، وأنَّهُ ليسَ داخلَ العالمِ ولا خارجَهُ ، ولا هوَ متصلٌ بالعالمِ ولا هوَ منفصلٌ عنهُ ، قدْ حيَّرَ عقولَ أقوامٍ حتىٰ أنكروهُ إذْ لمْ يطيقوا سماعَهُ ومعرفتَهُ ، بلْ ضعفَتْ طائفةٌ عنِ احتمالِ أقلَّ مِنْ هـٰذا ؛ إذْ قيلَ لهُمْ : إنَّهُ يتعاظمُ ويتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ رأسٌ ورجْلٌ ويدٌ وعينٌ وعضوٌ ، وأنْ يكونَ جسماً مشخصاً لهُ مقدارٌ وحجمٌ ، فأنكروا هـٰذا ، وظنُّوا أنَّ ذلكَ قدحٌ في عظمةِ اللهِ وجلالِهِ ، حتىٰ قالَ بعضُ الحمقىٰ مِنَ العوامِّ : إنَّ هـٰذا وصفُ بطيخٍ هنديٍّ لا وصفُ الإلـٰهِ ؛ لظنِّ المسكينِ أنَّ الجلالةَ والعظمةَ في هـٰذهِ الأعضاءِ ، وهـٰذا لأنَّ الإنسانَ لا يعرفُ إلا نفسَهُ ، فلا يستعظمُ إلا نفسَهُ ، فكلُّ ما لا يساويهِ في صفاتِهِ . . فلا يفهمُ العظمةَ فيهِ !

نعمْ ، غايتُهُ أنْ يقدِّرَ نفسَهُ جميلَ الصورةِ ، جالساً علىٰ سريرٍ ، وبينَ يديهِ غلمانٌ يمتثلونَ أمرَهُ ، فلا جرمَ غايتُهُ أنْ يقدِّرَ ذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وتقدَّسَ حتَّىٰ يفهمَ العظمةَ ، بلْ لوْ كانَ للذبابِ عقلٌ وقيلَ لهُ : ليسَ لخالقِكَ جناحانِ ، ولا يدٌ ولا رجْلٌ ، ولا لهُ طيرانٌ . . لأنكرَ ذلكَ وقالَ : كيفَ يكونُ خالقي أنقصَ منِّي ؟! أفيكونُ مقصوصَ الجناحِ ؟! أوَيكونُ زمناً

لا يقدرُ على الطيرانِ ؟! أوَيكونُ لي آلةٌ وقدرةٌ لا يكونُ لهُ مثلُها وهوَ خالقي ومصوِّري ؟!

وعقولُ أكثرِ الخلقِ قريبٌ مِنْ هٰذا العقلِ ، وإنَّ الإنسانَ لجهولٌ ظلومٌ كفَّارٌ ، ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (لا تخبرْ عبادي بصفاتي فينكروني ، ولكنْ أخبرْهُمْ عنِّي بما يفهمونَ)[1] .

❁ ❁ ❁

ولمَّا كانَ النظرُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ مخطراً مِنْ هٰذا الوجهِ . . اقتضىٰ أدبُ الشرعِ وصلاحُ الخلقِ ألا يُتعرَّضَ لمجاري الفكرِ فيهِ ، لكنَّا نعدلُ إلى **المقامِ الثاني ، وهوَ النظرُ في أفعالِهِ ، ومجاري قدرِهِ ، وعجائبِ صنعِهِ وبدائعِ أمرِهِ في خلقِهِ** ، فإنَّها تدلُّ علىٰ جلالِهِ وكبريائِهِ ، وتقدُّسِهِ وتعاليهِ ، وتدلُّ علىٰ كمالِ علمِهِ وحكمتِهِ ، وعلىٰ نفاذِ مشيئتِهِ وقدرتِهِ ، فينظرُ إلىٰ صفاتِهِ مِنْ آثارِ صفاتِهِ ؛ فإنَّا لا نطيقُ النظرَ إلىٰ صفاتِهِ ؛ كما أنَّا لا نطيقُ النظرَ إلى الشمسِ ، فننظرُ إلى الأرضِ مهما استنارَتْ بنورِ الشمسِ ، ونستدلُّ بذلكَ علىٰ عظمِ نورِ الشمسِ بالإضافةِ إلىٰ نورِ القمرِ وسائرِ الكواكبِ ؛ لأنَّ نورَ الأرضِ مِنْ آثارِ نورِ الشمسِ ، والنظرُ في الأثرِ يدلُّ على المؤثِّرِ دلالةً ما ، وإنْ كانَ لا يقومُ مقامَ النظرِ في نفسِ المؤثِّرِ ، وجميعُ

---

(١) وقد بوَّب إمام المحدثين البخاري في « صحيحه » لهٰذا المعنىٰ حيث قال : (باب من خَصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا) ، وعلَّق قول سيدنا علي رضي الله عنه : (حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله) .

موجوداتِ الدنيا أثرٌ مِنْ آثارِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، ونورٌ مِنْ أنوارِ ذاتِهِ ، بلْ لا ظلمةَ أشدُّ مِنَ العدمِ ، ولا نورَ أظهرُ مِنَ الوجودِ ، ووجودُ الأشياءِ كلِّها نورٌ مِنْ أنوارِ ذاتِهِ تعالىٰ وتقدَّسَ ؛ إذْ قوامُ وجودِ الأشياءِ بذاتِهِ القيُّومِ بنفسِهِ ، كما أنَّ قوامَ نورِ الأجسامِ بنورِ الشمسِ المضيئةِ بنفسِها ، ومهما انكشفَ بعضُ الشمسِ . . فقدْ جرَتِ العادةُ بأنْ يُوضعَ طستُ ماءٍ حتىٰ تُرى الشمسُ فيهِ ، ويمكنُ النظرُ إليها ، فيكونُ الماءُ واسطةً يغضُّ قليلاً مِنْ نورِ الشمسِ حتىٰ يُطاقَ النظرُ إليها ؛ فكذلكَ الأفعالُ واسطةٌ نشاهدُ فيها صفاتِ الفاعلِ ولا يبهرُنا نورُ الذاتِ بعدَ أنْ تباعدنا عنها بواسطةِ الأفعالِ ، فهـٰذا سرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تفكَّروا في خلقِ اللهِ ، ولا تتفكَّروا في ذاتِ اللهِ تعالىٰ » .

* * *

بيان كيفية التفكّر في خلق الله تعالىٰ

اعلمْ : أنَّ كلَّ ما في الوجودِ ممَّا سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فعلُ اللهِ وخلقُهُ ، وكلُّ ذرَّةٍ مِنَ الذرَّاتِ ؛ مِنْ جوهرٍ وعرضٍ ، وصفةٍ وموصوفٍ . . ففيها عجائبُ وغرائبُ تظهرُ بها حكمةُ اللهِ وقدرتُهُ ، وجلالُهُ وعظمتُهُ ، وإحصاءُ ذلكَ غيرُ ممكنٍ ؛ لأنَّهُ لوْ كانَ البحرُ مداداً لذلكَ . . لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ ينفدَ عُشْرُ عَشيرِهِ ، ولكنَّا نشيرُ إلىٰ جملٍ منهُ ؛ ليكونَ ذلكَ كالمثالِ لما عداهُ ، فنقولُ : الموجوداتُ المخلوقةُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا يُعرفُ أصلُها ، فلا يمكنُنا التفكُّرُ فيها ، وكمْ مِنَ الموجوداتِ التي لا نعلمُها ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وإلىٰ ما يُعرفُ أصلُها وجملتُها ولا يُعرفُ تفصيلُها فيمكنُنا أنْ نتفكَّرَ في تفصيلِها ، وهيَ منقسمةٌ إلىٰ ما أدركناهُ بحسِّ البصرِ ، وإلىٰ ما لا ندركُهُ بالبصرِ .

أمَّا الذي لا ندركُهُ بالبصرِ . . فكالملائكةِ ، والجنِّ ، والشياطينِ ، والعرشِ ، والكرسيِّ ، وغيرِ ذلكَ ، ومجالُ الفكرِ في هٰذهِ الأشياءِ ممَّا يضيقُ ويغمضُ ، فلنعدلْ إلى الأقربِ إلى الأفهامِ ، وهيَ المدركاتُ بحسِّ

البصرِ ، وتلكَ هيَ السماواتُ السبعُ والأرضُ وما بينَهُما .

فالسماواتُ مشاهدةٌ بكواكبِها ، وشمسِها وقمرِها ، وحركتِها ودورانِها في طلوعِها وغروبِها ، والأرضُ مشاهدةٌ بما فيها مِنْ جبالِها ومعادنِها ، وأنهارِها وبحارِها ، وحيوانِها ونباتِها ، وما بينَ السماءِ والأرضِ وهوَ الجوُّ مدركٌ بغيومِها ، وأمطارِها وثلوجِها ، ورعدِها وبرقِها ، وصواعقِها وشهْبِها وعواصفِ رياحِها ، فهـٰذهِ هيَ الأجناسُ المشاهدةُ مِنَ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما ، وكلُّ جنسٍ منها ينقسمُ إلىٰ أنواعٍ ، وكلُّ نوعٍ ينقسمُ إلىٰ أقسامٍ ، ويتشعَّبُ كلُّ قسمٍ إلىٰ أصنافٍ ، ولا نهايةَ لانشعابِ ذلكَ وانقسامِهِ في اختلافِ صفاتِهِ وهيئاتِهِ ومعانيهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، وجميعُ ذلكَ مجالُ الفكرِ ، فلا تتحرَّكُ ذرَّةٌ في السماواتِ والأرضِ ؛ مِنْ جمادٍ ونباتٍ وحيوانٍ وفلكٍ وكوكبٍ . . إلا واللهُ تعالىٰ هوَ محرِّكُها ، وفي حركتِها حكمةٌ أوْ حكمتانِ ، أوْ عشرٌ ، أوْ ألفُ حكمةٍ ، كلُّ ذلكَ شاهدٌ للهِ تعالىٰ بالوحدانيةِ ، ودالٌّ علىٰ جلالِهِ وكبريائِهِ ، وهيَ الآياتُ الدالَّةُ عليهِ .

وقدْ وردَ القرآنُ بالحثِّ على التفكُّرِ في هـٰذهِ الآياتِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ، مِنْ أوَّلِ القرآنِ إلىٰ آخرِهِ ، فلنذكرْ كيفيةَ الفكرِ في بعضِ الآياتِ .

❊ ❊ ❊

فمِنْ آياتِهِ : الإنسانُ المخلوقُ مِنَ النطفةِ ، وأقربُ شيءٍ إليكَ نفسُكَ ، وفيكَ مِنَ العجائبِ الدالَّةِ علىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ما تنقضي الأعمارُ في الوقوفِ علىٰ عُشْرِ عَشِيرِهِ ، وأنتَ غافلٌ عنهُ ، فيا مَنْ هوَ غافلٌ عنْ نفسِهِ وجاهلٌ بها ؛ كيفَ تطمعُ في معرفةِ غيركَ ؟ وقدْ أمرَكَ اللهُ تعالىٰ بالتدبُّرِ في نفسِكَ في كتابهِ العزيزِ فقالَ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

وذكرَ أنَّكَ مخلوقٌ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ فقالَ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ .

ثم ذكرَ كيفَ جعلَ النطفةَ علقةً ، والعلقةَ مضغةً ، والمضغةَ عظاماً فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً . . . ﴾ الآية .

فتكريرُ ذكرِ النطفةِ في الكتابِ العزيزِ ليسَ ليُسمعَ لفظُهُ ويُتركَ التفكُّرُ في معناهُ ، فانظرِ الآنَ إلى النطفةِ وهيَ قطرةٌ مِنَ الماءِ قذرةٌ ، لوْ تُركَتْ ساعةً ليضربها الهواءُ . . فسدَتْ وأنتنَتْ ، كيفَ أخرجَها ربُّ الأربابِ مِنَ الصلبِ والترائبِ ، وكيفَ جمعَ بينَ الذكرِ والأنثىٰ ، وألقى الألفةَ والمحبَّةَ في قلوبِهِمْ ، وكيفَ قادَهُمْ بسلسلةِ المحبةِ والشهوةِ إلى الاجتماعِ ، وكيفَ استخرجَ النطفةَ مِنَ الرجلِ بحركةِ الوقاعِ ، وكيفَ استجلبَ دمَ الحيضِ مِنْ أعماقِ العروقِ وجمعَهُ في الرحمِ ، ثمَّ كيفَ خلقَ المولودَ مِنَ النطفةِ ، وسقاهُ بماءِ الحيضِ ، وغذَّاهُ حتىٰ نما وربا وكبرَ ، وكيفَ جعلَ النطفةَ وهيَ بيضاءُ مشرقةٌ علقةً حمراءَ ، ثمَّ كيفَ جعلَها مضغةً ، ثمَّ كيفَ قسمَ أجزاءَ النطفةِ وهيَ متشابهةٌ متساويةٌ إلى العظامِ ، والأعصابِ ، والعروقِ ، والأوتارِ ، واللحمِ ، ثمَّ كيفَ ركَّبَ مِنَ اللحومِ والأعصابِ والعروقِ الأعضاءَ الظاهرةَ ، فدوَّرَ الرأسَ ، وشقَّ السمعَ والبصرَ والأنفَ والفمَ وسائرَ المنافذِ ، ثمَّ مدَّ اليدَ والرجْلَ ، وقسمَ رؤوسَها بالأصابعِ ، وقسمَ الأصابعَ بالأناملِ ، ثمَّ كيفَ ركَّبَ الأعضاءَ الباطنةَ مِنَ القلبِ ، والمعدةِ ، والكبدِ ، والطحالِ ، والرئةِ ، والرحمِ ، والمثانةِ ، والأمعاءِ ، كلُّ واحدٍ علىٰ شكلٍ مخصوصٍ ، ومقدارٍ مخصوصٍ ، لعملٍ مخصوصٍ ، ثمَّ كيفَ قسمَ كلَّ عضوٍ مِنْ هـٰذهِ الأعضاءِ بأقسامٍ أخرَ ، فركَّبَ العينَ مِنْ سبعِ طبقاتٍ ؛ لكلِّ طبقةٍ وصْفٌ مخصوصٌ وهيئةٌ مخصوصةٌ ، لوْ فُقدَتْ طبقةٌ منها ، أوْ زالَتْ صفةٌ مِنْ صفاتِها . . تعطَّلَتِ العينُ عنِ الإبصارِ !

فلوْ ذهبنا نصفُ ما في آحادِ هٰذهِ الأعضاءِ مِنَ العجائبِ والآياتِ . . لانقضىٰ فيهِ الأعمارُ ، فانظرِ الآنَ إلى العظامِ وهيَ أجسامٌ قويَّةٌ صلبةٌ كيفَ خلقَها مِنْ نطفةٍ سخيفةٍ رقيقةٍ ، ثمَّ جعلَها قواماً للبدنِ وعماداً لهُ ، ثمَّ قدَّرَها بمقاديرَ مختلفةٍ وأشكالٍ مختلفةٍ ؛ فمنهُ صغيرٌ وكبيرٌ ، وطويلٌ ومستديرٌ ، ومجوَّفٌ ومصمتٌ ، وعريضٌ ودقيقٌ .

ولمَّا كانَ الإنسانُ محتاجاً إلى الحركةِ بجملةِ بدنِهِ وببعضِ أعضائِهِ مفتقراً للتردُّدِ في حاجاتِهِ . . لمْ يجعلْ عظمَهُ عظماً واحداً ، بلْ عظاماً كثيرةً بينَها مفاصلُ ؛ حتىٰ تتيسَّرَ بها الحركةُ ، وقدَّرَ شكلَ كلِّ واحدٍ منها علىٰ وَفْقِ الحركةِ المطلوبةِ بها ، ثمَّ وصلَ مفاصلَها ، وربطَ بعضَها بالبعضِ بأوتارٍ أنبتَها مِنْ أحدِ طرفي العظمِ ، وألصقَهُ بالطرفِ الآخرِ كالرباطِ لهُ ، ثمَّ خلقَ في أحدِ طرفي العظمِ زوائدَ خارجةً منهُ ، وفي الآخرِ حفراً غائصةً فيهِ موافقةً لشكلِ الزوائدِ ؛ لتدخلَ فيها وتنطبقَ عليها ، فصارَ العبدُ إنْ أرادَ تحريكَ جزءٍ مِنْ بدنِهِ . . لمْ يمتنعْ عليهِ ، ولولا المفاصلُ . . لتعذَّرَ عليهِ ذلكَ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ عظامَ الرأسِ ، وكيفَ جمعَها وركَّبَها ، وقدْ ركَّبَها مِنْ خمسةٍ وخمسينَ عظماً مختلفةَ الأشكالِ والصورِ ، فألَّفَ بعضَها إلىٰ بعضٍ بحيث استوتْ بهِ كرةُ الرأسِ كما تراهُ ؛ فمنها ستةٌ تخصُّ القحْفَ ، وأربعةَ عشرَ للَّحيِ الأعلىٰ ، واثنانِ للَّحيِ الأسفلِ ، والبقيةُ هيَ الأسنانُ ، بعضُها عريضةٌ تصلحُ للطحنِ ، وبعضُها حادَّةٌ تصلحُ للقطعِ ، وهيَ الأنيابُ والأضراسُ والثنايا .

ثمَّ جعلَ الرقبةَ مركباً للرأسِ ، وركَّبَها مِنْ سبعِ خرزاتٍ مجوَّفاتٍ مستديراتٍ ، فيها تحريفاتٌ وزياداتٌ ونقصاناتٌ[1] ؛ لينطبقَ بعضُها علىٰ بعضٍ ، ويطولُ ذكرُ وجهِ الحكمةِ فيها .

ثمَّ ركَّبَ الرقبةَ على الظهرِ ، وركَّبَ الظهرَ مِنْ أسفلِ الرقبةِ إلىٰ منتهىٰ عظمِ العجزِ مِنْ أربعٍ وعشرينَ خرزةً ، وركَّبَ عظمَ العجزِ مِنْ ثلاثةِ أجزاءٍ مختلفةٍ ، ويتصلُ بهِ مِنْ أسفلِهِ عظْمُ العُصْعُصِ ، وهوَ أيضاً مؤلَّفٌ مِنْ ثلاثةِ أجزاءٍ ، ثمَّ وصلَ عظامَ الظهرِ بعظامِ الصدرِ ، وعظامِ الكتفِ ، وعظامِ اليدينِ ، وعظامِ العانةِ ، وعظامِ العجزِ ، ثمَّ رتَّبَ عظامَ الفخذينِ والساقينِ وأصابعِ الرجلينِ ، فلا نطوِّلُ بذكرِ عددِ ذلكَ .

ومجموعُ عددِ العظامِ في بدنِ الإنسانِ مئتا عظمٍ وثمانيةٌ وأربعونَ عظماً ، سوى العظامِ الصغيرةِ التي حُشِيَ بها خللُ المفاصلِ ، فانظرْ كيفَ خلقَ جميعَ ذلكَ مِنْ نطفةٍ سخيفةٍ رقيقةٍ .

وليسَ المقصودُ مِنْ ذكرِ أعدادِ العظامِ أنْ نعرفَ عددَها ؛ فإنَّ هٰذا علمٌ قريبٌ يعرفُهُ الأطباءُ والمشرِّحونَ ، وإنَّما الغرضُ أنْ ننظرَ منها في مدبِّرِها وخالقِها أنَّهُ كيفَ قدَّرَها ودبَّرَها ، وخالفَ بينَ أشكالِها وأقدارِها ، وخصَّصَها بهٰذا العددِ المخصوصِ ؛ لأنَّهُ لوْ زادَ عليها واحداً . . لكانَ وبالاً على الإنسانِ يحتاجُ إلىٰ قلعِهِ ، ولوْ نقصَ منها واحداً . . لكانَ نقصاناً يحتاجُ

---

(١) في (أ ، ب) : (تجويفات) بدل (تحريفات) .

إلىٰ جبرِهِ ، فالطبيبُ ينظرُ فيها ليعرفَ وجهَ العلاجِ في جبرِها ، وأهلُ البصائرِ ينظرونَ فيها ليستدلُّوا بها علىٰ جلالةِ خالقِها ومصوِّرِها ، فشتانَ بينَ النظرينِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ آلاتٍ لتحريكِ العظامِ ، وهيَ العضلاتُ ، فخلقَ في بدنِ الإنسانِ خمسَ مئةِ عضلةٍ وتسعاً وعشرينَ عضلةً ، والعضلةُ هيَ المركبةُ مِنْ لحمٍ وعصبٍ ، ورُبُطٍ وأغشيةٍ ، وهيَ مختلفةُ المقاديرِ والأشكالِ بحسَبِ اختلافِ مواضعِها وقدرِ حاجاتِها ، فأربعٌ وعشرونَ عضلةً منها هيَ لتحريكِ حدقةِ العينِ وأجفانِها ، لوْ نقصَتْ واحدةٌ مِنْ جملتِها . . اختلَّ أمرُ العينِ ، وهٰكذا لكلِّ عضوٍ عضلاتٌ بعددٍ مخصوصٍ وقدْرٍ مخصوصٍ .

وأمرُ الأعصابِ والعروقِ والأوردةِ والشرايينِ ، وعددِها ومنابتِها وانشعاباتِها . . أعجبُ مِنْ هٰذا كلِّهِ ، وشرحُهُ يطولُ ، فللتفكُّرِ مجالٌ في آحادِ هٰذهِ الأجزاءِ ، ثمَّ في آحادِ هٰذهِ الأعضاءِ ، ثمَّ في جملةِ البدنِ .

فكلُّ ذلكَ نظرٌ إلىٰ عجائبِ أجسامِ البدنِ ، وعجائبُ المعاني والصفاتِ التي لا تُدركُ بالحواسِّ أعظمُ ، فانظرِ الآنَ إلىٰ ظاهرِ الإنسانِ وباطنِهِ ، وإلىٰ بدنِهِ وصفاتِهِ ، فترىٰ فيهِ مِنَ العجائبِ والصنعةِ ما يُقضىٰ بهِ العجبُ ، وكلُّ ذلكَ صنعُ اللهِ عزَّ وجلَّ في قطرةِ ماءٍ قذرةٍ ، فترىٰ مَنْ هٰذا صنعُهُ في قطرةِ ماءٍ . . فما صنعُهُ في ملكوتِ السماواتِ وكواكبِها ؟ وما حكمتُهُ في أوضاعِها وأشكالِها ، ومقاديرِها وأعدادِها ، واجتماعِ بعضِها وتفرُّقِ بعضِها ، واختلافِ صورِها وتفاوتِ مشارقِها ومغاربِها ؟

فلا تظنَّنَّ أنَّ ذرَّةً مِنْ ملكوتِ السماواتِ تنفكُّ عنْ حكمةٍ وحكمٍ ، بلْ هي أحكمُ خلقاً ، وأتقنُ صنعاً ، وأجمعُ للعجائبِ مِنْ بدنِ الإنسانِ ، بلْ لا نسبةَ لجميعِ ما في الأرضِ إلىٰ عجائبِ السماواتِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ .

فارجعِ الآنَ إلى النطفةِ وتأمَّلْ حالَها أوَّلاً ، وما صارَتْ إليهِ ثانياً ، وتأمَّلْ أنَّهُ لوِ اجتمعَ الجنُّ والإنسُ علىٰ أنْ يخلقوا للنطفةِ سمعاً أوْ بصراً أوْ عقلاً أوْ قدرةً أوْ علماً أوْ روحاً ، أو يخلقوا فيها عظماً أوْ عرقاً أوْ عصباً أوْ جلداً أوْ شعراً . . هلْ يقدرونَ علىٰ ذلكَ ؟! بلْ لوْ أرادوا أنْ يعرفوا كُنْهَ حقيقتِهِ ، وكيفيَّةَ خلقتِهِ بعدَ أنْ خلقَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ . . لعجزوا عنهُ .

فالعجبُ منكَ ! لوْ نظرتَ إلىٰ صورةِ إنسانٍ مصوَّرٍ علىٰ حائطٍ تأنَّقَ النقَّاشُ في تصويرِها حتَّىٰ قرُبَ ذلكَ مِنْ صورةِ الإنسانِ ، وقالَ الناظرُ إليها : كأنَّهُ إنسانٌ . . عظُمَ تعجُّبُكَ من صنعةِ النقَّاشِ وحذقِهِ ، وخفَّةِ يدِهِ ، وتمامِ فطنتِهِ ، وعظُمَ في قلبِكَ محلُّهُ ، معَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ تلكَ الصورةَ إنَّما تمَّتْ بالصبغِ والقلمِ وبالحائطِ وباليدِ وبالقدرةِ وبالعلمِ وبالإرادةِ ، وشيءٌ مِنْ ذلكَ ليسَ مِنْ فعلِ النقَّاشِ ولا خلقِهِ ، بلْ هوَ مِنْ خلقِ غيرِهِ ، وإنَّما منتهىٰ فعلِهِ الجمعُ بينَ الصبغِ والحائطِ علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ ، فيكثرُ تعجُّبُكَ منهُ وتستعظمُهُ وأنتَ ترى النطفةَ القذرةَ كانَتْ معدومةً ، فخلقَها خالقُها في الأصلابِ والترائبِ ، ثمَّ أخرجَها منها وشكَّلَها فأحسنَ تشكيلَها ، وقدَّرَها فأحسنَ تقديرَها ، وصوَّرَها فأحسنَ تصويرَها ، وقسَّمَ أجزاءَها المتشابهةَ إلىٰ

أجزاءٍ مختلفةٍ ، فأحكمَ العظامَ في أرجائِها ، وحسَّنَ أشكالَ أعضائِها ، وزيَّنَ ظاهرَها وباطنَها ، ورتَّبَ عروقَها وأعصابَها ، وجعلَها مجرىً لغذائِها ؛ ليكونَ ذلكَ سببَ بقائِها ، وجعلَها سميعةً بصيرةً ، عالمةً ناطقةً ، فخلقَ لها الظهرَ أساساً لبدنِها ، والبطنَ حاوياً لآلاتِ غذائِها ، والرأسَ جامعاً لحواسِّها .

ففتحَ العينينِ ورتَّبَ طبقاتِها ، وأحسنَ شكلَها ولونَها وهيئاتِها ، ثمَّ حماها بالأجفانِ لتسترَها ، وتحفظَها وتصقلَها ، وتدفعَ الأقذاءَ عنها ، ثمَّ أظهرَ في مقدارِ عدسةٍ منها صورةَ السماواتِ معَ اتساعِ أكنافِها وتباعدِ أقطارِها ، فهوَ ينظرُ إليها .

ثمَّ شقَّ أذنيهِ وأودعَهُما ماءً مرّاً ليحفظَ سمعَها ، ويدفعَ الهوامَّ عنها ، وحوَّطَها بصدفةِ الأذنِ لتجمعَ الصوتَ فتردَّهُ إلىٰ صماخِها ، ولتحسَّ بدبيبِ الهوامِّ إليها ، وجعلَ فيها تحريفاتٍ واعوجاجاتٍ لتكثرَ حركةُ ما يدبُّ فيها[1] ، ويطولَ طريقُهُ ، فيتنبَّهَ عنِ النومِ صاحبُها إذا قصدَها دابَّةٌ في حالِ النومِ .

ثمَّ رفعَ الأنفَ مِنْ وسطِ الوجهِ ، وأحسنَ شكلَهُ ، وفتحَ منخريهِ ، وأودعَ فيهِ حاسَّةَ الشمِّ ليستدلَّ باستنشاقِ الروائحِ علىٰ مطاعمِهِ وأغذيتِهِ ، وليستنشقَ بمنفذِ المنخرينِ روحَ الهواءِ غذاءً لقلبِهِ ، وترويحاً لحرارةِ باطنِهِ .

---

(١) في غير (ص) : (تجويفات) بدل (تحريفات) .

وفتحَ الفمَ وأودعَهُ اللسانَ ناطقاً وترجماناً ومعرباً عمَّا في القلبِ ، وزيَّنَ الفمَ بالأسنانِ ، ولتكونَ آلةً للطحنِ والكسرِ والقطعِ ، فأحكمَ أصولَها ، وحدَّدَ رؤوسَها ، وبيَّضَ لونَها ، ورتَّبَ صفوفَها ، متساويةَ الرؤوسِ ، متناسقةَ الترتيبِ كأنَّها الدرُّ المنظومُ .

وخلقَ الشفتينِ وحسَّنَ لونَها وشكلَها ؛ لتنطبقَ على الفمِ فتسدَّ منفذَهُ ، وليتمَّ بها حروفُ الكلامِ .

وخلقَ الحنجرةَ وهيَّأَها لخروجِ الأصواتِ ، وخلقَ للسانِ قدرةَ الحركاتِ والتقطيعاتِ ، لتُقطِّعَ الصوتَ في مخارجَ مختلفةٍ تختلفُ بها الحروفُ ؛ ليتسعَ بها طريقُ النطقِ بكثرتِها .

ثمَّ خلقَ الحناجرَ مختلفةَ الأشكالِ في الضيقِ والسعةِ ، والخشونةِ والملاسةِ ، وصلابةِ الجوهرِ ورخاوتِهِ ، والطولِ والقصرِ ، حتى اختلفَتْ بسببِها الأصواتُ ، فلا يتشابهُ صوتانِ ، بلْ يظهرُ بينَ كلِّ صوتينِ فُرقانٌ ، حتىٰ يميزَ السامعُ بعضَ الناسِ عنْ بعضٍ بمجرَّدِ الصوتِ في الظلمةِ .

ثمَّ زيَّنَ الرأسَ بالشعورِ والأصداغِ ، وزيَّنَ الوجهَ باللحيةِ والحاجبينِ ، وزيَّنَ الحاجبَ برقَّةِ الشعرِ واستقواسِ الشكلِ ، وزيَّنَ العينينِ بالأهدابِ .

ثمَّ خلقَ الأعضاءَ الباطنةَ ، وسخَّرَ كلَّ واحدٍ لفعلٍ مخصوصٍ ، فسخَّرَ المعدةَ لنضجِ الغذاءِ ، والكبدَ لإحالةِ الغذاءِ إلى الدمِ ، والطحالَ والمرارةَ والكليةَ لخدمةِ الكبدِ ، فالطحالُ يخدمُها بجذبِ السوداءِ عنها ، والمرارةُ

تخدمُها بجذبِ الصفراءِ عنها ، والكليةُ تخدمُها بجذبِ المائيةِ عنها ، والمثانةُ تخدمُ الكليةَ بقبولِ الماءِ عنها ، ثمَّ تخرجُهُ في طريقِ الإحليلِ ، والعروقُ تخدمُ الكبدَ في إيصالِ الدمِ إلىٰ سائرِ أطرافِ البدنِ .

ثمَّ خلقَ اليدينِ وطوَّلَهما لتمتدَّ إلى المقاصدِ ، وعرَّضَ الكفَّ ، وقسَّمَ الأصابعَ الخمسَ ، وقسَّمَ كلَّ إصبعٍ بثلاثِ أناملَ ، ووضعَ الأربعةَ في جانبٍ والإبهامَ في جانبٍ ؛ لتدورَ الإبهامُ على الجميعِ ، ولوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ علىٰ أنْ يستنبطوا بدقيقِ الفكرِ وجهاً آخرَ في وضعِ الأصابعِ سوىٰ ما وُضعَتْ عليهِ مِنْ بعدِ الإبهامِ عنِ الأربعةِ ، وتفاوتِ الأربعةِ في الطولِ ، وترتيبِها في صفٍّ واحدٍ . . لمْ يقدروا عليهِ ؛ إذْ بهـٰذا الترتيبِ صلحَتِ اليدُ للقبضِ والإعطاءِ ، فإنْ بسطَها . . كانَتْ لهُ طبقاً يضعُ عليها ما يريدُ ، وإنْ جمعَها . . كانَتْ لهُ آلةً للضربِ ، وإنْ ضمَّها ضمّاً غيرَ تامٍ . . كانَتْ مغرفةً لهُ ، وإنْ بسطَها وضمَّ أصابعَها . . كانَتْ مجرفةً لهُ ، ثمَّ خلقَ الأظفارَ علىٰ رؤوسِها زينةً للأناملِ ، وعماداً لها مِنْ ورائِها حتىٰ لا تنقطعَ ، وليلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تتناولُها الأناملُ ، وليحكَّ بها بدنَهُ عندَ الحاجةِ ، فالظفرُ الذي هوَ أخسُّ الأعضاءِ لوْ عدمَهُ الإنسانُ وظهرَ بهِ حكَّةٌ . . لكانَ أعجزَ الخلقِ وأضعفَهُمْ ، ولمْ يقمْ أحدٌ مقامَهُ في حكِّ بدنِهِ ، ثم هدى اليدَ إلىٰ موضعِ الحكِّ ؛ حتىٰ تمتدُّ إليهِ ولوْ في النومِ والغفلةِ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ طلبٍ ، ولوِ استعانَ بغيرِهِ . . لمْ يعثرْ علىٰ موضعِ الحكِّ إلا بعدَ تعبٍ طويلٍ .

ثمَّ خلقَ هـٰذا كلَّهُ مِنَ النطفةِ ، وهيَ في داخلِ الرحمِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ،

ولوْ كُشفَ الغطاءُ والغشاءُ ، وامتدَّ البصرُ إليهِ . . لكانَ يرى التخطيطَ والتصويرَ يظهرُ عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصوِّرَ ولا آلتَهُ ، فهلْ رأيتَ مصوِّراً أو فاعلاً لا يمسُّ آلتَهُ ومصنوعَهُ ولا يلاقيهِ وهوَ يتصرَّفُ فيهِ ؟! فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ وأظهرَ برهانَهُ !

ثمَّ انظرْ معَ كمالِ قدرتِهِ إلىٰ تمامِ رحمتِهِ ، فإنَّهُ لما ضاقَ الرحمُ عنِ الصبيِّ لمَّا كبرَ كيفَ هداهُ السبيلَ حتىٰ تنكَّسَ وتحرَّكَ ، وخرجَ مِنْ ذلكَ المضيقِ ، وطلبَ المنفذَ كأنَّهُ عاقلٌ بصيرٌ بما يحتاجُ إليهِ .

ثمَّ لمَّا خرجَ واحتاجَ إلى الغذاءِ كيفَ هداهُ إلى التقامِ الثديِ ، ثمَّ لمَّا كانَ بدنُهُ سخيفاً لا يحتملُ الأغذيةَ الكثيفةَ كيفَ دبَّرَ لهُ في خلقِ اللبنِ اللطيفِ ، واستخرجَهُ مِنْ بينِ الفرثِ والدمِ سائغاً خالصاً ، وكيفَ خلقَ الثديينِ وجمعَ فيهما اللبنَ ، وأنبتَ منهما حَلَمتينِ علىٰ قدْرِ ما ينطبقُ عليهِ فمُ الصبيِّ ، ثمَّ فتحَ في حَلَمةِ الثديِ ثقباً ضيِّقاً جدّاً حتىٰ لا يخرجَ اللبنُ منهُ إلا بعدَ المصِّ تدريجاً ، فإنَّ الطفلَ لا يطيقُ منهُ إلا القليلَ ، ثمَّ كيفَ هداهُ للامتصاصِ حتىٰ يستخرجَ مِنْ ذلكَ المضيقِ اللبنَ الكثيرَ عندَ شدَّةِ الجوعِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عطفِهِ ورحمتِهِ ورأفتِهِ كيفَ أخَّرَ خلْقَ الأسنانِ إلىٰ تمامِ الحولينِ ؛ لأنَّهُ في الحولينِ لا يتغذَّىٰ إلا باللبنِ ، فيستغني عنِ السنِّ ، وإذا كبرَ . . لمْ يوافقْهُ اللبنُ السخيفُ ، ويحتاجُ إلىٰ طعامٍ غليظٍ ، ويحتاجُ الطعامُ إلى المضغِ والطحنِ ، فأنبتَ لهُ الأسنانَ عندَ الحاجةِ ، لا قبلَها ولا بعدَها ، فسبحانَهُ كيفَ أخرجَ تلكَ العظامَ الصلبةَ في تلكَ اللِّثَاتِ اللينةِ !

ثمَّ حنَّنَ قلوبَ الوالدينِ عليهِ للقيامِ بتدبيرِهِ في الوقتِ الذي كانَ عاجزاً عنْ تدبيرِ نفسِهِ ، فلوْ لمْ يسلِّطِ اللهُ تعالى الرحمةَ علىٰ قلوبِهما . . لكانَ الطفلُ أعجزَ الخلقِ عنْ تدبيرِ نفسِهِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ رزقَهُ القدرةَ والتمييزَ والعقلَ والهدايةَ تدريجاً حتىٰ بلغَ وتكاملَ ؛ فصارَ مراهقاً ، ثمَّ شاباً ، ثمَّ كهلاً ، ثمَّ شيخاً ، إمَّا كفوراً أوْ شكوراً ، مطيعاً أوْ عاصياً ، مؤمناً أو كافراً ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

فانظرْ إلى اللطفِ والكرمِ ، ثمَّ إلى القدرةِ والحكمةِ . . تبهرْكَ عجائبُ الحضرةِ الربانيةِ .

فالعجبُ كلُّ العجبِ ممَّنْ يرىٰ خطّاً حسناً أوْ نقشاً حسناً علىٰ حائطٍ فيستحسنُهُ ، فينصرفُ جميعُ همِّهِ إلى التفكُّرِ في النقَّاشِ والخطَّاطِ ، وأنَّهُ كيفَ نقشَهُ وخطَّهُ ، وكيفَ اقتدرَ عليهِ ، ولا يزالُ يستعظمُهُ في نفسِهِ ويقولُ : ما أحذقَهُ ! وما أكملَ صنعتَهُ وأحسنَ قدرتَهُ ! ثمَّ ينظرُ إلىٰ هٰذهِ العجائبِ في نفسِهِ وفي غيرِهِ ، ثمَّ يغفُلُ عنْ صانعِهِ ومصوِّرِهِ ، فلا تدهشُهُ عظمتُهُ ، ولا يحيِّرُهُ جلالُهُ وحكمتُهُ !

فهٰذهِ نبذةٌ مِنْ عجائبِ بدنِكَ التي لا يمكنُ استقصاؤُها ، فهوَ أقربُ مجالٍ لفكرِكَ ، وأجلىٰ شاهدٍ علىٰ عظمةِ خالقِكَ ، وأنتَ غافلٌ عنْ ذلكَ ،

مشغولٌ ببطنِكَ وفرجِكَ ، لا تعرفُ مِنْ نفسِكَ إلا أنْ تجوعَ فتأكلَ ، وتشبعَ فتنامَ ، وتشتهيَ فتجامعَ ، وتغضبَ فتقاتلَ ، والبهائمُ كلُّها تشارِكُكَ في معرفةِ ذلكَ ، وإنَّما خاصِّيَّةُ الإنسانِ التي حُجبَتِ البهائمُ عنها معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالنظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ الآفاقِ والأنفسِ ؛ إذْ بها يدخلُ العبدُ في زمرةِ الملائكةِ المقرَّبينَ ، ويُحشرُ في زمرةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ مقرَّباً مِنْ حضرةِ ربِّ العالمينَ ، وليسَتْ هٰذهِ المنزلةُ للبهائمِ ، ولا لإنسانٍ رضيَ مِنَ الدنيا بشهواتِ البهائمِ ، فإنَّهُ شرٌّ مِنَ البهيمةِ بكثيرٍ ؛ إذْ لا قدرةَ للبهيمةِ علىٰ ذلكَ ، وأمَّا هوَ . . فقدْ خلقَ اللهُ لهُ القدرةَ ، ثمَّ عطَّلَها ، وكفرَ نعمةَ اللهِ فيها ، فأولئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً .

وإذا عرفتَ طريقَ الفكرِ في نفسِكَ . . فتفكَّرْ في الأرضِ التي هيَ مقرُّكَ ، ثمَّ في أنهارِها وبحارِها ، وجبالِها ومعادنِها ، ثمَّ ارتفعْ منها إلىٰ ملكوتِ السماواتِ .

* * *

أمَّا الأرضُ . . **فمِنْ آياتِهِ** : أنْ خلقَ الأرضَ فراشاً ومهاداً ، وسلكَ فيها سبلاً فجاجاً ، وجعلَها ذلولاً لتمشوا في مناكبِها ، وجعلَها قارَّةً لا تتحرَّكُ ، وأرسىٰ فيها الجبالَ أوتاداً لها تمنعُها مِنْ أنْ تميدَ ، ثمَّ وسَّعَ أكنافَها حتىٰ عجزَ الآدميونَ عنْ بلوغِ جميعِ جوانبِها وإنْ طالَتْ أعمارُهُمْ وكثُرَ تطوافُهُمْ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ ،

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ .

وقدْ أكثرَ في كتابِهِ العزيزِ مِنْ ذكرِ الأرضِ ليُتفكَّرَ في عجائبِها ، فظهرُها مقرٌّ للأحياءِ ، وبطنُها مرقدٌ للأمواتِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ .

فانظرْ إلى الأرضِ وهيَ ميتةٌ ، فإذا أنزلَ عليها الماءَ اهتزَّتْ وربَتْ ، واخضرَّتْ وأنبتَتْ عجائبَ النباتِ ، وخرجَتْ منها أصنافُ الحيواناتِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ أحكمَ جوانبَ الأرضِ بالجبالِ الراسياتِ ، الشوامخِ الصمِّ الصلابِ ، وكيفَ أودعَ المياهَ تحتَها ، ففجَّرَ العيونَ ، وأسالَ الأنهارَ تجري علىٰ وجهِها ، وأخرجَ مِنَ الحجارةِ اليابسةِ ومِنَ الترابِ الكدرِ ماءً رقيقاً ، عذباً صافياً زلالاً ، وجعلَ بهِ كلَّ شيءٍ حيٍّ ، فأخرجَ بهِ فنونَ الأشجارِ والنباتِ ؛ مِنْ حبٍّ ، وعنبٍ وقضْبٍ ، وزيتونٍ ونخلٍ ورمانٍ وفواكهَ كثيرةٍ لا تُحصىٰ ، مختلفةَ الأشكالِ والألوانِ ، والطعومِ والصفاتِ والروائحِ ، يفضِّلُ بعضَها علىٰ بعضٍ في الأُكُلِ ، تُسقىٰ جميعُها بماءٍ واحدٍ ، وتخرجُ مِنْ أرضٍ واحدةٍ .

وإنْ قلتَ : إنَّ اختلافَها باختلافِ بذورِها وأصولِها . . فمتىٰ كانَ في النواةِ نخلةٌ مطوَّقةٌ بعناقيدِ الرطبِ ؟ ومتىٰ كانَ في حبَّةٍ واحدةٍ سبعُ سنابلَ ، في كلِّ سنبلةٍ مئةُ حبَّةٍ ؟!

ثمَّ انظرْ إلىٰ أرضِ البوادي ، وفتِّشْ ظاهرَها وباطنَها ، فتراها تراباً متشابهاً ، فإذا أنزلَ عليها الماءَ . . اهتزَّتْ وربَتْ ، وأنبتَتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، ألواناً مختلفةً ، ونباتاً متشابهاً وغيرَ متشابهٍ ، لكلِّ واحدٍ طعمٌ وريحٌ ولونٌ وشكلٌ يخالفُ الآخرَ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ كثرتِها ، واختلافِ أصنافِها ، وكثرةِ أشكالِها ، ثمَّ اختلافِ طبائعِ النباتِ وكثرةِ منافعِهِ ، وكيفَ أودعَ اللهُ تعالىٰ العقاقيرَ المنافعَ الغريبةَ ، فهـٰذا النباتُ يغذِّي ، وهـٰذا يقوِّي ، وهـٰذا يحيي ، وهـٰذا يقتلُ ، وهـٰذا يبرِّدُ ، وهـٰذا يسخِّنُ ، وهـٰذا إذا حصلَ في المعدةِ . . قمعَ الصفراءَ مِنْ أعماقِ العروقِ ، وهـٰذا يستحيلُ إلى الصفراءِ ، وهـٰذا يقمعُ البلغمَ والسوداءَ ، وهـٰذا يستحيلُ إليهما ، وهـٰذا يصفِّي الدمَ ، وهـٰذا يستحيلُ دماً ، وهـٰذا يفرِحُ ، وهـٰذا ينوِّمُ ، وهـٰذا يقوِّي ، وهـٰذا يضعِفُ ، فلمْ تنبتْ مِنَ الأرضِ ورقةٌ ولا نبتةٌ إلا وفيها منافعُ لا يقوى البشرُ على الوقوفِ علىٰ كنهِها .

وكلُّ واحدٍ مِنْ هـٰذا النباتِ يحتاجُ الفلاحُ في تربيتِهِ إلىٰ عملٍ مخصوصٍ ؛ فالنخلُ تُؤبَّرُ ، والكرمُ يكسحُ(١) ، والزرعُ ينقَّىٰ عنهُ الحشيشُ والدَّغَلُ ، وبعضُ ذلكَ يُستنبتُ ببثِّ البذرِ في الأرضِ ، وبعضُهُ بغرسِ الأغصانِ ، وبعضُهُ يُركَّبُ في الشجرِ ، ولوْ أردنا أنْ نذكرَ اختلافَ أجناسِ النباتِ وأنواعِهِ ومنافعِهِ وأحوالِهِ وعجائبِهِ . . لانقضَتِ الأيَّامُ في وصفِ

---

(١) أي : يقطع وينقىٰ ويقلَّم . « إتحاف » (١٠/ ٢٠٠) .

ذلكَ ، فيكفيكَ مِنْ كلِّ جنسٍ نبذةٌ يسيرةٌ تدلُّكَ علىٰ طريقِ الفكرِ ، فهٰذهِ عجائبُ النباتِ .

* * *

ومِنْ آياتِهِ : الجواهرُ المودعةُ تحتَ الجبالِ ، والمعادنُ الحاصلةُ مِنَ الأرضِ ، ففي الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ مختلفةٌ ، فانظرْ إلى الجبالِ كيفَ يخرجُ منها الجواهرُ النفيسةُ ؛ مِنَ الذهبِ ، والفضةِ ، والفيروزجِ ، واللعلِ[1] وغيرِها ، بعضُها منطبعةٌ تحتَ المطارقِ ؛ كالذهبِ والفضةِ والنحاسِ والرصاصِ والحديدِ ، وبعضُها لا ينطبعُ ؛ كالفيروزجِ واللعلِ ، وكيفَ هدى اللهُ تعالى الناسَ إلى استخراجِها وتنقيتِها ، واتخاذِ الأواني والآلاتِ والنقودِ والحليِّ منها .

ثمَّ انظرْ إلىٰ معادنِ الأرضِ ؛ مِنَ النفطِ ، والكبريتِ ، والقارِ ، وغيرِها ، وأقلُّها الملحُ ، ولا يُحتاجُ إليهِ إلا لتطييبِ الطعامِ ، ولوْ خلتْ عنهُ بلدةٌ . . لتسارعَ الهلاكُ إليها ، فانظرْ إلىٰ رحمةِ اللهِ تعالىٰ كيفَ خلقَ بعضَ الأراضي سبخةً بجوهرِها ، بحيثُ يجتمعُ فيها الماءُ الصافي مِنَ المطرِ فيستحيلُ ملحاً مالحاً محرقاً ، لا يمكنُ تناولُ مثقالٍ منهُ ؛ ليكونَ ذلكَ تطييباً لطعامِكَ إذا أكلتَهُ ، فيهنأَ عيشُكَ .

وما مِنْ جمادٍ ولا حيوانٍ ولا نباتٍ إلا وفيهِ حكمةٌ وحكمٌ مِنْ هٰذا

(١) وهو حجر أحمر شبه الياقوت ، يجلب من معادن أرض بذخشان . «إتحاف» (١٠/٢٠١) .

الجنسِ ، ما خُلِقَ شيءٌ منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً ، بلْ خُلِقَ الكلُّ بالحقِّ ، وكما ينبغي وعلى الوجهِ الذي ينبغي ، وكما يليقُ بجلالِهِ وكرمِهِ ولطفِهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ .

* * *

ومِنْ آياتِهِ : أصنافُ الحيواناتِ وانقسامُها إلىٰ ما يطيرُ وإلىٰ ما يمشي ، وانقسامُ ما يمشي إلىٰ ما يمشي علىٰ رجْلينِ ، وإلىٰ ما يمشي علىٰ أربعٍ ، وعلىٰ عشرٍ ، وعلىٰ مئةٍ كما يُشاهدُ في بعضِ الحشراتِ ، ثمَّ انقسامُها في المنافعِ والصورِ والأشكالِ والأخلاقِ والطباعِ .

فانظرْ إلىٰ طيورِ الجوِّ ، وإلىٰ وحوشِ البرِّ ، وإلى البهائمِ الأهليةِ ، ترىٰ فيها مِنَ العجائبِ ما لا تشكُّ معهُ في عظمةِ خالقِها وقدرةِ مقدِّرِها ، وحكمةِ مصوِّرِها ، وكيفَ يمكنُ أنْ يُستقصىٰ ذلكَ ؟! بلْ لوْ أردنا أنْ نذكرَ عجائبَ البقَّةِ أوِ النملةِ أوِ النحلةِ أوِ العنكبوتِ وهيَ مِنْ صغارِ الحيواناتِ ؛ في بنائِها بيتَها ، وفي جمعِها غذاءَها ، وفي إلفِها لزوجِها ، وفي ادخارِها لنفسِها ، وفي حذقِها في هندسةِ بيتِها ، وفي هدايتِها إلىٰ حاجاتِها . . لمْ نقدرْ علىٰ ذلكَ .

فترى العنكبوتَ يبني بيتَهُ علىٰ طرفِ طريقٍ أوْ نهرٍ ، فيطلبُ أوَّلاً موضعينِ متقاربينِ بينَهُما فرجةٌ بمقدارِ ذراعٍ فما دونَهُ ، حتىٰ يمكنَهُ أنْ يصلَ

بالخيطِ بينَ طرفيهِ ، ثمَّ يبتدىءُ فيلقي اللعابَ الذي هوَ خيطُهُ علىٰ جانبٍ ليلتصقَ بهِ ، ثمَّ يغدو إلى الجانبِ الآخرِ فيحكمُ الطرفَ الآخرَ مِنَ الخيطِ ، ثمَّ كذلكَ يتردَّدُ ثانياً وثالثاً ، ويجعلُ بعْدَ ما بينَهُما متناسباً تناسباً هندسياً ، حتىٰ إذا أحكمَ معاقدَ القِمْطِ ، ورتَّبَ الخيوطَ كالسَّدىٰ . . اشتغلَ باللحمةِ ، فيضعُ اللحمةَ على السَّدىٰ ، ويضيفُ بعضَهُ إلىٰ بعضٍ ، ويحكمُ العقدَ علىٰ موضعِ التقاءِ اللحمةِ بالسَّدىٰ ، ويرعىٰ في جميعِ ذلكَ تناسبَ الهندسةِ ، ويجعلُ ذلكَ شبكةً يقعُ فيها البقُّ والذبابُ ، ويقعدُ في زاويةٍ مترصِّداً لوقوعِ الصيدِ في الشبكةِ ، فإذا وقعَ الصيدُ . . بادرَ إلىٰ أخذِهِ وأكلِهِ ، فإنْ عجزَ عنِ الصيدِ كذلكَ . . طلبَ لنفسِهِ زاويةً مِنْ حائطٍ ، ووصلَ بينَ طرفي الزاويةِ بخيطٍ ، ثمَّ علَّقَ نفسَهُ منها بخيطٍ آخرَ ، وبقي منتكساً في الهواءِ ينتظرُ ذبابةً تطيرُ ، فإذا طارَ ذبابٌ . . رمىٰ بنفسِهِ إليهِ فأخذَهُ ، ولفَّ خيطَهُ علىٰ رجليهِ وأحكمَهُ ثمَّ أكلَهُ .

وما مِنْ حيوانٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا وفيهِ مِنَ العجائبِ ما لا يُحصىٰ ، أفترىٰ أنَّهُ تعلَّمَ هـٰذهِ الصنعةَ مِنْ نفسِهِ ، أوْ تكوَّنَ بنفسِهِ ، أوْ كوَّنَهُ آدميٌّ وعلَّمَهُ ، أوْ لا هاديَ لهُ ولا معلِّمَ ؟!

أفيشكُّ ذو بصيرةٍ في أنَّهُ مسكينٌ ضعيفٌ عاجزٌ ، بلِ الفيلُ العظيمُ شخصُهُ الظاهرةُ قوتُهُ عاجزٌ عنْ أمرِ نفسِهِ ، فكيفَ هـٰذا الحيوانُ الضعيفُ ؟! أفلا يشهدُ هوَ بشكلِهِ وصورتِهِ وحركتِهِ وهدايتِهِ وعجائبِ صنعتِهِ لفاطرِهِ الحكيمِ ، وخالقِهِ القادرِ العليمِ ؟!

فالبصيرُ يرىٰ في هـٰذا الحيوانِ الصغيرِ مِنْ عظمةِ الخالقِ المدبِّرِ وجلالِهِ ، وكمالِ قدرتِهِ وحكمتِهِ . . ما تتحيَّرُ فيهِ الألبابُ والعقولُ ، فضلاً عنْ سائرِ الحيواناتِ .

وهـٰذا البابُ أيضاً لا حصرَ لهُ ؛ فإنَّ الحيواناتِ وأشكالَها وأخلاقَها وطباعَها غيرُ محصورةٍ ، وإنَّما سقطَ تعجُّبُ القلوبِ منها لأنسِها بكثرةِ المشاهدةِ .

نعمْ ، إذا رأىٰ حيواناً غريباً ولوْ دوداً . . تجدَّدَ تعجُّبُهُ ، وقالَ : سبحانَ اللهِ ما أعجبَهُ ! والإنسانُ أعجبُ الحيواناتِ وليسَ يتعجَّبُ مِنْ نفسِهِ ، بلْ لوْ نظرَ إلى الأنعامِ التي ألفَها ، ونظرَ إلىٰ أشكالِها وصورِها ، ثمَّ إلىٰ منافعِها وفوائدِها ؛ مِنْ جلودِها ، وأصوافِها ، وأوبارِها ، وأشعارِها ، التي جعلَها اللهُ لباساً لخلقِهِ ، وأكناناً لهُمْ في ظعنِهِمْ وإقامتِهِمْ ، وآنيةً لأشربتِهِمْ ، وأوعيةً لأغذيتِهِمْ ، وصواناً لأقدامِهِمْ ، وجعلَ ألبانَها ولحومَها أغذيةً لهُمْ ، ثمَّ جعلَ بعضَها زينةً للركوبِ ، وبعضَها حاملةً للأثقالِ ، قاطعةً للبوادي والمفازاتِ البعيدةِ . . لأكثرَ الناظرُ التعجُّبَ مِنْ حكمةِ خالقِها ومُصوِّرِها ؛ فإنَّهُ ما خلقَها إلا بعلمٍ محيطٍ بجميعِ منافعِها ، سابقٍ علىٰ خلقِهِ إيَّاها .

فسبحانَ مَنِ الأمورُ مكشوفةٌ في علمِهِ مِنْ غيرِ تفكُّرٍ ، ومِنْ غيرِ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ ، ومِنْ غيرِ استعانةٍ بوزيرٍ أوْ مشيرٍ ، فهوَ العليمُ الخبيرُ ، الحكيمُ القديرُ ، فلقدِ استخرجَ بأقلِّ القليلِ ممَّا خلقَهُ صدْقَ الشهادةِ مِنْ قلوبِ

العارفينَ بتوحيدِهِ ، فما للخلقِ إلا الإذعانُ لقهرِهِ وقدرتِهِ ، والاعترافُ بربوبيتِهِ ، والإقرارُ بالعجزِ عنْ معرفةِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، فمَنْ ذا الذي يُحصي ثناءً عليهِ ؟! بلْ هوَ كما أثنىٰ علىٰ نفسِهِ ، وإنَّما غايةُ معرفتِنا الاعترافُ بالعجزِ عنْ معرفتِهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يكرمَنا بهدايتِهِ بمنِّهِ ورأفتِهِ .

* * *

ومِنْ آياتِهِ : البحارُ العميقةُ المكتنفةُ لأقطارِ الأرضِ التي هيَ قطعٌ مِنَ البحرِ الأعظمِ المحيطِ بجميعِ الأرضِ ، حتىٰ إنَّ جميعَ المكشوفِ مِنَ البوادي والجبالِ عنِ الماءِ بالإضافةِ إلى الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيمٍ ، وبقيةُ الأرضِ مستورةٌ بالماءِ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرضُ في البحرِ كالإصطبلِ في الأرضِ »(١) ، فانسبْ إصطبلاً إلىٰ جميعِ الأرضِ ، واعلمْ أنَّ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحرِ مثلُهُ ، وقدْ شاهدتَ عجائبَ الأرضِ وما فيها ، فتأمَّلِ الآنَ عجائبَ البحرِ ، فإنَّ عجائبَ ما فيهِ مِنَ الحيوانِ والجواهرِ أضعافُ عجائبِ ما تشاهدُهُ علىٰ وجهِ الأرضِ ، كما أنَّ سعتَهُ أضعافُ سعةِ الأرضِ .

ولعظمِ البحرِ كانَ فيهِ مِنَ الحيواناتِ العظامِ ما تُرىٰ ظهورُها في البحرِ فتُظنُّ أنَّها جزيرةٌ ، فينزلُ الركَّابُ عليها ، فربَّما تحسُّ بالنيرانِ إذا اشتعلَتْ فتتحرَّكُ ، فيُعلمُ أنَّها حيوانٌ ، وما مِنْ صنفٍ مِنْ أصنافِ حيوانِ البرِّ ؛ مِنْ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٥٨٩) .

فرسٍ ، أوْ طيرٍ ، أوْ بقرٍ ، أوْ إنسانٍ . . إلا وفي البحرِ أمثالُهُ وأضعافُهُ ، وفيهِ أجناسٌ لا يُعهدُ لها نظيرٌ في البرِّ ، وقدْ ذُكرَتْ أوصافُها في مجلَّداتٍ ، وجمعَها أقوامٌ عُنوا بركوبِ البحرِ وجمْعِ عجائبِهِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى اللؤلؤَ ودوَّرَهُ في صدفِهِ تحتَ الماءِ ، وانظرْ كيفَ أنبتَ المرجانَ مِنْ صمِّ الصخورِ تحتَ الماءِ ، وإنَّما هوَ نباتٌ علىٰ هيئةِ شجرٍ ينبتُ مِنَ الحجرِ .

ثمَّ تأمَّلْ ما عداهُ مِنَ العنبرِ وأصنافِ النفائسِ التي يقذفُها البحرُ وتُستخرجُ منهُ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ السفنِ كيفَ أمسكَها اللهُ تعالىٰ علىٰ وجهِ الماءِ ، وسيَّرَ فيها التجارَ وطلابَ الأموالِ وغيرَهُمْ ، وسخَّرَ لهُمُ الفلكَ لتحملَ أثقالَهُمْ ، ثمَّ أرسلَ الرياحَ لتسوقَ السفنَ ، ثمَّ عرَّفَ الملاَّحينَ مواردَ الرياحِ ومهابَّها ومواقيتَها .

ولا يُستقصىٰ على الجملةِ عجائبُ صنعِ اللهِ في البحرِ في مجلداتٍ .

وأعجبُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ ما هوَ أظهرُ مِنْ كلِّ ظاهرٍ ، وهوْ كيفيةُ قطرةِ الماءِ ، وهوَ جسمٌ رقيقٌ لطيفٌ سيَّالٌ مُشِفٌّ ، متصلُ الأجزاءِ كأنَّهُ شيءٌ واحدٌ ، لطيفُ التركيبِ ، سريعُ القبولِ للتقطيعِ كأنَّهُ منفصلٌ ، مسخَّرٌ للتصرُّفِ ، قابلٌ للانفصالِ والاتصالِ ، بهِ حياةُ كلِّ ما علىٰ وجهِ الأرضِ مِنْ حيوانٍ ونباتٍ ، فلوِ احتاجَ العبدُ إلىٰ شربةِ ماءٍ ومُنِعَ منها . . لبذلَ جميعَ خزائنِ الأرضِ وملكِ الدنيا في تحصيلِها لوْ ملكَ ذلكَ ، ثمَّ إذا شربَها ومُنِعَ

مِنْ إخراجِها.. لبذلَ جميعَ خزائنِ الأرضِ وملكِ الدنيا في إخراجِها ، فالعجبُ مِنَ الآدميِّ كيفَ يستعظمُ الدينارَ والدرهمَ ونفائسَ الجواهرِ ويغفُلُ عنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ في شربةِ ماءٍ إذا احتاجَ إلىٰ شربِها أوِ الاستفراغِ عنها.. بذلَ جميعَ الدنيا فيها !

فتأمَّلْ في عجائبِ المياهِ والأنهارِ ، والآبارِ والبحارِ ، ففيها متسعٌ للفكرِ ومجالٌ .

وكلُّ ذلكَ شواهدُ متظاهرةٌ ، وآياتٌ متناصرةٌ ، ناطقةٌ بلسانِ حالِها ، مفصحةٌ عنْ جلالِ بارئِها ، معربةٌ عنْ كمالِ حكمتِهِ فيها ، مناديةٌ أربابَ القلوبِ بنغماتِها ، قائلةٌ لكلِّ ذي لبٍّ : أما تراني وترىٰ صورتي وتركيبي وصفاتي ، ومنافعي واختلافَ حالاتي وكثرةَ فوائدي ؟ أتظنُّ أنِّي تكوَّنتُ بنفسي أوْ خلقَني أحدٌ مِنْ جنسي ؟! أوَما تستحيي أنْ تنظرَ في كلمةٍ مرقومةٍ مِنْ ثلاثةِ أحرفٍ ، فتقطعَ بأنَّها صنعةُ آدميٍّ عالمٍ قادرٍ مريدٍ متكلِّمٍ ، ثمَّ تنظرَ إلىٰ عجائبِ الخطوطِ الإلـٰهيةِ المرقومةِ علىٰ صفحاتِ وجهي بالقلمِ الإلـٰهي الذي لا تدركُ الأبصارُ ذاتَهُ ولا حركتَهُ ولا اتصالَهُ بمحلِّ الخطِّ.. ثمَّ ينفكَّ قلبُكَ عنْ جلالةِ صانعِهِ ؟!

وتقولُ النطفةُ لأربابِ السمعِ والقلبِ ، لا للذينَ هُمْ عنِ السمعِ معزولونَ : توهمْني في ظلمةِ الأحشاءِ مغموسةً في دمِ الحيضِ ، في الوقتِ الذي يظهرُ التخطيطُ والتصويرُ علىٰ وجهي ، فينقشُ النقَّاشُ حدقتي ، وأجفاني وجبهتي ، وخدي وشفتي ، فترى النقوشَ تظهرُ شيئاً فشيئاً علىٰ

التدريجِ ، ولا ترىٰ داخل النطفةِ نقَّاشاً ولا خارجَها ، ولا داخلَ الرحمِ ولا خارجَها ، ولا خبرَ منها للأمِ ولا للأبِ ، ولا للنطفةِ ولا للرحمِ ، أفما هـٰذا النقاشُ بأعجبَ ممَّنْ تشاهدُهُ ينقشُ بالقلمِ صورةً عجيبةً لوْ نظرتَ إليها مرَّةً أوْ مرتينِ لتعلمتَها[1] ، فهلْ تقدرُ علىٰ أنْ تتعلَّمَ هـٰذا الجنسَ مِنَ النقشِ والتصويرِ الذي يعمُّ ظاهرَ النطفةِ وباطنَها وجميعَ أجزائِها ، مِنْ غيرِ ملامسةٍ للنطفةِ ، ومِنْ غيرِ اتصالٍ بها لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارجٍ ؟!

فإنْ كنتَ لا تتعجبُ مِنْ هـٰذهِ العجائبِ ، ولا تفهمُ منها أنَّ الذي صوَّرَ ونقشَ وقدَّرَ لا نظيرَ لهُ ، ولا يساويهِ سبحانَهُ نقَّاشٌ ولا مصوِّرٌ ، كما أنَّ نقشَهُ وصنعَهُ لا يساويهِ نقشٌ وصنعٌ ، فبينَ الفاعلينِ مِنَ المباينةِ والتباعدِ ما بينَ الفعلينِ ، فإنْ كنتَ لا تتعجَّبُ مِنْ هـٰذا . . فتعجَّبْ مِنْ عدمِ تعجُّبِكَ ؛ فإنَّهُ أعجبُ مِنْ كلِّ عجبٍ ، فإنَّ الذي أعمىٰ بصيرتَكَ معَ هـٰذا الوضوحِ ومنعَكَ اليقينَ معَ هـٰذا البيانِ . . جديرٌ بأنْ تتعجَّبَ منهُ .

فسبحانَ مَنْ هدىٰ وأضلَّ ، وأغوىٰ وأرشدَ ، وأشقىٰ وأسعدَ ، وفتحَ بصائرَ أحبابِهِ فشاهدوهُ في جميعِ ذرَّاتِ العالمِ وأجزائِهِ ، وأعمىٰ قلوبَ أعدائِهِ واحتجبَ عنهُمْ بعزِّهِ وعلائِهِ ! فلهُ الخلقُ والأمرُ ، والامتنانُ والفضلُ ، واللطفُ والقهرُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) في غير (ب) : (لتعلمته) بدل (لتعلمتها) .

ومِنْ آياتِهِ : الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بينَ مقعَّرِ السماءِ ومحدَّبِ الأرضِ ، يُدركُ بحسِّ اللمسِ عندَ هبوبِ الرياحِ جسمُهُ ، ولا يُرىٰ بالعينِ شخصُهُ ، وجملتُهُ مثلُ البحرِ الواحدِ ، والطيورُ محلِّقةٌ في جوِّ السماءِ ومستبقةٌ ، سباحةٌ فيهِ بأجنحتِها كما تسبحُ حيواناتُ البحرِ في الماءِ ، وتضطربُ جوانبُهُ وأمواجُهُ عندَ هبوبِ الرياحِ كما تضطربُ أمواجُ البحرِ ، فإذا حرَّكَ اللهُ الهواءَ وجعلَهُ ريحاً هابَّةً ؛ فإنْ شاءَ.. جعلَهُ بشراً بينَ يدَيْ رحمتِهِ ؛ كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ ، فيصلُ بحركتِهِ رَوْحُ الهواءِ إلى الحيواناتِ والنباتاتِ ، فتستعدُّ للنماءِ ، وإنْ شاءَ.. جعلَهُ عذاباً على العصاةِ مِنْ خليقتِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ لطفِ الهواءِ ، ثمَّ شدَّتِهِ وقوَّتِهِ مهما ضغطَ في الماءِ ، فالزقُّ المنفوخُ يتحاملُ عليهِ الرجلُ القويُّ ليغمسَهُ في الماءِ فيعجزُ عنهُ ، والحديدُ الصلبُ تضعُهُ علىٰ وجهِ الماءِ فيرسبُ فيهِ ، فانظرْ كيفَ ينقبضُ الهواءُ مِنَ الماءِ بقوَّتِهِ معَ لطافتِهِ ! وبهـٰذهِ الحكمةِ أمسكَ اللهُ تعالى السفنَ علىٰ وجهِ الماءِ ، وكذلكَ كلُّ مجوَّفٍ فيهِ هواءٌ لا يغوصُ في الماءِ ؛ لأنَّ الهواءَ ينقبضُ عنِ الغوصِ في الماءِ ، فلا ينفصلُ عنِ السطحِ الداخلِ مِنَ السفينةِ ، فتبقى السفينةُ الثقيلةُ معَ قوَّتِها وصلابتِها معلَّقةً مِنَ الهواءِ اللطيفِ ، كالذي يقعُ في بئرٍ فيتعلَّقُ بذيلِ رجلٍ قويٍّ ممتنعٍ عنِ الهويِّ في البئرِ ، فالسفينةُ بمقعَّرِها تتشبَّثُ بأذيالِ الهواءِ القويِّ حتىٰ تمتنعَ مِنَ الهويِّ والغوصِ في الماءِ ،

فسبحانَ مَنْ علَّقَ المركبَ الثقيلَ في الهواءِ اللطيفِ مِنْ غيرِ علاقةٍ تُشاهدُ وعقدةٍ تُشدُّ !

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ الجوِّ وما يظهرُ فيهِ مِنَ الغيومِ ، والرعودِ والبروقِ ، والأمطارِ والثلوجِ ، والشهبِ والصواعقِ ، فهيَ عجائبُ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وقدْ أشارَ القرآنُ إلىٰ جملةِ ذلكَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ ، وهٰذا هوَ الذي بينَهُما ، وأشارَ إلىٰ تفصيلِهِ في مواضعَ شتىٰ حيثُ قالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وحيثُ تعرَّضَ للرعدِ والبرقِ ، والسحابِ والمطرِ ، فإذا لمْ يكنْ لكَ حظٌّ مِنْ هٰذهِ الجملةِ إلا أنْ ترى المطرَ بعينِكَ ، وتسمعَ الرعدَ بأذنِكَ . . فالبهيمةُ تشاركُكَ في هٰذهِ المعرفةِ ، فارتفعْ مِنْ حضيضِ عالمِ البهائمِ إلىٰ عالمِ الملأِ الأعلىٰ ، فقدْ فتحتَ عينَكَ فأدركتَ ظاهرَها ، فغمِّضْ عينَكَ الظاهرةَ وانظرْ ببصيرتِكَ الباطنةِ لترىٰ عجائبَ باطنِها وغرائبَ أسرارِها .

وهٰذا أيضاً بابٌ يطولُ الفكرُ فيهِ ، ولا مطمعَ في استقصائِهِ ، فتأمَّلِ السحابَ الكثيفَ المظلمَ كيفَ تراهُ يجتمعُ في جوٍّ صافٍ لا كدورةَ فيهِ ، وكيفَ يخلقُهُ اللهُ تعالىٰ إذا شاءَ ومتىٰ شاءَ ، وهوَ معَ رخاوتِهِ حاملٌ للماءِ الثقيلِ ، وممسكٌ لهُ في جوِّ السماءِ ، إلىٰ أنْ يأذنَ اللهُ في إرسالِ الماءِ وتقطيعِ القطراتِ ، كلُّ قطرةٍ بالقدْرِ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ ، وعلى الشكلِ الذي شاءَهُ ، فترى السحابَ يرشُّ الماءَ على الأرضِ ، ويرسلُهُ قطراتٍ

متفاصلةً لا تدركُ قطرةٌ منها قطرةً ، ولا تتصلُ واحدةٌ بأخرىٰ ، بلْ تنزلُ كلُّ واحدةٍ في الطريقِ الذي رُسِمَ لها لا تعدلُ عنهُ ، فلا يتقدَّمُ المتأخِّرُ ، ولا يتأخَّرُ المتقدِّمُ ، حتىٰ يصيبَ الأرضَ قطرةً قطرةً ، فلوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ علىٰ أنْ يخلقوا منها قطرةً ، أوْ يعرفوا عددَ ما ينزلُ منها في بلدةٍ واحدةٍ ، أو قريةٍ واحدةٍ . . لعجزَ حسابُ الجنِّ والإنسِ عنْ ذلكَ ، فلا يعلمُ عددَها إلا الذي أوجدَها .

ثمُّ كلُّ قطرةٍ منها عُيِّنَتْ لكلِّ جزءٍ مِنَ الأرضِ مخصوصٍ ، ولكلِّ حيوانٍ فيها مِنْ طيرٍ ووحشٍ وجميعِ الحشراتِ والدوابِّ ، مكتوبٌ علىٰ تلكَ القطرةِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ لا يُدركُ بالبصرِ الظاهرِ أنَّها رزقُ الدودةِ الفلانيَّةِ التي في ناحيةِ الجبلِ الفلانيِّ ، تصلُ إليها عندَ عطشِها في الوقتِ الفلانيِّ ، هـٰذا معَ ما في انعقادِ البرَدِ الصلبِ مِنَ الماءِ اللطيفِ ، وفي تناثرِ الثلوجِ كالقطنِ المندوفِ مِنَ العجائبِ التي لا تُحصىٰ .

كلُّ ذلكَ فضْلٌ مِنَ الجبارِ القادرِ ، وقهرٌ مِنَ الخلاَّقِ القاهرِ ، ما لأحدٍ مِنَ الخلقِ فيهِ شرْكٌ ولا مدخلٌ ، بلْ ليسَ للمؤمنينَ مِنْ خلقِهِ إلا الاستكانةُ والخضوعُ تحتَ جلالِهِ وعظمتِهِ[1] ، ولا للعميانِ الجاحدينَ إلا الجهلُ بكيفيتِهِ ، ورجمُ الظنونِ بذكرِ سببِهِ وعلَّتِهِ ، فيقولُ الجاهلُ المغرورُ : إنَّما ينزلُ الماءُ لأنَّهُ ثقيلٌ بطبعِهِ ، وإنَّما هـٰذا سببُ نزولِهِ ، ويظنُّ أنَّ هـٰذهِ معرفةٌ

---

(١) في جميع النسخ : (تحت جماله وعظمته) ، والمثبت من (ق) .

انكشفَتْ لهُ ، ويفرحُ بها ، ولوْ قيلَ لهُ : ما معنى الطبعِ ؟ وما الذي خلقَهُ ؟ وما الذي خلقَ الماءَ الذي طبعُهُ الثقلُ ؟ وما الذي رقَّى الماءَ المصبوبَ في أسافلِ الشجرِ إلىٰ أعالي الأغصانِ وهوَ ثقيلٌ بطبعِهِ ؟ فكيفَ هوىٰ إلىٰ أسفلَ ثمَّ ارتفعَ إلىٰ فوقٍ في داخلِ تجاويفِ الأشجارِ شيئاً شيئاً بحيثُ لا يُرىٰ ولا يُشاهدُ حتىٰ ينتشرَ في جميعِ أطرافِ الأوراقِ ، فيغذِّيَ كلَّ جزءٍ مِنْ كلِّ ورقةٍ ، ويجريَ إليها في تجاويفِ عروقٍ شعريَّةٍ صغارٍ ، يُرىٰ منهُ العرقُ الذي هوَ أصلُ الورقةِ ، ثمَّ ينتشرَ مِنْ ذلكَ العرقِ الكبيرِ الممدودِ في طولِ الورقةِ عروقٌ صغارٌ ، فكأنَّ الكبيرَ نهرٌ ، وما انشعبَ عنهُ جداولُ ، ثمَّ ينشعبَ مِنَ الجداولِ سواقٍ أصغرُ منها ، ثمَّ ينتشرَ منها خيوطٌ عنكبوتيَّةٌ دقيقةٌ تخرجُ عنْ إدراكِ البصرِ ، حتىٰ تنبسطَ في جميعِ عرضِ الورقةِ ، فيصلَ الماءُ في أجوافِها إلىٰ سائرِ أجزاءِ الورقةِ ليغذيَها وينميَها ويزينَها ، وتبقىٰ طراوتُها ونضارتُها ، وكذلكَ إلىٰ سائرِ أجزاءِ الفواكهِ ، فإنْ كانَ الماءُ يتحرَّكُ بطبعِهِ إلىٰ أسفلَ . . فكيفَ تحرَّكَ إلىٰ فوقٍ ؟ فإنْ كانَ ذلكَ بجذبِ جاذبٍ . . فما الذي سخَّرَ ذلكَ الجاذبَ ؟ فإنْ كانَ ينتهي بالآخرةِ إلىٰ خالقِ السماواتِ والأرضِ ، وجبَّارِ الملكِ والملكوتِ . . فلِمَ لا يُحالُ عليهِ في أوَّلِ الأمرِ ؟! فنهايةُ الجاهلِ بدايةُ العاقلِ .

❁ ❁ ❁

ومِنْ آياتِهِ : ملكوتُ السماواتِ ، وما فيها مِنَ الكواكبِ ، وهوَ الأمرُ كلُّهُ ، ومَنْ أدركَ الكلَّ وفاتَهُ عجائبُ السماواتِ . . فقدْ فاتَهُ الكلُّ تحقيقاً ؛

فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ جسمٍ سوى السماواتِ بالإضافةِ إلى السماواتِ . . كقطرةٍ في بحرٍ وأصغرَ . ثمَّ انظرْ كيفَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَ السماواتِ والنجومِ في كتابِهِ ، فما مِنْ سورةٍ إلا وتشتملُ علىٰ تفخيمِها في مواضعَ ، وكمْ مِنْ قَسَمٍ في القرآنِ بها ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ . فقدْ علمتَ أنَّ عجائبَ النطفةِ القذرةِ عجزَ عنْ معرفتِها الأولونَ والآخرونَ ، وما أقسمَ اللهُ بها ، فما ظنُّكَ بما أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وأحالَ الأرزاقَ عليهِ ، وأضافَها إليهِ ؟ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

وأثنىٰ على المتفكِّرينَ فيهِ فقالَ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَ هٰذهِ الآيةَ ثمَّ مسحَ بها سبلتَهُ »(١) أيْ : تجاوزَها مِنْ غيرِ فكرٍ .

وذمَّ المعرضينَ عنها فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

فأيُّ نسبةٍ لجميعِ البحارِ والأرضِ إلى السماءِ ، وهيَ متغيِّراتٌ على

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٤) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه .

القرْبِ والسماواتُ صلابٌ شدادٌ ، محفوظاتٌ عنِ التغيُّرِ إلىٰ أنْ يبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ولذلكَ سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ محفوظاً فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ؟!

فانظرْ إلى الملكوتِ لترىٰ عجائبَ العزِّ والجبروتِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ معنى النظرِ إلى الملكوتِ بأنْ تمدَّ البصرَ إليهِ ، فترىٰ زرقةَ السماءِ وضوءَ الكواكبِ وتفرُّقَها ، فإنَّ البهائمَ تشاركُكَ في هـٰذا النظرِ ، فإنْ كانَ هـٰذا هوَ المرادَ . . فلِمَ مدحَ اللهُ تعالىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ بقولِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؟! لا بلْ كلُّ ما يُدركُ بحاسَّةِ البصرِ فالقرآنُ يعبِّرُ عنهُ بالملكِ والشهادةِ ، وما غابَ عنِ الأبصارِ فيعبِّرُ عنهُ بالغيبِ والملكوتِ ، واللهُ تعالىٰ عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، وجبَّارُ الملكِ والملكوتِ ، ولا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، وهوَ عالمُ الغيبِ فلا يظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلا مَنِ ارتضىٰ مِنْ رسولٍ .

فأطلْ أيُّها العاقلُ فكرَكَ في الملكوتِ ، فعسىٰ يُفتحُ لكَ أبوابُ السماءِ ، فتجولَ بقلبِكَ في أقطارِها ، إلىٰ أنْ يقومَ قلبُكَ بينَ يدي عرشِ الرحمـٰنِ ، فعندَ ذلكَ ربَّما يُرجىٰ لكَ أنْ تبلغَ رتبةَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (رأىٰ قلبي ربِّي) ، وهـٰذا لأنَّ بلوغَ الأقصىٰ لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ الأدنىٰ ، وأدنىٰ شيءٍ إليكَ نفسُكَ ، ثمَّ الأرضُ التي هيَ مقرُّكَ ، ثم الهواءُ المكتنفُ لكَ ، ثمَّ النباتُ والحيوانُ وما علىٰ وجهِ الأرضِ ، ثمَّ عجائبُ

الجوِّ وهوَ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، ثمَّ السماواتُ السبعُ بكواكبِها ، ثمَّ الكرسيُّ ، ثمَّ العرشُ ، ثمَّ الملائكةُ الذينَ هُمْ حملةُ العرشِ وخزَّانُ السماواتِ ، ثمَّ منهُ تجاوزْ إلى النظرِ إلىٰ ربِّ العرشِ والكرسيِّ والسماواتِ والأرضِ وما بينَهُما ، فبينَكَ وبينَهُ هٰذهِ المفاوزُ الفيحُ ، والمسافاتُ الشاسعةُ ، والعقباتُ الشاهقةُ ، وأنتَ بعدُ لمْ تفرغْ مِنَ العقبةِ القريبةِ النازلةِ ، وهي معرفةُ ظاهرِ نفسِكَ ، ثمَّ صرتَ تطلقُ اللسانَ بوقاحتِكَ وتدَّعي معرفةَ ربِّكَ ، وتقولُ : قدْ عرفتُهُ وعرفتُ خلقَهُ ، ففيماذا أتفكَّرُ ؟ وإلىٰ ماذا أتطلَّعُ ؟

فارفع الآنَ رأسَكَ إلى السماءِ ، وانظرْ فيها وفي كواكبِها ، وفي دورانِها ، وطلوعِها وغروبِها ، وشمسِها وقمرِها ، واختلافِ مشارقِها ومغاربِها ، ودؤوبِها في الحركةِ على الدوامِ مِنْ غيرِ فتورٍ في حركتِها ، ومِنْ غيرِ تغيُّرٍ في مسيرِها ، بلْ تجري جميعاً في منازلَ مرتبةٍ ، بحسابٍ مقدَّرٍ ، لا يزيدُ ولا ينقصُ ، إلىٰ أنْ يطويَها اللهُ تعالىٰ طيَّ السجلِ للكتابِ .

وتدبَّرْ عددَ كواكبِها وكثرتِها واختلافِ ألوانِها ، فبعضُها يميلُ إلى الحمرةِ ، وبعضُها إلى البياضِ ، وبعضُها إلى اللونِ الرصاصيِّ .

ثمَّ انظرْ كيفيةَ أشكالِها ، فبعضُها علىٰ صورةِ العقربِ ، وبعضُها علىٰ صورةِ الحملِ والثورِ والأسدِ والإنسانِ ، وما مِنْ صورةٍ في الأرضِ إلا ولها مثالٌ في السماءِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ مسيرِ الشمسِ في فلكِها في مدَّةِ سنةٍ ، ثمَّ هيَ تطلعُ في كلِّ

يومٍ وتغربُ بسيرٍ آخرَ سخَّرَها لهُ خالقُها ، ولولا طلوعُها وغروبُها . . لما اختلفَ الليلُ والنهارُ ، ولمْ تُعرفِ المواقيتُ ، ولأطبقَ الظلامُ على الدوامِ ، أوِ الضياءُ على الدوامِ ، وكانَ لا يتميَّزُ وقتُ المعاشِ عنْ وقتِ الاستراحةِ .

فانظرْ كيفَ جعلَ اللهُ تعالىٰ الليلَ لباساً ، والنومَ سباتاً ، والنهارَ معاشاً ، وانظرْ إلىٰ إيلاجِهِ الليلَ في النهارِ ، والنهارَ في الليلِ ، وإدخالِهِ الزيادةَ والنقصانَ عليهما علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ .

وانظرْ إلىٰ إمالتِهِ مسيرَ الشمسِ عنْ وسطِ السماءِ(١) حتى اختلفَ بسببِهِ الصيفُ والشتاءُ ، والربيعُ والخريفُ ، فإذا انخفضَتِ الشمسُ مِنْ وسطِ السماءِ في سيرِها . . بردَ الهواءُ ، وظهرَ الشتاءُ ، وإذا استوَتْ في وسطِ السماءِ . . اشتدَّ القيظُ ، وإذا كانَتْ فيما بينَهُما . . اعتدلَ الزمانُ .

وعجائبُ السماواتِ لا مطمعَ في إحصاءِ عُشْرِ عَشِيرِ جزءٍ مِنْ أجزائِها ، وإنَّما هـٰذا تنبيهٌ علىٰ طريقِ الفكرِ .

واعتقدْ على الجملةِ أنَّهُ ما مِنْ كوكبٍ مِنَ الكواكبِ إلا وللهِ تعالىٰ حكمٌ كثيرةٌ في خلقِهِ ، ثمَّ في مقدارِهِ ، ثمَّ في شكلِهِ ، ثمَّ في لونِهِ ، ثمَّ في وضعِهِ مِنَ السماءِ وقربِهِ مِنْ وسطِ السماءِ وبعْدِهِ ، وقربِهِ مِنَ الكواكبِ التي بجنبِهِ

---

(١) والمراد بوسط السماء : المجرة المسماة بأم النجوم ، وهي دائرة متصلة اتصال الطوق ، وتسمىٰ أيضاً : منطقة الفلك . « إتحاف » (١٠/ ٢١٣) .

وبعْدِهِ ، وقسْ ذلكَ بما ذكرناهُ مِنْ أعضاءِ بدنِكَ ؛ إذْ ما مِنْ جزءٍ إلا وفيهِ حكمةٌ بلْ حكمٌ كثيرةٌ ، وأمرُ السماءِ أعظمُ ، بلْ لا نسبةَ لعالمِ الأرضِ إلىٰ عالمِ السماءِ ، لا في كبرِ جسمِهِ ، ولا في كثرةِ معانيهِ ، وقسِ التفاوتَ الذي بينَهما في كثرةِ المعاني بما بينَهُما مِنَ التفاوتِ في كبرِ الأرضِ ، فأنتَ تعرفُ مِنْ كبرِ الأرضِ واتساعِ أطرافِها أنَّهُ لا يقدرُ آدميٌّ علىٰ أنْ يدركَها ويدورَ بجوانبِها .

وقدِ اتفقَ الناظرونَ علىٰ أنَّ الشمسَ مثلُ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ونيِّفاً وستينَ مرةً ، وفي الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ عظمِها[١] ، والكواكبُ التي تراها أصغرُها مثلُ الأرضِ ثمانيَ مرَّاتٍ ، وأكبرُها ينتهي إلىٰ قريبٍ مِنْ مئةٍ وعشرينَ مرَّةً مثلَ الأرضِ ، وبهٰذا تعرفُ ارتفاعَها وبعدَها ؛ إذْ للبعدِ صارتْ تُرىٰ صغاراً ، ولذلكَ أشارَ تعالىٰ إلىٰ بعدِها فقالَ : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ، وفي الأخبارِ أنَّ بينَ كلِّ سماءٍ إلى الأخرىٰ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[٢] .

فإذا كانَ هٰذا مقدارَ كوكبٍ واحدٍ مِنَ الأرضِ . . فانظرْ إلىٰ كثرةِ الكواكبِ ، ثمَّ انظرْ إلى السماءِ التي الكواكبُ مركوزةٌ فيها وإلىٰ عظمِها ، ثمَّ انظرْ إلىٰ سرعةِ حركتِها وأنتَ لا تحسُّ بحركتِها فضلاً عنْ أنْ تدركَ سرعتَها ، لكنْ لا تشكُّ في أنَّها في لحظةٍ تسيرُ مقدارَ عرضِ كوكبٍ ؛ لأنَّ الزمانَ مِنْ

---

(١) منها ما رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٠٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت ، فقال : « في نار الله الحامية ، لولا ما يزعها من أمر الله . . لأهلكت ما على الأرض » .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٤٠) .

طلوعِ أوَّلِ جزءٍ مِنْ كوكبٍ إلىٰ تمامِهِ يسيرٌ ، وذلكَ الكوكبُ هوَ مثلُ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ وزيادةً ، فقدْ دارَ الفلكُ في هـٰذهِ اللحظةِ مثلَ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ، وهـٰكذا يدورُ على الدوامِ وأنتَ غافلٌ عنهُ .

وانظرْ كيفَ عبَّرَ جبريلُ عليهِ السلامُ عنْ سرعةِ حركتِهِ إذْ قالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ زالَتِ الشمسُ ؟ » فقالَ : لا نعمْ ، فقالَ : « كيفَ تقولُ : لا نعمْ ؟ » فقالَ : مِنْ حينَ قلتُ : لا إلىٰ أنْ قلتُ : نعمْ . . سارَتِ الشمسُ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ(١) .

فانظرْ إلىٰ عظمِ شخصِها ، ثمَّ إلىٰ خفَّةِ حركتِها .

ثمَّ انظرْ إلىٰ قدرةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ أثبتَ صورتَها معَ اتساعِ أكنافِها في حدقةِ العينِ معَ صغرِها ، حتىٰ تجلسَ على الأرضِ وتفتحَ عينيكَ نحوَها فترىٰ جميعَها .

فهـٰذهِ السماءُ بعظمِها وكثرةِ كواكبِها لا تنظرْ إليها ، بلِ انظرْ إلىٰ بارئِها كيفَ خلقَها ، ثمَّ أمسكَها مِنْ غيرِ عمدٍ ترونَها ، ومِنْ غيرِ علاقةٍ مِنْ فوقِها تتدلَّىٰ بها ، وكلُّ العالمِ كبيتٍ واحدٍ والسماءُ سقفُهُ ، فالعجبُ منكَ أنَّكَ تدخلُ بيتَ غنيٍّ فتراهُ مزوَّقاً بالصبغِ ، مموَّهاً بالذهبِ ، فلا ينقطعُ تعجُّبُكَ منهُ ، ولا تزالُ تذكرُهُ وتصفُ حسنَهُ طولَ عمرِكَ ، وأنتَ أبداً تنظرُ إلىٰ هـٰذا

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥) ، وفيه : (قطعت في الفلك خمسين ألف فرسخ) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (١٠/ ٢١٥) .

البيتِ العظيمِ ، وإلىٰ أرضِهِ ، وإلىٰ سقفِهِ ، وإلىٰ هوائِهِ ، وإلىٰ عجائبِ أمتعتِهِ ، وغرائبِ حيواناتِهِ ، وبدائعِ نقوشِهِ ، ثمَّ لا تتحدَّثُ فيهِ ، ولا تلتفتُ بقلبِكَ إليهِ ، فما هـٰذا البيتُ دونَ ذلكَ البيتِ الذي تصفُهُ ، بلْ ذلكَ البيتُ هوَ أيضاً جزءٌ مِنَ الأرضِ التي هيَ أخسُّ أجزاءِ هـٰذا البيتِ ، ومع هـٰذا فلا تنظرُ إليه ! ليسَ لهُ سببٌ إلا أنَّهُ بيتُ ربِّكَ ، هوَ الذي انفردَ ببنائِهِ وترتيبِهِ ، وأنتَ قدْ نسيتَ نفسَكَ وربَّكَ وبيتَ ربِّكَ ، واشتغلتَ ببطنِكَ وفرجِكَ ، ليسَ لكَ همٌّ إلا شهوتَكَ أوْ حشمتَكَ ، وغايةُ شهوتِكَ أنْ تملأَ بطنَكَ ، ولا تقدرُ علىٰ أنْ تأكلَ عُشْرَ ما تأكلُهُ بهيمةٌ ، فتكونُ البهيمةُ فوقَكَ بعشرِ درجاتٍ ، وغايةُ حشمتِكَ أنْ تقبلَ عليكَ عشرةٌ أوْ مئةٌ مِنْ معارفِكَ فينافقونَ بألسنتِهِمْ بينَ يديكَ ، ويضمرونَ خبائثَ الاعتقاداتِ عليكَ ، وإنْ صدقوكَ في مودَّتِهِمْ إيَّاكَ . . فلا يملكونَ لكَ ولا لأنفسِهِمْ ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وقدْ يكونُ في بلدِكَ مِنْ أغنياءِ اليهودِ والنصارىٰ مَنْ يزيدُ جاهُهُ علىٰ جاهِكَ ، وقدِ اشتغلتَ بهـٰذا الغرورِ ، وغفلتَ عنِ النظرِ في جمالِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ثمَّ غفلتَ عنِ التنعُّمِ بالنظرِ إلىٰ جلالِ مالكِ الملكوتِ والملكِ .

وما مثلُكَ ومثلُ عقلِكَ إلا كمثلِ النملةِ تخرجُ مِنْ جحرِها الذي حفرتْهُ في قصرٍ مشيدٍ مِنْ قصورِ الملكِ ، رفيعِ البنيانِ ، حصينِ الأركانِ ، مزيَّنٍ بالجواري والغلمانِ ، وأنواعِ الذخائرِ والنفائسِ ، فإنَّها إذا خرجَتْ مِنْ جحرِها ، ولقيَتْ صاحبتَها . . لمْ تتحدَّثْ ـ لوْ قدرَتْ على النطقِ ـ إلا عنْ

بيتِها وغذائِها ، وكيفيةِ ادخارِها ، فأمَّا حالُ القصرِ والملكِ الذي في القصرِ . . فهيَ بمعزلٍ عنهُ وعنِ التفكُّرِ فيهِ ، بلْ لا قدرةَ لها على المجاوزةِ بالنظرِ عنْ نفسِها وغذائِها وبيتِها إلىٰ غيرِها .

وكما غفلَتِ النملةُ عنِ القصرِ وعنْ أرضِهِ وسقفِهِ وحيطانِهِ وسائرِ بنيانِهِ ، وغفلَتْ أيضاً عنْ سكَّانِهِ . . فأنتَ أيضاً غافلٌ عنْ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ ملائكتِهِ الذينَ هُمْ سكَّانُ سماواتِهِ ، فلا تعرفُ مِنَ السماءِ إلا ما تعرفُهُ النملةُ مِنْ سقفِ بيتِكَ ، ولا تعرفُ مِنْ ملائكةِ السماواتِ إلا ما تعرفُهُ النملةُ منكَ ومِنْ سكَّانِ بيتِكَ !

نعمْ ، ليسَ للنملةِ طريقٌ إلىٰ أنْ تعرفَكَ وتعرفَ عجائبَ قصرِكَ وبدائعَ صنعةِ الصانعِ فيهِ ، وأمَّا أنتَ . . فلكَ قدرةٌ علىٰ أنْ تجولَ في الملكوتِ وتعرفَ من عجائبِهِ ما الخلقُ غافلونَ عنهُ .

ولنقبضْ عِنانَ الكلامِ عنْ هٰذا النمطِ ، فإنَّهُ مجالٌ لا آخرَ لهُ ، ولوِ استقصينا أعماراً طويلةً . . لمْ نقدرْ علىٰ شرحِ ما تفضَّلَ اللهُ تعالىٰ علينا بمعرفتِهِ ، وكلُّ ما عرفناهُ قليلٌ نزْرٌ حقيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ جملةُ العلماءِ والأولياءِ ، وما عرفوهُ قليلٌ نزْرٌ حقيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ ، وجملةُ ما عرفوهُ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ نبيُّنا محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وما عرفَهُ الأنبياءُ كلُّهُمْ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ الملائكةُ المقرَّبونَ ؛ كإسرافيلَ وجبريلَ وغيرِهما ، ثمَّ جميعُ علومِ الملائكةِ والجنِّ

والإنسِ إذا أضيفَ إلىٰ علمِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ لمْ يستحقَّ أنْ يُسمَّىٰ علماً ، بلْ هوَ إلىٰ أنْ يُسمَّىٰ دهشاً وحيرةً وقصوراً وعجزاً أقربُ .

فسبحانَ مَنْ عرَّفَ عبادَهُ ما عرَّفَ ، ثمَّ خاطبَ جميعَهُمْ فقالَ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

فهٰذا بيانُ معاقدِ الجملِ التي يجولُ فيها فكرُ المتفكِّرينَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ فيها فكرٌ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ يُستفادُ مِنَ الفكرِ في الخلقِ ـ لا محالةَ ـ معرفةُ الخالقِ وعظمتِهِ ، وجلالِهِ وقدرتِهِ ، وكلما استكثرتَ مِنْ معرفةِ عجيبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ . . كانَتْ معرفتُكَ بجلالِهِ وعظمتِهِ أتمَّ ، وهٰذا كما أنَّكَ تعظِّمُ عالماً بسببِ معرفتِكَ بعلمِهِ ، فلا تزالُ تطلعُ علىٰ غريبةٍ غريبةٍ مِنْ تصنيفِهِ أوْ شعرِهِ فتزدادُ بهِ معرفةً ، وتزدادُ محبَّةً لهُ وتوقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتىٰ إنَّ كلَّ كلمةٍ مِنْ كلماتِهِ ، وكلَّ بيتٍ عجيبٍ مِنْ أبياتِ شعرِهِ . . يزيدُهُ محلاً في قلبِكَ ، ويستدعي التعظيمَ لهُ في نفسِكَ .

فهكذا تأمَّلْ في خلقِ اللهِ تعالىٰ وتصنيفِهِ وتأليفِهِ ، وكلُّ ما في الوجودِ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ وتصنيفِهِ ، والنظرُ والفكرُ فيهِ لا يتناهىٰ أبداً ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهُ بقدْرِ ما رُزِقَ ، فلنقتصرْ علىٰ ما ذكرناهُ ، ولنضفْ إلىٰ هٰذا ما فصَّلناهُ في كتابِ الشكرِ ، فإنَّا نظرنا في ذلكَ الكتابِ في فعلِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ هوَ إحسانٌ إلينا وإنعامٌ علينا ، وفي هٰذا الكتابِ نظرُنا فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

وكلُّ ما نظرنا فيهِ فإنَّ الطبيعيَّ[1] ينظرُ فيهِ ويكونُ نظرُهُ سببَ ضلالِهِ وشقاوتِهِ ، والموفَّقُ ينظرُ فيهِ فيكونُ سببَ هدايتِهِ وسعادتِهِ ، وما مِنْ ذرَّةٍ في السماءِ والأرضِ إلا واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يضلُّ بها مَنْ يشاءُ ، ويهدي بها مَنْ يشاءُ ، فمَنْ نظرَ في هـٰذهِ الأمورِ مِنْ حيثُ إنَّها فعلُ اللهِ تعالىٰ وصنعُهُ . . استفادَ منهُ المعرفةَ بجلالِ اللهِ تعالىٰ وعظمتِهِ واهتدىٰ بهِ ، ومَنْ نظرَ فيها قاصراً للنظرِ عليها مِنْ حيثُ تأثيرُ بعضِها في بعضٍ ، لا مِنْ حيثُ ارتباطُها بمسبِّبِ الأسبابِ . . فقدْ شقيَ وارتدىٰ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ ، ونسألُهُ أنْ يجنبَنا مزلَّةَ أقدامِ الجهَّالِ بمنِّهِ وكرمِهِ وفضلِهِ ، وجودِهِ ورحمتِهِ .

* * *

تم كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام على نبيه وآله باطناً وظاهراً

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده

---

(١) الذي يذهب إلىٰ تأثير الطبائع في الأشياء . « إتحاف » (١٠/ ٢١٩) .

كتاب
ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذكر الموت وما بعده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي قصمَ بالموتِ رقابَ الجبابرةِ ، وكسرَ بهِ ظهورَ الأكاسرةِ ، وقصرَ بهِ آمالَ القياصرةِ ، الذينَ لمْ تزلْ قلوبُهُم عنْ ذكرِ الموتِ نافرةً ، حتىٰ جاءَهَمُ الوعدُ الحقُّ فأرداهُمْ في الحافرةِ ، فنُقلوا مِنَ القصورِ إلى القبورِ ، ومِنْ ضياءِ المهودِ إلىٰ ظلمةِ اللحودِ ، ومِنْ ملاعبةِ الجواري والغلمانِ إلىٰ مصاحبةِ الهوامِّ والديدانِ ، ومِنَ التنعُّمِ بالطعامِ والشرابِ إلى التمرُّغِ في الترابِ ، ومِنْ أُنْسِ العشرةِ إلىٰ وحشةِ الوحدةِ ، ومِنَ المضجعِ الوثيرِ إلى المصرعِ الوبيلِ ، فانظرْ هلْ وجدوا مِنَ الموتِ حصناً وعزّاً ، أوِ اتخذوا مِنْ دونِهِ حجاباً وحرزاً ؟! وانظرْ هلْ تحسُّ منهُمْ مِنْ أحدٍ أوْ تسمعُ لهُمْ رِكْزاً ؟!

فسبحانَ مَن تفرَّدَ بالقهرِ والاستيلاءِ ، واستأثرَ باستحقاقِ البقاءِ ، وأذلَّ أصنافَ الخلقِ بما كتبَ عليهِمْ مِنَ الفناءِ ، ثمَّ جعلَ الموتَ مخلصاً للأتقياءِ ، وموعداً في حقِّهِمْ للِّقاءِ ، وجعلَ القبرَ سجناً للأشقياءِ ، وحبساً ضيقاً عليهِمْ إلىٰ يومِ الفصلِ والقضاءِ ، فلهُ الإنعامُ بالنعمِ المتظاهرةِ[1] ، ولهُ الانتقامُ

(١) أي : العديدة المعاونة بعضها بعضاً . « إتحاف » (١٠/ ٢٢١) .

بالنقمِ القاهرةِ ، ولهُ الشكرُ في السماواتِ والأرضِ ، ولهُ الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ ذي المعجزاتِ الظاهرةِ ، والآياتِ الباهرةِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فجديرٌ بمَنِ الموتُ مصرعُهُ ، والترابُ مضجعُهُ ، والدودُ أنيسُهُ ، ومُنْكَرٌ ونَكِيرٌ جليسُهُ ، والقبرُ مقرُّهُ ، وبطنُ الأرضِ مستقرُّهُ ، والقيامةُ موعدُهُ ، والجنَّةُ أوِ النارُ موردُهُ . ألاَّ يكونَ لهُ فكرٌ إلاَّ في الموتِ ، ولا ذكرٌ إلاَّ لهُ ، ولا استعدادٌ إلاَّ لأجلِهِ ، ولا تدبيرٌ إلاَّ فيهِ ، ولا تطلُّعٌ إلاَّ إليهِ ، ولا تعريجٌ إلاَّ عليهِ ، ولا اهتمامٌ إلاَّ بهِ ، ولا حومٌ إلاَّ حولَهُ ، ولا انتظارٌ وتربُّصٌ إلاَّ لهُ ، وحقيقٌ بأنْ يعُدَّ نفسَهُ مِنَ الموتىٰ ويراها في أصحابِ القبورِ ؛ فإنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، والبعيدُ ما ليسَ بآتٍ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ »[1] ، ولنْ يتيسَّرَ الاستعدادُ للشيءِ إلاَّ عندَ تجدُّدِ ذكرِهِ على القلبِ ، ولا يتجدَّدُ ذكرُهُ إلاَّ عندَ التذكُّرِ بالإصغاءِ إلى المذكِّراتِ لهُ ، والنظرِ في المنبِّهاتِ عليهِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه .

ونحنُ نذكرُ مِنْ أمرِ الموتِ ومقدماتِهِ ولواحقِهِ ، وأحوالِ الآخرةِ والقيامةِ ، والجنَّةِ والنارِ.. ما لا بدَّ للعبدِ مِنْ تذكارِهِ على التكرارِ ، وملازمتِهِ بالافتكارِ والاستبصارِ ؛ ليكونَ ذلكَ مستحثاً على الاستعدادِ فقدْ قرُبَ لما بعدَ الموتِ الرحيلُ ، فما بقيَ مِنَ العمرِ إلاَّ قليلٌ ، والخلقُ عنهُ غافلونَ ، ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، ونحنُ نذكرُ ما يتعلَّقُ بالموتِ في شطرينِ .

* * *

الشَّطْرُ الأَوَّلُ
في مقدّمات الموت وتوابعه إلى نفخة الصّور
وفيه ثمانية أبواب

البابُ الأوَّلُ : في فضلِ ذكرِ الموتِ والترغيبِ فيهِ .

البابُ الثاني : في ذكرِ طولِ الأملِ وقصرِهِ .

البابُ الثالثُ : في سكراتِ الموتِ وشدَّتِهِ ، وما يُستحبُّ مِنَ الأحوالِ عندَ الموتِ .

البابُ الرابعُ : في وفاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والخلفاءِ الراشدينَ مِنْ بعدِهِ .

البابُ الخامسُ : في كلامِ المحتضرينَ مِنَ الخلفاءِ والأمراءِ والصالحينَ .

البابُ السادسُ : في أقاويلِ العارفينَ على الجنائزِ والمقابرِ ، وحكمِ زيارةِ القبورِ .

البابُ السابعُ : في حقيقةِ الموتِ وما يلقاهُ الميِّتُ في القبرِ إلىٰ نفخةِ الصورِ .

البابُ الثامنُ : فيما عُرِفَ مِنْ أحوالِ الموتىٰ بالمكاشفةِ في المنامِ .

❋ ❋ ❋

البَابُ الأوّلُ
في فضل ذكر الموت والتّرغيب في الإكثار من ذكره

اعلمْ : أنَّ المنهمكَ في الدنيا ، المكبَّ علىٰ غرورِها ، المحبَّ لشهواتِها . . يغفُلُ قلبُهُ ـ لا محالةَ ـ عنْ ذكرِ الموتِ فلا يذكرُهُ ، وإذا ذُكِّرَ بهِ . . كرهَهُ ونفرَ منهُ ، أولئكَ همُ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثمَّ الناسُ إمَّا منهمكٌ ، أو تائبٌ مبتدئٌ ، أوْ عارفٌ منتهٍ .

* * *

أمَّا المنهمكُ : فلا يذكرُ الموتَ ، وإنْ ذكرَهُ . . فيذكرُهُ للتأسُّفِ علىٰ دنياهُ ، ويشتغلُ بمذمَّتِهِ ، وهـٰذا يزيدُهُ ذكرُ الموتِ مِنَ اللهِ بعداً .

* * *

وأمَّا التائبُ : فإنَّهُ يكثرُ ذكرَ الموتِ ؛ لينبعثَ بهِ مِنْ قلبِهِ الخوفُ والخشيةُ ، فيفيَ بتمامِ التوبةِ ، وربَّما يكرهُ الموتَ خيفةً مِنْ أَنْ يختطفَهُ قبلَ تمامِ التوبةِ وقبلَ إصلاحِ الزادِ ، وهوَ معذورٌ في كراهةِ الموتِ ، ولا يدخلُ هـٰذا تحتَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ

لقاءَهُ »[1] فإنَّ هـٰذا ليسَ يكرهُ الموتَ ولقاءَ اللهِ ، وإنَّما يخافُ فوتَ لقاءِ اللهِ لقصورِهِ وتقصيرِهِ ، وهو كالذي يتأخَّرُ عنْ لقاءِ الحبيبِ مشتغلاً بالاستعدادِ للقائِهِ علىٰ وجهٍ يرضاهُ ، فلا يُعدُّ كارهاً للقائِهِ ، وعلامةُ هـٰذا : أنْ يكونَ دائمَ الاستعدادِ لهُ ، لا شغلَ لهُ سواهُ ، وإلا . . التحقَ بالمنهمكِ في الدنيا .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العارفُ : فإنَّهُ يذكرُ الموتَ دائماً ؛ لأنَّهُ موعدُ لقائِهِ بحبيبِهِ ، والمحبُّ لا ينسىٰ قطُّ موعدَ لقاءِ الحبيبِ ، وهـٰذا في غالبِ الأمرِ يستبطىءُ مجيءَ الموتِ ويحبُّ مجيئَهُ ؛ ليتخلَّصَ مِنْ دارِ العاصينَ ، وينتقلَ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينَ ، كما رُوِيَ عنْ حذيفةَ : أنَّهُ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ . . قالَ : (حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ الفقرَ أحبُّ إليَّ مِنَ الغنىٰ ، والسقمَ أحبُّ إليَّ مِنَ الصحةِ ، والموتَ أحبُّ إليَّ مِنَ الحياةِ . . فسهِّلْ عليَّ الموتَ حتىٰ ألقاكَ)[2] .

فإذاً ؛ التائبُ معذورٌ في كراهةِ الموتِ ، وهـٰذا معذورٌ في حبِّ الموتِ وتمنِّيهِ ، وأعلىٰ منهما رتبةً مَنْ فوَّضَ أمرَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فصارَ لا يختارُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ، بلْ يكونُ أحبُّ الأشياءِ إليهِ أحبَّها إلىٰ مولاهُ ، فهـٰذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٨٢) بنحوه .

قدِ انتهىٰ بفرطِ الحبِّ والولاءِ إلىٰ مقامِ التسليمِ والرضا ، وهوَ الغايةُ والمنتهىٰ(١) .

❁ ❁ ❁

وعلىٰ كلِّ حالٍ : ففي ذكرِ الموتِ ثوابٌ وفضلٌ ؛ فإنَّ المنهمكَ أيضاً يستفيدُ بذكرِ الموتِ التجافيَ عنِ الدنيا ؛ إذْ يتنغَّصُ عليهِ نعيمُهُ ، ويتكدَّرُ عليهِ صفوُ لذَّتِهِ ، وكلُّ ما يكدِّرُ على الإنسانِ اللذاتِ والشهواتِ . . فهوَ مِنْ أسبابِ النجاةِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) لأنه لا يتصور وقوع ذلك إلا بعد كمال المحبة ، فلو تمنىٰ أهل النهىٰ من أولي الألباب غاية الأماني ، فكونت لهم علىٰ ما تمنوا . . لكان رضاهم عن الله في تدبيره ومعرفتهم بحسن تقديره خيراً لهم من تحري أمانيهم ، وأفضل لهم عند الله من قِبَلِ أن الله أحكم الحاكمين . « إتحاف » (١٠/ ٢٢٣) .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ هاذمِ اللذَّاتِ »(١) أي : نغِّصوا بذكرِهِ اللذاتِ حتىٰ ينقطعَ ركونُكُمْ إليها ، فتقبلوا على اللهِ تعالىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تعلمُ البهائمُ مِنَ الموتِ ما يعلمُ ابنُ آدمَ . . ما أكلتُمْ منها سميناً »(٢) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يُحشرُ معَ الشهداءِ أحدٌ ؟ قالَ : « نعمْ ؛ مَنْ يذكرُ الموتَ في اليومِ والليلةِ عشرينَ مرَّةً »(٣) .

وإنَّما سببُ هـٰذهِ الفضيلةِ كلِّها أنَّ ذكرَ الموتِ يوجبُ التجافيَ عنْ دارِ الغرورِ ، ويتقاضى الاستعدادَ للآخرةِ ، والغفلةُ عنِ الموتِ تدعو إلى الانهماكِ في شهواتِ الدنيا .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٣) عن أم صُبيّة الجهنية رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) ولفظه : أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك لي في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه . . أعطاه الله أجر شهيد » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ الموتُ »[١] .

وإنَّما قالَ هٰذا لأنَّ الدنيا سجنُ المؤمنِ ؛ إذْ لا يزالُ فيها في عناءٍ مِنْ مقاساةِ نفسِهِ ، ورياضةِ شهواتِهِ ، ومدافعةِ شيطانِهِ ، فالموتُ إطلاقٌ لهُ مِنْ هٰذا العذابِ ، والإطلاقُ تحفةٌ في حقِّهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الموتُ كفارةٌ لكلِّ مسلمٍ »[٢] .

وأرادَ بهٰذا المسلمَ حقّاً ، المؤمنَ صدقاً ، الذي سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ ، وتحقَّقَتْ فيهِ أخلاقُ المؤمنينَ ، ولمْ يتدنَّسْ مِنَ المعاصي إلا باللممِ والصغائرِ ، فالموتُ يطهِّرُهُ منها ويكفِّرُها بعدَ اجتنابِهِ الكبائرَ ، وإقامتِهِ الفرائضَ[٣] .

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمجلسٍ قدِ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، **والتحفة** : ما أُطرف به الرجل من البر واللطف ، فالموت خير تحفة يهديها الحق سبحانه لعباده المؤمنين .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٢١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٢٠٩) : (وصححه أبو بكر ابن العربي ، وقال العراقي في « أماليه » : إنه ورد من طرق يبلغ بها رتبة الحسن) .

(٣) أو يحمل الحديث علىٰ موت مخصوص ، كما روى البخاري (٢٨٣٠) ، ومسلم (١٩١٦) من حديث أنس رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

استعلاهُ الضحكُ ، فقالَ : « شُوبوا مجلسَكمْ بذكرِ مكدِّرِ اللذَّاتِ » ، قالوا : وما مكدِّرُ اللذَّاتِ ؟ قالَ : « الموتُ »(١) .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ الموتِ ؛ فإنَّهُ يمحِّصُ الذنوبَ ويزهِّدُ في الدنيا »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالموتِ مفرِّقاً »(٣) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ بالموتِ واعظاً »(٤) .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المسجدِ ؛ فإذا قومٌ يتحدَّثونَ ويضحكونَ ، فقالَ : « اذكروا الموتَ ، أما والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »(٥) .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » هٰكذا مرسلاً ، ورويناه في « أمالي الخلال » من حديث أنس ، ولا يصح) . « إتحاف » (١٠/٢٢٨) ، وقد روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٥٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم يضحكون أو يمزحون ، فقال : « أكثروا ذكر هاذم اللذات » .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » بإسناد ضعيف جداً) . « إتحاف » (١٠/٢٢٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٨) ، والحارث بن أبي أسامة في « مسنده » (٩٠٨) .

(٤) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٨) من زيادات نعيم بن حماد موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من حديث ابن عمر بإسناد =

وذُكِرَ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ ، فأحسنوا الثناءَ عليهِ ، فقالَ : « كيفَ ذكرُ صاحبِكُمْ للموتِ ؟ » قالوا : ما كنَّا نكادُ نسمعُهُ يذكرُ الموتَ ، قالَ : « فإنَّ صاحبَكُمْ ليسَ هناكَ »[١] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاشرَ عشرةٍ ، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ : مَنْ أكيسُ الناسِ وأكرمُ الناسِ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « أكثرُهُمْ ذكراً للموتِ ، وأشدُّهُمْ استعداداً لهُ ، أولئكَ هُمُ الأكياسُ ، ذهبوا بشرفِ الدنيا وكرامةِ الآخرةِ »[٢] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : فضحَ الموتُ الدنيا ، فلمْ يتركْ لذي لبٍّ فرحاً[٣] .

وقالَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ : ما غائبٌ ينتظرُهُ المؤمنُ خيراً لهُ مِنَ الموتِ[٤] ،

= ضعيف). « إتحاف » (١٠/ ٢٢٩)، ورواه تمام في « فوائده » (٤٨٤) من حديثه أيضاً .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤١٧) ، ورواه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٩٨٩) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٤) .

وكانَ يقولُ : لا تشعروا بي أحداً ، وسلُّوني إلىٰ ربِّي سلاًّ[١] .

وكتبَ بعضُ الحكماءِ إلىٰ رجلٍ مِنْ إخوانِهِ : يا أخي ؛ احذرِ الموتَ في هٰذهِ الدارِ قبلَ أنْ تصيرَ إلىٰ دارٍ تتمنَّىٰ فيها الموتَ فلا تجدُهُ[٢] .

وكانَ ابنُ سيرينَ إذا ذُكِرَ عندَهُ الموتُ . . ماتَ كلُّ عضوٍ منهُ[٣] .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يجمعُ كلَّ ليلةٍ الفقهاءَ ، فيتذاكرونَ الموتَ والقيامةَ والآخرةَ ، ثمَّ يبكونَ حتىٰ كأنَّ بينَ أيديهِمْ جنازةً[٤] .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : شيئانِ قطعا عنِّي لذاذةَ الدنيا : ذكرُ الموتِ ، والوقوفُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ[٥] .

وقالَ كعبٌ : مَنْ عرفَ الموتَ . . هانَتْ عليهِ مصائبُ الدنيا وهمومُها[٦] .

وقالَ مطرِّفٌ : رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنَّ قائلاً يقولُ في وسَطِ مسجدِ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٣٣) ، وفي (أ) : (إذا أنا متُّ . . فلا تشعروا . . .) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ٢٣١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٧٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٧ ، ٥٥٨) .
(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٣٩) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٨٨) عن عبد الأعلى التيمي .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٤) .

البصرةِ: قطعَ ذكرُ الموتِ قلوبَ الخائفينَ ، فواللهِ ؛ ما تراهُمْ إلاَّ والهينَ[١] .

وقالَ أشعثُ : كنَّا ندخلُ على الحسنِ ؛ فإنَّما هوَ النارُ ، وأمرُ الآخرةِ ، وذكرُ الموتِ[٢] .

وقالَتْ صفيَّةُ رضيَ اللهُ عنها : (إنَّ امرأةً شكَتْ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قساوةَ قلبِها ، فقالَتْ : أكثري ذكرَ الموتِ . . يرقَّ قلبُكِ ، ففعلَتْ ، فرقَّ قلبُها ، فجاءَتْ تشكرُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها)[٣] .

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ إذا ذُكِرَ الموتُ عندَهُ . . يقطرُ جلدُهُ دماً[٤] .

وكانَ داوودُ عليهِ السلامُ إذا ذكرَ الموتَ والقيامةَ . . بكىٰ حتىٰ تنخلعَ أوصالُهُ ، فإذا ذكرَ الرحمةَ . . رجعَتْ إليهِ نفسُهُ[٥] .

وقالَ الحسنُ : (ما رأيتُ عاقلاً قطُّ إلا أصبتُهُ مِنَ الموتِ حَذِراً ، وعليهِ حزيناً)[٦] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لبعضِ العلماءِ[٧] : عظْني ، فقالَ : أنتَ أوَّلُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤٥) ، قاله لعبد العزيز بن سلمان ، فخرَّ مغشياً عليه .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٢٠٧) يقارن حاله بحال ابن سيرين ، وقوله : (فإنما هو النار) أي : في ذكرها وذكر أحوالها .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٣١) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٨) عن أبي عمر الضرير بلاغاً .

(٥) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٨) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٣٢) .

(٧) هو يزيد الرقاشي رحمه الله تعالىٰ .

خليفةٍ يموتُ ؟! قالَ : زِدْني ، قالَ : ليسَ مِنْ آبائِكَ أحدٌ إلىٰ آدمَ إلا ذاقَ الموتَ ، وقدْ جاءَتْ نوبتُكَ ، فبكىٰ عمرُ لذلكَ(١) .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ قدْ حفرَ قبراً في دارِهِ ، فكانَ ينامُ فيهِ كلَّ يومٍ مرَّاتٍ ، يستديمُ بذلكَ ذكرَ الموتِ(٢) ، وكانَ يقولُ : لوْ فارقَ ذكرُ الموتِ قلبي ساعةً واحدةً . . لفسدَ(٣) .

وقالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ : إنَّ هـٰذا الموتَ قدْ نغَّصَ علىٰ أهلِ النعيمِ نعيمَهُم ، فاطلبوا نعيماً لا موتَ فيهِ(٤) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لعنبسةَ : أكثرْ ذكرَ الموتِ ؛ فإنْ كنتَ واسعَ العيشِ . . ضيَّقَهُ عليكَ ، وإنْ كنتَ ضيِّقَ العيشِ . . وسَّعَهُ عليكَ(٥) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : قلتُ لأمِّ هارونَ : أتحبِّينَ الموتَ ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ : ولمَ ؟ قالَتْ : لوْ عصيتُ آدمياً . . ما اشتهيتُ لقاءَهُ ، فكيفَ أحبُّ لقاءَهُ وقدْ عصيتُهُ ؟!(٦) .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد » (٥٥١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٣٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٨٠)، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٤) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٥) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٦٤) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٣) .
(٦) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص١١٢) .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلمْ : أنَّ الموتَ هائلٌ ، وخطرَهُ عظيمٌ ، وغفلةُ الناسِ عنهُ لقلَّةِ فكرِهِمْ فيهِ وذكرِهِمْ لهُ ، ومَنْ يذكرُهُ ليسَ يذكرُهُ بقلبٍ فارغٍ ، بلْ بقلبٍ مشغولٍ بشهواتِ الدنيا . . فلا ينجعُ ذكرُ الموتِ في قلبِهِ[1] ، فالطريقُ فيهِ أنْ يفرِّغَ العبدُ قلبَهُ عنْ كلِّ شيءٍ إلا عنْ ذكرِ الموتِ الذي هوَ بينَ يديهِ ، كالذي يريدُ أنْ يقطعَ مفازةً مخطرةً ، أوْ يركبَ البحرَ ؛ فإنَّهُ لا يتفكَّرُ إلا فيهِ ، فإذا باشرَ ذكرُ الموتِ قلبَهُ . . فيوشكُ أنْ يؤثِّرَ فيهِ ، وعندَ ذلكَ يقلُّ فرحُهُ وسرورُهُ بالدنيا ، وينكسرُ قلبُهُ .

وأوقعُ طريقٍ فيهِ : أنْ يكثرَ ذكرَ أشكالِهِ وأقرانِهِ الذينَ مضوا قبلَهُ ، فيتذكَّرَ موتَهُمْ ومصارعَهُمْ تحتَ الترابِ ، ويتذكَّرَ صورَهُمْ في مناصبِهِمْ وأحوالِهِمْ ، ويتأمَّلَ كيفَ محا الترابُ الآنَ حسنَ صورِهِمْ ، وكيفَ تبدَّدَتْ أجزاؤُهُمْ في قبورِهِمْ ، وكيفَ أرملوا نساءَهُمْ ، وأيتموا أولادَهُمْ ، وضيَّعوا أموالَهُمْ ، وخلَتْ منهُمْ مساجدُهُمْ ومجالسُهُمْ ، وانقطعَتْ آثارُهُمْ .

فمهما تذكَّرَ رجلٌ رجلاً ، وفصَّلَ في قلبِهِ حالَهُ وكيفيةَ موتِهِ ، وتوهَّمَ صورَتَهُ ، وتذكَّرَ نشاطَهُ وتردُّدَهُ ، وتأمُّلَهُ للعيشِ والبقاءِ ، ونسيانَهُ للموتِ ، وانخداعَهُ بمواتاةِ الأسبابِ ، وركونَهُ إلى القوَّةِ والشبابِ ، وميلَهُ إلى

---

(١) يقال : نجع الوعظ والخطاب في فلان ، مجازٌ ؛ أي : عمل فيه ودخل فأثَّر .

الضحكِ واللهوِ ، وغفلتَهُ عمَّا بينَ يديهِ مِنَ الموتِ الذريعِ والهلاكِ السريعِ ، وأنَّهُ كيفَ كانَ يتردَّدُ والآنَ قدْ تهدَّمَتْ رجْلاَهُ ومفاصلُهُ ، وكيفَ كانَ ينطقُ وقدْ أكلَ الدودُ لسانَهُ ، وكيفَ كانَ يضحكُ وقدْ أكلَ الترابُ أسنانَهُ ، وكيف كانَ يدبِّرُ لنفسِهِ ما لا يحتاجُ إليهِ إلىٰ عشرِ سنينَ في وقتٍ لمْ يكنْ بينَهُ وبينَ الموتِ إلا شهرٌ وهوَ غافلٌ عما يُرادُ بهِ ، حتىٰ جاءَهُ الموتُ في وقتٍ لمْ يحتسبْهُ ، فانكشفَ لهُ صورةُ الملكِ ، وقرعَ سمعَهُ النداءُ إمَّا بالجنةِ أوْ بالنارِ . . فعندَ ذلكَ ينظرُ في نفسِهِ أنَّهُ مثلُهُمْ ، وغفلتَهُ كغفلتِهِمْ ، وستكونُ عاقبتُهُ كعاقبتِهِمْ .

قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا ذكرتَ الموتىٰ . . فعدَّ نفسَكَ كأحدِهِمْ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ)[2] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : ألا ترونَ أنَّكُمْ تجهِّزونَ كلَّ يومٍ غادياً أوْ رائحاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، تضعونَهُ في صدعٍ مِنَ الأرضِ ، قدْ توسَّدَ الترابَ ، وخلَّفَ الأحبابَ ، وقطعَ الأسبابَ ؟![3] .

فملازمةُ هـٰذهِ الأفكارِ وأمثالِها معَ دخولِ المقابرِ ومشاهدةِ المرضىٰ . .

---

(١) رواه أبو داوود في « الزهد » (٢٢٦) ضمن قول له رضي الله عنه .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٧٤) ، ورفعه من حديثه القضاعي في « مسند الشهاب » (٧٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٦٦) .

هوَ الذي يجدِّدُ ذكرَ الموتِ في القلبِ ، حتىٰ يغلبَ عليهِ بحيثُ يصيرُ نصبَ عينيهِ ، فعندَ ذلكَ يوشكُ أنْ يستعدَّ لهُ ، ويتجافىٰ عنْ دارِ الغرورِ ، وإلا . . فالذكرُ بظاهرِ القلبِ وعذبةِ اللسانِ قليلُ الجدوىٰ في التحذيرِ والتنبيهِ .

ومهما طابَ قلبُهُ بشيءٍ مِنَ الدنيا . . ينبغي أنْ يتذكَّرَ في الحالِ أنَّهُ لا بدَّ لهُ مِنْ مفارقتِهِ .

نظرَ ابنُ مطيعٍ ذاتَ يومٍ إلىٰ دارِهِ ، فأعجبَهُ حسنُها ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : واللهِ ؛ لولا الموتُ . . لكنتُ بكِ مسروراً ، ولولا ما نصيرُ إليهِ مِنْ ضيقِ القبورِ . . لقرَّتْ بالدنيا أعينُنا ، ثمَّ بكىٰ بكاءً شديداً حتى ارتفعَ صوتُهُ[1] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٣) ، وابن مطيع : هو عبد الله بن مطيع بن الأسود القرشي العدوي المدني .

البَابُ الثَّاني
في طول الأمل ، وفضيلة قِصر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفيّة معالجته

فضيلة قِصَر الأمل

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « إذا أصبحتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالصباحِ ، وخذْ مِنْ حياتِكَ لموتِكَ ، ومِنْ صحَّتِكَ لسقمِكَ ؛ فإنَّكَ يا عبدَ اللهِ لا تدري ما اسمُكَ غداً »(١) .

وروىٰ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ أشدَّ ما أخافُ عليكُمْ خصلتانِ : اتباعُ الهوىٰ ، وطولُ الأملِ ، فأمَّا اتباعُ الهوىٰ . . فإنَّهُ يعدلُ عنِ الحقِّ ، وأمَّا طولُ الأملِ . . فإنَّهُ الحبُّ للدنيا » ، ثمَّ قالَ : « ألا إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ويبغضُ ، وإذا أحبَّ عبداً . . أعطاهُ الإيمانَ ، ألا إنَّ للدينِ أبناءً ، وللدنيا أبناءً ، فكونوا مِنْ أبناءِ الدينِ ، ولا تكونوا مِنْ أبناءِ الدنيا ، ألا إنَّ الدنيا قدِ ارتحلَتْ موليةً ، ألا إنَّ الآخرةَ قدِ ارتحلَتْ مقبلةً ، ألا وإنَّكُمْ في يومِ عملٍ ليسَ فيهِ حسابٌ ، ألا وإنَّكُمْ

---

(١) رواه بهٰذا اللفظ مرفوعاً الروياني في « مسنده » (١٤١٨) ، وعبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص٩٦)، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦).

توشكونَ في يومِ حسابٍ ليسَ فيهِ عملٌ »(١) .

وقالَتْ أمُّ المنذرِ : اطلعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ عشيةٍ إلى الناسِ فقالَ : « أيُّها الناسُ ؛ أما تستحيونَ مِنَ اللهِ ؟! » قالوا : وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تجمعونَ ما لا تأكلونَ ، وتأملونَ ما لا تدركونَ ، وتبنونَ ما لا تسكنونَ ؟! »(٢) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : اشترىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ وليدةً بمئةِ دينارٍ إلىٰ شهرٍ ، فسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ألا تعجبونَ مِنْ أسامةَ المشتري إلىٰ شهرٍ ؟! إنَّ أسامةَ لطويلُ الأملِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما طرفَتْ عينايَ . . إلا ظننتُ أنَّ شفريَّ لا يلتقيانِ حتىٰ يقبضَ اللهُ روحي ، ولا رفعتُ طرفي فظننتُ أنِّي واضعُهُ حتىٰ أُقبضَ ، ولا لقمتُ لقمةً . . إلا ظننتُ أنِّي لا أسيغُها حتىٰ أغصَّ بها مِنَ الموتِ » ثمَّ قالَ : « يا بني آدمَ ؛ إنْ كنتُمْ تعقلونَ . . فعدُّوا أنفسَكُمْ مِنَ الموتىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ ما تُوعدونَ لآتٍ ، وما أنتُمْ بمعجزينَ »(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣) ، وروىٰ بعده نحوه من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٨) ، وأم المنذر : هي سلمىٰ بنت قيس الأنصارية رضي الله عنها ، ورواه عن أم الوليد بنت عمر رضي الله عنها الطبرانيُّ في « الكبير » (٢٥/ ١٧٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ٩٧) بنحوه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦) ، والطبراني في « مسند الشاميين » =

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يخرجُ يُهَرِيقُ الماءَ فيتمسَّحُ بالترابِ ، فأقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الماءَ منكَ قريبٌ ؛ فيقولُ : « ما يدريني ، لعلِّي لا أبلغُهُ »(١) .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أخذَ ثلاثةَ أعوادٍ ، فغرزَ عوداً بينَ يديهِ ، والآخرَ إلىٰ جنبِهِ ، وأمَّا الثالثُ . . فأبعدَهُ ، فقالَ : « هلْ تدرونَ ما هـٰذا ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هـٰذا الإنسانُ ، وهـٰذا الأجلُ ، وذاكَ الأملُ يتعاطاهُ ابنُ آدمَ ويختلجُهُ الأجلُ دونَ الأملِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مُثِّلَ ابنُ آدمَ وإلىٰ جنبِهِ تسعٌ وتسعونَ منِيَّةً ، إنْ أخطأتْهُ المنايا . . وقعَ في الهرمِ حتىٰ يموتَ »(٣) .

= (١٥٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٠) .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٧) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣١١) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٤) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠) من رواية أبي المتوكل الناجي مرسلاً ، واللفظ له ، ورواه أيضاً (١١) عنه عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الترمذي (٢١٥٠ ، ٢٤٥٦) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣) واللفظ له ، ويجوز في « مثل » أن يكون مبنياً للمجهول ، أو اسماً مرفوعاً على الابتداء وما بعده مخفوض ، والتقدير : مثل ابن آدم مثل الذي يكون إلىٰ جنبه تسعة وتسعون منية ، فكأن في الكلام حذفاً ، وانظر « فيض القدير » (٥/ ٥١٦) .

قالَ ابنُ مسعودٍ : (هـٰذا المرءُ ، وهـٰذهِ الحتوفُ حولَهُ شوارعُ إليهِ ، والهرمُ وراءَ الحتوفِ ، والأملُ وراءَ الهرمِ ، فهوَ يؤمِّلُ وهـٰذهِ الحتوفُ شوارعُ إليهِ ، فأيُّها أُمرَ بهِ . . أخذَهُ ، فإنْ أخطأَتْهُ الحتوفُ . . قتلَهُ الهرمُ ، وهو ينظرُ إلى الأملِ)(١) .

وقالَ عبدُ اللهِ : خطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطّاً مربعاً ، وخطَّ وسطَهُ خطّاً ، وخطَّ خطوطاً إلىٰ جنبِ الخطِّ ، وخطَّ خطّاً خارجاً وقالَ : « أتدرونَ ما هـٰذا ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هـٰذا الإنسانُ » للخطِّ الذي في الوسطِ ، « وهـٰذا الأجلُ محيطٌ بهِ ، وهـٰذهِ الأعراضُ » للخطوطِ التي حولَهُ « تنهشُهُ ، إنْ أخطأَهُ هـٰذا . . نهشَهُ هـٰذا ، وذاكَ الأملُ » للخطِّ الخارجِ(٢) .

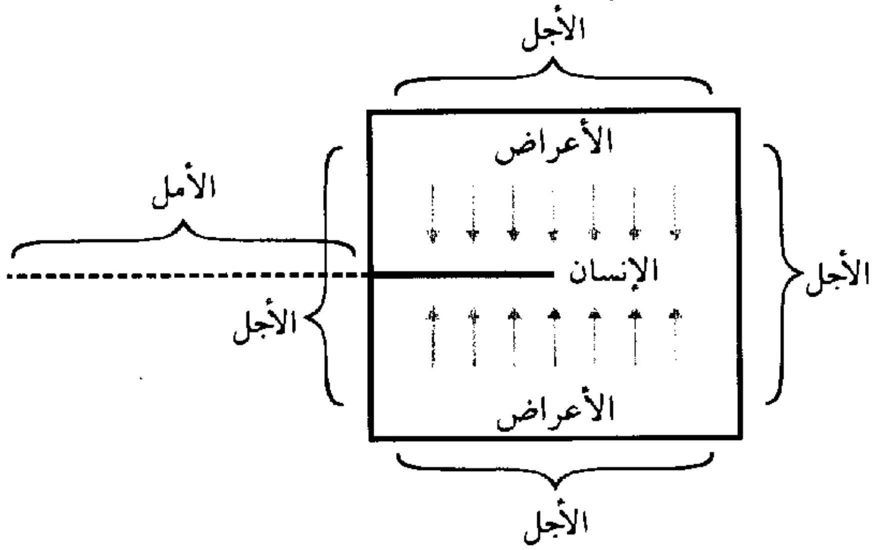

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤) .
(٢) رواه البخاري (٦٤١٧) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣) ، والرسم المثبت من (أ) ، ونحوه في باقي النسخ .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدمَ ويبقىٰ معَهُ اثنتانِ : الحرصُ والأملُ » ، وفي روايةٍ : « وتشبُّ منهُ اثنتانِ : الحرصُ على المالِ ، والحرصُ على العمرِ »(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نجا أوَّلُ هـٰذهِ الأمَّةِ باليقينِ والزهدِ ، ويهلكُ آخرُ هـٰذهِ الأمةِ بالبخلِ والأملِ »(٢) .

وقيلَ : بينَما عيسىٰ عليهِ السلامُ جالسٌ وشيخٌ يعملُ بمسحاةٍ يثيرُ بها الأرضَ ؛ فقالَ عيسىٰ : اللهمَّ ؛ انزعْ منهُ الأملَ ، فوضعَ الشيخُ المسحاةَ واضطجعَ ، فلبثَ ساعةً ، فقالَ عيسىٰ : اللهمَّ ؛ اردُدْ إليهِ الأملَ ، فقامَ ، فجعلَ يعملُ ، فسألَهُ عيسىٰ عنْ ذلكَ ، فقالَ : بينَما أنا أعملُ ؛ إذْ قالَتْ لي نفسي : إلىٰ متىٰ تعملُ وأنتَ شيخٌ كبيرٌ ؟ فألقيتُ المسحاةَ واضطجعتُ ، ثمَّ قالَتْ لي نفسي : واللهِ ؛ لا بدَّ لكَ مِنْ عيشٍ ما بقيتَ ، فقمتُ إلىٰ مسحاتي(٣) .

وقالَ الحسنُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكلُّكُمْ يحبُّ أنْ يدخلَ الجنَّةَ ؟ » قالوا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قصِّروا مِنَ الأملِ ،

---

(١) رواهما ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨ ، ١٩) ، وبالرواية الثانية رواه مسلم (١٠٤٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢) .

وثبتوا آجالَكُمْ بينَ أبصارِكُمْ ، واستحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ »[١] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ دنيا تمنعُ خيرَ الآخرةِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ حياةٍ تمنعُ خيرَ المماتِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ أملٍ يمنعُ خيرَ العملِ »[٢] .

❁ ❁ ❁

الآثار :

قالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ : لو علمتُ متىٰ أجلي . . لخشيتُ علىٰ ذهابِ عقلي ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ مَنَّ علىٰ عبادِهِ بالغفلةِ عنِ الموتِ ، ولولا الغفلةُ . . ما تهنَّؤُوا بعيشٍ ، ولا قامَتْ بينَهُمُ الأسواقُ[٣] .

وقالَ الحسنُ : السهوُ والأملُ نعمتانِ عظيمتانِ علىٰ بني آدمَ ، ولولاهُما . . ما مشى المسلمونَ في الطرقِ[٤] .

وقالَ الثوريُّ : بلغني أنَّ الإنسانَ خُلقَ أحمقَ ، ولولا ذلكَ . . لَمْ يهنأْهُ العيشُ[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣١) عن الحسن مرسلاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٠) بلفظ : « وجدت الغفلة التي ألقى الله عز وجلَّ في قلوب الصديقين من خلقه رحمةً رحمهم بها ، ولو ألقىٰ في قلوبهم من الخوف علىٰ قدر معرفتهم به . . ما هنأهم العيش » .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٤) .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣١) .

وقالَ سعيدُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ : إنَّما عُمِّرَتِ الدنيا بقلَّةِ عقولِ أهلِها[1] .

وقالَ سلمانُ الفارسيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ أعجبَتْنِي حتىٰ أضحكَتْنِي : مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلبُهُ ، وغافلٌ وليسَ يُغفَلُ عنهُ ، وضاحكٌ ملءَ فيهِ ولا يدري أساخطٌ ربُّ العالمينَ عليهِ أمْ راضٍ ، وثلاثٌ أحزنَتْنِي حتىٰ أبكَتْنِي : فراقُ الأحبَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحزبِهِ ، وهولُ المطلعِ ، والوقوفُ بينَ يدي ربِّي ولا أدري إلى الجنَّةِ يُؤمرُ بي أوْ إلى النَّارِ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ زرارةَ بنَ أبي أوفىٰ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقلتُ : أيُّ الأعمالِ أبلغُ عندَكُمْ ؟ قالَ : التَّوكلُ وقصرُ الأملِ[3] .

وقالَ الثوريُّ : الزُّهدُ في الدنيا قِصرُ الأملِ ، ليسَ بأكلِ الغليظِ ولا لبسِ العباءةِ[4] .

وسألَ المفضَّلُ بنُ فضالةَ ربَّهُ أنْ يرفعَ عنهُ الأملَ ، فذهبَتْ عنهُ شهوةُ الطعامِ والشرابِ ، ثمَّ دعا ربَّهُ فردَّ عليه الأملَ ، فرجعَ إلى الطعامِ والشرابِ[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٧) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٠٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٠) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣) .

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ ألا تغسلُ قميصَكَ ؟! فقالَ : الأمرُ أعجلُ مِنْ ذلكَ[1] .

وقالَ الحسنُ : الموتُ معقودٌ بنواصِيكُمْ ، والدنيا تُطوىٰ مِنْ ورائِكُمْ[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : أنا كرجلٍ مادٍّ عنقَهُ والسيفُ عليهِ ينتظرُ متىٰ تُضربُ عنقُهُ[3] .

وقالَ داوودُ الطَّائيُّ : لوْ أمَّلتُ أنْ أعيشَ شهراً . . لرأيتُني قدْ أتيتُ عظيماً ، وكيفَ أؤمِّلُ ذلكَ وأرى الفجائعَ تغشى الخلائقَ في ساعاتِ الليلِ والنَّهارِ ؟![4] .

وحُكيَ أنَّهُ جاءَ شقيقٌ البلخيُّ إلىٰ أستاذٍ لهُ يُقالُ لهُ : أبو هاشمٍ الرمانيُّ وفي طرفِ كسائِهِ شيءٌ مصرورٌ ، فقالَ لهُ أستاذُهُ : أيشٍ هـٰذا الذي معَكَ ؟ فقالَ : لوزاتٌ دفعَهَا إليَّ أخٌ لي وقالَ : أحبُّ أنْ تفطرَ عليهَا ، فقالَ : يا شقيقُ ؛ وأنتَ تحدِّثُ نفسَكَ أنَّكَ تبقىٰ إلى الليلِ ؟! لا كلَّمْتُكَ أبداً ، قالَ : فأغلقَ في وجهي البابَ ودخلَ[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤٢) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » . « إتحاف » (١٠/ ٢٤١) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ في خطبتِهِ : إنَّ لكلِّ سفرٍ زاداً لا محالةَ ، فتزوَّدُوا لسفرِكُمْ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ التَّقوىٰ ، وكونوا كمَنْ عاينَ ما أعدَّ اللهُ مِنْ ثوابِهِ وعقابِهِ . . ترغبُوا وترهبُوا ، ولا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قلوبُكُمْ ، وتنقادُوا لعدوِّكُمْ ؛ فإنَّهُ واللهِ ؛ ما بُسطَ أملُ مَنْ لا يدري لعلَّهُ لا يصبحُ بعدَ مسائِهِ ولا يمسي بعدَ صباحِهِ ، وربَّما كانتْ بينَ ذلكَ خطفاتُ المنايا ، وكمْ رأيتُ ورأيتُمْ مَنْ كانَ بالدنيا مغترّاً ، وإنَّما تقرُّ عينُ مَنْ وثقَ بالنَّجاةِ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما يفرحُ مَنْ أمِنَ مِنْ أهوالِ القيامةِ ، فأمَّا مَنْ لا يداوي كَلْماً إلاَّ أصابَهُ جرحٌ مِنْ ناحيةٍ أخرىٰ . . فكيفَ يفرحُ ؟! أعوذُ باللهِ مِنْ أنْ آمرَكُمْ بما أنهىٰ عنهُ نفسي ، فتخسرَ صفقتي وتظهرَ عيبتي ، وتبدوَ مسكنتي في يومٍ يبدو فيهِ الغنىٰ والفقرُ ، والموازينُ فيهِ منصوبةٌ ، لقَدْ عُنيتُمْ بأمرٍ لوْ عُنيَتْ بهِ النُّجومُ . . لانكدرَتْ ، ولوْ عُنيَتْ بهِ الجبالُ . . لذابَتْ ، ولوْ عُنيَتْ بهِ الأرضُ . . لتشقَّقَتْ ، أمَا تعلمونَ أنَّهُ ليسَ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ منزلةٌ ، وأنَّكُمْ صائرونَ إلىٰ إحداهُما ؟![1] .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : **أمَّا بعدُ** : فإنَّ الدنيا حلمٌ ، والآخرةَ يقظةٌ ، والمتوسطَ بينَهُما الموتُ ، ونحنُ في أضغاثِ أحلامٍ ، والسَّلامُ[2] .

وكتبَ آخرُ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّ الحزنَ على الدنيا طويلٌ ، والموتَ مِنَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩١ ـ ٢٩٢) ، وفيه : (عيلتي) بدل (عيبتي) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥٢) .

الإنسانِ قريبٌ ، وللنَّقصِ في كلِّ يومٍ منهُ نصيبٌ ، وللبلىٰ في جسمِهِ دبيبٌ ، فبادِرْ قبلَ أنْ تُنادَىٰ بالرَّحيلِ ، والسلامُ[١] .

وقالَ الحسنُ : كانَ آدمُ عليهِ السَّلامُ قبلَ أنْ يُخطىءَ أملُهُ خلفَ ظهرِهِ ، وأجلُهُ بينَ عينَيْهِ ، فلمَّا أصابَ الخطيئةَ . . حُوِّلَ فجُعلَ أملُهُ بينَ عينَيْهِ ، وأجلُهُ خلفَ ظهرِهِ[٢] .

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ شميطٍ : سمعتُ أبي يقولُ : أيُّها المغترُّ بطولِ صحتِهِ ، أمَا رأيتَ ميتاً قَطُّ مِنْ غيرِ سقمٍ ؟! أيُّها المغترُّ بطولِ المهلةِ ؛ أمَا رأيتَ مأخوذاً قطُّ مِنْ غيرِ عدةٍ ؟! إنَّكَ لَوْ فكَّرتَ في طولِ عمرِكَ . . لنسيتَ ما قدْ تقدَّمَ مِنْ لذَّاتِكَ ، أبالصِّحَّةِ تغترونَ ، أمْ بطولِ العافيةِ تمرحونَ ، أمِ الموتَ تأمنونَ ، أمْ علىٰ ملكِ الموتِ تجترئُونَ ؟! إنَّ ملكَ الموتِ إذا جاءَ . . لا يمنعُهُ منكَ ثروةُ مالِكَ ، ولا كثرةُ احتشادِكَ ، أما علمتَ أنَّ ساعةَ الموتِ ذاتُ كربٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفريطِ ؟! ثمَّ يقولُ : رحمَ اللهُ عبداً عملَ لما بعدَ الموتِ ، رحمَ اللهُ عبداً نظرَ لنفسِهِ قبلَ نزولِ الموتِ[٣] .

وقالَ أبو زكريا التيميُّ : بينَما سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ في المسجدِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧ ـ ١٨) وفيه : (وللنفس) بدل (وللنقص) ، وبعد قوله : (بالرحيل) : (واجتهد في العمل في دار الممر قبل أن ترحل إلىٰ دار المقر) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٧) ، وفي غير (ف) : (عبد الله بن شميط) .

الحرامِ ؛ إذْ أُتِيَ بحجرٍ منقورٍ ، فطلبَ مَنْ يقرؤُهُ ، فأُتِيَ بوهبِ بنِ منبِّهٍ ؛ فإذا فيهِ : ابنَ آدمَ ؛ إنَّكَ لوْ رأيتَ قربَ ما بقيَ مِنْ أجلِكَ .. لزهدتَ في طولِ أملِكَ ، ولرغبتَ في الزيادةِ مِنْ عملِكَ ، ولقصرتَ مِنْ حرصِكَ وحيلِكَ ، وإنَّما يلقاكَ غداً ندمُكَ لوْ قدْ زلَّتْ بكَ قدمُكَ ، وأسلمَكَ أهلُكَ وحشمُكَ ، وفارقَكَ الولدُ والقريبُ ، ورفضَكَ الوالدُ والنَّسيبُ ، فلا أنتَ إلىٰ دنياكَ عائدٌ ، ولا في حسناتِكَ زائدٌ ، فاعملْ ليومِ القيامةِ قبلَ الحسرةِ والنَّدامةِ ، قالَ : فبكىٰ سليمانُ بكاءً شديداً[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ كتاباً مِنْ محمَّدِ بنِ يوسفَ إلىٰ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ يوسفَ : سلامٌ عليكَ ، فإنِّي أحمدُ اللهَ إليكَ الذي لا إلـٰهَ إلاَّ هوَ ، **أمَّا بعدُ** : فإنِّي أحذِّرُكَ متحوَّلَكَ مِنْ دارِ مُهلتِكَ إلىٰ دارِ إقامتِكَ وجزاءِ أعمالِكَ ، فتصيرُ في قرارِ باطنِ الأرضِ بعدَ ظاهرِهَا ، فيأتيكَ منكرٌ ونكيرٌ فيقعدانِكَ وينتهرانِكَ ، فإنْ يكنِ اللهُ معَكَ .. فلاَ بأسَ ولاَ وحشةَ ولاَ فاقةَ ، وإنْ يكنْ غيرُ ذلكَ .. فأعاذَني اللهُ وإياكَ مِنْ سوءِ مصرَعٍ ، وضيقِ مضجعٍ ، ثمَّ تبلغُكَ صيحةُ الحشرِ ونفخُ الصُّورِ ، وقيامُ الجبَّارِ جلَّ جلالُهُ لفصلِ قضاءِ الخلائقِ ، وخلاءِ الأرضِ مِنْ أهلِهَا ، والسماواتِ مِنْ سُكَّانِها ، فباحَتِ الأسرارُ ، وأُسعرَتِ النَّارُ ، ووُضعَتِ الموازينُ ، وجِيءَ بالنبيِّينَ والشهداءِ ، وقُضيَ بينَهُمْ بالحقِّ ، وقيلَ : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، فكمْ مِنْ مفتضَحٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦٩) .

ومستورٍ ؟! وكمْ مِنْ هالكٍ وناجٍ ؟! وكمْ مِنْ معذَّبٍ ومرحومٍ ؟! فيا ليتَ شِعري ! ما حالي وحالُكَ يومَئذٍ ؟! ففي هـٰذا ما هدمَ اللذاتِ ، وسلّىٰ عنِ الشَّهواتِ ، وقصَّرَ عنِ الأملِ ، وأيقظَ النائمينَ ، وحذَّرَ الغافلينَ ، أعانَنا اللهُ وإياكَ علىٰ هـٰذا الخطرِ العظيمِ ، وأوقعَ الدنيا والآخرةَ مِنْ قلبي وقلبِكَ موقعَهُمَا مِنْ قلوبِ المتقينَ ؛ فإنَّما نحنُ بهِ ولهُ ، والسَّلامُ[1] .

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : (أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّكُم لمْ تُخلقوا عبثاً ولنْ تُتركُوا سدىً ، وإنَّ لكمْ معاداً يجمعُكُمُ اللهُ فيهِ للحكمِ والفصلِ فيما بينَكُمْ ، فخابَ وشقيَ عبدٌ أخرجَهُ اللهُ مِنْ رحمتِهِ التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، وجنَّتِهِ التي عرضُها السَّماواتُ والأرضُ ، وإنَّما يكونُ الأمانُ غداً لمَنْ خافَ واتقىٰ ، وباعَ قليلاً بكثيرٍ ، وفانياً بباقٍ ، وشقوةً بسعادةٍ ، ألا ترونَ أنَّكُم في أسلابِ الهالكينَ ، وسيخلفُهُ بعدَكُمُ الباقونَ ؟! ألا ترونَ أنَّكُم في كلِّ يومٍ تشيِّعونَ غادياً ورائحاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، قدْ قضىٰ نحبَهُ وانقطعَ أملُهُ ، فتضعونَهُ في بطنِ صدعٍ مِنَ الأرضِ غيرَ موسَّدٍ ولا ممهَّدٍ ، قدْ خلعَ الأسبابَ وفارقَ الأحبابَ وواجَهَ الحسابَ ؟! وايمُ اللهِ ؛ إنِّي لأقولُ مقالتي هـٰذهِ ولا أعلمُ عندَ أحدِكُمْ مِنَ الذنوبِ أكثرَ مما أعلمُ مِنْ نفسي ، ولكنَّها سننٌ مِنَ اللهِ عادلةٌ ، أمرَ فيها بطاعتِهِ ، ونهىٰ فيها عنْ معصيتِهِ ، وأستغفرُ اللهَ) ، ووضعَ كمَّهُ علىٰ وجهِهِ وبكىٰ حتىٰ بلَّتْ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٣٦) .

دموعُهُ لحيتَهُ ، وما عادَ إلىٰ مجلسِهِ حتىٰ ماتَ[1] .

وقالَ القعقاعُ بنُ حكيمٍ : (قدِ استعددتُ للموتِ منذُ ثلاثينَ سنةً ، فلوْ أتاني . . ما أحببتُ تأخيرَ شيءٍ عَنْ شيءٍ)[2] .

وقالَ الثوريُّ : (رأيتُ شيخاً في مسجدِ الكوفةِ يقولُ : أنا في هٰذا المسجدِ منذُ ثلاثينَ سنةً أنتظرُ الموتَ أنْ ينزلَ بي ، لوْ أتاني . . ما أمرتُهُ بشيءٍ ولا نهيتُهُ عنْ شيءٍ ، ولا لي علىٰ أحدٍ شيءٌ ، ولا لأحدٍ عندي شيءٌ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ ثعلبةَ : (تضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قدْ خرجَتْ مِنْ عندِ القصَّارِ ؟!)[4] .

وقالَ أبو محمَّدِ بنُ عليٍّ الزاهدُ : (خرجنا في جنازةٍ بالكوفةِ ، وخرجَ فيها داوودُ الطَّائيُّ فانتبذَ فقعدَ ناحيةً وهيَ تُدفنُ ، فجئتُ فقعدتُ قريباً منهُ ، فتكلَّمَ فقالَ : مَنْ خافَ الوعيدَ . . قصرَ عليهِ البعيدُ ، ومَنْ طالَ أملُهُ . . ضعفَ عملُهُ ، وكلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ) .

واعلمْ يا أخي : أنَّ كلَّ شيءٍ يشغلُكَ عنْ ربِّكَ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٩) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٤) .

واعلم : أنَّ أهلَ الدنيا جميعاً مِنْ أهلِ القبورِ ، إنَّما يندمونَ علىٰ ما يخلفونَ ، ويفرحونَ بما يقدِّمونَ ، فما ندمَ عليهِ أهلُ القبورِ . أهلُ الدنيا عليهِ يقتتلونَ ، وفيهِ يتنافسونَ ، وعليهِ عندَ القضاةِ يختصمونَ[1] .

ورُوِيَ أنَّ معروفاً الكرخيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ أقامَ الصلاةَ ، قالَ محمدُ بنُ أبي توبةَ : فقالَ لي : تقدَّمْ ، فقلتُ : إنِّي إنْ صلَّيتُ بكُمْ هـٰذهِ الصلاةَ . . لمْ أصلِّ بكُمْ غيرَها ، فقالَ معروفٌ : وأنتَ تحدِّثُ نفسَكَ أنْ تصلِّيَ صلاةً أخرى ؟! نعوذُ باللهِ مِنْ طولِ الأملِ ، فإنَّهُ يمنعُ خيرَ العملِ[2] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ في خطبتِهِ : (إنَّ الدنيا ليسَتْ بدارِ قرارِكُمْ ، دارٌ كتبَ اللهُ عليها الفناءَ ، وكتبَ علىٰ أهلِهَا الظعنَ مِنْها ، فكَمْ مِنْ عامرٍ موثقٍ عمَّا قليلٍ يخربُ ؟! وكَمْ مِنْ مقيمٍ مغتبطٍ عمَّا قليلٍ يظعنُ ؟! فأحسنوا رحمَكُمُ اللهُ منهَا الرِّحلةَ بأحسنِ ما يحضرُكُمْ مِنَ النقلةِ ، وتزوَّدوا ؛ فإنَّ خيرَ الزادِ التقوىٰ ، إنَّما الدنيا كفيءِ ظلالٍ قلصَ فذهبَ ، بينا ابنُ آدمَ في الدنيا ينافسُ وهو بها قريرُ العينِ ؛ إذْ دعاهُ اللهُ بقدرِهِ ، ورماهُ بيومِ حتفِهِ فسلبَهُ آثارَهُ ودنياهُ ، وصيَّرَ لقومٍ آخرينَ مصانعَهُ ومغناهُ ، إنَّ الدنيا لا تسرُّ بقدرِ ما تضرُّ ، إنَّها تسرُّ قليلاً وتحزنُ طويلاً)[3] .

وعنْ أبي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : أنَّهُ كانَ يقولُ في

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٢) .

خطبتِهِ : (أينَ الوضاءةُ الحسنةُ وجوهُهُم المعجبونَ بشبابِهِم ؟! أينَ الملوكُ الذينَ بنوُا المدائنَ وحصَّنوها بالحيطانِ ؟! أينَ الذينَ كانوا يُعطونَ الغلبةَ في مواطنِ الحربِ ؟! قَدْ تضعضعَ بهِمُ الدهرُ فأصبحوا في ظلماتِ القبورِ ، الوحا الوحا ، ثمَّ النَّجا النَّجا)[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١١١) ، وقوله : (**الوحا الوحا**) أي : السرعة السرعة .

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلمْ : أنَّ طولَ الأملِ لهُ سببانِ : أحدُهُما : الجهلُ ، والآخرُ : حبُّ الدنيا .

أمَّا حبُّ الدنيا : فهوَ أنَّهُ إذا أنسَ بها وبشهواتِهَا ولذَّاتِها وعلائقِها . . ثقلَ علىٰ قلبهِ مفارقتُها ، فامتنعَ قلبُهُ عنِ الفكرِ في الموتِ الذي هوَ سببُ مفارقتِها ، وكلُّ مَنْ كرهَ شيئاً . . دفعَهُ عن نفسِهِ ، والإنسانُ مشغوفٌ بالأماني الباطلةِ ، فيمنِّي نفسَهُ أبداً بما يوافقُ مرادَهُ ، وإنَّما يوافقُ مرادَهُ البقاءُ في الدنيا ، فلا يزالُ يتوهمُهُ ويقدرُهُ في نفسِهِ ، ويقدرُ توابعَ البقاءِ وما يحتاجُ إليهِ مِنْ مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاءَ ودوابَّ ، وسائرِ أسبابِ الدنيا ، فيصيرُ قلبُهُ عاكفاً علىٰ هـٰذا الفكرِ ، موقوفاً عليهِ ، فيلهوْ عنْ ذكرِ الموتِ ولا يقدِّرُ قربَهُ .

فإنْ خطرَ لهُ في بعضِ الأحوالِ أمرُ الموتِ والحاجةُ إلى الاستعدادِ لهُ . . سوَّفَ ووعدَ نفسَهُ وقالَ : الأيامُ بينَ يديكَ فإلىٰ أنْ تكبَرَ ثمَّ تتوبَ ، وإذا كبرَ . . فيقولُ : إلىٰ أنْ تصيرَ شيخاً ، فإذا صارَ شيخاً . . قالَ : إلىٰ أنْ تفرغَ مِنْ بناءِ هـٰذهِ الدارِ وعمارةِ هـٰذهِ الضيعةِ ، أو ترجعَ مِنْ هـٰذهِ السفرةِ ، أوْ تفرغَ مِنْ تدبيرِ هـٰذا الولدِ وجهازِهِ وتدبيرِ مسكنٍ لهُ ، أو تفرغَ مِنْ قهرِ هـٰذا العدوِّ الذي يشمتُ بكَ ، فلا يزالُ يسوِّفُ ويؤخِّرُ ، ولا يخوضُ في شغلٍ إلاَّ ويتعلَّقُ بإتمامِ ذلكَ الشغلِ عشرةُ أشغالٍ أُخرَ ، وهـٰكذا على التدريجِ يؤخِّرُ

يوماً بعدَ يومٍ ، ويفضي بهِ شغلٌ إلىٰ شغلٍ ، بلْ إلىٰ أشغالٍ إلىٰ أنْ تختطفَهُ المنيَّةُ في وقتٍ لا يحتسبُهُ ، فتطولُ عندَ ذلكَ حسرتُهُ .

وأكثرُ أهلِ النار صياحُهُم مِنْ سوفَ ، يقولونَ : واحزناهُ مِنْ سوفَ ! والمسوِّفُ المسكينُ لا يدري أنَّ الذي يدعوهُ إلى التسويفِ اليومَ هوَ معَهُ غداً ، وإنَّما يزدادُ بطولِ المدةِ قوةً ورسوخاً ، ويظنُّ أنَّهُ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ للخائضِ في الدنيا والحافظِ لها فراغٌ قطُّ ، وهيهاتَ ! ما فرغَ منْها إلاَّ مَنِ اطَّرَحَها .

فَمـا قَضَـىٰ أَحَـدٌ مِنْهـا لُبـانَتَـهُ ... وَمـا ٱنْتَهَـىٰ أَرَبٌ إلاَّ إِلَـىٰ أَرَبِ[1]

وأصلُ هـٰذهِ الأماني كلِّها : حبُّ الدنيا والأنسُ بها ، والغفلةُ عنْ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبِبْ ما أحببتَ ؛ فإنَّكَ مفارقُهُ »[2] .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الجهلُ : فهوَ أنَّ الإنسانَ قدْ يعوِّلُ علىٰ شبابِهِ فيستبعدُ قربَ الموتِ معَ الشبابِ ، وليسَ يتفكَّرُ المسكينُ أنَّ مشايخَ بلدِهِ لو عُدُّوا . لكانوا أقلَّ مِنْ عُشرِ رجالِ البلدِ ؛ وإنَّما قلُّوا لأنَّ الموتَ في الشبابِ أكثرُ ، فإلىٰ أنْ يموتَ شيخٌ يموتُ ألفُ صبيٍّ وشابٍّ ، وقدْ يستبعدُ الموتَ لصحتِهِ ، ويستبعدُ الموتَ فجأةً ، ولا يدري أنَّ ذلكَ غيرُ بعيدٍ ، وإنْ كانَ ذلكَ بعيداً . .

---

(١) البيت من البسيط ، وهو للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١/ ٩٥) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

فالمرضُ فجأةً غيرُ بعيدٍ ، وكلُّ مرضٍ فإنَّما يقعُ فجأةً ، وإذا مرضَ . . لمْ يكنِ الموتُ بعيداً .

ولوْ تفكَّرَ هـٰذا الغافلُ وعلمَ أنَّ الموتَ ليسَ لهُ وقتٌ مخصوصٌ مِنْ شبابٍ وشيبٍ وكهولةٍ ، ومِنْ صيفٍ وشتاءٍ ، وخريفٍ وربيعٍ ، ومِنْ ليلٍ ونهارٍ . . لعظُمَ استشعارُهُ واشتغلَ بالاستعدادِ لهُ ، ولكنَّ الجهلَ بهـٰذِهِ الأمورِ وحبَّ الدنيا دعوَاهُ إلىٰ طولِ الأملِ ، وإلى الغفلةِ عَنْ تقديرِ الموتِ القريبِ ، فهوَ أبداً يظنُّ أنَّ الموتَ يكونُ بينَ يديهِ ولا يقدِّرُ نزولَهُ بهِ ووقوعَهُ فيهِ ، وهوَ أبداً يظنُّ أنَّهُ يشيِّعُ الجنائزَ ولا يقدِّرُ أنْ تُشيَّعَ جنازتُهُ ؛ لأنَّ هـٰذا قد تكررَ عليهِ وألفَهُ وهوَ مشاهدةُ موتِ غيرِهِ ، فأمَّا موتُ نفسِهِ . . فلمْ يألفْهُ ، ولاَ يُتصورُ أنْ يألفَهُ ؛ فإنَّهُ لا يقعُ ، وإذا وقعَ . . لمْ يقعْ دفعةً أخرىٰ بعدَهُ ، فهوَ الأوَّلُ وهوَ الآخرُ .

وسبيلُهُ : أنْ يقيسَ نفسَهُ بغيرِهِ ، ويعلمَ أنَّهُ لا بدَّ وأنْ تُحملَ جنازتُهُ ويُدفنَ في قبرِهِ ، ولعلَّ اللبِنَ الذي يُغطَّىٰ بهِ لحدُهُ قدْ ضُرِبَ وفُرِغَ منهُ وهُوَ لا يدري ، فتسويفُهُ جهلٌ محضٌ .

وإذا عرفتَ أنَّ سببَهُ الجهلُ وحبُّ الدنيا . . فعلاجُهُ دفعُ سببِهِ .

أمَّا الجهلُ . . فيُدفعُ بالفكرِ الصَّافي مِنَ القلبِ الحاضرِ ، وسماعِ الحكمةِ البالغةِ مِنَ القلوبِ الطَّاهرةِ .

وأمَّا حبُّ الدنيا . . فالعلاجُ في إخراجِهِ مِنَ القلبِ شديدٌ ، وهوَ الدَّاءُ العضالُ الذي أعيا الأوَّلينَ والآخرينَ علاجُهُ ، ولا علاجَ لهُ إلاَّ الإيمانُ باليومِ

الآخرِ ، وبما فيهِ مِنْ عظيمِ العقابِ وجزيلِ الثَّوابِ ، ومهما حصلَ لهُ اليقينُ بذلكَ . . ارتحلَ عنْ قلبهِ حُبُّ الدنيا ، فإنَّ حبَّ الخطيرِ هوَ الذي يمحوْ عنِ القلبِ حبَّ الحقيرِ ، فإذا رأىٰ حقارةَ الدنيا ونفاسةَ الآخرةِ . . استنكفَ أنْ يلتفتَ إلى الدنيا كلِّها وإنْ أُعطيَ ملكَ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، فكيفَ وليسَ لكلِّ عبدٍ مِنَ الدنيا إلاَّ قدرٌ يسيرٌ مكدَّرٌ منغَّصٌ ؟! فكيفَ يفرحُ بهَا أو يترسخُ في القلبِ حبُّها معَ الإيمانِ بالآخرةِ ؟! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يريَنا الدنيا كما أراها الصالحينَ مِنْ عبادِهِ .

ولا علاجَ في تقريرِ الموتِ في القلبِ مثلُ النظرِ إلىٰ مَنْ ماتَ مِنَ الأقرانِ والأشكالِ ، وأنَّهُمْ كيفَ جاءَهُمُ الموتُ في وقتٍ لم يحتسبوا ، أمَّا مَنْ كانَ مستعدّاً . . فقدْ فازَ فوزاً عظيماً ، وأمَّا مَنْ كانَ مغروراً بطولِ الأملِ . . فقدْ خسرَ خُسراناً مبيناً .

فلينظرِ الإنسانُ كلَّ ساعةٍ في أطرافِهِ وأعضائِهِ ، وليتدبَّرْ أنَّها كيفَ تأكلُها الديدانُ لا محالةَ ، وكيفَ تتفتَّتُ عظامُها ، وليتفكرْ أنَّ الدودَ يبدأُ بحدقتِهِ اليمنىٰ أوَّلاً أو باليسرى ؟ فما علىٰ بدنِهِ شيءٌ إلاَّ وهوَ طُعمةٌ للدودِ ، وما لهُ مِنْ نفسِهِ إلاَّ العلمُ والعملُ الخالصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وكذلكَ يتفكَّرُ فيما سنوردُهُ مِنْ عذابِ القبرِ ، وسؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، ومِنَ الحشرِ والنشرِ وأهوالِ القيامةِ ، وفزعِ النداءِ يومَ العرضِ الأكبرِ ، فأمثالُ هٰذهِ الأفكارِ هيَ التي تجدِّدُ ذكرَ الموتِ علىٰ قلبِهِ ، وتدعوهُ إلى الاستعدادِ لهُ .

❋ ❋ ❋

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلمْ : أنَّ الخلقَ في ذلكَ يتفاوتونَ .

فمنهُمْ : مَنْ يأملُ البقاءَ ويشتهي ذلكَ أبداً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

❊ ❊ ❊

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ البقاءَ إلى الهرمِ ـ وهو أقصى العمرِ الذي شاهدَهُ ورآهُ ـ وهوَ الذي يحبُّ الدنيا حبّاً شديداً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشيخُ شابٌّ في حبِّ طلبِ الدنيا وإنِ التفَّتْ ترقُوَتاهُ مِنَ الكبرِ ، إلاَّ الذينَ اتقوا وقليلٌ ما هُمْ »[(١)] .

❊ ❊ ❊

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ إلىٰ سنةٍ ، فلا يشتغلُ بتدبيرِ ما وراءَ ذلكَ ، فلا يقدرُ لنفسِهِ وجوداً في عامٍ قابلٍ ، ولكن هـٰذا يستعدُّ في الصيفِ للشتاءِ ، وفي الشتاءِ للصيفِ ، فإذا جمعَ ما يكفيهِ لسنتِهِ . . اشتغلَ بالعبادةِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٥١) .

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ مدةَ الصيفِ أوِ الشتاءِ ، فلا يدخرُ في الصيفِ ثيابَ الشتاءِ ، ولا في الشتاءِ ثيابَ الصيفِ .

❊ ❊ ❊

ومنهُمْ : مَنْ يرجعُ أملُهُ إلىٰ يومٍ وليلةٍ ، فلا يستعدُّ إلاَّ لنهارِهِ ، وأمَّا للغدِ . . فلا ، قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : لا تهتموا برزقِ غدٍ ، فإنْ يكنْ غدٌ مِنْ آجالِكُمْ . . فستأتي فيهِ أرزاقُكُمْ معَ آجالِكُمْ ، وإنْ لمْ يكنْ مِنْ آجالِكُمْ . . فلا تهتموا لآجالِ غيرِكُمْ[1] .

❊ ❊ ❊

ومنهُمْ : مَنْ لا يجاوزُ أملُهُ ساعةً كما قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ ، إذا أصبحتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالصباحِ »[2] .

❊ ❊ ❊

ومنهُمْ : مَنْ لا يقدِّرُ البقاءَ أيضاً ساعةً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » عن سفيان بنحوه . « إتحاف » (١٠/٢٥١) ، وفي (أ) : (لأرزاق) بدل (لآجال) .

(٢) رواه بهـٰذا اللفظ مرفوعاً الروياني في « مسنده » (١٤١٨) ، وعبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص٩٦) ، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦) .

وسلَّمَ يتيمَّمُ معَ القدرةِ على الماءِ قبلَ مضيِّ ساعةٍ ويقولُ : « لعلِّي لا أبلغُهُ »[(١)] .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يكونُ الموتُ نصبَ عينيهِ كأنَّهُ واقعٌ بهِ ، فهوَ ينتظرُهُ ، وهاذا الإنسانُ هوَ الذي يصلي صلاةَ مودِّعٍ ، وفيهِ وردَ ما نُقلَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا سألَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حقيقةِ إيمانِهِ فقالَ : (ما خطوتُ خطوةً إلاَّ ظننتُ أنِّي لا أُتبعُها أخرىٰ)[(٢)] ، وكما نُقلَ عنِ الأسودِ وهوَ حبشيٌّ أنَّهُ كانَ يصلِّي ليلاً ويلتفتُ يميناً وشمالاً ، فقالَ لهُ قائلٌ : ما هاذا ؟! قالَ : أنتظرُ ملكَ الموتِ من أيِّ جهةٍ يأتيني .

❁ ❁ ❁

فهاذه مراتبُ الناسِ ، ولكلٍّ درجاتٌ عندَ اللهِ ، وليسَ مَنْ أملُهُ مقصورٌ علىٰ شهرٍ كمنْ أملُهُ شهرٌ ويومٌ ، بلْ بينَهما تفاوتٌ في الدرجةِ عندَ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً . . يرهُ .

ثمَّ يظهرُ أثرُ قصرِ الأملِ في المبادرةِ إلى العملِ ، وكلُّ إنسانٍ يدَّعي أنَّهُ قصيرُ الأملِ وهو كاذبٌ ، وإنَّما يظهرُ ذلكَ بأعمالِهِ ؛ فإنَّه يعتني بأسبابٍ ربَّما

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٢) .

لا يحتاجُ إليها في سنةٍ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ طولِ أملِهِ ، وإنَّما علامةُ التوفيقِ أنْ يكونَ الموتُ نصبَ العينِ لا يغفلُ عنهُ ساعةً ، فيستعدَّ للموتِ الذي يردُ عليهِ في الوقتِ ، فإنْ عاشَ إلى المساءِ . . شكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ طاعتِهِ ، وفرحَ بأنَّهُ لم يضيِّعْ نهارَهُ ، بلِ استوفىٰ منهُ حظَّهُ وادَّخرَهُ لنفسِهِ ، ثمَّ يستأنفُ مثلَه إلى الصباحِ ، وهـٰكذا إذا أصبحَ ، ولا يتيسَّرُ هـٰذا إلاَّ لمَنْ فرَّغَ القلبَ عنِ الغدِ وما يكونُ فيهِ ، فمثلُ هـٰذا إذا ماتَ . . سعدَ وغنمَ ، وإنْ عاشَ . . سُرَّ بحسنِ الاستعدادِ ولذةِ المناجاةِ ، فالموتُ لهُ سعادةٌ ، والحياةُ لهُ مزيدٌ .

فليكنِ الموتُ علىٰ بالِكَ يا مسكينُ ؛ فإنَّ السيرَ حادٍ بكَ وأنتَ غافلٌ عنْ نفسِكَ ، ولعلَّكَ قدْ قاربتَ المنزلَ وقطعتَ المسافةَ ، ولا تكونُ كذلكَ إلاَّ بمبادرةِ العملِ اغتناماً لكلِّ نَفَسٍ أُمهلتَ فيهِ .

* * *

بيان المبادرة إلى العمل، وحذر آفة التأخير

اعلمْ : أنَّ مَنْ لهُ أخوانِ غائبانِ ينتظرُ قدومَ أحدِهما في غدٍ ، وينتظرُ قدومَ الآخرِ بعدَ شهرٍ أو سنةٍ . . فلا يستعدُّ للذي يقدمُ إلىٰ شهرٍ أوْ سنةٍ ، وإنَّما يستعدُّ للذي ينتظرُ قدومَهُ غداً ، فالاستعدادُ نتيجةُ قربِ الانتظارِ ، فمَنِ انتظرَ مجيءَ الموتِ بعدَ سنةٍ . . اشتغلَ قلبُهُ بالمدَّةِ ونسيَ ما وراءَ المدَّةِ ، ثمَّ يصبحُ كلَّ يومٍ وهوَ منتظرٌ للسَّنةِ بكمالِهَا لا يُنقِصُ مِنْها اليومَ الذي مضىٰ ، وذلك يمنعُهُ مِنْ مبادرةِ العملِ أبداً ؛ فإنَّهُ أبداً يرىٰ لنفسِهِ متَّسعاً في تلكَ السنةِ ، فيؤخرُ العملَ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ينتظرُ أحدُكُم مِنَ الدنيا إلاَّ غنىً مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنِّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أوِ الدجالَ فالدجالُ شرُّ غائبٍ يُنتظرُ ، أو الساعة والساعةُ أدهىٰ وأمرُّ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ وهوَ يعظُهُ : « اغتنمْ خمساً قبلَ خمسٍ : شبابَكَ قبلَ هرمِكَ ، وصحتَكَ قبلَ سقمِكَ ، وغِناكَ قبلَ فقرِكَ ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ »[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٦٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصحةُ ، والفراغُ »[1] أي : أنَّهُ لا يغتنمُهُما ، ثمَّ يعرفُ قدرَهُما عندَ زوالِهِما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ .. أدلجَ ، ومَنْ أدلجَ .. بلغَ المنزلَ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ الجنَّةُ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاءَتِ الراجفةُ تتبعُهَا الرادفةُ ، جاءَ الموتُ بما فيهِ »[3] .

وكانَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا آنسَ مِنْ أصحابِهِ غفلةً أو غرةً .. نادىٰ فيهِمْ بصوتٍ رفيعٍ : « أتتكُمُ المنيةُ راتبةً لازمةً ، إمَّا بشقاوةٍ وإمَّا بسعادةٍ »[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا النذيرُ ، والموتُ المغيرُ ، والساعةُ الموعدُ »[5] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٠) .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٤) عن زيد السليمي مرسلاً .
(٥) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١١٨) .

والشمسُ علىٰ أطرافِ السَّعفِ فقالَ : « ما بقيَ مِنَ الدنيا إلاَّ مثلُ ما بقيَ مِنْ يومِنَا هـٰذا في مثلِ ما مضىٰ منه »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الدنيا مثلُ ثوبٍ شُقَّ مِنْ أولِهِ إلىٰ آخرِهِ فبقيَ متعلقاً بخيطٍ في آخرِهِ ، فيوشكُ ذلكَ الخيطُ أنْ ينقطعَ »(٢) .

وقالَ جابرٌ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا خطبَ فذكرَ الساعةَ . . رفعَ صوتَهُ ، واحمرَّتْ وجنتاهُ كأنَّهُ منذرُ جيشٍ يقولُ : صبَّحَتْكُمْ ومسَّتْكُمْ ثمَّ يقولُ : « بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتينِ » وقرنَ بينَ إصبعيهِ(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ النورَ إذا دخلَ الصدرَ . . انفسحَ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ تُعرفُ ؟ قالَ : « نعمِ ، التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »(٤) .

وقالَ السديُّ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أيْ : أيُّكم

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٤) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ١٣٣) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٥٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٢٤) ، ونحوه عند مسلم (٨٦٧) ، وفي (أ) : (عيناه) بدل (وجنتاه) وهي موافقة لما في « مسلم » ، وفي (ج) : (صبحتكم ومسيتكم) بدل (صبحتكم ومسَّتكم) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، وابن أبي شيبة (٣٥٤٥٦) .

أكثرُ للموتِ ذكراً ، وأحسنُ لهُ استعداداً ، وأشدُّ منهُ خوفاً وحذراً(١) .

وقالَ حذيفةُ : ما مِنْ صباحٍ ولا مساءٍ . . إلاَّ ومنادٍ ينادي : أيُّها الناسُ ؛ الرحيلَ الرحيلَ ، وتصديقُ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي : في الموتِ(٢) .

وقالَ سحيمٌ مولىٰ بني تميمٍ : جلستُ إلىٰ عامرِ بنِ عبدِ اللهِ وهوَ يصلي ، فأوجزَ في صلاتِهِ ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ : أرحْني بحاجتِكَ ؛ فإني أبادرُ ، قلتُ : وما تبادرُ ؟ قالَ : ملكَ الموتِ رحمَكَ اللهُ ، قالَ : فقمتُ عنهُ وقامَ إلىٰ صلاتِهِ(٣) .

ومرَّ داوودُ الطائيُّ فسألَهُ رجلٌ عنْ حديثٍ فقالَ : دعْني إنَّما أبادرُ خروجَ نفسِي(٤) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (التُّؤدةُ في كلِّ شيءٍ خيرٌ إلاَّ في أعمالِ الآخرةِ)(٥) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٠١) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٦٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٩) عن عمر رضي الله عنه موقوفاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٤) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً .

وقالَ المنذرُ : سمعتُ مالكَ بنَ دينارٍ يقولُ لنفسِهِ : ويحَكِ ! بادري قبلَ أن يأتيَكِ الأمرُ ، ويحَكِ ! بادري قبلَ أن يأتيَكِ الأمرُ. . . حتىٰ كرَّرَ ذلكَ ستينَ مرةً أسمعُهُ ولاَ يراني[١] .

وكانَ الحسنُ يقولُ في موعظتِهِ : المبادرةَ المبادرةَ ؛ فإنَّما هيَ الأنفاسُ لوْ حُبِسَتِ. . انقطعَتْ عنكُمْ أعمالُكُم التي تقربونَ بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ لنفسِهِ وبكىٰ علىٰ ذنوبِهِ ، ثمَّ قرأَ هـٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعني : الأنفاسَ ، آخرُ العددِ خروجُ نفسِكَ ، آخرُ العددِ فراقُ أهلِكَ ، آخرُ العددِ دخولُكَ في قبرِكَ[٢] .

واجتهدَ أبو موسى الأشعريُّ قبلَ موتِهِ اجتهاداً شديداً ، فقيلَ لهُ : لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسِكَ بعضَ الرفقِ ، فقالَ : (إنَّ الخيلَ إذا أُرسلَتْ فقاربَتْ رأسَ مجراها. . أخرجَتْ جميعَ ما عندها ، والذي بقيَ مِنْ أجَلي أقلُّ مِن ذلكَ) ، قالَ : فلم يزلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ ماتَ ، وكانَ يقولُ لامرأتِهِ : (شدِّي رحلَكِ ؛ فليسَ علىٰ جهنَّمَ معبرٌ)[٣] .

وقالَ بعضُ الخلفاءِ علىٰ منبرِهِ[٤] : (عبادَ اللهِ ؛ اتقوا اللهَ ما استطعتُمْ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٥١) .
(٤) وهو سيدنا علي رضي الله عنه .

وكونوا قوماً صيحَ بهم فانتبهوا ، وعلموا أنَّ الدنيا ليسَتْ لهم بدارٍ فاستبدلوا ، واستعِدُّوا للموتِ ، فقدْ أظلَّكُم ، وترحَّلوا ؛ فقدْ جَدَّ بكُمْ ، وإنَّ غايةً تنقصُها اللحظةُ وتهدِمُها الساعةُ لجديرةٌ بقصرِ المدةِ ، وإنَّ غائباً يجدُّ بِهِ الجديدانِ الليلُ والنَّهارُ لحريٌّ بسرعةِ الأوبةِ ، وإنَّ قادماً يحلُّ بالفوزِ أو الشقوةِ لمستحقٌّ لأفضلِ العدَّةِ ، فالتقيُّ عندَ ربِّهِ مَنْ ناصَحَ نفسَهُ ، وقدَّمَ توبتَهُ وغلَبَ شهوتَهُ ، فإنَّ أجلَهُ مستورٌ عنهُ ، وأملَهُ خادعٌ لهُ ، والشيطانَ موكَّلٌ بهِ ، يمنِّيهِ التوبةَ ليسوِّفَها ، ويزينُ لهُ المعصيةَ ليرتكبَهَا ، حتىٰ تهجمَ منيَّتُهُ عليهِ أغفلَ ما يكونُ عنهَا ، وإنَّه ما بينَ أحدِكُمْ وبينَ الجنَّةِ أو النَّارِ إلا الموتُ أن ينزلَ به ، فيا لها مِن حسرةٍ علىٰ ذي غفلةٍ أنْ يكونَ عمرُهُ عليهِ حجةً وأن ترديَهُ أيامُهُ إلىٰ شقوةٍ ! جعلَنا اللهُ وإيَّاكُم ممَّنْ لا تبطرُهُ نعمةٌ ، ولا تقصرُ بهِ عنْ طاعةِ اللهِ معصيةٌ ، ولا يحلُّ بهِ بعدَ الموتِ حسرةٌ ، إنَّهُ سميعُ الدعاءِ ، وإنَّهُ بيدِهِ الخيرُ دائماً فعَّالٌ لما يشاءُ)[1] .

وقالَ بعضُ المفسرينَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال : بالشهواتِ واللذَّاتِ ، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ قالَ : بالتوبةِ ، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ قالَ : شككتُم ، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قالَ : الموتُ ، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قالَ : الشيطانُ[2] .

وقالَ الحسنُ : (تصبَّروا وتشدَّدوا ؛ فإنَّما هيَ أيامٌ قلائلُ ، وإنَّما أنتُمْ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٦١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٦٦) .

ركبٌ وقوفٌ يوشكُ أنْ يُدعى الرجلُ منكم فيجيبَ ولا يلتفتَ ، فانتقلوا بصالحِ ما بحضرتِكُمْ)(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ أصبحَ . . إلاَّ وهوَ ضيفٌ ومالُهُ عاريةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ والعاريةُ مؤدَّاةٌ)(٢) .

وقالَ أبو عبيدةَ النَّاجيُّ : دخلنا على الحسنِ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ فقالَ : (مرحباً بكُم وأهلاً ، وحيَّاكُمُ اللهُ بالسَّلامِ ، وأحلَّنا وإيَّاكُم دارَ المقامِ ، هٰذهِ علانيةٌ حسنةٌ إن صبرتُم وصدقتُم واتقيتُم ، فلا يكنْ حظُّكُم مِنْ هٰذا الخبرِ ـ رحمَكُمُ اللهُ ـ أنْ تسمعوهُ بهٰذهِ الأذنِ وتخرجوهُ من هٰذهِ الأذنِ ؛ فإنَّهُ مَنْ رأىٰ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فقد رآهُ غادياً ورائحاً لم يضع لبنةً علىٰ لبنةٍ ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ ، ولكنْ رُفع لهُ علمٌ فشمَّرَ إليهِ ، الوحا الوحا ، النجا النجا ، علامَ تُعرِّجونَ ؟ أتيتُم وربِّ الكعبةِ كأنَّكم والأمرَ معاً ، رحمَ اللهُ عبداً جعلَ العيشَ عيشاً واحداً ، فأكلَ كسرةً ، ولبسَ خَلَقاً ، ولزقَ بالأرضِ ، واجتهدَ في العبادةِ ، وبكىٰ على الخطيئةِ ، وهربَ مِنَ العقوبةِ ، وابتغى الرحمةَ حتىٰ يأتيَهُ أجلُهُ وهوَ علىٰ ذلكَ)(٣) .

وقالَ عاصمٌ الأحولُ : قالَ لي فضيلٌ الرقاشيُّ وأنا أسائلُهُ : (يا هٰذا ؛

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٣) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٤) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وابن حبان في « الثقات » (٣/ ٣٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٤) .

لا يشغلَنَّكَ كثرةُ الناسِ عن نفسِكَ ؛ فإنَّ الأمرَ يخلصُ إليكَ دونَهُم ، ولا تقلْ : أذهبُ هٰهنا وهٰهنا فينقطعَ عنكَ النَّهارُ في لا شيءَ ، فإنَّ الأمرَ محفوظٌ عليكَ ، ولم ترَ شيئاً قطُّ أحسنَ طلباً ولا أسرعَ إدراكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديمٍ)[1] .

❋ ❋ ❋

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٢٠) .

البَابُ الثَّالِثُ
في سكرات الموت، وشدّته، وما يُستحبّ من الأحوال عند الموت

اعلمْ : أنَّه لو لمْ يكنْ بينَ يديِ العبدِ المسكينِ كربٌ ولاَ هولٌ ولا عذابٌ سوىٰ سكراتِ الموتِ بمجرَّدها.. لكانَ جديراً بأن يتنغصَ عليهِ عيشُهُ، ويتكدَّرَ عليهِ سرورُهُ، ويفارقَهُ سهوُهُ وغفلتُهُ(١)، وحقيقاً بأن تطولَ فيه فكرتُهُ، ويعظمَ لهُ استعدادُهُ، لا سيما وهو في كلِّ نفسٍ بصددِهِ؛ كما قالَ بعضُ الحكماءِ: (كربٌ بيدِ سواكَ لا تدري متىٰ يغشاكَ).

وقالَ لقمانُ لابنِهِ: (يا بنيَّ؛ أمرٌ لا تدري متىٰ يلقاكَ.. استعدَّ لهُ قبلَ أنْ يفجاكَ).

والعجبُ أنَّ الإنسانَ لو كانَ في أعظمِ اللذَّاتِ وأطيبِ مجالسِ اللهوِ فانتظرَ أن يدخلَ عليهِ جنديٌّ فيضربَهُ خمسَ خشباتٍ.. لتكدرَتْ عليهِ لذَّتُهُ وفسدَ عليهِ عيشُهُ، وهوَ في كلِّ نفَسٍ بصددِ أن يدخلَ عليهِ ملكُ الموتِ بسكراتِ النزعِ وهوَ عنهُ غافلٌ! فما لهـٰذا سببٌ إلاَّ الجهلُ والغرورُ.

* * *

واعلمْ : أنَّ شدةَ الألمِ في سكراتِ الموتِ لا يعرفُها بالحقيقةِ إلاَّ مَنْ

---

(١) في (أ، ب، د): (شهوته) بدل (سهوه).

ذاقَهَا ، ومَنْ لم يذقْهَا . . فإنَّما يعرفُها إمَّا بالقياسِ إلى الآلامِ التي أدركَها ، وإمَّا بالاستدلالِ بأحوالِ الناسِ في النزعِ علىٰ شدةِ ما هم فيهِ .

فأمَّا القياسُ الذي يشهدُ لهُ . . فهوَ أنَّ كلَّ عضوٍ لا روحَ فيهِ فلا يحسُّ بالألمِ ، فإذا كانَ فيهِ الروحُ . . فالمدرِكُ للألمِ هوَ الروحُ ، فمهما أصابَ العضوَ جرحٌ أو حريقٌ . . سرى الأثرُ إلى الروحِ ، فبقدرِ ما يسري إلى الروحِ يتألمُ ، والمؤلمُ يتفرقُ على اللحمِ والدمِ وسائرِ الأجزاءِ ، فلا يصيبُ الروحَ إلاَّ بعضُ الألمِ ، فإنْ كانَ في الآلامِ ما يباشرُ نفسَ الروحِ ولا يلاقي غيرَهُ . . فما أعظمَ ذلكَ الألمَ وما أشدَّهُ ! والنَّزعُ عبارةٌ عن مؤلمٍ نزلَ بنفسِ الروحِ فاستغرقَ جميعَ أجزائِهِ ، حتىٰ لمْ يبقَ جزءٌ من أجزاءِ الروحِ المنتشرِ في أعماقِ البدنِ إلاَّ وقدْ حلَّ بهِ الألمُ ، فلو أصابَتْهُ شوكةٌ . . فالألمُ الذي يجدُهُ إنَّما يجري في جزءٍ مِنَ الروحِ يلاقي ذلكَ الموضعَ الذي أصابَتْهُ الشوكةُ .

وإنَّما يعظمُ أثرُ الاحتراقِ لأنَّ أجزاءَ النَّارِ تغوصُ في سائرِ أجزاءِ البدنِ ، فلا يبقىٰ جزءٌ مِنَ العضوِ المحترقِ ظاهراً وباطناً إلاَّ وتصيبُهُ النَّارُ ، فتحسُّهُ الأجزاءُ الروحانيَّةُ المنتشرةُ في سائرِ أجزاءِ اللحمِ .

وأمَّا الجراحةُ . . فإنَّما تصيبُ الموضعَ الذي مسَّهُ الحديدُ فقطْ ، فكانَ لذلكَ ألمُ الجرحِ دونَ ألمِ النَّارِ .

فألمُ النزعِ يهجمُ علىٰ نفسِ الروحِ ويستغرقُ جميعَ أجزائِهِ ؛ فإنَّهُ المنزوعُ المجذوبُ مِنْ كلِّ عرقٍ مِنَ العروقِ ، وعصبٍ من الأعصابِ ، وجزءٍ مِنَ

الأجزاءِ ، ومفصلٍ مِنَ المفاصلِ ، ومِنْ أصلِ كلِّ شعرةٍ وبشرةٍ مِنَ الفَرْقِ إلى القدمِ ، فلا تسألْ عَنْ كربِهِ وألمِهِ ، حتىٰ قالوا : إنَّ الموتَ لأشدُّ مِنْ ضربٍ بالسيفِ ونشرٍ بالمناشيرِ وقرضٍ بالمقاريضِ ؛ لأنَّ قطعَ البدنِ بالسيفِ إنَّما يؤلمُ لتعلقِهِ بالروحِ ، فكيفَ إذا كانَ المتناولُ المباشرُ نفسَ الروحِ ؟!

وإنَّما يستغيثُ المضروبُ ويصيحُ لبقاءِ قوَّتِهِ في قلبِهِ وفي لسانِهِ ، وإنَّما انقطعَ صوتُ الميتِ وصياحُهُ معَ شدةِ ألمِهِ ؛ لأنَّ الكربَ قدْ بالغَ فيهِ وتصاعدَ علىٰ قلبِهِ ، وغلبَ كلَّ موضعٍ منهُ ، فهدَّ كلَّ قوةٍ ، وضَعَّفَ كلَّ جارحةٍ ، فلمْ يتركْ لهُ قوةَ الاستغاثةِ .

أمَّا العقلُ . . فقد غشيَهُ وشوشَهُ ، وأمَّا اللسانُ . . فقدْ أبكمَهُ ، وأمَّا الأطرافُ . . فقد ضعَّفَها ، ويودُّ لوْ قدَرَ على الاستراحةِ بالأنينِ والصِّياحِ والاستغاثةِ ، ولكنَّهُ لا يقدرُ علىٰ ذلكَ ، فإنْ بقيَتْ فيهِ قوةٌ . . سمعتَ لهُ عندَ نزعِ الروحِ وجذبِهَا خُواراً وغرغرةً مِنْ حلقِهِ وصدرِهِ ، وقدْ تغيَّرَ لونُهُ واربدَّ حتىٰ كأنَّهُ ظهرَ منهُ الترابُ الذي هوَ أصلُ فطرتِهِ ، وقد جُذِبَ منهُ كلُّ عرقٍ علىٰ حيالِهِ ، فالألمُ منتشرٌ في داخلِهِ وخارجِهِ حتىٰ ترتفعَ الحدقتانِ إلىٰ أعالي أجفانِهِ ، وتتقلصَ الشفتانِ ويتقلصَ اللسانُ إلىٰ أصلهِ ، وترتفعَ الأنثيانِ إلىٰ أعالي موضعِهما ، وتخضرَّ أناملُهُ ، فلا تسألْ عن بدنٍ يُجذبُ منهُ كلُّ عرقٍ مِنْ عروقِهِ ! ولوْ كانَ المجذوبُ عرقاً واحداً . . لكانَ ألمُهُ عظيماً ، فكيفَ والمجذوبُ نفسُ الروحِ المتألمِ لا مِنْ عرقٍ واحدٍ ، بل مِنْ جميعِ العروقِ ؟!

ثمَّ يموتُ كلُّ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ تدريجاً ، فتبردُ أولاً قدماهُ ، ثمَّ ساقاهُ ، ثم فخذاهُ ، ولكلِّ عضوٍ سكرةٌ بعدَ سكرةٍ وكربةٌ بعدَ كربةٍ ، حتىٰ يبلغَ بها إلى الحلقومِ ، فعندَ ذلكَ ينقطعُ نظرُهُ عنِ الدنيا وأهلِها ، ويُغلقُ دونَهُ بابُ التوبةِ ، وتحيطُ بهِ الحسرةُ والندامةُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « تُقبلُ توبةُ العبدِ ما لم يغرغرْ »(١) .

وقالَ مجاهدٌ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ قالَ : (إذا عاينَ الرسلَ . . فعندَ ذلكَ تبدو لهُ صفحةُ وجهِ ملكِ الموتِ ، فلا تسألْ عَنْ طعمِ مرارةِ الموتِ وكربهِ عندَ ترادفِ سكراتِهِ !) .

ولذلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ علىٰ محمَّدٍ سكراتِ الموتِ »(٢) .

والنَّاسُ إنَّما يستعيذونَ منهُ ولا يستعظمونَهُ لجهلِهِم بهِ(٣) ؛ فإنَّ الأشياءَ قبلَ وقوعِها إنَّما تُدركُ بنورِ النبوةِ والولايةِ ، ولذلكَ عظمَ خوفُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ والأولياءِ مِنَ الموتِ، حتىٰ قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ ادعوا اللهَ تعالىٰ أن يهوِّنَ عليَّ هٰذهِ السكرةَ ؛ يعني الموتَ ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٣) .
(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، وعند البخاري (٦٥١٠) نحوه .
(٣) في (ف ، ص) : (إنما لا يستعيذون) ، وكلاهما بمعنىً .

فقد خفتُ الموتَ مخافةً أوقفَني خوفي مِنَ الموتِ على الموتِ)[١] .

ورُويَ أنَّ نفراً من بني إسرائيلَ مروا بمقبرةٍ ، فقالَ بعضُهُم لبعضٍ : لو دعوتُمُ اللهَ تعالىٰ أن يخرجَ لكُمْ مِنْ هـٰذهِ المقبرةِ ميتاً تسألونَهُ ، فدعوُا اللهَ تعالىٰ ؛ فإذا هُمْ برجلٍ قدْ قامَ وبينَ عينيهِ أثرُ السجودِ قدْ خرجَ مِنْ قبرٍ مِنَ القبورِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ ما أردتُم منِّي ؟ لقدْ ذقتُ الموتَ منذُ خمسينَ سنةً ما سكنَتْ مرارةُ الموتِ مِنْ قلبي[٢] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لا أغبطُ أحداً يهونُ عليهِ الموتُ بعدَ الذي رأيتُ مِنْ شدَّةِ موتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[٣] .

ورُويَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ كانَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ إنَّكَ تأخذُ الروحَ مِنْ بينِ العصبِ والقصبِ والأناملِ ، اللهمَّ ؛ فأعنِّي على الموتِ وهوِّنْهُ عليَّ »[٤] .

وعنِ الحسنِ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذكرَ الموتَ وغصتَهُ وألمَهُ فقالَ : « هوَ قدرُ ثلاثِ مئةِ ضربةٍ بالسَّيفِ »[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠) .
(٢) رواه عبد بن حميد في « المنتخب » (١١٥٧) ، وأحمد في « الزهد » (٨٨) .
(٣) رواه الترمذي (٩٧٩) ، وعند البخاري (٤٤٤٦) نحوه .
(٤) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من حديث طعمة بن غيلان الجعفي ، وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي) . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠) .
(٥) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » هـٰكذا مرسلاً ورجاله ثقات) . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠).

وسُئلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنِ الموتِ وشدَّتِهِ فقالَ : « إنَّ أهونَ الموتِ بمنزلةِ حسكةٍ في صوفٍ ، فهل تخرجُ الحسكةُ مِنَ الصوفِ إلاَّ ومعَها صوفٌ »[1] .

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ مريضٍ ثمَّ قالَ : « إنِّي أعلمُ ما يلقىٰ ، ما منهُ عرقٌ إلاَّ ويألمُ للموتِ علىٰ حدَتِهِ »[2] .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يحضُّ على القتالِ ويقولُ : (إنْ لم تُقتلوا . . تموتوا ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ لألفُ ضربةٍ بالسيفِ أهونُ مِنْ موتٍ علىٰ فراشٍ)[3] .

وقالَ الأوزاعيُّ : (بلغَنا أنَّ الميتَ يجدُ ألمَ الموتِ ما لمْ يُبعثْ مِنْ قبرِهِ)[4] .

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : (الموتُ أفظعُ هولٍ في الدنيا والآخرةِ على المؤمنِ ، وهوَ أشدُّ منْ نشرٍ بالمناشيرِ وقرضٍ بالمقاريضِ وغليٍ في القدورِ ،

---

(١) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من رواية شهر بن حوشب مرسلاً) . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠) ، والحَسَك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٦٩) ، والبزار في « مسنده » (٢٥١٢) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٤) عن كعب قال : (لا يذهب عن الميت ألم الموت ما دام في قبره وإنه لأشدُّ ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر) .

ولوْ أنَّ الميتَ نُشرَ فأخبرَ أهلَ الدنيا بألمِ الموتِ.. ما انتفعوا بعيشٍ ولا لذُّوا بنومٍ)(١) .

وعَنْ زيدِ بنِ أسلمَ عَنْ أبيهِ قالَ : (إذا بقيَ على المؤمنِ مِنْ درجاتِهِ شيءٌ لم يبلغْها بعملِهِ.. شُدِّدَ عليهِ الموتُ ؛ ليبلغَ بسكراتِ الموتِ وكربِهِ درجتَهُ في الجنَّةِ ، وإذا كانَ للكافرِ معروفٌ لم يُجزَ بهِ في الدنيا.. هُوِّنَ عليهِ في الموتِ ؛ ليستكملَ ثوابَ معروفِهِ فيصيرَ إلى النَّارِ)(٢) .

وعَنْ بعضِهِم أنَّهُ كانَ يسألُ كثيراً مِنَ المرضىٰ : كيفَ تجدونَ الموتَ ؟ فلمَّا مرضَ.. قيلَ لهُ : فأنتَ كيفَ تجدُهُ ؟ فقالَ : (كأنَّ السماواتِ مطبقةٌ على الأرضِ ، وكأنَّ نفسي تخرجُ مِنْ ثقبِ إبرةٍ)(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « موتُ الفجأةِ راحةٌ للمؤمنِ ، وأسفٌ على الفاجرِ »(٤) .

ورُويَ عن مكحولٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لوْ أنَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » ، وفيه : عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، فالمراد بأبيه هو زيد بن أسلم ، والضمير راجع إلىٰ عبد الرحمٰن ، وفي سياق المصنف خطأ ، ولو قال : عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم عن أبيه.. لأصاب . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) ، وابن سعد في « الطبقات » (٥/ ٨١) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٣٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤٠) .

شعرةً منْ شعرِ الميتِ وُضِعَتْ علىٰ أهلِ السماواتِ والأرضِ.. لماتوا بإذنِ اللهِ ، لأنَّ في كلِّ شعرةٍ الموتَ ، ولا يقعُ الموتُ بشيءٍ إلاَّ ماتَ »[1] .

ويُروىٰ : (لوْ أنَّ قطرةً مِنْ ألمِ الموتِ وُضِعَتْ علىٰ جبالِ الأرضِ كلِّها.. لذابَتْ)[2] .

ورُوِيَ أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ لمَّا ماتَ.. قالَ اللهُ تعالىٰ لهُ : كيفَ وجدتَ الموتَ يا خليلي ؟ فقالَ : (كسفُّودٍ جُعلَ في صوفٍ رطبٍ ثم جُذِبَ ، فقالَ : أما إنَّا قد هوَّنا عليكَ)[3] .

ورُوِيَ عَنْ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : أنَّهُ لمَّا صارَتْ روحُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.. قالَ لَهُ ربُّهُ : يا موسىٰ ؛ كيفَ وجدتَ الموتَ ؟ قالَ : وجدتُ نفسي كالعصفورِ حينَ يُقلىٰ على المِقْلىٰ ، لا يموتُ فيستريحَ ، ولا ينجو فيطيرَ[4] .

---

(١) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » ، وفيه : « لو أن ألم شعرة ») . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .

(٢) روىٰ أبو بكر المروزي في « الجنائز » عن أبي ميسرة رفعه : « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت علىٰ أهل السماء والأرض.. لماتوا جميعاً ، وإن في القيامة لساعة تضعف علىٰ شدة الموت سبعين ضعفاً » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٤١٠) ، وفيه : (وجدت نفسي تنزع بالبلاء) بدل (كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب) ، وسفود ، كتنور : حديدة ذات شعب مُعقَّفة يشوىٰ بها .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .

ورُويَ عنهُ أنَّهُ قالَ : وجدتُ نفسي كشاةٍ حيةٍ تُسلخُ بيدِ القصابِ[١] .

ورُويَ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّهُ كانَ عندهُ قدحٌ مِنْ ماءٍ عندَ الموتِ ، فجعلَ يدخلُ يدَهُ في الماءِ ثمَّ يمسحُ بها وجهَهُ ويقولُ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ عليَّ سكراتِ الموتِ »[٢] وفاطمةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : وا كرباهُ لكربِكَ يا أبتاهُ ! وهوَ يقولُ : « لا كربَ علىٰ أبيكِ بعدَ اليومِ »[٣] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لكعبِ الأحبارِ : يا كعبُ ؛ حدِّثْنا عنِ الموتِ ، فقالَ : (نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ ، الموتُ كغصنٍ كثيرِ الشوكِ أُدخلَ في جوفِ رجلٍ ، وأخذَتْ كلُّ شوكةٍ بعرقٍ ، ثمَّ جذبَهُ رجلٌ شديدُ الجذبِ ، فأخذَ ما أخذَ وأبقىٰ ما أبقىٰ)[٤] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعالجُ كربَ الموتِ وسكراتِ الموتِ ، وإنَّ مفاصلَهُ ليسلِّمُ بعضُها علىٰ بعضٍ تقولُ : عليكَ السَّلامُ ، تفارقُني وأفارقُكَ إلىٰ يومِ القيامةِ »[٥] .

* * *

فهـٰذهِ سكراتُ الموتِ علىٰ أولياءِ اللهِ وأحبابِه ، فما حالُنا ونحنُ

---

(١) رواه أيضاً أحمد في « الزهد » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .
(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، وعند البخاري (٦٥١٠) نحوه .
(٣) رواه ابن حبان (٦٦٢٢) ، وأصل الحديث في « البخاري » (٤٤٦٢) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٦٥) .
(٥) رواه الديلمي في « الفردوس » (٦٥٩٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٠) .

المنهمكونَ في المعاصي ، وتتوالىٰ علينا معَ سكراتِ الموتِ بقيةُ الدواهي ؟! فإنَّ دواهيَ الموتِ ثلاثةٌ :

الأولىٰ : شدَّةُ النزعِ كما ذكرناهُ .

❊ ❊ ❊

الداهيةُ الثانيةُ : مشاهدةُ صورةِ ملكِ الموتِ ، ودخولُ الروعِ والخوفِ منهُ على القلبِ ، فلوْ رأىٰ صورتَهُ التي يقبضُ عليها روحَ العبدِ المذنبِ أعظمُ الرجالِ قوةً . . لمْ يطقْ رؤيتَهُ ؛ فقد رُوِيَ عَنْ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السَّلامُ : أنَّهُ قالَ لملكِ الموتِ : هلْ تستطيعُ أن تريَني صورتَكَ التي تقبضُ فيها روحَ الفاجرِ ؟ قالَ : لا تطيقُ ذلكَ ، قالَ : بلىٰ ، قالَ : فأعرِضْ عنِّي ، فأعرضَ عنهُ ، ثمَّ التفتَ ؛ فإذا هوَ برجلٍ أسودَ قائمِ الشعرِ ، منتنِ الرِّيحِ أسودِ الثيابِ ، يخرجُ مِنْ فيهِ ومناخرِهِ لهيبُ النَّارِ والدخانِ ، فغُشيَ علىٰ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ ، ثمَّ أفاقَ وقدْ عادَ ملكُ الموتِ إلىٰ صورتِهِ الأولىٰ ، فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ لوْ لمْ يلقَ الفاجرُ عندَ موتِهِ إلاَّ صورةَ وجهِكَ . . لكانَ حسبَهُ(١) .

وروىٰ أبو هريرةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنَّ داوودَ عليهِ السَّلامُ كانَ رجلاً غيوراً ، وكانَ إذا خرجَ . . غلَّقَ الأبوابَ ، فأغلقَ ذاتَ يومٍ وخرجَ ، فأشرفَتِ امرأتُهُ ؛ فإذا هيَ برجلٍ في الدارِ ، فقالَتْ : مَنْ أدخلَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٣) .

هـٰذا الرجلَ ؟ لئنْ جاءَ داوودُ . . ليلقيَنَّ منهُ عتباً ، فجاءَ داوودُ عليهِ السَّلامُ فرآهُ فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا الذي لا أهابُ الملوكَ ولا يمنعُ مني الحجّابُ ، فقالَ : فأنتَ واللهِ إذاً ملكُ الموتِ ، وزمَّلَ داوودُ عليهِ السَّلامُ مكانَهُ »(١) .

ورُوِيَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ مرَّ بجمجمةٍ فضربَها برجلِه ، فقالَ : تكلَّمي بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، فقالَتْ : يا روحَ اللهِ ؛ أنا ملكُ زمانِ كذا وكذا ، بينا أنا جالسٌ في ملكي عليَّ تاجي وحولي جنودي وحشمي علىٰ سريرِ ملكي ؛ إذ بدا لي ملكُ الموتِ ، فزالَ مني كلُّ عضوٍ علىٰ حيالِهِ ، ثمَّ خرجَتْ نفسي إليه ، فيا ليتَ ما كانَ مِنْ تلكَ الجموعِ كانَ فرقةً ! ويا ليتَ ما كانَ مِنْ ذلك الأنسِ كانَ وحشةً !(٢) .

فهـٰذهِ داهيةٌ يلقاها العصاةُ ويُكفاها المطيعونَ ؛ فقدْ حكى الأنبياءُ مجردَ سكرةِ النزعِ دونَ الروعةِ التي يدركُها مَنْ يشاهدُ صورةَ ملكِ الموتِ كذلكَ ، ولوْ رآها في منامِهِ ليلةً . . لتنغصَ عليهِ بقيةُ عمرِهِ ، فكيفَ برؤيتِهِ في مثلِ تلكَ الحالِ ؟!

وأمَّا المطيعُ . . فإنَّهُ يراهُ في أحسنِ صورةٍ وأجملِها ؛ فقدْ روىٰ عكرمةُ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤١٩) بنحوه ، وابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٤) ، وفي (ي) : (عنتاً) بدل (عتباً) ، وزمَّل : غطَّىٰ ؛ أي : غطَّىٰ نفسه في ذلك المكان .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩) بنحوه .

عنِ ابنِ عباسٍ : (أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانَ رجلاً غيوراً ، وكانَ لهُ بيتٌ يتعبَّدُ فيهِ ، فإذا خرجَ . . أغلقَهُ ، فرجعَ ذاتَ يومٍ ؛ فإذا برجلٍ في جوفِ البيتِ ، فقالَ : مَنْ أدخلَكَ داري ؟ فقالَ : أدخلَنيها ربُّها ، فقالَ : أنا ربُّها ، فقالَ : أدخلَنيها مَنْ هوَ أملكُ بها منِّي ومِنْكَ ، فقالَ : فمَنْ أنتَ مِنَ الملائكةِ ؟ قالَ : أنا ملكُ الموتِ ، قالَ : هلْ تستطيعُ أنْ تريَني الصورةَ التي تقبضُ فيها روحَ المؤمنِ ؟ قالَ : نعم ، فأعرِضْ عنِّي ، فأعرضَ عنه ، ثمَّ التفتَ ؛ فإذا هوَ بشابٍّ فذكرَ مِنْ حسنِ وجهِهِ وحسنِ ثيابِهِ وطيبِ ريحِهِ ، فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ لوْ لمْ يلقَ المؤمنُ عندَ الموتِ إلاَّ صورتَكَ . . كانَ حسبَهُ)(١) .

ومنها : مشاهدةُ الملكينِ الحافظينِ ، قالَ وهيبٌ : بلغَنا أنَّهُ ما مِنْ ميتٍ يموتُ حتىٰ يتراءىٰ لهُ ملكاهُ الكاتبانِ عملَهُ ، فإنْ كانَ مطيعاً . . قالا لهُ : جزاكَ اللهُ عنا خيراً ؛ فربَّ مجلسِ صدقٍ أجلستَنا ، وعملٍ صالحٍ أحضرتَنا ، وإنْ كانَ فاجراً . . قالاَ لهُ : لا جزاكَ اللهُ عنا خيراً ؛ فربَّ مجلسِ سوءٍ قدْ أجلستَنا ، وعملٍ غيرِ صالحٍ قدْ أحضرتَنا ، وكلامٍ قبيحٍ قدْ أسمعتَنا ، فلا جزاكَ اللهُ عنا خيراً ، فذلكَ شخوصُ بصرِ الميتِ إليهما ولا يرجعُ إلى الدنيا أبداً(٢) .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥١ _ ١٥٢) .

الداهيةُ الثالثةُ : مشاهدةُ العصاةِ مواضعَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وخوفُهم قبلَ المشاهدةِ ؛ فإنَّهم في حالِ السكراتِ وقد تخاذلَتْ قواهمْ ، واستسلمَتْ للخروجِ أرواحُهُمْ ، ولنْ تخرجَ أرواحُهُمْ ما لمْ يسمعوا نغمةَ ملكِ الموتِ بإحدى البُشريينِ ؛ إمَّا : أبشرْ يا عدوَّ اللهِ بالنَّارِ ، أو : أبشرْ يا وليَّ اللهِ بالجنَّةِ ، وعنْ هـٰذا كانَ خوفُ أربابِ الألبابِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لنْ يخرجَ أحدُكُمْ مِنَ الدنيا حتىٰ يعلمَ أينَ مصيرُهُ ، وحتىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ أوِ النَّارِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ لقاءَهُ » فقالوا : كلُّنا نكرهُ الموتَ ، قالَ : « ليسَ ذاكَ بذاكَ ، إنَّ المؤمنَ إذا فُرِجَ لهُ عما هوَ قادمٌ عليهِ . . أحبَّ لقاءَ اللهِ وأحبَّ اللهُ لقاءَهُ »(٢) .

ورُويَ أنَّ حذيفةَ بنَ اليمانِ قالَ لأبي مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ لما بِهِ مِن آخرِ الليلِ : قمْ فانظرْ أيُّ ساعةٍ هـٰذهِ ، فقامَ أبو مسعودٍ ثمَّ جاءَهُ فقالَ : قدْ طلعَتِ الحمراءُ ، فقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : أعوذُ باللهِ مِنْ صباحٍ إلى النَّارِ(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٦) .
(٢) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٤) بنحوه .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٠٩٨٢) ، والطبراني في « الكبير » (٣/١٦٣) ، وفي النسخ : (لابن مسعود . . . فقام ابن مسعود) ، والتصويب من المصادر ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٢٦٦) .

ودخلَ مروانُ علىٰ أبي هريرةَ فقالَ مروانُ : اللهمَّ ؛ خفِّفْ عنهُ ، فقالَ أبو هريرةَ : اللهمَّ ؛ اشددْ ، ثمَّ بكىٰ أبو هريرةَ وقالَ : (واللهِ ؛ ما أبكي حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقِكُمْ ، ولكن أنتظرُ إحدى البشريينِ مِنْ ربي ؛ بجنَّةٍ أمْ بنارٍ)(١) .

ورُوِيَ في الحديثِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا رضيَ عَنْ عبدٍ . . قالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ اذهبْ إلىٰ فلانٍ فأتني بروحِهِ لأريحَهُ ، حسبي مِنْ عملِهِ ، قدْ بلوتُهُ فوجدتُهُ حيثُ أحبُّ ، فينزلُ ملكُ الموتِ ومعَهُ خمسُ مئةٍ مِنَ الملائكةِ معَهم قضبانُ الريحانِ وأصولُ الزعفرانِ ، كلُّ واحدٍ منهم يبشرُهُ ببشارةٍ سوىٰ بشارةِ صاحبِهِ ، وتقومُ الملائكةُ صفينِ لخروجِ روحِهِ معَهم الريحانُ ، فإذا نظرَ إليهِمْ إبليسُ . . وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ثمَّ صرخَ ، قالَ : فيقولُ لهُ جنودُهُ : ما لكَ يا سيِّدَنا ؟ فيقولُ : أما ترونَ ما أُعطيَ هـٰذا العبدُ مِنَ الكرامةِ ؟! أينَ كنتُم عَنْ هـٰذا ؟ قالوا : قد جهدنا بهِ فكانَ معصوماً »(٢) .

وقالَ الحسنُ : (لا راحةَ للمؤمنِ إلاَّ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ كانَتْ راحتُهُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فيومُ الموتِ يومُ سرورِهِ وفرحِهِ ، وأمنِهِ وعزِّهِ وشرفِهِ)(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٧) .
(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٨٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣٣) بنحوه من =

وقيلَ لجابرِ بنِ زيدٍ عندَ الموتِ : ما تشتهي ؟ قالَ : نظرةً إلى الحسنِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ الحسنُ . . قيلَ لهُ : هـٰذا الحسنُ ، فرفعَ طرفَهُ إليهِ ثمَّ قالَ : يا إخوتاهُ ؛ الساعةَ واللهِ أفارقُكُمْ إلى النَّارِ أو إلى الجنَّةِ[1] .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ عندَ الموتِ : (يا إخوتاهُ ؛ عليكمُ السَّلامُ ، إلى النَّارِ أو يعفوَ اللهُ)[2] .

وتمنَّىٰ بعضُهم أنْ يبقىٰ في النزعِ أبداً ولا يُبعثَ لثوابٍ ولا عقابٍ .

فخوفُ سوءِ الخاتمةِ قطعَ قلوبَ العارفينَ ، وهيَ مِنَ الدواهي العظيمةِ عندَ الموتِ ، وقدْ ذكرنَا معنىٰ سوءِ الخاتمةِ وشدةَ خوفِ العارفينَ منهُ في كتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وهو لائقٌ بهـٰذا الموضعِ ، ولكنَّا لا نطولُ بذكرِهِ وإعادتِهِ .

* * *

= حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/ ٢٧٠) : (قال السخاوي : ورفعه بعضهم واستشهد له بحديث عائشة : « من أحب لقاء الله . . أحب الله لقاءه ») .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٨٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٨) .

بيان ما يُستحبّ من أحوال المحتضر عند الموت

اعلمْ : أنَّ المحبوبَ عندَ الموتِ مِنْ صورةِ المحتضرِ هوَ الهدوءُ والسكونُ ، ومِنْ لسانِهِ أنْ يكونَ ناطقاً بالشهادةِ ، ومِنْ قلبِهِ أن يكونَ حسنَ الظنِّ باللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

أمَّا الصورةُ : فقد رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ارقبوا الميتَ عندَ ثلاثٍ : إذا رشحَ جبينُهُ ، وذرفَتْ عيناهُ ، ويبسَتْ شفتاهُ . . فهيَ مِنْ رحمةِ اللهِ قدْ نزلَتْ بهِ ، وإذا غطَّ غطيطَ المخنوقِ ، واحمرَّ لونُهُ ، وأزبدَتْ شفتاهُ . . فهوَ مِنْ عذابِ اللهِ قدْ نزلَ بهِ »[1] .

❊ ❊ ❊

وأمَّا انطلاقُ لسانِهِ بكلمةِ الشهادةِ : فهيَ علامةُ الخيرِ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقِّنوا موتاكُمْ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ »[2] ، وفي روايةِ حذيفةَ : « فإنَّها تهدمُ ما قبلها مِنَ الخطايا »[3] .

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٢٥) .
(٢) رواه مسلم (٩١٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢) .

وقالَ عثمانُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ وهوَ يعلمُ أنَّهُ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ . . دخلَ الجنَّةَ »[1] ، وقالَ عبيدُ اللهِ : « وهوَ يشهدُ »[2] .

وقالَ عثمانُ : (إذا احتضرَ الميتُ . . فلقِّنوهُ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ؛ فإنَّهُ ما مِنْ عبدٍ يُختمُ لهُ بها عندَ موتِهِ إلاَّ كانَتْ زادَهُ إلى الجنَّةِ)[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (احضروا موتاكُم وذكِّروهم ؛ فإنَّهُم يرونَ ما لا ترونَ ، ولقِّنوهُم : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ)[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « حضرَ ملكُ الموتِ رجلاً يموتُ ، فنظرَ في قلبِهِ فلم يجدْ فيهِ شيئاً ، ففكَّ لحييهِ فوجدَ طرفَ لسانِهِ لاصقاً بحنكِهِ يقولُ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فغُفرَ له بكلمةِ الإخلاصِ »[5] .

وينبغي للملقِّنِ ألاَّ يلحَّ في التلقينِ ، ولكنْ يتلطَّفُ ؛ فربَّما لا ينطلقُ لسانُ المريضِ فيشقُّ عليهِ ذلكَ ، ويؤدي إلى استثقالِ التلقينَ وكراهيتِهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦) .
(٢) رواه النسائي في « الكبرى » (١٠٨٨٦) ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » (٥/٢٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧) من حديث معاذ رضي الله عنه .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٤) .

للكلمةِ ، ويُخشىٰ أنْ يكونَ ذلكَ سببَ سوءِ الخاتمةِ ، وإنَّما معنىٰ هـٰذهِ الكلمةِ أنْ يموتَ الرجلُ وليسَ في قلبه شيءٌ غيرُ اللهِ ، فإذا لم يبقَ لهُ مطلوبٌ سوى الواحدِ الحقِّ . . كانَ قدومُهُ بالموتِ علىٰ محبوبِه غايةَ النعيمِ في حقِّهِ .

وإنْ كانَ القلبُ مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسِّفاً علىٰ لذَّاتِها ، وكانَتِ الكلمةُ علىٰ رأسِ اللسانِ ولم ينطوِ القلبُ علىٰ تحقيقِها . . وقعَ الأمرُ في خطرِ المشيئةِ ، فإنَّ مجردَ حركةِ اللسانِ قليلُ الجدوىٰ إلاَّ أنْ يتفضَّلَ اللهُ تعالىٰ بالقبولِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا حسنُ الظنِّ : فهوَ مستحبٌّ في هـٰذا الوقتِ ، وقدْ ذكرنا ذلكَ في كتابِ الرجاءِ .

وقدْ وردَتِ الأخبارُ بفضلِ حسنِ الظنِّ باللهِ ، دخلَ واثلةُ بنُ الأسقعِ علىٰ مريضٍ فقالَ : أخبرْني كيفَ ظنُّكَ باللهِ تعالى ؟ قالَ : أغرقَتْني ذنوبٌ لي وأشفيتُ علىٰ هلكةٍ ، ولكنِّي أرجو رحمةَ ربي ، فكبَّرَ واثلةُ ، وكبَّرَ أهلُ البيتِ بتكبيرِهِ ، وقالَ : اللهُ أكبرُ ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »(١) .

ودخلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ شابٍّ وهوَ يموتُ فقالَ : « كيفَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٦) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥) .

تجدُكَ ؟ » فقالَ : أرجو اللهَ وأخافُ ذنوبي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في مثلِ هـٰذا الموطنِ إلاَّ أعطاهُ اللهُ الذي يرجو ، وآمنَهُ مِنَ الذي يخافُ »[١] .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : كانَ شابٌّ بهِ حدةٌ ، وكانَتْ لهُ أمٌّ تعظُهُ كثيراً وتقولُ لهُ : يا بنيَّ ؛ إنَّ لكَ يوماً فاذكرْ يومَكَ ، فلمَّا نزلَ بهِ أمرُ اللهِ تعالىٰ . . أكبَّتْ عليهِ أمُّهُ وجعلَتْ تقولُ لهُ : يا بنيَّ ؛ قدْ كنتُ أحذِّرُكَ مصرعَكَ هـٰذا وأقولُ : إنَّ لكَ يوماً ، فقالَ : يا أمَّهْ ؛ إنَّ لي رباً كثيرَ المعروفِ ، وإنِّي لأرجو ألاَّ يعدمَني اليومَ بعضَ معروفِهِ ، قالَ ثابتٌ : فرحمَهُ اللهُ تعالىٰ بحسنِ ظنِّهِ بربِّهِ[٢] .

وقالَ جابرُ بنُ وداعةَ : كانَ شابٌّ بهِ زهوٌ فاحتُضرَ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا بنيَّ ؛ توصي بشيءٍ ؟ قالَ : نعمْ ، خاتمي لا تسلبينيهِ ؛ فإنَّ فيهِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، فلعلَّ اللهَ أنْ يرحمَني ، فلمَّا دُفنَ . . رُئيَ في المنامِ فقالَ : أخبروا أمي أنَّ الكلمةَ قد نفعَتْني ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ غفرَ لي[٣] .

ومرضَ أعرابيٌّ فقيلَ لهُ : إنَّكَ تموتُ ، فقالَ : أينَ يُذهبُ بي ؟ قالوا :

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٣) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٢٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٥) ، وفيه وفي (ق) : (رهق) بدل (زهو) .

إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ : فما كراهتي أنْ أذهبَ إلىٰ من لا يُرى الخيرُ إلاَّ منهُ[1] .

وقالَ المعتمرُ بنُ سليمانَ : قالَ أبي حينَ حضرَتْهُ الوفاةُ : يا معتمرُ ؛ حدِّثْني بالرُّخَصِ لعلِّي ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ وأنا حسنُ الظنِّ بهِ[2] .

وكانوا يستحبُّونَ أن يُذكرَ للعبدِ محاسنُ عملِهِ عندَ موتِهِ ؛ لكي يحسنَ ظنَّهُ بربِّهِ[3] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٧) ، وفي (أ) : (أحسنُ) بدل (حسن) وهي موافقة لما في « الحلية » .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٠) .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكاياتٍ يُعْرِب لسان الحال عنها

قالَ أشعثُ بنُ أسلمَ : سألَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ ملكَ الموتِ ـ واسمهُ عزرائيلُ ، وله عينانِ : عينٌ في وجهِهِ وعينٌ في قفاهُ ـ فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ ما تصنعُ إذا كانَ نفسٌ بالمشرقِ ونفسٌ بالمغربِ ، ووقعَ الوباءُ بأرضٍ والتقى الزحفانِ . . كيفَ تصنعُ ؟ قال : أدعو الأرواحَ بإذنِ اللهِ تعالىٰ فتكونُ بينَ إصبعيَّ هاتينِ ، وقالَ : قدْ دُحيَتْ لهُ الأرضُ فتُركَتْ مثلَ الطَّسْتِ بينَ يديهِ ، يتناولُ منها حيثُ يشاءُ ، قالَ : وهوَ الذي بشَّرَهُ بأنَّهُ خليلُ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ لملكِ الموتِ عليه السَّلامُ : ما لي لا أراكَ تعدلُ بينَ النَّاسِ ، تأخذُ هـٰذا وتدعُ هـٰذا ؟! قالَ : ما أنا بذلكَ بأعلمَ منكَ ، إنَّما هيَ صحفٌ أو كتبٌ تُلقىٰ إليَّ فيها أسماءٌ[2] .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : كانَ ملكٌ مِنَ الملوكِ أرادَ أنْ يركبَ إلىٰ أرضٍ فدعا بثيابٍ ليلبسَها فلم تعجبْهُ ، فطلبَ غيرَها حتىٰ لبسَ ما أعجبَهُ بعدَ مرَّاتٍ ، وكذلكَ طلبَ دابةً فأُتيَ بها فلمْ تعجبْهُ حتىٰ أُتيَ بدوابَّ فركبَ أحسنَها ، فجاءَ إبليسُ فنفخَ في منخرِهِ نفخةً فملأهُ كبراً ، ثمَّ سارَ وسارَتْ معَهُ الخيولُ وهوَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٧٩) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٤٠٨) .

لا ينظرُ إلى النَّاسِ كبراً ، فجاءَهُ رجلٌ رثُّ الهيئةِ فسلَّمَ عليهِ فلمْ يردَّ عليهِ السَّلامَ ، فأخذَ بلجامِ دابتِهِ فقالَ : أرسلِ اللجامَ ؛ فقدْ تعاطيتَ أمراً عظيماً ، فقالَ : إنَّ لي إليكَ حاجةً ، قالَ : اصبرْ حتىٰ أنزلَ ، قالَ : لا ، الآنَ ، فقهرَهُ علىٰ لجامِ دابتِهِ ، فقالَ : اذكرْها ، قالَ : هوَ سرٌّ ، فأدنىٰ لهُ رأسَهُ ، فسارَّهُ وقالَ : أنا ملكُ الموتِ ، فتغيَّرَ لونُ الملكِ واضطربَ لسانُهُ ، ثمَّ قالَ : دعْني حتىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي فأقضيَ حاجتي وأودِّعَهم ، قالَ : لا ، واللهِ ؛ لا ترىٰ أهلَكَ وثقَلَكَ أبداً[١] ، فقبضَ روحَهُ ، فخرَّ كأنَّهُ خشبةٌ ، ثمَّ مضىٰ فلقيَ عبداً مؤمناً في تلكَ الحالِ ، فسلَّمَ عليهِ فردَّ عليهِ السَّلامَ ، فقالَ : إنَّ لي حاجةً أذكرُهَا في أذنِكَ ، فقالَ : هاتِ ، فسارَّهُ وقالَ : أنا ملكُ الموتِ ، فقالَ : مرحباً وأهلاً بمَنْ طالَتْ غيبتُهُ عليَّ ، فواللهِ ؛ ما كانَ في الأرضِ غائبٌ أحبَّ إليَّ أنْ ألقاهُ مِنْكَ ، فقالَ لهُ ملكُ الموتِ : اقضِ حاجتَكَ التي خرجتَ لها ، فقالَ : ما لي حاجةٌ أكبرُ عندي ولا أحبُّ إليَّ مِنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ : فاخترْ علىٰ أيِّ حالٍ شئتَ أنْ أقبضَ روحَكَ ، فقالَ : وتقدرُ علىٰ ذلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، إنِّي أُمرتُ بذلكَ ، قالَ : فدعْني حتىٰ أتوضأَ وأُصليَ فاقبضْ روحي وأنا ساجدٌ ، فقبضَ روحَهُ وهوَ ساجدٌ[٢] .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : جمعَ رجلٌ مِنْ بني إسرائيلَ مالاً ، فلمَّا

---

(١) الثَّقَلُ : متاع المسافر وحشمه وكل شيء نفيس مصون .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .

أشرفَ على الموتِ . . قالَ لبنيهِ : أروني أصنافَ أموالي ، فأُتيَ بشيءٍ كثيرٍ مِنَ الخيلِ والإبلِ والرقيقِ وغيرِها ، فلمَّا نظرَ إليهِ . . بكىٰ تحسُّراً عليهِ ، فرآهُ ملكُ الموتِ وهو يبكي فقالَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فوالذي خوَّلَك ؛ ما أنا بخارجٍ مِن منزِلكَ حتىٰ أفرِّقَ بينَ روحِكَ وبدنِكَ ، قالَ : فالمهلةَ حتىٰ أفرِّقَهُ ، قالَ : هيهاتَ ! انقطعَتْ عنكَ المهلةُ ، فهلاَّ كانَ ذلكَ قبلَ حضورِ أجلِكَ ؟! فقبضَ روحَهُ[1] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً جمعَ مالاً فأوعىٰ ، ولم يدَعْ صنفاً مِنَ المالِ إلاَّ اتخذَهُ ، وابتنىٰ قصراً ، وجعلَ عليهِ بابينِ وثيقينِ ، وجمعَ عليهِ حرساً من غلمانِهِ ، ثمَّ جمعَ أهلَهُ وصنعَ لهم طعاماً ، وقعدَ علىٰ سريرِهِ ورفعَ إحدىٰ رجليهِ على الأخرىٰ وهم يأكلونَ ، فلمَّا فرغوا . . قالَ : يا نفسُ ؛ انعمي لسنينَ ؛ فقدْ جمعتُ لكِ ما يكفيكِ ، فلم يفرغْ مِنْ كلامِهِ حتىٰ أقبلَ إليهِ ملكُ الموتِ في هيئةِ رجلٍ عليهِ خُلقانٌ مِنَ الثيابِ ، في عنقِهِ مخلاةٌ يتشبَّهُ بالمساكينِ ، فقرعَ البابَ بشدةٍ عظيمةٍ قرعاً أفزعَهُ وهوَ علىٰ فراشِهِ ، فوثبَ إليهِ الغلمانُ وقالوا : ما شأنُكَ ؟ فقالَ : ادعوا لي مولاكم ، فقالوا : وإلىٰ مثلِكَ يخرجُ مولانا ؟! قالَ : نعمْ ، فأخبرُوهُ بذلكَ ، فقالَ : هلاَّ فعلتُمْ بهِ وفعلتُمْ ، فقرعَ البابَ قرعةً أشدَّ مِنَ الأولىٰ ، فوثبَ إليهِ الحرسُ ، فقالَ : أخبروهُ أنِّي ملكُ الموتِ ، فلمَّا سمعوهُ . . أُلقيَ عليهمُ الرعبُ ، ووقعَ علىٰ مولاهمُ الذلُّ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) .

والتخشعُ ، فقالَ : قولوا لهُ قولاً ليناً ، وقولوا لهُ : هلْ تأخذُ بهِ أحداً ؟ فدخلَ عليهِ وقالَ : اصنعْ في مالِكَ ما أنتَ صانعٌ ؛ فإنِّي لستُ بخارجٍ منها حتىٰ أخرجَ نفسَكَ ، فأمرَ بمالِهِ حتىٰ وُضِعَ بينَ يديهِ ، فقالَ حينَ رآهُ : لعنَكَ اللهُ مِنْ مالٍ ؛ أنتَ شغلتَني عَنْ عبادةِ ربي ، ومنعتَني أنْ أتخلَّىٰ لربي ، فأنطقَ اللهُ المالَ فقالَ : لِمَ تسبُّني وقدْ كنتَ تدخلُ على السُّلطانِ بي ويُردُّ المتَّقونَ عَنْ بابِهِ ، وكنتَ تنكحُ المتنعماتِ بي ، وتجلسُ مجالسَ الملوكِ بي ، وتردُّ المتقينَ ، وتنفقُني في سبيلِ الشرِّ فلاَ أمتنعُ منكَ ، ولوْ أنفقتَني في سبيلِ الخيرِ . نفعتُكَ ؟! خُلقتُ وابنَ آدمَ مِنْ ترابٍ ، فمنطلقٌ ببرٍّ ومنطلقٌ بإثمٍ ، ثمَّ قبضَ ملكُ الموتِ روحَهُ فسقطَ[1] .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : قبضَ ملكُ الموتِ روحَ جبارٍ مِنَ الجبابرةِ ما في الأرضِ مثلُهُ ، ثمَّ عرجَ إلى السماءِ ، فقالتِ الملائكةُ : لمَنْ كنتَ أشدَّ رحمةً ممَّنْ قبضتَ روحَهُ ؟ قالَ أُمرتُ بقبضِ نفسِ امرأةٍ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ ، فأتيتُها وقد ولدَتْ مولوداً ، فرحمتُها لغربتِها ورحمتُ ولدَها لصغرِهِ وكونِهِ في الفلاةِ لا متعهدَ لهُ بها ، فقالتِ الملائكةُ : الجبارُ الذي قبضتَ الآنَ روحَهُ هوَ ذلكَ المولودُ الذي رحمتَهُ ، فقالَ ملكُ الموتِ : سبحانَ اللطيفِ لما يشاءُ ![2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٠ـ ٢٤١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : إذا كانَ ليلةُ النصفِ من شعبانَ . . دُفعَ إلىٰ ملكِ الموتِ صحيفةٌ فيُقالُ : اقبضْ في هـٰذهِ السنةِ مَنْ في هـٰذهِ الصحيفةِ ، قالَ : فإنَّ العبدَ ليغرسُ الغراسَ وينكحُ الأزواجَ ويبني البنيانَ وإنَّ اسمَهُ في تلكَ الصحيفةِ وهوَ لا يدري(١) .

وقالَ الحسنُ : ما مِنْ يومٍ إلاَّ وملكُ الموتِ يتصفحُ كلَّ بيتٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فمَنْ وجدَهُ منهم قدِ استوفىٰ رزقَهُ وانقضىٰ أجلُهُ . . قبضَ روحَهُ ، فإذا قبضَ روحَهُ . . أقبلَ أهلُهُ برنةٍ وبكاءٍ ، فيأخذُ ملكُ الموتِ بعضادتيِ البابِ فيقولُ : واللهِ ؛ ما أكلتُ لهُ رزقاً ، ولا أفنيتُ له عمراً ، ولا انتقصتُ لهُ أجلاً ، وإنَّ لي فيكم لعودةً ثمَّ عودةً حتىٰ لا أبقيَ منكم أحداً ، قالَ الحسنُ : فواللهِ ؛ لو رأوا مقامَهُ وسمعوا كلامَهُ . . لذهلوا عَنْ ميتِهِمْ ، ولبَكَوا علىٰ أنفسِهِم(٢) .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : بينما جبَّارٌ مِنَ الجبابرةِ مِنْ بني إسرائيلَ جالسٌ في منزلِهِ قدْ خلاَ ببعضِ أهلِهِ ؛ إذْ نظرَ إلىٰ شخصٍ قدْ دخلَ مِنْ بابِ بيتِهِ ، فثارَ إليهِ فزعاً مُغضَباً ، فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ ومَنْ أدخلَكَ داري ؟ فقالَ : أمَّا الذي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) ، ويؤيده ما رواه الديلمي في « الفردوس » (٢٤١٠) : « تقطع الآجال من شعبان إلىٰ شعبان حتىٰ إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتىٰ » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤١) .

أدخلَني الدارَ . . فربُّها ، وأمَّا أنا . . فالذي لا يمنعُني الحجابُ ، ولا أستأذنُ على الملوكِ ، ولا أخافُ صولةَ المتسلِّطينَ ، ولا يمتنعُ مني كلُّ جبارٍ عنيدٍ ولا شيطانٍ مريدٍ ، قالَ : فسُقِطَ في يدي الجبارِ وأُرعدَ حتىٰ سقطَ منكبّاً لوجهِهِ ، ثمَّ رفعَ إليه رأسَهُ مستعطفاً متذللاً لهُ ، فقالَ لهُ : أنتَ إذاً ملكُ الموتِ ، قالَ : أنا هوَ ، قالَ : فهل أنتَ ممهلي حتىٰ أحدثَ عهداً ؟ قالَ : هيهاتَ ! انقطعَتْ مدتُكَ ، وانقضَتْ أنفاسُكَ ، ونفِدَتْ ساعاتُكَ ، فليسَ إلىٰ تأخيرِكَ سبيلٌ ، قالَ : فإلىٰ أينَ تذهبُ بي ؟ قالَ : إلىٰ عملِكَ الذي قدَّمتَهُ ، وإلىٰ بيتِكَ الذي مهَّدتَهُ ، قالَ : فإنِّي لمْ أقدِّمْ عملاً صالحاً ، ولم أمهِّدْ بيتاً حسناً ، قالَ : فإلىٰ لظىٰ نزاعةً للشوىٰ ، ثمَّ قبضَ روحَهُ ، فسقطَ ميتاً بينَ أهلِهِ ، فمِنْ بينِ صارخٍ وباكٍ .

قالَ يزيدُ الرقاشيُّ : لوْ يعلمونَ سوءَ المنقلبِ . . كانَ العويلُ علىٰ ذلكَ أكثرَ[(١)] .

وعنِ الأعمشِ عَنْ خيثمةَ قالَ : دخلَ ملكُ الموتِ علىٰ سليمانَ بنِ داوودَ عليهما السَّلامُ ، فجعلَ ينظرُ إلىٰ رجلٍ من جلسائِهِ يديمُ النظرَ إليهِ ، فلمَّا خرجَ . . قالَ الرجلُ : مَنْ هـٰذا ؟ قال : هـٰذا ملكُ الموتِ ، قالَ : لقدْ رأيتُهُ ينظرُ إليَّ كأنَّهُ يريدُني ، قالَ : فماذَا تريدُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ تخلِّصَني منهُ فتأمرَ الريحَ حتىٰ تحملَني إلىٰ أقصى الهندِ ، ففعلَتِ الريحُ ذلكَ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨٣) .

ثمَّ قالَ سليمانُ لملكِ الموتِ بعدَ أنْ أتاهُ ثانياً : رأيتُكَ تديمُ النظرَ إلىٰ واحدٍ من جلسائي ، قالَ : نعمْ ، كنتُ أتعجبُ منهُ ؛ لأنِّي كنتُ أُمرتُ أنْ أقبضَهُ بأقصى الهندِ في ساعةٍ قريبةٍ ، وكانَ عندَكَ فعجبتُ مِنْ ذلكَ[1] .

* * *

(١) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٤٠٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١١٨) .

البَابُ الرَّابِعُ
في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

اعلمْ : أنَّ في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةً حسنةً حيّاً وميتاً ، وفعلاً وقولاً ، وجميعُ أحوالِهِ عبرةٌ للنَّاظرينَ وتبصرةٌ للمستبصرينَ(١) ؛ إذْ لمْ يكنْ أحدٌ أكرمَ على اللهِ تعالىٰ منهُ ؛ إذْ كانَ خليلَ اللهِ وحبيبَهُ ونجيَّهُ ، وكانَ صفيَّهُ ورسولَهُ ونبيَّهُ ، فانظرْ هلْ أمهلَهُ ساعةً عندَ انقضاءِ مدتِهِ ؟ وهلْ أخَّرَهُ لحظةً بعدَ حضورِ منيَّتِهِ ؟ لا ، بلْ أرسلَ إليهِ الملائكةَ الكرامَ الموكَّلينَ بقبضِ أرواحِ الأنامِ ، فجدُّوا بروحِهِ الزكيَّةِ الكريمةِ لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عنْ جسدِهِ الطاهرِ إلىٰ رحمةٍ ورضوانٍ وخيراتٍ حسانٍ ، بلْ إلىٰ مقعدِ صدقٍ في جوارِ الرحمـٰنِ ، فاشتدَّ معَ ذلكَ في النزعِ كربُهُ وظهرَ أنينُهُ ، وترادفَ قلقُهُ وارتفعَ حنينُهُ ، وتغيَّرَ لونُهُ وعرقَ جبينُهُ ، واضطربَتْ في الانقباضِ والانبساطِ شمالُهُ ويمينُهُ ، حتىٰ بكىٰ لمصرعِهِ مَنْ حضرَهُ ، وانتحبَ لشدَّةِ حالِهِ مَنْ شاهدَ منظرَهُ ، فهلْ رأيتَ منصبَ النبوَّةِ دافعاً عنهُ مقدوراً ؟! أوْ هلْ راقبَ الملكُ فيهِ أهلاً وعشيراً ؟! وهلْ سامحَهُ إذْ كانَ للحقِّ نصيراً ، وللخلقِ

---

(١) في (د ، ص) : (وبصيرة) .

بشيراً ونذيراً ؟! هيهاتَ ! بلِ امتثلَ ما كانَ بهِ مأموراً ، واتبعَ ما وجدَهُ في اللوحِ مسطوراً .

فهـٰذا كانَ حالَهُ وهوَ عندَ اللهِ ذو المقامِ المحمودِ والحوضِ المورودِ ، وهوَ أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأرضُ ، وهوَ صاحبُ الشفاعةِ يومَ العرضِ ، فالعجبُ أنَّا لا نعتبرُ بهِ ! ولسنا علىٰ ثقةٍ فيما نلقاهُ ، بلْ نحنُ أُسَراءُ الشهواتِ ، وقرناءُ المعاصي والسيئاتِ ، فما بالُنا لا نتَّعِظُ بمصرعِ محمَّدٍ سيِّدِ المرسلينَ وإمامِ المتقينَ وحبيبِ ربِّ العالمينَ ؟!

لعلَّنا نظنُّ أنَّا مُخلَّدونَ ، أو نتوهمُ أنَّا معَ سوءِ أفعالِنا عندَ اللهِ مُكْرَمونَ ، هيهاتَ هيهاتَ ! بلْ نتيقنُ أنَّا جميعاً على النارِ واردونَ ، ثمَّ لا ينجو منها إلاَّ المتقونَ ، فنحنُ للورودِ مستيقنونَ ، وللصَّدَرِ عنها متوهِّمونَ ، لا ، بلْ ظلمنا أنفسَنا إنْ كنَّا لذلكَ لغالبِ الظنِّ منتظرينَ ، فما نحنُ واللهِ مِنَ المتقينَ وقدْ قالَ اللهُ ربُّ العالمينَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

فلينظرْ كلُّ عبدٍ إلىٰ نفسهِ أنَّه إلى الظالمينَ أقربُ أمْ إلى المتقينَ ؟ فانظرْ إلىٰ نفسِكَ بعدَ أنْ تنظرَ إلىٰ سيرةِ السلفِ الصالحينَ ؛ فلقدْ كانوا معَ ما وُفِّقوا لهُ من الخائفينَ ، ثمَّ انظرْ إلىٰ سيِّدِ المرسلينَ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنْ أمرِهِ علىٰ يقينٍ ؛ إذْ كانَ سيِّدَ النبيينَ وقائدَ المتقينَ ، واعتبرْ كيفَ كانَ كربُهُ عندَ فراقِ الدنيا ، وكيفَ اشتدَّ أمرُهُ عندَ الانقلابِ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ .

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلنا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتِ أمِّنا عائشةَ رضيَ اللهُ عنها حينَ دنا الفراقُ ، فنظرَ إلينا فدمعَتْ عيناهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ : « مرحباً بكُمْ ، حيَّاكمُ اللهُ ، آواكمُ اللهُ ، نصرَكمُ اللهُ ، أوصيكُمْ بتقوى اللهِ ، وأوصي بكمُ اللهَ ، إنِّي لكم منهُ نذيرٌ مبينٌ ألاَّ تعلوا على اللهِ في عبادِهِ وبلادِهِ ، وقدْ دنا الأجلُ والمنقلبُ إلى اللهِ ، وإلىٰ سدرةِ المنتهىٰ وإلىٰ جنَّةِ المأوىٰ وإلى الكأسِ الأوفىٰ ، فاقْرؤُوا علىٰ أنفسِكُمْ وعلىٰ من دخلَ في دينِكُم بعدي مني السَّلامَ ورحمةَ اللهِ »(١) .

ورُويَ أنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لجبريلَ عليهِ السَّلامُ عندَ موتِهِ : « مَنْ لأمَّتي بعدي ؟ » فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبريلَ أنْ بشِّرْ حبيبي أنِّي لا أخذلُهُ في أمَّتِهِ ، وبشِّرْهُ بأنَّهُ أسرعُ الناسِ خروجاً مِنَ الأرضِ إذا بُعثوا ، وسيِّدُهُم إذا جُمعوا ، وأنَّ الجنَّة محرمةٌ على الأممِ حتىٰ تدخلَها أمَّتُهُ ، فقالَ : « الآنَ قرَّتْ عيني »(٢) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أمرَنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ نغسلَهُ بسبعِ قربٍ من سبعةِ آبارٍ ، ففعلنا ذلكَ ، فوجدَ راحةً فخرجَ فصلَّىٰ بالنَّاسِ ، واستغفرَ لأهلِ أحدٍ ودعا لهم ، وأوصىٰ بالأنصارِ فقالَ : « أمَّا بعدُ : يا معشرَ المهاجرينَ ؛ فإنَّكم تزيدونَ وأصبحَتِ الأنصارُ لا تزيدُ علىٰ

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٢٠٢٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٠٠٨) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٧٧) .

هيئتِها التي هيَ عليها اليومَ ، وإنَّ الأنصارَ عيبتي التي آويتُ إليها[1] ، فأكرِمُوا كريمَهم ـ يعني : محسنَهُم ـ وتجاوزوا عن مسيئِهم » ثمَّ قالَ : « إنَّ عبداً خُيِّرَ بينَ الدنيا وبينَ ما عندَ اللهِ فاختارَ ما عندَ اللهِ » ، فبكىٰ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وظنَّ أنَّهُ يريدُ نفسَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ رِسلِكَ يا أبا بكرٍ ، سدُّوا هـٰذهِ الأبوابَ الشوارعَ في المسجدِ إلاَّ بابَ أبي بكرٍ ؛ فإنِّي لا أعلمُ امرأً أفضلَ عندي في الصحبةِ مِنْ أبي بكرٍ »[2] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (فقُبضَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتي ، وفي يومي ، وبينَ سحري ونحري ، وجمعَ اللهُ بينَ ريقي وريقِهِ عندَ الموتِ ، فدخلَ عليَّ أخي عبدُ الرحمـٰنِ وبيدِهِ سواكٌ ، فجعلَ ينظرُ إليهِ ، فعرفتُ أنه يعجبُهُ ذلك ، فقلتُ : آخذُهُ لكَ ، فأومأَ برأسِهِ أنْ نعمْ ، فناولتُهُ إيَّاهُ ، فأدخلَهُ في فيهِ ، فاشتدَّ عليهِ ، فقلتُ : أليِّنُهُ لكَ ، فأومأَ برأسِهِ أنْ نعمْ ، فليَّنتُهُ ، وكانَ بينَ يديهِ ركوةٌ فيها ماءٌ ، فجعلَ يدخلُ يدَهُ فيها ويمسحُ بها وجهَهُ ويقولُ : « لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، إنَّ للموتِ لسكراتٍ » ثمَّ نصبَ يدَهُ يقولُ : « الرفيقَ الأعلىٰ ، الرفيقَ الأعلىٰ » فقلتُ : إذاً واللهِ لا يختارُنا)[3] .

وروىٰ سعيدُ بنُ عبدِ اللهِ عَنْ أبيهِ قالَ : لمَّا رأتِ الأنصارُ أنَّ رسولَ اللهِ

---

(١) عيبتي : أي : موضع سري .
(٢) رواه الدارمي في « مسنده » (٨٢) ، وأصل الحديث عند البخاري (١٩٨ ، ٣٦٥٥) .
(٣) رواه البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له ، ومسلم (٢٤٤٤) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزدادُ ثقلاً.. أطافوا بالمسجدِ ، فدخلَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأعلمَهُ بمكانِهم وإشفاقِهِمْ ، ثمَّ دخلَ عليهِ الفضلُ فأعلمَهُ بمثلِ ذلكَ ، ثمَّ دخلَ عليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فأعلمَهُ بمثلِهِ ، فمدَّ يدَهُ وقالَ : « ها » فتناولوه ، فقال : « ما يقولونَ ؟ » قالوا : يقولونَ : نخشىٰ أنْ تموتَ ، وتصايحَ نساؤُهم لاجتماعِ رجالِهم إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فثارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فخرجَ متوكِّئاً علىٰ عليٍّ والفضلِ ، والعباسُ أمامَهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معصوبُ الرأسِ يخطُّ برجليهِ ، حتىٰ جلسَ علىٰ أسفلِ مرقاةٍ مِنَ المنبرِ وثابَ الناسُ إليهِ ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : « أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّهُ بلغَني أنَّكم تخافونَ عليَّ الموتَ كأنَّهُ استنكارٌ منكُم للموتِ ، وما تنكرونَ مِنْ موتِ نبيِّكُم ؟! ألَمْ أُنعَ إليكُم وتُنعَ إليكُم أنفسُكُم ؟! هلْ خُلِّدَ نبيٌّ قبلي فيمَنْ بُعثَ فأُخلَّدَ فيكم ؟! ألا إنِّي لاحقٌ بربِّي وإنَّكم لاحقونَ بهِ ، وإنِّي أوصيكُم بالمهاجرين الأولينَ خيراً ، وأوصي المهاجرينَ فيما بينَهُم ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . ﴾ إلىٰ آخرِها ، وإنَّ الأمورَ تجري بإذنِ اللهِ ، فلا يحملنَّكُمُ استبطاءُ أمرٍ على استعجالِهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يعجَلُ لعجلةِ أحدٍ ، ومَنْ غالبَ اللهَ . . غلبَهُ ، ومَنْ خادعَ اللهَ . . خدعَهُ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ ؟!

وأُوصيكم بالأنصارِ خيراً ؛ فإنَّهمُ الذينَ تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ

قبلِكُمْ ؛ أنْ تحسنوا إليهم ، ألَمْ يشاطروكمُ الثمارَ ؟! ألَمْ يوسّعوا عليكُم في الديارِ ؟! ألَمْ يؤثروكُمْ علىٰ أنفسِهِم وبهمُ الخصاصةُ ؟! ألاَ فمَنْ وليَ أنْ يحكمَ بينَ رجلينِ . . فليقبلْ مِنْ محسنِهِم وليتجاوزْ عَنْ مسيئِهم ، ألاَ ولا تستأثروا عليهمْ ، ألا وإنّي فرطٌ لكُمْ وأنْتُم لاحقونَ بي ، ألاَ وإنَّ موعدَكمُ الحوضُ ، حوضي أعرضُ ممَّا بين بصرى الشامِ وصنعاءِ اليمنِ ، يصبُّ فيهِ ميزابُ الكوثرِ ماءً أشدَّ بياضاً مِنَ اللَّبَنِ ، وألينَ مِنَ الزبدِ ، وأحلىٰ مِنَ الشهدِ ، مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يظمأْ أبداً ، حصباؤُهُ اللؤلؤُ ، وبطحاؤُهُ مِنْ مسكٍ ، مَنْ حُرِمَهُ في الموقفِ غداً . . حُرِمَ الخيرَ كلَّهُ ، ألاَ فمَنْ أحبَّ أنْ يَرِدَهُ عليَّ غداً . . فليكففْ لسانَهُ ويدَهُ إلاَّ ممَّا ينبغي » .

فقالَ العباسُ : يا نبيَّ اللهِ ؛ أوصِ بقريشٍ ، فقالَ : « إنَّما أُوصي بهـٰذا الأمرِ قريشاً ، والناسُ تبعٌ لقريشٍ ، برُّهم لبرِّهم وفاجرُهم لفاجرِهِم ، فاستوصوا آلَ قريشٍ بالنَّاسِ خيراً ، يا أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّ الذنوبَ تغيِّرُ النعمَ وتبدِّلُ القسمَ ، فإذا برَّ الناسُ . . برَّهم أئمتُهُم ، وإذا فجرَ الناسُ . . عقُّوهم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ »[1] .

وروى ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « سلْ يا أبا بكرٍ » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ دنا الأجلُ ؟

---

(١) قال العراقي : (هو مرسل ضعيف وفيه نكارة ، ولم أجد له أصلاً) ، وقال الزبيدي : (أسنده سيف بن عمر في كتاب « الفتوح » هـٰكذا ، وأورده الفاكهاني في « الفجر المنير ») . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٩٠) .

فقالَ : « قدْ دنا الأجلُ وتدلَّىٰ » فقالَ : ليهنِكَ يا نبيَّ اللهِ ما عندَ اللهِ ، فليتَ شعري عنْ منقلبِنا ، فقالَ : « إلى اللهِ تعالىٰ وإلىٰ سدرةِ المنتهىٰ ، ثمَّ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ والفردوسِ الأعلىٰ ، والكأسِ الأوفىٰ والرفيقِ الأعلىٰ ، والحظِّ والعيشِ المهنا » فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ مَنْ يلي غسلَكَ ؟ قالَ : « رجالٌ مِنْ أهلِ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ » قالَ : ففيمَ نكفنُكَ ؟ قالَ : « في ثيابي هٰذهِ ، وفي حُلَّةٍ يمانيةٍ ، وفي بياضِ مصرَ » فقالَ : كيفَ الصلاةُ عليكَ منَّا ؟ وبكينا وبكىٰ ثمَّ قالَ : « مهلاً غفرَ اللهُ لكُم ، وجزاكُمْ عَنْ نبيِّكُم خيراً ، إذا غسَّلتُموني وكفَّنتُموني . . فضعوني علىٰ سريري في بيتي هٰذا علىٰ شفيرِ قبري ، ثمَّ اخرجوا عنِّي ساعةً ؛ فإنَّ أوَّلَ مَنْ يصلِّي عليَّ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ، ثمَّ يأذنُ للملائكةِ في الصلاةِ عليَّ ، فأولُ مَنْ يدخلُ عليَّ مِنْ خلقِ اللهِ ويصلِّي عليَّ جبريلُ ، ثمَّ ميكائيلُ ، ثمَّ إسرافيلُ ، ثمَّ ملكُ الموتِ معَ جنودٍ كثيرةٍ ، ثمَّ الملائكةُ بأجمعِها صلَّى اللهُ عليهِم أجمعينَ ، ثمَّ أنتُم ، فادخلوا عليَّ أفواجاً فصلُّوا عليَّ أفواجاً زمرةً زمرةً ، وسلِّموا تسليماً ولا تؤذوني بتزكيةٍ ولا صيحةٍ ولا رنةٍ ، وليبدأْ منكمُ الإمامُ وأهلُ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ ، ثمَّ زمرُ النساءِ ، ثمَّ زمرُ الصبيانِ » قالَ : فمَنْ يدخلُكَ القبرَ ؟ قالَ : « زمرٌ مِنْ أهلِ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ معَ ملائكةٍ كثيرةٍ لا ترونَهُم وهُمْ يرونَكُمْ ، قوموا فأدُّوا عنِّي إلىٰ مَنْ بعدي »[1] .

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٠٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٠٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) وفيه : (وليبتدىء بالصلاة عليَّ رجال من أهلي ثم نساؤهم ثم أنتم) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ زمعةَ : (جاءَ بلالٌ في أولِ شهرِ ربيعٍ الأولِ فأذنَ بالصلاةِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مروا أبا بكرٍ يصلي بالناسِ » فخرجتُ فلم أرَ بحضرةِ البابِ إلاَّ عمرَ في رجالٍ ليسَ فيهم أبو بكرٍ ، فقلتُ : قمْ يا عمرُ فصلِّ بالناسِ ، فقامَ عمرُ ، فلمَّا كبرَ وكانَ رجلاً صيتاً . . سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صوتَهُ بالتكبيرِ فقالَ : « أينَ أبو بكرٍ ؟ يأبى اللهُ ذلكَ والمسلمونَ ـ قالها ثلاثَ مراتٍ ـ مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ أسيفٌ ، إذا قامَ في مقامِكَ . . غلبَهُ البكاءُ ، فقالَ : « مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » فقالَتْ عائشةُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقُ القلبِ ، إذا قامَ في مقامِكَ . . غلبَهُ البكاءُ ، فقالَ : « إنَّكُنَّ صويحباتُ يوسفَ ، مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » قالَ : فصلىٰ أبو بكرٍ بعد الصلاةِ التي صلَّىٰ عمرُ)[1] .

وكانَ عمرُ يقولُ لعبدِ اللهِ بنِ زمعةَ بعدَ ذلكَ : (ويحَكَ ! ماذا صنعتَ بي ؟! واللهِ ؛ لولا أنِّي ظننتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَكَ . . ما فعلتُ) ، فيقولُ عبدُ اللهِ : (إنِّي لمْ أرَ أحداً أولىٰ بذلكَ منكَ)[2] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وما قلتُ ذلكَ ولا صرفتُهُ عَنْ أبي بكرٍ إلاَّ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٦٦٠) ، وأصله في « البخاري » (٦٦٤ ، ٦٧٨) ، و« مسلم » (٤١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٢٢) .

رغبةً بهِ عَنِ الدنيا ، ولمَا في الولايةِ مِنَ المخاطرةِ والهلكةِ إلاَّ ما سلَّمَ اللهُ ، وخشيتُ أيضاً ألاَّ يكونَ الناسُ يحبونَ رجلاً صلَّىٰ في مقامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ حيٌّ أبداً إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ يحسدونَهُ ويبغونَ إليهِ ، ويتشاءمونَ بهِ ، فإذا الأمرُ أمرُ اللهِ ، والقضاءُ قضاؤُهُ ، وعصمَهُ اللهُ مِنْ كلِّ ما تخوَّفتُ عليهِ من أمرِ الدنيا والدينِ)[1] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فلمَّا كانَ اليومُ الذي ماتَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . رأَوْا منهُ خفةً في أولِ النَّهارِ ، فتفرَّقَ عنهُ الرجالُ إلىٰ منازلِهم وحوائجِهم مستبشرينَ ، وأخلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالنساءِ ، فبينا نحنُ علىٰ ذلكَ لمْ نكنْ علىٰ مثلِ حالِنا في الرجاءِ والفرحِ قبلَ ذلكَ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اخرجنَ عنِّي ، هٰذا الملكُ يستأذنُ عليَّ » فخرجَ مَنْ في البيتِ غيري ، ورأسُهُ في حجري ، فجلسَ وتنحَّيتُ في ناحيةِ البيتِ ، فناجى الملكَ طويلاً ، ثمَّ إنَّهُ دعاني فأعادَ رأسَهُ في حجري ، وقالَ للنسوةِ : « ادخلنَ » فقلتُ : ما هٰذا بحسِّ جبريلَ عليهِ السلامُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أجلْ يا عائشةُ ؛ هٰذا ملكُ الموتِ ، جاءَني فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرسلَني وأمرَني ألاَّ أدخلَ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٥) بلفظ : « فقالت : لقد راجعته وما حملني علىٰ كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أنه يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً ، ولا كنت أرىٰ أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر » . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٢) .

عليكَ إلاَّ بإذنٍ ، فإنْ لمْ تأْذنْ لي . . أرجعْ ، وإنْ أذنتَ لي . . دخلتُ ، وأمرَني ألاَّ أقبضَ روحَكَ حتىٰ تأمرَني ، فماذا أمرُكَ ؟ فقلتُ : اكففْ حتىٰ يأتيَني جبريلُ عليهِ السلامُ ، فهـٰذهِ ساعةُ جبريلَ » .

فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فاستقبلَنا بأمرٍ لم يكنْ لهُ عندَنا جوابٌ ولا رأيٌ ، فوَجَمْنا وكأنَّما ضُربنا بصاخَّةٍ ما نحيرُ إليهِ شيئاً[1] ، وما يتكلمُ أحدٌ مِنْ أهلِ البيتِ إعظاماً لذلكَ الأمرِ ، وهيبةً ملأَتْ أجوافَنَا .

قالَتْ : وجاءَ جبريلُ في ساعتِهِ ، فسلَّمَ فعرفتُ حسَّهُ ، وخرجَ أهلُ البيتِ ، فدخلَ فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرأُ عليكَ السَّلامَ ويقولُ : كيفَ تجدُكَ ؟ وهوَ أعلمُ بالذي تجدُ منكَ ، ولكنْ أرادَ أنْ يزيدَكَ كرامةً وشرفاً ، وأنْ يتمَّ كرامتَكَ وشرفَكَ على الخلقِ ، وأن تكونَ سنَّةً في أمتِكَ[2] ، فقالَ : « أجدُني وجعاً » قالَ : أبشِرْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أرادَ أن يبلِّغَكَ ما أعدَّ لكَ .

فقالَ : « يا جبريلُ ؛ إنَّ ملكَ الموتِ استأذنَ عليَّ . . . » وأخبرَهُ الخبرَ فقالَ جبريلُ : يا محمدُ ؛ إنَّ ربَّكَ إليكَ مشتاقٌ ، ألَمْ أعلمْكَ الذي يريدُ بكَ ؟! لا واللهِ ما استأذنَ ملكُ الموتِ علىٰ أحدٍ قطُّ ولا يستأذنُ عليهِ أبداً ، إلاَّ أنَّ ربَّكَ متمٌّ شرفَكَ ، وهوَ إليكَ مشتاقٌ ، قالَ : « فلا تبرحْ إذاً حتىٰ يجيءَ »[3] .

---

(١) **الصاخة** : المصيبة الشديدة ، **ونحير** : نرجع .

(٢) أي : إذا دخلوا على المريض فيقولون كذلك . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٧٦) بنحوه .

وأذنَ للنساءِ فقالَ : « ادني يا فاطمةُ » فأكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعَتْ رأسَها وعيناها تذرفانِ وما تُطيقُ الكلامَ ، ثمَّ قالَ : « أدني مني رأسَكِ » فأكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعَتْ رأسَها وهيَ تضحكُ وما تُطيقُ الكلامَ ، فكانَ الذي رأينا منها عجباً ، فسألْنَها بعدَ ذلكَ فقالَتْ : أخبرَني وقالَ : « إني ميتٌ اليومَ » فبكيتُ ، ثمَّ قالَ : « إنِّي دعوتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يُلحقَكِ بي في أولِ أهلي ، وأنْ يجعلَكِ معي » فضحكتُ[1] ، وأدنتِ ابنيها منهُ فشمَّهُما[2] .

قالَتْ : وجاءَ ملكُ الموتِ ، فسلَّمَ واستأذنَ ، فأذنَ لهُ ، فقالَ الملكُ : ما تأمرُ يا محمدُ ؟ قالَ : « ألحقْني بربِّي الآنَ » فقالَ : بلىٰ مِنْ يومِكَ هـٰذا ، أمَا إنَّ ربَّكَ إليكَ مشتاقٌ ، ولم يترددْ عن أحدٍ ترددَهُ عنكَ ، ولم ينهني عن الدخولِ علىٰ أحدٍ إلا بإذنِ غيرِكَ ، ولكنْ ساعتُكَ أمامَكَ ، وخرجَ .

قالَتْ : وخرجَ جبريلُ فقالَ : عليكَ السلامُ يا رسولَ اللهِ ، هـٰذا آخرُ ما أنزلُ فيه إلى الأرضِ أبداً ، طُويَ الوحيُ ، وطُويَتِ الدنيا ، وما كانت لي في الأرضِ حاجةٌ غيرَكَ ، وما لي فيها حاجةٌ إلاَّ حضورُكَ ثمَّ لزومُ موقفي ، قالت : لا والذي بعثَ محمداً بالحقِّ ؛ ما في البيتِ أحدٌ يستطيعُ أن يحيرَ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣٣) ، ومسلم (٢٤٥٠) .
(٢) في (ب) : (وأذن لها فدنت منه فشمَّها) ، وفي (ص) : (وأدنت ابنتها منه فشمَّها) .

إليهِ في ذلكَ كلمةً ، ولا يبعثَ إلىٰ أحدٍ من رجالِهِ ؛ لعظمِ ما يسمعُ مِنْ حديثِهِ ووجدِنا وإشفاقِنا[1] .

قالَتْ : فقمتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتىٰ أضعَ رأسَهُ بينَ ثديَّيَّ وأمسكتُ بصدرِهِ ، وجعلَ يُغمىٰ عليهِ حتىٰ يغلبَ[2] وجبهتُهُ ترشحُ رشحاً ما رأيتُهُ مِنْ إنسانٍ قطُّ ، فجعلتُ أسلتُ ذلكَ العرقَ وما وجدتُ رائحةَ شيءٍ قطُّ أطيبَ منهُ ، فكنتُ أقولُ لهُ إذا أفاقَ : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ما تلقىٰ جبهتُكَ مِنَ الرشحِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ نفسَ المؤمنِ تخرجُ بالرشحِ ، ونفسَ الكافرِ تخرجُ مِنْ شدقِهِ كنفسِ الحمارِ »[3] .

فعندَ ذلكَ ارتعنا ، وبعثنا إلىٰ أهلينا ، فكانَ أولُ رجلٍ جاءَنا ولم يشهدْهُ أخي ، بعثَهُ إليَّ أبي ، فماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يجيءَ أحدٌ ، وإنَّما صدَّهمُ اللهُ عنهُ لأنَّهُ ولاهُ جبريلَ وميكائيلَ .

وجعلَ إذا أُغميَ عليهِ قالَ : « بلِ الرفيقَ الأعلىٰ » كأنَّ الخيرةَ تُعادُ عليهِ[4] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٢٩) بنحوه .

(٢) وفيه جواز الإغماء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال ابن حجر في « شرح الشمائل » : لكن قيده الشيخ أبو حامد من أئمتنا بغير الطويل ، وجزم به البلقيني ، قال السبكي : ليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم ؛ لأنها إذا عصمت من النوم الأخف فالإغماء أولىٰ . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٣) .

(٣) رواه الطبراني (٩/ ١٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً .

(٤) رواه البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٢٤٤٤) .

فإذا أطاقَ الكلامَ . قالَ : « الصلاةَ الصلاةَ ، إنَّكم لا تزالونَ متماسكينَ ما صليتُم جميعاً ، الصلاةَ الصلاةَ » كانَ يُوصي بها حتىٰ ماتَ وهوَ يقولُ : « الصلاةَ الصلاةَ »(١) .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ ارتفاعِ الضُّحىٰ وانتصافِ النهارِ يومَ الاثنينِ)(٢) .

قالَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟! واللهِ ؛ لا تزالُ الأمةُ تُصابُ فيهِ بعظيمةٍ) .

وقالَتْ أمُّ كلثومٍ يومَ أُصيبَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ بالكوفةِ مثلَها : (ما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟! ماتَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفيهِ قُتلَ بَعلي عمرُ ، وفيهِ قُتلَ أبي ، فما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟!) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . اقتحمَ النَّاسُ حينَ ارتفعتِ الرنةُ ، وسجَّىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الملائكةُ بثوبِهِ ، فاختلفوا ، فكذَّبَ بعضُهم بموتِهِ ، وأُخرس بعضُهم فما تكلَّمَ إلاَّ بعدَ البعدِ ، وخلطَ آخرونَ فلاثوا الكلامَ بغيرِ بيانٍ ، وبقيَ آخرونَ ومعَهم عقولُهم ، وأُقعدَ آخرونَ ، فكانَ عمرُ بنُ الخطابِ فيمَنْ كذَّبَ بموتِهِ ، وعليٌّ فيمَنْ أُقعدَ ، وعثمانُ فيمَنْ أُخرسَ ، فخرجَ عمرُ على الناسِ

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٥٦) ، وابن ماجه (٢٦٩٨) من حديث عليّ رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٢٣٨) ، وفيه : (يوم الاثنين حين زاغت الشمس) .

وقالَ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يمتْ ، وليرجعَنَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وليقطعَنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهُمْ مِنَ المنافقينَ يتمنَّونَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الموتَ ، إنَّما واعدَهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ كما واعدَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، وهوَ آتيكُمْ ـ وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ : يا أيُّها الناسُ ؛ كفُّوا ألسنتكُم عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ لمْ يمتْ ، واللهِ ؛ لاَ أسمعُ أحداً يذكرُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ ماتَ إلاَّ علوتُهُ بسيفي هـٰذا ـ وأمَّا عليٌّ . . فإنَّهُ أُقعدَ فلمْ يبرحْ في البيتِ ، وأمَّا عثمانُ . . فجعلَ لا يكلِّمُ أحداً ، يُؤخذُ بيدِهِ فيُجاءُ بِهِ ويُذهبُ بهِ ، ولم يكنْ أحدٌ مِنَ المسلمينَ في مثلِ حالِ أبي بكرٍ والعباسِ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عزمَ لهما بالتوفيقِ والسَّدادِ وإنْ كانَ النَّاسُ لمْ يرعوا إلاَّ بقولِ أبي بكرٍ ، ثمَّ جاءَ العباسُ فقالَ : واللهِ الذي لا إلـٰهَ إلاَّ هوَ ؛ لقدْ ذاقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الموتَ ، ولقدْ قالَ وهوَ بينَ أظهرِكُم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾(1) .

وبلغَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الخبرُ وهوَ في بني الحارثِ بنِ الخزرجِ ، فجاءَ ودخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فنظرَ إليهِ ثمَّ أكبَّ عليهِ

---

(1) قال العراقي : (هـٰذا السياق بطوله منكر لم أجد له أصلاً) قال الحافظ الزبيدي : (قلت : بل رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وعزاه صاحب « المواهب » لابن المنير) ، وأما قول عمر رضي الله عنه . . فرواه ابن حبان (٦٨٧٥) ، وأصله عند البخاري (٣٦٧٠) . انظر « الإتحاف » (١٠/٢٩٨) .

فقبَّلَهُ ثمَّ قالَ : بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، ما كانَ اللهُ ليذيقَكَ الموتَ مرَّتينِ ، فقد واللهِ توفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ خرجَ إلى النَّاسِ فقالَ : أيُّها النَّاسُ ؛ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قد ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ ربَّ محمدٍ . . فإنَّهُ حيٌّ لا يموتُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، فكأنَّ الناسَ لم يسمعوا هٰذهِ الآيةَ إلا يومَئذٍ)(١) .

وفي روايةٍ : أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا بلغَهُ الخبرُ . . دخلَ بيتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يصلي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعيناهُ تهملانِ ، وغُصَصُهُ ترتفعُ كقصعِ الجِرَّةِ(٢) ، وهوَ في ذلكَ جلدُ الفعلِ والمقالِ ، فأكبَّ عليهِ ، فكشفَ الثوبَ عَنْ وجهِهِ وقبَّلَ جبينَهُ وخدَّيهِ ومسحَ وجهَهُ ، وجعلَ يبكي ويقولُ : (بأبي أنتَ وأمي ونفسي وأهلي ، طبتَ حيّاً وميتاً ، انقطعَ لموتِكَ ما لمْ ينقطعْ لموتِ أحدٍ مِنَ الأنبياءِ ، وهوَ النبوَّةُ ، فعظمتَ عنِ الصفةِ وجللتَ عنِ البكاءِ ، وخصصتَ حتىٰ صرتَ مسلاةً(٣) ، وعممتَ حتىٰ صرنا فيكَ سواءً ، ولولا أنَّ موتَكَ كانَ اختياراً منكَ . . لجدنا لحزنِكَ بالنفوسِ ، ولولا أنَّكَ نهيتَ عنِ البكاءِ . . لأنفذنا عليكَ ماءَ الشؤونِ(٤) ، فأمَّا ما لا نستطيعُ

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٢) .

(٢) في (ج) ونسخة الحافظ الزبيدي : (كقطع) . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٩) .

(٣) أي : بحيث يتسلون بك . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٩) .

(٤) أي : مدامع العيون . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٩) .

نفيَهُ عنَّا . . فكمدٌ وادكارٌ محالفانِ لا يبرحانِ ، اللهمَّ ؛ فأبلغْهُ عنَّا ، اذكرْنا يا محمَّدُ صلَّى اللهُ عليكَ عندَ ربِّكَ ، ولنكنْ مِنْ بالِكَ ، فلولا ما خلفتَ مِنَ السكينةِ . . لمْ يقمْ أحدٌ لِما خلفتَ مِنَ الوحشةِ ، اللهمَّ ؛ أبلغْ نبيَّكَ عنَّا واحفظْهُ فينا)[1] .

وعن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنهُ لما دخلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ البيتَ وصلَّىٰ وأثنىٰ . . عجَّ أهلُ البيتِ عجيجاً سمعَهُ أهلُ المصلَّىٰ ، كلَّما ذكرَ شيئاً . . ازدادوا ، فما سكَّنَ عجيجَهُم إلاَّ تسليمُ رجلٍ على البابِ صيتٍ جلدٍ قالَ : السَّلامُ عليكم يا أهلَ البيتِ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾ الآيةَ ، إنَّ في اللهِ خلفاً مِنْ كلِّ أحدٍ ، ودركاً لكلِّ رغبةٍ ، ونجاةً مِنْ كلِّ مخافةٍ ، فاللهَ فارجوا وبهِ فثِقوا وعليهِ فتوكَّلوا ؛ فإنَّما المصابُ مَنْ حُرِمَ الثوابَ ، فاستمعوا لهُ وأنكروهُ وقطعوا البكاءَ ، فلمَّا انقطعَ البكاءُ . . فُقدَ صوتُهُ ، فاطَّلعَ أحدُهم فلمْ يرَ أحداً ، ثمَّ عادوا فبكَوا ، فناداهم منادٍ آخرُ لا يعرفونَ صوتَهُ : يا أهلَ البيتِ ؛ اذكروا اللهَ واحمدوه علىٰ كلِّ حالٍ . . تكونوا مِنَ المخلصينَ ، إنَّ في اللهِ عزاءً مِنْ كلِّ مصيبةٍ ، وعوضاً مِنْ كلِّ رغيبةٍ ، فاللهَ فأطيعوا ، وبأمرِهِ فاعملوا ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : هٰذا الخضرُ واليسعُ

---

(١) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الضراء » من حديث ابن عمر بسند ضعيف) قال الحافظ الزبيدي : (وفيه : « ما لم ينقطع لموت أحدٍ من الناس » ولم يقل : « وهو النبوة ») . « إتحاف » (١٠/ ٣٠٠) .

عليهما السَّلامُ ، حضرا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[1] .

واستوفى القعقاعُ بنُ عمرٍو حكايةَ خطبةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (قامَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في الناسِ خطيباً حيثُ قضى النَّاسُ عبراتِهم بخطبةٍ جلُّها الصلاةُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحمدَ اللهَ علىٰ كلِّ حالٍ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وغلبَ الأحزابَ وحدَهُ ، فللّهِ الحمدُ وحدَهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ وخاتمُ أنبيائِهِ ، وأشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزلَ ، وأنَّ الدينَ كما شرعَ ، وأنَّ الحديثَ كما حدَّثَ ، وأنَّ القولَ كما قالَ ، وأنَّ اللهَ هوَ الحقُّ المبينُ .

اللهمَّ ؛ فصلِّ علىٰ محمَّدٍ عبدِكَ ورسولِكَ ونبيِّكَ وحبيبِكَ وأمينِكَ وخيرتِكَ وصفوتِكَ بأفضلِ ما صلَّيتَ بهِ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِكَ .

اللهمَّ ؛ واجعلْ صلواتِكَ ومعافاتَكَ ورحمتَكَ وبركاتِكَ علىٰ سيِّدِ المرسلينَ وخاتمِ النبيِّينَ وإمامِ المتقينَ ؛ محمَّدٍ قائدِ الخيرِ وإمامِ الخيرِ ورسولِ الرحمةِ .

اللهمَّ ؛ قرِّبْ زلفتَهُ وعظِّمْ برهانَهُ وكرِّمْ مقامَهُ ، وابعثْهُ مقاماً محموداً

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٧ ـ ٥٨) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٤/ ٦٠) ، قال العراقي : (لم أجد فيه ذكر اليسع) ، وقال الحافظ الزبيدي (هكذا أخرجه سيف بن عمر التميمي في كتاب « الردة » له عن سعيد بن عبد الله عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفيه : « هـٰذا الخضر وإلياس قد حضرا وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ») . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٠٠) .

يغبطُهُ بِهِ الأولونَ والآخرونَ ، وانفعْنا بمقامِهِ المحمودِ يومَ القيامةِ ، واخلفْهُ فينا في الدنيا والآخرةِ ، وبلِّغْهُ الدرجةَ والوسيلةَ مِنَ الجنَّةِ .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، وباركْ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، كما صلَّيتَ وباركتَ علىٰ إبراهيمَ ؛ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ .

أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّهُ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قدْ ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ . . فإنَّ اللهَ حيٌّ لم يمتْ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ قد تقدَّمَ إليكم في أمرِهِ فلا تدعوه جزعاً ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدِ اختارَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما عندَهُ علىٰ ما عندَكم ، وقبضَهُ إلىٰ ثوابِهِ ، وخلفَ فيكم كتابَهُ وسنةَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فمَنْ أخذَ بهما . . عرفَ ، ومَنْ فرقَ بينَهما . . أنكرَ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ولا يشغلنَّكم الشيطانُ بموتِ نبيِّكم ، ولا يفتننَّكُم عنْ دينِكم ، وعاجلوا الشيطانَ بالخيرِ . . تعجزوه ، ولا تستنظروه . . فيلحقَ بكُمْ ويفتنَكُمْ)[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (لمَّا فرغَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ خطبتِهِ . . قالَ : يا عمرُ ؛ أنتَ الذي بلغَني أنَّكَ تقولُ : ما ماتَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! أما ترىٰ أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ يومَ كذا : كذا وكذا ، ويومَ كذا : كذا وكذا ، وقالَ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ :

---

(١) رواه بطوله سيف بن عمر التميمي في كتاب « الفتوح » له عن عمرو بن تمام عن أبيه عن القعقاع . « إتحاف » (١٠/ ٣٠٢) .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ؟! فقالَ : واللهِ ؛ لكأنِّي لمْ أسمعْ بها في كتابِ اللهِ تعالىٰ قبلَ الآنَ ؛ لما نزلَ بنا ، أشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزلَ ، وأنَّ الحديثَ كما حدَّثَ ، وأنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، وصلواتُ اللهِ علىٰ رسولِهِ ، وعندَ اللهِ نحتسبُ رسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ جلسَ إلىٰ أبي بكرٍ)(١) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لمَّا اجتمعوا لغسلِهِ . . قالوا : واللهِ ؛ لا ندري كيفَ نغسلُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أنجردُهُ عَنْ ثيابِهِ كما نصنعُ بموتانا أم نغسلُهُ في ثيابِهِ ؟ قالَتْ : فأرسلَ اللهُ عليهمُ النَّومَ حتىٰ ما بقيَ منْهُم رجلٌ إلاَّ واضعٌ لحيتَهُ علىٰ صدرِهِ نائماً ، ثمَّ قالَ قائلٌ لا ندري مَنْ هوَ : اغسلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِ ثيابُهُ ، فانتبهوا ففعلوا ذلكَ ، فغُسلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قميصِهِ ، حتىٰ إذا فرغوا من غسلِهِ . . كُفنَ)(٢) .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أردنا خلعَ قميصِهِ ، فنُودينا : لا تخلعوا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثيابَهُ ، فأقررناهُ ، فغسلناهُ في قميصِهِ كما نغسلُ موتانا مستلقياً ما نشاءُ أن يُقلَبَ لنا منهُ عضوٌ لم نبالغْ فيهِ إلاَّ قُلبَ لنا

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢) بنحوه ، وفيه : « والله ؛ لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل الآية حتىٰ تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع أحداً من الناس إلا يتلوها » .

(٢) رواه أبو داوود (٣١٤١) .

حتىٰ نفرغَ منهُ ، وإنَّ معَنا لحفيفاً في البيتِ كالريحِ الرُّخاءِ ، ويصوتُ بنا : ارفقوا برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّكُم ستُكفونَ) .

فهكذا كانَتْ وفاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولم يتركْ سبَداً ولا لبَداً إلاَّ دُفِنَ معَهُ[1] ، قالَ أبو جعفرٍ : فُرِشَ لحدُهُ بمفرشِهِ وقطيفتِهِ ، وفُرِشَتْ ثيابُهُ عليها التي كانَ يلبسُ يقظانَ[2] على القطيفةِ والمفرشِ ، ثمَّ وُضعَ عليها في أكفانِهِ[3] .

فلم يتركْ بعدَ وفاتِهِ مالاً ، ولا بنىٰ في حياتِهِ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا وضعَ قصبةً علىٰ قصبةٍ ، ففي وفاتِهِ عبرةٌ تامةٌ ، وللمسلمينَ بهِ أسوةٌ حسنةٌ .

* * *

(١) أي : قليلاً أو كثيراً .
(٢) أي : التي كان يلبسها في حياته .
(٣) رواه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : (جعل في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة حمراء) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٠٤) .

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ . . جاءَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها فتمثَّلَتْ بهـٰذا البيتِ[1] : [من الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي ٱلثَّراءُ عَنِ ٱلْفَتى ... إِذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضاقَ بِها الصَّدْرُ

فكشفَ عنْ وجهِهِ وقالَ : (ليسَ كذلكَ ، ولكِنْ قولي : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ انظروا ثوبيَّ هـٰذينِ فاغسلوهما وكفِّنوني فيهما ؛ فإنَّ الحيَّ إلى الجديدِ أحوجُ مِنَ الميتِ)[2] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها عندَ موتِهِ[3] : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمامُ بِوَجْهِهِ ... رَبيعَ ٱلْيَتامىٰ عِصْمَةً لِلأَرامِلِ

فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذاكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[4] .

ودخلوا عليهِ في مرضِهِ فقالوا : ألا ندعو لكَ طبيباً ينظرُ إليكَ ؟ قالَ رضيَ اللهُ عنهُ : (قدْ نظرَ إليَّ طبيبي وقالَ : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ)[5] .

---

(١) البيت لحاتم الطائي في « ديوانه » (ص ٢١٠) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٥٦٣) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٣٦) .
(٣) البيت لأبي طالب في « ديوانه » (ص ٧٥) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٧) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢٦٥٩١) .
(٥) رواه أحمد في « الزهد » (٥٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٤) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٥٨١) ، وفي (ب) : (الطبيب) بدل (طبيبي) .

ودخلَ عليهِ سلمانُ الفارسيُّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ يعودُهُ ، فقالَ : يا أبا بكرٍ ؛ أوصنا فقالَ : (إنَّ اللهَ فاتحٌ عليكمُ الدنيا ؛ فلا تأخذنَّ منها إلا بلاغَكَ ، واعلمْ أنَّ مَنْ صلَّىٰ صلاةَ الصبحِ . . فهوَ في ذمةِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تخفرَنَّ اللهَ في ذمَّتِهِ فيكبَّكَ في النَّارِ علىٰ وجهِكَ)(١) .

ولمَّا ثقلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ وأرادَ الناسُ منهُ أن يستخلفَ . . فاستخلفَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ الناسُ لهُ : استخلَفتَ علينا فظّاً غليظاً ، فماذا تقولُ لربِّكَ ؟ فقالَ : (أقولُ استخلفتُ علىٰ خلقِكَ خيرَ خلقِكَ) ، ثمَّ أرسلَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فجاءَ فقالَ : (إنِّي موصيكَ بوصيةٍ ، اعلم : أنَّ للهِ حقّاً في النهارِ لا يقبلُهُ في الليلِ ، وأنَّ لهُ حقّاً في الليلِ لا يقبلُهُ في النهارِ ، وأنَّهُ لا يقبلُ النافلةَ حتىٰ تُؤدَّى الفريضةُ ، وإنَّما ثقلَتْ موازينُ مَنْ ثقلَتْ موازينُهُم يومَ القيامةِ باتباعِهِمُ الحقَّ في الدنيا وثقلِهِ عليهِمْ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضعُ فيهِ إلاَّ الحقُّ أن يثقلَ ، وإنَّما خفَّتْ موازينُ مَنْ خفَّتْ موازينُهُم يومَ القيامةِ باتباعِهِمُ الباطلَ وخفَّتِهِ عليهِمْ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضعُ فيهِ إلاَّ الباطلُ أن يخفَّ ، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ الجنَّةِ بأحسنِ أعمالِهِمْ ، وتجاوزَ عن سيِّئاتِهِم ، فيقولُ القائلُ : أنا دونَ هؤلاءِ ، ولا أبلغُ مبلغَ

---

(١) الشطر الأول من الحديث رواه أحمد في « الزهد » (٨٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٩٦) من حديث سلمان رضي الله عنه في وفاته ، والشطر الثاني منه : رواه ابن ماجه (٣٩٤٥) ، وعند مسلم (٦٥٧) من حديث جندب رضي الله عنه نحوه . وانظر « الإتحاف » (١٠/٣٠٧) .

هؤلاءِ ، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ النَّارِ بأسوأِ أعمالِهِم ، وردَّ عليهِم صالحَ الذي عملوا ، فيقولُ القائلُ : أنا أفضلُ مِنْ هؤلاءِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ذكرَ آيةَ الرحمةِ وآيةَ العذابِ ؛ ليكونَ المؤمنُ راغباً راهباً ، ولا يلقي بيدِهِ إلى التَّهلكةِ ، ولا يتمنَّىٰ على اللهِ غيرَ الحقِّ ، فإنْ حفظتَ وصيَّتي هـٰذهِ . . فلا يكونَنَّ غائبٌ أحبَّ إليكَ مِنَ الموتِ ولا بدَّ لكَ منهُ ، وإنْ ضيعتَ وصيَّتي . . فلا يكونَنَّ غائبٌ أبغضَ إليكَ مِنَ الموتِ ولا بدَّ لكَ منهُ ولستَ بمعجزِهِ)[1] .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : لمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ . . أتاهُ ناسٌ مِنَ الصحابةِ فقالوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ زوِّدْنا ؛ فإنَّا نراكَ لما بكَ ، فقالَ أبو بكرٍ : مَنْ قالَ هؤلاءِ الكلماتِ ثمَّ ماتَ . . جعلَ اللهُ روحَهُ في الأفقِ المبينِ ، قالوا : وما الأفقُ المبينُ ؟ قالَ : قاعٌ بينَ يدي العرشِ ، فيه رياضٌ وأنهارٌ وأشجارٌ ، يغشاهُ كلَّ يومٍ مئةُ رحمةٍ ، فمَنْ قالَ هـٰذا القولَ . . جعلَ اللهُ روحَهُ في ذلكَ المكانِ :

اللهمَّ ؛ إنَّكَ ابتدأتَ الخلقَ مِنْ غيرِ حاجةٍ بكَ إليهِمْ ، ثمَّ جعلتَهُم فريقينِ : فريقاً للنعيمِ ، وفريقاً للسعيرِ ، فاجعلْني للنعيمِ ولا تجعلْني للسعيرِ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الخلقَ فرقاً ، وميزتَهُم قبلَ أنْ تخلقَهُمْ ، فجعلتَ منهم شقيّاً وسعيداً ، وغويّاً ورشيداً ، فلا تشقني بمعاصيك .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ علمتَ ما تكسبُ كلُّ نفسٍ قبلَ أنْ تخلقَها ، فلا محيصَ لها

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٢١١) .

مِمَّا علمتَ ، فاجعلْني ممَّنْ تستعملُهُ بطاعتِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّ أحداً لا يشاءُ حتىٰ تشاءَ ، فاجعلْ مشيئتَكَ أنْ أشاءَ ما يقرِّبُني إليكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ قد قدَّرتَ حركاتِ العبادِ فلا يتحرَّكُ شيءٌ إلاَّ بإذنِكَ ، فاجعلْ حركاتي في تقواكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الخيرَ والشرَّ وجعلتَ لكلٍّ واحدٍ منهما عاملاً يعملُ به ، فاجعلْني مِنْ خيرِ القسمينِ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الجنَّةَ والنَّارَ وجعلتَ لكلٍّ واحدةٍ منهما أهلاً ، فاجعلْني مِنْ سكانِ جنَّتِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ أردتَ بقومٍ الإيمانَ وشرحتَ لهُ صدورَهُم ، وأردتَ بقومٍ الضلالَ وضيَّقتَ بهِ صدورَهُم ، فاشرحْ صدري للإيمانِ وزيِّنْهُ في قلبي .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ دبَّرتَ الأمورَ فجعلتَ مصيرَها إليكَ ، فأحيني بعدَ الموتِ حياةً طيِّبةً ، وقرِّبْني إليكَ زلفىٰ .

اللهمَّ ؛ مَنْ أصبحَ وأمسىٰ ثقتُهُ ورجاؤُهُ غيرُكَ . . فأنتَ ثقتي ورجائي ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : هـٰذا كلُّهُ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

* * *

(١) أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » (٣٥٧٣٠) وعزاه لابن أبي الدنيا في «الدعاء».

وفاة عمر رضي الله عنه

قالَ عمرُو بنُ ميمونٍ : كنتُ قائماً غداةَ أُصيبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ما بيني وبينَهُ إلاَّ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكانَ إذا مرَّ بينَ الصَّفينِ . . قامَ بينَهما ، فإذا رأىٰ خللاً . . قالَ : استووا حتىٰ إذا لم يرَ فيهم خللاً . . تقدَّمَ فكبَّرَ ، قالَ : وربَّما قرأَ (سورةَ يوسفَ) أو (النحلِ) أو نحوَ ذلكَ في الركعةِ الأولىٰ حتىٰ يجتمعَ الناسُ .

فما هوَ إلاَّ أنْ كبَّرَ . . فسمعتُهُ يقولُ : قتلَني . . أوْ أكلَني الكلبُ ، حينَ طعنَهُ أبو لؤلؤةَ وطارَ العلجُ بسكينٍ ذاتِ طرفينِ لا يمرُّ علىٰ أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلاَّ طعنَهُ حتىٰ طعنَ ثلاثةَ عشرَ رجلاً ، فماتَ منهُم تسعةٌ ، وفي روايةٍ : سبعةٌ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ رجلٌ مِنْ المسلمينَ . . طرحَ عليهِ برنساً ، فلمَّا ظنَّ العلجُ أنَّهُ مأخوذٌ . . نحرَ نفسَهُ .

وتناولَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ فقدَّمَهُ ، فأمَّا مَنْ كانَ يلي عمرَ . . فقدْ رأىٰ ما رأيتُ ، وأمَّا نواحي المسجدِ . . فلا يدرونَ ما الأمرُ ، غيرَ أنَّهم فقدوا صوتَ عمرَ وهم يقولونَ : سبحانَ اللهِ ، سبحانَ اللهِ ، فصلَّىٰ بهم عبدُ الرحمـٰنِ صلاةً خفيفةً ، فلمَّا انصرفوا . . قالَ : يا بنَ عباسٍ ؛ انظرْ مَنْ قتلَني .

قالَ : فجالَ ساعةً ثمَّ جاءَ فقالَ : غلامُ المغيرةِ بنِ شعبةَ ، فقالَ عمرُ

رضيَ اللهُ عنهُ : قاتلَهُ اللهُ ، لقدْ كنتُ أمرتُ بهِ معروفاً .

ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذي لمْ يجعلْ منيَّتي بيدِ رجلٍ مسلمٍ ، قدْ كنتَ أنتَ وأبوكَ تحبَّانِ أنْ يكثرَ العلوجُ بالمدينةِ ، وكانَ العباسُ أكثرَهُم رقيقاً ، فقالَ ابنُ عباسٍ : إنْ شئتَ . . فعلتُ ـ أيْ : إنْ شئتَ . . قتلناهم ـ قالَ : بعدما تكلمُوا بلسانِكم ، وصلَّوا إلىٰ قبلتِكُمْ ، وحجوا حجَّكُم ؟! فاحتُملَ إلىٰ بيتِهِ فانطلقنا معَهُ .

قالَ : وكأنَّ الناسَ لمْ تصبْهم مصيبةٌ قبلَ يومَئذٍ ، فقائلٌ يقولُ : أخافُ عليهِ ، وقائلٌ يقولُ : لا بأسَ ، فأُتيَ بنبيذٍ فشربَ منهُ فخرجَ مِنْ جوفِهِ ، ثمَّ أُتيَ بلبنٍ فشربَ منهُ فخرجَ مِنْ جوفِهِ(١) ، فعرفوا أنَّهُ ميِّتٌ .

قالَ : فدخلنا عليهِ وجاءَ الناسُ يثنونَ عليهِ ، وجاءَ رجلٌ شابٌّ فقالَ : أبشرْ يا أميرَ المؤمنينَ ببشرىٰ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ قد كانَ لكَ مِنْ صحبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقِدَمٍ في الإسلامِ ما قدْ علمتَ ، ثمَّ وليتَ فعدلتَ ، ثمَّ شهادةٍ ، فقالَ : وددتُ أنَّ ذلكَ كانَ كفافاً لا عليَّ ولا لي ، فلمَّا أدبرَ الرجلُ ؛ إذا إزارُهُ يمسُّ الأرضَ ، فقالَ : ردُّوا عليَّ الغلامَ ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ ارفعْ ثوبَكَ ؛ فإنَّهُ أبقىٰ لثوبِكَ وأتقىٰ لربِّكَ .

ثمَّ قالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ انظرْ ما عليَّ مِنَ الدَّيْنِ ، فحسبوهُ فوجدوهُ ستةً وثمانينَ ألفاً أوْ نحوَهُ ، فقالَ : إنْ وفَّىٰ بهِ مالُ آلِ عمرَ . . فأدِّهِ مِنْ أموالِهِمْ ،

---

(١) في (ب) و(ص) : (جرحه) وهي إحدىٰ روايات البخاري .

وإلاَّ فسلْ في بني عديٍّ بنِ كعبٍ ، فإنْ لمْ تفِ أموالُهُم . . فسلْ في قريشٍ ، ولا تعْدُهُم إلىٰ غيرِهم وأدِّ عنِّي هـٰذا المالَ ، انطلقْ إلىٰ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ فقلْ : عمرُ يقرأُ عليكِ السلامَ ، ولا تقلْ : أميرُ المؤمنينَ ؛ فإنِّي لستُ اليومَ للمؤمنينَ أميراً ، وقلْ : يستأذنُ عمرُ بنُ الخطابِ أنْ يُدفنَ معَ صاحبيهِ .

فذهبَ عبدُ اللهِ فسلَّمَ واستأذنَ ، ثمَّ دخلَ عليها فوجدَها قاعدةً تبكي ، فقالَ : يقرأُ عليكِ عمرُ بنُ الخطابِ السَّلامَ ، ويستأذنُ أنْ يُدفنَ معَ صاحبيهِ ، فقالَتْ : كنتُ أريدُهُ لنفسي ، ولأوثرَنَّهُ اليومَ علىٰ نفسي ، فلمَّا أقبلَ . . قيلَ : هـٰذا عبدُ اللهِ بنُ عمرَ قدْ جاءَ ، فقالَ : ارفعوني ، فأسندَهُ رجلٌ إليهِ ، فقالَ : ما لديكَ ؟ قالَ : الذي تحبُّ يا أميرَ المؤمنينَ ، قدْ أذنَتْ ، قالَ : الحمدُ للهِ ، ما كانَ شيءٌ أهمَّ إليَّ مِنْ ذلكَ ، فإذا أنا قُبضتُ . . فاحملوني ، ثمَّ سلِّم وقلْ : يستأذنُ عمرُ ، فإنْ أذنَتْ لي . . فأدخلوني ، وإن ردَّتْني . . ردُّوني إلىٰ مقابرِ المسلمينَ .

وجاءَتْ أُمُّ المؤمنينَ حفصةُ رضيَ اللهُ عنها والنساءُ يسترنَها ، فلمَّا رأيناها . . قمنا ، فولجَتْ عليهِ ، فبكَتْ عندَهُ ساعةً ، واستأذنَ الرجالُ فولجَتْ داخلاً ، فسمعنا بكاءَها مِنَ الداخلِ ، فقالوا : أوصِ يا أميرَ المؤمنينَ واستخلِفْ ، قالَ : ما أرىٰ أحقَّ بهـٰذا الأمرِ مِنْ هؤلاءِ النفرِ الذينَ تُوفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ عنهم راضٍ ، فسمَّىٰ عليّاً وعثمانَ والزبيرَ وطلحةَ وسعداً وعبدَ الرحمـٰنِ ، وقالَ : يشهدُكم عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ ـ كهيئةِ التعزيةِ لهُ ـ فإنْ أصابَتِ الإمارةُ سعداً . .

فذاكَ ، وإلاَّ . . فليستعِنْ بهِ أيُّكم أُمِّرَ ؛ فإنِّي لم أعزلْهُ مِنْ عجزٍ ولا خيانةٍ .

وقالَ : أُوصي الخليفةَ مِنْ بعدي بالمهاجرينَ الأولينَ أنْ يعرفَ لهم حقَّهم ، ويحفظَ لهُمْ حرمتَهُم ، وأوصيهِ بالأنصارِ خيراً ، الذين تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلِهم ؛ أنْ يقبلَ مِنْ محسنِهم ، وأنْ يعفوَ عَنْ مسيئِهم ، وأوصِيهِ بأهلِ الأمصارِ خيراً ؛ فإنَّهم ردءُ الإسلامِ وجباةُ المالِ وغيظُ العدوِّ ، وألاَّ يأخذَ مِنْهم إلاَّ فضلَهم عَنْ رضاً مِنْهم ، وأوصيهِ بالأعرابِ خيراً ؛ فإنَّهم أصلُ العربِ ومادةُ الإسلامِ ؛ أنْ يأخذَ مِنْ حواشي أموالِهم ويردَّ علىٰ فقرائِهم ، وأوصيهِ بذمَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وذمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ أنْ يوفيَ لهُمْ بعهدِهم ، وأنْ يقاتلَ مِنْ ورائِهم ، ولا يُكلَّفوا إلاَّ طاقتَهُم .

قالَ : فلمَّا قُبضَ . . خرجنا بهِ فانطلقنا نمشي ، فسلَّمَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وقالَ : يستأذنُ عمرُ بنُ الخطابِ ، فقالَتْ : أدخلوهُ ، فأُدخلَ فوُضعَ هنالكَ معَ صاحبيهِ . . . الحديثَ[1] .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « قالَ لي جبريلُ عليهِ السَّلامُ : ليبكِ الإسلامُ علىٰ موتِ عمرَ »[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : (وُضِعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ سريرِهِ فتكنَّفَهُ الناسُ[3] يدعونَ ويصلونَ قبلَ أنْ يُرفعَ وأنا فيهم . . فلم يرُعْني

(١) رواه البخاري (٣٧٠٠) وفيه : (تسير معها) بدل (يسترنها) .
(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥٢٣) ، والآجري في « الشريعة » (١٣٩١).
(٣) أي : أحاطوا به . « إتحاف » (١٠/ ٣١٥) .

إلاَّ رجلٌ قد أخذَ بمنكبي ، فالتفتُّ ؛ فإذا هوَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فترحَّمَ علىٰ عمرَ وقالَ : ما خلَّفتَ أحداً أحبَّ إليَّ أنْ ألقى اللهَ بمثلِ عملِهِ منكَ ، وايمُ اللهِ ؛ إنْ كنتُ لأظنُّ أنْ يجعلَكَ اللهُ مَع صاحبيكَ ؛ وذلكَ أني كنتُ كثيراً أسمعُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ذهبتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، ودخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ » فإنِّي كنتُ لأرجو أوْ لأظنُّ أنْ يجعلَكَ اللهُ معَهما)[١] .

* * *

(١) رواه البخاري (٣٦٨٥) ، ومسلم (٢٣٨٩) .

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديثُ في قتلِهِ مشهورٌ[1] ، وقدْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ : أتيتُ أخي عثمانَ لأسلمَ عليهِ وهوَ محصورٌ ، فدخلتُ عليهِ فقالَ : مرحباً بأخي ، رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الليلةَ في هـٰذهِ الخوخةِ ـ وهي خوخةٌ في البيتِ ـ فقالَ : « يا عثمانُ ، حصروكَ ؟ » قلتُ : نعمْ ، قالَ : « عطشوكَ ؟ » قلتُ : نعمْ ، فأدلىٰ إليَّ دلواً فيهِ ماءٌ فشربتُ حتىٰ رويتُ ، حتىٰ إني لأجدُ بردَهُ بينَ ثدييَّ وبينَ كتفيَّ ، وقالَ لي : « إنْ شئتَ . . نُصرتَ عليهمْ ، وإنْ شئتَ . . أفطرتَ عندَنا » فاخترتُ أنْ أُفطرَ عندَهُ ، فقُتلَ ذلكَ اليومَ رضيَ اللهُ عنهُ[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لمَنْ حضرَ تشحُّطَ عثمانَ في الموتِ حينَ جُرِحَ : ماذا قالَ عثمانُ وهوَ يتشحَّطُ ؟ قالوا : سمعناهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجمعْ أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ثلاثاً ، قالَ : والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو دعا اللهَ ألاَّ يجتمعوا أبداً . . ما اجتمعوا إلىٰ يومِ القيامةِ[3] .

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٦٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣١٥ ـ ٣١٦) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٣٨٦) ، والحارث في « مسنده » كما في « بغية الباحث » (٩٧٩) ، وعند أحمد في « المسند » (١/ ٧٢) ، والبزار في « مسنده » (٣٤٧) : « اصبر ؛ فإنك تفطر عندنا الليلة » .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٤٠٢) .

وعَنْ ثمامةَ بنِ حزنٍ القشيريِّ قالَ : شهدتُ الدارَ حينَ أشرفَ عليهم عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : ائتوني بصاحبيكُمُ اللذينِ ألَّباكُمْ عليَّ ، قالَ : فجيءَ بهما كأنَّهما جملانِ أوْ حمارانِ ، فأشرفَ عليهِمْ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : أنشدُكمْ باللهِ والإسلامِ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدمَ المدينةَ وليسَ بها ماءٌ يُستعذبُ غيرَ بئرِ رومةَ فقالَ : « مَنْ يشتري بئرَ رومةَ يجعلُ دلوَهُ معَ دلاءِ المسلمينَ بخيرٍ لهُ مِنْها في الجنَّةِ ؟ » فاشتريتُها مِنْ صلبِ مالي ، فأنتُمُ اليومَ تمنعوني أنْ أشربَ منها ومِنْ ماءِ البحرِ ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ المسجدَ كانَ قدْ ضاقَ بأهلِهِ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يشتري بقعةَ آلِ فلانٍ فيزيدُها في المسجدِ بخيرٍ مِنْها في الجنَّةِ ؟ » فاشتريتُها مِنْ صلبِ مالي ، فأنتُمُ اليومَ تمنعوني أنْ أُصليَ فيها ركعتينِ ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنِّي جهزتُ جيشَ العسرةِ مِنْ مالي ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ علىٰ ثبيرٍ بمكةَ ومعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ وأنا ، فتحرَّكَ الجبلُ حتىٰ تساقَطَتْ حجارتُهُ بالحضيضِ ، قالَ : فركضَهُ برجلِهِ وقالَ : « اسكنْ ثبيرُ ، فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدانِ ؟ » قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قال : اللهُ أكبرُ ، شهدوا لي وربِّ الكعبةِ أنِّي شهيدٌ(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٣) ، والنسائي (٦/ ٢٣٥) ، وفيه : (تمنعوني أن أشرب منها حتىٰ أشرب من ماء البحر) بدل (تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر) .

ورُويَ عَنْ شيخٍ مِنْ ضبةَ : أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ ضُرِبَ والدماءُ تسيلُ علىٰ لحيتِهِ.. جعلَ يقولَ : (لا إلـهَ إلاَّ أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظالمينَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أستعديكَ عليهِمْ ، وأستعينُكَ علىٰ جميعِ أموري ، وأسألُكَ الصبرَ علىٰ ما ابتليتَني)[1] .

* * *

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٤٠١) .

وفاة سيدنا علي رضي الله عنه

قالَ الأصبغُ الحنظليُّ : لمَّا كانتِ الليلةُ التي أُصيبَ فيها عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ . . أتاهُ ابنُ النبَّاحِ حينَ طلعَ الفجرُ يؤذنُهُ بالصلاةِ وهو مضطجعٌ متثاقلٌ ، فعادَ الثانيةَ وهوَ كذلكَ ، ثمَّ عادَ الثالثةَ ، فقامَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يمشي وهوَ يقولُ[(١)] : [من الهزج]

أُشْدُدْ حَيازِيمَكَ[(٢)] لِلْمَوْتِ ... فَإِنَّ ٱلْمَوْتَ لاقِيكا
وَلا تَجْزَعْ مِنَ ٱلْمَوْتِ ... إِذا حَلَّ بِوادِيكا

فلمَّا بلغَ البابَ الصغيرَ . . شدَّ عليهِ ابنُ ملجمٍ فضربَهُ ، فخرجَتْ أمُّ كلثومٍ ابنةُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنها فجعلَتْ تقولُ : ما لي ولصلاةِ الغداةِ ؟! قُتلَ زوجي أميرُ المؤمنينَ صلاةَ الغداةِ ، وقُتلَ أبي صلاةَ الغداةِ[(٣)] .

وعَنْ شيخٍ مِنْ قريشٍ : أنَّ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا ضربَهُ ابنُ ملجمٍ . . قالَ : (فزتُ وربِّ الكعبةِ)[(٤)] .

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٣٦٤) .
(٢) **الحيزوم**: ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد ، وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥٥/٤٢) ، والأبيات رواها عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٥٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ١٠٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦١/٤٢) .

وعَنْ محمدِ بنِ عليٍّ أنَّهُ لمَّا ضُرِبَ أوصىٰ بنيهِ ، ثمَّ لم ينطقْ إلاَّ بـ(لا إلـهَ إلاَّ اللهُ) حتىٰ قُبضَ (١) .

وفـاة الحسن رضي الله عنـه (٢)

ولمَّا ثقلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما . . دخلَ عليهِ الحسينُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا أخي ؛ لأيِّ شيءٍ تجزعُ ؟! تقدمُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وهما أبواكَ ، وعلىٰ خديجةَ بنتِ خويلدٍ وفاطمةَ بنتِ محمدٍ وهما أماكَ ، وعلىٰ حمزةَ وجعفرٍ وهما عمَّاكَ ، قالَ : يا أخي ، أقدمُ علىٰ أمرٍ لم أقدمْ علىٰ مثلِهِ (٣) .

وفـاة الحسين رضي الله عنـه (٢)

وعَنْ محمَّدِ بنِ الحسنِ قالَ : لمَّا نزلَ القومُ بالحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ وأيقنَ أنَّهم قاتلوه . . قامَ في أصحابِهِ خطيباً ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليه ثمَّ قالَ : (قَدْ نزلَ مِنَ الأمرِ ما ترونَ ، وإنَّ الدنيا قدْ تغيَّرَتْ وتنكَّرَتْ ، وأدبرَ معروفُها ، وانشمرَتْ حتىٰ لم يبقَ منها إلا كصبابةِ الإناءِ ، إلاَّ خسيسُ عيشٍ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٦٢) .

(٢) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٢٨٦) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٢٠).

كالمرعى الوبيلِ ، ألا ترونَ الحقَّ لا يُعملُ بهِ والباطلَ لا يُتناهىٰ عنهُ ؟! ليرغبِ المؤمنُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وإنِّي لا أرى الموتَ إلاَّ سعادةً ، والحياةَ معَ الظالمينَ إلاَّ جرماً)[1] .

* * *

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ٢١٧ـ ٢١٨) .

البَابُ الخَامِسُ

في كلام المحتضَرين من الخلفاء والأمراء والصّالحين

لمَّا حضرَتْ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ الوفاةُ.. قالَ : أقعدوني ، فأُقعدَ ، فجعلَ يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ ويذكرُهُ ، ثمَّ بكىٰ وقالَ : تذكرُ ربَّكَ يا معاويةُ بعدَ الهرمِ والانحطاطِ ، ألا كانَ هـٰذا وغصنُ الشبابِ نضرٌ ريّانُ ؟! وبكىٰ حتىٰ علا بكاؤُهُ وقالَ : يا ربِّ ؛ ارحمِ الشيخَ العاصيَ ذا القلبِ القاسي ، اللهمَّ ؛ أقِلِ العثرةَ واغفرِ الزلَّةَ ، وعُدْ بحلمِكَ علىٰ مَنْ لمْ يرجُ غيرَكَ ولم يثقْ بأحدٍ سواكَ[1] .

ورُوِيَ عَنْ شيخٍ مِنْ قريشٍ : أنَّهُ دخلَ معَ جماعةٍ عليهِ في مرضِهِ ، فرأوا في جلدِهِ غضوناً ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ثمَّ قالَ : (أمَّا بعدُ : فهلِ الدنيا أجمعُ إلا ما جرَّبنا ورأينا ؟! أما واللهِ ؛ لقدِ استقبلنا زهرتَها بجدتِنا ، وباستلذاذِنا بعيشِنا ، فما لبثَتْنا الدنيا أنْ نقضَتْ ذلكَ منَّا حالاً بعدَ حالٍ وعروةً بعدَ عروةٍ ، فأصبحَتِ الدنيا وقدْ وترَتْنا وأخلقَتْنا ، واستلأمَتْ إلينا ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/ ٢٢٧) ، وفيه : تمثل معاوية عند موته :

هو الموت لا منجىٰ من الموت والذي ... نحـاذر بعـد المـوت أدهـىٰ وأفظـع

فأفٍّ للدنيا مِنْ دارٍ ! ثمَّ أفٍّ لها مِنْ دارٍ !)(١) .

ويُروىٰ أنَّ آخرَ خطبةٍ خطبَها معاويةُ رضيَ الله عنهُ أنْ قالَ : (أيُّها النَّاسُ ؛ إنِّي مِنْ زرعٍ قدِ استحصدَ ، وإنِّي قد وُليتكُم ولنْ يليَكُم أحدٌ بعدي إلاَّ وهوَ شرٌّ مني كما كانَ مَنْ قبلي خيراً منِّي ، ويا يزيدُ إذا وفَّىٰ أجلي . . فولِّ غسلي رجلاً لبيباً ؛ فإنَّ اللبيبَ مِنَ اللهِ بمكانٍ ، فلينعمِ الغسلَ وليجهرْ بالتكبيرِ ، ثمَّ اعمدْ إلىٰ منديلٍ في الخزانةِ فيهِ ثوبٌ مِنْ ثيابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقراضةٌ من شعرِهِ وأظفارِهِ ، فاستودعِ القراضةَ أنفي وفمي وأذني وعيني ، واجعلِ الثوبَ علىٰ جلدي دونَ أكفاني ، ويا يزيدُ ؛ احفظْ وصيةَ اللهِ في الوالدينِ ، فإذا أدرجتُموني في جريدَتي ووضعتُموني في حفرتي . . فخلوا معاويةَ وأرحمَ الراحمينَ)(٢) .

وقالَ محمدُ بنُ عقبةَ : لمَّا نزلَ بمعاويةَ الموتُ . . قالَ : (يا ليتَني كنتُ رجلاً مِنْ قريشٍ بذي طوىً ، وأنِّي لم ألِ مِنْ هـٰذا الأمرِ شيئاً)(٣) .

ولمَّا حضرَتْ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ الوفاةُ . . نظرَ إلىٰ غسالٍ بجانبِ دمشقَ يلوي ثوباً بيدِهِ ، ثمَّ يضربُ بهِ المغسلةَ ، فقالَ عبدُ الملكِ : واللهِ ليتَني كنتُ غسالاً آكلُ منْ كسبِ يدي يوماً بيومٍ ، ولمْ ألِ مِنْ أمرِ النَّاسِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٦٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٦٥) ، وفي (ص) : (جديدي) بدل (جريدتي) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/ ٢٢٣) .

شيئاً ، فبلغَ ذلكَ أبا حازمٍ فقالَ : الحمدُ للهِ الذي جعلَهم إذا حضرَهُمُ الموتُ يتمنَّونَ ما نحنُ فيهِ ، وإذا حضرَنا الموتُ لمْ نتمنَّ ما هم فيهِ[1] .

وقيلَ لعبدِ الملكِ بنِ مروانَ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ : كيفَ تجدُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : أجدُني كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ[2]، وماتَ .

وقالَتْ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ امرأةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : كنتُ أسمعُ عمرَ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ يقولُ : اللهمَّ ؛ أخفِ عليهِم موتي ولوْ ساعةً مِنْ نهارٍ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي قُبضَ فيهِ . . خرجتُ مِنْ عندِهِ ، فجلستُ في بيتٍ آخرَ بيني وبينَهُ بابٌ ، وهوَ في قبةٍ لهُ ، فسمعتُهُ يقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ثمَّ هدأَ ، فجعلتُ لا أسمعُ لهُ حركةً ولا كلاماً ، فقلتُ لوصيفٍ لهُ : انظرْ أنائمٌ هوَ ؟ فلمَّا دخلَ . . صاحَ ، فوثبتُ ؛ فإذا هوَ ميتٌ[3] .

وقيلَ لهُ لمَّا حضرَهُ الموتُ : اعهدْ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : أحذِّرُكم مثلَ مصرعي هٰذا ؛ فإنَّهُ لا بدَّ لكم منهُ[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ١٥٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ١٥٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٥) ، وابن المبارك في « الزهد » (٨٨٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٧) .

ورُوِيَ أنَّهُ لما ثقلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ.. دُعيَ لهُ طبيبٌ ، فلمَّا نظرَ إليهِ.. قالَ : أرى الرجلَ قدْ سُقيَ السمَّ ، ولاَ آمنُ عليهِ الموتَ ، فرفعَ عمرُ بصرَهُ إليهِ وقالَ : ولا تأمنُ الموتَ أيضاً علىٰ مَنْ لمْ يُسقَ السمَّ ، قالَ الطبيبُ : هل أحسستَ بذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، قدْ عرفتُ ذلكَ حينَ وقعَ في بطني ، قالَ : فتعالجْ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنِّي أخافُ أنْ تذهبَ نفسُكَ ، قالَ : ربي خيرُ مذهوبٍ إليهِ ، واللهِ ؛ لوْ علمتُ أنَّ شفائي عندَ شحمةِ أذني.. ما رفعتُ يدي إلىٰ أذني فتناولتُه ، اللهمَّ ؛ خِرْ لعمرَ في لقائِكَ ، فلمْ يلبثْ إلاَّ أياماً حتىٰ ماتَ(١) .

وقيلَ : لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! أبشرْ ؛ فقدْ أحيا اللهُ بكَ سنناً ، وأظهرَ بكَ عدلاً ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : أليسَ أُوقفُ فأُسألُ عَنْ أمرِ هـٰذا الخلقِ ، فواللهِ ؛ لوْ عدلتُ فيهم.. لخفتُ علىٰ نفسي ألاَّ تقومَ بحجتِها بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ إلاَّ أنْ يلقِّنَها اللهُ حجَّتَها ، فكيفَ بكثيرٍ ممَّا ضيَّعنا ؟! وفاضَتْ عيناهُ ، فلمْ يلبثْ إلاَّ يسيراً حتىٰ ماتَ(٢) .

ولمَّا قربَ وقتُ موتِهِ.. قالَ : أجلسوني ، فأجلسوهُ ، فقالَ : أنا الذي أمرتَني فقصَّرتُ ، ونهيتَني فعصَيتُ ـ ثلاثَ مراتٍ ـ ولكنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، ثمَّ رفع رأسَهُ فأحدَّ النظرَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقالَ : إنِّي لأرىٰ حضرةً(٣) ما هم

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٩) .
(٣) في (أ ، ن ، ف) : (خضرة) بدل (حضرة) .

بإنسٍ ولا جنٍّ ، ثمَّ قُبضَ رحمةُ اللهِ عليهِ[1] .

وحُكيَ عنْ هارونَ الرشيدِ أنَّهُ انتقىٰ أكفانَهُ عندَ الموتِ بيدِهِ ، وكانَ ينظرُ إليها ويقولُ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ .

وفرشَ المأمونُ رماداً واضطجعَ عليهِ وكانَ يقولُ : يا مَنْ لا يزولُ ملكُهُ ؛ ارحمْ مَنْ قدْ زالَ ملكُهُ[2] .

وكانَ المعتصمُ يقولُ عندَ موتِهِ : لوْ علمتُ أنَّ عمري هٰكذا قصيرٌ . . ما فعلتُ ما فعلتُ[3] .

وكانَ المنتصرُ يضطربُ علىٰ نفسِهِ عندَ موتِهِ ، فقيلَ لهُ : لا بأسَ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : ليسَ إلاَّ هٰذا ، لقدْ ذهبَتِ الدنيا وأقبلتِ الآخرةُ[4] .

وقالَ عمرُو بن العاصِ في الوفاةِ ـ وقد نظرَ إلىٰ صناديقَ ـ لبنيهِ : مَنْ يأخذُها بما فيها ؟ ليتَهُ كانَ بعراً[5] .

وقالَ الحجاجُ عندَ موتِهِ : اللهمَّ اغفرْ لي ؛ فإنَّ النَّاسَ يقولونَ : إنَّكَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٥) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١١٧) عن بعض الملوك ، وفي (أ) : (وحكي عن الواثق أنه فرش) بدل (وفرش المأمون) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٠٠) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٠٦) .

لا تغفرُ لي ، فكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ تعجبُهُ هـٰذهِ الكلمةُ منهُ ويغبطُهُ عليها ، ولمَّا حُكيَ ذلكَ للحسنِ قالَ : أقالَها ؟ قيلَ : نعمْ ، قالَ : عسى[1] .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٥) .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرَتْ معاذاً رضيَ اللهُ عنهُ الوفاةُ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي قد كنتُ أخافُكَ ، وأنا اليومَ أرجوكَ ، اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنِّي لمْ أكنْ أحبُّ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لجريِ الأنهارِ ولا لغرسِ الأشجارِ ، ولكنْ لظمأِ الهواجرِ ومكابدةِ الساعاتِ ، ومزاحمةِ العلماءِ بالركبِ عندَ حلقِ الذكرِ)[1] .

ولمَّا اشتدَّ بهِ النزعُ ، ونزعَ نزعاً لم ينزعْهُ أحدٌ . . فكانَ كلَّما أفاقَ مِنْ غمرةٍ فتحَ طرفَهُ ثمَّ قالَ : (ربِّ اخنقْني خنقَكَ ، فوعزَّتِكَ ؛ إنَّكَ لتعلمُ أنَّ قلبي يحبُّكَ)[2] .

ولمَّا حضرَتْ سلمانَ الوفاةُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : (ما أبكي جزعاً على الدنيا ، ولكنْ عهدَ إلينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ تكونَ بلغةُ أحدِنا مِنَ الدنيا كزادِ الرَّاكبِ ، فلمَّا ماتَ سلمانُ . . نُظِرَ في جميعِ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٠١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٩) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٧) ، وفيه : (لكري الأنهار) بدل (لجري الأنهار) وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٢٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٠) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٨) .

ما تركَ ؛ فإذا قيمتُهُ بضعةَ عشرَ درهماً)[1] .

ولمَّا حضرَتْ بلالاً الوفاةُ.. قالَتْ امرأتُهُ : وا حزناهُ ! فقالَ : (بلْ وا طربَاهُ ، غداً نلقى الأحبَّةَ ؛ محمداً وحزبَهُ)[2] .

وقيلَ : فتحَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ عينَهُ عندَ الوفاةِ وضحكَ وقالَ : ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾[3] .

ولمَّا حضرَتْ إبراهيمَ النخعيَّ الوفاةُ.. بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : أنتظرُ مِنَ اللهِ رسولاً يبشرُني بالجنَّةِ أوِ بالنَّارِ[4] .

ولمَّا حضرَتِ ابنَ المنكدرِ الوفاةُ بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : واللهِ ؛ ما أبكي لذنبٍ أعلمُ أنِّي أتيتُهُ ، ولكنْ أخافُ أنِّي أتيتُ شيئاً حسبتُهُ هيِّناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ[5] .

ولمَّا حضرَتْ عامرَ بنَ عبدِ قيسٍ الوفاةُ.. بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : ما أبكي جزعاً مِنَ الموتِ ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكِنْ أبكي علىٰ ما يفوتُني مِنْ ظمأِ الهواجرِ ، وعلىٰ قيامِ الليلِ في الشتاءِ[6] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٩٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩١٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٩٤)، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠١).
(٣) رواه القشيري في « الرسالة » (ص٥٠١) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٢٢٤) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٤٨).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٣٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٤) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٨٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٤٨) .

ولمَّا حضرَتْ فضيلاً الوفاةُ . . غُشِيَ عليهِ ، ثمَّ فتحَ عينيهِ وقالَ : وا بُعدَ سفري ! وا قلةَ زادي ![1] .

ولمَّا حضرَتِ ابنَ المباركِ الوفاةُ . . قالَ لنصرٍ مولاهُ : اجعلْ رأسي على الترابِ ، فبكىٰ نصرٌ ، فقالَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : ذكرتُ ما كنتَ فيهِ مِنَ النعيمِ ، وأنتَ هوَ ذا تموتُ فقيراً غريباً ، قالَ : اسكتْ ؛ فإني سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يحييَني حياةَ الأغنياءِ ، وأنْ يميتَني موتَ الفقراءِ ، ثمَّ قالَ لهُ : لقِّنِّي ، ولا تعدْ عليَّ ما لم أتكلمْ بكلامٍ ثانٍ[2] .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : تبدَّىٰ إبليسُ لرجلٍ عندَ الموتِ فقالَ لهُ : نجوتَ ، فقالَ : مَا أمنتُكَ بعدُ[3] .

وبكىٰ بعضُهم عندَ الموتِ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : آيةٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ؛ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4] .

ودخلَ الحسنُ علىٰ رجلٍ يجودُ بنفسِهِ فقالَ : إنَّ أمراً هـٰذا أولُهُ لجديرٌ أنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « ما أبكي علىٰ دنياكم ، ولكن أبكي علىٰ بعد سفري وقلة زادي ؛ فإني أمسيت في صعود مهبطة علىٰ جنة ونار ولا أدري أيتهما يؤخذ بي » ، وفي (ن) : (وا بعد سفراه ، وقلة زاداه) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٨٧) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣٠٨) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٧٩) .

يُتَّقىٰ آخرُهُ ، وإنَّ أمراً هـٰذا آخرُهُ لجديرٌ أنْ يُزهدَ في أولِهِ[١] .

وقالَ الجريريُّ : كنتُ عندَ الجنيدِ في حالِ نزعِهِ ، وكانَ يومَ الجمعةِ ويومَ النيروزِ ، وهوَ يقرأُ القرآنَ ، فختمَ فقلتُ لهُ : في هـٰذه الحالةِ يا أبا القاسمِ ؟ فقالَ : ومَنْ أولىٰ بذلكَ منِّي ، وهوَ ذا تُطوىٰ صحيفتي ؟![٢] .

وقالَ رويمٌ : حضرتُ وفاةَ أبي سعيدٍ الخرَّازِ وهوَ يقولُ[٣] : [من الطويل]

حَنِينُ قُلوبِ ٱلْعارِفِينَ إِلَى ٱلذِّكْرِ ... وَتَذْكارُهُمْ وَقْتَ ٱلْمُناجاةِ لِلسِّرِّ
أُدِيرَتْ كُؤُوسٌ لِلْمَنايا عَلَيْهِمُ ... فَأَغْفَوْا عَنِ ٱلدُّنْيا كَإِغْفاءِ ذِي ٱلسُّكْرِ
هُمُومُهُمُ جَوَّالَةٌ بِمُعَسْكَرٍ ... بِهِ أَهْلُ وُدِّ ٱللهِ كَٱلأَنْجُمِ ٱلزُّهْرِ
فَأَجْسامُهُمْ فِي ٱلأَرْضِ قَتْلَىٰ بِحُبِّهِ ... وَأَرْواحُهُمْ فِي ٱلْحُجْبِ نَحْوَ ٱلْعُلا تَسْرِي
فَما عَرَّسُوا إِلاَّ بِقُرْبِ حَبِيبِهِمْ ... وَما عَرَجُوا مِنْ مَسِّ بُؤْسٍ وَلا ضُرِّ

وقيلَ للجنيدِ : إنَّ أبا سعيدٍ الخرازَ كانَ كثيرَ التواجدِ عندَ الموتِ ، فقالَ : لمْ يكنْ بعجبٍ أنْ تطيرَ روحُهُ اشتياقاً[٤] .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٤٤) بنحوه .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٩٨٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٠) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠١ ـ ٥٠٢) ، وانظر الأبيات في « بحر الدموع » (ص٧١) .
(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

وقيلَ لذي النُّونِ عندَ موتِهِ : ما تشتهي ؟ قالَ : أنْ أعرفَهُ قبلَ موتي بلحظةٍ[1] .

وقيلَ لبعضِهِم وهوَ في النزعِ : قلِ : اللهُ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ تقولونَ : اللهُ وأنا محترقٌ باللهِ[2] .

وقالَ بعضُهم : كنتُ عندَ ممشاذَ الدينوريِّ ، فقدمَ فقيرٌ وقالَ : السَّلامُ عليكم ، هلْ هـٰهنا موضعٌ نظيفٌ يمكنُ الإنسانَ أَنْ يموتَ فيهِ ، قالَ : فأشاروا إليهِ بمكانٍ ، وكانَ ثمَّ عينُ ماءٍ ، فجددَ الفقيرُ الوضوءَ ، وركعَ ما شاءَ اللهُ ومضىٰ إلىٰ ذلكَ المكانِ ، ومدَّ رجليهِ وماتَ[3] .

وكانَ أبو العباسِ الدينوريُّ يتكلمُ في مجلسِهِ يوماً ، فصاحَتِ امرأةٌ تواجداً ، فقالَ لها : موتي ، فقامتِ المرأةُ : فلمَّا بلغَتْ بابَ الدارِ . . التفتَتْ إليهِ وقالَتْ : قدْ متُّ ، ووقعَتْ ميتةً[4] .

ويُحكىٰ عَنْ فاطمةَ أختِ أبي عليٍّ الروذباريِّ قالَتْ : لمَّا قربَ أجلُ أبي عليٍّ الروذباريِّ وكانَ رأسُهُ في حجري . . فتحَ عينيهِ وقالَ : هـٰذهِ أبوابُ

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) ، والمعنىٰ : أن ذا النون رأىٰ نفسه مقصراً عن القيام بحقِّ معرفته ، فعدَّ معرفته كلا معرفة ، فطلب أن يستغرق في جلال اللهِ وكماله بحسب ما علمه من ذلك . « إتحاف » (١٠/ ٣٤١) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

السماءِ قدْ فُتحَتْ ، وهـٰذهِ الجنانُ قدْ زُيِّنَتْ ، وهـٰذا قائلٌ يقولُ : يا أبا عليٍّ ؛ قدْ بلَّغناكَ الرتبةَ القصوىٰ وإنْ لمْ تردْها ، ثمَّ أنشأَ يقولُ[1] : [من الوافر]

وَحَقِّكَ لا نَظَرْتُ إِلَىٰ سِواكا ... بِعَيْنِ مَوَدَّةٍ حَتَّىٰ أَراكا
أَراكَ مُعَذِّبي بِفُتُورِ لَحْظٍ ... وَبِالْخَدِّ الْمُوَرَّدِ مِنْ جَناكا[2]

وقيلَ للجنيدِ : قلْ : لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : ما نسيتُهُ فأذكرَهُ[3] .

وسألَ جعفرُ بنُ نصيرٍ بكرانَ الدينوريَّ خادمَ الشبليِّ : ما الذي رأيتَ منهُ ؟ فقالَ : قالَ : عليَّ درهمُ مظلمةٍ ، وقدْ تصدقتُ عنْ صاحبهِ بألوفٍ ، فما علىٰ قلبي شغلٌ أعظمَ منهُ ، ثمَّ قالَ : وضِّئْني للصلاةِ ، ففعلتُ ، فنسيتُ تخليلَ لحيتِهِ وقدْ أمسكَ علىٰ لسانِهِ ، فقبضَ علىٰ يدي وأدخلَها في لحيتِهِ ثمَّ ماتَ ، فبكىٰ جعفرٌ وقالَ : ما تقولونَ في رجلٍ لم يفتْهُ في آخرِ عمرِهِ أدبٌ منْ آدابِ الشريعةِ ؟![4] .

وقيلَ لبشرِ بنِ الحارثِ لمَّا احتُضرَ وكانَ يشقُّ عليهِ : كأنَّكَ تحبُّ الحياةَ ، فقالَ : القدومُ على اللهِ تعالىٰ شديدٌ[5] .

وقيلَ لصالحِ بنِ مسمارٍ : ألا توصي بابنِكَ وعيالِكَ ؟ فقالَ : إنِّي

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٣) ، وانظر « طبقات الأولياء » (ص٥٢) .
(٢) في (ق) : (حياكا) بدل (جناكا) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٥) .
(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٥) .
(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠١) .

لأستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أوصيَ بهمْ إلىٰ غيرِه[1] .

ولمَّا احتُضرَ أبو سليمانَ الدارانيُّ . . أتاهُ أصحابُهُ فقالوا : أبشرْ ؛ فإنَّكَ تقدمُ علىٰ ربٍّ غفورٍ رحيمٍ ، فقالَ لهُم : ألا تقولونَ : احذرْ ؛ فإنَّكَ تقدمُ علىٰ ربٍّ يحاسبُكَ بالصغيرِ ويعاقبُكَ بالكبيرِ ؟![2] .

ولمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ الواسطيُّ . . قيلَ لهُ : أوصنا ، فقالَ : احفظوا مرادَ الحقِّ فيكم[3] .

واحتُضرَ بعضُهم فبكَتِ امرأتُهُ ، فقالَ لها : ما يبكيكِ ؟ فقالَتْ : عليكَ أبكي ، فقالَ : إنْ كنتِ باكيةً . . فابكي علىٰ نفسِكِ ، فلقدْ بكيتُ لهـٰذا اليومِ أربعينَ سنةً .

وقالَ الجنيدُ : دخلتُ علىٰ سريٍّ السقطيِّ أعودُهُ في مرضِ موتِهِ ، فقلتُ : كيفَ تجدُكَ ؟ فأنشأَ يقولُ : [من الخفيف]

كَيْفَ أَشْكُو إِلَىٰ طَبِيبِيَ ما بِي ... وَٱلَّذِي بِي أَصابَنِي مِنْ طَبِيبِي

فأخذتُ المروحةَ لأروِّحَهُ فقالَ : كيفَ يجدُ ريحَ المروحةِ مَنْ جوفُهُ يحترقُ ؟! ثمَّ أنشأَ يقولُ[4] : [من البسيط]

ٱلْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ وَٱلدَّمْعُ مُسْتَبِقٌ ... وَٱلْكَرْبُ مُجْتَمِعٌ وَٱلصَّبْرُ مُفْتَرِقُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٣٤) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٣٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٣٥) .
(٤) انظر « المنتظم » (٧/ ٦٣) ، و« بغية الطلب » (٩/ ٤٢٢٦) .

كَيْفَ ٱلْقَرارُ عَلَىٰ مَنْ لا قَرارَ لَهُ ... مِمّا جَناهُ ٱلْهَوَىٰ وَٱلشَّوْقُ وَٱلْقَلَقُ
يا رَبِّ إِنْ يَكُ شَيْءٌ فِيْهِ لِي فَرَجٌ ... فَٱمْنُنْ عَلَيَّ بِهِ ما دامَ بِي رَمَقُ

وحُكِيَ أنَّ قوماً مِنْ أصحابِ الشبليِّ رحمةُ اللهِ عليهِ دخلوا عليهِ وهوَ في الموتِ ، فقالوا لهُ : قلْ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فأنشأَ يقولُ[1] : [من المديد]

إِنَّ بَيْتـاً أَنْـتَ سـاكِنُـهُ ... غَيْـرُ مُحْتـاجٍ إِلَـى السُّـرُجِ
وَجْهُـكَ ٱلْمَـأْمُـولُ حُجَّتُنـا ... يَـوْمَ يَـأْتِـي ٱلنّـاسُ بِـٱلْحُجَـجِ
لا أَتـاحَ ٱللهُ لِـي فَـرَجـاً ... يَـوْمَ أَدْعُـو مِنْـكَ بِـٱلْفَـرَجِ

وحُكيَ أنَّ أبا العباسِ بنَ عطاءٍ دخلَ على الجنيدِ في وقتِ نزعِهِ ، فسلَّمَ عليهِ فلمْ يجبْهُ ، ثمَّ أجابَ بعدَ ساعةٍ وقالَ : اعذرْني ؛ فإنِّي كنتُ في وردي ، ثمَّ ولَّىٰ وجهَهُ إلى القبلةِ وكبرَ وماتَ[2] .

وقيلَ للكتانيِّ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ : ما كانَ عملُكَ ؟ فقالَ : لوْ لمْ يقربْ أجلي . . ما أخبرتُكُم به ، وقفتُ علىٰ بابِ قلبي أربعينَ سنةً ، فكلَّما مرَّ فيهِ غيرُ اللهِ . . حجبتُهُ عنهُ[3] .

وحُكِيَ عَنِ المعتمرِ قالَ : كنتُ فيمَنْ حضرَ الحكمَ بنَ عبدِ الملكِ حينَ جاءَهُ الحقُّ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ هوِّنْ عليهِ سكراتِ الموتِ ؛ فإنَّهُ كانَ

---

(١) ديوانه (ص١٣٩) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٧) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤١) .

وكانَ . . فذكرتُ محاسنَهُ ، فأفاقَ فقالَ : مَنِ المتكلمُ ؟ فقلتُ : أنا ، فقالَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليهِ السَّلامُ يقولُ لي : إني بكلِّ سخيٍّ رفيقٌ ، ثمَّ طُفيءَ[1] .

ولمَّا حضرَتْ يوسفَ بنَ أسباطٍ الوفاةُ شهدَهُ حذيفةُ فوجدَهُ قلقاً ، فقالَ : يا أبا محمدٍ ؛ هـٰذا أوانُ القلقِ والجزعِ ؟! فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ وكيفَ لا أقلقُ ولا أجزعُ وإني لا أعلمُ أنِّي صدقتُ اللهَ تعالىٰ في شيءٍ مِنْ عملي ، فقالَ حذيفةُ : وا عجباهُ لهـٰذا الرجلِ الصالحِ ! يحلفُ عندَ موتِهِ أنَّهُ لا يعلمُ أنَّهُ صدقَ اللهَ تعالىٰ في شيءٍ مِنْ عملِهِ[2] .

وعَنِ المغازليِّ قالَ : دخلتُ علىٰ شيخٍ لي مِنْ أصحابِ هـٰذهِ القصةِ وهوَ عليلٌ ، وهوَ يقولُ : يمكنُكَ أنْ تعملَ ما تريدُ فارفقْ بي[3] .

ودخلَ بعضُ المشايخِ علىٰ ممشاذَ الدينوريِّ في وقتِ وفاتِهِ فقالَ لهُ : فعلَ اللهُ تعالىٰ وصنعَ مِنْ بابِ الدعاءِ ، فضحكَ ثمَّ قالَ : منذُ ثلاثينَ سنةً تُعرضُ عليَّ الجنَّةُ بما فيها فما أعرتُها طرفي[4] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤١) ، وفي « الإتحاف » (١٠/ ٣٤٣) : (الحكم بن المطلب) وهو موافق لما في « مكارم الأخلاق » (٤٨٢) ، و« المؤتلف والمختلف » (٢/ ٦٧٥) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٢) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٢) .

وقيلَ لرويمٍ عندَ الموتِ : قلْ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : لا أحسنُ غيرَهُ[1] .

ولمَّا حضرَتِ النُّوريَّ الوفاةُ .. قيلَ لهُ : قلْ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : أليسَ ثَمَّ أمرٌ ؟![2] .

ودخلَ المزنيُّ على الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ في مرضِهِ الذي تُوفيَ فيهِ ، فقالَ لهُ : كيفَ أصبحتَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ فقالَ : أصبحتُ مِنَ الدنيا راحلاً ، وللإخوانِ مفارقاً ، ولسوءِ عملي ملاقياً ، وبكأسِ المنيَّةِ شارباً ، وعلى اللهِ تعالىٰ وارداً ، ولا أدري أروحي تصيرُ إلى الجنَّةِ فأهنيَها ، أم إلى النَّارِ فأعزيَها ؟ ثمَّ أنشأَ يقولُ[3] : [من الطويل]

وَلمّا قَسا قَلْبي وَضاقَتْ مَذاهِبي ... جَعَلْتُ رَجائِي نَحْوَ عَفوِكَ سُلَّما
تَعاظَمَني ذَنْبي فَلَمّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفوِكَ رَبِّي كانَ عَفْوُكَ أَعْظَما
فَما زِلْتَ ذا عَفْوٍ عَنِ ٱلذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّما
وَلَوْلاكَ لَمْ يُغوَ بِإِبْلِيسَ عابِدٌ ... فَكَيْفَ وَقَدْ أَغْوَىٰ صَفِيَّكَ آدَما

ولمَّا حضرَتْ أحمدَ بنَ خضرويهِ الوفاةُ .. سُئلَ عَنْ مسألةٍ ، فدمعَتْ عيناهُ وقالَ : يا بنيَّ ؛ بابٌ كنتُ أدقُّهُ خمساً وتسعينَ سنةً هو ذا يُفتحُ لي

---

(1) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٢) .
(2) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٤) .
(3) ديوانه (ص١١٩) .

الساعةَ ، لا أدري أيُفتحُ بالسعادةِ أو بالشقاوةِ ، فأنَّىٰ لي أوانُ الجوابِ ؟! [1] .

فهٰذهِ أقاويلُهُم ، وإنَّما اختلفَتْ بحسبِ اختلافِ أحوالِهِمْ ، فغلبَ علىٰ بعضِهِمُ الخوفُ ، وعلىٰ بعضِهِمُ الرجاءُ ، وعلىٰ بعضِهِمُ الشوقُ والحبُّ ، فتكلَّمَ كلُّ واحدٍ علىٰ مقتضىٰ حالِهِ ، والكلُّ صحيحٌ بالإضافةِ إلىٰ أحوالِهِمْ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٧١ ـ ٧٢) .

البَابُ السَّادِسُ
في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلمْ : أنَّ الجنازةَ عبرةٌ للبصيرِ ، وفيها تنبيهٌ وتذكيرٌ ، إلاَّ لأهلِ الغفلةِ ؛ فإنَّها لا تزيدُهم مشاهدتُها إلاَّ قساوةً ؛ لأنَّهم يظنُّونَ أنَّهم أبداً إلىٰ جنازةِ غيرِهم ينظرونَ ، ولا يحسبونَ أنَّهم لا محالةَ على الجنائزِ يُحملونَ ، أو يحسبونَ ذلكَ ولكنَّهم على القربِ لا يقدِّرونَ[1] ، ولا يتفكَّرونَ أنَّ المحمولينَ على الجنائزِ كلَّهم هٰكذا كانوا يحسبونَ ، فبطلَ حسبانُهُم ، وانقرضَ على القربِ زمانُهُمْ ، فلا ينظرُ عبدٌ إلىٰ جنازةٍ إلاَّ ويقدِّرُ نفسَهُ محمولاً عليها ، فإنَّهُ محمولٌ عليها على القربِ وكأنْ قدِ ، ولعلهُ في غدٍ أو بعدَ غدٍ .

فيُروىٰ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ إذا رأىٰ جنازةً . . قالَ : (امضوا ؛ فإنَّا على الأثرِ)[2] .

وكانَ مكحولٌ الدمشقيُّ إذا رأىٰ جنازةً . . قالَ : اغدوا ؛ فإنَّا رائحونَ ، موعظةٌ بليغةٌ وغفلةٌ سريعةٌ ، يذهبُ الأولُ والآخرُ لا عقلَ لهُ[3] .

---

(١) أي : لا يقدرونَ الموت علىٰ أنفسهم قريباً . « إتحاف » (١٠/ ٣٤٨) .
(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٥/ ٢٥٥) ، وهناد بن السري في « الزهد » (٥٠٧) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ أسيدُ بنُ حضيرٍ : ما شهدتُ جنازةً فحدَّثتُ نفسي بشيءٍ سوىٰ ما هوَ مفعولٌ بهِ ، وما هوَ صائرٌ إليهِ(١) .

ولمَّا ماتَ أخو مالكِ بنِ دينارٍ . . خرجَ مالكٌ في جنازتِهِ يبكي ويقولُ : واللهِ ؛ لا تقرُّ عيني حتىٰ أعلمَ إلىٰ ماذا صرتَ ، ولا أعلمُ ما دمتُ حيّاً(٢) .

وقالَ الأعمشُ : كنَّا نشهدُ الجنائزَ فلا ندري مَنْ نعزي ؛ لحزنِ الجميعِ(٣) .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : كنَّا نشهدُ الجنائزَ فلا نرىٰ إلاَّ متقنعاً باكياً(٤) .

فهكذا كانَ خوفُهم مِنَ الموتِ ، والآنَ لا ننظرُ إلىٰ جماعةٍ يحضرونَ جنازةً إلاَّ وأكثرُهُم يضحكونَ ويلهونَ ، ولا يتكلَّمونَ إلاَّ في ميراثِهِ وما خلَّفَهُ لورثتِهِ ، ولا يتفكَّرُ أقرانُهُ وأقاربُهُ إلاَّ في الحيلةِ التي بها يتناولُ بعضَ ما خلَّفَهُ ، ولا يتفكَّرُ واحدٌ منهم ـ إلاَّ ما شاءَ اللهُ ـ في جنازةِ نفسِهِ ، وفي حالِهِ إذا حُمِلَ عليها ، ولا سببَ لهٰذهِ الغفلةِ إلاَّ قسوةُ القلوبِ بكثرةِ المعاصي والذنوبِ ، حتىٰ نسينا اللهَ تعالىٰ واليومَ الآخرَ والأهوالَ التي بينَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٥٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٨٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٤٩) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٥٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٨٤١) .

أيدينا ، فصرنا نلهو ونغفلُ ونشتغلُ بما لا يعنينا ، فنسألُ اللهَ تعالى اليقظةَ مِنْ هٰذهِ الغفلةِ ؛ فإنَّ أحسنَ أحوالِ الحاضرينَ على الجنائزِ بكاؤُهم على الميتِ ، ولوْ عقلوا . . لبكوا علىٰ أنفسِهم لا على الميتِ .

نظرَ إبراهيمُ الزياتُ إلىٰ أناسٍ يترحَّمونَ على الميتِ فقالَ : لو ترحَّمونَ علىٰ أنفسِكُمْ . . لكانَ خيراً لكم ؛ إنَّهُ نجا مِنْ أهوالٍ ثلاثةٍ : وجهُ ملكِ الموتِ وقدْ رأىٰ ، ومرارةُ الموتِ وقدْ ذاقَ ، وخوفُ الخاتمةِ وقدْ أمنَ(١) .

وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ : جَلستُ إلىٰ جريرٍ وهو يملي علىٰ كاتبِهِ شعراً ، فاطلعَتْ جنازةٌ فأمسَكَ وقالَ : شيَّبَتْني واللهِ هٰذهِ الجنائزُ ، وأنشأَ يقولُ(٢) : [من الوافر]

تُـرَوِّعُنـا ٱلْجَنـائِـزُ مُقْبِـلاتٍ ... وَنَلْهُـو حِيـنَ تَـذْهَـبُ مُـدْبِراتِ
كَـرَوْعَـةِ ثُلَّـةٍ لِمَغـارِ ذِئْـبٍ(٣) ... فَلَمّـا غـابَ عـادَتْ راتِعـاتِ

فمِنْ آداب حضورِ الجنائزِ : التفكُّرُ والتنبُّهُ والاستعدادُ ، والمشيُ أمامَها علىٰ هيئةِ التواضعِ كما ذكرنا آدابَهُ وسننَهُ في فنِّ الفقهِ .

ومِنْ آدابِهِ : حسنُ الظنِّ بالميتِ وإنْ كانَ فاسقاً ، وإساءةُ الظنِّ بالنفسِ وإنْ كانَ ظاهرُها الصلاحَ ؛ فإنَّ الخاتمةَ مخطرةٌ لا تُدرىٰ حقيقتُها ، ولذلكَ

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١١٦) .
(٢) ديوانه (٢/ ١٠٢٤) ، كما نسبت إلىٰ عروة بن أذينة في « ديوانه » (ص ٣٠٩) .
(٣) ثلة : جماعة الغنم ، المغار : الإغارة .

رُوِيَ عَنْ عمرَ بنِ ذرٍّ : أَنَّهُ ماتَ واحدٌ مِنْ جيرانِهِ وكانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، فتجافىٰ كثيرٌ مِنَ الناسِ عنْ جنازتِهِ ، فحضرَها هوَ وصلَّىٰ عليها ، فلمَّا دُلِّيَ في قبرِهِ . . وقفَ علىٰ قبرِهِ وقالَ : يرحمُكَ اللهُ يا أبا فلانٍ ؛ فلقدْ صحبتَ عمرَكَ بالتوحيدِ ، وعفرتَ وجهَكَ بالسجودِ وإنْ قالوا : مذنبٌ وذو خطايا ؛ فمَنْ منَّا غيرُ مذنبٍ وغيرُ ذي خطايا ؟!(١) .

ويُحكىٰ أنَّ رجلاً مِنَ المنهمكينَ في الفسادِ ماتَ في بعضِ نواحي البصرةِ ، فلمْ تجدِ امرأتُهُ مَنْ يعينُها علىٰ حملِ جنازتِهِ ؛ إذْ لمْ يدْرِ بها أحدٌ مِنْ جيرانِهِ لكثرةِ فسقِهِ ، فاستأجرَتْ حمَّالينَ وحملَتْها إلى المصلَّىٰ ، فما صلىٰ عليه أحدٌ ، فحملَتْها إلى الصحراءِ للدفنِ ، فكانَ علىٰ جبلٍ قريبٍ مِنَ الموضعِ زاهدٌ مِنَ الزهادِ الكبارِ ، فرأتْهُ كالمنتظرِ للجنازةِ ، فقصدَ أنْ يصليَ عليها ، فانتشرَ الخبرُ في البلدِ بأنَّ الزاهدَ قدْ نزلَ ليصليَ علىٰ فلانٍ ، فخرجَ أهلُ البلدِ فصلَّى الزاهدُ وصلَّوا عليهِ ، وتعجَّبَ الناسُ مِنْ صلاةِ الزاهدِ عليهِ ، فقالَ : قيلَ لي في المنامِ : انزلْ إلىٰ موضعِ فلانٍ ترىٰ فيهِ جنازةً ليسَ معَها إلاّ امرأةٌ ، فصلِّ عليهِ ، فإنَّهُ مغفورٌ لهُ ، فزادَ تعجُّبُ الناسِ ، فاستدعى الزاهدُ امرأتَهُ وسألَها عنْ حالِهِ ، وأنَّهُ كيفَ كانَتْ سيرتُهُ ، قالَتْ : كما عُرِفَ ، كانَ طولَ نهارِهِ في الماخورِ مشغولاً بشربِ الخمرِ(٢) ، فقالَ : انظري ، هلْ تعرفينَ مِنهُ شيئاً مِنْ أعمالِ الخيرِ ؟ قالَتْ : نعم ، ثلاثةَ أشياءَ :

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٦٢) .
(٢) **الماخور** : بيت الخمر .

كانَ كلَّ يومٍ يفيقُ مِنْ سكرِهِ وقتَ الصبحِ فيبدِّلُ ثيابَهُ ويتوضأُ ويصلي الصبحَ في جماعةٍ ، ثمَّ يعودُ إلى الماخورِ ويشتغلُ بالفسقِ ، **والثانيةُ** : أنَّهُ كانَ أبداً لا يخلو بيتُهُ عَنْ يتيمٍ أو يتيمينِ ، وكانَ إحسانُهُ إليهم أكثرَ مِنْ إحسانِهِ إلىٰ أولادِهِ ، وكانَ شديدَ التفقُّدِ لهُمْ ، **والثالثةُ** : أنَّهُ كانَ يفيقُ في أثناءِ سكرِهِ في ظلامِ الليلِ فيبكي ويقولُ : يا ربِّ ؛ أيَّ زاويةٍ مِنْ زوايا جهنَّمَ تريدُ أنْ تملأَها بهٰذا الخبيثِ ؟! يعني نفسَهُ ، فانصرفَ الزاهدُ وقدِ ارتفعَ إشكالُهُ مِنْ أمرِهِ(١) .

وعَنْ صلةَ بنِ أشيمَ وقدْ دُفِنَ أخٌ لهُ فقالَ علىٰ قبرِهِ(٢) : [من الطويل]

فَإِنْ تَنْجُ مِنْها تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلاَّ فَإِنِّي لا إِخالُكَ ناجِيا

* * *

(١) حكاها الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٥٩ ـ ١٦٠) .
(٢) البيت في « طبقات فحول الشعراء » (١/ ١٨٢) للفرزدق ، وليس في « ديوانه » ، و« البيان والتبيين » (١/ ٣٦٧) للأسود بن سريع ، و« المحاسن والمساوىء » (ص٣٥٤) لذي الرمة ، وهو في « ديوانه » (٣/ ١٩٢٤) .

بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور

قالَ الضحاكُ : قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أزهدُ النَّاسِ ؟ قالَ : « مَنْ لمْ ينسَ القبرَ والبلىٰ ، وتركَ فضلَ زينةِ الدنيا ، وآثرَ ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ ، ولمْ يعدَّ غداً من أيامِهِ ، وعدَّ نفسَهُ مِنْ أهلِ القبورِ »[(١)] .

وقيلَ لعليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ما شأنُك جاورتَ المقبرةَ ؟ قالَ : (إنِّي أجدُهم خيرَ جيرانٍ ، إنِّي أجدُهم جيرانَ صدقٍ ؛ يكفُّونَ الألسنةَ ، ويُذكِّرونَ الآخرةَ)[(٢)] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رأيتُ منظراً إلاَّ والقبرُ أفظعُ منهُ »[(٣)] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : خرجنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المقابرِ ، فجلسَ إلىٰ قبرٍ وكنتُ أدنى القومِ منهُ ، فبكىٰ وبكيتُ وبكَوا ، فقالَ : « ما يبكيكُمْ ؟ » قلنا : بكينا لبكائِكَ ، قالَ : « هٰذا قبرُ أمي آمنةَ بنتِ وهبٍ ، استأذنتُ ربِّي في زيارتِها فأذنَ لي ، فاستأذنتُهُ في

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٨١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٥٩) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٧١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٥٥) وفيه : (السيئة) بدل (الألسنة) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٣١) .

أنَ أستغفرَ لها فأبىٰ عليَّ ، فأدركَني ما يدركُ الولدَ مِنَ الرِّقةِ »[1] .

وكانَ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ إذا وقفَ علىٰ قبرٍ . . بكىٰ حتىٰ يبلَّ لحيتَهُ ، فسُئلَ عَنْ ذلكَ وقيلَ لهُ : تذكرُ الجنَّةَ والنَّارَ فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفتَ علىٰ قبرٍ ؟! فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ القبرَ أولُ منازلِ الآخرةِ ، فإنْ نجا منهُ صاحبُهُ . . فما بعدَهُ أيسرُ منهُ ، وإنْ لمْ ينجُ منهُ . . فما بعدَهُ أشدُّ »[2] .

وقيلَ : إنَّ عمرَو بنَ العاصِ نظرَ إلى المقبرةِ ، فنزلَ وصلَّىٰ ركعتينِ ، فقيلَ لهُ : هـٰذا شيءٌ لم تكنْ تصنعُهُ ؟ فقالَ : (ذكرتُ أهلَ القبورِ وما حِيلَ بينَهم وبينَهُ ، فأحببتُ أنْ أتقربَ إلى اللهِ تعالىٰ بهما)[3] .

وقالَ مجاهدٌ : أولُ ما يكلمُ ابنَ آدمَ حفرتُهُ فتقولُ : أنا بيتُ الدودِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الغربةِ ، وبيتُ الظلمةِ ، هـٰذا ما أعددتُ لكَ ، فما أعددتَ لي ؟![4] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٥٥) بنحو لفظ المصنف من حديث بريدة رضي الله عنه ، وهو مختصر عند مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد ألف العلماء الكثير من المصنفات في تحقيق نجاة الأبوين الكريمين ، ونجاة آباء المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم الكرام ، الذين ماتوا في فترة الجاهلية ولم تبلغهم الدعوة ، وأثبتوا أنهم من أهل الجنة ، وأقاموا علىٰ ذلك الأدلة الناصعة والبراهين الساطعة . فلتراجع .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٤٩٦) عن علي رضي الله عنه من طريق =

وقالَ أبو ذرٍّ : (ألا أخبرُكم بيومِ فقري ؟ يومَ أُوضعُ في قبري)[1] .

وكانَ أبو الدرداءِ يجلسُ إلى القبورِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقالَ : (أجلسُ إلىٰ قومٍ يذكِّروني معادي ، وإن قمتُ . . لم يغتابوني)[2] .

وكانَ جعفرُ بنُ محمدٍ يأتي القبورَ ليلاً ويقولُ : يا أهلَ القبورِ ؛ ما لي إذا دعوتُكم لا تجيبوني ؟! ثمَّ يقولُ : حِيلَ واللهِ بينَهم وبينَ جوابي ، وكأنِّي بي أكونُ مثلَهُم ، ثمَّ يستقبلُ الصلاةَ إلىٰ طلوعِ الفجرِ[3] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ لبعضِ جلسائِهِ : يا فلانُ ؛ لقدْ أرقتُ الليلةَ تفكراً في القبرِ وساكنِهِ ، إنَّكَ لوْ رأيتَ الميتَ بعدَ ثلاثةٍ في قبرِهِ . . لاستوحشتَ مِنْ قربِهِ بعدَ طولِ الأنسِ منكَ بهِ ، ولرأيتَ بيتاً تجولُ فيه الهوامُّ ، ويجري فيهِ الصديدُ ، وتخترقُهُ الديدانُ ، معَ تغيرِ الريحِ وبلى الأكفانِ بعدَ حسنِ الهيئةِ وطيبِ الريحِ ونقاءِ الثوبِ ، قالَ : ثمَّ شهقَ شهقةً خرَّ مغشيّاً عليهِ[4] .

وكانَ يزيدُ الرقاشيُّ يقولُ : أيُّها المقبورُ في حفرتِهِ ، والمتخلي في القبرِ

= مجاهد ، وقد رواه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٥٣) .

(٣) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٦٨) .

بوحدتِهِ ، المستأنسُ في بطنِ الأرضِ بأعمالِهِ ؛ ليتَ شعري ! بأيِّ أعمالِكَ استبشرتَ ؟! وبأيِّ إخوانِكَ اغتبطتَ ؟! ثمَّ يبكي حتىٰ يبلَّ عمامتَهُ ، ثمَّ يقولُ : استبشرَ واللهِ بأعمالِهِ الصالحةِ ، واغتبطَ واللهِ بإخوانِهِ المتعاونينَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ إذا نظرَ إلى القبورِ . . خارَ كما يخورُ الثورُ[1] .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : مَنْ مرَّ بالمقابرِ فلم يتفكَّرْ لنفسِهِ ولم يدعُ لهم . . فقدْ خانَ نفسَهُ وخانَهُم[2] .

وكانَ بكرٌ العابدُ يقولُ : يا أمَّاهُ ؛ ليتَكِ كنتِ بي عقيماً ! إنَّ لابنِكِ في القبرِ حبساً طويلاً ، ومِنْ بعدِ ذلكَ منهُ رحيلاً[2] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : يا بنَ آدمَ ؛ دعاكَ ربُّكَ إلىٰ دارِ السَّلامِ فانظرْ مِنْ أينَ تجيبُهُ ، إنْ أجبتَهُ مِنْ دنياكَ واشتغلتَ بالرحلةِ إليه . . دخلتَها ، وإنْ أجبتَهُ مِنْ قبركَ . . مُنعتَها[2] .

وكانَ الحسنُ بنُ صالحٍ إذا أشرفَ على المقابرِ . . يقولُ : ما أحسنَ ظواهرَكِ ! إنَّما الدواهي في بواطنِكِ[2] .

وكانَ عطاءٌ السلميُّ إذا جنَّ عليهِ الليلُ . . خرجَ إلى المقبرةِ فوقفَ ثمَّ يقولُ : يا أهلَ القبورِ ؛ متُّم فيا موتاهُ ! وعاينتُم أعمالَكُم فوا عملاهُ ! ثمَّ

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٤ ـ ١٩٥) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥) .

يقولُ : غداً عطاءٌ في القبرِ ؛ غداً عطاءٌ في القبرِ ، فلا يزالُ ذلكَ دأبَهُ حتىٰ يصبحَ(١) .

وقالَ سفيانُ : مَنْ أكثرَ ذكرَ القبرِ . . وجدَهُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومَنْ غفلَ عنْ ذكرِهِ . . وجدَهُ حفرةً منْ حفرِ النَّارِ(٢) .

وكانَ الربيعُ بنُ خيثمٍ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ إذا وجدَ في قلبِهِ قساوةً . . دخلَ فيهِ فاضطجعَ ومكثَ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ يردِّدُها ، ثمَّ يردُّ علىٰ نفسِهِ : يا ربيعُ : قدْ رجعتُكَ فاعملْ(٣) .

وقالَ أحمدُ بنُ حربٍ : تتعجَّبُ الأرضُ مِنْ رجلٍ يمهِّدُ مضجعَهُ ويسوي فراشَهُ للنَّومِ فتقولُ : يا بنَ آدمَ ؛ لمَ لا تذكرُ طولَ بلاكَ وما بيني وبينَكَ شيءٌ ؟!(٤) .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ خرجتُ معَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إلى المقبرةِ ، فلمَّا نظرَ إلى القبورِ . . بكىٰ ، ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ : يا ميمونُ ؛ هـٰذهِ قبورُ آبائي بني أميَّةَ ، كأنَّهمْ لمْ يشاركوا أهلَ الدنيا في لذاتِهمْ وعيشِهِمْ ، أما تراهم صرعىٰ قدْ حلَّتْ بهمُ المثُلاتُ ، واستحكمَ فيهمُ البلىٰ ، وأصابَتِ الهوامُّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٣) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥ ـ ١٩٦) .
(٣) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٣١١) .
(٤) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٦) .

مقيلاً في أبدانِهم ؟! ثمَّ بكىٰ وقالَ : واللهِ ؛ ما أعلم أحداً أنعمَ ممَّن صارَ إلىٰ هـٰذهِ القبورِ وقدْ أمنَ مِنْ عذابِ اللهِ(١) .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : دخلتُ المقابرَ ، فلمَّا قصدتُ الخروجَ منها ؛ فإذا بصوتِ قائلٍ يقولُ : يا ثابتُ ؛ لا يغرَّنَّكَ صموتُ أهلِها ، فكمْ مِنْ نفسٍ مغمومةٍ فيها(٢) .

ويُروىٰ أنَّ فاطمةَ بنتَ الحسينِ نظرَتْ إلىٰ جنازةِ زوجِها الحسنِ بنِ الحسنِ ، فغطَّتْ وجهَها وقالَتْ(٣) : [من الطويل]

وَكـانُـوا رَجـاءً ثُـمَّ أَمْسَـوْا رَزِيَّـةً   لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ ٱلرَّزايا وَجَلَّتِ

وقيلَ : إنَّها ضربَتْ علىٰ قبرِهِ فسطاطاً واعتكفَتْ عليهِ سنةً ، فلمَّا مضتِ السَّنةُ . . قلعوا الفسطاطَ ودخلَتِ المدينةَ ، فسمعُوا صوتاً مِنْ جانبِ البقيعِ : هلْ وجدُوا ما فقدُوا ؟ فسمعُوا مِنَ الجانبِ الآخرِ : بل يئسُوا فانقلبُوا(٤) .

وقالَ أبو موسى التميميُّ : تُوفيَتِ امرأةُ الفرزدقِ ، فخرجَ في جنازتِها وجوهُ البصرةِ وفيهِمُ الحسنُ ، فقالَ لهُ الحسنُ : يا أبا فراسٍ ؛ ماذا أعددتَ لهـٰذا اليومِ ؟ فقالَ : شهادةُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ منذُ ستينَ سنةً ، فلمَّا دُفنَتْ . .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٣٢) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٩) .
(٣) البيت لسليمان بن قتة . انظر « التعازي والمراثي » (ص ٧٩) .
(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧٠/ ١٩ ـ ٢٠) .

أقامَ الفرزدقُ علىٰ قبرِها فقالَ(١) : [من الطويل]

أَخافُ وَراءَ ٱلْقَبْرِ إِنْ لَمْ تُعافِنِي		أَشَدَّ مِنَ ٱلْقَبْرِ ٱلْتِهاباً وَأَضْيَقا
إِذَا جاءَنِي يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ قائِدٌ		عَنِيفٌ وَسَوّاقٌ يَسُوقُ ٱلْفَرَزْدَقا
لَقَدْ خابَ مِنْ أَوْلادِ آدَمَ مَنْ مَشَى		إِلَى ٱلنّارِ مَغْلُولَ ٱلْقِلادَةِ أَزْرَقا

وقدْ أنشدوا في أهلِ القبورِ(٢) : [من الكامل]

قِفْ بِٱلْقُبُورِ وَقُلْ عَلَىٰ ساحاتِها		مَنْ مِنْكُمُ ٱلْمَغْمُومُ فِي ظُلُماتِها
وَمَنِ ٱلْمُكَرَّمُ مِنْكُمُ فِي قَعْرِها		قَدْ ذاقَ بَرْدَ ٱلأَمْنِ مِنْ رَوْعاتِها
أَمّا ٱلسُّكُونُ لِذِي ٱلْعُيُونِ فَواحِدٌ		لا يَسْتَبِينُ ٱلْفَضْلُ فِي دَرَجاتِها
لَوْ جاوَبُوكَ لأَخْبَرُوكَ بِأَلْسُنٍ		تَصِفُ ٱلْحَقائِقَ بَعْدُ مِنْ حالاتِها
أَمّا ٱلْمُطِيعُ فَنازِلٌ فِي رَوْضَةٍ		يُفْضِي إِلَىٰ ما شاءَ مِنْ راحاتِها
وَٱلْمُجْرِمُ الطّاغِي بِها مُتَقَلِّبٌ		فِي حُفْرَةٍ يَأْوِي إِلَىٰ حَيّاتِها
وَعَقارِبٌ تَسْعَىٰ إِلَيْهِ فَرُوحُهُ		فِي شِدَّةِ التَّعْذِيبِ مِنْ لَدَغاتِها

ومرَّ داوودُ الطائيُّ على امرأةٍ تبكي علىٰ قبرٍ وهيَ تقولُ : [من المتقارب]

عَدِمْتُ ٱلْحَياةَ وَلا نِلْتُها		إِذا أَنْتَ فِي ٱلْقَبْرِ قَدْ أَلْحَدُوكا
فَكَيْفَ أَذُوقُ لَذِيذَ ٱلْكَرَى		وَأَنْتَ بِيُمْناكَ قَدْ وَسَّدُوكا

---

(١) ديوانه (٢/ ٩٠) .
(٢) انظر « بستان الواعظين » (ص٢٧٥) .

ثمَّ قالَتْ : يا أبتاهُ[1] ؛ ليتَ شعري ! بأيِّ خدَّيكَ بدأَ الدُّودُ ؟! فصَعقَ داوودُ مكانَهُ وخرَّ مغشيّاً عليهِ[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : مررتُ بالمقبرةِ فانشأتُ أقولُ : [من المتقارب]

أَتَيْـــتُ ٱلْقُبُـــورَ فَنَـــادَيْتُهَـــا ... فَـــأَيْـــنَ ٱلْمُعَظَّـــمُ وَٱلْمُحْتَقَـــرْ
وَأَيْـــنَ ٱلْمُـــذِلُّ بِسُلْطَـــانِـــهِ ... وَأَيْـــنَ ٱلْمُـــزَكِّـي إِذا مـــا افْتَخَـــرْ

قالَ : فنُوديتُ مِنْ بينِهم أسمعُ صوتاً ولا أرىٰ شخصاً وهوَ يقولُ : [من المتقارب]

تَفَـــانَـــوا جَمِيعـــاً فَمَـــا مُخْبِـــرٌ ... وَمَـــاتُـــوا جَمِيعـــاً وَمَـــاتَ ٱلْخَبَـــرْ
وَسَـــارُوا إِلَـــىٰ مَـــالِـــكٍ قَـــاهِـــرٍ ... عَـــزِيـــزٍ مُطَـــاعٍ إِذا مَـــا أَمَـــرْ
لَقَـــدْ قَلَّـــدَ ٱلْقَـــوْمَ أَعْمَـــالَهُـــمْ ... فَـــإِمّـــا نَعِيـــمٌ وَإِمّـــا سَقَـــرْ
تَـــرُوحُ وَتَغْـــدُوا بَنَـــاتُ ٱلثَّـــرَىٰ ... فَتَمْحُـــو مَحَـــاسِـــنَ تِلْـــكَ ٱلصُّـــوَرْ
فَيَـــا سَـــائِلِـــي عَـــنْ أُنَـــاسٍ مَضَـــوْا ... أَمَـــا لَـــكَ فِيمَـــا تَـــرَىٰ مُعْتَبَـــرْ

قالَ : فرجعتُ وأنا باكٍ[3] .

---

(١) في (ب ، ج) : (ابناه) .

(٢) انظر « عيون الأخبار » (٢/٣٠٢) ، والخبر حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥) ، وأورد القشيري في « الرسالة » (ص٥٩) : أن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بـــأي خـــدَّيـــك تبـــدى البلـــى ... وأي عينيـــــك إذاً ســــــالا

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٨٨) ، وانظر « عيون الأخبار » (٢/٣٠٢ـ٣٠٣) .

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وُجدَ مكتوباً علىٰ قبرٍ[١] : [من الطويل]

تُناجِيكَ أَجْداثٌ وَهُنَّ سُكوتُ ... وَسُكَّانُها تَحْتَ ٱلتُّرابِ خُفُوتُ
أَيا جامِعَ الدُّنْيا لِغَيْرِ بَلاغِهِ ... لِمَنْ تَجْمَعُ ٱلدُّنْيا وَأَنْتَ تَمُوتُ

ووُجدَ مكتوباً علىٰ قبرٍ آخرَ[٢] : [من الطويل]

أَبا غانِمٍ أَمّا ذُراكَ فَواسِعٌ ... وَقَبْرُكَ مَعْمُورُ ٱلْجَوانِبِ مُحْكَمُ
وَما يَنْفَعُ ٱلْمَقْبُورَ عُمْرانُ قَبْرِهِ ... إِذا كانَ فِيهِ جِسْمُهُ يَتَهَدَّمُ

وقالَ ابنُ السماكِ : مررتُ بالمقابرِ ؛ فإذا علىٰ قبرٍ مكتوبٌ[٣] : [من الوافر]

يَمُرُّ أَقارِبِي جَنَباتِ قَبْرِي ... كَأَنَّ أَقارِبِي لَمْ يَعْرِفُونِي
ذَوُو ٱلْمِيراثِ يَقْتَسِمُونَ مالِي ... وَما يَأْلُونَ أَنْ جَحَدُوا دُيُونِي
وَقَدْ أَخَذُوا سِهامَهُمُ وَعاشُوا ... فَيا للهِ أَسْرَعَ ما نَسُونِي

وَوُجدَ علىٰ قبرٍ مكتوباً[٤] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلْحَبِيبَ مِنَ ٱلأَحْبابِ مُخْتَلَسٌ ... لا يَمنَعُ ٱلْمَوْتَ بَوّابٌ وَلا حَرَسُ

---

(١) أوردها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٩١٤) .
(٢) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٣٥) .
(٣) ذكرها ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٦) .
(٤) ذكرها ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٦ـ٣٥٧) .

فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِالدُّنْيا وَلَذَّتِها | يا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَالنَّفَسُ
أَصْبَحْتَ يا غافِلاً فِي النَّقْصِ مُنْغَمِساً | وَأَنْتَ دَهْرَكَ فِي اللَّذاتِ مُنْغَمِسُ
لا يَرْحَمُ الْمَوْتُ ذا جَهْلٍ لِغِرَّتِهِ | وَلا الَّذي كانَ مِنْهُ الْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
كَمْ أَخْرَسَ الْمَوْتُ فِي قَبْرٍ وَقَفْتَ بِهِ | عَنِ الْجَوابِ لِساناً ما بِهِ خَرَسُ
قَدْ كانَ قَصْرُكَ مَعْمُوراً لَهُ شَرَفٌ | فَقَبْرُكَ الْيَوْمَ فِي الأَجْداثِ مُنْدَرِسُ

ووُجدَ علىٰ قبرٍ مكتوباً : [من الطويل]

فَأَضْحَوْا رَمِيماً فِي التُّرابِ وَعُطِّلَتْ | مَجالِسُ مِنْهُمْ أَقْفَرَتْ وَمَقاصِرُ
وحَلُّوا بِدارٍ لا تَزاوُرَ بَيْنَهُمْ | وَكَيْفَ لِسُكّانِ الْقُبُورِ تَزاوُرُ
فَما إِنْ تَرَىٰ أَجْداثَهُمْ قَدْ تَوَوْا بِها | مُشَحَّطَةً تَسْفِي عَلَيْها الأَعاصِرُ
فَهُمْ فِي بُطُونِ الأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِها | مَحاسِنُهُمْ فِيها بَوالٍ دَواثِرُ

ووُجدَ علىٰ قبرٍ آخرَ مكتوباً(١) : [من الوافر]

وَقَفْتُ عَلَى الأَحِبَّةِ حِينَ صُفَّتْ | قُبُورُهُمُ كَأَفْراسِ الرِّهانِ
فَلَمَّا أَنْ بَكَيْتُ وَفاضَ دَمْعِي | رَأَتْ عَيْناايَ بَيْنَهُمُ مَكانِي

ووُجدَ علىٰ قبرِ طبيبٍ مكتوباً(٢) : [من السريع]

قَدْ قُلْتُ لَمَّا قالَ لِي قائِلٌ | قَدْ صارَ بُقْراطُ إِلَىٰ رَمْسِهِ

---

(١) ذكرها الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص٢٠٥) .
(٢) الأبيات لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ١٣٦) ، والخبر أورده ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٥٧) .

فَأَيْنَ ما يُوصَفُ مِنْ طِبِّهِ ... وَحَذْقِهِ فِي ٱلْماءِ مَعَ جَسِّهِ
هَيْهاتَ لا يَدْفَعُ عَنْ غَيْرِهِ ... مَنْ كانَ لا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ

ووُجدَ علىٰ قبرٍ آخرَ مكتوباً[١] : [من المنسرح]

يا أَيُّها ٱلنَّاسُ كانَ لِي أَمَلٌ ... قَصَّرَ بِي عَنْ بُلُوغِهِ ٱلأَجَلُ
فَلْيَتَّقِ ٱللهَ رَبَّهُ رَجُلٌ ... أَمْكَنَهُ فِي حَياتِهِ ٱلْعَمَلُ
ما أَنا وَحْدِي نُقِلْتُ حَيْثُ تَرَى ... كُلٌّ إِلَىٰ مِثْلِهِ سَيَنْتَقِلُ

فهٰذهِ أبياتٌ كُتبَتْ على القبورِ ؛ لتقصيرِ سكَّانِها عنِ الاعتبارِ قبلَ الموتِ ، والبصيرُ : هوَ الذي ينظرُ إلىٰ قبرِ غيرِهِ فيرىٰ مكانَهُ بينَ أظهرِهم ، فيستعدُّ للحوقِ بهِمْ ، ويعلمُ أنَّهم لا يبرحونَ مِنْ مكانِهم ما لمْ يلحقْ بهِمْ ، وليتحقَّقْ أنَّهُ لوْ عُرِضَ عليهِمْ يومٌ واحدٌ مِنْ أيامِ عمرِهِ الذي هوَ مضيِّعٌ لهُ . . لكانَ ذلكَ أحبَّ إليهِمْ مِنَ الدنيا بحذافيرِها ؛ لأَنَّهُمْ عرفوا قدرَ الأعمارِ[٢] ، وانكشفَتْ لهُمْ حقائقُ الأمورِ ، فإنَّما حسرتُهُم على يومٍ مِنَ العمرِ ؛ ليتداركَ المقصِّرُ بهِ تقصيرَهُ فيتخلَّصَ مِنَ العقابِ ، وليستزيدَ الموفَّقُ بهِ رتبتَهُ فيتضاعفَ لهُ الثوابُ ؛ فإنَّهُمْ إنَّما عرفوا قدرَ العمرِ بعدَ انقطاعِهِ ، فحسرتُهُم علىٰ ساعةٍ مِنَ الحياةِ وأنتَ قادرٌ علىٰ تلكَ الساعةِ ، ولعلَّكَ تقدرُ علىٰ

---

(١) انظر « بهجة المجالس » (١/ ١٥٤) والخبر حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص٢٠٥) . وانظر « وفيات الأعيان » (٥/ ١٧٣) .
(٢) في النسخ : (الأعمال) بدل (الأعمار) ، والمثبت من (ق) .

أمثالِها ، ثمَّ أنتَ مضيِّعٌ لها ، فوطِّنْ نفسَكَ على التحسُّرِ علىٰ تضييعِها عندَ خروجِ الأمرِ مِن الاختيارِ إنْ لمْ تأخذْ نصيبَكَ مِنْ ساعتِكَ علىٰ سبيلِ الابتدارِ ، فقدْ قالَ بعضُ الصالحينَ : رأيتُ أخاً لي في اللهِ فيما يرى النائمُ ، فقلتُ : يا فلانُ ؛ عشتَ ؟ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، قالَ : لأَنْ أقدرَ علىٰ أَنْ أقولَها ـ يعني : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ـ أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها ، ثمَّ قال : ألمْ ترَ حيثُ كانوا يدفنوني ؟! فإنَّ فلاناً قدْ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ ؛ لأَنْ أكونَ أقدرُ علىٰ أَنْ أصليَهُما . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها(١) .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٦٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٧٣) .

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حقٌّ علىٰ مَنْ ماتَ ولدُهُ أوْ قريبٌ مِنْ أقاربِهِ أنْ ينزلَهُ في تقدُّمِهِ عليهِ في الموتِ منزلةَ ما لوْ كانا في سفرٍ فسبقَهُ ولدُهُ إلى البلدِ الذي هوَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ؛ فإنَّهُ لا يعظمُ عليهِ تأسُّفُهُ ، لعلمِهِ أنَّهُ لاحقٌ بهِ على القربِ وليسَ بينَهُما إلاَّ تقدُّمٌ وتأخُّرٌ ، وهٰكذا الموتُ ؛ فإنَّ معناهُ السَّبقُ إلى الوطنِ إلىٰ أنْ يلحقَ المتأخِّرُ ، وإذا اعتقدَ هٰذا . . قلَّ جزعُهُ وحزنُهُ ، لا سيَّما وقدْ وردَ في موتِ الولدِ مِنَ الثوابِ ما يُعزَّىٰ بهِ كلُّ مصابٍ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ أقدمَ سقطاً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أن أخلِّفَ مئةَ فارسٍ كلُّهم يقاتلُ في سبيلِ اللهِ »(١) وإنَّما ذكرَ السقطَ تنبيهاً بالأدنىٰ على الأعلىٰ ، وإلاَّ . . فالثَّوابُ علىٰ قدرِ محلِّ الولدِ مِنَ القلبِ .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (تُوفيَ ابنٌ لداوودَ عليهِ السَّلامُ ، فحزنَ عليهِ حزناً شديداً ، فقيلَ لهُ : ما كانَ عدلُهُ عندَكَ ؟ قالَ : ملءُ الأرضِ ذهباً ، قيلَ لهُ : فإنَّ لكَ مِنَ الأجرِ في الآخرةِ مثلَ ذلكَ)(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتُ لأحدٍ مِنَ المسلمينَ ثلاثةٌ مِنَ الولدِ فيحتسبُهُم إلاَّ كانوا لهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ » فقالتِ امرأةٌ عندَ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٣٠٢) مرسلاً ، وابن ماجه (١٦٠٧) .
(٢) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠١٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٠٨) .

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوِ اثنانِ ؟ قالَ : « أوِ اثنانِ »[(١)] .

ولْيخلصِ الوالدُ الدُّعاءَ لولدِهِ عندَ الموتِ ؛ فإنَّهُ أرجىٰ دعاءٍ وأقربُهُ إلى الإجابةِ .

وقفَ محمَّدُ بنُ سليمانَ علىٰ قبرِ ولدِهِ فقال : اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ أرجوكَ لهُ ، وأخافُكَ عليهِ ، فحقِّقْ رجائي وآمنْ خوفي[(٢)] .

ووقفَ أبو سنانٍ علىٰ قبرِ ابنِهِ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ غفرتُ لهُ ما وجبَ لي عليهِ ، فاغفرْ لهُ ما وجبَ لكَ عليهِ ؛ فإنَّكَ أجودُ وأكرمُ[(٣)] .

ووقفَ أعرابيٌّ علىٰ قبرِ ابنِهِ فقال : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ وهبتُ لهُ ما قصَّرَ فيه مِنْ برِّي ، فهبْ له ما قصَّرَ فيهِ مِنْ طاعتِكَ[(٤)] .

ولمَّا ماتَ ذرُّ بنُ عمرَ بنِ ذرٍّ . . قامَ أبوه عمرُ بنُ ذرٍّ بعدَ ما وُضعَ في لحدِهِ فقالَ : يا ذرُّ ؛ لقدْ شغلَنَا الحزنُ لكَ عَنِ الحزنِ عليكَ ، فليتَ شعري ! ماذا قلتَ وماذا قيلَ لكَ ؟! ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا ذرٌّ متَّعتَني به ما متَّعتَني ، ووفيتَهُ أجلَهُ ورزقَهُ ولم تظلِمْهُ ، اللهمَّ ؛ وقدْ كنتَ ألزمتَهُ طاعتَكَ وطاعتِي ، اللهمَّ ؛ وما وعدتَني عليهِ مِنَ الأجرِ في مصيبتي . . فقدْ

---

(١) رواه البخاري (١٢٥٠) ، ومسلم (٢٦٣٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٥٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٦٠) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٠٣) .

وهبتُ لهُ ذلكَ ، فهبْ لي عذابَهُ ولا تعذِّبْهُ ، فأبكى الناسَ ، ثمَّ قالَ عندَ انصرافِهِ : ما علينا بعدَكَ مِنْ خصاصةٍ يا ذرُّ ، وما بنا إلىٰ إنسانٍ معَ اللهِ حاجةٌ ؛ فلقدْ مضينا وتركناكَ ، ولو أقمنا . . ما نفعناكَ[1] .

ونظرَ رجلٌ إلى امرأةٍ بالبصرةِ فقالَ : ما رأيتُ مثلَ هـٰذهِ النضارةِ ، وما ذاك إلاَّ مِنْ قلَّةِ الحزنِ ، فقالَتْ : يا عبدَ اللهِ ؛ إنِّي لفي حزنٍ ما يشركُني فيهِ أحدٌ ، قالَ : وكيفَ ؟! قالَتْ : إنَّ زوجي ذبحَ شاةً في يومِ الأضحىٰ ، وكانَ لي صبيَّانِ مليحانِ يلعبانِ ، فقالَ أكبرُهُما للآخرِ : أتريدُ أنْ أريَكَ كيفَ ذبحَ أبي الشاةَ ؟ قالَ : نعمْ ، فأخذَهُ وذبحَهُ ، فما شعرنا بهِ إلاَّ متشحِّطاً في دمِهِ ، فلمَّا ارتفعَ الصُّراخُ . . هربَ الغلامُ فلجأَ إلىٰ جبلٍ ، فرهقَهُ ذئبٌ فأكلَهُ ، وخرجَ أبوه يطلبُهُ فماتَ عطشاً مِنْ شدَّةِ الحرِّ ، قالَتْ : فأفردَني الدهرُ كما ترىٰ[2] .

فأمثالُ هـٰذهِ المصائبِ ينبغي أنْ تُتذكرَ عندَ موتِ الأولادِ ليُتسلَّىٰ بها عَنْ شدةِ الجزعِ ، فما مِنْ مصيبةٍ إلاَّ ويُتصورُ ما هو أعظمُ منها ، وما يدفعُهُ اللهُ تعالىٰ في كلِّ حالٍ . . فهوَ الأكثرُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٠٨) بنحوه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزاء » . « إتحاف » (١٠/ ٣٦٠) .

بيان زيارة القبور والدّعاء للميّت وما يتعلّق به

زيارةُ القبورِ مستحبَّةٌ على الجملةِ للتذكرِ والاعتبارِ ، وزيارةُ قبورِ الصالحينَ مستحبةٌ لأجلِ التبرُّكِ معَ الاعتبارِ .

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ زيارةِ القبورِ ثمَّ أذنَ في ذلك بعدُ ؛ فقدْ رُوِيَ عنْ عليٍّ رضِيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَنَّهُ قالَ : « كنتُ نهيتُكم عنْ زيارةِ القبورِ ، فزوروها ؛ فإنَّها تذكِّرُكمُ الآخرةَ ، غيرَ ألاَّ تقولوا هُجْراً »[١] .

وزارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبرَ أمِّهِ في ألفِ مقنعٍ ، فلمْ يُرَ باكياً أكثرَ مِنْ يومِئذٍ ، وفي هٰذا اليومِ قالَ : « أُذنَ لي في الزيارةِ دونَ الاستغفارِ »[٢] كما روينا مِنْ قبلُ .

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : أقبلَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها يوماً مِنَ المقابرِ ، فقلتُ : يا أمَّ المؤمنينَ ؛ مِنْ أينَ أقبلتِ ؟ قالَتْ : (مِنْ قبرِ أخي عبدِ الرَّحمٰنِ) فقلتُ : أليسَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنها ؟! قالَتْ : (نعم ثمَّ أمرَ بها)[٣] .

---

(١) رواه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، والنسائي (٤/ ٨٩) ، والهجر : القول الفاحش الذي ينافي مقام التذكر والعبرة عند الزيارة .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٥٥) ، وهو عند مسلم (٩٧٦) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٥).

ولا ينبغي أن يُتمسكَ بهـٰذا فيُؤذنَ للنساءِ في الخروجِ إلى المقابرِ ؛ فإنَّهنَّ يكثِرْنَ الهُجْرَ علىٰ رؤوسِ المقابرِ ، فلا يفي خيرُ زيارتِهنَّ بشرِّها ، ولا يخلونَ في الطريقِ عنْ تكشُّفٍ وتبرُّجٍ ، وهـٰذهِ عظائمُ والزيارةُ سنةٌ ، فكيفَ يُحتملُ ذلكَ لأجلِها ؟!

نعمْ ، لا بأسَ بخروجِ المرأةِ في ثيابٍ بذلةٍ تردُّ أعينَ الرجالِ عنْها ، وذلكَ بشرطِ الاقتصارِ على الدعاءِ ، وتركِ الحديثِ علىٰ رأسِ القبرِ .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زُرِ القبورَ . . تذكرْ بها الآخرةَ ، واغسلِ الموتىٰ ؛ فإنَّ معالجةَ جسدٍ خاوٍ موعظةٌ بليغةٌ ، وصلِّ على الجنائزِ لعلَّ ذلكَ أنْ يحزنَكَ ؛ فإنَّ الحزينَ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ »(١) .

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زوروا موتاكم وسلِّموا عليهم وصلُّوا عليهم ؛ فإنَّ لكمْ فيهمْ عبرةً »(٢) .

وعنْ نافعٍ : أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ لا يمرُّ بقبرٍ واحدٍ إلاَّ وقفَ عليهِ وسلَّم عليهِ(٣) .

وعنْ جعفرِ بنِ محمدٍ عنْ أبيهِ : أنَّ فاطمةَ بنتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٥١) .
(٢) رواه الديلمي في « الفردوس » (٣٣٤١) مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٩٠٨) .

كانَتْ تزورُ قبرَ عمِّها حمزةَ في الأيامِ ، فتصلي وتبكي عندَهُ[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَ قبرَ أبويهِ أوْ أحدِهما في كلِّ جمعةٍ . . غُفرَ لهُ وكُتبَ بَرّاً »[2] .

وعنِ ابنِ سيرينَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليموتُ والداهُ وهوَ عاقٌّ لهما ، فيدعو اللهَ لهما مِنْ بعدِ موتِهما ، فيكتبُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ البارِّينَ »[3] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَ قبري . . فقدْ وجَبَتْ لهُ شفاعتي »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَني بالمدينةِ محتسباً . . كنتُ لهُ شفيعاً وشهيداً يومَ القيامةِ »[5] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (مَا مِنْ فجرٍ يطلعُ إلاَّ نزلَ سبعونَ ألفاً مِنَ الملائكةِ حتىٰ يحفوا بالقبرِ[6] ، يضربونَ بأجنحتِهِمْ ويصلُّونَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/٧٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٣٧٦) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦١١٠) مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٢٢) معضلاً من حديث محمد بن النعمان .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٣) .

(٤) رواه الدارقطني (٢/٢٧٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٦٢) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٥٩) .

(٦) أي : بقبره صلى الله عليه وسلم . « إتحاف » (١٠/٣٦٤) .

وسلَّمَ ، حتىٰ إذا أمسوا . . عرجوا وهبطَ مثلُهم فصنعوا مثلَ ذلكَ ، حتىٰ إذا انشقَّتِ الأرضُ . . خرجَ في سبعينَ ألفاً مِنَ الملائكةِ يوقِّرونَهُ)[1] .

والمستحبُّ في زيارةِ القبورِ أنْ يقفَ مستدبرَ القبلةِ مستقبلاً لوجهِ الميتِ ، وأن يسلِّمَ ولا يمسحَ القبرَ ولا يقبِّلَهُ ولا يمسَّهُ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ عادةِ النصارىٰ .

قالَ نافعٌ : كانَ ابنُ عمرَ ـ رأيتُه مئةَ مرةٍ أو أكثرَ ـ يجيءُ إلى القبرِ فيقولُ : (السَّلامُ على النبيِّ ، السَّلامُ علىٰ أبي بكرٍ ، السَّلامُ علىٰ أبي) وينصرفُ[2] .

وعنْ أبي أمامةَ قالَ : (رأيتُ أنسَ بنَ مالكٍ أتىٰ قبرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فوقفَ ، فرفعَ يديهِ حتىٰ ظننتُ أنَّهُ افتتحَ الصلاةَ ، فسلَّمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ انصرفَ)[3] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ رجلٍ يزورُ قبرَ أخيهِ ويجلسُ عندَهُ إلاَّ استأنسَ بهِ وردَّ عليهِ حتىٰ يقومَ »[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٩٠) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٩١٥) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٧) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « الاستذكار » (١٨٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وحكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص٢١١) .

وقالَ سليمانُ بنُ سحيمٍ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النَّومِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هؤلاءِ الذينَ يأتونَكَ ويسلِّمونَ عليكَ أتفقهُ سلامَهُم ؟ قالَ : « نعمْ ، وأردُّ عليهِمْ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا مرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ يعرفُهُ فسلَّمَ عليهِ . . ردَّ عليهِ السَّلامَ وعرفَهُ ، وإذا مرَّ بقبرٍ لا يعرفُهُ فسلَّمَ عليهِ . . ردَّ عليهِ السَّلامَ)(٢) .

وقالَ رجلٌ مِنْ آلِ عاصمٍ الجحدريِّ : رأيتُ عاصماً في منامي بعدَ موتِهِ بسنتينِ ، فقلتُ : أليسَ قَدْ مِتَّ ؟ قالَ : بلىٰ ، قلتُ : فأينَ أنتَ ؟ فقالَ : أنا واللهِ في روضةٍ مِنْ رياضِ الجنَّةِ أنا ونفرٌ مِنْ أصحابي ، نجتمعُ كلَّ ليلةِ جمعةٍ وصبيحتِها إلىٰ أبي بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ ، فنتلاقىٰ أخبارَكم ، قلتُ : أجسامُكُم أمْ أرواحُكُم ؟ قالَ : هيهاتَ ! بليَتِ الأجسامُ ، وإنَّما تتلاقى الأرواحُ ، قالَ : قلتُ : فهلْ تعلمونَ بزيارتِنا إيَّاكم ؟ قالَ : نعمْ ، نعلمُ بها عشيَّةَ الجمعةِ ، ويومَ الجمعةِ كلَّهُ ، ويومَ السبتِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ دونَ الأيامِ كلِّها ؟ قالَ : لفضلِ يومِ الجمعةِ وعظمِهِ(٣) .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٨) ، وعند أبي داوود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليَّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام » .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٧) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦١) ، وفي (ب) : (بسنين) بدل (بسنتين) وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٦٧) .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يزورُ يومَ الجمعةِ ، فقيلَ لهُ : لوْ أخَّرتَ إلىٰ يومِ الاثنينِ ، فقالَ : بلغَني أنَّ الموتىٰ يعلمونَ بزوَّارِهم يومَ الجمعةِ ويوماً قبلَهُ ويوماً بعدَهُ[1] .

وقالَ الضحاكُ : مَنْ زارَ قبراً يومَ السبتِ قبلَ طلوعِ الشمسِ . . علمَ الميتُ بزيارتِهِ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لمكانِ يومِ الجمعةِ[2] .

وقالَ بشرُ بنُ منصورٍ : لمَّا كانَ زمنُ الطاعونِ . . كانَ رجلٌ يختلفُ إلى الجبَّانةِ فيشهدُ الصلاةَ على الجنائزِ ، فإذا أمسىٰ . . وقفَ علىٰ بابِ المقابرِ فقالَ : آنسَ اللهُ وحشتَكُم ، ورحمَ غربتَكُم ، وتجاوزَ عنْ سيئاتِكم ، وقبلَ اللهُ حسناتِكُم ، لا يزيدُ علىٰ هـٰذه الكلماتِ ، قالَ الرجلُ : فأمسيتُ ذاتَ ليلةٍ ، فانصرفتُ إلىٰ أهلي ولمْ آتِ المقابرَ فأدعوَ كما كنتُ أدعو ، فبينَما أنا نائمٌ ؛ إذا أنا بخلقٍ كثيرٍ قدْ جاؤوني ، فقلتُ : ما أنتُمْ ؟ وما حاجتُكُم ؟ قالوا : نحنُ أهلُ المقابرِ ، قلتُ : ما جاءَ بكم ؟ قالوا : إنَّك كنتَ عوَّدتَنا منكَ هديةً عندَ انصرافِكَ إلىٰ أهلِكَ ، قلتُ : وما هيَ ؟ قالوا : الدعواتُ التي كنتَ تدعو لنا بها ، قلتُ : فإنِّي أعودُ لذلكَ ، فما تركتُها بعدَ ذلكَ[3] .

وقالَ بشارُ بنُ غالبٍ النجرانيُّ : رأيتُ رابعةَ العدويةَ العابدةَ في منامي ،

---

(1) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٢) .
(2) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٣) ، وفي (أ) : (لبركة) بدل (لمكان) .
(3) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٩) .

وكنتُ كثيرَ الدعاءِ لها ، فقالَتْ لي : يا بشارَ بنَ غالبٍ ؛ هداياكَ تأتينا علىٰ أطباقٍ مِنْ نورٍ ، مخمَّرةً بمناديلِ الحريرِ ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَتْ : وهٰكذا دعاءُ المؤمنينَ الأحياءِ إذا دعوا للموتىٰ فاستُجيبَ لهمُ . . جُعلَ ذلكَ الدعاءُ علىٰ أطباقِ النورِ ، وخُمِّرَ بمناديلِ الحريرِ ، ثمَّ أُتيَ بهِ الميتَ ، فقيلَ لهُ : هٰذهِ هديةُ فلانٍ إليكَ(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الميتُ في قبرِهِ إلاَّ كالغريقِ المتغوِّثِ ، ينتظرُ دعوةً تلحقُهُ مِنْ أبيهِ أوْ أخيهِ أوْ صديقٍ لهُ ، فإذا لحقَتْهُ . . كانَتْ أحبَّ إليهِ مِنَ الدنيا وما فيها ، وإنَّ هدايا الأحياءِ للأمواتِ الدعاءُ والاستغفارُ »(٢) .

وقالَ بعضُهم : ماتَ أخٌ لي ، فرأيتُهُ في المنامِ فقلتُ : ما كانَ حالُكَ حينَ وُضعتَ في قبرِكَ ؟ قالَ : أتاني آتٍ بشهابٍ مِنْ نارٍ ، فلولا أنَّ داعياً دعا لي . . لرأيتُ أنَّهُ سيضربُني به(٣) .

وعن هٰذا يُستحبُّ تلقينُ الميتِ بعدَ الدفنِ والدعاءُ لهُ ، قالَ سعيدُ بنُ عبدِ اللهِ الأوديُّ(٤) : شهدتُ أبا أمامةَ الباهليَّ وهوَ في النزعِ ، فقالَ :

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٠) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٥) ، والديلمي في « الفردوس » (٦٣٢٣) .

(٣) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٨٢) ، وفي (د) : (سيحرقني) بدل (سيضربني) .

(٤) كذا في (ج ، د ، ي) ، وفي البقية : (الأزدي) ، وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/٣٦٨) .

يا سعيدُ ؛ إذا متُّ . . فاصنعوا بي كما أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال : « إذا ماتَ أحدُكُمْ فسوَّيتُم عليهِ الترابَ . . فليقمْ أحدُكُم علىٰ رأسِ قبرِهِ وليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ فإنَّهُ يسمعُ ولا يجيبُ ، ثمَّ ليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ الثانيةَ ؛ فإنَّهُ يستوي قاعداً ، ثمَّ ليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ الثالثةَ ؛ فإنَّهُ يقولُ : أرشدْنا يرحمُكَ اللهُ ، ولكنْ لا تسمعونَ ، فيقولُ لهُ : اذكرْ ما خرجتَ عليهِ مِنَ الدنيا : شهادةَ أنَ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، وأنَّكَ رضيتَ باللهِ رباً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبياً ، وبالقرآنِ إماماً ؛ فإنَّ منكراً ونكيراً يتأخرُ كلُّ واحدٍ منْهما فيقولُ : انطلقْ بنا ما يقعدُنا عندَ هـٰذا وقدْ لُقِّنَ حجَّتَهُ ؟! ويكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ حجيجَهُ دونَهُما » فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ فإنْ لمْ يعرفِ اسمَ أمِّهِ ؟ قالَ : « فلينسبْهُ إلىٰ حواءَ »(١) .

ولا بأسَ بقراءةِ القرآنِ على القبورِ ، رُويَ عنْ عليِّ بنِ موسى الحدادِ قالَ : كنتُ معَ أحمدَ ابنِ حنبلٍ في جنازةٍ ومحمدُ بنُ قدامةَ الجوهريُّ معَنا ، فلمَّا دُفنَ الميتُ . . جاءَ رجلٌ ضريرٌ يقرأُ عندَ القبرِ ، فقالَ لهُ أحمدُ : يا هـٰذا ؛ إنَّ القراءةَ عندَ القبرِ بدعةٌ ، فلمَّا خرجنا مِنَ المقابرِ . . قالَ محمدُ بنُ قدامةَ لأحمدَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما تقولُ في مبشرِ بنِ إسماعيلَ الحلبيِّ ؟ قالَ : ثقةٌ ، قالَ : هلْ كتبتَ عنهُ شيئاً ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ :

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢٤٩) .

أخبرَني مبشرُ بنُ إسماعيلَ عنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ العلاءِ بنِ اللجلاجِ عنْ أبيهِ : أنَّهُ أوصىٰ إذا دُفِنَ أنْ يُقرأَ عندَ رأسِهِ بفاتحةِ (البقرة) وخاتمتِها ، وقالَ : سمعتُ ابنَ عمرَ يوصي بذلكَ ، فقالَ لهُ أحمدُ : فارجعْ إلى الرجلِ فقلْ لهُ يقرأُ[(١)] .

وقالَ محمدُ بنُ أحمدَ المروروذي : سمعتُ أحمدَ ابنَ حنبلٍ يقولُ : إذا دخلتُمُ المقابرَ . . فاقرؤوا بـ(فاتحةِ الكتابِ) ، و(المعوِّذتينِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) واجعلوا ثوابَ ذلكَ لأهلِ المقابرِ ؛ فإنَّهُ يصلُ إليهم[(٢)] .

وقالَ أبو قلابةَ : أقبلتُ مِنَ الشامِ إلى البصرةِ فنزلتُ الخندقَ ، فتطهرتُ وصلَّيتُ ركعتينِ بليلٍ ، ثمَّ وضعتُ رأسي علىٰ قبرٍ فنمتُ ، ثمَّ انتبهتُ ؛ فإذا صاحبُ القبرِ يشتكيني ويقولُ : لقد آذيتَني منذُ الليلةِ ، ثمَّ قالَ : إنَّكم لا تعلمونَ ونحنُ نعلمُ ولا نقدرُ على العملِ ، ثمَّ قالَ : للركعتانِ اللَّتانِ ركعتَهما خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، ثمَّ قالَ : جزى اللهُ أهلَ الدنيا عنَّا خيراً ، أقرئْهمُ السَّلامَ ؛ فإنَّهُ قدْ يدخلُ علينا مِنْ دعائِهم نورٌ أمثالُ الجبالِ[(٣)] .

فالمقصودُ مِنْ زيارةِ القبورِ للزائرِ الاعتبارُ بها، وللمزورِ الانتفاعُ بدعائِهِ، فلا ينبغي أنْ يغفلَ الزائرُ عنِ الدعاءِ لنفسِهِ وللميتِ ، ولا عنِ الاعتبارِ بهِ .

---

(١) حكى القصة هـٰكذا أبو بكر الخلال في « القراءة عند القبور » (ص٤) ، وروى الأثر الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٢٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٥٦) .

(٢) أورده ابن أبي يعلىٰ في « طبقات الحنابلة » (٢/ ٢٢٤) .

(٣) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٧/ ٤٠) بنحوه عن ابن ميناء .

وإنَّما يحصلُ له الاعتبارُ بأن يصورَ في قلبِهِ الميتَ كيفَ تفرقَتْ أجزاؤُهُ ، وكيفَ يُبعثُ مِنْ قبرِهِ ، وأنَّهُ على القربِ سيلحقُ بهِ ، كما رُوِيَ عنْ مطرِّفِ بنِ أبي بكرٍ الهذليِّ قالَ : كانَتْ عجوزٌ في عبدِ القيسِ متعبدةٌ ، فكانَ إذا جاءَ الليلُ . . تحزمَتْ ثمَّ قامَتْ إلى المحرابِ ، وإذا جاءَ النهارُ . . خرجَتْ إلى القبورِ ، فبلغَني أنَّها عُوتبَتْ في كثرةِ إتيانِها المقابرَ ، فقالَتْ : إنَّ القلبَ القاسيَ إذا جفا . . لمْ يلينْهُ إلاَّ رسومُ البلىٰ ، وإنِّي لآتي القبورَ فكأنِّي أنظرُ وقدْ خرجوا مِنْ بينِ أطباقِها ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ تلكَ الوجوهِ المتعفِّرةِ ، وإلىٰ تلكَ الأجسامِ المتغيِّرةِ ، وإلىٰ تلكَ الأكفانِ الدسمةِ ، فيا لها مِنْ نظرةٍ لوْ أشربَها العبادُ قلوبَهُم ، ما أنكلَ مرارتَها للأنفسِ ، وأشدَّ تلفَها للأبدانِ !!(١) .

بلْ ينبغي أن يُحضرَ مِنْ صورةِ الميتِ ما ذكرَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ حيثُ دخلَ عليهِ فقيهٌ فتعجَّبَ مِنْ تغيُّرِ صورتِهِ لكثرةِ الجهدِ والعبادةِ ، فقالَ لهُ : يا فلانُ ؛ كيفَ لوْ رأيتَني بعدَ ثلاثٍ وقدْ أُدخلتُ قبري ، وقدْ خرجَتِ الحدقتانِ فسالَتا على الخدَّينِ ، وتقلَّصَتِ الشفتانِ على الأسنانِ ، وخرجَ الصديدُ مِنَ الفمِ ، وانفتحَ الفمُ ونتأ البطنُ فعلا على الصدرِ ، وخرجَ الصلبُ مِنَ الدبرِ ، وخرجَ الدودُ والصديدُ مِنَ المناخرِ . . لرأيتَ أعجبَ ممَّا تراهُ الآنَ(٢) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٧٤) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٣٩) .

ويُستحبُّ أيضاً الثناءُ على الميتِ ، وألاَّ يُذكرَ إلاَّ بالجميلِ ؛ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ صاحبُكم . . فدعوهُ ولا تقعوا فيهِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الأمواتَ ؛ فإنَّهم قدْ أفضَوا إلىٰ ما قدَّموا »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تذكروا موتاكم إلاَّ بخيرٍ ؛ فإنَّهم إنْ يكونوا مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . تأثموا ، وإنْ يكونوا مِنْ أهلِ النَّارِ . . فحسبُهُمْ ما همْ فيهِ »[٣] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : مرَّتْ جنازةٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأثنَوْا عليها شرّاً ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « وجبَتْ » ومرُّوا بأخرىٰ ، فأثنَوْا عليها خيراً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجبَتْ » فسألَهُ عمرُ عنْ ذلكَ فقالَ : « إنَّ هـٰذا أثنيتُم عليهِ خيراً فوجبَتْ لهُ الجنَّةُ ، وهـٰذا أثنيتمْ عليهِ شرّاً فوجبَتْ لهُ النَّارُ ، وأنتم شهداءُ اللهِ في الأرضِ »[٤] .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٩٩) ، وفي (د) : (فدعوه لا تقعوا فيه) ، وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٧٤) .

(٢) رواه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » هـٰكذا . « إتحاف » (١٠/ ٣٧٤) ، ورواه النسائي (٤/ ٥٢) مقتصراً على الجملة الأولىٰ بلفظ : (هلكاكم) ، وفي الباب عند أبي داوود (٤٩٠٠) ، والترمذي (١٠١٩) : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » .

(٤) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليموتُ فيثني عليهِ القومُ الثناءَ يعلمُ اللهُ تعالىٰ منهُ غيرَهُ . . فيقولُ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : أشهدُكم أنِّي قدْ قبلتُ شهادةَ عبيدي علىٰ عبدي ، وتجاوزتُ عنْ علمي في عبدي »(١) .

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٨٤) ، وأوله : « ما من عبد مسلم يموت يشهد له ثلاثة أبيات من جيرانه الأدنين بخير . . . » .

البَابُ السَّابِعُ
في حقيقة الموت، وما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصّور

بيان حقيقة الموت

اعلمْ : أنَّ للناسِ في حقيقةِ الموتِ ظنوناً كاذبةً قدْ أخطؤوا فيها ، فظنَّ بعضُهم أنَّ الموتَ هوَ العدمُ ، وأنَّهُ لا حشرَ ولا نشرَ ، ولا عاقبةَ للخيرِ والشرِّ ، وأنَّ موتَ الإنسانِ كموتِ الحيواناتِ وجفافِ النباتِ ، وهاذا رأيُ الملاحدةِ وكلِّ مَنْ لا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ .

وظنَّ قومٌ أنَّهُ ينعدمُ بالموتِ ، ولا يتألمُ بعقابٍ ، ولا يتنعَّمُ بثوابٍ ما دامَ في القبرِ إلىٰ أَنْ يُعادَ في وقتِ الحشرِ .

وقالَ آخرونَ : إنَّ الروحَ باقيةٌ لا تنعدمُ بالموتِ ، وإنَّما المثابُ والمعاقبُ هيَ الأرواحُ دونَ الأجسادِ ، وإنَّ الأجسادَ لا تُبعثُ ولا تُحشرُ أصلاً .

وكلُّ هاذهِ الظنونِ فاسدةٌ ومائلةٌ عن الحقِّ ، بلِ الذي تشهدُ له طرقُ الاعتبارِ وتنطقُ بهِ الآياتُ والأخبارُ أنَّ الموتَ معناهُ : تغيُّرُ حالٍ فقط ، وأنَّ الروحَ باقيةٌ بعدَ مفارقةِ الجسدِ إمَّا معذَّبةً وإمَّا منعَّمةً .

ومعنىٰ مفارقتِها للجسدِ : انقطاعُ تصرفِها عنِ الجسدِ بخروجِ الجسدِ عن طاعتِها ؛ فإنَّ الأعضاءَ آلاتٌ للروحِ تستعملُها ، حتىٰ إنَّها لتبطشُ باليدِ وتسمعُ

بالأذنِ وتبصرُ بالعينِ ، وتعلمُ حقيقةَ الأشياءِ بالقلبِ ، والقلبُ هٰهنا عبارةٌ عنِ الروحِ ، فالروحُ تعلمُ الأشياءَ بنفسِها مِنْ غيرِ آلةٍ ، ولذلكَ قدْ يتألَّمُ بنفسِهِ بأنواعِ الحزنِ والغمِّ والكمدِ ، ويتنعمُ بأنواعِ الفرحِ والسرورِ ، وكلُّ ذلك لا يتعلَّقُ بالأعضاءِ ، فكلُّ ما هوَ وصفٌ للروحِ بنفسِها فيبقىٰ معَها بعدَ مفارقةِ الجسدِ ، وما هوَ لها بواسطةِ الأعضاءِ فيتعطَّلُ بموتِ الجسدِ إلىٰ أنْ تُعادَ الروحُ إلى الجسدِ ، ولا يبعدُ أنْ تُعادَ الروحُ إلى الجسدِ في القبرِ ، ولا يبعدُ أنْ تُؤخَّرَ إلىٰ يومِ البعثِ ، واللهُ أعلمُ بما حكمَ بهِ علىٰ كلِّ عبدٍ مِنْ عبادِهِ .

وإنَّما تعطُّلُ الجسدِ بالموتِ يضاهي تعطُّلَ أعضاءِ الزَّمِنِ بفسادِ مزاجٍ يقعُ فيهِ ، وبشدةٍ تقعُ في الأعصابِ تمنعُ نفوذَ الروحِ فيها ، فتكونُ الروحُ العالمةُ العاقلةُ المدركةُ باقيةً مستعملةً لبعضِ الأعضاءِ ، وقدِ استعصىٰ عليها بعضُها ، والموتُ عبارةٌ عنِ استعصاءِ الأعضاءِ كلِّها ، وكلُّ الأعضاءِ آلاتٌ ، والروحُ هيَ المستعملةُ لها .

وأعني بالروحِ : المعنى الذي يدركُ مِنَ الإنسانِ العلومَ والآلامَ والغمومَ[1] ولذاتِ الأفراحِ ، ومهما بطلَ تصرُّفُها في الأعضاءِ .. لمْ تبطلْ مِنْها العلومُ والإدراكاتُ ، ولا بطلَ مِنْها الأفراحُ والغمومُ ، ولا بطلَ مِنْها قبولُها للآلامِ واللذّاتِ .

والإنسانُ بالحقيقةِ هوَ المعنى المدركُ للعلومِ وللآلامِ واللذّاتِ ، وذلكَ لا يموتُ ؛ أيْ : لا ينعدمُ .

---

(١) في (ن) : (وآلام الغموم) .

ومعنى الموتِ : انقطاعُ تصرفِهِ عَنِ البدنِ ، وخروجُ البدنِ عنْ أنْ يكونَ آلةً لهُ ، كما أنَّ معنى الزمانةِ خروجُ اليدِ عنْ أنْ تكونَ آلةً مستعملةً ، فالموتُ زمانةٌ مطلقةٌ في الأعضاءِ كلِّها ، وحقيقةُ الإنسانِ نفسُهُ وروحُهُ ، وهيَ باقيةٌ .

نعمْ ، تغيُّرُ حالِهِ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ سلبَ منهُ عينَهُ وأذنَهُ ولسانَهُ ويدَهُ ورجلَهُ وجميعَ أعضائِهِ ، وسلبَ منهُ أهلَهُ وولدَهُ وأقاربَهُ وسائرَ معارفِهِ ، وسلبَ منهُ خيلَهُ ودوابَّهُ وغلمانَهُ ودُورَهُ وعقارَهُ وسائرَ أملاكِهِ .

ولا فرقَ بينَ أنْ تُسلبَ هـٰذهِ الأشياءُ مِنَ الإنسانِ وبينَ أنْ يُسلبَ الإنسانُ مِنْ هـٰذهِ الأشياءِ ؛ فإنَّ المؤلمَ هو الفراقُ ، والفراقُ يحصلُ تارةً بأنْ يُنهبَ مالُ الرجلِ ، وتارةً بأنْ يُسبَى الرجلُ عنِ الملكِ والمالِ ، والألمُ واحدٌ في الحالينِ .

وإنَّما معنى الموتِ : سلبُ الإنسانِ عنْ أموالِهِ بإزعاجِهِ إلىٰ عالمٍ آخرَ لا يناسبُ هـٰذا العالمَ ؛ فإنْ كانَ لهُ في الدنيا شيءٌ يأنسُ بهِ ويستريحُ إليهِ ويعتدُّ بوجودِه.. فيعظمُ تحسُّرُهُ عليهِ بعدَ الموتِ ، ويصعبُ شقاؤُهُ في مفارقتِهِ ، بلْ يلتفتُ قلبُهُ إلىٰ واحدٍ واحدٍ من مالِهِ وجاهِهِ وعقارِهِ ، حتىٰ إلىٰ قميصٍ كانَ يلبسُهُ مثلاً ويفرحُ بهِ ، وإنْ لمْ يكنْ يفرحُ إلاَّ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ولمْ يأنسْ إلاَّ بهِ.. عظمَ نعيمُهُ وتمَّتْ سعادتُهُ ؛ إذْ خُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، وقُطعَتْ عنهُ العوائقُ والشواغلُ ؛ إذْ جميعُ أسبابِ الدنيا شاغلةٌ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فهـٰذا أحدُ وجهيِ المخالفةِ بينَ حالِ الموتِ وحالِ الحياة .

والثاني : أنَّهُ ينكشفُ لهُ بالموتِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً لهُ في الحياةِ ؛ كما ينكشفُ للمتيقِّظِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً في النومِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، وأولُ ما ينكشفُ لهُ ما يضرُّهُ وينفعُهُ مِنْ حسناتِهِ وسيئاتِهِ ، وقدْ كانَ ذلكَ مسطوراً في كتابٍ مطويٍّ في سرِّ قلبِهِ ، وكانَ يشغلُهُ عنِ الاطلاعِ عليهِ شواغلُ الدنيا ؛ فإذا انقطعَتِ الشواغلُ . . انكشفَ له جميعُ أعمالِهِ ، فلا ينظرُ إلىٰ سيئةٍ إلاَّ ويتحسَّرُ عليها تحسُّراً يؤثِرُ أنْ يخوضَ غمرةَ النارِ للخلاصِ مِنْ تلكَ الحسرةِ ، وعندَ ذلك يُقالُ لهُ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

وينكشفُ كلُّ ذلكَ عندَ انقطاعِ النفسِ وقبلَ الدفنِ ، وتشتعلُ فيهِ نيرانُ الفراقِ ؛ أعني : فراقَ ما كانَ يطمئنُّ إليهِ مِنْ هـٰذه الدنيا الفانيةِ دونَ ما أرادَ مِنْها لأجلِ الزادِ والبلغةِ ؛ فإنَّ مَنْ طلبَ الزادَ للبلغةِ : فإذا بلغَ المقصدَ . . فرحَ بمفارقتِهِ بقيةَ الزادِ ؛ إذْ لمْ يكنْ يريدُ الزادَ لعينِهِ ، وهـٰذا حالُ مَنْ لمْ يأخذْ مِنَ الدنيا إلاَّ بقدرِ الضرورةِ ، وكانَ يودُّ أنْ تنقطعَ ضرورتُهُ ، ليستغنيَ عنهُ ؛ فقدْ حصلَ ما كانَ يودُّهُ واستغنىٰ عنهُ .

وهـٰذهِ أنواعٌ مِنَ العذابِ والآلامِ عظيمةٌ ، تهجمُ عليهِ قبلَ الدفنِ ، ثمَّ عندَ الدفنِ قد تُردُّ روحُهُ إلى الجسدِ لنوعٍ آخرَ مِنَ العذابِ ، وقدْ يُعفىٰ عنهُ ، ويكونُ حالُ المتنعمِ بالدنيا المطمئنِّ إليها كحالِ مَنْ تنعَّمَ عندَ غيبةِ ملكٍ مِنَ الملوكِ في دارِهِ وملكِهِ وحريمِهِ اعتماداً علىٰ أنَّ الملكَ يتساهلُ في أمرِهِ ، أوْ علىٰ أنَّ الملكَ ليسَ يدري ما يتعاطاهُ مِنْ قبيحِ أفعالِهِ ، فأخذَهُ الملكُ بغتةً ، وعرضَ عليهِ جريدةً قدْ دُوِّنَتْ فيها جميعُ فواحشِهِ وجناياتِهِ ذرَّةً ذرَّةً ، وخطوةً

خطوةً ، والملكُ قاهرٌ متسلِّطٌ ، وغيورٌ علىٰ حرمِهِ ، ومنتقمٌ مِنَ الجناةِ علىٰ ملكِهِ ، وغيرُ ملتفتٍ إلىٰ مَنْ يتشفعُ إليهِ في العصاةِ عليهِ ، فانظرْ إلىٰ هٰذا المأخوذِ كيفَ يكونُ حالُهُ قبلَ نزولِ عذابِ الملكِ بهِ مِنَ الخوفِ ، والخجلةِ والحياءِ ، والتحسُّرِ والتندُّمِ .

فهٰذا حالُ الميتِ الفاجرِ المغترِّ بالدنيا المطمئنِّ إليها قبلَ نزولِ عذابِ القبرِ بهِ ، بلْ عندَ موتِهِ نعوذُ باللهِ منهُ ؛ فإنَّ الخزيَ والافتضاحَ وهتكَ السترِ أعظمُ مِنْ كلِّ عذابٍ يحلُّ بالجسدِ مِنَ الضربِ والقطعِ وغيرِهما .

فهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ حالِ الميتِ عندَ الموتِ شاهدَها أولو البصائرِ بمشاهدةٍ باطنةٍ أقوىٰ مِنْ مشاهدةِ العينِ ، وشهدَ لذلكَ شواهدُ الكتابِ والسنةِ .

نعمْ ، لا يمكنُ كشفُ الغطاءِ عنْ كنهِ حقيقةِ الموتِ ؛ إذْ لا يعرفُ الموتَ مَنْ لا يعرفُ الحياةَ ، ومعرفةُ الحياةِ بمعرفةِ حقيقةِ الروحِ في نفسِها ، وإدراكِ ماهيةِ ذاتِها ، ولمْ يُؤذنْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يتكلمَ فيها ، ولا أنْ يزيدَ علىٰ أنْ يقولَ : ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ، فليسَ لأحدٍ مِنْ علماءِ الدينِ أنْ يكشفَ عنْ سرِّ الروحِ وإنِ اطَّلعَ عليهِ ، وإنَّما المأذونُ فيهِ ذكرُ حالِ الروحِ بعدَ الموتِ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ الموتَ ليسَ عبارةً عنِ انعدامِ الروحِ وانعدامِ إدراكِها آياتٌ وأخبارٌ كثيرةٌ .

أمَّا الآياتُ : فما وردَ في الشهداءِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ ﴾ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا ما وردَ في الشرعِ : فلمَّا قُتلَ صناديدُ قريشٍ يومَ بدرٍ . . ناداهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا فلانُ ، يا فلانُ ، يا فلانُ ؛ قدْ وجدتُ ما وعدَني ربي حقاً ، فهلْ وجدتُم ما وعدَ ربُّكم حقاً ؟ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أتناديهم وهمْ أمواتٌ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِه ؛ إنَّهم لأسمعُ لهـٰذا الكلامِ منكم ، إلاَّ أنَّهُمْ لا يقدرونَ على الجوابِ »(١) فهـٰذا نصٌّ في بقاءِ روحِ الشقيِّ ، وبقاءِ إدراكِها ومعرفتِها ، والآيةُ نصٌّ في أرواحِ الشهداءِ ، ولا يخلو الميتُ عنْ سعادةٍ أو شقاوةٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القبرُ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النَّارِ ، أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ »(٢) وهـٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الموتَ معناهُ تغيُّرُ حالٍ فقطْ ، وأنَّ ما سيكونُ مِنْ شقاوةِ الميتِ وسعادتِهِ يتعجَّلُ عندَ الموتِ مِنْ غيرِ تأخُّرٍ ، وإنَّما يتأخرُ بعضُ أنواعِ العذابِ والثوابِ دونَ أصلِهِ .

وروىٰ أنسٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الموتُ القيامةُ ، فمَنْ ماتَ . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٥) ، وفيه ذكرُ أسمائهم .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٠) بتقديم الجملة الثانية على الأولىٰ .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٠) ، والديلمي في =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ أحدُكُم . . عُرِضَ عليهِ مقعدُهُ غدوةً وعشيةً ، إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . فمِنْ أهلِ الجنَّةِ ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فمِنْ أهلِ النَّارِ ، يُقالُ : هٰذا مقعدُكَ حتىٰ يبعثَكَ اللهُ يومَ القيامةِ »[1] وليسَ يخفىٰ ما في مشاهدةِ المقعدينِ مِنْ عذابٍ ونعيمٍ في الحالِ .

وعنْ أبي قيسٍ قالَ : كنَّا معَ علقمةَ في جنازةٍ فقالَ : أمَّا هٰذا . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ[2] .

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : (حرامٌ علىٰ نفسٍ أنْ تخرجَ مِنَ الدنيا حتىٰ تعلمَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ هيَ أمْ مِنْ أهلِ النَّارِ)[3] .

وقالَ أبو هريرةَ رضي الله عنه : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ مريضاً . . ماتَ شهيداً ، ووُقيَ فتَّانِي القبرِ ، وغُديَ ورِيحَ عليهِ برزقِهِ مِنَ الجنَّةِ »[4] .

= « مسند الفردوس » (١١١٧) ، وفي (ب) : (القيامة الأولىٰ) .

(١) رواه البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه الطبري في « تهذيب الآثار » (٢٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٦٧٥٠) .

(٤) رواه ابن ماجه (١٦١٥) ، وفي (ب) : (من مات غريباً) ، وقال الحافظ السيوطي في « شرح الصدور » (ص٢٩٩) (إنما هو : « من مات مرابطاً » لا « من مات مريضاً ») ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٨١ ـ ٣٨٢) .

وقالَ مسروقٌ : (ما غبطتُ أحداً ما غبطتُ مؤمناً في اللحدِ ؛ قدِ استراحَ مِنْ نصَبِ الدنيا ، وأمنَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ)[1] .

وقالَ يعلىٰ بنُ الوليدِ : كنتُ أمشي يوماً معَ أبي الدرداءِ ، فقلتُ لهُ : ما تحبُّ لمَنْ تحبُّ ؛ قالَ : الموتُ ، قلتُ : فإنْ لمْ يمتْ ؟ قالَ : يقلُّ مالُه وولدُهُ[2] .

وإنَّما أحبَّ الموتَ لأنَّهُ لا يحبُّهُ إلاَّ المؤمنُ ، والموتُ إطلاقُ المؤمنِ مِنَ السجنِ ، وإنَّما أحبَّ قلةَ المالِ والولدِ لأنَّهُ فتنةٌ وسببٌ للأنسِ بالدنيا ، والأنسُ بمَنْ لا بدَّ مِنْ فراقِهِ غايةُ الشقاوةِ ، وكلُّ ما سوى اللهِ وذكرِهِ والأنسِ بهِ . . فلا بدَّ مِنْ فراقِهِ عندَ الموتِ لا محالةَ .

ولهٰذا قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّما مثلُ المؤمنِ حينَ تخرجُ نفسُهُ أوْ روحُهُ مثلُ رجلٍ كانَ في سجنٍ فأُخرجَ منهُ ، فهوَ يتفسحُ في الأرضِ ويتقلَّبُ فيها)[3] .

وهٰذا الذي ذكرَهُ حالُ مَنْ تجافىٰ عنِ الدنيا وتبرَّمَ بها ، ولمْ يكنْ لهُ أنسٌ إلاَّ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَتْ شواغلُ الدنيا تحبسُهُ عنْ محبوبِهِ ، ومقاساةُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٤) ، وبنحوه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٠١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٧) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٤٣) ، وأحمد في « الزهد » (٧٤٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٩٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٩٧) .

الشهواتِ تؤذيهِ ، فكانَ في الموتِ خلاصُهُ مِنْ جميعِ المؤذياتِ ، وانفرادُهُ بمحبوبِهِ الذي كانَ بهِ أنسُهُ مِنْ غيرِ عائقٍ ولا دافعٍ ، وما أجدرَ ذلكَ بأنْ يكونَ منتهى النعيمِ واللذاتِ .

وأكملُ اللذاتِ للشهداءِ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ ؛ لأنَّهم ما أقدموا على القتالِ إلاَّ قاطعينَ التفاتَهُمْ عَنْ علائِقِ الدنيا ، مشتاقينَ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، راضينَ بالقتلِ في طلبِ مرضاتِهِ ، فإنْ نظرَ إلى الدنيا . . فقدْ باعَها طوعاً بالآخرةِ ، والبائعُ لا يلتفتُ قلبُهُ إلى المبيعِ ، وإنْ نظرَ إلى الآخرةِ . . فقدِ اشتراها وتشوَّقَ إليها ، فما أعظمَ فرحَهُ بما اشتراهُ إذا رآهُ ، وما أقلَّ التفاتَهُ إلىٰ ما باعَهُ إذا فارقَهُ ، وتجردُ القلبِ لحبِّ اللهِ تعالىٰ قدْ يتَّفقُ في بعضِ الأحوالِ ، ولكنْ لا يدركُهُ الموتُ عليهِ فيتغيرَ[1] ، والقتالُ سببُ الموتِ ، فكانَ سبباً لإدراكِ الموتِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ ، فلهـٰذا عظمَ النعيمُ ؛ إذْ معنى النعيمِ : أنْ ينالَ الإنسانُ ما يريدُهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فكانَ هـٰذا أجمعَ عبارةٍ لمعاني لذاتِ الجنَّةِ .

وأعظمُ العذابِ أنْ يُمنعَ الإنسانُ عنْ مرادِهِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ فكانَ هـٰذا أجمعَ عبارةٍ لعقوباتِ أهلِ جهنمَ .

وهـٰذا النعيمُ يدركُهُ الشهيدُ كما انقطعَ نفسُهُ مِنْ غيرِ تأخيرٍ ، وهـٰذا أمرٌ

---

(١) فليس للموت سلطان على الحب الذي تجرد له القلب ، بل يبقىٰ في القلب بعد الموت ، وينعم به صاحبه أعظم نعيم .

انكشفَ لأربابِ القلوبِ بنورِ اليقينِ ، وإنْ أردتَ عليهِ شهادةً مِنْ جهةِ السمعِ . . فجميعُ أحاديثِ الشهداءِ تدلُّ عليه ، وكلُّ حديثٍ يشتملُ على التعبيرِ عنْ منتهىٰ نعيمِهمْ بعبارةٍ أخرىٰ ، فقدْ رُويَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجابرٍ : « ألا أبشرُكَ يا جابرُ ؟! » وكانَ قدِ استُشهدَ أبوهُ يومَ أحدٍ ، قالَ : بلىٰ ، بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ ، قالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أحيا أباكَ وأقعدَهُ بينَ يديهِ وقالَ : تمنَّ عليَّ عبدي ما شئتَ أعطيكَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ ما عبدتُكَ حقَّ عبادتِكَ ، أتمنَّىٰ عليكَ أن تردَّني إلى الدنيا فأقاتلَ معَ نبيِّكَ فأُقتلَ فيكَ مرةً أخرىٰ ، قالَ لهُ : إنَّهُ قدْ سبقَ منِّي أنَّكَ إليها لا ترجعُ »(١) .

وقالَ كعبٌ : يُوجدُ رجلٌ في الجنَّةِ يبكي ، فقيلَ لهُ : لمَ تبكي وأنتَ في الجنَّةِ ؟! قالَ : أبكي لأنِّي لمْ أُقتلْ في اللهِ إلاَّ قتلةً واحدةً ، وكنتُ أشتهي أنْ أُردَّ فأُقتلَ فيهِ قتلاتٍ(٢) .

* * *

واعلمْ : أنَّ المؤمنَ ينكشفُ لهُ عقيبَ الموتِ مِنْ سعةِ جلالِ اللهِ ما تكونُ الدنيا بالإضافةِ إليه كالسجنِ والمضيقِ ، ويكونُ مثالُهُ كالمحبوسِ في بيتٍ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) ، وفيه : (يا عبدي تمنَّ عليَّ . . أعطك ، قال : يا رب ؛ تحييني فأقتل فيك ثانية ، قال الربُّ عز وجل : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٤) ، وفيه : (فأقتل فيه ثلاث قتلات) .

مظلمٍ فُتحَ لهُ بابٌ إلىٰ بستانٍ واسعِ الأكنافِ لا يبلغُ طَرْفُهُ أقصاه ، فيهِ أنواعُ الأشجارِ والأزهارِ والثمارِ والطيورِ ، فلا يشتهي العودَ إلى السجنِ المظلمِ .

وقدْ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ مثلاً فقالَ لرجلٍ ماتَ : « أصبحَ هـٰذا مرتحلاً مِنَ الدنيا وتركَها لأهلِها ؛ فإنْ كانَ قدْ رضيَ . . فلا يسرُّهُ أنْ يرجعَ إلى الدنيا كما لا يسرُّ أحدَكُم أنْ يرجعَ إلىٰ بطنِ أمِّهِ »[1] فعرَّفَكَ بهـٰذا أنَّ نسبةَ سعةِ الآخرةِ إلى الدنيا كنسبةِ سعةِ الدنيا إلىٰ ظلمةِ الرحمِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مثلَ المؤمنِ في الدنيا كمثلِ الجنينِ في بطنِ أمِّهِ ، إذا خرجَ مِنْ بطنِها . . بكىٰ علىٰ مخرجِهِ ، حتىٰ إذا رأى الضوءَ ورضعَ . . لمْ يحبَّ أنْ يرجعَ إلىٰ مكانِهِ ، وكذلكَ المؤمنُ يجزعُ مِنَ الموتِ ، فإذا أفضىٰ إلىٰ ربِّه . . لمْ يحبَّ أنْ يرجعَ إلى الدنيا ؛ كما لا يحبُّ الجنينُ أنْ يرجعَ إلىٰ بطنِ أمِّهِ »[2] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً قدْ ماتَ ، فقالَ : « مستريحٌ أو مستراحٌ منه »[3] أشارَ بالمستريحِ إلى المؤمنِ ، وبالمستراحِ منهُ

---

(١) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات) . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٤) ، وفي (ف ، ص ، ي) : (رجع) بدل (رضع) ، وسقطت من باقي النسخ ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٨٤) .

(٣) رواه البخاري (٦٥١٢) ، ومسلم (٩٥٠) .

إلى الفاجرِ ؛ إذْ يستريحُ أهلُ الدنيا منهُ .

وقالَ أبو عمرَ صاحبُ السقيا : مرَّ بنا ابنُ عمرَ ونحنُ صبيانٌ ، فنظرَ إلىٰ قبرٍ ؛ فإذا جمجمةٌ باديةٌ ، فأمرَ رجلاً فواراها ثمَّ قال : (إنَّ هـٰذهِ الأبدانَ ليسَ يضرُّها هـٰذا الثَّرىٰ شيئاً ، وإنَّما الأرواحُ التي تُعاقبُ وتُثابُ إلىٰ يومِ القيامةِ)(١) .

وعنْ عمرِو بن دينارٍ قالَ : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ وهوَ يعلمُ ما يكونُ في أهلِهِ بعدَهُ ، وإنَّهم ليغسِّلونَهُ ويكفِّنونَهُ وإنَّهُ لينظرُ إليهِمْ(٢) .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : بلغَني أنَّ أرواحَ المؤمنينَ مرسلةٌ تذهبُ حيثُ شاءَتْ(٣) .

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على المنبرِ يقولُ : « ألا إنَّهُ لمْ يبقَ مِنَ الدنيا إلاَّ مثلُ الذبابِ تمورُ في جوِّها ، فاللهَ اللهَ في إخوانِكُمْ مِنْ أهلِ القبورِ ، فإنَّ أعمالَكُم تُعرضُ عليهِمْ »(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٤) ، وقال العلامة اللقاني في « الزهر المنثور » كما في هامش « شرح الصدور » (ص٣٨١) : (الذي عليه الأكثر والمعظم : أن العذاب على الروح والجسد جميعاً ، والنعيم كذلك ، خلافاً لابن عمر وابن حزم الظاهري وابن هبيرة ، وابن عمر انفرد بهـٰذا دون الصحابة والجمهور) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٤٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٦١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفضحوا موتاكُمْ بسيئاتِ أعمالِكُمْ ؛ فإنَّها تُعرضُ علىٰ أوليائِكُمْ مِنْ أهلِ القبورِ »[1] .

ولذلكَ قالَ أبو الدرداءِ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أعملَ عملاً أُخزىٰ بهِ عندَ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ)[2] وكانَ قدْ ماتَ ، وهوَ خالُهُ .

وسُئلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بن العاصِ عنْ أرواحِ المؤمنينَ إذا ماتوا أينَ هيَ ؟ قالَ : (في صورِ طيرٍ بيضٍ في ظلِّ العرشِ ، وأرواحُ الكافرينَ في الأرضِ السَّابعةِ)[3] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ الميتَ يعرفُ مَنْ يغسِّلُهُ ومَنْ يحملُهُ ، ومَنْ يدلِّيهِ في قبرِهِ »[4] .

وقالَ صالحٌ المريُّ : بلغَني أنَّ الأرواحَ تتلاقىٰ عندَ الموتِ ، فتقولُ أرواحُ الموتىٰ للروحِ التي تخرجُ إليهِمْ : كيفَ كانَ مأواكِ ؟ وفي أيِّ الجسدينِ كنتِ ؟ في طيبٍ أو خبيثٍ ؟[5] .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٣٥٧) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٥) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٤) ، وفي (أ) : (حواصل) بدل (صور) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٩٣) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : أهلُ القبورِ يتوكَّفونَ الأخبارَ ، فإذا أتاهمُ الميتُ.. قالوا : ما فعلَ فلانٌ ؟ فيقولُ : ألمْ يأتِكُمْ ، أوَما قدمَ عليكُمْ ؟ فيقولونَ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، سُلكَ بهِ غيرُ سبيلِنا(١) .

وعنْ جعفرٍ ، عنْ سعيدٍ قالَ : إذا ماتَ الرجلُ.. استقبلَهُ ولدُهُ كما يُستقبلُ الغائبُ(٢) .

وقالَ مجاهدٌ : إنَّ الرجلَ ليُبشَّرُ بصلاحِ ولدِهِ في قبرِهِ(٣) .

وروىٰ أبو أيوبَ الأنصاريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ نفْسَ المؤمنِ إذا قُبضَتْ.. تلقَّاها أهلُ الرحمةِ مِنْ عبادِ اللهِ كما يُتلقَّى البشيرُ في الدنيا يقولونَ : أنظِروا أخاكُمْ حتىٰ يستريحَ ؛ فإنَّهُ كانَ في كربٍ شديدٍ ، فيسألونَهُ : ماذا فعلَ فلانٌ ؟ وماذا فعلَتْ فلانةُ ؟ وهلْ تزوجَتْ فلانةُ ؟ فإذا سألوهُ عَنْ رجلٍ ماتَ قبلَهُ وقالَ : ماتَ قبلي.. قالوا : إنَّا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ ، ذُهبَ بهِ إلىٰ أمِّهِ الهاويةِ »(٤) .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٧١) وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٧٤) ، ويتوكفون : يتوقعون ويسألون عن الأخبار .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٦) .
(٤) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٤/ ١٢٩) .

بيان كلام القبر للميّت

وكلامُ الموتىٰ إمَّا بلسانِ المقالِ ، أو بلسانِ الحالِ التي هيَ أفصحُ في تفهيمِ الموتىٰ مِنْ لسانِ المقالِ في تفهيمِ الأحياءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ القبرُ للميتِ حينَ يُوضعُ فيهِ : ويحَكَ يا بنَ آدمَ ! ما غرَّكَ بي ؟! ألمْ تعلمْ أنِّي بيتُ الفتنةِ وبيتُ الظلمةِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الدودِ ؟! ما غرَّكَ بي إذْ كنتَ تمرُّ بي فدَّاداً ؟! فإنْ كانَ مصلحاً . . أجابَ عنهُ مجيبُ القبرِ فيقولُ : أرأيتَ إنْ كانَ يأمرُ بالمعروفِ وينهىٰ عنِ المنكرِ ، فيقولُ القبرُ : إني إذاً أتحولُ عليهِ خضراً ، ويعودُ جسدُه نوراً ، وتصعدُ روحُهُ إلى اللهِ تعالىٰ »(١) ، و(الفدَّادُ) : هوَ الذي يقدِّمُ رِجلاً ويؤخِّرُ أخرىٰ ، كذلك فسَّرَه الراوي(٢) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ الليثيُّ : ليسَ مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ نادَتْهُ حفرتُهُ التي يُدفنُ فيها : أنا بيتُ الظلمةِ والوحدةِ والانفرادِ ، فإنْ كنتَ في حياتِكَ مطيعاً للهِ . . كنتُ عليكَ اليومَ رحمةً ، وإنْ كنتَ عاصياً . . فأنا اليومَ عليكَ نقمةٌ ، أنا الذي مَنْ دخلَني مطيعاً . . خرجَ مسروراً ، ومَنْ دخلَني عاصياً . . خرجَ مثبوراً(٣) .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣٧٧/٢٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦٧٤٨) .

(٢) أي : الذي يمشي مشية المتبختر .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور ». « إتحاف » (٣٩٦/١٠) ، وأورده الحافظ ابن رجب =

وقالَ محمدُ بنُ صبيحٍ : بلغَنا أنَّ الرجلَ إذا وُضعَ في قبرِه فعُذبَ وأصابَهُ بعضُ ما يكرهُ.. ناداه جيرانُهُ مِنَ الموتىٰ : أيُّها المخلَّفُ في الدنيا بعدَ إخوانِهِ وجيرانِهِ ؛ أما كانَ لكَ فينا معتبرٌ ؟! أما كانَ لكَ في تقدُّمِنا إيّاكَ فكرةٌ ؟! أما رأيتَ انقطاعَ أعمالِنا عنَّا وأنتَ في المهلةِ ، فهلاَّ استدركتَ ما فاتَ إخوانَكَ ؟! وتناديهِ بقاعُ الأرضِ : أيُّها المغترُّ بظاهرِ الدنيا ؛ هلاَّ اعتبرتَ بمَنْ غُيِّبَ مِنْ أهلِكَ في بطنِ الأرضِ ممَّن غرَّتْهُ الدنيا قبلَكَ ، ثمَّ سبقَ بهِ أجلُهُ إلى القبورِ وأنتَ تراهُ محمولاً تهاداه أحبَّتُهُ إلى المنزلِ الذي لا بدَّ لهُ منهُ(١) .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : بلغَني أنَّ الميتَ إذا وُضعَ في قبرِه.. احتوشَتْهُ أعمالُهُ ، ثمَّ أنطقَها اللهُ تعالىٰ فقالَتْ : أيُّها العبدُ المنفردُ في حفرتِهِ ؛ انقطعَ عنكَ الأخلاءُ والأهلونَ فلا أنيسَ لكَ اليومَ غيرُنا(٢) .

وقالَ كعبٌ : إذا وُضعَ العبدُ الصَّالحُ في القبرِ.. احتوشَتْهُ أعمالُهُ الصالحةُ ؛ الصلاةُ والصيامُ والحجُّ والجهادُ والصدقةُ ، قالَ : وتجيءُ ملائكةُ العذابِ مِنْ قِبَلِ رجليهِ ، فتقولُ الصلاةُ : إليكُمْ عنهُ ، فلا سبيلَ لكمْ عليهِ : فقدْ أطالَ بيَ القيامَ للهِ عليهما ، فيأتونَهُ مِنْ قِبلِ رأسِهِ ، فيقولُ

= الحنبلي في « أهوال القبور » (ص٤٦) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٩٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٩٦) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٣/ ٤٢٠) .

الصيامُ : لا سبيلَ لكُمْ عليهِ ؛ فقدْ أطالَ ظمأَهُ للهِ في دارِ الدنيا ، فلا سبيلَ لكمْ عليهِ ، فيأتونَهُ مِنْ قبلِ جسدِهِ ، فيقولُ الحجُّ والجهادُ : إليكُمْ عنهُ ؛ فقدْ أنصبَ نفسَهُ وأتعبَ بدنَهُ وحجَّ وجاهدَ للهِ ، فلا سبيلَ لكُمْ عليهِ ، قالَ : فيأتونَهُ مِنْ قِبلِ يديهِ ، فتقولُ الصدقةُ : كفُّوا خلُّوا عنْ صاحبي ؛ فكمْ مِنْ صدقةٍ خرجَتْ مِنْ هاتينِ اليدينِ حتىٰ وقعَتْ في يدِ اللهِ تعالى ابتغاءَ وجهِهِ ، فلا سبيلَ لكُمْ عليهِ .

قالَ : فيُقالُ لهُ : هنيئاً ، طبتَ حيّاً وطبتَ ميتاً ، قالَ : وتأتيه ملائكةُ الرحمةِ ، فتفرشُ لهُ فراشاً مِنَ الجنَّةِ ، ودثاراً مِنَ الجنَّةِ ، ويُفسحُ لهُ في قبرِهِ مدَّ بصرِهِ ، ويُؤتىٰ بقنديلٍ مِنَ الجنَّةِ فيستضيءُ بنورِهِ إلىٰ يومِ يبعثُهُ اللهُ مِنْ قبرِهِ[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عبيدِ بنِ عميرٍ في جنازةٍ : بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ الميتَ يقعدُ وهوَ يسمعُ خطوَ مشيِّعيهِ ، فلا يكلِّمُهُ شيءٌ إلاَّ قبرُهُ يقولُ : ويحَكَ ابنَ آدمَ ! أليسَ قدْ حُذِّرتَني وحُذِّرتَ ضيقي ونتني ، وهَوْلي ودودي ؟! فماذا أعددتَ لي ؟ »[2] .

❋ ❋ ❋

(١) أورده هـٰكذا الحافظ ابن رجب الحنبلي في « أهوال القبور » (ص٥٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٣٣٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » ، وابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٣) ، ولم يرفعه . انظر « الإتحاف » (١٠/٣٩٧) .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير[1]

قالَ البراءُ بنُ عازبٍ : خرجنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جنازةِ رجلٍ مِنَ الأنصارِ ، فجلسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ قبرِهِ منكساً رأسَهُ ثمَّ قالَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبرِ » ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : « إنَّ المؤمنَ إذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ[2] . . بعثَ اللهُ إليهِ ملائكةً كأنَّ وجوهَهُمُ الشمسُ معَهُم حنوطُهُ وكفنُهُ ، فيجلسونَ مدَّ بصرِهِ ، فإذا خرجَتْ روحُهُ . . صلَّىٰ عليهِ كلُّ ملكٍ بينَ السماءِ والأرضِ وكلُّ ملكٍ في السماءِ ، وفُتحَتْ أبوابُ السماءِ ، فليسَ منها بابٌ إلاَّ يحبُّ أنْ يدخلَ بروحِهِ منهُ ، فإذا صعدَ بروحِهِ . . قيلَ : أيْ ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ ، فيقولُ : ارجعوهُ فأروهُ ما أعددتُ لهُ مِنَ الكرامةِ ؛ فإنِّي وعدتُهُ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّهُ ليسمعُ خفقَ نعالِهِمْ إذا ولَّوا مدبرينَ ، حتىٰ يُقالُ : يا هـٰذا ؛ مَنْ ربُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ فيقولُ : ربيَ اللهُ ، وديني الإسلامُ ، ونبيِّي محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فينتهرانِهِ انتهاراً شديداً ـ وهيَ آخرُ فتنةٍ

---

(١) قال الحافظ السيوطي في « شرح الصدور » (ص٣٥٠) : (قال العلماء : عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، أضيف إلى القبر ؛ لأنه الغالب ، وإلا . . فكل ميت أراد الله تعذيبه . . ناله ما أراد به ، قُبر أم لم يُقبر ، ولو صلب ، أو غرق في البحر ، أو أكلته الدواب ، أو حرق حتىٰ صار رماداً وذرّي في الريح ، ومحله : الروح والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة ، وكذا القول في النعيم) .

(٢) قبل : أي : إقبال منها .

تُعرضُ على الميتِ ـ فإذا قالَ ذلكَ . . نادىٰ منادٍ : أنْ صدقتَ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . . . ﴾ الآيةَ .

ثمَّ يأتيهِ آتٍ حسنُ الوجهِ طيبُ الريحِ حسنُ الثيابِ فيقولُ : أبشرْ برحمةٍ مِنْ ربِّكَ وجنَّاتٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ ، فيقولُ : وأنتَ فبشَّرَكَ اللهُ بخيرٍ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الصَّالحُ ، واللهِ ؛ ما علمتُ إن كنتَ لسريعاً في طاعةِ اللهِ ، بطيئاً عنْ معصيةِ اللهِ ، فجزاكَ اللهُ خيراً ، قالَ : ثمَّ ينادي منادٍ : أنِ افرشوا لهُ مِنْ فرشِ الجنَّةِ ، وافتحوا لهُ باباً إلى الجنَّةِ ، فيُفرشُ لهُ فرشٌ مِنَ الجنَّةِ ، ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى الجنَّةِ ، فيقولُ : اللهمَّ ؛ عجِّلْ قيامَ الساعةِ ، حتىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي ومالي .

قالَ : وأما الكافرُ . . فإنَّهُ إذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ وانقطاعٍ مِنَ الدنيا . . نزلَتْ عليهِ ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ ، معَهُم ثيابٌ مِنْ نارٍ وسرابيلُ مِنْ قطرانٍ ، فيحتوشونَهُ ؛ فإذَا خرجَتْ نفسُهُ . . لعنَهُ كلُّ ملكٍ بينَ السماءِ والأرضِ وكلُّ ملكٍ في السماءِ ، وغُلِّقَتْ أبوابُ السماءِ ، فليسَ منها بابٌ إلاَّ يكرهُ أنْ يدخلَ بروحِهِ منهُ ، فإذا صعدَ بروحِهِ . . نُبذَ ، وقيلَ : أيْ ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ لمْ تقبلْهُ سماءٌ ولا أرضٌ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ارجعوهُ فأروهُ ما أعددتُ لهُ من الشرِّ ؛ إنِّي وعدتهُ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّهُ ليسمعُ خفقَ نعالِهِم إذا ولَّوا مدبرينَ ، حتىٰ يُقالُ لهُ : يا هٰذا ؛ مَنْ ربُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ فيقولُ : لا أدري ، فيُقالُ : لا دريتَ .

ثمَّ يأتيهِ آتٍ قبيحُ الوجهِ منتنُ الريحِ قبيحُ الثيابِ فيقولُ : أبشرْ بسخطِ

مِنَ اللهِ وبعذابٍ أليمٍ مقيمٍ ، فيقولُ : بشَّرَكَ اللهُ بشرٍّ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الخبيثُ ، واللهِ ؛ إنْ كنتَ لسريعاً في معصيةِ اللهِ بطيئاً عنْ طاعةِ اللهِ ، فجزاكَ اللهُ شرّاً ، فيقولُ : وأنتَ فجزاكَ اللهُ شرّاً ، ثم يُقيَّضُ لهُ أصمُّ أعمىٰ أبكمُ ، معهُ مرزبَّةٌ مِنْ حديدٍ لوِ اجتمعَ عليها الثقلانِ علىٰ أنْ يقلُّوها . . لمْ يستطيعوا ، لوْ ضُربَ بها جبلٌ . . صارَ تراباً ، فيضربُهُ بها ضربةً فيصيرُ تراباً ، ثمَّ تعودُ فيهِ الروحُ ، فيضربُ بها عينيهِ ضربةً يسمعُها مَنْ على الأرضِ ليسَ الثقلين ، قالَ : ثمَّ ينادي منادٍ : أنِ افرشوا لهُ لوحينِ مِنْ نارٍ ، وافتحوا لهُ باباً إلى النَّارِ ، فيُفرشُ لهُ لوحانِ مِنْ نارٍ ، ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى النَّارِ »[(١)] .

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ مُثِّلَ لهُ عندَ الموتِ أعمالُهُ الحسنةُ وأعمالُهُ السيئةُ ، قالَ : فيشخصُ إلىٰ حسناتِهِ ، ويطرق عنْ سيئاتِهِ[(٢)] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المؤمنَ إذا احتُضرَ . أتتْهُ الملائكةُ بحريرةٍ فيها مسكٌ وضبائرُ الريحانِ[(٣)] ، فتسلُّ روحَهُ كما تُسلُّ الشعرةُ مِنَ العجينِ ، ويُقالُ : أيَّتُها النفسُ المطمئنةُ ؛ اخرجي راضيةً ومرضياً عنكِ إلىٰ روحِ اللهِ وكرامتِهِ ؛ فإذا خرجَتْ روحُهُ . . وُضعتْ

---

(١) رواه بطوله أحمد في « المسند » (٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧ ـ ٣٨) ، وبنحوه عند أبي داوود (٤٧٥٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٤٠١) .

(٣) ضبائر : جمع ضِبارة : الجماعات في تفرقة .

علىٰ ذلكَ المسكِ والريحانِ ، وطُويَتْ عليها الحريرةُ وبُعثَ بها إلىٰ عليينَ ، وإنَّ الكافرَ إذا احتُضِرَ . . أتتْهُ الملائكةُ بمسحٍ فيهِ جمرةٌ[١] ، فتنزعُ روحَهُ انتزاعاً شديداً ، ويُقالُ : أيَّتُها النفسُ الخبيثةُ ؛ اخرجي ساخطةً ومسخوطاً عليكِ إلىٰ هوانِ اللهِ وعذابِهِ ، فإذا خرجَتْ روحُهُ . . وُضعَتْ علىٰ تلكَ الجمرةِ وإنَّ لها نشيشاً ، ويُطوىٰ عليها المسحُ ويُذهبُ بها إلىٰ سجينٍ »[٢] .

وعنْ محمدِ بن كعبٍ القرظيِّ : أنهُ كانَ يقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ . قالَ : أيَّ شيءٍ تريدُ ؟ في أيِّ شيءٍ ترغبُ ؟ أتريدُ أنْ ترجعَ لتجمعَ المالَ وتغرسَ الغراسَ ، وتبنيَ البنيانَ وتشققَ الأنهارَ ؟ قالَ : لا ، لعلي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، قالَ : فيقولُ الجبارُ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ أيْ : ليقولَنَّها عندَ الموتِ[٣] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ في قبرِهِ في روضةٍ خضراءَ ، ويُرحبُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً ، ويضيءُ لهُ حتىٰ يكونَ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، هلْ تدرونَ فيماذا أنزلت : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « عذابُ الكافرِ في

---

(١) مِسح : قطعة من الكساء الأسود .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٩٥٤١) ، ونحوه عند النسائي (٤/٨) ، والنشيش : صوت الماء إذا غلىٰ .
(٣) رواه الطبري في « جامع البيان » (١٠/١٨/٦٦) .

قبرِهِ ، يُسلَّطُ عليهِ تسعةٌ وتسعونَ تنيناً ، هلْ تدرونَ ما التنينُ ؟ تسعةٌ وتسعونَ حيةً ، لكلِّ حيَّةٍ سبعةُ رؤوسٍ يخدشونَهُ ويلحسونَهُ وينفخونَ في جسمِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »[1] .

ولا ينبغي أنْ يُتعجبَ مِنْ هـٰذا العددِ على الخصوصِ ؛ فإنَّ أعدادَ هـٰذهِ الحيَّاتِ والعقاربِ بقدرِ أعدادِ الأخلاقِ المذمومةِ مِنَ الكبرِ والرياءِ والحسدِ ، والغلِّ والحقدِ وسائرِ الصفاتِ ؛ فإنَّ لها أصولاً معدودةً ، ثمَّ تتشعبُ منها فروعٌ معدودةٌ ، ثمَّ تنقسمُ فروعُها بأقسامٍ ، وتلكَ الصفاتُ بأعيانِها هيَ المهلكاتُ ، وهيَ بأعيانِها تنقلبُ عقاربَ وحيَّاتٍ ، فالقويُّ منها يلدغُ لدْغَ التنينِ ، والضعيفُ يلدغُ لدْغَ العقربِ ، وما بينَهما يؤذي إيذاءَ الحيَّةِ .

وأربابُ القلوبِ والبصائرِ يشاهدونَ بنورِ البصيرةِ هـٰذهِ المهلكاتِ وانشعابَ فروعِها ، إلاَّ أنَّ مقدارَ عددِها لا يُوقفُ عليهِ إلا بنورِ النبوَّةِ ، فأمثالُ هـٰذهِ الأخبارِ لها ظواهرُ صحيحةٌ وأسرارٌ خفيَّةٌ ، ولكنَّها عندَ أربابِ البصائرِ واضحةٌ ، فمَنْ لم تنكشفْ لهُ حقائقُها . . فلا ينبغي أنْ ينكرَ ظواهرَها ، بل أقلُّ درجاتِ الإيمانِ التصديقُ والتسليمُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فنحنُ نشاهدُ الكافرَ في قبرِهِ مدةً ونراقبُهُ ولا نشاهدُ شيئاً مِنْ ذلكَ ، فما وجهُ التصديقِ علىٰ خلافِ المشاهدةِ ؟

---

(١) رواه ابن حبان (٣١٢٢) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٦٦٤٤) .

فاعلمْ : أنَّ لكَ ثلاثَ مقاماتٍ في التصديقِ بأمثالِ هٰذا :

أحدُها ـ وهوَ الأظهرُ والأصحُّ والأسلمُ ـ : أنْ تصدِّقَ بأنَّها موجودةٌ ، وهيَ تلدغُ الميتَ ولكنَّكَ لا تشاهدُ ذلكَ ؛ فإنَّ هٰذهِ العينَ لا تصلحُ لمشاهدةِ الأمورِ الملكوتيَّةِ ، وكلُّ ما يتعلقُ بالآخرةِ فهوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، أما ترى الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهم كيفَ كانوا يؤمنونَ بنزولِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ وما كانوا يشاهدونَهُ ، ويؤمنونَ بأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ يشاهدُهُ ؟!

فإنْ كنتَ لا تؤمنُ بهٰذا . . فتصحيحُ أصلِ الإيمانِ بالملائكةِ والوحيِ أهمُّ عليكَ .

وإنْ كنتَ آمنتَ بهِ وجوَّزتَ أنْ يشاهدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لا تشاهدُهُ الأمَّةُ . . فكيفَ لا تجوِّزُ هٰذا في الميتِ ؟!

وكما أنَّ الملكَ لا يشبهُ الآدميينَ والحيواناتِ فالحيَّاتُ والعقاربُ التي تلدغُ في القبرِ ليسَتْ مِنْ جنسِ حيَّاتِ عالمِنا ، بلْ هيَ جنسٌ آخرُ ، وتُدركُ بحاسَّةٍ أخرىٰ .

المقامُ الثاني : أن تتذكرَ أمرَ النائمِ ، وأنَّهُ قدْ يرىٰ في نومِهِ حيةً تلدغُهُ ، وهوَ يتألَّمُ بذلكَ حتىٰ تراهُ في نومِهِ يصيحُ ، ويعرقُ جبينُهُ ، وقدْ ينزعجُ مِنْ مكانِهِ ، كلُّ ذلك يدركُهُ مِنْ نفسِهِ ويتأذَّىٰ بهِ كما يتأذَّى اليقظانُ ، وهوَ يشاهدُهُ وأنتَ ترىٰ ظاهرَهُ ساكناً ، ولا ترىٰ حواليهِ حيةً ، والحيَّةُ موجودةٌ في حقِّهِ ،

والعذابُ حاصلٌ ولكنهُ في حقِّكَ غيرُ مشاهدٍ ، وإذا كانَ العذابُ في ألمِ اللدغِ . . فلا فرقَ بينَ حيةٍ تُتخيلُ أو تُشاهدُ .

المقامُ الثالثُ : أنَّك تعلمُ أنَّ الحيَّةَ بنفسِها لا تؤلمُ ، بلِ الذي يلقاكَ منها وهوَ السمُّ ، ثمَّ السمُّ ليسَ هوَ الألمَ ، بلْ عذابُكَ في الأثرِ الذي يحصُلُ فيكَ مِنَ السمِّ ، فلوْ حصلَ مثلُ ذلكَ الأثرِ مِنْ غيرِ سمٍّ . . لكانَ العذابُ قدْ توفرَ ، وكانَ لا يمكنُ تعريفُ ذلكَ النوعِ مِنَ العذابِ إلاَّ بأنْ يُضافَ إلى السببِ الذي يفضي إليهِ في العادةِ ؛ فإنَّهُ لو خُلقَ في الإنسانِ لذةُ الوقاعِ مثلاً مِنْ غيرِ مباشرةِ صورةِ الوقاعِ . . لمْ يمكنْ تعريفُها إلاَّ بالإضافةِ إليه ؛ لتكونَ الإضافةُ للتعريفِ بالسببِ ، وتكونَ ثمرةُ السببِ حاصلةً وإنْ لمْ تحصلْ صورةُ السببِ ، والسببُ يُرادُ لثمرتِهِ لا لذاتِهِ .

وهٰذهِ الصفاتُ المهلكاتُ تنقلبُ مؤذياتٍ ومؤلماتٍ في النفسِ عندَ الموتِ ، فتكونُ آلامُها كآلامِ لدغِ الحيَّاتِ مِنْ غيرِ وجودِ حيَّاتٍ ، وانقلابُ الصفةِ مؤذيةً يضاهي انقلابَ العشقِ مؤذياً عندَ موتِ المعشوقِ ؛ فإنَّهُ كانَ لذيذاً ، فطرأَتْ حالةٌ صارَ اللَّذيذُ بنفسِهِ مؤلماً ، حتىٰ نزلَ بالقلبِ منْ أنواعِ العذابِ ما يتمنَّىٰ معهُ أنَّهُ لمْ يكنْ قدْ تنعَّمَ بالعشقِ والوصالِ ، بلْ هٰذا بعينِهِ هوَ أحدُ أنواعِ عذابِ الميتِ ؛ فإنَّهُ قدْ سلَّطَ العشقَ في الدنيا علىٰ نفسِهِ ، فصارَ يعشقُ مالَهُ وعقارَهُ وجاهَهُ ، وولدَهُ وأقاربَهُ ومعارفَهُ ، ولوْ أخذَ جميعَ ذلكَ في حياتِهِ مَنْ لا يرجو استرجاعَهُ منهُ . . فماذا ترىٰ يكونُ حالُهُ ؟! أليسَ يعظمُ شقاؤُهُ ، ويشتدُّ عذابُهُ ، ويتمنَّىٰ ويقولُ : ليتَهُ لمْ يكنْ لي مالٌ قطُّ ،

ولا جاهٌ قطُّ فكنتُ لا أتأذىٰ بفراقِهِ ؟! فالموتُ عبارةٌ عنْ مفارقةِ المحبوباتِ الدنيويةِ كلِّها دفعةً واحدةً .

مـا حـالُ مَـنْ كـانَ لَـهُ واحِـدٌ   غُيِّـبَ عَنْـهُ ذَلِـكَ ٱلْـواحِـدُ(١)

فما حالُ مَنْ لا يفرحُ إلاّ بالدنيا ، فتؤخذُ منهُ الدنيا وتُسلَّمُ إلىٰ أعدائِهِ ، ثمَّ ينضافُ إلىٰ هـٰذا العذابِ تحسُّرُهُ علىٰ ما فاتَهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ ، والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ حبَّ غيرِ اللهِ يحجبُهُ عنْ لقاءِ اللهِ والتنعُّمِ بهِ ، فيتوالىٰ عليهِ ألمُ فراقِ جميعِ محبوباتِهِ ، وحسرتُهُ علىٰ ما فاتَهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ أبدَ الآبادِ ، وذلُّ الردِّ والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ هوَ العذابُ الذي يُعذَّبُ بهِ ؛ إذْ لا يتبعُ نارَ الفراقِ إلاَّ نارُ جهنَّمَ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

وأمَّا مَنْ لمْ يأنسْ بالدنيا ولمْ يحبَّ إلا اللهَ ، وكانَ مشتاقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ تخلَّصَ مِنْ سجنِ الدنيا ومقاساةِ الشهواتِ فيها ، وقدمَ علىٰ محبوبِهِ ، وانقطعَتْ عنهُ العوائقُ والصوارفُ ، وتوفرَ عليهِ النعيمُ معَ الأمنِ عنِ الزوالِ أبدَ الآبادِ ، ولمثلِ ذلكَ فليعملِ العاملونَ .

والمقصودُ : أنَّ الرجلَ قدْ يحبُّ فرسَهُ بحيثُ لو خُيِّرَ بينَ أنْ يُؤخذَ منهُ وبينَ أنْ تلدغَهُ عقربٌ . . آثرَ الصبرَ علىٰ لدغِ العقربِ .

فإذاً ؛ ألمُ فراقِ الفرسِ عندَهُ أعظمُ مِنْ لدغِ العقربِ ، وحبُّهُ للفرسِ هوَ

---

(١) البيت من السريع ، وانظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

الذي يلدغُهُ إذا أُخذَ منهُ فرسُهُ ، فليستعدَّ لهـٰذهِ اللَّدغاتِ ؛ فإنَّ الموتَ يأخذُ منهُ فرسَهُ ومركبَهُ ، ودارَهُ وعقارَهُ ، وأهلَهُ وولدَهُ ، وأحبابَهُ ومعارفَهُ ، ويأخذُ منهُ جاهَهُ وقبولَهُ ، بلْ يأخذُ منهُ سمعَهُ وبصرَهُ وأعضاءَهُ ، وييئسُ مِنْ رجوعِ جميعِ ذلكَ إليهِ ، فإذا لمْ يحبَّ سواه وقدْ أخذَ جميعَ ذلكَ منهُ . . فذلكَ أعظمُ عليهِ مِنَ العقاربِ والحيَّاتِ ، وكما لوْ أخذَ ذلكَ منهُ وهوَ حيٌّ فيعظمُ عقابُهُ . . فكذلكَ إذا ماتَ ؛ لأنَّا قد بيَّنَّا أنَّ المعنى الذي هوَ المدركُ للآلامِ واللذاتِ لمْ يمتْ ، بلْ عذابُهُ بعدَ الموتِ أشدُّ ؛ لأنَّهُ في الحياةِ يتسلَّىٰ بأسبابٍ يشغلُ بها حواسَّهُ مِنْ مجالسةٍ ومحادثةٍ ، ويتسلَّىٰ برجاءِ العودِ إليهِ ، ويتسلَّىٰ برجاءِ العوضِ منهُ ، ولا سلوةَ بعدَ الموتِ ؛ إذْ قدِ انسدَّ عليهِ طرقُ التسلي وحصلَ اليأسُ ، فإذا كلُّ قميصٍ لهُ ومنديلٍ قدْ أحبَّهُ بحيثُ كانَ يشقُّ عليهِ لوْ أُخذَ منهُ . . فإنَّهُ يبقىٰ متأسِّفاً عليهِ ومعذَّباً بهِ ، فإنْ كانَ مخِفّاً في الدنيا . . سلمَ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِم : نجا المخفُّونَ ، وإنْ كانَ مثقلاً . . عظمَ عذابُهُ(1) .

وكما أنَّ حالَ مَنْ يُسرقُ منهُ دينارٌ أخفُّ مِنْ حالِ مَنْ يُسرقُ منهُ عشرةُ دنانيرَ . . فكذلكَ حالُ صاحبِ الدرهمِ أخفُّ مِنْ حالِ صاحبِ الدرهمينِ ،

---

(1) روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٣) والبيهقي في « الشعب » (٩٩٢٣) : « إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٣) : « لا يجاوزها إلا كل ضامر مخف » .

وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبُ الدرهمِ أخفُّ حساباً مِنْ صاحبِ الدرهمينِ »(١) .

وما مِنْ شيءٍ مِنَ الدنيا يتخلَّفُ عنكَ عندَ الموتِ إلاَّ وهوَ حسرةٌ عليكَ بعدَ الموتِ ، فإنْ شئتَ . . فاستكثرْ ، وإنْ شئتَ . . فاستقللْ ، فإنِ استكثرتَ . . فلستَ مستكثراً إلاَّ مِنَ الحسرةِ ، وإنِ استقللتَ . . فلستَ تخففُ إلاَّ عَنْ ظهرِكَ ، وإنَّما تكثرُ الحيَّاتُ والعقاربُ في قبورِ الأغنياءِ الذينَ استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ، وفرحوا بها واطمأنُّوا إليها .

فهـٰذهِ مقاماتُ الإيمانِ في حيَّاتِ القبرِ وعقاربِهِ وفي سائرِ أنواعِ عذابِهِ .

رأىٰ أبو سعيدٍ الخرازُ ابناً لهُ قدْ ماتَ في المنامِ ، فقالَ لهُ : يا بنيَّ ؛ عظْني ، قالَ : لا تخالفِ اللهَ تعالىٰ فيما يريدُ ، قالَ : يا بنيَّ ؛ زدْني ، قالَ : يا أبتِ ؛ لا تطيقُ ، قالَ : قلْ ، قالَ : لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ قميصاً ، قالَ : فما لبسَ قميصاً ثلاثينَ سنةً(٢) .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما الصحيحُ مِنْ هـٰذهِ المقاماتِ الثلاثِ ؟

فاعلمْ : أنَّ في الناسِ مَنْ لمْ يثبتْ إلاَّ الأولَ وأنكرَ ما بعدَهُ ، ومنهُمْ مَنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٥) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٥) ، وفي غير (د) : (الخدري) بدل (الخراز) .

أنكرَ الأولَ وأثبتَ الثانيَ ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يثبتْ إلاَّ الثالثَ ، وإنَّما الحقُّ الذي انكشفَ لنا بطريقِ الاستبصارِ : أنَّ كلَّ ذلكَ في حيزِ الإمكانِ ، وأنَّ مَنْ ينكرُ بعضَ ذلكَ فهوَ لضيقِ حوصلتِهِ ، وجهلِهِ باتساعِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وعجائبِ تدبيرِهِ ، فينكرُ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يأنسْ بهِ ويألفْهُ ، وذلكَ جهلٌ وقصورٌ ، بلْ هٰذهِ الطرقُ الثلاثةُ في التعذيبِ ممكنةٌ ، والتصديقُ بها واجبٌ ، وربَّ عبدٍ يُعاقبُ بنوعٍ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأنواعِ ، وربَّ عبدٍ تُجمعُ عليهِ هٰذهِ الأنواعُ الثلاثةُ ، نعوذُ باللهِ مِنْ عذابِ اللهِ قليلِهِ وكثيرِهِ .

هٰذا هوَ الحقُّ فصدِّقْ بهِ تقليداً ، فيعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يعرفُ ذلك تحقيقاً ، والذي أوصيكَ بهِ ألاَّ تكثرَ نظرَكَ في تفصيلِ ذلكَ ، ولا تشتغلَ بمعرفتِهِ ، بلِ اشتغِلْ بالتدبيرِ في دفعِ العذابِ كيفَما كانَ ، فإنْ أهملتَ العملَ والعبادَةَ واشتغلتَ بالبحثِ عنْ ذلكَ . . كنتَ كمَنْ أخذَهُ سلطانٌ وحبسَهُ ليقطعَ يدَهُ ويجدعَ أنفَهُ ، فأخذَ طولَ الليلِ يتفكَّرُ في أنَّهُ هلْ يقطعُهُ بسكينٍ أو بسيفٍ أو بموسىٰ ؟ وأهملَ طريقَ الحيلةِ في دفعِ أصلِ العذابِ عنْ نفسِهِ ، وهٰذا غايةُ الجهلِ ؛ فقدْ عُلمَ على القطعِ أنَّ العبدَ بعدَ الموتِ لا يخلو عنْ عذابٍ عظيمٍ أو نعيمٍ مقيمٍ ، فينبغي أنْ يكونَ الاستعدادُ لهُ .

فأمَّا البحثُ عنْ تفصيلِ العقابِ والثوابِ . . ففضولٌ وتضييعُ زمانٍ .

* * *

بيان سؤال منكر ونكير، وصورتهما، وضغطة القبر وبقيّة القول في عذاب القبر

قالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ العبدُ . . أتاهُ ملكانِ أسودانِ أزرقانِ يُقالُ لأحدِهما : منكرٌ وللآخرِ : نكيرٌ ، فيقولانِ لهُ : ما كنتَ تقولُ في النبيِّ ؟ فإنْ كانَ مؤمناً . . قالَ : هوَ عبدُ اللهِ ورسولُهُ ، أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، فيقولانِ : إنْ كنَّا لنعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلكَ ، ثمَّ يُفسحُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً في سبعينَ ذراعاً ، ويُنوَّرُ لهُ في قبرِهِ ثمَّ يُقالُ لهُ : نمْ ، فيقولُ : دعوني أرجعُ إلىٰ أهلي فأخبرُهُمْ ، فيُقالُ لهُ : نمْ ، فينامُ كنومةِ العروسِ الذي لا يوقظُهُ إلاَّ أحبُّ أهلِهِ إليهِ حتىٰ يبعثَهُ اللهُ مِنْ مضجعِهِ ذلكَ ، وإنْ كانَ منافقاً . . قالَ : لا أدري ، كنتُ أسمعُ الناسَ يقولونَ شيئاً وكنتُ أقولُهُ ، فيقولانِ : إنْ كنَّا لنعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلكَ ، ثمَّ يُقالُ للأرضِ : التئمي عليهِ ، فتلتئمُ عليهِ حتىٰ تختلفَ فيها أضلاعُهُ ، فلا يزالُ معذَّباً حتىٰ يبعثَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ مضجعِهِ ذلكَ »(١) .

وعنْ عطاءِ بنِ يسارٍ قالَ : (قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : « يا عمرُ ؛ كيفَ بكَ إذا أنتَ متَّ فانطلقَ بكَ قومُكَ فقاسوا لكَ ثلاثةَ أذرعٍ في ذراعٍ وشبرٍ ، ثمَّ رجعوا إليكَ فغسَّلوكَ وكفَّنوكَ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٧١) .

وحنَّطوكَ ، ثمَّ احتملوكَ حتىٰ يضعوكَ فيهِ ، ثمَّ يهيلوا عليكَ الترابَ ويدفنوكَ ، فإذا انصرفوا عنكَ . . أتاكَ فتَّانا القبرِ منكرٌ ونكيرٌ ، أصواتُهما كالرعدِ القاصفِ ، وأبصارُهما كالبرقِ الخاطفِ ، يجرَّانِ أشعارَهما ويحثيانِ القبرَ بأنيابِهما فتلتلاكَ وترتراكَ ؟! كيفَ بكَ عندَ ذلكَ يا عمرُ ؟! » فقالَ عمرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ويكونُ معي مثلُ عقليَ الآنَ ؟ قالَ : « نعمْ » قالَ : إذاً أكفيكَهُما)(١) .

وهـٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ العقلَ لا يتغيرُ بالموتِ ، إنَّما يتغيرُ البدنُ والأعضاءُ ، فيكونُ الميتُ عاقلاً مدركاً ، عالماً بالآلامِ واللذاتِ كما كانَ ، لا يتغيَّرُ مِنْ عقلِهِ شيءٌ ، وليسَ العقلُ المدرِكُ هـٰذهِ الأعضاءَ ، بلْ هوَ شيءٌ باطنٌ ليسَ لهُ طولٌ ولا عرضٌ ، بلِ الذي لا ينقسمُ في نفسِهِ هوَ المدركُ للأشياءِ ، ولو تناثرَتْ أعضاءُ الإنسانِ كلُّها ولم يبقَ إلاَّ الجزءُ المدركُ الذي لا يتجزأُ ولا ينقسمُ . . لكانَ الإنسانُ العاقلُ بكمالِهِ قائماً باقياً ، وهوَ كذلكَ بعدَ الموتِ ؛ فإنَّ ذلكَ الجزءَ لا يحلُّهُ الموتُ ، ولا يطرأُ عليهِ العدمُ .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : بلغَني أنَّ الكافرَ يُسلَّطُ عليهِ في قبرِهِ دابَّةٌ عمياءُ صماءُ ، في يدِها سوطٌ مِنْ حديدٍ في رأسِهِ مثلُ غربِ الجملِ ، تضربُهُ بهِ إلىٰ

---

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (٨٦١) ، والبيهقي في « إثبات عذاب القبر » (١٠٣) مرسلاً ، وفيه : (ثلاثة أذرع وشبراً في ذراع وشبر) ، **وتلتلاك وترتراك** : زعزعاك وأقلقاك وأزعجاك . « إتحاف » (١٠/ ٤١٤) .

يومِ القيامةِ ، لا تراهُ فتتقيَهُ ، ولا تسمعُ صوتَهُ فترحمَهُ[1] .

وقالَ أبو هريرةَ : (إذا وُضعَ الميتُ في قبرِهِ .. جاءَتْ أعمالُهُ الصالحةُ فاحتوشَتْهُ ، فإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ رأسِهِ .. جاءَ قراءتُهُ القرآنَ ، وإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ رجليهِ .. جاءَ قيامُهُ ، وإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ يديهِ .. قالتِ اليدانِ : واللهِ ؛ لقدْ كانَ يبسطُني للصدقةِ والدعاءِ ، لا سبيلَ لكمْ عليهِ ، وإنْ جاءَ مِنْ قبلِ فيه .. جاء ذكْرُهُ وصيامُهُ ، وكذلكَ تقفُ الصلاةُ والصبرُ ناحيةً ، فيقولُ : أما إنِّي لوْ رأيتُ خللاً .. لكنتُ أنا صاحبَهُ - قالَ سفيانُ : تجاحشُ عنهُ أعمالُه الصالحةُ كما يجاحشُ الرجلُ عنْ أخيهِ وأهلِهِ وولدِهِ - ثمَّ يُقالُ لهُ عندَ ذلكَ : باركَ اللهُ لكَ في مضجعِكَ ، فنِعمَ الأخلاَّءُ أخلاؤُكَ ، ونعمَ الأصحابُ أصحابُكَ)[2] .

وعنْ حذيفةَ قالَ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جنازةٍ ، فجلسَ علىٰ رأسِ القبرِ ثمَّ جعلَ ينظرُ فيهِ ، ثمَّ قالَ : « يُضغطُ المؤمنُ في هـٰذا ضغطةً تردَّىٰ منها حمائلُهُ »[3] .

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٣٥٣) من رواية ابن المنكدر عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي : (عرف الجمل) بدل (غرب الجمل) .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٤١٩) ، ولم يقل : (قال سفيان) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٤٣٤) ، ونحوه عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٨) ، وهناد في « الزهد » (٣٣٨) ، **تجاحش** : تدافع .

(3) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٠٧) ، **والحمائل هنا** : عروق الأنثيين ، ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف ؛ أي : عواتقه وصدره وأضلاعه . « إتحاف » (١٠/ ٤٢٢).

وقالَتْ عائشَةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقبرِ ضغطةً ، ولوْ سلمَ أوْ نجا منها أحدٌ . . لنجا سعدُ بنُ معاذٍ »[١] .

وعنْ أنسٍ قالَ : تُوفِّيَتْ زينبُ بنتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَتِ امرأةً مسقامةً ، فتبعَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فساءَنا حالُهُ ، فلمَّا انتهينا إلى القبرِ فدخلَهُ . . التمعَ وجهُهُ صفرةً ، فلمَّا خرجَ . . أسفرَ وجهُهُ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ رأينا منكَ شأناً فممَّ ذلكَ ؟ قالَ : « ذكرتُ ضعفَ ابنتي وشدةَ عذابِ القبرِ ، فأتيتُ فأُخبرتُ أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ خفَّفَ عنها ، ولقدْ ضُغطَتْ ضغطةً سمعَ صوتَها ما بينَ الخافقينِ »[٢] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن حبان (٣١١٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٥٥) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٢٥٧) ، ومسقامة : كثيرة الأمراض .

البَابُ الثَّامِنُ
فيما عُرِفَ من أحوالِ الموتى بالمكاشفةِ في المنامِ

اعلمْ : أنَّ أنوارَ البصائرِ المستفادةَ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِنْ مناهجِ الاعتبارِ . . تعرِّفُنا أحوالَ الموتىٰ على الجملةِ ، وانقسامَهُمْ إلىٰ سعداءَ وأشقياءَ ولكنْ حالُ زيدٍ وعمرٍو بعينِهِ فلا ينكشفُ بهِ أصلاً ؛ فإنَّا إنْ عوَّلنا علىٰ إيمانِ زيدٍ وعمرٍو . . فلا ندري علىٰ ماذا ماتَ وكيفَ خُتمَ لهُ ، وإنْ عوَّلنا علىٰ صلاحِهِ الظاهرِ . . فالتقوىٰ محلُّهُ القلبُ ، وهوَ غامضٌ يخفىٰ علىٰ صاحبِ التقوىٰ فكيفَ علىٰ غيرِهِ ؟! فلا حكمَ لظاهرِ الصلاحِ دونَ التقوى الباطنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فلا يمكنُ معرفةُ حكمِ زيدٍ وعمرٍو إلاَّ بمشاهدتِهِ ومشاهدةِ ما يجري عليهِ ، وإذا ماتَ . . فقدْ تحوَّلَ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، فلا يُرىٰ بالعينِ الظاهرةِ ، وإنَّما يُرىٰ بعينٍ أخرىٰ ، خُلقَتْ تلكَ العينُ في قلبِ كلِّ إنسانٍ ، ولكنَّ الإنسانَ جعلَ عليها غشاوةً كثيفةً مِنْ شهواتِهِ وأشغالِهِ الدنيويةِ فصارَ لا يبصرُ بها ، ولا يُتصورُ أنْ يبصرَ بها شيئاً مِنْ عالمِ الملكوتِ ما لمْ تنقشعْ تلكَ الغشاوةُ عنْ عينِ قلبِهِ .

ولمَّا كانتِ الغشاوةُ منقشعةً عنْ أعينِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ . . فلا جرمَ نظروا إلى الملكوتِ وشاهدوا عجائبَهُ ، والموتىٰ في عالمِ الملكوتِ ،

فشاهدوهم وأخبروا ، ولذلكَ رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضغطةَ القبرِ في حقِّ سعدِ بنِ معاذٍ[1] ، وفي حقِّ زينبَ ابنتِهِ[2] ، وكذلكَ حالُ أبي جابرٍ لمَّا استُشهدَ ؛ إذْ أخبرَهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أقعدَهُ بينَ يديهِ ليسَ بينَهما سترٌ[3] .

ومثلُ هٰذهِ المشاهدةِ لا مطمعَ فيها لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ الذين تقربُ درجتُهُمْ منهم .

وإنَّما الممكنُ مِنْ أمثالِنا مشاهدةٌ أخرىٰ ضعيفةٌ ، إلاَّ أنَّها أيضاً مشاهدةٌ نبويَّةٌ ، وأعني بها المشاهدةَ في المنامِ ، وهيَ مِنْ أنوارِ النبوةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »[4] .

وهوَ أيضاً انكشافٌ لا يحصلُ إلاَّ بانقشاعِ الغشاوةِ عن القلبِ ، فلذلكَ لا يُوثقُ إلاَّ برؤيا الرجلِ الصَّالحِ الصَّادقِ ، ومَنْ كثرَ كذبُهُ . . لمْ تصدقْ رؤياهُ ، ومَنْ كثرَ فسادُهُ ومعاصيهِ . . أظلم قلبُهُ ، فكانَ ما يراه أضغاثَ أحلامٍ ، ولذلكَ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالطهارةِ عندَ النومِ[5] ؛

---

(١) كما رواه ابن حبان (٣١١٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٥٥) .
(٢) كما رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٢٥٧) .
(٣) كما رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) .
(٤) رواه البخاري (٦٩٨٩) ، ومسلم (٢٢٦٤) .
(٥) كما رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما بلفظ : « إذا أتيت مضجعك . . فتوضأ وضوءك للصلاة . . .) .

لينامَ طاهراً ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ طهارةِ الباطنِ أيضاً ؛ فهوَ الأصلُ ، وطهارةُ الظاهرِ بمنزلةِ التتمَّةِ والتكملةِ لها .

ومهما صفا الباطنُ . . انكشفَ في حدقةِ القلبِ ما سيكونُ في المستقبلِ كما انكشفَ دخولُ مكةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النَّومِ ، حتىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾(١) .

وقلما يخلو الإنسانُ عنْ مناماتٍ دلَّتْ علىٰ أمورٍ فوجدَها صحيحةً .

والرؤيا ومعرفةُ الغيبِ في النومِ مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وبدائعِ فطرةِ الآدميِّ ، وهوَ مِنْ أوضحِ الأدلةِ علىٰ عالمِ الملكوتِ ، والخلقُ غافلونَ عنهُ كغفلتِهِمْ عنْ سائرِ عجائبِ القلبِ وعجائبِ العالمِ .

والقولُ في حقيقةِ الرؤيا مِنْ دقائقِ علومِ المكاشفةِ ، فلا يمكنُ ذكرُهُ علاوةً علىٰ علمِ المعاملةِ ، ولكنَّ القدرَ الذي يمكنُ ذكرُهُ هٰهنا مثالٌ يفهمُكَ المقصودَ ، وهوَ أنْ تعلمَ أنَّ القلبَ مثالُهُ مثالُ مرآةٍ تتراءىٰ فيها الصُّورُ وحقائقُ الأمورِ ، وأنَّ كلَّ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ مِنِ ابتداءِ خلقِ العالمِ إلىٰ آخرِهِ مسطورٌ ومثبَتٌ في خلقٍ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، يُعبَّرُ عنهُ تارةً باللَّوحِ ، وتارةً بالكتابِ المبينِ ، وتارةً بإمامٍ مبينٍ ؛ كما وردَ في القرآنِ ، فجميعُ ما جرىٰ في العالمِ وما سيجري مكتوبٌ فيه ، ومنقوشٌ عليهِ نقشاً لا يُشاهَدُ بهٰذهِ العينِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذلكَ اللوحَ مِنْ خشبٍ أوْ حديدٍ أوْ عظمٍ ، وأنَّ الكتابَ مِنْ

---

(١) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٤/ ١٦٤) من رواية مجاهد مرسلاً .

كاغَدٍ أوْ رقٍّ ، بلْ ينبغي أنْ تفهمَ قطعاً أنَّ لوحَ اللهِ لا يشبهُ لوحَ الخلقِ ، وكتابَ اللهِ لا يشبهُ كتابَ الخلقِ ، كما أنَّ ذاتَهُ وصفاتِهِ لا تشبهُ ذاتَ الخلقِ وصفاتِهِمْ ، بلْ إنْ كنتَ تطلبُ لهُ مثالاً يقربُهُ إلىٰ فهمِكَ . . فاعلمْ : أنَّ ثبوتَ المقاديرِ في اللوحِ يضاهي ثبوتَ كلماتِ القرآنِ وحروفِهِ في دماغِ حافظِ القرآنِ وقلبِهِ ؛ فإنَّهُ مسطورٌ فيهِ ، حتىٰ كأنَّهُ حيثُ يقرؤُهُ ينظرُ إليهِ ، ولوْ فتَّشتَ دماغَهُ جزءاً جزءاً . . لمْ تشاهدْ مِنْ ذلكَ الخطِّ حرفاً وإنْ كانَ ليسَ هناكَ خطٌّ يُشاهدُ ، ولا حرفٌ يُنظَرُ .

فمِنْ هٰذا النَّمطِ ينبغي أنْ تفهمَ كونَ اللوحِ منقوشاً بجميعِ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ وقضاهُ ، واللوحُ في المثالِ كمرآةٍ ظهرَ فيها الصورُ ، فلو وُضعَ في مقابلةِ المرآةِ مرآةٌ أخرىٰ . . لكانَتْ صورةُ تلكَ المرآةِ تتراءىٰ في هٰذهِ إلاَّ أنْ يكونَ بينَهما حجابٌ ، فالقلبُ مرآةٌ تقبلُ رسومَ العلومِ ، واللوحُ مرآةٌ رسومُ العلومِ كلُّها موجودةٌ فيها ، واشتغالُ القلبِ بشهواتِهِ ومقتضىٰ حواسِّهِ حجابٌ مرسلٌ بينَهُ وبينَ مطالعةِ اللوحِ الذي هوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، فإنْ هبَّتْ ريحٌ حرَّكَتْ هٰذا الحجابَ ورفعَتْهُ . . تلألأَ في مرآةِ القلبِ شيءٌ مِنْ عالمِ الملكوتِ كالبرقِ الخاطفِ ، وقدْ يثبتُ ويدومُ ، وقدْ لا يدومُ وهوَ الغالبُ .

وما دامَ متيقظاً . . فهوَ مشغولٌ بما تورِدُهُ الحواسُّ عليهِ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وهوَ حجابٌ عنْ عالمِ الملكوتِ .

ومعنى النَّومِ : أنْ تركدَ الحواسُّ فلا تُوردَ على القلبِ ، فإذا تخلَّصَ منهُ ومِنَ الخيالِ وكانَ صافياً في جوهرِهِ . . ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ اللوحِ

المحفوظِ ، فوقعَ في قلبهِ شيءٌ ممَّا في اللوحِ كما تقعُ الصورةُ مِنْ مرآةٍ في مرآةٍ إذا ارتفعَ الحجابُ بينَهما ، إلاَّ أنَّ النومَ مانعٌ سائرَ الحواسِّ عنِ العملِ ، وليسَ مانعاً للخيالِ عنْ عملِهِ وعنْ تحركِهِ ، فما يقعُ في القلبِ يبتدرُهُ الخيالُ فيحاكيهِ بمثالٍ يقاربُهُ ، وتكونُ المتخيلاتُ أثبتَ في الحفظِ مِنْ غيرِها ، فيبقى الخيالُ في الحفظِ ، فإذا انتبهَ . . لمْ يتذكرْ إلاَّ الخيالَ ، فيحتاجُ المعبِّرُ أنْ ينظرَ أنَّ هـٰذا الخيالَ حكايةُ أيِّ معنىً مِنَ المعاني ، فيرجعَ إلى المعاني بالمناسبةِ التي بينَ المتخيلِ والمعاني .

وأمثلةُ ذلكَ ظاهرةٌ عندَ مَنْ نظرَ في علمِ التعبيرِ ، ويكفيكَ مثالٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنَّ رجلاً قالَ لابنِ سيرينَ : رأيتُ كأنَّ بيدي خاتماً أختمُ بهِ أفواهَ الرجالِ وفروجَ النساءِ ، فقالَ : أنتَ مؤذنٌ تؤذنُ قبلَ الصبحِ في رمضانَ ، قالَ : صدقتَ[1] .

فانظرْ أنَّ روحَ الختمِ هوَ المنعُ ، ولأجلِهِ يُرادُ الختمُ ، وإنَّما ينكشفُ للقلبِ حالُ الشخصِ مِنَ اللوحِ المحفوظِ كما هوَ عليهِ ، وهوَ كونُهُ مانعاً للناسِ مِنَ الأكلِ والشربِ ، ولكنَّ الخيالَ ألفَ المنعَ عندَ الختمِ بالخاتمِ ، فتمثَّلَهُ بالصورةِ الخياليةِ التي تتضمَّنُ روحَ المعنىٰ ، ولا يبقىٰ في الحفظِ إلاَّ الصورةُ الخياليةُ .

فهـٰذهِ نبذةٌ يسيرةٌ مِنْ بحرِ علمِ الرؤيا الذي لا تنحصرُ عجائبُهُ ، وكيفَ لا وهوَ أخوْ الموتِ ؟!

---

(١) منتخب الكلام في تفسير الأحلام (٢/١٤٨) .

وإنَّما الموتُ هوَ عجبٌ مِنَ العجائبِ ، وهـٰذا لأنَّهُ يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ضعيفٍ أثَّرَ في كشفِ الغطاءِ عنْ عالمِ الغيبِ ، حتىٰ صارَ النَّائمُ يعرفُ ما سيكونُ في المستقبلِ ، فماذا ترىٰ في الموتِ الذي يخرقُ الحجابَ ، ويكشفُ الغطاءَ بالكليَّةِ ، حتىٰ يرى الإنسانُ عندَ انقطاعِ النفسِ مِنْ غيرِ تأخيرٍ نفسَهُ إمَّا محفوفاً بالأنكالِ والمخازي والفضائحِ نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، وإمَّا مكنوفاً بنعيمٍ مقيمٍ وملكٍ كبيرٍ لا آخرَ لهُ ؟! وعندَ هـٰذا يُقالُ للأشقياءِ وقدِ انكشفَ الغطاءُ : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، ويُقالُ : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وإليهمُ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

فأعلمُ العلماءِ وأحكمُ الحكماءِ ينكشفُ لهُ عقيبَ الموتِ مِنَ العجائبِ والآياتِ ما لمْ يخطرْ قطُّ ببالِهِ ، ولا اختلجَ بِهِ ضميرُهُ ، فلوْ لمْ يكنْ للعاقلِ همٌّ وغمٌّ إلاَّ الفكرةُ في خطرِ تلكَ الحالِ أنَّ الحجابَ عمَّاذا يرتفعُ ، وما الذي ينكشفُ عنهُ الغطاءُ مِنْ شقاوةٍ لازمةٍ أمْ سعادةٍ دائمةٍ . . لكانَ ذلكَ كافياً في استغراقِ جميعِ العمرِ .

والعجبُ مِنْ غفلتِنا وهـٰذهِ العظائمُ بينَ أيدينا ، وأعجبُ مِنْ ذلكَ فرحُنا بأموالِنا وأهلينا وبأسبابِنا وذوينا ، بلْ بأعضائِنا وسمعِنا وبصرِنا معَ أنَّا نعلمُ مفارقةَ جميعِ ذلكَ يقيناً .

ولكنْ أينَ مَنْ ينفثُ روحُ القدسِ في روعِهِ فيقولُ لهُ ما قالَ لسيِّدِ النبيينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ ، وعشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ »[1] ، فلا جرمَ لمَّا كانَ ذلكَ مكشوفاً لهُ بعينِ اليقينِ . . كانَ في الدنيا كعابرِ سبيلٍ ؛ لمْ يضعْ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ[2] ، ولمْ يخلِّفْ ديناراً ولا درهماً[3] ، ولمْ يتخذْ حبيباً ولا خليلاً .

نعمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كنتُ متخذاً خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكنْ صاحبُكُم خليلُ الرحمـٰنِ »[4] فبيَّنَ أنَّ خلةَ الرحمـٰنِ تخلَّلَتْ باطنَ قلبهِ ، وأنَّ حبَّهُ تمكَّنَ مِنْ حبةِ قلبهِ ، فلمْ يتركْ فيهِ متسعاً لخليلٍ ولا حبيبٍ .

وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ لأمَّتِهِ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فإنَّما أمتُهُ مَنِ اتبعَهُ ، وما اتبعَهُ إلاَّ مَنْ أعرضَ عنِ الدنيا وأقبلَ على الآخرةِ ؛ فإنَّه ما دعا إلاَّ إلى اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ ، وما صرفَ إلاَّ عنِ الدنيا والحظوظِ العاجلةِ ، فبقدرِ ما أعرضتَ عنِ الدنيا وأقبلتَ على الآخرةِ . . فقدْ سلكتَ سبيلَهُ الذي سلكَهُ ، وبقدرِ ما سلكتَ سبيلَهُ . . فقدِ اتبعتَهُ ، وبقدرِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .
(٢) كما رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) .
(٣) كما رواه البخاري (٤٤٦١) ، ومسلم (١٦٣٥) .
(٤) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

ما اتبعتَهُ . . فقدْ صرتَ مِنْ أُمَّتِهِ ، وبقدرِ ما أقبلتَ على الدنيا . . عدلتَ عنْ سبيلِهِ ورغبتَ عنْ متابعتِهِ ، والتحقتَ بالذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهمْ : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

فلوْ خرجتَ مِنْ مكمنِ الغرورِ وأنصفتَ نفسَكَ يا رجلُ ـ وكلُّنا ذلكَ الرجلُ ـ لعلمتَ أنَّكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي لا تسعىٰ إلاَّ في الحظوظِ العاجلةِ ، ولا تتحركُ ولا تسكنُ إلا لعاجلِ الدنيا ، ثمَّ تطمعُ في أنْ تكونَ غداً مِنْ أمَّتِهِ وأتباعِهِ ؟! ما أبعدَ ظنَّكَ ؛ وما أبردَ طمعَكَ ! ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

ولنرجعْ إلىٰ ما كنَّا فيهِ وبصددِهِ ، فقدِ امتدَّ عنانُ الكلامِ إلىٰ غيرِ مقصدِهِ ، ولنذكرِ الآنَ مِنَ المناماتِ الكاشفةِ لأحوالِ الموتىٰ ما يعظمُ الانتفاعُ بهِ ، إذْ ذهبتِ النبوَّةُ وبقيَتِ المبشِّراتُ ، وليسَ ذلكَ إلاَّ المناماتِ .

❋ ❋ ❋

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمِنْ ذلكَ : رؤيا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « مَنْ رآني في المنامِ .. فقدْ رآني حقاً ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بي »(١) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فرأيتُهُ لا ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما شأني ؟ فالتفتَ إليَّ وقالَ : « ألستَ المقبِّلَ وأنتَ صائمٌ ؟ » قالَ : فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لا أقبِّلُ امرأةً وأنا صائمٌ أبداً)(٢) .

وقالَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كنتُ ودّاً لعمرَ ، فاشتهيتُ أنْ أراهُ في المنامِ ، فما رأيتُهُ إلاَّ عندَ رأسِ الحولِ ، فرأيتُهُ يمسحُ العرقَ عنْ جبينِهِ وهوَ يقولُ : هـٰذا أوانُ فراغي ، إنْ كادَ عرشي ليُهدُّ لولا أنِّي لقيتُهُ رؤوفاً رحيماً)(٣) .

وقالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما : (قالَ لي عليٌّ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سنحَ لي الليلةَ في منامي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٢٢٦٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٣٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٣) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٣٤٨) .

ما لقيتُ مِنْ أمَّتِكَ ؟! قالَ : « ادعُ عليهِمْ » فقلتُ : اللهمَّ ؛ أبدلْني بهِمْ مَنْ هوَ خيرٌ لي منهمْ ، وأبدلْهمْ بي مَنْ هوَ شرٌّ لهمْ منِّي ، فخرجَ فضربَهُ ابنُ ملجمٍ)(١) .

وقالَ بعضُ الشيوخِ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ استغفرْ لي ، فأعرضَ عنِّي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ سفيانَ بنَ عيينةَ حدثَنا عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ ، عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، أنَّكَ لمْ تُسألْ شيئاً قطُّ فقلتَ : لا ، فأقبلَ عليَّ فقالَ : « غفرَ اللهُ لكَ »(٢) .

ورُويَ عنِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ قالَ : (كنتُ مواخياً لأبي لهبٍ مصاحباً لهُ ، فلمَّا ماتَ وأخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ بما أخبرَ . . حزنتُ عليهِ ، وأهمَّني أمرُهُ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ حولاً أنْ يريَني إيَّاهُ في المنامِ ، قالَ : فرأيتُهُ يلتهبُ ناراً ، فسألتُهُ عنْ حالِهِ فقالَ : صرتُ إلى النَّارِ في العذابِ ، لا يُخفَّفُ عنِّي ولا يُروَّحُ إلاَّ ليلةَ الاثنينِ في كلِّ الليالي والأيامِ ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : وُلدَ في تلكَ الليلةِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجاءَتْني أميمةُ فبشَّرَتْني بولادةِ آمنةَ إيَّاهُ ، ففرحتُ بهِ ، وأعتقتُ وليدةً لي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٤) ، والحديث المذكور رواه البخاري (٦٠٣٤) ، ومسلم (٢٣١١) .

فرحاً بهِ ، فأثابَنِي اللهُ بذلكَ أنْ رفعَ عني العذابَ في كلِّ ليلةِ اثنينِ)[1] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : خرجتُ حاجّاً ، فصحبَني رجلٌ كانَ لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يتحركُ ولا يسكنُ إلاَّ صلَّىٰ على النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألتُهُ عنْ ذلكَ فقالَ : أخبرُكَ عنْ ذلكَ ، خرجتُ أوَّلَ مرةٍ إلىٰ مكةَ ومعي أبي ، فلمَّا انصرفنا . . نمتُ في بعضِ المنازلِ ، فبينا أنا نائمٌ ؛ إذْ أتاني آتٍ فقالَ لي : قمْ ؛ فقدْ أماتَ اللهُ أباكَ وسوَّدَ وجهَهُ ، قالَ : فقمتُ مذعوراً ، فكشفتُ الثوبَ عنْ وجههِ ؛ فإذا هوَ ميتٌ أسودُ الوجهِ ، فداخلَني مِنْ ذلكَ رعبٌ ، فبينا أنا في ذلكَ الغمِّ ؛ إذْ غلبَتْني عيني فنمتُ ؛ فإذا علىٰ رأسِ أبي أربعةُ سودانٍ معَهم أعمدةُ حديدٍ ؛ إذْ أقبلَ رجلٌ حسنُ الوجهِ بينَ ثوبينِ أخضرينِ ، فقالَ لهمْ : تنحَّوا ، فمسحَ وجهَهُ بيدِهِ ، ثمَّ أتاني فقالَ لي : قمْ فقدْ بيَّضَ اللهُ وجهَ أبيكَ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ بأبي أنتَ وأمي ؟ فقالَ : أنا محمَّدٌ ، قالَ : فقمتُ فكشفتُ الثوبَ عنْ وجهِ أبي ؛ فإذا هوَ أبيضُ ، فما تركتُ الصَّلاةَ بعدَ ذلكَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وعنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهما جالسانِ عندَهُ ، فسلَّمتُ وجلستُ ، فبينا أنا جالسٌ ؛ إذْ أُتيَ بعليٍّ ومعاويةَ رضيَ اللهُ عنهما فأُدخلا بيتاً

---

(١) كذا أورده في « قوت القلوب » (٢/ ٨٤) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٦٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٨) .

وأُجيفَ عليهما البابُ وأنا أنظرُ[1] ، فما كانَ بأسرعَ أنْ خرجَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يقولُ : قُضيَ لي وربِّ الكعبةِ ، وما كانَ بأسرعَ أنْ خرجَ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ على أثرِهِ وهوَ يقولُ : غُفرَ لي وربِّ الكعبةِ[2] .

واستيقظَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما مِنْ نومِهِ مرةً فاسترجَعَ وقالَ : (قُتِلَ الحسينُ واللهِ) وكانَ ذلكَ قبلَ قتلِهِ ، فأنكرَهُ أصحابُهُ ، فقالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ زجاجةٌ مِنْ دمٍ فقالَ : « ألا تعلمُ ما صنعَتْ أمَّتي مِنْ بعدي ؟! قَتلوا ابنيَ الحسينَ وهـٰذا دمُهُ ودماءُ أصحابِهِ أرفعُها إلى اللهِ تعالىٰ » فجاءَ الخبرُ بعدَ أربعةٍ وعشرينَ يوماً بقتلِهِ في اليومِ الذي رآهُ[3] .

ورُئِيَ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ فقيلَ لهُ : إنَّكَ كنتَ تقولُ أبداً في لسانِكَ : (هـٰذا أوردَني المواردَ) فما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : قلتُ بهِ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، فأوردَني الجنَّةَ[4] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أجيف الباب : أي : رُدَّ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٢٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٢٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) ، وأما قوله : « أوردني الموارد ».. فرواه مالك في « الموطأ » (٢/٩٨٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٣٦) .

بيان منامات المشايخ رضي الله عنهم

قالَ بعضُ المشايخِ : رأيتُ متمماً الدورقيَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : ديرَ بي في الجنانِ ، فقيلَ لي : يا متممُ ؛ هلِ استحسنتَ فيها شيئاً ؟ قلتُ : لا يا سيِّدي ، فقالَ : لوِ استحسنتَ منْها شيئاً . . لوكلتُكَ إليهِ ، ولمْ أوصلْكَ إليَّ[١] .

ورُئيَ يوسفُ بنُ الحسينِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ، قيلَ : بماذا ؟ قالَ : ما خلطتُ جداً بهزلٍ قطُّ[٢] .

وعنْ منصورِ بنِ إسماعيلَ قالَ : رأيتُ عبدَ اللهِ البزازَ في النومِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أوقفَني بينَ يديهِ ، فغفرَ لي كلَّ ذنبٍ أقررتُ بهِ إلاَّ ذنباً واحداً ؛ فإنِّي استحييتُ أنْ أقرَّ بهِ ، فأوقفَني في العرقِ حتىٰ سقطَ لحمُ وجهي ، فقلتُ : ما كانَ ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : نظرتُ إلىٰ غلامٍ جميلٍ فاستحسنتُهُ ، فاستحييتُ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أذكرَهُ[٣] .

وقالَ أبو جعفرٍ الصيدلانيُّ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٥) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٦٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) وفيها : (أبو عبد الله الزراد) بدل (عبد الله البزاز) وهو ما صوبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٤٣٣) .

النومِ وحولَهُ جماعةٌ مِنَ الفقراءِ ، فبينا نحنُ كذلكَ ؛ إذِ انشقَّتِ السماءُ ونزلَ ملكانِ أحدُهُما بيدِه طستٌ وبيدِ الآخرِ إبريقٌ ، فوضعَ الطستَ بينَ يدي رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فغسلَ يدَهُ ثمَّ أمرَ حتىٰ غسلوا أيديَهُمْ ، ثمَّ وُضعَ الطستُ بين يديَّ ، فقالَ أحدُهما للآخرِ : لا تصبَّ علىٰ يدِهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ منهمْ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أليسَ قدْ رُويَ عنكَ أنَّكَ قلتَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ » ؟! قالَ : « بلىٰ » قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ فإنِّي أحبُّكَ وأحبُّ هؤلاءِ الفقراءَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « صبَّ علىٰ يدِهِ ، فإنَّهُ منهمْ »[1] .

وقالَ الجنيدُ : رأيتُ في المنامِ كأنِّي أتكلَّمُ على النَّاسِ ، فوقفَ عليَّ ملكٌ فقالَ : أقربُ ما تقرَّبَ بهِ المتقربونَ إلى اللهِ تعالىٰ ماذا ؟ فقلتُ : عملٌ خفيٌّ بميزانٍ وفيٍّ ، فولَّى الملكُ وهوَ يقولُ : كلامٌ موفَّقٌ واللهِ[2] .

ورُئيَ مجمِّعٌ في النومِ ، فقيلَ لهُ : كيفَ رأيتَ الأمرَ ؟ فقالَ : رأيتُ الزاهدينَ في الدنيا ذهبوا بخيرِ الدنيا والآخرةِ[3] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٦ ـ ٨٤٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) ، والحديث المذكور رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٧ ـ ٨٤٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٣٤) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨) .

وقالَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ للعلاءِ بنِ زيادٍ : رأيتُكَ في النومِ كأنَّكَ في الجنَّةِ ، فنزلَ عنْ مجلسِهِ وأقبلَ عليهِ ثمَّ قالَ : لعلَّ الشيطانَ أرادَ أمراً فعُصمتُ منهُ ، فأشخصَ رجلاً يقتلُني[(١)] .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : الرؤيا تسرُّ المؤمنَ ولا تغرُّهُ[(٢)] .

وقالَ صالحُ بنُ بشيرٍ : رأيتُ عطاءً السلميَّ في النومِ ، فقلتُ لهُ : رحمَكَ اللهُ ؛ لقدْ كنتَ طويلَ الحزنِ في الدنيا ، فقالَ : أما واللهِ ؛ لقدْ أعقبَني ذلكَ راحةً طويلةً وفرحاً دائماً ، فقلتُ : في أيِّ الدرجاتِ أنتَ ؟ فقالَ : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ . . . ﴾ الآيةَ[(٣)] .

وسُئلَ زرارةُ بنُ أبي أوفىٰ في المنامِ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ عندَكُمْ ؟ فقالَ : الرضا وقصرُ الأملِ[(٤)] .

وقالَ يزيدُ بنُ مذعورٍ : رأيتُ الأوزاعيَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا أبا عمرٍو ؛ دلَّني علىٰ عملٍ أتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ : ما رأيتُ هناكَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨ ـ ٨٤٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٢) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٩) .

درجةً أرفعَ مِنْ درجةِ العلماءِ ، ثمَّ درجةِ المحزونينَ ، قالَ : وكانَ يزيدُ شيخاً كبيراً ، فلمْ يزلْ يبكي حتىٰ أظلمَتْ عيناهُ[1] .

وقالَ ابنُ عيينةَ : رأيتُ أخي في المنامِ ، فقلتُ : يا أخي ؛ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : كلُّ ذنبٍ استغفرتُ منهُ . . غُفِرَ لي ، وما لمْ أستغفرْ منهُ . . لمْ يُغفرْ لي[2] .

وقالَ عليٌّ الطلحيُّ : رأيتُ في المنامِ امرأةً لا تشبهُ نساءَ الدنيا ، فقلتُ : مَنْ أنتِ ؟ فقالَتْ : حوراءُ ، فقلتُ : زوِّجيني نفسَكِ ، قالَتْ : اخطبْني إلىٰ سيِّدي وأمهرْني ، قلتُ : وما مهرُكِ ؟ قالَتْ : حبسُ نفسِكَ عنْ آفاتِها[3] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ إسحاقَ الحربيُّ : رأيتُ زبيدةَ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكِ ؟ قالَتْ : غفرَ لي ، فقلتُ لها : بما أنفقتِ في طريقِ مكةَ ؟ قالَتْ : أمَّا النفقاتُ التي أنفقتُها . . فرجعَتْ أجورُها إلىٰ أربابِها ، وغُفِرَ لي بنيَّتي[4] .

ولمَّا ماتَ سفيانُ الثوريُّ . . رُئِيَ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٥٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥/ ٢٢٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٨) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٠) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٠ ـ ٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤) .

قالَ : وضعتُ أولَ قدميَّ على الصراطِ ، والثانيَ في الجنَّةِ[(١)] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : رأيتُ فيما يرى النَّائمُ جاريةً ما رأيتُ أحسنَ منها ، وكانَ يتلألأُ وجهُها نوراً ، فقلتُ لها : مماذا ضوءُ وجهِكِ ؟ قالَتْ : تذكرُ تلكَ الليلةَ التي بكيتَ فيها ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَتْ : أخذتُ دمعَكَ فمسحتُ بهِ وجهي ، فمِنْ ثمَّ ضوءُ وجهي كما ترىٰ[(١)] .

وقالَ الكتانيُّ : رأيتُ الجنيدَ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : طاحَتْ تلكَ الإشاراتُ ، وذهبَتْ تلكَ العباراتُ ، وما حصلنا إلاَّ علىٰ ركعتينِ كنَّا نصلِّيهما في الليلِ[(٢)] .

ورُئيَتْ زبيدةُ في المنامِ ، فقيلَ لها : ما فعلَ اللهُ بكِ ؟ قالَتْ : غفرَ لي بهٰذهِ الكلماتِ الأربعِ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ أفني بها عمري ، لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ أدخلُ بها قبري ، لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ أخلو بها وحدي ، لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ألقىٰ بها ربِّي[(٣)] .

ورُئيَ بشرٌ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ : قالَ : رحمَني ربِّي عزَّ وجلَّ وقالَ : يا بشرُ ؛ أما استحييتَ منِّي كنتَ تخافُني كلَّ ذلكَ الخوفِ ؟![(٤)] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥١ ـ ٨٥٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٢) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٤)، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤).

ورُئيَ أبو سليمانَ في النومِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : رحمَني ، وما كانَ شيءٌ أضرَّ عليَّ مِنْ إشاراتِ القومِ إليَّ(١) .

وقالَ أبو بكرٍ الكتانيُّ : رأيتُ في النومِ شاباً لمْ أرَ أحسنَ منهُ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ ؟ قالَ : التقوىٰ ، قلتُ : فأينَ تسكنُ ؟ قالَ : كلَّ قلبٍ حزينٍ ، ثمَّ التفتُّ ؛ فإذا امرأةٌ سوداءُ كأوحشِ ما يكونُ ، فقلتُ : مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أنا السقمُ ، قلتُ : فأينَ تسكنينَ ؟ قالَتْ : كلَّ قلبٍ فرحٍ مرحٍ ، قالَ : فانتبهتُ واعتقدتُ ألاَّ أضحكَ إلاَّ غلبةً(٢) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرازُ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ إبليسَ وثبَ عليَّ ، فأخذتُ العصا لأضربَهُ فلمْ يفزعْ منها ، فهتفَ بي هاتفٌ : إنَّ هـٰذا لا يخافُ مِنْ هـٰذهِ ، وإنَّما يخافُ مِنْ نورٍ يكونُ في القلبِ(٣) .

وقالَ المسوحيُّ : رأيتُ إبليسَ في النومِ يمشي عرياناً ، فقلتُ : ألا تستحي مِنَ النَّاسِ ؟! فقالَ : باللهِ ؛ هؤلاءِ ناسٌ ؟ لوْ كانوا مِنَ الناسِ . . ما كنتُ ألعبُ بهمْ طرفيِ النَّهارِ كما يتلاعبُ الصبيانُ بالكرةِ ، بلِ الناسُ قومٌ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٥ ـ ٨٥٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٥) ، واعتقدت : عزمت .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٦) .

غيرُ هؤلاءِ ، قدْ أسقموا جسمي ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ أصحابِنا الصوفيَّةِ[1] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرازُ : كنتُ في دمشقَ ، فرأيتُ في المنامِ كأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَني متكئاً علىٰ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما ، فجاءَ فوقفَ عليَّ وأنا أقولُ شيئاً مِنَ الأصواتِ ، وأدقُّ في صدري فقالَ : « شرُّ هـٰذا أكثرُ مِنْ خيرِهِ »[2] .

وعنِ ابنِ عيينةَ قالَ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في النومِ كأنَّهُ في الجنَّةِ يطيرُ مِنْ شجرةٍ إلىٰ شجرةٍ يقولُ : لمثلِ هـٰذا فليعملِ العاملونَ ، فقلتُ لهُ : أوصني ، قالَ : أقللْ مِنْ معرفةِ الناسِ[3] .

ورَوىٰ أبو حاتمٍ الرازيُّ عنْ قبيصةَ بنِ عقبةَ قالَ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ[4] : [من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَىٰ رَبِّي كِفاحاً فَقالَ لِي ... هَنِيئاً رِضائِي عنْكَ يا بْنَ سَعِيدِ
فَقَدْ كُنْتَ قَوَّاماً إذا أَظْلَمَ ٱلدُّجَى ... بِعَبْـرَةِ مُشْتـاقٍ وَقَلْـبِ عَمِيـدِ
فَدُونَكَ فَٱخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ أَرَدْتَهُ ... وَزُرْنِـي فَـإِنِّي مِنْـكَ غَيْـرُ بَعِيـدِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٦) ، وقوله : (**من الأصوات**) أي : من الأنغام المعروفة . « إتحاف » (١٠/ ٤٣٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٧٤) ، وانظر « مرآة الجنان » (١/ ٣٤٧) .

ورُئيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ بثلاثةِ أيامٍ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : ناقشَني حتىٰ أيستُ ، فلمَّا رأىٰ يأسي . . تغمَّدَني برحمتِهِ[1] .

ورُئيَ مجنونُ بني عامرٍ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي وجعلَني حجةً على المحبينَ[2] .

ورُئيَ الثوريُّ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : رحمَني ، فقيلَ لهُ : ما حالُ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ ؟ فقالَ : هوَ ممَّن يلجُ علىٰ ربِّهِ في كلِّ يومٍ مرتينِ[3] .

ورُئيَ بعضُهم فسُئلَ عنْ حالِهِ فقالَ[4] : [من مجزوء الخفيف]

حاسَبُونا فدقَّقوا ... ثمَّ منُّوا فأعتقوا

ورُئيَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي بكلمةٍ كانَ يقولُها عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ رؤيةِ الجنازةِ : (سبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ)[5] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٥) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٨) .

(٤) انظر « البصائر والذخائر » (٣/ ٩٢) ، والخبر أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٩) .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٩) .

ورُئِيَ في الليلةِ التي ماتَ فيها الحسنُ البصريُّ رحمةُ اللهِ عليهِ كأنَّ أبوابَ السماءِ مفتحةٌ ، وكأنَّ منادياً ينادي : ألا إنَّ الحسنَ البصريَّ قدمَ على اللهِ تعالىٰ وهوَ عنهُ راضٍ[1] .

ورُئِيَ الجاحظُ فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ[1] : [من الوافر]

وَلا تَكْتُبْ بِخَطِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ ... يَسُـرُّكَ فِـي ٱلْقِيَـامَـةِ أَنْ تَـراهُ

ورأى الجنيدُ إبليسَ في المنامِ عرياناً ، فقالَ : ألا تستحي مِنَ الناسِ ؟! فقالَ : وهؤلاءِ ناسٌ ؟! الناسُ أقوامٌ في مسجدِ الشونيزيةِ ، قدْ أضنَوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قالَ الجنيدُ : فلمَّا انتبهتُ. . غدوتُ إلى المسجدِ ، فرأيتُ جماعةً قدْ وضعوا رؤوسَهُمْ علىٰ ركبِهِمْ يتفكرونَ ، فلمَّا رأَوني . . قالوا : لا يغرنَّكَ حديثُ الخبيثِ[1] .

ورُئِيَ النَّصراباذي بمكةَ بعدَ وفاتِهِ في النومِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : عُوتبتُ عتابَ الأشرافِ ، ثمَّ نُوديتُ : يا أبا القاسمِ ؛ أبعدَ الاتصالِ انفصالٌ ؟ فقلتُ : لا يا ذا الجلالِ ، فما وُضعتُ في اللحدِ حتىٰ لحقتُ بالأحدِ[1] .

ورأىٰ عتبةُ الغلامُ حوراءَ في المنامِ علىٰ صورةٍ حسنةٍ ، فقالَتْ لهُ : يا عتبةُ ؛ أنا لكَ عاشقةٌ ، فانظرْ لا تعملْ مِنَ الأعمالِ شيئاً يُحالُ بهِ بيني

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٩) .

وبينَكَ ، فقالَ لها عتبةُ : طلَّقتُ الدنيا ثلاثاً ، لا رجعةَ لي عليها حتىٰ ألقاكِ[1] .

وقيلَ : رأىٰ أيوبُ السختيانيُّ جنازةَ عاصٍ ، فدخلَ الدهليزَ لئلاَّ يصليَ عليها ، فرأىٰ بعضُهمُ الميتَ في المنامِ ، فقالَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي وقالَ لي : قلْ لأيوبَ : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ في الليلةِ التي ماتَ فيها داوودُ الطائيُّ نوراً ، وملائكةً نزولاً وملائكةً صعوداً ، فقلتُ : أيُّ ليلةٍ هـٰذهِ ؟ فقالوا : ليلةٌ ماتَ فيها داوودُ الطائيُّ ، وقدْ زُخرفَتِ الجنةُ لقدومِ روحِهِ[3] .

وقالَ أبو سعيدٍ الشحامُ : رأيتُ سهلاً الصُّعلوكيَّ في المنامِ ، فقلتُ : أيُّها الشيخُ ، قالَ : دعِ التشييخَ ، قلتُ : تلكَ الأحوالُ التي شاهدتُها ، فقالَ : لمْ تغنِ عنَّا شيئاً ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي بمسائلَ كانَ يسألُ عنها العُجزُ[4] .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٠) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١١) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١١) .
(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) ، وفيها : (يسأل عنها العجز فأجبتهم عنها) ، والعجز : جمع عاجز ؛ يعني باسم العوام من الناس ، وفيه دلالة علىٰ فضيلة المفتي للعوام فيما يحتاجون إلىٰ معرفة الأحكام . « الإتحاف » (١٠/٤٣٨) .

وقالَ أبو بكرٍ الرشيديُّ : رأيتُ محمداً الطوسيَّ المعلمَ في النومِ ، فقالَ لي : قلْ لأبي سعيدٍ الصَّفارِ المؤدِّبِ[1] : [من الطويل]

وَكُنَّا عَلَىٰ أَلاَّ نَحُولَ عَنِ ٱلْهَوَى فَقَدْ وَحَياةِ ٱلْحِبِّ حُلْتُمْ وَما حُلْنا

قالَ : فانتبهتُ ، فذكرتُ ذلكَ لهُ ، فقالَ : كنتُ أزورُ قبرَهُ كلَّ جمعةٍ ، فلمْ أزرْهُ هـٰذهِ الجمعةَ[2] .

وقالَ ابنُ راشدٍ : رأيتُ ابنَ المباركِ في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقلتُ : أليسَ قدْ متَّ ؟! قالَ : بلىٰ ، قلتُ : فما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي مغفرةً أحاطَتْ بكلِّ ذنبٍ ، قلتُ : فسفيانُ الثوريُّ ؟ قالَ : بخٍ بخٍ ! ذاكَ ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ . . . ﴾ الآيةَ[3] .

وقالَ الربيعُ بنُ سليمانَ : رأيتُ الشافعيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ بعدَ وفاتِهِ في المنامِ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ، ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أجلسَني علىٰ كرسيٍّ مِنْ ذهبٍ ، ونثرَ عليَّ اللؤلؤَ الرطبَ[4] .

ورأىٰ رجلٌ مِنْ أصحابِ الحسنِ البصريِّ ليلةَ ماتَ الحسنُ كأنَّ منادياً

---

(١) البيت لأبي بكر الشبلي في « ديوانه » (ص ١٣٠) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) ، وفيها تتمة الأبيات وهي :

تشاغلتمُ عنَّا بصحبةِ غيرنا وأظهرتمُ الهجرانَ ما هـٰكذا كنّا

لعلَّ الذي يقضي الأمورَ بعلمِه سيجمعنا بعدَ المماتِ كما كنّا

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٣) .

(٤) انظر « مختصر تاريخ دمشق » لابن منظور (٢١/٤١٣) .

ينادي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ واصطفى الحسنَ بن أبي الحسنِ البصريَّ علىٰ أهلِ زمانِهِ(١) .

وقالَ أبو يعقوبَ القاريُّ الدقيقيُّ : رأيتُ في منامي رجلاً آدمَ طُوالاً والناسُ يتبعونَهُ ، فقلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا : أويسٌ القرنيُّ ، فاتبعتُهُ فقلتُ : أوصني رحمَكَ اللهُ ، فكلحَ في وجهي ، فقلتُ : مسترشدٌ فأرشدْني أرشدَكَ اللهُ ، فأقبلَ عليَّ وقالَ : اتبع رحمةَ ربِّك عندَ محبتِهِ ، واحذرْ نقمتَهُ عندَ معصيتِهِ ، ولا تقطعْ رجاءَكَ منهُ في خلالِ ذلكَ ، ثمَّ ولَّىٰ وتركَني(٢) .

وقالَ أبو بكرِ بنُ أبي مريمَ : رأيتُ وفاءَ بنَ بشرٍ الحضرميَّ ، فقلتُ : ما فعلتَ يا وفاءُ ؟ قالَ : نجوتُ بعدَ كلِّ جهدٍ ، قلتُ : فأيُّ الأعمالِ وجدتُموها أفضلَ ؟ قالَ : البكاءُ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ(٣) .

وقالَ يزيدُ بنُ نعامةَ : هلكَتْ جاريةٌ في الطاعونِ الجارفِ ، فرآها أبوها في المنامِ ، فقالَ لها : يا بنيةُ ؛ أخبريني عنِ الآخرةِ ، قالَتْ : يا أبتِ ؛ قدمنا علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، نعلمُ ولا نعملُ وتعملونَ ولا تعلمونَ ، واللهِ ؛ لتسبيحةٌ أوْ تسبيحتانِ أوْ ركعةٌ أوْ ركعتانِ في فسحةِ عملٍ . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها(٤) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٥٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٧١)، وفي غير (د ، ف): (ورقاء) بدل (وفاء) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٨٦) .

وقالَ بعضُ أصحابِ عتبةَ الغلامِ : رأيتُ عتبةَ في المنامِ ، فقلتُ : ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : دخلتُ الجنَّةَ بتلكَ الدعوةِ المكتوبةِ في بيتِكَ ، قالَ : فلمَّا أصبحتُ . . جئتُ إلىٰ بيتي ؛ فإذا خطُّ عتبةَ الغلامِ في حائطِ البيتِ مكتوبٌ : يا هاديَ المضلينَ ، ويا راحمَ المذنبينَ ، ويا مقيلَ عثراتِ العاثرينَ ؛ ارحمْ عبدَكَ ذا الخطرِ العظيمِ والمسلمينَ كلَّهم أجمعينَ ، واجعلْنا مَعَ الأحياءِ المرزوقينَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ مِنَ النبيينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، آمينَ ربَّ العالمينَ(١) .

وقالَ موسىٰ بنُ حمادٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنامِ في الجنَّةِ ، يطيرُ مِنْ نخلةٍ إلىٰ نخلةٍ ، ومِنْ شجرةٍ إلىٰ شجرةٍ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ بمَ نلتَ هـٰذا ؟ فقالَ : بالورعِ ، قلتُ : فما بالُ عليِّ بنِ عاصمٍ ؟ قالَ : ذاكَ لا يكادُ يُرىٰ إلاَّ كما يُرى الكوكبُ(٢) .

ورأىٰ رجلٌ مِنَ التابعينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ عظْني ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « نعمْ ، مَنْ لمْ يتفقدِ النقصانَ . . فهوَ في نقصانٍ ، ومَنْ كانَ في نقصانٍ . . فالموتُ خيرٌ لهُ »(٣) .

وقالَ الشافعيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : دهمَني في هـٰذهِ الأيامِ أمرٌ أمضَّني

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٣٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٧٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٨٦) .

وآلمَني ، ولمْ يطَّلعْ عليهِ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلمَّا كانَ البارحةُ . . أتاني آتٍ في منامي فقالَ : يا محمدَ بنَ إدريسَ ؛ قلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا أستطيعُ أنْ آخذَ إلاَّ ما أعطيتَني ، ولا أتقيَ إلاَّ ما وقيتَني ، اللهمَّ ؛ فوفِّقْني لما تحبُّ وترضىٰ مِنَ القولِ والعملِ في عافيةٍ ، فلمَّا أصبحتُ . . أعدتُ ذلكَ ، فلمَّا ترحلَ النَّهارُ . . أعطاني اللهُ عزَّ وجلَّ طلبتي ، وسهَّلَ ليَ الخلاصَ ممَّا كنتُ فيهِ ، فعليكمْ بهـٰذهِ الدعواتِ لا تغفلوا عنها(١) .

فهـٰذهِ جملةٌ مِنَ المكاشفاتِ تدلُّ علىٰ أحوالِ الموتىٰ ، وعلى الأعمالِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تعالىٰ زلفىٰ ، فلنذكرْ بعدَها ما بينَ يديِ الموتىٰ مِنِ ابتداءِ نفخةِ الصورِ إلىٰ آخرِ القرارِ ، إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النَّارِ ، والحمدُ للهِ حمدَ الشاكرينَ .

* * *

(١) أورده ابن الصلاح في « طبقات الفقهاء الشافعية » (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ كتَابِ ذِكْرِ المَوْتِ

في أحوال الميّت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنّة أو النّار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

وفيهِ بيانُ نفخةِ الصورِ ، وصفةِ أرضِ المحشرِ وأهلِهِ ، وصفةِ عرقِ أهلِ المحشرِ .

وصفةِ طولِ يومِ القيامةِ ، وصفةِ يومِ القيامةِ ودواهيها وأساميها .

وصفةِ المساءلةِ عنِ الذنوبِ ، وصفةِ الميزانِ ، وصفةِ الخصماءِ وردِّ المظالمِ .

وصفةِ الصراطِ ، وصفةِ الشفاعةِ ، وصفةِ الحوضِ .

وصفةِ جهنَّمَ وأهوالِها ، وأنكالِها وحيَّاتِها وعقارِبها .

وصفـةِ الجنَّـةِ وأصنـافِ نعيمِهـا ، وعـددِ الجنـانِ وأبـوابِهـا وغـرفِهـا وحيطانِها ، وأنهارِها وأشجارِها ، ولباسِ أهلِها وفرشِهم وسررِهم ، وصفةِ طعامِهم ، وصفةِ الحورِ العينِ والولدانِ .

وصفةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ .

وبابٌ في سعةِ رحمةِ الله تعالىٰ ، وبهِ ختمُ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

صفة نفخ الصّور

قدْ عرفتَ فيما سبقَ شدةَ أحوالِ الميتِ في سكراتِ الموتِ ، وخطرَهُ في خوفِ العاقبةِ ، ثمَّ مقاساتَهُ لظلمةِ القبرِ وديدانِهِ ، ثمَّ لمنكرٍ ونكيرٍ وسؤالِهما ، ثمَّ لعذابِ القبرِ وخطرِهِ إنْ كانَ مغضوباً عليهِ ، وأعظمُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ الأخطارُ التي بينَ يديهِ ؛ مِنْ نفخِ الصورِ ، والبعثِ يومَ النُّشورِ ، والعرضِ على الجبارِ ، والسؤالِ عنِ القليلِ والكثيرِ ، ونصبِ الميزانِ لمعرفةِ المقاديرِ ، ثمَّ جوازِ الصراطِ معَ دقَّتِهِ وحدَّتِهِ ، ثمَّ انتظارِ النداءِ عندَ فصلِ القضاءِ إمَّا بالإسعادِ وإمَّا بالإشقاءِ .

فهٰذهِ أحوالٌ وأهوالٌ لا بدَّ لكَ مِنْ معرفتِها ، ثمَّ الإيمانِ بها علىٰ سبيلِ الجزمِ والتصديقِ ، ثمَّ تطويلِ الفكرِ فيها ؛ لينبعثَ مِنْ قلبِكَ دواعي الاستعدادِ لها .

وأكثرُ الناسِ لمْ يدخلِ الإيمانُ باليومِ الآخرِ صميمَ قلوبِهم ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويداءِ أفئدتِهم ، ويدلُّ علىٰ ذلكَ شدةُ تشمُّرِهم واستعدادِهم لحرِّ الصيفِ وبردِ الشتاءِ ، وتهاونِهم بحرِّ جهنَّمَ وزمهريرِها ، معَ ما تكتنفُهُ مِنَ المصاعبِ والأهوالِ .

نعمْ ، إذا سُئلوا عنِ اليومِ الآخرِ . . نطقَتْ بهِ ألسنتُهم ثمَّ غفلَتْ عنهُ قلوبُهُم ، ومَنْ أُخبرَ بأنَّ ما بينَ يديهِ مِنَ الطعامِ مسمومٌ ، فقالَ لصاحبِه الذي

أخبرَهُ : صدقتَ ، ثمَّ مدَّ يدَهُ لتناولِهِ . . كانَ مصدِّقاً بلسانِهِ ومكذِّباً بعملِهِ ، وتكذيبُ العملِ أبلغُ مِنْ تكذيبِ اللسانِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : شتمَني ابنُ آدمَ وما ينبغي لهُ أنْ يشتمَني ، وكذَّبَني وما ينبغي لهُ أنْ يكذِّبَني ؛ أمَّا شتمُهُ إيايَ . . فيقولُ : إنَّ لي ولداً ، وأمَّا تكذيبُهُ . . فقولُه : لن يعيدَني كما بدأني »[1] .

وإنَّما فتورُ البواطنِ عنْ قوةِ اليقينِ والتصديقِ بالبعثِ والنشورِ لقلةِ الفهمِ في هـٰذا العالمِ لأمثالِ تلكَ الأمورِ .

ولوْ لمْ يشاهدِ الإنسانُ توالدَ الحيواناتِ وقيلَ لهُ : إنَّ صانعاً يصنعُ مِنَ النطفةِ القذرةِ مثلَ هـٰذا الآدميِّ المصوَّرِ العاقلِ المتكلمِ المتصرفِ . . لاشتدَّ نفورُ باطنِهِ عنِ التصديقِ بهِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

ففي خلقِ الآدميِّ ـ معَ كثرةِ عجائبِهِ واختلافِ تركيبِ أعضائِهِ ـ أعاجيبُ تزيدُ على الأعاجيبِ في بعثِهِ وإعادتِهِ ، فكيفَ ينكرُ ذلكَ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وحكمتِهِ مَنْ يشاهدُ ذلكَ في صنعتِهِ وقدرتِهِ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٣) .

فإنْ كانَ في إيمانِكَ ضعْفٌ . . فقوِّ الإيمانَ بالنظرِ في النشأةِ الأولىٰ ؛ فإنَّ الثانيةَ مثلُها وأسهلُ منها .

وإنْ كنتَ قويَّ الإيمانِ بها . . فأشعرْ قلبَكَ تلكَ المخاوفَ والأخطارَ ، وأكثرْ فيها التفكُّرَ والاعتبارَ ؛ لتسلبَ عنْ قلبِكَ الراحةَ والقرارَ ، فتشتغلَ بالتشمُّرِ للعرضِ على الجبارِ .

وتفكَّرْ أولاً فيما يقرعُ سمعَ سكانِ القبورِ مِنْ شدةِ نفخِ الصورِ ؛ فإنَّها صيحةٌ واحدةٌ تنفرجُ بها القبورُ عنْ رؤوسِ الموتىٰ ، فيثورونَ دفعةً واحدةً ، فتوهمْ نفسَكَ وقدْ وثبتَ متغيراً وجهُكَ ، مغبَّراً بدنُكَ مِنْ فرقِكَ إلىٰ قدمِكَ مِنْ ترابِ قبرِكَ ، مبهوتاً مِنْ شدةِ الصعقةِ ، شاخصَ العينِ نحوَ النداءِ ، وقدْ ثارَ الخلقُ ثورةً واحدةً مِنَ القبورِ التي طالَ فيها بلاؤُهمْ ، وقد أزعجَهمُ الفزعُ والرعبُ مضافاً إلىٰ ما كانَ عندَهمُ مِنَ الهمومِ والغمومِ ، وشدةِ الانتظارِ لعاقبةِ الأمرِ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ .

فلوْ لمْ يكنْ بينَ يدي الموتىٰ إلاَّ هولُ تلكَ النفخةِ . . لكانَ ذلكَ جديراً بأنْ يُتقىٰ ؛ فإنَّها نفخةٌ وصيحةٌ يُصعقُ بها مَنْ في السماواتِ والأرضِ ؛ أيْ : يموتونَ بها إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ وهُمْ بعضُ الملائكةِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ أنعمُ وصاحبُ الصورِ قدِ التقمَ القرنَ ، وحنى الجبهةَ وأصغىٰ بالأذنِ ، ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ فينفخُ ؟! »[1] .

قالَ مقاتلٌ : (الصورُ : هو القرنُ ، وذلكَ أنَّ إسرافيلَ عليهِ السلامُ واضعٌ فاهُ على القرنِ كهيئةِ البوقِ ، ودائرةُ رأسِ القرنِ كعرضِ السماواتِ والأرضِ ، وهوَ شاخصٌ ببصرِهِ نحوَ العرشِ ، ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ فينفخُ النفخةَ الأولىٰ ، فإذا نفخَ . . صعقَ مَنْ في السماواتِ والأرضِ ؛ أيْ : ماتَ كلُّ حيوانٍ مِنْ شدَّةِ الفزعِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ؛ وهوَ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ ، ثمَّ يأمرُ ملكَ الموتِ أنْ يقبضَ روحَ جبريلَ ، ثمَّ روحَ ميكائيلَ ، ثمَّ روحَ إسرافيلَ ، ثمَّ يأمرُ ملكَ الموتِ فيموتَ ، ثمَّ يلبثُ الخلقُ بعدَ النفخةِ الأولىٰ في البرزخِ أربعينَ سنةً ، ثمَّ يحيي اللهُ إسرافيلَ ، فيأمرُهُ أنْ ينفخَ الثانيةَ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ علىٰ أرجلِهم ينظرونَ إلى البعثِ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حينَ بُعثَ إليَّ . . بُعثَ إلىٰ صاحبِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١) ، وعند ابن ماجه (٤٢٧٣) : « إن صاحبي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يلاحظان النظر متىٰ يؤمران » .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٦٨٥ ـ ٦٨٧) .

الصورِ فأهوىٰ بهِ إلىٰ فيهِ ، وقدَّمَ رجلاً وأخَّرَ أخرىٰ ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ بالنفخِ ، ألا فاتقوا النفخةَ »(١) .

فتفكَّرْ في الخلائقِ وذلِّهم وانكسارِهم واستكانتِهم عندَ الانبعاثِ ؛ خوفاً مِنْ هـٰذهِ الصعقةِ وانتظاراً لما يُقضىٰ عليهمْ مِنْ سعادةٍ أو شقاوةٍ ، وأنتَ فيما بينَهُمْ منكسرٌ كانكسارِهِمْ ، متحيِّرٌ كتحيرِهِمْ ، بلْ إنْ كنتَ في الدنيا مِنَ المترفِّهينَ والأغنياءِ المتنعمينَ . . فملوكُ الأرضِ في ذلكَ اليومِ هُمْ أذلُّ أهلِ أرضِ الجمعِ وأصغرُهُمْ وأحقرُهُمْ ، يُوطؤونَ بالأقدامِ مثلَ الذرِّ .

وعندَ ذلكَ تقبلُ الوحوشُ مِنَ البراري والجبالِ منكسةً رؤوسَها ، مختلطةً بالخلائقِ بعدَ توحشِها ، ذليلةً ليومِ النشورِ مِنْ غيرِ خطيئةٍ تدنَّسَتْ بها ، ولكنْ حشرَهُمْ شدةُ الصعقةِ وهولُ النفخةِ ، وشغلَهُمْ ذلكَ عنِ الهربِ مِنَ الخلقِ والتوحشِ مِنْهم ، وذلكَ قولُه تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ .

ثمَّ أقبلَتِ الشياطينُ المردةُ بعدَ تمرُّدِها وعتوِّها ، وأذعنَتْ خاشعةً مِنْ هيبةِ العرضِ على اللهِ تعالىٰ ؛ تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، فتفكَّرْ في حالِكَ وحالِ قلبِكَ هنالِكَ .

* * *

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في «الإتحاف» (١٠/ ٤٥٣) : (رواه عبد بن حميد في « تفسيره » من حديث ابن عمر بلفظ : «لما بعث إليَّ . . بعث إلىٰ صاحب الصور . . . ») .

صفة أرض المحشر وأهله

ثمَّ انظرْ كيفَ يُساقونَ بعدَ البعثِ والنشورِ حفاةً عراةً غرلاً إلىٰ أرضِ المحشرِ ؛ أرضٍ بيضاءَ ، قاعٍ صفصفٍ ، لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً ، ولا ترىٰ عليها ربوةً يختفي الإنسانُ وراءَها ، ولا وهدةً ينخفضُ عنِ الأعينِ فيها ، بلْ هوَ صعيدٌ واحدٌ بسيطٌ لا تفاوتَ فيهِ ، يُساقونَ إليهِ زمراً ، فسبحانَ مَنْ جمعَ الخلائقَ على اختلافِ أصنافِهِمْ مِنْ أقطارِ الأرضِ ؛ إذْ ساقَهم بالراجفةِ تتبعُها الرادفةُ ، والراجفةُ هيَ النفخةُ الأولىٰ ، والرادفةُ هيَ الثانيةُ .

وحقيقٌ لتلكَ القلوبِ أنْ تكونَ يومَئذٍ واجفةً ، ولتلكَ الأبصارِ أنْ تكونَ خاشعةً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ أرضٍ بيضاءَ عفراءَ ، كقرصةِ النقيِّ ، ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ »(١) .

قالَ الراوي : و(العفرةُ) : بياضٌ ليسَ بالناصعِ ، و(النقيُّ) : هوَ النقيُّ عنِ القشرِ والنخالةِ ، و(لا معلمٌ) أيْ : لا بناءٌ يسترُ ، ولا تفاوتٌ يردُّ البصرَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تلكَ الأرضَ مثلُ أرضِ الدنيا ، بلْ لا تساويها إلاَّ في الاسمِ .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢١) ، ومسلم (٢٧٩٠) .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ .

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (يُزادُ فيها ويُنقصُ ، وتذهبُ أشجارُها وجبالُها وأوديتُها وما فيها ، وتُمدُّ مدَّ الأديمِ العكاظيِّ ، أرضٌ بيضاءُ مثلُ الفضةِ ، لمْ يُسفكْ عليها دمٌ ، ولم يُعملْ عليها خطيئةٌ ، والسماواتُ تذهبُ شمسُها وقمرُها ونجومُها)[1] .

فانظرْ يا مسكينُ في هولِ ذلكَ اليومِ وشدَّتِهِ ، فإنَّهُ إذا اجتمعَ الخلائقُ علىٰ هـٰذا الصعيدِ . تناثرَتْ مِنْ فوقِهم نجومُ السماءِ ، وطُمسَتِ الشمسُ والقمرُ ، وأظلمَتِ الأرضُ ؛ لخمودِ سراجِها ، فبينا أنتَ كذلكَ ؛ إذْ دارَتْ السماءُ مِنْ فوقِ رؤوسِهم ، وانشقَّتْ معَ غلظِها وشدَّتِها خمسَ مئةِ عامٍ ، والملائكةُ قيامٌ علىٰ حافَّاتِها وأرجائِها ، فيا هولَ صوتِ انشقاقِها في سمعِكَ !

ويا هيبةً ليومٍ تنشقُّ فيهِ السماءُ مع صلابتِها وشدَّتِها ، ثمَّ تنهارُ وتسيلُ كالفضةِ المذابةِ تخالطُها صفرةٌ فصارَتْ وردةً كالدهانِ ، وصارتِ السماءُ كالمهلِ ، وصارتِ الجبالُ كالعهنِ ، واشتبكَ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ وهمْ عراةٌ حفاةٌ مشاةٌ !

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٨٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٤/٣٤٨) ، والبزار في « المسند » (١٨٥٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً في تفسير الآية : « أرض بيضاء كأنها فضة ، لم يعمل عليها خطيئة ولم يسفك فيها دم حرام » .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُبعثُ الناسُ حفاةً عراةً غرلاً ، قدْ ألجمَهُمُ العرقُ وبلغَ شحومَ الآذانِ » قالَتْ سودةُ زوجُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ راويةُ الحديثِ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ وا سوءتاهُ ! ينظرُ بعضُنا إلىٰ بعضٍ ؟! فقالَ : « شُغلَ الناسُ عنْ ذلكَ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ »(١) .

فأعظِمْ بيومٍ تنكشفُ فيهِ العوراتُ ، ويُؤمنُ فيهِ معَ ذلكَ مِنَ النظرِ والالتفاتِ ، كيفَ وبعضُهُم يمشونَ علىٰ بطونِهِمْ ووجوهِهِمْ ، ولا قدرةَ لهمْ على الالتفاتِ إلىٰ غيرِهمْ .

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثةَ أصنافٍ : ركباناً ، ومشاةً ، وعلىٰ وجوهِهِمْ » فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ يمشونَ علىٰ وجوهِهِمْ ؟ قالَ : « الذي أمشاهُمْ علىٰ أقدامِهِمْ قادرٌ علىٰ أنْ يُمشيَهمْ علىٰ وجوهِهِمْ »(٢) .

وفي طبعِ الآدميِّ إنكارُ كلِّ ما لمْ يأنسْ بهِ ، ولوْ لمْ يشاهدِ الإنسانُ الحيَّةَ وهيَ تمشي علىٰ بطنِها كالبرقِ الخاطفِ . . لأنكرَ تصوُّرَ المشيِ مِنْ غيرِ رجلٍ ، والمشيُ بالرجلِ أيضاً مستبعدٌ عندَ مَنْ لمْ يشاهدْ ذلكَ ، فإيَّاكَ أنْ تنكرَ شيئاً مِنْ عجائبِ يومِ القيامةِ لمخالفتِها قياسَ ما في الدنيا ؛ فإنَّكَ لوْ لمْ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٥١٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٤/٣٤) ، وعند البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٢) .

تكنْ قدْ شاهدتَ عجائبَ الدنيا ثمَّ عُرِضَتْ عليكَ قبلَ المشاهدةِ. . لكنتَ أشدَّ إنكاراً لها .

فأحضرْ في قلبِكَ صورتَكَ وأنتَ واقفٌ عارياً مكشوفاً ، ذليلاً مدحوراً ، متحيراً مبهوتاً ، منتظراً لما يجري عليكَ مِنَ القضاءِ بالسعادةِ أو بالشقاوةِ ، وأعظمْ هٰذهِ الحالةَ ؛ فإنَّها عظيمةٌ .

* * *

صفة العرق

ثمَّ تفكَّرْ في ازدحامِ الخلائقِ واجتماعِهِمْ حتى ازدحمَ على الموقفِ أهلُ السماواتِ السبعِ والأرضينَ السبعِ ؛ مِنْ ملكٍ وجنٍّ وإنسٍ وشيطانٍ ، ووحشٍ وسبعٍ وطيرٍ ، فأشرقَتْ عليهِمُ الشمسُ وقدْ تضاعفَ حرُّها ، وتبدَّلَتْ عمَّا كانَتْ عليهِ مِنْ خفةِ أمرِها ، ثمَّ أُدنيَتْ مِنْ رؤوسِ العالمينَ قابَ قوسينِ ، فلمْ يبقَ على الأرضِ ظلٌّ إلاَّ ظلُّ عرشِ ربِّ العالمينَ ، ولمْ يُمكَّنْ مِنَ الاستظلالِ بهِ إلاَّ المقربونَ ، فمِنْ بينِ مستظلٍّ بالعرشِ وبينِ ضاحٍ لحرِّ الشمسِ قدْ صهرَتْهُ بحرِّها ، واشتدَّ كربُهُ وغمُّهُ مِنْ وهجِها ، ثمَّ تدافعَتِ الخلائقُ ، ودفعَ بعضُهم بعضاً ؛ لشدَّةِ الزحامِ واختلافِ الأقدامِ ، وانضافَ إليهِ شدَّةُ الخجلةِ والحياءِ مِنَ الافتضاحِ والاختزاءِ عندَ العرضِ علىٰ جبارِ السماءِ ، فاجتمعَ وهجُ الشمسِ وحرُّ الأنفاسِ ، واحتراقُ القلوبِ بنارِ الحياءِ والخوفِ ، ففاضَ العرقُ مِنْ أصلِ كلِّ شعرةٍ حتىٰ سالَ علىٰ صعيدِ القيامةِ ، ثمَّ ارتفعَ إلىٰ أبدانِهم علىٰ قدرِ منازلِهِمْ عندَ اللهِ ، فبعضُهم بلغَ العرقُ ركبتيهِ ، وبعضُهم حقويهِ ، وبعضُهم إلىٰ شحمةِ أذنيهِ ، وبعضُهم كادَ يغيبُ فيهِ .

قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ حتىٰ يغيبَ أحدُهُم في رشحِهِ إلىٰ أنصافِ أذنيهِ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٤٩٣٨) ، ومسلم (٢٨٦٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعرقُ الناسُ يومَ القيامةِ حتىٰ يذهبَ عرقُهُم في الأرضِ سبعينَ ذراعاً ، ويلجمُهم ويبلغُ آذانَهُمْ » كذا رواه البخاريُّ ومسلمٌ في الصحيحِ[1] .

وفي حديثٍ آخرَ : « قياماً شاخصةً أبصارُهُمْ أربعينَ سنةً إلى السماءِ ، فيلجمُهمُ العرقُ مِنْ شدَّةِ الكربِ »[2] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : (قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تدنو الشمسُ مِنَ الأرضِ يومَ القيامةِ ، فيعرقُ الناسُ ؛ فمِنَ الناسِ مَنْ يبلغُ عرقُهُ عقبَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ نصفَ ساقِهِ ، ومنهم مَنْ يبلغُ ركبتيهِ ، ومنهم مَنْ يبلغُ فخذَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ خاصرتَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ فاهُ ـ وأشارَ بيدِهِ فألجمَها فاهُ ـ ومنهم مَنْ يغطِّيهِ عرقُهُ » وضربَ بيدِهِ علىٰ رأسِهِ هٰكذا)[3] .

فتأمَّلْ يا مسكينُ في عرقِ أهلِ المحشرِ وشدَّةِ كربِهِمْ ، وإنَّ فيهم مَنْ ينادي فيقولُ : يا ربِّ ؛ أرحْني مِنْ هٰذا الكربِ والانتظارِ ولوْ إلى النَّارِ ، وكلُّ ذلكَ ولمْ يلقَوا بعدُ حساباً ولا عقاباً ؛ فإنَّكَ واحدٌ منهم ، ولا تدري إلىٰ أينَ يبلغُكَ العرقُ .

واعلمْ : أنَّ كلَّ عرقٍ لمْ يخرجْهُ التعبُ في سبيلِ اللهِ مِنْ حجٍّ وجهادٍ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٢) ، ومسلم (٢٨٦٣) .
(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ٣٦١) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٢٥٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧١) .

وصيامٍ وقيامٍ ، وتردُّدٍ في قضاءِ حاجةِ مسلمٍ ، وتحمُّلِ مشقةٍ في أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عنْ منكرٍ . . فسيخرجُهُ الحياءُ والخوفُ في صعيدِ القيامةِ ، ويطولُ فيهِ الكربُ .

ولوْ سلمَ ابنُ آدمَ مِنَ الجهلِ والغرورِ . . لعلمَ أنَّ تعبَ العرقِ في تحمُّلِ مصاعبِ الطاعاتِ أهونُ أمراً وأقصرُ زماناً مِنْ عرقِ الكربِ والانتظارِ في القيامةِ ؛ فإنَّهُ يومٌ عظيمةٌ شدَّتُهُ ، طويلةٌ مدَّتُهُ .

* * *

صفة طول يوم القيامة

يومٌ تقفُ فيهِ الخلائقُ شاخصةً أبصارُهم ، منفطرةً قلوبُهم ، لا يُكلَّمونَ ولا يُنظرُ في أمورِهم ، يقفونَ ثلاثَ مئةِ عامٍ لا يأكلونَ فيهِ أكلةً ولا يشربونَ فيهِ شربةً ، ولا يجدونَ فيهِ روحَ نسيمٍ .

قالَ كعبٌ وقتادةُ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قالَ : يقومونَ مقدارَ ثلاثِ مئةِ عامٍ[1] .

بلْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هٰذهِ الآيةَ ثمَّ قالَ : « كيفَ بكم إذا جمعَكُمُ اللهُ كما تُجمعُ النبلُ في الكنانةِ خمسينَ ألفَ سنةٍ لا ينظرُ إليكمْ »[2] .

وقالَ الحسنُ : ما ظنُّكَ بقومٍ قاموا علىٰ أقدامِهِمْ[3] مقدارَ خمسينَ ألفَ سنةٍ لمْ يأكلوا فيها أكلةً ولم يشربوا فيها شربةً ، حتىٰ إذا انقطعَتْ أعناقُهُمْ عطشاً ، واحترقَتْ أجوافُهُم جوعاً . . انصُرفَ بهِمْ إلى النَّارِ ، فسُقوا مِنْ عينٍ آنيةٍ قدْ آنَ حرُّها واشتدَّ لفحُها ، فلمَّا بلغَ المجهودُ منهمْ ما لا طاقةَ لهم بهِ . .

---

(١) أورده السيوطي في « الدر المنثور » (٨/ ٤٤٣) وعزا قول كعب إلى ابن المنذر ، وقول قتادة إلىٰ عبد بن حميد .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧١) من حديث عبد الله بن عمرو .
(٣) في (د ، ص) : (ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم) .

كلَّمَ بعضُهُمْ بعضاً في طلبِ مَنْ يكرمُ علىٰ مولاهُ ؛ ليشفعَ في حقِّهِمْ ، فلمْ يتعلَّقوا بنبيٍّ إلاَّ دفعَهُمْ وقالَ : (دعوني ، نفسي نفسي ، شغلَني أمري عنْ أمرِ غيري) ، واعتذرَ كلُّ واحدٍ بشدةِ غضبِ اللهِ تعالىٰ ، وقالوا : (قدْ غضبَ اليومَ ربُّنا غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولا يغضبُ بعدَهُ مثلَهُ) حتىٰ يشفعَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنْ يُؤذنُ لهُ فيهِ ، لا يملكونُ الشفاعةَ إلاَّ مَنْ أذنَ لهُ الرحمـٰنُ ورضيَ لهُ قولاً[1] .

فتأمَّلْ في طولِ هـٰذا اليومِ وشدَّةِ الانتظارِ فيهِ ؛ حتىٰ يخفَّ عليكَ انتظارُ الصبرِ عنِ المعاصي في عمرِكَ المختصرِ .

واعلمْ : أنَّ مَنْ طالَ انتظارُهُ في الدنيا للموتِ ؛ لشدَّةِ مقاساتِهِ للصبرِ عنِ الشهواتِ . . فإنَّهُ يقصرُ انتظارُهُ في ذلكَ اليومِ خاصةً ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا سُئلَ عنْ طولِ ذلكَ اليومِ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّهُ ليُخففُ على المؤمنِ حتىٰ يكونَ أهونَ عليهِ مِنْ صلاةٍ مكتوبةٍ يصليها في الدنيا »[2] .

فاجتهدْ أنْ تكونَ مِنْ أولئكَ المؤمنينَ ، فما دامَ يبقىٰ لكَ نفسٌ مِنْ عمرِكَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦١٣) ، وأما اعتذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . فرواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٧٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٩٠) ، وفي غير (ب) : (أهون عليه من الصلاة المكتوبة).

فالأمرُ إليكَ والاستعدادُ بيديكَ ، فاعملْ في أيامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ . . تربحْ ربحاً لا منتهىٰ لسرورِهِ ، واستحقرْ عمرَكَ ، بلْ عمرَ الدنيا وهو سبعةُ آلافِ سنةٍ ؛ فإنَّكَ لوْ صبرتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ مثلاً لتتخلصَ مِنْ يومٍ مقدارُهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ ربحُكَ كثيراً وتعبُك يسيراً .

* * *

صفة يوم القيامة، ودواهيها، وأساميها

فاستعدَّ يا مسكينُ لهٰذا اليومِ العظيمِ شأنُهُ ، المديدِ زمانُهُ ، القاهرِ سلطانُهُ ، القريبِ أوانُهُ ، يومٌ ترى السماءَ فيهِ قدِ انفطرَتْ ، والكواكبَ مِنْ هولِهِ قدِ انتثرَتْ ، والنجومَ الزواهرَ قدِ انكدرَتْ ، والشمسَ فيهِ قدْ كُوِّرَتْ ، والجبالَ قد سُيِّرَتْ ، والعشارَ قدْ عطِّلَتْ ، والوحوشَ قدْ حُشرَتْ ، والبحارَ قدْ سُجِّرَتْ ، والنفوسَ إلى الأبدانِ قدْ زُوِّجَتْ ، والجحيمَ قدْ سُعِّرَتْ ، والجنَّةَ قدْ أُزلفَتْ ، والجبالَ قدْ نُسفَتْ ، والأرضَ قدْ مُدَّتْ .

يومٌ ترى الأرضَ قدْ زُلزلَتْ فيهِ زلزالَها ، وأخرجَتِ الأرضُ أثقالَها ، يومَئذٍ يصدرُ الناسُ أشتاتاً ليُروا أعمالَهُمْ .

يومٌ حُملَتْ فيهِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكَّةً واحدةً ، فيومَئذٍ وقعَتِ الواقعةُ ، وانشقَّتِ السماءُ فهي يومَئذٍ واهيةٌ ، والملكُ علىٰ أرجائِها ويحملُ عرشَ ربِّكَ فوقَهمْ يومَئذٍ ثمانيةٌ ، يومَئذٍ تُعرضونَ لا تخفىٰ منكم خافيةٌ .

يومٌ تُسيَّرُ فيهِ الجبالُ وترى الأرضَ بارزةً .

يومٌ رُجَّتِ الأرضُ فيهِ رجّاً ، وبُسَّتِ الجبالُ بسّاً ، فكانَتْ هباءً منبثاً .

يومٌ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ ، وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ .

يومٌ تذهلُ فيهِ كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعَتْ ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها ، وترى الناسَ سُكارىٰ وما همْ بسُكارىٰ ، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ .

يومٌ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ ، وبرزوا للهِ الواحدِ القهارِ .

يومٌ تُنسفُ فيهِ الجبالُ نسفاً ، فتُتركُ قاعاً صفصفاً ، لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً .

يومٌ ترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهيَ تمرُّ مرَّ السحابِ .

يومٌ انشقَّتْ فيهِ السماءُ فكانَتْ وردةً كالدِّهانِ ، فيومَئذٍ لا يُسألُ عنْ ذنبهِ إنسٌ ولا جانٌّ .

يومٌ يُمنعُ فيهِ العاصي مِنَ الكلامِ ، ولا يُسألُ فيهِ عنِ الإجرامِ ، بلْ يُؤخذُ بالنواصي والأقدامِ .

يومٌ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملَتْ مِنْ خيرٍ محضراً ، وما عملَتْ مِنْ سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً .

يومٌ تعلمُ فيهِ كلُّ نفسٍ ما أحضرَتْ ، وتشهدُ ما قدَّمَتْ وأخَّرَتْ .

يومٌ تخرسُ فيهِ الألسنُ وتنطقُ الجوارحُ .

يومٌ شيَّبَ ذكرُهُ سيِّدَ المرسلينَ ؛ إذْ قالَ لهُ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : أراكَ قدْ شبتَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها : الواقعةُ ، والمرسلاتُ ، وعمَّ يتساءلونَ ، وإذا الشمسُ كُوِّرَتْ »[1] .

فيا أيُّها القارئُ العاجزُ ؛ إنَّما حظُّكَ مِنْ قراءتِكَ أن تمجمجَ القرآنَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٩٧) .

وتحركَ بهِ اللسانَ ، ولوْ كنتَ متفكِّراً فيما تقرؤُهُ . . لكنتَ جديراً بأنْ تنشقَّ مرارتُكَ فيما شابَ منهُ شعرُ سيِّدِ المرسلينَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ، وإذا قنعتَ بحركةِ اللسانِ . . فقدْ حُرمتَ ثمرةَ القرآنِ ؛ فالقيامةُ أحدُ ما ذُكرَ فيها .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ بعضَ دواهيها وأكثرَ أساميَها ؛ لتقفَ بكثرةِ أساميها علىٰ كثرةِ معانيها ، فليسَ المقصودُ بكثرةِ الأسامي تكريرَ الأسامي والألقابِ ، بلِ الغرضُ تنبيهُ أولي الألبابِ ؛ فتحتَ كلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ القيامةِ سرٌّ ، وفي كلِّ نعتٍ مِنْ نعوتِها معنىً ، فاحرصْ علىٰ معرفةِ معانيها ، ونحنُ الآنَ نجمعُ لكَ أساميَها :

فهيَ يومُ القيامةِ ، ويومُ الحسرةِ ، ويومُ النَّدامةِ ، ويومُ المحاسبةِ ، ويومُ المساءلةِ ، ويومُ المسابقةِ ، ويومُ المناقشةِ ، ويومُ المنافسةِ ، ويومُ الزَّلزلةِ ، ويومُ الدَّمدمةِ ، ويومُ الصَّاعقةِ ، ويومُ الواقعةِ ، ويومُ القارعةِ ، ويومُ الرَّاجفةِ ، ويومُ الرَّادفةِ ، ويومُ الغاشيةِ ، ويومُ الدَّاهيةِ ، ويومُ الآزفةِ ، ويومُ الحاقَّةِ ، ويومُ الطَّامَّةِ ، ويومُ الصَّاخَّةِ ، ويومُ التَّلاقِ ، ويومُ الفراقِ ، ويومُ المساقِ ، ويومُ القصاصِ ، ويومُ التَّنادِ ، ويومُ الحسابِ ، ويومُ المآبِ ، ويومُ العذابِ ، ويومُ الفرارِ ، ويومُ القرارِ ، ويومُ اللقاءِ ، ويومُ البقاءِ ، ويومُ القضاءِ ، ويومُ الجزاءِ ، ويومُ البلاءِ ، ويومُ البكاءِ ، ويومُ الحشرِ ، ويومُ الوعدِ ، ويومُ العرضِ ، ويومُ الوزنِ ، ويومُ الحقِّ ، ويومُ الحكمِ ، ويومُ الفصلِ ، ويومُ الجمعِ ، ويومُ البعثِ ، ويومُ الفتحِ ، ويومُ الخزيِ ، ويومٌ عظيمٌ ، ويومٌ عقيمٌ ، ويومٌ عسيرٌ ، ويومُ الدِّينِ ، ويومُ

اليقينِ ، ويومُ النُّشورِ ، ويومُ المصيرِ ، ويومُ النفخةِ ، ويومُ الصَّيحةِ ، ويومُ الرَّجفةِ ، ويومُ الرَّجَّةِ ، ويومُ الزَّجرةِ ، ويومُ السَّكرةِ ، ويومُ الفزعِ ، ويومُ الجزعِ ، ويومُ المنتهىٰ ، ويومُ المأوىٰ ، ويومُ الميقاتِ ، ويومُ الميعادِ ، ويومُ المرصادِ ، ويومُ القلقِ ، ويومُ العرقِ ، ويومُ الافتقارِ ، ويومُ الانكدارِ ، ويومُ الانتشارِ ، ويومُ الانشقاقِ ، ويومُ الوقوفِ ، ويومُ الخروجِ ، ويومُ الخلودِ ، ويومُ الوعيدِ ، ويومُ التغابنِ ، ويومٌ عبوسٌ ، ويومٌ معلومٌ ، ويومٌ موعودٌ ، ويومٌ مشهودٌ ، ويومٌ لا ريبَ فيهِ ، ويومٌ تُبلى السرائرُ .

ويومٌ لا تجزي نفسٌ عنْ نفسٍ شيئاً ، ويومٌ تشخصُ فيهِ الأبصارُ ، ويومٌ لا يغني مولىً عنْ مولىً شيئاً ، ويومٌ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، ويومٌ يُدعُّون إلىٰ نارِ جهنَّمَ دعّاً ، ويومٌ يُسحبونَ في النارِ علىٰ وجوهِهِمْ ، ويومٌ تُقلَّبُ وجوهُهُمْ في النَّارِ ، ويومٌ لا يجزي والدٌ عن ولدِهِ شيئاً ، ويومٌ يفرُّ المرءُ مِنْ أخيهِ وأمِّهِ وأبيهِ ، ويومٌ لا ينطقونَ ولا يُؤذنُ لهم فيعتذرونَ ، ويومٌ لا مردَّ لهُ مِنَ اللهِ ، ويومٌ همْ بارزونَ ، ويومٌ هم على النارِ يُفتنونَ ، ويومٌ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ، ويومٌ لا تنفعُ الظالمينَ معذرتُهُمْ ولهمُ اللعنةُ ولهمْ سوءُ الدارِ ، ويومٌ رُدَّتْ فيهِ المعاذيرُ وبُليَتِ السرائرُ وظهرَتِ الضمائرُ وكُشفَتِ الأستارُ ، ويومٌ خشعَتِ الأبصارُ وسكنَتِ الأصواتُ وقلَّ الالتفاتُ وبرزَتِ الخفيَّاتُ وظهرَتِ الخطيئاتُ ، ويومٌ يساقُ العبادُ ومعَهمُ الأشهادُ ، وشابَ الصغيرُ وسكرَ الكبيرُ ، فيومَئذٍ وُضعَتِ الموازينُ ونُشرَتِ الدواوينُ ،

وبُرِّزَتِ الجحيمُ وأُغليَ الحميمُ ، وزفرَتِ النارُ ويئسَ الكفارُ ، وسُعِّرَتِ النيرانُ وتغيَّرَتِ الألوانُ ، وخرسَ اللسانُ ونطقَتْ جوارحُ الإنسانِ .

فيا أيُّها الإنسانُ ؛ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ حيثُ أغلقتَ الأبوابَ وأرخيتَ الستورَ ، واستترتَ عنِ الخلائقِ فقارفتَ الفجورَ ؟! فماذا نفعَكَ وقدْ شهدَتْ عليكَ جوارحُكَ ؟!

فالويلُ كلُّ الويلِ لنا معاشرَ الغافلينَ ، يرسلُ اللهُ لنا سيِّدَ المرسلينَ وينزِّلُ عليهِ الكتابَ المبينَ ، ويخبرُنا بهـٰذهِ الصفاتِ مِنْ نعوتِ يومِ الدينِ ، ثمَّ يعرِّفُنا غفلتَنا ويقولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ثمَّ يعرِّفُنا قربَ القيامةِ فيقولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ثمَّ يكونُ أحسنُ أحوالِنا أن نتخذَ دراسةَ هـٰذا القرآنِ عملاً ، فلا نتدبرُ معانيَهُ ، ولا ننظرُ في كثرةِ أوصافِ هـٰذا اليومِ وأساميهِ ، ولا نستعدُّ للفرارِ مِنْ دواهيهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ هـٰذهِ الغفلةِ إنْ لمْ يتداركْنا اللهُ بواسعِ رحمتِهِ .

❋ ❋ ❋

صفة المسائلة

ثمَّ تفكَّرْ يا مسكينُ بعدَ هٰذهِ الأهوالِ فيما يتوجَّهُ عليكَ مِنَ السؤالِ شفاهاً مِنْ غيرِ ترجمانٍ ، فتُسألُ عنِ القليلِ والكثيرِ ، والنقيرِ والقطميرِ ، فبينا أنتَ في كربِ القيامةِ وعرقِها وشدَّةِ عظائمِها ؛ إذْ نزلَتْ ملائكةٌ مِنْ أرجاءِ السماءِ بأجسامٍ عظامٍ وأشخاصٍ ضخامٍ ، غلاظٌ شدادٌ ، أُمروا أنْ يأخذوا بنواصي المجرمينَ إلىٰ موقفِ العرضِ على الجبَّارِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ما بينَ شفري عينيهِ مسيرةُ مئةِ عامٍ »(١) فما ظنُّكَ بنفسِكَ إذا شاهدتَ مثلَ هؤلاءِ الملائكةِ أُرسلوا إليكَ ليأخذوكَ إلىٰ مقامِ العرضِ ، وتراهمْ علىٰ عظمِ أشخاصِهِمْ منكسرينَ لشدَّةِ اليومِ ، مستشعرينَ ممَّا بدا مِنْ غضبِ الجبارِ علىٰ عبادِهِ ، وعندَ نزولِهِمْ لا يبقىٰ نبيٌّ ولا صديقٌ ولا صالحٌ إلاَّ ويخرُّون لأذقانِهِمْ خوفاً مِنْ أنْ يكونوا همُ المأخوذينَ ، فهٰذا حالُ المقرَّبينَ ، فما ظنُّكَ بالعصاةِ المجرمينَ ؟!

وعندَ ذلكَ يبادرُ أقوامٌ مِنْ شدةِ الفزعِ فيقولونَ للملائكةِ : أفيكمْ ربُّنا ؟ وذلكَ لعظمِ موكبِهِمْ وشدةِ هيبتِهِمْ ، فتفزعُ الملائكةُ مِنْ سؤالِهِمْ إجلالاً لخالقِهِمْ عنْ أنْ يكونَ فيهِمْ ، فنادوا بأصواتِهِم منزِّهينَ لمليكِهِمْ عمَّا توهَّمَهُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أره بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/ ٤٦٥) ، وشفري عينيه : أي : طرفيهما .

أهلُ الأرضِ وقالوا : سبحانَ ربِّنا ما هوَ فينا ، ولكنَّهُ آتٍ مِنْ بعدُ .

وعندَ ذلكَ تقومُ الملائكةُ صفاً محدقينَ بالخلائقِ مِنَ الجوانبِ ، وعلىٰ جميعِهِمْ شعارُ الذلِّ والخضوعِ وهيئةُ الخوفِ والمهابةِ ؛ لشدَّةِ اليومِ .

وعندَ ذلكَ يصدقُ اللهُ تعالىٰ قولَهُ : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ، وقولَهُ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فيبدأُ سبحانَهُ بالأنبياءِ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، فيا لشدَّةِ يومٍ تذهلُ فيهِ عقولُ الأنبياءِ ، وتنمحي علومُهُمْ مِنْ شدَّةِ الهيبةِ ؛ إذْ يُقالُ لهمْ : ماذا أُجبتُم وقدْ أُرسلتُم إلى الخلائقِ ، وكانوا قدْ علموا ، فتدهشُ عقولُهُمْ فلا يدرونَ بماذا يجيبونَ ، فيقولونَ مِنْ شدَّةِ الهيبةِ : لا علمَ لنا إنَّكَ أنتَ علاَّمُ الغيوبِ ! وهمْ في ذلكَ الوقتِ صادقونَ ؛ إذْ طارَتْ فيهِ العقولُ وانمحَتِ العلومُ إلىٰ أنْ يقويَهُمُ اللهُ تعالىٰ .

فيُدعىٰ نوحٌ عليهِ السَّلامُ فيُقالُ لهُ : هلْ بلَّغتَ ؟ فيقولُ : نعمْ ، فيُقالُ لأمَّتِهِ : هلْ بلَّغَكُمْ ؟ فيقولونَ : ما أتانا مِنْ نذيرٍ .

ويُؤتىٰ بعيسىٰ عليهِ السَّلامُ فيقولُ اللهُ تعالىٰ لهُ : أأنتَ قلتَ للنَّاسِ اتخذوني وأميَ إلـٰهينِ مِنْ دونِ اللهِ ؟ فيبقىٰ متشحطاً تحتَ هيبةِ هـٰذا السؤالِ سنينَ ، فيا لعظمِ يومٍ تُقامُ فيهِ السِّياسةُ على الأنبياءِ بمثلِ هـٰذا السؤالِ !

ثمَّ تقبلُ الملائكةُ فينادونَ واحداً واحداً : يا فلانُ بنَ فلانةَ ؛ هلمَّ إلىٰ

موقفِ العرضِ ، وعندَ ذلكَ ترتعدُ الفرائصُ ، وتضطربُ الجوارحُ ، وتبهتُ العقولُ ، ويتمنَّىٰ أقوامٌ أنْ يُذهبَ بهمْ إلى النَّارِ ولا تُعرضَ قبائحُ أعمالِهِمْ على الجبَّارِ ، ولا يُكشفَ سترُهم علىٰ ملأِ الخلائقِ .

وقبلَ الابتداءِ بالسؤالِ يظهرُ نورُ العرشِ ، وأشرقَتِ الأرضُ بنورِ ربِّها ، وأيقنَ كلُّ عبدٍ بإقبالِ الجبارِ لمساءلةِ العبادِ ، وظنَّ كلُّ واحدٍ أنَّهُ ما يُرادُ أحدٌ سواهُ ، وأنَّهُ المقصودُ بالأخذِ والسؤالِ دونَ مَنْ عداهُ ، فيقولُ الجبارُ سبحانَهُ وتعالىٰ عندَ ذلكَ : يا جبريلُ ؛ ائتني بالنَّارِ ، فيأتيها جبريلُ ويقولُ لها : يا جهنَّمُ ؛ أجيبي خالقَكِ ومليكَكِ ، فيصادفُها جبريلُ علىٰ غيظِها وغضبِها ، فلمْ يلبثْ بعدَ ندائِهِ أنْ ثارَتْ وفارَتْ ، وزفرَتْ إلى الخلائقِ وشهقَتْ ، وسمعَ الخلائقُ تغيُّظَها وزفيرَها ، وانتهضَتْ خُزَّانُها متوثبةً إلى الخلائقِ غضباً علىٰ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ وخالفَ أمرَهُ .

فأخطرْ ببالِكَ وأحضرْ في قلبِكَ حالةَ قلوبِ العبادِ وقدِ امتلأَتْ فزعاً ورعباً ، فتساقطوا جثيّاً علىٰ ركبِهِمْ ، وولَّوا مدبرينَ ، يومَ ترىٰ كلَّ أمةٍ جاثيةً ، وسقطَ بعضُهُم على الوجوهِ منكبينَ ، ويُنادي الظالمونَ والعصاةُ بالويلِ والثبورِ ، وينادي الصديقونَ : نفسي نفسي .

فبينَما همْ كذلكَ ؛ إذْ زفرَتِ النارُ زفرتَها الثانيةَ ، فتضاعفَ خوفُهُم ، وتخاذلَتْ قواهمْ ، وظنُّوا أنَّهم مأخوذونَ ، ثمَّ زفرَتِ الثالثةَ ، فتساقطَ الخلائقُ لوجوهِهِمْ ، وشخصوا بأبصارِهِمْ ينظرونَ مِنْ طرفٍ خفيٍّ خاشعٍ ،

وانهضمَتْ عندَ ذلكَ قلوبُ الظالمينَ فبلغَتْ لدى الحناجرِ كاظمينَ ، وذهلَتِ العقولُ مِنَ السعداءِ والأشقياءِ أجمعينَ .

وبعدَ ذلكَ أقبلَ اللهُ تعالىٰ على الرسلِ وقالَ : ماذا أُجبتُم ، فإذا رأوا ما قدْ أُقيمَ مِنَ السِّياسةِ على الأنبياءِ . . اشتدَّ الفزعُ على العصاةِ ، ففرَّ الوالدُ مِنْ ولدِهِ ، والأخُ مِنْ أخيهِ ، والزوجُ مِنْ زوجتِهِ ، وبقيَ كلُّ واحدٍ منتظراً لأمرِهِ .

ثمَّ يُؤخذُ واحدٌ واحدٌ ، فيسألُهُ اللهُ تعالىٰ شفاهاً عنْ قليلِ عملِهِ وكثيرِهِ ، وعنْ سرِّهِ وعلانيتِهِ ، وعنْ جميعِ جوارحِهِ وأعضائِهِ .

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالوا : يا رسولَ اللهِ ، هلْ نرىٰ ربَّنا يومَ القيامةِ ؟ فقالَ : « هلْ تضارونَ في رؤيةِ الشمسِ في الظهيرةِ ليسَتْ في سحابةٍ ؟ » قالوا : لا ، قالَ : « فهلْ تضارونُ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ليسَ في سحابةٍ ؟ » قالوا : لا ، قالَ : « فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لا تضارونَ في رؤيةِ ربِّكم ؛ فيلقى العبدَ فيقولُ لهُ : ألمْ أكرمْكَ وأسوِّدْكَ وأزوجْكَ ، وأسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ ، وأذرْكَ ترأسُ وتربعُ ؟! فيقولُ العبدُ : بلىٰ ، فيقولُ : أفظننتَ أنَّكَ ملاقيَّ ؟ فيقولُ : لا ، فيقولُ تعالىٰ : فإنِّي أنساكَ كما نسيتَني »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٤) ، ومسلم (٢٩٦٨) واللفظ له ، وتربع : تنال من الأموال وتكون مطاعاً ، وفي (ج ، ص) : (ترتع) بدل (تربع) وهي رواية أشار لها الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٨/ ١٠٣ ـ ١٠٤) .

فتوهمْ نفسَكَ يا مسكينُ وقدْ أخذَتِ الملائكةُ بعضديكَ ، وأنتَ واقفٌ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ يسألُكَ شفاهاً فيقولُ لكَ : ألمْ أنعمْ عليكَ بالشبابِ ؟! ففيماذا أبليتَهُ ؟! ألمْ أمهلْ لكَ في العمرِ ؟! ففيماذا أفنيتَهُ ؟! ألمْ أرزقْكَ الأموالَ ؟! فمِنْ أينَ اكتسبتَ ؟! وفيماذا أنفقتَ ؟! ألمْ أكرمْكَ بالعلمِ ؟! فماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!

فكيفَ ترىٰ حياءَكَ وخجلتَكَ وهوَ يعدُّ عليكَ إنعامَهُ ومعاصيَكَ وأياديَهُ ومساويَكَ ؟

فإنْ أنكرتَ . . شهدَتْ عليكَ جوارحُكَ ، قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فضحكَ ثمَّ قالَ : « أتدرونَ ممَّ أضحكُ ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربَّهُ ، يقولُ : يا ربِّ ؛ ألمْ تجرْني مِنَ الظلمِ ؟ قالَ : يقولُ : بلىٰ ، قالَ : فيقولُ : فإنِّي لا أجيزُ علىٰ نفسي إلا شاهداً مني ، فيقولُ : كفىٰ بنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً ، وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً ، قالَ : فيُختمُ علىٰ فيهِ ويُقالُ لأركانِهِ : انطقي ، قالَ : فتنطقُ بأعمالِهِ ، ثمَّ يُخلَّىٰ بينَهُ وبينَ الكلامِ فيقولُ لأعضائِهِ : بعداً لكُنَّ وسحقاً ! فعنكُنَّ كنتُ أناضلُ »[(١)] .

فنعوذُ باللهِ مِنَ الافتضاحِ علىٰ ملأِ الخلقِ بشهادةِ الأعضاءِ ، إلاَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَ المؤمنَ بأنْ يسترَ عليهِ ، ولا يطلعَ عليهِ غيرَهُ .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) .

سألَ ابنَ عمرَ رجلٌ فقالَ لهُ : كيفَ سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في النَّجوى ؟ فقالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدنو أحدُكُمْ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ حتىٰ يضعَ كنفَهُ عليهِ فيقولُ : عملتَ كذا وكذا ؟! فيقولُ : نعمْ ، فيقولُ : عملتَ كذا وكذا ؟! فيقولُ : نعمْ ، ثمَّ يقولُ : إنِّي سترتُها عليكَ في الدنيا ، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ »(١) .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سترَ علىٰ مؤمنٍ عورتَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ يومَ القيامةِ »(٢) فهٰذا إنَّما يُرجىٰ لعبدٍ مؤمنٍ سترَ على النَّاسِ عيوبَهُم ، واحتملَ في حقِّ نفسِهِ تقصيرَهُم ، ولمْ يحرِّكْ لسانَهُ بذكرِ مساويهِمْ ، ولمْ يذكرْهمْ في غيبتِهِمْ بما يكرهونَ لوْ سمعوهُ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يُجازىٰ بمثلِهِ في القيامةِ .

وهبْ أنَّهُ قدْ سترَهُ عنْ غيرِكَ ، أليسَ قدْ قرعَ سمعَكَ النداءُ إلى العرضِ ؟! فيكفيكَ تلكَ الروعةُ جزاءً عنْ ذنوبِكَ ؛ إذْ يُؤخذُ بناصيتِكَ فتُقادُ وفؤادُكَ مضطربٌ ولبُّكَ طائرٌ ، وفرائصُكَ مرتعدةٌ وجوارحُكَ مضطربةٌ ، ولونُكَ متغيِّرٌ والعالمُ عليكَ مِنْ شدَّةِ الهولِ مظلمٌ ، فقدِّرْ نفسَكَ وأنتَ بهٰذهِ الصفةِ تتخطى الرقابَ وتخرقُ الصفوفَ ، وتُقادُ كما تُقادُ الفرسُ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) ، وعند البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) : « ومن ستر مسلماً . . ستره الله يوم القيامة » .

المجنوبُ[1] ، وقدْ رفعَ الخلائقُ إليكَ أبصارَهُم .

فتوهَّمْ نفسَكَ أنَّكَ في أيدي الموكلينَ بكَ علىٰ هـٰذهِ الصفةِ ، حتى انتُهيَ بكَ إلىٰ عرشِ الرحمـٰنِ فرموكَ مِنْ أيديهِمْ ، وناداكَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ بعظيمِ كلامِهِ : يا بنَ آدمَ ؛ ادنُ منِّي ، فدنوتَ منهُ بقلبٍ خافقٍ محزونٍ وَجِلٍ ، وطرفٍ خاشعٍ ذليلٍ ، وفؤادٍ منكسرٍ ، وأُعطيتَ كتابَكَ الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها ، فكمْ مِنْ فاحشةٍ نسيتَها فتذكرتَها ؛ وكمْ مِنْ طاعةٍ غفلتَ عنْ آفاتِها فانكشفَ لكَ عنْ مساويها !

فكمْ لكَ مِنْ خجلٍ وجبنٍ ! وكمْ لكَ مِنْ حصرٍ وعجزٍ !

فليتَ شعري بأيِّ قدمٍ تقفُ بينَ يديهِ ؟! وبأيِّ لسانٍ تجيبُ ؟! وبأيِّ قلبٍ تعقلُ ما تقولُ ؟!

ثمَّ تفكَّرْ في عظمِ حيائِكَ إذا ذكَّرَكَ ذنوبَكَ شفاهاً ؛ إذْ يقولُ : يا عبدي ؛ أما استحييتَ منِّي فبارزتَني بالقبيحِ ، واستحييتَ مِنْ خلقي فأظهرتَ لهمُ الجميلَ ؟! أكنتُ أهونَ عليكَ مِنْ سائرِ عبادي ؟!

أستخففتَ بنظري إليكَ فلمْ تكترثْ ، واستعظمتَ نظرَ غيري ؟!

ألمْ أنعمْ عليكَ ؟! فماذا غرَّكَ بي ؟! أظننتَ أنِّي لا أراكَ وأنَّكَ لا تلقاني ؟!

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منكمْ مِنْ أحدٍ إلاَّ ويسألُهُ اللهُ

---

(١) **المجنوب** : المجرور في الموكب .

ربُّ العالمينَ ليسَ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ ولا ترجمانٌ »[١] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليقفنَّ أحدُكُم بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ليسَ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ ، فيقولُ لهُ : ألَمْ أنعمْ عليكَ ، ألَمْ أوتِكَ مالاً ؟! فيقولُ : بلىٰ ، فيقولُ : ألَمْ أرسلْ إليكَ رسولاً ؟! فيقولُ : بلىٰ ، ثمَّ ينظرُ عنْ يمينِهِ فلا يرىٰ إلاَّ النَّارَ ، ثمَّ ينظرُ عنْ شمالِهِ فلا يرىٰ إلا النَّارَ ، فليتَّقِ أحدُكمُ النَّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ يجدْ . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[٢] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما منكُم مِنْ أحدٍ إلاَّ سيخلو اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ كما يخلو أحدُكُمْ بالقمرِ ليلةَ البدرِ ، ثمَّ يقولُ :

يا بنَ آدمَ ، ما غرَّكَ بي ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ماذا أجبتَ المرسلينَ ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ألَمْ أكنْ رقيباً علىٰ عينِكَ وأنتَ تنظرُ بها إلىٰ ما لا يحلُّ لكَ ؟! ألَمْ أكنْ رقيباً علىٰ أذنيكَ . . .) وهٰكذا حتىٰ عدَّ سائرَ الأعضاءِ[٣] .

وقالَ مجاهدٌ : لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ مِنْ بينِ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩) ، ومسلم (١٠١٦/ ٦٧) .
(٢) رواه البخاري (١٤١٣) .
(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ٢٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣١) مختصراً .

حتىٰ يسألَهُ عنْ أربعِ خصالٍ : عنْ عمرِهِ فيما أفناهُ ، وعنْ علمِهِ ما عملَ فيهِ ، وعنْ جسدِهِ فيما أبلاهُ ، وعنْ مالِهِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقَهُ[1] .

فأعظمْ يا مسكينُ بحيائِكَ عندَ ذلكَ وبخطرِكَ ؛ فإنَّكَ بينَ أنْ يُقالَ لكَ : سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرُها لكَ اليومَ ، فعندَ ذلكَ يعظُمُ سرورُكَ وفرحُكَ ، ويغبطُكَ الأولونَ والآخرونَ ، وإمَّا أنْ يُقالَ للملائكةِ : خذوا هـٰذا العبدَ السوءَ فغلُّوهُ ، ثمَّ الجحيمَ صلُّوهُ ، وعندَ ذلكَ لوْ بكتْ عليكَ السماواتُ والأرضُ . . لكانَ ذلكَ جديراً بعظمِ مصيبتِكَ ، وشدَّةِ حسرتِكَ علىٰ ما فرَّطتَ فيهِ مِنْ طاعةِ اللهِ ، وعلىٰ ما بعتَ بهِ آخرتَكَ مِنْ دنيا دنيَّةٍ لمْ تبقَ معكَ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/١٠٢) ، وبنحوه الترمذي (٢٤١٧) مرفوعاً من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

صفة الميزان

ثـمَّ لا تغفـلْ عـنِ الفكـرِ فـي الميـزانِ ، وتطـايـرِ الكتـبِ إلـى الأيمـانِ والشمائلِ ؛ فإنَّ الناسَ بعدَ السؤالِ ثلاثُ فرقٍ :

فرقةٌ ليسَ لهمْ حسنةٌ ، فيخرجُ مِنَ النَّارِ عنقٌ أسودُ فيلقطُهُم لقطَ الطيرِ الحبَّ ، وينطوي عليهِمْ ويلقيهِمْ في النَّارِ ، فتبتلعُهمُ النَّارُ ، ويُنادىٰ عليهِمْ بشقاوةٍ لا سعادةَ بعدَها .

وقسمٌ آخرُ لا سيئةَ لهُمْ ، فينادي منادٍ : ليقمِ الحمَّادونَ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ ، فيقومونَ ويسرحونَ إلى الجنَّةِ ، ثمَّ يُفعلُ ذلكَ بأهلِ قيامِ الليلِ ، ثمَّ بمَنْ لمْ تشغلْهُ تجارةُ الدنيا ولا بيعُها عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويُنادىٰ عليهِمْ بسعادةٍ لا شقاوةَ بعدَها .

ويبقىٰ قسمٌ ثالثٌ وهمُ الأكثرونَ ، خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، وقدْ يخفىٰ عليهِمْ ولا يخفىٰ على اللهِ تعالىٰ أنَّ الغالبَ حسناتُهُمْ أوْ سيئاتُهُمْ ، ولكنْ يأبى اللهُ تعالىٰ إلاَّ أنْ يعرِّفَهُمْ حقيقةَ ذلكَ ؛ ليبيِّنَ فضلَهُ عندَ العفوِ وعدلَهُ عندَ العقابِ ، فتتطايرُ الصحفُ والكتبُ منطويةً على الحسناتِ والسيئاتِ ، ويُنصبُ الميزانُ ، وتشخصُ الأبصارُ إلى الكتبِ ، أتقعُ في اليمينِ أوْ في الشمالِ ؟ ثمَّ إلىٰ لسانِ الميزانِ أيميلُ إلىٰ جانبِ السيئاتِ أوْ إلىٰ جانبِ الحسناتِ ؟ وهـٰذهِ حالةٌ هائلةٌ تطيشُ فيها عقولُ الخلائقِ .

روى الحسنُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ رأسُهُ في حجرِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فنعَسَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذكرَتِ الآخرةَ فبكَتْ حتىٰ سالَتْ دموعُها علىٰ خدِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فانتبهَ فقالَ : « ما يبكيكِ يا عائشةُ ؟ » قالَتْ : ذكرتُ الآخرةَ ، هلْ تذكرُونَ أهليكمْ يومَ القيامةِ ؟ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ، في ثلاثةِ مواطنَ فإنَّ أحداً لا يذكرُ إلاَّ نفسَهُ : إذا وُضعَتِ الموازينُ ووُزنَتِ الأعمالُ حتىٰ ينظرَ ابنُ آدمَ أيخفُّ ميزانُهُ أمْ يثقلُ ، وعندَ الصحفِ حتىٰ ينظرَ أبيمينِهِ يأخذُها أمْ بشمالِهِ ، وعندَ الصِّراطِ »(١) .

وعنْ أنسٍ قالَ : (يُؤتىٰ بابنِ آدمَ يومَ القيامةِ حتىٰ يُوقفَ بينَ كفَّتي الميزانِ ، ويُوكلَ بهِ ملكٌ : فإنْ ثقلَ ميزانُهُ . . نادى الملكُ بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ : سعدَ فلانٌ سعادةً لا يشقىٰ بعدَها أبداً ، وإنْ خفَّ ميزانُهُ . . نادىٰ بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ : شقيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً)(٢) .

وعندَ خفَّةِ كفَّةِ الحسناتِ تقبلُ الزبانيةُ وبأيديهمْ مقامعُ مِنْ حديدٍ ، عليهِمْ ثيابٌ مِنْ نارٍ ، فيأخذونَ نصيبَ النَّارِ إلى النَّارِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في يومِ القيامةِ : « إنَّهُ يومٌ ينادي اللهُ تعالىٰ فيهِ آدمَ عليهِ السَّلامُ فيقولُ لهُ : قمْ يا آدمُ فابعثْ بعْثَ النَّارِ ، فيقولُ :

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٥٥) .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٤) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه .

وكمْ بعْثُ النَّارِ ؟ فيقولُ : مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ في النارِ وواحدٌ في الجنَّةِ » فلمَّا سمعَ الصحابةُ ذلكَ. . أبلسوا حتىٰ ما أوضحوا بضاحكةٍ ، فلمَّا رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما عندَ أصحابِهِ. . قالَ : « اعملوا وأبشروا ، فوَالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ إنَّ معَكمْ لخليقتينِ ما كانتا معَ أحدٍ قطُّ إلاَّ كثَّرَتاهُ معَ مَنْ هلكَ مِنْ بني آدمَ وبني إبليسَ » قالوا : وما هما يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يأجوجُ ومأجوجُ » قالَ : فسُرِّيَ عنِ القومِ ، فقالَ : « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ، ما أنتُمْ في النَّاسِ يومَ القيامةِ إلاَّ كالشامةِ في جنبِ البعيرِ ، أوْ كالرقمةِ في ذراعِ الدابةِ »[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الترمذي بهـٰذا اللفظ (٣١٦٩) ، وأصله عند البخاري (٦٥٣٠) ، ومسلم (٢٢٢) .

صفة الخصماء وردّ المظالم

قدْ عرفتَ هولَ الميزانِ وخطرَهُ ، وأنَّ الأعينَ شاخصةٌ إلىٰ لسانِ الميزانِ ، فمَنْ ثقلَتْ موازينُهُ . . فهوَ في عيشةٍ راضيةٍ ، وأمَّا مَنْ خفَّتْ موازينُهُ . . فأُمُّهُ هاويةٌ ، وما أدراكَ ما هيهْ ؟ نارٌ حاميةٌ .

واعلمْ : أنَّهُ لا ينجوْ مِنْ خطرِ الحسابِ والميزانِ إلاَّ مَنْ حاسبَ في الدنيا نفسَهُ ، ووزنَ فيها بميزانِ الشرعِ أعمالَهُ وأقوالَهُ ، وخطراتِهِ ولحظاتِهِ ، كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا)[1] .

وإنَّما حسابُهُ لنفسِهِ أنْ يتوبَ عنْ كلِّ معصيةٍ قبلَ الموتِ توبةً نصوحاً ، ويتداركَ ما فرَّطَ مِنْ تقصيرِهِ في فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، ويردَّ المظالمَ حبةً بعدَ حبةٍ ، ويستحلَّ كلَّ مَنْ تعرَّضَ لهُ بلسانِهِ ويدِهِ وسوءِ ظنِّهِ بقلبِهِ ، ويطيِّبَ قلوبَهُمْ ؛ حتىٰ يموتَ ولمْ يبقَ عليهِ مظلمةٌ ولا فريضةٌ ، فهـٰذا يدخلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ .

وإنْ ماتَ قبلَ ردِّ المظالمِ . . أحاطَ بهِ خصماؤُهُ ، فهـٰذا يأخذُ بيدِهِ ، وهـٰذا يقبضُ علىٰ ناصيتِهِ ، وهـٰذا يتعلقُ بتلبيبِهِ ، هـٰذا يقولُ : ظلمتَني ، وهـٰذا يقولُ : شتمتَني ، وهـٰذا يقولُ : استهزأتَ بي ، وهـٰذا يقولُ :

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٣٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٠) .

ذكرتَني في الغيبةِ بما يسوءُني ، وهـٰذا يقولُ : جاورتَني فأسأتَ جواري ، وهـٰذا يقولُ : عاملتَني فغششتَني ، وهـٰذا يقولُ : بايعتَني فغبنتَني وأخفيتَ عنِّي عيبَ متاعِكَ ، وهـٰذا يقولُ : كذبتَ في سعرِ متاعِكَ ، وهـٰذا يقولُ : رأيتَني محتاجاً وكنتَ غنياً فما أطعمتَني ، وهـٰذا يقولُ : وجدتَني مظلوماً وكنتَ قادراً علىٰ دفعِ الظلمِ عنِّي ، فداهنتَ الظالمَ وما راعيتَني .

فبينا أنتَ كذلكَ وقدْ أنشبَ الخصماءُ فيكَ مخالبَهُمْ ، وأحكموا في تلابيبكَ أيديَهم ، وأنتَ مبهوتٌ متحيرٌ مِنْ كثرتِهِمْ ، حتىٰ لمْ يبقَ في عمرِكَ أحدٌ عاملتَهُ علىٰ درهمٍ أوْ جالستَهُ في مجلسٍ إلاَّ وقدِ استحقَّ عليكَ مظلمةً بغيبةٍ أوْ خيانةٍ ، أوْ نظرٍ بعينِ استحقارٍ ، وقدْ ضعفتَ عنْ مقاومتِهِمْ ، ومددتَ عنقَ الرجاءِ إلىٰ سيِّدِكَ ومولاكَ لعلَّهُ يخلصُكَ مِنْ أيديهِمْ ؛ إذْ قرعَ سمعَكَ نداءُ الجبارِ جلَّ جلالُهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ فعندَ ذلكَ ينخلعُ قلبُكَ مِنَ الهيبةِ ، وتوقنُ نفسُكَ بالبوارِ ، وتتذكرُ ما أنذرَكَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ حيثُ قالَ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ .

فما أشدَّ فرحَكَ اليومَ بتمضمضِكَ بأعراضِ النَّاسِ وتناوِلكَ أموالَهُمْ ! وما أشدَّ حسراتِكَ في ذلكَ اليومِ إذا وُقِفَ بكَ علىٰ بساطِ العدلِ ، وشُوفهتَ بخطابِ السياسةِ وأنتَ مفلسٌ فقيرٌ ، عاجزٌ مهينٌ ، لا تقدرُ علىٰ أنْ تردَّ حقّاً أو تظهرَ عذراً !

فعندَ ذلكَ تُؤخذُ حسناتُكَ التي أفنيتَ فيها عمرَكَ ، وتُنقلُ إلىٰ خصمائِكَ عوضاً عنْ حقوقِهِمْ .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ تدرونَ مَنِ المفلسُ ؟ » قالوا : المفلسُ فينا ـ يا رسولَ اللهِ ـ : مَنْ لا درهمَ لهُ ولا متاعَ ، فقالَ : « المفلسُ مِنْ أُمَّتي : مَنْ يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي وقدْ شتمَ هٰذا وقذفَ هٰذا ، وأكلَ مالَ هٰذا وسفكَ دمَ هٰذا وضربَ هٰذا ، فيُعطىٰ هٰذا مِنْ حسناتِهِ وهٰذا مِنْ حسناتِهِ ، وإنْ فنيَتْ حسناتُهُ قبلَ أنْ يقضيَ ما عليهِ . . أُخِذَ مِنْ خطاياهُمْ فطُرِحَتْ عليهِ ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ »(١) .

فانظرْ إلىٰ مصيبتِكَ في مثلِ هٰذا اليومِ ؛ إذْ ليسَ يسلمُ لكَ حسنةٌ مِنْ آفاتِ الرياءِ ومكايدِ الشيطانِ ، فإنْ سلمَتْ حسنةٌ واحدةٌ في كلِّ مدةٍ طويلةٍ . . ابتدرَها خصماؤُكَ وأخذوها .

ولعلَّكَ لوْ حاسبتَ نفسَكَ وأنتَ مواظبٌ علىٰ صيامِ النهارِ وقيامِ الليلِ . . لعلمتَ أنَّهُ لا ينقضي عنكَ يومٌ إلاَّ ويجري علىٰ لسانِكَ مِنْ غيبةِ المسلمينَ ما يستوفي جميعَ حسناتِكَ ، فكيفَ ببقيَّةِ السيئاتِ مِنْ أكلِ الحرامِ والشبهاتِ والتقصيرِ في الطاعاتِ ؟!

وكيفَ ترجوْ الخلاصَ مِنَ المظالمِ في يومٍ يُقتصُّ فيهِ للجمَّاءِ مِنَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١) .

القرناءِ ؟! فقدْ روىٰ أبو ذرٍّ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأىٰ شاتينِ تنتطحانِ فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ أتدري فيمَ تنتطحانِ ؟ » قلتُ : لا ، قالَ : « ولكنَّ ربَّكَ يدري ، وسيقضي بينَهما يومَ القيامةِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ في قولهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ : (إنَّهُ يُحشرُ الخلقُ كلُّهمْ يومَ القيامةِ ؛ البهائمُ والدوابُّ والطيرُ وكلُّ شيءٍ ، فيبلغُ مِنْ عدلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يأخذَ للجمَّاءِ مِنَ القرناءِ ثمَّ يقولَ : كوني تراباً ، فذلكَ حينَ يقولُ الكافرُ : ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴾)(٢) .

فكيفَ أنتَ يا مسكينُ في يومٍ ترىٰ صحيفتَكَ خاليةً عنْ حسناتٍ طالَ فيها تعبُكَ ، فتقولُ : أينَ حسناتي ؟ فيُقالُ : نُقلَتْ إلىٰ صحيفةِ خصمائِكَ ، وترىٰ صحيفتَكَ مشحونةً بسيئاتٍ طالَ في الصبرِ عنها نصبُكَ ، واشتدَّ بسببِ الكفِّ عنها عناؤُكَ ، فتقولُ : يا ربِّ ؛ هـٰذهِ سيئاتٌ ما قارفتُها قطُّ ، فيُقالُ : هـٰذهِ سيئاتُ القومِ الذينَ اغتبتَهُمْ وشتمتَهُمْ وقصدتَهُمْ بالسوءِ ، وظلمتَهُمْ في المبايعةِ والمجاورةِ والمخاطبةِ ، والمناظرةِ والمذاكرةِ والمدارسةِ وسائرِ أصنافِ المعاملةِ ؟!

قالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ قدْ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٦٢) ، والطيالسي في « مسنده » (٤٨٠) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣١٧) .

يئسَ أنْ تُعبدَ الأصنامُ بأرضِ العربِ ، ولكنْ سيرضىٰ منْكُمْ بما هوَ دونَ ذلكَ ؛ بالمحقَّراتِ وهيَ الموبقاتُ ، فاتقوا الظلمَ ما استطعتُم ؛ فإنَّ العبدَ ليجيءُ يومَ القيامةِ بأمثالِ الجبالِ مِنَ الطاعاتِ فيرىٰ أنهنَّ سينجينَهُ ، فما يزالُ عبدٌ يجيءُ فيقولُ : يا ربِّ ؛ إنَّ فلاناً ظلمَني بمظلمةٍ ، فيقولُ : امحُ مِنْ حسناتِهِ ، فما يزالُ كذلكَ حتىٰ لا يبقىٰ لهُ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ، وإنَّ مثلَ ذلكَ مثلُ سفرٍ نزلوا بفلاةٍ مِنَ الأرضِ ليسَ معَهُمْ حطبٌ ، فتفرَّقَ القومُ فحطبوا ، فلمْ يلبثوا أنْ أعظموا نارَهمْ وصنعوا ما أرادوا ، وكذلكَ الذنوبُ »[1] .

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قالَ الزبيرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُكرَّرُ علينا ما كانَ بينَنا في الدنيا معَ خواصِّ الذنوبِ ؟ قالَ : « نعمْ ، ليُكرَّرَنَّ عليكمْ حتىٰ تؤدُّوا إلىٰ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ » فقالَ الزبيرُ : واللهِ ؛ إنَّ الأمرَ لشديدٌ[2] .

فأعظمْ بشدَّةِ يومٍ لا يُسامحُ فيهِ بخطوةٍ ، ولا يُتجاوزُ فيهِ عنْ لطمةٍ ولا عنْ كلمةٍ ، حتىٰ يُنتقمَ للمظلومِ مِنَ الظالمِ .

قالَ أنسٌ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يحشرُ اللهُ العبادَ عراةً غبراً بُهْماً » قالَ : قلنا : ما بُهماً ؟ قالَ : « ليسَ معَهُم شيءٌ ، ثمَّ يناديهمْ ربُّهمْ تعالىٰ بصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يسمعُهُ مَنْ قربَ : أنا

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (٥١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٧٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١٦٧) ، وعند الترمذي (٣٢٣٦) نحوه .

الملكُ ، أنا الدَّيَّانُ ، لا ينبغي لأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ عليهِ مظلمةٌ حتىٰ أقتصَّهُ منهُ ، ولا لأحدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ أنْ يدخلَ النَّارَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ عندَهُ مظلمةٌ حتىٰ أقتصَّهُ منهُ حتى اللطمةُ » قلنا : وكيفَ وإنَّما نأتي اللهَ عزَّ وجلَّ عراةً غبراً بهماً ؟ فقالَ : « بالحسناتِ والسيئاتِ »[1] .

فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ ، ومظالمَ العبادِ بأخذِ أموالِهِمْ ، والتعرُّضِ لأعراضِهِمْ ، وتضييقِ قلوبِهِمْ ، وإساءةِ الخلقِ في معاشرتِهِمْ ؛ فإنَّ ما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ خاصةً فالمغفرةُ إليهِ أسرعُ .

ومَنِ اجتمعَتْ عليهِ مظالمُ وقدْ تابَ عنها ، وعسرَ عليهِ استحلالُ أربابِ المظالمِ . . فليكثرْ مِنْ حسناتِهِ ليومِ القصاصِ ، وليسرَّ ببعضِ الحسناتِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ بكمالِ الإخلاصِ بحيثُ لا يطلعُ عليهِ إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، فعساهُ يقرِّبُهُ ذلكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فينالَ بهِ لطفَهُ الذي ادَّخرَهُ لأحبابِهِ المؤمنينَ في دفعِ مظالمِ العبادِ عنهُمْ ؛ كما رُويَ عنْ أنسٍ أنَّهُ قالَ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ ؛ إذْ رأيناهُ ضحكَ حتىٰ بدَتْ ثناياهُ ، فقالَ عمرُ : ما يضحكُكَ يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ وأمِّي ؟ قالَ : « رجلانِ مِنْ أُمَّتي جثيا بينَ يديْ ربِّ العزَّةِ ، فقالَ أحدُهُما : يا ربِّ ؛ خذْ لي مظلمَتي مِنْ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٤) من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ، وهو ما صوبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٤٧٨) ، وفي غير (أ ، ص) : (وإنما نأتي الله عراةً غرلاً بهماً) .

أخي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : أعطِ أخاكَ مظلمتَهُ ، فيقولُ : ياربِّ ؛ لمْ يبقَ مِنْ حسناتي شيءٌ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : كيفَ تصنعُ ولمْ يبقَ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ؟! قالَ : يا ربِّ ؛ يتحمَّلُ عني مِنْ أوزاري » قالَ : وفاضَتْ عينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالبكاءِ ثمَّ قالَ : « إنَّ ذلكَ ليومٌ عظيمٌ ، يومٌ يحتاجُ الناسُ إلىٰ أنْ يُحملَ عنهمْ مِنْ أوزارِهِمْ » ، قالَ : « فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : ارفعْ رأسَكَ ، فانظرْ في الجنانِ ، فرفعَ رأسَهُ فقالَ : يا ربِّ ؛ أرىٰ مدائنَ مِنْ فضةٍ مرتفعةً ، وقصوراً مِنْ ذهبٍ مكللةً باللؤلؤِ ، لأيِّ نبيٍّ هـٰذا ؟ أوْ لأيِّ صدِّيقٍ هـٰذا ؟ أوْ لأيِّ شهيدٍ هـٰذا ؟ قالَ : لمَنْ أعطى الثَّمنَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ ومَنْ يملكُ ثمنَهُ ؟! قالَ : أنتَ تملكُهُ ، قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : عفوُكَ عنْ أخيكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ إنِّي قدْ عفوتُ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : خُذْ بيدِ أخيكَ فأدخلْهُ الجنَّةَ » ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ ذلكَ : « اتَّقوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكُمْ ؛ فإنَّ اللهَ يصلحُ بينَ المؤمنينَ »(١) .

وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ ذلكَ إنَّما يُنالُ بالتخلُّقِ بأخلاقِ اللهِ ، وهوَ إصلاحُ ذاتِ البينِ وسائرُ الأخلاقِ .

فتفكَّرِ الآنَ في نفسِكَ إنْ خلَتْ صحيفتُكَ عنِ المظالمِ ، أوْ تلطَّفَ لكَ حتىٰ عفا عنكَ وأيقنتَ بسعادةِ الأبدِ . كيفَ يكونُ سرورُكَ في منصرفِكَ مِنْ مفصلِ القضاءِ وقدْ خلعَ عليكَ خلعةَ الرضا ، وعُدتَ بسعادةٍ ليسَ بعدَها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٥٧٦/٤) .

شقاءٌ ، وبنعيمٍ لا يدورُ بحواشيهِ الفناءُ وعندَ ذلكَ طارَ قلبُكَ سروراً وفرحاً ، وابيضَّ وجهُكَ واستنارَ ، وأشرقَ كما يشرقُ القمرُ ليلةَ البدرِ ؟!

فتوهَّمْ تبخترَكَ بينَ الخلائقِ رافعاً رأسَكَ ، خالياً عَنِ الأوزارِ ظهرُكَ ، ونضرةُ نسيمِ النعيمِ وبردُ الرضا يتلألأُ مِنْ جبينِكَ ، وخلقُ الأولينَ والآخرينَ ينظرونَ إليكَ وإلىٰ حالِكَ ، ويغبطونَكَ في حسنِكَ وجمالِكَ ، والملائكةُ يمشونَ بينَ يديكَ ومِنْ خلفِكَ ، وينادونَ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ : هٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، رضيَ اللهُ عنهُ وأرضاهُ ، وقدْ سعدَ سعادةً لا يشقىٰ بعدَها أبداً ، أفترىٰ أنَّ هٰذا المنصبَ ليسَ بأعظمَ مِنَ المكانةِ التي تنالُها في قلوبِ الخلقِ في الدنيا بريائِكَ ومداهنتِكَ وتصنُّعِكَ وتزيُّنِكَ ؟

فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّهُ خيرٌ منهُ ، بلْ لا نسبةَ لهُ إليهِ . فتوسَّلْ إلىٰ إدراكِ هٰذهِ الرتبةِ بالإخلاصِ الصافي ، والنيَّةِ الصادقةِ في معاملتِكَ معَ اللهِ تعالىٰ ، فلنْ تدركَ ذلكَ إلاَّ بهِ .

وإنْ تكنِ الأخرىٰ ـ والعياذُ باللهِ ـ بأنْ خرجَتْ مِنْ صحيفتِكَ جريمةٌ ، كنتَ تحسبُها هيِّنةً وهيَ عندَ اللهِ عظيمةٌ ، فمقتَكَ لأجلِها فقالَ عزَّ وجلَّ : عليكَ لعنتي يا عبدَ السوءِ ، لا أتقبلُ منكَ عبادتَكَ . فلا تسمعُ هٰذا النداءَ إلاَّ ويسودُّ وجهُكَ ، ثمَّ تغضبُ الملائكةُ لغضبِ اللهِ تعالىٰ فيقولونَ : وعليكَ لعنتُنا ولعنةُ الخلائقِ أجمعينَ .

وعندَ ذلكَ تتنالُ إليكَ الزَّبانيةُ وقدْ غضبَتْ لغضبِ خالقِها ، فأقدمَتْ

عليكَ بفظاظتِها وزعارَّتِها وصورِها المنكرةِ[1] ، فأخذوا بناصيتِك يسحبونَكَ علىٰ وجهِكَ علىٰ ملأِ الخلقِ وهمْ ينظرونَ إلىٰ سوادِ وجهِكَ ، وإلىٰ ظهورِ خزيِكَ ، وأنتَ تنادي بالويلِ والثبورِ ، وهمْ يقولونَ لكَ : لا تدعُ اليومَ ثبوراً واحداً وادعُ ثبوراً كثيراً .

وتنادي الملائكةُ ويقولونَ : هـٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، كشفَ اللهُ عنْ فضائِحِهِ ومخازيهِ ، ولعنَهُ بقبائحِ مساويهِ ، فشقيَ شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً .

وربَّما يكونُ ذلكَ بذنبٍ أذنبتَهُ خيفةً مِنْ عبادِ اللهِ ، أوْ طلباً للمكانةِ في قلوبِهِمْ ، أوْ خوفاً مِنَ الافتضاحِ عندَهُمْ ، فما أعظمَ جهلَكَ إذْ تحترزُ مِنَ الافتضاحِ عندَ طائفةٍ يسيرةٍ مِنْ عبادِ اللهِ في الدنيا المنقرضةِ ، ثمَّ لا تخشىٰ مِنَ الافتضاحِ العظيمِ في ذلكَ الملأِ العظيمِ معَ التعرُّضِ لسخطِ اللهِ تعالىٰ وعقابِهِ الأليمِ ، والسياقِ بأيدي الزبانيةِ إلىٰ سواءِ الجحيمِ !

فهـٰذهِ أحوالُكَ وأنتَ بعدُ لمْ تشعرْ بالخطرِ الأعظمِ ، وهوَ خطرُ الصِّراطِ .

* * *

(١) زعارَّتها : شراسة الخُلُق .

صفة الصراط

ثمَّ تفكَّرْ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ ، وفي قولهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ .

فالنَّاسُ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ يُساقونَ إلى الصِّراطِ ، وهوَ جسرٌ ممدودٌ علىٰ متنِ النَّارِ ، أحدُّ مِنَ السيفِ وأدقُّ مِنَ الشَّعْرِ ، مَنِ استقامَ في هـٰذا العالمِ على الصراطِ المستقيمِ . . خفَّ علىٰ صراطِ الآخرةِ ونجا ، ومَنْ عدلَ عنِ الاستقامةِ في الدنيا وأثقلَ الظهرَ بالأوزارِ وعصىٰ . . تعثَّرَ في أولِ قدمٍ مِنَ الصراطِ وتردَّىٰ .

فتفكَّرِ الآنَ فيما يحلُّ مِنَ الفزعِ بفؤادِكَ إذا رأيتَ الصراطَ ودقَّتَهُ ، ثمَّ وقعَ بصرُكَ علىٰ سوادِ جهنَّمَ مِنْ تحتِهِ ، ثمَّ قرعَ سمعَكَ شهيقُ النَّارِ وتغيُّظُها ، وقدْ كُلِّفتَ أن تمشيَ على الصراطِ معَ ضعفِ حالِكَ ، واضطرابِ قلبِكَ ، وتزلزلِ قدمِكَ ، وثقلِ ظهرِكَ بالأوزارِ المانعةِ لكَ عنِ المشيِ علىٰ بساطِ الأرضِ فضلاً عنْ حدَّةِ الصراطِ ، فكيفَ بكَ إذا وضعتَ عليهِ إحدىٰ رجليكَ فأحسستَ بحدَّتِهِ ، واضطررتَ إلىٰ أنْ ترفعَ القدمَ الثانيةَ والخلائقُ بينَ يديكَ يزلُّونَ ويتعثَّرونَ ، وتتناولُهُمْ زبانيةُ النارِ بالخطاطيفِ والكلاليبِ ، وأنتَ تنظرُ إليهِمْ كيفَ يتنكسونَ فتتسفَّلُ إلىٰ جهةِ النارِ رؤوسُهُمْ وتعلوْ أرجلُهُمْ ؟!

فيا لَهُ مِنْ منظرٍ ما أفظعَهُ ، ومرتقىً ما أصعبَهُ ، ومجازٍ ما أضيقَهُ !

فانظرْ إلىٰ حالِكَ وأنتَ ترجفُ عليهِ وتصعدُ إليهِ وأنتَ مثقلُ الظهرِ بأوزارِكَ ، تلتفتُ يميناً وشمالاً إلى الخلقِ وهمْ يتهافتونَ في النارِ ، والرسولُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ يقولُ : « يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ » والزعقاتُ بالويلِ والثبورِ قدِ ارتفعَتْ إليكَ مِنْ قعرِ جهنَّمَ ؛ لكثرةِ مَنْ زلَّ عنِ الصِّراطِ مِنَ الخلائقِ .

فكيفَ بكَ لوْ زلَّتْ قدمُكَ ، ولم ينفعْكَ ندمُكَ ، وقلتَ : وا ويلاهُ ، هـٰذا ما كنتُ أخافُهُ ، فيا ليتَني قدَّمتُ لحياتي ، يا ليتَني اتخذتُ معَ الرسولِ سبيلاً ، يا ويلتا ليتَني لمْ أتخذْ فلاناً خليلاً ، يا ليتَني كنتُ تراباً ، يا ليتَني كنتُ نسياً منسيّاً ، يا ليتَ أمِّي لمْ تلدْني ؟!

وعندَ ذلكَ تختطفُكَ النيرانُ والعياذُ باللهِ ، وينادي المنادي : اخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ ، فلا يبقىٰ سبيلٌ إلاَّ الصياحُ والأنينُ والتنفسُ والاستغاثةُ .

فكيفَ ترى الآنَ عقلَكَ وهـٰذهِ الأخطارُ بينَ يديكَ ، فإنْ كنتَ غيرَ مؤمنٍ بذلكَ . . فما أطولَ مقامَكَ معَ الكفَّارِ في دركاتِ جهنَّمَ !

وإنْ كنتَ بهِ مؤمناً وعنهُ غافلاً ، وبالاستعدادِ لهُ متهاوناً . . فما أعظمَ خسرانَكَ وطغيانَكَ !

وماذا ينفعُكَ إيمانُكَ إذا لمْ يبعثْكَ على السعيِ في طلبِ رضا اللهِ بطاعتِهِ وتركِ معاصيهِ ؟!

فلوْ لمْ يكنْ بينَ يديكَ إلاَّ هولُ الصراطِ وارتياعُ قلبِكَ مِنْ خطرِكَ في

الجوازِ عليهِ وإنْ سلمتَ . . فناهيكَ بهِ هولاً وفزعاً ورعباً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُضربُ الصِّراطُ بينَ ظهراني جهنَّمَ ، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يجيزُ بأمَّتِهِ مِنَ الرسلِ ، ولا يتكلمُ يومَئذٍ إلاَّ الرسلُ ، ودعوى الرسلِ يومَئذٍ : اللهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، وفي جهنَّمَ كلاليبُ مثلُ شوكِ السعدانِ ، هلْ رأيتُمْ شوكَ السعدانِ ؟ » قالوا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فإنَّها مثلُ شوكِ السعدانِ ، غيرَ أنَّهُ لا يعلمُ قدرَ عظمِها إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، تختطفُ الناسَ بأعمالِهِم ، فمنهم مَنْ يُوبقُ بعملِهِ ، ومنهم مَنْ يُخردلُ ثمَّ ينجو »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يمرُّ الناسُ علىٰ جسرِ جهنَّمَ وعليهِ حسكٌ وكلاليبُ وخطاطيفُ تختطفُ الناسَ يميناً وشمالاً ، وعلىٰ جنبتيهِ ملائكةٌ يقولونَ : اللهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يمرُّ مثلَ البرقِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريحِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالفرسِ المُجْرَىٰ ، ومنهم مَنْ يسعىٰ سعياً ، ومنهم مَنْ يمشي مشياً ، ومنهم مَنْ يحبو حبواً ، ومنهم مَنْ يزحفُ زحفاً ، فأمَّا أهلُ النَّارِ الذين همْ أهلُها . . فلا يموتونَ ولا يحيَوْنَ ، وأمَّا أناسٌ . . فيُؤخذونَ بذنوبٍ وخطايا فيحترقونَ فيكونونَ فحماً ، ثمَّ يُؤذنُ في الشفاعةِ . . . » الحديثَ(٢) .

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) ، والسعدان : نبت بالبادية شوكه مفرطح . « إتحاف » (١٠/ ٤٨٢) .

(٢) رواه ابن حبان (٧٣٧٩) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٢٥) .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يجمعُ اللهُ تعالى الأولينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ قياماً أربعينَ سنةً ، شاخصةً أبصارُهُمْ إلى السماءِ ، ينتظرونَ فصلَ القضاءِ . . . » وذكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ ذكرَ وقتَ سجودِ المؤمنينَ ، قالَ : « ثمَّ يقولُ للمؤمنينَ : ارفعوا رؤوسَكم ، فيرفعونَ رؤوسَهم ، فيعطيهم نورَهم علىٰ قدرِ أعمالِهم ، فمنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ مثلَ الجبلِ العظيمِ يسعىٰ بينَ يديهِ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ أصغرَ مِنْ ذلكَ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ مثلَ النخلةِ بيمينِهِ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ أصغرَ مِنْ ذلكَ ، حتىٰ يكونَ آخرُهُم رجلاً يُعطىٰ نورَهُ علىٰ إبهامِ قدمِهِ فيضيءُ مرةً ويطفأُ مرةً ، فإذا أضاءَ . . قدَّمَ قدمَهُ فمشىٰ ، وإذا طَفِيءَ . . قامَ » .

ثمَّ ذكرَ مرورَهم على الصِّراطِ علىٰ قدرِ نورِهم ، فمنهم مَنْ يمرُّ كطرفِ العينِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالسحابِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الكوكبِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريحِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كشدِّ الفرسِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كشدِّ الرجلِ ، حتىٰ يمرَّ الذي أُعطي نورَهُ علىٰ إبهامِ قدمِهِ يحبو علىٰ وجهِهِ ويديهِ ورجليهِ ، يجرُّ يداً ويعلقُ يداً ، ويجرُّ رجلاً ويعلقُ رجلاً ، وتصيبُ جوانبَهُ النَّارُ ، قالَ : « فلا يزالُ كذلكَ حتىٰ يخلصَ ، فإذا خلصَ . . وقفَ عليها ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ ؛ لقد أعطاني اللهُ ما لم يُعطِ أحداً ؛ إذْ نجاني منها بعدَ إذْ رأيتُها ، فيُنطلقُ بهِ إلىٰ غديرٍ عندَ بابِ الجنَّةِ فيغتسلُ »[1] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ٤١٧ـ ٤١٨) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الصِّراطُ كحدِّ السيفِ ـ أو كحدِّ الشعرةِ ـ وإنَّ الملائكةَ ينجُّونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وإنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ لآخذٌ بحجزتي وإنِّي لأقولُ : يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فالزَّالّونَ والزَّالاّتُ يومَئذٍ كثيرٌ »[١] .

فهـٰذهِ أهوالُ الصراطِ وعظائمُهُ ، فطوِّلْ فيهِ فكرَكَ ؛ فإنَّ أسلمَ الناسِ مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ مَنْ طالَ فيهِ فكرُهُ في الدنيا ؛ فإنَّ اللهَ لا يجمعُ علىٰ عبدِهِ خوفينِ ، فمَنْ خافَ هـٰذهِ الأهوالَ في الدنيا . . أمنَها في الآخرةِ .

ولسْتُ أعني بالخوفِ رقَّةً كرقَّةِ النساءِ تدمعُ عينُكَ ويرقُّ قلبُكَ حالَ السماعِ ، ثمَّ تنساهُ على القربِ وتعودُ إلىٰ لهوِكَ ولعبِكَ ، فما ذلكَ مِنَ الخوفِ في شيءٍ ، بلْ مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، فلا ينجيكَ إلاَّ خوفٌ يمنعُكَ عنْ معاصي اللهِ تعالىٰ ويحثُّكَ علىٰ طاعتِهِ .

وأبعدُ مِنْ رقَّةِ النساءِ خوفُ الحمقىٰ ؛ إذا سمعوا الأهوالَ . . سبقَتْ ألسنتُهُمْ إلى الاستعاذةِ فقالَ أحدُهُمْ : استعنتُ باللهِ ، نعوذُ باللهِ ، اللَّهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، وهمْ معَ ذلكَ مصرُّونَ على المعاصي التي هي سببُ هلاكِهِم ، فالشيطانُ يضحكُ مِنِ استعاذتِهِمْ ؛ كما يُضحكُ علىٰ مَنْ يقصدُهُ سبعٌ ضارٍ في صحراءَ ووراءَهُ حصنٌ ، فإذا رأىٰ أنيابَ السبعِ وصولتَهُ مِنْ بُعدٍ . . قالَ

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٦١) .

بلسانِهِ : أعوذُ بهـٰذا الحصنِ الحصينِ ، وأستعينُ بشدَّةِ بنيانِهِ وإحكامِ أركانِهِ ، فيقولُ ذلكَ بلسانِهِ وهوَ قاعدٌ في مكانِهِ ، فأنَّىٰ يغني ذلكَ عنهُ مِنَ السبعِ ؟!

وكذلكَ أهوالُ الآخرةِ ليسَ لها حصنٌ إلاَّ قولُ : (لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ) صادقاً ، ومعنىٰ صدقِهِ : ألاَّ يكونَ لهُ مقصودٌ سوى اللهِ تعالىٰ ، ولا معبودٌ غيرُهُ ، وأمَّا مَنِ اتخذَ إلـٰههُ هواهُ . . فهوَ بعيدٌ عنِ الصدقِ في توحيدِهِ ، وأمرُهُ مخطرٌ في نفسِهِ .

فإنْ عجزتَ عَنْ ذلكَ كلِّهِ . . فكنْ محبّاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حريصاً علىٰ تعظيمِ سنَّتِهِ ، متشوِّفاً إلىٰ مراعاةِ قلوبِ الصالحينَ مِنْ أمَّتِهِ ، ومتبرِّكاً بأدعيتِهِمْ ، فعساكَ تنالُ منْ شفاعتِهِ أو شفاعتِهِمْ ، فتنجوَ بالشفاعةِ إنْ كنتَ قليلَ البضاعةِ .

* * *

صفة الشّفاعة

اعلمْ : أنَّهُ إذا حقَّ دخولُ النارِ علىٰ طوائفَ مِنَ المؤمنينَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ بفضلِهِ يقبلُ فيهم شفاعةَ الأنبياءِ والصديقينَ ، بلْ شفاعةَ العلماءِ والصالحينَ .

وكلُّ مَنْ لهُ عندَ اللهِ تعالىٰ جاهٌ بحسنِ معاملةٍ . . فإنَّ لهُ شفاعةً في أهلِهِ وقرابتِهِ ، وأصدقائِهِ ومعارفِهِ .

فكنْ حريصاً علىٰ أنْ تكتسبَ لنفسِكَ عندَهم رتبةَ الشفاعةِ ؛ وذلكَ بألاَّ تحقرَ آدمياً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأ ولايتَهُ في عبادِهِ ، فلعلَّ الذي تزدريهِ عينُكَ هوَ وليُّ اللهِ ، ولا تستصغرْ معصيةً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأ غضبَهُ في معاصيهِ ، فلعلَّ مقتَ اللهِ فيهِ ، ولا تستحقرْ طاعةً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأ رضاهُ في طاعتِهِ ، فلعلَّ رضا اللهِ فيهِ ولوِ الكلمةَ الطيبةَ ، أو اللقمةَ أو النيَّةَ الحسنةَ ، أو ما يجري مجراهُ .

وشواهدُ الشفاعةِ في القرآنِ والأخبارِ كثيرةٌ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

روىٰ عمرُو بنُ العاصِ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَهُ تعالىٰ إخباراً عَنْ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقولَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ثمَّ رفعَ يديهِ وقالَ : « أمَّتي أمَّتي » ثمَّ بكىٰ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا جبريلُ ؛ اذهبْ إلىٰ محمَّدٍ فسلْهُ: ما يبكيكَ ؟ فأتاهُ جبريلُ فسألَهُ ، فأخبرَهُ واللهُ أعلمُ بهِ ، فقالَ : يا جبريلُ ؛ اذهبْ إلىٰ محمَّدٍ فقلْ لهُ : إنَّا سنرضيكَ في أمَّتِكَ ولا نسوءُكَ)[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُعطيتُ خمساً لمْ يُعطهنَّ أحدٌ قبلي : نُصرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ ، وأُحلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وترابُها طهوراً ، فأيُّما رجلٍ مِنْ أمَّتي أدركَتْهُ الصلاةُ . . فليصلِّ ، وأُعطيتُ الشفاعةَ ، وكلُّ نبيٍّ بُعثَ إلىٰ قومِهِ خاصَّةً ، وبُعثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . كنتُ إمامَ النَّبيِّينَ ، وخطيبَهُمْ وصاحبَ شفاعتِهِمْ مِنْ غيرِ فخرٍ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ مَنْ تنشقُّ الأرضُ عنهُ ، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مشفَّعٍ ، بيدي لواءُ الحمدِ تحتَهُ آدمُ فمَنْ دونَهُ »[٤] .

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وهو ما صوَّبه الحافظان العراقي والزبيدي في « الإتحاف » (١٠/ ٤٨٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٦١٣) ، وابن ماجه (٤٣١٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٦١٥) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٢٧٨) نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ ، فأريدُ أَنْ أختبىءَ دعوتي شفاعةً لأمَّتي يومَ القيامةِ »(١) .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُنصبُ للأنبياءِ منابرُ مِنْ ذهبٍ ، فيجلسونَ عليها ويبقىٰ منبري لا أجلسُ عليهِ قائماً بينَ يديْ ربِّي منتصباً ؛ مخافةَ أنْ يُبعثَ بي إلى الجنَّةِ وتبقىٰ أمَّتي بعدي ، فأقولُ : يا ربِّ ؛ أمَّتي ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا محمدُ ؛ وما تريدُ أنْ أصنعَ بأمَّتِكَ ؟ فأقولُ : يا ربِّ ؛ عجِّلْ حسابَهُمْ ، فما أزالُ أشفعُ حتىٰ أُعطىٰ صكاكاً برجالٍ قدْ بُعثَ بِهِمْ إلى النَّارِ ، وحتىٰ إنَّ مالكاً خازنَ النارِ يقولُ : يا محمدُ ؛ ما تركتَ للنارِ لغضبِ ربِّكَ في أمَّتِكَ مِنْ بقيَّةٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأشفعُ يومَ القيامةِ لأكثرَ ممَّا علىٰ وجهِ الأرضِ مِنْ حجرٍ ومدرٍ »(٣) .

وقالَ أبو هريرةَ أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلحمٍ ، فرُفعَ إليهِ الذراعُ وكانَتْ تعجبُهُ ، فنهسَ منها نهسةً ثمَّ قالَ : « أنا سيِّدُ النَّاسِ يومَ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٥ ـ ٦٦) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٩٥٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٤٧) من حديث بريدة رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٥٣٥٦) من حديث أنيس الأنصاري رضي الله عنه .

القيامةِ ، وهلْ تدرونَ ممَّ ذلكَ ؟ يجمعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ في صعيدٍ واحدٍ ، يُسمِعُهُمُ الداعي وينفذُهُمُ البصرُ ، وتدنو الشمسُ فيبلغُ النَّاسَ مِنَ الغمِّ والكربِ ما لا يطيقونَ ولا يحتملونَ ، فيقولُ النَّاسُ بعضُهُمْ لبعضٍ : ألا ترونَ ما قدْ بلغَكُمْ ؟! ألا تنظرونَ مَنْ يشفعُ لكمْ إلىٰ ربِّكم ؟!

فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبعضٍ : عليكُمْ بآدمَ عليهِ السَّلامُ ، فيأتونَ آدمَ فيقولونَ لهُ : أنتَ أبو البشرِ ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! ألا ترىٰ إلىٰ ما قدْ بلغَنا ؟! فيقولُ لهُمْ آدمُ عليهِ السَّلامُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قدْ نهاني عنِ الشجرةِ فعصيتُهُ ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ نوحٍ .

فيأتونَ نوحاً عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : يا نوحُ ؛ أنتَ أوَّلُ الرسلِ إلىٰ أهلِ الأرضِ ، وقد سمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قدْ كانَتْ لي دعوةٌ دعوتُها علىٰ قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ إبراهيمَ خليلِ اللهِ .

فيأتونَ إبراهيمَ خليلَ اللهِ عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : أنتَ نبيُّ اللهِ وخليلُهُ مِنْ أهلِ الأرضِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ لهم : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ،

وإنِّي كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ ـ ويذكرُها ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ موسىٰ .

فيأتونَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : يا موسىٰ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ فضَّلَكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ على النَّاسِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنِّي قتلتُ نفساً لمْ أُومرْ بقتلِها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ .

فيأتونَ عيسىٰ فيقولونَ : يا عيسىٰ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلىٰ مريمَ وروحٌ منهُ ، وكلَّمتَ النَّاسَ في المهدِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : إنَّ ربِّي غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ـ ولمْ يذكرْ ذنباً ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فيأتوني فيقولونَ : يا محمَّدُ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وخاتمُ النَّبيِّينَ ، وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟!

فأنطلقُ فآتي تحتَ العرشِ ، فأقعُ ساجداً لربِّي ، ثمَّ يفتحُ اللهُ لي مِنْ محامدِهِ وحسنِ الثناءِ عليهِ شيئاً لمْ يفتحْهُ علىٰ أحدٍ قبلي ، ثمَّ يُقالُ : يا محمَّدُ ؛ ارفعْ رأسَكَ ، سلْ تُعطَ ، واشفعْ تُشفَّعْ ، فأرفعُ رأسي فأقولُ :

أمَّتي أمَّتي يا ربِّ ، فيُقالُ : يا محمَّدُ ؛ أدخلْ مِنْ أمَّتِكَ مَنْ لا حسابَ عليهم مِنَ البابِ الأيمنِ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ ، وهمْ شركاءُ الناسِ فيما سوىٰ ذلكَ مِنَ الأبوابِ » ، ثمَّ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ بينَ المصراعينِ مِنْ مصاريعِ الجنَّةِ كما بينَ مكَّةَ وحِمْيَرَ ، أوْ كما بينَ مكةَ وبصرىٰ »(١) .

وفي حديثٍ آخرَ : هـٰذا السياقُ بعينِهِ معَ ذكرِ خطايا إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ وهوَ قولُهُ في الكواكبِ : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، وقولُهُ لآلهتِهِمْ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾(٢) .

فهـٰذهِ شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولآحادِ أمَّتِهِ مِنَ العلماءِ والصالحينَ شفاعةٌ أيضاً حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدخلُ الجنَّةَ بشفاعةِ رجلٍ منْ أمَّتي أكثرُ مِنْ ربيعةَ ومضَرَ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُقالُ للرجلِ : قمْ يا فلانُ فاشفعْ ، فيقومُ الرجلُ فيشفعُ للقبيلةِ ولأهلِ البيتِ ، وللرجلِ والرجلينِ ؛ علىٰ قدرِ عملِهِ »(٤) .

---

(١) رواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) ، وفي غير (أ ، ذ ، ن) : (فنهش منها نهشة) بدل (فنهس منها نهسة) وهي رواية أبي ذرّ الهروي لـ« صحيح البخاري » ، **والمعنىٰ** : قبض عليها وتناولها بمقدم أسنانه ، وقال ثعلب : بالمهملة يكون بأطراف الأسنان ، وبالمعجمة بها وبالأضراس . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٤٨٩) .

(٢) رواه مسلم (١٩٤/ ٣٢٨) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٠٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٠٩) عن الحسن مرسلاً .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٠٥) ، وعند الترمذي (٢٤٤٠) من حديث =

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الجنَّةِ يشرفُ يومَ القيامةِ علىٰ أهلِ النَّارِ ، فيناديهِ رجلٌ مِنْ أهلِ النَّارِ ويقولُ : يا فلانُ ؛ هلْ تعرفُني ؟ فيقولُ : لا واللهِ ؛ ما أعرفُكَ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا الذي مررتَ بي في الدنيا فاستسقيتَني شربةَ ماءٍ فسقيتُكَ ، قالَ : قدْ عرفتُ ، قالَ : فاشفعْ لي بها عندَ ربِّكَ ، فيسألُ اللهَ تعالىٰ ذكرُهُ ويقولُ : أيْ ربِّ ؛ إنِّي أشرفتُ علىٰ أهلِ النَّارِ فناداني رجلٌ مِنْ أهلِها فقالَ : هلْ تعرفُني ؟ فقلتُ : لا ، مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا الذي استسقيتَني في الدنيا فسقيتُكَ ، فاشفعْ لي بها عندَ ربِّكَ ، فشفِّعْني فيه ، فيشفِّعُهُ اللهُ فيهِ ، فيُؤمرُ بهِ فيُخرجُ منَ النَّارِ »(١) .

وعَنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أوَّلُ النَّاسِ خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبُهُمْ إذا وفدوا ، وأنا مبشِّرُهم إذا يئسوا ، لواءُ الحمدِ يومَئذٍ بيدي ، وأنا أكرمُ ولدِ آدمَ علىٰ ربِّي ولا فخرَ »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي أقومُ بينَ يدَي ربِّي عزَّ وجلَّ فأُكسىٰ حُلةً مِنْ حُللِ الجنَّةِ ، ثمَّ أقومُ عنْ يمينِ العرشِ ليسَ أحدٌ مِنَ الخلائقِ يقومُ ذلكَ المقامَ غيري »(٣) .

= أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتىٰ يدخلوا الجنة » .

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٩٠) .

(٢) رواه الترمذي (٣٦١٠) .

(٣) رواه الترمذي (٣٦١١) ، وأول الحديث : « أنا أول من تنشق عنه الأرض. . . » .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : جلسَ ناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينتظرونَهُ ، فخرجَ ، حتىٰ إذا دنا منهم . . سمعَهُمْ يتذاكرونَ ، فسمعَ حديثَهُمْ ، فقالَ بعضُهم : عجباً ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اتخذَ مِنْ خلقِهِ خليلاً ؛ اتخذَ إبراهيمَ خليلاً ، وقالَ آخرُ : ماذا بأعجبَ مِنْ كلامِ موسى ! كلَّمَهُ تكليماً ، وقالَ آخرُ : فعيسىٰ كلمةُ اللهِ وروحُهُ ، وقالَ آخرُ : آدمُ اصطفاهُ اللهُ ، فخرجَ عليهِمْ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسلَّمَ وقالَ : « قدْ سمعتُ كلامَكُمْ وعجبَكُمْ ، إنَّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ وهوَ كذلكَ ، وموسىٰ نجيُّ اللهِ وهوَ كذلكَ ، وعيسىٰ روحُ اللهِ وكلمتُهُ وهوَ كذلكَ ، وآدمُ اصطفاهُ اللهُ وهوَ كذلكَ ، ألا وأنا حبيبُ اللهِ ولا فخرَ ، وأنا حاملُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مشفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ مَنْ يحرِّكُ حلقَ الجنَّةِ فيفتحُ اللهُ لي فأدخلُها ومعي فقراءُ المؤمنينَ ولا فخرَ ، وأنا أكرمُ الأولينَ والآخرينَ ولا فخرَ »(١) .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٦١٦) .

صفة الحوض

اعلمْ : أنَّ الحوضَ مكرمةٌ عظيمةٌ خصَّ اللهُ بها نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدِ اشتملَتِ الأخبارُ علىٰ وصفِهِ ، ونحنُ نرجو أنْ يرزقَنا اللهُ تعالىٰ في الدنيا علمَهُ ، وفي الآخرةِ ذوقَهُ ؛ فإنَّ مِنْ صفاتِهِ أنَّ مَنْ شربَ منهُ لمْ يظمأْ أبداً .

قالَ أنسٌ : أغفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إغفاءَةً ، فرفعَ رأسَهُ متبسماً ، فقالوا لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لمَ ضحكتَ ؟ فقالَ : « آيةٌ أُنزلَتْ عليَّ آنفاً » وقرأَ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ حتىٰ ختمَها ثمَّ قالَ : « هلْ تدرونَ ما الكوثرُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « إنَّهُ نهرٌ وعدَنيهِ ربِّي عزَّ وجلَّ في الجنَّةِ ، عليهِ خيرٌ كثيرٌ ، عليهِ حوضٌ تردُ عليهِ أمَّتي يومَ القيامةِ ، آنيتُهُ عددُ نجومِ السماءِ »(١) .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينما أنا أسيرُ في الجنَّةِ ؛ إذا أنا بنهرٍ حافتاهُ قبابُ اللؤلؤِ المجوَّفِ ، قلتُ : ما هٰذا يا جبريلُ ؟ قالَ : هٰذا الكوثرُ الذي أعطاكَ ربُّكَ ، فضربَ الملكُ بيدِهِ ؛ فإذا طينُهُ مسكٌ أذفرُ »(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٤٠٠) ، وفي (أ ، ب ، ن) : (عدد الكواكب) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٨١) .

وقالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما بينَ لابتي حوضي مثلُ ما بينَ المدينةِ وصنعاءَ ، أو مثلُ ما بينَ المدينةِ وعمَّانَ »[1] .

وروى ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ نهرٌ في الجنَّةِ ، حافتاهُ مِنْ ذهبٍ ، شرابُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللَّبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، وأطيبُ ريحاً مِنَ المسكِ ، يجري علىٰ جنادلِ اللؤلؤِ والمرجانِ »[2] .

وقالَ ثوبانُ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ حوضي ما بينَ عدنَ إلىٰ عمَّانَ البلقاءِ ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، وأكوابُهُ عددُ نجومِ السماءِ ، مَنْ شربَ مِنْهُ شربةً . لمْ يظمأْ بعدَها أبداً ، أولُ النَّاسِ وروداً عليهِ فقراءُ المهاجرينَ » فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : ومَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « همُ الشعثُ رؤوساً ، الدُّنسُ ثياباً ، الذينَ لا ينكحونَ المتنعِّماتِ ، ولا تُفتحُ لهمْ أبوابُ السددِ » ، فقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : واللهِ ؛ لقدْ نكحتُ المتنعِّماتِ فاطمةَ بنتَ عبدِ الملكِ ، وفُتحَتْ لي أبوابُ السددِ ، إلاَّ أنْ يرحمَني اللهُ تعالىٰ ، لا جرمَ لا أدهنُ رأسي حتىٰ يشعثَ ، ولا أغسلُ ثوبي الذي علىٰ جسدي حتىٰ يتَّسخَ[3] .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٠٣) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١١٢) ، وعند الترمذي (٣٣٦١) نحوه .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٤) ، وابن ماجه (٤٣٠٣) .

وعنْ أبي ذرٍّ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما آنيةُ الحوضِ ؟ قالَ : « والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ لآنيتُهُ أكثرُ مِنْ عددِ نجومِ السماءِ وكواكبِها في الليلةِ المظلمةِ المصحيةِ ، مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يظمأْ آخرَ ما عليهِ ، يشخبُ فيهِ ميزابانِ مِنَ الجنَّةِ ، عرضُهُ مثلُ طولِهِ ما بينَ عُمانَ وأيلةَ ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ »(١) .

وعنْ سمرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضاً ، وإنَّهُمْ يتباهونَ أيُّهم أكثرُ واردةً ، وإنِّي لأرجو أنْ أكونَ أكثرَهُمْ واردةً »(٢) .

فهٰذا رجاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فليرجُ كلُّ عبدٍ أنْ يكونَ في جملةِ الواردينَ ، وليحذرْ أنْ يكونَ متمنياً ومغترّاً وهوَ يظنُّ أنَّهُ راجٍ ؛ فإنَّ الراجيَ للحصادِ مَنْ بثَّ البذرَ ، ونقَّى الأرضَ وسقاها الماءَ ، ثمَّ جلسَ يرجو فضلَ اللهِ تعالىٰ بالإنباتِ ودفعِ الصواعقِ إلىٰ أوانِ الحصادِ ، فأمَّا مَنْ تركَ الحراثةَ والزراعةَ وتنقيةَ الأرضِ وسقيَها ، وأخذَ يرجو مِنْ فضلِ اللهِ أنْ ينبتَ لهُ الحبَّ والفاكهةَ . . فهٰذا مغترٌّ ومتمنٍّ ، وليسَ مِنَ الراجينَ في شيءٍ ، وهٰكذا رجاءُ أكثرِ الخلقِ ، وهوَ غرورُ الحمقىٰ ، نعوذُ باللهِ مِنَ الغرورِ والغفلةِ ؛ فإنَّ الاغترارَ باللهِ أعظمُ مِنَ الاغترارِ بالدنيا ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٣٠٠) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٤٣) .

القول في صفة جهنّم وأهوالها وأنكالها

يا أيُّها الغافلُ عنْ نفسِهِ ، المغرورُ بما هوَ فيهِ منْ شواغلِ هـٰذهِ الدنيا المشرفةِ على الانقضاءِ والزوالِ ؛ دعِ التفكُّرَ فيما أنتَ مرتحلٌ عنهُ ، واصرفِ الفكرَ إلىٰ موردِكَ ؛ فإنَّكَ أُخبرتَ بأنَّ النَّارَ موردٌ للجميعِ إذْ قيلَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ فأنتَ مِنَ الورودِ علىٰ يقينٍ ، ومِنَ النجاةِ علىٰ شكٍّ .

فاستشعرْ في قلبِكَ هولَ ذلكَ الموردِ ، فعساكَ تستعدُّ للنجاةِ منهُ بالتشمُّرِ لأعمالِها ، وتأمَّلْ في حالِ الخلائقِ وقدْ قاسَوا مِنْ دواهي القيامةِ ما قاسَوا ، فبينَما همْ في كروبِها وأهوالِها واقفينَ ينتظرونَ حقيقةَ أنبائِها وتشفيعَ شفعائِها ؛ إذْ أحاطَتْ بالمجرمينَ ظلماتٌ ذاتُ شعبٍ ، وأظلَّتْ عليهِمْ نارٌ ذاتُ لهبٍ ، وسمعوا لها زفيراً وجرجرةً تفصحُ عنْ شدَّةِ الغيظِ والغضبِ .

فعندَ ذلكَ أيقنَ المجرمونَ بالعطبِ ، وجثَتِ الأممُ على الركبِ ، حتىٰ أشفقَ البرآءُ مِنْ سوءِ المنقلبِ ، وخرجَ المنادي مِنَ الزَّبانيةِ قائلاً : أينَ فلانُ بنُ فلانٍ المسوِّفُ نفسَهُ في الدنيا بطولِ الأملِ ، المضيِّعُ عمرَهُ في سوءِ العملِ ؟ فيبادرونَهُ بمقامعَ مِنْ حديدٍ ، ويستقبلونَهُ بعظائمِ التهديدِ ، ويسوقونَهُ إلى العذابِ الشديدِ ، وينكسونَهُ في قعرِ الجحيمِ ، ويقولونَ لهُ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ .

فأُسكنوا داراً ضيقةَ الأرجاءِ ، مظلمةَ المسالكِ مبهمةَ المهالكِ ، يخلدُ فيها الأسيرُ ويؤبدُ فيها السَّعيرُ ، شرابُهُم فيها الحميمُ ومستقرُّهُمُ الجحيمُ ، الزبانيةُ تقمعُهُمْ والهاويةُ تجمعُهُم ، أمانيهِمْ فيها الهلاكُ وما لهمْ مِنْها فكاكٌ ، قدْ شُدَّتْ أقدامُهُمْ إلى النَّواصي ، واسودَّتْ وجوهُهُمْ مِنْ ظلمةِ المعاصي ، ينادونَ مِنْ أكنافِها ويصيحونَ في نواحيها وأطرافِها : يا مالكُ ؛ قدْ حقَّ علينا الوعيدُ ، يا مالكُ ؛ قدْ أثقلَنا الحديدُ ، يا مالكُ ؛ قدْ نضجَتْ منَّا الجلودُ ، يا مالكُ ؛ أخرجْنا منها فإنَّا لا نعودُ .

فتقولُ الزَّبانيةُ : هيهاتَ ! لاتَ حينَ أمانٍ ، ولا خروجَ لكُمْ مِنْ دارِ الهوانِ ، فاخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ ، ولوْ أُخرجتُم منها.. لكنتُم إلىٰ ما نُهيتُمْ عنهُ تعودونَ ، فعندَ ذلكَ يقنطُونَ ، وعلىٰ ما فرَّطوا في جنبِ اللهِ يتأسفونَ ، ولا ينجيهمُ النَّدمُ ولا يغنيهمُ الأسفُ ، بلْ يُكبُّونَ علىٰ وجوهِهم مغلولينَ ، النَّارُ مِنْ فوقِهِمْ ، والنَّارُ مِنْ تحتِهم ، والنَّارُ عَنْ أيمانِهِمْ ، والنَّارُ عَنْ شمائلِهِمْ ، فهمْ غرقىٰ في النَّارِ ، طعامُهُمْ نارٌ ، وشرابُهُمْ نارٌ ، ولباسُهُمْ نارٌ ، ومهادُهُمْ نارٌ .

فهمْ بينَ مقطعاتِ النيرانِ وسرابيلِ القطرانِ ، وضربِ المقامعِ وثقلِ السلاسلِ ، فهمْ يتجلجلونَ في مضايقِها ، ويتحطمونَ في دركاتِها ، ويضطربونَ بينَ غواشيها ، تغلي بهِمُ النَّارُ كغلي القدورِ ، ويهتفونَ بالويلِ والعويلِ ، ومهما دعوا بالثبورِ . صُبَّ مِنْ فوقِ رؤوسِهِمُ الحميمُ ، يُصهرُ بهِ ما في بطونِهِمْ والجلودُ ، ولهمْ مقامعُ منْ حديدٍ تُهشمُ بها جباهُهُمْ ، فيتفجرُ

الصديدُ مِنْ أفواهِهِمْ ، وتنقطعُ مِنَ العطشِ أكبادُهُمْ ، وتسيلُ على الخدودِ أحداقُهُمْ ، ويسقطُ مِنَ الوجناتِ لحومُهَا ، ويتمعطُ مِنَ الأطرافِ شعورُها[1] ، بلْ جلودُها ، وكلَّما نضجَتْ جلودُهم.. بدَّلنَاهُم جلوداً غيرَها ، قدْ عريَتْ مِنَ اللحمِ عظامُهُمْ ، فبقيَتِ الأرواحُ منوطةً بالعروقِ وعلائقِ العصبِ ، وهيَ تنشُّ في لفحِ تلكَ النيرانِ[2] ، وهمْ معَ ذلكَ يتمنَّونَ الموتَ فلا يموتونَ .

فكيفَ بكَ لوْ نظرتَ إليهم وقد اسودَّتْ وجوهُهُم أشدَّ سواداً مِنَ الحممِ ، وأُعميَتْ أبصارُهُمْ ، وأُبكمَتْ ألسنتُهُمْ ، وقُصمَتْ ظهورُهُمْ ، وكُسرَتْ عظامُهُمْ ، وجُدِعَتْ آذانُهُمْ ، ومُزِّقَتْ جلودُهُمْ ، وغُلَّتْ أيديهمْ إلىٰ أعناقِهِمْ ، وجُمعَ بينَ نواصيهِمْ وأقدامِهِمْ ، وهمْ يمشونَ على النَّارِ بوجوهِهِمْ ، ويطؤونَ حسكَ الحديدِ بأحداقِهِمْ ، فلهيبُ النَّارِ سارَ في بواطنِ أجزائِهِمْ ، وحيَّاتُ الهاويةِ وعقاربُها متشبثةٌ بظواهرِ أعضائِهِمْ ؟!

هٰذهِ جملةُ أحوالِهِمْ ، فانظرِ الآنَ في تفصيلِ أهوالِهِمْ .

وتفكَّرْ أوَّلاً في أوديةِ جهنَّمَ وشعابِها .

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في جهنَّمَ سبعينَ ألفَ وادٍ ، في كلِّ وادٍ سبعونَ ألفَ شعبٍ ، في كلِّ شعبٍ سبعونَ ألفَ ثعبانٍ وسبعونَ

---

(١) يتمعط : يتساقط .

(٢) تنش : تيبس .

ألفَ عقربٍ ، لا ينتهي الكافرُ والمنافقُ حتىٰ يواقعَ ذلكَ كلَّهُ »[١] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعوَّذوا باللهِ مِنْ جبِّ الحزنِ أو وادي الحزنِ » قيلَ : يا رسولَ اللهِ ، وما وادي الحزنِ أو جبُّ الحزنِ ؟ قالَ : « وادٍ في جهنَّمَ تتعوذُ منهُ جهنَّمُ كلَّ يومٍ سبعينَ مرةً ، أعدَّهُ اللهُ تعالىٰ للقراءِ المرائينَ »[٢] .

فهٰذهِ سعةُ جهنَّمَ وانشعابُ أوديتِها ، وهيَ بحسبِ عددِ أوديةِ الدنيا وشهواتِها ، وعددُ أبوابِها بعددِ الأعضاءِ السبعةِ التي بها يعصي العبدُ ، بعضُها فوقَ بعضٍ ، الأعلىٰ جهنَّمُ ، ثمَّ سقرُ ، ثمَّ لظىٰ ، ثمَّ الحطمةُ ، ثمَّ السعيرُ ، ثمَّ الجحيمُ ، ثمَّ الهاويةُ .

فانظرِ الآنَ في عمقِ الهاويةِ ؛ فإنَّهُ لا حدَّ لعمقِها كما لا حدَّ لعمقِ شهواتِ الدنيا ، فكما لا ينتهي أربٌ مِنَ الدنيا إلاَّ إلىٰ أربٍ أعظمَ منهُ . . فلا تنتهي هاويةٌ مِنْ جهنَّمَ إلاَّ إلىٰ هاويةٍ أعمقَ منها .

قالَ أبو هريرةَ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إذ سمعنا وجبةً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتدرونَ ما هٰذا ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هٰذا حجرٌ أُرسلَ في جهنَّمَ منذُ سبعينَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٩٧) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٥٠٩) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عاماً ، الآنَ حينَ انتهىٰ إلىٰ قعرِها »[1] .

ثمَّ انظرْ إلىٰ تفاوتِ الدركاتِ ؛ فإنَّ الآخرةَ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ، فكما أنَّ إكبابَ النَّاسِ على الدنيا متفاوتٌ ؛ فمِنْ منهمكٍ مستكثرٍ كالغريقِ فيها ، ومِنْ خائضٍ فيها إلىٰ حدٍّ محدودٍ . . فكذلكَ تناولُ النَّارِ لهمْ متفاوتٌ ؛ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، فلا تترادفُ أنواعُ العذابِ علىٰ كلِّ مَنْ في النَّارِ كيفَ كانَ ، بلْ لكلِّ واحدٍ حدٌّ معلومٌ علىٰ قدرِ عصيانِهِ وذنبِهِ ، إلاَّ أنَّ أقلَّهم عذاباً لوْ عُرِضَتْ عليهِ الدنيا بحذافيرِها . . لافتدىٰ بها مِنْ شدَّةِ ما هوَ فيهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أدنىٰ أهلِ النارِ عذاباً ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نارٍ ، يغلي دماغُهُ مِنْ حرارةِ نعليهِ »[2] .

فانظرِ الآنَ إلىٰ مَنْ خُفِّفَ عليهِ ، واعتبرْ بهِ مَنْ شُدِّدَ عليهِ ، ومهما شككتَ في شدَّةِ عذابِ النَّارِ . . فقرِّبْ إصبعَكَ مِنَ النَّارِ ، وقسْ ذلكَ بهِ ، ثمَّ اعلمْ أنَّكَ أخطأتَ في القياسِ ؛ فإنَّ نارَ الدنيا لا تناسبُ نارَ جهنَّمَ ، ولكنْ لمَّا كانَ أشدَّ عذابٍ في الدنيا عذابُ هٰذهِ النَّارِ . . عُرِفَ عذابُ جهنَّمَ بها ، وهيهاتَ !

لوْ وجدَ أهلُ الجحيمِ مثلَ هٰذهِ النَّارِ . . لخاضوها طائعينَ هرباً ممَّا هُمْ فيه ، وعنْ هٰذا عُبِّرَ في بعضِ الأخبارِ حيثُ قيلَ : إنَّ نارَ الدنيا غُسِلَتْ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٤) . والوجبة : السقطة .
(٢) رواه مسلم (٢١١) .

بسبعينَ ماءً مِنْ مياهِ الرحمةِ حتىٰ أطاقَها أهلُ الدنيا[١] .

بلْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصفةِ نارِ جهنَّمَ فقالَ : « أُوقدَتْ تلكَ النَّارُ ألفَ عامٍ حتى احمرَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى ابيضَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى اسودَّتْ ، فهيَ سوداءُ مظلمةٌ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اشتكتِ النارُ إلىٰ ربِّها فقالَتْ : يا ربِّ ؛ أكلَ بعضي بعضاً ، فأذنَ لها بنفسَينِ ، نفسٍ في الشِّتاءِ ، ونفسٍ في الصيفِ ، فأشدُّ ما تجدونَهُ في الصَّيفِ مِنْ حرِّها ، وأشدُّ ما تجدونَهُ في الشتاءِ مِنْ زمهريرِها »[٣] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (يُؤتىٰ بأنعمِ النَّاسِ في الدنيا مِنَ الكفَّارِ فيُقالُ : اغمسوهُ في النَّارِ غمسةً ، ثمَّ يُقالُ لهُ : هلْ رأيتَ نعيماً قطُّ ؟ فيقولُ : لا ، ويُؤتىٰ بأشدِّ النَّاسِ ضراً في الدنيا فيُقالُ : اغمسوهُ في الجنَّةِ غمسةً ، ثمَّ يُقالُ لهُ : هلْ رأيتَ ضراً قطُّ ؟ فيقولُ : لا)[٤] .

---

(١) روى ابن ماجه (٤٣١٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ناركم هـٰذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين . . ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله عز وجل ألا يعيدها فيها » ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٥١٣) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٩١) .

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٠) ، ومسلم (٦١٧) .

(٤) رواه بهـٰذا اللفظ موقوفاً ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) ، وأصله عند مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

وقالَ أبو هريرةَ : (لوْ كانَ في المسجدِ مئةُ ألفٍ أوْ يزيدونَ ، ثمَّ تنفسَ رجلٌ مِنْ أهلِ النَّارِ . . لماتوا)(1) .

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ في قولِهِ : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ : إنَّها لفحتْهمْ لفحةً واحدةً ، فما أبقتْ لحماً علىٰ عظمٍ إلاَّ ألقتْهُ عندَ أعقابِهِمْ(2) .

ثمَّ انظرْ بعدَ هـٰذا في نتنِ الصديدِ الذي يسيلُ مِنْ أبدانِهِمْ حتىٰ يغرقوا فيهِ ، وهوَ الغساقُ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ دلواً مِنْ غساقِ جهنَّمَ أُلقيَ في الدنيا . . لأنتنَ أهلَ الأرضِ »(3) فهـٰذا شرابُهُمْ إذا استغاثوا مِنَ العطشِ ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ طعامِهِمْ وهوَ الزقومُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ

---

(1) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٧٠) ، والبزار في « المسند » (٩٦٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .
(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٦٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٥٨) .
(3) رواه الترمذي (٢٥٨٤) .

ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ قطرةً مِنَ الزقومِ قُطِرَتْ في بحارِ الدنيا . . لأفسدَتْ علىٰ أهلِ الدنيا معايشَهُمْ ، فكيفَ مَنْ يكونُ طعامُهُ ذلكَ ؟! »(١) .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارغبوا فيما رغَّبَكُمُ اللهُ ، واحذروا وخافوا ما خوَّفَكُمُ اللهُ بهِ مِنْ عذابِهِ وعقابِهِ ومِنْ جهنَّمَ ؛ فإنَّها لوْ كانَتْ قطرةٌ مِنَ الجنَّةِ معَكُمْ في دنياكُمُ التي أنتُمْ فيها . . طيبَتْها لكُمْ ، ولوْ كانَتْ قطرةٌ مِنَ النَّارِ معَكُمْ في دنياكُمُ التي أنتُمْ فيها . . خبثَتْها عليكُمْ »(٢) .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُلقىٰ علىٰ أهلِ النارِ الجوعُ حتىٰ يعدلَ ما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ ، فيستغيثونَ بالطعامِ ، فيُغاثونَ بطعامٍ مِنْ ضريعٍ لا يسمنُ ولا يغني مِنْ جوعٍ ، ويستغيثونَ بالطعامِ ، فيُغاثونَ بطعامٍ ذي غُصَّةٍ ، فيذكرونَ أنَّهمْ كانوا يجيزونَ الغصصَ في الدنيا بالشرابِ ، فيستغيثونَ بالشرابِ ، فيُرفعُ إليهمُ الحميمُ بكلاليبِ الحديدِ ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٥) ، وابن ماجه (٤٣٢٥) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٥٣٢) .

فإذا دنَتْ مِنْ وجوهِهِمْ . . شوَتْ وجوهَهُمْ ، فإذا دخلَتْ بطونَهُمْ . . قطَّعَتْ ما في بطونِهِمْ ، فيقولونَ : ادعوا خزنةَ جهنَّمَ ، قالَ : فيدعونَ خزنةَ جهنَّمَ أنِ ادعوا ربَّكُمْ يخففْ عنَّا يوماً مِنَ العذابِ ، فيقولونَ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ ، قالَ : فيقولونَ : ادعوا مالكاً ، فيدعونَ فيقولونَ : ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، قالَ : فيجيبُهُمْ : ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ ـ قالَ الأعمشُ : أُنبئتُ : أنَّ بينَ دعائِهِمْ وبينَ إجابةِ مالكٍ إيَّاهُمْ ألفَ عامٍ ـ قالَ : فيقولونَ : ادعوا ربَّكُمْ فلا أحدَ خيرٌ مِنْ ربِّكُمْ ، فيقولونَ : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ ، قالَ : فيجيبُهُمْ : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، قالَ : فعندَ ذلكَ يئسوا مِنْ كلِّ خيرٍ ، وعندَ ذلكَ أخذوا في الزفيرِ والحسرةِ والويلِ »(١) .

وقالَ أبو أُمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ قالَ : « يُقرَّبُ إليهِ فيكرهُهُ ، فإذا أُدنيَ منهُ . . شوىٰ وجهَهُ ووقعَتْ فروةُ رأسِهِ ، فإذا شربَهُ . . قطَّعَ أمعاءَهُ حتىٰ يخرجَ منْ دبرِهِ » يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾(٢) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٣) .

فهـٰذا طعامُهُمْ وشرابُهُمْ عندَ جوعِهِمْ وعطشِهِمْ .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حيّاتِ جهنَّمَ وعقاربِها ، وإلىٰ شدَّةِ سمومِها وعظمِ أشخاصِها ، وفظاعةِ منظرِها ، وقدْ سُلِّطَتْ علىٰ أهلِها وأُغرِيَتْ بهِمْ ، فهيَ لا تفترُ عنِ النَّهشِ واللدغِ ساعةً واحدةً .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فلمْ يؤدِّ زكاتَهُ . . مُثِّلَ لَهُ يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ لهُ زبيبتانِ يُطوِّقُهُ يومَ القيامةِ ، ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمتيهِ ـ يعني : شدقيهِ ـ فيقولُ : أنا مالُكَ ، أنا كنزُكَ » ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في النَّارِ لحيَّاتٍ مثلَ أعناقِ البختِ ، يلسعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتَها أربعينَ خريفاً[2] ، وإنَّ فيها لعقاربَ كالبغالِ المؤكفةِ ، يلسعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتَها أربعينَ خريفاً »[3] .

وهـٰذهِ الحيَّاتُ والعقاربُ إنَّما تُسلَّطُ علىٰ مَنْ سُلِّطَ عليهِ في الدنيا البخلُ وسوءُ الخلقِ وإيذاءُ الناسِ ، ومَنْ وُقِي ذلكَ . . وُقِيَ هـٰذهِ الحيَّاتِ فلمْ تُمثَّلْ لهُ .

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٩٨٨/ ٢٧) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) **حموتها** : حرارتها .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٩١) ، وابن حبان (٧٤٧١) .

ثمَّ تفكَّرْ بعدَ هـٰذا كلِّهِ في تعظيمِ أجسامِ أهلِ النَّارِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يزيدُ في أجسامِهِمْ طولاً وعرضاً ؛ حتىٰ يتزايدَ عذابُهُمْ بسببِهِ ، فيحسونَ بلفحِ النَّارِ ولدغِ العقاربِ والحيَّاتِ مِنْ جميعِ أجزائِها دفعةً واحدةً على التوالي .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ضرسُ الكافرِ في النَّارِ مثلُ أحدٍ ، وغلظُ جلدِهِ مسيرةُ ثلاثٍ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شفتُهُ السفلىٰ ساقطةٌ علىٰ صدرِهِ ، والعليا قالصةٌ قدْ غطَّتْ وجهَهُ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الكافرَ ليجرُّ لسانَهُ في سجينٍ يومَ القيامةِ يتوطَّؤُهُ الناسُ »[3] .

ومعَ عظمِ الأجسامِ كذلكَ تحرقُهُمُ النَّارُ مرَّاتٍ فتُجدَّدُ جلودُهُمْ ولحومُهُمْ .

وقالَ الحسنُ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥١) .

(٢) رواه الترمذي (٣١٧٦) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تشويه النار فتقلص شفته العالية حتىٰ تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلىٰ حتىٰ تضرب سرته » .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٨٠) .

قالَ : تأكلُهُمُ النَّارُ كلَّ يومٍ سبعينَ ألفَ مرةٍ ، كلَّما أكلَتْهُم . . قيلَ لهُمْ : عودوا ، فيعودونَ كما كانوا[1] .

ثمَّ تفكَّرِ الآنَ في بكاءِ أهلِ النَّارِ وشهيقِهِمْ ، ودعائِهِمْ بالويلِ والثبورِ ؛ فإنَّ ذلكَ يُسلَّطُ عليهِمْ في أوَّلِ إلقائِهِمْ في النَّارِ[2] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤْتىٰ بجهنَّمَ يومَئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ ، معَ كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ »[3] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُرسلُ علىٰ أهلِ النَّارِ البكاءُ ، فيبكونَ حتىٰ تنقطعَ الدموعُ ، ثمَّ يبكونَ الدمَ حتىٰ يُرىٰ في وجوهِهِمْ كهيئةِ الأخدودِ لوْ أُرسلَتْ فيها السفنُ . . لجرَتْ »[4] .

وما دامَ يُؤذنُ لهمْ في البكاءِ والشهيقِ والزفيرِ والدعوةِ بالويلِ والثبورِ . . فلهمْ فيهِ مستروحٌ ، ولكنَّهم يُمنعونَ أيضاً مِنْ ذلكَ .

قالَ محمدُ بنُ كعبٍ : لأهلِ النَّارِ خمسُ دعواتٍ يجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ في أربعةٍ ، فإذا كانَتِ الخامسةُ . . لم يتكلَّموا بعدَها أبداً ، فيقولونَ : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فيقولُ اللهُ تعالىٰ مجيباً لهُم : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (١١٦) ، وأحمد في « الزهد » (١٥٢٦) .
(٢) في النسخ : (في أول لقائهم النار) ، والمثبت من (ق) .
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٢) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤٣٢٤) .

تُؤۡمِنُواْ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾ ، ثمَّ يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ ، فيقــولــونَ : ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ ، ثمَّ يقولونَ : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، فلا يتكلَّمونَ بعدَها أبداً ، وذلكَ غايةُ شدةِ العذابِ(١) .

قالَ مالكُ بنُ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (قالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ قالَ : صبروا مئةَ سنةٍ ، ثمَّ جزعوا مئةَ سنةٍ أخرىٰ ، ثمَّ قالوا : سواءٌ علينا أجزعنا أمْ صبرنا ما لنا مِنْ محيصٍ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّهُ كبشٌ أملحُ ، فيُذبحُ بينَ الجنةِ والنارِ ، ويقالُ : يا أهلَ الجنَّةِ ؛ خلودٌ بلا موتٍ ، ويا أهلَ النَّارِ ؛ خلودٌ بلا موتٍ »(٣) .

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٥٨٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٥١) ، وفيهما في الدعوة الثانية ليقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ بدل ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٢٣) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) بنحوه .

وعنِ الحسنِ قالَ : يخرجُ مِنَ النَّارِ رجلٌ بعدَ ألفِ عامٍ ، وليتَني كنتُ ذلكَ الرجلَ !(١) .

ورُئِيَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ جالساً في زاويةٍ وهوَ يبكي ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يطرحَني في النَّارِ ولا يبالي(٢) .

فهٰذهِ أصنافُ عذابِ جهنَّمَ على الجملةِ ، وتفصيلُ غمومِها وأحزانِها ومحنِها وحسراتِها لا نهايةَ لهُ ، فأعظمُ الأمورِ عليهِمْ معَ ما يلاقونَهُ مِنْ شدَّةِ العذابِ حسرةُ فوتِ نعيمِ الجنَّةِ ، وفوتِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وفوتِ رضاهُ معَ علمِهِمْ بأنَّهمْ باعوا كلَّ ذلكَ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ ؛ إذْ لمْ يبيعوا ذلكَ إلاَّ بشهواتٍ حقيرةٍ في الدنيا أياماً قصيرةً ، وكانَتْ غيرَ صافيةٍ ، بلْ كانَتْ مكدَّرةً منغَّصةً .

فيقولونَ في أنفسِهِمْ : وا حسرتاهُ ! كيفَ أهلكْنا أنفسَنا بعصيانِ ربِّنا ؟! وكيفَ لمْ نكلِّفْ أنفسَنا الصبرَ أياماً قلائلَ ؟! ولوْ صبرنا . . لكانَتْ قدِ انقضَتْ عنَّا أيامُهُ ، وبقينا الآنَ في جوارِ الرحمٰنِ متنعمينَ بالرِّضا والرِّضوانِ ، فيا لحسرةِ هؤلاءِ وقدْ فاتَهُمْ ما فاتَهُمْ ، وبُلوا بما بُلوا بهِ ، ولمْ يبقَ معَهُمْ شيءٌ مِنْ نعيمِ الدنيا ولذاتِها !

ثمَّ إنَّهمْ لوْ لمْ يشاهدوا نعيمَ الجنةِ . . لمْ تعظمْ حسرتُهُمْ ، لكنَّها تُعرضُ عليهِمْ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤمرُ يومَ القيامةِ بناسٍ مِنَ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٠) ، وساقه من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص٣٥) .

(٢) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ١٢٧) .

النارِ إلى الجنَّةِ ، حتىٰ إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتَها ونظروا إلىٰ قصورِها وإلىٰ ما أعدَّ اللهُ لأهلِها فيها . . نُودوا أنِ اصرفوهمْ عنها لا نصيبَ لهمْ فيها ، فيرجعونَ بحسرةٍ ما رجعَ الأوَّلونَ والآخرونَ بمثلِها ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ لوْ أدخلتَنا النَّارَ قبلَ أنْ ترينَا ما أريتنا مِنْ ثوابِكَ وما أعددتَ فيها لأوليائِكَ . . كانَ أهونَ علينا ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ذاكَ أردتُ بكُمْ ، كنتُم إذا خلوتُم . . بارزتُموني بالعظائمِ ، وإذا لقيتُمُ النَّاسَ . . لقيتُموهُمْ مخبتينَ ، تراؤونَ النَّاسَ بخلافِ ما تعطوني مِنْ قلوبِكُمْ ، هبتُمُ النَّاسَ ولمْ تهابوني ، وأجللتُمُ النَّاسَ ولمْ تجلُّوني ، وتركتُمْ للنَّاسِ ولمْ تتركوا لي ، فاليومَ أذيقُكُمُ العذابَ الأليمَ مَعَ ما حرمتُكُمْ مِنَ الثوابِ المقيمِ »(١) .

قالَ أحمدُ بنُ حربٍ : إنَّ أحدَنا يؤثرُ الظلَّ على الشمسِ ، ثمَّ لا يؤثرُ الجنَّةَ على النَّارِ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : كمْ مِنْ جسدٍ صحيحٍ ووجهٍ صبيحٍ ولسانٍ فصيحٍ ؛ غداً بينَ أطباقِ النَّارِ يصيحُ !

وقالَ داوودُ : إلٰهي ؛ لا صبرَ لي علىٰ حرِّ شمسِكَ ، فكيفَ صبري علىٰ حرِّ نارِكَ ؟! ولا صبرَ لي علىٰ صوتِ رحمتِكَ ، فكيفَ صبري علىٰ صوتِ عذابِكَ ؟!(٢) .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٨٥ ـ ٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢٥) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٣٦٨) ، وابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٢٣) .

فانظرْ يا مسكينُ في هـٰذهِ الأهوالِ ، واعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ النَّارَ بأهوالِها وخلقَ لها أهلاً لا يزيدونَ ولا ينقصونَ ، وأنَّ هـٰذا أمرٌ قدْ قُضيَ وفُرِغَ منهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولعمري الإشارةُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ولكنْ ما قُضيَ الأمرُ يومَ القيامةِ ، بلْ في أزلِ الأزلِ ، ولكنْ أُظهرَ يومَ القيامةِ ما سبقَ بهِ القضاءُ .

فالعجبُ منكَ حيثُ تضحكُ وتلهو ، وتشتغلُ بمحقراتِ الدنيا ولستَ تدري أنَّ القضاءَ بماذا سبقَ في حقِّكَ .

فإنْ قلتَ : فليتَ شعري ماذا موردي ؟ وإلىٰ ماذا مآلي ومرجعي ؟ وما الذي سبقَ بهِ القضاءُ في حقِّي ؟

فلكَ علامةٌ تستأنسُ بها ، وتصدِّقُ رجاءَكَ بسببِها ، وهوَ أنْ تنظرَ إلىٰ أحوالِكَ وأعمالِكَ ؛ فإنَّ كلاًّ ميسرٌ لما خُلِقَ لهُ ، فإنْ كانَ قدْ يُسِّرَ لكَ سبيلُ الخيرِ . فأبشرْ فإنَّكَ مبعدٌ عنِ النَّارِ ، وإنْ كنتَ لا تقصدُ خيراً إلاَّ وتحيطُ بكَ العوائقُ فتدفعُهُ ، ولا تقصدُ شرّاً إلاَّ وتتيسَّرُ لكَ أسبابُهُ . . فاعلمْ أنَّكَ مقضيٌّ عليكَ ؛ فإنَّ دلالةَ هـٰذا على العاقبةِ كدلالةِ المطرِ على النباتِ ، ودلالةِ الدخانِ على النَّارِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ فاعرضْ نفسَكَ على الآيتينِ ، وقدْ عرفتَ مستقرَّكَ مِنَ الدارينِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

القول في صفة الجنّة وأصناف نعيمها

اعلمْ : أنَّ تلكَ الدارَ التي عرفتَ غمومَها وهمومَها تقابلُها دارٌ أُخرىٰ ، فتأمَّلْ نعيمَها وسرورَها ؛ فإنَّ مَنْ بَعُدَ مِنْ إحداهُما استقرَّ لا محالةَ في الأخرىٰ ، فاستثرِ الخوفَ مِنْ قلبِكَ بطولِ الفكرِ في أهوالِ الجحيمِ ، واستثرِ الرجاءَ بطولِ الفكرِ في النعيمِ المقيمِ الموعودِ لأهلِ الجنانِ ، وسُقْ نفسَكَ بسوطِ الخوفِ ، وقدْها بزمامِ الرجاءِ إلى الصِّراطِ المستقيمِ ، فبذلكَ تنالُ الملكَ العظيمَ ، وتسلمُ مِنَ العذابِ الأليمِ .

فتفكَّرْ في أهلِ الجنَّةِ وفي وجوهِهِم نضرةُ النعيمِ ، يُسقونَ مِنْ رحيقٍ مختومٍ ، جالسينَ علىٰ منابرَ مِنَ الياقوتِ الأحمرِ في خيامٍ مِنَ اللؤلؤِ الرطبِ الأبيضِ ، فيها بسطٌ مِنَ العبقريِّ الأخضرِ ، متَّكئينَ علىٰ أرائكَ منصوبةٍ علىٰ أطرافِ أنهارٍ مطَّردةٍ بالخمرِ والعسلِ ، محفوفةٍ بالغلمانِ والولدانِ ، مزيَّنةٍ بالحورِ العينِ مِنَ الخيراتِ الحسانِ ، كأنَّهنَّ الياقوتُ والمرجانُ ، لم يطمثْهنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ، يمشينَ في درجاتِ الجنانِ ، إذا اختالَتْ إحداهُنَّ في مشيِها . حملَ أعطافَها سبعونَ ألفاً مِنَ الولدانِ ، عليها مِنْ طرائفِ الحريرِ الأبيضِ ما تتحيَّرُ فيهِ الأبصارُ ، مكلَّلاتٌ بالتيجانِ المرصعةِ باللؤلؤِ والمرجانِ ، شكلاتٌ غنجاتٌ عطراتٌ ، آمناتٌ مِنَ الهرمِ والبؤسِ ، مقصوراتٌ في الخيامِ ، في قصورٍ مِنَ الياقوتِ بُنيَتْ وسطَ روضاتِ الجنانِ ، قاصراتُ الطرفِ عينٌ .

ثمَّ يُطافُ عليهِمْ وعليهِنَّ بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ مِنْ معينٍ ، بيضاءَ لذَّةٍ للشاربينَ ، ويطوفُ عليهِم خدامٌ وولدانٌ كأمثالِ اللؤلؤِ المكنونِ جزاءً بما كانوا يعملونَ ، في مقامٍ أمينٍ ، في جنَّاتٍ وعيونٍ ، في جنَّاتٍ ونهَرٍ ، في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ ، ينظرونَ فيها إلىٰ وجهِ الملكِ الكريمِ ، وقدْ أشرقَتْ في وجوهِهِمْ نضرةُ النَّعيمِ ، لا يرهقُهم قترٌ ولا ذلَّةٌ ، بلْ عبادٌ مكرمونَ ، وبأنواعِ التُّحفِ مِنْ ربِّهِمْ يتعاهدونَ ، فهُمْ فيما اشتهتْ أنفسُهُمْ خالدونَ ، لا يخافونَ فيها ولا يحزنونَ ، وهمْ مِنْ ريبِ المنونِ آمنونَ ، فهُمْ فيها يتنعَّمونَ ، ويأكلونَ مِنْ أطعمتِها ، ويشربونَ مِنْ أنهارِها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهارٍ أرضُها فضةٌ ، وحصباؤُها مرجانٌ ، وعلىٰ أرضٍ ترابِها مسكٌ أذفرُ ، ونباتُها زعفرانٌ ، ويُمطرونَ مِنْ سحابٍ فيها مِنْ ماءِ النسرينِ علىٰ كثبانِ الكافورِ .

ويُؤتونَ بأكوابٍ وأيِّ أكوابٍ ! أكوابٍ مِنْ فضَّةٍ مرصَّعةٍ بالدرِّ والياقوتِ والمرجانِ ، كوبٌ فيهِ مِنَ الرحيقِ المختومِ ، ممزوجٌ بهِ السلسبيلُ العذبُ ، كوبٌ يشرقُ نورُهُ مِنْ صفاءِ جوهرِهِ يبدو الشرابُ مِنْ ورائِهِ برقَّتِهِ وحمرتِهِ ، لمْ يصنعْهُ آدميٌّ فيقصِّرَ في تسويةِ صنعتِهِ وتحسينِ صياغتِهِ ، في كفِّ خادمٍ يحكي ضياءُ وجهِهِ الشمسَ في إشراقِها ، ولكنْ مِنْ أينَ للشمسِ حلاوةٌ مثلُ حلاوةِ صورتِهِ ، وحسنِ أصداغِهِ وملاحةِ أحداقِهِ !

فيا عجباً لمَنْ يؤمنُ بدارٍ هـٰذهِ صفتُها ، ويوقنُ بأنَّهُ لا يموتُ أهلُها ، ولا تحلُّ الفجائعُ بمَنْ نزلَ بفنائِها ، ولا تنظرُ الأحداثُ بعينِ التغييرِ إلىٰ

أهلِها ، كيفَ يأنسُ بدارٍ قدْ أذنَ اللهُ تعالىٰ في خرابِها ، ويتهنأُ بعيشٍ دونَها ؟!

واللهِ ؛ لوْ لمْ يكنْ فيها إلاَّ سلامةُ الأبدانِ معَ الأمنِ مِنَ الموتِ والجوعِ والعطشِ وسائرِ أصنافِ الحدثانِ . . لكانَ جديراً بأنْ يهجرَ الدنيا بسببِها ، وألاَّ يؤثرَ عليها ما التصرُّمُ والتنغُّصُ مِنْ ضرورتِها ، كيفَ وأهلُها ملوكٌ آمنونَ ، وفي أنواعِ السرورِ ممتَّعونَ ، لهمْ فيها كلُّ ما يشتهونَ ، وهمْ في كلِّ يومٍ بفناءِ العرشِ يحضرونَ ، وإلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ ينظرونَ ، وينالونَ بالنَّظرِ مِنَ اللذَّةِ ما لا ينظرونَ معَهُ إلىٰ سائرِ نعيمِ الجنانِ ولا يلتفتونَ ، وهمْ على الدوامِ بينَ أصنافِ هٰذهِ النِّعمِ يترددونَ ، وهمْ مِنْ زوالِها آمنونَ ؟!

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينادي منادٍ : إنَّ لكُمْ أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ »[1] .

ومهما أردتَ أنْ تعرفَ صفةَ الجنَّةِ . . فاقرأِ القرآنَ ، فليسَ وراءَ بيانِ اللهِ تعالىٰ بيانٌ ، واقرأْ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ (سورةِ الرحمٰنِ) ، واقرأْ (سورةَ الواقعةِ) وغيرَها مِنَ السورِ .

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ تفصيلَ صفاتِها مِنَ الأخبارِ . . فتأمَّلِ الآنَ تفصيلَها بعدَ أنِ اطَّلعتَ علىٰ جملتِها .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧) .

وتأمَّل أوَّلاً عددَ الجنانِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قالَ : جنَّتانِ مِنْ فضَّةٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وجنَّتانِ مِنْ ذهبٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وما بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظروا إلىٰ ربِّهم إلاَّ رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ في جنَّةِ عدنٍ »(١) .

ثمَّ انظرْ إلىٰ أبوابِ الجنَّةِ ؛ فإنَّها كثيرةٌ بحسبِ أصولِ الطاعاتِ ، كما أنَّ أبوابَ النَّارِ بحسبِ أصولِ المعاصي .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أنفقَ زوجينِ مِنْ مالِهِ في سبيلِ اللهِ . . دُعيَ منْ أبوابِ الجنةِ ، وللجنةِ أبوابٌ ، فمنْ كانَ منْ أهلِ الصلاةِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الصلاةِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصيامِ . . دُعِيَ مِنْ بابِ الريَّانِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصدقةِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الصدقةِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الجهادِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الجهادِ » فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما علىٰ أحدٍ مِنْ ضرورةٍ مِنْ أيِّها دُعيَ ، فهلْ يُدعىٰ أحدٌ منها كلِّها ؟ قال : « نعمْ ، وأرجو أنْ تكونَ منهم »(٢) .

وعنْ عاصمِ بنِ ضمرةَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أنَّهُ ذكرَ النَّارَ فعظمَ أمرَها ذكراً لا أحفظُهُ .

ثمَّ قالَ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) .
(٢) رواه البخاري (١٨٩٧) ، ومسلم (١٠٢٧) .

بابٍ مِنْ أبوابِها . . وجدوا عندَهُ شجرةً يخرجُ مِنْ تحتِ ساقِها عينانِ تجريانِ ، فعمدوا إلىٰ إحداهما كأنَّما أُمروا بهِ فشربوا منها ، فأذهبَتْ ما في بطونِهِمْ مِنْ أذىً أوْ بأسٍ ، ثمَّ عمدوا إلى الأخرىٰ فتطهَّروا منها ، فجرتْ عليهِم نضرةُ النَّعيمِ ، فلمْ تتغيرْ أشعارُهُمْ بعدَها أبداً ، ولا تشعثُ رؤوسُهم كأنَّما دهنوا بالدهانِ ، ثمَّ انتهوا إلىٰ الجنَّةِ فقالَ لهمْ خزنتُها : سلامٌ عليكُمْ طبتُمْ فادخلوها خالدينَ ، ثمَّ تلقاهُمُ الولدانُ يطيفونَ بهِمْ كما تطيفُ ولدانُ أهلِ الدنيا بالحميمِ يقدمُ عليهِمْ مِنْ غيبةٍ ، يقولونَ لهُ : أبشرْ ؛ أعدَّ اللهُ لكَ مِنَ الكرامةِ كذا .

قالَ : ثمَّ ينطلقُ غلامٌ مِنْ أولئِكَ الولدانِ إلىٰ بعضِ أزواجِهِ مِنَ الحورِ العينِ فيقولُ : قدْ جاءَ فلانٌ ـ باسمهِ الذي كانَ يُدعىٰ بهِ في الدنيا ـ فتقولُ : أنتَ رأيتَهُ ؟ فيقولُ : أنا رأيتُهُ وهوَ بأثري ، فيستخفُّ إحداهنَّ الفرحُ حتىٰ تقومَ إلىٰ أسكفةِ بابِها ، فإذا انتهىٰ إلىٰ منزلِهِ . . نظرَ إلىٰ أساسِ بنيانِهِ ؛ فإذا جندلُ اللؤلؤِ فوقَهُ صرحٌ أحمرُ وأخضرُ وأصفرُ ؛ مِنْ كلِّ لونٍ ، ثمَّ يرفعُ رأسَهُ فينظرُ إلىٰ سقفِهِ ؛ فإذا مثلُ البرقِ ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ قدره . . لألمَّ أنْ يذهبَ بصرُهُ ، ثمَّ يطأطِىءُ رأسَهُ ؛ فإذا أزواجُهُ ، وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارقُ مصفوفةٌ وزرابيُّ مبثوثةٌ ، ثمَّ اتكأَ فقالَ : الحمدُ للهِ الذي هدانا لهٰذا ، وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ ، ثمَّ ينادي منادٍ : تحيونَ فلا تموتونَ أبداً ، وتقيمونَ فلا تظعنونَ أبداً ، وتصحُّونَ فلا تمرضونَ أبداً)(١) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٥٠) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٧) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٣٦) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آتي يومَ القيامةِ بابَ الجنَّةِ ، فأستفتحُ فيقولُ الخازنُ : مَنْ أنتَ ؟ فأقولُ : محمَّدٌ ، فيقولُ : بكَ أُمرتُ ألاَّ أفتحَ لأحدٍ قبلَكَ »(١) .

ثمَّ تأمَّلِ الآنَ في غرفِ الجنَّةِ ، واختلافِ درجاتِ العلوِّ فيها ؛ فإنَّ الآخرةَ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ، وكما أنَّ بينَ الناسِ في الطَّاعاتِ الظاهرةِ والأخلاقِ الباطنةِ المحمودةِ تفاوتاً ظاهراً . . فكذلكَ فيما يُجازَوْنَ بهِ تفاوتٌ ظاهرٌ ، فإنْ كنتَ تطلبُ أعلى الدرجاتِ . . فاجتهدْ ألاَّ يسبقَكَ أحدٌ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فقدْ أمرَكَ اللهُ بالمسابقةِ والمنافسةِ فيها فقالَ تعالىٰ : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ .

والعجبُ أنَّهُ لوْ تقدَّمَ عليكَ أقرانُكَ أوْ جيرانُكَ بزيادةِ درهمٍ أوْ بعلوِّ بناءٍ . . ثقلَ عليكَ ذلكَ ، وضاقَ بهِ ذرعُكَ ، وتنغَّصَ بسببِ الحسدِ عيشُكَ ! وأحسنُ أحوالِكَ أنْ تستقرَّ في الجنَّةِ وأنتَ لا تسلمُ فيها مِنْ أقوامٍ يسبقونَكَ بلطائفَ لا توازيها الدنيا بحذافيرِها ؛ فقدْ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَوْنَ أهلَ الغرفِ فوقَهُمْ كما تتراءَوْنَ الكوكبَ الغابرَ في الأفقِ مِنَ المشرقِ والمغربِ ؛ لتفاضلِ

---

(١) رواه مسلم (١٩٧) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/٥٢٦) عند قول الخازن : من أنت ؟ : (أجاب بالاستفهام ، وأكده بالخطاب تلذذاً بمناجاته ، وإلاَّ . . فأبواب الجنة شفافة ، وهو العلَمُ الذي لا يشتبه ، والمتميز الذي لا يلتبس ، وقد رآه الخازن قبل ذلك وعرفه أتم معرفة ، ومن ثم اكتفىٰ بقوله : « فأقول : محمد ») .

ما بينَهُمْ » قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهمْ ؟ قـالَ : « بلـىٰ ، والـذي نفسـي بيـدِهِ ، رجـالٌ آمنـوا بـاللهِ وصـدَّقـوا المرسلينَ »(١) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ أهلَ الدرجاتِ العلا ليراهُمْ مَنْ تحتَهُمْ كما ترونَ النَّجمَ الطالعَ في أفقٍ مِنْ آفاقِ السماءِ ، وإنَّ أبا بكرٍ وعمرَ منهُمْ وأنْعَما »(٢) .

وقالَ جابرٌ : قالَ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أحدثُكُمْ بغرفِ أهلِ الجنَّةِ ؟ » قالَ : قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ بأبينا أنتَ وأمِّنا ، قالَ : « إنَّ في الجنَّةِ غرفاً مِنْ أصنافِ الجوهرِ كلِّهِ ، يُرىٰ ظاهرُها مِنْ باطنِها وباطنُها مِنْ ظاهرِها ، وفيها مِنَ النَّعيمِ واللذَّاتِ والسرورِ ما لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سمعَتْ ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ » قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ولِمَنْ هٰذهِ الغرفُ ؟ قالَ : « لمَنْ أفشى السَّلامَ ، وأطعمَ الطعامَ ، وأدامَ الصيامَ ، وصلَّىٰ بالليلِ والناسُ نيامٌ » قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ يطيقُ ذلكَ ؟ قالَ : « أمَّتي تطيقُ ذلكَ ، وسأخبرُكُمْ عَنْ ذلكَ ؛ مَنْ لقيَ أخاهُ فسلَّمَ عليهِ أوْ ردَّ عليهِ . . فقدْ أفشى السَّلامَ ، ومَنْ أطعمَ أهلَهُ وعيالَهُ مِنَ الطعامِ حتىٰ يشبعَهُمْ . . فقدْ أطعمَ الطعامَ ، ومَنْ صامَ شهرَ رمضانَ ومِنْ كلِّ شهرٍ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) .

(٢) رواه الترمذي (٣٦٥٨) ، وابن ماجه (٩٦) ، **وأنعما** : زادا في الرتبة وتجاوزا تلك المنزلة .

ثلاثةَ أيامٍ . . فقدْ أدامَ الصيامَ ، ومَنْ صلَّى العشاءَ الآخرةَ وصلَّى الغداةَ في جماعةٍ . . فقدْ صلَّىٰ بالليلِ والنَّاسُ نيامُ » يعني : اليهودَ والنصارىٰ والمجوسَ[1] .

وسُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ قالَ : « قصورٌ مِنْ لؤلؤٍ ، في كلِّ قصرٍ سبعونَ داراً مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتاً مِنْ زمردٍ أخضرَ ، في كلِّ بيتٍ سريرٌ ، علىٰ كلِّ سريرٍ سبعونَ فراشاً مِنْ كلِّ لونٍ ، علىٰ كلِّ فراشٍ زوجةٌ مِنَ الحورِ العينِ ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً ، علىٰ كلِّ مائدةٍ سبعونَ لوناً مِنَ الطعامِ ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ وصيفةً ، ويُعطى المؤمنُ في كلِّ غداةٍ - يعني مِنَ القوةِ - ما يأتي علىٰ ذلكَ أجمعَ »[2] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٣) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٧٧) ، والبزار في « مسنده » (٣٥٦٣) إلا أن فيهما : (في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً . . .) والباقي سواء .

صفة حائط الجنة وأرضها وأشجارها وأنهارها

تأمَّلْ في صورةِ الجنَّةِ ، وتفكَّرْ في غبطةِ سكانِها ، وفي حسرةِ مَنْ حُرِمَها ؛ لقناعتِهِ بالدنيا عوضاً عنها(١) .

فقدْ قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ حائطَ الجنَّةِ لبنةٌ مِنْ فضةٍ ولبنةٌ مِنْ ذهبٍ ، ترابُها زعفرانٌ ، وطينُها مسكٌ »(٢) .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ تربةِ الجنَّةِ فقالَ : « دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مسكٌ خالصٌ »(٣) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يسقيَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الخمرَ في الآخرةِ . . فليتركْها في الدنيا ، ومَنْ سرَّهُ أنْ يكسوَهُ اللهُ الحريرَ في الآخرةِ . . فليتركْهُ في الدنيا ، أنهارُ الجنَّةِ تتفجَّرُ مِنْ تحتِ تلالِ ـ أو تحتِ جبالِ ـ المسكِ ، ولوْ كانَ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ حليةً عُدلَتْ بحليةِ أهلِ الدنيا جميعِها . . لكانَ ما يحليهِ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ في الآخرةِ أفضلَ مِنْ حليةِ أهلِ الدنيا جميعِها »(٤) .

---

(١) في غير (ج ، ص) : (ثمناً عنها) بدل (عوضاً عنها) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٧) ، وعند الترمذي (٢٥٢٥) نحوه .

(٣) رواه مسلم (٢٩٢٨) ، والدرمكة : الدقيق الخالص البياض مع لين ونعومة .

(٤) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٥٥) ، وعند الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٨٧٣ ـ ٨٨٧٤) نحوه .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعُها ، اقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ »(١) .

وقالَ أبو أُمامةَ : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينفعُنا بالأعرابِ ومسائلِهِم ؛ أقبلَ أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ شجرةً مؤذيةً ، وما كنتُ أرىٰ أنَّ في الجنَّةِ شجرةً تؤذي صاحبَها ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما هيَ ؟ » قالَ : السدرُ ؛ فإنَّ لها شوكاً ، فقالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ يخضدُ اللهُ شوكَهُ فيجعلُ مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرةً ، ثمَّ تنفتقُ الثمرةُ منها عنِ اثنينِ وسبعينَ لوناً مِنَ الطعامِ ما منها لونٌ يشبهُ الآخرَ »(٢) .

وقالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ : (نزلنا الصفاحَ ؛ فإذا رجلٌ نائمٌ تحتَ شجرةٍ قدْ كادَتِ الشمسُ أنْ تبلغَهُ ، فقلتُ للغلامِ : انطلقْ بهٰذا النطعِ فأظِلَّهُ ، فانطلقَ فأظلَّهُ ، فلمَّا استيقظَ ؛ فإذا هوَ سلمانُ ، فأتيتُهُ أسلِّمُ عليهِ ، فقالَ : يا جريرُ ؛ تواضعْ للهِ ؛ فإنَّ مَنْ تواضعَ للهِ في الدنيا . رفعَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ، هلْ تدري ما الظلماتُ يومَ القيامةِ ؟ قلتُ : لا أدري ، قالَ : ظلمُ الناسِ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨١) ، ومسلم (٢٨٢٦) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٤٧٦) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٠٥) .

بينَهُم ، ثمَّ أخذَ عويداً لا أكادُ أراهُ مِنْ صغرِهِ فقالَ : يا جريرُ ؛ لوْ طلبتَ في الجنَّةِ مثلَ هـٰذا . . لمْ تجدْهُ ، قلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ فأينَ النخلُ والشجرُ ؟ قالَ : أصولُها اللؤلؤُ والذهبُ ، وأعلاها الثمرُ)(١) .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٧٦) .

صفة لباس أهل الجنّة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، والآياتُ في تفصيلِ ذلكَ كثيرةٌ .

وأمَّا تفصيلُهُ في الأخبارِ . . فقدْ روىٰ أبو هريرةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ينعمُ لا يبأسُ ؛ لا تبلىٰ ثيابُهُ ، ولا يفنىٰ شبابُهُ ، في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »(١) .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبِرْنا عنْ ثيابِ أهلِ الجنَّةِ ، أخلقٌ تخلقُ ، أم نسجٌ تنسجُ ؟ فسكتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ بعضُ القومِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ممَّ تضحكونَ ؟ مِنْ جاهلٍ سألَ عالماً ؟! » ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلْ تشقَّقُ عنها ثمرُ الجنَّةِ مرتينِ »(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ زمرةٍ تلجُ الجنَّةَ صورتُهُمْ علىٰ صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ، لا يبصقونَ فيها

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤١٦) ، وعند مسلم (٢٨٣٦) نحوه .

(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٥٨٤١) .

ولا يمتخطونَ ولا يتغوَّطونَ ، آنيتُهُمْ وأمشاطُهُمْ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، ورشحُهُمُ المسكُ ، ولكلِّ واحدٍ منهمْ زوجتانِ يُرىٰ مخُّ ساقِهما منْ وراءِ اللحمِ مِنَ الحسنِ ، لا اختلافَ بينَهُمْ ولا تباغضَ ، قلوبُهُمْ علىٰ قلبٍ واحدٍ يُسبِّحونَ اللهَ بكرةً وعشيةً »(١) ، وفي روايةٍ : « علىٰ كلِّ زوجةٍ سبعونَ حلةً »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ قالَ : « إنَّ عليهِمُ التيجانَ ، إنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ فيها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفةٌ طولُها في السماءِ ستونَ ميلاً ، في كلِّ زاويةٍ منها للمؤمنِ أهلٌ لا يراهُمُ الآخرونَ » رواهُ البخاريُّ في « الصحيحِ »(٤) .

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفةٌ فرسخٌ في فرسخٍ ، لها أربعةُ آلافِ مصراعٍ مِنْ ذهبٍ)(٥) .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .
(٢) رواها الترمذي (٢٥٣٤) .
(٣) رواه الترمذي (٢٥٦٢) .
(٤) صحيح البخاري (٣٢٤٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٣١٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥١٩٧) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قالَ : « ما بينَ الفراشينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ »[1] .

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٠) .

صفة طعام أهل الجنّة

بيانُ طعامِ أهلِ الجنَّةِ مذكورٌ في القرآنِ ؛ مِنَ الفواكهِ والطيورِ السِّمانِ ، والمنِّ والسلوىٰ ، والعسلِ واللبنِ ، وأصنافٍ كثيرةٍ لا تُحصىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ .

وذكرَ اللهُ تعالىٰ شرابَ أهلِ الجنَّةِ في مواضعَ كثيرةٍ ، وقدْ قالَ ثوبانُ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : (كنتُ قائماً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجاءَهُ حبرٌ مِنْ أحبارِ اليهودِ ، فذكرَ أسئلةً إلىٰ أنْ قالَ : فمَنْ أوَّلُ الناسِ إجازةً ؟ ـ يعني على الصراطِ ـ فقالَ : « فقراءُ المهاجرينَ » ، قالَ اليهوديُّ : فما تحفتُهُمْ حينَ يدخلونَ الجنَّةَ ؟ قالَ : « زيادةُ كبدِ النونِ » ، قالَ : فما غداؤُهُمْ علىٰ أثرِها ؟ قالَ : « يُنحرُ لهمْ ثورُ الجنَّةِ الذي كانَ يأكلُ مِنْ أطرافِها » ، قالَ : فما شرابُهُمْ عليهِ ؟ قالَ : « مِنْ عينٍ فيها تُسمَّىٰ سلسبيلاً » ، فقالَ : صدَقتَ)[1] .

وقالَ زيدُ بنُ أرقمَ : جاءَ رجلٌ مِنَ اليهودِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : يا أبا القاسمِ ؛ ألستَ تزعمُ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونَ فيها ويشربونَ ؟ وقالَ لأصحابِهِ : إنْ أقرَّ لي بهـٰذهِ.. خصمتُهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٣١٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ أحدَهُمْ ليُعْطىٰ قوة مئةِ رجلٍ في المطعمِ والمشربِ والجماعِ » ، فقالَ اليهوديُّ : فإنَّ الذي يأكلُ ويشربُ يكونُ لهُ الحاجةُ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حاجتُهُمْ عرقٌ يفيضُ مِنْ جلودِهِمْ مثلُ المسكِ ، فإذا البطنُ قدْ طهرَ »(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكَ لتنظرُ إلى الطيرِ في الجنَّةِ فتشتهيهِ . . فيخرُّ بينَ يديكَ مشويّاً »(٢) .

وقالَ حذيفةُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ طيراً أمثالَ البخاتيِّ » قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّها لناعمةٌ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أنعمُ منها مَنْ يأكلُها ، وأنتَ ممَّنْ يأكلُها يا أبا بكرٍ »(٣) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ قالَ : (يُطافُ عليهم بسبعينَ صحفةً مِنْ ذهبٍ ، كلُّ صحفةٍ فيها لونٌ ليسَ في الأخرىٰ مثلُهُ)(٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٤١٤) ، وفيه : (فإذا بطنه قد ضمر) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٠٠) ، والبزار في « مسنده » (٢٠٣٢) .

(٣) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٠٨) ، وعند الإمام أحمد في « المسند » (٣/ ٢٢١) نحوه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣١٠) ، ونحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٨٠) ، وفيه وفي (ب) : (بسبعين ألف صحفة) بدل (بسبعين صحفة) .

قالَ : (يُمزجُ لأصحابِ اليمينِ ، ويشربُها المقربونَ صرفاً)(١) .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ قالَ : (هوَ شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضةِ ، يختمونَ بهِ آخرَ شرابِهِمْ ، لوْ أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الدنيا أدخلَ يدَهُ فيهِ ثمَّ أخرجَها . . لمْ يبقَ ذو روحٍ إلاَّ وجدَ ريحَ طيبِها)(٢) .

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٢٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٢٦) ، وفي (ب) : (يشرب بها) بدل (يشربها) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٢٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣١٩) .

صفة الحور العين والولدان

قدْ تكرَّرَ في القرآنِ أوصافُهُمْ ، ووردَتِ الأخبارُ بزيادةِ شرحٍ فيهِ .

روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « غدوةٌ في سبيلِ اللهِ أو روحةٌ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ولقابُ قوسِ أحدِكُمْ أوْ موضعُ قدمِهِ مِنَ الجنَّةِ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ولوْ أنَّ امرأةً مِنْ نساءِ أهلِ الجنَّةِ اطَّلعَتْ إلى الأرضِ . . لأضاءَتْ ولملأَتْ ما بينَهُما رائحةً ، ولنصيفُها علىٰ رأسِها خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ؛ يعني الخمارَ »(١) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ قالَ : « ينظرُ إلىٰ وجهِها في خدرِها أصفىٰ منَ المرآةِ ، وإنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ عليها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، وإنَّهُ يكونُ عليها سبعونَ ثوباً ينفذُها بصرُهُ حتىٰ يُرىٰ مخُّ ساقِها مِنْ وراءِ ذلكَ »(٢) .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمَّا أُسرِيَ بي . . دخلتُ الجنَّةَ موضعاً يُسمَّى البيدخَ ، عليهِ خيامُ اللؤلؤِ والزبرجدِ الأخضرِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٧٥) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٢٨) ، وعند أحمد في « المسند » (٣/ ٧٥) نحوه .

والياقوتِ الأحمرِ ، فقلنَ : السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، فقلتُ : يا جبريلُ ؛ ما هٰذا النداءُ ؟ قالَ : هؤلاءِ المقصوراتُ في الخيامِ ، استأذنَّ ربَّهُنَّ في السَّلامِ عليكَ فأذنَ لهنَّ ، فطفقنَ يقلنَ : نحنُ الراضياتُ فلا نسخطُ أبداً ، ونحنُ الخالداتُ فلا نظعنُ أبداً » وقرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾(١) .

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ قالَ : منَ الحيضِ والغائطِ والبولِ ، والبصاقِ والنخامةِ ، والمنيِّ والولدِ(٢) .

وقالَ الأوزاعيُّ : ﴿ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ قالَ : شغلُهُم : افتضاضُ الأبكارِ(٣) .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيباضعُ أهلُ الجنَّةِ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يُعطى الرجلُ منهم منَ القوةِ في اليومِ الواحدِ أفضلَ مِنْ سبعينَ منْكُم »(٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ : (إنَّ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ منزلةً مَنْ يسعىٰ مَعَهُ ألفُ

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٢٩) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٤٣) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٦٤) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥١) .
(٤) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٩٧٢ ـ ٩٧٣) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥٤) .

خادمٍ ، كلُّ خادمٍ علىٰ عملٍ ليس عليهِ صاحبُهُ)[١] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ليُزوَّجُ خمسَ مئةِ حوراءَ ، وأربعةَ آلافِ بكْرٍ ، وثمانيةَ آلافِ ثيِّبٍ ، يعانقُ كلَّ واحدةٍ منهنَّ مقدارَ عمرِهِ في الدنيا »[٢] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ سوقاً ما فيها بيعٌ ولا شراءٌ إلاَّ الصورُ منَ الرجالِ والنساءِ ، فإذا اشتهى الرجلُ صورةً . . دخلَ فيها ، وإنَّ فيها مجتمعاً للحورِ العينِ ، يرفعنَ بأصواتٍ لمْ تسمعِ الخلائقُ مثلَها يقلنَ : نحنُ الخالداتُ فلا نبيدُ ، ونحنُ الناعماتُ فلا نبأسُ ، ونحنُ الرَّاضياتُ فلا نسخطُ ، فطوبىٰ لمَنْ كانَ لنا وكنَّا لهُ »[٣] .

وقالَ يحيىٰ بنُ أبي كثيرٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قالَ : السماعُ في الجنَّةِ[٤] .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحورَ في الجنَّةِ يتغنَّينَ يقلنَ : نحنُ الحورُ الحسانُ، خُبِّئنا لأزواجٍ كرامٍ »[٥] .

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٦٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٤) .

(٣) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٤٤) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٧) ، وهو عند الترمذي مجموع حديثين الأول (٢٥٥٠) ، والثاني (٢٥٦٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٦٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٤٩) ، والبيهقي في « البعث والنشور » =

وقالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلاَّ ويجلسُ عندَ رأسِهِ وعندَ رجليهِ ثنتانِ مِنَ الحورِ العينِ ، يغنيانِهِ بأحسنِ صوتٍ سمعَهُ الإنسُ والجنُّ ، وليسَ بمزمارِ الشيطانِ ، ولكنْ بتحميدِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتقديسِهِ »(١) .

* * *

= (٣٦٩) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٤٩١٤) نحوه .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ١١٣) .

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت الأخبار بها

روىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « ألا هلْ مشمرٌ للجنَّةِ ؟ إنَّ الجنَّةَ لا خطرَ لها[1] ، هيَ وربِّ الكعبةِ نورٌ يتلألأُ وريحانةٌ تهتزُّ ، وقصرٌ مشيدٌ ونهرٌ مطَّردٌ ، وفاكهةٌ كثيرةٌ نضيجةٌ ، وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ ، في حبرةٍ ونعمةٍ في مقامٍ أبداً ، ونضرةٍ في دارٍ عاليةٍ بهيَّةٍ سليمةٍ » قالوا : نحنُ المشمِّرونَ لها يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قولوا : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ » ثمَّ ذكرَ الجهادَ وحضَّ عليهِ)[2] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ في الجنَّةِ خيلٌ ؛ فإنَّها تعجبُني ؟ قالَ : « إنْ أحببتَ ذلكَ . . أُتيتَ بفرسٍ مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ ، فتطيرُ بكَ في الجنةِ حيثُ شئتَ » ، وقالَ لهُ رجلٌ آخرُ : إنَّ الإبلَ تعجبُني ، فهلْ في الجنَّةِ مِنْ إبلٍ ؟ فقالَ : « يا عبدَ اللهِ ؛ إنْ أُدخلتَ الجنَّةَ . . فلكَ فيها ما اشتهتْ نفسُكَ ولذَّتْ عيناكَ »[3] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ليُولدُ لهُ الولدُ كما يشتهي ، يكونُ حملُهُ

---

(١) الخَطَر : القَدْر .
(٢) رواه ابن ماجه (٤٣٣٢) .
(٣) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٣) ، وعند الترمذي (٢٥٤٣) نحوه .

وفصالُهُ وشبابُهُ في ساعةٍ واحدةٍ »(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا استقرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ . . اشتاقَ الإخوانُ إلى الإخوانِ ، فيسيرُ سريرُ ذا إلىٰ سريرِ ذا ، فيلتقيانِ ، فيتحدثانِ ما كانَ بينَهُما في دارِ الدنيا ، فيقولُ : يا أخي ؛ تذكرُ يومَ كذا في مجلسِ كذا ، فدعونا اللهَ عزَّ وجلَّ فغفرَ لنا »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ الجنَّةِ جردٌ مردٌ ، بيضٌ جعادٌ مكحلونَ(٣) ، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ ، علىٰ خلقِ آدمَ ؛ طولُهُمْ ستونَ ذراعاً في عرضِ سبعةِ أذرعٍ »(٤) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ الذي لهُ ثمانونَ ألفَ خادمٍ ، واثنتانِ وسبعونَ زوجةً ، ويُنصبُ لهُ قبةٌ مِنْ لؤلؤٍ وزبرجدٍ وياقوتٍ كما بينَ الجابيةِ إلىٰ صنعاءَ ، وإنَّ عليهِمُ التيجانَ ، وإنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ منها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نظرتُ إلى الجنَّةِ ؛ فإذا الرمَّانةُ مِنْ رمَّانِها

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٥٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٦) ، وعند الترمذي (٢٥٦٣) ، وابن ماجه (٤٣٣٨) نحوه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٤٩) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٨) ، وعند البزار في « مسنده » (٦٦٦٨) نحوه .

(٣) **الجعاد** : جمع جعد ، وهو المجتمع الخَلق .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٥) ، ورواه الترمذي (٢٥٤٥) مختصراً .

(٥) رواه الترمذي (٢٥٦٢) .

كجلدِ البعيرِ المقتَّبِ ، وإذا طيرُها كالبختِ ، وإذا فيها جاريةٌ ، فقلتُ : يا جاريةُ ؛ لمَنْ أنتِ ؟ فقالَتْ : لزيدِ بنِ حارثةَ ، وإذا في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

وقالَ كعبٌ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ آدمَ عليهِ السَّلامُ بيدِهِ ، وكتبَ التوراةَ بيدِهِ ، وغرسَ الجنَّةَ بيدهِ ، ثمَّ قالَ لها : تكلَّمِي ، فقالَتْ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾)[2] .

فهٰذهِ صفاتُ الجنَّةِ ذكرناها جملةً ثمَّ نقلناها تفصيلاً .

وقدْ ذكرَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ جملتَها فقالَ : (إنَّ رمَّانَها مثلُ الدلاءِ ، وإنَّ أنهارَها لَمِنْ ماءٍ غيرِ آسنٍ[3] ، وأنهارٌ منْ لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُهُ ، وأنهارٌ مِنْ عسلٍ مصفىً لمْ يصفِّهِ الرجالُ ، وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لذَّةٍ للشاربينَ ، لا تسفِّهُ الأحلامَ ولا تصدعُ منها الرؤوسُ .

وإنَّ فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، ملوكٌ ناعمونَ ، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ في سنٍّ واحدٍ ، طولُهُمْ ستونَ ذراعاً في السماءِ ، كحلٌ جردٌ مردٌ ، قدْ أمنوا العذابَ واطمأنَّتْ بهمُ الدارُ .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٣٧٢) ، والمقتب : عظيم الأقتاب وهي الأمعاء .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٥٨) ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلمي ، فقالت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ » .

(٣) أي : غير متغير ، ليس كمياه الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ٥٥١) .

وإنَّ أنهارَها لتجري علىٰ رضراضٍ مِنْ ياقوتٍ وزبرجدٍ[1] ، وإنَّ عروقَها ونخلَها وكرمَها اللؤلؤُ ، وثمارَها لا يعلمُ علمَها إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، وإنَّ ريحَها ليُوجدُ مِنْ مسيرةِ خمسِ مئةِ سنةٍ .

وإنَّ لهُمْ فيها خيلاً وإبلاً هفافةً[2] ، رحالُها وأزمَّتُها وسروجُها مِنْ ياقوتٍ ، يتزاورونَ فيها .

وأزواجُهُمُ الحورُ العينُ ؛ كأنَّهنَّ بيضٌ مكنونٌ ، وإنَّ المرأةَ لتأخذُ بينَ إصبعيها سبعينَ حلةً فتلبسُها ، فيُرىٰ مخُّ ساقِها مِنْ وراءِ تلكَ السبعينَ حلةً .

قدْ طهَّرَ اللهُ الأخلاقَ مِنَ السوءِ ، والأجسادَ مِنَ الموتِ ، لا يمتخطونَ فيها ولا يبولونَ ولا يتغوَّطونَ ، وإنَّما هوَ جشاءٌ ورشحُ مسكٍ ، لهم رزقُهُمْ فيها بكرةً وعشياً ، أما إنَّهُ ليسَ ليلٌ يكرُّ ، الغدوُّ على الرواحِ ، والرواحُ على الغدوِّ .

وإنَّ آخرَ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ وأدناهُم منزلةً ليُمدُّ لهُ في بصرِهِ وملكِهِ مسيرةَ مئةِ عامٍ ، في قصورِ الذهبِ والفضةِ وخيامِ اللؤلؤِ ، ويُفسحُ لهُ في بصرِهِ حتىٰ ينظرَ إلىٰ أقصاهُ كما ينظرُ إلىٰ أدناهُ .

يُغدىٰ عليهِم بسبعينَ ألفَ صحفةٍ مِنْ ذهبٍ ، ويُراح عليهِمْ بمثلِها ، في كلِّ صحفةٍ لونٌ ليسَ في الأخرىٰ مثلُهُ ، ويجدُ طعمَ آخرِهِ كما يجدُ طعمَ أوَّلِهِ .

---

(١) **الرضراض** : الحصى الصغار .
(٢) **هفافة** : سريعة السير .

وإنَّ في الجنَّةِ لياقوتةً فيها سبعونَ ألفَ دارٍ ، في كلِّ دارٍ سبعونَ ألفَ بيتٍ ، ليسَ فيها صدعٌ ولا ثقبٌ) .

وقالَ مجاهدٌ : إنَّ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ منزلةً لمَنْ يسيرُ في ملكِهِ ألفَ سنةٍ ، يرىٰ أقصاهُ كما يرىٰ أدناهُ ، وأرفعَهُمُ الذي ينظرُ إلىٰ ربِّهِ بالغداةِ والعشيِّ(١) .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : ليسَ أحدٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ إلاَّ وفي يدِهِ ثلاثةُ أسورةٍ ، سوارٌ مِنْ ذهبٍ ، وسوارٌ مِنْ لؤلؤٍ ، وسوارٌ مِنْ فضةٍ(٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ في الجنَّةِ حوراءَ يُقالُ لها : العيناءُ ، إذا مشَتْ . . مشىٰ عن يمينِها ويسارِها سبعونَ ألفَ وصيفةٍ وهيَ تقولُ : أينَ الآمرونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عنِ المنكرِ ؟) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : تركُ الدنيا شديدٌ ، وفوتُ الجنَّةِ أشدُّ ، وتركُ الدنيا مهرُ الآخرةِ .

وقالَ أيضاً : في طلبِ الدنيا ذلُّ النُّفوسِ ، وفي طلبِ الآخرةِ عزُّ النُّفوسِ ، فيا عجباً لمَنْ يختارُ المذلةَ في طلبِ ما يفنىٰ ، ويتركُ العزَّ في طلبِ ما يبقىٰ !

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٢١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٧) ، ورواه الترمذي (٣٣٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » . « إتحاف » (١٠/ ٥٥٢) .

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

وهٰذهِ الزيادةُ هيَ النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ اللذَّةُ الكبرى التي يُنسىٰ فيها نعيمُ الجنَّةِ ، وقدْ ذكرنا حقيقتَها في كتابِ المحبةِ ، وقدْ شهدَ لها الكتابُ والسنةُ علىٰ خلافِ ما يعتقدُهُ أهلُ البدعةِ .

قالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ البجليُّ : كنَّا جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرأى القمرَ ليلةَ البدرِ فقالَ : « إنَّكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هٰذا القمرَ لا تضامونَ في رؤيتِهِ ؛ فإنِ استطعتُم ألاَّ تُغلبوا علىٰ صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبِها . . فافعلوا » ثمَّ قرأَ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهوَ مُخرَّجٌ في « الصحيحينِ »(١) .

وروىٰ مسلمٌ في « الصحيحِ » عنْ صهيبٍ قالَ : قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قالَ : « إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ . . نادىٰ منادٍ : يا أهلَ الجنَّةِ ؛ إنَّ لكم عندَ اللهِ موعداً يريدُ أنْ ينجزَكُمُوهُ ، قالوا : ما هٰذا الموعدُ ؟! ألمْ يثقلْ موازيننا ويبيضْ وجوهَنا ، ويدخلْنا الجنَّةَ ويجرْنا مِنَ النَّارِ ؟! قالَ : فيُرفعُ

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٤) ، صحيح مسلم (٦٣٢) .

الحجابُ وينظرونَ إلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهمْ مِنَ النَّظرِ إليهِ »[1] .

وقدْ روىٰ حديثَ الرؤيةِ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ ، وهٰذهِ هيَ غايةُ الحسنىٰ ونهايةُ النعمىٰ ، وكلُّ ما فصَّلناهُ مِنَ النِّعمِ عندَ هٰذهِ النعمةِ يُنسىٰ ، وليسَ لسرورِ أهلِ الجنَّةِ عندَ سعادةِ اللقاءِ منتهىً ، بلْ لاَ نسبةَ لشيءٍ مِنْ لذَّاتِ الجنَّةِ إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ ، وقدْ أوجزنا الكلامَ هٰهنا لما فصَّلناهُ في كتابِ المحبةِ والشوقِ والرضا ، فلا ينبغي أنْ تكونَ همةُ العبدِ مِنَ الجنَّةِ شيئاً سوىٰ لقاءِ المولىٰ ، فأمَّا سائرُ نعيمِ الجنَّةِ . . فإنَّهُ يشاركُ فيهِ البهيمةَ المسرحةَ في المرعىٰ .

* * *

(١) صحيح مسلم (١٨١) .

بابٌ في سعة رحمة الله تعالىٰ
نختم به الكتاب على سبيل التفاؤل بذلك

فقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعجبُهُ الفألُ[(١)] ، وليسَ لنا مِنَ الأعمالِ ما نرجو بهِ المغفرةَ ، فنقتدي برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التفاؤلِ ، ونرجو أنْ يختمَ عاقبتَنا بالخيرِ في الدنيا والآخرةِ ، كما ختمنا الكتابَ بذكرِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ .

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ونحنُ نستغفرُ اللهَ تعالىٰ مِنْ كلِّ ما زلَّتْ بهِ القدمُ ، أو طغىٰ بهِ القلمُ في كتابِنا هٰذا وفي سائرِ كتبِنا .

ونستغفرُهُ منْ أقوالِنا التي لا توافقُها أعمالُنا .

ونستغفرُهُ ممَّا ادَّعيناهُ وأظهرناهُ مِنَ العلمِ والبصيرةِ بدينِ اللهِ تعالىٰ معَ التقصيرِ فيهِ .

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٦) ، ومسلم (٢٢٢٤) .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ علمٍ وعملٍ قصدنا بهِ وجهَهُ الكريمَ ثمَّ خالطَهُ غيرُهُ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ وعدٍ وعدناهُ بهِ مِنْ أنفسِنا ثمَّ قصَّرنا في الوفاءِ بهِ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ نعمةٍ أنعمَ بها علينا فاستعملناها في معصيتِهِ .

ونستغفرُهُ منْ كلِّ تصريحٍ وتعريضٍ بنقصانِ ناقصٍ وتقصيرِ مقصرٍ كنَّا متصفينَ بهِ .

ونستغفرُهُ منْ كلِّ خطرةٍ دعتْنا إلىٰ تصنُّعٍ وتكلُّفٍ تزيُّناً للنَّاسِ في كتابٍ سطرناهُ ، أوْ كلامٍ نظمناهُ ، أو علمٍ أفدناهُ أوِ استفدناهُ .

ونرجو بعدَ الاستغفارِ منْ جميعِ ذلكَ كلِّهِ لنا ولِمَنْ طالعَ كتابَنا هـٰذا أو كتبَهُ أو سمعَهُ . . أنْ يكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بالمغفرةِ والرحمةِ والتَّجاوزِ عَنْ جميعِ السيئاتِ ظاهراً وباطناً ؛ فإنَّ الكرمَ عميمٌ ، والرحمةَ واسعةٌ ، والجودَ علىٰ أصنافِ الخلائقِ فائضٌ ، ونحنُ خلقٌ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، لا وسيلةَ لنا إليهِ إلاَّ فضلُهُ وكرمُهُ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مئةَ رحمةٍ ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ والإنسِ والطيرِ والبهائمِ والهوامِّ ؛ فبها يتعاطفونَ وبها يتراحمونَ ، وأخَّرَ تسعاً وتسعينَ رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ »(١) .

ويُروىٰ أنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ . . أخرجَ اللهُ تعالىٰ كتاباً مِنْ تحتِ العرشِ

---

(١) رواه مسلم (٦٤٦٩) ، وعند البخاري (٦٠٠٠) نحوه .

فيهِ : إنَّ رحمتي سبقَتْ غضبي ، وأنا أرحمُ الراحمينَ ، فيخرجُ منَ النَّارِ مثلَ أهلِ الجنَّةِ[(١)] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يتجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لنا يومَ القيامةِ ضاحكاً فيقولُ : أبشروا معشرَ المسلمينَ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْكم أحدٌ إلاَّ وقدْ جعلتُ مكانَهُ في النَّارِ يهوديّاً أو نصرانيّاً »[(٢)] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُشفِّعُ اللهُ تعالىٰ آدمَ يومَ القيامةِ مِنْ جميعِ ذريَّتِهِ في مئةِ ألفِ ألفٍ وعشرةِ آلافِ ألفٍ »[(٣)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ : هلْ أحببتُم لقائي ؟

فيقولونَ : نعمْ يا ربَّنا ، فيقولُ : لِمَ ؟ فيقولونَ : رجَونا عفوَكَ ومغفرتَكَ ، فيقولُ : قدْ أوجبتُ لكمْ مغفرتي »[(٤)] .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٨٥٨) ، وروى البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (١٥/٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق . . كتب عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤٠٧/٤ ـ ٤٠٨) ، وروىٰ مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة . . دفع الله عز وجل إلىٰ كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هـٰذا فكاكك من النار » .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٨٣٦) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢٣٨/٥) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أخرجوا منَ النَّارِ مَنْ ذكرَني يوماً أوْ خافَني في مقامٍ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا اجتمعَ أهلُ النَّارِ في النَّارِ ومَنْ شاءَ اللهُ معَهُمْ منْ أهلِ القبلةِ . . قالَ الكفارُ للمسلمينَ : ألمْ تكونوا مسلمينَ ؟! قالوا : بلىٰ .

قالوا : ما أغنىٰ عنكُم إسلامُكُمْ إذْ أنتُمْ معَنا في النَّارِ ، فيقولونَ : كانَتْ لنا ذنوبٌ فأُخذنا بها .

فيسمعُ اللهُ عزَّ وجلَّ ما قالوا ، فيأمرُ بإخراجِ مَنْ كانَ في النَّارِ مِنْ أهلِ القبلةِ ، فيُخرجونَ ؛ فإذا رأىٰ ذلكَ الكفارُ . . قالوا : يا ليتَنا كنَّا مسلمينَ فنخرجَ كما أُخرجوا » .

وقرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أرحمُ بعبدِهِ المؤمنِ مِنَ الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها »[3] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٩٤) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٤٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وعند النسائي في « الكبرىٰ » (١١٢٠٧) نحوه من حديث جابر رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ زادَتْ حسناتُهُ علىٰ سيئاتِهِ يومَ القيامةِ . . فذاكَ الذي يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ، ومَنِ استوَتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ . . فذاكَ الذي يُحاسَبُ حساباً يسيراً ثمَّ يدخلُ الجنَّةَ ، وإنَّما شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنْ أوبقَ نفسَهُ وأثقلَ ظهرَهُ)[1] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ لموسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا موسىٰ ؛ استغاثَ بكَ قارونُ فلمْ تغثْهُ ، وعزَّتي وجلالي ؛ لوِ استغاثَ بي . . لأغثْتُهُ وعفوتُ عنهُ)[2] .

وقالَ سعدُ بنُ بلالٍ[3] : يُؤمرُ يومَ القيامةِ بإخراجِ رجلينِ مِنَ النَّارِ ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : ذلكَ بما قدَّمَتْ أيديكما وما أنا بظلامٍ للعبيدِ ، ويأمرُ بردِّهِما إلى النَّارِ ، فيعدو أحدُهُما في سلاسلِهِ حتىٰ يقتحمَها ، ويتلكَّأُ الآخرُ ، فيُؤمرُ بردِّهما ويسألُهُما عن فعلِهِما .

فيقولُ الذي عدا إلى النَّارِ : قدْ ذقتُ مِنْ وبالِ المعصيةِ ما لمْ أكنْ أتعرَّضُ لسخطِكَ ثانيةً .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٣/٢٧) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩٨/٦١) .
(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٦١/١٠) : (كذا في بعض النسخ ، وفي بعضها : سعيد بن بلال ، وكل منهما خطأ ، والصواب : بلال بن سعد ، هو ابن تميم الأشعري أو الكندي ، أبو عمرو أو أبو زرعة الدمشقي العابد الفاضل . . .) .

ويقولُ الذي تلكَّأَ : حسْنُ ظنِّي بكَ كانَ يشعرُني ألاَّ تردَّني إليها بعدَما أخرجتَني مِنْها ، فيأمرُ بهما إلى الجنَّةِ(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينادي منادٍ مِنْ تحتِ العرشِ يومَ القيامةِ : يا أمَّةَ محمَّدٍ ؛ أمَّا ما كانَ لي قِبَلَكُمْ .. فقدْ وهبتُه لكُمْ ، وبقيَتِ التبعاتُ فتواهبوها ، وادخلوا الجنَّةَ برحمتي »(٢) .

ويُروىٰ أنَّ أعرابياً سمعَ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقرأُ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ فقالَ الأعرابيُّ : واللهِ ؛ ما أنقذَهُم مِنْها وهوَ يريدُ أنْ يوقعَهُم فيها .

فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (خذوها مِنْ غيرِ فقيهٍ)(٣) .

وقالَ الصنابحيُّ : دخلتُ علىٰ عبادةَ بنِ الصامتِ وهوَ في مرضِ الموتِ ، فبكيتُ ، فقالَ : مهلاً ؛ لِمَ تبكي ؟ فواللهِ ، ما مِنْ حديثٍ سمعتُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لكم فيهِ خيرٌ .. إلاَّ حدثتُكموهُ إلاَّ حديثاً واحداً ، وسوفَ أحدِّثُكموهُ اليومَ وقدْ أُحيطَ بنفسي ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ شهدَ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٢٦) من حديث بلال بن سعد .
(٢) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٨٨٧١) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٠٧) .

محمَّداً رسولُ اللهِ . حرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ »(١) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ سيخلصُ رجلاً مِنْ أمَّتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ ، فينشرُ عليهِ تسعةً وتسعينَ سجلاً ، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ .

ثمَّ يقولُ : أتنكرُ مِنْ هـٰذا شيئاً ؟ أظلمَكَ كتبتي الحافظونَ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيقولُ : أفلكَ عذرٌ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيقولُ : بلىٰ ، إنَّ لكَ عندَنا حسنةً ، وإنَّهُ لا ظلمَ عليكَ اليومَ ، فيخرجُ بطاقةً فيها : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ ما هـٰذهِ البطاقةُ معَ هـٰذهِ السجلاَّتِ ؟! فيُقالُ : إنَّكَ لا تُظلمُ .

قالَ : فتُوضعُ السجلاَّتُ في كفَّةٍ والبطاقةُ في كفَّةٍ ، فطاشَتِ السجلاَّتُ وثقلَتِ البطاقةُ ، فلا يثقلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرِ حديثٍ طويلٍ يصفُ فيهِ القيامةَ والصِّراطَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للملائكةِ : مَنْ وجدتُمْ في قلبهِ مثقالَ

---

(١) رواه مسلم (٢٩) .
(٢) رواه الترمذي (٢٦٣٩) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) .

دينارٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجُوهُ مِنَ النَّارِ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتَنا بهِ ، ثمَّ يقولُ : ارجعوا ، فمَنْ وجدتُم في قلبهِ مثقالَ نصفِ دينارٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجوهُ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتَنا ، ثمَّ يقولُ : ارجعوا ، فمَنْ وجدتُم في قلبهِ مثقالَ ذرَّةٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجوهُ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها خيراً » .

فكانَ أبو سعيدٍ الخدريُّ يقولُ : إنْ لم تصدقُوني بهٰذا الحديثِ . . فاقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

« فيقولُ اللهُ تعالىٰ : شفعَتِ الملائكةُ ، وشفعَ النبيُّونَ ، وشفعَ المؤمنونَ ، ولم يبقَ إلاَّ أرحمُ الراحمينَ ، فيقبضُ قبضةً فيخرجُ منها قوماً لمْ يعملوا خيراً قطُّ قدْ عادوا حمماً ، فيلقيهمْ في نهرٍ في أفواهِ الجنَّةِ يُقالُ لهُ : نهرُ الحياةِ ، فيخرجونَ منهُ كما تخرجُ الحِبَّةُ في حميلِ السيلِ ، ألا ترونَها تكونُ ممَّا يلي الحجرَ أو الشجرَ ، ما يكونُ إلى الشمسِ أصفرُ وأخضرُ ، وما يكونُ مِنْها إلى الظلِّ أبيضُ » .

فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ كأنَّكَ كنتَ ترعىٰ بالباديةِ .

قالَ : « فيخرجونَ كاللؤلؤِ في رقابِهِمْ الخواتيمُ ، يعرفُهُمْ أهلُ الجنَّةِ يقولونَ : هؤلاءِ عتقاءُ اللهِ الذينُ أدخلَهُمُ اللهُ الجنَّةَ بغيرِ عملٍ عملوهُ ولا خيرٍ

قدِّموهُ ، ثمَّ يقولُ : ادخلوا الجنَّةَ ، فما رأيتُم . . فهوَ لكُمْ .

فيقولونَ : ربَّنا ؛ أعطيتَنا ما لمْ تعطِ أحداً مِنَ العالمينَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لكُمْ عندي أفضلُ مِنْ هـٰذا ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ أيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ هـٰذا ؟!

فيقولُ : رضائي عنكُم فلا أسخطُ عليكُمْ بعدَهُ أبداً » رواه البخاريُّ ومسلمٌ في « صحيحيهما »[1] .

وروى البخاريُّ أيضاً عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ فقالَ : « عُرِضَتْ عليَّ الأممُ ، يمرُّ النبيُّ معَهُ الرجلُ ، والنبيُّ معَهُ الرجلانِ ، والنبيُّ ليسَ معَهُ أحدٌ ، والنبيُّ معهُ الرهطُ ، فرأيتُ سواداً كثيراً فرجوتُ أنْ تكونَ أمَّتي ، فقيلَ لي : هـٰذا موسىٰ وقومُهُ ، ثمَّ قيلَ لي : انظرْ ، فرأيتُ سواداً كثيراً قدْ سدَّ الأفقَ ، فقيلَ لي : انظرْ هـٰكذا وهـٰكذا ، فرأيتُ سواداً كثيراً ، فقيلَ لي : هؤلاءِ أمَّتُكَ ، ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ » .

فتفرَّقَ النَّاسُ ولمْ يبيِّنْ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتذاكرَ ذلكَ أصحابُهُ فقالوا : أمَّا نحنُ . . فوُلدنا في الشِّركِ ، ولكنَّا آمنَّا باللهِ ورسولِهِ ، هؤلاءِ همْ أبناؤُنا ، فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « همُ

(١) صحيح البخاري (٧٤٣٩) ، صحيح مسلم (١٨٣) .

الـذيـنَ لا يكتـوون ، ولا يسترقـونَ ، ولا يتطيَّـرونَ ، وعلـىٰ ربِّهِـمْ يتوكَّلونَ » .

فقامَ عكَّاشةُ فقالَ : أنا مِنْهُم يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « نعمْ » ثمَّ قامَ آخرُ فقالَ : أنا مِنْهم يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « سبقَكَ بِها عكَّاشةُ »(١) .

وعَنْ عمرِو بنِ حزمٍ الأنصاريِّ قالَ : تغيَّبَ عنَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً لا يخرجُ إلاَّ لصلاةٍ مكتوبةٍ ثمَّ يرجعُ ، فلمَّا كانَ اليومُ الرابعُ . . خرجَ إلينا ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ احتبستَ عنَّا حتىٰ ظننَّا أنَّهُ قدْ حدثَ حدثٌ ، قالَ : « لمْ يحدثْ إلاَّ خيرٌ ، إنَّ ربي عزَّ وجلَّ وعدَني أنْ يدخلَ مِنْ أمَّتي الجنَّةَ سبعينَ ألفاً لا حسابَ عليهِمْ ، وإنِّي سألتُ ربي في هـٰذهِ الثلاثةِ الأيامِ المزيدَ ، فوجدتُ ربي ماجداً واجداً كريماً ، فأعطاني معَ كلِّ واحدٍ مِنَ السبعينَ ألفاً سبعينَ ألفاً » .

قالَ : « قلتُ : يا ربِّ ؛ وتبلغُ أمَّتي هـٰذا ؟ قالَ : أكملُ لكَ العددَ مِنَ الأعرابِ »(٢) .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرضَ لي جبريلُ في جانبِ الحرَّةِ فقالَ : بشِّرْ أمَّتَكَ أنَّهُ مَنْ ماتَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخلَ

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٥٢) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١/ ٤٢٩) .

الجنَّةَ ، فقلتُ : يا جبريلُ ؛ وإنْ سرقَ وإنْ زنى ؟ قالَ : نعمْ ، وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ، قلتُ : وإنْ سرقَ وإنْ زنى ؟ قالَ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ، قلتُ : وإنْ سرقَ وإنْ زنى ؟ قالَ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ وإن شربَ الخمرَ »[١] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ ؟ فقالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وإنْ رغِمَ أنفُ أبي الدرداءِ »[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . دُفعَ إلىٰ كلِّ مؤمنٍ رجلٌ مِنْ أهلِ المللِ فقيلَ لهُ : هـٰذا فداؤُكَ مِنَ النَّارِ »[٣] .

وروىٰ مسلمٌ في « الصحيحِ » عنْ أبي بردةَ : أنَّهُ حدَّثَ عمرَ بنَ عبدِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٣) ، ومسلم (٩٤/ ٣٣) .

(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٤٩٧) ، وفي (ب) : (أبو ذر) بدل (أبو الدرداء) وهي رواية البخاري (٥٨٢٧) ومسلم (٩٤) ولفظهما : « ما من عبد قال : لا إلـٰه إلا الله ثم مات علىٰ ذلك . . إلاَّ دخل الجنة ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق علىٰ رغم أنف أبي ذرٍّ » .

(٣) رواه مسلم (٢٧٦٧) بنحوه .

العزيزِ عنْ أبيهِ أبي موسىٰ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا يموتُ رجلٌ مسلمٌ إلاَّ أدخلَ اللهُ تعالىٰ مكانَهُ النَّارَ يهوديّاً أو نصرانيّاً » .

فاستحلفَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : باللهِ الذي لا إلـٰهَ إلاَّ هوَ ثلاثَ مرَّاتٍ ؛ أنَّ أباهُ حدَّثَهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحلفَ لهُ(١) .

ورُوي أنَّهُ وقفَ صبيٌّ في بعضِ المغازي يُنادىٰ عليه فيمَنْ يزيدُ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ، فبصرَتْ بهِ امرأةٌ في خباءِ القومِ ، فأقبلَتْ تشتدُّ ، وأقبلَ أصحابُهَا خلفَها ، حتىٰ أخذَتِ الصبيَّ وألصقَتْهُ إلىٰ بطنِها ، ثمَّ ألقَتْ ظهرَها على البطحاءِ وجعلَتْهُ علىٰ بطنِها تقيهِ الحرَّ وقالَتْ : ابني ابني ، فبكى النَّاسُ وتركوا ما هُمْ فيهِ ، فأقبلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتىٰ وقفَ عليهِمْ ، فأخبروهُ الخبرَ ، فسُرَّ برحمتِهِمْ ثمَّ بشَّرَهُمْ فقالَ : « أعجبتُمْ منْ رحمةِ هـٰذهِ لابنِها ؟ » قالوا : نعمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ أرحمُ بكُمْ جميعاً مِنْ هـٰذهِ بابنِها » .

فتفرَّقَ المسلمونَ علىٰ أفضلِ السرورِ وأعظمِ البشارةِ(٢) .

فهـٰذهِ الأحاديثُ وما أوردناهُ في كتابِ الرجاءِ ، يبشِّرُنا بسعةِ رحمةِ اللهِ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٦٧/ ٥٠) .

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع اختلاف .

وقد ختم المصنف كتابه بهـٰذا الحديث العظيم الوقع في القلوب لأمور : =

تعالىٰ ، فنرجو اللهَ تعالىٰ ألاَّ يعاملَنا بما نستحقُّهُ ، ويتفضَّلَ علينا بما هوَ أهلُهُ بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ورحمتِهِ .

* * *

تمّ كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو آخر ربع المنجيات وآخر كتاب إحياء علوم الدّين

ولله الحمد والمنّة أوّلًا وآخرًا

والصّلاة علىٰ سيّدنا محمّدٍ النّبيّ وآله وصحبه أجمعين وسلّم تسليمًا

= منها : اتفاق البخاري ومسلم علىٰ إخراجه في كتابيهما ؛ ففيه نوع تبرك .

ومنها : أنه أعظم دليل علىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ ، ولله در القائل : [من السريع]

لم لا نرجِّي العفو من ربنا ... أم كيف لا نطمع في حلمه
وفي الصحيحينِ أتىٰ أنَّهُ ... بعبده أرأفُ من أمِّهِ

ومنها : حصول ذلك لعامة المؤمنين ، أو لعامة الخلق .

ومنها : التلميح بقوله : « فتفرق المسلمون » إلىٰ ختم الكتاب ؛ فإنه إذا فرغ من شيء . . تفرق عنه .

ومنها : حسن التفاؤل بقوله : « أفضل السرور وأعظم البشارة » فيكون حال مطالع هـٰذا الكتاب وكاتبه وخادمه مختتماً بأفضل السرور ، منتهياً بأعظم البشارة . « إتحاف » (١٠/ ٥٧١) .

مُحتوى الكتاب
رُبعُ المُنجِيات/ القِسمُ الثّالثُ

كتاب النية والإخلاص والصدق ٧

الباب الأول: في النية ١١
بيان فضيلة النية ١١
بيان حقيقة النية ٢٠
ـ معنى الإرادة ٢٠
ـ الانتهاض للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين ٢١
ـ أقسام الباعث من حيث الانفراد والتأثير ٢٢
ـ تجرد الباعث ٢٢
ـ مرافقة البواعث ٢٢
ـ المشاركة ٢٣
ـ المعاونة ٢٣
بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم: «نية المؤمن خير من عمله» ٢٥
ـ سبب كون النية خيراً من العمل ٢٦
ـ معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «من هم بحسنة فلم يعملها.. كتبت
له حسنة» ٣٠

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية ٣١
ـ تضاعف الفضل بكثرة النيات الحسنة ٣٦
ـ **تحريجة**: كيف يتطيَّبُ لله والطيب من حظوظ النفس؟ ٤٠
بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار ٤٧
ـ النِّيَّة هي إجابة الباعث ٤٨
ـ امتناع جماعة من السلف عن بعض الطاعات إذ لم تحضرهم نيّة ٤٩
ـ انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى ٥١
ـ نيّات الناس في الطاعات متفاوتة بتفاوت الدرجات ٥٢
الباب الثاني: في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ٥٦
فضيلة الإخلاص ٥٦
بيان حقيقة الإخلاص ٦٦
ـ يتكدر صفو العمل بكل ما تستريح إليه النفس ٦٨
ـ علاج الإخلاص ٧٠
بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص ٧٣
ـ الالتفات إلى الإخلاص عجب ٧٣
ـ الإخلاص المطلق هو الخلوص من حظوظ النفس العاجلة والآجلة . . . ٧٤
ـ **تحريجة**: كيف يتأتَّى الإخلاص المطلق والبراءة من الحظوظ صفة
إلهية يكفر مدعيها؟ ٧٤
بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص ٧٨
بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به ٨٣

ـ الحكم على العمل المشوب منوط بقوة الباعث ٨٤
ـ تحريجة: الآيات والأخبار تدلُّ على أن شوب الرياء محبطٌ ٨٦
الباب الثالث: في الصدق وفضيلته وحقيقته ٩٢
فضيلة الصدق ٩٢
ـ ثلاث خصال إذا صحَّت ففيها النجاة ٩٤
بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه ٩٧
ـ كمال صدق اللسان ٩٨
ـ ما رُخِّص فيه بالنطق على وفق المصلحة ٩٩
ـ العبد عبدٌ لما تقيَّد به ١٠٠
ـ مقام الحرِّيَّة ١٠٠

كتاب المراقبة والمحاسبة ١١٧

المقام الأول من المرابطة: المشارطة ١٢٢
ـ تفريغ ساعة بعد الصبح لمشارطة النفس ١٢٣
ـ وصيَّة العبد لنفسه في أعضائه السبعة ١٢٦
ـ وصيَّة العبد لنفسه في وظائف الطاعات ١٢٧
ـ المشارطة محاسبة قبل العمل ١٢٨
المرابطة الثانية: المراقبة ١٣١
ـ فضيلة المراقبة ١٣٢
بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها ١٣٨

- النظر للمراقبة قبل الشروع في العمل ١٤٣
- من التوفيق التوقف عند الاشتباه والحيرة ١٤٩
- المراقبة في الطاعة والمعصية والمباح ١٥٣
- أقسام الناس في مأكلهم ومشربهم ١٥٥
المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل ١٥٨
- فضيلة المحاسبة ١٥٨
بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل ١٦٣
المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها ١٦٦
المرابطة الخامسة: المجاهدة ١٧٣
- **تحريجة**: كيف السبيل لمعالجة نفس لا تطاوع على المجاهدة؟ ١٧٤
- أوصاف المجتهدين وفضائلهم ١٧٥
- نبذة من أحوال النساء المجتهدات ١٩٦
المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها ٢٠٦

كتاب التفكر ٢٢٥

فضيلة التفكر ٢٣٠
بيان حقيقة الفكر وثمرته ٢٣٩
- معنى التذكر والاعتبار والنظر ٢٣٩
- الفرق بين التذكر والتفكر ٢٤٠
- طريق استثمار العلوم ٢٤١

- ثمرة الفكر ٢٤٢
- درجات تغيُّر الحال بالفكر ٢٤٣
بيان مجاري الفكر ٢٤٥
- تفكر الإنسان في صفات نفسه وأفعاله ٢٤٦
- ما يجب التفكر فيه من المكاره والمحبوبات ٢٤٧
- أنواع المكاره والمحبوبات ٢٤٧
- **النوع الأول**: التفكر في المعاصي ٢٤٨
- **النوع الثاني**: التفكر في الطاعات ٢٤٩
- **النوع الثالث**: التفكر في الصفات المهلكة ٢٥١
- **النوع الرابع**: التفكر في المنجيات ٢٥٣
- أنفع التفكرِ التفكرُ في القرآن والسنة ٢٥٥
- غاية المطلب الفناء في الواحد الحقِّ ٢٥٦
- ما ينبغي النظر فيه من المهلكات والمنجيات ٢٥٨
- ما لا يخلو العالم الورع في الغالب عنه من الآثام ٢٥٩
- لا مطمع للعالم في سلامة العوام ٢٦٠
- تفكُّر العامة ينبغي أن يكون بتقوية الإيمان بالحساب ٢٦٣
- التفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ٢٦٤
- التفكر في ذات الله وصفاته ومعاني أسمائه ٢٦٤
- النظر في الذات يورث الحيرة والدهش ٢٦٥
- النظر في أفعال الله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه ٢٦٦

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى ٢٦٨
ـ أقسام الموجودات المخلوقة من حيث إمكان التفكر فيها ٢٦٨
ـ كيفية التفكر في بعض الآيات ٢٦٩
ـ من آياته خلق الإنسان من نطفة ٢٧٠
ـ من آياته خلق الأرض ٢٨١
ـ **تحريجة**: إنما اختلاف الأشجار والنبات باختلاف البذور والأصول .. ٢٨٢
ـ من آياته المعادن المودعة في الأرض ٢٨٤
ـ من آياته تنوع الحيوانات ٢٨٥
ـ من آياته البحار المكتنفة لأقطار الأرض ٢٨٨
ـ من آياته الهواء ٢٩٢
ـ من آياته ملكوت السماوات ٢٩٥

كتاب ذكر الموت وما بعده ٣٠٧

الشطر الأول: في مقدمات الموت وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب ٣١٢
الباب الأول: في فضل ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره ٣١٣
ـ أقسام الناس في ذكرهم للموت ٣١٣
بيان فضل ذكر الموت كيفما كان ٣١٦
بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب ٣٢٣
ـ أوقع طريق في ذكر الموت ٣٢٣

الباب الثاني: في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته ٣٢٦
فضيلة قصر الأمل ٣٢٦
بيان السبب في طول الأمل وعلاجه ٣٤١
ـ السبب الأول: حبُّ الدنيا ٣٤١
ـ السبب الثاني: الجهل ٣٤٢
ـ علاج طول الأمل ٣٤٣
بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره ٣٤٥
بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير ٣٤٩
الباب الثالث: في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت ٣٥٧
ـ آلام سكرات الموت ٣٥٧
ـ دواهي الموت ٣٦٦
ـ مشاهدة ملك الموت ٣٦٦
ـ مشاهدة الملكين الحافظين ٣٦٨
ـ مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ٣٦٩
بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت ٣٧٢
ـ لا يلحُّ الملقِّن في التلقين ٣٧٣
ـ حسن الظن بالله ٣٧٤
بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها .. ٣٧٧

الباب الرابع: في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ٣٨٤
وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٨٤
ـ وصيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٨٨
ـ وصيّة النبيِّ صلى الله عليه وسلم بتجهيزه والصلاة عليه ٣٨٩
ـ أمر النبيِّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالصلاة بالناس ٣٩١
ـ اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٩٢
ـ موقف الصحابة حين سماعهم الخبر ٣٩٦
ـ خطبة سيدنا أبي بكر ٤٠٠
ـ غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٠٢
وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٤٠٤
ـ استخلافه ووصيته لعمر رضي الله عنهما ٤٠٥
وفاة عمر رضي الله عنه ٤٠٨
ـ استئذان سيدنا عمرَ أن يدفن بجوار صاحبيه ٤٠٩
ـ وصيّة سيدنا عمر رضي الله عنه ٤١١
وفاة عثمان رضي الله عنه ٤١٣
وفاة علي رضي الله عنه ٤١٦
وفاة الحسن رضي الله عنه ٤١٧
وفاة الحسين رضي الله عنه ٤١٧
الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين ٤١٩

ـ كلام سيدنا معاوية رضي الله عنه ٤١٩
ـ كلام عبد الملك بن مروان ٤٢٠
ـ كلام عمر بن عبد العزيز ٤٢١
بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين ٤٢٥
الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور ٤٣٦
ـ آداب حضور الجنائز ٤٣٨
بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور ٤٤١
أبيات وجدت مكتوبة على القبور ٤٤٩
بيان أقاويلهم عند موت الولد ٤٥٣
ـ ما ورد في موت الوالد من الثواب ٤٥٣
ـ دعاء الوالد لولده عند الموت ٤٥٤
بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به ٤٥٦
ـ حكم زيارة النساءِ القبورَ ٤٥٧
ـ زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ٤٥٨
ـ آداب زيارة القبور ٤٥٩
ـ استئناس الموتى بالزيارة ٤٥٩
ـ استحباب تلقين الميت بعد الدفن ٤٦٢
ـ قراءة القرآن على القبور ٤٦٣

ـ المقصود من زيارة القبور ٤٦٤
ـ استحباب الثناء على الميت ٤٦٦
الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور ٤٦٨
بيان حقيقة الموت ٤٦٨
ـ معنى تغيُّر حال الإنسان بالموت ٤٧٠
ـ الأدلة على أن الروح لا تفنى بالموت ٤٧٢
ـ ما ينكشف للمؤمن عقيب الموت ٤٧٧
بيان كلام القبر للميت ٤٨٢
بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ٤٨٥
ـ **تحريجة**: ما وجه تصديق عذاب القبر المخالف للمشاهدة؟ ٤٨٩
ـ مقامات التصديق في عذاب القبر ٤٩٠
ـ **تحريجة**: ما الصحيح من هذه المقامات؟ ٤٩٤
ـ البحث عن تفصيل العقاب والثواب فضول ٤٩٥
بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر ٤٩٦
الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام ٥٠٠
ـ مشاهدة الأنبياء والأولياء عجائب الملكوت ٥٠٠
ـ المشاهدة المناميَّة ٥٠١
ـ اشتغال القلب حجاب عن مطالعة عالم الملكوت ٥٠٣

ـ النوم يرفع الحجاب عن القلب ٥٠٣
بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة ٥٠٨
بيان منامات المشايخ رضي الله عنهم ٥١٢
الشطر الثاني: في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار ٥٢٦
صفة نفخ الصور ٥٢٧
التفكُّر في نفخة الصور ٥٢٩
صفة أرض المحشر وأهله ٥٣٢
صفة العرق ٥٣٦
صفة طول يوم القيامة ٥٣٩
صفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها ٥٤٢
ـ أسماء يوم القيامة ٥٤٤
صفة المساءلة ٥٤٧
ـ سؤال الأنبياء ٥٤٨
ـ وصف الخلائق في موقف العرض ٥٤٨
ـ سؤال الله تعالى الخلق واحداً واحداً ٥٥٠
ـ ستر الله تعالى على المؤمن يوم العرض ٥٥١
صفة الميزان ٥٥٦
ـ أقسام الناس بعد السؤال ٥٥٦
صفة الخصماء ورد المظالم ٥٥٩

ـ المحاسبة في الدنيا حبل النجاة من حساب الآخرة ٥٥٩
ـ إنما النجاة بالتوبة وردّ المظالم ٥٥٩
ـ سبيل من كثرت مظالمه وعسر عليه استحلالها ٥٦٤
صفة الصراط ٥٦٨
ـ أهوال الصراط ٥٦٨
ـ من خاف أهوال القيامة في الدنيا أمنها يومئذ ٥٧٢
ـ محبة النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين سبب لنيل شفاعتهم ٥٧٣
صفة الشفاعة ٥٧٤
ـ شواهد الشفاعة في القرآن والأخبار ٥٧٤
صفة الحوض ٥٨٢
القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها ٥٨٥
ـ أودية جهنم وشعابها ٥٨٧
ـ شدَّة حرِّ جهنم ٥٨٩
ـ طعام أهل النار وشرابهم ٥٩١
ـ حيَّات جهنَّم وعقاربها ٥٩٤
ـ عظم أجسام أهل النار ٥٩٥
ـ بكاء أهل النار وشهيقهم ودعاؤهم ٥٩٦
ـ أعظم ما يلاقيه أهل النار من العذاب ٥٩٨
ـ علامة حسن المورد والمآل ٦٠٠
القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها ٦٠١

- عدد الجنان ٦٠٤
- أبواب الجنة ٦٠٤
- غرف الجنة ٦٠٦
صفة حائط الجنة وأرضها وأشجارها وأنهارها ٦٠٩
صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم ٦١٢
صفة طعام أهل الجنة ٦١٥
صفة الحور العين والولدان ٦١٨
بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت الأخبار بها ٦٢٢
صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى ٦٢٧
باب في سعة رحمة الله تعالى نختم به الكتاب على سبيل التفاؤل بذلك . ٦٢٩
محتوى الكتاب ٦٤٣

طبعة خاصة

بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي

١١١١ ـ ٢٠١١ م

إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدِّد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

مشفوعاً به

«الإملاء على مشكل الإحياء» و«تعريف الأحياء بفضائل الإحياء»

تشرف بخدمته والعناية به
تحقيقاً وضبطاً وتوثيقاً ومراجعة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

المقدمات

دار المنهاج

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

اسم الكتاب : إحياء علوم الدين

المؤلف : الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)

الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

موضوع الكتاب : مبادىء وقواعد الدين الإسلامي

مقاس الكتاب : (٢٤ سم)

تصنيف ديوي الموضوعي : (٢١١)

عدد الأجزاء : (١٠)

عدد المجلَّدات : (١٠)

نوع الورق : شاموا فاخر

نوع التجليد : مجلَّد فني

عدد الصفحات : (٦٧٠٤ صحيفة)

عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني

الطباعة : مطبعة دار لبنان ـ بيروت التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد ـ بيروت

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأيِّ شكلٍ من الأشكال ، أو نسخه ، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكِّن من استرجاع الكتاب أو أي جزءٍ منه ، وكذلك لا يسمح بترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبقاً من الناشر .

9 789953 541501

الرقم المعياري الدولي

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

دار المنهاج

لبنان ـ بيروت ـ فاكس : 786230

دار المنهاج للنشر والتوزيع
لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب
عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين
عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة

هاتف 6570628 ـ 6510421

جدة

مكتبة الشنقيطي

هاتف 6894558 ـ فاكس 6893638

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي

هاتف 5570506 ـ 5273037

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز

هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي

هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان

هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226

الطائف

مكتبة المزيني

هاتف 7365852

الدمام

مكتبة المتنبي

هاتف 8413000 ـ فاكس 8432794

الرياض

دار التدمرية

هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130

الرياض

مكتبة الرشد

هاتف 2051500 ـ فاكس 2052301

الرياض

مكتبة جرير

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

هاتف 4626000 ـ فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان

وجميع فروعها داخل المملكة

هاتف 4654424 ـ فاكس 2011913

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

فيرجن وفروعها في العالم العربي

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت
هاتف 417130 ـ فاكس 418130

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق ـ المنامة
هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي
هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري ـ دبي
هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
هاتف 2211949 ـ فاكس 2225137

دولة الكويت

مكتبة دار البيان ـ حَوَلي
هاتف 22616490 ـ فاكس 22616490

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي
هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

جمهورية مصر العربية

دار السلام ـ القاهرة
هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز ـ القاهرة
هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم ـ بيروت
هاتف 785107 ـ فاكس 786230

مكتبة التمام ـ بيروت
هاتف 707039 ـ جوال 03662783

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء
هاتف 022306240 ـ فاكس 022447666

دار الأمان ـ الرباط
هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

دولة قطر

مكتبة الثقافة ـ الدوحة

هاتف 44421132 ـ فاكس 44421131

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس ـ عمّان

هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق

هاتف 2235402 ـ فاكس 2242340

الجمهورية التونسية

الدار المتوسطية للنشر ـ تونس

هاتف 70698880 ـ فاكس 70698633

جمهورية الجزائر

دار البصائر ـ الجزائر

هاتف 773627 ـ فاكس 773625

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 48052928 ـ فاكس 48052997

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160600020

جمهورية الهند

دار الكتاب العربي

Kottakkal. Malappuram

Mobile 9846161784

انكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 00441217739309 ـ جوال 00447877737395

جميع منشوراتنا متوافرة على

Furat

فرات

Furat.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

nwf.com

نيل وفرات.كوم

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْأٓخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ

الإهداء

إلى من يريد تصحيح التوبة ، والانخراط في سلك الصالحين .

إلى من يريد الاتصاف بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود .

إلى من يريد الرقي إلى مراتب المعالي ، والاغتراف من معين السلف الصالح .

إلى من يريد التغيير والإصلاح (١) ، والتأثير في نفسه وفي بيته وفي محيطه .

إلى كل باحث منصف يلتمس النور في القرن الواحد والعشرين .

نهدي لهم جميعاً :

إحياء علوم الدين

الكتاب الجامع لعلوم الدنيا وعلوم الآخرة

من كلام الله سبحانه وتعالى ، وسنة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه
وأقوال العلماء العاملين الدعاة إلى سبيل الحق

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

الناشر

جدة في ٢ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ
٥ أيار - مايو ٢٠١١ م

---

(١) اقتباساً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

قالوا في الإمام الغزاليّ

- أبو حامد الغزاليّ رضي الله عنه مجدّد أمر الدّين في المئة الخامسة .

الإمام الحافظ ابن عساكر

- صنّف الكتب الحسان في الأصول والفروع ، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها .

الإمام ابن الجوزي

- من نظر في كتب الإمام الغزاليّ رحمه الله ، وكثرة مصنّفاته ، وتحقيق مقالاته .. عرف مقداره ، واستحسن آثاره ، واستصغر ما عَظُم من سواه ، وعَظَّم قدره فيما أمدّه الله تعالى به من قوله ، ولا مبالاة بحاسدٍ قد تعاطى ذمّه ، أو معاندٍ أبعد الله تعالى عن إدراك معاني كلامه فهمه .

الإمام القسطلاني

- لا يصل إلى معرفة علم الغزاليّ وفضله إلا من بلغ ـ أو كاد يبلغ ـ الكمال في عقله .

الإمام السبكي

○ الغزاليّ هو الشّافعيّ الثّاني .

محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي

○ محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم سيّد الأنبياء ، ومحمّد بن ادريس رضي الله عنه سيّد الأئمة ، ومحمّد بن محمّد بن محمّد الغزاليّ رحمه الله سيّد المصنّفين .

الإمام اسماعيل بن محمد الحضرمي

○ هو سيّد المصنِّفين عند المنصفين ، وحجّة الإسلام عند أهل الاستسلام لقبول الحقّ من المحقِّقين في جميع الأقطار والجهات .

الإمام اليافعي

○ أبو حامد ، إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربّانيّ الأمّة بالاتّفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين أوانه ، كان شديد الذّكاء ، قويّ الإدراك ، ذا فطنةٍ ثاقبةٍ ، وغوصٍ على المعاني .

الإمام الذهبي

○ أبو حامد الغزاليّ ، حجّة الإسلام ، ومحجّة الدّين الّتي يُتوصّل بها إلى دار السّلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرِّز في المنقول منها والمفهوم .

الإمام السبكي

○ الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، صاحب التصانيف والذكاء المفرط.

الإمام اليافعي

○ كان أفقه أقرانه وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، كلمته شهد بها الموافق والمخالف، وأقرّ بحقيّتها المعادي والمحالف.

الإمام السبكي

○ أبو حامد الغزاليّ، حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدّين، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً، وخاطراً وذكاءً وطبعاً.

الإمام الحافظ عبد الغافر الفارسي

○ ترك الدّنيا وراء ظهره، وأقبل على الله يعامله في سرّه وجهره.

الإمام السبكي

○ الغزاليّ إمام باسمه تنشرح الصّدور، وتحيا النّفوس، وبرسمه تفتخر المحابر، وتهتزّ الطّروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرّؤوس.

الإمام ابن العماد

○ الغزالي بحرٌ مغدِق .

إمام الحرمين الجويني

○ كان رضي الله عنه ضرغامًا ، إلّا أنّ الأسود تتضاءل بين يديه وتتوارى ، وبدرًا تمامًا ، إلّا أنّ هداه يشرق نهارًا ، وبشرًا من الخلق ، ولكنّه الطّود العظيم ، وبعضَ الخلق ، لكن مثلما بعض الحجر الدّرّ النّظيم .

الإمام السبكي

○ أبو حامد الإمام الفقيه ، والمتكلّم النّظّار ، المصنّف الصّوفيّ .

الإمام النووي

○ حجّة الإسلام زين الدّين الطّوسيّ ، الفقيه ، لم يكن للطّائفة الشّافعيّة في آخر عصره مثله .

مضى وأعظم مفقود فجعتُ به مَن لا نظير له في النّاس يخلفه

الإمام ابن خلكان

○ أحد أئمّة الشّافعيّة في التّصنيف والتّرتيب ، والتّقريب والتّعبير ، والتّحقيق والتّحرير .

الإمام ابن كثير

○ شاع ذكره في البلاد، واشتهر فضله بين العباد، واتّفقت الطّوائف على تبجيله وتعظيمه وتوقيره وتكريمه، وخافه المخالفون، وانقهر بحججه وأدلّته المناظرون وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين، وقام بنصر السّنّة وإظهار الدّين، وسارت مصنّفاته في الدّنيا مسير الشّمس في البهجة والجمال، وشهد له المخالف والموافق بالتّقدّم والكمال.

الإمام ابن النجار

○ كان رضي الله تعالى عنه رفيع المقام، شهد له بالصّدّيقيّة الأولياء الكرام، انتشر فضله في الآفاق، تميّز بكثرة التّصانيف وحسنها على العلماء، وبرع في الذّكاء وحسن العبارة وسهولتها وأيّد حتّى صار إفحام الفِرَق عنده أسهل من شرب الماء.

الإمام اليافعي

❋ ❋ ❋

قالوا عن « إحياء علوم الدّين »

○ كاد « الإحياء » أن يكون قرآناً يُتلى .

الإمام النووي

○ وأمّا مصنّفاته .. فمنها كتاب « إحياء علوم الدّين » وهو من أجلّ الكتب وأعظمها ، حتّى قيل فيه : إنّه لو ذهبت كتب الإسلام وبقي « الإحياء » لأغنى عمّا ذهب .

الإمام الصفدي

○ الإحياء ديوان الإسلام .

الإمام السهروردي

○ « الإحياء » مبنيّ على : إذا صلحت صلح الجسد كلّه .

الإمام ابن خلكان

○ هو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ، ليهتدي بها كثير من الخلق ، وقلّما ينظر إليه ناظر إلّا وتيقّظ به في الحال .

الإمام السبكي

○ ومنها «إحياء علوم الدين»، وهو من أنفس الكتب وأجملها.

الإمام ابن خلكان

○ وكتاب «الإحياء»، وهو الأعجوبة العظيم الشأن.

الإمام ابن قاضي شهبة

○ «إحياء علوم الدين» لا يستغني عنه طالب الآخرة.

الإمام السبكي

○ وعليك إن أردت أن يظهر لك الحق وأن تعمل بالصدق بمطالعة «الإحياء».

الإمام ابن حجر الهيتمي

○ والله لو بعث الله الأموات لما أوصوا الأحياء إلا بما في «الإحياء»

العلامة بكري محمد شطا المكي

○ كتاب «الإحياء» يورثك العلم.

الإمام أبو الحسن الشاذلي

○ «الإحياء» من أشرف مصنفاته، وأشهرها ذكرًا، وأعظمها قدرًا.

الحافظ محمد مرتضى الزبيدي

- لو لم يكن للنّاس في الكتب الّتي صنّفها أهل العلم إلّا « الإحياء » لكفاهم ، وأنا لا أعرف له نظيرًا في الكتب الّتي صنّفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النّقل والنّظر والفكر والأثر غيره .

الإمام السبكي

- لو عدمت كتب مذهب الشّافعيّ .. لاستخرج المذهب من « الإحياء »

* * *

مقدّمات التحقيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الذي فضَّل أولي العلم علىٰ من سواهم تفضيلاً ، ورفعهم إلى العلياء ، وسلك بهم المحجة البيضاء .

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين ، سيدنا أبي القاسم الأمين ، الذي قال : « العلماء ورثة الأنبياء »[1] ، وعلىٰ آله الأكرمين ، وصحابته الغرِّ الميامين ، والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين .

أما بعد :

فإنَّ شخصيَّة الإمام الغزالي المجدِّد كانت ولا تزال معترك الأقلام ، وميداناً فسيحاً لجري الألسن في هـٰذا المضمار ، شأنه شأن العباقرة العظام .

فمنذ دوَّى اسمُه في الآفاق ، وسارت مؤلفاتُه مسيرَ الشمس ، وأبهرت مصنفاتُه الخاصَّ والعامَّ . . نُسجت حول شخصيته هالات ، لا سيما وقد ولد في عصر متلاطمٍ بأمواجِ التياراتِ الفكرية .

تفتَّحت عقليَّة هـٰذا الإمام في هـٰذا المحيط الذي يعجُّ بالأعاصير ؛ فوهبه الله تعالىٰ تسديداً في الأقوال ، ونوراً يبصرُ به المنهاج الإلـٰهيَّ ، وفقهاً في الدين .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

فلذلك صار حجَّة الإسلام ، ولسانَ الملَّة ، والذائدَ عن حوزتها ، والمجدِّد لمعالمها ، مستمدّاً من **نصوص التشريع الإسلاميِّ ما يقارع به حجج المشكِّكين والمضلِّين تارةً ، والرد عليهم بطريقتهم تارةً أخرىٰ** .

وهو في الحقيقة شخصيَّةٌ فذَّة صدق من قال فيه : (**الغزالي لا يعرف فضلَه إلاَّ من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله**)(١) .

(ب)

والخلاصة : أن هـٰذه الشخصيَّة التي كان التوفيقُ شعارَها ، والإخلاصُ دثارَها . . **هي من الطراز المحمَّديِّ** .

فقد جاء في سنَّة الحبيب صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إشاراتٌ بيِّناتٌ إلىٰ علم هـٰؤلاء الأصفياء ، وجملٌ واضحاتٌ تنعت هـٰؤلاء القوم .

فقد سُئل صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ قال : « هو نور يقذفه الله تعالىٰ في القلب » ، فقيل : وما علامته يا رسول الله ؟ فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابةُ إلىٰ دار الخلود »(٢) .

وبنظرةٍ فاحصةٍ إلىٰ سيرة هـٰذا الإمام المجدِّد . . ندرك أن هـٰذا الإمام

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٢٠٢) .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

رحمه الله تعالىٰ منخرطٌ في هـٰذا السِّلْك ، يشملُه هـٰذا التفسيرُ النبويُّ بطريقٍ واضحٍ لا لَبْسَ فيها ولا غموض ، حتىٰ قال فيه شيخه إمام الحرمين : (إنه بحرٌ مغدقٌ)(١) .

بل كان يفخر بتلْمذَته علىٰ يديه ، ويعدُّ ذلك من مناقبه ، هـٰذا وهو طالب علم ينادم حلقات الأئمة الأعلام ، ويلازم أولي المعرفة ، حتىٰ بلغ الشأو القصيَّ في العلم والمعرفة ، وتوَّج ذلك بالتنسك الصوفيِّ المستقيم علىٰ هدىً ومعرفةٍ ؛ حتّىٰ أشرقت روحه في صفاء ، وبلغ مراتب قال هو عنها : (لا يصح البوح بها لمن لم يكن من أهلها) .

ولذلك طرح الدنيا وملذاتها ، وقد جمعت له زخارفها تحت قدميه ، فما بهرته مظاهرها ، ولا فتنته شهواتها ؛ لأن روحه تسامت فوق مظاهر المادة .

ويرحم الله تعالى الحافظ العراقي حين قال : (إنه ـ أي : « الإحياء » ـ من أجَلِّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام ، جمعَ فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلىٰ سرائر دقَّت عن الأفهام ، ولم يقتصر فيه علىٰ مجرد الفروع والمسائل ، ولم يبحر في اللُّجَّة بحيث يتعذَّر الرجوع إلى السَّاحل ، بل مزج فيه عِلْمَي الظاهر والباطن) .

بل ذكر التاج السبكي رحمه الله تعالىٰ في « الطبقات » عن قول بعض

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ١٩٦) .

المحققين : (لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره . . لكفىٰ)[1] .

ولا نريد الاسترسال في وصف « الإحياء » ؛ فإن هـٰذا سيجعل المقال بطيناً ، **ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد** .

(ج)

ولئن كان بعض المتقدِّمين والمتأخِّرين أسرفوا في الطَّعن علىٰ هـٰذا الإمام رحمه الله تعالىٰ ، ونسبوه إلى الجهل بالسُّنَّة النبويَّة ، وبأنه حاطب ليل ، وجروا في هـٰذا الميدان مليّاً . . **إلا أن هـٰذا الطَّعن في الحقيقة لبسَ عباءة الإسراف ، وعمامةَ التحامل** .

ذلك لأنه وإن قال هو عن نفسه في كتابه « قانون التأويل » : (بضاعتي في علم الحديث مزجاة)[2] ، إلا أن هـٰذا منه رحمه الله تعالىٰ **تواضعٌ وتبيانٌ** أنه ليس متبحراً فيه كسائر العلوم الأخرىٰ ، وهـٰذا مجردُ تقليل لشأنه فيه ، واعترافٌ بالفضل لأهل الاختصاص ، وإلا . . **فإن الواقعَ العمليَّ الذي شهد به الحافظ العراقيُّ الذي خرج أحاديثه ـ وهو أعرف بها من غيره ـ أن في « الإحياء » آلاف الأحاديث الصحيحة والحسنة التي استشهد بها الغزاليُّ** ،

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٢٥٢) .

(٢) قانون التأويل (ص ٣٠) .

وتسرَّبت بعضُ الأحاديث الضعيفة وقليلٌ جدّاً دونها في فضائل الأعمال .

وقد قال إمام المحدثين أحمد ابن حنبل رضي الله عنه : (**إذا روينا في الحلال والحرام . . تشدَّدنا ، وإذا روينا في فضائل الأعمال . . تساهلنا**)[1] .

وهل الذي يروي في كتبه آلاف الأحاديث تكون بضاعته مزجاة ، كلا والله ، ولكن هـٰذا هو عينُ عبقريَّة هـٰذا الإمام المجدِّد .

ومن الأدلَّة اليقينيَّةِ علىٰ بصر الإمام بالسُّنَّة النبويَّة أن كتابه « الوجيز » ـ وهو مختصرٌ فقهي ـ معظم عباراته تشير إلىٰ أحاديث نبويَّة ، بل في كثيرٍ من المواطن يذكر الحكم الفقهيَّ بعبارة الحديث نفسِه ، وهـٰذا ما دفع الإمام أبا القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفىٰ سنة (٦٢٣هـ) ، إلىٰ أن يُعنىٰ ببيان الأحاديث التي أشار إليها الغزاليُّ أو اعتمد عليها في « وجيزه » ، وهو كتابه الشهير المفيد : « العزيز شرح الوجيز »[2] .

(د)

وقد انعقدت كلمة الأكابر أن الإمام الغزاليَّ رحمه الله تعالىٰ **هو مجدِّدُ**

---

(١) انظر « جامع الأصول » (١/ ١٠٩) .

(٢) قال ابن السبكي في « طبقات الشافعية » (٨/ ٢٨١) : (تحرز بعض أصحابنا عن تسميته بـ« العزيز » أي : لأن العزيز اسم من أسماء الله الحسنىٰ ، واختار تسميته بـ« فتح العزيز ») .

القرن الخامس بلا منازع ؛ لأنه الإمام الذائع الصِّيت بلا مدافع ، وقد صحَّ عنه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إن الله تعالىٰ يبعث لهـٰذه الأمة علىٰ رأس كلِّ مئةِ سنةٍ من يجدِّدُ لها دينها »[1] .

قال أهل العلم : إن معنى التَّجديد : **هو أن يبيِّن المجدِّدُ السُّنَّة من البدعة ، ويؤيِّد أهل العلم والاتباع ، ويذل أهل الضلال والابتداع** .

وهـٰذه هي سمات الإمام الغزالي التي تحقق بها ، وقد أشار إلىٰ تجديده واتفاق الكلمة علىٰ ذلك الإمامُ السيوطيُّ في أرجوزته المسماة « تحفة المهتدين بأخبار المجدِّدين » فقال : [من الرجز]

وَٱلْخَامِسُ ٱلْحَبْرُ هُوَ ٱلْغَزَالِي ... وَعَـدُّهُ مَـا فِيـهِ مِـنْ جِـدَالِ

وقد كان الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ يرىٰ أنه أحد المجدِّدين كما نلمح ذلك في قوله وهو يستعرض الأسباب التي دعته إلى العودة للتدريس بعد انقطاعه عنه فيقول : (وانضاف إلىٰ ذلك منامات من الصَّالحين كثيرةٌ متواترةٌ ، بأن هـٰذه الحركة مبدأ خير ورشد ، **قدَّرها الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ رأس هـٰذه المئةِ** ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه علىٰ رأس كلِّ مئة سنة ، فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظَّنِّ بسبب هـٰذه الشهادات ، ويسَّر الله تعالى الحركة إلىٰ نيسابور للقيام بهـٰذا المهمِّ)[2] .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٢٩١) ، والحاكم (٤/ ٥٢٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) المنقذ من الضلال (ص ٢٩) .

وبنظرةٍ عجلىٰ إلىٰ منهج الإمام بصورة عامة في مؤلفاته التي يقارع فيها فكر أهل الأهواء بالعقل والنقل . . نجده في هـٰذا الميدان يدرأ التعارض بين العقل والنقل ، ويظهر بفقهه العميق التلاحم بينهما ؛ وهـٰذا من المطالب السامية لمن يحمل هـٰذا العلم الشرعي ؛ ورداً على أهل البدع القائلين بوجود التباين بين النقول وما تقتضيه الأفهام والعقول .

وهـٰذا أحد العوامل التي جعلته أهلاً للتلقب بحجة الإسلام .

ولذلك فإن التوافق بين العقل والنقل في سفرنا هـٰذا نجده ماثلاً في كثيرٍ من نصوصه .

وهـٰذه الميزة التي انفرد بها الإمام الغزالي عن كثير من أضرابه واحدةٌ من كثير من مآثره الجليلة ومناقبه النبيلة التي رفعته علىٰ بساط العبقرية ، ومنحته هـٰذه المكانة السامية .

وهـٰذا نص للإمام من عشرات النصوص المنتشرة في ثنايا مؤلفاته ، قال رحمه الله تعالىٰ : (لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين العقل والدين ، أو بين العقل والشرع ؛ فالعقل كالأُسّ ، والشرع كالبناء ، **ولا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر ، فلا نفع في أساس بدون بناء ، ولا ثبات لبناءٍ بدون أساس**)[1] .

---

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس (ص ٥٧) .

(هـ)

عاش الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ في عصرٍ من عصور الإسلام الذَّهبيَّة ؛ خصوصاً في المجالات العلمية ؛ حيث كانت المدارس المتنوِّعة والمتخصِّصة ، ومنها المدارس النظامية نسبةً إلىٰ نظام الملك .

وكان الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ أيام إقامته بالمعسكر يحضر مجلس نظام الملك للمناظرة والدِّفاع عن عقيدة أهل السُّنَّة التي كان النظام القيِّمَ السياسيَّ عليها في عصره .

وكان نظام الملك سنِّيّاً ، صوفيّاً ، شديد التعلُّق بالصُّوفيَّةِ ، شديدَ التَّعصُّب لهم ولمبادئهم ، مسرفاً أشدَّ الإسراف في البذل عليهم ، وإعداد التكايا لهم وخدمتهم ، وتوفير الفراغ لهم لتعبدهم وصفاء أوقاتهم ، حتىٰ واجه الخليفة بتلك المقولة المأثورة عنه وهو يعاتبه لإسرافه في النَّفقة عليهم وشغله بهم ، فقال له : (**لقد أقمنا لك عباداً بالليل ، لو صاحوا . . لزُلزلت الدُّنيا بخصومك ، ومادت بهم الأرض**) .

والذي يهمنا في هٰذه المقدمة : أن الصُّوفيَّة الحقَّة التي تعشَّقها الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ ، وخالطت شغاف فؤاده . . هي التي بسط طرائقها بعلمه وحكمته ، وأبان للناس أحوالها ، بعيداً عن الغلو والتهالك ، وأحكم لها أصولها ؛ حتىٰ غدت قواعدُها راسيةً ، واستقامت علىٰ يده كعِلْمٍ مؤصَّلٍ يعجُّ بآدابه وسلوكه .

وما أحوجنا في هـٰذا العصر الذي أتخم أهله بالماديّات ، وأشغل أوقاتهم بالملهيات ، وظهر من القلوب الجفاء والقسوة ، وتلاشى الصفاءُ الروحيُّ عند الجمهرة ، ما أحوجنا إلىٰ هـٰذا السِّفْر العظيم : « **إحياء علوم الدين** » **فإنه البلسم لأدْواءِ القلوب ، المقرِّب إلىٰ رضا علاَّم الغيوب** .

ثم إن النفس لتنفر من مهاجمة الأحياء للأموات ، **ولا سيما إن كان المنتقِدون أقل شأناً في العلم من أولـٰئك** ؛ علىٰ حد قول المثل : (من قل علمه . . كثر انتقاده) .

وهـٰذا ليس من فعل أهل المروءات ، ولا هو منهج أهل التقوى الذين امتدحهم التنزيل في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ .

علىٰ أن بعضهم يغرق في عبارات الإمام ويتحير ويقف حمار الشيخ في العقبة ، ومع ذلك يصول بقلمه على الإمام ويجول كأنما هـٰذا من أوجب الواجبات ، **وربما كان الغرض الأوحد طلب الشهرة علىٰ حساب المشهورين** .

(و)

ودار المنهاج التي اضطلعت بإخراج الأسفار النَّفيسة في حُللٍ قشيبةٍ . . لا تزال مشمِّرةً عن ساعد الإنجاز ؛ فهي تخرج لنا جواهر الكتب بين الفينة

والأخرىٰ ، حتىٰ لقد أصبح يُشار إليها بالبنان ، وينوّه بها طلبةُ العلم في كلِّ مكان ، وعلىٰ وجه الخصوص كتب السادة الشافعية .

فقد أخرجت لنا بفضل الله ، ثم بفضل عزمات صاحبها كتباً كانت في الدَّهاليز مطمورةً ، وما نسمع عنها إلا بواسطة المشايخ أو النقل ، فأشرقت بضياء الطباعة ، وازدانت بحُلل التَّحقيق ، وطارت يمنةً ويسرةً ، وتلقَّفها طلبةُ العلمِ في شَغَفٍ ونَهَم ، وأصبح الحلم حقيقةً ، ولا سيَّما وقد أخرجت لنا « **نهاية المطلب** » الحاوي لأصول المذهب وفروعه ، وغيره من الأسفار العظام لأئمة أعلام ؛ كـ« **البيان** » للإمام العمراني ، و« **النجم الوهاج في شرح المنهاج** » للإمام الدميري ، و« **حاشية التَّرْمَسي على المنهج القويم** » في سبع مجلدات ، وغيرها من النفائس .

ولأنَّ « **إحياء علوم الدين** » جامعٌ للفقه والسلوك ، وأسلوبه تبرٌ مسبوك ، والناس في هـٰذه الأيام النَّكدة بحاجة إليه وإلىٰ أمثاله ؛ ليحُدَّ من انجذابهم إلى الماديّات والملذات ، والإعناق ملياً لميدان الشَّهواتِ . . **فإن الدار قامت بخدمة هـٰذه الموسوعة الدِّينيّة خدمةً متميِّزةً تليق بمستواها العلميِّ** ، وتسهِّل على الناظر العثورَ علىٰ ما يريد ، وهي بذلك تسهمُ إسهاماً حقيقياً في نشر الثقافة الإسلاميَّةِ والوعي الدينيِّ .

(ز)

وختاماً : فإن الدار وهي تهدي إلى الأمة الإسلامية هـٰذا السفر النفيس

في عشر مجلدات محققاً علىٰ نحو عشرين مخطوطة جلبت من أصقاع الأرض.. لترجو وتتفاءل أن يكون بروز هـٰذا الكتاب بداية للفرج الإلـٰهي على الأمة الإسلامية التي تئن تحت وطأة الاختلاف والفرقة، وتكالب الأعداء عليهم.

سائلين المولىٰ جل وعلا أن يرفع عنا مقته وغضبه، وأن يهيىء لنا من أمرنا رشداً، ويدفع عنا السوء، ويجنبنا الفتن والمحن، ما ظهر منها وما بطن؛ إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

أبو عبد الباري

محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

سند « إحياء علوم الدين »

أروي كتاب « إحياء علوم الدين » وسائر مؤلفات الإمام الغزالي بالإجازة المعتبرة : عن شيخي المعمر بقية السلف الفقيه الزاهد السيد أبي عبد الله حمود بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن حسين شميلة الأهدل حفظه الله تعالىٰ ونفع به[1] ، عن الشيخ العلامة قاضي المراوعة السيد عبد الرحمٰن بن محمد الأهدل ، عن والده العلامة السيد محمد بن عبد الرحمٰن الأهدل ، والعلامة السيد محمد طاهر بن عبد الرحمٰن الأهدل ، كلاهما عن العلامة الحجة شيخ الإسلام السيد محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل ، عن عمّه العلامة السيد الحسن بن عبد الباري الأهدل ، عن الإمام العلامة محدث اليمن السيد عبد الرحمٰن بن سليمان الأهدل الزبيدي صاحب « النفس اليماني » ، عن إمام المسندين وخاتمة الحفاظ المحدثين السيد أبي الفيض محمد مرتضى بن محمد الزبيدي الحسيني نزيل مصر ، عن العلامة المسند الثقة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد عقيلة المكي ، عن محدث الحجاز المسند أبي الأسرار حسن بن علي يحيى العجيمي ، عن الإمام المسند الوارث صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس القُشَاشي ، عن الإمام

---

(١) لشيخنا العلامة المعمر والفقيه المنور السيد أبي عبد الله حمود أحمد حسين شميلة الأهدل ترجمة ضافية في مقدمة كتاب « إفادة السادة العمد » (ص ٣٥) طبعة دار المنهاج .

المجتهد الشمس محمد بن شهاب الدين أحمد بن حمزة الرملي ، عن شيخ الإسلام القاضي أبي يحيىٰ زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري ، عن إمام الحفاظ والمحدثين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، عن شيخ الإقراء ومسنِد القاهرة أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخي ، عن قاضي القضاة مسنِد الشام الإمام أبي الفضل التقي سليمان بن حمزة بن أحمد المقدسي الحنبلي ، عن المسند الأمين أبي حفص عمر بن كرم الدينوري ، عن الإمام الحافظ المفيد أبي الفرج عبد الخالق بن أحمد اليوسفي البغدادي ، عن المؤلف حجة الإسلام والمسلمين أبي حامد محمد بن محمد الغزالي .

(ح) كما يرويها شيخنا العلامة المعمر السيد حمود بن أحمد بن عبد الرحمـٰن بن حسين شميلة الأهدل حفظه الله تعالىٰ بالإجازة العامة : عن أخيه العلامة السيد أحمد ميقري بن أحمد بن عبد الرحمـٰن حسين بن شميلة الأهدل ، عن العلامة قاضي المراوعة السيد عبد الرحمـٰن بن محمد الأهدل . بالإسناد المتقدم إلى الإمام الغزالي رحمه الله تعالى .

وكتبه

عمر سالم سعيد باجخيف

ترجمة
الإمام المجدِّد ، أعجوبة الزمان ، المتكلِّم النظّار
زين الدين ، أبي حامد
محمّد بن محمّد بن أحمد الطّوسيّ الطّابرانيّ الشّافعيّ
حجّة الإسلام الغزاليّ
رضي الله عنه

(٤٥٠ـ ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ـ ١١١١م)

قال الفقير إلى الله تعالى .. الشّريف محمّد بن الحسن بن عبد الله الحسينيّ الواسطيّ عفا الله عنهما .. في كتابه « المطالب العليّة في مناقب الشّافعيّة » (١) :

منهمُ(٢) الإمامُ حجّةُ الإسلامِ الغزّاليُّ رضيَ اللهُ عنهُ ، القائمُ على رأسِ

---

(١) وهو مخطوط مصور عن نسخة مكتبة فيض الله ، من مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، برقم (١٥٢٥) .

وقد زيد في هـٰذه الترجمة من « تاريخ دمشق » (٥٥/ ٢٠٠) و« طبقات فقهاء الشافعية » لابن الصلاح (١/ ٢٤٩) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٣٢٢) ، و« الوافي بالوفيات » (١/ ٢٧٤) ، و« طبقات الشافعية » للسبكي (٦/ ١٩١) ، و« البداية والنهاية » (١٤/ ١٤) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/ ٦) .

وجديرٌ بالذكر : أن الإمام عبد الغافر الفارسي (ت ٥٢٩هـ) هو أول من ترجم للإمام الغزالي في كتابه « السياق » وهو ذيل على « تاريخ نيسابور » للحاكم ، وهو مضمن بالكامل في ترجمة الإمام الغزالي عند السبكي في « طبقاته » .

(٢) أي : من أئمة الشافعية .

الخمسِ مئةٍ ، المبشَّرُ به في الحديثِ[1] : محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدِ بنِ أحمدَ الطوسيُّ الطابرانيُّ الشافعيُّ ، الإمامُ أبو حامدٍ الغزّاليُّ[2] .

حجَّةُ الإسلامِ والمسلمينَ ، إمامُ أئمَّةِ الدينِ ؛ مَنْ لمْ ترَ العيونُ مثلَهُ لساناً وبياناً ونطقاً ، وخاطراً وذكاءً وطبعاً ، أحدُ الأئمَّةِ في التصنيفِ والترتيبِ والتقريبِ والتعبيرِ والتحقيقِ والتحريرِ .

ولدَ بطوسَ ، سنةَ خمسينَ وأربعِ مئةٍ (٤٥٠هـ) ، وهيَ السنةُ التي ماتَ فيها الماورديُّ وأبو الطيبِ الطبريُّ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ .

وكانَ والدُهُ يغزلُ الصوفَ ويبيعُهُ في دكَّانِهِ بطوسَ ، فلمَّا احتضَرَ . . أوصىٰ بولديهِ (محمدٍ وأحمدَ) إلىٰ صديقٍ لهُ صوفيٍّ صالحٍ .

فعلَّمَهما الخطَّ ، وفنِيَ ما خلَّفَ لهما أبوهما ، وتعذَّرَ عليهِما القوتُ ، فقالَ لهما : أرىٰ لكما أنْ تلجأا إلى المدرسةِ كأنَّكما طالبا علمٍ !!

فصارا إلىٰ مدرسةٍ لطلبِ الفقهِ ، حيثُ قالَ الغزاليُّ رحمه الله تعالىٰ : (فصِرْنا إلى المدرسةِ ، نطلبُ الفقهَ ، ليسَ المرادُ سوىٰ تحصيلِ القوتِ ، فكانَ تعلُّمُنا لذلكَ لا للهِ ، فأبىٰ أن يكونَ إلاَّ للهِ) .

---

(١) الذي أخرجه أبو داوود (٤٢٩١) ، والبيهقي في « معرفة السنن والآثار » (١/٢٠٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اللهَ يبعثُ لهـٰذه الأمةِ علىٰ رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يُجدِّدُ لها دينَها » .

(٢) الغزالي : رُويَ بتشديدِ الزاي ، نسبةً إلىٰ والدِهِ الذي عملَ غزّالاً ، وهـٰذا هو القولُ المشهورُ ، ورويَ بتخفيفِ الزاي ؛ نسبةً إلىٰ غزالةَ كسحابةٍ ، قريةٍ من قرىٰ طوسَ .

فاشتغلَ الغزاليُّ ببلدِهِ طوسَ ، وقطعَ قطعةً كبيرةً في الفقهِ على الإمامِ أحمدَ الراذكانيِّ .

ثمَّ ارتحلَ إلىٰ جرجانَ بعدما اشتدَّ عودُهُ إلى الإمامِ أبي نصرٍ الإسماعيليِّ فأقامَ عندَهُ حتىٰ كتبَ عنهُ « التعليقةَ » .

ثمَّ قدمَ نيسابورَ مختلفاً إلىٰ درسِ إمامِ الحرمينِ أبي المعالي الجوينيِّ في طائفةٍ مِنَ الشبَّانِ مِنْ طوسَ ، وجدَّ واجتهدَ حتَّىٰ تخرَّجَ عنْ مدَّةٍ قريبةٍ ، وبزَّ الأقرانَ ، وحملَ القرآنَ ؛ وصارَ أنظرَ أهلِ زمانِهِ ، وأوحدَ أقرانِهِ في أيامِ إمامِ الحرمينِ .

وكانَ الطلبةُ يستفيدونَ منهُ ، ويُدرِّسُ لهُمْ ويرشدُهُمْ ، ويجتهدُ في نفسِهِ ، وبلغَ الأمرُ بهِ إلىٰ أنْ أخذَ في التَّصنيفِ في حياةِ الإمامِ الجوينيِّ ، فصنَّفَ « المنخولَ » في أصولِ الفقهِ ، فحينَ نظرَ فيهِ شيخُهُ الجوينيُّ قالَ : (دفنْتَني وأنا حيٌّ ، هلاَّ صبرْتَ حتىٰ أموتَ)(١) .

ثمَّ بقيَ كذلكَ إلى انقضاءِ أيامِ الإمامِ الجوينيِّ ، فخرجَ مِنْ نيسابورَ ،

---

(١) ليست هـٰذه العبارة التي قالها الإمام الجويني صادرة عن غيرةٍ علميةٍ كما يتوهم بعض الناس ، وإنما المقصود بيان مدىٰ رسوخ ونبوغ الإمام الغزالي في هـٰذا العلم وتفوقه علىٰ أقرانه ، وهـٰذا تنبيه علىٰ أنه يجب أن يحمل كلام العلماء علىٰ أحسن المحامل تحسيناً للظن فيهم ، وهـٰذا ما صرَّح به السلف الصالح .
وإن من سوء الأدب تسارع بعض أقلام المعاصرين إلى التحدث عن هـٰؤلاء العلماء بكلمات متعرية عن لباس الأدب وإجلال أهل العلم .

وصارَ إلى المعسكرِ ، واحتلَّ مِنْ مجلسِ الوزيرِ نظامِ المُلكِ محلَّ القَبولِ ، وأقبلَ عليهِ الصَّاحبُ لعلوِّ درجتِهِ ، وظهورِ اسمِهِ ، وحسنِ مناظرتِهِ ، وجري عبارتِهِ .

وكانَتْ تلكَ الحضرةُ محطَّ رحالِ العلماءِ ، ومقصدَ الأئمَّةِ الفصحاءِ ، فوقعَتْ للغزاليِّ اتفاقاتٌ حسنةٌ مِنَ الاختلاطِ بالأئمَّةِ ، وملاقاةِ الخصومِ اللُّدِّ ، ومناظرةِ الفحولِ ، ومنافرةِ الكبارِ ، فظهرَ اسمُهُ في الآفاقِ ، وارتفقَ بذلكَ أكملَ الارتفاقِ ، حتىٰ أدَّتْ بهِ الحالُ إلىٰ أنْ رُسمَ للمصيرِ إلىٰ بغدادَ للقيامِ بتدريسِ المدرسةِ الميمونةِ النِّظاميَّةِ بها .

فصارَ إليها سنةَ (٤٨٤هـ) ، وأُعجبَ الكلُّ بتدريسِهِ ومناظرتِهِ ، وما لقيَ مثلَ نفسِهِ ، وتلقَّاهُ الناسُ ، وأُعجبُوا بمناظرتِهِ وفضائلِهِ ، وصارَ بعدَ إمامةِ خراسانَ إمامَ العراقِ .

ثمَّ نظرَ في علمِ الأصولِ وكانَ قدْ أحكمَها ، فصنَّفَ فيهِ تصانيفَ ، أعظمُها « المستصفىٰ » .

وجدَّدَ المذهبَ في الفقهِ ، فصنَّفَ فيهِ تصانيفَ ، مِنْها : « البسيطُ » و« الوسيطُ » و« الوجيزُ » و« الخلاصةُ » .

وسبكَ الخلافَ ، فحرَّرَ أيضاً فيهِ تصانيفَ .

وعلَتْ حشمتُهُ ودرجتُهُ في بغدادَ ، حتىٰ كانَتْ تغلبُ حشمةَ الأكابرِ والأمراءِ ودارِ الخلافةِ .

ثمَّ جاءَتْهُ السعادةُ الحقيقيّةُ ؛ وهيَ العزوفُ عنِ الدنيا والزَّهادةُ فيها . . فانقلبَ الأمرُ مِنْ وجهٍ آخرَ ، وظهرَ عليهِ بعدَ مطالعةِ العلومِ الدقيقةِ وممارسةِ الكتبِ المصنَّفةِ فيها **أنَّهُ سلكَ طريقَ التزهُّدِ والتألُّهِ** ، **وطرحَ الحشمةَ** ، **وتركَ ما نالَ مِنَ الدرجةِ** ، وأخذَ في الاشتغالِ بأسبابِ التقوىٰ وزادِ الآخرةِ ؛ **فخرجَ عنْ جميعِ ما كانَ فيهِ** .

وقصدَ الحجَّ سنةَ (٤٨٨هـ) ، ثمَّ رجعَ إلىٰ دمشقَ سنةَ (٤٨٩هـ) ، وأقامَ بها قريباً مِنْ عشرِ سنينَ بجامعِها بالمنارةِ الغربيّةِ منها ، واجتمعَ بالفقيهِ نصرٍ المقدسيِّ في زاويتِهِ التي تعرفُ اليومَ بالغزاليةِ .

وأخذَ في التَّصانيفِ المشهورةِ التي لمْ يُسبقْ إليها ؛ مثلِ : « إحياءِ علومِ الدينِ » ، والكتبِ المختصرةِ منها ؛ مثلِ « الأربعينَ » ، وغيرِها مِنَ الرسائلِ **التي مَنْ تأمَّلَها . . علمَ محلَّ الرجلِ مِنْ فنونِ العلمِ** .

وما أحسنَ ما قيلَ : (أُحصيَتْ كتبُ الغزّاليِّ التي صنَّفَها ، ووُزِّعَتْ علىٰ عمرِهِ ، فخصَّتْ كلَّ يومٍ أربعُ كراريسَ ، وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ)[1] .

وأخذَ في مجاهدةِ النفسِ ، وتغييرِ الأخلاقِ ، وتحسينِ الشمائلِ ، وتهذيبِ المعاشِ ، فانقلبَ شيطانُ الرعونةِ ، وطَلَبُ الرئاسةِ والجاهِ ، والتخلُّقُ بالأخلاقِ الذميمةِ . . **إلىٰ سكونِ النَّفسِ** ، **وكرمِ الأخلاقِ** ، **والفراغِ عنِ الرسومِ والتَّزييناتِ** ، **والتزيّي بزيِّ الصالحينَ** ، **وقصرِ الأملِ** .

---

(١) بستان العارفين ( ) .

ووقَفَ أوقاتَهُ علىٰ هدايةِ الخلقِ ودعائِهم إلى الزهدِ في الدنيا والعزوفِ عنها، والاستعدادِ للدارِ الآخرةِ الباقيةِ والاشتغالِ بعلومِ المعرفةِ، والانقيادِ لكلِّ مَنْ يتوسَّمُ فيهِ أو يشمُّ مِنْهُ رائحةَ المعرفةِ، حتىٰ فُتحَ لهُ مِنْ ذلكَ أوفرُ نصيبٍ.

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ثمَّ مِنْ بعدِ ذلكَ عادَ إلىٰ وطنِهِ طوسَ ، لازماً بيتَهُ ، مشتغلاً بالتفكُّرِ ، محافظاً علىٰ أوقاتِهِ ، إلىٰ أنْ أتىٰ علىٰ ذلكَ مدةٌ ، وظهرَتْ تلكَ التَّصانيفُ واشتهرَتْ .

ولمْ يزلْ علىٰ ذلكَ حتى انتهَتْ نوبةُ الوزارةِ إلى الأجلِّ فخرِ الملكِ ، جمالِ الشهداءِ تغمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ ، وتزيَّنتْ خراسانُ بحشمتِهِ ودولتِهِ ، وقدْ سمعَ فخرُ الملكِ وتحقَّقَ بمكانِ الغزّاليِّ ودرجتِهِ فحضرَ إليه متبرِّكاً بهِ ، فلمَّا سمعَ كلامَهُ . . استدعىٰ مِنْهُ **ألاَّ يُبْقِيَ أنفاسَهُ وفوائدَهُ عقيمةً لا استفادةَ مِنْ أنوارِها ولا اقتباسَ** ، وألحَّ عليهِ كلَّ الإلحاحِ ، وتشدَّدَ في الاقتراحِ ، إلىٰ أنْ أجابَ إلى الخروجِ وحملَ إلىٰ نيسابورَ ، فأُشيرَ عليهِ بالتدريسِ في المدرسةِ النِّظاميَّةِ بها ، فلمْ يجدْ بدّاً مِنَ القبولِ ، ونوىٰ بإظهارِ ما اشتغلَ بهِ هدايةَ الطالبينَ ، وإرشادَ القاصدينَ معَ جدِّهِ واجتهادِهِ علىٰ ما هوَ عليهِ ممَّا خصَّهُ اللهُ تعالىٰ بهِ مِنْ أنوارِ المعرفةِ .

وكانَ قدِ ابتدأَ أوَّلاً بصحبةِ الشيخِ العارفِ الفضلِ بنِ محمدٍ الفارمَذيِّ (مِنْ أعيانِ تلاميذِ القشيريِّ صاحبِ « الرسالةِ ») وأخذَ مِنْهُ الطريقةَ .

ولمْ يزلْ علىٰ ذلكَ إلىٰ آخرِ عمرِهِ ، فتركَ قبلَ أنْ يُتركَ ، وعادَ إلىٰ بيتِهِ ، واتخذَ في جوارِهِ مدرسةً لطلبِ العلمِ وخانقاه (رباطاً) للصوفيةِ ، وكانَ قدْ وزَّعَ أوقاتَهُ علىٰ وظائفِ الحاضرينَ مِنْ ختمِ القرآنِ ، ومجالسةِ أهلِ القلوبِ ، والقعودِ للتدريسِ ؛ بحيثُ لا تخلو لحظةٌ مِنْ لحظاتِهِ ولحظاتِ مَنْ معَهُ عنْ فائدةٍ ، إلىٰ أنْ أصابَهُ عينُ الزمانِ ، وضنَّتْ بهِ الأيامُ علىٰ أهلِ عصرِهِ ، فنقلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ كريمِ جوارِهِ .

وكانَ خاتمةُ أمرِهِ إقبالَهُ على الأحاديثِ النبويَّةِ كـ« البخاريِّ » و« مسلمٍ » وغيرِهما .

❊ ❊ ❊

وما أحسنَ ما قالَ الإمامُ فخرُ الدينِ الرازيُّ قدَّسَ اللهُ روحَهُ : **(كأنَّ اللهَ جمعَ العلومَ في قبةٍ ، وأطلعَ الغزَّاليَّ عليها)**[1] .

وقالَ بعضُ تلامذتِهِ : رأيتُ حُجَّةَ الإسلامِ الغزَّاليَّ في البريةِ ، وعليهِ مرقعةٌ ، وبيدِهِ ركوةٌ وعكازةٌ ، فقلْتُ لهُ : أليسَ تدريسُ العلمِ ببغدادَ خيراً مِنْ ذا ؟!

قالَ : فنظرَ إليَّ شزراً ، وقالَ : **لما بزغَ بدرُ السعادةِ في سماءِ الإرادةِ ، وجنحَتْ شمسُ الأصولِ إلىٰ معارفِ الوصولِ** :

(من الطويل)

تَرَكْتُ هَوَىٰ لَيْلَىٰ وَسُعْدَىٰ بِمَعْزِلِ ... وَعُدْتُ إِلَىٰ تَصْحِيحِ أَوَّلِ مَنْزِلِ

(١) الوافي بالوفيات (١/ ١٢٠، ٢١٢) .

وَنَادَتْ بِيَ ٱلأَشْوَاقُ مَهْلاً فَهَـٰذِهِ   مَنَازِلُ مَنْ تَهْوَىٰ رُوَيْدَكَ فَٱنْزِلِ
غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلاً دَقِيقاً فَلَمْ أَجِدْ   لِغَزْلِيَ نَسَّاجاً فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

❊ ❊ ❊

وروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله بسنده في كتابه « تبيين كذب المفتري » عن الشيخ الإمام الأوحد زين القراء ، جمال الحرم ، أبي الفتح عامر بن نحام بن عامر العربي الساوي بمكّة حرسها الله قال :

دخلتُ المسجد الحرام يوم الأحد فيما بين الظهر والعصر ، الرابع عشر من شوال سنة خمس وأربعين وخمس مئة . . . وذكر قصته إلىٰ أن قال :

كنتُ أطلب موضعاً أستريح فيه ساعةً علىٰ جنبي ، فدخلتُ الرباط الرامُشتي ، ووقعتُ علىٰ جنبي الأيمن حذاء الكعبة المشرّفة ، مفترشاً يدي تحت خدّي ؛ لكيلا يأخذني النوم ، فتنتقض طهارتي .

ثم قال : فبينا أنا كذلك ؛ إذ طرأ عليّ النعاس فغلبني ، فرأيتُ في المنام عرصة واسعة فيها ناس كثيرون واقفين ، وفي يد كل واحد كتاب مجلّد قد تحلقوا كلهم علىٰ شخص ، فسألت الناس عن حالهم ، وعمّن في الحلقة ، قالوا : **هو رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ** ، وهـٰؤلاء أصحاب المذاهب يريدون أن يقرؤوا مذاهبهم واعتقادهم من كتبهم علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويصحّحوها عليه .

قال : فبينا أنا كذلك أنظر إلى القوم ؛ إذ جاء واحد من أهل الحلقة وبيده

كتاب ، قيل : إنّ هـٰذا الشافعي رضي الله عنه ، فدخل في وسط الحلقة ، وسلّم علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

قال : فرأيتُ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جماله وكماله متلبساً بالثياب البيض المغسولة النظيفة ؛ من العمامة والقميص وسائر الثياب ، علىٰ زي أهل التصوف ، فردّ عليه الجواب ورحب به ، وقعد الشافعي بين يديه ، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده عليه ، وبعد ذلك جاء شخص آخر قيل : هو أبو حنيفة رضي الله عنه وبيده كتاب ، فسلّم وقعد بجنب الشافعي ، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده .

ثم أتىٰ بعده كل صاحب مذهب إلىٰ أن لم يبق إلاّ القليل ، وكل من يقرأ يقعد بجنب الآخر .

فلما فرغوا . . إذا واحد من المبتدعة الملقبة بالرافضة قد جاء وفي يده كراريس غير مجلدة ، فيها ذكر عقائدهم الباطلة ، وهمَّ أن يدخل الحلقة ويقرأها علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فخرج واحد ممن كان مع رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إليه وزجره وأخذ الكراريس ورماها إلىٰ خارج الحلقة ، وطرده وأهانه .

قال : فلما رأيت القوم قد فرغوا وما بقي أحد يقرأ عليه شيئاً . . تقدمت قليلاً وقلت : يا رسول الله ؛ هـٰذا الكتاب معتقدي ، ومعتقد أهل السنة ، لو أذنت لي حتىٰ أقرأه عليك ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : وأيش ذاك ؟

قلتُ : يا رسول الله ؛ هو « قواعد العقائد » الذي صنّفه الغزّالي ، فأذن لي في القراءة ، فقعدتُ وابتدأت .

قال : ثم قرأت من أوله إلىٰ أن وصلت إلىٰ نعته صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو قوله : (وأنّه بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برسالته إلىٰ كافة العرب والعجم والجنّ والإنس) .

قال : فلما بلغتُ إلىٰ هـٰذا . . رأيت البشاشة والتبسّم في وجهه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذ انتهيت إلىٰ نعته وصفته ، فالتفتَ إلي وقال : أين الغزّالي ؟ فإذا بالغزالي كأنه كان واقفاً على الحلقة بين يديه فقال : هـٰأنذا يا رسول الله ، وتقدّم وسلّم علىٰ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فردّ عليه الجواب ، وناوله يده العزيزة المباركة والغزّالي يقبّل يده ويضع خدّيه عليها ؛ تبركاً به وبيده العزيزة المباركة ، ثم قعد .

قال : **فما رأيتُ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أكثر استبشاراً بقراءة أحد مثلما كان بقراءتي عليه « قواعد العقائد »** .

ثم انتبهت من النوم وعلىٰ عيني أثر الدموع ممّا رأيت من تلك الأحوال والمشاهدات والكرامات . انتهىٰ[1] .

---

(١) تبيين كذب المفتري (ص٢٢٦ـ ٢٣١) ، ونقل القصة أيضاً الإمام السبكي في « الطبقات » (٦/ ٢٢٨ـ ٢٣٧) ، واليافعي في « مرآة الجنان » (٣/ ١٨٧ـ ١٨٩) .

واعلمْ : أنَّ استيفاءَ مناقبِهِ ومآثرِهِ يضيقُ عنهُ هٰذا الكتابُ ؛ إذْ مِنْ حقِّهِ أنْ يكونَ مصنَّفاً مستقلاً .

وقدْ رأيتُ أنْ أختمَ ترجمتَهُ بكتابٍ كتبَهُ إلىٰ بعضِ إخوانِهِ ، مِنْهُ أنَّهُ قالَ :

لقدْ بلغَني علىٰ لسانِ مَنْ أثقُ بهِ مِنْ حسنِ سيرةِ الشيخِ فلانٍ حرسَ اللهُ توفيقَهُ وتشمُّرَهُ في فهمِ دينِهِ ما قوّىٰ رغبتي في مؤاخاتِهِ في اللهِ تعالىٰ ؛ رجاءً لما وعدَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ المتحابِّينَ فيهِ ، وهٰذهِ الأخوَّةُ لا تستدعي مشاهدةَ الأشخاصِ وقربَ الأبدانِ ، وإنَّما تستدعي قربَ القلوبِ وتعارفَ الأرواحِ ، وهيَ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فإذا تعارفَتْ . . ائتلفَتْ .

وهٰأنا عاقدٌ معَهُ الأخوَّةَ في اللهِ تعالىٰ ، ومقترحٌ عليهِ ألاّ يخليَني عنْ دعواتِهِ في أوقاتِ خلواتِهِ ، وأنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يريَني الحقَّ حقاً ويرزقَني اتِّباعَهُ ، ويريَني الباطلَ باطلاً ويرزقَني اجتنابَهُ .

ثمَّ قرعَ سمعي أنَّهُ التمسَ منِّي كلاماً في معرضِ النُّصحِ والوعظِ ، وقولاً وجيزاً فيما يجبُ على المكلَّفِ اعتقادُهُ مِنْ قواعدِ العقائدِ .

أمَّا الوعظُ : فلسْتُ أرىٰ نفسي أهلاً لهُ ؛ لأنَّ الوعظَ زكاةٌ نصابُهُ الاتِّعاظُ ، فمَنْ لا نصابَ لهُ . . كيفَ يخرجُ الزكاةَ ، وفاقدُ النورِ كيفَ يستنيرُ بهِ غيرُهُ ، ومتىٰ يستقيمُ الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟

وقدْ أوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا بنَ مريمَ : عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظَتْ . . فعظِ الناسَ ، وإلاَّ . . فاستحيِ منِّي » .

والواعظُ واعظانِ : ناطقٌ وصامتٌ ، فالناطقُ القرآنُ ، والصامتُ الموتُ ، وفيهما كفايةٌ لكلِّ متَّعظٍ ، فمَنْ لمْ يتَّعظْ بهما . . كيفَ يعظُ غيرَهُ ؟

ولقدْ وعظْتُ بهما نفسي ، فصدقَتْ وقبلَتْ قولاً وعقداً ، وأبَتْ وتمرَّدَتْ تحقيقاً وفعلاً .

فقلْتُ لنفسي : أمَا أنتِ مصدقةٌ بأنَّ القرآنَ هوَ الواعظُ الناطقُ ، وأنَّهُ الناصحُ الصادقُ ، وأنهُ كلامُ اللهِ المنزَّلُ ، الذي لا يأتيه الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلفِهِ ؟

قالَتْ : نعمْ .

فقلْتُ : قدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فقدْ وعدَكِ اللهُ عزَّ وجلَّ بالنارِ علىٰ إرادةِ الدنيا ، وكلُّ ما لا يصحبُكِ بعدَ الموتِ فهوَ مِنَ الدنيا ، **فهلْ تنزَّهْتِ عنْ إرادةِ الدنيا وحبِّها ؟**

فصدقَتْ بذلكَ .

ثمَّ ما ارعوَتْ ، بلْ أصرَّتْ على الميلِ إلى العاجلةِ واستمرَّتْ .

ثمَّ أقبلْتُ عليها فوعظْتُها بالواعظِ الصامتِ ، فقلْتُ : قدْ أخبرَ الناطقُ عنْ وصفِ الصامتِ ؛ إذْ قالَ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقلْتُ لها : هبي أنّكِ ملْتِ إلى العاجلةِ ، أفَلسْتِ مصدقةً بأنَّ الموتَ لا محالةَ آتيكِ ، وقاطعٌ عليكِ كلَّ ما أنتِ متمسكةٌ بهِ ، وسالبٌ منكِ كلَّ ما أنتِ راغبةٌ فيهِ ، وأنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، وأنَّ البعيدَ ما ليس بآتٍ ؟

قالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

فأنتِ مخرَجةٌ بهٰذا عنْ جميعِ ما أنتِ فيهِ ، والحرُّ الكريمُ يَخرجُ مِنَ الدنيا قبلَ أنْ يُخرَجَ مِنْها ، واللئيمُ يتمسكُ بأذيالِها إلىٰ أنْ يخرجَ منها خائباً خاسراً متحسِّراً .

فقالَتْ : صدَقْتَ .

فكانَ ذلك مِنْها قولاً لا يحصلُ وراءَهُ عملٌ ؛ إذْ لمْ تجتهدْ قطُّ في التزوُّدِ للآخرةِ كاجتهادِها في تدبيرِ العاجلةِ ، ولمْ تجتهدْ قطُّ في طلبِ رضا اللهِ تعالىٰ كاجتهادِها في طلبِ رضا الخلقِ .

إلىٰ أنْ قالَ : فوجدْتُني كما قالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ في الناسِ مَنْ يموتُ نصفُهُ ولا ينزجرُ النِّصفُ الآخرُ) ، وما أُراني إلاَّ مِنْهم .

ولمَّا رأيتُها متماديةً في الطُّغيانِ غيرَ مشفقةٍ بوعظِ الموتِ والقرآنِ . . رأيْتُ أهمَّ الأمورِ الفحصَ عنْ سببِ تماديها معَ اعترافِها وتصديقِها ، فإنَّ ذلكَ مِنَ العجائبِ العظيمةِ ، فطالَ عنْهُ فحصي حتىٰ وقفْتُ علىٰ سببِهِ ، وهوَ طولُ الأملِ ، وهٰأنا موصٍ نفسي وإيَّاهُ بالحذرِ مِنْه فإنَّهُ الداءُ العضالُ ، وهوَ

السببُ الداعي إلى الغرورِ والإهمالِ ، وهوَ اعتقادُ تراخي الموتِ ، واستبعادُ هجومِهِ على القربِ ، فإنَّهُ لوْ أخبرَهُ صادقٌ في بياضِ نهارِهِ أنَّهُ يموتُ مِنْ ليلتِهِ أوْ يموتُ إلىٰ أسبوعٍ أوْ شهرٍ . . لاستقامَ واستوىٰ على الصِّراطِ المستقيمِ ، ولتركَ جميعَ ما هوَ فيهِ .

فانكشفَ تحقيقاً أنَّ مَنْ أصبحَ وهوَ يأملُ أنْ يمسيَ أوْ أمسىٰ وهوَ يأملُ أنْ يصبحَ . . لمْ يخلُ مِنَ الفتورِ والتسويفِ ، ولا يقدرُ إلاَّ علىٰ سيرٍ ضعيفٍ .

فأوصيهِ ونفسي بما أوصىٰ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « صلِّ صلاةَ مودِّعٍ »(١) .

ولقدْ أُوتيَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جوامعَ الكلمِ والحكمَ وفصلَ الخطابِ ، ولا يُنتفعُ بموعظةٍ كهٰذهِ الموعظةِ .

فمَنْ علَتْ علىٰ قلبهِ في كلِّ صلاةٍ أنَّها آخرُ صلاتِهِ . . حضرَ معَهُ قلبُهُ في الصلاةِ ، وتيسَّرَ لهُ الاستعدادُ للموتِ ، فيجدُّ في أنواعِ الطاعاتِ .

ومَنْ عجزَ عنْ ذلكَ . . فلا يزالُ في غفلةٍ دائمةٍ ، وفتورٍ مستمرٍّ ، وتسويفٍ متتابعٍ إلىٰ أنْ يدركَهُ الموتُ ، وتهلكَهُ حسرةُ الفوتِ .

وأنا مقترحٌ عليهِ أنْ يسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يرزقَني هٰذهِ الرتبةَ ، فإنِّي طالبٌ لها ، قاصرٌ عنها .

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٤٤٢٤) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وأوصيه ألاّ يرضىٰ مِنْ نفسِهِ إلاّ بها ، وأنْ يحذرَ مواقعَ الغرورِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

* * *

تُوفِّي رضيَ اللهُ عنهُ في يومِ الاثنينِ الرابعَ عشرَ مِنْ جمادى الآخرةِ ، سنةَ خمسٍ وخمسِ مئةٍ (٥٠٥هـ)[١] ، ودُفنَ بظاهرِ قصبةِ طابرانَ .

والله تعالى يخصّه بأنواع الكرامة في آخرته
كما خصّه سبحانه وتعالى بفنون العلم في دنياه بمنّه

(١) وبالتاريخ الميلادي يوافق عام (١١١١م) ، فيكون تاريخ طباعة هٰذا الكتاب المبارك عام (٢٠١١م) موافقاً لمرور (٩٠٠) سنة ميلادية علىٰ وفاة الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة ولي الدين جار الله ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٩٨١) .

وهي نسخة كاملة ، مضبوطة ، متقنة .

عدد أوراقها (٤٧٤) ورقة ، وعدد سطورها متفاوت بين (٢٩) و(٣٣) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٨) كلمة علىٰ وجه التقريب .

كتبت بخط نسخي دقيق ، وكتبت العناوين وبعض العبارات المهمة بخط أسود عريض جداً ، ووضع فوق العناوين خط أحمر ، وكتبت بعض الكلمات المهمة بخط أسود عريض ، لكنه أصغر من خط العناوين ، ووضع فوقها خطوط حمراء ، وضبطت النسخة بالشكل بصورة شبه كاملة ، مع أن الإعجام فيها لم يحظ بالعناية ، فكثير من الحروف التي حقها الإعجام جاءت مهملة ، أضف إلىٰ ذلك أن هوامشها لم تخل من التصويبات والاستدراكات لبعض النقص ، غير أن اللافت هو كثرة الحواشي في أولها ، في حوالي أربعين ورقة ، ثم لم يعد هناك حواشٍ إلا في كل عدة ورقات .

ولم نستطع معرفة اسم الناسخ أو تاريخ النسخ ؛ لعدم ذكرهما على النسخة ، ولكن خطها من خطوط القرن السادس ، والله أعلم .

بَيْد أننا وجدنا إجازة علىٰ صفحة الغلاف ، وعسر قراءة بعض الكلمات فيها ، والإجازة هي : (أخبرني هـٰذا الكتاب ، وهو « إحياء علوم الدين » الشيخ الإمام الأجل العالم ، بقية السلف ، زين العلماء و . . . ، عماد الدين ، محمود بن أحمد بن أبي الحسن الفاريابي ، قال : أخبرني . . . الإمام الأجل الأستاذ منتخب الدين ، محمد . . . الأصفهاني ، عن أبيه ، عن المصنف الشيخ الإمام . . . الكبير ، حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي ، رحمة الله عليه رحمة واسعة . كتبه محمد بن أبي المعالي . . .) .

وقد رمزنا لها بـ(أ) .

❋ ❋ ❋

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من محفوظات **المكتبة الحميدية** ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، وتحمل الرقم (٦٢٢) .

وهي نسخة كاملة ، مقابلة ، ومصححة .

عدد أوراقها (٥٦٠) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٣٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٧) كلمة .

كتبت بخط نسخي دقيق ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول ونحوها بخط أكبر من خط النص العام وباللون الأحمر .

وهي نسخة مصححة مقروءة بعناية ؛ نظراً لكثرة التصحيحات علىٰ هامشها ، من قبيل استدراك كلمة ناقصة أو أكثر ، أو تصويب خطأ ونحو ذلك ، حيث قام مصححها بالتصحيح على الهامش ، وكتب في نهاية كل تصحيح : (صح) ، وقلَّما خلت صفحة من هٰذا الصنيع .

ويضاف لذلك أنها معجمة بالكامل ، ومضبوطة أواخر الكلمات في الأعم الأغلب ، وكثيراً ما زاد الأمر إلىٰ حد ضبط أول الكلمة ووسطها وإن لم تمس الحاجة إلىٰ ذلك .

وكان الفراغ من نسخها يوم الأربعاء ، من شهر ذي الحجة الحرام ، سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة .

وفي آخرها تملك نصه : (قد تشرف بتملكه العبد حسين بن يوسف الشافعي من كاتبه عبد الكريم المشار إليه ، بالقاهرة المحروسة ، مصر ، في رمضان المبارك ، من شهور سنة ثلاث وأربعين وثمان مئة ، متعه الله به وبأمثاله بالعلم والعمل بمحمد وآله ، وغفر له ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، إنه هو أرحم الراحمين) .

وكتب بعده : (ثم وُفِّق العبد حسين المذكور لمطالعته من أوله إلىٰ آخره ، وتصحيحه وتحشيته ، ومقابلته علىٰ ثلاث نسخ في شهور متعددة ،

آخرها الشهر المبارك صفر ، من شهور سنة **سبع وخمسين وثمان مئة** ، في دمشق المحروسة في المدرسة الأسدية الأكزية التي جدَّد عمارتها كاتب هٰذه الأحرف حسين المذكور ، الشافعي مذهباً ، الوسطاني محتداً ، الجزري نسبة ، الدمشقي مسكناً ، غفر الله له وللمسلمين. . .) .

ولعل من المفيد الإشارة إلىٰ أن غلاف هٰذه النسخة في غاية الجودة والجمال ، فهو مرصع بزخارف هندسية ونباتية ، وألوانه زاهية جميلة ، وكذلك اعتنى الناسخ بتجميل رأس الصفحة الأولىٰ بزركشة نباتية أخَّاذة .

وعلى الغلاف وقف نصه : (وقفه صاحب الأصل. . . محيي السنة النبوية ، ومفتي الشريعة المصطفوية المرضية السلطان بن السلطان ، السلطان عبد الحميد خان بن السلطان أحمد خان ، لا زال وجوده سبباً لإحياء العلوم ، وسيفاً لله قاطعاً ألسنة الخصوم ، وأنا الداعي لدولته السيد علي بك المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين غفر الله له) .

وقد رمزنا لها بـ(ب) .

النسخة الثالثة :

نسخة مصورة من محفوظات **المكتبة الأزهرية** بالقاهرة ، تحمل الرقم (٤٢٧٠ خاص ، ١٣٤١٣٩عام) آداب وفضائل .

وهي نسخة كاملة ، متقنة .

مؤلفة من أربعة أجزاء ، عدد أوراق جزئها الأول (٢٩٥) ورقة ، والثاني (٢٩٠) ورقة ، والثالث (٢٦٧) ورقة ، والرابع (٢٧٨) ورقة .

وبالجملة : فإن مجموع أوراقها (١١٣٠) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢٥) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) علىٰ وجه التقريب .

كتبت بخط نسخي جيد ، وكتبت الكتب والأبواب والفصول ونحوها بخط أكبر من خط متن الكتاب ، وجعلت في وسط الصفحة في كثير من الأحيان ، وقد سَلِمت من عوادي الدهر ، مما أسهم في بقائها واضحة المعالم ، لائحة القسمات ، سهلة القراءة .

عني ناسخها بإعجامها وضبطها بالشكل إلىٰ حد كبير ، فقد كان يضبط معظم الكلمة ، غير أنه كان يهمل الضبط الإعرابي في بعض المواضع ، رغم أنه كان يضبط أول الكلمة ووسطها .

ومما يلاحظ عليها أن أول عشرين ورقة منها قد حظي بعناية كبيرة ، فالظاهر أنها قرئت من قبل عالم ، أو قرئت علىٰ عالم ؛ نظراً لكثرة الحواشي والتصحيحات في هـٰذه الأوراق ، وقد كانت الحواشي متنوعة بين شرح أحياناً ، وتخريج للأحاديث أحياناً أخرىٰ ، وذلك بذكر راوي الحديث ومخرجه ، ودرجته في بعض الأحيان ، وجاءت بعض الحواشي علىٰ شكل ترجمة مقتضبة لبعض الأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب ؛ كذكر اسم العلَم وسنة وفاته ونحو ذلك ، وثمة حواشٍ تشير إلىٰ فروق النسخ ، ولم نجد

ما يشير إلىٰ هوية من قام بهـٰذا الجهد الكبير .

لكن كل ما تقدم توقف فجأة بعد الورقة الثانية والعشرين ، إلا ما كان من التصحيحات المتباعدة المتناثرة بين ثنايا الكتاب .

ولم نقف على اسم الناسخ أو تاريخ النسخ ؛ إذ لم يذكر من ذلك شيء في هـٰذه النسخة ، لكن وجدنا على الورقة الثانية من الجزء الثالث تملكاً أخفىٰ سوء التصوير معظمه ، وتكرر هـٰذا على الورقة الثانية من الجزء الرابع ، إلا أنه ظهر هـٰذه المرة كاملاً إلا أول كلمة أو كلمتين ، ونصه : (. . . الفقير الراجي عفو ربه الولي عبده تيمور علي الحنفي ، عامله الله بلطفه الخفي ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم) .

وقد وضع ختمه فوق هـٰذا التملك ، وما كتب في الختم هو : (تيمور علي) .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ(ج) .

النسخة الرابعة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٤٠٥١) .

وهي نسخة كاملة ، متقنة ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .

تقع ضمن مجموع استغرقت منه (٣٣٦) ورقة ، وعدد سطور الورقة

الواحدة (٤٠) سطراً ، وعدد كلمات السطر (٢٠) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي دقيق ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول والتعدادات بخط كبير مميز ، وقد فَصَل الناسخ بين الكتب فيها بزخرفة نباتية أحياناً ، وببعض العبارات في أحيان أخرىٰ ؛ كذكر اسم المؤلف الإمام الغزالي رحمه الله .

ونظراً لدقة الخط فإن قراءة هٰذه النسخة مجهدة للعين ، خصوصاً في المواضع التي أصابتها الرطوبة ، حيث تمَّ تصويرها بشكل غير متقَن ، وتكاد تكون خالية من الضبط ، إلا ما ندر من ضبط أواخر بعض الكلمات ، وكذلك أهمل التنقيط في بعض الحروف المنقطة تارة ، وتارة أخرىٰ لم تظهر النقط جيداً في التصوير ؛ لما قدمناه من دقة الخط .

هٰذا ، وقد تميزت بغلاف مزخرف بزخارف نباتية حسنة ، وكذلك حال رأس صفحتها الأولىٰ .

والناسخ : هو أبو الحسن حيدر بن محمد بن علي الحسني ، وقد فرغ من النسخ **يوم السبت (٢٣) رجب سنة (٧٨٣هـ)** ، وصدَّرها بفهرس كامل للكتاب ، ذكر فيه أسماء الكتب والأبواب والمطالب والفوائد ونحوها .

وقد رمزنا لها بـ(د) .

النسخة الخامسة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٤٥٣٥) .

وهي نسخة جيدة ، تحوي نصف الكتاب الأول (ربع العبادات والعادات) ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .

بدأت من أول الكتاب ، وانتهت بنهاية (كتاب أخلاق النبوة وآداب المعيشة) ، وهو آخر كتاب من ربع العادات .

عدد أوراقها (٥٠٩) ورقات ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي واضح ، وجاءت الكتب والأبواب والفصول ونحوها مكتوبة بخط أكبر من خط الكتاب ، ويلاحظ وجود بعض الحواشي والتعليقات باللغة الفارسية ، وفي هامشها أيضاً بعض التصويبات .

وقد جاء في نهاية ربع العبادات إشارة لمقابلة جزء منها ونصها : (قابلتُ من « كتاب أسرار الطهارة » إلىٰ هنا ، وصححت هـٰذا القدر بحسب الإمكان ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، كتبه العبد الداعي لصاحبه فهد بن المظفر ، لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة ، سنة ست وخمسين وست مئة) .

ناسخها : هو محمود بن المظفر بن المكرم بن المؤيد بن المحمد ،

ويبدو أنه أخو فهد بن المظفر صاحب المقابلة المشار إليها آنفاً ، وقد قام بالنسخ علىٰ مراحل امتدت من سنة ثلاث وخمسين وست مئة إلىٰ سنة ثمان وخمسين وست مئة ، حيث كان يؤرخ لفراغه من بعض الكتب أو الأبواب ، وآخر ما ذكره في نهاية النسخة : (ووقع الفراغ من تحريره وقت انتصاف النهار من يوم الأربعاء ، السابع عشر من ربيع الأول ، سنة ثمان وخمسين وست مئة ، غفر الله لكاتبه محمود بن المظفر بن المكرم ، ولقارئه ولصاحبه ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات بفضله وكرمه ، وهو أرحم الراحمين مباركاً وميموناً) .

وعلى الغلاف تملك نصه : (فزت بتملكه بالشراء الشرعي . حرره العبد الضعيف محمد بن نور الله الشريف ، الملقب بتقي ، حسن حاله فيما بقي) ، ووضع ختمه عليه .

وقد رمزنا لها بـ(هـ) .

❁ ❁ ❁

النسخة السادسة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة إزمير ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٢٩٤) .

وهي نسخة غير كاملة ، تضم ثلث الكتاب الأول .

تبدأ من أول « إحياء علوم الدين » ، وتنتهي في أثناء (كتاب الحلال

والحرام) وهو الكتاب الرابع من ربع العادات ، عند كلامه عن (أصناف الحلال ومداخله) ، وآخر ما ذكر فيها قوله : (فإن الذي لا يُسكِر منها أيضاً حرام مع قلته ؛ لعينه ولصفته ، وهي الشِّدة) .

عدد أوراقها (١٧٦) ورقة ، وعدد أسطر الورقة (٢٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي ، وكتبت فيها العناوين والكتب والأبواب بخط كبير مميز باللون الأحمر ، وكتبت بعض العناوين والكلمات المفصلية في كثير من الأحيان بخط أسود عريض ، والنسخة معجمة بشكل عام .

أما الضبط بالشكل . . فهو قليل جداً ، وهو عشوائي إن وجد ، فمرة يكون علىٰ أول الكلمة ، وأخرىٰ علىٰ وسطها أو آخرها ، دون منهج مسلوك لذلك ، وثمة بعض التصويبات الطفيفة على الهامش ، وكذلك القليل من الحواشي .

ونظراً للنقص في آخر هـٰذه النسخة لم نتمكن من معرفة اسم الناسخ ، ولا معرفة تاريخ النسخ .

ويلاحظ علىٰ أولها عدة كتابات تشير إلىٰ بعض من تملكها أو وقفها ، والذي استطعنا قراءته منها هو : (الآن في نوبة العبد الفقير المحتاج إلىٰ رحمة ربه المتعال ، الشيخ محمد المؤذن بن علي النعَّال ، عفا الله عنهما الذنوب ، يا ذا الجلال والجمال والكمال) .

وكذلك : (حين في يومه [؟] العبد الفقير المحتاج إلىٰ رحمة ربه المتعال ، ملا حسين . . . بن الحاجي أحمد البقال ، عفا الله عنهما الذنوب ، يا ذا الجلال والجمال والكمال) .

ومنه أيضاً : (وقفت وقفاً صحيحاً وأنا الفقير الشيخي محمد آغا . . . أحمد سعيد أفندي) .

ووضع ختمه عليها في عدة مواضع .

وقد رمزنا لها بـ(و) .

* * *

النسخة السابعة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **برلين** ، تحمل الرقم (١٥٣/٩٥) .

وهي نسخة جيدة ، متقنة ، تحوي الربع الأول (ربع العبادات) .

تبدأ من أول (كتاب فضل العلم والتعلم) وهو الكتاب الأول من ربع العبادات ، وتنتهي بنهاية (كتاب ترتيب الأوراد) وهو الكتاب العاشر من ربع العبادات .

عدد أوراقها (٢٩٩) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة .

كتبت بخط نسخي مستعجل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب ونحوها

بخط مغاير أسود عريض ، وهي بالجملة نسخة واضحة مقروءة بشكل جيد ، ولم تتعرض لما يشوِّه الكتابة فيها أو يتلفها ؛ كالرطوبة والأرضة .

وهي أيضاً معجمة بالجملة ، وقد قام ناسخها بنثر بعض الحركات ؛ بغية ضبطها بالشكل ، ولكنه لم يتخذ لذلك منهجاً ، ومع ذلك فهٰذا قليل جداً . وتجدر الإشارة إلىٰ أن فيها بعض التصويبات ، وهي قليلة أيضاً .

ولم يذكر اسم ناسخها .

وجاء في آخرها : (تم الجزء الأول من « إحياء علوم الدين » آخر ربيع الأول ، يوم الجمعة ، سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة ، يتلوه ربع العادات) .

وعلىٰ أولها عدة تملكات ، نذكر منها ما استطعنا قراءته : (اشترىٰ صاحبها بمدينة إربل . . . عيسى بن علي بن عبد الخالق بن علي بن منصور في غرة ذي الحجة ، سنة ثلاث وعشرين وست مئة) . وعليها تملك باسم : (حسين بن علي بن محمد بن عبد العالي ، بمدينة إربل) .

وأيضاً : (انتقل إلىٰ خزانة أفقر خلقه . . . عبد الله وابن عبده ، عام أربع . . . وست مئة هجرية) .

وعليها مناولة ، نصها الذي استطعنا قراءته هو : (ناول الإمام العالم ، الفاضل الكامل ، الصدر الكبير ، حجة الإسلام ، أوحد الأيام . . . ، فريد الدهر ، وحيد العصر . . . سيد الحفاظ ، جمال الدين ، أبو الخطاب بن

حسن بن علي ، ذي النسبين ، بين دحية والحسين رضي الله عنهما ، سبط الإمام أبي البسام الفاطمي الحسيني ، حسَّن الله أيامه ، جميعَ هـٰذه النسخة ، وهي خمس مجلدات ، كلها بخط واحد ، تشتمل علىٰ جميع كتب « إحياء علوم الدين » من يده إلىٰ يد الجماعة الفقهاء الفضلاء الأجلاء السادة . . . كل واحد منهم . . . تناول من يده نجم الدين عمر ، وبهاء الدين محمد ، وزكي الدين حسين بني إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، وابن . . . عيسى بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، وضياء الدين عيسى بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان . . . محمد بن محمد بجميع تصانيفه ومسموعاته ومناولاته ؛ ليحصل له في ذلك الأجر الجزيل ، والثواب الجميل ، صحت المناولة ، وحدثتهم به عن الشيخ الفقير ، المقرىء الفاضل . . . علي بن أحمد الكناني ، يعرف بـ(ابن حُنين) قال : حدثني به مؤلفه بمكة في المسجد الحرام . . . . وقد أجزت لهم جميع ما سألوا . وكتب أصغر عبيد الله ذو . . .) .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ(ز) .

❊ ❊ ❊

النسخة الثامنة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٣٣٥٣) .

وهي نسخة جيدة ، مصححة ، تحوي الربع الثاني (ربع العادات) ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .

تبدأ من (كتاب آداب الأكل) وهو الكتاب الأول من ربع العادات ، وتنتهي بنهاية (كتاب أخلاق النبوة) وهو آخر كتاب من ربع العادات .

عدد أوراقها (٢٦٦) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها الأبواب والفصول والأقسام ونحوها بخط كبير ممدود ، وهي نسخة واضحة مقروءة بشكل جيد ، باستثناء بعض المواضع التي أصابتها الرطوبة فأكسبتها شيئاً من الغموض والصعوبة ، وهي كذلك معجمة منقوطة بشكل عام ، ولم يُعن ناسخها بضبطها بالشكل ، فجاءت خالية من ذلك .

ناسخها : هو محمد بن أحمد بن عمر الفنجكردي ، وقد فرغ من نسخها ضحوة يوم الثلاثاء ، العاشر من شهر الله الحرام ذي القعدة ، **سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة** .

وقد جاء في آخرها ما نصه : (طالع فيه داعياً لمالكه بطول بقائه العبد الفقير ، الذليل الحقير ، تراب الأقدام ، وأقل الخدام ، الراجي رحمة ربه العامة للأنام ، إسماعيل بن محمد بن عبد الوهاب البسطامي طريقة ومسلكاً ، الشافعي مذهباً ، النابلسي مولداً ومنشأً ، تاب الله عليه توبة

نصوحاً ، وغفر له ولوالديه ، ولمن قرأه ودعا له بالمغفرة ، ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل) .

وقد رمزنا لها بـ(ط) .

* * *

النسخة التاسعة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٤٩٥٧) .

وهي نسخة جيدة ، تحوي نصف الربع الثاني (ربع العادات) ، تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .

تبدأ من أول (كتاب آداب الصحبة) وهو الكتاب الخامس من ربع العادات ، وتنتهي بنهاية (كتاب أخلاق النبوة وآداب المعيشة) وهو آخر كتاب من ربع العادات .

عدد أوراقها (٢٤٤) ورقة ، وعدد سطور الورقة (١٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت الكتب والأبواب وبعض الكلمات المميزة بخط أسود عريض جداً .

وهي نسخة معجمة بشكل كامل ، وقد اعتنىٰ ناسخها بضبطها بالشكل ضبطاً زائداً على الضبط الإعرابي ، بل ضبط بعض الكلمات بشكل كامل وإن لم تدع إلىٰ ذلك حاجة ، وكأن غايته تزيين الخط فقط .

وهي بصورة عامة واضحة في القراءة ، غير أن الرطوبة اجتاحت أطراف بعض الأوراق ـ وهي ليست بالكثيرة ـ ما أدىٰ إلىٰ طمس معالم بعض الكلمات بالكلية ، فلم تعد قراءتها ممكنة ، إضافة إلىٰ رداءة تصوير بعض الورقات ، الأمر الذي أدىٰ إلى النتيجة نفسها .

ناسخها : هو سليمان بن أبي المظفر الجيلي ، حيث كتب في آخرها : (وقع الفراغ علىٰ يدي كاتبه ، وهو سليمان بن أبي المظفر الجيلي ، وذلك بمدينة السلام بغداد ، في المدرسة النظامية حرسها الله ، من شهور سنة سبع وثمانين وخمس مئة) .

وعلىٰ صفحة العنوان عدة تملكات ، وما قرأناه منها هو : (في نوبة فقير ألطاف الملك القوي السيد حسن ابن السيد عبد الرحمـٰن . . . في محرم الحرام « ١١٧٦هـ ») .

وأيضاً : (صاحبه العبد المفتقر إلى الله الغني محمد بن علي بن طاهر الحسني . . . وكتب غرة ذي الحجة ، سنة ثمان وسبع مئة) .

وثمة تملك في آخر النسخة نصه : (قد تشرف في تملكه الفقير إلىٰ مولاه السيد محمود ابن المرحوم السيد أحمد العزيزية) .

وتملك آخر : (ثم انتقل بالشراء إلىٰ نوبة العبد الفقير الزبير. . . الحموي ، سنة « ١١٢٠هـ ») .

وقد رمزنا لها بـ(ي) .

* * *

النسخة العاشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة غازي خسرو بك بسراييفو ، رقمها (١٤١٩)[١] .

وهي نسخة متقنة ، مضبوطة ، تحوي الربع الثالث (ربع المهلكات) .

تبدأ من (كتاب عجائب القلب) وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات ، وتنتهي بنهاية (كتاب ذم الغرور) وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات ، وبه يتم هـٰذا الربع .

عدد أوراقها (٢٩٢) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول والتعدادات بخط أكبر قليلاً من خط متن الكتاب ، ومُيِّز بالحمرة أيضاً ، وتعد نسخة واضحة مقروءة ، وتكاد تكون خالية من الضبط بالشكل ، وهي معجمة في الغالب ، وقد أصابت الرطوبة جملة لا بأس بها من الأوراق ، لكنها لم تترك أثراً كبيراً .

---

(١) وقد تكرم فضيلة الداعية السيد علي الجفري بتصوير هـٰذه المخطوطة ، فجزاه الله تعالىٰ عنا كل خير .

ناسخها : هو أبو المظفر سعد بن محمد بن أبي الفوارس ، وقد فرغ من نسخها يوم السبت ، الثامن من صفر ، سنة اثنتين وست مئة .

وجاء علىٰ غلافها : (من نعم الله تعالىٰ علىٰ عبده العاجز ، مصطفى بن إسماعيل الشهير بخلدي عاملهما بلطفه الوفير ، وكرمه الكثير) .

وقد صنع الناسخ فهرساً لمحتويات هـٰذا القسم من الكتاب ، على الوجه الداخلي للغلاف .

وجاء على الورقة الأولىٰ عدة تملكات ، والذي اتضح منها : (انتقل بالبيع الشرعي إلىٰ ملك أضعف خلق الله ، وأحوجهم إلىٰ رحمته ، محجوب بن سيد علي بن حاجي البرسوي . . .) .

ومنها أيضاً : (انتقل هـٰذا الكتاب بحكم المبايعة الصحيحة إلىٰ ملك الفقير إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، علي بن محمد بن موسى الهكاري ، في رابع ذي الحجة ، سنة خمسين وست مئة) .

ومنها كذلك : (انتقل بالبيع الشرعي إلىٰ ملك أضعف عباد الله ، وأحوجهم إلىٰ رحمته ، الحاج محمد بن الحاج مصطفىٰ . . . مولداً ، والبروساوي مسكناً ، عفا الله عنهما . . .) .

ويظهر على الورقة الثالثة في زاويتيها العلويتين ختم مكتبة الغازي خسرو بك .

ورمزنا لها بـ(ك) .

النسخة الحادية عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة غازي خسرو بك بسراييفو ، ورقمها (٣٨٦٧) .

وهي نسخة مضبوطة ، متقنة ، تحوي النصف الأول من الربع الثالث (ربع المهلكات) .

تبدأ من أول (كتاب عجائب القلب) وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات ، وتنتهي بنهاية (كتاب آفة الغضب والحقد والحسد) وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات .

عدد أوراقها (٢١٦) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر (٩) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول بخط أسود عريض ، وقد جعله الناسخ في وسط الصفحة ، وقد اهتم بضبطها بالشكل بالجملة ، وكذلك أعجم سوادها الأعظم .

وقد سلمت من عوادي الدهر ، إلا ما اعتراها من الرطوبة ابتداء من الورقة (١٧٥) إلىٰ آخر النسخة ، لكنها لم تؤثر إطلاقاً على الكتابة ، فبقيت واضحة مقروءة .

ويمكن أن نلاحظ بعض الحواشي المتناثرة علىٰ عدد لا بأس به من الأوراق ، وقد كتبت بأكثر من قلم ، وهناك بعض التصحيحات على

الهوامش ، منها ما هو بخط الناسخ ، ومنها ما هو بخط المحشِّي .

ولم يذكر فيها اسم الناسخ ، ولا تاريخ النسخ ، ولم يذكر عليها تملك أو وقف أو غير ذلك .

وقد ظهر في أولها ختم مكتبة الغازي خسرو بك .

ورمزنا لها بـ(ل) .

* * *

النسخة الثانية عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٥١٣٤) .

وهي بعض نسخة مصححة مضبوطة ، تحوي جزءاً من الربع الثالث (ربع المهلكات) .

تبدأ من قوله : (أن يحتمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله. . .) في أثناء (كتاب ذم الكبر والعجب ـ بيان فضيلة التواضع) ، وتنتهي بنهاية (كتاب ذم الغرور) وهو آخر كتاب من ربع المهلكات .

عدد أوراقها (٨٤) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢٣) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر (١٣) كلمة .

كتبت بخط نسخي معتاد ، والأبواب والفصول ونحوها مكتوبة فيها بخط أكبر حجماً من خط سواد النسخة .

وقد أثرت الرطوبة في بعض المواضع منها ، غير أنه تأثير طفيف لم يعمل علىٰ تشويش الخط أو تصعيب القراءة ، كما أن فيها آثار تمزيق في بعض المواضع .

عُني ناسخها بضبطها من حيث الإعراب ، وإعجامها بشكل عام ، وفي بعض الكلمات تجاوز الضبط الإعرابي إلىٰ ضبط أول الكلمة ووسطها أحياناً .

وينبغي الإشارة إلىٰ أن الصفحتين الأخيرتين قد طمستا طمساً بالغاً ، الأمر الذي أعاق قراءة آخر هـٰذه النسخة بشكل شبه كامل ، اللهم إلا ما استطعنا تبيُّنَه من اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، فالناسخ هو الحسين بن نصر بن محمد بن خميس ، وقد فرغ منها في (٦) رمضان سنة (٥٤٧هـ) .

وقد رمزنا لها بـ(م) .

❊ ❊ ❊

النسخة الثالثة عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٣٤٢٩) .

وهي نسخة جيدة ، تحوي الربع الرابع (ربع المنجيات) ، **تم الاستئناس بها عند دراسة المغايرات .**

تبدأ من (كتاب التوبة) وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (باب سعة رحمة الله تعالىٰ) وهو آخر كتاب : « إحياء علوم الدين » .

عدد أوراقها (٣٠٧) ورقات ، وعدد سطورها متفاوت جداً ، ففي بعض المواضع (٢٦) سطراً ، بينما وصل في مواضع أخرىٰ إلىٰ (٣٥) سطراً ، وكذلك تفاوت عدد كلمات السطر بين (١٢) إلىٰ (١٩) كلمة .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب وبعض الكلمات المهمة بخط كبير مميز ، غير أن الخط تفاوت فيها تفاوتاً ظاهراً ، وأغلب الظن أنها نسخت من قبل ناسخين أو أكثر ، وهـٰذا ما أدىٰ أيضاً إلى التفاوت في عدد السطور ، وعدد الكلمات في السطر بشكل ملحوظ ، وكذلك يدلنا علىٰ أنها نسخت بأكثر من يد هو أن الضبط بالشكل تراوح فيها بين ضبط شبه تام حيناً ، وضبط إعرابي حيناً آخر ، بينما جاءت مواضع كثيرة من غير ضبط على الإطلاق ، وأيضاً اختلف إعجامها بين الإعجام الكامل وبين إهمال بعض الحروف في كثير من الأحيان ، غير أنه أقل تفاوتاً من الضبط .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الرطوبة قد عَدَتْ علىٰ بعض المواضع عَدْواً ظاهراً ، فأورث ذلك صعوبةً في القراءة ، وتشويشاً في الرؤية في تلك المواضع .

ولم نستطع الوقوف على اسم ناسخها ، إلا أن في آخرها تملكاً باسم زكريا بن محمد السيد الحسني ، وقد تملكها بالشراء الشرعي ، علماً أنه قد ضُرب علىٰ هٰذا الاسم ، وقد تمكنَّا من قراءته بصعوبة جرَّاء ذلك ، وبعده تملك آخر باسم عبد الفتاح وجاء بعده كلام ممحوٌّ لم نتمكن من قراءته .

بقي أن نقول : إن تاريخ نسخها هو سنة (٨٤١هـ) .

وقد رمزنا لها بـ(ن) .

* * *

النسخة الرابعة عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة غازي خسرو بك بسراييفو ، تحمل الرقم (١٣٠٨) .

وهي نسخة مصححة ، متقنة ، تحوي نصف الربع الرابع (ربع المنجيات) .

تبدأ من أول (كتاب التوبة) وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (كتاب الفقر والزهد) وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات .

عدد أوراقها (٢١٩) ورقة ، وعدد أسطر الورقة الواحدة (٢٠) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٠) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي ، وكتبت الكتب فيها بخط عريض أسود ، وقد أفرد الناسخ بعضها في صفحة كاملة مستقلة ، وكتبت الأبواب وبعض العبارات

المهمة بخط أسود عريض ضمن سياق النص العام ، لم يُعن ناسخها بضبطها بالشكل ، سوىٰ أنه أعجم من حروفها ما يستحق ذلك .

ولم نستطع الوقوف على اسم الناسخ ، أو تاريخ النسخ .

غير أنه جاء علىٰ أولها بعض التملكات منها : (في نوبة الفقير إلى الله محمد البدليسي) .

ومنها أيضاً : (من كتب العبد الفقير المحتاج إلىٰ رحمة ربه الحنان محمد بن سليمان ، عفا الله عنهما) .

وجاء على الورقة الأخيرة منها : (وقعت المعارضة بالأصل ، والحمد لله تعالىٰ) .

وقد ظهر جليّاً علىٰ أولها ختم مكتبة الغازي خسرو بك ، وكذلك علىٰ آخرها .

وقد رمزنا لها بـ (س) .

* * *

النسخة الخامسة عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات **مكتبة غازي خسرو بك** بسراييفو ، تحمل الرقم (٧٠٨٣) .

وهي بعض نسخةٍ مصححة ، متقنة ، تحوي جزءاً من الربع الرابع (ربع المنجيات) .

تبدأ من أول (كتاب الفقر والزهد) وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (كتاب المحبة والشوق) وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات .

عدد أوراقها (١٤٩) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب وبعض العبارات بخط أسود عريض ، وهي نسخة واضحة ، مرتبة بشكل جيد ، وعلىٰ هوامشها بعض التصحيحات ، والقليل من الحواشي ، مما يدل علىٰ أنها قد قرئت أكثر من مرة كما سيظهر من خلال ما سنطلعك عليه من كتابات جاءت في آخرها .

وقد تعرضت في معظمها للرطوبة ، إلا أن أثر هـٰذه الرطوبة لم يكن كبيراً وإن كان قد أكسب بعض المواضع شحوبة في الكتابة ، ومع ذلك ظلت مقروءة علىٰ وجه العموم .

وحرص ناسخها علىٰ ضبطها بالشكل بصورة شبه تامة ، وكذلك فعل فيما يتعلق بالإعجام في الحروف التي حقها ذلك .

ولم نقف على اسم ناسخها ، فثمة غير اسمٍ علىٰ آخرها ، ولم يصرح أيٌّ منها بأنه الناسخ ، وكل ما تبين هو تاريخ النسخ حيث جاء ما نصه : (آخر كتاب المحبة من جملة كتب « إحياء علوم الدين » ، والفراغ من تمامه وافق

يوم الخميس ، العشرين من ذي القعدة ، من شهور سنة اثنتين وستين وخمس مئة هجرية) .

ومما جاء علىٰ آخرها أيضاً : (قوبلت هـٰذه المجلدة بنسختين الأصلين اللذين كتبها (كذا) منهما علىٰ قدر الوسع والطاقة . . .) ثم لم تعد تظهر الكتابة ، ما أدىٰ إلىٰ جهالة اسم الناسخ .

ومما ذكر على الآخر أيضاً : (طالع في هـٰذا الكتاب الشريف الراجي عفو ربه ، أحمد بن . . . غفر الله لجميع المسلمين) .

ومنه أيضاً : (طالع في هـٰذا الكتاب الشريف الراجي عفو ربه ورحمته وغفرانه ، علي بن أحمد بن سعيد ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن دعا له وترحم عليه ، ولجميع المسلمين ، آمين يا رب العالمين ، في خامس شوال ، سنة إحدىٰ وثمان مئة ، أحسن الله تمامها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد خير خلقه ، وآله وصحبه وسلم إلىٰ يوم الدين) .

بقي القول : إنه جاء علىٰ أولها : (« إحياء العلوم » صاحبه خطيب خواجه) ، وقد مهر فوقه بختم مكتبة الغازي خسرو بك .

ورمزنا لها بـ(ع) .

❁ ❁ ❁

النسخة السادسة عشرة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة غازي خسرو بك بسراييفو تحمل الرقم (٣٨٧) .

وهي نسخة مقابلة ، مصححة ، تحوي النصف الثاني من الربع الرابع (ربع المنجيات) .

تبدأ من (كتاب التوحيد والتوكل) وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات ، وتنتهي بنهاية (كتاب ذكر الموت وما بعده) وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، وهو آخر كتاب في « إحياء علوم الدين » .

عدد أوراقها (٢٠٣) ورقات ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢٢) سطراً ، وعدد كلمات السطر (١٢) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي مستعجل ، وكتبت فيها الكتب والأبواب وبعض الكلمات المهمة بخط أسود عريض ، وهي نسخة واضحة عموماً ، وتفاوتت عناية ناسخها بضبطها بالشكل ، فبينما جاءت بعض الصفحات فيها خالية من الضبط ، تجد صفحات أخرىٰ قد ضبطت بالحد الأدنىٰ من الشكل ، وهي معجمة في الأغلب .

ووجد في هوامشها بعض التصويبات ، وكذلك كتبت كلمة (بلغ) في مواضع عدة ، وفي بعض الصفحات كتبت هـٰذه الكلمة مرتين في الموضع نفسه ، وبقلمين مختلفين ، مما يدل أنها قوبلت غير مرة ، ومن غيرِ ناسخٍ ،

إلا أننا لم نقف على اسم الناسخ ، ولا علىٰ تاريخ النسخ .

علماً أنه جاء في آخرها : (وقع الفراغ من مقابلتها . . . الإمكان مع نسخ ظاهرها الصحة . . . في عشية يوم الثلاثاء ، آخر جمادى الأولىٰ ، **سنة ثمان وسبعين وست مئة** . . . حامداً لله ، ومصلياً علىٰ نبيه محمد وآله . . . سطَّره العبد الضعيف المحتاج إلىٰ رحمة . . . محمد بن عبد اللطيف بن . . . القونوي ، حامداً . . . ، ومصلياً علىٰ . . .) .

وجاء علىٰ غلافها : (تملكه الفقير درويش محمد بن الحزمي من علي قاضي الخاني) .

وعلىٰ وجه الغلاف الداخلي : (صاحبه الراجي عفو الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طاهر ، أُعطي مناه) .

وثمة تملكات أخرىٰ لم نتمكن من قراءتها .

وقد رمزنا لها بـ(ف) .

❊ ❊ ❊

النسخة السابعة عشرة :

نسخة من محفوظات **مكتبة برلين** ، تحمل الرقم (٥٥) .

وهي نسخة جيدة ومتقنة ، تحوي النصف الثاني من الربع الرابع (ربع المنجيات) .

تبدأ من أول (كتاب المحبة والشوق) وهو الكتاب السادس من ربع

المنجيات ، وتنتهي بنهاية الكتاب ؛ أعني : « إحياء علوم الدين » .

عدد أوراقها (٢٦٧) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة يتراوح بين (١٦) و(١٧) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها الكتب والأبواب والفصول ونحوها بخط أسود عريض ، وهي نسخة واضحة الخط ، سهلة القراءة ، وقد خلت من الحواشي أو التعليقات ونحوها .

ولم يهتم ناسخها بإعجامها كثيراً ، فجاء كثير من حروفها المستحقة للإعجام مهملاً ، وكذلك لم يضبطها بالشكل أيضاً .

ناسخها : أبو القاسم ، يحيى بن محمد الأنباري ، وقد فرغ من نسخها يوم السبت ، عاشر شهر الله الأصم رجب ، سنة خمس وخمسين وخمس مئة .

وجاء علىٰ غلافها بعض التملكات ، وما تبين لنا منها : (هـٰذا المجلد السابع من كتاب « إحياء علوم الدين » تصنيف الإمام ، حجة الإسلام ، أبي حامد ، محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه انتقل بحكم العقد الشرعي مع بقية المجلدات ـ وجملتها سبعة ـ إلى العبد الضعيف ، الراجي مولاه . . . الغفور سرحان بن خضر الأرموي ، في حادي عشر محرم ، سنة. . . . . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة علىٰ سيد المرسلين وآله أجمعين) .

وجاء أيضاً : (انتقل هـٰذه المجلدة مع سائر المجلدات بأسرها من مالكه المتقدم ذكره متع الله به الإسلام ببقائه إلى العبد الضعيف الراجي عفو الله تعالىٰ، علي بن أحمد بتملك شرعي وناقل سمعي حتىٰ. . . الرواح والرجوع للمحروسة حلب، في الثامن والعشرين من ربيع الآخر ، سنة سبع وست مئة).

وجاء أيضاً : (انتقل هـٰذه المجلدة مع سائر المجلدات بأسرها من الكتاب إلى العبد الضعيف المحتاج إلىٰ مغفرة ربه الكريم ، نصر الله. . . في أواخر شعبان. . . ست مئة) .

وجاء أيضاً : (انتقل هـٰذه المجلدة السابعة مع سائر المجلدات من مالكه. . . بن عثمان إلىٰ أعجز العباد ، وأحوجهم إلىٰ مغفرة ربه الكريم بناقل شرعي. . . محمد بن صالح ، سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة) .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ(ص) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثامنة عشرة :

مطبوعة قديمة من مطبوعات المطبعة الميمنية بالقاهرة ، وتم طبعها في (١٣٠٦هـ) .

وهي من مكتبة السيد عبد القادر بن أحمد بن محمد السقّاف رحمه الله تعالىٰ نزيل جاوة ، حيث تكرم حفيده السيد حسين بن عبد الله بإهدائها للناشر فجزاه الله خيراً .

وتقع في أربعة أجزاء مقسمة كالتالي :

ـ **الجزء الأول** : يحتوي الربع الأول من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع العبادات ، ويقع هٰذا الجزء في (٢٤٨) صفحة .

ـ **الجزء الثاني** : يحتوي الربع الثاني من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع العادات ، ويقع هٰذا الجزء في (٢٦٠) صفحة .

ـ **الجزء الثالث** : يحتوي الربع الثالث من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع المهلكات ، ويقع هٰذا الجزء في (٢٩٢) صفحة .

ـ **الجزء الرابع** : يحتوي الربع الرابع من « إحياء علوم الدين » ، وهو ربع المنجيات ، ويقع هٰذا الجزء في (٣٩٢) صفحة .

علماً أن في كل جزء فهرساً عاماً لمحتوياته وموضوعاته .

ومما تحسن الإشارة إليه أن هٰذه النسخة قد قرئت بعناية ؛ نظراً لبعض التصويبات التي لاحظناها فيها ، وهي تصويبات إملائية عموماً ، وسببها الطباعة ؛ ونظراً لقدم هٰذه النسخة فقد أثرت فيها الأرضة وأتت علىٰ طائفة من الصفحات فانخرمت ، غير أنها لم تؤثر علىٰ سلامة الكتاب وجودته ، ويضاف لذلك أن طول الزمن وقدم العهد قد أجهد الأوراق وأضعف بنيتها ، وأكسبها هشاشة تحيج المتعامل معها إلى اللطف في المعاملة والتقليب حتىٰ لا تتلف .

ولا يفوتنا أن هٰذه النسخة احتوت علىٰ ترجمة موجزة للمؤلف رحمه الله

تعالىٰ ، وترجمة أكثر إيجازاً للإمام السهروردي ؛ لأن كتابه « عوارف المعارف » قد طبع بهامشها .

ونختم بأنه قد تم الاستئناس بما في هٰذه النسخة عند دراستنا لفروق النسخ الخطية ، وقد كان لها دور جيد في حل غموض بعض المشكلات ، ولا سيما في حال ورود خرم أو سقط أو غيرهما من الصعوبات ، وما أفدناه منها بينّاه في الحاشية مشيرين إلىٰ ذلك بالرمز الذي اعتمدناه لها .

وقد رمزنا لها بـ(ق) .

* * *

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من محفوظات دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تحمل الرقم (١٧٠٤ خاص) ، (٢٧ تصوف) .

وهي نسخة كاملة .

تقع ضمن مجموع يحتوي أربع مخطوطات .

عدد أوراقها (٣٥) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر (١٠) كلمات .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وجاءت خالية من الضبط بالشكل ، وفيها الكثير من التصحيف وبعض الكلمات التي سقطت ، إضافة إلى التشويش في ترتيب الكلام فيها ، حيث قدَّم الناسخ فيها وأخَّر بشكل واضح ؛ نظراً لانقطاع ترابط العبارات في بعض المواضع ، وجرَّاء معارضتها مع بقية النسخ تبين أن ذلك ناشىء عن التقديم والتأخير ، وقد كتبت بعض عناوينها بلون مغاير للون المتن ، ونجم عن ذلك عدم ظهور هـٰذه العناوين أو الفصول في التصوير ، فبقي موضعها أبيض .

ناسخها : أحمد بن علي بامزروع اليمني التريمي الشافعي ، وقد فرغ

من نسخها في الثالث عشر من شهر مولد ثاني ، سنة ألف ومئة وواحد وثمانين للهجرة النبوية الشريفة .

وقد رمزنا لها بـ(ر) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من محفوظات دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تحمل الرقم (٥٤٨ تصوف) .

وهي نسخة كاملة .

عدد أوراقها (٥٢) ورقة ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر (٧) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي حسن ، ولم يُعْنَ ناسخها بضبطها على الإطلاق ، غير أنه ارتكب فيها أمراً مستغرباً ، وذلك أنه عندما كان يريد الإشارة إلىٰ فروق النسخ لم يكن يكتب هٰذا الفرق على الهامش كما هو معروف لدى النسَّاخ ، بل كان يثبت الفرق ضمن النص إلىٰ جانب الكلمة التي في أصله ، وثمة بياض كثير في هٰذه النسخة بمقدار كلمة أو كلمتين ، الأمر الذي أثر علىٰ جودتها ، ويبدو أنها نسخت عن النسخة (خ) ، أو أنهما نُسختا عن أصل واحد ؛ نظراً للتوافق الملحوظ بينهما ، خصوصاً في مواضع السقط أو التصحيف في حال وجوده .

ناسخها : السيد عثمان ، الملقب بعوفي ، وهو من تلاميذ الحافظ أحمد الحِلْمي ، كما جاء في آخرها ، غير أنه لم يذكر تاريخ النسخ أو مكانه .

وقد رمزنا لها بـ(ش) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثالثة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، تحمل الرقم (٩٣٣) .

وهي نسخة كاملة ، رائقة ، جيدة .

عدد أوراقها (٤٩) ورقة ، وعدد السطور في الورقة (١٩) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر (٨) كلمات .

كتبت بخط نسخي واضح مقروء ، وكتبت العناوين فيها باللون الأحمر المميز ، وكذلك بعض الكلمات المهمة ، وقد خلت من الضبط بشكل عام ، غير أنها لم تخلُ من بعض التصحيفات أو السقط الذي ربما امتد لأكثر من سطر ، وقد لوحظ في أثناء المقابلة تشابه كبير بينها وبين النسخة (ض) ، وربما نشأ هـٰذا عن نسخهما عن أصل واحد ، والله تعالىٰ أعلم .

ويلاحظ أيضاً أن غلافها مزين بورق (الإيبرو) الأنيق .

ناسخها : أبو العباس ، أحمد بن إسماعيل بن محمد بن الدعيم ، وقد

فرغ من نسخها نهار الجمعة في الثالث عشر من ربيع الأول ، سنة ست وتسعين وثمان مئة من الهجرة النبوية الشريفة .

وقد رمزنا لها بـ(ت) .

* * *

النسخة الرابعة :

نسخة مصورة من محفوظات دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تحمل الرقم (٧ مجاميع حليم) .

وهي نسخة كاملة ، جيدة .

تقع ضمن مجموع يحتوي إحدىٰ عشرة مخطوطة .

عدد أوراقها (٤٤) ورقة ، وعدد سطور الورقة (٢٣) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٦) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي جميل وبلون واحد ، وتناثرت بعض الحركات علىٰ شيء من حروفها دون منهج واضح متَّبع في ذلك ، وقد جعل الناسخ سطورها محصورة ضمن إطار مزدوج مستطيل ، وقد بدا اهتمام الناسخ بها من حيث تعليقاته علىٰ هوامشها ، وكذلك وضع بعض العناوين الجانبية ، ولم تفُتْهُ الإشارة إلىٰ بعض فروق النسخ الأخرىٰ أيضاً ، والأمر الذي تجدر الإشارة إليه أنه في أثناء المقابلة تبين مدى التشابه إن لم نقل : التوافق التام بين هـٰذه النسخة وبين النسخة (ذ) ، ولعل الثانية هي أصل لهـٰذه النسخة ؛ نظراً لأنه في بعض

المواضع القليلة جداً وجدنا فيها تصحيفاً واضحاً خلت عنه (ذ) .

هـٰذا ؛ ولم نتمكن من معرفة ناسخها ، وقد وجد في آخرها ما نصه : (وكان الفراغ من هـٰذا الكتاب ضحوة يوم الجمعة ، الموافق (٢) جمادىٰ أول، سنة (١٣٠١) من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام) .

لكن جاء علىٰ صفحة الفهرسة في دار الكتب المصرية ما يفيد أنها بخط علي بن سالم بن محمد الشافعي .

وقد رمزنا لها بـ(ث) .

* * *

النّسخة الخامسة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة تشستربيتي بدبلن ، تحمل الرقم (٤٢٥٩) .

وهي نسخة كاملة .

تقع ضمن مجموع يحتوي أربع مخطوطات ، أولها هـٰذه النسخة ، وقد استغرقت من المجموع (٥٦) ورقة ، ومن الملاحظ أن المجموع كله كتبه ناسخ واحد ؛ نظراً لعدم اختلاف القلم .

عدد أوراقها (٥٦) ورقة كما سبق ، وعدد سطور الورقة الواحدة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي واضح ، وقد اعتنى الناسخ بإعجامها في الغالب ، وكذلك عمل علىٰ ضبط كثير من حروفها ، غير أنه لم يلتزم في ذلك منهجاً ، فكان ضبطه عشوائياً بشكل عام ، مع أنه يبدو أنها قوبلت علىٰ نسخة أخرىٰ ، وأثبتت بهامشها الفروق .

ولم يذكر في آخرها اسم الناسخ ، ولا تاريخ النسخ ، إلا أنها تقع في مجموع كتب بيد واحدة كما سبقت الإشارة إليه ، وقد صرح الناسخ باسمه في خاتمة كل مخطوطة مما يلي هـٰذه النسخة ، بل إنه كان يصرح بأنه مؤلف تلك المخطوطة ؛ لذلك نرجح أنه ناسخ هـٰذه النسخة أيضاً وإن لم يكن مؤلفَها .

أما اسمه . . فهو : علي بن محمد بن أبي قصيبة الغزالي ، ومن المرجح أن تاريخ النسخ هو عينه تاريخ نسخ المخطوطات الثلاث بعدها وهو سنة إحدىٰ وثمانين وثمان مئة .

وقد تمكنا من قراءة تملك واحد علىٰ أولها ونصه : (تملكه من فضل الله ذي اللطف الخفي محمد بن إبراهيم الغزي الحنفي بالابتياع الشرعي في سنة ست وثمانين . . .) .

وكذلك كتب علىٰ أولها فهرس لمحتويات المجموع الذي وردت ضمنه وهو : (فهرست هـٰذا الكتاب وما فيه من الكتب : كتاب الإملاء علىٰ مشكل الإحياء ، كتاب تنويه العاقل وتنبيه الغافل ، كتاب عرف روح

الفلاح ، كتاب نشر عرف الهدي المحمدي) .

وقد رمزنا لها بـ(خ) .

* * *

النسخة السادسة :

نسخة مصورة من محفوظات **دار الكتب المصرية** بالقاهرة ، تحمل الرقم (١٥٠٠ تصوف طلعت) .

وهي نسخة كاملة ، جيدة جداً .

تقع ضمن مجموع يحتوي خمس مخطوطات .

عدد أوراقها (٣٦) ورقة ، وعدد سطورها مختلف ، فبينما هو في بعض الأوراق (١٩) سطراً نجده في أوراق أخرىٰ بلغ (٢٣) سطراً ، ومتوسط كلمات السطر (٩) كلمات .

كتبت بخط نسخي جيد واضح ، وهي بلون واحد ، وتمتاز بضبط معظم كلماتها بالحركات الإعرابية وغير الإعرابية ، كما أنها مرصعة بحواشٍ جانبية ، وببعض الفوائد والعناوين والمطالب ، مما يدل علىٰ أنها مقروءة أو مقابلة ؛ وذلك لوجود بعض فروق النسخ في الهامش .

ونذكِّر هنا بمدى التوافق الكبير بين هـٰذه النسخة وبين النسخة (ث) الذي أشرنا إليه في أثناء وصفنا لها .

ناسخها : أحمد بن شيخ بن أبي بكر ، وقد فرغ من نسخها نهار الخميس في الخامس والعشرين من صفر ، سنة إحدىٰ وتسع مئة .

وجاء في آخرها : (طالع هـٰذا الكتاب ورأىٰ ما فيه من اللباب الفقير إلىٰ ربه الرحمـٰن محمد بن أحمد بن زهران الأجهوري الشافعي الأزهري غفر الله له ولوالديه. . . . . .) .

وقد رمزنا لها بـ(ذ) .

* * *

النسخة السابعة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **فيض الله أفندي** ، ضمن مقتنيات المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٢١٢٣) .

وهي نسخة كاملة ، لا بأس بها .

تقع ضمن مجموع يحتوي ست مخطوطات للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

عدد أوراقها (٢٢) ورقة ، وعدد سطور الورقة (٢٣) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (١٥) كلمة تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها العناوين والفصول وبعض الكلمات المهمة بخط كبير ممدود نسبياً ، ويضاف إلىٰ ذلك أن الناسخ وضع خطوطاً أفقية حمراء فوق بعض العبارات والكلمات المهمة ، وثمة نوع من

الضبط بالحركات ملحوظ في النص متنوع بين إعرابي وغيره ، وتكاد هٰذه النسخة تخلو من التعليقات أو التصحيحات إلا ما قلَّ وتباعد ، ولم يشكِّل أهمية ملحوظة .

ولا ننسى التذكير بما أشرنا إليه في وصف النسخة (ت) من التشابه الكبير بينها وبين هٰذه النسخة ، وربما يعود السبب في ذلك إلىٰ كونهما منسوختين عن أصل واحد .

ناسخها : علي بن إبراهيم بن عبد المجيد دباس الشافعي ، وقد وجدنا في أولها وآخرها عبارة نصها :

(من كتب يحيى بن حجي الشافعي) وتاريخ الفراغ من نسخها هو : عشية الثلاثاء ، السابع عشر من صفر ، سنة ست وخمسين وست مئة من الهجرة ؛ علماً أننا لا نجزم بصحة هٰذا التاريخ ؛ وذلك بسبب صعوبة قراءته من المخطوط .

وقد ورد علىٰ غلاف المجموع المحتوي علىٰ هٰذه النسخة إضافة إلىٰ كتب أخرىٰ للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ بعض التملكات والعبارات التي تفيد بقراءة محتواه ، وقد استطعنا أن نقرأ **منها التالي** : (اللهَ أحمدُ ، طالعه واستفاد منه أفقر الخلق لعفو الحق إبراهيم بن الشيخ موسى الحلبي ، داعياً لمالكه بعليِّ المراتب ، وبلوغ المآرب ، وحسن العواقب) .

ومنها أيضاً : (فاز بالوصول إلىٰ هٰذا الكتاب بمنِّ مَنْ له الفضل وهو

التواب الوهاب عبده المعترف بذنوبه عبد الرحمـٰن ، عفا الله عنه وعن أسلافه وعن المسلمين أجمعين) .

ومنها : (تملك العبد الفقير إلى الله الغني جلال الدين بن حسين الأتابكي) .

وكذلك : (نوبة محمد عبد الرحمـٰن العثماني) .

ومنها أيضاً : (انتظم في سلك ملك أضعف عباد الله ، وأحوجهم إليه عبد الرحيم بن علي بن مؤيد ، عفا الله عنهم ، في أوائل ذي الحجة لسنة ثلاث وأربعين وتسع مئة . (من الطويل)

ويكفيكَ قولُ المرءِ فيما ملكْتَهُ لقـدْ كـانَ هـٰـذَا مـرَّةً لفـلانِ)

ومما ورد أيضاً : (نظر في هـٰذا الكتاب المبارك العبد الفقير الراجي عفو ربّه وغفرانه محمد بن عثمان بن علي بن حامد بن خليفة الشافعي ، عفا الله عنه وعن جميع المسلمين) .

وأيضاً : (من نعم الله علىٰ عبده أحمد النجار الحنبلي) .

وأيضاً : (تشرف بهـٰذا الكتاب الشريف ، إسماعيل بن عبد اللطيف ، عفا ذنوبه الكريم بحرمة نبيه البشير النذير ، وآله وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين سنة « ٩٤٨ ») .

ومنه : (ولقد من الله بفضله مطالعة هـٰذه المجموعة الأنيقة ، والرسائل

البديعة ، علىٰ عبده الفقير الشاكر إلى الغني الشاكر الكشهري سنة « ١٣٠٣هـ ») .

ووردت العبارة المشار إليها آنفاً وهي : (من كتب يحيى بن حجي الشافعي) .

وبعدها : (ثم ملكه بالابتياع محمد بن محمد بن محمد الطنبدي ، الشهير بابن عرب) .

ثم نذكر أخيراً عبارة الناسخ وهي : (علَّقه لنفسه أفقر خلق الله إلىٰ رحمته علي بن إبراهيم بن عبد المجيد دباس الشافعي ، لطف الله به ، وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين) .

ونلاحظ مع هـٰذا كله ختماً كبيراً واضحاً كتب فيه : (وقف شيخ الإسلام السيد فيض الله أفندي ، غفر الله له ولوالديه ، بشرط ألاَّ يخرج من المدرسة التي أنشأها بقسطنطينية سنة « ١١١٣هـ ») .

وقد رمزنا لها بـ(ض) .

* * *

« تعريف الأحياء بفضائل الإحياء »

النسخة الأولى :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **الأحقاف** بتريم في حضرموت ، تحمل الرقم (٣١٧٨) .

وهي نسخة غير كاملة .

عدد أوراقها (١٣) ورقة ، وعدد سطور الورقة (١٩) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي مقروء ، وكتبت فيها بعض الكلمات المهمة ورؤوس الفقرات باللون الأحمر ، وقد حصل فيها سقط في ثلاثة مواضع ، **الأول** : في الورقة (٣) بعد قوله : (والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه اعلم) ، وانتهىٰ عند قوله : (الجليل كبير الشأن) ، **والثاني** : في الورقة (٦) عند قوله : (نور يضعه الله في القلب) ، وانتهىٰ عند قوله : (فصل وأما ما أنكر فيه) ، **والثالث** : في الورقة (٩) عند قوله : (أعني : عمر بن عبد العزيز والشافعي) ، وانتهىٰ عند قوله : (وأما سبب رجوعه إلىٰ هـٰذه الطريقة) .

وهـٰذا النقص المشار إليه حدث بعينه في النسخة (غ) الآتية ، فلعل النسختين نسختا عن أصل واحد ، والله أعلم .

ناسخها : جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن علوي الحداد ، وقد فرغ من نسخها ضحوة يوم الأربعاء في العشرين من شهر رمضان المعظم ، سنة (١٢٥٥) خمس وخمسين بعد المئتين والألف من الهجرة النبوية الشريفة .

وجاء في آخرها : (بلغ مقابلة من النسخة المنقول عنها) .

وقد رمزنا لها بـ(ظ) .

* * *

النسخة الثانية :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **الأحقاف** بتريم ، مجموعة (ع) الكاف برقم (٢٢٣) ، (٢٩٨٠) .

وهي نسخة غير كاملة أيضاً .

تقع ضمن مجموع يحتوي سبع مخطوطات .

عدد أوراقها (٢٥) ورقة ، وعدد سطور الورقة (١٥) سطراً ، وعدد كلمات السطر الواحد (٥) كلمات تقريباً .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها العناوين وبعض الكلمات المهمة ورؤوس الفقرات باللون الأحمر ، وقد سلف في وصف النسخة (ظ) الإشارة إلى النقص الحاصل فيها ؛ لأنه حصل في المواضع نفسها ، إلا أن أرقام الورقات هنا هي : الورقة (٦) ، والورقة (١٣) ، والورقة

(١٩) ، إضافة لسقوط بعض الكلمات المفردة في مواضع متعددة .

ناسخها : سالم بن عبد الله بن حمد بن عمر بن عبد الباسط ، وقد فرغ من نسخها ضحوة يوم الخميس ، في التاسع عشر من شهر صفر الخير ، سنة (١٢٦٧) للهجرة النبوية الشريفة .

وقد رمزنا لها بـ(غ) .

* * *

النسخة الثالثة :

نسخة مصورة من محفوظات مكتبة **الأحقاف** بتريم ، مجموعة آل يحيىٰ (٤٨) مجاميع ، تريم ، تحمل الرقم (٢٦٤٧) .

وهي نسخة كاملة ، جيدة .

تقع ضمن مجموع يحتوي عدة مخطوطات ، وترتيبها فيه الخامس .

عدد أوراقها (١٨) ورقة ، وعدد سطورها مختلف ، ففي بعض الأوراق (١٦) سطراً ، وفي بعضها الآخر (١٨) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٨) كلمات .

كتبت بخط نسخي معتاد ، وكتبت فيها بعض الكلمات باللون الأحمر ، وقد وجد في هوامشها بعض التصويبات والكلمات الملحقة ، وكذلك بعض الإشارات إلىٰ فروق بعض النسخ علىٰ قلّة في ذلك ، وهي خالية من الضبط تماماً ، ومعجمة في الأعم الأغلب .

ليس فيها ما يشير إلى اسم ناسخها ، ولا إلىٰ تاريخ النسخ ، غير أن الناسخ ذكر أربعة أبيات من نظمه فقال : (من الرجز)

مـاذا يقـولُ النـاسُ فـي طـريـقِ مبـداهُ طهـرُ القلـبِ بـالتحقيـقِ
عمّـا سـوى اللهِ العظيـمِ ربّنـا يـا ربِّ طهِّـرْ قَلْبَنـا يـا حَسْبَنـا
وعقـدُهُ استغـراقُ كـلِّ القلـبِ بـذكـرِ مـولانـا الكـريـمِ ربِّـي
وختْمُـــهُ الغَنـــاءُ بـــالكليّـــةْ فـي اللهِ ربِّـي خـالـقِ البـريّـةْ

وقد رمزنا لها بـ(ح) .

***

منهج العمل في الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين إلىٰ يوم الدين .

أما بعد :

فإن **دار المنهاج** لم تكن فكرة مرتجلة ، أو رغبة من صاحبها فضيلة الشيخ **أبي سعيد عمر سالم باجخيف** بالسير مع كوكبة الناشرين فحسب ، **بل كانت ثمرة خطة واعية ، ودراسة جادَّة لما تحتاجه أمة الإسلام من نشر المفيد النافع** ؛ عملاً بأمره صلى الله عليه وسلم لنا بالتبليغ ؛ إذ روى الإمام البخاري رحمه الله في « صحيحه » (٤٣٦١) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **بلِّغوا عني ولو آية** » ، ولكلٍّ طريقته في التبليغ .

وقد ارتكزت هـٰذه الخطة والدراسة علىٰ رؤية مستقبلية **عميقة ، وانتقاء الأسفار التي يلح عليها واقعنا الحاضر ؛ بغية النهوض والتقدم** .

والـذي يبـدو للنـاظـر أن ميـاديـن المعـرفـة ومكتبـات العـالـم مـلأىٰ بالمؤلفات ، زاخرة بالمصنفات التي تركها الأول للآخر ، وهي متباينة المراتب .

وهـٰذا يفرض على المتصدِّي للبحث والمهتمِّ بالنشر أن يُحسن الاختيار ، ويُجيد الانتقاء ، ويتقي الله في نفسه خاصةً ، وفي المسلمين بل والناس عامةً ؛ لأن عمل الناشر هو دعوةٌ وحثٌّ على الالتزام بمضمون ما يَنْشُر .

فالذي ينشر هدىً وخيراً ينال أجره ، ويشارك في الثواب غيرَه ، لما لذلك من أثر حسن في المجتمع الإسلامي .

والدار بتوفيق الله تعالىٰ أخرجت كتباً عزيزة من دهاليز المخطوطات ، وأولتها العناية من حيث التحقيق وجودة الطبع ؛ مثل : « نهاية المطلب » و« البيان شرح المهذب » ، وغيرهما من المراجع العلمية التي لم تكتحل العيون برؤيتها إلا عبر هـٰذه الدار .

وكذلك عقدت العزم علىٰ إعادة نشر بعض المراجع العلمية التي هي بحاجة ملحةٍ إلى العناية العلمية تحقيقاً وتعليقاً وجودة طبع وإخراج .

ومن ذلك هـٰذا الكتاب المبارك « إحياء علوم الدين » الذي بذلت فيه الدار همة قعساء تليق بمكانته وأهميته ، فللّه الحمد والمنة .

***

ولقد كانت مسيرة هـٰذا السفر الجليل ، والكتاب المبارك تسير وفق الخطة الآتية :

جمع النُّسخ الخطيّة

عزيز جداً أن تظفر بنسخة ذات قيمة لكتاب مثل « **إحياء علوم الدين** » .

فعلى الرغم من تطور وسائل البحث والاتصال ، وتيسُّر الوصول إلىٰ فهارس المخطوطات والتراث في مختلف بلدان العالم . . **فقد كانت مهمة الحصول علىٰ نسخ نفيسة لهـٰذا الكتاب المبارك شاقةً** ومضنية ؛ إذ تطلَّب ذلك السَّفَرَ مراتٍ عديدةً إلىٰ غير ما مدينةٍ في العالم .

والذي نهض بهـٰذا العبء ، وقام بهـٰذا الجهد : فضيلة الشيخ عمر سالم باجخيف نفسه .

إذا ارتحل إلىٰ عدة عواصم إسلامية وأوروبية حتىٰ حصل علىٰ أكثر من **ثماني عشرة نسخة خطية لـ« الإحياء »** ، تقدم الكلام عنها في وصف النسخ الخطية .

علىٰ أنه لم يكد يلقي عصا ترحاله ، حتىٰ بدأ يستحثُّ فريقاً مدرَّباً من الباحثين في مركز الدراسات في داره المباركة على الإسراع في إنجاز بقية مراحل التحقيق .

فبدأت بذلك المرحلة الثانية ، مرحلة معارضة النسخ ودراستها .

معارضة النُّسَخ الخطيّة

لم يتوانَ الباحثون في المركز العلمي للدار عن إنجاز هـٰذه المهمة علىٰ وجهها الأمثل ، وترجح بالأدلة والقرائن من خلال الدراسة الفاحصة : النسخةُ التي اعتمدت لتكون الإطار العام لتحقيق كتاب « الإحياء » .

ومن ثَمَّ انبرت ثلَّة من طلبة العلم المتمرسين لمقابلة الأصل ببقية النسخ المعتمدة ؛ اتِّباعاً للمنهج العلمي المعروف لدى الباحثين ، واقتداء بعلمائنا الأفذاذ الأوائل ، **الذين عدُّوا هـٰذه المرحلة من أهم مراحل توثيق النص وضبطه .**

فقد أورد الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ١٥٦) أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (كنت إذا سمعت من أبي حديثاً . كتبته ، فقال : أي بني ؛ كيف تصنع ؟ قلت : إني أكتب ما أسمع منك ، قال : فأتني به ، فقرأته عليه فقال : نعم ، هـٰكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، **ولكني أخاف أن يزيد أو ينقص**) .

وانطلاقاً من هـٰذا قام الفريق العلمي بالمقابلة بدقة تامة ، وتأنٍّ شديد ، وحرص بالغ علىٰ ألاَّ تفوتهم كلمة أو حرف أو فائدة يمكن أن تسهم في خدمة هـٰذا النص المبارك .

وقد استغرق هـٰذا العمل أكثر من أربعة أعوام ، تمت فيها مقابلة الكتاب

مرتين ، وتناوب فيها على هٰذا الجهد الكبير ما يزيد على ثلاثين طالب علم .

وبتمام هٰذه المرحلة الأساس يكون الكتاب قد أصبح مهيئاً بشكل علمي دقيق لتحقيق نصه ، وإخراجه بصورته الأقرب إلىٰ مراد مؤلفه رحمه الله تعالىٰ .

مرحلة التحقيق

إن صعوبة هٰذه المرحلة غير خافية على الباحث أو المحقِّق ، إذ لا بد من اختيار كلمة أو عبارة ، واستبعاد أخرىٰ ، من خلال نص قد يكون اعترىٰ بعض كلماته شيءٌ من التحريف والتصحيف .

فكان عمل اللجنة عند اختلاف النسخ إثبات الصواب في حين وضوحه وتبينه ، ولم يثبت من المغايرات إلا ما كان يؤدي ، أو يمكن أن يؤدي معنىً جديداً صحيحاً ، مع محاولة تلمُّس أسلوب الإمام الغزالي في أثناء الحكم على المغايرات .

والذي نستطيع قوله هنا أنه تمت مراعاة المنهج العام في التحقيق حسب الوسع والطاقة ، مع الاستعانة عند غموض العبارة وإشكالها بشرح « الإحياء » المسمىٰ « إتحاف السادة المتقين » مخطوطاً ومطبوعاً .

وتمَّ تخريج الأحاديث النبوية الشريفة والآثار من مظانها في دواوين السنة باعتماد تخريج الحافظ العراقي رحمه الله في « المغني » ، وبالاعتماد أيضاً

على استدراكات الإمام ابن السبكي رحمة الله عليه ، واستدراكات الحافظ الزبيدي رحمه الله كذلك ، مع الاستعانة والاستفادة مما صدر في العالم الإسلامي من الكتب والأجزاء الحديثية .

كما تم أيضاً عزو الأقوال والنصوص المنقولة إلىٰ مظانها في المصادر المتوافرة لدينا ، مع الالتزام ما أمكن بما يمكن أن يسمىٰ ضوابط أو قواعد لهـٰذا العمل .

وقد شرحنا بعض الكلمات والعبارات الغامضة ، ولم نعمد إلىٰ حشد الحواشي والتعليقات عشوائياً ، بل علَّقنا عندما مسَّت الحاجة للتعليق ، وعملنا ما في وسعنا لجعل التعليق موجزاً ومؤدياً للغرض في الوقت نفسه .

ولما كانت عبارة « الإحياء » تحتاج إلى الدقّة والأناة والتروِّي . . **آثرنا أن نضبط الكتاب كاملاً بالحركات الإعرابية** ؛ ليسهل تناوله وفهمه على الوجه الأمثل .

ونحن هنا نشير إلىٰ ما قاله القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ في « الإلماع » (ص ١٣٦) حين ذكر مقولة : (**إنما يُشكَل ما يُشكِل**) فقال : (وقال آخرون : **يجب شكل ما أشكل وما لا يشكل ، وهـٰذا هو الصواب** ، لا سيما للمبتدىء وغير المتبحر في العلم ؛ فإنه لا يميز ما أشكل مما لا يشكل ، ولا صوابَ وجه الإعراب للكلمة من خطئه) .

ثم عقَّب القاضي رحمه الله ذلك بجملة من الأمثلة تبين وجه هٰذا الصواب الذي اعتمده .

ونحن نضيف في هٰذا المقام : أن القاضي عياضاً رحمه الله قال ما قاله **يوم أن كان العلم فاشياً والمعرفةُ حاجةً من الحاجات** ، هٰذا إن لم تكن ضرورة من ضرورات الحياة .

وأما اليوم !! فإنه يتأكد قول القاضي علىٰ وجه لا يدع مجالاً للنقاش أو النزاع ، في زمن لا يبعد أن يوصف العلم فيه بالضياع ، وهٰذا الكتاب ستطاله يد العالم وطالب العلم والعامي علىٰ درجة سواء إن لم نقل : **لعل بعض العامة من أهل الإسلام هم أشد تعلُّقاً وأكثر ولعاً بهٰذا السفر الجليل من غيرهم** .

هٰذا وقد رُصِّعَ الكتاب بعلامات الترقيم المناسبة حسب منهج الدار المتبع في ذلك ، وهٰذا أمر ضروري ، وليس مستحدثاً كما يظنه بعضهم ، وهو وإن لم يكن بهٰذا الشكل المتبع اليوم ، لكنه بالمعنىٰ ذاته ، أما الشكل . . فهو مبتدَع مستحدَث لا شك فيه كما هو معلوم لدى الباحثين .

ولعل ما دفعنا إلىٰ هٰذا الكلام عن الترقيم ـ مع أنه لا يكاد يعترض اليوم عليه أحد ـ هو أننا استحدثنا علامةَ ترقيم جديدة ، وهي النقطتان الأفقيّتان (. .) ، وأثبتناها قبل جواب الشرط أو الخبر البعيد ، وذلك أن الفاصل إذا طال بين الشرط والجواب ، أو المبتدأ والخبر . . فإنه يورث بعض اللَّبس أو التشتيت للذهن .

إدخال الكتاب إلى الحاسب الآلي

ثم أُسندت مهمة إدخال نص الكتاب بعد تحقيقه كاملاً إلى الحاسب الآلي **لمجموعة من المبدعين المهَرَة في هٰذا الميدان** .

وقد قاموا بعملهم علىٰ مستوىً عالٍ من المهنية والحرفية .

وتمَّت مراجعة بعضهم للعمل بدقة متناهية ، نكاد نقول بعدها : **إن نسبة الخطأ تدنَّت إلى الحدِّ الأدنى الذي يمكن لبشر أن ينجزه إذا استفرغ جهده في ذلك** ؛ إذ تمَّت مقابلة النسخة الإلكترونية على الأصل المحقق ثلاث مرات ، فاستوفى الكتاب بذلك حقه من الضبط .

إلا أننا ورغبة منّا في تحري الدقة والإتقان عمدنا إلىٰ مرحلة **قلَّ من يوليها اليوم اهتماماً** ، وهي دفع الكتاب لأهل العلم ؛ ليراجعوه ويروا رأيهم في صنعته ، فكانت المرحلةُ التالية .

مراجعة الكتاب

إن مما منَّ الله به علينا ـ بعد توفيقه إيانا لخدمة « الإحياء » ـ أن أتاح لنا نخبة من أهل العلم المتخصصين ، وأهل الفضل الممحِّصين ، **فنظروا في الكتاب ، وقرؤوه كلمةً كلمةً** ، وخلصوا بنتائج طيِّبة ، وملاحظات قيِّمة ، وتصويبات دقيقة .

وقد أخذتها اللجنة العلمية بعين الاعتبار ، **وأولتها بالغ الاهتمام** ، وعملت على الاستفادة منها على الوجه الأمثل ، **فجاء العمل بحمد الله مكتملاً على النحو الذي تراه بين يديك** .

إخـــراج الكتاب فنياً

ثم بعد الانتهاء من العمل العلمي المتقن ، والفراغ من كل مراحل التحقيق . . كان لا بد من **اللمسة الفنية الماهرة ، والصنعة الحرفية البارعة** ، وذلك من خلال دراسة كاملة للكتاب وأرباعه وأبوابه وفصوله وتفريعاته .

وقد تم ذلك من قِبَلِ أهل الاختصاص في هـٰذا الشأن ، فوضعت خطة لإخراج « الإحياء » إخراجاً فنّياً راقياً ، يليق بمكانته ومكانة مؤلفه رحمه الله تعالىٰ ؛ ليسهل بذلك تناوله ، وتتيسر مطالعته والإفادة منه .

واستغرق ذلك من الوقت والجهد ما نسأل الله أن يجزل معه الثواب لمن بذلوا وعملوا .

* * *

وفي نهاية المطاف لم يبق لنا إلا أن نقول : **هـٰذا هو « إحياء علوم الدين » مخرجاً بأدقِّ تحقيق ، وأبهىٰ صورة ، وأرقىٰ صنعة** ، مقدَّماً إلىٰ طلبة العلم خاصة وإلى العالم الإسلامي عامة بأحسن ما تأتّىٰ لنا من العناية ، وهو بعد ذلك كله جهد مَنْ صفتُه النقص والخطأ .

فإن رأيت فيه ما تحبّ . . فاحرص عليه لنفسك ، ولا تبخل به علىٰ غيرك ، وإن كانت الأخرىٰ . . فلك الشكر والأجر إن أهديتنا عيوبنا ، ناصحاً مصلحاً .

ونسأل الله تعالىٰ أن يزيد النفع به ، وأن يكتب الأجر لمن ساهم في إخراجه علىٰ هـٰذا النحو .

والله وليّ التوفيق

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم

اللجنة العلمية

بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

خاتمة

نسأل الله حسنها مع دوام العافية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد السادات ، وعلىٰ آله وصحبه القادات ، وعلىٰ من تبعهم من أهل السعادات .

أما بعد : فلا بد في الختام من أمرين اثنين :

أولهما : أنه وبعد مضي سبع سنوات متواصلات من العمل الدؤوب ؛ بحثاً ومقابلة ، وقراءة وتحقيقاً ، وتعليقاً ومراجعة في هـٰذا الكتاب المبارك . . نكون قد انتهينا من أهدافنا في التحقيق ، **وسبع سنوات ليست بالكثيرة في إخراج مثل هـٰذا السفر الجليل لهـٰذا الإمام العبقري الذي ذاع صيته في كل قطر ومصر** ؛ لأننا نسمع من البعض بين الفينة والأخرىٰ : لماذا يبذل هـٰذا الوقت الطويل وهـٰذا الجهد والتعب الكبير في إخراج هـٰذه الأعمال النافعة ؟!!

ناسين أو متناسين أن الإحسان والإتقان اللذين أمرنا بهما يجب أن يتحققا في تراثنا الثمين ، ولا سيما الكنوز الشرعية ؛ لمكانتها السامية واتصالها بالوحيَين اللذين لا يضل من اهتدىٰ بنورهما ، بل يسعد في الدنيا وينعم في الأخرىٰ ، **وهما مطلب الألباء** ؛ حتىٰ نبني أسساً متينة لنهضة علمية تتسم

بالإحسان والإتقان ، تنهض بها الأمة وترتفع بها حصيلتها الثقافية ، حتىٰ **تصل إلى الشأو القصي ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .**

الأمر الثاني : وانطلاقاً من قول النبي الكريم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** ».. **فإني أتوجه بالشكر الكبير والثناء العاطر** :

○ إلىٰ أخي في الله وصديقي وروحي **فضيلة الحبيب أبي سعيد عمر سالم سعيد باجخيف** علىٰ تعاونه طيلة السنوات السبع المنصرمة في سبيل إخراج هٰذا العمل المبارك .

○ وإلىٰ إخوتي طلبة العلم الذين يعملون معي في مركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، هٰؤلاء الذين لم يتوانوا عن واجبهم في سبيل إخراج هٰذا الكتاب بأبهىٰ حلة وأجمل صورة ، وأخص منهم الإخوة السادة : **أنس الشرفاوي ، وذكوان غبيس ، ورابح قادري ، وصلاح الدين الحمصي ، وعامر الحلبي ، وعبد المجيد بن عدة ، وفراس مدلل ، ومحمد المحمد ، ومحمد ثابت حبوش ، ومحمد حسام صالح ، ومحمد شادي عربش .**

○ وإلىٰ جناب سيدي الشريف العلامة **عدنان بن علي الحداد** ـ حفيد سيدي الإمام الحبيب أحمد مشهور الحداد رحمه الله تعالىٰ ـ الذي تفضل مشكوراً بقراءة الكتاب كاملاً ؛ قراءة تحقيق وتمحيص وتدقيق ، فجزاه الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

○ وإلىٰ إخوتي الذين ساهموا في تصحيح الكتاب ومراجعته في الشام والحجاز واليمن ، فقد كان لمشاركتهم وتصحيحاتهم الفوائد الجمة ، وأخص منهم الإخوة في حضرموت السادة : **أحمد علي أحمد الكاف** ، **وعبد الله عمر زين ابن سميط** ، **وعلي محمد عبد الله العيدروس** ؛ بإشراف وتنسيق **محمد سقاف أحمد بلفقيه** .

○ وإلىٰ أخي وحبيبي السيد الشريف **علوي الشاطري** ـ نجل سيدي العلامة الحبيب حسن بن عبد الله الشاطري رحمه الله تعالىٰ ـ الذي قدم خدمات جليلة في تسهيل الكثير من الأمور .

○ وإلىٰ أخي المحبوب السيد **عمار الترك** الذي ساهم في تصوير المخطوطات .

○ وإلىٰ إخوتي في قسم التصميم والإخراج بمركز دار المنهاج ، وأخص منهم الإخوة السادة : **بشار الحوراني** ، **وسعيد حجازي** ، **ومحمد ياسر علوان** .

○ وإلىٰ إخوتي الإداريين في قسم الإشراف والدعم الفني وأخص منهم السيد : **إسماعيل حسين** .

○ وأكرر شكري لجميع الأحبة الأعزاء : **ممن عمل في الكتاب ، أو أسدىٰ نصيحة أو ملاحظة أو رأياً** .

سائلاً الله تعالىٰ أن يتقبل هٰذا العمل بقبول حسن ، وأن يجعله في ميزان الآباء والأبناء إلىٰ يوم الدين ، وأن يعم بنفعه العباد والبلاد .

وأخيراً :

إليك أيها القارىء نقدم هٰذه الموسوعة الشرعية ؛ التي تعالج أمراض القلوب ، وتحلق بك في الأجواء الروحانية ؛ فعساك أن تكون من أولٰئك الذين استحقوا المراتب العليا في الدار الأخرىٰ .

والله الموفق والهادي

وكتبه
محمد غسان نصوح عزقول الحسيني
المشرف على أعمال البحوث والنشر
بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي
في غرة رجب الأصب ١٤٣٢هـ

صور المخطوطات المستعان بها

كتاب إحياء علوم الدين

من تصنيف الشيخ الامام الاجل ... حجة الاسلام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي

راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

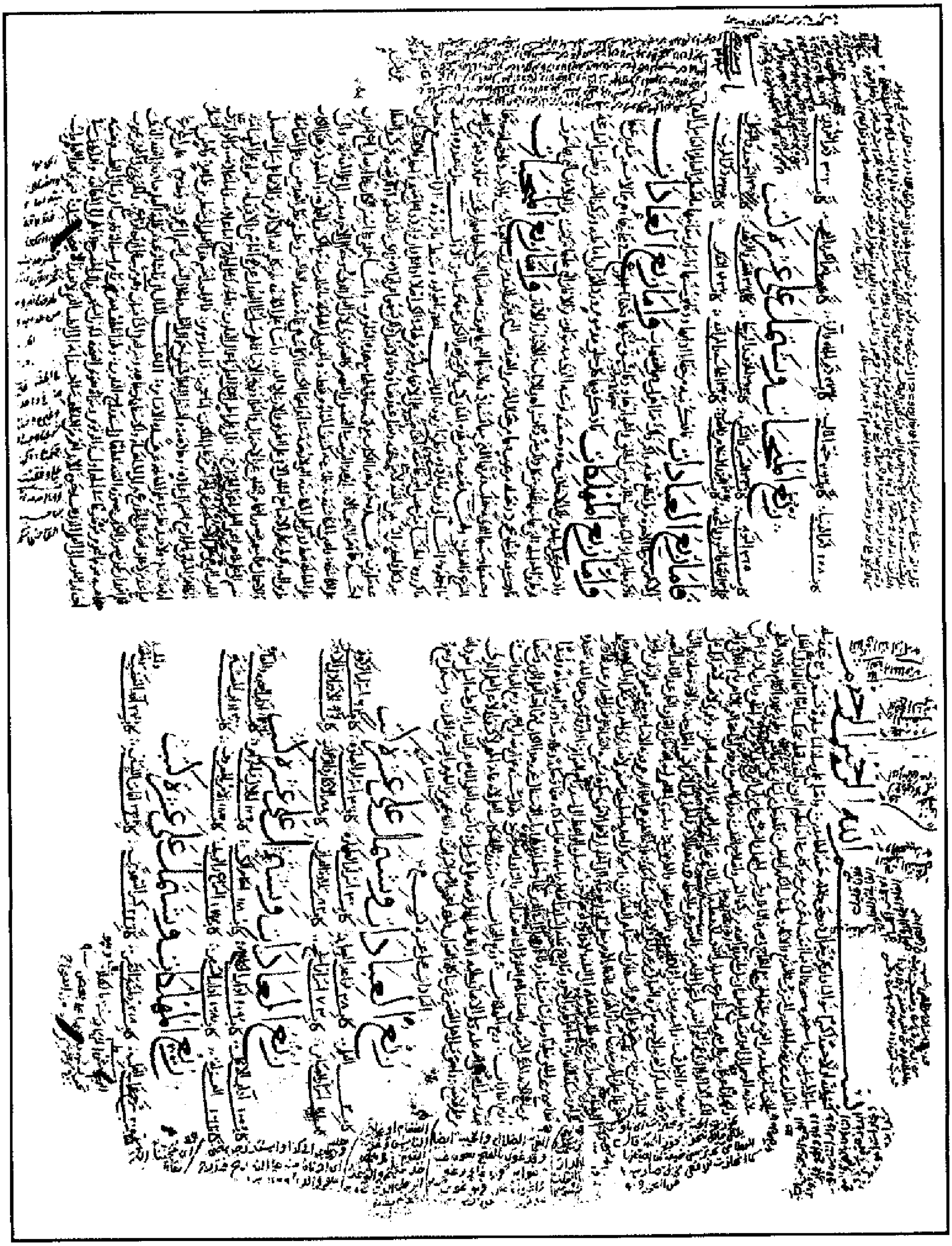

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

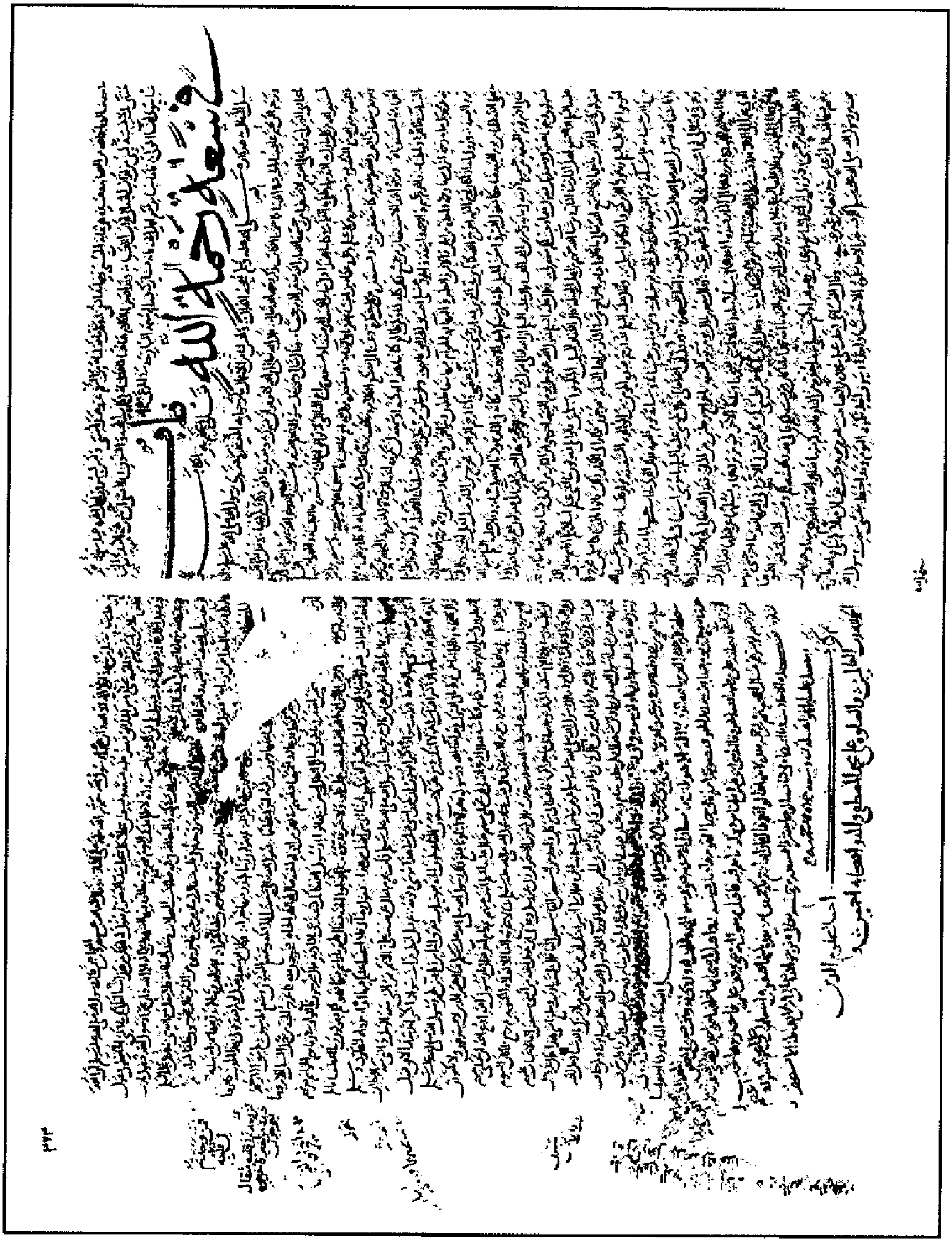

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

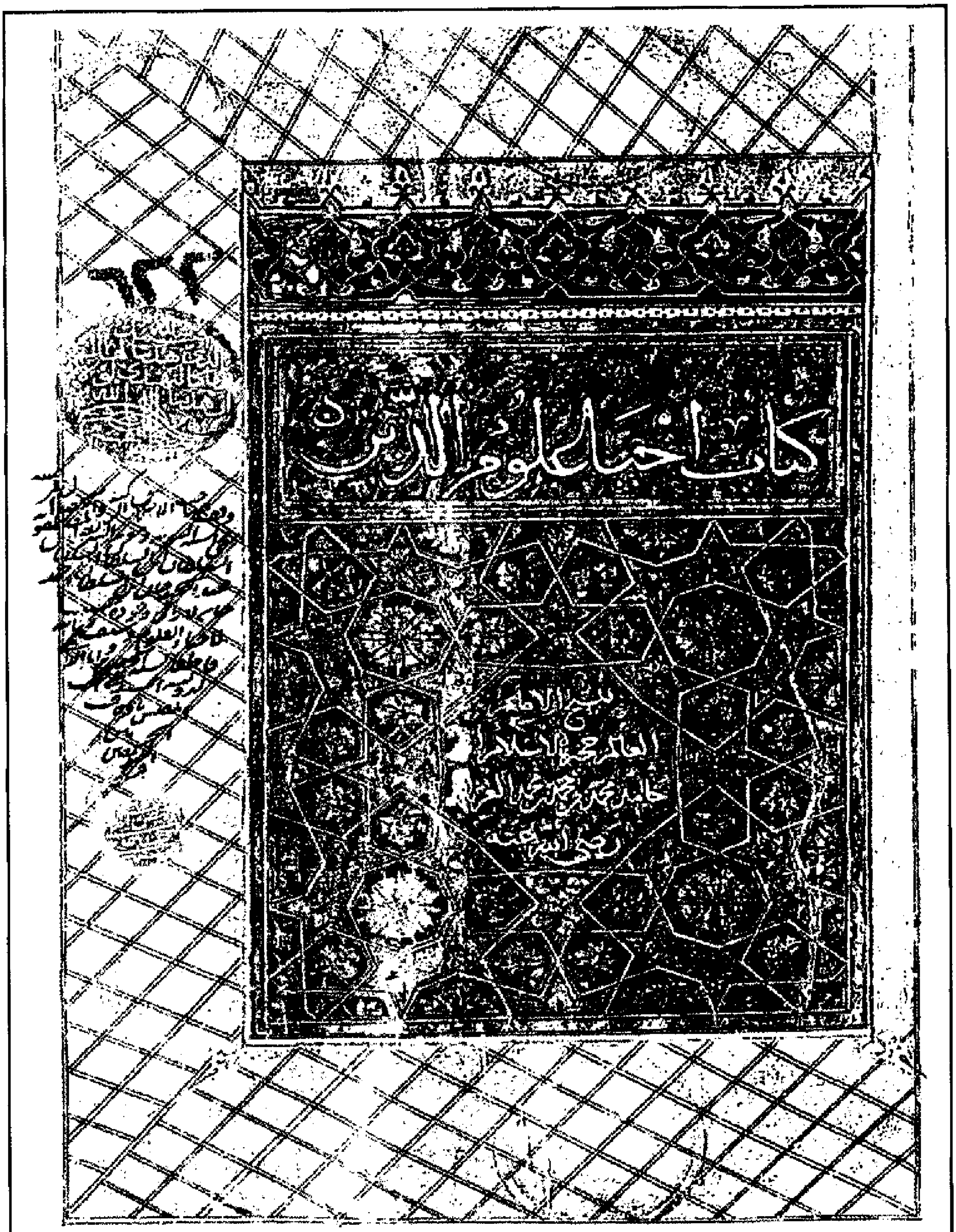

راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

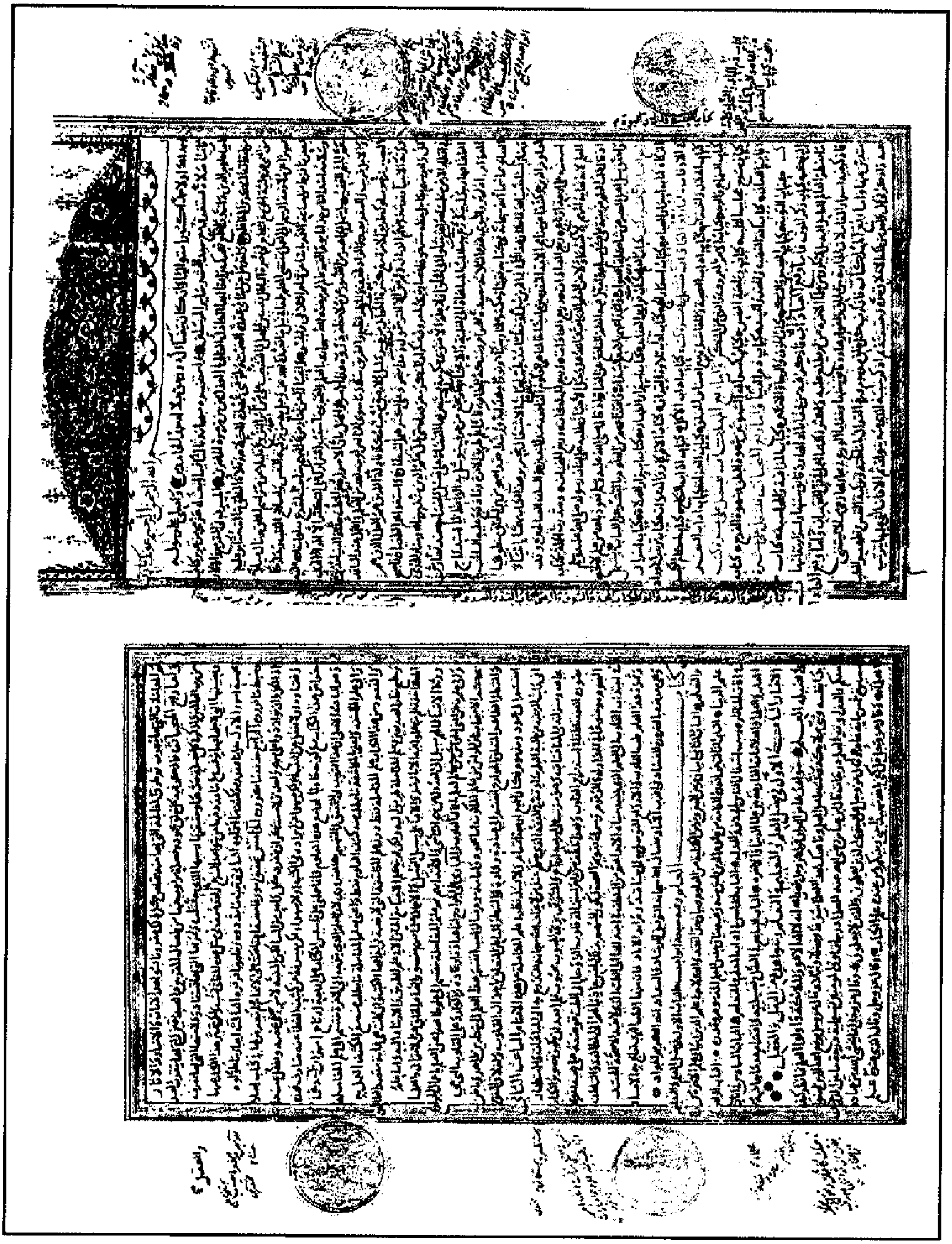

رامُوز الورقة الأولى للنّسخة (ب)

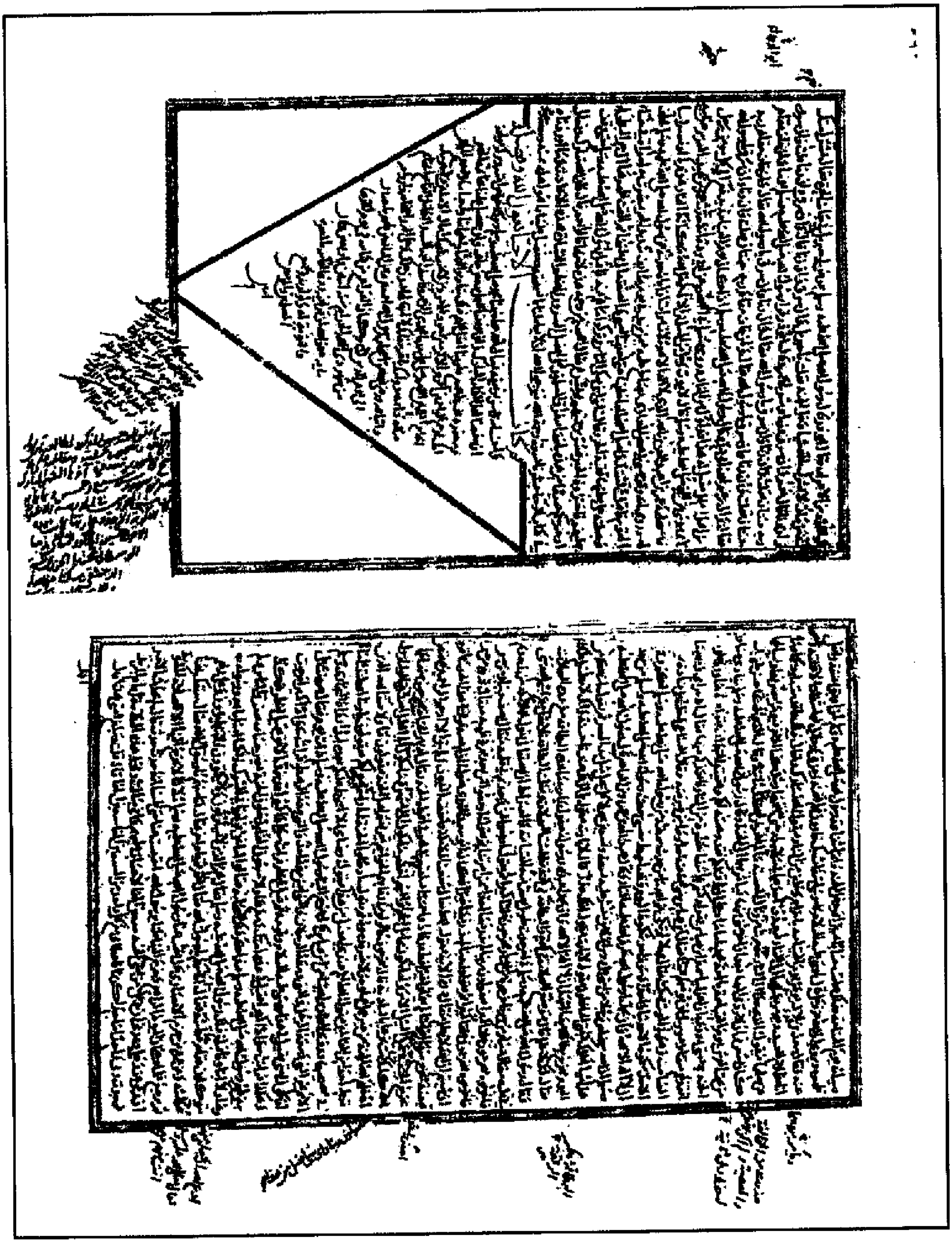

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

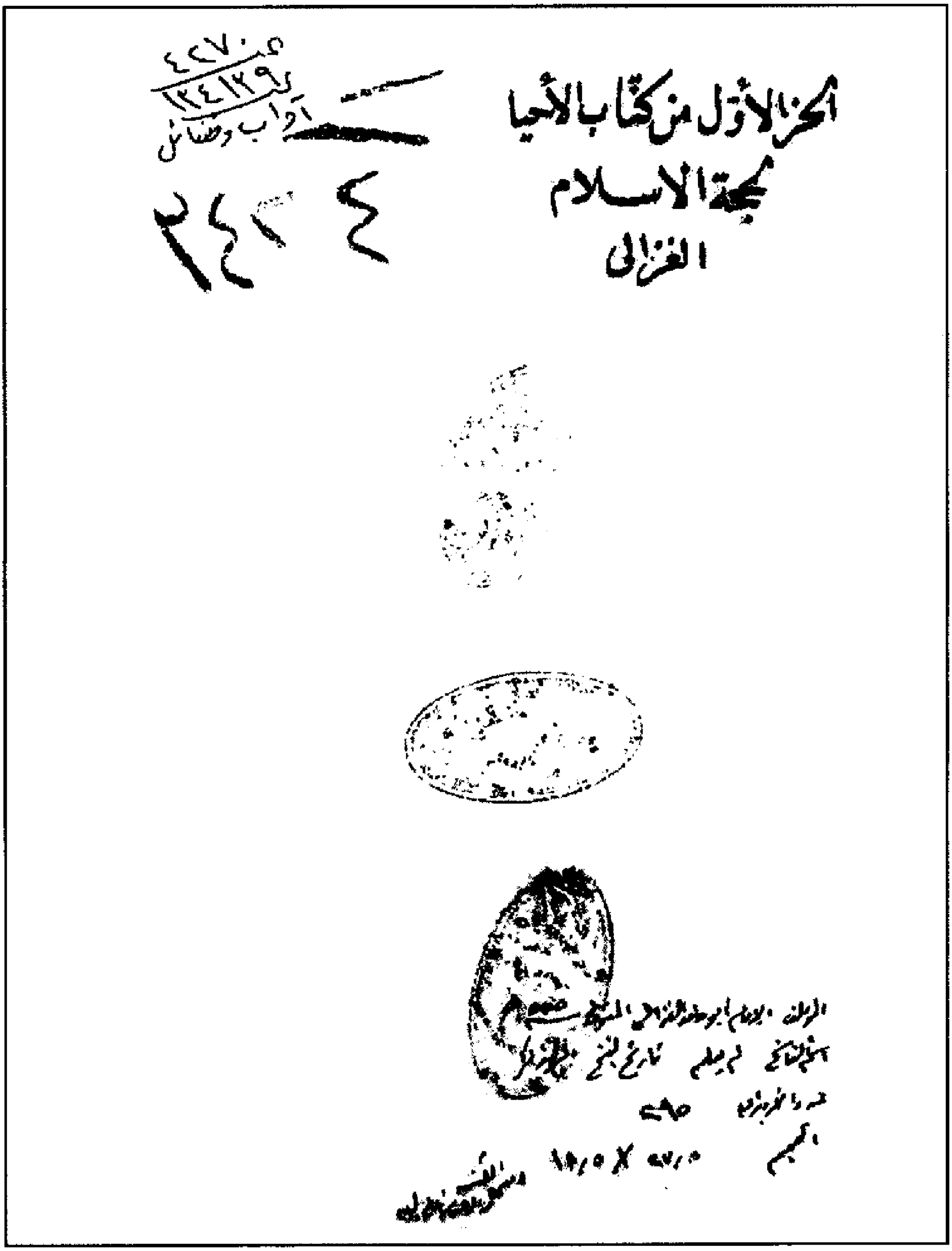

راموز ورقة العنوان من الجزء الأول للنسخة (ج)

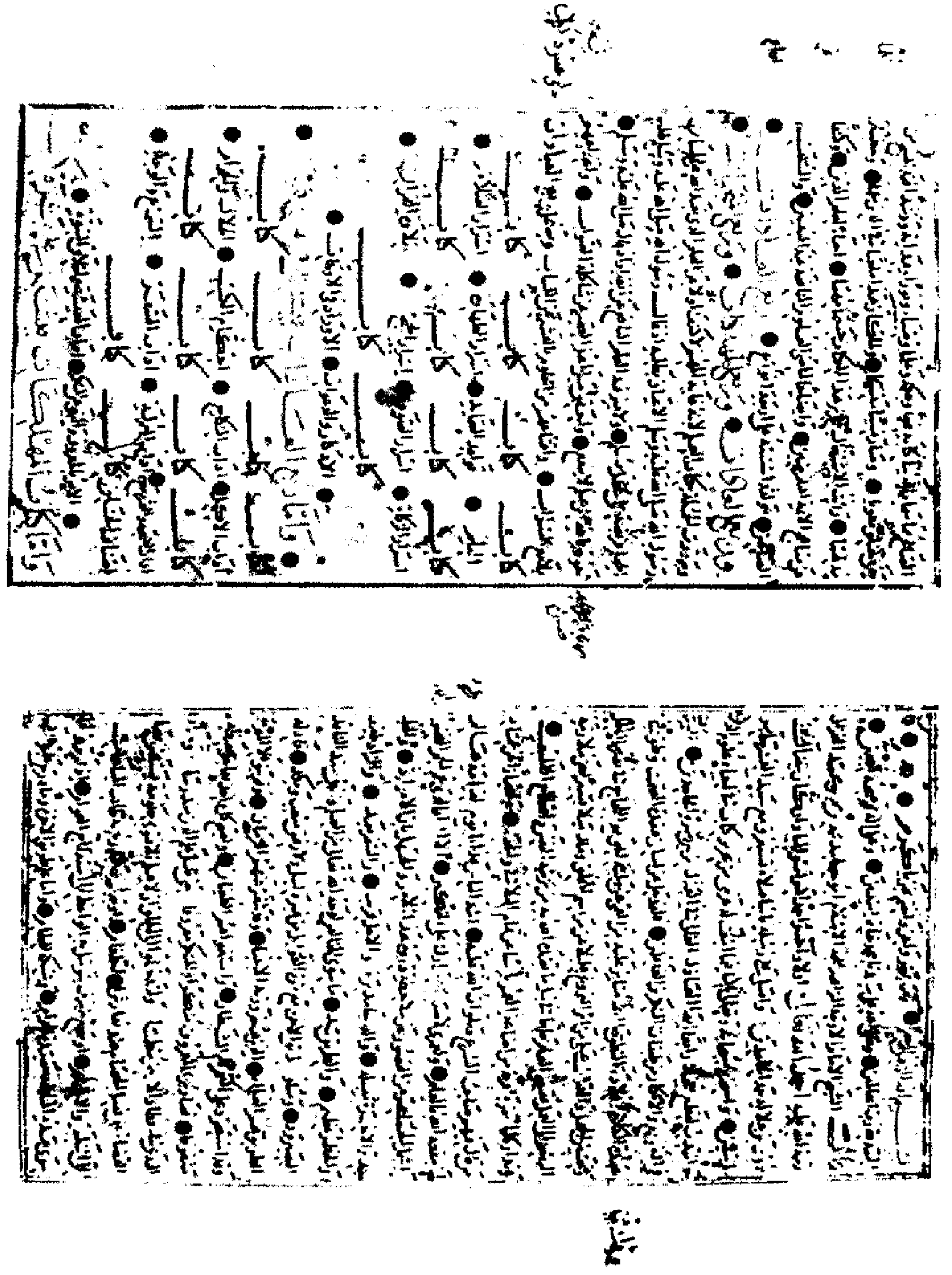

راموز الورقة الأولى من الجزء الأول للنسخة (ج)

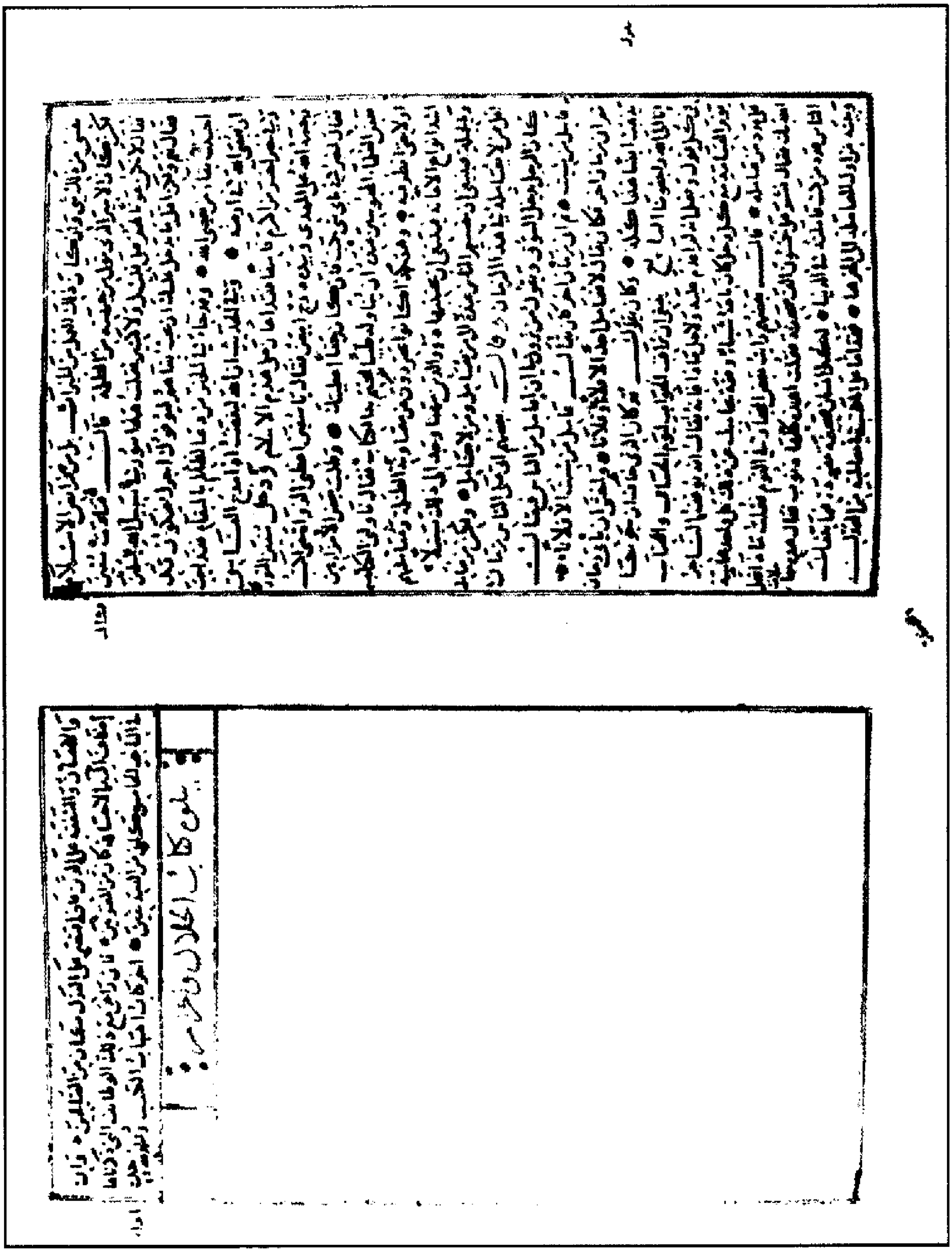

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الأول للنسخة (ج)

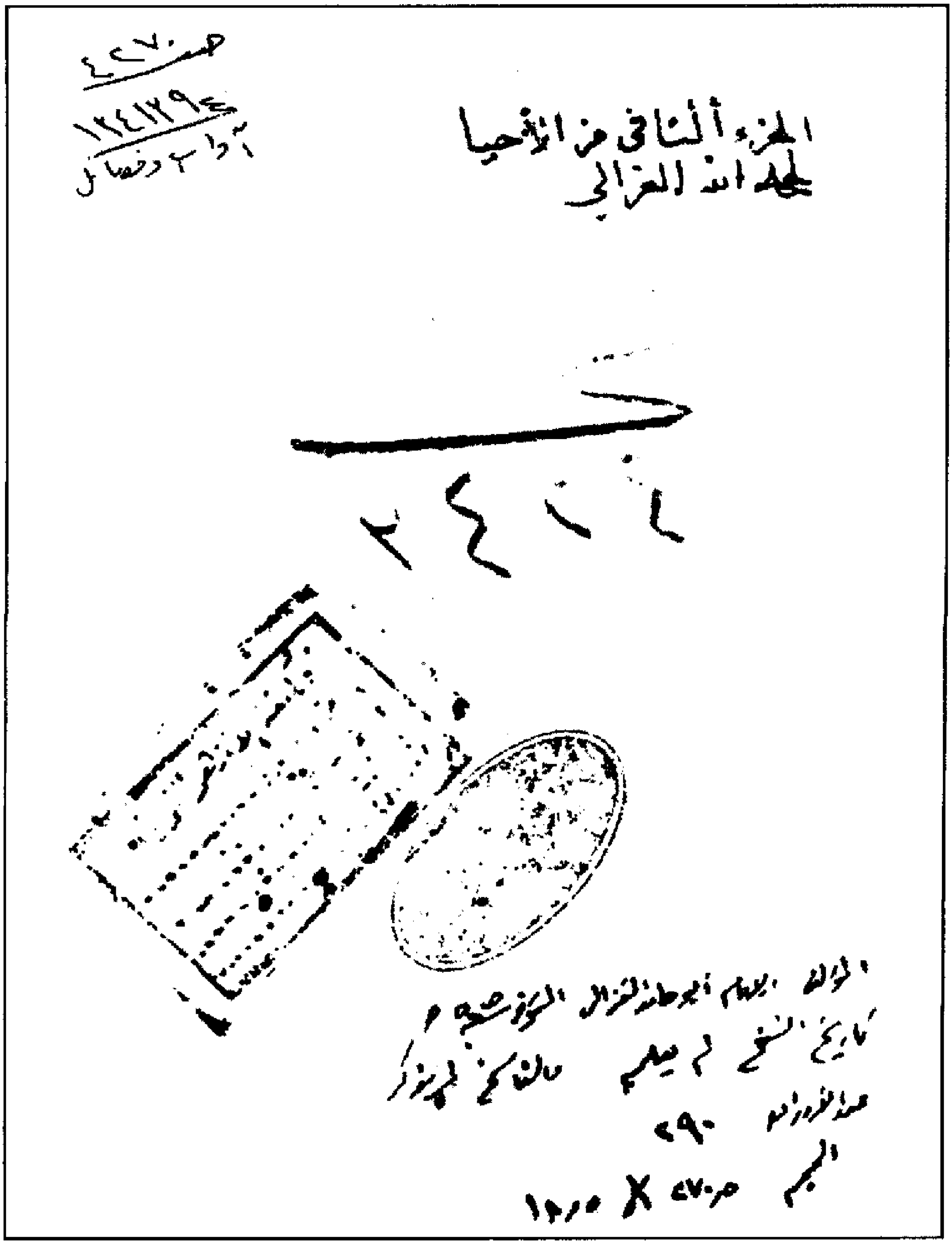

راموز ورقة العنوان من الجزء الثاني للنسخة (ج)

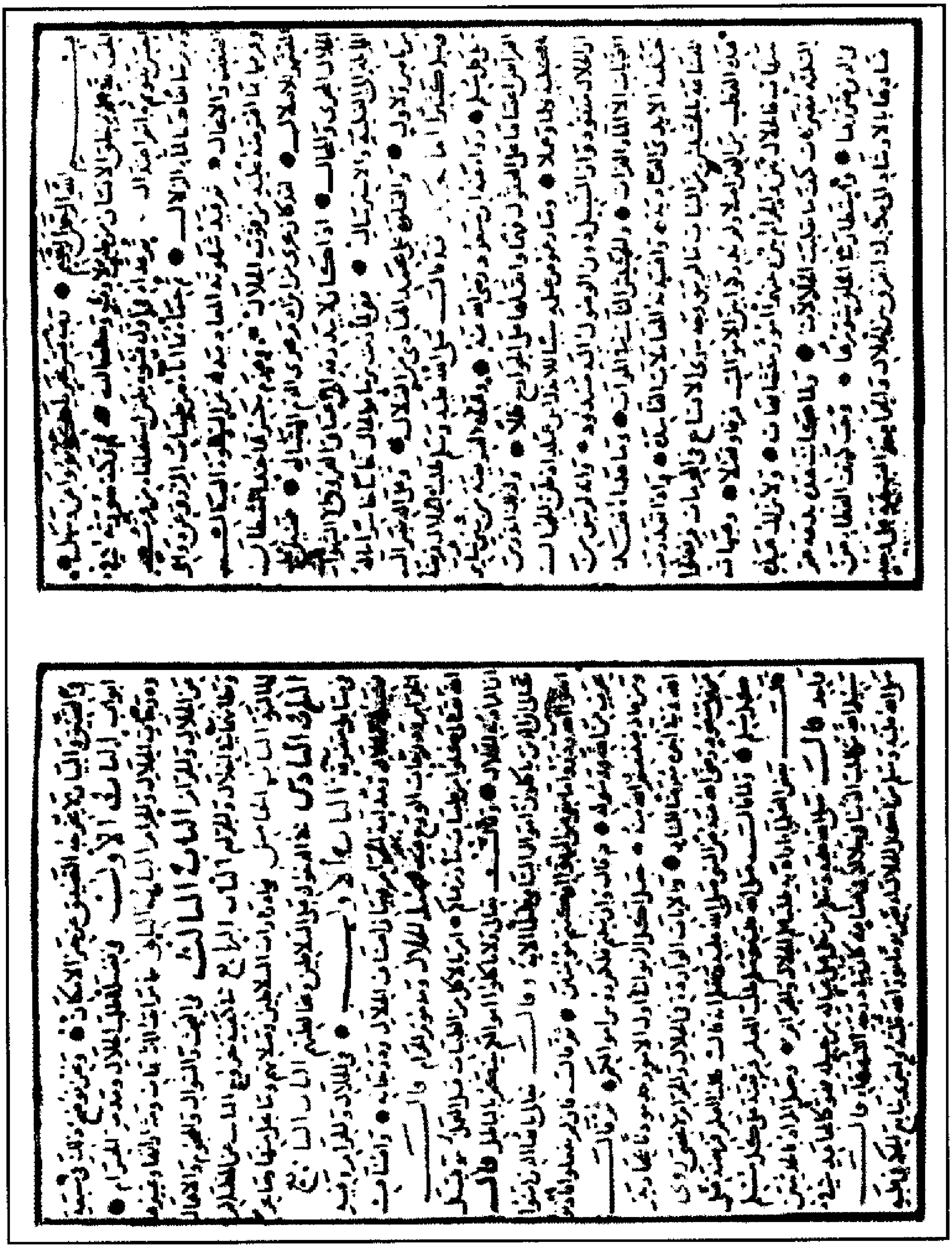

راموز الورقة الأولى من الجزء الثاني للنسخة (ج)

العوام على عدة ابعض العلم من اعظم الآفات وهي من اشراك للنفس ● فجسده مهجر
ومنعهم من ذلك وجوههم في حروف القرآن من اشتغال من كتب آية الملك ●
بكتاب من تمام فيه امور العقل يشتغل بني منها وضيع وما فاته ان فرطا من الكتاب بعـ
مبين او حديث فاستحق به العقوبة لا محالة ● فلذلك تضيع المعاني حدود القرآن
واشتغاله بحروفه فانما قد مد او بحدثه ● وكذلك سائر صفات الله تعالى تجاه
من كتاب اهل اللسان ● تبلو كتاب في الغيب ان شاء الله تعالى وحسبنا الله وكفى
●● وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ● ●

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الثاني للنسخة (ج)

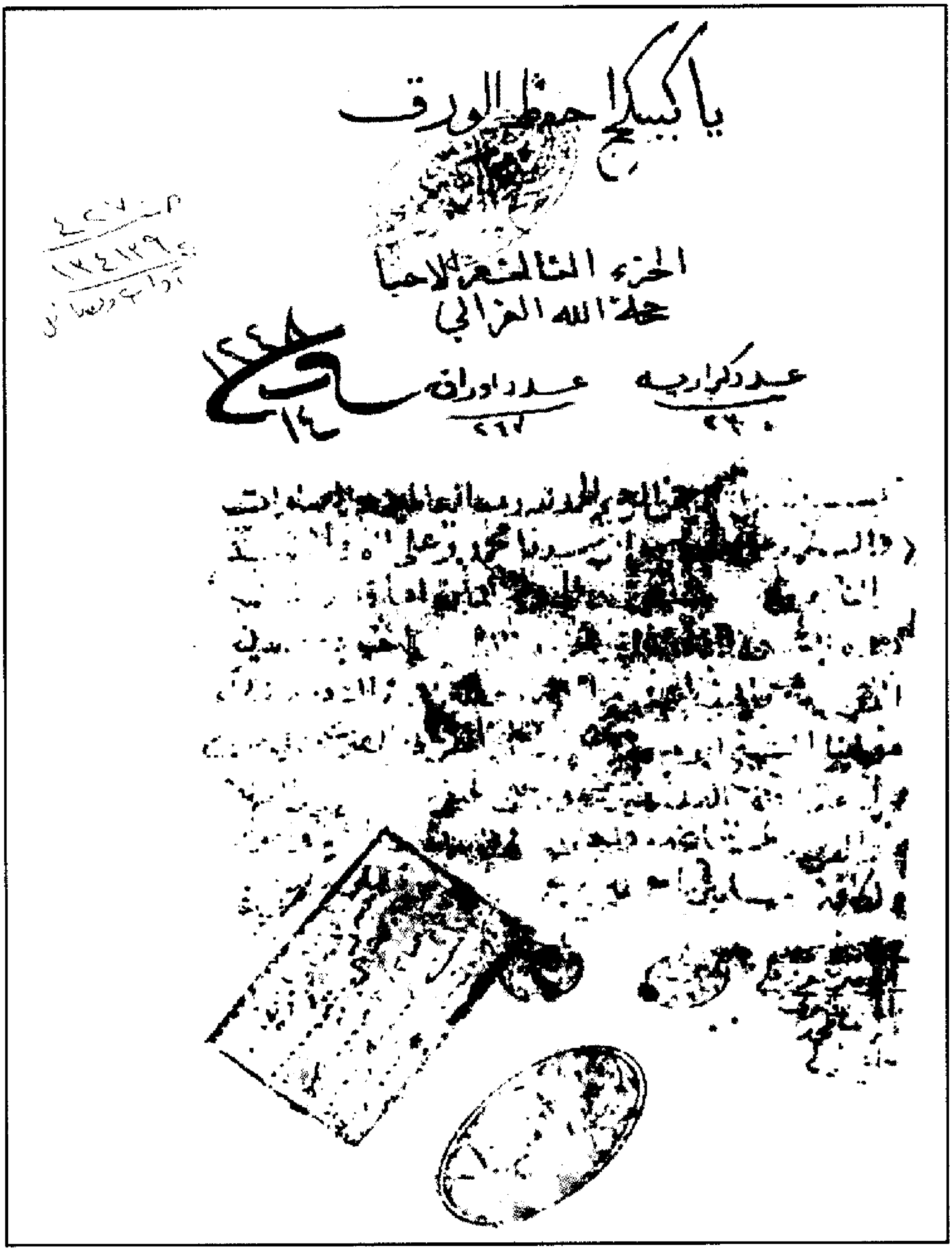
يا كبيكج احفظ الورق

الجزء الثالث من الاحيا
رحمه الله الغزالي

عدد كراريه   عدد اوراقه

راموز ورقة العنوان من الجزء الثالث للنسخة (ج)

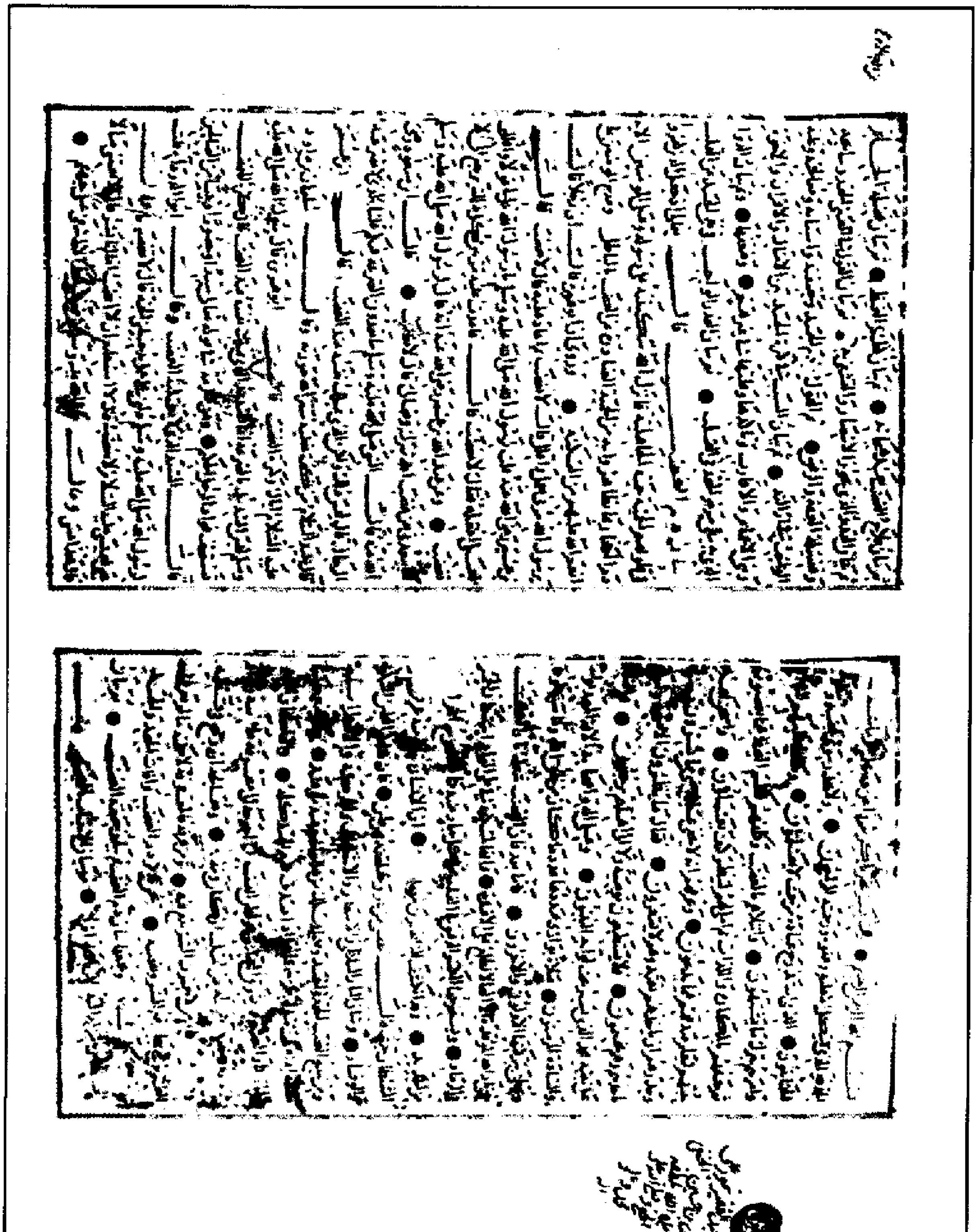

راموز الورقة الأولى من الجزء الثالث للنسخة (ج)

٦٨

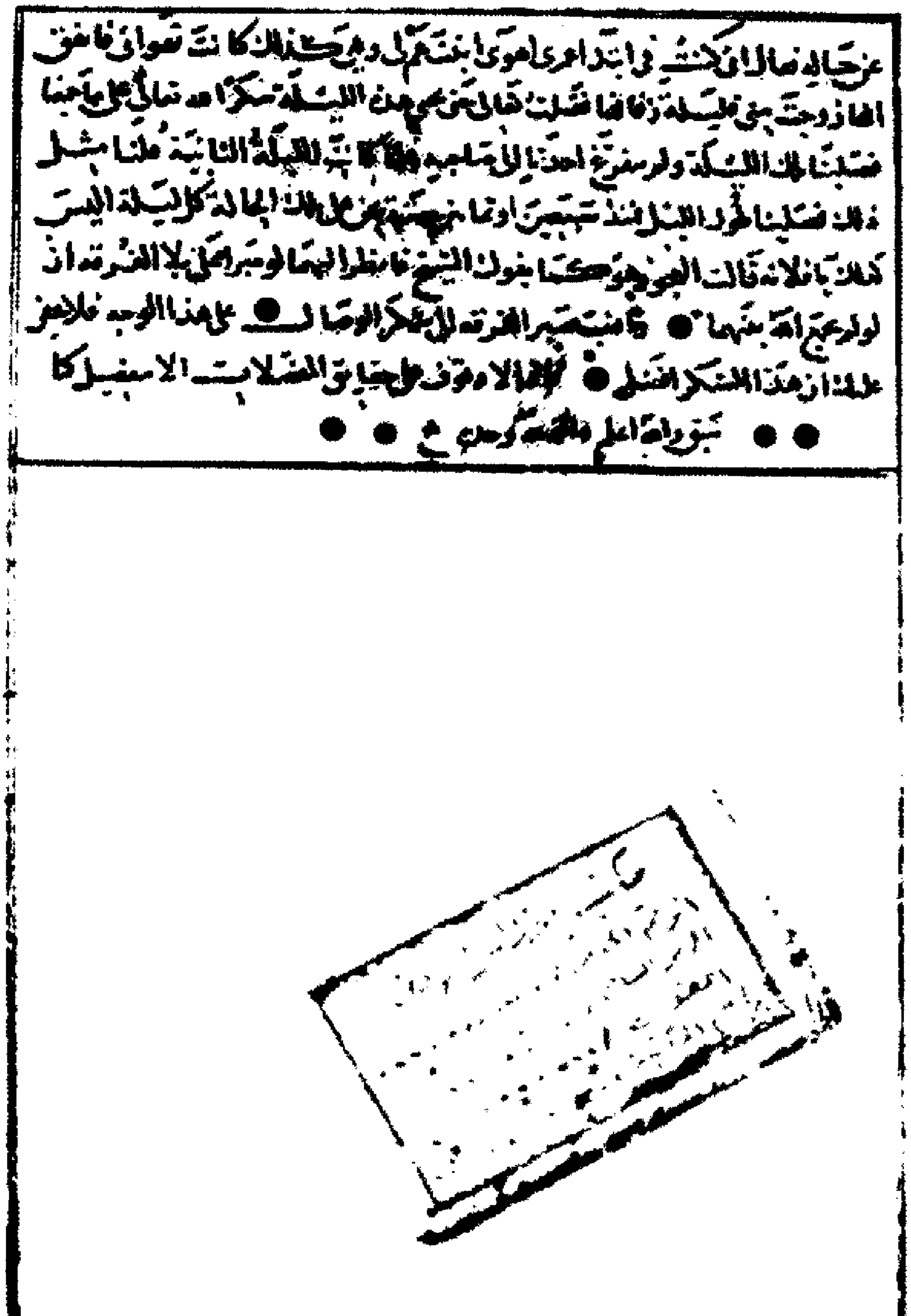
عن حالها فقالت كنت في ابتداء امري [illegible] فاتفق
انا زوجت [illegible] ليلة زفافنا [illegible] الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعنا
فصلينا تلك الليلة ولم يفرغ احدنا الى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية فعلنا مثل
ذلك فصلينا طول الليل [illegible] على تلك الحالة كل ليلة [illegible]
[illegible] قالت العجوز [illegible] يقول الشيخ فانظر اليهما [illegible]
[illegible] منهما [illegible] على هذا الوجه [illegible]
[illegible] هذا الشكر [illegible] الصلوات [illegible]
تمت والله اعلم [illegible]

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الثالث للنسخة (ج)

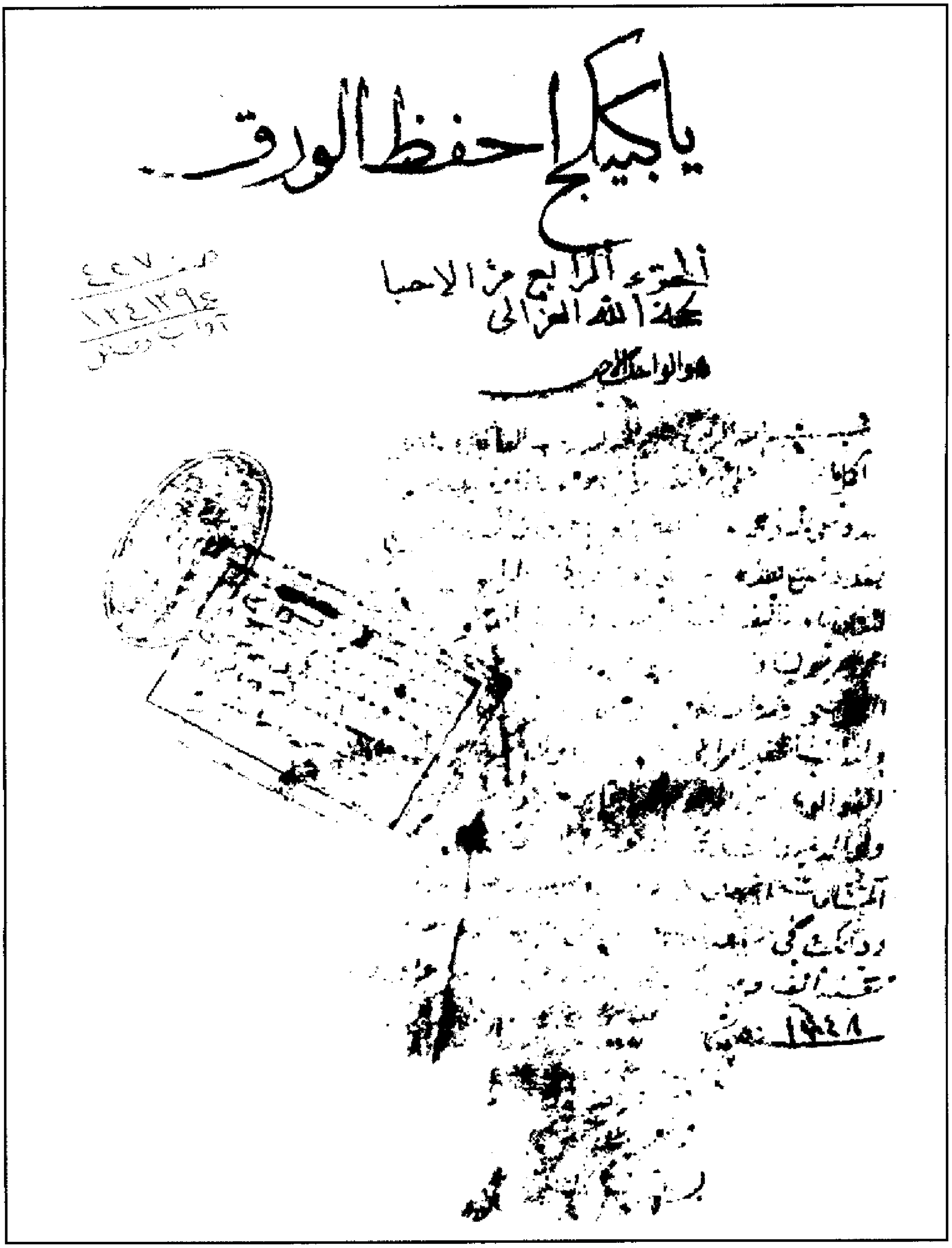

راموز ورقة العنوان من الجزء الرّابع للنّسخة (ج)

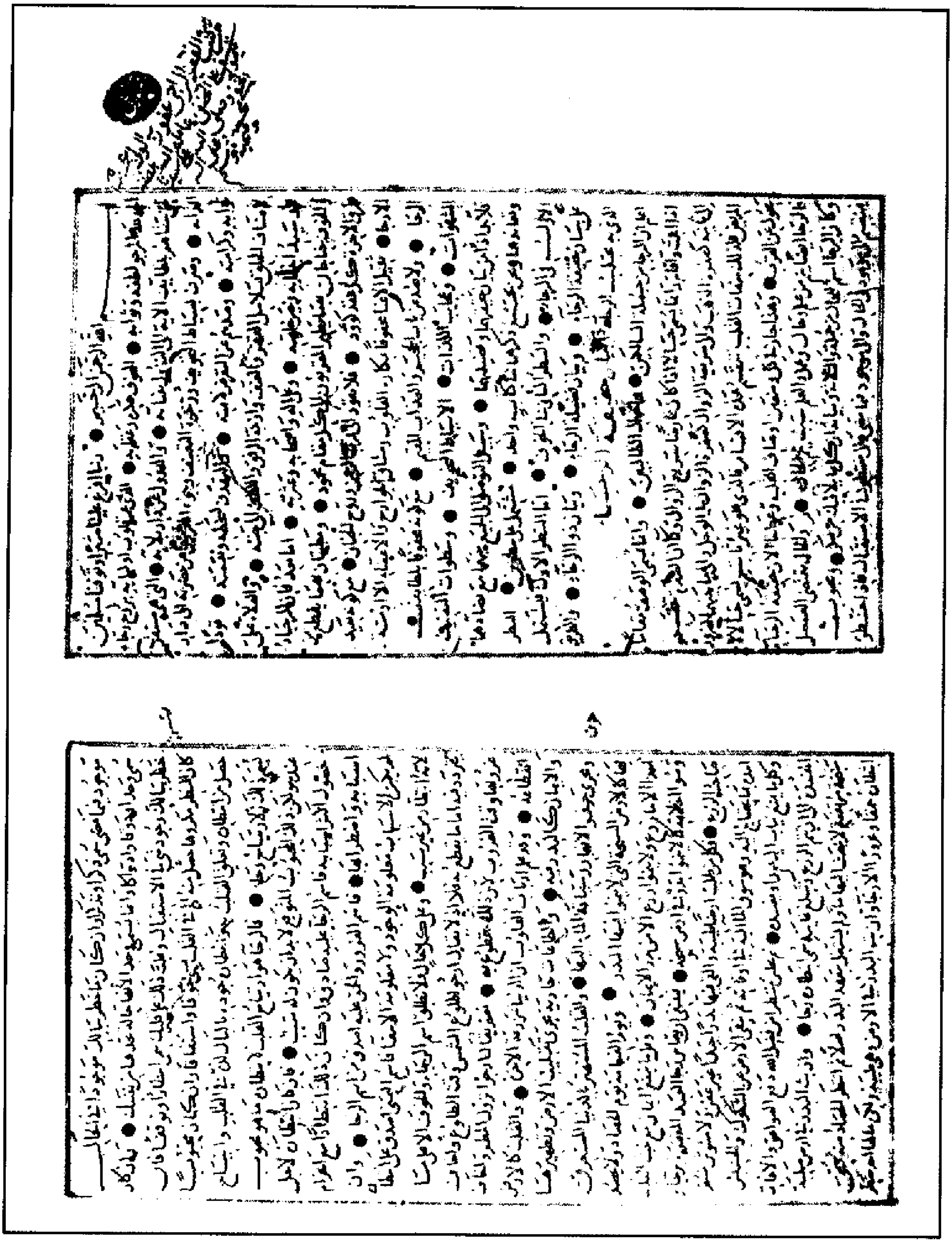

راموز الورقة الأولى من الجزء الرابع للنسخة (ج)

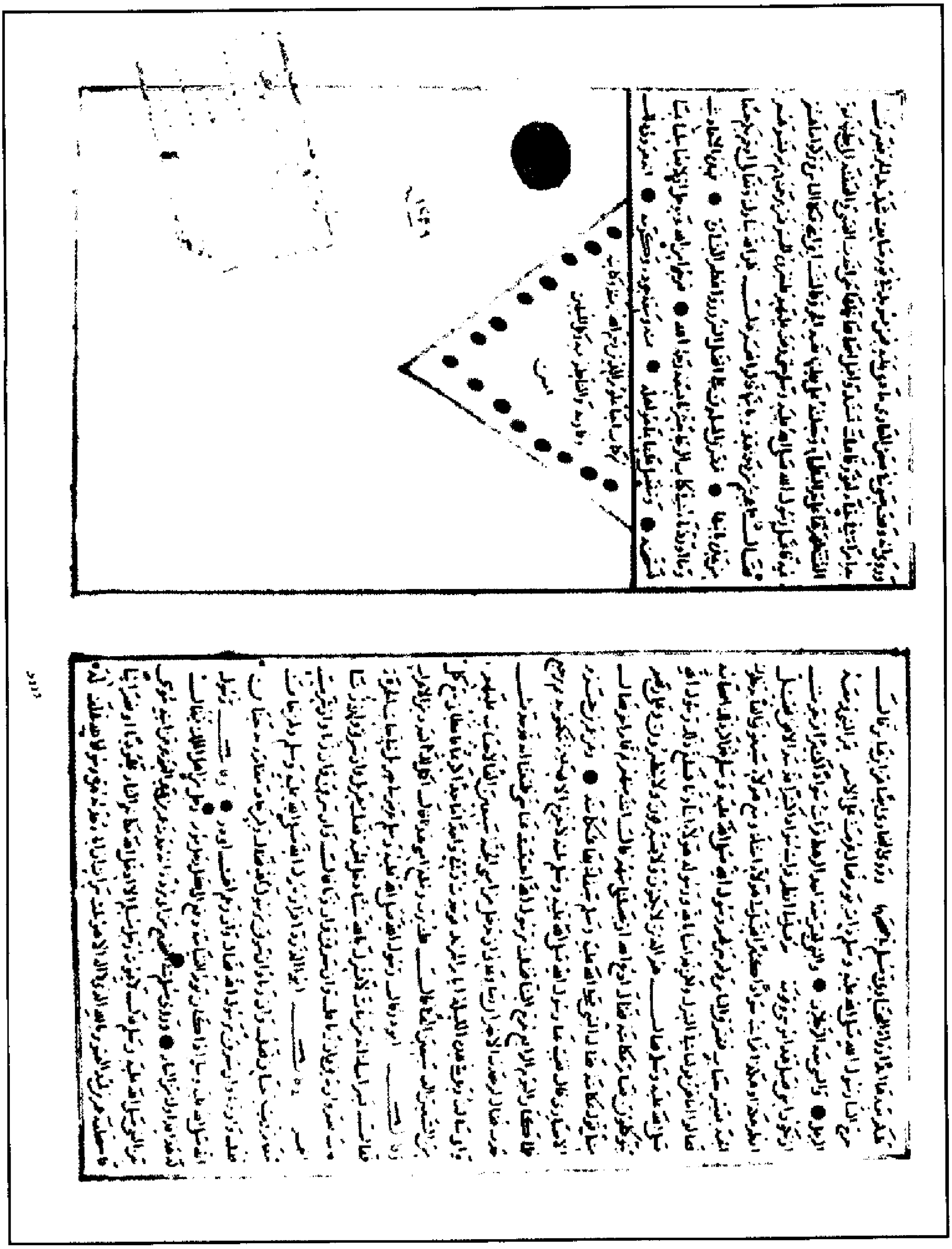

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الرابع للنسخة (ج)

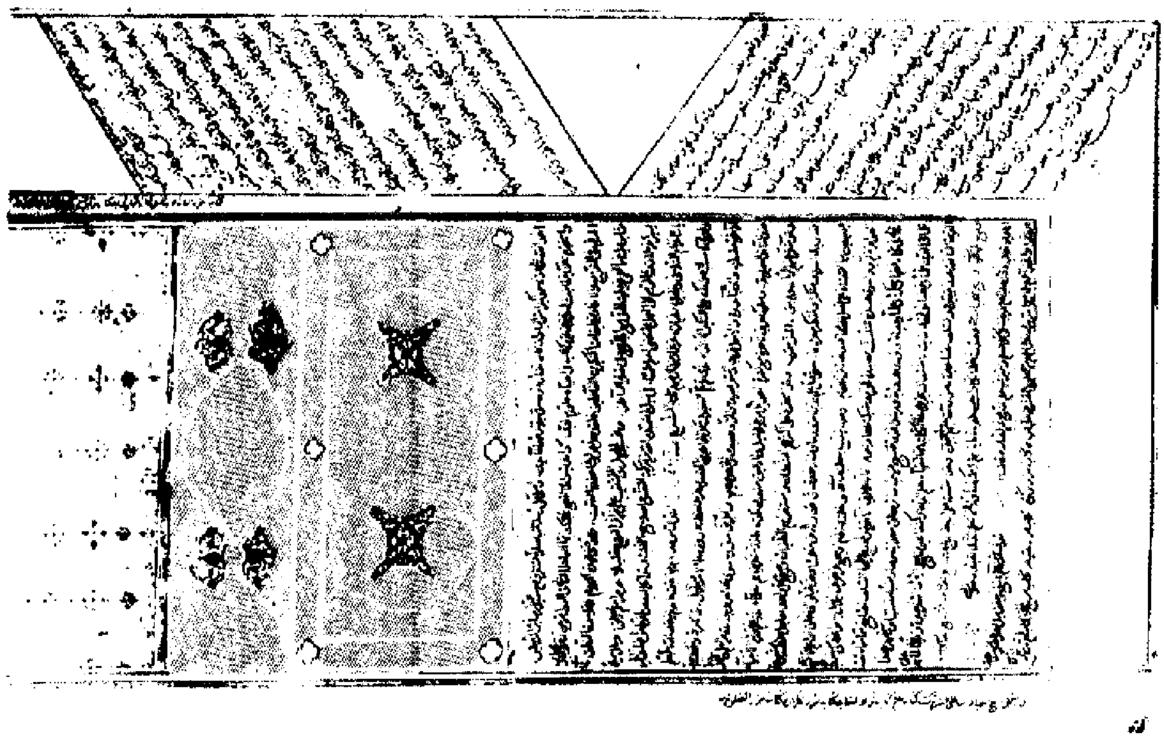

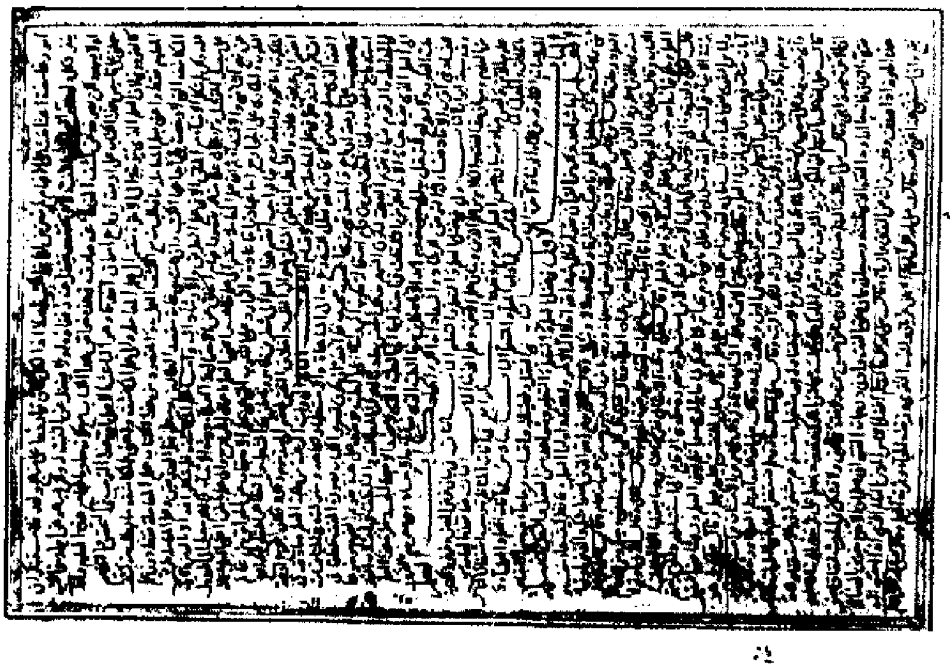

راموز الورقة الأولى للنسخة (د)

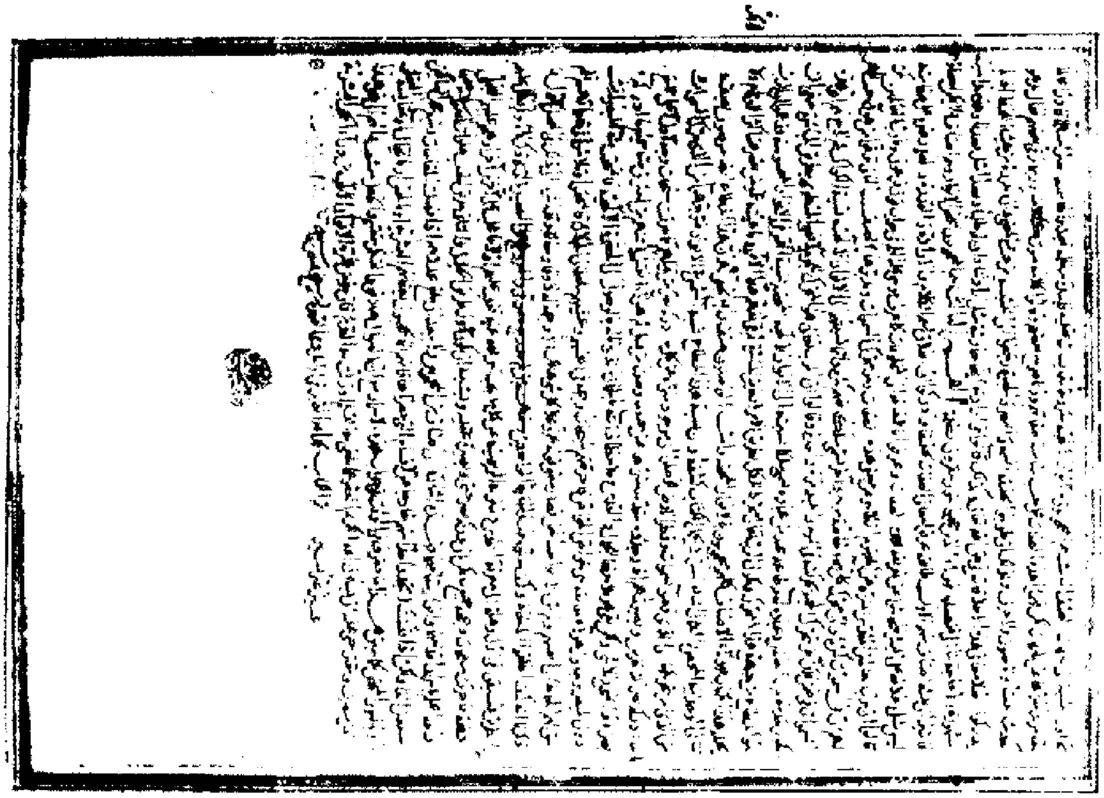

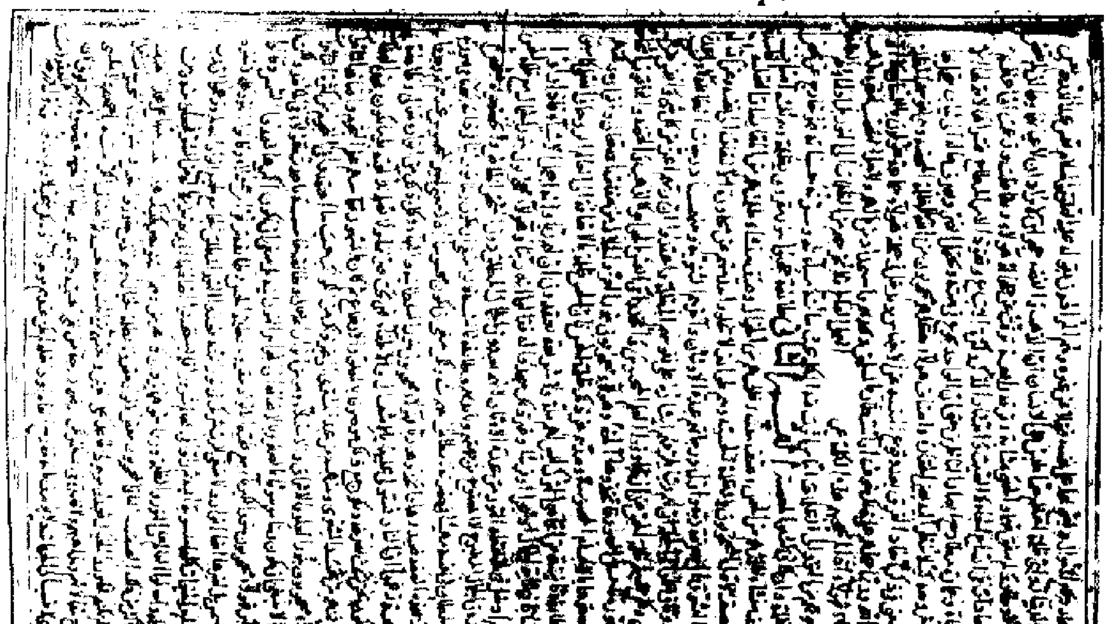

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)

كتاب

احيا علوم الدين مما صنفه الشيخ الامام حجة الاسلام زين الملة
والدين ابو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه
بفضله ورحمته

راموز ورقة العنوان للنسخة (هـ)

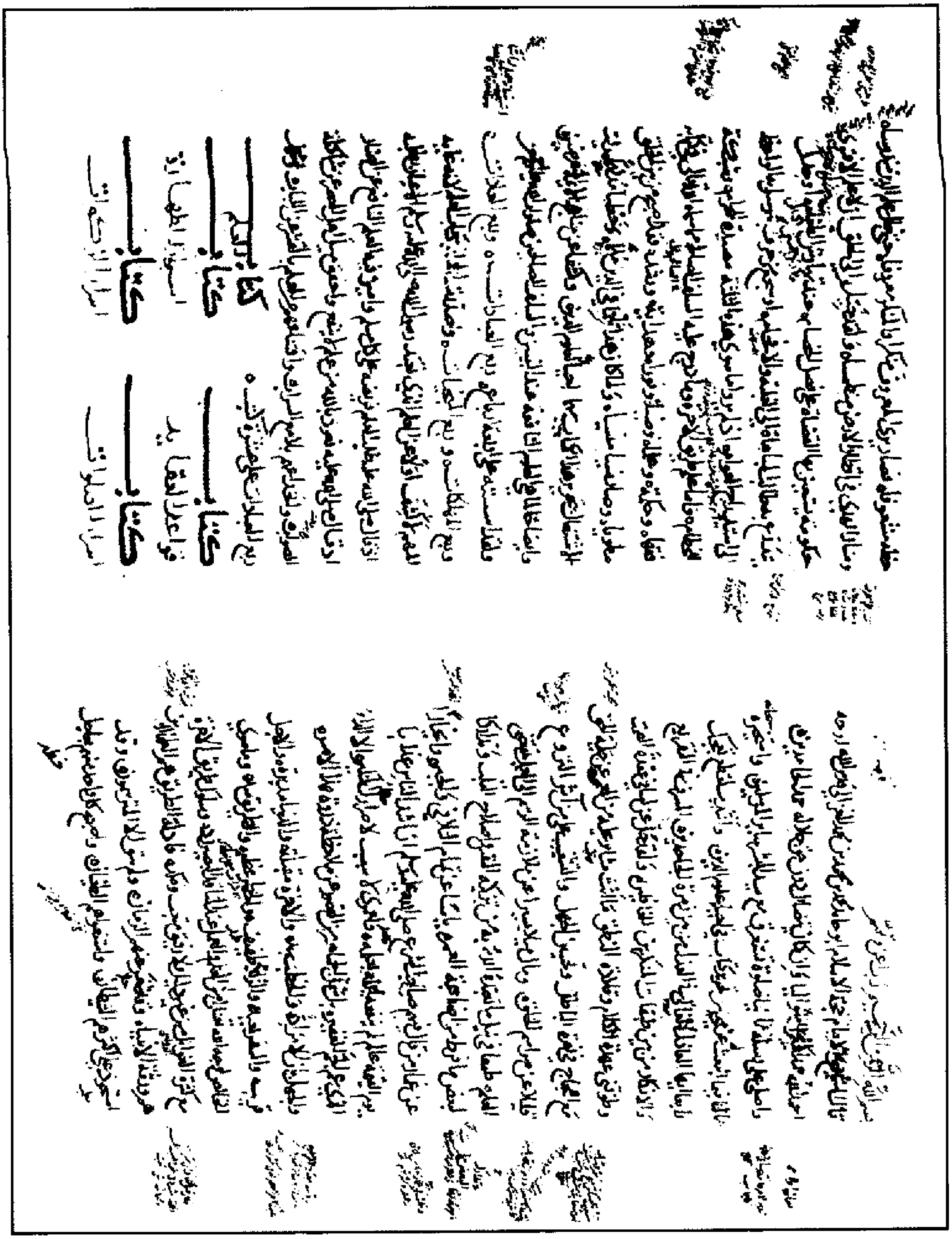

راموز الورقة الأولى للنسخة (هـ)

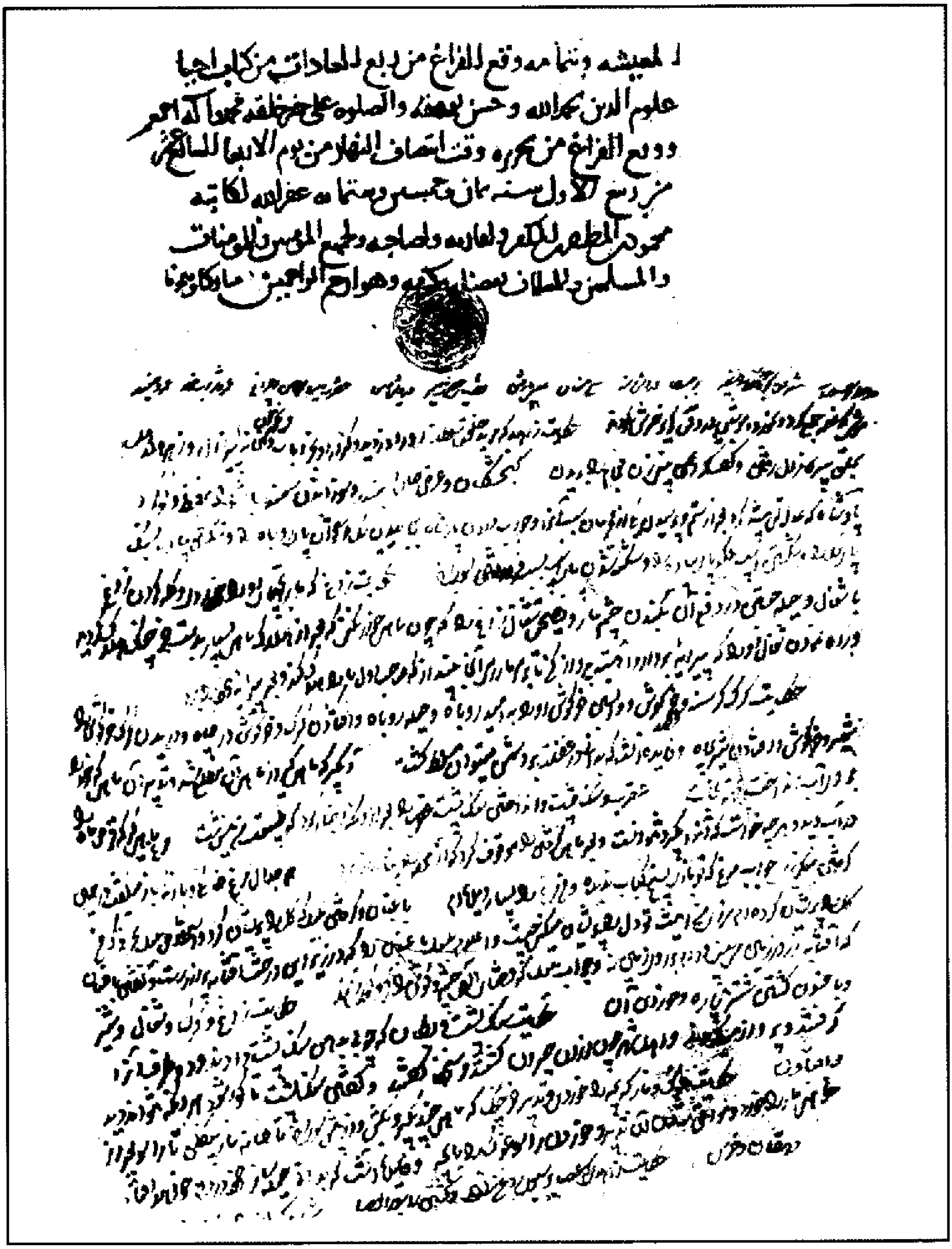

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (هـ)

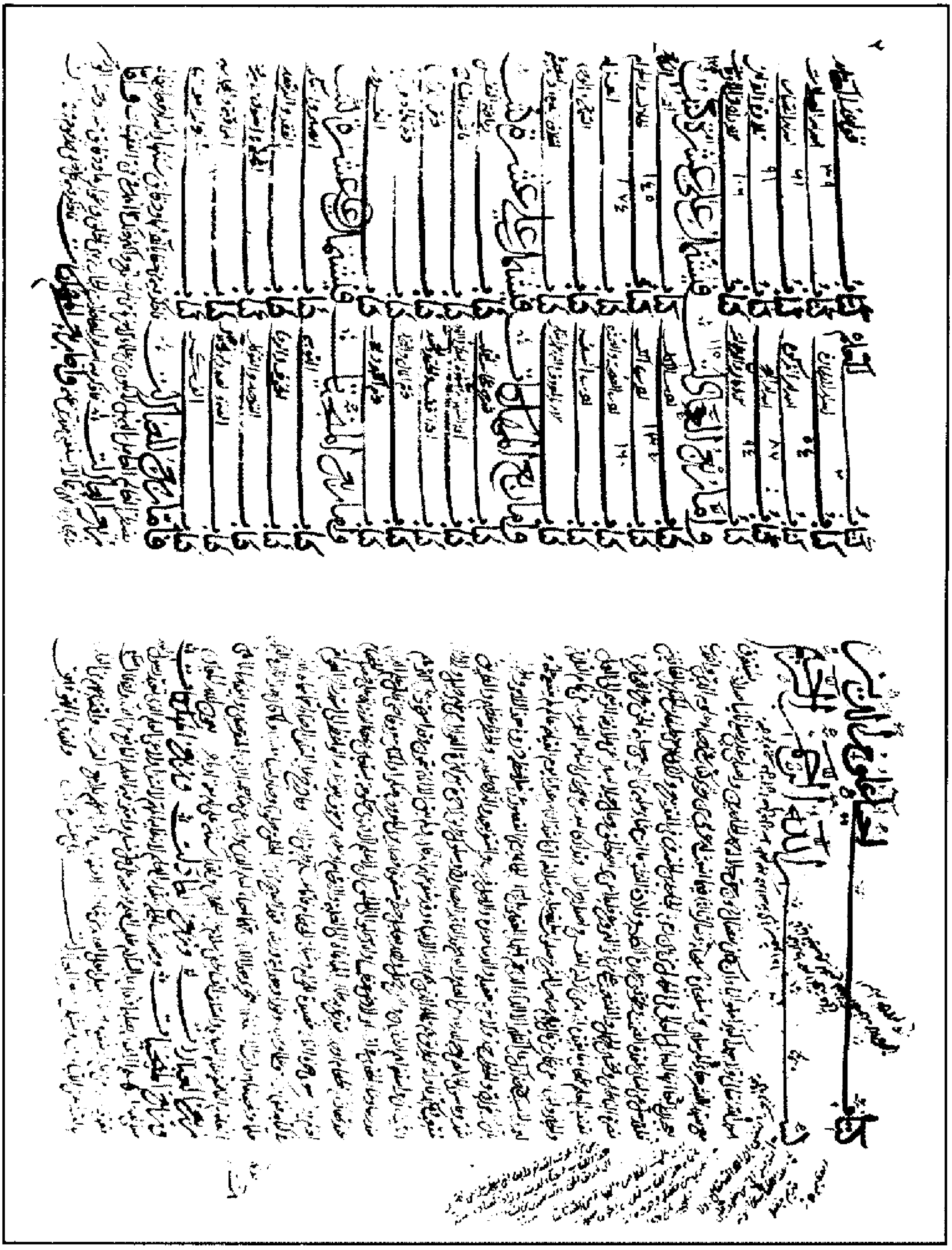

راموز الورقة الأولى للنسخة (و)

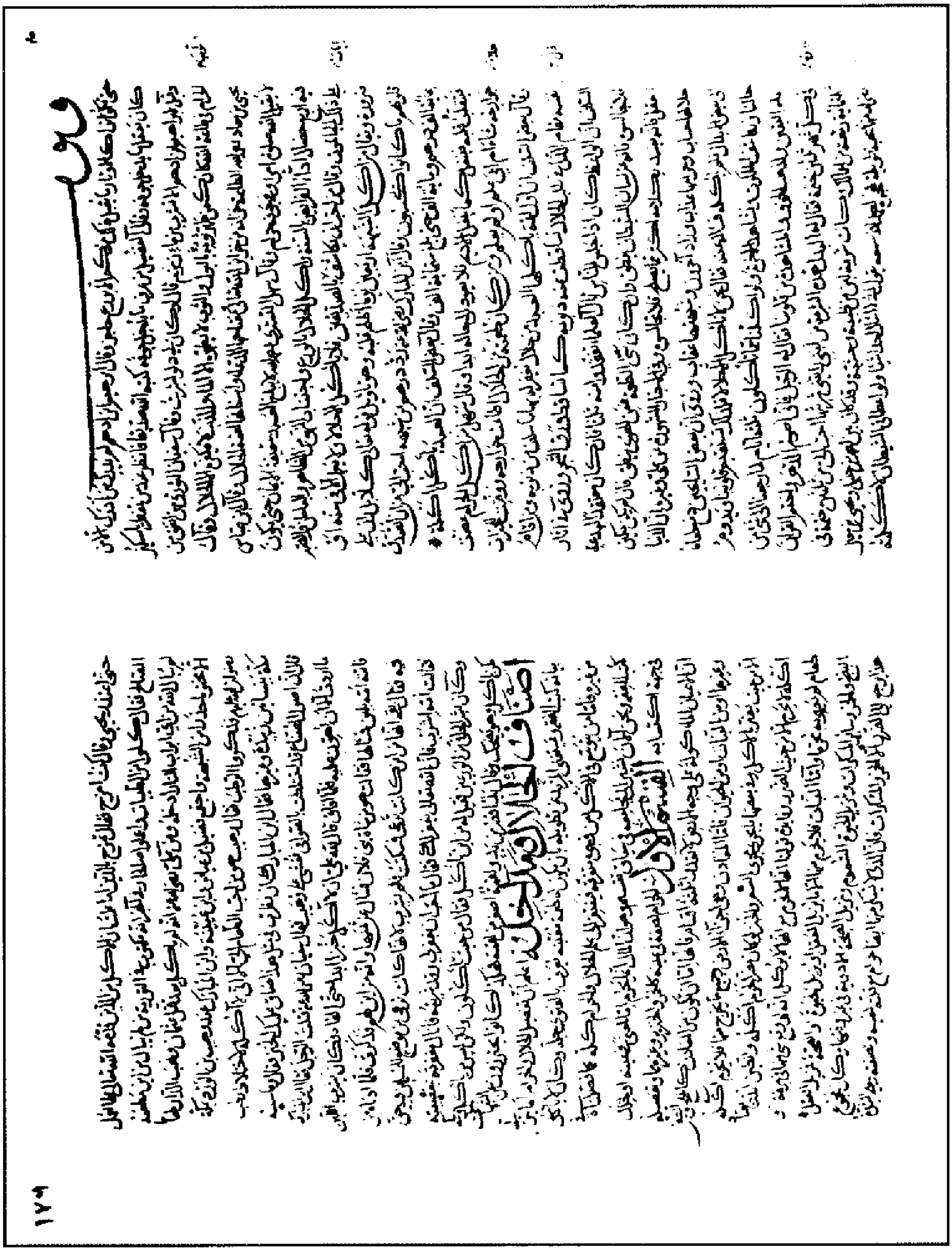

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)

كتاب

فضل العلم والتعلم

وهو الأول من ربع العبادات من كتاب إحياء علوم الدين

راموز ورقة العنوان للنّسخة (ز)

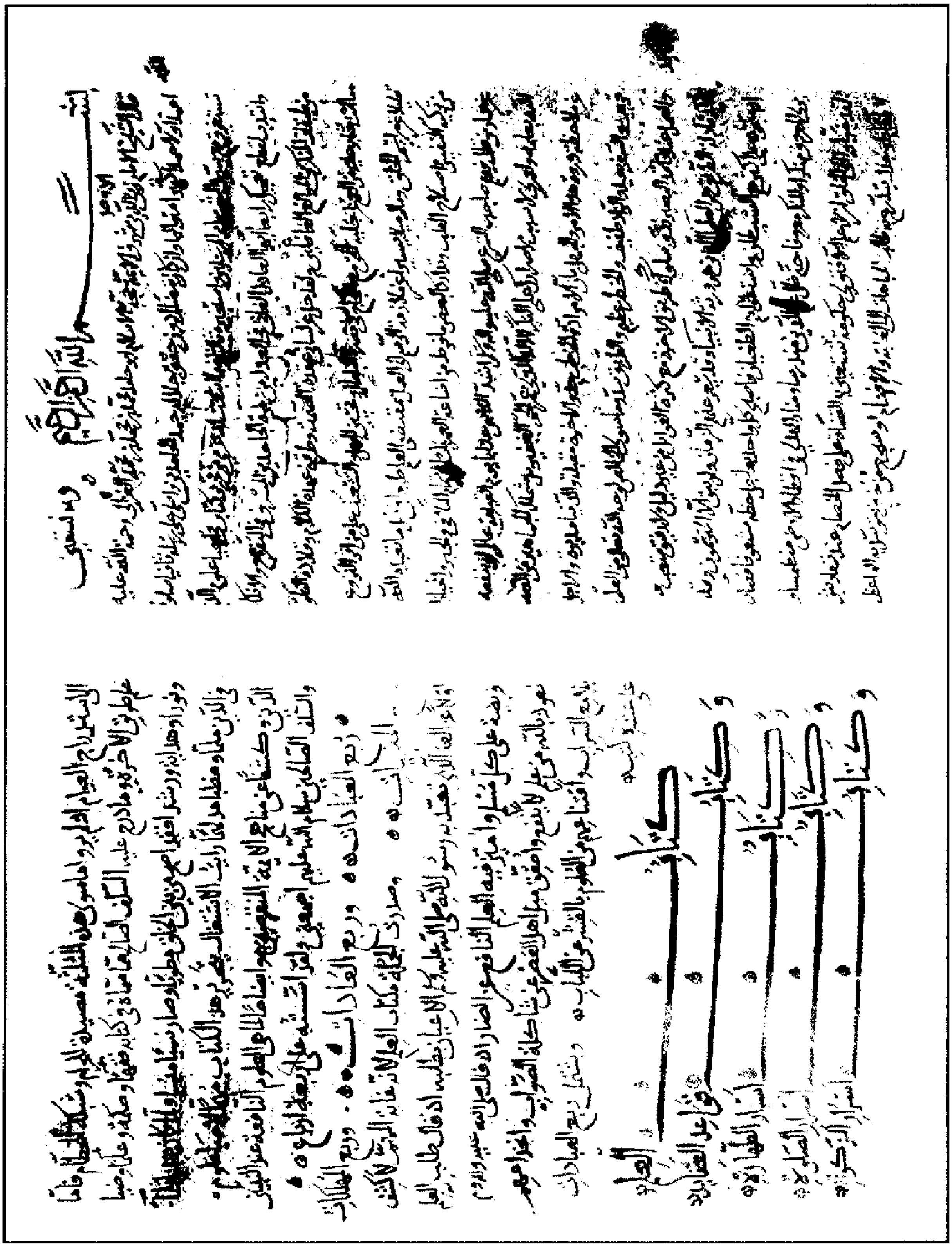

راموز الورقة الأولى للنسخة (ز)

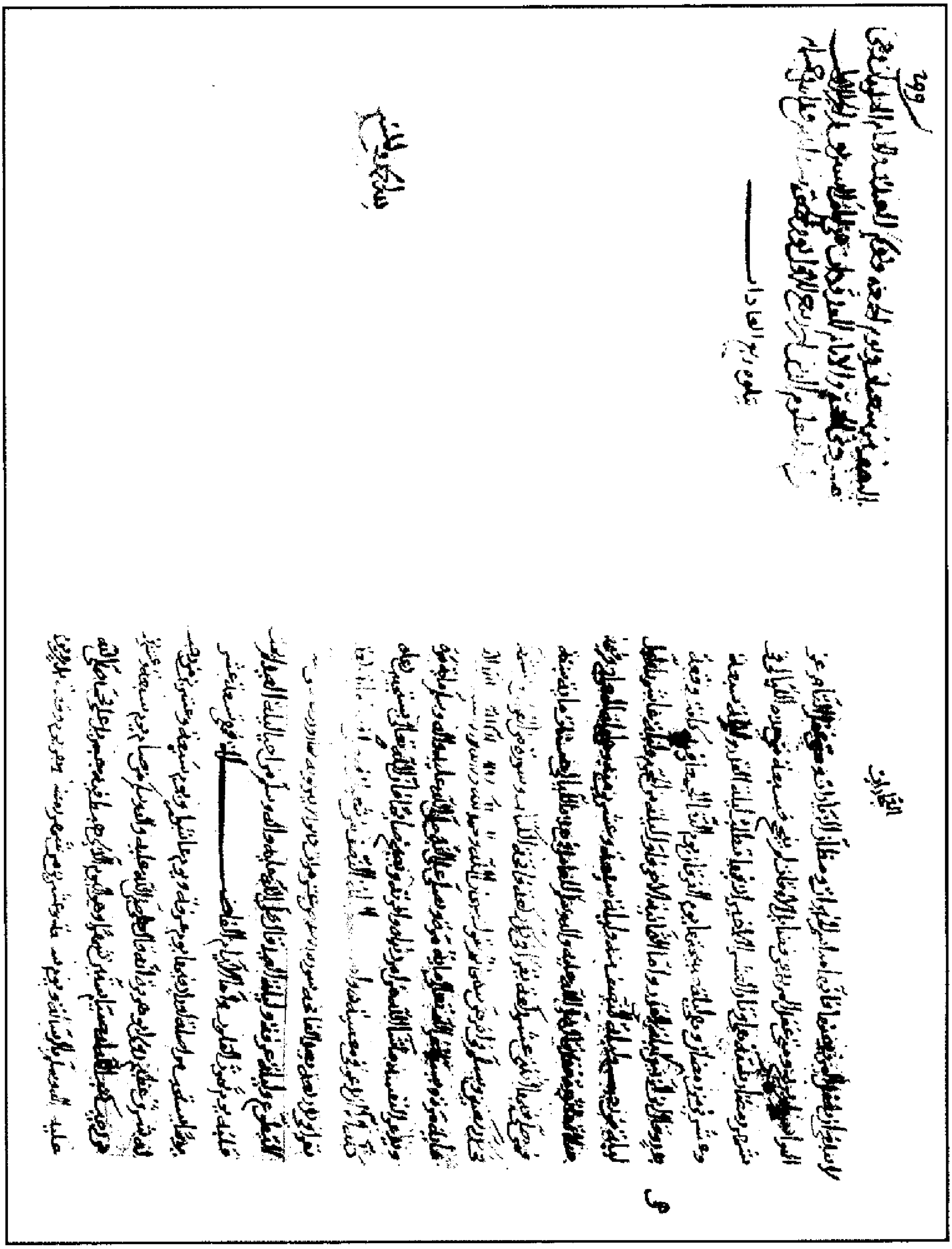

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ز)

كتاب آداب الأكل من إحياء علوم الدين

راموز ورقة العنوان للنسخة (ط)

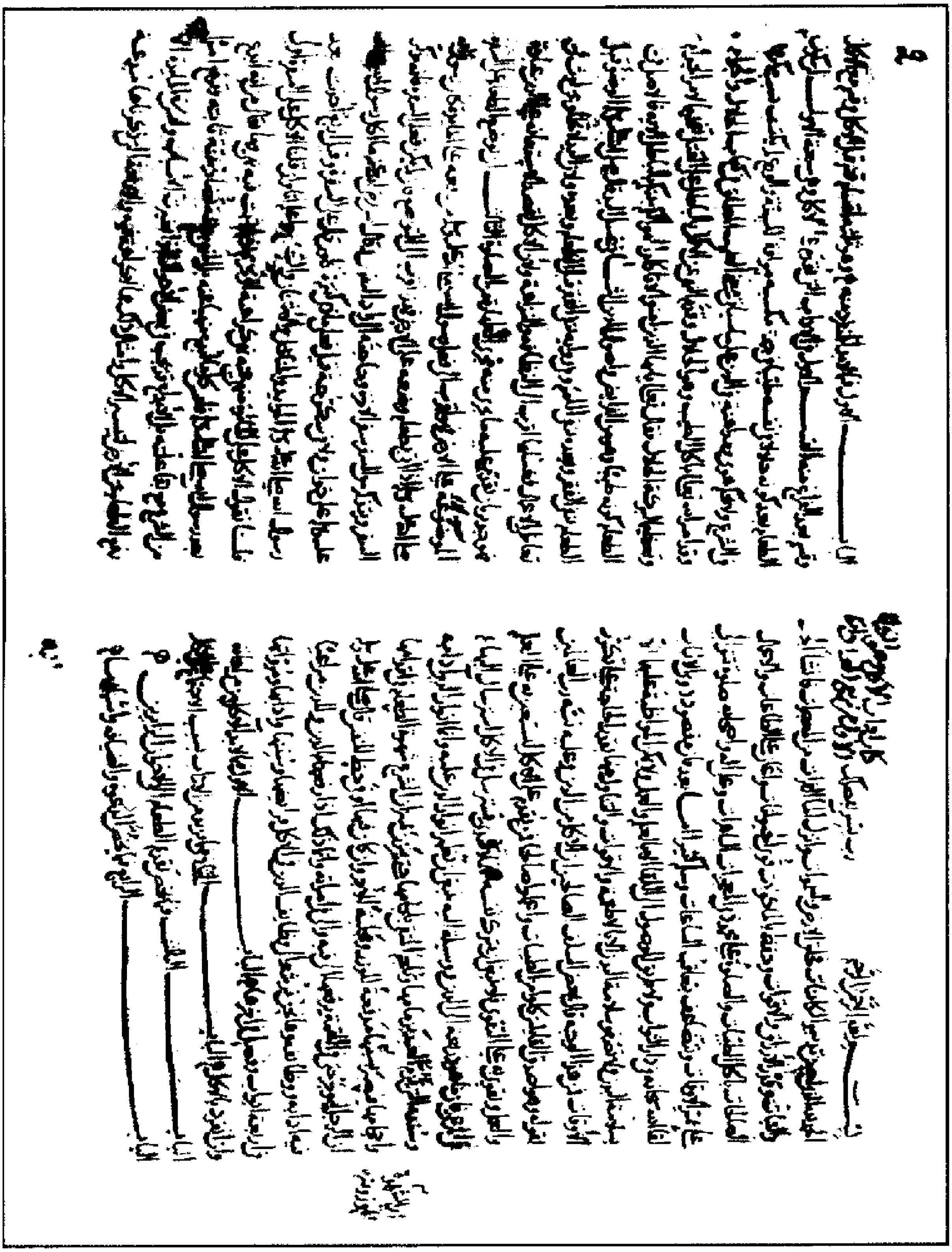

راموز الورقة الأولى للنسخة (ط)

معارضة

شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وبعضاً بعد بعض وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يزدد أمره إلا عظماً بغباوة من ينظر في أحواله وأقواله وأخلاقه في معجزاته وانتشار شرعه إلى الآفاق في انتشاره في أقطار العالم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم تمارى ذلك في صدقه وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأقوال بمنه وسعة جوده إنه سميع مجيب آمين

كمل كتاب آداب النبوة وهو آخر الكتب من ربع العادات
والحمد لله حق حمده وصلواته على سيدنا محمد الزوال
ضحوة يوم الثلاث العاشر من شهر الله الحرام ذي القعدة
سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة على يدي العبد المذنب
الخاطئ الراجي عفو الله وغفرانه بفضله وسعة جوده
محمد بن أحمد بن عمر ... نفعه الله به ورزقه العمل فيه
وجعله مباركاً عليه وعلى من أعانه بدعاء صالح صادقاً من قلبه
آمين يا رب العالمين

الحمد لله وحده

طالع فيه داعياً لمالكه بطول البقاء العبد الفقير الذليل الحقير تراب أقدام
الفقراء اللازم الراجي رحمة ربه العائذ بالإمام إسماعيل بن محمد بن عبد الوهاب
البعلبكي طريقة ومسلكاً الشافعي مذهباً النابلسي مولداً ومنشأ
تاب الله عليه توبة نصوحاً وغفر له ولوالديه ولمن قرأه ودعا له
بالمغفرة ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ط)

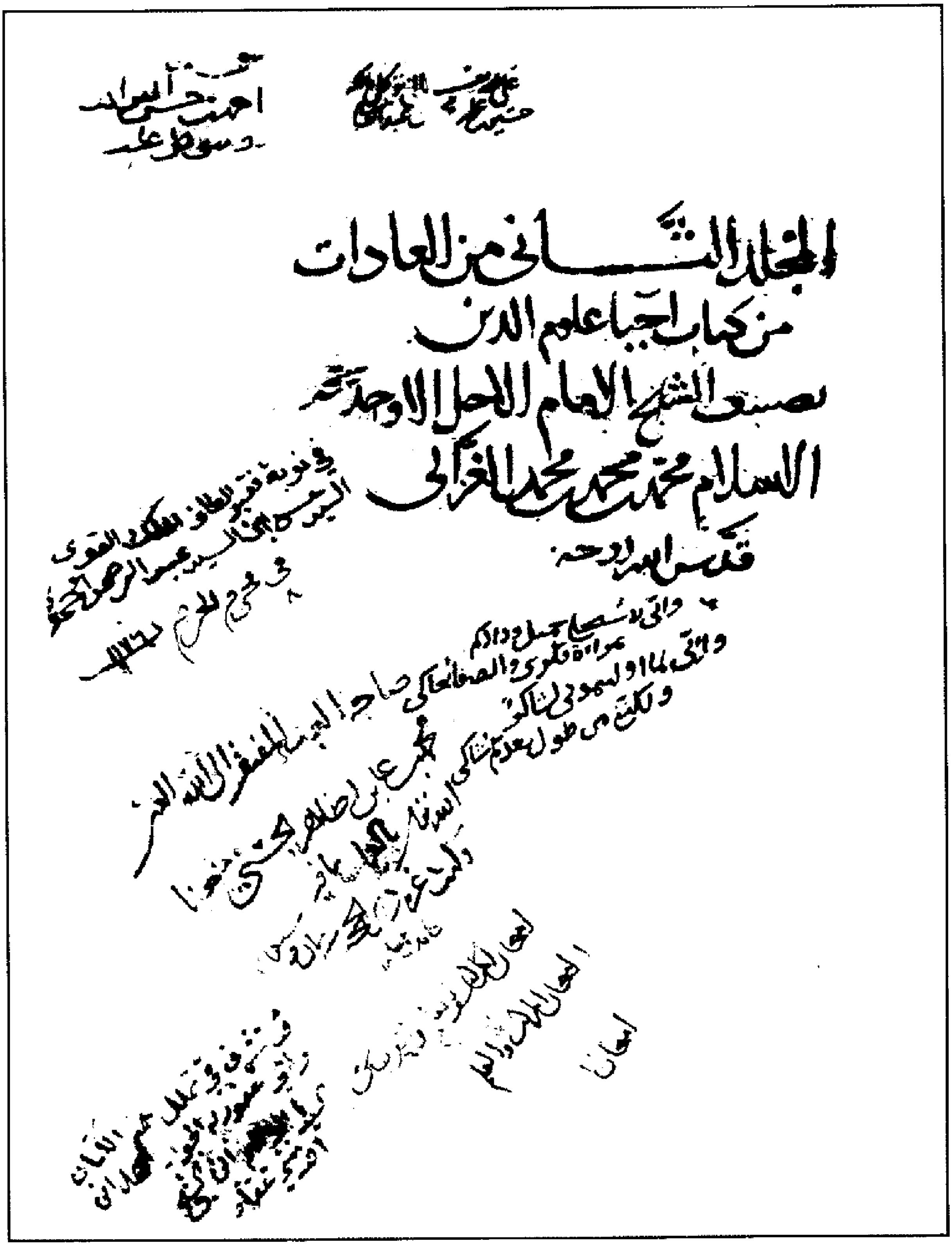
المجلد الثاني من العادات
من كتاب إحياء علوم الدين
تصنيف الشيخ الإمام الأجل الأوحد حجة
الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي
قدس الله روحه

راموز ورقة العنوان للنسخة (ي)

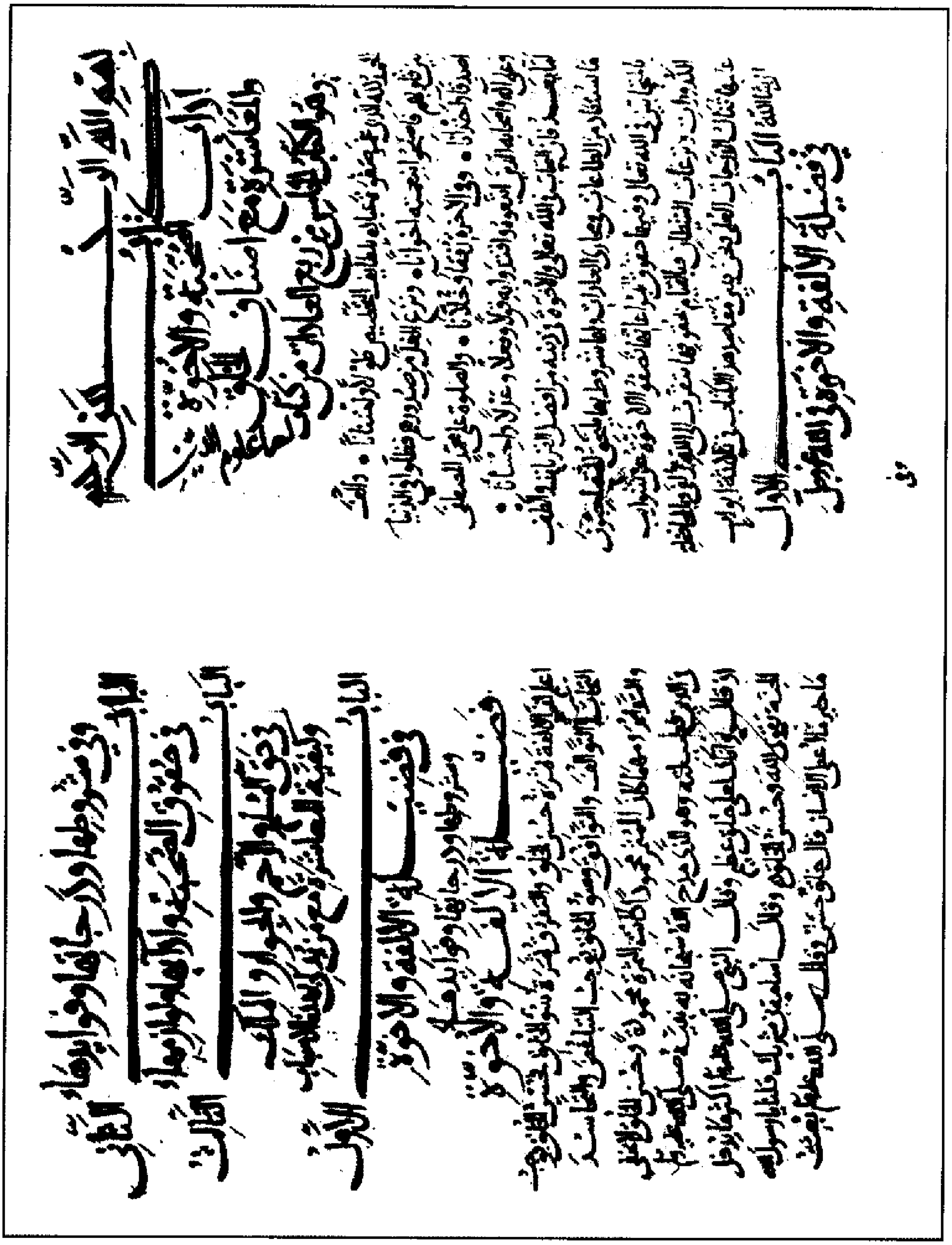

راموز الورقة الأولى للنسخة (ي)

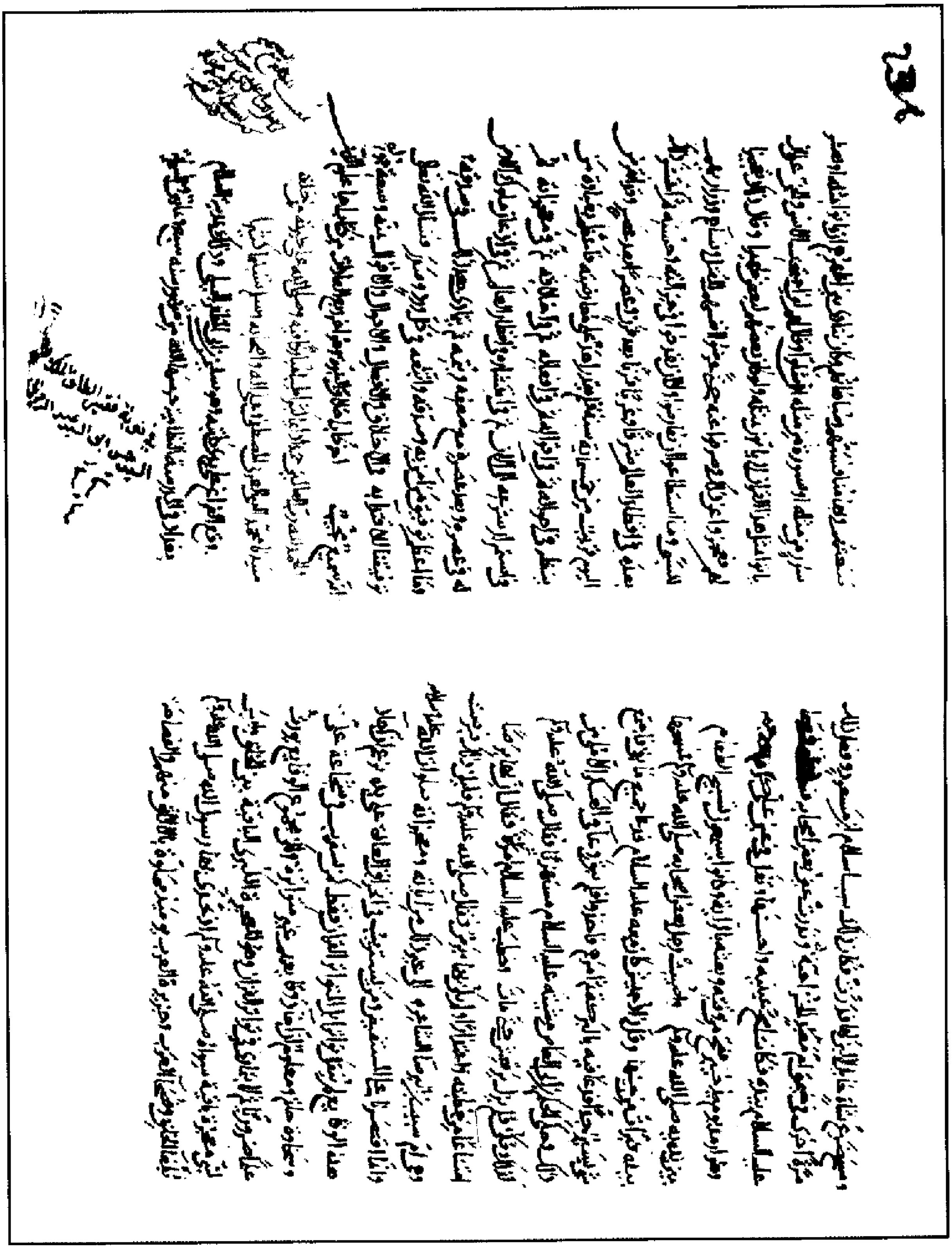

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ي)

جلد ثالث من ربع المهلكات من الاحياء

من كتاب

احيا العلوم وهو ربع المهلكات

راموز ورقة العنوان للنسخة (ك)

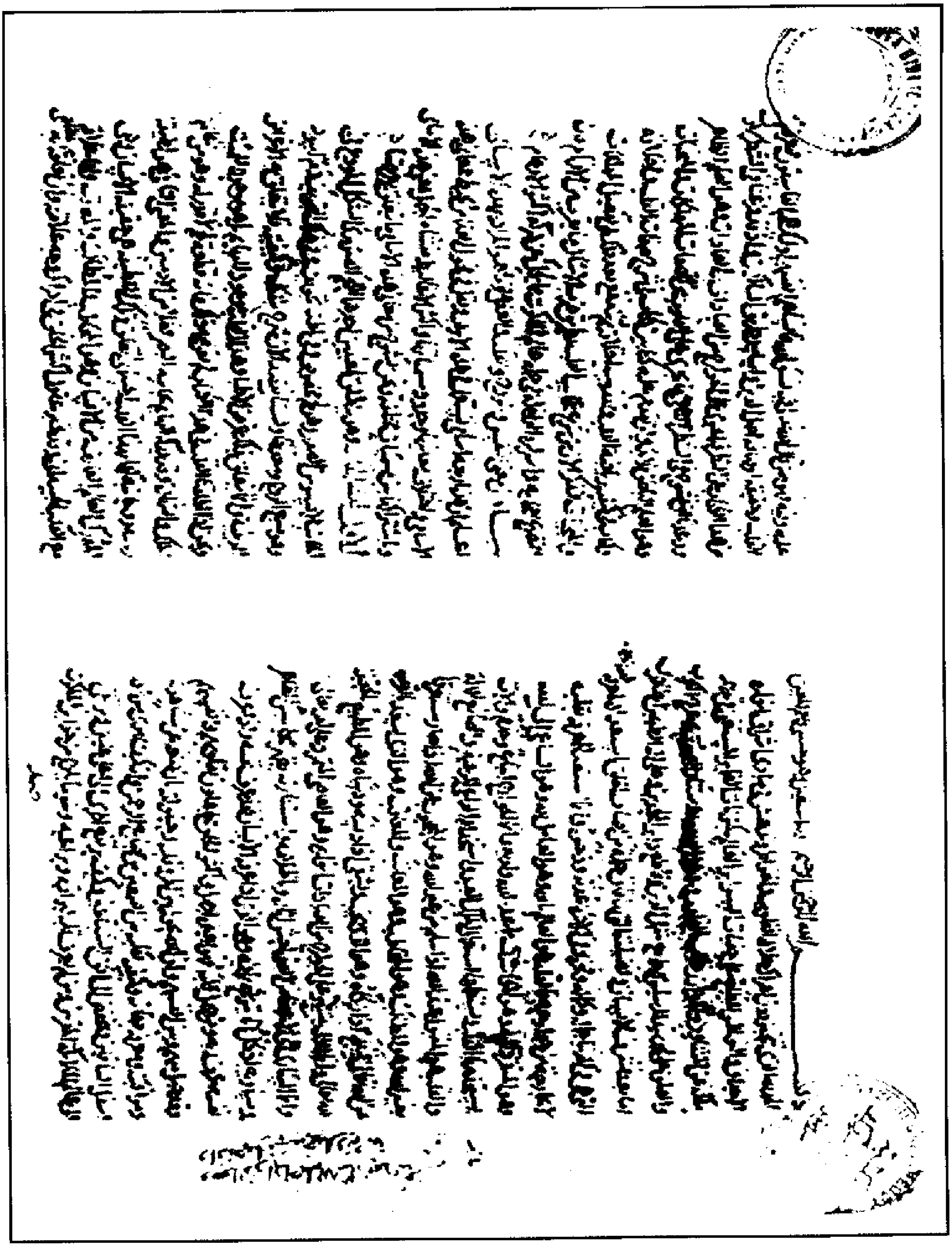

راموز الورقة الأولى للنسخة (ك)

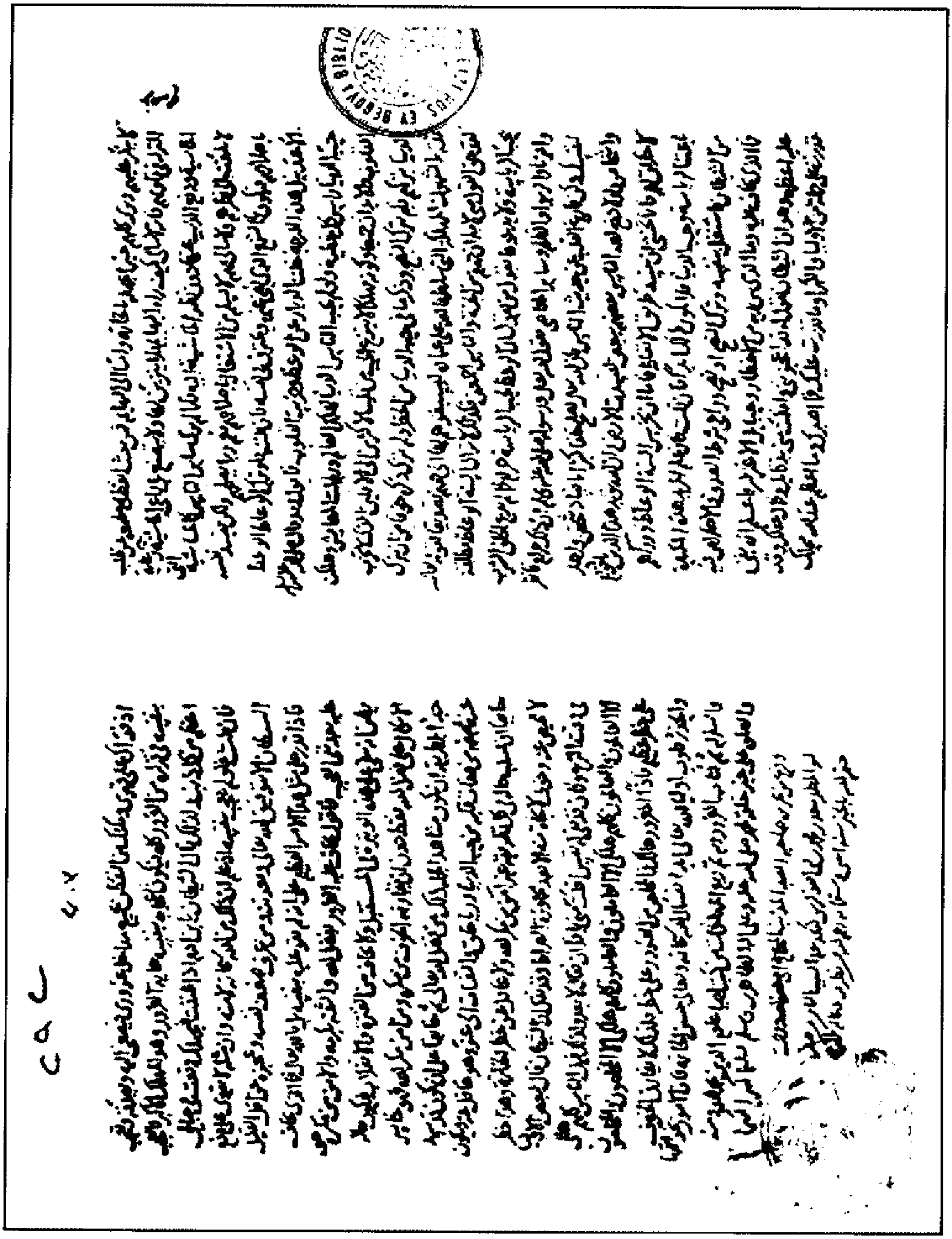

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ك)

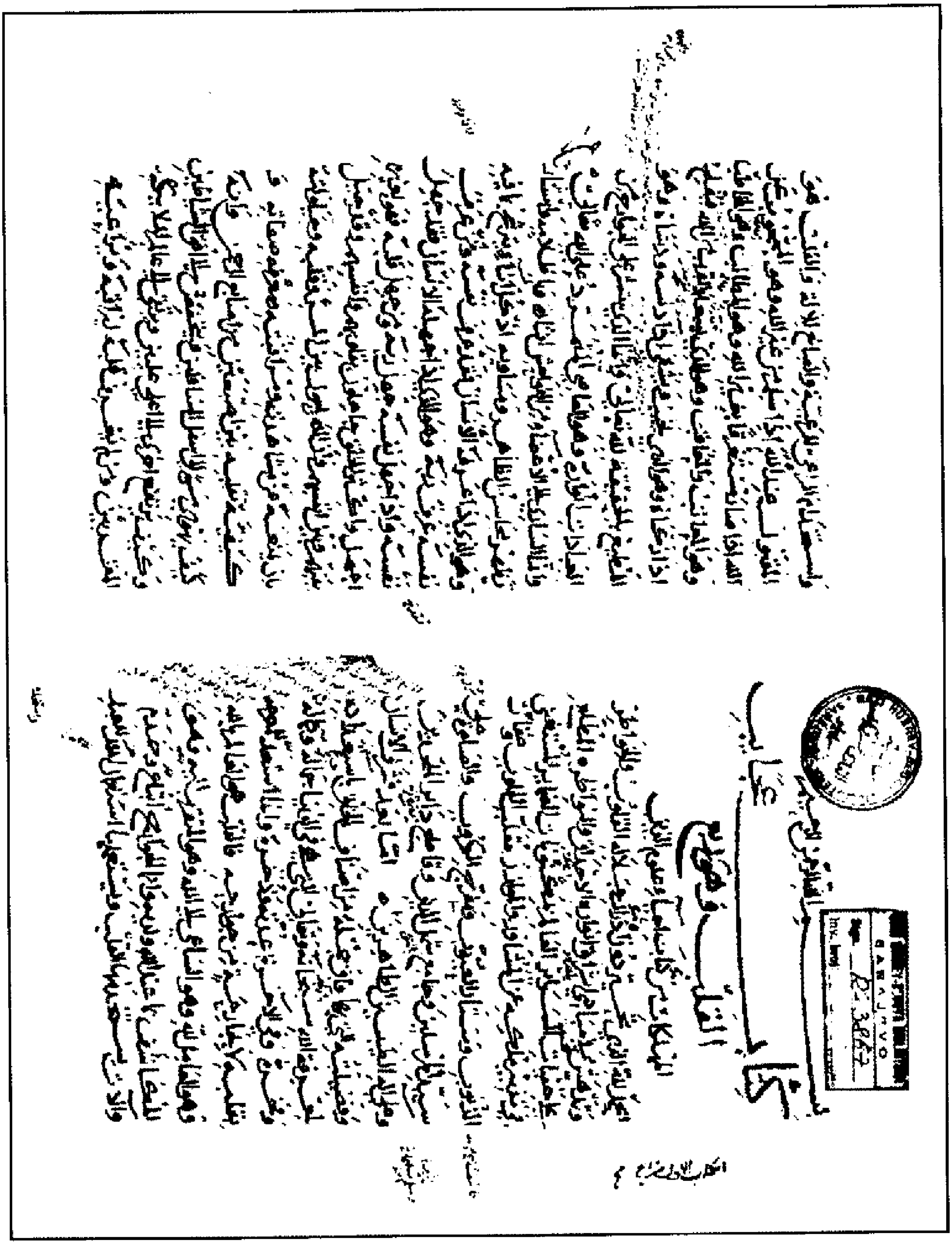

راموز الورقة الأولى للنسخة (ل)

وقف

أحدها أن تحب مساءته بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك
وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل
منك، هذا معفو عنك قطعاً لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه
الثانية أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك
فهذا هو الحسد المحظور قطعاً. الثالثة وهي بين الطرفين أن تحسد
بالقلب من غير مقتك لنفسك على حسدك ومن غير إنكار منك على قلبك
ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاها فهذا في محل الخلاف
والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه

تم ... كتاب الحسد والحمد لله رب العالمين
وصلواته على سيدنا محمد ... وسلم ...
ويتلوه كتاب ذم الدنيا وهو الكتاب ...
من ربع المهلكات وهو المجلد الرابع من كتاب إحياء علوم
الدين

وقف

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ل)

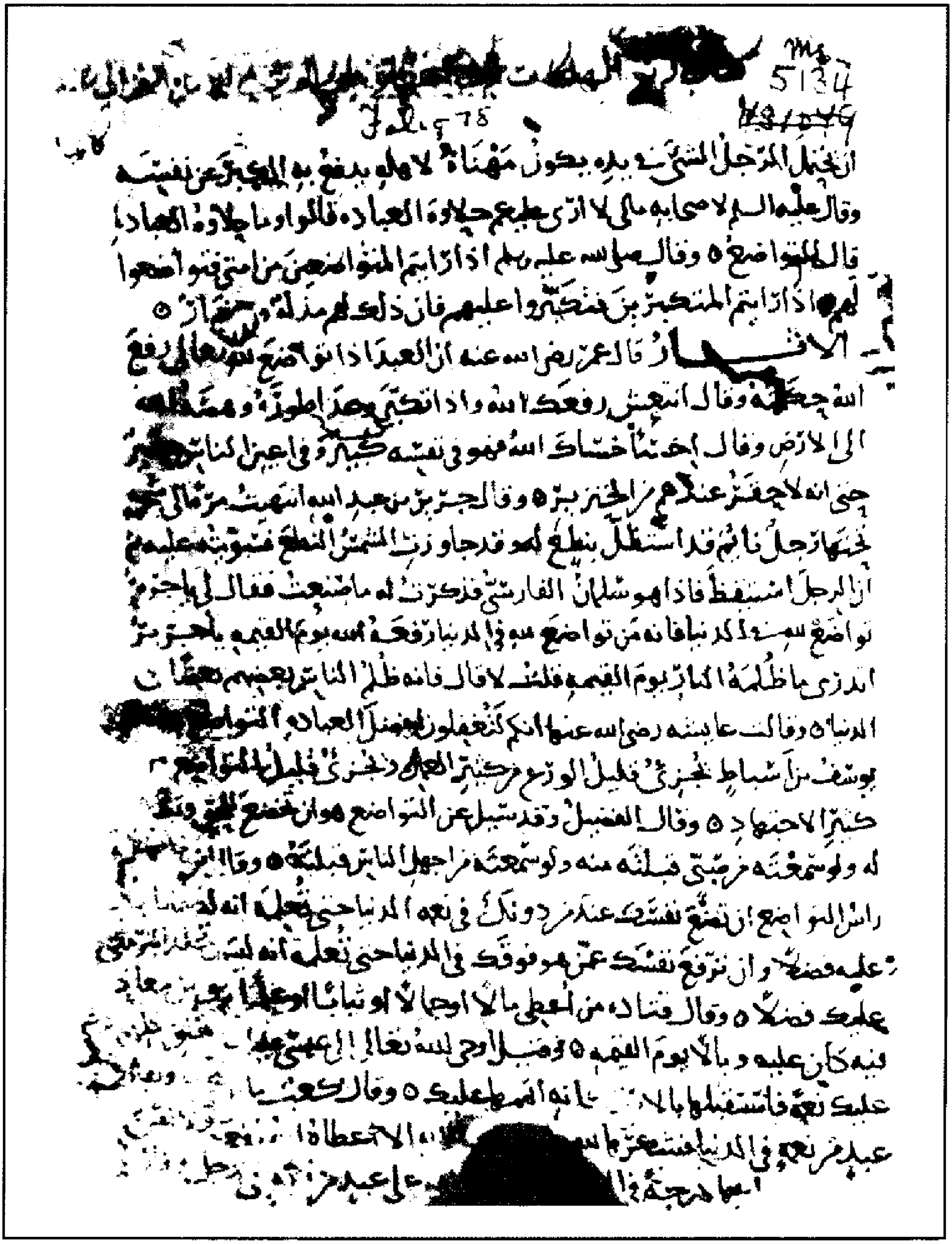

[illegible] المهلكات [illegible] العزالي [illegible]

MS 5134

ان يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنأة لاهله يدفع به الكبر عن نفسه

وقال عليه السلام لاصحابه مالي لا ارى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة

قال التواضع وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم المتواضعين من امتي فتواضعوا

لهم واذا رايتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار

الاثار قال عمر رضي الله عنه ان العبد اذا تواضع لله تعالى رفع

الله حكمته وقال انتعش رفعك الله واذا تكبر وعدا طوره وهصه الله

الى الارض وقال [illegible] الله فهو في نفسه كبير وفي اعين الناس [illegible]

حتى انه لاحقر عندهم من الخنزير وقال جرير بن عبد الله انتهيت [illegible]

شجرة رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه

ان الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي يا جرير

تواضع لله في الدنيا فانه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيمة يا جرير

اتدري ما ظلمة النار يوم القيمة قلت لا قال فانه ظلم الناس بعضهم بعضا في

الدنيا وقالت عائشة رضي الله عنها انكم لتغفلون عن افضل العبادة التواضع [illegible]

يوسف بن اسباط يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من

كثير الاجتهاد وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع هو ان تخضع للحق وتنقاد

له ولو سمعته من صبي قبلته منه ولو سمعته من اجهل الناس قبلته وقال ابن [illegible]

راس التواضع ان تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه انه ليس لك [illegible]

عليه فضل وان ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه انه ليس له [illegible]

عليك فضل وقال قتادة من اعطي مالا او جمالا او ثيابا او علما ثم لم يتواضع [illegible]

فيه كان عليه وبالا يوم القيمة وقيل اوحى الله تعالى الى عيسى [illegible]

عليك نعمة فاستقبلها بالا[illegible] اتمها عليك وقال كعب [illegible]

عبد من نعمة في الدنيا فشكرها [illegible] الا اعطاه [illegible]

[illegible]

راموز الورقة الأولى للنسخة (م)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (م)

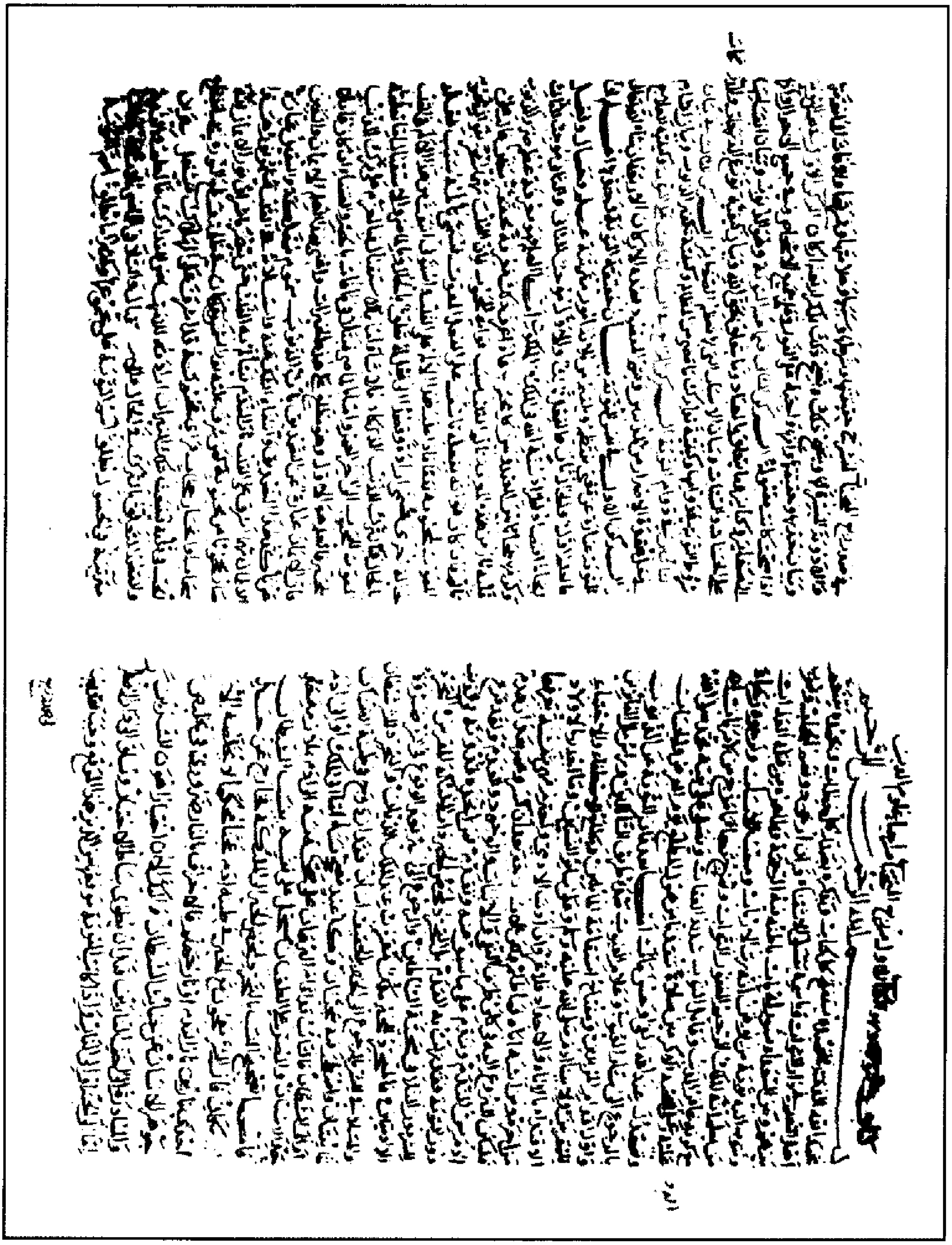

راموز الورقة الأولى للنسخة (ن)

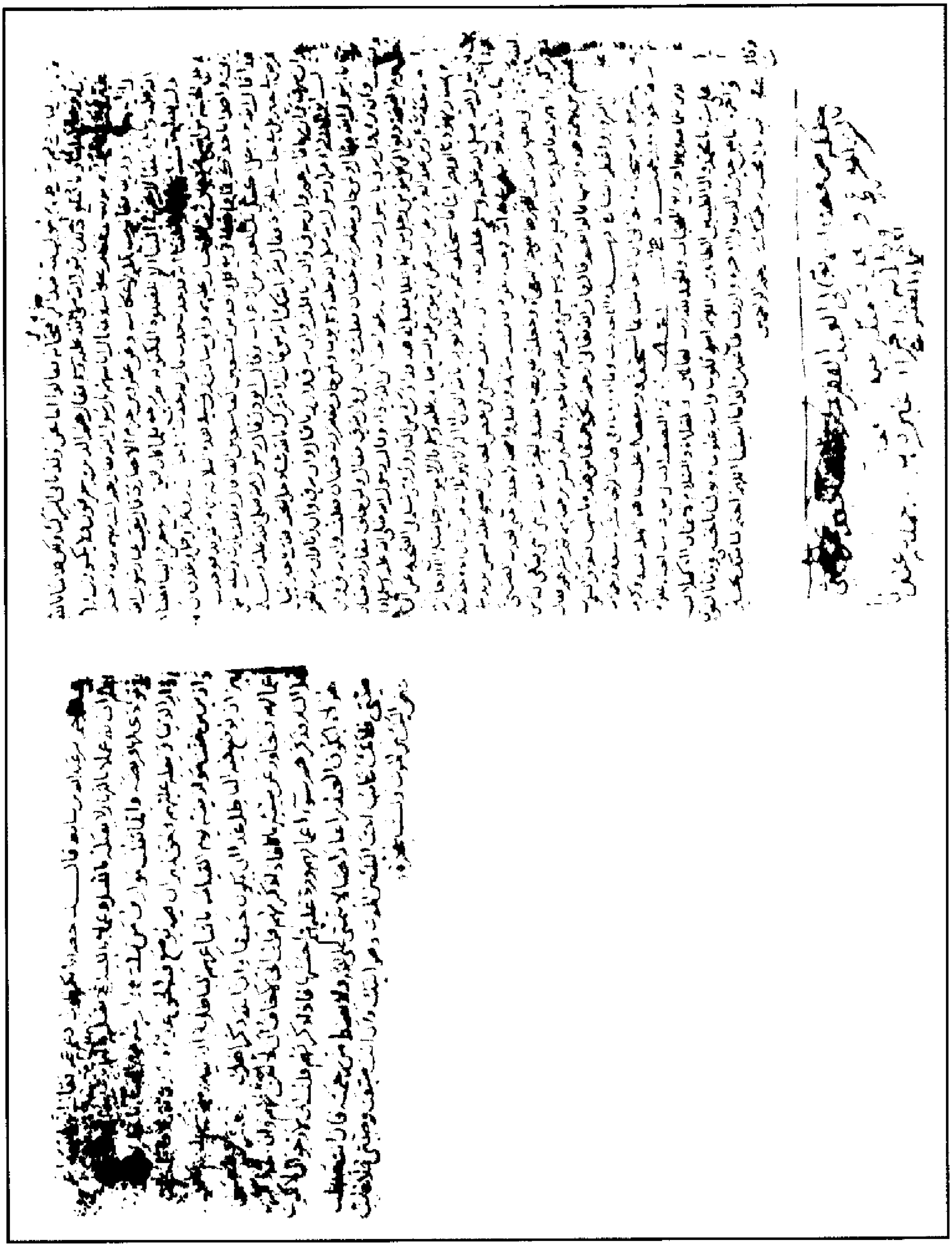

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ن)

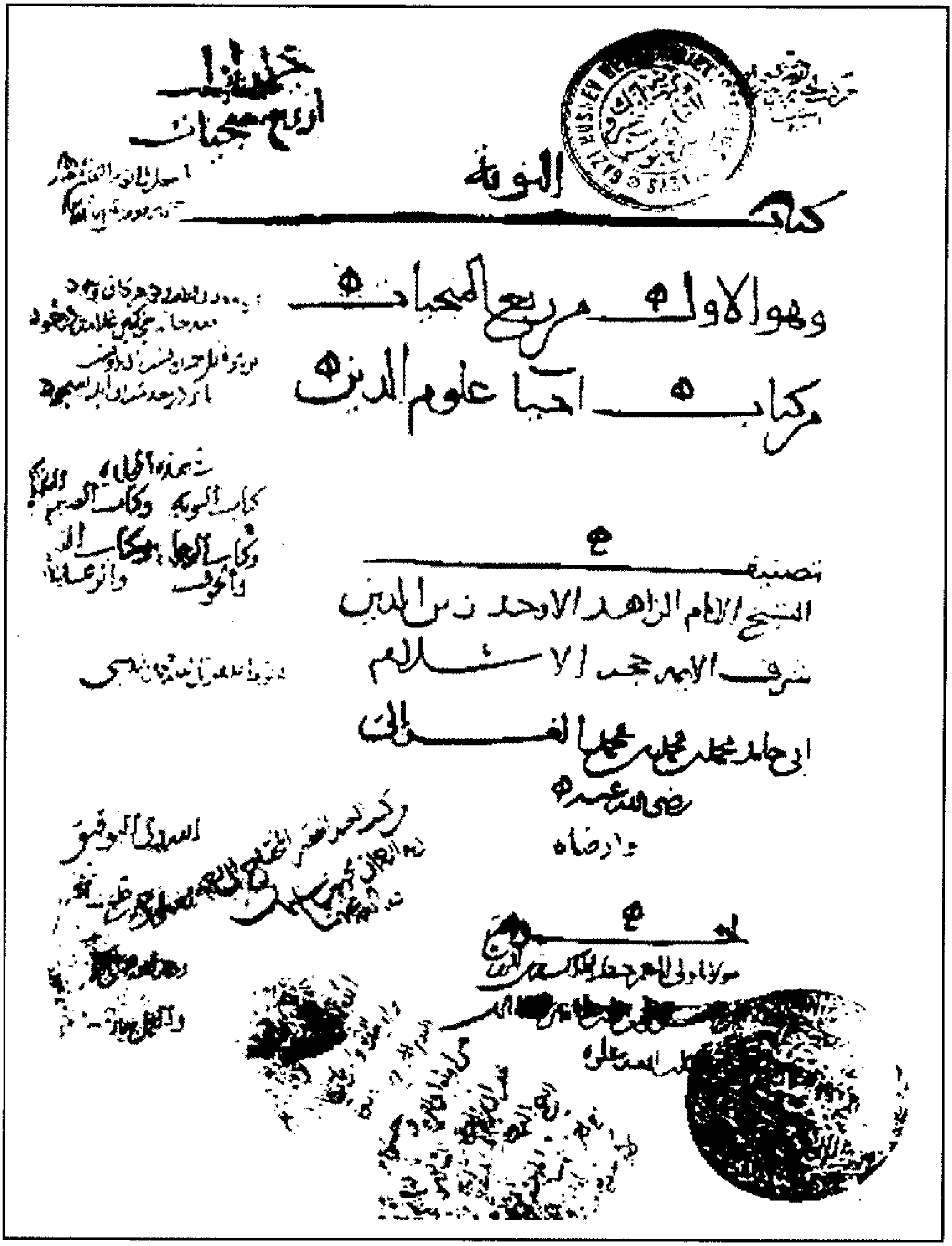
كتاب التوبة
وهو الاول من ربع المنجيات
من كتاب احيا علوم الدين
تصنيف
الشيخ الامام الزاهد الاوحد زين الدين
شرف الائمة حجة الاسلام
ابي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
رضي الله عنه
وارضاه

راموز ورقة العنوان للنسخة (س)

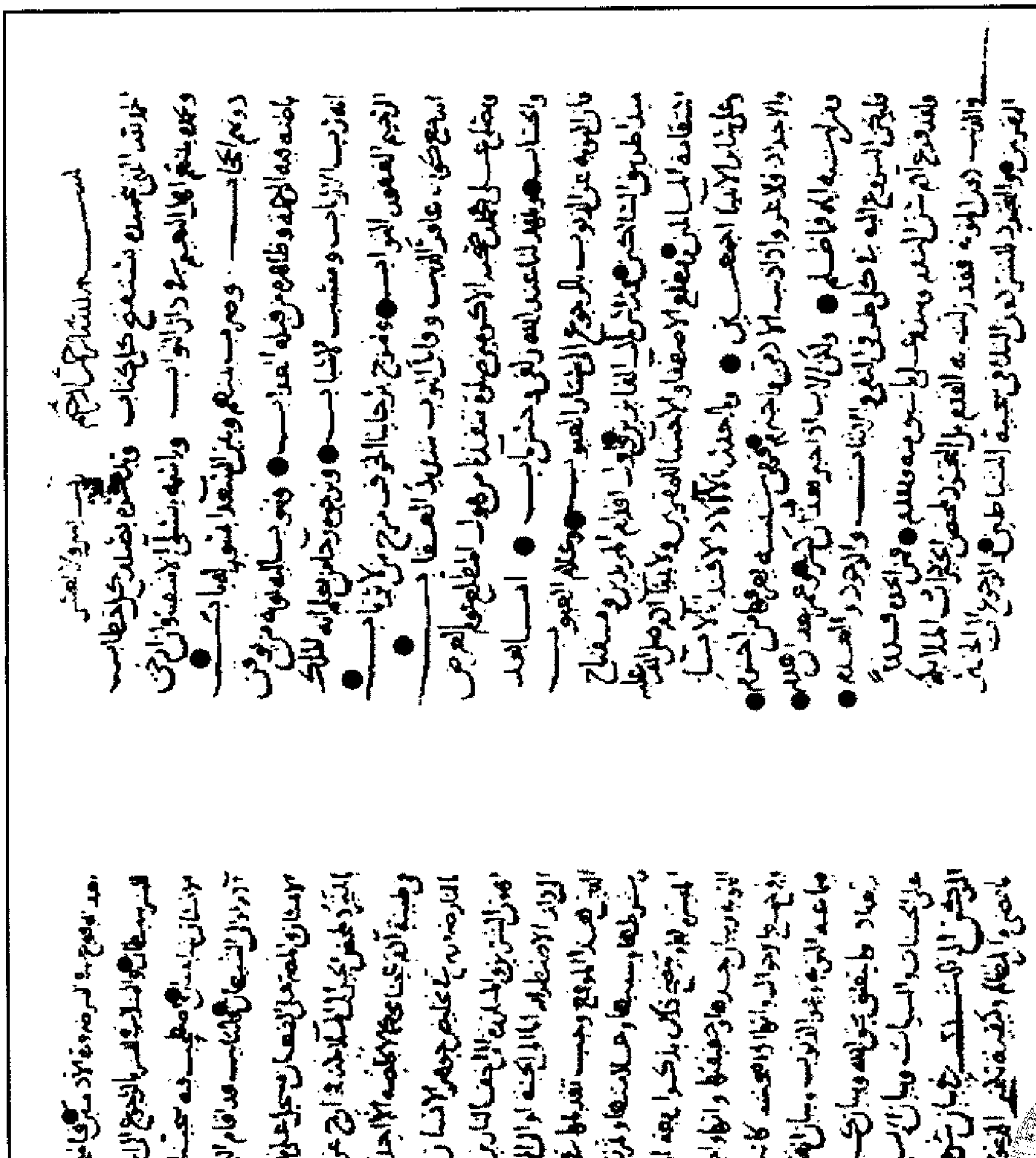

راموز الورقة الأولى للنسخة (س)

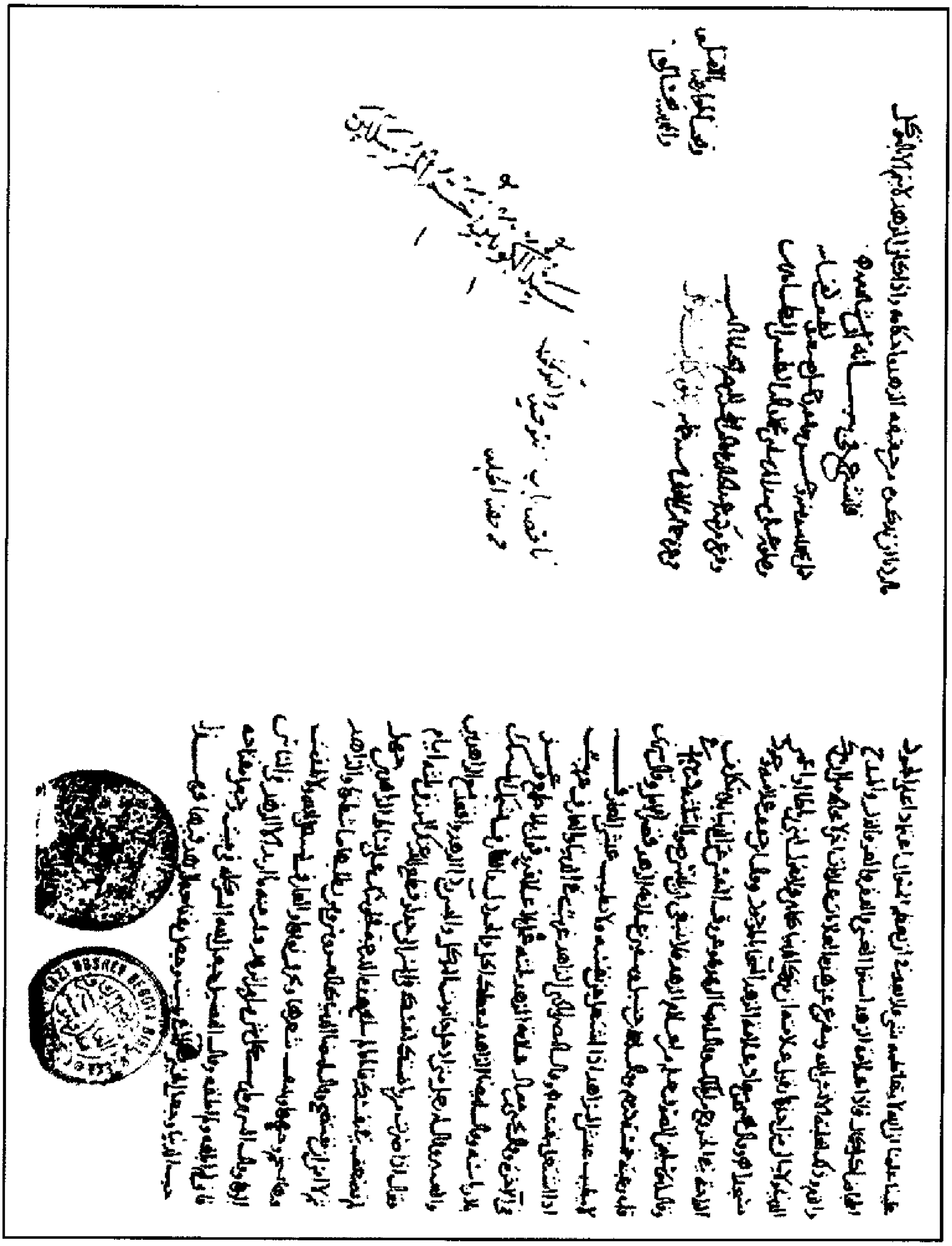

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (س)

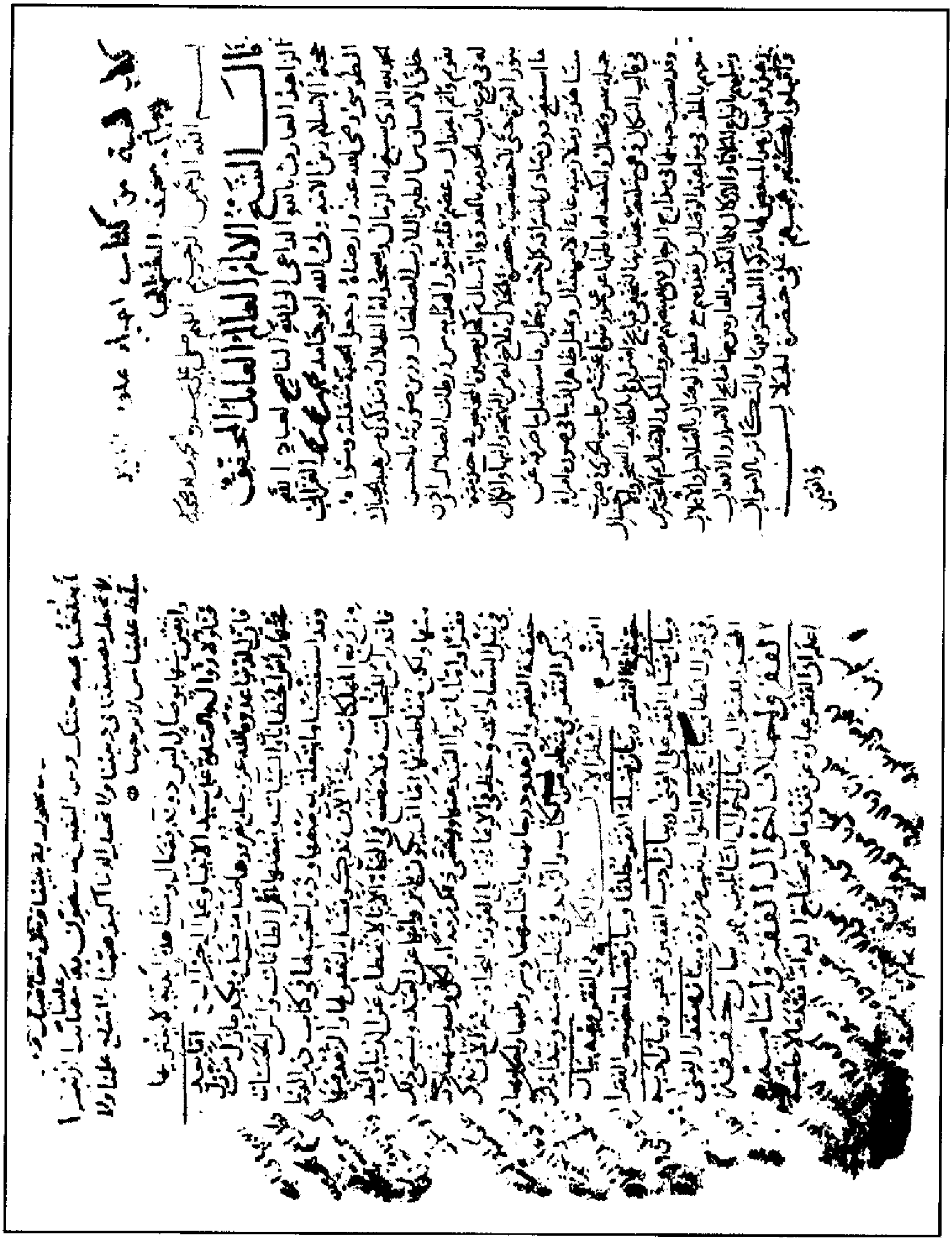

راموز الورقة الأولى للنسخة (ع)

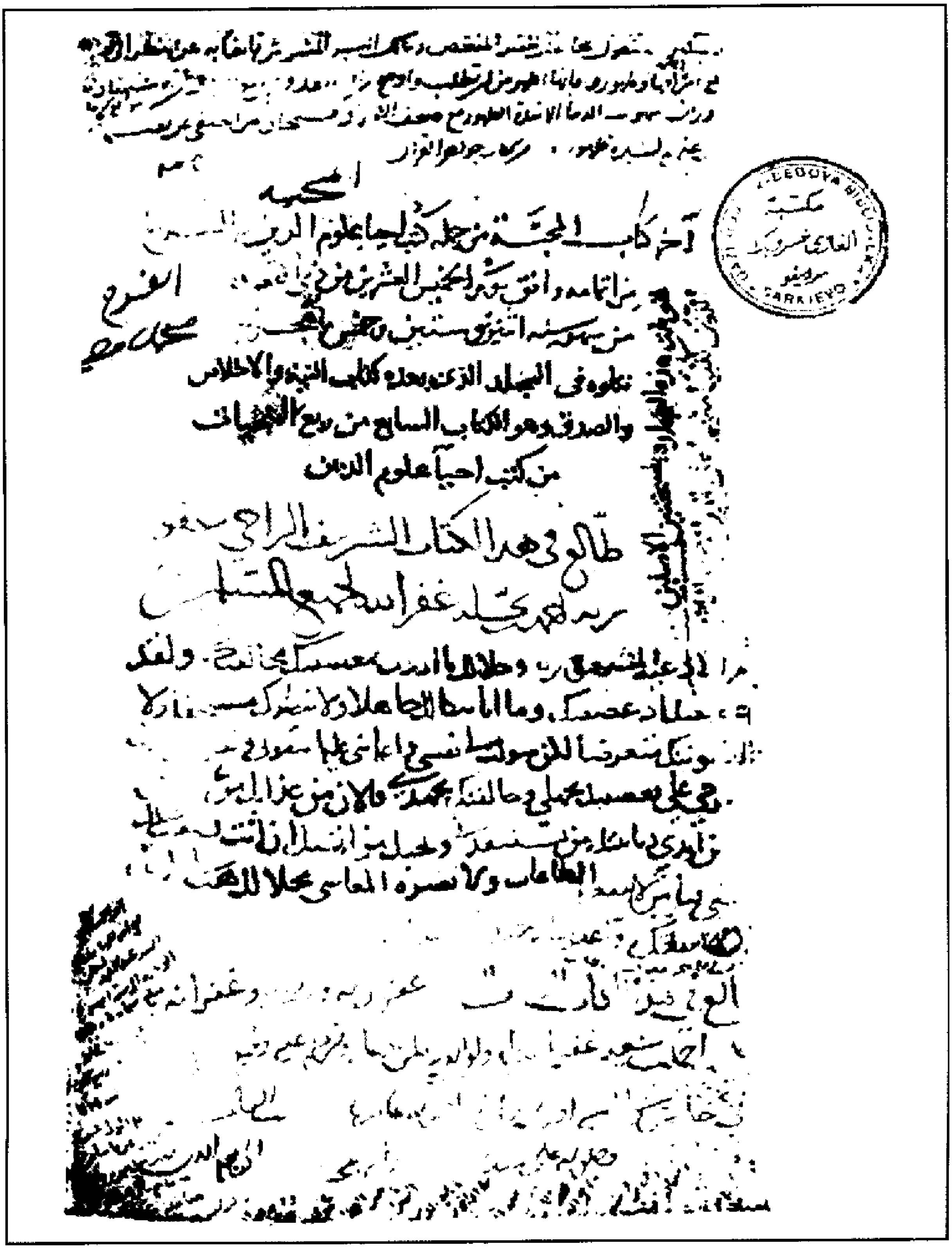

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ع)

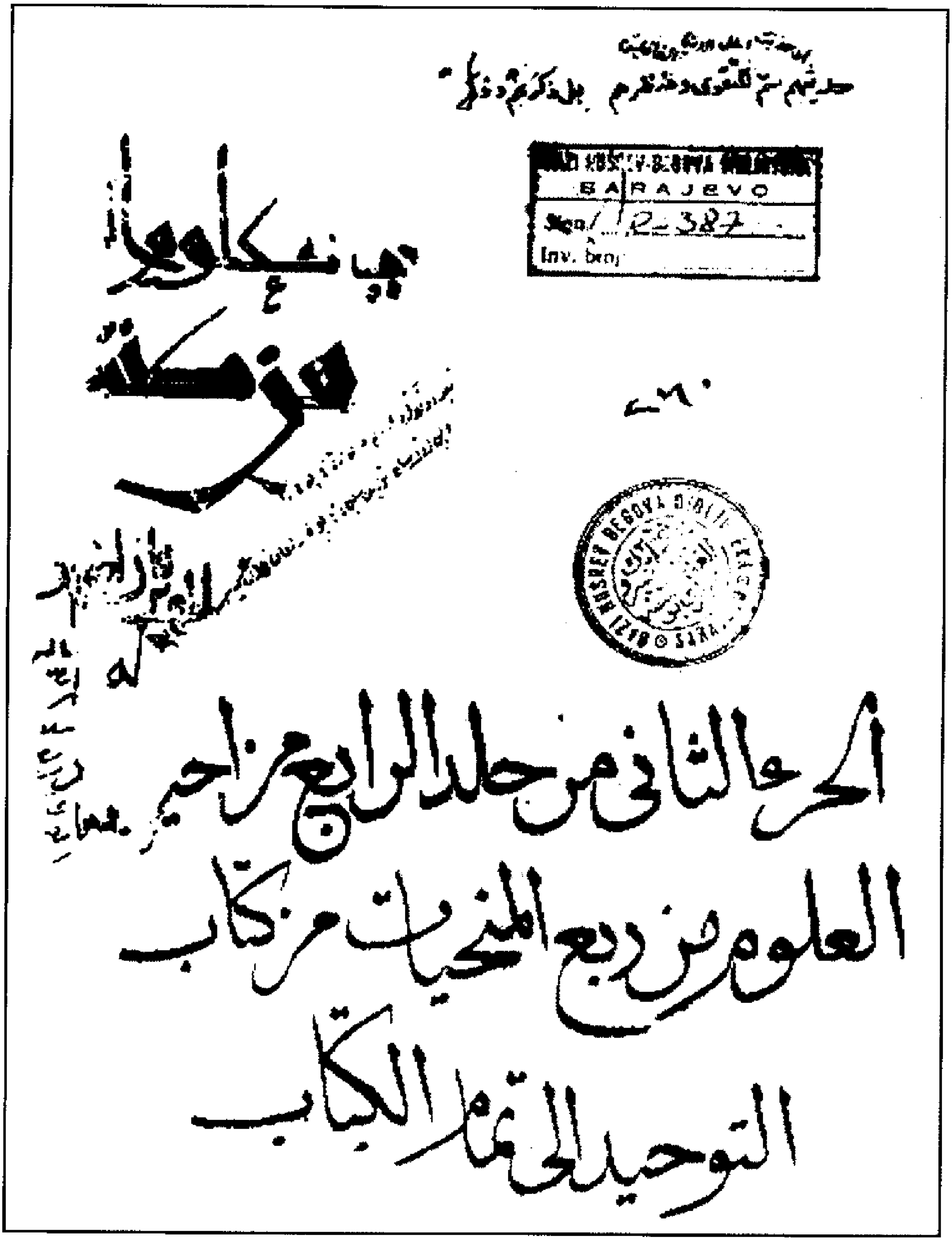

GAZI HUSREV-BEGOVA BIBLIOTEKA
SARAJEVO
Sign./ R-387
Inv. broj

الجزء الثاني من جلد الرابع من احيا
العلوم من ربع المنجيات من كتاب
التوحيد الى تمام الكتاب

راموز ورقة العنوان للنسخة (ف)

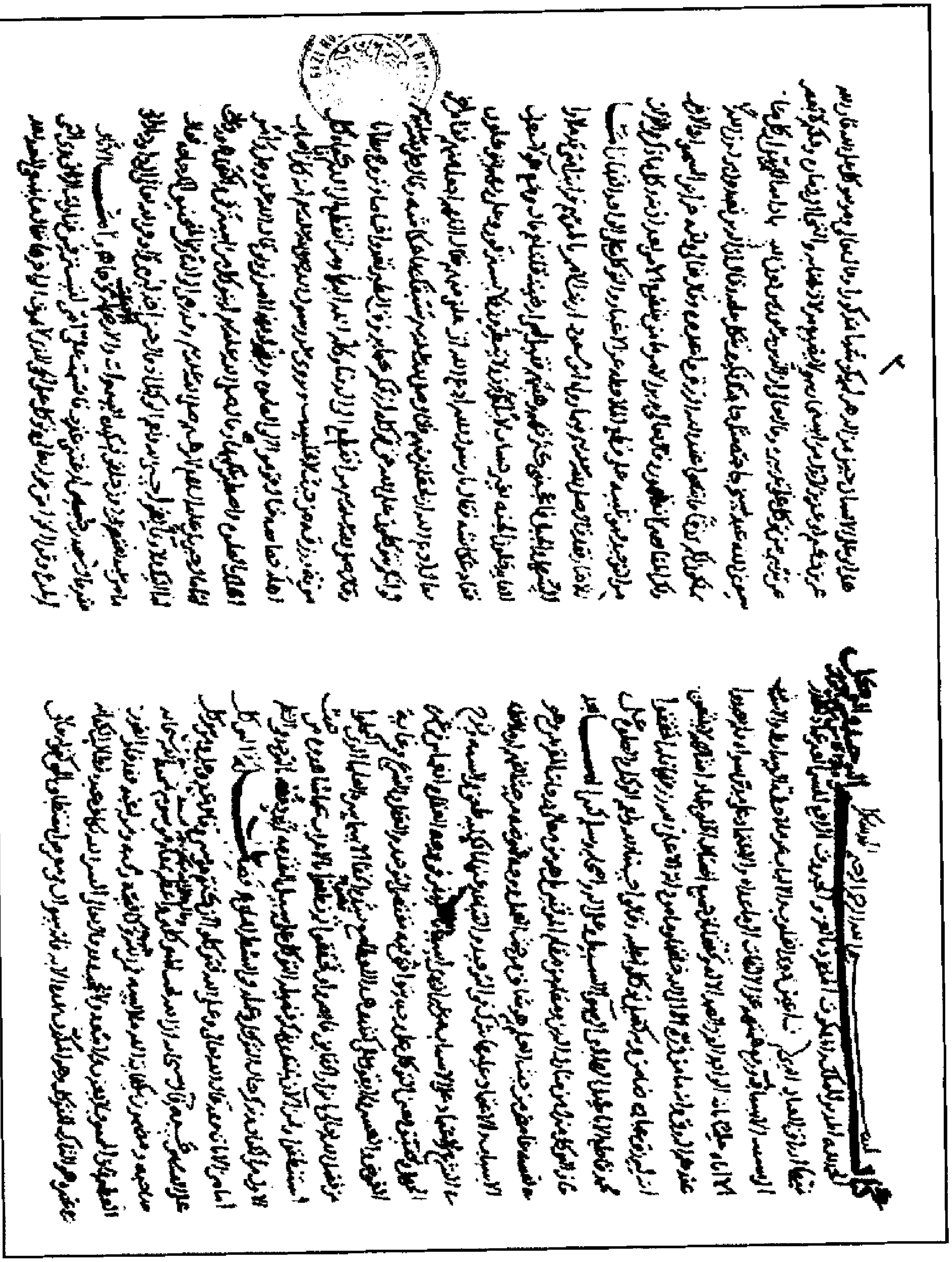

راموز الورقة الأولى للنسخة (ف)

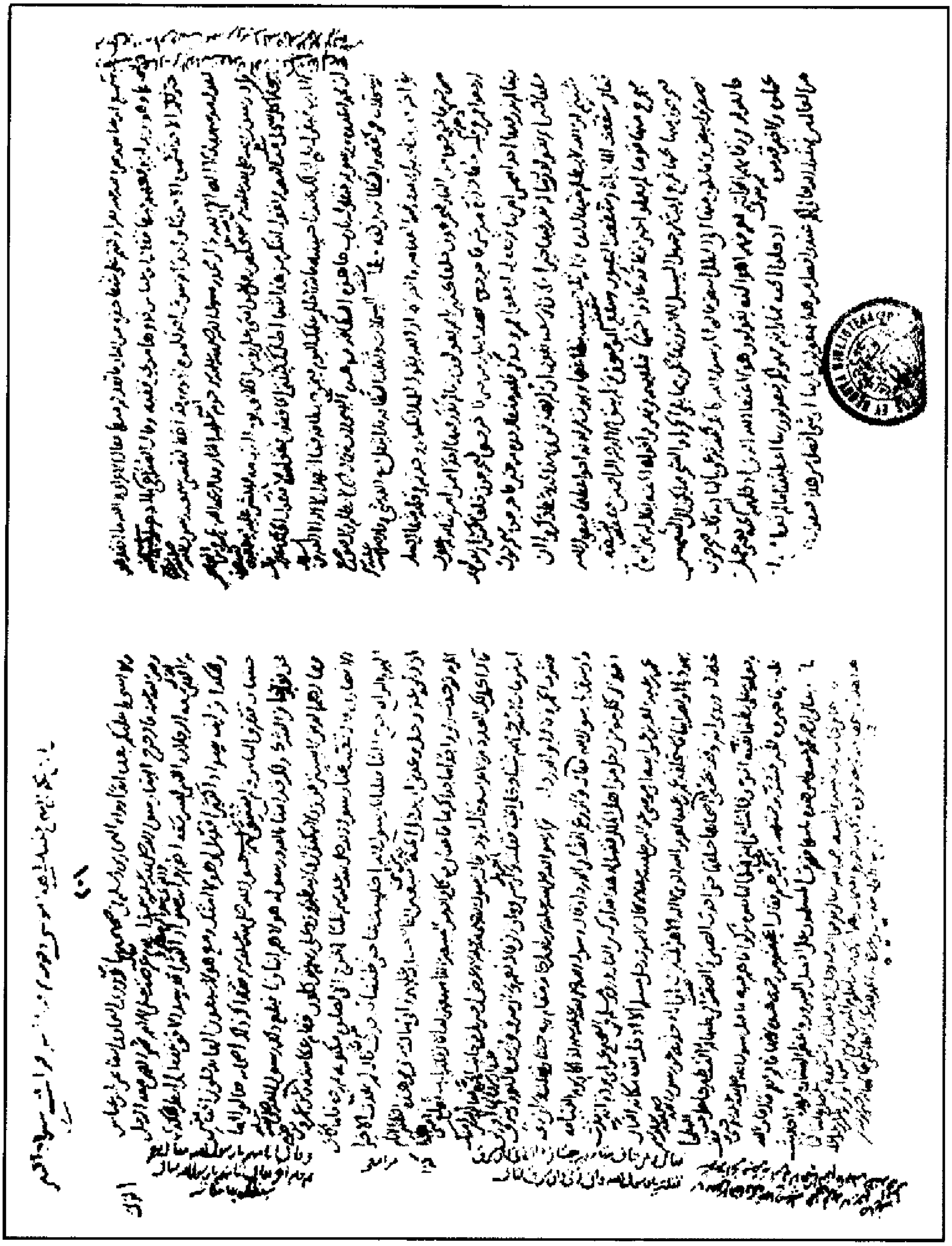

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ف)

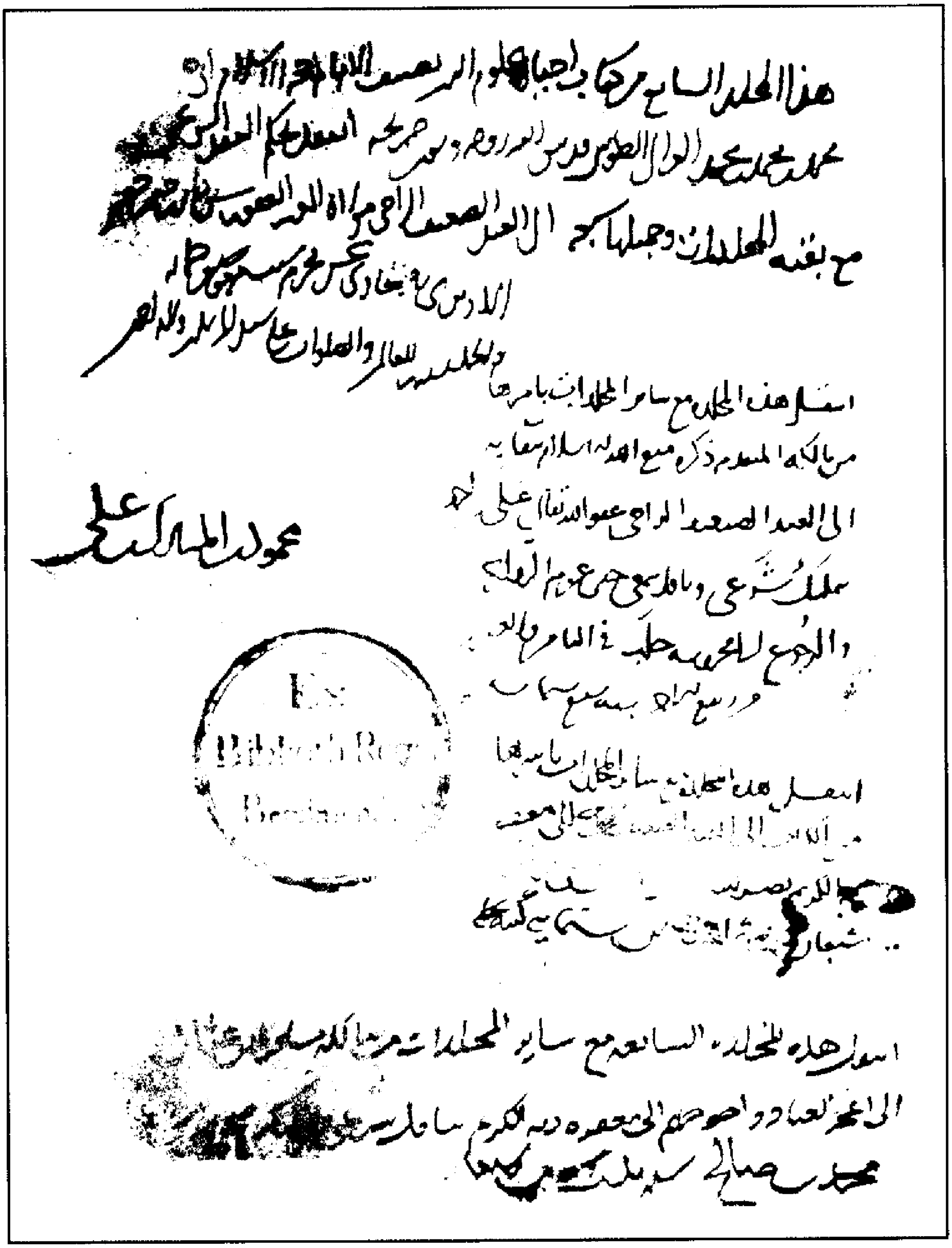

راموز ورقة العنوان للنسخة (ص)

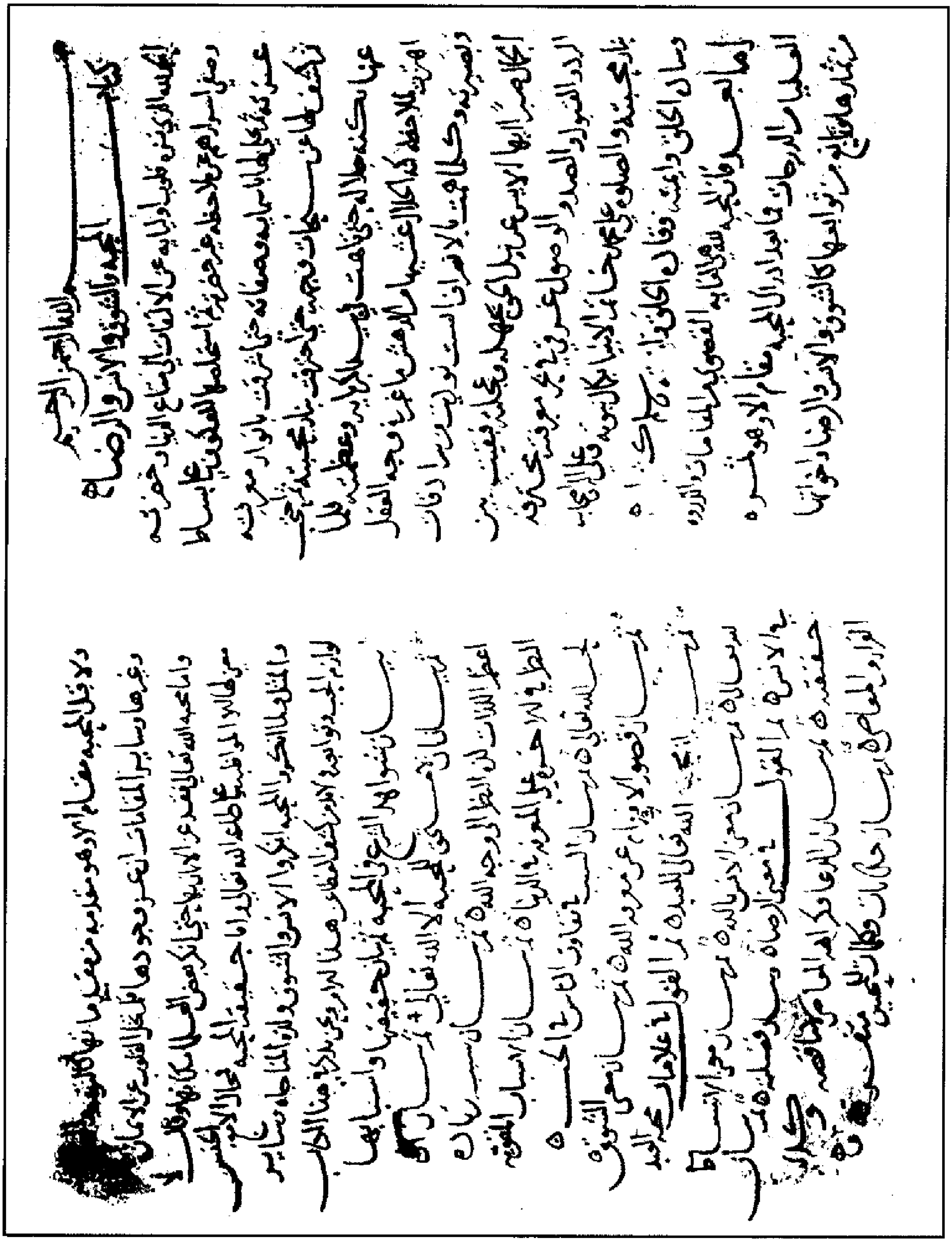

راموز الورقة الأولى للنسخة (ص)

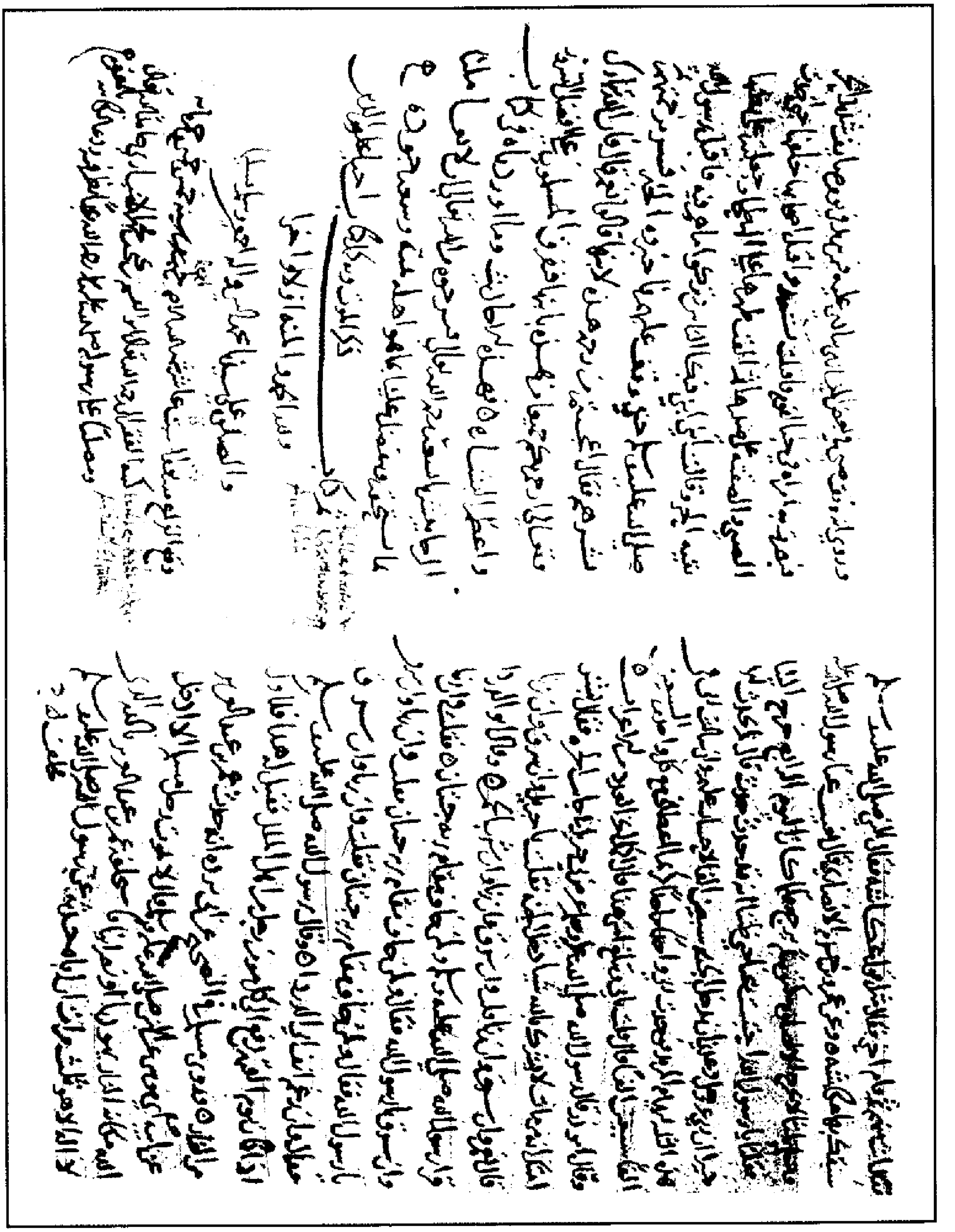

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ص)

الجزء الأول من كتاب احياء علوم الدين تأليف
الامام العالم العلامة المحقق المدقق حجة
الاسلام أبي حامد محمد بن محمد
الغزالي قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

(وبهامشه كتابان جليلان أولهما كتاب تعريف الأحيا بفضائل الاحيا تصنيف الشيخ العلامة محيي الدين قدوة المسلمين عبد القادر ابن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي قدس الله سره ونفعنا به آمين وثاني الكتابين عوارف المعارف للعارف بالله تعالى الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين)

(ترجمة الامام السهروردي)

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم ابن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر ابن أبي صالح الجيلي وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم * سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهرورد بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

راموز ورقة العنوان من الجزء الأول للنسخة (ق)

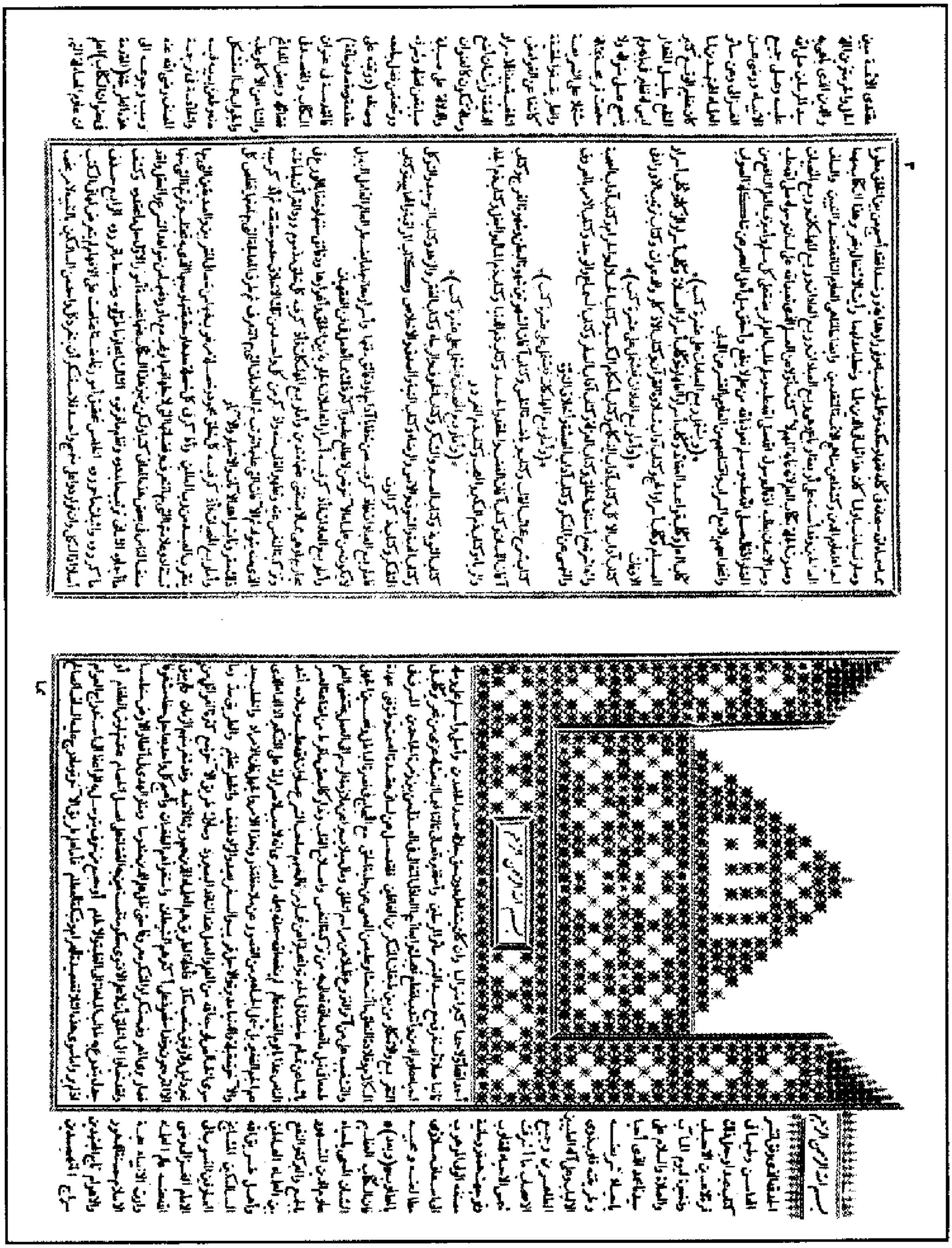

راموز الورقة الأولى من الجزء الأول للنسخة (ق)

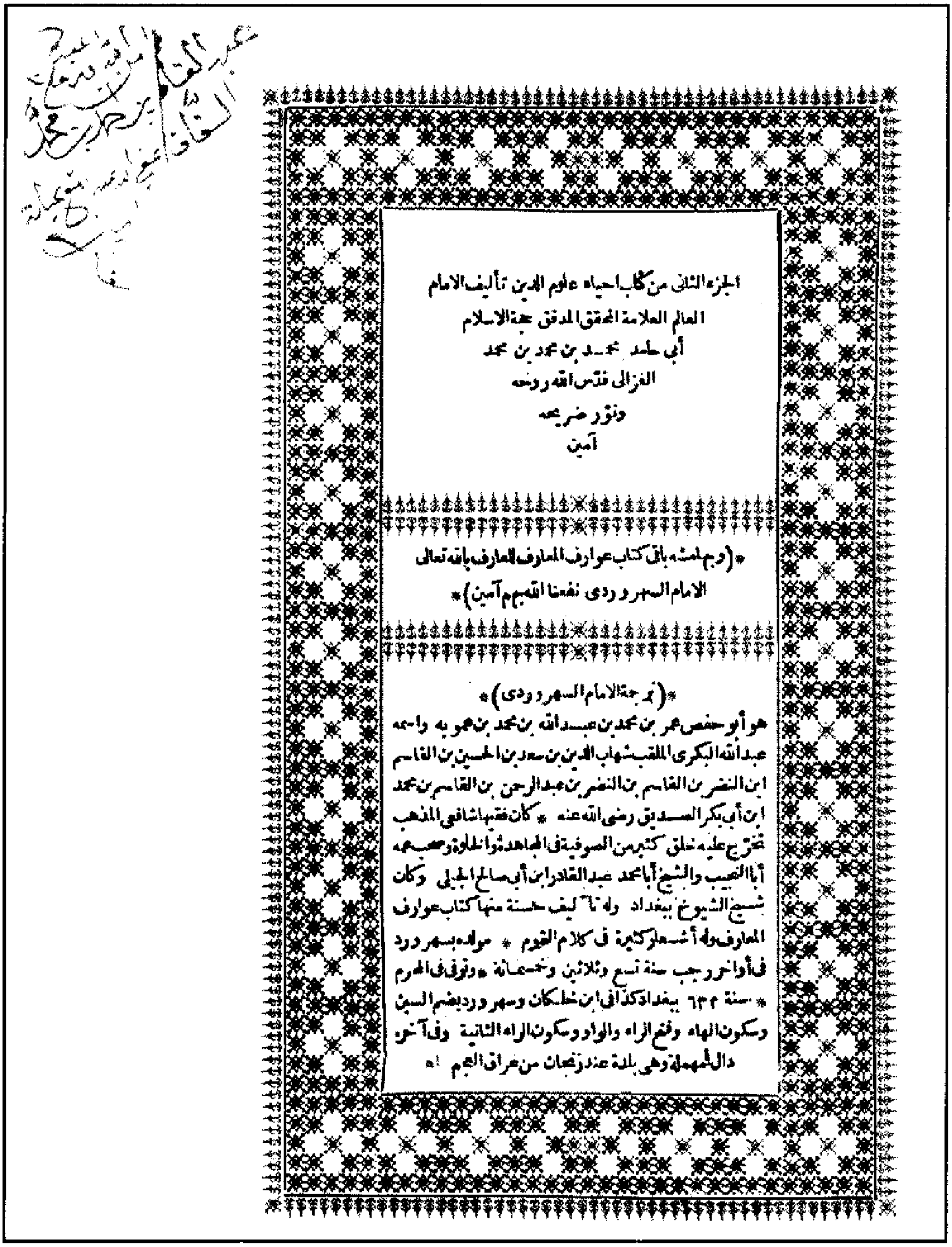

الجزء الثاني من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام
العالم العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

*(وبهامشه باقي كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين)*

(ترجمة الامام السهروردي)
هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم ابن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر ابن أبي صالح الجيلي وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم * سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهروردي بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

راموز ورقة العنوان من الجزء الثاني للنسخة (ق)

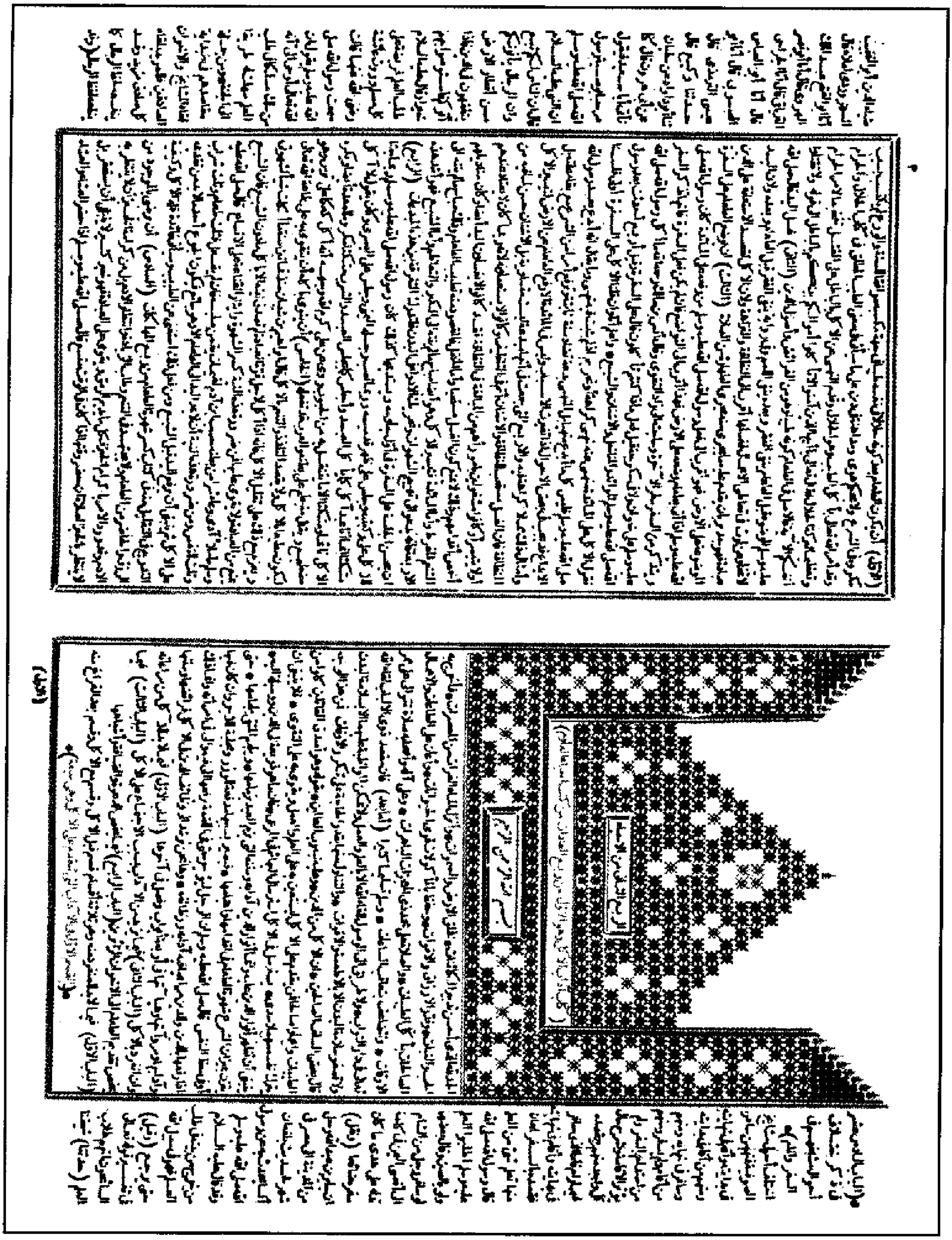

راموز الورقة الأولى من الجزء الثاني للنسخة (ق)

الجزء الثالث من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام
العالم العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي قدّس الله روحه
ونوّر ضريحه
آمين

*(وبهامشه باقي كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين)*

(ترجمة الامام السهروردي)

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم ابن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب تخرّج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم * سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهرورد بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

راموز ورقة العنوان من الجزء الثّالث للنّسخة (ق)

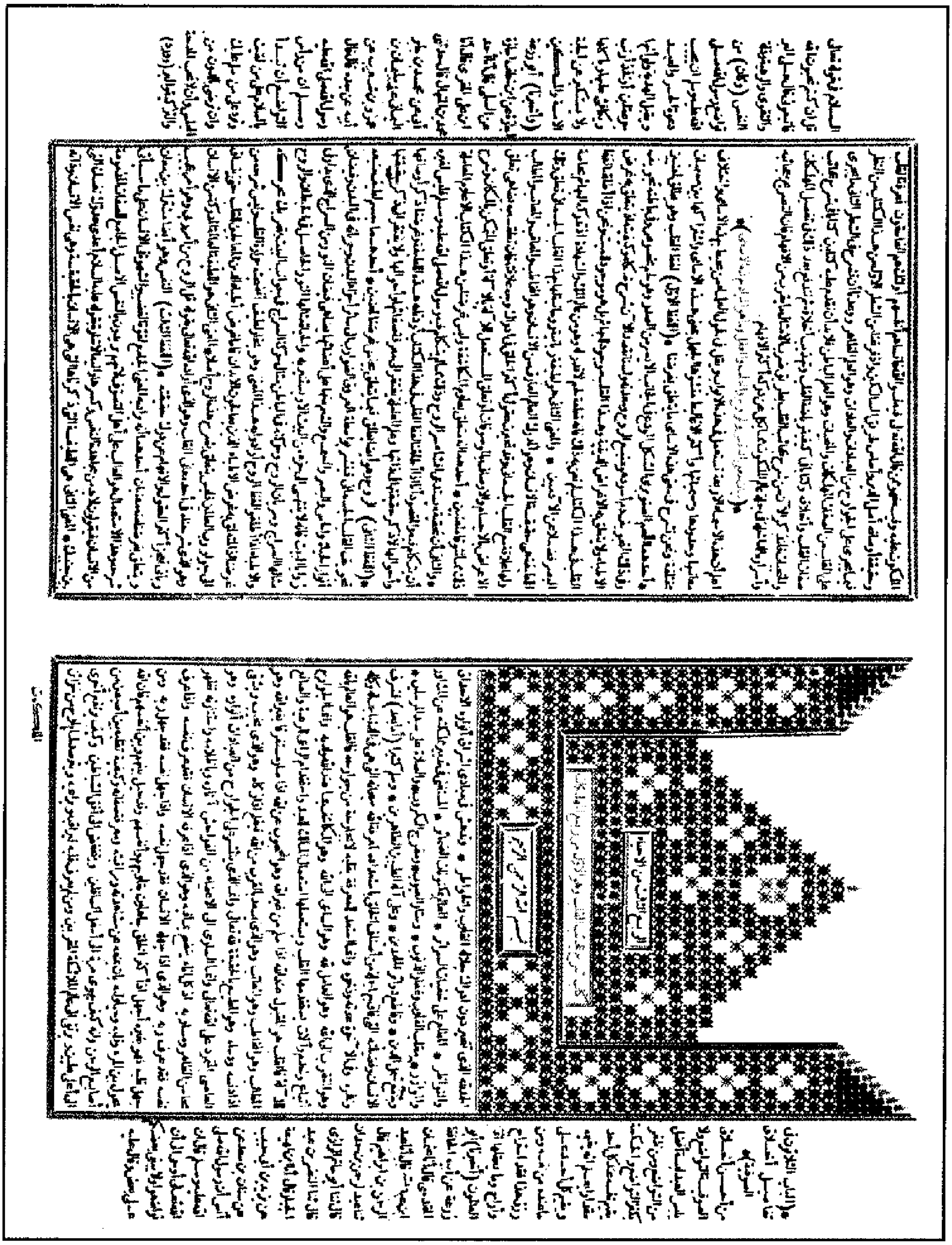

راموز الورقة الأولى من الجزء الثالث للنسخة (ق)

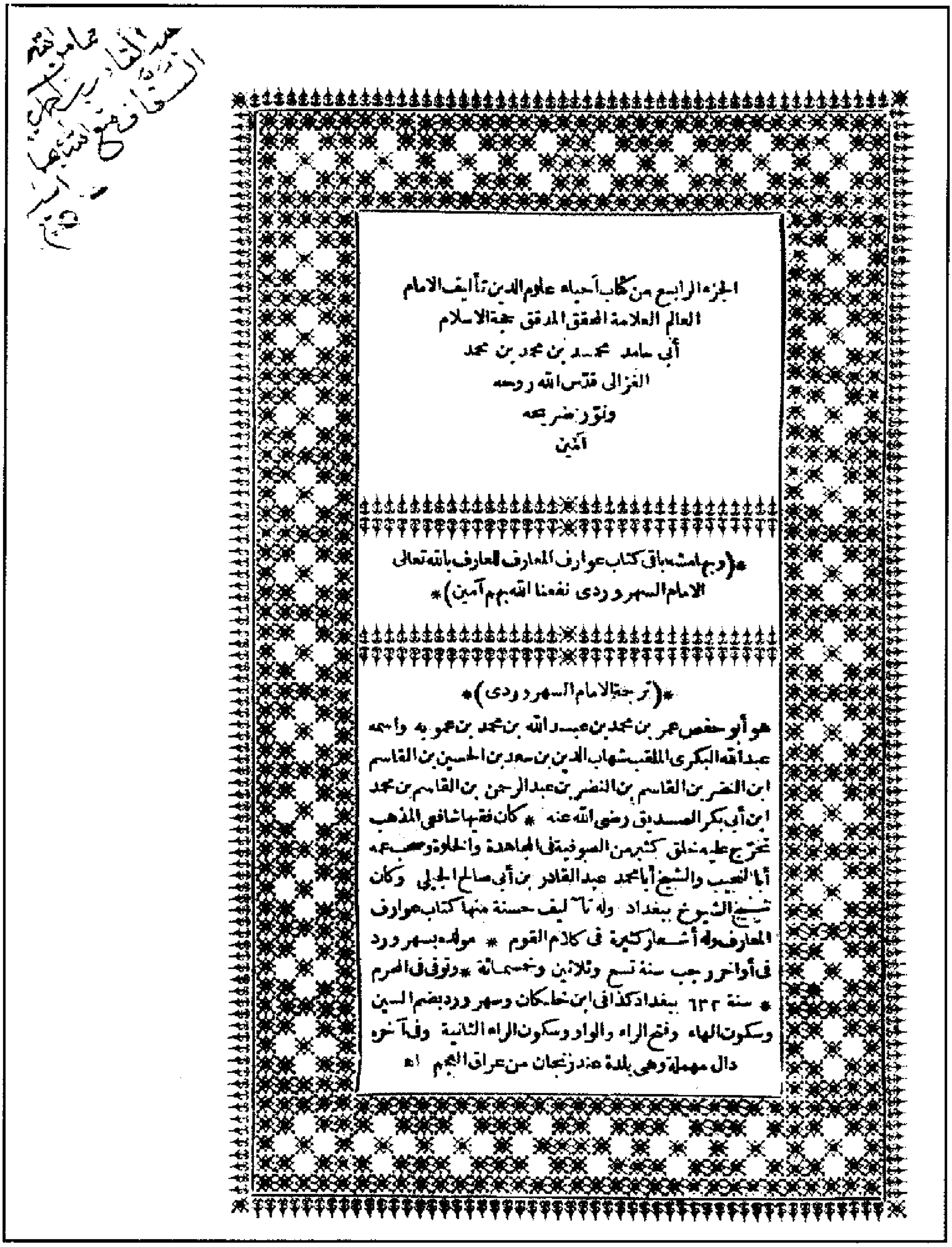

الجزء الرابع من كتاب أحياء علوم الدين تأليف الامام
العالم العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

*(وبهامشه باقي كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين)*

(ترجمة الامام السهروردي)

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم ابن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم * سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهرورد بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

رامُوز ورقة العنوان من الجزء الرّابع للنّسخة (ق)

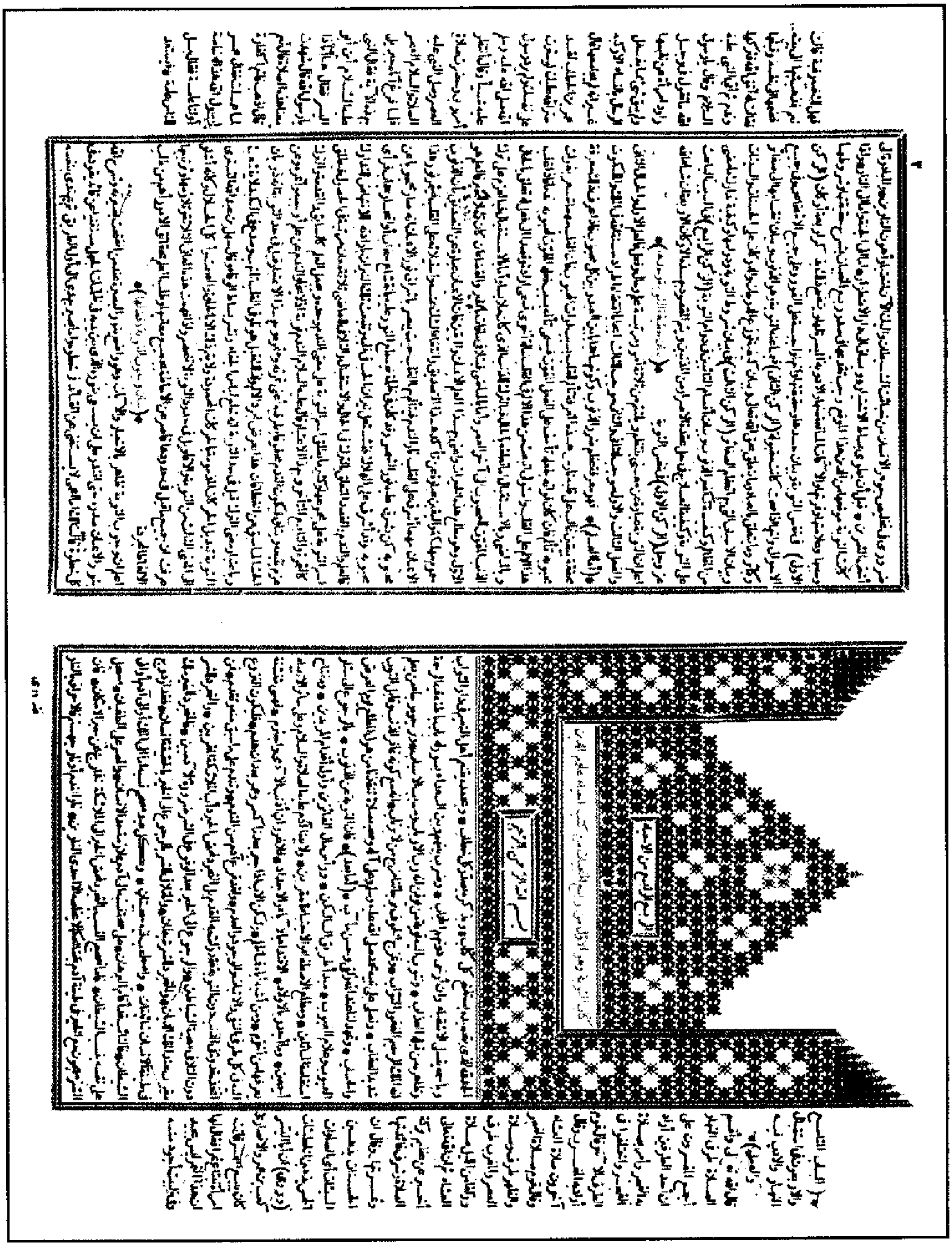

راموز الورقة الأولى من الجزء الرابع للنسخة (ق)

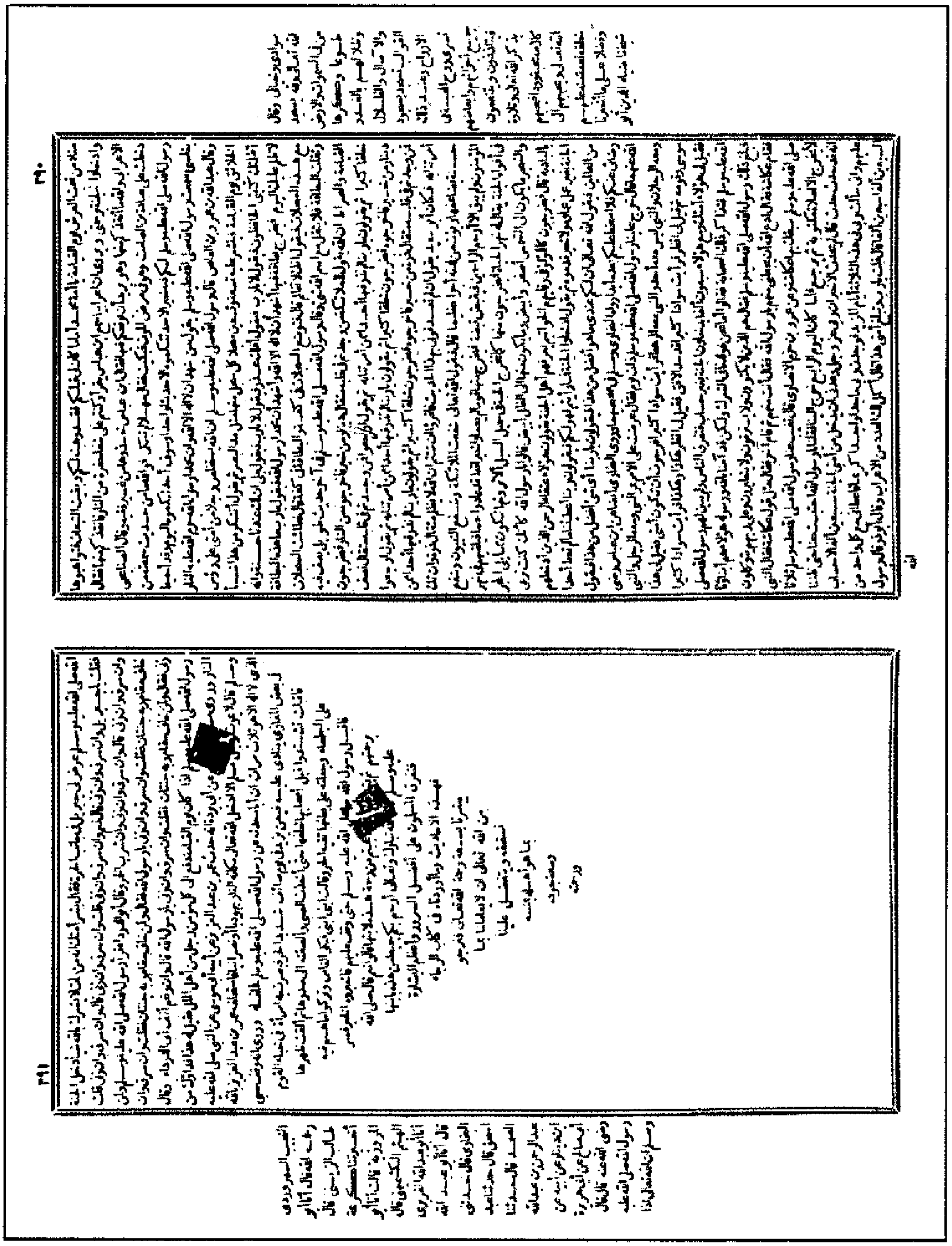

راموز الورقة قبل الأخيرة من الجزء الرابع للنسخة (ق)

٣٩٣

(يقول راجي غفران المساوي محمد محمد الزهري الغمراوي)

نحمدك يامن شرحت الحقائق لقلوب غرست في رياضها أشجار محبتك وسقيت بغيوث رحمتك وأزعجت بسوط خوفك فأحسنت متابعة شريعتك وأثمرت غصونها اجتناء هدايتك ومنحت زائد عنايتك فصحت بعد غفلتها ونهضت في اقتفاء مرضاتك بعد طول رقدتها ونشكرك شكر من أبان عن واضح الحق التام حتى اتضح للمتخوف من آثار في وجه الصدق القتام ونسألك أن تديم وافر صلواتك وكامل تسليماتك على خاتم النبيين ورسولك الى الخلق أجمعين من جعلت سنته في قوله وفعله هي الطريق البلقاء فمن شذ عنها ولو قلامة ظفر لا يظفر من مرضاتك بمأموله وعلى آله سفينة النجاة الذين هم العروة الوثقى لمن يرجو شفاعته ورضاه وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم بمتابعته فصاروا أنجما يهتدى بهم في شريعته وكل من اقتفى آثارهم وجاهد نفسه ليلتقط من رياض أحوالهم أزهارهم *(أما بعد)* فان أولى ما يهتم الانسان بتحصيله وصرف العناية الى قراءته وترتيله ما تستطب به النفوس من أمراضها وتستعز به في تقويم أغراضها ولا شئ أوفى بذلك النجح مزيد حسن مبين من كتاب احياء علوم الدين لامام الائمة وحجة الامة الشيخ محمد بن محمد الغزالي طيب الله ثراه وأقاله عثراته وهو كتاب لا يستطيع البيان وصف محاسنه ولا يستجري البنان حصر درر معادنه وقد حسن الطبع شكل وضعه وزين مباني منهم محلى الهوامش والطرر ومزين الحواشي والغرر بالكتابين الجليلين الاول كتاب تعريف الاحيا بفضائل الاحيا للعلامة الشيخ محي الدين قدوة المسلمين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي والثاني عوارف المعارف للامام السهروردي رحمهم الله وذلك بالمطبعة الميمنية بمصر المحروسة المحميه بجوار سيدي أحمد الدردير قريبا من الجامع الازهر المنير ادارة المفتقر لعفو ربه القدير أحمد البابي الحلبي ذي العجز والتقصير وكان الفراغ منه في شهر شعبان سنة ١٣١٢ من الهجرة النبويه على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحيه آمين

أحب عبدا نادى جبريل أن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السموات ان الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الارض وبالله العون والعصمة والتوفيق تم بحمد الله المعيد المبدي كتاب عوارف المعارف للامام السهروردي والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

راموز الورقة الأخيرة من الجزء الرابع للنسخة (ق)

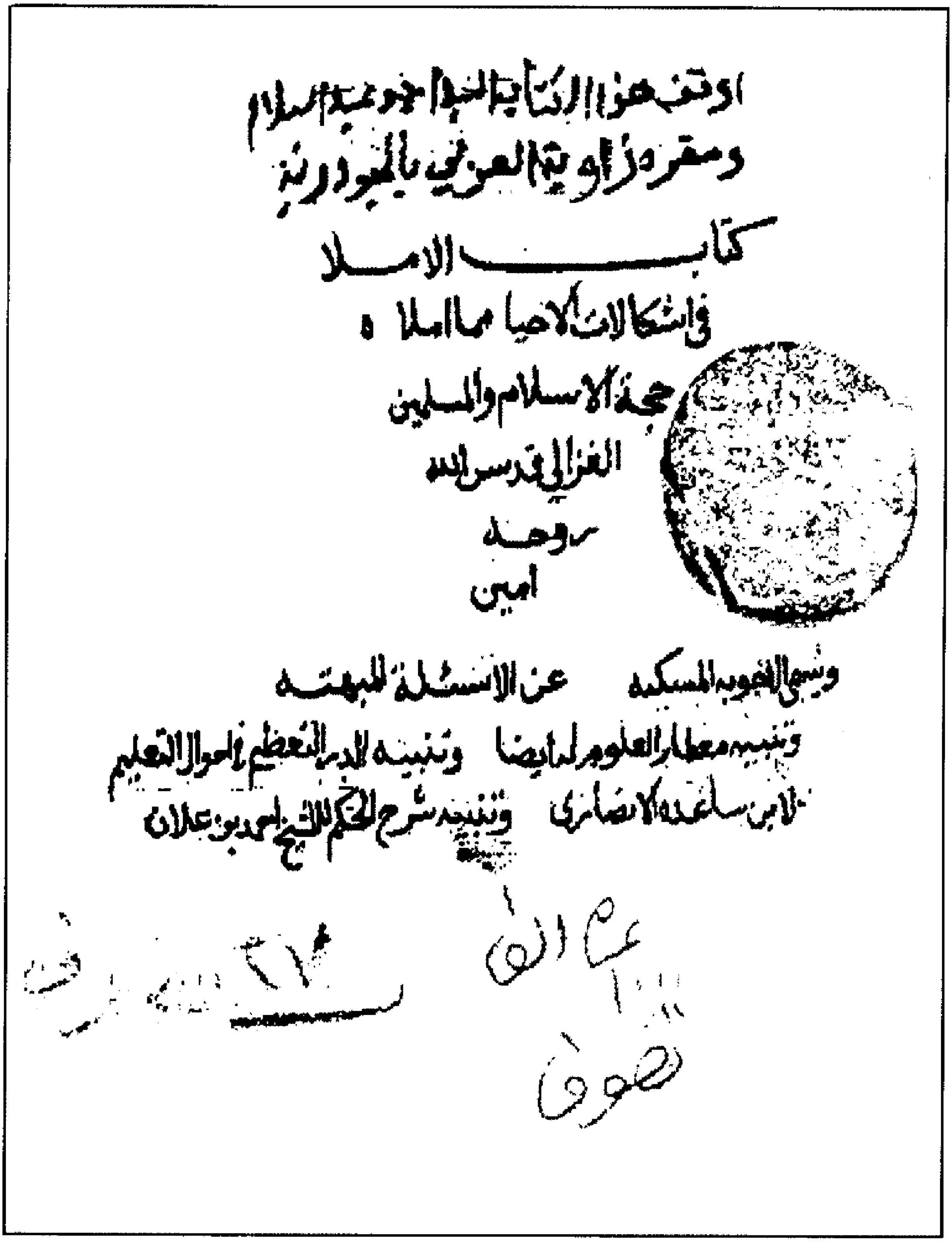
اوقف هذا الكتاب الخواجه محمد السلام
ومقره زاوية العرفية بالمدينة
كتاب الاملا
في اشكالات الاحيا مما املاه
حجة الاسلام والمسلمين
الغزالي قدس الله
روحه
امين
وفيه الاجوبة المسكته عن الاسئلة المبهته
وتنبيه معيار العلوم لها ايضا وتنبيه الدر المنظم في احوال التعليم
لابن ساعد الانصاري وتنبيه شرح الحكم للشيخ احمد بن علان

راموز ورقة العنوان للنسخة (ر)

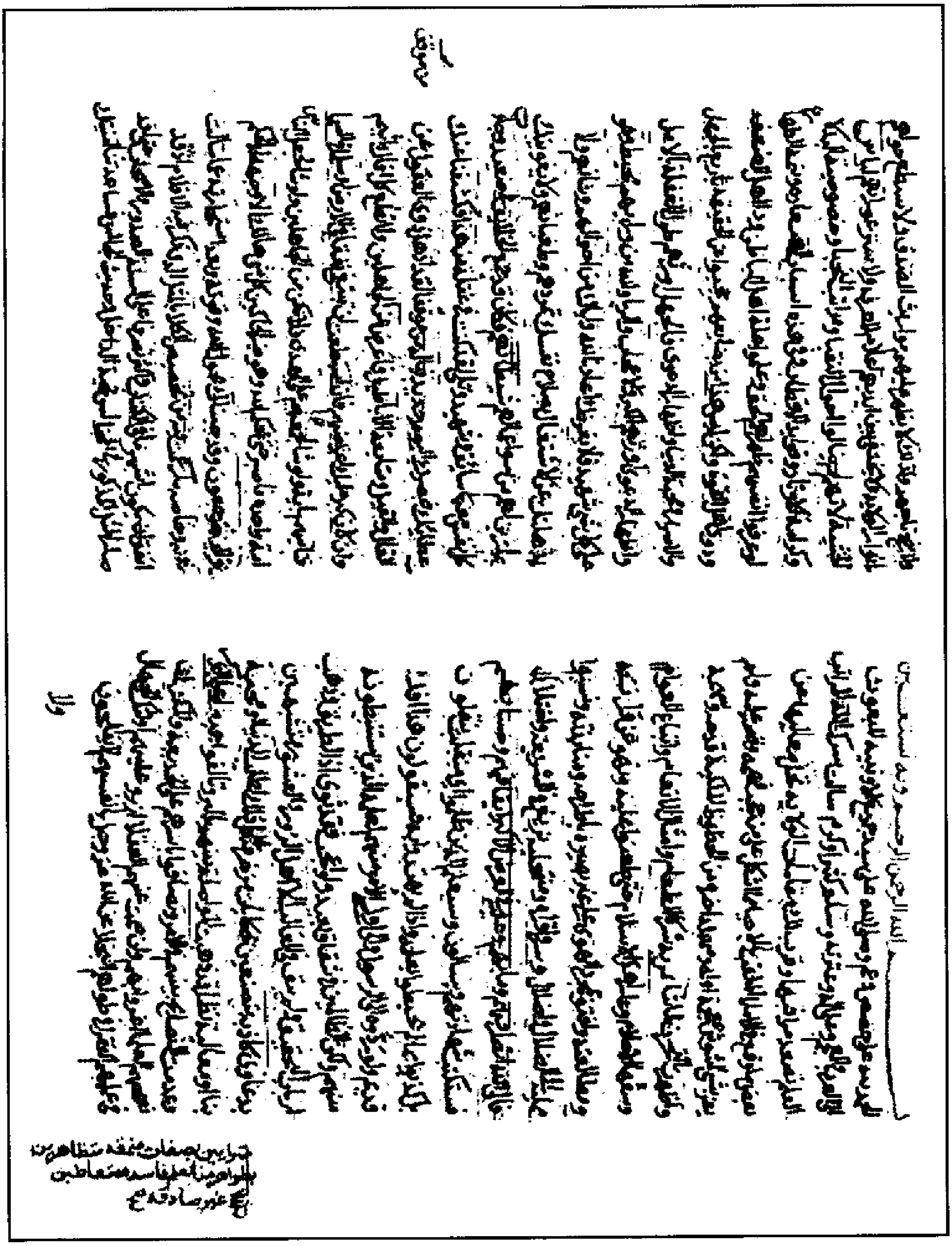

رامواز الورقة الأولى للنسخة (د)

للجال فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له واعرف ما اعد لك والله
سبحانه وتعالى حسيب من اراده وهادي من جاهد في سبيله
وكافي من توكل عليه وهو الغني الكريم انتهى الجواب عما سألت عنه
وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ونسأل الله تعالى المباعدة
بين حيلان البشرية ورفع حجب الكدورات والاهوا وموانع
الغير فيه مجاري المقدورات والقلم وهو اله من ظهر وعبر
واليه يرجع من اتقى وكفر ومجازي الخلايق بنعيم او سقر والصلوة
على سيدنا محمد سيد البشر وكافي الضر وعلى اله السادات الغرر
وسلم تسليما كتاب الاملا في مشكلات الاحيا في مشكلات الاحيا ثا
لث عشر من شهر مولد نا في سنة الف ومايه وواحد
وثمانين على يد الفقير الى رحمة ربه القدير
احمد بن علي بامزروع اليمني التريمي وطنا
الشافعي مذهبا عفا الله عنه
وغفر له ولوالديه ولجميع
المسلمين ولمن قال
امين
والحمد لله رب
العالمين

قلوب

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ر)

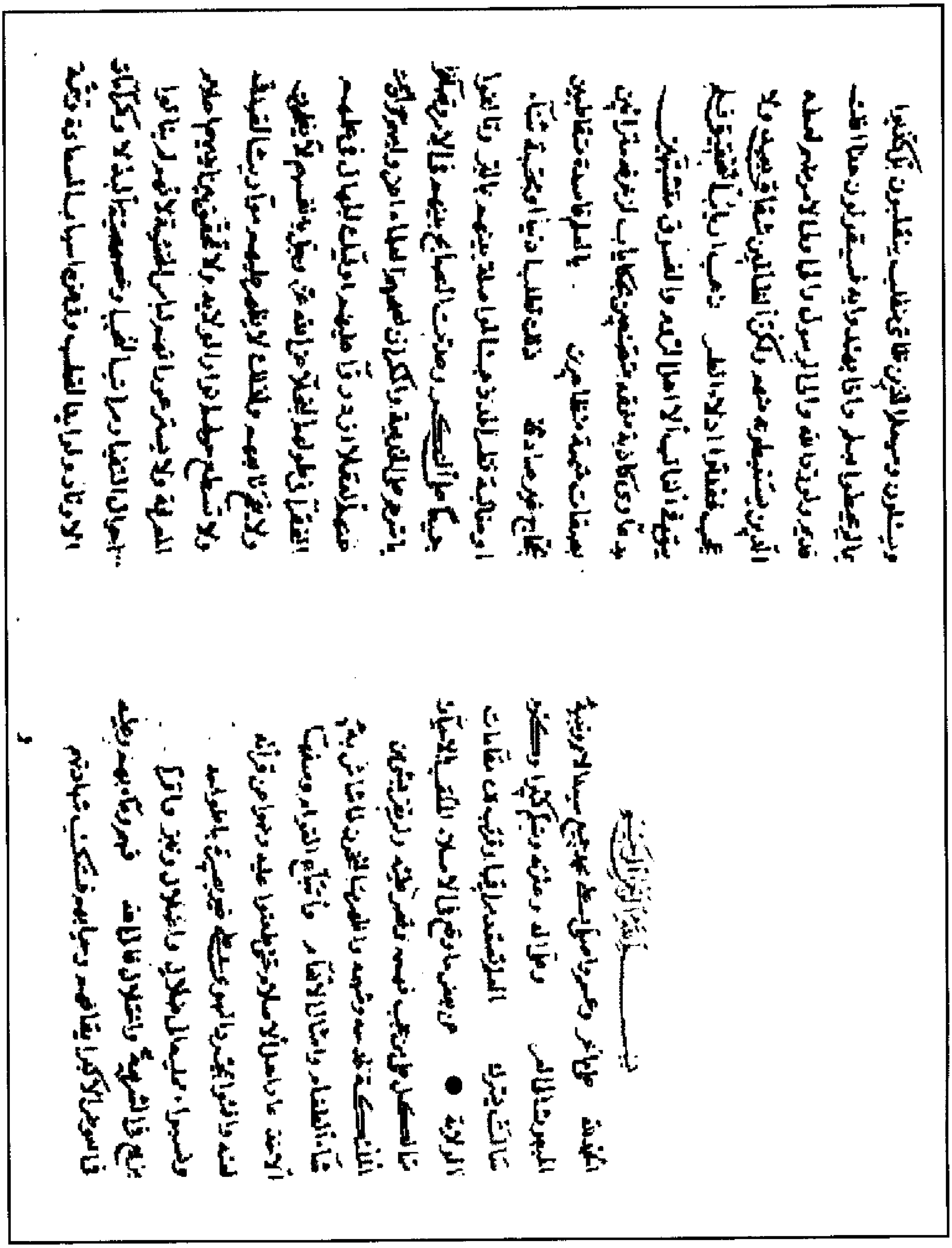

راموز الورقة الأولى للنسخة (ش)

ليس التوراة ولا في الانجيل ولا في الفرقان مثلها وفي
هذا تنبيه بل تصريح بان تكثر منها لما تضمنت من الفوائد
وخصت به من الذخاير الفرايد مما لو سطر لكان فيه
اوقار الجمال فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له واعمل
ما اعملك والله حسب من اراده وهادي من جاهد
في سبيل الله وكافي من توكل عليه وهو الغني الكريم
انتهى الجواب عما سالت عنه وفرغنا منه الرابع
من الكلام فسئل الباعد بين جيلات قلوب البشر آت
يعرف عنا جميع الكدورات والاهوا وموارث
العبر فيه بما يرى المقدورات والمقدور وهو الله من
ظهر وعبر واليه مرجع من آمن وكفر وبها نهاية الخلايق
نعيم او سقر والصلاة على محمد سيد البشر وعلى آله
وسلم تسليما آخر الاملا على شيخ كل الاحيا والحمد لله
رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
اجمعين

كتبه العبد المذنب لسيدي محمد بن يعقوب ...
... الامين الحسيني

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ش)

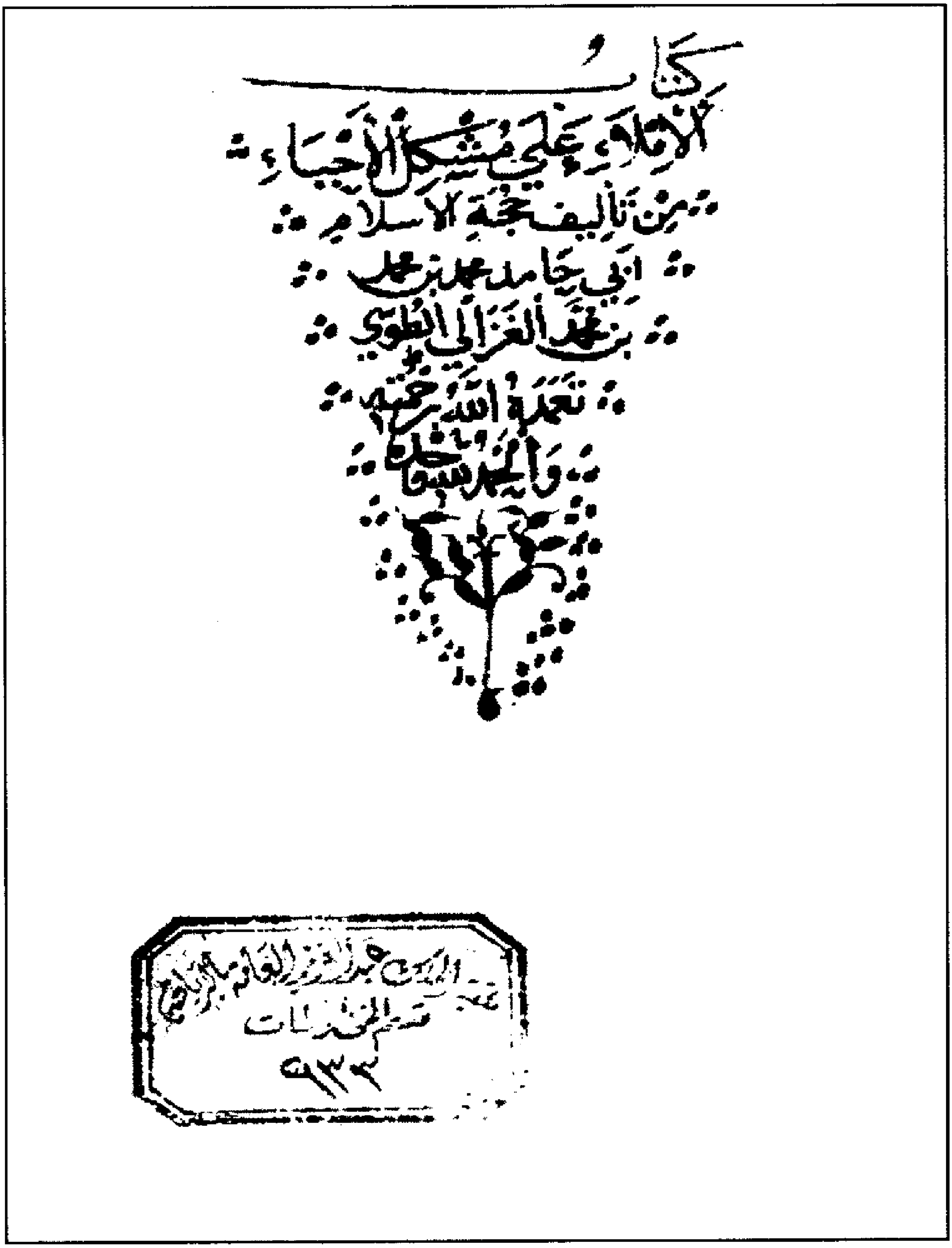
كتاب
الإملاء على مشكل الإحياء
من تآليف حجة الإسلام
أبي حامد محمد بن محمد
بن محمد الغزالي الطوسي
تغمده الله برحمته
والحمد لله وحده

راموز ورقة العنوان للنسخة (ت)

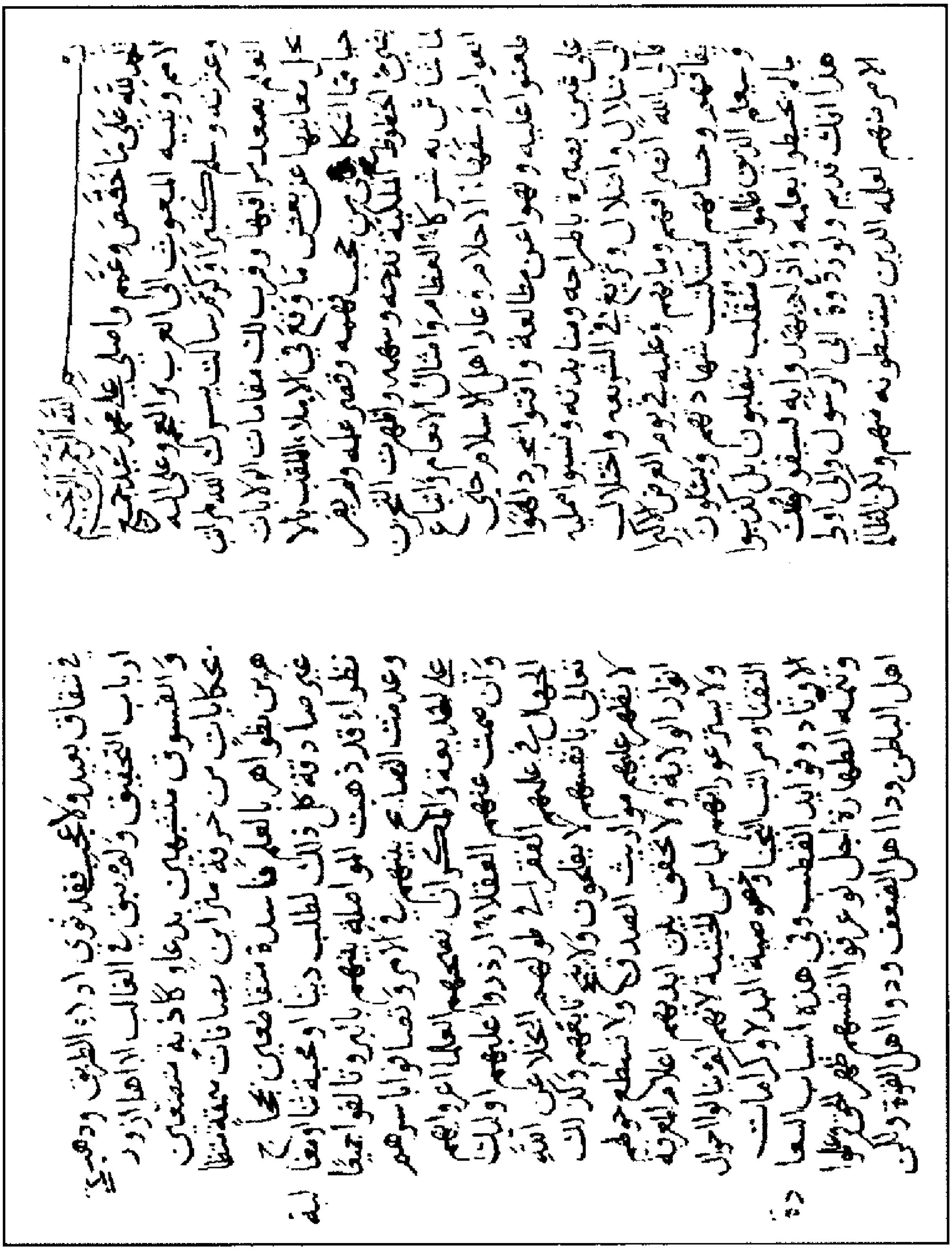

راموز الورقة الأولى للنسخة (ت)

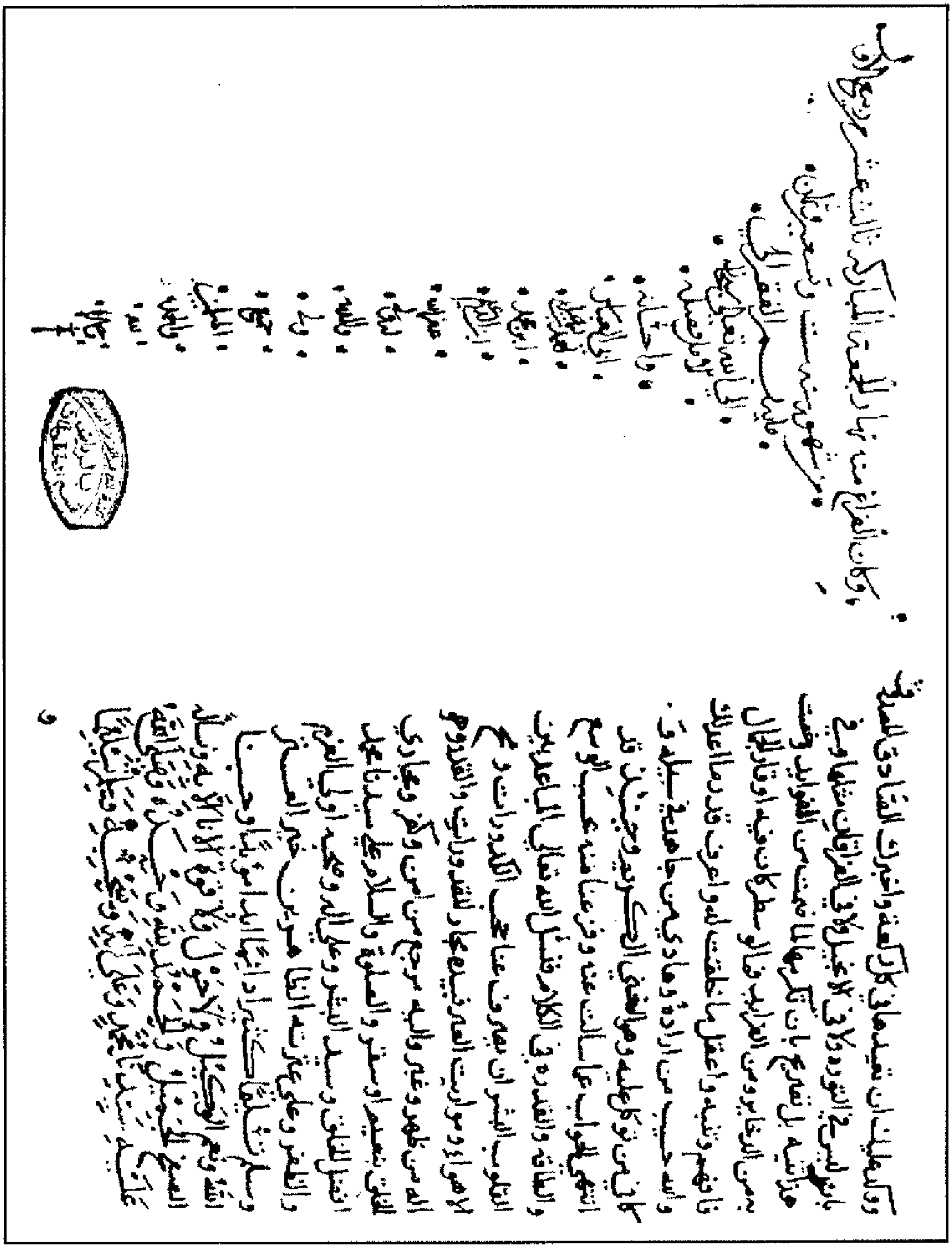
ووكد عليك ان تعيدها في كل ركعة واخبرك الصادق المصدق
بانه ليس في التوره ولا في الانجيل ولا في الفرقان مثلها وفي
هذا تنبيه بل تصريح بان تكريرها لما ضمنت من الفوايد وخصت
به من الذخاير ومن الغرايب فالو سطر كان فيه اوقار الجمال
فافهم وتنبه واعقل ما خلقت له واعرف قدر ما اعد لك
والله حسيب من اراده وهادي من جاهد في سبيله و
كافي من توكل عليه وهو الغني الكريم وحينئذ قد
انتهى الجواب عما سألت عنه وفرغنا منه بحسب الوسع
والطاقه والقدره في الكلام فنسأل الله تعالى المباعد بين
القلوب البشر ان يصرف عنا حجب الكدورات ومحن
الاهواء ومواريث العناء فبيده مجاري المقدورات والقدوة هو
الله من ظهر وغبر واليه يرجع من امن وكفر ومجاري
الخلق بنعيم او سقر والصلوة والسلام على سيدنا محمد
افضل الخلق وسيد البشر وعلى اله وصحبه اولي العزم
والظفر وعلى عترته الطاهرين خير العتر
وسلم تسليما كثيرا دايما ابدا سرمديا وحسبنا
الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله وبه نسأله
الصبر الجميل والحمد لله وحده وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما

وكان الفراغ منه نهار الجمعة المباركة ثالث عشر ربيع الاول
من شهور سنة ست وتسعين وثمان
مائه بقلم الفقير الى
الله تعالى [illegible]
[illegible] فضله
واحسانه
ابي العباس
احمد بن [illegible]
ابن محمد
ابن [illegible]
عفا الله
له ولـ[illegible]
والديه
[illegible]
جميع
المسلمين
والحمد
لله
[illegible]

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ت)

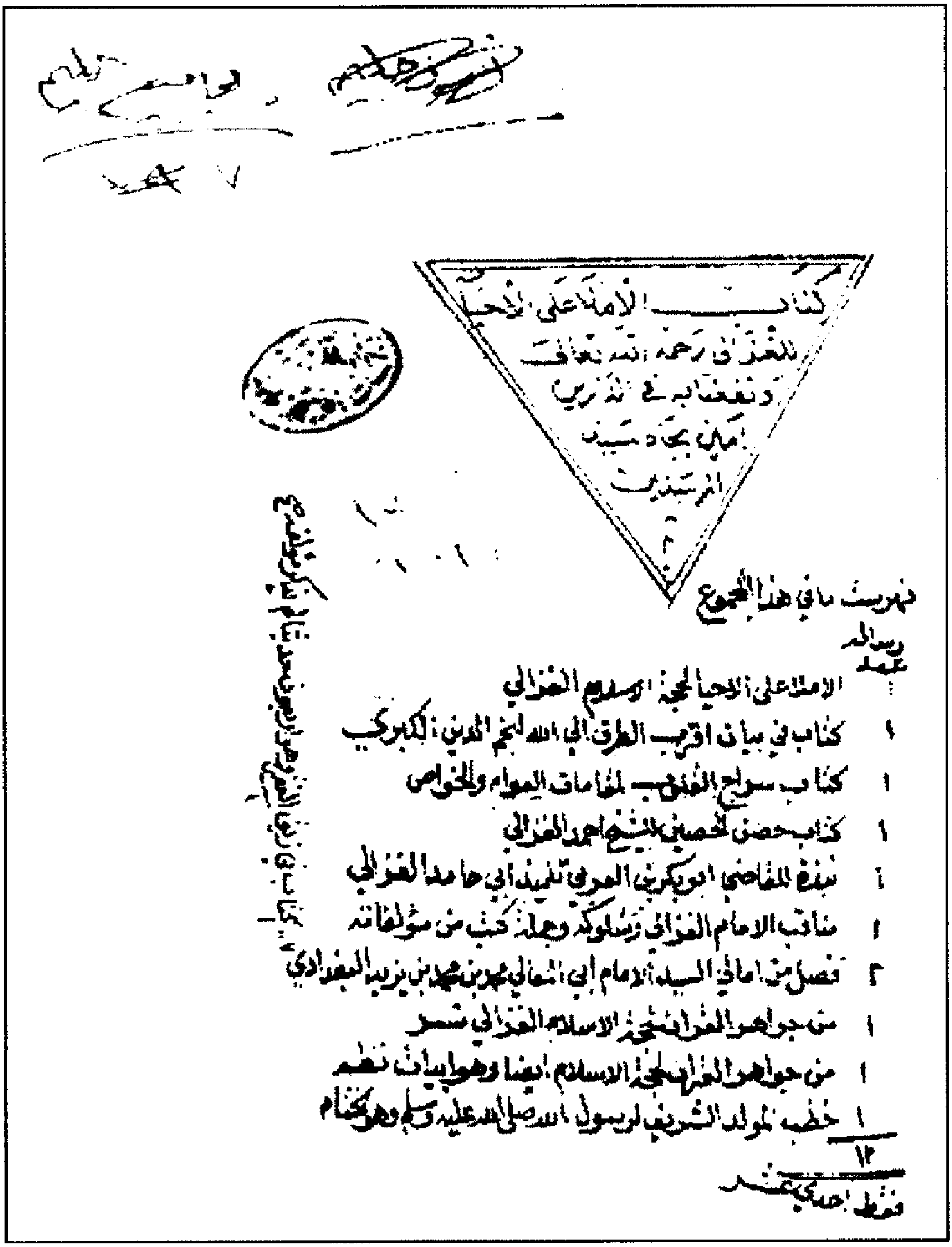

راموز ورقة العنوان للنسخة (ث)

(٣)

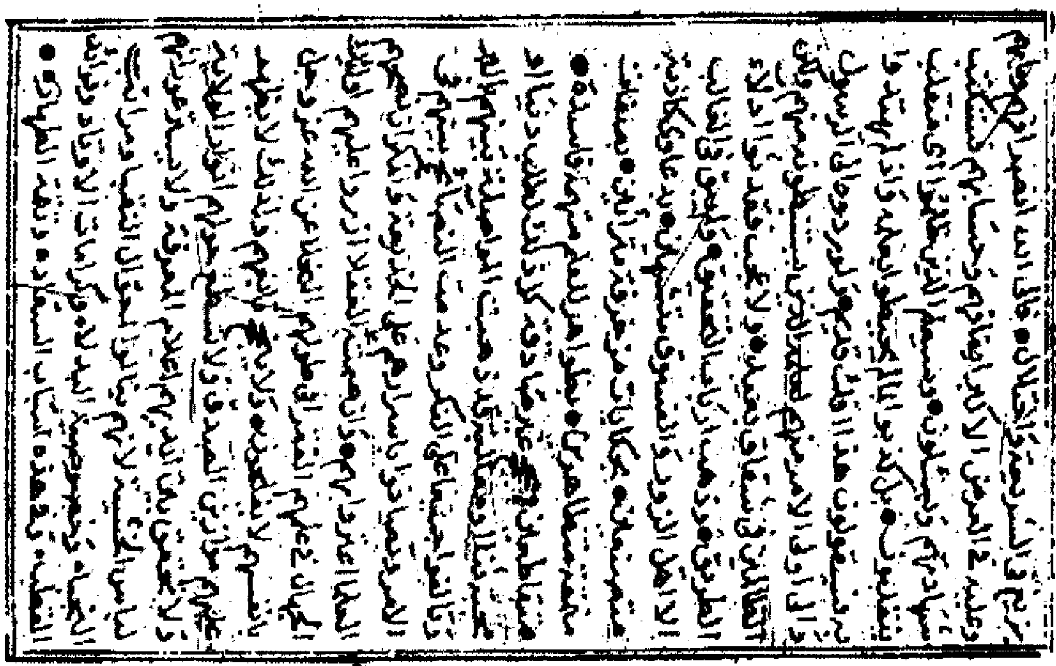

(٢)

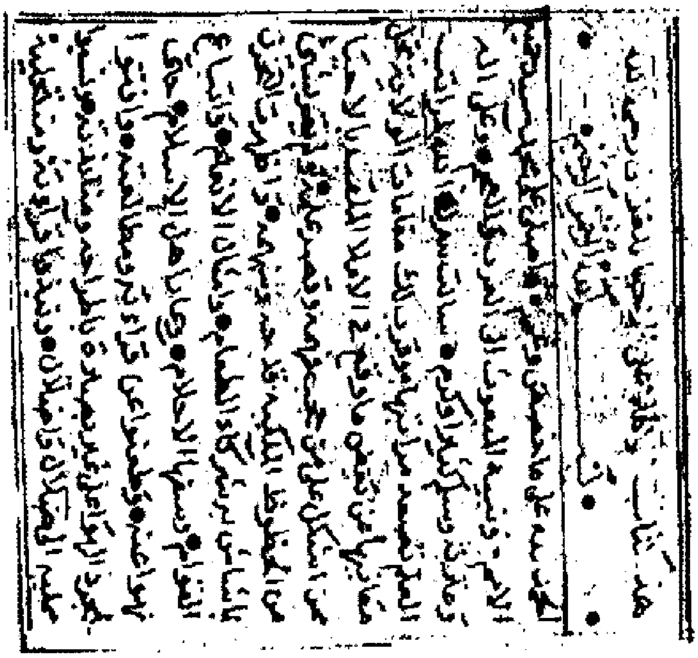

راموز الورقة الأولى للنسخة (ث)

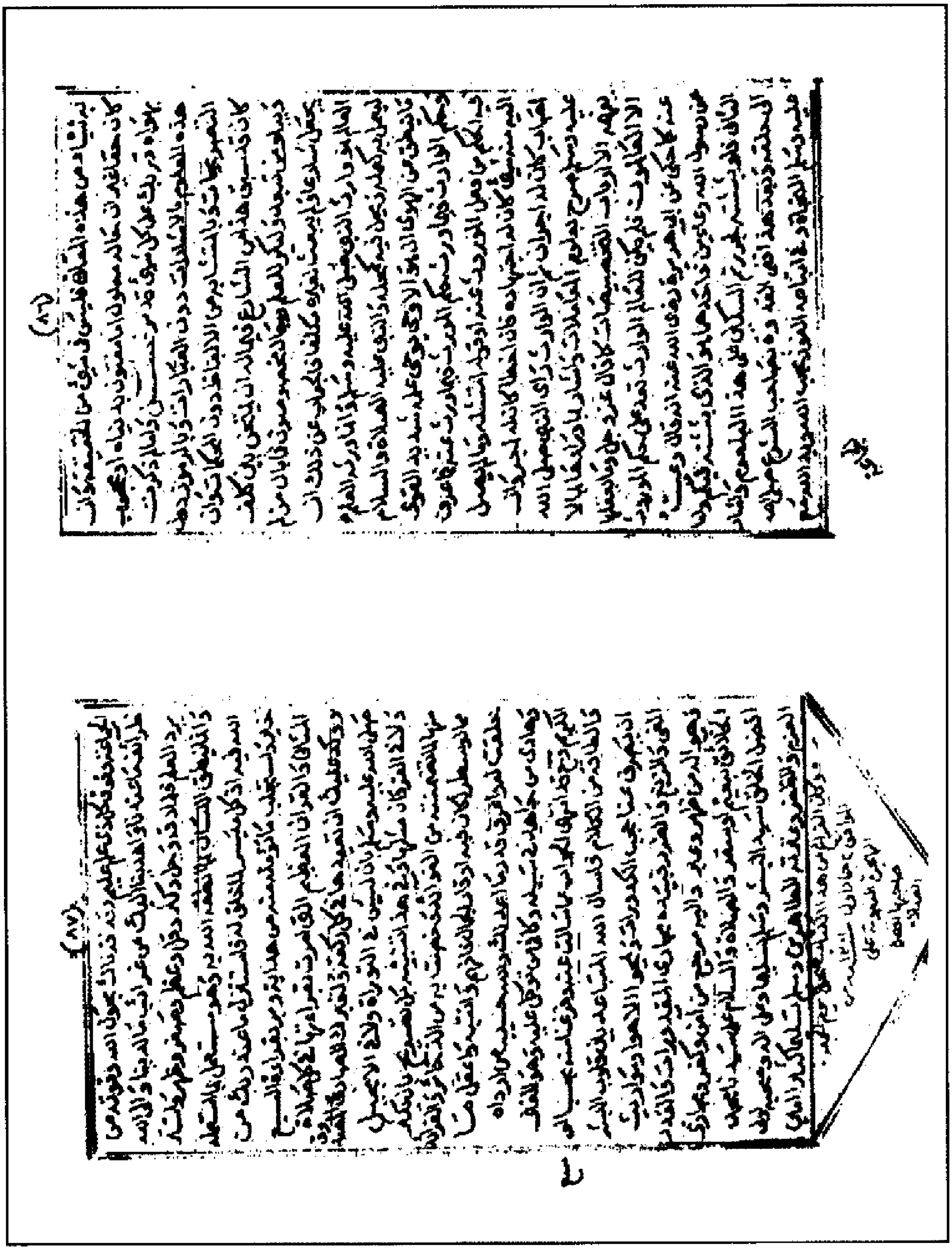

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ث)

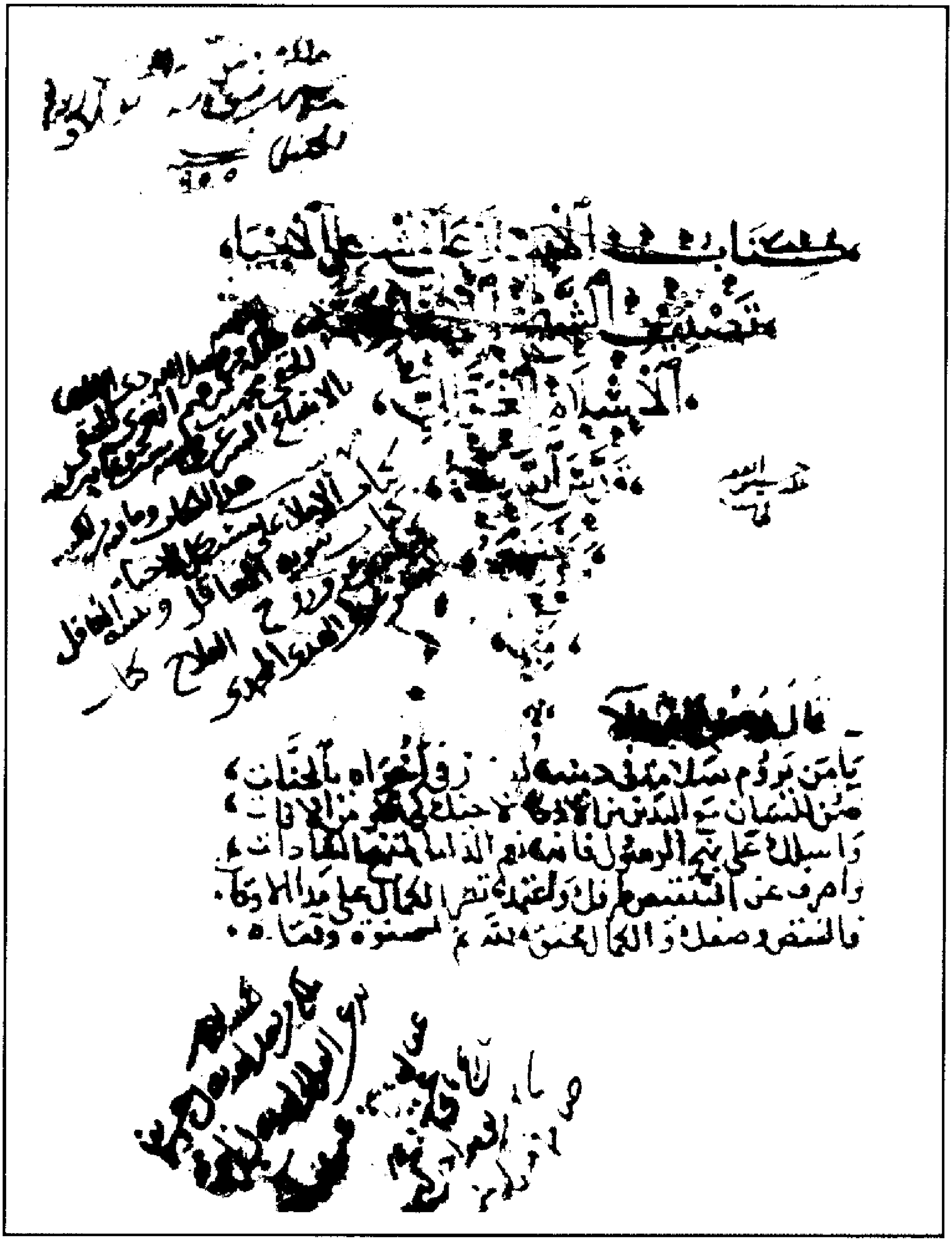

راموز ورقة العنوان للنسخة (خ)

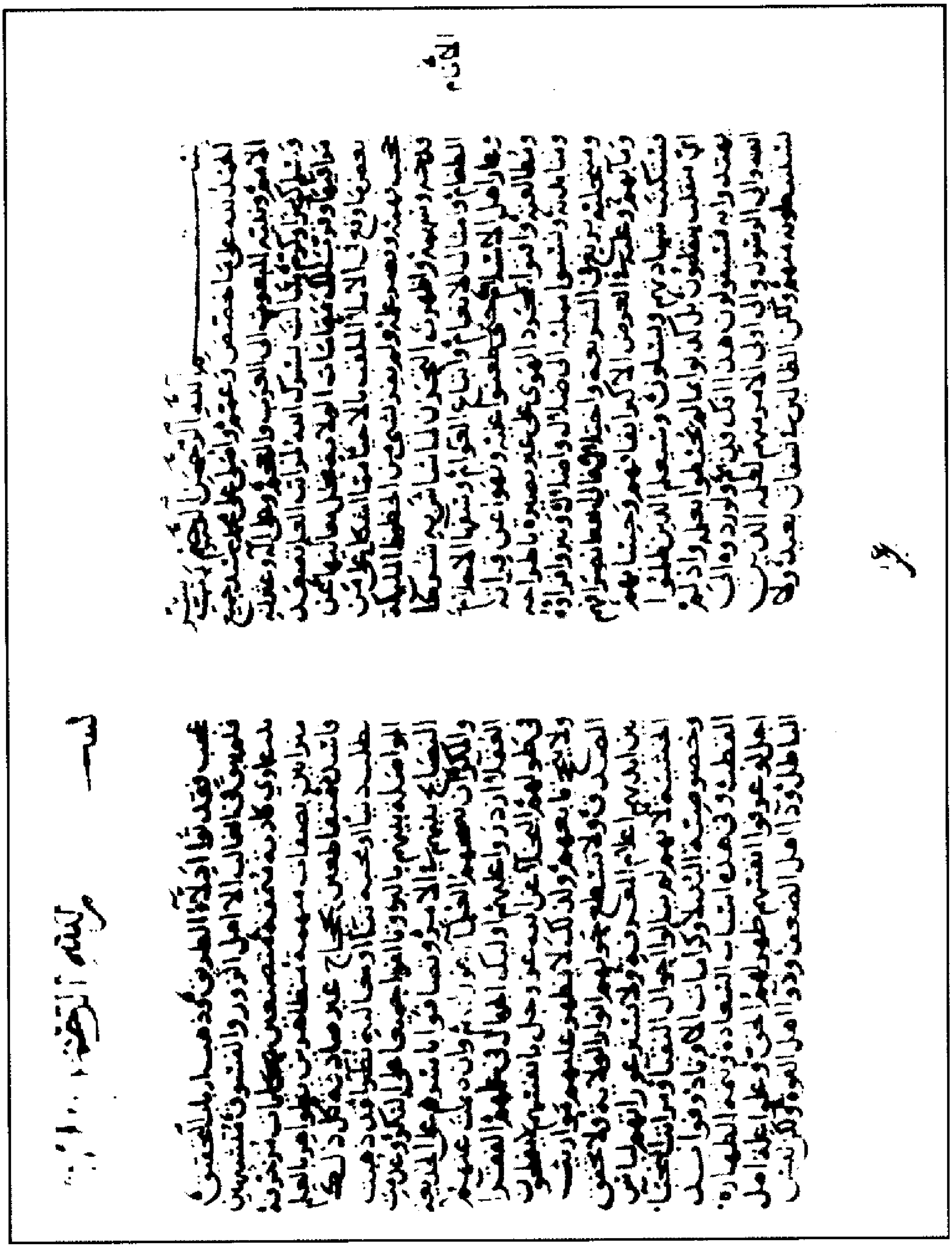

راموز الورقة الأولى للنسخة (خ)

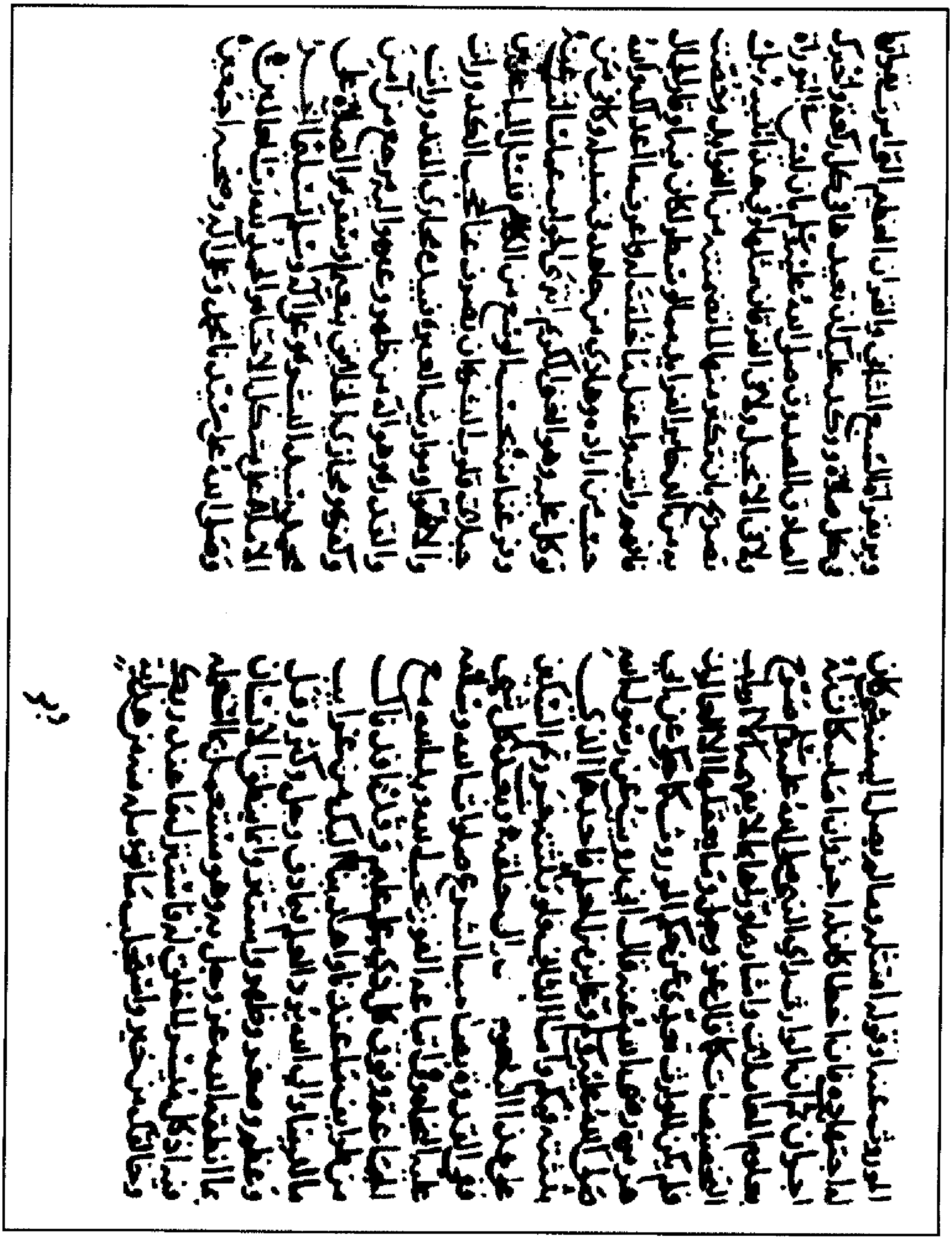

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (خ)

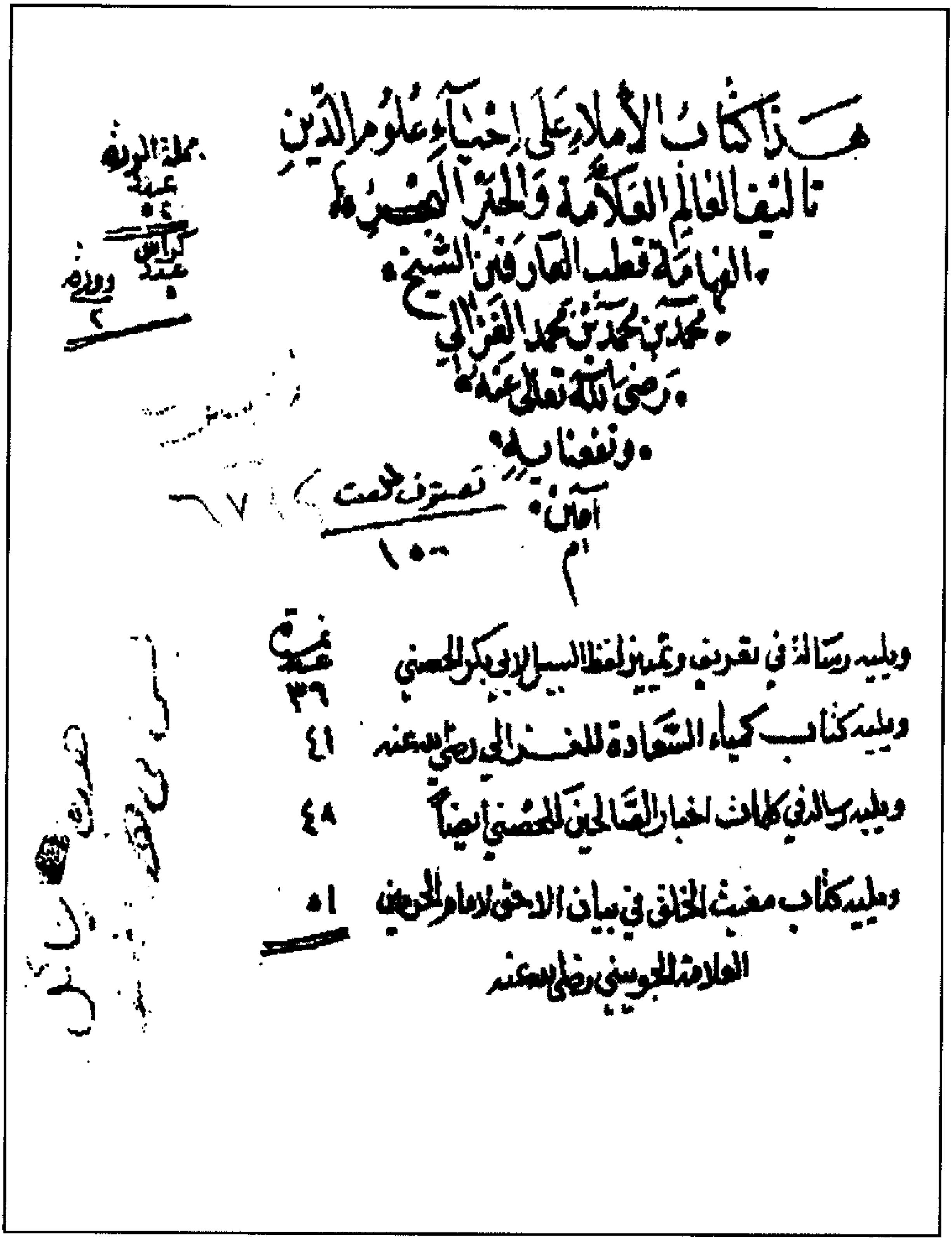
هذا كتاب الإملاء على إحياء علوم الدين
تأليف العالم العلامة والحبر الفهامة
النهاية قطب العارفين الشيخ
محمد بن محمد بن محمد الغزالي
رضي الله تعالى عنه
ونفعنا به
آمين

ويليه رسالة في تعريف وتمييز ... لأبي بكر الحصني ٣٦
ويليه كتاب كيمياء السعادة للغزالي رضي الله عنه ٤١
ويليه رسالة في كلمات أخبار الصالحين للحصني أيضاً ٤٨
ويليه كتاب مغيث الخلق في بيان الأحق لإمام الحرمين ٥١
العلامة الجويني رضي الله عنه

راموز ورقة العنوان للنسخة (ذ)

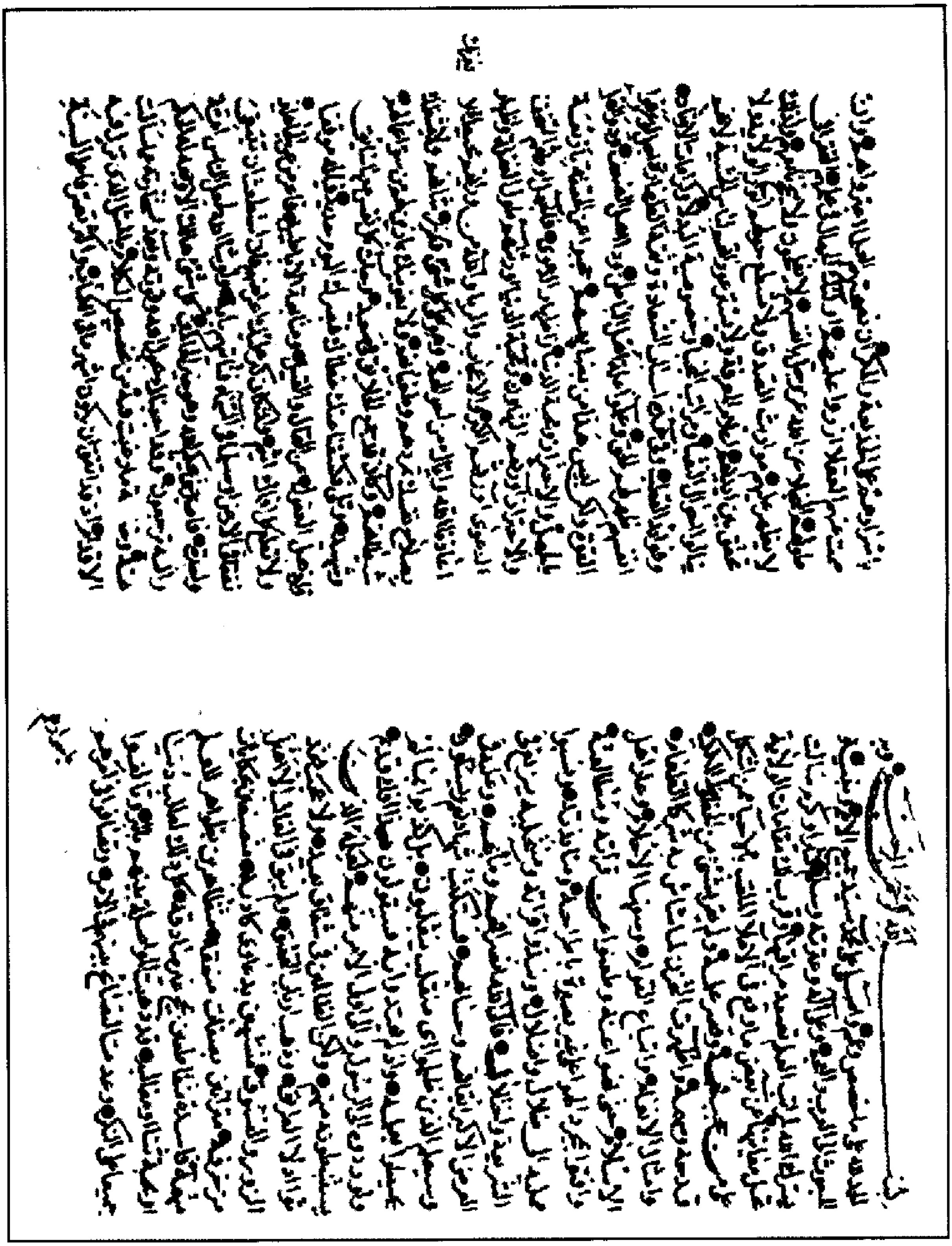

راموز الورقة الأولى للنسخة (ذ)

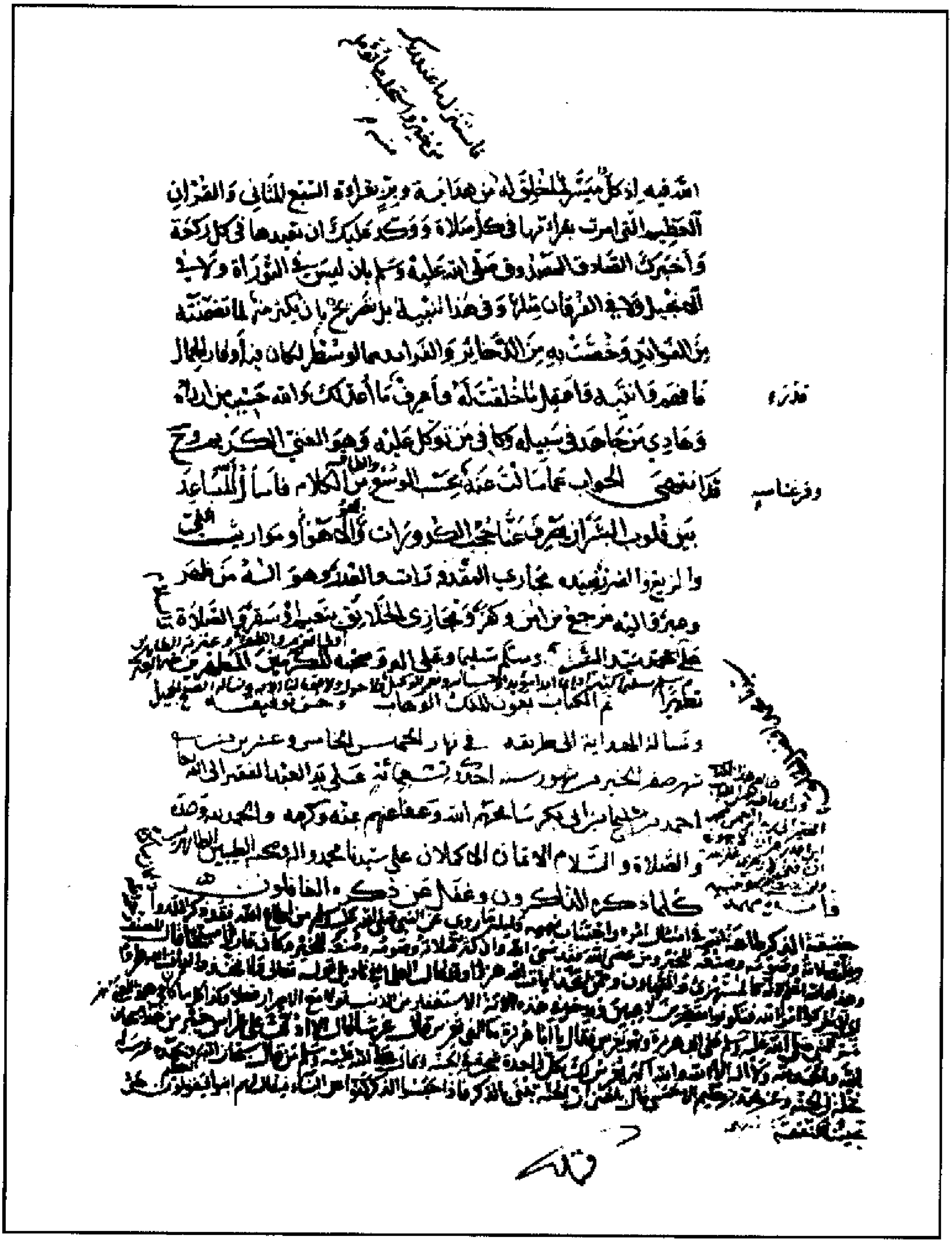
الله فيه إذ كل ميسر لما خلق له من هداية وبر بقراءة السبع المثاني والقرآن
العظيم التي أمرت بقراءتها في كل صلاة ووكد عليك أن تعيدها في كل ركعة
وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم بأن ليس في التوراة ولا في
الإنجيل ولا في الفرقان مثلها وفي هذا التنبيه بل تصريح بأن ذكر ما تضمنته
من الفوائد وخصت به من الذخائر والفرائد ما لو سطر لكان في أوقار الجمال
فاقصد وانتبه واقبل ما خلقت له وأعرض عما أعرض عنك والله حسيب من أراده
وهادي من جاهد في سبيله وكافي من توكل عليه وهو الغني الكريم
قد انتهى الجواب عما سألت عنه بحسب الوسع من الكلام فأسأل الله المساعد
بين قلوب البشر أن يصرف عنا جميع المكروهات [illegible]
[illegible]
ونسأل الله الهداية إلى طريقه في نهار الخميس الخامس وعشرين من
شهر صفر الخير من شهور سنة [illegible] على يد العبد الفقير إلى الله
أحمد بن [illegible] ساعده الله وعفا عنه وكرمه والحمد لله وحده
والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد [illegible]
كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون
[illegible]

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ذ)

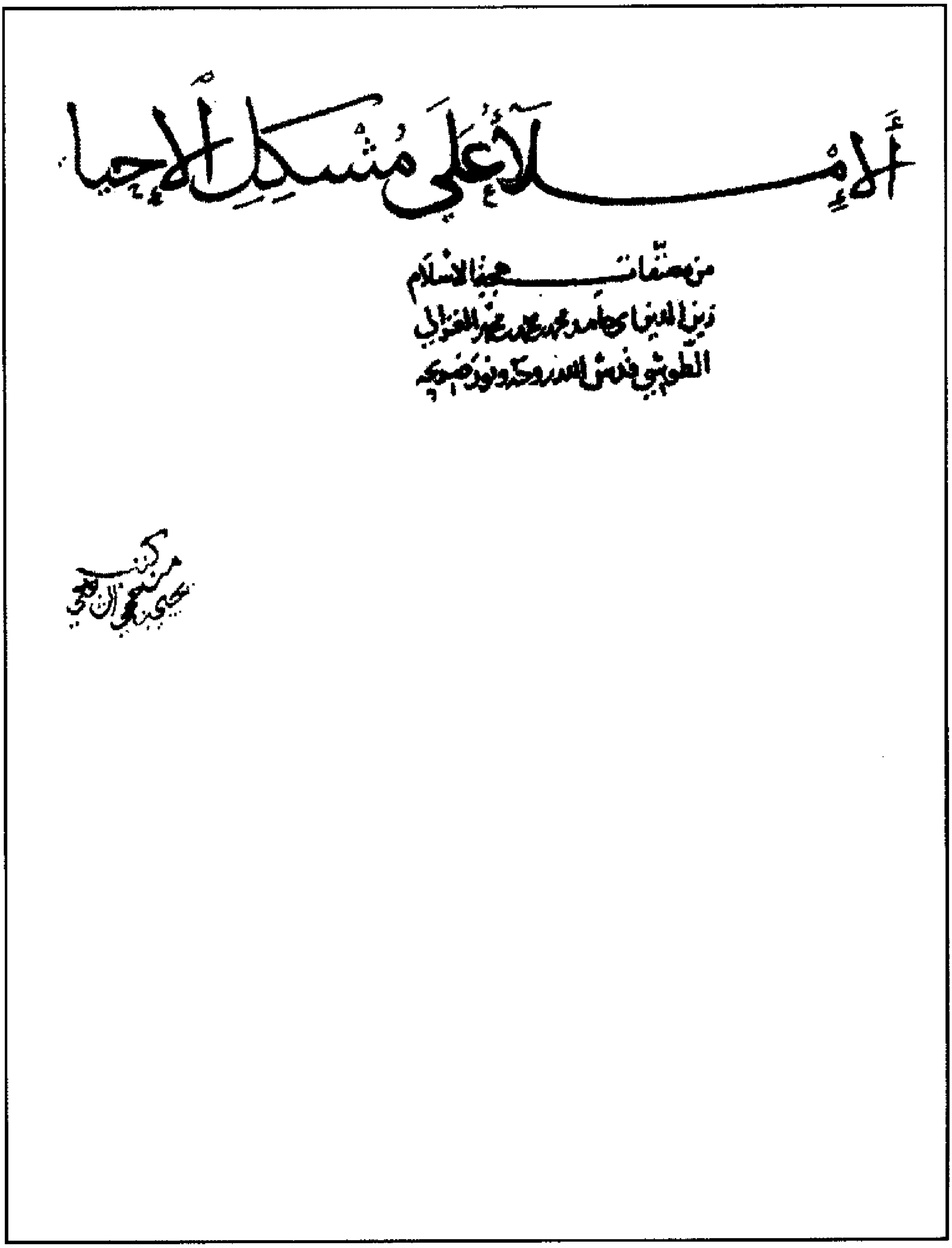

الإملاء على مشكل الإحياء

من مصنفات حجة الإسلام
زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
الطوسي قدس الله روحه ونور ضريحه

من كتب
يحيى بن [illegible]

راموز ورقة العنوان للنسخة (ض)

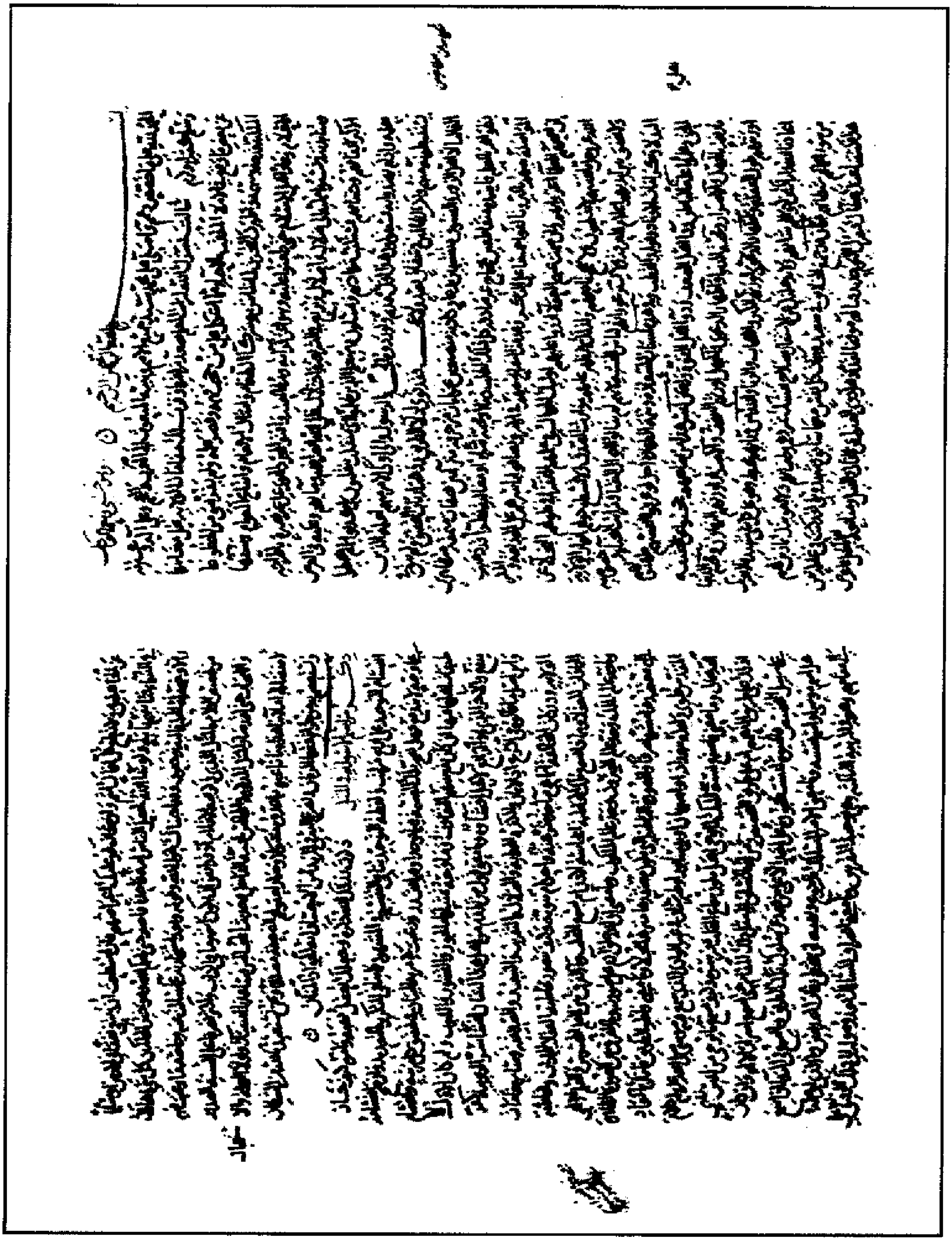

راموز الورقة الأولى للنسخة (ض)

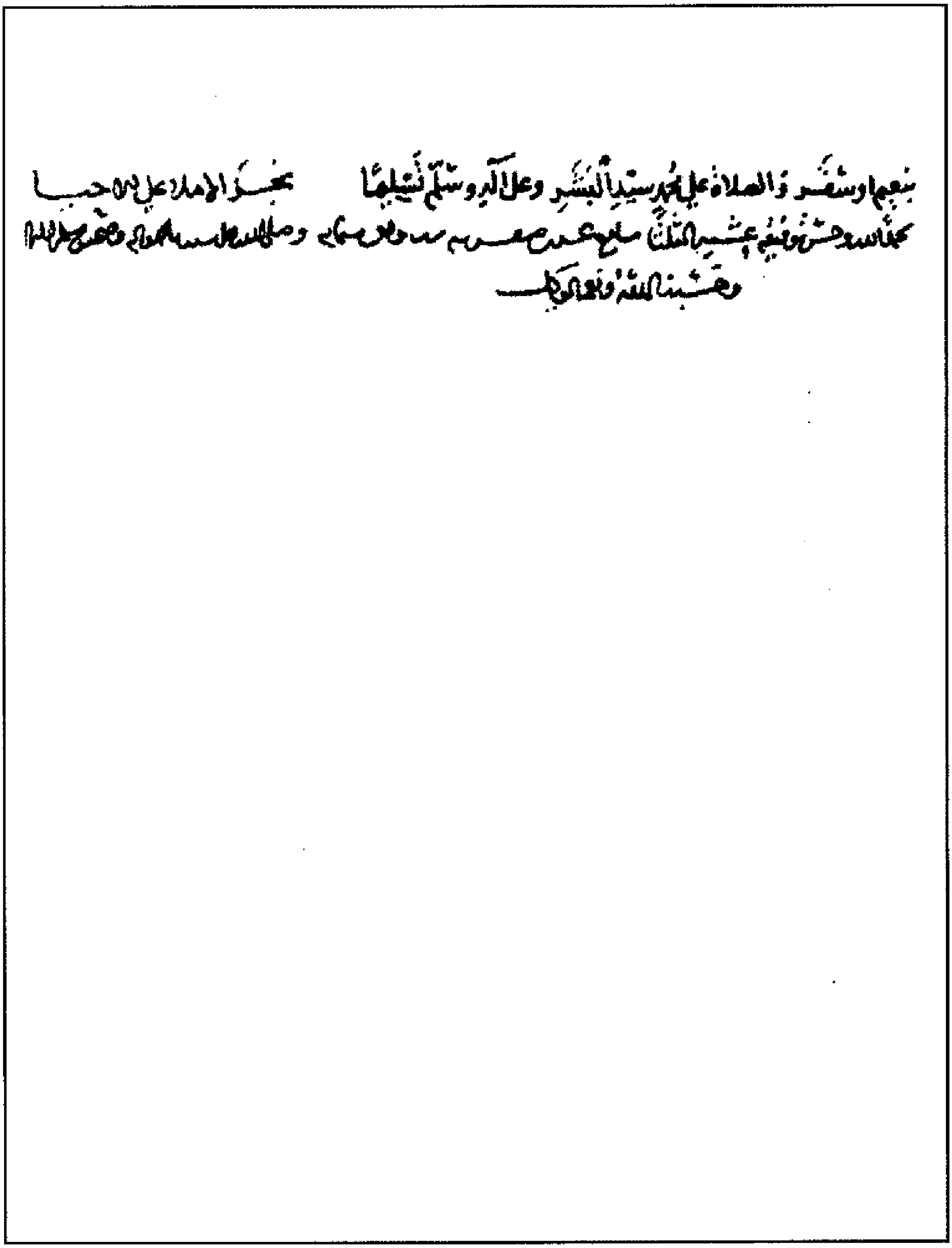
بنعمه وشكره والصلاة على محمد سيد البشر وعلى آله وسلم تسليما   نجز الإملاء على يد ...
[illegible]
وحسبنا الله ونعم الوكيل

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ض)

كتاب تعريف الأحيا بفضايل الاحيا تصنيف
الإمام قدوة الأيمة الأعلام المحقق عبد القادر
بن شيخ بن عبد الله العيدروس رضي الله
عنه ونفعنا بعلومه في الدارين
واسكنه بحبوح جنته
وإيانا ووالدينا وجميع
المسلمين
امين
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى اله وصحبه وسلم

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى اله واصحابه وازواجه اجمعين

راموز ورقة العنوان للنسخة (ظ)

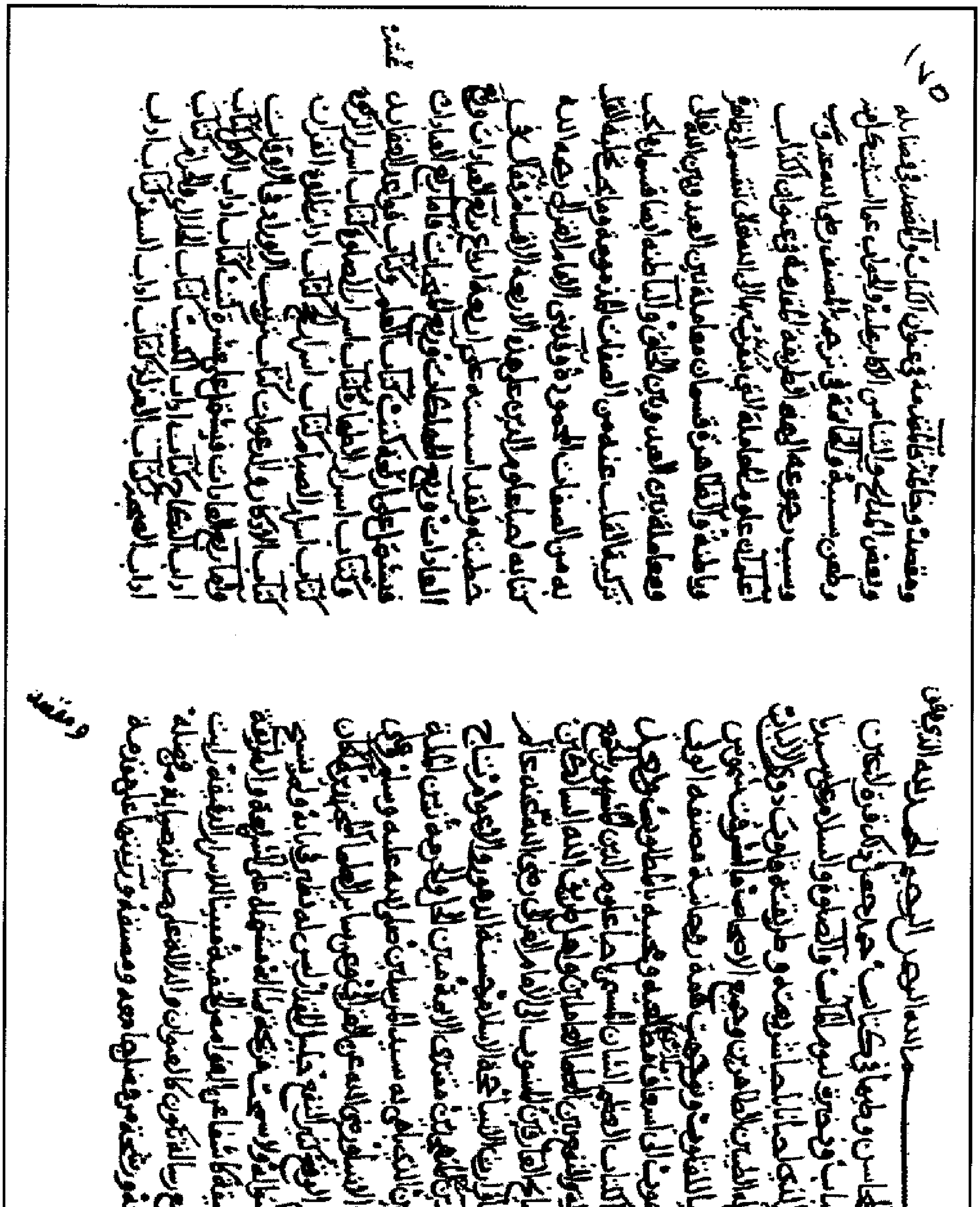

راموز الورقة الأولى للنسخة (ظ)

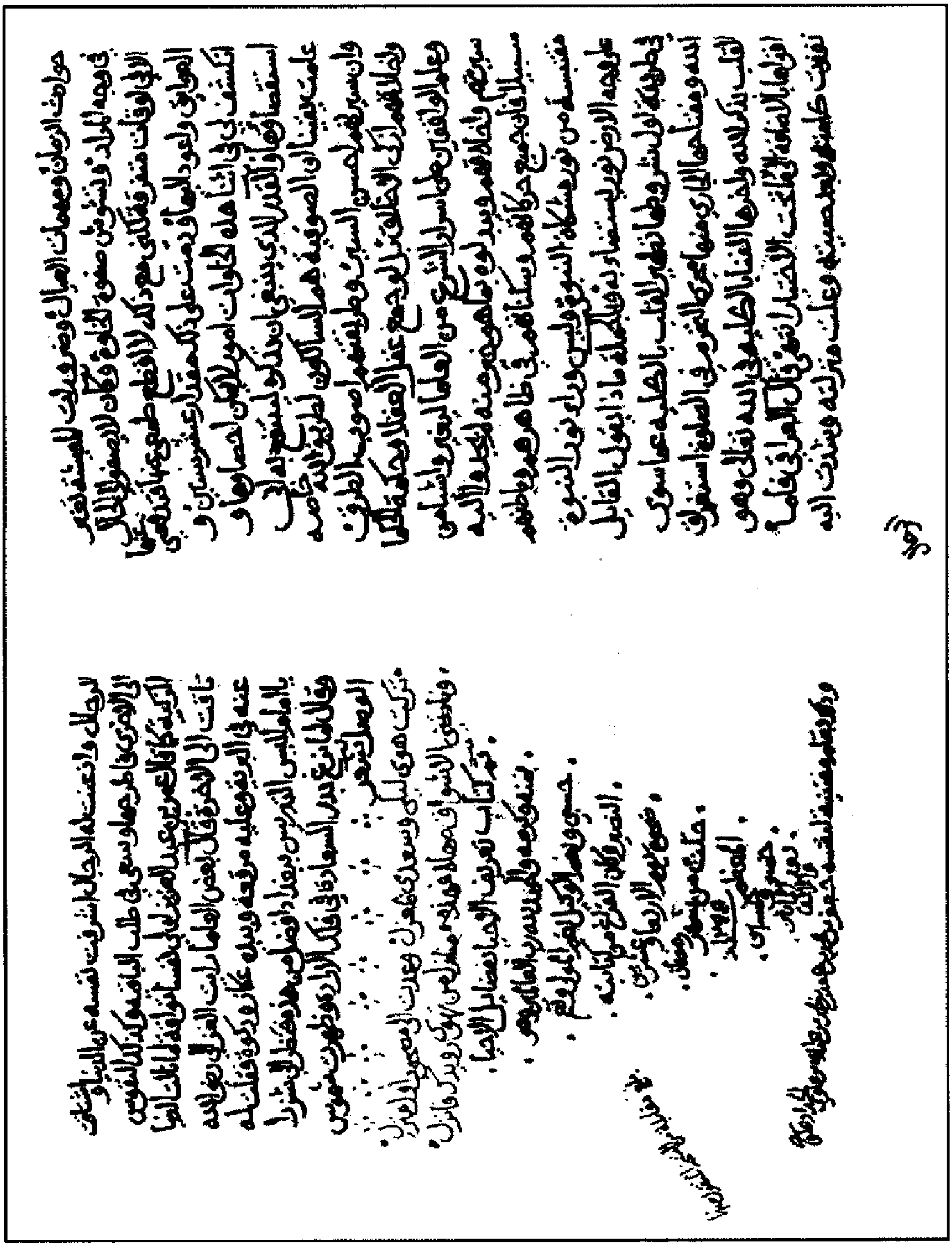

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ظ)

كتاب تعريف الاحيا
بفضائل الاحيا تصنيف الامام
العلامة المحقق عبد القادر
بن شيخ بن عبد الله العيدروس
رضي الله عنه

راموز ورقة العنوان للنسخة (غ)

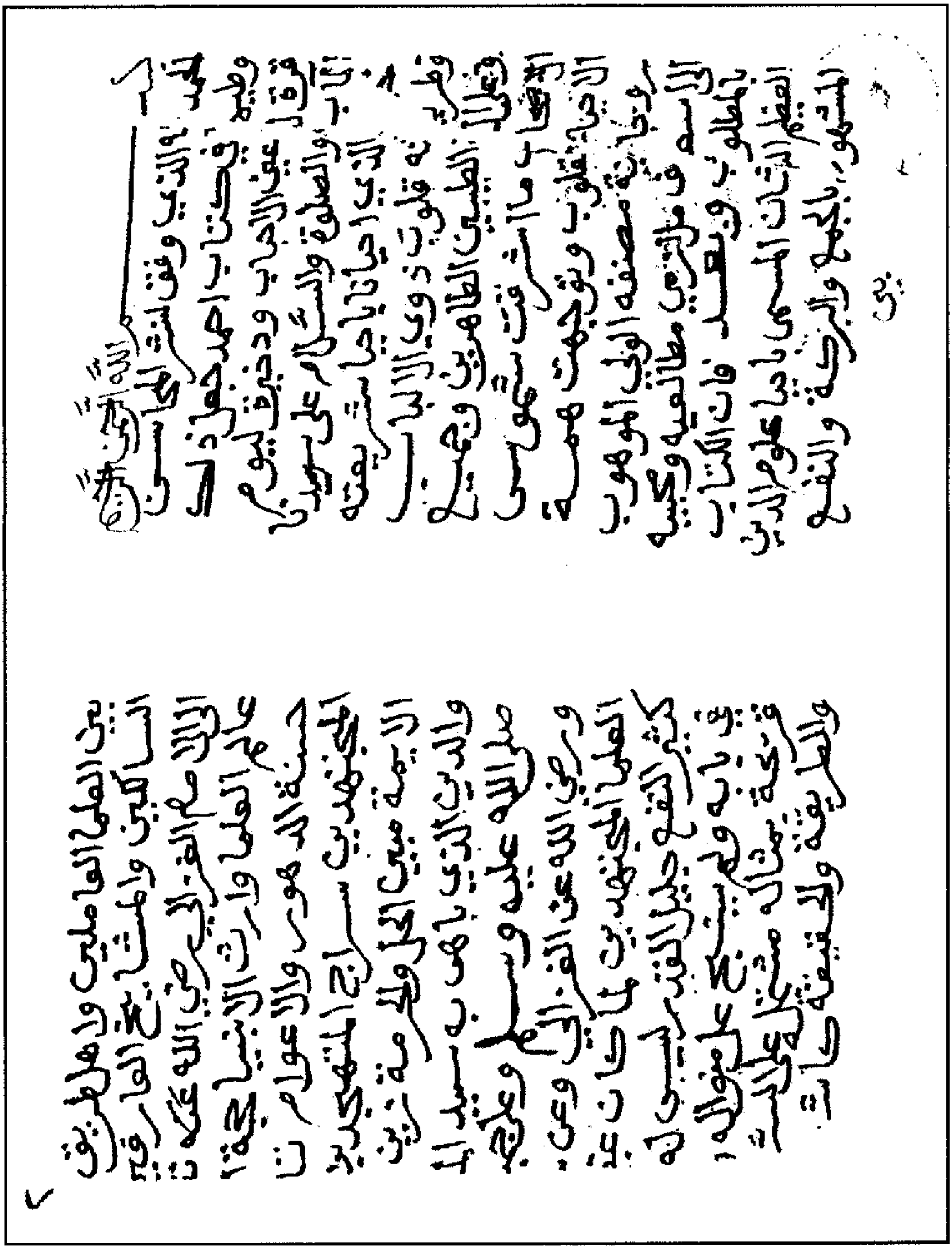

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن
وطيه في كتاب احمد جعل ذلك
قرة لعين الاحباب وذخيرة ليوم
المآب والصلوة والسلام على سيدنا
محمد الذي احيانا باحيا شريعته
وطرية قلوب ذوي الالباب
وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع
الاصحاب ما اشرقت شموس
الاحياء بقلوب وتوجهت همة
روحانية مصنفه الولي الموهوب
الى اسعاف ملتزمي مطالعيه ومحبيه
بالمطلوب وبعد فان الكتاب
العظيم الشان المسمى باحيا علوم الدين
المشهور بالجمع والبركة والنفع
بين

٢
بين العلما العاملين واهل الطريق
السالكين والمشايخ العارفين
الى الامام الغزالي رضي الله عنه تـ
عالم العلما وارث الانبيا حجة
حسنة الدهور والاعوام نا
المجتهدين سراج المتهجدين
الايمة مبين الحل والحرمة زين
والدين الذي باهى به سيد الـ
صلى الله عليه وسلم وعلى جـ
ورضي الله عن الغزالي وعن
العلما المجتهدين لما كان عبـ
كثير النفع جليل القدر ليس له
في بابه ولم ينسج على منواله
قريحة بمثاله مشتمل على الشـ
والطريقة والحقيقة كانت

راموز الورقة الأولى للنسخة (غ)

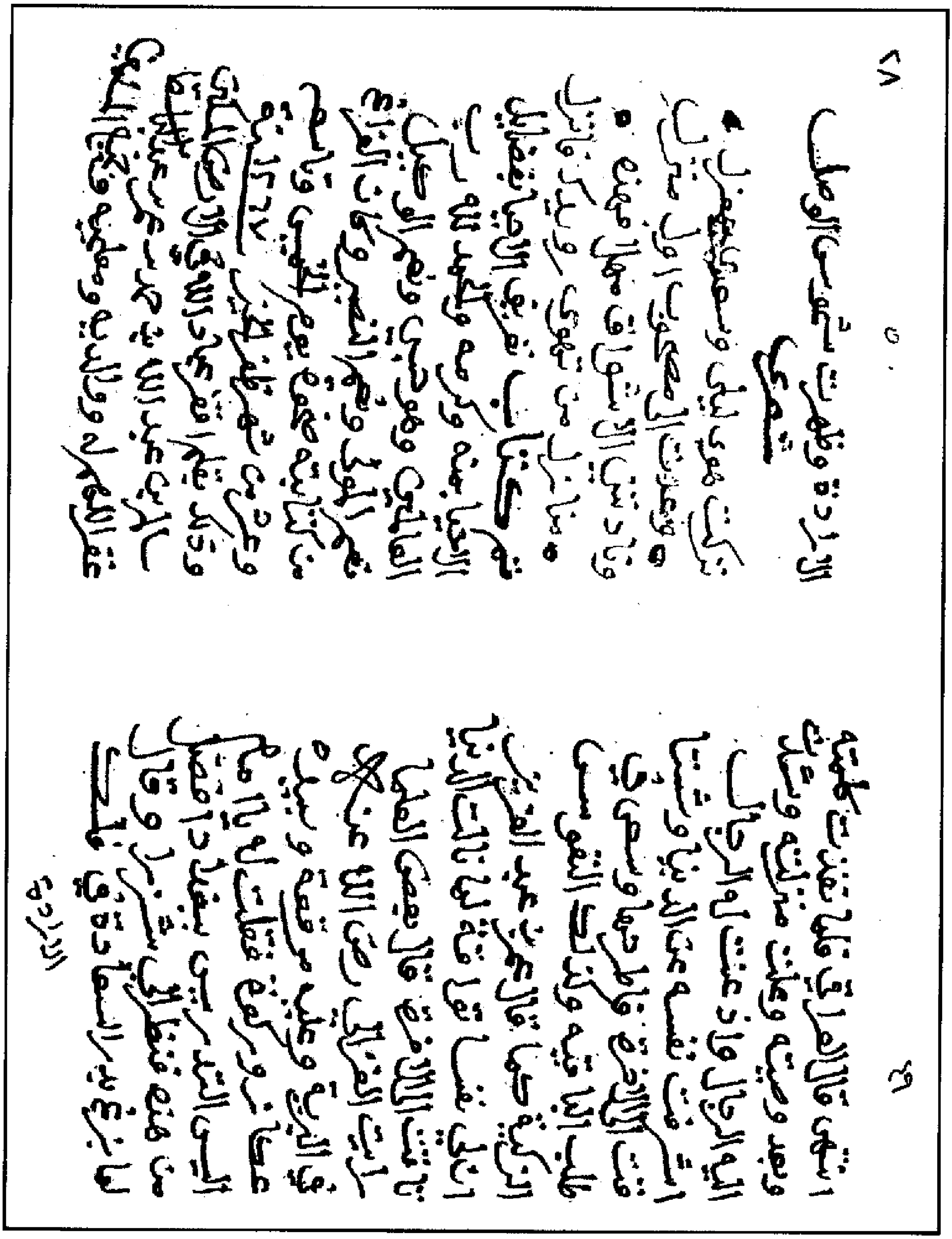

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (غ)

كتاب تعريف الأحيا بفضائل الاحيا للسيد العارف بالله
الكامل الفاضل النوراني عبد القادر بن
شيخ بن عبد الله العيدروس علوي
نفع الله به وبعلومه امين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين
والحمد لله رب العالمين

راموز ورقة العنوان للنّسخة (ح)

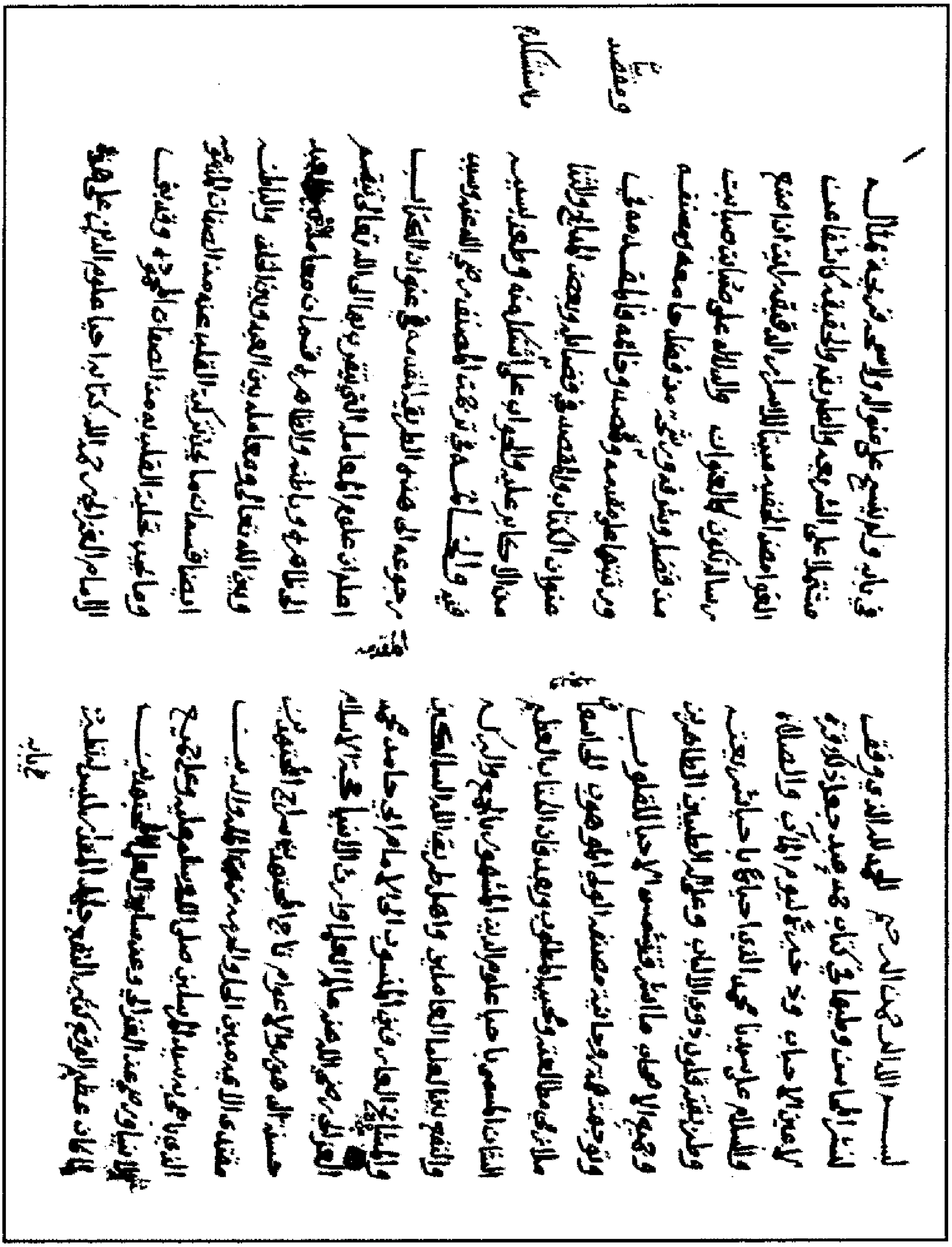

راموز الورقة الأولى للنسخة (ح)

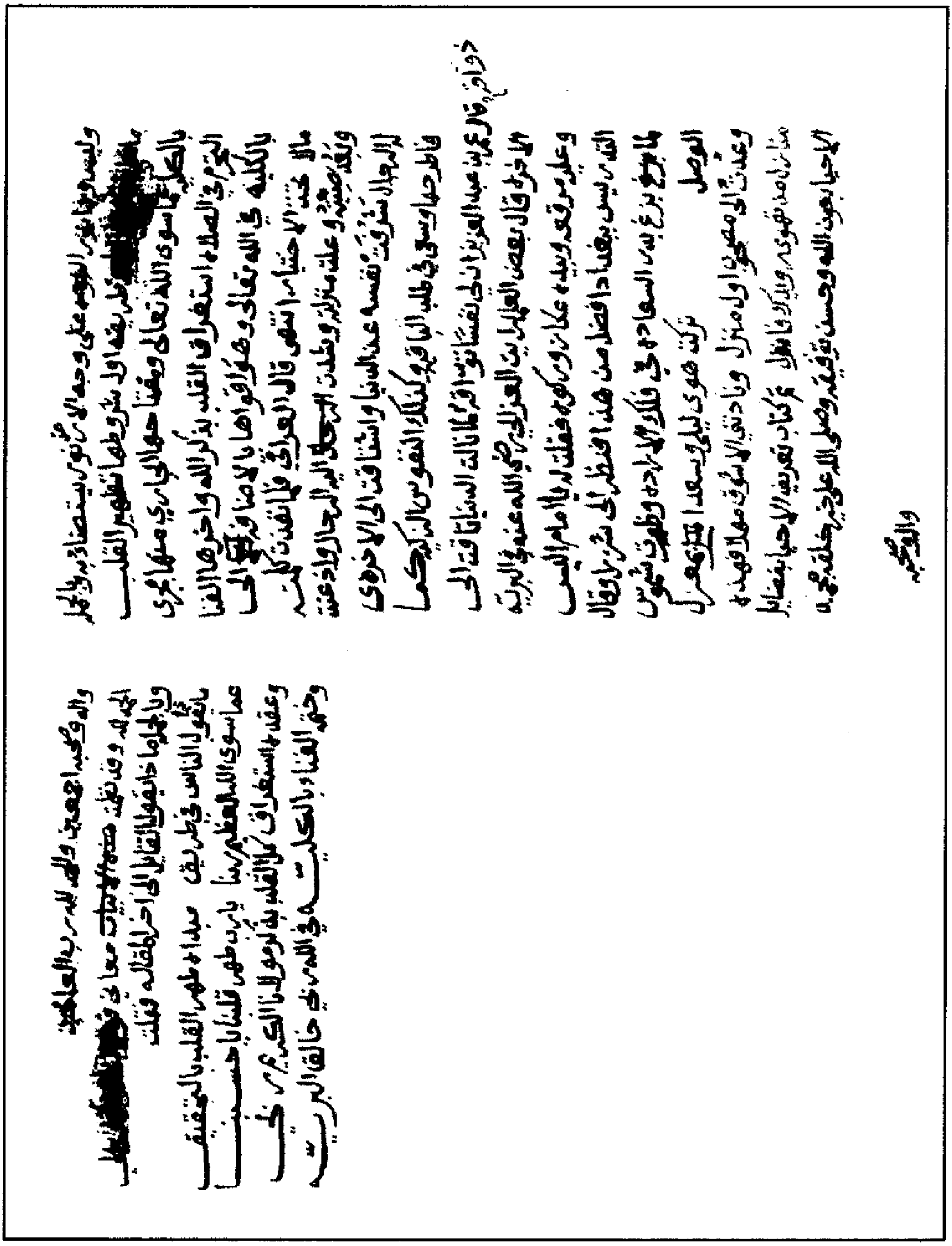

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ح)

صورة عن خط

الإمام الغزاليّ

رضي الله عنه

بيان لما هو مكتوب بالصحيفة المقابلة سطراً سطراً وكلمة كلمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فقد قرأ عليَّ العبد الصالح الموفق الفالح تاج الدين بن أحمد الطوسي الشافعي جميع كتابنا الموسوم بالوجيز قراءة تحقيق وعرفان وتدقيق وإتقان وشرحت له في ذلك ما يسره الله علي وقد استخرت الله تعالىٰ وأجزت له بلغه الله في الدراين أمله أن يَقْرَأَهُ ويُقْرِأَهُ بما قرأه عليَّ والله أعلم قال ذلك وكتبه محمد محمد محمد الغزالي الطوسي الشافعي حامداً مصلياً مسلماً والحمد لله وحده

الحمد لله

تشرفت من فضل الله تعالىٰ وإحسانه عليَّ بتبركي بخط شيخ الشريعة والحقيقة وأسها سيدي الشيخ محمد بن محمد بن محمد الإمام الغزالي رضي الله تعالىٰ عنه صاحب كتاب الوجيز بواسطة مولانا مالكه السيد الشريف السيد حسن العجلاني الحسيني أعاد الله تعالىٰ علينا وعليه مع فروعنا من نفحات الإمام الغزالي آمين التقي الحصني كاتبه

أنموذج لخط الإمام الغزالي رضي الله عنه

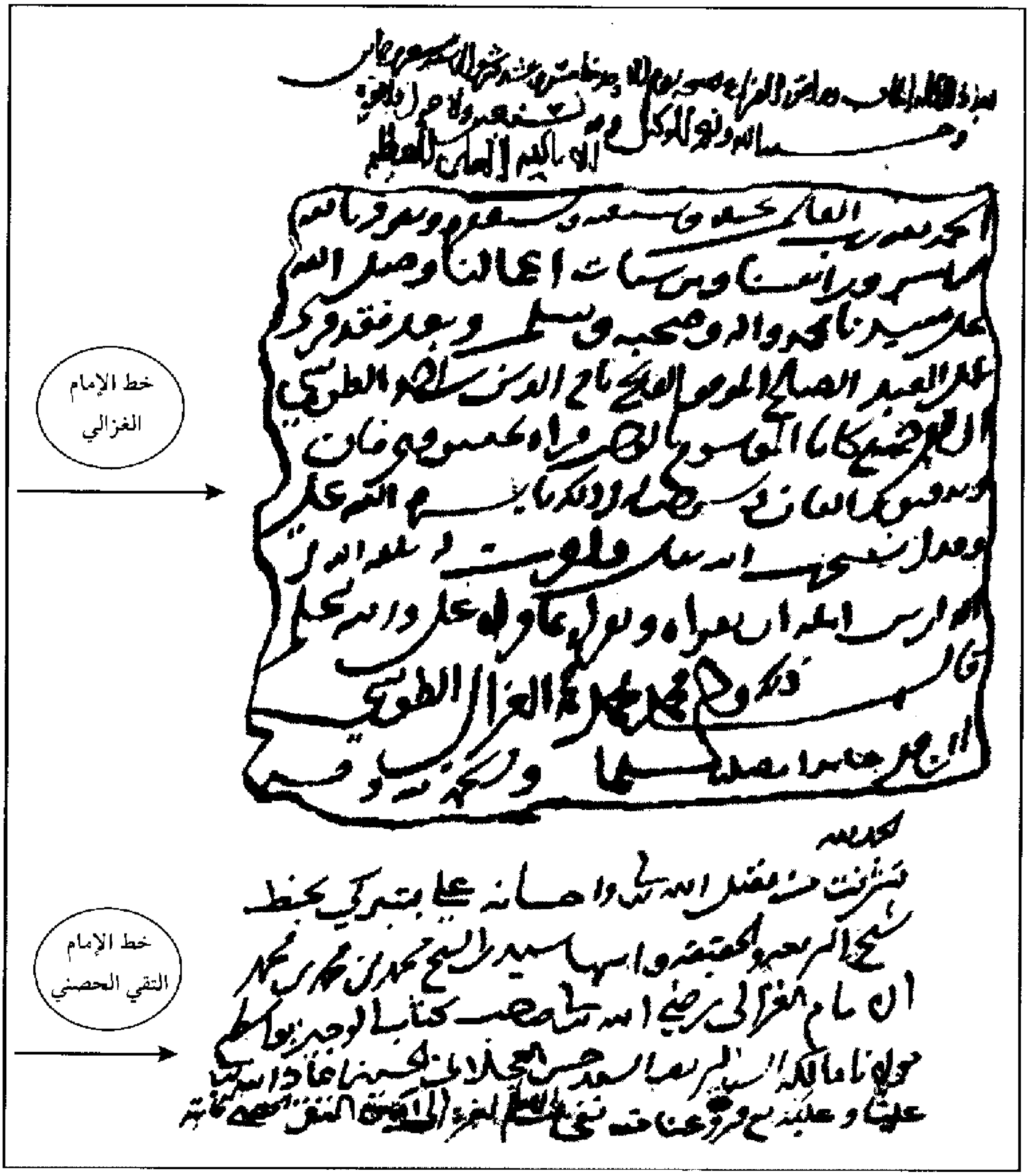

راموز الورقة الأخيرة من كتاب « الوجيز في الفقه » للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ

المحفوظة بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية رقم (L-318 999)

ويظهر فيها خط الإمام الغزالي وخط الإمام التقي الحصني رحمهما الله تعالىٰ

الإملاء

على مشكل الإحياء

للإمام الغزالي

رضي الله عنه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رب يسّر

[خُطبَةُ المؤلِّف]

الحمدُ للهِ على ما خصصَ وعمَّمَ ، وأصلِّي على محمدٍ سيدِ جميعِ الأممِ ، ونبيِّهِ المبعوثِ إلى العربِ والعجمِ ، وعلىٰ آلهِ وعترتِهِ ، وسلَّمَ كثيراً وكرَّمَ .

سألتَ ـ يسَّركَ اللهُ لمراتبِ العلمِ تصعدُ مراقِيَها ، وقرَّبَ لكَ مقاماتِ الولايةِ تحلُّ معالِيَها ـ **عنْ بعضِ ما وقعَ في الإملاءِ الملقبِ بـ« الإحياءِ » ممَّا أشكلَ علىٰ مَنْ حُجِبَ فهمُهُ وقصرَ علمُهُ ، ولمْ يفزْ بشيءٍ مِنَ الحظوظِ الملكيَّةِ قدحُهُ وسهمُهُ .**

وأظهرْتَ التحزُّنَ لِمَا شاشَ بهِ شركاءُ الطَّغامِ ، وأمثالُ الأنعامِ ، وأتباعُ العوامِّ ، وسفهاءُ الأحلامِ ، وعارُ أهلِ الإسلامِ .

حتىٰ طعنُوا عليهِ ، ونهَوْا عَنْ قراءتِهِ ومطالعتِهِ ، وأفتَوْا بمجرَّدِ الهوىٰ علىٰ غيرِ بصيرةٍ باطِّراحِهِ ومنابذَتِهِ ، ونسبُوا مُمليَهُ إلىٰ ضلالٍ وإضلالٍ ، ونبزُوا قرَّاءَهُ ومنتحليهِ بزيغٍ في الشريعةِ واختلالٍ .

فإلى اللهِ انصرافُهُمْ ومآبُهُمْ ، وعليهِ في يومِ العرضِ الأكبرِ إيقافُهُمْ وحسابُهُمْ .

فستكتبُ شهادتُهُمْ ويُسألونَ ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ، ولكنَّ الظالمينَ في شقاقٍ بعيدٍ .

ولا عجبَ ؛ فقدْ تَوِيَ[1] أدلاَّءُ الطريقِ ، وذهبَ أربابُ التحقيقِ ، ولمْ يبقَ في الغالبِ إلاَّ أهلُ الزورِ والفسوقِ ، متشبهينَ بدعاوىٰ كاذبةٍ منمقةٍ ، متصنعينَ بحكاياتٍ مزخرفةٍ ، مترائينَ بصفاتٍ متَّهمةٍ ، متظاهرينَ بظواهرَ للعلمِ فاسدةٍ ، متقاطعينَ بحججٍ غيرِ صادقةٍ ، **كلُّ ذلكَ لطلبِ دنيا أَوْ محبةِ ثناءٍ ، أَوْ مغالبةِ نظراءَ .**

قدْ ذهبتِ المواصلةُ بينَهُمْ بالبرِّ ، وتألَّفُوا جميعاً على النُّكْرِ ، وعُدمتِ النصائحُ بينَهُمْ في الأمرِ ، وتصافَوْا بأسرِهِمْ على الخديعةِ والمكْرِ ، إنْ نصحَهُمُ العلماءُ . . أغرَوْا بهِمْ ، وإنْ صمتَ عنهُمُ العقلاءُ . . أزرَوْا عليهِمْ .

أولئكَ الجهّالُ في علمِهِمْ ، الفقراءُ في طَولِهِمْ ، البخلاءُ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنفسِهِمْ ، لا يفلحونَ ولا ينجحُ تابعُهُمْ ، وكذلكَ لا يظهرُ عليهِمْ مواريثُ الصدقِ ، ولا تسطعُ حولَهُمْ أنوارُ الولايةِ ، ولا تخفقُ بينَ أيديهِمْ أعلامُ المعرفةِ ، ولا يسترُ عوراتِهِمْ لباسُ الخشيةِ ؛ لأنهُمْ لمْ ينالُوا أحوالَ النقباءِ ، ومراتبَ النجباءِ ، وخصوصيةَ البُدَلاءِ ، وكراماتِ الأوتادِ ، وفوائدَ

---

(١) تويَ : هلكَ .

الأقطابِ ، وفي هـٰذهِ أسبابُ السعادةِ ، وتتمةُ الطهارةِ .

أجلْ ؛ لَوْ عرفُوا أنفسَهُمْ . . ظهرَ لهُمُ الحقُّ ، وعلمُوا علةَ أهلِ الباطلِ ، وداءَ أهلِ الضعفِ ، ودواءَ أهلِ القوّةِ ، **ولكنْ ليسَ هـٰذا مِنْ بضائِعِهِمْ** ، حُجبُوا عنِ الحقيقةِ بأربعةٍ : **بالجهلِ ، والإصرارِ ، ومحبةِ الدنيا ، وإظهارِ الدعوىٰ** .

فالجهلُ . . أورثهُمُ السخفَ .

والإصرارُ . . أورثهُمُ التهاونَ .

ومحبةُ الدنيا . . أورثتهُمْ طولَ الغفلةِ بالأملِ .

وإظهارُ الدعوىٰ . . أورثهُمُ الكبرَ والإعجابَ والرياءَ ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

فلا يغرَّنَّكَ ـ أعاذَنا اللهُ وإياكَ مِنْ أحوالِهِمْ ـ **شأنُهُمْ** ، ولا يُذهلنَّكَ عَنِ الاشتغالِ بصلاحِ نفسِكَ تمردُهُمْ وطغيانُهُمْ ، ولا يُغوينَّكَ بما زينَ لهُمْ مِنْ سوءِ أعمالِهِمْ شيطانُهُمْ ، فكأَنْ قدْ جُمعَ الخلائقُ في صعيدٍ ، ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ، وتُلِيَ : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

فيا لَهُ موقفاً ! لقدْ أذهلَ ذوي العقولِ عنِ القالِ والقيلِ ، ومتابعةِ الأباطيلِ ، فأعرضْ عنِ الجاهلينَ ، ولا تطعْ كلَّ أفَّاكٍ أثيمٍ ، ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ، ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

ولقدْ أجبناكَ ـ بحولِ اللهِ وقوتِهِ ، وبعدَ استخارتِهِ ـ **عمّا سألتَ عنهُ** ، وخاصّةً ما رغبتَ فيهِ مِنْ تخصيصِ الكلامِ بالمثَلِ الذي تزلُّ فيهِ الأقدامُ[١] ؛ إذْ قدِ اتفقَ أَنْ يكونَ أشهرَ ما في الكتابِ وأكثرَ تصرفاً علىٰ ألسنةِ الصدورِ والأصحابِ ، حتَّىٰ لقدْ صارَ المثَلُ المذكورَ في المجالسِ ، تحيةَ الداخلِ وحديثَ المُجالسِ ، فساعدْنا أمنيتَكَ .

ولولا العجلةُ والاشتغالُ . . لأضفْنا إلىٰ إملائِنا هـٰذا بياناً غيرَهُ ممّا عَدُّوهُ مشكلاً ، وصارَ لعقولِهِمُ الضعيفةِ مخيِّلاً مضلِّلاً .

ونحنُ نستعيذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ ، ونستعصمُ بهِ مِنْ جراءَةِ فقهاءِ الزمانِ ، ونضرعُ إليهِ في المزيدِ مِنَ الإحسانِ ؛ إنَّهُ الجوادُ المنّانُ .

* * *

(١) في غير (ث ، ذ) : (الذي ذكر فيه الأقلام) .

ذكر مراسم الأسئلة في المثل

○ ذكرتَ ـ رزقكَ اللهُ ذكرَهُ ، وجعلكَ تعقلُ نهيَهُ وأمرَهُ ـ كيفَ جازَ انقسامُ التوحيدِ علىٰ أربعِ مراتبَ ، ولفظةُ (التوحيدِ) تنافي التقسيمَ المشهودَ كما يُنافَى التكريرُ بالتعديدِ .

وإنْ صحَّ انقسامُهُ علىٰ وجهٍ لا يندفعُ . . فهلْ تصحُّ تلكَ القسمةُ فيما يوجدُ ، أو فيما يقدرُ ؟

ورغبتَ في مزيدِ البيانِ في تحقيقِ كلِّ مرتبةٍ ، وانقسامِ طبقاتِ أهلِهَا فيهَا إنْ كانَ يقعُ بينهُمُ التفاوُتُ ، وما وجهُ تمثيلِهَا بالجوزِ والقشورِ واللبوبِ ، ولِمَ كانَ الأوَّلُ لا ينفعُ ، والآخِرُ الذي هوَ الرابعُ لا يحلُّ إفشاؤُهُ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ قولِ مَنْ تقدَّمَ مِنْ أهلِ هٰذا الشأنِ : إفشاءُ سرِّ الربوبيَّةِ كفرٌ ؟

وأينَ أصلُ ما قالوهُ في الشرعِ ؟

إذِ الإيمانُ والكفرُ ، والهدايةُ والضلالُ ، والتقريبُ والتبعيدُ ، صديقيَّةٌ وسائرُ مقاماتِ الولايةِ ، ودركاتِ المخالفةِ . . إنما هيَ مآخذُ شرعيَّةٌ ، وأحكامٌ نبويَّةٌ .

❊ ❊ ❊

○ وكيفَ يُتصورُ مخاطبةُ العقلاءِ للجماداتِ ، ومخاطبةُ الجماداتِ للعقلاءِ ؟

وبماذا تُسمعُ تلكَ المخاطبةُ ، أبحاسَّةِ الأذُنِ ، أمْ بسمعِ القلبِ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما الفرقُ بينَ القلمِ المحسوسِ والقلمِ الإلـٰهيِّ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما حدُّ عالَمِ المُلْكِ ، وحدُّ عالَمِ الجبروتِ ، وحدُّ عالَمِ الملكوتِ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورَتهِ ؟

وما الفرقُ بينَ الصورةِ الظاهرةِ التي يكونُ معتقدُها مشبِّهاً صرفاً ، والصورةِ الباطنةِ التي يكونُ معتقدُها منزِّهاً مجلاً ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ فَٱطْوِ الطريقَ فإنكَ بالوادي المقدَّسِ طوىً ، ولعلَّهُ ببغدادَ أوْ أصبهانَ أوْ نيسابورَ أوْ طبرستانَ في غيرِ الوادِي الذي سمعَ فيهِ موسىٰ عليهِ السلامُ كلامَ اللهِ تعالىٰ ؟

❊ ❊ ❊

○ وما معنىٰ فاستمعْ بسرِّ قلبكَ لِمَا يُوحىٰ ؟

وهلْ يكونُ سماعُ القلبِ بغيرِ سرِّهِ ؟

وكيفَ يسمعُ ما يُوحىٰ مَنْ ليسَ بنبيٍّ ؟

أذلكَ علىٰ طريقِ التعميمِ ، أمْ علىٰ سبيلِ التخصيصِ ؟

ومَنْ لهُ بالتسلُّقِ إلىٰ مثلِ ذلكَ المقامِ حتَّىٰ يسمعَ أسرارَ الإلـٰهِ ؟

وإنْ كانَ علىٰ سبيلِ التخصيصِ . . فالنبوَّةُ ليستْ محجورةً علىٰ أحدٍ إلاَّ علىٰ مَنْ قعدَ عنْ سلوكِ تلكَ الطريقِ .

وماذا يسمعُ في النداءِ إذا سمعَ ، هلِ اسمَ موسىٰ أوِ اسمَ نفسِهِ ؟

❋ ❋ ❋

○ **وما معنى الأمرِ للسالكِ بالرجوعِ مِنْ عالَمِ القدرةِ ، ونهيِهِ عنْ أنْ يتخطَّىٰ رقابَ الصدِّيقينَ ؟**

وما الذي أوصلَهُ إلىٰ مقامِهِمْ ، وهوَ في المرتبةِ الثالثةِ ، وهيَ توحيدُ المقربينَ ؟

❋ ❋ ❋

○ **وما معنى انصرافِ السالكِ بعدَ وصولِهِ إلىٰ ذلكَ الرفيقِ الأعلىٰ ؟**

وإلىٰ أينَ وجهتُهُ في الانصرافِ ؟

وكيفَ صفةُ انصرافِهِ ؟

وما الذي يمنعُهُ مِنَ البقاءِ في الموضعِ الذي وصلَ إليهِ ، وهوَ أرفعُ مِنَ الذي خلفَهُ ؟

وما معنىٰ ذلكَ ؟

وأينَ هٰذا مِنْ قولِ أبي سليمانَ الدارانِيِّ المذكورِ في غيرِ « الإحياءِ » : (لَوْ وصلُوا . . ما رجعُوا ، ما وصلَ مَنْ رجعَ) ؟[1] .

* * *

وما معنىٰ بأنْ ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مِنْ صورةِ هٰذا العالَمِ ، ولا أحسنُ ترتيباً ، ولا أكملُ صنعاً ؟ ولوْ كانَ وادخرَهُ معَ القدرةِ علىٰ خلقِهِ . . لكانَ ذلكَ بخلاً يناقضُ الجودَ ، أو عجزاً يناقضُ القدرةَ الإلـٰهيَّةَ .

* * *

○ **وما حكمُ هٰذِهِ العلومِ المكنونَةِ ؟**

هلْ طلبُها فرضٌ ، أوْ مندوبٌ إليهِ ، أوْ غيرُ ذلكَ ؟

ولِمَ كُسيتِ المشكِلَ مِنَ الألفاظِ ، واللُّغْزَ مِنَ العباراتِ ؟

وإنْ جازَ ذلكَ للشارعِ فيما لَهُ أنْ يختبرَ بهِ ويمتحنَ . . فما بالُ مَنْ ليسَ شارعاً ؟!

انتهى جملة مراسم الأسئلة في المثل

فأسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يمليَ علينا ما هوَ الحقُّ عندَهُ في ذلكَ ، وأنْ يُجريَ

---

(١) أورده الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٩٢) ، وفيه : (ما رجع من وصل ، لو وصلوا . . ما رجعوا) .

علىٰ ألسنتِنا ما يُستضاءُ بهِ في ظلماتِ المسالكِ ، وأنْ يعمَّ بنفعِهِ أهلَ المبادِي والمدارِكِ .

ثمَّ لا بدَّ أنْ أمهِّدَ مقدِّمةً ، وأوطِّدَ قاعدَةً ، وأؤكِّدَ وصيَّةً .

أمَّا المقدِّمةُ :

فالغرضُ منها تبيينُ عباراتٍ انفردَ بها أربابُ الطريقةِ بأَخَرَةٍ ، تغمضُ معانِيهَا علىٰ أهلِ القُصورِ ، فنذكُرُ ما يغمضُ منهَا ، ونذكُرُ شرحَها والقصدَ بها عندَهُمْ .

فرُبَّ واقفٍ علىٰ ما يكونُ مِنْ كلامِنا مختصّاً بهـٰذا الفنِّ في هـٰذا الإملاءِ وغيرِهِ . فيتوقَّفُ عليهِ فهْمُ معناهُ مِنْ جهةِ اللَّفظِ .

وأمَّا القاعدةُ :

فنذكُرُ فيها الأَمَمَ الذِي يكونُ سلوكُنا في هـٰذِهِ العلومِ عليهِ ، والسمتَ الذِي نومِيءُ بمقصدِنا إليهِ ؛ ليكونَ ذلكَ أقربَ على المتأمِّلِ ، وأسهلَ على الناظرِ المتفهِّمِ .

وأمَّا الوصيَّةُ :

فنقصدُ فيها تعريفَ ما علىٰ مَنْ نظرَ في كلامِ الناسِ ، وأخذَ نفسَهُ بالاطِّلاعِ علىٰ أغراضِهِمْ فيما ألفوهُ من تصانيفِهِمْ ، وكيفَ يكونُ نظرُهُ فيها ، واطِّلاعُهُ عليها ، واقتباسُه منها .

فذلكَ أَوكدُ عليهِ أنْ يتعلمَهُ إنْ لَمْ يعلمْهُ ، وأَوْلىٰ ما يلزمُهُ العملُ بهِ إذا علمَهُ .

فما أُتيَ علىٰ أكثرِهِمْ إلاّ أنهُمْ أَتَوُا البيوتَ مِنْ ظهورِها فشردُوا عنها ، وأُغلقتْ في وجوهِهِمُ الأبوابُ ، وأُسدلَ دونَهُمْ كثيفُ الحجابِ ، **ولوْ أَتَوْها مِنْ حيثُ أبوابُها . . لَلُقُوا بالترحيبِ ، وولجُوا على الرِّضا بالحبيبِ ، وكُشفَ لهُمْ كثيرٌ مِنْ حُجُبِ الغيبِ** ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

* * *

المقدّمة

اعلمْ : أنَّ الألفاظَ المستعملةَ في كلِّ صناعةٍ :

منها : ما يستعملُهُ الجماهيرُ والعمومُ .

ومنها : ما يستعملُهُ أربابُ الصنائعِ خاصّةً .

* * *

والصنائعُ علىٰ ضربينِ : عمليّةٍ ، وعلميّةٍ .

فالعمليّةُ : كالمهنِ والحرفِ ، ولأهلِ كلِّ صناعةٍ منهُمْ ألفاظٌ يتفاهمونَ بها آلاتِهِمْ ، ويتعاطونَ بها فصولَ صناعاتِهِمْ .

والعلميّةُ : هيَ العلومُ المحفوظةُ بالقوانينِ ، والمعدَّلةُ بما يحرزُها مِنَ الموازينِ ، ولأهلِ كلِّ علمٍ أيضاً ألفاظٌ اختُصُّوا بها لا يشاركهُمْ فيها غيرُهُمْ ، إلاَّ أنْ يكونَ ذلكَ بالاتفاقِ مِنْ غيرِ قصدٍ .

وتكونُ المشاركَةُ ـ إذا اتفقَتْ ـ إمَّا في صورةِ اللفظِ دونَ المعنىٰ ، أوْ في المعنىٰ وصورةِ اللفظِ جميعاً .

وهـٰذا لا يعرفُهُ إلاَّ مَنْ بحثَ عنْ مجارِي الألفاظِ عندَ الجمهورِ وأربابِ الصنائعِ .

وإنما سمَّينا مِنَ العلومِ صنائعَ ما قُصِدَ فيها التصنيعُ بالترتيبِ والتقسيمِ ، واختيارِ لفظٍ دونَ غيرِهِ .

وحدُّهُ بطرفينِ : مبدأٍ ، وغايةٍ .

وما لمْ يكنْ كذلكَ . . فلا نسمِّيهِ صناعةً ؛ كعلومِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ ، والصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ فإنهُمْ لمْ يكونُوا فيما عندَهُمْ مِنَ العلومِ علىٰ طريقِ مَنْ بعدَهُمْ ، ولا كانتْ العلومُ عندَهُمْ بالرسمِ الذي هوَ عندَ مَنْ خلفَهُمْ .

ومثلُ ذلكَ علومُ العربِ وأنسابُها(١) ، لا نسمِّيها عندَهُمْ صناعةً ، ونسمِّيها بذلكَ عندَ مَنْ ضبطَها بما اشتُهِرَ مِنَ القوانينِ ، وتقرَّرَ مِنَ الحصرِ والترتيبِ .

ولأربابِ العلومِ الروحانيّةِ ، وأهلِ الإشاراتِ إلى الحقائقِ ، والمسمَّيْنَ بالسادَةِ ، والملقَّبينَ بالصوفيّةِ ، والمتشبِّهينَ بالفقراءِ ، والمعروفينَ بالرِّقَّةِ ، والمعزُوِّ إليهِمُ العلمُ والعملُ . . **ألفاظٌ جرىٰ رسمهُمْ بالتخاطبِ بها فيما يتذاكرونَهُ أوْ يذكرونَهُ** .

ونحنُ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ نذكرُ ما يغمضُ منها ؛ إذْ قدْ يقعُ منَّا عندَما نذكرُ شيئاً مِنْ علومِهِمْ ، ونشيرُ إلىٰ غرضٍ مِنْ أغراضِهِمْ ، فلمْ نرَ أنْ يكونَ ذلكَ بغيرِ ما عُرفَ مِنْ ألفاظِهِمْ وعباراتِهِمْ ، ولا حرجَ في ذلكَ عقلاً

---

(١) في (ر ، ت ، ض) : (ولسانها) .

وشرعاً ، ونحنُ بحكْمِ مُصرِّفِ التقديرِ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

* * *

فمِنْ ذلكَ قولُهُمْ :

السفرُ ، والطريقُ ، والسالكُ ، والمسافرُ ، والحالُ ، والمقامُ ، والمكانُ ، والشطحُ ، والطوالعُ ، والذهابُ ، والنَّفَسُ ، والسِّرُّ ، والوصلُ والفصلُ ، والأدبُ ، والرياضةُ ، والتحلِّي والتخلِّي ، والتجلِّي ، والعلةُ والانزعاجُ ، والمشاهدةُ ، والمكاشفةُ ، واللوائحُ ، والتلوينُ ، والغيرةُ ، والحريَّةُ ، واللطيفةُ ، والفتوحُ ، والوسمُ والرسمُ ، والبسطُ والقبضُ ، والفناءُ والبقاءُ ، والجمعُ والتفرقةُ ، وعينُ التحكُّمِ[1] ، والزوائدُ ، والإرادةُ ، والمريدُ ، والمرادُ ، والهمَّةُ ، والغربةُ ، والمكرُ ، والاصطلامُ ، والرغبةُ ، والرهبةُ ، والوجدُ ، والوجودُ ، والتواجدُ .

فلنذكُرْ شرحَ هٰذِهِ الألفاظِ علىٰ أوجزِ ما يمكنُ بمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإنْ كانتْ ألفاظُهُمْ المصرَّفَةُ بينهُمْ في علومِهِمْ أكثرَ ممَّا ذكَرْنا ، فإنَّما قصدُنا أنْ نريكَ منها أنموذجاً ودستوراً ، تعلمُ بهِ إذا طرأَ عليكَ ما لمْ نذكرْهُ لكَ هٰهنا أنَّ لها مبحثاً ، وإليها سبيلاً ، فتطلُبُهُ بعدَ ذلكَ علىٰ وجهِهِ .

* * *

(١) في (ت ، ث ، ذ ، ض) : (التحكيم) .

فأمّا السفرُ والطريقُ والمسافرُ والسالكُ :

فالمرادُ بالسفرِ والطريقِ : سفرُ القلبِ بآلةِ الفكرِ في طريقِ المعقولاتِ ، وعلىٰ ذلكَ انبنىٰ لفظُ السالكِ والمسافرِ في لغتِهِمْ .

ولمْ يريدوا بذلكَ سلوكَ الأقدامِ التي بها تُقطعُ مسافاتُ الأجسامِ ؛ فإنَّ ذلكَ ممّا يشاركُ فيهِ البهائمُ والأنعامُ !!

وأولُ مسالكِ السفرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ معرفةُ قواعدِ الشرعِ ، وخرقُ حجبِ الأمرِ والنهيِ ، حتّىٰ يعقلُوا الغرضَ فيها ، والمرادَ بها ومنها ، فإذا خلَّفُوا نواحِيَها ، وقطعُوا معاطِبَها . . أشرفُوا علىٰ مفاوزَ أوسعَ ، وبدَتْ لهُمْ مهامِهُ أعرضُ وأطولُ .

مِنْ ذلكَ : معرفةُ أركانِ المعارفِ النبويَّةِ ، النفسُ والعدوُّ والدنيا ، فإذا تخلَّصُوا مِنْ أوعارِها . . أشرفُوا علىٰ غيرِها أعظمَ منها في الانتسابِ ، وأعرضَ بغيرِ حسابٍ .

ومِنْ ذلكَ : سرُّ القدرِ ، وكيفَ تحكَّمَ في الخلائقِ ، وقادَهُمْ بلطفٍ في عنفٍ ، وبشدَّةٍ في لِينٍ ، وبقوَّةٍ في ضعفٍ ، وباختيارٍ في جبرٍ إلىٰ ما هوَ في مجاريهِ ، لا يخرجُ المخلوقُونَ عنهُ طرفةَ عينٍ ، ولا يتقدمونَ عليهِ ، ولا يتأخرونَ عنهُ طرفةَ عينٍ .

والإشرافُ على الملكوتِ الأعظمِ ، ورؤيةُ عجائبِهِ ومشاهدَةُ غرائبِهِ ، مثلُ القلَمِ الإلـٰهيِّ واللوحِ المحفوظِ ، واليمينِ الكاتبةِ ، وملائكةِ اللهِ الذينَ

يطوفونَ حولَ العرشِ وبالبيتِ المعمورِ ، وهُمْ يسبحونَهُ ويقدِّسونَهُ ، وفهْمُ كلامِ المخلوقاتِ مِنَ الحيواناتِ والجماداتِ .

ثمَّ التخطِّي منها إلىٰ معرفةِ الخالقِ للكلِّ ، والمالكِ للجميعِ ، والقادرِ علىٰ كلِّ شيءٍ ، فتغشاهُمُ الأنوارُ المحرِقَةُ ، وتتجلَّىٰ لمرآةِ قلوبِهِمُ الحقائقُ المحتجبةُ ، فيعلمونَ الصفاتِ ويشاهدونَ الموصوفَ ، ويحضرونَ حيثُ غابَ أهلُ الدعوىٰ(١) ، ويبصرونَ ما عميَ عنهُ أولُو الأبصارِ الضعيفةِ بحجبِ الهوىٰ .

***

والحالُ : منزلةُ العبدِ في الحينِ ، فيصفُو لهُ في الوقتِ حالُهُ ووقتُهُ .

وقِيلَ : هوَ ما يتحوَّلُ فيهِ العبدُ ، ويتغيرُ بما يرِدُ علىٰ قلبِهِ ، فإذا صفا تارةً وتغيَّرَ أخرىٰ . . قِيلَ لهُ : حالٌ .

وقالَ بعضُهُمْ : الحالُ لا يزولُ ، فإذا زالَ . . لمْ يكُنْ حالاً(٢) .

***

والمقامُ : هوَ الذي يقومُ بهِ العبدُ في الأوقاتِ مِنْ أنواعِ المعاملاتِ وصنوفِ المجاهداتِ ، فمتىٰ أُقيمَ العبدُ بشيءٍ منها على التمامِ والكمالِ . . فهوَ مقامُهُ حتَّىٰ يُنقلَ منهُ إلىٰ غيرِهِ .

***

(١) في (ث ، ذ) : (أهل الذهول) .
(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص١٣٤) .

والمكانُ : هوَ لأهلِ الكمالِ والتمكينِ[1] والنهايةِ .

فإذا كملَ العبدُ في معانيهِ . . فقدْ تمكَّنَ مِنَ المكانِ ، وعبرَ المقاماتِ والأحوالَ ، فيكونُ صاحبَ مكانٍ كما قالَ بعضهُمْ[2] : [من الطويل]

مكانُكَ مِنْ قلبِي هوَ القلبُ كلُّهُ فليسَ لشيءٍ فيهِ غيرُكَ موضعُ

* * *

والشطحُ : كلامٌ يترجمُهُ اللسانُ عنْ وجدٍ يعرضُ ، يفيضُ عنْ معدنِهِ ، مقرونٌ بالدعوىٰ ، إلاَّ أنْ يكونَ صاحبهُ محفوظاً .

* * *

والطوالعُ : أنوارُ التوحيدِ تطلعُ علىٰ قلوبِ أهلِ المعرفةِ بشعاعِها ، فيطمسُ سلطانُ نورِها سائرَ الأنوارِ ، كما أنَّ سلطانَ نورِ الشمسِ يمحُو أنوارَ الكواكبِ .

* * *

والذهابُ : هوَ أنْ تغيبَ القلوبُ عنْ حسِّ كلِّ محسوسٍ بمشاهدةِ محبوبِهَا .

* * *

---

(١) في (ث ، ذ) : (والتمكن) .
(٢) البيت للحسين بن منصور الحلاج في « ديوانه » (ص ٥٤) .

والنَّفَسُ : روحٌ يسلِّطُهُ اللهُ علىٰ نارِ القلبِ ليطفِيءَ شررَها .

* * *

والسِّرُّ : ما خفيَ عنِ الخلقِ ، فلا يعلمُ بهِ إلاَّ الحقُّ ، وسرُّ السِّرِّ : ما لا يحسُّ بهِ السِّرُّ .

والسِّرُّ ثلاثةٌ : سرُّ العلمِ ، وسرُّ الحالِ ، وسرُّ الحقيقةِ .

فسرُّ العلمِ : حقيقةُ العالِمينَ باللهِ عزَّ وجلَّ .

وسرُّ الحالِ : معرفةُ مرادِ اللهِ تعالىٰ في الحالِ مِنَ اللهِ .

وسرُّ الحقيقةِ : ما وقعَتْ بهِ الإشارةُ .

* * *

والوصلُ : إدراكُ الفائتِ .

والفصلُ : فوتُ ما ترجُوه مِنْ محبوبِكَ .

* * *

والأدبُ ثلاثةٌ :

أدبُ الشرعِ ، وهوَ التعلُّقُ بأحكامِ الشريعةِ ، والعلمُ بصحَّةِ عزمِ خدمةٍ .

والثاني : أدبُ الخدمةِ ، وهوَ التشمُّرُ عنِ العلاقاتِ ، والتجرُّدُ عنِ الملاحظاتِ .

والثالثُ : أدبُ الحقِّ ، وهوَ موافقةُ الحقِّ بالمعرفةِ .

❁ ❁ ❁

والرياضةُ اثنانِ :

رياضةُ الأدبِ ، وهوَ الخروجُ عنْ طبعِ النفسِ .

ورياضةُ الطلبِ ، وهوَ صحَّةُ المرادِ بهِ .

❁ ❁ ❁

والتحلِّي : التشبُّهُ بأحوالِ الصادقينَ بالأحوالِ ، وإظهارُ الأعمالِ ، وأنشدُوا[1] : [من الخفيف]

مَـنْ تحلَّـىٰ بغيـرِ مـا هـوَ فيـهِ فضحتْـهُ شـواهـدُ الأعمـالِ

والتخلِّي : اختيارُ الخلوةِ ، والإعراضُ عنْ كلِّ ما يشغلُ عنِ الحقِّ .

❁ ❁ ❁

والتجلِّي : هو ما ينكشفُ للقلوبِ مِنْ أنوارِ الغيوبِ .

❁ ❁ ❁

والعلَّةُ : تنبيهٌ مِنَ الحقِّ .

والانزعاجُ : انتباهُ القلبِ مِنْ سِنَةِ الغفلةِ ، والتحركُ للأنسِ والوجدِ .

---

(١) البيت ينسب لأبي عمرو بن العلاء ، انظر « العقد الفريد » (٢/ ٢١٨) ، و« الحماسة المغربية » (٢/ ١٢٨٧) ، وفيهما : (شواهد الامتحان) بدل (شواهد الأعمال) .

والمشاهدةُ ثلاثٌ :

مشاهدةٌ بالحقِّ ، وهيَ رؤيةُ الأشياءِ بدلائلِ التوحيدِ .

ومشاهدةٌ للحقِّ ، وهيَ رؤيةُ الحقِّ في الأشياءِ .

ومشاهدةُ الحقِّ : وهيَ حقيقةُ اليقينِ بلا ارتيابٍ .

❊ ❊ ❊

والمكاشفةُ أتمُّ مِنَ المشاهدةِ ، وهيَ ثلاثٌ :

مكاشفةٌ بالعلمِ ، وهيَ تحقيقُ الإصابةِ بالفهمِ .

ومكاشفةٌ بالحالِ ، وهيَ تحقيقُ رؤيةِ زيادةِ الحالِ .

ومكاشفةٌ بالوجدِ ، وهيَ تحقيقُ صحَّةِ الإشارةِ .

❊ ❊ ❊

واللوائحُ : ما يلوحُ للأسرارِ الطاهرةِ الصافيةِ مِنَ السموِّ مِنْ حالةٍ إلىٰ حالةٍ أتمَّ منها ، والارتقاءِ مِنْ درجةٍ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ منها .

❊ ❊ ❊

والتلوينُ : تلوينُ العبدِ في أحوالِهِ ، وقالَتْ طائفةٌ : علامةُ الحقيقةِ رفعُ التلوينِ[1] بظهورِ الاستقامةِ .

---

(١) في (ث ، ذ) : (دفع التلوين) .

وقالَ آخرونَ : علامةُ الحقيقةِ التلوينُ ؛ لأنهُ تظهرُ فيهِ قدرةُ القادرِ ، فيكتسبُ منهُ العبدُ التغيُّرَ(١) .

٭ ٭ ٭

والغيرةُ : غيرةٌ في الحقِّ ، وغيرةٌ على الحقِّ ، وغيرةٌ مِنَ الحقِّ .

فغيرةٌ في الحقِّ برؤيةِ الفواحشِ والمناهِي ، وغيرةٌ على الحقِّ وهيَ كتمانُ السرائرِ ، وغيرةٌ مِنَ الحقِّ ضِنَّتهُ علىٰ أوليائِهِ .

٭ ٭ ٭

والحريَّةُ : إقامةُ حقوقِ العبوديةِ ، فيكونُ للهِ عبداً وعنْ غيرِهِ حرّاً .

٭ ٭ ٭

واللطيفةُ : إشارةٌ دقيقةُ المعنىٰ تلوحُ في الفهمِ ، ولا تسعُها العبارةُ .

٭ ٭ ٭

والفتوحُ ثلاثةٌ :

فتوحُ العبادةِ في الظاهرِ ، وذلكَ بسببِ إخلاصِ القصدِ .

وفتوحُ الحلاوةِ في الباطنِ ، وهوَ سببُ جذبِ الحقِّ بإعطافِهِ .

---

(١) في (ث) : (فيكتسب منه العبد مزية إيمان) ، وفي (ذ) : (فيكتسب منه العبد مزيد إيمان) .

وفتوحُ المكاشفةِ ، وهوَ سببُ المعرفةِ بالحقِّ .

* * *

والوسمُ والرسمُ : نعتانِ[1] يجريانِ في الأبدِ بما جريَا في الأزلِ .

والبسطُ : عبارةٌ عنْ حالِ الرجاءِ .

والقبضُ : عبارةٌ عنْ حالِ الخوفِ .

* * *

والفناءُ : فناءُ المعاصِي ، ويكونُ فناءَ رؤيةِ العبدِ لفعلهِ بقيامِ اللهِ تعالىٰ علىٰ ذلكَ .

* * *

والبقاءُ : بقاءُ الطاعاتِ ، ويكونُ بقاءَ رؤيةِ العبدِ قيامَ اللهِ سبحانَهُ علىٰ كلِّ شيءٍ[2] .

* * *

والجمعُ : هوَ التسويةُ في أصلِ الخلقِ ، وعندَ آخرينَ معناهُ : إشارةُ مَنْ أشارَ إلى الحقِّ بلا خلقٍ[3] .

* * *

---

(1) في (ر) : (معنيان) ، وفي (ت ، ث ، ذ) : (لغتان) .
(2) في (ث) : (العبد لفعله بقيام) بدل (العبد قيام) .
(3) في (ث ، ذ) : (معناه إشارته إلى الحق) .

والتفرقةُ : إشارةٌ إلى الكونِ والخلقِ ، فمَنْ أشارَ إلىٰ تفرقةٍ بلا جمعٍ . . فقدْ جحدَ الباريَ سبحانَهُ ، ومَنْ أشارَ إلىٰ جمعٍ بلا تفرقةٍ . . فقدْ أنكرَ قدرة القادرِ ، وإذا جمعَ بينهُما . . فقدْ وحَّدَهُ .

❁ ❁ ❁

وعينُ التحكُّمِ[1] : هوَ إظهارُ غايةِ الخصوصيَّةِ بلسانِ الانبساطِ في الدعاءِ .

❁ ❁ ❁

والزوائدُ : زياداتُ الإيمانِ بالغيبِ واليقينِ .

❁ ❁ ❁

والإرادةُ ثلاثةٌ :

إرادةُ الطلبِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وذلكَ موضعُ التمنِّي .

وإرادةُ الحظِّ منهُ ، وذلكَ موضعُ الطمعِ .

وإرادةُ اللهِ سبحانَهُ ، وذلكَ موضعُ الإخلاصِ .

❁ ❁ ❁

والمريدُ : هوَ الذي صحَّ لهُ الابتداءُ ، ودخلَ في جملةِ المنقطعينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالاسمِ .

---

(١) في (ت ، ث ، ذ ، ض) : (وعين التحكيم) .

والمرادُ : هوَ العارفُ الذي لمْ تبقَ لهُ إرادةٌ ، وقدْ وصلَ إلى النهاياتِ ، وعبرَ الأحوالَ والمقاماتِ .

❊ ❊ ❊

والهمَّةُ ثلاثةٌ :

همَّةُ أمنيَّةٍ ، وهيَ : تحرُّكُ القلبِ للمنىٰ(١) .

وهمَّةُ إرادةٍ ، وهيَ : أولُ صدقِ المريدِ .

وهمَّةُ حقيقةٍ ، وهيَ : جمعُ الهمِّ بصفاءِ الإلهامِ .

❊ ❊ ❊

والغربةُ ثلاثةٌ :

غربةٌ عَنِ الأوطانِ مِنْ أجلِ حقيقةِ القصدِ .

وغربةٌ عَنِ الأحوالِ مِنْ(٢) حقيقةِ التفرُّدِ بالأحوالِ .

وغربةٌ عَنِ الحقِّ مِنْ حقيقةِ الدهَشِ عَنِ المعرفةِ .

❊ ❊ ❊

والاصطلامُ : نعتُ وَلَهٍ يَرِدُ على القلوبِ ، فيسكُنُها بقوَّةِ سلطانِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (تجرد القلب إلى المنىٰ) .
(٢) في (ث ، ذ) : (عن الإخوان من أجل) .

والمكرُ ثلاثةٌ :

مكرٌ معمومٌ مفهومٌ ، وهوَ الظاهرُ في بعضِ الأحوالِ .

ومكرٌ مخصوصٌ ، وهوَ في سائرِ الأحوالِ .

ومكرٌ خفيٌّ في إظهارِ الآياتِ والكراماتِ .

* * *

والرغبةُ ثلاثةٌ :

رغبةُ النفسِ في الثوابِ .

ورغبةُ القلبِ في الحقيقةِ .

ورغبةُ السِّرِّ في الحقِّ .

* * *

والرهبةُ ثلاثةٌ : رهبةُ الظاهرِ ؛ وذلكَ لتحقيقِ وعيدِ العلمِ .

ورهبةُ الباطنِ ؛ لتحقيقِ تقلُّبِ القلبِ .

ورهبةُ الغيبِ ؛ لتحقيقِ أمرِ السبقِ(١) .

* * *

والوجدُ : مصادفةُ القلوبِ لصفاءِ ذكرٍ كانَ قدْ فقدَهُ .

* * *

(١) في (ث ، ذ) : (أثر الصدق) بدل (أمر السبق) .

والوجودُ : تمامُ وجدِ الواجدينَ ، وهوَ أتمُّ مِنَ الوجدِ عندَهُمْ .

وسُئلَ بعضُهُمْ عَنِ الوجدِ والوجودِ فقالَ :

الوجدُ : ما تطلبهُ فتجدُهُ بكسبِكَ واجتهادِكَ ، والوجودُ : ما تجدُهُ مِنَ اللهِ الكريمِ ، والوجدُ مِنْ غيرِ تمكينٍ ، والوجودُ معَ التمكينِ .

❊ ❊ ❊

والتواجدُ : استدعاءُ الوجدِ ، والتشبُّهُ في تكلُّفِهِ بالصادقينَ مِنْ أهلِ الوجدِ .

❊ ❊ ❊

القاعدة

وأمَّا القاعدةُ التي ينبني عليها هٰذا الفنُّ بأسرِهِ . . فذلكَ اجتذابُ[١] أرواحِ المعانِي ، والإشارةُ إلى البعدِ في القربِ ، وقصدُ الاستدلالِ بالأقوالِ والأعمالِ والأحوالِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، قصداً ذاتياً لا علىٰ ما سلكَهُ أربابُ علومِ الظاهرِ ، ثمَّ التصديقُ بالقوّةِ[٢] ، والنظرُ إلى الملكوتِ مِنْ كوّةٍ ، ومعرفةُ العلومِ في الانصرافِ ، ومصاحبةُ القدَرِ بالمساعدةِ والمعروفِ ، ومعاطاةُ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ علىٰ قدْرِ عقلِهِ بلا مزيدٍ ، والتصرُّفُ في التعليمِ بينَ مراتبِ الوجودِ الخمسِ[٣] :

الذاتيِّ ، والحسيِّ ، والخياليِّ ، والعقليِّ ، والشَّبَهِيِّ ، حسبَما فُهِمَ مِنَ الشرعِ ، وثبتَ معناهُ في المحفوظِ مِنَ الوحيِ .

وقلَّما أُدركَ شيءٌ معَ العجزِ ، والعلمُ لا يُنالُ براحةِ الجسدِ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ .

❋ ❋ ❋

---

(١) في (ث ، ذ) : (فذلك اجتلاب) .

(٢) في (ث ، ذ) : (التصديق بالقدرة) .

(٣) في (ث ، ذ) : (مراتب الموجودات الخمسة) .

والوصية

أيُّها الطالبُ للعلومِ ، والناظرُ في التصانيفِ ، والمستشرِفُ علىٰ كلامِ الناسِ وكتبِ الحكمَةِ : **ليكُنْ نظرُكَ فيما تنظرُ فيهِ باللهِ ، ولله ، وفي اللهِ** .

لأنهُ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ بهِ . . وَكَلكَ إلىٰ نفسِكَ ، أوْ إلىٰ مَنْ جعلْتَ نظرَكَ بهِ إذا كانَ غيرَهُ ؛ مِنْ فهمٍ ، أوْ علْمٍ ، أوْ حفْظٍ ، أوْ إمامٍ مُتَّبَعٍ ، أوْ صحَّةِ تميُّزٍ ، أوْ ما شاكَلَ ذلكَ .

وكذلكَ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ لهُ . . فقدْ صارَ عملُكَ لغيرِهِ ، ونكصْتَ علىٰ عقبيكَ ، وخسرْتَ في الدارينِ صفقتَكَ ، وعادَ كلُّ ما هوَ لكَ عليكَ ، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

وكذلكَ إنْ لمْ يكُنْ نظرُكَ فيهِ . . فقدْ أثبتَّ معهُ غيرَهُ ، ولاحظتَ بالحقيقةِ سواهُ ، ورؤيةُ غيرِهِ تُعمِي القلبَ ، وتهتِكُ الجِلْبَ[1] ، وتحجبُ اللبَّ .

وإذا نظرتَ في كلامِ أحدٍ مِنَ الناسِ ممَّنْ قدْ شُهِرَ بعلمٍ . . فلا تنظرْهُ بازدراءٍ كمَنْ يُستغنَىٰ عنهُ في الظاهرِ ، ولهُ إليهِ كبيرُ حاجةٍ في الباطنِ ، ولا تقفْ بهِ مِنْ حيثُ وقفَ بهِ كلامُهُ .

فالمعاني أوسعُ مِنَ العباراتِ ، والصدورُ أفسحُ مِنَ الكتبِ المؤلفاتِ ، وكثيرٌ عَلِمَ ما لمْ يُعبَّرْ عنهُ .

---

(١) الجِلْب : غطاء الرحل ، وفي (ت ، ض) : (وتهتك الحجب) .

واطمحْ بنظرِ قلبِكَ في كلامِهِ إلىٰ غايةِ ما يحتملُ ، فذلكَ يعرِّفُكَ وجهَ قدرِهِ ، ويفتحُ لكَ بابَ قصدِهِ ، ولا تقطعْ لَهُ بصحَّةٍ ، ولا تحكُمْ عليهِ بفسادٍ ، وليكنْ تحسينُ الظنِّ أغلبَ عليكَ فيهِ ؛ حتَّىٰ يزولَ الإشكالُ عنكَ بما تتيقنُ مِنْ معانيهِ .

وإذا رأيتَ لهُ حسنةً وسيئةً . فانشرِ الحسنةَ ، واطلبِ المعاذيرَ للسيئةِ ، ولا تكنْ كالذبابةِ تنزلُ علىٰ أقذرِ ما تجدُهُ .

ولا تعجلْ علىٰ أحدٍ بالتخطئةِ ، ولا تبادِرْ بالتجهيلِ ، فربَّما عادَ عليكَ ذلكَ وأنتَ لا تشعرُ ، فلكلِّ عالمٍ غورٌ ، ولهُ في بعضِ ما يأتي بهِ احتجاجٌ[1] .

وناهيكَ بما جرىٰ بينَ وليِّ اللهِ تعالى الخضرِ وكليمِهِ موسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِما السلامُ .

وإذا عرضَ لكَ مِنْ كلامِ عالِمٍ إشكالٌ يؤذِنُ في الظاهِرِ بمُحالٍ أو اختلالٍ . فخذْ ما ظهرَ لكَ علمُهُ ، ودعْ ما اعتاصَ عليكَ فهمُهُ ، وكِلِ العلمَ فيهِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . فهٰذِهِ وصيَّتِي إليكَ فاحفَظْها ، وتذكيرِي إياكَ فلا تذهلْ عنهُ .

اسمعْ وصاتِي فإنْ تقبلْ حظيتَ بها   وإنْ تخالِفْ فقدْ يُزري بكَ الخُلْفُ

---

(١) في (ت) : (به قصد) .

ولا يغـرَّنْـكَ جهّـالٌ أتـوك بمـا يجنِي مُحالاً ومَيناً باطلاً هُرُف[1]

وأزيدكَ زيادةً تقتضِي التعريفَ بأصنافِ العلماءِ ؛ لكَيْ تعرفَ أهلَ الحقيقةِ مِنْ غيرِهِمْ ، فلكَ في ذلكَ أكبرُ منفعةٍ ، ولي في وصفِهِمْ أبلغُ عرضٍ[2] .

قالَ بعضُ علمائِنا : **العلماءُ ثلاثةٌ : حجَّةٌ ، وحجَّاجٌ ، ومحجُوجٌ .**

فالحجَّةُ والحجَّاجُ : عالِمانِ باللهِ وبأمرِهِ ونهيِهِ وبآياتِهِ وبأيامِهِ ، علامتُهما الخشيةُ للهِ سبحانَهُ ، والورعُ في الدينِ ، والزهدُ في الدنيا ، والإيثارُ للهِ عزَّ وجلَّ .

لكنَّ الحجَّةَ محفوظٌ مِنَ المراءِ والجدالِ والخصوماتِ ، فهوَ حبْرٌ عليمٌ ، علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ .

والحجَّاجُ مدفوعٌ إلىٰ إقامةِ الحجَّةِ ، وإطفاءِ نارِ البدعةِ ، قدْ أخرسَ المتكلمينَ ، وأفحمَ المتخرِّصينَ ، برهانُهُ ساطعٌ ، وبيانُهُ قاطعٌ ، وحقُّهُ ما ينازعُ ، شواهدُهُ بيِّنةٌ ، ونجومُهُ نيِّرةٌ ، قدْ حمَى اللهُ بهِ الدينَ ، وعُرِفَ بواضحِ برهانِهِ وحقائقِهِ ودلائلِهِ وَضَحُ الحقِّ المبينِ ، فهوَ ربانيٌّ عليمٌ علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ .

والمحجوجُ : عالِمٌ باللهِ وبأمرِهِ وبأيامِهِ وبآياتِهِ ، ولكنَّهُ فقدَ الخشيةَ للهِ برؤيتِهِ لنفسِهِ ، وحجبَهُ عَنِ الورعِ والزهدِ في الدنيا الرغبةُ والحرصُ ، وبعَّدَهُ

---

(١) البيتان من البسيط ، لم يعرف قائلهما .
(٢) في (ث ، ذ) : (غرض) .

مِنْ بركاتِ علمِهِ محبةُ العلوِّ والشرفِ ، وخوفُ السقوطِ والفقرِ .

فهوَ عبدٌ لعبيدِ الدنيا ، خادمٌ لخدَمِها ، مفتونٌ بعدَ علمِهِ ، مغترٌّ بعدَ معرفتِهِ ، مخذولٌ بعدَ نصرتِهِ ، شأنُهُ الاحتقارُ لنعمِ اللهِ تعالىٰ ، والإزراءُ بأوليائِهِ ، والاستخفافُ بالجهَّالِ مِنْ عبادِهِ ، وفخرُه بلقاءِ أميرِهِ ، وصلةِ سلطانِهِ ، وطاعَةِ القاضي والوزيرِ والحاجبِ لهُ .

قدْ أهلكَ نفسَهُ حينَ لمْ ينتفعْ بعلمِهِ ، وأهلكَ الجهَّالَ والأتباعَ لَهُ ومَنْ يكونُ بعدَهُ قدوةً بهِ ، ومرادُهُ مِنَ الدنيا مثلُهُ .

وفي مثلِ هٰذا ضربَ اللهُ تعالى المثلَ حينَ قالَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ .

فويلٌ لمَنْ صحبَ مثلَ هٰذا في دنياهُ ، وويلٌ لمَنِ اتَّبعَهُ في دينِهِ ، وهٰذا هوَ الذي أكلَ بدينِهِ ، غيرَ منصفٍ للهِ سبحانَهُ في نفسِهِ ، ولا ناصحٍ لهُ في عبادِهِ ، تراهُ إنْ أُعطِيَ مِنَ الدنيا . . رضيَ بالمِدحةِ لِمَنْ أعطاهُ ، وإنْ مُنعَ . . رضيَ بالذمِّ لمَنْ منعَهُ ، وقدْ نسيَ مَنْ قسَّمَ الأرزاقَ ، وقدَّرَ الأقدارَ ، وأجرى الأسبابَ ، وفرغَ مِنَ الخلقِ كلِّهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ ، ومِنَ الضلالةِ بعدَ الهدىٰ .

وإنَّما زدتُكَ هٰذهِ الزيادَةَ وإنْ ظهرَ لكثيرٍ أنها ليستْ مِنَ الغرضِ الذي نحنُ فيهِ ، **فقصدِي أنْ تعلمَ مَنْ ذهبَ مِنَ الناسِ ومَنْ بقيَ ، ومَنْ أبصرَ الحقائقَ ومَنْ عميَ ، ومَنِ اهتدىٰ إلى الصراطِ المستقيمِ ومَنْ غويَ .**

فلتعلمْ أنَّ الصنفينِ الأوَّلَيْنِ مِنَ العلماءِ قدْ ذهبُوا ، وإنْ كانَ قدْ بقيَ منهُمْ أحدٌ . . فهوَ غيرُ محسوسٍ للناسِ ، ولا مُدْرَكٍ بالمخالطةِ .

غابَ الذينَ إذا ما حدَّثُوا صدَقُوا وظنُّهُمْ كيقينٍ إنْ هُمُ حدَسُوا[١]

وذلكَ لِمَا سبقَ في القضاءِ مِنْ ظهورِ الفسادِ ، وعدمِ أهلِ الصلاحِ والرشادِ .

نعمْ ؛ وعُدِمَ الصنفُ الثالثُ علىٰ عزَّتِهِ ، وأعزُّ شيءٍ علىٰ وجهِ الأرضِ في الغالبِ ما يقعُ عليهِ بالحقيقةِ اسمُ علمٍ عندَ شخصٍ مشهورٍ بهِ .

وإنَّما الموجودُ اليومَ أهلُ سخافةٍ ودعوىٰ ، وحماقةٍ واجتراءٍ ، وعُجْبٍ بغيرِ فضيلةٍ ورياءٍ .

يحبونَ أنْ يُحمدُوا بما لمْ يفعلُوا ، وهُمْ أكثرُ مَنْ عمَرَ الأرضَ وصيَّرُوا أنفسَهُمْ أوتادَ البلادِ ، وأرْسانَ العوامِّ .

وهُمْ حلفاءُ[٢] إبليسَ ، وأعداءُ الحقائقِ والخالقِ والخلائقِ ، وأخدانُ

---

(١) البيت من البسيط ، ولم يعلم قائله .

(٢) في غير (ش ، خ) : (خلفاء) .

العوائدِ السوءِ ، وعنهُمْ يَرِدُ عيبُ الحِكَمِ الشائعةِ ، والبغضُ مِنَ العلماءِ العارفينَ ، وانتقاصُ أهلِ الإرادةِ والدينِ .

مثْلُ البهائِمِ جهلاً عزَّ خالقُهُمْ لهُمْ تصاويرُ لمْ يُقرنْ بهنَّ حِجَا[1]

غيرُهُ[2] :

كـلٌّ يـرومُ علـىٰ مقـدارِ حيلتِـهِ زوائِـرُ الأُسْـدِ والنبَّـاحَـةُ اللُّهَثَـا

﴿ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، **أولئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ ، أولئكُ هُم الغافلونَ .**

أُولُو النِّفاقِ إذا قلتَ ٱصدُقُوا كذَبَوا مِنَ السفاهِ وإنْ قلتَ ٱكذِبُوا صدَقُوا[3]

فلنأخُذْ في جوابِ ما سألتَ عنْهُ علىٰ نحوِ ما رغبتَ فيهِ ، وأستوهِبُ اللهَ نفوذَ البصيرَةِ ، وحُسْنَ السريرَةِ ، وغفرانَ الجريرَةِ ؛ فهوَ ربِّي وربُّ كلِّ شيءٍ وإليهِ المصيرُ ، وهوَ حسبِي ونعمَ الوكيلُ .

❋ ❋ ❋

---

(١) البيت من البسيط ، لم يعرف قائله .
(٢) البيت من البسيط : لم يعرف قائله ، وفي (ث ، ذ) : (أين الأسود من النباحة اللهث) .
(٣) البيت من البسيط ، لم يعرف قائله .

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسمُ في « الإحياءِ » بتقسيمِ التوحيدِ على أربعِ مراتبَ تشبيهاً بالجوزِ ؛ لموافقتِهِ للغرضِ في التمثيلِ بهِ ، وذكرتُ بأنَّ المعترِضَ وسوسَ ، أوْ بالخواطرِ هجسَ ، بأنَّ لفظَ التوحيدِ ينافي التقسيمَ ، إذْ لا يخلُو :

إمَّا أنْ يتعلقَ بوصفِ الواحدِ الذي ليسَ بزائدٍ عليهِ ، فذلكَ لا ينقسمُ لا بالجنسِ ولا بالفصلِ ولا بغيرِ ذلكَ .

وإمَّا أنْ يتعلقَ بوصفِ المكلفينَ الذينَ يُوجَبُ لهُمْ حكْمُهُ إذا وُجِدَ فيهِمْ ، فذلكَ أيضاً لا ينقسمُ مِنْ حيثُ انتسابُهُمْ إليهِ بالعقلِ ، وذلكَ لضيقِ المجالِ فيهِ .

ولهـٰذا لا يُتصوَّرُ فيهِ مذاهبُ ، وإنَّما التوحيدُ مسلكٌ حقٌّ بينَ مسلكينِ باطلينِ :

أحدُهُما : شركٌ . والآخرُ : تلَاشٍ . وكلا الطرفينِ كفرٌ .

والوسطُ إيمانٌ محضٌ ، وهوَ أحدُّ مِنَ السيفِ ، وأضيقُ مِنْ خطِّ الظلِّ .

ولهـٰذا قالَ أكثرُ المتكلمِينَ بتماثُلِ إيمانِ جميعِ المؤمنينَ مِنَ الملائكةِ والنبيِّينَ والمرسلينَ وسائرِ عمومِ المسلمينَ ، وإنَّما يختلفُ طرقُ إيمانِهِمُ التي هيَ علومُهُمْ ، ومذهبُهُمْ في ذلكَ معروفٌ .

ونحنُ لا نُلِمُّ في هـٰذِهِ الأجوبةِ كلِّها بشيءٍ مِنْ أنحاءِ الجدالِ ، ومقابلةِ

الأقوالِ بالأقوالِ ، **بلْ نقصدُ إزالةَ عينِ الإشكالِ ، وردَّ ما طعنَ بهِ أهلُ الضلالِ والإضلالِ** .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ التقسيمَ على الإطلاقِ يستعملُ علىٰ أنحاءٍ لا يتوجَّهُ هٰهنا شيءٌ ممّا قدحَ بهِ المعترِضُ ، أو هجسَ بهِ الخاطرُ .

وإنَّما المستعمَلُ هٰهُنا مِنْ أنحائِهِ ما يتميزُ بهِ بعضُ الأشخاصِ بما اختُصَّ بهِ مِنَ الأحوالِ ، **وكلُّ حالةٍ منها تسمَّىٰ توحيداً علىٰ جهةٍ تنفردُ بها ، لا يشاركُها فيها غيرُها** .

فمَنْ وُجدَ منهُ التوحيدُ بلسانِهِ . . **سُمِّيَ لأجلِهِ موحِّداً** ، ما دامَ الظنُّ بهِ أنَّ قلبَهُ موافِقٌ للسانِهِ ، وإنْ عُلِمَ منهُ خلافُ ذلكَ . . سُلِبَ عنهُ الاسمُ ، وأُقيمَ عليهِ ما شُرِعَ مِنَ الحكمِ .

ومَنْ وحَّدَ بقلبِهِ علىٰ طريقِ الركونِ إليهِ ، والميلِ إلى اعتقادِهِ ، والسكونِ نحوَهُ بلا علمٍ يصحبُهُ فيهِ ، ولا برهانٍ يربطُهُ بهِ . . **سُمِّيَ أيضاً موحِّداً** ، علىٰ معنىٰ أنَّهُ يعتقدُ التوحيدَ ، كما يُسمَّىٰ مَنْ يعتقدُ مذهبَ الشافعيِّ شافعياً ، والحنبليِّ حنبلياً .

ومَنْ رُزقَ علمَ التوحيدِ ، وخُصَّ بما يتحقَّقُ بهِ عندَهُ ، وتنتفي مِنْ أجلِهِ شكوكُهُ العارضةُ لهُ . . **يُسمَّىٰ موحِّداً** ، مِنْ جهةِ أنَّهُ عارفٌ بهِ ، كما يقالُ : جدليّاً ونحوياً وفقهياً ، ومعناهُ : أنهُ يعرفُ الجدلَ والفقهَ والنحوَ .

وأمَّا مَنِ استغرقَ علمُ التوحيدِ قلبَهُ ، واستولىٰ علىٰ جملتِهِ حتَّىٰ لا يوجدَ فيهِ فضلٌ لغيرِهِ إلاَّ علىٰ طريقِ التبعيَّةِ لهُ ، ويكونُ شهودُ التوحيدِ لكلِّ ما عداهُ سابقاً لهُ معَ الذكرِ والفكرِ[1] ، مصاحباً مِنْ غيرِ أنْ يعتريَهُ ذهولٌ عنهُ ولا نسيانٌ لهُ ، لأجلِ اشتغالِهِ بغيرِهِ كالعادةِ في سائرِ العلومِ . **فهٰذا يُسمَّىٰ موحِّداً** ، ويكونُ القصدُ بما يُسمَّىٰ بهِ مِنْ ذلكَ المبالغةَ فيهِ .

فهٰذِهِ أربعُ مراتبَ يصحُّ إطلاقُ اسمِ التوحيدِ عليها .

* * *

فأمَّا الصنفُ الأولُ ـ وهُمْ أربابُ النطقِ المجرَّدِ[2] ـ : **فلا يضربونَ في التوحيدِ بسهمٍ** ، ولا يفوزونَ منهُ بنصيبٍ ، ولا يكونُ لهُمْ شيءٌ مِنْ أحكامِ أهلِهِ إلاَّ في الحياةِ الأولىٰ ، ما دامَ الظنُّ بهِمْ أنَّ قلبَ أحدِهِمْ موافقٌ للسانِهِ ، كما نعيدُ القولَ عليهِ بعدَ هٰذا إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

وأمَّا الصنفُ الثاني ـ وهُمْ أربابُ الاعتقادِ الذينَ سمعُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوِ الوارثَ أوِ المبلِّغَ يخبرُ عَنْ توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أوْ يأمرُ بهِ ، ويُلزِمُ البشرَ قولَ : (لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ) المنبِيءَ عنهُ ، فقبلُوا ذلكَ ، واعتقدُوه على الجملةِ ، مِنْ غيرِ تفصيلٍ ولا دليلٍ ـ : **فنُسِبُوا إلى التوحيدِ** ، وكانُوا مِنْ

---

(١) في غير (ر) : (والتذكير) بدل (والفكر) .
(٢) في غير (ت ، ض) : (النطق المفرد) .

أهلِهِ بمنزلةِ مولَى القومِ الذي هوَ منهُمْ ، وبمنزلةِ : (مَنْ كثَّرَ سوادَ قومٍ . . فهوَ منهُمْ) .

* * *

وأمَّا الصنفُ الثالثُ والرابعُ : فهُمْ أربابُ البصائرِ السليمةِ ، الذينَ نظرُوا بها إلىٰ أنفسِهِمْ ، ثمَّ إلىٰ سائرِ أنواعِ المخلوقاتِ فتأمَّلُوها ، فرأَوْا علىٰ كلِّ نوعٍ منها خطّاً منطبعاً فيها ، ليسَ بعربيٍّ ، ولا سريانيٍّ ، ولا عبرانيٍّ ، ولا غيرَ ذلكَ مِنْ أجناسِ الخطوطِ .

فبادَرَ إلىٰ قراءتِهِ مَنْ لمْ يستعجِمْ عليهِ ، وتعلَّمَهُ منهُمْ مَنِ استعجَمَ عليهِ ؛ فإذا هوَ الخطُّ الإلـٰهيُّ المكتوبُ علىٰ صفحةِ كلِّ مخلوقٍ ، المنطبعُ فيهِ مِنْ مركَّبٍ ومفردٍ ، وصفةٍ وموصوفٍ ، وحيٍّ وجمادٍ ، وناطقٍ وصامتٍ ، ومتحرِّكٍ وساكنٍ ، ومظلمٍ ونيِّرٍ .

وهوَ الذي يُسمَّىٰ تارةً بعلامةٍ ، وتارةً بسِمَةٍ ، وتارةً بأثرِ القدرةِ ، وتارةً بآيةٍ ، كما قالَ شاعِرُهُمْ ، ولا أدري عَنْ سماعٍ أَوْ رؤيةِ قلبٍ[1] : [من المتقارب]

فَـوَا عجبـاً كيـفَ يُعصَـى الإلـٰ ـهُ أمْ كيـفَ يجحـدُهُ جـاحِـدُ

وفـي كـلِّ شـيءٍ لـهُ آيـةٌ تـدلُّ علـىٰ أنَّـهُ واحِـدُ

فلمَّا قرؤُوا ذلكَ الخطَّ . . وجدُوا تفسيرَهُ حدوثَ المكتوبِ عليهِ ، وشرحَهُ أبديَّةَ مالكِهِ والتصريفَ لهُ بالقدرةِ علىٰ حكمِ الإرادةِ بما ثبتَ في

---

(١) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٠٤) .

سابقِ العلمِ مِنْ غيرِ مزيدٍ ولا نقصٍ ، فتركُوا الكتابةَ والمكتوبَ ، وترقَّوْا منها إلىٰ معرفةِ الكاتبِ ، الذي أحدثَ الأشياءَ وكوَّنَها ، ولمْ يخرجْ عَنْ ملكِهِ شيءٌ منها ، ولا استغنَتْ بأنفسِها عَنْ حولِهِ وقوَّتِهِ طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ مِنْ ذلكَ ، ولا انتهضَتْ[1] إلى الحريَّةِ عَنْ رقِّ استعبادِهِ ، فوجدُوه كما وصفَ نفسَهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فحصلَتْ لهُمُ التفرقةُ والجمعُ ، وعقلَتْ نفسُ كلِّ واحدٍ منهُمْ توحيدَ خالقِها وإيجادَ غيرِهِ بإذنِهِ ، وعقلَتْ أنَّها عقلَتْ توحيدَهُ ، فسبحانَ مَنْ يسَّرَها لذلِكَ ، وفتحَ عليها ما ليسَ في وسعِها أنْ تدركَهُ إلاَّ بهِ وهوَ اللطيفُ الخبيرُ .

* * *

لكنَّ الصنفَ الثالثَ لمْ يبعدْ كلٌّ منهُمْ أنْ عرفَ نفسَهُ موحِّداً لربِّهِ فيما لا يزالُ[2] ، وهُمُ المقرَّبونَ .

والصنفُ الرابعُ لمْ يقصرْ كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ عرفَ ربَّهُ موحِّداً لنفسِهِ فيما لمْ يزلْ ، وهُمُ الصدِّيقونَ ، وبينَهُما تفاوتٌ كثيرٌ .

* * *

وأمَّا طريقُ معرفةِ صحَّةِ هٰذا التقسيمِ . . فلأنَّ العقلاءَ بأسرِهِمْ لا يخلُو

---

(١) في (ث ، ذ) : (ولا افتقرت) بدل (ولا انتهضت) .

(٢) في (ث ، ذ) : (لم يزل) .

كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ يوجدَ فيهِ أثرُ التوحيدِ بأحدِ الأنحاءِ المذكورةِ عندَهُ أوْ لا يوجدُ .

فأمَّا مَنْ عُدِمَتْ عندَهُ . . فهوَ كافرٌ إنْ كانَ في زمنِ الدعوةِ ، أوْ علىٰ قربٍ يمكِنُ وصولُ علمِها إليهِ ، أوْ في فترةٍ يتوجَّهُ عليهِ فيها التكليفُ ، وهـٰذا صنفٌ مبعَدٌ عَنْ مقامِ هـٰذا الكلامِ .

وأمَّا مَنْ يوجدُ عندَهُ . . فلا يخلُو أنْ يكونَ مقلِّداً في عقدِهِ ، أوْ عالِماً بهِ ، فالمقلِّدُون هُمُ العوامُّ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الثانيةِ في الكتابِ .

وأمَّا العلماءُ بحقيقةِ عقدِهِمْ . . فلا يخلُو كلُّ واحدٍ منهُمْ أنْ يكونَ بلغَ الغايةَ التي أُعِدَّتْ لصنفِهِ دونَ النبوَّةِ ، أوْ لمْ يبلغْ ولكنَّهُ قريبٌ مِنَ البلوغِ .

فالذي لمْ يبلغْ وكانَ علىٰ قربٍ . . هُمُ المقربونَ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الثالثةِ .

والذينَ بلغُوا الغايةَ التي أُعِدَّتْ لهُمْ . . هُمُ الصدِّيقونَ ، وهُمْ أهلُ المرتبةِ الرابعةِ .

وهـٰذا تقسيمٌ ظاهرُ الصحَّةِ ؛ إذْ هوَ دائرٌ بينَ النفيِ والإثباتِ ، ومحصورٌ بينَ المبادىءِ والغاياتِ .

ولمْ يدخلْ أهلُ المرتبةِ الأولىٰ في شيءٍ مِنْ تصحيحِ هـٰذا التقسيمِ ؛ إذْ ليسَ هُمْ مِنْ أهلِهِ إلَّا بانتسابٍ كاذبٍ ، ودعوىً غيرِ صادقةٍ .

* * *

ثمَّ لا بدَّ مِنَ الوفاءِ بما وعدناكَ بهِ ؛ مِنْ إبداءِ بحثٍ ، ومزيدِ شرحٍ ، وبسطِ بيانٍ ، تعرفُ منهُ بإذنِ اللهِ تعالىٰ حقيقةَ كلِّ مرتبةٍ ومقامٍ ، وانقسامَ أهلِهِ فيهِ بحسْبِ الطاقةِ والإمكانِ ، بما يُجريهِ الواحدُ الحقُّ على القلبِ واللسانِ .

* * *

المرتبة الأولى[1]
بيان مقام أهل النّطق المجرّد وتمييز فرقهم

اعلمْ : أنَّ أربابَ النطقِ المجرَّدِ أربعةُ أصنافٍ :

أحدُهُمْ : صنفٌ نطقُوا بكلمةِ التوحيدِ معَ شهادةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ لمْ يعتقدُوا معنىٰ ما نطقُوا بهِ لَمَّا لم يعلَمُوهُ ولا تصوَّرُوا صحتَهُ ولا فسادَهُ ، ولا صدقَهُ ولا كذبَهُ ، ولا خطأَهُ ولا صوابَهُ ؛ إذْ لمْ يبحثُوا عنهُ ولا أرادُوا فَهمَهُ ؛ إمَّا لبعدِ همَّتِهِمْ وقلَّةِ اكتراثِهِمْ ، وإمَّا لنفورِهِمْ عَنِ التعبِ وخوفِهِمْ إنْ هُمْ تكلَّفُوا البحثَ عمَّا نطقُوا بهِ أنْ يبدوَ لهُمْ ما يُلزمُهُمُ الاعتقادَ والعملَ وما بعدَ ذلكَ .

فإنِ التزمُوه . . فارقُوا راحةَ أبدانِهِمُ العاجلةَ ، وفراغَ أنفسِهِمْ ، وإنْ لمْ يلتزمُوا شيئاً مِنْ ذلكَ وقدْ حصلَ لهُمُ العلمُ . . فيكونُ عيشُهُمْ منغَّصاً ، وملاذُّهُمْ مكدَّرةً ؛ مِنْ خوفِ عقابِ تركِ ما علمُوا لزومَهُ .

ومثَلُ هؤلاءِ مثَلُ مَنْ يريدُ قراءةَ الطبِّ ، أو يُعرضُ عليهِ ، ولكنْ يمنعُهُ منهُ مخافةُ أنْ يطَّلعَ منهُ علىٰ ما يغيِّبُ عنهُ[2] بعضَ ملاذِّهِ مِنَ الأطعمةِ والأشربةِ والأنكحةِ ، أوْ كثيراً منها فيحتاجُ إلىٰ أنْ يتركَها ، أوْ يرتكِبَها علىٰ رُقْبَةٍ أوْ

---

(١) لفظ (المرتبة الأولى) : زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) في (ش ، ث ، خ) : (يعيب عنده) .

خوفِ أنْ يصيبَهُ ضررُ ما يعلمُ ضرَرَهُ منها ، فيدعُ قراءةَ الطبِّ رأساً .

فإذا سُئلَ هٰذا الصنفُ عَنْ معنىٰ ما نطقُوا بهِ ، وهلِ اعتقدُوهُ ؟

فيقولونَ : لا نعلمُ فيهِ ما يُعتقدُ ، وما دعانا إلى النطقِ بهِ شيءٌ إلاَّ مساعدةُ الجماهيرِ ، وانخراطُنا بإظهارِ القولِ في الجمِّ الغفيرِ ، ولا نعرفُ هلْ ما قلناهُ بالحقيقةِ مِنْ قبيلِ العُرْفِ أوِ النكيرِ .

ولا شكَّ أنَّ هٰذا الصنفَ الذي أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ حالهِ بمساءَلَةِ الملَكَيْنِ أحدَهُمْ في القبرِ ؛ إذْ يقولانِ لهُ : مَنْ ربُّكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟

فيقولُ : لا أدرِي ، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئاً فقلتُهُ .

فيقولانِ لهُ : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ .

وسمَّاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشاكَّ » أوِ « المرتابَ »[(١)] .

***

الصنفُ الثانِي : نطقُوا كما نطقَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ، ولكنَّهُمْ أضافُوا إلىٰ قولِهِمْ ما لا يحصلُ معهُ الإيمانُ ولا ينتظمُ بهِ معنى التوحيدِ ، وذلكَ مثلُ ما قالتِ السبائيَّةُ ـ طائفةٌ مِنَ الشيعةِ القدماءِ ـ : إنَّ علياً هوَ الإلٰهُ ، وبلغَ

---

(١) رواه البخاري (٨٦) ، ومسلم (٩٠٥) وفيه : « فأما المؤمن أو الموقن . . فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدىٰ ، فأجبنا واتبعنا ، هو محمد (ثلاثاً) ، فيقال : نم صالحاً قد علمنا : إن كنت لموقناً به ، وأما المنافق أو المرتاب . . فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » .

أمرُهُمْ علياً رضيَ اللهُ عنهُ ، وكانُوا في زمنِهِ ، فحرقَ منهُمْ جماعةً[1] .

وأمثالُ مَنْ نطقَ بالشهادتينِ كثيرٌ ، ثمَّ أصحبَ نطقَهُ مثلَ هـٰذا النكيرِ ، ويُسمَّوْنَ الزنادقةَ .

وقدْ روينَا حديثاً عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ذلكَ نصُّهُ : « ستفترقُ أمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعينَ فرقَةً ، كلُّها في الجنةِ إلاَّ الزنادقةَ »[2] .

* * *

الصنفُ الثالثُ : نطقُوا كما نطقَ الصنفانِ المذكورانِ قبلَهُمْ ، ولكنَّهُمْ أسرُّوا التكذيبَ ، واعتقدُوا الردَّ ، واستبطَنُوا خلافَ ما ظهرَ منهُمْ مِنَ الإقرارِ ، وإذا رجعُوا إلىٰ أهلِ الإلحادِ . أعلنُوا عندَهُمْ بكلمةِ الكفرِ ، فهؤلاءِ هُمُ المنافقُونَ الذينَ ذكرهُمُ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ العزيزِ بقولِهِ : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

* * *

الصنفُ الرابعُ : قومٌ لمْ يعرفُوا التوحيدَ ، ولا نشؤُوا عليهِ ، ولا عرفُوا أهلَهُ ، ولا سكنُوا بينَ أظهرِهِمْ ، ولكنهُمْ حينَ وصلُوا إلينا أوْ وصلَ إليهِمْ أحدٌ منّا . خُوطِبُوا بالأمرِ المقتضِي للنطقِ بالشهادتينِ ، والإقرارِ بهِما ،

---

(١) أورده الآجري في « الشريعة » (٢٠١٢) ، **والسبائية** : أتباع عبد الله بن سبأ ، انظر « التبصير في الدين » للسمعاني (ص ١٠٣) و« فتح الباري » (١٢/ ٢٧٠) .

(٢) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٢٣٥٩) .

فقالُوا : لا نعلمُ مقتضَىٰ هـٰذا اللفظِ ، ولا نعقلُ معنى المأمورِ بهِ مِنَ النطقِ .

فأُمِرُوا أَنْ يظهِرُوا الرضا بالقولِ ، ثمَّ يتفهَّمُوا بمهلةٍ[1] ، فسكنُوا إلىٰ ما قيلَ لهُمْ ، ونطقُوا بالشهادتينِ ظاهراً ، وهُمْ على الجهلِ بما يعتقدُون فيها ، واختُرِمَ أحدٌ منهُمْ مِنْ حينِهِ ، مِنْ قبلِ أَنْ يتأتَّىٰ منهُ استفهامٌ أَوْ تصورٌ يمكنُ أَنْ يكونَ لهُ معتقَداً ، **فهـٰذا يُرجَىٰ ألاَّ تضيقَ عنهُ سعةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، والحكمُ عليهِ بالنارِ والخلودِ فيها معَ الكفارِ . تحكُّمٌ علىٰ غيبِ اللهِ سبحانَهُ .

وربَّما كانَ مِنْ هـٰذا الصنفِ في الحكمِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ قومٌ رُزِقُوا مِنْ بُعْدِ الفهمِ وغَيْبِ الذهنِ وفرطِ البلادةِ أَنْ يُدعَوْا إلى النطقِ فيجيبُوا مساعدةً ومحاكاةً ، ثمَّ يُدعَوْا إلىٰ تفهُّمِ المعنىٰ بكلِّ وجهٍ فلا يتأتَّىٰ منهُمْ قبولٌ لِمَا يُعرَضُ عليهِمْ تفهيمُهُ ، كأنَّما تخاطبُ بهيمةً ، ومثلُ هـٰذا أيضاً في الوجودِ كثيرٌ ، **ولاَ حُكْمَ علىٰ مثلِهِ بخلودٍ في النارِ** .

ولا يبعدُ أَنْ يكونَ هـٰذا الصنفُ بأسرِهِ ـ أعني المخترمَ قبلَ تحصيلِ العقدِ معَ هـٰذا البليدِ البعيدِ ـ بعضَ مَنْ ذكرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ الشفاعةِ ، الذينَ أخرجَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ النارِ بشفاعتِهِ ، حينَ يقولُ تعالىٰ : « فرغَتْ شفاعةُ الملائكةِ والنبيِّينَ ، وبقيَتْ شفاعتِي » وهوَ أرحمُ الراحمينَ ، فيُخرِجُ مِنَ النارِ أقواماً لَمْ يعملُوا حسنةً قطُّ ، ويدخلونَ الجنةَ ، ويكونُ في أعناقِهِمْ سِمَاتٌ ، **ويُسمَّونَ عتقاءَ اللهِ عزَّ وجلَّ** ، والحديثُ فيهِ

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (بلا مهلة) .

طولٌ ، وهوَ صحيحٌ ، وإنَّما اختصرتُ منهُ قدرَ الحاجةِ على المعنىٰ[1] .

وحكمُ الصنفِ الأولِ والثاني والثالثِ أجمعينَ ، أعني : أهلَ النطقِ المذكورينَ قبلُ في التوحيدِ :

ألاّ تجبَ لهُمُ حرمةٌ ، ولا تكونَ لهُمْ عصمةٌ ، ولا ينسبُوا إلىٰ إيمانٍ ولا إلىٰ إسلامٍ .

بلْ هُمْ أجمعونَ مِنْ زمرةِ الكافرينَ وجملةِ الهالكينَ ، فإنْ عُثِرَ عليهِمْ في الدنيا . . قُتِلُوا فيها بسيوفِ الموحِّدينَ ، وإنْ لم يُعثَرْ عليهِمْ . . فهُمْ صائرونَ إلىٰ جهنَّمَ خالدونَ فيها ، ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ .

فَصْلٌ

[لفظُ التوحيدِ لا ينفعُ صاحبَهُ إلاَّ إنْ صحبَهُ الاعتقادُ]

ولمَّا كانَ اللفظُ المنبىءُ عنِ التوحيدِ إذا انفردَ عَنِ العقدِ وتجرَّدَ عنهُ لمْ يقعْ بهِ في حكمِ الشرعِ منفعةٌ ، ولا لصاحبهِ بسببهِ نجاةٌ ، إلاَّ مدةَ حياتهِ عَنِ السيفِ أنْ يراقَ دمُهُ ، واليدِ أنْ تُسلَّطَ علىٰ مالِهِ إذْ لمْ يُعلَمْ خفيُّ حالِهِ . . **حَسُنَ فيهِ أنْ يشبَّهَ بقشرِ الجوزِ الأعلىٰ** .

فهوَ لا يُحملُ في الأكمامِ ولا يُرفعُ في البيوتِ ، ولا يُحضَرُ في مجالسِ الطعامِ ، ولا تشتهيهِ النفوسُ إلاّ ما دامَ منطوياً علىٰ مطعَمِهِ ، صُواناً علىٰ لبِّهِ ، فإذا أُزيلَ عنهُ بكسرٍ أوْ عُلِمَ منهُ أنَّهُ منطوٍ علىٰ فراغٍ ، أوْ سوسٍ ، أوْ

---

(١) رواه مسلم (١٨٣) .

طعمٍ فاسدٍ . . لمْ يصلُحْ لشيءٍ سوى النارِ ، ولمْ يبقَ فيهِ غرضٌ لأحدٍ ، وهٰذا لا خفاءَ لصحَّتِهِ .

والغرضُ بالتمثيلِ تقريبُ ما غمضَ إلىٰ فهمِ الطالبِ ، وتسهيلُ ما اعتاصَ على المتعلِّمِ والسامعِ فهمُهُ .

وليسَ مِنْ شرطِ المثالِ أنْ يطابقَ الممثَّلَ بهِ مِنْ كلِّ وجهٍ ، فكانَ يكونُ هوَ هوَ ، ولكنَّهُ مِنْ شرطِهِ أنْ يكونَ مطابقاً للوجهِ المرادِ منهُ .

فَصْلٌ

[في الصارفِ للناطقينَ بالتوحيدِ عَنِ النظرِ والاعتقادِ]

فإنْ قلتَ : فما الذي صدَّ هؤلاءِ الأصنافَ الثلاثةَ مِنْ أهلِ النطقِ المجرَّدِ عَنِ النظرِ والبحثِ حتَّىٰ يعلَمُوا ، أوِ المجرَّدِ عَنِ الاعتقادِ حتَّىٰ يخلصُوا بهِ مِنْ عذابِ اللهِ ، وهُمْ في الظاهرِ قادرونَ علىٰ ذلكَ ؟

وما المانعُ الخفيُّ الذي منعَهُمْ وأبعدَهُمْ عنهُ وهُمْ يعلمونَ أنَّ ما عليهِمْ في ذلكَ كبيرَ مؤنةٍ ، ولا عظيمَ مشقَّةٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا السؤالَ يفتحُ باباً عظيماً ، ويهزُّ قاعدةً كبيرةً ، نخافُ مِنَ التوغُّلِ فيها أنْ نخرجَ مِنَ المقصدِ .

ولكنْ لا بدَّ إذْ وقعَ في الأسماعِ ، ووعتْهُ قلوبُ الطالبينَ ، واشرأبَّتْ إلىٰ سماعِ الجوابِ عنهُ . . أنْ نوردَ في ذلكَ قدرَ ما تقعُ بهِ الكفايةُ ، وتقنعُ بهِ النفوسُ بحولِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقوَّتِهِ .

نعمْ ، ما سبقَ في العلمِ القديمِ لا تجرِي بخلافِهِ المقاديرُ في الحديثِ ، منعهُمْ مِنْ ذلكَ ما أرادَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنِ اختصاصِ قلوبهِمْ بالأخلاقِ الكلابيَّةِ ، والشيمِ الذئابيَّةِ ، والطباعِ السبعيَّةِ ، وغلبتِها عليهِمْ ، **والملائكةُ لا تدخلُ بيتاً فيهِ كلبٌ ، كذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ**(١) .

والقلوبُ بيوتٌ تولَّى اللهُ بناءَها بيدِهِ ، وأعدَّها لأنْ تكونَ خزائنَ علمِهِ ، ومساربَ(٢) مكنوناتِهِ ، ومهبطَ ملائكتِهِ ، ومغاشيَ أنوارِهِ ، ومهابَّ نفحاتِهِ ، ومحالَّ مكاشفاتِهِ ، ومجاريَ رحمتِهِ ، وهيأَها لتحصيلِ المعرفةِ بهِ .

فمتىٰ كانَ فيها شيءٌ منْ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ . . لمْ تدخلْها الملائكةُ ، ولمْ تنزلْ عليها بشيءٍ مِنَ الخيرِ مِنْ قِبَلِهِ ؛ إذْ هيَ الوسائطُ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ خلقِهِ ، وهُمُ الوفودُ منهُ بالخيراتِ والموصلونَ إليهِ(٣) وعنهُ بالباقياتِ الصالحاتِ .

ولولاَ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ التي حلَّتْ فيهِمْ ؛ وهيَ التي ذُمَّ الكلبُ لأجلِها . . لَمَا أُحرِمَتِ الملائكةُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ عنْ حلولِها فيها وهيَ لا تخلُو مِنْ خيرٍ تنزلُ بهِ ، ويكونُ معها ، فحيثُما حلَّتْ . . حلَّ الخيرُ في ذلكَ القلبِ بحلولِها فيهِ .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

(٢) في غير (ث ، ذ) : (ومشارب) .

(٣) في غير (ر) : (والواصلون إليه) .

وإنَّما هيَ مترصدةٌ لها ، فحيثُما وجدَتْ قلباً خالياً ولوْ حيناً مِنَ الدهْرِ وزمناً . . نزلَتْ عليهِ ودخلَتْهُ ، وبثَّتْ ما عندَها مِنَ الخيرِ حولَهُ ، فإنْ لمْ يطرأ على الملائكةِ ما يزعجُها عنهُ مِنْ تلكَ الأخلاقِ المذمومةِ ، بواسطةِ الشياطينِ الذينَ هُمْ في مقابلةِ الملائكةِ . . ثبتَتْ عندَهُ ، وسكنَتْ فيهِ ، ولمْ تبرحْ منهُ ، وعَمَرَتْهُ بقدْرِ سعةِ البيتِ وانشراحِهِ مِنَ الخيرِ .

فإنْ كانَ البيتُ كبيرَ الاتساعِ . . أكثرَتْ فيهِ مِنْ متاعِها ، واستعانَتْ بغيرِها ، حتَّىٰ يمتلىءَ القلبُ مِنْ متاعِها وجهازِها ، وهوَ الإيمانُ باللهِ والصلاحُ ، وضروبُ المعارفِ النافعةِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فإذا طرقَ ذلكَ البيتَ طارقُ شيطانٍ ؛ ليسرقَ مِنْ ذلكَ الخيرِ الذي هوَ متاعٌ للملَكِ ، ويبثَّ فيهِ خلقاً مذموماً لا يوجدُ إلاَّ في الكلبِ ، وهوَ متاعُ الشيطانِ . . قاتلَهُ الملَكُ وطردَهُ عَنْ ذلكَ المحلِّ .

فإنْ جاءَ للشيطانِ مددٌ مِنَ الهوىٰ مِنْ قِبَلِ النفسِ ولمْ يجدِ الملَكُ نُصرةً مِنْ عزمِ اليقينِ مِنْ قِبَلِ الروحِ . . انهزمَ الملَكُ وأُخليَ البيتُ ، ونُهِبَ المتاعُ ، وخربَ بعدَ عمارتِهِ ، وأظلمَ بعدَ إنارتِهِ ، وضاقَ بعدَ انشراحِهِ ، وهٰكذا حالُ مَنْ آمنَ وكفرَ ، وأطاعَ وعصىٰ ، واهتدىٰ وضلَّ .

* * *

فإنْ قلتَ : فميِّزْ لِي أعيانَ هٰذِهِ الأخلاقِ المذمومةِ ، التي صدَّتْ هؤلاءِ الأصنافِ المذكورينَ عَنِ اعتقادِ الإيمانِ ، ونفَّرَتِ الملائكةَ عَنِ النزولِ على

قلوبهِمْ بكشفِ معاني التوحيدِ ، ومنعَتْهُمْ مِنَ الحلولِ فيها ، حتَّىٰ لمْ ينالُوا شيئاً مِنَ الخيرِ الكائنِ معَها .

فاعلمْ : أنَّ الأخلاقَ التي لا تجتمعُ معها الملائكةُ في قلبٍ واحدٍ كثيرةٌ ، والتي في قلوبِ هؤلاءِ منها معظمُها ، ومنها الطمعُ في غيرِ خطيرٍ ، والحرصُ علىٰ فانٍ حقيرٍ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا الصنفُ الأولُ . . فإنهُمْ جزعُوا وخافُوا أنْ تبدوَ لهُمْ صحَّةُ ما يشغلُهُمْ عَنْ لذاتِهِمْ ، وينغصُّ عليهِمْ ما رغبُوا فيهِ مِنْ راحاتِهِمْ ، ويكدرُ لديهِمْ منالَ شهواتِهِمْ ، فأبقَوْا أمرَهُمْ علىٰ ما هُمْ عليهِ .

وأمَّا الصنفُ الثاني والثالثُ . . فصدَّهُمْ أيضاً خوفٌ وجزعٌ ، وحرصٌ علىٰ ما ألِفُوهُ مِنْ تبجيلِ أخدانِهِمْ[1] أَنْ يزولَ ، ومؤانسةِ أشياعِهِمْ أنْ تتغيَّرَ وتذهَبَ ، ومواساةِ أُلاَّفِهِمْ أنَ تنقطعَ ، واستثقالاً لِمَا يشاهدونَهُ مِنْ أهلِ الإيمانِ أَنْ يلتزمُوهُ ، وفراراً مِنْ شرائطِهِ وما يصحبُهُ مِنَ الأعمالِ والوظائفِ أنْ يمتثلُوهُ .

والكلبُ ما ذُمَّ لصورتِهِ ، وإنَّما ذُمَّ لمثلِ هـٰذِهِ الأخلاقِ التي هيَ الطمعُ في الخسائسِ ، والجزعُ مِنَ الصبرِ علىٰ ما يُعدُّ مِنَ الفضائلِ ، حتَّى احترُمَتِ الملائكةُ أنْ تدخلَ بيتاً فيهِ كلبٌ .

---

(١) في (ث ، ذ) : (ما ألفوه من إخوانهم) .

[كيفَ يحصلُ الإيمانُ والطاعةُ والهدايةُ ؟]

فإنْ قلتَ : فكيفَ آمنَ مَنْ كفرَ ، وأطاعَ مَنْ عصَىٰ ، واهتدَىٰ مَنْ ضلَّ إذا كانتِ الشياطينُ لا تفارقُ قلبَ الكافرِ والعاصِي والضالِّ بمَا يبثُّونُ فيهِ مِنَ الأخلاقِ المذمومةِ التي هيَ كلابٌ نابحةٌ ، وذئابٌ عاويةٌ ، وسباعٌ ضاريةٌ ، وأصنافُ الخيرِ إنَّما تَرِدُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بواسطةِ الملائكةِ ، وهيَ لا تدخُلُ موضعاً يحلُّ فيهِ شيءٌ ممّا ذكَرْنا ، وإذا لمْ تدخلْ . . لمْ تصلْ إلى الخيرِ الذي يكونُ معها ولمْ تصلْ إليهِ ؟

فعلىٰ هـٰذا يجبُ أنْ يبقَىٰ كلُّ كافرٍ علىٰ حالِهِ ، ومَنْ لمْ يُخلَقْ مؤمناً معصوماً . . فلا سبيلَ لهُ إلى الإيمانِ علىٰ هـٰذا المفهومِ !!

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا يستدعِي علمَ أصنافِ القلوبِ ، ولا سبيلَ إلىٰ ذلكَ في هـٰذا المقامِ ، والقولُ المُغنِي في جوابِ ما سألتَ عنهُ : أنَّ للشياطينِ غفلاتٍ ، وللأخلاقِ المذمومةِ عزماتٍ[1] ، كمَّا أنَّ الملائكةَ لها عَنِ القلوبِ غيباتٌ ، ولتواترِ الخيرِ عليها فتراتٌ ، فإذا وجدَ الملَكُ كما أعلمتُكَ قلباً خالياً ولوْ زمناً فرداً . . حلَّ فيهِ ، وأراهُ ما عندَهُ مِنَ الخيرِ .

فإنْ صادفَ منهُ قبولاً ، ولِمَا عرضَ عليهِ مِنَ الخيرِ تشوُّفاً ونزوعاً . . أوردَ عليهِ ما يملؤُهُ ويستغرقُ لبَّهُ .

---

(١) في (ر ، ت ، ض) : (عدمات) .

وإنْ صادفَ منهُ ضجراً ، وسمعَ منهُ بجنودِ الشيطانِ استغاثةً ، وبالأخلاقِ الكلابيّةِ استعانةً . . رحلَ عنهُ وتركَهُ .

ولهٰذا قلَّما خلا قلبٌ عَنْ لمَّةِ ملَكٍ أوْ نزغَةِ شيطانٍ .

[معنىٰ عدمِ دخولِ الملائكةِ بيتاً فيهِ كلبٌ]

فإنْ قلتَ : فأيُّ بيتٍ فُهِمَ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الخطابِ ؟ وأيَّ كلبٍ أرادَ ؟

هلْ بيتُ القلبِ وكلبُ الخُلُقِ ، أمْ بيتُ اللَّبِنِ وكلبُ الحيوانِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الحديثَ خارجٌ علىٰ سببٍ ، ومعناهُ وجملتُهُ :

أنَّ المقصودَ بالإخبارِ عنهُ هوَ بيتُ اللَّبِنِ ، وكلبُ الحيوانِ المعلومِ ، ولا شكَّ في ذلكَ ، ولكنْ يُستقرَأُ منهُ ما قلناهُ لكَ ، ويُستنبَطُ مِنْ مفهومِهِ ما نبهناكَ عليهِ ، وتتخطَّىٰ منهُ إلىٰ ما أشَرْنا لكَ نحوَهُ ، ولا نكيرَ في ذلكَ ؛ إذا دلَّ عليهِ العلمُ ، وحملَهُ الاستنباطُ ، ولمْ تمجَّهُ القلوبُ المستفتاةُ ، ولمْ تصادمْ بهِ شيئاً مِنْ أركانِ الشريعةِ .

فلا تكنْ جامداً ، ولا تجزعْ مِنْ تشنيعِ جاهلٍ ، ولا مِنْ نفورِ مقلِّدٍ ؛ فكثيراً ما وردَ شرعٌ مقرونٌ بسببٍ فرأىٰ أهلُ الاعتبارِ وجهَ تعدِّيهِ عَنْ سببِهِ إلىٰ ما هوَ في معناهُ ، ومشابهٌ لهُ مِنَ الجهةِ التي تصلحُ أنْ يُعدَّىٰ بهَا إليهِ .

ولولاَ ذلكَ . . لمَا قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »(١) .

سُؤَالٌ

[ما معنىٰ عدمِ دخولِ الملائكةِ بيتاً فيهِ صورةٌ ؟]

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتاً فِيهِ صُورَةٌ »(٢) وعُلِمَ السببُ الذي جاءَ هـٰذا الحديثُ عليهِ وفيهِ ، فهلْ يعدَّىٰ عَنْ سببهِ ويُترقَّىٰ منهُ إلىٰ مثلِ ما تُرقِّيَ مِنَ الحديثِ الآخرِ ؟

فهـٰذا كما قيلَ : الحديثُ شجونٌ ، وإنْ تتبعْنا هـٰذا البابَ . . لَمْ ننفكَّ منهُ ، وبعدَ علينا التخلصُ عنهُ .

نعمْ ، نترقَّىٰ منهُ إلىٰ قريبٍ مِنْ ذلكَ وشبهِهِ ، ويكونُ هـٰذا الحديثُ منبِّهاً عليهِ .

وهوَ أنَّ الصورةَ المنحوتةَ قدِ اتُّخذَتْ آلهةً ، وعُبدَتْ مِنْ دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ نبَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ قلوبَ المؤمنينَ علىٰ عيبِ فعلِ مَنْ رضيَ بذلكَ ، ونَقْصِ إدراكِ مَنْ دانَ بهِ حينَ قالَ تعالىٰ مخبراً عَنْ إبراهيمَ عليهِ

---

(١) روى الشطر الأول البخاري (١٧٤١) ، والشطر الثاني أبو داوود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٢٣٠) .

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

السلامُ : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

فكانَ امتناعُ الملائكةِ مِنْ دخولِ بيتٍ فيهِ صورةٌ لأجلِ أنَّ فيهِ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَهُ ، أوْ ما حُكِيَ بهِ ما هوَ على مثالِهِ .

ونترقَّىٰ مِنْ ذلكَ المعتبرِ إلىٰ أنَّ القلبَ الذي هوَ بيتٌ بناهُ اللهُ سبحانَهُ ليكونَ مهبطاً لملائكتِهِ ، ومحلاً لذكرِهِ ومعرفتِهِ وعبادتِهِ وحدَهُ دونَ غيرِهِ ، فإذا حلَّ فيهِ معبودٌ غيرُ اللهِ سبحانَهُ وهُوَ الهوىٰ . . لمْ تقربْهُ الملائكةُ أيضاً .

* * *

فإنْ قيلَ : فظاهرُ الحديثِ يقتضي منافرةَ الملائكةِ لكلِّ صورةٍ عموماً ، وما ذكرتَهُ الآنَ تعليلاً ينبغي ألاَّ يقتضيَ إلاَّ منافرةَ ما عُبِدَ ، أوْ ما نُحِتَ علىٰ مثالِهِ .

قلنا : تشابهَتِ الصورُ المنحوتةُ كلُّها في المعنَى الذي قُصِدَ بها التصويرُ لأجلِهِ ، وهوَ مضارعةُ ذواتِ الأرواحِ ، وما نُحِتَ للعبادةِ إنَّما قُصِدَ بهِ تشبيهُ ذي روحٍ ، فلمّا كانَ هـٰذا المعنَى الجامعَ لها . . وجبَ تحريمُ كلِّ صورةٍ ، ومنافرةُ الملائكةِ لهَا .

* * *

فإنْ قيلَ : فما وجهُ الترخيصِ فيما هوَ رقمٌ في ثوبٍ ؟

قلنا : ذلكَ لأنَّها ليستْ مقصودةً في نفسِها ، وإنَّما المقصودُ الثوبُ الذي رُقِمَتْ فيهِ .

فإنْ قيلَ : فما بالُ النباتِ رُخِّصَ في محاكاتِها بالتصويرِ ، وذاتُ أنواطٍ في العربِ مشهورةٌ معلومةٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذاتَ أنواطٍ إنَّما كانَتْ شجرةً في أيامِ العربِ الجاهليَّةِ تعلِّقُ عليها يوماً في السنةِ فاخِرَ ثيابِها ، وحُلِيَّ نسائِها ؛ لأجلِ اجتماعِها عندَها وراحتِها في ذلكَ اليومِ ، ولمْ يكونُوا يقصدونَها بالعبادَةِ كما كانَتْ تُقصَدُ التماثيلُ المنحوتةُ والأصنامُ .

ولوْ كانَ ذلكَ . . ما سألَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يجعلَ لهُمْ ذاتَ أنواطٍ ، حتَّىٰ أنكرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليهِمْ ذلكَ[1] ، ولوْ عُبِدَتْ . . فقدْ عُبِدَ كثيرٌ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ؛ كالملائكةِ والشمسِ والقمرِ وبعضِ النجومِ والمسيحِ عليهِ السلامُ وعليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ ولمْ يُعبدْ ما نُحِتَ علىٰ شكلِ النباتِ ، فلا تغبْ[2] عَنْ هٰذهِ الأرواحِ ، فما أبعدَ عَنْ دركِهَا مَنْ حرمَهُ اللهُ تعالىٰ إياهَا ، فلهُ الحمدُ كما هوَ أهلُهُ .

* * *

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠) .

(٢) في (ت ، ض) : (فلا يُعبر) .

المرتبة الثانية(1)
بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرّد

وأمَّا أهلُ الاعتقادِ المجرَّدِ عَنْ تحصينِهِ بالعلمِ ، وتوثيقِهِ بالأدلَّةِ ، وشدِّهِ بالبراهينِ . . فقدْ انقسَمُوا في الوجودِ إلىٰ ثلاثةِ أصنافٍ :

أحدُهُمْ : صنفٌ اعتقدُوا مضمونَ ما أقرُّوا بهِ ، وحشَوْا بهِ قلوبَهُمْ مِنْ غيرِ تردُّدٍ ولا تكذيبٍ أسرُّوهُ في أنفسِهِمْ .

ولكنَّهُمْ غيرُ عارفينَ بالاستدلالِ علىٰ ما اعتقدُوهُ ، وذلكَ لفرطِ بعدِهِمْ وغلظِ طبائِعِهِمْ، واعتياصِ طرقِ ذلكَ عليهِمْ ، ويقعُ عليهِمُ اسمُ الموحِّدينَ .

وتحقَقْنا وجودَ أمثالِهِمْ كثيراً علىٰ عهدِ سيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والسلفِ الصالحينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

ثمَّ لمْ يبلغْنَا أنَّهُ اعترضَ أحدٌ إسلامَهُمْ ، ولا أوجبَ عليهِمُ الخروجَ منهُ ، والمروقَ عنهُ ، ولا كُلِّفُوا معَ قصورِ فهمِهِمْ وبعدِهِمْ عَنْ فهْمِ ذلكَ بعلمِ الأدلَّةِ ، وقراءَةِ طرقِ البراهينِ ، وترتيبِ الحِجاجِ ، بلْ تُرِكُوا علىٰ ما هُمْ عليهِ .

وهؤلاءِ عندي معذورونَ ببعدِهِمْ ، ومقبولونَ بما توافقُوا عليهِ مِنْ إقرارِهِمْ وعقدِهِمْ ، واللهُ سبحانَهُ قدْ عذرَهُمْ معَ غيرِهِمْ بقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، ولا يخرجونَ عَنْ مقتضَىٰ هـٰذِهِ الآيةِ بحالٍ .

---

(1) لفظ (المرتبة الثانية) : زيادة من اللجنة العلمية .

وسنبدي لكَ طريقاً مِنَ الاعتبارِ تعرفُ بهِ صحَّةَ إسلامِهِمْ ، وسلامةَ توحيدِهِمْ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

والصنفُ الثاني : اعتقدُوا الحقَّ معَ ما ظهرَ منهُمْ مِنَ النطقِ ، واعتقدُوا إلىٰ ذلكَ أنواعاً مِنَ المخاييلِ ، قامَ في نفوسِهِمْ أنَّها أدلَّةٌ ، وظنُّوها براهينَ ، وليستْ كذلكَ .

وقدْ وقعَ في هٰذا كثيرٌ ممَّنْ يشارُ إليهِ ، فضلاً عمَّنْ دونَهُمْ ، فإنْ وقعَ إلىٰ هٰذا الصنفِ مَنْ يزعزعُ عليهِمْ تلكَ المخاييلَ بالقدحِ ، ويبطلُها عليهِمْ بالمعارضَةِ أوِ الاعتراضِ . . لَمْ يلتفتُوا إليهِ ، ولا أصغَوْا لِمَا يأتي بهِ ، ويترفَّعُوا أنْ يجاوبُوهُ لِمَا يحملونَ عليهِ مِنْ سوءِ الفهْمِ ، أوْ رداءَةِ الاعتقادِ .

وعندهُمْ أنَّ جميعَ تلكَ المخاييلِ في بابِ الاستدلالِ أرسخُ مِنْ شوامخِ الجبالِ .

فمنهُمْ مَنْ يعتقدُ دليلَهُ مذهبَ شيخِهِ الرفيعِ القدرِ ، المطَّلعِ على العلومِ .

ومنهُمْ مَنْ يكونُ دليلُهُ خبرَ آحادٍ .

ومنهُمْ مَنْ يكونُ دليلُهُ بعضَ محتمَلاتِ آيةٍ أوْ حديثٍ صحيحٍ .

ولعَمْرِي ؛ إنهُمْ ينبغِي إذا صادفُوا السنَّةَ باعتقادِهِمْ ، ولمْ يقعُوا في شيءٍ مِنَ الضلالِ . . أنْ يُتركُوا علىٰ ما هُمْ عليهِ ، ولا يحرَّكُوا بأمرٍ آخرَ .

بلْ يُغبطُوا بذلكَ ويُسلَّمَ لهُمْ ؛ لئلا يكونَ إذا تُتُبِّعَ الحالُ معهُمْ ربَّما

تلقَّفُوا[1] شبهةً ، أوْ ترسَّخَ في نفوسِهِمْ بدعةٌ يعسرُ انحلالُها ، أوْ يقعُوا في تكفيرِ مسلمٍ أوْ تضليلِهِ ، بلا سببٍ كبيرٍ .

* * *

واعلمْ : أنَّ اعتقادَ الحقائقِ وعلْمَها مِنْ أغذيةِ النفوسِ ، فمَنْ رغبَ في أكملِها ، ولمْ يقنَعْ بدونِها ، وحصلَ لهُ ذلكَ . . قويَ بهِ ، ومَنْ قنعَ بأيسرِها ، ولمْ تطمحْ همَّتُهُ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ مِنْ ذلكَ . . ضعفَ ، ولكنَّهُ يعيشُ عَيْشَ الضعيفِ ، وإنَّما يهلكُ مَنْ لا بُلْغَةَ لهُ ولا يجدُها ، أوْ يجدُها ولكنَّها تكونُ مشوبةً بمضرَّةِ بدعةٍ ، وسمومِ كفرٍ .

فلا تذهلْ عمّا يشارُ لكَ إليهِ ، فإنَّما المرغوبُ تنبيهُكَ ، واللهُ المستعانُ .

وقلَّ ما بينَ الصنفِ الأوّلِ والثاني مِنَ التفاوتِ مِنْ حيثُ إنَّ أولئكَ مقلِّدونَ في مذهبِهِمْ ، وهؤلاءِ مثلُهُمْ وهمْ مقلِّدونَ فيما يعتقدونَهُ دليلاً ، غيرَ أنَّهُمْ أوثقُ رباطاً مِنَ الأولينَ ؛ لأنَّ أولئكَ إنْ وقعَ إليهِمْ مَنْ يشكِّكُهُمْ . . ربَّما شكُّوا وانحلَّ رباطُ عقدِهِمْ ، وهؤلاءِ في الأغلبِ لا سبيلَ إلى انحلالِ عقودِهِمْ ؛ إذْ لا يرونَ أنفسَهُمْ أنهُمْ مقلِّدونَ ، وإنَّما يظنُّونَ أنهُمْ مستدلُّونَ عارفونَ ، فلهـٰذا كانُوا أحسنَ حالاً ، وأثبتَ إيماناً .

* * *

(١) في (ر ، ت ، ض) : (تلقنوا) .

والصنفُ الثالثُ : أقرُّوا واعتقدُوا كما فعلَ الذينَ مِنْ قبلِهِمْ ، وقدْ عدمُوا النظرَ[1] أيضاً .

ولكنّهم لعدمِ سلوكِهِمْ سبيلَهُ معَ القدرَةِ عليهِ ، ومعهُمْ مِنَ الذكاءِ والفطنةِ والتيقُّظِ ما لوْ نظرُوا . . لعلمُوا ، ولوِ استدلُّوا . . لتحقَّقُوا ، ولوْ طلبُوا . . لأدركُوا سبيلَ المعارفِ ووصلُوا ، ولكنهُمْ آثروا الراحةَ ، ومالُوا إلى الدَّعَةِ ، واستبعدوا طريقَ العلمِ ، واستثقلُوا الأعمالَ الموصلةَ إليهِ ، وقنعُوا بالقعودِ في حضيضِ الجهلِ .

فهؤلاءِ فيهِمْ إشكالٌ عندَ كثيرٍ مِنَ الناسِ في البديهَةِ ، ويتردَّدُ في حالِهِمْ نظرٌ .

وهلْ يُسمَّونَ عصاةً أوْ غيرَ ذلكَ ؟ يحتاجُ إلىٰ تمهيدٍ آخرَ ليسَ هـٰذا مقامَهُ .

والالتفاتُ إلىٰ هـٰذا الصنفِ أوجبَ خلافَ المتكلّمينَ في العوامِّ على الإطلاقِ ، مِنْ غيرِ تفريقٍ بينَ بليدٍ بعيدٍ ومتيقّظٍ فَطِنٍ ، فمنهُمْ مَنْ لمْ يرَ أنَّهُمْ مؤمنونَ ، ولكنْ لمْ يُحفَظْ عنهُمْ أنهُمْ أطلقُوا اسمَ الكفرِ عليهِمْ .

* * *

ولعلَّكَ تقولُ : إنَّ مذهبَهُمُ المشهورَ أنَّ المحلَّ لا يخلُو عَنِ الصفـةِ إلاَّ إلىٰ ضدِّها ، فمَنْ لمْ يُحكَمْ لهُ بالإيمانِ . . حكمَ عليهِ بالكفرِ ، كما أنَّ مَنْ لـمْ يُحكَمْ لهُ بالحركَةِ . . حُكِمَ عليهِ بالسكونِ ؛ وكذلكَ الحياةُ والموتُ ،

---

(١) في (ث ، ذ) : (العلم) بدل (النظر) .

والعلمُ والجهلُ ، وسائرُ ما لهُ ضدٌّ مِنَ الصفاتِ .

قلنا : فَلئِنْ صحَّ ذلكَ في الصفاتِ التي هيَ أعراضٌ . . فقدْ لا يصحُّ في الأوصافِ التي هيَ أحكامٌ ، والإيمانُ والكفرُ ، والهدايةُ والضلالُ ، والبدعةُ والسنةُ ربَّما كانَتْ مِنْ قبيلِ الأحكامِ لا مِنْ قبيلِ الأعراضِ ، وإنَّما ذكرْتُ لكَ هـٰذا في معرضِ التشككِ ؛ لتنظرَ في شعوبِ ما نوردُ علىٰ ذلكَ .

ومنهُمْ مَنْ أوجبَ لهُمُ الإيمانَ ، ولكنْ أوجبَ لهُمُ المعرفةَ وقدَّرَها لهُمْ، وعجَّزَهُمْ عَنِ العبارةِ ، ووجوبُ العبارةِ في الشرعِ ساقطةٌ علىٰ هـٰذا النحوِ .

وهؤلاءِ لمْ يخالفُوا المذكورينَ قبلهُمْ ؛ لأنَّ أولئكَ سلبُوا الإيمانَ عمَّنْ لمْ يصدرْ اعتقادُهُ عَنْ دليلٍ ، وهؤلاءِ أوجبُوا الإيمانَ لمَنْ أضافُوا إليه المعرفةَ المشروطةَ في صحةِ الإيمانِ .

وإنَّما فرُّوا عَنِ الشناعةِ الظاهرةِ ، فتستَّرُوا عَنِ الجمهورِ بهـٰذا الاحتمالِ ، وزادُوا علىٰ أنفسِهِمْ أنهُمْ ألمُّوا بقولِ مَنْ جعلَ المعارفَ كلَّها ضروريةً ، ولمْ يشعُرُوا بذلكَ حينَ قالُوا : إنَّما عجزَتِ العامَّةُ عَنْ سردِ الدليلِ ، ونظمِ العبارةِ عنهُ ، والعبارةُ لا تجبُ عليهِمْ ؛ لأنَّهُمْ إذا نُبِّهُوا أوْ عُرِضَ عليهِمْ ما قَرَّبَ مِنَ الألفاظِ ، واعتادُوا مِنَ المخاطباتِ دلائلَ الحدثِ[1] ، ووجْهَ الافتقارِ إلى المُحْدِثِ بعدَ تقريرِ الحدوثِ ، وعددُوا مِنْ هـٰذهِ المعارفِ كثيراً . . وجدُوا أنفسَهُمْ عارفينَ بذلكَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (دلائل الحدوث) .

واعلمْ : أنَّ مَنْ يقولُ : إنَّ المعارفَ كلَّها ضروريةٌ هٰكذا يقولُ : إنَّما افتقرَ الناسُ إلى التنبيهِ ، ولمْ يتمرَّنُوا على العبارةِ علىٰ غوامضِ العلومِ ، وإلاَّ . . فهُمْ إذا نُبِّهُوا عليها وتُلُطِّفَ بِهِمْ في تفهيمِها بالنزولِ إلىٰ ما أَلِفُوهُ مِنَ العباراتِ . . وجدُوا أنفسَهُمْ غيرَ منكرةٍ لِمَا نُبِّهُوا عليهِ ، وسارعُوا إلىٰ أُلْفَتِهِ .

ومثالُ هٰذا كمَنْ غابَ عنهُ شيءٌ كانَ معَهُ ، أوْ إنسانٌ يصحبُهُ أوْ رآهُ فنسيَهُ وغَفَلَ عنهُ لأجلِ غيبتِهِ ، ثمَّ رآهُ بعدَ ذلكَ فتذكَّرَ ؛ فإنهُ لا يُظَنُّ إلاَّ أنهُ كانَ عارفاً بهِ ، لكنَّهُ ناسٍ لهُ أوْ غافلٌ عنهُ ، ولولا عرفانُهُ بهِ . . ما وجدَ عدمَ الإنكارِ وسرعةَ الأُلْفةِ لهُ عندَ رؤيتِهِ .

❊ ❊ ❊

ومِنَ المتكلمينَ أيضاً مَنْ أوجبَ لَهُمُ الإيمانَ معَ عدمِ المعرفةِ المشروطةِ عندَ أولٰئكَ .

وأيُّ الآراءِ أحقُّ بالحقِّ وأَوْلَىٰ بالصوابِ ؟

ليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا في هٰذا الموضعِ ، وإنَّما غرضُنا تبعيدُ[1] ما أشاعَهُ في « الإحياءِ » أهلُ الغلوِّ والإغلاءِ[2] ، فلا نفتحُ مثلَ هٰذا البابِ وقدْ أبدينا مِنْ وجهِ ذلكَ في « مراقي الزُّلَفِ » ما يغنِي فيها بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (تقييد) .
(٢) قوله : (الغلو والإغلاء) سقط من (ت ، ض) .

فَصْلٌ

[في تصنيفٍ آخرَ لأهلِ الاعتقادِ]

بقيَ في بيانِ أصنافِ أهلِ الاعتقادِ المجرَّدِ تفصيلٌ آخرُ مِنْ جهةٍ أخرىٰ ، هوَ مِنْ تتمَّةِ ما مضىٰ .

فليُعلَمْ : أنَّ ما منهُمْ صنفٌ **إلاّ ولهُ على التقريبِ ثلاثةُ أحوالٍ** ، لا يستبدُّ أحدُهُمْ مِنْ أحدِها بحكمِ الاعتيادِ الضروريِّ .

فإحدىٰ[1] **الحالاتِ لهُمْ** : أنْ يعتقدَ أحدُهُمْ جميعَ أركانِ الإيمانِ علىٰ ما يكملُ عليهِ في الغالبِ ، لكنَّهُ علىٰ طريقِ التقليدِ كما سبقَ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : ألاَّ يعتقدَ إلاَّ بعضَ الأركانِ ممَّا فيهِ خلافٌ إذا انفردَ ولمْ ينضفْ إليهِ في اعتقادِهِ سواهُ . . هلْ يكونُ بهِ مؤمناً أوْ مسلماً ؟

وذلكَ مثلُ أنْ يعتقدَ وجودَ الواحدِ فقطْ ، أوْ يعتقدَ أنَّهُ موجودٌ حيٌّ لا غيرُ ، وأمثالُ هـٰذهِ التقديراتِ ، ويخلُو عَنِ اعتقادِ باقي الصفاتِ خلوّاً كاملاً لا يخطرُ ببالِهِ ، ولا يعتقدُ فيها حقّاً ولا باطلاً ولا صواباً ولا خطأً ، ولكنَّ القدرَ الذي يعتقدُهُ مِنَ الأركانِ موافقٌ للحقِّ غيرُ مشوبٍ بغيرِهِ .

* * *

---

(١) في (ر) : (فأصفىٰ) .

الحالةُ الثالثةُ : أنْ يعتقدَ الوجودَ كما قلناهُ ، أوِ الوجودَ والوحدانيَّةَ والحياةَ ، ويكونُ فيما يعتقدُهُ في باقي الصفاتِ علىٰ ما لا يوافقُ الحقَّ علىٰ ما هوَ عليهِ ممّا هوَ بدعةٌ أوْ ضلالةٌ وليسَ بكفرٍ صُرَاحٍ .

فالذي يدلُّ عليهِ العلمُ ، ويُستنبطُ مِنْ ظواهرِ الشرعِ :

أنَّ **أربابَ الحالةِ الأولىٰ** ـ واللهُ أعلمُ ـ علىٰ سبيلِ نجاةٍ ، ومسلكِ خلاصٍ ، ووصفِ إيمانٍ ، أوْ إسلامٍ .

وسواءٌ في ذلكَ الصنفُ الأولُ والثاني مِنْ أهلِ الاعتقادِ .

ويبقَى الصنفُ الثالثُ علىٰ مُحتمَلاتِ النظرِ كما نبَّهناكَ عليهِ .

وأمَّا أهلُ الحالةِ الثانيةِ ـ وهيَ الاقتصارُ على الوجودِ المفردِ ، أوِ الوجودِ ووصفٍ آخرَ معهُ ، معَ الخلوِّ عَنِ اعتقادِ سائرِ صفاتِ الكمالِ والجلالِ وأحكامِها ـ : فالمتقدمونَ مِنَ السلفِ لمْ يُشتهرْ عنهُمْ في صورةِ هـٰذهِ المسألةِ ما يُخرجُ صاحبَ هـٰذا العقدِ عَنْ حكمِ الإيمانِ أوِ الإسلامِ .

والمتأخرونَ مختلفونَ ؛ فكثيرٌ خافَ أنْ يُخرجَ مَنِ اعتقدَ وجودَ اللهِ سبحانَهُ وإظهارَ الإقرارِ بهِ وبنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الإسلامِ ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ كثيرٌ ممَّنْ أسلمَ مِنَ الأجلافِ والرُّعْيانِ ، وضعفاءِ النساءِ والأتباعِ هـٰذا عقدُه بلا مزيدٍ عليهِ ، ولو سُئِلُوا واستُكشِفُوا عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : هلْ لهُ إرادةٌ أوْ بقاءٌ أو كلامٌ أوْ ما شاكلَ ذلكَ ، وهلْ لهُ صفاتٌ معنويَّةٌ ليستْ هيَ

هـوَ ، ولا هـيَ غيـرُهُ.. ربَّمـا وُجِـدُوا يجهلـونَ هـٰذا ولا يعقلـونَ وجـهَ ما يخاطبونَ بهِ .

وكيفَ يُخرجُ مَنِ اعتقدَ وجودَ اللهِ تعالىٰ ووحدانيَّتَهُ معَ الإقرارِ بالنبوَّةِ مِنْ حكمِ الإسلامِ ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ رفعَ القتالَ والقتلَ عنهُمْ ، وأوجبَ حكمَ الإيمانِ أوِ الإسلامِ لمَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، وعقدَ عليها ؟!(1) .

وهـٰذهِ الكلمةُ لا تقتضي أكثرَ مِنِ اعتقادِ الوجودِ معَ الوحدةِ في الظاهرِ ، وعلى البديهةِ مِنْ غيرِ نظرٍ .

ثمَّ سمِعْنا عمَّنْ قالَها في صدرِ الإسلامِ أنَّهُ لمْ يُعلَّمْ بعدَها إلاَّ فرائضَ الوضوءِ والصلاةِ ، وهيئاتِ الأعمالِ البدنيَّةِ ، والكفَّ عَنْ أذى المسلمِ .

ولمْ يبلغْنا أنهُمْ تدارسُوا علمَ الصفاتِ وأحوالَها .

ولا هلِ اللهُ تعالىٰ عالمٌ بعلمٍ ، أوْ عالمٌ بنفسِهِ ؟

أوْ هوَ باقٍ ببقاءٍ ، أوْ هوَ باقٍ بنفسِهِ ؟

وأشباهُ هـٰذهِ المعارفِ ، ولا يدفعُ ظهورَ هـٰذا إلاَّ معاندٌ ، أوْ جاهلٌ بسيرةِ السلفِ وما جرىٰ بينهُمْ .

ويدلُّ علىٰ قوَّةِ هـٰذا الجانبِ في الشرعِ : أنَّ مَنِ استكْشِفَ منهُ علىٰ هـٰذهِ

---

(1) يشير إلىٰ ما رواه البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إلـه إلا الله ، فمن قال : لا إلـه إلا الله.. فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه ، وحسابه على الله » .

الحالةِ وتحقَّقتْ منهُ ، وأبىٰ أنْ يُذعنَ لتعلُّمِ ما زادَ علىٰ ما عندَهُ . . لمْ يُفْتِ أحدٌ بقتلِه ولا استرقاقِهِ ، والحكمُ عليهِ بالخلودِ في النارِ عَسِرٌ جدّاً ، وخَطَرٌ عظيمٌ ، معَ ثبوتِ الشرعِ بأنَّ « مَنْ قالَ : لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ . . دخلَ الجنةَ »[1] .

* * *

ولعلَّكَ تقولُ : قدْ قالَ في مواطنَ أُخَرَ : « إلاَّ بحقِّها »[2] ، ثمَّ تقولُ : اعتقادُ باقي[3] *الصفاتِ التي بها يكونُ اعتقادُ جلالِ اللهِ عزَّوجلَّ وكمالِهِ مِنْ حقِّها* .

نعمْ ، هيَ مِنْ حقِّها عندَ مَنْ بلغَهُ أمرُها ، وسمعَ بها أنْ يعتقدَها ، وأمَّا مَنْ خلا مِنِ اعتقادِها ، ولمْ يتفقْ لهُ أنْ يتلقَّنَها ولمْ يسمعْ بها . . ففيهِ نرىٰ هـٰذا النظرَ ، وعليهِ يقعُ مثلُ هـٰذا الاحتفاظِ ، وفي مثلِهِ يخافُ أنْ يطلقَ عليهِ اسمُ الكفرِ .

هـٰذا ؛ وأنتَ تسمعُ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ يقولُ في الآخرةِ : « أخرجُوا مِنَ النارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ » ، وذكَرَ مِنَ المثقالِ إلى الذرَّةِ والخردلةِ مِنَ الإيمانِ ، إلىٰ أنْ يُخرجَ منها مَنْ لمْ يعملْ حسنةً قطُّ[4] ، فما يدريكَ أنْ يكونَ

---

(1) رواه الترمذي (٢٦٣٨) .
(2) رواه البخاري (٣٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(3) في غير (ر) : (اعتقادنا في) .
(4) كما رواه البخاري (٢٢) ، ومسلم (١٨٣) .

هؤلاءِ وأمثالُهُمُ المرادينَ ؛ لأنَّ التقديرَ وقعَ في الإيمانِ لا في الأعمالِ ؟!

* * *

فإنْ قلتَ : فإنَّ مِنَ الناسِ وأئمَّةِ العلماءِ مَنْ لمْ يُوجبِ الإيمانَ لمَنِ اعتقدَ جميعَ الأركانِ إذا لمْ يصحبْها معرفةٌ ، ولمْ يعضُدْها دليلٌ ، فكيفَ لمَنْ فاتَهُ اعتقادُ بعضِها أوْ جلِّها ؟!

قلنا : قدْ أريناكَ وجهَ الاعتراضِ علىٰ هـٰذا المذهبِ ، ونبَّهناكَ علىٰ بُعدِ أهلِهِ عَنْ وجهِ[1] الحقِّ فيهِ ، وأنهُمْ أربابُ تعسُّفٍ ، ولوِ استُقصِيَ معَ كثيرٍ منهُمُ القولُ في ذلكَ . . لبدا لهُ أنَّهُ نُسبَ لِمَا يظهرُ له مِنْ قصورِهِ عَنْ معرفةِ شرطِها في صحَّةِ إيمانِ غيرِهِ ، ولآثرَ مِنْ حينِهِ الركونَ إلىٰ ما رأيناهُ أَوْلَىٰ بهِ مِنْ رأيِهِ ، وأحقَّ بالصوابِ والعدلِ مِنْ مذهبِهِ .

ثمَّ بعدَ ذلكَ تراهُمْ حينَ اجترؤُوا علىٰ سلبِ الإيمانِ عنهُمْ . . لمْ يثبتُوا اسمَ الكفرِ عليهِمْ ، ثمَّ يُعرَضُوا على الاستتابةِ إنْ كانَتْ مِنْ مذهبِهِمْ ، ثمَّ يُحكمْ فيهِمْ بالقتلِ والاسترقاقِ .

فإذا تأملْتَ هـٰذا . . لمْ يخفَ عليكَ عيبُ ما قالُوهُ ، ونقصُ[2] ما مالُوا إليهِ .

فلنرجعْ إلىٰ ما نحنُ بسبيلِهِ ، ونستعينُ باللهِ عزَّ وجلَّ فنقولُ :

---

(١) في (ث ، ذ) : (درجة) .
(٢) في (ث ، ذ) : (ونقض) .

وأمّا أربابُ **الحالةِ الثالثةِ** ـ وهيَ اعتقادُ البدعةِ في الصفاتِ أوْ في بعضِها ـ : فإنْ حكَمْنا بصحةِ إيمانِ أهلِ الحالةِ المذكورةِ قبلَ هذا أوْ إسلامِهِمْ . . حقَّقْنا أمرَ هؤلاءِ فيما اعتقدُوهُ ؛ إذْ لمْ يقفُوا فيهِ بوجهِ قصدٍ يقطعُهُمْ عَنِ اتصالِ العذرِ ؛ لأنَّ هؤلاءِ قدْ حصلَ لهُمْ في العقدِ ما هوَ شرطُ الخلاصِ والنجاةِ مِنَ الهلاكِ الدائمِ ، وأُصيبُوا فيما وراءَ ذلكَ .

فإنْ أمكنَ ردُّهُمْ في دارِ الدنيا ، وزجرُهُمْ عنهُ إنْ أظهرُوا التمنُّعَ عَنِ الإقلاعِ ، والرجوعِ بالعقوبةِ المؤلمةِ دونَ قتلٍ . . كانَ ذلكَ .

وإنْ فاتُوا بالموتِ . . لمْ يُقصرْ بهِمْ في اعتقادِهِمْ عَنْ أربابِ الحالةِ الثانيةِ المذكورةِ قبلَهُمْ ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالناجِي والهالكِ مِنْ خلقِهِ ، والمطيعِ والعاصِي مِنْ عبادِهِ .

غيرَ أنَّ هٰذا ينبغي أنْ يكونَ مذهبَ مَنْ نظرَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الرأفةِ والرحمةِ ، ولمْ يدخلْ بينَ اللهِ عزَّ وجلَّ وبينَ عبادِهِ فيما غابَ عنهُ علمُهُ ، وعُدِمَ فيهِ سبيلُ اليقينِ ، وفهمَ معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ .

* * *

فإنْ قلتَ : وأينَ أنتَ مِنْ تكفيرِ كثيرٍ مِنَ الناسِ في القديمِ والحديثِ لجميعِ أهلِ البدعِ عامّةً وخاصّةً ؟ وقولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في

القدريَّةِ : « إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ » ؟(١) .

وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي ٱلنَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » ؟(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ قومٍ يخرجونَ علىٰ خير(٣) فرقةٍ مِنَ الناسِ : « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ ، يَمْرُقُونَ مِنَ ٱلدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ ٱلرَّمِيَّةِ » ؟(٤) .

والأحاديثُ الواردةُ فيمَنِ اعتقدَ شيئاً مِنَ الأهواءِ والبدعِ كثيرةٌ غيرُ هـٰذِهِ ، ممَّا يُوجبُ في الظاهرِ تكفيرَهُمْ بالإطلاقِ .

فاعلمْ : أنهُ إنْ كانَ كفَّرَهُمْ كثيرٌ مِنَ العلماءِ . . فلقدْ أبقَىٰ عليهِمْ دينَهُمْ وتردَّدَ فيهِمْ كثيراً كثيرٌ منهُمْ ، وكلُّ فريقٍ منهُمْ في مقابلةِ مَنْ خالفَهُ ، فليقعِ التحاكمُ عندَ العالمِ الأكبرِ ، المؤيدِ بالعصمةِ سيدِ البشرِ ، إمامِ المتقينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ قالَ : « القَدَرِيَّةُ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٦٩١) ، وتتمة الحديث : « إن مرضوا . . فلا تعودوهم ، وإن ماتوا . . فلا تشهدوهم » .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٩٩٢) .

(٣) قوله : (خير) سقط من (ش ، خ) ، وللفائدة انظر « فتح الباري » (١٢/ ٢٩٥) .

(٤) رواه أبو داوود (٤٧٦٧) ، والترمذي (٢١٨٨) ، وأصله عند البخاري (٣٦١١) ، ومسلم (١٠٦٦) إلا أن فيه : (من خير قول البرية) بدل (من قول خير البرية) ، وهي كذلك في (ت ، ض) .

مَجُوسُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ ».. فما فِقْهُ أنْ أضافَهُمْ إلى الأمَّةِ ؟ وما حكمةُ أنْ لمْ يقلْ : (مجوسٌ) على الإطلاقِ ؟

وحينَ أخبرَ عَنْ هـٰذهِ الفرقِ أنهُمْ في النارِ فهلْ أخبرَ أنهُمْ خالدونَ فيها ؟

وحينَ قالَ : « يَمْرقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ ٱلرَّمِيَّةِ ».. فقدْ قالَ متصلاً بآخرِ هـٰذا القولِ : « وَتَتَمارَىٰ فِي ٱلْفُوقِ »[1] ، وما موضعُ هـٰذا التمارِي مِنَ المثلِ الذي ضربَهُ فيهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟

فما لي أراكَ تلاحظُ جهةً وتتركُ أخرىٰ ، وتذكرُ شيئاً وتذهلُ عَنْ غيرِهِ ؟!

عليكَ بالعدلِ.. تكنْ مِنْ أهلِهِ ، واستعملِ التفطُّنَ.. تشاهدِ العجائِبَ المعجِبةَ ، وتفهمْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

فَصْلٌ

[في الاعتقادِ المجرَّدِ عَنِ العلمِ والمعرفةِ]

ولمَّا كانَ الاعتقادُ المجردُ عَنِ العلمِ بصحتهِ ضعيفاً ، وتفرُّدُهُ عَنِ المعرفةِ

(١) رواه البخاري (٥٠٥٨) ، وفي (ش ، خ) : (في القول) بدل (في الفوق) ، وفي بقية النسخ : (في الفرق) ، والمثبت من « صحيح البخاري » ، **ويتمارىٰ** : يشك ، **والفوق** : موضع الوتر من السهم ، والمعنىٰ : يشك الرامي هل في الفوق شيء من أثر الصيد أم لا ؟ فكذلك قراءتهم لا تحصل لهم منها فائدة . « عمدة القاري » (٢٠/ ٦٢) .

قريباً مِنْ واهٍ . . أُلقيَ عليهِ شبهُ القشرِ الثاني مِنَ الجوزِ ؛ لأنَّ ذلكَ القشرَ يُؤكلُ معَ ما هوَ عليهِ صُوانٌ ، وإذا انفردَ . . أمكنَ أنْ يكونَ طعاماً للمحتاجِ ، وبلاغاً للجائعِ .

وبالجملةِ : فهوَ لمَنْ لا شيءَ معهُ خيرٌ مِنْ فقدِهِ ، وكذلكَ اعتقادُ التوحيدِ ، وإنْ كانَ مجرَّداً عَنْ سبيلِ المعرفةِ وغيرَ منوطٍ بشيءٍ مِنَ الأدلَّةِ ضعيفاً . . فهوَ في الدنيا والآخرةِ وعندَ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ خيرٌ مِنَ التعطيلِ والكفرِ ، ومتىٰ ركبَ أحدٌ غيرَ هـٰذا . . فقدْ وقعَ في أعظمِ الحرجِ والنُّكْرِ ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

بيان أرباب المرتبة الثالثة
وهي توحيد المقربين

اعلمْ : أنَّ الكلامَ في هـٰذا النوعِ مِنَ التوحيدِ لهُ ثلاثةُ حدودٍ :

أحدُها : أنْ يتكلمَ في الأسبابِ التي توصلُ إليهِ ، والمسالكِ التي يعبرُ عليها نحوَهُ ، والأحوالِ التي يتخذُها لحصولِهِ كما قدَّرهُ العزيزُ العليمُ ، واختارَ ذلكَ ورضيَهُ وسمّاهُ : الصراطَ المستقيمَ .

❊ ❊ ❊

والحدُّ الثاني : أنْ يكونَ الكلامُ في عينِ ذلكَ التوحيدِ ونفسِهِ وحقيقتِهِ ، وكيفَ يُتصورُ وصولُ السالكِ إليهِ والطالبِ لهَ قبلَ وصولِهِ إليهِ ، وانكشافِهِ لهُ بالمشاهدَةِ .

❊ ❊ ❊

والحدُّ الثالثُ : في ثمراتِ ذلكَ التوحيدِ وما يلقىٰ أهلُهُ بهِ ، ويطّلعونَ عليهِ بسببِهِ ، ويُكرمونَ بهِ مِنْ أجلِهِ ، ويُتحفونَ مِنْ فوائدِ المزيدِ مِنْ جهتِهِ .

❊ ❊ ❊

فأمّا الحدُّ الأولُ : فالكلامُ عليهِ ، والبيانُ لهُ ، والكشفُ لدقائقِهِ ، وبذلُهُ للصغيرِ والكبيرِ . مأمورٌ بهِ ، مشدَّدٌ في أمرِهِ ، متوعَّدٌ بالنارِ علىٰ كتمِهِ ، فيهِ بُعِثَ الأنبياءُ ، ومِنْ أجلِهِ أُرسِلَ الرسلُ ، وببيانِهِ للناسِ كافَّةً نزلَتْ مِنْ

عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ أمناءِ وحيِهِ الصحفُ والكتبُ ، ولتقعَ الثقةُ في القلوبِ بتحقيقِهِ وتصديقِهِ أُيِّدَتِ الرسلُ بالمعجزاتِ ، والأولياءُ بالكراماتِ ؛ لئلاَّ يكونَ للناسِ على اللهِ حجةٌ بعدَ الرسلِ .

وعليهِ أخذَ اللهُ الميثاقَ على الذينَ أُوتُوا الكتابَ ليبيِّنُنَّهُ للناسِ ولا يكتمونَهُ ، وفيهِ أنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ .

وإياهُ عنىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ . . أُلْجِمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »(١) .

وجميعُ ذلكَ محصورٌ في اثنتينِ : **العلمِ بالعبرةِ ، والعملِ بالسنةِ** .

وهما مبنيانِ على اثنتينِ : **الحرصِ الشديدِ ، والنيةِ الخالصةِ** .

والشرطُ في تحصيلِهِما اثنانِ : **نظافةُ الباطنِ ، وسلامةُ الجوارحِ** .

ويُسمَّىٰ جميعُ ذلكَ بعلمِ المعاملةِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الحدُّ الثاني : فالكلامُ فيهِ أكثرُ ما يكونُ علىٰ طريقةِ ضربِ الأمثالِ ؛ تشبيهاً بالرمزِ تارةً ، وتارةً بالتصريحِ ، ولكنْ على الجملةِ بما يناسبُ علومَ الظواهرِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦٦) .

ولكنْ يَشْرُفُ بذلكَ اللبيبُ الحاذقُ علىٰ بعضِ المرادِ ، ويفهمُ منهُ كثيراً مِنَ المقصودِ ، وينكشفُ لهُ جُلُّ ما يُشارُ إليهِ إذا كانَ سالماً مِنْ شركِ التعصُّبِ ، بعيداً مِنْ هوَّةِ الهوىٰ ، نظيفاً مِنْ دنسِ التقليدِ .

***

وأمَّا الحدُّ الثالثُ : فلا سبيلَ إلىٰ ذكرِ شيءٍ منهُ إلاَّ معَ أهلِهِ بعدَ علمِهِمْ بهِ علىٰ سبيلِ التذكارِ ، لاَ علىٰ سبيلِ التعليمِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ علَّةِ أحكامِ حدودِ توحيدِ المقربينَ]

إنَّما كانتْ أحكامُ هٰذهِ الحدودِ الثلاثةِ علىٰ ما وصَفْنا ؛ لأنَّ الحدَّ الأوّلَ فيهِ محضُ النصحِ للخلقِ ، والاستنقاذُ لهُمْ مِنْ غمراتِ الجهلِ ، والتنكيبُ بهِمْ عَنْ مهاوِي العطبِ ، وقودُهُمْ إلىٰ معرفةِ هٰذا المقامِ وما وراءَهُ ممَّا هوَ أعلىٰ منهُ ممَّا لهُمْ فيهِ الملكُ الأكبرُ وفوزُ الأبدِ ، وقدْ بُيِّنَ لهُمْ غايةَ البيانِ ، وأُقيمَ عليهِ واضحُ البرهانِ ، وهوَ مبدأُ الطريقِ ، وأولُ سبيلِ السعادةِ .

فمنْ عجزَ عَنْ ذلكَ . . كانَ عَنْ غيرِهِ أعجزَ ، ومَنْ سلكَهُ على استقامةٍ . . فالغالبُ عليهِ الوصولُ ، فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً ، ومَنْ وصلَ . . شاهدَ ، ومَنْ شاهدَ . . علمَ ، وذلكَ غايةُ المطلوبِ ، ونهايةُ المرغوبِ والمحبوبِ .

ومَنْ قعدَ . . حُرِمَ الوصولَ وما بعدَهُ ، ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

ومَنْ غابَ . . لمْ تنفعْهُ الأخبارُ ، ولمْ يفدْهُ كثيرٌ مِنَ الأحاديثِ .

وأيضاً : فإنَّ الإخبارَ بما وراءَ الحدِّ الأولِ والثاني علىٰ جهةِ كشفِهِ للخلقِ كافَّةً لوْ أمكنَ بما عُهِدَ مِنَ الكلامِ ، وجرىٰ بينَ الناسِ مِنْ عرفِ التخاطبِ . . كانَ فيهِ زيادةُ محنةٍ ، وسببُ فتنةٍ علىٰ أكثرِهِمْ ممَّنْ ليسَ مِنْ أهلِ ذلكَ المقامِ ، وذلكَ لغرابةِ المعلومِ ، وكثرةِ غموضِهِ ، ودقَّةِ معناهُ ، وعلوِّهِ في منازلِ الرفعةِ ، وبعدِهِ بالجملةِ والتفصيلِ عَنْ جميعِ ما عُهِدَ في عالَمِ الملكِ والشهادةِ ، وخروجِهِ عَنْ تلكَ الحدودِ المألوفةِ ، ومباينتِهِ لكلِّ ما نشؤُوا عليهِ ولمْ يشاهدُوا غيرَهُ مِنْ محسوساتٍ ومعقولاتٍ وضرورياتٍ ونظرياتٍ .

فلمَّا كانَ لا يُدركُ شيءٌ مِنْ ذلكَ بقياسٍ ، ولا يُتصوّرُ بواسطةِ لفظٍ ، ولا يُحملُ عليهِ حقيقةُ مثلٍ ؛ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وحُكيَ عَنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ : (ليسَ عندَ الناسِ مِنْ علمِ الآخرةِ إلاَّ الأسماءُ) ، وأرادَ مَنْ لمْ ينكشِفْ شيءٌ لهُ مِنْ علمِها وحقائِقِها في الدنيا ، وأيضاً فلوْ جازَ الإخبارُ بها لغيرِ أهلِها . . لمْ يكنْ لهُمْ سبيلٌ إلىٰ تصوُّرِها إلاَّ علىٰ خلافِ ما هيَ عليهِ بمجرَّدِ تقليدٍ ، ويتطرقُ إليهِ مِنْ أهلِ الغفلةِ ومِنْ ذوي التصوُّرِ[1] جحودٌ وتفنيدٌ . . **فلهٰذا**

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (القصور) .

أُمِرُوا بالكتمِ إشفاقاً علىٰ مَنْ حُجِبَ عَنِ العلومِ .

ولهٰذا قالَ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟! »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْماً بِحَدِيثٍ لا تبلُغُهُ عُقُولُهُمْ . . إلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً »(٢) .

وعلىٰ هٰذا يُخرَّجُ قولُ المشايخِ : إفشاءُ سرِّ الربوبيةِ كفرٌ .

ولا تُرِدْ مزيدَ بحثٍ عَنْ علمِ سرٍّ موجِبٍ للكتمِ بعدَ فهمِكَ لهٰذا القولِ .

رزقَنا اللهُ وإياكَ قلوباً واعيةً للخيرِ ؛ إنَّهُ وليُّ كلِّ صالحٍ وبرٍّ .

فَصْلٌ

[في أصنافِ المقربينَ]

وإذا علمْتَ أنَّ الحدَّ الأوّلَ قد تقرَّرَ علمُهُ في كتبِ الروايةِ والدرايةِ ؛ ومُلِئَتْ منهُ الطروسُ ، وكثرَتْ بهِ في المحافلِ الدروسُ ، وهوَ غيرُ محجوبٍ عَنْ طالبٍ ، ولا ممنوعٌ عنْ راغبٍ ، قدْ أُمِرَ الجهّالُ بهِ أنْ يتعلمُوهُ ،

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨١٩٢) مرفوعاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) بنحوه .

(٢) روىٰ مسلم نحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه كما في « شرح صحيح مسلم » (١/ ٧٦) ، وهو مرفوعاً من رواية العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) بنحوه أيضاً .

والعلماءُ بهِ أنْ يبذلُوهُ ويعلِّمُوهُ . . **فلا نعيدُ فيهِ هـٰهنا قولاً** .

ولمَّا كانَ حكمُ الحدِّ الثالثِ الكتمَ مرةً ، وتنكيبَ الكلامِ عنهُ معَ غيرِ أهلِهِ علىٰ كلِّ حالٍ . . لمْ يكنْ لنا سبيلٌ إلىٰ تعدِّي محدوداتِ الشرعِ ، **فلنثْنِ العِنانَ إلى الكلامِ الذي يليقُ بهـٰذا الحالِ والمقامِ ، فنقولُ** :

أربابُ المقامِ الثالثِ في التوحيدِ ـ وهُمُ المقربونَ ـ علىٰ ثلاثةِ أصنافٍ على الجملةِ : وكلُّهُمْ نظرُوا إلى المخلوقاتِ ، فرأَوْا علاماتِ الحدوثِ فيها لائحةً ، وعاينُوا حالاتِ الافتقارِ إلى اللهِ[1] عزَّ وجلَّ عليها واضحةً ، وسمعُوا جميعَها تدلُّ علىٰ توحيدِهِ وتفريدِهِ راشدةً ناصحةً .

ثمَّ رأَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ بإيمانِ قلوبِهِمْ ، وشاهدُوهُ بغيبِ أرواحِهِمْ ، ولاحظُوا جلالَهُ وجمالَهُ بخفيِّ أسرارِهِمْ ، وهُمْ معَ ذلكَ في درجاتِ القربِ علىٰ قدرِ حظِّ كلِّ واحدٍ منهُمْ في اليقينِ وصفاءِ القلبِ .

وهؤلاءِ الأصنافُ الثلاثةُ إنَّما عرفُوا اللهَ سبحانَهُ بمخلوقاتِهِ ، وانقسامُهُمْ في تلكَ المعرفةِ كانقسامِ حفّاظِ تلاوةِ القرآنِ مثلاً :

فمِنْ حافظٍ لبعضِهِ ، ويكونُ ذلكَ البعضُ أكثرَهُ ، أوْ كثيراً منهُ دونَ كمالِهِ .

ومِنْ حافظٍ لجميعِهِ ، لكنَّهُ متلعثمٌ فيهِ ، متوقِّفٌ عَنِ الانهمارِ في قراءتِهِ .

ومِنْ حافظٍ لهُ ، ماهرٍ في تلاوتِهِ ، غيرِ متوقِّفٍ في شيءٍ منهُ .

---

(١) في (ت ، ض) : (إلى المحدث) .

وكلُّهُمْ يُنسبُ إليهِ ويُعدُّ في المشهدِ والمغيبِ مِنْ أهلِهِ .

وكذلكَ أهلُ هـٰذِهِ المرتبةِ أيضاً :

مِنْ متوصِّلٍ إلى المعرفةِ مِنْ قراءةِ صفحاتِ أكثرِ المخلوقاتِ ، أوْ كثيرٍ منها ، وربَّما كانَ فيما يقرأُ مِنَ الصفحاتِ ما ينعجمُ عليهِ .

ومِنْ قارئٍ لجميعِها ، متفهِّمٍ لها ، لكنْ بنوعِ تعبٍ ، ولزومِ فكرةٍ ، ومداومةِ عبرةٍ .

ومِنْ قارئٍ ماهرٍ في قراءَتِها ، مستخرجٍ لرموزِها ، نافذِ البصيرةِ في رؤيةِ حقائقِها ، مفتوحِ السمعِ ، تناطقُهُ الأشياءُ في فراغِهِ وشغلِهِ .

وبحسبِ ذلكَ اختلفَتْ أحوالُهُمْ ؛ في الخوفِ والرجاءِ ، والقبضِ والبسطِ ، والفناءِ والبقاءِ ، ولا مزيدَ علىٰ هـٰذا المثالِ ؛ **فهوَ أوضحُ لذوي الأفهامِ مِنْ شمسِ النهارِ وقتَ الزوالِ** .

فَصْلٌ

[في سببِ تسميةِ المقربينَ بهـٰذا الاسمِ]

وعلمْتَ لِمَ سُمِّيَ أهلُ هـٰذِهِ المرتبةِ المقربينَ ، فذلكَ لبعدِهِمْ عَنْ ظلماتِ الجهلِ ، وقربِهِمْ مِنْ نيِّراتِ المعرفةِ والعلمِ .

فلا أبعدَ مِنَ الجاهلِ ، ولا أقربَ مِنَ العارفِ العالِمِ .

والقربُ والبعدُ هٰهنا عبارتانِ عَنْ حالتينِ علىٰ سبيلِ التجوُّزِ في لسانِ الجمهورِ ، وعلى الحقيقةِ عندَ المستعملينَ لهما في هٰذا الفنِّ .

* * *

إحدى الحالتينِ : عمَى البصيرةِ ، وانطماسُ القلبِ ، وخلوُّه عَنْ معرفةِ الربِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فسُمِّيَ هٰذا بعداً ، مأخوذاً مِنَ البعدِ عَنْ محلِّ الراحةِ والمنزلِ الرحبِ ، وموضعِ العمارةِ والأنسِ ، والانقطاعِ في مهامِهِ القفرِ وأمكنةِ الخوفِ ، ومظانِّ الانفرادِ والوحشةِ .

* * *

والحالةُ الثانيةُ : عبارةٌ عَنِ اتّقادِ الباطنِ ، واشتعالِ القلبِ ، وانفساحِ الصدرِ بنورِ اليقينِ والمعرفةِ والعقلِ ، وعمارةِ السرِّ بمشاهدةِ ما غابَ عنهُ أهلُ الغفلةِ واللهوِ ، ولكنَّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لمْ يصلْ .

فَصْلٌ

[في قصورِ أئمَّةِ الكلامِ عَنْ مقامِ المقربينَ]

لعلَّكَ تقولُ : أينَ أئمَّةُ الكلامِ عَنْ لحوقِ هٰذا المقامِ كأنْ لَمْ يضربُوا فيهِ بسهمٍ ، ولمْ يفزْ قِدْحُهُمْ منهُ بحظٍّ ولا قَسْمٍ ؟

وأُراهُمْ عندَ الجمهورِ في الظاهرِ ، وعندَ أنفسِهِمْ أنهُمْ أهلُ الدلالةِ

على اللهِ تعالىٰ ، وقادةُ الخلقِ إلىٰ مَراشِدِهِمْ ، ومجاهدُو أهلِ النِحَلِ المُرْديةِ والمللِ الضالَّةِ[1] المهلِكَةِ .

وقدْ سبقَ في « الإحياءِ » أنهُمْ في الاعتقادِ معَ العوامِّ سواءٌ ، وإنَّما فارقوهُمْ بإحسانِهِمْ حراسةَ عقودِهِمْ .

فاعلمْ : أنَّ ما رأيتَ في « الإحياءِ » صحيحٌ ، ولكنْ بقيَ في كشفِهِ أمرٌ لا يخفىٰ على المستبصرينَ ، ولا يغيبُ عَنِ الشادينَ[2] إذا كانُوا منصفينَ ، وهوَ أنَّ المتكلمينَ مِنْ حيثُ صناعةُ الكلامِ فقطْ لمْ يفارقُوا عقائدَ العوامِّ ، وإنَّما حرسُوها بالجدلِ عَنِ الانخرامِ ؛ إذِ الكلامُ والجدلُ علمٌ لفظيٌّ ، وأكثرُهُ احتيالٌ[3] وهميٌّ ، وهوَ عملُ النفسِ ، وتخليقُ الفهمِ ، وليسَ بثمرةِ[4] المشاهدةِ والكشفِ ، ولأجلِ هٰذا كانَ فيهِ السمينُ والغثُّ ، وشاعَ[5] في حالِ النضالِ لهُ إيرادُ القطعيِّ وما هوَ في حكمِهِ مِنْ غلبةِ الظنِّ ، وإبداءِ الصحيحِ ، وإلزامِ مذهبِ الخصمِ .

والمقامُ المشارُ إليهِ بالذكرِ وشبهُهُ إنَّما هوَ علمُ الوجودِ ، وفهمُ الأحوالِ ، ومعرفتُهُ باليقينِ التامِّ ، والعلمِ المضارعِ للضروريِّ بأنْ لاَ إلـٰهَ

---

(١) في (ث ، ذ) : (النحل الردية والملل المضللة) .

(٢) في (خ) : (الشاذين) ، وفي (ت ، ث) : (الشاردين) .

(٣) في (ذ) : (احتمال) .

(٤) في (ش ، خ) : (تثمره) ، وفي (ث ، ذ) : (بشدَّة) .

(٥) في (ض) : (وساغ) .

إلاَّ اللهُ ؛ إذْ لاَ فاعلَ غيرُهُ ، ولاَ حاكِمَ في الدارينِ سواهُ ، ومشاهدةُ القلوبِ لِمَا حُجبَ عَنِ العيونِ .

ومِنْ أينَ للنازلِ طيُّ المنازلِ ؟! ولعلمِ الكلامِ مثلُ هٰذا المقامِ ، بلْ هوَ مِنْ خُدَّامِ الشرعِ ، وحراسِ نواحيهِ مِنْ أهلِ الاختلاسِ والقطعِ ، ولهُ بركةٌ علىٰ قدرِهِ ونفعٌ .

ولكنْ شتانَ بينَ مطالعِ الأنوارِ ، ومداركِ الاستبصارِ ، والمرادِ في أوقاتِ الضروراتِ ووقتِ الاختيارِ ، وبينَ ما يرادُ لوقتِ حاجةٍ إنْ عنَّتْ ، وخصامِ صاحبِ بدعةٍ ، ومناضلةِ سخيفٍ ذي ضلالةٍ[1] ممّا ينغِّصُ علىٰ ذي اليقينِ العيشَ ، ويشغلُ الذهنَ ويكدِّرُ النفسَ .

وأمَّا أهلُهُ الذينَ حُفِظَ عنهُمْ ، ورُفِعَ علمُهُ فيما مضىٰ مِنَ الزمانِ إليهِمْ . . لا نقولُ في أكثرِهِمْ : **إنَّهُمْ لا يحسنُونَ غيرَهُ ، ولا يختصُّونَ في التوحيدِ بمقامٍ سواهُ ممَّا هوَ أعلىٰ منهُ** .

بلِ الظنُّ بهِمْ أنهُمْ علماءُ مثلُ ما ذكَرْنا ، فُهَماءُ وبُصَراءُ ، ولكنَّهُمْ لمْ يُبدُوا مِنَ العلمِ في الظاهرِ إلاَّ ما كانتِ الحاجةُ إليهِ أمسَّ ، والمصلحةُ بهِ لتوجُّهِ الضرورةِ أعمَّ وأوكدَ ؛ لِمَا كانَ نَجَمَ في وقتِهِمْ مِنَ البدعِ ، وظهرَ مِنَ الأهواءِ ، وشاعَ مِنْ تشتيتِ كلمةِ أهلِ الحقِّ ، وتحزُّبِ العوامِّ معَ كلِّ ناعقٍ .

فرأَوْا أنَّ الردَّ عليهِمْ ، والمنازعةَ لهُمْ ، والسعيَ في اجتماعِ الكلمةِ على

(١) في (ش ، خ) : (صلافة) .

السنَّةِ بعدَ افتراقِها ، وإخزاءَ ذوي الكيدِ للدِّينِ في احتيالِهِمْ ، وإخمادَ نارِ الأهواءِ والفتنِ . . أولىٰ بهِمْ مِنَ الكلامِ بعلومِ الإشاراتِ ، وكشفِ أحوالِ أربابِ المقاماتِ ، ووصفِ فقهِ الأرواحِ والنفوسِ ، وتفهمِ كلِّ ناطقٍ[1] وجامدٍ .

فإنَّ هـٰذهِ كلَّها وإنْ كانتْ أسنىٰ وأعلىٰ **فذلكَ مِنْ علمِ الخواصِّ** ، وهُمْ مكفيُّونَ المؤنةَ ، والعامَّةُ أحقُّ بالحفظِ ، وعقائدُهُمْ أولىٰ بالحراسةِ ، واستنقاذُ مَنْ يُخافُ عليهِ الهلاكُ أولىٰ مِنْ مؤانسةِ وحيدٍ ، والتصدُّقُ علىٰ ذي بُلْغَةٍ مِنَ العيشِ ، فكيفَ إذا كانَ غنياً ؟!

وأيضاً : فإنَّ علمَ الكلامِ إنَّما يُرادُ ـ كما قلنا ـ للجدالِ ، وهوَ يقعُ مِنَ العلماءِ العارفينَ معَ أهلِ الإلحادِ والزيغِ ؛ لقصورِهِمْ عَنْ ملاحظَةِ الحقِّ موقعَ السيوفِ مِنَ الأنبياءِ والمرسلينَ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ بعدَ التبليغِ معَ أهلِ العنادِ ، والتمادِي على الغيِّ وسبلِ الفسادِ .

فكَمَا لا يقالُ : السيفُ أبلغُ حجَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . كذلكَ لا يقالُ : علمُ الكلامِ والجدلُ أبلغُ مقامِ مَنْ ظهرَ منهُ مِنَ العلماءِ .

وكَمَا يقالُ في الصدرِ الأولِ : فقهاءُ الأمصارِ ومَنْ قبلهُمْ حينَ[2] لمْ يُحفظْ عنهُمْ في الغالبِ إلاَّ علومٌ أخرُ ؛ كالفقهِ والحديثِ والتفسيرِ ؛ لأنَّ

---

(١) في (ث ، ذ) : (صامت) .
(٢) في (ث ، ذ) : (ممن) .

الخلقَ أحوجُ إلىٰ علمِ ما حُفِظَ عنهُمْ ، وذلكَ لغلبةِ الجهلِ علىٰ أكثرِهِمْ ، فلولاَ أنْ حفظَ اللهُ تعالىٰ تلكَ العلومَ بِمَنْ ذكَرْنا . . لجُهِلَتِ العباداتُ ، وانقطعَ علمُ الشرعِ ، ونحنُ معَ هـٰذِهِ الحالةِ نعلمُ أنَّهُمْ عارفونَ بالتوحيدِ علىٰ جهةِ اليقينِ ، بغيرِ طريقِ علمِ الكلامِ والجدلِ ، متحلونَ بالمقاماتِ المشهورةِ المذكورةِ وإنْ لمْ يُشتَهَرْ عنهُمْ ذلكَ اشتهارَ ما أخذَهُ عنهُمْ الخاصُّ والعامُّ .

ومثلُ ذلكَ حالُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ بعدَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لمَّا خافُوا أنْ يندرسَ الإسلامُ ، ويضعفَ ويقلَّ أهلُهُ ، وترجعَ البلادُ والعامَّةُ إلى الكفرِ كما كانُوا أولَ مرَّةٍ ؛ وقدْ ماتَ صاحبُ المعجزةِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والمبعوثُ بدعوةِ الخلقِ إلى الحقِّ . . رأَوْا أنَّ الجهادَ والرباطَ في ثغرِ العدوِّ والغزوَ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وضربَ وجوهِ الكفرةِ بالسيفِ ، وإدخالَ الناسِ في دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . أَوْلَىٰ بهِمْ مِنْ سائرِ الأعمالِ ، وأحقُّ مِنْ تدريسِ العلومِ كلِّها ظاهراً وباطناً .

وإنَّما كانتْ تؤخذُ عنهُمْ علومُ الشرعِ على الأقلِّ ، وهُمْ في حالِ ذلكَ الشغلِ .

والنظرُ إلىٰ حالِ العمومِ أوكدُ مِنَ النظرِ إلى الخصوصِ ؛ لأنَّ الخصوصَ يوجدُ فيهِمْ لأنفسِهِمْ غَناءٌ ، ولهُمْ بحالِهِمْ قيامٌ ، والعمومُ إنْ لمْ يكنْ مشتغلاً بهِمْ ، وذائداً لهُمْ عَنْ هلكاتِهِمْ ، وسائقاً بهِمْ إلىٰ مراشدِهِمْ ونجاتِهِمْ . . كانَ

الهلاكُ إليهِمْ أسرعَ ، ثمَّ لا يكونُ بعدَ ذلكَ إنْ فسدَ حالُ العمومِ للخصوصِ قدرٌ ، ولا يظهرُ لهُمْ نورٌ ، ولا يقدرونَ علىٰ شيءٍ كاملٍ مِنَ البرِّ ، فلا خاصَّةَ إلا بعامَّةٍ .

ولقدْ كانَتْ رعايةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لحالِ الجماهيرِ أكثرَ ، والخوفُ عليهِمْ مِنَ الزيغِ والضلالِ والهلاكِ أشدَّ ، واللطفُ بِهِمْ في تخفيفِ الوظائفِ والأخذِ بالرفقِ أبلغَ ، وكانَ يَكِلُ أهلَ القوّةِ وذوي البصائرِ في الحقائقِ إلىٰ ما كانُوا يأخذونَ بهِ أنفسَهُمْ .

وكانَ هوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحبُّ أنْ يعملَ بالعملِ مِنَ الطاعةِ فما يمنعُهُ منهُ أوْ مِنَ المداومةِ عليهِ إلاَّ خوفُ أنْ يفترضَ علىٰ أمَّتِهِ حينَ علمَ مِنْ أكثرِهِمُ الضعفَ .

ولمْ يكرَهْ لهُمْ ذلكَ وفيهِ زيادةُ الأجرِ ، وكثرةُ الثوابِ والقربِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولكنْ خافَ عليهِمْ أنْ يحصُلوا في تضييعِ الفرضِ ، فيكونَ عليهِمْ كفلٌ مِنَ الوزرِ .

ألاَ ترىٰ كيفَ نهى الحولاءَ بنتَ تُوَيْتٍ عَنْ قيامِ الليلِ كلِّهِ[1] ، وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ يقومُهُ فلَمْ ينهَهُ ؟![2] .

ومنعَ السيفَ مِنْ كلِّ مَنْ أرادَ أخذَهُ بما شرطَ عليهِ فيهِ ، حتَّىٰ جاءَ مَنْ علمَ

---

(١) رواه البخاري (٤٣) ، ومسلم (٧٨٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٦٥٦) .

منهُ القدرةَ على الوفاءِ بما شرطَ عليهِ فأعطاهُ إيّاهُ[1] .

وقالَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ . لَرَدَدْتُ ٱلْبَيْتَ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ »[2] .

وقالَ للأنصارِ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَٱلْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ ؟! »[3] .

ومعَ ذلكَ فالذي حُفِظَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعَنْ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ بَعدِهِ ، وفقهاءِ الأمصارِ وأعيانِ المتكلمينَ رحمَهُمُ اللهُ مِنَ الإشاراتِ بتلكَ العلومِ المذكورةِ كثيرٌ لا يُحصىٰ ، وإنَّما القليلُ مَنْ حملَهُ اليومَ عنهُمْ ، وتفقَّهَ فيهِ مثلَهُمْ .

فابحثْ . . تجدْ ، وتَصَدَّ لاقتباسِ المعارفِ . . تعلمْ ، وطالعْ كتبَ الحديثِ والتواريخِ ومصنفاتِ العلومِ . . توقنْ .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

* * *

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٣٠) ، والبزار في « مسنده » (٩٧٩) ، وفيه : « من يأخذ هـٰذا السيف بحقه ؟ » .

(٢) رواه البخاري (١٥٨٣) ، ومسلم (١٣٣٣) .

(٣) رواه البخاري (٣٧٧٨) ، ومسلم (١٠٥٩) وفيه : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله إلىٰ بيوتكم . . . » .

بيان المرتبة الرابعة
وهي توحيد الصديقين

وأمّا أهلُ المرتبةِ الرابعةِ . فهُمْ قومٌ رأَوُا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وحدَهُ ، ثمَّ رأَوُا الأشياءَ بعدَ ذلكَ بهِ ، فلَمْ يرَوْا في الدارينِ غيرَهُ ، ولا اطلعُوا في الوجودِ علىٰ سواهُ .

وقدَ كانَ بيانُ إشاراتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ فيما خُصُّوا بهِ مِنَ المعرفةِ يوجدُ في هجِّيراهُمْ(١) .

فكانَ هجِّيرىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ) .

وكانَ هجِّيرىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اللهُ أكبرُ) .

وكانَ هجِّيرىٰ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (سبحانَ اللهِ) .

وكانَ هجِّيرىٰ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الحمدُ للهِ) .

فاستقرأَ السابقونَ مِنْ ذلكَ :

أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمْ يشهدْ في الدارينِ غيرَ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وكانَ الصدِّيقَ ، وسُمِّيَ بهِ كما قدْ علمْتَ ، وكانَ يقولُ : (لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ) .

---

(١) الهجِّيرىٰ : الدأب والعادة والشأن .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يرىٰ ما دونَ اللهِ صغيراً معَ اللهِ تعالىٰ وفي جنبِ عظمَتِهِ ، فيقولُ : (اللهُ أكبرُ) .

وكانَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ لا يرى التنزيهَ إلاَّ للهِ سبحانَهُ ؛ إذِ الكلُّ قائمٌ بهِ ، غيرُ معرّىً مِنَ النقصانِ ، والقائمُ بغيرِهِ معلولٌ ، فكانَ يقولُ : (سبحانَ اللهِ) .

وعليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لا يرىٰ نعمةً في الدفعِ والرفعِ ، والعطاءِ والمنعِ ، في المكروهِ والمحبوبِ ، إلاَّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ يقولُ : (الحمدُ للهِ) .

وأهلُ هٰذِهِ المرتبةِ على الجملةِ في حالِ حصولِهِمْ فيها صنفانِ : **مريدونَ** ، **ومرادونَ** .

فالمريدونَ في الغالبِ لا بدَّ لهُمْ أنْ يحلُّوا في المرتبةِ الثالثةِ ، وهيَ توحيدُ المقربينَ ، ومنها ينتقلونَ ، وعليها يعبرونَ إلى المرتبةِ الرابعةِ ، واللهُ أعلمُ .

وأمَّا المرادونَ . . فهُمْ في الغالبِ مبتدئُونَ بمقامِهِمُ الأخيرِ ، وهيَ المرتبةُ الرابعةُ ، ومتمكنونَ فيها .

ومِنْ أهلِ هٰذا المقامِ يكونُ القطبُ والأوتادُ والبُدَلاَءُ ، ومِنْ أهلِ المرتبةِ الثالثةِ يكونُ النقباءُ والنجباءُ والشهداءُ والصالحونَ ، واللهُ أعلمُ .

سُؤَالٌ

[كيفَ يرىٰ صاحبُ هـٰذهِ المرتبةِ الأشياءَ شيئاً واحداً]

فإنْ قلتَ : أليسَ الوجودُ مشتركاً بينَ الحادثِ والقديمِ ، والمألوهِ والإلـٰهِ ؟

ثمَّ معلومٌ أنَّ الإلـٰهَ واحدٌ ، والحوادثَ كثيرةٌ ، فكيفَ يرىٰ صاحبُ هـٰذهِ المرتبةِ الأشياءَ شيئاً واحداً ؟

أذلكَ علىٰ طريقِ قلبِ الأعيانِ ، فتعودُ الحوادثُ قديمةً ، ثمَّ تتحدُ بالواحدِ فترجعُ هيَ هوَ ، وفي هـٰذا مِنَ الاستحالةِ والمروقِ عَنْ مصدرِ العقلِ ما يغني عَنْ إطالةِ القولِ فيهِ ؟

وإنْ كانَ علىٰ طريقِ التخييلِ للوليِّ لِمَا لاَ حقيقةَ لهُ . . فكيفَ يُحتجُّ بهِ أوْ كيفَ يُعدُّ حالاً لوليٍّ أوْ فضيلةً لبشرٍ ؟

والجوابُ عَنْ ذلكَ : أنَّ الحوادثَ لمْ تنقلبْ إلى القِدَمِ ، ولمْ تتَّحدْ بالفاعلِ ، ولا اعترى الوليَّ تخييلٌ فتخيَّلَ ما لاَ حقيقةَ لهُ ، وإنَّما هوَ وليٌّ مجتبىً ، وصدِّيقٌ مرتضىً ، خصَّهُ اللهُ تعالىٰ بمعرفتِهِ علىٰ سبيلِ اليقينِ والكشفِ التامِّ ، وكشفَ لقلبِهِ ما لوْ رآهُ ببصرِهِ عياناً . . ما ازدادَ يقيناً .

وإنْ أنكرْتَ أنْ يكونَ وهبَ اللهُ المعرفةَ بهِ علىٰ هـٰذا السبيلِ لأحدٍ مِنْ خلقِهِ . . فما أطمَّ مصيبتَكَ ! وما أعظمَ العزاءَ فيكَ حينَ قِسْتَ الخلقَ بمقدارِكَ ، وكِلْتَهُمْ بمعيارِكَ ، وفضَّلتَ نفسَكَ على الجميعِ !

إذْ لا سببَ لإنكارِكَ ـ إنْ صحَّ ـ إلاَّ أنكَ تُحيلُ أنْ يُرزقَ أحدٌ ما لمْ تُرزقْ ، أوْ يُخصَّ مِنَ المعرفةِ بما لمْ تُخصَّ .

فإذا تقررَتْ هـٰذهِ القاعدةُ . . فصارَ ما كُشِفَ لقلبهِ لا يخرجُ منهُ ، وما اطلَّعَ عليهِ لا يغيبُ عنهُ ، وما ذكرَهُ مِنْ ذلكَ لا ينساهُ ولا في حالِ نومِهِ وشغلِهِ ، وهـٰذا موجودٌ فيمَنْ كثرَ اهتمامُهُ بشيءٍ ، وثبتَ في قلبهِ حالةٌ أنَّهُ إذا نامَ أوِ اشتغلَ . . لمْ يفقدْهُ في شغلِهِ ونومِهِ كَما لا يفقدُهُ في يقظتِهِ وفراغِهِ .

ولهـٰذا ـ واللهُ أعلمُ ـ إذا رأى الوليُّ المتمكنُ في رتبةِ الصدِّيقيَّةِ مخلوقاً ؛ حيّاً كانَ أوْ جماداً ، صغيراً أوْ كبيراً . . لمْ يرهُ مِنْ حيثُ هوَ هوَ ، وإنَّما يراهُ مِنْ حيثُ أوجدَهُ اللهُ تعالىٰ بالقدرةِ ، وميَّزَهُ بالإرادةِ علىٰ سابقِ العلمِ القديمِ ، ثمَّ أدامَ القهرَ عليهِ في الوجودِ .

ثمَّ لمَّا كانتِ الصفاتُ المشهودةُ آثارُها في المخلوقاتِ ليستْ لغيرِ[1] الموصوفِ الذي هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ . . فنيَ الوليُّ عنْ غيرِهِ ، وصارَ لمْ يرَ سواهُ .

ومعنى الفناءِ : أنَّهُ لا يتميزُ بالذكرِ في سرِّ القلبِ وحيِّزِ المعرفةِ ، ولا بالإدراكِ في ظاهرِ الحسِّ دونَ ما كانَ موجوداً بهِ وصادراً عنهُ ، فأنَّىٰ يبعدُ هـٰذا علىٰ مَنْ أصحبَهُ اللهُ توفيقَهُ ، وفتحَ لهُ منهاجَهُ وطريقَهُ ؟!

وعلىٰ هـٰذا جاءَ المثلُ في « الإحياءِ » برؤيةِ مَنْ يرىٰ إنساناً والإنسانُ

---

(١) في (ت) : (تغير) ، وفي (ث ، ذ) : (بغير) .

المرئيُّ لا شكَّ ذو أجزاءٍ كثيرةٍ ، ثمَّ لا يراهُ الرائي معَ ذلكَ إلاَّ واحداً ، ولا يخطرُ ببالِهِ شيءٌ مِنْ أجزائِهِ مِنْ حيثُ إنَّ أجزاءَ الإنسانِ الظاهرةَ لا حراكَ لهَا ولا سكونَ ، ولا قبضَ ولا بسطَ ، ولا تصرُّفَ فيما يظهرُ إلاَّ بمعاني ما كانَ إنساناً مِنْ أجلِهِ وهوَ الراكبُ للجسدِ ، المستولي علىٰ سائرِ الأجزاءِ ، المصرِّفُ بقدرَةِ اللهِ تعالىٰ للأعضاءِ ، الملقَّبُ بالروحِ تارةً ، والقلبِ أخرىٰ ، وقدْ يعبرُ عنهُ بالنفسِ .

فإذا رأى اليدَ مِنَ الإنسان مثلاً . . لمْ يرَها مِنْ حيثُ إنَّها لحمٌ وعصبٌ وعضلٌ وغيرُ ذلكَ مِنْ مجموعِ أشخاصِ الجواهرِ ، وإنَّما يراها مِنْ حيثُ ما ظهرَ عليها مِنْ آثارِ صفاتِهِ التي هيَ القدرةُ والعلمُ والإرادةُ والحياةُ .

والصفاتُ لا تقومُ بنفسِها دونَ الموصوفِ ؛ فلهـٰذا لمْ يشاهدْ غيرَ المعنى الحاملِ للصفاتِ المشهودِ أثرُها في الأعضاءِ والجوارحِ ، فظهرَ صحَّةُ رؤيةِ الرائي الإنسانَ واحداً وهوَ ذو أجزاءٍ كثيرةٍ .

ومثلُ هـٰذا قدْ يعترِي الداخلينَ على الملوكِ ، والمحبينَ معَ منْ قدْ شُغِفُوا بهِ مِنَ المخلوقينَ .

والأمثالُ غيرُ هـٰذا كثيرةٌ مِنْ هـٰذا المعنىٰ ، وأرجُو ألاَّ يُحتاجَ إليها معَ هـٰذا الوضوحِ ، ولاَ فهمَ إلاَّ باللهِ تعالىٰ ، ولا شرحَ إلاَّ منهُ ، ولا نورَ إلاَّ مِنْ عندِهِ ، ولهُ الحولُ والقوَّةُ ، وهوَ العليُّ العظيمُ .

فَصْلٌ
[في معنى : إفشاء سرّ الربوبيّة كفر]

وأمّا معنىٰ إفشاءُ سرِّ الربوبيّةِ كفرٌ .. فيُخرّجُ علىٰ وجهينِ :

أحدُهُما : أنْ يكونَ المرادُ بهِ كفراً دونَ كفرٍ ، ويُسمَّىٰ بذلكَ تغليظاً لِمَا أتىٰ بهِ المُفْشِي ، وتعظيماً لِمَا ارتكَبَهُ .

ويُعترضُ هـٰذا بأنْ يقالَ : لا يصحُّ أنْ يُسمَّىٰ هـٰذا كفراً ؛ لأنَّهُ ضدُّ الكفرِ ؛ إذِ الكافرُ الذي سُمِّيَ هـٰذا علىٰ معناهُ ساترٌ ، وهـٰذا المُفشِي للسرِّ ناشرٌ ، وأينَ النشرُ مِنَ السترِ ، والإظهارُ مِنَ التغطيةِ ، والإعلانُ مِنَ الكتمِ ؟

واندفاعُ هـٰذا هيِّنٌ بأنْ يقالَ : ليسَ الكفرُ الشرعيُّ تابعاً للاشتقاقِ ، وإنَّما هوَ حكمٌ لمخالفةِ الأمرِ ، وارتكابِ النهيِ ، فمَنْ ردَّ إحسانَ محسنٍ ، أوْ جحدَ نعمةَ متفضِّلٍ .. فيقالُ لهُ : كافرٌ ؛ لجهتينِ : إحداهُما مِنْ جهةِ الاشتقاقِ ، ويكونُ إذْ ذاكَ اسماً ينبىءُ عنْ وصفٍ ، والثانيةُ : مِنْ جهةِ الشرعِ ، ويكونُ إذْ ذاكَ حكماً يوجبُ عقوبةً ، والشرعُ قدْ وردَ بشكرِ المنعمِ .

فافهمْ ، لا تذهبْ معَ الألفاظِ ، ولا تستزلَّكَ العباراتُ ، ولا تحجبْكَ التسمياتُ ، وتفطَّنْ لخداعِها ، واحترسْ مِنِ استدراجِها .

فإذاً ؛ مَنْ أظهرَ ما أُمرَ بكتمِهِ .. كانَ كمَنْ كتمَ ما أُمرَ بنشرِهِ ، وفي

مخالفةِ الأمرِ فيهما حكمٌ واحدٌ علىٰ هـٰذا الاعتبارِ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ مِنْ جهةِ الشرعِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ »(١) ، وفي ارتكابِ النهيِ عصيانٌ ، ويُسَمَّىٰ في بابِ القياسِ على المذكورِ : كفراناً .

* * *

والوجهُ الثاني : أنْ يكونَ معناهُ كفراً للسامعِ لا للمخبرِ ، بخلافِ الوجهِ الأولِ ، ويكونُ هـٰذا مطابقاً لحديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لاَ تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟! » .

فمَنْ حدّثَ أحداً بما لمْ يصلْهُ عقلُهُ . . ربَّما سارعَ إلى التكذيبِ ، **وهوَ الأكثرُ** ، ومَنْ كذَّبَ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ أوْ بما أوجدَ بها . . فقدْ كفرَ ولوْ لمْ يقصدِ الكفرَ .

فإنَّ أكثرَ اليهودِ والنصارىٰ وسائرِ النِحَلِ ما قصدَتِ الكفرَ ، ولا تظنُّهُ بأنفسِها ، وهُمْ كفارٌ بلا ريبٍ ، وهـٰذا وجهٌ واضحٌ قريبٌ .

ولا تلتفِتْ إلىٰ ما مالَ إليهِ بعضُ مَنْ لا يعرفُ وجوهَ التأويلِ ، ولا يعقلُ كلامَ أُولِي الحِكَمِ والراسخينَ في العلمِ ، حينَ ظنَّ أنَّ قائلَ ذلكَ أرادَ الكفرَ الذي هوَ نقيضُ الإيمانِ والإسلامِ ، يتعلقُ بمخبرِهِ ويلحقُ قائلَهُ ، وهـٰذا

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٨١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) مرفوعاً بنحوه .

لا يُخرَّجُ إلاَّ علىٰ مذاهبِ أهلِ الأهواءِ ، الذينَ يكفِّرونَ بالمعاصِي ، وأهلُ السنَّةِ لا يرضَوْنَ بذلكَ .

وكيفَ يقالُ لمَنْ آمنَ باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ ، وعبَدَ اللهَ بالقولِ الذي ينزِّهُهُ بهِ ، والعملِ الذي يقصدُ بهِ التعبُّدَ لوجهِهِ ، والفكرِ الذي يستزيدُ بهِ إيماناً ، والمعرفةِ لهُ سبحانَهُ ، ثمَّ يكرمُهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ ذلكَ بفوائدِ المزيدِ ، ويُنيلُهُ ما شَرُفَ مِنَ المِنَحِ ، ويُريهِ أعلامَ الرضا ، ثمَّ يكفِّرُهُ أحدٌ بغيرِ شرعٍ ولا قياسٍ عليهِ ، والإيمانُ لا يخرجُ عنهُ إلاَّ بنبذِهِ واطِّراحِهِ وتركِهِ ، واعتقادِ ما لا يتمُّ الإيمانُ معَهُ ، ولا يحصلُ بمقارنتِهِ ؟!

* * *

وليسَ في إفشاءِ الوليِّ شيءٌ ممَّا يناقضُ الإيمانَ ، اللهُمَّ ؛ إلاَّ أنْ يُريدَ بإفشائِهِ وقوعَ الكفرِ مِنَ السامعِ لهُ ، فهـٰذا عاتٍ[1] ، متمرِّدٌ ، وليسَ بوليٍّ ، ومَنْ أرادَ مِنْ خلقِ اللهِ أنْ يكفرُوا باللهِ تعالىٰ . . فهوَ لا محالةَ كافرٌ ، وعلىٰ هـٰذا يُخرَّجُ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

ثمَّ إنَّهُ مَنْ سبَّ أحداً منهُمْ علىٰ معنىً ما يجدُ لهُ مِنَ العداوةِ والبغضاءِ . . قيلَ لهُ : أخطأْتَ وأثمْتَ مِنْ غيرِ تكفيرٍ ، وإنْ كانَ إنَّما فعلَ ذلكَ ليسمعَ سبَّ اللهِ تعالىٰ أوْ سبَّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ كافرٌ بالإجماعِ .

---

(١) في (ث ، ذ ، ض) : (عابث) .

سُؤَالٌ

[ما معنىٰ : للإلـٰهيّةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ؟]

فإنْ قيلَ : فما معنىٰ قولِ سهلٍ رحمَهُ اللهُ تعالى الذي نُسِبَ إليهِ : (للإلـٰهيةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ النبوَّةُ ، وللنبوَّةِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلَ العلمُ ، وللعلمِ سرٌّ لوِ انكشفَ . . لبطلتِ الأحكامُ)(١) .

وجاءَ في « الإحياءِ » علىٰ أثرِ هـٰذا القولِ : وقائلُ هـٰذا إنْ لمْ يُردْ بهِ بطلانَ النبوَّةِ في حقِّ الضعفاءِ . . فما قالَهُ ليسَ بحقٍّ ؛ فإنَّ الصحيحَ لا يتناقضُ ، والكاملُ مَنْ لا يطفىءُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ .

وهـٰذا وإنْ لمْ يكنْ مِنَ الأسئلةِ المرسومةِ . . فهوَ متعلِّقٌ منها بما فُرِغَ مِنَ الكلامِ فيهِ آنفاً وناظرٌ إليهِ ؛ إذْ ما أدىٰ إفشاؤُهُ إلىٰ بطلانِ النبوَّةِ والأحكامِ والعلمِ . . فهوَ كفرٌ .

والجوابُ : أنَّ الذي قالَهُ رحمَهُ اللهُ وإنْ كانَ مستعجماً في الظاهرِ . . فهوَ قريبُ المسلَكِ ، بادِي الصحَّةِ للمتأمِّلِ الذي يعرفُ مصادِرَ أغراضِهِمْ ، ومسالِكَ أقوالِهِمْ .

وسرُّ الإلـٰهيةِ الذي بمعرفتِهِ يستحقُّ النبوَّةَ مَنْ وصلَ إليهِ اليقينُ(٢) الذي لولاهُ لمْ يكنْ نبيّاً . . لا يخلُو :

---

(١) انظر « قوت القلوب » (٢/ ٩٠) .

(٢) في (ث ، ذ) : (وصل إلى الله باليقين) .

إمَّا أنْ يكونَ انكشافُهُ مِنَ اللهِ بما يطلعُ على القلوبِ مِنَ الأنوارِ التي كانتْ غائبةً عنها ؛ بأنْ كانتِ القلوبُ ضعيفةً طرأَ عليها مِنَ الدهشِ والاصطلامِ والحيرةِ والتِّيهِ ما يبهرُ العقولَ ، ويُفْقِدُ الحسَّ ، ويقطعُ عَنِ الدنيا وما فيها ، وذلكَ لضعفِهِ .

ومَنِ انتهىٰ إلىٰ هـٰذِهِ الحالةِ . . فتبطلُ النبوَّةُ في حقِّهِ أنْ يعرفَها ، أوْ يعقلَ ما جاءَ مِنْ قِبلِها ؛ إذْ قدْ شغلَهُ عنها ما هوَ أعظمُ لديهِ منها ، وربَّما كانَ ذلكَ سببَ موتِهِ لعجزِهِ عَنْ حملِ ما يطرأُ عليهِ .

كما حُكيَ أنَّ شاباً مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ عرضَ عليهِ أبو يزيدَ ولمْ يرهُ مِنْ قبلُ ، فلمَّا نظرَ إليهِ الشابُّ . . ماتَ مِنْ ساعتِهِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّهُ كانَ في صدرِهِ أمرٌ لمْ تنكشفْ لهُ حقيقتُهُ ، فلمَّا رآني . . انكشفَ لهُ ، وكانَ في مقامِ الضعفاءِ مِنَ المريدينَ ، فلمْ يطقْ حملَهُ فماتَ بهِ .

وإمَّا أنْ يكونَ انكشافُهُ مِنْ عالمٍ بهِ علىٰ جهةِ الخبرِ عنهُ . . فتبطلُ النبوَّةُ في حقِّ المخبرِ ، حيثُ نُهِيَ عَنِ الإفشاءِ فأفشىٰ ، وأُمِرَ ألاَّ يتحدثَ فلمْ يفعلْ ، فخرجَ بهـٰذِهِ المعصيةِ عَنْ طاعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيها ؛ **فلهـٰذا قيلَ في ذلكَ : بطلتِ النبوَّةُ في حقِّهِ بإخبارِهِ** .

* * *

فإنْ قلتَ : فلِمَ لا تكفرُوهُ علىٰ هـٰذا الوجهِ إذْ بطلتِ النبوةُ في حقِّهِ بإخبارِهِ ؟

قلنا : لَمْ يبطلْ في حقِّهِ جميعُها ، وإنَّما بطلَ في حقِّهِ منها ما خالفَ الأمرَ الثابتَ مِنْ قِبلها ، ويعدُّ هٰذا مِنَ الكلامِ إغلاءً وتغليظاً لحقِّ الإفشاءِ ، وقدْ سبقَ الكلامُ عليهِ في معنىٰ (إفشاءِ سرِّ الربوبيّةِ كفرٌ) .

وأمَّا سرُّ النبوَّةِ الذي أوجبَ بطلانَ العلمِ لمَنْ رُزقَها ، أوْ رُزِقَ معرفتَها على الجملةِ ؛ إذِ النبوةُ لا يعرفُها بالحقيقةِ إلا نبيٌّ :

فإنِ انكشفَ ذلكَ لقلبِ أحدٍ . . بطلَ العلمُ في حقِّهِ باعتبارِ المحبَّةِ لهُ بالأمرِ المتوجِّهِ عليهِ بطلبهِ ، والبحثِ عنهُ والتفكُّرِ فيهِ ، فيكونُ كالنبيِّ إذا سُئلَ عَنْ شيءٍ أوْ وقعَتْ لهُ واقعةٌ . . لمْ يَحتَجْ إلى النظرِ فيها ، ولا إلى البحثِ عنها ، بلْ ينتظرُ ما عُوِّدَ مِنْ كشفِ الحقائقِ بإخبارِ ملَكٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ يفهمُ عنهُ ، أوِ اطلاعٍ على اللوحِ المحفوظِ ، أوْ إلقاءٍ في رُوعٍ ، فيعودُ ذلكَ أصلاً في العلمِ ، ونسخاً لهُ ، ومعنىً يقيسُ عليهِ غيرَهُ .

وأمَّا إنْ كانَ انكشافُهُ بخبرٍ ممَّنْ رُزِقَ علمَ ذلكَ . . كانَ بطلانُ العلمِ في حقِّ المخبرِ ؛ إذْ أفشاهُ لغيرِ أهلِهِ ، وأهداهُ لمَنْ لا يستحقُّهُ .

كما رُويَ أَنَّ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ قالَ : (لا تعلِّقُوا الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ)(١) ، وإنَّما أرادَ ألاَّ يباحَ العلمُ لغيرِ أهلِهِ .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٥٥ـ٣٥٦) مرفوعاً ، وروى ابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » .

وقدْ جاءَ : (لا تمنعُوا الحكمةَ أهلَها فتظلمُوهُمْ ، ولا تضعُوها عندَ غيرِ أهلِها فتظلمُوها)[1] .

وأمَّا سرُّ العلمِ الذي يُوجبُ كشفُهُ بطلانَ الأحكامِ :

فإنْ كانَ كشفُهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ لقلوبٍ ضعيفةٍ . . بطلتِ الأحكامُ في حقِّها ؛ لِمَا تطَّلعُ عليهِ في ذلكَ السرِّ مِنْ معرفةِ مآلِ الأشياءِ ، وعواقبِ الخلقِ ، وكشفِ أسرارِ العبادِ ، وما بطنَ مِنَ المقدورِ .

فمنْ عرفَ نفسَهُ مثلاً أنَّهُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . لمْ يصلِّ ، ولمْ يصمْ ، ولمْ يتعبْ نفسَهُ في خيرٍ .

وكذلكَ لوِ انكشفَ لهُ أنَّهُ مِنْ أهلِ النارِ . . كَمُلَ انهماكُهُ ، فلا يحتاجُ إلىٰ تعبٍ زائدٍ ، ولا نصبٍ يكابدُهُ

فلوْ عرفَ كلُّ أحدٍ عاقبتَهُ ومآلَهُ . . بطلتِ الأحكامُ الجاريةُ عليهِ .

وإنْ كانَ كشفُها مِنْ مخبرٍ . . استروحَ الضعيفُ إلىٰ ما يسمعُ مِنْ ذلكَ ، فيتعطلُ وينخرمُ حالُهُ ، وينحلُّ قيدُهُ .

وبعدَ هٰذا فلا يُحملُ كلامُ سهلٍ رحمهُ اللهُ إلاَّ علىٰ ما يُقدَّرُ[2] ، لا علىٰ ما يوجدُ ، ولذلكَ جعلَهُ مقروناً بحرفِ (لوْ) الدالِّ على امتناعِ الشيءِ لامتناعِ غيرِهِ ، كما يقالُ :

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٣) من كلام سيدنا عيسىٰ عليه السلام .
(٢) في (ث ، ذ) : (ما تعذر) .

لوْ كانَ للإنسانِ جناحانِ . . لطارَ .

ولوْ كانَ للسماءِ درجٌ . . لصُعِدَ إليها .

ولوْ كانَ البشرُ ملَكاً . . لفقدَ الشهوةَ .

فعلىٰ هـٰذا يخرَّجُ كلامُ سهلٍ رحمَهُ اللهُ في ظاهرِ العلمِ .

* * *

فَصْلٌ

[في عدم استنكار خطاب الجمادات]

وأمَّا خطابُ العقلاءِ للجماداتِ . . فغيرُ مستنكَرٍ ، فقديماً ندبَ الناسُ الديارَ ، وسألُوا الأطلالَ ، واستخبَرُوا الآثارَ ، وقدْ جاءَ في أشعارِ العربِ وكلامِها مِنْ ذلكَ كثيرٌ .

وفي حديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُسْكُنْ حِراءُ ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ »(١) .

وقالَ بعضُهُمْ : سلِ الأرضَ تخبرْكَ عمَّنْ شقَّ أنهارَها ، وفجَّرَ بحارَها ، وفتقَ أهواءَها(٢) ، ورتقَ أجواءَها(٣) ، وأرسىٰ جبالَها ، إنْ لمْ تجبْكَ حِواراً . . أجابتْكَ اعتباراً .

وإِنَّما الذي يتوقفُ على الأذهانِ ، ويتحيرُ في قبولِهِ السامعونَ ، وتتعجبُ منهُ أُولو العقولِ ، هوَ كيفيَّةُ كلامِ الجماداتِ والحيواناتِ الصامتاتِ ، **ففي هـٰذا وقعَ الإنكارُ ؛ واضطربَ النظَّارُ ، وكذَّبَ تصحيحَ وجودِه ذوو السمعِ مِنْ أهلِ الاعتبارِ .**

(١) رواه مسلم (٢٤١٧) ، وفيه (أو شهيد) بدل (أو شهيدان) .
(٢) في (ث ، ذ) : (وفتق أزهارها) .
(٣) في (ث ، ذ) : (ورتق أجزاءها) .

ولكنْ لتعلمْ أنَّ تلقي الكلامِ للعقلاءِ ممَّنْ لمْ يُعهَدْ فيهِ في المشهورِ يكونُ علىٰ جهاتٍ :

مِنْ ذلكَ : **سماعُ الكلامِ الذاتيِّ** ، كما يُتلقَّىٰ مِنْ أهلِ النطقِ إذا قصدُوا إلىٰ نظمِ اللفظِ ، وذلكَ أكثرُ ما يكونُ للأنبياءِ والرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ أجمعِينَ في بعضِ الأوقاتِ ؛ كحنينِ الجذعِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[١] ، وكانَ بمكَّةَ حَجَرٌ يسلِّمُ عليهِ في طريقِهِ قبلَ مبعثِهِ[٢] .

❊ ❊ ❊

ومنها : **تلقِّي الكلامِ في حسِّ السامعِ** ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهُ وجودٌ في خارجِ الحسِّ ، ويعتري هـٰذا في سائرِ الحواسِّ ؛ كمثْلِ ما يسمعُ النائمُ في منامِهِ ؛ مِنْ مثالِ شخصٍ ومِنْ غيرِ مثالٍ .

والمثالُ المرئيُّ للنائمِ ليسَ لهُ وجودٌ في غيرِ حاسَّةِ بصرِهِ ؛ كالصوتِ الذي يسمعُهُ منهُ ليسَ لهُ وجودٌ في غيرِ حاسَّةِ سمعِهِ .

وأمَّا ما يجدُهُ غيرُ النائمِ في اليقظةِ : **فمنها خاصَّةٌ ، وعامَّةٌ** .

فالعامَّةُ تشهدُ بصحَّةِ الخاصَّةِ ؛ كما جاءَ في الحديثِ عَنْ قتلِ اليهودِ في آخرِ الزمانِ : « أَنَّ ٱلْحَجَرَ يُنَادِي ٱلْمُسْلِمَ : يَا مُسْلِمُ ؛ خَلْفِي يَهُودِيٌّ

---

(١) كما رواه البخاري (٣٥٨٣) .

(٢) كما رواه مسلم (٢٢٧٧) .

فَٱقْتُلْهُ »[1] ، فإمَّا أنْ يخلُقَ[2] اللهُ تعالىٰ للحجرِ حياةً ونطقاً ، ويُذهبَ عنهُ معنى الحجريَّةِ ، أوْ يوكِّلَ بالحجرِ مَنْ يتكلَّمُ عنهُ ممَّنْ يُستَرُ عَنِ الأبصارِ في العادةِ مِنَ الملائكةِ أوِ الجنِّ ، أوْ يكونَ كلاماً يخلقُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أذنِ السامعِ ؛ ليفيدَهُ العلمَ باختفاءِ اليهوديِّ حتَّىٰ يقتلَهُ .

وكما يقالُ في العرضِ الأكبرِ إذا نُودِيَ فيهِ باسمِ كلِّ واحدٍ على الخصوصِ ، وفي الخلائقِ مثلُ اسمِ المنادَىٰ كثيرٌ ، وقدْ قالتِ العلماءُ رحمَهُمُ اللهُ : (إنهُ لا يسمعُ النداءَ في ذلكَ الجمعِ إلَّا مَنْ نُودِيَ) فيُحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ النداءُ يُخلقُ للمنادَىٰ في حاسَّةِ أذنِهِ ؛ ليتحرَّكَ إلى الحسابِ وحدَهُ دونَ مَنْ يشاركُهُ في اسمِهِ ، ولا يكونُ نداءً مِنْ خارجٍ ، **والأمثلةُ كثيرةٌ في الشرعِ ، وفيما سمعتَ غُنْيَةٌ ومَقْنَعٌ .**

* * *

ومنها : تلقِّي الكلامِ في العقلِ ، وهوَ المستفادُ بالمعرفةِ ، المسموعُ بالقلبِ ، المفهومُ بالتقديرِ عَنِ اللفظِ المسمَّىٰ بلسانِ الحالِ ، كما قالَ قيسٌ[3] : [من الطويل]

وَأَجْهَشْتُ للتَّوْبادِ حِينَ رأيتُهُ ... وكبَّرَ للرَّحْمَٰنِ حِينَ رآنِي
فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُّهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي عَيْشٍ وخَفْضِ زَمانِ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٢٦) ، ومسلم (٢٩٢٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) في النسخ : (فإن لم يخلق) ، والمثبت من هامش (ذ) .
(٣) هو قيس بن الملوح ، والأبيات في « ديوانه » (ص٢٨٣) .

فَقَالَ مَضَوْا واَسْتَوْدَعُونِي بِلادَهُمْ وَمَنْ ذا الَّذِي يبقَىٰ عَلَى الحَدَثانِ

وفي أمثالِ العوامِّ : (قالَ الحائطُ للوتدِ : لِمَ تشقُّنِي ؟ فقالَ الوتدُ للحائطِ : سلْ مَنْ يدقُّنِي) .

فلوْ كانتِ العبارةُ تتأتَّىٰ منهُما . . ما عبَّرَتْ إلاَّ بما قدِ استُعِيرَ لهُما .

وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ حملَ كثيرٌ مِنَ العلماءِ رحمَهُمُ اللهُ قولَهُ تعالىٰ إخباراً عَنِ السماءِ والأرضِ : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

* * *

ومنها : **تلقِّي الكلامِ في الخيالِ** ؛ مثلُ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وَتُجِيبُهُ ٱلْجِبَالُ ، وَٱللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ لَهُ : لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ »[1] .

فقولُهُ : « كأنِّي أنظرُ » يدلُّ علىٰ أنَّهُ تخيلَ حالةً سبقَتْ لمْ يكنْ لها في الخيالِ[2] وجودٌ ذاتيٌّ ؛ لأنَّ يونسَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ قدْ ماتَ ، وتلكَ الحالةُ منهُ قدْ سلفَتْ ، وفي هـٰذا الحديثِ إخبارٌ عَنِ الوجودِ

---

(١) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٤٨٤٨) .

(٢) في (ت ، ث ، ذ ، ض) : (في الحال) بدل (في الخيال) .

الخياليِّ في البصرِ ، والوجودِ الخياليِّ في السمعِ .

ومنها : **تلقِّي الكلامِ بالشَّبَهِ** ، وهوَ أنْ يسمعَ السامعُ كلاماً أوْ صوتاً مِنْ شخصٍ حاضرٍ ، فيُلقَىٰ عليهِ شبهُ غيرِهِ ممَّا غابَ عنهُ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في صوتِ أبي موسَى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُ إذْ سمعَهُ يترنَّمُ بالقرآنِ : « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ »[1] .

ومزاميرُ آلِ داوودَ قدْ عُدِمَتْ وذهبَتْ ، وإنَّما شبَّهَ صوتَهُ بها .

وكما إذا سمعَ المريدُ صوتَ مزمارٍ ، أوْ عودٍ فجأةً علىٰ غيرِ قصدٍ . . يتخيلُ صريرَ أبوابِ الجنَّةِ ويشبِّهُها بما فجَأَ صوتُهُ مِنْ ذلكَ .

فهٰذِهِ مراتبُ الوجودِ ، فأنتَ إذا أحسنْتَ التصرفَ بينَ إثباتِها ، ولمْ يعترِكَ غلطٌ في بعضِها ببعضٍ . . **لمْ تلتبسْ عليكَ ، ولا اشتبهَتْ عليكَ** ، وسمعْتَ عمَّنْ نظرَ بمشكاةِ نورِ اللهِ تعالىٰ إلى الكاغَدِ وقدْ رآهُ اَسْوَدَّ وجهُهُ بالحبرِ ؛ فقالَ لهُ : ما بالُ وجهِكَ وكانَ أبيضَ مشرقاً مونقاً ، والآنَ قدْ ظهرَ عليهِ السوادُ ، فلِمَ سوَّدْتَ وجهَكَ ؟

فقالَ الكاغَدُ : ما أنصفْتَني في هٰذِهِ المطالبةِ ؛ فإنِّي ما سوَّدْتُ وجهِي بنفسِي ، ولكنْ سَلِ الحبرَ ؛ فإنَّهُ كان مجموعاً في المحبرَةِ التي هيَ مستقرُّهُ

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) .

ووطنُهُ، فسافرَ عَنِ الوطنِ، ونزلَ بساحةِ وجهي ظلماً وعدواناً، فقالَ: صدقْتَ.

ثمَّ أنتَ إذا سمعْتَ أمثالَ هـٰذهِ المراجعاتِ.. **أَعْمِلِ الفكرَ، وجدِّدِ النظرَ، وحُلَّ الكلامَ إلىٰ جملةِ أجزائِهِ التي انتظمَ منها جملةُ ما بلغكَ.**

فسَلْ عَنْ معنَى الناظرِ، ومعنَى المشكاةِ، ومعنَىٰ نورِ اللهِ سبحانَهُ، وما سببُ أنْ لمْ يعرفِ الناظرُ الكتابةَ والمكتوبَ، وبأيِّ لسانٍ خاطبَ الكاغَدَ، وكيفَ خاطبَهُ الكاغَدُ وهوَ ليسَ مِنْ أهلِ النطقِ، وفيماذا صدَّقَ الناظرُ الكاغَدَ، ولِمَ صدَّقَهُ بمجرَّدِ قولِهِ دونَ دليلٍ ولا شاهدٍ؟

فسيبدُو لكَ هـٰهنا أنَّ الناظرَ هوَ ناظرُ القلبِ، فيما أوردَهُ عليهِ الحسُّ، والمشكاةُ استعارةٌ نُقِلَتْ مِنْ مشكاةِ الزجاجةِ التي أُعِدَّتْ لسراجِ النارِ إلىٰ حيِّزِ المعرفةِ الملقَّبِ بسرِّ القلبِ، تشبيهاً بها؛ لأنها مسرجةُ الربِّ سبحانَهُ وتعالىٰ يشعلُها بنورِهِ.

ونورُهُ المذكورُ هـٰهنا عبارةٌ عَنْ صفاءِ الباطنِ، واشتعالِ السرِّ بطلوعِ نيِّراتِ كواكبِ المعارفِ المُذْهِبَةِ ـ بإذنِ اللهِ تعالىٰ ـ ظُلَمَ جهالاتِ القلوبِ، ووجهُ إضافتِهِ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ سبيلِ الإشارةِ بالذكرِ لأجلِ التخصيصِ بالشرفِ.

والكاغَدُ والحبرُ كنايةٌ عنْ أنفسِهما لا عَنْ غيرِهما، وجعلَهُما اللهُ عزَّ وجلَّ مبدأَ طريقِهِ، وأولَ سلوكِهِ؛ إذْ هما في عالَمِ الملكِ والشهادةِ الذي هوَ محلُّ جملةِ الناظرِ في حالِ نظرِهِ.

وأمَّا سببُ أنْ لَمْ يعرفِ الكتابةَ والمكتوبَ . . فلأجلِ أنَّهُ كانَ أمياً لا يقرأُ الكتابَ الصناعيَّ ، وإنَّما يرومُ معرفةَ قراءةِ الخطِّ الإلـهيِّ ، الذي هوَ أبينُ وأدلُّ علىٰ ما يُفهَمُ منهُ .

وأمَّا مخاطبةُ الناظرِ للكاغَدِ وهوَ جمادٌ . . فقدْ سبقَ الكلامُ علىٰ مثلِهِ .

و[أما][1] مراجعةُ الكاغَدِ لهُ . . فعلىٰ قدرِ حالِ الناظرِ لهُ :

إنْ كانَ مراداً . . فيتلقَّى الكلامَ في الحسِّ بما ينبئُهُ عَنِ المطلوبِ مِنَ الحقِّ ، وهوَ مِنْ بابِ الإلقاءِ في الرُّوعِ ، فيودِعُهُ الحسَّ المشترَكَ المحفوظَ فيهِ على الإنسانِ صورُ الأشياءِ المحسوسةِ .

وإنْ كانَ مريداً . . فيتلقَّاه بلسانِ الحالِ المسموعِ بسمعِ القلبِ بواسطةِ المعرفةِ والعقلِ .

وتصديقُ الناظرِ للكاغَدِ في عذرِهِ وإحالتُهُ على الحبرِ لمْ يكنْ بمجرَّدِ قولِهِ ، بلْ بشهادةِ أُولي الرضا والعدلِ ، وهوَ البحثُ والتجربةُ ، وشهادةُ النفسِ ، وهـٰذا سبيلُكَ إلى اليدِ ، **وهوَ آخرُ ما سألَ عنهُ مِنْ أجزاءِ عالَمِ الملكِ** .

وأمَّا ما يسمعُهُ في حدِّ عالَمِ الجبروتِ ، وذلكَ مِنَ القدرةِ المحدِثةِ إلى العقلِ والعلمِ الموجودينِ في الإنسانِ . . فمستقرُّهُ في القوَّةِ الوهميَّةِ المدركَةِ جميعَ ما لا يستدعِي وجودُهُ جسماً ، ولكنْ قدْ يعرضُ لهُ أنْ يكونَ في

---

(١) ما بين معقوفين زيادة يقتضيها السياق ، والله أعلم .

جسمٍ ، كما تُدرِكُ السخلةُ عداوةَ الذئبِ وعطفَ أمِّها ، فتتبعُ العطفَ ، وتنفرُ مِنَ العداوةِ .

وأمَّا ما يسمعُهُ في حدِّ عالمِ الملكوتِ ، وذلكَ مِنَ القلمِ الإلـٰهيِّ إلىٰ ما وراءَ ذلكَ ممَّا هوَ داخلٌ فيهِ ومعدودٌ منهُ . . فبسرِّ القلبِ الذي يأخذُ بهِ عَنِ الملائكةِ ، ويسمعُ بهِ ما بَعُدَ مكانُهُ ودقَّ معناهُ ، وعزبَ عَنِ القلوبِ[1] مِنْ جهةِ الفكرِ تصوُّرُهُ .

فأمَّا أيُّ شيءٍ حقائقُ هـٰذهِ المذكوراتِ ؟ وما كُنْهُ كلِّ واحدٍ منها علىٰ نحوِ معرفتِكَ لأجزاءِ عالمِ الملكِ والشهادةِ ؟

فذلكَ مِنْ علمٍ لا يُنتفَعُ بسماعِهِ معَ عدمِ المشاهدَةِ .

واللهُ قدْ عرفكَ بأسمائِها ، فإنْ كنتَ مؤمناً . . فصدِّقْ بوجودِها على الجملةِ ؛ لِعِلْمِكَ أنكَ لا تُخْبَرُ بتسمياتٍ ليسَ لها مسمَّياتٌ ، إلىٰ أنْ يُلحقَكَ اللهُ بأُولي المشاهداتِ ، ويخصَّكَ بخالصِ الكراماتِ ، ومَنْ كفرَ . . فإنَّ اللهَ غنيٌّ حميدٌ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ث ، ذ) : (عن العقول) .

فَصْلٌ
[في بيان الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهيّ]

والفرقُ بينَ القلمِ المحسوسِ في عالمِ الملكِ وبينَ القلمِ الإلـهيِّ في عالمِ الملكوتِ :

أنَّ **القلمَ المحسوسَ** كما عقلتَهُ[(١)] مجسماً ، بطيءَ الحركةِ بالفعلِ ، سريعَ الانتقالِ بالهلاكِ ، مخلَّفاً عَنْ مثلِهِ في الظاهرِ ، مجعولاً تحتَ قهرِ سلطانِ الآدميِّ الضعيفِ الجاهلِ في أكثرِ أوقاتِهِ ، مصرَّفاً بينَ أحوالٍ متنافيةٍ ؛ كالعلمِ والجهلِ ، والعدلِ والظلمِ ، والظنِّ والشكِّ ، والصدقِ والإفكِ .

والقلمُ الإلـهيُّ عبارةٌ عنْ خلقٍ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ في عالمِ الملكوتِ ، مختصٍّ بخلافِ خصائصِ الجواهرِ الحسيَّةِ الكائنةِ في عالمِ الملكِ ، بريءٍ مِنْ أوصافِ ما سُمِّيَ بهِ القلمُ المحسوسُ كلِّها ، مصرفٍ بيمينِ الخالقِ بحكمِ إرادتِهِ علىٰ ما سبقَ بهِ علمُهُ في أزلِ الأزلِ ، وإنَّما سُمِّيَ بهـٰذا الاسمِ لأجلِ شبهِهِ بعملِ ما سُمِّيَ بهِ ، غيرَ أنَّهُ لا يكتبُ إلاَّ حقّاً بحقٍّ .

---

(١) قوله : (كما عقلته) خبر (أنَّ) أي : كائن بالحال المعقولةِ لك سابقاً من نعته وعادته . اهـ هامش (ث ، ذ) .

والفرقُ بينَ يمينِ الآدميِّ ويمينِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

أنَّ يمينَ الآدميِّ كما علمْتَ مركبةٌ مِنْ عصبٍ استعصَىٰ بقاؤُها ، وعضلٍ تعضُلُ أدواؤُها ، وعظامٍ يعظُمُ بلاؤُها ، ولحمٍ ممتدٍّ ، وجلدٍ غيرِ ذي جَلَدٍ ، موصولةٌ بمثلِها في الضعفِ والانفصالِ ، ملقَّبةٌ باليدِ ، وهيَ عاجزةٌ علىٰ كلِّ حالٍ .

ويمينُ اللهِ تعالىٰ هيَ عندَ بعضِ أهلِ التأويلِ : عبارةٌ عَنْ قدرتِهِ .

وعندَ بعضِهِمْ : عبارةٌ عَنْ صفةٍ للهِ تعالىٰ غيرِ القدرةِ ، وليسَتْ بجارحةٍ ولا جسمٍ .

وعندَ آخرينَ : عبارةٌ عَنْ خلقٍ للهِ تعالىٰ هيَ واسطةٌ بينَ القلمِ الإلـٰهيِّ الناقشِ للعلومِ المحدَثَةِ وغيرِها ، وبينَ قدرتِهِ التي هيَ صفةٌ لهُ ، صرفَ بها اليمينَ الكاتبةَ بالقلمِ المذكورِ بالخطِّ الإلـٰهيِّ المبثوثِ علىٰ صفحاتِ المخلوقاتِ الذي ليسَ بعربيٍّ ولا عجميٍّ ، يقرؤُهُ الأميونَ إذا شُرِحَتْ لهُ صدورُهُمْ ، ويستعجِمُ على القارئينَ إذا كانُوا عبيدَ شهواتِهِمْ ، ولمْ تشاركْ يمينُ اللهِ يمينَ الآدميِّ إلاَّ في بعضِ الاسمِ ؛ لأجلِ الشبهِ اللطيفِ الذي بينهُما في الفعلِ ، وتقريباً إلىٰ كلِّ ناقصِ الفهمِ ، عساهُ يعقلُ ما أُنزلَ علىٰ رسلِ اللهِ تعالىٰ مِنَ الذكرِ .

* * *

فصلٌ

[في بيانِ حدّ عالَمِ الملكِ والملكوتِ والجبروتِ]

وحدُّ عالمِ الملكِ : ما ظهرَ للحواسِّ ، ويكونُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ بعضُهُ مِنْ بعضٍ ، وصحبَهُ التغييرُ .

* * *

وحدُّ عالمِ الملكوتِ : ما أوجدَهُ اللهُ سبحانَهُ بالأمرِ الأزليِّ بلا تدريجٍ ، وبقيَ علىٰ حالةٍ واحدةٍ مِنْ غيرِ زيادةٍ فيهِ ولا نقصانٍ منهُ .

* * *

وحدُّ عالمِ الجبروتِ : هوَ ما بينَ العالمينِ ممّا أشبهَ أنْ يكونَ في الظاهرِ مِنْ عالمِ الملكِ ، فجُبِرَ بالقدرةِ الأزليةِ بما هوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ .

* * *

فَصْلٌ
[في بيانِ معنىٰ : إنّ الله خلق آدم علىٰ صورته]

ومعنىٰ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ) فذلكَ علىٰ ما جاءَ في الحديثِ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، وللعلماءِ فيهِ وجهانِ :

فمنهُمْ مَنْ يرىٰ للحديثِ سبباً ، وهوَ أنَّ رجلاً ضربَ وجهَ غلامِهِ ، فرآهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فنهاهُ وقالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[2] وتأوّلُوا عودَ الضميرِ على المضروبِ .

وعلىٰ هٰذا : لا يكونُ للحديثِ مدخلٌ في هٰذا الموضعِ إنْ لمْ يَرِدْ موردٌ آخرُ في غيرِ هٰذا الموطنِ ، ويكونُ الإيماءُ بهِ إلىٰ غيرِ هٰذا المعنَى المذكورِ في السببِ الحادثِ ، وإثباتُهُ في غيرِ موطنِ ذلكَ السببِ المنقولِ ممّا يعزُّ ويعسرُ ، فلنُبقِ السببَ علىٰ حالِهِ ، ولننظرْ في وجهٍ آخرَ للحديثِ غيرِ هٰذا ممّا يحتملُهُ ، ويحسنُ الاحتجاجُ بهِ في هٰذا الموطنِ .

***

والوجهُ الآخرُ : أنْ يكونَ الضميرُ الذي في (صورتِهِ) عائداً على اللهِ سبحانَهُ .

---

(١) كما رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(٢) روى ابن حبان في « صحيحه » (٥٦٠٥) : « إذا ضرب أحدكم.. فليجتنب الوجه ؛ فإن الله خلق آدم علىٰ صورته » .

ويكونُ معنى الحديثِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صورةٍ هيَ مضافةٌ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وهـٰذا العبدُ المضروبُ علىٰ صورةِ آدمَ ، فإذاً هـٰذا العبدُ المضروبُ على الصورةِ المضافةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ ينحصرُ بيانُ معنَى الحديثِ ويتوقفُ علىٰ بيانِ معنَىٰ هـٰذِهِ الإضافةِ ، وعلىٰ أيِّ جهةٍ تُحتمَلُ في الاعتقادِ العلميِّ على اللهِ سبحانَهُ ، **ففيها وجهانِ** :

أحدُهما : أنْ تكونَ إضافةَ ملكٍ للهِ تعالىٰ كما يضافُ إليهِ العبدُ والبيتُ والناقةُ ، واليمينُ علىٰ أحدِ الأوجُهِ .

والوجهُ الآخرُ : أنْ تكونَ إضافةَ تخصيصٍ بهِ عزَّ وجلَّ .

فمنْ حملها علىٰ إضافةِ الملكِ لهُ . . رأىٰ أنَّ المرادَ بـ(صورتِهِ) : هوَ العالمُ الأكبرُ بجملتِهِ ، وآدمُ مخلوقٌ علىٰ مضاهاةِ صورةِ العالمِ الأكبرِ ، لكنَّهُ مختصرٌ صغيرٌ ؛ فإنَّ العالمَ إذا فُصِّلَتْ أجزاؤُه بالعلمِ ، وفُصِّلَتْ أجزاءُ آدمَ عليهِ السلامُ بمثلِهِ . . وجدْتَ أجزاءَ آدمَ عليهِ السلامِ مشابهةً للعالمِ الأكبرِ ، وإذا شابهَتْ أجزاءُ جملةٍ أجزاءَ جملةٍ أخرىٰ . . فالجملتانِ بلا شكٍّ متشابهتانِ .

فالذي نظرَ في تحليلِ صورةِ العالمِ الأكبرِ فقسَّمَهُ علىٰ أنحاءٍ مِنَ القسمةِ ، وقسَّمَ آدمَ عليهِ السلامُ كذلكَ . . فوجدَ كلَّ نحوينِ منهما يشتبهانِ .

فمِنْ ذلكَ أنَّ العالمَ انقسمَ قسمينِ : **أحدُ القسمينِ** : ظاهرٌ محسوسٌ ؛ كعالمِ الملكِ . **والثاني** : باطنٌ معقولٌ ؛ كعالمِ الملكوتِ .

والإنسانُ كذلكَ انقسمَ إلىٰ : **ظاهرٍ محسوسٍ** ؛ كالعظمِ واللحمِ والدمِ وسائرِ أنواعِ الجواهرِ المحسوسَةِ ، **وإلىٰ باطنٍ معقولٍ** ؛ كالروحِ والعقلِ ، والعلمِ والإرادةِ ، والقدرةِ وأشباهِ ذلكَ .

وقسمةٌ أخرىٰ : وذلكَ أنَّ العالمَ قدِ انقسمَ بالعوالمِ إلىٰ : **عالمِ الملكِ** ؛ وهوَ الظاهرُ للحواسِّ ، **وإلىٰ عالمِ الملكوتِ** ؛ وهوَ الباطنُ في العقولِ ، **وإلىٰ عالمِ الجبروتِ** ؛ وهوَ المتوسِّطُ الذي أخذَ بطرفٍ مِنْ كلِّ عالَمٍ منها ، والإنسانُ كذلكَ انقسمَ إلىٰ ما يشابِهُ هٰذِهِ القسمةَ .

فالمشابِهُ لعالمِ الملكِ : الأجزاءُ المحسوسَةُ وقدْ علمْتَها .

والمشابِهُ لعالمِ الملكوتِ : فمثلُ الروحِ والعقلِ والقدرةِ والإرادةِ وأشباهِ ذلكَ .

والمشابِهُ لعالمِ الجبروتِ : كالإدراكاتِ الموجودةِ بالحواسِّ ، والقُوَى الموجودةِ بأجزاءِ البدنِ .

وقسمةٌ أخرىٰ : وذلكَ أنَّ العالمَ إنْ حُلِّلَ إلىٰ ما عُلِمَ مِنْ أجزائِهِ بالاستقراءِ . **فرأسُ الإنسانِ** يشابهُ سماءَ العالمِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ كلَّ ما علا فهوَ سماءٌ ، وحواسُّهُ تشابهُ الكواكبَ والنجومَ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ الكواكبَ أجسامٌ مشِفَّةٌ تستمدُّ مِنْ نورِ الشمسِ فتضيءُ بها .

والحواسُّ أجسامٌ لطيفةٌ مُشِفَّةٌ تستمدُّ مِنَ الروحِ ، فتضيءُ بذلكَ المدركاتِ .

وروحُ الإنسانِ مشابهةٌ للشمسِ ، فضياءُ العالمِ ، ونموُّ نباتِهِ ، وحركةُ حيوانِهِ وحياتُهُ فيما يظهرُ بتلكَ الشمسِ .

وكذلكَ روحُ الإنسانِ بهِ حصلَ في الظاهرِ نموُّ أجزاءِ بدنِهِ ، ونباتُ شعرِهِ ، وخلقُ حيوانِهِ ؛ وجُعلتِ الشمسُ وسطَ العالمِ ، وهيَ تطلعُ بالنهارِ ، وتغربُ بالليلِ ، وجُعلتِ الروحُ وسطَ جسمِ الإنسان ، وهيَ تغربُ بالنومِ ، وتطلعُ باليقظةِ .

ونفسُ الإنسانِ تشابهُ القمرَ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ القمرَ يستمدُّ مِنَ الشمسِ ، ونفسُهُ تستمدُّ مِنَ الروحِ ، والقمرُ خالفَ الشمسَ ، والنفسُ خالفتِ الروحَ ، والقمرُ آيةٌ ممحوَّةٌ ، والنفسُ مثلُها ، ومَحْوُ القمرِ في ألاَّ يكونَ ضياؤُه منهُ ، ومَحْوُ النفسِ في أنَّهُ ليسَ عقلُها منها .

ويعتري الشمسَ والقمرَ وسائرَ الكواكبِ كسوفٌ ، ويعتري النفسَ والروحَ وسائرَ الحواسِّ غيبٌ وذهولٌ .

وفي العالمِ نباتٌ ومياهٌ ورياحٌ وجبالٌ وحيوانٌ ، وفي الإنسانِ نباتٌ ؛ وهوَ الشعرُ ، ومياهٌ ؛ وهوَ العرقُ والدموعُ والريقُ والدمُ ، وفيهِ جبالٌ ؛ وهيَ العظامُ ، وحيوانٌ ؛ وهيَ هوامُّ الجسمِ ، فحصلتِ المشابهةُ علىٰ كلِّ حالٍ .

ولمَّا كانتْ أجزاءُ العالمِ كثيرةً ، ومنها ما هيَ لنا غيرُ معروفةٍ ولا معلومةٍ . . كانَ في استقصاءِ مقابلةِ جميعِها تطويلٌ ، وفيما ذكرناهُ ما يحصلُ بهِ لذوي العقولِ تشبيهٌ وتمثيلٌ .

فإنْ قلتَ : أراكَ فرقْتَ بينَ النفسِ والروحِ ، وجعلتَ كلَّ واحدٍ منهما غيرَ الآخرِ ، وهـٰذا قلَّما تُساعَدُ عليهِ ؛ إذْ قدْ كثرَ الخلافُ في ذلكَ .

فاعلمْ : **أنَّهُ إنَّما على الإنسانِ أنْ يبنيَ كلامَهُ علىٰ ما يعلمُ ، لا علىٰ ما يجهلُ سواهُ** ، وأنْتَ لوْ علمْتَ النفسَ والروحَ . . علمْتَ أنَّهما اثنانِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ سبقَ في « الإحياءِ » أنَّهما شيءٌ واحدٌ ، وقلتَ في هـٰذهِ الإجابةِ : إنَّ النفسَ ليسَ مِنْ أسماءِ الروحِ[1] ، فالذي سبقَ في « الإحياءِ » ورأيتَ في هـٰذهِ الإجابةِ هوَ شيءٌ واحدٌ .

قلنا : ولا يتناقضُ ما قلناهُ الآنَ ، وذلكَ لأنَّ لها معنىً يُسمَّىٰ بالروحِ تارةً ، وبالنفسِ أخرىٰ ، وبغيرِ ذلكَ .

ثمَّ لا يبعدُ أنْ يكونَ لها معنىً آخرُ ينفردُ باسمِ النفسِ فقطْ ، ولا يُسمَّىٰ بروحٍ ولا بغيرِ ذلكَ ، فهـٰذا آخرُ الكلامِ في أحدِ وجهيِ الإضافةِ الذي هوَ في ضميرِ (صورتِهِ) .

والوجهُ الآخرُ : وهوَ أنَّ مَنْ حملَ إضافةَ الصورةِ إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ معنَى التخصيصِ بهِ . . فذلكَ لأنَّ اللهَ سبحانَهُ أنبأَ بأنَّهُ : حيٌّ قادرٌ ، سميعٌ بصيرٌ ، عالمٌ مريدٌ ، متكلِّمٌ فاعلٌ ، وخلقَ آدمَ عليهِ السلامُ حيّاً قادراً ، سميعاً بصيراً ، عالماً مريداً ، متكلِّماً فاعلاً ، فكانَتْ لآدمَ عليهِ السلامُ

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (إن النفس من أسماء الروح) .

صورةٌ محسوسَةٌ ، مكوَّنَةٌ مخلوقةٌ ، مقدرةٌ بالفعلِ ، وهيَ للهِ تعالىٰ مضافةٌ باللفظِ .

وذلكَ أنَّ هـٰذهِ الأشياءَ لَمْ تجتمعْ معَ صفاتِ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلاَّ في الأسماءِ التي هيَ عبارةٌ تُلفظُ فقطْ ، ولا يُفْهَمُ مِنْ ذلكَ نفيُ الصفاتِ ؛ فليسَ هوَ مرادَنا .

وإنَّما مرادُنا تباينُ ما بينَ الصورتينِ بأبعدِ وجوهِ الإمكانِ ، حتَّىٰ لَمْ تجتمعْ معَ صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلاَّ في الأسماءِ الملفوظِ بها لا غيرُ ، وفراراً أنْ يُثبَتَ اسمُ صورةٍ للهِ تعالىٰ ، ويُطلقَ عليها حالةُ الوجودِ ، تعالى اللهُ عَنْ ذلكَ وتقدَّسَ .

فافهمْ هـٰذا ؛ فإنَّهُ مِنْ أدقِّ ما يقرعُ سمعَكَ ، ويلجُ قلبَكَ ، ويظهرُ لعقلِكَ .

ولهـٰذا قيلَ لكَ : فإنْ كنتَ تعتقدُ الصورةَ الظاهرةَ المدرَكَةَ بالحواسِّ ، ومعناهُ : إنْ حملتَ إحدى الصورتينِ على الأخرىٰ في الوجودِ . . تكنْ مشبِّهاً مطلقاً .

ومعناهُ : لتتيقَّنْ أنكَ مِنَ المشبِّهينَ لا مِنَ المنزِّهينَ ، فأَقِرَّ علىٰ نفسكَ بالتشبيهِ معتقداً ، ولا تنكرْهُ كما قيلَ : كنْ يهودياً صِرْفاً ، وإلاَّ . . فلا تلعبْ بالتوراةِ ؛ أيْ : تتلبسُ بدينهِمْ وتريدُ ألاَّ تُنسَبَ إليهِمْ ؛ وتعتكفُ علىٰ قراءةِ التوراةِ ولاَ تعملُ بها .

وإنْ كنتَ تعتقدُ الصورةَ الباطنةَ . . فكنْ منزِّهاً مجلاً ومقدِّساً مخلصاً ؛ أيْ : ليسَ تعتقدُ مِنَ الصورةِ المضافةِ في الضميرِ إلى اللهِ تعالىٰ إلاَّ الأسماءَ دونَ المعانِي ، وتلكَ المعانِي المسماةُ لا يقعُ عليها اسمُ صورةٍ علىٰ حالٍ .

وقدْ حُفِظَ عَنِ الشبليِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في معنَىٰ ما ذكرناهُ مِنْ هـٰذا الوجهِ قولٌ بليغٌ مختصرٌ ، حينَ سُئِلَ عَنْ معنَى الحديثِ فقالَ : **خلقَهُ اللهُ على الأسماءِ والصفاتِ ، لا على الذاتِ** .

فـإنْ قلـتَ : وكـذا قـالَ ابـنُ قتيبـةَ فـي كتـابِـهِ المعـروفِ بـ« تنـاقـضِ الحديثِ »[1] ، حينَ قالَ : (هوَ صورةٌ لا كالصورِ) فلِمَ أُخِذَ عليهِ في ذلكَ ، وأُقيمَتْ عليهِ الشناعَةُ بهِ ، واطُّرِحَ قولُهُ ، ولمْ يرضَهُ أكثرُ العلماءِ وأهلُ التحقيقِ ؟![2] .

فاعلمْ : أنَّ الذي ارتكبَهُ ابنُ قتيبةَ عفا اللهُ عنهُ نحنُ أشدُّ إعراضاً عنهُ ، وأبلغُ في الإنكارِ عليهِ ، وأبعدُ الناسِ عَنْ تسويغِ قولِهِ ، وليسَ هوَ الذي ألمَمْنا نحنُ بهِ ، وأفدناكَ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ إياهُ .

---

(١) اختلف في اسم هـٰذا الكتاب ، وهو مطبوع بعنوان « تأويل مختلف الحديث » ، انظر مقدمة كتاب « المعارف » لابن قتيبة (ص ٤٥) .

(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٦/ ١٦٦) ، و« فتح الباري » (٥/ ١٨٣) .

بلْ بدا لي منكَ[1] أنكَ لمْ تفهَمْ غرضَنا ، وذهلْتَ عَنْ عقلِ مرادِنا ، حينَ لمْ تفرقْ بينَ قولِنا وبينَ ما قالَهُ ابنُ قتيبةَ .

ألَمْ نخبرْكَ أنّا أَثبَتْنا الصورةَ في التسمياتِ ، وهوَ أثبتَها في حالةٍ للذاتِ ، فأينَ مِنَ الجوزاءِ ورقاءُ تنزعُ ؟!

والذي يغلبُ على الظنِّ في ابنِ قتيبةَ رحمهُ اللهُ أنَّه لمْ تقرَعْ سمعَهُ هـٰذِهِ الدقائقُ التي أشَرْنا إليها ، وأخرَجْناها إلىٰ حيِّزِ الوجودِ بتأييدِ اللهِ تعالىٰ بالعبارةِ عنها .

وإنَّما ظهرَ لهُ شيءٌ لمْ يكنْ لهُ بهِ إلْفٌ ، فتحيَّرَ وعلاهُ الدهشُ ، فتوقَّفَ بينَ ظاهرِ الحديثِ الذي يُوجِبُ عندَ ذوي القصورِ تشبيهاً ، وبينَ التأويلِ الذي ينفيهِ .

فأثبتَ المعنى المرغوبَ عنهُ ، وأزالَ[2] نفيَ ما خافَ مِنَ الوقوعِ فيهِ ، فلَمْ يتأتَّ لهُ اجتماعُ ما رامَ ، ولا نظامُ ما افترقَ ، فقالَ : (هوَ صورةٌ لا كالصورِ) ، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطةٌ ، فتبادَرَ الناسُ إلى الأخذِ عنهُ[3] .

* * *

---

(1) في غير (ث ، ذ) : (بل يدل منك) .
(2) في (ر ، ش ، خ) : (وأراد) .
(3) في (ث ، ذ) : (عليه) .

فَصْلٌ

[في بيانِ معنىٰ : فاطوِ الطّريقَ ، فإنّكَ بالوادِ المقدّسِ طُوىً]

ومعنَىٰ (فاطوِ الطريقَ فإنَّكَ بالوادِي المقدَّسِ طوىً) أيْ : دُمْ علىٰ ما أنتَ عليهِ مِنَ البحثِ والطلبِ ؛ فإنَّكَ علىٰ هدايةٍ ورشدٍ .

والوادِي المقدَّسُ : عبارةٌ عَنْ مقامِ الكليمِ موسىٰ عليهِ السلامُ معَ اللهِ تعالىٰ في الوادِي ، وإنَّما تقدَّسَ الوادِي بما أنزلَ اللهُ فيهِ مِنَ الذكرِ ، وسُمِعَ مِنْ كلامِ اللهِ تعالىٰ .

وأُقيمَ ذكرُ الوادِي مُقامَ ما حصلَ فيهِ ، فحذفَ المضافَ وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامَهُ ، وإلاَّ . . فالمقصودُ ما حُذِفَ لا ما ظَهَرَ بالقولِ ؛ إذِ المواضعُ لا تأثيرَ لها ، وإنَّما هيَ ظروفٌ .

* * *

فَصْلٌ

[في بيانِ معنىٰ : فاستمعْ بسرِّ قلبكَ لما يوحىٰ]

ومعنىٰ قولِهِ : (فاستمعْ بسرِّ قلبكَ لِمَا يُوحَىٰ ، فلعلكَ تجدُ على النارِ هدىً ، ولعلكَ مِنْ سرادقاتِ المجدِ[1] تُنادىٰ بما نُودِيَ بهِ موسىٰ : إنِّي أنا ربُّكَ) أيْ : فرِّغْ قلبكَ مِنَ السوىٰ لِمَا يَرِدُ عليكَ مِنْ فوائدِ المزيدِ ، ومواريثِ الصدقِ ، وثمارِ المعارفِ ، وأرباحِ سلوكِ الطريقِ ، وبشاراتِ قربِ الوصولِ .

و(**سرُّ القلبِ**) كما تقولُ : أذنُ الرأسِ ، وسمعُ الأذنِ .

و(**ما يُوحَىٰ**) أيْ : ما يَرِدُ مِنْ قبلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ ملَكٍ ، أوْ إلقاءٍ في رُوعٍ ، أَوْ مكاشفةٍ بحقيقةٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ معَ العلمِ بتأويلِهِ .

ومعنىٰ (**لعلَّكَ**) : حرفُ ترجٍّ ، ومعناهُ : إنْ لَمْ تدركْكَ آفةٌ تقطعُكَ عَنْ سماعِ الوحيِ مِنْ إعجابٍ بحالٍ ، أوْ إضافةِ دعوىً إلى النفسِ ، أوْ قنوعٍ بما وصلْتَ إليهِ ، واستبدادٍ بهِ عَنْ غيرِهِ .

و(**سرادقاتُ المجدِ**) : هيَ حجبُ الملكوتِ .

و(**ما نُودِيَ بهِ موسىٰ عليهِ السلامُ**) : هوَ علمُ التوحيدِ الذي وقعَتِ

---

(١) في غير (ث ، ذ) : (سرادقات العز) .

العبارةُ اللطيفةُ عنهُ بقولِهِ حينَ قالَ لهُ : (يا موسَىٰ ؛ إنِّي أنا اللهُ لاَ إلـٰهَ إلاَّ أنا فاعبدْنِي) .

والمنادىٰ باسمِهِ أزلاً وأبداً هوَ اسمُ موسىٰ ، لا اسمُ السالكِ ؛ لأنَّهُ الموجودُ في كلامِ اللهِ تعالىٰ في أزلِ الأزلِ قبلَ أنْ يُخلَقَ موسَىٰ لا إلىٰ أوَّلٍ ، وكلامُ اللهِ تعالىٰ صفةٌ لهُ ، فلا تتغيَّرُ إذاً كما لا يتغيَّرُ هوَ ؛ إذْ ليسَتْ صفاتُهُ المعتويةُ لغيرِهِ ، وهوَ الذي لا يحولُ ولا يزولُ .

وقدْ زلَّ قومٌ عظُمَ افتراؤُهُمْ حينَ حملُوا صدورَ هـٰذا القولِ على اعتقادِ اكتسابِ النبوَّةِ ، وعياذاً باللهِ تعالىٰ منْ أنْ يَحتَملَ هـٰذا القولُ ما حكَوْهُ مِنَ المذهبِ السوءِ .

وهمْ يعرفونَ أنَّ كثيراً ممَّنْ يكونُ بحضرةِ ملِكٍ مِنْ ملوكِ الدنيا وهوَ يخاطِبُ إنساناً آخرَ قدْ ولاَّهُ ولايةً كبيرةً ، وفوَّضَ إليهِ عملاً عظيماً ، وحباهُ حِباءً خطيراً ، وهوَ يناديهِ باسمِهِ ويأمرُهُ بما يمتثلُ مِنْ أمرِهِ ، ثمَّ إنَّ السامعَ للملِكِ الحاضرَ معَهُ غيرَ المولَّىٰ لمْ يشارِكِ المولَّىٰ والمخلوعَ عليهِ والمفوَّضَ إليهِ في شيءٍ ممَّا وُلِّيَ وأُعطِيَ ، ولمْ يجبْ لهُ بسماعِهِ ومشاهدتِهِ أكثرُ مِنْ حُظوةِ القربةِ ، وشرفِ الحضورِ ، ومنزلةِ المكاشفةِ مِنْ غيرِ وصولٍ إلىٰ درجةِ المخاطَبِ بالولايةِ ، والمفوَّضِ إليهِ الأمرُ .

وكذلكَ هـٰذا السالكُ المذكورُ إذا وصلَ في طريقِهِ ذلكَ ؛ بحيثُ يصلُ بالمكاشفةِ والمشاهدةِ واليقينِ التامِّ الذي يُوجِبُ المعرفةَ والعلمَ بتفاصيلِ

المعلومِ . فلا يمتنعُ أنْ يسمعَ ما يُوحَىٰ لغيرِهِ مِنْ غيرِ أنْ يُقصدَ هوَ بذلكَ ؛ إذْ هوَ محلُّ سماعِ الوحيِ على الدوامِ ، وموضعُ الملائكةِ ، وكفىٰ بها أنَّها حضرةُ الربوبيَّةِ .

وموسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يستحقَّ الرسالةَ والنبوَّةَ ، ولا استوجَبَ التكليمَ وسماعَ الوحيِ مقصوداً بذلكَ بحلولِهِ في هٰذا المقامِ الذي هوَ المرتبةُ الثالثةُ فقطْ .

بلْ قدِ استحقَّ ذلكَ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ حينَ خصَّهُ بمعنىً آخرَ يزيدُ علىٰ ذلكَ المقامِ أضعافاً ، يجاوزُ المرتبةَ الرابعةَ ؛ **لأنَّ آخرَ مقاماتِ الأولياءِ أولُ مقاماتِ الأنبياءِ** .

وموسىٰ عليهِ السلامُ نبيٌّ مرسلٌ ، فمقامُهُ أعلىٰ بكثيرٍ ممَّا نحنُ آخذونَ في أطرافِهِ ؛ لأنَّ هٰذا المقامَ الذي هوَ المرتبةُ الثالثةُ ليسَ مِنْ غاياتِ مقاماتِ الولايةِ ، بلْ هوَ إلىٰ مبادِيها أقربُ منهُ إلىٰ غاياتِها .

فمَنْ لمْ يفهمْ درجاتِ المقاماتِ ، وخصائصَ النبواتِ ، وأحوالَ الولاياتِ . كيفَ يتعرَّضُ للكلامِ فيها والطعنِ علىٰ أهلِها ؟!

هٰذا لا يُعلَمُ إلاَّ لمَنْ لا يعرفُ أنَّهُ مؤاخَذٌ بكلامِهِ ، محاسبٌ بظنِّهِ ويقينِهِ ، مكتوبةٌ عليهِ خطراتُهُ ، محفوظةٌ عليهِ لحظاتُهُ ، مُحْصَاةٌ عليهِ يقظاتُهُ وغفلاتُهُ ، فما يلفظُ مِنْ قولٍ إلاَّ لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

فإنْ قلتَ : أراكَ قدْ أوجبتَ لهُ سماعَ نداءِ اللهِ تعالىٰ ، ونداءُ اللهِ : كلامُهُ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ فقدْ نبَّهَ أنَّ تكليمَ اللهِ تعالىٰ لمَنْ كلَّمَهُ مِنَ الرسلِ إنَّما هوَ علىٰ سبيلِ المبالغةِ في التفضيلِ ، وهٰذا لا يصلحُ أنْ يكونَ لغيرِهِ ممَّنْ ليسَ بنبيٍّ ولا رسولٍ .

فنقولُ : إذا نبَذْنا التشعيبَ ، وقصَدْنا درءَ الشكِّ العارضِ في مسالكِ الحقائقِ . . فنقولُ : ليسَ في الآيةِ ما يَرُدُّ ما قلنا ولا يكسِرُهُ ؛ لأنَّا ما أوجَبْنا أنْ يكلِّمَهُ قصداً ، ولا يتحرَّاهُ بالخطابِ عمداً .

وإنَّما قلنا : إنَّهُ يجوزُ أنْ يسمعَ ما يخاطِبُ بهِ اللهُ تعالىٰ غيرَهُ ممَّنْ هوَ أعلىٰ منهُ ، فليسَ مَنْ سمعَ كلامَ إنسانٍ مثلاً ممَّا يُكلَّمُ بهِ غيرُ السامعِ يقالُ فيهِ : إنَّهُ كلَّمَهُ .

وقدْ حُكيَ : أنَّ طائفةً مِنْ بني إسرائيلَ سمعُوا كلامَ اللهِ تعالى الذي خاطبَ بهِ موسَىٰ عليهِ السلامُ حينَ كلَّمَهُ[١] .

ثمَّ إذا ثبتَ ذلكَ . . لمْ تجبْ لهُمْ بهِ درجةُ موسَىٰ عليهِ السلامُ ، ولا المشاركةُ في نبوَّتِهِ ورسالتِهِ .

علىٰ أنَّا نقولُ : نفسُ ورودِ الخطابِ إلى السامعينَ مِنَ اللهِ تعالىٰ يمكنُ الاختلافُ فيهِ ، فيكونُ النبيُّ المرسلُ يسمعُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ الذاتيَّ القديمَ

---

(١) أورده الرازي في « مفاتيح الغيب » (٣/ ١٣٥) .

بلا حجابٍ في السمعِ ، ولا واسطةٍ بينَهُ وبينَ القلبِ ، ومَنْ دونَهُ يسمعُهُ علىٰ غيرِ تلكَ الصورةِ بما يُلقَىٰ في رُوعِهِ ، وبما يُنادَىٰ بِهِ في سَمعِهِ أَوْ سرِّهِ وأشباهِ ذلكَ ؛ كما ذُكِرَ أنَّ قومَ موسَىٰ عليهِ السلامُ حينَ سمعُوا كلامَ اللهِ سبحانَهُ معَ موسَىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُمْ سمعُوا صوتاً كالشَّبُّورِ[1] ، وهوَ القَرنُ[2] .

فإذا صحَّ ذلكَ . . فبتباينِ المقاماتِ اختلفَ ورودُ الخطابِ ، فموسَىٰ عليهِ السلامُ سمعَ كلامَ اللهِ تعالىٰ بالحقيقةِ التي هيَ صفةٌ لهُ بلا كيفٍ ولا صورةِ نظمٍ بحروفٍ ولا أصواتٍ ، والذينَ كانُوا معهُ أيضاً سمعُوا صوتاً مخلوقاً جُعِلَ لهُمْ علامةً ودلالةً علىٰ صحَّةِ التكليمِ ، وخلقَ اللهُ سبحانَهُ لهُمْ بذلكَ العلمَ الضروريَّ ، وسُمِّيَ ذلكَ الذي سمعُوه كلامَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ كانَ دلالةً عليهِ ، كما تُسمَّى التلاوةُ وهٰذِهِ الحروفُ المكتوبُ بها القرآنُ كلامَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ هيَ دلالةٌ عليهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما يبقَىٰ على السامعِ إذا سمعَ كلامَ اللهِ تعالى الذي يستفيدُ بهِ معرفةَ وحدانيتِهِ وفِقْهَ أمرِهِ ونهيِهِ ، وفهْمَ مرادِهِ وحكمِهِ بما يلحقُهُ العلمُ الضروريُّ ؟

---

(١) في (ث ، ذ) : (كالصور) .

(٢) انظر « تفسير القرطبي » (٢/٢) ، والشبور والقرن بمعنىً : البوق .

فما أرىٰ فائدةَ النبيِّ المرسلِ إلاَّ بأنْ يشتغلَ بإصلاحِ الخلقِ دونَهُ ، ولوْ كانَ هوَ عوضاً منهُ . . أجزأَ عنهُ وقامَ مقامهُ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الذي أوجبَ عثورَكَ ودوامَ زللِكَ ، واعتراضَكَ على العلومِ بالجهلِ ، وعلى الحقائقِ بالمخايلِ . . أنَّكَ[1] بعيدٌ عَنْ غورِ المطالبِ ، قعيدٌ في شرَكِ المعاطبِ ، فقيدٌ صوبَ الصوابِ ، عنيدٌ عندَ صحبِ[2] السحابِ .

إنَّ الذي استحقَّ بهِ الناظرُ السالكُ الواصلُ إلى المرتبةِ الثالثةِ سماعَ نداءِ اللهِ تعالىٰ معنًى ومقامٌ وحالٌ وخاصِّيةٌ ، والذي استحقَّ بهِ الرسولُ النبوَّةَ والرسالةَ والتكليمَ معنًى آخرُ ، ومقامٌ وحالٌ وخاصِّيةٌ أعلىٰ مِنْ تلكَ الأولىٰ وأجلُّ وأكبرُ ، وبينَهُما ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وما بينَ مَنِ استحقَّ المواجهةَ بالخطابِ والقصدَ بهِ وبينَ مَنْ لا يستحقُّ أكثرَ مِنْ سماعِهِ حينَ يخاطَبُ بهِ غيرُهُ ، فهـٰذا معَ الإشارةِ باختلافِ ورودِ الخطابِ إليهِما ممَّا يُوجِبُ ويقرِّرُ تباينَ ما بينَهُما ، فإنْ فهمْتَ الآنَ ، وإلاَّ . . فدعْني لا تَدُرْ بخيالِي[3] .

---

(١) في كل النسخ : (أنت) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .
(٢) في (ت ، ث ، ذ) : (عن سحّ) .
(٣) في (ت ، ث ، ذ) : (بحالي) .

فإنْ قيلَ : ألمْ يقلِ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وسماعُ كلامِ اللهِ تعالىٰ بحجابٍ أوْ بغيرِ حجابٍ ، وعلمُ ما في الملكوتِ ومشاهدةُ الملائكةِ ، وما غابَ عنِ المشاهدةِ والحسِّ . مِنْ أجلِّ الغيوبِ ، فكيفَ يطلعُ عليها مَنْ ليسَ برسولٍ ؟

قلنا : في الكلامِ حذفٌ يُدَلُّ علىٰ صحَّةِ تقديرِهِ بالشرعِ الصادقِ ، والمشاهدةِ الضروريةِ ، وهوَ أنْ يكونَ معناهُ :

إلاَّ مَنِ ارتضَىٰ مِنْ رسولٍ ، ومَنِ اتَّبعَ الرسولَ بإخلاصٍ واستقامةٍ ، أوْ عَمِلَ بما جاءَ بهِ ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ٱتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ »[1] ، وهلْ يُتَّقَىٰ إلاَّ في علمِ ما غابَ عنهُ أنْ ينكشفَ لهُ ؟!

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحَدَّثُونَ . . فَعُمَرُ »[2] ، أوْ كما قالَ .

وقالَ : « ٱلْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ »[3] .

وفي القرآنِ العزيزِ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فعلِمَ ما غابَ عَنْ غيرِهِ مِنْ إمكانِ إتيانِ ما وعدَ بهِ ، وزادَ أنَّهُ قدرَ عليهِ ، ولمْ يكنْ نبيّاً ولا رسولاً .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٦٩) .

(٣) رواه الديلمي في « الفردوس » (٦٥٥٤) .

وقدْ أنبأَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ عَنْ ذي القرنينِ مِنْ إخبارِهِ عَنِ الغيبِ ، وصدقِهِ فيهِ حينَ قالَ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ وإنْ كانَ وقعَ الاختلافُ في نبوَّةِ ذي القرنينِ عليهِ السلامُ . . فالإجماعُ علىٰ أنَّهُ ليسَ برسولٍ ، وهوَ خلافُ المشروطِ في الآيةِ .

وإنْ رامَ أحدٌ المدافعةَ بالاحتيالِ لِمَا أخبرَ بهِ ذو القرنينِ ، وما ظهرَ علىٰ يدِ الذي كانَ عندَهُ علمٌ مِنَ الكتابِ ، وأرادَ أنْ يجوِّزَهُ علىٰ عمرَ . . لا يفرِّقُ بينَ الشبهِ والحقائقِ ، فما يصنعُ فيما جرىٰ للخضرِ ، وما أنبأَ اللهُ سبحانَهُ عنهُ وأظهرَهُ عليهِ مِنَ العلومِ الغيبيَّةِ ؟!

وهوَ بعدَ أنْ يكونَ نبيّاً فليسَ برسولٍ على الوفاقِ مِنَ الجميعِ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ في الآيةِ حذفاً ينضافُ معناهُ إلىٰ ما ظهرَ مِنَ الكلامِ .

فكانَ سعدٌ رضيَ اللهُ عنهُ يرى الملائكةَ عليهِمُ السلامُ وهُمْ غيبُ اللهِ تعالىٰ(١) .

وأعلمَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بما في البطنِ وهوَ مِنْ غيبِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢) .

وشواهدُ هٰذا في الشرعِ كثيرةٌ تُعجِزُ المتأوِّلَ وتبهرُ المعانِدَ .

هٰذا ؛ والقولُ بتخصيصِ العمومِ أظهرُ مِنَ المجرة(٣) ، وأشهرُ ممَّا نقلَ

---

(١) كما رواه مسلم (٢٣٠٦) .

(٢) كما رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٥٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٦٩) .

(٣) في غير (ش ، خ) : (الحواة) .

الكافَّةُ ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المرادُ في الآيةِ بالرسولِ المذكورِ فيها : ملَكَ الوحيِ الذي بواسطتِهِ تنجلي العلومُ ، وتنكشفُ الغيوبُ .

فمتَىٰ لمْ يرسلِ اللهُ عزَّ وجلَّ ملَكاً بإعلامِ غيبٍ ؛ إمَّا بخطابِ مشافهةٍ ، أوْ إلقاءِ معنىً في رُوعٍ ، أوْ ضربِ مثلٍ في يقظةٍ أوْ منامٍ . . لمْ يكنْ إلىٰ علمِ ذلكَ الغيبِ سبيلٌ ، ويكونُ تقديرُ الآيةِ : فلا يُظهِرُ علىٰ غيبهِ أحداً إلاَّ مَنِ ارتضَىٰ مِنْ رسولٍ أنْ يرسلَهُ إلىٰ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ في يقظةٍ أوْ منامٍ ؛ فإنَّهُ يطلعُ علىٰ ذلكَ الغيبِ أيضاً .

وتكونُ فائدةُ الإخبارِ بهٰذا في الآيةِ : الامتنانَ علىٰ مَنْ رزقَهُ اللهُ تعالىٰ علمَ شيءٍ مِنْ مكنوناتِهِ ، وإعلامَهُ أنَّهُ لمْ يصلْ إليها بنفسِهِ ولا بمخلوقٍ سواهُ ، إلاَّ باللهِ تعالىٰ حينَ أرسلَ إليهِ الملَكَ بذلكَ ، وبعثَهُ إليهِ حتّىٰ يبرأَ المؤمنُ مِنْ حولِهِ وقوّتِهِ ، ومِنْ حولِ كلِّ مخلوقٍ وقوّتِهِ ، ويرجعَ إلى اللهِ تعالىٰ وحدَهُ ، ويتحققَ أنَّهُ لا يردُ عليهِ شيءٌ مِنْ علمٍ أوْ معرفةٍ أوْ غيرِ ذلكَ إلاَّ بإرادتِهِ ومشيئتِهِ .

ويحتملُ وجهاً آخرَ : وهوَ أنْ يكونَ معناهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ : فلا يُظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلاَّ مَنِ ارتضَىٰ بذلكَ[1] مِنْ سائرِ خلقِهِ ، وأصنافِ عبادِهِ ، ويكونُ معنَىٰ (مِنْ رسولٍ) أيْ : علىٰ يدِ رسولٍ مِنَ الملائكةِ ، واللهُ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا (ث ، ذ) ، وفي غيرهما : (. . . ارتضى من رسول ، ويريد من سائر . . .) .

فَصْلٌ

[في بيان معنىٰ : ولا تتخطَّ رقاب الصّدّيقين]

ومعنَىٰ (ولا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ) وقلتَ : وما الذي أوصلَهُ إلىٰ مقامِهِمْ ، أوْ جاوزَ بهِ ذلكَ وهوَ في المرتبةِ الثالثةِ حالَ المقربينَ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ ما وصلَ حيثُ ظننتَ ، فكيفَ يجاوزُهُ ؟

وإنَّما خاصِّيةُ مَنْ هوَ في رتبةِ الصديقيَّةِ عدمُ السؤالِ ؛ لكثرةِ التحقيقِ بالأحوالِ .

وخاصِّيةُ مَنْ هوَ في رتبةِ القربِ كثرةُ السؤالِ ؛ طمعاً في بلوغِ الآمالِ .

ومثالُهما فيما أُشيرَ إليهِ مثالُ إنسانينِ دخلا في بستانٍ ، وأحدُهُما يعرفُ جميعَ أنواعِ نباتِ البستانِ ، ويتحقَّقُ أنواعَ تلكَ الثمارِ ، ويعلمُ أسماءَها ومنافعَها ، فهوَ لا يسألُ عنْ شيءٍ ممَّا يراهُ ، ولا يحتاجُ إلىٰ أنْ يُخبَرَ بهِ ، والثاني لا يعرفُ ممَّا رأىٰ شيئاً ، أوْ يعرفُ بعضاً ويجهلُ أكثرَ ممَّا يعرفُ ، فهوَ يسألُ ليصلَ إلىٰ علمِ الباقي .

وكذلكَ مَنْ تكلَّمْنا عليهِ حينَ أكثرَ السؤالَ عساهُ يتجاوزُ بسؤالِهِ حالَهُ ، ويتخلفُ عَنْ مقامِهِ إلىٰ ما هوَ أعلىٰ منهُ ، وكانَ غيرَ مرادٍ لذلكَ ؛ إمَّا في ذلكَ الوقتِ ، أوْ أبدَ الأبدِ .

وتلكَ العلومُ لا تنالُ بالكسبِ ، وإنَّما تنالُ بالمنحِ الربانيةِ ، فقيلَ لهُ :

لا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ بالسؤالِ ؛ فذلكَ ممَّا لا يُتَخَطَّىٰ بهِ[1] ، وليسَ هوَ مِنَ الطرقِ الموصلَةِ إلىٰ مقامهِمْ ، فارجعْ إلى الصدِّيقِ الأكبرِ ، فاقتدِ بهِ في أحوالِهِ وسيرتِهِ ، فعساكَ ترزقُ مقامَهُ ، فإِنْ لمْ يكُنْ . . فتبقَىٰ علىٰ حالِ القربِ ، وهوَ تلوُ الصدّيقيةِ ، فهـٰذا معناهُ ، واللهُ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

(١) في (ث ، ذ) : (مما لا تحظىٰ به) .

فَصْلٌ

[في بيان معنى : انصراف السالك النّاظر بعد وصوله إلىٰ ذلك الرّفيق الأعلىٰ]

ومعنَى (انصرافِ السالكِ الناظرِ بعدَ وصولِهِ إلىٰ ذلكَ الرفيقِ الأعلىٰ) : أنَّهُ لمَّا وصلَ إليهِ بالسؤالِ . . صُرِفَ إلىٰ ما لاقَ بهِ مِنَ الأحوالِ ؛ ليُحكِمَ ما بقيَ عليهِ مِنَ الأعمالِ كما قالَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للذي سألَهُ أنْ يعلمَهُ مِنْ غرائبِ العلمِ : « ٱذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَالِكَ ، وَكَذَلِكَ أُعَلِّمُكَ مِنْ غَرَائِبِ ٱلْعِلْمِ »[1] .

وأمَّا صفةُ انصرافِهِ . . فإنَّهُ نهضَ بالبحثِ ورجعَ بالتذكُّرِ وفوائدِ المزيدِ .

ووجهٌ آخرُ[2] : إنْ لمْ يستطعِ المقامَ في ذلكَ الموضعِ بعدَ وصولِهِ إليهِ . . فذلكَ لتعلُّقِ جزءِ المعرفةِ بالبدنِ ، ومسكنُهُ عالَمُ الملكِ ، ولمْ يفارقْهُ بعدُ بالموتِ ، وطولُ الغيبِ عنهُ لا يمكنُ في العادةِ ، ولوْ أمكنَ ذلكَ . . لهلكَ الجسمُ وتفرقَتِ الأوصالُ ، واللهُ تعالىٰ أرادَ عمارةَ الدنيا قدرَ ما سبقَ في علمِهِ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤) ، وفيها : (وبعد ذلك) بدل (وكذلك) .
(٢) كذا في (ث ، ذ) ، وقد سقط قوله : (آخر) من بقية النسخ ، والعبارة في (ض) : (ووجه أنه) .

ومعنىٰ قولِ أبي سليمانَ الدارانيِّ رحمَهُ اللهُ : (لوْ وصلُوا . . ما رجعُوا) : ما رجعَ إلىٰ حالةِ الانتقاصِ مَنْ وصلَ إلىٰ حالةِ الإخلاصِ ، والذي طمعَ الناظرُ في الحصولِ فيهِ بسؤالِهِ وتماديهِ إلىٰ حالِ القربِ منهُ ؛ إذْ لمْ يصلحْ لذلكَ ، ولمْ يصفُ لهُ ، ولمْ يخلصْ في أعمالِهِ .

❋ ❋ ❋

فَصْلٌ
[في بيانِ معنىٰ : ليس في الإمكانِ أبدعُ من صورةِ هٰذا العالمِ]

ومعنَىٰ (أنْ ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مِنْ صورةِ هٰذا العالَمِ ، ولا أحسنُ ترتيباً ، ولا أكملُ صنعاً ، ولوْ كانَ وادَّخرَهُ معَ القدرةِ . . كانَ ذلكَ بخلاً يناقضُ الجودَ الإلٰهيَّ ، وإنْ لمْ يكنْ قادراً عليهِ . . كانَ ذلكَ عجزاً يناقضُ الإلٰهيَّةَ) وكيفَ يُقضَىٰ عليهِ بالعجزِ فيما لمْ يخلقْهُ اختياراً ؟

ولِمَ لَمْ يُنسبْ إليهِ ذلكَ قبلَ خلقِ العالمِ ، ويقالُ : ادِّخارُ إخراجِ هٰذا العالمِ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ عجزٌ مثلَ ما قيلَ فيما ذكرناهُ ؟

وما الفرقُ بينَهُما ؟

وذلكَ لأنَّ تأخيرَهُ بالعالمِ قبلَ خلقِهِ عَنْ أنْ يخرجَهُ مِنَ العدمِ إلى الوجودِ يقعُ تحتَ الاختيارِ الممكنِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ للفاعلِ المختارِ أنْ يفعلَ وألاَّ يفعلَ ، فإذا فعلَ . . فليسَ في الإمكانِ أنْ يفعلَ إلاَّ نهايةَ ما تقتضيهِ الحكمةُ التي عرفْنا أنَّها حكمةٌ ، ولمْ يعرِّفْنا بذلكَ إلاَّ لنعلمَ مجاريَ أفعالِهِ ، ومصادرَ أمورِهِ ، ولنتحقَّقَ أنَّ كلَّ ما قضاهُ ويقضيهِ مِنْ خلقِهِ بعلمِهِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ ، وأنَّ ذلكَ علىٰ غايةِ الحكمةِ ، ونهايةِ الإتقانِ ، ومبلغِ جودةِ الصنعِ ؛ ليجعلَ كمالَ ما خلقَ دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً علىٰ كمالِهِ في صفاتِ جلالِهِ الموجبةِ لإجلالِهِ .

فلوْ كانَ كلُّ ما خُلِقَ ناقصاً بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِ ممَّا يقدرُ علىٰ خلقِهِ ولمْ يخلقْهُ . لكانَ يظهرُ النقصانُ المدَّعىٰ علىٰ هـٰذا الوجودِ مِنْ خلقِهِ ، كما يظهرُ علىٰ ما خلقَهُ ناقصاً في أشخاصٍ معيّنةٍ ؛ ليدلَّ بها علىٰ كمالِ ما خلقَهُ مِنْ غيرِ ذلكَ ، ويكونَ الجميعُ مِنْ بابِ الاستدلالِ علىٰ ما صنعَ مِنَ النقصانِ قطعاً ، وما يُحملُ عليهِ مِنَ القدرةِ علىٰ أكملَ منهُ ظنّاً ؛ إذْ خلقَ للخلقِ عقولاً ، وجعلَ لهُمْ فهوماً ، وعرَّفَهُمْ ما أُكِنَّ ، وكشفَ لهُمْ ما حُجِبَ وأُجِنَّ ، فيكونُ مِنْ حيثُ عرَّفَهُمْ بكمالِهِ دلَّهُمْ علىٰ نقصِهِ ، ومِنْ حيثُ أعلمَهُمْ بقدرتِهِ بصَّرهُمْ بعجزِهِ ، فتعالى اللهُ ربُّ العالمينَ ، الملكُ الحقُّ المبينُ .

وأيضاً : فلا يعترضُ هـٰذا ويَستَزْرِيهِ إلاَّ مَنْ لا يعرفُ مخلوقاتِهِ ، ولمْ يصرفِ الفكرَ الصحيحَ في منشآتِهِ ومخترعاتِهِ ، ولمْ يعلمْ مقدارَ الدنيا وترتيبَ الآخرةِ عليها ، ولا عرفَ خواصَّها ، ولا تنزَّهَ في عجائبِها ، ولا لاحظَ الملكوتَ ببصرِ قلبِهِ ، ولا جاوزَ التخومَ إلىٰ أسفلَ مِنْ ذلكَ بسرِّهِ ولُبِّهِ ، ولا فهمَ أنَّ الجنَةَ أعلَى النعيمِ ، وأنَّ النارَ أقصَى العذابِ الأليمِ ، وأنَّ النظرَ إليهِ جلَّ جلالُهُ منتهَى الكراماتِ ، وأنَّ رضاهُ غايةُ الدرجاتِ ، وسخطَهُ غايةُ الدركاتِ ، وأنَّ منحَ المعارفِ والعلومِ أسنَى الهباتِ .

ويرىٰ أنَّ العالمَ بأسرِهِ أخرجَهُ مِنَ العدمِ الذي هوَ نفيٌ محضٌ إلى الوجودِ الذي هوَ إثباتٌ صحيحٌ ، وقدَّرَهُ منازلَ وجعلَهُ طبقاتٍ ، فمِنْ حيٍّ وميتٍ ،

ومتحركٍ وساكنٍ ، وعالمٍ وجاهلٍ ، وشقيٍّ وسعيدٍ ، وقريبٍ وبعيدٍ ، وصغيرٍ وكبيرٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ ، وغنيٍّ وفقيرٍ ، ومأمورٍ وأميرٍ ، ومؤمنٍ وكافرٍ ، وجاحدٍ وشاكرٍ ، ومِنْ ذكرٍ وأنثىٰ ، وأرضٍ وسماءٍ ، ودنيا وأخرىٰ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لا يُحصَىٰ .

والكلُّ قائمٌ بهِ ، وموجودٌ بقدرتِهِ ، وباقٍ بعلمِهِ ، ومُنْتَهٍ إلىٰ أجلِهِ ، ومصرَّفٌ بمشيئتِهِ ، ودالٌّ علىٰ بالغِ حكمتِهِ ، فما أكملُ مِنْ حدثِهِ إلاَّ قدمُهُ ، ولا مِنْ تصرُّفِهِ إلاَّ استبدادُهُ ، ولا مِنْ ملكِهِ إلاَّ مَنْ ملَكَهُ ، فيعودُ المحدَثُ قديماً ، والمربوبُ ربّاً ، والمملوكُ مالِكاً ، ويعودُ الخالِقُ مخلوقاً ، تعالى اللهُ عَنْ جهلِ الجاهلينَ ، وتخييلِ المعتوهينَ ، وزيغِ الزائغينَ علوّاً كبيراً .

* * *

فصل
[في حكم طلب العلوم المكنونة]

وأمَّا حكمُ هٰذهِ العلومِ المكنونةِ في الطلبِ وسلوكِ هٰذهِ المقاماتِ ، ورُقِيِّ[1] هٰذهِ الدرجاتِ ، واستفهامِ أمثالِ هٰذهِ المخاطباتِ ، أهيَ مِنْ قبيلِ الواجباتِ أوِ المندوباتِ أوِ المباحاتِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المسؤولَ عنهُ علىٰ ضربينِ :

أحدُهُما : ما هوَ في حكمِ المبادىءِ ، **والثاني** : ما هوَ في حكمِ الغاياتِ .

فأمَّا الذي هوَ في حكمِ المبادىءِ . . فطلبُهُ فرضٌ علىٰ كلِّ أحدٍ ، بقدرِ بذلِ المجهودِ ، وإفراغِ الوُسعِ ، وجميعِ ما يقدرُ عليهِ مِنَ العنايةِ ، وذلكَ ما تضمنتْهُ أصولُ علمِ المعاملةِ ، مثلُ الإخلاصِ في التوحيدِ ، والصدقِ في العملِ ، والالتحافِ بالخوفِ والرجاءِ ، والتزيُّنِ بالصبرِ والشكرِ ؛ لأنَّ هٰذهِ كلَّها وما يلحقُ بها مِنْ علمِ الأمرِ والنهيِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ وقدْ سبقَ التنبيهُ عليهِ .

وأمَّا الذي هوَ في حكمِ الغاياتِ ؛ مثلُ انقلابِ الهيئاتِ ، والنظرِ بالتوفيقِ على الموافقةِ والرضا والإيثارِ ، والتوكلِ بالتجريدِ ، وحقيقةِ علمِ معاني

(١) في النسخ : (ورقو) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

التوحيدِ ، ومَيْزِ معاني التفريدِ ، وأوصافِ أهلِ إثباتِ اليقينِ . . فهوَ درجاتٌ ومقاماتٌ ، ومنازلُ ومراتبُ ، ومنحٌ يخصُّ اللهُ تعالىٰ بها مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ ، مِنْ غيرِ أنْ تُنالَ بطلبٍ ولا بحثٍ ولا تعليمٍ .

ولوْ كانَ ذلكَ كذلكَ . . لَمَا قيلَ للناظرِ السالكِ حينَ أرادَ الارتقاءَ إلىٰ درجةٍ أعلىٰ مِنْ درجتِهِ بلسانِ السؤالِ : ارجعْ ، ولا تتخطَّ رقابَ الصديقينَ ، لكنَّها مواهبُ أكرَمَ اللهُ تعالىٰ بها أهلَ صفوةِ ولايتِهِ ، وهيَ مواريثُ الصدقِ في العلمِ ، وبركاتُ الإخلاصِ في العملِ .

فمَنْ لمْ يرِثْ مِنْ علمِهِ وعملِهِ المفروضِ عليهِ طلبُهُ والعملُ بهِ شيئاً مِنْ هـٰذهِ المعاني . . فليسَ في شيءٍ مِنَ الحقيقةِ وإنْ كانَ حقّاً ، غيرَ أنَّ حالَهُ معلولٌ ؛ إمَّا مفتونٌ بدنياهُ ، أوْ محجوبٌ بهواهُ ، وربُّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

❊ ❊ ❊

فَصْلٌ

[في بيان ذِكْرِ هٰذهِ العلومِ بالإشارةِ دونَ العبارةِ]

وأمَّا لِمَ ذُكِرَتْ هٰذهِ العلومُ بالإشاراتِ دونَ العباراتِ ، وبالرموزِ دونَ التصريحاتِ ، وبالمتشابهِ مِنَ الألفاظِ دونَ المحكماتِ وإنْ كانَ قدْ سبقَ هٰذا مِنَ الشارعِ فيما لهُ أنْ يمتحنَ بهِ مَنَ كلّفَ ، ويبلوَ مَنْ تعبَّدَ ، وليكونَ للعلمِ رجالٌ مخصوصونَ ، فما بالُ مَنْ لمْ يُجعَلْ شارعاً ، ولمْ يُبعَثْ لغيرِهِ مكلِّفاً ؟

فالجوابُ عنْ ذلكَ :

أنَّ العالمَ هوَ وارثُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنَّما ورثَ العلمَ ليعملَ بهِ كعملِهِ ، ويحلَّ فيهِ كمحلِّهِ ، والنبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ما ينطقُ عَنِ الهوىٰ ، إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يُوحَىٰ ، علَّمَهُ شديدُ القوىٰ ، ذو مِرَّةٍ فاستوىٰ ، **وحكمُ الوارثِ فيما ورثَ حكمُ الموروثِ فيما وُرِثَ عنهُ** ، فما عرفَ فيهِ الحكمَ مِنْ فعلِ الموروثِ عنهُ أوْ قولِهِ . . امتثلَهُ ، وما لمْ يصلْ إليهِ منهُ شيءٌ . . كانَ لهُ اجتهادُهُ ، فإنْ أخطأَ . . كانَ لهُ أجرٌ ، وإنْ أصابَ . . كانَ لهُ أجرانِ .

ثمَّ إنَّ الوارثَ رأى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صرحَ بعلومِ المعاملاتِ ، وأشارَ بما وراءَها بما لا يفهمُهُ إلاَّ أربابُ التخصيصاتِ ، كما قالَ عزَّ وجلَّ : **﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ فلمْ يكنْ للعالمِ الوارثِ تعدٍّ عنْ حكمِ**

الموروثِ عنهُ ، كما حُكيَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (وعيتُ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعاءَيْنِ : **فأحدُهُما** : الذي بثثْتُهُ فيكُمْ ، **وأمَّا الثاني** . . فلوْ بثثْتُهُ . . جرزْتُمُ السكِّينَ علىٰ هـٰذا البلعومِ)[1] ، وأشارَ إلىٰ حلْقِهِ .

وبعدَ هـٰذا ، ففي القدوةِ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ النجاةُ ، وفي اتِّباعِهِ الفوزُ بحبِّ اللهِ ، ويدُ اللهِ معَ الجماعَةِ ، وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ .

وقدْ أفدناكَ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ مِنْ طرائِفِ ما عندَنا ، وأهدَيْنا إليكَ مِنْ غرائبِ ما لدَيْنا ، وإلى اللهِ يُردُّ العلمُ فيما دقَّ وجلَّ ، وكثرَ وقلَّ ، وعظمَ وصغرَ ، وظهرَ واستترَ .

وإنَّما ينطقُ الإنسانُ بما أنطقَهُ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وهوَ مستعمَلٌ بما استعملَهُ فيهِ ؛ إذْ كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ .

فاستنزلْ ما عندَ ربِّكَ وخالقِكَ مِنْ خيرٍ ، واستجلِبْ ما تؤمِّلُهُ منهُ مِنْ هدايةٍ وبرٍّ بقراءةِ السبعِ المثاني والقرآنِ العظيمِ ، التي أمرتَ بقراءَتِها في كلِّ صلاةٍ ، ووكَّدَ عليكَ أنْ تعيدَها في كلِّ ركعةٍ ، وأخبرَكَ الصادقُ المصدوقُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ ليسَ في التوراةِ ، ولا في الإنجيلِ ، ولا في الفرقانِ مثلُها[2] .

---

(١) رواه البخاري (١٢٠) ، وفيه : (فلو بثثته . . قطع هـٰذا البلعوم) .

(٢) رواه الترمذي (٣١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله =

وفي هـٰذا تنبيهٌ ـ بلْ تصريحٌ ـ بأنْ تكثرَ منها لِمَا تضمنتْهُ مِنَ الفوائدِ ، وخُصَّتْ بهِ مِنَ الذخائرِ والفرائدِ ، ممَّا لوْ سُطِرَ . لكانَ فيهِ أوقارُ الجِمالِ[1] .

فافهَمْ وانتبهْ واعقِلْ ما خُلِقْتَ لهُ ، واعرفْ قدرَ ما أُعِدَّ لكَ .

واللهُ تعالىٰ حسبُ مَنْ أرادهُ ، وهادي مَنْ جاهدَ في سبيلِهِ ، وكافي مَنْ توكَّلَ عليهِ ، وهوَ الغنيُّ الكريمُ .

وحينئذٍ قدِ انتهَى الجوابُ عمَّا سألتَ عنْهُ ، وفرغْنا منهُ بحسبِ الوُسعِ والطاقةِ مِنَ الكلامِ .

فنسألُ اللهَ تعالى المباعدَ بينَ جِبِلَّاتِ قلوبِ البشرِ : أنْ يصرفَ عنَّا حجبَ الكدوراتِ والأهواءِ ، ومواريثَ الغيِّ والزيغِ والضررِ ، فبيَدِهِ مجارِي المقدوراتِ والقدرِ ، وهوَ إلـٰهُ مَنْ ظهَرَ وغبَرَ ، وإليهِ مرجعُ مَنْ آمنَ وكفرَ ، ومُجازِي الخلائقِ بنعيمٍ أوْ سقَرَ .

والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ أفضلِ الخلقِ سيِّدِ البشرِ ، وعلىٰ آلِهِ الساداتِ الغُرَرِ ، وسلَّمَ تسليماً .

آخر « الإملاء على مشكل الإحياء »

= عليه وسلم : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل » .

(١) أوقار : جمع وقر ، وهو : الحمل الثقيل .

خاتمة النسخة (ر)

نجز كتاب « الإملاء في مشكلات الإحياء » ثالث عشر من شهر مولد ثاني ، سنة ألف ومئة وواحد وثمانين ، على يد الفقير إلى رحمة ربه القدير ، أحمد بن علي بامزروع اليمني التريمي وطناً ، الشافعي مذهباً ، عفا الله عنه ، وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين ، ولمن قال : آمين ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة النسخة (ش)

آخر « الإملاء على مشكل الإحياء » ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه العبد المذنب السيد عثمان ، الملقب بعوفي ، من تلاميذ الحافظ أحمد الحلمي ، غفر الله ذنوبه ولوالديهما الأمين المعين .

خاتمة النسخة (ت)

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الخلق وسيد البشر ، وعلى آله وصحبه أولي العزم والظفر ، وعلى عترته الطاهرين خير العتر ، وسلَّم تسليماً كثيراً ، دائماً أبداً مؤبداً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول

ولا قوة لنا إلاّ به ، ونسأله الصفح الجميل ، والحمد لله وحده ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً ، وكان الفراغ منه نهار الجمعة المباركة ، ثالث عشر من ربيع الأول ، من شهور سنة ست وتسعين وثمان مئة باسم الفقير إلى الله تعالىٰ سبحانه ، الآمل فضله وإحسانه ، أبي العباس أحمد بن إسماعيل بن محمد بن الدعيم ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، والحمد لله وحده .

خاتمة النسخة (ث)

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد أفضل الخلق ، سيد البشر ، وسلم تسليماً ، وعلىٰ آله وصحبه أولي العزم والظفر ، وعترته الطاهرين ، وسلم تسليماً كثيراً ، آمين .

وكان الفراغ من هـٰذا الكتاب ضحىٰ يوم الجمعة ، الموافق (٢) جمادىٰ أول ، سنة (١٣٠١) من الهجرة النبوية ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

خاتمة النسخة (ذ)

تم الكتاب بعون الملك الوهاب وحسن توفيقه ، ونسأله الهداية إلىٰ طريقه ، في نهار الخميس ، الخامس وعشرين من شهر صفر الخير ، من

شهور سنة إحدىٰ وتسع مئة ، علىٰ يد العبد الفقير إلى الله تعالىٰ أحمد بن شيخ بن أبي بكر ، سامحهم الله وعفا عنهم بمنه وكرمه ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

طالع هـٰذا الكتاب ، ورأىٰ ما فيه من اللباب الفقير إلىٰ ربه الرحمـٰن محمد بن أحمد زهران الأجهوري الشافعي الأزهري غفر الله. . . . .

خاتمة النسخة (ض)

نجز « الإملاء على الإحياء » بحمد الله وحسن توفيقه ، عشية الثلاثاء ، سابع عشر من صفر ، سنة ست وأربعين وست مئة ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

للإمام العيدروس

رحمه الله تعالى

ترجمة
الإمام العلامة الكبير، العلم الشهير، شمس الشموس
محيي الدين، أبي بكر
عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس
رحمه الله تعالى
(٩٧٨ ـ ١٠٣٨هـ)[١]

اسمه ونسبه

هو الإمام العلامة ، أحد العلماء الأكابر ، والأعيان أولي البصائر ، محيي الدين ، أبو بكر ، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي ، الحسيني ، الشافعي ، الحضرمي الأصل ، الهندي المولد .

مولده ونشأته

ولد الإمام عبد القادر العيدروس في العشرين من شهر ربيع الأول ، سنة

---

(١) مصادر ترجمته : « خلاصة الأثر » (٢/ ٤٤٠) ، و« ملحق البدر الطالع » (٢/ ١٢٣) ، و« النور السافر » (ص ٤٤٤) ، و« المشرع الروي » (٢/ ١٤٧) ، و« هدية العارفين » (١/ ٦٠٠) ، و« الأعلام » (٤/ ٣٩) ، و« تاريخ الأدب العربي » (٩/ ٢٥٩) ، و« معجم المؤلفين » (٢/ ١٨٨) ، و« إتحاف القاري » (ص ١٦٥) ، و« جهود فقهاء حضرموت في خدمة المذهب الشافعي » (١/ ٦٠٨ـ ٦١٠) .

ثمان وسبعين وتسع مئة للهجرة النبوية ، في مدينة أحمد أباد في الهند .

وقد حدثنا الإمام العلامة عن نفسه في « توره السافر » (ص ٤٤٥) حيث قال : (كان والدي رحمه الله رأىٰ في المنام قبل ولادتي بنحو نصف شهر جماعةً من أولياء الله تعالىٰ ، منهم : الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ، والشيخ أبو بكر العيدروس رضي الله عنه وغيرهما ، وكان الشيخ عبد القادر يريد حاجةً من الوالد ، فذلك هو الذي حمله علىٰ تسميتي بهـٰذا الاسم ، وكنَّاني أيضاً أبا بكر ، ولقَّبني محيي الدين ، وتقرر عنده أنه سيكون لي شأن) .

ثم يتابع الإمام حديثه عن نفسه قائلاً : (وكانت أمِّي أمَّ ولدٍ هنديّةً . . . وكانت من الصالحات ، علىٰ جانب عظيم من التواضع ، وسلامة الصدر ، وحسن الأخلاق ، وكثرة الإنفاق ، توفيت ضحىٰ يوم الجمعة لعشرين خلت من شهر رمضان ، سنة عشر بعد الألف ، وكان آخر كلامها لا إلـٰه إلا الله) .

ويمضي الإمام في حديثه عن نشأته فيقول : (قرأت القرآن العظيم حتىٰ ختمته علىٰ يد بعض أولياء الله تعالىٰ ، وذلك في حياة الوالد تغشّاه الله بالرحمة ، واشتغلت بعد قراءة القرآن بتحصيل طرف من العلم ، وقرأت عدةً من المتون علىٰ جماعة من العلماء الأعلام ، وتصدَّيت لنشر العلم ، ومزاحمة أهله ، وذلك بكرم الله وفضله ، والأخذ عن العلماء والاستفادة منهم ، ومعرفة فضلهم وتعظيمهم) .

طلبه للعلم

لا يمكن أن يميز المطالع لترجمة الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله مرحلةً واضحةً لطلب العلم في حياته ؛ لأنه نشأ في بيت علم وفضل ، وتقوىً وصلاح ، فقد نشأ إذاً طالبَ علم كما عرفنا ذلك من خلال حديثه عن نفسه فيما تقدم .

والذي يمكننا إضافته هنا هو قوله في « النور السافر » (ص ٤٤٦) : (. . . وشاركت في كثير من الفنون ، وتفرغت لتحصيل العلوم النافعة لوجه الله تعالىٰ ، وعملت الهمة في اقتناء الكتب المفيدة ، وبالغت في طلبها من أقطار البلاد البعيدة ، مع ما صار إليَّ من كتب الوالد رحمه الله ، فاجتمع عندي منها جملة عديدة) .

شيوخه

أفادنا الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله أنه تلقى العلم علىٰ جماعة من العلماء الأعلام ، وقد نقل العلامة الشلي رحمه الله في « المشرع الروي » (٢/ ١٥٢) عن « الزهر الباسم » للإمام عبد القادر نفسه طائفةً من حديثه عن مشايخه الذين تتلمذ عليهم ، وكرع من معينهم ، وهم :

- **شيخ الإسلام ، وغوث الأولياء الكرام ، الرباني المربي ، شيخ بن**

عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس (ت٩٩٢هـ) ، وهو والد الإمام عبد القادر رحمهما الله تعالىٰ .

- أخوه السيد العلامة عبد الله بن شيخ (ت١٠١٩هـ) .

- السيد العالم ، والفاضل المتصوف ، والنسيب الشريف ، حاتم بن أحمد بن موسى الأهدل الحسيني اليمني (ت ١٠١٣هـ) .

- الشيخ الإمام ، درويش حسين الكشميري .

- الشيخ الإمام ، موسىٰ بن جعفر الكشميري .

- الشيخ الإمام ، محمد بن الشيخ حسن الجشتي .

تلاميذه

لم نستطع الوقوف إلا علىٰ أسماء بعض الذين أخذوا عن الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله تعالىٰ ، وذلك عندما أخبرنا هو عن ذلك ، فقال في « النور السافر » (ص ٤٤٧) : (وأخذ عني غير واحد من الأعلام ، وانتفع بي عدة من الأنام) .

غير أنه لم يذكر ما قرؤوه عليه ، ولا ما أخذوه عنه ، في حين صرح بأنه ألبس جماعةً من الأعيان خرقة التصوف ، وعدَّد منهم :

- السيد الجليل العلامة ، جمال الدين ، محمد بن يحيى الشامي المكي .

- الشيخ الكبير ، العلامة الشهير ، بدر الدين ، حسن بن داوود الكوكني الهندي .

- الشيخ الصالح ، العلامة الفقيه ، أحمد بن محمد بن عبد الرحيم باجابر الحضرمي .

- الشيخ الفاضل ، شهاب الدين ، أحمد بن ربيع .

- العلامة الشهير ، أحمد بن عبد الحق السنباطي المكي المصري .

وأضاف الإمام رحمه الله قائلاً : (وأما الذي لبسها من الملوك والتجار ، وطوائف الناس . . فجماعة كثيرون ، وخلائق لا يحصون) .

مؤلفاته

لقد برع الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله تعالىٰ في علوم عدة ، وفنون شتَّىٰ ، مما دفعه للتأليف والتصنيف ، فأبرز لنا كتباً عديدة ، ومصنفات مفيدة ، وقد قال في « النور السافر » (ص ٤٤٧) : (وألفتُ جملة من الكتب المقبولة التي لم أُسبق إلىٰ مثلها ، ووقع الإجماع علىٰ فضلها ، فلا يكاد يمتري في ذلك إلا عدوٌّ أو حاسد) ، ثم عدّد منها جملة نذكر منها :

- الفتوحات القدوسية في الخرقة العيدروسية .

- الحدائق الخضرة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

العشرة ، وهو أول مؤلفاته ، ألّفه وهو دون العشرين من عمره المبارك .

- إتحاف الحضرة العزيزة بعيون السير الوجيزة .
- المنتخب المصطفىٰ من أخبار مولد المصطفىٰ .
- المنهاج إلىٰ معرفة المعراج .
- الأنموذج اللطيف في أهل بدر الشريف .
- أسباب النجاة والنجاح في أذكار المساء والصباح .
- الدر الثمين في بيان المهم من علم الدين .
- الحواشي الرشيقة على العروة الوثيقة .
- منح الباري بختم صحيح البخاري .
- **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ، وهو كتابنا هـٰذا .**
- عقد اللآل بفضائل الآل .
- خدمة السادة آل باعلوي باختصار العقد النبوي .
- بغية المستفيد في شرح تحفة المريد .
- النفحة العنبرية في شرح البيتين العدنية .
- غاية القُرَب في شرح نهاية الطلب .
- صدق الوفاء بحق الإخاء .
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر .

ـ الروض الأريض والفيض المستفيض ، وهو ديوان شعر جمعه بعض أصحابه .

وغيرها من الكتب المفيدة ، والتصانيف النافعة بإذن الله تعالىٰ .

ثناء العلماء عليه

ذكر الإمام عبد القادر العيدروس رحمه الله تعالىٰ في أثناء ترجمته نفسَه في « النور السافر » (ص ٤٥١) : أن الفقيه المحقق العلامة ، جمال الدين ، محمد بن عبد المولى القرطبي المغربي قدم اليمن ، واجتمع بالفقيه عبد الملك بن عبد السلام دعسين ، واطلع عنده علىٰ جملة من مؤلفات الإمام عبد القادر ، فأعجب بها جداً وقال : (إنه ما بقي لمؤلفها في هـٰذا الزمان نظير ، وإني لأدعو له بطول العمر ، حتىٰ يبدوَ منه مثل هـٰذه الفوائد المستجادة ؛ لينتفع بها من أراد الله هدايته من أهل السعادة) .

وأضاف الإمام رحمه الله أن الفقيه عبد الملك بن عبد السلام دعسين مدحه بقصيدة منها قوله : (من الوافر)

إذا مثَّلْـتُ شَخْصَكُـمُ بِفِكْـرِي أُوَالِـي زَعْقَـةً فـي إِثْـرِ زَعْقَـةْ
ويَجْـرِي دمـعُ مُقْلَتِـيَ ٱستبـاقـاً بخـدِّي دَفْقَـةً مِـنْ بَعْـدِ دَفْقَـةْ
تَغـذَّىٰ بـالمَعَـارِفِ وَهْـوَ طِفْـلٌ وَفِـي سِـنِّ ٱلْكُهُـولَـةِ مَـا أَحَقَّـهْ
سَلِيـلُ ٱلأَكْـرَمِيـنَ وَمُنْتَقَـاهُـمْ وَأَحْظَـاهُـمْ بِفَخْـرٍ حَـازَ سَبْقَـهْ

لَقَـدْ وَرِثَ ٱلْـوِلاَيَـةَ عَـنْ أَبِيـهِ   بِتَعْصِيـبٍ وَفَـرْضٍ إِسْتَحَقَّـهْ

وقال عنه الحبيب محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي في ترجمته في « المشرع الروي » (٢/١٤٧) : (عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس رضي الله عنهم ، أحد العلماء الأكابر ، والأعيان أولي البصائر ، الذين أخذوا المجد كابراً عن كابر ، حامل راية المفاخر ، البحر الذي ليس للبحر ما عنده من الجواهر ، والروض الذي تعجز الرياض أن تحاكي ما لديه من الأزاهر ، المرتقي من منازل المجد ذروتها وأعلاها ، والمستقي من بحار الولاية أمرأها وأهنأها وأغلاها) .

ولا يفوتنا أن نذكر مدح الإمام القطب عبد الله الحداد رحمه الله تعالىٰ له في قصيدته العينية المشهورة :

يا سائِلي عَنْ عَبْرَتي وَمَدامِعِي   وَتنَهُّـدٍ تَـرْتَـجُّ مِنْـهُ أَضالِعِـي

فقد جاء في « ديوانه » (ص ١٨٦) في معرض مدحه للأئمة الكبار وأهل العلم الأخيار قوله مادحاً للحبيب عبد القادر وأبيه رحمهما الله تعالى :

. . . .   وَٱلشَّيْخِ شَيْخٍ ذِي ٱلْمَحَلِّ ٱلأَرْفَعِ

وَسَلِيلِـهِ ذَاكَ العَفِيـفِ وَصِنْـوِهِ   ٱلْحَبْـرِ عَبْـدِ ٱلقَـادِرِ ٱلْمُتَضَلِّـعِ

وفاته

بعد حياة حافلة بالعلم والعمل ، والنفع لخلق الله جل في علاه ، لبّى

الإمام رحمه الله نداء خالقه ومولاه ، وانتقل إلىٰ جواره الكريم في مسقط رأسه (أحمد أباد) .

وقد اختلف المترجمون له في سنة وفاته ، وقد ذكر أكثرهم أنه توفي في (١٠٣٨هـ) ، في حين ذهب بعضهم إلىٰ أنه توفي سنة (١٠٤٨هـ) ، وهٰذا قول الشلي في « المشرع الروي » (٢/ ١٥٢) .

وجاء في « النور السافر » (ص ٤٤٤) حاشية تقول : (في حاشية « ط » : « وقد وُجد بهامش الأصل ما نصه : توفي سيدنا وشيخنا القطب محيي الدين ، عبد القادر العيدروس ، مصنف هٰذا الكتاب عاشر محرم سنة سبع وثلاثين بعد الألف بأحمد أباد من أرض الهند ، ودفن بجنب والده في القبة المنورة ، نفع الله بهما ») .

رحم الله الإمام العلامة عبد القادر رحمةً واسعة ، وأسكنه فسيح جناته وجمعنا وإياه في مستقر رحمته ؛ إنه خالقنا ومولانا ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

والحمد لله رب العالمين

تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[خُطْبَةُ المؤلِّف]

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطيها في كتاب ، وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب .

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذي أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الألباب ، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرقت شمس « الإحياء » للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلىٰ إسعاف ملازمي مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد :

فإن الكتاب العظيم الشأن ، المسمىٰ بـ« إحياء علوم الدين » ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، والمشايخ العارفين ، المنسوب إلى الإمام أبي حامد محمد الغزالي رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبيِّن الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذي باهىٰ به سيد المرسلين صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ جميع الأنبياء[1] ، ورضي الله عن الغزالي وعن سائر

---

(١) مرآة الجنان (٣/ ٣٢٩) ، وطبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٢٥٧) .

العلماء المجتهدين . . **لما كان عظيم الوقع** ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير في بابه ، ولم ينسج علىٰ منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملاً على الشريعة والطريقة والحقيقة ، كاشفاً عن الغوامض الخفية ، مبيناً للأسرار الدقيقة . . **رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة علىٰ صُبابةٍ صبابةٍ من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتَّبتها علىٰ مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .**

* * *

فالمقدمة : في عنوان الكتاب .

والمقصد : في فضائله ، وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه .

والخاتمة : في ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلىٰ هـٰذه الطريقة .

* * *

المقدّمة
في عنوان الكتاب

اعلم : أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ : ظاهرة ، وباطنة .

* * *

والظاهرة قسمان :

معاملة بين العبد وبين الله تعالىٰ .

ومعاملة بين العبد وبين الخلق .

* * *

والباطنة أيضاً قسمان :

ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة .

وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة .

* * *

وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتابه « إحياء علوم الدين » علىٰ هـٰذه الأربعة الأقسام ، فقال في خطبته :

ولقد أسسته علىٰ أربعة أرباع : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب :

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب آداب الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب آداب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج ، وكتاب آفة اللسان ، وكتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات : فيشتمل علىٰ عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

❊ ❊ ❊

ثم قال رحمه الله تعالىٰ :

فأما ربع العبادات . . فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربع العادات . . فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات . . فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته ، وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم العلامات التي بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات . . فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين ، التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

❋ ❋ ❋

المقصد
في فضل الكتاب المشار إليه ، وبعض المدائح والثنا من الأكابر عليه والجواب عمّا استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم : أن فضائل « الإِحياء » لا تحصىٰ ، بل كل فضيلة له باعتبار تحقيقاتها لا تستقصىٰ ، جمع الناس مناقبه فقصَّروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعزَّ من أفردها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف .

غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخراج جواهر المعاني ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم ، فاجتنىٰ ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها .

وسما إلىٰ سماء المعاني فلم يصطفِ من كواكبها إلا السيارة ، وجليت عليه عرائس المعاني ، فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة .

جمع رضي الله عنه فأوعىٰ ، وسعىٰ في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعىٰ ، فللّٰه دره من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد .

لقد أبدع فيما أودع كتابه من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأملىٰ .

بيد أنه في العلوم صاحب القدح المعلَّىٰ ؛ إذ كان رضي الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفصله فصله ؟!

[من الكامل]

هيهاتَ لا يأتي الزَّمانُ بمثلِهِ   إنَّ الزَّمانَ بمثلِهِ لشحيحُ (١)

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولىٰ علىٰ غايات المناقب ؟!

فشجرته في فوارة العلم والعمل ، والعلا والفهم والذكاء . . أصلها ثابت وفرعها في السماء .

مع كونه رضي الله عنه ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية .

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه : أن الفقيه العلامة قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمي ثم اليمني سُئل عن تصانيف الغزالي ؟ فقال من جملة جوابه :

محمد بن عبد الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ **سيد الأنبياء** ، ومحمد بن إدريس الشافعي **سيد الأئمة** ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي **سيد المصنفين** (٢) .

---

(١) البيت لأبي تمام في « ديوانه » (٤/ ١٠٢) ، وفيه : (لبخيلُ) .

(٢) مرآة الجنان (٣/ ١٩٠) .

وذكر اليافعي أيضاً : أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان قد بالغ في الإنكار علىٰ كتاب « إحياء علوم الدين » ، وكان مطاعاً ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ « الإحياء » وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأىٰ ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ؛ فإذا هو بالنبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فلما أقبل ابن حرزهم . . قال الغزالي : هٰذا خصمي يا رسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم . . تبت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك واتباع سنتك . . فخذ لي حقي من خصمي .

ثم ناول النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كتاب « الإحياء » ، فتصفحه النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ورقة ورقة ، من أوله إلىٰ آخره ، ثم قال : « والله ؛ إن هٰذا لشيء حسن » .

ثم ناوله الصدِّيق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال : (نعم ، والذي بعثك بالحق ؛ إنه لشيء حسن) .

ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنىٰ عليه كما قال الصدِّيق .

فأمر النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بتجريد الفقيه عليّ بن حرزهم عن

القميص ، وأن يضرب ويُحدَّ حدَّ المفتري ، فجُرِّد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط . . تشفع فيه الصدِّيق رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ؛ لعله ظن أنه خلاف سنتك فأخطأ في ظنه .

فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصدِّيق .

ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر .

ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالىٰ ، ويتشفع برسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إلىٰ أن رأى النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخل عليه ومسح بيده الكريمة علىٰ ظهره ، فعوفي وشفي بإذن الله .

ثم لازم مطالعة « إحياء علوم الدين » ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله(١) .

قال اليافعي : **روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة** ، فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن الميلق الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت

---

(١) مرآة الجنان (٣/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣) .

الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي ، عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي ، قدس الله أرواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزهم(١) .

قال : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : ولقد مات أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر علىٰ ظهره(٢) .

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله ـ وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به ـ قال :

سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الأسفرايني يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الساوي بمكة المشرفة يقول :

دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطرأ علي حال وأخذني عن نفسي ، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقعت علىٰ جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا علىٰ طهارة ، وكنت أطرد عن نفسي النوم ، فأخذتني سِنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة ـ الشافعي ، ومالكاً ،

---

(١) مرآة الجنان (٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠) .

(٢) مرآة الجنان (٣/ ٣٣١) .

وأبا حنيفة ، وأحمد ، رحمهم الله ـ يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد ، وهو صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقررهم عليها .

ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يا رسول الله ؛ هٰذا الكتاب ـ أعني « إحياء علوم الدين » ـ معتقدي ومعتقد أهل السنة والجماعة ، فلو أذنت لي حتىٰ أقرأه عليك ، [فأذن لي ، فقرأت عليه] من (كتاب قواعد العقائد) : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد ، وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة. . . حتى انتهيت إلىٰ قول الغزالي : (وأنه تعالىٰ بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ كافة العرب والعجم ، والجن والإنس) فرأيت البشاشة في وجهه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ثم التفت وقال : « أين الغزالي ؟ » وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : هـٰأنـذا يـا رسـول الله ، وتقـدم وسلـم ، فـردَّ عليـه السـلامَ عليـه الصـلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها .

وما رأيت النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه « الإحياء » ، ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات(١) .

---

(١) مرآة الجنان (٣/ ١٨٧ـ ١٨٩) .

وكان تقريره صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمذاهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها . . نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالىٰ أن يحيينا علىٰ سنته ، ويتوفانا علىٰ ملته ، آمين .

فصل

[في ثناء العلماء على « الإحياء »]

أثنىٰ على « الإحياء » عالَمٌ من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفي الأنام ، بل جمع أفراد وأقطاب .

فقال فيه الحافظ الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه : إنه من أجلِّ كتب الإِسلام في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلىٰ سرائر دقت عن الأفهام .

لم يقتصر فيه علىٰ مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيهما في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه : (خير هـٰذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم العالي . . .)[1] إلىٰ آخر ما ذكره مما الأولىٰ بنا في هـٰذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلىٰ نشر محاسن « الإِحياء » ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه .

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٣٩) .

وقال عبد الغافر الفارسي في مثال « الإحياء » : إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها[1] .

❀ ❀ ❀

وقال فيه النووي : كاد « الإحياء » أن يكون قرآناً .

❀ ❀ ❀

وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو محيت جميع العلوم . . لاستُخْرِجت من « الإحياء » .

❀ ❀ ❀

وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضلة علوم الغزالي ؛ أي : و« الإحياء » جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط[2] .

❀ ❀ ❀

وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً ، وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب « الإحياء » كل فصل وحرف منه ، وأعاوده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ، ومفهومات عزيزة غير التي قبلها .

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرى » (٦/ ٢٠٦) .

(٢) انظر « مرآة الجنان » (٣/ ١٩١) .

ولم يسبقه رضي الله عنه أحد ، ولم يلحقه أحد أثنىٰ علىٰ كتاب « الإحياء » بما أثنىٰ عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه ، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه .

❊ ❊ ❊

ومن كلامه رضي الله عنه فيه : عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة ؛ أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية، **خصوصاً (كتاب ذكر الموت)**، و(**كتاب الفقر والزهد**) ، و(**كتاب التوبة**) ، و(**كتاب رياضة النفس**) .

❊ ❊ ❊

ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفىً في كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به .

❊ ❊ ❊

ومن كلامه : وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين وبقية المجتهدين حجة الإسلام الغزالي في كتابه العظيم الشان ، الملقب أعجوبة الزمان ، « إحياء علوم الدين » الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

❊ ❊ ❊

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب « إحياء علوم الدين » ، فهو موضع

نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه. . فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة ، وصار عالماً في الملك والملكوت .

* * *

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتىٰ . . لما أوصوا الأحياء إلا بما في « الإحياء » .

* * *

ومن كلامه : اعلموا : أن مطالعة « الإحياء » تحضر القلب الغافل في لحظة ؛ كحضور سواد الحبر بوقوع الزاج في العفص والماء .

وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن .

* * *

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله علىٰ أنه لا شيء أنفع للقلب ، وأقرب إلىٰ رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ، ومحبة كتبه ؛ فإن كتب الغزالي لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل علىٰ ما أقول .

* * *

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلانية أن من طالع كتاب « إحياء علوم الدين ». . فهو من المهتدين .

* * *

ومن كلامه : من أراد طريق الله ، وطريق رسول الله ، وطريق العارفين بالله ، وطريق العلماء بالله ؛ أهل الظاهر والباطن. . **فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، خصوصاً « إحياء علوم الدين » فهو البحر المحيط** .

* * *

ومن كلامه : اشهدوا عليَّ أن من وقع علىٰ كتب الغزالي . . **فقد وقع علىٰ عين الشريعة والطريقة والحقيقة** .

* * *

ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما . . **فعليه** بمطالعة كتب الغزالي ، وخصوصاً البحر المحيط « إحياؤه » أعجوبة الزمان .

* * *

ومن كلامه : نطق معاني معنويِّ القرآن ، ولسان حال قلب رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله ، وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ؛ مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هٰؤلاء

المذكورون أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهىٰ وأبهج وأتقىٰ وأقرب إلىٰ رضا الرب **كمتابعة الغزالي ومحبة كتبه** .

وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر الناقور ، والله وكيل علىٰ ما أقول ، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ .

* * *

ومن كلامه : كتاب « إحياء علوم الدين » : فيه جميع الأسرار ، وكتاب « بداية الهداية » : فيه التقوىٰ ، وكتاب « الأربعين الأصل » : فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب « منهاج العابدين » : فيه الطريق إلى الله ، وكتاب « الخلاصة في الفقه » : فيه النور .

* * *

ومن كلامه : السر كله في اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب « إحياء علوم الدين » ، المسمىٰ : أعجوبة الزمان .

* * *

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع « إحياء علوم الدين » أو كتبه أو سمعه .

* * *

وكلامه رضي الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه ، والحث على العمل بها ، خصوصاً « إحياء علوم الدين » .

وقد كان سيدي ووالدي الشيخ العارف بالله تعالىٰ شيخ بن عبد الله العيدروس رضي الله عنه يقول : (إن أمهل الزمان.. جمعت كلام الشيخ عبد الله في الغزالي وسميته « الجوهر المتلالي خصوصاً من كلام الشيخ عبد الله في الغزالي ») .

فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقني الله لذلك ؛ تحقيقاً لرجائه ، ورجاء أن يتناولني دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه ، فإنه قال : غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي ، وناهيك ببشارة في هٰذه العبارة التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ، لا يجازف في مقال ، ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هٰذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلىٰ مزيد ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العيدروس لتعريفه.. فقد أغنىٰ تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف .

وحصل من « الإحياء » في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتىٰ إن بعض العوام حصلها ؛ لما رأىٰ من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ علياً قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة

عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف .

ثم إن الشيخ علياً ألزم ولده الشيخ عبد الرحمٰن قراءته عليه مدة حياته ، فختمه عليه أيضاً خمساً وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر علىٰ نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل « الإحياء » أبداً ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .

قلت : وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ بن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه مدمناً علىٰ مطالعته ، وحصل منه نسخاً عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة .

فملازمته ميراث عيدروسي ، وتوفيق قدوسي ، فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله . . بلغ الرتبة العليا ، وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير علي بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمٰن السقاف : لو قَلَّب أوراق « الإِحياء » كافر . . لأسلم ؛ ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس .

قلت : وهو صحيح ؛ فإني مع خسيس قصدي ، وقساوة قلبي . . أجد عند مطالعتي له من انبعاث الهمة ، وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه .

ثم يفتر برجوعي إلىٰ ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق ، **وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه ، وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده** .

والمراد بـ(الكافر) هنا فيما يظهر : الجاهل بعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق ؛ أي : فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور . . يشرح الله صدره ، وينور قلبه ؛ وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ . . كان حريٌّ أن يتعظ به سامعه .

وكما أن الله تعالىٰ جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق غيرهم . . كذلك جعل لما يبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة علىٰ غيره ؛ لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم علية ، وإشاراتهم سنية ، حتىٰ يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر .

حتىٰ تجدُ الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع به كثير ؛ لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ، ولم ينتفع به مثله ؛

لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك . . وجده أمراً ظاهراً معهوداً ، وشيئاً مجرباً موجوداً .

فانظر إلىٰ نفع الناس بكتاب « الخلاف » في مذهب مالك رحمه الله تعالىٰ ، و« التنبيه » في مذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، و« الجمل » في العربية ، و« الإرشاد » في علم الكلام ، وانتشارها مع أن ما حوت من العلم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هـٰؤلاء في هـٰذه الفنون في مثل أجرام هـٰذه الكتب أضعاف ما فيها ، مع تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعاني ، وتخليص الحدود .

وبعد هـٰذا فالنفع بهـٰذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ؛ **لأن العلم بمزيد التقوىٰ وقوّة سر الإِيمان ، لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان** ، كما بيّن ذلك مالك رحمه الله تعالىٰ بقوله : **ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يضعه الله في القلب**(١) .

❊ ❊ ❊

قلت : ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه لنفسه فيه قوله : [من الطويل]

أُخيَّ انتبهْ والزمْ سلوكَ الطَّرائقِ وسارعْ إلى المولىٰ بجدٍّ وسابقِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٩٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٩٨) .

أيا طالباً شرحَ الكتابِ وسنّةٍ وقانونِ قلبِ القلبِ بحرِ الرقائقِ
وإيضاحَ نهجٍ للحقيقةِ مشرقٍ وشربَ حميًا صفوِ راحِ الحقائقِ
وإجلاءَ أذكارِ المعاني ضواحكاً بباهجِ حسنٍ جاذبٍ للخلائقِ
عليكَ بإحياءِ **العلومِ** ولبِّها وأسرارِها كمْ قد حوىٰ من دقائقِ
وكم من لطيفاتٍ لذي اللبِّ منهلٌ وكم من مليحاتٍ سبَتْ لبَّ حاذقِ
كتابٌ جليلٌ لم يصنَّفْ قبله ولا بعده مثلٌ له في الطرائقِ
معانيهِ أضحتْ كالبدورِ سواطعاً علىٰ درِّ لفظٍ للمعاني مطابقِ
فكمْ في بديعِ اللفظِ يجلي عرائساً وكم من شموسٍ في حماهُ شوارقِ
وكم من عزيزاتٍ زهَتْ في قبابِها محجبةٍ من غير كفءٍ مسابقِ
وكم من لطيفٍ معْ بديعٍ وتحفةٍ حلاوتُها كالشَّهدِ تحلو لذائقِ
بساتينُ عرفانٍ وروضُ لطائفٍ وجنَّةُ أنواعِ العلومِ الفوائقِ
رعى اللهُ صبّاً راتعاً في جنانها يروحُ ويغدو بينَ تلكَ الحدائقِ
ويقطفُ من زاكي جناها فواكهاً بساحلِ بحرٍ بالجواهرِ دافقِ
خضمٍّ طمىٰ حتىٰ علا فوقَ مَن علا بشامخِ مجدٍ مشرقٍ بالحقائقِ
فإنْ لم بهٰذا القولِ تؤمنْ فجرِّبنْ وأقبلْ علىٰ تلك المعاني وعانقِ
وأرجعَ طَرْفاً في بديعِ جمالِها وطفْ في حماها منشداً كل سابقِ
ترىٰ في بدورِ الحيِّ أقمارَ قدَ بدَتْ بعالي جمالٍ مدهشٍ لبَّ عاشقِ
فكم أنهلت صباً وكم قشّعت عمىً وكم قد سعَتْ في غربِها والمشارقِ

فيضحي براحِ الحبِّ سكرانَ مغرماً   أصمَّ عنِ العذالِ غيرَ موافقِ

ويمسي يناديها طريحاً ببابِها   منعَّمَ عيشٍ في الربوعِ الغوادقِ

صلاةٌ علىٰ سرِّ الوجودِ شفيعِنا   محمدٍ المختارِ خيرِ الخلائقِ

وأصحابِهِ أهلِ المكارمِ والعلا   وعترتِهِ ورَّاثِ علمِ الحقائقِ

فَصْلٌ

[في الجواب عمّا استشكل من « الإحياء » وطُعِن بسببه فيه]

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لا إشكال ، أو أخبار وآثار تُكُلِّمَ في سندها :

فأما من جهة تلك المواضع . . فممن أَجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمىٰ بـ« الأجوبة »[1] ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا :

قال رحمه الله : (سألت ـ يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ـ عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بـ« الإحياء » مما أشكل علىٰ من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه .

وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الإسلام .

حتىٰ طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بالهوىٰ مجرداً علىٰ غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلىٰ ضلال وإضلال ، ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال . . . إلىٰ أن قال :

---

(١) أي : الأجوبة المسكتة على الأسئلة المشكلة المبكتة ، واشتهر باسم : الإملاء علىٰ مشكل الإحياء .

﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾) .

ثم ذكر آيات أخرىٰ في المعنىٰ ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين .

بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال : (حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوىٰ) .

ثم بيَّن ما ورثوه عن الأربعة المذكورة ، قال : (فالجهل أورثهم السخف . . .) إلىٰ آخر ما ذكره .

* * *

وأما ما اعترض به من تضمينه أخباراً وآثاراً موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشىٰ منه المتورع ؛ لئلا يقع في الموضوع .

وحاصل ما أجيب به عن الغزالي ومن المجيبين الحافظ العراقي : **أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع** كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر ـ وهو في غاية القلة ـ رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئاً منه بنحو صيغة (روي) .

وأما الاعتراض عليه بأنَّ فيما ذكره الضعيف بكثرة . . **فهو اعتراض ساقط** ؛ لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق ، فهو من قبيلها .

ولأن له أسوة بأئمة الحفاظ في اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة ، المنبَّه علىٰ ضعفه تارة ، والمسكوت عنه أخرىٰ .

وهـٰذه كتب الفقه للمتقدمين ، وهي كتب الأحكام لا الفضائل يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتىٰ جاء النووي رحمه الله في المتأخرين ونبه علىٰ ضعف الحديث وخلافه كما أشار إِلىٰ ذلك كله العراقي .

* * *

قال عبد الغافر الفارسي سبط القشيري : (ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ، ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لمآثره. . .) إلىٰ آخر ما ذكره[1] .

* * *

ومما يدلك علىٰ جلالة كتب الغزالي : ما نقل ابن السمعاني من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها ، مع تعبير ثقات المعبِّرين ببدعة تحدث ، فحدثت في جهة المغرب بدعة الأمر بإِحراق كتبه[2] .

ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب . . أمر سلطانه علي بن يوسف

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٢٠٧) .

(٢) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٢١٧) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٣٣٦) .

بإحراقها ؛ لتوهمه اشتمالها على الفلسفة ، وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير ، ووثب عليه الجند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس ونكد ، بعد أن كان عادلاً[1] .

* * *

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرى » (٦/٢١٩) .

خاتمة
في الإشارة إلى ترجمة المصنّف رضي الله عنه وعنّا به، ونفعنا بعلومه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريق الصوفيّة رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه : فهو الإمام زين الدين ، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري ، الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري .

الذي انتشر فضله في الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها ، والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها ، وحسن الإشارة وكشف المعضلات ، والتبحر في أصناف العلوم فروعها وأصولها ، ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء علىٰ إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة ، وحسن السيرة والاستقامة ، والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا ، والإعراض عن الجهات[1] الفانية ، واطراح الحشمة والتكلف .

قال الحافظ العلامة ابن عساكر ، والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي ، والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي رحمهم الله تعالىٰ :

---

(١) في (ح) : (عن الجاهات) .

ولد الإِمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربع مئة ، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه .

ثم قدم نيسابور ولازم دروس إِمام الحرمين ، وجدَّ واجتهد ، حتىٰ تخرج في مدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه .

ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلاً عظيماً ؛ لعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطَّ رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء .

ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة ؛ من مناظرة الفحول ؛ فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلىٰ بغداد ؛ للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إِمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة .

ثم انقلب الأمر من جهة أخرىٰ ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلاً بأسباب التقوىٰ ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إِلىٰ مثلها ، مثل « إحياء علوم الدين » وغيره ، التي من تأملها . . عرف محل مصنفها من العلم .

قيل : إن تصانيفه وزعت علىٰ أيام عمره فأصاب كل يوم كراس .

ثم سار إلى القدس ، مقبلاً علىٰ مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، حتىٰ مرن علىٰ ذلك .

ثم عاد إلىٰ وطنه طوس ، لازماً بيته ، مقبلاً على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالىٰ ، والاستعداد للدار الآخرة ، يرشد الضالين ، ويفيد الطالبين ، دون أن يرجع إلىٰ ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة .

وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولىٰ سنة خمس وخمس مئة ، خصه الله تعالىٰ بأنواع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه[1] .

* * *

قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام علىٰ ما حكي في كرامات الشيخ سعيد العمودي نفع الله به .

وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالىٰ بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزبيدي ـ وكان معاصراً للغزالي نفع الله بهما ـ قال : بينما أنا ذات يوم

(١) تاريخ دمشق (٥٥/ ٢٠٠) ، مرآة الجنان (٣/ ١٧٧ـ١٧٨) ، المهمات (١/ ٢٧٦) .

قاعد ؛ إذ نظرت إلىٰ أبواب السماء مفتحة ؛ وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا علىٰ قبر من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلىٰ سماء إلىٰ أن جاوز السماوات السبع ، وخرق بعدها ستين حجاباً ، ولا أعلم إلىٰ أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي : هـٰذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالىٰ(١) .

ورأىٰ في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقد باهىٰ موسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : « أفي أمتكما حبر كهـٰذا ؟ » قالا : لا(٢) .

وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة . . فليتوسل بالغزالي .

وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم ؛ منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، في أن الله تعالىٰ يحدث لهـٰذه الأمة من يجدد لها دينها علىٰ رأس كل مئة سنة(٣) :

---

(١) مرآة الجنان (٣/ ٣٢٨ـ٣٢٩) .

(٢) ذكرها اليافعي في « مرآة الجنان » (٣/ ٣٢٩) ، والسبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٢٥٧) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إنه كان علىٰ رأس المئة الأولىٰ : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

وعلىٰ رأس المئة الثانية : الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وعلىٰ رأس المئة الثالثة : الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه(١) .

وعلىٰ رأس المئة الرابعة : أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه .

وعلىٰ رأس المئة الخامسة : أبو حامد الغزالي رضي الله عنه(٢) .

وروي ذلك عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين ؛ أعني : عمر بن عبد العزيز والشافعي(٣) .

ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ .

* * *

ومن مشهورات مصنفاته :

« البسيط » ، و« الوسيط » ، و« الوجيز » ، و« الخلاصة » في الفقه .

و« إحياء علوم الدين » ، **وهو من أنفس الكتب وأجملها** .

---

(١) في هامش (ظ ، غ) : (قال الإمام النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » [٢/ ٣٩] : والمشهور : أن المجدد علىٰ رأس المئة الثالثة الإمام ابن سريج المكنى الباز الأشهب ، والله أعلم) .

(٢) تبيين كذب المفتري (ص٥٣) ، وانظر « مرآة الجنان » (٢/ ٣٠٣) ، و« تاريخ الإسلام » (٢٣/ ١٧٩) .

(٣) رواه البيهقي في « معرفة السنن والآثار » (١/ ٢٠٨) .

وله في أصول الفقه : « المستصفىٰ » ، و« المنخول » .

و« المنتحل » في علم الجدل ، و« تهافت الفلاسفة » ، و« محك النظر » .

و« معيار العلم » ، و« المقاصد » و« المضنون به علىٰ غير أهله » .

و« مشكاة الأنوار » ، و« المنقذ من الضلال » ، و« حقيقة القولين » .

وكتاب « ياقوت التأويل في تفسير التنزيل » أربعين مجلداً .

وكتاب « أسرار علم الدين » .

وكتاب « منهاج العابدين » ، و« الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة » ، وكتاب « الأنيس في الوحدة » .

وكتاب « القربة إلى الله عز وجل » ، وكتاب « أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار » .

وكتاب « بداية الهداية » ، وكتاب « جواهر القرآن » ، و« الأربعين في أصول الدين » .

وكتاب « المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ » ، وكتاب « ميزان العمل » .

وكتاب « القسطاس المستقيم » ، وكتاب « التفرقة بين الإسلام والزندقة » .

وكتاب « الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة » ، وكتاب « المبادىء والغايات » .

وكتاب « كيمياء السعادة » ، وكتاب « تلبيس إبليس » ، وكتاب « نصيحة الملوك » .

وكتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » ، وكتاب « شفاء العليل في القياس والتعليل » ، وكتاب « المقاصد » .

وكتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » ، وكتاب « الانتصار » ، وكتاب « الرسالة اللدنية » .

وكتاب « الرسالة القدسية » ، وكتاب « إثبات النظر » ، وكتاب « المأخذ » .

وكتاب « القول الجميل في الرد علىٰ من غيّر الإنجيل » ، وكتاب « المستظهري » .

وكتاب « الأمالي » ، وكتاب في علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب « مقصد الخلاف » .

وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ « إحياء علوم الدين » .

وكتبه كثيرة ، وكلها نافعة .

***

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشي المحدث الصوفي صاحب كتاب « النجم والكواكب »[1] : [من الطويل]

أبا حامدٍ أنتَ المخصَّصُ بالمجدِ ... وأنت الذي علَّمتَنا سننَ الرُّشدِ
وضعتَ لنا « الإحياءَ » تُحيي نفوسَنا ... وتُنقذُنا من طاعةِ النازغِ المردي
فربعُ عباداتٍ وعاداتُهُ التي ... تعاقِبُها كالدرِّ نُظِّمَ في العقدِ
وثالثُها في المهلكاتِ وإنَّهُ ... لمنجٍ من الهلكِ المبرِّحِ والبعدِ
ورابُعها في المنجياتِ وإنَّهُ ... ليسرحُ بالأرواحِ في جنَّةِ الخلدِ
ومنها ابتهاجٌ للجوارحِ ظاهرٌ ... ومنها صلاحٌ للقلوبِ من الحقدِ

* * *

وأما سبب رجوعه إلىٰ هـٰذه الطريقة واستحسانه لها : فذكر رحمه الله في كتابه « المنقذ من الضلال » ما صورته : (**أما بعد** : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلىٰ يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم[2] ، القاصرين لدرك الحق علىٰ تعليم الإمام ، وما ازدريته

(١) نقلها عنه اليافعي في « مرآة الجنان » (٣/ ١٨٠) .
(٢) **اجتويته** : كرهته .

ثالثاً من طرق أهل التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طرق أهل التصوف ، وما تنحَّلَ لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلىٰ معاودته بنيسابور بعد طول المدة ؟

فابتدرت لإجابتك إلىٰ طلبتك ، بعد الوقوف علىٰ صدق رغبتك ، فقلت مستعيناً بالله تعالىٰ ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه وملتجئاً إليه :

اعلموا ـ أحسن الله إرشادكم ، وألان إلىٰ قبول الحق انقيادكم ـ : أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب علىٰ كثرة الفرق وتباين الطرق . . بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولم أزل في عنفوان شبابي مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين ، إلىٰ أن أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجَسور ؛ لا خوض الجبان الحَذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأهجم علىٰ كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذاهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ، ومستنٍّ ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع علىٰ باطنيته .

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف علىٰ فلسفته .

ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع علىٰ غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور علىٰ سر صوفيته .

ولا متعبداً إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلىٰ درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري . غريزة من الله وفطرة وضعها الله في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد الموروثة علىٰ قرب عهد مني بالصبا ؛ إذ رأيت صبيان النصارىٰ لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التنصُّر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لا يكون لهم نشوءٌ إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروي عن النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ »[1] ، فتحرك باطني إلىٰ طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدِينَ ، والأُستاذِينَ ، والتمييز بين هـٰذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

فقلت في نفسي أولاً : إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟

فظهر لي أن العلم اليقيني : هو الذي ينكشف به المعلوم انكشافاً لا يبقىٰ معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدىٰ بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً . . لم يؤثر ذلك شكاً وإمكاناً .

فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد ، لو قال لي قائل : الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أني أقلب هٰذه العصا ثعباناً وقلبها وشاهدت ذلك منه . . لم أشك في معرفتي لكذبه ، ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته . . فلا .

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه علىٰ هٰذا الوجه ، ولا أتيقنه من هٰذا النوع من اليقين . . فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه . . ليس بعلم يقيني .

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً عن علم موصوف بهٰذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات ، فقلت : الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً ؛ لأتبين أن يقيني بالمحسوسات

وأماني من الغلط في الضروريات . . من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات ، أو من جنس أَمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا تجوُّز فيه ولا غائلة له ؟

فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، أنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟

فانتهىٰ بعد طول التشكك بي إلىٰ أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها .

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعُلِّقته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي .

ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد علىٰ مقام الاختيار ؛ أصمم عزمي على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزمَ يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر فيه أخرىٰ ، ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة [بكرة] . . إلا حمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية .

فصارت شهوات الدنيا تجاذبني ، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة . . فمتىٰ تستعد ؟! وإن لم تقطع الآن هٰذه العلائق . . فمتىٰ تقطعها ؟!

فعند ذلك تنبعث الرغبة ، وينجزم الأمر على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هٰذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ؛ فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها ، وتركت هٰذا الجاه الطويل العريض ، والشأن العظيم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر السالم الخالي عن منازعة الخصوم . . ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربع مئة .

وفي هٰذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ؛ إذ أقفل الله علىٰ لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إليّ ، فكان لا ينطق لساني بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة .

حتىٰ أورثت هٰذه العُقْلَة في اللسان حزناً في القلب[1] ، بطلت معه قوّة الهضم ومراءة[2] الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لي شربة ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدىٰ ذلك إلىٰ ضعف القوىٰ ، حتىٰ قطع الأطباء طمعهم في العلاج ، وقالوا : هٰذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرىٰ إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم .

---

(١) **العقلة** : التواء في اللسان عند إرادة الكلام ، **والمراد هنا** : الحُبْسَةُ ، وهي امتناع وتعذر الكلام .

(٢) في النسخ : (ومري) ، والمثبت من « المنقذ من الضلال » .

ثم لما أَحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري . . التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ؛ فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهَّل علىٰ قلبي الإعراضَ عن المال والجاه ، والأهل والأولاد .

وأظهرتُ غرض الخروج إلىٰ مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام ؛ حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب علىٰ غرضي في المقام بالشام .

فتلطفتُ بلطائف الحيل في الخروج من بغداد علىٰ عزم ألاَّ أعاودها أبداً ، واستهزأ بي أئمة العراق كافة ؛ إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب دينيٌّ ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلىٰ في الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، فظنَّ مَنْ بَعُدَ عن العراق أن ذلك لاستشعار من جهة الولاة .

وأما من قرب منهم . . فكان يشاهد لجاجهم في التعلق بي والإنكار عليَّ ، وإعراضي عنهم وعن الالتفات إلىٰ قولهم ؛ فيقولون : هـٰذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم .

ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مال ، ولم أدخر من ذلك إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ؛ ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ؛ لكونه وقفاً على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لعياله أَصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت فيه قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة؛ اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالىٰ ؛ كما كنت حصلته من علم الصوفية .

وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها علىٰ نفسي .

[ثم رحلت منها إلىٰ بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها علىٰ نفسي] .

ثم تحرك بي داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، وعاودته بعد أنت كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة .

لكنِّي مع ذلك لا أقطع طمعي عنها ، فيدفعني عنها العوائق وأعود إليها ، ودمت علىٰ ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هـٰذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها .

والقدر الذي ينبغي أن نذكره ليُنتفعَ به : أني علمت يقيناً : أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين علىٰ أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه . . لم يجدوا إليه سبيلاً ! فإنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة علىٰ وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها : تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالىٰ ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحرم في الصلاة : استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالىٰ ، وهو أقواها بالإضافة إلىٰ ما تحت الاختيار) انتهىٰ[1] .

❊ ❊ ❊

قال العراقي : فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته ، وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال . . شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاقت إلى الأخرىٰ ، فاطَّرحها ، وسعىٰ في طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ؛

---

(١) المنقذ من الضلال (ص ٢٩ـ ٧١) مختصراً .

كما قال عمر بن عبد العزيز : (إنَّ لي نفساً توّاقة ذوّاقة ، لما نالت الدنيا . . تاقت إلى الآخرة)[1] .

قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده عكازة وركوة ، فقلت له :

يا إمام ؛ أليس التدريس ببغداد أفضل من هـٰذا ؟

فنظر إليَّ شزراً وقال : لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة ، وظهرت شموس الوصل . .

تركْتُ هوىٰ ليلىٰ وسعدىٰ بمعزلِ وعدتُ إلىٰ مصحوبِ أولِ منزلِ
ونادتنيَ الأشواقُ مهلاً فهـٰذهِ منازلُ مَنْ تهوىٰ رويدَكَ فانزلِ[2]

تمّ «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» بمنّه وكرمه
والحمد لله ربّ العالمين
وهو حسبي ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النّصير

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٢) .
(٢) البيتان من الطويل ، وأوردهما ابن العماد في « شذرات الذهب » (٦/ ٢٢) وفيه زيادة بيت :
غـزلـتُ لهـم غـزلاً دقيقـاً فلم أجـدْ لغـزلـيَ نسّـاجـاً فكسَّـرتُ مغـزلـي

خاتمة النسخة (ظ)

وكان الفراغ من كتابته ضحوة يوم الأربعاء وعشرين خلت من شهر رمضان المعظم سنة (١٢٥٥هـ) خمس وخمسين بعد المئتين والألف .

وذلك بقلم مقتنيه لنفسه جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن علوي الحداد علوي .

وبهامشها : (بلغ مقابلة من نسخة المنقول منه)

خاتمة النسخة (غ)

وكان الفراغ من كتابته ضحوة يوم الخميس وتاسع وعشر من شهر صفر الخير سنة (١٢٦٧هـ) ، وذلك بقلم أفقر عباد الله في الأرض المسكين سالم بن عبد الله بن حمد بن عمر بن عبد الباسط ، اغفر اللهم له ووالديه ومعلميه وجميع المسلمين .

خاتمة النسخة (ح)

تم كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » بعون الله وحسن توفيقه ، وصلى الله علىٰ خير خلقه ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

الحمد لله وقد نظمت معاني قول الشيخ الغزالي : (**وبالجملة** ماذا يقول القائل . . . إلىٰ آخر المقالة) ، **فقلت** :

مـاذا يقـول النـاس فـي طـريـق	مبـداه طهـر القلـب بـالتحقيـق
عمـا سـوى الله العظيـم ربنـا	يـارب طهـر قلبنـا يـا حسبنـا
وعقـده استغـراق كـل القلـب	بـذكـر مـولانـا الكـريـم ربـي
وختمـه الفنـاء بـالكليـة	فـي الله ربـي خـالـق البـريـة

* * *

المصادر والمراجع

أهمّ مصادر ومراجع التحقيق (١)

- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، **للإمام المحدث** عبيد الله بن محمد العكبري المعروف بـ **ابن بطة** (ت٣٨٧هـ) ، تحقيق سيد عمران ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار الحديث ، مصر .
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، **للشاعر المبدع المولد** إسماعيل بن القاسم بن سويد المعروف بـ **أبي العتاهية** (ت٢١١هـ) ، تحقيق شكري فيصل ، ط١ ، (١٩٦٤م) ، دار الملاح ، سورية .
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، **للإمام الكبير الشريف** محمد بن محمد الزَّبيدي الحسيني المعروف بـ **مرتضى الزبيدي** (ت١٢٠٥هـ) ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- إتحاف القاري بمعرفة جهود أعمال العلماء علىٰ صحيح البخاري ، **للشريف** محمد عصام عرار **الحسني** ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، دار اليمامة ، سورية .
- الآحاد والمثاني ، **للإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني المعروف بـ **ابن أبي عاصم** (ت٢٨٧هـ) ، تحقيق الدكتور باسم الجوابرة ، ط١ ، (١٩٩١م) ، دار الراية ، السعودية .

---

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، رقم الطبعة ، تاريخ طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

- الأحاديث الطوال ، للإمام **الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، حققه حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، (١٩٩٨م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- الأحاديث المختارة ، المسمى « المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما » ، **للإمام الحافظ ضياء الدين** محمد بن عبد الواحد **المقدسي** (ت٦٤٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك عبد الله بن دهيش ، ط٤ ، (٢٠٠١م) ، دار خضر ، لبنان .

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، المسمى « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، **للإمام الحافظ** علي بن **بَلبان** الفارسي المصري (ت٧٣٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط٣ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- أحكام القرآن ، **للإمام الحافظ القاضي** محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المعروف بـ **ابن العربي المالكي** (ت٥٤٣هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط٣ ، (٢٠٠٢م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- أحكام القرآن ، **للإمام الفقيه** أحمد بن علي الرازي **الجصاص** (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق محمد الصادق قمحاوي ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ، لبنان .

- أخبار القضاة وتواريخهم ، المسمىٰ « طبقات القضاة » ، **للقاضي المؤرخ** محمد بن خلف بن حيّان الضبي المعروف بـ **وكيع** (ت٣٠٦هـ) ، عني به

عبد العزيز مصطفى المَرَاغي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة عن نشرة لدىٰ عالم الكتب ، لبنان .

ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، **للعلامة المؤرخ** محمد بن إسحاق بن العباس **الفاكهي** (ت بعد ٢٧٢هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك عبد الله دهيش ، ط١ ، (١٤١٤هـ) ، دار خضر ، لبنان .

ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، **للإمام المؤرخ** محمد بن عبد الله بن أحمد **الأزرقي** (ت٢٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

ـ أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت٣٦٩هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الإسكندراني ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ أخلاق حملة القرآن ، **للإمام الحافظ** محمد بن الحسين **الآجري** (ت٣٦٠هـ) ، ويليه : « آداب تلاوة القرآن وتأليفه » للإمام السيوطي (ت٩١١ هـ) ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ الإخوان ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- آداب الشافعي ومناقبه ، **للإمام الحافظ الكبير** عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بـ **ابن أبي حاتم** (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق عبد الغني عبد الخالق ، ط٣ ، (٢٠٠١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، **للإمام العلامة الفقيه** محمد **بن مفلح** المقدسي الحنبلي (ت٧٦٣هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار البيان ، سورية .

- آداب الصحبة ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي** (ت٤١٢هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، دار الصحابة للتراث ، مصر .

- آداب النفوس ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت٢٤٣هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط٢ ، (١٩٩١م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- أدب الدنيا والدين ، **للإمام الفقيه الأصولي المفسر** علي بن محمد بن حبيب **الماوردي** (ت٤٥٠هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط٣ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- الأدب المفرد ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت٢٥٦هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٤ ، (١٩٩٧م) ، نسخة مصورة لدىٰ دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، لبنان .

- أدب النديم ، للشاعر الأديب المنشىء محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الرملي المعروف بـ كشاجم (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، مطبعة التقدم ، مصر .

- الأذكار من كلام سيد الأبرار ، المسمىٰ « حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار » ، للإمام الحافظ المجتهد يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) ، عني به صلاح الدين الحمصي وعبد اللطيف أحمد عبد اللطيف ومحمد شعبان ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- الأذكياء ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق محمد عبد الكريم النمري ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- إرشاد الساري إلىٰ شرح صحيح البخاري ، للإمام العلامة أحمد بن محمد بن أبي بكر القُسْطُلاني (ت٩٢٣هـ) ، وبهامشه صحيح مسلم وشرح النووي عليه ، ط٦ ، (١٣٠٤هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت٤٧٨هـ) ، تحقيق الدكتور محمد يوسف موسىٰ وعلي عبد المنعم عبد الحميد ، ط٣ ، (٢٠٠٢م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله تعالىٰ وتلاوة كتابه العزيز وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت٧٦٨هـ) ، عني به أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ الأزمنة والأمكنة ، **للعلامة الأديب** أحمد بن محمد بن الحسن **المرزوقي** (ت٤٢١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد نايف الدليمي ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، عالم الكتب ، لبنان .

ـ أساس البلاغة ، **للإمام البارع شيخ العرب والعجم** محمود بن عمر **الزمخشري** (ت٥٣٨هـ) ، ط٣ ، (١٩٨٥م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

ـ الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه « الموطأ » من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) ، وثق أصوله الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، دار قتيبة ودار الوعي ، سورية .

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق عادل مرشد ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار الأعلام ، الأردن .

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، **للعلامة** علي بن محمد الشيباني المعروف بـ **ابن الأثير** (ت٦٣٠هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور

ومحمود عبد الوهاب فايد ، ط١ ، (١٩٧٠م) ، دار الشعب ، مصر .

- الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور عز الدين علي السيد ، ط١ ، (١٩٨٤م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الأسماء والصفات ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الإشراف في منازل الأشراف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق الدكتور نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- الإصابة في تمييز الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، وبهامشه « الاستيعاب في أسماء الأصحاب » ، ط١ ، (١٣٥٩هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

- إصلاح المال ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- اعتلال القلوب ، **للإمام الحافظ الحجة** محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامري **الخرائطي** (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق حمدي الدمرداش ، ط٢ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

ـ الأعلام ، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، **للأديب الكبير خير الدين** بن محمود بن محمد **الزِّركلي** (ت١٣٩٦هـ) ، ، ط١٢ ، (١٩٩٧م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .

ـ الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة ، **للإمام المحدث الشريف محمد بن جعفر الكتاني الحسني** (ت١٣٤٥هـ) ، تحقيق الشريف العلامة محمد الفاتح محمد المكي الكتاني والشريف محمد عصام يوسف عرار الحسني ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، نشره محققه ، سورية .

ـ الاقتصاد في الاعتقاد ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق أنس محمد عدنان الشرفاوي ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ اقتضاء العلم العمل ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط٥ ، (١٩٨٤م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ آكام المرجان في أحكام الجان ، **للعلامة المحدث الفقيه** محمد بن عبد الله **الشبلي** (ت٧٦٩هـ) ، تحقيق رضوان جامع رضوان ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، دار الحرم للتراث ، مصر .

ـ إكمال المعلم بفوائد مسلم ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ إسماعيل ، ط٢ ، (٢٠٠٤م) ، دار الوفاء ، مصر .

- الإلماع إلىٰ معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط٣ ، (٢٠٠٤م) ، مكتبة دار التراث ، مصر .

- الأم ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت٢٠٤هـ) ، تحقيق الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الوفاء ، مصر .

- أمالي ابن الشجري ، **للإمام الأديب اللغوي** هبة الله بن علي بن محمد الحسني المعروف بـ **ابن الشَّجري** (ت٥٤٢هـ) ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الأمالي في آثار الصحابة، **للإمام الحافظ** عبد الرزاق بن همام **الصنعاني** (ت٢١١هـ)، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط١ ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

- الأمالي ، **لإمام اللغة والأدب والشعر** إسماعيل بن القاسم بن عيذون المعروف بـ **أبي علي القالي** (ت٣٥٦هـ) ، عني به محمد عبد الجواد الأصمعي ، ط١ ، (١٩٨٠م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .

- الإمامة والسياسة ، **لإمام الأدب واللغة القاضي** عبد الله بن مسلم المعروف بـ **ابن قتيبة الدِّينَوَري** (ت٢٧٦هـ) ، ط٢ ، (٢٠٠٦م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الإمتاع والمؤانسة ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس المعروف بـ **أبي حيان التوحيدي** (ت نحو ٤٠٠هـ) ، تحقيق الدكتور مرسل فالح العجمي ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار سعد الدين ، سورية .

- أمثال الحديث ، **للإمام الحافظ** الحسن بن عبد الرحمـٰن بن خلاد **الرامهرمزي** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأعظمي ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، الدار السلفية ، الهند .

- الأمثال في الحديث النبوي ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت٣٦٩هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد ، ط١ ، (١٩٨٢م) ، الدار السلفية ، الهند .

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، صلاح بن عايض الشلاحي ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، **للإمام المحدث المفسر اللغوي** أحمد بن محمد بن هارون **الخلال** الحنبلي (ت٣١١هـ) ، تحقيق مشهور حسن محمود سلمان وهشام بن إسماعيل السقا ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- الأموال ، **أبو عبيد** بن قاسم بن **سلام** (ت٢٢٤هـ) ، تحقيق سيد بن رجب ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار الهدي النبوي ودار الفضيلة ، مصر والسعودية .

- الأموال ، **للإمام الحافظ** حَميد بن مخلد بن قتيبة النسائي المعروف بـ ابن زنجويه (ت٢٥١هـ) ، تحقيق الدكتور شاكر ذيب فياض ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، السعودية .

ـ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ) ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، **للعلامة القاضي** عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن العليمي المعروف بـ **مجير الدين الحنبلي** (ت٩٢٨هـ) ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون اسم ناشر .

ـ أنساب الأشراف ، **للعلامة المؤرخ النسابة** أحمد بن يحيى بن جابر **البلاذري** (ت٢٧٩هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ الأنساب ، **للإمام الحافظ** عبد الكريم بن محمد **السمعاني** (ت٥٦٢هـ) ، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ الأنوار لأعمال الأبرار ، **للإمام الفقيه** يوسف بن إبراهيم الهلابادي **الأردبيلي** (ت٧٧٦ أو ٧٩٩) ، ومعه حاشية الكمثرىٰ وحاشية الحاج إبراهيم ، ط١ ، (١٩٦٩م) ، مؤسسة الحلبي ، مصر .

ـ أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور ، **للإمام الحافظ الفقيه** عبد الرحمٰن بن أحمد السلامي البغدادي المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت٧٩٥هـ) ، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي ، ط٣ ، (١٩٩٤م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الأولياء ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- أوهام الحاكم ، **للإمام الحافظ** النسابة عبد الغني بن سعيد **الأزدي** (ت٤٠٩هـ) ، تحقيق مشهور حسن محمود سلمان ، ط١ ، (١٤٠٧هـ) ، مكتبة المنار ، الأردن .

- بحر الدموع ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد ، ط٤ ، (٢٠٠٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- البحر الزخار ، المسمىٰ « مسند البزار » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو **البزار** (ت٢٩٢هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

- بداية الهداية ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول وفريقه ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، **للإمام الحافظ** عمر بن علي المعروف بـ **ابن الملقن** (ت٨٠٤هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار الهجرة ، السعودية .

- البدع والنهي عنها ، **للإمام الحافظ** محمد بن وضاح **القرطبي** (ت٢٨٦هـ) ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، دار الصفا ، مصر .

ـ بذل المجهود في حل أبي داوود ، **للعلامة المحدث** خليل بن أحمد **السهارنفوري** (ت١٣٤٦هـ) ، وتعليق العلامة محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي ، ط١ ، (١٤٠٤هـ) ، طبعة مصورة لدئ دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ البر والصلة ، **للإمام** الحسين بن الحسن بن حرب **المروزي** (ت٢٤٥هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد بخاري ، ط١ ، (١٤١٩هـ) ، دار الوطن ، السعودية .

ـ البرهان في أصول الفقه ، **لإمام الحرمين** عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت٤٧٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب ، ط١ ، (١٣٩٩هـ) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر .

ـ بستان الواعظين ورياض السامعين ، **للإمام الحافظ المؤرخ** عبد الرحمـٰن بن علي بن محمد البغدادي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور السيد الجميلي ، ط١ ، (١٤٠٣هـ) ، دار الريان للتراث ، مصر .

ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، **للإمام اللغوي** محمد بن يعقوب **الفيروزآبادي** (ت٨١٧هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى المكتبة العلمية ، لبنان .

ـ البصائر والذخائر ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس المعروف بـ **أبي حيان التوحيدي** (ت نحو ٤٠٠هـ) ، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، ط١ ، (١٩٥٣م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .

- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ، **للإمام الحافظ نور الدين** علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت٨٠٧هـ) ، تحقيق الدكتور حسين أحمد صالح الباكري ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، مركز خدمة السنة النبوية بالتعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، السعودية .

- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، ط٢ ، (١٩٨١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- البيان والتبيين ، **لكبير أئمة الأدب** عمرو بن بحر بن محبوب الليثي المعروف بـ **الجاحظ** (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط٧ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- تاج العروس من جواهر القاموس ، **للإمام الكبير الشريف** محمد بن محمد الزَّبيدي الحسيني المعروف بـ **مرتضى الزبيدي** (ت١٢٠٥هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعة من أئمة التحقيق ، ط١ ، (١٣٨٥هـ) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

- تاريخ أصبهان ، المسمىٰ « ذكر أخبار أصبهان » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط١ ، (١٩٩٠) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ الأدب العربي ، **للمستشرق كارل بروكلمان** ، عني به وأشرف علىٰ ترجمته الدكتور محمود فهمي حجازي ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- تاريخ الطبري ، المسمىٰ « تاريخ الأمم والملوك » ، **للإمام العلامة** محمد بن جرير **الطبري** (ت٣١٠هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، (١٩٦٧م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- التاريخ الكبير ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت٢٥٦هـ) ، عني به مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط٢ ، (٢٠٠٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ المدينة المنورة ، **للعلامة المحدث المؤرخ** عمر بن شبة النميري البصري (ت٢٦٢هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط٢ ، (١٣٤٨هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، إيران .

- تاريخ بغداد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ جرجان ، **للإمام الحافظ المؤرخ** حمزة بن يوسف بن إبراهيم **الجرجاني** (ت٣٤٥هـ) ، تحقيق محمد عبد المعين خان ، ط٣ ، (١٩٨١م) ، عالم الكتب ، لبنان .

- تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، **للقاضي** عبد الجبار بن عبد الله الخولاني المعروف بـ **ابن المهنا** (ت بعد ٣٦٥هـ) ،

تحقيق العلامة سعيد الأفغاني ، ط٢ ، (١٩٨٤م) ، دار الفكر ، سورية .

ـ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **للإمام الحافظ** علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** (ت٥٧١هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العَمْروي ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ التبصرة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الكتب العامية ، لبنان .

ـ تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى المكتبة العلمية ، لبنان .

ـ التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، **للإمام الأصولي المتكلم** شاهفور بن طاهر بن محمد الشافعي المعروف بـ **أبي المظفر الإسفراييني** (ت٤٧١هـ) ، تحقيق محمد بن زاهد الكوثري ، ط١ ، (١٣٥٩هـ) ، المكتبة الأزهرية للتراث ، مصر .

ـ التبيان في آداب حملة القرآن ، **للإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ) ، تحقيق محمد شادي مصطفىٰ عربش ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، **للإمام الحافظ** علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** (ت٥٧١هـ) ،

عني به حسام الدين القدسي ، ط٤ ، (١٩٩١م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ التحف والأنوار المنتخب من البلاغات والأشعار ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، دار مجدلاوي ، الأردن .

ـ تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق ، **للإمام الحافظ** علي بن بَلْبان بن عبد الله الفارسي المعروف بـ **ابن بلبان** (ت٧٣٩هـ) ، بدون تاريخ ، مكتبة دار التراث ، السعودية .

ـ تحفة المحتاج بشرح المنهاج ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد **ابن حجر الهيتمي** (ت٩٧٤هـ) ، ومعها حواشي العلامة عبد الحميد الشرواني (ت١٣٠١هـ) وحواشي العلامة أحمد بن قاسم العبادي (ت٩٢٢هـ) ، ط١ ، (١٣١٥هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

ـ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ، **للإمام المحدث الفقيه** عبد الله بن يوسف بن محمد **الزيلعي** (ت٧٦٢هـ) ، تحقيق سلطان بن فهد الطبيشي ، ط٢ ، (٢٠٠٩) ، دار ابن خزيمة ، مصر .

ـ التدوين في أخبار قزوين ، **للإمام الفقيه المحدث** عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم **الرافعي** (ت٦٢٣هـ) ، تحقيق عزيز الله العطاردي ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، دار الباز ، السعودية .

- التذكرة الحمدونية ، **للإمام الأديب الإخباري** محمد بن الحسن بن محمد بن علي **بن حمدون** (ت٥٦٢هـ) ، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار صادر ، لبنان .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ) ، عني به محمد سالم هاشم ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الترغيب في الدعاء ، **للإمام الحافظ عبد الغني** بن عبد الواحد **المقدسي** (ت٦٠٠هـ) ، تحقيق فواز أحمد مرلي ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك ، **للإمام الحافظ** عمر بن أحمد عثمان **ابن شاهين** (ت٣٨٥هـ) ، تحقيق صالح أحمد مصلح الوعيل ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، **للإمام الحافظ** عبد العظيم بن عبد القوي **المنذري** (ت٦٥٦هـ) ، تحقيق محيي الدين مستو وسمير العطار ويوسف بديوي ، ط٣ ، (١٩٩٩م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- تصحيفات المحدثين ، **للإمام الحافظ الفقيه** أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل **العسكري** (ت٣٨٢هـ) ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، المطبعة العربية الحديثة ، مصر .

- التعازي والمراثي ، **للإمام البليغ** محمد بن يزيد المعروف بـ**المبرِّد**

(ت٢٨٦هـ)، تحقيق محمد الديباجي ، ط٢ ، (١٩٩٢م) ، دار صادر ، لبنان .

- التعرف لمذهب أهل التصوف ، **للإمام المحدث الصوفي** محمد بن إبراهيم بن يعقوب **الكلاباذي** (ت٣٨٠هـ) ، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الإيمان ، سورية .

- التعريفات ، **للعلامة السيد** علي بن محمد بن علي **الجرجاني** (ت٨١٢هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، دار النفائس ، لبنان .

- تعزية المسلم ، **للإمام الحافظ المحدث** القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** ، ابن صاحب التاريخ (ت٦٠٠هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط١ ، (١٤١١هـ) ، مكتبة الصحابة ، السعودية .

- تعظيم قدر الصلاة ، **للإمام الحافظ** محمد بن نصر **المروزي** (ت ٢٩٤هـ) ، تحقيق أحمد أبو المجد ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، دار العقيدة ، مصر .

- تغليق التعليق على صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ** أحمد **بن علي بن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق سعيد عبد الرحمن موسى القزقي ، ط٢ ، (١٩٩٩م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- تفسير ابن عطية ، المسمى « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » ، **للإمام الفقيه المفسر** عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الغرناطي المعروف بـ ابن **عطية** (ت٥٤٦هـ) ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تفسير البيضاوي ، المسمىٰ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » ، **للإمام القاضي المفسر** عبد الله بن عمر بن محمد **البيضاوي** (ت٦٨٥أو٦٩١هـ) ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار صادر ، لبنان .

- تفسير التستري ، **للإمام المتكلم الصوفي** سهل بن عبد الله بن يونس **التستري** (ت٢٨٣هـ) ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تفسير الثعلبي ، المسمى « الكشف والبيان » ، **للإمام المفسر** أحمد بن محمد **الثعلبي** (ت٤٢٧هـ) ، تحقيق الشيخ أبو محمد بن عاشور ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تفسير الطبري ، المسمىٰ « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، **للإمام العلامة** محمد بن جرير **الطبري** (ت٣١٠هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

- تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، **للإمام الحافظ الكبير** عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بـ **ابن أبي حاتم** (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

- تفسير القرآن العظيم ، **للإمام الحافظ إسماعيل** بن عمر الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت٧٧٤هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط١ ، (١٩٦٩م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير القرآن ، **للإمام المحدث المفسر** منصور بن محمد بن عبد الجبار **السمعاني** (ت٤٩٨هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الوطن ، السعودية .

- تفسير القرطبي ، المسمى « الجامع لأحكام القرآن » ، **للإمام المفسر** محمد بن أحمد بن أبي بكر **القرطبي** (ت٦٧١هـ) ، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني ، ط٢ ، (١٩٨٥م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- التفسير الكبير ، المسمى « البحر المحيط » ، **للإمام النحوي** محمد بن يوسف بن علي الأندلسي المعروف بـ **أبي حيان** (ت٧٤٥هـ) ، وبهامشه « تفسير النهر الماد من البحر » للمؤلف و« الدر اللقيط من البحر المحيط » لابن مكتوم (ت ٧٤٩هـ) ، ط٢ ، (١٩٩٠م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- التفسير الكبير ، المسمىٰ « مفاتيح الغيب » ، **للإمام المفسر فخر الدين** محمد بن عمر **الرازي** (ت٦٠٦هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط٣ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تفسير مقاتل بن سليمان ، **للإمام المفسر مقاتل بن سليمان** بن بشير الأزدي (ت١٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تقريب التهذيب ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**

(ت٨٥٢هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط٨ ، (٢٠٠٩م) ، دار اليسر ودار المنهاج ، السعودية .

ـ تلبيس إبليس ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، ط٥ ، بدون تاريخ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ التلخيص الحبير ، المسمى « التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، عني به الدكتور محمد الثاني موسىٰ ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

ـ تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق سكينة الشهابي ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، دار طلاس ، سورية .

ـ التمثيل والمحاضرة ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، (١٩٨٣م) ، الدار العربية للكتاب ، مصر .

ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط١ ، (١٩٦٧م) ، وزارة الأوقاف ، المغرب .

ـ تنبيه الغافلين ، **للعلامة** نصر بن محمد **السمرقندي** (ت٣٧٣هـ) ، تحقيق يوسف علي بديوي ، ط٣ ، (٢٠٠٠م) ، دار ابن كثير ، سورية .

ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ، **للعلامة الفقيه علي بن محمد ابن عراق الكناني** (ت٩٦٣هـ) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق الغُماري ، ط٢ ، (١٩٨١م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ تهافت الفلاسفة ، **لحجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط٨ ، (٢٠٠٠م) ، دار المعارف ، مصر .

ـ التهجد وقيام الليل ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي ، ط٢ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ تهذيب الأسرار ، **للإمام الحافظ الفقيه عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الخركوشي** (ت٤٠٧هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، الساحة الخزرجية ، الإمارات العربية المتحدة .

ـ تهذيب الأسماء واللغات ، **للإمام الحافظ المجتهد يحيى بن شرف النووي** (ت٦٧٦هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار الفيحاء ودار المنهل ، سورية .

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، **للإمام الحافظ يوسف بن عبد الرحمٰن المِزِّي** (ت٧٤٢هـ) ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، ط١ ، (١٩٨٠م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- تهذيب اللغة ، **لإمام اللغة والأدب** محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي المعروف بـ **الأزهري** (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الصادق ، إيران .
- التوابين ، **للإمام الفقيه** عبد الله بن أحمد بن محمد الجماعيلي الحنبلي المعروف بـ **ابن قدامة المقدسي** (ت٦٢٠هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط٢ ، (١٩٦٩م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .
- التواضع والخمول ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق لطفي محمد الصغير ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار الاعتصام ، مصر .
- التوبة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط١ ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .
- التوبيخ والتنبيه ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت٣٦٩هـ) ، تحقيق حسن بن أمين الندوة ، ط١ ، (١٤٠٨هـ) ، مكتبة التوعية الإسلامية ، مصر .
- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، **للإمام الحافظ** محمد بن إسحاق بن **خزيمة** (ت٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار الرشد ، السعودية .
- التيسير بشرح الجامع الصغير ، **للإمام العلامة** محمد عبد الرؤوف بن علي **المناوي** (ت١٠٣١هـ) ، ط١ ، (١٢٨٦هـ) ، طبعة مصورة عن

نشرة بولاق لدى مكتبة الإمام الشافعي ، السعودية .

- الثقات ، **للإمام الحافظ** محمد بن حِبَّان البُسْتي (ت٣٥٤هـ) ، عني به إبراهيم شمس الدين وتركي فرحان المصطفى ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، **للإمام الحافظ اللغوي** المبارك بن محمد بن محمد المعروف بـ **ابن الأثير** (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٦٩م) ، مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان ، سورية .

- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أحمد المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت٧٥٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس ، ط١٠ ، (٢٠٠٤م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي الدمشقي المعروف بـ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، دار الفكر ، لبنان .

- جامع بيان العلم وفضله ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- الجامع في الحديث ، للإمام الحافظ عبد الله بن وهب القرشي (ت١٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور مصطفىٰ حسن أبو الخير ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بـ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط١ ، (١٩٩١م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط٢ ، (٢٠٠٤م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- الجرح والتعديل ، للإمام الحافظ الكبير عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بـ ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) ، عني به عبد الرحمٰن يحيى المعلمي اليماني ، ط١ ، (١٩٥٢م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكّن بالهند لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- جزء الحميري ، للإمام الحافظ علي بن محمد بن هارون بن زياد الحميري (ت٣٢٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العزيز بن سليمان بن إبراهيم البعيمي ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- جزء محمد بن عاصم ، للإمام الحافظ محمد بن عاصم الثقفي الأصفهاني (ت٢٦٢هـ) ، تحقيق مفيد خالد عيّد ، ط١ ، (١٤٠٩هـ) ، دار العاصمة ، السعودية .

- جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ** محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بـ **ابن قيم الجوزية** (ت٧٥١هـ) ، تحقيق محيي الدين ديب مستو ، ط٣ ، (١٩٩٦م) ، دار الكلم الطيب ودار ابن كثير ، سورية .

- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، **للأديب الفقيه** المعافى بن زكريا **الجريري** (ت٣٩٠هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، عالم الكتب ، لبنان .

- الجمع بين الصحيحين ، **للإمام المحدث** محمد بن فتوح **الحميدي** (ت٤٨٨هـ) ، تحقيق الدكتور علي حسين البواب ، ط٢ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- جمهرة الأمثال ، **للعلامة الأديب** الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بـ **أبي هلال العسكري** (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد عبد السلام ومحمد سعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الجهاد ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن المبارك بن واضح **المروزي** (ت١٨١هـ) ، تحقيق الدكتور نزيه حماد ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار المطبوعات الحديثة ، السعودية .

- جوامع السيرة النبوية ، **للإمام الفقيه** علي بن أحمد بن سعيد المعروف بـ **ابن حزم الظاهري** (ت٤٥٦هـ) ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الجوع ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط٢ ، (٢٠٠٠م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- الحاوي للفتاوي ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ) ، ط١ ، (١٣٥٢هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار علىٰ من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك ، **للإمام** أحمد بن محمد **الخلال** البغدادي الحنبلي (ت ٣١١هـ)، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ)، ط١ ، (١٩٩٥م) ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، سورية .

- الحجة للقراء السبعة ، **للإمام الحافظ النحوي** الحسن بن عبد الغفار **الفارسي** (ت٣٧٧هـ) ، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي ، ط١ ، (١٩٨٤م) ، دار المأمون للتراث ، سورية .

- حسن الظن بالله ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق عبد الحميد شانوحة ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- حقائق التفسير ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي** (ت٤١٢هـ) ، تحقيق سيد عمران ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الحلم ، ويليه « كتاب التوكل على الله » ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت٤٣٠هـ) ، ط٥ ، (١٩٨٧م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .

- الحماسة المغربية (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب) ، **للشاعر الأديب** أحمد بن عبد السلام **الجراوي** (ت٦٠٩هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، ط٢ ، (٢٠٠٥م) ، دار الفكر ، سورية .

- حياة الإمام النووي ، المسمى « الاهتمام بترجمة الإمام النووي شيخ الإسلام » ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت٩٠٢هـ) ، عني به الدكتور مصطفىٰ ديب البغا ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار العلوم الإنسانية ، سورية .

- حياة الحيوان الكبرىٰ ، **للإمام العلامة الفقيه** الأديب محمد بن موسى بن عيسى **الدميري** (ت٨٠٨هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار البشائر ، سورية .

- خاص الخاص ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت٤٢٩هـ) ، عني به الشيخ محمود السمكري ، ط١ ، (١٣٢٦هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- ختم الأولياء ، **للإمام الولي** محمد بن علي المعروف بـ **الحكيم الترمذي** (ت٣١٨هـ) ، تحقيق عثمان إسماعيل يحيىٰ ، ط١ ، (١٩٦٥هـ) ، المطبعة الكاثوليكية ، لبنان .

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، **لعلامة الأدب والتاريخ** عبد القادر بن عمر **البغدادي** (ت١٠٩٣هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٢ ، (١٩٧٩م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الخطط المقريزية ، المسمى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، **لمؤرخ الديار المصرية** أحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بـ **تقي الدين المقريزي** (ت٨٤٥هـ) ، ط١ ، (١٢٧٠هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

- الخلاصة ، المسمىٰ « خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر » ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، عني به الدكتور أمجد رشيد محمد علي ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، **للعلامة المؤرخ** محمد أمين بن فضل بن محب الله **المحبي** (ت١١١١هـ) ، ، ط١ ، (١٢٨٤هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الوهبية لدىٰ دار صادر ، لبنان .

- خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، **للإمام الحافظ** عمر بن علي المعروف بـ **ابن الملقن** (ت٨٠٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ ، **للعلامة المحدث المحقق الشريف** علي بن عبد الله الحسني **السمهودي** (ت٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، مصر .

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، **للإمام المفسر عالم العربية** أحمد بن يوسف المعروف بـ السمين **الحلبي** (ت٧٥٦هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، دار القلم ، سورية .

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الدعاء ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد محمد حسن البخاري ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، مكتبة الرشد ناشرون ، السعودية .

- الدعاء ، **للإمام القاضي** الحسين بن إسماعيل بن محمد **المحاملي** (ت٣٣٠هـ) ، تحقيق الدكتور سعيد القزقي ، ط١ ، (١٩٩٢) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

- الدعوات الكبير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق بدر بن عبد الله البدر ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، دار غراس ، الكويت .

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار الريان ، مصر .

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، **للإمام العالم إبراهيم بن علي المالكي المعروف بـ ابن فرحون** (ت٧٩٩هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

- ديوان ابن أبي حصينة بسماع وشرح أبي العلاء المعري ، **للشاعر الأمير الحسن بن عبد الله المَعَرِّي المعروف بـ ابن أبي حُصينة** (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أسعد طلس ، ط٢ ، (١٩٩٩م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ابن الجهم ، **للشاعر الأديب علي بن الجَهْم بن بدر السامي** (ت٢٤٩هـ) ، تحقيق خليل مردم بك ، ط٣ ، (١٩٩٦م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ابن الرومي ، **للشاعر الكبير علي بن العباس بن جريج المعروف بـ ابن الرومي** (ت٢٨٣هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط٣ ، (٢٠٠٣م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، مصر .

- ديوان أبي الأسود الدؤلي برواية أبي سعيد الحسن السكري ، **للتابعي الجليل واضع علم النحو ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني المعروف بـ أبي الأسود الدؤلي** (ت٦٩هـ) ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار ومكتبة الهلال ، لبنان .

- ديوان أبي الفتح البستي ، **لشاعر عصره علي بن محمد بن الحسين بن يوسف البستي** (ت٤٠٠هـ) ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سورية .

ـ ديوان أبي نواس ، لشاعر العراق في عصره الحسن بن هانىء بن عبد الأول المعروف بـ أبي نُوَاس (ت١٩٨هـ وقيل غير ذلك) ، تحقيق محمود أفندي واصف ، ط١ ، (١٨٩٨م) ، إسكندر آصاف ، مصر .

ـ ديوان أبي بكر الصديق ، للصحابي الجليل سيدنا أبي بكر عبد الله بن عثمان الصديق رضي الله عنه (ت١٣هـ) ، تحقيق راجي الأسمر ، ط٢ ، (٢٠٠٣م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان أبي طالب بن عبد المطلب ، لشيخ قريش ورئيس مكة في زمانه أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم (ت نحو ٣ ق هـ) ، رواية الإخباري اللغوي أبو هِفان عبد الله بن أحمد المهزمي البصري (ت٢٥٧هـ) ورواية الأديب الناقد علي بن حمزة البصري التميمي (ت٣٧٥هـ) ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، مكتبة الهلال ، لبنان .

ـ ديوان أبي نواس برواية الصولي ، لشاعر العراق في عصره الحسن بن هانىء بن عبد الأول المعروف بـ أبي نُوَاس (ت١٩٨هـ) ، تحقيق الدكتور بهجت عبد الغفور الحديثي ، ط١ ، (٢٠١٠م) ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، الإمارات العربية التحدة .

ـ ديوان أحيحة ، للشاعر الجاهلي الداهية أحيحة بن الحجاج بن الحريش الأوسي (ت نحو ١٣٠ ق هـ) ، تحقيق الدكتور حسن باجودة ، ط١ ، (١٩٧٩م) ، نادي الطائف الأدبي ، السعودية .

ـ ديوان الأعشىٰ ، للشاعر الجاهلي صاحب المعلقة ميمون بن قيس بن جندل المعروف بـ أعشىٰ قيس وأعشىٰ بكر والأعشى الكبير (ت٧هـ) ، شرح

وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين ، ط۷ ، (۱۹۸۳م) ، مؤسسة الرسالة ، سورية .

ـ ديوان الإمام عبد الله بن المبارك ، **للإمام الحافظ الرحلة عبد الله بن المبارك** بن واضح المروزي (ت١٨١هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور مجاهد مصطفىٰ بهجت ، ط٣ ، (١٩٩٢م) ، دار الوفاء ، مصر .

ـ ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، المسمىٰ « أنوار العقول لوصي الرسول صلى الله عليه وسلم » ، **لأمير المؤمنين وأحد المبشرين بالجنة سيدنا علي بن أبي طالب** بن عبد المطلب الهاشمي القرشي رضي الله عنه (ت٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد همو ، ط١ ، (٢٠١٠م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان التلعفري ، **للشاعر الجوال المفلق** محمد بن يوسف بن مسعود **التَّلَّعْفَري** (ت٦٧٥هـ) ، تحقيق الدكتور رضا رجب ، ط٢ ، (٢٠٠٤م) ، دار الينابيع ، سورية .

ـ ديوان الثعالبي ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور محمود عبد الله الجادر ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، وزارة الثقافة والإعلام ، العراق .

ـ ديوان الحلاج ويليه « أخباره وطواسينه » ، **للشاعر الحكيم** الحسين بن منصور **الحلاج** (ت٣٠٩هـ) ، قدم له الدكتور سعدي ضنّاوي ، ط٢ ، (٢٠٠٣م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان الشافعي وحكمه وكلماته السائرة ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت٢٠٤هـ) ، جمع وضبط يوسف علي بديوي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة دار الفجر ، سورية .

ـ ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، **للشاعر المخضرم الشماخ** بن ضرار بن حرملة الذبياني (ت٢٢هـ) ، تحقيق صلاح الدين الهادي ، ط١ ، (١٩٧٧م) ، دار المعارف ، السعودية .

ـ ديوان الصاحب بن عباد ، **للوزير الأديب** إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني المعروف بـ **الصاحب** (ت٣٨٥هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بدون تاريخ ، دار القلم ومكتبة النهضة ، لبنان والعراق .

ـ ديوان العباس بن الأحنف ، **لشاعر الغزل الرقيق العباس بن الأحنف** بن الأسود اليمامي (ت١٩٢هـ) ، تحقيق عاتكة الخزرجي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر .

ـ ديوان العباس بن مرداس ، **للشاعر الصحابي ابن الخنساء العباس بن مرداس** بن أبي عامر السلمي (ت نحو ١٨هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط١ ، (١٩٩١م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ ديوان العطوي (ضمن مجلة المورد) ، جمع وتحقيق **الأستاذ** محمد جبار **المعيبد** ، ط١ ، (١٩٧١م) ، مجلة المورد ، العراق .

ـ ديوان الفرزدق ، **للشاعر النبيل** همّام بن غالب بن صعصعة المعروف بـ **الفرزدق** (ت١١٠هـ) ، عني به مجيد طراد ، ط٣ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ ديوان المعاني ، للعلامة الأديب الحسن بن عبد الله بن سهل المعروف بـ أبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، عالم الكتب ، لبنان .

ـ ديوان النابغة الذبياني ، للشاعر الجاهلي زياد بن معاوية بن ضباب المعروف بـ النابغة الذُّبْيَاني (ت نحو ١٨ ق .هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، (١٩٩٠م) ، دار المعارف ، مصر .

ـ ديوان الهذليين ، جمع الأستاذ الشنقيطي الكبير ، عني به أحمد الزين ، ط٣ ، (٢٠٠٣م) ، دار الكتب والوثائق المصرية ، مصر .

ـ ديوان الوزير الزيات ، لإمام اللغة والأدب البليغ محمد بن عبد الملك بن أبان المعروف بـ ابن الزيات (ت٢٣٢هـ) ، شرح وتحقيق الدكتور جميل سعيد ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربية .

ـ ديوان الوليد بن يزيد ، للشاعر الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأموي (ت١٢٦هـ) ، جمعه وحققه الدكتور واضح الصمد ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان جحظة البرمكي ، للشاعر الأديب النديم المغني أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد البرمكي المعروف بـ جحظة (ت٣٢٤هـ) ، تحقيق جان توما ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان حاتم الطائي ، للشاعر الجاهلي الفارس الجواد حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي (ت٤٦ ق هـ) ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي

رواية هشام الكلبي ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- ديوان حسان بن ثابت ، للصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه (ت٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، ط١ ، (١٩٧٤م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ديك الجن الحمصي ، للشاعر عبد السلام بن رَغبان الكلبي المعروف بـ ديك الجن الحمصي (ت٢٣٦هـ) ، تحقيق مظهر الحجي ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، اتحاد الكتاب العرب ، سورية .

- ديوان ذي الرمة ، للشاعر الفحل غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي المعروف بـ ذي الرمة (ت١١٧هـ) ، شرح الإمام الأديب أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي (ت٢٣١هـ) ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، ط٤ ، (٢٠٠٧م) ، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان ، سورية ولبنان .

- ديوان سلم الخاسر ، ضمن (شعراء عباسيون لـ « غرونباوم ») ، للشاعر الماجن سلم بن عمرو بن حماد الصري المعروف بـ الخاسر (ت١٨٦هـ) ، ترجمة محمد يوسف نجم ، ومراجعة الدكتور إحسان عباس ، ط١ ، (١٩٥٩م) ، دار مكتبة الحياة ، لبنان .

- ديوان شيخ الإشراق ، للعلامة الحكيم يحيى بن حبش بن أميرك الزنجاني المعروف بـ الشهاب السُّهْرَوردي (ت٥٨٧هـ) ، جمع وتحقيق أحمد مصطفى الحسين ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار بيبليون ، فرنسة .

ـ ديوان عدي بن زيد ، **للشاعر الجاهلي الداهية عدي بن زيد** بن حماد بن زيد **العبادي** (ت نحو ٣٥هـ) ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، ط١ ، (١٩٦٥م) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، العراق .

ـ ديوان عروة بن أذينة ، **للشاعر الأموي الفقيه المحدث عروة بن** يحيىٰ (**أُذينة**) بن مالك بن الحارث الليثي (ت نحو ١٣٠هـ) ، عني به لجنة الدار ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ ديوان عمارة بن عقيل ، **للشاعر المقدم الفصيح عمارة بن عقيل** بن بلال بن جرير **اليربوعي** (ت٢٣٩هـ) ، تحقيق شاكر العاشور ، ط١ ، (١٩٧٣م) ، مطبعة البصرة ، العراق .

ـ ديوان قيس لبنىٰ ، **للشاعر المتيم الأموي قيس بن ذريح** بن سنة بن حذافة الكناني (ت٦٨هـ) ، جمع وتحقيق حسين نصار ، ط١ ، (١٩٦٠م) ، دار مصر للطباعة ، مصر .

ـ ديوان مجنون ليلىٰ ، **لشاعر الغزل قيس بن الملوح** بن مزاحم العامري المعروف بـ **مجنون ليلىٰ** (ت٦٨هـ) ، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار مصر للطباعة ، مصر .

ـ ديوان محمد بن حازم ، **للشاعر الهجّاء المطبوع محمد بن حازم** بن عمر الباهلي (ت نحو ٢١٥هـ) ، تحقيق محمد خير البقاعي ، ط١ ، (١٩٨٢م) ، دار قتيبة ، سورية .

ـ ديوان محمود الوراق ، **للشاعر الواعظ محمود** بن الحسن **الوراق** (ت نحو ٢٢٥هـ) ، تحقيق الدكتور وليد القصاب ، ط١ ، (١٩٩١م) ،

مؤسسة الفنون نشره محققه ، الإمارات العربية المتحدة .

- الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ، **للعلامة الأديب الحكيم** الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني المعروف بـ **الراغب الأصفهاني** (ت٥٠٢هـ) ، تحقيق الدكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي ، ط الأولىٰ ، (٢٠٠٧م) ، دار السلام ، مصر .

- ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين **السُّلَمي** (ت٤١٢هـ) ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- ذم الدنيا ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- ذم الكلام وأهله ، **للإمام الحافظ المؤرخ** عبد الله بن محمد بن علي **الهروي** (ت٤٨١هـ) ، تحقيق عبد الله الأنصاري ، ط١ ، بدون تاريخ ، مكتبة الغرباء الأثرية ، السعودية .

- ذم المسكر ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، دار البشائر ، سورية .

- ذم الهوىٰ ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ ذيل مرآة الزمان ، للعلامة المؤرخ موسى بن محمد اليونيني (ت٧٢٦هـ) ، عني به وزارة التحقيقات الحكمية الهندية ، ط٢ ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة عن نشرة وزارة المعارف بحيدر آباد الدَّكّن لدىٰ دار الكتاب الإسلامي ، مصر .

ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، للإمام البارع شيخ العرب والعجم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، ط١ ، (١٩٩٠) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الذخائر ، إيران .

ـ الرحلة في طلب الحديث ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور نور الدين عتر ، ط١ ، (١٩٧٥م) ، نشره محققه ، سورية .

ـ الرخصة في تقبيل اليد ، للإمام الحافظ محمد بن إبراهيم بن المقري (ت٣٨١هـ)، تحقيق محمود محمد الحداد ، ط١ ، (١٤٠٨هـ) ، دار العاصمة ، السعودية .

ـ الرد علىٰ من يحب السماع ، للإمام القاضي الفقيه طاهر بن عبد الله بن عمر المعروف بـ أبي الطيب الطبري (ت٤٥٠هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، دار الصحابة للتراث ، مصر .

ـ الرسالة القشيرية ، لزين الإسلام الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف ، ط٢ ، (١٩٨٩م) ، دار الشعب ، مصر .

- رسالة المسترشدين ، للإمام الأصولي الصوفي الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ) ، ط١٠ ، (٢٠٠٠م) ، دار السلام ، مصر .

- الرسالة ، لإمام الدنيا محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، ط١ ، (١٩٣٩م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- الرضا عن الله بقضائه ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق ضياء الحسن السلفي ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، الدار السلفية ، الهند .

- الرعاية لحقوق الله ، للإمام الأصولي الصوفي الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط٤ ، بدون تاريخ ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الرقة والبكاء ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة المفتي الشريف محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) ، عنيت به إدارة المطبعة المنيرية بإذن من ورثة المؤلف ، ط٤ ، (١٩٨٥م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام ، **للأستاذ جاسم بن سليمان الفهيد الدوسري** ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، **للإمام الحافظ محمد بن حِبَّان البُسْتي** (ت٣٥٤هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد الرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ روضة العقلاء ، **للإمام الحافظ محمد بن حِبَّان البُسْتي** (ت٣٥٤هـ) ، تحقيق عبد العليم محمد الدرويش ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، سوريا .

ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة ، **للإمام الحافظ الفقيه** أحمد بن عبد الله بن محمد الشافعي المعروف بـ **محب الدين الطبري** (ت٦٩٤هـ) ، ط٢ ، (٢٠٠٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ الزهد الكبير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط٣ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ الزهد والرقائق برواية المروزي ، **للإمام الحافظ عبد الله بن المبارك** بن واضح المروزي (ت١٨١هـ) ، ويليه زيادات رواية نُعيم بن حمّاد عليه ، تحقيق حبيب الرحمـٰن الأعظمي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الزهد ، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس ، ط٢ ، (٢٠١٠م) ، مؤسسة أبي عبيدة ، مصر .
- الزهد ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو المعروف بـ ابن أبي عاصم (ت٢٨٧هـ) ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط٢ ، (١٤٠٨هـ) ، دار الريان للتراث ، مصر .
- الزهد ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- الزهد ، للإمام الحافظ الجهبذ وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي (ت١٩٧هـ) ، تحقيق عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي ، ط٢ ، (١٩٩٤م) ، دار الصميعي ، السعودية .
- الزهد ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، دار ابن كثير ، سورية .
- الزهد ، للإمام الحافظ هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب الدارمي الكوفي (ت٢٤٣هـ) ، تحقيق عبد الرحمٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط١ ، (١٤٠٦هـ) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .
- زهر الآداب وثمرة الألباب ، للأديب النقَّاد إبراهيم بن علي الحُصْري القيرواني (ت٤٥٤هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط٢ ، (١٩٦٩م) ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

- الزهرة ، **للأديب المناظر الشاعر** محمد بن داوود بن علي الطاهري الأصبهاني (ت٢٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ، ط١ ، (١٩٧٥م) ، مكتبة الزرقاء ، الأردن .

- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ) ، عني به محمد خير طعمة حلبي وخليل مأمون شيحا ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار المعرفة ، لبنان .

- سراج الملوك ، **للعلامة الفقيه** محمد بن الوليد المعروف بـ أبي بكر الطرطوشي (ت٥٢٠هـ) ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط٢ ، (٢٠٠٦م) ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر .

- السماع ، **للإمام الحافظ** محمد بن طاهر بن علي القيسراني (ت٥٠٧هـ) ، تحقيق أبو الوفا المراغي ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، وزارة الأوقاف ، مصر .

- السنة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو المعروف بـ ابن أبي عاصم (ت٢٨٧هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- سنن ابن ماجه ، **للإمام الحافظ** محمد بن يزيد القزويني المعروف بـ ابن ماجه (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- سنن أبي داوود ، **للإمام الحافظ** أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، وبهامشه « معالم السنن » للخطابي ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- سنن الترمذي ، المسمى « الجامع الصحيح » ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط١ ، (١٩٣٨م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- سنن الدارقطني ، للإمام الحافظ علي بن عمر الدارقطني (ت٣٨٥هـ) ، وبذيله « التعليق المغني على الدارقطني » ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط١ ، (١٩٦٦م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- السنن الصغير ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، جامعة الدراسات الإسلامية ، باكستان .

- السنن الكبرىٰ ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، وبذيله « الجوهر النقي » لابن التركماني ، ط١ ، (١٣٥٦هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- سنن النسائي (المجتبىٰ) ، للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ) ، ومعه « زهر الربا على المجتبىٰ » للسيوطي ، وبذيله « حاشية الإمام السندي » ، ط١ ، (١٣١٢هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي عن طبعة المطبعة الميمنية ، لبنان .

- سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ) ، إشراف

شعيب الأرناؤوط ، ط١١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- السيرة الشامية ، المسماة : « سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد صلى الله عليه وسلم » ، **للإمام المحدث** محمد بن يوسف **الصالحي الشامي** (ت٩٤٢هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ، مصر .

- السيرة النبوية ، **للإمام** عبد الملك **بن هشام** الحميري (ت٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار ابن كثير ، سورية .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، **للإمام الفقيه** عبد الحي بن أحمد المعروف بـ **ابن العماد** (ت١٠٨٩هـ ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، **للإمام العلامة** هبة الله بن الحسن بن منصور **اللالكائي** (ت٤١٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد سعد الغامدي ، ط٩ ، (٢٠٠٥م) ، دار طيبة ، السعودية .

- شرح السنة ، **للإمام الحافظ** الحسين بن مسعود **البغوي** (ت٥١٦هـ) ، تحقيق سعيد اللحام ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، دار الفكر ، لبنان .

- شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني ، **للإمام المجتهد القاضي**

محمد بن أحمد بن سهل **السرخسي** (ت٤٨٣هـ) ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ط١ ، (١٩٧١م) ، معهد المخطوطات العربية ، مصر .

- شرح الصدور بشرح حال الموتىٰ والقبور ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ) ، تحقيق قصي الحلاق ، ط١ ، (٢٠١١م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح ، المسمى « الكاشف عن حقائق السنن » ، **للإمام المشهور** الحسين بن محمد بن عبد الله **الطيبي** (ت٧٤٣هـ) ، عني به محمد علي سمك ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- شرح اللزوميات ، **للشاعر الفيلسوف** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي العلاء المعري** (ت٤٤٩هـ) ، تحقيق سيدة حامد ومنير المدني وزينب القوصي ووفاء الأعصر ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مصر .

- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول ، **للإمام الأصولي** أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن الصنهاجي المشهور بـ **القرافي** (ت٦٨٤هـ) ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، ط١ ، (١٩٧٣م) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر .

- شرح ديوان أبي تمام ، **لإمام اللغة والأدب** يحيى بن علي بن محمد المعروف بـ **الخطيب التبريزي** (ت٥٠٢هـ) ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط٥ ، (١٩٨٧م) ، دار المعارف ، مصر .

ـ شرح ديوان المتنبي ، المسمى « التبيان في شرح الديوان » ، للإمام الأديب عبد الله بن الحسين المعروف بـ أبي البقاء العُكْبَري (ت٦١٦هـ) ، عني به مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط الأخيرة ، (١٩٧١م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

ـ شرح شعر زهير بن أبي سلمىٰ ، صنعة إمام الكوفيين العلامة أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني المعروف بـ ثعلب (ت٢٩١هـ) ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، ط١ ، (١٩٨٢م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .

ـ شرح صحيح البخاري ، للإمام العلامة علي بن خلف القرطبي المعروف بـ ابن بطال (ت٤٤٩هـ) ، عني به ياسر بن إبراهيم ، ط٣ ، (٢٠٠٤م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ شرح صحيح مسلم ، المسمى « المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج » ، للإمام الحافظ المجتهد يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ) ، ط١ ، (١٣٤٩هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة الغزالي ، سورية .

ـ شرح مسند الشافعي ، للإمام الفقيه المحدث عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي (ت٦٢٣هـ) ، تحقيق وائل محمد بكر زهران ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر .

ـ شرح مشكل الآثار ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت٣٢١هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- شرح نهج البلاغة ، للإمام الأديب المؤرخ عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المعتزلي المعروف بـ ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

- شرف أصحاب الحديث ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بـ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد خطيب أوغلي ، ط١ ، بدون تاريخ ، كلية الإلهيات ـ جامعة أنقرة ، تركية .

- الشريعة ، للإمام الحافظ محمد بن الحسين الآجري (ت٣٦٠هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، مؤسسة الريان ، لبنان .

- شعر الخوارج ، جمع وتقديم الدكتور إحسان عباس (ت١٤٢٤هـ) ، ط٢ ، (١٩٧٤م) ، دار الثقافة ، لبنان .

- شعر بكر بن النطاح ، لشاعر الغزل الفارس بكر بن النطاح الحنفي (ت١٩٢هـ) ، صنعة الأستاذ حاتم الصالح الضامن ، ط١ ، (١٩٧٥م) ، مطبعة المعارف ، العراق .

- شعر دعبل ، لشاعر الهجاء دِعْبِل بن علي بن رزين الخزاعي (ت٢٤٦هـ) ، جمع وتحقيق عبد الكريم الأشتر ، ط٢ ، (١٩٨٣م) ، مجمع اللغة العربية ، سورية .

- شعر زياد الأعجم ، للشاعر الأموي زياد بن سليمان الأعجم (ت نحو ١٠٠هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يوسف حسين بكار ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، وزارة الثقافة ، سورية .

- شعر عبد الله بن الزبير الأسدي ، **للصحابي الفارس الخليفة عبد الله بن الزبيربن العوام الأسدي** رضي الله عنه (ت٧٣هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط١ ، (١٩٧٤م) ، دار الحرية ، العراق .

- شعر عبد الله بن معاوية ، **لشاعر الطالبيين عبد الله بن معاوية** بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت١٢٩هـ) ، جمع عبد الحميد الراضي ، ط١ ، (١٩٧٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ القاضي عِيَاض** بن موسى اليَحْصُبي (ت٥٤٤هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة الغزالي ودار الفيحاء ، سورية .

- شفاء السقام في زيارة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الفقيه** علي بن عبد الكافي المعروف بـ **تقي الدين السبكي** (ت٧٥٦هـ) ، عني به حسين محمد علي شكري ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الشكر ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، عني به أحمد محمد طاحون ، بدون تاريخ ، السعودية .

- الشمائل الشريفة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ) ، تحقيق حسين بن عبيد باحبيشي ، بدون تاريخ ، دار طائر العلم ، مصر .

- الشمائل المحمدية ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت٢٧٩هـ) ، ومعه « المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية » للإمام

الفقيه إبراهيم الباجوري (ت١٢٧٧هـ) ، عني بهما العلامة محمد عوَّامة ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، نشره محققه ، لبنان .

- صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، **للأديب المؤرخ البحَّاثة** أحمد بن علي بن أحمد **القَلْقَشَندي** (ت٨٢١هـ) ، ط١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، مصر .

- الصحاح ، المسمىٰ « تاج اللغة وصحاح العربية » ، **للإمام العلامة** إسماعيل بن حماد **الجوهري** (ت٣٩٣هـ) ، ومعه حواشي الإمام اللغوي النابه عبد الله بن برِّي (ت٥٨٢هـ) و« الوشاح وتثقيف الرماح في رد توهيم المجد الصحاح » للتادلي ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- صحيح البخاري ، المسمى « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت٢٥٦هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

- صحيح مسلم ، المسمى « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ مسلم** بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- الصداقة والصديق ، لفيلسوف الأدباء علي بن محمد بن العباس المعروف بـ أبي حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني ، ط٤ ، (٢٠٠٨) ، دار الفكر ، سورية .

- صفة الجنة وما أعد الله لأهلها من النعيم ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق عمرو عبد المنعم سليم ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، مكتبة ابن تيمية ، مصر .

- صفة الصفوة ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، صنع فهرسه عبد السلام هارون ، ط٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- صفة النار ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- صفة النفاق وذم المنافقين ، للإمام الحافظ جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي (ت٣٠١هـ) ، تحقيق عبد الرقيب بن علي ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، دار ابن زيدون ، لبنان .

- صفوة التصوف ، للإمام الحافظ الجوال الرحال محمد بن طاهر المقدسي المعروف بـ ابن القيسراني (ت٥٠٧هـ) ، تحقيق غادة المقدم عدرة ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار المنتخب العربي ، لبنان .

- الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو

المعروف بـ ابن أبي عاصم (ت٢٨٧هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٩٥) ، دار المأمون للتراث ، سورية .

ـ الصمت وآداب اللسان ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

ـ الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روىٰ ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، للإمام الحافظ محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العُقَيلي (ت٣٢٢هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

ـ طبقات الأولياء ، للإمام الحافظ عمر بن علي بن أحمد المعروف بـ ابن الملقن (ت٨٠٤هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط١ ، (١٩٧٣م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ طبقات الحنابلة ، للإمام الفقيه المؤرخ محمد بن محمد بن الحسين الفراء المعروف بـ ابن أبي يعلىٰ (ت٥٢٦هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، دار الملك عبد العزيز ، السعودية .

ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ، للإمام القاضي عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي المعروف بـ تاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ) ، تحقيق محمود محمد

الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط١ ، (١٣٩٦هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

ـ طبقات الصوفية ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمـٰن السُّلَمي** (ت٤١٢هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط٢ ، (١٩٨٦م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق سنة (١٩٥٣م) لدىٰ دار الكتاب النفيس ، سورية .

ـ طبقات الفقهاء الشافعية **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمـٰن الشَّهْرَزوري المعروف بـ **ابن الصلاح** (ت٦٤٣هـ) ، هذبه ورتبه واستدرك عليه **الإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ) وبيض أصوله ونقَّحه **الإمام الحافظ** يوسف بن عبد الرحمـٰن **المِزِّي** (ت٧٤٢هـ) ، تحقيق محيي الدين علي نجيب ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ طبقات الفقهاء الشافعيين ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم والدكتور محمد زينهم محمد عزب ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

ـ الطبقات الكبرىٰ ، المسماة : « لواقح الأنوار في طبقات الأخيار » ، **للإمام المجدد عبد الوهاب** بن أحمد بن علي **الشعراني** (ت٩٧٣هـ) ، بعناية الشيخ أحمد سعد علي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، طبعة مصورة عن نشرة مصطفى البابي الحلبي سنة (١٩٥٤م) لدىٰ دار الفكر ، لبنان .

ـ الطبقات الكبير ، **للإمام الحافظ المؤرخ** محمد بن سعد بن منيع البصري المعروف بـ **ابن سعد** (ت٢٣٠هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ **أبي الشيخ** (ت٣٦٩هـ) ، تحقيق عبد الغفور عبد الحق حسين البَلوشي ، ط٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ طبقات فحول الشعراء ، **لإمام الأدب** محمد بن سلاَّم **الجُمَحي** (ت٢٣١هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط٢ ، (١٩٧٣م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق لدىٰ دار المدني ، السعودية .

ـ طرح التثريب في شرح التقريب ، وهو شرح لكتاب « تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين المعروف بـ **أبي زرعة العراقي** (ت٨٢٦هـ) ، عني به محمود حسن ربيع ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ الطهور ، **للإمام المحدث الفقيه الأديب** القاسم بن سلاَّم الهروي المعروف بـ **أبي عُبيد** (ت٢٢٤هـ) ، تحقيق مشهور حسن آل سلمان ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، مكتبة الصحابة ، السعودية .

ـ الطيوريات ، وهي مما انتخبه الإمام الحافظ أحمد بن محمد السِّلفي من كتب **الإمام الثقة** المبارك بن عبد الجبار المعروف بـ **ابن الطُّيوري** (ت٥٠٠هـ) ،

تحقيق دسمان معالي وعباس الحسن ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

ـ عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي ، **للإمام القاضي محمد بن عبد الله المعروف بـ ابن العربي المالكي** (ت٥٤٣هـ) ، ط٢ ، (١٣٥٤هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ العاقبة في ذكر الموت ، **للإمام الحافظ عبد الحق بن عبد الرحمـٰن الإشبيلي** (ت٥٨٢هـ) ، تحقيق خضر محمد خضر ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، مكتبة دار الأقصىٰ ، الكويت .

ـ عجائب المقدور في أخبار تيمور ، **للمؤرخ الرحالة الأديب أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بـ ابن عربشاه** (ت٨٥٤هـ) ، تحقيق أحمد فايز الحمصي ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ العزلة والانفراد ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الوطن ، السعودية .

ـ العزلة ، **للإمام الحافظ** حَمْد بن محمد بن إبراهيم البستي **الخطابي** (ت٣٨٨هـ) ، تحقيق محمد منير الدمشقي ، ط١ ، (١٣٥٢هـ) ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر .

ـ العزيز شرح الوجيز ، المسمى « الشرح الكبير » ، **للإمام الفقيه المحدث** عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي (ت٦٢٣هـ) ، تحقيق علي

محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- العظمة ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بـ أبي الشيخ (ت٣٦٩هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط٢ ، (١٩٩٨م) ، دار العاصمة ، السعودية .

- العقد الفريد ، للعلامة الأديب أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) ، تحقيق أحمد الأمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، ط٢ ، (١٩٤٠م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .

- عقلاء المجانين ، للعلامة الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت٤٠٦هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط٢ ، (١٩٩٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- العقوبات ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن علي المعروف بـ ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق الشيخ خليل الميس ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- العلل الواردة في الأحاديث النبوية ، للإمام الحافظ علي بن عمر الدارقطني (ت٣٨٥هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله ومحمد صالح الدباسي ، ط٣ ، (٢٠٠٣م) ، دار طيبة ودار ابن الجوزي ، السعودية .

ـ العلل ومعرفة الرجال ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت٢٤١هـ) ، تحقيق الدكتور وصي الله بن محمد عباس ، ط٢ ، (٢٠٠١م) ، دار الخاني ، السعودية .

ـ عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب ، **للشريف المؤرخ النسابة** أحمد بن علي بن حسين الداوودي الحسني المعروف بـ **ابن عِنَبَة** (ت٨٢٨هـ) ، تحقيق السيد يوسف بن عبد الله جمل الليل ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، مكتبة التوبة ، السعودية .

ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، **للإمام العلامة** محمود بن أحمد **العيني** (ت٨٥٥هـ) ، ط١ ، (١٣٤٨هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة السلفية لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ العمر والشيب ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق الدكتور نجم عبد الرحمٰن خلف ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ عمل اليوم والليلة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت٣٠٣هـ) ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ عمل اليوم والليلة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن محمد الدينوري المعروف بـ **ابن السني** (ت٣٦٤هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط٣ ، (١٩٩٤م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

ـ عوارف المعارف ، **للإمام المُحَدِّث شيخ الصوفية** عمر بن محمد بن عبد الله **السُّهْرَوردي** (ت٦٣٢هـ) ، ومعه « غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف

المعارف » للسيد أحمد الغماري ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المصطفىٰ ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، المكتبة المكية ، السعودية .

ـ العيال ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق الدكتور نجم عبد الرحمن خلف ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الوفاء ، مصر .

ـ عيون الأخبار ، **لإمام الأدب واللغة القاضي** عبد الله بن مسلم المعروف بـ **ابن قتيبة الدِّينَوَري** (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط١ ، (١٩٣٠م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

ـ غريب الحديث ، **للإمام الحافظ الأديب** إبراهيم بن إسحاق بن بشير **الحربي** (ت٢٨٥هـ) ، الدكتور سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، جامعة أم القرىٰ ، السعودية .

ـ غريب الحديث ، **للإمام المحدث الفقيه الأديب** القاسم بن سلاَّم الهروي المعروف بـ **أبي عُبيد** (ت٢٢٤هـ) ، بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ط١ ، (١٩٦٤م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ الغريبين في القرآن والحديث ، **للإمام اللغوي** أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني المعروف بـ **أبي عُبيد الهروي** (ت٤٠١هـ) ، تحقيق أحمد فريد المزيدي ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

ـ الغيبة والنميمة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن

أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، **للمؤرخ الرحالة الأديب** أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بـ ابن عربشاه (ت٨٥٤هـ) ، تحقيق أيمن عبد الجابر البحيري ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الآفاق العربية ، مصر .

- فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه ، ومعه « أدب المفتي والمستفتي » ، كلاهما **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمـٰن الشَّهْرَزوري المعروف بـ ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار المعرفة ، لبنان .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة الغزالي ، سورية .

- فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أحمد البغدادي المعروف بـ **ابن رجب الحنبلي** (ت٧٩٥هـ) ، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، ط٣ ، (١٤٢٥هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- الفتن ، **للإمام الحافظ نعيم بن حمَّاد** بن معاوية المروزي (ت٢٢٩هـ) ، تحقيق أحمد شعبان أحمد ومحمد عيادي عبد الحليم ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، مكتبة الصفا ، مصر .

- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ، **للإمام الفقيه المحدث** محمد

علي بن علان بن إبراهيم الصديقي (ت١٠٥٧هـ) ، ط١ ، (١٣٥٨هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ الفرج بعد الشدة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، **للإمام الحافظ** شيرويه بن شهردار **الديلمي** (ت٥٠٩هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ فضائح الباطنية (المستظهري) ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق إبراهيم بسيوني نور الدين ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، دار الفاروق ، مصر .

ـ فضائل الخلفاء الأربعة وغيرهم ، **للإمام الحافظ المؤرخ الثقة** أحمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بـ **أبي نعيم الأصبهاني** (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق صالح بن محمد العقيل ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار البخاري ، السعودية .

ـ فضائل الصحابة ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت٢٤١هـ) ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، ط٤ ، (١٤٣٠هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

ـ فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة ، **للإمام الحافظ** محمد بن أيوب بن يحيىٰ **بن الضُّرَيس** (ت٢٩٥هـ) ، تحقيق الدكتور

مسفر بن سعيد دماس الغامدي ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار حافظ ، السعودية .

ـ فضائل القرآن ، **للإمام الحافظ** جعفر بن محمد بن الحسن **الفريابي** (ت٣٠١هـ) ، تحقيق رمضان أيوب ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، مجموعة الكمال المتحدة ، سورية .

ـ فضائل القرآن ، **للإمام المحدث الفقيه الأديب** القاسم بن سلاَّم الهروي المعروف بـ **أبي عُبيد** (ت٢٢٤هـ) ، تحقيق مروان العطية ومحسن خرابة ووفاء تقي الدين ، ط٢ ، (١٩٩٩م) ، دار ابن كثير ، سورية .

ـ فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، للإمام إسماعيل بن إسحاق الجهضمي (ت٢٨٢هـ) ، ط٣ ، (١٩٧٧م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ الفقيه والمتفقه ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط٢ ، (١٤٢١هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

ـ فوائد أبي بكر الشاشي ، **للإمام المفلق رئيس الشافعية ببغداد** محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر **الشاشي القفال** (ت٥٠٧هـ) ، تحقيق سمير بن حسين ولد سعدي الحسني ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ الفوائد المنتخبة العوالي عن الشيوخ الثقات ، المسمى « الغيلانيات » ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي **البزاز** (ت٣٥٤هـ) ،

تحقيق حلمي كامل عبد الهادي ، بدون تاريخ ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

ـ فوات الوفيات والذيل عليها ، **للعلامة المؤرخ الأديب محمد بن شاكر الكتبي** (ت٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط١ ، (١٩٧٣م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، **للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي** (ت١٠٣١هـ) ، ط١ ، (١٣٥٧هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

ـ القراءة عند القبور ، **للإمام المحدث المفسر اللغوي أحمد بن محمد بن هارون الخلال الحنبلي** (ت٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ مراد ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ قصر الأمل ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

ـ قضاء الحوائج ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ القناعة والتعفف ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- قوت القلوب في معاملة المحبوب ، **للإمام الفقيه** محمد بن علي بن عطية المعروف بـ **أبي طالب المكي** (ت٣٨٦هـ) ، وبهامشه « سراج القلوب وعلاج الذنوب » للعلامة علي الفناني و« حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب » للعلامة عماد الدين الأموي (ت٧٦٤هـ) ، ط١ ، (١٣١٠هـ)، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الميمنية لدىٰ دار صادر ، لبنان .

- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمـٰن **السخاوي** (ت٩٠٢هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، مؤسسة الريان ، السعودية .

- القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد ، **للإمام الحافظ الحجة** أحمد بن علي بن محمد الكناني المعروف بـ **ابن حجر العسقلاني** ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، دار اليمامة ، سورية .

- الكامل في ضعفاء الرجال ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن عدي **الجرجاني** (ت٣٦٥هـ) ، الطبعة الأولىٰ بتحقيق الدكتور سهيل زكار والثالثة يحيىٰ مختار غزاوي ، ط٣ ، (١٩٨٨م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الكامل ، **لإمام العربية** محمد بن يزيد بن عبد الأكبر **المُبَرِّد** (ت٢٨٥هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس ، **للعلامة المحدث** إسماعيل بن محمد **العجلوني** (ت١١٦٢هـ) ، ط٣ ، (١٣٥١هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ كشف المحجوب ، **للإمام العلامة** علي بن عثمان **الهجويري** الأفغاني (ت بعد ٤٦٥هـ) ، ترجمة محمود أحمد ماضي أبو العزائم ، تحقيق الدكتور أحمد السايح وتوفيق وهبة ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

ـ الكشكول ، **للعلامة الاثني عشري الأديب** محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي المعروف بـ **بهاء الدين العاملي** (ت١٠٣١هـ) ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة ، لبنان .

ـ الكفاية في علم الرواية ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، عني به زكريا عميرات ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، **للإمام الحافظ** علي بن حسام الدين المعروف بـ **البرهان فوري** (ت٩٧٥هـ) ، عني به بكري حيّاني وصفوة السقا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ الكنىٰ والأسماء ، **للإمام الحافظ الوراق** محمد بن أحمد بن حماد بن سعد بن مسلم **الدولابي** (ت٣١٠هـ) ، ط١ ، (١٣٢٢هـ) ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، الهند .

ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ) ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

ـ لباب الآداب ، للأمير الشجاع الأديب المؤرخ أسامة بن مرشد بن علي المعروف بـ ابن منقذ (ت٥٨٤هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد شاكر ، ط١ ، (١٩٣٥م) ، المطبعة الرحمانية ، مصر .

ـ لسان العرب ، للإمام اللغوي الحجة محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت٧١١هـ) ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ لسان الميزان ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ لطائف الإشارات ، لزين الإسلام الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني ، ط٢ ، (١٩٨١م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

ـ لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، للإمام الحافظ عبد الرحمٰن بن أحمد المعروف بـ ابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط٦ ، (٢٠٠١م) ، دار ابن كثير ، سورية .

ـ اللمع ، للإمام الزاهد عبد الله بن علي السراج المعروف بـ أبي نصر الطوسي (ت٣٧٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، ط١ ، (١٩٦٠م) ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنىٰ ، مصر والعراق .

ـ المؤتلف والمختلف ، للإمام الحافظ الحجة علي بن عمر بن أحمد بن مهدي

الدارقطني (ت٣٨٥هـ) ، تحقيق الدكتور موفق بن عبد الله بن عبد القادر ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

ـ ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين (ذم القضاء وتقلد الأحكام وذم المكس) ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمٰن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط١ ، (١٩٩١م) ، دار الصحابة ، مصر .

ـ المتحابين في الله ، **للإمام الفقيه** عبد الله بن أحمد بن محمد الجماعيلي الحنبلي المعروف بـ **ابن قدامة المقدسي** (ت٦٢٠هـ) ، تحقيق خير الله الشريف ، ط١ ، (١٩٩١م) ، دار الطباع ، سورية .

ـ المتفق والمفترق ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار القادري ، سورية .

ـ المتمنين ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

ـ مجابو الدعوة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق عبد الله عبد العزيز أمين ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار الرسالة ، مصر .

ـ المجالسة وجواهر العلم ، **للعلامة الفقيه المحدث** أحمد بن مروان بن محمد **الدِّينوري** (ت٣٣٣هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- المجروحين من المحدثين ، **للإمام الحافظ** محمد بن **حِبَّان البُسْتي** (ت٣٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- مجمع الأمثال ، **للعلامة الأديب البحَّاثة** أحمد بن محمد بن أحمد **الميداني** (ت٥١٨هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار صادر ، لبنان .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، **للإمام الحافظ** نور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت٨٠٧هـ) ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة المعارف ، لبنان .

- المجموع شرح المهذب ، **للإمام الحافظ المجتهد** يحيى بن شرف **النووي** (ت٦٧٦هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار الفكر ، لبنان .

- مجموع فيه مصنفات أبي جعفر ابن البختري ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمرو بن **البختري** البغدادي الرزاز (ت٣٣٩هـ) ، تحقيق نبيل سعد الدين جرَّار ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- محاسبة النفس ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

- المحاسن والمساوىء ، **للإمام** إبراهيم بن محمد **البيهقي** (ت قرن ٥هـ) ، ط١ ، (١٩٨٤م) ، دار بيروت ، لبنان .

ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، **للعلامة الأديب الحكيم** الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني المعروف بـ **الراغب الأصفهاني** (ت٥٠٢هـ) ، رياض عبد الحميد مراد ، ط٢ ، (٢٠٠٦م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ المحتضرين ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، **للإمام الحافظ** الحسن بن عبد الرحمٰن بن خلاد **الرامهرمزي** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط٣ ، (١٩٨٤م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ المحلىٰ ، **للإمام الفقيه** علي بن أحمد بن سعيد المعروف بـ **ابن حزم الظاهري** (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الجيل ، لبنان .

ـ المحن ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد **التميمي** (ت٣٣٣هـ) ، تحقيق الدكتور يحيىٰ وهيب الجبوري ، ط٢ ، (١٩٨٨م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، **للإمام الحافظ** محمد بن مُكَرَّم المعروف بـ **ابن منظور** (ت٧١١هـ) ، عني به مجموعة من المحققين ، ط١ ، (١٩٨٤م) ، دار الفكر ، سورية .

- مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق صبري بن عبد الخالق ، ط٣ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- مداراة الناس ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١م) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- المدخل إلى السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور محمد ضياء الرحمـٰن الأعظمي ، ط٢ ، (١٤٢٠هـ) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

- المدخل إلى الصحيح ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت٤٠٥هـ) ، تحقيق الدكتور ربيع هادي عمير المدخلي ، ط١ ، (١٤٠٤هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- المدهش ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ)، عني به عبد الكريم تتان وخلدون مخلوطة ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار القلم ، سورية .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت٧٦٨هـ) ، ط١ ، (١٣٣٧هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدَّكّن لدىٰ دار الكتاب الإسلامي ، مصر .

- المراسيل ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله مساعد الزهراني ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح ، **للعلامة الفقيه** الحسن بن عمار المصري **الشرنبلالي** (ت١٠٦٩هـ) ، تحقيق عبد السلام شنار ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار البيروتي ، سورية .

- المرض والكفارات ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق عبد الوكيل الندوي ، ط١ ، (١٩٩١م) ، الدار السلفية ، الهند .

- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، **للإمام العلامة** علي بن محمد الهروي المعروف بـ **ملا علي القاري** (ت١٠١٤هـ) ، تحقيق جمال عيتاني ، ويليه « الإكمال في أسماء الرجال » للخطيب التبريزي (ت٧٤١هـ) ، ط٢ ، (٢٠٠٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، **للمؤرخ البحّاثة** علي بن الحسين بن علي **المسعودي** (ت٣٤٦هـ) ، تصحيح شارك بلا ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران .

- المسامرة بشرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة ، **للإمام الحافظ الفقيه** محمد بن محمد المقدسي المعروف بـ **ابن أبي شريف** (ت٩٠٥هـ) ، تحقيق صلاح الدين الحمصي ، ط١ ، (٢٠٠٩م) ، نشره محققه ، سورية .

ـ مساوىء الأخلاق وطرائق مكروهها ، **للإمام المحدث** محمد بن جعفر **الخرائطي** (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عطا ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ المستدرك على الصحيحين ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت٤٠٥هـ) ، وبذيله : « تلخيص المستدرك » للحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ) ، ط١ ، (١٣٣٥هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدكن ، لبنان .

ـ المستصفىٰ من علم الأصول ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، ومعه : « فواتح الرحموت بشرح مسلَّم الثبوت » للعلامة عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار البصائر ، مصر .

ـ المستطرف من كل فن مستظرف ، **للأديب الخطيب** محمد بن أحمد بن منصور **الأبشيهي** (ت٨٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد قميحة ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ مسند ابن الجعد ، **للإمام الحافظ** علي بن الجعد بن عبيد **الجوهري** (ت٢٣٠هـ) ، تحقيق عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد الهادي ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، مكتبة الفلاح ، الكويت .

ـ مسند أبي داوود الطيالسي ، **للإمام الحافظ** سليمان بن داوود بن الجارود

المعروف بـ **أبي داوود الطيالسي** (ت٢٠٤هـ) ، ط١ ، (١٣٢١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- مسند أبي يعلى الموصلي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن المثنى المعروف بـ **أبي يعلى الموصلي** (ت٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط٢ ، (١٩٨٩م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .

- مسند إسحاق بن راهويه ، **للإمام الحافظ** إسحاق بن إبراهيم المروزي المعروف بـ **ابن راهويه** (ت٢٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور البلوشي ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة الإيمان ، السعودية .

- مسند الإمام أبي حنيفة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نعيم الأصبهاني** (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق نظر محمد الفاريابي ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، مكتبة الكوثر ، السعودية .

- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت٢٤١هـ) ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند الإمام الشافعي ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت٢٠٤هـ) ، تحقيق أيوب أبو خشريف ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار الثقافة العربية ، سورية .

- مسند الدارمي ، المسمىٰ « سنن الدارمي » ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن عبد الرحمٰن **الدارمي** (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار المغني ، السعودية .

- مسند الروياني ، **للإمام الحافظ** محمد بن هارون **الروياني** (ت٣٠٧هـ) ، عني به أيمن علي أبو يماني، ط١ ، (١٤١٦هـ) ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- مسند السرّاج ، **للإمام الحافظ** محمد بن إسحاق **السرّاج** (ت٣١٣هـ) ، تحقيق إرشاد الحق الأثري ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، إدارة العلوم الأثرية ، باكستان .
- مسند الشاميين ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- مسند الشهاب ، المسمىٰ « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، **للإمام القاضي** محمد بن سلامة **القُضاعي** (ت٤٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- مسند عبد بن حميد ، **للإمام الحافظ** عبد بن حميد بن نصر **الكَشي** (ت٢٤٩هـ) ، عني به صبحي البدري السامرائي ومحمود خليل الصعيدي ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة السنة ، مصر .
- المسند ، **للإمام الحافظ** الهيثم بن كليب **الشاشي** (ت٣٣٥هـ) ، تحقيق محفوظ الرحمـٰن زين الله ، ط١ ، (١٤١٠هـ) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى **اليحصبي** (ت٥٤٤هـ) ، ط١ ، (١٣٣٣هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة فاس لدىٰ دار التراث ، مصر .

ـ المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، **للعلامة السيد** محمد بن أبي بكر **الشِّلِّي** باعلوي (ت١٠٩٣هـ) ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبع علىٰ نفقة من يعلمه الله ويراه ، مصر .

ـ مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق عبد العزيز السيروان ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، دار الإيمان ، سورية .

ـ المصاحف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن سليمان المعروف بـ **ابن أبي داوود** (ت٣١٦هـ) ، تحقيق الدكتور محب الدين عبد السبحان واعظ ، ط٢ ، (٢٠٠٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ مصارع العشاق ، **للحافظ الأديب** جعفر بن أحمد المعروف بـ **السَّرَّاج القارىء** (ت٥٠٠هـ) ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

ـ المصنف ، **للإمام الحافظ عبد الرزاق** بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمـٰن الأعظمي ، ومعه : « الجامع » للإمام معمر الأزدي (ت١٥٣هـ) ، ط٢ ، (١٩٨٣م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ المصنف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن **أبي** شيبة (ت٢٣٥هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوَّامة ، ط٢ ، (٢٠٠٦م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن

حجر **العسقلاني** (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق أيمن أبو يماني وأشرف علي ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة قرطبة والمكتبة المكية ، مصر والسعودية .

- مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار ، **للإمام المحدث المؤرخ** محمد المهدي بن أحمد بن علي **الفاسي** (ت١١٠٩هـ) ، ط الأخيرة ، (١٩٧٠م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- معارج القدس في مدارج النفس ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، ، ط٢ ، (١٩٧٥م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .

- المعارف ، **لإمام الأدب واللغة القاضي** عبد الله بن مسلم المعروف بـ **ابن قتيبة الدِّينَوَري** (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط١ ، (١٩٦٠م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب بمصر لدىٰ دار الشريف الرضي ، إيران .

- المعجم (معجم شيوخ) ، **للإمام المحدث المؤرخ** أحمد بن محمد بن زياد بن بشر البصري المعروف بـ **ابن الأعرابي** (ت٣٤٠هـ) ، تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، ط١ ، (١٩٩٧) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- معجم الأدباء ، المسمىٰ « إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب » ، **للعلامة المؤرخ الأديب ياقوت** بن عبد الله الرومي **الحَمَوي** (ت٦٢٦هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، مؤسسة المعارف ، لبنان .

ـ المعجم الأوسط ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .

ـ معجم البلدان ، **للعلامة المؤرخ الأديب ياقوت** بن عبد الله الرومي **الحَمَوي** (ت٦٢٦هـ) ، عني به المستشرق وستنفيلد ، ط٢ ، (١٩٩٥م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ معجم السَّفر ، **للإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن محمد الجرواءاني المعروف بـ **أبي طاهر السِّلفي** (ت٥٧٦هـ) ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ معجم الشعراء ، **للعلامة الإخباري الأديب** محمد بن عمران بن موسى **المَرْزُباني** (ت٣٨٤هـ) ، تحقيق الدكتور فاروق اسْليِّم ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ معجم الشيوخ (المعجم الكبير) ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة الصديق ، السعودية .

ـ معجم الصحابة ، **للإمام الحافظ القاضي** عبد الباقي **بن قانع** بن مرزوق بن واثق الأموي البغدادي (ت٣٥١هـ) ، تحقيق خليل إبراهيم قوتلاي وحمدي الدمرداش محمد ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

- معجم الصحابة ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد بن عبد العزيز **البغوي** (ت٣١٧هـ) ، تحقيق محمد الأمين الجنكي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة دار البيان ، الكويت .

- المعجم الصغير ومعه « غنية الألمعي » للعظيم آبادي ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

- المعجم الكبير ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، ومعه « الأحاديث الطوال » ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- معجم المؤلفين ، **للأستاذ المؤرخ عمر رضا كحالة** (ت١٤٠٨هـ) ، عني به مكتب تحقيق الدار ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- المعجم ، **للإمام الحافظ** محمد بن إبراهيم بن علي الأصبهاني المعروف بـ **ابن المقرىء** (ت٣٨١هـ) ، تحقيق عادل بن سعد ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة الرشد وشركة الرياض للنشر ، السعودية .

- معرفة السنن والآثار ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط١ ، (١٩٩١م) ، دار قتيبة ودار الوعي ودار الوفاء ، سورية ومصر .

- معرفة الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت٤٣٠هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار الوطن ، السعودية .

ـ معرفة علوم الحديث ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت٤٠٥هـ) ، عني به الدكتور الشريف معظم حسين ، ط٢ ، (١٩٧٧م) ، المكتبة العلمية (النمنكاني) ، السعودية .

ـ المعرفة والتاريخ رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه ، **للإمام الحافظ الحجة** يعقوب بن سفيان بن جُوَّان **البسوي** (ت٢٧٧هـ) ، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ، ط١ ، (١٤١٠هـ) ، مكتبة الدار ، السعودية .

ـ المعمرون والوصايا ، **للعلامة اللغوي** سهل بن محمد عثمان المعروف بـ **أبي حاتم السجستاني** (ت٢٥٠هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط١ ، (١٩٦١م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

ـ المغازي ، **للقاضي المؤرخ** محمد بن عمر **الواقدي** (ت٢٠٧هـ) ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، ط١ ، (١٩٦٦م) ، طبعة مصورة لدىٰ مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ، لبنان .

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، **لإمام العربية** عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف بـ **ابن هشام** (ت٧٦١هـ) ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، ط٥ ، (١٩٩٤م) ، طبعة مصورة لدىٰ مؤسسة الصادق ، إيران .

ـ مغني المحتاج إلىٰ معرفة معاني المنهاج ، **للإمام الفقيه** محمد بن أحمد

الخطيب الشربيني (ت٩٧٧هـ) ، اعتنىٰ به محمد خليل عيتاني ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار المعرفة ، لبنان .

ـ المغني ، **للإمام** عبد الله بن أحمد بن محمد **بن قدامة المقدسي** (ت٦٢٠هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، هجر للطباعة ، مصر .

ـ مفتاح دار السعادة ومنشورات ولاية العلم والإرادة ، **للإمام الحافظ** محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بـ **ابن قيم الجوزية** (ت٧٥١هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

ـ مفردات ألفاظ القرآن ، **للعلامة** الحسين بن محمد المعروف بـ **الراغب الأصفهاني** (ت٤٢٥هـ) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، ط٣ ، (٢٠٠٢م) ، دار القلم ، سورية .

ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمٰن **السخاوي** (ت٩٠٢هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط٢ ، (١٩٩١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح ، **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمٰن الشَّهْرَزوري المعروف بـ **ابن الصلاح** (ت٦٤٣هـ) وللإمام الحافظ عمر بن رسلان البلقيني المصري (ت٨٠٥هـ) ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، دار المعارف ، مصر .

ـ المقدمة في التصوف ، **لإمام الصوفية وصاحب تاريخها الحافظ** محمد بن الحسين بن محمد الأزدي المعروف بـ **أبي عبد الرحمٰن السُّلَمي** (ت٤١٢هـ) ، تحقيق الدكتور يوسف زيدان ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، دار الجيل ، لبنان .

ـ المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق محمود بيجو ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، مطبعة الصباح ، سورية .

ـ مكارم الأخلاق ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت٣٦٠هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار المشاريع ، لبنان .

ـ مكارم الأخلاق ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط١ ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .

ـ المكاسب ، **للإمام الأصولي الصوفي** الحارث بن أسد **المحاسبي** (ت٢٤٣هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ المناسك ، **للإمام** سعيد بن **أبي عروبة** العدوي (ت١٥٦هـ) ، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان

الذهبي (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق محمد زاهد الكوثري وأبو الوفاء النعماني ، ط١ ، (١٤٠٨هـ) ، لجنة إحياء المعارف النعمانية ، الهند .

- مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور علي محمد عمر ، ط١ ، (١٩٧٩م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- مناقب الشافعي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت٤٥٨هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط١ ، (١٩٧١م) ، مكتبة دار التراث ، مصر .

- المنامات ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، ط١ ، (١٩٨٩م) ، مكتبة القرآن ، مصر .

- منتخب الكلام في تفسير الأحلام ، **للإمام المحدث الفقيه** محمد **بن سيرين** البصري (ت١١٠هـ) ، بدون تاريخ ، دار الفكر ، لبنان .

- المنتخب من كتاب الزهد والرقائق ، ويليه « طرق حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في ترائي الهلال ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي

المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ المنتقىٰ من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها للخرائطي ، انتقاء **الإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن محمد الجرواءاني المعروف بـ **أبي طاهر السِّلفي** (ت٥٧٦هـ) ، تحقيق محمد مطيع الحافظ وغزوة بدير ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الفكر ، سورية .

ـ منتهى السول علىٰ « وسائل الوصول إلىٰ شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم » للعلامة النبهاني ، **للعلامة الفقيه** عبد بن سعيد بن محمد عبادي **اللَّحجي** (ت١٤١٠هـ) ، عني بضبطه عبد الجليل العطا البكري ، ط٤ ، (٢٠٠٨م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ المنخول من تعليقات الأصول ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥) ، تحقيق الدكتور محمد حسن هيتو ، ط٣ ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر ، سورية .

ـ المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، **للشاعر المجيد** الحسن بن علي بن وكيع **الضبي** التنيسي (ت٣٩٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ المنقذ من الضلال ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق محمود بيجو ، ط٢ ، (١٩٩٢م) ، مطبعة الصباح ، سورية .

- منهاج العابدين إلىٰ جنة رب العالمين ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، عني به بوجمعة عبد القادر مكري ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- المهذب في فقه الإمام الشافعي ، **للإمام الفقيه المناظر** إبراهيم بن علي بن يوسف **الشيرازي** (ت٤٧٦هـ) ، وبذيله « النظم المستعذب في شرح غريب المهذب » للعلامة الفقيه محمد بن أحمد ابن بطال الركبي (ت نحو٦٣٣هـ) ، ط١ ، (١٩٧٧م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، **للإمام الفقيه** محمد بن محمد بن عبد الرحمـٰن الرعيني المعروف بـ **الحطاب** (ت٩٥٤هـ) ، تحقيق زكريا عميرات ، ط(طبعة خاصة) ، (٢٠٠٣م) ، دار عالم الكتب ، لبنان .

- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، **للعلامة الباحث** محمد علي بن القاضي محمد حامد الفاروقي **التهانوي** (ت بعد ١١٥٨هـ) ، عني به الدكتور رفيق العجم ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، مكتبة لبنان ، لبنان .

- الموشىٰ أو الظرف والظرفاء ، **للإمام الأديب** محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى **الوشاء** (ت٣٢٥هـ) ، تحقيق كمال مصطفىٰ ، ط٣ ، (١٩٩٣م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- موضح أوهام الجمع والتفريق ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت٤٦٣هـ) ، ط١ ، (١٩٥٩م) ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .

- الموضوعات ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت٥٩٧هـ) ، عني به توفيق حمدان ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الموطأ ، **لإمام المدينة مالك بن أنس** بن مالك بن نافع الأصبحي (ت١٧٩هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- ميزان العمل ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، ط١ ، (١٩٦٤م) ، دار المعارف ، مصر .

- نثر الدر ، **للوزير الأديب المؤرخ** منصور بن الحسين **الآبي** (ت٤٢١هـ) ، تحقيق محمد علي قرنة وآخرون ، ط١ ، (١٩٨٤م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

- نزهة الحفاظ ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني **المديني** (ت٥٨١هـ) ، تحقيق عبد الراضي محمد عبد المحسن ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ، المسمىٰ « كفاية المعتقد ونكاية المنتقد » ، **للإمام العلامة المحدث**

عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت٧٦٨هـ) ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، ط٢ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- النشر في القراءات العشر ، **للإمام الحافظ** محمد بن محمد بن محمد بن **الجزري** (ت٨٣٣هـ) ، عني به الشيخ علي محمد الضباع ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

- نهاية المطلب في دراية المذهب ، **لإمام الحرمين** عبد الملك بن عبد الله بن يوسف **الجويني** (ت٤٧٨هـ) ، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب ، ط٢ ، (٢٠١٠م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- النهاية في غريب الحديث والأثر ، **للإمام الحافظ اللغوي** المبارك بن محمد بن محمد المعروف بـ **ابن الأثير** (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود الطناحي والطاهر الزاوي ، ط١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، المسمىٰ « سلوة العارفين وبستان الموحدين » ، **للإمام الولي** محمد بن علي المعروف بـ **الحكيم الترمذي** (ت٣١٨هـ) ، ويليه : « مرقاة الوصول حواشي نوادر الأصول » لابن إسماعيل الإمام ، ط١ ، (١٢٩٣هـ) ، طبعة مصورة عن نسخة الأستانة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

- النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، **للعلامة الشريف عبد القادر** بن شيخ بن عبد الله **العيدروس** (ت١٠٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود

الأرناؤوط وأكرم البوشي ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار صادر ، لبنان .

- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، **لعالِم الكتب البحاثة** إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم **البغدادي** (ت١٣٣٩هـ) ، ، ط١ ، (١٣٦٤هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الهم والحزن ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، ط١ ، (١٩٩١م) ، دار السلام ، مصر .

- هواتف الجِنَّان ، **للإمام المحدث** محمد بن جعفر **الخرائطي** (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار البشائر ، سورية .

- الوافي بالوفيات ، **للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين** خليل بن أيبك **الصفدي** (ت٧٦٤هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط٢ ، (١٩٩١م) ، دار فرانز شتاينر ، ألمانيا .

- الوجيز في ذكر المجاز والمجيز ، **للإمام الحافظ الرحلة** أحمد بن محمد الجرواءاني المعروف بـ **أبي طاهر السِّلفي** (ت٥٧٦هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور عبد الحق البلوشي ، ط١ ، (١٩٩٤م) ، مكتبة دار الإيمان ، السعودية .

- الورع ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد بن **حنبل** الشيباني (ت٢٤١هـ) ، عني به الدكتورة زينب إبراهيم القاروط ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ الورع ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار الجفان والجابي ودار ابن حزم ، لبنان .

ـ الوسيط في المذهب ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت٥٠٥هـ) ، وبهامشه « التنقيح في شرح الوسيط » للإمام النووي (٦٧٦هـ) ، و« شرح مشكل الوسيط » للإمام ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) ، و« شرح مشكلات الوسيط » للإمام الحموي (ت٦٧٠هـ) ، و« تعليقة على الوسيط » للإمام ابن أبي الدم (ت٦٤٢هـ) ، تحقيق أحمد محمود إبراهيم ومحمد محمد تامر ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار السلام ، مصر .

ـ الوصايا (النصائح الدينية والنفحات القدسية ـ القصد والرجوع إلى الله ـ بدء من أناب إلى الله ـ فهم الصلاة ـ التوهم) ، **للإمام الأصولي الصوفي الحارث** بن أسد **المحاسبي** (ت٢٤٣هـ) ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، **للإمام المؤرخ** أحمد بن محمد **ابن خلكان** (ت٦٨١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط١ ، (١٩٦٨م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ وقعة صفين ، **للمؤرخ الاثني عشري** نصر بن مزاحم بن سيار **المنقري** (ت٢١٢هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٣ ، (١٩٨١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، **للعلامة اللغوي** عبد الملك بن محمد المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- اليقين ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت٢٨١هـ) ، تحقيق ياسين محمد السواس ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

❋ ❋ ❋

مُحتَوى الكِتَاب

الإهداء ١١
قالوا في الإمام الغزاليّ رضي الله عنه ١٣
قالوا عن «إحياء علوم الدين» ١٨
مقدمات التحقيق ٢١
بين يدي الكتاب ٢٣
سند «إحياء علوم الدين» ٣٤
ترجمة الإمام الغزالي رضي الله عنه ٣٦
منهج العمل في الكتاب ٩٨
ـ جمع النسخ الخطية ١٠٠
ـ معارضة النسخ الخطية ١٠١
ـ مرحلة التحقيق ١٠٢
ـ إدخال الكتاب إلى الحاسب الآلي ١٠٥
ـ مراجعة الكتاب ١٠٥
ـ إخراج الكتاب فنياً ١٠٦
خاتمة ١٠٨
صور المخطوطات المستعان بها ١١٣
صورة عن خط الإمام الغزالي رضي الله عنه ٢٠٩
« الإملاء على مشكل الإحياء » ٢١٣
خطبة المؤلف ٢١٥
ذكر مراسم الأسئلة في المثل ٢١٩
ـ المقدمة ٢٢٥
ـ القاعدة ٢٤٠

ـ الوصية ٢٤١
ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة ٢٤٧
السؤال الأول: هل يجوز تقسيم التوحيد على أربع مراتب ٢٤٧
ـ **المرتبة الأولى**: بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم ٢٥٤
ـ **فصل**: لفظ التوحيد لا ينفع صاحبه إلا إن صحبه الاعتقاد ٢٥٨
ـ **فصل**: في الصارف للناطقين بالتوحيد عن النظر والاعتقاد ٢٥٩
ـ كيف يحصل الإيمان والطاعة والهداية ٢٦٣
ـ معنى عدم دخول الملائكة بيتاً فيه كلب ٢٦٤
ـ **سؤال**: ما معنى: عدم دخول الملائكة بيتاً فيه صورة؟ ٢٦٥
ـ **المرتبة الثانية**: بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد ٢٦٨
ـ **فصل**: في تصنيف آخر لأهل الاعتقاد ٢٧٤
ـ **فصل**: في الاعتقاد المجرد عن العلم والمعرفة ٢٨١
ـ **بيان أرباب المرتبة الثالثة**: وهي توحيد المقربين ٢٨٣
ـ **فصل**: في بيان علة أحكام حدود توحيد المقربين ٢٨٥
ـ **فصل**: في أصناف المقربين ٢٨٧
ـ **فصل**: في سبب تسمية المقربين بهذا الاسم ٢٨٩
ـ **فصل**: في قصور أئمة الكلام عن مقام المقربين ٢٩٠
ـ **بيان المرتبة الرابعة**: وهي توحيد الصديقين ٢٩٧
ـ **سؤال**: كيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئاً واحداً ٢٩٩
السؤال الثاني: ما معنىٰ: إفشاء سر الربوبية كفر ٣٠٢
ـ **سؤال**: ما معنىٰ: للإلهية سر لو انكشف.. لبطلت النبوة؟ ٣٠٥
السؤال الثالث: في عدم استنكار خطاب الجمادات ٣١٠
السؤال الرابع: ما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي ٣١٨
السؤال الخامس: ما حد عالم الملك والملكوت والجبروت ٣٢٠

السؤال السادس: ما معنىٰ: إن الله خلق آدم على صورته ٣٢١

السؤال السابع: ما معنىٰ: فاطو الطريق، فإنك بالواد المقدس طوىً ٣٢٩

السؤال الثامن: ما معنىٰ: فاستمع بسر قلبك لما يوحىٰ ٣٣٠

السؤال التاسع: ما معنىٰ: ولا تتخط رقاب الصديقين ٣٣٩

السؤال العاشر: ما معنى: انصراف السالك بعد وصوله إلى الرفيق الأعلىٰ .. ٣٤١

السؤال الحادي عشر: ما معنىٰ: ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم .. ٣٤٣

السؤال الثاني عشر: ما حكم طلب العلوم المكنونة ٣٤٦

ـ **فصل**: في بيان ذكر هذه العلوم بالإشارة دون العبارة ٣٤٨

خواتيم مخطوطات «الإملاء على مشكل الإحياء» ٣٥١

« تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » ٣٥٥

ترجمة الإمام العيدروس رحمه الله تعالى ٣٥٧

خطبة المؤلف ٣٦٩

ـ **المقدمة**: في عنوان الكتاب ٣٧١

ـ **المقصد**: في فضل الكتاب، ومدحه، والجواب عن الإشكالات التي فيه .. ٣٧٥

ـ **فصل**: في ثناء العلماء على «الإحياء» ٣٨٢

ـ **فصل**: في الجواب عما استشكل من «الإحياء» وطعن بسببه فيه ٣٩٤

ـ **خاتمة**: في ترجمة المصنف رضي الله عنه ٣٩٩

خواتيم مخطوطات «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» ٤١٦

المصادر والمراجع ٤١٩

محتوى الكتاب ٥١٠